تاريخ الحضارات العام

الشرق واليونان القديمة

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — جانين اوبوايه
أستاذ في السربون — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إداور بروي — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و أرنست لابروس
أستاذ في السربون — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الأول

تاريخ الحضارات العام

الشرق واليونان القديمة

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

نقله الى العربية

فريد م. داغر

فؤاد ج. أبو ريحان

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٦

ساهم في ترجمة هذا المؤلف كل من السيدين :

يوسف أسعد داغر و أحمد عويدات

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تتفيأ في ظلالها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجهة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقيها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم ابحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بحد ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحييها العقل وينسقها ويفسرها فتنطق اذ ذاك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثاً قيماً للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تمير سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن ويبني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذا الطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلاً لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لحمتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة - مادة التاريخ - ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة امم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلة ، يتضافر ويتكافل لخلقها مع أخيه الانسان السير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولي أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية - الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز العرق وشسعت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة - وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! - هو نسبياً حديث

العهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعبهم أو قطرهم دون استقراء حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالمها مهما بلغت شأواً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم مهما اختلف الزمان والمكان فكوّنوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح باسهاب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تلذ وتروق وتفيد . ولا يسعنا مفاضلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدبيج أجزائها نخبة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحيصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لاظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغمط حق زميلاتها أو ننتقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالمين القديم والجديد على ممر الأجيال والقرون ... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوغلة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن ميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ ... فلم تترك شاردة إلا ولجتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبة باسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعملت القياس والمنطق أو التخمين – عندما يعجز المنطق والأثر المادي – ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارىء اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيتأكد بأن القوس أعطيت باريها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*
المؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها **Rome et son Empire**
المؤلفيه : اندريه ايمار André Aymard, عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين اوبويه Jeannine Anboyer امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى Le Moyen Age
اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية
المؤلفه : ادوار بروى Edouard Perroy استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرنان السادس عشر والسابع عشر Les XVI et XVII siècles
تقدم الحضارة الاوروبية وتضعضع الشرق (١٤٩٢ — ١٧١٥)
المؤلفه : رولان مونيه Roland Mausnier استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر Le XVIII siècle
عصر النور (١٧١٥ — ١٨١٥)
المؤلفيه : رولان مونيه Roland Mausnier وارنست لابروس Ernest Labrousse استاذين في السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر Le XIX siècle
ذروة الاتساع الاوروبي (١٨١٥ — ١٩١٤)
المؤلفه روبير شنيرب Robert Schnerb استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون — فرّان

المجلد السابع : العهد المعاصر L'Epoque Contemporaine
بحثاً عن حضارة جديدة
المؤلفه موريس كروزيه Maurice Crouzet ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكم تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالمية من خلال مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سباقين في مضمار المعرفة والعلم والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعة أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ان أبناء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا – مهد الحضارة ومنهل الأمم – وتفتحهم على الثقافات العالميــة .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم محو هذا النقص نقدم لعالمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزيدوا على النص الاصلي أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارىء او تقويماً لأفكار المؤلف. أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً – دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها –.وان كنا لا نجاري المؤلف في بعض آراء او نظريات او استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاته وهناته ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا مجــاراة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير – جهد المستطاع – على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويــل في الجمل . وحرصنا الحرص الكلي على التقيد بروح المؤلف واستدراكاته وتميزاته البيانيــة حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ – ولو كان أديباً بالسليقة – لا يتوخى التنميق وجمال التعبير بــل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح او لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هـــذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد – مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً – قــد يضطرنا بعض المرار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بــين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمحنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية الــتي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قــــد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية ام صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحــات الفرنسية التي نحتوها للتعبير عن مبدإ فلسفي أو عقيـــدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية – مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق –

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتماد طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا نرى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادىء السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفد بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تقلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهران صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا نزال نجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لاقينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجزاء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة
لتاريخ الحضارات العام

انها لاول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهـــذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر واوضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثـــامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثـامن عشر العقليين وكتّابه الشعوبيين ومن لفّ لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة باشاعة النـــظام والسلام والسعادة ، وبتطوير البشرية الفكري والادبي ، وبتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحـــالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... ، سببي وغائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يمكـّن لهذه الفكرة الاوروبية المحور ويرسّخ لها في الاذهان. ووضع تقدم العـلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخـذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد أن من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرهـا الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتـــاب عبارات كهذه : « ازمة الحضـــارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هـــذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنيـــات ، ويرى في هذا التراث المتأتي الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويحصي على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريده من غاية تجعل الحضارة وقفاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوروبا الحاسم بنفسها تواري او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم تتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بادوار من الركود والقهقرى ، وباطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوف عن مثل هذه النظرية .

اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتومة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين اوالعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنيتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد الحضارة .

لقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسل موس - تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض مقولات سامية - الفنون والآداب ، والذوق حتى والعلم - ليردها الى مظاهر الواقع الحياتي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واشراقاً . فقد حاولوا ، تارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، اداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في الملبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام المقومة . وهكذا حاولوا بمعزل عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمعزل عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عالجها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تنتظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تتبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إيثاراً او تخيراً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذاً ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلا متجانساً وان نستحضرها للاذهان في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .

●

نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمتـــه الوصف بغية ابراز الخصائص المفرّدة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحن لكل من هذه الحضارات تستبين معه مراحل التقدم او التـــأخر التي قطعتها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحي بهـا النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جليـــة ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادىء « الرقي » و « التـأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ »، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات المرضة ابداً للحدس والجدل ؛ يهمنا قبل كل شيء ان نصف وان نفسر الامور، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .

●

تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة. فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات. فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاسمة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينـا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واوستراليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحـــدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية، وكانت بقيت مجزرءة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخـار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا وايم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عصور مـا قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان طلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة اثار في وجهنا صعوبات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بهـا التاريخ » ونمو معارفنا وازديادها حتّما

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما دنونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتـلة قائمة . ومن اين نأتي بتواريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدنيات المتعاقبة ، بما فيها مدنيات الهند والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنيتان من اضخم المدنيات التي ظهرت في التاريخ القديم : المدنية المصرية ومدنية بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، استمرتا اكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً افقياً في ادوار تاريخية منفصلة امر يتعذر الاخـذ به والوقوف عنده . ان هـذه المدنيات وغيرها مما نضرب صفحاً عن ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخـارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثر فيها على الاطراف الخارجية ، وظهور المدنيات العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدنيات قد حال دونها او أخّر ظهورها معـارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدنيات الضخمة ، في نفس هذه الاقطار. لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً،ممزقة احيانا لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدنيات مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العـالم القديم على الأقل — : آسيا واوروبا وافريقيا — اولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ وربطها بعضاً ببعض فجاءت اجزاؤها متنافرة غير محكمة كما انهذه التواريخ بقيت اجيالاً طوالاً متشابكةمتراكبة.

الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات المنعزلة فيما بينها من قبـل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكّن للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، اكثر فاكثر، على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واظهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القـول والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحـة جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارىء الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحـلو لبعض الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤت على ذكرها الا لماماً . ولا يتوهمن احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقـاً للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « عـلم الواقع المحيّز » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم »، ولا يدور في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التـاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نغضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهمية هذه الوقائع ، وقد حرصنا على احلالها المحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همنا منها، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصميم السكان، كلما استطعنا الى ذلك سبيلاً . ان حرصنا الشديد الا نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر مما تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه الباحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حدا بنا احياناً الى التنويه بها في الجداول الزمنية الترتيب او في الابزائيات التي تكوّن الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات.

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العام المثقف وليس من العلماء الاخصائيين . ولذا فقد ضربنا صفحاً عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .

لست ارى بعد هذا ، موجباً يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقل الذين مهدوا السبل امامنا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحدة العصر الظراني الى التنوّع التاريخي

ظهور الانسان

يضيع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهموث . ويشمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي ؛ ويتأكد هـــذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاوقات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تعليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنـــة ، بينما يحمل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنــة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد باربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ ـ ٤٢٤٢ قبـــل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحِقَب المتهالكة في القِدم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . امّا الانسان المنتصب القوام ، ولا سيا الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهرا إلا بعــد ذلك بوقت طويل. فالانسان العامل، صَنَعُ اليدين، الذي يستعمل الادوات ويتحسسها، قد تقدم الاول كا تقدمه بدوره جنس من شبه الآدميين. وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعثروا على شيء من بقاياه العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يحمل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عثروا على بقاياه في تشو كو تيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينــة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياه في بلدة تريغيل ، على مقربة من جافا هو ما يحمل العلماء قادرين على ان يلتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعلى عكس ذلك تماماً كا يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القد د الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ محيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجهل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الانسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشظّى . أما انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلحوا على تسميته فهو معروف اكثر باكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع انحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلبث ان قضت على «البشرية القديمة» ومحقتها .

العصر الحجري القديم

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلح المؤرخون على تسميته بانسان العصر الحجري القديم ، مشظّىً كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احدث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف ومخابيء الارض ، يعوّلون في معايشهم اكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوهـا بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصنعة الفنية ، متخذين لهم في باديء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجّنوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحرز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يداه ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرّف الى العلائق والاصداف والاساور فاتخذ منها زينةً له وحلية كما اتخذ من بعضها تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دمىً ، بشرية الصورة ، انثية الشكل ليرمز منها الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد اكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراد صاعد ، بموتاه وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محـــل معين ومحاجاتهم إذ تراه يَذُرُّها بالمَغْرَة ويمدها بالحلي والزينة والتقادم وبعض اللحوم . وقد تحددت معالم هـــذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد

استطال امد العصر الحجري القـــديم في اوروبا اكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيـه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاني ، والعرق الازيلي . الا ان ظهـــور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض بهذه الحضارة او الى إقصائها وابعادها الى اماكن نائيـة صعبة المنال ، كافريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقـله في اوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادمـــاً من الجنوب ، ومن جهات اخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلـف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهـة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطية والجبليون (القوقاس – والألتاي) والطوائف الشمالية . والاهم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينـة بتباين البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقـــد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقبتها عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انـــه حجر اقسى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذبه كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد ، فقد اصبح راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستنبتها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فسائل الزرع يستجيد منهـــا الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بمـــا

لديه من زرع وضرع وبما يحرث من اراض وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناه، ثم تألّب جماعات ما لبثوا ان ألّفوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادةً مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلغان الممزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعدية في سلّم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشحذ من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بيّن ومن شيوع كرّس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدمها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدنية مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل الينا من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكتشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تباعاً : الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشىء له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتان في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وتهجين

اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بايجاز مراحله الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

باتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة مسها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واوائل العصر الحجري الاعلى . وهنالك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة لرقاً اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات اكثر تطوراً، واقوى على المقاومة. غير ان تزعزع اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهيار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملامحهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النياندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا نؤبه لها. ولكنّ انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضالب ، مع تتالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

وحدة الحضارات وتنوعها

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منهسا يضيق وينكمش . فلم تتكرر ابداً الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم. وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذيوعاً. فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجميل يحفز للظعن والريادة اناساً همهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصبة والارض المخضلّة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الاقامة فيها، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيطر فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسُنيّة ولا سيما من يعنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاصل اللغوي : « *Car* » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتُقّت المفردات او الكلمات : *Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique* ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الأصل الألسُني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركية كاله

والليتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرهـا من المصطلحات اللغوية الاخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندوالاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق. وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدم ، تعارفت وتفاهمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على الالسنة يستعملها الناس ويجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلالية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو – دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدرت من جذع واحد لا نزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قِدَم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد وبالتالي بالتمركز جنباً الى جنب ، في حيز ضيق الا بصورة تدريجيـة ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحيـاة الناس في التاريخ القديم ، ردحاً طويلاً من الزمن.وقد كانت هذه الظاهرة امراً لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولمؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها. والحق يقال ، ان التفتت الذي ألمّ بالحضارة الوحدانية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقي الذي حققـه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حيـاته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . فربّ برعم لم يؤبـه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدنية قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هـذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية وان كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج . ويعتري المرءَ الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الاولية . صحيح ان معظم هـذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنهـا . من هذه المواد مثلاً اصداف مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطىء بحر البلطيق، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعـة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المبادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدهـا واستبطر شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاةً بالامور الفكرية والروحية . وهنالك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنفتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة

هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يـراود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقـد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبـل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاولها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرها وارتفاعها وهبوطهـا الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان، بحيث يدخل في روع المستقرىء ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثر ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكأن بهذا الجهـد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة جاش بهـا قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا نلمس في أيٍّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هـذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منهـا . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المبين خير الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي امنتها له. فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهمه من الفتح الفوز بالاعـداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشهما معاً زمناً طويلاً من تفاعلهما معاً وانفعالها بمؤثرات وعوامل مشتركة. فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التمايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طويل من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تتهاوى وتنهار سراعاً . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كان لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بادارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فمجرد طروئها في دهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحييزها قولاً وفعلاً ، كل ذلك يضفي على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرّده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية . ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبدت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حنق رفاقه وتململهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرتجى والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهنالك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بخشية ولين ، إمّا بتوعية اكبر وادراك اوسع وبنشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بملاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشىء امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسعَ الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالمسؤولون فيها لم يعتنقوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية اولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والحط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمـــة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدنيات المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت وزالت الواحدة تلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهـــة اخرى فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها ممالك ودولاً تعايشت معاً وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهراً بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتهاوى بعد ان تحاول كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر . ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل شيء في انهيارها المدوي .

القسم الأول
حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الادنى ، برزت وازدهرت اقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت اولى السلطنات العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للمجهود البشري العظيم الذي بذلته .

العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين

والسبق الذي حققه الانسان في هذه البلدان على امثاله في الاقطار الاخرى اذ كان نهجهم في العيش من قبل نهجاً واحداً سوياً، يجب رده في الدرجة الاولى الى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلا البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لهما المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفء والخصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من امثالها في الارض ، توفرت الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا اوسع منها ولا اخصب تقع احداهما على شواطىء البحر الابيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الانسان في هذه البقاع البارّة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الاراضي الخيّرة . مهمة ظاهرها هيّن يسير بينما يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الانسان استنباط تكنيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان يهيمن على المياه وان يتفادى منها الطغيان والنقصان ، وان يدرأ عنه خطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الارض واستثمار خيراتها الطائلة ، على منهجية واصول .

فامام مهمة بهذا الشمول وبمثل هذه الجسامة كان لا بد لجهود الفرد من ان تصاب بالعجز ويبوء سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيانها السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعة واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلمية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من الحقائق التي تبرز للعين بروز واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالحرب

وضع طارىء وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينما إعداد الارض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإتيانها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها. فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظيم .

سر هذا النجاح

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فأدت الى هذا النجاح ، هي : الظروف الطبيعية المؤاتية فيخدمة ادارة جماعية يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الاخيرين الظهور وكيف تم لهما مثل هذا الانتشار والشيوع واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفاذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطلوع الفكرة الدينية ، لا يأتلفان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

ومما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اثراً في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامامنشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً.فالحضارةالمصرية وأختها الحضارة البابلية نفسها، شارفتا على التمام وتمت لها الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منهما سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احداهما للاخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منهما تأثر بالاخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي عملتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شدّت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهنالك في استثمار الارض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة. ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالاً والواناً هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصيلتين نشأتا الواحدة بمعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منهما للاخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين فجرها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبنّي مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدهشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانه ، صحّت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور فالتجلي فالازدهار .

اهلية الشرق الادنى للسيطرة والسؤدد

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة ويلف كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراص ، زادتها النجاحات التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة ، ان تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ، تفوقاً ساحقاً على ما حولها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تم لهذين القطرين منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للمزيد من الطمأنينة عن طريق تدويخ المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غيباً لدى المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان « شهدة السيطرة » التي وُصِمَت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في الداخل ولمراقبة الصحاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تفادياً للمفاجآت المزعجة ومنعاً لكل طارق طارىء ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الوادي وبخيراته الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبح وتبقى دوماً ، من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تم لها من صروف وظروف .

فللشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة . فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينهما شيء من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمنة تاريخية اخرى ، طلوع حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ، هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها . فهذا التوافق والتزامل الزمني يبقى ابداً من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموغلة في التاريخ ، جاء مجهود السكان المشترك ، في حقلي الحضارة والتكوينات الجغرافية ، سبباً وعلة في آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومر القرون ، على قسمات صورته الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امراً عسيراً . فمن وجهة عدد السكان الاجمالي او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضيع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى ان الضغط الذي كانت الجماهير تحدثه من الخارج ، كان اكثر من كاف ليعيق انفتاح الشخصية وبروزها . من العسير ان نتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الادنى ، ابداً ودوماً الارض المختارة او الارض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للافق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى اغرائها وفعلها الاخّاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الارض ومغاربها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضايق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مبين . وهكذا نرى الامبراطورية الايرانية التي آلت اليها تركة امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقاتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية والايرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعتها الجغرافية وتواصفت خططها السياسية. وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر تنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدّى عليها من فوارق . الا انها في جملتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع المجرد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية واستمرارها

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للمراسيم التقليدية المتعارفة ، ويبنون لهم الهياكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحتفظ بحيويتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنقوا الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الاهلون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التاريخ القديم عمّرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبدل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبدل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على ما نقول ، ناهيك عن التطورات العديدة والعميقة معاً التي ألمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيا في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بها عهود ازدهار وتوسع واشعاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والخسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة — اي من بناة الاهرام — حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس. فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطاً منحنياً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاهق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر دهبي، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تنهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتهم العقيدة الدينية لفاً فتلبسوها وراحوا يستلهمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس المحيق بالناس فراحوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الآلهة ومن جهل وجهالة فنالوا جزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمع انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على إحياء الماضي المجيد مع تحسرهم عليه وتحرّقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي امثل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته واحياؤه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتفهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى

« مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طالما نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا سيما عن هيكاتيه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالتهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينما وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، فللنيل من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عـــبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وطمي يكسبانها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البـــلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منـــذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفاء على ما حول ضفـــافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة — اي مـا يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطاً مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بـــين دنكرك في شمالي فرنسا وبربنيان في جنوبيها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخــذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجه اذ ان سيره ومجراه ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنيتها ، وهي وحـــدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضفي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمـــة بين الوادي او مصر العليـــا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت الميـــاه الجارية منها والراكدة تتشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحـــيرات والغياض والاجمات الغضيضة التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القـــانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجـــارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الأهمية التجـــارية ما لم يترفر بعضه لمدن الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصـــالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عنـــد مرأى المصائب والإحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثار الارض الاستثار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الأهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي الفوا نهجه . ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معـــالم

الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حتى الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الازمنة التي كان يضطرب فيها حبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الايام الحلوة وعهود الرخاء التي كانت فيها البحبوحة والرفاهية يخيمان فيها على مرافق البلاد كافة . وهكذا نجد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوة ، هذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصالة

كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فما من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقاء بمنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخارج ، وهي ميزة تستلفت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الدي نعمت به من شأنه أن يثير أطماع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت، أقل ما يمكن ان يتصوره انسان لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجه الغزاة يرومونها من هذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعة لا ترام ، كما أن حدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يجثم على حدود مصر ، عدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع المميز ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والليبية القاحلة الجدباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصر من قوة بوليسية دوماً متيقظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للمقاومة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الاسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لاراضيها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخها المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل مايصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لخوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدنيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بايسر مما استطاعته أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبوهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحوتمس بجحافله الجرارة ، شواطىء الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قام في مصر من

ينتقد هذا التوسع ويشجبه ، اذ رأى فيه مساً بنقاء الحضارة المصرية .

فاذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدنيتها لجلو وجوه التطور الذي عرفتـــه خلال تاريخها المديد ، فهي لعمري الحضارة المصرية .

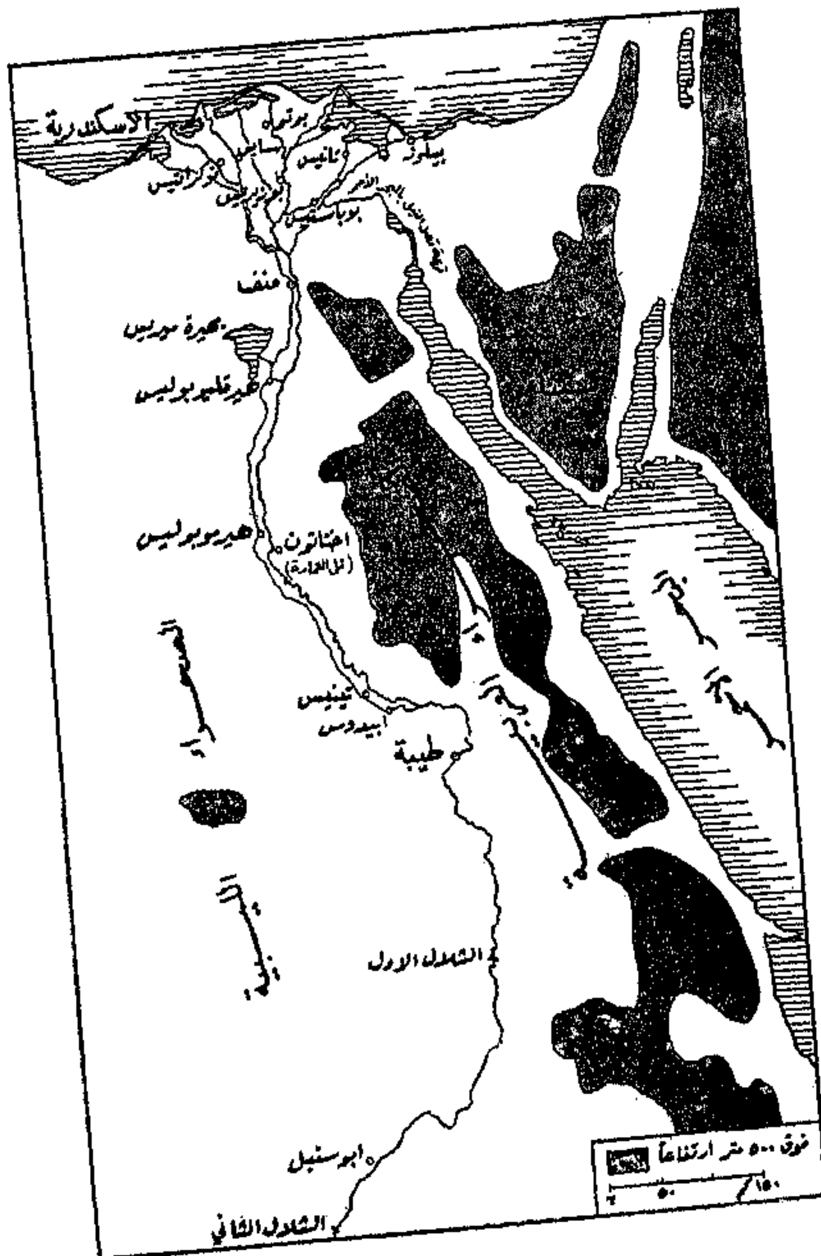

الشكل ١ — مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيهـا فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، انما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالفوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزيوا بزي الفراعنة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ – الملك

الملك محور الوحدة وخالقها

يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظيم البلاد على اساس توحيدهـا . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الآلهـة وهيأت له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيـه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابـة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بهـا بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضانة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليهـا ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعين « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليـا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقبة التي مرت على المملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للمـال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بدّ منهـا في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينا بقيت حية" الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم. ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارة" للملكتين اللتين اندمجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج بـه الفراعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعـة الشمال الحمراء يعلوها من الوراء سيخ عمودين تزينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولهما بالتالي المرتبـة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشوطة الملتفة حول عمود العرش وهي انشوطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الغياض في الشمال ، ومن زهرة البشنـين او اللوتس رمز الجنوب، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً: النحلة والثعبان اللولبي الشكل من جهة ، والقصبة والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك

لا شك ان الملك مينس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمـة لملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقـد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هـذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند المقتضيات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتهـا التي طالما شبهوها مجازاً ببيضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقـل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلـك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها،ولهذا استحقت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبية » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « أمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد عُمل به باستمرار لما كان يرمز اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله

كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الهاً ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيدة التي تكوّن احدى مميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبـل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزريس . وتحت تأثير عبادة الاله رَعْ ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس — رع او بالاحرى رع — هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنوّة ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمهـا وبابهة وجلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندمـا اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاليـة ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفوياً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسياً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حية ، قوية ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الهاً بعد الوفاة . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزريس ، اذ قام على الارض من يحل محل ابنه هوروس. فمن المنطق والطبيعي، والحالة هذه، ان يصبح اباه الالهي. والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعـة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبالِ كثيراً بهـذه المتناقضات . ولما كان اوزريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتّسم بهذه الصفة الملازمة للملكية. وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخانعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرّفها في الوجه الخـيّر النافع .

فالملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعمـاله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أؤمّن طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويبتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الخيرة المدرارة ... والحيـــاة نهب بين ضحك ولهو » ففي الرقُم والكتابات المصرية ، يرافق اســـم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحدب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حيـــاً الى الأبد .

تعيين الملك وتتويجه

الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد،اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف اباه الملك ، ولكن هـــذا الأخير كان يعمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشركه باعباء الحكم وهو في قيد الحيـــاة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنـه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهـــد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنـــوة واقتداراً — وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يلطف من حدة وقوعها زواج المغتصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيئتهم ، وهو بالذات مـــا تفرضه تماماً نظرية البنوّة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبيين امون الاوج ، كما كان لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفـلة تتم مراسمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اثنائها تذكير بتوحيد المملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم شارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والسوط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامتـه تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمـر ثم البشنت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوة" بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض .

وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورعْ التاجين ، وهوروس الذهبي لمحاكاة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصبة والنحلة » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع. وهكذا نرى رعمسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ – الثور القوي المصفّح بالعدل ؛ ٢ – حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ – الممتلىء سنين وفتوحات ؛ ٤ – المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ – حبيب امون ، رعمسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يتسربل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبة والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك

وتجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكرى الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة اله وابن اله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفّر جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر الناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقنص قام بعمل مألوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيطهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيث فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مباهج اخرى تسرّي وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيوب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسراري ، يختار من بينهن ما احلولى له ملكة ، يستعيض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين

وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديها بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهة ، عن شكر مصر ويستمطرها شآبيب النعمة ودوام البركات. فالواجب الديني هو اول الاعباء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنة ويقيم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استحال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحتم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان ما يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحي بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي ما يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعَيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رعمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حياة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفته الدينية على الوجه الامثل .

فالقرابين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهياكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستثمار مرافقها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المتقدي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمل الاستفادة منها لمصلحته وخيره . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتها عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الاسر الطيبية الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوّة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انهـا لأزمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيّض لاخناتون ان يعيش طويلاً .

وظائف الملك : الحرب

الدفاع عن مصر والذود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقاة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاتحين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاة من الوجهة السيكولوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هانئين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقضة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتّسم بها الادب السياسي في مصر قديماً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهنالك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخطيه جزافاً : فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر يجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمْن مسالكها ومداخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهما غني بالمعادن والخامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلك على النوبة ، فكان البَلدان ابداً من البُلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدّى اكثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسيا عبر السويس . فمصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدها الى سواحل آسيا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لها شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطورية الوسطى سجّل عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القيَم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المغتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويجدّوا في إثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يجعلوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لهـــا . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربيـــاً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراعنة ذلك العهد ، برزوا ، شاؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجربين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراعنـــة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المبينـة التي حققاهـــا ، هذا في مجدو وذاك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويات تحوتمس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالنزعات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراعنة ، كان من قبـــل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منهـا لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل، ويطارد الاسد في الصحاري. والناس يتندّرون بقوته السحرية ويتفاكهون بأحاديث مهارتـــه الفنية وبقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفـــة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرقم المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتمّ لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنـــة السلاح والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجربين وقادة محنكين ، فليس ثمّـة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيّم السلام على البلاد ، تنوسي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراعنة ، مكافـأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مـــع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مغزاهـــا البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية واعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقـــة كالليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عـــاد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالمحاذير والمفاجآت المقضة أقلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحكم في مصر الى سلالات ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحبيب هذه الروح اليه . الا انــه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة انــ يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبّات عابرة واستشاطة آنية .

وظائف الملك :
استتباب النظام واشاعة العدل

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لا حد لهـــا وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينبس بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا الاله يبرىء ويبدع ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فمشيئة الملك وارادته هي القانون ولهـــا ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة . « فهو يعمـــل ما يحب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنـا تعود بحرفها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهـد بناة الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه مهما بدت له قاسية لا تحتمل او بغيضة لا تطاق. فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكاشف الملك دونما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعته يداك في طول البلاد وعرضها وسط السّجس والجلبة .ولذا ترى النـــاس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخـــر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمتثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترتدِ يوماً رداء العقيدة. وسلطة الملك، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقـــد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الا لسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتفاؤل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشيئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيئتها . كذلك من الأمور البديهية عنـده ان ارادة الملك وقضاءه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتباطية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين. وبما ان « هو *Hou*» هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والرغائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مآت » الا « عدل» و« حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مسيطرة على النفوس، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السمات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعد زوال الدولة الفارسية، بحيث ان البطالسة، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دست الملك في وادي النيل، لا يتحرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفراعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلمها هؤلاء الفراعنة انفسهم حقبة تزيد على الفي سنة . وليس من انجس واوضع امجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت — ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير اجنبي — ان تحد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل فمفهوم الملكية المؤلهة المثالي الذي يقول بـ : « مآت » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلعنا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق نصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنا كل الناموس . هنالك قصة شعبية تضع على شفاه فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويجيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالتماسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين وارحم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إنجز عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأتِ العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصغ الى طلبتي وصممت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثارة الابتسامة ولكن اعديدة هي هذه المسالك التي اتيح للروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤلهة ، بمثل هذه الألفاظ ، وان تتفحر بمثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فرعون مشترعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفتي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادىء التي خطها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فذيوذوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسهبة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشترع واحد استرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرنا حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجهل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومهما يكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحْرَم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ — الحكومة والادارة

اذا لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لنوضح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسيم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيا في عهودها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتفيض بذكره ومدحه وحمده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً أمام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلهـــا ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلا على نظر .

الصفات العامة

كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيـام ادارة رشيدة ، نظيمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البــلاد الوحيد الاوحد .فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية . فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحـــال الى بعض ما تفضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبــلاد ويشل منها أسباب الحيـــاة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدهـــا التجربة المريرة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيهـــا للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجـــة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدهـــا ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيـــلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيراً ما اتخذ منها الفراعنة يـــداً لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرّق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقـد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التام لم يكن يضاهيـــه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدرة المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبـــدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أ كانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انهـــا كانت تؤلف مملكة — او بالاحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتهـــا ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتـــين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً، بين تملك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بحدودها المميزة ولها مجتمعهـــا الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القيّم العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلـــك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » — وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة — كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية

فالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقصر الملك « الصرح الكبير » ، بر عا ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمّع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرّى كل امر ويتقصّى كل شيء ، ويطّلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بآراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيها الوضع ، فتُبلّغ باسرع ما يمكن بعد ان تُفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك » و « لسان الملك » ، وطوراً « بعينيه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير «تاتي» ، موضع ثقة الملك ، يلقنه تعلياته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كماً ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيداً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرّسة .فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تباين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس مـا يدل على ان القضاء ، تمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفتُه والعمل الذي يقوم بـه ؟ وممن يتألف وعلامَ يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرافها، نجهل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وتعيينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الخطل . والافضل ان نرى في هـــذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألواناً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمـــة طويلة من هذه الرتب والالقاب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة، ما اذا كانت الالقاب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقــد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحـــدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرّده عن سواه . وهكذا نرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا نعرف عنهـــا في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامــه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان على خزينـــة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المآمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

الادارة الاقليمية والمحلية

ومهما بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بــد ان تتراخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقات جيدة تربط اقاصي البلاد بدوانيها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبتّ بالقضايا العارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا مـــا اشتطّ عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالمملكتين الموحدتين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيما في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قُسمت البلاد الى اربعين منهـــا ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودهـــا المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي عـــلى الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية، ولا سيا في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظـــة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم اداريا الى أقضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثـــل الوحدة الاساسية، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من حراء فيصانات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحيـــة او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانهـــا . وكان لكل قضاء « مجالسه »، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية وماليـــة ومدنية . من الصعب على المرء، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونهـا . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمـــة في الديوان والآخرون يمرون عليه غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمـال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واهياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف بـه يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التمادي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتن بامور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها إذ ذاك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنفتح امامـه ابواب الوظائف العالية . وسنرى بعد قليـــل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليـه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثـــلاً للسلطة المركزية .

الادارة والحياة المادية في مصر

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة مصر على الوجـه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها. ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منهما ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تحرج. فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجّه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيّرها في جميع مظاهرها ومعالمهـــا ، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيــذ الاوامر والتعليمات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة . وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب ، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها ، ولما اليها من صنائع وفنون ومقتنيات ، ولما يدب عليها من حيوان وانسان .

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عمليـــاً بالواقع المرير . فباستثناء ازمات الفوضى والاضطرابات التي صحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللاختبارات الواقعية . كان عليهـا ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منــه الى الحرية الفردية ، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي . ومثــل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انهـا هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدّت من سورتها وكبتت من شكيمتها .

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر ، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمــة ، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة ، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتمّ بها ويعمل بها ، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا . وفي عهد الامبراطورية الوسطى ، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبــل ، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة ، وذلك تحت ستار من مثاليــة العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها وائتمت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهـاً به . الا ان هذه المثاليــــة بقيت مهيمنة لارتباطها بحتمية مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بهـا ، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحـكم مدة ألف وخمسمائة سنة قبلهم ، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ .

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغته الادارة في عهد الامبراطورية الوسطى اذ ذاك ، من الدقـــة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية . فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفيــة التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البـلاد ، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد ، وتبيــان ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيــد الاستغلال ، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين ، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات ، والارث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصرامة لقيود التسجيل الرسمية .

ان تنظيماً بمثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأود الحياة ، فتعين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته، اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل الدولة وتتجسّم .

عاد هذا النظام الاداري الآمر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على الناس السخرة ، وألزمتهم السهر على صيانة الاقنية وسلامة الترع النهرية واجبرتهم بتشييد السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تعرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام الخراج مـا يتعلق بجباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار التي كان يتعهدها متعهدون مشايلة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ، وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبى عيناً ، كما كان الملك يدفع عينـاً ايضاً بعض مرتبات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيـات التي يغدقهـا على المحاسيب وذوي الحظوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة جبايتها للملك . فلا عجب بعد هذا ان تنعم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحد ، فتختزن المعادن الثمينة خامات او صنائع فنية ، وان يوضع تحت تصرفهـا حواصل واهراء تغص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ، كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري المحكم الذي كاد يبلغ سدرة الكمال ان يؤول ، حتى في المواسم المتوسطـة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكيـة في مصر . ليس باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لمـا بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع يسيل لذكرهـا اللعاب وتدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحـة والنهم في نفوس الأغراب ، وشذاذ الآفـاق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيراتهـا الوافرة والاستيلاء على الكنوز المخبوءة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هـذه الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقـع جغرافي عازل ممتاز جعلها، الى حد كبير ، بأمن من المستبيحين وبمعزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافيـاً ليؤمن لصاحب الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ، وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاخشاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجمهـا الفنية ،

وعلى ما يجاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجبونه من هذه الممتلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيا مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكموا حبكه ، وان يخفضوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يئن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الرازح المستكين ممثلو السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكمون ويديرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التشاكي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات محرقة وتنهدات كاوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسلماً للواقع ، قلما يرفع صوته شاكياً وقلما يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفاتحون والغزاة الأجانب الذين سوّلت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوّلوا على ما عُرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيا بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الآسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والاشغال الشاقة ، واكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشييد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفيء الذي تؤمنه للتاج. وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلزّم للمتعهدين مشايلةً أوعلى أنصبة معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم محكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزّة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقم في الارض ما يضاهيها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ إحتفالاتها بمجامع القلوب مكّنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبدع صوره . وفي هذا السبيل سخّرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغته من عظمة ساحقة صادعة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي

في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتنزع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليمات، فراح يستخدمها للاثراء . وهذه النزعة لا تكوّن المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تنزع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صغار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قُطع لهم كما يرغبون ، وتشرئب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والانحلال يُصيب وحدة البلاد فتتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الاغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الخرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصيبت بعقم بالرجال الاكفاء الخليقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السلبيين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يُبرزوا — ولم يحربوا ان يبرزوا — نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء، ثقافياً وخلقياً، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييدالبناء الديني والعلماني ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يعتقدون ان مصر مُلكٌ خاص او متاع خاص بهم ، فيستدلون

بموجبها ذوي قرباهم المتكاثر عددهم بتعدد الزوجات ، ويقربون رجـــال بطانتهم وحاسبيهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الحظوة للاستبداد بامر السلطة . ويمدّنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

انحلال الامبراطورية القديمة وزوالها

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص، انحـــلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلـــك يكفي ان ننوه هنا لماماً ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هباتٍ واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين أسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذاك ، كما انهم حوّلوا لها رسوم الجباية التي كانت تُفترَض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثيـــة في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « الحافظ » ، – كما يسميه الاغريق – رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابنائهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقرابتهم بالملك ويعتدّون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اواصر هذه القربى ووشائج هذه الصداقة تتراخى بسرعة مع الزمن وتخف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الارتفاق الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ووهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها بدداً . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميـــلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

الإصلاح الاعرج

استطاع ملوك طيبة الأوّل من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الحادية عشرة وبدء الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريرة التي مرّت بها البلاد . فخسر منصب «المحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبه شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفّعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُقضَ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمّنه لهم ولذويهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تقويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال. لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليمات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تتنزّى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحتراز من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم او « العظام » الذين لهم من الغنى والثراء والبحبوحة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيعتصمون بحبل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجمال هو ان حمى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلابسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أُعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود والموظفين مكافأةً لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما اعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المغتصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المجدودين هو مثل القائد حورمحيب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » هذا اللقب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من احدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توّاً بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عُرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كأمنوفيس الرابع ، او من تنكّر له .

رئيس كهنة أمون

تبين هذه الحادثة المنزلة العالية التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتمساً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيئته التي يعبّر عنها بالتماسات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكثار من الأعطيات والتقادم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة امون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدَم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في اسرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورئيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفحل بالتالي خطر رجال الدين. وفي اواخر اسرة رعمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مرقاة للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريحور . ومع اننا نجهل الكثير من الوشائج العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقائه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في النوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتتيح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان نتتبع المراحل التي مرّ بها الى ان آلَ اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريحور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أمامنا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تتيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتتأثر بها في آن واحد .

النظام المثالي

من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الآلهة العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبيّنا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرّف عنه اليوم « بالنطاق الحرّ » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنهما هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالاضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلّها اسئلة لا جواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول اهمالها دون تحيزه في كماله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات الجيدة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ – الحياة الاقتصادية

الموارد الطبيعية واستثمارها

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاوحال الحيية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجميل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً مـا كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرع الحيوانات الأرض بأقدامها .

دوّن الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذنّ حرفياً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأي فلاح آخر ، يتعب ويتعنّى ولا يذوق للراحـــة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب عـــلى السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتهـا وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتجفيف المستنقعات ان تشيّد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بثبات ، كما كان يقتضي في مراحـــل نموّ المزروعات ان تمدّ الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك بجمعها ونقلهـــا من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة. قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كلّه باعمال فيها الكثير الكثير من العنـاء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يداً عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلـغ الفيضان منسوباً وسطاً – ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتـا – حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سيا الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالاضافـة الى الحقول نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمتهـــا المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان – الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء – بل الثور والحمار ولا سيا الخنزير والخروف والمعز والطيور الداجنـة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد.

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى أبعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسها المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منها في التسلية والرياضة : فبالرغم من الحظر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحيوان، اسهم الصيد والقنص الى حدّ بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن لملايين البشر الغذاء واللباس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المنتوجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاغة معدنا للزخرف . ولم يعمّ استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار نادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل واثل وما اليها كانت جميعها عقداء لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فينيقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحاري القريبة تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليها في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتلع هذه الخامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة. روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء، واعمال حفر الآبار، او استخراج الفدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصياد وقاطف العنب. ولا شك في ان قسمة عمال المقالع والمناجم – وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء – كانت أشد وأدهى من قسمة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لألم ولا يأبه غالباً للحياة الفردية نفسها .

التحويل والمقايضات

توفر لمعالجة هذه الخامات عمّال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . ولم يكن يومذاك من تميز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتعهدها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الاله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلطف المناخ يحدّ من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحاكة والنجارين والصاغة والحكاكين والنقاشين ان يصنعوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبيء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين موّاني المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجع المقايضات الخاصة ولو طبّق بالتمام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومية الضخمة ان يتلمسوا بمثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة؛ الجنود والموظفون والكهنة الذين غذت هذه المخصصات محاصيل اقطاعاتهم. ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرنا جديرة بكل انتباه واهتمام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادرنا هذه محصورة مواضيعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل انحصارها . ويبدو ان الدلتا جاشت على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وتملّصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب النهرية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انعزالا فيها فشعرت بصوالحها وبقوتها الحقيقية ، وشدّتها الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدف ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الصقلي الى تشريعه حول العقود ، ملك ساييس احدى مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبته — وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ .. — لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : فالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عمموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثر سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزنا معدنياً كوحدة حسابية مثلى ، ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعاً تعادلت قيمتها مضطرين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجليّ ان هذه الاساليب وما اليها قد شلّت حركة الصفقات لانها لم تكيّف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية

ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لا سيا اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتهـا ، مجالا للشك في هذا الموضوع .

واذا ما ركنّا الى هذه المعلومات، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً . هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فمصر التي تكتفي نفسها بالضروريات ثم تلجأ الى الخارج إلا للكماليـات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بهـا المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافـل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجريدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانىء الفينيقية واهمها جبيل التي ترتقي صلتهـا بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنهـا من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيهـا على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدى الروايات ان اتفاقـاً تمّ التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احـد موفدي هريحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدّة لمعبد الكرنك ، بقطع المصوغات والاقمشة الكتانيّة وخمسمائة لفافة من البردي وخمسمائة جـلد بقر وخمسمائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبلغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البحيرات المالحة ومنهـا الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهدّدة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدى التجريدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطىء . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب المندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة العجيبة من جواهر ثمينة وعطور وطيوب. وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلعوا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

بجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني ، فجاؤوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخلدوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة او أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأمجاد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . واذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الخضراء الكبرى » مخرتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتيــة في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، ايجيين او اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم. ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخاذة. وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلائق عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التلمّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنهم اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً. وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها

كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآلهة والملك الاله والموتى المؤلهين . ولجمت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان بمكنتها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنيتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتها على كل حال ان تسدّ الى حدّ بعيد العجز التقليدي المزمن في تموين الشرق الايجي الذي يوفر لها

الحاجات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كان من شأن المقايضات ، لو حصلت، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشييد حضارتها الكبرى قبل غيرهما من مادلتهم المقايضات ، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعت الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل أعلى في الاستقلال الاقتصادي – وهذا المثل الاعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمله عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار – وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على ما يكمّل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عن الاستزادة فقط . وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بما يضفي عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلّما استطاعت الى ذلك سبيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية .

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وتثبتها أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم : تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ – المجتمع

الأوضاع الاجتماعية : الرق

ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق المخيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشراً . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانب في الأصل : أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج . وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليبيون والأسيويون أسماء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسياتهم . ولكن ليس من مثل واحد اكيد على وجود عبد مصري بمصر المعنى ، مع اننا نجهل مصير الأولاد الذين أنجبتهم في مصر النساء الأجنبيات المستعبدات.

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفاقاً لمتانة وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار وبحبوحة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأوّل يحتفظ بالقسم الاكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتزقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء اعمال الترجمة : فحادث يوسف مثلاً ليس بالبعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للمقربين اليه وخصوصاً لمحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بغنائم النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الخسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت لتختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً بلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة

الاسرة نطاق مظلم آخر. في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته « اختي » كما تدعوه هي بدورها « اخي ». ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع. فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدام الملوك، في بعض السلالات على الاقل، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم. اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية واردة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعيها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف تحل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فغالباً ما انتسب الابناء الى امهاتهم انتسابهم الى آبائهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيا بعد الامومة ، « بسيّدة البيت » ، متمتعة بكل مـا في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقـد زواجي يحدّد مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منهما بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعمة بالغنى التي تستطيع تحمل مــا يجر ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعــل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالاضافة الى هــذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الازواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجهل ما اذا كان على الحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديــد البعد عن الفضيلة ، وهي إمّا لوازع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق ، لا سيا ونحن نرى بازاء هذه الروايات ، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يــد الامرأة منهما على كتف الزوج ، مما يدلّ على ان الموت نفسه لا يفصل بينهما . غير ان الفن ، والفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويجدر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينــة من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبــل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون » ، في السلطة الروحية والزمنية على السواء ، رؤساء كهنــة امون الذين لم يتح لزوجاتهن معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتللن مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجــه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى ، ولعل عزوفهــا النسبي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسّر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية

نحن نجهــل كلّ شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تتراءى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفاقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الارملة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحــظ الاغريق ببعض الدهشة ان

المصريـــين يرضون « بتربية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شأن الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على اهمالهم وتركهم يستهلّون بـــين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرهـــا ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحيبـــاة قطرية نضيرة، ام انسان المستقبل، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقفنّ عند هـــذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيويته والعابه وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً مـــا تصف مسرات الطفولة وتعبّر احيانـــاً بقوّة مؤثرة جـــداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة الفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاءً . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حراجة الموقف وواجهوا بعض المعضلات الاقتصادية : فمها بلغت ارض النيل من خصب مغذّ ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنهـــا من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابـــة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهـــد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلى بتوسيع رقعة زراعة القمح في الفيوم على حساب بحيرة ميريس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارجاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكتسحهـــا النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة – فيما لو امكن وضعه – يصوّر التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

الاتجاه المحتوم الى الطبقات الوراثية

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثاليـــة ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، المنتظم رتباً وفرقاً، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً. فاذا مـــا توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعـــل

تجددها المتواصل ، حلا يكاد يكون آليا . وهكذا يتم تلقائياً تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى ايجاد العمل لمن هم أصغر سناً .

ولكن هذه النزعة لم تفض قط الى جمود شامل . فهي ، بمدلولها هذا ، وبفعل تجاوبها ومنطق النظام الضمني ، قد ادت الى نتائج عملية ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل الغريزة ، يكيّف الابن على صورته ويطلعه على أوّليات معرفته وفنه باشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكاً عائلياً خاصاً . واذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحلّ محله فيها احد ابنائه أو أنسبائه . وهذا ما يفسّر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . واذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتسابه الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصاً فقط . فالتجار مثلاً وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، امنع من ان يدركها البحث والاستقراء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المتراكمة . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عملياً لامور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساساً الى العظماء المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيّما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند مداخل المدن .

الأمثلة الاجتماعية : الفلاح

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي حيّزها الفنانون والكتاب المصريون نهائياً بالرغم مما فيها من صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموله ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللسواد الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالاً اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الأحمال على ظهره او الاشتراك بجر الثقيل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقاً لفيضان النهر وانخفاضه .

ولـكي نتمثل حالة الفلاح ، يهون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الظلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، عملياً ، حتى اذا بدا حراً فيما بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونهـا . فهو مرتبط « بحقول الفرعون » والمعبد – وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان – او ان عمـله يعطى ويباع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتـاً شيدته يداه من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الرواج ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية المبيّتة منها احكام ابقائـه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد آثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواه حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجيره بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجّهاً كان عمله ام حراً . فهو لا يزال يرزح تحت كاهل السخرة التي لا بديل عنها لاعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادرته قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيّده يقتطع حصصه دون هوادة ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتميـل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجرذان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقريحة تصويرية ضربات العصي يكيلهـا للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسواتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرّك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأتـه بالحبال امام ناظريه ويكبّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه جيرانه ... »

فبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأموريه والتحقيقات المشدّدة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالمخالفين والعدل يوزعـه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرّد مادة للترديد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترتب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضاً تصف بقريحة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتعبر عن حرارة فرق العمـل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او بدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو مـا نحب » . ثم يسيطر على الجميع جوّ من المزاح والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالهـا الجعة فرحين بالعاب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضيـاً عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بمهارته واخلاصه انتظار سيده الذي يوجّه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .

واذا نحن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظماء المتعامين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات الراعوية انما هو حقول العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسيادهم : « نؤثر الحمل الملآن على الحمل الفارغ » . ولكن « هجاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الهرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس بمكنة الفلاح ان يلمس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يمسّ . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصّله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاستسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الالوان فيهما ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميزة من أخص مزايا مصر القديمة ومن اكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطواعة والهائلة والمتواضعة والمتجلّدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص الجدّ الذي يتلقى مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصهر في الجماهير .

العامل

يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية اخرى .

يلفّ « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما يماثل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزُبن في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكثر من بيوض السمك » والحكاك الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحات والملاّح والحائك والخراز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسوّلون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم افظع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً، فهم يقصدون المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلا وملبساً . ولعلهم ،

بالاضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائـــل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطاليبهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سـيما في اعمالهم الزراعية .

وكان بودنا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيــين المتميزين الذين جمعوا رصيداً مدهشاً من التقنية فاحلّوا مستوحاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابــل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نفي ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع – اخناتون قد تجاوز كلّ عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاول في الزمن . وفي اكثر الاحايين لا تحول كفاءات الفنـــان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كعامـــل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

الجندي

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي تولبــه النفوذ وتخوله حق القيادة. وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندية ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقـــة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبـــة الجنود العاديين ، وهو دليـــل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلبي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثارتها فيهم لا سيّما وان الانظمة الدينيـــة والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشذ عن هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كــله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عنــد الفراعنة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر امجاده ، لم يكن مصرياً بــل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان الجهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينهما . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداته متجانسة من حيث قوميات افرادها . اما اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمشي عليه الادارة تأميناً لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بحؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرعى المرتزقة باقطاع كل منهم ارضاً ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجاته وحاجات عائلته . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهود سلالات سايس، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطع كل منهم ثلاثة هكتارات وربع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن انخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصاً غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصاً ، ألاّ يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلاً او اجيالاً الى الوراء .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئياً بحق تملك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمّن الجيش بديلاً عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائياً في مصر يصبح بعد حين اصلاً لفروع كثيرة ويتمصّر احفاده رويداً رويداً فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المنخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثية التي ألمح اليها كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتزقة تضخم عددهم منذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثلة اكيدة حتى نتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة النقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحتم بالتالي العودة الى البدء كلما مسّت حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يجيز ذلك .

الضابط

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراعنة جميع ضباط الجيش والاسطول ، لا سيّما في جميع العهود ، لان المرتزقة قد احتفظوا احياناً

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلاقل والاغتصابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراهنــة . كثيرة هي الكتابات المدفنيــة التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمـــال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد اولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هـذا المثـــال في الاذهان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفـــاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدّد « هجاء المهن » على مـــا يلازم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيــا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفــة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عنــاء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنـا شأنه في تغيير وجه حقيقة مهن اخرى كثيرة ، لا بل يغضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريـع ، وخصوصاً التعيين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمــة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثـلة لا تحصى على صحة ما نقدم . اجل لن يجسر اي مستاء على ان ينسب لسيده نكران الجميــل ، ضمنياً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصة الا اذا اعترف بجميل خدامــه المخلصين . ويبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحلمون أحياناً بالمزيد من السموّ والارتفاع .

الكاهـــن

يبقى أخيراً اولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ عهد الطفولة في المدارس الملحقة بالبلاط او بالمعابد حيث تحتـل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدّ الوالد ابنه لهـــا ، ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهماكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء، كرّس كثيرٌ من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمـال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحلْ ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تختلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعيين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله اي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية غاية في القصر – اجزاء من اليوم – واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات ». ولكننا نجهل كل شيء عن تربيتهن ودورهن في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الاله امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » او « عابدته » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي يرأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة وواسعة بفضل ما للاله الذين يديرون شؤون معبده من نفوذ وطيد وثروة طائلة . ومما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة «مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى»اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تفلح دائماً في صدّه وابعاده.

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التملق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة. واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزه احدهم في عهد رعمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والاربعين ، و « نبياً اولا » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينما يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسَرغير عادية زادت امجادها في القوّة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد. فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو ينتقى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوّته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القمين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو اخيراً يجيش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

الكاتب

نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه .

ولا يشدّد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الاخرى واخطارها ، إلا لبرز ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوّة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهنالك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تنم عن حسد او تململ . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعها : « فالكاتب هو الآمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابعد عنه شبح التعب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحميته دون غيرهما . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الامـــل في السعادة المرجوّة ، كلاً من الطالب والمبتدىء ، على الابتعاد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الخط والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصوّر هذا المثال احسن تصوير ، منـذ الاسرة الخامسة في اواسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرفص » الذي يعبر عن حدّة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيـع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، واوفرها عطاء سخياً ، عما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيـا ، شعور أخاذ باشتراكه الشخصيّ في سلطة لا حدّ لها وبتساميه على الجماهير براقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابعد من ان يضن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحـكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القمة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادىء الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحـة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطائها المتكرر . ولكن انانيـة الانسان الفطرية قد سخّرت منها الارضيات لصالح اولئـك الذين عملوا تحت ستار تلك القوى الالهية وباسمهـا ، اعني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحام والمنطق – من الوجهة المثالية على الاقل – في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلت قوتها الخلاقة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في التدين » قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبات دستور العادات والمحرّمات الذي سلته تقوام الملزمة. وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفعناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحدها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للمبادىء التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ – الآلهة

التعدد الاساسي

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم .

وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرّة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لا سيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لإله ُجعل لهذه الغاية أعلى منهم شأناً وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يتساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ويحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت » « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم » . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهاء منه الى ما يفرينا في اكتشاف مدلول ذات الالوهية . جوهر اساسي او سائل هيولي تنصبّ عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعة ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكوّن الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحاديد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حدّ بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بممكن الا لنخبة محصورة العدد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابداً ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفّقت جدلاً الى مذهب مرض ، لقابله المصري باللامبالاة وعدم الاكتراث .

الواقع والخيال في الفكرة الدينية

تعكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بها صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجية الجماعية . وقد ترتسم بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الاخرى . ولكن لمصر خطوطها المميزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من المعضلات التي واجهها البشر في علائقهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم، فهي قد انبثقت بديهياً من المادة الجامدة،ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للمرئيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعد تها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء نفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التأليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلد احد انها دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، َوفّـقَ المصري بين صور مختلفة متنافرة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترتسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالحاق الضرر بالصورة انما هو الحاق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : فمقابلة إسمي إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تفضي الى النتيجة نفسها التي تفضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كا تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ، منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة، والخيال من جهة اخرى، توفر للفكرة الدينية امكانات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر بحدّتها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء، او تهدده تهديداً فقط. وهو قد رآها بأم العين وحاول تهدئتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها المخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتها فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرته الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كا نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

حدود تشبيه الآلهة بالانسان

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماض سحيق ، فانها قد احتفظت على مر الايام بالظاهرات البدائية ، وابرزها بلا ريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوان نافع او مرهوب ونبات خيّر كالبطم او النخيل. ولكن كيف نتصور تأليه المترس والخاطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فما لا ريب فيه ان لهذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً . ففي اوج الحضارة المصرية نفسه ، استلزمت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً او صفة على الاقل يعيدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصلاً بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل النفولات .

وفيما يلي مثل واضح يبين ، اكثر من اي تحديد، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف اليه المزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للمزهر . ثم اصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهات التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حاتور اوسع ترحيب حتى خارج إطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حاتور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها اذنا البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهر احياناً .

وقلما صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الاول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو اتصفت بالبروز آناً والانكماش آناً آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تمل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الاغريق واللاتين ، بدهشة واشمئزاز، الى الاكرام يحاط به هذا او ذاك من الحيوانات،وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله،والاحترام يؤدى الى ممثل الفصيلة الحيوانية المعتنى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت.وليس من النادر ايضاً ان يلفتوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك. فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميريس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميز به محلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمال التنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث محنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهررة والكلاب والحبارى والصقور والاسماك .. المنتمية لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر. غير ان عبادة الثور أبيس في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة الى ما بين القرنين الرابع عشر والاول قبل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه ماريبت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رعمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصّب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء « فتاح » الاله العظيم الذي هو « بشيره »

و « صورته الحية » ، ويجيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقـــادم ويشارك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنائزية تستمر سبعين يومـاً ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافـــه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها. فعبادة الكبش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القـــدم . ويتكلم قدماء الكتبة ايضاً عن ثيران منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم عـــلم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتهـا من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآلهة ما يتميز بــه الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفوهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكراً جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

الآلهة المحليون : تعددهم وجمعهم

وليست هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقـــع الديني المصري السحيق يتمثل بعدد لا يُحصى من الآلهـة المحليين الذين يُنظر اليهم كأسياد منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطاول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملكية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل مـــا عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانعزالهـا. وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة محصورة الاتساع. ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتيح ايضاً، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هـــذه التسمية السطحيـــة ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الا له . وكان باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقواهم وفاقــاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة المحليين بطرائق مختلفة . فلجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبق قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ؛ ولكن حيثما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحل محله . ولجأوا الى التركيب والضمّ ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتُمدت لكل الآلهـة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها. وهكذا يرجح ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأم لهوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتصر كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهقرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيد . وهذه الطريقة، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمنتصرون يأتون بالههم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحاوه المقـــام الاول : فحتى آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً العبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الآلهة الكونيون

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محلية ، والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤاتية ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا نعرف الا القليل منها ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبثق بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليهها . وقد تتميز مصر القديمة بانها لم تنصّب إلا العدد القليل منها. فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الجبارى الممد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدّة آلهـــة لكل من العناصر التي صادف تأليهها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدّد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفضي الى ايجــاد آلهة ممعنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديدُ هنا او هناك على ظواهر او بوادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومهما يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصـــل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصيبت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لاولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوّتهـــا اشعاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلّها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادةً ، معابدُ وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للمماثلة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، وذلك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطغى عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمتها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدي الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشعبيون

كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشباع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قمينة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأنفون ، بفعل انتمائهم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأنفون ، على كل حال ، عن التكلّم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصحّ ان نستقرىء من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأناً يغلب عليها الاغفال ، كبعض التمائم والتعاويذ الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالتفضيل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقوّمات العبادة ولم تمن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشعبيين. لذلك نكتفي باعطاء فكرةعن تنوعهم. لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسيوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يحملنا على الاعتقاد بأن عبّاد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عبّاد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قبل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . ومما لا ريب فيه على كل حال، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامي المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقنّع بقناع اصعر ، مشهور بترويض الاسود ، محاط بالقرود الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضاً ، نخص بالذكر منها الجعل الذي انتشرت تماثيله التعويذية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤلهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجنائز طقسية اصبح الهاً عند الموت ، ولكن لذريته فقط ؛ وما كان يتيسر ، الا التأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيا « امحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة)ومهندسه وطبيبه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الهاً شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منهما الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لهما في مصر عدة معابد اخرى .

اوزريس

لم تنتشر هذه العبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير قد اسهمت باكراً في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الآلهة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الاوساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استمالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبحثت عنه ، وعثرت عليه ، وثأر له ابنه هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذيوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيا ذيوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فأثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيا « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بينا ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان ووفاقاً للمكان احيانا وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نرانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدها . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيـا هي مصدر عبادة اوزريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوّة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك سنقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزريس ، وهو ابن الارض الإلهة والسماء الإلهة يموت ويبعث حيّاً ، كما كان اله زراعة النبات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترينا اياه على التوالي مخضوضراً ونامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوّة مصر المحيية الكبرى ومماثلته لها . وليست هـذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة ، ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولا ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوّة مستعادة . وقد قيل لاوزريس : « النيل منبعه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيـل له ايضاً : « انت النيل ؛ الآلهة والبشر يحيون من جريانك » . وقد حظي الغرقى ، في عهـود الانحطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الغريق « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين الميزتين وحدهما ان تجعلا اوزريس إله مصر كلّها . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهـل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلـك ، لان مقتل اوزريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزريس اقدم انسان ألّهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة . فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزريس ، لا اوزريس نفسه ، فان الدعامة « جد *ged* » ، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزريس يحمل دائماً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الحؤول دون مماثلته بالملك الحيّ الى احلال مكانتـه سدرة المنتهى والى انضمام الجماهير الغفيرة الى صفوف عباده . فمملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقـد اجريت على جثته ، لاول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امنت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزريس ، حتى يصبحوا مماثلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول .

فهم رعايا ملك الاموات يخضعون لديونته بعد اقتدائهم به ، ويحوبون بمعيته ميـــاه العالم الثاني وحقوله . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاقـــة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزريس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالبا ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجمة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعمها كلهـــا حجج قوية ، الا الدليل على ما احرزه من نجاح وعلى مـــا فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فاسطورته المأساة نفذت الى قلب كل من زوجتـــه وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعـا تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهـة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فغدوا انسباء له او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اوزريس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقم الكهنة بأي جهد لاحلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهات من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

المذاهب اللاهوتية

دعتنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم الآلهة المصريين الكثيرين تنظيما متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبدته ، من القـوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجتزأة احيانا ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكم منها ما لم يعد يتراءى امامنا فاصبحنا لا نقدّر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينيـة عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخـدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعامات بشرية قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلهـــا نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجـاد حل لمشكلة الموت المقضة . لذلك وجدت معظم النصوص العـائدة لهذه المحـاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلاً . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهي يقول بتفوق اله معين . وكان بنـــاء هذا المذهب الهدف المقصود للقائمين بهذه المحاولات . ويغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق الههم، على نحـــوقناعتهم به . ولم يقم امنوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احيانا ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقناع .

مذاهب هليوبوليس ومنف : « رع » و « فتاح »

لا يسعنا هنا ان نغفل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهميــة التي اسبغتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها دراسة ولو موجزة ، لا سيا وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننـــا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ، تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمـــالاً ، اقدم من غـيره من المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد كان له أعمق اثر باختياره الشمس الهاً رئيسياً. فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى ذاتها — لانها خرجت بملء ارادتها من المياه — سوى « اتوم » . ولكنه كان يلبسها شخصية ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحصري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلهـــا . ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بحوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً واضيف لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس ما يمنعنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراك حتى ينال اله كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظماء ، ان يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هـــذا الخيار خدمة جلى « لفتاح » الذي تبوأ المقـــام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اتوم » ، ليسوا سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العــاقلة وينفذونها . وقد احتفظ « فتـــاح » ومعبده بمركز مرموق ، حتى عنـــدما انصب عطف الملوك على آلهـــة آخرين .

امون وامون رع

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن التي اطلق الاغريق عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القـــدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم. وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ مكانة مرموقة خاصة حتى لو جرّدناه من كل صلة سواه . ويبدو ان آلهة كثيرين جداً قد انصهروا فيه . آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، واله قرد ، واله حباري ، واله قمر . وقد نسب اليه القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعلوم وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغدا مساعد اوزريس الاول ورئيس الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باوزريس بحيث انه لم يكن اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الهاً انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هو « امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فما دعاه الى هذا الخروج وما هي المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبدته المحليين ، امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة المطلقة التي تمتعت بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من مظاهر هذه السلطنة . وكم كنا نود الاقتناع ، بصدد هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية عبّرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق يوجب علينا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكام قد تباروا خلال اجيال طويلة في السير على خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملوك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، وبعدهما ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . فغدا مع الزمن ، ومغالاة في تصويره مادياً ، والداً للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بوالدة الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء حكمه ، والاسراع الى نجدته في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم أشرك « برع » ليكوّن معه « أمون رع » الذي استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالاضافة الى امرته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تباين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فآلهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لاله السلالة الحاكمـــة كما يخضع بانقيـــاد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاتونية » وفشلها

أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات جمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنـــة معبد طيبة . فافضى الأمر بهؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتيـــة يلازمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيهـــا غايات واهداف زمنية أيضـــاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبـــة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدّد والتي بلغت حدّ المؤامرة ، لا بل حـــد التمرد العلني ، فأخذ تصلّبه يتضاعف شدّة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية ، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضفى على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله « أتون » ، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليقة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « اتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الاله الشمس . ولا ضير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزهـــا لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هـــذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصمه نهائياً . وفي عهـــد امنوفيس الثالث ابيه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحـــاً ، فأصبح « اتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لاله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك اخناتون ، حوالى سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيـــه الملكية . ويمكننا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجرأته . فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقترن باي اجراء جدي محدّد الاهداف . وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرده بالسلطة مشدّداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبـــه

دارسة ابصر هو ما تعزم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل مـــا لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا. فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغفلة لا تتراءى فيها شخصية واضعيها. اما هذه المرّة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمغالاة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبـادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لاول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقلاع عن التضحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثـــالي عن الكائن الحقيقي لاظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحـــداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرّة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقيها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه ممـــا يثير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بوّة اسلافـــه لامون ، مستعيضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدّد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستسلماً بكلّيته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثيله على هزاله ونحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفساني . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا مـــا قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيوانا او نغلا بل شمساً كما يراهـــا البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة واياد تتناول ، عنــد اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجـــه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بجميله باستخدامها المختّر للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تنطلق من اوكارهـا والمراكب تمخر عباب النهر صعوداً

والحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فعقيدة « ماهات » او « العدالة – الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للاجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدّد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمّم عبادة الهه وألغى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمتها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيّما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبائح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب اكثر ثباتا واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنتسب الى الاله الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اختاتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مدهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهادُ هذه التخليةَ ففرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشتت كهنته ولوحقوا واتلفت صوره وعفّي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك .

بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرّة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فنحن نتراءى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالحهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . ونعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كليّاً الى الامور الدينية ، قد اهمل ممتلكات مصر في آسيا إبّان تعرضها للمزيد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . اما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيا بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورمحيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون والهه في صورهما وفي كل كتابة ورد فيهما اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الاثرية .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطّد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة. ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ – عالم ما بعد الموت

الايمان بالحياة الثانية

من الجلي ان المصري لم يأبه كثيراً للتعاليم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايع بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفاقاً للمراسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتتضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشزة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة، الى جانب صورة ضارب العود. وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تعبأ بغدك »،« لا احد يعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بحاجاتهم فتهدأ قلوبنا بانتظار ساعة لحاقنا بمن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبع رغبتك ما حييت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجعل يومك

سعيداً . لا تستسلم للهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب .. »

ولكن هذا الانكار — الذي ينتهي على كل حال بنداء الى الفرح ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كتابة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعيها لم ينظروا الى الشكوك التي تنم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقناط الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بحرارة ، على نقيض ذلك ، انتقالا الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير محفوف بالاخطار ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بجهنم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لتشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكتفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال باحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضيت منها ببعض الضمانات المبهمة التي تنسج مخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احيانا .

نقل العقائد حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائديين فولجوها مخيرين . حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالوهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهميته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادىء تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقب مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتتراءى فيها الحياة الثانية التي يلجها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجدة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احيانا كاملة تارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اضف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهـــذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى. وتحديداً لاتجاه هذا التطور العام، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعبّر عنها هـــذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخـــذ بمعناها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائديين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العـالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

العقيدة الشمسية في الامبراطورية القديمة

لا نعلم شيئاً ، في عهـد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضيعاً جداً . وقد زادت في ضعته تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبـــارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيـد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالوهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قـد لا يكون لا اوزريس ولا رع ، وعن رواسب عقيـــدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنـــا ، حينذاك، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبّه هذه النصوص احيانا الملك الميت باوزريس. اجل، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزريس ملك مصر القـــديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، أن يصبح الفرعون اوزريس آخر لا سيا وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهـــذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحل محل عقيدة اوزريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وتلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضآلة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقـــابلة القائمة بين المملكة الارضية والمملكة السماوية تفضي حتما الى تخيل المقـــابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت اسرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العالم الثاني ، بمن احاط به على الارض . وقد درجت العـــادة ان يمنح من يريد شملهم بعطفه الارضَ والترخيص اللازمين لدفنهم على مقربة منه ، وفاقاً لمراسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لرمسه شكلاً ، اقل منه حجما . فيستمر هؤلاء المحظيون في مشاركته حياته المجيدة . ولكن فتح هـــذه الثلمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الاشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هـــذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع »، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و«مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى مملكته السماوية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يجتاز هو النهر في بطاحه . اجل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزمت فكرة ديمومة اخلاقية تتناول اعمـــال حياته الارضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا، المحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادبي فرضته الالوهة على عظماء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستنمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها نجاحاً .

تعميم العقيدة الشمسية

في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة أثار الفوضى في هـــذا الصعيد نفسه . ولم تتراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانعكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً . وقد أمّن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الجنائزية الموضوعة اصـــلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرست الامبراطورية الوسطى هذا التطور بجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له .

الدولة . وبعد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيما جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجته في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائما الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهها . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة – لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحقيرة – تتكلم عن اوزريس كما عن اله يتحد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزريس احرزت تقدما لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماعات » إلهة الحقيقة – العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً «تعاليم» ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزريس لم تلبث ان لابستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيث .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعروا هذه الآفاق البعيدة . فلا ذكر للمراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انسالهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشرعوا ، الا في عهد الامبراطورية الوسطى، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدامه ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخريات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

انتصار عقيدة اوزريس

كان انتصار اوزريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه، من مجموعة الاله رع، كـ«ماعات» ابنة رع وكـ«طوطح »مثلاً. وتخلت هليوبوليس عن نفوذها لمركزين رئيسيين من مراكز عبادة اوزريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله إبان حياته

الملكية ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجـــه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجـــأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويحرثون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزريس ، او يقيمون في قبورهم ، أو يعودون ، هائمين وغير منظورين ، ليتلهوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم. ولكن لو نظمت هـــذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمنا ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنة واغراء .

وزن النفس وما يمنيه

لم تكن هناك ، على الارجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبـــل دخول مملكة اوزريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هـــذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت، حتى المجرم ، من جهة اخرى ، بمـا يضمن له صدور الحـكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادىء الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادىء الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزريس عـــلى عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحش ٌغريب الخلقة الحـكم الذي سيسلـّمه المحكوم عليـه . يوضع قلب الميت وريشة ماهات في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوّة . انهـا لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سلبيين » متوجهـــاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضيا منكراً ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابكة غير منظمة تتجاور فيهـــا الاهانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقترفة ضد السلطات المدنيـــة ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تحـــدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردي على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فـكم من الأكاذيب انطوت عليهـــا هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادي القصادة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقـــة كانت المحكمة ، بالرغم من قساوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقبل بالمساومة . وبعد هذا، يبقى الميزان وهو المرحـلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحـة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من وزنك حجـــة علي ... ؛ لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتصمن ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناهـا ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم تزود الميت بكل مـــا يحتاج اليه للتغلب على المكايد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشزة في هذا المجموع . وكان لا بدّ من ان يقلق لهـا الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيـــه الذاكرة اليقظة ، بمساعدة الكتابة الموضوعـة الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر »، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قميناً بمحو اخطاء الحياة الارضية؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه المقبل مضمونا . ولكن مـــا من اثر ، في اي مكان ، لتحفـظ يحصر فعالية هذه الصيـغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرمـــاً عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صـلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنهـــا تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فماذا يكون علم الاخلاق عمليا ، يا ترى ؟

٣ – العبـــادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلّم بـه ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهملين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هـذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرته العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره اولاً وعلى الجميع اخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هـذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزريس ، فكيف بطقوس عبادة الاموات ؟ وفي العجالة التالية مـا يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهـة

سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الاله يشعر بما يشعر بـه اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تـُدخِل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقامـاً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الاله تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفه والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعياد ايضاً . وكل هذا كان مضمونا باسم الملك الذي يجزل الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقـام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجدات وصلوات واناشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الاله ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمهـا لأبيه اوزريس . ويقدم له بعد ذلك تمثالاً صغيراً لماعات « ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيوب ويخضبه . ويقدم له اخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سماط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدّداً لكي تقدم لـه وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحـة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفـل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماض سحيق لم تخـل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعياد ادخال البهجة الى قلب الاله المنفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعياد، على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم كمشهد اولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في بهو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المحظيين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هـــذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفاقا لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهتزازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعيـــاد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الاعياد الملكية ، وهي دينية قبـــل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعيـــاد الجلوس في منف ، والاعياد التذكارية السوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدّد نشاطـه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، عـــلى معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احيانا . كان بعضها يستغرق اياما عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احيانا تستعيد اسطورة الالـــه وتشترك فيها ايضا بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالتفصيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرهـا الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزريس التي استوحتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استنزاله فيها من إلهامات قـــد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجنائزية وعبادة الاموات

ويفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيـــام بطقوس تؤمّن الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ، على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعاناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويلـــه الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزريس لاول مرّة : انتزاع الاحشاء ووضعهـا في اربعة آنيةمن الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد راتينجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقميطها بعصيبات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلّها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الواقي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابحار على النيل – على غرار اوزريس – ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية، وضع الناووس في مدفن مصمّم كمسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس باعمال سحرية ، اهمهـــا « فتح الفم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصـــد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسوّل له نفسه اقلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطاليب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان بـــه الى احقر التسوّلات . من هنا كان النداء الى القرابين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايماءات الطقسية . وكانت هذه القرابين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هـــذا التسلسل، وكانت تدعى « عين هوروس »، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة وايرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عملياً الا ويمحى ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الاهمال في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المعاصرين . وشغلت مكافحة ناهبي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فماذا نقول عن تلـــك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطرات اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرابين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العـــالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بجثثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم ممن اصطدم حقهم بالخلود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على مومياتهم الوضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارهـــا فقط لان الوفر في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغـــدو ابن الميت هوروس لأوزريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الادنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري، شأن مجتمعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة

في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للافعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القـــائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حـــذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقادم للاموات ، استندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهم

كثيراً ان تكون رأت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالزامية بنوع خاص . فهي قــد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انهك الفلاحين ما كان يقتطع من نتــاج كدحهم . وهم دفعوا ، من بؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعوين لان يصبحوا الاموات العظام . وكان قربانهم ، المحظيين في هــذا النظام السياسي الساحــق ، الفن المصري المغفل والفخم .

الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ ـ الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكلي الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، املكيــة هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتداخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً ، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء ويهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهم الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لهـــا حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفـــن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطية – الفوضى بين الامبراطوريتين القديمـــة والوسطى ، غزو الهيكسوس ، السيطرة الأشورية والفارسية – لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتخلخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

ابداع الامبراطورية القديمة

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكيـــة نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي اوجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطقوسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر . غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضعت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شمبوليون ب « بروتودورية » لانها، بخلوّها من القـــاعدة وبضلوعها المجوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطراز من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثيل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستتوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحددت منذ ذلك الحين المصطلحات العامة لمايتعلق بالجسم البشري واوضاعه وازيائه وخاصياته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فعكسهما معاً واعطى كلا منهما نصيبه المتفاوت وفاقاً لغاية عمله . احتفظ الفـــن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتمسكاً بما في الحياة من فتنة ومن نكتة احيانا . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيض لان جموح الخيال فيه لا يليق لا بالآلهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

التـــطور اللاحق

يتميز كل من العهود الكبرى التالية بطـابع خاص يضيف الى الفـــن شيئاً جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظيما داخليا كبيراً . وتبنى الفراعنـة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجمـاعي . لذلك نلمس ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتألماً وتأثيراً ، حتى فيخشونتها. فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلمس عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثروة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع — اخناتون — القصيرة الامـد فقد كانت شاملة ، على الاقـــل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة، وتميزت ، في الفـــن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بملء اختيارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطهـــا الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها

مهما كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطيح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تأتلف مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم 'زبُن هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور . وقد نزع هذا الفن ، لا سيا في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً جباراً يتعدى الاقيسة البشرية . فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روائع هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجماهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر باولئك الفنانين الذين صمموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تفاؤلاً وبهجة والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضفيا عليها تجنّناً بريئا غدا هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضربا من ضروب الطقس .

١ – الهندسة المعمارية

مساكن الاحياء

يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية اولاً : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضا الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفضيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيا اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المعامل ، اكثر تيسراً ، كلما افضى انتهاء اعمال المعمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتيح وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر

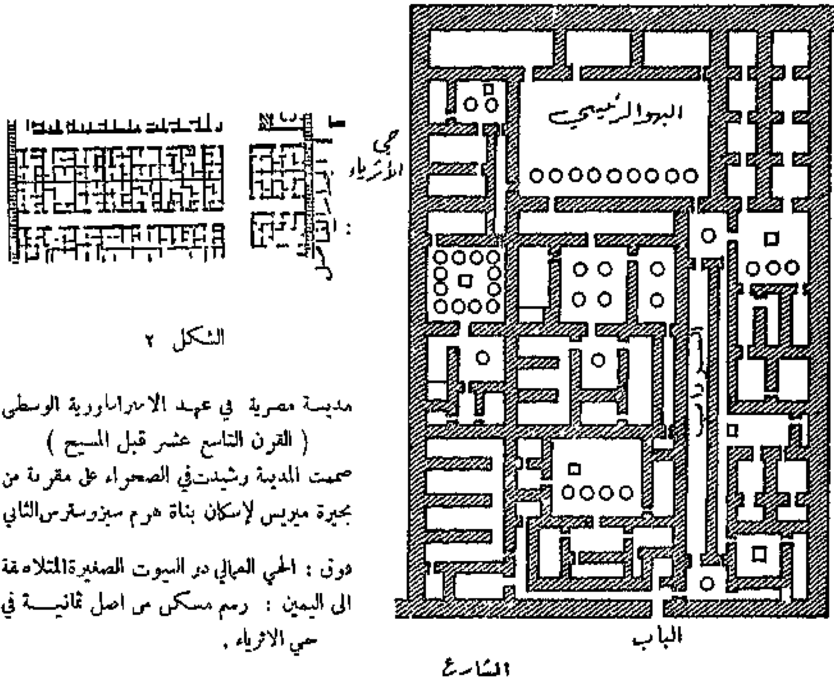

الشكل ٢

مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى
(القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من بحيرة ميريس لإسكان بناة هرم سيزوستريس الثاني

فوق : الحي العمالي ذو البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانية في حي الاثرياء .

الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام جهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدتها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنعم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كل هندسي رتيب هو اشبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحدائق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى . ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجـــر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص بـــه . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو طلق السماء كما يليق به ان يكون . استعيض فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلا وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة المسلّة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون نبيّ ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل العمارنة . ولعلّ ما بقي من هـــذا التخصص

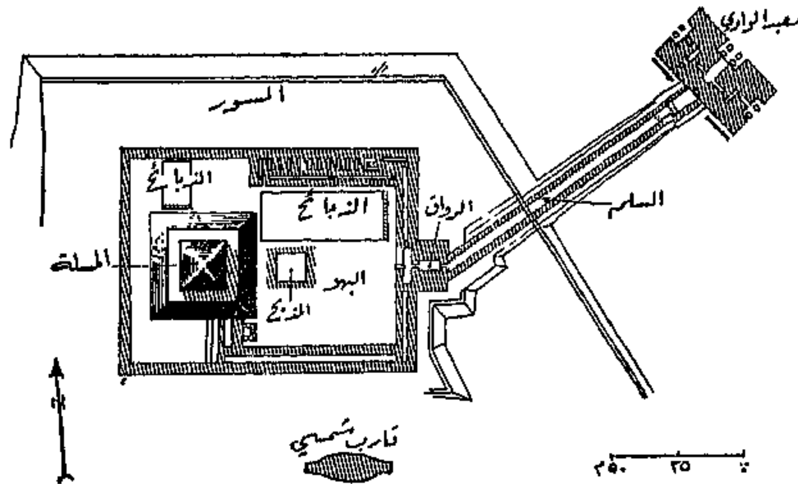

الشكل ٣ ـ معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلـــك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يسند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمري ، دليـل النفوذ الذي تمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته . وقد توصـل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون، اذن، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعد حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرنك والاقصر ، عند مداخل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراعنة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبنية شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة أقسام اخرى مماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تخطيطاً عاما شاملاً لا سيما وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .

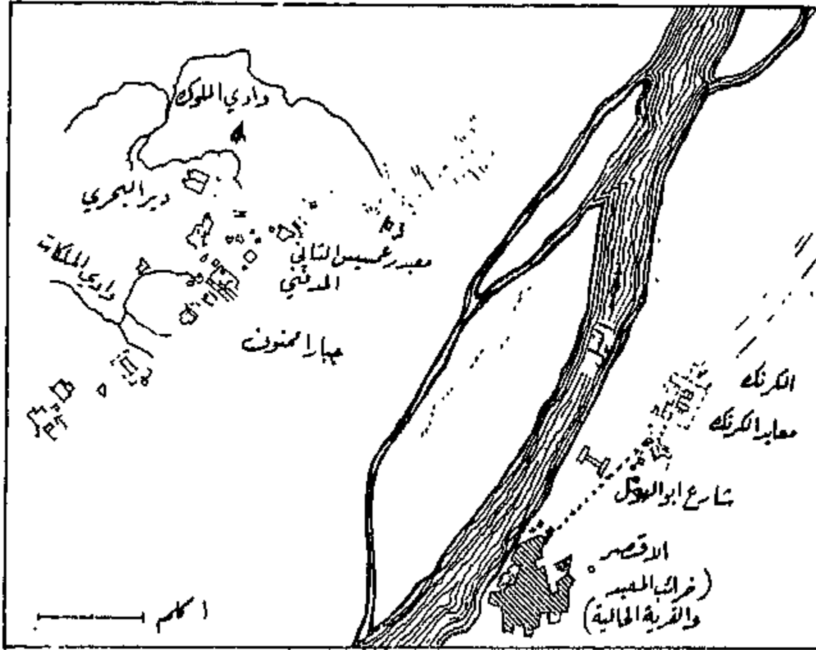

الشكل ٤ ـ منطقة طيبة
كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرنك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تمثاله في طريق تؤدي الى معبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شامختان منحوتتان من حجر واحد تلتهيان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعهما ونقلها وايقافهما . وبعد المسلتين يقوم السور بجدرانه الضخمة محيطاً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة مالكه ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليهما الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

يلي هذا الباب بهو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الاعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الاله وهو يرتج على قاربه. اما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لا سيما وان قياسات الابنية والغرف نفسها تتضاءل اكثر فاكثر . وعلاوة على ذلك كانت الارض ، بين قاعة وقاعة ، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات ، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور . ويرمز ذلك الى صعود الشمس وانحدارها يومياً في السماء . وقد اشتركت تيجان الاعمدة نفسها احياناً بهذه الرمزية ، فتبدو الازهار ، التي تستوحيها ، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة الى اليمين واليسار ، شأن الازهار الحقيقية التي تفتح اوراقها في وضح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل .

وهكذا فاننا نجد ، بعد البهو ، « قاعة الاعمدة » وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على اعمدة مختلفة الارتفاع ، مما يوجد فسحاً بين الالواح يتسرب منها النور والهواء . وبالرغم من ان القياسات نموذجية ، فاننا نذكر هنا بعضها لما تعطيه من ايضاحات ضرورية : تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك ، التي اتم بناءها رعمسيس الثاني ، ١٠٣ امتار طولا و ٥٠ متراً عرضاً وينتصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣،٤٠م. فلا عجب اذا ما تركت في نفوس زائريها انطباعاً لا ينسى عن جلال وعظمة مما فوق الطاقة البشرية .

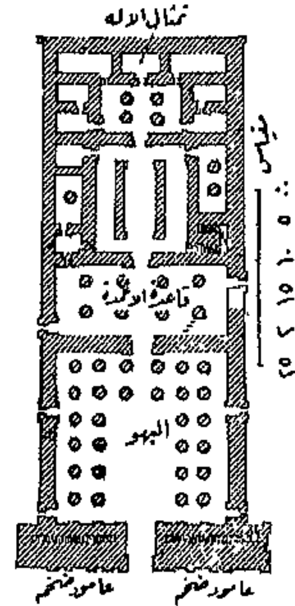

الشكل ٥ ـ رسم معبد خنصو في الكرنك
(القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وتقوم اخيراً ، في آخر المعبد ، الحجرة المعدّة لسكنى التمثال اي الاله نفسه ، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يغمر فناء البهو نور خافت في قاعة الاعمدة . ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك او مفوّضه ان يفض الخاتم الغريني الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل بمراسم العبادة .

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبسة والمصنوعات الثمينة . ولكن يتوجب علينا ان نتخيل ايضاً اراضي محاطة بسور اكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدائق والبحيرة المقدسة ، اي كل ما هو لازم لرفاهية الاله ولضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بممتلكاته .

وقد حدث ان دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة الى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً ، كما هي حال بعض المعابد « المدفنية » حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله ، وهي هامة جداً حين يشيدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق

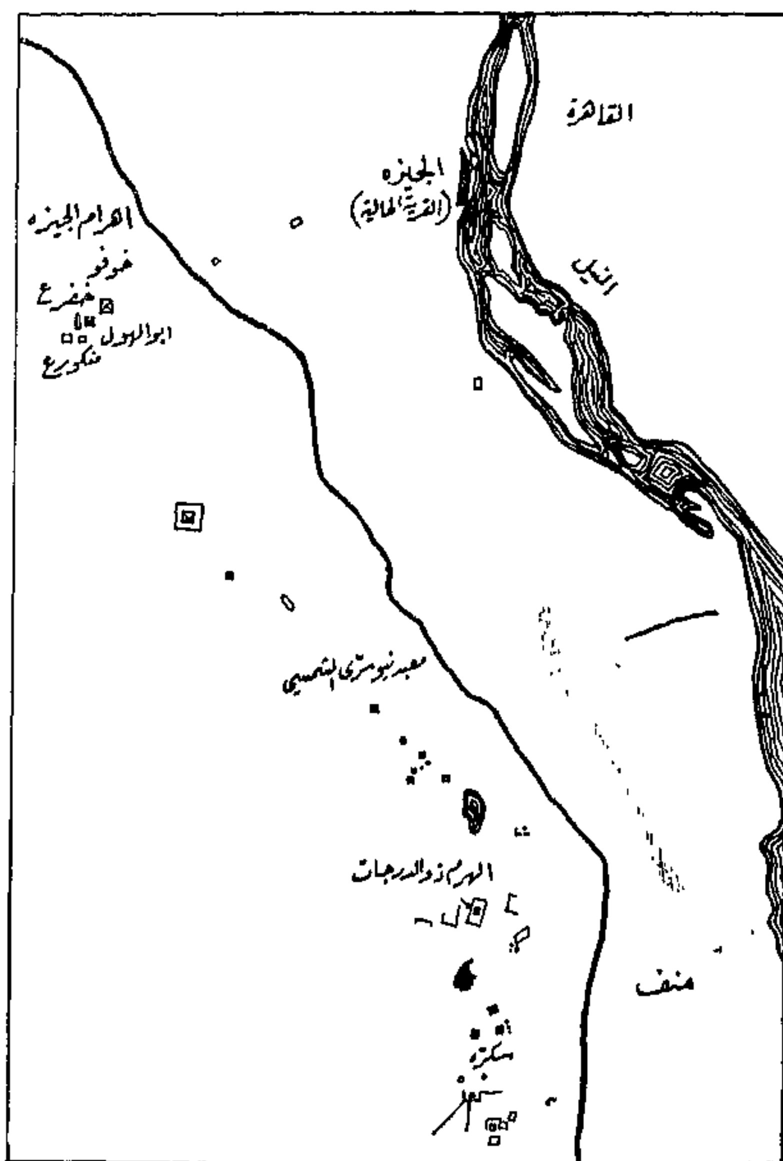

الشكل ٦ ـ منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الاماكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلالم الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعورة .

نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رعمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، بجدرانها واعمدتها التي ابقي عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدين ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزريسية .

المدفن

لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جاز هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترتسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجيزة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت تجفيفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « الممر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت. فالنصب اذن حدّ فاصل بين عالمين: عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب – ولذلك دعي « باباً مُضلِلاً » – كما ينقش احياناً في اطاره تمثال يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تمثال نصفي يرمز الى الميت مترقباً زائريه .

قبر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تقل او تكثر وفاقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات مترددة ادّت الى مثـــال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو امحوتب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقّق هرم سكّـره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرون الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفـة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع » والثالث باسم « الهيّ هو منكورع » . ويجدر بنا، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام. تغطي قاعدة الهرم الاول اكـــثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً، ويبلغ علوّه الاساسي ١٤٦،٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساتـه (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣،٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثـاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦،٤٠ متراً) .

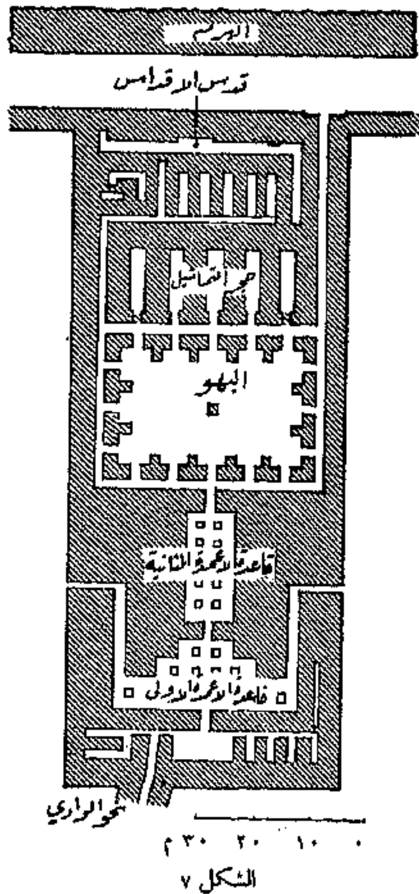

الشكل ٧
معبد خفرع المدفني في الوجه الشرقي من هرمـه

ان المخيلة لتعجز عن تقدير الجهـد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخّرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهـــل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكـــن ولكن ضخامة المجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يلزمه بهذا القدر من الجهود .

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائمـــاً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتتفرع عنها معابر لا منفذ لهـا . ولكن جميع هذه الاحتياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيّدة في النجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف ينسلق المنحدر .

فكلّ هرم من الاهرام الكبيرة، والحالةهذه، جزء من كلّ تبرز فيه، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكمشة القياسات ، بالاضافة الى الصخر الناتىء القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منـــه تمثالاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالاضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لاعضـــاء الاسرة المالكة ولذوي المكانات الرفيعة . والى « الشرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلـّدت المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمـــة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جدّاً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تبنـّاه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ، كالقرميد مثلاً ، قـد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قـــد انتقـل من منف الى طيبة ، والنجـاة الصحراوية ، في مصر العليـا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منـذ القديم ، في هذه المنطقة ، تغوص

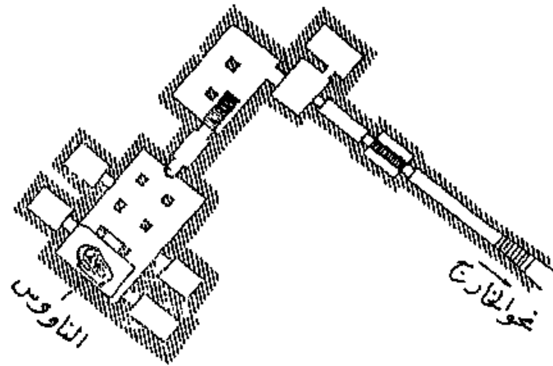

الشكل ٨ ـ رسم دياس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

في السور الصخري، لا سيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقـــد منّى فراعنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجـو موميآؤهم من عبث اللصوص فاعتمـــدوا قبوراً تحت الارض او « ديامبس » . امـــا معبدهم المدفني فقـد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احـــد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احـــد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكل عناية باكوام من الانقاض والهيار . ثم يدخل في الصخر سرداب ــ يدعى في اليونانية سيرنغوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور ــ تكثر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلالم يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمـــدة عند الحاجة .

بعد اواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ ان البيئة الطبيعيّة ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا اثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدّت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السراديب للافراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الخلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما الفقراء فلا غرابة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف الفوضى والاهمال وانقراض السلالات كي يملأوا بمومياءهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٢ – النقاشة والتصوير

صناعة التماثيل

ارفع الفنون الاخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء الكريعة العطب ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اضف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعمدتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حقلي عمل : التماثيل والنقوش الناتئة ، وقد حققت في كليهما تحفاً فنية مدهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كال سُجلّها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجيزة ؛ والتماثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، «كجبّاري ممنون » مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليهما لانه طاب لهم ان يروا فيهما احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كلّ هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبرت مثلها عن قوّة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلّها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة ايضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذاك الحين ، من الارث الذي تركـه له ناحت الاواني الحجرية ، فعرف معالجة اقسى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السّماقي والرخام السماقي ، وصقلها صقـلاً تمليصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك بيبي الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قد صنع من الالواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزّلت عيناه بحجارة كريمة نادرة ، والبس وررة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجهل كل شيء عن المحاولات التي سبقته . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب والالحام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيـل الصغيرة الكثيرة التي ستبقى مصر منتجتها الكبرى والتي ستصدرها الى العالم الهليني باسره والى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاشة مصطلحاتها وقدسيتها بفعل وثوق الصـلة بينهما . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال، ولكن في سبيل غاية محدّدة تسمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتغيير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الحظر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدّة للزبن الخصوصيين ، وقد نجـد بعض الجرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الجرأة ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارنة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، جالساً كان ام واقفاً ، يصنع وفاقاً لما يفرضه نوعه من مميزات ويرتب ساقاه وذراعاه ويداه ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعير الساقين والذراعين سوى اهميـة محدودة فيصنع الجسم وفاقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يحرز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثال الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص مميزاته العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الاهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائمـاً مع ذلك رؤيتها .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحراً وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وسنقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع يحميه جناحان يبسطها وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لاحد موظفي السلالة الرابعـة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال ماريبت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المقرفص المعروض في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضاً ، تشع عيناه انقباهاً وذكاء حاداً وتتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حتشبسوت وامنوفيس الثالث الرشيقة ، بالرغم من آثار التخنث فيها ، والتمثال المعروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رعمسيس الثاني . ومن عهد سايس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعّرها الهم فوق ما قعّرتها السن .

بيد انه يجدر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية . فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لهباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، ونتوء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، اهملت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحقارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلوص المشاهد العائلية – الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتي الفرعون مثلاً ! – وبسحر رأس نفرتيتي المعروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفائه المستحب بالرغم من انتشار نماذجه التجارية ، وبدراسة الشهوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاشة المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تفسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

النقش الناتىء والتصوير

اضيفت الى الكتابات التي ازدانت بها جدران الابنية نقوش ناتئة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحدثه رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير النتوء . اما النقش القليل النتوء فيكاد يكون منعدم السماكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك نتوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعّرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلمسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرعمسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة انجازها ، فاستعيض بها عن النقوش الناتئة وظهرت فصلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالهـــا حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراديب عموماً وحتى في سراديب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كان من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بها التصوير – دونما ظلال – والنقاشة الناتئة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكان هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العـــين وتمثيله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة ؛ وترى مقابلة ايضا ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيـــه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي اباهيم الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهارة الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة نقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشييد المعـــابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هــذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناتئـة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غيرما للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسيم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للتزيين . ولم تقف عبـــادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنازة ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيهها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرابين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحؤول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهنالك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من مآكل ومشارب وازهار والبسة تمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولاعادة الميت الى وسط اراضيه والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهنالك اخيراً مشاهد القنص والصيد والملاحة والتنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهلوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحيه من ذكريات وذكريات . وتكاد هذه اللائحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نثق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنيهة من اعمال وهنيهات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحرّت في مساعيها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللائحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقلي الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدّة ، ولكنْ بفروق تسترعي الاهتمام. وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بوحي مخيلتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئات بعض التغييرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستعذبة غالباً ، مفتنة ولطيفة دائماً، وغير مستقبحة ابداً . فالشرهون انفسهم وحتى الشرهات يحتفظون بالاقتهم عندما يتقيأون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاشة في هذه المواضيع الخاصة، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة ، حينذاك ، بجدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانوية

لو اتيح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيّما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها، والحِكاكة التي كشفت مفروشات مدفن توت‌عنخ أمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجاريها مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الاناقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثار نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زبن هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاناقة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزبن في مصر ، بفعل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جهة على منشأ هذه الروائع ، بينما وقف الرحالة والمرتزقة معجبين بتلك الأبنيــة الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشيّدها . فتحت مصر ابوابهــا للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استمالت اليها السيّاح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والثمينة . وبالاجمــال لم ينقل الأجانب عن فنهــا الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من ايحــاء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مربياً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمــله كما أهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحايين ، بمثابة إزهــار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطهــا بالجلال والعظمة اولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بهــا ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسميــة ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل اواسط الألف الأول ، ان ينكمش على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكاثــف الرقة .

ب ـ الحيــاة العقليــة

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منهــا وتخدمها . ولكن تحقيقاتهــا متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قــد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النموّ في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنهــا ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعــة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقــاً سوى الأدب بمعناه الحصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصّلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلــك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخلــة ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فأكثر . ولعل لذلك سبباً أقــل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يجيدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

الكتابة

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدوها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيا الحيوانات والازهار الخاصة بها. ولكنهم شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالا .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات – او اجزائها – بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق »مثلاً وصورة الساعد تعني« الساعد ». ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم او الفكرة التي توحيها رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع واحد ؛ والمعنى الابجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة. لذلك وضعت اشارات تحديدية الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى الابجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الابجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسّط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا الكتابة على الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً للابنية التي تكاد تصطبغ كلها بصبغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم « الهيروغليف » اي « النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي شوهت واقتصر فيها على القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

الكاتب والمدارس و « بيوت الحياة »

ومهما يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان امراً شاقاً يتطلب سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصّل ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردد اليها منذ الصغر . فالتمارين تبدأ على الواح من الحجر الطري ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلازم على البردي . ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الثانوية . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليافه تقتضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصبح لفافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضل في الحبر .

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقـلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلا مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كالياً . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « ببيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هـذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ ويتناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلائقهم ببيوت الحياة وبسخائهم عليها ، لا لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحيـاة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احـد هذه البيوت في معبد سايس الرئيسي باسم داريوس الاول : « اسسته وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيعة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا نلمس هنا مجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيـام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربمـا كان امنوفيس الرابع اخناتون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

العلوم الصحيحة

ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبـة في فعاليته العملية لا للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبـلوغ التجريد في اكتشاف الصلة القـائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الضروري للادارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الاول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فانه لا يزال علماً أخرق . واذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فانهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجهلوا العمليات الحسابية الاخرى التي لم يستطيعوا اجراءها الا بالاستناد الى العمليتين الاوليين . اما الهندسة فلا تسمو ابداً الى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، ان الاغريق قد جمّلوا الواقع الراهن الراهن حين نسبوا الى اقدم علمائهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في ان نجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الاقنية وتشييد الابنية الضخمة ، امر لا ينكره احد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في ان التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب اسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « اكبر الرائين » . فقد لاحظوا اذن بعض الاحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد . فلم يعيروا اهمية ، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لادراكها قبل حدوثها . اجل انهم قد حققوا فتحاً مبيناً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما انطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل الى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح الا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف — هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالضبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الاولى ، اي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبزغ فوق الافق ، مع اشراقة الشمس ، النجمة سوتيس (الشّعرى)التي يمثلون بها ايزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، الى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً، واضافوا اليها خمسة ايام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث ان يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل وبزوغ سوتيس مع اشراقة الشمس .

استناداً الى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون ان يثبتوا ،بعملية حسابية ، ان الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث اما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، واما بين ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً ان نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، الى تفضيل التاريخ الاقدم .ومهما يكن من الامر، لا سيا وان الشيء لم يتقرر الا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فان هذا النجاح الباهر يرتقي الى عهد متطاول في القدم .

انه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، اضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهنالك على نقيض ذلك ، نصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة عملياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يجرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

العلوم الطبيعية والسحر

كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره ايما استثمار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بآرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقيئة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البرديّات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحي لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كان علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادىء الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذيوذوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعاوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشترع قد ارتأى بانه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ أمد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبديهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واتقان .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها . فهي قد أفرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيما وان العمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرد الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فأل وايام شؤم تبررها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهنالك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسيم . وقد حرص الناس على ان يحملوا التمائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السحر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزا قط في مصر بروزهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

الأدب

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوّة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جديرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرّك منا الشعور احياناً ليس مديناً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثاراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفم الملك او بفم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهنالك مؤلفات اخرى تنتسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سمتا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدّة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال المجنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش الناتئة والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعيها اذا ما نقلوهم الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوّغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تموين هذا المنبع . بيد انه من الجليّ ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بحوادث مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخـــاتمة

الحضارة المصريـة والعالم القديم

ان الحضارة المصرية ادن ، بالرغم من انكماشها البالـغ ، قد اتصلت أحياناً بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الاهمية عملياً .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثـــل هذه الشدة وهذا التطاول، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهده الثروة، وعلى شعب بمثل هذه الكثرة وهذا الخنوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معاً يضفي عليها صفة مميزة بالغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لهـا بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصريه قد عمّرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريباً ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعنـاء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد فحسب ، بل ايضاً عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهنالك مدلولان : الانسان والتقدم ، اجتمعا وانتصرا في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتهـــما وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمن طويل قـــد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملوك كثيرين مثلاً اعلى للعقيدة الملكية التي تبرر سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجـــه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص – وقد أقامت احداها في مصر – والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احياناً بعض نظمهـا المحكمة . كذلك اقتبست عنهـــا الحضارة الاسكندرية ، التي ترعرعت وازدهرت « على مقربة » من مصر، الميل الى الافتتان والسخرية والاحساس بالظرف الرقيـــع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيراً عبادة ايزيس الهـا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .

الكتاب الثاني

حضارة بلاد ما بين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

مصر وبلاد ما بين النهرين: تشابه في المصير والحضارة

ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعقبتا حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطار اخرى ، ولدتا واتخذتا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدتا معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي فعلاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشتيت من آلاف السنين .

مصر وبلاد ما بين النهرين: حضارات موحدة ومفككة

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية سورية خاصة نر بان لهذه الباديات بالاحرى منظر السباسب دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطىء الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم تجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فان سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تُلجم اطماع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقة اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصهر بواسطتهم حضارتها .

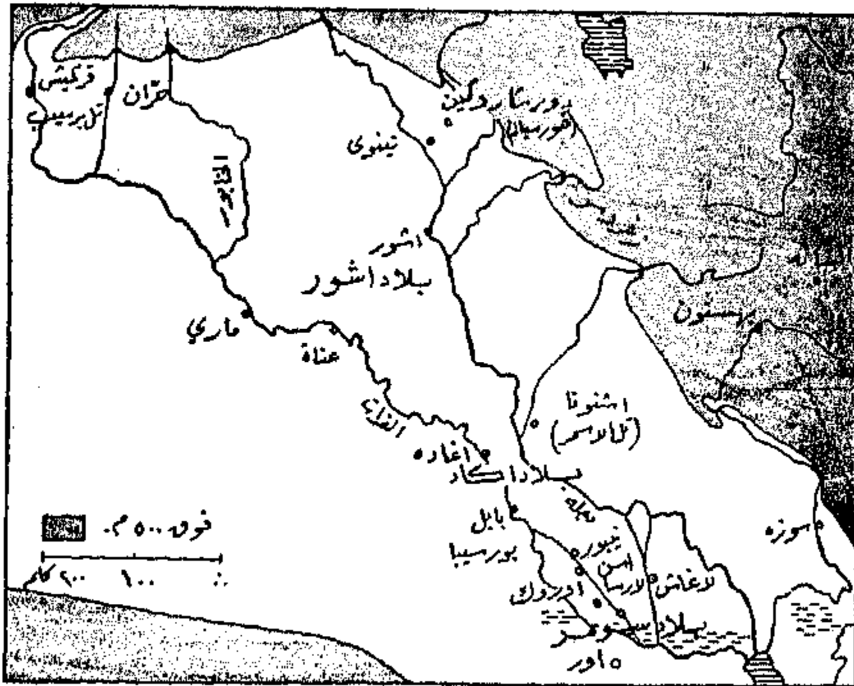

الشكل ٩ ـ بلاد ما بين النهرين

لذا فان حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجرجاً في ديمومتها الزمنية واقل وحدة وتماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية باشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذ كانت اكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

وحدة حضارة بلاد ما بين النهرين

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقلة من السهل مقارنتها مع الحضارات المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسمها التـأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجـالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثر او تقــل سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين ، وبشعور اقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخّى المرء في عصر دعوه بالذهبي احياء الماضي السحيق الاكثر قدماً .

الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة

ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شاسعاً عنصراً اساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت احياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الامد . وعلى كل فاننا لا تجدها ، في الحقبة الاولى، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تبلورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لان تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة — المثال هي البلدة ، اعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته الا نادراً جداً . ففي هذا السهـل المنخفض حيث تنتفي العروض الطبيعية ، ما عدا شعاب الانهر والقنوات — وقد احدثت فيضاناتهـا ، ولا تزال الى يومنا ، اكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي — فاننا لا نرى اي اثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين. وقد نشأت مدن لا يزال موقعها الى يومنا مجهولا: كأغاده(او اكّاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تخوم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك الى وجود الكثير منها وان استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينـة هنا آثاراً اكثر مما تركت زميلتها في مصر مع انه ، في منطقة الدلتـا اقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في اول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلمس ذلك في مصر ، باي توق الى نظام موحد اعتبر لازباً لاسعاد حيـاة السكان . وكان باستطاعة هذا التنظيم ان يثمر هناك ايضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في اعمـال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهرية هنا تأثيراً اخف على الانتاج ، ولربما كان السكان ايضاً اقل كثافة . وعلى كل حال فان التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنـا بحد ذاتها عامل سوء .

الاستمرار على مفهوم مقومات البلدة

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتعدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت مراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الالقاب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة . ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا ما ينطبق على سومر التي لم تعدّ بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن . وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمة الخلية الاولى التي منها نشأت .

مفهوم الامبراطورية

وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكّاد ، الى منطقتين اخريين في الشمال – الغربي والغرب امورّو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد « من البحر الاسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) » . ولكن يفضي بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . ومما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل » و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغالاً فيها ، اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين *Mèdes* .

تزعزع الامبراطوريات

وفعلاً بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة للزوال السريع .

وقد سعى لتشييدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميّي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حمورابي العظيم . ولم تكوّن بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاخضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زعروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالا ، ووادي الفرات مع ماري في الشمال الغربي، ثم غرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً – كما يزعم اقله سرجون القديم – جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدناها الى إطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .

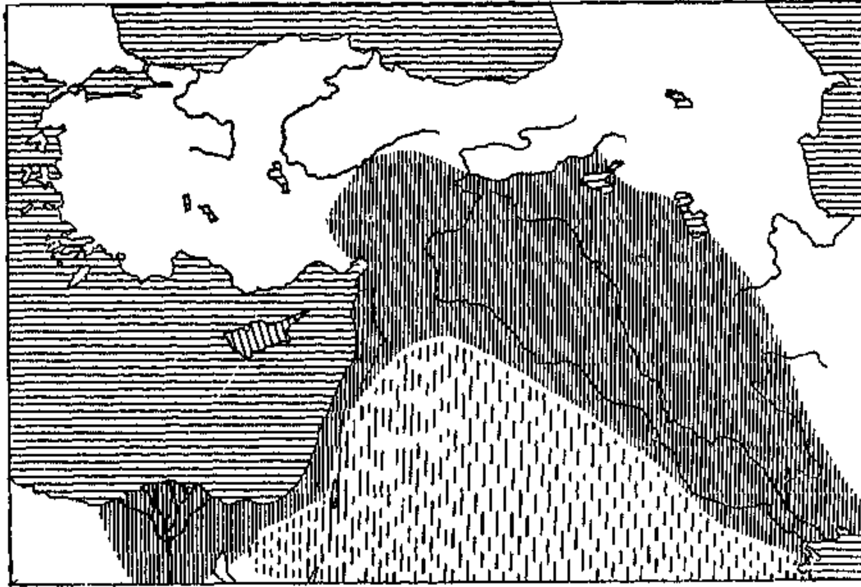

الشكل ١٠
امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السباسب المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالاً أشد قسوة، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغريبة ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولية تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يخمد لها لهيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين

تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتما ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة تفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديموقراطية البدائية » حيث كان مسيّرو الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة ولحل هذه الأزمة فقط . وقد حوّل تكاثر الأزمات وعبقرية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، إن هذه النظرية تسيء الى المبدإ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الأشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارستقراطية بورجوازية .

الملك « نائب الآلهة »

لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تُعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظمة وغنى . وهي التي توحي القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » ، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكده . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما نتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و« نائب » و «مندوب»

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ« الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله أشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هذا الاله او تلك الإلهة هو « ملك » او « ملكة » المدينة .

تعيين وتنصيب الملك

يظهر كل هذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عدة ، بالمظهر الثيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقهـا في الزمن .

وفعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليـه بحدب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجهلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدإ الوراثة إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحياة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بانه يعرض من ينتخبه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لمبدإ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بانه اصغر سناً من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على يمين الخضوع والاحترام لابنـه ، ويلج المنتخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلة . ويوم ارتقاء العرش تجري احتفالات دينية يمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُقلد الشعارات ، رمز السلطة الالهية . وتقام هذه الاحتفالات في اشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدو من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناصيرابلي الثاني — ملك اشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتار ، سيدة الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتيني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

واجبات الملك الدينية

ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازبة ، وواجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بـــل الكاهن الاكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقاب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العبـــادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهـــير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منهـــا . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من اسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهــة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية. ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و«انصاف» و « حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فحمورابي عندما اعلن قانونـــه اراد ان يرضي "شمش" إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والرذيـــلة ، ويمنع القوي من الحاق الاذى بالضعيف » . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بارادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الالهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائـــل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ . . . انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لايحاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمئنون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعـــار آخر ، بالمثابرة على صيام مضن ينهك قواه، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ . . وهكذا يغدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليـــه ان يظهر بمظهر التقي الشديد الورع .

الملك صلة الوصل بين الشعب والآلهة

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه بين النظام الملكي المصري والنظـــام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينهما وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبـــار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نفراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المهات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالوهيـة يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كلل هامـــه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفـــين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يـدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله ». ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدير. وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشده بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية. وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو الهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومـــة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات يمين ، او تأكيد من الملك بانه ينتسب بوشائج القربى الى الآلهة كما يمت بالوقت نفسه الى اصـــل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينا نرى الفرعون المصري المنحدر من صلب الهي والمترعرع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهـــة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمـــين الرباني والانساني . وهو لمرؤوسيه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رغبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والنظم الملكية

سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهـــا هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجـــلا شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خضوعه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مرؤوسيـــه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحيـاة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتتستر بحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه ايحاءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطباع دون شك في هذا المجال باختلاف المـــلوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية

ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هـــذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لزاماً عليه ان يحارب بصورة مستديمـــة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لاعلان بطولاته . وتعده الآلهة بالنصر وتمنحه اياه ، لذا غـدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الاشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، ونادرة الغزوات التي يلقي رمام قيادتها ، عند غيابه، الى التورتانو ، ترتان التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هـذا الاخصائي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معرفـة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الاشوري

نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قمتـه ، بان نلقي نظرة على الجيش الاشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهمات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر – وكانت الحمير تجر العجلات السومرية القليلة العدد – . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي الجر ، ويليه المحارب وبالقرب منه حربة وجعبة كبيرة السهام ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقيه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيـالة . ولم يكن آنئذ ركب او سرج بل فرش. واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومي . ورافق في اول الامر المقاتل الخيال مساعد يمتطي صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألبس الحصان قطعاً واضاف المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المسماة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الاشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحربات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرقة . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة المقلاع الا سلاح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يجتاز رجالها سباحة ، دون شك، مجاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يقلبون مجاذيف القوارب على حوافي الاتراس المرتفعة .

وللجيش ايضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والاسراع في اعمال الحصار . لا بل اصبح للجيوش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحمير ، إذ ان موارد البلاد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا اصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الاركان مشاكل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات اكثر من التقدم الذي احرزه في فن الحصار اذ لم يجد العدو ، امام تفوق الاشوريين في المعارك ، وسيلة افضل من الاحتماء وراء اسوار مدنه . ولكن كان الاشوريون إذ ذاك يشددون الحصار بابراج متحركة يصبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . وللأشوريين آلات متحركة عليها اكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب بواسطة السلالم او من ثغر الاسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرد وجلاء الاسرى وآلهتهم الذين يصبحون فريسة لتنكيل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لاي تضعضع او تخاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم – او بالاحرى لا يعرف لهم اساليب ! – باسراب من الخيالة لا قرار لهم اكثر خبرة من خيالته ينقضون من السباسب الشمالية والشمالية – الشرقية . ومع ان الغز (السيت *Scythes*) والسيماريين (*Cimmériens*) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية الى الجيش الاشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه الى ان هوى تحت وطأة الماديين (*Mèdes*) – وهم ايضاً خيالة اكثر مهارة – والبابليين المتمردين . وهكذا حيّت هتافات الغبطة والخلاص والضغينة المتأكلة حسداً وتشفياً التي فجرتها الشعوب المغلوبة على امرها حريقَ مدينتي اشور ونينوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة

لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الالزامية ايام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مغامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً بجنود ذوي جدارة . لذا فان قانون حمورابي ، زمنَ كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندية مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديمة في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم اكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستثمارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، ملزمين فقط بتلبية نداء استناداً الى تطور التعبئة. ولم تصبح وراثة هذه الاقطاعية حقاً ولكن غدا ذلك امراً متبعاً . ومن المعتقد ، استناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل ، بان هذه الارض اصبحت فيما بعد ملكاً للمعطى اليه ، ويستطيع ان يبيعها .

ولا نجد شبهاً لهذا الأمر ، كما نعرف اقــله ، في الامبراطورية الاشورية . فان الجنود الحقيقيين يمثلون ، نسبة الى عدد السكان ، عدداً اقوى بكثير ، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اشد تغلغلا في الجماهير . ونجهل ايضاً ، نسبياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي . وهذا من المحتمل اذ ان رجل الخيالة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال . ولكن ، حتى وان شملت التعبئة مجالاً اوسع ، فان المجهود الحربي اقوى من ان يتحمله الاشوريون وحدهم . لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم . لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعبئة ما على البلاد المغلوبة على امرها . ولكن تبقى صنوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري .

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية ، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين ، المملكة البابلية الثانية ، تساهم بدورها في اغناء هــذه المجموعة اذ انها، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتــد من تصعصع بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عــن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيقَ الشاعر ألسه (*Alcee*) . وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (*Saïs*) مزايا اليونانيين الحربية . وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس ، فانهم بذلك يحذون حذو الممالــك التي قضوا عليها .

الادارة والموظفون

ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، توجهه اسباب اضطرارية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم يجنح خلقه الى ذلك . ويلزمه لجيشه كفاءات مادية وبشرية ، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحــدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته ، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة يقظة .

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية . واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تُنظم « كبيت » الملك ولها نظار وموظفون يقومون بخدمات معينة . ونرى هذا التنظيم ، ولو بصورة مصغرة ، في « بيوت » الملكة وولي العهد . ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة باسرها ، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانه لم يجر قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كيفية التوفيق بين السلطة الملكيـــة واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة اكثر اتساعاً . وفي هـذا المضمار لم ينجح نظام المركزية الملكية اكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حمورابي،حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتقاناً ما اتى به حمورابي . انهم لربما تعاطوا اكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بداوة ، وهي اقل تنظيماً واقل خضوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي اكثر رخاوة .

المركزية زمن حمورابي

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقـد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » — وقد كان لقبهم قديماً « الملك » — . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيّر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوّم ، معنى مراراً بامور تافهـة جـداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حمورابي ، وهو الملك المشترع، سلطاته القضائية ليوحـد ويوطد المركزية. والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهياكل ، يوجد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليـه . وعلاوة على ذلـك اباح حمورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدّ يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم .

الابهة الملكية

ان للملك على كل حـال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأناً والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملـــك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنـــا في الحرب او في الصيد والقنص — وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب — او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة ولا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو باكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجعد ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتزين بالحلى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالمراوح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوجه ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات جنان ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الآلهة ليكون « مندوبها » على الأرض .

الفصل الثاني

الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر

يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد مابين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العاهل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المنقبون في اور ــ اور في بلاد الكلدان حسب التوراة، ووطن ابراهيم ــ قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكليْ عظام ، ومراراً عشرات وعشرات رتبت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة. وهناك اشخاص يضحون طوعاً بحياتهم ــ ولافرق انفرضتها التقاليد ــ وهمينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي. ولم يعثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او أشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الأشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بانه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصيلة . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة ــ امّاً اصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون ــ رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثراً زمناً طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالا ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورحال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسعاً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقتطع ايضاً منها ، اقله زمن حمورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهم او لموظفين.ويُستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كمالك كبير يهتم بارباحه. انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج. لا بل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبرنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكدس غلال املاك العاهل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضاً رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيــاكل

وتقوم الهيــاكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجــد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلاً . وتصنف هذه الهياكل درجات وفئات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخــر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهيــاكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المرار، فان المجتمع الذي يتخــذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقــة مقفلة. وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل، وفي عهــد الصبا . كما توجد مهن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجــال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين ان يقفوا عليها.ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته، ويكوّنون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتعتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبائح .

ولكن لا يستنكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليــه ويملكون ارزاقاً شخصية يستثمرونها كما يحــلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقــاء أجر ان سنحت الظروف .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جـــداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها .
ومنذ الالف الثالث افتخر احد ملوك لاغاش بانه وضع حداً نهائياً للخـــداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعـــمـال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العـادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد ،بل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان رضوع كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنـــافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع مـــا سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوها الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومهما تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعززها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظّار. والهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجـــال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حيـاة البلاد الاقتصادية . ويتشابك تشابكا متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احيـــاناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حمورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوبَ دون ربى ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حمورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حمورابي مشيئة شمش .

المجتمع العلماني

ان طرحنا جانباً عالمي القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوتامي الا في عهد حمورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكوّن هـــذا

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها ، وعقود يختلف زمانها ومكانها. وان وقفنا على نبذ من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسين، او ملوك أشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لنا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والعادات لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حمورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقله في المدن : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ،» والشخص الذي ينحني « المرؤوس الوضيع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حراً كان هذا الاخير ام مرؤوساً .

المرؤوس

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى. اننا نجهل اصلها كما لا نعرف ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخريين . فالذي يضرب مثلاً ابنة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل [1] فضة بينما لا ينقد ابنة المرؤوس سوى خمسة اثقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاجر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقبض الجراح الذي اجرى عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

العبد

ان العبد ، ذكراً كان ام انثى ، يتساوى قانونا مع الشيء المادي الممتلك المنقول ويوسم غالباً . ويجب بتر يد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هاربا ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويرهن ويودع . وفي عهد حمورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار ! . . . وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتتم مثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وُجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفترة اختلفت مدتها قديما ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثراً في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتهما ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبد احراراً كوالدتهم ، فان الاولاد الذين

---

(١) زن المثقال ٦ غرامات .

يستولدهم سيد خليلة عبدة لا يعتقون بملء الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسترهان مديونه وامرأته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول إن القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة — حالة عبد ولد في بلاد بابل واقتيد الى الخارج واعتق هناك — يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان ينال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بامكان العبد جمع قَنوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقترض من الهيكل مبلغاً لا كمال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتيق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعتق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يطهر اثناءه جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظمى ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المرؤوسين والعبيد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تشريع الاسرة

يحقق نظام الاسرة للامرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يسترعي الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحميه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكا للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجه فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللامرأة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطُلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الريع .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى الحاكم ويثبت شكواه بادلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق باقامة دعوى مماثلة لتعود الى عند ذويها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضا تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المجرمة مع غريبها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدته حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومرضها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض الامرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في ادائها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خليلة . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف، يكتفي دونشك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث انجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبدة التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية. وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجليْ الاولى! » .

وبعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبنى او والديه الطبيعيين . فالمتبنى الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيما بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبنى الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه الامرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفريق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية . والشيء نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامرأته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث اياً من اولاده الا اذا سمحت له الحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخليلة ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتقهم فعليهم

مع هذا ان يدعوا لاخوتهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لاظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكا : فيذكر مثلاً بانه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا تراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين، فريقاً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بانها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تعويض او لجوء الى الحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين انجبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خليلة او خليلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت الامرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً – مع ان بعض العقود تنقض هذا القول – الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنيتها . ويلزم لاحياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والأسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشترع اكثر من المؤرخ .

الحياة الاقتصادية : العمل الرسمي

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بانه من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستمرار العادل .

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحدب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للانسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقدوة مالكو الاراضي والهيا كل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات مها اختلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالازدهار العمومي لما تغـدقه عليهم من خيرات مادية فضائل التقوى والطاعة وعرفان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر : اذ لا نجد اثراً لاقتصاد موجّه ، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصبح المزارعون فلاحيها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيـل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حمورابي ، بعد ان حدد الراتب والثمن في مجالات عـدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لتثمين رسمي ، ونود ان نعرف ، استناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطوراته التاريخية .

الزراعـة

تتبوأ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكراً جداً ، وعدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها . وتحفـر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظـام اعمال سخرة لا يعفي منها الا امتياز ملكي . ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اهمـال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجو بين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقّار والراعي ، وبدل استئجار ثور او حمـار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدإ الملكية العقارية المصغرة جداً ، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية . ومما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة ، واثارت المطامع ، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشا كل التي لم يستطع حلها الا الهيا كل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحيـاة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وتمتعت ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القـديمة ، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حسب اسطورية تفوق شهرة تربة مصر . ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل /٢٠٠/ او /٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين . وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتي: السمسم، الذي يستخرج الزيت من حبه، والجاورس اصبحتا كالشجيرة! ولتأكد هيرودوتس بان احداً لن يصدقه، استنكف من الاشارة الى طول هذه الشجيرة. ويعترف «ابو التاريخ» بعدم وجود الكرمة وشجرتي الزيتون والتين؛ ولكنه، وقد حذا حذوه سترابون، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤديها: اثمار قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية، وخمرة، وعسل، وخل، والياف للنسيج؛ حتى ان نواة البلح تصلح وقوداً للحداد، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات «ويقال، كما يعترف سترابون، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالا لشجرة النخيل».

لذا فان اساليب لبقة ترشد عمل الانسان وتساعده، وقد بلورتها حقب عدة من التجربة والاختبار. فقد عرفوا اثارة تلقيح شجرة النخيل، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور الدي ذي القرون الطويلة الملتوية، ومن الحمار، والخنزير، والضأن، وطيور القن حيوانات داجنة، وهم يحاربون، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة، الحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى والجبال او في مناطق المستنقعات. ولم يكتفوا باستعمال المحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضاً المذرّة.

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل، اعني السهل المنخفض الذي حبته الطبيعة. وكسبّب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكره احد، فان كثافة السكان التي لم تخضع لاي احصاء، تصل الى نسبة كبيرة جداً، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها. وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى، اعني مناطق الجبال والسباسب. ويغدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة. ويذكر هيرودوتس بان ثلاث «قبائل» على شاطىء الخليج الفارسي، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدباً، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً. وهناك بدو يتنقلون سعياً وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجمل. وهناك سكان الجبال الذين لا يجنون الا غلالا ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلا لا بل محصوراً بالملك. وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات، التي تعيش على الحدود، والقريبة من مواسم السهول الغنية، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار. وبقيت هذه الجماعات، رغم الحملات التأديبية المتكررة، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتغاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان.

العمل الصناعي

ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل. ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لنتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال على الخشب والمعادن، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث. فهم عرفوا

خمسة معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقذار ، وقاموا باعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا . وقد استبدل الخزف بالمعدن للاواني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهياكل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر الخ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الاولية

ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كمالها وجودتها هو المواد الاولية ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسه والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس لربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمير والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغريبة جهدها لكفاية حالها بحالها وتستنكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللاخطار المحتملة وللمضاربة .

وسائل النقل

تطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكل النقل . وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فمنذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لحمولة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليتر !) . وهي تسير بواسطة المجذاف او الشراع . ويحدد قانون حورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابنتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشمالية – الغربية او الشمالية – الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالحمير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الجبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستمر الشرق عليه آلافاً من السنين .

التجار ومستعمراتهم

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عزلة من موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببتها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل الخيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانه في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسرة للاستيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كوّنوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويبقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثراً فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السباسب الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للاتيان على ذكرهم .

تنظيم المعاملات

يولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكراً جداً جداً ، اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصرفي .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعين القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعية – وتذكر النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولا واسعاً – فالفائدة هي ٣٣,٣٣ بالمئة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات نادرة جـــداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنـــه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال. وعلاوة على ذلك، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرا تساهلا وحدباً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احـــد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختامهم، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون، امام موظف يحمي اشرافه المديون ضد قساوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعملاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلا عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي العصري .

المعايير والقيم

تسهيلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذاك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقـــل ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعملوا الفضة التي يضاف اليهـــا الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهياكل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قـــد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقـــدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بأن نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير. وقد يحمل الحصاد على انزال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتوليتر واحد لكل ٣و٣غرامات من معدن الفضة النقي) الى النصف او اكثر. وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة. ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقـــد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرن

السادس . ولكن ايام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط . ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكوّن عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا مجمل هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة ، يحملنـــا على الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .

١ – افريز الأيائل السوداء في مغارة لاسكو

٢ – سيدة دامار الند البيضاء

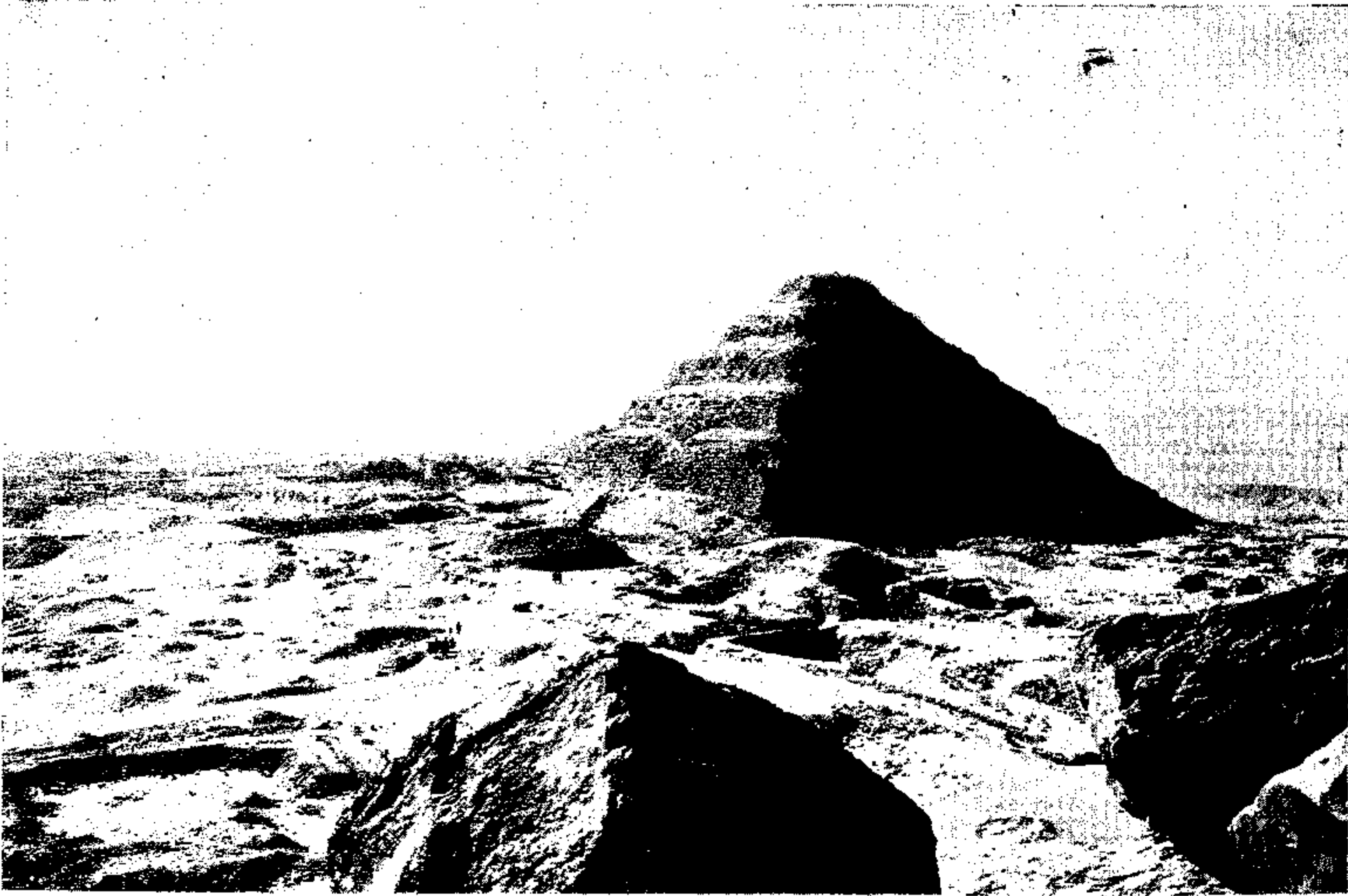

٣ — هرم سكره ذو الدرجات

٤ – أهرام الجيزة

٥ – أبو الهول في الجيزة

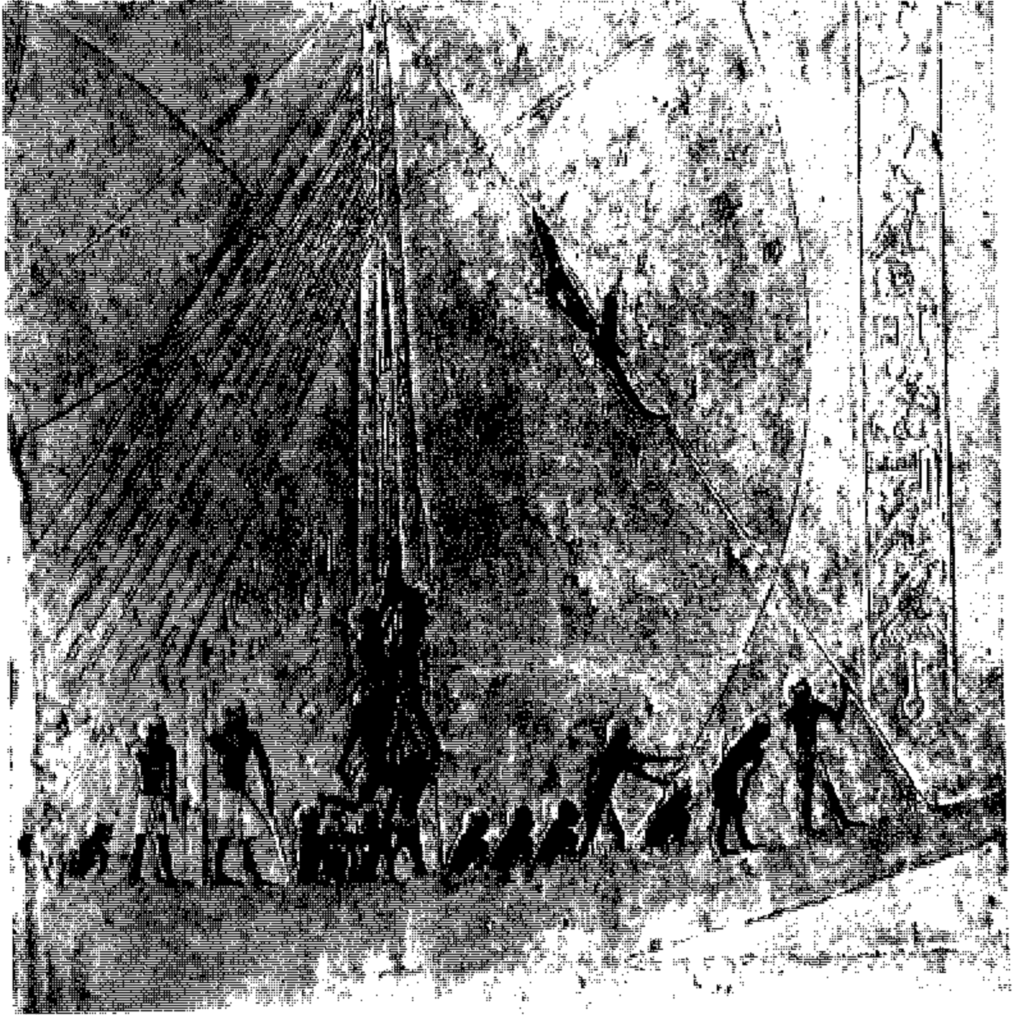

٦ – نقش ناتىء في مصطبة أخوتحوتب

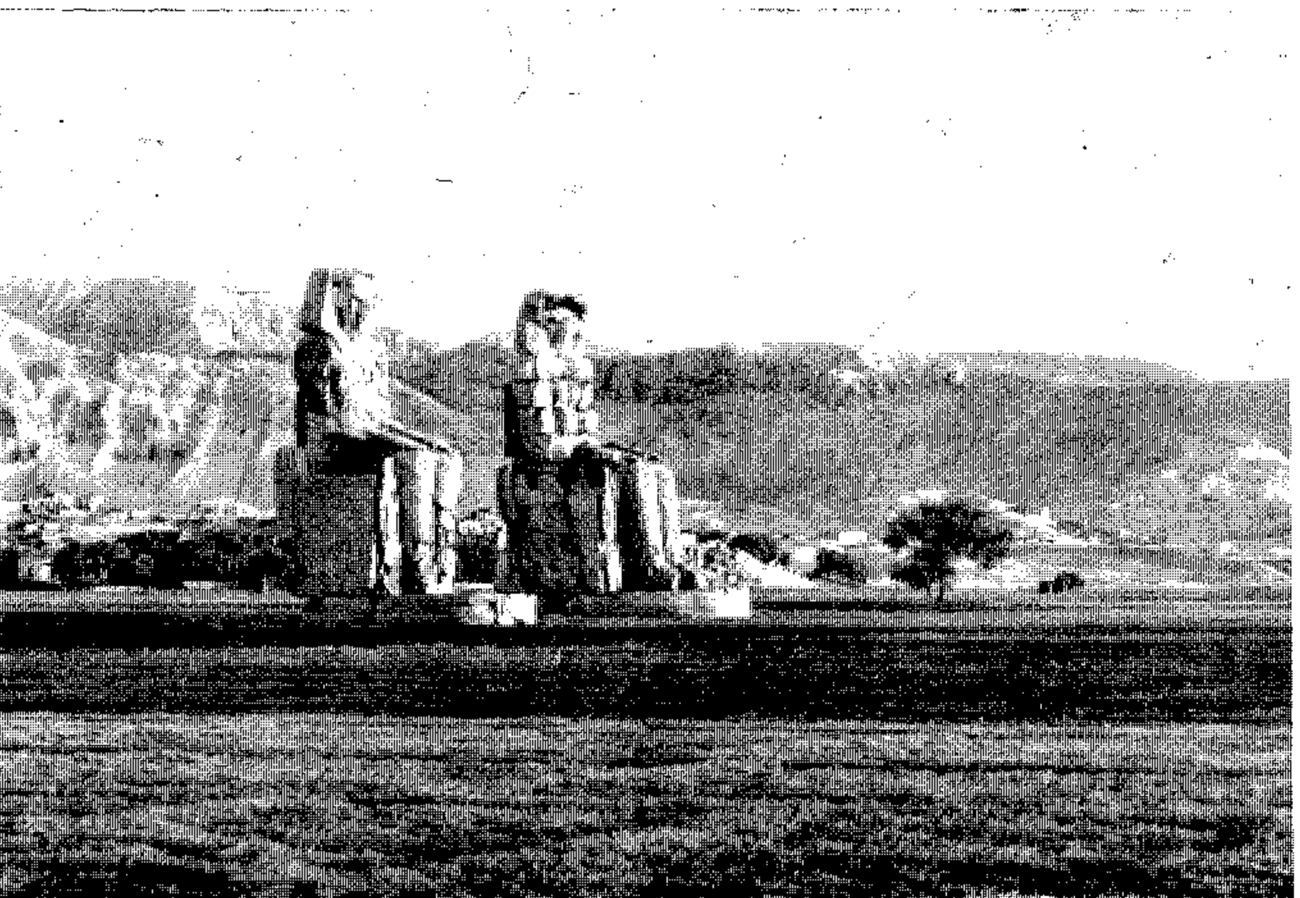

٧ – جبارا ممنون

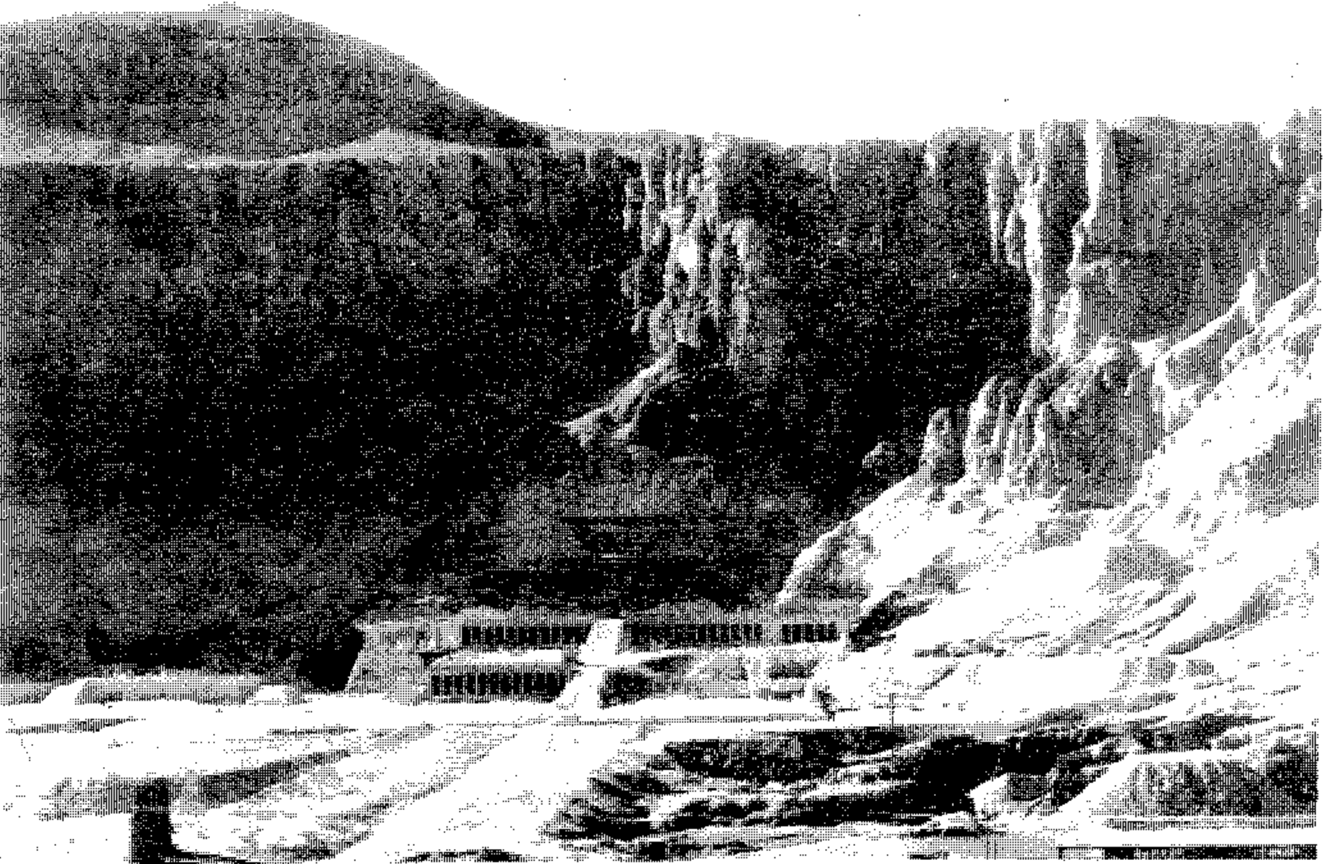

٨ – معبد حتشبسوت في دير البحري

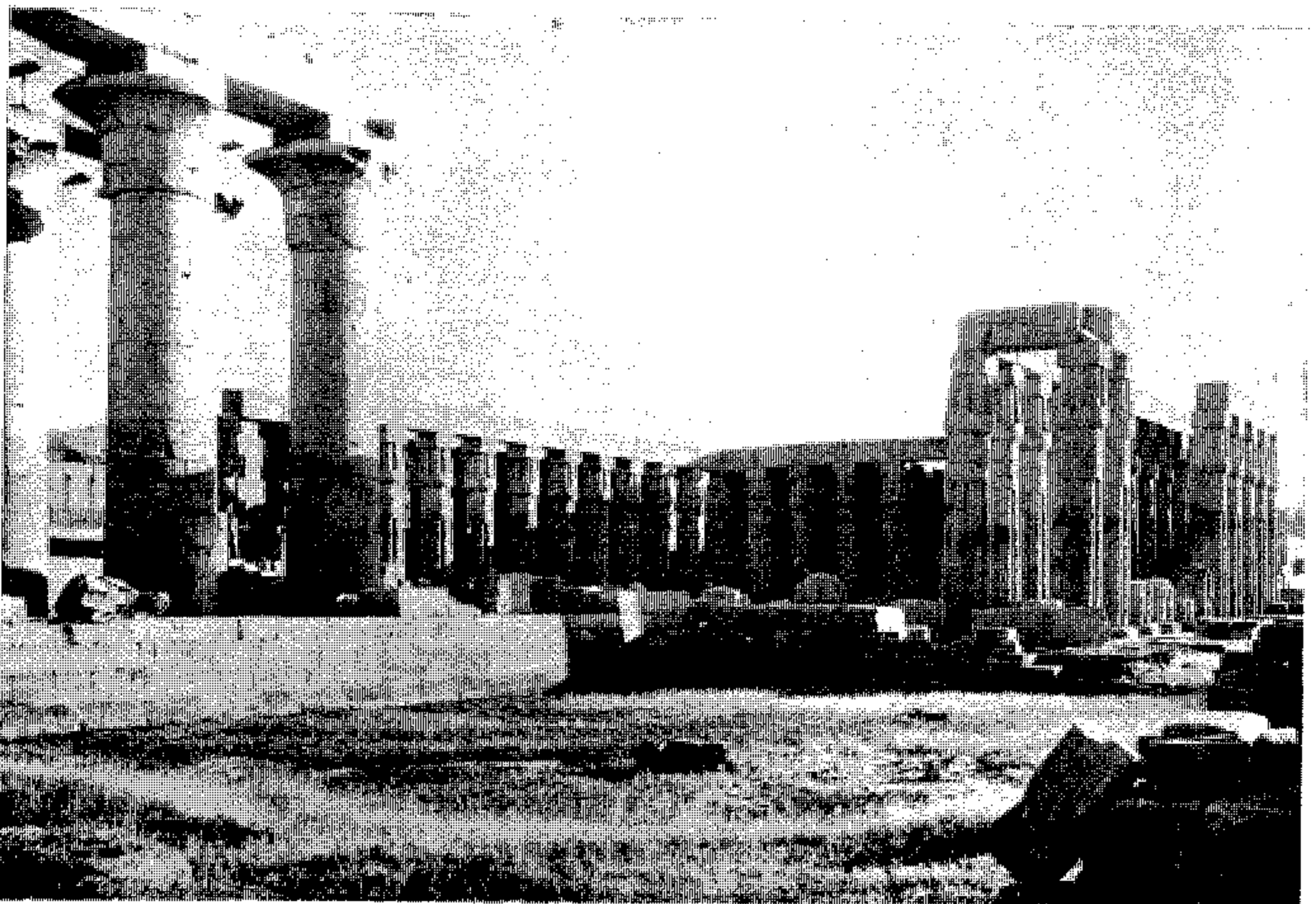

٩ — معبد امنوفيس الثالث في الاقصر

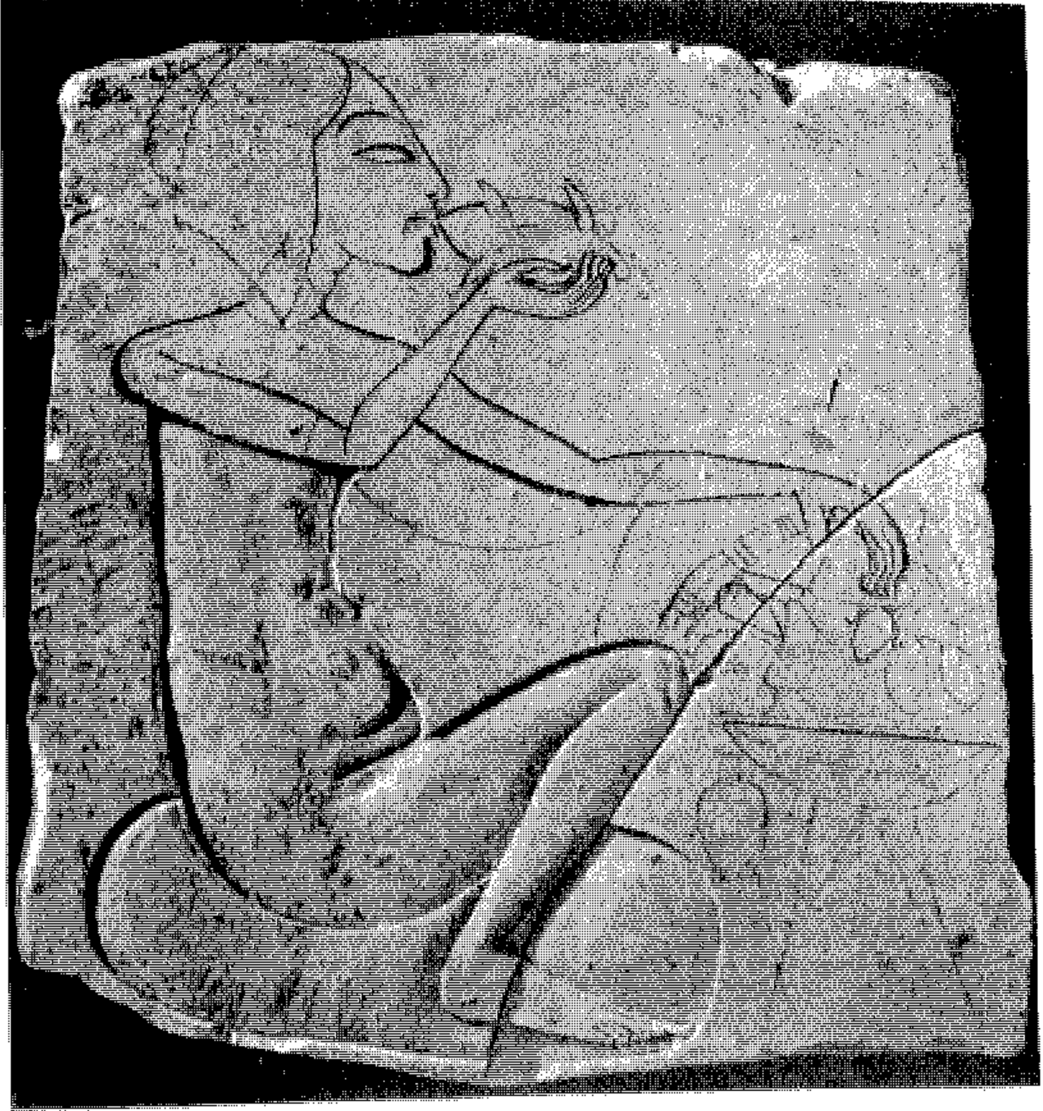

١٠ — غداء الأميرة

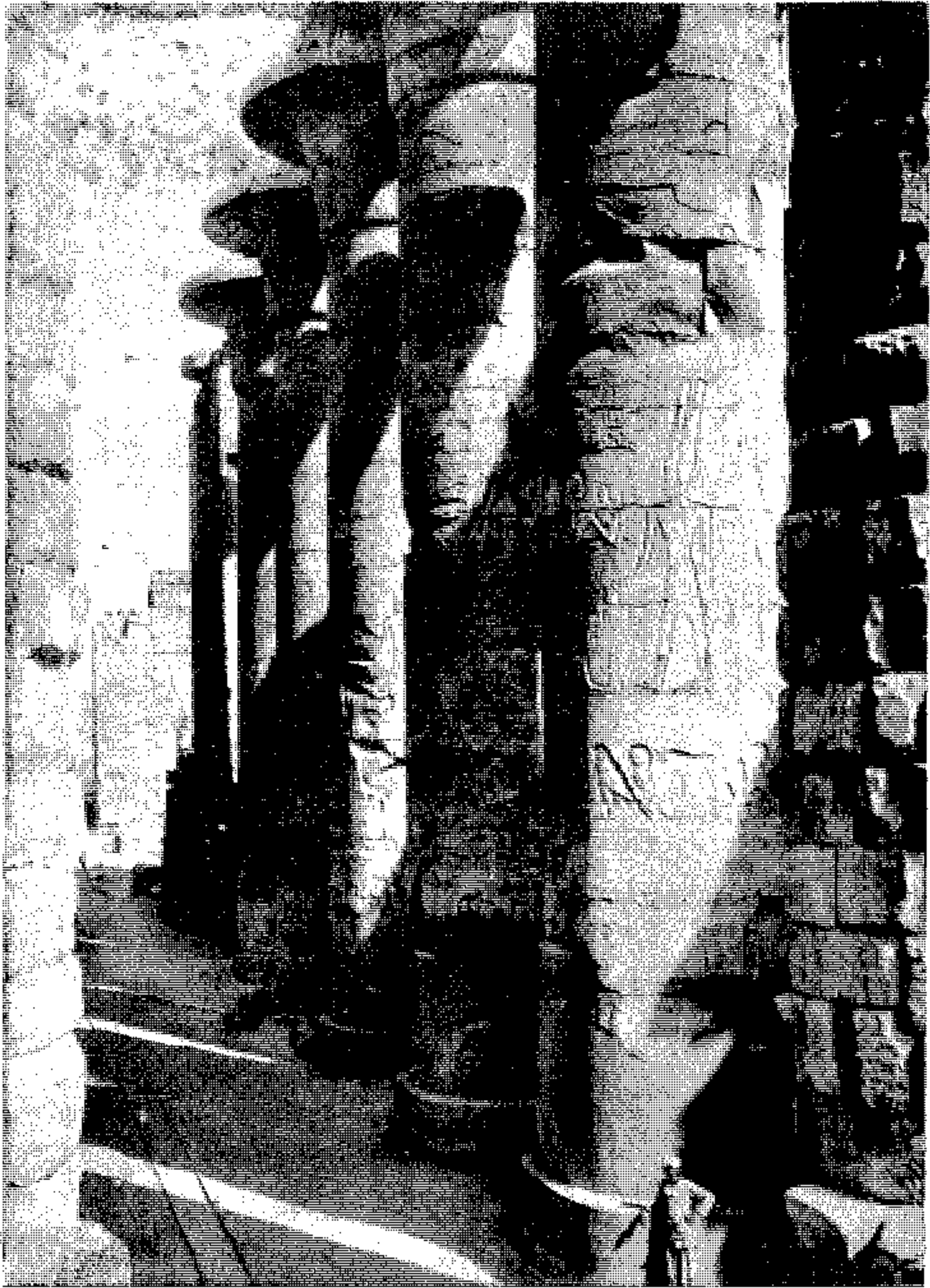

١١ – قاعة الأعمدة في الكرنك

١٢ — معبد أمون في الكرنك

١٣ - سيتي الأول والالهة حاتور

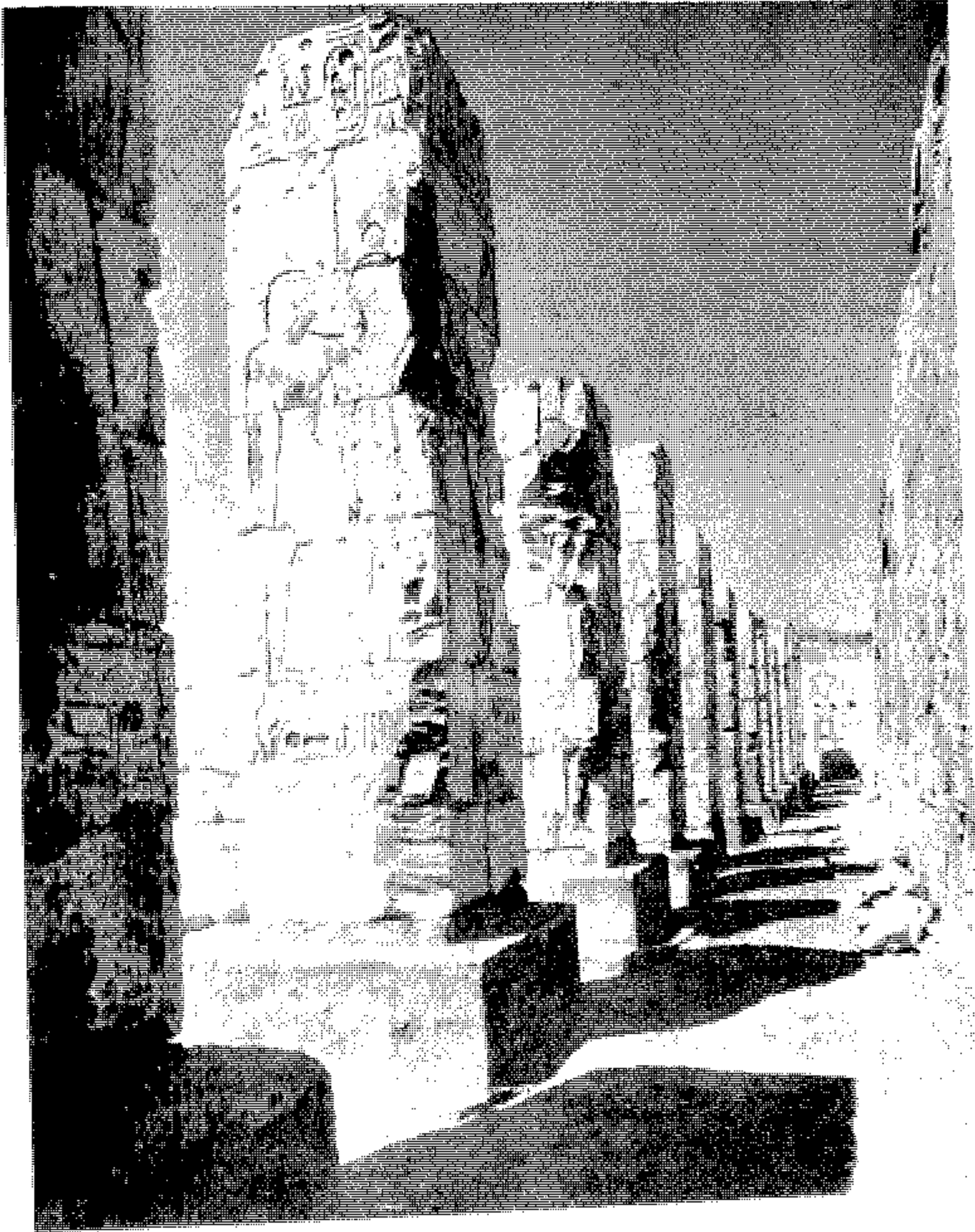

١٤ — معبد سيتي الأول في أبيدوس

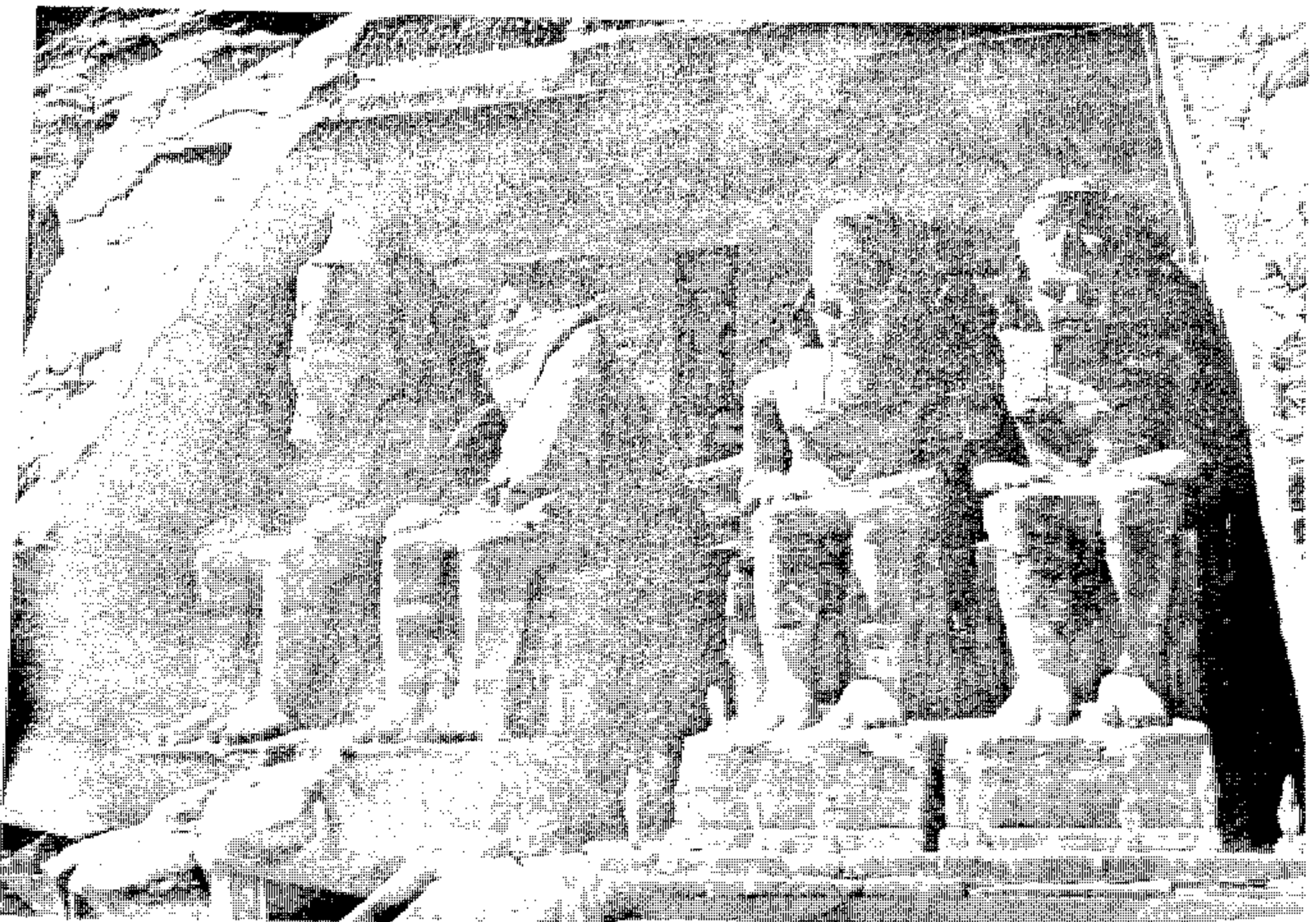

١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . الأسرة التاسعة عشرة

١٦ – المعبد المدفني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة

الفصل الثالث

الحيـــاة الروحيـــة

ان الطرائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكوّن الحصة الوحيدة التي اسهمت بهـــا حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الاكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقـــد تركت اثراً لا يمحى في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً ـ الافكار والوقائع الدينية

الديانة : السومريون والساميون

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندمـا يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنـــا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزماً بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن. ولكن بقي التقليد اميناً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمناً طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لمـا لها من ابهة وفضائل .

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تموز بالذات ، اي ادونيس عنـد الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبعـــة والعاصفة ، يتخذ عنـد الامم المذكورة اسم حَدَد . ولكن عبادة هذه الآلهـة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغلغل

ساميّ ، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لهـا من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبـل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميّي بلاد اكّاد واشور ، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حمورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسهـا ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهيا كل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبده للاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدى مدن بلاد الكلدان .

تكريم الموتى: عدم النظام في قبور اور

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت ، فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدوية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثـة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيـا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت ملأى بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحـة التي يتخذونها للابهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزنانير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لاظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيـا حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجهل عنه كل شيء .

ولم يعثر قط على قبور كقبور اور تخبرنا الحقيقة — على قلة النقوش التي وجدت فيها — مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشيـد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابليـة او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيـد مقارب ينبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقـام في زمن الملوك الفزّ (او السيت *Scythes*) . ولكن نسبة للبعـد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته عـلى استثارها ليستنتج وجود تأثير عرقي او غيره .

الافكار المتداولة بخصوص الموت

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ، فلا يمثل القبر اموذجـاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على ما فيها من تكتم، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت إلها كما الحالة في مصر . وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجيـة آلهة . وفي الوقت الذي تتقلص فيه الحياة يغادر الجسدَ ظل او روح . وان لم يُعدّ لهـذا الروح رمس ، وبصورة ثانوية مواد غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير ويهيم دون راحـة . لذا فان مصالح الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى ولو كان بالتبني : وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التحتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية، وعن شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكابر العظماء انفسهم . ويطابق هذا الوصف الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغميش، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تبيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعـة . ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد رفع ذووهم رأسهم قليلا وارتاحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشربون « ماء قراحاً » . ويقتات العـدد الاكبر من الاموات ، حتى وان اعتنى بهم الاحياء ، من الغبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغميش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلا : « ايها الميت لن تجد الحياة التي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقـد احتفظوا بها بين يدهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبتة الصبي الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي يعود شاباً » والتي تكون مادة لمنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً افعى مثبتة بصورة قاطعـة مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير الحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريـين . واذ لا ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحيـاة الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى سروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد لا في اوروك ولا رسا كما عند الاشوريين والبابليين، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحيـاة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بافعال البر، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن ترديد هذا الدعاء : « اني ارهب الوهيتك ، فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ، ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

خوف وتقوى

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق الحصر تتبلور من خلالها نفس العاطفة. ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى، بل قد يستميح لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي خطإ ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل مـــا كان يمكن ان يصيبه وقد نجا منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حدبهم الاصيل نحو الانسان ، عرضـــة لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابهـــا . واذ يعسر على المؤمن التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثامـاً محددة المعالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ، نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادىء المعنوية. وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها، فهناك آلهة سرية يجهل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضابها وعن غير قصـــد . وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدإ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله ! وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

الآلهة الكبرى

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانـــة بلاد الرافدين الذي يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط اهواؤهـــا على الانسان الاعزل . وفعلا فسيمثل دوماً في زون (بانتيون) كثير التغيير آلهة الرعد والزوبعة والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى الموت لتعرف من بعد قيامة مجيدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويل الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا من ثم احياء مراحله، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنـــا التجارب اليومية والسريعة معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض ومـاء وعالم

سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الاخيرة بالاضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الاكثر عظمة : سن الاله ـ القمر ، شمش الاله ـ الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانهـا ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء ».

الصلة الشخصية بين الاله والفرد

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الهاً ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منهما رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه » او اسم هذا الاله او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصتي » « ... خلقه » او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملاك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطورته . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الاله بدعائه : « ليقف الهي عن يميني ! ولتنتصب إلهتي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! »

ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته كمخلوق اجتماعي .

الآلهة والمزايا الانسانية
Anthropomorphisme

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان، كأنه قاعدة مطلقة . ولا نجد قط اي اثر لمبدإ التعاويذ (*Fétichisme*) . وقد نقي وتطور تطوراً عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال (*Animisme*) . وقد نلاقي بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوتمية *Totémisme* (قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركا الشمالية ، ويؤكد بان جسد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها . وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادة الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالا : فلا حيوانات مؤلهة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : فنرى إشتار ومعها اسد تجره او تعلوه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الاله او حل محله ، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهراً انسانياً بحتاً ، واعتبرتهم من ثم الميثولوجية مساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، مـا عدا الموت ، فاسندت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن اسفـارهم ومغامراتهم ، ونظمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والبنات : ومن البديهي ايضاً ان نجـد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقاً للمكان وخاصة حسب الزمان ، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل عالماً تفسيرها. وتُعرف إشتار بانها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لنـا كانها ابنة آنو التي تصبح زوجة له. وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغييرات الجمة التي تطرأ على علم انساب كثير التزحزج . ويتشاجر الآلهة ويتحاربون، وهم يتبادلون الرأي في اجتماعاتهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا لضغط الآخرين ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكوا بكاء مريراً .

الآلهة والدول

يستطيع الانسان ان يفسر مـــا يتحدى التفسير لاول وهلة . فان التغييرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي .

ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له ، كما تتحد معه او معهـا شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحتفظ المدينة له — او لها — بافخر هداياها، عربون عبادتها ، وتثق به — او بها — لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كانها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة ، او اقله اوحت له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور، ونرغال معبود كوتا؛ وسن سيد أور، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيبار الاكادية.

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة . ولكن حتى في هـذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصـة ، كعندما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزهـا عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهـذا الاسم كاشتار نينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي. وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بانه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بانه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء بان والد ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هـذا النزوح او ايجاد مراكز جديدة لا يتمان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير ؛ فاشتار التي عُرفت في بلاد بابل بانها إلهـــة الحب اساساً ، غدت في بـلاد أشور ربة الحرب . ولكن وان مالت تارة لهذه الجهـة وطوراً لتلك الناحيـة فقد عنت دومـاً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعب او بالاحرى مملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي اصبحت مركزاً سياسياً اكثر اهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، اصبح الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غـدا اله الدولة الاشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغريبة المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العفوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبديها العاهل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للاله اشور ، واعتبروه حامي سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هـذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل، وقد اصبح معبود الامبراطورية ايام حمورابي، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وترافق هذه التغييرات السياسية تقلبـــات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجيـة وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هـذا الاله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمعامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آنو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى اصبح اسمهـا مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهـد الحورابي تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » « الملك على العالم باسره » . فغدا بل *Bêl* « السيد » . وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسمـاء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لابيه « إيا » اله اريدو . ولكن في وقت لاحق، واستناداً الى نص هـذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

الهيكل

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلت عنها او خضعت لآلهة اخرى، فلا يعني هذا الامر بانها تتهاون في جهودها للابقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازب لا تستميح لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الاله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الهيكل . والهيا كل كلهـا دون استثناء اسم يبتدىء في اللغة السومرية بحرف (اي *E*) وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي « البيت » . ففي بابل يملك الاله مردوك الـ « اي – ساغ – يل *E-Sag-il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي » الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى اي ـ تيمين ـ أن ـ كي *E - Temen - an - ki* اي« بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرّس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلـك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعليــة وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يتمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالمخازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنائن والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتبة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

العبادة ورجال الكهنوت

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقدمة المآكل والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهي وسط الاراهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يوميـــاً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يحب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنــة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وتموراً وأثمـــار عنب وتيناً ، وعسلاً ، وماء ، وجعة ، وخمراً وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيهـــا الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمـــل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أدِّ كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهال والصـــلاة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك... إذ ان الذبيحة تزيد في الحيـــاة والصلاة تطهر من الاثم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهنـــاك الرقاة والمتنحبون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفـة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتميم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بـــين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ رحتى هذه الصلاة أفما كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضللنا الوثائق التي نعتمد عليها والتي لا تمت جميعها تقريباً إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمدنا عليها ، بانه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهيا كل التي كانت توصد دوماً في وجههم . فكلمة « الداخل » – الى الهيكل – كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبيحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

السحر

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراجعة رجال الكهنوت لقاء أجر محدد . ووضعت الهيا كل سحرتها وعرافيها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس ومخالطات دسة ، وشياطين ينشرون الاذى – « السبعة » « مجموعات السبعة » – وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون بالف مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلاً من اشكالها . واتقاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيب والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهيا كل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضح بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالذات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يجرون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس ، المطهّر الآلهة » الذي يمسح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

العرافة

لا تقل العرافة شأناً واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصبون ايضاً في هذا المجال الى التأكد من ان الظروف ستكون سعداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر مقاومة او يستجدي عونـاً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمـة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقـة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تافهاً .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتغدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل – وقد ارسلتها الآلهة دون شك – بمثابـة انذار او نصح او أمر. ويراقبون حالات وحركات المعنيين والاشخاص الثالثيين والحيوانات ، فزجر الطير وتموج الماء واللهيب يعطيان افادات لها مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فحصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة – اعني فحص الكبد – رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهـاز بهذه الطريقة لمعرفته معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثروا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

علم التنجيم

ان اعتبـار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، وتفوق العالم الفلكي وآلهـة السماء الذي اقرته الشعوب منذ اقـدم العصور ، شجعا على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبىء عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يخبىء تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهـد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع. ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والاوبئـة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الآلهة او غضبهـا ، وعن المعارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشفه كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كمفسر لا تفوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بامكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانه يملك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدوّن علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهيا كل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابحاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السماوية مواد لا تحصى ، تحرّر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاوليّ .

معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستدية

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت هيا كل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلى ، يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ، ارادة ملحة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لاحياء اشكال الحياة الدينية الاكثر قدماً مع معارضة كل تحوير قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛ وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية — وتدل على ملاحظة فلكية — الى القرن السابع ق.م . اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالا طبيعياً . وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة الخوف الذي اوحت اليهم به والذي كان ينسع بصورة اللزومية من فكرة العالم الالهي الذي صورته لهم . وبقيت المبادىء الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحاً للجميع ، كما اضعفها الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب الايجابي الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمن طويل كانت حضارات عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولا .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ، إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقي — وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة — اتساعاً زاهراً في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومة — ولم يكن لهم دون شك من الصفة الكلدانية إلا الاسم وممارسة بعض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة — منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات الدقيقة التي جُمعت دون ملل في هيا كل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي تمت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قـوة فاعلية مستديمة .

ثانياً – الاكتشافات الفكرية

الوثائق

احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصـة بحضارة بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيهـا هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجماهير ، صفتهم كموظفين او خدمة عند الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية الاهمية مرّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مها تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ، فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسمارية

ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهـذا ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألمحنا اليهـا اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين النهرين، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسهم استعمال الخزف كادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات ضمت بعضها الى بعض عـلى الهوى ودون نظام . وقد نحدد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيهـا بعض العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركبـاً يعلوه شراع ، او برجاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مسماراً ذا رأس عريض ، كمسمار البيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة بواسطة قصبة حدد رأسها بشكل منحن او مثلث الزوايا يغرزها في البدء غرزاً قوياً في الخزف ثم يسحبها مخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا. وتكوّن هذه المسامير « الجوانب » العلامات للكتابة المسمارية . وقد تكون أفقيـة او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم جداً ، تتشابك معاً عندما تعود الى جمع واحد وقد رسمت اولاً على الخزف ممـا يسهل تفسير الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمن طويل سعوا لحفر العلامـات المسمارية على المعدن او الحجر ، فغدا من ثم ممكناً الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الخزف لسهولة الحفر عليه وكـــثرة وجوده . وكان يكفي ان يبقي الكاتب هذه المادة الخزفية رطبة قليلا ولدنة . وحفـــظ تجفيف صفائح الخزف في الشمس او شيئها الوثائق المكتوبة من اي تحريف اوتزوير . وغالباً ما اعطوا هـــذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وصعوبة الكتابة المسمارية متأتية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف. ونتجت هذه الصعوبة ايضاً من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع تارة فكرة وطوراً مقطعاً صوتياً ، كما قد يدل ايضاً على صفة، ويختلف معناه ان وضع قبل جمع آخر او بعده .

اللغتان السومرية والاكادية

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغـــات . ويشعر المرء بحراجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين، أي بعد التغاضي عن الاقطـــار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز ـ كي » في آسية الصغرى.

لقد حدد السومريون معـــالم الكتابة المسمارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتـــاً طويلا تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغـــة ميتة ، مهما كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتهـــا وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تغلبت لغة سامية الاصل ، تمتـــاز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغـــة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلا من أشكالها . ولكن منذ البـــدء تبنّى الكتاب الاكاديون جموع علامـــات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة مـــا فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوهـــا القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمـــع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب عـــلى كتبة المستقبل . وكان من ثم لزامـــاً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تدلهم عـــلى المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليهـــا اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريباً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على اقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكماً فيما يختص باللغة المحكية .

اللغة الآرامية

تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجاح الهائل الذي لاقته في الألف الاول قبل المسيح لغة اخرى : اللغةالآرامية .

وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً .. ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدّت والحالة هذه شبه لغة « عمومية » اخضعت لسلطانها رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الارامية توسع اللغة الارامية ، واتخذت عن الفينيقيين أبجدية ابسط بكثير من الابجدية المسمارية ، وكتبت بالحبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الارامية للوثيقة التي سجلت بكاملها بالكتابة المسمارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة على الرق » ، اعني للكتابة باللغة الارامية ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللغة الاكادية . وغدت الارامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لغة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين المصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

المؤلفات الادبية

قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس نصوصاً مختلفة المواضيع .

فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات المُلك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نفحة أدبية . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد ما بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فطة. ويحدد تغلتفلاسر الاول نفسه قائلاً : « نهار مشع يبهر سناه المناطق الاربع ، شعلة وهاجـة تهيمن على البلد العدو كمطر الزوبعة ». وهوذا اشوربانيبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوره وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعتُ حداً في ارياضها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الغبطة ، وتركتها مسرحاً لحمار الوحش والايّل وجميع اصناف الحيوانات البرية ». ولا تنقص هذه الامثلة الدالة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاوير بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنح غالباً نحو السر . وباكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حمورابي ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتبة احيالاً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسخ هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

الاناشيد الميثولوجية الكبرى

سنتوقف هنا على نشيدين من هذه الاناشيد ، وهما مشهوران بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « اوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يخبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاولي . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وعدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لها خادماً . ومن هذه الاوليات ولدت الآلهة ، زوجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم – وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية – وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك وملكها ، وهو انسان حقيقي ولكن ألّهته الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن فتوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قد مات . ويكفي هذا المختصر « المفيد » ليوحي لنا بالصدى الذي لاقته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العبث دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الاوديسه *Odyssée* او من اسطورة هرقل .

المكاتب

منذ عهد حمورابي انشأت بعض الهيا كل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب مبدإ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان ايّاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مثابرة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة ». وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يختتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى ممثله في بورسيبا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليز ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبدونه لكل عمل حققه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثراً مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالخيرات المادية فهي تغني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يصبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

العلوم : الطب وعلم الفلك

رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان لم تتعد هذه وتلك المهد فانها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله. لذا لم يلبس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية البحث عن هذه المواد واستعمالها .

وساقت مراقبة طوالع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمت ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتّبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال. ولكن غدا لزاماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة. واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م. عرفوا بأن عدد ايام مئتين وخمسة وثلاثين شهراً قمرياً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً. وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمريةبعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً. ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبـــدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثنـــاء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافـــة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور بعد تسعة عشر عامـــاً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علمـاء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين – وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين

فرض استعمال نتائج عـــلم الفلك هذا معلومات رياضية جمـة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفّق معه فيما بعد نظام عشريّ . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقـة لا مثيل لها في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .

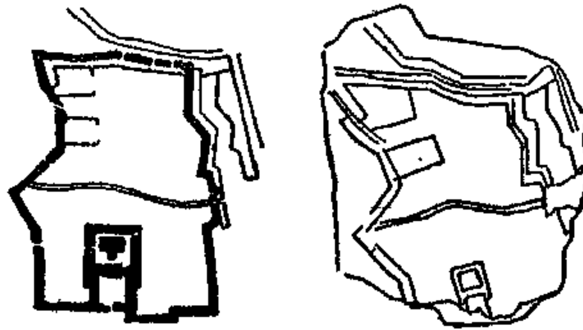

الشكل ١١ ـ رسم نيبور
١ ـ على لوحة مسمارية ؛ ٢ ـ حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيـــه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري – وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحيـــاة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول – ومن تربيع احداها كوّنوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معيّنة . وكان هناك نماذج من اعمـال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثـــة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

علوم الطبيعة

قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمنازل والقنوات وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسومهم. ووصلت الينا خريطة عن العالم، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين في وسط الارض. ويمتد حواليها المحيط او « النهر المر »، وعلى مسافة ابعد تنبسط اراض اخرى، ارض الشمال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على شيء كثير . ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة .

ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدإ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو بانه اعتمد على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او البرد . ولكن هناك جهد واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلى ، والتي يمكن استعمالها كتوابل الخ .

العلم والسحر في الفنون

ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء اولى خطواتها .

وكان الحديد اولا نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة الذي يمت اصلا الى النيازك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلي ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه . ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن. واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار الشرق ، الشعوب التي بدأت تفد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فغدا استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد أراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعرى وثيقة مع السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ أقله مثل هذا الحذر : اذ لا يجدر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

الحقوق : العقود

هل نُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نحيد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن أي من هـــذه المجالات ، أو ضمن مجالات اخرى ايضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح، مهما توغلنا في القِدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هـــذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف الميادين ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتعثر هذه العقود بنظام مفرط من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد الواضح للفرقاء وللموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي اجراؤه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

القوانين : قانون حمورابي

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقعاً في النفس ايضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددهـا : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنها بيلالاما ، احـد ملوك اشنونا ؛ كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور ــ نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأتٍ جزئياً عن المسلة العظمى التي عرّفتنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب افحوالي سنة ١١٧٥ ق.م. ساقها شوتروك ناخونته ملك سوزه، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى العجب ايضاً هذه المسلة بحد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطة الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٫٢٥ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع المتعبد امام شمش ، اله الشمس والعدالة ايضاً ، تدلنـا عليه شرارات تقدح من كتفيه . وتغطي كامل وجه النصب رموز مسمارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على بعضها بالمطرقة، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويعد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزه ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الادنى. ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثر من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حمورابي .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابوليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطإ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن« محاكات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حمورابي ، « ملك الحق الذي وهبه شمش العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بهـا . وان نحن امينا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقـة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحظنا ترتيباً نسبياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراصة تسيغ لنـا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلمس دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبيت استمرار الاسرة بواسطة الولد، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الخ، ولكن نلحظ ايضاً امتزاج مبادىء تختلف لا بل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بَواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الضحية الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجـل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث «كيل» فضة [1] الى من دونه رتبة، واحدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هـذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لا بـل يلجأون في بعض الحـالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله ـ النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او الامرأة المتهمة بالزنى . ونلمس بكل سهولة من خلال هـذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية — وليس قوانين — لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي: وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذاك التاريخ في وسط الامبراطورية، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ ـ يعادل الكيل ٥٠٠ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد يطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحمورابي لا يزال حياً ؟ اذ نرى اكثر من لوحة ، فيما يختص بالعقود ، لا تتقيد بنصوص هـــذا القانون ، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قـــد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية .

وتُظهر لنا عوامل مماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى ، التي يرتقي بعض منهـــا الى زمن اشد قدماً . وتعبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي . وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا ، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون .

حدود الجهد الفكري

وتفرض ملاحظة مماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما بين النهرين العقلية : فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل . لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبـــة الدقيقة ، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضمير . وهم قد صنفوها وقابلوا بعضها ببعض . ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية ، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد ، ولم يسعوا الا لمعرفـــة اسباب ما لاحظوه .

حتى ان الرياضيات نفسها ، وهي علم نظري في الدرجة الاولى ، اتخذت معهم مجرى غـير مجراها : لقد استوقفتهم المسائل الرياضية ، واشاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها . وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح ، ولكنهم لم يعللوا ذلك قط علمياً ولم يحللوه ، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجروا التجارب المتعددة . وينطبق هـذا القول على مختلف مجالات معارفهم . وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية بحتة – حتى انها لم تصبح تجريبية ، مع ان المبـدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار – ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي .

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين ؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي ، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان . لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق : وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب .

ونتج الجمود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها . وحيث ان المعرفة هي هبـــة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها ، باكراً جداً ، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية . لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمهـــا الى الغير ، ومن العبث من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها ؛ وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية ، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً ، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل .

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا الترديد المستمر، وهذا الخنوع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هـــذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفتهم مخترعين . فهم وقفوا نفسهم على جمع تراث فكري وصيانته جهد المستطاع. والجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقاً في مكتبة قصره بنينوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو حلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يعد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بحد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثالاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث ان ما نقله وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماض سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بـــل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الفصل الرابع

الآثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد بإن فن بلاد الرافدين قد ساده ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجح الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للمبدإ القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجة الاولى ان يستجدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبده لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخر اي فن مستقل — حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لاثاثها ، الذي هو اثاث ارضي ولا تهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبة باكراً جداً — فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشييدها لحمى سكانها وحراستهم ومجدهم وسرورهم .

المدن والحصون

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يجيزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقاض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثنائها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب همهم الرئيسي بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحوطوا بالأسوار قصور ملوكهم . وورث عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمـــال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، اعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة تتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الأشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوهـا وأقاموا فيها الحاميات ، كـتل برسيب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف الفرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمـال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارصفة من الحجر والآجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأهـــا المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخـــل والخارج يبلغ ارتفاعهـا نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً، ابراج ناتئة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر الخ .

ويزداد التقدم وضوحاً عندمـــا ينشيء الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثـل على ذلك في قصر شيده سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور – شرّوكين اي« حائط سرجون ».وقد حلّ هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافـاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريبـــاً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشمخ على اساس من الحجر حائط من اللبْن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً، ونجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من المرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومهما بدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذنصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريبـاً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة عـلى هذا كان يحدد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليهـا بأبواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحيـــة شيدت البنايات العظيمة كالهياكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت بحد ذاتها قلاعـاً تستطيـع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ اهملت دور ـ شروكين ، مما يفسر لنـــا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمتّ الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابليون على اشور ونينوى ودمروهما وجعلوهما طعمة للنيران . ووقعت بابل بدورهـا في قبضة الغازي الفارسي ، وتقارن اسطورة بلشاصر « مَنا تِقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سرداناپال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حـد سيطرت سطوة الامبراطورة الاشوريين على المخيلة . وسيقتبس فن اقامة الحصون عند اليونان الكثير من مثيله الذي ازدهر في حوضي دجلة والفرات .

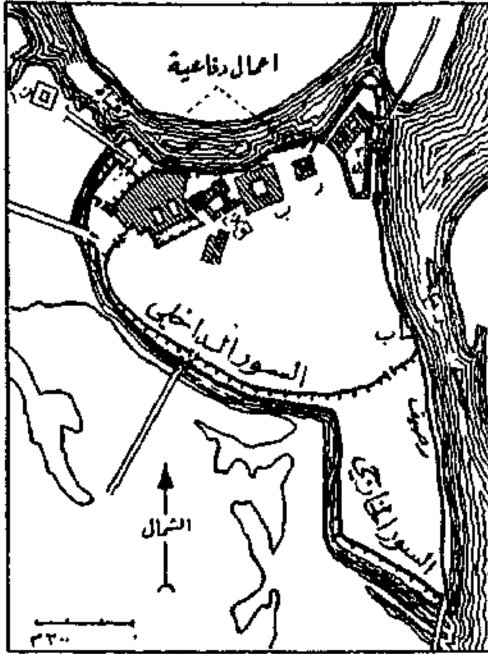

الشكل ١٢ ـ مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح
ب ، قصر ؛ ت ا ، بيت اكيتو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله اشور الريفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل ويملك احدها زقوراتين ؛ ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ، الزقورات الكبرى كرست في اول الامر لأنيل ثم لأشور .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على فن تشييد المدن وقد فرض السيد رسماً منسقاً للمدن التي شيدهـا أو جددها ، اذ ان فن بناء المربعات الهندسي هو من وضع بلاد ما بين النهرين الشرقية : ولم يجـدد هيبوداموس رجـل ميله *Milet* ، عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في القرن الخامس ، الا في نقل هذا الفن للمرة الاولى الى اوروبة . وقد اعطى الاشوريون الرسم والمثال للأعمال الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير . وجلب سنحاريب الى نينـوى مياه الجبال بواسطة قناة حملهـا فوق واد « جسر من الحجـارة البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ، وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقـاً ، غالب الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهياكل . وقد بذل البناؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي فاقت دون شك عظمة وابهة كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

استعمال الخزف

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعـد على استمراره ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخم ان يعمد الى الخزف،ويصنع منه خاصة لبناً يجففها في الشمس ويكدسها اكداساً افقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى ميـــاه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضـــارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تحدرت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيد او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والا كاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجدد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً: لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيد الملوك العظماء على اقل تقدير قصرهم وهيا كل عدة ، هـــذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور – شرّوكين .

النتائج

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة حتى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات.وكان على سطحها المنحني، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الآجر المشوي،ان يوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم.ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول إن سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحـة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولا يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبنى سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجـه المرء صعداً من الاساس الى القمة . وانعدمت النوافذ تقريباً ، الا – لربما – عنـــد السقف اذ ارادوا تقليل، جهد المستطاع، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة.ووجب على الابواب،وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكان لزاماً ايضاً ان تنفتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من المرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة — وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هـــذه المغامرة ، حتى في الزقّورات — ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفـل ، حفرٌ على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكراً جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذاك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحـــة بمربعات الفسيفساء او الآجر المشوي المطلي بالمينا بشكل عادي او نافر ؛ وحاولوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باسنادهم اليهـــا نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت. واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيّم داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلا ؛ والحق يقال إن هذه العتمة اللطيفة التي تدعمها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

السقف ودعمه

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في ايجـــاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي كبير أهمية : وحالت كميـــة من الزفت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للمباني الصغيرة ، كالبيوت مثلاً ، نظـــام القبب . وعرفوا ايضاً نظـــام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المبـــاني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شهرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، ممـا اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الآجر لاقامـــة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقـــة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الآجر المشوي استحـال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحت قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تفوقُ قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكـــل

ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحـد تماثيل الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيـط بالهيكل الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينـــا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للاشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت العبادة بالمعنى الحصري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة اخرى استضافتها الإلهـــة الوحيـــدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هـذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بحصر المعنى حيث لا يدخـل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تمثال الإلهة .

البرج ذو الطبقات

تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى زوايا سورها او على مقربة منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين : الزقورات (*Ziqqourat*) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومـع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عاليـــاً » – وهذا معنى كلمـة الزقورات الاصلي – تقل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هـــذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيهـا فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقيمون لها ابواباً تطـل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البنـاء الاساسي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل : فهو سبعة ، حسب احد النصوص ، لـ « اي – تيمين – أن كي *E - temen - an - ki* » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفـع بالقرب من الـ « اي – ساغ – ايل *E - sag - il* » ، اعني « البيت ذو الرأس العالي » ، او هيكل مردوك في بابل ؛ بينما اوصل هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابـة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع اخرى ، بيـنما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة عـلى بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليـــلا عن التسعين متراً طولا وعرضاً وارتفاعاً الـ « اي – تيمين – أن – كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرساباد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى ؛ وهي لا تتعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، ويحول عدد السطوح الذي يتبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ، وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف. وذكر هيرودوتس بانه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية ، وبجانبه طاولة من الذهب » . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء ». ويزعم سترابون بان سكان بابل اعتبروا الاي — تيمين — أن — كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي بانهم استعملوا الزقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائز اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن بانتفاء التفسير الاكيد فلا يغربن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثر الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تعم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوحدتها الاهرام الكبرى او تماثيل ممنون الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيا اليها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده جبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحؤول دون تشتتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد السماء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نابو في بورسيبا : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

الملوك والمباني الدينية

ساعد الملوك بيدهم لتشييد الهياكل والابراج ذوات الطبقات . وقد وجدوا نصاً مسمارياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني: «كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى مماثلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والحبل والمنكاش والمَرّ ، واوعزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رأسهم قفة مملوءة آجراً . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكّر الاجيال القادمة بعزمهم الخيّر. وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت وثائق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم باشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الآلهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقدمة

الذبائح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستهـــا ، كقصور اشنونا في بـلاد أكـّاد التي ترتقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر سرجون الثاني، الذي شُيّد في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب مـن الزقورات ؛ وقد اعتقد المنقبون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكلاً آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هـذه بمباشرة الآلهة المباشرة .

القصر

ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافــدين ، اكتشاف ماري ، ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة الكتبة، والمحالب ، والمجابن ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يغتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرن تقريباً . وبعد ان هُجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهــد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينــة في الشمال الغربي . وبسبب نتوئه نحو الخارج غدا كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينــة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

واذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتــد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ؛ وتعد هذه الباحـة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم؛ ومن حواليها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات: قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمه السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، ويبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بفية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

الجنـــائن

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البــال سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص الميـــاه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعلو القناطر .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه

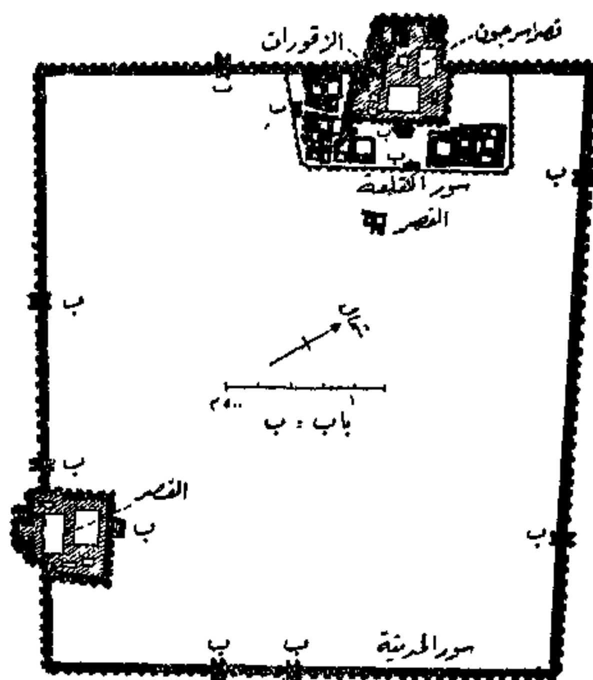

الشكل ١٣

دور شروكين (جدار سرجون) خرساباد اليوم
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احـــلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباسب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة. وكان يلزمهم حدائق بجوار الهيا كل ليُسكنوا الآلهة في« بيت يفرح القلب »؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار عـــلى طبقات الزقورات ؛ وعـلى كل حال كان لمابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليهـــا الاله في بعض المواسم . وغـدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين عـلى اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك نبوخذنصر اعدها ارضاء لزوجه التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميداي حيث كانت قد ترعرعت .

الاوصاف العمومية لفن النقش

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لها الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدها غنى وجمالا. وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن للزخرفة فقط وقد – والتقدير هذا في غاية الدقة – لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك النزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص ما ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع – ولا شك في مكان مقدس – حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة والعبادة والتقدمة ، والمعركة المظفرة او القنص الموفق احياء ذكرى هذه الافعال او تأمين استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كان نتيجة الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الأدعية والصلوات ، لا بل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيّق مدى تطبيقها التفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام المومياء ، كما لم يقدم جدرانه ليصوروا عليها رسوماً تحيي للميت المؤله افراح الحياة الارضية والثمار الحتمية للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهة في الهياكل ؛ واستمرت ايضاً النقوش التي غدا وجودها في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان خف عددها .

مقوماته

لا يعجبن أحد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهده القديم ، لشروط معينة .

ولم يهتم المتفنن لاظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل الامرأة الا نادراً ، ولم يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الثياب التي سعوا جهدهم لاظهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلهموا شكلها دون شك من جلد الخروف وجزته ؛ ثم جبة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى الارض ، ولكن اعدت فيها ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان تتحركا وقد لصقتا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ اتحدت اتحاداً كلياً بكتلة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح اكثر فأكثر باستعمالهم حواجب اصطناعية من الزفت وعيوناً من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يبتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً اقوى واكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتماثيل : فجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولا وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها – وهي التي تثير اشد استغراب – يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحوا عليه لاظهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبرزها على شكل يوحي بفكرة العمق . وعندما نقش المتفننُ الانسان خضع لمبادىء تقرب من مبادىء النقش المصري . ولم يرَ الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللاشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين واللحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا ايضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعالي صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخّوا الابقاء على إظهار الدراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً ايضاً الى هذا المبدإ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغميش بشكل مقابل .

شروطه التقنية

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على اشغال عظيمة الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتُعَدّ هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المجنحة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذ وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١،٥٨م عن طول قامة الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبناها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولية . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن ُعدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلاً تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج دا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا تجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنا ذلك . ولكن مقدرة المتفنن التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجه . ولكن بأكراً جداً ينتصر النقاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى ما يجب عليه ان يراه ويعبر عنه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه ومخيلته .

فن صنع التماثيل

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقد عرفت الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمة عدة : وهي لم تكتسبها لكمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تمثال عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامها تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه — والتمثال فارغ الجوف — على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهية والخصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الحارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري — وهو يحنو بهدوء — يكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبر نظراته عن الرصانة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقار الوحشيه والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقراً لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أما تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقيا على الصدر ، أو لاحداهما ان تستقر امام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة انها دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا انيؤمنوا حضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاوامرها . وكيلا يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً ما يحفرونه على احد اجزاء التمثال الملسة .

قيم ماري ، غوديا

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولا « قيّم » قصر ماري، ابيل – إيل . وهو منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلاّل ولا يرتدي الا قميصاً من صوف . وتلتقي يداه امام وسطه العاري . ولم يمس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرضها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينا حلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعدهما على ذلك شفتان يعلوهما شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة، التي عثر عليها في تلّو ، حيث ارتفعت لاغاش القديمة . ونعرف اكثر من ثلاثين تمثالاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تمثالاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها منقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقشت كل هذه التماثيل في حجر صلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هـذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال «الضخم»، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١،٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى انموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة .. وتكشف لنـا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النفسانية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دومـاً يديه، ان ظهر واقفاً أو جالساً، حاسر الرأس او معتمراً نوعاً من العمامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيّها . ولكن في كل النماذج وتحت قطعة القماش السميكة ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنـا البساطة بصورة مؤثرة ، مهما تجسمت وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي وينتظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

النقش البارز *Bas - relief*

لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجـة كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غدا لفن النقش البارز عند الملوك الاشوريين حظوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكراً

جـــداً على لوائح مصغرة ،او حصى (الكودورّوس *Koudourrous*) ، او اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جواب الآجر ، خاصـــة جوانب قصورهم . وتفوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرحون الثاني في خرساباد ستــة آلاف متر مربع .

ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثـل هناك خاصة الارواح الخيّرة التي يحول وجودهـا دون دخول الارواح الشريرة . وغـدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخياليةمغزى رمزي . ونُقش هناك اغلب الاحيان نوعان من النقوش . الاول البطل غيلغميش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينا تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام؛والثاني الثور المجنح ذو الرأسالبشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقـلة وسوء الاضاءة . وهي تمثـل ارواحاً مجنحة خياليـة برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الحصب. ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيطهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش قنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يمسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقـد يمثلون الملك ايضـاً وهو واقف على عربتــه يحارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعـد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهــد التقتيل والموتى وجموع الاسرى والامم المسبيــة او دافعي الجزية الذين غلبــوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحيالتعبيري،لا بل خففت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية،انلمنقلايضاً الواقع الطبيعيالقوي.ولكن استمرتتلكالتقاليد علىشدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقــة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعــداء والمواطنين والذين قهروهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتئة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمهـا الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته، باي تحفظ . ولا تبلــغ هذه الاعمال من حيث الفن درجــة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحيــاة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينـة ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القريحة ان تكشف عن نفسها من خلال وضعة فنية : فيطلق الخيّال نداء مستعملا يده كبوق ، او في المحيم تعتني الوالدة بابنهـا او يحيي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حـــداً فائقاً بعض المرار ايضاً، خاصة في درس واظهار الحيوانات . وفي هذا المجـــال يحوي المتحف البريطاني روائع راهيـــة صادرة عـن قصر اشوربانيبال في نينوى ، منهـا اللبوءة المجروحـة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهام بينـــا ينفجر من شدقها صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا الانموذج اروع واشهر وحدات هـذه المجموعة التي لن تُنسى .

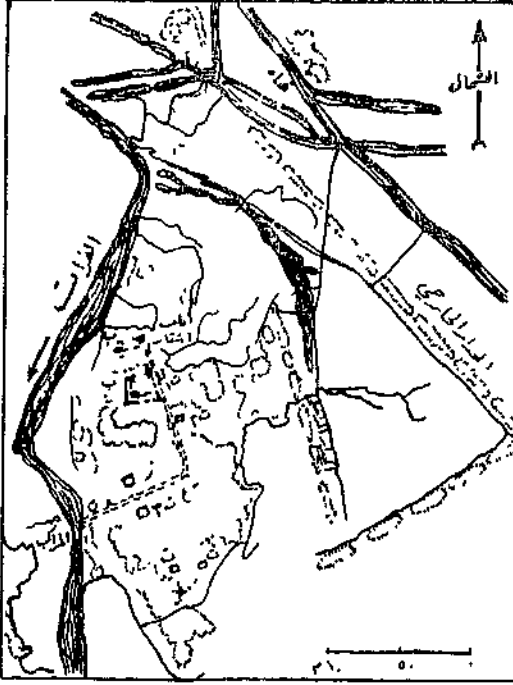

الشكل ١٤ ـ بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار الخارجي وهو قصر نبوخذنصر الصيفي ، ث ، الهيكل ؛ ت ٢ ، هيكل إشتار ؛ ت ٣ ، هيكل مردوك زقورات مردوك .

التزيين المرسوم والمزخرف بالمينا

لم يكن النقش البـــارز إلا وسيلة للتزيين، من ضمن وسائل اخرى متعددة : إذ كان من المناسب ان لا تطغى الوتيرة الواحدة عـــلى مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ نماذجه جيداً لسرعة زواله . واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كالا تقنيـاً . لذا وجب انتظـــار اعمال التنقيب في ماري ، عشيـة الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقدمة الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجـه . وهكذا نجد مساحات واسعـة باللون الاصفر ، والازرق الخفيف ، والاحمر والابيض الـح ،عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تزيين الآجر بالمينـا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو تزويق باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولوّن الجزء السفلي بالازرق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهيـة تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابك فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرّن ،يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً ،تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافراً على الخط العمودي.وقدروا ماله قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تنيناً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل فني يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقـة . وتشابكت في هذا المجـال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المغالى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا.

فن النقش على الحجر

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك لكثرة ما تركه من آثار، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ،إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محلّ توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم لحامله بمثابة تعويذة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غدا طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشتد او تقل وضوحاً .

وحفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الخزف حيث يطبع . ولهـذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم الخ، فحصلوا على اختام مسطحة ومخروطية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقباً على خط محورهـا للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالبـاً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجـال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفننون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفـاً في الخلق المتزن ، ومهـارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثر الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة ممـــا دعا الى العمل بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنيـــة ، والمعادن ، والثياب والاثاث الخ ، ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا لمامـــاً على ذكرها – هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامـــل المصادفة وامكانية حفظ الاشياء .

الخـــاتـمة

اننا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث مـــا حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامـــة وللتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والمرح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القـدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادىء يذوب الفرد في المجموعة التي تذيقه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هـــذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهاً مختلفاً ، لان عبـــادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة. لذا فان لانصهار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر، وقعاً اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفـــظ بقسط قليل بمبدإ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللاوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلـــك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هـــذا المنوال لاعتقاده المتين بحقارة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفرده . وهذا مـــا حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلمس عندهم الجد والدقة والمثابرة على العمل .. وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض العـلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلـــك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطإ .

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الادنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يجتازونها لم يغرهم شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمة . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضارتيْ مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات مماثلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدتها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكمالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا نزال الى يومنا هذا نستكشف جوهرها جاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شحذت همتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتحافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية »، ولكن شوائبها تقلّل من مدى اهميتها الجوهري

والنسبي . ومع هذا تنفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتهـــا بتلك السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انهـــا الحضارة الايرانية او بالاحرى الفارسية .

الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الأسيانية » . وتدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الامم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو — الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطد فيهم أثر سكان بلاد الرافدين والهندو — الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريباً ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانّي الحورية.

الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لانّها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايجي من الانجاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز — كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل — إرماك ، الذي عرفه اليونان باسم «هاليس». ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب — الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الرافدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطىء البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريّي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقرضوا تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو أسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسمارية للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جماعات من التجار الاشوريين في بلاد كبادوشية . ولكن في هـــذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثيّي المناطق الشرقية وحوريي المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئـــة ارستوقراطية حاكمة ، خاصة وقدجلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تفوقاً حربيـــاً لا يجادل فيه . واستساغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بـل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازنـاً للقوى مع مصر. وفي هـذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرّفت الحضارة المصرية التي كانت قبلا بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعضع واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المسماري فلا يزال العلماء يتعثرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان نأتي على ذكر حضارة اظهرت اللمحة الخاطفة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة

تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عرّافي الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائيـة المخصصة للآلهة . ولكن لم تتبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصـل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هـذا المجلس قيام ملك جديد ، ويحلف بين يديـه يمين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مماثلا . ويسعى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعـد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على يمين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلالية : وقد حصل منها مـا اضعف الدولة الحثية . وتعبر عن تفوق هذا المجلس المدني امتيازاته القضائية : إذ هو يفصـل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمـــال السخرة. ولكن عليه ان يحسب حسابا لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكاهن الاعظم ، في الاوســاط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لذريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بجزء من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديمة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها

لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بحضارات أودية دجلة والفرات .

ويُظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . ومما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحربية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «ماریاني» وتشتق هذه الكلمة من كلمة ماريا الهندو-اوروبية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعَمَلة ممتلكاتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسبيين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدإ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر لينا . ويزداد هذا الفرق ، الملموس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادىء الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعدها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتوجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع.

غدا الحثيون بناة عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارهـا ، وآثار مبان اخرى مهمة،ولكن يصعب تحديدها. ووجدوا،ايضا في المدن المقدسة آثار الهياكل. واعتمد القوم كثيرا على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الارواح الحارسة التي تحمي الابواب كما جرت العادة عند الاشوريين ، نقوشا على الصخور . وهي تبدو عظيمـة ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة او مواكب دينية . ويظهر لنا اشهرها مجموعة من اربعين ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين انثى او اكثر : وقد نظم الاشخـاص في كلا الصفين حسب الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجـال الكهنوت . ولهذه النقوش الكبرى فائدة اذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالاضافة الى الدلائل التي تحويها النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون(البانتيون)الحثي على آلهة كثيرة العدد جدا. وبعد ان يعددوا اسماء بعض الآلهة في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف»: ويذكرون هذا العدد الاجمالي دون شك للتأكد بانهم لم ينسوا اي إله. ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة. وفعلا اقتبس الحثيون آلهتهم من مختلف الجهات. ولكن لا يعود اكبر عدد من هذه الآلهـة واهمها الى اصل أسيوي ، ونحن غالباً ما نجهل اسم الاله الحثي ، ان لم نقل الحوري، هذا مع العلم بان الهندو – الاوروبيين قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ«مترا» مثلاً ، وبان الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون (بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى الامرأة الصدارة دون شك . انها الإلهة – الشمس ، وبصورة اوضح « شمس أرينّا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد اشهر معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوءة واليمامة ، ورفيقها هو اله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ، هنا او هناك اقله ، اله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز اليه الصاعقة او الفأس او الحربة او مجموعة من الاسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على اوليته إلهـة اخرى ، هي بالاساس ابنة الزوجين المذكورين اعلاه . اننا هذه المرة امام الاله الفتى الشمس الذي يظهرونه لنا دون لحية ، ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الاخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كلياً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون الذبائح – وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه – وينظمون المواكب ، كالموكب الذي يظهره النقش الذي اشير اليه اعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الالهة – الشمس . ومـا الامراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، ان يتطهر جسدياً ويقـدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما انهم يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليستدلوا من هذه الطقوس على المستقبل .

استمرار هذه الديانة والتقاليد

لا تستوجب الديانة الحثية الانتباه لكونها تمت الى اصول عده فحسب، بل ايضاً لانها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعثر عليهـــا في امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجهل اسمه الحثي ، في سورية باسم حدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله حدد ـ بعل في مدينـــة دوليخه *Doliché* (بلاد كوماجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفـــأس الإله زوس ـ دوليخانوس *Zeus Dolichènos* ليوناني العهد الهليني ، ثم الاله جوبتير دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛ وبهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتهـا الشمسية ليست إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريبـــاً ، « مروضة الحيوانات المفترسة »، خاصة الاسد. وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة. فدعتها نصوص فينيقية قديمة باسم كوبابا . وستصبح كيبيبه عند الليديين ، وسيبلة *Cybèle* عنـد اليونان . وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م. من مدينة بسّينونت في فريجيـــة ، المركز الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها الأسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديميتير اليونانية ، وذلك قبـــل ان يشعر اليونان بزمن كثير بانغراء عبادتها الأسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساووا بينها وبين إلهتهم انهيتا *Anahita* .

ووُجد الاله الابن الفتى في الديانات السامية : وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس. وبهذه الصفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م. ولكن ستعرفـــه اوروبة ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دُمج مع والدتــه - وهي حبيبته في الوقت نفسه سيبلة .

واخيراً اي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومـــة وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقـلة ولكن من معين واحد مشترك عرف، مدى اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سعى القوم ايضاً لقراءة المستقبل من خلال كبـد الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Lituus* التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية. ومن غير المشكوك فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* : وبمـا ان هؤلاء قد اتوا من آسية الصغرى نحو ايطالية ظن البعض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة.

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بان الحثيين ، وبصورة ثانوية حوريي ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينيــة . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على الاساس الأسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بــل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى امكنة اخرى على سواحــل البحر المتوسط الشرقية .

الفصل الثاني

الحضارة الليدية

دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعضع حوالي أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل مجيء جماعات هندو - اوروبية، أتت من الغرب عن طريق المضايق. وعلينا ان ننتظر قروناً عدة لنعثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها بعض الشيء.

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين.

الفريجيون

فمنذ القرن الثاني عشر حتى اواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوك الاشوريين على وجود الموشكو *Moushkou* في شرقي آسية الصغرى، وقد ناصبوهم العداء وتحاربوا مرات عدة. ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوهم الالياذة بالفريجيين. وان صدقنا الاساطير اليونانية فانهم حالفوا اهالي طروادة. وكانت ملكتهم هيكوب، امرأة بريام، فريجية. وغدا ملوكهم خلفاء غوردياس ، وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع الاسكندر العقدة «الغوردية» ، وميداس. واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانيــة من الساحل الايجي وقدم لابولون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء. ولا نستطيع تفسير هذه الوقائع إلا اذا قاربت بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط، وان هي كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية.

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل. فقد اتت زمرة من الفريجيين من بلاد تراقية: وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية؛ ولكنهم حصلوا على إرث الاسيويين والحثيين العرقي. ومن الوجهــة السياسية لم يكونوا دولة مركزية، إذ لم يكتشفوا قبوراً كبيرة، وهي قبور ملكية دون شك، في غورديون فقط، بل ايضاً في اقطار شرقية، في انقرة مثلاً: وتفسر هــذه البعثرة ضعف دورهم الحربي. وقــد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتها الالياذة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية . واظهر علم الآثار بانهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العُرَى التي تصل اجزاء الثوب والاواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالفباء ومبادىء التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريجيين إلا بشأن هيكل بستينونت من حيث امتدت عبادة سيبلة وأتّيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريجي » .

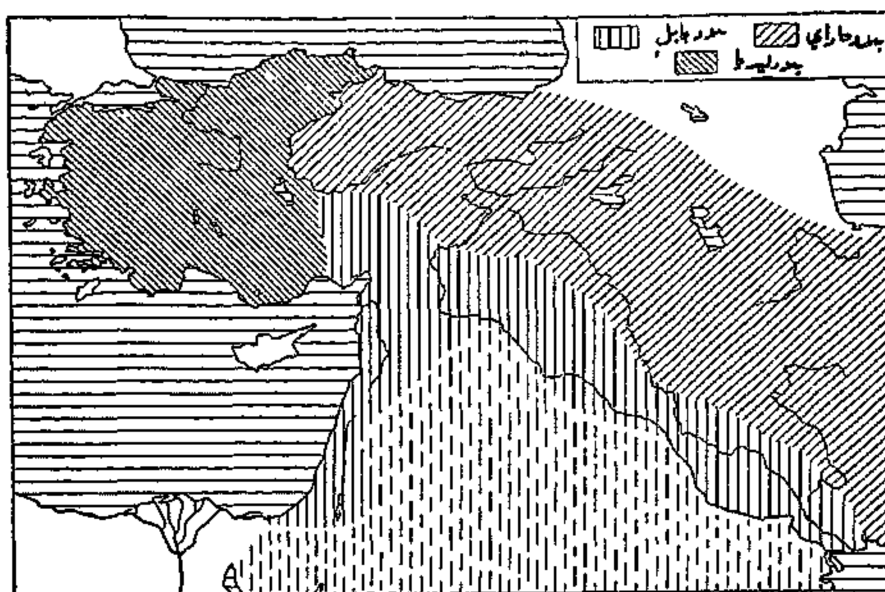

الشكل ١٥ – امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

المملكة الليدية

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .

انشقت عن الاقطار الفريجيــة المناطق التي ستصبح في غربي آسيــة الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الالياذة في هذه المنطقة الميونيين « *Maioniens* » الذين كانوا هم ايضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيجس *Gygès* في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو *Loudou* وملكهم غوغو *Gougou* . ودام حـكم السلالة الجديدة ، المدعوة سلالة مرمناد *Mermnades* ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي . وفي آخر

عهدهاسيطرت على مسافات شاسعة :فقد بسطت نفوذهاعلى آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لحمايتها ايضاً السواحل الايجية بما فيهـا المدن اليونانية . وقد احاطت – ولا تزال – شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمتـه سرديس *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهندو – اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراضٍ. وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جيجس هذا المنصب وغدا خاتمـــه الشهير الختم الملكي. ولم يأت« المرمناد »على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المرار اغنياءجداً مما ادهش الملك الفارسي أحْشَوِيروش او(سرخس *Xerxès Asrcisus*). وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جيجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنـا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مغتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويبصق في وجههم إذلالا واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بـــين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية

لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بـلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعوه على شكل وريقات من رمال الباكتول، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجـــد ايضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى،والتي ستدعى فيما بعد«الطريق الملكي»ايام الفرس.ومع هذا يؤكد هيرودوتس بان الليديين غدوا الكابلي *Kapèloi* الاولـــين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الخانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليهـا الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عمم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حقق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بلسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينما غـــدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط.

الحضارة الليدية والحضارة اليونانية

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين . احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي *Tumuli* الفريجية . وغدت سيبلة وأتّيس الإلهتين الرئيسيتين. وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميلة *Milet* « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات الليديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشييد قبر والد كريسوس. لذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حيــاة الليديين الانيقة والمخنثة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتضوع المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الا كل اللذيذ والحلويات والمربيات ، ويخترعون – لتناسي الجوع والقحط – ألعـــاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعاب الصبيانية التي ترفـــع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزقة وتعاطوا التجارة . وألفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكمان *Alcman* . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدة منافس كريسوس السيء الحظ، وهو اخ له من أبيه، كانت يونانية. وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخـذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعاوة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، واظهروا احترامـــاً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للهياكل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مــع المهندس تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب *Esope* ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم. ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترتقي الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس. وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كسنتوس *Xanthos* تاريخ بلاده باللغــة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقـــد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً خصبة للحضارة اليونانية ، وذلــك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى

وبالمقابلة فقد غرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغواهم الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجىء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فملأ النبيل إذ ذاك حذاءه وطيات قميصه وفمه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الأسيوية ، احدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعيه والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقته ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجماتهم ، وهكذا فوجىء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناءنصف قرن او اكثر .

روح السيطرة الفارسية

كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا الشعب الى الارومة الهندو – اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون *Susiens* الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المرار نصوص أشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بانه ازاء قوم من البدو السرقة والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا نزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غرباً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قمبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبة . واثر غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك – ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً – دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبة اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات

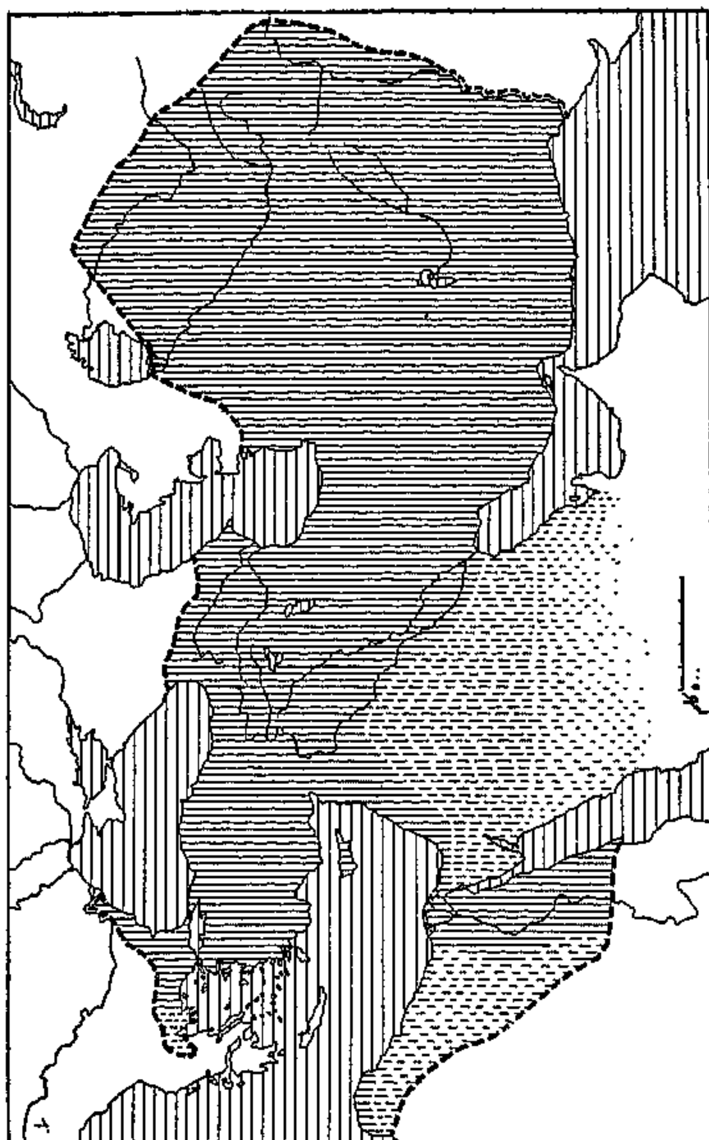

الشكل ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونهـــا ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلـك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاشوريين الى المضايق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحيـة اولى استفاد الماديون والفرس،وقد برزوا في زمن لاحق على مسرح منازعـات الشرق السياسية والحربيـة ، من تصعصع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددهم الماديون والفرس ان يوحدوا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المنوي التي غلبوها على امرها مبادىء عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل رملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجىء إلا تعبيراً عن دفقة حيـاة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين . نهضة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعد منهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المنهك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكماش الذي تلاها قـد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية الثانية — لكنه غدا اوسع مدى من اي انكماش سابق واتخذ له طابعاً جديداً ، اذ مع الاسكندر عمر العرب لاول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الشرق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكدوني مناب العاهل الاخميني ، بعد ان انتصر عليه ، وغدا هو ايضاً وريث المبادىء الملكية التي نشأت في منف وطيوة وبابل وأسور .

الروح الايرانية

« أنا أحشويروش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلاد المتعددة أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطـــار الشاسعة ، ابن داريوس الملك ، ابي اخميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على جسم موحد السطح تقريبـاً . وتحوي مجموعة هذه الالقاب اموراً عدة . ودون ان نعيـد الكرة على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعلق على العناصر الاخرى .

يشدّد الملك على وصف اصله العائلي والعرقي . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ايراني نبيل؛ ويبقى في الواقع على هذا الشرف .

وكان الآريون — وهم الهندو - اوروبيون الذين استوطنوا ايران — اقرباء الغزّ والسياريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدانوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباسب وصحارى ، ان تفقرهم . وغدت المناطق ،التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ، البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً مـــا . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئيا ولكنه يحسب واقعيا الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفا عن الاسرة الاخمينية نفسها . لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لمـــا احرزه من انتصارات ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جلى اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزه وبابل وبلاد ماداي — فاحرز تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة — ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليهـــا خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرهـا القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعضع . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانيـة بمظاهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجـال الدين فقط حيث للاله الاعظم أورموزد طباع مميّزة لا جدال فيها ، بل ايضاً — ويصعب تعليل هذه النظرية — في توزيع الامـــة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدإ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخـيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبة واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلا . وعندما يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتـــاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الاهمية العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

إرث « الشرق الكلاسيكي »

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكـــة الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنـا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن «الشرق الكلاسيكي» . ولم تفت الاسكندر هذه الحقيقة اذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في ايران ، بأنه اقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بجوار كثيرة اخرى، جعلت منها حضارة شرقية. وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء. ونسبة لما اقام المادبون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيماً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدّتها الازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش. وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان اداريا اقله، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاقِ مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ. انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والجزية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المضمار . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

النظام الملكي

الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقاسمه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسلمها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتديء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، باعادة ذكر هذا التمهين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلى ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعـل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيل والسكان » . وقد وجد هذا النص منقوشاً عـلى اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجـــه النصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة سايبس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل ـ مردوك ينتخب الملك . وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإلهة . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري ، وقد اشار اليها بشدة حمورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً : « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم ؛ لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح » . وهذا ما يتفق مـع المبادىء التي بشرت بهـــا الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثـــال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخـــر ، ومراراً الكتّاب الاولون ايضا ، بمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء ، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخيـــة . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول بانـــه مشترع عادل ونشيط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي ، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني : فالملك هو القدوة لكل محارب ، اذ قد غدا مروضاً على مختلف التمارين الجسدية . وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امهر الخيالة ورمـــاة القوس ، وفقت الصيادين ، وباستطاعتي القيام بكل شيء » . ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصلي وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادىء دقيقة جداً جميع اعمال الملك . فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه . وتخبرنا قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الخاضعون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الابهة يحميه حرس منتخب تخلد لنـــا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاغتيالات ومكايد الوزراء والخصيان . ويوجـــد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقضّ عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكان من ملوكها بالسم بينا احتاط الثالث لنفسه فسمم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة

للملك عدة عواصم، فنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنها اهملت بالواقع، وبرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس، اول ملك من الفرع الثانوي، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة: إكبتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه. وقد اهملت مصر وليديا لبعدهما. وشيد الملك في كل مكان القصور وأقام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالخضرة والقنص – وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة. وسريعاً ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدإ او نظام. ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية ولهيبة حكمها .

ويجري طبعاً كل شيء باسم الملك . وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة . ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهل ويدعوه اليونان «شيليارك *Chiliarque*» ويشتق هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي .

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية . فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع . ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم . ولكن لا يكفي تبادل الرسائل ؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية ؛ وقد دعي هؤلاء « عيون وآذان الملك » حسب استعارة تبنتها الممالك التي سبقت في الزمان .

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية : اللغة والكتابة . ولم تكتب الفارسية لغة الملوك، قبل داريوس الاول . ولهذا الهدف تبنوا العلامات المسمارية . واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلغتي بلاد أكاد وسوسه . وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسيس الدينية الذين يقيمون في الهند . ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الخزف . وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغة الارامية : وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية . وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى — وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية — وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها — ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر - الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبتهم من رعاياها الاكثر تنوراً او اطلاعاً .

، هكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بها نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالقبائل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظات . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعوها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نبيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاته الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعاهل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك واياه بجباية وادارة الاقطار التي انتصر عليها بجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم ، اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، عيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من مخاطر . واتخذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقام بجانب « المرزبان » امين سر يراسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر اوهنا هذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجنّد بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا — ونالوا مبتغاهم — باسناد وظائفهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات طويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليها ارتحششتا الثالث الا بصعوبة كلية .

اهداف الادارة

توخت هذه الادارة في الدرجة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهار جبروته .

ولهذا الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقاً وهناك حسب تقدير

تقريبي . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات اساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانة الاشد احتفاراً والمفروض عليها ابهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسمئة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الجنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ابيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالا . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس التفصيلية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المرزبانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذلك العيار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة – اي ما يعادل ٨٧،٣٦٠،٠٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة حضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الاعباء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتألفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعبئتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويغدو قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذاك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيولياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالملوك والمرازبة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان وذلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غزوة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كوّن ايضاً اليونان او بحارة شواطىء آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسعَ الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتنقل التجـــار، ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي برزت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الأسيويين الغربيين الذي كان في خدمـــة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يحاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جرأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصى كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجهـل مدى استغلالها.

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة ماليـة منظمة ومطردة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك الليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للمرازبة ان يسكوا مثلهـا باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمـل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتزقة والتجار ورحال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطـع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تفِ بالمطلوب الضروري . وفضّل ملوك الفرس تكديس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دُفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوانٍ . وهكذا بقيت وقتـاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم يُر لهـا مثيل في ذاك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برفاهية رعاياها وحمايتهم من مظالم السلطات. ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول – ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! – الى موظف نجهل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كامـلة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخضع لأوامري بحذافيرها . وبما انك تستثمر املاكي اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطىء آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزىء بتعلياتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

سأريك ، ان لم تغير سلوكك، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابولو المقدسين وامرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجميل الذي ابداه اجدادي نحو الاله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغريبة ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانـــة

عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا النهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل ـ مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرضوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لسائر معتقدات امبراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون: وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذلك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هـــؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاة او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتبالا لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكبة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تفن س هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هـذا على عناصر مختلفة لا نجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادىء في كتاب ريد افسته المقدس . وقد نعثر على بعض العناصر الهندو ـ اوروبية التي نجدها في كتاب ريغندا الهندي ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هنالك ايضاً مبادىء آرية بحتة ، اي خاصة بالايرانيين الغربيين، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادست ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوّهها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بزرادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحيـاة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ? وخاصة في اي زمن ? ان الليدي كسانتوس هو اول الكتّاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون العصريون الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره. فهي لا تقر الا باله واحد هو اورموزد، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادىء صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعهما مهادنة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير». وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح، الذي يشتمله الغموض، فكرته .

وتتغير عن هذه المبادىء ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة» ، ويتحدث داريوس الاول عن «الآلهة الاخرى الموجودة» . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة — وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها — وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس، لنعرف بالتدقيق إسميْ إلهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا. وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل حية ويكلل التاج هامه . ويشتق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السماوي «السيد الحكمة» منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادىء الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح، اقله باشعالهم شخصياً النار التي لا تنطفىء على المذابح.

وقد ابقت الديانة الشعبية، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلصق به جمهرة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والخصب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسيِّر هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تفضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني المجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقادم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة. واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة.

الحياة الفكرية

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الدينونة الاخيرة ومبدأ المثنوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الاخرى على المبادىء الادبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا نملك في هذا المضمار لإبداء الحكم إلا كتاب زندافستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم اجزاءه القديمة بالسماع ، لأنهم لم يلجأوا الى الكتابة الا في اواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس اطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا الى التعابير الطقسية . ولكن جلب الملوك الى بلاطهم أطباء يونان او مصريين . ولم تظهر ايران كمهد للعلوم او لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الايرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس لهذه الحياة . وقد اصلح التقويم البابلي مرة اخرى سنة ٣٦٧ ق.م. إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لعلماء الفلك من الكهنة متابعة ابحاثهم . واظهر بعض الايرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في اواخر ايامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية امراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

الفن

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بانه لم يحتل إلا منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد ايضاً قبوراً للافراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا نفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في اعين رعاياهم الايرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ ، الى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الاهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة الى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الاول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الانواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول اخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الاهانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سعوا قليـلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلاً كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد حمى مـا تبقى من كورش . ولكن ايام داريوس وجـــد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملـكي ، متعدد النماذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقـــة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغنـاه في هذا المجال وبغنى اختباراته. وقد قدمت المناطق المواد الاولى والعملة ورجال الفن. ولنصغ الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بهـا هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وكوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى بـه البابليون حتى بابل ، واوصله من بابل « الايونيون والكاريون » ـ وهم مسبيون ـ الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سرديس وبكتريـــه ، واللازورد والزنجفر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبة والهند ، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحاتو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمـــال الخزف بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمني الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوهـا وعملوا حسب فنونهم . واننا نجهل الشخص الذي نسّق هذه الاعمـــال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

الشكل ١٧ ـ منطقة برسبوليس

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير. انها نقوش «بهستون» الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبـــال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد أشور وبلاد ماداي . وتتغنى هـذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقـــد ألقي

أسسهم أيضاً وقيّد التسعة الآخرون ووضع الحبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظمى بعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش – اي – روستم *Naksh - i -Roustem* هي صخرية ايضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم ، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصبوا جل اعتنائهم على الخارج. وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افريزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر . ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعلوه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبانات .

والقصور هي اشد تأثيراً ايضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصراً خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزائها . وهذا ما يشرح لنا ايضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا مايعلل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات ترى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها صحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد فرّض الصخر وسويت حافاته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يخشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان.

وغدت قاعة الاستقبال ، «الأبادانة » ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقفَ هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة – ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣٫٥٠ م—ورفيعة جداً نسبة لعلوها— قطر القصر ١٫٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً — ونسقوا هذه « الغرفة ذات المئة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالابقاء على شكل العمد الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران جاثية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزه رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الآجر الناتىء ، والمطلي بالمينا وفقاً للطريقة البابليـــة ، والذي يظهر في اجزاء السلالم والممرات السفلى . أما في برسبوليس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهـــار الجنود او المكلّفين الذين يحمـــلون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش نافرة — وهذا ما يحدث نادراً جــداً — تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دومـــاً رسوم الملك ورعاياه وجنوده وثروته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيـــه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنـا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وان بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجــات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العـالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجــة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعـــبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية: ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجعيد أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

الميرة الايرانية والهلينية

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانيــة الكلاسيكية ، ولم تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين.

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أُخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادىء الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استهوته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فلم تستهو الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الذين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار« سلامين » كان احشويروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مرازبة يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الاطباء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال دموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس، ثم كتيسياس *Clésias* ؛ ولكن يقال بان ابقراط *Hippocrate* رفض عروض أحشويروش المغرية . وتجند مرتزقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينية مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استمالت اليها السكان الوطنيين ، فان الايرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالماً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينهما .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الأول

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها – ومن الجلي ان كل تصنيف يخطىء ، حين يبسّط ، ويضحي بالكثير من التفاصيل – فان هنالك ، في العهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لجماهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعياً وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، المظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطماع وتهديدات جيرانها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ،والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تنج من كابوسها الا مصر وحدها لمدّة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً اعلى آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالحقيقة ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ،لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيد ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل تلمس جرثومة على الاقل ، هنا وهنالك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استجلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهراً وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هنـــاك . وقد يحدث احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقـــائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفـارق الذي تضفي عليه دقته قيمة كبرى .

وبودنا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة، ولكننا لا نكتشف الا خطاً واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضـارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسيـــة . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عالجت ما واجهته منها بحاول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة، في غالب الاحيان، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجـل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواهـا الشعبية ، متجـــاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأناً ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامهـا ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارتقاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً.

يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص. ولا يزال من المستهجن تطبيقها، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية، لان الغموض ما برح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصـلة التي تقوم بين واقـع الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حـالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟

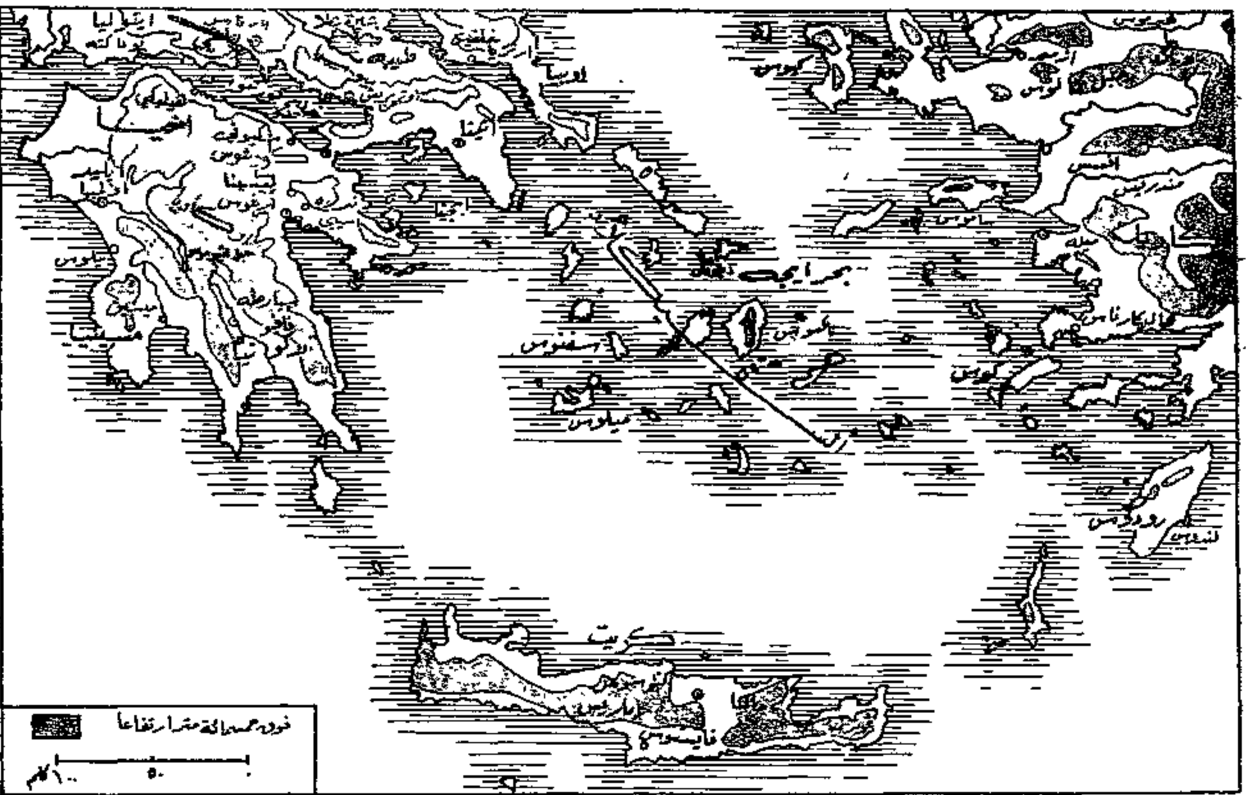

الشكل ١٨ - العالم الإيجي

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندهـا الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بهـا سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحـة اراضيهـا لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعوض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة، وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقـلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظمـاً . وقد عبّر عن هذه الحضـارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلاتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضـــارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ – وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .

العهد الكريتي

ولدت في كريت، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتخللها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى بزمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حـال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديـدة ، اي تقدم على ارخبيل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالاحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحة بين جميع اجزاء هذا العالم الايجي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف. بيد ان جزيرة ميلوس وحدها، في مجموعة السيكلاد، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الاوبسيدين) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قروناً طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليها نعمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة انحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات مخيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلم السلطة، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالاحرى احدى العنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

العهد الميسيني

غير ان الأخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين. فدك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطىء الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجح ان هولاء الفلسطيين الذين حملت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاربون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد، على نقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر. فكيف لا نجمع بين هذين الواقعين، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيا في ميسين — التي اعطتها اسمها التقليدي — وفي تيرنثوس ، اثراً كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوهم الجزيرة والقضاء على الحياة الناشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيا على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كاليونان وغربي المتوسط مثلا . وكانوا اكثر خشونة من الكريتيين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك، الى قبرص وربما الى شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضايق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهيار مفاجىء سريع ، بل اعتراها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدوريين . وقد توفر لهؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايجي طيلة قرنين كاملين .

وحدة وازدواجية

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل أنهما تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً، لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالاخرى. فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتى السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشمالية . الأولى محلية ومستقلة والثانية نتـــاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثـــانية اكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجليّ اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضـــاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

حدود المستندات

بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظـات التي ستتخلله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة. وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهنـــاك ، على الأخص ، اكثر من ١٥٠٠ سبّورة غرينية مجففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليهـا في بيلوس من اعمال البلوبونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكتباتها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالاضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجـه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا، كانوا يفهمون هذه الرموز. وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الاقل احداها هيروغليفية والاخريان كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثـيرة غير مثمرة لكشف سرّهـا . فقيل : «تنتظر كريت شمبوليونها »؛غيران شمبوليون قدوفق الى حجر الرشيد الذي نقشت عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيـــين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة. ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلّقة على هذا الحـــل . فاذا ما استجلي واكتمل وتنـاول المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلـك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها احياناً وبما اسفرت عنه اعمـال التنقيب من آثار وافرة منذ السنـــة ١٨٧٥ في البلوبونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ — الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية

ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزراليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقـاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصـيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حروب بين اطماع متنـافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة الناشطة التي استمرت في المساكن القروية الفنيـة فلا يجب ردّهـا بالضرورة الى الملوك الصغار، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكيـة . وكان للقصر مصانعـه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم. واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سمت لتحقيق نوع من المركزية. بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية. اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك، اذ بدونها يصبح تحصين المرافىء والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي، ان هذا البحر، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة. ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناءه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خـلال عهد الازدهـار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكنا اكتفينا بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهنالك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلـك المواقع القليـلة المتشتتة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأناً . اجـــل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابرٍ على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للاسلحـة . ولكن هذه الادلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتهـا ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرّد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط بـــه بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً مـا رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصية من خاصيات بعض الآلهـة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكاني . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابريس»؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لابيرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخّل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للجحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالته من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجهله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرياً يوجب الاهتمام .

النشاط الاقتصادي

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الاقل. ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايجية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريبا. ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويثير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرمة والزيتون خصوصا ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كيّف بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفاقا لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملا . وكان الصيد ناشطاً جدّاً في بعض النقاط من الشاطىء ، يستهدف ، بالاضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الارجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تعلّل ازدهار كريت الذي ارتكز دونما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستسيغت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الخزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصلوا ، باكراً جدّاً ، في حقل التعدين ، الى

اتقان التنزيل والتغشية والالحام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفينا ان نحيط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقررت لها وحدهـــا في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّة في الاساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عُمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للموازين والمكاييل ؛ فكانت هنالك سبائك من نحـــاس واسطوانات من معدن ثمين تسهّل المقايضات ، وقد وسمت احياناً بعلامات خـــاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري. فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهملت المقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرهما ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجـــارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، تموين الصناعة بالخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج .وقد أمّن النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجـــارة ولا المعـــادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطىء الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطىء آسيـــا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منهـــا في جزر السيكلاد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

طريق بحر ايجه المعترضة

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير الثروة البـــادية في الحضارة الكريتية . ولم ينطفىء الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والخصيبة والمروية والآهلة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهنالك اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم الحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليـــه في وادي النيل والفرات

وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهيلا للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقا جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموازية للشواطىء الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد،

كما تشهد على ذلك علائق مصر بجبيل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين اوروبا وآسيا يتم عن طريق المضايق بنوع خاص . وانما «طروادة الثانية » ، احدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريبا ، وان كانت مدينة به ايضاً لعلائقها ببلدان البحر الاسود . غير ان هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريبا سوى جماعات الهنود الاوروبيين المصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فان كريت قد ابدلتها بطريق اقصر جداً لان مراسي سفنها في الشرق اكثر قربا من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الادنى .

المجتمع

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان ما سندلي به عنها سيكون على كثير من الاجتزاء والنقصان .

انه لمن الاهمية بمكان ان نستطيع سبيلاً الى تعقب خروج الانسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع الى اسر صغيرة . ويعتقد البعض بان في علم الآثار دليلاً على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفاً حتى العشرين تقريباً ، في حال ان البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لاسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطل الرأي ومزيد الجرأة ان نتكلم عن الاحزاب في جزيرة كريت .

وهنالك ، في موضوع الاسرة ، واقع يبرز بجلاء من المستندات ، وهو ان المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذاك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لها وقت طويل جداً حتى تبلغهما . فسواد الآلهة من الاناث وللكاهنات الدور الأول في الاحتفالات . وغالباً ما تظهر الرسوم نساءً خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الاعراف الخاصة ، دون محاولة تعليلها .

نحن نجهل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي واعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت — المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر الى الوراء من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى امام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألقة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز واللآلىء والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الابهة والحلى والجواهر والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف الى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم « التنانير » الناقوسية ذات الاطار ، والصُدَر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكمام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضاً ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيداً . وكان للشرفات والازهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقنية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، مـن جديد ، بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية نتمنى لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

الديانــة

يصح القول نفسه تقريبـاً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منهـا إلا من خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تعليل وفرة الكائنات الوهمية الشيطانية ذات الوجه الاصعر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقاء المغربة ، الجن المجنح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويغلب ان الاسلحة (الترس والفأس المزدوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيـات أو رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويغلب ان الديانة انمـا تستهدف تمجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل الملموس الى ابراز الكشحين وتعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليهما احياناً ، وإشراك هـذه الرسوم برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحدو بنـا الى الاعتقـاد بوجود عبـادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الىهذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنـا . ولسنا نجد سوى بعض المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الكبيرة أو منثورة في البلاد ، أو سوى المذابح وحدها احياناً . وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تفض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السعرة احياناً على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الأحتفالات الدينيـــة مشهد غريب ، غير المسرحيـــات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعاب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعـة وسبـاق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرّض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيهـا اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعاب .

احرزت هذه الالعاب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدين واحـــد في البلاد التي اكتسب الكل فيها قداً نحيفاً جداً . وما من شك ايضـاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تمّ عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لجهود فردي بالضرورة .

ولا تتراءى الآراء حـول الموت إلا جزئياً أيضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتـاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الاقل مما يدنيها من العالم الالهي . ان ناووس الثالوث المقدس الشهير المستفشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرابين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا أيضاً عربة قطر بها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربة الميت ؟ الحكمة أولى في هـــذا الموضوع أيضاً .

الفـــن

ان الفن ، مع التجاره البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضاره الكريتية صفاتها المميزة واحرزت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبرعنها وقوّة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم يسهص باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ماهو عظيم متحاشيا تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيض عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف النـــاحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدّوخة . ان الفنانين الذين انبثقوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة أيضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفاقا لتصميم مدروس . لا بل انها تؤلف عوالم قارب بناؤهـــا المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

اروقة طلقة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ،كيفما اتفق الاتصال، بشبكة مستغلقة من الممرات والأروقة ذات الاعمدة – وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هـــذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعبأ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجليلة بقياساتها – يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات– أي تناسق يوحي النبل والجلال . وكان بالامكان، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخم ينتصبـان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظـــيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهنالك بهو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابح وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حواليه بعض « الاحيـاء » : حي قاعات الآلهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطهـا فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه احياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العـــالم المشوّش يعوزه الجـــلال ، ومن ان اكبر القاعات – قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس– لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية احياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلالم وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقـــام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهنالك بنوع خاص زخرف الجدران، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي يثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتماثيل في هذا الزخرف ، فالجزيرة كلهـا لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش ناتئة على الحجر ايضـــاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قدم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهده الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحيـــاة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لاحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذنان ، كما اهمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالمهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسهـا بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم عـلى الحرية . فالانسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحيـــة ولا بالحركات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . واذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسوم التي يحققها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان اكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : الثور الواثب ، والنمر القانص، والقرد المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوانحها كي تغطّ في المياه المزبدة ، والأخطبوط بمجاسه المتاوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بـل حركة توحي بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفصل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغيّرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثـلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدْو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيـات القوائم الكبيرة – وهذا الخطأ الذي يعود إليـــه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة ١٨٧٠ – بل جوّف احقاء الحيوان وأعلى منه الرّدف بغية ابراز رشاقة خط الظهر . ويقدّر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة، اكـــثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورهـا ، وان ما يقارب نصف البـاقي هو من ضروب العصافير . ومردّ ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لدانة وتموجاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحي ، من البحر ايضاً ، غالبية المناظر الطبيعيـة التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيهـــا بين التواءات الأمواج وتحطّمهـا ، الأشَن الرخيصة ، والصخور الناتئة. وتستهويه ، في عالم النباتات البرية ، الجذوع والأزهار كمواضيع تزيينية ايضاً. ولكنه لا يستسلم لفتنـة الوصف ولا للإكثار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالفطرة من اتزان وتمييز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تغذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في صيغة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جهل منها الباهت ، ولجأ الى الخارج دون أن يعبأ بالالوان الثانوية التكميلية او بالالوان الواقعية . فالعصفور والقرد أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطاً قرمزياً يحيط ببقع من لون واحد.وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الالوان مختارة عن قصد وتصميم توصلاً الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الالوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لِ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانية ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانية والأواني الفرينية ، وفي حفر الحجارة ونقش الاواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نمط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق. فأحل القرد محل الفرس، وفصلت المجسة عن الأخطبوط فغدت مجرد طريدة متماوجة فحسب. ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الخزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ - الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينين بهذه الاشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدّة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدّياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين، فمرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيا البلدان الشمالية .

الامراء المحاربون

تظهر الجدّة ، أول ما تظهر ، في التنظم السياسي والاجتماعي؛ لأن الآثار المادية التي خلّفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنثوس، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد. بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشتتة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث المخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة ولحملة عسكرية معينة .

ويصبح التباين اكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر،

شيّدت في موقع تسهّل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلالم خارجية تتخللها العراقيل والابواب، وبسلالم محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتي بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسيكلوبية » أي الضخمة ، لأن حجارتها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوبابيس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة امتار .

فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول باولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالياذة .ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعنا امام معضلة مستعصية الحلّ .

فمن الثابت ان الامراء يهوون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أتاحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكانوا بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تنم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهبهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجهلها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بميولهم الحربية التي اقترنت بميل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوّة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

الارستقراطية والطبقات الكادحة

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع .

بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلّه في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملابسهن وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدرانية في ميسين بعض هذه النساء يتبخترن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠م× ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

شك ايضاً في ان الرجل ، بفضل دوره العسكري ، قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية . ويمكننا ، بالمقارنة مع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبالاستناد الى بعض الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق » تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقاسمات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة

الشكل ١٩ ـ قصر تيرنثوس

م ، مذبح ؛ ب ، بهو ؛ ب١ ، بهو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س١ ، السور العلوي ؛ س٢ ، السور السفلي ؛ س٣ ، سلم ؛ م١ ، الميغارون الرئيسي ؛ م٢ ميغارون النساء ؛ ب٢ ، ابواب ؛ ب٣ ، باب خفي ؛ م٣ ، مدخل كبير ؛ م٤ ، مدخل صغير ؛ ر١ ، ر٢ ، ر٣ ، اروقة تؤدي الى الميغارون .

على المرتفعات أشبه بملاجىء يراقب الاسياد منها عمل مماليكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ، ويستهوينا جداً ان نتصور الباقين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفاتحين . بيد ان الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في ميسين) ، مما يحدّ من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياف او ان يقيموا عند لحف المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر . وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

التجارة والثروة

ويقوم التناقض هنا ، في ان مثل هذه الدويلات ، وهـذا المجتمع قد تعاطت في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيها اياهـــا . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدويلات ان حلت محلهـــا ، بعد قرنين من التدرب تقريبـاً . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حـــدّ بعيد بعد انهيــار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافىء ، ولم يشعر سكان الحصون ، القريبة كلهـــا من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولاً ثم سيطروا على البحر فحلت الأسفار التجارية محـــل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الاسفار بعيـــدة أحياناً : فاستورد القصدير الغربي بكميات كبيرة بالاضافة الى قصدير القفقاس واستخدم لصنع المزيد من الشبهان ، كما استورد — ولا نعلم بأية واسطة — ندّ البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حق القدر انعكاسه الشاحب الخفي . وقـد جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضاً: وتؤيّد المصنوعات المميزة المكتشفة ، بمـا توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والخزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشدّ قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القمينة بإيثاق ملابس اثقل وزناً . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبهية وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وايطاليـــا الجنوبية والسيكلاد وسواحـل آسيا الصغرى وفينيقيا أخــــيراً حيث غدت لهم « مينة البيضا » ، مرفأ أوغاريت ــ رأس شمرا ، مستودعاً عارماً بالنشاط يرجح انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين(١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢). وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين« بالغنية بالذهب»، على انها تقهقرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهـد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثمن المعادن .

الفن الميسيني

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانـــة كريت . ولكنهم يولون عبادة الاموات اهتماماً أكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموات عائلات الامراء.وقد افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .

اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخـل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحُجر » حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القبب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم ينشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكوّن سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجنائز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السراديب عظام حيوانات وتقادم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والمحالق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليمان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة كاكتشاف الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوبونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كاكتشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيا التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد اعيرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب — أقله في البداية — والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخيّرين او مسيّرين فدربوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كيّف وفاقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كان من الممكن في كريت ، حيث البرد أقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيا وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لعادات اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجده في « طروادة الثانية » التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تساليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني. ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه، ولكن الميسينيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاد حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتيء من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلجه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوّة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للابهة تزخرف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولائم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاك . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كملحقات له . وصدف ذلك في القصور ايضاً التي استلزمت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات مواقد أو ثلاثاً . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع ما تقتضيه من اروقة ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار، خرائب مساكن توحي العظمة والنبل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جموح إلا في حقل التزيين. وقد بذل الملوك الميسينيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجي الذي اهمله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانات البشرية . وقد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال قدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة – وهذان فنان جهلهما الكريتيون ، ولكنهما عالجا في هذا الحقل موضوعاً كريتياً أيضاً – ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين، فان هنالك جدّة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهاة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الأسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلاً الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المجهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه القدرة والاسكفة التي ترتكز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

إرث الميسينيين

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد وجدت من هم أكثر قوة منها واقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضاً من

الاعريق ، الذين سببوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تسلمت الحضارة الميسينية قسطاً كبيراً من الارث الكريتي وعنيت به . كذلك لم يمّح كل شيء منها في اعصار الغزوات الحديدة . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا بهندو – اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الخصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الآخيون الذين أمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأخيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا نغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حربهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلاهم تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالاة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع. كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وتيرنثوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرّحل فبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحياناً . فإنما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوّة بالاشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الادنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهنالك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذن لا حدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية التائهة التي رغبت في ان تقتطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبعت تاريخ البلاد بطابعها الخاص . وباستثناء الفلسطيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقلّه في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثر بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكوّنت فسيفسة معقدة . لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ – الفينيقيون

الفينيقيون ساميون استقروا في السواحل . ونراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نراهم في اوغاريت (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توفقوا الى الاحتفاظ بعلائق طيبة بالسوريين .

الحياة السياسية

طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علائقهم بمصر بنوع أخص، وكان مركزها بيبلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفينيقية وجبيل الحالية . ولكن أسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر. ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعاً مؤاتياً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطىء أو أرض داخلة في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تآكلها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداءً طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجنبي بمنافساتها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرباء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاد الى السكينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرف في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدوّ خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفينيقيين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

اليوناني ، على نقيض بعض المدن الآسيوية الاخرى . لذلك يتوجب علينــــا الاقتصار على بعض الانظمة الثابتة . فيمكن الجزم ، بنوع من الشمول ، ان المدينة الفينيقية قد خضعت دائماً لملك

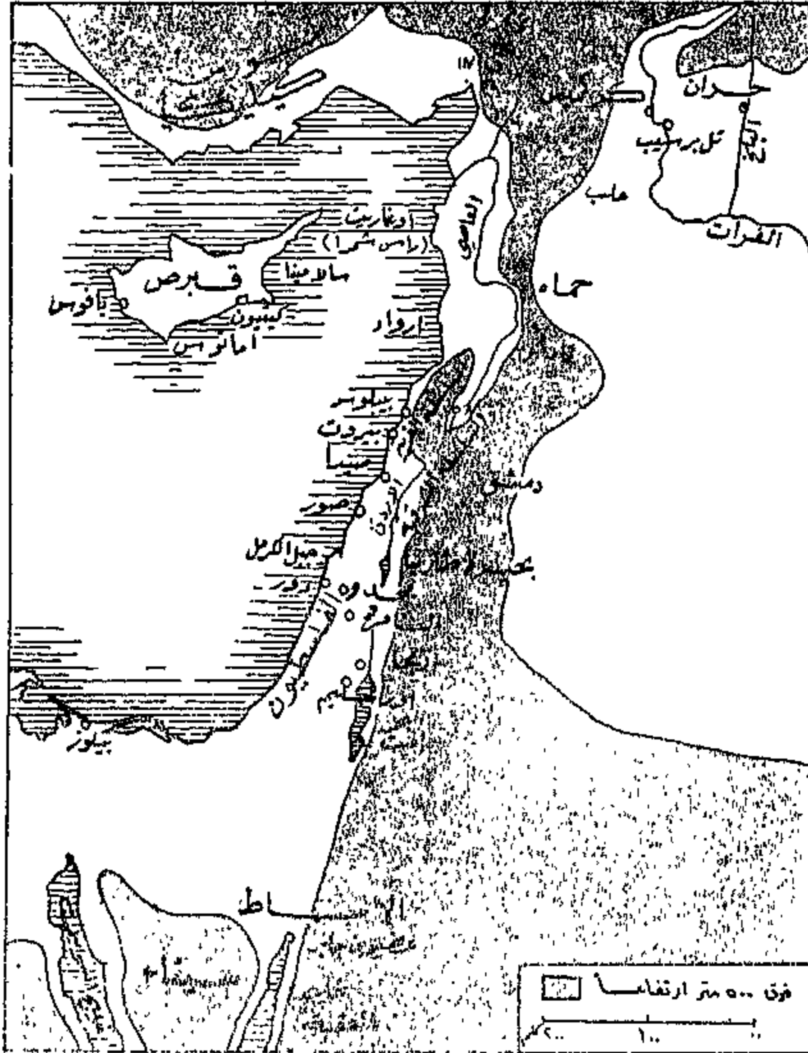

الشكل ٢٠ ـ كنعان وسوريا

رأسها، وتنتقل الملكية عادة الى ذريته من بعده. والملك يتمتع احيانـــاً بسلطة مطلقة ، كما هي حال حيرام في صور في عهد سليمان ، ولكن عليه نظرياً وعملياً في اغلب الاحيان ان يحسب

حساباً لقوى اخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين همـا « الصافطان » . ويشترك في هذه الاجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تميز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى جانب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

الحياة الاقتصادية

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً.

فالزراعة ليست مهملة . وهنالك على منحدرات الجبـال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدّر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطىء نائية جـداً فبلغوا افريقيا سعياً وراء طلب أصداف « الموركس» التي يستخرج منها الارجوان، مما أتاح للفينيقيين، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الاقمشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير في كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجـاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الرومـاني ، سنراهم يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحثهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارتهم دفعـاً الى الامام . فتعاطوها منـذ عهد سحيق : قائمين ، بالاضافـة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السماسرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفهـا : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافـل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافـل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلائق بينهم وبين السوريين والعبرانيين. وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد مـا بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة . وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية اخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحيهم ممن كانوا في خدمة نخاوو ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا بجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصابّ الانهر والمواقع الصالحة لجوء المراكب وللدنوّ من الشاطىء ومستطلعين ، بتوقفهم الاضطراري كل مساء ، شواطىء مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان الى إقصاء كل من تسوّل له نفسه منافستهم ، لاجئين الى القوّة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب احياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين احياناً اخرى . فقد اتجروا ، بالاضافة الى ما اتجروا به ، بالارقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسيادهم أو هم خطفوهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير اليافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذووه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقدمن الذهب والند» فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبي مع اهالي البلدان الغريبة اولى .

الاستعمار

وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاساكل المبتدءة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت، بفضل ظروف محلية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة احياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جدية من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقُسّمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الاكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدشت » أو قرطاجة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقليا ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجهوا منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد، ينتظر احداها، قرطاجة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات احياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسيها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلّل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قدأدى الخدمات الجلّى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تموين الشرق بالمعادن النادرة لا سيا القصدير المستخرج من الجزر الكسيتيرية . وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطىء صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

الديانة والفن

ويا لدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندما نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في جوهر معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابع زراعي مميز فيما يتعلق بآلهتها وخرافاتها وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل *El* » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد رأوا فيه خالق كل شيء وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حدد » المقتبس عن سوريا الشمالية اثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل » فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « مُوت *Mot* » إله الحصاد ونضج الاثمار . وغدت « عشترت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما يتضح من اسمها . وهنالك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه « اليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت – رأس شمرا ، ولكننا نجد ، في الاساطير التي ترويها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر قبل المسيح ، مُوت واليان يموتان مناوبة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً لازمته زمناً طويلاً بموجباتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف عندهم « ببعل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة (مُلْك) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكنا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد الهام الذي اضفته عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوفق الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت معقدة ويتقدمها سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش بجانبه تمثالان لابي الهول ، امام منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس « الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الخرق ، على ناووس احيرام ، ولعله موضوع فينيقي صرف . ولكن أجمل وأثمن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرها اجنبي ،

وهو ، في جبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الايجي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خاص بعاجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

الأبجدية

بيد ان لهم فضلاً خاصاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو اكتشاف الابجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاولية . ولكن هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت – رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد كتبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسمارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجّح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووسه في جبيل : فقد استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فمتى عاش احيرام يا ترى؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعمسيس الثاني وضعت على مقربة من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريبا . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل اشتقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب؟ كل ما تحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسمارية . ولكن هذا يهيب بنا الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني الذي نسب اليهم اكتشاف الابجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكتشاف الذي طلعت علينا به جبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ابجدية ناووس احيرام كانت مصدر الابجديات المتمدة في كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الأرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم مضيفين بعض العلامات النافلة او الجديدة الى اشكال حروف ابجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف العلة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألفا التي تأتي من ألِف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي الابجدية عن الاغريق .

دور الحضارة الفينيقية التاريخي

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهام يحققه الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها افضالاً اخرى أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال؛ استكشاف شواطىء المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات النائية . واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مدنهم قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي البحارة التجار ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي،حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجـــارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود الى عهد مبكر جداً اذ قد مهّد لها الطريق وجود البحارة الفينيقيين في كل المرافيء . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيره بحضور جماهير شعبية عفـــيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبيادس .

٢ – الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب ايضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليهـــا تاركة فيها عنصريات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة ايضاً بقايا أثرية يحاول المعاصرون تنسيقهـا . ولنقتصر بين هـــذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الحياة السياسية

الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية. كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبـــائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّان اولاً . وقد جـــاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هـــذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يومـاً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غمرهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا يوماً دولة واحدة ، بل ممالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة «بن حدد» (ابن حدد) ومملكة هازائيل (ايل ينظر) .وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العـــاصي ، وزنجرلي عند لحف امانوس ، وغيرهـا ..؛ وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدّوا الطريق امـــام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضـــاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومغتصبوها ايضاً . وقد فرض الاشوريون الجزية والتقادم على هذه او تلك من الممالك محاولين حمل الملك على القبول بدور صاحب الاخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سانحة ، لاستعـــادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يمجد فيهـا أحد ملوك زنجرلي احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أماً ، ولذلك أخــاً . وذاك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حيـاته رأس ثور ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد ألبس الخز في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا نفسهم كما يكيف اليتيم نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اتلاف هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب » . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسّن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين البارير ، «القساة» ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حدثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هـــذه الدول الصغيرة .

الدور التجاري

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالموقع الجغرافي لسوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين ، الذي جعل منهما طريقاً طبيعية للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيـــا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لهما ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا براً في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بحراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبـــل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الاشوريين مراراً على نفيهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارجاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، ممن يتعاطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفـادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

الأرامية لغـــة الشرق

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسمارية ، بل طبقوا عليها ابجدية مشتقة من الابجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالهـــا الملوك الاشوريين على استخدام

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدان استقلالهم السياسي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ — العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل، المتشردين احيانا، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبـــا . وهذا المصير ليس خارقا بحد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابها ما اصابه من تقلبات الدهر المماثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ — التقلبات الزمنية

القضـــاة

يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه المادي، اذ ان الاشكال التي تلبسّاها لم تبق دون نتائج في النفوس .

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراعُ ، بغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطيين بنوع خاص، تنظيماً آخر جانبَ ظهور الروح القومية وسيرَها في مدراج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك .

كان الرؤساء الاول « القضاة» ، وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية . وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكوّن حولهم . ولكننــا نلمس فيهم ، دون عناء ، رجالا تلهبهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالوهية من باقي البشر ، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه « جالساً تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع » ، رمحه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية

ومـــا لبث شاوول ان منح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلمها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كان من الحتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المُثُل الشرقية العظمى . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جنّد مجلساً من الموظفين مع رئيس كتبة ومسؤول عن اعمال السخرة وقوّاد وحرس ومرتزقة ، ولكنـــه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهـــد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثنتي عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكاوى الشعب المريرة الحادة . وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المجاورة ، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضفى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهـــد في اورشليم ؛ وحين توفق سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابـــد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرث العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة ، حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعـدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعـــل اسطورة ملكة سبأ احياء لذكرى العلائق التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثـــير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقـــد في اورشليم عادياً كالحجارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فأقام على رابيـــة

صهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنهـا اميرة مصريه . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلـك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرهـا التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد مـا بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدّد باعجـاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلّي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتـة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من اناء فضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبـار لها في ايام سليمان » . وقد قدّم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدّم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزدهر الفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعذر تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولسنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التاليـة : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والتيوقراطية

يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيما من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالته الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعته الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنبا الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهمـا في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوئها الى المحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقـاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استعادت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . فغدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالفت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبحثت دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطرا ، غير انها انتهتـا الى الزوال . فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصا من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائيا واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا ، وضع حدّاً لهذا النفي واذن للعبرانيين باعادة بناء اورشليم. ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين *Sanhédrin* » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة

ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسهابها ، تاريخا كثير التقلبات ، تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالعبرانيون لم يدخلوا سياسيا ، شيئا جديدا يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيوقراطية نفسها ليست نظاما جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الغنى. فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، – ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ . فان اكثر من صفحة فيه تنم عن نفحة ادبية رفيعة . فان القوّة التي توحيها الصورة والعزم الذي تنبض به الكتابة والحياة التي يجيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسغ شعبي ايضاً . ومما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجمل القصائد القديمة تنسب لداوود نفسه : لا سيما نشيد القوس في صموئيل الثاني الذي ألّف بعد موت يوناثان وشاول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً – اكثر من الف – بالاضافة الى « الامثال » و« نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خصّ به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يغتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثر من مرّة ، صدى للادب المصري . فالمزمور الرابع والتسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منذ القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذاك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها، لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هـذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي. فاهمية هذا التطور، بحدّ ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي ورعوي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلمس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منـه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الاهمية الحقيقية الكامنة في هذا التغيير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد، منذ نشأتهـا، بميزة خاصة . فليس من النادر، في العالم، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك،فان العبرانيين، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية، يسيرون قدماً في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجود اله واحد ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضا.

يهوه القديم

اثناء مرحلة « الخروج» التي انتقل العبرانيون فيهـا من مصر الى كنعان، جعلهم رئيسهم ، موسى، يعاهدون إلها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذاك الذي أكبرهم في واحة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الإله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكوّن » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهيم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها «اله» ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواحٍ كثيرة، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحيـاة والنبات والخصب والعاصفة والغيوم ايضاً . وكان حامي النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمش مع حمورابي . وقد فرض الختان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائـل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون. وقد استلزمت عبادته ، شأن العبادات

الاخرى ، المعابد المختلفة والاعيـاد والطقوس والذبائح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سيّما في الاحلام، واما بواسطة « قرْع » خشبية يسترئسها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جنّدوا في البدء من مختلف الاسباط ثم انحصر انتخابهم ، نظرياً على الاقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى. وقام بينـه وبين العبرانيـين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيـه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيـه داوود في اورشليم . اما الاعياد التي تمتّ في البدء بصلة الى الحياة الراعوية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبـين يهوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قمرية وبتربية الحملان وببدء حصاد الشعير ، كان يذكّر ، على حدّ قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الخريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستنزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بحد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين.

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاخرى بل خص العبرانيين وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم. وقد تجلى ، حيال هؤلاء ، تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبّذ كل مكيدة واوصى بكل ابادة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطيين .

اخطار التأثيرات الخارجية

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

كان بالامكان – ومن الطبيعي – ان يتجه هذا التطور نحو تقارب من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان، وتشتتهم واستيطانهم في وسط شعوب كان لهـا آلهتها وعباداتهـا ، وصفة هذه العبادات الزراعية، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والينابيع والاشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كان مبدعاة لإعداء شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثر بمغريات بعـل وعشيرت الكنعانيين ومعابدهما واصنامها وطقوسها، بل تجاوزوهما الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في المملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثـلاً . فالعلائق التي ربطتهم بالعرب وبالفينيقيين بنوع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصلحتهم التجارية المسايرة

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد مـــا بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه وتزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلهـــا للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .

اورشليم

نذكر منها اولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكيــة التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكينونة هذه الملكية وبرنامجها السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ،بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيّنة من تشييد الهيكل الفخم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيا وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الواسعة ، وجد اتباع يهوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فنزعوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيا الكنعانية منها . فبدا ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمساً وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصــلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلهـــا في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا ســـيا الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، ممـــا جرّ الى فريضة حجّ دوريّ سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة « يهودي ».

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميّز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبنٍّ ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهـــة ،

كانت لهذه الديانة بالمرصاد . ولذلك فان هذا الاستئثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى الابقاء على العهد وشدّ اواصره .

الانبياء

يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى اخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الاهمية التاريخية الحقيقية ، لانها حجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشعاعهم المستمر. وقد تجسّدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايّما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صمتها . وبالرغم من صمتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على مـا نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدّموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختياره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حتى الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جداً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلا منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة. ولكن الانبياء ، بالتحديد ، هم « الملهمون » — وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبييم *Nebiim* — او « الراؤون » او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ، يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي يتكلم بلسانهم يجيز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا لكتابة خطبهم قبل او بعد القائها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة . واوسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انها هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهي ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المغمورة ايضاً ، رجالا خاضعين ليهوه ، غير مكترثين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوّة التي تدفعهم وتحمّلهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبّان النفي — ولا ضرورة لاطالة القائمة — يوجّهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسها والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتهبة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتيين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ

في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط. ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتيجتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حقدوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بمحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاخفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس هممهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه بجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يحيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تعليل الويلات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك باتهام العبرانيين، او بعضهم، بتقويض العهد عن طريق الخروج على الشريعة . فغدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصاص المقاسى او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيّدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلّى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغرباء ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشتراع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بانه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في تواريخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرّس منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .

يهوه والعبادة

نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافه » و« انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يحب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمّن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فانه وكل اليها رسالة حدّدت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .

فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم باسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصغي ايتها الارض ، انت وكل ما تحتوين عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا الله ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان بإله واحد .

وقد جرّ هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السماويون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز احياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واوثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضتُ ، كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم . .

وذبائح السلامة من مسمّناتكم لا التفت اليها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونغمة ربابك لا اسمع . وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم ». وقال اشعيا : « ازيلوا من امـام عيني خبث اعمالكم ؛ انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العـــدل ؛ احموا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛ دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتخف فـــيما بعد مقاومة البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالاضافة الى ذلك ، فان النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حملة محمّمة في سبيل طقوس تتصف بالمزيد من الايجاز والدقة والمراقبة . وستتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغـــة الشدّة قد يفضي الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييـــز والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحى .

الشريعة

وهذا ما حدث للشريعة ايضاً .

فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا الاخلاق اكثر من اي شعب آخر ، الاخلاق في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشترع ومهذب الاخلاق . وهكذا فاننا نتلمس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يعكس ايضاً ، بحكم الضرورة ، التنظيم الاجتماعي وردة الفعل التي تثيرها تغييراته . فان هنالك تطوراً في الواقع ، لا ان الفرائض الالهية التي تؤلف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقصر الكلام على الخطوط الكبرى .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الاجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ان وصايا موسى العشر نفسها حديثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلـــك فان الشريعة القديمة قد تأثرت بالتنظيم القبلي ، على ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بكاملها . ولكن الشريعة لم تتفكك شريعة شعب بجملتها مصالحه تميـــل نحو كره الاجانب . فمهما كان من رعاية اولاد يهوه مثلاً ، فان الزواج من الاجنبيات قد بقي محرّماً ، والربى ممنوعـــاً بين المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محدد بزمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي في اول السنة السابعة كأقصى حد . بيد ان النزعة المقابلة قد استمرت ، لا سيّما خارج التوراة . فقد جاء في الامثال : « لا تفرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعاماً واذا عطش فاعطه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

ومما يلفت النظر ان الشريعة القديمة قـــد تغلت بالسماح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى وصاياها . فالوصايا إنما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكـــه الاجتماعي ولم تدخل عليها سوى عدد ادنى من واجبات الاحتفالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابـــلة لمفهوم

الطهارة الجسمانية ، افسحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح للانبياء إذن ان يشدّدوا بسهولة على هذا التمييز. وقد اظهرت عدّة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولنضف هنا اللوم الموجه للغني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسيئان استعمال ما اوتياه من سلطة . فعاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حملان القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يمسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهوه ، بفم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « ألستم انتم من يجب ان يعرف العدل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لهم الجلد واللحم من فوق العظام . هم يفترسون لحم شعبي ... » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارف الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالمواطنين والضعفاء ، لنا عنه في تثنية الاشتراع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدنك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تغب عليه الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه ... لا ترتهن ثوب أرملة ... اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها، انها تكون للغريب واليتيم والارملة ... واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان ... واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه .. » انها لعمري آراء أخلاقية السانية غدت تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرق، ولكن لم يسبق ان عبّر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارتها العودة من النفي : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوّة على كهنوت حارس للشريعة ، وبالتالي محافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمّد العبرانيين في انفرادهم المليء بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهوه الذي احال جمودهم فضيلة . عند ذاك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرّت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي

غير ان النتيجة كانت، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد. واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقم بينهم وبين يهوه اي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً. والروح الالهية كانت حالّة فيهم فغدوا عبيدها. وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مباشرة لا تحمل اي وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

وبديهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمع بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليهـــا بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جعلا من هذا التوق امراً واجبا . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريبا ، داخلية وفردية وذاتية ، حيـــال اله روحاني ودمث الاخلاق . فقد ورد في تثنية الاشتراع ان الشريعة «قريبـــة جدّاً منك ؛ بل هي في فيك وفي قلبك ». فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولا عن اعماله وحدها دون غيرهـــا . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انساله واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركنا من اركان هيكل التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنهـــا لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضا ، لان موجبـــات التفرد الاقتصادي، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تعـــاطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقـــاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا اولا وحزقيال ثانيـــا يتنكران للمثل السائر القائل إن تضرّس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرس آكل الحصرم نفسه». فانتهت تثنية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي: « لن يُمات الآباء بجريرة الابناء ولن يُمات الابناء بجريرة الآباء ، بل كل يمات بجريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضـــا ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة، تلقى ابدا ثوابها والرذيلة تلقى ابدا عقابها في شخص من تُنسَبان اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليـــال بازاء يهوه ولكن دونه مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلا . وشدّد غيرهم على فكرة الدينونـــة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضـــا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعيا ولا تأييدا رسميا . فقد ولّى زمن التطور الخلاّق .

قسط العبرانيين الكبير

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون . تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدين به الانسانية للعبرانيين . فان الاهمية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كان

الانسان فيه اكثر ما يكون انصهاراً في هذا المجموع. وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبّتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانته . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقــل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالي اواخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتمسكة بالشكليــات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كان قد القي في الارض ستزيد من قوّته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحيا لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

الحضارة اليونانية القديمة
(أي السابقة للعهود الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له: جنوبي شبه الجزيرة البلقانية، والجزر الايجية، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقيم فيه حتى اوائل العهد المعاصر. انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلفت الحضارة الايجية المزدهرة. والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانيـة ليس بالتسمية التاريخية الكيفية. وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى.

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما، وصفت بـ «القديمة» للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة. وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعيق حركاتهم. وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس، فيستثمرونها ايما استثمار. ولكن طاقات فتية برزت، حتى في ذاك العهد، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الاهمية. وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة. فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطىء البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً؛ وفرضت الامبراطوريةالفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا. ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى. ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب، لا سيا وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته. تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التشعبات البعيدة. وتلكهي الوعود والدعائم التياخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تختنق فيه على الاقل. وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول.

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي. والتطور، بحد ذاته، أمر محتوم يعمّ كل الشعوب. ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

ويمثل هذا الشمول . ولا يعي الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائجه الطارئة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضاً من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الآذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثله في توق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل، بجدّة روحية هي خيال مجنح لم يخفه اقدام ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم ينتبهون فيه ويتخيلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة.

ولكن يجب الا نغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فمنذ اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جهلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يأبه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقوّمات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فعرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيهتم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبىء بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشيـــاء كثيرة ستسنح الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية ويصبح باستطاعتنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ — التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامهـــا والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزةً شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلت ببضعة آلاف من السكان فقط — عشرة آلاف على الاكثر — ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلهـــا وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حرب تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكيمة . واذا ما ألقينـــا نظرة شاملة على العالم الاغريقي باسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة. ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم : ذوو الاملاك الواسعة

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث إنـــه وليد مجازفات الغزو ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . وَمَثَلُ الانسان الأعلى ، الذي تثبت قوته دلائل كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجوّل على هواه، يجب الا يكون مقيداً باهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً إلا لذوي الاملاك الواسعة، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال، وقد نعموا في الوقت نفسه

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل الينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصيبت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطىء آسيا الايجية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولَم يشر هيزيود ، في القرن الثامن ، بالسفر بحراً إلا على الفلاح التاعس الرازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الاشارة هنا الى ان الغـــاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحون صغـــار يتملكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدّ الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف باعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب – وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البُدُن » – بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقـــد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسمانية لاجل القنص . وأحبت الولائم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخّرت لخدمتهـــا في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممتثلين لاهوائها . وقد طاب لهـــا عرض ما تنعم به من قوة وثروة . ولكنها اجلّت ايضاً الاقمشة والحلى النادرة ، والموسيقى وانشاد المغنين . فكان مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الاخرى ، يجمع بين جمـــال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى الاغريقي نفسه : انسان حرّ يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعـــات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتنـــاء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيـــل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على عربة ، يقودها حوذيّ ثم يقوم بحراستها ، بينما تحتدم المعركة بين سيّده وعدوّه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجنـــدية كمشاة ويقتنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليع أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عمليـــاً : فمصير المعركة يتوقف الى حدّ كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيوليهم ذلك حقاً بادارتهـا . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاولة القرصنة . فهنالك مشاهد إيحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينـا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكـّر هـــذه الصور بطبقة عسكرية تطلب المجد في نشاطها الحربي وتتباهى بعرض قوتها وثروتها .

أواصر الـــدم

حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوّة ، رافقـــه توزيع آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هـذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يومـاً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخـــيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والاخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريبـــاً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جدّ واحد والذين يتوجب عليهم، بالتالي، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجّل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم بـــه سوى علاقـة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد ناء بثقله عـــلى التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهـذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينهوبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواصر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلاّ بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويغلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون عقب ان يوصي بمتروكاته الى غير أعضاء الجينوس ، ممـــا يجيز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحـاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فـان الاهانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، او الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما نتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعـات ، قد نعموا بنفوذ مسلـّم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبل والشرف . فقد طاب للأغنيـاء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحتى الإلهي ، رغبةً منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الابكار في المرتبة الاولى . وهكذا فان رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتمادهم على انسبائهم وعلى كلّ من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعيـة وطاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جينوسهم » .

الدولة الارستقراطية

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الآخرين. ولذلـك لم يعوز الدولة تنظيم قوي متين. فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تعنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر بـــه رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبـــه او يحدّ منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم. اجـــل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصلوا الى حصرها في لقب لا حول له او الى إزالتها تماماً في بعض الاحيان. واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكمون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضـاء وارثين او منتخبين وفاقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية. وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس عـــلى ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرهـا وخصوصاً من كبار هذه الطبقـة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لا سيا وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جـداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتهـا الذائعة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضمّوا اليـــه تذرّعاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحـات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحليـة التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » اي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدراء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوفّر الهدوء والراحة . فالمطامع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعـــل فقدان

الثقة فيا بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللاتهام بالرشوة . فهزيود يصف العظماء « بآكلة الهدايا » . وكان الفقراء والمستاؤون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مخاطرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

اسباب تقلبات الاحوال: تقنية الحرب

فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً : فخفضت قياسات الترس وادخل المزيد من الجلد على الدرع . وتعوّد المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . ففقدت العربات دون جدوى حيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات المنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداء الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، «الهوبليت» ، اي «الرجل المسلّح» ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمّل نفقات عدّة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية .

وتكامل المركب الحربي ايضاً فضمر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظموا صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس اهم هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «التاريار» وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذّافاً موزعين ثلاث فرق وللمشاة ينقلون الى حيث تدعو الحاجة .

فحد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافون وهم اقوياء البنية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

اسباب تقلبات الاحوال: الثورة الاقتصادية

يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد شأنها . فحتى ذاك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعاط التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العادمي الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطوّر .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي ،

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى الخمول. وقد اسست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى. وهكذا فان خلقيدونيا ، على الشاطىء الآسيوي ، قد اسست سبع عشرة سنة قبل بيزنطيه ، على الرغم من افضليــة موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه . فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بالخامات فنهضت واتسعت اسواقهـا . وازدهرت التجــارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفاقاً لاغراض جديدة فاختيرت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور «نزعــة استعمارية » لا تزال بدائيـــة الى حد بعيد ، على اصطباغها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مــع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا عـلى الجزر الايجية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدامهم في دلتـــا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابداً ، بالحضارات الشرقيــة . فجاؤوا منهـــا بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرّفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءاً بالشرق ، أنظمـــة الموازين والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هـــذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضعاف الوحدة واجزائها ، لا سيما في حقـــل النقد . فالنقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع. اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكترون (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . أما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعمّ كافــة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينــة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي ــ التعدين والمنسوجات والخزفيات ــ والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يُضحّى ، عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

نتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الايجي ، أي ايونيا . وكانت « ميلته » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر الميساندر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمناد » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرّفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيباريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسسها ايونيو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ وحافظت على علائقها التجارية الوثيقة بايونيا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروبا فكانت الحركة أقل اتساعاً، ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من بلاد اليونان الشرقي الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة برزخ كورنثوس التي أعدّها موقعها الممتاز للمقايضات بين الشرق والغرب، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلوبونيز ، آثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ نقلوا المراكب نفسها على طريق خشبية . فأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأ في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخزفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكتشفات ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمل « سكيونى » نحو الغرب ، و « ميغارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تستيقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتها قد تفوقت على خزفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في ذلك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان ازدهارها العام قد فاق ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منهـا في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منهافقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز الناشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوّة لان تنمو وتتقدم: «طارنتا» في ايطاليا وخصوصاً «سيراكوزا» في «صقليا».

بيد أن الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باهميـة عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسيم جداً . فلم يرافق نموّه شيء من الذيول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك «رأسماليـة» ولا «اتحاد» مؤسسات للحيلولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العـالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها .

غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

الازمة السياسية والاجتماعية

فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروةُ العقارية الثروةَ الوحيدة الممكنة . نعم انها بقيت فوق غيرها اعتبـاراً واحتراماً لانهـا اثبت من كل ثروة ولانها وحدها تتيح مقاربة المثـل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العـام اليوناني يوماً ليتخلّى عنه تخلية تامـة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمـل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخـيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدين عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكان اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارستوقراطيـة النسب ، ويرجح ان حالات الزواج المختلط لم تتعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجـال جسّرهم نجاحهم المادي فرغبوا ، هم أيضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كهوبليت في خدمة الدولة . فبفعـل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظـيم القضـاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافيين بالغرض الذي وضعا له ، لانهما لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بمأمن من هوى القاضي. ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريـح .

وقد حدث ما هو اشد وادهى . ففي بعض المنـاطق على الاقـل ، لا سيما تلك التي بخلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطر الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجح ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأتها . ولكن الاستعباد بسبب الديون ما فتيء ساري المفعول . وكان

المدين العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تلك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعاملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتما ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاء الديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن. فأدت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كـ«ألقيا» و«ثيوغنيس».وكي نكوّن فكرة عن حدة الاحقاد الثائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس: «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فاولئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلوون على شيء ... لست اتراءى العقاب يحل بمن انتزعوا مني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمهم الاسود ! »

المشترعون

وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجهلها ، يحق لنا الجزم بانه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل أيضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

فكُلّف إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً ممن اختيروا من خارج المدينة لتجرّدهم، مهمةَ وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من « المشترعين » على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجع انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة – اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كلٌ منهم بأنه قام بعمل نهائي–فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدّت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

الإستبداد والحضارة اليونانية

في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع « المستبدون *Tyrans* » السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها

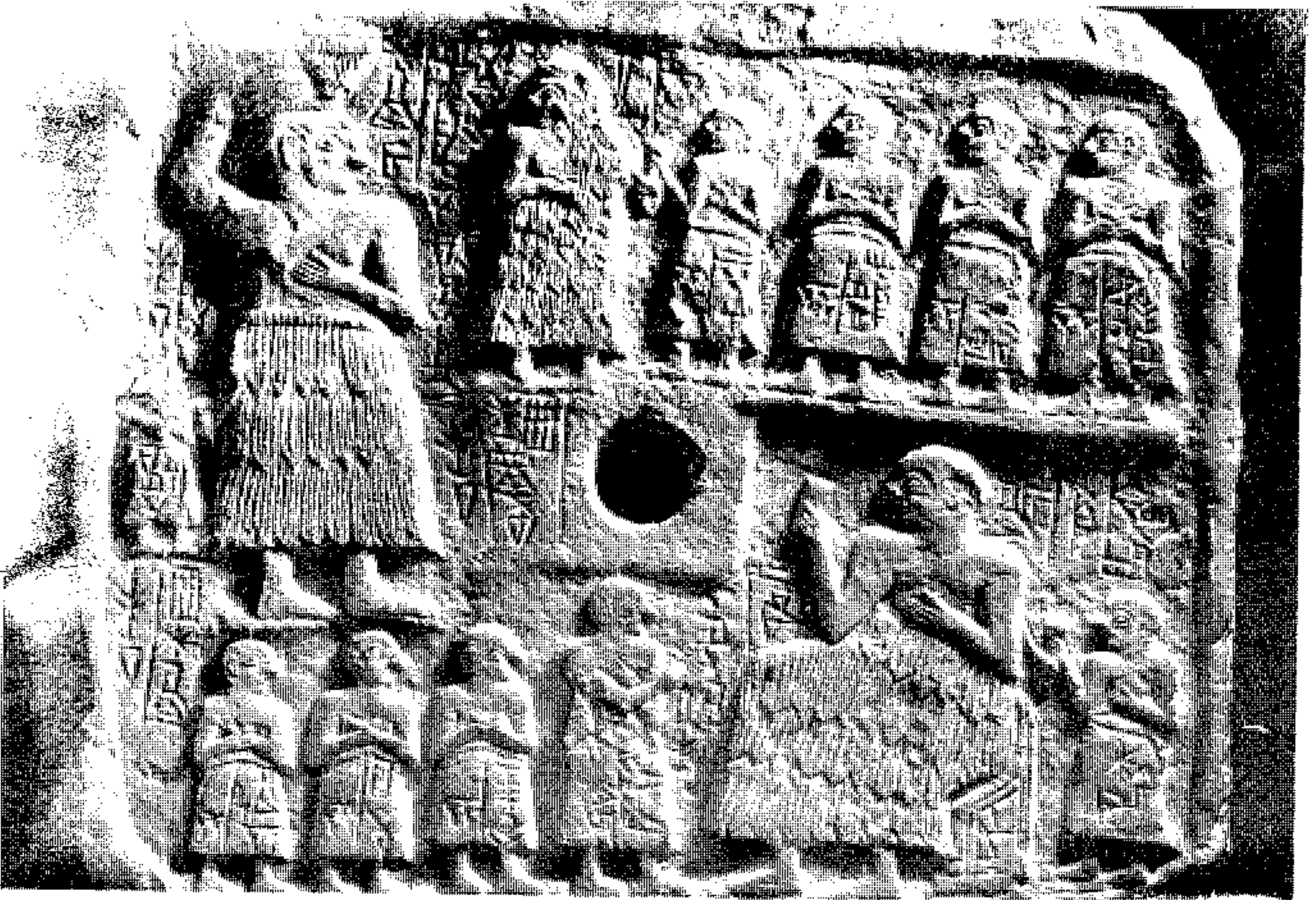

١٧ – أور - نانشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر.

١٨ – نصب نصر لنـــارام سين ، ملك أغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .

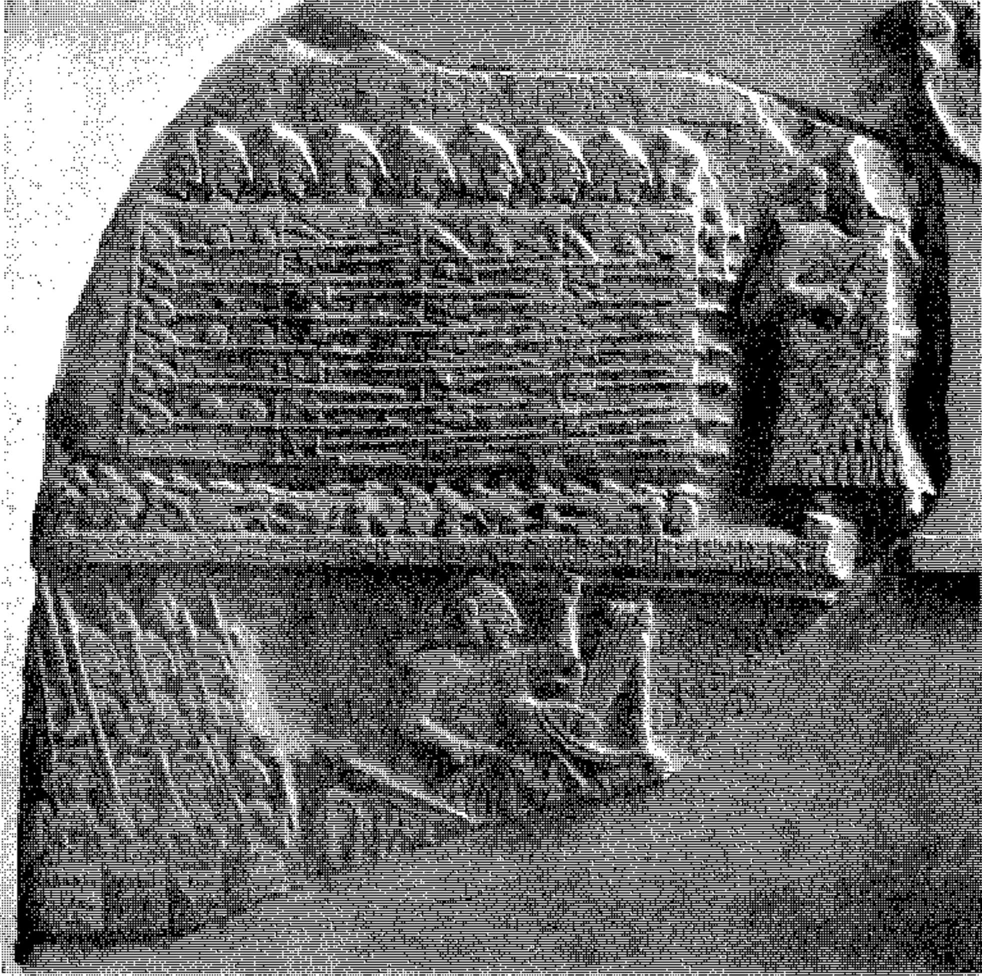

١٩ — سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .

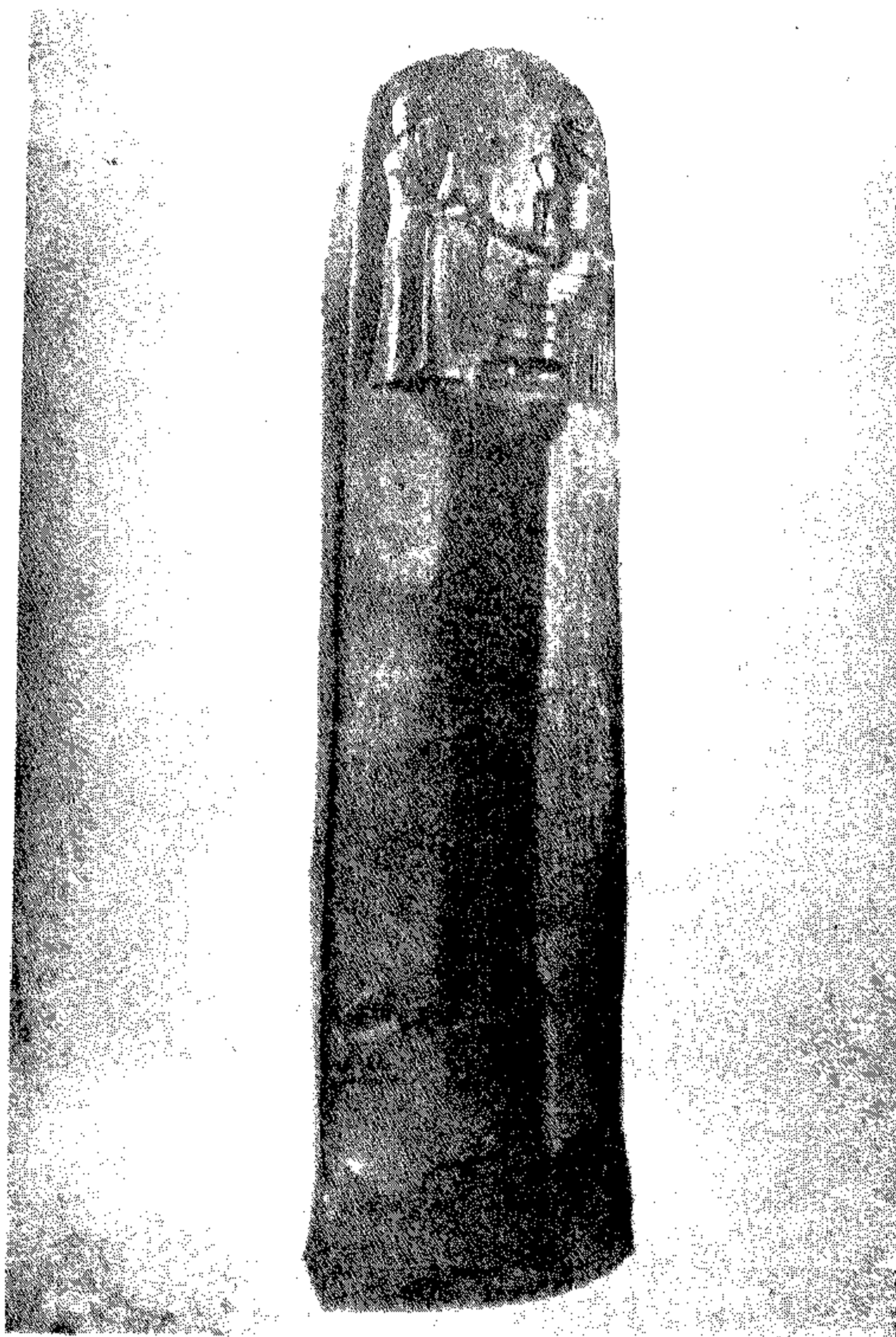

٢٠ - دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (؟)
قبل المسيح) . متحف اللوفر .

٢١ — كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حمـــاية احدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .

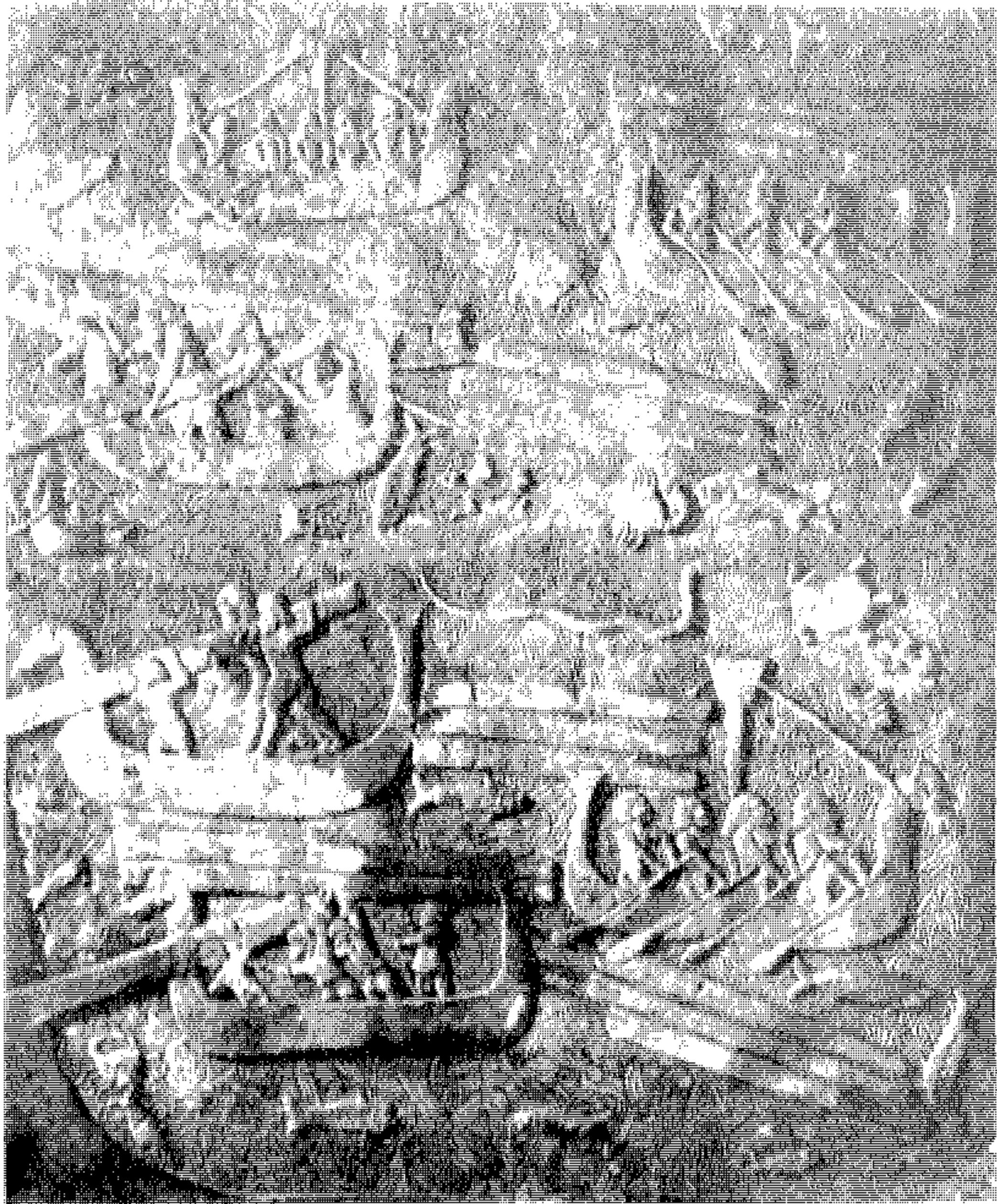

٢٣ النقل البحري . نقش نافر من الأبستر مصدره
قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .

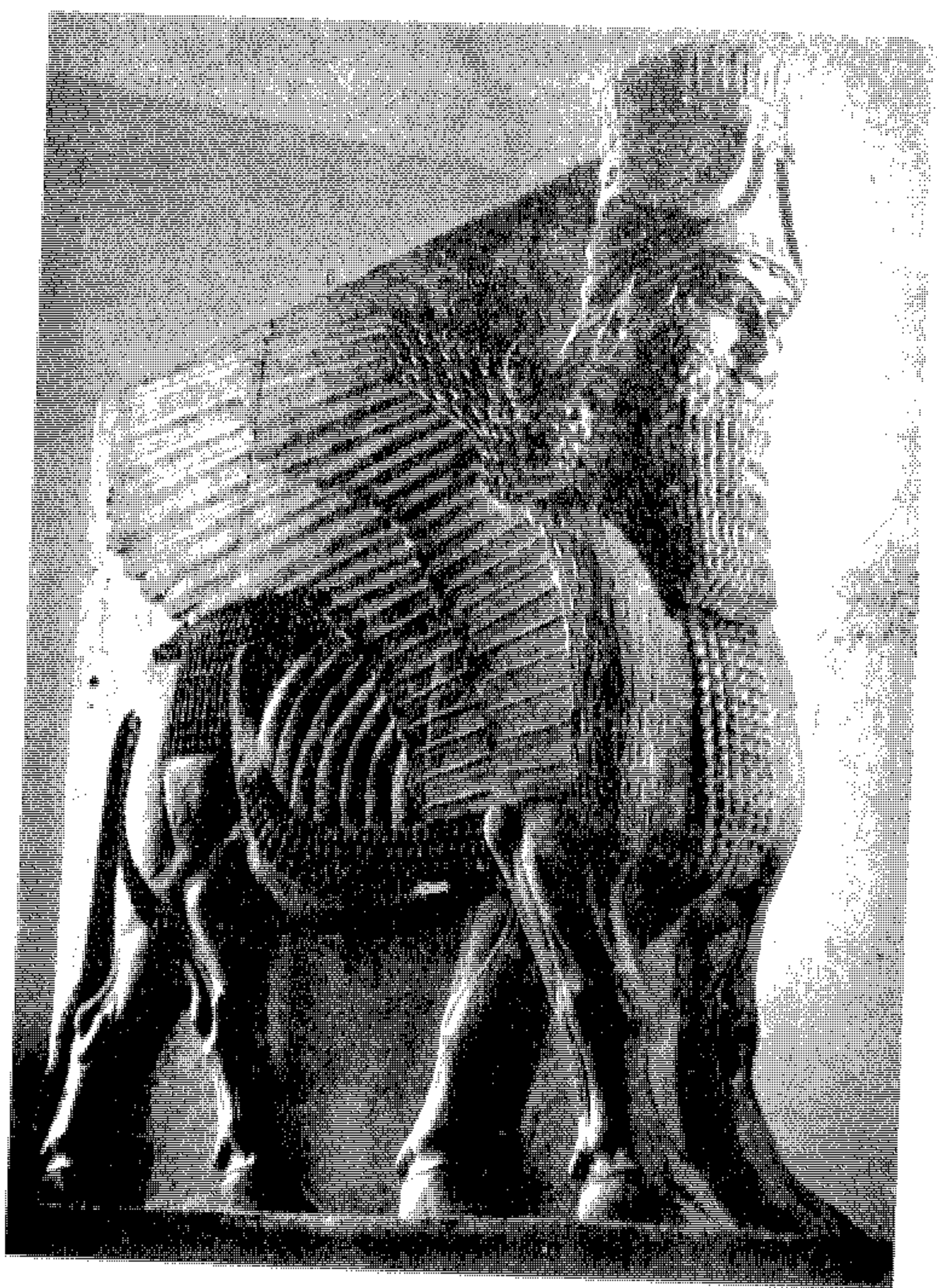

٢٢ ثور مجنح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .

٢٤ – الملك اشوربانيبال في عربة أبهـــة . نقش ناتىء مصدره نينوي (القرن السابع قبل المسيح) .

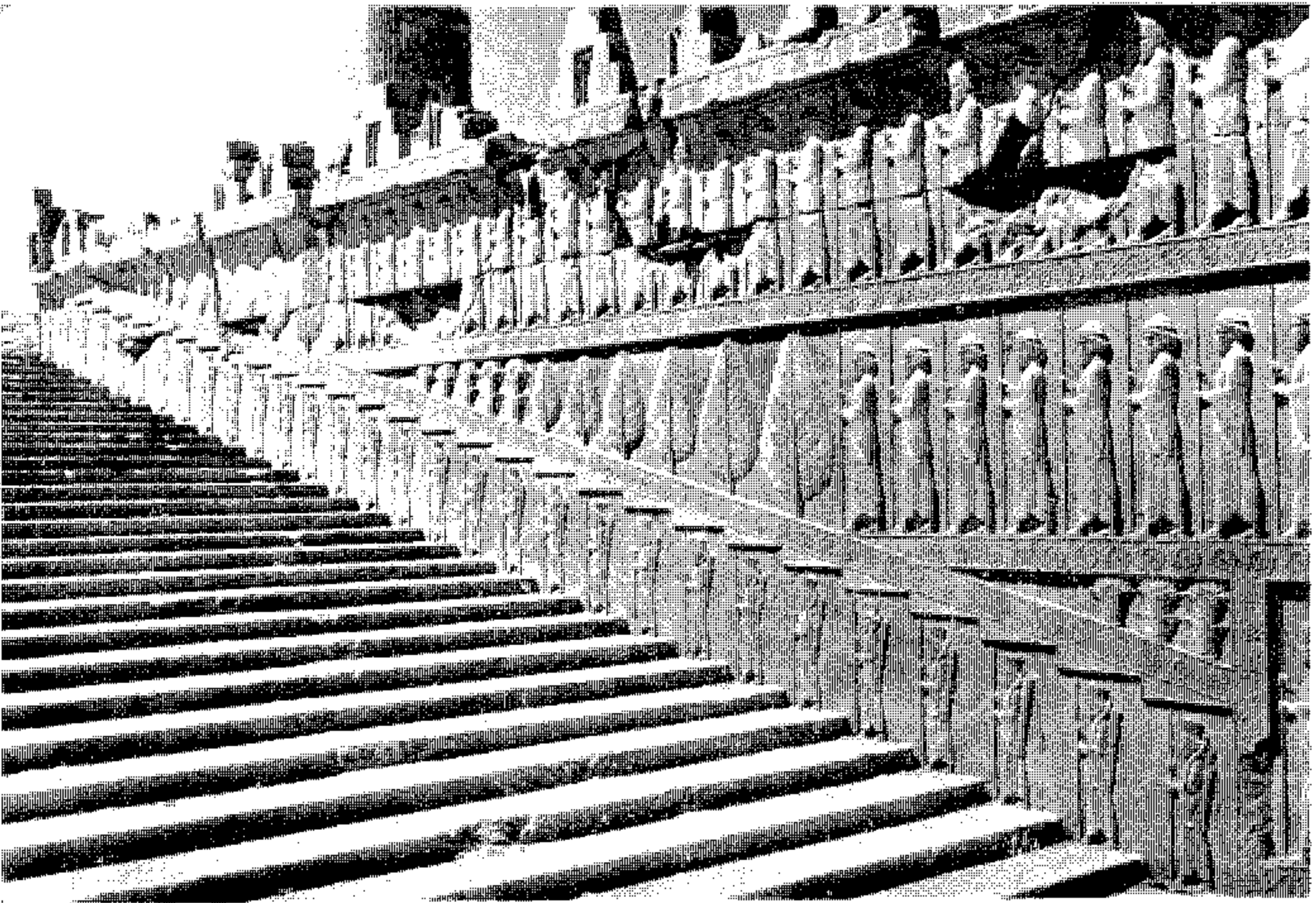

٢٥ – نقش في الابادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .

٢٦ «الملك الكاهن» أو «الأمير ذو زهور الزنبق» في كنوسوس، كريت (، نقش جصي ملوّن، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح).

٢٧ – باب اللبوات في ميسين ،

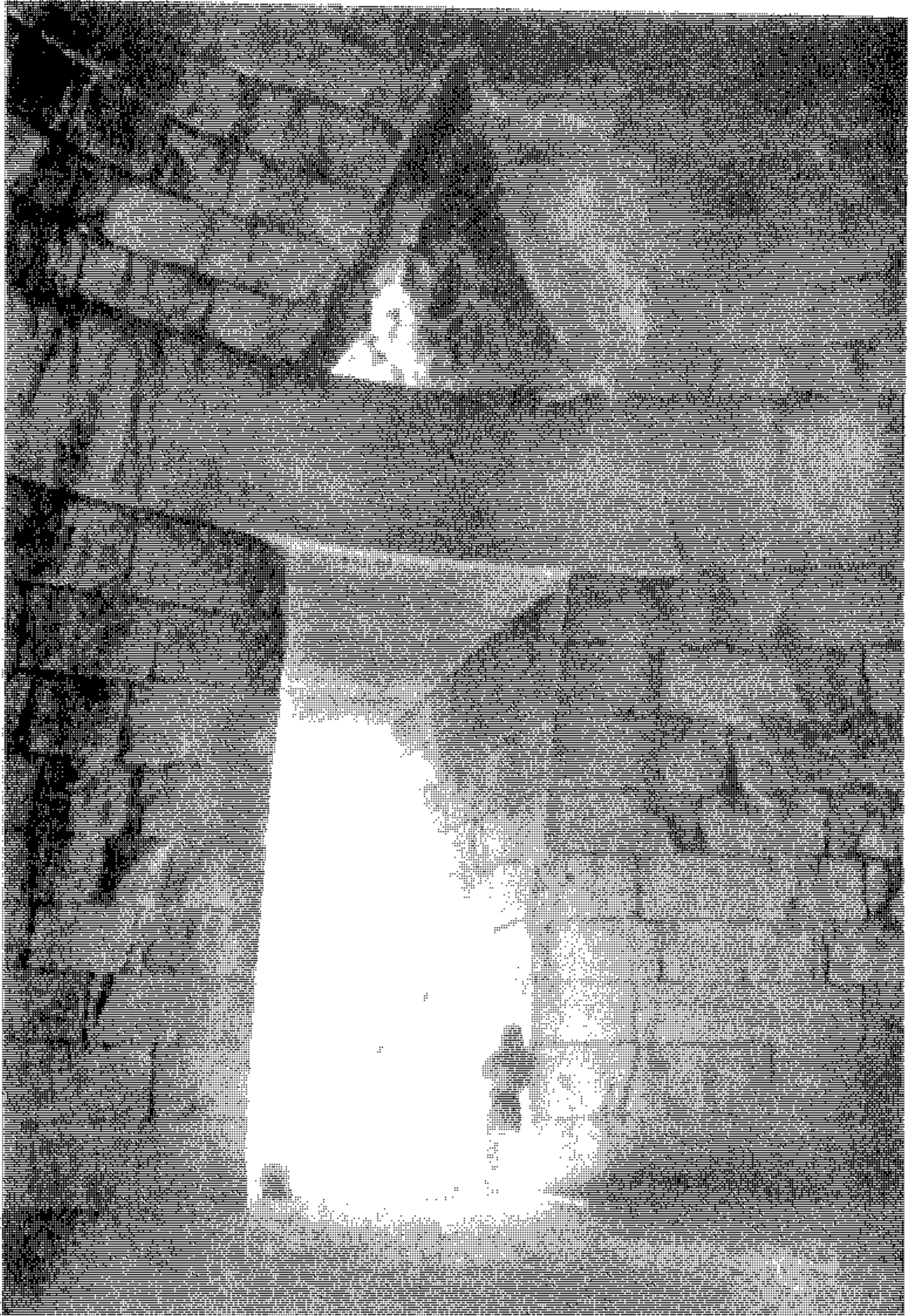

٢٨ - «مقبرة أتريوس في ميسيني»

٣٩ — البحر كما يرى من زكيتوت .

٣٠ – عنـــد خط حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا ٣٠٠ م . في المقدمة أكمة اسبيس ٨٠ م .

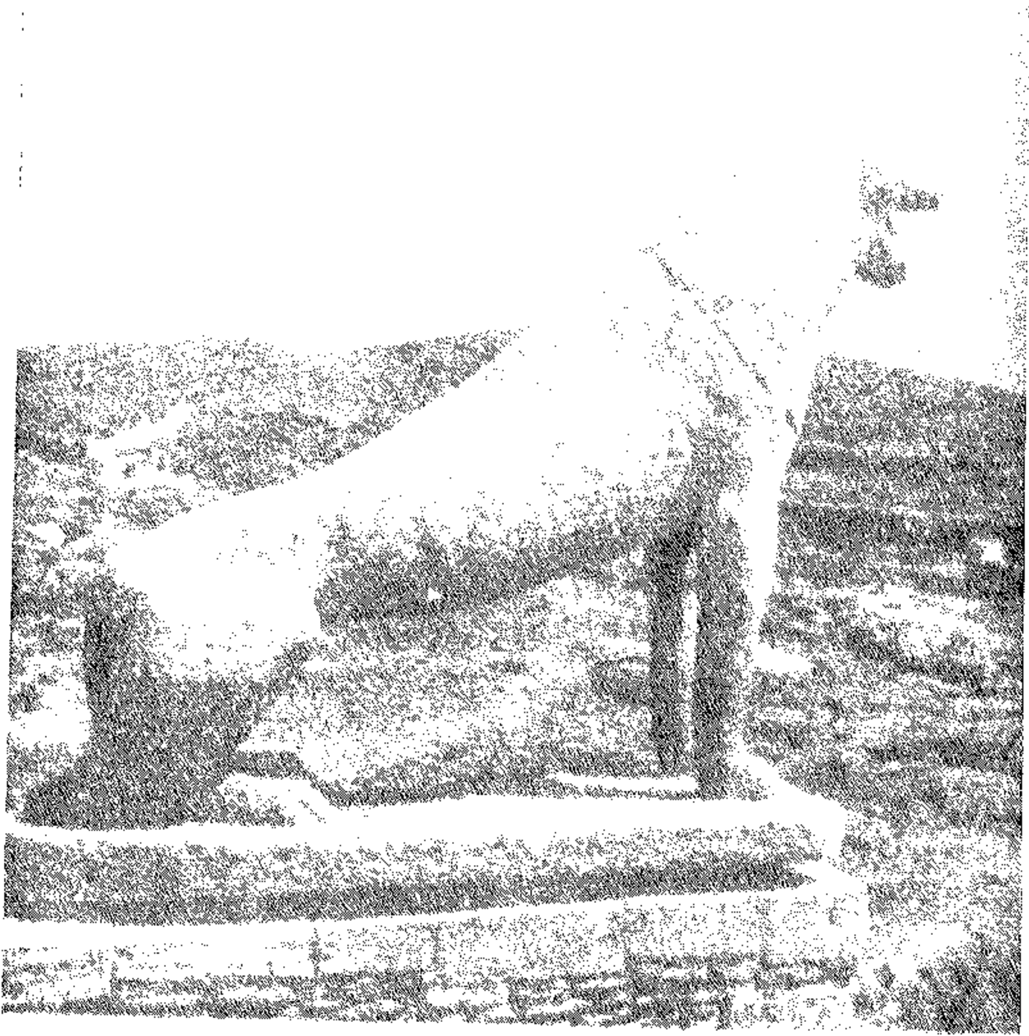

٣١ – طريق الليوثات في ليتوون ديلوس (القرن السابع
قبل المسيح) .

٣٢ – مشهد وليمة هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشتق من اللغـــات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيغيس الليدي المستبد الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقنت العالم اليوناني امثولة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنـالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا او رسّخوا اقدامهم فيها، باستثار تهديد العدو الخارجي للمدينة . ويحملنا كل ذلك على الاعتــقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقيـاس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، الملموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مها يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه يبرزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استسلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحلّوا بقوّة الجاذب والسحر الضروريين لاستمالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدّر لنـا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كثب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالوهة والسلطة ، مما حمى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، مما يثبت وجود نزعات فردية اعمق منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذاك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساغت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توسل الى حجب هذه الفكرة . ولكنهـــا حجبتها حجباً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

منهجية الاستبداد وعمله

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب. فأفادوا في آن واحد من عيـاء المعتدلين وعزوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيـــا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحرزة والمتربية ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يتبنوا احقادها ، مؤثرين على نقيض ذلك ، التعرّض لعدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتهـا عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، عملياً ، استلامهم القلعة والعيش فيها محاطين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتفضيل ، بمظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأنة المعتدلين . فينزعون السلاح من ايدي المتسفين ، ويحرصون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سعوا ، في الحقل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجزئية التي تخدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للديون الذي وصلت الينا اخباره — ولعله مجرّد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد — لم ينهض به مستبد ، بل مشترع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشترع ولا مستبد ، على التوغل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيّرتا عمل المستبدين . وبالتالي ، ارتبط هذا العمل بصفتهم الفردية وبالظروف المحلية . ولكن القوى المتشابهة التي واجهوها أملت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانية . ففرّج المستبدون الكربة عن صغار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الاملاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينا ، شطر هذه الناحية . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسها ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتعهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضل الظروف مؤاتاة . وقد كان لانهيارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخيرون ، في صقليا ، بعد ذلك بحوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسم فلاسفة الاخلاقيات كلمة «مستبد» بمدلول

ازدرائي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك»، سوى فكرة الاغتصاب. فدلّت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القـــانون ، على نقيض من لا يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثما وجد ، الى الاسراع في تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .

الوضع في آخر العهد القديم

لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً. ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي، وان كانت نقطة الانطلاق فيها مماثلة لما في سواها ، – وهذا غير محتمل – قد عرفت تطوراً خاصـــاً جداً . وهي تفتخر بتميزها الذي لا مراء فيه . اجل نحن نرى في كريت اثراً لنظمها الاجتماعيـة ، لا سيا تلك التي تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنـافى مبدأ هذا الحق ومبدأ المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضفي على هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء لتأثيرات قوى اخرى،ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين؟ ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننـا نتراءى منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارستوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها القديمة وتوجّب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً. ولكن هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، تارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا مذ ذاك الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Milet* مثلاً ، وطيلة ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « اولئك الذين يحاربون بايديهم» – أي الفقراء العاجزون عن شراء السلاح – بفئة «الثروة» أو« أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي مجهزي المراكب . وقد اشرك ، تارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيـام مؤسسات تنفرد بها الانظمة الديموقراطية ، في كيّوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير.

تقدم أثينا

خلال القرن السادس ، برزت اثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هـــذا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرة نسبيـــة في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيهـــا بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت اكثر عمقاً وسرعة، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدّل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصادياً قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان غمر البحر اسطول تجاري . وضرب النقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة برّرتها قانونية وزنه وارتفاع عيــاره من الفضة . ثم ان تقهقر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيدي التجارة في البحر الايجي والعلائق ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب. واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقتها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فمنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبـــداد بيسيستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تتراءى في آخرهـــا امكانات وآفاق كلّية الجدّة . ومما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية، ان يحضّر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق. ولم يُقص الأشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيمون وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حيــال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقــاليد ، لان الشرائع لم تكرّس سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب،وليست بعد امتيازات قانونية. وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكليس مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضاً ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسّط فيه . وبالاضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظّر المظاهرات الصاخبة في الجنائز . وحقق كليستين اخيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازاة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئـــات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديموس » تقريباً . ولم تعتمد الدولةالاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بانشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تعد الدولة حرماً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت — ولم يكن بالامكان ان تقوم على غير ذلك — على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما اذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهراه المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهقر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الاشارة هنا الى ان الشطر الاكبر من هذا التطور قد تحقق في اثينا منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذيوله. وقد قدمت اثينا، في عملها هذا، مثلاً ستسير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وان اثينا، في القرن التالي، ستنمي قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الاولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ — التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تعقيداً، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها، من التطور الزمني.

عوامل التطور الادبي

لعب النمو الاقتصادي دوره بفصل الثروة التي وفرها والصلات التي اوجدها او وثقها بحضارات اخرى لا سيما الحضارات الشرقية. وكان محتوماً على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تفيد من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قدما وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية. فاقتبست عنها الكثير مما سبق واشرنا اليه. ولا حاجة بنا الآن لان نجمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بحصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلّموه من الغير، وقد يمتنع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لان الشعب اليوناني، في اعماقه، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة، كما رأينا، لامة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون انفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً. لا شك في انهم اقتدوا

بالسلاطين الشرقيين ، لا سيما الليديين ، اقرب الملوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، ببهاء وجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبنين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسنون وفادة الشعراء المغنين .
ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كمجموع ، توجب علينا الاعتراف ، بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضن بالاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذهنية اليونانية واحدة يا ترى؟يغرينا جداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطق بسيط سليم وتقشف غير رصين متناسق ، والثانية ذات جمال يدغدغ بتأثيره الحواس والشهوانية . فلا مراء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تزاحمهما الصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتلمس وتردد ؛ فقابلوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جساهت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحققت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدينة الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الاسيوية ، فاذا صح ان فنها ينم عن رغبة في الافتنان المتأنق ، فقد كان لها فلاسفتها وعلماؤها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» و«الدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تمثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاحق ، في تطور الحضارة اليونانية .

التنوع الديني

تبدو الديانة كعنصر وحدة في العالم اليوناني المقسّم مدناً عديدة . ولكن الآلهة الذين عبدتهم ينتسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استورده الجنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوبعة . وتحدّر البعض الآخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كأثينا وديمتر . وجاء غيرهم اخيراً من الخارج : من اسيا كأفروديت ، أو من تراقيا كآريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً . فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اغتصاب . وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسيا قد وضع يده على معبد «دلفي» المكرس للآلهة الكريتية العظيمة . واعتُمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتماد اوجه الشبه في اختصاصات الالهة واما بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تعزى للاله الواحد خاصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشمالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة اخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، اذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في اوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالانسان ايضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، الى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخاصيات .

تتضح اذن حقيقة بجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة، فيرى هيرودوتس ان الشاعرين القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدا نسب آلهة الاغريق ، ووزعا عليهم صفاتهم وخصوا كلاً منهم بامجاده وصلاحياته ، ورسموا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء اثر بعيد في الديانة اليونانية . فإليهم يعود الفضل في انهم اختاروا ، من الكثرة الاولى ، آلهة كباراً يحملون اسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموا مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود الى ابعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب، وحتى بتأليه بعض التجريدات الادبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكلَّل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إلهه الخاص به المتميز باحد الفوارق او احد النعوت او احدى الاساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لانه يطلب عوناً واضحاً مادياً جداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام ايضاً . فنرى، والحالة هذه ، ان نقل الديانة الى الصعيد الروحي كان وقفاً على نخبة فحسب .

الطقوس مكونة الوحدة : المباريات

لماذا احرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولاً وتأييداً ؟ ان تضامن الشعب بكليته قد اتضح اخيراً بالاشتراك في الاحتفالات العامة . وهذا التضامن ابعد من ان يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه . ولكن ، من حيث ان التضامن السياسي المقابل لم يحرز اي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بان طبيعة هذه الاحتفالات استجابت لميل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الالعاب الموروثة فكرتها ، دونما ريب ، عن الكريتيين . ولكننا نرى بجلاء ان نجاحها يتفق والمثال الاعلى للانسان كما تراءى للاذواق الارستوقراطية . فهو يدعو كلّ فرد لان ينمي في شخصه ما يمكن ان يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على امثاله . ولكن ما يلفت النظر هوتلك المشاعر والفكَر التي تلابس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهنالك الفكرة الدينية اولاً : يقدم المتبارون بجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بايلائه النصر المبين . وهنالك ايضاً الفكرة الاخلاقية المرتبطة بالاولى : فالإبعاد يصيب الخدّاع وخارق القدسيات والقاتل؛ اما المكافأة ، وهي تاج من اوراق الشجر ،

ليس لها من قيمة مادية . وهنالك اخيراً فكرة المدينة : فهي تذيع الى جانب اسم المنتصر ، سم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجهل كل شيء عن كيفية تكوّن هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدمها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزفس الاولمبي . ولعلّها تقررت للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد : الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية . وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع العابها : سباق الركض ، ثم سباقات القوى الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون في مضيق كورنثوس ، ولزفس في نيميا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوى والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ، وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديلوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايونيين دون غيرهم .

نظـّمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلـّي . وكان لكل اله عيده اي «بانيجيريا» التي تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قد يتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب او بعيد. وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» إلهة مدينة اثينا مثلاً الذي ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ « بيبلوس » . ولكن عدد الاعياد التي تتراءى فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة . وقد بلغ سحرها الاوج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تعلن في كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جلية لحضارة يونانية قائمة بذاتها تتصف بالجلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيمات السياسية وفي تناقضها مع «البرابرة» اي مع الاجانب. وعممت ممارسة الموسيقى والتمارين الجسدية والعري نفسه الذي الهم الفنانين ، واثرت بالتالي على تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصرت على تقوية بعض تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم تتغلب يوماً على انقسام المدن .

التصوف

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبائح ، الا بالطقوس . اما الديانــة ، على نقيض ذلك ، فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيــدة القعر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تفسح مكاناً لتصوف جهله الشعر الهوميروسي جهـلاً تاماً ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمـارس بالولائم الجنائزية وبالافراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اناء دون قعر ، الا افاقاً كالحة عبوسة ؛ ولم يكن استحضار ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم مـــا تحت الارض . فالتقوى البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قداستقبلت بحرارة الآراء والمراسيم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة فغدا الوارث الرئيسي لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فـان الاستبداد الاثيني جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية . وأشرك تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة « الفسيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع على اوليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقـــد خصته ايضاً الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

نشرت هذه الأساطير جمعيـات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان ديونيسوس قطعه التيتان ارباً اربا ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حيـاً . اما الذين نشروها ، تدفعهم الى ذلك غيرة تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد استخلصوا منها مثـلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يجوز الاشتباه بهم . ولا ريب أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بآراء جديدة كثيرة كان نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني الذي لم يفرق بين يوناني و « بربري » اي بين الحر والعبـــد ، والذي لفت النظر الى تركيب الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن ديمومة إلهيـة تنال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً. وحين زالت الجمعيات

الاورفيوسية السجسة ، استمرت نظرياتهـا موسعة وموضحة مفهوم الانسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذاك التاريخ .

هتافات الغيب

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانخطاف أحياناً، قد كان خير معوان لنجاح هتافات الغيب . وتعود هذه الهتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلّم عنهـا ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسّرها العرافون . امـا بعد ذلك فوجود الكثير من هاتفي الغيب يصبح امراً واقعاً وطيداً يستشيرهم الأفراد والدول في مواضيع مختلفة فيجيبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهمـة سوى احدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القرن السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العـالم اليوناني ، هم غالباً من الرجـال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي : ففي كلاروس في ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتـالي ان تفسّر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين بالغيب باسمه تحت عدّ أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كريزوس عدداً منها ويعارف داريوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيدها ، تمثل دلفي اشهرها فحسب . وهو قد طرد منهـا بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاظماً لديونيسوس . ولا ريب في ان هـذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميدية . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ عـلى الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ اكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والمراسم أو باطراء الطهارة الجسدية ، منسجمـاً في هذا مع الاورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ؛ فعبرت النصوص الظـاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتف الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل هتافات الغيب ان انحصر في النطـاق الزمني . وسيقتضي للديانة اليونانية تطوّر روحي آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

الشعر الملحمي

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمن طويل ، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن يسهّل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنـا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الابجدية المشتقة عن الابجدية الفينيقية ، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشمول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورهـا ، وهي

تتراءى في بعض الاوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صنمية وصيغ كلامية ، لا سيا في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهنالك اولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمتناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدّة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والاوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصحّ ذلك بصورة جليّة عن « غضب اشيل » في الالياذه و « عودة أوليس » في الاوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، بامر المستبدين ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافات القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبّت في قالبها في القرن الثامن، على ان الالياذه قد سبقت الاوديسه بخمسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الارتيابات ، فانها لا تنال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة ثأره النهائية . واذا ما اضفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليها سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثالاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجاملة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وبتسليط مخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرّك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالاضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضمان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، بعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أقل جفـاء في كتابه « الأعمال والايام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذّباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافاته واضطراره لان يوفق بين حيـــاته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته

اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ حاملا ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هـــذا او ذاك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنيهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلا ريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالاضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخيره للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتّقاء تهم المتهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولمحاولة الظهور دونما حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . واوجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتحسين والتكييف ، فنظمها شعراء عديدون لم يصل الينا منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشترع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجانب أفضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتّحتها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميتيلينيان في أوائل القرن السادس اللذان لايعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية تافهة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويمجد ألقيا موت مستبد مكروه بنداء الى معاقرة الخمر .

نشأة العلم والفلسفة

كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان ايضاً مهد العلم والفلسفة .

كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقلــه بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولية . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنهـا . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق. وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته. فمن طريق ليديا التي خدم ثاليس الميلي سيدها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهان بلاد ما بين النهرين. واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويعزى الى ثاليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولكن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتها منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبدأهـا على الاقل ، اكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار، ولدت الهندسة مع ثاليس، كما قيل، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان بمكنة الشرق هنا ايضاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تعليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور آلهة اخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتقين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يستدر من تلم يه بنفسه . فحاول ثاليس وتلميذاه اناكسيمندروس واناكسيمينوس اكتشاف المبدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بعدهما هيراكليت الافسسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكرتي الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعاليمهم ؛ فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما اسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور الطويلة فيفسرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب تجسدها التقمص علم اخلاق وقانون حياتي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، مثاراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تعش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق أمام اقداماته المقبلة .

اولوية الفكر اليوناني

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، ابهى حياة عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الاتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورش الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكروتوني الذي سبق وتنازعته مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفاه من التواء في مفاصله ، خدمة للاطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جهلهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذاك العهد قد غدا محتوماً .

ازل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم واكتشافاتهم؛ لا بل انهم سيستمرون زمناً طويلاً في الافادة منها ، بمقدار تمكنهم من اتقان معرفتها . ولكنهم ينهجون فيها نهجاً آخر مستنيرين العقل البشري ، بقيادة منطقهم الفطري ، في الطرق الجديدة التي تتراءى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصدف ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين ومليئين بالاساطير عند واضعيهما ، « الناثرين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشعري . ولكن احدهم ، هيكاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « اكتب ما يلي لانني اعتبره حقيقة ، اذ يبدو لي ان روايات الاغريق المتعددة جديرة بالسخرية » . فاذا كان فضله لا يوازي فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد كما اسندوها هم الى العقل ، انما يشق الطريق ... امام خلفائه .

الهندسة المعمارية

يصح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى ابداع ... طرائقه وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المعبد ، باستثناء بعض التجهيزات الصغيرة ... الينابيع والاقنية وتزيين الاماكن العامة والشوارع في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق . ويشتق المعبد ، المصمم كمسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميغارون الميسيني : سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسمت منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بصف من الاعمدة وزيد على طوله بحيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث امتد السقف الى صفوف من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في جهود التوسيع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة؟ ان البون ، على كل حال ، يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتنافسها . فاغريق الغرب لا يعترفون باية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بابنية الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابدالمشيدة حينذاك : ١١٢م× ٥٦ م في ساموس و١١٣ م × ٥٤م في سيلينونته من اعمال صقليا. وقد حدث احياناً ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتاً طويلاً بسبب نفاد الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات، فاكتفى الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب ١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولمبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن يلفت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذلك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ

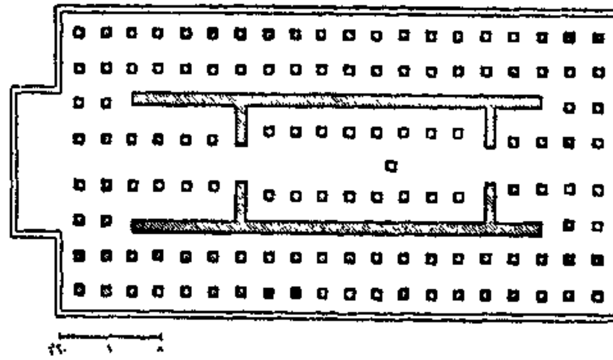

الشكل ٢١ ـ معبد ارتميس في افسس
شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .
اسهم الملك الليدي « كريزوس » في الانفاق عليه . ازدان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين.

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف نتوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة واكثر أناقة وتجميلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرقة والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نِسَب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غِلَظِه المحدّب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يجريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

النقاشة

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد أرتميس الذي حرص كريزوس على الاشتراك في أكلافه ، من

تزيين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حدّدهـا تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة والالوحات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيّقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جهود النقاشين الذين كانوا مترددين خُرقاً في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين، ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلفي ، التي شيّدها اهالي « سيفنُوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجمها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبابرة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطوّرات معركة امام طروادة . وستستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها. والدالة العائلية فيها — يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارتميس التي تلامس كتفه بيدها — وفتنتها وطبيعتها ، خليقة بالعهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عالجتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تتلمذت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيا المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقـل ، كانت حاسمة ايضاً . فتحرر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسّهم المرهف بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق، الذي سهّله ميل الى العري فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دبت الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيـل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلّفها وابتسامتها المفناجة احياناً الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذيوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيا بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية – بينا هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها – اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة» هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه، على كل حال، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة. ومن حيث ان هذه التحف، البديعة احياناً، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالاشارة الى روائعها التالية : النوءات الذابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطاً مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجثمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيفنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوبليت الأثيني ، اريستيون .

سنقتصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنهما ، بقطع النظر عن مصادرهما ، انهما لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لباقة ومزيد من التخنث من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير الشكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا يتنقلون حيث يطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حدب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو ابولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرّج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء – شأن الارغوسيين كليوبيس وبيتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي – كان الجسم ربعة والكتفان كتفي حمّال والذراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دبت فيه الحياة وتليّن وتنقّى ، ففقدت نتوءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيها ، واستعيض عن الابتسامة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني ، وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة المتحفة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أوكسير » المعمّاة او إلهة ساموس » « هيرا » ، بملابسها الطويلة المشدودة التي تتخذ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوّة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « ببلوس » الطويل أو الغلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً اخرى لا تزال تتعثر في ترددها . فكان الاهتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الخضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامها المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطاويها المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الألبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدّل ، وقلّت المطاوي ، وخفّ تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسايرة وحل محلها تحفّظ « الحاردة » الوقور : التي يرجح انها غير حاردة ، على كل حال . فليس بَعد من أمر مشكل: حتى ولو كانت هذه التماثيل مصممة بغية تمثيل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تمثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قد وجّهها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريتها أيضاً ، قد قام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سماوات اخرى .

صناعة الخزف

طرأ على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطوّر الهام والحاسم . ولم يكن في الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان نمت العلائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً، فكانت، في احوال النجاح، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس.

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلالها على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادىء الزخرفية المشتركة : كان ذلك عهد النمط الهندسي. ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشي تتداخل فيه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

الـ « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونهـا ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجّة والصلبـان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتفشة تلبات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهـار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمسوخ ايضاً . فعالج الرسامون علـى الغرين المواضيع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والرمان، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سعفية الشكل ، وكلهـا مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية ايضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقـاء المغربة والتنـين والحصان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالاسود والثيران والكلاب والخنازير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليـد الشرق المخيفة ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافق مخيلة شعب لم تبد له الحياة مخيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجيـاً الى هذه المواضيع . فبرهـن الخزّافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بابرازهم في هذا الفيض الزخرفي وباظهارهم في اوضاع متنوعة ويجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبحفر شق حول رسومهم التي يضفون عليهـا بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، عـلى أسواق حوض البحر المتوسط ولا سيا الاسواق الايطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيرا الى اثينا، المدينة بذلك الى فنانين متميزين بالاتقان والحذق والابتداع . ويعود اشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناء فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمترا ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدوّخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اتروريا الى نهوض اثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساسا الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً، طريقة جديدةفرضت نفسها تدريجيا ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلا من الاشكال السوداء البارزة امام خلفيّة حمراء ، اعتمد البرنيق الاسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي.

هنالك اوان لم تزين باي زخرف وقعهـا الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهـو له

ما يبرره . ومما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا به إناء فرنسوا ، قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابـــة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه باساليبه الخاصة لا باساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذاك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويدا بارعة على السواء . وليس من اتفاق الصدف ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالتـه النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

مراكز الاشعاع

شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم يتح لأية حضارة ايضا ان تختصر بمثـل هذا التفوق ، وبنجاحاتها الخاصة ، نجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابعة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثق بالعالم الخارجي وظروف اكثر مؤاتاة وخدمات بعض الافراد ، دورا يتفاوت اهمية واستمراراً . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجا ، بعض المعطيات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهراً آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، اي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل تفتته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدين الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتنكروا له ، فان ما تدين بـه الحضارة اليونانية لباعثيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدين هذا ابعد من ان يفسّر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . فنرانا هنـا ، اذن ، مهما كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لعبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، وديلوس للايونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العاب القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظه سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في ابولون العرّاف احد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابنيتها المختلفة ، التماثيل والاعمـدة والمذابح و«المذاخر» بشكل معابد صغيرة، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . فغدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعالا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيـا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لا سيا قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من نفسهم واخرجوا منها مزيجاً مضطرماً طرّقوه وكيفوه لاستخدامات جديدة .

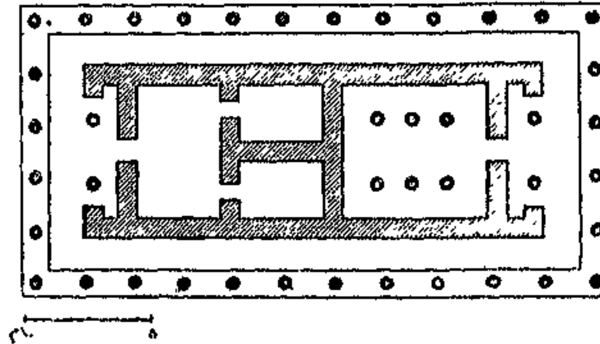

الشكل ٢٢ ـ معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أثينا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليـه اسمه . وسعه أبناء بيسيستراتوس باحاطته بالاعمدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية. فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء، شبيها به في الباوبونيز نفسها . وتوجد اهم مصنوعاته المميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كمبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطىء الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارسه الفلسفية الآتون من ايونيا .

وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليقة بان تحل محلها.

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في الجهود المشترك، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الانحطاط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدراء مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتويوس » ، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تمود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا. اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكمش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوقي . وكان في سيكيوني وفي ايجينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، - بعض السراري المقدسات تكرسن فيها لخدمة افروديت - فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار. فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبيسيستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس، ومباريات المآسي التمثيلية، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية. وبعد ابعاد آخر بيسيستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدّ المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالاً عن الطريقة الايونية واقل انقياداً لها ، لاسيما على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الخشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديمة القيمة والاهمية ان لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميدية.

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب الميدية صراع بين عالمين خاضا غمـاره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تعبىء له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . امـا اغريق شبه الجزيرة فقد وعوا وعياً تاماً ان مصيرهم يتقرر فيه . ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ، حرروا الوطن ، حرروا أولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجداث جدودكم ، فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرفي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطحياً فرضه الخطر المداهم مـا لبث ان تفسخ غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عمياء مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليـغ ، والثانية تسير قدمـاً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعلة بقوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقهـا بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية . ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشوائب الداخلية
في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندوحة الحضارة اليونانية

انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين نستقرىء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن انتصار الفرس ، لو قيّض لهم الانتصار ، ان يجمّد هذا التطور ، لا بفعل تعسّف يلجأ إليه خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجاء يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البديهية التي كان من الطبيعي ان يوجدها وضع لا يقوى اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس. فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشعّ ؛ وحافظت بعده ، في المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارها أن انطفأت ، بعد ثورتها التي قمعها الفرس بكل شدّة . وسيصبح من المحتم عليها ان تنتظر الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كيلت لها حينذاك . وما كانت اليونان الاوروبية لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاتيا . فإذا كانت ، على الرغم من حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل ما كانت ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضغط الفارسي القسم الساحلي الآهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأتاحت

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وساندت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ومن ان تفتح ابوابها للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توفقت، على الاجمال ، الى ابعاد خطر الاعداء عنها . فردّ المستبدّون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ وهجوم الاترورين (الاتروسك *Etrusques*) بعد ذلك بزمن قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسيليا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ،أو ان تعيد تأسيس القديمة منها . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصّلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حرية حركاتها واستطاعت، في القرن الخامس، ان تتطور وفاقاً لسنة مصيرها الخاص .

الحرية والتسلط

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بابعاد الخطر الأجنبي، من الشوائب الداخلية . فبعد أن تُرك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدينون الى اتحادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات التي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر والبونت ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورهم . أما في صقليا وايطاليا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة ومجردة عن الغاية . فهما ، بجرهما وراءهما المدن التي يستهويها الصراع ، وبتحرير المدن المستعبدة، وبمساندة تلك التي يهددها الاجنبي ، انما استهدفتا جمعها تحت ادارتها لا بل ، قريباً، تحت امرتها. فأسستا امبراطوريات ونزعتا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها. فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتثاقل ويصعب تحمّلها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافات حول الحدود ، والاحقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصميم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه احياناً لخنق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هذا الخطر . لقد خلا الجوّ لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

أستهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسّرت هذه الحرية، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لخضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بوحي احقادها وفي ارواء غليل أطماعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوبونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هانئة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوريبيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم » . وأفضل تعليل في نظري هو انهم يهوون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ » . ولا يصحّ هذا التفسير في البلوبونيزيين فحسب، بل في كافة الاغريق ايضاً . » فاستهواء النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حدّ بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع .

حالة الحرب حالة طبيعية

كانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة . فمنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثينا اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدّت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذ انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشتى الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار، ان هنالك نزعة عامة مماثلة على الاقل . اجل، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر الجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حربياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا الجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كأداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرّس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسطاً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحر . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

الحروب : الاساليب والخسائر بالارواح

لما كان للحرب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ، اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الا نغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن بمكنة أية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التقتيل،اذ ان القتل بحد السيف أو باسلحة الرشق، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة،من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذافون لا عدة لهم ، يجندون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من الجاذيف يمخر البحر برشاقة ، وقد زوّد في مقدمته « بجهاز » برونزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو ركاب المركب المبقور في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم.واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات الجاذيف، يتركهم لمصيرهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنتصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ريح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للاسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهك بحارته فيذهب طعمة للعناصر الثائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقتل من الحروب البرية .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد، ووفاقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي، كما تمشت عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لاكيديمون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة.لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على جبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تخرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولّي المغلوب هارباً، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته. فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات أكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرتهم وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موتاه ويحتفل بجنائزهم احتفالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسرته ويلتمس هدنة لجمع موتاه واستلامهم .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قواهم بسهولة، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على الجماعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصَر ، ولكن مؤنه تستنفد ايضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بحصيلة غزو الارياف المجاورة . وتنتشر الاوبئة بين الجنود المعسكرين في الهواء الطلق . ويقترب فصل الامطار أو تشق النجدات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الغرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوتيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك ايضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة جند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استماتوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحوّلات جذرية سبق وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفني ألف هوبليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في ايام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتفضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او يمنعونهم على الأقل من جمع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الضخمة المتقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لاول مرة ضد القرطاجيين فأباحت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذلك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افناء قواته المنظمة ايضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغلوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسر الأثينيون ، وكان عددهم عشرة الاف تقريباً ، ألف قتيل وألفي أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاسم يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد اصبحت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يمض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيلبوس ، بعد انتصاره الخاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونانيين بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في حرب هي احدى مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كمجموع الى خسائر اكثر فداحة .

الحرب : قانونها وويلاتها

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة . عرف القدماء وطبقوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيلبوس ويزعمون التميز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز، اقله فيما يعود للأرض ، بقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تتعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يجدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين. اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تميز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فظاعة مثل هذا التقتيل الذي لا يجر اي مغنم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين طريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حق الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادراً ما يطبق قانون الحرب هذا بحذافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة طويلة او غدرت بعدو المحاصرين قليلاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثأراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الاقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين ينتظرهم الاستعباد كمصير طبيعي، وليس سوى اقامة السلم ما يتيح لحكومتهم تحريرهم بتبادل الاسرى، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة افتدائهم بالمال. واذا ما فكرنا بفدية الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعلينا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الويلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب الذي يبقى في منأى عن الغزو لا يمنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعوض بصعوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن العجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة المجندة . اما المغانم فالقسم الاكبر منها يبذر تبذيراً ، ويجب ان يقتطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للآلهة الذي تزيد من اهميته ، يوماً بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . ونادراً ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . ولن تصبح الحرب صفقة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مردهرة حكامها يكنزون الاموال . فسبارطة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكدس الثروات قط ، وكل ما حققته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جنود جيشها الذين هم مواطنوها ، دون ان يقوموا الى جانب الجندية باي عمل مأجور . ولم تستطع اثينا كذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد ما انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . اجل ، قد اتاحت لها قوتها، من جهة ثانية، تأسيس امبراطورية غذّت خزانتها وأثرت تجارتها. ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلاً.

اما الاراضي التي يجتاحها العدو فتعاني الأمرّين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي، سوى نهب المحاصيل أو اتلافها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . امـا في المدن ، حيث يلتجيء الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاوبئة والحرمانات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباهت بانهـا تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكاترا ، بان يجتـاح الطيبيون اريافها الخصبة حيث يحرث الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانهـا لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتكررة ، تأمين الاستقرار الهانيء لفلاحيها .

التجنيد : مبدأ وواقع

كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربيها ، اقله في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك المعارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوبليت أبداً الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ، بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي، كان مقرراً ومعترفـاً به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكان من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استلزمت الخدمة الجدية في فرق الهوبليت المشاة تربية عسكرية سابقـة وعدّة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيـه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوبليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمـل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقـات الفراغ والبحبوحة مكنّته من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي يوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمّل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عـدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدية الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبعه غيرها إلا ببطء، في التعويض جزئياً ، بعمالة يومية ، عما يتحمله جنودها من نفقـات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان اثناء مرحلة تمرينهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت، إلا في حالات الخطر الداهم التي تضطرها الى تعبئة اكبر عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلا غير مباشر بأن أمنت لمواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعوّ لخدمة وطنه كجذّاف في الاسطول البحري أو كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزوّد بعدّة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت. وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود، الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هـذا الوضع ، لم ير فيه بعض المعاصرين ، ولا سيا الفنيين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود، لمن الناحية الجسدية ، تخشّن الحياة الريفية اجسامهم وتدربهم على التعب والأسفار الطويلة والعيش المتقشف ، وتشهد خفتهم بممارسة القنص. ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الاراضي المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالممتلكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشدّه اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفيين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع. « تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقولها تحت رحمة الاقوى ... لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولنقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخلي عن الارياف والمحافظة على الاسوار في هذه الحال... لا شك في ان الفلاحين يقترعون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يمعن التفكير . كل حضارة مدينة لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنيتها أو مفاهيمها العسكرية بمثال للجندي لا تترد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط، والفارس بالمشاة السمجين، والابن الضال بأبي العائلة، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه المقابلة مبدأ تسمى وراء نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في ايامه واقعاً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الأكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيهـــا جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحرثون الارض ولا يمارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافيـــاً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيهـــا ، أي الى فلاحيها الاشداء القادرين على التسلح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليـــاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سواعدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلين في المدن اليونانية ،هنا ايضاً،الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

الثورات الدائمة

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون إثمار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تنضم ويلاتهـا الى ويلات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني باسره حينذاك ، بعد ان مُزق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو تعليل هذه الاستراحة المحيرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير انـنا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل نجهلها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلهما وترمز اليهما وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البلوبونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عمليا كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بخطورتها واستمرارها وشمولها ، عن نزاعات اجتماعية اكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالا، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضا ، استصعب الفقراء حياتهم مـــن جديد فحلموا بالبلبلة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور،لم يعرف الى الهدوء سبيلا، لا بل انه ازداد مـــع

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضا . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة، قد عرفتا سلماً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً، يجب علينا الا نغرر نفسنا به . اما المعلومات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامــة على الاقل ولاستعادة « مناخ » الاهواء الثائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعمد الاحزاب المتخاصمة ــ التي قد تتقاتل احياناً ــ الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعهــا لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي، اذا لم يكن من عضد غيره، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندمـا يبتسم الحظ ، يعوض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعـادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبعها الدولة . ولكنها ، تصبح من الصعوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنت او انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبـة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حدّ لهـا من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدوم الحرب الاهلية الى مَـــا لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

العوز والنفي والارتزاق

هدّد الخراب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين من وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأود عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طبيعـــة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يحـــدّد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معاول وعلة معا ، في خطورة معضلات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة او ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد المخاطرة بحياتهم تأميناً لضرورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتزاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً، وعلى نطاق واسع،منذ اوائل القرن السادس . وتبرز اطلالتـــه ابان حرب البلوبونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبـيراً ، اذ ان اولئـك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينيـــة الى المراكب اللاكيديمونية ليسوا في الحقيقة سوى طغمات المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعلوماتنا

القليلة لا تسمح لنا بابداء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطىء البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فما من ريب ان هؤلاء العشرة الاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فكم بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تفرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنتين ٣٣٤ و ٣٢٨ قد جنّد تحت امرته قرابة ٤٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وشجع غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « النزل » من جموع المنفيين لم يمنع ٢٠٠٠٠ مبعدمن الاجتماع في أولمبيا في صيف السنة ٣٢٤ حين شاع الخبر بأن أحد موفدي الاسكندر سيذيع فيها امراً صادراً من الملك ومرجهاً لكافة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ايضاً وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للتحول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم ينجم عن اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه ساهم أيضاً في تعميم الحرب ايضاً ، لأن الحرب اصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجندين مهما كانت جنسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذّت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فأفضت المنافسة ، التي ألّهها الشاعر القديم هزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفضت بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقلوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقائها ، بقدر ما عجلت تقهقرها ، بحرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قط في الكلام عن أهمية الـ « بولس Polis » ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب ، بل تعطيها ميزاتها الرئيسية ايضاً. فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بجوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضب نسغها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ – سيادة المدينـــة

المدينـــة
La cité

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها. فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ « ديموس » . ولم تأت الكتابات الرسمية في يوم من الايام على ذكر « أثينا » أو « لاكيديمون » أو « الجمهورية الأثينية » أو الجمهورية « اللاكيديمونية » ، بل اقتصرت ابداً على « الأثينيين » او « اللاكيديمونيين » ، « مدينة الاثينيـــين » او « شعب الأثينيين » ، « مدينة اللاكيديمونيين » او « شعب اللاكيديمونيين » . فالمفهوم اليوناني ، اذن ، انما يفرض عـــلى وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحدّ اعلى (حتى ان أفلاطون قد حدّده بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على اثينا ، مسارعة او مداورة ، انها قد جمعت اكثر من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : « لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجـال ، كما أن عشرة آلاف لا يكوّنون مدينة ايضاً » . وجلي ان السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في اخلاقـه ايضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينـة التي هي قلب الـ « بولس » . وفي حالة الخطر ، تؤمن أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (اكروبولس) مرتكزه الأخير . هنـــا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهنا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودهـا لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبليـة والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتتين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجنّي عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبـل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررهـا حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المُخضَعون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحيـة الحقوقية ان المدينة تعامـل بالمساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونهـا استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلّـفها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مـع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلهـا بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردّها الى تشتتهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

سيادة المدينة الخارجية

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة . لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يحدّ من مندوحتها . فهي تقر ، لا بل تعلن ببعض التيه ، انها يونانية . غير ان انتسابها الى مجموعة عنصرية اكثر منهـا اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كعبادات اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقـد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لمغزى كبيراً . كانت اولمبيا مرتبطة بمدينة بلوبونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرّافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وايام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرّتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الايجازي ، لو اكتمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكيم أعلى يتولاه جهاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنتان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتذرع بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمّرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكيّف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى اولاً ، والتسالين *Thessaliens* قبل الحروب الميدية ،وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني اخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت ايما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعتها الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتعهدات دولية تراها متوافقة ومصلحتها ، ما لم تضطرها قوّة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصلحتها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلّظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدّد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنقولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالفوسيديين

والايتوليين الذين لم يكن لـ « بولس » عندهم حيوية او وجود ايضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلـك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً بيّناً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعيـة للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للمدن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منهـا بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يجوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قيض لهـا نمو طبيعي ، لانتهت الى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقـال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية، بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتاة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطـار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائـل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد مـا يرى في غير مكان . ومما لا شك فيـه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤد الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانـه قد أفضى ، على الأقل، الى ارتخاء روابطها الداخلية واضعاف بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عمليـاً على ادارتها : ولكن مجرد نجـاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلق انطلاقة مشجعة لدليـل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعـاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر مخيّرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتيح للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحيـة بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاًحريصاً حذراً حتى ذاك التاريخ ، بغية ايجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثـال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس »،واملته الضرورة، لانه يحاول بشتى طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حـد نهائي للتفتت الاقليمي الخاص .

المدينـة والفرد

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والكائنات على السواء ، وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقداستمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديموقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتهـا . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطل الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليغارشية) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يستهويهم ، على الاقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا مـا نظرنا الى مبادىء تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً، كأكمل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تنعت بهـا مواطنيها برهان قاطع على ذلـك . فالاوليغارشية الحقيقية تقوم عـلى اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينهما هيئات وسيطة او اطارات اجتماعيـة منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكّلة وفاقـاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عادات البنوّة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل مـا يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة مـا يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابهـا . اجل ان هذا التطور يحرر المواطن من الروابط التي تقيده . ولكن المدينة ايضاً تفيد منه لأنها تصبح أمنع قوة وطليقة في ممارسة سيادتهـا المباشرة الفورية عـلى الافراد المنعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشيين ميل نحو سبارطة سبق ونما عندهم بفضل عدائهـا للاستبداد، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها السُلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينـة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفهية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادىء فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جـاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظلـماً وعدواناً مناجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا مـا حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاعدارها ، شأنه في تحاشي احدار ابيـه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيـه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه ، لانها تفرض على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفيات مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانهـا

ـذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتنال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك لاعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تماشي « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل اعطائها المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعيها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن اعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل باجراءات محددة . فليس اذن، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيبقى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيب للاثينيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها – وقد عدّلها كليستين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها – تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فمحافظةً على الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهملتها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تقض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشمئزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد المقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصدائها واجملها في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، اباحة الفرص لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمري هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضة ؟ وكم منهم كانوا مستعدين لتكييف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحييزه . . .

وعلى الرغم من بقائه نظرياً في غالب الاحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فان هذا المثل الاعلى يمثل واحدة من أثمن معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ – خطوط التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية

بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالاضافة الى مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . واذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدّة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشإه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثل على ذلك : فالملك (الفاسيلفس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفاقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات المخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا ايضاً تشذ عن القاعدة . وليس من أقل ميزاتها ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الاريبونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقوّاد جيوش . ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهيبة الى الامتثال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتّان، في سبارطة نفسها بين، ملكية اليوم وملكية الازمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء لملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولا سيما في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهنالك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفينيقيين الساميين القوية ، المقيمين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالاضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشّعبين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . ومما يلفت الانظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علائقهم

بالاغريق ، بلقب « الفاسيلفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجـلال في الملاحم الهوميروسية . ولن يعمّ استعماله من جديد إلا بعـد الاسكندر . فكأن مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالاجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحـكم الفردي بوجـه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كاف لأن نرى ، في نظـام الحـكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ. فالاستبداد، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وايطاليا الجنوبية مثـلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسهـا التي أتاحت له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضـاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاترورپون في كومس (٤٧٤) ، حـكم على عهد سلالة الدينوميتيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعـل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدا الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولا ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستثمراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانيـة ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذيول الأزمة التي تمر بهـا المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

فـ « البولس » الكلاسيكيـة تخشى الفرد المتفوق الذي قد تـكلفها خدماته ، اذا كان لـه من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانهـا لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاهـا . لذلك فليس من احتياط لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظنّة مهينة في نظرها . فلا يدوّن اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنـه عرف بانتصار الاثينيين ، ولا ان يدعو انتصار ماراتون باسم ميلتيادس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لغده او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمـله . فمها كان من احترام بريكليس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقـد قوّى التطور اللاحق هذه النزعة . اجـل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

ألحت للقواد المنتصرين مزيــداً من الشعبية . فإن حرب البلوبونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لهما ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق. وهكذا غدا القواد منذ ذاك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هـذا الحماس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة، او خيبة الامل فقط ، انهيار صنم الأمس مع مـــا يرافق هـــذا الانهيار من حميا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظمة طيبة ايبامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرهما من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينـا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جـداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للغرامة او النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظِنّة انهـا من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط اولئـــك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرها . وتجدر الاشارة هنـا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وقفاً على المدن الديموقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليغارشية ايضاً حيث تسيء الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائهــا . لقد قيل الكثير عن الحسد الديموقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظـار بسموّه عن المستوى الــعام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية « البولس » . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصيَة ويستبدل النواميس بارادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصيّ بوزانياس الذي انتصر في بلاتيـا ، كما ان أثينا لا تزال تخشى قيام ببيسيستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثهـما مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهـــذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

الجمعيـــة

ان هذه المبادىء العامة التي اتفقت الاوليغارشيات والديموقراطيات على الأخذ بها قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون. وقد تتفاوت الاهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذهنية والعادات التي تسيّر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقـدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده)على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بآراء مستشاريه ، وفي

الظروف العامة يدعو الجمعية للالتئام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة، إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة جماعية . لذلك فان الشروط العامة لعلائقها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلفت انظار الرومان الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة تافهة لهـــا مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانيـة يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجـــات معدّة في الارض المنحدرة . فتثبت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتهـا الاولى النافذة ، كما سيخال لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجـّاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد آثر الحكام في سبارطة والمدن الاوليغارشية تجنب الصعوبة على مجابهتهـا . فالجمعية ، وفاقـاً للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفعـل فيها أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيّنة فتدور حول دخول الجمعيـــة الذي وضعت له في المدن الاوليغارشية شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي يحدّدها غيرها حوالى العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في مـا تفرضه عليهم من رسوم مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين مارسوا ، مهنة او تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المـــدن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية داخل الجمعية لا سيا حق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعـل من هذا المبدأ حرفاً ميتا في المدن الاوليغارشية ، ممـــا يبرّر تباهي الأثينيين بأن ديموقراطيتهم مبنية على « المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرّد تشابه سطحي فحسب . فانما هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوّض به احد : فاليونان الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه الطريقة بالطريقة السهلة ، عـلى الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي احياناً الى مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينـــا في خلقيدونيا او في الخاليسبونت (الدردنيل) ، محتفظة لهم بحقهم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس من نفوذها ، أعني بـــه الخوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقة التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالمساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كفئات ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابداً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلمس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الخشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

الجلس

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليغارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليغارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعدّ هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليغارشية توليه ، بالاضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . ومما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله بنوع خاص ، يمكن ان يحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خفّضت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للمناقشة او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون

لكل مدينة يونانية ، اخيراً ، قضاتهـا المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقـــة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مــــكان ، ويستخلص منها – وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الغرار – ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياط الا ويتخذ حياله .

يعين القضاة لسنة واحدة فقط،وباستثناء الرؤساء العسكريين – وقد تأكد هذا الاستثناء في اثينا – لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الاقل . وهم كثيرو العدد في كل مــــكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة اصيلين . وقد تمشت روما ايضاً على هذه المبادىء الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاة في اي مــــكان ان يتخذوا ، مبادهة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب، حين يقودون الجيش ، اعطاءهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي، في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس ولمراقبة الجمعيـة أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائماً بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليغارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هـــذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمري دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عـــن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائماً الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليغارشيات والديموقراطيات: المواطنون الايجابيون والمواطنون السلبيون

اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجـــه التشابه بين الاوليغارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هـــدف الاغريق الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهـذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبريين للمدينة والمواطـــن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاضد المتبادل . فصوناً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تفاني مواطنيهـا الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليغارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمري يمر الخط الفاصل بين النظامين .

ترفض الديموقراطية التفريق بين مواطنين ايجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أثينا المثل بقوة منطق لا يتنافى مع حدّ ادنى من التسليم للضرورات العملية بنوح خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاء او لأهمها على الاقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فيما خص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاتيك وان يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية : فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهربا من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلا . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نفسح مكاناً خاصاً لكابوس التأثيرات المالية والنسبية والدسيسة العادية والمخاتلة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديموقراطية واثمن فتح حققه « الديموس » .

على نقيض ذلك ، تفرق الاوليغارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبارات السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليغارشية ، بل اوليغارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبر ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بحنين دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشراف ، بفعل تفوقهم ثروة و « صلاحاً » ، يبسطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلّم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون — اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ – الديموقراطية اليونانية

تقدم الديموقراطية

من الخطأ الفادح ان نتصور ، انطلاقاً من اولوية أثينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس، ان الديموقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذاك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة، بفضل هزيمة اثينا في حرب البلوبونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديموقراطية ان استقرت في اثينا، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات، حتى الاوليغارشية، على الاستقلال، كافية لأن تتنفس الديموقراطيات الصعداء في كل مكان.

استمر تقدم الديموقراطيات طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديموقراطية الى اليونان البرية حيث تتوسع توسّع بقعة الزيت. ويعود الفضل في وثبة الديموقراطية هذه ، قبل اثينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديموقراطية وتعممها في كافة انحاء بيوسيا ، بعد تحررها من الاحتلال اللاكيديموني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوبونيز ، في اقل المقاطعات الجبلية تطوراً حتى ذاك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطىء من يعتبره خدمة جلّى للاوليغارشيين، قد اخر هذا التطوّر تأخيراً لامراء فيه. فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديموقراطيون اجمالا ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي افتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون، بين هاتين المثاليتين لا يدع مجالا للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي. فالاسكندر يقيم انظمة ديموقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديموقراطيين في اليونان نفسها. ولن يبقى للاوليغارشيين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديموقراطي ، واقعاً آخر غير ديموقراطي.

فما هو تعليل اندفاع الديموقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، وامهاهبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوبونيز . فإن هذه الحرب، بحد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امدها.

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقبتها وأتت على مــا سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعضعت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستترة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدّرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرهـــا الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بحدتهـــا ، موجزة وممتقة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديموقراطية لأنها تتفق ، اكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقـــل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستتبعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب، لإيقاف الدفعة الديموقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفق إليه ، على الرغم من حدّة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديموقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

حدود الفكرة الديموقراطية اليونانيـــة

بيد ان الديموقراطيـــات اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحدّ . وقد يستهوينا ان نصمها بالتناقض لانها حصرت في مواطنيها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحهـــا لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حيـــاة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحيـــة الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدّنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرّد اشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديموقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنيهة واحـــدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحدثات الشرعية التي رافقت بعض مـــا طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعيـــاً رافق تقدمه تقدم الديموقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطـــاء صفة المواطن لمبعدي المدن الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعـــادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيـــل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومـــع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارهـــا الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقلّه في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبـــات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميزهم عنهم،على هذا الصعيد، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفاقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسمهم الاشتراك فيها إلا بحصولهم على صفة المواطن ، وقد بخلت أثينـــا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها اثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّى في مختلف الحقول. ومن النادر جداً ان يكون المَنح جماعياً .

من أوجه التناقض ايضاً ، أن تتبنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعته العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل– وفي غير أثينا ايضاً – حق لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً: وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثـــلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ – ٤٥٠ والذي اقترحــه بريكليس نفسه يقصر المواطنية على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليهـــا إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغالاً أو اجانب . وليس استصدار هـــذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكليس اولاده الذين أنجبتهم له أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي انجبته له أسباسيا الميلية .

الديموقراطية والاستعمار

كان بريكليس هذا نفسه منشىء الامبراطورية الأثينيـــة الرئيسي في القرن الخامس التي قضت عليهـــا حرب البلوبونيز والتي أراد أثينيّو القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمكر في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعبء متطلباته الثقيـــل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديموستينس الذي توفق فعلاً ، في بعض نفحات خطبه الرائعة، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالهـا . ولكن خطباً اخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيــل تأمين المساواة بين المشتركين في المجهود العام لم تكن سوى مجرّد حيل اخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفاقم . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثـلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها للحضارة اليونانية : فقد سبق لبريكليس ، اذا صدقت رواية توسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجـل ، ولكن المعلّم قد تقاضى بشتى الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينةيونانية توفرت لها الامكانات، بفعل قوتها ونفوذها والمبادىء نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخـلي ، لتحطيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسموّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنهـا تهربت من هذا الواجب . فكم كنا نتمنى التوفق الى بادرة او بداية ، ولو وضيعـة ، تتم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلمس شيئاً يذكر يوازن ابقـاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ — ٤٥٠ .

الديموقراطية اليونانية وليدة زمانهـا

تبرز الديموقراطية الأثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا العصرية ، وكأنها أوليغارشية فعلية لا يميزهـا عن الأوليغارشيات الحقيقية سوى انهـا اوسع عدداً . ولكن المفاهيم العصرية لا تكوّن قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالهـا يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمـة بالرق كضرورة طبيعية او كواقـع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحيـة السياسية بمن يبقى سيّده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديموقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابـة بالتالي في ان تكون احدى الاوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنية السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامحهم الزواجيـة ووشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقـد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انماء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليهـا نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديموقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدّل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفسح مجالاً لمثل المدينة الاعـلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودهـا الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالهـا سليماً ومؤمناً إلا اذا اقعدته على سيادتها . فإنمـا هي انانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي ترتدي ، بانتقالهـا الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنية المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بهـا . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجه التجاري وعلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنية ، لأن من شأن هذا الادخـال ان يغتمر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيهـا جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرّد قرى ؟ لو ان هذا الحلم، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثـل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبثبوتها في وجـه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ – ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضـاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الفصل الثالث

الحيــاة المــادية والاجتماعية

١ – المجتمعات الريفيـــة

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جــداً . فالأسفار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافىء تتصل بهذه المرافىء وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط. لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تُقايض المحاصيـل إلا بقدر محدود جداً. فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلهــا وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكوّن عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخــاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

كبار الملاكين

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انمــا هي تلك التي تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثر فيهــا المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيا الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحظيون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيــح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعيــة الجديدة . فإليهم يعود الفضل في انتشار استعمال الاسمدة والمروج الصنعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلـك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتاب « الاقتصاد » صورة مثاليــة للسيد النابه

الذي يتلقف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الخيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كثب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأملاكهم لجدودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هواية التمارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنداروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون لحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عباداتهما كإرث خلّفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغناهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبيلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

الفداديـة

وهنالك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً بمراقبة رئيس للعمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدها احد قبل الرأسماليين الرومان . ولكن الفدادية واقع راهن هنا او هنالك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقتهم باقطاعات لم تمنح مواطنيها مبدئياً سوى حق الانتفاع بها . ينشىء الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هواهم قطعة الارض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي خُصصت به هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الاقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فدادي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيّد . اجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي نجهل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمل العدّة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعّب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشُرطية التي تتخذها سبارطة بحقهم : كاطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فدادي يتجول ليلاً ، وكتحظير حمل الاسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتبهون خاصة بالمسّينيين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب حبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مسّينيا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفدادي ، كمزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفدادي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

صغار الملاكين

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان. فهنالك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني به نظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكوّن بلا مراء المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سعى وراءها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراءها في الشرق ، متتبعين خطى الاسكندر ، او ملبين نداء الملوك الهلّينيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها مأثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرها الذهبي . فلا أجانب في الارياف لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حق تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . فغدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتيتاً من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسّع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قِطَعاً قريبة منه قد تبقى بائرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقتير حطّابون وفحّامون تعودوا شظف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلأ والزرع . فالمروج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدنٍّ من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد. وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العميقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنية المتأخرة، ترك الارض بوراً سنة بعد سنة وحراثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيهـا . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجيـاً ، وبالتالي بعض المـال ، سوى الاشجار المثمرة كالتـين والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابه رؤوس اموال ينتفع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزه لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطمع عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه، يشعر، في استقلاله ، باعتزاز حلال. ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز حبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وكمحلّف او قاض صغير . وتغريه هذه الوظائف بنوع خاص، عملياً ، حين تحول سنه دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكّر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومـه سعياً وراء ربح بعض الدريهمات . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحيـاة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمـل على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الارض الموروثة عن آبائه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون تململ ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصائده ، عدّة الهوبليت التي هي إرث والديّ ايضاً. ولكنـه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعـام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبـة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها السماحة . ورغباته المتواضعة وافراحه المبتذلة وشقاوته هي التي احاطهـا أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ — المقايضـات

الاقتصاد المركب : شراء وبيع

لم توفر هذه الحياة الريفيـة للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ، حتى عندما امنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية، في اهنأ ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضؤلت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وايطاليا الجنوبية ومصر وشواطىء البحر الاسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأن تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسدد اثمان المواد المستوردة منها . فباعتها النبيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتها ايضاً ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « الفقر ، شقيقها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نموّ اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولاً تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانته . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسطاء والسماسرة في جميع انحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصرفي .

المراكز الاقتصادية الكبرى : أثينا

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافىء القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والآهلة بسكان عالي الهمة او كثيري التعرض للفاقة ساعدتهم ايضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها نفوذها وقواها العسكرية ، التي امنت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدناً اخرى او تستفيد على الاقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، التي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنية بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عقلياً . وفي ايطاليا الجنوبية ، نرى طارنتا ، وان لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي ايضاً بروزاً نهائياً خدمها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضا او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فتسقط خلقيس وايرتريا وإيجينا او تزول امام نمو اثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارتها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للاتجار مع صقليا وايطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لا سيا وان الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انهـــا تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مراء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليهـــا حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزائنها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمراكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيهـــا على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تنعم بـــه على ذيوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذاك الحين انــــه اداة دعاوة نافذة . تساند قوتها السياسية نمو قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نمو قوتها السياسية . فأثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عـــن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كِسَرُها على الشواطيء الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقـــاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا مـــا أردنا الاقتصار على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لهـــا بان تضرب ، باعداد كبيرة وبربح قيم ، نقوداً مرتفعة العيار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكوّن ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، الـــتي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جـداً ، مركز اقتصادي يتصف بلتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية — ايغوسبوتامي في السنة ٤٠٥ — او رقابة يفرضها عدو برّي — الملك المقدوني فيما بعد — على طريق المضايق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ — المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع انحاء اليونان . ولم تنشط الحيـــاة المدنية الا في بعض الامكنـــة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنهـــا وضيعة في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بهـــا اولمبيا اولا . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيهـــا انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراؤه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والخامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

امـــا في المدن الكبيرة فنعرف ، عـــلى الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

الحياة في سبارطة

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قـــد حيرتهم في الوقت نفسه بمظهرها الحقير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كوّنها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعـــة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعـــة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندية ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهـــار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الخيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غـــير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفريضة العينية المتوجبة على الفداديين في املاكها تكفي نظريا لاعالته وإعالة اسرته دون ان يقوم باي عمل .

كان من نتيجة هـــذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جـــانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفداديون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مـــدن صغـــيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسهـــا ، اى المواطنون المنحطون والانغال والمحررون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهـــذا الانضمام ما كانا ليمنحا الا بقرار من

السلطات ، على ان يتملك المستفيد منهما ارضاً منتقلة اليــه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظيين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة العــائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفدادين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجــال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوبونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرافاً كلياً على تربيتهم ، والسلطة التي تمارسهـا المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل . ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يُحتفل بهـا بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيـام الجوقات بتوزين مقاطع شعر قديم . فبسبب جمودها في تقاليد تتباهى هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطهـا به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عــن بحر ايجه ، وبتحظير السفر الى الخــارج على مواطنيها والاقامة فيهــا على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبــة الحضارة اليونانية .

فشتان ما بينها وبين أثينا .

مناجم وعبيد الـ «لوريون»

هنالك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حيـاة ريفية تختلف عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ « لوريون » جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار مناجم الرصاص الممزوج بالفضة ، هنــا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، تؤجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تكرس لهذا الاستثمار اموالاً هامــة يؤمن المستأجرون بواسطتها حفر الدهاليز ، واثمان المواد وأجور اليـد العاملة المتمثلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلاً لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيقياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوبونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي . اما كسينوفون ، فقد اقترح في كتابه حول «المداخيل» الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بامكانها ، بفعل قدرتهـــا على تخصيص الاموال الكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقات تأجيرهم لملتزمي المناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تفضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم بإشراف ملتزم يسعى وراء الكسب السريع ، ولا يهتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرها بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهاليز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخّنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كئيبة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوبونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتّيك في سيرهم للقضاء على أثينا ، حطّم عشرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياف التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم ايضاً انفجرت ، بعد ذلك بزمن ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وايطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تخيل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

العبيد المدنيون في أثينا

ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون باعداد كبيرة في مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون هنا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بعظمته عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الاربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحدّ وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعة او « المربي » وبين الولد الذي رافقه هذا المربي في نزهاته وعني بتربيته وتعليمه . وقد تسوهل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء ايضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا أخباره ، وهو مصنع اسلحة في ايام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عدّاً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . ففقدان الآلة لا يساعد على ذلك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعيّ المهني ، كالحداد والسبّاك والخزّاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فتقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سيدهم علائق لا تخلو من عاطفة السانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك حرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعيلون أنفسهم بمعزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابسات الحروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الوقحة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدّد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكموهم بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من قساوة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكاويهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدّد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اسواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عذوبة والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا تزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدولة ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

الاجانب المقيمون

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص : الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقيم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحرز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومردّ ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالاضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهره ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تميز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالية نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلا . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانها خليقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرّفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، كـ « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لا سيا في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المفرّق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

انصراف المواطنين عن النشاط الاقتصادي

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوّة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديموقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

بتأثير التعويض اليومي

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومحلّفي المحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم مواردهم المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومي . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً – افضى هذا التعويض تدريجياً الى إثناء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة اكثر بساطة واستمالة من العمل اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بعنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تخفي احدى النتائج المباشرة لتعميم التعويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة اثينا وتجارتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة

ليس من شك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي لا تستسيغ عملا يُنفّذ لخدمة وبأمر احد الزبن، او بانتظار زبون ممكن فقط. فقد جاء في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدى لاقوال هيزيود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل؟ وفي الواقع ، اذا ما قدم لنا ، بصدد اثينا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الحط من شأن خصمه ، اسشين ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا مهناً وضيعة . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيّر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطب الحكام والشرائع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤونا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً اعن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة. كثيرا ما يقلّل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمّن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعللونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان منشأنها، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزبن .

لذلك نرى خصوم السفسطيين يثور ثائرهم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الامور المعيبة . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعيين على العموم وراء استثمار ثروتها . فتستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة العمالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوبونيز والذي جرف الى داخل اسوار المدينة الريفيين الذين هددهم الغزو وافقرهم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليغارشيين وعدم الثقة بالريفيين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معملين ، فكان الفضل في بروزه للمحاماه شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سريع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

فقدان الثروات الطائلة

نرى ، والحالة هذه ، أن الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في نمو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائلة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائلة نادرة جداً .

كان « كالياس » ، في عهد بريكليس ، أوفر الاثينيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص ، مائتي مَنّاً من الفضة (اي ما يوازي ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤). وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مناً تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للتزمي اللوريون . فالاول والثاني يهتمان كلاهما ، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مناً . وقد اكد ديموستين ، ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، « ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى » . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولا .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ ان التفاصيل الدقيقة التي قدمناها بصدد أثينا تغدو ، بصددها ، نادرة جداً . يروى ان احد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بخمسين مناً ، وربح في هذه العملية مائة مناً . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تعويض لقاء الاشتراك في جلسات المحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شأن . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكده هيرودوتس ، – وهذا يعني اننا امام حالة شاذة – فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منهما في اثينا .

ستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي. فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسركسيس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته النقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي مناً من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب. وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضآلة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهم هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ – المدن والحياة الخاصة

البيره واثينا

يتضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقله فيما يتعلق بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتيكية اخرى هي البيره. تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحمي البيره سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكتي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لايثاق الصلة بين مراكزها الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحوّل الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيدا لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصا منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طيلة العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرّة واحدة تحت ضغط الحصار والمجاعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيرا ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

اجل ، ليس المكان ما ينقص في البيره . فالمدينة حديثة العهــد ، بنيت في اواسط القرن الخامس ، وفاقاً لمبادىء تنظيم المدن في ذاك العهـد ، تنفيذاً لمخطط هندسي . وهي تحيط بالمرفأ التجاري الوحيد في الأتيك وأحــد المرافىء الحربية الثلاثة المعدّة حول الـ « اكتي » والمجهزة بملاجىء للمراكب ودور الصناعة البحرية . وتجــاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافىء المتوسطية البضائع على انواعها ، السقائف والمستودعات ومكاتب الجرك والصرافين

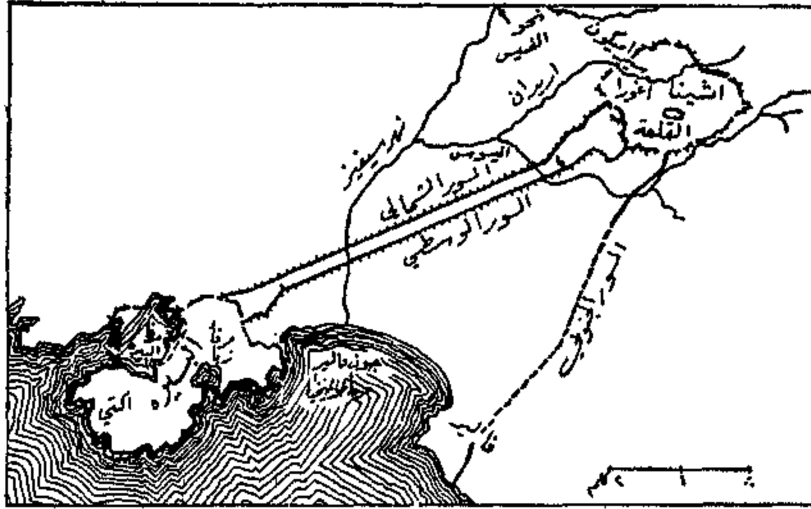

الشكل ٢٣ ـ أثينا والبيره في القرن الرابع قبل المسيح .

والمصفق (البورصة) . وتمتد الى الوراء المدينة نفسها الــتي يتألف الشطر الاكبر من سكانها من أجانب ينتمون الى كل التابعيات ويتكلمون كل اللغات . ويجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بهـــا في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالاخطار . يعتاش السكان المقيمون فيها من المرفأ وتجارة المسافرين والبضائع فيه . ولكن الطبقة الراقية لا تطيل الاقامة فيها لانهـــا تجمع كافة طوائف البشر الذين لا يتكلمون الا عن المــال ولا يهتمون الا للتجارة . ومن حيث هي شبه متروكة للاجانب وللمواطنين الذين يتوجب عليهم الخضوع لاوامر وليّهم او لأهواء زبنهم ، فان البيره اقطاعة ديموقراطية : فيها يجتمع خصوم النظام الارهابي الاوليغارشي الذي اقامته سبارطة المنتصرة ، لاستعادة اثينا بقوة السلاح .

لم تحاول اثينا القديمة اذن التوسع نحو البيره والبحر داخل التحصينات الجديدة حيث لا تزال مساحات كبيرة خالية من البناء . فضواحيها تمتد نحو الشمال خصوصاً كأنمـا تشدها الحياة الريفية التي ما فتىء العديد من المواطنين متعلقين بهـــا بتأثير من مثلهم الاعلى ووشائج قرباهم ومصالحهم كملاكين . وهي قد ضاقت بسكانها في نطاق أسوارها الــتي اعيد ترميمها بسرعة غداة الحرب

المدنية الثانية ، قبل تفتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة الــتي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من فخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارصفــة على جوانبها ولا بواليع تحتهــا ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد شيّده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة تميل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليــلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظللها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسمك المجفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام اعين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

المساكن

يتكلّم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا الرقم لمرتفع جداً بالنسبة لمساحــة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخــل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهــذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيهــا ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدّة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تمامــاً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فنــاء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصراً على قاعــات الاستقبال التي ألبست سقوفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمدبجات والرسوم . وقد كشفت اعمــال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينـــة أولنثوس ، التي دمّرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء التزيينية المصنوعة من الحصباء المستطيــلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البتة في الاثاث. فان أثاث القيبيادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرّة والاواني ، لم يوفر اثماناً مرتفعة حين باعته الدولة بالمزاد العلني .

سيدة البيت

ما أن يبلغ البيت حدّاً ادنى من السعــة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او الغرف المخصصة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجة ، وبين الـ «اندرون» اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا" نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله : « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يتبلغ ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيرا اوشرا . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيما السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعـــر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المــركز الاول لوالدة « نوزيقا » في الولائم التي دعا اليها « القينووس » . ولكن هــــذا المشهد ما كان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجــل" ما نتراءاه في تمثيليات اوريبيـــد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدّم الفردية كان مدعاة اولى لوضـــع قضية شخصية المرأة وتحريرها على بساط البحث . ولكن هـــذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

حياة الرجل

ان الحياة الخارجية كلّها ، بمــا فيها المشتريات الغذائية مـــن السوق ، تعود للرجل .

فهـــو سيّد بيته قانوناً ، الا اذا الجأه حرصه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر اهمال « تربية »اولاده ، اي تركهم والقاءهم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلا ، لا سيا حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بـــلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هــــذا المسكن الضيق ، مـع امرأة لم تثقفها التربية والعلائق الاجتماعية ، لا توفّر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفـــة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الميلية التي لم يستنكف سقراط من اكرامها والتي جعل منهـا بريكليس رفيقة حياته بعـــد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقهـا العظيم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال،الواقع غالب مـــا يكون قذراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدى خطب ديموستين وصف ندخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقزّ منها النفس . ولا مراء في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع راهن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة — التي ليست دنساً كلّها — ، عند « العاشق » ، في الحماية والتربية ، وعند « المعشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الخشن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرياء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصدقائهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الاندرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدّم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصدقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور، ما لذّ وطاب من الطعام الشهي والنبيذ الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث على هواهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرّة ومتوكئين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سيما لاعبات المزمار والقيثارة والرباب التي يحدّد القانون أجورهن القصوى . ويغلب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وتمل تقزز النفس يخرج منها اكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إطار « الوليمة » البهج قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شُبّه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة المخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الفصل الرابع

الكلاسيكية الروحية والجمالية

تباين التقدم الثقافي

ان تقدّم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة. فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او المحافظة على الاقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تتراءى لنا ضآلة النخبة التي تذوقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت احدى المحاكم الشعبية عليه حكماً بتجرع الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداء الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفاقاً لاقتراع المشاهدين بل وفاقاً لاقتراع لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يعلل نفسه بالاوهام ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولويـــة أثينـــا

ان تفوّق اثينا على هذا الصعيد ، لا مشاحة فيـــه . وقد تحمل بعض تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بافراطها الساذج الذي يتخلّـله الكبرياء والصلف احياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استثمار هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال ايضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبررون الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثرها في حقول الفكر والفن . بيد ان أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضمنياً مـا تستحقه من اكرام بمحاولة السموّ بالمدينة التي حققتها الى هـذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد الماليـة التي أتاحت لها الانفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الاثينيــين انفسهم الذين عارضوا بريكليس لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعهـا حلفاؤه « لتمويه وتزيين المدينة كالمغناجة وإثقالها بحجارة كريمة وتماثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا » . وهذه المعابد انما هي البارثنون مع تمثـــال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً مـا ننسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن اثينـا ، في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا المخرج الذي لم تتردد اثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثنون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء اخرى كثيرة . فبالاضافة الى مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصاديا ، اذ ان وجودها يفسّر ، أقل مـــا يفسّر ، نموّ مرفأ البيره الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعـــد انهيار الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيره يوفر مداخيل الجمرك ويؤمن الخامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد اثينا . ويكثر هـذا النشاط ، على صعيد اوسع ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقـال الاثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائجه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة.

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية الـتي تحلى بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هـذا المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلي ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالمواهب السياسية التي فرضته على مواطنيه ، وبميزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل « ميله » في العهد السابق : فهنا ايضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون تكرر هـذه المصادفة مجرد اتفـاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الميليّة في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق ونوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسباسيا ، والمهندس هيبوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازوميني وبروتاغوراس الابديري وبيتوكليدس الكايوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء. اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع العصرية الراهنة تضطرنا الى تحوير التشبيه : مراكز اقليمية تكسفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ ـ الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

الورع الشعبي

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلّما يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وفظاظة احياناً . وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيا الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالبا ما يجهلون مغزاها الاصلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤالفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عملهم هذا من اي سموّ ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من الم ورهبة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى اهوال الموت . ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا براسم لا مكان للمنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحصري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود الجهالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة ، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسركسيس . فشاهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه .فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « آكل اللحم النيء » . فمانـــع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء تماثيــل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرين جدد إليها ». وليست الصوفية ما يبعث انفجار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هــذه عنف ثورة تتميز بفطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقة ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليـه ديانته الرسمية .

العبادات الشاملة

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عــالم مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي. فجلي ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر باجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكليس بدلفي وحصل على عونها فعلا . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قــد ساد بان هاتف الغيب انتهاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بهـا دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة وبالخضوع للعظماء . ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي ، بعـــد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وفيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، الــتي اعلنت باسم الاله على مدنسي القدسيات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقــابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحية الاصلية، أن ساندت، تشفياً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استئجارهم المرتزقة بأموال الإله . وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القدسيات ، بتتويج جنوده بغار ابولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي .

وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيع معبد ديلوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القسر مـا

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلوسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بُعدها عن الطرق الكبرى المطموع فيها ومن كونها اكثر المعابد حياداً حتى ذاك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطرأ على اولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكّت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدّة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

الالعاب الكبرى

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت عليه جذوات انشقاق جديدة ، اذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليلاً على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالقاً باسمائها . ولا تتقيد التقوى الفردية بنفور الدول ، فتنهمر الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمّره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابداً مواعيد الاحتفال بالالعاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تخرق إلا في ظروف استثنائية . وتجتذب هذه الاعياد ، اكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها اوطانهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتُطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بمآثرهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واوائل القرن الخامس وعلى غرار القيبيادس ايضاً الذين استثمروا لشهرتهم نجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالالـّيريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالعاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الابهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيده . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقد عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتهز الخطباء فرصة وجود الجماهير ، لإلقاء ، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واجتذاب الزبن أو التلاميذ . ويحرص المنظمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنيتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويحترفون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعاب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدتهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن اصبح مجرّد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقـائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويمين بذلك ، لا اسرعهم او اقواهم ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليما اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس عـلى الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعـاب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسمانية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

اسرار الفسيس
Eleusis

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تتراءى في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون مختلفو التابعيات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار . وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفسيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توصد ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبـادة الفسيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتهـا « كورا » و ديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقـد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريظها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غراره كثيرون : « طوبى ، ثم طوبى لاولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . امـا الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذابا » . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هـذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اغلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قمين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سرّ كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفسيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هـذه الاسرار

موازيا لنجاح الديموقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفسيس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميها المدينة ويشرف عليها القضاة ويُحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ مي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منهـا ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرّسوا بواكير حصائدهم لآلهات الفسيس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دولياً الا بعـد ثبوت الحياد السياسي وبعـد الاقتناع بان عبادة الفسيس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونهـا عبادة المدينة .

العبادات المدنية

ترتبط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، عـلى العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدينة نفسها . ويسهم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها،ولم تتبن ما تبنت منها الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اى المعروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص، لان المدينة تعلن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكعنوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الإلهة « اثينا » التي تُعبد بهـذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا بولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نيقي » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هـذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً. فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قدتميزهم صفة عبادية يجاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يجاورون آلهة غرباء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس مـا يحول دون اطالتهـا . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبنّي الدولة لهـا . ولكن ليس ما يوحّدها كلها في مجموع نظامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاور دون انصهار، وليس ما يجمع بينهـا سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بوادر – وربما نفوس – جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البوادر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعياد والذبائح والقرابين والصاوات واحدة

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفاقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى باهمالها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تمليه تقلبات الذوق أو الشعبية او السياسة أحياناً .

التصلب والتساهل

يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات مازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفاقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية او السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدّ لها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيا خص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع راهن ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شهره عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتـة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكوّن موضوع شبهة أو ريبة . فان إله الواحة الليبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل بزفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريني الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثـال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرّافيه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحـارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالغ في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد افرادها الآلهة الغرباء كالإلهـة « بنديس » التراقية و « وإيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجيـة و « أدونيس » و « عشترت » السوريين : ومنذ البدء، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرّض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هـذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهـة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالاحرى هذه القابلية للتسرب ، مـــا يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قحّاحة مواطنيها العنصرية تفتح الـثغر بيديها في تفردها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن افلاطون مرة اخرى عن منطقه السليم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين أن يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشعبي حتى لا يجدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمية اللتين تستطيعان اشباع نهمهم للتأثر الداخـــلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوهما فيها .

النخبة والديانة المدنية والاعيـــاد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، عـلى الطقوس . ففي حوار وضعه أفلاطون ، يحمل سقراط محدّثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة امـــا بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقاً . وفي القرن الخامس على الاخص، اكتشف قسم من النخبة — وفي طليعتهم بريكليس — مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعّد ديانـــة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . أما في القرن الرابع فتستخدم الاساطير ، بفصل أفلاطون بصورة خاصة ، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادىء المجرّدة . ولكن هذه النزعة وتلك تتعديان كلتاهما امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل ارا حـــة لا تحصى عن طريق الالعـــاب والذبائح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسلية والراحـة الضروريتين لاسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جهلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لآلهتهـا الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جنباً الى جنب مع المصلحة الأنانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجـــة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميـــلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة نفسهـــا ، التي سخر

خصومها من حياتها المستوحشة الضجورة – والجملة بريكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويبرّر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لغـير مصلحة العدوّ – بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الاشارة ، اذا ما استثنينا اعياد الفسيس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيـام الامبراطورية الأثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتهـا المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

عيدالإلهة« أثينا »الكبير

اشتهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينـا » وكان يذكّر بتأسيس المدينة نفسها ،بتوحيد كافة الاثينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بجلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس. وضع برنامجه المتنوع المستبدون اولاً وسارت الديموقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفــة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الخفـة ؛ والاختبارات المتناسبة واعمار المتبارين من فتيان وشبان ورجـــال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير ملأى بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم. ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعـــة ، الذبائح والقرابين . وبين القرابين قطعـة فاخرة هي « البيلوس » المعدّة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطرزها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرّها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهـــة البولياسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحّد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديونيسوس والتمثيليات المسرحية

اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكّرنا بـــه افريز البارتنون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمـة بين الديانة والفن ،

كانت اعياد ديونيسوس تنتقل بنا ، عن طريق المسرح، الى الحيـــاة الادبية .

كان لديونيسـوس عدة اعياد في السنة ، خلال الخريف وفي اوائل الربيـع . يحتفـل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضـاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيا بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لا سيا في البيره ، لتنظيم مثل هـذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزليـــة . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الخوريغي » ، عـــلى انفسهم إلباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المبـاراة ، تنتصر لقضية قبيلة « الخوريغوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للخوريغوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد

يتضح ايضاً من العناية الفـائقة التي احاطت بهـــا الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تخطياً بعيداً . اجل، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقادم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في الجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسهـا في المباريات الرياضية والالعاب في الاعيـــاد الشاملة . ولكن مميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكراً جداً ولا تلبث ان تتغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعاوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالاضافة الى اسباب الاراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات الميسورة دون غيرهـــا لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فمنذ عهد بريكليس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي يجهزه الملتزمون — اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعـــة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيره اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت ان رفعت قيمة هـذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبرّرها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة كان بالامكان الانتفاع به في حقل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عـــدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعيـــاد

ديونيسوس ودرجت العـــادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلية منتحبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهـــذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هـــذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تنتظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور موازٍ الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هـــذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيـــاه من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئـــذ الممثل المتهن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي المتهن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الخوريغي » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقـــد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد أتاحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحيـــاناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتداخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسية . ومما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي أجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتجانبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياد الدينية ، فغدا فيها جوهراً ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانـــوية او ملحقات فقط . واضمحلت صبغتها الدينية المميزة امـــام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحجة .

٢ – الفـــن

ان هذا العهد لاجمل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمى المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينمّ عن ألمعية وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كـــل زمان ومكان شريطة احلال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في «المعجزة اليونانية» هو هذه الموازاة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلـــك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يُخضع الفنانون اليونانيون الواقعَ له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي معا يستطيع فيه بلوغ جمال غير عابر .

التنافس في مجهود هندسة العمارة

لم تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعـــير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصر عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرست المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملة بما يعبر عن ورعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الآلهـــة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان مـن روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى.

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن. اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد. ولا تزال بعض المذاخر، من امثال تلك الـتي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تخف رويدا رويدا مفسحة المكان لتقادم اكثر تواضعا كالتماثيل والنذورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المـــدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيها من شتى المصادر. وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل – اربعين سنة تقريبا – فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقـد بذلت الجهود نفسها وحققت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كـما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولمبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وحيث تعددت الابنية في الـ« ألتيس ». وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيذورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة الـــتي عرفتها معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس »، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشىء هيكلها والبناء المستدير السري ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠ مشاهد.

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لمتطلبات اخـــرى كثيرة. لا شك في ان للمجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا المجد لا يكفي لتعليل كـل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرقات انتقال المسافرين الكبرى، تعلم علم اليقين انهـا مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . ومـا ان انتهت الحروب الميدية، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت آثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح مجهودها . وجدير بالاشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة مـــن حرب البلوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرختيون » ومعبد « اثينا نيقي »لم يثن اوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باساي » الاركادية ، وتنتقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين. وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسمو بها الى القمة ، ثم في هذا المدّ الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

التقليد والكمال في هندسة العمارة

مهما يكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فانه لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالـف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيذورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرختيون الاثيني المعقد، المعد لايواء الذخائر القديمة واقدم التقاليد العبادية العائدة للمدينة، برواقه الرائع المزدان باعمدة عـــلى شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكف المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض وابهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات قاهرة خاصـــة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعـــة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها، اروقة تعلوها « الواجهات » الثلاثية الشكل . ولا حـــل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهري دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غـير ان بعض المعابد يحافظ بدقة، في النسبة بين اعمدتها، وفي تنضيد الاقسام الـتي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادىء الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلـــك مجـــرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء.

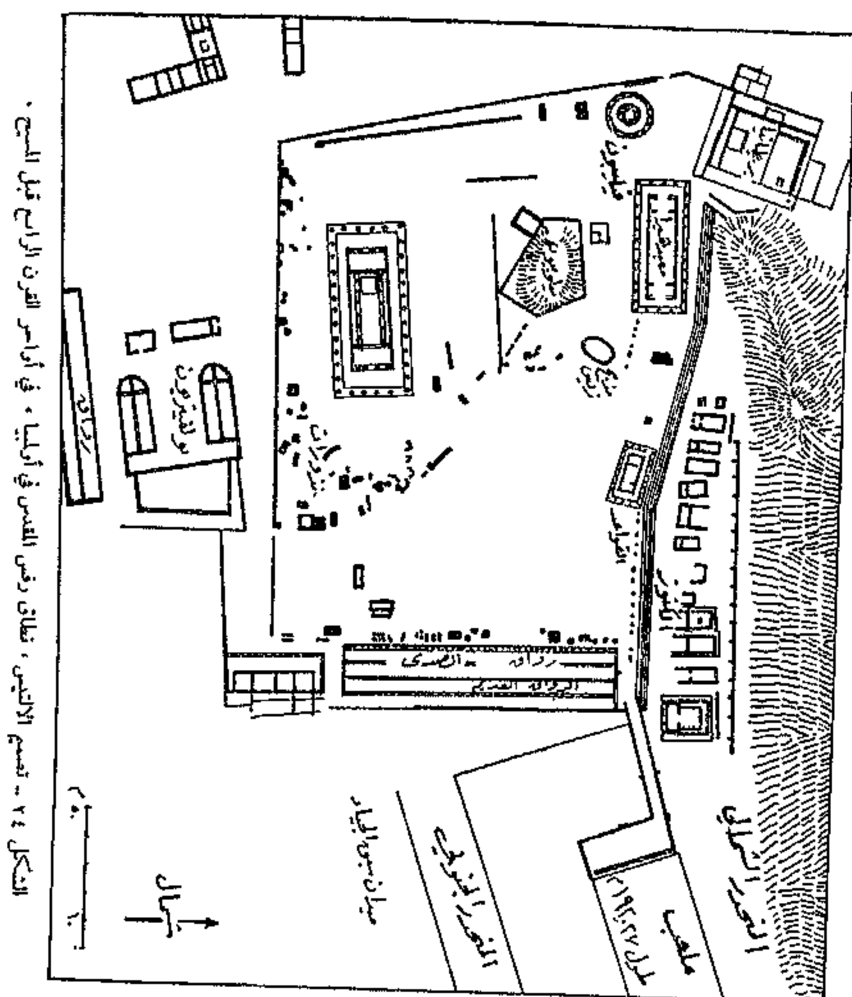

الشكل ٢٤ ـ تصميم الالتيس ، نطاق رقص المقدس في أولمبيا ، في أواخر القرن الرابع قبل المسيح .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان انجزت ابنية اكثر تأنقا ، في جمال اجزائها الدقيقة ، من البارثنون في اثينا ، فانه ليس من بناء اعظم منه جلالا عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنضيده ولا اعمق درساً في تصحيح الاخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشمولها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠،٠٥٩ م و ٠،٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠،٨٦ م ، وبمقدار ٠،١٠٧ م و ٠،١٠٩ م في الاوجه الطويلة التي تبلغ ٦٩،٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدُّب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحدب مماثل في الساكف فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

تنوع النقاشة

اما النقاشة فاكثر تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتماثيل والنقوش الناتئة على السواء كما تقدم لهم ابنيتها او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا — اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احيانا سوى عذر وحجة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيتيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالتفصيل : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب « اللابيث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون »... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة ! اضف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واوضاعها . ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضاه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ، وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، النذورات والتماثيل التي يعتمد الشبهان في تحقيقها بالتفضيل على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتيح له المزيد من الامكانات المادية التي حق لمهندس العمارة ان يحسده عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استثمر الفنانون هذه الوفرة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية، الخطوط الكبرى لتطور رافق ، دون شك ، التطور العام في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا نراها غير لائقة بها، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نتراءى او ان نلمس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونبوغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أوج الكلاسيكية

كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تساميا نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولاسيا بعض الجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق المهارة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضا ، مع انه بالغ الاتقان بحدّ ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً خفياً : ازدراء « أثينا » الفتية الفطريسة التي كأنها توقف سيرها منبهة وتدير رأسها لتنظر باستخفاف الى طمع « مارسياس » المرائي والخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامي الاسطوانة» « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

ودرس بوليكليت جسم الرجل درساً مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدّد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية .وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (ذياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصيبة المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلطفه تناسق حتي لم يستطع تقدّم العلم ان يقضي على بداهته واثر خمي تتركه ابسط حركة في الجسم كله.

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيدة تمثالا صنعته يداه ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثنون التي صمّمها هو ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضفي على الآلهة والإلهات جلالا لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه بجمع الصفائح الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيـــا ، لن يكون بعد ذلك شقيا . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة الـتي توحيها للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والنبل العظيم والابوي معا اللذين استطاع فيدياس ان يرسمهما على قسمات زفس الاولمبي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارتنون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد مـن اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولادتها الاعجوبية بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملّك الأتيك ، والتي تبسط ، عـلى الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولا ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر مـن ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلا مراء ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تحصى الى جانبهم ، كـــما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاولئك الذين عمـــلوا في البارتنون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً، اخيرا، من التحف التي قد يتطلب عدها صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضفي على نقاشة ذاك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيمتها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لا شيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان اكـــثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بتراءي الحركة ، كـما ان الايماءة في اول انطلاقها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يردّ فيها شيء الى المصادفة : فانها توحي ، باتزانهـا وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابداً دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انهـــا تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهـي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسما معتدلا ، متناسباً ومنظماً مـن الناحيـــة المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس مـن قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحـــد ، معاصر بريكليس وصديقه وبمثابة وزير الفنّون الجميلة عندهم .

النقاشة في القرن الرابع

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت مـن مثل أعلى أرفـع سمّواً وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائمـاً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

مثل البولس الأعلى ، النائي والوعر جداً ، قد اخفق أذ ذاك في تحقيق وحدة المواطنين الادبية السائمين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنيت ، منذ ذاك الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليقاً عقلياً . فجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البلوبونيز ، تماثيل النساء التي تقوم

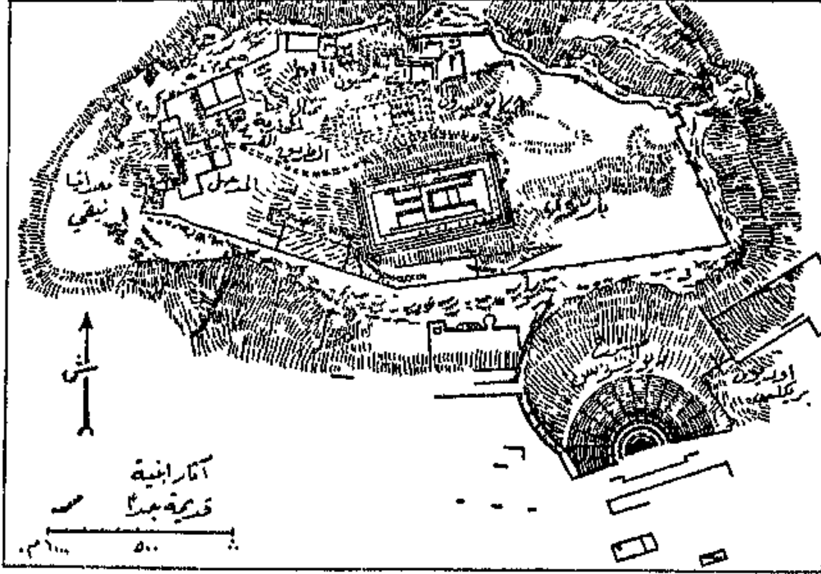

الشكل ٢٥ ـ قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الايرخثيون »،وهي خليقة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن نقشت فيها ايضاً مجموعة آلهة النصر التي تقوم على الدربزين الخارجي في معبد « اثينا نيقي » الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثلوا منشغلين في جمع الاسلاب واعداد الذبائح . فبين افريز البارثنون ، الواحد في تنوع مشاهده التي تحييها فكرة مشتركة تشرّف كافة الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسحر بما تنطوي عليه من دالة طبيعية وانس جامح ، لاشك في ان هموم وليي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر . وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن باطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكثر منها دينية ليس للعقل "مراقبة على اثرها في النفس ، تقرأ بسهولة اكبر على الاوجه التي يجرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهوى فيها ، بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بها ، وبعد ذلك في

عوريها المنتصر ، بفضل ارميل براكسيتيل . ويعبر النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنث . ثم تمتلىء الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات«الامازون » والاغريق ايضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : فأنف الملاكمين مسطّح واذناهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أبطال« ليسبوس » ساقي تمثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعراً اشعث وعينين جزعتين وفماً يكاد يكون منقبضاً لا ينفتح الا جزئياً لنفث قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لاشك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه،في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة، لا تتراءى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثر الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذاك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد.

الفنون الأخرى :
التصوير وصناعة الخزف والفخار

نحن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشة بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل جهلنا، واما بفعل تسلسل جهلهاليونان واوجدناه نحن بين نشاطات فنية تستهدف كلها اضفاء الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذاك العهد لا يرقى اليه شك،وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحة المسند الخشبية . ففي مدخل القاعة الكبير الذي شيّد في عهد بريكليس خصّصت احدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغنوت » « وزفكسيس » « وبارّاسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمديح كبير وبطُرف تؤيد شهرتهم. وقد حظي« ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنهم الذي لم يزل، في اوائل القرن الخامس، اوليا جداً وبطيء التحسن . فبوليغنوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر من استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتليين الشمع . فهل إمكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تحفهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكـد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لايزال مستحيلا علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء عـلى ذكرها الا قليلا ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت الينا .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينـا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك، على الصعيد المادي، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبيذ ، اذ ان نقل السوائل قـد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس مايستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قـد اسهم في تسهيل ظهور هـذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وبابراز الكفاءات بين الصناعيين العديديين، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هـو أوضح وأفصح من ان نستطيع اهمال دلالته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نموّهـا الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكـن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا . ونحن نتراءى من خلال هذا التواضع ، رجـالا مكبين ، في وسط الطبقة العمالية ، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاغل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهـان على سلامة ذوق زبن الخزافين . وكان هؤلاء الزبن من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تقتن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجماهير العصرية -- ان الجماهـير الاثينية لم تكن مبتذلة . وهذا في نظرنا استنتاج إلزامي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفتاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزبن لم ينحصروا في الأتيك بـل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدّرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كايطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذاك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعاتها ، في القرن الخامس، الى شواطىء البحر الاسود. واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً مـن منزلتها في الغرب الذي نزعت مصانع صقليا وايطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زبنها الاسخياء . وانمـا

متحف الـ « ارميتاج » في لينينغراد مدين جزئياً لمذاقتهم بغنى مجموعاته النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للمشهد تعيّن الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء. اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الا على بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإلهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في اجمل هذه المصنوعات غير ناشئة عن بنيتها، بل عن شكلها وعن التحدب النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيعة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة، الملهية في اغلب الاحيان، بقيمتها كمستندات اكيدة وبداهتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الخدر ، اجتماعاتهن عند الينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليات الولائم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلا وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة المخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الايحاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحي حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه واداها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، الم الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا يخفف من اهواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

يميز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عهوداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفينا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضيع مبسطة ، تدريجيا ، على الرسوم التزيينية ، ومن تعقيد في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب. وقد فقدت خزفيات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هـذا التطور ؛ فـاذا لم يزل هنالك صناعيون ماهرون، فلم يبرز فنانون محلقون في تصوير الآنية.

ان صناعة الخزفيات، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في تزيين الحياة اليومية .ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجـارة الابنوس والصياغة . وهنالك بعض القطـع الرائعة في المسكوكات، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحورية اريتوسا، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعاء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمنة بعيدة، ولكنها تتميز، في القرن الرابع، وفي بيوسيا خصوصاً، بصفات جديرة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هـذه التماثيل ، مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعذبة بطرافتها البديهية لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج – لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج أثينا. ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة الـتي طاب للاثينيين ان ينعتوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداءهم في اكـثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هـذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصبح من التهور معه ان ننهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ – الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جديرة حقاً بهـذا النعت اذا لم يقترن بهـاء مصنوعاتها الفنية ببهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبتكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حـال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيهما من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان مـا خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحـن اوغلنا اليوم في بعض الطرقات، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه مـا يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقـلي في فنهم : ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قـد عرفوا فيدياس في بطانة بريكليس، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عـن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاورة وقد تبع تطورها خطاً منحنياً واحداً .فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولي الجهود اليوناني قوة نافذة متمادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

الفلسفة : التقاليد والجدة في القرن الخامس

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذاك في كافة النشاطات الفكرية الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلمس عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ مخيلة فلاسفة القرن السابق ، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيذوكليس واناكساغوروس وليسبوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى المخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبنوها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجّوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطىء احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال. فنحن نعلم مثلا ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علّم ان الشمس كتلة متأججة، نافياً عنها بذلك صفة الالوهية . ومما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسبوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً ولا عدّ لها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الا حجماً وشكلا ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمية وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا ما استندت ، في تعليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى الا «نوس *Nous*» (الفكر) باعث الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الآلية . وقد اخطأت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح، اذ ذاك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تخش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدثت حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معاً . وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة » .

ولكن الحملة المغرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة . وهم قد نفّروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بآراء الزمن الماضي، بفعل تجاسرهم ونجاحهم والارباح الطائلة التي جنوها من تعاليمهم منزلين التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مآخذ تثير الابتسامة اليوم، لا تمحو شيئاً من اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومعتمدين فيها طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بل اعلنوا ، كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء ». فهل عنوا بذلك الانسان الحقيقي بكليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟ يرجح انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهملة حتى ذاك العهد . ومهما يكن من الامر، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً ، واخذ بمبدإ الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ، « الناموس » الذي تأسست عليه « البولس »، كواقع غير بشري او بمأمن من التقلبات البشرية ؛ ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوهم صيغاً خطابية بارعة استطاب اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم، «تحويل اقوى حجة الى اضعف حجة » .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاها العام. فقد كان لعمل السفسطيين اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن طريقها في طبقات اكثر اتساعاً، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفاً على دوائر ضيقة ، اي ، فيما يعنينا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية . وادخلوا ، على الفلسفة والعلم، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له، لن يستطيع احد بعدهم ان يخرجها منها. وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان تبدّل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجرج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط، في كتاب « الغيوم»، احد السفسطيين لا بل شرّهم في نظره. ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت، فشرب الشوكران السام من

الكوب الذي قدمه اليه الجلاد . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتعذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين : فهو عـلى غرارهم،وبعدهم،يتحوّل عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضا ، يكرس جهوده وابحاثه للانسان . ولكنه يفـــترق عنهم بسلوكه وطريقته . فمن حيث انه اثيني – وهم ليسوا بأثينيين – ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة.وهو يريد في الدرجة الاولى وفاقاً للحكمة الدلفية،ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله ويقتنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به. وهو يعلّم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفترق عـــن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالوهة وتدخلها لدى البشر والامـور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي بمكنتها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبذ الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتيـة جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفيه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد ممـا قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر . ولكن ما نتراءاه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية هــذا السابق الممهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان تضحيته بحياته على مذبح شرائع وطنه قـد جاءت ، بقوّة المثل ، تكمّل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يخلّـف اي مؤلّـف مكتوب .

الفلسفة في القرن الرابع

يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيّدهم أي تعليم محدد ، وفاقـاً لاستيحائهم جهود معلمهم المستمر توصلا لحقيقة اكثر عمقــاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمـين لمدارس معدة لتقدير واسع ولحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهـــد معاضل فلسفية طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعــلّم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدهــا في الانسان ممارسة حيـــاة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدّي الى تظاهرات

« ديوجين » التي دهشت معاصرية وغشرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها نبوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرّة ان احتجت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهقر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف اللذة حتى الشهوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما اهمله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيا البيثاغورية ، ومن ان تفرّده القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قزّت نفسه منذ البدء من ردّ فعل الارهابيين اعداء الديموقراطية ، ومن الديموقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كمستشار لمستبدي سيراكورا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة اشتق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لآلهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني وقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحذاقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوه الانيقة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروق الدقيقة على مذبح الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقته حيا .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التشديد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يبرّرها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونرانا ميالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفق الروح والقلب : فالمحبة ، أي تلك النزعة الحاره نحو الجمال المطلق ، القريبة جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الفلك نفسه لا يجاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاوّل عن « الانهيار

العصبي » الذي يعزى اليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة المجهود المنطقي الذي قاده حتى ذلك التاريخ بمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة القليلة العدد ، والعجز الذي واجهته هذه النخبة ، حتى قبل افلاطون ، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلاً . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبل .

ليست ديانته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفياً لمذهب تعدد الآلهة ، فأنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناه يكوّن إحكامُ التأمل فيه اسمى مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذيول لازبة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفتها ، وبقوّة متفاوتة ، تتذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فبها نفسها ، وبالمحبة التي هي خليقة بها ، وبالحرارة التي تشدّها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسدات متجدّدة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعلوم وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويجيب على الأسئلة التي شعر الانسان ابداً بإقضاضها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسموّ الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المُثل ، الحالّة في الاشياء والكائنات ، تتحقق في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقته لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرَك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوحد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلّم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدنو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين نقيصتين متناقضتين ، الى « الحدّ الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضيلة عملية قبل كل شيء ، اذ ان مصير الانسان يتحقق على الارض .

تبرز بذلك الهوة التي تفصل بين ارسطو وافلاطون . فقد ادّى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والخيلة عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عندارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأتي بالبينات الملزمة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه اولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكايوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتنزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز ابحاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها، سعياً منه وراء اسناد جدّي في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مراء ، كواضع حجر الزاوية ،في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ،لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كانوا مواطنين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلاً ، هو ان اثينا اصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

العلوم

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظرهم الى علم العلوم الممدّ لأن يؤلف منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية .وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ماوراء الطبيعة) قد تكوّن قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كهدرس للطبيعة ، ويجب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الاهمية التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرّر هذه الحالة الفكرية تنكر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختباري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

لهذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصر على الملاحظة . وقد حملته النزعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولى الطريقين المفتوحتين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها. فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة، لا سيما في ايطاليا الجنوبية، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارنتا وطنه واسم « افدوكس » الكنيدي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثييتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استهوى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالفهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال، في انه قد اقتصر ، في الالماح الى ضخامة كتلتها المتأججة، على القول انها « اكبر من البلوبونيز » ولكنه قد علم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه، على غرارها، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات المعارضين . بيد ان هذا الرأي المنبثق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخفقا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخسيرة للمبدأ العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل، مارس الاغريق الطب ابداً ولكن بشكليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآلهة او الأبطال الشافين معابدهم المتباينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس، ولا سيما معبد ابيذوروس في الأرغوليد. وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قضوها تحت الرواق ، ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فأن خبرتهم ، على الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فأنه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين الـتي تباهت بانحدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأه الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادىء العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والخرافات التقوية ، واعلن ان ليس من مرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر بـه ، ناعتاً اياه بكذب المخرقين والجهلة ، وعني واوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية التي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهمت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اضف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقرى . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرتهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو — ارسطو ذاك الذي عاد الى خطأه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نحدّد بواسطته ، دونما اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعلّ ذلك لم يكن خطأً في كل الحقول ، ولكنه كان خطأً فادحاً في الحقل العلمي .

التاريخ

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهل يمكن ان يكونه بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثله الأعلى

المكوّن بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العلمية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكاته الميلي ، في أواخر القرن السادس ، كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً ». ولكنه يتعذّر علينا، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكليس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادوّن كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي ». ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الا تخدع احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الالماح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بخبث ترافقه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الاحداث البشرية . ولكن من لا تخدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتياب والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته ، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظاته التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبلذة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراءة يتظاهر بها من شأنها ان تنطلي على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بحركة تاريخية شعر باهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموّها . وتقوم وحدة عمله، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرته الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول، ترمي الى توحيد الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتحطم باخفاق الحروب الميدية. فهو من تلقاء نفسه، دونما قدوة سابقة ودونما خبرة تاريخية مماثلة ، ودونما تآليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككلّ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسيديد تبدّلت الذهنية تبدّلاً كلياً . فلا طرَف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعد اقصاء الحجج التافهة والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اضف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكلّ دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود، وفاقاً لعطفهم او لذاكرتهم يتباون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة الملزمة ويجسر على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثيني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البلوبونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يرويها . فاتضح له باكراً جداً ان الصراع يهدّد بالخطر سياسة التوسع الاستعماري التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهده العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لهيرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة التجدّد ، ومجموعة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فشتان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارىء في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسيديد »وسمو صفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة. لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجريده وتصميمه الفظّ على بلوغ ماهو دائم يحدّان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثالاً فريداً للمؤرخ الفيلسوف او بالأحرى السيكولوجي ، موغلاً في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اساوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من الفقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بمماته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارىء ويثير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزّه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكوّن ثيوبومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظريه ، رأياً كافي الوضوح ليجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدّقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الزهرهة والحدّة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان انجرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحي ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحزبية والخرافات الدينية او الغطرسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية منزهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الغنائي

لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يحيي مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فأنه قـد تسامى حتى القمـة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنداروس . فقد عبر هـذا الطيبي الحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمـة المـلوك والمستبدين والعائلات الكبيرة النبيلة ، عـن المثـل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاناشيد الـتي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هـذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيـد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حِكماً ملهمة من مبادىء ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنعه بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون مثلاً للماضي في مستهل قـرن سيفيض جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بـل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، لشيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثـلا . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحلّ محل ذلـك الذي حرمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديموقراطية .

المسرح

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نعزو الى هـذا التطور الرواج المتزايد الذي عرفـه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، مـن جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديـل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس مـن العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديموقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، ببهاء خاص لا يمكن تعليله اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديموقراطية بالذات. فليس في الواقـع شيء افضل من المسرح ، الذي ترتاده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهـم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثـير فيه الضحك او القشعريرة من هـول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعوّ للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموّ بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنئذ. وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هـذه الأعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهـم انتقاء الجوقـات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات. وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح

الاثيني الذي بقي زمناً طويلاً دون منافس والذي ادى القسط نفسه الذي ادته ابنية القلعة في القرن الخامس او مدارس الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل اشعاع مركز الحضارة آنذاك ، مدينة الإلهة « اثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدّ لاستقبال الوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في اثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احدى التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدّة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلداً عظيماً . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزّنة المقاطع الايقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عدداً – ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواه ، كما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحل دون استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلا لماذا توجّب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤلف كلاّ واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيليات المعدّة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة – مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولنضف الى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في ايامنا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعيض عنه باعتماد الملوّنات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام، ويسهّل الابهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معدّاً له بالفطرة كدور الاله او البطل او الامرأة – اذ ان العادات لا تجيز للامرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جلاء لجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلّى المسرح اليوناني بكل معانيه الا اذا اعيد الى جوّه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووضع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذاك ، لاسيا المأساة ، الى مستوى القيم الجامعة والخالدة .

كبار مؤلفي المآسي في القرن الخامس

ليس في الحقيقة ما يثير الاعتبار كرؤية الشعراء مؤلفي المآسي ، في اثينا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبفضلهم ادّى المسرح قسطه الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية . وهم يقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نلمس عند بعضهم ، لا سيا في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسشيل اوّل هؤلاء الشعراء المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قوّة التجلي البطولي في روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثماني سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان يأتلف مع ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة وما لبث ان انتهى الى الزوال . وقد وفّرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها بملء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي وللتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلا ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعبر هذه الفوارق ، شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة .

ان اسشيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو قد ولد في الفسيس وامتلأت روحه بتدين قديم . وهو ينقل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة منقطعة النظير ، تأثير الالوهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعالاً لا يبالي للعدل والرحمة . ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية وللثأر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ، على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء . ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاريوباغوس » وتمكن من تقديم الذبيحة الى الإلهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيعرف العذابات الابدية التي استحقتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عن آلهة ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسشيل قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يهمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساواته القصوى . ولكن القدر يصبح اقل ظهوراً وتضييقاً ، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اضف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبدلا من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسشيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارفع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفسطيين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المنافية للاخلاق . فليست الاسطوره في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الخصب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشا وهزّا مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلا وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قسرية وضيعة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلاح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يسلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان المتمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

« المهزلة القديمة »

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، ولكنها استهدفت إثارة الضحك . ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التنوع . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية *Dorienne* » في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » ممثلها الرئيسي ، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « الايمائي » . وليس من ريب في انهـا لم تبق دون تأثير في التطور اللاحــق الذي عرفته التمثيليات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثينيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع.

ان هواه ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حدّاً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويزدري بالآلهـة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لاذعـاً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيهـا عن ان تنسي ما فيها من تظلم فظيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجعياً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الالحادية ، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رقته المجددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هـذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بجمالات الطبيعة التي يعـبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة مـا يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكي يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هـذه التمثيليات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبيراً سريـع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعاشرة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج باللواذع الموجهة الى آراء وزعامات يمحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن متشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضات شعرٍ بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها.

المسرح في القرن الرابـع

في القرن الرابـع بلـغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية والاعياد ، ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيا وان شعراء كثيرين قــد برزوا في غــير اثينا . وعلى الرغم من ذلــك فقد كان التطور عظيماً .

هبطت المأساه هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لهـا احد عظماء هذا العالم ، مثل دونيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثينا في السنة ٣٦٧ . فمؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرهم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيليات السابقة ولا سيا تمثيليات اوريبيد الـتي تعرف شهرة لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثينيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حـرب البلوبونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهــذا الشاعر ، وستكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقــد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المآسي المفجعة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيويتها ، ولكنها تحولت تحوّلا عميقاً . فان المركز الذي احتلته فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان الروايات القديمة التي كان من شأن فسادها العارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ مستثراً ومشينا . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » اولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحتى في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للمأساة البورجوازية . وقد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « ميننذروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « تيرنس » وحتى « موليير » التي تردّد صدى اسمه ، ليذكرنا بمن انتسب اليه بعده بزمن طويل .

اصول ونشأة البيان

حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهد الكلاسيكي وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم: فهو يُردّ دونما ريب ، الى تجابة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسهافي تدبيج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارستوقراطية،الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات. ولكن فضل الانظمة الديموقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملا حاسماً . فهي قد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعاوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لمحلفين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذافني المدن التي غدت اثينا قدوة لها فيالقرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفني فيها يسير بمحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة، ان نبدي رأينا في هذا البيان. فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية نادرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي التي حملت بعضهم في سيراكوزا، حيث حل النظام الديموقراطي محل الاستبداد،على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء من

« غورغياس » الصقلي الشهير » اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشروه في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالمناداة بالصنعة الانشائية وبنشر بعض الصيغ الكتابية بـل رغبـوا في ان يظهروا ايضاً ، بإظهروا فعلا ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروّضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوهم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى استالة وعودوهم اكتشاف الإجمـال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية الـتي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخـر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هـذا العهد الخطب الاولى الـتي نشرها واضعوها الراغبون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم: فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

الاساتذة ومعدو الخطب في اثينا

نرانا لاول مرة – وللامر اهميته في تاريخ المجتمـع والاخلاق – امام نشاط فكري وعمل حر قمينين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونهما. فان عادة مكافأة الاستاذ عـلى دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعليم البيان الذي يؤمن لطالبيه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر مـن هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينيغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفاضة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقـد سمحت للمتقاضي ، بنوع خاص ، بان يستعين « بيمنّغرافي » الخطب » الذي يحضّر له سلفاً خطاباً يلقى امـام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا مـا بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصياؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم بـه . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هـذا المركز . فبين الخطباء « الاتيـكيين » الذين احتفظ الاسكندريون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجـانب مقيمون كثيرون : فـان ليزياس وايزيا ودينارخوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهـم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في انشائها وبالحدة في اقامة براهينهما ، فهذا لا يمنعهما من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظـرف اللطيف والمرونة المستسهلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغوينا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فـان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا نجزم في صحتهـــا والتي تظهر في مجموعـة خطب ديموستينس، ليست فقط شهادات ذات اهمية رئيسية حـول القانون المـــدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زبنهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

البيان ـ الفلسفة
ايزوقراط

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسمى فتركوا اثراً اطول بقـاء . خضع ايزوقراط بينهم الى شواغـــل جمالية ملحة اضطرته الى صرف الاوقات الطويلة في تحضير اقل خطبه اهمية الـتي نشرها دون ان يلقيـها لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جمله المتضادة وعـــلى تحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابدع بذلك نوعاً جديدا مدعواً لان يدوم مـــا دام العهد القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة . وغدا باتقانه لتوازن توسيع فكرته وحسن انتقـــاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جـــداً طيلة قرون وقرون .

فالمبنى جوهري في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر اليونان جمعاء. فقد بشّر دونما ملل بالمصالحة والتهدئة بين الاغريق وبالحرب الجماعية ضـد الملك الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية الـتي ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميتاً لقرائه. لا بـــل ان في مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات التي ألمت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء. فليس اذن هذا الخطيب الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير . وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، الـــتي ليست سوى الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحتى اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملا لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير، لانه يرغم على البحث عن الافكار ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً. فعلم البيان اذن مفتاح كافـــة التعاليم : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فـــان ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تـــدم دوام الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته ممارسه طويلة قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى. فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

البيان – الفعل
ديموستينس

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالهـــا ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجـه بعض الخطباء ، فعلاً، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب المتمهنين مهمة تنفيذها. ولم تكن هـذه حال القرن السابق عندما كان بريكليس يوحـي مراسيم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هولاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموسيس ، بـلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيريوس » فناً اكثر استسهالاً وحذاقة ، ومع ذلك فانه سيد الجميع . ففصاحته عمـــل وحياة ومنطق وحميا . تقنع بقوتها وعمقها السيكولوجي وبراعتها السهلة التي لا تنم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمـزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر بلحمه ودمه ؟» ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا اللقب فـيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وايم الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

نهاية الكلاسيكية اليونانية

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينس قد أسهم في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجّه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنتفع . قد حققت هـذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمـة عسكرية ان تهوي بها منها . فهل كان بامكانها أن تحافظ على قوّتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كان قدّر لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي ؟ انه لمن الجرأة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد آنئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فيهما ، داخل أثينا ، حيويتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمري ليس بالقليـــل ، ومن العبث التساؤل عمّا اذا كان يوازي البارتنون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهـداً آخر جديداً .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الارجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها النتوءات ومزق البحر شطآنها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية بمبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اضف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة اليونانية بجماهيره الغفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة الترعرع والنمو في العالم اليوناني – الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر
باعث حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدهـا بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطيد بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لعمري من فاتح غيره ترك عمله اثراً يمثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي بمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري بمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها، قليلة التأثر جداً بجولة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعث حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

ركاكة الامبراطورية السياسية

تقسمت امبراطوريته سياسياً. فقد توفق بعض قواده الى تأسيس ملكيات متميزة ، واضطر ابناؤهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظماء ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرّضت رقع هذه الملكيات منافساتُ المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب بلدية عاصية اصلا او ثائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرثى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخدع لانه يخيب الامل بخطه المنحني العام ويولد الاشمئزاز بما يستلزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تتبع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرجه من الارض وتعجز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

مسكونية الحضارة الهلينية

ان الاهمية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننعت « بالهليني » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلينيين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيا اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سواهم فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عيره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبعهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجات فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : فمهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المرتبة الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية. ولكن الاسكندر الذي تتلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسية اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها . وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فان التربية اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعوين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للنزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاخرون بيونانيتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها بزمن طويل وتكيفها وفاقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

النتـائج

من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جـداً وقليلة السكان ، قد تناولت على غير تساو وبصورة سطحية عمومـاً ، كتـلاً بشرية متراصة مرتبطة بحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عـن اي تحقيق جديد . اضف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين، قد اضطرت الى البقاء مغمورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرها الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يـد عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من المحتم ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تنج قط من هـذا المصير . فبعد قرون مـن الخضوع الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها واخلاقها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزيغ ان لا نقر بضخامة مجهود الاغريق وبواقـع بعض النجاحـات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسيـاً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جـدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات المحيية . وتبرز ايضـاً نجاحات اخـرى خارج هـذا النطاق مردها جـوار احـدى الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهنالـك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريـدات » في كبادوكيا البونتية او سلالة الارساسيين عند الفارتيين مثلا ، تتباهى بميولها للحضـارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحـو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غاليا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضـاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان مـن اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلينيين ، ستسهل ، عـن غـير قصد اولا ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل رومـا ، حتى فجـر عهد الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالامكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بانها حضارة « البولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد، اوجدته القوة دوغاريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ – الرواسب والاقتباسات الجمهورية

انحطاط البولس

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً، هو مبرر وجودها، الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متعهدين بإخلادها الى السكينة .

المدن والحرب

فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيما النسبية . وحدّ انتقال التيارات الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابداً ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترتفع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتنهك أثينا نفسها اولاً ثم تعزف نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسلح الذي ينتظرها فيه فشل اكيد . وقد بلغ من تقدّم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفتّا عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار — وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك — وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضحياتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنداروس، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر. وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ؛ وتزايدت بفعل أخذ الثأر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، الحريصة على وضع حد سريع للحملات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزانتها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحلم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو متملّق ، سلماً محموماً لم تلبث أن عكرته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا اولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحادات

بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن اكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحّد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله « هيليوس » المشتركة.

وقد حصل الانصهار فيهـا ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جـاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثارة حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيـك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التي أتاحت لها ان تتعهد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفق الى النزول في آسيا الصغرى ووطد أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقـة ، خليق بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها مـــا يعوّض عنها الى حدّ بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنئذ ، وبصورة فعالة، لم تسلك هذا الاندماج المنحرف المفضي الى البولس . وقد ادّى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول «مركبة» ، أو ، بتعبير ابسط ، الى « اتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، أكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النـادرة ، تخوماً اوضح منها في ايامنا الحاضرة . وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة غامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيهـا الاخويـات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهلّيني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعدّدها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحـــاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً، الى تحقيقهـــا بين المدن المندمجة . وهي قـــد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كان انضمامها اختيارياً فان المدن الاخرى قد انتهت اخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتهـا . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعـات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالـك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في المجهود الجماعي .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوّة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذاك العهد سوى دور وضيع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأدبياً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكان لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل ايضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلّينيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز ايضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

الانظمة الاتحادية

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذاك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيماً ، أن يكون للمواطنين هويّتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فالمواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرّد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدّية .

لا ريب في ان المدن المنضمّة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ؛ وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناسق لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد ان التخلّي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلائق بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلّف الحكومة المركزية على غرار حكومة البولِس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديهـــا زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترع لا المثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينـــة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ان الجمعية الاتحادية لا تلتئم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محدّدة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا مـــا واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . ومـــا من اتحـــاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمـة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحـــل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانيا قضاة يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيغوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القـــانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يُحتط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقـــا ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلمسون الطريق بغية التوفق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاما قويا وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعهـــا اشهر الرجال احيانا . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستورا للمدن ، التي لم يصلنا منهـــا سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقـــة المتبعة بالتفصيل ، ابّان العهـد الهليني ، ـ وهي ستستمر زمنـاً طويلا حتى في الامبراطورية الرومانية ـ تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمـة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاريبة والمعادلات الثاقبــة ، احترازات يمليها الماضي وعادات موروثة عن « البولس » وتقاليد مرفوعة الى مستوى المبادىء ، تلجم المخيلة الجامحة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

الديموقراطية : ظواهر ووقائع

مما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء ان مظاهر النظام الخارجية ديموقراطية ابداً . فالشريعة لا تضع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع. فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة، لا يعاد انتخابهم فوراً، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولاتاحة الادعاء على ادارتهم. اما اثينا الكلاسيكية، فقد استثنت قوادها العسكريين من هذه القاعدة، رغبة منها في الاستفادة بحريتهم من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حراجة الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها المتهنون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديموقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليتين ، ان الديموقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ اثينا وتقهقر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطيع الوقوف على سير الامور العملي نر ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديموقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررة فيها ، كأثينا مثلاً ، ألغيت التعويضات التي أتاحت للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديموقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديموقراطي الرسمي أيضا. وليس العجز المالي دائما السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرتهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتّما والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيا في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكنّ هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهنالك اساليب أخرى كثيرة قد لا تكون كلّها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلّها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلّينية، الديموقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريبا احتكار السلطة لطبقة اهل المدن الميسورين المثقفين ، المتنكرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرّ بمصالحهم .

لمّا كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسهّل تهدئتهـــا . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هـــذا التوتر فعله في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامهـــا الفعلي احياناً ، عامل بلبلة اضافياً في العلائق الدولية . فهي تسبب او تعقّد الحروب الأهليـــة والحروب بين الدول ، وتجزيء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجـــه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تفلح مـــع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقـــد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاقات العميقة الجذور .

٢ – مثالية الملكية الهلّينية

اصول الملكية الهلينية

بيد ان النظام الجمهوري ، بلديـــاً كان ام اتحاديا ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تخومـــه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قـــد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عـــن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عـــن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قـــد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عموم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العـــام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعيـــة والذهنيات . فالجماهير نظرت الى القائـد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدّة من جهـــة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعـــة التي رفعته فيهـــا الى الأوج . فالقيبيادس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنهما أشهر القواد ، قـــد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهـــا التي لا تضاهى الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتّاب القرن الرابـــع المتنكرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثر بنقائصها قـــد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملي الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادتـــه كرجل دولة وقائد عسكري وصلتـــه بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتعزز هذا المثل الأعلى . فمن احدى المناطق المتاخمـــة لليونان ، برز ملك هـــو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلّص التنافس بين الاطماع الشخصية من قيوده ؛ ولكن انـّى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمـــة ؟ فان هذه الاطماع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية . ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها مماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاسعة، وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استثمارها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباهت بيونانيتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى النزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احيتهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

امتداد وقوة الواقع الملكي

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي، في كافة انحاء العالم الهليني، حتى قيام السيادة الرومانية . وقد تغيّر توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيا خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلسنا نشاهد اذ ذاك حصر السلطة السياسية ، بل تفتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمّها . فقد كانت ملكيات الانتيغونيين في مقدونيا السبّاقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطّاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً، ولكن وصيّة « اطّال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل وايران، الخلفاء الرئيسيين لملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكمش بسرعة لمصلحة الاطّاليين والفارتيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرّد ظل حين ازالتها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجيين الاولى في بلوغ الاستقرار ، فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الا في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالي اليونان كالأبير التي اشتهرت بفضل « بيروس » ، او في آسيا الصغرى كبيثينيا والبونت ، مما يجعلنا نحس بانحطاط شبه متواصل ينتهي الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت في اوائل القرن الثاني الى توجيه الضربات الحاسمة التي كان الضمّ نتيجتها ، لم تحتج الى بذل جهود مماثلة لتلك التي فرضها عليها صراعها ضد قرطاجة . ولكن هذا الانحطاط العسكري يستثني على الاقل قرناً من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقاً استطاعت هي معه البقاء على الرغم من هزائمها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، في تكوّنها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطرة على اراض واسعة تحمي وتنشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

المثالية الملكية

من نافل القول ان لكلّ من هذه الملكيات ميزاتها الخاصة . وتقوم بينها اختلافات مبدئية احياناً . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقله متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قومية كان رعاياها في الوقت نفسه مواطنين اعضاء في جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادماً لها اكثر منها خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة في الشرق فملكيات شخصية . لا شك في ان بعضها قد خلف ممالك محلية : فالساوقي يطلق على نفسه ، في بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ؛ واللاجيّ يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هورروس — رع » ، وملك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريباً لمراسم التتويج في منف . ولكن هذا المظهر ، الذي يختلف كلّياً عن ذلك الذي يضفيه على الملكية الانتيغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلفس) بطليموس » او « الملك ساوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية في الملكية ، اذ ان الكلمة الاولى ، التي تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدّد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فأنها لا تعتبر الا مُلكاً له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبّر عن مثالية واسعة الانتشار ايضاً . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمل مفكري القرن الرابع وتعمقوا في النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد في نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله في نظر الرواقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المجادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التي تصطدم ، في الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الحظوة عند الإله الذي يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التي هو مدين للإله بها ، ظهوراً لا جدال فيه ، في الانتصار الذي هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذي

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحـــد التمتع بالمواهب العسكرية وقوّة الاشعاع على الجنود الذين لم يخب اخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش ـ كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعـــات التي عقبت موتـــه . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكا سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهـــة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفتـــه وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشدّ اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدتـــه ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حراجة ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلقلة عقيدة ايمانيـــة . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقـــد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيلفس » وهم انما اعادوا بذلك مـــا فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تفادوا أخطـــار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعيـــة . فحاولوا بالفعل ان يبدّلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حـــول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكـــن النجاح كاملاً ولكنه لم يكـــن دون اثر : فغدا الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعيا من عناصر صفات الفاسيلفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ابهام وغنى في المعاني. فلفظة « اريتي»تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة النـــاس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليهما المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه. فالملك اذن، في جوهره هو « المحسن » و « والنصير » و « المخلص» كما درجت العادةفي تسميته رسمياً.وهنالك لفظة أخرى ذات معنىشامل ومبهم ايضاً استخدمت لغايتين : « افنوييا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقـــد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال النـــاس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الحليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضفاء صفات كالية ، مع ان الملوك الهلنّيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيـــان . وليست الدعاوة والزلفى وحدهما ما أحاطهم بمثل هذا التجلّي . فان المواطن الوضيع الذي تعترضه صعوبات الحيـــاة وتجاوزات

المستبدين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه ان يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدّل وانهار في المبدأ الاساسي للحضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للانسان،المواطن الحر،المساوي لغيره من البشر الأحرار،والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموّه . فالانسان ، في العهد الهلّيني يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو انسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكيم — وهذا ما انتهت اليه عدة مدارس فلسفية — يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سيما جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقلّه على نفسه . ولكن الانسان الوحيد الحرّ بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نمو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

الحق الملكي والاخلاق الملكية

ان النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متمادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : «ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلالي هو حق مُطيل ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السراري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أُقِر بهم شرعاً فضّلهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة — وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر — وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه — وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرّد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلالي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعترضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسلطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بمكان أيضاً ان نحلّل أحد أغرب مظاهر الملكية الهلّينية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحدين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تعليلها إذا ما أغفلنا حياة ارسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف، في زواجه منها، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فمنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارملها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورهما . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداء مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنسباء بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما شارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورصانتها . فالبرة الرسمية هي أبداً البرة المقدونية التي هي في الواقع برة الميدان أي السُّوق والمعطف المتسدّل والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الارجواني نفسه في المعطف والقبعة وقفاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . ولبعض السلالات شاراتها الخاصة : الصولجان للا ّجيين ، والخاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصيبة بيضاء ، أو بيضاء وارجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعقد الى الوراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نلمس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . واذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، واذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، واذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجماهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .

وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلّينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ ـ الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتنا يحول دون الاستفاضة : فأمام غزارة البرديات المصرية، ليس لدينا، عن مقدونيا والمناطق السلوقية الشاسعة مثلاً، سوى كتابات نادرة متفرقة. أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأناً . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية

الملك غير مقيّد، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش. وهو المشترع الوحيد: يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويجيب على أسئلتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية ـ وهو كثيراً ما يخرق عملياً ـ في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى. ولكن القضاء ليس مفصولاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تحصى يقدمها له حتى الوضعاء من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبر عن آمال كلها سذاجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً .

يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيغونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا انما هي عبودية محاطة بالتكريم والنجلة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مهما كان من تقيّده بوحي ضميره .

ويتمتع الملك مبدئياً بحرية كاملة في اختيار معاونيه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دونما اعتبار للثقافة والمراتب والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضاه أي الثقة التي يوحي بها اليه .

بطانة الملك والسياسة

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك الذين يلجأ اليهم لمعاونته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس، واهل البلاط . ويحتل بعض معاونيه مراكز شخصية رفيعة، فيضطر

للتريث والركون الى الحيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احـــد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمن طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فالسلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تخص بهـا المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذيول الملكية ، وبالتالي تجديد هليني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي. ومن نافل القول ان الدسيسة ، ولا سيما دسيسة المخادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جداً ان يكون هذا الدور موقع زلة . ولكن السراري والغلمـــان والخصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمأننا الى المستندات الطريفـــة التي تنتقدهم ، الا في الملكية اللاجية التي غدت، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثـــل هذه الجماعات . بيد اننا نخطىء ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبـــة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بـــين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولمبيا والدة الاسكندر، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجتـــه ، ولاوديكي زوجة انطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت«ابنة ملك وشقيقة ملكين» من اللاجيين و« زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عـــام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

ومما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . فـ « الأولاد الملكيون » ، المختارون في العائـــلات الكبرى يربون في القصر ويخصصون لخدمة الملك، وتسهّل عليهم التربية التي يتلقونها ودالتهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظـــائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظهم منوط بالمواهب دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهليني يتخطى الحـــدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجوّل الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياد مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، أقلّه بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأنتيغونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية

الفاسيلفس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على ايقاد التفاني وبـــذل الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعـــاونين الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدّون بين « البطالة » جنباً الى جنب مع خدامه الخصوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث اليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطـانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطرأ عليها نوع من التفخيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهنالك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مهذبوه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة: «الأصدقاء» دونما صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء «المكرمين» و « والأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هـذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الارجواني . ولا توجد هذه الالقـاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم اذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملـك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشعّ منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يلمس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافقـه . ومن المسلّم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستشارة ضرورية ، اذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيطة يعرّض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع : فالرجل الواحد قد يكون تارة قائـداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلّم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الحظوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الاقل ، اي الحرب والدبلوماسية ، قـد اصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حدّاً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفوّض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية اكثر نشاطـاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفوّض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيـه في كل القضايا ويبت في اكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي. ولكن جميع هذه التعابير المستعارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جدّاً بالنسبة للاغريق .

الادارة المحلية

من الامور المسلّم بهـا ان الادارة المحلية قد كانت ، في مـا يظهر ، ارسخ استقراراً من الحكومة المركزية .ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية لان كل ملكية مرغمة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفاقاً لميزات الاراضي والرعـايا التي تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيهـا بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفه بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية، حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القـائد حتى زال نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل الماليـة قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ، هو « الكاتب » الذي يعرّف عنه بمركز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب الاقليم او الكاتب الملـكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على بـلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمور تختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع « المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقـد تولى أمور كل مرزبانية قائد عسكري . فهل قام الى جانبه «مرزبان» وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ، ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من المناطق. وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماؤها الرسمية وفاقاً للمناطق، وبالتالي أيضاً أسماء الموظفين المكلّفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمـة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ، يجدر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض النظرات العامة .

من الجليّ ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحقة بها قـد احتفظ بها للاغريق في الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تُخضع إخضاعاً نهائياً كأرمينيا وكبادوكيا وبيثينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول بابقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين ما لبثوا في النهـاية ان أعلنوا الانشقاق ففدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المنـــاطق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستغرقين » فعلا ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصي بالتالي البلديون الجهّال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر تنظيما ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلـك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتهـا مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتما أقـل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي عـلى الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قـد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليد وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غـــير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منوطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهـــذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومرؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هــذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى – في عصر السلالة الذهبي – اتخـذ قراراً هاماً لمصلحة المملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في ابلاغه ؛ غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المرزبانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع انحطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

الوسطاء والامتيازات المحلية

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، أن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافىء وقوي . وفي هـــذا المجال ، يبدو اللاجيون – في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية – في وضع موافق جداً ؛ ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ،ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بحواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هــذه

التنازلات أو التسليات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضهـا فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قـد يعرّض سمعته للتحطيم اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم الغموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدهـا ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً. وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي «الريف » أو «الأرض المنبسطة » لاظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنـة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشتمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافـاً عظيماً وفاقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسميين ان يصفوا «بالجزية» ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلاليون » الذين يسيطرون على مناطق أقـل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية .وهنالك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهـنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتقهقرة وأسرعت في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فينيقيا. ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن لجميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس ». فهي بحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يمهد لها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابداً عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعـة تستخدم مركزاً محصناً من قبـل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بهـا

المدن وفاقا لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغيها ، ويمنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكلف ، دونما ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحي او يحرر احياناً مشاريع المراسيم التي يوافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجيين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتها ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوله الى شغب صاخب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرد الملك نفسه ، واعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاريبة المعتمدة، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تخمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

الثروة

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية من استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب، بل ملكهم الخاص ايضاً. وفي كل الملكيات، حتى في مقدونيا، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها لمكافأة تفاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وتملكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً باشراف القهارمة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزيم الذي قد يفرض فرضاً على سكان «الريف » الذين ، حتى ولو نجوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . ومـا كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسيلفس ، اعني بها الضرائب بحصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصددها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجا واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي وُرثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال – يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية – يحدّد تحديداً اجمالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اد انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهنالك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخليـــة والمكس والرسوم على المبيعات الخ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهنالك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا مـــا مسّت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً مـا كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحي هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كماله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تفضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً. فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلزيم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقعاً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال النـاس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقـــد اكثرت من هـــذه الضرائب مخيلة هي أخصب وأسلس مخيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال هـــذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلينيين . وأذهلت هـــذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طمعاً جاذباً يحملهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الانتيغونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظاً ، اذ ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفاتح « بيدْنا » كي يعرض مغانمه في روما بعد انتصاره . وليس مايضاهي شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية ، في القرن الأول ، مخيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وسياسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للمدن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلا عـلى « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلـــك فان كل مجهود عسكري غـــير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الحيـــل : إحداث رسم اضافي كذاك الذي فرض لمحاربة « الغالاطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقيَ ، بعـــد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المثينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخيم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا حدثت من نفقاتها الاخرى ، عن تعهد جيوش تناسب حاجاتها .

القوة العسكرية

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجماتهم ، ولابقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعيض اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطشين « للمجد » — وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر — أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني باطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوغى . وزاد محمول البوارج الحربية وعدد جذافيها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للمناوشات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على الفيلة ، كان له فيلة يدربها ويستخدمها في الحروب .

كانت هذه التحسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو اعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المحاذير والاخطار . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسلح وخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشر الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك اللاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في فرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

مما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصـــل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دللت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري. فهم في فرق المشاة أخف تسلحاً من« هوبليت» العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراصة من صفوف الجنود المتوازية التي تخفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج رماحها التي تتجاوز خمسة أمتـار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة – أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك – ان الكتيبةلا تتغلب عليها سوى الكتيبة وأن الفرسانالمقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبته المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين وامـــا اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسلحاً من الهوبليت وأفضل تدرباً، كفرسانومشاة، من حيث أنهمعلى العموم جنود محترفون، يؤلفون وحدات ضرورية لمكاتفة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهمات الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجـه الانتيغونيين المقيمين فيمقدونيا؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائـــه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة اياهم في أراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم بهويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيا على «الفرس» الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد ايران قبل الفتح اليوناني : ويعود لمثل هـذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهـــذه الطريقة حسناتها للملوك الهليليين : فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفـة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقبت موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، علـى الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولاسيا المقدونيـين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة - التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيا اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث - في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأناً، سعياً منهم ورا ، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضلوه هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائلُ عديدة كالاتفاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاوير ، او ارسال من يجند الرجـال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيهـا طالبو التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تينـاروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيـين . فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين نبّالين بنوع خاص ، وفرساناً طارنتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيا من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقـدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم الفظ بالقتال .

ألفت جيوش الملكيات الهلينية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية . ولكنه يقتضي أشهر طويـلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشترك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية، ولاسيا تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيـان. أضف الى ذلـك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض الخيول ومستودعات للفيلة ومرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من يحارب لأجلها أراضي وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حـال ، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تفوق روما العسكري ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتوطد بشكل ساطـع .

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة .ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . فهي التي تعبىء في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية .ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر، وغدت على قسط كبير من الالتكاك والجمود، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذاك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد اكّد احد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ : « ان المقدونيين الذين يحتّلون الاسكندرية في مصر وسلوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السوريين والفارتيين والمصريين ».هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التاكيدات المحقرة . ولنكتف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافيا في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلا من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش مختلط ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استثمار سلبية الشرقيين وطغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

٤ — العبادة السلالية

العبادة السلالية : اصولها

هل يجدر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العبادة السلالية التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه ، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية، الا تسربا نادراً وبطيئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكمن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهوينا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية، ان ننسب ،الى نشأة العبادة السلالية ونموّها،تأثيرات شرقية نها لم تتخط البحر الايجي. ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا، ولكن في اليونان لا في مقدونيا، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحصري ، واذ ان العبادة السلالية ، كما مورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العبادة التقليدية باقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراعنة ، ابناء آلهة وآلهة، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات اخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الاخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل اكثر من وسيط بين الآلهة والشعب . وهكذا فان العبادة السلالية ، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من اصول يونانية بنوع خاص

وفرت لها العادات اليونانية مرتكزا كافي المتانة والانساع لتحقيق النمو الذي أحرزته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهنالك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال الـ *Daimôn* و *Tyche* (الحظ) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحيي ويلهم ويحمي كل فرد . فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الالوهة ان يظهر أعظم قوة وجدارة بالعبادة منه عند لفاسيلفس ، وهو يوفر له النجاح والسلطة ؟ وهنالك في الدرجة الثالثة عبادة الاموات التي يقوم بمراسمها أحفاد لم تعوزهم الوسائل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها . وهنالك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي أتى المعجزات وانتقل بعد موته الى جوار الآلهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له ، في تأدية عبادتها له ، عن ثقواها وشكرها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها : فهل يا ترى من ابطال يفوقون الملوك الهلينيين بمآثرهم وتشييد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد بعضه ببعض ، وربما بعناصر أخرى أيضاً ، وأعطى النور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة ، غير أنها لم تحرز على العموم نجاحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقاومات شدة نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية . فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فضرب « أفمينوس » رئيس دواوينه القديم ، في وسط المعسكر ، الخيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرساً وضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفلح مرزبان مصر ، بطليموس الاول المقبل ، في ان يستولي بخدعة على رفات الاسكندر ونقله الى الدلتا . وشيد أخيراً في الاسكندرية ضريح ضخم غدا مركزاً لعبادة الاسكندر التي فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر

ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثالاً وقدوة . ففي مصر نفسها ، حيث نستطيع تتبع تطور العبادة العام ، ظهرت عبادة السلالة اللاجية ونمت دون ان ترتبط بعبادة الاسكندر .

العبادة السلالية: الاشكال

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويغدو بالنتيجة مستحيلاً . لا بل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث نتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوع هذه الأشكال الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدى لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السراري الملكيات أنفسهن ، وحتى غلام الملك ، قد حظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهنالك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفروديت عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة المماثلة ، لا يقتصر عليهما: فالعباده تؤدى الى ملك أو ،كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلهان شخصياً ويضاف الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهنالك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذبح فقط ؛ تمثال مزدان بخاصيات مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعاً وفخفخة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له مايبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادهات لا يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقواهم بتقادم متواضعة . وتنشيء المدن عبادات بلدية — وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً — باقرار مراسيم أبعد من ان تقتفي المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادهات ، اما اكراماً لجدودهم ، واما إكراماً لأنسبائهم ، او اكراماً لأنفسهم احياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ، والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للافراد . فلديهم النقد الذي تتداوله كافة الأيدي والذي ينتقون له على هواهم الرسم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد لتشييد المعابد ومكافأة خدامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا يرضون إلا بالاشتراك بحماس في هذه العبادات ، ولو كانت عبادات خاصة مبدئياً .

عند هذا الحد وقفت سلالة الاطاليين ، وقد برهنت على كل حال عن ترزّن نادر في هذا المجال اذ انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيا وانه ليس هنالك من حد طبيعي بين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفاقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلةالازواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدين بالزواج والمشتركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمهـا الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنـة ورئيسة كاهنات . وهكذا فان اللاجيين والسلوقيين ، على الاقل ، قـد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بكليتها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وأن هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد، اذ ان موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعيداً .

العبادة السلالية : مغزاها وأهميتها

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك، في بعض مظاهر التقوى نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر أو عاد الى الظهور، في أن حيوية الملك ضمانة للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعـة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنهـا الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هـذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضمانة ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجـة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبّر العبادة السلالية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهـذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد باحسانات مقبلة أعظم شأناً أيضاً : وبكلمة موجزة تشمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغـة الرسمية بتسميات « المخلّص » والمحسن التي ترتدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالـك لقب أقوى ايحاء : فمن حيث الملك هو الـ « ايفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلّى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها. وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجهل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدادين الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشائها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فمما لا ريب فيه ان بداهة عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تملقهم أو الخاضعين لضغط ليس ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشد أبداً الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً ايحاءات المراجع العليا .وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها،لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت الينا عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل، بمثل هذه القوة،طابع المثل السياسية والواقع السياسي، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفياً باتاً. وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية، لم يصادفا مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن باله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حياله سلوكاً حكيماً ، وان هو ثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من ينسى ان الاغريق قد جهلوا ابداً النظام الثيوقراطي وان آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرّجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي وايثاق تعلق مؤمنيهم بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوّتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها، لم تخدع احداً. ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصلحتهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراهنة بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كان تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير انحطاط أية ملكية من الملكيات .

الخـــاتـمة

ان قـدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو إذن ، في العهد الهلنّيني ، عـلى أي دليل من أدلـة النهكة . فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألـفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلالي في التملك . وتكوّن هـــذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تجنّب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة اخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكوّن جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توّجته العبادة السلالية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحليـــة ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقرية اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالهـا المبكـّر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل تردّدات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجـــه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيا على الصعيد الاجتماعي .

الفصل الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغيراً ، وانما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر، وقد أبقى عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمنة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » للاغريق قبل ان يصبحوا أسيادها . غير أن المقارنة بين الحدثين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ ـــ العالمان

اليونان القديمة

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري. وقد اختلف وضعها وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً.

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التئام حالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بـــين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية، لا سيا صناعة الخزفيات، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها. وجاءت الحروب الخـــارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتزاق : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الدين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرنين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

الشرق

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جماهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الذليل تنفيذاً لأوامر السيّد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل، درّتا الفتح الفريدتان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجهة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطية في آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والخضر . ولكن ما زالت، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعوية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الانتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدميّة بنوع خاص. ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغية سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد اتصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من ازدهارها الماضي. ولكن مناطق واسعة لم تزل تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكمشة على نفسها ، جاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمرازبة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيرا ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي سقف بعضها « بقراميد » من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سيما الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحرز الانتصار في كل مكان ويبرز اثره في إلغاء اشكال تبادل غير المقايضة الاوّلية .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامعة احياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اضف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرّد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظـام اجتماعي آخر . فالنـــاس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد اي بكهنتهم وحتى برؤساء كهنتهم، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتـــدت الفدادية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعـــابد ، وكانت عملياً نظاماً لكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبـــة الوكلاء . وقد شبّه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفداديي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملا اعتباطياً .

شركة ام استثمار ؟

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك لحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارجاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنيتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهزت الفرصة السانحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدُن قابل للمعالجة غني بامكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاتــه البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذاك الذي سبق لجدودهم اليونانيين ان قطعوا مراحله، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات المادية التي سيكثرها المجهود المشترك . وباستطاعتهم، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسدّ حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنّينية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق أهميتها كل تصوّر ، قد أضارّها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلّين واختيارهم بينهما اختياراً واعياً – ولم يحدث ذلك باستمرار – قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يحد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان آثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الاهمال ، بعد وفاته ، نصيب محاولاته الامتزاجية . ولم تعـــد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا نفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستئثار على الشركة .

٢ ـــ الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تجن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ – التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدّت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، باقل تقدير ، المتوسط الشرقي بكليته – مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة، وحتى نوميديا ماسينيسا – حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألفت مستوى حياتيا متدنياً .

البحبوحة الأولى

وثب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفّقت نسبياً آنذاك باليونان وعاثت فساداً في البلدان الأخرى، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضاؤل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكنز في الشرق قبل ذاك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجه بغية تحقيق أرباح طائلة. ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدّد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البحبوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنه ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاحمة الزراعة والصناعة

فالحبوب هي المنتوج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حيناًمن الزمن، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان. وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسيتهم . ولكن مهما كان من أرابة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضة عند اقل تغير مناخي او اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة احياناً . وقد جاء على لسان احد الهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتغذون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هـذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آنئذ ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون. ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال، فهو لم يتناول نبيذاً تنتجهاليونان القديمة . ومرد ذلكالى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واتقنت في البلدان الشرقية . وتثبتالنصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوروبية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتغنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من أراضيها ،

ولا يحول دون اضطرارها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، اي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قـــد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستنيرين ذوي رؤوس الاموال . امـا الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مسيطرة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكتراث بها. غير ان هنالك ظروفاً كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق بجماهيره الغفيرة، مهما كان من تدني مستواها الحياتي، سوق تجارية لا تحد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات باسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسّن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقــات العملية التي توصل العـــلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف، في بلاد اليونان آنذاك، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجيباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق. فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بـدا وكأنه فتحها . لا بـل انه توفق الى ان يصدّر الى اليونان بعض مصنوعات الفخفخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالاحرى مجرد البقـاء ، ما لم يسلتم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الحر قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

تطور التجارة

أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لهـــا من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيره من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرافىء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحة المحلية فنجحت في اقامة العلائق المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانحرفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ؟ وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبّبا ، مجتمعين ، تأخر اثينا . وهـــذا

التاخر واقع لا ريب فيه . فقد آتى مسافر تجول في أنحاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافىء الصغيرة دون ان يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشار الى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطراز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عن الجمعية الدلفية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولية . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافىء أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهنالك أولاً رودس ذات الموقع الممتاز ، جنوبي البحر الايجي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضيعة في اول امرها . فصدّرت الزيت والنبيذ في القوارير الرودسية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطاجة . وجُمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتوجات كافة انحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعها . فأتاحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيّد الأبنية الفخمة – ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » اي الشمس – وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا وايونيا .

وبعد رودس بزمن، تأتي ديلوس في المرتبة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب ارخبيل السيكلاد، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بمأمن من اعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الحظيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من روما ، فغدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأً حرّاً . منذ ذاك التاريخ توافد اليها التجار من كل البلدان ، لا سيما الآسيويون والمصريون والايطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونها الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق، قد يباع فيها ١٠٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون؛ وقد ابحر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين – اسرى الحروب واسرى القراصنة – والشرقيين الذين كونوا جماهير الفداديـين في صقليا وايطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانيـة والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعدُ مدينة عديمة القوة تعيد لها ديلوس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاص منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزمن قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قـد هبط من مليون درهم الى ١٥٠ ٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تقهقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذلك التاريخ ، قد نهبها ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديلوس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يـد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على يـد سيلاّ الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنها السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ واتجرت الاسكندرية والمرافىء الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ – الطبقات الاجتماعية

طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردّة فعـل على المجتمع اليوناني. ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهـد السابق . وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزيف (*Rostovtzeff*) ، بحق ، على نحو ما أسماه بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصبغة المدنية و « المتمدنة » بجميع ما لهذه الكلمة من معان – التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشاهد هـذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قـد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصددها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل ،

ثروات طائلة ، و « النباب » المتموّلون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقـد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠ مثقال (٠٠٠ ٢٠٠ ١ فرنك في السنة ١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كاليـاس اغنى أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال، دون فخفخة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للاعمال ، مع بعض العبيد البيتيين الذين يؤمنون أعمال المـنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى؟ لا نعلم ذلك بمزيد من التفاصيل، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بمكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثالاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائـد الجنود المأجورين الذي يتباهى بارباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط صاخبين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هـذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جدّ من أمثال « بيرغوبولينيقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » ، فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جدّ طبيب أو محـام أو استاذ : ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرّة ، مع انهـا امسى اعتباراً من دي قبل ، لا تؤمن ، إلاّ بصورة استثنائية، ثروة كافية للسموّ بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان، والخدمة في الادارات والجيوش الملكية، كانت الاسباب الرئيسية لنموّ البورجوازية اليونانية . وحين نضبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهري قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجـارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخيل العقارية ، اما بتلزيم اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة الميسورة الذين عـاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي. وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى الغاء التعويضـات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجداراً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجامحة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقـد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجيز لنا ذلك بعض النصوص، في ان ادارة المدينة، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية، قد توفر

الارباح احياناً بفضل التلزيمات الموافقة ؟

المثل البورجوازي الأعلى : المدينة والبيت

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة الميسورة نزعت الى سعة العيش وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعياد القديمة وقررت اعياد اخرى حديدة : الولائم العمومية ، المباريات ، الالعاب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسّران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين المتمهنين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً مـــا اقتصرت الفكرة الدينية الاصلية على مجرّد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضهـا البعض بمذخها والألاهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها. فأصبح مثال اثينا القديم مثالاً مشتركاً عاماً.

وهكذا فان الملوك الهلنّينيين لم تعوزهم الظروف لاظهار سخـائهم الذي ينطوي في الوقت نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هـــذا البذخ . واسهموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الانفاق عليهـــا . وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكميات كبيرة للاعتنـــاء بأجسامهم . واسسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداتها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على المدن انها امتهنت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريظية واقامة التماثيل وحتى التكريم « الالهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرنا اليـــه اكثر من مرة ، بين « الانعامات » و « عرفان الجميل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعد من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازنات الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس عـــلى الشؤون العسكرية والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافأ ، شأن تضحيـــات الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والجد البأطل . وتتزايـــد الاوقاف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرهـا ، وتستثمر بشتى الطرق : البيع او التلزيم او الاعارة مقابل رهونات او استثار الدخل من قبل قيّمين يعينهم الواهبون او تنتخبهم المدينـة . وهكذا تتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحيـــاة المحلية ، وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهافت الحجاج اليها، سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمـــة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظيم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضارة وتنشر مثالها لمدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان المساكن الخاصة قد جملت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأنهم افتقروا الى الوسائل المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع رحابة وأوفر هواء واجمل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجراؤه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن درسه في ديلوس وانتشر في « بومبايي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحاً على التأثيرات اليونانية ، واثر بعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازدان هذا البيت باللوحات الرخامية والرسوم والفسيفساء والتماثيل الصغيرة والتماثيل الكبيرة . وتنوع اثاثه وتحسن نوعاً وشمل الاسرّة التي نزّل فيها العاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشمعدانات ، والمصوعات . وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمور الجزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولائم التي قضى قانون تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعويها بثلاثين شخصاً .

المثل البورجوازي الاعلى : التربية والثقافة

رافق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها — وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتولّ الانفاق عليها الا في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس ، عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم يفرض المثال المسلّم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنات محصورة في الامهات وحدهن في الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يختلفن الى المدارس وحتى الى محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امراً شاذّاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حياة النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية . ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئذ ، في الأدب والفلسفة والفن وقفاً على بعض المتحررات المتقدمات . فقد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر سيدات المجتمع الراقي في الولائم ، ولكن اصبح باستطاعتهن ان يخرجن الى المدينة دون ان يرافقهن

أحد ، وقد سمح لهن ازواجهن بالتقاء رجال غير انسبائهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيادي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا

نتمنى لو أننا نعرف جيداً ايضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصددها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرّة . غير انها كافية لاظهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيـــا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفاً مادية أشد قسوة – وهذا ما حدث غالباً – في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديلوس المقدسة حيث يتقاضى نقّاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرف فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارباح ، حتى اذا نحن اهملنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبـات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلّما تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضـاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلّف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٢٠ درهماً في اوائل القرن الثاني؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلـــك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المـدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمـــة ، بقي الارتزاق ، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا مـا هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقـة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثـــيراً ولا يضنون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها . ولكنه من الجـــليّ ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنــه لم

طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصيبت بمثل هذا النقص في سكانها. يجب علينا حقاً اننبحث عن سبب ذلكفي ظروف ن . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجة الى . . ولكن ديلوس التي جاءتنا منها اهم مصادرنا حول الاسعار والاجور تشذ في هذا القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعياد زائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل لذين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهوينا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، زدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن المحررين ، وبين حرار .

ضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ثيرات .

ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً، واتسع نطاقه التزود » ا كبيراً ايضاً ؛ فالحرب والقرصنة اللتان ما زالتا على عنفها موّنتا بهم التجار . ولكن يد ابعد من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الجيوش ، فـأقله عند ع الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رجلاً في شرخ الشباب ، دون ميزات تقنية خاصة، ير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك منطقياً، توزيع العبيد قد اتبع بمقدار لا بل فوق نطاق التزوّد : فان روما وايطاليا اللتان لم تين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، ايدت باستمرار .

، اليونان القديمة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية كالأبير مثلاً ، ، بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما ينبت ذلك في ‹خرى . اضف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية، بعد ان دها وتكامل يسارها ، قد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح ‹حرار بل يخفف عن المرأة، التي تتحرر، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بها . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشد تعقيداً .

يجدر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد المحرَّر . فعلى هذا ي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت الينا عن طريق كتابات المعابد ، لا سيا دلفي لت الينامنه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذالتحرير الفردي، لا الجماعي الذي سنشاهده ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن نمو روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هـذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قـام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بثمن وبظروف تختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بحد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر. ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تحرره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبناً . اليك مثلاً عبداً لم يـدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ واليك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على ان يدفع ٢٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلة سيده المبـاشرة فقط. ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بحذافيرها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فاننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعـد عشر سنوات تقريباً يحرر بدوره عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمـن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع مجهودَه مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جماعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد. ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الانفاق بسعة اوفر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بـدا محتملاً ومنطقياً .

اضف الى ذلـك ، كما سبقت الاشارة ، ان الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعاظم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحوير مثالها الثقافي وبعدم اكتراثها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

تدني عدد السكان

كان من شأن نوع معيشة واخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكدّر معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم. وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يمتهنوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى إحن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتّاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليغانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة انحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشلّ انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبنا : فهم ، ان ربوا، لا يربّون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتها في ظل حياة هانئة متخنثة . وهكذا فان الداء الخفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليهما فمن الجلي المحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول إن تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكر .

انها تكشف عن استمرار عادة «اهمال» الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق، وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن.فهل ان هذه العادة، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمنياً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيرة الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التساليّة بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقانيين

« وارغم جميع رعاياه على انجاب البنين وتربيتهم » كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثـل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بها في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عـدد سكان اليونان منذ ذاك العهد ولامبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدّد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب، بل حيوية وحتى وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلاّ الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق اهمية . ولكننا لا نستطيع إهمالها لا سيا وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنث » واستهواء الأعيـاد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين – الذين لا يحبهم – في أوائل القرن الثاني ، يجزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم، بدلاً من ان يتركوها لأنسبائهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديـدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحيـاة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيـل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلّم بهـا ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، لهجرة عارمة حرمتها من عناصر فتية أي من اهم ابنائها نشاطاً وتدبيراً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلـك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عـن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجليّ ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقـة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجـال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للاثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفـاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للمدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا.

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفض أحيـــاناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتــالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو عـــلة ومعلول في آن واحد قـــد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسدّ حاجاتها .

الاضطرابات الاجتماعية

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعـــاء ، اضنت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بمزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغــاء الديون . ويرى هذان البندان نفسهما الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يخشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردوا منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون – اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المعـــدم وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالاً – فانهم لم يهملوا الامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكونمرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأسرى الحرب ومخطوفي القراصنـــة . ولكن الارجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحـدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضـاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرةمن العبيد لنظام شديد القساوة – كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصــدّر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوريون » – لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بمكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحّد بينهم البؤس المشترك والحقـــد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدّة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفـــلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هـذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرّك الجماهير . وهنالك بعض نتف لشاعر بلوبونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقيأ » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتساءل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس ، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجـاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فـــان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتقرت الى رئيس روحي من حيث انها افتقرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابداً على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهوا الى الابعاد . وفي بيوسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتضح لنا دونما شك وجود وتململ حركة اصـلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

الثورة الاجتماعية في سبارطة

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تفسر خطورتها ظروف خاصة جداً . ومعلوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر .

سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة ، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فغدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الارجح . وقد ادّى الى هذا الانخفاض تحديـــد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظّر على المواطنين كل نشاط مأجور ووصم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادنى قانوني . وادى اليه ايضـاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خـــاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً انزال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجـــال » في اي مكان بروزه في سبارطة .

افضى هذا التطور ــ البليّة الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضي عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بمـــا فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيا في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيـــام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيـــة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينين مهددين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون ممن أصيبوا بهـذا الحرمان راودهم الامــــل في اعادة توزيـع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقـد دفعهم استياؤهم الى البحث عن حلفاء، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سبارطة، فأقلـّه بين الفداديين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادبي افضل . فظهر الاختمار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البـدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثـــاني وهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقـّق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد المعارضين. فاستطاع بذلـك إلغاء الديون واعادة توزيـع الاراضي وزيادة عدد المواطنين. ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدا قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوبونيزي الرئيسي، الاتحاد الآخي ، قـد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالياً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة،ولكنه لم يدم طويلاً فعادت الأزمة أشدّ عنفاً منـذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ،وهو رجل من اصل ملـكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات المحيفـة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المـــدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقراصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتبـــاعه اخلاقاً حسنة . اجل يتراءى لنا ، من خـــلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والخـــارجية ، ومصلح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط،بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتزقة والفداديين الرسميين وحتى بين العبيد. فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوهم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرّة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافيـــاً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتفت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

المعضلة الاجتماعية والعاضل السياسية

تبين هـذه الامثلة بوضوح كيف تكوّنت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلـّينية : فهي لم تبرز يوماً منعزلة مستقلة بل متشابكة أبـــداً بعاضل سياسية . وبـــديهي انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية اكثر من مرّة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنبلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعّالاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورّطت أحياناً في تسويات املتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرّين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الاجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسيين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته،في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان: فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرّروا وسلحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آثر خلفاؤهم عليها ، فيما مضى، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء : ولا نلمسه حقاً إلاّ في عهد الامبراطورية حين اتيح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالاضافة الى السلم ، ادارة لائقة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين تثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ ــ الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية، زخرت

اراضيها الشاسعة والواسعة الآفـــاق بالمزيد من الثروات ، وبنوع خاص تانك الدرتان اليتيمتان اللتان وهبتهما طبيعة سخية العطـــاء وكيفها عمل الانسان الجليد طيلة آلاف السنين ، اعني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألـّف الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولية للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الجيوش . اغريقيـاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابداً نحو اليونان . واغريقياً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في مـــا وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفنيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصويين على طرفي نقيض: اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعـــه يجعلاننا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

إسهام الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساوَ هذا العطاء في جميع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال مجدبـــة ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الخصيبة لم تكن قليـــلة فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظرهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اوّل ما عمدوا ، الى النهب والتبذير ، ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب الفصول .

لم يكن كلّ شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خصّ بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيا تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيا صناعـــة النفائس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدما ، لا سيا وان اليونان لم تعوّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومـــع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حدّ بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلينيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلماً اقلّ نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمـة داخلية ، كانت نتائجهـــا الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمـات اخرى زاد من خطورتهـــا تنافس الملوك ودسائـهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سجسهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن ، على الاجمال ، كان اعم منه في الماضي .

سهل هذا السلم النسبي عمل الادارة الخيرّ . لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التـــام ، ولكنها برهنت ، دون كبير عناء ، عن انها ادقّ من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً : فـلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً ، في النهاية ، سوى بالمرازبة ، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم . واستفادت بلاد بابل ومصر ، بنوع خاص ، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرهما ولاستثمار خصبهما الطبيعي استثماراً منطقياً .

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات. فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل ؛ وبـدونها تتوقف التجارة أيضاً . فرممت الأقنية والجسور والطرقات التي تضررت كثـيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين . وتتوفر لدينا ، في هذا النطاق وغيره ، المعلومات الكثيرة ، لا سيما حيال مصر ، بفضل استخدام البرديات وحفظها : عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة ؛ تجديد العمل في الاراضي المهملة ؛ توسيع الاراضي الزراعية ، لا سيا في الفيوم ؛ بنـــاء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن ؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتــا النيل الشرقية بخليج السويس ؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ .

يدل هذا التعداد الممكن إطالته ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيـــان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين ؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان ، في عهد السلالات القديمة جداً ، ان اخذ يحسّن في الفيّوم الاراضي الجديدة للزراعة . ولكن الاغريق أحدثوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن اليـد العاملة والمال بوفرة كلية . كانت المرافىء بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية : مرافىء عديدة على كل الشواطىء حمتها وحسنتها انشاءات ضخمة احيـــاناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس . ولعل أهم نجـــاح في هذا المجال انشاء مرفأ لا بل مرافىء الاسكندرية . فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً ؛ وان شهرة هــذا البناء ، الاول من نوعه حتى ذلك العهد ، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكره (*Phare*) . وقـــد وصل الجزيرة باليابسة سدّ يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر تُرك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر ، فتكوّن بهــذه الطريقة مرفآن واسعان مجهزان بالارصفة . كما وصلت احدى الاقنية بحيرة داخليــة بالنيل . وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا ، قبل المهندسين الرومان بزمن بعيد ، اموراً عظيمة اثارت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به . وفي هذه الامور دليـــل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسياده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحيـــاة الاقتصادية .

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الاوجه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيراً

الشكل ٢٦ ـ الاسكندرية الهلينية
القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينا قدم صناعيو المدن للريفيين مصنوعات عملهم. فبلغت اراض كثيرة ، لا سيا في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق، بصورة مباشرة او غير مباشرة، وبفعل مجرّد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسّنوا الطرائق القديمة. فأخذت زراعة الكرمة تنتشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون، المتعذرة في وادي النيل، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً لهـذه الامور العملية . فاشرفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظماً للحصول على موسم سنوي ثان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاّطاليين ، في جبال « إيدا » الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصموغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٣٠

متراً ودائرة جذعها ٧ امتار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قسامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثاً في الحدائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفذادية بانتاج مصنوعات الفخفخة التي تغدو في الاساس من انتشار الازياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدين الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يبرر هذه المقارنة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مهما بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فان تقنيــة اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق اهمية ، بنتائجه العملية ، جميع الاعمال الاخرى : ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر؛ ولم تضرب الحكومات منها الا كميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر عمليــاً . فالعلائق التجارية مع اليونان واجور المرتزقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قــامت القطع النقدية الاثينية — بصعوبة ، كما هو طبيعي — مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هــذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدّل تبدلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيــد من النقود ، السبائك المكدّسة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاواني والقرامد الذهبيــة والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودسية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة. وهكذا فقد حذا الأتاليون حذو المدن اليونانية في شاطىء آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقــاً للنظام الاتيكي ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنانير الرومانية . وقامت هنالك صعوبات اخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجيون ، للحصول على معدن الفضة الذي افتقرت اليــه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية. وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لا سيا بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهــة اخرى ، تغييرات هامــة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث اكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزانة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعــاياهم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبــل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة

لذلك فان نمو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذيوع الشهرة الذي عبّر عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك مزيداً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من ارضهـــا . وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنــا المطبق حيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ، باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي الخمور المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النبـــاتات السنوية كالسمسم أو الخروع . وتمتعت حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا بشهرة ستستمر قروناً طوالاً . إما المنـاطق الساحلية في آسيا الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النبيذ والزيت والعسل ، بينا وجدت المناطق الداخلية في تربية الغنم تكملة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تتراءى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعاتهـا التزيينية . وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الاولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية : فهي تبيع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراً؛ وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجـــات والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعـــات كما تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها الخيوط الذهبية والتي تنتجها المصانع الاتطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بوادر السخاء نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف بالهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحـــاً ، وكمية من الخشب تكفي لبناء ٢٠ مركباً و ٢٠٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠ ورنة من الدسار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشرعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠ مثقال من البرونز ، بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٤٨٠٠٠٠ ليتر قمحاً للمباريات المقدسة والذبائح و ٨٠٠٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ، بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً ، و« خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات » . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي : التجارة

كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقفل لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضف الى ذلك انه تعلّم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وقفاً على اسطولها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطىء الشرقية . واستيقظت المرافىء الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأي الاسكندرية اسم « انتيرودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية ، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرمول الرسوبية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل اليها يجب ان يمر في أرصفتها ، واليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد وسع هذا الافق باندفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فُقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهلّيني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلائق التجارية .

فقد اتاحت هذه العلائق للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطابع العظمة حياة العليْة من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيا الوسطى ايضاً ، كالعاج والاخشاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى النائي عطور وبخور البلاد العربية ولآلىء الخليج الفارسي ولآلىء الهند الجميلة والماس والحجارة الكريمة. ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكميات ضئيلة ، والحرير ايضاً الذي فاق مـــا كانت تنتجه دودة بريّة هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفّر الغيارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العـــالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملوّنة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدّر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكوّن منذئذ وضع سيستمر حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيا للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرقات هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد ايصال هـــذه الطرقات اليها ، لتأمين الخامات الثمينة وجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات. ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطـــالسة توجيه معظم تجارتها نحو مرافئهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينا عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خاركس » التي سيطلق عليها فيا بعد اسم انطاكية. وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس : ويبدو انها قد اهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيـــار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل. واسس السلوقيون هنا مدينة «سلوقية دجلة» التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل براً او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها – بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا – مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرافىء فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرفأ «سلوقية بيريا». واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجـــه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطىء الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بيريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لمصلحة الاطاليين ، فانهم قـــد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا. واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالاضافة الى العلائق المباشرة مع اليونان القديمة .

رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضمون يدهم على الحياة الاقتصادية

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة الاقتصادية في الملكيات الهلّينية . ففي كل الحقول تلقّى الانتاج والمبادلات احتثاثاً قوياً كانت نتيجته نمواً عظيماً . ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او إقامة احتكارات لمنفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة المخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبدين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدّة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاءه منخفضاً ، على نقيض ذلك، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبّب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي. وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل: ولعلهم السلوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجيين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالتفضيل على « اقتصاد موجّه » ؛ والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية . وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة . فتوصلا ، لخير خزانتهم الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلزيم والضرائب والاحتكار .

القسم الاكبر من مصر ُملــك الملك المباشر . يلزّم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيا خص الزراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . يحدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بـذرها في كل مقاطعة ، اقله فيا خص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الاوامر العائـدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلّف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكان عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية. وهكذا تحصّل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتـأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التلزيم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفـلاح التصرف بما تبقى له ... اذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . وهنـالك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعـلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل برديّ يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تبـاع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يقتني في بيته هاوناً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقـل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعمليتي السحق والنقل ، الى سلسلة من التلزيمـات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخـالفة بالجزاء النقدي . اضف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثمّ ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الزيتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعفينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدّ لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاجية ترتبط بالملك ، وان نموّها لا يفيد سوى الملك . وقـد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الجديدة ، الى اثراء بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصلوا فيهـا بسهولة على قسط وافر من اليسار . اما الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حـال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الانطالية التي ارتفعت فيها، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستغرقين » الذين يصعب تطبيق هـذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نزعة عامة مماثلة . ان المثـل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراعنة : ويبدو ان الانطاليين قد حاولوا الاقـتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

ينقلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رجالا ونساء . وتصرفوا بمواد، خامية او مصنوعة، اتجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند اللاجيين ، ان تشعر بأي تغيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير وطأه ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطاليبها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون استثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لدينا المستندات حيالها ، ضرائب تستلزم رقابة الاشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات.فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة.ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجيون . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . ونمتع ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقاليدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلح الحاجة الى الضرائب وان يفرض تموين الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية ، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجي : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معدّ للتمهيد لما يشبه مصادرة ارباحهم .

٤ — الاتصال بين المجتمعين

من المحتم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديده . ولكن الجدّة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كليا اذا الملك شجّع هذا الاتصال وهذه الاستساغة أو لم يشجعها .

انما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية والمواطنون الاصليون

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولإبقائهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوّه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكمن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . ويهمنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادىء ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنهم نفسها ، سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقيرة وللاعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصلحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديو ن ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حدّ بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقتضى في أغلب الاحيان السماح بالزواج المختلط . اضف الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يحتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بورجوازية تسيّر الامور على هواها ويقتفي الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصيلة . وفي الظروف الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم ممن تخلقوا بالاخلاق اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنية . اضف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لمس فيهم معاونين جليلي الفائدة فعطف عليهم ورفعهم احياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، ممـــا بسّط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخّر تنفيـذ الاوامر . ولم تنشأ ، ماديا ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانـة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حـــال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابداً دون دخل هـــذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سيرى من الموافق فيما بعد ان يتكرم بهـــا عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلا أم آجلا ، الى ان يصبح يونانيا، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلينيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهـد المستطاع ، لا سيا بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائـد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلا واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهنالك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجيين ونزعة السلوقيين .

١ – الحل اللاّجي في مصر

الاغريق والبلديون في مصر : المدن

احتاج اللاجيون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبوهم الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة جداً احياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويره ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألّفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : أجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيا وان فلسطين قـــد خضعت للاّجيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس ألاسكندرية نفسه مكانهم بجعل أسوارهـــا تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضـــارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسربها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خـــاص حيث تجلى الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرّم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسّم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الخداع معه بالامر اليسير . ولم يمنح حق « البورجوازية » بمعناها الحصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأمست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيبلغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم اكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليماييس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحدّ من « استغراق » البلديين والحؤول دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدّ من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدا الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هواهم .

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحدّ شيء من حريتهم في الاقامة والانتقال . غير انمشاريع الدولة الاحتكارية لم تفسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادهاتهم التجارية . لذلك فان اكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدّر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعمارياً عسكرياً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

الريف

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة . وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتبطاً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحده التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيا في الفيّوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتثرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشغور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ؛ كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المنتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني. فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لاسكانهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكن حقيقي، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبغض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يحرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغمين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يجسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباشرون والملتزمون مطاليبها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيا وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظاما شبه مدني خاصاً بعصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جمعياتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

الملكية اللاجية والمجتمع البلدي

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما بلغ من امر انقيادهم السلبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد وعى الملوك ذلك ، وانسجاماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أوصوا عملاءهم بالعدل والنزاهة وتقبلوا شكاوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وبتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينهما هوّة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذاك ان تزيلها . فلم تحل الرقابات على انواعها دون تجـاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثم بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبلديين إلا الحد الادنى من كفاف العيش ، فقـــد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو القحط وكلاهما لا مناص منهما بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة،بل الاختفاء او الهرب الى مكان تجعلهم امتيازاته بمأمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافحة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحمـاية وباضافة قسَم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبالامتنـاع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكان محصّن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثـالث واوائل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتـــا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجنود المقـــدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثـابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها الـتي اثقلت كاهل البلديين .

التف الثائرون حول زعمـــاء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات، لا سيما حيـــال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجنود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدات عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيـازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخـــذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقـــد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس – بيتوسارابيس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخـذ بهذه المغريات التي لم تغره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدث من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدّى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكلية » ، قد خفف من الظلم الذي شكا منه الفلاح ، فانه قـد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هـــذا الضعف . واستمر الهرب الذي غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجـة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمن طويل . والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجدية لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجيين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحرّ هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثـــلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هــذا الاستنتاج مُغَالى فيه اذا كان المقصود اعطاءه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجي لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يردّ هـــذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اناني الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجيين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد الا لمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامهـــا لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمّهم الى الاغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ – الحل السلوقي في آسيا

سياسة السلوقيين الاقتصادية

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهنالك حـالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبـــارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذّ عنهم سوى واحـد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعوّاً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكـــبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلّق « افاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متـــأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدتـــه « لاوذيكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنـــه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثانوية في آسيا الصغرى أو التزوج من بنات هذه البلاّطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصـل محلي ، لا سيما اسرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسياد كبادوكيا البونتية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادىء مقررة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطاليبهم . اضف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهري ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجيين ، شعباً واحداً ، واحداً بحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسيانيين والساميين والايرانيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين مجالاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالتفضيل على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحوّلوهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفاقاً لخطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

السلوقيون والاكثار من المدن

بلغت جهودهم في سبيل « تمدين » مملكتهم على الطريقة اليونانية شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقيدهم بمثل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية – على – العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية – على – دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاوذيكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالى السنة ١٧٠ ، قد جدده بعض الشيء .

من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايجي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجية ، ان تجد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة «مغنيزيا – على – مندريس» جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا. ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مهما بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً، اقله، على اقامة سكان جدد، اغريق او مستغرقين، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعنينا .

لذلك يجب الا تستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحتى اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية – وهذا ما نواجهه احياناً – فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت واراض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجبن من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة – مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادىء التجميل الهليني منذ القرن الخامس – وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان المجهود المبذول عظيماً؛ وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرّت اليها ضخامته ومدته في الارواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا المجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بحد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشىء المدينة في اراض تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرّد الخسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تنشط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الادارة المباشرة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفيه ان يصدر أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » ، وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيدهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفـذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحـاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدي مهمته الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعـل السلوقيين تاقوا الى هذا الهدف توقاً لاواعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .

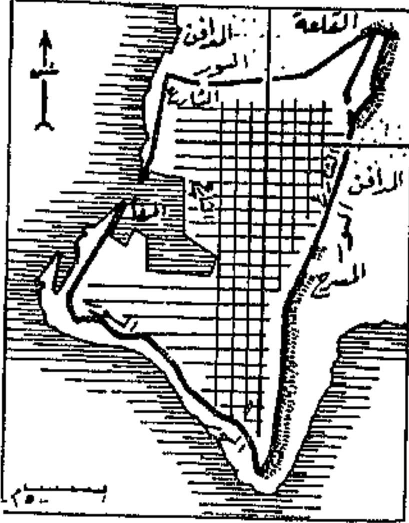

الشكل ٢٧ ـ خريطة لاوديكيا البحرية السلوقية
(وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

المدن اليونانية والبورجوازية اليونانية في آسيا

غني عن القول ان النتائج جـاءت متباينـة وفاقـا للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة، لا سيا في السواحل المتوسطية حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصّلت وحيث لم يأنف الاغريق، على انهم كـثر فيها، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيليكيا، شرقي بحر ايجه، قد غدت ملكاً للمدن اليونانيـة؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافيـة مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا، وبين مدن اخرى كثيرة، شيدت انطاكية، أشهر العواصم الملكية، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفني » حيث انشىء معبد الإله السلالي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة، مادياً وسياسياً، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فبقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكـبر عواصم الشرق المتوسطي، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها، ونشاطها وحتى سجسها، وملذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة، ابعد الى الجنوب، تلقّي الحضارة اليونانيـة الذي اقدمت عليه مخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز، الذي كان منقوصـاً عندما استلمت روما الارث السلوقي، قد اتمته روما بحزم، واليها يعود بالتالي بعض الفضـل في تحقيقه .

يجب ألا نغفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيلة قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض عملهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على اي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتاة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية ومميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واجهوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية – على – دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع انطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية – على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠ ٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الارجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعيها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان يتنقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويتملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشريعة » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للابقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بورجوازيين محظيين وفّر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بورجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحياتي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع اولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد همهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنهم على مدن اليونان القديمة بفخفخة ابنيتها واعيادها وبشهرة مدارسها وفنانيها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط. وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثاً اجتماعياً كانت نتائجه كبيرة الاهمية على الحركة الفكرية ، كما سنرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلائله قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية

كان احد اهدافهم ، من وراء عملهم هذا ، شأن الاسكندرية من قبل، نشر الحضارة اليونانية. وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلفس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يُقلهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كمغتصبين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تتوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا كمركز رقابة عسكرية فحسب ، بل كمركز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارتداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ،حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين أدبياً ظروفاً أكثر مؤاتاة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنية الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القانوني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئاتٌ من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير اننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداء لقطع الحدود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استلزم ذلك من جهتهم حمل اسم يوناني،على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدينا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلّما لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستلزم الاستغراق أيضاً اعتماد الزي اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : ونلمس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخلوص النية أو من الشمول لأن النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيا بين الطبقات الميسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوّنها أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثالاً لغيرها واستطاعت بفعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضارة اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انتسابها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفاقاً للمناطق أي وفاقاً لكثافة الاغريق والمدن . وجاءت النتائج جديرة بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناطق واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بشيء: كالكاريين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكيين بأكثريتهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المزيد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحلين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المحلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها ، لو وجدت ، ان تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جمود قاتم .

أما في المناطق الاخرى فكان الاغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجماهير البلديين . أضف الى ذلك ان روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم ، حين استلمته ، كان قد انتقل الى الفارتيين الارساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرّة لأن تدافع بصعوبة كليّة عن حدود الفرات ضد هجماتهم . فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكثار منها في ما دعي بحق « الشرق الاقصى السلوقي » .

وتجدر الاشارة مع ذلك ، أقله في بعض المدن ، الى مقاومة الاغريق المدهشة والنافذة لاستشراق كان من الطبيعي ان لا يقف عددهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وان البورجوارية اليونانية ، تساندها البورجوازية المستغرقة على الارجح ، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والدين أعادت لهم انتصارات الفارتيين انظمة غير يونانية .اجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا أوروبوس »على الفرات الاوسط التي كانت احدى حصون حدودها . ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « سلوقية – على – الاقلايوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والاخلاق اليونانية زمناً طويلاً بعد ان حلت السيطرة الفارتية محل السيطرة السلوقية . اضف الى ذلك ان هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية » ؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل ، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني ، الى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية ، أمامه وأمام بطانته ، لمناسبة عيد سلالي ، رواية كاهنات باخوس لأوريبيد : فيفرض هذا السلوك المستهجن ، يسلكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة ايرانية هزمها الاسكندر ، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوّة الفعلية يبد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم . وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارتي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك ، حتى بعد العهد الميلادي ، مركز اشعاع لحضارة يونانية نبضت بحيوية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي ؟ وهكذا فان المدن اليونانية ، حتى حيث حالت ضآلة كثافتها دون استمالة البلديين الكثيرين اليها ، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للمنطق . فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجرأة نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فماذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلاً .

البلديون خارج المدن

اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان خلواً من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفسدت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجّه اللاجيون لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتماد نوع من الاستعمار الداخلي مثلا للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا على ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليهما ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل يكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراصة في حال أن اللاجيين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فاننا نعرف جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والفلاطين والميسيين ، دون أن يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيمينيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » للمقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت لهؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك احياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترسم على نقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطّن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهّل تعبئة الجيش وإمّا ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تنتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلّت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدّم دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسمارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو – اوباليت » « ذي المركز الثاني »، في مدينة أورورك من أعمال بلاد بابل السفلى: « الذي أعطاه انطيوخوس ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتين وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أورورك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدّرون تفوق الحضارة التي يمارسها الملك. فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً باغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها المخلصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوّروا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيا شعوب الريفيين المنحطّين، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدادية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بعمالها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحيها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين. ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصروا مجهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفتين احداهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكان الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهدّدة أبداً بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

النتائج

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا التغاضي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر والمملكة الاتّالية بنوع خاص حيث عقبت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، اذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين، كما رأينا ، ان لا يثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافى خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجد فتيلاً حيال شعب يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتختلط عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدهم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانـــة والحضارة ؟ فثورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اساً واسعاً ، لا بل اساً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلا ، من الجمـــاهير الشعبية المهملة الخام.

فلا يجب بالتالي ان يخدعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثـــائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوناً غـــير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في انحطاطها ومن تدخل الاجنبي أيضاً ، فقـــد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عطفت على كل ما من شأنـــه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفـــارتيون خصوصاً الذين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قـــد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قـد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فاذا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قـــد استقبلوا بجمود عدوّ أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلاّ للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً عـــلى العناصر المقيمة في المدن ، لم تتبنّ سوى حضارة يونانية للمجاملة ، أي ظاهرية فقط . ومـــن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقـد سبّبت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؛ ففي نجد ايرن بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخيمينيين .

يتضح بعـــد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً – وكان الامران مرتبطين على كل حال – لم يفكروا بان يوقظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري ،وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية . أجـــل ، بينما أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الخضوع مهما كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج مماثلة . وقـــد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمته من سوق استهلاك كبير لصناعتها ، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالاضافة الى ذلـــك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة ، لم يحاولوا ،بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم ، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هـذا الاهمال غالياً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة عـداء الخاضعين لهم الذين قامت قوّتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

الفصل الرابع

المعتقدات والأذواق والأفكار

اذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهلّيني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دون الامكانات التي بشّر بها عمل الاسكندر الحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوّة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوقفة في ذلك الى ما هو جوهري . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكد تُعرف من قبل .

الحضارة اليونانية والملكية

من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمله . ولكن هذا المثل الانساني الذي يشرّف تصميمُه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركاكة واخفاق ، قد تجمّل اذ ذاك وغا . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛فكان من المحتم ،في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمدّد هذه الحدود وأن تتراخى الاقتسارات؛ فالرقابة والادارة، اللتان تؤمنها سلطة أكثر بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانات التأثرية والعادمة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها. فقد أحاطت الملك بهالة،

لا بل بإكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدا الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للانسان المتجمّل بالمحاسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كمالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يهدّد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . واذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البولس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها الحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخراء : فلماذا لا يجدر بالانسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فان الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداء أطول مدى ، لأنه لا يخنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلاً من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباهوا في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرهف أحياناً ، بابحاث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوريبد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحصر الى آسيا كتّاباً وفلاسفة وفنانين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في اعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاؤون — وهم قليلو العدد على ما نعلم — عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملّق . ولكننا لا نرى تنسيقاً عاماً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم مجموع واحد . فالقاعدة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتهـا العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

لامركزية ووحدة

وهنالك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يتراءى في التوزيع الجغرافي لمراكز اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات، في فترة أو أخرى من تاريخها، على اظهار « عطفها » نحوهـا ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذهـا يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخـذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة، أي انها غدت مدينة يأتي اليها أبنـاء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحـد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمر » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لمعت احدى المدن لماناً خاصاً نعني بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمانها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فعظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصاديين وثروة ملوكهـا العجيبة النادرة وتفخّل بلاطها المرهف ودارا كتبها وآثارها، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشعاعاً لم يضاههما نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً ممـاثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قـد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا، وحتى بيلا في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانهـا وملوكها بالبرابرة، قد تحتلان المركز نفسه، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا نفكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهنالك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآهلة والمنتعشة بتلك البورجوارية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعيـة الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولمعاناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تعتز كبرياء وتنشىء المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحضارة اليونانية عن مركرها في منافسة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكأن الحضارة اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انتشرت فيها خلاياها الحضرية .

مما يثير الاعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انتشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على مميزات عامة مماثلة ترتدي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسه قاعدة مطردة . فكما أن الاغريقي يستطيب السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إزالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملا . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبها أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الاراضي التي هاجروا اليها وبسبب التصامن الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى، فاذا كانت الحضارة اليونانية عاداً أكبر مشتركا لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فانها بالاضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن اولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرز المصادة بينهم جيداً ، اذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تبرر امتيازاتهم .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورها تضامنهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى ثمالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إزالة المميزات الاقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارث ؛ وقد تحملت ، راضية ، تضحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فانها قد اغتنت بالامتدادات أو الاكتشافات بفضل جسارات أتاحها لها توسع إطارها القديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والخدام والشعب تتسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد. ثم ان تصدع وتشتت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورجوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك بهذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهملة حتى ذلك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في نزعة انسانية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ ـــ الديانـــة

العبادات المحلية

لم تجرّ السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، اذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتهـا الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد، لا ليحد من ثروتها فحسب، بل ليجعلها مرتبطة به وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أمـلاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيـل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يثيرون الصعوبات الخطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفهـا أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كآلهة وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم. فرمّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادنو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن اعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيداً بغيضاً ، ثم جـاء الأباطرة الرومان ونهجوا هذه السياسة . فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المجددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فان السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياة البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كال الادارة اللاجية . فهنا أيضـاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل انه تظاهر في بلاد بابـل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الأخيرين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال، هي التي دفعت بخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يضع يده، على كنوز المعابد. وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على انتزاع الذهب والفضـة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجبليين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الخصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفاقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . ومما لا ريب فيه ، اذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سراً خفياً ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين. وفي غير مكان أيضاً لم تنل موجبات الخزينة ، حتى اذا عمل بها، من الحرية الدينية. ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد مورست الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد ايران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالأسياد المعزولين وبالروح القومية الايرانية التي من شأن التهديد الفارتي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقي بعض الاخيمينيين كرؤساء محليين واطلق عليهم لقب « حراس النار » أي أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلديين نفسه ، حينما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المثل وتبنوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ، كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « بعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان الشرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

الحضارة اليونانية والديانة اليهودية

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي وحتى الودي في أغلب الأحيان، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايش أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ؛ ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحضارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحضارة ورغبت في ارضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحضارة اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهملوا الختان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربية اليونانية التي تعلم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغراقياً ، هو تيار « المستغرقين »، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها ارددادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليوذوروس الذي قلبه وطرده فرسان سماويون . ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم «انطاكية» وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية وبادخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنها . وقد كان لخرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لخطإه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يضعا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلبة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر، مع محافظته على طابعه الديني، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم. وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العائشون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيا

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة — لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أقله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بدياناتهم بفضل الشيع المعادية لكل خروج على الشريعة التي تفسّر تفسيراً حرفياً ملزماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المستغرقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيوش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تميزاً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفاقمها . واذا ما استثنينا العبادة السلالية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

سنى الديانة اليونانية الخارجي

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقد طرأت عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذاك السنى الخارجي . وقد أفضى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأنّ حماية الجماعة الجديدة وتلاحمها يستلزمان عبادة إله مدينة على الاقل . وكثرت الهبات للمعابد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت النذورات والتماثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولمبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيا الملوك رغبة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصلوات والتطوافات والالعاب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعاب الاولمبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيا الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيا هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد وللمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا — على — المندريس » حيث تتيح كتابات عديدة تتبع المساعي المحققة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتميس لفكوفرييني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكأن الديانة اليونانية، التي استعادت شبابهـا بفضل الانتصارات السياسية التي حققها ممارسوها ، تثير في أتباعها تقوى أشدّ حرارة من أي وقت مضى وتحقق باجماع الرأي على الحمد والشكر ، احتلال عالم جديد احتلالاً أدبياً .

انحطاطها الراهن

بيد ان ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط من مظاهر الحياة المدنيـة أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني . وليس هذا المظهر أشدّ وقعاً في النفوس من كثير غيره ، ولكنه أكثر صنعة الى حدّ بعيد . فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية ، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن ، في هذا المجال ، سوى غايات زمنية جداً . فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ « قدسية » المدينة و « حقها بالحماية »، أي، عملياً ، الاعتراف بحصانتها حيال شتى أعمال العنف . وعملياً لم يكن لهذا النشاط ، المرهق للدخل المحلي ، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية . وهل كان بالامكان ان تكون الامور على غير هذا الوضع حين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً ، في غالب الاحيان ، على ظواهر شكليه ؟

أضف الى ذلك ان أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل . فقد أضرّ بها على الدوام انها لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا بتعليم اخلاقي فرديّ بدائي ، دونما اهتمام لما هو عادل وغير عادل ، مكتفية بالنشاط الخارجي ، لا بل متخذة ، في غالب الاحيان ، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله . وقد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون امل مطمئن أمام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتباطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه . وقد اضيف الآن ، الى هذه العيوب الدائمة، حقيقة ومشهد ضعف المدينـة أي الاطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قلبياً . وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع ان الآلهة الذين التمست منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها . فتعلم الانسان ، على حسابها ، ان مفهوم المواطن لا يحدّده تحديداً كاملاً ويهمل منه بعض مظاهر كيانه ، تلك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبيين بآلهة المدن أوثق من ان تبقى بعيدة عن هذا الفتور . بيد ان بعضهم ، وزفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم يتأثر به ، ولكن السبب في ذلك هو ان اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين . ويبدو في الحقيقة ان ديونيسوس قد تمتع بتعلق أشد قوّة . فالنجاحات التي احرزتها عبادته ، وهي مدهشة اذا ما فكرنا بالمركز الثانوي الذي احتله في السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاجيون والاّطاليون جداً لهم ، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تباهوا بها حياله . ولا ريب ايضاً في ان صفته

كإله المسرح قـــد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجمعيات الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومـن حيث أن هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشرقيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متـأخر . فمنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيّفته تكييفاً افضـل يتفق وظروف العالم الهليني . اضف الى ذلك اخيراً ان « طفولاته »قد أوجدت حوله، بالتفضيل على اي إله آخر ، جوّاً من العذوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذاك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون اي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأمسى ديونيسوس، على الارجح، اعظم الآلهة اهمية .وهو الوحيد ، على كل حال، الذي ابرزعند اتباعه، آنذاك، في ما يظهر، شيئاً آخر غيرالحركات الاصطلاحية الخالية من المعنى الديني الحقيقي.

التحديدات الدينية : العبادة الملكية والسلالية

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضـــاء ميول البشر العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحيانـــاً عن ايمان عميق حقيقي .

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عالجنا فيما سبق أصولهـا اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بهـــا ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطـة تفوقاً يصبح من الشرعي معه ان يمثل بالإلوهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عبّرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستنزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفياً باتاً شامـلاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمّق وعقّد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصغ الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينـــا اكراماً لأحد الانتيغونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم وإما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجاتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بـل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتهل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » . تعبّر هذه الجمل عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنـا . ولكن هذه الروحية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعـــامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهـة النظر اليونانية ، وفي اوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدراً وطبيعة الهيّن ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضــاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضف العبادة السلالية الى هذه النقائص سوى التسهيلات التي وفرتها لتملق خسيس وللخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهـــذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضـــة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

التجديدات الدينية . عبادة إله الحظ

لم تخل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية. فقد ساعد نجاح تعليم افيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد، خالق وسيد الكون،ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوفقت بذلك الى الاحتفـاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات الساميـــة لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ ». وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الانسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو لحتمية لا تعفو . وعزيت اليـــه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع. واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من الممنوع الابتهال اليه فحسب، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفـات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سُلّم بالاضافـــة الى ذلك ، لاسيما في الأوساط الأمية او شبه الامية، بوجود حظوظ كثيرة، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية، اقله في هذا الحقل، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم « غاد *Gad* » السامي، الحامي الخاص لكل مدينة. وقد درجت عادة مدعوة لديمومـــة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في انطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكـــثر حرارة نحو الحظوط التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبـــادة وتقسم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الديانة : فلم تكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجاماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتفاعات المجانية التي عقبتها كوارث فجائية ايضاً .

التهديدات الدينية : القلق والخلاص

تتلمّس دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق، وفي عبادة إله الحظ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة. وقد دكّد الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد . وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة نادرة في لقب « المخلّص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من الآلهة القدامى والجدد، والكثير من الملوك أيضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة والموت الشرط الأول للسعادة .

وقد ابتهلوا بحرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر بحر ايجه، وفي ابيذورس من اعمال الارغوليد.فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرّج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات ازدهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما في ابيذورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويجمعون ، في الاحلام التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، بحيل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصراء والرحماء والمخلّصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك الذين استطاعوا طمأنة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بايقاف المؤمن على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى بعض المسافة من أثينا حافظت الفسيس الرسمية على زبنها واستمالت الكثير غيرهم ؛ ولكن الفسيس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي . غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من مسرحية وتأثير ، حتى انها قد اتهمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق تكريمه في الفسيس ، اسراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه الاسرار في تراث اجدادهم الديني، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات الشرقية كعبادات « اتيّس » و « وسيبيل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزريس وايزيس في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدىء ان يعتصم بالصمت حيالها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهدئة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدّد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان ايضاً يتعوّد حالات نفسية جديدة كالانخطاف ومحبة الإله المتألم اللذين من شأنهما إدخال الذهول الى قلب اكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية ايضاً . فوفّر له كل ذلك ، بالاضافة الى الوعود التي لا تقدّر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فغدت مذ ذاك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

التجديدات الدينية : العبادات الشرقية وسيرابيس

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحيدوا عنها . فقد برهنوا أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما تبنوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ، لا سيا الى المرافىء ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في البيره ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ تبدلاً كلياً . فأقيمت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شاءت الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لهـا فسنحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مدهشة . فتعرض يهوه نفسه للضمّ ، على الرغم من تميّزه وارتباطه الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم اكثر غموضاً هو « ثيوس » (الاله) ، فاوجد بذلك اله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يوافقوا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل إله اليهود بديونيسوس ، باسمه التراقي سابازيوس ، الذي كان من السهل ، بصدده ، تلبيس بعض الكلمات كسبت وصباؤوت . وحملت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلّي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقّت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

حاول البطالسة توجيه هذا الجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلا لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيّد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينـــة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثـالث في الحيّ البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزريس ـ أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيا بفضل تمثال النقاش « برياكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيـــات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثّل انساناً مهيباً ، يفيض محيّاه عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصيب ، جالساً على عرش ، قابضــاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقيــاً يده اليمنى على كلب . واذا كان الإلهان المصريان ايزيس وانوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « ابيس » يموت ، فقد وجد فيه من جهة ثانية هيكل لديونيسوس ، كما قام أمامه بناء سداسي الشكل أحيط فيه تمثال هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية التي لم ترض يوماً بالتنكر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكترث البلديون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما يرجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسيا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيـا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهّد الطريق أمام انتشار عبـادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعـــاء .

على الرغم من أن الاحتياطات المتخذة للحفاظ على نصيب العناصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيا ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد اسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفنـاء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسها من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » أو « المجوس » أيضاً – لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت – وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيا بعد وتنتشر منها في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانيـة ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنيـة ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حمـاسهم الحاد . فاكتشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . واذا لم يفرض عليهم استخدام الثروات المادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامهـا شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتتلمذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتصـلموا تقوى جديدة قوامها القلق والحمية .

٢ – الفـن

الفن اليوناني والفنون البلدية

باستثناء بعض التقنيـات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبـل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتـالي فناً يوناني الجوهر بصنـاعييه وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلبـاتها ، قد افتقرت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالاضافة الى اوروك في بـلاد بابل ، حيث يفسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكوّن مصر الشذوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقـاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحقول الاخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التنـاسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سن الجماليات . أما البنـاء

الوحيد الذي يبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانية ، وببعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني

سيطر الفن اليوناني سيطره لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق ما نقلت عنه . ويفسر تحوّلاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كان على نشاطه ان يبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذي وفـّره، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المناظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية ، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زبن أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي. وكان من شأن التأثر ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوّة التأثير والضوضاء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمنذ العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزيين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لها المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزبن الميسورين الراغبين في البذخ الكمالي واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية اكثر سهولة ، واكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دونما ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالنماذج القياسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست اكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها متشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زبن آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالباً بالوسائل اللازمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضاً اللذين من شأنهما اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعتني بها اعتناء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعل شهرتهم ، تمجيد حكم الملك، قد أدخلتا عليها مشاغل وتصنـّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلّت نصرة الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً اكثر شمولاً منه في المدن، غير انها قد وجهتهم شطر تحقيقات، اما فخمة واما بالغة في الدقة، لم تكن دون غيرهـا مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ – هندسة العمارة

الابنية الكبرى

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقـل عن الشرق القوس والعقد والقبة مثلاً. غير انها، على معرفتها بها، لم تستخدمها إلاّ نادراً جداً، متمسكة بالاساليب الكلاسيكية التي حصرت جهدها في اتقـانها . واذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجدّة . وما تجديد هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أملته مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تنم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا بـه الى القياسات الضخمة التي أهملها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعـابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الاكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الاولمبي الذي يعود الفضل في الشروع فيـه في أثينا الى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدامُ بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

ومما لا ريب فيه ان الأبنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت «ميله» إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون. بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثنون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها، موزعة على خمسة صفوف، واحاط بالبنـاء صنفان آخران ايضاً . وفي داخل الجدران ، ادّت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فنـاء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق وبقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية في معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هـذه التأثيرات يا ترى، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمته النيران ؟ فقد ابقي مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جـداً ، العائدة لأسرة البرنخيين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفاقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى نقيض ذلـك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايتـه دينية : المذبح الضخم لزفس المخلّص في برغاموس . ارتفع على مقربـة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الاربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلّم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المحتم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حدّ له. اجل لقد صمّم « جبار » رودس المجوّف كتمثال لهليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدّة قدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوّه ١٢٠ متراً الذي شيّده المهندس المعمار سوستراتوس الكنيدي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معدّاً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قمته التي تعكس المرائي لمعانها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . (انظر الشكل ٢٦ — ص — ٤٥٧) .

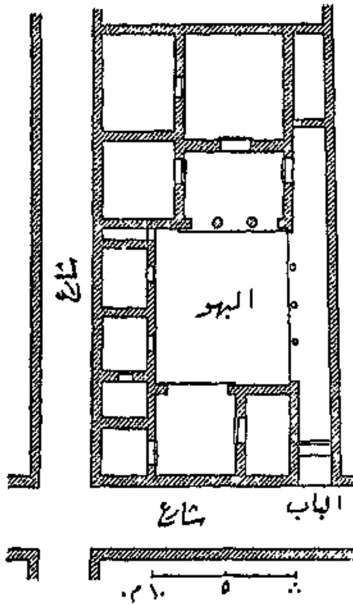

الشكل ٢٨ – بيت هليني في بريينا (ايونيا)

البيت

وهنالك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة الهلينية تفسرها زيادة الامكانات المالية أيضاً.

نحن نجهل كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يَظهر ألاّ نتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للأبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتنت الملوك الشرقيين أبداً بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرادق المعدّ لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلالي كبير ، ولقصر عائم معدّ لنزه بطليموس الرابع وبطانته على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجية ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان أو عرضيان لا يسدّان فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان ليستجيب لرغبات ملوكها لو شُيّد .

على نقيض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لا سيما في المدن الأسيوية كميله وبريينا ، او البحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألّفت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانبها طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفخة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية، هي التي روّجت اعتماده. يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف – وهذا هو التجديد الكبير – كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية. وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما أُلبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجص الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحدائق او المناظر الريفية .

هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة، والذي سيفضي الى بيت بومبيي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانيا .

المدينة

اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلا واحداً وخططت وأُعدت وفاقاً لرسم عام وحوّلت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدتها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثمّ التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما استثنينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً – كبرغـا البيره واولنثوس – اتضح لنا ان المدينة في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصّر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية، باستثناء بعضها – كديلوس مثلاً –، فقد صممت وفاقاً لمخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفاقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احـــدى التلال ان يخفف نفقات بنائه . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية ، جديدة في كثرتهـــا وشمولها ، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها .

الشكل ٢٩ ـ برغاموس الهلينيـة
ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١) ، المدينة الوسطى (٢)، المدينة العليا (٣) . وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى . فقد حدد عرض اكبر للشوارع ، عشرة امتار تقريبـــاً للشوارع الرئيسية ، وستة الى ثمانية أمتار للشوارع الثانوية . ووضعت انظمة للأبنية ، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس ، قضت بالنظافة والتقيد بحد ادنى من المسافات بـــين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلا ومكافحـــة الحرائق . واحيطت الساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها. وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه . واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخائهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتزاوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكان للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيماً جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطّحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فهما قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسامين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية، فقد أعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافىء الذي ألفه جميع المتوسطيين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قمم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفاقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تتراءى خلالها جدران واعمدة وسقوف المتزاوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلالم المسرح الحجرية وبأعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني بحصر معناه ، من حيث انها شُيدت كستار خلفي في مسرح ، منطوية احياناً على كل معنى العظمة الملموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ ـ الفنون التصويرية

الظروف العامة

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافاً بيناً عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغيير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفخة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الاقل » انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحـــاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينـــة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انهـــا أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسيّر لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انهـا من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميليوس ، ٢٥٠ عربـة ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعـــاجية . وبدت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولمبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكـــثر من أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمـة . وتاقت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيا تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيه بذاك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكـــثر من ذي قبل ، في معالجة بعض الخـاميات النادرة الثمينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاغل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضـــاؤل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكـــثر عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شذّ فيدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العـــالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيـــات الفنيه فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوّى التطوُر المـادي والادبي التحامه الاوّل . اجل سبق لكثير من هـذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العـــامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرّد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عـــن العواطف الحادة ، والميل الى الجمـــال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقليين في ذاك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فعكس الفنُ إيمـاناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمنـــاظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والاخضرار ؛ فعبّر ايضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحيـــاة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانيـــة الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبـين في اعلاء مقرهم الى منزلة المنـــاظر التي هي أشبه بالمتاحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الاولى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصليـة من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة، في ايطاليا اولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً. فاضطرت مدينة كأثينا مثلاً، منذ عهد باكر، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسطاً وافراً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثنون، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانـة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنيـة التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح، كما يجب الكبح ، جماح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا ايضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القديم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكوّن حـــالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضـــارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كأن الحضارة الهلينية شككت في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً.

النقاشة

ليس في عداد النقاشين الهلينيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غـــدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بألمعية سيكولوجية جنّبتها عبقريته الاصطلاح. وهي هذه الالمعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابة تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عـن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحثه عن الحركة والايقاع ، وبتحليله الحاد للعريكة والعواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

اذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرابيس ، فان خاريس ، واضع جبار رودس، احدى« عجائب الدنيا »،وافتيخيداس، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية، قد تتلمذا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة باحدى نسخها التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز – تاج الأسوار المسننة ، حفنة السنابل، السبّاح الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر –،ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبيعية الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكىء اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبّر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتّسم بالعذوبة الحالمة .

بقيت فيما بعد اسماء كثيرة يتعذر علينا ان نربط بينها وبين روائع نعرفها . ومهما بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتن الذي اهدي تقدمة بعد انتصار بحري احرز في القرن الثالث او القرن الثاني، فان التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوقيت . وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعرية جسم المرأة ، خيّرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزبن الذين اقتنوها من ميل شهواني يفوق حرارة ايمانهم ؛ وقد تذهب أناقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة احياناً ، الى ابعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها الجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية . فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً، حتى فيما يبدو لنا ممكناً ان نجعله مقرّاً لها. بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه او تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة او مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكدنا الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهوون روائع العهد السابق ويقتنونها ، وقد أسسوا مدينة – متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثروا من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعاوتهم على عدد من المدن اليونانية في اوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الغلاطيين الكلتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهّاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، اذ ان السلالة ، بعد ان وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تترد في

استخدام الغلاطيين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحيت بعض النقوش هذه النزاعات احيــاء مباشراً وأشارت اليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد اطتّال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الأثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افضى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي الغالي، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمته القعساء، المؤثر بخيلائه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأنة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدانت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢٫٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس. فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والعضلات المنكمشة في مجهود حاقد. وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قريحة لا تنضب تنوّع المشاهد الكثيرة –فحتى الجبّار الفتي نفسه يخفض رمحه أمام جمال افروديت الرائع – ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفّظها الكالح ، تفضي ، عما تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية واخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاووكون وابنيه المتشنجين تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال انجلو وليسينغ والذي يتهمه تطور الذوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديركي » – موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » – او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تدُ لها وسيلة من الوسائل غير لائقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مراء مركز فن نزعاته أشد تنوعاً. وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقصار انتاجهـــا الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى. وفي الحقيقة لم يُظهر النقاشون وعمالهم ، في أي كان، على المواد الثمينة – ذهب وعاج وجوهر وحزع – مثل هـــذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زبن اسمى رقة . غير ان الظرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبق بتدين

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوحى ، بكثير من الرصانة ، بتقوى ورحمة خفيتين . والسيئة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بها عن قصد الى فن تصويري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الازضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهّم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعد القوّة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تماثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الاوزة برصانة مضحكة. وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفكهة هواة اشمأزوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكتشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش النـاتيء ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفإي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصالاً كلّياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يمثل النيل : وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حدّ بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار ، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته للمدن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخزيف والصياغة

ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول. فقد عاش ابيل في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مهما بلغت شهرتهم ، ان يجاري ذاك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصّر شعرها . وكي نكوّن اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان تنطلق مخيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدرانية الكمبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما ُحقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تنافسهما في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورهما ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات. وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس. وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع المحركة للعواطف التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المفتن والمبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكان للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي، وفي تمثيلات وحتى الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفيليقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احياناً بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زبن من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسنا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقراً واضحاً في اعقاب توزع المصانع والحاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت اثينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجه ، واستخدمت يداً عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزبن ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبداً قسماً هاماً من المغانم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة ، ويصح في المواضيع المعالجة، وفي طريقة معالجتها، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهما ايضاً تكشف اثارة الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميزون بذوق رقيق . اما الزبن المتوسطون فيكتفون بالخزفيات الناتئة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الحرف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرهما ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب . ولكن دقة صنعها تدنت فأكثروا، الى جانب البورجوازيات الأنيقات والفتيات النصرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثارة الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزبن الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتنزيلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجي ومبالغته في الترف ، اللتين قامتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نمطاً يفسر نجاحه التصديرات البعيدة – اكتشفت أوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان – والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . احل ان في هذا النمط محاهاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يرافقه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تعزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .

فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كالاً ، الى تشريف استخدام المواد التي وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ ــ الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبخس حق الحياة الفكرية، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجددهـا . اجل انها لم تعط نتاجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ، اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدنيّ القوة الخلاقة ، بل عن اتجـاهها اتجاهاً آخر فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضـارة الهلـّينية قدرة كلـّية على الاستساغة .

١ – رجال الفكر والمجتمع الجديد

الظروف العامة

لم يكن تأخر البولس ليبقى دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكيـّفاً خاصاً وأحدث كثيراً من الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدّت من حرية المؤلف او وجّهتها . وبلغ من السلطة المطلقة احياناً ان لاشتها، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفـاوت بين التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذاك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدث في نهاية وليمـة من الولائم ان منح انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابيـاتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص مدججاً بالسلاح على غرار المدعوين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء . وحلّ اللطف والرقة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الخشنين. واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المـادية الكبرى التي منحت للأدباء والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

اثينا نفوذها الفكري السابق . اجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابناءها لإكمال تربيتهم . وقد تباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس بإعلان ما هو مدين به لإقامته يافعاً في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ، فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي اكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وافضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأبهر لمعاناً : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هنالك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن امّياً لعمري ، ولكنه كرّس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمدني الميسور ، المالك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسّر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قميناً بتغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدّاً أدنى من المكانة الاجتماعية .

الاغريق والشرقيون

ان تعلّق الاغريق بحضارتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الى البورجوازية ، قد حدّ من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضاً ايضاً . فقد جمع مانيثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقلونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معاشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليهيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سويّة . وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاجيون والسلوقيون الروزنامتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لها ان نحدّد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكتفوا بروزنامتهم التقليدية على الرغم من تأخرها. ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبة يونانية محدوده العدد : فحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا نفسهم به ، عن قصد ، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاقه قد اكتفى بالغرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور. فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعتلاء النار المتقدة ، عندما رفض الاصغاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيره ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأن يراه ثانية في هده المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية. واستحضر احد سفراء سلوقس الاول، ميغاستينوس، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باتاليبوترا » (باتنا) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهنود ان يرسل اليه بعض النبيذ والتين واحد الفلاسفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « اسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير، مرسلين الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى «انتيغونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هـذه الاتصالات لم ترتد سوى اهميـة عرضية .

كان الاغريق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفـاد بعض زعمائهم من انحطاط الامبراطورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجـاب . وكان « ميناندروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلينيين الذين تولوا الحكم في بلاد غريبة . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضـايا ميليندا » ، مستعلماً الحكيم « ناكاسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارتية الفتية ، منذ هذا التـاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضـارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضـارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين . ويكوّن هذا الانحطاط وهـذه الاستساغة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرتهـا السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانيـة . ويستحيل احصاء اولئك الشرقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارتي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص وانحدر من وسط سامي ولم يتوصل يوماً الى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهنـاك مثل آخر كلـّي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم، كما جاء في التقليد، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحّة ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريبة من الشاطىء الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسهـا احيـانـاً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدّياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعوّض هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين الى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتنافى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه الى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زالت هنـالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا الى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضووا الى الثقافة اليونانية ؛ وتزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصيد الحضـارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبة على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتهـا على الاستساغة مرور الكرام .

٢ – في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : الـ « كيني » *La « koinè »*

امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتفوقت على الحضارات المحلية ، غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص.

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنداروس باللغة الدورية، وهيرودوتس ، على الرغم من الروابط التي شدّته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات « الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك تقبلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر بزمن بعيد ، لغة القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدّمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر الـ « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي تكوّنت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تجوّل فيه الاغريق بحرية ، دونما تمييز في منشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدها الشعور بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقدة النادرة الاستعمال . اجل ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة. ولكنها اسهمت اسهاماً فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة، — اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية —، في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً. وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود النائية . وقد سهّلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تتغلب في الارياف خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي – باستثناء اللغة المصرية — ، فقد تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبق لغة الادارة . ولم تبق اللغة العبرانية في فلسطين

الا كلغة لاهوتية، بينما اصبحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغـة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانيـة ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العـالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً، على لسان الملاحين الصقليين فحسب، بل كانت لغة ارخميدس ايضا. ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انهـا لم تستمر إلا بحيلة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهّلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

انتشار الثقافة

يؤلف هذا الانتشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

لقد جـاء المثل من فوق ، من الملوك والمقربين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انفلات اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجيـة ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرّر تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية — إلاّ اذا كان الامر على نقيض ذلـك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين، احـد أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بانحطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاتّاليين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في عـلم زراعة البساتين . ولذلك فان الدُور الملكية قد اشعّت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كثب بالسياسة . ولكنهن قد اشتركن بالاضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفرّها لهن نسبهن ومنزلتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهـذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقي في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ؟ على الاخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجيـاً ثورة في الاخلاق التي اقصت النساء الشريفـات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيـه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيـا » التي ضغطت على والديها للتزوج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احداهن من ضابط سلوقي واصبحت نجيـــة لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة، حتى في مدن اليونان القديمة، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخـــل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتـــالي وقفاً على نخبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدّد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور اذواقها . فقد تكاثرت الطبقة الميسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المنـــاطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالاضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانونية، تربية فكرية تبرّر ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

التربية الهلينية

كان هذا في الأساس من تعدّد المدارس ، او بالاحرى من إيجاد نظام مدرسي أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليماً تحقق حوله الاتفـاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني،وقد اعتمد عملياًحتى اواخرالعصورالقديمة. حتى ذاك العهـــد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بنوع خـاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كا الى شأن خاص واكتفت بالاقتصـــاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلّف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعـالية حتى اذا لم يؤدّ الى المهذبين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوصيين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصر استخدام المهذبين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجـل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضـارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعنِدت في الحفاظ على نفسها ، ابقـاء الولد في حصن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم ، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظـــاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار البلدي ،

لم يفرضها الملوك رسمياً. واذا ما أُتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانيـة التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه المواربة او تلك ، اقـله من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعهـا العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في اثيـــنا ، حيث نشأت على ما نرجح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتماء الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثـاني من القرن الرابع ، قد زال وأُهمـل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة. ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلـّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فغدت المؤسسة ، من ثمّ ، بالنظر لسن الذين اختلفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالجامعات . وقد أُنشىء مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا، فكانت، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقـات التي فرضها العرف على الشبان المنتمين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتراوف . وكان الانتساب الى المتراوف بمثـــابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزن الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيا في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقصاء سكان البلاد عنها . ولكن المتراوف عدا اذ ذاك مؤسسة بلدية . فأصبح لكل مجموعة يونانية متراوف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتراوف » . أما الاداره المالية ، ولا سيما تقدم الزيوت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقـــديم الزيت او تأسيس وقف معد لتقديم الزيت « للمتراوف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيـان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيـــين .

وقد بلغتنا ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس نفسها . وهكذا فان الروديين قد تقبلوا ــ مما جعل بوليب يلومهم« بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي نعموا بها بفضل هـــذه الثروة ــ من احد الملوك الا ّطاليين هبة توازي ١٥٠٠٠٠ هكتوليتر من القمح : فكان عليهم ان يوظفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع ويستعملوا فوائده السنوية لدفع اجور المعلمين. اما في بعض الامكنة الاخرى فكان الواهبون افرادا . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استتبعت تعيين

المعلمين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هـــذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهـــالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قـــد مثّل بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها – متذمرين احياناً ، كما نرى ذلـــك في إحدى مهازل هيروندااس الايمائية – عن الاهمية الكبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قـــد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعياد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هـــذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فغدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتظهر لنا الاطماع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم ، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هـــذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذاك ، فانه قـــد غدا وقفاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلّم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع ، كما تشهد بذلـــك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية ، وبقيت في الاساس من تربية الولد : ونادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوّق علم البيان تفوقاً واضحاً فيما يجدر تسميته بالتعليم العالي . فهو بفعل تنوّعه ، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقـــد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليبيوس . وخارج هذه المدارس ، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب ، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلّم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري . ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلا ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيـــان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطيين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجـــاحه لم

يتميز عن نجاح تعليم ايزوقراط الذي مثّل علمُ الادب ، في نظره،الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحـــد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خياليـــة لم تلبث ان ألـّفت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمـُثل العامة،لا سيا في الحقل الاخلاقي، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع، ومتوخية، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهايلنية في توضيح مفهومه وجعله سهل المنال بتشييد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

نصرة الآداب والفنون ومؤسسات الأبحـــاث

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة ثانية ، ما كانت الثقـــافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة العظماء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقـــد تمّ على مستويات اخرى بالبحث الخلاق الذي تعهدته نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسستان شهيرتان، المتحف ودار الكتب، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انهما لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبـد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام رجـال الفكر . فخصص لهن مذبح على الأقل في حدائق« الاكاديميـــة » (المجمع العلمي) و « الليسـّه » (المدرسة) حيث علـّم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصدقاء ومعـاونو وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد ابحاث ، بشراء وصيانة العقارات . وقدمت الدولة الأثينيـة في أواخر القرن الثالث، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة عـلى الصعيد القانوني ، دون ان تقدم مساعدتها المالية .

يرجح ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيهـا من اختلاف بيّن. فتلقى متحف الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليماً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا مجمعاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعيّن رئيسهم ايضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابلية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدّة لحياتهم المشتركة ولنشاطهم . وتعهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للماديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم ايضاً التي سخر منها بعض الهجّائين ، بدافع الحسد على الأرجح ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي ». وكرّسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلّمون رهطاً من التلامذة.

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهّلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر ايضاً ، فقد أنمت مجموعاتها انماء مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠ ٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأتى على جزء منها . وكان هنالك بالاضافة الى هذا العدد ، حوالى ٥٠ ٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فتسلّم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجيين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الاهمية وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسلوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقد أنماها الاطاليون إنماء مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت اكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (*Parchemin* الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً: فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تعهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزه عن كل غـــاية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الاهميـــة السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلـك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكيين .

٣ – الشغف الفكري والروح العلمية

الألسنية والعلم الواسع

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرّف عنــه اليوم بالالسنية والعلم الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدوها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاحاً، فانه قد بسّطه ايضاً بجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كلياخوس وايراتوستينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالتفصيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوط فيها او المحشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمـــل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانتهى الشرح الالسني الى النقـــد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نقرأه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتـــأخرة ، لينمّ عن ألمعيته الفائقة ؛ فهو انما أثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلّها ، غير قادرين على اهمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الاهمية المولاة لعلم البيـــان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك – ولعب ارسطارخوس فيهـــا دوراً كبيراً – « القوانين » الاسكندرية، ايَ مجموعات المؤلفين المعتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفـــاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كليماخوس وحده ١٢٠ « مجلداً » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديرة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليد ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولنكتف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر — اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القلزية » ، بسبب طول أناته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستهزىء بهذا الجامع الجموح الجريء في وضع واستخدام البطاقات، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيّد احياناً. وقد كرّست ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجّل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعو الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية». اضف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظلماً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الآتّالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً واوفر انتاجاً، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في منافساتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، الكتبية الى حد بعيد، مساوئها أيضاً. ولعل اخطر المساوىء ان هؤلاء العلماء الواسعي الاطلاع ، قد أوجدوا ، بجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلّ بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اضف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقدر لقراءة التعليق او الخلاصة ، او المنتخبات أحياناً ، ان تحلّ ، او انها حلّت فيا بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان تنسينا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ؛ وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملابساتها والتأمل في كلّ منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنها، هكذا أدركت وطبقت مبادىء «المدرسة الاسكندرية» التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا نزال نتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقــة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمربي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهائها .

التاريخ

نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتــاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، او العلم ، او التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنايات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلامبذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجداول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثينيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي. وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها، —لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً طيلة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم. وانكب غيرهم بعناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلاً متيناً . ولم يكن هـذا التعمق التقني ، من جهة ثانية، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتعقد الظاهرات الفردية او الجماعية وعللها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العــلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتــاريخ في مفهومه العلمي ، بالاضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فان انتشارهــا قد اكثر من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجد في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تخوم المدن. فازدادت الدعاوة السياسية، التي اعتُمدت منذ زمن

بعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدفتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نمط جديد هو نمط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف. فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيا مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً: الأثيني ديمتريوس الفاليري ، وبيروس ملك الأبير ، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث. ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتماء الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحت لهم المزيد من العُجب الحلال . فلمعت من ثم اضواء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدّمت دراسات جديدة كرّست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله ضمنياً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فناناً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكريا . وهكذا فان التاريخ – وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي – قد اسهم في ان قوّى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احياناً ، ويواجه النقد في ايامنا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسيم التي لم تصل الينا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهوينا ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او اقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان ، بصورة حتمية ، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في نسبتها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : فغدت في اغلب الاحيان قطعاً صنعية جوفاء للأبهة فقط. ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليق بأن يسلـّي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حدّ بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القدم ، عن طريق البحث عن توافت ولاية الملوك او القضـاة ، في اللوائح المحلية : فنفذ ايراتوسثينوس على هذا الصعيد عملا مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التـاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفـائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فملي غرار أثينا ، استمالت سبارطة ودول اخرى او منـاطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع عيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأثر الى حدّ بعيد بالتقريظ الخطـابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن وللعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذاك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريستي (من جزيرة اوبيـا) ، قد ألـّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ للحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس المسيني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقـاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات منقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقـاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيلولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد. وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد، دونما ملل، مما غدا ملكاً مشتركاً . وها نحن ننتهل اليوم، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احيـاناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفـات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وحده ما يرغمنا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لجأ في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتبـاكها ما تنطوي عليه من تعابير مجرّدة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملتها على كل حال مفاهيم فلسفيـة تطورت ولم يجهد هو ، او لم يتسع له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميمـاً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فمنطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين. وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احيـاناً ، وعلى الرغم من تأكيداته ومن امتيازه عادة عن المصـادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة احياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلا . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الآخية وبورجوازيته الآخية وحتى انتمائه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهـــداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصـادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخاً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب، بل« عملياً » ايضاً ، اي قيماً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المصمم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حيـاته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقصاء الاثر الإلهي — اي اثر إله الحظ — فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتهـا ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكتف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، وميّز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسبـاب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تفسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحزم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً احياناً وصمم على درسها كمجموع . وقد خدمته مصائب حياته نفسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفيا في ايطاليا حيث تقرب الى شيبيون امليـــانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مستنداتـــه فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتضحت له هذه الحقيقة التي شاهد حيله تحقيقهـــا ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاغريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم نفسه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقـات كافة الفاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحلموا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظه الثورويون السبارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بحتمية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عللها . فأخذ على نفسه اذ ذاك ان يبين ، وفاقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريباً التي امست – وهذا حدث فريد من نوعه – ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

التقدم العلمي والتقدم التقني

في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغة والعلم الواسع وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابداً في ما مضى ؛ ولكن الجدة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها اوحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول الشغف الفكري والانعامات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابداً ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدرائي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرّر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوسثينوس وحده لكاف لاقصاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنئذ ازاء قصور اللاجيين . ويكفي لذلك ايضاً ان تشريح جثث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلفت الانظار . ومما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجا من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارخميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم ينزل مركباً الى البحر ، بواسطة جهاز من البكر والعتل ، الا اكراماً للملك السيراكوزي ، هيّرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلك ؛ ولم يصمّم الآلات المدهشة الا سعياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهّى بها لتمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تتطلبها سوى الحاجات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستمائة بحـار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني باهدائه لأحد اللاجئين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بعين الاحتقار . وقـد اقتصرت العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقـات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقصرت طموحهـا على طراز الـ « تريريم » التي لا تختلف عن « تريير » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولاسيا في مستهل العهد الهليني ؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقـل تجهيز المرافىء ، لا سيا في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتماثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » – تلك التي سيعرضها جان حاك روسو امـام الفلاحين السافويين – توصل الى استخدام قوة البخار فيها . احل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرّد ألاعٍ او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة – المشعوذين استثار سرعة التصـديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينابيع اخـذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عامـاً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقـاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال – « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو أن المكوك ينسج وحده والمضرب يعزف وحـده على القيثـارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » – ، فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضها البعض ، لا بل نرى التقنية عائدة في احتقار العلم .

انطلاقة العلوم

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية . فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن المجهر والمرقب ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقلهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسليازي بيتياس بدورة حول اوروبا الغربية . فبلغ المضائق الدانمركية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

المتجمد الشمالي ، اتهمه الرأي العام بالخرقة والهذر؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته. ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخله. ولكن الملوك الهلينيين أوفدوا اكثر من بعثة الى بحر قزوين — الذي لم يستكشف كله على كل حال — والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل. فنشر بعض هؤلاء الأفاقين رواية اسفارهم، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب. غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية. وليس سوى الافتقار الى الادوات، في ما يبدو، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن؛ بيد ان ترائيها مما يثير الاعجاب.

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها. فاكتشف بعضهم، كبيتياس مثلاً، انها مرتبطة بالقمر، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك. غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة: ومردّ ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحاً.

وكانت كروية الارض امراً معترفاً به؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها. وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر، ويعود اليه الفضل في اعتماد ابسط الطرق. فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة، واكتشف ان أشعة الشمس، في موعد انقلابها الصيفي، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة، في الاسكندرية، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل ١/٥٠ من محيط الدائرة: فان المسافة بين المدينتين، بالتالي، تعادل ١/٥٠ من خط الطول. أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء: فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين. واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة، يبقى علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠٠ غلوة، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون ». وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠٠ كيلومتر، اي ما يعادل ١،٥٦ او ٠،٧٧ ٪. ولكن غلوتين اخريين كانتا معتمدتين ايضاً تؤديان، لو استند اليها، الى فوارق اكبر. ومهما يكن من الامر، فان الطريقة جديرة بكل اعجاب.

بفضل هذا التقدم، بذلت الجهود في وضع الخرائط. فجمعت، في سبيل هذا الهدف، المعلومات الوجيزة المتوفرة حول المسافات. وفكر هيبارخوس، في القرن الثاني، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة . ومنذ القرن الثالث ، قام ايراتوسثينوس بجهود تأليفي عظيم فتوصل ، بواسطة الاحداثيات الحسابية ، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر ، على الرغم مما تخللها من اخطاء ، في ما يتعلق فيها بالسواحل المتوسطية وآسيا الصغرى ، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى . ثم ان معرفة المحيط الهندي ، ورحلة بيثياس ، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مقفلاً من الشمال ، بدت لبيثياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بُحيرة وسطية ؛ وهو قد افترض ، من جهة ثانية ، وجود قارة اخرى مماثلة في المنطقة المعتدلة الجنوبية . اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق ؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء . واذا قيل ان ايراتوسثينوس يحتل المركز الثاني كلغوي ومؤرخ وشاعر ، فانه يبدو في نظر المعاصرين ، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية .

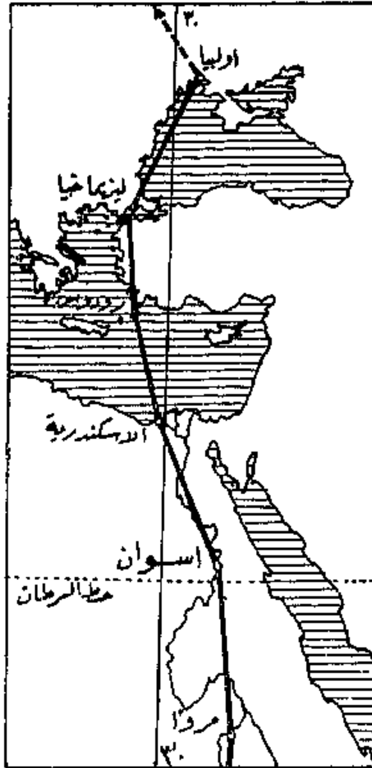

الشكل ٣٠ ـ خط طول الاسكندرية
كما رسمه ايراتوسثينوس

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية . ولعل تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً : فان كيدينو ، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس ، كان عالماً حقيقياً ، حتى ولو لم يكتشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً . بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين ، على الرغم من اجهاض حدسهم العبقري ، لجدير مع ذلك بكل اعتبار . فهم قد رفضوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع . واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس : اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروح السابقة . ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك .

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة – ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الرواقية في ان يتهم بخرق القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » – واكثرية العلماء ايضاً من أمثال ارخميدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتباه « للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، حتّم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية . فقد أراد ان ينوّه النقّاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبادىء حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها . ويجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة ($\prod$) والقطع المخروطي وتجاوز فيهما ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعوالم الغريبة واستوقفا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا بجرأة على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ١٩ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الحمّى ، ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس . ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتهما في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي أقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادف السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحي بها والمعجزات التي يجترحها الآلهة الشافون : اسكليبيوس وسيرابيس ، وامسحوتب بن هابو في أخربة المعبد الذي شيدته حتشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيغان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض . فان الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياة وتنوعاً وانتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الايثاق ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدّ من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نخبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة الصوفية ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدرون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجـاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المنال . وهكذا فان العلوم الطبيعية انحرفت نحو وصف الغرائب النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فـائقة الطبيعة . وهكذا انحرف علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعته الى ذلك السوابق البابليـة . وهكذا انحرف الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلّت محلها في غـالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندريين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ – المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

الفلسفة

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينهما دون ان تنفصم : ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي . ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو ، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثليهما . وفيها أيضاً ألقى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في « الاغورا » تحت « الرواق » (*Stoa*) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم « الرواقية » (*Stoïcisme*) على تعاليمه وتبعة مذهبه . وفيها ايضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطاليين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس، كراتيس المالي، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته، ويعتبره سترابون واحداً من اثنين — الثـــاني هو ارسطارخوس — حلـّقـــا في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفلسفية الهــامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنياد الكيريني من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفــاسيلي من الكلية ، وديوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . ومما يثبت سني التعلم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيـــانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيـــل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصابها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمـّاه بتحويله إياه ، وليس عجيباً ان نرى ، في النزعات العــامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلبية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغةٌ ، ان نادت « بالعالمية » مبينة المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلوص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات — فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية — الى ان تكتشف مبدئياً أخوّة البشر دونما تمييز عنصري او قانوني : غير ان المبـــدأ لم يطبّق قط عمليـاً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضلّ فيهـا الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سرّ السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعمـــلي أقرب الى آراء السفسطيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد. اجل لقد تهافت عليها طلاب كثيرون؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونموّ العلم الواسع ؛ ولكنهما كلتيهما حصرتا نشاطهما في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيهما . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلبية بعد ديوجين ، وأضاف عبدان سابقـــان ، « بيون » البورستيني ومينيوس السوري ، الى وعظها ، كمتسولين تائهين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخريتهـا السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقـــارعات » (*Diatribes*) الاول واهاجي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العــالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثير المقصود ، أخفى اولئكِ الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلاً جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ، للتحرر من الأهواء وممـا ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيـابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسيا ، في الحثّ على دستور حياتي . فشددت ، في الاغضاء والخضوع للعـادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق فغدت مذهباً ، وأعلن الارتيابيون ان الحكم يخطىء كما تخطىء الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصـام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه بروّاد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديميـة ؛ ومهما يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإيلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، باشعاعه الشخصي ، وبالمثـل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلّم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حِكَمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بطالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرّد كتل ذرات . وقد تبنى ابيقور بذلـك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضهـا الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جـداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستلزم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانيـة ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفهـا الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفسّاق، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع ». ولذلك فان تالبي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه «خنزير» قطيعه ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالافراط في اللذات . أمـا الحكيم فكان عليه أن يعيش « متستراً » ، دون طموح ، مُرضياً شهواته الطبيعيـة والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الخبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكدّساً الحواس الطيبة المعدّة

لأن تستحيل ، في الذكرى ، « لذّة مستقرّة » لا تستدعي، على نقيض « اللذة العابرة » ، تجدد الشهوة ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة جداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً: وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في هناءة الأحاديث الحبيبة ، ملاذاً ثميناً وآمناً في خضم الاضطرابات التي تهزهز سائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلغلت فيه روح هي نفثة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق اذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تتناف وعلم الأخلاق ، اذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها، باحتقار كافة الخيرات وكافة الآلام وكافة المشاعر، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة: وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرّاً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتضى في الواقع تحسين هذا المثال الالزامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين اللبقة . فقد أقروا بأن هنالك بعض الخيرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوّة والجمال والفرح ، ليست خليقة بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجدّ والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزو الرواقية في عقيدة ضيقة تحدّدها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريسبوس الكيليكي لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني، مع « باناييتيوس » الرودسي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كاتون الاوتيكي ، خصم قيصر، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمن بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتيغونس غوناتاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

الادب لعل الحركة الفكرية تكشفت حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة خصاباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كلّياخوس وهيرونداس وميناندروس . ولكننا نتراءى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الاثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الاثر الذي تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفق الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدّة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقّته . فمن حيث انه اقصي ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيا في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأنق في الكلام وقفا له بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضدهما .

النثر ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أجلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .

قد يجدر بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الاشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية – إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية – هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية »، رطانة دواوين ومراسيم ذلك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسوا أهلا باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحلّ بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل ابحاث واكتشافات فن في خدمة المعتقدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح مافئ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من اهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديموستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللباعة الصنعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث برزت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصّلة اخرى، والمتكلفة

والموزونة ابداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبـــار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت اعجـــاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضـــائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضهم ليستطيع الازدهـار إلا على ما وصفه احد معـــاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربمـا شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفتـــه بعض مؤلفات كسينوفون ، لا سيما الـ « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيميروس » الذي تخيّل فيه بلاداً اسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة ايضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القـارىء الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكتفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيّرت القارىء بادخال الخيال على الواقع ؛ وساومت على عيانه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة نثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بحمايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المثـــال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلّت عقدها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، لخليقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . اجل انها في الحقيقة تباشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لهـا لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر

ليس من الأهمية بمكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمده لعلم الاخلاق وللاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلميـة فيها نطاقه الى أبعد حدّ ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المعدّة لتحضير العقاقير والثعـابين السامة . الخ . . . ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيـــال كثيرة حتى في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلّفه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يصلنـا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليهـا ، ومن هذا الرواقي المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقـائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثـانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بهـا « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إياه وفاقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالظرف ، وتستوقف القـارىء احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يجيش به مثل هذا الموضوع حق للعالم . وان الاعجاب الاجماعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسر مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفـات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احيـاناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معـناها . اما ممثل الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون — ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى ألـّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في اوائل القرن الثـاني ؟ — الذي وفر كتابه « الكسندرا » ، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كسّاندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجـاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دونما تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كليماخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملـّق الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراثٍ وملاحم صغـيرة وأهاجٍ ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليده المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفـال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهراً في إيجـاد التعبير النادر ومتمتعاً بحذاقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجـاب ابداً بمرونته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحراً .

بعد قطيعة صاخبة ، وجه سيلاً من التهكم الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتنـــاناً منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة «الارغونوط» التي بدت أبياتها الستة آلاف وكأنها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكراهيته « للقصائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغـــامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزّة الذهبية . فاستخدم بجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل سانحة ، معطيـــات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلّهما . أما ما يشفع بالمؤلّف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كلياخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقـة التحليل السيكولوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكوّن الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحيية معاً .

أقام ثيوكريت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً – ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً – ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرون الثـــاني . لم يصلنا منه ، بالاضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هـــذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعوية » التي أضيفت اليها فيا بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكريت لوناً جديداً بهذه القصائد، واذا ما وجدنا القوّة وطابع المأساة أحياناً، فاننا نلمس ، أحياناً أخرى كثيرة، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالاضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقـــانه اللهجات – الايونية والدورية والايولية – المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعـــاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادراً على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفظاظتها وعلى إظهارها للقـــارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجتــه . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدّة الاحساسات والعواطف التي لم تقض عليها أبحاثه كأكاذيب نبيه جـــداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ولمؤلفات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعـــد هؤلاء، على لون يميز نجاحه وصنعته التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهلّيني المتوسط تمييزاً كافيا . سبق لكلياخوس وثيوكريت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوهما كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي دُرِجَ على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللابقاء على بداهتها .

ولم يكن الحذاق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلـــك ظهر من هـــذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية، والجدلية ، الخ. وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلاً . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاها باسم «التاج » في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجـل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعـــادة ذكرى البيئة « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية

أظهرَ علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدين له بوجودها. فحاولوا استعادة نفس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية. وامتحن كلياخوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غـيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا الـــتي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد – كان هنالك تيمستوكليس – والقريب؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم. بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مميزاً . فما زالت تمثيليات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنذكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفـــارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى اوريبيد والى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعيـــاد السلالية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين اوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن اعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلـــك العهد . فان عنفها الجدالي وهواها الجامح يتنافيان واللطف الجديد الذي تحلى به مجتمع هذّب ذوقه تقدم الثقـافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تمي سيادتها وتتحلى بقسط مـــن التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتها وبأن يوجّه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمـائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقـاء ، وهي قد توفقت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندروس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة بلبذ وافرة وصلت الينـا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيا « بلوت » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها اكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في البيره ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطرار للنزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفـاؤله المتساهل . بيد ان تفاؤله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السويداء احياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثـة » أحسنوا في الدرجة الاولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم. فهل كانت عقد مهازلهم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكمنا في ذلك ، ان لا ننسى ان اهمال الاولاد ما زال حينذاك عـادة سائدة وان المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية ايضاً لأن حياء غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصـائد ثيوكريت الراعوية ؛ وليس من زنى نسائي أيضاً ، واذا حدث أن سقطت احدى الفتيـات في زلة ، يجب ان تسوّى الأمور في النهاية بالتي هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس ميناندروس طبائعه وأمثلته عمّن هم حواليـه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نهتدي حتى في مهزلة القرن الثـامن عشر الى المزيد من ورثة الامثلة التي أوجدها : العـاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحذلق ، الطفيلي، العبد الوجل والوقح. ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بهـا بعطف انساني ولوّن سيكولوجيتها بدقة وألف منهـا معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلدته .

مارست صقليا وايطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لوناً مسرحيـاً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهده قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة، يتصف بالفظاظة العنيفة وبالقذارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكثر من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيا بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيا بعد . فهنالك ثلاث مهازل ايمائيـة بين « راعويات » ثيوكريت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثنتي عشرة منهـا لهيروندااس الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بهـا وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيروندااس شعراً « ذا وتد بمجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع . ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فان أشخـاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحقيرة في حياتها اليومية : الامّ التي تطلب الى معلم المدرسة أن يضرب ابنهـا الشقي ، وزبن الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقبح. كلها تمثيليات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنـا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدّة للتمثيل ؟ نحن نميل الى الاعتقـاد بأنها أعدّت للقراءة المسلّية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي ترخر بها ألاهي كاتب آثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

الخـاتـمة

مهام ونجاح الحركة الفكرية

من نافل القول ان هـذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة الفكرية الهلّينية . وقـد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب الاعتراف بأن التناقضات قـد جرّأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفاقاً لخطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء مـن الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انهـا نعمت مادياً وأدبياً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرّد إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظـام الهليي : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى ندوات من هواة دقة الفكر وحدّة التصوّر ، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم الاجتماعي ، — لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة — تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً وانتشاراً جغرافياً يوماً بعـد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عمـا هو جديد ، والتعميم في أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشلّ عملها : فهي قد حاولت في كل مكان ونجحت في أكثر من حقل. فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟ ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجـاحها في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز الحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدّت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينا وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استمالت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا — فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنموا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضّروا المستقبل في الشرق، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيا بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .

القسم الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الاول

آسيا الشرقية
(من ١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منهما أهواء وأساليب على طرفي نقيض : أنها الهند والصين . ولا حدّ لعوامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلا منهما اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً – كما حصل في اندونيسيا – ولكن اختلفت أساليب توسعهما حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتهما . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منهما ، والتدقيق في خصائصهما الأساسية .

ان للهند[1] قوة تحضيرية تنبع كما يبدو من طبيعة أرضها. وتفضل الهند ان تستعمر سلماً، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان الشبه الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الايام ، وهجرة تزايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسيين ، ودعاوة دينية حمتها احترام الغير وسداها التسامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند – ولكن على درجات متفاوتة – في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبورنيو . وفرضت الهند نفسها بخاصة بتفوق ثقافتها

(١) انا نشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا علميا على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلا دقيقا من حيث اللفظ والكتابة . ونغتنمها سانحة سعيدة لنشيد بلطف أحد امناء سرها السيد راج لما أبداه نحونا من عطف . الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حرباً و تفرض عليها قوانينهـــا وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالعنف ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره. ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل ايضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضـــارتها : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هـــذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخياً ان يبقى دوماً ممر عبور ، والنيبــال حيث تتشابك الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتيبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضــارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً او قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند او الصين فيهـا إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقي ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والعرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ الى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلل حضارة بلاد الرافدين الى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع اوروبا الشرقية .

الفصل الأول

الهنـــد

حصائص الحضارة الهندية الاساسية

قـد لا يقدرون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها . فهي رأت ديانتـين من أهم ديانات العالم تترعرعان على أرضها : البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة الى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنشأت في زمن يحددونه تقريباً ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهـــذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى أيامنا دون ان تتخلى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها الى المـــاضي السحيق ، كأمجاد مصر وبابل الميتة» (ب . ميل P. Meile) . ولهذه الديمومة بعض الاسباب التي يجدر تحديدها والتي بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجددها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هـــذه الديمومة : فالهند تحب التقليد وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان التعقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهـذه عوامل تهيب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها مـن ثم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية ، ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويـــداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحـــاداً وثيقاً مع مجمل العناصر الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان التقاليد في الهنـد قوة عظمى يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن النصوص الأدبية التي ترتكز عليها النظريات الهندية قـد أُلفت دون شك منذ عهد قديم جداً ، وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون ريبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقى طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجار اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتابة بيان بها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدإ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعالم تصبح كلها متماثلة في الاصل. هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا تجسيداً للكائن الأوحد .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين. وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهند ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يستند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة — فئة « الرجال الأحرار » — وعلى فئة رابعة — فئة « الفلاحين » — وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذاك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسرد مثلاً مجال الاشارات « المتكاملة » (مدرا ، هستا ، أساما الخ *Mudrâ, Hasta, Asana*) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقدمة الذبائح ، وتستمر على صفتها هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملونة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عملية أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nâma) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرها أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفة الغسالين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطغى عليها صفة الغسالين؛ فهو كاهن أقل شأناً من غيره لأن مهمته مبدئياً هي غسل الخرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزاماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه

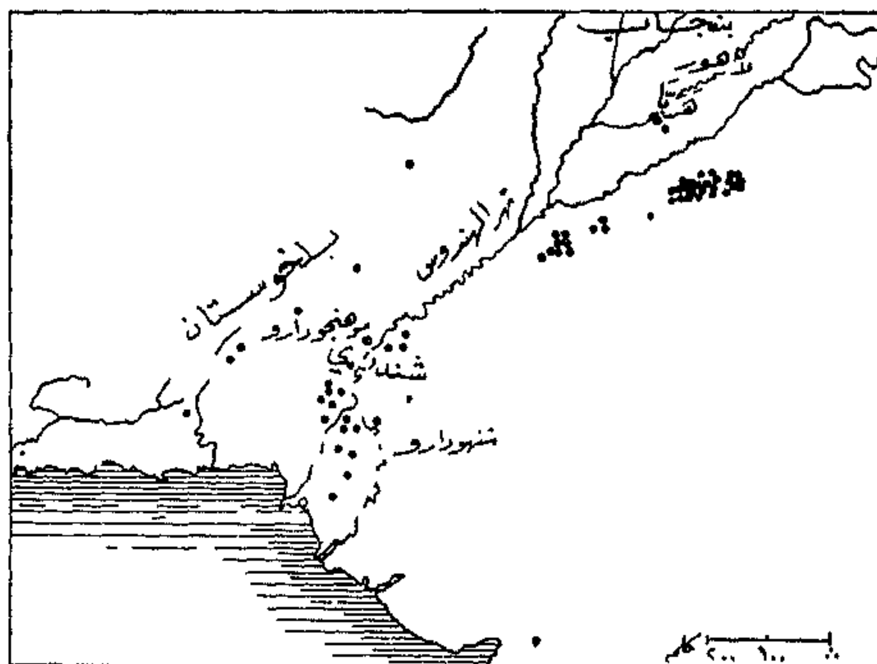

الشكل ٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

تحديد الوقت والاصول

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : اذ لا يقيم الهندي وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربيّ هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادىء فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالاروم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التخرصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هـذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقرى لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثــلا لمدينتي موهنجو – دارو وهرّبا Mohenjo-dâro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لهـا أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . ومما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلبترا (القرن الثالث ق م .) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هـذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثـاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط عـلى الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم ثلاثـة أقسام : سمهتا Samhitâ أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبـارات طقسية ؛ برهمانا Brâhmana « شروح » أو تعليقات لمـا جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هـذا كله الفيدانتا Vedânta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحـادي عشر المسيحي ؟). ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريغفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريغفيدا مما يدل بأنها ظهرتا بعدها . وممـا لا شك فيه بأن الاتهرففيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق. م. فقد يبدو ان البرهمـانا والاوبنيشاد لم تظهرا إلا في الفترة التي تتراوح ما بين القرنين العـاشر والسادس ق. م. ثم رأت النور نصوص السوترا Sûtra التي تعد جزءاً من الفدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريبـاً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

اللغات والخطوط

كما طغا الغزو الآري على كنه بلاد الهند العرقي السابق ، هكذا فرض هـذا الغزو لغته التي غدت بعـد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفـة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هـذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاساسي اذ لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوى Brahû التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو — أوروبية . وبعد ان فصمت جحافل الآريين العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون نفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي مـن المجموعة اللغوية الهندو — اوروبية . وفي النصوص الاشد قدماً (الريغفيدا) تقـدم لنا اللغة السنسكريتية الفيدية تشابها بارزاً مع لغة افسته الايرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزءاً في النصوص الاخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والافستية بسبب التجديدات . وفي هذا المجـال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأتاحت لهما الاستمرار معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

و السبب هو نفسه الذي نجده دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية هي « لغة كهنوتية تحصر مهمتهـا في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية . فللشكل أهمية اكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضليـة على معنى الكلمات ، وتخضع الكلمات لترتيب رمزي معقد »(ل. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعـابير القديمة وذلك حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

ولكن مع البرهمانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستنـد الى قواعد محددة وكلمـات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوبنيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من اللغة المتداولة. ولكن جُمّدت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت الينا على أشكالها القديمة .

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت ونمت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية،ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتـابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال واعراب الأسمـاء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار اللغـات الهندو — اوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينيـة التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

لمحة تاريخية

يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعـاشر ق. م. على حدود هضبة ايران الشمالية — الغربية بين القبـائل الهندو — اوروبية التي كانت قد

استوطنت تلك المنـــاطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبيـة .

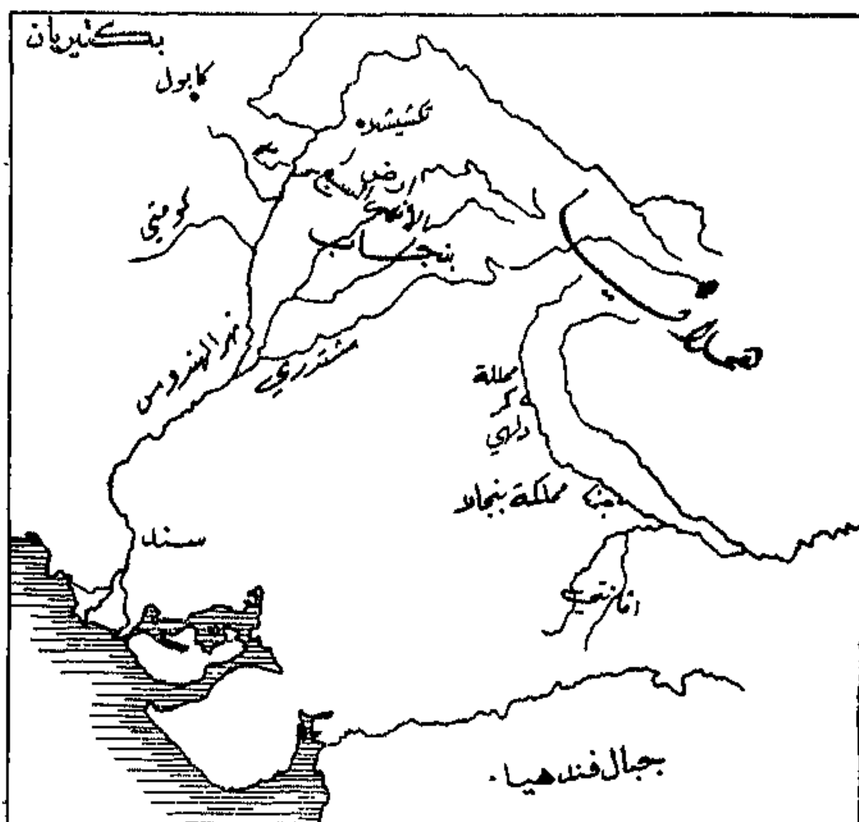

الشكل ٣٢ ـ الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الايراني الى الهند الشمالية ـ الغربية من منطقة وازيريستان الحالية او من وادي كابول ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس، خصوصاً موهنجو ـ دارو وهرابا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م.

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابول وسوات Swat ، والكرُمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبـلاد الأنهر السبع في الشمال ـ الغربي حتى أنهر سرسفتي *Sarasvati*

(سرسوتي *Sarsûti*) ، وشتدري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنـــا Yamuna (جمنا Gamna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمدرا Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهنـــدوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنئذ في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة .

وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعـد ان انهارت كل مقـــاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خـــلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآريـة في منطقة البنجاب تآلفت فكوّنت أحزاباً ثم اتحدت وأسست ممالك،ومن المعتقد بأنهذه الأمور لم تقمدونمعارك داخلية .وحوالي سنة ٨٠٠ق.م(؟) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doâb ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفتي الى ملتقى الغانج واليمونا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الأصليون كأنهم يؤلفون طبقـــة (فرنا : لون) وضيعة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُرُوُ (Kuru) أعظمها قوة وأشدها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال ــ الغربي حتى واديتكششلا Taksaçila (تكسيلا Taxila) ونحو الجنوب ــ الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمونا .

ومن المقدر بأن تكون القبـــائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في منــاطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadeça) ، وفي اوده Audh (كوشالا Koçala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar (مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فندهيا Vindhya وملكت معـــاً مدناً مهمة عدة منها كوسمبي Kançambi على اليمونا وكاسي Kaci (بنارس Bénarès) على الفرنافتي Varanâvati .

وبعـــد ان سمت مملكة الكرو (دلهي) في العهد السابق لبسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متأصلة فيها الخصائص الوطنية الأصيلة حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cicunâga الآتية من أفانتي Avanti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على ســـلالة البرهدرتا

Brihadrātha التي لا نعرف عنها في الواقع أي شيء . وأخضع ملوك السسوناغا – ولا نعرف جيـــداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisāra* (٥٣٨ – ٤٨٦ ؟) وأجاتشترو Ajātaçātru (٤٨٦ – ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الادب البوذي – البنغال ومنطقة كاسي(بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج محورها نقلت عاصمتها من راجغريها Rajagriha الواقعة في البهار الشمالي الى باتليترا Pātaliputra (بتنا Patna) على ملتقى السون Sone والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م. استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي وسيتفرع عنهم الموريا Maurya الذين سينجحون حوالى سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطوريـة هنــدية .

وبينما كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتهـا ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية علىعاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ – ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا Kapiça (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ – ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديـــدة غندهارا Candhāra (منطقة بشاور) ومحل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس Bias ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية ـ الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفـــارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ – ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد منـــاطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبـــارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانيـــة كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحيـــة واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبـــادىء روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق. وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقـــاليد والكهنوت ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلان يعملان لهدف واحد : شاكيمني Cakyamuni الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا Mahāvira ، مؤسس المذهب الجـايني Jainisme . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة – ان انتسبت الى الديانة

الشكل ٣٣ – الهند في عهد سلالة الموريا

الفيدية القديمة او الى المبادىء البوذية والجانية الجديدة – ثورة دامية تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميتافيزيقية التي تستوحب قواعد حياة تلتئم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحرير التعليقات والشروح (البرهمانا) والدروس ذي الصبغـة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجاوباً لدى الأمة للمبادىء الخلقية التي كان يبشر بها ، هذه المبادىء التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد – الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس – كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان ننتظر ردحاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينهما إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدهـا ، وهي تعتبر مجموعة مبادىء روحية أكثر منها دينيـة ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحيـاة التي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعـل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية ـ الغربية ـ بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م. ـ وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم. فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض. وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء. وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سغرو Cighru (فجل حريف) ، دازا Dāsa او دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دارا من الاسماء الاكثر شيوعاً ، واصبح له في العالم الآري معنى في غاية الحطة أي عبد (المؤنث : دازي Dāsi) . ولا نعلم إن كان اسما الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالا هما المبدأ النباتي Végétalisme والمبدأ الذي يجعل من الحيوان جد الخليقة (الطوطمية Totémisme) . ومع هذا فاننا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يحيون حياة الرعاة ،ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ونعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phallique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيعة . ومع أن اخضاعهم غدا مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نسائهم خليلات . ومع أن الآريين يفتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة – ولنا أدلة تحملنا على صدقهم – فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حالات تزاوج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا – كما سيحدث فيما بعد – بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ — خصائص الحضارة الفيدية

المستندات

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ، الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر ومجاري المياه التي عاشت بقربها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم. وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار، عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحمها محرمين، وقد حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المرار ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر العربات عند القيام بالاعمال الطقسية ، وكانوا يعتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذاك الوقت في الحرب . ولا يظهر بأنهم جعلوا من الهر في ذاك العهد حيواناً داجناً . وغدا القطيع ملكاً مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة — وللحراثة أسم مشترك بين الهنود والايرانيين — بواسطة محراث يجره خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ تثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي الى القرن الثاني ق. م. (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار الطمي والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الامر الشعير (؟) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز والقطن الذي غدا منذ ذاك اليوم أساس أعمال النسيج. ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت الحنطة ، والحمص ، والسمسم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الحصار والزهور والثمار . ولا نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لن Ficus religiosa Linn وتين روكسب Ficus indica Roxb .

وتتألف مواد التغذية والحالة هذه من حبوب قـــد تحوّل الى طحين ، وحليب ، وسمن ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعـــان من المشروبات المسكرة : السوما Soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصـــل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقدمة الذبائح - والسورا Sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للعربات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجيء للمسافرين في مختلف المراحل . والتنقل كثير الشيوع يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة - القطنية الموصلية والمزركشة والحريرية - والطنافس والعقـاقير والروائح والحلى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والايرانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق . وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية مـا يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحليـة (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعـــاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعـــة من الذهب (ستانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المفاصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرابين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين $^1/_6$ و $^1/_{16}$. وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرّض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية . والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنساء تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخيط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجـــارون الآلات الزراعية والعربات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشتغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقـــاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكميتهـــا نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد مهناً أخرى

كثيرة : فهنالك العمال لذر الحبوب والفخاريون والصباغون والغسالون والنساجون الخ . ويكثر جداً الحلاقون والمنجمون وكهنة الضيع اذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحيـــاة ذات الاهمية . واكثر العملة احتقاراً هم القناصون والصيادون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الحراس والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالمراج والبهلوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمـــارة . ويتوارث القوم أغلب الاحيان هذه المهن وقد نجد قرى لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناع بصورة عـــابرة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيمنون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صنـــاعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ – الحياة الاجتماعية

المجتمع

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى مـــا يدعونه بالاسرة الابوية والذي يشمل مـــع هذا أثاراً من نظـــام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انـــه منذ البدء اعتبرت فئتا الكهنة (البراهمة) والمحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان آخريان ، طبقة « الرجـــال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا çudra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينهـــا حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغلغلت الروح الآريـــة بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادىء البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع – طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء – بعرى وثيقة وتتمتعان بحرية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينقشوا على الخشب الخ ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحيـــاة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديمون ، وهم يديرون الاعمـــال

الطقسية ويتقاضون نصف الاتعاب بينا يتقاضى النصف الآخر الذين يقومون بالاعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول . واذ يعينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتمم أعمال الرقى ليضمن للملك النصر أو النجاح في الاعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات . ويمتهن غالباً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الاشكال الطقسية ، كمهنة الحلاق والمنجم والفسّال الخ ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعاوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكشتريا هم المحاربون الاشراف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعارك ويكوّنون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوقه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون نفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن ويسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبائح العظيمة كتقدمة الحصان (اشفميدها) وبحفلة تتويج زاهية (راجسوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يبقون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكشتريا ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب. ويكوّن التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون على أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا بملء ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا نفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقدمة الذبيحة ، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلمس المرء من خلال هذا النبذ والخنوع الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمهن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بأن مبادىء الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدها لها في العهد اللاحق .

الدولة

يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي تتكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشتريا ، لا بل من فئة الفيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور ، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية .

وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوصي ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب ، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات باجماع الاصوات .

وتقسم المملكة ادارياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعثر في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأبوين المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف ، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسماني . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة

ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبناته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت بصراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفخ فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الاشراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص باسرته . وعند تنفيذ هــذا الأمر يقيمون حفلة يطمرون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندمــا يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سناً يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . ويقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الاشراك الدينية، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليبقي نار الاسرة مشتعلة ، ويشحذ قوت معلمه وقوتــه ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندمــا تنتهي يستعد الشاب للعودة الى اسرته ، فيستحم ويعتق من نــذور الدراسة ويطرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل.

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جديرة بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين ينتميان الى طائفتين مختلفتين، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والدة بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد، دازي اوسودرا . ومــع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمــة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتهــا ، وهي تقدم لها النصح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيهــا أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلة ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبتاعها الشلكا *Çulka* أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنــام ملء عينيها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ – الا حادثة يخيم عليها الشك – زواجاً يجري بين ولدين، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدإ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهيــة . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدإ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقــة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه العتيد. ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذاك الخطيب الى بيت الفتـاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقـاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قربانـاً من الحبوب المحمصة يرافقها الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو يمسك بيدها وقـد عقدت معاً ثيابها . وهذا ما يكرّس تملك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلو جواداً أو فيلاً ويقودونها بموكب نحو بيتهـا الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبته ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص. ولا تبتدىء فعلاً حياتها المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوما ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى انوثتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الوالدية . والزواج هو النهـاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزواجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هـذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هـذا بأنهم أساؤوا معاملة البنات. فهن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويجلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونه . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها».فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتم وورثن الأملاك الوالدية وقد فضلهن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين. ولا نعرف معرفة بينة اشكال الملكية. ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقـد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصيـة التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تثقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحتفظ كتب الادب القديم بآثار تقليدية تدل عـلى مركزهن الثقافي. ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد

وقد تحيا الفتيات حياة لهو واستخفاف ويثرن الشكوك بشبـابهن الحر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثير الوقوع .

ويبيحون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (؟) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للاسرة التي غدت تمثلها الارملة. ومن المحتمل بأن الارملة ، مثل عهد الريغفدا، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أثراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الاسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (اغني *Agni*) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهبتيا) وبقربها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الاسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقادم والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفاً تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وابعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية اهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوحد طقوس اكثر ابهة وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدمها بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الوصل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة نيران. وهناك انواع مختلفة منها ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة وجني البواكير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني اقتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن اشهرها الفاجبيا ولا تعرف الغاية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا او التتويج الملكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها — حيث يعمّد الكهنة وممثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة. وتشير بعض هذه الطقوس — الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار — الى تقادم بشرية ، ولكن يظهر بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبة الزهر التي يفضلون اسناد

محاولاتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنازة . فهم يقومون بالباس وتزيين الميت ثم يأتون بـه في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يجرون للميت ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونهـا للنزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بعلاً لها . ويضمون بجانب الجثة اشارات الفئة التي ينتمي اليها: قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا، وادوات عبادة ان كان من البراهمة. واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنازة بسلسلة افعـال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورمـاد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالاتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا مـا يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يوميـة ويقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . وتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحيـاة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهندو – اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران. وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنهـا مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبـادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكوّن هذه الطقوس لحمة الحيـاة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تهيمن عليهـا وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصراً .

٣ – المدينة والريف

كانت مدن (پور pur) الدازا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجـاور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هـذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد اكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غريها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كانتخاب الارض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها. ويقرر يوم البدء بالاعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الارض وينظفونها بمكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للمياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية. وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي — الشرقي وردهة اجتماعات حيث يجتمع رب الاسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يبتدىء البناء . ولا يدخلون فيه آجراً او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقوب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركبة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمبها او ستهونا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمد ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (ستونارا جا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعـــاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء اجتياز البيت بنظره » ، واخيراً يعدون العتبـــة ويجعلون للأبواب دفوفاً ومصاريع . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (ڤمشا) . وتشد هذه العوارض بحبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الاخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل باقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرهـــا مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران . ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قدداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليهـــا الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج اليها ، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثماراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن ، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس ، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر ، وغرفاً صغيرة للتقادم ، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات ، وحجرتين صغيرتين مربعتين تتصلان معاً تصبح احداهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح ، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود ؛ ومقابل هذا الرواق يبنون « المركز » (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية .

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران ، وقد يكون ايضاً اكثر قدماً . ولمراسيم تقدمة الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك ، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية ، او « سيد الارض » . والبناء قسمان عظيمان . فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس ، وحجرة استحمام له ، وحجرة اخرى لزوجه ، وهيكل النار للسيد ، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها) . وتحيط الاوتاد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني – كشترا) . وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر . وهيكل النار ، كما الحال في سائر امكنة الذبائح ، هو من الاجر ويسبب بناؤه – وغالباً على شكل عصفور – الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخزف حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨٠٠٠ قطعة !) وقد علق على احد جدرانه رسم من ذهب يمثل رجلاً ، وهذه ذكرى للذبائح البشرية القديمة .

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف ، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقمشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر . ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم ، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط . وتجدل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحاهم تنمو مع انهم عرفوا الموسى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها .

الديانة

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين . وللقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة – عدا العادات السحرية الكثيرة العدد . انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات « اولية » كالطوطمية او المبدإ النباتي او الفتيشية . انها حلولية واسعة تخضع فيها الالوهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكاثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعرى وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (ديادس) والارض (برتوي) هما زوجان . وبقربها نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو وميترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسماؤها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وتثبت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهتي الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذاك المنزلة الاولى وتظهر شخصية سيفا بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايو وفاتا والماروت ، وآلهة المياه والانهار – التي ترمز اليها الحية بعض المرار – هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد المخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تكمل زون هذا العهد الاول: الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والابساراس ، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتمتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو – اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفرترهان الهندية . ويوافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمة الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحله ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداهـــا الا منذ عهد الاوبنيشاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحيـــاة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قـــد اصبحت عقيدة بعد، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م. لم تكن بعد الا في مهدهـــا . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفيين الذين يأملون بواسطتها أزدهار مزروعاتهم وهبوط الامطـار الخصبة وتأمين حراسة مواشيهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاهية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بمصير الاموات . ومع هـذا يلمس المرء ايمانهم بمبدإ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسماء هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النـــار وتتحقق بآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساوونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقـاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمن طويل ، هـذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق. م. وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشييد المنزل ، وانتخاب الزوجة ، وتوطيد الحب الزواجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والربح في الالعاب ، والنجاح في التجارة ، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبـــارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفي من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الهموم والهواجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ ... وكثيراً ما يلجـــأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النـار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التقشفية كمراقبة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد يحددونه تقريبياً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق. م. ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استتبت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتـــل الذبائح والتقادم المركز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حيـاة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديتـه نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمـــة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعدهم على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجـأون الى العبادات التقشفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيحاءات الآلهة ، ويبقون عمداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقونهـا ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالاسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالذبائح والتقادم ويتشبثون لأول مرة بالمبادىء الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفاظهم بالزون الفيدي فانهم أوضحوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمان (اسم نكرة) . وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوبنيشاد تظهر هذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت ايضاً تكون هو » تقول الاوبنيشاد للمؤمن محققة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجسمة في وحدة الفرد المبادىء المنطقية الميتافيزيقية (او الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفسر وضع الانسان وويلاته ؟ وتنسب الاوبنيشاد المصائب الى الفعل (كرمن) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا تجد حلقة تسعى الاتمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقية اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادىء هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقال الارواح او التقمص (سمساره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعد عدد من الولادات المتعاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الاتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ داك الاتحاد جوهرياً في البراهمان . ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادىء التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الاهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل او تكثر : وان ولد شخص في طبقة البراهمة او فئة الكشتريا فذلك يعني بأن اتمانه قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرمن وهذا يعني ايضاً بأنه يقترب من الخلاص النهائي . وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعية وغدا من ثم أشد ابتذالاً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرمن الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أتينا على ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكيمن . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكمين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السمساره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل ايضاً الى التكوين الاجتماعي بكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهٍ في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني، وهو يبقيه على حاله للذين يبشرهم ، وهو لا يعنى إلا بألم الانسان ويسعى لإيجاد داء لهُ . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منهما كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الالم في طياته ، وينتج الالم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغرر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالاتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الالم . ولا أهمية للموت ان لم تنتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي تجبر من جديد ان نأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « النرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان نتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التقشفات المغالى فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الجموح التي تعرقل سير الروح، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادىء ، إن قيست بالتعاليم البوذية، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأمرها هي أساس ديانة مهافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهِمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مهما كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م. هو في غاية الاهمية لفهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستتسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

العلوم

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العلمية البحتة مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زوناً تؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولاً ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجلد حيث تسبح الغيوم وتقيم الارياح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات. وتكون الشمس ، وهي على شكل دولاب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شمساً : ويظهر جلياً بأن هذه المعلومات تعكس حقائق أشد قدماً، اذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند المنقلب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والخريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة المنقلبات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك – وقد احتكر النساك هذه الصنعة – هو عظيم جداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادىء هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادىء العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً: واقروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لها اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى $^{١٥}/_{١٥}$ ($^{١}/_{١٥}$ = برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بعرى وثيقة الى العالم، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمماً كما في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادته مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبار علاقة النبات بالمبادىء الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب ،فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدير ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط » (هنري مسباروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبيرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورنا الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلقلة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة – حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية – وتقدرها حق قدرها في المكاييل والموازين والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادىء العلمية . ويقترب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية ، والسيطرة على الذات – التي توافق معرفة العالم – هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال . ولا نجد حياة روحية متقلقلة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ؟ بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الجدود المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظمى – وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية » والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي ، على غرار كتاب «حياة الرجال العظماء »لبلوترك، تقوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

---

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة — تستندان الى الآداب واللياقات — تؤمنان سلاماً سمحاً يغدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفـــاهم الذي ينتج النظام الخيّر . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتهـا » من خلال اللياقات والتقاليد .

وتهيمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتنـاغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يغدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيـــات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً متساوية لها في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويجزأ اجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هـــذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك العـاهل . وتعرض هذه النظرية بمجمل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجزائها : وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوى المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة -- بواسطة ممثليها -- لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العـــاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم يطوف الامبراطور مره كل خمس سنوات على المقاطعات . وليوافق بين الزمن والمدى يتبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجـــال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتتوقع عودته ويعي طقسياً نهـاية تقويم أتى الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الزمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجمـــاعات بضرورة تجدد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر . فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية الحيي فقط، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن. وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء. ويقيم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة. ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السماوية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليتمم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى وأخرى فارغة. واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن الخ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقي التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينغ »الشهيرة اللذين يجتمعان في « الطاو »او العالم. والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية. وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشيران اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسو . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها – والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك – قبل القرن الثالث ق. م. ومع هذا غدا لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في « شي–كينغ » مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة «ين» اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي الخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر الخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون الين والينغ عن الحقائق الاجتماعية التي توحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غرانه). وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنهها بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يضفي عليها القوة والسلطة اللتين يتمتعان بها اذ يرمزان وحدهما الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكيّف العالم . ولا تجعل منهما صفاتها التي تبدو على

طرفي نقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلٍّ تختلف اجزاؤه جوهراً وكنها . ويبدو الين واليَنغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادىء تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الثنـائية . ويمثل الين واليَنغ ، وهما القريبان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحـادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان. وهما لا يتعارضان إلا ليتمم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجـاه) ، مبدأ نظام ذي فعـالية عظمى ، وقوة تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . وينتظم كل شيء في هذا المبدأ كما هو جـار في المدى والزمن : ويحتوي الين واليَنغ ، وهما القسمان الكبيران ، تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجزأ بدورها حسب الجهات الاربع والسمت ، فيقابل الشرق مثلاً الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هـذه الاجزاء المتضامنة وتنتظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحيـاة مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الفاعلة كما يسيطر على حياة العالم ، هذا النظام الفعّال والشامل الذي يمثل هدف النفسية الصينيـة الأعظم . والطاو ، وهو الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتهي الى وسط العاصمة ، اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى العـامود الذي نصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ، حيث – عند الظهر – لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيما . وهذه الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العـالم هو المحور ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هـذه النظرية بعض المبادىء التي لاقيناها في الهند القديمة ، نر بأن الصين توصلت الى الشوط النهائي على مراحل مختلفة وبفضل قياس حسي اكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البناء المتماسك أكثر الصينيون من التقسيمات التي تختلف رتبة ومنزلة وذلـك بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقارنة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجـال . وتجد العقلية الصينية مداها الرحب في هذا المضمار .

المظان والمستندات

ان معظم المعلومات التي نعثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني . وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزيدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغييرات » (يي - كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الاعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو - كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية واناشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي - كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، ايإو وحرفياً فصول الربيع والخريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكاديمية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تنقل الينا الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحياؤها المصطنع الذي يعتبر اللياقات قوانين وقواعد . وفضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإنا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لذا نرى في « كتاب التغييرات » ظهور مبدأي ين وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ. والطقوس، اساس الحضارة الصينية، هي في عهد نموها وتطورها ، ولن توضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق. م. في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو» (تشاو لي) ، ويي لي ولي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهيمن على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او خرافية) وخلفائه كمنشيوس (مونغ تسيو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق. م. وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق. م.) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالمقابلة نرى مبادىء الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق. م. وهي : كتاب الطاو والطو (لاو - تسو او طاو - طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويعتنق كتاب كثيرون ينتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ - سوان ينغ (ويعرون اليه كتاب تشاوانغ تسو) ويين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة تيارات فكرية اخرى : مدرسة موتي (بين سنة ٤٨٠ وسنة ٤٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالاصلاحـــات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والهموم المـــادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بحتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بنـــاء صرح الحضارة الصينية .ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستمين بمظان ومستندات عقلية وارستوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة والكتابة

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنهـــا باشارات او « حروف » .

وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كليـاً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقيض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحـة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تجيد الحقـــائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئيـــا بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصـــائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة ، «ون» مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحـــة تاريخية

منذ زمن متوغل في القدم — لا نستطيع تقديره بالتدقيق — بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جمـاعات من الفلاحين، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة. وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م. استطعنا ان نعزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (؟) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفيـة الاكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو ـ نان (ينغ ـ شاو وكين ـ ونغ ـ تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسومها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة «هيا» . وتعقبها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٢٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات يان ـ شان في كان ـ سو) وقد بلغ فن تزيينهـــا دقة وجمالاً لا نجد لها

مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعاتها الخزفية في الطور الذي سبق التـــاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيـــا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.)تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان ـ ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق. م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبان فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عباده ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليَشْب ، وكتابات . ويضعنا فجـأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة. وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسترعي الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التـــاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحـاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة. ونصل بعدئذ الى فن للايقونات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتـــابة التصويرية. سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وتمثل لنا نغان ـ ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخـــامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقـة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه النقوش الحجرية الماثلة . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويـــداً بفتوحاتهم نحو الشمال والغرب والجنوب ابتـداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن ـ ى (العاصمة تشانغ ـ نغان). وعاشت الحيـاة الاقطاعية المعروفة في ذلك العهد تسيرها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وموّت حيـــاة التقشف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا ـ ونغ) فثار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق . م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وظفر به وأعلن نفسه ملكاً .

وغدا هـذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هـذا التطور دون عائق اذ لم يحصر التشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واجبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاشد قوة التي كانت تنافس بقية المنطقة « المتحضرة » . واتبعوا حيـــاة

إقطاعية تشبه كثيراً الحياة التي ستسيطر في الغرب أيام نظام الفروسية. واصبحت تلك الحروب حروب إقطاعة ضد إقطاعة ومعارك إقطاعي ضد إقطاعي تتبعها سكينة التابع في بلاط السيد المتبوع في وسط أنيق يشبه بلاط القرون الوسطى.

وسنة ٧٧١ ق . م سقطت عاصمة التشاو بيد « برابرة الغرب » أثر هجوم صاعق شنوه على حين غرة ، واجبر التشاو على التقهقر نحو هو – نان وفقدوا في مقرهم الجديد صفاتهم الحربية

الشكل ٣٤ – الصين حتى سقوط سلالة الهان

وشكيمتهم التي جعلت منهم اشهر زعماء الصين القديمة واستسلموا لسلطان الامراء الإقطاعيين. واستمروا طويلاً على هـــذه الحالة كملوك خاملين. ومع هذا ولد (٥٥١ – ٥٥٠) في مملكتهم وايام حكمهم الفيلسوف العظيم كونفوشيوس (الذي غدا لتعاليمه الصدى البعيد الذي نعرف) ، وسنة ٤٤٠ انقسمت سلالة التشاو الى دوحتين تتحكمان في وقت اخذت فيـــه سائر الامارات تتقوى ، خاصة امارات تس إين وتشو وتسين الـــتي كانت تخضع للتشاو او تتقرب منهم. وتعددت الحروب الداخلية او المعارك التي خاضتها امارة ضد الاخرى وهكذا جزئت التسين

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى «التشاو والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتــال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء الاقطاعيون الأشد شكيمة تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهـذا هو بـدء عهد قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١). وهذا العهد هو فترة حروب متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لهـا الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن بدأت مملكة تس ين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انهت عملهـا هذا سنة ٢٢١ : « وقــد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة الصينية » . (رنيه غروسه) .

الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ – عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمنة ما قبل التاريخ – الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باتمام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . واقيم المقر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية – الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزلته المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الآلهة او الجدود الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جدوده الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنغ – شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد خدم (شو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي ستبقى عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنهـــا كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت – ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد – الا من السياج، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة ، الخنازير والخراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيـــازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الارياح ستعترض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيـــالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحـــة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحـا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعددونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة .. وكانت الورقـة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبنتي والدب والثور الوحشي والفيـــل والكركدن والذئب والخنزير البري والضبع . وكانت هنالك طرائد اقـــل شراسة تسرح زرافات زرافات كالايل والوعل والسعدان والارنب والعصفور ...

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلـــك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن العظم والعاج واليشب والنحاس والخيزران. وقد توصلوا الى إذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشيه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستتبلور اكثر ايام التشاو . لذا سنأتي فيا بعد على دراستها .

٢ ـ الحضارة الصينية أيام التشاو

ان توسع المجتمع أيام التشاو والتطور السياسي والاداري الذي حصـــل بصورة سريعة في بعض الامارات (كامارة تس ين مثلاً) منذ أواخر القرن الخامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اوليـة بالمناطق التي خضعت مبـــاشرة للادارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسبرو « الصين القديمة » .

المستندات

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية اكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، ولكنهما يعودان مع هذا بالربح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . امـــا الاسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشباك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرّهنو والتدرج والحضاري والأوز البري والسلوى والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والايل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهوهم المفضل ، وهو من الالعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهونه باقامة اعيـاد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشبـاك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطغو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصـار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بدأه عقل ، لا يتيح حتى ذاك التـــاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيا بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه. ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغـــابات ، وتزايدت افعال تهيئة الارض للزرع بواسطة الماء والنار. وهم يستعملون المحراث والمنجل والفأس، وكلها من معدن ، وخاصة المجرفة . ويسيرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الخضـار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتنضد المزروعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الاكثر قيمة : بستان الخضــــار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النبـاتات الفسيحة واهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزروعات العهدالسابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفـاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونهـــا

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وانواع عدة من الاشجار المثمرة (كأشجار الكمثرى والكرز والدراقن والمشمش والسفرجل والخوخ والكستنا والعنــاب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الاخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسة القنب وهما منابع مرابح . وتستثمر شجرة التوت لتربيــة دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الخريف اعمال النسج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون ايضاً بعض أصناف اشجار الغــابات (كأشجار البندق والحور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوحدوا قطعــاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والخراف . ولا يعتمدون على هــذه الحيوانات لجر العربات إذ يقوم الانسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع انهم عرفوا العربات. ويربون حيوانات داجنة للتغذية . كالخنزير والارنب والدجاج والعصافير . ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى الفيل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتوج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لخصب الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكميات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تموّن ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين العجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً اساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصــالح المتبوع . واستناداً الى التقاليد الصينية ، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منهــا مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتوج الحقل التــاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعتني به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ موقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والخنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفــاقة والجوع وزعزع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يرنو اليه كل جيش مظفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنهــا ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطرة للزراعة . ويحتل النسج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزنها ، وقطعاً من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش . وعرف القوم كيف يضفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، ويستعملون الخيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب ادوات الفلاحة والعجلات والاسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس والسهام والتروس وسلالم المعارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذاك العهد (كالطبول المختلفة الانواع والمزامير والأعواد والطنـــابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والمخـــارز والمقـــاص والملاعق والفؤوس والمراجل والطناجر الخ). وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن اساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقـــاطعتي تس ين وتسين . وازدهرت ايضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا فيوقت لاحق. وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع او المقايضة. وقد أتوا على ذكر الارباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، صاحبوا الامراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون في عربات يزينها الذهب واليشب . وجرى التعـــامل التجاري بواسطة نقد كان ، ايام التشانغ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم اصبح قطعاً عظمية ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد اولاً «دوان» (نحو ثلاث اواق ؟) ثم – أيام التشاو الشرقيين – الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيـــات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة ايجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل ايضاً العربات التي جهزت خصوصـــاً لتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الانهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند المجازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالسمك والملح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جدية الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعـــات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجـــارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمـــايتهم وتأمين الأرباح التي تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينـــا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العـــاصمة . وتسدد هذه الضريبة اكثر الاحيـــان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الاسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتوج ، ولكن لا يصل منهـــا الى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثمان

السلع المتبادلة كالسمك والملح . وتجني الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الريع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

المجتمع

يظهر أن المجتمع ، ايام حكم الشاو الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي *Che*) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبز الواحدة زميلاتها حقوقاً . ففي المقام الدّون ، نجد العبيد والفلاحين ثم ترتفع تدريجاً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللعامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون بمبادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يجني الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد اسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقيم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكمش على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان *Houen*) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع الامرأة معاً (بن *Pen*) . ويجري هذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمسألتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هــــذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد، وقد كان رجلا نبيلا ، او بطلا او امبراطوراً ، امتلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقــع فهو قد أدّى طقوس العبادة واعطي اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً، ويعطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة . وبينا يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاو ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعــــة دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعـات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرّمت كل جماعة جدّاً كان يعرفها إلهاً او بطلا (إله الجاورس، إله قمة الشرق الخ..) . وكان لبعض من هذه الجماعات جدّ واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المرار حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينيــة فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحت ويعتبر فرعــاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع: فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبــل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعـــة ، ويقاضيهم ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقــط افراد الاسرة المقيمون معه بـــل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أعطيت لهم على سبيل الاقطـــاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين اداريين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من ندعوهم اليوم دوق ومركيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقـــابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلا وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما نلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يجد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعتــه وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الخ . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمــالا اكثر حرية (كمعلم في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبـــار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما اصبح مركزهم ، أهلا لتبوء اعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيـــلة

(طاو ـ طو) تعد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحيي بصورة معاكسة ـ ونستطيع ان نقول بالعدوى ـ البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويجددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاعة التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسيده الملك او لأمير آخر اكثر قوة. وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيا يتعلق باقطاعته وأتباعه وسيده .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السماء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يجدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلغظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية ارثية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامرأة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

الهيئة الادارية

مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصبح الادارة ايام التشاو اكثر تنظيماً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعربات والخيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقيس الحقول ويوزعها ويقيم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعتنون بأمور الملك الخصوصية وبالقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتموينه وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعنى الثاني بصورة خاصة بشؤون العبادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجدع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعهد بوظائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا – عندما يضعف الملك – تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمبادىء .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلا منها قائد كبير (تي – فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فمديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنبلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذاك مثالاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالق ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . والممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الخيالة ، عربات قتال تجرها الخيل . وسلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتـال ، التي لن تعرف التطور والرقي إلا مع ظهور الممالك المحاربة، عندما يحل الخيالة مكان العربات. ومع هذا فللجيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امارة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو اومو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويجبر بصفته من أتبـاع الملك المباشرين ان يقدم للعاهل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية – تتكون عادة من المنتوجات التي تنفرد بها المنطقة – ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسعى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمعزل عن المراقبة الملكية ، للتحرر من السلطة المركزية لا بل للتحالف ضدها احياناً. ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها. ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن اشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربيـة المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة ، وهذه هي تبـاشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المقـاتلة .

رجال الكهنوت

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منها منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى. ويتخذ افراد الفئـة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحـلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة" الى فئة اجتماعية وضيعة لذا أعدوا محتقرين يتعاطون السحر ويكونون كمن اعتراهم مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنـة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمـال الذبائح ، ويتلون الصلوات التي تكرس الاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع ، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسقاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للنبيل أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانوين يقومون بدور ما في اتمام اعمـــال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولكل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنة املاك الملك بوزارة الشؤون الدينيـــة واعتبروا كموظفين . ولا يبـــدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم ابا عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينتسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتغدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطبـــاء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الخ، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصبحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والارواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهام التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزمار التي تثير حماساً جنونياً . ومع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يصل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء !) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة النبيل ويكونون من عداد بطانتــه . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

أسرة الفلاحين

اختلفت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقــات المجتمع إذ ، كما سبق ورأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبيل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقبل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل اسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بعدئذ إلا بصورة خفية . وعند عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج -- إلا اذا كانت قد حملت قبلاً -- أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحـــاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبـــادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأسر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الخريف ، وقد يتعـاقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الازواج من ثم غير قابل للانفصام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الاعمـال التي يقومان بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينا تعتني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القربى او كلمات تميز بوضوح الابنـاء والاخوة وابنـاء العمومة . فهناك علاقات قربى جماعية تربط بعض الافراد فيا بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل انفتاحاً . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعـاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الخريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللهو والعبث : سباق للعثور على بيض العصافير التي تهاجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطاف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويتبادلون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل المؤات باقامة حفلة الـ « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للانسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانيـة ، على نغم دف من الخزف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهوا الى السكر والمجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هـذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصـل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثيـاب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

حيـاة النبلاء

تنحصر مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نسائة الثانويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بامرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، ويتسع إن كان أميراً. وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء الخليلات عدد من الخليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الضرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزواجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمرة . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتها الزواجية حيثما ينزعان ثيابها وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشترك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهملون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم انثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الاسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الاخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب، ثم حفلة انتخاب الاسم (منغ) التي تدخل المولود حقاً في سجل الاسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للمتفوقين من تلامذة المناطق. وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم. وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبعة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو وينتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسيو) . وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقنونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان خطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الجدود ثم تعطى دبوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء مخاصمة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويزول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات .

والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يد ممثل الملك — وحسب طقس محدد — كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويجعل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقيمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقطاعته وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجليه ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الجدود وتنعم في مقرها السماوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسونها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بيرق كتب عليه اسم الميت . واثناء التسجية — التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى — يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حزن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحرير الاسود ثم ينقلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من غرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالنعش وقد لفوه بقماش ابيض . ويرافق النعش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى جنب النعش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدماء اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الخشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم استناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدود ليضع لوحة ابيه الموقتة ويقدم القربان ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (شه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته نبيلاً ، يحيا حياة خاصة لا تختلف الا قليلا عن حياة افراد رعيته ،

فانه مع هذا يتسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الذبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتتم حفلة التتويج بنقل لوحة اليشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

مجتمع القرية والمدينة

يقطن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من الاغصان اقيمت موقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً – في الشتاء – في بيوت جمعت فكونت قرى ودساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطى بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الاهمية هيكل لإله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يبقون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس الحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاعة مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمحاربين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصفاً) يحيط بها سور جماعي يشتد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأناً هو سور بيت السيد . ويكوّن هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعثر عليه الا من خلال المبادىء التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتخترقها شوارع مستقيمة .

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يربطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنايتان لاعداد الخدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدود في شقة السور الشمالية ويكون بابه من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد. وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خمسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدود ، وتوضع لوحة الجد الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويعتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصبح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشييد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض هما من الامور الرمزية لا بل الإلهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، وينتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعيرون اهتماماً خاصاً الابواب اذ ان الآلهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

الديانة

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو لها مثالاً . ان الحق بالاشتراك بأفعال العبادة هو محصور بالنبلاء دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . ولأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لخير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الخير الذي يرجونه من تلك الافعال..

وللآلهة — ولا حصر لعددها — اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيد بها تقيداً اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجدده ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والأرواح الشريرة (كوي) والانفس المهملة (لي) . ومع هذه المجموعة الإلهية والشيطانية نجد رب الأعالي ، شنغ — تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو — تو ، وإله أرض المملكة ، والجدود الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والإنسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شيد في مجموعة بنات نعش ويدير الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقل أهميتهم زمن التشاو . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعيم آلهة أراضي النبلاء ويرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تهم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هـذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .)، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تو رتبة : إله للأملاك الخصوصية وإله للأملاك المشتركة التي تخص الامارة؛ وكانوا يعتبرون الاله الاول مطارداً وميتاً عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباشرون . وتكشف لنا حقيقة هـذا المبدإ عقائد الصين القديمة بمـا يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتنفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بـعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالاخطار قبـل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحق لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطاناً ، كوي ، أو عائـداً يهيم على وجهه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو، تذهب لتحيا في عالم جوفي. وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للمرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاو لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يجعل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هـذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هـذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقتة في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامي الاسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقدمة شخصية .

وهناك اذن والحـالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفهما. وقبل كل شيء، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بهـا بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسيم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفـاصيل تختلف باختلاف المكان والإله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغـام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيـات يقدمن كزوجات للآلهة ، او أسرى الحرب يقدمون لرب الارض والجدود، او سحرة ومشوهون لاستدرار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، او بطانة النبيل او الملك لمرافقتهما في قبرهما . وقد تذبح هذه القرابين او تحرق او تدفن او تغرق . ويقدمون ايضاً النباتات (الجاورس) او الحرير او الماء او النـار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وتثمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون لن تحدث، وتعيد الى الذاكرة المغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العـــالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحتفظ بهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرابين كالتي تقدم الى الجدود يوجد وسيط (شي، جثة) ينتخب من أقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبـــادة إله الارض الذي يعد كميت ايضاً .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقادم ولكن ايضاً بمقدمي القرابين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياد[٧] وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدود . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توحي بهـــا الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقـــة وقد يغدو وبالاً اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازباً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلة في سلسلة الاعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرابين الاول. فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية. فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحة فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبـــلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك ايضاً موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويجددون النـــار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرابين الى آلهة الجبال والانهار والينابيع والامطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحيـــاة الزراعية . وتبتديء فـترة الشتاء بذبيحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون»،وتوأ أثر ذلك يذهب الملك الى الضـاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرابين الملكية لرب الارض والجدود الى ان يحين أخيراً عيد الحصــاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعيــاد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضاً تبعاً لحلول الفصول دون اعتبـــار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعيـــاد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة تقام وليمة جمـــاعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعـــال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات. ولكن نلحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور التشاو سيقود الديانة القديمة الى حالة جمود وتنظيم عقيم يستبيح معها الصينيون الذين وقفوا على مبادىء الفلاسفة ورجـــال الأدب بعض التحرر .

الفلسفـــة

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هـــذه الحقبة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملقب بتشونغ – ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحرراً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفي وجود الآلهـــة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هـــذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بـل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغـــاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلـــك لخير المجموعة ، ولخـير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثلته الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظـــام والتوازن العالميين .

وقـــد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصغر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادىء محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقـــات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لارادة رب السماء وعبـــادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وان كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدها المجتمع في ذاك العصر، كما أنها تتناغم مع الوثبة الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني، والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعلمين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادىء السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئيـاً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدهما بواسطة الآخر. وهم يلجأون الى الين واليـنغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الامر محيط فئة مختـــارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً الى فئـــات أقل ثقافة ، وتستمر الى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قبـــل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطية تحويراً في الميثولوجيا وتأتي بمعلومات فلكية جديـدة مختلفة . ويتآلف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون ان يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها الى عصرنا الحاضر .

الفـــن

ليس لدينـا عن أبنية ذاك العصر إلا معلومات أدبية اذ ان المواد المستعملة – الطين والخشب والآجر والقش – هي بحد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كان للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكـــثر وضوحاً وثبوتاً الادوات التي استعملوها في إقامة العبـــادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من اليشب. ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الانسان . ويتكون الاطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا اليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً، تبدو عليها الحيوانات بصورة نافرة بينما تتشابك على سطح المعدن خطوط ملتوية . اننا نجهل الرمز الذي يهدف اليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الاواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترمها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . ويصعب علينا ان نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيع مع هـــذا ان نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابك وتتضخم الى ان تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزيين أكثر دقة وبساطة – وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمق دقـــة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاخب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق.م.

ان كنا تسهيلاً لسرد وقائع الجزأين الاولين من المجموعة قد اعتبرنا آخر القرن الاول ق . م. فاصلاً تاريخياً فلا يجب الاستنتاج من ثم بأنه من الهين إقامة مثل هذه المراحل الفاصلة عند درس الحضارات الآسيوية ، اذ لا يحق لنا ان نتحدث عن تغيير جذري في هـذا الطور أصاب الهند والصين، لا بل نؤكد بأنه من الصعب جداً فصل العصر الذي سبق هذا التاريخ عن المرحلة التي تلته . ولكننا مع هذا عملاً بالخطة التي انتهجناها في وضع هذه المجموعة فقد سعينا جهدنا في تأليف هذا الجزء بالاعتماد فقط على المعلومات التي سبقت أواخر القرن الاول ق. م. ولكننا لا نخفي مع هذا بأن مثل هذا الحد الفاصل لا أثر له تاريخياً وبأننا نجد وحدة حقيقية تستمر حتى حوالي القرن الثاني للمسيح فيما يختص بالهند وحتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح فيما يختص بالصين . لذا سنضطر ، لحسن اظهار تطور هاتين الحضارتين الآسيويتين ، ان نعود ــ في المجلد الثاني الى بعض المواد التي بحثناها في المجلد الاول .

الفصل الأول

آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الاول ق.م.

ان كان من خصائص العهد السابق تحديد مختلف معالم المناطق الآسيوية الحضارية السياسية منها والاقتصادية والدينية ، فان العهد الذي نعرض له الآن يزيد في هذه المزية لاتساع وتطور التبادل التجاري والثقافي ، ولقيام سلطات أكثر مركزية ولانتشار الديانات الكبرى .

فقد انتهت في آسيا الازمة الكبرى التي سببت الاصلاحات الروحية والفلسفية والدينية كالبوذية في الهند والطاوية في الصين . وبعد ان كانت الاصلاحات هذه مجرد بذور فكرية أصبحت عرى وثيقة بين شعوب متناقضة ، تعد لنفسها حياة تتلاءم والمحيط الذي ولدت فيه وتتطور رويداً رويداً لتتوافق وميول كل قطر انتشرت فيه . وسيكون للبوذية خاصة رسالة تبشيرية في القرون التي تهمنا .

ومن الناحية السياسية ستؤكد الصين والهند جهودهما في السعي نحو الوحدة : فستحرر الهند أرضها من الاستعمار الايراني وستقصي على غزو الاسكندر ذي القرنين لوادي الاندوس سنة ٣٢٥ وتدحر « الغرباء » نحو المقاطعات الهندو - افغانية . وبعد ان تكون الهند قد قطعت مرحلة الاستيطان الآري تصبح قادرة على تصدير حضارتها وقبول كل مستورد وتحقيق وحدة سياسية في ظل سيطرة سلالة الموريا الوطنية . وفي الوقت ذاته تتخلص الصين من دياجير قرون الحكم الاقطاعي لتقيم ، ببطء وعناء ، سيادة وطنية سياسية ينتج عنها ازدهار تجاري وتوسع اقليمي يغدوان من بواكير عظمة مدهشة . ويبعث عهد الملكين اشوكا في الهند وتسن شه — هوانغ - تي في الصين ، وكانا متعاصرين ، حماساً نحو الوحدة والسيادة لم يعرفها من قبل البلدان الآسيويان الكبيران . وهناك اقطار عدة على حدود هاتين الدولتين العظيمتين او ضمن مدى منافعهما تبرز من طيات النسيان لتدور في فلك هذا النفوذ التاريخي او ذاك : كالهند الصينية والتركستان الصيني وكوريا ثم بعد فترة من الزمن اليابان .

وتتقوى رويداً رويداً العرى التي تشد مختلف هذه الاقطار الآسيوية الى بعضها البعض او توطد العلاقات بين آسيا واوروبا . وقد وجدت هذه العلاقات منذ تاريخ سابق كما تشير اليه أدلة

عدة ، ولكن لن تظهر بوضوح وجدية إلا منذ القرن الرابع ق. م. وبعد قطع البوسفور النقدية التي ترتقي الى حوالي ٤٠٠ سنة ق. م. والتي وجدت في منطقة ايلي ؛ فقد عثرت بعثة كوزلوف في شمالي اورغا على اشياء للمقايضة والتبادل نستطيع معها ان نعتبر منغوليا احدى مناطق التقارب بين اليونان والشرق الاقصى . ان الأدلة التي تثبت لنا وجود مثل هذا التبادل لا تزال غير كاملة ولكنها مع هذا تجيز لنا الظن بأن الاتصالات بين الشعوب كانت أشد وأقوى مما نعتقد عادة وتكشف لنا من ثم سلسلة حوادث تتوغل في القدم . وباستطاعة علم الآثار ان يضيف الى أدلة المؤلفين التقليدية المعروفة اثباتات يكشف النقاب عنها مجرى سير الحضارات وتأثيراتها. وتنسج هذه التأثيرات شبكة يستعصى حلها على القارة الاورو – آسيوية وتظهر سلسلة من التصادم والتفاعل يصعب مراراً تقصي اتجاه حوادثها ويذهل المرء غالباً لنتائجها ، ولكن كثيراً ما تبررها العوامل السياسية . وهكذا فان الصين ايام حكم الهان ، وقد أرادت استخدام اليوتشى ضد الهيونغ – نو ، اتصلت بالغرب عن طريق منطقتي سوغديان وبكتريان ، وأقامت علاقات دبلوماسية مع هذه الاخيرة حوالي سنة ١١٤ ق. م. وعرفت من ثم بلاد فارس والشرق الروماني . وعندما تنعدم الحقائق التاريخية – وهذا ما يحدث اكثر الاحيان لسوء الحظ – فان الحفريات تسد هذه الثغرة وتأتي الاشياء التي يعثر عليها لتثبيت حقيقة امتداد الحضارات وتنقل معالمها . فقطعة العاج مثلاً التي نقش عليها في الهند ووجدت في بومباي او نقود السلالة الانطونية التي اكتشفت مؤخراً في الكوشنشين ، او أواني ارزّو الخزفية التي عثر عليها بالقرب من بونديشاري – وتقع هذه الأماكن على حدود القارة الاورو – آسيوية المتناقضة – كلها اثباتات وشواهد على تنقل الحضارات بسبب الحروب او التجارة او الاسعار .

ونعرف عدة طرق للقوافل لم تسلكها الأشياء المادية فقط بل سارت عليها أيضاً الافكار والروايات . وتبدو لنا اذ ذاك آسيا العليا كممر لا يعرف سكينة اذ تخترقها على أقل تقدير ثلاث طرق : فيصل احداها الى ضواحي بكين مخترقة منغوليا الشمالية بعد ان تكون قد مرت شمالي البحر الاسود وبحر قزوين، وتتصل الاخرى بشمالي الجبال السماوية بعد ان تكون قد لفت جنوباً صحراء منغوليا . ومنذ عهد الاسكندر ذي القرنين اتصلت الهند ببحر قزوين والبحر الاسود بواسطة الملاحة النهرية وخصوصاً مجرى نهر الاوكوس . وأشهر هذه الطرق لا بل أهمها كانت « طريق الحرير » وقد بدأوا بالاتيان على ذكرها منذ أواخر القرن الثاني ق . م ، ولكنها ترتقي مع هذا كما يظهر الى زمن أكثر قدماً . وقد أقيمت عليها أسواق زاهرة وسلكت ممرات افغانستان الحالية واخترقت التركستان الصيني باتجاه مناطق الحدود الصينية التي بلغت أقصى امتدادها الى واحة توان – هوانغ التي أصبحت حتى القرون الوسطى ممراً لجميع طرق القوافل الواصلة الصين ببلاد بكتريان ؛ وقد تفرعت عن هذه الطريق الاساسية مسالك ثانوية تتجه نحو الهند ، مخترقة بكتريان، والبنجاب الخ، ومنتهية الى الشواطىء الهندية الغربية حيث كان يزدهر الاتصال البحري مع الغرب .

وكانت بضائع مصر وسورية تصل بحراً الى مرافىء الهنـــد على شواطىء ملابار ، وخاصة موزيريس ، المدعوة اليوم كرانغـــانور . وكانت هذه التجارة مزدهرة جداً دون شك وستزداد نمواً مع القرون اللاحقة .

وهكذا انتقلت الاشياء التي تمثل حقبـاً بلادها الاصلية من حوض البحر المتوسط الى آسيا ، والعكس بالعكس . وبهـــذه الواسطة بعثت الهند والصين ، البلدان الكبيران المتحضران ، نحو المناطق التي دارت في فلكها التجاري والسياسي كل المؤثرات الحضارية التي وصلت اليها . ولم يكشف لنـــا علم العاديات إلا آثاراً قليلة عن القرن الرابع ق . م . ولكن تعد هذه الآثار أدلة كافية مع هـــذا لنلمس النتائج المتبادلة لهذا الاتصال الذي أتينا على ذكره : كأثر الحضارة الاخمينية على بـــلاد الهند وقد مهرت الاساليب الفنية أكثر من الاشكال ، وأثر الحضارة المكدونية والايونية كما تثبت ذلـــك بعض الادوات التي عثر عليها في تكسيلا ، ونقود البوسفور التي وجدت في منغوليا الخ ، وهذه هي الفترة التي يغادر فيها الاخمينيون مناطق الهند، في وقت يتوغل فيها الاسكندر ذو القرنين في غزوته حتى حوض الاندوس ، كما تتعرف فيهـــا الهند الى وحدة سياسية حقيقية تحت حكم سلالة الموريا التي استولت على السلطات حوالي سنة ٣٢٢ ق.م. أي بعد سنوات قليلة من حدوث غزو الاسكندر .

وفي القرن الثالث ، اذ كانت روما وقرطاجة تتصـــارعان ، نعمت الهند المورية بفترة من الوحدة تحت حكم الامبراطور العظيم أشوكا الذي نشر في أرجاء مملكته قرارات روحية أوحت بها اليه الديانة البوذية التي كان قـــد اعتنقها . ولكن غدت هذه الفترة عهداً دموياً للصين في زمن حكم تسن شه هوينغ – تي الذي كان يبني وحدة بلاده السياسية والذي بدأ لحمايتها بتشييد السور الأكبر . وتأسست سلالة الهان سنة ٢٠٦ ، وستفتح هـــذه السلالة بلاد الصين على مصراعيها للحضارات الاجنبية وتحتفظ بالسلطة زهاء أربعة قرون .

وسيشهد القرن الثاني ق. م. نمو واطراد مملكتي سوغديان وبكتريان الهندو – يونانيتين اللتين ظهرتا بعد غزو الاسكندر ذي القرنين . وسيوسع الهندو – يونانيون ممتلكاتهم باتجـــاه الهند فيستولون على البنجـــاب ، في الوقت الذي تمد صين سلالة ملوك الهـــان فتوحاتها حتى كوريا شرقاً وواحة توان – هوانغ غرباً والتونكان جنوباً . وتتعرض الشعوب المجـــاورة للصين لتقلبات مختلفة ، وهكذا يصـــل اليو – تشي ، وقد دحرهم الهيونغ – نو ، الى بكتريان حيث يحولون الممالك الهندو – يونانية الى امبراطورية هندو – سيتية (حوالي سنة ١٣٠ ق. م.) وهكذا يصبحون من ثم الوسطاء بين الصين والغرب . وسيساعد هذا الوسط الاورو – آسيوي أكثر من سواه على نشر مبادىء ثقافة القرون القديمة الكلاسيكية في وقت تشهد فيه الهند الجنوبية قيام حكم الاندهرا الذي سيزدهر خاصة ما بين القرنين الثاني والرابع المسيحيين والذي سيتأثر ، ولو بصورة لطيفة ، بالحضارة الرومانية .

وفي القرن الاول ق. م. ستتخذ العلاقات التجـــارية بين مصر والهند مجراها الطبيعي . وستتطور وتزدهر بعد فترة قصيرة ونرى نتائجها في القرن اللاحق .

وسنشهد لهذه العلاقات بعض الآثار في مجالي الأدب والعلم ، وان كان يصعب تحديد تواريخ دقيقة لهذه الحقيقة . ولكن من الثابت بأن المسافرين « المثقفين » قد ساروا على الطرق التي خطتها التجارة . والاقتباسات التي أخذتها الهند عن ايران الاخمينية هي دون شك ذات أهمية كبرى وان كان يصعب اكتشافها جلياً لوحدة المصادر التي استقت منها حضارة كل من هذين البلدين . ولكن تظهر هذه الاقتباسات بكل وضوح في مضمار الفن : إذ ان قصر اشوكا في باتليترا مثلاً يظهر بعض الشبه مع قاعة العرش التي شيدها داريوس في برسبوليس . ويوافق الوصف الذي تركه لنا المؤلف اليوناني ميغستين بقايا القصر التي عثروا عليها . وهناك تشابه ايضاً بين تيجان العواميد التي نقش عليها اشوكا بعضاً من قوانينه والفن الذي كان سائداً في برسبوليس.

وتضاف الى شواهد تأثير الحضارة الايرانية (التي يثبتها احتلال ايران للبنجاب حتى آخر القرن الرابع ق. م.) الآثار التي هي وليدة تأثير الحضارتين المكدونية والايونية والتي نشاهدها خاصة في مدينة تكسيلا .

ومن المعتقد بأن آسيا التي اقتبست الكثير عن الغرب قد وهبته بعض الامور بالمقابلة . ويتساءل المرء ان لم تكن بعض العادات الهندية هي التي أوحت بحفلة العرش الفارغ التي أقيمت في كيليكية للاسكندر ذي القرنين سنة ٣١٨ ق. م. — أي خمسة أعوام بعد موته — ويميل الانسان ايضاً الى الاعتقاد بأن هذه الناحية من القصة اليونانية او تلك النظرية الفلسفية هما من ثمار تأثير الحضارة الهندية .

٣٣ – الهيرايوك في أولمبيا ·

٣٤ – عدّاؤن اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح)متحف الفاتيكان.

٣٥ — زفس هيستيا (ويعرف بزفس ارتميسيون ايضاً)،وهو من البرونز وينسب الى كالاميس (حوالي ٤٦٠ قبـــل المسيح). المتحف الوطني في اثينا .

٣٦ — مسرح ابيدورس .

٣٧ — المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون اللاسينية » ، في اغريجنته (القرن الخامس قبل المسيح) .

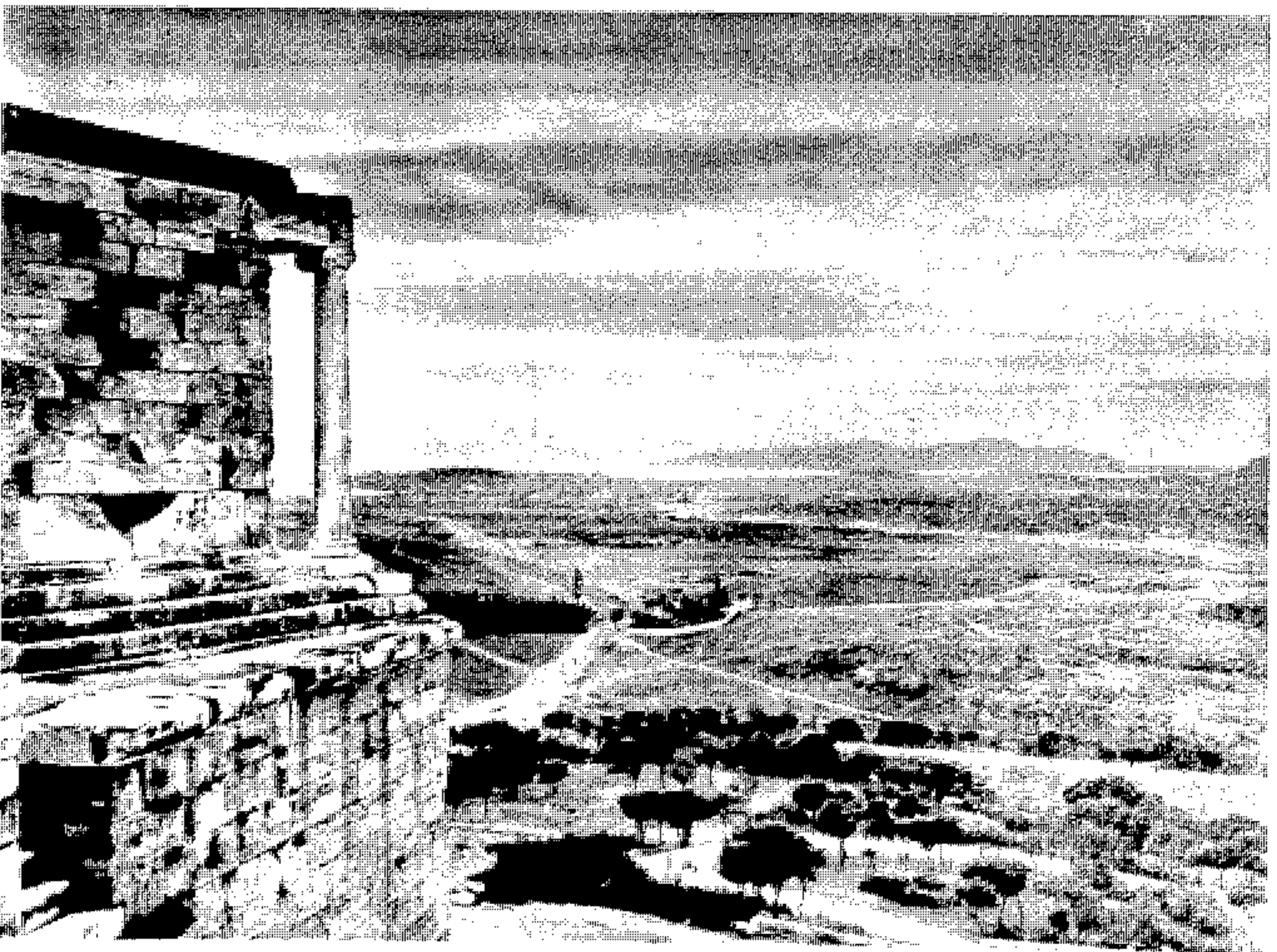

٣٨ – مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقي .

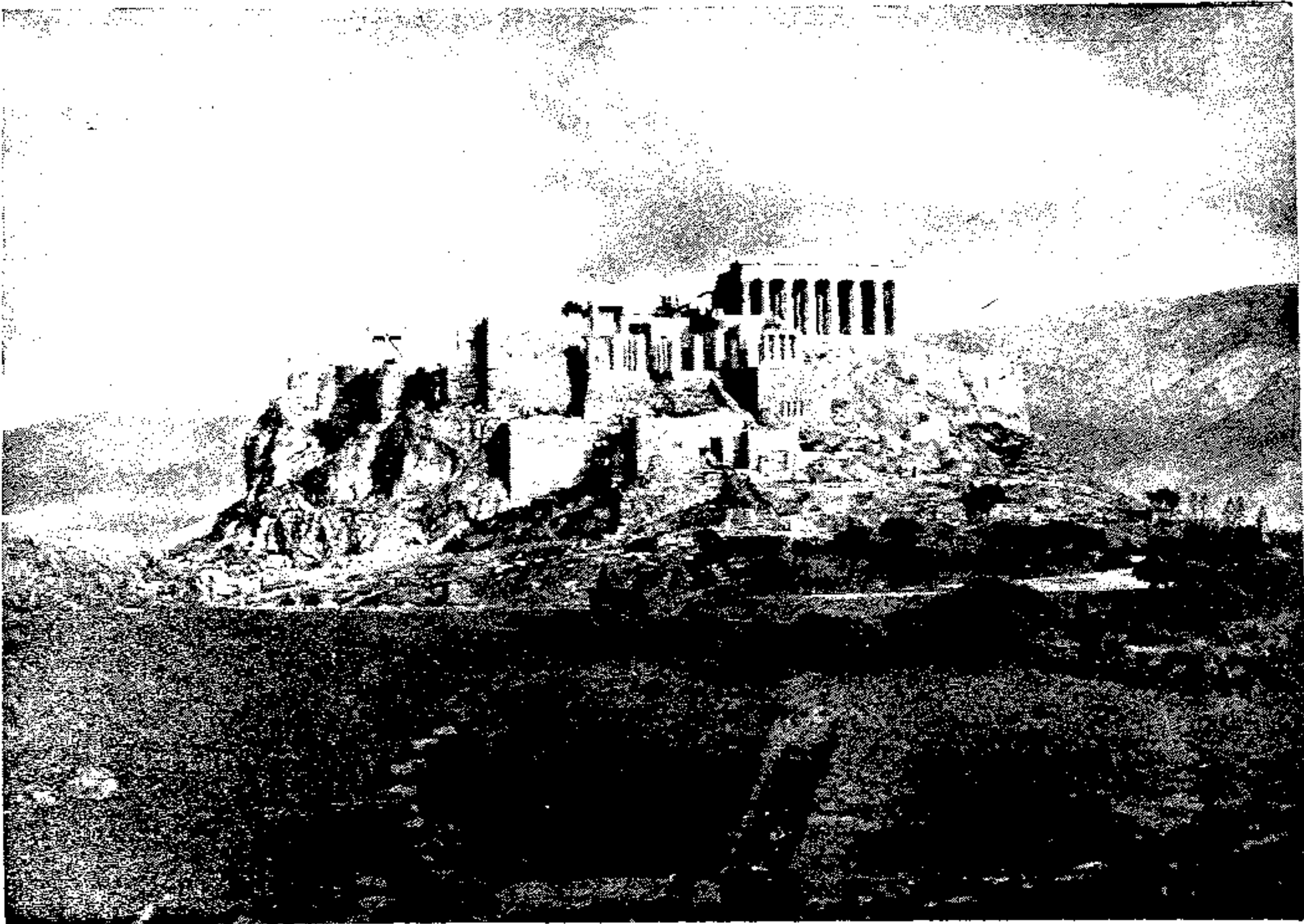

٣٩ — قلعة أثينا .

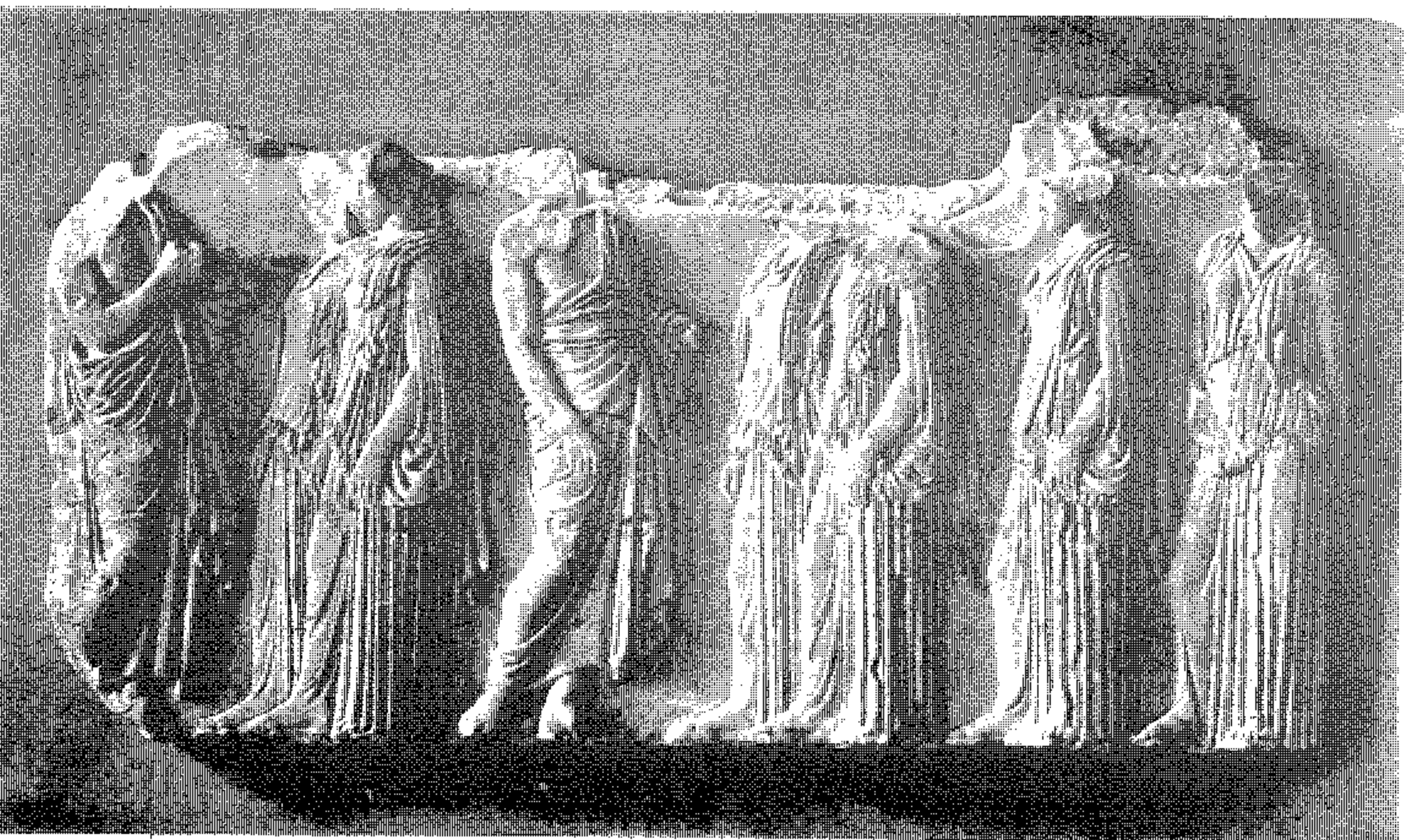

٤٠ — تطواف عيد الآلهة « أثينا » . قسم من أفريز البرثنون . متحف اللوفر .

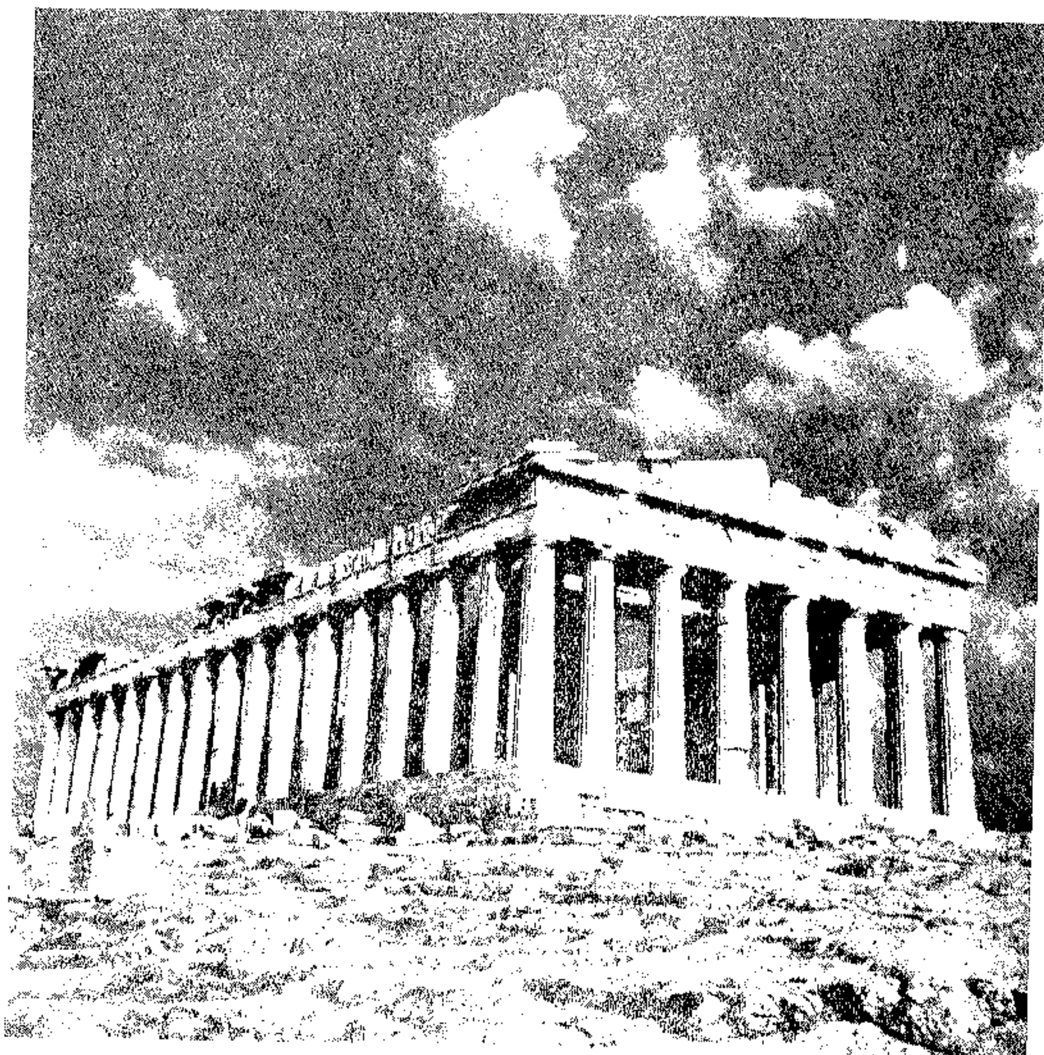

٤١ - البرثنون (في حالته الحاضرة).

٤٢– اثينا برثنوس . مدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .

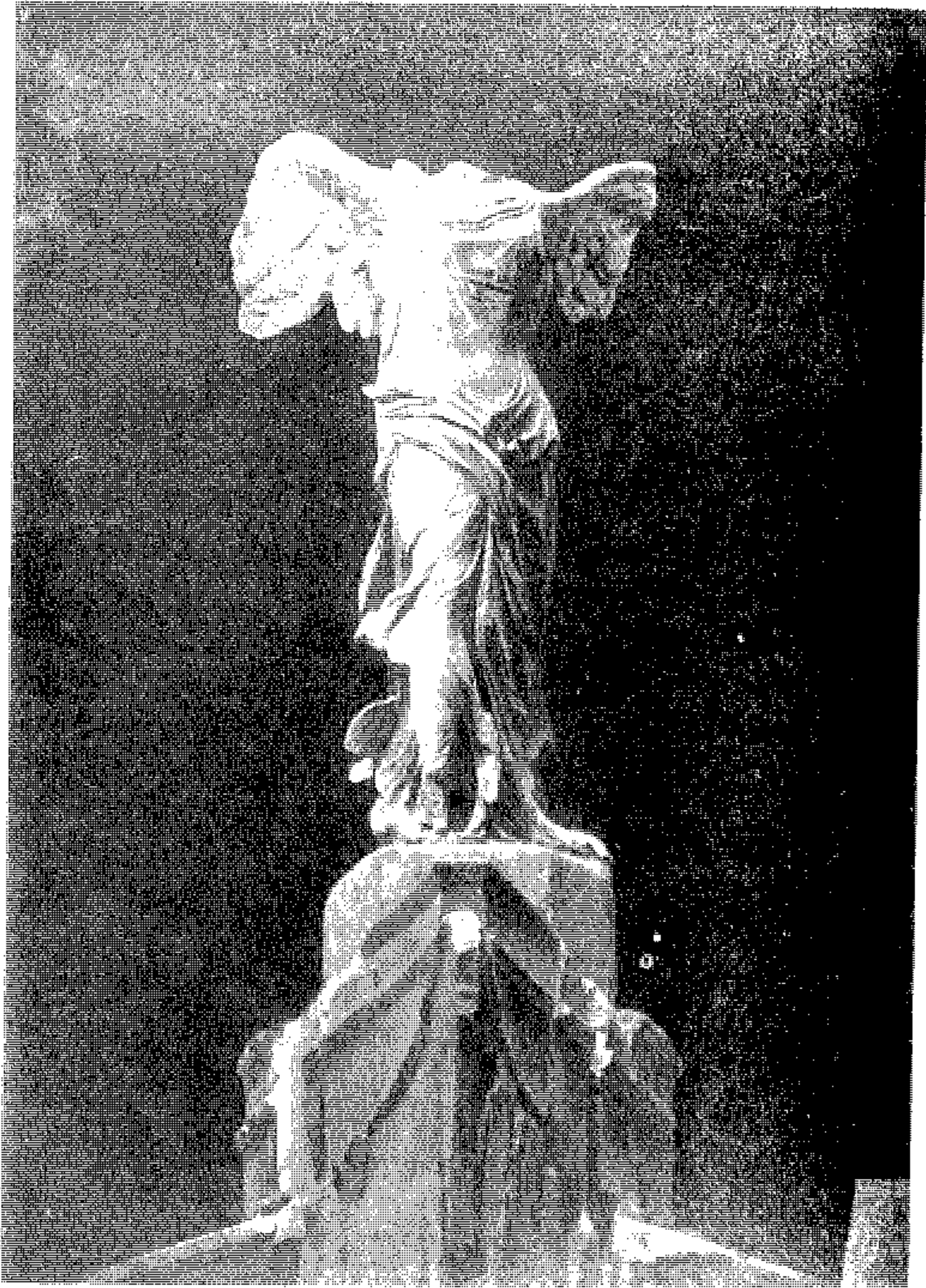

٤٣ — الاتيك اوكورنثوس ، اواخر القرن الخامس او
اوائل القرن الرابع قبل المسيح الالهة « نيقي » في ساموتراس

٤٤ — اناء شنغي ثلاثي القوائم مصدره نفان – ينغ . عهد شنغ .

٤٥ – تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو – دارو .
الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي

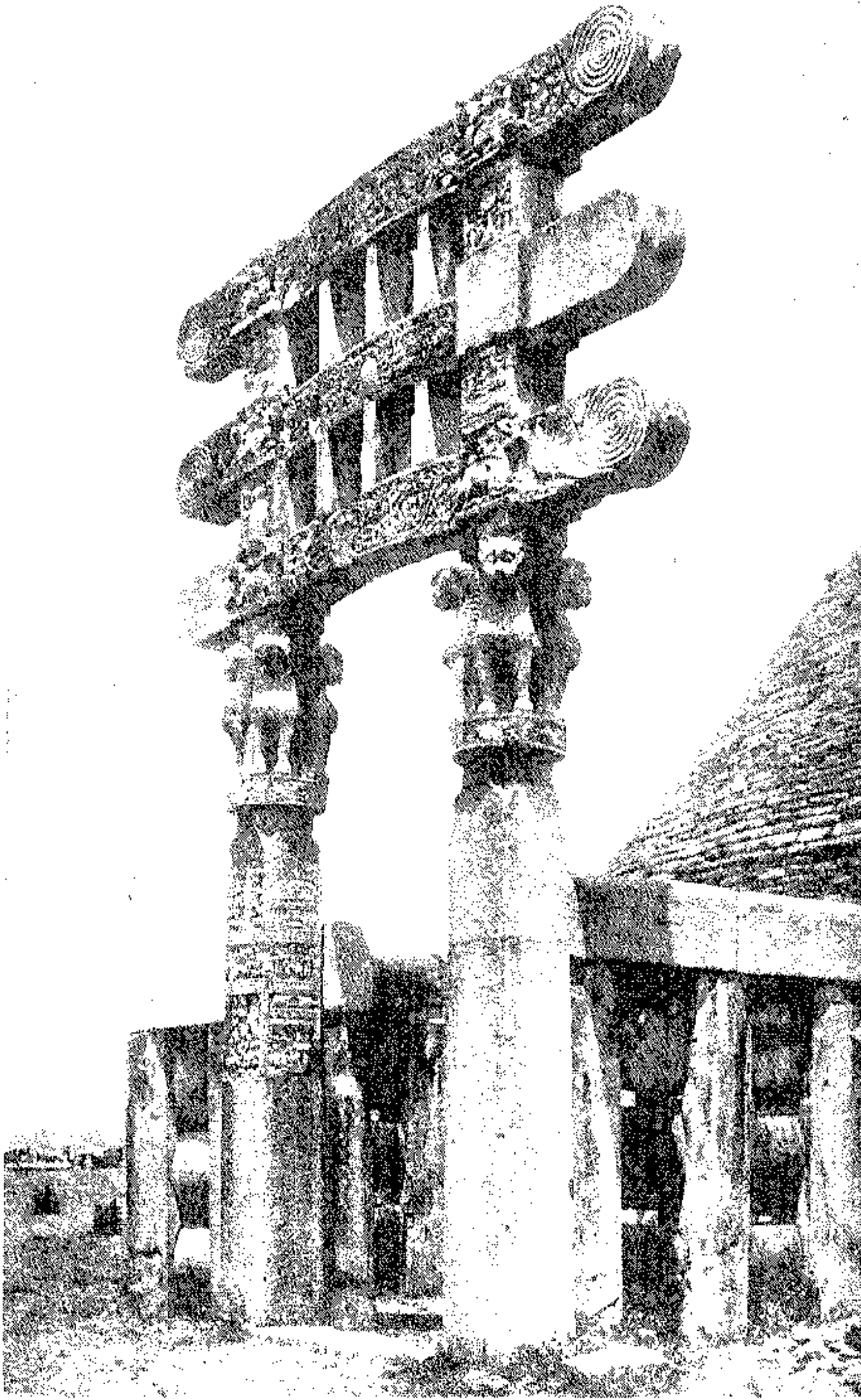

٤٦ – المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند). القرن الاول قبل المسيح .

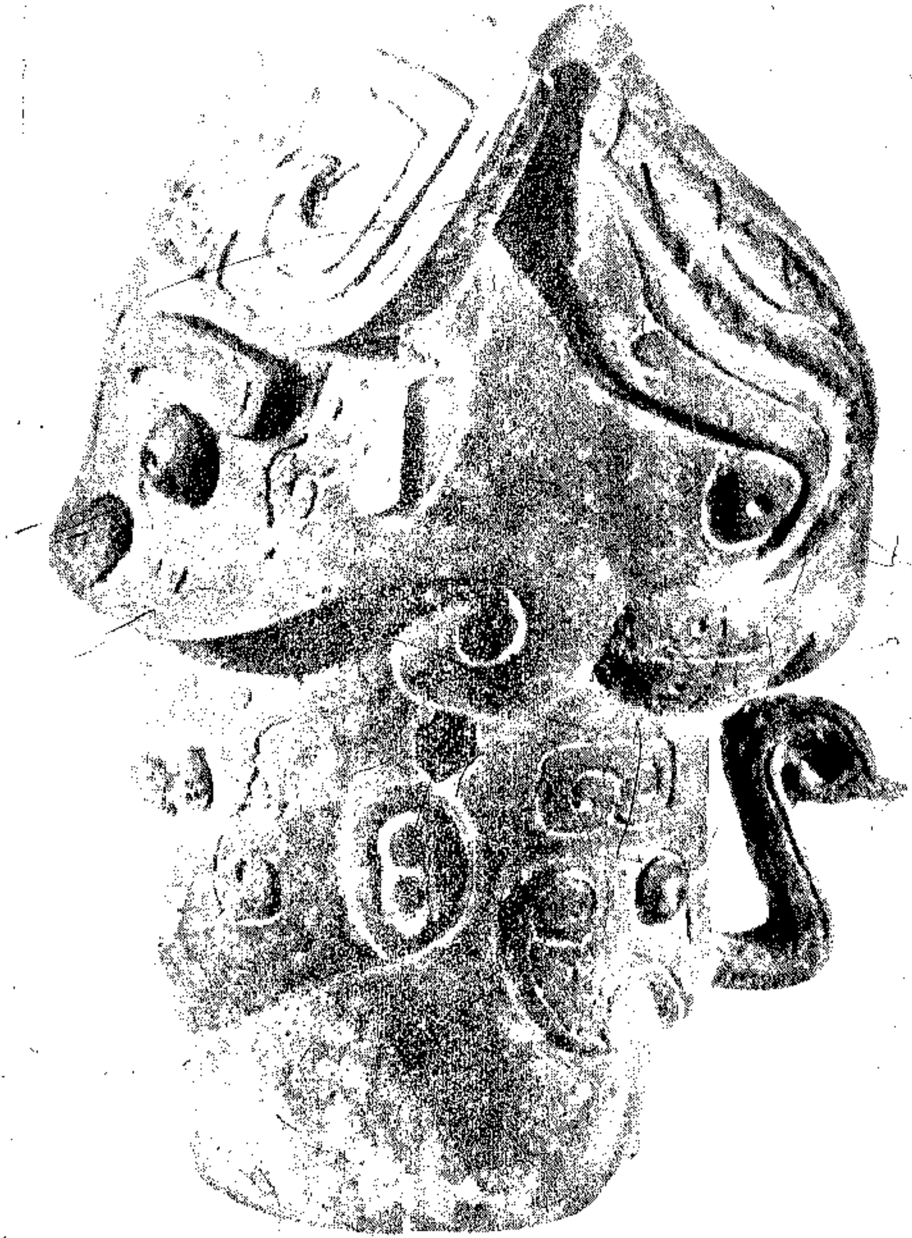

٤٧ — اناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز عهد شنغ .

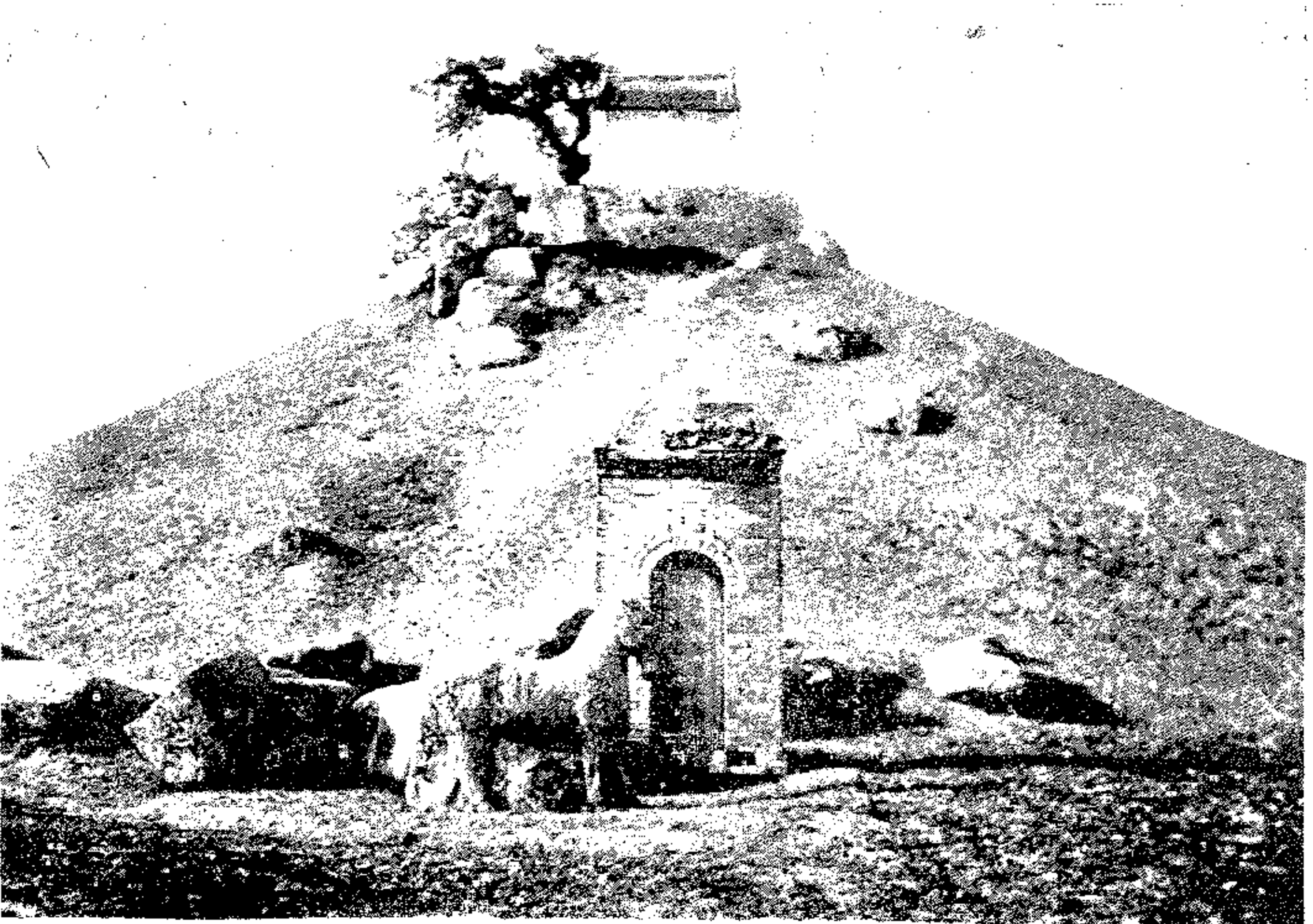

٤٨ – حصان من حجر وقبر هوو – كيو – بنغ المخروطي الشكل . هيان – ينغ ، مقاطعة شن – سي (السنة ١١٧ قبل المسيح) .

الفصل الثاني

الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

استمرت حركة البعث التي أوجدها الموريا دون توقف مدة حكم خلفائهم المباشرين الشونغا والكانفا (حوالي السنة الخمسين ق. م.) . وغدت هذه الفترة عهداً بنّاءً ومن أغنى أطوار الحضارة الهندية وستبقى أثرها العظيم في التقاليد الهندية حتى عصرنا الحاضر . وان كان مركز الثقل السياسي قد استقر منذ القرن الاول او الثاني للمسيحية في منطقة غير وادي الغانج ، أي في شمالي البلاد والشمال – الغربي مع سلالة الكوسانا وفي الجنوب – الشرقي مع ملوك الاندهرا فان النتائج التي حققها الموريا لم تندثر بل مهدت الطريق امام ازدهار الدور اللاحق الذي سيهيمن عليه عمل الغوبتا التوحيدي المثمر (القرن الثالث الى القرن الخامس)، هذا مع العلم بأن هؤلاء الغوبتا سينتسبون الى الموريا لتثبيت سلطتهم .

ان أهم حدث هو دون شك سعي الموريا لتحقيق الوحدة السياسية التي شيدوا عليها امبراطوريتهم . فقد أوجدوا نظاماً سياسياً مستبداً لتسهيل ازدهار البلاد الاقتصادي فدعموا علاقات الهند الدبلوماسية والاقتصادية مع سائر أقطار آسيا والغرب ، واستعملوا البوذية كأداة قوية لنشروا بواسطتها في مختلف أجزاء الامبراطورية القوانين الروحية التي ستحقق الوحدة . وعمموا هذه الديانة في سيلان ، وسينتشر هذا المعتقد بعد قليل من الزمن في آسيا الوسطى والشرق الاقصى . وعرف الفن نهضة مجيدة واستعملوا لأول مرة مواد صلبة، وسيغدو جمال هذه الحقبة أساساً للازدهار اللاحق . وأخيراً سيمضي التأليف الأدبي قدماً في الازدهار ، حتى القرون التي ستلي ، كما سيحدث الفولكلور الوطني ومجاريه تحويراً عميقاً في الامور الرسمية . اننا امام عصر يدعو الى الدهشة ، تزدهر فيه مبادىء الفروسية ، وتصبح فيه الثقافة ارستوقراطية ، وتستند فيه المذاهب الدينية الى عوامل التسامح واحترام المؤمن ، وينتصر فيه اللاعنف ولو أقله بصورة مبدئية . ومع هذا فان تاريخ هذه الحقبة السياسي لا يعرف استقراراً إذ تقوم في المناطق الشمالية – الغربية سلطات غير ثابتة تحدث تغييرات مستمرة في مجرى الفتوحات الهندية . وتدوم هذه الحالة قروناً عدة .

ويبتدىء عز الهند السياسي أيام شندراغوبتا موريا الذي عرفه اليونان باسم سندراكوتوس أو سندروجيبتوس . انه أحد أفراد الكشتريا ، وقـد ينتسب الى سلالة نندا التي كانت تملك في مفدها ، وقـد خلفها على السلطة حوالي سنة ٣١٣ ق . م. (استناداً الى بهتسالي) وقبل استيلائه على العرش من الجائز ان يكون قد تقابل مع الاسكندر ذي القرنين،وتزعّم الثورة التي نشبت ضد حكام المناطق الشمالية – الغربية الهندو – يونانيين . وبعـد ان أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة أرجاء الهند الشمالية . وسنة ٣٥٠ أجـبر سلوقس نيكاتور ، مؤسس المملكة السلوقية ، على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية بواسطة اليوناني مغستين . وقـد عاش هذا الاخير في عاصمة الملك الهندي ، باتليبترا ، وترك لها وصفاً شيقاً لها . وفي هذه الفترة عرف اليونان حقيقة حضارة الهند الموريا وغدت لهم أنظمتها وثقافتها عامـل دهشة وإعجاب . وهكذا عرف اليونان مبدأ تقسيم المجتمع الى فئات ، وسيادة البراهمة الوراثية ، وزعامة أفراد الشرمانا التي حصلوا عليها بنبوغهم وتفوقهم . ونقف في كتاباتهم على مدى تفوق حضارة الموريا التي سعت مصر وسورية لتوطيد علاقاتها لها . وسنرى فيا بعد دقائق هذا التنظيم (وجه ٦١٢).

وستبلغ سلالة الموريا ذروة عزها مع أشوكا بريادرشين ، حفيد شندراغوبتا ، وذلك لكمـال ثقافته واتساع فتوحاته. وقد بدأ حكمه (حوالي سنة ٢٦١ – سنة ٢٢٧) بارتكاب جريمة اذ قتل أخاه البكر ليستولي على العرش . ثم قام بحملة دموية على كالنغا . ولكن سرعان ما اعتنق اشوكا البوذية وغدا مثال الامبراطرة . ومن الحق القول إن لا مثيل له بين معاصريه . وتظهر لنـا تعاليمه الواصلة الينا بواسطة « قوانين النظام » التي نقشها في مختلف أرجاء المملكة سمو مبـادئه الروحية وفضائل شخصيته الفذة.وان كانت هذه القوانين قد استلهمت البوذية فهي مع هذا هندية الروح ودون أي تحيز ديني،تسند النظام الاجتماعي والسياسي والروحي حتى نظام الكون نفسه الى شخص الملك . ويحافظ على هذا النظام موظفون ومبعوثون ونظار ومراقبون عموميون الخ ، ومهمتهم حمل القوم على احترام قرارات الملك وتوثيق العرى مع البلدان المجاورة . وأساس هذا الحكم – الذي ابتدأ مع هـذا بالبطش واغتيال الاخ – هو مبدأ اللاعنف دون سواه . ويسعى هذا النظام جهده لاسعاد الجميع ، وعدم إرهاق الحيوانات ، وانزال القصاص العادل بمستحقيه ، والسهر على صحة الافراد وخلاصهم . ومع ان اشوكا أثار ضجة كبرى حول اعتناقه البوذية وانه المجمع الكبرى فانه حمى المعتقدات الاخرى كما يؤكد ذلـك ما قدم من هدايا ملكية عدة الى الاجيفيكا . وقد يكون التأم أيام حكمه مجمع بوذي كبير في باتليبترا ، وتأسس المعتقد البوذي في سيلان (حوالي سنة ٢٤٥ ق . م ؟) التي ستغدو في القرون اللاحقة عاصمة البـلاد الاندو – صينية الدينية .

وشملت مملكته عملياً كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية. وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندهرا . وأقام الملـك علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر ومقدونيا والقيروان والابير أو كورنثيا .

وبعد موت اشوكا تجزأت مملكته رويداً رويداً ، واستقر الحكم المركزي في مالفا ومقدها بزعامة الشونغا (١٧٦ — ٦٤ ق. م. ؟ بالاعتماد على فيليوزات) ثم بزعامة الكانفا (٦٤ — ٥٠ ؟) الذين تولوا السلطة في ذات الوقت مع آخر حكام الشونغا ، بينما كانت الاضطرابات تغير من وضع الممالك الهندو — يونانية وتتقوى زعامة الاندهرا في الجنوب — الشرقي . ومع أننا لا نستطيع ان نتحدث عن نظام مثالي أقامه الشونغا والكانفا كالنظام الذي حققه اشوكا نلاحظ بأنهم غذوا تقاليد ثقافية وفنية زاهرة في المناطق التي سيطروا عليها اذ ترتقي الى عهد ملكهم آثار بهرهوت وسانشي البوذية الجميلة . وحذوا حذو سلفـــائهم فوطدوا العلاقات مع الغرب كما يشهد بذلك العامود الذي أقــامه هليودوروس حوالي السنة مئة ق. م. (؟) بالقرب من فيديشا ، وقد كان من مواليد تكسيلا ومندوب الملك انتيالكيداس .

ولكن تتابعت أثناء القرن الذي دامت فيه سيادة الشونغا والكانفا حوادث في المنـــاطق الشمالية — الغربية سيكون لها تأثير عظيم على مصير الهند بالذات . وبعد تجزئة مملكة السلوقيين حوالي سنة ٢٥٠ ق. م.، على يد البرثيين ظهرت دولة جديدة مستقلة في بكتريان يحكمها المرازبة وأجبر هؤلاء المرازبة للابقاء على استقلالهم على قتال البرثيين والايرانيين واليونان الذين طمعوا دوماً بهذه المنطقة. ولكن كان هؤلاء المرازبة ذوي طموح وعقلية حربية لذا سعوا ايضاً لتوسيع ممتلكاتهم على حساب المناطق الهندية ؛ وقاموا بغزوات عدة فاستولوا على غندهارا وتوغلوا حتى خليج كمبي، لا بل أخضعوا ايضاً لفترة من الزمن باتليبترا واحتفظوا في البنجاب بمملكة يسوسها الملك مناندر ، بطل « مسائل ميليندا » الشهيرة . وقد توفي هذا الاخير في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠ و سنة ١٤٥ ق. م. (؟) . وحوالي الفترة نفسها حصلت اضطرابات سببتهـــا غزوة هون منغوليا الداخلية جرفت معها الى بكتريان جماعات مختلفة وعلى شيء من البداوة كانت قد أتت من آسيا الوسطى ، بينهـــا شعب « السيت » الذي أطلق عليه الهنود اسم شاكا . فتضعضعت إذ ذاك تضعضعاً شديداً مملكة بكتريان لقدوم هؤلاء المهاجرين اليها بصورة جماعية ، إذ كان هؤلاء المهاجرون يتحاربون دون هوادة. وزالت هذه الدولة نهائياً سنة ٨٠ ق. م. في وقت استقر به الشاكا تحت رعاية البرثيين ، في كشمير ثم في وادي الهندوس ووصلوا الى البنجـــاب ومالفـــا .

وهكذا حل محل تأثير الحضارة اليونانية في الهند تأثير سيتي — برثي ذو صبغة ايرانية حاملاً معه مبادىء وعوامل من آسيا الوسطى . وغدت قوى البرثيين والشاكا المتكاتفـة في الشمال — الغربي وقوى الاندهرا في الجنوب سبب سقوط سلالة الكانفا .

١ — إطار المدينة والريف

ان المدينة المثالية الموصوفة في كتب الأدب هي العاصمة الملكية او الامبراطورية . وتتوافق هذه الأوصاف مع الأشكال التي وجدت هنـا وهناك في الرسوم المنقوشة ومع الآثار التي عثروا

عليها . وقد تغطي العاصمة بعض المرار مساحة شاسعة كباتليبترا مثلا التي امتدت ، على ملتقى الغانج والسون ، على طول (١٥) كلم وعرض (٣) كلم . وللعاصمة مظهر مكان محصن ، تحيط بها حفر من الماء تزدهر فيها نباتات الخندقوق وتستعمل كبواليع عمومية . وتتكون الأسوار من آجر غير مشوي وكميات هائلة من الخشب : وقد وجدوا لهذه الامور بعض الأمثلة ترتقي الى عصر الموريا في راجغريها . وعلى مسافات متفاوتة ترتفع أبراج للمراقبة فيها الشرفات تظهر أثر الحضارة الايرانية ، وتشق السور أبواب ضخمة عدة (غوبورا) ؛ وإن نحن صدقنا مغستين فقد حوت عاصمة اشوكا (٥٧٠) برجاً و (٦٤) باباً ! وتؤلف هذه الأبواب أبنية بكل ما في الكلمة من حقيقة إذ لها أساس من الآجر وينتصب عليها طابقان او ثلاثة طوابق أعدوا فيها منازل ومكاتب لضريبة المرور واهراءات.وأمام الغوبورا يرتفع جسر فوق حفرة السور ويتصل عادة برواق يكونه عمودان تصل قمتها قطعة او عدة قطع من الخشب .

ويضاهي القصر الملكي أو الامبراطوري ، كما يقال ، قصور اكبتان او سوزة عظمة ، إذ ان آثار قصر اشوكا التي عثروا عليها في باتليبترا تظهر تشابهاً مع قصر داريوس في برسبوليس. ولكن لا بد من القول بأن الهندسة هي من وحي هندي اذ دقائق التزيين والتجميل ، كتيجان العمد مثلاً ، تثبت فقط فناً أجنبياً . ومبدأ هندسة هذا العصر هو اقامة بناء محكم الاجزاء . وتتألف غالباً الأبنية من طابقين ، وتسقف على شكل قبة أو مهد . ويحيط بالخروق – أبواباً كانت أم نوافذ ام كوى – سهم على شكل معدل القوس ، تصل الى داخلها أخشاب تحمل طنفاً بصورة مهد. وتسند هذه المجموعة شبكة من الاخشاب ركزوها على عمودين أقاموهما على جانبي المدخل. وللطوابق شرف . وتحيط بالقصر الملكي جنائن للترفيه جمعوا فيها العصافير وأقاموا فيها الأحواض لتربية السمك . ومحافظة على سلامة وأمن الامبراطور فقد أعدوا داخل القصر دهاليز وأروقة أرضية .

وبيوت القرى هي دون شك أقل عظمة ، تتألف من بناء مستطيل ذي طابق واحد من السياج ، ولا يقيمون له إلا باباً واحداً وكوة . وسقف هذه البيوت من القش يكون منحنياً أو على شكل مهد . ولأبواب القرية والابنية التي تضم غرف الفيلة سقف منحن يحتوي على قطع من الآجر لم يحسن شيها ، وهي كبيرة الحجم (حوالي ٠٫٣٠ × ٠٫١٨) وتكون أكثر سماكة على أحد أطرافها .

ويوجد نوع من المساكن للنساك والزهاد ، وهي عبارة عن أكواخ من القصب أو الطين تغطيها الأوراق وتنفرد وسط الغابة أو الحقول . وبعض هذه الاكواخ هو أحسن صنعاً ، يبنونها دون شك من الطين ويعلو سقفها الذي يكون على شكل قبة وعاء أعد لجمع مياه الامطار .

وكانت المعابد في أول الامر دون شك حقلا يحيط به حاجز من خشب (فديكا) ويحتوي على

شجرة ووثد أو حجر مقدس . ولم تتسع كثيراً الهياكل الاولى . وعندما بدأوا يستعملون المواد الصلبة للبناء ، حوالي القرن الثاني ق . م . كانوا قد قضوا دون شك فترة طويلة من الزمن لم يلجأوا فيها إلا الى الخشب . واستعملوا حجارة صخرية وقد جوفوها ونقشوا عليها نقوشاً ساعين جهدهم لإظهار دقائق مجموعة الاخشاب التي تشد الى بعضها بعضاً وتساعد العملة عند تشييد الابنية . ومنذ هذا الوقت أيضاً أخذوا يبنون معابد ضخمة ، تدعى ستوبا ، تعيد ، بالحجارة والآجر ، شكل التومولي القديمة . وتتكون هذه الآثار من قبة نصف دائرية تستند الى أسس قليلة السماكة ويعلوها سطح صغير مرتفع ترتكز عليه مظال عدة . ويحيط بهذا المبنى درابزون يضعون فيه خرقاً أو اربعة خروق بشكل ملتو لكل منها باب (تورنا) . وترتقي أجمل أمثلة هذه الستوبا الى القرنين اللذين سبقا العهد المسيحي وهي تقوم في بهرهوت وسانشي .

وهناك نوع آخر من المعابد، خاصة معبد بودهغايا ، من اجل موجوداتها الشجرة المقدسة التي تحت ظلالها هبط الوحي على بوذا شكيمن . ولا نملك الا اشكالاً لبيوت العبادة هذه إذ يرتقي المعبد الحالي الى زمن لاحق جداً . وهو يبدو ، كما تظهر معابد اخرى تحضن نار ذاك العهد الطقسية ، مستدير الشكل ، اي عبارة عن فسحة ذات أعمدة يعلوها سقف على هيئة مهد وتحيط بالشجرة .

وباستثناء الستوبا فانهم لا يتقيدون لتشييد المعابد بالمبادىء الهندسية ذاتها التي اتبعوهسا في الأبنية المدنية .

وتطور أثاث هذه المعابد ففاق عظمة أثاث هياكل الطور الفيدي وقد أطنبت الآثار الأدبية بوصفه ، ولكن لا يبدو بأن أصناف الموجودات قد تغيرت كثيراً ، اذ تقوم أساساً على الأرائك والعروش والأسرّة والمقاعد . وهناك أوصاف زاهية لأواني الطبخ والمائدة . ان الاجناس متنوعة فمنها ما هو مخصص للأغراض الطقسية كالأواني النجلاء (الكومبها) النحاسية، والأواني ذوات القوائم والعنق (بورنا كلشا) ، والأباريق (كونديكا) والاواني لماء النساك (كمندالو) ... وكلها أوان ستكتسب أهمية كبرى في المعتقد البوذي . وللملاعق ايضاً غاية طقسية اذ تستعمل في تقديم الذبيحة البراهمانية . وللأكل يلجأون الى القصاع دون الصحون اذ عليهم ان يرموها بعد استعمالها ويستبدلونها بأوراق . وعندهم للشراب قنانٍ وقوارير – يحملونها في شباك – وأقداح وكؤوس . ويغربلون الحبوب بواسطة مذار مستطيلة (شوربا) ثم يسحقونها في أجران بدقة خشبية ، ويصنعون عجناً للحلوى يسوّونها بمطامة على اخشاب تستند الى الارض بواسطة أربع قواعد قصيرة المدى . وهناك طباق وسلال من القش تتمم هذا الأثاث ؛ ويمكننا ان نضيف اليه الشماعد والقناديل وعدداً كبيراً من العلب والصناديق الصغيرة (المعدة لحفظ الأفاويه والطيوب والحلى والثياب والذخائر) والمرايا المصنوعة من قرص معدني مصقول مثبت الى مقبض غالباً ما يكون من العاج . ويجب ايضاً تعداد المذبات والمظال والاعلام التي ترافق العاهل في حله وترحاله

والتي تستعمل في تقديم بعض الذبائح . وللمظـال مقبض طويل من الخيزران تنطلق من قمته قطع صغيرة تحفظ المظلة مفتوحة . وتتكون الاعلام من مقبض قد تؤلفه مراراً مجموعة من العصي تربط هنا وهناك . ويعلو هذا المقبض رمز وتشد اليه خرقة طويلة نقشت عليهما مراراً اشكال شمسية وقمرية او نجمية . وللتسلية يصنعون ألعاباً من الزهر بواسطة أثمار مجففة او قطع خشب او عاج. وللموسيقى اخيراً مقام ممتاز ان كان في التطوافات الملكية والغدوات الحربية وأعيـــاد القصور والهياكل . وتتألف المجموعات الموسيقية من النسـاء — للرقص — والرجال . ويحمل أفراد هذه المجموعات طبولاً مختلفة الاحجام والاشكال ينقرون عليها بمخاصر مستقيمة او معكوفة مشدودة الى معانق . وترافق الأناشيد التي يدعمها نقر الدف أنغام المزمار والعود . وسيبقى العود ، وقد استعملته النسـاء خاصة ، الآلة المفضلة عند الفئة النبيلة وذلك حتى القرن السابع تقريباً .

وللأسلحة مركز مرموق في هذا التعداد الذي يعكس خاصة حياة النبلاء ـ المحاربين اذن ـ أكثر من حياة العوام . والسلاح الأساسي هو القوس ، ترافقها طبعاً النبال والأتراس . وعندمـا يوترون القوس يرفعونها الى مستوى الكتف ويشدون الوتر حتى الأذن . والنبـــال ذات رأس مثلث الزوايا قد يريشونها أو لا ؛ وتوضع داخل جعبة يحملونها على ظهرهم دون ان نعرف شكلها اذ لا يظهر إلا أعلاها . ومن أسلحتهم « البيضـاء » الحسام والسيف يضعونها في غمد تغطيه قدد من جلد متشابكة . وتعلو رمانة السيف قطعة تفصل بينها وبين النصل وتزيد عنه قليلاً . وتبدو الشفار الحادة التي عثروا عليها ، خاصة السكاكين ، منفوخة في وسطها . ويجب عند جرد الاسلحة ذكر الحراب ذات الرأس المتناسق . ومن أصنـــاف الأدوات نعرف الفؤوس ذوات المقبض والمناجل لقطع الاعشاب . ويستعمل البـاحثون عن العاج منشاراً يدوياً صغيراً . ويلجأ عادة سواس الفيلة الى نوع من السياط محددة الرأس كالكلاّب تنفصل اسنانه الحادة عن المقبض بشكل شبه عمودي . ولا نجد إلا اشكالاً قليلة للتروس ، وهي مستطيلة ، مستديرة في أعلاها ، مستقيمة الاضلاع في أسفلها نقشوا عليها رسوماً للتزيين او تحمل قدداً متشابكة على جهتها الداخلية .

ويعد الفيل والحصان والجمل من حيوانات الركوب . ويقبضون على الفيل البري بواسطة فيلة قد دجنوها وأعدوها لهذه الغـاية . وقد يجمدون حركة الفيل لفترة ما بربط ذنبه الى خرطومه بواسطة حبل يمر تحت بطنه ، ويثبتون الخرطوم دون حركة بواسطة قطعة خشب تثبتها بدورها الربط . ويلبسون الحيوان لتزيينه عقداً وتاجاً ، ويغطون ظهره بطنفسة تحمل رسوماً هندسية يثبتها في مكانها حبل قوي يمر تحت البطن ، ويشدون الى قدميه الجلاجل ، ويلقون على عنقـه وشاحاً طويلاً يحمل في طرفيه جرسين يتدليـــان حتى ركبتي الحيوان الذي يصطدم بهما عندما يسير .

ويلقى على ظهر الحصان وشاح قــد يصل الى الذنب توضع عليه طنفسة كالبردعة ، وحزام مزدوج قــد يستعمل كربط ، ولكن لا يظهر أي أثر للركاب حتى ان استعمال الربط أمر نادر

ومشكوك فيه . وقد يظهر مراراً نوع من الغطاء على ركبتي الرجلين الأماميتين . ويحمل الرأس لجاماً تثبت فيه ريشة شبيهة بالمذبة وحكمتين تثبتان أيضاً برباطين يمر أحدهما على الناصية والآخر تحت العنق ، ورسناً و « سيراً للانف » وهو عبـــارة عن رباطين يمر أحدهما على قسم الرأس الممتد من الاذنين حتى الخيشوم والثاني تحت الذقن ، وشكيمة في الفم .

وفي الشمال يركبون الجمـــل أيضاً ، وتوصلاً لهذه الغاية يربطون حبلاً بقطعة صغيرة من الخشب توضع في أعلى الخيشوم ، كما يفعلون اليوم .

والحصان والثور هما من حيوانات الجر . ويجر الفرس عربة لها دولابان يذكّر شكلها عربة الرومان . ويشدون الى هذه العربة حصانين أو أربعة على كلا جانبي مجر العربة المعقوف الذي يحمل نيراً عمودياً ، وتربط الاذناب بكل دقة الى جوانب الحيوانات ؛ ويحثها على السير سوط من قدد الجلد المحبوكة والتي يربطونها مراراً بعصى . ويجر الثيران ، وقد زين جيدهم بعض المرار بعقد ثقيل ، عربات من دولابين ، وقـــد يلقون عليهم غطاء ويضعون على رقبتهم النير . أما الاحمـــال الخفيفة فينقلها الرجال على ظهورهم مستعملين قطعة خشبية مقعرة ثبت على جانبيها حبلان يحفظان التوازن .

ولا بد من الاشارة ، عنـــد ذكر وسائل النقل ، الى المراكب والسفن التي لا نملك عنها إلا رسوماً نادرة . وللمراكب كوثـــل معقوف ، ويرى المرء بوضوح الربط التي تشد قطع الخشب بعضها الى بعض : ويظهر بأنها كانت تدفع الى الامام بواسطة مجداف يعتبر كالمقدف الخلفي ودفة قصيرة على شكل الآلة التي تضرب بها الكرة الطائرة . ولبعض مراكب الأبهة جدران على شكل عقاب يستند اليها ضرب من السرادق ذي الأعمدة .

٢ — الحياة الاجتماعية

المصـــادر

تحتفظ الزراعة بالمركز الاول في لائحة الاعمال الهندية ، ولكن تقدمت كثيراً مع هذه التجارة والصناعة حتى أصبحتا تؤلفان حقاً أساس ازدهار المملكة . فقـــد أحسنوا تنظيم التجارة أكثر من العهود السابقة ، وألـّف التجار نقابات وخضعوا لقوانين وضعت بكل عناية . وهناك مراقبة على الاثمان والموازين والمكاييل . ونظموا أيضاً أمور القوافـــل وفرضوا عليها دفع ضرائب ومكوس . وهي تتألف من عـــدد كبير من العربات يقودها ادلاء لاختراق الصحاري وترافقها الاطواف لاجتياز الانهر . واشتد التبادل التجاري مع البـــلاد المجاورة كاستيراد الجلود والجرائر من آسيا الوسطى والصين وتصدير الحلى والاسلحة والافاويه . وازدهرت ايضاً التجارة البحرية في البحار او على الطرق النهرية . وألحقوا هذه التجارة بشؤون بحرية الدولة التي تقرر المـــلاحة وتعد المراحل وتراقب المرافىء وتدافع عن الشواطىء ضد القراصنة . وتشمل ايضاً الصناعة التي تغذي التجارة اعمال النسج وتصنيع المعادن .

والصيد هو تسلية كبرى عنـــد العظماء وأداة كسب القوت عند صغار القوم . وللوسمه عز وعظمة عند الملك والنبلاء الذين يذهبون الى جولات شاسعة ترافقهم نساؤهم وزرافات خدمهم ، ويتقدمهم رجال الموسيقى حاملين الدفوف والصنوج ، وينتظمون مواكب مواكب على صهوات الاحصنة أو ظهور الفيـــلة او العربات يحيط بهم حراس مدججون بالسلاح . وتجنى من الحرب عندما تكون مظفرة فوائد كبرى ، وقد أتوا على وصفها أكثر فأكثر . ويستلم القيـــادة فيها رجال الكشتريا والملـك بالذات اذ هو محارب لا بـــل مبدئياً المقاتل الاول . ويتألف الجيش من المشاة وفرق الخيـالة ومجموعات من الفيلة والعربات . ويكون الجنود من المرتزقة أو مـن الرجال الذين يدعون للسلاح في الوقت المناسب . وهناك فرق مختصة للهجمات في الجبـــال أو الغابات. ويشمل فن الحروب ، في ما يشمل ، علم بنـــاء الحصون الذي يفرض معلومات مختلفة ومتعددة .

وتكون الضرائب اخيراً مورداً خصباً يقررونها حسب معدل محدد وتستعمل للقيام بنفقات الملك والوزراء والموظفين والجيش والأرامل والبؤساء . وتضـاف هذه الضرائب الى الارباح التي يجنيها الملك من أملاكه التي تتكون من أراض زراعية وغابات ومناجم ومصـــانع وسجون . وينفقون ايضاً هذه الضرائب على الاشغال العمومية التي تهتم بالطرق وقنوات الري والخزانات الخ. ويستفيد البراهمة ايضاً من الضرائب ، وفي البلاد التي اعتنقت البوذية ، الرهبان الذين يعطون علاوة على ذلك التقادم والهبات. ويخصص الملك – وله وحده الحق بسك النقود – مبالغ كبيرة لتأسيس أماكن دينية ويهبها ملكية الاراضي الزراعية ويعين لهـــا الأشخاص الذين يتطلبهم استثمارها . ويحذو حذوه النبلاء والتجار الأثرياء اذ يعدون من اعمال الرحمة والعبادة الهبات التي يقدمونها بصورة مستمرة لرجال الكهنوت .

المجتمـــع

ان المجتمع هو اكثر تنوعاً وأحسن تقسيماً من مجتمع العهود السابقة ، مع أن التجزئة الطبقية لم تصبح بعد أمراً مؤكداً وهي تختلف باختلاف المنـــاطق والمعتقدات السائدة . ويظهر عدد كبير من الوظائف في الحاشية الملكيـــة او الأوساط البوذية ، لم يأتوا على ذكرها سابقاً .

ومع ان رجال الكهنوت هم منافسون أشداء للملك وسلطته ، يبقى العاهل الشخصية الاولى في السلم الاجتماعي . وينتخبه مبدئيـــاً النبلاء والشعب استناداً الى فضـــائله او بعض العوامل الخصوصية ، ولكن غدا عملياً انتقال السلطة الملكية أمراً وراثياً . ويمسح ملكاً باحتفال مهيب ترافقه زوجته الملكة ، ويكون هذا التكريس برش الملك بالمـــاء (ابهيشكا) يقوم به الكاهن المحتفل وكبار البراهمة والكهنة وجمهور الحاضرين . وتمشياً مع تقاليد العهد السابق يقدم الملك (ان كانت له المقدرة المالية) ذبيحة الحصـــان ، وهذه الذبيحة تثبت سلطانه . وللملك منازل عدة ، حتى في عاصمته ، ولا يقضي قط ليلتين في الغرفة نفسها . ويوقظونه من النوم كل

صباح في ساعة محددة وعلى أنغـــام الموسيقى ، ثم يأتي حالاً كاهن القصر ليسدي له التحية ، ثم يستمع الملك الى تقـــارير وزرائه ويأتي الى قصر العـدل . وبعد ذلك يستحم ويـــدلك ويتناول طعامه .

وبعد ان يتم العاهل واجباته الدينية يستقبل مراقبي الدولة ورجـــال الاستخبارات . وبعدئذ يحق له اللهو والتسلية ، فيقوم ببعض الالعاب (رمي القوس ، لعبة الزهر الخ) ويتنزه في حدائق القصر ويستعرض الفيلة والخيالة . ولكن يجب ان يطلعوه دوماً على أمور الدولة ان كان على مائدة الطعام او وجد في دار الحريم، او في غرفته، او في مزارعه ، او في العربة ، او في حدائقه . وللعاهل الحق في التقرير اينما كان ، ويجب ان تنفذ اوامره بسرعة كلية حتى ولو كانت شفوية . واخيراً يحتفل بطقوس غروب الشمس ، ويستحم ويتناول طعـامه ثم يختلي في جناحه ترافقه انغام الموسيقى . ويعتنون اعتناء دقيقاً بكل ما يمت الى شخص الملك ؛ ويربون في القصر ببغاوات وطواويس وبطاطا لتكشف بأصواتها عن وجود حيات سامة ، كما يعتنون بالمعوس لقتل هذه الزحافات وهم يخضعون للتفتيش الادوات التي يلجأ اليها العاهل لاستعماله الخاص كما يراقبون الاطعمة التي تقدم له والادوية التي يقررونها له .

ويحيا الملك حياة بذخ وعظمة ، ولكنه يبقى بالدرجة الأولى مقاتلاً يشترك شخصياً بأعمال الحرب والصيد . وأساليب لهوه هي أساليب الرجولة تقوم على اعمال الصيد والمصارعة وألعاب اخرى مختلفة تشترك فيها غالباً معه نساء القصر . ولا يجب ان يصبح مطلق الصلاحية مستبداً ، وهو يحكم المملكة يحيط به مستشاروه واصدقاؤه واقرباؤه ، ويأخذ بعين الاعتبار آراء رؤساء النقابات وفصائل رجال الامن . وتشدد النصوص كثيراً على صفته الملكية : فهو من اصل ديني ومحور العالم الانساني وصورة الآلهة على الارض وخاصة تجسيد رب الارباب، اندرا ، الذي يعيد على الارض بلاءه في الحروب وعدالته ، كما انه يتصل اتصالاً وثيقاً بالكوسموس ويعكس من ثم في هذا العالم افعاله وخصائصه .

ويستند تنظيم المملكة الاداري والسياسي الى سلسلة رتب شبيهة بزميلاتها في العهد الفيدي : مخاتير القرى فنواب المديرين فالمديرون فحكام المحافظات فنواب الملك فالوزراء . ويقوم هؤلاء الاخيرون بتسيير أمور الاشغال العامة والمسائل المالية والشؤون الداخلية ، ويحتكر الملك حق سك النقود . ويوجد مبعوثون ومراقب وحاكم يتجولون في فترات محدودة (كل ثلاث أو خمس سنوات) في مختلف أرجاء المملكة للمراقبة والتفتيش .

وتشتد وطأة المراقبة الملكية الدقيقة على كل شيء وفي كل مكان: في بيوت الحريم وفي الحقول حتى لدن المؤسسات الدينية . ويقوم بهذه المراقبة مفتشون ملكيون لا يخضعون إلا لسلطة الملك ويحققون العدالة استناداً الى أصول محاكمات موحدة . وللقضاء محاكم مختلفة يلحق بها قضـــاة اختصاصيون أنيطت بهم مهمة إحقاق الحق ومعاقبة الجرائم . ومع هذا فقد احتفظوا بمبـــدإ

العذاب الجسدي كالتعذيب وبتر الاعضاء . ويقررون السياسة الخارجية استناداً الى المعلومات التي يقف عليها الجواسيس ورجال الشرطة . وتصلح جميع الوسائل للاستفادة من ضعف العدو مما يدعو من ثم الى تقدير امكانياته تقديراً دقيقاً ، كما يصدق هذا القول عن الشعوب الحليفة . وهم يحبذون كثيراً تنمية واستمرار الشقاق بين الاعداء الذين يكونون قد تحالفوا معاً . ويعتبرون الخيانة ويعترفون بها وسيلة على نفس المستوى الذي ينظرون فيه الى قوى السلاح .

ان وضع وطرق حياة الكشتريا ، من نبلاء ومحاربين ، هي شبيهة جداً بوضع وطرق حياة الملك . وللكثيرين منهم وظائف مهمة جداً كقائد الجيش الذي تعيد حفلة استلامه السلطات ذكرى حفلات تتويج العاهل . ويتمتع أفراد الكشتريا بأفضل الامتيازات فهم يستطيعون تقديم الذبائح ودرس الفيدا وعليهم ان يجزلوا العطاء المستمر لرجال الكهنوت .

ويعتبر البراهمة غالباً أكثر قوة وأهمية من افراد الكشتريا وحتى من الملك نفسه . ومنذ العهد الفيدي ازداد سلطانهم وذلك بالاستناد الى معرفتهم فنون السحر الذي يسيطر على جميع أعمال الحياة الفردية والرسمية . وتزداد كثيراً ثروتهم للهبات التي يقدمها لهم باستمرار الملك ورجال الكشتريا والتجار . ويغدو أعظمهم سلطة كاهن الملك الخاص (بوروهيتا) وينتخبونه نسبة لمعرفته معرفة دقيقة جداً الفيدا والسحر والسياسة. ويلعب البراهمة في الدولة دوراً عظيماً إذ هم الذين يقومون بأفعال العبادة والطقوس ، ويصبحون من بطانة الملك الخاصة ، ويغدون له مستشارين . ويحترمهم الشعب ويرهبهم . وللنساك منهم ، رجالاً كانوا أم نساء ، الاحترام الأكبر ، وهم يقضون حياتهم في صوامع ويتبعون طرق عيش قشف .

وقد عاد نمو وازدهار التجارة بالغنى على فئة من التجار الذين ألفوا نقابات وانتدبوا رئيسهم ليمثلهم أمام الملك . وقد يصبحون من موظفي العاهل . ويتضح غناهم غالب الاحيان لكثرة وأهمية الهبات التي يقدمونها للأماكن المقدسة . ويتصل بهذه الفئة رجال المصارف الذين يملكون غالباً ثروة طائلة . ويؤلف عامة الشعب الفلاحون وكل الذين يرتزقون من تربية المواشي والصيد، والعمال والصناعيون. ولا بد من الاضافة الى هذه الجماعات المهرجين والمصارعين والمغنين والسحرة والأطباء . وقد امتدح مغستين مهارة رجال الطب الذين لا يستنكفون عن الاعتناء بالحيوانات ايضاً . ونجد في اسفل السلم الاجتماعي فئات عدة من الموظفين ورجال المهن : سكان الأدغال ، الغرباء ، الصيادين ، قاطعي الاعشاب ، سواقي العربات ، سواس الفيلة ، ساسة الخيول ، حاملي وحاملات المظال والمذبات والاعلام ، الجنود، الموسيقيين وأخيراً الذين يقومون بأعمال شاقة ، كالذين يفرشون البلاط في الحدائق ويحملون الأثقال الخ .

ومع الزمن وضعوا قواعد وقوانين لحياة الطبقات الرفيعة،وان هي لم تتبدل بصورة جوهرية. ومنذ هذا العهد قسموها أربع رتب تدخل في اطارها مختلف مراحل حياة الرجل. وينتقل أفراد هذه الفئات بصورة تدريجية من صفة طالب (براهماشارين) الى منزلة رب البيت (غريهستا)

الى رتبة زاهد (فانبرستا) واخيراً الى سلك ناسك او راهب (سميناسين). والبراهماشارين هو فعلاً خليفة الطالب الفيدي . وتستمر دراسته على أقل تقدير اثني عشر عاماً وقد تدوم ثمانيــة وأربعين عاماً ، وبصورة استثنائية ، الحياة كلها ! وليقبل الشاب في فئة البراهماشارين عليه ان يتقدم بطلب الى معلمه (غورو) ، وان يهديه اطعمة وتقــادم تعد لاضرام النــار المقدسة . ويستفسر الغورو اذ ذاك عن مولد واسرة الطالب . وان أسفرت تحرياته عن نتيجة حسنة يقبل الطالب اذ ذاك في بيته حيث يجتمع والحالة هذه اربعة او خمسة شباب . وتقــام الحفلة التي ترمز الى بدء عهد التلمذة وهي تشير الى ولادة البراهماشارين الروحية . ومنذ ذاك الحين تصبح حياته صعبة جداً ويلزم نفسه بفروض في غاية الشدة . ومن أسس المبادىء التي يخضع لهــا قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية . وفي كل حال عليه ان يطيع معلمه طاعة عمياء . وهو لا يلبس إلا رداء واحداً قاتماً مصنوعاً من جلد وعلى اسود ، ويبدأ يومه بالنهوض باكراً قبل معلمه، فيقدم واجب العبادة للشمس ويكرّس قلبه للآلهة ، ثم يذهب لتحية استاذه. وهو يستحم ثلاث مرات في اليوم ويأكل بعد معلمه طعاماً حددوه بكل دقة . ويقضي هذا الطالب نهاره واقفــاً وليله جالساً ، وهو لا يسعى لإيجاد ملجإ عندما تنهمر الامطار ولا يغطي رأسه عندمــا يشتد البرد ويجتاز الانهار سباحة . وعليه ان يحافظ على العفة بكل دقة ويتم بعض الاعمــال اليومية كاستجداء الطعام لمعلمه والعناية بنار التقادم وتنظيف المنزل والاعتناء بالماشية وزراعة الحقول . وهو يرافق الغورو في اسفاره ويساعده في اقامة الحفلات الطقسية . وتصبح علاقاته مع الغورو كعلاقات الابن مع ابيه . وعليه اخيراً أن يعكف على الدرس . وتختلف الدراسة تبعــاً للفئة الاجتماعية ، فان كان من البراهمة أعدوه ليصبح معلماً ، وان كان من افراد الكشتريا علموه استعمال القوس والسيف وحيل المصارعة والقتال وقيادة الفيل او العربة وركوب الخيل والقفز والسباحة . ويعلمونه ايضاً فنون الكتابة والرسم والتمثيل والطب . ويعدونــه ، ان انتمى الى طوائف البراهمة والكشتريا او الفيشيا ، ليصبح رب منزل ممتاز . وعلى كل حال عليه ان يحفظ عن ظهر قلبه الفيدا ويتمرن على حسن الالقاء . ومواد هذه الدراسة هي خاصة نصوص الريغفدا والياجوس والسامَن ، وعلوم اللفظ والطقوس والصدف والتفسير والقياس والفلك الخ . وطرق التعليم التي يتبعها الغورو لتدريس الطالب هذه المواد هي طريقة التعليم الديني اي القــاء السؤال وسماع الجواب . وعلى هذه الطريقة ان تقود الطالب الى مراقبة ذاتية دقيقة تميت فيه كل هوى وتسيره نحو السامتياسا او الى الــتأمل الروحي الذي يقتل فيه معنى الازدواجية ويقوده نحو اليوغا .

وتختلف مدة الدراسة عند البراهماشارين ، مع أنهم حددوها مبدئياً بثمانية أعوام ان كان الطالب من الكاشتريا ، واربعة فقط ان كان من البراهمة . ولكن لا ينتهي طور التثقيف هــذا على كل حــــال قبل ان يتم الطالب ربيعه السادس عشر . وعندما تنتهي سنو الدراسة يأخذ البراهماشارين حماماً طقسياً ويبدل ثيــابه كما كان يفعل قبلاً الطالب الفيدي . ويمنح البراهماشارين

رتبة جامعية تتناسب مع العلوم التي يكون قد اقتبسها في سني الدراسة ، ويهجر اذ ذاك معلمه مقدماً له الهدايا .

وحالما ينتهي الشاب من حالة البراهماشارين يعود الى أسرتــه حيث يستقبل بكل حفاوة وترحاب . ويكرمون وفادته ابنا حل ويعلنون بأنه أصبح اهلاً للزواج . ويمكنه مع هذا ان يمدد سني تثقيفه ليصبح رب منزل (غريهستا) ممتاز . ولبلوغ هذا الهدف عليه ان يتابع تعاليم اختصاصيين مشهورين وأدباء مشهود لهم يتجولون دوماً في انحاء البلاد . وباستطاعته ان يذهب الى جامعات مختلفة (أشراما) حيث يلقن الفن والأدب وأصول تجميل الجسم وعــلم الحيوان والطبيعة والهندسة الخ ، وبامكانــه ان يشارك في مجادلات الاكاديميات التي تجتمع في مختلف المحافظات ، ويحضر المؤتمرات التي يدعو اليها الملك والتي تفتح له أبحاثها وتبادل الآراء فيها آفاقاً أوسع على ثقافته الفلسفية والطقسية .

وبعــد ان يصبح غريهستا عليه ان يؤسس اسرة ويتخذ زوجة تنتمي الى فئته الاجتماعية . وعليه ان يقوم بالطقوس الخــاصة ، ويمتاش من مهنته ، ويكون مثالاً للتقوى وضبط النفس . وتخضع حياته كلها للمقررات الطقسية التي لا حصر لهـا والتي تعنى بأدق الاعمال اليومية وأقل ظروف الحياة شأناً . وهو الذي يربح أود اسرته ويعــد طعامه ويرحب بالشحاذين ، ويقدم الهبات ويداوم كل صباح على درس الفيدا .

ولا يعتبرون الغريهستا رجلاً كاملاً الا اذا اتخذ له زوجة . ولكن لهذه الزوجة منزلة اجتماعية أقل امتيازات من زميلتها في العهود الفيدية . ومع هذه يقبلونها في «الاشراما» حيث تتلقى ثقافة عالية تكون موادها الرقص والغناء والفلسفة . وهي تخضع الخضوع الكلي لزوجها ، أو بحالة موته ، لابنها البكر ، وان هي ساهمت مع هذا كلياً بحياة الاسرة واحتفظت كأم بمركز مرموق (حتى غدا لها في هــذا المضمار الاحترام الذي أبدوه للوالدة الإلهية او الآلهة الكبرى) . ومع انها تشارك في الطقوس اليومية وتبقى موضوع احترام عميق فهي لا تشترك قط في إقامة الذبائح الكبرى . ويحرم عليها بصورة جازمة أن تعقد زواجاً آخر ان ترملت ، اذ ان الزواج سر لا يجوز هتكه . ولا تستنكف الزوجات الأكثر صلاحاً من حرق أنفسهن على كومة الحطب المعدة لحرق جثة الزوج . ونجد في كتب الادب امثلة على نساء قد تكون على طرفي نقيض، وخير مثال للمرأة هو « سيتا » زوجة « راما » في الرامايانا التي تصبح مثلاً للسعادة الزوجية لأمانتها وجمالها وطهارتها وصفاتها العائلية . ولكن هناك تلميحات عدة تصور لنا المرأة شخصاً فاسقاً أصلاً وسيء الاخلاق ومحباً للمشاجرة وغير صادق لا يؤمن شره وتصعب قيادته . لذا ينصحون الزوج ليبقى «على حذر من زوجه » . ولكن يجب دوماً مساعدة الزوجة حتى ولو تركت البيت الزوجي .

وينتقل المرء الى حالة ثالثة عندما يشعر باقتراب الشيخوخة اعني حالة الزاهد . فهو ينفرد إذ ذاك في الغابة ، وتستطيع زوجه اللحاق به . ويسكن في منسك يجاور نبع ماء ، ويكون

عبارة عن اكواخ من الاغصان او بيوت حقيرة من القش . وتخصص احدى الغرف لنار الذبيحة التي يكون الفانبرستا قد حملها من بيته عندما غادره . ويرتدي ثوباً من قشر الشجر تكون خيوطه قد اتخذت من ضغط قشرة بين حجرين . ويرخي شعر رأسه ويقتات من الثمار والجذور ويضيف جميع من ينزلون على الصومعة دون النظر الى فئتهم الاجتماعية . وهو يعيش بين عصافير وحيوانات الغابة يقيتها ويعتني بها . ويقوم عمله الاساسي بايجاد الحطب لابقاء نار الذبيحة ملتهبة . وهو يرزم قطع الحطب هذه رزماً ويحملها الى الصومعة يغذي بها النار التي يقيم عليها الطقوس المقررة بواسطة ملاعق مختلفة الاشكال والاحجام . وعليه ان يحافظ على عفة دقيقة ، لذا فهو يحيا من جديد بعض مظاهر حيـــاة البراهماشارين ، ويستحم ثلاث مرات في اليوم ، ويفترش التراب وينهك جسده بالتقشف ، ويطالع الفيدا ويتأمل بمحتوياتها .

واسمى مرتبة يصل اليها الانسان هي السميناسين ، اذ يصبح ناسكاً متجولاً وشحاذاً . وهو يتبوأ اذ ذاك أعلى المراتب واكثرها احتراماً . وهو يقر بذنوبه جهراً ويستوعب مبدئياً المعلومات الأكثر دقة وعمقاً عن الفيدا والسحر والطب واساليب النسك .

وفي هذا العصر غدا سهلاً على الفئات الشعبية ان تساهم في اعمال العبادة . ولكن لن يعم هذا المبدأ ويبلغ الذروة إلا في العهد اللاحق . وتتبدل افعال العبـــادة الخصوصية اذ تحل السمدهيا محل عبادة النار ، وهي تقوم على عبادة الشمس عند شروقها ، واعمال تطهير متنوعة ، وتمارين تنفسية ترافقها التأملات . وتحتفظ تقادم الانواع النباتية بمركزها المرموق .

والارز هو اساس المواد الغذائيـــة . وسيحرم اكثر فأكثر أكل اللحم ، وكان مادة غذاء في العهد الفيدي ، خاصة في الاوساط البوذية : فقد لاحظ اليونان بأن الهنود لا يتنـــاولون اللحم ، وحرّم أشوكا ذبح الحيوانات في الطقوس وقتل الماشية . اما الارز ، فهو على قول اليونان ، عماد الغذاء . ولا يبدو بأنهم قد حرّموا شرب الكحول ، ولكن من الممكن ان يكون تعاطيها قد حصر ضمن النطاق الطقسي . ويبقى الارز في هذا المجال الأساس ايضاً .

الثياب والحلى

ان الجماعة التي سبق لمغستين وعدّدها ستظهر بعد فترة قليلة على النقوش النافرة . وباستطاعة المرء ان يتحقق بسهولة عن تقدم وتطور فن الحياكة والصباغـة . وتبدو منوعات عدة من الثياب والحلى ، تبعاً للفئات والوظائف . والاقمشة الاكثر تداولاً هي من القطن والحرير . وقد استرعت نعومتها المؤلفين اليونان فامتدحوا صفات الثياب الموصلية . اما الثياب الحريرية فهي شفافة ولينة وخفيفة الوزن جداً . والالوان كثيرة العدد ايضـــاً . وتأتي أشهر هذه الاقمشة الحريرية من الصين وبناريس .

ويرتدي الملك وأفراد الكشتريا قطعتين من القماش : تلف الاولى حول العنق وتتدلى حتى الكتفين (اوتّاريّا) ، وتربط الثـــانية حول الوركين وتمر بين الفخذين لترتفع الى الظهر حيث تثبت بواسطة زنار . وفي ذاك الزمن القديم استطال الثوب السفلي (حتى وصل الى الكعبيــن)

وتركوا فيه طيات ملتوية . ويحذو الموظفون الكبار وذوو المقام الرفيع والوزراء حذو العاهل او الامبراطور فيلفون حول رأسهم وشاحاً طويلاً يعطونه شكل العمامة . وللعمامة اشكال مختلفة جداً تحمل عقدة كبيرة على قمة الرأس او على الجـانب . ويحتذي الملك في بعض الظروف نعلاً يكون عادة من قطعة جلدية او خشبية ثبتت عليها قدة تمر فيها الرّجل .

ويرتدي الخيالة والحراس والصيادون وسواس الفيلة والعربات الخ .. غلالة ضيقة ذات اكمام قصيرة او طويلة تحمي صدرهم ضد الجروح التي تصبح من صميم وظيفتهم . وقد يكون لهـذه الغلالة ، علاوة عن الهدف التي اتخذوها لأجله ، اصل غربي تبنوها في الهند كما كانوا قد اقروها في ايران . ويضيفون الى هذه الغلالة ضرباً من التنانير المسننة او ذات الطيات والتي تستقر عند الركبة ، او من انتاريا قصيرة . وهذا هو زي الجنود ايضاً الذين يبقون مراراً نصفهم الاعلى مكشوفاً ، ويلفون حوله مع هذا حبلاً ، وقد استمر الشبراسي على هذه الحـالة حتى الفترة المعاصرة . وهذا هو زي « الغرباء » ايضاً : وهم غالباً سكان المنـاطق الشمالية والغربية حيث اهاب بهم المناخ وتأثير الوسط الايراني على لبس زي آخر يكون اكـثر حرارة . فهم يرتدون ثوباً اطول ، ونوعاً من السراويل ونعالاً تشدها الربط الى الساق ، وقبعة مخروطية الشكل تعيد الى الذهن لباس الرأس « السيتي » .

ويكتفي الفلاحون وسكان الغابات بوزرة بسيطة من القماش او الاوراق . امـا النساك فيستعملون جلد الوعل او نسيج قشور الشجر (فلكالا) . ويبقى الزهاد عراة (ديغمبارا) او يكتفون بوزرة صغيرة جداً . وهم يجدلون شعر رؤوسهم الطويل على اشكال مختلفة ويبقون بعض المرار على لحاهم . ويرتدي الرهبان الشحاذون ثياباً رثة يخيطون بعضهـا فوق بعض على شكل معطف . اما رهبان المدن فيرتدن ثوباً (كشايا) صبغ باللون الأحمر . ولا يدعون وبراً على ابدانهم كما يحلقون رؤوسهم .

ويتألف زي النسـاء من وشاح وتنورة خفيفة جـداً . ويضعن على رؤوسهن عمامة كثيفة يعطونها شكلاً يخالف شكل عمامة الرجال او حجاباً يغطي الشعر بكامله ويتـدلى الى الظهر . وشعر النساء كثيف وطويل جداً وهن يصففنه ضفائر ضفائر او يعقدنه عقداً تتخللها الازهار . ويضع سكان الغابات على رؤوسهم ضرباً من التيجـان ذات الريش (؟) ويقصون شعرهم حتى الكتف . اما النساء المتقشفات فيضعن على رؤوسهن ما يضعه الرجال المتقشفون .

ويبقى الأولاد عندما يكونون صغار السن عراة او يضعون وزرة ضيقة . اما الصبيـان والصبايا فيرتدي كل منهم ثياب جنسه كما يفعل الفتيان والفتيات . ولكن يضع الصبيان مع هذا عمامة خصوصية لها ريشة او شرابة تستوي على قمة الرأس ، كما سيفعل لاحقاً ممثلو بالا كريشنا.

وتكمل هذا الزي اشياء عدة للزينة مصنوعة من الذهب او الفضة او العـاج او الصدف او قرون الحيوانات او الحجارة الملونة . ويتزين الرجال كالنساء ، ولا نجد فرقاً كبيراً بين ادوات

تبرج هؤلاء واولئك . وهم يضعون عادة عقدين ، ويكون احدهما ، وهو الاقرب الى العنق ، مستدير الشكل ، بينما يتهدل الآخر على الصدر .

ويحتوي عادة العقد الأول عامل زخرفة من الزهر ويربط الى الظهر بسلكين معقودين ينتهي كل منهما ببلوطة مذهبة . ويتألف الآخر من سلاسل عدة ثبتت الواحدة بجانب الأخرى بواسطة قطع على شكل قلانس فاصلة عثروا على أمثلة منها في الحفر التي اجروها سنة ١٩٥٠ في موتربالبون (مقاطعة بونديشيري) . ولدينا مجموعة كبرى من هذه العقود والقطع يتوافق بعض منها مع ما استعملوه لتزيين الثيران والجمال والأحصنة .

ويضع الرجال على سواعدهم بعض الاشياء وهي تتألف من حلقة تحمل سمفة صغيرة تظهر على أعلى الذراع . ويلجأون أيضاً الى اساور تكون بعض المرار ضرباً من الاكمام الصغيرة فتتألف من جواهر تتعاقب مع حلقات حلزونية الشكل او مفرضة . ويضع الرجال كذلك اقراطاً في آذانهم مربعة الشكل او على هيئة «قبقاب» تلتف حولها شحمات الاذنين الممددة. ويغرز سكان الادغال في شحمة آذانهم القصيرة قطعة من العظم او الخشب او العاج. وقد تلاقي هنا وهناك بعض الخواتم في اصابع الرجال. ولا نجد حلقات في اكعاب الارجل إلا بصورة استثنائية كلية .

ولا تزيد كثيراً اغراض الزينة النسائية عن التي تقدم ذكرها : اذ نجد علاوة على ما سلف زنانير للمناكب وعقوداً وحلقات لكعب الرجل قد تكون كبيرة جداً . وكثيراً ما تحمل العقود على الدهشة اذ تتدلى حتى السرة وتتألف من مواد عدة تغدو بعض منها رمزية دون شك . وتكون حلقات واساور الكعب على شكل حلزوني تلتف حول العضو كما لو كانت آلة لولبية . وتضاف بعض المرار الى هذا « الكم » او ذاك « الحذاء » حلقة كبيرة . وتتألف زنانير المناكب من مجموعة حجارة كريمة او مواد مذهبة يمر فوقها زنار من القماش يعقد الى الجهة الامامية وقد يتدلى أيضاً الى هذه الناحية قسم من اسلاك الحجارة الكريمة .

ويحمل الاولاد عقداً نشاهد عليه براثن حيوانية ، وهي كتميمة ضد المؤثرات الشريرة .

٣ — الديانات

يتميز العهد الذي يهمنا الآن بعاملين اساسيين : تحوير الديانة الفيدية (انظر وجه ..) التي تعرف من الآن وصاعداً باسم الديانة البراهمانية ، وتطور البوذية التي تصبح قوانينها محددة المعالم. ومن مميزات هذا العصر ايضاً استعمال الكتابة التي نعثر على اقدم أمثلتها المؤرخة في كتابات اشوكا الحجرية . وقد لعب دون شك هذا الاستعمال دوراً عظيماً في تكوين المجموعة الأدبية الكبرى التي تم تأليفها ما بين القرن الربع ق . م . والقرن الثاني المسيحي . وترتقي قوانين « مانو » الى حوالي القرن الأول ق . م . اما فيما يختص بالبوذية فاننا نستطيع ان ننسب الى هذا العهد ايضاً اقدم كتابات قانون بالي (حوالي القرن الثاني ق . م .) والنص النهائي للجاتكا (القرن الأول المسيحي) .

وتتسلسل الديانة البراهمانية من المعتقد الفيدي بشكل يصعب ملاحظته ، ولكنهما مع هذا تختلف عنه روحاً . فعوضاً عن التقيد بأساليب الفيدية الطقسية الدقيقة تعتمد البراهمانية على الاختبار الروحي . ورويداً رويداً تحل اعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة . ومن الطبيعي ان يسدي هذا التطور على الآلهة الكبرى شخصية تتحدد معالمها اكثر فأكثر مع الزمن، وتتولد منه عقيدة عبادة الصور . ان الصفة الطبيعية للمعتقد الفيدي الذي دعا الى عبادة قوى الكون معطياً إياها اسماء دينية لا تزال تهيمن على الآلهة ، ولكنها لم تعد تصلح فعلاً إلا لوصف الخصائص الميثولوجية لكل من هذه الآلهة . وقد عادت الى الظهور تقاليد شعبية عدة كانت الفيدية قد أهملتها، ويشهد المرء اذ ذاك انتشار عبادات محلية لا عد لها وتكوين مبدأ عبادة الصور التي ستتبلور اكثر فأكثر ، إذ ستنقسم الآلهة فئات فئات وتتخذ اكبرها اشكالاً فردية محددة . وسيوجهون ايضاً المعتقدات والطقوس لخدمة اهل المذهب . ومع هذا ستظهر رغبة توحيدية تلحق الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى وتعبر عن تطور حقيقي نحو الوحدة، اذ امام عدد المعتقدات والعبادات التي لا حصر لها غدا من الضروري ان تستوعب الديانة الرسمية الأماني الشعبية : فالتأكيد بوجود وحدة اساسية بين الآلهة كان السبيل المناسب الوحيد ، وعلى كل لم يكن هذا النهج غريباً عن النفسية الهندية .

وهكذا احتفظ الزون بالآلهة الفيدية الكبرى ، واقتبل عدداً وافراً من الآلهة الثانوية ، ولكنه أشار الى الفروق التي تفصلها . وتصبح آلهة فيدية عدة في المرتبة الثانية كالفجر والسماء والارض والشمس وبوشان وميترا وفرونا الخ ... في حين ترتقي آلهة اخرى الى المركز الاولي : اندرا ، ملك الآلهة ، فيشنو وشيفا . ويتحول موضوع الذبيحة الفيدية القديم ، براهمان ، الى الإله براهما وان لم تبلغ شخصيته المركز « الانساني » الذي احتلته الآلهة الاخرى الكبيرة . ويغدو الإله ، البطل ، كريشنا ، التجسيد الاكبر لفيشنو ، وقد كان الموضوع الاساسي لقصيدة بهاغافاد – جيتا الروحية . وتضاف الى هذه الآلهة الرئيسية الآلهة الفيدية المذكورة أعلاه : القمر ، السيارات ، النجوم ، النار (أغني) ، إله الموت (ياما) ، إلهة الغنى (كوبرا) والحب (كاما) والحرب (سكندا) ، الإله – الفيل (غنيشا) ، الربات التي ستعظم أهميتها مع الزمن ، جيش من الأرواح والشياطين كالاسورا التي تمت الى اصل فيدي ، والناجا (الحيات) واليكشا والغندهرفا (الموسيقيون السماويون) والابسرا (الراقصات ، زوجات الغندهرفا) وربات القرى والامراض الخ . وقد ألهت ايضاً الحيوانات – خاصة البقرة والحصان والحيات – والنباتات والاشجار ومياه المحيط .

والميثولوجيا معقدة وغنية بالروايات المختلفة ، خاصة القصص التي تمت الى فيشنو اذ يعادلون به بعض الآلهة الثانوية بشكل « تجسد » على الارض (افتارا) . وقد أحدثت عبادته ، كما أحدثت عبادة شيفا ، ازدهاراً دينياً يثير الاعجاب في الاوساط الشعبية والاوساط الفلسفية على

السواء . وفي العهد الذي يستوقفنا هنا تظهر صفته الشمسية على شيء من الوضوح . ويلاحظون منذ هذا التاريخ اتجاهاً لجمعه مع شيفا وبراهما في ثلاثي ، التريورتي ، الذي سيهيمن على الديانة البراهمانية في وقت لاحق .

وتعيش الآلهة كما يحيـــا الانسان وهي شبيهة به . وهي تحتفظ بمظهر الصبا ، متى بلغت اشدها ، باستثناء كريشنا الذي يعتبر كصبي صغير . ولها مزايا الجمال وستخلد حتى انتهاء هـذا العالم . وهي تتميز بما يرافقها من حيوانات معينة تصبح كمطية لها (فاهنا) وبما لهـا من صفات ذات مغزى رمزي . ومن العبث القول إن قدرة هذه الآلهة تفوق قدرة الانسان ، وهي تكبر او تصغر كما تريد ، وباستطاعتها ان تصبح غير منظورة او تظهر في الوقت نفسه في اماكن عدة الخ ؛ وهذه الآلهة عرضة للشوائب نفسها التي تكون للانسان ، وقد تجبر بعض المرار على طاعته .

ومن خلال القصص الميثولوجية والنصوص « اللاهوتية » يقف المرء على الاتجاه المزدوج الذي تتميز به الروح الهندية الى يومنا (انظر وجه ٥٤٥) فتارة حلولية مبهمة وطوراً سعي للتوحيد ، وسينتهي هـــذا السعي ، في القرون الوسطى والحديثة الى مبدإ وحدوي نستطيع ان ننعته بالتوحيد . وسيبرز عامل آخر مهم جداً سيكون له من الآن وصاعداً تأثير قوي : العبـــادة الروحية . وستتوجه هـذه العبادة الى آلهة شخصية كفيشنو وكريشنا ؛ وقد اوجدها الاندفاع الشعبي الذي يتصح في المهابهاراتا والاقبـــال على البوغا . وتعبر عنها نبرات شعرية زاهية ، خاصة اشعار بهاغافاد جيتا السبعمئة الموجوده في المهابهاراتا . وهي ستتبلور في عقيدة البهكيتي « الاشتراك في الالوهية » التي ستظهر حوالي القرن الثالث المسيحي بشكل تنظيمي عجيب .

وإزاء المشاكل الفيـــدية ، التي كانت نفعية فإن الطريق التي شقتها الاوبنيشاد والبراهمانا نحو المسائل الميتافيزيقية والنظرية قد وجهت الديانة البراهمانية نحو مبدإ التوحيد ونحو تجارب روحية تصبح مع الزمن اكثر عمقاً وتبلغ ذروتها في العهود اللاحقـــة . ولعلم « اللاهوت » الادبي مركز مرموق : فاللاعنف هو اساس التعليم الذي يهدف الى دستور حياة روحية وحيـــاة روحية طبقية . ومع ان تحاديد الالوهية قد اختلفت وتعددت يشعر المرء بأن هذا المبدأ غدا قوياً جداً يعطي نتائجه الكاملة ويصبح الهدف الذي يجب على كل فرد ان يصبو اليـه . وباستطاعة المرء ان يتبع طرقاً عدة للوصول الى الغـاية : معرفة الامور المقدسة ، التقشف ، العبـادة او فقط الجهد الروحي والفردي . وعلاقات الفرد مع الآلهة هي ايضاً محدودة بأشكال مختلفة جداً ، إذ تصبح النفس موضوع جدل لا يسبر له غور بين الطوائف والمدارس الفلسفية : فالنفس جوهر غـــير مخلوق ، او هي ذرة من الالوهية سجنت في الجسد وألقيت في خضم تيار الهجرات التي لا تعرف نهاية ، او هي مبدأ مادي غدا روحياً ... وهذه كلها نظريات تواقق بالاعتماد الى الفيـــادات الدقيقة صفات ودور الالوهية .

وفيما يظهر العلم الذي ينظر في غايات الوجود – والذي لم يطرأ عليه إلا تغيير طفيف منـذ

العهد الفيدي – بأن العامل الشعبي هو على تناقض مع هذه المعطيات الفلسفية، تسيطر مشكلة التقمص (سمسارا) التي أثارتها الاوبنيشاد على الديانة البراهمانية ، ويصبح الفعل (الكارمن) نقطة العقيدة الجوهرية. ولم يعد هذا العمل الطقسي كما كان في العهد الفيدي بل غدا الفعل «الذي يلد من الفكر والقول او الجسم». ويعتبرون الفعل كعامل لا يسبر له غور، يتسرب الى الكون بأسره، ويلاحق الانسان في مختلف مراحل تقمصاته وذلك رغم أنف الموت . وهو يكون حاضراً وقت الحمل ويبيح الاكثار منه الولادات المتتالية ولن يعدم إلا بعد طول الزمن إذ لا يستطيع الانسان ان يتخلص من مجموعة الكارمن إلا بمحاربته بالتكفير . وهذه النظرية جعلت الفكر الهندي يتأرجح بين التشاؤم الكلي وجمال الكارمن . وبصورة متوازية لعقيدة الكارمن فإن الايمان بالتناسخ قد تطور وغدت له أنظمته ؛ وهو يشبه دولاب الناعورة الذي يدور دون توقف ويكون من ثم مجموعة ولادات لا نهاية لها على المرء ان يتقبلها ليأتي على الكارمن متنقلا دون هوادة بين حالات النبات والصخر والحيوان والمرأة والرجل تبعاً للتقلبات التي تفرضها أعمال المرء الصالحة أو الطالحة ، دون ان يستفيد من ذكرى اختباراته السابقة .

وتختلف طرق الخلاص باختلاف المذاهب البراهمانية : فالعلم التقشفي ، والمعرفة الروحية ، والحب الروحي هي الطرق الرئيسية المعدة للخروج من هذا المأزق الذي يوصف بحق بالجهنمي .

وتكون هذه المبادىء التي عرضناها هنا بصورة مختصرة جداً المادة الاساسية للنظريات البراهمانية . ويضاف اليها اللجوء الى استعمال الطقوس الجماعية والفردية ، والى فاعلية الصلاه والابتهالات شبه السحرية والى التلفظ الطقسي بالكلمات المقدسة ، والى قوة الاشارات (مودرا و مستا) والعلامات الدينية ، هذا الاستعمال الذي أخذ ينتشر باردياد ، وتكتسب الصور والهياكل أهمية تصاعدية . ويبلغ التطور أشده في هذا العصر فننتقل من الشجرة والحجر المنتصب الى الصورة والبناء . وتصف النصوص الأدبية العظمة والفخامة اللتين توصلوا اليهما في هذا المجال مما عاد دون شك على العبادة بالشيء الوافر من حيث الابهة . فهم يقيمون البوجا او « الاكرام » الذي حلّ محل الذبيحة الفيدية في المنازل الخصوصية وفي الهياكل . وهم يحتفلون بهذه العباده بأبهة بحضور جمهور عظيم ويلجأون الى التقادم والرقص والموسيقى. وهناك طقوس خصوصية لحفلات تكريس الهياكل والاصنام ، وتقدم الذبائح التكفيرية ، وتشييد الأبنية مهما صغرت ، واستقبال الحوادث الجماعية او الفردية ، والاحتفال بمسح الملك او تسليم السلطات الى الزعيم ، وبصورة مختصرة لكل ما تتألف منه الحياة الاجتماعية والفردية .

ويغدو الدين محور هذا العالم. ونجد تفسيراً لوجود كل شيء في قاعدة دينية تكون فيها حصة اللاهوت أقل شأنا مما كانت عليه في الطقوس السابقة . وهكذا تغدو البوذية في هذا العالم اصلاحا اجتماعياً تؤثر على الحياه السياسية والاخلاق بما لها من مبادىء روحية وميتافيزيقية وقياسية . ولا تتنكر البوذية لما كانت تحمله الديانة البراهمانية من خصائص هندية . ولكن خلافاً للبراهمانية التي

جعلت من واقع وجود الفئات مبدأ صارماً والتي أشادت كثيراً بالطبقتين الحاكمتين ، اي البراهمة والكشتريا ، تعتمد البوذية القديمة على الفئات الاجتماعية الأقل شأناً ، دون ان تسعى مع هـذا للمساواة بين مختلف الطبقات مبتدئة « من الاسفل » . وهي تتشبث فقط بوجوب تخفيف سلطة البراهمة اللامحدودة إن لم يكن القضاء عليها . وتعتقد البوذية القديمة بحقيقة التقمص والحياة الاخرى ، وتسند مبادئها الروحية الى وجود الكارمن والمصير الذي يخضع له الانسان ، ولكنها تؤكد مع هذا بأن الاحتفال الطقسي الدقيق كما تقرره القوانين لن يوقف مجرى وعدد الولادات بل يؤثر عليها الخضوع للفضائل التي تنتج عن المسؤولية الشخصية . وهكذا يقضى قضاء تاماً على امتيازات الحسب والنسب الاجتماعية والوراثة الطبقية التي هي أسس المجتمع البراهماني؛ لذا ترحب البوذية دون تفرقة بجميع الدين يودون نقض سلطة البراهمة – وتغدو من ثم ثورة اجتماعية .

وتستند تعاليمها الروحية الى مبدإ صراع الخير والشر وتصف كدواء لداء التقمص ممارسة فضيلة المحبة نحو جميع المخلوقات والتواضع والكفر بالذات . وعلاوة على ذلك فهي تأتي بنظرية الفداء : إذ دون مخلّص سيخضع الافراد دوماً الى نتائج أعمالهم. وهذا المخلص هو بوذا شاكيمني للطور الكوني الحالي ، يليه بوذا ميتريا الذي سيغدو سيد العهد المقبل والذي سيسبق مجيئه زوال العالم . وتضيف بوذية هذا العهد الى البوذيين السابقي الذكر كائنات من كنهها محبة الغير ، البودهستفا ؛ ولكن لا تزال عبادتها في مهدها ولم تتبلور بعد ، وستكتسب هذه الكائنات أهمية متزايدة خلال القرون اللاحقة . وتصبح البوذية ، استناداً الى مبادئها ونظرياتها ، ديناً جديداً ، وهي تلجأ لتنتشر الى مختلف وسائل الدعاوة الدينية والتبشير ، ابتداء من اعطاء المثل الشخصي حتى وعظ المبشرين . وهي لا تستنكف ، مع ما تبديه الأوساط المحافظة من شديد استنكار ، من قبول النساء في عداد المؤمنين وارسال رهبانها ينشرون معتقدها في مختلف أرجاء آسيا .

وخلال العهد الدي يستوقفنا نرى البوذية تنتظم وتثبت قدمها . ومما يزيد أهميتها ونفوذها انتخابها كدين دولة من قبل الملوك كأشوكا مثلاً ، ولكن أدت هذه العوامل الى تحوير في مبادئها الاولية : وهكذا يصبح الملك ، وقد اعتمد على نظام اجتماعي محكم الحلقات ، سيد الجميع يتحد ذاتياً مع بوذا الذي يفقد رويداً رويداً صفته كرجل قديس ليصبح ملك الملوك (وذلك بالاستناد الى نظريات مختلفة منها رأي جان برزيلوسكي) . وهكذا يغدو المجتمع البراهماني القالب الدي يمهر بشكله المجتمع البوذي .

ان هذا العهد الذي نخصه بدراستنا هو من أخصب العهود في مجال الفن التصويري :

الفن

ففيه بلغ الامبراطرة الموريا وخلفاؤهم ذروة مجدهم ، وفيه استعمل الحجر لأول مرة بدل المواد القابلة للتلف ، وفيه تكونت الفنون العظيمة وولد الفن التصويري البوذي المقدس وتطور قليلاً ؛ وقد تقبلت هذه الفنون تأثير زميلاتها الغريبة ولكنها أذابته في مجموعة العناصر الهندية .

ويظهر التقليد ، وهو إحدى خصائص الحضارة الهندية ، بكل وضوح في الفن التصويري : فقد قلّد النقاشون على الحجر دقائق فن النقش على الخشب والعاج الذي سبق استعمالها دون شك استعمال المواد الاكثر صلابـــة . ونرى الهياكل المنحوتة في الصخر تعيد بكل دقة أوصاف « الاسقالة » الخشبية بما فيها من فراض حتى أنهم يشيرون الى مواضع المسامير . وتعيـــد ايضاً الأبنية التذكارية (ستوبا) التي يبنونها من الآجر أو الحجر بشكل التومولوس الترابي الذي كان على هيئة نصف دائرة . وبعد ان اوجدوا الصور المقدسة التي مثلت الاشكال الانسانية استمروا زمناً طويلاً على تكريم الاشجار المقدسة والحجارة التي حولوها الى مذابح او عروش إلهية ، كما استمروا على إقامة العواميد التي تنوب مناب أخشاب تقدمة الذبائح : وهكذا فإن الاشكال القديمة تبقى جنباً الى جنب مع الاكتشافات الجديدة ، وذلك مدة طويلة جداً .

وندهش لواقع قد نجد له تفسيراً من خلال كنه الديانة البراهمانية المجردة والجافة ، وهو ان آثار هذا العهد هي ذات صفة بوذية دون سواها . ولكننا مع هذا نستطيع القول إن تلك الآثار التي تضفي عليها المزايا البوذية رونقاً وحلاوة تجسد قبل كل شيء الروح الهندية وتصور لنا بكل دقة حياة سكان الهند وأخلاقهم .

ومع تطور الفكر واتساع انتشار البوذية غدا لزاماً على الفن ان يتقدم وينمو . ولم يعـــد باستطاعتهم الاكتفاء بأبنية وضيعة وسريعة الزوال وبأصنام لا شكل لها ولا جمال . انه يلزمهم صور مقدسة تدعوهم الى الصلاة ، وهياكل فخمة يلجأون اليها ، وقاعات فسيحة تتسع لجمهور المؤمنين الذي يتكاثر عددهم ، واديرة تستوعب الرهبان والراهبات ، وآثار تحمل طابعاً تاريخياً تنطق بفضل شاكيمني التقليدي . لذا تظهر في وقت واحد المعابد (شاتيا) المنقورة في الصخر والآثار التذكارية (ستوبا) التي يشيدونها من آجر وحجر في الهواء الطلق . وعلى هذه الابنيـة الاخيرة خاصة تزدهر النقوش التاريخية التي تغدو دون شك احدى جواهر الفن الهـــــدي ، اذ تمثل لنا التقاليد البوذية بطلاوة وحرية تثيران السرور والاعجاب .

ان هندسة الأبنية الصخرية تعيد بأمانة — كما أشرنا اليه أعلاه — جميع دقائق واوصـاف ما كانوا قد شيدوه من خشب . وهذه الأبنية هي غالباً ضخمة وشديدة الاتساع . ولأقدمها شكل اهليلجي ، وهي عارية عن كل فنون الزخرفة الداخلية ، وتطل على الجدار الصخري بباب هدم يعلوه القوس الهندي . وتشبه هندسة هذه الأبنية الاكثر اتساعاً هندسة الكاندرائيـات ، تحيط بصحنها ساحتان تنتهيان بأعمدة على هيئة براميل منحوتة دون ان يكون لهـا تاج او قاعدة . وفوق افريز عريض يعلو الأعمدة يمتد السقف، وقد أعادوا بكل دقة اشكال الاخشاب الأولية في القبة الصخرية . ووفي داخـــل المعبد نجد مصغراً للستوبا يدعونه داغوبا ينوب مناب المذبح ، يظهرون احترامهم له بالدوران حوله دوراناً طقسياً (برداكسينا) ؛ واستعملوا ساحات المعابد هذه كأمكنة اجتماعات وصلوات ، وقد سكنها الرهبان الذين انصرفوا عن العالم ، وغدت دون

شك مزارات اذ بعدت عادة عن الوسط الآهل بالسكان وحفرت في منـــاطق برية . وبعد ان تفننوا في النقش على الحجر وازداد حبهم للزخرفة غدا داخل هذه المعابد اكثر زينة وفناً : فأضحى للعواميد قواعد على شكل اناء ولها تيجان قد تحفر عليها جماعات من الخيالة والمطايا ، كما يزينون بالنقوش الافريز والداغوبا . ومع الزمن تتسع الواجهة فتصبح والحـالة هذه كطنف فسيح تظهر فيه الرفود التي كان من المفروض ان تسنده .

وآثار الستوبا التي عثروا عليها في بهرهوت وأمثلة الستوبا التي لا تزال قائمة في سانشي (بهوبال) هي شواهد ثمينة تدخل ضمن اطار هذه الهندسة الحجرية التي تعيد لنا فن البناء الخشبي . وغطى ملاط مذهب وذو ألوان عدة القبة الحجرية النصف دائرية . وأقاموا من حجر الدرابزون الذي يحيط بها والأبواب الضخمة التي ترتفع في الجهات الرئيسية . وجعلوا للمصـــاريع والعوارض والعواميد والعتبات فراضاً كما كانوا يصنعون للقطع الخشبية .

وعلى درابزونات وشرفات بهرهوت وستوبا سانشي الثانية ، وعلى أبواب ستوبا سانشي الاولى والثالثة — خاصة — نرى نقوشاً نافرة تساعدنا مساعدة جلى على درس الحضـارة الهندية في ذاك العصر . ونظير رجـــال العهود البدائية في الغرب فقد نقش رجال الفن أساطير او قصصاً شبه تاريخية يرتدي أبطالها ثياب معاصريهم ويتبعون أساليب حياتهم . وقد وصلوا الى درجة رفيعة من المهارة ، وإن كان فن رسم الأشياء بحسب رؤية العين لا يزال بدائيـــاً في بهرهوت فقد تقدم كثيراً في آثار سانشي الاولى والثـــالثة . ومنذ البدء يظهر في كل شيء ميلهم لاعطاء رسومهم الاشكال الحيوانية ، وهذه صبغة ستلازم رجال الفن طوال تطور وتقدم الفن الهندي . وإن نظرنا الى نقوش بهرهوت البديعة التي تمثل لنا مراحل حيـاة بوذا القديمة حيث تظهر الحيوانات كأبطال الحوادث ، او الى ما حققه النحت على الصخر فإننا نعجب لما نشاهد من فن ينشد طبيعة الاشياء ، يضاف اليه تفهم حقيقي للجماعات وبراعة عفوية وساذجة تنم مع هذا عن ملاحظة دقيقة ورقيقة للطبيعة .

ولنا على فن نحت التماثيل أمثـلة صنعت من كتلة واحدة . وأقدم هذه التماثيـــل (يكشا باركهام الخ .) هي ثقيلة الصنع وقد أسدوا عليها مسحة دينية لا تخلو من عظمة . وقد أجادوا إجادة كلية في التعبير عن مختلف تفاصيل الثياب والحلى ، وذلك تمشياً مع عنايتهم للتعبير بدقة عن الاشياء ، هذا الاهتمام الذي نشاهده ايضاً في فن البناء .

وهكذا يبدو لنا الفن الهندي ، حوالي القرنين الثالث والثاني ق. م. ثابت الدعائم وان كنا لا نستطيع إلا ان نتخيـل المراحل الطويلة التي سبقت هذا الطور إذ لم تبق آثار عن تلك العهود السابقة نسبة للمناخ . ويظهر لنا هذا الفن قوي المعالم ومعداً لبلوغ شأن خطير . ويستسيغ هذا الفن تطوراً ستثبت القرون اللاحقة قيمته وعظمته .

الفصل الثالث

صين ملوك التسين والهان

تطور الصين التاريخي(١)

بعد تجزئة الامارات التي انبثقت عن التشاو ابقت « الممالك المقاتلة » الصين في حالة حرب مستمرة (من سنة ٣٢٥ الى سنة ٢٢١ ق.م.) وستنشأ عن هذه الاضطرابات وحدة البلاد. وتسترعي أنظارنا ثلاث من هذه الامارات ـ التشاو والتسين والتشو ـ ولكن استطاعت امارة التسين ان تستولي ، منـــذ سنة ٣٠١ ، على المراكز الحساسة في البلاد وبدأت تخضع سائر الاجزاء. وقد أتم هذا العمل المجيد الملك تشنغ الذي اتخذ له فيا بعـــد اسماً غدا شهيراً هو تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي (٢٤٦ ـ ٢١٠) . ولد تسن سنة ٢٥٩ ولم يكن له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً عندما ارتقى العرش . ولكن منذ ان بلغ التاسعة والعشرين اخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار على منافسيه : وهكذا منذ سنة ٢٣٠ الى سنة ٢٢١ كرّس نفسه للحرب . وبعـــد ان عدا سيد الصين المعروفة آنذاك اتخذ لقب امبراطور وسعى لتحقيق وحدة بلاده السياسية والاجتماعية والفكرية .

وتظهر اعمال تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي كصدى لمـــا قام به الامبراطور اشوكا في الهند ، وان لم يجر بين البلدين صلات او تبادل حقيقيين . وأوجبت ظروف الصين السياسية عملاً جذرياً عنيفاً لاقتلاع ما تبقى من آثار الحكم الاقطاعي. وخوفاً من رجوع مثل هذا النظام جعلوا الحكم مركزياً . وتسهيلاً لتقارب المنـــاطق فرضت على الجميع نفس الاساليب الكتابية . وأخذ الامبراطور الجديد على عاتقه تأمين السلام في بلاده والدفاع عنها ضد الغزوات التي كانت تهدد غالب الاحيان المناطق الشمالية والشمالية ـ الغربية ، لذا وحد في خط دفاع الاسوار التي كان ملوك التسين والتشاو و «الوين» قد اقاموها على طول الحدود . انه الحائط الكبير الذي يمتد على مسافة ثلاثة آلاف كلم ، والذي يُعد من اعظم الافعال التي حققها الانسان .

---

(١) سبق ان اشرنا الى إنه من المتعذر ان نضع الصين فاصلاً زمنياً في آخر القرن الاول ق . م . ومع قيـــام حكم ونغ ونغ الذي يقع في اوائل العصر المسيحي ، فان الحضارة الصينية ايام سلالة الهـــان هي سلسلة مستمرة الحلقات دون تقاطع وتستند الى ذات المبادىء والصفات.لذا يمتد بحثنا هذا حتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح.

ولكن مع هذا لم يستتب النظام في الامبراطورية إلا لسطوة شخصية تسن ــ شه ــ هوانغ ــ تي ، لذا غدا موته سنة ٢١٠ نذير قيام الثورات واشتعال الاضطرابات السياسية التي دمّرت البلاد في فترة لا تتجـاوز بعض السنوات . وسنة ٢٠٦ نشأت عن هذه الحروب الداخلية سلالة الهـــان التي ستحكم الصين حتى سنة ٢٢٠ مسيحية ، ما عدا فترة قصيرة تتراوح من سنة ٩ الى سنة ٢٢ بعد المسيح . وبأساليب لطيفة المظهر سعى امبراطور سلالة الهـــان الاول الى إعادة المركزية التي حققها تسن ــ شه ــ هوانغ ــ تي . واتبع مبادىء ادارة البلاد التي كان قـــد سار عليها هذا السلف . ومع انه منح امتيازات لبعض النبلاء فانه سعى لجعلها دون خطر عـــلى سلطته . ولكن لم تستعد قط صين الهان الوحدة الداخلية التي كان قد حققها وابقى عليها تسن ــ شه ــ هوانغ ــ تي . بـل غدت الصين ايام الهـــان مجموعة مقاطعات لا توحد اعمالها وجهودها إلا عندما يهددها خطر خارجي . وغدا هـــذا الخطر شبه مستديم وكان مصدره « البرابرة » الذين هددوا دوماً مناطق الحدود الشمالية والغربية والذين توغلوا مراراً في غزواتهم حتى داخـــل الامبراطورية . وقد تفاقم هذا الخطر اذ لم يتردد بعض المغامرين من الاعتماد على هؤلاء البرابرة للاستيلاء عـــلى الحكم ؛ وعلاوة على هذا فقد تنافس امراء السلالة وتحاربوا للوصول الى العرش . واستمرت سلالة الهان على هذه الحالة من قمع غزوة الى اخماد ثورة حتى سنة ١٤٠ ق . م . وفي هذا التاريخ ظهر الامبراطور « وو » الذي لم يكن له من العمر إلا ١٦ سنة عندما اعتلى العرش والذي سيستمر في الحكم زهاء ٥٣ عاماً ، متبعاً سياسة الحكم المطلق (١٤٠ ــ ٨٧) . انـــه استند الى اساليب غير مباشرة ولكن شديدة الوطأة للقضاء رويداً رويداً على النبلاء والاستعاضة عنهم برجال قانون ينتمي معظمهم الى عامة الشعب . وقد ثبت بواسطتهم سلطة الحكم المركزي . ونشأت عن هذه التدابير طبقة جديدة من الاشراف وازدهرت الحضارة الصينية ازدهاراً عجيباً .

والى جانب أعماله الداخلية هذه أعد الامبراطور حملة ضد الهيونغ ــ نو الذين كانوا يهددون بصورة مستمرة حدود الامبراطورية . وأرسل لهذه الغاية بعثة استكشاف واستعلامات بزعامة تشنغ ــ كيين وقد استمرت هذه البعثة في مهمتها من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٢٥ تقريباً ووصلت الى افغانستان . وأضيفت اليها بعثات اخرى وقفت على حالة البلاد السياسية التي وقعت على الطريق التجارية الممتدة من كانتون حتى البنغال ــ وهي « طريق برمانيا » الحديثة . وغدا هذا العمل فاتحة هجمات مظفرة أسدت على الصين صفة الفاتح . واتسعت البلاد الصينية غرباً حتى توانغ ــ هوانغ (التي تشرف على مجازات ألتاي) وجنوباً حتى كانتون . وهكذا استعمرت منطقة كان ــ سو ، وخضعت بلاد يوّنان وشمالي أنّام وفرغانا ، وأجبر الهيونغ ــ نو الأشداء على التزام السكينة ولو الى حين .

ومع انه حدثت اضطرابات بعد موت وو فقد تابع أحد حفدته سيوان ــ تي (٧٣ ــ ٤٩ ق . م .) الفتوحات الصينية في التركستان الصيني ، واستولى على النقاط الرئيسية في حوض تاريم

وقضى لقرون عدة على القبائل الهونية في منغوليا ، ولكن عقبت هذا العهد فوضى شديدة كادت تقضي على حكم الهان . وتعاقب على العرش في الفترة الواقعة بين سنة ٤٨ ق. م الى سنة ٩ ب. م. ثلاثة ملوك تحقق معهم انحطـــاط ووهن السلالة . واغتصب الحكم ونغ منغ وهو يمت بالقرابة المنحرفة الى الاسرة الامبراطورية، وسعى لاصلاح الامور معتمداً على الطبقة المثقفة (٩ – ٢٢) . ولكنه كان خيالي الاهداف ، وقامت ضده جموع الفلاحين وقد عضها الجوع بنابه فتنــازل عن العرش أمام مطالبة ذوي الحقوق الشرعيين . واغتنم الفرصة أحد الهان ليو سيو فأعــاد سلطة سلالته واتخذ اسم كوانغ وو – تي (٢٥ – ٢٧) .

وبدأ اذ ذاك عصر استعمار صيني زاهر : فأعيـــد السلام الى بلاد الأنّام والتونكين (٤٢) واخضع الهون في منغوليا الداخلية (٤٨) ، وثبتت الحماية الصينية على واحات تركستان اثر غزوات القائد بان تشاو المظفرة (وقد انتهت سنة ٩٤) . وهكذا انفتحت الطريق نحو الغرب واستطاعت الصين بواسطة الخيول المدربة والمحطات المتعددة ان تتصل مع افغـــانستان والهند وايران والشرق الروماني – وكان الامبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧) قد أوصل تأثير روما في آسيا الى الأوج . وستغدو هذه الطريق «طريق الحرير» ستعود بالثروة لمدة قرون عدة على البلاد التي استطاعت ان تسلكها، واصبح لها علاوة على ذلك أعظم الأثر الثقافي والفلسفي إذ بواسطتها أدخلت البوذية الى الصين حوالي ستين او سبعين سنة بعد المسيح .

ومع هذا عادت سلالة الهـــان الى انحطاط لن تقوم لها بعده قائمة . واعتماداً الى هذا الضعف استعاد الهون هجماتهم وعظم شأن الحكام المتنافسين في المقاطعات . وبعد معارك دامية – دامت حوالي خمسة وسبعين عاماً – عزلت رسمياً سلالة الهان (٢٢٠) واعترف اذ ذاك بثلاثة امبراطرة في لويانغ ، وتشنغ – تو (٢٢١) ونانكين (٢٢٩) . وهكذا جزئت الصين ثلاث ممـــالك واجتاح الهيونغ – نو شمالي الامبراطورية القديمـة . وأعطيت السلطات الرئيسية اذ ذاك لاسرة التسين في نانكين (٣١٨ – ٥٨٩) . اما في الشمال فقــامت مملكة صينية – تركية عرفت باسم وي (٣٩٨ – ٥٨١) ستعد الطريق لقيــام سلالة صينية جديدة، اعني سلالة التانغ التي ستخلف سلالة السّوي (٥٨٩ – ٦١٨) .

السلطة الامبراطورية

عندما حقق تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي وحـدة الصين طرأت على المجتمع واحوال الملك تغييرات هامة وعميقة الجذور. اذ في زمن الممالك المتحاربة لم ينفك النظـــام الاقطاعي عن ترسيخ قدمه ولم ينفك النبلاء عن اكتساب امتيازات في وقت ضعفت فيه السلطات الملكية وفقـــدت سيطرتها . ولم يستطع تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي فرض سلطانه المطلق إلا باللجوء الى اساليب عنيفة قلبت الوضع رأساً على عقب . وحذا تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي حذو المستبدين لترسيخ هذه النظرية الجديدة المتعلقة بسلطة وشخص الملك، ولكن عمد امبراطرة الهان، خلفاؤه الحقيقيون، الى اساليب اكثر نعومة والتواء لينعموا بثمار ذاك الوضع .

لقد اختلفت حتماً وجهات نظرهم الى الامور ولكن تساوت اهدافهم : فقد عزف تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي ، وهو الكلي القدرة ، عن الطقوس ـ اذ اعتبرها بالية اكل الدهر عليها وشرب ـ التي كان ملوك التشاو والاقدمون يقيمونها بصفتهم ابناء السماء. ولكن يبدو مع هذا بأنه رغب في اقناع مرؤوسيه بالصفة الالهية التي تلازم شخص الامبراطور ، لذا احاط نفسه بسرية كلية ، وعـــاش في قصر منفرد ، لا يراه شعبه . وكان يرمز قصره الى عالم الآلهة ، وهو لم يظهر إلا في ظروف استثنائية رسمية كارتقاء جبال الامبراطورية المقدسة التي كانوا يقومون بها باحتفال مهيب .

اما امبراطرة الهان فأظهروا نفسهم بباعثي النظام القدم . ولكنهم لم يتنكروا لمبدإ الوهية الامبراطور التي نادى بها الحكم المطلق وقـــد فطنوا للاخطار التي تتعرض اليها سلطاتهم بسبب طموح ومشاغبـــات النبلاء . لذا عمدوا الى الليونة والحيلة : فبدل ان يحصروا إقامة الطقوس الامبراطورية في المينغ تنغ (صفحة ٥٧٦) كما كانت الحال أيام التشاو فإنهم عمموهـا في مختلف أرجاء المملكة . وهكذا غدت جولات الامبراطرة الى جهات المملكة الأربع معادلة لدوران ابن السماء داخل بيت التقويم ، وتجدد نظيره تعاقب الازمنة . ومع ان الخصائص التي ستحدد لاحقاً بصورة ثابتة ألوهية الامبراطور لم تكتمل بعد ، ومع أننا لا نزال في طور انتقـــالي فان كنه النظرية الصينية التي تتعلق بشخصية الامبراطور قد أثبتت مبدئياً . وستستمر هذه المميزات حتى سقوط الامبراطور سنة ١٩١٢ .

والى جانب هذه العقيدة تظهر فكرة الدولة وتفرض القوانين التي لا تقتصر غايتها على «معاقبة الاشرار » بل ايضاً على « تشجيع الصالحين » .

وهكذا يتقبلون المبدأ القائل بأن عمل السماء يعود بالخير على النظام العالمي بينما يعنى الامبراطور بالنظام الاجتماعي . ويبدو الامبراطور عملياً اكثر أهمية من السماء ما دام قادراً على ترسيخ النظام الروحي اذ ان الامبراطور هو وحده المسؤول عن مثل هذه الامور ، وفضـائله الشخصية هي خير كفيـــل لتحقيق سعادة الجميع . وتمثل مجموعة الموظفين ضمير الامبراطورية . والامبراطور ورجال الادارة هم معدون لتثقيف الشعب وتوجيهه وابقائه في مستوى معيشي نبيل .

المصـــادر

تهدف ادارة الامبراطورية والاصلاحات الى غاية رئيسية : الابقاء على الجيش الذي جعلت منه الحروب ضد البرابرة أمراً لا غنى عنـــه . وقد تطور الجيش تطوراً جذرياً منذ ان أصبح يتألف بكامله تقريباً ، في عهد الممالك المقاتلة ، من فرق الخيالة التي ، لخفتها وسرعة تنقلها ، غدت تصلح اكثر من عربات التشاو الثقيلة لصد هجمات فوارس الهون الصاعقة . ومنذ هذا العهد أخذ الخيالة الصينيون يرتدون ثياب البرابرة ، اعني السترة القصيرة والسروال ، بدل ثياب خيالة العصور السابقة الفضفاضة . ويضعون ايضاً دبابيس وأقراطاً من المعدن وقد اقتبسوا هذا الامر عن أعدائهم ايضا . ويتخذون كذلك القوس والنشاب فيقاتلون والحالة هذه الرماة البرابرة بنفس الأسلحة . ولتأمين انتصارات مستديمة لهؤلاء المحـاربين يوجهون قسماً من

اقتصاد الامبراطورية نحو الانتاج بكميات هائلة : فرجال الحدادة يشتغلون لهم ، ويشجعون كثيراً الافراد لتربية الأحصنة التي تضاف الى خيول الاصطبلات الامبراطورية ، وتقدم لهم المزارع العمومية الوفر من لحم الضأن والحبوب والعلف للحيوانات ، وتؤمن لهم مؤسسات النقل، بواسطة قوافل من مئات العربات ، ما يحتاجون اليه من مواد واسلحة ورجال . واخيراً يعملون جاهدين في اهراء العاصمة ودور صناعتها ومخازن اسلحتها لتأمين ما يطلبونه من ذخيرة وميرة ، ويسهل تنقلهم في مختلف أرجاء الدولة ما يقيمونه من طرق جديدة وقنوات .

وتشجع كثيراً هذه الاحتياجات الزراعة وتربية المواشي. فهم يصلحون الاراضي التي لم تزرع، وينشئون الممتلكات الفسيحة التي تأتي على الاملاك الصغيرة . وازدهرت ايضاً الملاحات وأكوار الحداده . وتستدعي جميع هذه الاعمال توحيداً في بعض أمور الدولة : لذا فرضوا نظاماً واحداً للكتابة والموازين والمكاييل والمقاييس . وأثرى كثيراً بعض المواطنين خاصة بين الذين يملكون الاراضي ويتوسطون في الاعمال التجارية ويقدمون للجيوش ما هي بحاجة اليه . وتكثر اليد العاملة المتوجبة للقيام بالمشاريع العظمى إذ القضاء على الملكية الصغيرة والوسطى ألقى في أحضان الشقاء والعوز عدداً وافراً من رجال الزراعة والصناعة . وقد يسخرون العبيد كما تلجأ الدولة الى استخدام عدد من رعاياها الذين يكون قد حكم عليهم جزائياً لما اقترفوا من أعمال تخالف القوانين .

وتستفيد الدولة بأساليبها الخاصة من ثراء الاغنياء المتصاعد فتقر أساليب قاسية ثم تنقضها وتستبدلها بقرارات أشد وطأة : ملاحقات قضائية ، وضع اليد على الاراضي والعبيد ، ضرائب مختلفة ، غرامات ... وكلها طرق تعطي الدولة الحق بوضع يدها على جزء من الثروات التي اكتسبت بوسائل تخالف كثيراً او قليلاً القوانين. وهكذا تتكون ثروة الدولة التي يهتم بها رجال مال ينتسبون الى فئة التجار . وتتوالى التشريعات المالية لتزيد في كميات هذه الثروة : فهم يبيحون تارة سك النقود ويحرمونه طوراً ، ويحل النقد الخفيف محل الثقيل - وعند كل تغيير تفرض الضرائب على مخالفي القانون .

وتساعد هذه العوامل كلها على خلق طبقة نبيلة في المدن ، تهوى البذخ وتحيا حياة رفاهية وتستثمر اليد العاملة بأجر بخس تعثر عليها بسهولة نسبة لغناها وفقر هذه الطبقة العاملة . وسيثير حتماً هذا التفاوت في الثروات ثورات واصلاحات سيجبر خلفاء الهان على تحمل نتائجها .

المجتمع

على أثر الحروب الاقطاعية والاستبداد حصلت تغييرات جذرية في تكوين المجتمع والروح الاجتماعية : فينحي المغامرون والأثرياء الجدد والجنود والملاكون الكبار نبلاء العهد القديم عن السلطة ويعتبرون الثروة أساس النظام العالمي إذ يصبح الغنى الأداة المفضلة للنجاح . ويبتديء أعاظم رجال الدولة الجدد حياتهم بامتهان أحقر الأعمال : فيصبح راعي الخنازير مستشاراً أكبر ، والجندي البسيط مركيزاً ، والأسير قيماً على الامبراطورية ؛ ويغدو

الاستحقاق والحظ والتفوق الحربي والربح الوافر عوامل تكفل النجاح اكثر من الحسب والنسب والامتيازات الارثية .

وتستفيد الصناعة والتجارة من حياة الترف التي يعشقها هؤلاء الأثرياء الجدد مهما أسدوا لهم من نصح . ويعطي المثـــل القصر الامبراطوري وينشط الجميع لحذو حذوه على احسن وجه : ويتسابق القوم لإقامة الولائم والاعيــاد والصرف دون حساب واعداد حفلات الصيد والقنص واحياء الروايات التمثيلية غير آبهين للقوانين التي تحرم دعوة اكثر من ثلاثة ضيوف الى بيت واحد والتي تفرض غرامة على من لا يتقيد بها .

ومع هذا فان الامبراطور ورجـــال بطانته – أيام الهان – يحرضون كل فرد على التقيد بأهداف الحياة القديمة والعودة الى بساطة العهود الغــابرة . وقوانين الدولة الروحية صارمة وجازمة : فهي تؤكد سلطة الأب المطلقة ، وتستنكر الزنى وتحرم على الأرامل ان يتزوجن ، وتفرض عفة الاخلاق . وينشر التعليم هذه المبادىء ويسعى لتعميمها في الملحقـــات ايضاً : إذ للدساكر والمراكز الحكومية مدارس يدرسون فيها المنهج نفسه الذي يسيرون عليه في العاصمة . ويدوم عهد الدراسة تسعة أعوام ، وتتنــاوب في كل سنة مجموعة « العلوم » استناداً الى الفصول وتنتهي بامتحان ؛ انه تدريس نظري فقط يعلم الاولاد الطقوس والموسيقى ورمي النشاب وقيادة العربة والكتابة والحساب وقواعد الآداب ، وتحتوي مواد تدريس الفتاة النسج والخياطة والنقر على العود والشعر والتاريخ . ومنذ هذا العهد نلمس ميل الصينيين نحو البحث في الكتب المدرسية عن مبدإ الحكمة والفضائل الاجتماعية والشجاعة .

ولم تتغير إلا قليلاً نواحي الحياة اليومية : فالطقوس وحفلات الولادة والزواج والدفن تتبع القوانين التي ساروا عليها قديماً . وتستمر الحياة الزراعية على الخضوع لتقلبات الفصول وضروريات المزروعات . وما حيـــاة النبيل إلا صورة مصغرة لحياة الامبراطور ، فهو يمتلك العبيد – ولا يجوز ان يتعدى عددهم الثلاثين – ويستأجر الخدم . ويحتوي قصره نساءه وخدمه وكل مــا هو ضروري للحياة العادية من ألواح الجدود حتى المؤن . وهو يستيقظ باكراً ، ويغسل يديه وفمه ويسرح شعره ويستحم مرة كل خمسة أيام ولا يخرج من البيت في ذاك النهار . ثم يرتدي ثيــاباً تليق بمقامه ويتناول وجبة خفيفة ، ويستقبل أولاده الذين يفدون لتحيته ثم يعكف على الدرس . ويحدثه مدير أعماله عن مختلف الشؤون . وبعدئذ يرتدي ثيابه الرسمية لتناول الغداء ويكرس ما تبقى من وقت نهاره للأعمال التي تفرضها عليه وظيفته .

وتخصص النساء وقتاً أطول للاعتناء بتبرجهن . وتعيش المرأة في غرفة خصوصية تحيط بها خادماتها يعتنين بها . وهي في كل صبـــاح تمشط شعرها بعناية وتضع في رأسها دبابيس طويلة . وتملك المرأة كل ما تحتاج اليه للزينة في صناديق من اللك نقش عليها بكل دقة : مسحوق الارز المدعو المسحوق البربري تبيض به وجههــا وكتفيها وظهرها بواسطة شرابة من وبر الحيوانات ،

ومسحوق الزنجفر او العصفر الاحمر تضعه بصورة مستديرة على وجنتيها ، ومساحيق قاتمة تضع بواسطتها بقعاً تبعثرها على وجهها تبعاً للعادات المتبعة، وهي تسوّد حواجبها بواسطة ابرة خشبية طويلة ومعقوفة .

وتتناول طعامها في غرفة منفردة بصحبة سائر نساء القصر . ويتألف الطعام من لحم الخنزير وضعوا عليه البصل . ويزيدون اليه بعض الانواع المجففة وأصنافاً من اللحم والجاورس والذرة والارز — ولكن لم يعرف الارز في ذاك العهد الانتشار الذي سيلاقيه فيا بعد . وترافق الاطعمة الكحول التي يستخرجونها من الذرة، او الماء او الشاي (في مناطق جنوبي النهر الازرق فقط). ويقطعون غالباً اللحوم النيئة قطعاً نحيفة ويجففونها ويطيبونها بالزنجبيل ، او ينقعونها في خل أضافوا اليه البصل ، وتحتوي الولائم على خمسة اصناف من الطعام هي : المرق ، ولحم العجل والضأن أُضيف اليه الارز ، ولحم الخنزير مع الجاورس، والسمك ، والطيور . وتظهر على موائد النبلاء اللوس أصناف أطيب طعماً : حلزون نقع في الخل ، وخنزير صغير حشوه بالحمّاض ، وسلحفاة ، ولحم الكلاب ، ولحم نيء طيبوه بالزنجبيل وتبّلوه ببيض النمل المحفوظ في الملح .

وتقام الولائم على أنغام الموسيقى والرقص ، وقد يشارك فيه المدعوون انفسهم . ولكن يأتي غالب الاحيان رب البيت بالرقاصين الذين اتخذوا الرقص مهنة لهم والبهاليل والبهالين .

إطار المدينة

ان كانت العاصمة الامبراطورية قد اتسعت اتساعاً كبيراً لتحوي بين طهرانيها ، كما صدرت بذلك ارادة الامبراطور ، أقوى أسر المملكة ، وان كان تسن — شه — هوانغ — تي قد أبدع في تجميلها ، فان مدن الارياف تبقى مع هذا ضيقة . ويشبه القصر الامبراطوري قصور امبراطرة العهود السابقة، وله باحاته وأبنيته التي أحسنوا اعطاءها الوجهة المقررة . وهو يمثل بصورة رمزية العالم ، يقيم في وسطه الرجل الأوحد ، اعني الامبراطور ، الذي يستمر على اتصاله مع قوى النظام العالمي .

ويعيد بيت الغني أقسام القصر الرئيسية ، ولكنه يبقى مع هذا شبيها بمنزل الفلاح الذي طرأ عليه بعض التطور . وتشرف ساحته نحو الجنوب . وفي قعر هذه الساحة يمتد بناء طويل قسم ثلاثة اقسام : ففي الوسط قاعة الاستقبال ، والى اليمين واليسار الغرف ومستودعات المونة . وتحيط بالجناح الاساسي أبنية عدة : فالى الشرق بيوت الضيوف ، والى الغرب مساكن الاولاد المتأهلين ، والى الوراء المراحيض . ويحتوي البناء الاساسي على طابقين او ثلاثة : ويسكن رب الاسرة في الزاوية الجنوبية — الغربية ، وهي الجهة الاكثر شرفاً حيث تحفظ ألواح الجدود . وللنساء غرفة يستقبلن فيها تقوم عادة فوق القاعة الوسطى ، وتزينها عمد صبغت باللون الاحمر . أما الجدران فهي من الآجر المطلي بالكلس ، وقد يغطونه بالقماش في المناسبات الكبرى . وتظهر في السقف أخشاب ملونة ومنقوش عليها ، ويبسطون على ارض الغرفة طنافس كشميرية . وينتصب مقعد رب الاسرة تحت مظلة أقيمت في وسط القاعة .

وأثاث البيت بسيط . والمضاجع هي عبـــارة عن لوح خشب أسند على اربعة قوائم قصيرة جداً ، يعلوه فراش ويمتد على مساحة الغرفة بكاملها ، ويتمدد المرء عليه ملتحفاً بغطاء من القطن المبطن (ويكون من القماش عند الفقراء) اما الوسادة فهي من الخشب قد يضيفون اليها عوارض من الخيزران تخفف مرونتهـا وطأة تلك الوسادة . وتحجب السرير بعض السجوف وتعلوه مظلة عليها الستائر . ويجلسون على حصر . وما الطاولات إلا عبـارة عن مقاعد طويلة ومنخفضة ، وهم يتكئون على مقاعد أقصر من السابقات . وحوالي القرن الرابع فقط تظهر الكراسي ذوات القوائم الاربع والمقاعد المشبوكة القوائم ، وقد اتخذوها عن الغرب . ومن أدوات الأثاث ايضـاً القناديل : وهي عبارة عن مصابيح لها تسعة مشاعل او مصابيح زيت بسيطة وجميلة من السهل حملها . وتصنع هذه القناديل من الخزف او النحـــاس . وتوجد مكتبة في احدى غرف البيت وتتألف الكتب من قطع خشبية رقيقة ربطت الى قدتين من الجلد . وأدخلت عادة جديدة أيام سلالة الهان وهي استعمال لفات طويلة من الورق توصلوا مؤخراً الى اكتشاف المـادة التي صنعت منها ، ويستعملون للكتابة حبراً ومراقم خشبية صغيرة محددة الرؤوس او مناقيش .

وأثبتوا مزولة على حائط في عرصة الدار . ويوجد في القصر ساعة مائية مؤلفـــة من عدة أحواض نحاسية تحدد الوقت بشكل علمي اكثر دقة .

وهناك اخيراً مكان هام خصصوه للمطابخ . وفي البيوت الحقيرة نجد هـذه المطابخ في قسم المنزل المخصص للسكن . ولكن في بيت النبيل او في قصر الامبراطور تتخذ هذه المطابخ لهـا موضعاً في أقبية قاعة الاستقبال، او بصورة افضل في أماكن معينة يكون قربها دوماً بئر ماء . ونجد في هذه المطابخ كوراً كبيراً له ثقبان تغـــلي فوقها مراجل كبيرة . ويملأون هذا الكور وقوداً من خلال موقد مربع الشكل ويؤججون النار بواسطة عصى طويلة مجوفة .وبالقرب من هذا الكور يعلقون المونة على خشبة فيها كلاليب . اما أواني المائدة فهي في غاية التنوع : أكواب مختلفة الاحجـام ، أوعية مستديرة القعر ، أجران وأحواض ، وتكمل هـذه الأواني أطبـــاق وطاولات صغيرة يأتون بها بعد ان يكونوا قد أعدوها .

ولا تختلف كثيراً ثياب الرجال عن ثياب النساء . ويرتدي الرجـال سروالاً داخلياً قصيراً من القماش وقميصاً قصيرة لا أكمام لها ، ثم يضعون فوقها سترة وسروالاً يطول أو يقصر. وتربط النساء على قسم جسمهن الأعلى قطعة قماش اهليلجية الشكل تغطي صدرهن وبطنهن ، ولكنهن يتركن الظهر والجانبين بحالة العري . وتشبه ثيابهن الداخلية ثياب الرجال ولهؤلاء ، علاوة على ما تقدم ذكره ، قطع من الجلد الابيض على الركب ، وجوارب من حرير تثبتها الى الساق بعض الربط ، واحذية جلدية وقبعة او عمامة . وفيما يرتدي العملة ورجال‌العامة ثوباً قصيراً او يكتفون فقط بقطعة ضيقة من القماش تستر عورتهم يلبس النبلاء وخدامهم ثوباً طويلاً . اما ثيـاب رجال البلاط ، وقد استلهموا شكلها من ثياب رجال الأدب ، فتغطي الثيـاب الموصوفة أعلاه ، وهي

عبارة عن ثوب ذي مطاو تتناسب والقوام يبطنونه بحرير ابيض (باو) ، او عن ثوب فضفاض يتدلى من الكتفين حتى الرجلين (تشونغ – تان – ي) . ويشد الثوب الى الجسم زنار يرتبط بعقدة تمر في ابزيم من المعدن المنقوش عليه ، وسيفضلون أكثر فأكثر الرداء باو الذي كان كثير الاستعمال في زمن الهان ؛ اما ابزيم المعدن فهو مأخوذ عن عادة بربرية .

الآداب

ان عهود الممالك المقاتلة التي سادتها الاضطرابات ، وقيـام الحكم الاستبدادي ثم تفشي الفوضى التي سبقت استرجاع الهـان السلطة عوامل لم تخلق جواً يساعد على انتشار وازدهار الآداب . فتسن – شه – هوانغ – تي مثلاً الذي أراد فرض الوحدة عـلى بلاد الصين أمر باشعال نار أتى لهيبهـا على كثير من الكتب الادبية الكلاسيكية (سنة ٢١٣ ق. م.) . ولكن نجت مع هذا المؤلفات الفنية (الطب ، والسحر ، والزراعة الخ) . وعندما أراد الهان بعث الأدب الصيني كانت الكتب قليـلة جداً وقد زالت نصوص عـدة . وسعى الأدباء الكونفوشيانيون لاحياء جوهر الادب القديم . ولم يحقق هؤلاء الادباء ، عمداً او عن غير قصد ، إلا عملاً دعائياً وليس علمياً : وهكذا غدا لجهدهم غاية توجيهية ونادى بأهداف كونفوشيانية رسمية قالوا إنها تنتسب الى العهود القديمة ولكنها فرضت بالفعل فرضاً .

واكتسب منذ ذاك الوقت رجال الأدب أهمية كبرى كان قد حرمهم منها شن – هوانغ – تي وملوك الهان الأولون . وفرض الكونفوشيانيون على طلاب الوظائف الادارية تقديم امتحان ؛ وأضيفت الى الكتـابة « العصرية » او الشعبية (كين – ون) – التي كانت قد ساعدت على ازدهارالتجارة – كتابة علمية (كو – ون) أدت الخدمات الى رجال العلم دون سواهم . ونالت المؤلفات « العلمية » – ولم يذكر غالباً اسم واضعها – استحساناً متزايداً . ولكن أفسح هـذا الامر المجال رحباً امام المناقشات التي لا تعرف حداً ، والى الجدال المدرسي والتنافس السياسي إذ وقف الكونفوشيانيون جهدهم على خدمة القضيـة الامبراطورية . وتصارع بشدة مشايعو الكين – ون والمتحزبون للكو – ون ومفسرو (وي – شو) النصوص القانونية المجددة . وقد فاز المنتصرون للكو – ون (نصف القرن الثـالث المسيحي) . وبما لهؤلاء من نفوذ وسطوة غدت التعـاليم الكونفوشيانية الفلسفة الرسمية ، وكوّن القائلون بها طبقة نبيلة جديدة نفذ أعضاؤها الى مجلس الامبراطور ومهدت السبيل امام رجـال الادب لمراقبة الحكومة . وقد رسخت هذه النظرية الجديدة على يد تونغ تشونغ شو خاصة (مات حوالي سنة ١٠٠ ق. م.) .

ونشهد إذ ذاك ازدهاراً في الآداب الصينية : رجال نثر موهوبون – ومنهم كيا يي (١٩٨ – ١٦٦ ق. م.) – وناشرون (ليو هينغ ٧٧ – ٦ ق. م.) – وشعراء (سو – ماسيانغ – جو الذي مات سنة ١١٧ ق. م. ويانغ هيونغ سنة ٥٢ ق. م. الى سنة ١٨ بعدالمسيح) – ومؤرخون ورواة (سو – ماتسيان ١٤٥ – ٨٦ ق. م.) ... وهؤلاء الأدباء جميعهم هم فخر عصر الهان . وعرف الشعر خاصة تجدداً ارسى أسس القصيدة الصينية للأجيال اللاحقة ، ونجدهم في الفترة التي

تتراوح ما بين ١٩٦ و ٢١٩ بعد المسيح يخوضون في مختلف المواضيع التي سيعيدون البحث فيها فيا بعد . وفي الوقت نفسه يتبلور ميلهم نحو جمال الاسلوب فتظهر إذ ذاك « قواعد الألحان » — والتي ستصبح اجبارية في الزمن اللاحق .

الفنون والتقنيات

إننا نجد نزعتهم الى الجمال الحسي في مجال الفن ايضاً وقد دعمتها امكاناتهم على تحقيق الأحسن، تلك الامكانات التي ساعدتها الظروف. وتحتفظ المصنوعات النحاسية التي تلت عهد التشاو بنفس المواضيع الحيوانية وتخضع لنفس القوانين، ولكن هناك روحاً جديدة تبث الحياة فيها : فعوضاً عن نقوش فن التشاو النـــافرة وأشكاله الفظة نرى رسوما مستقيمة تتشابك فيها الاجزاء المستوية الشكل والاقسام التي تملؤها خطوط ملتوية فيظهر الفن في تناسق وتناغم الملء والفراغ واتحاد الاشكال الحيوانية والزخرفة الهندسية . انها نقوش قوية وحيوية كزميلاتها السابقة ولكنها أكثر وضوحاً وليونة. وأشكال الاواني هي أكثر بساطة واستدارتها أكثر نقاوة . ويبدو بكل وضوح في حلقات الزنانير التي نقشت عليها نقوشاً دقيقة أثر علاقات الصينيين مع البرابرة الهون . وتثبت هذه الحلى والمرايا واواني المائدة النحاسية ذوقاً دقيقاً وشعوراً حقيقياً .

وتتكاثر التأثيرات الغريبـــة وتظهر بكل وضوح في صناعات عدة وذلك لازدهار التجارة الصينية أيام الهان واتساع الامبراطورية وللعلاقات التي توطدها الصين مع الغرب . وقد صهرت هذه التأثيرات في البوتقة الوطنية وغدت صينية تماماً . ان الفن ايام الهـــان — أقله في الآثار التي وصلت الينا — هو أكثر تشعباً من الفنون السابقة : فقد أضافوا الى المرايا واواني المائدة النحاسية وأدوات الزينة التقليدية هندسة تشييد الابنيــة للموتى ، ونقوشاً نافرة ، وسلسلة أشياء صنعوها من الفخار المشوي ، ونمــاذج أولية للفن الخزفي المزخرفة بالمينا ، وأقمشة حريرية ، وأدوات من اللك المزينة بالنقوش . وتميط هذه الصناعات اللثام عن تقـــدم كبير في استثمار المواد المختلفة ، وابحاث سيكون لها نتائجها الباهرة ، وتقدير مستمر لحقيقة الأمر. وهكذا فانهم يزينون النحاس بالذهب والفضة ، ويرصعونه بالمينا واللك والحجارة الثمينة (الفيروز والدهنج واليشب) . ومن مميزات الفن ايام الهان حرية كـــبرى في التأليف وترسيخ الخطوط وحماسة وحياة في الاشكال وتذوق عميق مليء بالليونة للحقيقة الطبيعية. ان هذا الفن هو خير انعكاس لعهد جذاب تأسست فيه الوحدة الصينية بالاستناد الى مجتمع مجـــدد ، يحب البذخ والرفاهية ، ويعشق الجمال ، قوياً كان أو دقيقاً ناعماً .

الخاتمة

ان هذا الكتاب يهمل درس أكثر من حضارة نسبة لاتساع العهد الذي يبحث فيه أعني منذ ان وجد الانسان على الارض حتى ظهور العهد المسيحي . وكان لا بد من بعض التضحية وذلك لانعدام الآثار والمصادر : ولن نستطيع إلا في زمن لاحق الكتابة عن بعض الشعوب التي عاشت في قارات فسيحة إلا بعد ان ينهتك ستر دياجيرها وتشع عليها الأنوار التاريخية الاولى . وقد نفسر أمراً معقولاً فرض علينا تضحيات اخرى موقتة : إذ كيف لا نبقى لدراسة واحدة تاريخ روما وشعوب الغرب المتوسطي الذي غدت حضارتها ، في القرون القديمة ، صورة لحضارة روما تلك ؟

ومع هذا غدا لزاماً علينا ان ندرس بالتتابع اثنتي عشرة حضارة . وقد أجبرنا على تتبع تطور البعض منها في مراحله المختلفة ، هذا التطور الجذري العميق الذي يحرم علينا من ثم اعتبارها كوحدة لا تتجزأ . وفي مثل هذا المحيط الجغرافي الضيق لن يبرز قط درس الحضارات ، في عصور التاريخ اللاحقة ، مثل هذه الصفة في التنوع والتجزئة . وهذا الأمر أكيد لا ريب فيه .

وان توغلنا في عصور ما قبل التاريخ الاكثر قدماً ، يصبح هذا الاعتبار أشد وطأة إذ ان نقطة الانطلاق كانت وحدة الشعوب في تكوينها الطبيعي وحياتها المادية والروحية . وهكذا يبدو بأن تطور الحضارة وتقدمها قد وضعا حواجز بين الامم ، واهابا بها الى تشييد حضارات استقرت على ما بينها من تضاد .

وقد حصل فيما بعد تقارب واندماج . ولكن لم يمنع هذا المصير ، نتيجة الارادة كان او عوامل الحروب ، من تكوين ثلاثة عوالم : عالم الشرق الادنى ، وعالم الهند وعالم الصين . وعندما بدأ العهد المسيحي ، كان كل منهم قد أرسخ وجوده وخصائصه منذ قرون عدة : وباستثناء مقاطعاتهم المتجاورة لم تقم فيما بينهم إلا علاقات لم تمس الجوهر . ولم يكن هناك تأثير مشترك أصاب الكنه . وعندما وجدت الامبراطورية الرومانية غدت هذه العلاقات اكثر عدداً وأوسع مدى ، ولكن بقيت مع هذا سطحية محصورة ضمن نطاق تبادل السفراء الوقتي او المواد او المصنوعات الفنية القيمة . وسينقضي وقت طويل قبل ان تتخذ لها مجرى آخر . ان التناقض بين هذه العوالم الثلاثة قد اصبح ، مدة قرون إن لم يكن آلاف السنين ، من المعطيات الأساسية لتاريخ الحضارات .

وهناك حقيقة اكثر رسوخاً إذ يخضع كل شيء انساني لظروف الزمان وتغيير القوانين . فأثناء الفترة الطويلة جداً التي كانت موضوع بحثنا في هذا المؤلف خضع العالم الهندي مثل العالم الصيني للغزوات او تمتع باتساع الرقعة . وسيعرف كل منهما في القرون اللاحقة حركات اخرى من المد والجزر . وقد تطورت حضارتهما وستطور ايضاً . ولكن منذ أواخر الألف الثاني ق. م. وعندما ثبتت القبائل الآرية قدمها في الهند حصل تطور هذين العالمين الثقافي دون حوادث تبدل او انقلاب فجائية ، وذلك بصورة مستقلة وبتأثير القوى الداخلية وحدهـا . ولا نجد للصين او للهند ما ندعوه « القرون القديمة » اعني ذاك الطور التاريخي الذي يستحق اسمه ان قابلنـاه « بالقرون الوسطى » التي تلتها « النهضة » . فللهند وللصين بدء تاريخ فقط . وان كانت القرون التي سبقت العهد المسيحي تختلف عن سواها فذلك لأن هذه القرون شاهدت تكوين الحضارتين الهندية والصينية ، وكل منهما مدعو الى الاستمرار ، حتى زمن قريب جداً منا ، على نهج حيـاة قد تبدو ثابتة لا تتغير معالمها .

ويختلف الأمر إن نظرنا الى العالم المتوسطي . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين خاصة كان لهذا العالم حضاراته التي نشأت في اطار ضيق وعاشت على نفسها ومن حيويتهـا دون أي جلب من الخارج. لقد كان لهذا العالم نفس الحضارات تقريباً وهي استمرت زمناً طويلاً ، ولكنها انقرضت منذ آخر القرون القديمة على أبعد حد . وقد قضت عليها شيخوختها دون شك ، هذا إن لم نقل بالاولى بأنه قد أصابها الكسح ، وأذابت حيويتها وخنقتها حضـارات أقل عهداً وذات طاقات اكثر لقبول التجدد . ولقد نشأت هذه الحضارات الاخيرة في عالم غير العالم المتوسطي وفي زمن أقل قدماً. انها استثمرت تجارب الآخرين او بالأحرى كونت معظم أجزائها مما أخذته او ورثته عن الغير. ومع هذا لم تقف ميزاتها الجوهرية القليلة حائلاً دون انتصارها، ولكن عرفت بدورها الاضمحلال بتأثير قوى خارجية وجديدة .

وهكذا منذ القرون القديمة يبرز عالما الشرق الاقصى كعالمي الاستقرار والديمومة ؛ اما العالم المتوسطي ، مهد العالم الغربي الآتي ، فهو عالم الثورات الدامية والتحول المستمر . وفي القرون الاولى المسيحية التي سنخصص لها كتابنا الآتي لن يخفف مصير روما او مصير المناطق الآسيوية من هذا التناقض البيّن .

المصـــــادر

١) الشرق المتوسطي واليونان

١ – دراسات شاملة

— L. DELAPORTE, **Le Proche-Orient asiatique** (3ème éd., 1948).
— E. DRIOTON et J. VANDIER, **L'Egypte** (3ème éd., 1952).
— R. COHEN, **La Grèce et l'hellénisation du monde antique** (3ème éd., 1948).
— P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, **Antiquité** (1949), t X, **Histoire de l'art.**
— L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, **Antiquité** (1937) t. XII **Atlas historique.**
— J. DELORME, **Chronologie des civilisations** (1949).
— P. JOUGUET, J. VANDIER, G. CONTENAU, E. DHORME, A. AYMARD, F. CHAPOUTHIER, R. GROUSSET, **Les premières civilisations** (nouvelle rédaction, 1950).
— P. ROUSSEL, avec la collaboration de P CLOCHÉ et R. GROUSSET, **La Grèce et l'Orient, des guerres médiques à la conquête romaine** (2ème éd., 1938).
— A MORET, **Histoire de l'Orient,** 2 vol. (1929-1936).
— G. GLOTZ, avec la collaboration de R. COHEN, **Histoire grecque** t. I., **Des origines aux guerres médiques** (1952).
— t. II, par les mêmes, **La Grèce au Vᵉ siècle** (1931).
— t, III, par les mêmes, **La Grèce au IVᵉ siècle ; la lutte pour l'hégémonie,** 404-336 (1936).
— t. IV, G. GLOTZ, P. ROUSSEL, R. COHEN, **Alexandre et l'hellénisation du monde antique** (1938).
— **Encyclopédie photographique de l'art** (éditions «Tel») (1935-1938).
— CH. PICARD, **La sculpture antique** (Paris, Laurens) t. I, (1923-1926).

٢ – حول ما قبل التاريخ

— G. GOURY, **Précis d'archéologie préhistorique; origine et évolution de l'homme,** 2 t.

— H. BREUIL et R. LANTIER, **Les hommes de la pierre ancienne, paléolithique et mésolithique** (Paris, Payot, 1951).
— J. DECHELETTE, **Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine**, 2 t.

٣ – حول مصر وبلاد ما بين النهرين

— H. FRANKFORT (1948), trad. par J. MARTY et P. KRIEGER, **La royauté et les dieux ; intégration de la royauté à la nature dans la religion de l'ancien Proche-Orient** (Paris, Payot, 1951).

٤ – حول مصر

— A. MORET, **L'Egypte pharaonique** (Paris, Plon, 1932): t. II de G. HANOTAUX, **Histoire de la nation égyptienne.**
— A. ERMAN, trad. par H. WILD, **L'Egypte des pharaons** (Paris, Payot, (1939).
— A. ERMAN et H. RANKE, trad. par CH. MATHIEU, **La civilisation égyptienne** (Paris, Payot, 1952).
— A. MORET, **Le Nil et la civilisation égyptienne** (Paris, A. Michel, 1926).
— P. MONTET, **Les scènes de la vie privée dans les tombeaux de l'Ancien Empire** (Strasbourg, Istra, 1925), et **La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès, XIII^e, XII^e siècles avant J.-C.** (Paris, Hachette, 1946).
— J. VANDIER, **La religion égyptienne** (2^e éd., 1949).
— A. ERMAN, trad. par H. WILD, **La religion des Egyptiens** (Paris, Payot, 1937).
— J. SAINTE FARE GARNOT, **La vie religieuse dans l'ancienne Egypte** (Paris, P.U.F., 1948).
— CH. DESROCHES - NOBLECOURT, **Le style égyptien** (Paris, Larousse, 2^e éd., 1946).
— J. VANDIER, **Manuel d'archéologie égyptienne** (Paris, A. Picard, 2 vol., 1952-1953).

٥ – حول آسيا الغربية

— G. CONTENAU, **Manuel d'archéologie orientale, depuis les origines jusqu'à l'époque d'Alexandre** (Paris, A. Picard), t. I-III (1927-1931) ; t. IV, **Les découvertes archéologiques de 1930 à 1939** (1947).
— Du même, **L'art de l'Asie occidentale ancienne** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
— M. RUTTEN, **Arts et styles du Moyen-Orient ancien** (Paris, Larousse, 1950).

٦ – حول بلاد ما بين النهرين

— L. DELAPORTE, **La Mésopotamie, les civilisations babylonienne et assyrienne** (Paris, A. Michel, 1923).

— Du même, les chapitres sur l'Elam ajoutés à la nouvelle édition de C. Huart, **L'Iran antique** (Elam et Perse) et **la civilisation iranienne** (Paris, A. Michel, 1948)
— G. CONTENAU, **Les civilisations anciennes du Proche-Orient** (Paris, P.U.F., 2e éd., 1948).
— Du même, **La civilisation d'Assur et de Babylone** (Paris, Payot, 2e éd., 1951), et **La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie** (Paris, Hachette, 1950).
— SIR LEONARD WOOLLEY, trad. par J. LEVY, **Ur en Chaldée** (Paris, Payot, 1938).
— M. RUTTEN, **Babylone** (Paris, P.U.F., 1948).
— A PARROT, **Archéologie mésopotamienne, les étapes** (Paris, A. Michel, 1946).
— H. R HALL, **La sculpture babylonienne et assyrienne au British Museum** (Paris-Bruxelles, Van Oest. 1928)
— E. DHORME, **Les religions de Babbylonie et d'Assyrie**, dans le fasc. 2 du t I, **Les anciennes religions orientales**, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945)
— CH VIROLLEAUD, **Légendes de Babylone et de Canaan**, fasc. 1 de la coll. « **L'Orient ancien illustré** » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).

٧ — حول آسيا الصغرى

— L. DELAPORTE, **Les Hittite** (Paris, A. Michel, 1936)
— G. CONTENAU, **La civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitanni** (Paris, Payot, 2e éd., 1948).
— R. DUSSAUD, **Les religions des Hittites et des Hourrites**, dans le fasc. 2 du t I, **Les anciennes religions orientales**, de la collection « Mana » P.U.F., 1945).
— Du même, **Prélydiens, Hittites et Achéens** (Paris, Genthner, 1953).

٨ — حول فارس

— C. HUART et L. DELAPORTE, ouvrage cité plus haut pour la Mésopotamie (éd. 1952).
— A. T. OLMSTEAD, **History of the Persian empire, Achaemenid period** (Chicago, The University of Chicago Press, 1948).
— J. DUCHESSE - GUILLEMIN, **Zoroastre**, étude critique avec une traduction commentée de Gâthâ (Paris, G.-P. Maisonneuve, 1950).
— R. GROUSSET, E. BENVENISTE, etc., **La civilisation iranienne** (Paris, Payot, 1952).
— F. SARRE (1922), trad par P. BUDRY, **L'art de la Perse ancienne** (Paris, Crès, 1924).

٩ — حول الإيجيين

— G. GLOTZ, **La civilisation égéenne** (Paris, A. Michel, réédition procurée par P. Demargue en 1953).

— CH PICARD, **Les religions préhelléniques,** fasc. 1 du t. II., **Les religions de l'Europe ancienne,** de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).
— J. CHARBONNEAUX, **L'art égéen** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1929)

١٠ - حول كنعان ، سوريا ، العبرانيين

— G. CONTENTAU, **La civilisation phénicienne** (Paris, Payot, 3e éd., 1949)
— R. DUSSAUD, **L'art phénicien au IIe millénaire** (Paris, Geuthner, 1949).
— A. DUPONT-SOMMER, **Les Araméens,** fasc. 2 de la collection « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).
— R. DUSSAUD, **Les religions... des Phéniciens et des Syriens,** dans le fasc. 2 du t. I, **Les anciennes religions orientales,** de la collection « Mana » (Paris, P.U.F , 1945).
— CH. VIROLLEAUD, **Légendes...** ouv. cité plus haut pour la Mésopotamie.
— A. BERTHOLET, **Histoire de la civilisation d'Israel** (Paris, Payot, 1929).
— AD. LODS, **Israel, des origines au milieu du VIIIe siècle, et Des prophètes à Jésus ; les prophètes d'Israel eles débuts du judaïsme** (Paris, A. Michel, 1930 et 1932).

١١ — حول اليونان

— J. HATZFELD, **Histoire de la Grèce ancienne,** réédition procurée par A. Aymard (Paris, Payot, 1950) et **La Grèce et son héritage** (Paris, éditions Montaigne, 1945).
— A. JARDE, **La formation du peuple grec** (Paris, A. Michel, 1923).
— M. CROISET, **La civilisation de la Grèce antique** (Paris, Payot, 1932).
— G GLOTZ, **Le travail dans la Grèce antique** (Paris, Alcan, 1920).
— P. CLOCHE, **Les classes, les métiers, le trafic** (Paris, Belles-Lettres, 1931).
— L. GERNET et A. BOULANGER, **Le génie grec dans la religion** (Paris, A. Michel, 1932).
— M. P. NILSSON, **Geschichte der griechischen Religion** (Munich, C. H. Beck, 2 vol., 1941 et 1951).
— H. MARROU, **Histoire de l'éducation dans l'Antiquité** (Paris, Editions du Seuil, 1948).
— A. et M. CROISET, **Histoire de la littérature grecque** (Paris, de Boccard, 5 vol., 3e éd., 1910-1921).
— L. ROBIN, **La pensée grecque et les origines de l'esprit scientifique** (Paris, A. Michel, 1923).
— CH. PICARD, **Manuel d'Archéologie grecque. La sculpture** (Paris, A. Picard) t. I, **Période archaïque** (1935), t. II, **Période classique,** Ve siècle (2 vol., 1939); t. III, **Période classique** (IVe siècle), première partie (2 vol., 1948).
— H. LECHAT, **Sculptures grecques,** album commenté (Paris, Hachette, 1925) et un exposé rapide et précis, **La sculpture grecque** (Paris, Payot, 1927).
— CH. DUGAS, **La céramique grecque** (Paris, Payot, 1924).

١٢ – حول اليونان في العهد القديم

- J. BURNET (1914), trad. par A. RAYMOND, **L'aurore de la philosophie grecque** (Paris, Payot, 1919).
- P.-M. SCHUHL, **Essai sur la formation de la pensée grecque.** Introduction historique à une étude de la philosophie platonicienne (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, **La sculpture grecque archaïque** (Paris, éditions de Cluny, 1939).

١٣ – حول اليونان في العهد الكلاسيكي

- G. GLOTZ, **La cité grecque** (Paris, A. Michel, 1928).
- V. MARTIN, **La vie internationale dans la Grève des cités (VIe-IVe siècle avant J.-C.)** (Paris-Genève, 1940).
- CH. PICARD, **La vie privée dans la Grèce classique** (Paris, Rieder, 1931), ou **La vie dans la Grèce classique** (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, **La sculpture grecque classique** (Paris, Editions de Cluny, 2 vol., 1943-1945).

١٤ – حول اليونان في العهد الهليني

- M ROSTOVTZEFF, **The social and economic history of the Hellenistic world** (Oxford, Charendon press, 3 vol, 1941)
- P JOUGUET, **L'impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient** (Paris, A. Michel, 1926).
- W. W. TARN, trad par E. J. LEVY, **La civilisation hellénistique** (Paris, Payot, 1936).
- E. BIKERMAN, **Institutions des Séleucides** (Paris, Geuthner, 1938).
- CL. PREAUX, **L'économie royale des Lagides** (Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1939), et **Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon** (Bruxelles, Office de Publicité, 1947).
- P. ROUSSEL, **Délos** (Paris, Belles-Lettres, 1925).
- A.-J. FESTUGIERE, **Epicure et ses dieux** (Paris, P.U.F., 1946).

٢) حول آسيا الشرقية

١ – دراسات عامة

- RENE GROUSSET, J. AUBOYER, J. BUROT, **L'Asie orientale des origines au XVe siècle** (Paris, P.U.F, 1941).
- J. SION, **L'Asie des moussons** (Paris, A. Colin, 1929).

٢ — حول الهند

— L. BACHHOFER, **Early Indian Sculpture,** 2 vol. (Paris, 1929).
— G. COMBAZ, **L'Inde et l'Orient classique,** t. I, 2 vol. (Paris, 1937).
— G. COURTILLIER, **Les anciennes civilisations de l'Inde** (Paris, A. Colin, 1930).
— A. FOUCHER, **Beginnings of Buddhist Art** (Paris, 1917).
— A. FOUCHER et SIR J. MARSHALL, **The monuments of Sânchî,** 3 vol. (Calcutta, 1940).
— A. FOUCHER, **La vie du Bouddha** (Paris, Payot, 1949).
— L. DE LA VALLEE-POUSSIN, **L'Inde au temps des Maurya et des Barbares, dans l'Histoire du monde,** t. III, (Paris, de Boccard, 1930).
— E. MACQAY, **La civilisation de l'Indus,** trad. A. et H. COLIN-DELAVAUD (Paris, Payot, 1936).
— P. MASSON-OURSEL, H. DE WILLMAN-GRABOWSKA et STERN, **L'Inde antique et la civilisation indienne** (Paris, Albin Michel, 1933);
— L. RENOU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, **L'Inde classique,** t. I (Paris, Payot, 1947-1949).

٣ — حول الصين

— CREEL, **Naissance de la Chine,** trad. M. CLERC-SALLES (Paris, Payot, 1937).
— M. GRANET, **la civilisation chinoise** (Paris, Albin Michel, 1929).
— R. GROUSSET, **La Chine et son art** (Paris, Plon, 1951)
— B. KARLGREN, **Prehistory of the Chinese, Bull. of the Museum of Far-Eastern Art,** N° 15 (Stockholm, 1943)
— H. MASPERO, **La Chine antique,** t. IV de l'**Histoire du monde** (Paris, de Boccard, 1927).
— DU même, **La vie privée à l'époque des Han, Revue des arts asiatiques,** t. VII (Paris, 1932).
— Du même, **Les religions chinoises,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVIII (Paris, 1950).
— Du même, **Le taoïsme,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVII (Paris, 1950)
— Du même, **Etudes historiques,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t LIX (Paris, 1950).
— A. RYGALOFF, **Vie de Confucius** (Paris, P.U.F., 1946).
— A. WALEY, **Trois courants de la pensée chinoise,** trad. G. DENIKER (Paris, 1949).

جدول زمني مقارن

ان التوقيت القديم غير أكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى الاكتفـــاء ببعض الاشارات الغامضة من جهة والى بعض المصطلحات من جهة اخرى :

- إن كلمة « حوالي» بصدد العهود القديمة ، لا تشير الى التـاريخ، بل الى توقيت تقريبي : فالتفاوت قد يبلغ قرناً أو قرنين أو أكثر أحياناً .

- إن كلمة « تقريباً » تشير الى تفاوت أقل اتساعاً في الزمن : بـــين نصف قرن وعشر سنوات على وجه التقريب .

- إن علامة الاستفهام (؟) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٢٤٥ – ٤٢٤٢	الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري			
حوالي ٤٠٠٠		اولى حضارات بلاد ما بين النهرين		
حوالي ٣٥٠٠			بدء الحضارة العيلامية	
حوالي ٣٢٠٠	المملكة الموحدة في مصر			
٣٢٠٠ – ٢٦٠٠		الطور السومري الاول ؛ مدن لاغاش وأور وأوروك الخ تتحارب . تسلل الساميين الى بلاد بابل		
حوالي ٣٠٠٠				
بدء الالف الثالث				بدء العلاقات الوثيقة بين جبيل ومصر
من ٢٨٠٠ – الى ٢٢٠٠ تقريباً	مملكة منف القديمة			
٢٧٥٠				التاريخ التقليدي لتأسيس صور
٢٧٢٣–٢٥٦٣ (؟)	السلالة الرابعة ، ويبني ملوكها الثاني والثالث والرابع خوفو وخفرع ومنكورع الاهرام الكبرى			
٢٦٠٠ – ٢٤٠٠		طور أكاد . في البدء يؤسس سرجون مملكة أكاد السامية، وله نفوذ كبير على آسيا الداخلية ؛ تقضي على المملكة غزوة من القبائل الجبلية		
٢٦٠٠			سرجون الاكادي يخضع بلاد عيلام	
حوالي ٢٥٠٠ – ١٥٠٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٤٢٤٥ — ٤٢٤٢
			حوالي ٤٠٠٠
			حوالي ٣٥٠٠
			حوالي ٣٢٠٠
			٣٢٠٠ — ٢٦٠٠
استمرار حضارة العصر الحجري الجديد في اليونان، وبدء استعمال المعادن في جزيرة كريت			حوالي ٣٠٠٠
			بدء الالف الثالث
			من ٢٨٠٠ — الى ٢٢٠٠ تقريباً
			٢٧٥٠
			٢٧٢٣—٢٥٦٣(؟)
			٢٦٠٠ — ٢٤٠٠
			٢٦٠٠
	حضارة وادي الهنـــدوس (موهنجو – دارو ، هرابا) لم تفسر بعد الكتابة	سلالة الهيا (١٩٨٩؟ - ١٥٢٣؟)	حوالي ٢٥٠٠ — ١٥٠٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وإيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً	الفوضى في العهد الاول الذي يفصل بين المملكتين			
حوالي ٢٣٠٠		عودة ملك في لاغاش ، سلالة أور الثالثة	السومريون يخضعون بلاد عيلام	
٢٣٠٠ — ٢٠٠٠		الطور السومري الثاني		
من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً	دولة طيبة الوسطى			
حوالي ٢١٠٠		خراب مملكة أور	العيلاميون يقضون على مملكة أور	
٢١٠٠ — ١٩٠٠		سلالتي ايسن ولارسا وازدياد نفوذ ساميي الغرب او الاموريين		ازدهار جماعة من التجار الاشوريين في كبادوكية
حوالي ٢٠٠٠			استقرار الهندو-اوروبيين في ايران	استقرار الحثيين في الاناضول ، ازدهار اوغاريت في فينيقيا ، توسع علاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وخاصة مع العالم الايجي
من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً	السلالة الثانية عشرة ، وأشهر فراعنتها هو سنوسرت الثالث المعروف بسيزوستريس عند اليونان (١٨٨٧ - ١٨٥٠)			
٢٠٠٠ — ١٦٥٠		السلالة البابلية الاولى		
١٩٠٠ — ١٨٠٠				استناداً الى التوراة العبرانيون يجتازون سوريا وفلسطين بطريقهم الى مصر
١٨٤٠				الاشوريون سادة ماري على الفرات
أواخر القرن التاسع عشر		حكم حمورابي		

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً
عمر طروادة الثانية			حوالي ٢٣٠٠
			٢٣٠٠ — ٢٠٠٠
			من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً
			حوالي ٢١٠٠
			٢١٠٠ — ١٩٠٠
بناء القصور الاولى الكريتية			حوالي ٢٠٠٠
			من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً
			٢٠٠٠ — ١٦٥٠
			١٩٠٠ — ١٨٠٠
			سنة ١٨٤٠
			أواخر القرن التاسع عشر

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٨٠٠	استناداً الى التوراة، قدوم العبرانيين الى مصر			
١٧٣٠ تقريباً — ١٥٨٠	غزو وحكم الهكسوس. الطور الثاني الفاصل بين المملكتين			
١٧٠٠ تقريباً				
القرن السابع عشر				تأسيس مملكة الهوريين في بلاد ميتاني ؛ ازدهار الامبراطورية الحثية
١٦٥٠		الغزوة الحثيــة على بابل وقيـام السلالة الكاسية		
١٥٨٠ — ١٠٩٠	المملكة الطيبية الجديدة			
ابتداء من ١٥٨٠				حملات فراعنــة مملكة طيبية الجديدة على بلاد كنعان
١٥٨٠ — ١٣٢٠	السلالة الثامنة عشرة			
حوالي ١٥٠٠				
القرن الخامس عشر — النصف الاول من القرن الرابع عشر		تأثير مصر القوي على بلاد ما بين النهرين		
١٤٨٤—١٤٥٠ (؟)	حكم تحوتمس الثالث الذي بسط سيادة مصر حتى الفرات			
ابتداء من ١٤٨٣				غزوات تحوتمس الثالث المظفــرة وهو ينشىء الامبراطورية المصرية في آسيا

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			١٨٠٠
			١٧٣٠ تقريباً – ١٥٨٠
طهور الاخيين في ارغوليد ؛ دمار القصور الكريتية الاولى يليه بعـــد فترة قصيرة تشييد القصور الثانية			١٧٠٠ تقريباً
			القرن السابع عشر
			١٦٥٠
			١٥٨٠ – ١٠٩٠
			ابتداء من ١٥٨٠
			١٥٨٠ – ١٣٢٠
أرج عظمة دولة مينوس البحرية	وصول الآريين الى حوض الهندوس	سلالة الشانغ (١٥٢٣ ؟ – ١٠٢٨) وقد دعوا الـ «ين» منذ سنة ١٣٠٠	حوالي ١٥٠٠
			القرن الخامس عشر – النصف الأول من القرن الرابع عشر
			١٤٨٤–١٤٥٠ (؟)
			ابتداء من ١٤٨٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)
١٤٠٠ تقريباً	خروج العبرانيين		
١٣٨٨ — ١٣٥٠ تقريباً			
١٣٧٠—١٣٥٢ (؟)	حكم امنوفيس الرابع ـ اخناتون طور تل العمارنة	تضعضع الامبراطورية المصرية في آسيا	
١٣٢٠ — ١٢٠٠ تقريباً	السلالة التاسعة عشرة		
القرن الثالث عشر			
القرنان الثالث عشر والثاني عشر		عصر العظمة الأشورية الاول : حوالي سنة ١٢٧٠ يجتاز شلمصر الاول الفرات. من سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٤٠ حكم توكولتي ـ بينورتا الاول الذي ينتصر في كل حملة ويستولي على بابل . حوالي سنة ١١٠٠ يبلغ تغلث فلاصر الاول البحر الابيض المتوسط في فينيقيا	
النصف الثاني من القرن الثالث عشر			
١٢٩٨ — ١٢٣٢ (؟)	حكم رعمسيس الثاني الذي ينتصر في قادش في فلسطين ويعقد تحالفاً مع الحثيين		
سنة ١٢٧٨			
ابتداء من ١٢٣٠	هجمات « شعوب البحر »		

بلاد كنعان وسوريا والاناضول	العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
نصوص اوغاريت الدينية . تحركات الشعوب الكبيرة . استقرار العبرانين في فلسطين . الشعوب البحرية تبتـــدىء بالتحرك . تزعزع الامبراطورية المصرية	دمار قصر كنوسوس . ذروة ازدهار الحضارة الميسينيـــة والمملكة الآخية			١٤٠٠ تقريباً
حكم الملك الحثي سوبيلوليوما الذي يبسط سلطانه على ميتاني ويصل الى فلسطين				١٣٥٠ — ١٣٨٨ تقريباً
تضعضع الامبراطورية المصرية في آسيا				١٣٥٢-١٣٧٠ (؟)
				١٢٠٠ — ١٣٢٠ تقريباً
				القرن الثالث عشر
ناروس احيرام في جبيـــل ؛ وجود الابجدية الفينيقة				
				القرنان الثالث عشر والثاني عشر
	التاريخ الذي اعتمدته القرون القديمة لحرب طروادة			النصف الثـاني من القرن الثالث عشر
				١٢٣٢-١٢٩٨ (؟)
				سنة ١٢٧٨
بعد صراع رعمسيس الثاني مع الحثيين تقاسم النفوذ بين الفراعنة والملوك الحثيين ؛ وقد هددتهم جميعـــا حركات شعوب حوض المتوسط الشرقي				ابتداء من ١٢٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر				اقامة الفلسطيين على شاطىء فلسطين والآراميين في سوريا
قبل ١٢٠٠				تقهقر الامبراطورية الحثية ، انشاء الدولة الفريجية في وسط آسيا الصغرى
ابتداء من القرن الثاني عشر				
القرن الثاني عشر – القرن الحادي عشر				حروب العبرانيين ضد الفلسطيين
١١٧٥		ملك عيلام شوتروك ناخونتيه الاول يغزو بلاد بابل		
انتهاء القرن الحادي عشر – ابتداء القرن العاشر				حكم الملكين داود وسليمان حكم احيرام ملك صور
القرن الحادي عشر – القرن السابع	فوضى ، حكم رؤساء كهنة امون ، السلالات الليبية والنوبية			
١٠٢٧				
٩٦٦(؟)–٩٥٩(؟)				بناء هيكل اورشليم
بعد ٩٣٥ (؟)				انقسام ممالك اسرائيل ويهوذا
من القرن التاسع – القرن السابع		الفتوحات الاشورية الكبرى	منذ القرن التاسع غزوات الاشوريين المتكررة على بلاد عيلام	غزوات الملوك الاشوريين اخضاعهم ارمينيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر
			قبل ١٢٠٠
الغزو الدوري		نفان يانغ عاصمة الهوبان	ابتداء من القرن الثاني عشر
			القرن الثاني عشر ـ القرن الحادي عشر
			١١٧٥
			انتهاء القرن الحادي عشر ـ ابتداء القرن العاشر
			القرن الحادي عشر ـ القرن السابع
		سلالة التشاو (١٠٢٧ - ٢٥٦) الانتاج (؟) الادبي الاول	١٠٢٧
			٩٦٦(؟)ـ٩٥٩(؟)
			بعد ٩٣٥ (؟)
			من القرن التاسع ـ القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٩٠٠ -- ٧٠٠				
حوالي ٨٠٠				
القرن الثامن				نبوءات عاموس واشعب
٧٧٦				
٧٧١				
منتصف القرن الثامن ـ آخر القرن السادس				
النصف الثاني من القرن الثامن				
٧٤٧		اعتماد الحلقة المكونة من ١٩ عاماً للتقويم البابلي		
٧٢١ — ٧٠٥		حكم سرجون الثاني الاشوري		
٧١٥			ابتداء المملكة المادية	
٧١٠				سرجون الثاني الاشوري يقضي على دولة العمرانيين
آخر القرن الثامن				
القرن السابع				التنافس بين المصريين والبابليين في فلسطين . نبوءات ارميا .

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الأواني الخزفية الهندسية			٩٠٠ — ٧٠٠
	امتداد العنصر الآري نحو الغانج، الاوبانيشاد الاساسية		حوالي ٨٠٠
			القرن الثامن
بدء جدول المنتصرين في الالعاب الاولمبية			٧٧٦
		سقوط عاصمة التشاو بيد برابرة الغرب . تأليف تقويم الربيع والخريف : بين ٧٧٢ و ٤٨١	٧٧١
الاستعمار اليوناني . تأسيس كوم في كمبانيا (٧٥٠) وسرقسطة (٧٣٣) وترنت (٧٠٨) وبيزنطية (٦٦٠) ومرسيليا (٦٠٠) ونكراتيس (بعد ٥٦٩ بقليل)			منتصف القرن الثامن ـ آخر القرن السادس
قصائد هوميروسية			النصف الثاني من القرن الثامن
			٧٤٧
			٧٢١ — ٧٠٥
			٧١٥
			٧١٠
هسيود			آخر القرن الثامن
أدوات الفخار ذات الطابع الشرقي. ابتداء النقد في اليونان			القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٨٥ ؟				ايام جيفس ، حكم سلالة المرمناده في ليدية. ظهور النقود في آسيا الصغرى
٦٧١	اسرحدون الاشوري يخضع مصر السفلى			
٦٦٥	اشوربانيبال يخضع مصر العليا			
٦٦٨ — ٦٢٦		حكم اشوربانيبال		
٦٦٣ — ٦٢٥	السلالة السادسة والعشرون الصائية			
٦٤١			اشوربانيبال يستولي على سوزه ويدمرها	
٦٢٦ — ٥٣٩		المملكة البابلية الجديدة		
٦٢١				اصلاح عزيا الديني في مملكة يهوذا وكما تقول التوراة نشر سفر تثنية الاشتراع
٦١٤		الماديون يدمرون اشور	تحالف الماديين والبابليين ضد الاشوريين	
٦١٢		دمار نينوى على يد الماديين والبابليين		
نهاية القرن السابع بدء القرن السادس				
٦٠٥ — ٥٦٢		ملك نبوخذنصر في بابل		
القرن السادس				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٦٨٥ ؟
			٦٧١
			٦٦٥
			٦٦٨ — ٦٢٦
			٦٦٣ — ٦٢٥
			٦٤١
			٦٢٦ — ٥٣٩
(؟) قوانين دراغون في اثينا			٦٢١
			٦١٤
			٦١٢
سافو وألسي			نهاية القرن السابع وبدء القرن السادس
			٦٠٥ — ٥٦٢
	التوســع الآري نحو الشرق والجنوب . زعامة مغدها		القرن السادس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٩٧				استيلاء نبوخذنصر على اورشليم
٥٩٤ (?)				
٥٨٨				دمار الهيكل . « سبي بابل » ونبوءة حزقيال
٥٨٥				الحرب ثم التحالف بين الماديين والليديين
٥٦٦				
٥٦١ (?) – ٥١٠				
٥٦٠ – ٥٤٦ (?)				حكم كرسوس في ليديا
٥٥٩ (?) – ٥٣٠			كورش ملك الفرس	
٥٥٩				
٥٥٥ تقريباً (?)				
حوالي ٥٥٣ (?)				
٥٥١ (?)				
النصف الثاني من القرن السادس				
٥٤٩ – ٣٣٠			العهد الفارسي	
٥٤٩			إخضاع كورش لمملكة الماديين	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
			٥٩٧
قوانين صولون في اثينا			٥٩٤ (؟)
			٥٨٨
٢٨ ايار : الكسوف الذي تنبأ به تاليس			٥٨٥
تأسيس اعياد باثينا الكبرى			٥٦٦
حكم الظالم بستترات واولاده في اثينا			٥٦١ (؟) ـ ٥١٠
			٥٦٠ ـ ٥٤٦ (؟)
	حكم كورش، قاهر كبيشا « كابول »		٥٥٩ (؟) ـ ٥٣٠
	ميلاد بوذا		٥٥٩
هيكل ارتميس في افسس			٥٥٥ تقريباً
	ابتداء حكم بيمبيسارا		حوالي ٥٥٣ (؟)
		ميلاد كونفوشيوس	٥٥١ (؟)
زوال عز الآنية الفخارية الكورنثية بعد خضوع آسيا الصغرى للفرس . هجرة رجال الفن والادب «كسنوفان» نحو اوربا			النصف الثاني من القرن السادس
			٥٤٩ - ٣٣٠
			٥٤٩

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٤٦ (؟)			استيلاء كورش على آسيا الصغرى	
٥٤٠ (؟)				
٥٣٩ — ٣٣١		السيادة الفارسية		
٥٣٩		كورش يستولي على بابل		انتهاء سبي بابل
٥٣٤				
٥٣٢ — ٥٢٢				
حوالي ٥٣٠			سنة ٥٣٠ موت كورش أثناء حملة في الشمال الشرقي من ايران	
٥٣٠ — ٥٢٢			حكم قمبيز	
٥٢٥ — ٣٣٢	الحكم الفارسي			
٥٢٥	خضوع مصر لملك الفرس قمبيز			
٥٢٢ — ٤٨٦			حكم الملك داريوس الاول	
٥١٩ — ٥١٨	داريوس الاول في مصر. اصلاح القناة ما بين النيل والبحر الاحمر			
٥١٨			نقوش بهستون	
٥٠٧				
آخر القرن السادس- بدء القرن الخامس			حملا بأوامر داريوس رحلة سكيلكس	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٥٤٦ (؟)
	ولادة جينا مؤسس الديانة الجائنية		٥٤٠ (؟)
			٥٣٩ — ٣٣١
			٥٣٩
اول سباق دموي بأثينا في أعياد ديونيسوس			٥٣٤
طغيان بوليكرات في ساموس . ذهاب بيتاغور الى ايطاليا الجنوبية			٥٣٢ — ٥٢٢
الاواني الاولى ذات الوجه الاحمر . توسيع هيكل هيكاتومبيدون في آثينا			حوالي ٥٣٠
			٥٣٠ — ٥٢٢
			٥٢٥ — ٣٣٢
			٥٢٥
			٥٢٢ — ٤٨٦
			٥١٩ — ٥١٨
	انتصارات داريوس في شمالي الهند		٥١٨
قوانين كليستين في اثينا			٥٠٧
نشاط هركليت الادبي وهيكله المبلي . تثليات اشيل الاولى . قصائد بندار الاولى			آخر القرن السادس — بدء القرن الخامس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٩٠				
٤٨٦ — ٤٦٥	إبتداء من سنة ٤٨٦ ثورة مصر على الفرس		ملك كسرخوس الاول	
حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (؟)				
٤٨٣				
٤٨١				
٤٨٠				
٤٧٩				
٤٧٨ (؟)				
٤٧٧				
٤٧٤				
حوالي ٤٧٠				
٤٦٨				
٤٦٢				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
الحرب المـــادية الاولى . هزيمة الفرس في مراثون			٤٩٠
			٤٨٦ — ٤٦٥
	بدء حكم اجاتشاترو		حـــوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)
ثينا تبتدىء ببنـــاء اسطول حربي عظيم			٤٨٣
		الممالك المتحاربة (٤٨١-٢٢١)	٤٨١
الحرب المادية الثانية . انكسار الفرس في سلامين . وفي هـــذا اليوم انتصار حاكم سرقسطة على القرطاجيين في هيار		حيـــاة الفيلسوف مورلسو (سنة ٤٨٠ – ٤٠٠) تقريباً	٤٨٠
معركة بلاتيه التي تطرد الفرس من اليونان . معركة ميكال التي تحرر يونانيي آسيا من حكم الفرس		موت كونفوشيوس (?)	٤٧٩
	موت (نرفانا) بوذا		٤٧٨ (?)
تأسيس حلف ديلوس الذي يغدو مستعمرة لأثينا بسبب الحرب ضد الفرس ثم ضد سبرطة			٤٧٧
انتصـــار حـاكم سرقسطة على الاتروسك في كوم			٤٧٤
مولد سقراط			حوالي ٤٧٠
تفوق سوفوكل على اشيـــل في المسرح التمثيلي	موت جينا (?)		٤٦٨
اصلاحات افيالت الديموقراطية في اثينا . باغتيال افيالت بعد مدة وجــيزة يصبح بركليس زعيم الحركة الديموقراطية . بدء حرب اثينا ضد سبرطة			٤٦٢

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٤٦٠				
٤٥٦				
٤٥١				
بعد ٤٥٠ بقليل				
٤٤٨				
٤٧٤				
٤٤٦ (؟)				
٤٤٣				
٤٤٠				
٤٣١				
٤٢٩				
٤٢٧				
٤٢٣				
٤٢١ — ٤١٣				
٤١٥ — ٤١٣				
٤٠٦				
٤٠٥ — ٣٦٧				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
تأسيس المسابقات للتمثيليات الهزلية في اثينا			حوالي ٤٦٠
اولى مسرحيات اوربيدوس			٤٥٦
قانون حقوق المواطن في اثينا			٤٥١
الصلح بين اثينا والفرس ثم بينها وبين سبرطة			بعد ٤٥٠ بقليل
تمثال زفس بيد فيدياس في اولمبيا			٤٤٨
بدء اعمال الاكربول في اثينا . تشييد البارثنون (٤٤٧ - ٤٣٨) والاركثيون (٤٣٥ - ٤٠٧) وهيكل اثينا المنتصرة (بدء الاعمال به سنة ٤٢٠)			٤٧٤
هيرودوتس يقيم في اثينا			٤٤٦ (?)
بعد نفي زعيم المعـــارضة ، بركليس يتصرف بضرائب الامبراطورية لإقامة الاعمال العظيمة التي باشر بها ويغدو سيد اثينا . ويعاد انتخابه زعيماً لمدة ١٤ سنة دون انقطاع			٤٤٣
		انقســـام التشاو	٤٤٠
بدء حروب البلوبونيز بين اثينا وسبرطة وحلفاء كل منهما			٤٣١
موت بركليس			٤٢٩
مسرحية ارستوفان الهزلية الاولى . اقامة الاديب غورجياس في اثينا			٤٢٧
نفي توسيديد الذي يقيم في تراقيا وينهي فيها تأليف كتـــابه تاريخ حروب البلوبونيز			٤٢٣
توقف القتال رسمياً بين اثينا وسبرطة			٤٢١ — ٤١٣
غزوة اثينا لصقلية التي تنتهي بانكسارها امام سرقسطة			٤١٥ — ٤١٣
موت سوفوكل واوربيدوس			٤٠٦
طغيان دونيس القديم في سرقسطة وهو بحالة حرب مع قرطاجة . افلاطون يسافر مراراً الى سرقسطة			٤٠٥ — ٣٦٧

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٠٤				
٤٠٤ — ٣٧١				
٤٠٤ — ٤٠٣				
انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع			كتيسياس اليوناني الطبيب في بلاط فارس	
أثناء القرن الرابع				ثورات المرازبة المتعددة ضد ملك الفرس في آسيا الصغرى وفي سوريا
٤٠١ — ٤٠٠		غزوة العشرة آلاف		
٣٩٩				
٣٩٤				
٣٨٧				
٣٨٠				
٣٧٧ — ٣٥٣				موت موزول كرزبان كاريه. بعد موته تشييد قبره في هلكرناس
٣٧٧				
٣٧١				
٣٦٧		تقرير التقويم البابلي		
٣٥٩				
٣٥٤				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
بعد انكسار اعوس بوتموس زوال امبراطورية اثينـا واستسلام اثينا			٤٠٤
سيادة سبرطة في اليونان			٤٠٤ — ٣٧١
اوليغرشية الثلاثين ثم اعادة الديموقراطية الى اثينا			٤٠٤ — ٤٠٣
	كتاب القواعد بانيني		انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع
	بدء تنظيم مهابهاراتا		أثناء القرن الرابع
			٤٠١ — ٤٠٠
محاكمة وموت سقراط			٣٩٩
سبرطة تتخلى عن يونانيي آسيا فيخضعون للفرس			٣٩٤
تأسيس الاكاديمية على يد افلاطون			٣٨٧
تأبين ايزوكرات			٣٨٠
			٣٧٧ — ٣٥٣
تأسيس الحلف الاثيني الثاني			٣٧٧
انكسار جيش سبرطة في لوكترا على يد ابيمينونداس الذي يبقي حتى سنة ٣٦٢ السيادة في اليونان لطيبة			٣٧١
			٣٦٧
بدء حكم فيلبس في مقدونيا . نشوب الحرب مع اثينا (وبعد هدنة من ٣٤٦ — ٣٤٠) التي ستدوم حتى ٣٣٨			٣٥٩
اول دفاع لديموستينوس أمام مجلس الشعب في اثينا			٣٥٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٣٥٠				
٣٤٣				
٣٣٨				
٣٣٦				
٣٣٤ — ٣٢٣	سنة ٣٣٢ - ٣٣٠ الدور اليوناني. سنة ٣٣٢ وصول ذي القرنين الى مصر. سنة ٣٣١ تأسيس الاسكندرية	سنة ٣٣١ - ١٢٩ السيادة اليونانية . سنة ٣٣١ انتصار ذي القرنين على داريوس الثالث في اربيل . دخول ذي القرنين الى بابل	سنة ٣٣١ يستولي ذو القرنين على سوزه وبرسبوليس وبسرعاد واكبتان . سنة ٣٣٠ موت داريوس الثالث . سنة ٣٣٠ - ٣٢٧ غزوة ذي القرنين لإيران	سنة ٣٣٤ - ٣٣٣ نزول ذي القرنين الى آسيا الصغرى . انتصاره على الغرانيق. حادثة العقدة الغوردية . بعد انتصاره في ايسوس في كيليكيا يعود الى سوريا. ٣٣٣-٣٣٢ الاسكندر يحاصر صور ويستولي عليها .
٣٢٥			يخترق ذو القرنين ايران الجنوبية من الشرق الى الغرب . امير بحريته نيارك يجاور مجرى الهندوس على الخليج الفارسي	
٣٢٤			حفلة الزواج في سوزه	
٣٢٣	بطليموس حاكم مصر	موت ذي القرنين في بابل		بعد سنة ٣٢٣ صراع قواد ذي القرنين
حوالي ٣٢٢				
٣٢١				
٣١٣ — ٣١٢ (؟)		سلوقس حاكم بابل		
٣١٠				
٣١٠ — ٣٠٦			استيلاء سلوقس على ايران. ابرامه تحالفا مع الملك الهندي شندراغوبتا	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
		حياة منشيوس (مونغ - تسيو)	حوالي ٣٥٠
ارسطو يصبح معلم الاسكندر الذي بلغ الثالثة عشرة			٣٤٣
انتصار فيلبس في كرونيه			٣٣٨
اغتيـــال فيلبس ، بدء حكم الاسكندر			٣٣٦
سنة ٣٣٤ ارسطو يستقر في اثينا وينشىء الأكاديمية			٣٣٤ – ٣٢٣
	سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ غزوة ذي القرنين حتى ضفاف الهندوس		٣٢٥
			٣٢٤
سنة ٣٢٣ - ٣٢٢ بعد موت ذي القرنين ثورة اليونان على مقدونيا. قمع الثورة. ديموستينوس يجرع السم			٣٢٣
	سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٧٦)		حوالي ٣٢٢
اول تمثيلية هزلية لميناندر			٣٢١
	بدء حكم شندراغوبتا		٣١٣ – ٣١٢ (؟)
		بدء تأسيس مملكة تسين	٣١٠
			٣١٠ – ٣٠٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٣٠٦	يتخذ بطليموس لقب الملك	سلوقس يتخذ لقب ملك		
٣٠١				اتفاق يترك سوريا الجنوبية (سوريا المجوفة) الى بطليموس الاول ملك مصر
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث	تأسيس متحف ومكتبة الاسكندرية . مانتون الكاهن المصري يكتب تاريخ مصر الفرعونية ويحدد تعاقب السلالات	الكاهن الكلداني بيروسوس يؤلف تاريخ بلاد ما بين النهرين		يوطد بطليموس الاول وابنه بطليموس الثاني حكمهما المباشر او حمايتهما على جميع شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
٣٠٠ — ٢٣٠				
٢٨٧ — ٢١٢				
٢٨٥ (?) — ٢٤٦	حكم بطليموس الثاني . في بدء عهد هذا الحكم تشييد منارة الاسكندرية على يد المهندس سوستراتوس			
٢٨١				سلوقس الاول يخضع معظم أجزاء آسيا الصغرى ولكن السلطة على برغام تبقى الى الملك الاول الاتليدي
٢٧٩ — ٢٧٨				
حوالي ٢٧٥				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٣٠٦
			٣٠١
في أواخر القرن الرابع يتخذ بعض قواد الاسكندر لقب ملك. ازدهار رودس الاقتصادي وهي من سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٤ تدافع ضد حصار مرير. يؤسس ابيكوروس وزينون مدرستيهما في اثينا . في بدء القرن الثالث يسيطر بطليموس الاول على بحر ايجه			نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث
	سفـارة ميغستين في باتليبترا (حوالي سنة ٣٠٠)	سيون كوانغ	٣٠٠ — ٢٣٠
حياة ارخميدس			٢٨٧ — ٢١٢
			٢٨٥ (؟) — ٢٤٦
			٢٨١
غزو السلتيين لمقدونيا حتى دلف.			٢٧٩ — ٢٧٨
تثبيت العالم الهليني مع الممالك الثلاث : اللاجيون في مصر والسلوقيون في آسيا والانتيغونيد في مقدونيا . يحكم برعام ملك التليدي . وفي اليونان يتقوى الحلف الايتولي . أما الحلف الآخي الذي ألف منذ زمن قصير ، يبتدىء بالازدهار في البلوبونيز			حوالي ٢٧٥

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٢٧٥ — ١٩٤				
القرن الثالث				تتجزأ مملكة السلوقيين في آسيا الصغرى حيث يستقر الغلاطيون وحيث يفوز بالاستقلال التام ملوك بيثينيا وكبادوكيا والبنطس وبرغام . وفي هذه المدينة يتخذ اتالوس الاول لقب ملك حوالي سنة ٢٤٠ . وبعد حروب طويلة «حروب سوريا» يعجز الملوك السلوقيون عن استرجاع سوريا الجوفة من ملوك مصر اللاجيين
٢٦٤ — ٢٦١ (؟)				
٢٥٩				
٢٥٠ (؟)			ابتداء من سنة ٢٥٠ بدء حكم سلالة البرثيين الارساسيد	
٢٤٦				
حوالي ٢٤٥				
٢٢٧ — ٢٢٦ (؟)				
٢٢٣				ملك انطيوخس الثالث الذي سيعيد عز السلوقيين في آسيا الصغرى ويستولي على سوريا الجوفة منتصراً على بطليموس الخامس ويفقد هذا الاخير آخر المعاقل المصرية في آسيا الصغرى
٢٢٢				
٢٢١				
٢١٣				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
حياة ارلوستين			٢٧٥ – ١٩٤
	بدء تقرير الرامايانا	تأليف تار ـ توكنغ، مؤلف يمت الى الخرافة	القرن الثـالث
	استيلاء اشوكا على العرش		٢٦٤ – ٢٦١ (؟)
		مولد تشنغ (الذي سيصبح تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي)	٢٥٩
	اعتناق اشوكا البوذية . تصبح البكتريان مستقلة مع اليوناني ديودوت الاول		٢٥٠ (؟)
		بدء حكم تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي (٢٤٦ ـ ٢١٠). البدء ببناء السور الكبير	٢٤٦
	تأسيس الكنيسة البوذية في سيلان		حوالي ٢٤٥
سنة ٢٢٧ اصلاحـــات الملك كليومين في سبرطة	موت اشوكا		٢٢٧ – ٢٢٦ (؟)
آخر القرن الثـالث : انحطاط السلطة اللاجية التي ان يحسب لها حساب في اليونان وبحر ايجه			٢٢٣
الملك المقدوني يسحق كليومين في سلازيا			٢٢٢
		سلالة التسن (٢٢١ ـ ٢٠٧)	٢٢١
		حرق الكتب الكلاسيكية	٢١٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٢١٢ — ٢٠٥			غزوة انطيوخس الثالث الى الشرق	
٢٠٦				
٢٠٧ — ١٩٢				
انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثاني	نقل التوراة العبرية الى اليونانية في الاسكندرية			
القرن الثاني				
٢٠٠ — ١٩٦				
النصف الأول من القرن الثاني				
١٩٢ — ١٩٨				سنة ١٨٩ الرومان ينتصرون على انطيوخوس الثالث في معنزيا . معاهدة امامه (١٨٨) تفقد السلوقيين آسيا الصغرى ويعود قسمها الأكبر الى الاتليد
١٨٩				
١٨٧			موت انطيوخس الثالث في غربي ايران سنة ١٨٧ . انتهاء السيادة السلوقية على ايران . استقرار البرثيين واستقلال مملكة بكتريان اليونانية	
١٧٦				قبل سنة ١٧٦ بقليل يسعى هليودور ، وزير سلوقس الرابع للاستيلاء على كنوز هيكل اورشليم

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
الحرب المقدونيــة الاولى بين روما وفيلبس الخامس. تعقد روما معاهدات مع العالم اليوناني وترسل سفناً الى بحر ايجه			٢١٢ — ٢٠٥
		سلالة الهان (٢٠٦ ق.م. - ٢٢٠ بعده)	٢٠٦
حكومة نابيس الثورية في سبرطة			٢٠٧ — ١٩٢
			انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثـاني
	قوانين بالي . اول ذكر لطريق الحرير	قوانين شه ـ كينغ	القرن الثاني
حرب مقدونيا الثانية. انتصار فليلوس الروماني على فيلبس الخامس في كنفاليس (١٩٧) . السلم يطرد مقدونيا من اليونان			٢٠٠ — ١٩٦
بناء مذبح زفس العظيم في برغام			النصف الأول من القرن الثاني
الحروب السورية الاتليــدية . روما تنتصر على انطيوخس الثالث في ترموبيل (١٩٢) وتبسط نفوذها على الحلف الاتولي. سلطة الحلف الآخي على جميع أجزاء البلوبونيز وذلك بمساعدة روما			١٩٢ — ١٩٨
	غزوة ديمتريوس للبنجاب		١٨٩
			١٨٧
	بدء حكم شنغا (١٧٦ - ٦٤ ؟)		١٧٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٦٨ — ١٧٢				
١٦٤ — ١٧٤				حكم انطيوخس الرابع
١٦٩				انطيوخوس الرابع يتبع سياسة هلينية في فلسطين . ثورة المكابيين
١٦٨				
١٦٧				
بعد ١٦٤				الانحطاط والفوضى المتزايدتان في المملكة السلوقية أثر صراع السلالات الحاكمة ، وتقدم البرثيين وانتصارات اليهود الذين تعضدهم روما سياسياً
١٤٨				
١٤٦				
١٤٥				
١٤٠				
١٣٣				موت أتالوس الثالث الذي يهب كنوزه الى الشعب الروماني
حوالي ١٣٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الثالثة تشنها روما على الملك برسيه ؛ سنة ١٦٨ ق م – اميل يسحق برسيه في يديه	أوكراتيدس ينتزع بكتريان من ديمتريوس		١٧٢ – ١٦٨
			١٧٤ – ١٦٤
			١٦٩
	ميناندر في البنجاب (مات حوالي سنة ١٥٠ – ١٤٥) . تصل غزواته الى باتليترا		١٦٨
القضاء على مملكة مقدونيا . الرومان ينزلون باليونان عقوبات صارمة . نفي بوليب وآخرون الى ايطاليا . تعطى ديلوس الى اثينا ولكنها تبقى ميناء حراً . ازدهار ديلوس الاقتصادي التي تصبح سوق التجارة الايطالية في الشرق			١٦٧
			بعد ١٦٤
بعد القضاء على ثورة قامت في مقدونيا اخضاع البلاد وجعلها مقاطعة رومانية، يراقب حاكمها بلاد اليونان			١٤٨
بعد حرب قصيرة مع الحلف الآخي يدمر الرومان كورنثيا			١٤٦
		حياة المؤرخ سه ما تسن (١٤٥ – ٨٦)	١٤٥
		حكم وو (١٤٠ – ٨٧) اتساع الفتوحات نحو تركستان الصينية	١٤٠
			١٣٣
	يصل اليو ـ تشه الى بكتريان ويخضعونها		حوالي ١٣٠

بلاد كنعان وسوريا والاناضول	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
		انقراض السيادة السلوقية: يستولي البرثيون على بابل بدلاً من اليونان		١٢٩
بعد ان سحقت روما ثورة ارستونيكوس تأخذ على عاتقها تنظيم مقاطعة آسيا				١٢٦
				حوالي ١١٤
ميتريدات ملك البنطس . سنة ١٠٧ يستولي على مملكة البوسفور البحرية (مضيق كرتش في القرم)				١١٢
يأخذ كاهن اورشليم الاكبر ارستبولوس لقب ملك				١٠٤
				حوالي ١٠٠
				القرن الأول
				٨٨
من سنة ٨٨ - سنة ٨٤ حروب روما ضد ميتريدات				٨٨ — ٦٤
				ابتداء من ٨٠
				٧٣
				٧٠
بومبي في سوريا				٦٤

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			١٢٩
			١٢٦
		علاقات سياسية مـــع بكتريان	حوالي ١١٤
			١١٢
			١٠٤
	عمود هليودوروس في فيديشا		حوالي ١٠٠
	قوانين مانو		القرن الأول
تلبية لنداء ميتريدات مجزرة الايطاليين في آسيا الصغرى الغربية وديلوس			٨٨
حروب سيلا في اليونان ضد جيوش ميتريدات . حصـــار ودك اثينـــا (٨٧ ـ ٨٥)			٨٨ — ٦٤
	يهبط الشاكا نحو البنجاب ومالفا		ابتداء من ٨٠
		حكم سيونتي(٧٣ـ٤٩) فتوحات جديدة نحو الغرب	٧٣
	بدء حكم الاندهرا في الجنوب، انهاء ستوبا سانشي الاولى		٧٠
	بدء حكم الكانفا (٦٤ ـ ٥٠ ؟)		٦٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٣				استيلاء بومبي على اورشليم . يعيد بومبي تنظيم الشرق ، ويخلق مقاطعتي سوريا وبيثينيا الرومانيتين ، وينشيء على طول الفرات الوسط سلسلة من الدويلات التابعة ضد البرثيين
٥٣		ينتصر البرثيون على كرسوس في كار ويقتلونه		
٤٨	مقتل بومبي أمام باوزه. وصول قيصر الى الاسكندرية . بدء حرب الاسكندرية التي تحرق في أثنائها مكتبة الاسكندرية			
٤٧	موت بطليموس الرابع عشر شقيق كليوباتره			
٤٢				
٣١				
٣٠	موت كليوباتره . مصر تصبح رومانية			

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٦٣
			٥٣
			٤٨
			٤٧
انتصار انطونيوس واغسطس على الجمهوريين في فيليبس في مقدونيا			٤٢
انتصار اغسطس على انطونيوس وكليوباتره في اكسيوم في الابير			٣١
	حوالي سنة ٣٠ بدء حكم الكوشانا في الشمال		٣٠

جدول الاعلام

— أ —

— ب —

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ع -

- غ -

- ف -

- ل -

- م -

- ن -

ـ هـ ـ

- و -

- ي -

فهرست الخرائط والتصاميم

صفحة

فهرست الصور

٢٥ ـ نقش في الابادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .
٢٦ ـ « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كرتيا) . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ ق . م .) .
٢٧ ـ باب اللبوءات في ميسين .
٢٨ ـ « مدخرة أتريا » في ميسين .
٢٩ ـ البرناس كما يرى من زيمينون .
٣٠ ـ عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م.) . في المقدمة أكمة اسبيس (٨٠ م.) .
٣١ ـ طريق اللبوءات في ليتوون ديلوس (القرن السابع قبل المسيح) .
٣٢ ـ مشهد وليمة : هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .
٣٣ ـ الهيرايون في اولمبيا .
٣٤ ـ عدّاؤون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) . متحف الفاتيكان .
٣٥ ـ زفس هيستيايا (ويعرف بزفس ارتميسيون أيضاً) ، وهو من البرونز وينسب الى كالاميس (حوالي ٤٦٠ ق. م.) . المتحف الوطني في أثينا .
٣٦ ـ مسرح ابيذورس .
٣٧ ـ المعبد ذو الشكل *D* ، ويعرف بمعبد « جونون اللاسينية » ، في اغريجنتا (القرن الخامس قبل المسيح) .
٣٨ ـ مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقي .
٣٩ ـ قلعة اثينا .
٤٠ ـ تطواف عيد الإلهة « اثينا » ، قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .
٤١ ـ البرثنون (في حالته الحاضرة) .
٤٢ ـ اثينـــا برثنوس . مدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .
٤٣ ـ الإلهة « نيقي » في ساموتراس .
٤٤ ـ إناء شنفي ثلاثي القوائم مصدره نفان ينغ . عهد شنغ .
٤٥ ـ تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو – دارو . الحضارة المعروفة بحضـــارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي .
٤٦ ـ المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند) . القرن الأول قبل المسيح .
٤٧ ـ إناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز . عهد شنغ .
٤٨ ـ حصان من حجر وقبر هوو – كيو – بنغ المخروطي الشكل . هيان – ينغ ، مقـاطعة شن – سي (السنة ١١٧ ق. م.) .

فهرست عـــام

صفحة

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وإيران

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الاول

المقدمات

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

صفحة

القسم الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق. م.

انتهى المجلد الأول، ويليه المجلد الثاني:

روما وامبراطوريتها

منشورات عويدات ٩١٨ / ١٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

Publiée sous la direction de

MAURICE CROUZET

TOME 1

L'ORIENT
ET
LA GRÈCE ANTIQUE

par

André AYMARD et Jeannine AUBOYER

Texte Traduit en Arabe

par

Farid M. DAGHER et Fouad ABOU-RIHAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

روما وإمبراطوريتها

تاريخ الحضارات العام

موسوعة
تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي — أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون
و
إرنست لابروس — أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى ايامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش للمعارف العام في فرنسا

المجلد الثاني

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

روما وامبراطوريتها

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

نقله الى العربية

فريد م. داغر

فؤاد ج. أبوريحان

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مـــدخل

ما وقعت عيناي يوماً على موسوعة « تاريخ الحضارات العام » في مجلداتها السبعة وهي التي ظهرت أصلاً بالفرنسية، عن «المطبوعات الجامعية الفرنسية» في باريس حتى تولتني نشوة من الغبطة تمنيت معها ان يلهم الله ناشراً يتولى نقلها الى لغة الضاد فيمدّ المكتبة العربية ، ولا سيا باب التاريخ منهـــا ، بمرجع هام من مراجع التاريخ العام تناهد فريق من كبار الاخصائيين وأعلام اساتذة التاريخ في جامعات فرنسا على وضعه على مثل هذا النحو الآمر من العرض والتركيز والتأليف هو أقرب الى تحليل حوادث التاريخ وتعليلها وفلسفتها ، من السّرد المبسط .

وما كنت لأقنط ، وانا أستسلم لهذه الاماني العراض والرؤى العذاب ، في ان يقيض الله لاحدى دور النشر في لبنان فتضطلع بهذه الرسالة وينقطع لها بالرغم مما دونهذا العمل من صعاب وأعباء : مادية وأدبية ومالية، وروحية وثقافية وتقنية ، لا بد من التغلب عليها ، من ناشر عربي يعرف قيمة الكتاب ، متبين لأهميته ، مؤمن برسالته التثقيفية والتهذيبية ، لا يهـــاب المصاعب فيلقاها بصدر عامر بالايمان ، اقتناعاً منه بأهمية هذا العمل الذي ندب له نفسه .

كنت يوماً ، من نحو سنتين ، في حديث مع صديقي صاحب هـــذه الدار ، حول حاجات الثقافة العربية في عصرنا هذا ، ووجوب تزويد مكتبتنا العربية ، بكتب ثمينة ، دسمة متعافية، رزينة ، رصينة ، إما وضعاً وتأليفاً، واما نقلاً وتعريباً عن اللغات الاجنبية . واخذنا نستعرض معاً هذا التيار الجارف والفيض العارم من الترجمات العجاف تلفظها المطابع ودور النشر في العالم العربي وتنزلها الى الاسواق ، بحيث أصبحت الترجمات اليوم ٩٠٪ من مجموع انتاج العصر في العالم العربي اليوم وأكثرها هشيم من سقط المتاع بعد ان كان تهشيماً للأصل ، تخفى عليك معالمه لما في الترجمة من تلاعب وتغيير وتعديل وتحريف واجتزاء، في عملية عبث وسطو، دونما رقيب او حسيب.

وبعد ان امتد الحديث بيننا نستعرض معاً حاجات ثقافتنـــا العربية والوضع المؤسف الذي تتردى فيه حركة الترجمـــة اليوم ، في العالم العربي ، اذ بصاحبي يسدّد نظره اليّ ويسأل قائلاً : « هل تعرف الموسوعة التاريخية « تاريخ الحضارات العام » التي صدرت تحت اشراف موريس كروزيـه ؟ — فقلت نعم ، وهي عندي في مكتبتي الخاصة » . فقال : « وما رأيك في أمر ترجمتها الى العربية ؟ » . فقلت : « حلم جميل « انما دونه خرط القتاد » اذ ان نقل موسوعة تاريخية على مثل هذا الاتساع تتألف من سبعة مجلدات ضخمة كل مجلد يزيد على ثمانمائة صفحة ويبلغ مجموع صفحاتها ٥٦٠٠ صفحة ليس بالأمر اليسير . ان مشروعاً على هذه الضخامة ، يقتضي له شرائط عديدة منها فريق مصطفى من النقلة والمترجمين يجيدون العربية والفرنسية متخصصين بالتاريخ ، ونفقات مالية طائلة، وجلد مرير ومعاناة موصولة ، وفوق هذا ، والى هذا كله، قلب عامر بالايمان الحي ، المحيي ، والغيرة النيرة على الثقافة العربية » . قلت هذا وتفرست في صاحبي فاذا بعينيه تشعان نوراً وايماناً وصدق عزيمة .

وها هو المجلد الثاني من هذه الموسوعة التاريخية يطل على القارىء العربي بعد ان رحب

بحرارة ، بمطلع المجلد الاول ، في اواخر السنة الماضية ، رافلاً بمثل هذه الحلة القشيبة من الاخراج الحقني ، بعد ان بذل في سبيل اخراجه ، ما بُذل من عناية وسهر وصبر طويل وبذل كريم . يشهد الله ، وهو خير الشهود ، على ما رافق ترجمة هـذا الكتاب من جهد وحرص على الاصل والدقة في النقل ، بحيث يمكن ان نؤكد للقارىء الكريم ان كل كلمة في الاصل الفرنسي نقلت الى العربية بعبارة سهلة صحيحة رشيقة ، دونما ركاكة او عجمة او تعقد. ولا شك عندنا في ان النقد العلمي سيقول كلمته في هذا العمل بحيث يعرف الناس ما استنفد اخراج هـذا السفر من جهد وسهر وعناية ليخرج على مثل هذا النحو من الدقة والضبط ، وهي من بعض الصفات التي تحلت به منشورات دار عويدات ، في بيروت ، وما تفرّدت به .

يطيب لنا ان ننوه هنا ببعض ما لقي الجزء الاول من هذه الموسوعة من ترحيب النقد الادبي له . فقد نشر اديب فلسطين المشهور الاستاذ عيسى الناعوري ، وهو في الطليعة من رجال الفكر والادب في الاردن ، اليوم ، كلمة في مجلة « الاديب » الغراء ، في عدد يوليو ١٩٦٤ ، في الصفحة ٥٩ – ٦٠ ، ما يلي مخاطباً صاحب الدار الاستاذ احمد عويدات :

« لقد زوّدت المكتبة العربية بهذه الآثار العلمية النفيسة ، في ترجمات أمينة ، وافية ، لا تختلف عن الاصل في غير الحروف التي كتبت بهـا ... وأنا أعلم انك تقوم بهذا الجهد الكبير الضخم منفرداً ، وأعرف ما تلاقيه في ذلك من عناء متواصل ، ومن سهر طويل ، وما تبذل فيه الى جانب الجهد والعرق والسهر ، من مال ، ومعرفتي هذه تضاعف من تقديري لعملك ومن اعجابي الكبير به . ويزيد من اعجابي وتقديري ، ذلك العمل الضخم الجبار الذي انصرفت اليه اخيراً ، بكل بذل وتضحية ، وهو توليك نشر موسوعة « تاريخ الحضارات العام » الذي اصدرت منه حتى الآن الجزء الاول ، في قرابة ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي حلة رائعة من الاناقة الدالة على شدة عنايتك بالكتاب ... وهو كتـاب جدير بعنايتك واهتمامك حقاً . وانا ارجو مخلصاً ان يعينك الله على انجاز جميع أجزائه . فهو ثروة نفيسة للمكتبة العربية التي تفتقر الى مثل هذا الأثر الضخم الجامع . وآمل ان يجد عملك من تقدير المؤسسات الثقافية العربيـة والقراء ما يكافىء جهدك المبارك وخدمتك الجليلة . اقول هـذا ، وانا اذكر ان الجهود المخلصة يندر ان تجد من يهتم بمكافأتها ، وتشجيعها ...

عندكم في لبنان جوائز أصدقاء الكتاب ، ولكن الناشر المجتهد المخلص لا ينال شيئاً منها كما ينال المؤلف . ان الجمعية تعتبر المؤلف وحده من «أصدقاء الكتاب» او من «اهل الكتاب» ... لا ادري . ولكنها لا تعتبر الناشر مثل ذلك . فليتها تهتم بالناشر اهتمامها بالكتاب والمؤلف ، لأراك تنال من تقديرها – وهو أضعف الايمان – ما يثلج نفسك ، ويشجعك على المضي في الدرب النبيل الذي تسلكه مجاهداً مؤمناً بقيمة العمل الذي تؤديه لأمتك » .

ونحن اذ نشارك الاستاذ الناعوري آماله وأمانيه نتمنى معه ان يتم اخراج هـذه الموسوعة التاريخية ، على مثل هذا النحو خدمة للثقافة العربية والدراسات التاريخية الاصيلة .

بيروت في ١٩٦٤/٧/٣٠ — يوسف أسعد داغر

القسم الأول

الغرب ووَحدة البحر المتوسط

تناولنا في المجلد الاول من هذه الموسوعة الكلام في حضارة الشرق الادنى الى بزوغ النصرانية. فعلينا الآن ونحن نتعرض لدراسة الغرب، ان نعود القهقرى قليلاً الى الوراء، ما يقرب من ألف سنة.

تاريخ المدنيات وتوقيتها التاريخي

التوقيت الزمني هو قوام التاريخ وهيكله. ولذا كان من اولى واجبات المؤلف ان يراعي أحكام هذا التوقيت ويأخذ باصوله المرعية. إلا ان التاريخ سلسلة متلاحقة الحلقات، قوامها ترابط الوقائع والماجريات على اختلاف انواعها. فالقضايا التي يثيرها، تنوء عن الحلول المرتجلة. فاذا كانت معرفة الاشياء من الامور التي لا بد منها، فتفهم الوقائع، وفحصها، وتحليلها، اجدى للمرء وادعى. والحال، ان تفهم الحضارة واكتناه جوهرها لا يستدعي الوقوف على المدنيات التي عاصرتها الا بنسبة ما كان لها من اثر بارز في هذه الحضارة. هنالك شعوب ينتظمها مدى جغرافي واحد، الا انه قد لا يقوم بينها علائق وصلات، وان قام شيء من هذا فمن ذلك النوع السطحي. وهذه المؤثرات قد لا يكون لها من الشأن الا بمقدار ما هي ذات اتجاه معين. هنالك مدنيات معطاءة، تعطي الغير، الكثير من ذاتها او من ذات يدها ولكن قلما تأخذ هي منه او تقبس عنه. ذلك هو في الواقع حال المدنيات القديمة التي قامت بالنسبة للاحقة منها، بدور المهذب او المربي. وهكذا ألف الناس النظر اليها وذلك لما لها من الاعراف والتقاليد التي يقدسها المريدون والأتباع. وهذان المدلولان اللذان لا بد من ان يتوفرا معاً، هما شديدا الاتصال بعضها ببعض، الا ان ترابطها المنطقي المكين لا يقوى على الثبات والاستمرار اذا ما انفصل احدهما عن الآخر.

استمرار مدنيات الشرق الادنى

هذا هو بالفعل وضع مدنيات الشرق الادنى الغابرة بالنسبة للغرب، اذ اننا نشاهد بعض هذه المدنيات قائماً قبل عام ٣٠٠٠، وليس في غربي البحر المتوسط كله ما يمكن مقارنته بها، ولو من بعيد. وهذه المدنيات تستمر اجيالاً متطاولة، متعاقبة، حية ناشطة، دون ان تجدد من شبابها الا ما ندر، لا تشعر او قلما تشعر بالقوى الجديدة والمؤثرات المطلة من البلدان المجاورة حتى في حال بسط سيطرتها عليها، فكيف بها تنفتح لمؤثرات بعيدة تعمل بالواسطة؟ اما مدنيات الشرق الادنى التي هي احدث عهداً مما سبقها على رقعة الشرق عامة، فهي لا تقتبس ولا تأخذ الا مما تقدمها من المدنيات الغابرة. فليس في الغرب المتأخر في نظرها ما يدعو للقبس والتقليد.

فالمدنية اليونانية بنوع خاص، لا ترى في الاقطار الواقعة منها الى الغرب، سوى اراضٍ

تصلح للاستعمار والاستثمار ، تقع عليها كلما سنحت منها الظروف ومكنت لها صروف الدهر ، فترسل اليها الجوالي في اثر الجوالي بالعدد الكافي ، والا قنعت منها باستغلالها تجاريا بالحصول على محاصيل الارض فيها،او بجعلها سوقاً تُنفَّق فيها مصنوعاتها وما تحمله اليها من سلع وخرضاوات. وما عدا ذلك ، فلا ترى في هذه الاقطار شيئاً يستحق الاهتمام له او المحافظة عليه ، فهي بالفعل لا تأخذ شيئاً منها . فهذا الشرق المترامي الاطراف ، المتعدد الثروات ، المحير العقول بما بلغت اليه حضاراته من الرفاه والنعمى ، الآخذ بمجامع القلوب بما حقق من انجازات جبارة ، والمسيطر على العقول بما بلغت فيه الاديان من العقائد ومناسك العبادة والاحتفالات السامية ، والذي يفرض الاحترام لشدة اطلاعه على اسرار الطبيعة ومعمياتها ، هذا الشرق ، عرف منذ عهد بعيد ان يشبع ما في الاغريق من عطش الى المعرفة ، ومن توق شديد الى الاطلاع على الحضارات الاجنبية . فاي داع بعد هذا ، يحفزهم لعمري ، على الاقتباس من قرطاجة مثلاً ، بينما تكون صور على قيد بضع مراحل منهم ؟ ويروي بعض المصادر التاريخية ان الاسكندر الكبير ، كان يختمر ، قبل وفاته بقليل ، فكرة القيام بحملة واسعة تحمله ورجاله ، بحركة التفاف حول القارة الافريقية او عن طريق مصر وقرطاجة ، الى اعمدة هرقل (جبل طارق) ليعود منها الى اليونان عبر شبه إيبيريا (اسبانيا) وغاليا (فرنسا) وايطاليا . فلو صح الحلم واستطاع العاهل المقدوني تحقيق معالم هذه الصورة الجغرافية التي ارتسمت في ذهنه وطالما راودت خياله الجموح ، لعاد ذلك على الحضارة الهلينية بخصائص ومميزات غير التي طبعتها ففردتها. فلو كان هنالك امرؤ ما ، يستطيع الكشف عن افكار مخبوءة يمكن الانتفاع بها في الغرب المخشوشن ، لكان هو الاسكندر نفسه الذي عرف ان يكشف ما خفي من مخبوءات الفكر والعلم والثقافة حينما اجتاحت جحافله بلاد ايران الشاسعة . الا ان خلفاءه الذين لم يكن بينهم من يدانيه ، من بعيد او قريب ، نبوغاً حربياً ولا ثقافياً ، قبعوا خاملين في الاراضي التي دوخها لهم ، واستكانوا الى ما قيضت لهم الاقدار من ملك وسلطان ، فاقتصرت الحضارة الهلينية على التمكين للروابط التي اقامتها من قبل الحضارة الاغريقية في دوريها البارزين من تاريخها القديم والكلاسيكي المتيد .

تأثير الشرق المتوسط على الغرب

غير ان عدم الاخذ لا يمنع العطاء. وبالفعل هنالك عدد من مدنيات الشرق الادنى امدت او ، بالاحرى ، شجعت المدنيات الغربية الناشئة ، على الاخذ والقبس . فقد قامت في افريقيا تجاه المضيق الذي يفصل بين حوضي البحر المتوسط ، مدينة قرطاجة ، احدى انشاءات مدينة صور . والوجود الاغريقي الذي قام في الغرب ممثلاً بهذا العديد من المستعمرات اليونانية التي ازدهرت في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، تبلور عن كتلة من الجوالي اليونانية زخرت حيوية ونشاطاً ، كما قدّم العديد من هذه الجوالي اليونانية في جنوبي غاليا وغربي اسبانيا وجنوبيها . فالشرق السامي والايجي بعث الى الغرب بجاليات اخذت تنتظم على شاكلة المدن الام التي انشطرت عنها ، واقتصرت في تكيفها بالمحيط الجديد على الحد الادنى . الا ان هذه المجتمعات الناشئة في تربة جديدة وبيئات جديدة ، أثرت

عميقاً بسلكها وتصرفها ، في غير جهد ولا عناء ، على الشعوب التي عاشت بينها ، وذلك بما كان الحضارة التي تحملها وتتمم بها من سمو وعلو شأن ، فنشرت حولها شيئاً من النظم السياسية والاقتصادية ، التي كانت تأخذ بها وتعتمدها في عيشها ، كما نشرت الكثير من الاعتقادات والافكار والاذواق والاعراف التي قال بها سكان هذه المستعمرات وساروا عليها .

وقد حدث الى جانب هذا كله ، بفضل هذه الجوالي اليونانية ، تأثيرات تمت بالمداورة ، اي بمعزل عن وجود ممثلي هذه المدنيات، اذ قام الاغريق والقرطاجيون بدور السماسرة . وبواسطتهم عرف سكان الغرب ، اذ ذاك ، وجهاً من وجوه الشرق اكثر انطواءً من المألوف، واقل تعبيراً . وليس من الضروري القول مع القائلين ان الاتروسك جيل جاء اصلاً من آسيا الصغرى ، لندرك كيف ان الفن الاتروسكي ، كصنوه الفن الاغريقي القديم ، مر بدور « متشرق » .

والحق يقال ان هذين العاملين ليسا على قدم واحد من المساواة . فالواحد منهما يستخف بالفعل، بالآخر ويزدريه حتى في الحالات التي تقبس فيها مدنيات الشرق الاوسط من الغرب . فجذورها لا تضرب ولا توغل الا في تربة شرقية . فهي لا تختار نماذجها ولا تتخير عناصرها المقومة الا من الشرق . والامر الذي لا يمارى فيه قط ان بعض هذه المدنيات الشرقية تتطور بخطى حثيثة قلما عرفت مدنيات الغرب مثلها ، بعد ان عرفت كيف تفيد من ظروف اكثر ملاءمة، ومن التقدم الذي حققته المدنيات التي سبقتها الى الوجود في سلم الحضارة ومضمار الحياة. وهكذا قدمت هذه المدنيات للعالم البعيد عنها نماذج يستلهمها، وصوراً يترسمها ويلمح على منوالها عندما يستيقظ عنده الوعي وتستشري فيه الحياة وتندفع نحو الخلق والابداع. ففي الحين الذي افرغت فيه المدنية الهلينية ، في بوتقة واحدة ، الاختبارات التي جمعتها وألفت بين المثل التي اخذتها عن بلدان الشرق الادنى، عمدت الى صهر هذا كله في إلفة مثالية كان لها من شديد الوقع ما سحر مدنيات الغرب الناشئة، فراحت تتكيف به وتتأثر معه بعيداً ، حتى عندما رأت الحد من هذا التأثير ، والصمود له والوقوف في وجهه .

ومع ذلك إياك والمغالاة . فالكلام عن شرق رائد وغرب سائر في ركابه ، وعن شرق مهذّب معلّم ، وغرب متتلمذ له ومقتبس منه، يذهب بالكثير من مفارقات المعنى، والمدلول. فالغرب لن يفقد أصالته في هذا القبس ، بل الامر على عكس ذلك تماماً . فبعد ان دقت هذه الاصالة طويلاً واسترقت ، راحت هذه المدنيات تعيد منها صلابة العود، عندما دب اليها رسيس الحياة وجاش فيها النشاط من جديد، في مطلع العهد المسيحي ، الى ان قضت الاقدار على هذين العالمين بالانفصال والسير كل منهما في اتجاه مستقل معاكس . فالى هذا التاريخ كانت حركة القبس ناشطة باستمرار ، ولا سيما في الحقل الثقافي . ففي هذه الملاحظة كفاية لتبرير الفارق الزمني البدائي بين المجلد الاول والثاني من مجلدات هذه الموسوعة التاريخية . فقبل قيام الامبراطورية الرومانية ، كانت مدنيات الشرق الادنى ، تكتفي نفسها بنفسها ، وتتعارف فيما بينها وتتفاهم

قبل ان تتعرف الى مدنيات الغرب ، الا ان العكس لا يصح مطلقاً . فعبثاً نحاول فهم مدنيات الغرب ما لم ندرس مدنيات الشرق ونطلع عن كثب ، على تاريخها المجيد .

وحدة سابقة لاوانها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب

من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب مفارقة لا ترتبط بشيء بالسابقة ، اذ ليس ما يرغم المجتمعات الغربية ولا ما يجبر المدنيات على التطور والسير بها نحو الوحدة . ففي اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الاسكندر إنشاء وحدة سياسية، حافظ عليها خلفاؤه من بعده ، تألفت مقوماتها من هذه الاقطار التي لعبت شعوبها ، بصورة مباشرة ، فعالة، دوراً بارزاً — وليس عارضاً — في تاريخ الشرق الادنى . وفي ظل هذه الوحدة السياسية برزت مدنية موحــدة هيمنت على الشرق بكامله وطبعته بطــابعها . فالشرق الكلاسيكي ، لم يعد مجرد صيغة او صورة من خلق المعلمين ، متقطع الاوصال الجغرافية . فقد اصبح هذا الشرق الواحد حقيقة واقعية ، حية ، نابضة — لها ككل كائن حي ، شوائبها — كما لكل مجتمع بشري قائم، نواقصه . ولهذه الوحدة المتحيزة، من الكمالات ومن الملء، ما يتضاءل حيالها — كل ما قام او عرف من نظائرها في التاريخ، من قبل .

والحال ، فقد شهد الغرب، في هذه الحقبة قيام مدنيات لا يمكن تجاهلها ، او التغاضي عنها . مع ان بعضها شاخ واندثر ، الا ان القوى المبدعة في هذا الغرب لم تنضب يومــاً ولم تجف ، ولم تصب بالعقم او القحط . فاذا كانت حضارة الاتروسك الزاهرة ، قد غلفهــا التاريخ ولفها بقمط النسيان ، مع ان عهدهــا لا يزال في الخواطر طرياً ، وفي مرأى العين ، لمدنيّة قرطاجة هي الاخرى ، في أبّان زهوها وازدهارها، وروما بدورها ، قطعت ، في هذا السبيل شوطاً بعيداً ، بينما يؤلف الغاليون ، من ناحيتهم ، قوة مادية هائلة بالرغم ممــا يعتورها من قلة التنظيم ، بعثت الفزع والرعب ببطشها وبأسها . وليس مــا يحول دون بلوغها يومــاً من الايام التنظيم المرتجى ، فتصبح إذ ذاك ، بالفعل ، بعبعاً يخشى شره . ففي الوقت الذي تمت فيه وحدة الشرق الادنى ، نرى الغرب شتيتاً ، متقطع الاوصال ، موزعاً بين مدنيات متباينة، تفاوتت درجة تطورها ، واختلفت حيويتها باختلاف منطلقها عبر الزمن . فوضع الغرب آنذاك ، شبيه من جميع الوجوه ، بالوضع الذي كان عليه عالم شرقي البحر المتوسط ، قبــل ذلك بنحو ستة او سبعة قرون ، مع انه ليس وراء ماضي الغرب الذي غبر وانقضى ما يمكن مقارنته ، من قريب او من بعيد ، بهذه المدنيّات التي زهت وازدهرت في مصر، وبلاد ما بين النهرين ، وحوض بحر إيجه ، وما بلغته من تفوق عظيم .

وحدة البحر المتوسط لحساب روما

ومع هذا ، وبالرغم من هذا ، فالمستقبل يفاخر عن بسمة عريضة للغرب ، اذ ان الحصيلة الكبرى التي عادت بها الحقبة التاريخية التي ينتظمها القسم الاول من هذا المجلد ، هي إعداد وحدة أشمل واوسع ، بالرغم من عدم

دخول بلاد ما بين النهرين وايران فيها . إلا انها لعمري ، وحدة سياسية لا غير . الا ان الوحدة المدنية او الحضارية لن تتم بالسرعة ذاتها مع ان عوامل اليسر لا تنقصهـا . ولا بد ، والحالة هذه من حدوث واحدة من هاتين الوحدتين ، فيتاح للأخرى ان تخلق لنفسها الأطـر والملاكات التي لا بدّ منها للتطور والتقدم . فالفتح المظفر المبين الذي حققه الاسكندر من قبل ، مهّد لطلائع المدنية الهلينية . أما الفتح الاكبر الذي قامت به روما فهو الذي مكن من تحقيق الوحدة القوية التي عرفتها الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

علينا أن نقول بالحتمية التاريخية ، هنا ، الى الحـــد الأبعد ، الى ما وراء الحدود التي يبلغ اليهـا منطق المؤرخ ، فنقرر ان الغرب كُتِبَ له لعب هذا الدور ، وقُدِّر له السير في هذا الاتجاه . ومصير كهذا ، هو من فعـل عناصر بشرية ، مختلفة العروق ، بعضها شرقي الاصل والنشأة ، كقرطاجة مثلاً . والغرب في هذا السير المقدور غير مدين لأية هبة أو نعمة مجانية من الطبيعة ، وذلك بمـا ركز فيه من غرائز وخصائص مفردة. قد يرد بعضهم بروز الغرب وتجليه وتساميه الى ما فيه من قوى وقدرات ناشطة ، بينما أخذ الشرق يعاني أوصاب الشيخوخة . انها لعمري ، نظرة فاسدة لنشأة الشعوب يناهضها حيناً مائة دليل ، ويجرحهـا احياناً ألف دليل ودليل . ولعل أقربهـا طراً على الاطلاق الى الصواب ، حكاية الفتح الروماني . فمن ألِف هذه الحكاية الى يائها، ومن بابها الى محرابها، للمفاجأة ولغير المتوقع ، دور حاسم . صحيح ان المفاجىء والطارىء وما ليس في الحسبان ، عنصر ملازم لواقع الحرب وللأحلاف العسكرية والسياسية . فاذا ما استعرضنا التفاصيل ونظرنا ملياً في ماجريات التاريخ، وجدنا ان اكثر من حلف واحد، وان اكثر من موقعة حربية واحدة ، كان مصيرهما في كف عفريت او في ضمير القدر المجهول . هنالك أمور تصدم منطق موقعة او معركة حربية صدماً عنيفـاً . فبينما القدر المجهول يكتنف وضعاً حربياً او ظرفاً سياسياً ، نرى الدولة نفسها مرغمة على التدخـل عسكرياً . في اليونان مثلاً أو في آسيا الصغرى ، قبل ان تظهر نتائج الاعمـال الحربية التي تنهض بهـا ضد قبائل اسبانيا والليغوريين الاشداء البأس ، فتنشىء روما ولاية لها من غاليا الجنوبية تشد بهـــا بين أوصال ولاياتها في ايطاليا وبين الفتوحات التي دوختهـــا جيوشها المظفرة في اسبانيا ، من نحو قرن ونصف ، وذلك بعد عدة سنين من انشاء ولاية مقدونيا وآسيا الصغرى . وفي سياسة روما، الداخلية منها والخارجية ، على السـواء ، اكثر من مثل نضربه لك ، يريك كيف ان كثيراً من النتائج التي امكن لروما اعتبارها نهائية ، كادت تصبح موضوع شك وتردد ، كما كان من شأنها ان تجعل مستقبل البلاد كله في خطر ماحق. بعد هذا، يصح ان نتساءل: هل كانت الوحدة الرومانية لتتم ؟ ، وبمثل هذه السرعة ؟ ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع ؟ ، ولحساب رومـــا بالذات ؟ قد يكون مجازفاً مغروراً من يجيب بالايجاب عن هذه الاسئلة الحرجة .

فالقوى والعوامل الخفية التي تتحكم بمصائر الدول والشعوب ، هي التي جـــامت بالجواب

القاطع الجازم ، فقدمت لنا صورة لا شبيه لهـــا ولا نظير ، من الرقي والتطور الذي بلغته الانسانية في عهد روما ، كان له من النتائج العظيمة الضخمة ما لم يسبق التاريخ ان سجل مثلها او عرف ما يضاهيها .

علينا ان نستعرض تباعاً ، بعد ان عرفنا العناصر الشرقية التي لعبت هنا دورها البارز في هذا المصير، والعناصر الغربية التي شاركت فيه ، اقوام الاتروسك الذين افاضوا على ايطاليـــا بمدنية سطع نجمها عالياً ، وقرطاجة،هذه المدينة الشرقية النشأة التي انشأها الاستعمار الفينيقي في الغرب ، والغاليين الذين هدد تدويخهم بالقضاء على معالم روما الناشئة ، واخيراً روما التي ارست قواعد امبراطوريتها على حوض البحر الابيض المتوسط .

الكتاب الأول

المغلوبون على أمرهم

الفصل الأول

مَدنيّة الأتروسك ETRUSQUES

شعور الانسان وتحسسه بامور السياسة يفوق كثيراً تحسسه واهتمامه بالمسميات الجغرافية. لنأخذ، مثلاً، اغريقياً متوسط الثقافة من معاصري بركليس. فهو يعرف معرفة تامة ان الدول والممالك تنمو وتتطور، ثم تهرم وتشيخ وتنقرض عن وجه الارض. فهو يسلم مقتنعاً ان بالامكان قيام سيطرة على البحر المتوسط قوامها جنود وموظفون اداريون من اصل ايطالي، مثلاً. الا ان صاحبنا هذا يجهل تماماً ان المصطلحات الجغرافية ومدلولاتها عرضة للتبدل والتغير والتطور. فاذا ما قام احدهم وقال له: ان بعد اربعة قرون تطلق كلمة ايطاليا، على شبه الجزيرة التي تقع بين البحر الادرياتيكي والبحر التيريني وجبال الألب، لكان وقع هذا الكلام عليه اشد من وقع الصاعقة. فالاغريق عرفوا هذا المصطلح الجغرافي واستعملوه بعد ان تسلموه من احدى اللهجات المحكية الوطنية المستعملة في هذه الرقعة من الارض، دون ان نعتمد في اثبات ذلك مصدراً اصيلاً نعول عليه ونأتم به. الا أن هيرودوس اطلق هذا اللفظ الجغرافي، لدى استعماله له، على مقاطعة كالابريا، دون سواها. وليس من الصعب ان نتتبع توسع مدلول هذا المصطلح، في المجال اليوناني اولاً، ثم في المجال الروماني، بالنظر لصروف الفتوحات والمؤسسات الرومانية المتتالية. وقبل عهد يوليوس قيصر بقليل، اي بعد منتصف القرن الاول، قبل الميلاد، اطلقت كلمة «ايطاليا» على شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم اليوم، بما فيها سهل البو *Pô*، حتى حدود جبال الألب.

وهذا التطور في مدلول المصطلح المذكور يمكن اتخاذه رمزاً. ففي الوقت الذي بلغت فيه الحضارة اليونانية اوجها من الازدهار والتجلي، لم تكن ايطاليا بعد «تعبيراً جغرافياً». فقد استوطنتها شعوب وقبائل مختلفة الاصل والعرق، تتكلم لهجات متباينة اصلاً وفصلاً، وتسير على نظم حضارية متباعدة. فالى الحين الذي جعلت روما حقيقة واقعية لهذه البلاد، لم يكن لايطاليا سوى وجود فكري او عقلي، في عرف الاغريق، حتى ان الايطاليين انفسهم الذين لم يكونوا

ليعنوا الا بشؤونهم الخاصة، ليكونوا ليفقهوا لجغرافية بلادهم معنى ولا يرون لها اية وحدة طبيعية.

الا ان شعباً واحداً من شعوب تلك البلاد، لعب دوراً بارزاً في تاريخها. فكل الدلائل تشير الى ان حضارة زاهية قامت فيها وازدهرت، وان فكرة وحدة البلاد او توحيدهـا قد تكون جالت في خواطر هؤلاء القوم واتجهوا في تحقيقها الاتجاه السوي. فما كان ينطل القرن الرابع قبل الميلاد حتى رأينا الاتروسكيين يخلون مسرح التاريخ ويغيبون عنه الى الابد.

١ - تاريخ ايطاليـا القديم

مشكـلات غامضة متشابكة

قضية سكان شبه الجزيرة الايطالية وعهد ما قبل التاريخ فيها، هي من الامور التي تثير مشكلة دقيقة ليس هنـا مجال البحث فيهـا طويلاً. فبقطع النظر عن المعلومات الضعيفة الوجيزة، المتضاربة فيما بينها والمستمدة من مؤرخي اليونان، علينا ان نعول هنا على ما يمدنا به علم فقه اللغة وعلم الآثار الايطالية. الا انها معلومات اعجز من ان تزيل الابهام والغموض الذي يكتنف هذه القضية.. ففي الوقت الذي نرجو ان نفيد كثيراً، في المستقبل، من علماء الفيلولوجيا، نرى، على عكس ذلك تماماً، علمـاء الآثار يزيدون الامور تعقيداً بالآراء المتضاربة التي تثيرهـا نتائج الحفريات والتنقيبات الاثرية التي يقومون بها والتي بنى على نتائجها العلماء الآمال العريضة. لا مراء انهم عولوا كثيراً على الطقوس الدينية ومناسك العبادة، واتخذوا من مراسم دفن الموتى وحرق جثثهم دليلاً مميزاً لبعض الشعوب ولبعض الحضارات. ولما كنا هنا، والحق يقال، امام جهل فاضح للمناطق والادوار التاريخية المتعاصرة، كان لا بد لنا من ان نقتصر في حديثنا، على العادات المعمول بها، هـذه العادات التي تخضع لتقلبـات وتغيرات من الصعب تعليلها، وهي تغييرات استمرت حتى بلغت صميم الامبراطورية الرومانية، حيث تغلبت عادة دفن الموتى وساد العمل بها.

فسيفساء عنصرية

والشيء الوحيد الثابت والاكيد معاً، هو تنوع عناصر السكان في البلاد، الامر الذي يحدو بنا النظر اليه نظرة عجلى دون ان نتعرض بكلمة للاتروسك وللقضايا التي يثيرها الوجود الاتروسكي.

نجد الى الشمال الغربي من ايطاليا، والغرب الاوسط من صقلية وجزيرتي كورسكا وسردينيا، عناصر اثنوغرافية قديمة محافظة. ومن الحكمة وحسن الفطن ان ننعتها اجمالاً بـ « شعوب البحر المتوسط ». وبالرغم من المسميات المختلفة التي اطلقت عليها عبر التاريخ القديم، « كالليغوريين » الذي عُرفت به الاقوام التي كانت تحتل، حتى اواسط القرن السادس قبل الميلاد، منطقة اوسع بكثير من المقاطعة المعروفة اليوم بمقاطعة « ليغوريا » اذ كانت تشمل جانباً كبيراً من ايطاليا الشمالية حتى حدود جبال الألب، يبدو من الراجح، ان هنالك وشائج عرقية بين هذه الاقوام و « الايباريين » دون ان يتمكن علماء اللغات الذين يعنون بدراسة الاسمـاء، من الوصول الى نتائج تحوز الاجماع.

وهذه الجماعة البشرية التي هي ولا شك، اقدم العروق البشرية التي أهلت بها ايطاليا، لا بد ان تكون اكتسحت ايطاليا برمتها . والظاهر انها اضطرت الى الانطواء على نفسها والانكماش الى الغرب امام ضغط الهند الاوروبيين الذين كانوا يسيطرون : على الشمال الشرقي والقسم الاوسط، والجنوب، من شبه الجزيرة الايطالية ، كما سيطروا على النصف الشرقي من جزيرة صقلية . وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هؤلاء القادمين بـ « الايطاليك »، بالنظر لاتساع رقعة سلطانهم . فالهند الاوروبيون ، مصطلح فيلولوجي او ألسُني، يتميزون عن اسلافهم الذين حلوا محلهم ، بالوشائج التي كانت تشد اللهجات التي كانوا يحكونها . فبدلاً من ان يكوّنوا كلاً متجانساً، الفوا عدداً من البطون والافخاذ ، بينهم : الفينت ، والأمبريون ، والسابنز واللاتين والسمنيين وغيرهم . ونرى هؤلاء الاقوام في اواخر الألف الثاني ، يستقرون نهائياً حيث نجدهم منذ ظهور الطور التاريخي، الا انهم دخلوا ايطاليا بموجات متتالية ولربما دخلوها من نواح متعددة . وبعض هذه القبائل استقرت على الساحل الشرقي، بينها وبين الايليّريين اواصر متينة تحملنا على الاعتقاد انها انما جاءت عبر البحر الادرياتيكي . ويدور جدل بين المؤرخين ، حول ما اذا كان دخل البلاد، من الطريق ذاته، اقوام اخرى، وما عسى ان تكون ، ولربما دخلوها من الشمال عبر مقاطعة فريول ، او من الشمال، عبر جبال الألب .

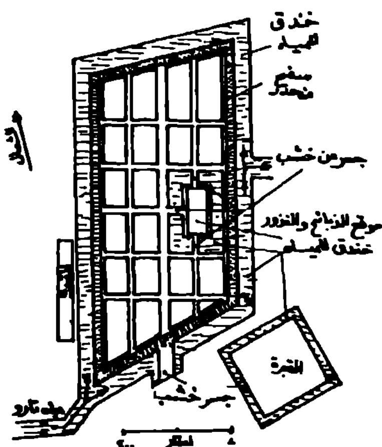

الشكل ١ ـ مخطط تيراماريه دو كستيلازو دي فونتنلاتو في ولاية بارما ، وفقاً للحفريات التي جرت في اواخر القرن التاسع عشر والتي يتضارب العلماء اليوم رأياً في تعويلهم عليها.

والى جانب هذه العناصر البارزة من سكان البحر المتوسط، والايطاليك، انضمت فيما بعد اقوام اغراب غزت البلاد بعد حين . ويرى المؤرخ اليوناني توسيذيدس ان قبائل « الأليم » ، التي استقرت الى الغرب من جزيرة صقلية هي اقوام أسيوية هاجرت اليها بعد حروب طروادة وسقوط إليُون. وعلى السواحل الشمالية والغربية من صقلية انشأ الفينيقيون مستعمرات صار امرها فيما بعد، الى ذراريهم من القرطاجيين ، منها مثلاً : بانورموس (باليرمو) . ومنذ القرن الثامن ، اخذ الاغريق ينشئون مستعمرات لهم ومدناً على سواحل ايطاليا الجنوبية التي عرفت فيما بعد باسم «اليونان الكبرى» وذلك في شقة من البلاد امتدت من مدينة كوم شمالاً، الى مضيق أوترانت جنوباً ، كما انشأوا مدناً عديدة لهم على ساحل جزيرة صقلية الشرقي والجنوبي، ثم جاءت قبائل غالية استقرت افخاذها في سهل نهر البو .

اولى هذه الحضارات حضارة التيرامار

كم كنا نتمنى لو نستطيع تحديد كل من هذه الحضارات التي انشأتها كل من هذه الشعوب. ولما كانت هذه الشعوب لم تعش منعزلة ، فقد خضعت لمؤثرات شتى تداخلت وتشابكت بعضاً ببعض ، يصعب تحديدها وتبيين مقوماتها ، اعاقت تطورها الداخلي واخرته . فبدلاً من ان تساعد الحفريات الاثرية على إلقاء اضواء كاشفة ، زادت الامور تعقيداً بما أثارته من مجادلات ونظريات متضاربة. وهنا ايضاً، علينا ان نقنع بعد الكثير من التضحيات ، ببعض امثلة نسوقها نموذجاً دون ان نحاول عبثاً رسم توافق دقيق بين شعب معين من هذه الشعوب وبين الحضارة التي انشأها .

يتميز تاريخ ايطاليا، في العصر الحجري الجديد ، باقبال الناس على النحاس الامر الذي دعا المؤرخين الى نعت هذه الحقبة بالعهد الحجري النحاسي . ولم يبزغ مطلع الألف الثاني حتى برز معه استعمال الشبهان فاتاح ظهور ما يسميه المؤرخون بحضارة التيرامار (اي التربة الغُضارية) التي تتميز باستعمال الانسان للاوتاد المنصوبة في بطن التربة لتقويتها وتدعيم الاكواخ المصنوعة من الطين ، تقليداً او تشبهاً بالدعائم المائية المنصوبة في البحيرات . وتوصل العلماء في اواخر القرن التاسع عشر الى الكشف، في بعض الاماكن ، عن تخطيط رتيب لبيوت السكن – وهي نظرية يتنكر لها العلم اليوم – يحيط بها من الخارج خندق وسفح منحدر يستدير حولها ، مع تبليط للشوارع وايجاد ساحة او باحة للاجتماعات العامة، واقامة مراسم العبادة عليها .

وكان ممثلو هذه الحضارة يعتمدون في اقامة هذه الانشاءات ، على الفؤوس والمناجل والمقاشط والسيوف . وازدهرت حضارتهم في سهول لمبرديا، وفي الجنوب من سهل البو . ويرى البعض ان هذه الحضارة نقلها فاتحون غزوا البلاد من الشمال . إلا ان غيرهم يرى ، بعد ان شهدوا معالم حضارات اخرى من العصر الشبهاني في ايطاليا، ولا سيما معالم الحضارة الابنينية (نسبة الى جبال الابنين *Apennin*) بأنها حضارة محلية يبرز فيها بوضوح الطابع الغريني قامت في سهل يخترقه العديد من الانهر التي تردفه باستمرار بالرواسب والطمي .

الحضارات الفيلانوفية

ثار مثل هذا الجدل بين العلماء، حول تباين معالم الحضارات الحديدية التي قامت في مطلع الألف الاول قبل الميلاد . فراح البعض يردها الى شعوب وقبائل جديدة، مستشهدين على ذلك بعدم عثورهم على دور وسيط من البرونز ، كما هي الحال مثلاً في مقاطعة اللاتيوم ، أو بروز مفاجىء لعنصر الحديد . وقد لوحظ ان هنالك اماكن تم فيها الانتقال من معدن الى آخر ببطء كليّ ، انما باستمرار موصول ، الأمر الذي يتنافى مع افتراض غزو جديد .

ولعل ابرز الحضارات الحديدية واظهرها على الاطلاق ، هذه الحضارة المعروفة بـ « الحضارة الفيلانوفية » نسبة لموقع يقع على بعد ٨ كلم من مدينة بولونيا . ولعل النموذج الذي يمثل هذه الحضارة خير تمثيل هو جرة العظام المخروطية الشكل المزدوجة، وهي تتألف اصلاً من وعائين من الخزف مقفلين من الاسفل . والغالب في صناعة خزفيات هذه الحقبة ، ان الجرة تصنع احياناً من البرونز او الشبهان . فمع ان هذه الحضارة عرفت الحديد وتدبرته واستعملته ، فقد آثرت

عليه الشبهان ، فاقبلت على استخدامه والتعويل عليه بعد ان تفننت في طرقه وترقيقه. والشاهد على استعماله بكثرة وشدة الاقبال عليه ، هذه الارقـام الثلاثة نذكرها هنا . فقد كشفت حفريات قامت بالقرب من بولونيا ٤٠٧٣ فأساً و ١٠٧٦٨ اداة اخرى ، كلها من الشبهان ، يزن مجموعها ١٤١٨ كيلوغراماً . وهـذه الحضارة قامت وازدهرت في اواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم اخذت تتطور حتى اواخر القرن السادس ، منتشرة في جميع انحاء ايطاليا الشمالية ، الامر الذي حدا ببعض علماء الآثار الى اعتبارها حضارة شمالية،فردوها الى حضارة «التيرامار» وحضارة ايطاليا الوسطى . فليس بينها وبين حضارة الاتروسك التي انبعثت عنها أي تقاطع .

بعض مميزات الحضارات الايطالية

وهكذا برزت امامنا الحضارة الفيلانوفية التي تفضي بنـا الى الحقبة التاريخيـة فنلجها على مصراعيها . وكذلك قل عن الحضارات الحديدية الاخرى التي تتجلى امامنا ، من وقت لآخر بمعالم مختلفة، متباينة. اما سماتها الخارجية فقلما تبرز لنا واضحة ، جلية الا في حالتين لا غير .

تبدو الاولى فيهذا العرف المتبع، المعروف «بالربيع المقدس» وهي عادة درج الناس على اتباعها في الازمات الشديدة وايام الضيق، اذ ينذرون فيها للآلهة، مواليد الناس والحيوانات الأليفة التي تولد خلال فصل الربيع الطالع. ووفاء النذر كان مدعاة ، كما هو مظنون ، لعـادة الذبيحة وتقديم القرابين . انما كان يجري استبدال الذبيحة بفكاك الجيل المولود اثناء الربيع المقدس ؛ وفصله خارجاً عن القوم، عند بلوغه الرشد وطرده خارج القبيلة، وقطع كل صلة له بها. وكان من جراء الاخذ بهذه العادة ان طلعت جاليات صممت على شق طريقها الى الحياة واقتطاع محل لهـا تحت الشمس ، مهما كلفها الامر . فقد عُمل بهذه العادة في ايطاليـا بين قبائل السمنيوم الجبليين وبين السابنز ، ومنهم امتدت الى الرومانيين فاقتبسوها، وعملوا بها على نطاق ضيق حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، فاننا نجدها مرعية الاجراء عند الكلتيين في اوروبا الوسطى . ولذا لا بد من القول بوجود عادة من هذا النوع غلب الاخذ بها عند بعض الاقوام الهند الاوروبية .

ويستدل من كتابة اثرية مرقومة على احد الاعمدة المحيطة بـ « جندي كابسترانو » ليس هنا مجال الاستطراد في شرحها وتفصيلها، ان سكان البلاد الأصليين كانوا يعرفون الكتابة ويجيدونها في الوقت الذي تم فيه نحت هذا التمثال، في النصف الثـاني من القرن السادس ، وهي كتابة اخذت ابجديتها من الابجدية اليونانية . ويكشف لنا هذا التصوير البدائي الجـاف ، ولو من بعيد ، وبشكل ملموس، تأثره بالفن الاغريقي القديم.ففي كلا الحالتين نرى المدنية الهلينية بحاجة ماسة للاتروسكيين لتنتقل بواسطتهم الى قلب شبه الجزيرة الايطالية . ومهما يكن من الامر ، فلا بد من ان ننعم النظر ملياً في الاثر الذي خلفته وراءهـا حضارات شرق البحر المتوسط في سكان ايطاليـا .

حضارات شرقي البحر المتوسط وايطاليـا

قامت منذ عهد بعيد علاقات وطيدة متنوعـة ، بين طرفي البحر المتوسط . فان لم تترك حضارة كريت القديمة اثرها في صقليـة ، فقد خلفت فيها تجارة المينيين بعض المعالم . وتزعم بعض الاساطير

الاغريقية ان الملك مينوس، لقي حتفه في صقلية ، عندما كان يقوم بحملة حربية عليها . والفينيقيون انفسهم نقلوا الى شواطىء البحر المتوسط الغربية ، مع ما نقلوا من محاصيل الشرق ، منتوجات صناعاتهم التي حرصوا على تنفيقها وبيعها من سكان تلك الاقطار النائية . والتطور التقني الذي عرفته المدنيات الايطالية في العصر الشبهاني يبقى سراً مغلقاً واحجية محيرة لولا تأثر هذه المدنيات بصناعات الشرق . وزاد اثر هذه العوامل عمقاً عندما راح القرطاجيون والاغريق ببسط نفوذهم على تلك الشواطىء، بما اسسوا عليها من مستعمرات وما انشأوا فيها من جاليـــات ، فنشطت بالتالي المبادلات والمقايضات التجارية ، وراح سكان ايطاليا في الجنوب والوسط ، يقبسون ، اسوة بالاتروسكيين، وعلى نطاق واسع ، من حضارات الشرق ، فتزداد طاقات مدنيتهم خلقاً وابداعاً . الا انهم نقلوا عن الاغريق اكثر مما اخذوا من القرطاجيين الذين اقتصر دورهم على النقل والسمسرة. وقد اخذوا بروعة الفن الروماني الذي اثر فيهم عميقاً وهيأهم لاقتبال المؤثرات الدينية . ففي الابجديات الايطالية شهادة عدل ودليل ساطع على بعد غور الاثر الاغريقي فيها . فعبرت الابجدية الفينيقية اليهم عن طريق الابجدية اليونانية . ومهما يكن من ضخامة هــــذه الاقتباسات واتساعها فقلما بلغت حــد التمثيل والاستمراء . جـــاء القرطاجيون والاغريق بمدنيات تفوق بكثير الحضارات الوطنية التي تفتحت براعمها في ايطاليا قديمـــاً ، وقد هزتهم مشاعرهم الوطنية فأبوا ان يرعوها ويخلصوا لها السعي الجيد لتأمين إشعاعها،شاهدعلىذلك، عدم اكتراثهمْ بهذه المؤثرات واللقاحات التي تبدى خطها الدقيق لبـــاحثين عنيدين ، ورفضوا ان يبذلوا اي جهد في سبيل نشر هذه المدنيات مؤثرين ابقـــاء البرابرة في جهلهم يعمهون، ليسهل استمالهم شغيلة وسَخَرة . والحق يقال ان وجودهم في صقلية لم يبق دون اثر . فقـــد راح السكان البـدائيون في غربي هذه الجزيرة ، ولا سيما قبـــائل الأليم بينهم، وهم أسيويو الجذر، يخضعون في بادىء الامر ، لمؤثرات الحضارة البونيقية ، ثم لم يلبثوا بعـــد لأي من الزمن ، ان تأغرقوا ، اسوة بسكان شرقي الجزيرة . ومرد هـــذا المسلك ينهجونه، انعزالهم في جزيرتهم، وإقبالهم طوعاً واختياراً ، على مشاركة الاغريق والقرطاجيين ، الحروب التي قاموا بها ، ضد غزاة اغراب . ونشهد شيئاً من هذا يتم في شبه الجزيرة الايطالية . فبقطع النظر عن الاتروسك الذين اشتهروا بمنافستهم للاغريق وبعدائهم الشديد لهم ، لم نر شعبـاً واحـــداً بين الشعوب الايطالية يتنكر للغته الام او للغته القومية ، كما اننا لا نرى شعباً واحداً منهم، يتنكر لمنظماته الاجتماعية ونظمه الدينية والعقائدية، ويجحد الروح الوطنية فيه . فلم تصبح ايطاليا يوماً بالنسبة للاغريق، ما كانت لهم آسيا الصغرى من قبل .

المخاطر المستعمرات اليونانية

ولذا تم المقدور ووقع ما لا بد من وقوعه دون ان يترك ذلك على قرطاجة نفسها اي اثر يذكر ، ما لم تكن انشأت لهـا موطىء قدم في شبه الجزيرة الايطاليـة . فلم يلبث اغريق اليونان الكبرى ان تعرضوا لضغط شديد من قبل الايطاليك . فبعد غلبتهم على الاتروسك رأوا انفسهم وجهاً لوجه مع الشعوب القاطنـة الى

الجنوب من سلسلة جبال الابنين ، الذين اشتد منهم الساعد وقويت شوكتهم وأصبحوا مفزعة لجيرانهم ، اثر النجاح الذي لاقوه ضد الاغريق من سكان صقلية . فبعد ان عملوا مرتزقة في جيوش الاغريق ، انتظموا كتائب مدربة استطاعت ان تملي ارادتها على أسيادها . فقد قام مرتزقة المامرتين – عبدة الاله مامرتوس (اله الحرب مارس) بنهب مدينة مسينا ، عام ٢٨٨ ، واتخذوا منها دار سكنى لهم . وكان هؤلاء المرتزقة ، على الغالب ، من قبائل السمنيين ، جاؤوا صقلية في خدمة سيراقوزة والعمل في جيشها . وكانت مدينة تارنت تعاني ، اذ ذاك ، الامرين من عنفوان جيرانها وعنتهم ومطامعهم العريضة ومعاملاتهم السيئة . وهكذا بدت المستعمرات والجوالي الاغريقية في الغرب، أدنى من قاب قوسين الى الزوال والاضمحلال، بعد ان ضعف شأنها في ايطاليا من جراء الحروب الضروس التي خاضت غمارها في صقلية ضد قرطاجة من جهة، وخلال المنازعات الدامية التي أقامت هذه المستعمرات وأقعدتها بعضاً على بعض ، فأنهكتها وجعلتها لقمة سائغة في فم روما ، فبسطت عليها بعد حروب طويلة ، سيطرتها المنقذة وسلامها المنعش .

وقد عرفت هذه الجوالي الاغريقية عهداً يذكر من الازدهار السياسي والثقافي ، فساهمت في القرن السادس، بصورة مجدية، باعلاء ونشر الحضارة الهلينية من الوجهتين الفنية والفكرية. ففي مطلع الجيل الخامس قبل الميلاد ، إبان حكم آل دايمونيدس ، وخلال القرن الرابع أثناء ولاية دنيسوس القديم،استطاعت سيراقوزة ان تنشىء لها نوعاً من الامبراطورية المهيبة الجانب. إلا ان طلائع الانحطاط تفشت في هذه الجوالي ، منذ منتصف القرن الرابع . بالحقيقة ان كل شيء أغرى الاغريق بآسيا : حضاراتها القديمة ، وكنوزها المكتوزة ، والماضي السحيق للمستعمرات التي أنشأوها على سواحل البحر وكثرة الجزر المتناثرة حباتها في بحر إيجه . استطاعت كورنثس ان تنشىء مدينة سيراقوزة في صقلية ، التي بلغت من بعد الشأو وخطر الشأن ما جعل اثينا ترنو اليها ، الفينة بعد الفينة ، باشتهاء . إلا ان قيام الحواضر الاغريقية المغرية على السواحل المطلة من الشرق ، على بحر إيجه ، بينما سواحل اليونان الغربية بقيت عطلاً منها ، لم يكن من فعل القدر النائم ، ولا كان جنبها القوي من فعل الخيال . فاستمر الاغريق في تشوفهم الآمر اليها ، وفي تطلعهم نحو الشرق، بعد ان ساهموا ، من حيث لا يشعرون ، ببعث اليقظة ونشر الوعي القومي في ايطاليا ، وعملوا على تحريك القوى والقدرات الكامنة فيها ، وهي قوى وطاقات لم تلبث ان عملت ضدهم وانتصبت في وجههم .

٢ ـــ الاتروسك

كان باستطاعة القدر ان يضع بأسرع مما فعل ، حداً لمصير الاغريق في الغرب ، اذ لم يبلغ تأثيرهم على شعوب ايطاليا ما بلغه من العمق على الاتروسك . لما ان اشتد منهم الساعد حتى أصبحوا خطراً يتهدد الاغريق فينذرهم بشر مستطير لم تساعد على دفعه وتحويله عنهم، ظروف طارئة . حرصنا حتى الآن على ألا نستفيض بحثاً عن الاتروسك وان لا نتعرض لهم إلا لماماً .

فقد بلغت المدنية التي أنشأوها شأواً عالياً من الازدهار برّت كثيراً ما قام من أمثالها في ايطاليا قديماً . بحيث لا مندوحة لنا الآن من درس هذه المدنية بتبسط .

مصادر البحث

لا بد لنا ان نبين هنا ، حدود المصادر التي يمكن الركون اليها والاعتماد عليها لدراسة تاريخ الاتروسك . فهي من النقص والفقر بحيث توجب التحفظ الذي لزمناه في بحثنا هذا واخذنا النفس به .

اهتم الاغريقّ والرمانيون بدرس تاريخ الاتروسك والمدنية العظيمة التي خلفوها ، فخصوهم بأبحاث هامة لمجترىء منها بذكر مصدرين لأصحابها شهرة واسعة ، اولهما ارسطو الذي لم يغفل عن ان يخص الاتروسك بدراسة واسعة بين الشعوب المائة والثامنة والخمسين التي تعرض لذكرها ، فخص أنظمتهم السياسية بدراسة طويلة . اما الثاني منهما فهو الامبراطور كليوديوس الذي وضع كتابه الموسوم . « حول التيرنيين » وهو كتاب يقع في ٢٠ جزء . إلا ان هذه المصادر كغيرها من الوثائق الأخرى القديمة ، عبثت بها أيدي الدهر وأطاحت بها ، ولم يبقَ مما يتعلق منها بمدنية الاتروسك الزاهية التي تعد أزهى وأزهر ما اطلعت ايطاليا القديمة من مدنيات ، سوى نتف مبعثرة متقطعة الأوصال .

اما الوثائق الاتروسكية الاصيلة ، فهي ، على وفرتها ، لا تبل غلة ، لعدم استوائها من جهة ، ولافتقارها للدقة المرجوة من جهة اخرى . فهي تتمثل بهذه الآثار العديدة التي عثر عليها الباحثون والمنقبون ، وسوادها الاكبر من القبريات ، بعد ان اقبل علماء الآثار على نبش قبور القوم التي كانت تغص بالحوائج المنزلية ، اكثر من اقبالهم على التنقيب بين معالم المدن التي استوطنوها وعمروها . وبذلك اعادوا الى النور نماذج من حياة هذا الشعب في معتقداته ومناسك عبادته ، وكشفوا بالتالي عما جال في خلدهم من افكار وآراء . والجانب الآخر من هذه الوثائق التي تعود علينا بمعلومات اوثق واوسع ، هي الوثائق المكتوبة ، وهي كثيرة متعددة . منها لفائف وعصائب من الكتان لمومياء مصرية محفوظة اليوم في احد متاحف زغرب ، من اعمال يوغوسلافيا ، تحمل بضعة عشرة آلاف من الرُقُم ، معظمها من الرقم الجنائزية والنذرية . وقد امكن قراءة هذه الكتابات بيسر لأن الابجدية الاتروسكية مستمدة من الابجدية الاغريقية . ولكن فك الحرف او قراءته لا يكفي وحده لتفهم النص . وبالرغم من ترجمة نحو من ٣١ كلمة هي من نُقَل الاقدمين ، وبالرغم من عثور المنقبين على بعض كتابات ثنائية اللسان مكتوبة بالاتروسكية واللاتينية ، وبالرغم ايضاً من الجهود الطائلة التي بذلها فريق مجرب من علماء اللغات ، لا تزال اللغة الاتروسكية للآن طلسماً وأحجية غامضة وسراً مغلقاً . ولذا لم يستطع العلماء ان يستخرجوا شيئاً هاماً من هذه النصوص باستثناء مسميات بعض الآلهة وبعض الاشخاص . وهذا الوضع المؤسف يوضح لنا بجلاء كم هي حدسية ، النتائج التي توصل اليها علم الفيلولوجيا الاتروسكية .

قصة منشأ هذا الشعب

من هم الاتروسك ؟ هذا الشعب الذي كان يسمي نفسه : « راسنا » وبهذا الاسم عرفه الإغريق والايطاليون . فالكلمة منحولة من الجذر :

« تورس *Turs* » الذي نجهل منه المعنى الصحيح . وهذا الجذر يبرز في الكلمات : *Tyrsenoi* و *Tyrrhenoi* وهذه الكلمة لا تزال حية في الاصطلاح الجغرافي المعروف « بالبحر التيريني » . والجذر « *Tusci* » الذي يظهر في كلمة توسكانا *Toscana* و *Etrusci* . والتنويه بهـــذا كله في مطلع هذا البحث يبرز جلياً الشك الذي يعتور معلوماتنا حول هذا الشعب .

فالاجوبة عن هذا السؤال المربك يمكن ردها الى ثلاثة ، إثنان منها عرضا بوضوح ، منـــذ التاريخ القديم . فقد راح بعضهم ينسب الاتروسك الى شعوب شمالي أوروبا ، ممن دخلوا البلاد عبر هذا القسم من جبـــال الألب المعروفة : بالألب الرِّتيك . والبعض الاخرى يرى مـــع القدامى من المؤرخين ان الاتروسك غزاة فاتحون خرجوا من آسيا الصغرى واستقروا بعد تطواف في ارجاء شتى من البحر المتوسط حيث حطوا رحـــالهم ، وذلك ربما في اواخر القرن الثالث او مطلع الالف الاول قبل الميلاد . من البديهي الا يكون بين اصحاب هذين الرأيين من يفترض فناء جذرياً او جلاء كاملاً للشعب او الشعوب الذين استباحوا باحته ، اذ ان غزواً يأتي من البحر لا يمكن ان يزحزح او يقتلع امامه سوى عدد محـــدود من السكان ؛ ففرض الغزاة عندما استقر لهم الامر ، على القسم المغلوب على امره ، نظامهم السياسي ولسانهم وعاداتهم . ويرى فريق ثالث ان طلوع المدنية الاتروسكية وازدهارها انمـــا هو حصيلة تطور وتدرج من الداخل بينما اخذت المدنيات الاقليمية او المحلية القائمة على سواحل البلاد ، تتدرج وئيداً وتتطور الهوينا ، بفضل اتصالاتها البحرية باقوام البحر المتوسط الشرقي ، مستغلة ما تفيضــه عليهم التربة من الخامات المعدنية كالحديد والنحاس . فالاتروسك ، والحالة هذه ، انما هم اصيلون بقدر مـــا يمكن نعت شعوب ايطاليا قديماً بهذا الوصف ، وليســوا مطلقاً غزاة طوارىء اغتصبوا البلاد في بداءة التاريخ في شبه الجزيرة الايطالية والحقب التاريخية التي تلتها .

فكل الدلائل ، من اي نوع كانت : اثرية او لغوية ، ومن اي مصدر جـــاءت : ايطالية بالطبـع ، او شمالية او إيجية او اسيوية حتى ومصرية ، مما استشهد به المؤرخون في معرض بحثهم هذه القضية التي سلست مقاليدها بعد القرن الثاني للميلاد ، ثم عاد فارتفع الجدل حولها من جديد في القرن الثامن عشر وما بعده ، عقب العثور على النماذج البديعة التي خلفها الفن الاتروسكي ، لا يمكن استعراضها هنا جميعاً ولا يفيد عرضها شيئاً . والقول بان اكثرية علماء العصر يأخذون بالنظرية التي تُغلّب الاصل الشرقي للاتروسك وترجحه ، لا يوجب الاقناع ولا يلزم الاخذ به ، اذ ان معضلات من هذا النوع لا تُحل بالاقتراع وعد الاصوات . فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنون هذا او ذاك من الرأيين المعارضين لنظريتنا هذه . فمن الافضل ، والحالة هذه ، الوقوف الى جانب هذه الملاحظة مع العلم ان الوضع الحالي الذي تدعمه الاكتشافـات الاثرية والمناقشات العلمية ، والبراهين التي تؤيد المنبت الشرقي للاتروسك ، تبدو ، بالنسبة لغيرها ، اكثر انسجاماً واقل عرضة للجرح من سواها . اما القول باكثر من هذا ، والذهاب الى ابعد منه ، ففيه عنت وفيه تغرير وتعلّة بالمستحيل ، اذ ليس في هذه الحجج ما فيــه القطع او الجزم نفياً او إثباتاً .

ومما لا مراء فيه هو ان الموقف الصحيح هو الاعتصام بالنفي ، ولو من اضعف الايمان ، تجـاه الزعم القائل ان لغـة الاتروسك ليست لغة هند اوروبية .

قوة الاتروسك واتساع رقعة نفوذهم

بين القرن العاشر على الابعد ، والقرن السابع قبل الميلاد على الاقرب – وهذا المدى الارحب والاوسع الذي تحدده هذه النظريات الثلاث وتضع فيـه التوقيت الزمني الخاص بالاتروسك – نرى فيه هـذا الشعب ذا نظام قائم ، اذ سيطر على رقعة من الارض تقع بين البحر التيريني ونهري الارنو والتيبر . وعلى هذه الرقعة الضيقة من الارض ، أنشأ الاتروسك عدداً من المدن ، اقدمها عهداً وأنشطها طراً تلك المدائن التي الى الجنوب ، على شواطىء البحر ؛ بينما تلـك التي قامت في داخل مقاطعة اتروريا الشمالية ، لم يبرز لها نشاط إلا بعد ذاك . فليس ما يميز بنوع خاص ، ازدهار الزراعـة فيها، إلا ما جاء في المصادر التاريخية عن أعمال تجفيف مستنقعات ماريم *Maremme* الساحلية. إلى ان هذا الشعب بزّ عالياً الشعوب التي أهلت بها ايطاليافعاصرتهم وذلك بما كان لهمن النشاط في حقل التعدين وتصنيع الحديد. فقد سيطر على جزيرة إلبا، الامر الذي زاد من طاقته على تأمين المزيد من الموارد التي كان بحاجة اليها وتوفير خامات الحديد والنحاس التي تفيض بها مقاطعة أتروريا التي رفلت من موارد الارض وما تحت الارض بما لم ترفل به مقاطعة أخرى من المقاطعات الايطاليـة ؛ وما انصرفت احداها ، عبر التاريخ القديم لاستغلال الثروة المعدنية الكامنة فيهـا كانصراف اتروريا لها ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع . ان مدناً مثل بوبولونيا وفيتولونيا الواقعتان تجاه جزيرة البا ، وفي منطقة المعادن بالذات ، يُصرف نشاط الاهلين فيهـا ويُقتنّى في سبيل استخراج الخامات المعدنية التيتقوم مدن اخرى باعدادها وتوضيبها للتصنيع ، فتفتح هذه الصناعة الباب على مصراعيه امام التجارة الخارجية. وهكذا رأى الاتروسك أنفسهم، منذ عهد مبكر ، وجهـاً لوجه مع جزيرتي كورسكا وسردينيا . وليس ما يحول دون ذهاب الفكر او ما يعطل الظن انهم غامروا برحلات أوسع وأبعد الى الجنوب، وحتى الى الشرق، مع ان القرطاجيين والاغريق سيطروا على معظم المرافق التجارية وأمنوا الاتصال بها . فمقاطعـة اتروريا رفلت بمصنوعات الذهب والفضة والحديد ، وأدوات الفخار والخزفيات الثمينة التي كانت تصنع في اليونان وتستورد منها ، من كورنثس اولاً ثم من اثينا ، فتجد عند الاتروسك رواجاً عظيماً . فمن أضرحة الاتروسك ومدافنهم اطلع العالم على أجمـل الخزف اليوناني الذي يرجع صنعه الى القرن السادس وبدء الخامس قبل الميلاد. وكان الشبهان ومصنوعاته مادة اولية للتصدير للخارج . وهكذا توفر لبعض الطبقات الاجتماعية لدى الاتروسك غنى لا ينكره احـد ، وهو ثراء كان الى جانب القوى البشرية والحربية الأخرى التي توفرت لهذا الشعب عاملاً قوياً من بين العوامل العديدة التي أمنت له الازدهار والانتشار في رقعة واسعة من بطاح ايطاليا قديماً .

فقبل غروب القرن السابع سيطر الاتروسك على ثغور نهر التيبر ومعابره ، وذلك باحتلالهم

الشكل ٢ – خريطة قديمة لايطاليا تبين انتشار الاتروسك

١ – اتروريا ، ٢ – مقاطعات احتلها الاتروسك

موقع روما ، وبهذا اقاموا لهم رقبة جسر نحو اللاطيوم وايطاليا الجنوبية. اما في القرن السادس فنراهم يحتلون مقاطعة كمبانيا حيث أسسوا مدينة كابو المشهورة واستطاعوا ان يقيموا بينهم وبين فريق من الاغريق من سكان مدينة بوزيدونا حالة من التفاهم والتراضي . وكانت هذه المدينة التي تعرف اليوم بمدينة بيستوم مرفأ نشيطاً تؤمه السفن كما كانت ملتقى للطرق البحرية التي ربطتها بخليج ترانت ، عبر جبال البروتيوم . فكانت بوزيدونا هذه بمثابة البوابة الاغريقية لمقاطعة كمبانيا الواقعة تحت الاحتلال الاتروسكي . اما علاقة الاتروسك بالاغريق ، فكانت على الغالب تتسم بالحروب ، كما انطبعت علاقاتها مع قرطاجة التي اضطروا ان يتنازلوا لها عن جزيرة سردينيا . وعلى هذا قس علاقاتهم مع مدينة ساليا (مرسيليا اليوم) . وقاموا بحروب مكشوفة مع اغريق مدينة فوقيه *Phocée* الذين جلوا عن مقاطعة ايونيا بعد ان اكتسح الفرس شواطىء آسيا الصغرى الغربية واستوطنوا الساحل الشرقي من جزيرة كورسكا التي اضطروا لمغادرتها عام ٥٣٠ ، بعد معركة ألاليا البحرية ، (اليريا اليوم) ، ثم حروبهم ضد مدينة كوم القائمة في قلب مقاطعة كمبانيا، واخيراً وليس آخراً، حروبهم ضد الجوالي الاغريقية في الجزر الايولية (ليباري اليوم) الواقعة الى الشمال من صقلية .

والمد الاتروسكي يبدو جلياً واضحاً ، في الاتجاه المعاكس ، أي في الشمال ، في أواخر القرن السادس . فبعد ان اجتازوا سلسلة جبال الابنين احتلوا مدينة فلسينا ومنطقتها فأصبحت قاعدتهم الكبرى للانطلاق منها الى الشمال ، ومنها بلغوا سهل نهر البو وسيطروا على معظم القسم الشرقي من مجرى هذا النهر بما فيه ساحل البحر الادرياتيكي، الى الجنوب من مصب نهر الأديج .

عبثاً نحاول التأريخ لهذه الفتوحات التي يقوم بها الاتروسك والتي تؤيدها الكشوف الأثرية الحديثة، وان كان المؤرخون القدامى لا يأتون على ذكرها الا لماماً وبايجاز كلي يقرب من التقتير . ان فقر المصادر حول المد الواسع الذي بلغه الاتروسك وندرتها يبعث في نفس المؤرخ الأسف الشديد. فاذا ضربنا صفحاً عن كثير من التأويلات والآراء العارضة نقف امام نظريتين متعارضتين متعاندتين . فاما ان نرد هذا التوسع يحققه الاتروسك ، الى عصابات من المغامرين اقتفت أثر رائد مغامر حالفه الحظ ، جرّت وراءها تباعاً جوالي متتالية اقعدت نفوذ القوم ومكنت له ، واما ان تكون تمت هذه الفتوحات وفقاً لارادة مدبرة وخطة محكمة موضوعة ، أعدتها حكومة مركزية ، تبينت عن كثب وحدة ايطاليا الطبيعية فراودتها فكرة تحقيق وحدتها السياسية . ولكل من هاتين النظريتين من البراهين والحجج ما يؤيدها إثباتاً ودفعاً . وهذه الحجج المؤيدة والدافعة معاً ، تنعكس ولو غامضة ، في هذه الحدثان التي وسمت العلاقات بين الاتروسك وروما في تطلعها الى السيطرة والغلبة ، كما تبدو من خلال الاقاصيص الاسطورية عند الرومانيين ومن

القراويق التي تزين قبر فرلسوا [1]. ومهما يكن ، وسواء أجاء الأمر قضاءً مقدوراً او تدبيراً مقصوداً ، فالانجازات التي حققها الاتروسك تتسم بالعظمة ، وعلى ايطاليا ان تنتظر طويلاً ليطلع على ارضها وفي سمائها مثل هذه المآتي وعلى مستواها الرفيع ، تقوم بها روما التي وفقت الى إقامة وحدة تجاوزت، بكثير الوحدة التي أنشأها الاتروسك في اواخر القرن السادس قبل الميلاد.

التنظيم الداخلي

وكم نتمنى لو نستطيع ان نعرف ماذا كان عليه الاتروسك ، من نظام داخلي . فالاطلاع على هذا الامر عامل قوي يساعدنا على تفهم الاهداف التي ترسّمها هذا الشعب والصفات التي لابست السلطان الذي انشأه . الا ان وضع المصادر التي لدينا كثيراً ما يحدو بنا لتفادي الاحكام الرخيصة ، والانكى ، ان نعمم على كل المدن الاتروسكية ما نراه قائماً في روما القديمة ، بينما وضع روما وضع خاص بها ، مقصور عليها وحدها .

مما لا ريب فيه قط ان المجتمع الاتروسكي مجتمع ارستوقراطي الطابع. يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ تتكشف عنها معالم قبور القوم ومدافنهم اذا ما قارناها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد . كانت مقاطعة اتروريا مثوى عدد طائل من الاسر الكبيرة ، ترتبط فيما بينها بروابط الانساب والتضافر والتضامن ، كما نلمس ذلك من خلال بعض المسميات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسط . فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون ان يأتي اسم الشخص متبوعاً باسم والده لتمييز الناس بعضاً عن بعض ، بينما راح بعض الشعوب الاسيوية ، كالليكيين مثلاً ، ينتسبون للام ، الامر الذي حمل فريقاً من المؤرخين على الظن بسيرهم على النظام الاموي. فقد اتبع الاتروسك الطريقتين المذكورتين واستعملوا معها اسلوباً آخر او اقتصروا عليه وحده . فاسم الشخص يصبح نعتاً او وصفاً للكنية او الشهرة . والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الانساب والاصلاب ، الامر الذي ساعد على تكوين مشجرات عائلية معقدة . والظاهر انهم عرفوا ، هم ايضاً نظام الاتباع ، (*Clients*) الذي نهج عليه الرومان . فمن المفيد كثيراً تحديد تاريخ الاخذ بهذه النظم ، اذ لا بد ان يكون تطور المجتمع الاتروسكي قد ساعد كثيراً على تركيز الطابع الارستوقراطي الذي برز في تاريخ متأخر ، عندما شبت روما وترعرعت ، واخذت تؤثر بعيداً فيما حولها . فاتخاذ الاسم والكنية وقيام نظام (قبلي) متماسك شبيه بما عرف عند الرومان بـ (*Gens*) هو من هذه الاعراف التي

---

(1) هذه النقوش والقراويق هي من حقبة متأخرة ترجع الى اواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد . ولو كان بالامكان استنطاقها كما يجب لكشفت لنا كيف ان اهل مدينة فولاي (*Vulci*) تمثلوا حوادث جاءت على ذكرها تقاليد الرومانيين وحكاياتهم . فهي تصف معارك وجنوداً يخوضون وقائع واشتباكات حربية . فبين اسماء جنود الاتروسك والرومانيين شبه عظيم ومحاكاة ظاهرة . من بين هؤلاء المحاربين الذين يلاقون حتفهم في المعركة جندي يدعى *Cneve Tarchunies Rumach* الذي يرادفه باللاتينية *Cnaeus Tarquinius Romanus* فنحن امام جندي روماني من آل تاركينوس.

سارت عليهـــا امم ايطالية عديدة . فلمن الفضل في هذا كله ، ألِلرومـــان ، يا ترى ، ام للاتروسك ؟

ينتظم السلك الاجتماعي عند الاتروسك في قيام مدن عندهم . فقد جاء الكتبة الاقدمون على ذكر ما اسموه بـ « الدوديكابول » اي حلف الاثنتي عشرة مدينة الذي قـام في مقاطعة اتروريا . غير ان القوائم العـديدة التي جاءت على ذكر هـذه المدن وتعدادها تختلف فيما بينها وتتعارض فيها الاسماء وتتباين . ومثل هذا التباين يطبع كذلك قوائم اتحادات المدن الاثنتي عشرية التي قامت على شاكلة الحلف الاول في كل من مقاطعتي كمبانيا وسهل البو . والغالب على الظن ان مجالس اتحادية كانت تعقد اجتماعاتها ، الفينة بعد الاخرى ، في الميدان (الساحـة) المحيطة بالمعبد العـام المعروف عندهم *Fanum Voltumnae* المجهول الموقـع . وقد سارت الامبراطورية الرومانية فيما بعد على تعيين « محافظ او والي اتروريا » الذي ربما كان رمزاً لاستمرار رئيس الاتحاد . والذي يبـدو من بعض الحوادث الطارئة ان الوئام لم يكن ليرفرف دائماً بين المدن الاتروسكية ، حتى في العهد الذي بلغت فيه المدنية الاتروسكيـة أوجها ، وان روابط التحالف التي كانت تشدها بعضاً الى بعض ، تأخذ في التراخي والانحلال في بعض المناسبات .

وهذا الوئام نفسه لم يكن ليطبع دوماً الحياة الداخلية في المدن نفسها . فقـد قامت في تاريخ متأخر جداً ، منافسات طبقية ، سياسية واجتماعية ، بين الارستوقراطيين وطبقات الشعب ، وذلك ربما بتأثير ، من رومـا ، في بدء عهدها الاول ، وفي اعقـاب تطور داخلي من العسير تتبع خيطه . ويظهر هذا الوضع بجلاء ابان الحقبة التي بلغ فيهـا الاتروسك عظمتهم ، اذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة انتخـاب السلطات العامة وتعيين ممثليها في دوائر الحكم . سار الاتروسك في بدء امرهم على نظام ملكي ، وكان الملك عنـدهم يعرف باسم (*Lucumon*) ، وليس بالامكان الجزم في ما اذا كانت الملكية وراثية او انتخابية لمدى الحياة او لمدة معينة . وقد يكون من المناسب ان نتصور الامور على مثل ما كان عليه الوضع الاجتماعي في المـدن اليونانية التي طبع تطورها ، تطور الحكم والادارة في الادارة الاتروسكيـة . فقد دقت سلطة الملك واسترقت تباعاً في المدن اليونانية . وعلى كل ، فالقول بغلبة النظام الاوليغرشي او حـكم الاقلية ، امر يقبله العقل ولا يثير اي اعتراض . وتطور مدلول لقب الملك مع الزمن ، فاطلقوه تارة على كبير القضاة بعد ان جلس الملوك قديمـاً للقضاء طويلاً ، وطوراً على شيوخ او امراء الاسر الكبيرة التي كان الملوك يختارون من بينها . وأحيط الملوك والقضاة بمراسم عظيمـة من التكريم والتبجيل والتعظيم مرت من الاتروسك ، فيما بعـد ، الى الشعب الروماني الذي سار عليها . وعثر المنقبون ، في مدينة فيتولونيا على اداة حديدية تمثل اضمامة من القضبان *Faisceau* يبرز من بينها فأسان . ويعزو الاقدمون ، باتفـاق الآراء ، الى الاتروسك فكرة السلطـة التي يمثلها حَمَلة الفؤوس الـ *Licteurs* الذين كان عددهم يوازي عدد المدن الاثنتي عشرة المتحالفة ، ممـا يدل على ان النظام الذي اوجدوه هو نظام اتحادي اكثر منه بلدي ، والكرسي المشيخي ، والشال

الروماني الموشى بالارجوان ، والرداء الارجواني الذي يتدثر بـه قائد الحرب ، واحتفال النصر وما يصحبه من مراسم التعظيم والتبجيل، وغير ذلك من الشارات التي تم عن السلطة العليـا والمسؤولية. فالنظم الاتروسكية اثرت بعيداً، ولا شك، في النظم والاعراف التي سار عليها الرومان فيما بعد وكان للاتروسك فضل السبق اليها والعمل بها. فراح الرومان يقتبسونها ويطبقونها في بلادهم.

ديانة الاتروسك

وعلى هذا النحو نهج الاتروسك في ديانتهم وتمتعوا في رومابشهرة واسعة، اذ ان من ميزاتهم المفردة تضلعهم بأمور الدين والامتثال الحرفي لوصاياه ونواهيه.

ليس لعمري ما يميز ديانتهم وأساطيرهم الدينية. فاذا ما وقفنا عند بعض أسماء آلهتهم وجدنا ان بينهـا ما هو اتروسكي محض مثل الاله تين (*Tin*) الذي يرادف الاله جوبتير ، والاله طوران *Turan* الذي يوازي الالهة فينوس او الزهرة. ويقوم بين مسميات هـذه الآلهة من المواصفات المتشابهة ما يشير الى أصلها الاغريقي اللاتيني. وبعض الآلهة الأخرى ، أمثـال : اوني *Uni* (جينون ، ومنيرفا ، وماريس (مارس)هي ايطالية الاصل او المصدر، او بالاحرى كيّفها الاتروسك بعد اقتباسها بحيث برزت ايطالية الوضع او المنشأ. بينما هنالك آلهة أخرى مسمياتها اغريقية الاصل جرى اقتباسها رأساً من الاغريق، منها مثلاً هرقل *Hercle* او هيرقليس الذي له شأن أكبر عند الاتروسك منه عند اليونان ، بينما الاله ابولو وشقيقته ارتوم *Artume* او ارطميس لم يطرأ عليها، لدى اقتباسها، أي تعديل او تبديل. اما مناقبية هـذه الآلهة والصور المشبهة لها والاساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المروية عنها فبينها تباين عظيم من قطر وآخر. ومن الخير والمفيد جداً ان يقوم من يتصدى لشرح الوثائق التي تمت اليها ويحدد منها التـاريخ الصحيح. فالمصادر التي نعوّل عليها هي متأخرة جداً وتشهد عالياً بعملية الهلّينلة، والتأغرق التي خضعت لها ، وهي عملية تمت تدريجياً وعلى مراحل ، على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم.

العرافة والطقوس الدينية

مما يميز الاتروسك ، بالنسبة للأقوام الغربيـة على الاقل ، من وجهة الديانة التي تمت بأكثر من سبب الى ديانة بلاد ما بين النهرين ، هـذا الخضوع والخشوع والاستسلام المطلق لمشيئة القوى العليا التي تحركهـا مقاصد خفية. فالانسان في ضعفه المتناهي، لا سبيل امامه إلا الاستبانة عن هذه الارادة والكشف عنها لئلا يأتي عملاً لا تكون راضية عنه ، وان يبذل في جميع حالات الشك وقلة اليقين ، كل شيء في سبيل استمالتهـا وكسب رضاها. كل الظواهر الخارجية هي ، من حيث المبدأ ، إعلان عن امر ما ، وايذان له ، بشرط ان نتبينه وان نحسن تفسيره وتأويله. فجميع ظاهرات هذا العالم تترابط ، والحالة هذه ، فيما بينهـا وتتماسك بقوة؛ ومدلول كل ظاهرة لا بد ان يتعدى بكثير المسببات، مهما بدت طبيعية. ففي رد الاسباب الى أصولها الصحيحة ، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منهـا وإنذارهم بشرها. وهذه الانذارات تبرز بأجلى بيـان يمكن للانسان ان يتصوره ، بواسطة

الصواعق والرعود . غير ان أية ظاهرة طبيعية أخرى، مهما دقّ شأنها ، يغاير مظهرها النظام الطبيعي للأشياء ، عدها الانسان من الخوارق وتطير منها . وهنالك علامات وإشارات لا يمكن ان يتبينها الانسان ويفقه معناها ومدلولها إلا بعد جهد وعناء وبحث واستقصاء . وهذا البحث هو على نوعين : الاول زواجر الطير ، كطيرانه من جهة معينة من الجو ، وفقاً لمواصفات دقيقة تلابس الاتجاه وتطبعه . والثاني هو فحص احشاء الذبائح ، ولا سيا الكبير منها ، وموضع اجزائها الدقيق، اذ ان كلا من هذه الاوضاع يرمز الى إله معين من الآلهة، كا يشير بالتالي الى ما هو وضع هذا الاله من الرضى او عدمه. كل هذه الأشياء والأمور تفرض وجود علم باصول، لا يحسنه إلا الضالعون به المتمكنون من أسراره . وكشف الغيب اختصاص يقتضي له التمرس الطويل باحكام تقاليد العبادة والكتب الدينية. فاذا ما روجعت هذه الكتب في الوقت المناسب وجد فيها من يحسن قراءتها وتفسيرها واستنطاق رموزها، الجواب الشافي عن كل ما ترغب الآلهة فيه ، كا يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجب على الانسان ان يتقيد بها بكل دقة. ويكفي الانسان ان يتمسك حرفياً بهذه المراسم ويطبقها بنصها حتى يخامره الامل بامكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدها مصيره . ويرافق عملية الكشف عن رغبة الآلهة ومقاصدها الخفية والبعيدة عن ادراك البشر، القيام بعدد لا يحصى من الأدعية والابتهالات والتضرعات والإشارات التي لا بد من الاتيان بها على نحو معين . فقد تركت لنا هذه الكتب وصف المراسم الدقيقة التي يجب التقيد بها عند إنشاء او تأسيس مدينة ما ، واتجاه الشوارع وتقاطعها عمودياً ، وكيفية طمر القرابين المقدسة في حفرة معينة ، ومدى الدائرة المقدسة التي يجب رسمها على المكان الذي تنشأ عليه هذه المدينة ، تشقها سكة محراث ، باستثناء مواقع الابواب الخارجية . والمراسم المتعلقة بانشاء المعابد والهيا كل، هي أدق مما وصفنا بكثير. اما ما يترتب على الانسان من اعمال وتصرفات بعد كشف الطالع ، فعدد كبير من المراسم والمناسك والحركات المختلفة ، عليه ان يتمها ويتقيد بأصولها وأحكامها وفقاً لتعليمات الكهان وارشاداتهم ، ووفقاً لمناهج لا يصح الخروج عليها ، من قرابين وأضاحٍ وتكريسات ، وولائم تقام على شرف تماثيل الآلهة وانصابهم .

ومن الطبيعي ايضاً ان تجري خصوصيات الحياة وفقاً لمراسم دينية دقيقة فيحمل الناس التعاويذ والطلاسم التي يرد معظمها من مصر . والسير وفقاً لهذه الاعتقادات يفضي بالمرء الى التنجامة والمجوسية ، كا يظهر من بعض الآثار التي وصلت الينا من ذلك العهد . غير ان قلة المصادر تحول دون وصف هذه المراسم الدينية بالتفصيل ، ولا تستفيض الا بذكر المراسم والاحتفالات الخاصة بممارسة الوظائف الرسمية العامة التي انتقلت بحذافيرها الى روما ، لدى اقتباسها النظم السياسية التي اقتبستها عن الاتروسك والتي تؤلف معها قسماً متمماً لها . الم تكن اتروسكية الاصل، هذه الطلاسم والحيوانات المؤلهة التي كان يحملها قضاة روما، وهذه الاحتفالات الصاخبة التي كانت تقام في طول البلاد وعرضها بمناسبة الظفر والنصر في الحروب ؟ الم تكن

اتروسكية علوم الفأل والعصا المعقوفة التي كان يستعملها العرافون في كشف الطالع ؟ وهذه العيافة ، اي عادة فحص امعاء الذبائح واحشائها ؛ اتروسكية الاصل عادة التسلم بالخوارق وكل المراسم والتوسلات التي يجب الاعتصام بها لابعادها وابعاد المصائب التي تجرها. فالاحترام المقرون بالاعجاب الذي كان يكنه الاتروسك للنظام ولعلوم الدين كان الباعث الاول على الاحتفاظ بعلوم الدين وعلى نقلها للغير .

الحياة الاخرى

ساعد الكشف العلمي عن القبور ونبش ما كانت تحويه من توابيق وامتعة ومفروشات ، على تكوين صورة عن فكرة الموت والحياة الاخرى عند الاتروسك قديماً . فالكل كان يعتقد بالحياة والبقاء بعد الموت . وكان الاحياء يحاولون تعويد الناس على فكرة الموت عن طريق الجنائز ومراسمها ، وعن طريق اقامة المآدب والملاهي ، وحرصهم على حفر صورة الميت وزوجته على الضريح ، محاطين بكثير من الحاجيات المنزلية كالاسلحة والحلى وما شاكل . ان ايجاد الجو العائلي في القبر يجعل المرء يعتقد ان الميت انما هو حي ، يعيش بعد ، وبالتالي فما من موجب او داع قط للاسف والاسترسال للحزن العميق ، كما توحي بذلك الرسوم القديمة التي تغشى جدران القبور . صحيح ان هذه الرموس المزركشة هي وقف على الشخصيات الكبيرة ، ولكن ما عسى ان يكون لعمري ، مصير ممثلي الطبقات الفقيرة المسكينة ؟

سار الناس طويلاً على عادة فرش القبور وتأثيثها بالحاجيات المنزلية . الا اننا نرى منذ القرن السادس فكرة جديدة تبرز ، ولا تلبث ان تتحكم بالاذهان منذ القرن الرابع . من النظر ملياً في الرسوم القريبة يتضح ان جميع الموتى ، حتى من كان بينهم من ذوي الجاه ورفعة الشأن ، هم في سبيل رحلة طويلة بعيدة في مملكة الظلام ، وهي رحلة تبعث الاسى الشديد في النفس، يدفعهم أبالسة تصطك لمنظرهم الفرائص، وقد انخطف منهم اللون وشحب المنظر وكشروا عن انياب حادة ، اجسامهم مزيج من اعضاء الانسان والحيوان ، لهم من الطيور الخواطف مناسرها الحادة ، ومن الحصان او الحمار اذنه ، حاملين بايديهم مطرقة لتوجيه ضربة قاضية الى المسافر . وها هو عزرائيل(*Charun*) يخطف الميت من بين ذويه فتتراكض الافاعي والثعابين منسابة حوله تفح في اذنه . فيا لها من مملكة تبعث الرعب في النفس والهلع في القلوب لأركونها رأس ذئب ، وقد اختفت البسمة امام مرأى تنين مفارس يحمل بين يديه عدة التعذيب .

فالاثر الهليني يبدو واضحاً في بعض هذه الافكار كما يبدو جلياً في ميثولوجية جهنم . واسماء ملك مملكة الظلام وزوجته فرسبناي *Phersipnai* عند الاتروسك هي نفسها عند الاغريق وهما هاديس وبرسفوني. فاذا كان *Charun* ملاك الموت عند الاتروسك، يأخذ اسمه من *Charon* ملك الموت عند الاغريق ، وعابر الارواح فوق نهر الستيكس (*Styx*) هو النهر الذي يحيط سبع مرات بجهنم حسب معتقدات الاغريق ، يتلبس عند الاتروسك دوراً وصفات

مخيفة. وهؤلاء الأبالسة والشياطين الذين قال الاتروسك بوجودهم ونقلوا الاعتقاد بهم عن أساطير الشرق ، إنما دخلوا الميثولوجيا الاتروسكية عن طريق الاغريق . فروح التسليم والرضوخ التي كانت تلطف عند الاغريق من لوعة المحتسب او المفجوع بأحد أعزائه ، تختفي تماماً عند الاتروسك ليحل محلها عند الميت ، روح متشائمة تعكس تماماً صورة حياة بشرية حطمتها قوى غاشمة لا تلين ولا ترحم .

الفن الاتروسكي

يبرز هذا الفن بجلاء المؤثرات التي تلقاها من الخارج وخضع لها، وهي مؤثرات شرقية ، في بادىء الامر ، اتصلت بالاتروسك عن طريق الفن الاغريقي القديم الذي عرف هو ايضاً طوراً شرقياً ثم هلينياً بعد ذلك. ولا شك عندنا في ان بعض رجال الفن من الاغريق استدعوا للعمل في مقاطعة اتروريا ، فأفاضوا من فنونهم على ما كان معروفاً عند الاتروسك من أصول هذا الفن . ويحاول النقاد المعاصرون جاهدين ، ان يتبينوا الصفات المميزة للفن الاتروسكي الأصيل ، وهي صفات ملازمة فيه ، مفردة له ، إنما تبقى محدودة المدى والأثر لئلا تذهب بالانطباع العام .

وهذه الصورة تصدمنا من الوجهة الفنية بما فيها من نقص فاضح . فقد استخدم الاتروسك الشبهان (البرونز) والفخار ، على نطاق واسع . وكانوا يدفعون غالياً في سبيل الحصول من الخارج على المواد الثمينة : كالعاج ، والذهب ، والفضة ، فلم يعنوا بنقش الرخام ، هذا الرخام الذي غالى الاغريق ، ومن بعدهم الرومان ، باستخدامه على نطاق واسع، وحفره ونقشه . كثيراً ما عوّلوا في عمائرهم، منذ القرن الخامس، قبل الميلاد ، على العقود والقناطر التي اخذوا استعمالها من الشرق وأدخلوا عليها تحسينات جمة، بينما أهمل الاغريق الاعتماد عليها . ويقتصر على الغالب، الأثر الذي احدثوه هنا على فروق بسيطة .

هنالك أنواع شتى من قبور الأغنياء. منها ما نقش في قلب الصخر الصلد او تم بناؤها، تنتظم حُجَره امام ممر ، او تأتي على طراز منزل عادي . وأهم هذه القبور هِيلَ التراب على سقوفها وشيد حول السطح جدار مستدير ليمنع سقوطه . هنالك قبر او ضريح عثر عليه بالقرب من شرفتري *Cervetri* ، بلغ قطره ٤٨ متراً . أقيم فيه خمس ممرات ، تمر من الخارج الى الداخل ، ثم يبتدىء ممر سادس، مستدير الشكل ، هو الممر الوحيد الذي يبدو ان اللصوص ونباشي القبور احترموه لأنهم لم يدروا به ، فلم ينهبوه . والقبر المذكور جرى استخدامه مدفناً لأسرة كبيرة طوال قرنين من الزمن ، أي من القرن السابع الى الخامس ، قبل الميلاد . وعندما نبشه المنقبون استخرجوا منه ، في عداد ما استخرجوا، هيكلين عظميين لبعض الارستوقراطيين، وجرة قبرية متواضعة الشكل ، وغير ذلك من الحلي والذهب والبرونز .

والهيكل التوسكاني الطراز الذي ترك فيتروف وصفاً دقيقاً له ، كان يتألف عادة من ثلاث حجرات ، وهي هندسة كانت تتكرر عملياً في كثير من الهياكل ، منها هيكل جوبتير

الكابيتولي ، في روما حيث نرى هذا الاله يعتمد الى الالهين جونون وميترفا . ولكن آلهة الاتروسك لا تؤلف دوماً ثالوثاً واضحاً ، كما ان بعض هياكلهم كانت تتألف من حجرة واحدة . فاذا كان تأثير الهيكل الاغريقي يبدو واضحاً ، فالهيكل الاتروسكي ، يبدي مع ذلك ، بعض الفروق . من ذلك مثلاً انه يقوم على قاعدة حجرية عالية ، كما ان بوابة المدخل الرئيسي تقوم فوق اعمدة ؛ وهي بوابة ضخمة لا تزدان بشيء من النُصب او التماثيل ، قبل القرن الرابع .

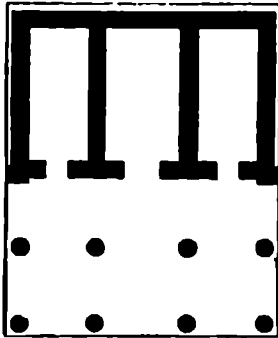

الشكل ٣ – تصميم نظري لمعبد اتروسكي عرضه ٦ أجزاء طوله . علو الأعمدة فيه يجب ان تكون ثلث العرض وعرض الحجيرات الجانبية يوازي ٣/٤ الحجيرة المركزية .

والهيكل الاتروسكي ، كصنوه الاغريقي القديم الطراز ، كانت مادته الاولى من الخشب ، اقله الاعمدة والسقف ، الا انه اطول منه بكثير . ولكي يحفظوا الخشب ويصونوه حيثما برز وظهر ، كانوا يغطونه بقوالب من التراب المشوي ، يحلّونها بالنقوش والالوان . وعلى هذا النهج سار الاغريق انفسهم . انما ساحة الهيكل المغطاة بهذه القوالب ، عند الاتروسك ، كانت تتطلب الكثير من القوالب وعناءً كبيراً في الترويق . فالاتروسك يعتمدون هذا الفن بمعزل عن التصميم الهندسي ، ولم يلبث ان اصبح عندهم ابرز معالم النقش ، واعطى آثاراً رفيعة من الدرجة الاولى ، اشهرها واسيرها ذكراً على الاطلاق ، تمثال الزهرة (فينوس) في مدينة فايي (*Veies*) الذي كان يؤلف جزءاً من مجموعة فنية لها مقاييس الانسان الطبيعية ، وتمثل احدى اساطير دلف التي تروي حكاية شجار ابولو وهيرقليس بشأن الظبية ذات الزجل النحاسية ، وذلك على مرأى ومشهد من ارطميس وهرميس. وبين الآثار التي اكتشفت ايضاً في هذا المعبد ، معالم تنم عن وجود فئات اخرى . ومن الممكن جداً ان يكون ثمت تمثال ابولو اغريقياً ، الا انه من الأرجح ان يكون اتروسكياً ، اذ لا يزال التاريخ يحدث عن شهرة معامل مدينة فايي ومهارة صناعها ، بينهم فولكا (*Vulca*) الفنان الاتروسكي الوحيد الذي احترم التاريخ اسمه ، فاستدعته روما ليشارك ويعاون في تزيين تمثال جوبتير الكابيتولي الذي يمكن ان يضاهي ابرز الآثار الاغريقية من هذا العهد (اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد) وذلك لما في حركة الجسم من حيوية ونشاط ، وبما تفتر عنه البسمة من إغراء ، وبما عليه من نظرة مثيرة تشع على الوجه كله . وهذا التمثال يبز بكثير التماثيل الاخرى التي تمثل الرجال والنساء متكئين الى موائد الولائم ، او تغطي وجه بعض النواويس او الحجرات القبرية . وكثيراً ما تم صنع هذه التماثيل بروح حية ، واقعية ، تقارب أحياناً الرسوم الهزلية ، فيبدو معها ترهل البطن ، وتنافر

أعضاء الجسم ، وبروز العضلات . فنحن هنا ، ولا شك ، أمام آثار اتروسكية الوحي والفن، فيها من الحقيقة العارية ما لا يخلو من طعم ودسم ، بحيث أثرت بعيداً بفن الرسم عند الرومان .

ودراسة الآثار الشبهانية والرسوم الاتروسكية تفضي بنا، هي الأخرى، الى ملاحظات شبيهة بتلك التي أبديناها . فقـــد كانت الأولى منها تفقد من الوجود لكثرة ما تعرضت له من نهب وسلب ، اذ ان الرومان حملوا من مدينة اتروسكية واحدة غزوها ، ٢٠٠٠ قطعة مختلفة من البرونز . وقد وصلت الينا تحفة رائعة من هذه التحف هي : « ذئبة الكابيتول » حيث يطالعك فن طبيعي عار يتسم بالانسجام . اما الرسم ، فليس بين معالمه ما يبرز على هــذا الشكل . فهو خير ما يتجلّى في هذه الرسوم التي تغطي جدران القبور ، فتبرز الشخوص في انسجام حركاتها وتوافقها في هذه المشاهد المتحركة التي أشرنا الى تطورها من قبل . واننا لنلمس هنا لمس اليد أثر الاغريق في إحراز هذا التطور ، وفي هذا المرايا البرونزية التي حرص الفنان على ان يحلي منها القفا بصورة حية .

وصفوة القول، لا يمكن ان ننظر الى الفن الاتروسكي كفن اغريقي محلّي او اقليمي، نوعاً ما، إلا انه فن لا يمكن تفهمه اذا ما ضربنا صفحاً عن مؤثرات الفن الاغريقي ونقله لها واقتباسه لنظرياته ، او تغاضينا عن العديد من الموضوعات الاسطورية التي عالجها وحيّزها في هــذه الادوات التي صدرها بمقادير هائلة الى ايطاليا والتي قام ينحو نحوها رجـال الفن الاتروسكي من رسامين ومصورين ومفرغين ، ويقلدونها .

الخطاط المدنيـة الاتروسكية وانتقال تراثها

من الادلة القاطعة على تأثر الاتروسك بالحضارة الهلينية ، الركود الذي اعترى ، الى حد ما ، الفن الاتروسكي خلال معظم القرن الخامس، وهو قرن قام فيه من المشاكسات السياسية والاصطدامات الحربية بين الاغريق والاتروسك ما انقطعت معه العلاقات الثقافية والفنية بين الطرفين. والثابت ان كل ايطاليا الاتروسكية عرفت اذ ذاك ، ازمـــة حربية وسياسية تركت اثراً بعيداً في حيـــاة البلاد الاقتصادية .

فأزمة النظام الملكي في روما ، ونهاية السيطرة الاتروسكية، وقعتا معاً في وقت واحد، اي في اخريات القرن السادس . وراحت فايي ، اقرب المدن الاتروسكية ، تحاول التحكم بمعابر نهر التيبر . فنتج عن ذلك حروب طويلة بالرغم من المواثيق التي تكرر عقدهـا ، والمعاهدات التي كانت تضع حداً لها. وقد انتهت هذه الحروب بعد جهاد عنيف دام قرناً بكامله، باستيلاء روما على مدينة فايي . وبعد ذلك بقرن ونصف ، تمكنت روما من السيطرة على مقاطعة اتروريا، اذ اشتد منها العضد وازدادت قوة وبطشاً إثر فتوحات اخرى حققتها . ولكن ، ماذا من القضية منذ البدء ، وما الذي كان عليه الوضع في بادىء الامر ؟ فالمقاومة الشديدة التي ابدتها روما ، والانتصارات التي حققتها تباعاً في حروبها ضد فايي لا يُفهمان ، الا من خلال الموقف الحيادي الذي وقفته منها المدن الاتروسكية الاخرى ، فاضطرت هي ان تخوض الحرب وتدخل المعركة

وحدها ، ناهيك عن الهجمات التي تعرضت لهـــا مستعمراتها في الخارج .

اما على ساحل مقاطعة كمبانيا فقد هب سكان مدينة سيراقوزة الاغريق الى نجدة بني قومهم من سكان مدينة كوم (Cumes) ، المشتبكة بعراك طويل مع الاتروسك ، وفازوا عليها عام ٤٧٤ ق.م ، في موقعة بحرية كثيراً ما غنّاها الشاعر الاغريقي الأشهر بنداريس ، والتي خلّد ذكراها في النفوس طاغية سيراقوزة هيرون Hiéron بتكريسه لإله اولمبيا ، خوذة العدو وقعت في ايديهم . وما عتّم ان زال اسطول الاتروسك وعمارتهم البحرية ، مما ساعد الاغريق على احتلال جزيرة ألبا ، وإنشاء موطىء قدم لهم في جزيرة كورسكا وعلى ساحل البحر الادرياتيكي الشمالي ، وهاجموا سواحل اتروريا نفسها . وهكذا بعد ان تم عزل مقاطعة كمبانيا وامتنـــع اتصالها بالبحر ، اذ كانت روما تسد المنافـذ اليه ، ومن البر ، وقعت غنيمة باردة في أيدي السمنيين الذين انحدروا اليها من جبال الابنين ، متجهين نحو السهل والساحل ، واستولوا على مدينة كابو في منتصف القرن الخامس . ولم تلبث ان أصبحت سيطرة الاتروسك على هذه المقاطعة اثراً بعد عين . وتلاشت هذه السيطرة كذلك في سهل البو ، منذ مطلع القرن الرابع ، اثر غزو الغاليين لهذه المنطقة واستيلائهم على مدينة فلسّينا ، واستبدلوا اسمها باسم جديد هو «بولونيا» الذي لا تزال تعرف به اليوم ، ولم يبق للاتروسك سوى مقاطعة اتروريا بالذات التي لم تعتم ان وقعت تحت سيادة الرومان وسيطرتهم .

وبالرغم من اقتطاع أوصالهم ، صمد الاتروسك في وجه الفتح الروماني . إلا ان مدنيتهم لم تذهب بسقوطهم السياسي . فبعد الركود الذي اعترى هذه الحضارة في القرن الخامس ، عادت اليها حيويتها ونشاطها في القرن الرابع ، عقب زوال سيطرة سيراقوزة التي اقام الطاغية دنيسيوس دعائمها وعرف بقوة شكيمته ان يوسع من آفاقهـا . وراح الاتروسك يعيدون صلاتهم بالحضارة الهلينية . غير ان الأزمات والحروب التي خاضوها ضد جيرانهم فمركتهم بثقالها ، فتت في عضدهم ، فسيطر على نفوسهم التشاؤم واستسلموا لقضاء القدر الغاشم . وبعد ان رسخت سيادة روما وأعرقت جذورها في الارض اخذت حضارة الاتروسك تأفل تدريجياً لتزول تماماً مـــع ظهور المسيحية . وبعد ان تَـلَـيْتَـنَتْ البلاد ، دخلت حضارتهم في خبر كان ، ويأتي مورخو الرومان على ذكرها لماماً ويروون أخبارها نتفاً مبعثرة .

ولم تنتظر هذه الحضارة ساعتها الاخيرة لتنقل للناس تراثها الجيد . فقد اقتبست الكثير من عناصرها المقومة عن الاغريق ، وهو اقتبـــاس يبدو أكبر قدراً وأضخم صدراً اذا ما رفضنا الأخذ بنظرية أرومتهم الشرقية وتعويلهم في التحضر والنقل ، على الايونيين . ومهما يكن مـــن الأمر ، فبعد ان تبدت للاتروسك إمكانية تحقيق وحدة ايطاليا السياسية ، انصرفوا لتحقيق وحدتها الأدبية ، معتمدين في ذلك على بسط حضارتهم على الأقوام والشعوب الايطالية . وعن طريق الحضارة الاتروسكية تعرفت شعوب ايطالية كثيرة ، تدريجياً ، الى المدنية الهلينية ،

وبالتالي الى الشرق ، فأمدتهم من ذاتهـــا بالكثير من عوامل التحضير والتمدن كالتقنية المادية ، وبنظريات وأفكار واذواق جديدة أفرغتها وسكبتها بقوالب ايطالية الطابع. ويجب ألا يفوتنا التنويه ، على الاخص ، بمـا لها من فضل كبير على روما بالذات ، مما ألمحنا اليه لماماً في المناسبات العارضة . من ذلك مثلاً ، كما يرجح كثيرون ، نقل الابجدية الى الرومان وان قام من لم يسلم من المؤرخين بهذه النظرية . ومما لا شك فيه ان الرومان نقلوا عن الاتروسك ، في عمارتهم ، الباحة او دار المنزل (*Atrium*)، وهذه الملاهي التي ترافق الجنائز، وكثيراً من عناصر الهندسة المعمارية وقواعد مسح الارض وغير ذلك . فروما مدينة للاتروسك ايضاً بأكثر من هذا : فهي مدينــة لها بكيانها الاول بالنظم الادارية والسياسية التي سارت عليها. فقد نشأت بمعاونتهم ووفقاً للمراسم المتبعة عندهم . وقد حكم روما ، منذ تأسيسها الى قلب النظام الملكي فيها وإعلان الجمهورية ، عام ٥٠٩ ، ملوك مـــن اصل اتروسكي أمدّوا روما بملاكات الجيش وأقاموا أطره وفقاً للمناهج والتنظيمات الاتروسكية .

وهذه المدنيــــة التي كتب عليها الزوال والانقراض ، كانت من أشد العوامل التي ثقفت المنتصرين عليها ، فانتقلت اليهم وعاشت فيهم .

الفصل الثاني

قرطاجة وحضارتها

يتردد المرء كثيراً قبل الجزم بقدوم الاتروسك من الشرق ، بينما ليس من ينكر قدوم القرطاجيين من مدينة صور . فالسلطنة التي انشأها القرطاجيون ، مثال حي لتناقض تاريخي مزدوج ، بقدر ما يعرف التاريخ من متناقضات . ففي الحين الذي نرى فيه المستعمرة الناشئة يشتد منها الساعد ، نرى المدينة الام (صور) تنحط وتهوي . ومن جهة اخرى ، في الوقت الذي تجدد صور فيه شبابها ، وتتأغرق بعد ان عاث بها الاسكندر خراباً ونهباً واستهانة ، نرى قرطاجة تحافظ بغيرة متقدة على الطابع الفينيقي لحضارتها ، وترفض بشمم وإباء ، ان يتسرب اليها شيء من عوامل الهلينية. لهذه المتناقضات ، والحق يقال ، مرد واحد ، هو موقع قرطاجة النائي الذي جعلها بمعزل عن الامبراطوريات الاجنبية ومؤثراتها ، تلك الامبراطوريات التي طلعت في الشرق قبل ان يطل عليه شيء من شبيهاتها بزمن طويل . فقد وجدت امامها في الغرب، ليس المجال الطبيعي للانطلاق والازدهار فحسب، بل ايضاً ما يسّر مهمتها ورسالتها في تشييد استقلال مكين وسلطان ضخم ، وامبراطورية مترامية الاطراف. فالى الحين الذي تصطدم فيه بروما، بعد ان تركتها وشأنها تنمو وتكبر وتبسط سيطرتها التامة على ايطاليا كلها، وتنظمها كما تشاء ، وتصطلي معها بحروب اكول ضروس ، نرى القدر يتراقص بين يديها الى ان يميل عنها ليداعب منافستها الكبرى ، فتتداعى وتهوي الى الحضيض .

هل كان بامكان قرطاجة ان تنتصر ؟ ربما استطاعت الى ذلك سبيلا ، مع ان نصرها بدا مؤكداً في بعض المواقف والمناسبات . ان عملية إفراغ العالم القديم وصهر مدنياته وحضاراته في بوتقة جديدة ، هذه العملية التي تطلعت لها روما وقامت تحققها ، لمهمة من نوع آخر ، اشق واصعب ، يكفي لنتبين صعوبتها ، ان نعرف ، كيف ان قرطاجة ، بعد سبعة قرون طوال من الحياة والنشاط العارم، زالت وتوارت عن مسرح التاريخ دون ان تترك وراءها اثراً عميقاً تردد ذكره الاجيال. ومهما يكن الدور التاريخي الذي لعبته المدن الفينيقية ضئيلا ومتواضعاً، بالنسبة لقرطاجة ، فقد طبعت هذه المدن تطور المدنية باكثر مما طبعته قرطاجة .

اصل هـذا الشعب

من طرابلس الغرب الى اقاصي المغرب الاقصى يمتـد ، على طول الساحل الافريقي الشمالي ، شريط ارضي ، يضيق حيناً ويتسع ، طـاب هواؤه وحلم مناخه ، بعكس الداخل الصحراوي ، فأهله الانسان منذ العصور الخوالي وعمره . وقد عزلته الصحراء عن باقي اطراف القارة السوداء فاصبح ألصق بمنطقة البحر المتوسط واتبع منه بالقارة الافريقية . ولم يُظهر سكان البلاد البدائيون في تلك المنطقة ، اية رغبة او توق ظاهر نحو الاستقلال ، وهم على ما هم عليه من وحـدة العِرق والاصل والارومة والروح ، المحافظة والتمسك بتقـاليدهم وعاداتهم التي كانت تشدهم بعضاً الى بعض في الامس الغابر كما تشدهم اليوم . وكان باستطاعتهم ان يختمروا او انهم اختمروا بالفعل ، ببعض المؤثرات المصرية . الا ان بُعـد الشقة بين الطرفين، وما انتصب بينهما حاجزاً من البيد والصحارى، جعل هذه التفاعلات في حكم العدم . ولكي يتأثر هؤلاء الاقوام بمدنية متطورة نامية كان لا بد ان تأتيهم عن طريق البحر . وهذا ما تم لهم بالفعل عن طريق بحارة فينيقيين جاشت نفوسهم بروح المغامرة .

كانت البلاد فقيرةً بالخامات المعدنية ، فاقبل الاهلون على حرثها وزرعها باساليب زراعيـة بدائية . فلم تكن تدر شيئاً يلفت اليه نظر التجار او يغريهم بالقدوم اليها والاستيطان فيها . ولعل من مميزاتها الفضلى انها كانت تقع على الطريق البحري الذي يفضي الى اسبانيا الجنوبية ، التي كانت تفيض بمعادن الفضة والزئبق ، كما تفضي الى البلدان الواقعة الى الشمال الغربي من القـارة الاوروبية (جزر كستيريد *Cassitérides*) التي كانت تدر القصدير ، هذه المادة الضرورية لصناعة البرونز او الشبهان . وليس من يشك في ان البحارة الفينيقيين أطلوا على تلك الارجاء في اواخر الألف الثاني ق. م. سائرين مع الشاطىء يتعرفون ، على مَهَل ، الى الخلجان والمرافىء يؤمونها ليلاً بعد ان يكونوا قطعوا في النهار مـا يقرب من اربعين كيلومتراً تقريباً . فاذا كان سبقهم الى هذه الأقطار سواهم من الناس ، وهو أمر مشكوك فيه جداً ، او سلك وإياهم الطريق ذاتها، فقد كان ذلك بصورة استثنائيـة محفوفة بالاخطار . وعلى كل استطاع الفينيقيون بسط نفوذهم على المنطقة والقضاء بالتالي على كل منافس لهم فيها .

تروي التقاليد المأثورة ان تأسيس أولى المستعمرات الفينيقيـة في المنطقة تم ، على ما يرجح ثقاة المؤرخين، في اواخر القرن الثاني عشر ق. م. فأنشأوا مدينة « عوتيقة » على ساحل تونس، وغاديس (قادس) على ساحل اسبانيا الجنوبي، كما أنشأوا على سواحل المحيط الاطلسي، في المغرب مدينة ليكسوس. اما المستعمرة التي أعدتها الأقدار لمستقبل ازهر، فقد أنشئت بعد ذلك بكثير، أي بعد قرن من هذا التاريخ ، في عرف البعض ، اي سنة ٨١٣/٨١٤ ، وهي السنة التي يرجحها المؤرخون القدامى. وفي « القرية الجديدة » أو « قرت حدشت » او قرطاجة، أسسها مستعمرون باشراف قادة جاؤوا من مدينة صور ، معظمهم من عناصر فينيقية مختلفة الجذور .

نجاح قرطاجة ونشأة امبراطوريتها

على المضيق الذي يربط بين حوض البحر المتوسط وفي طرف شبه جزيرة يعزلها عن القارة عدد من الجزر المتناثرة ، قامت

قرطاجة ، فوق موقع جغرافي ممتاز . فليس باستطاعة أية حتمية ان تفسر لنا كيف ان مدينة عوتيقة ، او قرت عوتيقة القديمة ، التي سماها ابن خلدون وطاقة ، وهي أقدم عهداً من قرطاجة ولها ما لتلك من موقع بحري حصين، لم يكتب لها ان تسيطر وان تنشىء لها ما أنشأته قرطاجة من بسطة السلطان وعزة الشأن . نحن نجهل تماماً الأسباب البشرية والعوامل التي هيأتها الاقدار لاستشراء قرطاجة واستفحال امرها .

تميز نمو قرطاجة مع ذلك بالبطء . فقد سبقها الى الوجود عدد كبير من المستعمرات الفينيقية بينها ما قام على مقربة من البحر ، او على سيف البحر وشواطئه في بعض جزر مضيق صقلية (مالطا وبنتلاريا حالياً) وعلى شاطىء صقلية الغربي وشماليها . لكل من هذه المستعمرات مدن رئيسية ، ولكن ما هي ؟ لا نعرف شيئاً على الغالب من هذا كله ، كما أننا نجهل الجهل كله تاريخ تأسيسها . ولذا نرى أنفسنا أعجز من ان نتصور العلاقات التي شدتها أصلا الى قرطاجة ، التي عرفت على ما يبدو ان تستفيد كثيراً من الوضع الذي تسكعت فيه المدائن الفينيقية منذ أواسط القرن الثامن ق . م ، بعد ان تثاقلت عليها وطأة الغزاة الأشوريين . وكانت مدينة صور أكثر المدن الفينيقية ، في الشرق ، تعرضاً للنقمة والسلب ، لما عرفت به من الغنى العريض والثروة الطائلة، وشدة البأس، وقلة الاستعداد للخضوع والتسليم . وفي سنة ٣٣٢، بعد ان وقفت في وجه الاسكندر بعناد ورفضت بإباء ان تفتح له ابوابها ، استولى عليها عنوة ودك معالمها الى الارض ، فتجاوبت الآفاق بصدى هبوطها الذريع . وقد كان خفّ عندها كما خف عند المدن الفينيقية الأخرى الشقيقة ، كل رغبة في الاهتمام بالغرب فعرفت قرطاجة ان تستأثر لوحدها بتركة صور وصيدا وتنهض بها الى الاوج .

وقد قامت قرطاجة بعملية التصفية او التجميع هذه لا تلوي على شيء ولا تهتز لأمر ، وسخّرت في هذا السبيل ما جاش فيها من اطماع توسعية وطموح واسع محتفظة لأساطيلها التجارية بجميع مرافق الاتجار والابحار ، جاعلة من المستعمرات الفينيقية الاخرى مجرد مكاتب، وهي تعول في ذلك كله ، على سيطرتها البحرية وبطشها . فأتاح لها غناها إنشاء أسطول تجاري ضخم أردفته، عند الاقتضاء، بعمارة حربية وبجيش بري قوي، اتخذت منه أداة لنجدة الاحلاف أو لبسط سيطرتها على المستضعف منها . وتمكنت بعض هذه المدن من المحافظة ، ان لم نقل على استقلالها التام ، فأقله على شيء من الاستقلال الاداري الداخلي . من هذه المدن مثلاً ، مدينة عوتيقة . وهكذا استطاعت قرطاجة ان تحقق أهدافها الرئيسية كاملة . فقد ابتصفت ، منذ مطلع القرن السادس ق . م ، كل ما كان فينيقي الطابع مما وقع غربي خليج سيرت الكبير . وبذلك حققت في غربي البحر المتوسط وحدة عجزت أمها صور عن تحقيق شيء منه في الشرق.

وأنجزت أكثر من هذا : فتوغلت عميقاً داخل البلاد . وفي هذا السبيل قامت بسلسلة من الحروب الدامية تضرست بها الأقوام التي كانت تعارض طريقها الى التوسع وبسط رقعتها ، او

كانت تقيم على الساحل. وكان عليها ان تتحمل مغبة هذه الفتوحات الغاشمة، اذ ما كادت روما تضيّق، فيما بعد، عليها الخناق وتحصرها في البقعة التي قامت عليها في الساحل الافريقي، حتى طرأ على سلطانها ما غير من معالمها. فبعد ان كانت سيدة البحار، عادت دولة برية مهيضة الجناح، مقلمة الأظافر.

واصطدمت في توسعها النامي، الفينة بعد الفينة، بالاغريق. وهذا الاصطدام لم يتميز بالعنف في افريقيا، عند الحدود التي تفصل بينها وبين القيروان، حيث تقوم اراض صحراوية منفّرة. اما في اسبانيا فقداضطرت لاقتسام تلك البلاد مع مسّاليا (مرسيليا اليوم) التي اضطرت للتنازل لها عن ممتلكاتها الواقعة على ساحل البحر، الى الجنوب. وكان الامر على عكس ذلك في صقلية التي اصبحت منذ القرن السادس، قبل الميلاد، مسرحاً لحروب متتالية اهرقت فيها جهود طويلة ودماء مطلولة، اضطر معها سكان الجزيرة الاصليون في الداخل، للاشتراك بها والتلظي بنارها. وقد تمكن القرطاجيون مراراً من محاصرة سيراقوزة، الا انها لم تلبث ان ردت لها الضربة بعد ذلك بقليل في عهد طاغيتها اغاتوكليس الذي حاول، في اواخر القرن الرابع ق.م، غزو افريقيا وتجنيد حملة عسكرية عليها. وقد رجحت الكفة لقرطاجة في نهاية الامر، اذ استطاعت ان تقيم لها، عام ٢٦٤ ق. م، حامية في قلب مدينة مسينا، على مقربة من منافستها. وكان ذلك الشرارة التي انطلقت منها الحرب البونيقية الاولى، اذ كان الرومان قد استولوا على اليونان الكبرى وحلوا محل الاغريق في صقلية، بعد ان ضعفت شوكتهم وذهب عزهم.

فالحروب التي خاضت قرطاجة غمارها في صقلية هي عندنا، اقل الحروب التي نهضت بها، جهلاً باسبابها ووقائعها، وذلك بفضل ما كتبه عنها مؤرخو الاغريق. اما حروبها الاخرى فنكاد لا نعرف عنها شيئاً يذكر. ونعرف بالتفصيل المحاولة التي قامت بها التوغل في قلب جزيرة سردينيا، والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها من قبل الجبليين الاشداء من سكان تلك الجزيرة، الذين قابلوا الرومان ببأس اشد عندما حاول هؤلاء ايضاً مهاجمتهم. والشيء المهم الذي نعرفه انها استطاعت ان تسيطر، بعد تضحيات دامية، على سكان البلاد البدائيين، في الداخل، خلال القرن الخامس، بحيث خضعت لها كل البلاد التي تعرف اليوم بتونس. ولما راح الرومان يستغلون ضدها الصعوبات التي جرتها عليها «حروب المرتزقة»، في سبيل اقتطاعهم جزيرة سردينيا، عهدت بامر الدفاع عن ممتلكاتها في الخارج، الى هملقار برقا وعينته قائداً اعلى لجيوشها، فانتهج خطة سياسية كان من بعض نتائجها اخضاع قبائل الاسبان عنوة او صلحاً. وفي اسبانيا اسس مدينة «قرطاجة الجديدة» المعروفة اليوم باسم قرطاجنة. ومن اسبانيا انطلق ابنه هانيبعل، عام ٢١٨ ق. م، لمهاجمة روما بعد ان هيأ لحملته جيشاً مدرباً.

ولما بلغت قرطاجة أوج عزها في القرنين الرابع والثالث ق. م، كانت سلطتها تمتد فوق

امبراطورية مترامية الأطراف ، إلا انها مشعثة الاوصال ، يشدها بعضاً الى بعض ، المواصلات البحرية يؤمنها اسطول ضخم . علينا ان نحترز من المغالاة في تبيان ما كانت عليه هـــذه الامبراطورية من إصالة وجدّة . فالجديد في سيطرة القرطاجيين على البحر، انها تحيزت وقامت في الشطر الغربي من البحر المتوسط الذي لم يكن سبق له ان عرف من قبل، سيادة وسيطرة من هذا الطراز وبمثل هـذا الاتساع . فاضطرتها ضرورات الدفاع عن ممتلكاتها في افريقيا واسبانيا الى تركيز سيادتها البحرية على وسائل دفاعية متينة . وهذه المفارقات ، مهما دقّت واسترقت ، لها أهميتها الخاصة، اذ تساعدنا على ان نفقه ليس حقيقة الامبراطورية القرطاجية فحسب، بل ايضاً كل امبراطورية مماثلة لها ، قامت عبر التاريخ القديم ، كما علينا ان نحذر من مقارنتها بهـــذه الامبراطوريات التي استقام أمرها في التاريخ الحديث .

القوى : الاسطول

قيام هذه السلطنة الشاسعة والحفاظ عليها ، والدفاع الجدي عنها ، كل هذا اقتضى وجود قوات مسلحة ضخمة . إلا أن معلوماتنا حول هـذا الموضوع بالذات ، قليلة ومتقطعة ، إلا انها تزداد وفرة وغنىً كلما تعلق الامر بحروبها مع روما ، هذه الحروب التي سماها الرومان : « الحروب البونيقية » ، نحتاً من كلمة *Punicus* او *Poenicus* المشتقة من كلمة *Poeni* وهو الاسم الذي أطلقوه على القرطاجيين .

ففي الطور الاول من هـذه الحروب التي كانت تستهدف السيطرة على صقلية ، بلغ المجهود الحربي ذروته في السيطرة على البحر . ويستدل مـن أوثق المصادر بأن اسطول قرطاجة ، بلغ عام ٢٥٦ ق. م، ٣٥٠ سفينة حربية كبيرة . وتمكنت من المحافظة على هذه القوة طوال الحرب التي استمرت ٢٣ سنة ، خسرت قرطاجة خلالها ٥٠٠ سفينة بينما خسر الرومان مـن جهتهم ٧٠٠ سفينة . ولم يكن باستطاعة أية دولة هلينية اذ ذاك ، ان تحشد مثل هـــذا الاسطول الضخم ، كما تلاحظ المصادر الاغريقية التي لدينا . وليس في هـــذا الصدد ما يدعو للعجب او الدهشة ، اذا ما قارناه بما نعرفه جيداً عن ضخامة اسطول اثينا في عصورها الذهبية . فليس في فن السفانة القرطاجية أي ابتكار او تجديد من حيث الفن الستراتيجي ، ولا من حيث هندسة صنع السفن . صحيح ان السفينة القرطاجية هي أضخم حجماً من السفينة اليونانية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة في عهد بريكليس[1] .

والاسطول القرطاجي الذي كان يتألف ، عام ٢٥٦ ، من ٣٥٠ سفينة كان له من الطاقة ما يتسع لـ ١٥٠ ألف محارب ، كما يؤكد مؤرخو العصر ، أي بمعدل ٣٠٠ مجذف أو بحّار و ١٠٠ جندي محارب في كل سفينة من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف . إلا اننـا نجهل كل شيء عن

---

(١) انواع السفن المعروفـــة عند الاغريق هي : الـ *Triere* والـ *Tètrere* والـ *Pentrère* وصفاً للسفن المجهزة بثلاثة او اربعة او خمسة صفوف من المجاذيف. ويقابلها عند الرومان الانواع: *Trirème* و *Quadrirème* و *Quinquérème*.

طريقة تسليحهم وتجنيدهم . ومها يكن من كثرة السكان في المدن ، فقرطاجة كانت تجند ، مثلها في هذا مثل أثينا قديماً ، غير المواطنين من سكانها، ليتم لها مثل هذا الحشد الضخم. وكانت المدن الحليفة او الخاضعة لسيطرتها تضطر لتزويدها برديف من أبنائها هي الأخرى ، كما تجند الاغراب الذين يقطنون في مينائها ، كما تجند كتائب من الرقيق . وما ان غلبتها روما على أمرها بعد ان جهزت سفنها الحربية بخطاطيف هابطة تستحيل معها المعركة البحرية معركة برية ، لم يعد بوسع قرطاجة ان تبذل من جديد ، مثل هذا الجهد وتكرره ، فأسقط في يدها .

الجيش

بالرغم من ضخامة الأرقام التي يوردها مؤرخو ذلـــك العهد ، لم تبلغ جيوشها العدد المذكور . فـــلم يزد جيش هانيبعل في اسبانيا ، على ١٢٠ ألف جندي عند نشوب الحرب البونيقية الثانية. وعندما اجتاز جبال البيرينه (البرانس) متجهاً الى ايطاليا، كان قوام جيشه يتألف من ٥٩،٠٠٠ جندي . وقـد تطور فيما بعد تشكيل هذا الجيش فانخفضت كثيراً نسبة المواطنين فيه . فقد اشتركوا من قبل بحملات عسكرية حاربت خارج البلاد ، فألفوا فيه فرقة مختـــارة . ونشاهد في مطلع القرن الرابع ، الشبيبة الارستوقراطية في قرطاجة تؤلف فرقة خاصة مختارة تعرف بالطابور المقدس، بلغ عدد رجاله ٢٥٠٠ جندي. وقد فني هذا الطابور برمته في حروب صقلية . ومن ذلك الحين اخذت قرطاجة تقتصد بدم أبنائها . فهم لا يدعون للجندية او للحرب، إلا في الملمات الكبرى التي تتهدد مصير البلاد بخطر ماحق، وقد ضعفت نزعة الحرب فيهم لانقطاعهم طويلاً عن التدريب العسكري وإهمالهم له . وهذا التطور في نظام التعبئـــة والجندية ، لم يلحق أي ضرر بقرطاجة اذ راحت تدير شؤونها الحربية والعسكرية على الطريقة الهلينية . فكلما امتدت رقعة امبراطوريتها وانفسحت منها الآفاق ، فرضت على اتباعها الجدد نوعاً من الخدمة العسكرية، كما فرضت على الممالك والأقوام المرتبطة معها بمواثيق ومعاهدات ،مدها بفرق مساعدة . وكانت فرقة فرسان النوميد في افريقيا ذخراً لها في الملمـــات ، الى ان جاء مستنيسًا حليف روما ، وحملهم على الانتقال الى جانب روما في اواخر الحرب البونيقية الثانية. ومن جهة أخرى ، نرى قرطاجة تعول كثيراً ، منذ اوائـــل القرن الخامس ق. م ، على تجنيد المرتزقة ، ولا سيما في القرن الرابع ، فتحسن انتقاءهم من بين الافريقيين والاسبان وسكان جزر البَليـــار ، والغاليين وسكان سرديليا وجزيرة كورسكا والليغوريين والايطاليين ، حتى ومن الاغريق. لم يكن تنظيم هذه الاخلاط من أقوام متباينة العرق واللسان والتقاليد، واستخدامهم على الوجه الأصلح، والاستفادة من خدماتهم الى الحد الأقصى ، بالأمر اليسير. وهذا ما يعترف به المؤرخ الروماني بوليب ويشيد عالياً بعبقرية هانيبعل ونبوغه العسكري الفذ ، إذ عرف ان يستفيد من هـــذا اللمم الى أقصى حد . وكان هذا الجيش من المرتزقة يعبأ كراديس ، وفقاً لقومياتهم ، يتولى امرهم ضباط مـــن بني جنسهم دربوا التدريب العسكري اللازم بقيادة ضباط ورؤساء قرطاجيين، تعيّن لهم أعمال تختلف باختلاف الاسلحة التي بين أيديهم. وهكذا يتدربون على أفانين الحرب حتى يجيدوا أصولها . فاذا ما بدا لنا اليوم جيش هانيبعل من أكفأ الجيوش

التي قامت في التاريخ القديم ، فالفضل في ذلك كله إنما يعود أصلاً ، وفي الدرجـــة الأولى ، لعبقرية هذا القائد الفذ ونبوغه العسكري .

فاذا ما وضعنا جانباً عبقرية هانيبعل الذي كان صاعقة حرب كما تشهد على ذلـــك موقعة « كان » التاريخيـــة التي عدها شليفن نموذجاً أعلى لنصر حاسم يجندل الخصم ويبيده تماماً ، فالتجديدات التي أدخلهـــا القرطاجيون على فنون الحرب تكاد لا تذكر . وهي تنحصر ، على الاجمال ، بفن الحصار وإقامة التحصينات الحربيـة وبعض انواع الاسلحة التي استخدموها في حروب صقلية في أواخر القرن الخامس لم يلبث ان قلدها اهالي سيراقوزة ، وعنهم أخذها إغريق اليونان . وكانت أسوار قرطاجة تثير دهشة معاصريها في القرن الثـــاني ق. م ، اذ بلغ طولها ٣٤ كيلومتراً ، وارتفاعها ١٣ متراً ، وسماكتها ٨ أمتار ، يتخللها ، على مسافة ٦٠ متراً الواحـد من الآخر ، بروج واصطبلات يضم الواحد منهـا ٣٠٠ فيلا و ٤٠٠٠ حصان. وهندسة التحصينات هذه إنما اقتبسوها عن مدينة صور التي اخذتها بدورها عن الاشوريين . ومن مميزات قرطاجة العسكرية انها أدخلت الى الغرب الفنون الحربية المتبعة في بلاد الشرق، ولا سيما استعمال الفيلة في المعارك الحربية ، وهي خطة سار عليها الهند، وعنهم أخذها الاسكندر وخلفاؤه مـن بعده . وراح الملك بيروس (*Pyrrhos*) ملك ابيروس في القرن الثالث ق. م ، يتخذ من الفيلة عنصراً مفاجئاً في حروبه في صقلية. ومنذ ذلك الحين، أخذت قرطاجة تصطاد الفيلة وتطاردها وتعمل على ترويضها وإعدادها للحرب . غير ان الفيل الافريقي هو أصغر حجماً من الفيـــل الأسيوي ، ومنظره اقل وقعاً ورهبة في النفس من الأسيوي ، ناهيك عن ان الرومان عرفوا ، فيما بعد ، كيف يتفادون شرها وضرها عندما تقوم بالهجوم .

ليس من ينتقص من قدر القوة الحربية التي عرفت قرطاجة ، انشاءها اذا ما قيست بما درج عليه الغرب طويلاً في هذا المضمار ، قبل ان تسجل روما النجاحات التي حققتها في هذا المجال . وهذه القوة تحققها على الوجه الذي وصفنا ، لا تذهب ، مع ذلـك ، بالمشاكل والمعضلات التي اثارها قيام هذه القوة وتأمين استمرارها وبقائها ، منها مثلاً : المشكلة السياسية الكامنـــة في السلطات الحاكمة ومنزلة اصحابها من الدولة وعلاقاتهم بالهيآت والسلطات الاخرى ، وغير ذلك من الصعوبات الاقتصادية والمالية ، التي تتمثل في توفير الاعتمادات اللازمة لآلة الحرب، والنهوض بها على الوجه الاكمل ، والتعويل على المرتزقـــة وغير ذلك من المشكلات المتشابكة التي تزيد الأمور تعقيداً وارتباكاً . فالجيش المحترف يمتثل طوعاً لقادته . اما الجند المرتزقة فباستطاعتهم ان يفرضوا ارادتهم ويلحفوا في الطلب ، متشددين في قبض مرتباتهم وأعطيـاتهم الشهرية ، وإلا ثاروا ، وتمردوا ، وتمردوا واعلنوها حرباً لا تبقي ولا تذر ، كحرب المرتزقة التي قاموا بها في اعقاب الحرب البونيقية الاولى، فكانت ثورة لاهبة اكلت الاخضر واليابس ، وكادت تقضي على قرطاجة اذ افسحت الطريق لما يعرف : « بالحرب التي لا ترحم » والتي قادت قرطاجـــة الى قاب قوسين وادنى من الهلاك .

النظم السياسية والاجتماعية

يكتنف الغموض هذه النظم ويغلفها الابهام بحيث نرى انفسنا عاجزين عن تحديدها لا سيا وقد خضعت ، هي الاخرى ، لعوامل عديدة قضت عليها بالتحول والتبدل . وبما يبدو من ظواهر الامور ان في المدينة ثلاث قوى او ثلاث نزعات بالاحرى ، تتباين وفقاً للظروف والصروف .

من المرجح ان تكون سارت المدينة في بدء امرها على النظام الملكي ، وهو نظام لم يلبث ان زال العمل به مع مطلع الطور التاريخي ، لتفسح المجال لهيآت حكومية ، تستبدل عاماً بعد عام ، عن طريق الاقتراع العام والتصويت الشعبي . من هذه المؤسسات او الهيآت العليا ، مجلس السوفيت *Suffètes* او القضاة . اما السلطة العليا فكانت تتمثل بمجلس الشيوخ وبمجالس اخرى دونه صلاحيات . ليس بمقدورنا ان نحدد منها: عدد الاعضاء، ولا كيفية التشكيل او التأليف ، ولا الصلاحيات التي كانت تنعم بها . والذي نعرفه عنها يكفي للتأكيد ان هذه السلطات هي في قبضة اقلية ضئيلة من سكان المدينة ، ينعم اصحابها بالثراء الوافر والجاه العريض . ولكن ما عسى ان يكون هذا الثراء؟ اعتماداً على التقاليد المروية، الفئة الحاكمة هي طبقة غلبت عليها هموم التجارة والكسب ، فاقبلت تمسك بنواصيه وتؤمن اسبابه لتستدر الربح الوفير . فسعت اليه ، اينما كان ، وطلبته انما تبدى لها ، وتلقفته باية وسيلة كانت . فهي تسيج حوله وتضحي في سبيله بكل شيء . فلا عجب ، بعد هذا ، ان يسترسل خصومهم من رومان وغيرهم في رميهم بكل فرية ومعرّة، فيصورونهم بابشع الصور ويرمونهم باقذع الاوصاف . ومهما يكن، فقد قامت عند القرطاجيين ثروات طائلة ، تبلورت وتجسمت : اطياناً وممتلكات شاسعة واسعة ، باتساع رقعة الامبراطورية العريضة التي انشأوها لهم في قلب افريقيا . ففي المدينة طبقة من اشراف البونيقيين ، يعرف ابناؤها ، مع ذلك ، كيف يجودون بدمائهم حفاظاً على الامجاد وذوداً عن الاوطان. وهي طبقة تحب التنعم وتستسلم للذائذها ، وهي بالطبع ليست اكثر من غيرها سوء استعمال، واقل اتهاماً للوظيفة العامة، تستمسك بالسلطة وتتشبث بالكراسي وتسعى اليها . فاية اقلية تخلت يوماً ، طوعاً او اختياراً ، عن سلطة طالما شدت عليها بنواجذها ، وسيجت حولها بكل ما أوتيت من حول وطول ؟

القـادة

كثيراً ما نغص هؤلاء القادة العيش على قرطاجة وكادوا يوردونها مورد الهلكة . ففي مدينة لا تحتفظ في اوقات السلم بجيش يمتص موارد الخزينة العامة ، كان من المعقول جداً ، اذا ما شاءت ان تتفادى طغيان قادة جيش المرتزقة ، ان تختار قادتها من بين الاسر الشهيرة فيها ، وهي اسر معروفة لدينا . من هذه البيوتات العريقة ، اسرة ماغون التي اخرجت لقرطاجة ، ابتداء من القرن السادس . ق . م ، ولمدة اربعة اجيال متعاقبة ، عدداً من القادة تولوا قيادة الحرب ضد الاغريق . ومن هذه الاسر الشريفة اسرة آل برقا التي انجبت فيمن انجبت من مشاهير الرجال ، القادة هملقار وابنه هانيبعل . وهذه الأسر التي تحدرت

اصولهـــا من الاشراف ، عرفت كيف تزيد المدينة سناءً على سناء ، وغنى ورفعة عن طريق الانتصارات الحربية التي حققتها، كما عرفت ان تؤلب حولها الاتباع والأنصار يشدون منها الازر وينصرونها في الازمات، فيحسبون لها الف حساب . وقواد الحرب هؤلاء، يجري انتخابهم من قبل الشعب ، بعد ان يجري ترشيحهم لهـــذا المنصب من قبل مجلس الشيوخ . فيتسلمون مقاليد الجيش وقيادة الحرب في حملات وغزوات حربية ينتدبون لهـا ، دون تحديد مدة عملهم باستثناء عزل طارىء . يتسلم القادة الامر متمتعين بسلطة مطلقة ، وبمعزل عن نصح المستشارين وعيون المراقبين ، يديرون امور المنطقة التي يعهد بهـا اليهم كما يرغبون . فالقادة من آل برقا هم نواب ملك حقيقيون ، وهانيبعل يصرّف القضايا ويقضي بها باعتباره السيد المطلق غير المنازع ، ويدير الحرب ضد روما ويصّرف دبلوماسيتها حتى ساعة رجوعه الى ارض الوطن . ورؤساء المرتزقة الذين يتولون شؤون الجيش ومهامـــه ، هم رؤساء من قِبله ، لا يعرفون سلطة غير سلطته ، ولا يتحســون باي احترام للادارة المدنية القائمة في قرطاجة . أضف الى هذا كله القـادة الاغريق في صقلية ، وهي منهم على قاب قوسين وادنى ، كيف انهم يستأثرون بملء السلطة في المدن التي ينتسبون اليها ، او في المدن الاخرى التي يعملون على خدمتها ، فيفرضون عليها دكتاتورية غاشمة مستبدة . ففي مثلهم ما فيه من اغراء وتشويق يحفز بقواد قرطاجة على الاقتداء بهم واتيان ما يسمى به هؤلاء للاستئثار بالسلطة .

فلاعجب ، والحالة هذه ، ان تحتاط الادارة المدنية في قرطاجـــة للامر ، وان تتحرز ضد المفاجآت. فهل كان ثمة ما يبرر عندهم مثل هذه الظنة ؟ فالمرويات المتوارثة تأتي احياناً على ذكر بعض محاولات انقلاب من هذا النوع دون ان تستفيض في التفاصيل ، وهي محـــاولات نادرة لعمري ، اذا ما قيست بهذه الاجيـال الطويلة المشحونة بالحروب . ولعل ندرة هذه المحاولات وقلتها تعود اصلاً الى ان جيوش المرتزقة كانت تحارب ، في الغالب ، خارج البلاد ، فلا يرجع القائد اليها بعد انتهاء حملته او مهمته الا ويكون قد سرح الجيش . ومهما يكن ، فالاقليـــة الحاكمة في قرطاجة كانت جد يقظة . وما ان استشعرت بتفاقم نفوذ اسرة ماغون وخامرتهـا فكرة امكان عبثهم بنظام البلاد الاسامي حتى راحت تقرر، في اواسط القرن الخامس ق . م ، إنشاء مجلس قضاء اعلى ، يتمتع بالعصمة يستدعي للمثول امامه ، للمناقشة وتأدية الحساب ، اياً كان من الناس ، مهما علا شأنه . وكثيراً ما اصدر هذا المجلس حكمه بالاعدام صلباً على القـادة الفاشلين او العابثين منهم ، او على ذوي المطامع الخطرة بينهم ، حتى اذا ماراح هؤلاء يتفادون بالانتحار العقاب الذي استحقوه ، راح الشعب ينتقم لنفسه منهم بالتمثيل باجسامهم .

غير ان مَثَل القادة من آل برقا يرينا ان الخوف من مغبة الفشل ونتائجه لم يكن ليَفتّ من عضدهم . فهم في وضع مؤات يحسدون عليه . فالمصادر الرومانيـة تتهمهم باصطناع الاحزاب وشراء الانصار بالمال والاعطيات ، وهو اصطناع محتمل ليس ما يمنع تصديقه . ولكن أنى لنا ان نثق بتهم الاعداء وتقولات الخصوم وتخرصاتهم ؟ فالمناجم المعدنية التي حفلت بها اسبانيــا

كانت تدر على قرطاجـــة المال الوفير ، كما ان الانتصارات الباهرة التي سجلها هانيبعل على الرومان في بلادهم ، كل ذلك اضفى عليه سناءً ليس بعده من سناء ، وفخاراً لا يزال التـاريخ يحدثنا عنه باعجاب . وكل الظواهر تدل بوضوح انه كان باستطاعتهم ان يعولوا ، في مناهضتهم الطبقة الارستوقراطية الحاكمة ، على قوى اخرى تكمن في الشعب .

الشعب

هو المجهول الاكبر في قرطاجة من الوجهـــة السياسية .

ويؤكد الجغرافي الاغريقي المشهور سطرابون، ان سكان هذه المدينة، بلغ عددهم قبيل زوالها ببضع سنوات، أي من نحو ٥٠ سنة قبل فقدانها امبراطوريتها ، ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . فقد كانت تحتل بالفعل، رقعة واسعة من الارض تقع بين بحيرة تونس وهضبة بيرسا (من ضواحي تونس اليوم وهي المعروفة بضاحية سان لويس) وبين ضاحية ميغارا الى الشمال. وكان من نشاط الحركة الاقتصادية والتجارية فيها انها صارت مورد رزق لعدد كبير من السكان، معظمهم بالطبع، من الطبقة الكادحـــة ومن مختلفي العروق والأصول . وكان المنتمون الى العرق السامي في المدن الفينيقية ومستعمراتها يؤمّون «صور الغربية» المزدهرة ، المتدفقة حركة ونشاطاً؛ بينما نرى صور الشرقية ترسف تحت عبودية الفاتحين والغزاة الذين أناخوا على صدرها ، كما ان اغريق صقلية أنفسهم كانوا يتجهون اليها ويقيمون فيها . فقوانين البلاد كانت تبيح الزواج من الأجانب كما يستدل من البطل الماغوني الذي صرعه الطاغيـــة جيلون السيراقوزي في مدينة هيمار *Himère* ، عام ٤٨٠ ، اذ كان ابن إحدى سيدات سيراقوزة .

فكم كانت لعمري ، نسبة الرعايا ، والارقاء في هذا العدد الذي ذكره سطرابون؟ وما نسبة الاجانب او الاغراب بينهم الذين لا حقوق سياسية لهم ؟ وهل كانوا يفرقون – وبالايجاب فعلى أي أساس – بين المواطنين السلبيين وبين المواطنين الايجابيين ؟ وكيف كان هذا الشعب يتوزع ؟ وما هي هيآته ومنظماته ؟ كلها أسئلة ترتسم على الشفاه وستبقى دوماً دون جواب .

والشيء الثابت الاكيد انه قام في قرطاجة ، هيئة شعبية لم تتمتع مدة طويلة بأية سلطة عملية لا تتعدى التصديق والموافقـة على المقترحات والمشاريع التي يضعها مجلس الشيوخ وهيأة مجلس القضاء . وكم تجاهلت هاتان الهيئتان، وجود المنظمات الشعبية ، عندما تكونان على اتفاق ووئام؟ وقد حدث ، فيما بعد ، ما أوجب تطويرها وزاد في شأنها ونفوذها . فهل جاء هـــذا التطور بصورة عفوية ، طبيعية ، ام جـــاء نتيجة عمل مدروس وخطة موضوعة ، تمخض بها الشعب متأثراً ، بمثل المدن الاغريقية ، او مدفوعاً اليه دفعاً من قبل بعض قادة الجيش ، تعبيراً منهم عن معارضتهم لمجلس الشيوخ ؟

مهما يكن ، فما ان انطلقت الحرب البونيقية الثانية حتى راح الشعب يعبر عن إرادته ، فبرز بوضوح ، الشأن الذي يحظى بـه حزب هانيبعل في قلب هذا الشعب . ولم يخفّ هذه النفوذ او يضعف على أثر الكارثة المؤسفة التي انتهت اليها هـــذه الحرب ، والشعب يدغدغه الامل بأن

الشكل ٤ - قرطاجة

يتمكن هانيبعل من اصلاح ذات البين والاعوجاج الذي يعتور دستور البلاد، فيضع حداً لِعَبْث الحاكين ولسوء تصرفاتهم .

هذه الغضبة يثيرها هانيبعل بين صفوف الشعب وطبقاته والآمال العراض التي راودت خياله، كل ذلك حمل خصومه على السعاية بـه عند أعدائه الرومان الألداء ، فصوروه لهم بعبعاً يخشى شره ولا يؤمن جانبه. فقرر ان يتوارى ، ويبتعد عن البلاد لئلا يقع فريسة بين أيديهم فينكلوا به . هذا الحادث بعينه يجعلنا نتصور الصعوبات التي تخبطت بها قرطاجة ، فيما بعد ، أي قبيل الحروب البونيقية الثالثة وفي أثنائهـا ، اذ ما زلنا نتبين بين ثنايا الشعب القرطاجي ، حزباً ديموقراطياً حله، بضغط منه على ان يتخذ إجراءات جذرية. ومهما تكن مصادرنا ضعيفة ومراجعنا قليلة ، هذه المصادر المتعلقة بحوادث سنوات قرطاجة الأخيرة ، فهي تتيح لنا ، مع ذلك، ان نتبين بوضوح ، شيئين مهمين : وقوع أعمال شغب وعنف ، واستعداد فريق من الناس للاستعانة بالأجنبي الدخيل والتعاون معه. فلكل من الرومان ومسّينيسا أنصار وأتباع يظاهرونهم ويشدون منهم الأزر : هذا مندفع في عاطفته، والآخر وصولي مأجور، تحدثه نفسه بالوصول الى الكرسي والاستئثار بالسلطة ، وخطر الموت الزؤام يرفرف فوق المدينة الثائرة ، المهيضة الجناح ، وقد ثارت فيهـا الأطماع ، وتلاحمت المصالح ، وتصادمت متنابذة متقاتلة وأصبحت سوقاً راجت بأسفل الدناءات كما انها حفلت ، من جهة اخرى ، باروع صور البطولة .

فالاسناد التاريخي يعول هنا على التاريخ القديم الذي تتجهم مصادره وتقسو مراجعه، وكيف لا تقسو وهي في غالبيتها مصادر إغريقية رومانية . فلا عجب ان تسترسل في وصف هـذا الوضع المحموم، الشديد الغليان وفقاً لأغراض الكتاب والمؤرخين. وهذا الوضع لأبعد بكثير من ان يصور حقيقة ما كانت عليه قرطاجة يوم كانت هي نفسها . فقد كان لها ، هي الأخرى ، وقفاتها الكبرى وساعات الفصل البكر . والمؤرخ يرغب من الصميم في معرفة مسلك الدولة ، وما هو بالضبط موقف النظام الارستوقراطي ، مـن السلطة الاستثنائية التي تمتع بها فريق من الشعب كان من الطليعة بين من تضرّسوا بهذه الاحداث الجسام وتربصوا بها . فمتى يا ترى ، وكيف ، انتقلت السلطة العليا من يد اوليغرشية ضيقة الى يد الشعب ؟ يؤسفنا كثيراً ولا شك ، ان نجهل كيف سقطت هذه المدينة بين أشداق الموت فتلقفتها ثنايا الدمار ، فدفن، ربما الى الأبد، سر هذه الوقائع والاحداث المنيفـة التي هزت المجتمع الافريقي اذ ذاك ، والتطورات التي مرت بها او عايشتها التي كان من نشأنها ان تساعدنا هنـا ، في هذا الظرف بعينه ، على تفهم الحقيقة، وهناك، بعد مقارنتها بظروف شبيهة بها ، على تفهم ما كانت عليه اوضاع القوى الشعبية وميولها المختلفة ونوازعها في خطرها العنيف .

الامبراطورية القرطاجية والتجارة البحرية

من حسن الحظ ويمن الطالع ان يكون الوضع الاقتصادي أقل غموضاً وأكثر وضوحـاً منه في الوضع الاجتماعي

والسياسي، والا لكان أسقط في ايدينا لو لم نر قرطاجة ، وهي مدينة فينيقية في الصميم ، مرفأ بحرياً وميناءً تجارياً قبل كل شيء. الا انه من المثبط للعزم والمخيب للامل الا نستطيع التحديد، على وجه الدقة ، لمواقع احواض هذا المرفأ ، او هذه المرافىء كما هو اصح ، ونتتبع التطورات التي مرت بها وصارت اليها ، اذ كان لها بالفعل مرفآن : احدهما تجاري ، والآخر حربي عسكري ؛ او ان يتعثر بنا الخيال الجنح فنراها مقتصرة على هذه الغدران او البحيرات المتواضعة الماثلة في مرأى العين اليوم . فعلى الخيال ان يلهب نفسه فيوسع من جنباتها لتستوعب هذه الاساطيل الجرارة التي سيطرت، اجيالاً طوالاً، على حوض البحر المتوسط الغربي وتحكمت، سيدة غير منازعة، بمنافذه ومخارجه.

والجدير بالملاحظة هنا مما يُعد ابتكاراً جديداً في تاريخ البشرية ، هذا الدور النير والمساهمة الواعية التي اسهمت بها الدولة لتنشيط الحركة الاقتصادية عن طريق إنشاء عدد من الاحتكارات الحكومية لبعض الخامات او المواد الاولية ، فحصرت استثمارها ونقلها بالاسطول القرطاجي التجاري . ولعل اعجب ما في هذا كله ، وأدعاه للحيرة الحفاظ على سرية العملية والتشدد في صيانتها وعدم البوح بها ، مع بذل الجهد لإتاهة المتتبعين الجادين في الاثر وتعمية معالم الطريق عليهم ، وذلك باشاعة الاخبار المرعبة والمرويات المخيفة حول الطرق البحرية التي كانوا يسلكونها اليها . ولم تكن الدبلوماسية القرطاجية تتورع او تتهيب عن استعمال القوة ، في هذا السبيل ، فعقد أولو الامر في قرطاجة ، مع الاتروسك ، كما عقدوا مع الرومان فيما بعد ، مواثيق واتفاقات تحذر على هؤلاء واولئك تخطي بعض الخطوط او الحدود المعينة. من ذلك مثلاً ، معاهدة عقدوها مع الرومان ، في القرن الرابع، الزموهم بعدم الاتجار مع سردينيا وافريقيا او تشييد مدن لهم فيها، كما منعوا عليهم الرسو فيها الا للامتيار واصلاح ما يطرأ من عطل على سفنهم، ليس الا . فاذا ما ارغمتهم العواصف الهوجاء على ذلك ، كان عليهم ان يغادروها خلال خمسة ايام . وهكذا نرى قرطاجة تحتفظ لنفسها ، سواء أسمحت للسفن دخول مرفئها او مرافىء المدن التابعة لها او التي تسيطر عليها في صقلية ، بحق الإتجار على سواحل افريقيا الشمالية غربي القيروان او في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية التي كانت بحق ، اغنى المقاطعات الاسبانية طراً بمناجمها ، ولا سيما بمعدن الفضة والزئبق .

ومما هو ادهى واعظم من هذا ، فقد تجاوزت اساطيلها الى ما وراء منافذ البحر المتوسط ، فاتخذت تتلمس لها طرقاً ومعابر جديدة في المحيط الاطلسي ، حرصت على ان تكون بالطبع تحت مراقبتها واشرافها الدقيق . فقد انفذت ، في اواسط القرن الخامس ق.م، بعثة تجارية تحت امرة البحّار الجريء عملقون فبلغ بمهارته الجزر البريطانية بحثاً عن معدن القصدير وايجاد طرق جديدة في تصديره تنأى عن رقابة الغالبين. فلم يكن أخفى على افهام الناس ومعرفتهم، من سبل التجارة البحرية مع اوروبا الغربية والشمالية من جراء محافظة البحارة الساميين على

سرية هذه الطرقات التي كانوا يسلكونها وابقائها بعيدة عن الانظار . فهل كانت هـــذه التجارة تتم رأساً ومباشرة او تجري بالواسطة ؟ ومهما يكن فالدلائل تدل على ان قرطاجــة نفسها لم تشترك على نطاق واسع بهذه الحركة ، بل تنازلت عنهـــا لابنتها وربيبتها مدينة غاديس التي كانت تعاملها بشيء من الحرية لم تنل بعضه ولم تحظ بمثله المدائن الاخرى الفينيقية الاصل . ولذا راح سكان هذه المدينة يقومون بالامر باسمها وتحت رعايتها ، وهم على اشد من اليقين من مؤازرة قرطاجة لهم في حراستهم الشديدة لمنافذ المضيق الغربية . وهذه الصرامة في التشديد على منافذ البحر تحفزنا للتساؤل كيف تمّ للبحـــار المرسيلي بثياس ان يفوز بثقتهم ، ليقوم في اواخر القرن الثالث ق . م برحلة طويلة في هـــذه المناطق حملته الى مشارف ايكوسيا في الشمال من انكلترا والى شواطىء الدانيمارك . فلم يبلغ علمنا ان بحاراً يونانياً آخر غـيره سبقه الى مثل هذه الرحلة او سار على منواله واحتذى حذوه من بعده في رحلة لاحقة .

اما في الجنوب، على موازاة الساحل الافريقي فقد رغب القوم ان يستوردوا رأساً حاجاتهم من محاصيل البلاد الاجنبية ، فطلبوا الذهب من السودان ، محاولين ما امكن ، الاستغناء عن خدمات القوافل الغالية التكاليف التي كانت تجوب ارجاء الصحراء لتبلغ منهـــا مشارف البحر المتوسط. وكانت مدينة غاديس بمثابة مستودعات ضخمة تختزن فيها هذه المحاصيل.ولدينا وثيقة مهمة للغاية ، الا انها فريدة من نوعها مع الاسف ، تثبت ان القرطاجيين جلّوا عالياً في هـــذا المضمار . والوثيقة المذكورة نص يوناني يصف لنا رحلة بحرية قام بها رحالة قرطاجي آخر ، من معاصري عملقون ، هو « الملك » حنون ، من اعضاء مجلس السوفيت ، ومن سلالة آل ماغون الاماجد. فقد كتب وصف هذه الرحلة الجريئة ونقشها محفورة على صفائح الشبهان واودعهـــا احد معابد قرطاجة . فبعد ان اقلع من المرفأ التجاري وتحت امرته عمارة بحرية تتألف من ٦٠ سفينة حملت زهاء ٣٠ الفاً من المعمرين القرطاجيين ، بين رجال ونساء اتجه غرباً، واسس خلال رحلته هذه سبع مستعمرات، ابعدها الى الغرب مدينة سرنه *Cerné* او قرنة ، على احدى الجزر القريبة من سواحل المغرب. ثم جدّ في المسير بحراً الى ان وصل نهراً « يعـــور بالتماسيح وفرس البحر » . وقد راح المؤرخون يمعنون النظر ويطيلون التملي في هذه المعلومـــات والفوائد التي تكشف عنها دون ان يتفقوا رأياً على تعيين الأمكنة الجغرافية التي تشير اليها وتحددها. اذ احب بعضهم ان يرى في النهر المذكور الذي تلازمه حيوانات استوائيـــة ، نهر السنغال ، في ادنى تقدير ، بينما رأى البعض الآخر فيه وادياً من اودية المغرب . وعسى ان يتمكن علماء الآثار من العثور على ما يلقي ضوءاً جديداً على معلوماتنا هذه، تكشف عن حقيقة المواقع والامكنة التي أهلها هؤلاء المعمرون ، كما تفضي الى تحديد مدى احتلالهم لهذه المواقع عن طريق فحص معـالم الخزفيات ودرس بقايا الفخار التي خلفوها وراءهم .

ليس من الحكمـة ولا من اللائق بشيء ان نسترسل في التفسير والتعليق ، لأن الغموض لا يزال يكتنف هذا السر من جميع الوجوه . وليس من تقليـد رصين ، ولا من تواتر مكين يصح

اعتماده والركون إليه للقول مع القائلين ان القرطاجيين ، كرروا بالمعكوس ، الدورة الجغرافية التي اضطلع بها من قبـل بحارة فينيقيون لحساب فرعون مصر نيخاو . امـا فيما يتعلق بأسفارهم البحرية على محاذاة سواحل المغرب ، فعلينا ان نسترشد بالضوء الكشاف الذي يسلطه هنا ابو التاريخ ، المؤرخ اليوناني هيرودوتس ، إذ وصف لنـا في القرن الخامس ، وهو العصر الذي تمت فيـه ، على الأغلب ، رحلة حنون الاستكشافية ، النهج الذي اتبعه وسار عليه البحارة القرطاجيون في اعمالهم التجارية ، وهو نهج يزعم مؤرخنا انه اقتبسه عن القرطاجيين أنفسهم..كان البحارة التجار يرضبون سلعهم على مقربة من الشاطىء ويضعونها في مرأى العين ، ثم ينسحبون داخل سفنهم فيأتي سكان البلاد ، إذ ذاك ، ميممين الدخـان القريب المتصاعد إيذاناً واعلاناً ، فيضعون الى جانب السلع المعروضة مـا يرونه معادلاً من الدراهم أو الخامات الأخرى لثمنها ثم يكتفون بدورهم ويبتعدون ليفسحوا المجـال من جديد للتجار فيحملوا ثمن سلعهم اذا ما وجدوها متعادلة ، وإلا تركوهـا وشأنها توكيداً للفريق الآخر باجحاف الصفقة واعراباً له عن الضرر الذي ينزل بهم ، وان الثمن المقترح بخس ، وانـه يترتب عليهم بالتالي ، رفعه وزيادته اذا شاؤوا ان يتسلموا البضاعة المزجاة . كل هذا وليس من فريق او جانب يلحق الضرر او ينزل الأذى بالفريق الآخر. فالقرطاجيون لا يأخذون الذهب قبل ان تتعادل قيمته مع ثمن البضاعة ، كما ان سكان البلاد لا يمسّون هذه السلع قبل ان يتسلم القرطاجيون ثمن بضائعهم ذهباً . الصورة جميلة حقاً ، وأخاذة ، ولكن اكثر مما يجب ، وايرادها على هذا الشكل يثير الظنون . فالمدهش في القضية ليس هذه المقايضة وما يتخللها من ثقة أو عدم ثقة ، وقد تكون صورةً لما سبق أو جرى في زمن مضى وبين اقوام وفرقـاء ذهبوا وولوا. ولهيرودوتس راوي القصة وعارضها فضل السبق . ولكن ليس مـا يؤكد صحة ما رواه المؤرخ اليوناني في سرده هذه القصة ، ولم يكن سردها على ما نعتقد الا من باب الإيهام للمستحب والتغرير المستملح.

ولعل أسلم المواقف الآن واحكمها هو ان نقتصر عـلى التنويه بالطابع الرسمي والاعتراف الحكومي للمغامرات الجريئة التي قـام بها عملقون وحنون في الكشوف الجغرافيـة التي غامروا في سبيلها . وعندمـا حدثت هذه المغامرات المثيرة لم تكن قرطاجة سوى مدينة استطاعت المدن الاغريقية في صقلية إيقافها عند حدودها . والحال لم يكن إذ ذاك ، في مقدور أية مدينة يونانية ، حتى ولا أثينا نفسها التي كانت آنئذٍ في أوْج عزهـا ان يجيش في صدرها شيء من هذا . ففي عـالم البحر المتوسط ذي الآفـاق المحدودة على رحبها ، ارتكض قلب قرطاجة وجاش بأمور عديدة، تدعو للاعجاب، لم تكن لتزول بسرعة لو تيسر لنا من المصادر ما يمهد لنا السبيل السوي للمعرفة الكاملة .

الحياة الاقتصادية في قرطاجة ومواردها الوافرة

لعبت الحركة التجارية في اقتصاديات قرطاجـة دوراً بارزاً في ازدهـار هذه المدينة كما تؤيد ذلك المصادر التي خلفتهـا لنا العصور القديمة .

غير ان قرطاجة لم تعرف يوماً صناعة استبدت جودتها بالأذهان . فقد استطاعت ان تؤمن

لنفسها الخامات التي كانت بحاجة ماسة اليها ، اما لقرب تناولها لها او لنقل القوافل البرية والاساطيل الحربية . من ذلك مثلاً : صباغ الارجوان ، والنحاس ، والقصدير وغير ذلك من المعادن الثمينة وريش النعام وبيضه ، والعاج ، والحجارة الكريمة وخشب الأرز ، وخلاف ذلك ، وهي مواد وخامات لم يبدُ لنا ان صناع قرطاجة تمكنوا فيما ندر ، من صنع حاجيات ثمينة ذات ذوق رفيع يستبد بأذواق الأثرياء وتغريهم باقتنائها ، بالرغم من ارتفاع ثمنها وعلو اسعارها . فلم يبلغنا يوماً انهم توصلوا الى خلق أو استنباط طراز فني معين . فالكماليات الغالية الثمن لم تشبع يوماً رغائب الارستوقراطية المحلية ولا صدّرت قرطاجة شيئاً يذكر منها . فقد قصّرت قرطاجة ، في هذا المضمار ، عن بلوغ المستوى الفني للمهارات الصناعية التي سجلتها المدن الفينيقية في شرقي البحر المتوسط وعرفت ، بالرغم من المنافسة الشديدة التي تعرضت لها ، ان تحافظ عليه خلال الأجيال القديمة المتطاولة . فمن بين هذه المصنوعات التي انتجتها ، عرفت صناعة السجاد وبعض الوسائد ان تستأثر بذوق الاغريق فيجدّون في أثرها .

وعلى عكس هذا تماماً ، توفرت قرطاجة على صنع الحاجيات العادية ذات الاستعمال الدائم وانتجتها بكثرة ، وهي صناعة راجت سوقها واستبدت مصنوعاتها في عهد متأخر من تاريخ هذه المدينة ، مع انها كانت تزخر بما تستورده من هذه المصنوعات ، من بلدان المتوسط الشرقي : من فينيقيا ، وبلاد اليونان ، ومن مصر التي كانت تصدر تعاويذ الخنافس المقدسة . وأخذت بالتالي هذه المستوردات تنقص ويتدنى معدلها كما تشهد على ذلك مخلفات القبور التي عثر عليها المنقبون والتي تنطق عالياً بقيام صناعة وطنية ناشطة ، متنوعة ، منذ القرن السادس ق.م. ، إلا انها صناعة مقلّدة في كثير من انتاجها ، تقتبس نماذجها وطرق صنعها ، وطراز زخرفها من الخارج ، اذ ان استيراد هذه الحاجيات لم ينقطع حبله قط ، باستثناء الحاجيات المستوردة من وادي النيل ، التي استبدلت وحل محلها مصنوعات أتروريا وكمبانيا . ومن الطبيعي ان تكون قرطاجة نشطت الى تصدير منتوجاتها الصناعية بأسعار رخيصة ، اذ اننا نرى نماذج كثيرة من هذه المصنوعات في عدد كبير من الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط الغربي ، كالفخار والخزف والزجاج . وحري بالملاحظة ان السواد الاعظم من مستهلكي المصنوعات القرطاجية وزبائنها ، كانوا من سكان الاقطار والبلدان الواقعة على مقربة من شواطىء البحر ، وهم على الغالب من رعاياها وحلفائها والموالين لها . اما انتشار هذه المصنوعات وتغلغل استعمالها في الداخل ، بين الأقوام المتوحشة ، فكان يجري على نطاق ضيق . فهي من القلة والندرة بحيث تلفت النظر ، لا سيما في مقاطعات افريقيا الشمالية ، وهو أمر يجب رده أصلاً الى فقر السكان الوطنيين وما كانوا عليه من خشونة الطبع وتخلف الذوق عندهم .

فلم تكن الصناعة ، والحالة هذه ، لتدرّ على قرطاجة أرباحاً طائلة . فالدخل الكبير ، جاءها ، ولا شك ، من تجارتها الواسعة . فقد كانت سوقاً كبيراً لخزن البضائع وتنفيقها بنشاط

في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . فتحشد في عنابرهـا ومخازنها الخامات التي كانت قوافلها البرية والبحرية تعمل على جمعها وحملها من الاقطار الغربية . وعلى هذا المنوال نسجت في معاملاتها التجارية مع البلدان الشرقية ، وهكذا استطاعت ان تؤمّن بيسر، ما تحتاج اليه من المواد الغذائية ، الا انه لم يبد انها صدرت للخارج شيئاً كبيراً منهـا . فالبلدان الإيجية التي كانت تؤلف سوقـاً كبيراً للحبوب عرفت ان تؤمن حاجتها من البلدان المجاورة لهـا . فبعد ان عولت طويلاً على صقلية وبلاد اليونان وجزرها في سد حاجتهـا من الخمور ، لم تلبث ان اصبحت قادرة فيا بعد ، على بيع مقادير كبيرة من محاصيل النبيذ والفاكهة عندهـا الى البلدان الغربية . وهذه الحركة التجارية الصارمة التي أمنت دخلاً كبيراً للدولة القرطاجية ، خير ما تمثل في اعمال السمسرة والعمولة وحركة النقل . وهذا ما يفسر لنا وجود مثل هذا العدد الكبير من القرطاجيين في المدن الاغريقية : في صقلية وبلاد اليونان وجزرهـا ، كما تشهد بذلك المصادر التي لدينا . أما خارج اليونان فليس مـا يخولنا الجزم بالعكس ، مهما قلت المصادر التي بين ايدينـا وندرت . فالعلاقات الناشطة التي أقامتها مـع مدينتي اغريجانت وسيراقوزة كانت ثابتة مستمرة بالرغم من الاصطدامات الحامية المتكررة التي وقعت بين قرطاجة والاغريق في صقلية . فليس من باب الاتفـاق والصدفة ان تكون بعض نواحي حضارتها تفاعلت الى حد بعيد ، بالحضارة الهلينية .

ولما كانت الامور على مثل هذا النحو الموصوف ، كنا نتوق لو نرى قرطاجة سكّت لها العملة في وقت مبكر من نشاطهـا التجاري المحموم . ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . والظاهر انها قررت الأخذ بهذا العرف بضغط من الاحداث ، اذ كان عليهـا ان تدفع مرتبات جيش لجب من المرتزقة . فمهدت بهذه القضية في بادىء الامر الى مستعمراتها العديدة في صقلية ، وذلك حوالي اواخر القرن الخامس ق.م. وكان لا بد من مرور قرن كامل قبـل ظهور القطع الاولى من السكة او العملة القرطاجية ، على انواعهـا الثلاثة : الشبهان والفضة والذهب . إلا انها سكة خشنة الضرب والصنع . والظاهر انها استعملت في اسواقها عملة يونانية كما تدل على ذلك قطع المسكوكات التي عثر عليهـا بين الانقاض ، مع انها لم تكن لتفتقر للمعادن الصالحـة لسك العملة ، مفضلة استعمال السبائك في المقايضات التجارية تجريهـا بين أقوام بدائية ، متخلفة في تطورها .

ولكن التجارة وحركتها الناشطة لم تكن وحدها سر ثروة قرطاجة وغناها ، هذه الثروة التي صادفت في جمعها ازمات وصعوبات حادة ، كما يستدل ذلك من الآثار التي عثر عليها في بعض القبور ، خلال القرن الخامس ، مثلاً وان كنا لا نستطيع ان نتبين بوضوح ، طبيعتها وماهيتها لقلة المصادر لدينا . ومع ذلك فالانطباع العام الغالب هو انطباع ازدهار كلي . فالى جانب الموارد الطائلة التي كانت التجارة تدرها عليها ، هنالك مناجم الفضة في اسبانيا التي تمكنت قرطاجة من

استملاكها واستثمارها بعد الانتصارات الحربية التي سجلها القادة العسكريون في تلك البلاد ، اذ عمدوا في البدء للحصول عليها والاستئثار بها عن طريق مقايضة مصنوعاتها مع سكان البـلاد . والى هـذا يجب ان نضيف ايضاً رسوم الضرائب التي كانت تجبيها بقسوة لا تعرف الشفقة من البلدان والشعوب الواقعة في مدارها وتحت رعايتها . كذلك يجب الا نسقط من حسابنا هنـا الزراعة ومرافقها العديدة لا سيما بعد ان بسطت هذه المدينة نفوذها المباشر على جانب كبير من افريقيا الشمالية . وبفضل اليد العاملة المحلية التي كثيراً ما رزحت تحت السخرة والاشغال العامة المرهقة ، عرف القرطاجيون الذين كانوا بحارة جريئين وتجاراً ماهرين، ان يبلغوا مكاناً مرموقاً بين الشعوب التي نهضت بمرافق الزراعة الى الاوج في العالم القديم . يجب الا يغرب عن البال قط كيف ان الفينيقيين اقبلوا على استثمار خيرات الارض الواقعة الى ما وراء البلاد التي كانوا يقطنونها. فكيف بنظرائهم القرطاجيين في افريقيا حيث خصب التربة كان مضرباً للمثل عند الاقدمين، بجودة محاصيلها ووفرة خيراتها، مما حدا بالقدامى من الكتبة والمؤرخين الى التمثل في هذا المجال بذكر ارقام خيالية في معرض حديثهم عن خيرات الارض ووفرة المحصول: فقد بلغ من خصب التربة ، في مقاطعة طرابلس الغرب ، كما يؤكد هيرودوتس، ٣٠٠ في الواحـد. وخير ما تمثل به الزراعـة عند البونيقيين غرس الاشجار المثمرة ، كالدوالي وشجر الزيتون والتين والرمان وغير ذلك . وعنهم اخذ الرومان ، في القرن الثاني ق . م ، شجرة التين الافريقي كما نقلوا معها شجرة الرمان وسموها : « التفاح البونيقي » . وعندمـا كان كاطون الاب يعرض على انظار زملائه من اعضاء مجلس الشيوخ اكواز التين الطازجة التي نقلها معه من افريقيا الشمالية، كان يحرص ان يشدد امامهم بالاكثر، على طزاجة هذه الفاكهة وطراوتهـا ، مورّياً بذلك عن الخطر المداهم الذي كان يتهدد روما في استبقائها قرطاجة بعد معركة « زاما » الفاصلة . ومن الجائز طبعاً، التفكير بانه اختار ، عن سابق قصد وتصميم، هذه الثمار ليعرّض امامهم بهذه المدينة التي كانت خصماً عنيداً وعدواً لدوداً لوطنه ، تشديداً منه على هـذه المنافسة بين المدينتين المتجلية ، على اتمها ، بين زراعة الاشجار المثمرة المزدهرة في قرطاجة وبين ما كانت عليـه من وضع متواضع في ايطاليا ، دعوةً منه لتشجيعهـا. قامت هذه الزراعة عندهم على اسس ومناهج علمية مدروسة ومتطورة ، اذ كان لقرطاجة مهندسوها وخبراؤها الزراعيون الذين عرفوا ان يفيدوا ، الى حد بعيد ، من كتب الزراعة والفلاحة التي وضعها من سبقهم من الكتبة الهلينيين. ولعل اشهر هؤلاء المهندسين واخلدهم اسماً وذكراً القائد « ماغون » الذي وضع موسوعة زراعية بلغ من ذيوع شهرتها ما حمل مجلس الشيوخ الروماني على اتخاذ قرار بنقلها الى اللاتينية، كما تم نقلها فيما نعرف الى اليونانية، وتولاها كثيرون بالشرح والتعليق والتبسيط. وبقيت هذه الموسوعة طائرة الشهرة طوال العهد القديم، اذ كثيراً ما رجع اليها علماء الزراعة من الرومان واغترف منهـا مهندسوهم ، وعولوا عليها في تنقيباتهم وتحقيقاتهم، امثـال كاطون (*Caton*) بليني (*Pline*). ويستدل من هذه النقول ان القرطاجيين كانوا اقل اهتمامـاً بالحبوب منهم بالاشجـار المثمرة

والخضراوات ، والبقول وتربية الماشية ، والنحالة وغيرها من المرافق الزراعيــة التي بلغت من العناية والاتقان ما درّ عليهم الارباح الطائلة .

وليس ما يصور لنا النتائج التي بلغتهــا قرطاجة في هذا المضار أحسن من الوصف الأخاذ الذي تركه لنـــا ديودورس الصقلي ، وذلك في معرض حديثه عن الحملة العسكرية التي جرّدها اغاتوكليس على افريقيــا ، في اواخر القرن الرابـع ق.م. فاسمعه يقول : « فقد افترّت الأرض فيها: عن الرياض الفيحاء والحدائق الغنّاء والجنان الـندسية التي كانت ترفل بكل جنس ونوع من الثمار، تنساب بينهـــا السواقي وتتخللها الترع المائية حاملة الى الدقاق منها الدفء والثراء . وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر أمـــام مرأى العين ومأتى البصر ، على مـسافات بعيدة ، ساطعة البياض ، حسنة البناء تحدث عالياً بغنى ساكنيها ونعماء اهلها . اما مغروسات الارض فكانت تتناوح بين الكروم وحقول الزيتون وغير ذلك من الاشجـــار المثمرة ، تطالعك في جنبات السهول وسفوح التلال، قطعان البقر والغنم والمعز بينما الريف القصي ، كان ملعباً لقطعان الخيـــل . وجملة الخبر ، فقد كانت الارض تفيض بالخيرات وتتدفق منهـــا المحاصيل على تباين انواعها ، وقد تقاسم ملكيتها سراة القوم من القرطاجيين واشرافهم يفرغون فيهـــا ايامهم بين اللذائذ والاطايب » . بالطبع لم تكن عينا ديودورس الصقلي قد اكتحلتا بمرأى ما وصف لنا. فقد اعتمد في نقل ما نقل ، على شهود عيان حدثوا بما رأوا وحيّزوا مشاهداتهم على الورق. قد يكون احد رفاق اغاتوكليس في حملته المذكورة أخذ بروعة مشهد لم يسبق له ان وقعت عينه على مثله حول سيراقوزة او في ضاحيتها . هذه صفحة حرية بان تحفظ وتروى،ويستدعى الاستشهاد بها ادخال بعض تعديلات على النظرية التى استبدت بافهام الناس حيناً فجعلت من قرطاجة مجرد مدينة بحرية ، غرقت في الاعمال التجارية واستسلمت لها بكليتها ، مع ما الصقوه بهـا من نعوت واوصاف بشعة اعتادت الروايات القديمة المغرضة تردادها .

التأثر بالحضارة الهلينية وآدابها

لم يرع التاريخ القديم لقرطاجة في هذا المجال، حرمة ، فاسترسل الكتبـــة والمؤرخون ، ومعظمهم اغريق ورومان ، في النهش والثلب . فرموا القرطاجيين بكل فريّة ، وقذفوهم بابشع النعوت والاوصاف. فهم كما صوروهم لنا، قراصنة يخفرون بالعهد المقطوع، تيّاهون، فياشون ، صلف في سيطرتهم، أخساء في دناءتهم ، قساة القلوب ، خطفـــة ، مـسترسلون في السوء ، متمرغون في الدناءات. تلك هي بعض قسمات الصورة التي تركوها لنا عنهم . من السهل كما هو مضيعة للوقت وقتله في السفاسف ، ان نتلهى بكشف ما فيها من تجسيم وتضخيم ارادته موجـــدة بغيضة، وحقد حقين. سلّموا لهم ببعض الذكاء دون ان يعترفوا لهم ، من جهة اخرى ، باي نزعة نحو اعمال الفكر واللذاذات الادبية . من الصعب لدينا ان لم نقل من المحال، ان نستطيع ابداء رأي في هذا كله، لانعدام مقومات الرأي وانقطـــاع المصادر الاصيلة . فما كتبه القرطاجيون بلغتهم الام وهي اللهجة الفينيقية المحكية

في شمالي افريقيا ، لم يبق سوى بعض نتف مجملها في غاية الاقتضاب والايجاز ، لا تمت الى الادب بصلة . والاثر الادبي البونيقي الوحيد الذي لا يلفه الغموض هو دائرة المعارف الزراعيـة التى وضعها ماغون . والى هذا ، فاذا استـلنا للصمت الذي تلتزمه هنا المصادر الاخرى ، تبدى لنا انه لم يخرج من صفوف القرطاجيين اي مفكر او مؤرخ، او شاعر، او عالم واحد . فاذا اتفق صدفة ورأى تيرانس(*Térence*) النور على ارض بونيقية ، فقد وُجد منذ حداثته الباكرة في الامر ، واقتيد عبداً الى روما واستعمل اللاتينية في كتاباته . ومع هـذا، والى هذا كله، يحدثنا التاريخ عن قيام مكتبات في قرطاجة، امرت روما بعد ان تمت لها الغلبة عليها وظفرت بها ، بتوزيعها بدداً على ملوك البربر وامرائهم . فقد جوت هذه المكتبات بالطبع مؤلفـات اغريقية ، ولكن الى اي حد ؟ وعلى اي قدر ؟ ومـاذا كانت نسبتها فيها ؟ فالاغريق شغلوا انفسهم بقرطاجة، فحلت بسيطرتها وسيادتها على الحوض الغربي من البحر المتوسط، من تفكيرهم في الصميم . فها هو ارسطو يعنّي نفسه بدرس مؤسساتها والنظم السياسية والاجتماعيـة التي انتظمت حياة هـذه المدينة . وقام بين الاغريق مؤرخون ارخوا ، باستفاضة ، للحروب البونيقية الاولى والثانية ، بما هو في مصلحة قرطاجة وتبيين فضلها . كثيرون بين القرطـاجيين من جوّدوا اللغة اليونانية واتخذوا منها يداً لهم واداة طيعة احسنوا استعمالها في اعمالهم التجارية الواسعة التي رحبت رحابة البحر المتوسط ومشارقه في الغرب والشرق ، واتخذوا من هـذه اللغة : لغة كتابة وتعبير واداة تفاهم، لدرجة حملت السلطات القرطاجية المسؤولة، ولكن دونما جدوى قط ، على تحريم استعمال اليونانية على رعاياها ، اثر حادث خيانة وطنية ، لا مجال هنا لتفصيله . وقد مر معنا كيف انه نشأت حوادث زواج وإصهار بينهم وبين الاغريق . فقـد اظهر الناس اعجابهم في القرن الرابع ق . م ، من قوة بلاغة وفصاحة احد سراة القرطاجيين في سيراقوزة ، كما ان هانيبعل درس اليونانية ، وهو بعد في اسبانيا، على معلم اسبرطي وضع فيما بعد ، تاريخاً مفصلاً لتلميذه. والطبقات الثرية في قرطاجة وقعت تحت تأثير الهلينية التي عرفت، قبل الاسكندر بكثير ، ان تغزو المدن الفينيقية وتتغلغل في ثناياها .

تأثر قرطاجة بالفن الهليني

ان ما نزل بقرطاجة من خراب مدروس ، ومن دمار مدبر لها، مخطط يزكي ما هي عليه معلوماتنا من فقر مدقع حيـال الفن البونيقي . ازدانت المدينـة ولا شك ، بالأبنية الضخمة ، كما ازدانت شوارعها وساحاتها وميادينها بنصب الآلهة . فلم يبقَ من هـذا كله سوى نتف مبعثرة وحطام شتيت من معالم الفن المعماري عندهم . ولم يسلم من عملية الهدم الجذري سوى أقبية المدافن والقبور ، وعمق بعضها ٢٠ متراً في الارض، وهو القسم الأم ، ثم أخذوا يضيفون اليها ، بعد ذلك بكثير ، انشاءات علوية بشكل أضرحة واهرام . وهكذا لا نستطيع ان نتبين ما كان عليه القرطاجيون من الذوق الفني إلا من خلال النقائش والخزفيات والحلى التي عثر عليها المنقبون بين القبور . غير ان دراسة هـذه الحاجيات لا تضعنا وجهاً لوجه ، مع فن يمكن وصفه بفن بونيقي أصيل ، اذ ان هذه المكتشفات إما ان

تكون خلواً من كل أهمية فنية او انها تعكس، على الغالب، التقليد المباشر للمصنوعات الاجنبية، ان لم تعكس يد صنّاع اغراب تأثروا الى حد بعيد، بالشرق المصري او الفينيقي الذي اقتبس، هو الآخر من مصر، أكثر من طريقة او طابع وراح يقلدهما في الحين ان الفن اليوناني كان اذ ذاك المؤثر الفني الاكبر في الشرق .

والمصنوعات الحرية بالذكر هنا هي لعمري من جهة، هــذه الاقنعة المتخذة من الخزف التي تصور لنا أناساً في كشرتهم، ومن جهة اخرى أغطية نواويس عديدة فرشت بالنقوش المحفورة او بالرسوم المتنوعة، عــثر عليها في مقبرة القديسة مونيقا . والحال، لهذه الاقنعة مثيلات كثيرة في هذه الحقبة من الفن الاغريقي الشرقي القديم . امـا النقائش فأشهرها النقوش الهلينية التقليد، وهي عبارة عن تماثيل اشخاص منتصبي القامة والقوام، نحتها ازميل النحات كأنها مضطجعة او مستلقية على الظهر، بينا يبرز كاهنان برسمان حركة سجود، وامرأة صبية لها وجه صبوح رصين كأنها الإلهـــة تانيت، ملتحفة حتى الخصر، بجناحي عصفور، وممسكة باحدى يديها حمامة وبالاخرى مجمرة بخور . فلا يمكن ان نتردد في الحكم امـام مرأى هـــذه الصورة : فالرخام يوناني الاصل، ويونانية كذلك معالم الطراز والقسمات، وإغريقيّ النحاتون. فقد اقتصروا على رسم مواقف وعادات ورموز الديانة البونيقية، سيان لديهم ان يكون النحت تم في داخل البلاد او جرى بعيداً عنها، مع العلم انه كان في قرطاجة جالية اغريقية بينها ولا شك، فنانون محترفون . وقـــد اكتشفوا عند قاعدة نصب في مدينة افس، في ايونيا، على توقيع نحّات ينتسب الى « القرطاجيين » . اما اسمه فيوناني الجرس يدعى « بويثوس *Boéthos* » وكذلك أبوه، اذ انه يدعى ابولوذوروس .

إنّ تطبع قرطاجة بالطابع الهليني يبرز في مجـال الفن أكثر منه في مجالي الفكر والادب . فالقائـــد الروماني شيبيو اميليان، بادر، عقب فتحه لقرطاجة، عام ١٤٦ ق . م، الى إعادة الآثار الفنية الاغريقيـــة التي سلبها القرطاجيون خلال حروبهم مع المدن اليونانية في صقلية . كذلك حمل معه الى روما عدداً كبيراً من التماثيل والانصاب التي كانت تزين المدينة، ولم يكن ليعنّي نفسه باعادتها الى أصحابها، وهو العليم الخبير بمآثر الاغريق الفنية، لو لم تكن هلينية الطابع والصنع اقتناها القرطاجيون خلال اتصالاتهم بصقلية والشرق الإيجي الذي كان يخضع، اذ ذاك، لملوك مقدونيين. اما عملية هَلْيَنَة المدن الفينيقية فقد كانت قطعت، اذ ذاك، اشواطاً بعيدة واستبد الذوق الاغريقي في النفوس لدرجة يصعب علينا ان نجد أمثلة اوقع في النفس وافعل فيهـــا، على قوة إغراء الحضارة الاغريقية وفرض ذوقها الفني الرفيع عـــلى هؤلاء الاقوام الأسيويين، بينا يقف ابنـــاء عمومتهم، في الغرب، من الاغريق، موقف المنافسين الأشداء .

ألحق بعض جنود القرطاجيين إساءة بالآلهة في جوار مدينة سيراقوزة فرأى

ديانة القرطاجيين

القرطاجيون ، تكفيراً عن ذلك واستعطافاً لها ، حمل إلهة الزراعة عند الاغريق : ديمتير وابنتها ، الى عاصمتهم قرطاجة . فالمرء يأخذ بسهولة طقوساً رسمية ليس لها من صدى كبير يذكر ، باستثناء الاعياد الخاصة بالاله سيريس التي اتسمت بطابع لاتيني ونشطت خلال العهد الروماني وارتدت حيوية ظاهرة . وربما كان تأثير هذه الطقوس الدينية أوقع في نفوس الاقوام الافريقية الاصلية منها في نفوس القرطاجيين انفسهم . ومهما يكن من الأمر فهذه الحالة تؤلف شذوذاً او خروجاً عارضاً ، اذ ان الديانة الهلينية لم يكن لها من التأثير ما يغري الشرقيين بها ويجتذبهم اليها ، فوقفوا عند مظاهرها الخارجية ، ولا سيما ما تعلق منها بتمثيل الآلهة وتحييزها تحت أشكال مادية .

وهكذا نرى ان الديانة البونيقية لم تكن مغلقة على نفسها ، منكفئة على ذاتها ، منفّرة النفوس بتصلبها . فقد جاء بها معمرون فينيقيون ، وبقيت في جميع ادوارها محافظة على فينيقيتها في جوهرها وفي كل مظاهرها الكبرى . وديانة المشارقة من الفينيقيين برهنت ، في اكثر من موقف لها ، عن استعدادها لاقتباس مؤثرات اجنبية تعرف كيف تتمثلها . فقد اخذت من مصر ، وهكذا سار القرطاجيون ونهجوا على منوالها . فقد نقلت قرطاجة عبادة إلهة جبل إيركس ، في غربي صقلية ورمزت اليها باحدى آلهاتها ، بينا رمز اليه الاغريق بافروديت . كذلك اقتبست ايضاً آلهة قبائل الافريقيين ، تقرباً منها واستمالة لها وتفادياً لغضبها او لنقمتها ، في بقاع سيطر عليها القرطاجيون . من المتعذر ان نتبين الجديد من هذه العناصر المقتبسة لجهلنا التام ما كانت عليه ديانة هذه الاقوام الافريقية .

وسواءاً أكانت هذه الاقتباسات الدينية ثابتة فعلاً او مسلماً بها ، مقدرة تقديراً ، يجب ان نحسب حساباً لما طرأ على هذه العقائد من تطور وتبدل خلال حقبة من الدهر نيفت على ستة قرون . وكم كنا نود لو تسعف المصادر التي بين ايدينا ، فتزيل الغموض العالق بهذا الوضع المعقد والذي زاده الاغريق ثم الرومان تعقيداً وابهاماً بما احلوى لهم ان يتبينوا في آلهة القرطاجيين من وشائج القبس والصفات ؛ الا انها امنية لا تلبث ان تتطاير بدداً وتتبخر هباء ، بعد ان تعطلت وسائل البحث امامنا ولم يبق لدينا من اثر لأي اصل او كتاب يبحث في عقيدة القرطاجيين ولا في اساطيرهم الدينية . فلا عجب ان يقتصر هذا النقص الفاضح معلوماتنا على اسماء بعض آلهة عرفناها من خلال بعض الرقم والنقائش التى تلازم عدداً من القرابين او من بعض الطقوس الدينية التي تكشفت معالمها لعلماء الآثار . اما جوهر هذه الآلهة ، وطبيعة الايمان بها ، والنظر في مناسك الطقوس الموقوفة عليها ، فكلها مباحث استطال حولها النقاش وسيستمر الجدل حولها طويلاً ، قبل ان تأتينا جهينة بالخبر اليقين .

فالمسميات والاسماء لا تنقصنا ، لا بل هي مربكة لكثرتها بحيث نرى انفسنا ملزمين

للاخذ باسماء مختلفة لبعض الآلهة والآلهات . فلنقتصر منها هنا على الكبار ، تفادياً للسأم وهرباً من الارهاق والإرهاص. واول هذه الارباب، الإله اشمون الذي يسميه الاغريق : اسكلابيوس (*Esculapius*) دون ان ندرك بالفعل الأسباب الموجبة لهذه التسمية . والمعروف لدى الجميع ان معبده كان قائماً على رأس جبل بيرسا . ثم الاله بعل همون ، أقوى آلهتهم وهو الموازي للاله إيل او بعل ، عند الفينيقيين وهو رب الارباب الذي يشبه في الربوبة الاله زوس عند الاغريق، وجوبتير عند الرومان ، والذي استمرت عبادته باسم 'زحل في افريقيا . ويأتي بعد هذه الأسماء ، الإلهة تانيت المعروفة باسم: بينيه بعل ، أي وجه بعل ، ونحن نجهل تماماً الوجه الحقيقي لهذه التسمية ، هذه الزوجة التي كثيراً ما تظهر بمية بعل همون في الاحتفالات الرسمية ، قد تأتي قبله ذكراً ، وكثيراً ما يُقتصر عليها وحدها في الصلوات والتضرعات وبذلك تطل علينا كأنها الإلهة الأكثر شعبية . اما الرومان فقد تمثلوا باسم جونون ، شفيعة قرطاجة التقليدية وحاميتها ، كما عرفت في عهد الامبراطورية الرومانية باسم تشلستيس ، أي السماوية .

الطقوس الدينية ومناسكها المختلفة

من العسير حقاً ان نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عما كان عليه القرطاجيون من التقوى والتمسك بأهداب الدين . فقد صوروهم ، مع ذلك ، في التاريخ القديم بأنهم لم يتورعوا من خداع الآلهة كما لم يتعففوا عن خداع الناس وتضليلهم . كذلك غالى كتبة التاريخ القديم في تصويرهم لهم عبيداً أذلاء يتسكعون لهم في الملمات الشديدة والازمات الخانقة . فهم لا يختلفون في الحوادث المروية المتعارفة عن سواهم من الشعوب الاخرى . وكان كبار الكهنة والكاهنات يؤخذون عادة ، من بين الأسر الشريفة ، كما كانت تقام الاحتفالات الدينية الرسمية تحت رعاية الدولة واشرافها . فقد أظهرت مناسبات عديدة ، هانيبعل متمسكاً بحبل الدين، معتصماً بأهدابه ، مستسلماً للأساطير الدينية . فان شئنا ان نبدي رأياً في المشاعر والاحاسيس ، والافكار التي جاشت بها نفوسهم : من حب وخوف، واخلاق وعادات، وكلها حوافز داخلية للأعمال والسلوك، أسقِط في يدينا، لانقطاع السبيل وتعذر الاعتماد على الاصول الركينة .

والذي ادهش الاقدمين وحيرهم، هو استمرار بعض الطقوس الدينية عندالقرطاجيين التي رأت فيها النخبة من الاغريق والرومان ، عادة متأخرة ، متخلفة ، وحشية الطابع . فبفضل ديانة الاغريق ، اخذ القرطاجيون بالتشبيه أو تجسيم الصفاتية ، كما ركنوا في مناسكهم ، الى الرموز والتشابيه المجازية ، وورّوا اليها بعبادة بعض الحجارة التي ألهوها وكنّوا عنها ببعض الحركات والشارات . فمن عاداتهم المستهجنة : معاشرة البغايا التي 'زففن للهيكل . ومن بين الطقوس التي كانوا يستسلمون اليها بوحشية تتقزز النفوس لمرآها وتشمئز منها لما يرافقها من موبقات : هذه الذبائح البشرية ، حتى ان بعض الملوك تدخلوا لحمل القرطاجيين على الاقلاع عن هذه العادة

الوحشية ، كالملك داريوس الفارسي ، والطاغية السيراقوزي جيلون وغيرهما . كل هذه المساعي ذهبت عبثاً وبقيت العادة سارية بينهم الى عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، يقيمونها خفية ويقبلون عليها تحت جناح الظلام .

في اوائل القرن الرابع ق . م استولى قائد قرطاجي على مدينة هميرة (*Hémire*) التي اندحر تحت أسوارها من قبل، احد أسلافه الذي راح ينتحر بحرق نفسه امام ابوابها ، تخلصاً من عار الهزيمة ، قبل ذلك باحدى وسبعين سنة. فأخذ الفاتح الجديد، يثأر له اذ أمر بقتل ٣٠٠٠ أسير من سكانها . وكان الرومان يقابلون هذه الاعمال الوحشية بأعمال ليست دونها بربرية كحفلات مصارعة الاسود . وكان القرطاجيون يقدمون ، في كل سنة ، احد أبنائهم من الأسر الشريفة ، ذبيحة للاله ملقرت ، شفيع مدينة صور الكبير ، وحاميها . وكانت نفوس الاقدمين تنقبض هلعاً ، كما تنقبض نفوس المحدثين اليوم من تقديم أحد الاطفال ذبيحة للاله بعل همون ، وهي ذبيحة لم يكن عنها بد في نظر المسؤولين الذين كثيراً ما كانوا يحاولون تجنبها وتفاديها بالتي هي أحسن ، ولا ينفذونها إلا تحت ضغط الدولة والرأي العام، في حالات الخطر الشديد المهدد لسلامة البلاد . « فقد كان هنالك ، كما يقول ذيوذورس الصقلي ، تمثال للاله ملقرت من الشبهان ، وقد بسط يديه بانحناء نحو الارض بحيث ينحدر الولد الذبيح رويداً ليهوي في اتون متقدة يرتفع لهيب النار فيها عالياً » . ومن اليسير ان نتصور الهلع الذي يأخذ بمجامع القلوب ، بالرجوع الى الوصف الأخاذ الذي تركه لنا فلوبير في روايته سلمبو [١] .

فاذا كانت هذه الذبيحة البشرية تقتصر على تقديم البكر من الولد كما نحب ان نعتقد ، فقد كانت ترمز عندهم لتكريس بواكير غلال الارض . وكم يخامرنا الشك في صحة هذه العادة والعبادة ! فما من مجال امامنا الآن لنفيها او لنكرانها ، بعد ان اختلفت الآراء حول تفصيلاتها على اثر الاكتشاف « الاركيولوجي » الاول الذي جاء في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، والحفريات الكاملة التي تمت ، في قرطاجة ، اثر الحرب الكونية الثانية . فقد اظهرت هذه الكشوف الاثرية معالم اقدم هيكل من هياكل قرطاجة على الاطلاق، على مقربة من مرفأ المدينة . فقد عثروا في زريبة استحالت تلاً لكثرة ما تراكم عليها ، بين القرنين الثامن والثاني ، ق . م من عظام الذبائح البشرية والقرابين الحيوانية التي كانوا يستبدلونها بها ، في بعض الاحيان . فقد كان يعلو الذبيحة نصب كتب عليه العبارة التالية : « الى الربة تانيت بينيه بعل ، والى الرب بعل همون تقدمة من فلان ابن فلان . فلتباركه الآلهة » . ففي كرة ككرتنا الارضية، حبا عليها الانسان ودبّ منذ عشرات الألوف من السنين ، قلما يوجد حي للسكن او ناحية في ارباض المدينة يتحفز معه الفكر متأملاً باخلاق الناس وعاداتهم مقدراً التطور الذي قطعته بالنسبة بعضها لبعض .

---

(١) سلمبو تأليف غوستاف فلوبير . ترجمة سامي الريشي ، ٣٥٢ صفحة ، قطع كبير – منشورات عويدات .

الحضارة البونيقية
وسكان البلاد البدائيون

من الطبيعي ان يكون هذا او ذاك من الشعوب التي كانت على تماس بالحضارة البونيقية وقع تحت تأثيرها المباشر، بعد ان رأى فيها احدى الحضارات المتكاملة. ولكن عبثاً نحاول ان نتمثل تمثيلاً صحيحاً كنه هذه الحضارة وعناصرها المقومة. فالقرطاجيون لم يلعبوا يوماً الدور الخلاق الذي لعبه الاغريق في الشرق من قبل.

لا نزال نجهل الى حد بعيد، طبيعة المدنيات التي طلعت في شبه جزيرة ايبيريا، لنتبين مدى تأثرها جميعاً بالمدنية القرطاجية وانطباعها بها. فقد ظهر، وأيم الحق، هنا وهنالك، لا سيا في المناطق الساحلية، نماذج عدة من هذه المدنيات يظهر فيها بوضوح أثر قرطاجة، كما يتبدى لنا الأمر من النظر ملياً في بعض الخزفيات التي وصلتنا منها. ولعل أهم هذه الآثار شأناً، وأبينها تفاعلاً، هو هذا التمثال النصفي الذي يعرف: « بسيدة ألخيه *Dame D'Elché* » الذي عثر عليه بالقرب من مدينة أليكانت. فهو يثير أكثر من سؤال ومعضلة، لا تزال كلها تنتظر الجواب والحل، لدرجة ان البعض أخذ يتشكك بصحته التاريخية.

اما في افريقيا، فاشعاع المدنية البونيقية جاء بالفعل مخيباً لأضعف الايمان ودون ما نتوقع له ومنه بكثير. والحال فالليبيون كانوا بدواً واهل ظعن، يرسفون في وضع متأخر جداً، ولا تنقطع اتصالاتهم بالحدود القرطاجية، كما ان القسم الداخلي من البلاد وقع تحت سيطرة قرطاجة وأصبح من مستعمراتها، يؤمه التجار القرطاجيون في تنفيق سلعهم دون ان يخشوا بأساً. فقد امدّ الليبيون قرطاجة بالشغيلة كما قدموا لها الكثير من المرتزقة في جيشها، مما سهل لهذه الأقوام عملية القبس والنقل، ولو على نطاق ضيق محدود. وقد حرصت الدبلوماسية القرطاجية من جهتها، على تشجيع الاصهار والتزواج بين الطبقات الارستوقراطية او الثرية من كلا الجانبين. ويكفي دليلاً على ذلك وشاهداً على هذه السياسة، قصة الاميرة الحسناء سوفونسبا (*Sophonisbe*). وحرص امراء النوميد على ان يوفروا لأبنائهم تربية عالية في قرطاجة وان يتخلقوا بأخلاق القرطاجيين، ويتطبعوا بطبائعهم، فنقلوا عنهم الرياش الثمينة، والملابس الفاخرة، كما أخذوا عن نسائهم استعمال الطيوب ولبس الحلى والجوهرات. كذلك استقدموا من قرطاجة مهرة المهندسين والرسامين ليتولوا الاشراف على بناء منازلهم وتشييد الاضرحة الجميلة ونقشها وزخرفتها. وهل يحق لنا، بعد هذا، الذهاب في عملية الاخذ بأسباب التحضر والتمدن، الى ابعد من هذا؟ فالأبجدية الليبية اشتقت من الابجدية البونيقية، وفريق من آلهة القرطاجيين لقيت رواجاً وعباداً لها عند الليبيين، وأقيمت هنا وهنالك، للاله بعل حمون، وللإلهة تانيت، معابد وهياكل وأعياد موسمية. ومع كل هذا، وبالرغم من كل هذا، ليس في مقدورنا ان نجزم ان افريقيا استسامت او تطبعت بطبائع الساميين.

فالقرطاجيون أنفسهم لم يهدفوا يوماً لمثل هذه الغاية. فسكان البلاد البدائيون لم يكونوا

أكثر من سائغة او مادة يمكن استثمارها والاستفادة منها ما أمكن . وقـد يكون دار في خلد القرطاجيين ، بعد ان عَبَس لهم القدر وقلب لهم ظهر المجن عبر البحار ، ان يحسّنوا سيرتهم مع سكان القارة . غير ان الدهر وقف لهم بالمرصاد ، فأخذ الليبيون ينشدون تحت قيادة رشيدة ، وحدتهم الوطنية ، وقامت من طرابلس الغرب الى المغرب الاقصى مملكة واسعة الارجاء تولى مصيرها مسّينيسا *Massinissa* .

محاولة مسينيسا وجهوده

هو مدين بعرشه للخدمة النصوحة التي قدمها لروما في أواخر الحرب البونيقية الثانية. جعل من مدينة سيرتا *Irta* (قسنطينة)مقراً لحكمه وادارتــه . وسار الحظ في ركابه، فاستولى في هجوم مفاجىء على عاصمة خصمه ومنافسه على السلطة : صفاقس (*Syphax*) ثم اشرأبت نفسه الى ما وراء ترسيخ الحضارة البونيقية بين بني قومه وهدف الى ابعد من هذا بكثير . فقد عرف عن كثب هذه الحضارة وتفاعل بها، وقبس عنها وقيض له ان يستقبل في بلاطه وفوداً قرطاجية. فالصدفة وحدها، أعجز من ان تبين لنا كيف ان أنصاب القرابين اللسمة المؤرخة، التي عُثر عليها بين القطع الأثرية السبعمائة ، في معبد الحفرة (*el - Hofra*) في قسنطينة، عام ١٩٥٠، يتراوح تاريخها ما بين عام ١٦٣ و١٤٧ ق. م. فلم يقف عند هـذا الحد ، فاتصل بالممالك الهلينية، وقبس منها ما شاء من نغم وخطط، فأدخل تغييرات جذرية على وضع بلاده الاقتصادي ، فوطّن قبائل البدو الرحل حيث التربة والمناخ تتلاءم وطبائعهم، وأخذ بأسباب الزراعة فشجعها ونهض بمرافقها، وعني بانتاج الغلال والحبوب، كما نادى بالاقبال على التحضر والأخذ بأسباب المدنيـة ، فاستقدم فريقاً من الاغريق قدموا القرابين لآلهته في « الحُفرة». وهكذا استطاع ان يُقعِد على نظم وطيدة ، نظاماً ملكياً قوياً وادارة رشيدة ، فضرب السكة باسمه وأقام مراسم عبادة ملكية ، ونهج نهج ملوك الاغريق في لبس التاج والصولجان وأنشأ له صلات مباشرة مع حلف ديلوس *Délos* والعالم الايجي حتى ان احد بنيه فاز باكليل الظفر في حفلات البناثينيه (*Panathénées*) .

فقد سار بنشاط ودهاء ، منـذ عام ٢٠٣ حتى وفاته عام ١٤٨ وله من العمر اذ ذاك ٩٠ سنة، على سياسة رشيدة هدف بها الى تحقيق وحدة البلاد وصهرها في بوتقة وطنية واحدة، بعد ان تم له ما راود خياله من حلم معسول ، وذلك بالاستيلاء على قرطاجة ، المدينة الكبرى ، التي تليق عاصمة للمملكة الطالعة . فقد كان مسعاه لتحقيق هذا البرنامج الضخم سبباً في دمار قرطاجة وزوال امبراطوريتها من الوجود .

زوال قرطاجة واضمحلال مدنيتهـا

فقدت في اعقاب الحرب البونيقية الثانيـة سيادتها على البحار، كما فقدت مستعمراتها العديدة ، ومعظم الاقاليم التي كانت تسيطر عليها في القارة الافريقية . فقبعت تجار محنتها ، مهيضة الجناح ، تابعة من توابع روما ، تعلل النفس بالاستجمام وباسترجاع قوتها بفضل تجارتها المزدهرة وأساطيلها التجارية . وراودها

مسينيسا على نفسها محاولاً حملها على الاستسلام له عن طريق سلسلة من التحرشات والتعديات والتجاوزات المتكررة ، على أملاكها تارةً ، وطوراً عن طريق التهديد والوعيد . كل هـذا وروما من ورائه تشد منه الازر وتغض النظر عن مضايقاته ، وربما شجعته سراً على التمادي في العدوان ، والفتّ من عضد هذه المدينة التي طالما أقلقت مضاجعها وراحتها ، وكادت توردُها مورد الهلكة ، فلا بأس من ان تزيدها وهناً على وهن وضعفاً على ضعف . وعندما تبينت روما اللعبة التي كان يلعبها هـذا الملك النوميدي ، وبان لها الخطر الذي تتعرض له فيما لو تحققت أحلامه ونجحت محاولاته في بسط سيطرته على قرطاجة بعد الاستيلاء عليها ، راحت ، بدافع من روح البغض والضغن الذي تحمله لها بين الضلوع ، تبيت لها الشر وتعد لها العدة للقضاء عليها ودك معالمها الى الحضيض . فلم تثنِ عن عزمها ولم تحولها عن مقاصدها الشريرة لا دناءة الوسائل الدبلوماسية التي حركتها او اتخذتها ، ولا المقاومة البائسة العنيدة التي لقيتها من خصمها اللدود والبطولة التي تجلت عبثاً واستمرت ثلاث سنوات ، باستمرار الحصار الذي نصبته روما حولها. وفي ربيع عام ١٤٦ انتهى كل شيء خلال الهجوم العنيف الذي شنته عليها ، بعد ان راح آخر المدافعين عنها يجودون بأرواحهم رخيصة في سبيل انقاذ عاصمتهم ، وقـد استسلم قائدهم بينما راحت زوجته تطرح نفسها بشمم، بين الحرائق التي شبت في معبد اشمون. ففي الحين الذي كنا نرى فيـه شيبيو اميليان ينتحب امام صديقه بوليب (*Polybe*) ويتضور أسىً والتياعاً امام السرعة التي ترافق زوال العظمة البشرية ، راح ينفذ الأوامر التي صدرت اليـه لدك معالم المدينة، رأساً على عقب ، كما أخذ يبيع الأسرى من سكان قرطاجة البـائسين في أسواق الرق والعبودية .

وراحت روما تضم الى ممتلكاتهـا، المقاطعات التي خضعت طويلاً لسيطرة قرطاجة لتؤلف منها ولايتها الافريقية . واغتنمت مناسبة وفاة مسينيسا (١٤٧) فراحت تمزق اوصال الوحدة الوطنية التي تمكن من تحقيقها ، وهكذا تمكنت قبل نهـاية القرن الثاني ، من ان تقضي على كل محاولة لمقاولة سيطرتها ، اذ استطاعت ان تذل حفيده يوغورطه وتجعله يخضع لنفوذها . وما ان جاء عهد يوليوس قيصر حتى أخذت توسع من حدودها في الغرب بضم ولاية موريتانيا اليهـا عام ٤٠ بعد الميلاد، بعد ان بسطت، منذ عهد بعيد، حمايتها على كل شمالي افريقيا ، بحيث لم يعد في مقدور احـد ان يحاول من جديـد تحقيق الأهداف التي وضعها مسينيسا نصب عينيه لاقامة وحدة البلاد الوطنية . وهكذا لم تقضِ روما في افريقيا ، على مراهق تمثل في هـذه الحضارة الفينيقية فحسب ، بل ايضاً خنقت في المهد جنيناً لم يكن في مقدورنا ان نتصور ، لو قدر له ان يحيا ويعيش ، المدنية الجديدة التي ستطلع على يده ، هي المدنية البربرية .

قليلة جداً هذه الحضارات التي طلعت علينا قديماً فتركت بعدها مثل هذا التراث المتواضع الذي تركته المدنية القرطاجية . فهدم قرطاجة، والتكالب على نسخ تاريخها ومسخه، وازدراء حضارتها والانتقاص من قيمتها ، كل هذه الاعذار لم تكن لتبرر العبث بكل ما من شأنه ان يحدثنا عنهـا ويؤثر على تفكيرنا ويزيده نوراً وادراكاً . فالأمثلة لا تعد ، على المتناقضات التي أتاها الرومان.

ولكن في الوقت الذي كانت فيـــه قرطاجة آخـذة في الأفول والغروب عن الوجود ، كانت الحضارة الهلينية تتغلغل في روما وتتمطى في جميع جنباتهـــا . فقد ضاقت ذرعاً بهذا الوسيط الدخيل وعزمت على تصفيته . والظاهر انهـــا لم تقتبس منه سوى النزر النزير الذي يتمثل على الأخص ، ببعض الفنون وبعض المهارات الزراعية . ومن بـين الذين تولوا ترجمة دائرة المعارف الزراعية التي وضعها ماغون ، عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني . وليس في هـــذا الذي نتمثل به هنا شاهد كاف للتدليل على انتشار اللغة البونيقية ، فلم يبق من تراثها شيء يذكر . ربمـــا كانت الديانة القرطاجية ، بقطع النظر عن ذبائح الأطفال التي مارستها ، عاملاً كافياً لتحريك النفوس واجتذابها . ولكن أنى لروما ، اذ ذاك ، ان تتذوق سحر العبادات الشرقية وهي بعد على سجيتها الفطرية ؟ فلعل زوال قرطاجة واندثارها جاء قبل اوانها ، قبل ان تخلف شيئاً يبقى بعد القضاء عليها .

ولكن ما عسى ان يكون من الامر في افريقيا ؟ امتاز موقع المدينة الجغرافي الذي طالمـــا انهالت عليه لعنات الرومان وتمنوا لهـــا بسببه الموت الزؤام ، بفوائد كبيرة لقيامه على البحر منفذاً يحمل اليها خيرات السهول الخصبة في الداخل بحيث لم يكن ليبقى خاوياً من الناس . فمنذ عام ١٢٢ ق. م ، حاول غراكوس (*Gracchus*) ورفاقه ان ينشئوا عليه مستعمرة رومانية ، فلم يكتب لمحاولتهم النجاح . ثم جاء قيصر وأعاد الكرة من جديد فنجحت المحاولة بعد ان طواه الموت، وعادت قرطاجة الى الوجود من جديد، مدينة لم تلبث ان أصبحت ليس أهم مدائن افريقيا الشمالية فحسب، بل من أهم مدن الامبراطورية الرومانية، ازدهرت فيها التجارة ونشطت فيها حركة الاعمال ، إلا أنها كانت عطلاً من كل سمة او طابع بونيقي ، باستثناء استمرار عبادة بعض الآلهة أمثال زُحَل وجونون شلستِس بعد ان تَـلَـبّـتـنَـنَّـت عبادتها. اما ما تبقى من اقطار افريقيا فلا يبدو انها حافظت على أي ذِكر حي للفينيقيين في الغرب. صحيح ان هيكل «الحفرة» لبث مدة غير محدودة ، يستقبل وفود الحجاج وتقادمهم ، منهـــا بعض القرابين نقشت أسماء أصحابها باللسان اللاتيني وآخر وثيقة خطت بالحرف البونيقي يعود عهدها للقرن الاول للميلاد . اما اللهجة التي دعاها القديس اغسطينوس : « بونيقية » انمـــا كانت اللهجة الليبية التي استمر التكلم بها في المناطق الريفية ، ام اللهجة البربرية المحكية اليوم .

وهذه النسبة البعيدة هي مـن باب الرمز او المجاز ليس إلا . فعندما فتح العرب افريقيا في القرن السابع للميلاد ، لم يجدوا فيها أي أثر لاخوة ساميين سبقوهم الى الفتح وبسطوا سيطرتهم عليها قبل قدومهم بألف وخمسمائة سنة ، بعد ان غادروا مدينة صور وأنشأوا لهم عليهـــا حضارة ، انهال عليها من اللعنات وعوامل الحق ما يجعل عملية استحضارها اليوم امراً عسيراً . فالحضارة البدائية المتواضعة التي خلفها وراءهم الليبيون الرعاة عرفت ان تغالب صروف الدهر وتقلبات التاريخ بأحسن مما غالبتها الحضارة القرطاجية . ولكن ، يجب ألا ننسى اننـــا نجهل علمياً هذه الحضارة أكثر مما نجهل المدنية النوميدية الأخرى .

الفصل الثالث

الغـاليون

بعد ان استعرضنا لتاريخ الاتروسك والقرطاجيين، بين شعوب الغرب التي غلبها الرومان على امرها ، علينا ان نتناول بالبحث هنا الغاليين الذين أصارتهم الاقدار الى ما اصارت اليه من تقدم ذكرهم من هذه الشعوب ، في وقت أخذوا بأسباب التدرج وئيداً، في معارج التقدم والعمران . غير ان تأخر وقوع هذا المصير المماثل من شأنه ان يلقي ضوءاً على تاريخ الفتح الروماني وانبساط السيطرة الرومانية ، وان بدا عديم الفائدة « لتاريخ الحضارات العام » . ولذا كان في الوسع صرف النظر عنه والسكوت عليه في هذه الكلمة التمهيدية لو لم يتميز ، من جهة اخرى ، تاريخه بمفارقات لها شأنها الاكبر .

عدم اكتمال المدنية الغالية وتأخر الأخذ بأسبابها

فاذا كانت المدنيتان الاتروسكية والبونيقية زالتا من الوجود بعد ان كان بوسعها ان يسيرا في معارج التطور لو قيض لهما البقاء والاستمرار في الحيـــاة ، فقد تمت لكل منهما الظروف الملائمة لبلوغها النضج المرتجى . اما المدنية الغالية نفسها ، فلم يتم لها المدى الزمني الذي لا بـــد منه للبروز والتفتح . فاذا ما نظرنا الى هـــذه المدنية نظرة مجملة برزت لنا وكأنها مدنية بالقوة او بالقدرة . فقد كانت برزت الى الوجود في بعض نشاطاتها العامة ، فاذا بالغزو من الخارج والفتح يصدمانهـــا فجأة وترى نفسها امام حضارة أكثفاً وأحوى ، تطبق عليها وتخنقها ، لما لها من طاقات وامكانات عسكرية وحضارية لن تلبث ان غمرتها واستبدت بالبلاد وفرضت نفسها دون ان تلقى مقاومة تذكر – أقله من الوجهة الحضارية . لما عساها ان تكون اعطت وأتأمت ، لو لم يعبس لها النقد الطالع، واستطاعت ان تسير سيرها الطبيعي وتتدرج نحو التكامل الذاتي ؟ فعلى المؤرخ ان يكون حذراً في رسم المنحنى البياني الذي كادت ترسمه الاحداث والوقائع ، ابتداءً من نقطة الانطلاق .

أصيبت المدنية الغالية بضربة مميتة فأصمتها وقضت عليها ، بعد لأي من الزمن جاء في الوقت ذاته متأخراً وسابقاً للزمن الذي تم فيه القضاء على هذه المدنيات الغربية وغيرها مما عاصرها او عايشها . قلنا « متأخراً » بالنسبة للتوقيت الزمني المطلق ، و « سابقاً » بالنسبة لبلوغ هـــذه

المدنيـــة مرحلة التطور المتكامل ، مهما اختلفت مراحل تطورها وتباينت وتباطأ تفتحها وبروزها . ومما يزيد عامل الزمن تعقيداً على تعقيد، الغموض الذي نلاحظه على طبيعة معلوماتنا وأصلها ، وهي معلومات سوادها الاعظم من أصل يوناني او روماني ، ولذا فهي لا تتعرض الغاليين الا بلسبة ما أثاروا من فضول الاغريق والرومان الذين لم يكترثوا لهم إلا في زمن متأخر جداً ، وبصورة غير مباشرة ، ومتقطعة جداً ، بعكس الاتروسك والقرطاجيين . إلا ان هذه الحقبة من تاريخ الغاليين التي تضطرب حولها مصادرنا التاريخيّة فتبدو في فراغ، قد يكون في مقدور الاركيولوجيا وعلم الآثار استدراك هذا النقص وسد الثغرة ولو جزئياً، بعد ان استطاعت ملء هذا الفراغ في مناسبات وظروف عارضة أخرى، اذ ان هذا العلم لا يستحضر ابداً مدنيات من مستوى واحد في ما لها من مميزات مادية وأدبية . فالوقائع تؤيد هذا القياس النظري وتمنع الشك حول نقطة الانطلاق .

ومع ذلك ، فلا يظنن احد اننا امام وضع أشبه ما يكون بالتوحش او البربرية بالمعنى الحديث لهذه اللفظة ، يحول ، بمـــا له من تكثف وخشونة، دون كل تفتح او ازدهار مبكر . فالغاليون تمتعوا في هـــذه البقعة من الارض التي عاشوا عليها ، وبين هذه المجتمعات البشرية التي جاورتهم بوضع اجتماعي يكاد يكون متميزاً . هنالك لعمري ، في الغرب ، شعوب أخرى ، عُرفت بتأخرها ، منها مثلاً ، شعوب الجزيرة الايبيرية التي وقعت تحت سيطرة روما ، في زمن اسبق ، فلم تتمكن مع ذلك، من ان ترتفع معه الى المستوى الذي تستحيل معه المدنية حضارة. وهنالك ، من جهة ثانيـــة ، شعوب اخرى : فالشعوب الواقعة في قلب اوروبا الوسطى مثلاً ، لم يسعفها بقاؤها مستقلة وصمودها في وجه الفتح الروماني ، ببلوغ هذا المستوى إلا بعد انتهـــاء حقبة التاريخ القديم . من الصعب على المؤرخ ، كما سيتضح لنـــا ، ان يتبين الوشائج التي كانت تشد ، بعضاً الى بعض ، قبائل الغاليين، وهي وشائج كانت على كل حال أمتن واوثق من التي تقوم عادة بـــين الجيران . فان يكن توفر لهم من الوقت أكثر ممـــا توفر لشعوب شبه الجزيرة الإيبيرية وأقوامها ، فقد كان نصيبهم منه ، مع ذلك ، أقل بكثير من نصيب الشعوب الجرمانيـــة .

فمها بدت هذه الملاحظات عامة، لا تتعدى المظهر الخارجي ، فهي توحي، مع ذلـك ، بأن بلوغ شعب ما مستوىً حضارياً ، لا يتوقف بالضرورة ، على الزمن ولا على استعداده الخلقي . فالأمر يتوقف بالاحرى ، على عوامل أخرى متعددة ، كثيراً ما يعجز الانـسان عن ان يتبين تفاعلاتها المشتركة . والدور الذي يلعبه كل من هذه العوامل التي لا تحصى : كالموارد الطبيعية ، والاتصالات الخارجية ، والظروف المؤاتيـــة ، والنشاطات المتوفرة ، والحوافز الروحية التي يجيش بها الانسان، وكلها عوامل تهيء الانتفاع من الظروف القائمة والوضع المتحيز القائم . فمن كان عرضة للأخذ بالأحكام والتأكيدات المطلقة ، صدمه واقع المدنية الغالية والفن فيه

أكثر من عظة بالغة ، اذ ان الغموض الذي يكتنف مولد هذا الشعب وبروزه، يزداد كثافة امام مر فشل الكفاءات الكامنة فيه والقدرات المخبوءة التي توفرت له .

١ - الكلتيون

الغموض الذي يكتنف نشأة هذا الشعب

أغاليون هم ؟ فالمصطلح الذي وصلنا بالتقليد المتواتر يفتقر للدقة . ففي مطلع الفتح الروماني ، أطلق يوليوس قيصر هذه التسمية على فريق من سكان غاليا المستقلة ، احتل رقعـــة من الارض تقع بين نهري السين والمارن ، من جهة ، وبين الغارون والرون ، من جهة أخرى . فاسمعه يقول : « هؤلاء الاقوام يُدْعون كلتيين بلغتهم ، اما نحن فقد عرفناهم باسم غاليين » . ومع ذلك لم يمنع هـــذا التمييز الظاهر الرومان من ان يحمّلوا « غاليا *Gaule*» مدلولاً أوسع وأشمل، تنويهاً منهم بقربى الأصل والأرومة التي عرفوا ان يتبينوا خيوطها الدقيقة ، بين هـــذه الأقوام المسيطرة على تلك البلاد ، فتوسعوا باطلاق اللفظ ليشمل ، على السواء ، سكان ما وقع وراء جبال الألب ممن حددهم جبال البرانس والمحيط الاطلسي ونهر الرين ، فعرفت مقاطعتهم بـ (*Gaule Transalpine*) او مـا وقع قبل هذه الجبال ، الى الشمال من ايطاليا ، وهي المقاطعة المعروفة بـ *Gaule Cisalpine* . اما الاغريق فقد استعملوا في التعريف بهم كلمة : كلتيون ، ثم كلمة : « غالاط » *Galates* في العهد الهليني الحديث ، تعبيراً منهم عن شعوب وأقوام سكنت مناطق أخرى تمتـــد من شبه الجزيرة الايبيرية حتى اواسط آسيا الصغرى . فاذا ما اعتمدنا على هـــذه المعلومات المتقطعة والمصرّدة التي توفرها لنا ، لماماً ، المصادر الادبية القديمة المشوشة ، لنكون لنا فكرة تقريبية حول أصل هذه الشعوب ، وحول تاريخهـــا القديم، لأسقط في ايدينا . فمن حسن الحظ ان يتمكن علماء اللغة من مدّنا بمعلومات اوثق وأمتن ، ولو افتقرت لمـــا يفرض الاخذ بالرواية التاريخية . فالنظريات الواسعة الشمول لا تنقصنا ، لا سيما تلك التي تقول بطلوع « امبراطورية ليغورية » بسطت سيطرتها على شمالي اوروبا وغربيها ، والتي قال بها وعلم علماء اعلام ، مع اننا لا نجد اليوم من يدافع عنها .

اوروبا الغربية ومدنيات عصر الشبهان

الغموض يكتنف الادوار الاولى لهـــذا الطور الذي يمتد تقريباً طوال الالف الثـاني ق. م ، في اوروبا الغربية ، وهو طور لم تتحقق فيه قط وحدة المدنية . فالمدنيات القديمة التي تميزت عمارتها بضخامة الحجارة ، أمثال التماثل (*Dolmens*) ، والوجوم (*Menhirs*) ، والجادّات المبلطة ، او تلك التي تكونت مبانيها وعمائرها من أكواخ وقرى ارتفعت على عُمُدٍ ركزت في قعر البحيرات والغدران ، عمّرت وعاشت بل اتسعت لديهـــا وسائل القبس والتمثل . فالمدنيات التي قامت في جوتلاند والمانيا الشمالية اخذت تمتد وتتسع من غربي فرنسا حتى الهضبة الوسطى (*Massif Central*)

ووادي نهر الرون . اما التي قامت منها في سويسرا فاتجهت في توسعها ، الى الشمال ، في مقاطعة بورغونيا ووادي نهر الرين حتى شارفت نهر الماين. وتبرز في الوقت ذاته مدنيات أخرى ، منها المدنية ذات القبور المخروطية الشكل (*Tumuli*) حيث كانت جثث الموتى تواري تحت أكوام من التراب والحجارة . ظهر هذا الطراز من المدنية في المانيا الجنوبية الغربية ومنها امتدت غرباً لتسيطر عليها وقع من بقاع بين نهري اللوار والسين. وفي أخريات الطور الشبهاني او (البرونزي) ونهاية الالف الثاني ق. م ، تطلع علينا ، ممتدة من جنوبي المانيا ، عبر مقاطعات ستيريا *Styric* ، وكارنتيا *Carinthie* لتسير غرباً عبر مقاطعة بوربونيه *Bourbonnais* حتى حدود كتالونيا في الجنوب ، مدنية جديدة عرفت بمدنيـــة (*Urnenfelder*) (او مقابر الاجران) والجرار ، فأدخلت استعمال حرق اجسام الموتى ، وأنشأت لها مدافن قبورها مسطحة .

وهكذا تختفي من الانظار ، خلال العصر الشبهاني ، هـذه الانعزالية الجغرافية التي طبعت مدنيات العصر الحجري الجديد . فقـــد ازدادت ، ولا شك ، الاتصالات الجماهيرية كما برزت العقائد الدينيـــة وبعض المهارات اليدوية . إلا أننا نجهل تماماً المدلول التاريخي لظهور هـذه المدنيات ومدى انتشارها . فالخاطر يتجه بالطبع ، نحو هـــذه الموجات والتحركات الشعبية . وانتقالها جمـــلةً من منطقة الى أخرى ، لضيق الرزق او لضيق الشقة . غير ان قيام عدة مدنيات متعاصرة ، متباينة السمات بعضها مع بعض يزيد تعقيداً الفرضيات التي نستعين بهـــا اعتباطاً وبصورة تحكمية لتأييد هـــذا الرأي . فالطقوس الدينية التي يسيرون عليها في دفن الموتى ، وزخارف الخزفيات ونقوش الادوات المعدنية التي توصل الانسان الى صنعها ، كل هذه العادات وغيرها كثير ، يمكن ان تنتقل ويشيع استعمالها عن طريق اتصالات عادية يوميـــة . فدخول هذه الاعراف بين الناس وانتشارها عندهم لا يعني حتماً الغزو وحلول شعب محل شعب آخر وإخضاعه لسيطرته ، حتى في الظروف والحالات الاكثر ملاءمة لشيوع عادة الجرار والاجاجين التي يتفق عهد استعمالها مع عهد هذه الاقوام الغازية التي اخترقت المانيا وفرنسا ، بحيث يبقى الغموض يكتنف كل شيء يتصل بالمنشأ الجغرافي وتواريهـا عن المسرح . صحيح ان علماء اللغة استطاعوا ان يتبينوا في أسماء الامكنة والأنهر جذوراً شاع استعمالها وامتد طويلاً ، إلا ان الامثلة المستمدة منها لا تؤلف دليلاً قاطعاً لتعذر ردها الى مدنيـــات لا يمكن تحديدها وتعيينها بدقـــة . اما الانثروبولوجيا او علم السلالات البشرية ، فهي ، ولا شك ، امام نماذج بشرية متميزة كما أنها تطالعنا كذلك بنماذج بشرية هجين انحدرت من عصور قديمـــة متطاولة العهد .

مدنيات ما قبـــل التاريخ او مدنيات العصر الحديدي

تبرز سمات هـــذه المدنيات بوضوح وجلاء مع طلوع الالف الاول ق . م ، وظهور استعمال الحديد . ولعل أقـدم مناجم الحديد التي استثمرها الانسان منذ القِدم هي مناجم النمسا العليا ، هذه المنطقة التي قد تكون تفاعلت ببعض العوامل المؤثرة التي جاءتها من دنيا البحر المتوسط ، عن طريق

مقاطعة إلليريا (*Illyrie*) . ومهما يكن من الامر ، فأقدم مدنيـــة عالجت الحديد وتدبرته في مصنوعاتها،هي المدنية المعروفة باسم هلشتات (*Hallstatt*) من اسم بقعة تقع على مقربة من مدينة سالزبورغ اليوم والتي استطاع العلماء ان يدرسوا معالمها درساً دقيقاً . وقد نشأت هذه المدنية بين ٩٠٠ — ٨٠٠ ق . م ، وانتشرت فوق منطقة واسعة اشاعت فيهـا ما استقرت عليه من مراسم دفن الموتى في (*Tumuli*) او حرق جثثهم ، كما استنبطت في تسلحها أداة هي أمضى ما عرفت من مادة السلاح ، وهي عبارة عن سيف مشحوذ ، محدد الرأس . معالم هذه المدنية تبرز بوضوح وجلاء في ما تبدى منها في وادي الدانوب الوسيط وفي مقاطعة البوسنة . وقد بلغت في انتشارها ، من ناحية أخرى ، مقاطعات المانيا الجنوبية والغربية ودخلت الى جنوبي انكلترا وشمالي فرنسا وشرقيها ، متجهة الى الجنوب لتبلغ منها ضواحي تولوز وسهول شبه الجزيرة الايبيرية . وتبلغ الأوج في سيطرتها على هذه الاقاليم حوالي منتصف القرن الخامس ق . م .

هذه النجاحات التي حققتها ، ليس بين المعالم التي كشفت عنها الاركيولوجيا ما يشير الى ان انها تمت بالعنف والفتح وسفك الدماء وما الى الحروب من خراب ودمار . فقد تحقق كل ذلـك بفضل هجرات الاقوام البشرية ، على موجات بطيئة متلاحقة ، سيراً منها مع اتجـــاه الانهر مستبقية معها الانشاءات والاعراف التي سبقت وصولها البلاد والتي لم تخضع إلا لتمثّل بطيء ، إلا انه مستمر .

سارت الامور ولا شك ، على مثل هذا المنوال ، أقله في بدء الامر من هذه المدنيـــة التي ما لبثت ان حلّت محل مدنية هولشتات منذ اواخر القرن الخامس. ق . م . وقد عرفت هـــذه المدنية الجديدة باسم (*La Tène*) وهو موضع في سويسرا ، يقــع في الطرف الشمالي من بحيرة نيوشاتيل يحمـل خير سماتها ومعالمها الاصيلة . فلم تلبث ان حلت تدريجياً محل المدنية السابقة ، وسيطرت على المجال ذاته الذي ازدهرت فيه سابقتها، فاستبدلت منها باكراً ، السيف بالخنجر المدبّب وعولت عليه أداة أولى في الحروب، كما استبدلت تدريجياً نظام دفن موتاها باستعمال القبور المحفورة في الارض بدافن تلال التراب . اما الحلى وادوات الزينة التي اقبل عليهـا الناس، والاغراض المنزليـــة التي جروا على استعمالها فهي أكرم مادة وأغنى، بينما المصنوعات المتخذة مادتها من المينا والمرجان ، كما انها اقتبست أشياء أخرى من الخارج جيء بها من بعيد . واخذت بأسباب التطور والسير مع التكامل التقني والتنويع الفني في مراحلها المختلفة ، الى ان بدأت تميل الى الانحطاط والزوال في « غاليا » في نهاية مرحلتها الثالثة والاخيرة، عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع المدنية الرومانية التي استبدت بتلك البلاد مع الفتح .

الكلتيون

والفارق الكبير بالنسبة للألف الثاني قبل الميلاد ، في نظر المؤرخ، هو قدرته على ان يربط بصورة اوثق بين المعطيات الاثرية وغيرها من معالم هذه المدنية . فالمؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي وضع تاريخه في اواسط القرن الخامس ق . م ، استطاع ، عندما اراد

ان يؤرخ لهذه البلدان، بالمعلومات التي اقتبسها ممن تقدمه من المؤرخين ، في القرون السابقة. ففي معرض حديثه عن شبه الجزيرة الايبيرية ، يأتي على ذكر الكلتيين « ملاصقين آخر شعوب اوروبا في الغرب » . ففي الحين الذي يبدو له ان الدانوب ينبع من بلادهم ، فهو يتصوره منحدراً من مقاطعة الروسيّون في جنوبي غربي غاليا . وهذا الوهم يقع فيه ابو التاريخ لا يذهب بتأكيده المزدوج بأن نهر الدانوب ينبع من المقاطعة الكلتية ومن عند الكلتيين ، وقد صرح به قبل زوال مدنية الهولشتات ، من اسبانيا والبرتغال . جاء بعض المؤرخين على ذكر الكلتيين او البروتوكلتيين *Proto-celtes* في العهد الشبهاني ، وانهم قاموا بهجرات واسعة نحو الغرب . فاذا أبينا مجاراتهم في هذا القول بدافع من التحفظ ، ولم نسلم بوجود أي تشابه بين اقوام المدنية الهولشتاتية والكلتيين في الغرب، فلا بد من ان نسلم بأن هؤلاء اخذوا مع غيرهم من معاصريهم، بأسباب هذه المدنية وساعدوا ، من خلال تنقلاتهم وهجراتهم ، على نشرها في الاقطار التي أهلوها ، اذ الى هذا العهد ترجع عادة لبس القلائد المفتوحة (*Le Torques*) التي عثر على بعضها في مدافنهم ، وهي عقود كان لبسها من مميزات الكلتيين الفارقة على شكل سلاسل من الذهب او الشبهان المفتول وتلتهي أطرافها بكتلة مستديرة . اما مدنية *La Tène* فلا يجوز التشكك حول نسبتها أصلاً ، فهي كلتية في صميمها. واذا اردنا لها تعريفاً ادق، فلا بأس من ان ننعتها بأنها ارفع واتم طراز لمدنية الكلتيين في اوروبا الغربية .

وهذه التسمية لا يمكن ردها على الاطلاق الى واقع اتنوغرافي . فقد أبرز لنا كتبة العهد القديم وفنانوه الصورة الكلاسيكية للانسان الكلتي او الغالي ، اذ صوروه لنا فارع القامة ، شديد البأس ، ازرق العين ، امغر الشعر أشقره . يتخلل هذا الوصف كثير من التقليد الموروث والتعميم المفرط لعرق بشري سيطر ردحاً من الدهر. فلم نعد لنرى ، منذ بدء الالف الاول ق . م ، في اي مكان او رقعة على الارض، عرقاً بشرياً خالص الجوهر والاصل على اطلاق المعنى الطبيعي لهذه الكلمة . فالكلتيون، كغيرهم من العروق البشرية الاخرى، في أي منطقة حلوها، تمازجوا على درجات مختلفة ، مع سكان البلاد الاصليين الذين تهجنوا هم ايضاً وتخالطت عروقهم. وقد تكون الطبقة الارستوقراطية عندها استطاعت ان تحافظ على عرقها الصافي ، وعرفت ان تتفادى التلقيح من الخارج . فاذا صحت هذه الفرضية أمكن رد هذه الطبقة الى جذورها الاولى التي جاءت من الشمال وربطتها بشعوب أخرى. والحق يقال ، فالطابع الذي طبع هذه المدنية بطبعه أو اضفى عليها هذه الفروق المشتركة ، هو الذي ميّز هذه المدنية وفردها عن مدنيات الشعوب الاخرى، كالجرمانيين مثلاً او غيرها من الشعوب التي توصلت الى احتلال شبه جزيرة سكندينافيا والمانيا الشمالية ، مع العلم انه قام بين جميع هذه المدنيات المتنوعة اتصالات واسعة .

ولعل خير ما يساعدنا عملياً على توضيح كلمة « كلتيين » هو علم اللغة او الفيلولوجيا، ولكن بشيء من الصعوبة مع ذلك ، لخلو الامثلة العديدة التي يعدنا بها التاريخ القديم، من الدقة والضبط.

فعلم اللغة يضع تحت تصرفنا أسماء اعلام لمسميات بشرية وجغرافية ، وبعض اللهجات المصرية معظمها من جذر كلتي لا يزال معمولاً بها للآن ، منها مثلاً اللهجة الغاليّة التي يدرج استعمالها حالياً في كل من إرلندا وإيكوسيا . ومنها كذلك اللهجة البريطانية التي عاشت ولا تزال حية في بلاد الغال (انكلترا) ومنها انتقلت الى مقاطعة بريتانيا الفرنسية ، على يد جماعة نزحوا اليها من مقاطعة كورنواي *Cornouailles* ، في انكلترا الجنوبية الغربية، خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، امام غزوات الجرمانيين وضغطهم المتزايد. ولا نزال نجد انفسنا عاجزين عن تفهم الوثائق المكتوبة باللهجة الوحيدة الحية بين اللهجات الكلتية ، وهي اللهجة الغالية التي عثر علماء الآثار منها على بعض نصوص وجيزة بقيت محفوظة ليومنا هذا . وعلى الرغم من هذا ، توصل العلماء الى نتائج عامة ثابتة لها قيمتها الكبرى في هذا المجال .

وقد جاء علم اللغة بالدليل القاطع على ان اللغة الكلتية ترجع اصولها الى فئة اللغات الهند الاوروبية ، بينها وبين اللغة الجرمانية اواصر قربية ، كما يقوم بينها وبين اللغة الايطالية وشائج وثيقة. وقد يكون مع ذلك، الامر واحداً في اللغة الكلتية كما هو في اللغتين الجرمانية والايطالية من حيث التطور . نتكوين هاتين اللغتين يشهد عليه قيام لهجات اشتُقت منها لم تلبث ان تباعدت عنها وتباينت معها ، مع ما بينها في الاصل من اواصر القربى . وليس من المستبعد قط ان تكون وحدة اللغة الكلتية الاصلية قد ادت ، منذ عهد مبكر ، الى ظهور لهجات خاصة لا نزال عاجزين عن تبيانها وتعيين حدودها .

ومن جهة أخرى ، ساعدت دراسة أسماء الامكنة والانهر والجبال ، علماء اللغة ، على تحقيق اكتشافات يشهد معظمها بشكل ينتفي معه الشك ، على سيطرة الجذر الكلتي ، في المانيا الغربية في منطقة تتناوح بين نهري الرين والدانوب . فلنأخذ على ذلك مثلاً واحداً هو ان جميع روافد نهر الرين ، من جهة اليمين : كالنكار *Neckar* والليب *Lippe* هي أسماء كلتية الجذر . ولذا كان بوسعنا الجزم ، دون تحرج ، بأن هذه المنطقة بالذات ، إن لم تكن موطن الكلتيين الاصلي ، فهي الرقعة التي بلغت فيها اقوام الكلتيين، ولمدة طويلة، أعلى معدل من الكثافة ، كما مثلوا أكبر قدر من سكان البلاد الاصليين .

امتداد الكلتيين

جاء هذا الشعب بالدليل على انه كان خلال بضع مئات من السنين ، أي قبيل منتصف الالف الاول وبعيده، من أكثر الشعوب انتشاراً وانبساطاً. فبين موجات الهند الاوروبيين ، باتجاه الشرق ، في الالف الثاني قبل الميلاد من جهة ، وبين غزوات البرابرة ابتداءً من مطلع القرن الثالث للميلاد ، كانت موجات الكلتيين من أبرز الاحداث البشرية في هذا المجال ، ادت الى نتائج تاريخية غاية في الاهمية ، وان فاتتنا معرفة الكثير منها لعدم توفر المعلومات الخاصة بالوضع السائد قبل وقوعها . فقد جرّت على بعض المناطق تبديلات جذرية ، من حيث طبيعة السكان ، والحرقت بين لجج موجاتها امبراطوريات ، كما ألحقت الهوان وأنزلت

الضعف والمهانة بالبعض الآخر ، من بينهـا مدنية الاتروسك ، مثلاً . فقد شلّوا وألقوا الرعب في قلب مجتمعات تحضرت منذ عهـــد بعيد ، كما جعلوا الهلع يدب في قلب مدنيات بلغت شأواً عالياً من التصور . فالمعلومات المتوفرة لدينا لا تترك مجالاً للشك في مبلغ الخراب الذي انزلوه في ايطاليا والعالم المايني. فقد كان الشعور العام الذي استحوذ على العالم المتمدين اذ ذاك، ولمدة قصيرة، الشعور نفسه الذي تملكه عندما رأى نفسه وجهاً لوجه امام غزوات البرابرة التي دكت العـــالم الروماني . فهل استشعر العالم اذ ذاك انه امام كارثة دهماء ؟ قد يصح هذا في البلدان التي لم تكن تكتظ بالسكان او تلك التي كانت عدة الحضارة والعمران فيها بدائية . ومهما يكن ، فالصمت الذي تعتصم فيه مصادرنا لا يخولنا الجزم نفياً او اثباتاً .

نود ان نعرف الاسباب التي ادت الى انتشار الكلتيين ، أهي لعمري ، كثرة المواليد وما تقتضيه بالتالي من زيادة موارد الرزق والعيش ، او المناقسات الشديدة والإحَن الداخلية ، ام ضغط خارجي جاءهم مـن الشعوب الشمالية ؟ علينا ان نقر هنا بما نحن عليه من جهل مدقع في هذا المضمار، وذلك بالرغم من هذه المعلومات المشبوهة المبعثرة التي تعرض لنا . كذلك يهمنا ان نتعرف ايضاً وان نحيط بالظروف والاوضاع التي لابست هذا الانتشار ولازمته . والظاهر ان الامر نتج في الغالب ، ليس عن انتقال شعب او قبيلة من القبائل الكبرى بأسرها ، بل تم تباعاً ولحاقاً بهجرة جماعات في إثر جماعات هامت على وجهها في شتى المناحي والاتجاهات . وهكذا نرى اقواماً من الـ *Tectosages* يستوطنون في آسيا الصغرى وفي تولوز ، كما نجد جماعات مـن الـ *Tolistoboiens* مستقرين في آسيا الصغرى ، وبعض أفخاذهم من الـ *Boiens* يحتلين مقاطعة بوهيميا ومنهم اشتق اسم هـذه المقاطعة ، وبعضهم استقر الى الجنوب من نهر البو في ايطاليا . وتولى قيادة هذه الجماعات الآخذة بأسباب الاغتراب ، مقدمون من الأسر الشريفة ، اصطحبوا معهم على عربات ومركبات للنقل، الاولاد والنساء ، واتجهوا على بركة الرحمن ، سيان عندهم أزحزحوا الجماعـات التي سبقتهم لاحتلال المنطقة ، او انتهزوها فرصة سانحة للنهب والسلب . وهمهم الاكبر ان تقودهم خطاهم الى اراض جديدة يحتلونها ويقيمون فيها ، وهم على اتم استعداد لبسط سيطرتهم عليهـــا بحد السيف،ولو اقتضاهم الامر ذبح السكان. فان تم لهم الامر بالتراضي، فحبذ الاتفاق .

ان هجرة على مثل هذا الشكل من الدوران ، لا ضابط لها ولا وازع ، لا يمكن ان تقع تحت مراقبة التاريخ وحصره . إلا اننا نستطيع ان نتبين عن طريق المعلومات الشحيحة الذي يمدنا بهـا علم الاركيولوجيا وعلم الألسنيّة ، الى جانب ما سجله الكتبة القدامى ، النتائج التي توصلوا اليها ، وهي نتائج تتسم بالعظمة خليقة بالاكبار والتقدير العالي .

النتائج التي ادى اليها امتداد الكلتيين

احتل الكلتيون في اتجاههم نحو الشرق ، مقاطعة بوهيميا ووادي نهر الدانوب ، حتى انهم بلغوا ، عبر ترانسلفانيا ، سهول اوكرانيا . اما في الشمال من البلقان، فقد وجدوا أنفسهم،منذ فجر القرن الرابع ق.م،وجهاً لوجه ، مع الإليريين والتراقيين ومن خلفهم المقدونيين . فقد ارسلوا للاسكندر الكبير وفوداً

مية . وفي سنة ٢٨٠ ق . م ، توغلوا في مقدونيا ، ولم تنجُ عام ٢٧٩/٢٧٨ كنوز هيكل دلف الوقوع بين ايديهم إلا باعجوبة . غير انهم لم يلبثوا ان ارتدوا عن هذه البلاد لما لقوا فيها من رد قوة الدفاع ومتانـــة حصونها ومناعتها . فأسسوا في تراقيا دولة استمرت حتى اواخر ن الثالث . واستطاعوا منذ عام ٢٧٦ ق . م ، ان يقيموا في قلب آسيا الصغرى حول مدينة ير (انقرة اليوم) وفي منطقة غلاطيا *Galatie* التي اشتقت اسمهـا منهم وأسسوا فيها دولة فظت على استقلالها حتى عهد اوغسطس .

اما في الغرب فقد انتشروا في جميع أنحاء غاليا ، وقامت موجتهم الاخيرة التي بلغت حدها

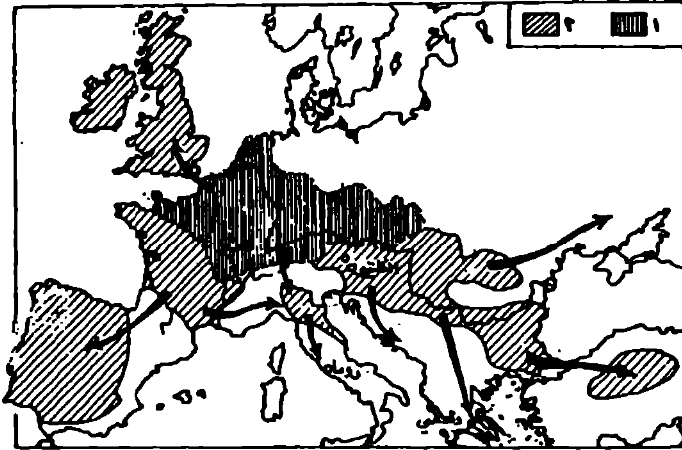

الشكل ٥ – انتشار الكلتيين
١ – المناطق التي ازدهرت فيها المدنية المعروفة بمدنية لاتين *La Tène* .
٢ – المناطق التي استقر فيها الكلتيون .

على بقدوم البلجيكيين وتزولهم نهائياً بين نهري السين والمارن ، في القرن الثالث ، واستمرت قلها الى اوائل القرن الثاني ، وانتهت باقتلاع اقوام الكلتيين الذين كانوا سبقوهم الى السكنى تلك المنطقة . ومن غاليا دخل الكلتيون ، في وقت غير معروف التاريخ ، بريطانيا العظمى رلندا ، كما دخلوا من الجنوب ، الى شبه الجزيرة الايبيرية ، كما اورد خبر ذلك ، هيرودوتس ، في ن السادس . ق . م . ولم يلبثوا ان سيطروا فيها على جميع المناطق الواقعة في الشمال والغرب وسط . واخيراً تم لهم التوغل في ايطاليا بعــد ان عبروا مجازات جبال الالب ، فاستقروا ، القرن الرابع ، في (لومبرديا) ، واستوطنوا المنطقة الواقعة الى الجنوب من نهر البو حتى جبال بنين وشواطىء البحر الادرياتيكي ، فاحتلوا تباعاً ، الواحدة بعـــد الاخرى ، حواضر بلاد

الاتروسك ، امثال ملبوم *Melpum* وفلسينا *Felsina* التي عرفت فيا بعد باسم مديولانوم او (ميلانو) وبولونيا (بولونيا)، كما ان بعض مسمياتهم عاشت في المجالات الاخرى التي وقعت تحت سيطرتهم[1]. وفي بعض الاحيان، بعثوا بكراديس نحو الجنوب، استولت بعد عام ٣٩٠ بقليل، على مدينة روما ، وأنزلت بهـا الدمار . ورأينا بعض سراياهم تكتسح مقاطعة كبانيا وتبلغ في اندفاعها نحو الجنوب ، سواحل مضيق مسينا .

كل هـذه الاقاليم والمقاطعات التي اكتسحها الكلتيون على نسب مختلفة مـن الاتساع والاستيطان ، لم تكن لتؤلف ، بالنسبة لتنائرها وتشتتها ، امبراطورية كلتية متجانسة .

وبعد ان اخذوا بأسباب التمدن وضربوا في جنبات الحضارة ، قلما نرى جماعاتهم تبادر لنجدة بعضها البعض ولو جمعتها وحدة الجوار . وقد يحدث أحياناً ان ينضم بعضهـا الى اعداء اخوانهم فيناصرونهم ويظاهرونهم عليهم مع ان مواجهة العدو الواحد المشترك كان يوجب عليهم الالتفاف معاً وحدة متراصة. وعندما هب الرومان لفتح مقاطعة غاليا ، ما وقع منها بعد جبال الالب *Transalpine* او بعدها *Cisalpine* عولوا في أعمالهم الحربية على قوم من الغاليين وقفوا من الفتح موقف الحياد وكثيراً ما شدوا من الفاتحين الأزر وبادروا لنصرتهم . والدول التي أنشئت في المقاطعات التي سيطروا عليها ، لم تتمتع بعضها بتنظيم شديد الامر قويه . فقد افسحوا المجال امام قبائلهم ان تقدّم للاجنبي ، ولا سيا للمالك الهلينية، جحافل متراصة من جيوش المرتزقة، فبعثروا وشتتوا على هذا النحو ، قوام البشرية التي كثيراً ما تنكرت لبعضها البعض، وتلاحمت في القتـــال .

ولا يعني هـذا انهم كانوا يجانبون الاخذ بالاعمـال التي تتفتح لها ايام السلم . فاذا ما اتفقت الروايات القديمة على إطراء ما كانوا عليه من روح حربية عالية تنزل الرعب في القلوب وتناقلت عن نسائهم الحكايات المؤثرة البنـــاءة ، فقد اطنبوا بنوع خاص الطرق الناجحة التي اتبعوها في تربية الماشية وأمور الزراعة . ويصف المؤرخ الروماني بوليب الذي قام في القرن الثـاني ، بعد رحلات واسفار ، بشيء من الارتياح والاعجاب ، ما كانت عليه مقاطعة ما قبل جبـال الالب (*Cisalpine*) من وفرة وبحبوحة في اسباب العيش ، بحيث كان يجد المسافرون في الفنادق كل ما يحتاجون اليه ، فيتناولون وجبات الاكل بسعر محدد، موحد، وليس وفقاً لقائمة ألوان الطعام. « فالعادة المتبعة عندهم ان يقدم اصحاب الفنادق والخانات ، لنزلائهم كل ما هم بحاجة اليه مـن الطعام بكميات كافية بثمن لا يزيـــد على نصف دانق ، أي بربـع فلس واحد [2] » . وكانت

(١) منها مثلاً : شاتوميان (*Chateaumeillant*) في فرنسا ، ومتلين *Metelen* في وستفاليا، والمدن الفرنسية الاخرى المعروفة باسم بولونيـا ، ومدينة بولونيا (فيدين *Vidin*) اليوم ، على نهر الطونة او الدانوب ، بالقرب من بوابات الحديد) .

(٢) أي ما يوازي اربع سنتيمات من سعر العملة في فرنسا عام ١٩١٤ .

فكرة الحرب ، مع ذلك لا تبارح خواطرهم. وها نحن نسمع بوليب نفسه يصف لنا بدقة سكان هذه المنطقة ، في القرن الثالث ق . م فيقول : « كانوا على بساطة من العيش . فلم يحسنوا سوى الحرب وامور الفلاحة . وهم على يسار من الرزق ، لهم من الذهب وقطعان الماشية ما يجعلهم أغنياء، وهي مقتنيات يسهل نقلها وحملها بسهولة في رحلاتهم وتجوالهم، كما يشتهون، وكما تسمح لهم بذلك الظروف السانحة ».

ربما كان عددهم ضئيلاً في بادىء الامر عند أخذهم بأسباب الهجرة ، مع ان المصادر اليونانية واللاتينية تغالي كثيراً بهذا العدد . فلم يتمكن الكلتيون الاحتفاظ بعمالم المدنية التي أنشأوها لهم في الخارج ، بعد الغزوات المتلاحقة التي أخذوا بها والحروب الدامية التي خاضوا غمارها . والظاهر انهم كانوا على جانب كبير من الاستعداد للقبس من الاوساط والمجالات التي استقروا فيها ومن الحضارات التي حلّوا بينها . ونزعوا على الاخص ، لاقتناء الحلي والثياب الموشاة ، كما اقتبسوا عبادة الآلهة الاقليميين الذين حلوا بين ظهرانيهم . وتبوحاً بأواصر القربى العنصرية التي شدتهم بغيرهم من الاقوام ، جاء الكتبة القدامى على ذكر: الكلتو سكيثيين *Celto - Scythes* ، والكلتو تراقيين *Celto-Thraces* ، والكلتو ايبيريين *Celto - Ebériens* . هذه الأرومة الكلتية التي تجلت في هؤلاء الجنود الأشداء الذين عرفوا ان يدوخوا ، صدفة او اتفاقاً ، جانباً كبيراً من اوروبا ، واقتطعوا قسماً من آسيا الصغرى ، لم تلبث ان تقلصت وتبلورت في قبضة من التقاليد الدينية واللغوية التي فقدت عملياً كل أهمية لها وشأن .

توقف مدنية الكلتيين وأفولها

بلغت موجة الكلتيين الثبج وسجلت حدها الاقصى ، في القرن الثالث ، ق . م، ثم اخذت تبدو عليهم اعراض العناء ويدب فيهم الوهن تدريجياً . فالشعوب المجاورة للغلاطيين ، في آسيا الصغرى ، عرفت ان توقف تقدمهم ، واستطاعت الدولة الأتالية ان تفرض عليهم شيئاً من الحماية قبل ان يدخلوا في مدار الفلك الروماني ، كما ان مملكة تراقيا لم تلبث ان تداعت وانهارت . واستطاع السكيثيون والداس *Daces* والجيت *Getes* ان يصدوا الكلتيين وان ينكصوهم على الاعقاب باتجاه هنغاريا . وفي شبه الجزيرة الإيبيرية وغاليا الجنوبية ، قام الايبيريون الذين جاؤوا من الجنوب وربما من افريقيا ، بحركة مماثلة تحمل منطقة نهر الرون بعض معالمها . اما في ايطاليا ، فقد قام الرومان ، للمرة الاخيرة ، عام ٢٢٥ ق. م ، بصد الهجوم العنيف المفاجىء الذي قام به الغاليون ومن لف لِفّهم من بني جلدتهم في غاليا ما وراء جبال الالب ، واستطاعوا ان يسجلوا عليهم نصراً مبيناً عند رأس تيلمون *Télamon* من اعمال اتروريا الجنوبية . واخذت روما، على الاثر، تفت من عضد الكلتيين وتقتطع بالتالي من اراضيهم حتى نشرت عليها سيطرتها التامة بعد العاصفة الهوجاء التي نزلت بها على يد هانيبعل وكادت تجتثها من اصولها . وما ان مالت شمس القرن الثاني ق. م للغروب ، حتى رأيناها تبسط سيطرتها على الكلت الايبيريين بالرغم من المقاومة العنيفة التي

أبلتها مدينة نومانس *Numance* الواقعة على نهر الدورو *Douro* ، كما استطاعت ان تقيم لهـــا مواطىء قدم في غاليا الجنوبية .

فمها كان عليه الكلتيون من سوء التنظيم ، علينا ان نرد انحلالهم السريع وهبوطهم الى عوامل أخرى غير التفسخ الذي انهك قوامهم والظروف المحلية التي احاقت بهم. منها مثلاً الردات العنيفة التي قوبلوا بها لدى الشعوب الاخرى . ولو افترضنا ان بعض المعالم التي عثر عليها في سكندينافيا والمانيا الشرقية الشمالية لا تؤيد هذا الرأي ، فلا يمكن مع ذلك التسليم بأن الضعف والوهن فشا فيهم حتى في المناطق التي سيطروا عليها بشدة ومراس ، في المانيا الجنوبيـــة والغربية مثلاً.من الجائز مثلاً، ان يكون جلاء البلجيكيين ونزوحهم الى شمالي فرنسا جاء نتيجة لما تعرضوا له من ضغط شعوب جديـــدة جاءتهم من الوراء . فمن هم لعمري ، هؤلاء الكمبر *Cimbres* والتيوتنز *Teutons* الذين خرجوا ، بعد ذلـــك بقليل ، من جنوب شبه جزيرة جوتلاند ووادي نهر الإلب *Elbe* ،فعاثوا فساداً في النمسا وسويسرا والالزاس، وفي الجنوب من غاليا وشمالي ايطاليا ، بين ١١٣ – ١٠١ ق . م ، قبل ان يتمكن القائد الروماني ماريوس من سحقهم على التوالي : التيوتنز عنـــد ايكس آن بروفانس ، والكمبر عند فرساي *Verceil* ؟. أكلتيون هم هؤلاء الغزاة القادمون ام طلائع الجرمان هم ، يدخلون حلبة الميدان ؟ ومهما يكن ، ان وصول هـــذه الشعوب المتأخرة ألقى الرعب في قلوب الكلتيين في غاليــا . وعلى كل ، فهؤلاء الشعوب التي اصطلح الاقدمون على نعتهـــا بالجرمان ، لم يلبثوا ان ظهروا على ضفاف نهر الرين .

فعند مطلع القرن الاول ق . م ، لم يبقَ في هـــذه الرقعة الواسعة التي سيطر عليها المد الكلتي من مجتمعات تمتعت بالاستقلال، إلا ما قام منها فيالقسم الاكبر منغاليا وبريطانيا العظمى. فقدكُتب للفريق الاول منهم ان ينشىء له مدنية ليس من الممكن التغاضي عن ذكرها والمرور بها مرور الكرام .

٢ - الغاليون

الغاليون هم هؤلاء الاقوام الذين كانوا يقطنون« غاليا » ما وراء الالب عندما شرع الرومان بفتح هذه البلاد ، على فترتين متميزتين ، يباعد بينهما مدى ٦٠ سنة .

وحدة في التنوع

ظهر مما تقدم من بحث ان هذه الاقوام لم تكن كلتية . فقد تكاثرت هجرات الكلتيين وتتالت موجاتهم بحيث لم تكن الذراري والولد التي خلفوها في البلاد سوى نسبة ضئيلة ، بالنظر لعدد السكان . فاذا ما اخذنا بأقوال الكتاب القدامى ، كان عددهم عالياً بحيث لم يقل في ادنى حد عن ٢٠ مليوناً ، بينما قدّرهم بعض المؤرخين بأعلى من ذلك

بكثير . اما الكلتيون أنفسهم ، فلا نستطيع ابداء أية فكرة بشأن عددهم ، لا سيا والمصطلح في معناه الحصري غير واضح الاعراق . ولا بأس من ان نؤكد هنا ان السواد الاعظم من سكان البلاد الاصليين تعود جذورهم الاولى الى العصر الحجري. وكم توالى على البلاد ، في غضون العصور المظلمة ، من الانسرابات القومية والفتوحات الدامية! وكم من الغزاة الطوارىء اقاموا في اطراف البلاد الخارجية ؟ وكم يرى التاريخ نفسه في عَمَهٍ بالنسبة لهذه الاضافات الجديدة، كما انه يعوزنا الدليل القاطع الجزم بالتأكيد . ولا يبقى من هـــذا كله سوى الشعور بتنوع الجذور والاصول .

وهذا التنوع ليس ما يدعو للاحظته والتنويه به لولا النتائج العملية التي يُفضي اليها ، ومن العسير تتبعها واقتفاء اثرها . ففي غاليا التي يتأهب يوليوس قيصر لغزوها وتدويخها ، هنالـك اقوام الأكيتين (*Les Aquitains*) والغاليين *Caulois* والبلجيكيين *Les Belges* وهي «تتباين بعضها عن بعض بما بينها من مفارقات اللغـة والعادات والشرائع » ، دون ان يحدد منها وجوه الاختلاف والتبـاين . ومن الواضح ان قيصر يغلو جداً عندما يتعرض لوصف البلجيكيين الذين لا يمكن فصلهم عن سائر الكلتيين، بالرغم من حداثة دخولهم البلاد نسبياً واستيطانهم فيها . إلا ان الامر على العكس من ذلك تماماً ، مع قوم الاكيتين وغيرهم من الشعوب القاطنة ، في هـــذه الناحية من بـــلاد غاليا ، المطلة على البحر المتوسط، والتي سقطت في قبضة الرومان قبل عهد قيصر . والافخاذ الكلتية التي دخلت البلاد من الشرق او من الشمال، استطاعت هي الاخرى، التغلغل في داخل البـلاد حتى بلغت منها مقاطعات البروفانس واللانغدوق *Languedoc* ، بينما نرى جماعات الفولك اريكوميك تستوطن مدينـــة نيم وجوارها ، كما تستوطن جماعات فولك تكتوزاج (*Volques Tectosages*) مقاطعة تولوز ، ولم يكن وصل منهم اطراف الارموريك *Armorique* سوى قلة ضئيلة . ومع ذلك فقد تطبّـع سكان هــذه المقاطعات البدائيون بأطباع الكلتيين بينما كان سكان الجنوب اقل اخذاً بهـــذه الطباع . وفي مقاطعة بروفانس ، لم يأخذ الليغوريون بأسباب هــذا التطبـع، مع اننا نجد فريقاً من الاهلين هم من أرُومة الكلت ـ ليغور *Celto - Ligures* . وقـــد قامت بين شعوب الايبيريين ومقاطعة اللانغدوق، علاقات على مر السنين حتى مطلع الغزو الروماني للبلاد ، وكل الظواهر تدل على ان الاهلين استعملوا اللسان الايبيري في التخاطب والكتابة . اما مقاطعة اكيتين برمتها حتى نهر الغارون ، فقـــد عرفت كيف تحافظ على طابعها الاصيل ، كما عرفت ان تصمد ، فيا بعد ، في وجه الفتح الروماني ، بما فيها من اقوام البيرنيين وما كانوا عليه: من لغى ولهجات ، ومـــن آلهة وعادات، خاصة بهم. ويكفي ان نذكر هنا مثلاً، شعب الباسك *Basques* وكيف تمكن من الحفاظ على إصالة ارومته وذاد عنها الفتح الروماني. وأخيراً وليس آخراً، قامت على سيف البحر المتوسط مدينة مرسيليا بما أهلها من جوالي الاغريق وذراريهم ، وهم أصحاب مدنية أسمى بكثير ممـا كان عليه جيرانها ليرضوا بالتخلي عنها والتحلل منها .

فمع ما نشاهد في بدء الامر من عوامل وعناصر هـذا الشعب ، وبالرغم من هذا الصمود، ومن هذه المقاومة لهذه المؤثرات ، فقد وجد الرومان أنفسهم ، عندما أطلوا على غاليا ، شيئاً آخر غير جماعات متجاورة، متخاذلة، متنابذة، منعزلة بعضها عن بعض ، تتفاوت فيا بينها من حيث التطور والرقي الذي بلغته . فقد كان الكلتيون قد سيطروا ، منذ عهد بعيد ، على القسم الاكبر من البلاد ، فاندمجوا بها اندماجاً كلياً بحيث لم يبق أي أثر يذكر لعملية التوطن التي تمت على مر الزمن ، في عهود وأدوار متلاحقة . وقد كانت انتهت منذ امد طويل ، عملية انصهار هذه الاقوام التي قطنت البلاد ، وذابت بعضها في بعض ، بحيث كانت أكثرية الشعب تنظر الى البلاد نظرها الى الوطن الام . وكان من السهل ان نتبين الصفات البارزة التي كانت تفرد غاليا والغاليـين ، باستثناء بعض نقاط محدودة، فتجعل منها ومنهم، بلاداً وشعباً هدفوا معاً الرقي واشرأبت أعينهم للتقدم والتطور، الامر الذي يضعنا امام مدنية ناشئة، تستطيع، اذا ما تم لها التكامل المرغوب وشبّت عن الطوق ، ان تزيد وحدة البلاد ارتباطاً وانسجاماً، من الوجهتين العرقية والادبية .

اتصالاتهم بالمدنية الهلينية وسبلهم اليها

يجدر بنا ، ونحن نشهد بزوغ مدنيـة جديدة تتطلع للأخذ بأسباب التطور والتكامل ، ان نتساءل ما عسى ان تكون المؤثرات التي تفاعل بها هذا الشعب وعن أي طريق اتته . ومما لا شك فيه قط ان هـذه المؤثرات يونانية الاصل . غير انه يهمنا في الدرجة الاولى ان نعرف كيف تم هذا الاتصال ، وعن أي طريق أتى ؟

اول ما تقع عليه العين ويلفت اليه النظر هو مدينة مسّاليا او مرسيليا اليونانية الاصل ، التي أنشأها معمرون ايونيون ، قبل الميلاد بـ ٦٠٠ سنة ، خرجوا من مقاطعة فوقيه *Phocée* ، من أعمال آسيا الصغرى، فعمروها على شاطىء بحر، كثيراً ما ارتادته ورست عنده السفن اليونانية. وقـد عرفت هذه المدينة ان تحافظ على طابعها الاغريقي وان تحتفظ به طويلاً حتى بعد الفتح الروماني للبلاد . فبالرغم من المنافسة الحادة التي لقيتها من الاتروسك والقرطاجيين، فاستحالت احياناً الى حروب حامية جرت عليها عهوداً من الركود في حركة الاعمال، وانكماشاً في نشاطها التجاري ، فقد برزت بنشاطها البحري ، فأنشأت لها ، في عهود وأدوار اعتصم التاريخ حيالها بالصمت ، مستعمرات عديدة على شواطىء اسبانيا الشرقية ، وغاليا الجنوبية . إلا ان صروف الدهر وتقلباته اضطرتها التخلي عن احدى مستعمراتها هذه ، هي مدينة « ميليكية » (ملاغا اليوم) للقرطاجيين ، كما ان الايبيريين اغرقوا بحواليهم الكثيفة مستعمرات أخرى تابعة لها ، منها كاليبولس- برشينو (*Callipolis - Barcino*) وامبوريايس *Ampourias*) وروديه (*Rosas*) فاستقلت هذه المدن بأمورها . اما في غاليا ، فقد كانت احسن حظاً لا سيا بعـد ان أصبحت حليفةً للرومان فناصروها ووقفوا الى جانبها وشدوا منها الازر ، فأنشأت لهـا ما يكاد يشبه

امبراطورية شملت عدداً من المدن والمرافىء ، نذكر منهـــا على سبيل المثل لا الحصر : بيرينه (*Pyrenè*) المرجح ان تكون (*Port - Vendres*) واغاثيه (*Agade*) وثلينيه (ربعـــا (*Arléate - Arles*) ونيكايا (*Nice*) وكيثارستا (*La Ciotat*) وأولبيا (*Hyères*) وانتيبولس (*Antibes*) وموناكو (*Monaco*) . وكانت مرسيليا تؤمن لهـا أسباب العيش عن طريق الاتجار ، مع غاليا، كما يشهد على ذلك الخزفيات اليونانية الصنع بعضها من مصنوعات اثينا . واشهر هذه الخزفيات تلك التي عثر عليهـــا بالقرب من مدينة بيزيه . وقد نقل هؤلاء التجار ، بالطبع بعض ما استقرت عليـه المهارات الفنية والاساليب الصناعية وبعض الأفـكار والعـــادات الاغريقية الطابع . وهكذا ظهر على لسان القوم المصطلح الجغرافي ، « غاليـــا الاغريقية » . وبين الوثائق والنصوص القديمة أكثر من نص ومرجـــع يحدثنا عن الاثر الطيب الذي تركته مرسيليا . فها جوستن يقول : « وبتأثير من مرسيليا وسكانهـــا ، راح الغاليون يتخلون عن عاداتهم البربرية ، فدمثت منهم الاخلاق ، ولانت عريكتهم واخذوا باسباب الحضـــارة : فحرثوا الارض واقاموا الاسوار والحصون حول مدائنهم ، وألفوا العيش في ظل القانون وتحت حمـــايته ، وتخلوا عن استعمال القوة والبطش في تأمين حقوقهم ومصالحهم ، كما حذقوا من جهة اخرى، تشذيب الكرمة وغرس نصوب الزيتون . فقـــد بدا على الناس وعلى الاشياء كأنما انتقلت اليونان الى غاليا وغاليا الى اليونان » . غير ان هنالك من الوقائع ما يجعلنا نخفف كثيراً من غلو الحدسيات والافتراضات التي طلع بها كتاب محدثون ، جعلت من مرسيليا قطباً للاشعاع الهليني في غاليا .

فقد صورت لنا التقاليد المتوارثة تأسيس هذه المدينة وكأنها انشودة حب عذري ربط مـــا بين هذه المدينة وبين سكان البلاد . فاذا ما قام يوماً ، مثل هـــذا الحب ، فهو لم يعمر طويلاً . فقد لقي الاغريق من المصاعب والعراقيل أثارها في وجههم اقوام الليغوريين الاشداء ، مـــا اضطرهم ، في القرن الثـــاني ، لطلب النجدة من روما ، فبادرت لنصرتهم والتسييج حولهم برعايتها فامنت لهم شيئاً من الاستقرار . كذلك نابهم من الكلتيين بعـــد ان استباحوا مقاطعة بروفانس ، ما نغّص عليهم العيش ، ولم يستطيعوا ان يتنفسوا الصعداء الا عندما دك الرومان حصون مدينتهم أنترمونت *Entremont* .

صحيح ان طبيعة الحرب لم تكن اذ ذاك ، لتحول دون التبادل التجاري ، غير ان الاخذ بالمصطلح الجغرافي: « غاليا الاغريقية » لم يكن ليخلو من غلوّ . ففي حال تبنيه ، فاللفظ لا يمكن اطلاقه الا على منطقة ضيقة ، اقتصرت على بعض وكالات تجارية ومكاتب اعمال تناثرت حباتها حتى مرتفعات الألب المطلة على البحر ، ثم تنبسط وترحب مع انفراج الجبل . وهذه الخزفيات المحلاة بالرسوم التي المعنا الى خبر اكتشافها بجوار مدينة أنسرون *Ensèrune* هي ، والحق يقال ، من الكماليات التي لم يحدث دخولها في المنطقة اي اثر بيّن في طراز المساكن والمدافن وفرشها من الداخل .

فالمعلومات المصردة التي يمدنا بها علم الآثار اليوم تجعلنا نرتاب كثيراً ونتشكك في صحة الرواية التي روّج لها البعض من امتداد تجارة مرسيليا الى داخل البلاد . وبالفعل ، نجد على طول الطريق الممتد بين نهري الرون والصون والذي يؤلف ممراً طبيعياً للمواصلات التجارية ، فجوات كاملة حتى القرن الثاني تقريباً بين الآثار اليونانية المكتشفة من خزف وشبهان، في هذه المنطقة ، تمتد من نهر الدورانس الاسفل *Durance* الى نهر الإيزير (*Isère*) ، ولا تعود تظهر نسبياً ، بكثرة ، الا في مقاطعة بورغورنيا . وقد عُثر بالاخص ، في شمال فرنسا ، على اجمل الآنية المصنوعة من الشبهان ، بين القرنين السادس والخامس ق . م .

ولعل احدث هذه المكتشفات وأبرزها على الاطلاق (كانون الثاني - يناير ١٩٥٣) هي التي عثر عليها في منطقة فكس (*Vix*) على مقربة من مدينة شاتيون - سير - لاسين[1] وقد عثروا في حفرة هيل فوقها أكوام من التراب ، الى جانب الهيكل العظمي لاحدى السيدات ، على عدد من الآنية من صنع البرابرة، يعود عهدها الى منتصف القرن السادس ، ابّان مدنية الهولشتات، بينها أدوات خزفية أجنبية الصنع ، من العصر ذاته ، ومجوهرات من الذهب والفضة والشبهان يكفي ان نذكر بين الاخيرة منها تاجاً من الذهب زنته ٥٠٠ غراماً ، يحمل في طرفيه حصانين مجنحين . ومن بين هذه المكتشفات الاثرية واحد من هذه الاجاجين البرونزية الضخمة ، زنته ١٧٥ كيلوغراماً ، وعلوه متر و٦٥ سنتمتراً ، محلاة اذناه المنحوتة بشكل قوقعة بحيوانات بحرية بين رمم، على عنقه ثماني مركبات يفصل بينها سبعة جنود. فمن الطبيعي ان تثير هذه المكتشفات جدلاً حاداً بين الاخصائيين من علماء الآثار ، لن ينتهي عن قريب ، يدور بالاخص حول منشأ هذه الآنية ، وحول صناعة المعادن لدى الاتروسك ، هذه الصناعة التي عرفت بنشاطها كما عرفت بتأثير الاغريق عليها . ويدور النقاش فيما بينهم ايضاً حول معرفة الطريق التي سلكته هذه المؤثرات الفنية لتبلغ بلاد غاليا ، دون ان يوحي احدهم بالاقتصار على مرسيليا والاكتفاء بأثرها وحده في هذا المجال . وتتجه الخواطر بالاحرى ، الى طرق برية تنطلق من سهل البو او من البحر الادرياتيكي ، عبر المجازات والممرات الألبية ، كما يقترح غيرهم طرقاً أخرى تنطلق من البلقان وتسير صعداً مع نهر الدانوب .

فاذا تجاوزنا هذا الحادث الخاص ووضعناه جانباً ، علينا ألا ننتقص من أهمية الاتصالات التي أمكن القيام بها ، في تاريخ مبكر ، مع المدنية الهلينية في الشرق . فالكلتيون لم يهملوا قط هذه الاتصالات ، فنمّوها عن طريق الإلليريين ، في بدء الامر ، ثم باشروها بأنفسهم فيما بعد . ولم يقم ما يدعو الغاليين الى قطعها او التخلي عنها . فالذهب الذي تم إغراقه في الغدران

---

(١) مما هو احدث من ذلك ايضاً ، العثور، في شهر آذار - مارس ١٩٥٤ ، على قبر في مدينة راينهام (مقاطعة السار) ضم بين ما ضمه من الحلى ، اجمل خرص من الذهب يعود الى القرن الرابع ق . م وهو من مخلفات مدنية لاتين *La Tene* . ويحمل الطابع الهليني على مثل هذا البعد من مرسيليا .

المقدسة ، على مقربة من مدينة تولوز ، لم يكن قط ، وبكل تأكيد، من مسلوبات معبد دلفي ، هـذا الذهب الذي جلب الويلات وجر المصائب على الرومان عندما اخذوا باستخراجه تباعاً ، فوصفوه بالذهب المسكون او الممسوس . ويكفي ألا يكون الكلتيون سلبوا معبد دلفي او نهبوا بجوهراته وكنوزه حتى راحت الروايات والتقاليد المتوارثة تفتفر ، باطلا ، حول هذا الحادث الموهوم ، الاقاصيص المستملحة تروي للسلف المتهيب ، اخبار نقمة الإله ابولو وغضبه المهتاج . كذلك ، فاذا ما تجرأ بعض المؤرخين على القول بأن الكرمة دخلت البلاد عن طريق سويسرا ، فشجرة الزيتون جرى توطينها ولا شك ، على يـد سكان مرسيليا . ويكفي ان نلاحظ هنا ان المسكوكات الغاليّـة الاولى ذهبت في تقليدها الى حد بعيد ، المسكوكات المقدونية دون عملة مرسيليا، لنقتنع بأن هذه المستعمرة الفوقية الاصل، لم تكن المهذب الاوحد حتى ولا الرئيسي، في عملية صقل سكان غاليا وبردختهم .

• فالمؤثرات الخارجيـة تكاد لا تذكر اذا ما قيست بالعوامل الهلينية التي فعلت فعلها في القوم . فالقرطاجيون قنعوا منهم بعلاقات تجارية ضعيفة . اما الرومان ، فلم يأخذ أثرهم يظهر إلا منذ ان استقرّوا نهائياً في الجنوب من غاليا ، اي منذ اواخر القرن الثاني ق . م ، وقـد برز هذا الاثر للعيـان في المجال الاقتصادي ، فمهد بذلك السبيل امام الفتح الروماني وهيأ لهم اسباب الغزو . إلا ان تدخل روما افضى بالفعل ، الى قتـل المدنية الغالية الناشئة وبالتالي الى زوالها .

ومهما يكن من الامر ، فليس مـن اللائق ان نحاول تفسير كل شيء بالمؤثرات الخارجية . فالعامل الرئيسي يكمن في الغاليين أنفسهم ، أي في هـذا الانفعال والتفاعل الذي خضعوا له في النصف الثـاني من الالف الاول ق . م ، مختمرين بما اصطلح عليهم من عوامل التربة والمجتمع البشري الكلتي وطبيعـة الاقليم ، فتفاعل بهذا كله الكلتيون ، على توالي موجاتهم وتنقلات جماعاتهم وبطونهم . ومن نكد الحظ ، فاذا جئنا نحاول التدقيق في هذا كله، بوضع النقاط على الحروف ، في تحديد الفوارق وتبيين المفارقات ، تجاوزت تأكيداتنـا المطلقة نطاق التحليل والمضي فيه بنجاح : فكل محاولة في تعيين نسَب العوامل العرقية بين عناصر السكان وتحديد اقدارها من جهة ، والظروف المحيطـة والملازمة لظهور مدنية أصيبت بضربة قاصمة في الوقت الذي اخذت معه في تحقيق وحدة الشعب الغالي ، من جهة ثانية ، كل ذلك ومـا اليه ، يعجزنا ويسقط في ايدينا .

تجزؤ البلاد اقواماً متنافسة

فتطور هذه المدنية الناشئة وصيرورتها الى الوحدة ، لم يكن اكتمل بقيام وحدة سياسية في الوقت الذي راح فيـه يوليوس قيصر يدوخ هذا القسم من غاليا المستقلة والذي كان يؤلف الجانب الاكبر من تلك البلاد .

ضم هذا الجزء المستقل من البـلاد ، اذ ذاك ، نحواً من ستين شعباً ، شدهم بعضاً الى بعض

وشائج متنوعة . وقد درجت العادة عندهم على ان يعقد الكهان – الدرويد – ، كل سنة ، في نقطة تقع في قلب البلاد ، في غابة اورليان ، على وجه التدقيق ، اجتماعاً كبيراً للنظر في القضايا العامة والخاصة منها على السواء. فوجودهم امام خطرٍ مداهم ماحق، يهددهم من الخارج، بعث في الجميع شعوراً عاماً بالخطر الماثل، هزهم هزاً وبعث فيهم يقظة وطنية عارمة. إلا انه وقع حادث معركة أليزيا (*Alésia*) فكان هـذا الحادث معياراً حسناً لسبر الامكانات العارضة والطاقات الكامنة . فلكي تقوم في غاليا دولة لهـا من المقومات ما يضمن بقاءها ويمكّن لها في الارض ، تطلب ذلك أكثر من ازمة واقتضى اكثر من نازلة وطنية . فلم تكن نشاهد اذ ذاك ، في البلاد ، سوى شعوب متجاورة ، ابداً متيقظة ، حريصة على استقلالهـا ، تذود عنه وعن ارضها بقوة السلاح وتمنع عنه تعديات الجيران وتجاوزاتهم .

والكبير العزيز بين هذه الشعوب كان يشرئب باعناقه الى السيادة وفرض سيطرته وسؤدده. وهي اهداف كريمة نزع بعض هذه الشعوب الى تحقيقها وتحييزها . ومثل هذا المصير قد يكون توفرت اسبابه ، في القرن الخامس ، لشعب البيتوريج *Bituriges* (بورج) ووقع شيء من هذا القبيل ، في منتصف القرن الثاني ، لشعب الارفيرن *Arvernes* الذي عرفت الفيالق الرومانية ان تخفض، عام ١٢١ ، من غلواء ملكهم بتويت *Bituit* بعد ان شتت بدداً ، حشوده العسكرية واستولت على مركبته المصفحة بصفائح الفضة ، بالرغم من دمدمة حرسه . وقبيـــل مباشرة قيصر الفتح، خطر لشعب الادوين *Eduens* (قرب مدينة اوتون *Autun* اليوم) وهو شعب ربطته بروما صداقة ومواثيق ، بانه يستطيع بمؤازرتها تحقيق مثل هذه السيطرة . غير ان الاطماع التي جاش بها هذا الشعب كغيره من الشعوب الغاليـــة الكبرى ، اذ ذاك ، اثارت في وجهه عداءات عنيفة ، زادها أوارأ وتعقيداً ، استعانتهم بالاجنبي وطلب النجدة منه .

الاحزاب والفوضى

كانت اوضاع هذه الشعوب الداخلية ، على ما وصفنا : فلم يكن مات فيها ، بعد ، ذكر تنقلاتها في سالف الدهر . وكان بعض هذه الشعوب كالهلفيت ، مثلاً *Helvètes* على استعداد للسير سيرتهم الاولى عندمـــا وقف لهم قيصر بالمرصاد واعترض تحقيق رغباتهم بضم مقاطعة الفارون الى ممتلكاتهم . غير ان معظمهم قـــد مكن لسكناه في المناطق التي استقروا فيها ، بحيث ترى اسماءهم اليوم تعيش وتخلد في اسماء المقاطعات التي حلوا فيها،من ذلك مثلاً: كاليت *Caletes* وهي اليوم مقاطعة كو *Caux*، وفيلافيي *Vellavii* (مقاطعة فيلاي *Velay*) ، ولا سيا في الحواضر التي كانت عواصم البلاد والمراكز الدينية الكبرى فيها ، امثال :سواسّون وتيرونيس،او تور وبواتيه،او مدينة بيريغو *Périgueux* ، الخ.و كثيراً ما استعمل قيصر نفسه اللفظ اللاتيني *Civitates* للتعبير عن هذه الشعوب. وبعد ان تم الفتح، راحت الادارة الرومانية تجري في تنظيمها البلاد، على هذا الاساس فتقسمها ادارياً الى «مدن». وكان لعمري ،

الفرق شاسعاً بين المدينة – الدولة (*Cité - Etat*) الصغيرة الحجم ، عند الاغريق والايطاليين وبين الغاليين الذين كانوا يقطنون بلاداً واسعة الارجاء ، تخلو بعض نواحيها من المدن احياناً . وهذه المعادلة المصطنعة بين المسميات الجغرافية ، اخفت وراءها صعوبات كثيراً مـــا اعترضت الرومان عندمـــا حاولوا التخلص من مصطلحات درجوا على استعمالها . ومع ذلك ، فالقوى الاجتماعية ، القائمة اذ ذاك كان من شأنها ان تفضي الى اوضاع يصح معارضتها بالاوضـــاع التي سادت مدن اليونان وايطاليا ، من قبل ، وسيطرت عليها . وهذا التطور السياسي الذي صارت اليه واخذت بأسبابه متأخرة ، الشعوب الغالية ، جاء منه المدى اقصر من المدى الذي توفر للمدن الاغريقية ، الا انه سار في المنحنى نفسه .

والظاهر ان هـــذه الدول سارت ، في بدء امرها ، على نظام ملكي ، لم يلبث ان تطور عند وصول قيصر البلاد واستحال نظاماً ارستوقراطياً ، اذ لم نكن نرى في طول البلاد وعرضها ، اذ ذاك ، أي مجلس للشعب او ما أشبه . وكانت الاسر الكبرى تتمثـل في مجلس شورى ، كما كانوا ينتخبون كل سنة ، حكاماً كان رئيسهم الاكبر لدى بعض هـــذه الشعوب ، يلقب بـ *Vergobret* ، الذي نقله الرومان بكلمة قاضٍ . اما في ايام الحرب ، فكان يصار الى انتخاب قائد عسكري عام .

كثيراً ما كان تطبيق هذه الانظمة والعمل بموجبها بصورة منتظمة ، مدعاة للتأسف والتمني فتثار بشأنها المنازعات والمشاكسات يحتكم فيها للسيف . ويروي قيصر ان الاجتماعات التي اعتاد كهان الغاليين عقدها لانتخاب رئيسهم الاعلى مدى الحياة كانت مثاراً لتعقيدات لا تحل إلا بالقوة . اما احترام العدالة والتقيـــد بنصوصها فأمور كثيراً ما حفزت ، في بعض الدول الخاصة ، ذوي الاطماع للتمرد على القانون ، واحتذاء حذو طغـــاة الاغريق او بعض سياسيي الرومان محاولين ارجاع الملكية والاستئثار بما توفر من امتيازات . ولهذا الغرض بالذات راحوا يحاولون استمالة الشعب لجهتهم والفوز بتأييده ومناصرته . وكان لا بـــد لهم ، تحقيقاً لمآربهم ، ان يتغلبوا على مقاومة خصومهم من الاشراف وتصفيتهم قبل الاقدام على مغامراتهم . اما هؤلاء فقد عرفوا ان يحتاطوا لانفسهم من مغبة الامر ، وراحوا يفصلون بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . وقد زاد شعب الادوين *Eduens* على هذه التدابير الاحترازية بأن اوجبوا على اخ كل قاض ، وكل عضو في مجلس الشورى تحدثه نفسه بالتربع في مثل هذا المركز ، ان ينتظر وفاة أخيه ليرشح نفسه له . ولم يكن من النادر ان نرى ، هنا وهنالـك ، اوامر تصدر بنفي هذا وإبعاده عن البلاد ، او بالحكم على ذاك بالاعدام ، لاسباب سياسية . فالمواطن الارفرني سلتيلـّوس *Celtillus* ، والد الزعيم الغالي وخصم قيصر العنيد ، فرسنجتوريكس ، بعـــد ان فاز بمنصب امارة غاليا كلها ، وهو منصب لا نعلم من اختصاصاته وامتيازاته شيئاً راهناً ، و حكمت عليه مدينته بالاعدام لانه طمح الى الملكية » .

وعبارة قيصر هذه ، بالرغم مما يكتنفها من غموض وتمريض ، كغيرها من اقواله ، إنمـــا

تشير بوضوح الى هـــذه الانقسامات التي كانت تمزق شعوب أخرى غير الارفيرن من شعوب غاليا . ان ما عرف به الغاليون من تذوق للبلاغة والاساليب البيانية وعنايتهم بأفانين الكلام ، جعل القدامى مـــن المؤرخين يرون في هذا كله ميزة مفردة لهم ، تبدو على أتمها عند اشتداد الجدل واحتدام الكلام في منازعاتهم الحزبية ، وهذه الاحزاب التي كانت تنشأ ، في الغالب ، عن منافسات وأطماع شخصية اكثر منها عن نظريات عقائدية ، لم تكن تحول قط دون قيام علاقات وطيدة بين شعب وآخر من هذه الشعوب ، جعلت الاسر الكبيرة ، تتظاهر بسهولة ، فيما بينها ، ضاربة كشحاً عما يقوم بوجهها من حواجز وحدود وسدود . ومن وراء هذه الحدود كانت المطامع الشخصية تتساند وتتعامد بعضاً الى بعض ، فتتضخم الاطماع الجماعية المشتركة وبذلك ينفسح المجال رحباً امام التدخل الاجنبي ، سواء أكان غالياً او جرمانياً او رومانياً ، فتتأزم الامور من جراء هذه المداخلات وتتحرج الاوضاع . وقـــد عرف قيصر ، بما أوتي من زكانة وبصيرة ومهارة ان يثير الفرص المؤاتية ويتدبر امر الافادة منها . وما كان عليـه إلا ان ينهج نهج الزعيم الجرماني أريوفيست *Ariovisle* ليفيد ، ما امكن ، من هذه الفرص السانحة التي جعلت غاليا برمتها فريسة لعدو مغامر .

النبلاء والاحلاف

وهذه الاوضاع الاجتماعية التي تتردى فيهـــا البلاد وتتضرس بنتائجها ، يجب ردها في الغالب الى الاوضاع الاقتصادية. فهي تصور لنا ، على الوجه الاكمل ، الوضع السياسي السائد فيها . قد يكون الغاليون مارسوا نظام ملكية الارض المشاعية . ويرى البعض ان مثل هـــذا النظام عمل به قانوناً في القرن الاول ، إلا انه زال بالفعل وانقطع مع ما تعاقب على البلاد من افتئاتات على حقوق التملك ، والاختلاسات والتعديات التي انهالت عليها على مر الزمن ، فاذا بالنبلاء يصبحون مالكي القسم الاكـــبر من الثروة العقارية . ونحن نجهل تماماً ما اذا قام في الريف شيء من الملكية الجماعية . فان صح الافتراض فهي ليست بذات بال ، كذلك نجهل تماماً كيف استثمر الاشراف وكبار الملاكين أملاكهم الشاسعة . ومهما يكن من الامر « فسواد الشعب امره امر الارقاء لا يتميز عنهم بشيء » ، كما يؤكد ذلـــك قيصر وقبله بوليب عندما يصف ، في القرن الثـــاني ، الوضع الذي كان عليه الغاليون القاطنون سهل البو ، في معرض حديثه عن أهمية الاحلاف والانصار في التنظيم الاجتماعي والسياسي . فنفوذ أي امرىء يتوقف قبل كل شيء على كفاءته وقدرته في تأليب الناس حوله ، والحدب عليه ، وحملهم على التعلق به واستعدادهم للبذل حتى بنفوسهم في سبيل تأييده والدفاع عن مصالحه . ولذا نراهم يمتدّون بما لديهم من حسب ونسب ونشب ، ويفاخرون بالمجد الذي جرّوه عليهم وعلى مقاطعاتهم في الحروب والمعارك ، ويباهون بما لديهم من غنى وثراء ، وبما يجودون به من مكرمات تتمثل بهذه الهبـــات والعطايا والمساعدات ، ويتبجحون بـــا لهم من حظوة لدى الحكام والقضاة ، وما يؤمنونه للضعيف المهيض الجناح من حماية ورعاية . « وكانت غالبية السكان » ، كما يؤكد قيصر ، ترزح تحت وطأة الديون وبهاظة الرسوم التي تفرض عليهم او الاحكام التي ينزلها بهم كبار القوم .

فلا عجب ان يضعوا نفوسهم وما يملكون تحت رحمة الشرفاء والنبلاء فيتصرفون بهم تصرف السيد بعبده ويسوقونهم سوق النعاج. ولكن لا يقبل احد من هؤلاء النبلاء ان يصاب احد من احلافه وأتباعه بأي ضرّ او شر ، او ان يضام ويذهب فريسة اضطهاد او ضغط او خداع . فقوته ونفوذه هما بقدر ما له من ضخامة الاحلاف والانصار .

وعندما يحدثنا قيصر ، على الاخص، عن الايكيت *Equites* » الذين يعني بهم في آن واحد: الخيالة والفرسان ، تتبدى لنا فعالية الاحلاف والانصار الذين يلتفون حول بعض الشخصيات، والدور الذي يلعبونه في المنافسات الحزبية والسياسية . وعندما يستعين بهذا اللفظ المعمول به في النظم الرومانية فهو انما يريد ان يشدد امامنا على ما كان عليه هؤلاء النبلاء من ثراء طائل ، وما لهم من نفوذ وشأن في الحروب ، والمركز الذي لهم في الدولة . وبين فئة النبلاء والاشراف، كهان الدرويد او طغمة رجال الدين عندهم ، الذين كانوا يؤلفون في المجتمع طبقة ممتازة ، قد يكون قام ما يشبهها عند بعض شعوب الكلتيين . وهذه الطبقة لم تكن منغلقة على نفسها ، منعزلة عن المجتمع ، بل كانت نوعاً من الرهبنة الكهنوتية . هنالك أسر شريفة كانت تحرص ، في الوقت الذي تُعِدُّ فيه اولادها للعمل في امور الدنيا ان تخص احدهم للكهانة فيدخل طغمة الدرويد بعد ان يتلقى ما يجب من دروس وعلوم تهيئه لمهامه الدينية . وهذا الإعداد الكهنوتي الخاص انما كان يعطى ، في غرة الفتح الروماني ، ضمن معاهد خاصة في جزيرة بريطانيا او في غيرها من مناطق غاليا . ويرأس طغمة كهان الدرويد رئيس اعلى يجري انتخابه لمدى الحياة ، فيرأس الاجتماعات العامة التي تعقد كل سنة . ونَعِمَ كهان الدرويد بعدد من الامتيازات والمنافع : فاعفوا من التجنيد العسكري وخُصِّصت لهم ولافراد اسرهم الارزاق الكافية ، يلتف حولهم الانصار والمريدون . وكثيراً ما حدث ان انغمس بعضهم في ما ينشب بينهم من منافسات او يشجر من منازعات بالرغم مما لهم من طابع ديني ، كما كان فريق من النبلاء والاشراف يحتكم الى آرائهم واقضيتهم . الم يكن كاهنا درويدياً هذا المواطن الادوني المدعو *Diviciac* الذي نفي الى روما ثم عاد قافلاً الى وطنه بعد ما تم له من اتصالات واحاديث مع شيشرون ، ووقف في وجه اخيه المغامر دمنوريس *Dumnoric* وافسد عليه مساعيه ودسائسه ، وزود قيصر بمعلومات غاية الاهمية ؟

النبلاء وما كانوا عليه من اعراف الحرب والزهو

اذا ما وضعنا جانباً طبقة كهان الدرويد نرى انه قام بين النظام الاجتماعي في كل من غاليا واليونان ، اكثر من شبه ومحاكاة . فبين مساق حياة بعض الاشراف من كلا الطرفين ما يعيد الذاكرة صور البطولات الهوميرية . قد يكون من المغالاة بمكان، القول بقيام الاوضاع والاشياء ذاتها، لا سيما وقد سلك الغاليون في تطورهم سبلاً اخرى وطرقاً مختلفة . ولكن وجه الشبه والمجانسة لا يدع مجالاً للشك قط . وهذا التشابه في الاوضاع الاقتصادية التي سيطرت هنا وهنالك ، هو سر هذا

التجانس . الا انه يبقى قاصراً عن تقريب حقيقة الامر للافهام . فبالرغم من الغموض الذي يحيق بنا ، علينا ان نسلم ، ولو من باب مراعاة المثل الانسانية العليا ، بوجود تراث واحد ، مشترك من التقاليد والاعراف بين الهند الاوروبيين .

هؤلاء النبلاء هم رجال حرب مجربون مخلصون . تلك هي ميزتهم الاولى لدى الكلتيين ، اينما كانوا وانى حلوا . وها هم المؤرخون القدامى يتندّرون في كتاباتهم بما كان يبديه الاشراف من احتقار للموت ، وباندفاعهم في ساحات الوغى ، وبحماستهم عند الايذان بالحرب ، وخوض غمارها باذلين في سبيلها كل عزيز ومرتخص . وكل ما عندهم من جهد وطاقة على الجهاد فيجودون بارواحهم ويتساقطون عياءً او بأساً . وعلى شاكلة ابطال هوميروس خاضوا المعارك راكبين عرباتهم الحربية ، يقذفون العدو بمزاريقهم ، ثم لا يلبثون ان يترجّلوا ويخوضوا الحرب رجّالة مشاة . وقد اعتادوا ان يحاربوا عراة الى نصف البدن ، الامر الذي ادهش الاقدمين فتفردوا بذلك عن جند الاغريق الذين كانوا يتدرعون الدروع الثقيلة . ونراهم في عهد يوليوس قيصر قد غيروا من عادتهم هذه فاستغنوا عن المركبات الحربية ونفروا عن استعمالها ، باستثناء الكلتيين في بريطانيا ، وتخلوا عن اتخاذ الخيل في الحرب الا كمطية للنقل .

فالخيالة عندهم ، هي افضل الطوابير واكرمها على الاطلاق . ولذا جعلوا منها عدتهم الكبرى وعولوا عليها اكثر مما عولت جيوش الاغريق والرومان . وكان النبلاء الكبار يمدون خيرة الاحلاف والانصار بما يلزمهم من خيل الطعان ، اما الباقون فيؤلفون كراديس المشاة ، عدتهم التروس والسيوف ولا سيما تلك التي صنعت خصيصاً لطعن الخيل . وكان استعمالهم السيف يقتضيهم جهداً جسدياً اكبر ، جعلهم في موقف اضعف من الجندي الروماني الذي كانت عدته الكبرى الخنجر الذي اسلس استعماله في الحرب ومهر فيه . والحق يقال ، ان نقطة الضعف انما تكمن في غير ما ذكرنا . فالجيوش الغالية كانت تتألف ، في الغالب ، من طوابير مرتجلة تبادر القتال عند توجيه الدعوة لها من قبل الزعماء والنبلاء ، لم تكن شجاعتهم والبذل سخياً بدمائهم ليعوض عما كانوا عليه من فوضى التنظيم وقلة الدربة وعدم التمرس بالمناورات الحربية ، وقوة الاحتمال والصمود في المعارك .

وفي فترات ما بين الحروب ومناقشات مجالسهم العامة التي يندفعون فيها اندفاعهم في الحروب ، كان الأشراف والنبلاء يعيشون بين ممتلكاتهم ومزارعهم ، يتلهون بالقنص والصيد فيستعيضون بهذه المسليات عن التجمعات الصاخبة . وقد حال جهلهم لفنون الهندسة المعمارية وتقنية المصنوعات الابنوسية ، دون تجلي بذخهم في مفروشات بيوتهم وتجهيزها بالرياش والاثاث الكريمة . ومن مظاهر الغنى والثراء عندهم هذا التهافت على اقتناء الآنية الثمينة والادوات الجميلة يستوردونها من الخارج ، مهما بعدت الشقة او غلا الثمن : كأسلحة الزينة والجوهرات والخزف الموشى بالرسوم والاشكال ، والحلي والاقمشة المزركشة الالوان . وقد تجلى هذا البذخ

على اتم صوره ، في هذه المآدب السخية حيث ترفل موائد الطعام بأشهى انواع اللحوم وألوان المأكولات ، يتنادمون ويشربون حتى يثملوا فيقعون صرعى فاقدي الرشد والوعي ، وقد أولعوا بخمور الجنوب يقتنونها بأعلى الاسعار ، بينما ينصرف الشعراء والزجالون ، وقد اجزلوا لهم العطاء للانشاد ، متغنين بمآثر الضيوف ومآثر الجدود . وهذا الاسراف يتجلى على احسن صوره ، في القبور والمدافن الجميلة التي تضم في ما تضم ، رماد السيد ، بعد ان عمت عادة حرق جثث الموتى خلال القرن الثاني ق . م ، وعظام الخيول الكريمة ، وعظام الاناسي : من عبيده وخدمه ، وأنصاره وزوجاته ، قبلوا راضين ان يضحوا بأنفسهم مرضاةً لسيدهم وتكريماً له ، كل ذلك برفقة طائفة من الأسلحة والحلي ومن الامتعة المنزلية الغالية الثمن احياناً . كل هذه المراسم تدل بوضوح على تمسك القوم بعاداتهم القديمة المتوارثة سلفاً عن خلف . والواقع ان ملامح الصورة التي رسمناها هنا ، استمديناها ليس من يوليوس قيصر الذي يعتصم بالصمت في هذا المجال ، بل من مصادر أخرى اقدم منه واسبق له ، ومن بعض ما جادت به الاكتشافات الاثرية وما اتاحت من ملاحظات . قد يكون التطور فعل فعلته في القوم وادخل على اوساط القرن الاول . ق . م تغييرات جذرية ، في عاداتهم واخلاقهم واعرافهم ، مع اننا نرى انفسنا عاجزين عن تقدير المستوى التي قطعتها هذه الحركة الى هذا العهد ، والمراحل العديدة التي مرت بها . والذي نلاحظه هنا هو ان خمسين سنة لا غير بعد قيصر ، لا نرى ما يسمح علينا ، التمييز بين الارستوقراطية الغالية عن غيرها من طبقة نبلاء الرومانيين واشرافهم ، في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية .

الازدهار الزراعي

النفوذ الذي تمتعت به طبقة النبلاء والقوة التي تمت لهم ، وما استقروا عليه من اعراف وعادات ، خلال اجيال متطاولة ، كل ذلك يفرض قيام نشاط اقتصادي عم اطراف البلاد ، كان عماده ونقطة الثقل فيه الزراعة . فالسائمة والماشية هي مقياس غنى السيد وكلها دليل قاطع على الشأو الرفيع الذي بلغته تربية الحيوانات في غاليا . فالخيول المستعملة في جيش الفرسان انما تدل على ما كانت عليه تربية الحصان في البلاد ، فلا عجب والحالة هذه ان يرفرف في جميع انحاء البلاد وفي جميع الوية الجيش الروماني ، شعار الإلهة ايبونا *Epona* إلهة الخيل عند الغاليين . ويؤكد لنا المؤرخ الجغرافي سطرابون ، من معاصري الامبراطور اوغسطس ، معتمداً في ذلك على مصادر قديمة ، ان الخنزير كان يربى في الهواء الطلق في جميع انحاء غاليا ، وان خطره على من لم يألف منظره او تربيته لم يقل عن خطر الذئاب . . . وكان لحمه يصدر بعد تمليحه ، بمقادير كبيرة ، الى روما وايطاليا . وليس من المستغرب قط ان يكون المصطلح *Bacon* ، المنحدر الينا من الاجيال الوسطى ، قد اشتُقَّ من اوضاع اللغة الغالية ، اذ ان احد الالهة المعروف بهذا الاسم ، بقي موضوع تكريم وعبادة خاصة ، في بلدة شالون سير سون ، الى عهد متأخر جداً . وكانت الزراعة تدر مقادير هائلة من الحبوب على اختلاف انواعها . فبدلاً من ان تصاب مرافقها بالتأخر او تعاني اي نقص في الانتاج ، نراها على

عكس ذلك ، تنمو وتزداد بحيث تبز بمحاصيلها الطائلة انتاج اي بلد من بلدان البحر المتوسط. الم يَعزُ الرومان الى الغاليين ، وقد يكون هؤلاء من غير سكان غاليا ، فضل اختراع البرميل والمحراث ذات العجلات ، وحاصدة تجمع سنابل القمح في عربة متصلة بها ، بعد قطعها ، وينوّه الرومان بشيء من الاستغراب ، دون ان يفقهوا للامر سراً، بعادة مزج التربة الرملية بالتربة الكلسية (عملية إصلاح التربة بالسِجّيل) . وبلاد غاليا ، لا ترى نفسها مدينة بشيء يذكر لروما ، من جهة الفنون الزراعية بالرغم من التفاوت بين الاقليمين ، واستطاعت دونما عناء ان تؤمن من المواد الغذائية ، حاجة الجيش الروماني اللجب الضارب على ضفاف نهر الرين ، كما تؤمن حاجة روما ، في آن واحد .

ولعل التخلف الوحيد الملحوظ هنا ، هو الذي نلاحظه في زراعة الاشجار المثمرة ولا سيما الكرمة منها . فقد ادخل زراعتها في البلاد ، الاغريق القاطنون على شواطىء البحر المتوسط ، فانتشر استعمالها في غاليا الجنوبية . وعندما وطدت روما ، في النصف الثاني من القرن الثاني ، في جنوبي البلاد ، حظرت على السكان زرع نصوب جديدة من الكرمة ومن شجرة الزيتون ، تسيجاً منها حول مصلحة ايطاليا في تصريف محصول البلاد وانتاجها منهما . وقد احتفظ للرعايا الرومان وحدهم ، بحق غرس نصوب جديدة من الكرمة وشجر الزيتون ، في املاكهم . ولما كان عدد هؤلاء المتمتعين بالرعوية الرومانية آخذاً ابداً بالازدياد ، فقد رأينا الزراعة تزدهر مرافقها جيداً في منطقة ناربون ، في القرن الاول ق . م ، حيث تفننوا بالتأصيل عن طريق انتخاب النصوب . وبذلك تم لهم الحصول على انواع متنوعة من الخمور اللذيذة . وهذا التقدم تسجله مرافق الزراعة في مقاطعات البلاد الجنوبية ، لم يبلغ ، على ما نعلم ، هذا القسم المستقل من غاليا ، كما تشهد بذلك مصادرنا الاثرية والادبية ، اذ نراه يستورد من ايطاليا ما يرغب فيه من انواع الخمور ، بينما كروم مقاطعتي بوردليه وبورغونيا لا يرتفع لها ذكر الا بعد ذلك بكثير .

المدن والصناعة والتجارة

امنت سيطرة الرومان وسيادتهم على هذه البلاد ، ازدهاراً كبيراً لمرافق الصناعة والتجارة التي عرفت ان تأخذ باسبابها قبل الفتح الروماني . فاذا ما وجد قيصر حياة الريف عارمة ، فقد شاهد فيه ولا شك ، مدناً ناشطة .

نشأت هذه المدن اصلاً بدافع الحاجة للدفاع عن البلاد . فهي ، على الغالب ، قلاع وحصون، قامت على المرتفعات ، او في قلب غياض ومستنقعات، زادت في منعتها الطبيعية اسوار ترك لنا قيصر وصفاً دقيقاً لها ، اذ كانت مواطن الضعف فيها ممثلة بعوارض الخشب المتصالبة، تسد بالحجارة باحكام كلي . ومهما تكن المساحة الواقعة ضمن الاسوار ضيقة ، : استطاعتها ان تلعب دوراً ملحوظاً في حياة المحلة او المنطقة الاقتصادية . الا ان معرفتنا للوضع الاجتماعي

الذي كان عليه السكان ، من اسوإ مـــا يكون . فهم ، كغيرهم من سكان الريف ، يعولون احيــاناً ، على مشيئة عظيم من عظماء البلاد . الا انه من الصعب الظن بان الوضع هو واحـــد على الســواء في جميعهـــا ، اذ ان فوران المدن ونشاطها كثيراً ما حمل الناس على التحرر من التابعية ، وعلى التطلع نحو الحرية .

فاذا ما وفت صناعة الخزف وحياكة الصوف بحاجات الاهلين العادية ، فصناعـــة الحديد والتعدين ارتدت ، هي الاخرى ، اهمية بارزة . فالمناجم والمعدّنون ، والساعون وراء فلزات الذهب بين رمال مجاري الانهر ، كل هذا اكتسب شهرة واسعة تجـــاوزت ولا شك ، في بعض الاحايين ، حدود البلاد القصية ، اذ ان الرومان الذين عرفوا بحرصهم على اكتناز المعـــادن الكريمة ، ولا سيما الذهب منها ، فراحوا يتجشمون مخاطر الاغتراب بحثاً عنه ، حز في نفسهم كثيراً ، ان تجدب منه موارد البلاد . اما فلزات الحديد فمتوفرة فيها للغاية ، بينما فلزات النحاس والقصدير الحت وستتيح طويلاً الازدهار لصناعة البرونز في البلاد . فاينما اجلنا الطرف وجدنا المهارات الصناعية تجاوزت في تطورهـــا الصاعد ، الطور البدائي وتعدته بعيداً ، لا سيما صناعة تكفيت المينا وترصيعها ، اذ عرف الصناع الغاليون ان يؤمنوا لهم ، في هذا المجال ، شهرة واسعة اوصلت منتوجاتهم الى وادي الدانوب .

وهذه الصفحة المشرقة التي امتدح فيها سطرابون موقع غاليا الجغرافي وتمركزها ، بين البحر الابيض المتوسط في الجنوب والمحيط الاطلسي ، في الغرب ، واتثى عاليا على نظام جبالهـــا وانهارها ، ابتمد سطورها ، ولا شك ، من كتّاب تقدموه . ففي البــلاد شبكة حسنة من المواصلات لا بل من الطرقات العامة ، كما تتوفر فيها اسباب الملاحة النهرية الناشطة . يرد البلاد من الشمال جانب كبير من العنبر ينتهي قسم طيب منه الى البلدان المتاخمـــة البحر المتوسط . وكذلك قل عن القصدير الذي تنتجه جزر كسليتريد والتي تعمل اساطيل الارموريك القديمة على استيراده ، ولا سيما عمارة الفينيت النشيطة ، متحدية بذلك اساطيل مدينــة قادش *Cadès* القرطاجية . فالعلاقات بين غاليا وبريطانيا متينة كما يشهد بذلك نظام كهان الدرويد المعمول به في كلا البلدين .

منذ القرن الثالث ق . م ، نرى عدة شعوب في غاليا تضرب لها السكة وهي ، في الاساس ، عملة ذهبية متشابهة تماماً ، حتى في طغرائها ، بالعملة المقدونية التي ضربها الملك فيلبوس الثاني ، والد الاسكندر ، على القطعة الواحدة ، من جهة ، رأس ابولو ، وعلى الجهـــة الثانية مركبة حربية يجرها جوادان . ثم تأخذ نمـــاذج الانواع الاخرى تتغير وتتبدل ، وتتجزأ بصورة غريبة . وفي مطلع القرن الثاني يطل علينا اثر مرسيليا ، ثم اثر روما اكثر فاكثر ، بحيث برزت المسكوكات الفضيـــة والبرونزية ذات النقوش الوجيزة . ولم تلبث ان انتظمت السكـــة وعم استعمالها البلاد ، اذ ما كاد قيصر يطل عليها حتى رأينا تداول العملة يسهل الى حـــد بعيد ، المعاملات التجارية وييسر اسباب الاخذ بها .

في هذا الدور من تاريخ غاليا نرى العديد من التجار الايطاليين يجوبون البـــلاد ، طولاً وعرضاً ، حتى القسم المستقل منها . فقد تغلغلوا فيها وانساحوا في ارجائها في سبيل تنفيق مـا لديهم من الخمور الاصيلة . نقرأ في احدى خطب شيشرون خطبة تفيض بالمعلومات حول سوق احدى المدن ، ارهقها الحاكم الروماني بما فرض عليها من الرسوم الباهظة ؛ كما اننا نجد في بعض مقاطعات الرين جراراً ايطالية الصنع جيء بها قبل قيصر بزمان . ومن ثم نرى هؤلاء التجـار يتعاطون بيع الخزف المصنوع في مقاطعات اتروريا وكمبانيا الايطالية ، وهو أدق صنعاً من الخزف المحلي ، كما ان فريقاً منهم يقومون هنـــا وفي انحاء اخرى من دنيا البحر المتوسط ، باعمال مصرفيـــة ويتعاطون الربا . من هذه المدن مدينة جينابوم *Génabum* (*Orléans*) التي تعد بين تجارها عدداً من الرومان اتخذوا لهم منها مستقراً . وهكذا نرى بوضوح ، كيف ان تجارة غاليا الداخلية والخارجية على السواء تمتد وتنتشر بسرعة ، وهي تجارة تجعلها المصادر التي نعول عليها ، ومعظمها روماني الاصل والنبع ، بين ايدي الايطـــاليين . والذي لا مراء فيـــه ان اهمية الدور الذي قام به الغاليون ، بعد قيصر بمدة وجيزة ، يحمل من غـير المقبول ولا المعقول قط ، عدم مساهمتهم في هـــذه الحركة الاقتصادية الواسعة النطاق ، لا سيما سكان مقاطعة ناربون الذين لا يمكن ان يكونوا بقوا ، بمعزل عن هـــذه الحركة ، وتحت تصرفهم طريق من انشط الطرق حركةً هو وادي نهر الرون . فقاموا بدور المهذب والرائد لدى ابناء جلدتهم في هذا القسم المستقل من البلاد .

فوفرة الانتاج الزراعي والصناعي ، وضخامة الحركة التجارية والمبادلات التي ادت اليها ، كل هذه العوامل وما اليها هيأت لغاليا ، اسباب اللحاق بنظام الحياة والمستوى الذي تحقق في بلدان حوض البحر المتوسط الغربي . ولذا جاز لنا ان نستنتج ان ما استهدفت غاليا الى تحقيقه من التطور الاقتصادي ، كان من شأنه ، ولا شك ، ان يفضي بها في التالي الى هـــذا التطور الاجتماعي الذي بدت طلائعه وارتفعت بنوده خفاقة ، ولو أغفلت مصادر العهد عمداً التحدث عنه ، وكلها رومانية مغرضة ، ولم تكن ، بالتالي ، بحاجة قط للفتح الروماني لبلوغه .

الديانة

لا تخلو حياة البلاد الدينية من إصالة . فهذه الحياة لا تتمثل في قسمها الافضل بالآلهة التي عبدها الغاليون ، وقـد تكاثر عددها ، وتنوعت صورها ورموزها ، وهي رموز وصور يمكن ردها لأصول نجدها في غير موضع ومكان . فاذا قمنا نحاول ردها الى منابعها العرقية الاصيلة ، أسقط في ايدينا لكثرة ما يطالعنا من تواتر الصلات وتشابك العلاقات بـين الغاليين وغيرهم من الشعوب التي عاصروها وعايشوها . فكم من النواتىء الطبيعية تسربلها سمات الدين شمّت منها مناسك العبادة والطقوس: من قنن الجبال ورؤوس التلال، والحجارة العجائبية المؤلهة، والينابيع المقدسة والاشجار ، المباركة ، والحيوانات المتقدسة . فورّوا باسم « أمهات » عن عبادة الخصب . هنالك آلهة في السماء تشرق على أعمال البشر وتهيمن على نشاطاتهم ، تناقل الغاليون عبادتها عن الكلتيين ، بينها وبين آلهة الاغريق والرومان وشائج وصلات . وقـــد

ألحقوا بها من الصفاتية غير المستقرة الصورة وعقدوا لها من السمات ما أعجز أكفأ القدامى من توضيح او تبيين هذه المعادلات، عندما راحوا في تحليلهم لها، يعولون على مناهج اليونان والرومان في تحديد مناقب هـذه الآلهة ومشبّهاتها. فقد رأى قيصر في الإله عطارد احق آلهتهم بالاحترام والتقديس ، ثم يليه مقاماً ، على التوالي : ابولو ، فارس ، فجوبتير ، فمنيرفا . « فقـد رأى الغاليون في هـذه الآلهة ما سبق الناس ان رأوا فيها » فاذا ما وازت منيرفا عندهم ، الإلهة « بليزاما » التي لا يبدو انها احتلت بين الآلهات الانثى المرتبة السامية التي يحلوا لقيصر اضفاءها عليها ، فعبثاً نحاول ان نضفي على هـذه الآلهة الذكور ، هذا او ذاك ، من الاسماء والنعوت الكبيرة التي أطلقوها على آلهة الغاليين ، امثال : توتاتيس ، وتارانيس ، وايزوس وغيرها كثير. ومهما يكن من تباين المفارقات بين هـذه التعريفات ، فليس من الصعب قط التعرف الى العقائد العامة التي تجسمها .

لبعض هـذه الطقوس الدينية مناسك فرّدتها وميزتها . ورجحان هذه العبادات في الريف يظهر بنوع خاص ، في افتقار المدن لهياكل ومعابد كبيرة ذات شأن . فلم يكن يهم الغاليين ان ينشئوا لآلهتهم هياكل . وكانت العادة المتبعة عندهم ان يقيموا للآلهـة في قلب الغابات او في سبائخ الارض الموات ، اماكن خاصة مستديرة الشكل ، يتوافـد الاهلون زرافات ووحداناً لزيارتها في الاعياد الموسمية التي كانت في الوقت ذاته ، اسواقاً تجارية . ففي اليوم السادس من الهلال ، يتقدم كاهن بجلال وأبهـة وهو لابس حلته البيضاء ، فيقطع بقضب من الذهب غصون البقس المقدس (*Gui*) احد طفيليات شجرة البلوط فيتساقط على إحرامات بيضاء من الكتـان فرشت تحته . فوجوده على السنديانة دليل بأنها مقدسة وشهادة على قدسية المكان . ويتبـع عملية القطاف هذه نحر ثور ابيض ، ثم تقام الادعية والاوراد وتؤدّب المآدب والولائم العامة . اما استمرار الاخـذ بتقديم الذبائح البشرية فظهر من مظاهر التخلف في تطور عادة القرابين ، وهي ذبائح عملت السلطات الرومانية على منعها وتحريم الاخذ بهـا ، فاستجاب لهم الاهلون بسهولة . اما الذبائح البشرية التي كانت تقام في حالات بعض الامراض او الاخطار الشديدة فقد رأى فيها قيصر « بحليّ لارادة الآلهة الخالدين التي لا يمكن تهدئتها إلا بالاستعاضة عن كائن حي بحي آخر » . ومن هذه الذبائح ما كان يقدّم باسم الدولة ، فيحكمون على الضحية ، مذنباً كان صاحبها ام بريئاً ، بالحرق او الغرق او الشنق .

ولعل خير ما يميز إصالة الحيـاة الدينية عند الغاليين هو نظام الكهنوت او الدرويدية ، وهي عبـارة عن رهبنة كهنوتية يسربلها الوقار وتتمتع بنفوذ ديني وسياسي عظيم ، ويجعلها تهيمن على الطقوس الدينية ، والاحتفالات الطقسية فلا نرى شيئاً من هذا التخصص والانقطاع عند كهان اليونان او الرومان ، ولا هذه التعاليم الدينية التي كانوا يطلعون عليها تباعاً وبمقادير تتفق ودرجاتهم ، وخـلال مدة طويلة تمتد عشرين سنة . وكان عليهم ان ينقلوا بعض تعاليمهم

للمؤمنين والشبيبة النبلاء الموكول اليهم تربيتهم وتنشئتهم تنشئة عاليـــة . وكغيرهم من الكهان قديماً ، فكان يترتب عليهم القيام بأعمال التعزيم وزجر الطير وعيافة الذبائح ، كما كانوا يقومون بأعمال السحر والتعزيم . وهـــذه أمور اوغرت صدر الادارة الرومانية فأوجست منهم شراً لعلاقتهم ببريطانيا المستقلة ، فاتخذت من اعمالهم هـذه ذريعة لمطاردتهم ، قبل ان تأمر بنفيهم خارج البلاد . وقد استطاع فريق من هؤلاء الدرويد قبل الفتح بقليل ، ان يسمو بتفكيره ليبلغ فيه حد التجريد الفلسفي والنظرية العلمية . وكان شيشرون نفسه يجد متعة روحية في احاديثه ومناقشاته مع دفيسياك *Diviciac*. ويشدد قيصر امامنا ان كهان الدرويد، « كثيراً ما استرسلوا في ابحاثهم عن النجوم وما ترسمه حركاتها في الفضاء من دوران وابراج ، كما همهم عظم الكون واتساع الارض وغاصوا في درس طبيعة الاشياء وجوهرها » .

من تعاليمهم الدينية البارزة قولهم بالتقمص وتناسخ الارواح بعد الموت ، وانبعاثها حية من جديد في كائنات حية. ولذا راحوا يرسمون نهجاً للاخلاق الحسنة من مبادئه ضرورة الاعتصام بحبل الدين واحتقار المحارب للموت . ومع ان بين المحدثين أكثر من واحد يتباهى بتشككه ، فمن العسير جداً التسليم بأن القدامى الذين رووا الكثير من اقاصيصهم واخبارهم اعترفوا لهم بهذه الافكار والمبادىء ، مع انهم قسوا عليهم وتجهموا لهم في أمور اخرى كثيرة .

الادب والفن

الدين هو الشكل الوحيد الذي تبلور عليه نشاط الغاليين الادبي والفكري . ولذا كان لزاماً علينا ان نستفيض ، بعض الشيء ، في بحث اوجه هذا النشاط . فقد كان عندهم ادب تمثل في الشعر الملحمي والشعر الغنائي ، كما كان عندهم سمّار وزجـــالون . وكان لهم بالطبع شعر ديني اذ كثيراً ما بلغت تعاليم الدرويد الشعب شعراً . الا انه لم يسلم شيء يذكر من هذا كله، ولم يصلنا منه الا نتف مبعثرة ، مع انهم اقتبسوا الابجدية اليونانية والحقوا بها بعض حروف ورموز لا تينية ازداد عددها مع الوقت ، وعرفوا الكتابة والخط ، كما يبـدو من نقوش النميّات الغاليّة والنقائش النادرة التي تم العثور عليها، فراحوا في تحرجهم الديني والتعصب المذهبي ومغالاة منهم في الترمت يحظرون نقل هـــذه التعاليم كتابة مؤثرين انتقالها بالتواتر المسلسل والتقليد المروي .

اما من حيث الفن ، فالآثار القليلة التي وصلت الينا من مخلفاتهم ، لا تعبر الا مـــا ندر ، عن اهتمامهم بالجمالية . ولعل اهم هذه الكشوف الفنيــة هي التي عثر عليهـــا منذ بضعة عشر سنة في انترمونت ، بعـــد الحصن الذي سقط عام ١٢٣ بايدي الرومان ، فاسسوا على مقربة منه مدينة ايكس – آن – بروفانس ، وهي كناية عن نقوش تصور رؤوساً بشرية معدّة لتحل محل رؤوس حقيقية لاعداء وقعوا في الاسر ثم اجتزت رؤوسهم . وهي نقوش تعلق على ابواب الظافرين وفقاً لعادة يرويها لنا سطرابون .

ومهما بدا من فقر العنصر الفني في هذه النقوش ؟ فأثر الفن الاغريقي ظاهر فيهـا . ويتضح

من نقوش اخرى تم نبشها في المنطقة المطلة على البحر الابيض المتوسط ، ان قبيل الفتح الروماني بقليل ، شيئاً جديداً أطلّ على غاليا بفضل اتصالاتها مع الاغريق القاطنين على ساحل البحر .

المدنية الغالية والسيطرة الرومانية

ومهما يكن من وضاعة المولود الجديد، فقيمته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا بعد مقارنته بمدنيات اقوى وأشد ، سبق، ونوّهنا ببعضها من قبل . وسواءاً أكان هذا المولود جنيناً طري العود ، أو نبتة غضة ، فقد عُدِم كل نشاط ، وفقد كل حيوية من جراء وقوعه تحت سيطرة روما وسيادتها ، بعد ان هيمنت ، بين ١٢٥ – ١١٨ ، على الاقاليم الجنوبية ، ثم امتدت الى المحيط وضفاف نهر الرين على أثر الحملة التي سيرها عليها يوليوس قيصر ، واستمرت من ٥٨ – الى ٥١ ق . م .

تم الفتح الروماني غلاباً وبعنف كلي. فقد عوّل قيصر أكثر ما عول لاستباحة البلاد وتدويخ الغاليين ، على البطش والشدة . من ذلك مثلاً ، انـــه امر بقطع أيدي كل المدافعين عن حصن اوكسليدونوم *Uxellidunum* في مقاطعة كيرسي *Quercy* ، آخر معقل من معاقل البلاد . وقد اناخ بكلكله على البلاد ، فاطلّ الدماء غزيراً ، اذ جاوز عدد قتلى الحرب المليون، كما نيّف عدد الاسرى الذين بيعوا في اسواق النخاسة بيع النعاج على المليون . والظاهر ان البلاد عرفت ان تعوض بسرعة الخسائر البشرية والمادية التي منيت بها خلال هـذه الفتوحات. صحيح ان روما فرضت سيطرتها على البـــلاد بالقسوة كما فرضت عليها جزية باهظة تدفعها أنجماً سنوية ، ضاربة كشحاً عن فرض نظامها الاجتماعي والاقتصادي ، وديانتها ولغتها . والهجرة الايطالية في سبيل إنشاء مستعمرات رومانية بقيت في حدودها المعقولة . والحقيقة التي لا تماري ، هي ان زوال المدنية الغالية من البلاد ، يجب رده بالإكثار ، الى استجابة الطبقة المسيطرة بسرعة ، أكثر في المدن منها في الريف المتحفظ ، وأخذها بمنافـــع المدنية الرومانية ، فأقبل السكان عليها طوعاً واختياراً، دونما تردد او تقزز، وبمعزل عن أي اضطهاد مدبر او ضغط مخطط له من قبل الفاتحين، بداعي الانتقام او الحقد . ومنذ القرن الاول للفتح الروماني ، نعمت المدنيـــة الجديدة برضى وعطف قادة الحركات الانتفاضية والردات الوطنية التي كانوا يقومون بها عندما تراودهم وتنتصب امامهم في مآتي العين ، ذكريات الاستقلال المضيع .. صحيح ان البلاد حافظت فأبقت الكثير من عاداتها وعباداتها وأعرافها المتوارثة ، حتى ان كلمة فرسخ (*Leuga*) رجح استعمالها في البلاد على كلمة ميل الرومانية . ومع هـــذا ، يشعر المرء بشيء من الرضى لهذه المفارقة التي تتمثل في طلوع مدنية جديدة تعرف عندنا بالمدنية الغالية الرومانيـــة ، هي في صميمها أكثر رومانيـــة منها غاليـــة ، ليلهو بعد هذا ، بتعلات من القشور والتوافه تبدو في بقاء او استحياء بعض التقاليد والاعراف .

ولما كان الفتح الروماني أدى الى فصم الماضي وانقطاعه، وأدى الى مثل هذه الردة او الارتداد

الشامل، فهو يمثل حدثاً تاريخياً عظيماً له من النتائج الخطيرة والشأن البعيد، ما يجعل ذكره او الحديث عنه يلهب الخيال. فبين الافكار العديدة التي تستبد بالخواطر عند النظر ملياً في هـذا الحدث التاريخي العظيم، فكرتان لا يمكن التغاضي عنهما قط، اذ يكونان الخاتمة الطبيعية لهـذا البحث الذي نسوقه هنا.

فقد حملت روما الى بلاد غاليا حضارتها دون ان تأخذ منها عملياً، شيئاً يذكر، اذا ما اقتصرنا على الامور الاساسية. ومع ذلك، فهي مدينة لهذا الفتح بأشياء كثيرة، منها هـذه الموارد المادية الطائلة التي عرفت ان تستخلصها والتي تتمثل من ناحية، بهذه الكنوز المنخورة، ومن ناحية أخرى بهذه المحاصيل الزراعية والصناعية التي وفرتها لها خلال بضعة اجيال، بلاد شاسعة الأرجاء، متنوعة الطاقات والامكانـات الطبيعية تدبرها يد عاملة نشيطة. كذلك افادت، على نطاق واسع من طاقات البلاد البشرية فأمدتها المقاطعات الغالية بطوابير من خيرة الجند، منها ما اشترك بأعمال الفتح، كما أمدتها بفئات عديدة من رجال الادارة ورجال الفكر، وبامبراطورة ابتداءً من القرن الثـاني للميلاد. فاذا ما نظرنا الى الأمور من علٍ، استبد بنا الايمان اليقين بأن سيطرة روما على مثل هـذا القطر من اقطار اوروبا الغربية، أعاد الى الامبراطورية الرومانية هـذا التوازن الذي كاد يفتقدها إياه، فتحها للولايات الشرقية الواسعة الارجاء، الغنيـة بمواردها والسباقة في تطورها الثقافي والحضاري. فلولا غاليـا ودخولها الامبراطورية، لم يكن احد ليتكهن ما عسى ان تأتي نتائج الحرب الاهلية عليها. ففي الوضع الناشىء عن انكسار انطونيوس وكليوبطرة في المرحلة الاخـيرة من مراحل هذه الحروب التي جرت الخراب على البلاد وتوازعتها بدعاً وشيعاً واحزاباً، فما هو المنحنى الذي كان لا بد ان تتخذه حركة او موجة تشرق الامبراطورية الرومانية، لولا الثقل الذي طرحته غاليا والغرب وأثره البارز في الحفاظ على هذا التوازن.

هذا ما خص روما من الامر، ولكن ما عسى ان يكون الشأن مع غاليا؟ ليس من الفضول بشيء ان نتساءل هنا ما عسى ان يكون عليه مصير هذه البلاد، لو لم تبسط روما يدها عليها، وما هو لعمري، نوع وطابع هذه المدنية التي كان من المقدور ان تطلع بها لو لم يقع عليها هـذا الفتح؟ فالمؤرخ الفرنسي كميل جوليـان (*C. Jullian*) مؤرخ غاليـا الاكبر، الذي قضى الشطر الاكبر من حياته باحثاً منقباً في تاريخ هذه البلاد، خامره الشك حيناً في كفاءة الطاقات التي تهيء لها المستقبل الطالع امامها، واعرب عن عدم ثقته بها. الا انه عاد، بعد ان تكشفت امامه حقائق الامور يؤكد عالياً، ويثبت قدرة هذه البلاد الكامنة، على الخروج بمدنية غاليـة، أصيلة الطراز والسمة، لها من غنى الطاقات وتنوعها ما كان يسمح لعبقرية شعبها، بعـد الذي افاده من دروس الحضارة الهلينية، ان تكيف على الصورة التي تتجلى لها وترغب في تحقيقهـا، وضع مستقبل هذا الشعب، ووضع طبيعة أرضه. وهذا الاحتمال المقدور، حفزه ليصرح عالياً،

١ – محارب كابسترانو

٢ رأس محارب أتروسك

٣ - محارب اتروسك من الخزف

٦ – الخطيب

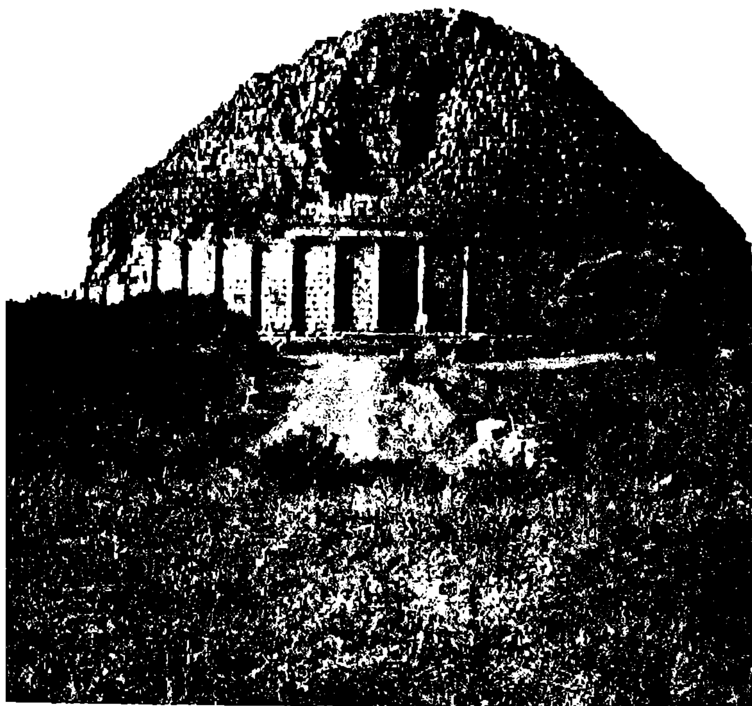

٨ - القبر المعروف بـ «قبر المسيحية» على مقربة من تيبسا
في الجزائر

٩- سيدة إلكيه

١١ - روما : الفوروم، من خلال قوس سبتيموس ساويروس

١٣ - روما : اطلال على جبل البالاتين

١٤- روما: الباب الكبير ومدفن الخباز م. فرجيليوس
اوريساسيس

١٥ - اوغسطس : رأس رخامي كتشف في أول (القـــرن
الاول قبل المسيح) .

١٦ - موكب شخصيات رسمية . نقش في « آرا باسيس »

ويعلن على رؤوس الأشهاد ، في دهشة المحافظين وذهولهم ، بأن الأذى الذي ألحقه الفتح الروماني بغاليا ، ليس بالنظر للمظالم الوحشية التي صبها عليها فحسب ، بل ايضاً ، وبالاكثر ، لما سبب لها من إجهاض التربية الوطنية التي كانت أخذت بأسبابها . وقد قوبلت تصريحاته الحارة هذه بمعارضة من قبل بعض المشنعين ، محتجين بأن استقلال غاليا ومصير مدنيتها ، كان يتعهدهما على السواء ، في الوقت الذي اطل عليها قيصر ، مصير واحد : غزوات الجرمانيين ، بقيادة اريوفيست *Arioviste* والغزو الروماني بين فتح وفتح ، ودمار ودمار لا مفر منهما . فالفتح الروماني كان ولا شك ، أقل شؤماً على البلاد من الفتح الذي كان ينتظرها على يد منافسين زرعوا الهول وعمروا الخوف أينما وطأت سنابك خيلهم .

هذا المصير النظري الذي كان من الممكن ان يصيب كلاً من روما وغاليا ، يؤلف لعمري مجالاً واسعاً للخيال الشرود ، والتجريد الفلسفي . فجميع العناصر التي تساعد على المضي في النظر ، ولو من باب المقارنة ، عملية هي من بعض حسنات علم التاريخ . فالاستسلام لها والانقطاع عنها بشيء من الجامحة خطر لا تحمد عقباه . فأيّ حَكَم يفتي في الامر وضميره مطمئن لقضائه ، وهو حكم يدور ليس على أمر وقع ومضى فحسب ، بل على ما هو مقدور في ضمير الدهر ؟

الكتاب الثاني

حضارة روما الجمهورية

الشعوب الغربية الاخرى قبل الرومان

لننتقل دون إبطاء الى روما .

مهما يكن من شأن الاتروسك (*Etrusque*) والقرطاجيين والغاليين فان هـــذه الشعوب الثلاثة وحضاراتها لم تُغَطِّ الغرب بكليته قبل الرومان . وعلى الرغم من تلميحاتنا في سياق البحث، حول شعوب ايطاليا الوسطى والليغوريين والإيبيريين واولئك اللّيبيين الذين ليس اسمهم الحالي « بربر » سوى امتداد خفيّ لاسمهم القديم الواسع الانتشار »، « برابرة » ، وسكان الجبـــال في جزر المتوسط الكبرى وسلسلة الالب ، والجرمانيين الذين اعرض الاباطرة عن إخضاعهم بعد بجزرة « جوقات فاروس » والبريطانيين الذين أخضعوهم حتى مختنق الجزيرة البريطانية عند سكوتلندا الجنوبيـــة ، فالشعور بما تفتقر اليه اللوحة التي رسمناها عن الغرب في الفصول الثلاثة السابقة لا جدال فيه ولا يختلف عليه اثنان .

ولكن كيف لا نتراجع امام هذا التقسيم الكبير الذي هو نتيجة محتومة لمرض أكمل وأكثر شمولاً ؟ اضف الى ذلك اننا لا نعرف هذه الشعوب معرفة تامة . ولكن بين النواحي العديدة التي يجب على مؤرخ الحضارات القديمة ان يعترف بجهلها، ليس ما يتعلق منها بهذه الحضارات ما يحمله على الاسف الاشدّ . واذا كان هناك من فائدة في دراستها ، فان الفائدة الرئيسية ليست في الوقوف على ما كانت عليه هذه الشعوب ابّان استقلالها او ما كان يمكن ان تبلغه لو انها حافظت على هذا الاستقلال . ولكن من شأن تشتتها وتنوعها وصبغتها التي لا تزال مخشوشنة ان تظهر بالمقارنة عمل الوحدة والتربية الذي قامت به روما خير قيام . غير ان عظمة هذا العمل ظاهرة للعيان دونما حاجة الى هذه الايضاحات .

روما التي تؤدي اليها كافة طرق العصور القديمة

وهكذا فان روما هي المحور ابداً . ويتضح هنا مرة أخرى ان الكلام عن شعوب اخرى يؤدي اليها حتماً . فهي انما للتسلط على كل من يريد رسم تطوّر المجتمعات على شواطىء المتوسط او في جواره . وفي كلامنا عن الشرق الادنى وعن الغرب على السواء، قليلة جداً هي الفصول التي اختتمت دون ان نأتي على

ذكرها ، وبالحاح احياناً . ولم يكن القصد من ذلك الإنباء بالمستقبل القريب او البعيد بل تفسير نهاية حضارة ما او زوالها او ديمومتها جزئياً . والواقع هو ان روما كانت الوريث المباشر او غير المباشر لشعوب لا يحصى لها عدّ انصهرت جميع مصائرها في مصير روما . فبعد تعداد شتى التركات المادية والادبية التي ضمتها الى تراثها الخاص ، يجدر بنا ان نرتد اليها وننظر اليها كما استطاع ان يكوّنها عمل معقد أسهمت فيه الطبيعة والبشر والاحداث .

لن نتوقف عند نشأتها ومطلع عهدها ، فهي مدينة بوجودها وجوهر تنظيمها الاول الى الاتروسك . وقد بقيت دون تميز يذكر حتى بعد زوال وصايتهم عليها : مدينة ذات ملامح ريفية ظاهرة ، شأن العديد غيرها من مدن ايطاليا آنئذ ، كما نرجح . وقد يجدر بنا ، مع ذلك، ان ندرسها كما وصفناها لو ان لدينا المعلومات الصحيحة عما كانت عليه اذ ذاك . ولكن صورة ماضيها كما نقلها الينا تقليد تحدّد بعد ذلك بزمن طويل – اي في القرن الثاني قبل الميلاد ، في حال ان التاريخ المسلم به لتأسيس روما كان متأرجحاً حوالي منتصف القرن الثامن – ، وهي تكاد تكون خالية من الالوان المختلفة التي تفسح المجال للمقارنات الجدية ، مردها الى تفسيرات شوهتها تشويهاً لا يرتق فتقه لا بل الى تركيب تحكمي صرف . فمنذ السنة ١٧٢٩ استطاع احد المؤرخين ان يتكلم عن الشكوك التي تحوم حول القرون الاولى من تاريخ روما ؛ ويجدر بنا ، حتى في يومنا هذا ، ان نحفظ هذه المسائل التي لا تزال مطروحة ، لجهود علماء الاجتماع وعلماء الآثار وذوي الاطلاع الواسع .

الفتح والحضارة في روما الجمهورية

هنالك شيء آخر يسترعي الانتباه في ما يستهدفه هذا الكتاب . عنينا في الدرجة الاولى توسع روما ونموه ووسائله وطرائقه ، وفي الدرجة الثانية ، وبنوع خاص ، نتائج هذا التوسع .

اما النتائج التي تتناول الشعوب المغلوبة على نفسها والمعلنة خضوعها فليست اذ ذاك بالنتائج الاكثر اهمية لانها لا تزال سلبية . فحتى اوائل العهد المسيحي تقريباً ، واذا ما استثنينا ايطاليا، نرى ان روما تهدم دون ان تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه . وتقتل او اقله تخنق حضارات لا تهتم لاقامة حضارات اخرى مكانها . وتسلب وتفقر وتستثمر دونما اعتبار الى انها تعرض حياة ممتلكاتها للإخطار . وتقتطع دون تعقل من مال اصبح مالها فتستنزفه وتعرض مستقبلها نفسه للخطر . ولن يظهر عملها الايجابي كوصية على العالم ومنظمة له ، وكربية ايضاً في اكثر من منطقة من مناطقه ، الا بعد ذلك ، في عهد الامبراطورية وبفضل الامبراطورية .

ولكن نتائج الانتصارات ، منذ قبل الامبراطورية بزمن بعيد ، قد بدا اثرها على المنتصرين. فاذا ما تتلمذوا لبعض المغلوبين ووسعوا ادراكهم لمفهوم الانسان وايقظتهم مشاغل فكرية وجمالية جهلوها حتى ذاك العهد واوجدوا لانفسهم ادباً وفناً ؛ فان كل ذلك ، على الرغم من عظمة

اهميته المطلقة ، لا يمثل مع ذلك ، نسبياً ، سوى نتيجة لا قيمة لهـــا . فلا ينجو في الحقيقة اي مظهر من مظاهر حياتهم من ردة الفعل . ويكفي للقضاء على هذه المظاهر ان تدوم الحروب التي تقتلع المواطن من بيئته وتثنيه عن المهام المنتجة . يضاف الى ذلك ، في هذا الافتراض ، اقتناء ونقل ثروات طائلة ، والاتصال بشعوب اعظم تطوراً وبحضارات على قسط كبير من التفخل ، والسيكولوجيا الجديدة التي كيّفها النجاح والسيطرة . فانفجرت من ثم ثورة متعددة الاشكال ، مادية وادبية ، لم ينج منها صقع من الاصقاع . واذا ما بدا التنظيم التقليدي مستمراً هنا او هناك فان واقعاً آخر يتسرب اليه يرسخ اندفاعه بقوة مطردة .

فالمحون يواجهون المعاضل التي اوجدها اثر الفتوحات في ظروف الحياة الفردية والجماعيـة ، وحضارة مدينة ريفية تصبح قسرا حضارة عاصمة في امبراطورية ، وانتصار النظم الاقتصادية الجديدة والاضطراب الاجتماعي الذي يسببه ، وازمة النظام السياسي القديم الذي مضى زمانه ، وتراخي الانظمة القديمة ، وتعذر وضع غيرها ابان اضطرابات الصراع بين مقاومة قوى الماضي وفورة قوى الحاضر : ذلك هو المشهد الذي تقدمه لنا روما الجمهورية والذي ينطوي معنـــاه الحقيقي على قوة مستقلة عن احداث هي اشبه بالمآسي احياناً . وقد يغري بعضهم ان يطيلوا الكلام في موضوع المعاضل التي اوجدتهـــا الانتصارات للمنتصرين . ولكننا سنقتصر هنا على استنتاج نظري : ان المؤرخ قد يبحث دون جدوى عن حالة اخرى يظهر فيها تضافر العوامل العديدة ، في حضارة ما ، على مثل هذا الالحاح وهذا الجلاء ، عن طريق الخلـل الذي يحدثه انهيار احد هذه العوامل ، شيئاً فشيئاً ، في كافة العوامل الاخرى ، وحتى في ضمير المجتمع .

الفصل الأول

الفتح الروماني

بعد ان حددنا قبلة هذا البحث ، نرى من واجبنا ان يتناول الفتح الروماني في الدرجة الاولى: فبدون هذا الفتح يستحيل فهم حضارة روما الجمهورية .

١ ـ التوسع الجمهوري

خلق عالم متوسطي

غير ان اهمية هذا الحدث التاريخي العظيم لا تنحصر في المدينة التي حققت هذا الفتح . فهي انما تقرر لقرون عدة مصير العالم المتوسطي . ولعل ابسط ملاحظة ، بهذا الصدد ، تفرضها نظرة الى الخريطة ، تقودنا ايضاً الى ابعد استنتاج : فان روما قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه .

لم يسبق قط ان قام حتى ذاك العهد في اطار وحدة سياسية لم تدم طويلاً او خارج مثل هذا الاطار ، سوى عالم واحد هو عالم الشرق الادنى الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد ما بين النهرين حينا وبحر ايجه حيناً آخر . ولعل الاسكندر هو الوحيد بين قدامى الفاتحين العظام الذي يغلب على الظن انه وضع تصميماً يقضي ، بعد فتح الامبراطورية الفارسية حتى تركستان والهندوس ، بفتح الغرب المتوسطي حتى جبل طارق . ولكن الوقت قد اعوزه الشروع بتنفيذه . فبقي الغرب من ثم في عزلة متروكا لشعوب متخلفة لا تربط بينها رابطة ، يعيش كل منها لنفسه في نطاقه الاقليمي ، ولا تقوم بينها صلات متبادلة او بعيدة سوى تلك التي احتكرت مكاسبها بعض المستعمرات الاجنبية المقيمة هنا او هناك على الشواطىء ، ولا تتأثر سوى تأثر عرضي وبطيء بحياة اقل بدائية تتصف بالانكماش ، ولا تسهم اي اسهام بنجاحات الشرق الادنى ومنازعاته .

ولم يضع حداً لهذه العزلة سوى روما . فبعد ان اصبحت سيدة ايطاليا ، بين حوضي المتوسط ، لم يكن من سبيل امامها للوقوف موقف اللامبالاة منهما. فقامت اليهما في آن واحد ، بحملة توسعية موازية . فاخضعت البلدان الغربية لملاقي عديدة وادخلتها ، في الوقت نفسه ، في

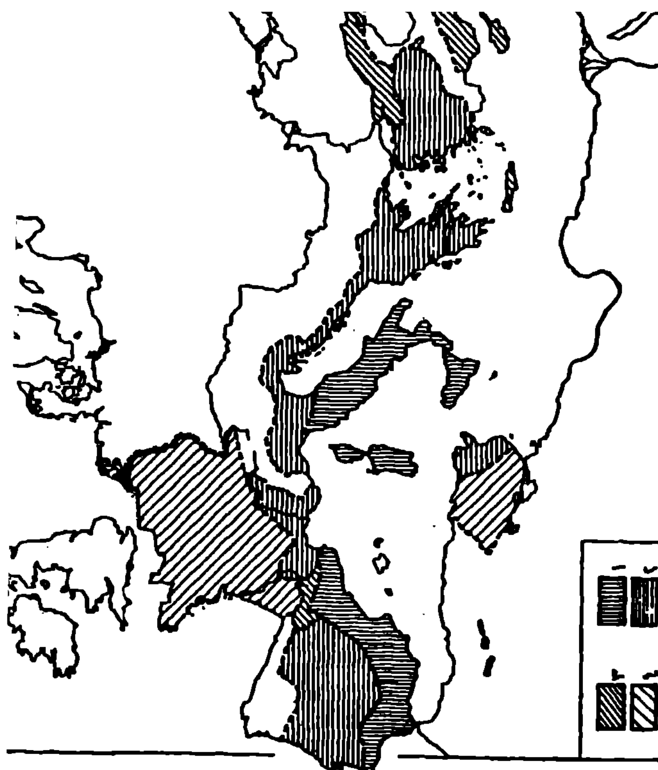

الشكل ٦ – الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية

مقاطعات خضعت لروما في اواخر القرن الثالث اثر الحروب البونيقية الثانية؛ ٢- فتوح القرن الثاني ؛ ٣- القرن الأول قبيل قنصلية قيصر (٥٩)؛ ٤ - فتوح قام بها قيصر وعرف اوغسطس ان يحافظ عليها.

وحدة اعظم اتساعاً . وهي ، اذ اخضعت لشريعتها هذه الاراضي المختلفة الكثيرة المحرومة حتى ذاك العهد من اي اتصال فيما بينها ، قد اوجدت الظروف الاولية لوحدة متوسطية . وستلمهد الامبراطورية فيما بعد تنفيذ هذه الوحدة . وقد اتاحت الجمهورية ، منذ الآن ، بالفتح الذي حققته ، تطور معطية جغرافية الى واقع بشري .

بيد انه يصعب عليها جداً ، في تحقيق عملها العسكري ، الا تسمح بخسارة شيء من عالم الشرق الادنى القديم . فهي لم تنجح في التوسع الى ابعد من نهر الفرات . وهي لم تتوقف راضية عند هذا النهر . فان ذكرى مجد الاسكندر تراود مخيلة اكثر من رئيس بين رؤسائها . وهي لا تجهل خصب بلاد بابل وواقع انتهاء كثير من طرق تجارة الشرق الاقصى اليها . اضف الى ذلك ان خبرتها قد اتاحت لها تقدير الخطر الذي يمثله ، لممتلكاتها في سوريا ، قربها من الفلوات والصحاري التي تظهر فيها ، بصورة مفاجئة ، جماعات غفيرة من الفرسان النبالين . بيد ان إرث الملكية السلوقية ، حين وضعت يدها عليه ، كان قد أنقص انقاصاً ملحوظاً : فايران قد فقدت بكليتها ، وكذلك بلاد ما بين النهرين حيث اقام الفارتيون ، بينما استماد سلاليو ارمينيا استقلالاً تاماً . وقد اجرت روما عدة محاولات ، منذ عهد باكر ، لتوسيع هذا الارث المصغر . فكان بومبيوس بصيراً واكتفى بالمساومات ، وكان كراسوس مغامراً فقاد جوقاته الى الجزرة في سهل كار (*Carrhes*) . واقدم بعض الاباطرة على المغامرة بدورهم فاحرزوا نجاحات متفاوتة سريعة الزوال . وهكذا لم يستطع الرومان يوماً اعادة وحدة الشرق الادنى المقوضة منذ قبل وصولهم : فقد افتقرت امبراطوريتهم الى اجزاء عريضة جداً من الامبراطورية الفارسية وامبراطورية الاسكندر .

ولكن فتوحات جديدة كثيرة ، ايطاليا ودلماتيا وغاليا واسبانيا وافريقيا ، قد عوضت الى حد بعيد ، اقاليم وسكاناً ، عن هذا التخلي الذي قبلت به غير راضية . ولكن نتائج هذا التخلي الحقيقية اكثر من ان تحصى . فبفضله نجت روما من الاندفاع نحو الشرق البعيد وسهلت عليها المهام الملقاة على عاتقها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشاغل التي سببها لها الفرسان الفارتيون في فلوات ما بين النهرين ، هان علينا تصور تلك التي كان عليها مواجهتها في محاربتها بني جنسهم في فلوات تركستان . وهي لم تحتفظ من الامبراطوريات التي سبقتها سوى بالبلدان اليونانية حقاً وبتلك التي رسخت فيها الحضارة اليونانية بعض الرسوخ : فأفادت فيها من رصيد ثقافي ثابت ومن تيار صاعد . فيتضح من ثم ان فقدان مناطق ما بعد الفرات ، هو الذي اطلق ايديها في الغرب ، وأتاح لها أن تشيّد ، عوضاً عن عالم الشرق القديم ، على غرار أسلافها ، عالم البحر المتوسط بكليته .

ان الشكل الجغرافي لهذا العالم لكافٍ لإعطائه ميزة الجدّة . أضف الى ذلك ان هذا العالم سيستمر حتى اليوم الذي ستنتزع منه انتصارات العرب جميع المناطق التي تحيط ببحره الداخلي من الجهة الجنوبية .

الفتح الروماني على بطئه

ان ما يلفت النظر ، اذا ما نظرنا الى حركة هذا التشييد ، هو البطء الذي تسير فيه . وتبدو المضادة عظيمة بينه وبين السرعة النافذة التي اعتمدها اعظم فاتحي الشرق الادنى ، أمثال قوروش الفارسي والاسكندر المقدوني بنوع خاص . فالاندفاع التوسعي الذي نهضت به الشعوب الايرانية ، الميدية والفارسية ، حتى اذا ما نظرنا الى هذا الاندفاع في مجموعه ، لم يدم سوى قرن وبعض القرن فقط ، منذ احتلال أشور في السنة ٦١٤ حتى سلامين في السنة ٤٨٠ . اما اندفاع المقدونين ، حتى اذا ما ضممنا ملك فيلبوس الى ملك ابنه ، فقد كفاه ست وثلاثون سنة لبلوغ حدوده القصوى. وعلى نقيض ذلك، فإن التوسع الروماني يتطلب زمناً اطول الى حد بعيد ، إذ ان الحروب الاولى ضد الجيران الايطاليين تبتدىء منذ فجر القرن الخامس، بُعيد انهيار الملكية الاتروريه ، وان ايطاليا نفسها، عند وفاة قيصر ، في السنة ٤٤ قبل المسيح ، لما يستتب الامر للرومان في شماليها الشرقي بين ايستريا والداوب .

من الجلي ، ان الخطوات الاولى ، في مثل هذا التطور ، هي في الغالب تلك التي تصطدم بأشدّ العراقيل صعوبة . وليس من المستغرب ، على كل حال ، اذا ما اعتبرنا نقطة الانطلاق روما ، واضطرارها لمحاربة مدن مماثلة لها وسكان جبال الأبنين الوسطى والجنوبية المشهورين بقوة شكيمتهم وتوقفها أحياناً في نجاحاتها بفعل الغزوات الغالية ، كتلك التي خربتها في أوائل القرن الرابع ، ألا تتوصل ، إلا بعد أحداث طويلة ، لإخضاع ما درجوا ، حتى قيصر ، على تسميته بـ « ايطاليا » أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم شبه الجزيرة الايطالية . بيد ان هذا الاخضاع لا يصبح أمراً ناجزاً، بعد فتح تارنتا *Tarente* في السنة ٢٧٢، وفتح آخر مدينة أتروريه في السنتين ٢٦٥ — ٢٦٤ ، إلا قبيل النزول الى صقليا في السنة ٢٦٤ : أي ما يناهز القرنين ونصف القرن ، لاحتلال شبه الجزيرة ، في حال ان احدى وعشرين سنة كانت كافية لأن يبسط فيلبوس السيطرة المقدونية على اليونان البلقانية !

واذا لم يسر التوسع خارج ايطاليا ، فيما بعد ، بمثل هذا البطء ، فإنه لا ينتهي في الغالب الى ضم المناطق الا بعد المواعيد المقررة لهذا الضمّ . وتؤلف الحروب البونيقية ، في سلسلة الحروب الطويلة التي نشبت ما وراء البحر ، شذوذاً يلفت الانظار ، لانها تنتهي على الفور الى مكاسب اقليمية : الاولى الى كسب صقليا والثانية الى كسب أسبانيا والثالثة الى كسب اقليم قرطاجة. ولكن المجازفات في الشرق الهليني تتأخر في اعطاء ثمارها . فقد تدخلت روما في اليونان منذ السنة ٢١٢ ، وهزمت فيها الجيش المقدوني شر هزيمة في السنة ١٩٧ ، وقضت عليه نهائياً في السنة ١٦٨ ، ولم تنشىء ولاية مقدونيا ، على الرغم من ذلك ، الا في السنة ١٤٨ . ولا حاجة بنا لأن نقدّم الامثلة الكثيرة ، بل يكفينا ان نستشهد بمثل مصر الفريد : فقد بُسطت حماية روما عليها عملياً منذ السنة ١٦٨ ، على الاقل ، وثقلت عليها يوماً بعد يوم كما يتضح من تكرر تدخل الجيوش الرومانية في منازعات البلاد الداخلية ، ولكن ذلك لم يحل دون احتفاظ

الملكية اللاجية باستقلالها النظري وحتى العملي أحياناً - فان كليوباترا قد استخدمت انطونيوس بمقدار خدمتها له على الأقل - حتى السنة ٣٠ قبل المسيح .

وجـــامي

تفوق هذه الملاحظـــات في اهميتها مجرد التوقيت الزمني . اجل ان تاريخ الفتح الروماني ينطوي على احداث سريعة ، كبسط السيطرة على غاليـــا المستقلة التي حققها قيصر في ثماني حمـلات عسكرية . ولكن مثل هذه الاحداث ، بصرف النظر عن ان واحداً منها لا يرتدي طابع الصاعقـــة الذي ترتديه حملة الاسكندر اذ ضم في ثلاثة عشر سنة الامبراطورية الفارسية الواسعة الارجاء الى المملكة المقدونية ، لا تخرج عن كونها استثنائيـة . ويبدو بناء العالم الروماني على الصعيد العسكري ، الذي يمتد عدة قرون قبل الميـــلاد ، والذي سيتكامل بعده ايضاً ، وكأنه في الحقيقة عمل اجيال عديدة جداً .

يستدل من ذلك ان هذا البناء لم يكن ، او لم يكن الا جزئياً ، عمل افراد بارزين . اجل ، لم تفتقر روما الى مثل هؤلاء . وهي لم يعوزها المجد العسكري الذي يقترن عندها باسماء معينة كما عند غيرها. وتفسر مؤهلات العديد من زعمائها الشهرة التي نعموا بها . لا بل ان بعضهم قـد لعب دوراً شخصياً حاسماً في توسع الامبراطورية . فقد تصرف بومبيوس في آسيا مثلاً وقيصر في غاليا كما طاب لهما التصرف دون ان يستشيرا احداً : فاختارا على هواهما من يهاجان وعقدا احلافاً وقررا ضم الاقاليم ، ممارسين بذلك في كاله ، باسم روما ، ودون اغفال اهدافهما ، قانون الحرب والسلم . بيد ان هذه الحرية لا يمكن ادراكها الا في القرن الاخير من العهـــد الجمهوري ، وهي انما تمثل - وسنعود فيما بعد الى هذا التطور - مظهراً من مظاهر الاضطراب الذي خلقـه الفتح نفسه في سير نظام الحكم. فلم يكن القواد، زمناً طويلا، قبل ان يتحرروا رويداً رويداً ، سوى منفذين تسند اليهم مهمة عسكرية معينة . وهكـــذا فان اكبر واشهر مؤسسي العظمة الرومانيـة ، كشيبيون الافريقي وبولس اميليوس وشيبيون اميليانوس لم يأخذوا على انفسهم امر اعلان الحرب ، واذا هم ابدوا رأيهم ، المسيطر غالباً، في شروط الصلح المفروض على العدو المغلوب على نفسه ، فانهم لا يملون ، مع ذلك ، هذه الشروط دون اشتراك غيرهم في الرأي ، اي دون رقابة .

يبدو هذا القول وكأنه حقيقة بديهية ، اذ ان روما ، في ذاك العهـد ، كانت جمهورية وكان عليها بهذه الصفة ، الا اذا رضيت بالدكتاتورية ، ان تحدد مدة القيادات العسكرية ونطاقهـــا الجغرافي وان تنفذ سياستها الخارجية ، ما امكن الانقـاذ ، من القرارات الفردية . ولكن كل ظاهر ابتذال يزول اذا ما فكرنا ان تاريخ الانسانية جمعاء لا يقدم لنا اي مثل آخر عن جمهورية تتابع طيلة اجيال عـــدة ، بمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج ، ان لم يكن دائمـــاً في الاساليب ، سياسة تؤدي الى فتوحات على مثل هذا الاتساع . ففوق الاحـــداث الطارئة والتحولات الفجائية في الاتجاه وانتهازية النقلات والجهود ، يؤلف هـــذا الاستمرار في التوسع

وهذا التقدم شبه المتواصل في القوة والسيطرة ميزة الجمهورية الرومانية . وقد يستهوينا اللجوء الى تفسيرات شتى اكتفى بها اكثر من مؤرخ قديم : حظ روما ومصيرها الذي اعدت بموجبه لان تصبح امبراطورية. ولكن معاصرين كثيرين يعتقدون ان هذه التفسيرات انما تخفي عجزاً عن تبيان تسلسل الاسباب والنتائج تبياناً منطقياً . ويجب الاعتراف بان واحداً لا يستطيع التباهي بايضاح حدث تاريخي على مثل هذا الاتساع كما يجدر الايضاح ، وان المجازفة في الاشارة الى بعض الاسباب العامة التي ادت الى هذا النجاح تقود خصوصاً الى وعي عدم كفايتها . ولكن هل يجب ان يثنينا هذا الاعتراف الضروري عن محاولة التحليل ؟

التنظيم التي السياسة الخارجية

ليس واقع الجمهورية الفاتحة بالظاهرة النادرة : فقد اعطتنا المدن اليونانية اكثر من مثل عن ذلك . ولكن جمهورية تكرس في سبيل الفتح جهوداً بمثل هذا الاستمرار ، رافضة التنازل ابداً عن مكسب حققته ، وعاندة بنجاح، باستثناء الهزيمة النكراء التي انزلها الفارثيون في « كار »، في تدارك الهزائم التي تمنى بها، لشذوذ تاريخي هو اقرب ، في الحقيقة ، الى المغالطة السياسية .

قبل الشروع بتحديد الميزة الحقيقية للنظام الجمهوري في روما ، يجدر بنا ، بغية الاقلال مما يثيره هذا النشاط الذي لا يعرف الكلل من دهشة وحيرة ، ان نلفت النظر دونما ابطاء الى ان السياسة الخارجية لا تقررها في الواقع جمعية المواطنين ، واذا كانت استشارة الجمعية امراً واجباً لاعلان الحرب وفاقاً للانظمة ، واذا كان قرارها نافذاً ، فان الحكام يعرفون كيف يديرونها . فحين رفض الشعب ، بعيد نهاية الحرب البونيقية الثانية ، ان تعلن حرب جديدة على الملك المقدوني ، احالوا القضية للمناقشة مرة اخرى وحصلوا هذه المرة على اكثرية الاصوات . وليس هذا كل شيء : فبعد الاقتراع على اعلان الحرب ، رأت الجمعية نفسها محرومة من الصلاحيات حتى اليوم الذي دعيت فيه للموافقة دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وضعت نصوصها على غير معرفة منها ؛ وليس لدى الشعب في هذه الاثناء سوى وسائل غير مباشرة ، وغير حاسمة على العموم ، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً ، للاعراب عن اشمئزازه .

تعود ادارة السياسة الخارجية في الحقيقة الى مجلس الشيوخ ، أي الى هيئة مختصرة انتخابها ابعد من ان يتصف بالديموقراطية . يستقبل هذا المجلس السفراء الأجانب ويملي عليهم الأجوبة التي يتلقونها ؛ ويعين السفراء الرومانيين ويعطيهم التعليمات . ويتدخل في توزيع القيادات على القضاة ، ويحدّد أهمية القوى العسكرية او البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرف كل قاض من القضاة . وأثناء العمليات الحربية يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرراته . يناقش مشاريع المعاهدات ويوفد محلياً ، لأجل تطبيقها ، مفوّضين يشتركون في ذلك مع القائد المنتصر .

ليس من ثمّ ما يشبه الوضع في كل من الجمعية الشعبية والمجلس في الديموقراطيات اليونانية . فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجية لمقررات ، غالباً ما تكون مرتجلة ، يمليها حماس الشعب

ويأسه وهواه، تتعلق هذه السياسة بجهاز يسهل على أعضائه الذين يناهزون الثلاثمائة ان يديروها بطريقة فضلى . ولا ينتمي هؤلاء الى مجلس الشيوخ إلا بعد تلقي تربية معينة . ومن حيث انهم يحتفظون بعضويتهم مدى الحياة ، فانهم يوسعون خبرتهم ويستطيعون السير بموجب فكرة أو تقليد . ولما كانت المعلومات الضرورية تتوفر لديهم ، فإنهم يتمكنون من التوفيق بين المشاريع ووسائل العمل . هذه كلّها امتيازات تقنية جلية عن تنظيم الديموقراطية اليونانية ؛ وهي تتيح أن ندرك ادراكاً أفضل أمتن ادارة للسياسة الخارجية .

بديهي على كل حال ، ان هذه اللوحة تفتقر الى تصحيح في مراحل العهد الجمهوري المختلفة . ثم ان القوانين أبعد من ان تطبق زمناً طويلاً تطبيقاً كلّي الانتظام ، ولا تبقى ، على الأخص ، قروناً عديدة دون ان تتطور . ولا يبرز سلطان مجلس الشيوخ المطلق حقاً الا إبّان الحروب الحاسمة ضد دول ما وراء البحر الكبرى ، قرطاجة والملكيات الهلينية في القرنين الثالث والثاني . وقد يحدث في هذه الظروف نفسها ، ان تصرف الآلة ، وعلى الرغم من ان التقليد الذي وصل الينا بصدد العهود القديمة غير جدير بالثقة نفسها ، فان توزيع الكفاءات في السابق لا ينطوي ، على ما نعتقد ، على فروق جوهرية . ولن تحدث تبديلات هامة الا في عهد لاحق ، ابتداء من اواخر القرن الثاني . فتقوم إذ ذاك جمعية المواطنين ، بتأثير قادة حازمين ، حتى في حقل السياسة الخارجية ، بمبادهات يضطر مجلس الشيوخ ان ينحني أمامها . وقد حدث خصوصاً ان استثمر بعض قادة الجيش حظوتهم لدى الشعب او أقله لدى الجنود ، فشقّوا عصا الطاعة على مجلس الشيوخ . فسار التوسع الروماني من ثم سيراً أشدّ اضطراباً لأن من شأن تهوّر الشعب وحرية العمل التي يحصل عليها القادة ان يدفعا بهذا التوسع الى الامام .

الأسباب العميقة للاستعمار الروماني

مهما كان من فاعلية إحكام وسير النظم السياسية لتنسيق وايضاح التوسع، فإن المعضلة الحقيقية التي يثيرها هذا التوسع تتخطاهما كليهما . وان ما يهمّ تبيانه في الحقيقة هو الأسباب التي وجّهت الحكّام نحو فتح يبدو انهم لم يضعوا له حداً حتى اواخر الجمهورية ، لا بل بعدها بقليل أيضاً . والمقصود هنا هو غير الأسباب التي أدت الى كل من الحروب المتعاقبة التي جروا إليها روما جراً : وكلّما بدت هذه الأسباب بوضوح ، بدا أنها مرتبطة الى حدّ بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال . لا بل ان ما يستهوينا اكتشافه ، بالنسبة لهذه النزعة المستمرة ، أو بالنسبة لما يجب اطلاق اسم «الاستعمار» عليه بعد ان ننزع من هذا التعبير المستلزمات التي أضافها اليه تطور العالم المعاصر ، هو الاسباب الدائمة ، بما فيها ، وربما في الدرجة الاولى ، تلك التي لا يعيها الممثلون الزائلون وعياً كاملاً . بيد ان المؤرخ يشعر ساعتئذ بكثير من التواضع بنقص وركاكة ما لديه من وسائل تحليل .

ان بعض التفسيرات التي قد تقنع في حالات اخرى يجب اقصاؤها في الحالة التي تعنينا . فمستنداتنا لا تجيز لنا البتة مثلاً التفكير بضرورة ملحة اوجدتها كثافة السكان ؛ ولا يبدو ان

روما قد لمست وجوب توسيع « نطاقها الحيوي » ، وان تأسيس مستعمراتها الاولى ، وهو متأخر نسبياً على نقيض ما جاء في التقليد ، انما كان استجابة لاهدافها العسكرية قبل ان يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان . وليس كذلك ، طيلة القسم الاكبر من هذه القرون الخمسة ، من معضلة اقتصادية او من معضلة اجتماعية من شأنها ان تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح : فلم تبرز مثل هذه الاسباب الا بعد ذلك بزمن ، اي بعد ان اثارتها الحروب السابقة . وليس ايضاً من نظام سياسي او اجتماعي يحل في المرتبة الاولى طبقة يؤلف فيها المحارب نموذجاً مثالياً ويتلقى تربية ادبية وطبيعية توجه بالتفضيل الى الحرب : وقد نبحث دون جدوى في عهود روما الاولى ، باستثناء بعض الاشخاص النادرين، عن بطل الملحمة الهوميروسية الذي ينزع الى المجد وملذات الحياة المادية ، او النبيل المغامر — الذي عرفته اليونان في عهدها القديم ايضاً — المستعد لكل شيء في سبيل ارضاء طموحه الى السلطة . وليس هنالك اخيراً اي اثر لحرب عقائدية : فان روما لم تفرض يوماً لا تنظيمها ولا ديانتها . وقد جاز لها الاعتقاد احياناً ، كجمهورية ، بان الملوك يمقتونها بسبب ذلك ويستهدفونها باحلافهم . ولكن شيبيون لم يكن كاذباً حين اعلن باسمها انها ليست ساعية لقلب الملكيات . اجل لقد اظهرت، كجمهورية محافظة ، مزيداً من العداء المستحكم للنظم الثورية ، ولكنها قد انتهت راضية اكثر من مرة الى الاتفاق معهم ، مكتفية بمحاولة اتقاء العدوى .

بيد ان هذا الاستعمار لا ينجو بالكلية من الاسباب العامة التي خلقت قبله أو بعده ، أسباباً أخرى عديدة . ولن يعترض أحد على ذكر الطمع بينها : فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فانه قد طمع في أراضي جيرانه لا سيما حين تكون اكثر خصباً او افضل استثماراً . ومن حيث انه استوطن اقليماً تمر فيه بعض الطرق ، فإنه قد صمّم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها وعلى زيادة هذه المكاسب . وقد صمم أيضاً على الحصول بسهولة على بعض المواد الخام . ولكن لهذا الطمع البدائي حدوده ؛ ويبدو ان مثل روما لا يجوز معه التراجع أمام تفسير لا تحلّه عادة في المركز اللائق به . فيبدو في الحقيقة ان روما لم تخضع لجانب المكاسب الفورية خضوعها للخوف الذي أثار في كل زمان حروباً يفسّرها كل من الخصوم ، بسلامة طوبّة تامة ، كحروب دفاعية حيث يعتبر وجوده بالذات مهدداً ، وحيث غالباً ما يشكل هذا الوجود ، في الواقع ، الهدف الحقيقي . واننا نلمس ، في روما الجمهورية ، هذا الشعور المتزايد والحاد جداً في اليونان — الكلام عن العصور القديمة — بأن سلامة دولة من الدول تعرّض للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة اذا ما بدت قواهما متعادلة أو بمجرد احتمال تحالف لا تكون هي أحد أطرافه ، اذ ان حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرها . فالحروب ، من ثمّ ، والفتوحات ، اذا أمنت الحروب النصر ، يستند بعضها الى بعض ، لأن توسيع ممتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع .

فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد الى آفاق أبعد ، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة .

الأسباب الثانوية

ليس من المناسب هنا التبسط في هذا التفسير . واننا نسرع الى القول ، بالاضافة الى ذلك ، انه اذا كان تاريخ الفتوحات الرومانية ، حتى آخر الجمهورية وأبعد من ذلك ، غنياً بالأمثلة الخليقة بتأييد هذا التفسير ، فإن عوامل أخرى تفعل فعلها أيضاً ، مطردة القوة والتنوع ، لا سيا انطلاقاً من القرن الثاني . ولكنها عوامل ثانوية .

فهنالك التيه الروماني ، وهو راسخ في القدم ، أو غير حديث العهد على كل حال ، ويسفر عن نتائج متنوعة جداً . أجل انه لا يدفع دفعاً مباشراً الى التوسع حين يسهم في إلهام ذاك العناد الجموح الذي أعطى عنه الحكام والشعب بكليته البراهين الكثيرة في وجه أشد الصعوبات تعقيداً ، أمام الغاليين وأمام هنيبعل على السواء . ولكنه بعد ذلك بزمن ، ازداد بفعل الانتصارات المتواصلة العظيمة فأدخل في نفوس الجميع – أو في نفوس الاغلبية ، إذ ان شيبيون اميليانوس الذي فكر في انه ليس من قوة دائمة وان وطنه سيعرف يوماً من الأيام المصير نفسه ، نبكي على أطلال قرطاجة التي كان قد هدمها – ثقة لا حد لها في مصير روما ، هي الكفيل بنجاح جميع مشاريعها . ولو جاز للمؤرخ نسيان المعنى الخاص الذي ينطوي عليه التعبير في تاريخ اسرائيل ، لأمكن القول ان الشعب الروماني انتهى الى الاعتقاد انه الشعب المختار أيضاً . وان هو لمس انه الأقوى ، فلا يثير فيه ذلك أية دهشة لأنه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى . وهذه كلها افضليات تبرر في نظره الهبات التي تغدقها عليه الآلهة . ولكنها كلها دوافع لإقناعه بأن أي شعب آخر لا يستطيع ولا يجب ان يقف في وجهه . وقد أصبحت روما « المدينة » بالذات ، التي ألقيت على عاتقها رسالة اخضاع العالم والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة من العصاة بممارسة حق المنتصر بكماله في هدم قرطاجة وكورنثس في السنة ١٤٦ ، ونومانس (*Numance*) في السنة ١٣٣ .

وهنالك ايضاً ، في الوقت نفسه ، شهوة الذهب ، والبؤس ، وكلاهما قد زادهما أو أوجدهما الفتح الذي قلب الاقتصاد والمجتمع . فان رجال الاعمال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة ، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت . وبفعل مصادرة ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفاء المتملقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعها المقاطعات ، بلغت أرباح الاستعمار درجة حصلت معها عامة الشعب على قسطها من سخاء الدولة ، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب . وقد تجاوز بعض رجال الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأنانية ، فارتأوا أحياناً ان الحرب والفتح قد يساعدان على معالجة صعوبات داخلية ، اما بخلق عملية إلهاء وإما بزيادة الموارد المالية .

وهنالك اخيراً انفلات الأطماع الفردية . استحق النصر أبداً للقائد ، اذا كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ ، مجد « موكب النصر » ، وهو احتفال موروث عن الاتروسك ، يرتدي فيه الرئيس المنتصر الحلّة البرفيرية المطرزة بالذهب ، ويصبغ وجهه بلون أحمر ، ويحمل تاجاً ذهبياً ، ويمسك بالصولجان ، ويمثل جوبتير نفسه ، ثم يصعد الى عربة يتقدمهـا موكب المغانم المستولى عليها ، ويسير وراءها جنوده مدججين بالسلاح حتى معبد جوبتير الكابيتولي . ولكنه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعية ، ويعود الى صفوفه أمثاله متحلياً بسمعة خادم الدولة الأمين . بيد ان عدوى الأفكار والعادات الهلينية ، من جهة ، والامكانات التي توفرت للرجل الماهر والقوي بفعل انفصام التوازن الاجتماعي القديم وتخلخل النظام السياسي ، من جهة ثانية ، قد اعطت قوة فائقة لجاذب الذي توحيه القيادات العسكرية الكبرى . فان ما نستطيع ان توفره منذ الآن هو الجد الذي يسحر الجماهير ، وهي الثروات التي يشترى بواسطتها التفاني ويتزايد عدد الزبن ، وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الالوهة ويقررون له « موكب النصر » قبل ان يبدي مجلس الشيوخ رأيه ، ويتخذون المبادهة – ويعود اول مثل أكيد عن ذلك الى السنة ٢٠٩ – ويعلنونه امبراطوراً في ساحة الوغى ثم يصبحون مستعدين ، بعد انقضاء قرن ، لأن يسيروا وراءه حتى في الحرب الاهلية . فخلق الفتح الظروف المادية والادبية للفوضى الداخلية ودفعت الفوضى بدورها الى الفتح . وأعلنت بعض الحروب ، دونما تقيد بالاصول الدستورية ، سعياً وراء النصر وسعت الامبراطورية سعياً من القائد وراء ربط اسمه باخضاع أقاليم جديدة .

مقاومات سريعة الزوال ودون جدوى

لم تحدث طفرات الاستعمار هـذه دون ان تصادف مقاومة . ولكن المقاومة ، بعد كل حساب ، كانت هزيلة ودون جدوى . فقد حارب كاطون (*Caton*) القديم فساد الاخلاق الذي جرّ اليه مثل الشرق اليوناني ، كما حارب تحرر زعماء الجيش واختلاساتهم . ولكن عمله الشخصي ، العسكري او الدبلوماسي ، في اسبانيا واليونان على السواء ، وعناده في محاربة قرطاجة ، يبرهنان ، بما فيه الكفاية ، مع ذلك ، انـه لا يذهب من المعلول الى العلّة لاقناع مواطنيه بالاعتدال . وحين ذرف شيبيون اميليانوس ، في السنة ١٤٦ ، الدموع السخية امام اطلال قرطاجة الحارقة ، لم يحمله ذلك قط على كبح غضبه وعنفه ، اذ انه قد برهن بعد ثلاثة عشر سنة عن عزم مماثل لا يعرف الشفقة معنى في حصار وهدم « نومانس » في اسبانيا ، اما التقليد الذي يعزو اليه قوله « ان وضع الشعب الروماني سليم وعظيم » ، والذي يفترض فيه الخشية من توسع لا حد له لم يبرز الى حيّز الوجود إلا بعد ذلك بزمن ، حين نزل الامبراطوران الاولان ، اوغسطس (*Auguste*) ثم طيباريوس (*Tibère*) ، عند الضرورة الملحة باعتماد سياسة دفاعية فقط .

اتخذ مجلس الشيوخ ، حتى في النصف الاول من القرن الثاني ، تدابير عنيفة حقاً وغريبة عن كل تصميم متلاحم ضد اساءة استثمار رجال المال للفتوحات . ففي السنة ١٦٧ مثلاً ، حينما شعر

بعجزه عن مراقبة سوء تصرفهم في ممتلكات الدولة ، اذا ما ثبتوا اقدامهم فيها ، آثر ان يحظر كل عمل في هذه الممتلكات ، اعني بها مناجم المعادن الثمينة والاملاك الريفية والحرجيـــة التي انتقلت الى روما، بعد سحق الملك « بيرسا » (Persée) ، في مقدونيا . ولكن اشمئزازه الظاهر من بروز طبقات اجتماعية جديدة لا يمنعه من ان يوعز ، او اقله من ان يقبل بالنزاعـات العظمى التي تفتح امام مستقبل روما آفاق الامبراطورية المتوسطية . ولسنا نلمس اي اعتبار اقتصادي له وزنه في اسباب الحربين البونيقيتين الاولين او الحروب ضد الملكيات الانتيغونية والسلوقية . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الحروب قد اندلعت واعطت ثماراً طيبة : فقد كسبت رومـا في الاولين ، منذ القرن الثالث ، صقليا وسردينيا واسبانيـا ، كما أسفرت الحروب الاخيرة ، في ثلاثين سنة ، من السنة ١٩٧ حتى السنة ١٦٨ ، عن بسط سيطرتها على الشرق الايجي .

وقد اعار مجلس الشيوخ نفسه ، من جهة ثانية ، اذناً اكثر اصغاء الى نداء المصالح . فان رؤوس الاموال الموظفـة في افريقيا في ايام جوغورتا Jugurtha ولا سيما في الشرق في ايام ميتريدات Mithridate ، رومانية كانت ام ايطالية ، اعظم واكثر تفرعـــاً ايضاً ، حتى بين مجلس الشيوخ ، من ان يقدم هـذا الاخير على اهمالها . ولكن اين يقف الدفاع عنها واين تبتدىء المساعـــدة المقدمة للمشاريع الجديدة ؟ فقـد اصبح محتومـــاً على التوسع العسكري ، في القرن الأخير من العهـــد الجمهوري ، وباعتراف مجلس الشيوخ ، ان يخدم اكثر من مرة التوسع الاقتصادي .

وكذلـك فان الشكوك الطبيعية التي يثيرها الرجال « المتفوقون » في ارستوقراطية مجلس الشيوخ قلمـــا توصلت الى شل عمل هؤلاء الرجال. فمنذ عهد مبكر ، اي منذ الحرب البونيقية الثانية ، لمست هذه الارستوقراطية الخطر الذي يشكله الزعماء المنتصرون ، المتمتعون بتعلق الجماهير المتحمسة والواثقون من اخلاص جيوشهم ، على الانظمة الجمهورية ، اي عليها هي بالذات. ولكنها لا تتوانى ، حتى بالانتقاص من الشرعية ، في اللجوء الى مواهبهم حين تدعو الحاجـــة الى ذلك ، سعيدة جداً اذا ما استطاعت اذ ذاك وضع ثقتها في شيبيون اميليانوس مثلاً. وكثيراً ما ترتكب الاخطاء ايضاً ، بفعل الكلل او العمه ، كما حدث لها حين اسندت الى قيصر ، الذي كان لها عليه اكثر من مأخذ ، ادارة غاليا الناربونية ، بالاضافة الى غاليا مـــا وراء الألب التي اسند الشعب ادارتها اليه لمدة خمس سنوات ، فقد اتاح هـــذا القرار المفاجىء ، لقيصر ، ان يحصل ، باخضاعه ما تبقى من غاليا ، على كل ما كان مفتقراً اليـــه حتى ذاك التاريخ ، اي المجد والثروة والجوقات . اما السياسة التي غالباً ما اعتمدت في الواقع فتقوم على خلق التنافس بين ذوي الطموح ، وعند الحاجـــة على تسهيل بروز منافس بغية رفعه الى مصف غيره ؛ فان اختيار ت. كوينكتيوس فلامينينوس مثلاً ، في السنة ١٩٩ ، وهو ضِلٌّ بن ضل قبلاً ، لادارة شؤون الحرب ضد المقدوني فيليبوس الخامس ، وابقاءه في اليونان حتى السنة ١٩٤ ، يستجيبان دونما ريب للرغبة في ايجـــاد منافس مجيد لشيبيون المنتصر على هنيبعل في السنة ٢٠٢ . ولكن

مثل هـــذه المنافسات ، التي لا تخرج لهـا احياناً سوى الحرب الاهلية ، – ماريوس وسيلا ، وبومبيوس وقيصر مثلا – تؤدي الى السرعة في التوسع لا الى الحد منه ؛ امـــا مثل مصر فمثل شاذ اذ ان ضمها ، الناضج منذ زمن بعيد ، لم يتحقق في ايام الجمهورية لان من شأنه ايقاظ المزيد من المطامع وجـل من يحققه على جانب كبير من القوة .

تناقض ووهن

بديهي ، في مثل هـذه الظروف ، ان السياسة الخارجية لروما الجمهورية لا تنطوي ، اذا ما نظرنا اليها في جزئياتها ، على استمرار العظمة الذي توحيه الينا نظرة سطحية . ويبدو مغرياً ان نعزو اليهـا المخططات العميقة المدروسة والاساليب التي يحسن فيها تعيين مقدار العنف والحيلة. فقد طاب لبوسّويه (*Bossuet*) مثلاً التأكيد بأن الرومان « أرادوا ان يخضع لهم كل شيء ، وهدفوا في الحقيقـة الى اظلال جيرانهم اولاً والعالم كلّه ثانياً في فيء شرائعهم » . ويطيب لأكثر من مؤرخ معاصر ، في كلامه عن دبلوماسيتهم التي قـــد يستهدفها « الخطاب حول التاريخ العام » من زاوية مرتفعة جداً ، والتي يفرض احترام وقائعها على علماء البحث فحصاً أكثر دقـــة ، ان يفكر بصددها بكلمة « ماكيافيلية » . ولكنه يصبح من العبث حينذاك تبيـــان المنعطفات والمنعرجات ، المدهشة في أغلب الاحيان ، التي تصفها ، اذ ان تأثيرات جماعية وفردية كثيرة تفعل فيها فعلها .

والحقيقة هي ان الحكام الرومانيين يخضعون احياناً للاقدام والمجازفة ويستسلمون احياناً أخرى الى كل تراخ نخز . وقد يرتكبون اخطـــاء جسيمة في التقدير لأنهم لم يحصلوا على نعمة العصمة في إدراك الامور قبل وقوعها من أية عناية إلهية ، وقد يخشون شيئاً تافهاً او يقلّلون من أهمية الاخطار التي يسهل اليوم ، بعد ان عرفنا ما صاروا اليه ، تبين نشأتها والظروف المؤاتية ، المهملة ، لازالتها دون كبير جهد . يتوجب عليهم توزيع امكانات عنايتهم بين مصالحهم الشخصية الكثيرة والمخطط العام لسياستهم الداخلية والخارجية والحوادث اليومية التي تعرقلها او تنهكها. ويتطورون تطوراً لاواعياً ، من جيـــل الى آخر ، ولا يتوصلون ابداً الى تحقيق التضامن الكامل في جيل واحد . فهم بالاختصار رجال كسواهم ، وهم ، اذا حصرنا الكلام عن الهيئة التي تنهض بأثقل مسؤولية واطولها مدى ، جمعية مؤلفة من ۳۰۰ رجل يمتـــد عملها الى عدّة قرون ، ولا يجوز إهمال ما تستلزمه هذه التحاديد من انهيار وتناقض وتردد وتقصير .

بيد ان عملهم حقيقـــة واقعة ، ولن يرضى أي رجل عاقل بنسبته الى المصادفة فحسب . فيجب بالتـــالي الاقرار بصفات الاداة العسكرية التي توفرت لروما ، وهي في الحقيقة صفات نادرة تحلى بها بعض القادة وبرزت في بعض العهود .

٢ ـ الشؤون العسكرية

الكوارث العسكرية

من الاعتباط ان نحقر اعداء روما . فدونما حاجة بنا العودة الى نشأتهـا الوضيعة ، يجب علينا التذكير بانها ، حتى بعد ان تجمعت لديهـا الوسائل

الكثيرة والقوية ، غالباً مـــا واجهت اعداء لا يستهان بقوتهم .

ولعل من المغالطة الظاهرة القول إن اسهل هذه الحروب الهامة عليهـــا تلك التي واجهت فيها اكثر الاعداء امجـــاداً ، اي الملكيات التي تأسست بعد فتح الاسكندر ؛ فاذا ما ابدى الجيش المقدوني القومي مقاومة تذكر ، اقله في العمليات التي سبقت معركتي «سينو سيفال» و« بيدنا »الحاسمتين ، فقد انهارت سلطة السلوقي انطيوخوس الثالث « الكبير » في مغنيزيا بعد حملة لم تكن للجوقات الرومانية سوى مسيرة طويلة انطلاقاً من شواطىء الادرياتيك حتى بلاد ليديا. وفي الواقع فان الجيوش الهلينية التي لم يكن على رأسها قادة من امثال فيلبوس الثاني او الاسكندر قد اصيبت بالجمود منذ قرن ونصف . فقد كانت تعيش على امجاد ماضيها .

بيد ان اعداء آخرين كثيرين ، بفضل نجابة احـد القادة او عناد الشعب ، قد صمدوا صموداً طويلاً امام روما وانزلوا بها هزائم مدوية كان من ضروب المعجزة احياناً ان تستعيد قواهـــا بعدها . وليست هزيمة كانا *Cannes* سوى اخطر هذه الهزائم بسبب فداحة الخسارة فيها ، التي تقدر ، وفقـاً لافضل ما لدينا من مصادر بـ ٧٢٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠٠ اسير من اصل ٨٦٠٠٠ جندي اشتركوا في المعركة تقريباً . وكانت « كانا » في اقل من سنتين انتصار هنيبعل الرابع ! واذا ما رجعنا الى تاريخ الجمهورية العسكري واستعرضناه من اوله الى آخره ، يتضح لنـــا انه يقدم لنـــا لائحة طويلة من النكبات كان بعضها مخـــازي حقيقية كما حدث في اسبانيا امام « السلتيبير » في « نومانس » ، وفي افريقيـــا امام « جوغورتا » ، وفي « اورانج » امام « السمبر » و « التوتونز » .

التكيف الدائم

اما ما يدعو الى الاعجاب ، بقدر ما يدعو اليه التصلب ، فهو المرونة وقابلية التكيف التي يبرهن عنها هـــذا التاريخ . فمن النادر ان تبتدىء حرب بانتصارات صاعقة : قـد تكون روما غير مستعدة في الوقت اللازم ، وقد تكون تأخرت في نقل قواها الى ساحة القتال او أسندت قيادتها الى قائد ضعيف او أخذت على حين غرة بأساليب عدو او بلاد لم يسبق لها ان خبرتها خبرة كافية . ولكنها بسرعة متفاوتة ، تحسّن تنظيم جهودها وتكتشف الرجل الكفء ، وتدخل الاصلاح على تسلحهـــا وتبتكر وتعتمد ستراتيجية او خطة جديدة : والفارتيون هم الوحيـدون الذين سدوا عليها جميع هـــذه الابواب – ولم تنجح الامبراطورية نفسها ، بعد الجمهورية ، في فتحها .

ابدى بوليب ، الواسع الاطلاع وذو الاختصاص والشغف بالفن العسكري ، الملاحظـة التالية : « تفوق الرومان على كل شعب آخر في معرفة تغيير عاداتهم واستبدالها بافضل منها » . وقد قصد بذلك الاقتباسات التي كانت في الواقع كثيرة ومتنوعة : كاقتباس الترس المحدب على استطالة عن الغاليين ، واقتباس « البيلوم » عن « السمنيين » ، وهو قطعة حديد ضامرة مثبتة في ساق من الخشب خفيفة الوزن بحيث يستطيع كل جندي ان يحمل منها اثنتين ، ومتوازنة ، على

الرغم من طولها البالغ مترين تقريباً ، بحيث يمكن القاؤها باليد على جيش الاعــداء ، واقتباس الخنجر القصير، الصالح للاستعمال حــداً وشفراً ، عن الايبيريين ، واقتباس اسلحة الفرسان ، الرمح ذي الحدين المعدنيين والدرع والترس المتين عن الاغريق ، واقتباس الآلات الحربية الثقيلة عن الاغريق ايضاً وعن القرطاجيين . ولما كان الرومان يجهلون في البـدء كل شيء عن شؤون البحر، فقد طلبوا الى تجاربهم،في اول الحرب البونيقية الاولى ، ان يمتثلوا صناعة مركب كبير من مراكب الاعداء وقع في ايديهم . وقــد استخدموا، على غرار الجيوش القرطاجية والهلينية ، وحدات من المرتزقة والحلفاء الذين يحتفظون باسلحتهم واساليبهم القوميـة في المعركة : فرساناً نوميديين اتاحوا لشيبيون التغلب على هنيبعل ، ونبالين كريتيين وباليـاريين استخدمهم قيصر حتى في شمالي غاليا ، وفرساناً غاليين ، ثم فرساناً جرمانيين ابان انتفاضة فرسنجيتوريكس *Vercingétorix* الكبرى. لا بل انهم غامروا ، دونما افادة كبرى على كل حال، بان احضروا الى اليونان وآسيا فيلة حرب تسلموها من قرطاجة المغلوبة على نفسها .

ولكن بوليب قد شدد ايضاً ، في البحث الشهير الذي كرسه للجيش الرومـاني ، على بعض صفاته المميزة . فامتدح بنوع خاص روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة ، والحرص على ان لا يتوقف الجيش ، حتى ليلة واحدة ، دون ان يشيّد له معسكر نظامي ويحاط بخندق ومنحدر وحباك ، واليمين التي يقسمها الجنود في بدء كل حملة ، وقوة النظام التي تعززها العقوبات الصارمة بما فيهـا القرع والموت ، حتى النصف الاول من القرن الثاني ، والمكافآت ، تيجاناً واوسمة واسلحة شرفية ، التي تبرهن للمواطنين ان حاملهـا قد اتى مأثرة من المآثر . وكم كنا نود في الحقيقة معرفة ما اذا كان كل ذلك ينسب الى الرومان ام يعود الى عـادات مشتركة بين شعوب كثيرة من شعوب ايطاليـا الوسطى ، ولكن رغبتنا ابعد من ان تلقى اجابة اكيدة .

بيد ان تأكدنا يزداد بصدد التحسينات التقنية التي نكتفي ببعض الامثلة عنها للدلالة على ان الرومان لم يقتصروا على الاقتباس من شتى الجهات . فقد استطاعوا مثلاً اكتشاف علاج مؤقت لتلافي سوء خبرتهم البحرية الذي حال دون قيامهم ببناء سفن خفيفة وسهلة القيادة على الرغم من اقتباسها عن سفن قرطاجة : فابتكروا ، لهذه الغاية ، « الغربان » ، وهي كلاليب كبيرة تؤلف جسراً ضيقاً ، وتجمد سفينة العدو بسقوطها عليهـا وتحول المعركة البحرية ، بفعل اقتراب السفينتين الواحدة من الاخرى ، الى معركة برية . وهكذا ايضاً فانهم قد مارسوا فن حصار نظامي وثابت كثيراً ما انطوى على اجهزة هائلة للإحاطة بالمدينة المحاصرة ، وليست عمليات حصار قرطاجة ونومانس على يد شيبيون اميليانوس وحصار « أليزيا » على يد قيصر سوى اشهر الامثلة المعروفة فقط : فالهجوم النهائي بالتالي، حتى اذا ما بدا ضرورياً ، لا يقرر الا بصورة مضمونة النتيجة على محاصرين انهكتهم المجاعة . وهكذا ، وبنوع خاص ، فانهم قــد كيفوا وحدتهم العسكرية التقليدية ، اي الجوقة .

أداة الانتصارات الحاسمة : الجوقة في اوائل القرن الثاني

بفضل « بوليب » و « تيت – ليف » ، نحسن اليوم معرفة الجوقة في اوائل القرن الثاني . المرونة هي صفتها الاولى ؛ ويقوم النجاح الذي جعل من الجيش الروماني اول جيش في العالم ، في انه حصل على هذه المرونة دونما إضرار بالصلابة .

تبرز هذه المرونة في ضآلة مجموع افراد الجوقة ، – ٤٥٠٠ رجل في ظروف التجنيد العادية ، و ٥٣٠٠ عند الحاجة – مما يسّهل قيادتها ، في حال ان ليس هناك ما يمنع ضمّ هـــذه الوحدة الاساسية الى وحدات أخرى .

وتبرز في تنوع الجوقـــة الداخلي . فهي تؤلف جيشاً صغيراً قادراً على المحاربة مستقلاً عن غيره . ويمثل مشاة الهجوم فيها ، ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٣٨٠٠ رجل ، قوّة القتـــال الاولى . ويستخدم المشاة ، المسلحون بأسلحة خفيفة والبالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، في المناوشات الاولية، فيحاولون زعزعة قوة العدو قبـــل الاصطدام الذي يتوارون عند حصوله . وتضم الجوقة اخيراً ٣٠٠ فارس يشكل عددهم الضئيل ضعف الجوقة الوحيد .

وتبرز في تجزئة وحدة المشاة الحقيقية . اجل لا شك انها قد حاربت في البدء مؤلفة كتيبة متراصة . ولكنها توزعت الآن الى ثلاثة خطوط . وحل الرمح في أسلحة جنود الصف الثالث محل « البيلوم » ، وهؤلاء اقل عدداً من جنود الصفين الآخرين ولكنهم أكبر سناً وافضل تمريناً ويلعبون دور الاحتياط .

وتبرز في تقسيم كل من هذه الخطوط الى عشرة افواج وعشرين كتيبة . اجل قد يكون هذا التقسيم قديماً ، بيد ان المؤرخين المعاصرين يذهبون اليوم الى التأكيد ان تنظيم الافواج قــد تحدّد نهائياً ابان الحرب البونيقية الثانية . تحتل الافواج مراكزها محتفظة بمسافات معينة بين بعضها في الخط الواحد وتنتظم في الخطوط الثلاثة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج، فيدخل كل صف المعركة في الوقت اللازم ، دونما تشويش ، ويتصرف كل فوج وفقاً لمقتضيات الظروف وينتقـل لمساندة جيران يبدو عليهم الوهن او لاستثمار شجون ساحة المعركة ونقاط الضعف في جبهة العدو .

وتبرز اخيراً في الفرد نفسه الذي ينتمي الى الجوقـــة . ويشدد بوليب ، في صفحة شهيرة أخرى يفسّر فيها تفوق هذه المجموعة الحسنة التوزيع على الكتيبة المقدونية الجامدة، على سهولة الحركة وعلى المبادهة المتروكتين لكل جندي . فانتصارات الجوقــة هي في الحقيقة انتصارات كل من جنودها ايضاً الذين أزادهم تعدد الحروب وتعاقب الحملات بخـــبرة مباشرة شخصية او بخبرة رفاق السلاح . ولم يحقق أي جيش قديم ، في وحداته او في رجاله ، وبالقدر نفسه الذي حققه الجيش الجمهوري في القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ، ذلك التحالف الوثيق بين الصفات المتوسطة في جيش ممتهن والصفات نفسها في جيش المواطنين المستعدين للتضحية الكبرى دفاعاً عن الوطن وحفاظاً على أمجاده . ولكن هذا التحالف ما كان ليدوم ابداً .

النواقص : الاسطول

أضف الى ذلك انه يجب الاشارة الى بعض النواقص حتى في هـــذا العهد المعظم .

من هذه النواقص ما لا تبرز خطورته إلا بين الحين والحين . فلا يخلو من المغالطة مثلاً ان روما قـد استولت وحافظت على امبراطورية المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حقيقي . فأوجدت هذا الاسطول، بفضل الحزم الذي تتحلى به والاستمانة خصوصاً بمدن ايطاليا الجنوبية التي أخضعتها ، حين لمست الحاجة اليه ، في حربها ضد قرطاجة مثلاً . ولكن عليها ، منـــذ صراعها ضد الملكيات الهلينية ، ان تبحث – وغالباً ما تجد – عن أكثر من عضد في الشرق نفسه ، لدى بعض الحلفــاء كأطـال او اوفينوس البرغاموسي وكرودوس بنوع خاص . اضف الى ذلك انها لا تتعهد هذا الاسطول بعد زوال الحاجة التي فرضت بناءه . لذلـــك فقد تتعرض لمفاجآت مؤلمة كتلك التي دبرها لهـــا ميتريدات بالهجوم الذي شنه في السنة ٨٨ . وكثيراً ما تتغاضى ، حتى بتعريض تموينها للخطر احياناً ، عن تعاظم عمليات جريئة تنهض بهـــا قرصنة تشجع ظهورها الظروف الطبيعية والبشرية في حوض المتوسط الشرقي ، كلما تراخت قوى الامن في الدولة المسيطرة . ولكنها لم تستفد من أية أمثولة . فهي تعلم ان لديها وسائل المقاومة ، وهي تقاوم فعلاً ، ولكن في فترات متقطعة ، لأنهـــا ترفض بذل جهد مستمر . فهي إنما تتكل على جيوشها قبل كل شيء آخر ، على الرغم من التأخير الذي اتصفت به بعض اعمالها العسكرية ، ومن اكتفائها ، طيلة ثمانــين سنة ، بتحالفها مع مرسيليا للاتصال بممتلكاتها الاسبانية ، ومن ان سيادتها على قناة «اوترانت» قد بدت لها ، طيلة فترة اطول ايضاً، كافية لاحتلال اليونان البلقانية والسيطرة ، عن طريقها ، على الشرق البعيد . اما الاسكندر فقد كانت له اعذاره الاخرى في إهمال الناحية البحرية في ستراتيجيته وادارته الامبراطوريتين .

القيـــادة

ينطوي تنظيم القيادة على سيئات كثيراً ما تكون نتائجهـا ملموسة . ولسنا نعني هنا صغار الضباط بمن فيهم قواد المئة الذين يقودون الكتائب ويقود واحد من اثنين منهم الفوج الذي تؤلف كتيبته جزءاً منه : فكلهم مختارون بين افضل الجنود . ولكن ضمانات الخبرة المماثلة لا تتوفر في كبار الضباط . فالشبان من طبقة الاشراف يخدمون في وحدة الفرسان او في الاركان العامة ، لا في وحدة المشاة ، ومع ذلك فمن بينهم ينتقى كبار الضباط العسكريين الذين ينتخبهم الشعب او يعينهم القائد بمعدل ستة في كل جوقة . والرؤساء بنوع خاص مدينون بقيادتهم لانتخابهم قضاة .

والكلام هنا عن الرؤساء حتى في جيش واحد : فقد قضى التقليد وروح النظام السائد بان يكونوا دائماً اثنين ، كالقنصلين فيما يعنينا ، يستلمان القيادة مناوبة يوماً بعد يوم. هـــذه كانت الحال حتى في معركة « كانا » في السنة ٢١٦ ولم يستند الا في وقت لاحق ، وبصورة منتظمة ، الى حجة العمليات الحاصلة على جبهات متعددة في آن واحد لتلافي محاذير النظام القاضي باسناد

قيادة كل جيش الى رئيس مستقل . ومهما يكن من الامر فان هذا الرئيس ، مبدئياً ، يستبدل كل سنة . اجل ان مجلس الشيوخ يسهر ويوجه الانتخابات ويقول كلمته في توزيع القيادات و « يمدد » اكثر من سنة ولاية القاضي الذي يرضى هو عنه ، الخ . ولكن هذه التدابير ليست سوى تدابير مؤقتة . فلما كان غريباً عن المعقول ان يسند هذا المركز اكثر من مرة الى الرجل الواحد ، حتى بعد امد طويل ، اصبح من الواجب اكتشاف قنصلين جديدين ، كل سنتين ، يتحليان بما يجعلهما قائدين جيدين ، وهذه لعمري معجزة تفوق امكانات اي مجتمع من المجتمعات، حتى ولو لم يكن للعوامل الأخرى اي ضلع في تعيينهم. ولا مهرب لروما من هذا القياس ذي الحدين : فأمّا تعاقب رؤساء سريعي الزوال ، وقليلي الخبرة غالباً ، وعاجزين تماماً أحياناً ؛ واما خطر الموت الذي يتمثل ، لنظمها الجمهورية ، ببعض القادة الذين يضطرها إلحاح الظروف لأن تخلّهم مركزاً ممتازاً أو لأن تسمح لهم باحتلاله .

التجنيد وعدد الجنود الحقيقي

ليست معضلة عدد الجنود ، والتطور الذي يدخله على التجنيد بأقل خطورة من هذه الظاهرة .

كل شيء في منتهى السهولة نظرياً . فإن القانون المرتكز على ما جرت عليه عادة قديمة في تسريح الجيش أثناء فصل الامطار ، ينصّ على ان كل مواطن ، ابتداء من السابعة عشرة ، يمكن دعوته الى الخدمة للاشتراك في ستة عشر حملة اذا انتمى الى إحدى وحدات المشاة، وفي عشر حملات اذا انتمى الى احدى وحدات الفرسان : فيختار القناصل على هواهم – وترتبط كلمة « جوقة » اشتقاقاً بمفهوم الاختيار – الرجال الذين ستتألف منهم جيوشهم . أضف الى ذلك ان روما قد احتفظت لنفسها بحق طلب المجندين من جماعات الايطاليين المرتبطين بها وفاقاً لأنظمة مختلفة دون ان يتمتعوا بحقوق المواطنية الرومانية ؛ وبعد التحاقهم بالجيش ، يولّى عليهم رؤساء من الرومان ، فيحاربون الى جانب الجوقات دونما انضمام فعلي إليها . أجل هنالك نصوص تحدّد ، فيما يتعلق بعددهم ، متطلبات روما المحتملة ؛ ولكن المصلحة العامة ، في حال تعرّض ايطاليا لغزو مثلاً، تسمح لها بتجاوزها . لذلك ، فان مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ينوء بثقله على كافة الرجال الأحرار في شبه الجزيرة . ففي السنة ٢٢٥ ، أي سبع سنوات قبل اندلاع الحرب البونيقية الثانية، بلغ مجموع الرجال الممكن تعبئتهم ٧٠٠٠٠٠ رجل، منهم ٢٥٠٠٠٠ مواطن روماني تقريباً .

بيد ان هذه الاعداد الضخمة نظرية ، لأن لواقع الواجبات المالية أثره كما في المدن اليونانية ، وللأسباب نفسها : فعلى الجندي ، من جهة ، أن يتحمّل نفقات سلاحه الشخصي ، أقله بتسديدها من مرتب أقرّ في عهد باكر وجعل متساوياً لجميع المشاة ؛ ويرى الاغنياء لزاماً عليهم ، من جهة ثانية ، ان يدافعوا عن ممتلكاتهم التي تعرّضها الحرب للخطر ، أو انهم يبدون مزيداً من الاندفاع ، كما يسود الاعتقاد ، في الذود عنها . ولذلك فان الفقراء لا يخضعون

إلا في الاسطول ، حين يكون هنالك اسطول ، باستثنـاء حالة واحدة ، تقرّ فيهـا التعبئة العامة التي يوجبها الاضطراب ؛ وقد واجه المسؤولون هذه الحالة ، دون ان يحققوها ، لآخر مرة ، في السنة ٢٢٥ ، حين بلغ الخطر الغاليّ الذروة . اما الآخرون فيقدمون ، بحسب ثروتهم، مشاة الوحدات الخفيفة ومشاة الخطوط الهجومية ، بينما يؤمن الأثرياء جنود وحدات الفرسان . ولكن لما كان الاثرياء يستطيعون ايضاً الخدمة في الاركان العامة او القيام بوظائف عامة تعفيهم من التجنيد ، فان عدد الفرسان المواطنين يبقى على الدوام ناقصاً . وتقع معظم الاعباء العسكرية ، في الواقع ، كما في اليونان الكلاسيكية أيضاً ، على الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها الفلاحون الملاّكون .

ومن البديهي ان هذه الطبقة ليست معيناً لا ينضب .

في الظروف العادية ، تجمع أربع جوقات سنوياً ، أي ١٨٠٠٠ مواطن ، يُضمّ اليها ايطاليون أكثر عدداً بقليل ، لا سيا في وحدات الفرسان . ولكن الحاجة قد ازدادت ابتداء من الحرب البونيقية الثانية . فبلغ عدد الجوقات ، إبان هذه الحرب ، خمساً وعشرين جوقة؛ وليس من النادر ، بعد ان وضعت الحرب أوزارها، وحتى السنة ١٦٧ حيث يؤلف نصه تيت-ليف ، آخر مستنداتنا ، ان تجمع أربعة عشر أو خمسة عشر جوقة ، غالباً ما يتجاوز أفرادها الخمسة آلاف رجل ، بينما تزداد نسبة الايطاليين حتى تبلغ ثلثي العدد الإجمالي . ولا يعني ذلك ان القوى التي تشترك في المعارك تتجاوز ، في ساحة القتال ، الاعداد التي توصلت اليها من قبل الملكيات الهلينية في النزاعات التي قامت بينها ، حيث يبلغ الجيش ٧٥٠٠٠ كحدّ أعلى . ولما كانت روما حائزة على النوعية فقد اعتبرت من العبث ان تتفوق على خصومها عددياً : فليس من ريب مثلاً في ان الامبراطورية الفارسية كانت قد جمعت كتلاً تتجاوز هذه الاعداد تجاوزاً بعيداً . ولكن تعدد مشاريعها هنا وهناك وهنالك ، قد اضطرها الى أن تحارب على عدة جبهات . وليس ما حظي بالمزيد من عناية روما هو نفسه ما قد يغرينا ان نعتبره اليوم أعظمها أهمية . وهكذا فانها تبقي في اسبانيا وايطاليا جيوشاً اعظم منها في الشرق الاغريقي في الوقت نفسه الذي تبسط فيه سيطرتها على هذا الأخير : ولا يأتيها العضد اللازم سوى من الحلفاء الذين تتوفق اليهم محلياً ، لأن اقتصادها الكلّي في القوى أشبه بالتقتير أحياناً . ولكن ليس تحت ذلك كبير أمر : فالمجهود الاجمالي ثقيل، والخسائر ثقيلة ايضاً حتى ولو لم نستطع احصاءها .

أضف الى ذلك ، ان تحليل المعضلة الكامل لا يخضع للطرائق الحسابية لأنه ينطوي على مظاهر أخرى كثيرة . واخطر هذه المظاهر هو تلك الصفة القاسية التي يلتم بها الواجب القاضي على الطبقة الوسطى بالاشتراك في حملات وراء البحار تدوم سنين عدّة ، دونما عودة الى البيت العائلي في فصل الامطار . وسنبيّن في مكان آخر نتائجها الاقتصادية والاجتماعية . وقد

استفاد منها الحكام للحصول على بعض النتائج العسكرية . فقد نظم احدهم ، بعد « كانا » جوقتين من ارقاء متطوعين قدمهم اسيادهم للدولة يعتقون اذا ما برهنوا عن سلوك حسن : وهذا تجديد لم يسمع به من قبل ولن يعاد اليه بعد هذه الحرب على الرغم من ان نتائجه لم تخيب الآمال . فقد أوثر فيما بعد الاستعانة بمزيد من الايطاليين وحلفاء ما وراء البحر والمرتزقة . وقبل ان ينظم العهد الامبراطوري الدفاع عن الامبراطورية بواسطة سكان الاقاليم ، فتحت روما الجمهورية هذه الامبراطورية ، على غير يد الرومان .

اصلاحات ماريوس

ولكن هذه العلاجات لم تكن كافية . وقد نقل الينا التقليد الفكاهي حوادث ذات مغزى : في اليونان ، منذ اوائل القرن الثاني ، طلب بعض افراد الجوقات تسريحهم بالحاح ، كما اثار التجنيد للحرب المقدونية الثالثة تشكيات حادة من اختيار الرجال انفسهم اكثر من مرة . وكانت الاغريقيات يفكرن بالجيش حين حاولن ايجاد طبقة جديدة من الريفيين الملاكين . وعندما اخفق مجهودهن ، لم يبق امامهن سوى حل واحد. وهذا الحل هو الذي طبقه ماريوس في قنصليته الاولى في السنة ١٠٧ .

اعرض ماريوس في هذه السنة عن تعيين مجنديه بفعل سلطته وقرر قبول كافة المواطنين الذين يتقدمون للانخراط في الجيش دونما نظر الى ثروتهم او الى فقرهم . فصادفت هذه الطريقة لدى جميع الطبقات الاجتماعية نجاحاً منقطع النظير بحيث انها غدت القاعدة فيما بعد : واذا بقيت الخدمة العسكرية الاجبارية واردة في القانون ، فانها لم تطبق الا في حالات استثنائية ، في الحروب الاهلية بنوع خاص . ولا مكان لمغالاة في اطراء النتائج المختلفة التي اعطاها هذا الاصلاح .

وقد تحققت اصلاحات تقنية ايضاً . فاصبح من الممكن رفع عدد الجوقات وسهل على روما الى حد بعيد تنظيم عدة جيوش في آن واحد لا سيما وانها انتهت بعد ذلك بوقت قصير الى منح حق مواطنيتها جميع الايطاليين . وفقدت الفروق في تسلح الجنود اسباب وجودها فاضمحلت ولم تعد تعكس وضعهم المالي . وامن الحلفاء والمرتزقة دون غيرهم جنود فرق الفرسان وفرق المشاة الخفيفة ، وسيخدم جميع المواطنين منذ الآن في فرق المشاة الثقيلة حيث زال التمييز القديم بين الصفوف الثلاثة ايضاً . واصبح من الضروري اضافة شعبة داخلية جديدة الى هذه الوحدة التي رفع عدد افرادها الى ٦٠٠٠ رجل : فأحدثت السرية بجمع الافواج ثلاثة ثلاثة واصبحت قادرة، بعد ان جهزت تجهيزاً كافياً، على ان تقوم بعمل مستقل، حتى ولو عزلت عن الجوقة . فغدت جوقة ماريوس ، بعد هذا التنظيم ، جوقة قيصر نفسه ، وقد كانت في الحقيقة جوقة كراسوس في « كار » ايضاً ، لانها وجدت نفسها دونما منعة امام نبالين يمتطون صهوات الخيول : ولكن هل كان من الممكن لسابقتها ان تبدي منعة اجدى ؟

الجندي والرئيس

بيد ان التبديل الرئيسي كان اجتماعياً ترافقه انعكاسات اخلاقية وسياسية عميقة .

لم تجند الجوقات منذ ذلك الحين ، باستثناء بعض المغامرين ، الا بين الفقراء الذين يستهويهم المرتب وامل الغنيمة بنوع خاص؛ ومن حيث ان الحياة العسكرية قد اقصت عنهم الهموم المادية، فانهم قد رضوا بخدمة اكثر تواصلا خارج ايطاليا . فاصبحوا ، بعد افتراقهم عن مواطنيهم ، جنوداً محترفين ممتازين ، ولكن دون احترام للشرائع والنظام القائم ، مستعدين لان ينفذوا بانقياد اعمى كل مهمة تطلب منهم ، حتى قلب الحكم ، لا يتعرفون الا الى الرئيس الذي خدموا تحت امرته واقسموا اليمين امامه يوم انخراطهم في الجندية والذي قادهم الى النصر .

ولكن يتوجب على هذا الرئيس ، من جهة ثانية ، ان يكون قادراً على اكتساب اخلاصهم. فقد اخفق بعض الرؤساء ، كاوكولوس مثلاً ، اخفاقاً مزريا ، بسبب حرصهم الصارم على احترام النظام وبعدم عن مرؤوسيهم وتشبثهم بسلطتهم . وبرهن غيرهم فطريا عن الصفات التي تثير حماس القساة والبسطاء او عرفوا كيف يتحلون بها بعد اكتشاف سرها : الحزم عند الحاجة في تنفيذ المهام العسكرية ، مع التساهل المقصود ، والتغاضي عن الوساوس التي تحاصر الحيوان البشري بعد المعارك وخلالها ، وشجاعة القائد وطول اناته الشخصيان ، اذ يتحمل قسطه من المخاطر والمتاعب ، والانتباه الذي يعيره الاعمال الفردية والعدل في توزيع العقوبات والعفو والمكافآت ؛ وفن التفوه في الوقت المناسب بالالفاظ التي تشدد الهمة او تثير الحماس ؛ والقدرة على الجمع بين البساطة العائلية ، وحتى الالفة ، في اوقاتها ، وبين العظمة التي تفرض نفسها على الغير ؛ والسخاء والعدل في توزيع الغنائم ، والتأثير والمهارة السياسية اخيراً اللذان يحملان الحكومة ، عند تسريح الجيش ، على اقطاع الجندي ارضاً يؤمن له استثمارها شيخوخة هانئة ينصرف فيها الى تربية اولاده . اجل لم تكن روما ، حتى ذاك التاريخ ، لتجهل مثل هذا الانسان ، ولكنها عرفته على غير اكتمال ، او مثل شيبيون الذي انخرط في مجتمع ورئس جيشاً لم يبلغا كلاهما من النضج ما يتيح له فرض نفسه . اما من الآن فصاعداً فكل شيء يساعد على تفتحه .

يمثل اصلاح ماريوس من ثم حدثا عظيماً في تاريخ روما ، وفي عالم كامل عن طريقها . اوجدته ظروف الساعة الملحة ، فمهدّها هو بدوره وانضم الى اسباب اخرى ليحدد المستقبل . اعطى الجمهورية جيشاً افضل انطباقاً على حاجاتها ومواردها فاعطته هي مثلاً جديداً للرئيس كان ماريوس نفسه احد نماذجه وكان من المحتم ان يؤدي طموحه ، تساعده القوة المادية والسحر الآخذ من الجنود ، الى الكارثة او الدكتاتورية في هول الحروب الاهلية .

عدم الانطباق على المهام الاستعمارية

ان معضلة القيادة التي كانت في البدء عسكرية فقط ، اخذت بالتالي تزداد خطورة لانها اصبحت في آخر المطاف معضلة سياسية ايضاً . وليست هذه بين الضرورات التي خلقها الفتح، الضرورة الوحيدة التي جهلتها روما .

اجل لا يسعنا ان نعزو اليها عدم انجاز الفتح الذي نهضت به اقليمياً : فقد بدأت مرحلة الاضطرابات الكبرى اكثر من سنة بقليل بعد حملات وغاليا، وغدت مهمة الخلف انجاز العمل المتوقف . ولكن ما كان محققاً منه قد استلزم، للمحافظة عليه، جيشاً دائماً لم تفكر الجمهورية يوماً في تأمينه لنفسها .

كان من الواجب المفروض عليها، على نهر الرين وفي البلقان وعلى نهر الفرات وفي افريقيا نفسها، ان تكون في وضع يمكنها من مراقبة جيرانها الاقوياء او المزعجين على الاقل . وكان من الواجب عليها، في الداخل ايضاً، في اكثر من منطقة، ان تفرض احترامها على سكان اخضعوا حديثاً، او ما زالوا في حالة هيجان احياناً، ويزيد في استعدادهم للثورة انهم تحت رحمة استثمار اميري واقتصادي لا يعرف حداً ولا يعرف للرحمة معنى . ولم يكن من حاجة، على ما نقدر، لبلوغ هذه الغاية المزدوجة، لاحتلال شامل يستهدف عرض القوة . ولكن كان مفروضاً في الحكام، على الاقل، ان ينشئوا جهازاً عسكرياً ويبقوا بعض الحاميات في حصون قائمة في نقاط حساسة، او وحدة على بعض الاهمية في قلب مجموعة اقليمية .

لم يحدث شيء من ذلك . فقد اهملت روما هذه الواجبات، الا بصورة عرضية . وان قبضة الرجال التي وضعتها في الظروف العادية تحت تصرف حكام الولايات تمثل قوة رمزية اكثر منها واقعية، اي العنصر البشري اللازم لموكب ابهة او السند الضروري لعمل بوليسي . ومن حيث هي تنكرت لمبدأ بذل جهد عسكري دائم، فلم ترض بتجنيد جيش الا للقيام بتنفيذ مشروع معين، كفتح جديد او هجوم معاكس او قمع ثورة . وحين تنتهي العملية ونفولها، اي حين تضم الاقاليم او تعقد الصلح او تعيد الهدوء، لا تتأخر قط في اعادة جنودها الى ايطاليا بغية تسريحهم معرضة نفسها بالتالي الى اخطر المفاجآت . ويمكن القول انها بعد سيادتها على امبراطورية واسعة الارجاء تشبثت بسلوك الطريقة التي سلكتها حين كانت مدينة صغيرة لا يقع على عاتقها سوى الدفاع عن اقليم محدود يسهل الوصول الى جميع اجزائه في وقت قصير جداً، في حال ان الطرق الكبرى التي شرعت في انشائها او شقها – وهي نادرة، على كل حال، خارج ايطاليا : الطريق الاغناسية بين ديراخيوم وتسالونيك، والطريق الدومسية بين نهر الرون وجبال البرانس (البيرينيه) – لم تلغ المسافات ولم تمنع البطء . فلم تع الواجبات الجديدة التي فرضتها على نفسها، ولم تلق عليها اختباراتها نفسها اي درس لانها درجت ابداً على تفسيرها كامور عارضة .

ولو فرضنا جدلا انها وعت هذه الواجبات وفتحت اعينها جيداً، لتوجب عليها بالمقابلة مزيد من المال ومزيد من الرجال . ولو اوجدت لنفسها ادارة، لتوجب عليها ايضاً الاعراض عن اعتماد الوسائل المرتجلة لتموين جنودها لانه اذا صح ان الحرب قد تغذي الحرب فان وحدة مستقرة للاحتلال والحماية لا تستطيع العيش طويلاً باعتمادها على الغزو دون غيره . ولو وعت

واجباتها لتوجب عليها اخيراً تنظيم ادارة مركزية قادرة على فرض هيبتها على القـــادة وعلى تنسيق المساعدة المتبادلة . ولكن واحداً لم يتصور كل ذلك تصوراً اذ ذاك . فعوضـاً عن ان يكون لروما الجمهورية جيش واحد ، كان لها على التوالي جيوش لا تلبث عاجلاً او آجـــلاً ان تسرحها ، مع ما يستلزم هذا التعدد المتقطع من ارتجال وتشويش وفردية في شخص الرؤساء ، وبالتالي من مخاطر عسكرية وسياسية .

وسنرى في سياق البحث ايضاً ان روما قد امتلكت اقاليم دون ان تجعل منها امبراطورية متراصة ، فكان لهذا النقص نتائجه ايضاً . ونشأت كل هـذه الشوائب من السبب نفسه . فقـد بقيت المدينة الجمهورية مدينة في فتوحاتها ، دون ان تكيف أنظمتها وفاقاً لحاجات دولة كبيرة. وكان من المقدر لها ان تموت بسبب فتوحاتها وتترك النظام الذي سينتقل إرثها اليه أمر تنفيذ المهمة التي تنكرت هي لها .

الفصل الثاني

المدينة وفشلها

عرف العالم القديم كثيراً من المدن الاخرى . وليس من النادر في التاريخ ان تصبح المدينة جمهورية ايضاً . غير ان الأهمية الحقيقية لهذه الظاهرة تكمن في غير مكان : في تطور أنظمتها الجمهورية ، أي الاختلال الذي أدخلته عليها اسباب تسهل معرفتها . فان المدينة الجمهورية اليونانية التي طابقت ، فوق تنوع الحالات المحسوسة ، مثالاً حضارياً معيناً ، قد عرفت الانهيار بفعل انهزامها امام الملكية المقدونية . اما نجاحات الجمهورية الرومانية ، على نقيض ذلك ، فقد خلقت الازمات التي لم تفلح في التغلب عليها .

١ ـ المدينة *LA CITÉ*

المدينة اليونانية والمدينة الرومانية

ولكن يبدو ، بعد كل اعتبار ، ان هذه المدينة كانت افضل استعداداً للتوسع من مدن أخرى كثيرة . اجل لا تسمح لنا معلوماتنا حول المدن الفينيقية والاتروسكية مثلاً باجراء مقارنة ما ، ولكن المدن اليونانية ، في العهد الكلاسيكي ، التي نعرفها معرفة أوفى ، ترتدي طابعاً لا وجود له في روما : واذا كان إيضاح الفرق امراً دقيقاً في جوهره المثالي ، فانه يبدو اساسياً في نتائجه العملية .

تنكرت المدينة اليونانية لتوسيع حدودها البشرية . وقد ذهب المواطنون الذين يؤلفونها ، احياناً ، الى اقصاء أبناء الزنى وأبناء الأمهات الاجنبيات، فلم يقبلوا برضام، في صفوفهم، سوى أبنائهم . اما اولئك الذين لم يمنحهم نسبهم هذا الحق ، فلم يحصل عليه منهم ، في أغلب الاحيان، سوى اشخاص مغيّنين صدرت لمصلحتهم قرارات خاصة . ويقفل باب هذه المواطنية حتى في وجه اليونانيين الذين تربطهم بهم وحدة يطيب لهم الاعتراف بها أثناء الاعياد اليونانية الجامعة ، كأنهم يحرصون ، على ما يظهر ، على إبقاء تفاوتهم العنصرية وعلى حصر التمتع بالحقوق السياسية في إطار ذوي هذه الحقوق من الشرعيين .

لا يسعنا التأكيد بأن روما لم تشعر يوماً بمثل هذه الأثرة . بيد ان تصرفها يبرهن ان هذه

الاثرة لم تسيطر فيها قط سيطرة مستمرة . وفيما يلي ناحية قانونية تدل ان هنالك اكثر من فارق بسيط . ففي اليونان – وفي اثينا بالتدقيق ، ولكن هذه المدينة مثال الديموقراطيات اليونانية – يخضع عبد المواطن الذى يعتقه سيّده لنظام هو اقرب الى نظام الاجنبي المقيم ، ولا يستطيع حفدته ان يتفلتوا منه إلا في حالة استفادتهم من تدبير فردي . اما في روما فيستفيد العبد نفسه من نظام المواطن مع بعض قيود تفرض عليه شخصياً ولا تلبث ان تزول عن حفدته ؛ ولم يكن هذا الامتياز نظرياً لأن عدد المعتقين قد تزايد باطراد . فلا مجال من ثم للدهشة امام السخاء ، المنقطع النظير في عالم المدن القديم ، وقد ميز عالم الامبراطوريات نفسه بين الرعايا ، حتى ولو جهل المواطن الذي حمل روما على منح حق مواطنيتها كاملاً ، دون ربطه بأي واجب ودون الحصول منه على أية منفعة ، لرجال احرار أجانب : ولعلّ اعداءها بالأمس ، اذا كان خضوعهم على شيء من الصدق ، يحصلون على هـذا الحق قبل حلفائها المتمسكين بطابعهم الخاص ، اذ ان المخضعين يستطيعون بواسطته تحسين مصيرهم .

بدأت المجموعة البشرية الاولى هذا التوسع منذ عهد باكر جداً . فمنذ القرن الرابع قبل المسيح ظهرت أسماء عائلاتمن الاتروسك والفولسك والكبانيين في لوائح ارفع القضاة الرومانيين مرتبة . ولم تقص الطبقات الاجتماعية الدنيا : فان إيجاد القبائل الجديدة ، انطلاقاً من توسع الاقليم الروماني ، يرفع عدد القبائل الى خمس وثلاثين ، بينها إحدى وثلاثون قبيلة ريفية ، ويضمّهم الى المدينة . لا ريب في ان التجنس القانوني الكامل تفيد منه الارستوقراطيات والبورجوازيات النائية افادة أسرع . ولا ريب ايضاً في بروز مرحلة توقف ابتداء من منتصف القرن الثالث ، وهو التاريخ الذي يحدّد التقليد فيه بـ ٣٠٠٠٠٠ تقريباً عدد المواطنين البالغين ١٧ سنة على الاقل ، في حال انه يرفعه في اواخر القرن الثاني الى ٤٠٠٠٠٠ فقط بعد إنزاله الى اقل من ١٥٠٠٠٠ . ولكن « الحرب الاجتماعية » ، في اوائل القرن الاول ، تقود روما الى فتح ابوابها لجميع الايطاليين : فأصبح عدد مواطنيها ٩١٠٠٠٠ في السنة ٧٠ . وازداد التوسع بعد ذلك ازدياداً مطرداً سريعاً ، حتى في مصلحة سكان الاقاليم ، اما بفعل الانعامات المتفرقة التي لجأ اليها القادة في بلدان هدّأوها ونظموها ، كما فعل بومبيوس منذ السنة ٧٢ في قلب البرانس (البيرينيه) وكرر فعله في الشرق في السنوات ٦٧ – ٦٢ ، واما بفعل الانعامات الشاملة التي استصدر قيصر قراراً بها في السنة ٤٩ لمجموع « غاليا » الواقعة وراء جبال الالب .

هل يتمّ ذلك عن تدبير اناني ام عن سخاء؟ لا شك في ان روما تخضع لما ترى فيه مصلحتها . فهي تريد بذلك مواردها البشرية لتجنيد جوقاتها وتأسيس مستعمراتها : في اواخر القرن الثالث استشهد احد الملوك المقدونيين بها وبالفائدة التي تجنيها من أساليبها كي يطلب الى إحدى المدن التسالية استقبال مواطنين جدد. وهي تدرك ايضاً انها تقلل بعملها هذا من مرارة الشكاوى التي قد تدفع الى الثورات ، ويثبت اخلاص سواد الايطاليين الاعظم في أسوأ ساعات الحرب ضد هنيبعل ، انها لا تتعامل دائماً مع ناكري الجميل . وليس من شك ايضاً في انها تستوحي ،

ومنذ عهد مبكر ، نظرة أكثر شمولاً منها في المدينة اليونانية ، اذ انها تزيل الحدود البشرية التي علقت المدينة اليونانية على الاحتفاظ بها أهمية كبرى . وهي فخورة باسمهـــا ، وليس حق مواطنيتها بالقب الباطل ؛ ولكنها تتحاشى ان تجعل منه احتكاراً محصوراً في طبقة وراثيـــة ضيقة . وقد اعتمدت ، منذ عهد مبكر جداً ، ودون ان يضطرهـــا الى ذلك شيء ، سياسة لم تتراءَ اثينا الديموقراطية امكان اعتمادها إلا ساعة انهيار امبراطوريتها . وينطوي مجرد هـــذا التجديد على أهميـــة عظيمة : فللمرة الاولى في التاريخ يرفع المنتصرون المغلوبين الى مستواهم ويدخلونهم في شراكتهم . وكم يؤثر في النفس مدى تطبيق روما لهذا التجديد الذي أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شمل عالماً بأكمله .

غير ان روما لا تسير قدماً في التجديد . فقد تنكرت لمثـــال المدينة المحصورة كما نادى به افلاطون وارسطو وأبقت على نظم أصبح من السخرية تطبيقها على توسعها البشري والاقليمي . وقد سبق لارسطو ان أكّد انه « لا يبقى هنالك من مدينة اذا بلغ مواطنوها الـ ١٠٠ ٠٠٠ » . بيد انَ روما قد تجاوزت هذا العدد تجاوزاً كبيراً وبقيت ، على الرغم من ذلك ، منظمة كما لو كان مواطنوها ١٠ ٠٠٠ او ٢٠ ٠٠٠ . وغني عن القول ان نظمها قد تطورت ، اذ لا شيء يبقى جامداً طيلة خمسة قرون . ولكن تطورها زاد من خطورة المعاضل بدلاً من ان يحلّها .

الاقليم والتقسيمات القانونية

ان تتبع مراحل هـــذا التطور يتجاوز امكانات بحثنا . فمع اسفنا للتضحيات الضرورية ، نكتفي بالنظر الى الدولة الرومانية في آخر القرن الثالث والنصف الاول من القرن الثاني . كان اقليمها اذ ذاك منبسطاً جداً .

فهناك في الدرجة الاولى مدينة روما نفسها . ان الارض القائمة داخل اطار مكرس وفاقاً للطقوس لتكوّن المدينة بالذات . هنا يجب تنفيذ كافة الاعمال الهامة في الحياة الدينية والحيـــاة السياسية . ولا مكان في هذه الاعمال لفكرة القوة : فـلا وجود اذن للسلطة العسكرية في هذا الاطار؛ ويتوجب عـلى مرافقي القضاة ، حين دخولهم اليـــه ، ان ينزعوا فؤوسهم من حزمة القضبان ؛ ولا يجوز لاحد ، باستثناء الاحتفال بموكب النصر ، ان يظهر فيه باسلحته او ببزته الحربية . وبديهي من جهة ثانية ان المساكن مالبثت مع الزمن ان تجاوزت هذا الاطار ، فكان ان بعض الانظمة ، المطبقة فيـــه فقط ، – بصدد حقوق الضباط ، مثلاً – قد اصبحت تطبق في دائرة اوسع .

ولكن روما هي « المدينة » ايضاً كما طاب لمواطنيها حينئذ وكما سيطيب لهم اكثر فاكثر ان يدعوها : والمقصود بذلك المدينة الكبرى والاقوى من كل مدينة سواها ، التي يشع مجدها وسلطتها بعيداً .

بين بحرين ، وباستثناء بعض النواحي الصغرى ، يؤلف اقليم المدينة نفسهـــا ، الذي يكون فيه السكان الاحرار مواطنين عادة ، معيناً كبيراً يبلغ ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً : وهو لا يشمل سوى منطقة صغيرة جداً من الاتروسك، بحيث ان زاويته الغربية لا تبعد عن مصب نهر

التيبر الا مسافة قليلة . ويبلغ مجموع مساحة هذا المين ٠٠٠ ٢٥ كيلومتر مربع ، روما هي المدينة الوحيدة فيه ، وبالتالي المركز الوحيد لكل حياة رسمية . ولا تحتل المجموعات السكنية الاخرى سوى مرتبة القرى ، وتحمل اسم « البلديات » او « المستعمرات » احياناً حين توطن روما فيها رجالاً تقطعهم بعض الاراضي . ولهذه المجموعات انظمتها المحلية ، ولكن استقلالها الداخلي يبقى محدوداً جداً بفعل خضوعها لاوامر ورقابة الحكومة المركزية .

لروما « حلفاؤها » ايضاً ، وتنطبق هذه التسمية الرسمية على مـا تبقى من شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص . ولكن بعض المدن الايطالية تؤلف « الحلفاء ذوي الاسم اللاتيني » ، وليس لهـذا التعبير مدلول جغرافي بل قانوني فقط . فالمقصود بهذه المدن تلك التي يتمتع مواطنوها بحق شخصي شبيه بحق المواطنين الرومانيين . وان هذا النظـام الذي ابتكر في الاساس لمدن الحلف اللاتيني المنضمة الى الاقليم الرومـاني منذ عهد قديم ، قدطبق على مدن اخرى بعيدة وعلى « المستعمرات اللاتينية » المؤسسة على صورة « المستعمرات الرومـانية » ولكن لنفعة غير المواطنين . اما « الحلفاء » دون تحديد فقد عقدت معهم روما معاهدات تنطوي بنودها على تنوع كبير : تخلت على العموم عن كل حرية في نطاق سياستها الخارجية . ولكن جميع هذه التمييزات ، في الحياة العملية ، تفقد الكثير من اهميتها . وتدرك روما انها على جانب من القوة تستطيع معه ان تتخطى الحدود التي يضعها العرف وحتى النصوص امام سلطتها : وليس من رادع ضميري يحول دون تصرف حكامها تصرف الاسياد ، قولاوفعلا ، في علاقاتهم مع « الحلفاء » لا فرق اذا كان هؤلاء « ذوي اسم لاتيني » ام لا .

ماذا نقول بالتـالي عن الولايات ، غالبا ما وراء الالب ، صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، اسبانيا ؟ كل شيء فيها ، سكان وممتلكات ، ملك لروما بفعل الحق الذي يعطيه النصر : ويعود لها وحدها أمر تعديل « قانون الولاية » . واذا ما بقيت ، داخل اقليم الولاية او في جواره ، مدن او شعوب تدين بلقب « الحلفاء » بسبب سلوكها ابّان الفتح ، فان روما تميـل الى عدم الاكتراث ، شأنها في ايطاليا ، بالمعاهدات التي أحسنت بها على هذه المدن وهذه الشعوب .

فهنالك اذن ، منذ هذا العهد ، أقاليم واسعة الأرجاء ومصائر وحياة ملايين عدّة من البشر تتصرف بها الحكومة الرومانية .

جمهورية ذات دستور « مختلط »

اننا لحسن الحظ نعرف هـذه الحكومة معرفة حسنة في تنظيمها وسيرها على السواء . فروما جمهورية منذ آخر القرن السادس ، وهو التاريخ الذي يعينه التقليد لنفي تاركوينوس الثاني ، ويحدّد فيه انهيار الملكية وتحرير السيادة الاتروسكية . وقـد قضت بعض الموجبات الدينية بالابقاء على « ملك الضحايا » لا يستطيع ان يمارس أية وظيفة عامة أخرى . وفي حال شغور مراكز القضاء العليا ، يلجأ احياناً الى « ملك مؤقت » لا تتجاوز مدّة سلطته القصوى خمسة ايام ، ويخلفه ملك مؤقت آخر اذا

استمر الشعور مدة اطول . فقد مقتت روما لقب الملك في مفهومه العادي ، وسيهلك قيصر بخناجر المتآمرين لأن نفسه قد سوّلت له ان يحمله .

ولكن هنالك أكثر من مثال الجمهورية. وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها أكثر من شكل. فقد بدا تنظيمها للاغريق الذين حاولوا اذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط الذي سعى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الاعلى : دستور يستفيد في آن واحد من حسنات الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن كل من هذه الانظمة ويعدّل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وإفسادها . وبوليب هو أشهر هؤلاء الاغريق وأكثرهم إعجاباً ، وقد وصلت الينا نبذ هامة من البحث الذي كرسه ، في اواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تكوّن الاساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي قد يحاول هذا او ذاك القيام به اليوم . ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته : فاذا اعتبر بوليب نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى او يتظاهر بأنه لا يرى ان التوازن الذي يغالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً .

١ - الظاهر الملكي

مناصب القضاة

منصب القاضي ، «السلطان» والدولة

يرى بوليب الملكية في القنصلية . والافضل ان يقال بمعنى اوسع ، انه يراها في مفهوم منصب القاضي . نعم ان الدكتاتورية منصب قضاء استثنائي ، فانها تنطوي على طابع اكثر ملكيـة منه في القنصلية نفسها ، وليس القضاء ، اقله في بعض مظاهره ، ببعيد عن هذه الحقيقة ايضاً . ويستلزم التمييز بين مناصب القضاة العليا مقياساً لهذه الغاية . فما هو هذا المقياس ؟ هل هو « السلطان » *Imperium* ام السدة العاجية ، أم اهمية الوظائف الدينية ؟ ان لكل هذه المقاييس اهميتها . ولكن اعتماد كل منها ينتهي الى اختلاف في التصنيف : وقد تردد الرومان انفسهم معتمدين هذا المقياس تارة وذاك تارة اخرى . وخليق بنا ان نستغني عن هذا التوزيع ونقتصر على الفكرة العامة . فالقنصلية في الحقيقة هي التي تعطينا افضل مثل عنها لانها خير حافظ على وحدتها الاولى ، اذ انها حلت محل القضاء بظهورها بعده . ولكن مناصب قضاة اخرى مختلفة ، وان احدثت دون منطق ، بحسب الحاجات او الظروف ، تعكس ايضاً ، في بعض الاحيان ، المثال الاول .

ومما يزيد في اهمية هذه الفكرة انها مبتكرة . ولا يوجب القول بذلك ، على كل حال ، ان يعود الفضل في احداثها الى روما : فان معلوماتنا الاولية حول المدن الاتروسكية والايطالية لا تسمح لنا بنفي الاقتباس عن إرث جماعي . اما الواقع الذي يجب التشديد عليه ، فهو انه ليس ما يوازي ذلك عند الاغريق .

• تشتق كلمة *Magistratus* ، التي تطلق في آن واحد على الوظيفة والقائم بها ، من كلمة

Magister « المعلم ». ثم ان *Magis* تعني « اكثر » ؛ لذلك فالقاضي هو « اكثر » من مواطن . فهو ، من حيث تعريفه ، ليس بخادم الجماعة ، او منفذ لقراراتها او خاضع لرقابتها واوامرها أو قابل العزل بإرادتها : هذا هو القاضي في الديموقراطيات اليونانية ، أو بالأحرى ما يضطرنا فقر المفردات التاريخية الى تسميته بهذا الاسم الذي احتفظت اللغة الفرنسية ، مع ذلك ، باطلاقه على القاضي (*Juge*) ببعض مفهومه اللاتيني . واذا ما عين القاضي الروماني وفاقاً للأنظمة ، يتسلم بالوقت نفسه ، بمعزل عن الجماعة ، وفوق الجماعة ، سلطاناً مستقلاً ، يجعل منه تجسيداً للدولة ، وممثلاً ومستعملاً لسلطتها . سلطان وسلطة : وهنا ايضاً يردّ التضايق الى غموض المفردات العصرية ، وعدم انطباقها على الوقائع التي ليست مجرّد فوارق ، على الرغم من مرتكزها المثالي . كان الرومان يتكلمون عن الـ بوتستاس *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك ، فنترجم نحن *Potestas* « بقوّة » ، في حال ان ما كان يقصد بها هو إمكانات العمل الخاصة بمنصب ما ، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الأنظمة اليونانية . ولكنهم كانوا يميزونها نظرياً عن « السلطان » ، وهو مفهوم اوسع وأرفع ، وخاصية لمناصب قضاء عدّة والدكتاتورية ، والقنصلية والقضاء : فكان يعني ، في حال المحافظة على وحدته ، السلطة العليا في الدولة ، وحق القيادة في الحياة المدنية (« في البيت »)والحياة العسكرية . وهذا بالضبط ما جهله الاغريق .

أمام هذا الخلاف الاساسي، بين الاغريق والرومان ، يستهوينا كثيراً ، ان نربطه بالخلاف الذي بدا لنا سابقاً . فعلى نقيض روما التي تمنح حق مواطنيتها بسخاء ، تضن المدن اليونانية به ، وليس لديها ، عوضاً عن القضاة ، سوى موظفين فحسب : ولا شك في أن هذين التناقضين يمكسان ، على مستويين مختلفين ، تناقضاً واحداً أعظم عمقاً . فالمدينة في نظر الاغريق هي قبل كل شيء ، في جوهرها ، جمهور المواطنين : جمهور له فرديته ، وطدت وحدته الوراثة الطبيعية والاتحاد الروحي ، الذي تتيح هذه الوراثة تفتحه ، وبالتالي جمهور معادٍ لانضمام عناصر أجنبية ، يمثل في نظره تنازلاً وإفساداً يفقده مزايا أصله ، واخيراً، جمهور ذو سيادة في وحدته المحكمة الإقفال يجهل ، باستثناء الآلهة الذين يحمونه ، كل ما هو سواه . أما الأساس الروحي للمدينة الرومانية فغير ذلك . فالمواطنون يقرون بأن لروما وجودها بدونهم وبأنها ، اذا ما تجسدت في الكائن الجماعي الذي يؤلفونه عندما يجتمعون ، تتجسد أيضاً ، في بعض الرجال الذين يمنحون بعض الضمانات . وحين يتكلم هؤلاء الرجال ويعملون باسم المدينة ، يمارسون حيال المواطنين سلطة ينحنون أمامها . فمن الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، أن يشعر جمهور المواطنين ، وهو أقل تفاخراً بسيادة لا يحتكرها ، بأقل كراهية لانضمام الغرباء اليه . ولكن الديموقراطية الرومانية ، على كل حال ، لا تتمتع بملء حريتها لكي تتفتح ، إذ انه يتوجب عليها ، أقله نظرياً ، وعملياً ايضاً في غالب الأحيان ، أن تحسب حساباً لسلطات اخرى .

الرواسب الملكية

تمثل مناصب القضاء إحدى هـــذه الـسلطات ، وليس من شك ، باستثناء المناصب الخاصة « بعامة الشعب » ، في ان اصولهـا ملكية . وان في بعضها استمراراً للملكية في كالها تقريباً ، لا سيا حين تمارس قيادة عسكرية . ولم ترث مناصب أخرى عن الملكية سوى قسط محدود من خاصّياتها وسلطتها . بيد انهـا كلها ، باستثناء المنصب المحصور دوره في التنفيذ والادارة المالية ، تتمتع بسلطة مستقلة لا يفوقها ، في حال المنافسة ، إلا سلطة منصب أرفـع . ويكفي ان نجمع بعض الخطوط ، باستعارتها خصوصاً من المناصب المنعم عليها بالسلطان ، لإظهار شأن هذه الرواسب الملكية .

ان القاضي الروماني ، وهو الوسيط الطبيعي بين المدينة والآلهـــة ، يتولى تقديم القرابين العامة ، ويعرب عن التمنيات التي تلزم رومـا ، ويدشن المعابد الجديدة ، وينظم الاعياد ، ويشرف على الاحتفال بها . وعليه ، وله وحده ايضاً ، قبل أي عمل يقوم به باسم المدينة ، ان « يستشير الطالع » ، أي ان يحاول بطرق مختلفة ، لا سيا بملاحظة طيران الطيور ، معرفة مـا اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع .

والقاضي هو مطلق السلطة كقائد جيش . يتمتع وحده ، في رومـــا وفي الحياة المدنية ، بحق دعوة الشعب ومجلس الشيوخ اللذين لا يستطيعان بدونه أن يجتمعا أو ان يدرسا قضية لا يطيب له عرضها عليهما . يوزع العدل وفاقاً لنظم وقواعد يحددها هو نفسه ، شريطة ان يعلن عنها . ينشر القرارات . يفرض أقسى العقوبات ، وقد درج على ذلك زمناً طويلاً ، على الذين يخرجون على أوامره العامة والخاصة . لا يمكن ان يعزل أو يحمل على التنازل او يلاحق عدلياً طيلة مدة ولايته .

ان في مثل هذه السلطة ما يبرر الاحترام اللائق به والشارات الخارجية التي تلفت الانظار إليه . يرتدي الحلّة المحشّاة باطار من الارجوان ويستبدله في الجندية بمعطف قائد الحرب، وهو من الارجوان الخالص. يجلس في الاحتفالات العامة ، بينما يقف المواطنون أمامه ، ومن حقه أن يجلس ايضاً على السّدة العاجية السهلة الثني . يتقدمه في تنقلاته جنود يحملون حزماً من القضبان تتوسطها فأس ، وترمز هذه وتلك الى قدرته على الإكراه ، أي على القسر والعقاب .

التقييدات الواقعية

ولكن هذا المنصب المثالي لا وجود له في الواقع ، حيث يجزئه ويحد منه عدد من الاعراف والمبادىء الدستورية .

فهنالك، في الدرجة الاولى، مناصب قضاء عدة ، ويمتلك أحدها، منصب المحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشلّ كافـة المناصب الأخرى . وهنالك أخيراً اكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب . ولم ينتج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ؛ ولكن مدّتهـا لا يمكن ان تتجاوز ستة أشهر .

ولا تدوم المناصب الاخرى طويلاً ايضاً ، من جهـــة ثانية ، على الرغم من تعدد شاغليها

الأصيلين . وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل مـا هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص عـلى ان لا يستمر فيها أحد زمناً طويلاً . فاذا حق لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة أن لا يستقيلوا إلا بعد سنة ونصف ، فان القضاة الآخرين يتنازلون كلهم ، بعد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم . أضف الى ذلك ان الاحتياطـات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو إعادة انتخابهم في موعد قريب : فبينا استطاع بريكليس ، بطريقة شرعية بدءاً ، ان ينتخب قائداً في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في رومـا ، منذ اواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لإعادة الانتخاب للقنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام التربّع فيها مغرياً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس ان منصب المحامـاة عن حقوق الشعب قد يكون مغرياً ايضاً . ويحول قانون صادر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يجيزها مجدداً سوى « سيلاّ » بإعادة فرض فاصل السنوات العشر . واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عليـاً ، بعض السيئات ، فانه يوحي مع ذلك بالروح التي يستلهمها النظام .

ومن المهم ايضاً تبيان المدى الحقيقي لتعدد الشاغلين . فعـلى نقيض المدن اليونانية ، حيث يعقد القضاة الاجتماعات ، عادة، ويتخذون مقرراتهم بالأكثرية ، نرى ان احترام روما للسلطة المستقلة التي ينعم بهـا كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن اعمالهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الخدّاع يحدّ من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها . فهنالك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الأعلى بالنسبة لقرار مَن هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تشبث الواحد منهم فقط لإبطال ما يقرّ عليه رأي عدد من زملائه . وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة اخرى ممتنعة سوى هذا النقض فحسب .

فهل السلطة القضائية وحق اصدار البراءات أعظم استقلالاً ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته وظيفته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عادياً : فهو معرّض إذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لأن المدّعين الجسورين كثيرون . وعليه ايضاً ، ان يحسب للعرف والرأي العام حسابهما : فبينا يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يلمح له ، بنشر بيانه حين تسلّمه العمـل ، ان يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سيبتّ بها ، فانه لا يحدث شيئاً الا بحكمة ويقتصر عمليـاً ، في اكثر الأحيان ، على اعادة بيان سلفه . ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمـل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث .

وما القول عن حق القسر ؟ يقابله حق العودة الى الشعب . ان هذا الحق الاخير لقديم حقاً ،

ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بارجاعه الى عهد الملكية . وهو يوحي المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفردية ، وللمقارنة بينه وبين قانون *Habeas corpus* البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبررها كل التبرير . فهو يفتح في الواقع ، امام كل مواطن روماني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسدية : فلا يبقى امام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة . اجل لم يكن لهذه الحماية من وجود في البدء سوى على ارض الاقليم الروماني . ولكنها تمتد رويداً رويدا حتى تشمل ايطاليا والاقاليم الاخرى ؛ لا بل ان بعض القوانين جعلتها تشمل الجيوش في اوائل القرن الثاني .

لا شك في ان بعض القضاة ، لا سيما في ظروف معينة ، تصرفوا بحرية حيال هذه الاوامر : ويكفي لذلك ان نذكّر باعتراض بوبليوس غافيوس المؤثر – *Civis romanus sum* ، « انا مواطن روماني » – اثناء ضربه بالعصي وموته بعقوبة الصليب المخزية الخاصة بالعبيد ، تنفيذاً لامر « فيريس » قاضي صقليا . وفي مستنداتنا امثلة اخرى كثيرة ، دون هذا المثل شهرة لانه اعوزها فن شيشرون وحيّاه لابرازها ، ولكنها ليست دونه تعبيراً . وقد اصدر القنصل شيشرون نفسه – محتميا في الحقيقة برأي ابداه مجلس الشيوخ – قراراً بخنق شركاء كاتيلينا في المؤامرة ، في سجنهم . وأي نظام يذهب في احترام شرعيته نفسها الى حد الامتناع عن الاعتقاد بان « السلامة العامة هي القانون الاخير » ؟ واذا لم يجب فيريس على خطاب شيشرون حول العقوبات ، الذي لم يلق قط على كل حال ، فقد استطاع احد المؤرخين اخيراً ان يقدم لتبرئته اكثر من حجة لها وزنها .

بديهي ان الجيوش هي التي حصلت فيها اكثر واخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » وحياة المواطنين من تعسف القضاة : فقد امر « كراسوس » و « قيصر » بالاقتراع على تعيين واعدام رجل من اصل كل عشرة رجال بين الفارين او العصاة . اجل ان للنظام العسكري موجباته التي لا يستطيع اكثر الناس تساهلاً ان ينكرها – ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيما العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية – ولكن ما لا شك فيه ، اذا ما وضعنا هذه الضرورات جانباً ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملكيين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، اكثر بروزاً خارج روما منهما داخل روما والاقليم الروماني بالذات . فهو وحده في الخارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان برأسهما قاضيان متساويان ، القنصلان مثلاً ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوماً واحداً بالمناوبة . ثم ان بعده يخفف من الوصاية التي يستطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، اخيراً ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي امتنه عليها ويتماظم بالقوة المعنوية التي تتجسد في شخصه : فلا يكون رجلاً اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالها .

وقد اعترف الرومان انفسهم بان الحاكم ، اي القاضي ، ملك في اقليمه : وسنرى ان ذلك لم يعد بالخير لا على الاقاليم ولا على روما .

مناصب القضاء

ليس من الضروري لعمري ، بعد هذه النظرة العامة ، ان نستعرض بالتفصيل مناصب القضاء المختلفة .

الدكتاتور قاض استثنائي يختاره ويعينه احد القناصل ، بناء على دعوة مجلس الشيوخ في الواقع . ومن حيث انه لا يخضع لأية رقابة او نقض ، فان له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السواء . فيتضح من ثم ان أمر تعيينه انما يتقرر لمواجهة الاخطار القصوى ، كتهديد أجنبي مداهم او فتنة خطيرة . ولكن آخر دكتاتور من هذا النوع قد عين في السنة ٢١٦ ، غداة معركة «كانا» وقد عيّن البعض منهم بعد ذلك ، وكلّفوا القيام ، في غياب القاضي الاصيل ، بطقس ديني او سياسي ؛ ولكن ذلك لا يخرج عن مجرد حيلة في الاجراءات الرسمية . ثم انقطعوا نهائياً عن اللجوء الى هذا المنصب . اما دكتاتورية « سيلاّ » و « قيصر » فليس ما يجمع بينها وبين الدكتاتورية الرسمية القديمة سوى الاسم فقط : فهي تصديق شرعي لاستبداد أقيم بقوة السلاح .

وتتوج وظيفة مراقب الاحصاء والاخلاق العامة المناصب التي يتألب فيها كبار رجال السياسة مقاماً ، ولكنها لا تستلزم امتياز « السلطان » . وقد درجت العادة حتى اوائل القرن الاول ، تاريخ انتشار الفوضى ، على انتخاب مراقبين اثنين كل خمس سنوات . وتنطوي مهمتها ، التي تنتهي باستعراض عام يرافقه احتفال يشتمل على ذبيحة كبرى وتطهير ونذور ، على تنظيم الشعب في سبيل حاجات المدينة العسكرية بنوع خاص . فيقومان ، تحقيقاً لهذه الغاية باحصاء الاشخاص والممتلكات؛ ويوزعان المواطنين طبقات ووحدات تضم كل منها مائة شخص ويضمان بنوع خاص لائحة بالشيوخ ولائحة بالفرسان يستطيعان ان يقصيا عنها اولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة . ويحدّدان ، لمدة خمس سنوات ، قيمة الضريبة ويلزّمان الواردات والنفقات العامة .

ولكن ما قيل عن منصب القضاء بصورة عامة ينطبق بنوع خاص على القنصلية ، وريثة الملكية الزائلة . فالقنصلان اللذان ينتخبان لسنة واحدة يطلق عليها اسماهما ، يمنحان ملء « السلطان » أي «سلطان البيت» و « سلطان الجندية » . لا ينقطعان عملياً الى الشؤون المدنية ، حتى خلال القرن الثاني ، إلا في فصل الامطار ويقضيان ما تبقى من السنة في احد الاقاليم على رأس جيش من الجيوش . بيد ان هذا الحل الفاسد ، الذي جاز اعتماده حين كانت الحروب تدور على مقربة من روما ، ينطوي اذ ذاك على مساوىء خطيرة . وسيقتضي مع ذلك انتظار « سيلاّ » في اوائل القرن الاول لاعتماد حلّ آخر كان لا يزال مطبقاً في اواخر الجمهورية . فالقناصل منذ ذاك التاريخ يبقون في روما طيلة سنة ولايتهم ويتولون فيها الحكم المدني فقط . ثم

كلّفوا ادارة شؤون احـــد الاقاليم باسم « بروقنصل » الذي اطلق من قبل عليهم حين كانوا يحتفظون بقيادتهم الى ما بعد الاجل القانوني لوظائفهم .

وكان القضاة العدليون ، في اول عهد الجمهورية ، هم القضاة الرئيسيين . ولكن خلق مناصب القناصل قد أنزلهم الى المرتبة الثانية . بيد انهم استمروا في استلام « السلطان » . وأسند الى اثنين منهم القضاء المدني : الاول، « قاضي المدينة » ، للنظر في الدعاوى بين المواطنين، والثاني، القاضي « المتنقل » ، للنظر في الدعاوى التي يكون احد الاطراف فيها أجنبياً . ومنذ نهـــاية الحرب البونيقية الثانية التي استولت فيها روما على صقليا ، عين قضاة عدليون آخرون كي تسند اليهم ادارة اقليم او قيادة اسطول او جيش صغير . وطبق عليهم سيلا اخيراً ، الذي رفع عددهم الكامل من ستة الى ثمانيـــة ، القانون المفروض على القناصل : فأصبحوا جميعهم يقضون سنة في روما متمتعين بصلاحيات عدلية ، ثم يعيّنون حكاماً في احد الاقاليم .

ويشرف نظار الابنيـــة الاربعة على شؤون الامن وصيانة الشوارع والابنية العامة وتموين الاسواق . وما كانت هــذه المهام التقنية لترتدي أهمية تذكر لو لم يضف اليها تنظيم الالعاب في مواسم الاعياد الدينية : فاستطاع النظار بذلك، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشخصية ، اكتساب شعبية تؤمن انتخابهم لمناصب القضاء العليا .

ليس ما يشبه هـــذه الاستعاضة عند القضاة الماليين – وكان عددهم ثمانية اذ ذاك ثم ارتفع الى عشرين في ايام « سيلا » والى اربعين في ايام قيصر – . فهؤلاء يكتفون بتأمين الادارة المادية لصناديق المال العامة ، بعضهم في روما بحسب مقررات مجلس الشيوخ ، والبعض الآخر ، بمعدل واحد في كل اقليم او جيش ، بحسب اوامر القاضي الذي يخضعون لسلطته .

منصب المحاماة عن حقوق الشعب

يجدر بنا ، دون ان يشمل هذا الاحصاء المناصب الدنيا ، ان نفسح مكاناً خاصاً لمنصب المحاماة عن حقوق عـامة الشعب . فجميع ميزاته ، باستثناء بعضها مما تتصف به مناصب النظار المنتمين الى عامـة الشعب ، كالقدسية مثلاً ، تفصله عن مناصب القضاء الاخرى ، وهو يلعب احياناً دوراً اولياً في الحيـــاة السياسية الرومانية . ولا ريب في انه ، بصورة عامة على الاقل ، تجديد مبتكر يفسره وضع المدينـــة الداخلي في القرن الخامس قبل المسيح وحدّة الصراع القـــائم آنذاك بين عامة الشعب وطبقة الاشراف المسيطرة على كافة مناصب القضاء .

ان « قدسية » المحامي عن حقوق الشعب ، التي تؤمن له الحرمـــة ، قيمتها الدينية : نجس وملعون كل من يجرؤ على ان يمد اليه يداً او ان يقف في وجهه . كان في الماضي يدفـــع المجرم بنفسه من اعلى الصخرة « الطاربية » ، واذا ما اكتفى ، حتى في القرن الاول ، بالتهويل بخطر هذه العقوبة القديمة ، فقد حدث له ان ضرب المجرم بيده والقـــاه في السجن ، حتى ولو كان احد القناصل . فمن البديهي ان توفر له هذه الامتيازات الهـــائلة كل حرية في ممارسة صلاحياته .

ليست اكثر هذه الصلاحيات بالايجابية . وليس لمهامـــه نطاق خاص به . ولا يستلم « السلطان » . ولا يمثل روما ولا عامة الشعب نفسها التي تنتخبه ، ولكن لديه كافة الوسائل المفيدة للدفاع عن افراد عامة الشعب ، فرديا ام جماعيا ، ضد كل معتد ، باستثناء الدكتاتور الذي يقضي تعيينه بتعليق حقوق هذا المحامي. وانهذه الحقوق التي يمارسها على هواه تحمل اسماء وترتدي اشكالا متنوعة : « العون » الذي يقدمه لمواطن يهدده احد القضاة ، « والاعتراض » على عمـــل او قرار ، حتى « النقض » المسبق لمشروع قانون ما . يضاف الى جميع هـــذه الصلاحيات السلبية والهدامة ، منذ البداية ، حق واحد ايجـــابي ، اعني به حق دعوة عامة الشعب الى جمعية لحلها على الاقتراع على احد المقررات : ونرى في الواقع ، منـــذ اوائل القرن الثالث ان لمقررات عامة الشعب قوة القانون . بيد ان العرف الذي استقر خلال الحرب البونيقية الثانية والذي اجاز له جمع مجلس الشيوخ لعرض قضية من القضايا عليه،قد زاد بلا شكمن نفوذه دون ان يزيد من سلطته الراهنة .

وهنالك ، بالاضافة الى الدكتاتورية ، استثناء واحد ذو طابع اقليمي جغرافي يحدّ مـــن صلاحياته . فان هـــذا المحامي يغدو مواطناً عادياً اذا ما بعد مسافة ميل(١٤٧٩ م) عن اطار روما . وهذا يعني ان ليس له من سلطة على الجيش ، اذ قد بدا غير معقول ابداً ان يولى حقاً قانونياً في معارضة سلطة القائد العسكري وهي مطلقة بالضرورة . ولكن أهم اعمال الحكومة المدنية تجري ضمن هذا الاطار . لذلـــك فان منصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب يمثل قوة عملية عظيمة .

دوره التاريخي

يمكنه ، اذا ما اكتفينا بظواهر الامور ، ان يشلّ كل حياة سياسية وادارية في المدينة . وان ما يحمل المدينة ، في الواقع ، يأمن من هذا الخطر ، هو ان عشرة أشخاص يشغلون منصب المحاماة في آن واحد، وان باستطاعة كل منهم ان يمارس سلطاته السلبية ضد أي من زملائه وحتى ضد التسعة مهما بلغ من موافقتهم على عمل مشترك . وليس في تاريخ الجمهورية الرومانيـــة كله سوى حالة واحدة عزل فيه محام عن حقوق الشعب بسبب تصلبه ، أعني به « أوكتافيوس » الذي اقترعت عامة الشعب ، في السنة ١٣٣ ، على نزع سلطته لأنـــه تشبث بحق النقض بصدد مشروع القانون الزراعي الذي تقدم به طيباريوس غراكوس والمحامون الثمانية الآخرون ، ولم يستند الى هـــذا التدبير كسابقة فيما بعد . ولنفكر الآن ، لاظهار الفرق، بالسهولات التي كانت لدى الديموقراطية الاثينية لنزع السلطة عن قضاتهـــا والتي لجأت اليها حتى ضد بريكليس : وهذا دليل واضح جديد على ان مفهوم القاضي الذي يمثل الشعب والذي يمكن عزله اذا ما فقد ثقة الشعب هو يوناني لا روماني . بيد انه من البديهي ، بالتالي ، ان عمل المحامي غالباً ما يمنى بالعجز : ويكفي الاحتمال السيكولوجي وحده للاقتناع بأن مستغلين كثيرين ، لا بل خونـــة كثيرين ، وجدوا مكاناً لهم بين عشرة رجال ينتخبون ويجددون كل سنة في نظام لم

يعرف احزاباً منظمة على الطريقة العصرية .

على الرغم من هذا الضعف ، أثار عمـل الحامي ، أكثر من مرّة ، مصاعب خطيرة في وجه المسؤولين الرومانيين . ففي قلب دولة يقضي مفهومها الاساسي باعطاء المدينة وجوداً مستقلاً ، في حدّ ذاته ، عن الواقع البشري الذي يكوّنها ، فيضع المواطن في خدمة الدولة قبـل وضع الدولة في خدمة المواطن ، كان وحـده ، مع حق رفع الدعوى امام الشعب ، رادعاً لعمل المسؤولين وعنصر دفاع عن شخص المواطن ، وبالتالي قوة تقابل سلطة الدولة المطلقة . واذا كانت الجمهورية الرومانية ، التي صممته ونفذته ، قد وجدته موافقاً لوجودها وسيرها ، فيجب ان نرى في ذلـك موضوع مراهنة ؛ وقد قدّم الشعب الذي تقيّد به برهاناً ساطعاً عـن تفرده ونظاميته .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بكماله المثالي، اذ انه قد أسهم في النهاية بايصال روما الى الفوضى. ففوق استخدامه كأداة معارضة سلبية، استخدمه بعض الرجال الحازمين، الذين يحسنون سياسة الطبقات الشعبية ويعرفون ما يريدون ، ليس كأداة بلبلة فحسب ، بل كأداة تنظيم وعمل ضد الطبقة الحاكمة . وهو لم يسمح بتعهد وتغذية غليان جراثيم الثورة فحسب ، بـل اتاح فرص اصلاحات وحلول جديدة . ولنضرب صفحاً ، للدلالة على ذلك ، عن القرون الاولى التي يختلط فيها التقليد بالأساطير . ولكن فلامينيوس ، قبيل الحرب البونيقية الثانية ، قد قاد ، كحام عن حقوق الشعب اولاً ، ثم مع الحامين الآخرين زملائـه ، معركة بناءة ضد الارستوقراطية . ثم فتحت أزمة حرب هنيبعل الطويلة ، بتبريرها تقوية وتوحيد السلطة ، عهد احتجاب الحاماة عن حقوق الشعوب ، التي روّضها مجلس الشيوخ آنذاك .

بيد ان ذلك لم يمنعه ، ابتداء من السنة ١٣٣ ، مـن ان يستعيد استقلاله وفاعليته في ايام الاخوين طيباريوس وكايوس غراكوس اللذين شغلا كلاهما هذا المركز ، الاول في السنة المذكورة والثاني بعده بعشر سنوات ، واللذين تمّا كلاهما وتوفقا الى تجديد انتخابها ، فبعثا الحركة الشعبية وأدخلا اليها ، روحاً نضالية مضطرمة وأوحيا لها مرّة أخرى، بمثلها وحتى بموتها، القوة التي ينطوي عليها مثل هذا السلاح . فخدم هـذا الوحي « الشعبيين » ، ولكنه خدم المفسدين والمتطرفين والطامعين ايضاً . وبين موت كايوس غراكوس ونهـاية الجمهورية ، باستثناء الفترة القصيرة التي لاشت فيها قوانين سيلاّ عملياً سلطة الحامين عن حقوق الشعب، تمثل أسماء ماريوس وغلوشيا وساتورنينوس ودروزوس وكلوديوس وكوريون وانطونيوس — وكان هذان الاخيران مجرّد عميلـين لقيصر — حلقات سلسلة طويلة من الحامين الذين لم ينظر اليهم الافاضل (*Optimates*) نظرة رضى . ولم يرض عنهم النظام الجمهوري كذلك . فقد كشفت هذه الحاماة الغريبة آنذاك عن حقيقة طبيعتها : جهـاز دولة محدث للحيلولة دون تجاوزات الدولة ، لديه وسائل أعظم من ان لا يدعوه امتلاكها لاستخدامها بغية شل الدولة شلاً دائماً .

« تسلسل الامجاد »

على الرغم من ان الحاماة عن حقوق الشعب مدينة بأحداثها الحذر الذي توحيه مناصب القضاء الأخرى في الحكومة والادارة ، فانهـــا تدخل مع ذلك ، في نظام مراتب هذه المناصب الذي يمكن القول فيه انه سيرة الاشخاص . ومن حيث ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتتيح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانهـا « أمجاد » تعتز بها حياة المواطن ولا يهمل ذكراها الخفدة . ولكن هذه الأمجاد غير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولة بلوغ أرفع الأمجاد سمواً التي تسند الى شاغلين أصيلين قليلين . لذلك قد يكون أعظم تدابير سيلا فاعلية ضد الحاماة عن حقوق الشعب إقفال باب المناصب الأخرى في وجه من مارسها : فبينما كانت توفر حتى ذاك العهد إمكان الحصول على الشهرة ، اذا بها تكوّن ، حتى إلغاء قوانين سيلا ، طريقاً غير نافذة يتحوّل عنها اولئك الذين يتطلعون الى أبعد من ذلك .

وقد اعتمدت أكثر مـــن دولة ولا تزال تعتمد حتى اليوم ، أقلّه ضمناً ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامة ، استناداً الدليل البديهي الذي يقول إن الخـــبرة المكتسبة في أدنى الوظائف يبدو مفيداً في أعلاها . اما في روما فقد اتخـــذ شكلا صارماً هو « تسلسل الأمجاد » الذي نظم بكل عناية .

كان العرف والنظام الجاعي ، مدة طويلة ، كافيين لتجنيب السرعة في غير حينها . وخلال الحرب البونيقية الثـــانية ، اتاحت بعض الظروف الاستثنائية لشيبيون ان يحتل ، في عنفوان شبابه ، مركزاً لا نظير له. ولكن المنافسين برزوا في وجهه فلمس المسؤولون الحاجة الى رادع . فاكتشفوا دونما ابطاء المبادىء الاساسية : رفع السن التي يمكن ان تحصل فيها المزاحمـــة حول منصب القضاء المالي الذي اعتبر نقطة الانطلاق في « التسلسل » ، وذلك بايجاب تكريس عدة سنوات لخدمة الدولة قبل استلامه ، ايجـــاب المرور في مناصب قضاء اخرى ، وفاقاً لترتيب معين ، قبل محـــاولة بلوغ القنصلية ، ايجاب تمضية فترة محدودة بين تولي منصبين متعاقبين . ولكنهم بعد الموافقة على هذه المبادىء الثلاثة ، اخذوا يتلمسون طريقهم ، والمعـاصرون اليوم ابعد من ان يروا الفوارق التفصيلية بوضوح . ويبدو عمليـــاً انهم قد ساووا بين القضاء المالي والقضاء العدلي وبين الحاماة عن حقوق الشعب ونظارة الطرق والابنية العـــامة . وبينما كان بالامكان في القرن الثاني ممـــارسة القضاء المالي في سن السابعة والعشرين والقضاء العدلي في سن السادسة والثلاثين رفعت السن عمليا في القرن الاول الى التاسعة والعشرين للقضاء المـــالي والى الثانية والاربعين للقضاء العدلي .

وتوصلوا ، بالتوفيق بين القانون والعرف ، — لم يتناول الاحصاءَ ومراقبة الاخلاق العامـــة اي نص معين ، ولكن هذا المنصب اسند في الواقع الى قناصل قدامى — الى شبه هرم يتناقص فيه عدد الشاغلين الاصيلين من درجة الى اخرى ، الشيء الذي كان يسمح باجراء الاختيـــار .

وان في هذه الطريقة لاستجابة لبعض النزعات الفطرية في الذهنية الرومانية : حاجة الى النظام والى التسلسل المستقر . ولكن قرار الرأي على وضع صيغة شرعية لهذا التسلسل وعلى اثقال صعوباته وعلى المضي في تأخير بلوغ المناصب العليا ينم بنوع خاص عن انهيار النظامية الفطرية والخوف من المصائر « الخارقة » ! فارادت الطبقة المسيطرة الاحتماء من النجاحات الصاعقة . ولكنها اخفقت ، لا بل ان هذا الاحتباك الماهر قد أفسد احياناً بملء ارادتها . ويجدر بنا في الحقيقة ان نلاحظ ان قيصر الذي فاز عليها قد مر بانتظام في جميع المناصب ولم يشغل كلا منها الا « سنته » فقط اي دون تقدم او تأخير في السن الدنيا المحددة ، بينما طاب لخصمه بومبيوس ان يفيد على الدوام من استثناءات غير شرعية : واذا ما خالف نظام ما شرعيته بالذات ، ففي ذلك ابلغ دليل يقدمه هذا النظام على ضعفه .

٢ - الظاهر الديموقراطي
جمعيات الشعب

جمعيات الشعب في اليونان وفي روما

اذا كانت هذه الشرعية ، في ما يعنينا ، قد صممت بمثابة حيطة ضد الطامعين ، فقد حصرت ايضاً ، بشكل ضيق جداً ، حرية الاختيار المعترف بها مبدئياً للناخبين ، اي للشعب . وقد كتب بوليب : « لو نظرنا الى قوة الشعب ، لبدا الدستور الروماني ديموقراطياً بدون ريب » . ولكن ذلك ليس الا ظاهراً فحسب . فلم يكن كافياً ، على غرار العنصر الملكي الذي مثله القناصل ، ان تقابل هذا العنصر الديموقراطي قوى توازنه . اضف الى ذلك ان المواطنين وجمعياتهم كانوا منظمين بشكل تصبح معه دون جدوى ، في الظروف العادية ، سيادة تثبتها ، على الرغم من ذلك ، تسمية « الشعب الروماني » المستعملة رسمياً للدلالة على الدولة الرومانية .

لنعد مرّة أخرى الى المدينة اليونانية . أجل عرف المسؤولون فيها كيف يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وكل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثينا حين بلغ القمة فيها النظام الديموقراطي الراهن . ولكننا نلمس في الاعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمسّ جوهر الأمور : وبفضلها تتجلي حقيقة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة .

ان لأحد هذه الفوارق قيمة الرمز ، ولم يفت الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس اعضاء الجمعيات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ اما في روما فيقفون في ارض منبسطة ، امام الرئيس الجالس على منصة هي « المنبر » . وبديهي ان مدّة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي . ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين جموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم . فان الشعب المجتمع للمناقشة يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين . بيد ان هناك خلافاً في الذهنية : فهو يترفه في

اليونان ، كنظير على الاقـــل ، بينا يبدو طبيعياً للرومان ان يكون في وضع المرؤوس ، وهو يرضى بذلك . وان هذا الدليل ، يضاف الى غيره مما سبقت الاشارة اليه سابقاً ، يثبت ان مثالية المدينـة في روما تستلزم شيئاً آخر غير الشخص المعنوي الذي يكونه جمهور المواطنين ، شيئاً يشترك فيه القضاة ويجسّدونه .

وهنالك فارق آخر ليس بأقل مغزى . ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تحصى الاصوات على اساس الأفراد لا على أساس الكتـــل . اما في روما فالقاعدة المتمدة هي دائماً على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتاً واحداً يعبّر عن رأي أكثريتها الداخلية . ويعني ذلك ان الطريقة المتبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثيراً حاسماً على تشكيل الاكثرية الرسمية في الجمعية . وقد تكون هذه الاكثرية الرسمية مختلفة جداً عن الاكثرية الفعلية ، لأنه قد يقوم أكبر تفاوت عملي بـين مواطنين متساوين قانوناً ، بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصي داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعاً جداً او متدنياً جداً. ولنضف الى ذلك ، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترع في إطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراحـــه الى كافة اقتراحات اعضاء الجمعية . فقد يؤدي هذا النظام الى اكثر النتائج منافـاة للديموقراطية ، وقد أدّى اليه فعلاً كما سنرى ذلك . ولكن هل كان ارتقابهـــا السبب الرئيسي في اعتاد هذا النظام والإبقاء عليه يا ترى ؟ يجدر بنا بالاحرى ان نفكر باستمرار التنظيم الداخلي في المدينة والهيئة المدنية وقوة الحرص عليه . اجل لم تجهل المدن هذا الحرص لأن مواطنيها كانوا موزعين قبائل ؛ ولكنهم لا يعيرونه كبير اهتام في الجمعية ، بينا هو ذو سيطرة على كيـــان الجمعية وسيرها في روما . فيجب ألا نقلل من شأن هذا التناقض ، لأن جهاز المدينة السياسي يعكس نزعات أدبية ووقائع اجتاعية على السواء . وهو يؤدي الى استنتاجين ، اولها ان روما تضرب بمساواة المواطنين عرض الحائط بينا يطبق الاغريق مبدأها تطبيقاً واسعاً ، أقله في بعض المدن ، وثانيهما ان الدولة في روما أقل اهتاماً بالمواطن الفردي منها في اليونان ، إذ انهـا لا تريد معرفة رأيه ولا تجيز له الاسهام في تكوين الارادة الجاعية الا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام اليهـا : والحقيقة هي ان تحرّر الانسان المواطن تحرراً كاملاً ، هو مثـــل يوناني لا روماني ، واذا ما بدأ يظهر في روما ، بفضل علائقها باليونان ، في آخر عهد الجمهورية ، فهو لا يتوصل الى فرض نفسه لا على الأنظمة ، التي لم يتوفر لها وقت التكيف عليه قبل زوالها ، ولا على الاخلاق .

كان من المنتظر ، والحالة هذه ، ان تلجأ رومـا الى النظام التمثيلي . ومهما كان من المظهر المغالط الذي ظهر به استمرار الجمعيات اليونانية الاولى في بعض الحالات ، فان له تفسيره في التصميم على الحيلولة دون توسيط اي شي او اي شخص بين المواطن والمدينة . بيد ان الكتلة تتوسط بينهما في روما ، ولا يلزم سوى خطوة واحدة لتوسيط ممثل الشعب ايضـــاً . وكان من

الواجب ان يؤدي الى ذلك ارتفاع عدد المواطنين وتوزعهـم الجغرافي . فحين يحق لـ ٢٥٠٠٠٠ مواطن منذ اوائل القرن الثالث ، ولمليون مواطن تقريباً في السنة ٧٠ ، وللرجال الاحرار في كافة انحاء ايطاليا بعد حصولهم تدريجياً على حق المواطنية ، الاشتراك في جمعية واحدة لا يمكن ان تلتئم الا في روما نفسها ، يصبح الحفاظ على ميزة الجمعية الاولى لهذه الجمعية اكثر من مغالطة فحسب : فهو يصبح اذ ذاك سخرية غير معقولة . ولا يوفر التشبث به اية سهولة للطبقة الحاكمة. وخير لها ، على نقيض ذلك ، اقله ابتداء من اوائل القرن الثاني ، ان تكون علاقتها بممثلين قد يفضي اختيارهم الى بعض العناصر المعتدلة من ان تكون بجماهير سجسة تتأثر بتحريض المحرضين. والتهمة التي يجدر ان توجه الى المسؤولين الرومان هي العمه قبل الانانيـة في استمرار وضع شاذ . فليس من شخص آنذاك يفكر بحل يميل المعاصرون بالفطرة الى اعتباره في منتهى البساطة لانه اليوم رائج التطبيق في مجتمعاتهم. اجل نحن نلمس في الاتحادات الهلينية عقم الخيال نفسه والتقليد نفسه الذي لا يتماشى وحاجات الزمن . ولكن نتائجها اشد خطورة الى حد بعيد في رومـا التي غدت اقليمياً وبشرياً الدولة الايطالية والتي ابقت على نظمها حين كانت مدينة صغيرة دون ان تكيفها وفاقاً لهذا النمو .

الطرائق المختلفــة في توزيع المواطنين والجمعيات

لا تخلو هذه الانظمة من التعقيد . فمنذ آخر القرن الرابع كابعد حد – قد يكون الامر على غير ذلك قبل هذا التاريخ – نرى ان الجمعيات جميعها مفتوحة الابواب لكافــة المواطنين الرومانيين دون استثناء . بيد ان المبادىء الثلاثة التي اعتمدت في توزيع المواطنين الواحد بعد الآخر رسخت كلها بحيث ان وجودها قد جرّ الى قيام انواع ثلاثة من الجمعيــات التي تنظمت وحدات الاقتراع فيها وفاقاً لمبدأ آخر .

لم يعد آنذاك لاحد هذه الانواع من اهمية عملية ، اعني به ذاك الذي يوزع المواطنون بموجبه ، وفاقاً لانتسابهم الوراثي ، الى ثلاثين « وحدة » *Curie* تنحدر هي نفسها ، بمعـدل عشرة اشخاص لكل منهـا ، من القبائل العنصرية الثلاث الاول . فجاء منح حق المواطنية لعناصر عديدة غير رومانية ينزع عن هــذا التوزيع كل حقيقة . فلم تعد الجمعيات المؤلفة من ممثلي هذه الوحدات لتجتمع الا شكليا فقط بغية القيام باعمال ذات طابع طقسي ، كمنح « السلطان » القضاة الجدد مثلاً .

اما الجمعيتان الاخريان ، على نقيض ذلك ، فليستا مؤلفتين من ممثلين على هذه الندرة .

فالجمعيات « القبلية » تضم المواطنين الموزعين على خمس وثلاثين قبيلة ، اربع منها « مدنية » واحدى وثلاثون « ريفية » . كان لهذه القبائل في البداية واقع اقليمي يختص به من يقيم فيه او اقله يمتلك الاراضي فيه : ويشبه النظام على هــذه الصورة النظام المعتمد في اكثر من دولة ديموقراطية معاصرة . ولكن التطور اللاحق قد افسده . فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع

مدة طويلة بشكل مواز للاراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتفاع منذ السنة ٢٤١ : فارتبط المواطنون الجدد منذئذ، حتى ولو حصلوا على المواطنية بشكل جماهيري في منطقة كاملة، باحدى القبائل السابقة التي خسرت، بسرعة، الشيء الكثير من طابعها الاقليمي. ثم ان القبائل المدنية ، وهي اكثر عدداً وتضم نسبة مرتفعة جداً من الفقراء ، غدت دون القبائل الريفية شرفاً . ولذلك فقد درج ناظرو الاحصاء الذين يختارون على هواهم ، في مواعيد الاحصاء ، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد ، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة الى اخرى ، كعقوبة معنوية ، على ان يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا ، لا سيا المعتقين منهم ، في القبائل المدنية . وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية .

وقد أفضى نوع آخر من انواع التوزيع ـ أقدم من التوزيع على القبائل ولكنه ارتبط به أخيراً ـ الى الجمعية المئوية ؛ ونسب الى الملكية احداث نظام « الوحدات المئوية » بسبب ارتباطها بتنظيم الجيش : فهنالك وحدة عسكرية ايضاً ، يطلق عليها اسم « وحدة المئة » . والجمعية « المئوية » ، في الواقع ، هي الشعب المعبأ . وهي بالتالي ، ايضاً ، بسبب الموازاة القائمة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي ، الشعب الموزع على طبقات يحددها الاحصاء بعد التحقيق الذي يجريه ناظرو الاحصاء كل خمس سنوات . ولكن كيفيات هذا التنظيم قد تنوعت . وتشكل هذه التنوعات وتحديد تاريخها وارتباطها بالتطور الاقتصادي والنقدي ، منذ زمن بعيد ، إحدى معاضل التاريخ الروماني التي اشتد الخلاف حولها . وقد تحقق تبدل هام ما بين السنة ٢٤١ وبدء الحرب البونيقية الثانية . فقد اعطى النظام القديم اكثرية الاصوات المطلقة (٩٨ من أصل ١٩٣) الى الوحدات المئوية في الطبقة الاولى دون غيرها ، في حال انه قامت هنالك ، وفاقاً لمستويات الثروة المتعاقبة نزولاً ، اربع طبقات اخرى ايضاً . فاحتفظت الطبقة الاولى منذئذ بـ ١٨ وحدة مئوية من « الفرسان » ينتمي اليها اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ، أي النخبة المحدودة بين المواطنين . أضف الى ذلك انها تشمل ، بمعدل وحدة عن القبيلة ، ٣٥ وحدة مئوية من « العقّال » (فوق ٤٦ سنة) ، و ٣٥ وحدة « من الشبان » . أما الطبقات الأربع الأخرى ، فهل تشمل كل منها ٧٠ أو ١٠٠ وحدة مئوية ؟ وما هي طريقة التوزيع فيها ؟ لم تلقَ بعد هذه الأسئلة أجوبة واضحة . ولكن ، مهما يكن من الأمر ، فقد أضيفت الى هذه الوحدات المئوية الـ ٣٦٨ أو الـ ١٨٨ ، خمس وحدات فقط ضمت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين ـ ويقبل اعضاء هذه الوحدات الأربع في الجيش ـ وواحدة الفقراء الذين لا يستخدمهم الجيش لأنهم لا يمتلكون حتى الحد الأدنى من الضريبة المفروضة على الطبقة الخامسة . وهكذا فان المواطنين الاغنياء والميسورين من جهة والمواطنين المسنين من جهة ثانية ينعمون بأفضلية عظيمة تحت ستار المساواة وعلى حسابها . فيتضح ان تكوين الجمعيات المئوية

وتكوين الجمعيات القبليـة على السواء ابعد من ان يستجيبا لموجبات الديموقراطية كما تصورتها مدن امن أمثال أثينا وخضعت لها منذ القرن الخامس .

صلاحيات الجمعيتين القبلية والمئوية

على الرغم من ان هذه الحقيقة لا تقبل الجدل ، يجب ألا نغفل ان بعض النجاحات قد حققت بالنسبة للوضع الماضي .

يتعلق احد هذه النجاحات الرئيسية – وهذا لا يعني انه بلغ حداً بعيداً – بدور الجمعيات القبلية . فالجمعية المئوية اقدم عهداً منها ، واذا ما انطبق تنظيمها ، في شكله الاخير ، على توزيع المواطنين الى قبائل ، فان مفهومها العام الذي يفسّر بعض تفاصيل سيرها ، كما سنرى ذلك ، يحد من حرية الحاضرين . لذلك فان كل زيادة تتناول نصيب الجمعيات القبلية تصطبغ بطابع الاصلاح السخي ، ان لم يكن الديموقراطي . وفي الواقع تناولت الزيادة نصيبها .

يكتنف هذا التطور غموض كبير . بيد انه من المهم ان نشير هنا الى ان الجمعيات القبلية ، في البداية ، كانت ، قبل كل شيء آخر ، جمعيات لعامة الشعب يدعوها للالتئام المحامون عن حقوق هذه العامة ويقصى عنها النبلاء . وكانت بالتالي تقرر « الاستفتاءات » *Plebiscita* او « مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيد سوى هذه العامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيد كافة المواطنين لتنبثق الا عن الجمعيات المئوية . بيد ان هذا التمييز قد فقد كل اهمية منذ ان اقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء . فنتج عن ذلك ان النبلاء ، الذين انحدر عددهم شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دونما صعوبة الى الجمعية القبلية . كما نتج عن ذلك ايضاً ان القضاة آثروا هذه الاخيرة على الجمعية المئوية بسبب السهولة الكبرى التي يلاقونها في دعوتها للاجتماع ومراقبة الجلسة وحتى الاقتراع – ٣٥ صوتا بدلا من ١٩٣ او ٣٧٣ . فلم تحتفظ الجمعية المئوية بصلاحية حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، واعلان الحرب ، وانتخاب القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبلية باقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة للمناصب الدنيا فقط.غير ان اكثرية الامور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها ايضاً، كأكثرية مشاريع القوانين بنوع خاص .

الاصول المتمدة

ولقد تحقق نجاح آخر بصدد نظام الجمعيات وتنظيمها المادي . فقد اضطر المواطن ، لمدة طويلة جداً ، الى التعبير شفهياً عن رأيه ، مما حدّ ، في غالب الاحيان ، من حريته الفعلية . ثم اقر الاقتراع المدون على « لوحة » (*Tabella*) فردية في السنة ١٣٩ ، وصدرت خلال ثلاثين سنة تقريباً قوانين اخرى عممت هذه الطريقة على كافة انواع الانتخاب : فتوفر بذلك الشرط الاساسي لسرية الاقتراع اي لحريته . وفي السنة ١١٩ اكتسب ماريوس ، وهو بعد محام عن حقوق عامة الشعب ، شعبية كبرى باقتراح تقدم به وتوفق الى اقراره يقضي بان تضيّق ، بقياس عرض الرجل ، « الجسور » التي يجب على المواطنين المرور

عليها قبل القاء « لوحتهم » في صندوق الاقتراع : فنجا المقترع بذلك من كل رقـابة ومن كل ضغط . وليست مثل هذه التدابير في الحقيقة بما لا يعبأ به : فالحركة الديموقراطية الرومانيـة تلمس وجوب اجراء بعض الاصلاحات في الانظمة وتحقق بعضها .

ولكن هذه الحركة لا تستطيـع الذهاب الى ابعد من هذا الحدّ او لا تجرؤ على ذلك بتعرضها لمبادىء أساسية تسيّر اجراءات الجمعيات. وليس من شك في ان درس هذه الاجراءات بالتفصيل أمر مستحيل . بيد انــــه يجدر بنا ان نستخلص بعض خطوطها التي تتميز بها وصاية ضيقة على شعب يتمتع بالسيادة مبدئياً .

تلتئم الجمعية برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . يقرّر وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب أية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع وأي حق مبادرة او تحوير في المشروع الذي يعرض عليه . واذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا احـد يستطيـع إرغام الرئيس على ان يقدم له جميـع أسماء المرشحين ، ولا اعتبـــار إلا للأصوات التي تنالها أسماء يريدها : ولم يكن ذلك مجرّد امكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبياً . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيراً ما يستخدم الرئيس حقاً مماثلاً ، محصوراً فيـــه ، يستطيع بموجبه ان يسانده او يحوّر نصه . ومن حيث ان الجمعيات المئوية هي الجيش ، وتجتمع بالتـالي خارج إطار روما، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاضٍ « مُنِحَ السلطان » يستطلع الطيور قُبل الجلسة . فلا تعوزه من ثمّ الحجج الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلـــك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، باللجوء الى الحل في بعض الحالات، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بهـــا احد الحاضرين – والصرع « مرض الجمعيات » بالذات – او حالتي البرق والرعد ، بحيث انهم انتهوا احياناً ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة السماء » في بعض الاشخاص فقط او الى إبطاله كلياً . واذا لم تفض الانتخابات الى اي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يتمتع الرئيس خلالها، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في ان يكون الخطيب الاخير. وتكرس الجلسة الأخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » او« لا» على « سؤال » الرئيس حول مجمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة احياناً. وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثرية . اما في الجمعية المئوية ، التي تعود الأولوية فيها الى احدى الوحدات المئوية الـ ٣٥ التي تضم « شبان » الطبقة الاولى – الوحدة « الممتازة » التي تنتخب بالقرعة لأن لرأيها قيمة الانباء بالمستقبل – والتي يجري الاقتراع فيها وفاقاً لترتيب الطبقات التسلسلي ، فان وحدات الطبقة الرابعة ولا سيا الخامسة تكاد لا تقترع ابداً . ولا يصبح القرار نهائياً ، اخيراً ، إلا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب، يعتبرون رسمياً « خلائق » الرئيس . وان هذه المهلة القصوى المفسحة امام رفض

الرئيس او امام حق القضاة الشرعي بالاعتراض والنقض لم تمر دائماً دون استخدام .

ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية، على الرغم من إيجازها ، تفضي بنا الى استنتاجات لا يمكن ان تنقضها أية قاعدة او أي عرف لم تتعرض لها . فمن جهة يقلل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حدّ بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عدداً من طبقات الأغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في ان هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديموقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة الاخيرة بمفهومها القديم .

٣ - الظاهر الارستوقراطي
مجلس الشيوخ

مجلس الشيوخ
مجلس قضاة قدماء

يبقى العنصر الارستوقراطي، وهو اقوى عنصر في الدستور الروماني والحياة السياسية الرومانية على السواء . ولم يصعب على بوليب ان يرى ان مجلس الشيوخ هو الذي يمثل العنصر : بيد انه لم يعطه اهميته الحقيقية . وهنالك نقطة رمزية تقابل ما لاحظناه بصدد الجمعية من شأنها ان تكشف لنا عن عظمة هذه الهيئة : الشيوخ يجلسون ايضاً امام رئيس لا يعتلي اي منبر .

تشتق كلمة *Senatus* من *Senex* « المسن » ؛ فمجلس الشيوخ اذن مجلس « قدماء » ويطلق على اعضائه اسم « الآباء » ايضاً ، اي انهم في الوقت نفسه نبلاء ورؤساء العائلات الاولى في روما . ولكن كل ذلك يرتبط بماض سحيق . فقد اضيف الى كلمة « الآباء » ، في عهد متوسط ، اسم المفعول *Conscrpiti* « المسجل على اللائحة » . فكانت اللائحة ، ولكن تأليفها غدا آليا .

عدد الشيوخ العادي هو ٣٠٠ . رفعه سيلا الى ٦٠٠ وقيصر الى ٩٠٠ ولكنه في كل الحالات لم يحدد بنص قانوني ؛ وليست الزيادات التي حققها الدكتاتوريون سوى نتيجة الزيادة التي ادخلوها على عدد القضاة الماليين . فالعرف قد جعل من التعيين في منصب القضاء المالي ، حتى قبل القانون ، شرطاً ضرورياً وكافياً للدخول الى مجلس الشيوخ .

اخذ قضاة الاحصاء والأخلاق ، منذ اواخر القرن الرابع ، وكل خمس سنوات ، بوضع لائحة بالشيوخ . وكان لهم الحق في إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء اللائحة السابقة ، ولكنهم لا يلجأون الى هذا القرار المخزي إلا لاعتبارات اخلاقية ، أي في حالات نادرة ، اذ ان الشيخ اذا ما سجل على اللائحة يبقى عملياً في منصبه مدى الحياة . اما اختيار الأسماء الجديدة

فيجب ان يتناول اعظم النبلاء شرفاً . فلا يرى قضاة الاحصاء والاخلاق بالتالي افضل من ان يأخذوا بعين الاعتبار الاشخاص الذين يعينهم الشعب في مناصب القضاء . وقد استقرت هذه العادة خلال الحرب البونيقية الثانية، بغية سد الفراغات العديدة التي اوجدتها الهزائم العسكرية الاولى ثم شملت شيئاً فشيئاً ، خلال القرن الثاني ، مناصب القضاء الاخرى التي ليس من حاجة بسبب ارتفاع عدد شاغليها ، الجوء الى المواطنين العاديين . واخيراً سن « سيلا » قانوناً يكرس قبول القضاة الماليين في مجلس الشيوخ : واكتفى قضاة الاحصاء والاخلاق بعد ذلك بابرام وضع راهن – وذلك حين يكون هناك قضاة احصاء واخلاق ، لان تعيين خلفائهم لم يعد منتظماً منذ هذا التدبير الذي يجعل من احدى صلاحياتهم الرئيسية امراً وهمياً .

انخفض من ثم عمر الشيوخ الوسطي انخفاضاً كبيراً : فقد كانوا يحتلون مناصب القضاء المالي في سن مبكرة. وتطور طابع مجلس الشيوخ الرسمي ايضاً: فغدا مجلساً مؤلفاً من القضاة القدماء، مما يترك صداه حتى في ترتيب اللائحة . ففي اعلى اللائحة ، اقله قبل « سيلا » الذي يلغي هذا اللقب الشرفي ، يسجل اسم « الاول في المجلس » الذي يختاره قضاة الاحصاء والاخلاق بين الشيوخ المرموقين . ويليه في اللائحة ، وفاقاً لمرتبة وظائفهم ، القضاة القدماء ، « الاحصائيون والاخلاقيون »و«القنصليون» و « المعدليون » ، الخ ، يرافق ذلك ترتيب داخلي في كل فئة وفاقاً لاقدمية القضاة في مناصبهم . ويدعى القضاة لابداء رأيهم بحسب ترتيب اللائحة ، ولكن الاولوية تعطى ، في الفئة الواحدة ، القضاة المعينين ، اي الذين جرى انتخابهم فعلاً ولم يستلموا بعد مهامهم والذين يلفت النظر اليهم اقتراع الجمعية الشعبية الحديث العهد .

ولكن مجلس الشيوخ لم يفقد شيئاً بفعل هذا التطور . فهو في الماضي قد مثل نخبة الشعب المتميزة بنسبها وثروتها وسنها وخبرتها ، وكلها عناصر تكوّن الاعتبار الاجتماعي . ولم يعين القضاة عملياً ، باستثناء السن ، وفاقاً لمقاييس اخرى . فيضم مجلس الشيوخ كافة الاسماء الكبيرة ، وكل عضو من العائلات الكبيرة لا تقصيه مبدئياً عن الحياة السياسية نقيصة ظاهرة ، ويكل من درس في شبابه على ابيه واجباته المقبلة فتؤول بعد ذلك شؤون ومصالح الدولة . فبفضل العظمة المليئة بالحكمة التي يضفيها على اعضائه نسبهم وتربيتهم ووعيهم لواجبهم ، يجسد مجلس الشيوخ روما وتقاليدها واستمرارها وكيانها الدائم ومصيرها ، اي انه هو ايضاً ، شأن القضاة ، ذلك الكيان الادبي المستقل عن جمهور المواطنين المنتظمين جمعية شعبية .

مجلس الشيوخ والقضاة

الفرق كبير بالتالي بينه وبين « مجلس » المدن الديموقراطية اليونانية . كان هذا الأخير مستشار الجمعية يحرص على تنفيذ مقرراتها ويراقب حياة المدينة بأجمعها . اما مجلس الشيوخ فلا علاقة له بالجمعية بل بالقضاة في القيام بدورهم المستقل . تمتع في البداية بالـ *Auctoritas* ، ومعناها الاشتقاقي « الزيادة » ، أي بالقدرة على إكمال قيمة قرار شعبي لا يعلنه إلا في وقت لاحق ، وهذا يعني حقه في إلغاء القرار. ويبدو ان السمي قد بذل لشلّ

هذه السلطة ، خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، بحصر حق الاستفادة منها قبـــل جلسة الجمعية فقط . اجل ان لهذا الاصلاح أهميته القانونيـــة ، ولكنه لا يسدّد في الواقع ضربة مؤلمة لسلطة الشيوخ . فاذا لم يكن هناك ما يحول دون اطلاع الشعب على ترشيح او مشروع لا يرضى عنهما مجلس الشيوخ ، فنادراً ما يحدث ان يخالف رأيه قاض من القضاة . وقـــد كمنت قوّته العملية ، في الحقيقة ، في نزول القضاة عند نصائحه .

لا يعطي مجلس الشيوخ مبدئياً سوى « المشورات » *Senatusconsulta* ، ولكن أصول جلساته ، وهي على جانب كبير من الاختلاف عن اصول جلسات الجمعية ، تحلّه منذئذ عـلى صعيد غير صعيد الجمعية . وهو ايضاً لا يستطيع الاجتماع إلا بناء لدعوة احد القضاة — او عدة قضاة ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين — الذي يترأسه ويختار على هواه القضايا التي يعرضها عليه . وحين يطلب الرئيس رأي احد اعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة . ويحق للعضو ان يتكلم ساعات كاملة ، أي ان يلجأ الى العراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرس لها جلسة مقبلة، الخ . فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فسيكون دائماً هنالـــك قاض على استعداد للموافقة عليها ، وهو الرئيس اخيراً ، شأنه في الجمعية ، الذي يحدد موضوع الاقتراع ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، ان يستخدم تحكمه استخداماً عريضاً، فيرفض التعديلات مثلاً او لا يقبل إلا بحلين متناقضين ويهمل كل الحلول الاخرى . ولكن الاقتراع فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمـــع الأعضاء في مكانين مختلفين من القاعة . ثم يأتي اخيراً دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consulta* ، فاذا كان الرئيس مسيطراً سيطرة كافيـــة ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشاركون في عملية التحرير ويحرصون بالتالي على ان لا يتم النص النهائي عن شعور الاكثرية .

بيد انه يجدر بنا ان نرى في هذه الاصول معلولاً لا علّة ، وظاهرة لا تفسيراً . «فالمشورة» تتضمن دائماً التعبير المقيّد « اذا ارتأى » او « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي او القضاة في التقرير ، ولا يتفق هـــذا النص مع الطواعية الدائمة — باستثناء حالات نادرة وفاضحة — التي يبديها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر .

حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والأدبي الذي يدين بـه مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بكل ما يرتبط به في حياة الرجـل السياسي الروماني . فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداماً مجدياً ابان الانتخابات . وان مجلس الشيوخ بنوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من إمكان لجعل مهمة القاضي سهلة ومجيدة احياناً ، ولإقامة العراقيل ايضاً في طريقه ، اقله بتشجيع معارضة احد زملائه او احـد المحامين عن حقوق الشعب ، والحكم عليه بأن يبقى مغموراً . وهكذا

تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منها إلا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمجاملاته ثمن رضى الأكثرية في مجلس الشيوخ .

صلاحيات مجلس الشيوخ

تشمل سلطات مجلس الشيوخ في الواقع نطاقات متنوعة جداً بفضل العادات التي اتخذت صفة القانون والتي يجب إصدار قانون لتعديلها .

وقد سبق لنا ورأينا مدى هـــذه السلطات في كل ما يختص بالسياسة الخارجية وملحقاتها والأقاليم والجيوش . ومع ذلك فللشدّد عليها ، لأن المجلس يمارس ، في هذا الحقل بنوع خاص ، ضغطاً غير مباشر على أسمى القضاة مرتبة بواسطة احساناته وغضباته . ولمـــا كان عليه تعيين الأقاليم التي سيسند الحكم فيها الى القناصل والقضاة العدليين في سنة ما، وتلك التي سيبقى الحكم فيها في أيدي من تولاه في السنة السابقة وستمدّد ولايته عليها ، فانه يخدم الأشخاص المعنيين او يضر بهم بوحي من شعوره نحوهم . ولم يقدم ، زمناً طويلاً ، على توزيع الأقاليم هذا ، إلا بعد الانتخابات : وقد وجب انتظار قانون اقترحه كايوس غراكوس ، في السنة ١٢٣ ، حتى يضطر للبت به قبل معرفة أسماء المنتخَبين ، الأمر الذي عرقل تدابيره دون ان يكفي لإلغائها . وكما انه يستقبل السفراء الأجانب ويجيبهم على أسئلتهم ، فانـــه يعين السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح ايضاً اذا لم يوافق على بنود معاهداته .. وهو الذي يحدّد ، قاضياً قاضياً ، العدد اللازم للجيوش والأساطيل والوسائل المالية المقابلة . وهو الذي يمنح او يرفض « موكب الفوز » للقائد المنتصر . وهو الذي يوجـــه اليه قادة الاقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاكون مظالمهم : فبرز من ثم نوع من السلطة القضائية الخاصة بمجلس الشيوخ يوزع بموجبها اللوم اذا لم يستطع فرض العقوبات الاخرى . اضف الى ذلك ان الشيوخ ، حتى استلام كايوس غراكوس منصب المحاماة عن الشعب، وطيلة السنوات العشر التي بقيت فيهـــا قوانين سيلا سارية المفعول بعد ذلك ، قدموا وحدهم اعضاء مجالس المحلفين « الدائمة » : وكان احد هذه المجالس مختصاً بالنظر في دعاوى سرقات امناء الخزينة التي ترقع على حكام الاقاليم بنوع خاص .

اذا كانت صلاحيات المجلس الاخرى اقل تأثيراً مباشراً على ارتقاء القضـــاة في المناصب ، فانها مع ذلك قد اسهمت في جمله يلعب دوراً حاسماً في الحياة الاجتماعية .

لنفصل عنها السلطات الدينية التي تعبر عن شيء من طبيعته الحقيقية ، اعني به اشتراكه في الكائن غير المادي الذي هو روما . فحين شغور « السلطان » المطلق ، اي شغور منصب الملك من قبل ، وشغور منصب القنصلين الآن ، الذي قـد يعقّده شغور منصب الدكتاتور ايضاً ، يعود الى « الآباء » حق استطلاع طيران الطيور وتعيين « الملك المؤقت » . وفي الظروف العادية يسهر مجلس الشيوخ على القيام بالاحتفالات والطقوس ، ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتهـــا ويجيز عبادة الآلهة الجدد او يصدر حكمه عليهم ، الخ .

اما ما تبقى فادارة مـــادية . من ذلك ادارة ممتلكات المدينـــة مثلاً : فهو يقرر انشاء المستعمرات لانه يجر الى هبة قطع الارض المـاوخة من الاملاك العامة ، وفي المدة التي تفصل بين تعيين قاضي الاحصاء الخلف وانتهاء مدة قاضي الاحصاء السلف ، يبت بالشؤون المتعلقة بنفقات وايرادات الدولة ، ولا يتصرف القضاة الماليون المسؤولون عن الخزانة الا وفاقـــاً لاوامره ، وهو الذي يجيز اصـــدار النقد . بحيث ان اكثر القطع النقدية تحمـــل الحرفين . S.C. (Senatus - Consulto اي بموجب « مشورة ») .

لم يعترض على اية من هـــذه السلطات حتى آخر الجمهورية . ويكتفي ألد اعداء مجلس الشيوخ بالقول انها ليست وقفاً عليه وان الجمعيـــة الشعبية ، ذات السيادة ، تستطيع ان تحد منها . ويستصدرون عند الحاجة قانوناً يدخل تعديلاً عليها او يقضي بقرار خاص : فرز قطعة من الاملاك العامة ، واسناد ولاية اقليم الى احد القضاة ، الخ . اجل ، ان المجلس ينظر شذراً الى هــذا الانتقاص من امتيازاته التقليدية ، ولكنه لا يتجاوز في اعتراضه حداً معقولاً ويقرر الانحناء في النهاية .

بيد ان الوضع قد تغير في السنة ١٢١ ، حين اقرت ، في حمّى الصراع ضد كايوس غراكوس المشورة « القصوى » التي تلزم القنـاصل بالحرص على ان « لا تصاب الدولة باي سوء ». وقـــد اعتمدت هذه الصيغة إبان الازمات اللاحقة ، ولكنها بقيت مبهمة . غير انها ، في الواقـع ، قد سمحت باسم السلامـــة العامة ، كما فهمتها آنذاك اكثرية المجلس الساحقة ، بالاقدام ، دون اية محاكمة، على اعدام عـــدة مئات من انصار كايوس غراكوس في السنة ١٢١ ، وساتورنينوس وغلوشيا واصدقائهما في السنة ١٠٠ ، وشركاء كاتيلينا في المؤامرة ، بامر القنصل شيشرون ، في السنة ٦٣ . فهي اذن تمنح القضاة سلطات دكتاتورية مطلقة وتوقف مفعول كافـــة الضمانات الشرعية ، ابتداء بحصانة المحامين عن عامة الشعب وحق رفع الدعوى امـــام جمعية الشعب . وهذا لعمري حق جديد يدّعي به المجلس دون استناد الى اية سابقة . ولكن خصومه اذا ما هم ثاروا على اللاشرعية وتوصلوا من ثم الى الحكم على شيشرون بالنفي في السنة ٥٨ ، فانهم قد لجأوا هم ايضاً الى المشورة « القصوى » في السنة ٨٣ مثلاً ، حين توجب عليهم الدفاع عن انفسهم ضد « سيلا » ورأوا انفسهم اسياد المجلس الى حين . فلسنا في الحقيقة امـام تجديد دستوري ، بل امام تدبير قوة : النظام يتخبط في ازمة ولا يعبأ بالشرعية .

النظـــام المجلسي واسباب ازدهـــاره

مر من قبل في مراحل عظيمة هادئة مسلم بها . وهو قـــد ارتكز الى اسس ادبية تفوق باهميتها نصوصاً مكتوبة هي عمل بشري قابل التحوير . وليس باستطاعتنا ان نرد هذه الأسس الى الوحدة ، لا بل ليس باستطاعتنا معرفـــة مدى أهميتها النسبية بالضبط : فهي متشابكة كلها . فكان هنالك احترام الـ *Mos majorum* « عرف الجدود » الذي يفرض الايمان بالحكمة القديمة ، أي بالعهد الذهبي نوعاً ما : ان هـــذا

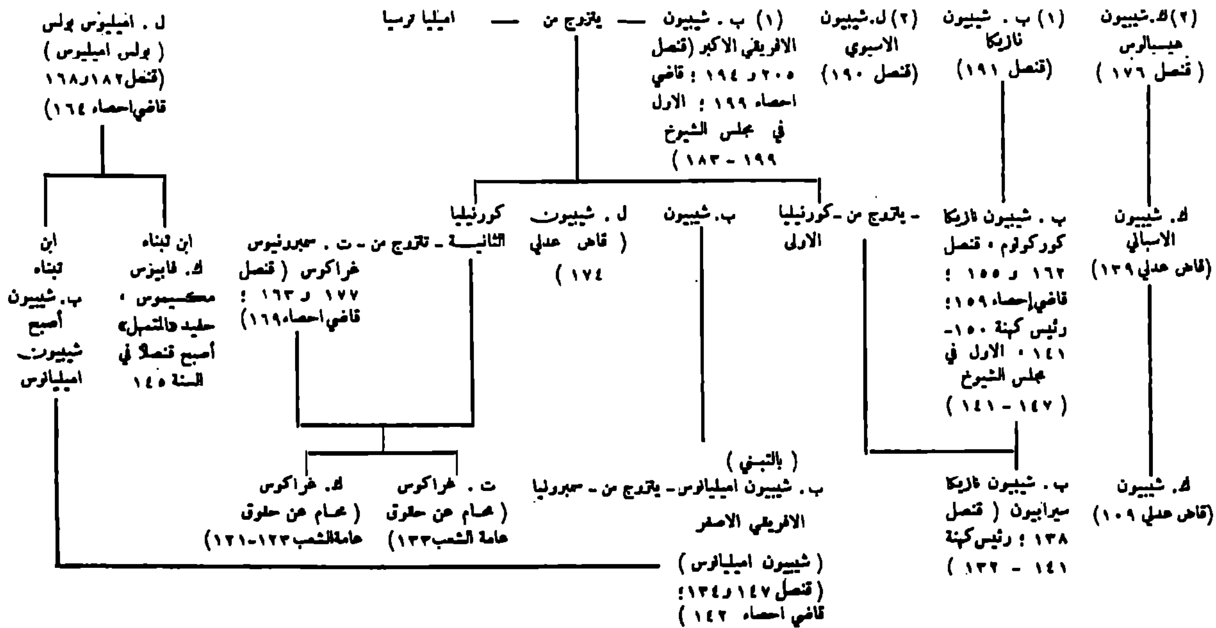
(٢) ك.شيبيون هيسپالوس (قنصل ١٧٦)
(١) ب . شيبيون نازيكا (قنصل ١٩١)
(٢) ل.شيبيون الاسيوي (قنصل ١٩٠)
(١) ب . شيبيون الافريقي الاكبر (قنصل ٢٠٥ و ١٩٤ ؛ قاضي احصاء ١٩٩ ؛ الاول في مجلس الشيوخ ١٩٩ - ١٨٣)
يتزوج من
اميليا ترسيا
ل . اميليوس بولس (بولس اميليوس) (قنصل١٨٢و١٦٨) قاضي احصاء ١٦٤)
ك . شيبيون الاسباني (قاضي عدلي ١٣٩)
ب . شيبيون نازيكا كوركولوم ، قنصل ١٦٢ و ١٥٥ ؛ قاضي احصاء ١٥٩ ؛ رئيس كهنة ١٥٠ - ١٤١ ، الاول في مجلس الشيوخ (١٤٧ - ١٤١)
- يتزوج من - كورنيليا الاولى
ب. شيبيون
ل . شيبيون (قاض عدلي ١٧٤)
كورنيليا الثانيـة - تتزوج من - ت . سمبرنيوس غراكوس (قنصل ١٧٧ و ١٦٣ ؛ قاضي احصاء ١٦٩)
ابن لبناه ك. فابيوس مكسيموس ، حليف «المتمهل» أصبح قنصلاً في السنة ١٤٥
ابن تبناه ب. شيبيون أصبح شيبيون اميلياوس
ك. شيبيون (قاض عدلي ١٠٩)
ب . شيبيون نازيكا سيرابيون (قنصل ١٣٨ ؛ رئيس كهنة ١٤١ - ١٣٢)
(بالتبني)
ب . شيبيون اميلياوس - يتزوج من - سمبرونيا
الافريقي الاصغر
(شيبيون اميلياوس)
(قنصل ١٤٧ و ١٣٤ ؛
قاضي احصاء ١٤٢)
ت . غراكوس (محام عن حقوق عامة الشعب ١٣٣)
ك. غراكوس (محام عن حقوق عامة الشعب ١٢٣-١٢١)

الاحترام هو الذي أعطى التقليد قوّته ، لا بل أعطى ، الى حد ما ، كل سابقة قيمتها . وكان هنالك الاعتراف بالقوى المتجسدة في غير العدد الأكبر . وكان هنالـــك ما يشبه الحاجة في النفوس الى النظام والنظامية . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، أعني به الشعور بأن الانسـان يوازي بما يمثله ، لا سيما في ماضيه ، اقله ما يوازيـ ـه في حاضره . وقد اسهم كل ذلك في اقرار سيطرة مجلس الشيوخ . ولم يفت هـذا الاخير ، على كل حال ، ان يلجأ الى بعض التمييزات المقيتة : فقد أصدر حكمه مثلاً ، في تعاليمه حول الماضي ، على الملكية وبرع في إزالة أضرار رواسبها في مناصب القضاء العليا . وتهيب بنا هذه الملاحظة الى ان نذهب في بحثنا الى ما وراء المثاليـــة : فكما ان المؤرخ لا يستطيع نكران ما تنطوي عليه مشاعر واعتقادات الجماعة من أثر خاص في تحديد حياتها السياسية ، كذلك لا يستطيع ان يتجاهل ان هذه العوامل الروحية تقتصر في أغلب الأحيـــان على السموّ بوضع راهن وان اتفاقها مع غيرها يقرر على كل حال أهميتها العملية .

ان التحاليل السابقة تناولت عن قصد ، في الدرجة الاولى، عهداً يبتدىء في السنوات الاولى من القرن الثالث ويمتد الى الارباع الثلاثة الاولى تقريباً من القرن الثاني . في هذا العهد ازدهر في كماله ، بعد ان تعرض لعاصفة قبل ذلك ، ما يجب تسميته بالنظام المجلسي . فهو قد نشأ ، بهذا الشكل ، عن الحرب البونيقية الثانية التي نسبت هزائمها الاولى ، لا سيما هزيمتا بحيرة ترازيمينا و«كانا» الى قواد شعبيين سبق لهم ان حاربوا مجلس الشيوخ. ومنذ « كانا »، وحتى نهاية الحرب ، نهض هذا الاخير ، بسبب احداق المخاطر وتعدد الجبهات الحربية وتغيب عظام القضاة وعـدد كبير من المواطنين المجندين تغيباً شبه مستمر ، وطيلة خمسة عشر سنة تقريباً ، بمهمة الحكم غالباً، والتنسيق دائمـــاً على الاقل ، وقد نهض بذلك وحده. او باستخدام قضاة من المراتب الدنيـــا كالمحامين عن حقوق عامة الشعب . وقد برهن آنذاك ، من جملة ما برهن عنه من صفات ، عن حزم وثبات امنا النصر لروما ووفرا له سلطة لم يعرفها من ذي قبل . وان كثيراً من الطرائق والسوابق التي لجأ اليها بعد ذلك قد ظهرت اثناء الحرب حلولا موقتة، وما كان تعاقب النجاحات العسكرية الكبرى في القرن الثاني ليستطيع الانثناء عنها.

بيد ان سيطرة مجلس الشيوخ ، حتى في هــذه الحقبـــة ، قد ارتكزت الى سبب آخر غير الانظمة ومهارة احد اجهزتها في جعلها تخدم مصلحتها بالذات . فالنظام المجلسي قد منح السلطة طبقة عبر وجودها الراهن ، دون ان يكون له بعد اي طابع رسمي ، عن شراكة في المصالح . ولنحن سنعود الى هذا الواقع الاجتماعي في سياق البحث . بيد ان الاشارة تجدر منذ الآن الى ان الشيوخ كانوا آنذاك اوسع المواطنين ثروة واعظم الملاكين العقـاريين ، وانه كان لديهم « زبن » عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين، وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم، وان ابناءهم كانوا يدخلون « مراتب الامجاد » بقوة ويدخلونهـــا وحدهم تقريباً ، وان « نبلاء »

مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم . وقد تتيح الاحصائيـــات الاستشهاد ببراهين عديدة تثبت هذا القول ، ولكننا نكتفي ببعض الارقام التي لا تحتاج بلاغتها الى اي تعليق . من السنة ٢٣٣ الى السنة ١٣٣ ، اي خلال مئة سنة ، تعاقب على رومـــا مئتا قنصل ينتسبون الى ثمـــان وخمسين عائلة فقط ؛ لا بل حدث اكثر من ذلك ، فقد قدمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً ، وعشر عائلات اخرى ٩٩ قنصلاً . فكيف لا يتحقق الاتفـــاق للابقاء على هذا الوضع واستثماره .

٢ ـ فشل النظام ونواقصه

منشأ الازمات

على الرغم من ذلك انفجرت الأزمات، مرتدية باطراد مزيداً من الخطورة، حتى الحروب الأهلية التي ستفضي الى النظام الامبراطوري . فيتوجب علينا مـن ثم البحث عن أسبابها وراء الرجال الذين تسببوا فيها .

كان أحد هذه الاسباب محتوماً ، كما رأينا ، اذ ان مجلس الشيوخ قـــد تساهل في استمرار حروب دائمة أو عجز عن ان يضع لها حدّاً : فحصل بعض القادة على المجد والغنيمة بانتصاراتهم وأمنوا تعلّق جيوشهم التي غدت جيوشاً محارفة ، فوجد بينهم من يرفضون العودة الى الحيـاة المدنية حين يضمنون احترام أمثالهم . بيـد ان الطموح الى السلطة ما كان ليراودهم لو لم يكن النظام ضعيفاً .

تسرّب الضعف بالفعل الى النظام عن طريق اختلافات الارستوقراطية الجلسية . فقد ساعد ضيق إطارها على تشكيل عُصب من الدساسين حول بعض الزعماء . وقد لعبت العلائق العائلية في هذه العصب دوراً لم يكن حاسماً على الدوام لأن الحسد وحتى البغضاء قد ينشآن بين الانسباء الأقارب : فان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا سيرابيون وطيباريوس غراكوس ، والأول هو قاتل الثـاني ، كانا ابنين لشقيقتين. وكان للصداقات او العداوات الشخصية وللخدمات المتبادلة او منافسات الوظيفة دورها ايضاً. ويصطدم المؤرخون اليوم بعدم توفر المستندات لوضع دراسة عن هذه الاحزاب وتتبع تقلباتها التي من شأنها ان تلقي نوراً ساطعا على أكثر من قرار مـــن قرارات السياسة الرومانية . ومهما يكن من أمر ، فان تضامن النبلاء قـــد شابته الخلافات المتأصلة ، ولم تتراجع الاهواء الهائجة امام افظع الفضائح: فلم تكن حياة كاتون القديم مثلاً سوى سلسلة من دعاوٍ رفعها على غيره او رفعها غيره عليه ، كما ان شيبيون الافريقي نفسه قد غادر روما ليقضي آخر حياته بعيداً عنها ، مختاراً النفي وثائراً على البشر ومحتقراً كل الاحتقار التهم الموجهة اليه .

وضعف النظام كذلك ، اخلاقياً ، باستئثار أسياده لسلطتهم استئثاراً أنانياً . وقـــد شدّد بوليب على حرص القضاة الرومان في التصرف بالأموال العمومية وفضلهم بقوة على مواطنيه

الاغريق : « قد يضع الاغريق عشرة عقود ويفرضون عشرة أختام ويستعينون بعشرين شاهداً، ولكنهم يعجزون مع ذلك عن القيـام بوظائفهم بنزاهة . اما عند الرومان ، فبمكنة القضاة والسفراء التصرف بمبالغ ضخمة ، وهم يبرهنون عن نزاهة كلية احتراماً منهم لقسمهم فقط » . بيد ان بوليب قد أشار ، في مقاطع أخرى ، الى تبدل هذه الاخلاق . أتاح حكم الأقاليم وقيادة الجيوش ، في الواقع ، الفرص للغوايات والتجارب القوية . فخضع لها أكثر من واحد ، كما خضع لنشوة السلطة المطلقة عـلى اجساد وحتى على حياة الكائنات البشرية له . فقـد ورد في احدى خطب كاتون ، الذي لم يجد الجرم ما يجيب به عليه ، ذكر حادثة قتل حقير اقدم عليه عند نهـاية احدى الولائم ، ل . كوينكتيوس فلامينينوس نفسه ، القنصل السابق واخو بطل سينوسيفال ، كان ضحيته فارٌ غالٍ يطلب الحماية، وذلـك لغاية واحدة هي ارضاء قرطاجي عزيز عليه أبدى الاسف امامه ، حين اضطر لمغادرة رومـا بسرعة، لعدم تمكنه من مشاهدة مصارعة المـايفين . اضف الى ذلـك عدم كفاءة عدد كبير من هؤلاء الرجال السياسيين الذين تسلموا القيادة ارتجالاً ولم يمارسوها وقتاً كافياً لاكتساب خبرة تعوزهم . فلا غرابة اذا ما توفرت الفرص الكثيرة لأعداء مجلس الشيوخ لاحتقار النظام كله من وراء الافراد المسؤولين .

وقد انضم الى كل ذلك ما هو أدهى : اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي الناجم عـن الفتوحات . فقد قامت في روما طبقـة من المواطنين الكادحين ، المتزايدين عدداً ، المستعدين للاندفاع وراء كل تيار وللاشتراك في كل ثورة. فسيطر الخوف، باكراً جداً، على الطبقة الحاكمة، من امكان تأثير بعض القادة الحربيين النافذين على هذه الطبقة . ولكن الخطر داهمها من جهتين. فحصرت همها في محاولة إحكام هؤلاء الرجال بتنظيم ارتقائهم وايقافه . ولم تفكر بالاصلاحات ــ او لم تعقد العزم عليها ــ أي بالتضحيات التي كان من شأنها ان تخفف من الخطر الثـاني ، الحقيقي ، الذي أثاره وجود الجماهير الشعبية في المدينة والقلق المسيطر عليها . وكان الأوان قد فات حـين حاول شيوخ ينتسبون الى العائلات الشهيرة ، آل غراكوس وأصدقاؤهم ، تدارك الداء . ولكن أكثرية المجلس الساحقة تكتلت ضدهم ولجأت هي نفسها الى العنف الفوضوي في سبيل محاربتهم . فجاء موتهم انتصاراً لها ــ وفي الواقع حكماً عليها بالزوال .

الفوضى والحروب الاهلية

ان الاضطراب الذي ابتدأ على هذا الشكل لم يعرف نهـاية حقيقية . فتقابلت فئتان منذ ذلك الحين تضطرم فيهما احقـاد متبادلة : فئة « الشعبيين » وفئة « الافاضل » ، وقد ساندت كلا منهما مداورة فئة الفرسان . ولكن فئـات النخبة الاجتماعيـة ، حتى ولو اتحدت حين يتضح خطر الثورة ، مـا كانت لتستطيع التغلب على الديموقراطيين ، الذين يفوقونهـا عدداً ، الا باللجوء الى الرشوة والتهويل ، والقوة عند الحاجة .

فدرجت العادة ، عند الطرفين ، على ان لا يتراجعا امـام اية مغالاة في سبيل السيطرة على

الشارع والجمعيات ، وفرض مرشحيهما للانتخابات ، وشل عمل القضاة الذين حلوا هم زملاءهم على انتخابهم . وتوصلوا لان ينظموا فرقـــاً من الانصار ، وعند الحاجة من المسايفين العبيد حاملي الدبابيس والاسلحة الحقيقية في غالب الاحيان . ولنا في القرن الاخير العهد الجمهوري الف مثل عن اعمال عنف افضت الى معارك دامية يتقاسم مسؤولياتها الطرفان . ويكفي هنا ان نستشهد بالوقيعة المفاجئة التي تصادمت فيها ، في شهر كانون الثاني من السنة ٥٢ ، على بعض المسافة من روما ، زمر العدوين ، كلوديوس وميلون ، المهيجين المتطرفين المنتميين الاول للشعبيين والثاني « للافاضل » . ومع ان السنة الجديدة قد ابتدأت ، فقد كانت المدينة دون قضاة في المناصب العليا ، اذ ان الانتخابات لم تجر ولم يعين « ملك مؤقت » فسقط كلوديوس جريحـــاً ونقل الى منزل حيث اجهز عليه حرس منافسه . ولكن اصدقاء الضحية احرقوا ، في اليوم التالي، قاعة اجتماعات المجلس ، فاستخدمت وقوداً لترميد الجثة . فغرقت روما في الفوضى .

وغرقت في الحرب الاهلية ايضـــاً ، لانه كان من المحتم ان تستدعي اضطرابات الشارع ، عاجلاً ام آجلاً ، تدخل الجوقات . وكانت الجوقات في قبضة قادتها الذين نزعوا بصورة طبيعية الى ان يجمعوا بين قضيتهم الشخصية وقضية الفئة التي هم مدينون بالقيادة لعضدهـــا . كانوا في البدء لا يزالون يحترمون الشرعية ، فاكتفوا باستخدام رصيدهم لدى الشعب واخلاص جنودهم القدامى . ولكن هذا التحفظ ما كان ليستمر ، فخطا الخطوة الحاسمة ، مرة اخرى ، على غرار ما حدث حين قتل طيباريوس غراكوس ، احد افراد فئة « الافاضل » . فسيلا هو الذي حقق ، في السنة ٨٨ ، اول انقلاب عسكري باقتحام جيوشه في « المدينة » حتى داخل الاطار الذي لم يسمح للقادة والجنود بدخوله الا للاحتفال « بموكب النصر » . كانت هذه سابقة اسرعوا من الجهة الثانية الى الاقتداء بها . فتحول التنازع السياسي الى حرب اهلية تزيد من مجد وطموح اولئك الذين كانوا يتزعمونها . وكان من شأن قهر جيش الخصوم ، وهو اشد ضمانة من هيـــاج جمعيات الشعب ومن سلطة مجلس الشيوخ من حيث انه يسمح بتحطيم الحواجز الشرعية بضربة واحدة ويجعل الاغتيال عملية رسمية عن طريق لوائح المحكومين بالقتل دونما محاكمة ، ان يولي السلطة ، اي سلطة من السذاجة الاعتقاد بان مستلمها سيتخلى عنها دائماً ، على غرار ما فعل « سيلا » بعد ان سن للجمهورية قوانين جديدة .

لمات النظام الجمهوري تاركاً المكان للملكية الامبراطورية .

نواقص المدينة الجمهورية

بعد تفكيك هـذا التلاحم ، لا تستدعي نواقص النظام الأخرى درساً طويلاً . بيد انه تجدر الاشارة اليها على الاقل : فكما ان المدينة لم تعرف كيف تكيف جيشها وحكومتها المركزية على الحاجات الناجمـــة عن الفتح ، كذلك لم تفلح في القيام بمهمة الادارة اليومية قياماً حسناً .

اجل لم تشك قط من عجز مالي. فقد عرفت في الحقيقة ، خلال الحرب البونيقية الثانيــة ،

صعوبات من هذا النوع حين اضطرت لأن تغرف من احتياطيها الذهبي لسكه ، ولتخفيض وزن القطعة الفضية ، الدرهم ، بمعدل السدس ، ولرفع قيمته مع ذلك من عشر قطع برونزية الى ستة عشر ، ولمضاعفة الضريبة المباشرة المفروضة على رأس المال مرّتين وحتى ثلاث مرات ، ولخلق حماس متفاوت التلقائية في مواطنيها الأثرياء بغية الحصول منهم على قروض او هبات . ولكن النصر وضع حداً لهذه المتاعب التي زالت نهائياً . فقد أفضت حروب القرن الثاني العظمى ، في بلدان الشرق الهليني ، الى كسب غنائم ضخمة كانت تودع الخزانة العامة بعد استعراض كل من مواكب النصر ، وتغذت الخزانة ، بالاضافة الى ذلك ، من تعويضات الحرب التي كانت تدفع أقساطاً ، ولا سيما من موارد الأقاليم ، كالضريبة السنوية ودخل الأملاك العامة (المناجم بنوع خاص) . فغدت المدينة على جانب من الثروة استطاعت معه ، منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ان تلغي الضريبة المباشرة المفروضة على مواطنيها : ولم تجبَ هذه الضريبة بعد هذا التاريخ . وفي السنة ١٢٣ أخذت تصدر ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي أرغمت الدولة ، وفاقاً لتطورات النزاع بين الاحزاب ، على بيع القمح للمواطنين بسعر مخفض تارة ، وحتى على توزيع بعضه مجاناً تارة أخرى : وحين فرض قيصر دكتاتوريته ، كانت لوائح المستفيدين من هذه الاعطيات العمومية السخية تضم ٣٢٠ ٠٠٠ امرئ .

بيد ان هذا اليسار المالي ارتبط الى حدّ بعيد بطابع جهاز الدولة الذي بقي بدائياً جداً . فاذا ما استثنينا مرتبات العسكريين والطريقة الخاصة المعتمدة في تموين المدينة عن طريق بيع القمح بخسارة او توزيعه مجاناً ، انحصرت النفقات الرئيسية في العبادة والاشغال العامة . اجل كانت الألعاب التي تقام للترفيه عن الشعب في مواسم الاعياد الدينية باهظة النفقات ؛ ولكن نظار الأبنية والطرق الذين عاد اليهم أمر تنظيمها كانوا يتحملون نصيباً كبيراً من الأكلاف اهتماماً منهم بالحظوة الانتخابية . اما الابنية ، بالاضافة الى ان سخاء الافراد ، او اقله سخاء القادة من دخل غنائمهم ، قد ساهم بأكلافها ايضاً ، فما زالت في حالة وسط نسبياً : فقد نمت روما شيئاً فشيئاً دون نظام معين ولم تحاول بالتالي ان ترتدي مظهراً خارجياً لائقاً بقوتها ، ولن يحوّلها سوى الملوك خدمة لنفوذهم الشخصي ؛ ولا شيء من جهة ثانية ، باستثناء الطرق ، في ايطاليا والاقاليم . اما الاقتداء بالدول الهلينية العظمى ووعي ضروريات الحياة المادية فلم يصبحا أمراً ملحاً إلا ببطء ؛ واستمرت روما في العيش كأنها مدينة صغيرة ، مستشهدة مبدئياً بتقاني واعتزاز مواطنيها الاولين بغية التقليل الى أقصى حد من نفقات ضرورية لتحقيق المهام الجديدة الملقاة على عاتقها. ولم يتقاض الشيوخ والقضاة والكهنة أي أجر اذ ان وظائفهم كانت «شرفية». وقد عاونهم كتبة ومساعدون دائمون مختلفون تولت الخزانة دفع أجورهم ؛ وكانوا كلهم من الفقراء لا يبلغ مجموعهم عدداً كبيراً ولم يؤلفوا يوماً دوائر قمينة بتأمين استمرار ادارة يتبدل المسؤولون عنها تبدلاً سريعاً .

لم يكن لهذه الادارة من وجود في الواقع ، أقله بقدر ارتباطها بالدولة . ولعل

أسوأ ما هنالك ان الدولة ، المتصلبة في تهربها من واجباتها ، سمحت بقيام ادارة خاصة حقيقية ، ادارة المزارع ، وتمادت في السماح لها بالعمل على حساب قوّتهـــا الخاصة وفي سبيل القضاء على مرؤوسيها : وان نظرة على تنظيم الاقاليم ومصيرها سيلقي ضوءاً على هذه المغالطة الظاهرة .

الاقـــالم. لم تحدث روما ، طالما هي لم تبسط سيادتها الا على ايطاليا ، اي جهاز خاص لممارسة هذه السيادة . فقد عاد امر مراقبة سلوك الجماعات المحلية ، في اطـــار الاستقلال ، الى مجلس الشيوخ والقضاة العاديين. وكان باستطاعة هؤلاء ان يفوضوا الحكام « *Préfets* » بتأمين هذه المهمة : وقد وُجد هؤلاء في كبانيا بنوع خاص ، عينهم قاضي المدينة العدلي في البداية ، ثم انتخبهم الشعب ، بغية توزيع العدل . بيد ان النتائج اتت متوسطة فقط وغالبا ما افسدهـــا تحكم القضاة ، فحاول قيصر ادخال النظام الى هـــذا التنوع وتنظيم الحكم المحلي في الوقت نفسه تنظيماً اقرب الى الديموقراطيـــة ، بواسطة قانونه « البلدي » . غير ان الشكاوى لم تكن قط عامة او خطيرة .

ولكن رومـــا ، منذ منتصف القرن الثالث ، سيطرت وحافظت على اراض تقع وراء البحر – صقليا في الدرجة الاولى – فتوجب عليها استنباط نظام جديد : فغدت هذه المناطق « ولايات ». وقد عنى هذا التعبير في البدء، ولمدة طويلة جداً ، المهمة المسندة الى احد القضاة ، اي صلاحيته الخاصة : السلطة القضائيـــة ، وقيادة الاسطول وادارة الحرب الخ . فصدر شيئاً فشيئاً عن هذا المعل الاخير ، الذي كثيراً ما يقوم به قضاة المناصب العليا ، مفهوم الاقليم ، اي الاقليم حيث تدور العمليات ، او الاقليم المحتل المسندة ادارته الى حاكم ، اي الى قاض . وقـــد درجت العادة ، حتى سيلا ، على ان لا تتجاوز مدة الاسناد سنة مهمة القـاضي . ولكن تطور المفهوم هذا لم يزل مفهوم المهمة الفردية: فالرجل الذي يتسلم اقليماً من الشعب الروماني ، يتسلم منه تفويضاً بجميع سلطاته على هـــذا الاقليم ؛ وكان من جهة ثانية يتمتع فيه « بالسلطان » العسكري الكامل .

كان من شأن هذا النظام ان اخضع الاقليم الى تبديلات متكررة في الحكام : وقد حدث ذلك مبدئياً ، وعملياً كل سنة ايضاً في اغلب الاحيان ، حين لا « تمدد » ولاية القاضي . وقد اخضعه بنوع خاص الى تعسف الحاكم ، بسبب السلطات الواسعة التي يُمنحها هذا الحاكم ، الحق الذي يؤتيه اياه النصر . اجل لقد اقر « قانون الاقليم » حين انشائه ؛ وكان هذا القانون له بمثابة الدستور ، يحدد بقعته ويعين النظام الخاص الممنوح ، مثلاً ، للمدن التي عقدت معاهدة مع روما واستحقت صفة « المتحدة » – وقد اعترف ببعضها « حرة » احياناً – ويبين مبلـغ التعويض المفروض ، كيفية استيفائه ، الخ . ولكن الحاكم ، بمثل سلطة روما وقوتها ، المتمتع بحق توزيع العدل ، البعيد عن كل رقابة او خطر باستثناء خطر الدعوى التي قد ترفع عليه بعد عودته الى ايطاليـــا ، كان حراً طليقاً في اخضاع سكان الاقليم لتطلباته حتى غير الشرعية ناهيك عن التسهيلات التي وفرتها

له بعض العادات كالتلاعب في الرسم المفروض على الحنطـة ، وهو يختلف عند الشراء عنه عند البيع ، او كالواجب المفروض على الاقليم بتأمين معيشته ومعيشة بطانته .

الى هذا الاغتصاب يقدم عليه السيد ، انضاف اغتصاب المزارعين . فالجمهورية الرومانيـة لم تحاول قط ، في الحقيقة ، تنظيم اقل ادارة مالية ، لا لنفقات الخزانة ولا لوارداتهـا ولا لاستثمار املاكها العامة . وقد وكلت هذا الامر الى مزارعين هم على العموم جمعيات ذات شأن كثيراً ما تفرض نفوذها على الحكام المكلفين مبدئياً مراقبة اعمالها . وقد ارتبط هؤلاء بها باشكال مختلفة ابتداء من الرشوة حتى التهديد بالتشهير تلميحاً او تصريحاً . وقد شاركها الكثيرون في ارباحهـا عن طريق وسطائهم . وقد تمتعت هي ، عن طريق ثروتها واشخاص اعضائهـا ، بنفوذ سياسي عريض في روما ، لا سيما حين قضى « القانون العدلي » ، الذي سنه كايوس غراكوس ، باستدعاء الفرسان ، اي اعضائها واصدقائهم ، كمحلفين في المحاكم . وبعد ان توسع هذا الحق ، ثم الغـاه سيلا ، ثم اعيد في اعقـاب الدعوى التي هاجم فيها شيشرون قاضيَ صقليا العدلي السابق، فيريس ، جعلهم اسياد دعاوى سرقة الاموال العمومية المسلطة على الحكام . اجل لجأت المدن والملكيات اليونانية ايضاً الى تلزيم الاموال بغية تجنب انشاء ادارات دقيقـة . ولكنها جزأت التلزيم ، وغالباً ما افرطت في التجزئة ، ومارست مراقبة شديدة على الملتزمين ، حائلة دون حصولهم على قوة اجتماعية وسياسية . اما الرومان فلم يحافظوا على هذا النظام الا في صقليـا والغوه في المناطق الاخرى كما حدث في المملكة الاطالية القديمة التي اصبحت الاقليم الأسيوي . فقصروا في واجباتهم الاولية نحو انفسهم ونحو رعـاياهم بسبب افتقارهم الى ذوي الاختصاص ، وخوفهم امـام تعقيد المعضلة العملية ، وانانيتهم وقسوتهم كفاتحين يعتبرون كل شيء جائزاً للمنتصرين . وكان من مصلحتهم في الحقيقة تأمين بقاء الرعـايا ، فحدوا من جهة ثانية ، من حريتهم الشخصية بسماحهم لارستوقراطية مالية ان تنمو وتصبح الحكم في نزاعاتهم الداخلية .

كانت الاقاليم اذن خاضعة لاستثمار لا حد له تقريبـاً . فحتى ولو لم يل الحكمُ الاقليمي حرياً حقيقية واسند الى هذا او ذاك لمناسبة الفوز بقضاء عدلي او بقنصلية، فانه قد بات وسيلة طبيعية لاعادة بناء ثروة بذرها بذخ الحياة في رومـا او النفقات الانتخابية . ومع ان شيشرون كان حاكماً نزيهاً على كيليكيا في السنة ٥٠ ولم يقم سوى بحملة قصيرة ضد الجبليين المساكين ، فقد جمع بعد انقضاء السنة ما يعادل ٥٥٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ . اضف الى ذلك ان الاقاليم قد تعرضت لغزو « تجار » من جميع الطبقات ، بينما لم يكتف عملاء الملتزمين بفرض ما يفوق حقهم في جباية الضرائب او بفرض الاشغال الشاقة في المناجم والمحاجر والامـلاك العمومية الاخرى الملتزمة ، بل عمدوا، لا سيما مع الجماعات، الى الربى الفاحش – ٤٨ ٪ واكثر احياناً . وقد حل الحكامَ على الحكمة ما حدث للوكولوس الذي اراد وضع حد لفضيحة هذا الربى والذي افضت المعارضة الفعالة لدى جنوده انفسهم ، في السنة ٦٧ ، الى فقدان حظوته وانهزامه ، فتغاضوا عن كافة هذه التصرفات ، لا بل اشتركوا فيها احياناً باقراض جيوشهم والحكم في الدعاوى .

ذلك كان منذ القرن الثاني ، واستمر حتى عهد الامبراطورية ، النظام السائد في الاقاليم الرومانية . وكان منه في الحقيقة ان ادخل عوامل فوضى إضافية الى مدينة شكت من المزيد منها . فليس هنالك من دولة ؛ وليس من وحدة وحتى من تضامن ؛ وليس من ادارة ، بل اقاليم معزولة لكل منها حاكمها الذي هو ملك يتمتع بسلطة مطلقة وسريعة الزوال في آن واحد ، وأراض توفر المال والاسلحة احياناً لأسيادها في ثوراتهم على الحكومة المركزية ، وبلدان نهبت أثناء الفتح واستثمرت بعده دونما شفقة ، لا لمنفعة المجموع بل لمنفعة مواطنين أثرياء ، وشعوب انتزع منها ليس استقلالها فحسب بل ممتلكاتها المادية ايضاً فغدت مستعدة لاستقبال أي محرر : فبعد انتصار ميتريدات مثلاً ، شفى العالم اليوناني غليله في السنة ٨٨ بتقتيل ٨٠٠٠٠ روماني وايطالي في آسيا الصغرى ، و ٢٠٠٠٠ بعد ذلك في ديلوس ، بينما كان ملك البونت – ولكن التقليد يعرف كيف يبتدع الأماليح الرمزية والكلمات التاريخية – يسكب الذهب المذوّب في فم احد القناصل السابقين .

ليس من ريب في ان الجمهورية قد تركت ، عند زوالها ، عملاً ضخماً شاقاً للنظام الذي سيخلفها .

الفصل الثالث

التطوّر الاجتماعي والاقتصادي

اذا لم تكيف المدينة الجمهورية أنظمتها ، بسبب لامبالاتها او عجزها ، وفاقاً للنتائج المباشرة وغير المباشرة التي أدى اليها الفتح ، فقد أصبح من الحتم ان يقلب هذا الأخير ظروف حياتها الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب . وان التطور الذي نلاحظه في هذه الحقول لمن أشدّ الاحداث تأثيراً في تاريخ العصور القديمة من حيث اتساعه الخاص ومن حيث انعكاساته .

فليس من تبدل ، في أي مكان ، اعظم بروزاً منه في جهاز وفرع حياة الطبقة الحاكمة ، تلك التي توفر لنا مستنداتنا حولها مزيداً من المعلومات .

١ ـ الطبقة الحاكمة

الاقتصاد والمجتمع الاوليان

كانت روما في البداية مدينة فلاحين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي. وقد بقيت الحياة البسيطة التي يمارسها في الحقول ملاّك يعنى بقطيعه ويحرث ارضه بنفسه، مثلاً قومياً أعلى، وان كان على العموم مثلاً مبتذلاً كما هو طبيعي . ولكن التربة الرومانية بالذات ، لم تكن صالحة جداً للاستثمار الريفي حتى ولو صرّفت مياهها وفاقاً التقنيات الاتروسكية . لذلك فان روما وسكانها قد لبوا دعوة أخرى ، هي دعوة موقع روما كمدينة – جسر هي أقرب المدن الى مصب التيبر حيث يتوجب على الملاحة البحرية ان تفرغ شحناتها وحيث تلتقي بالتالي طرق برية او مختلطة : احداها موازية للساحل تقريباً ، من اتروريا الى كمبانيا،والثانية تحاذي النهر وتسير عليها المواكب التي تنقل الملح – ولذلك سيطلق عليها اسم « طريق الملح » – قاصدة جبال « الابنين » الوسطى. فيتضح بالتالي ان نشاط روما التجاري قديم جداً حتى قبل ان يجعل منه تزايد سكانها امراً واجباً ويفرض استيراد كميات متزايدة من الحبوب لسدّ نقص الانتاج المحلي . فلا مجال بالتالي ، منذ عهد مبكر جداً ، لأن نهمل – الى جانب الريفيين – مدنيين نشيطين ايضاً مع انهم يعيشون حياة اخرى .

فهل يجدر بنا التشديد على هذا الخلاف لتفسير توزيع المواطنين منذ القدم الى طبقتين، طبقة

الأشراف وطبقة عامة الشعب ؟ منذ زمن قديم تناولت معضلة أصول هـذا التوزيع الاجتماعي الثنائي حلولاً مختلفة جداً : ومن الجرأة ، حتى اليوم ، ابداء رأي قاطع في هـذه الاصول . اما في الواقع ، فحين يتراءى الفرق بين هاتين الفئتين من المواطنين ، أي حين يبدأ التقليد ، الذي يشك بالكثير من رواياته وتفسيراته ، في الكلام عن النزاع بينهما ابتداء من اوائل القرن الخامس ، تبدو طبقة الاشراف كأرستوقراطية من الملاكين العقاريين وطبقة عامة الشعب كطبقة مؤلفة من عناصر مختلفة جداً يتجاور فيهـا صغار الملاكين الاحرار والصناعيون والتجـار . ومهما يكن من الامر ، وحتى ولو سلمنا بان الاختصاص الاقتصادي كان له دوره في اصل هـذا التوزيع ، فان خلافات اخرى متنوعـة قد برزت وارتدت مزيداً من الاهمية .

كان الاشراف وحدهم في الواقع منظمين عائلات كبرى *Gentes* يحمل كافة اعضائهـا اسم (*Gens*) ، مما فرض استعمال اسماء شخصية وحتى القاباً . وقد تفرعت هذه العـائلات الى عائلات صغرى خضعت كل منها الى سلطة « ابي العائلة » (*Pater familias*) وكان لكل منها تقاليدها ، واعرافها وعباداتها الخاصة ، واملاكها المتجاورة على العموم ، الجماعيـة احياناً ، والمتمتعة ، على الاغلب ، بامتياز اشبه بحق استرداد المبيع منها . وبالاضافة الى افراد العـائلة (*Gentiles*) حفدة جـد الـ (*Gens*) او المرتبطين بذريته بالتبني ، كان العـائلة « زبنها » ايضـاً اي اناس « يسمون » كلمة السيد ، مرؤوسون تقليديون بالوراثة . وكان بين هؤلاء معتقون ، ولكن واحداً منهم لم يمتلك كثيراً من العبيد بعد . ولذلك فقد كانوا في اغلبيتهم رجالاً ، وفلاحين احياناً ، وضعوا انفسهم ، لاسباب مختلفة ، اقتصادية احياناً ، تحت حماية احد المقتدرين القانونية والمادية ، « نصيرهم » ، متعهدين له بالمقابلة بان يسيروا وراءه ويساندوه حتى باموالهم في بعض الحالات . اجل ان قيام الروابط بين رجل ورجل ، احـدهما يحمي الآخر ويدخله في خدمته ، له ما يشبهه في كثير من المجتمعات القديمة وحتى من مجتمعات احدث عهداً . ولكن هذه الروابط لا تبرز في أي مكان آخر أعظم اتساعاً وفعاليـة منها في روما لأن نظام الاستزلام (الزبن) الذي كان في البدء خاصاً بطبقة الاشراف قد اصبح شيئاً فشيئاً نظاماً عاماً استفاد منه كل غني ومقتدر ، وأثر ، حتى النهاية ، في تنظيم وحياة المجتمع الروماني . وقـد سمح هـذا النظام ، في تلك الأزمنة القديمة ، لبعض العائلات بتأليف مجموعات بشرية هامة : يقال ان عائلة فابيا (*Fabia*) كانت تضمّ ، في السنة ٤٧٩ ، بالاضافة الى ٣٠٦ افراد ، ما بين أربعة وخمسة آلاف « زبون » . فيظهر جلياً ان هـذا التأثير على أعضاء الطبقات الدنيا ، بالاضافة الى الدور العسكري الذي لعبه الاشراف بفضل ثروتهم وتربيتهم ، قـد وفـر لهم احتكار السلطة السياسية الوطيد العلاقة باحتكار الحماية والرعاية .

بيد ان بعض « الزبن » ، على الرغم من مساعي الاشراف — ان قانون « اللوحات الاثنتي

عشرة يعاقب خيانة الزبون – وحتى دون زوال العائلة ، قد حطموا هـذه القيود ، منذ عهد باكر جداً ، للالتحاق بعامة الشعب او العودة اليها . فهنا لا يجد الانسان نفسه محاطاً بمثل هـذا النظام الديني والاقتصادي والاجتماعي . وقد تمسك الاشراف بهـذا الفارق ضناً منهم بامتيازات طبقتهم ، فرفضوا زمناً طويلاً الاعتراف بشرعيـة الزواج المختلط ، في حال انهم وافقوا عليها دونما صعوبة ، وعلى قـدم المساواة ، بينهم وبين عائلات نبيلة من مناطق ايطالية مضافة الى الارض الرومانية ، شرط ان يكون تنظيمها شبيهاً بتنظيمهم . وجهلت عامة الشعب المجموعات العائلية التي لم تظهر فيها إلا تدريجياً ، خالية من معناها الحقيقي . وكذلك ، فقـد اختلف اختلافاً بيّنا ايضاً التنظيم الجماعي ، المتميز ، الذي جعل من العامة ما يشبه مدينة قائمة بذاتها لها قضاتها الذين انتخبتهم ليدافعوا عنها ضد طبقة الاشراف ، ومرد ذلك الى ان هـذا التنظيم كان مستقلاً عن الوراثة والاطارات الاجتماعية التي رسمها ، والى انه وضع جنباً الى جنب مواطنين متساوين مبدئياً .

انهيار طبقة الاشراف وطبقة النبلاء

أفضى هذا الصراع الطويل والعسير احياناً الى بلوغ المساواة المدنيـة والاجتماعية والسياسية بصورة تدريجية ، فكانت النتيجة المحتومة انهيار الطبقة المحظية .

حافظ الاشراف على حقهم في بعض وظائف كهنوتية نادرة جداً او على وظائف يغلب عليها الطابع الديني كوظيفة الملك المؤقت مثلاً. وقد احتفظوا كذلك بأولوية أدبية من الصعب جداً، على كل حال، تحديدها ومعرفة مداها : فقد احترم الرومان نظام المراتب المستند الى التقليد . ومما يدعو الى الدهشة البطء الذي رافق ظهور بعض مبادىء المساواة في الوقائع بعد بلوغهـا . فهكذا بعد ان حصل الشعبيون في القرن الرابع على حق اسناد احـد منصبي القنصل او قاضي الاحصاء الى احدهم بالضرورة ، انتزعوا ، في منتصف القرن الثـالث ، حق شغلهما كليهما في آن واحد . ولكن القنصلين لم يعينا من بين عـامة الشعب ، للمرة الاولى ، الا في السنة ١٧٢ وقاضي الاحصـاء الا بعد القنصلين باربعين سنة ، ولم تدرج هـذه التجديدات في الاعراف والعادات . لا بل ان نسبة الاشراف في كافة الاجهزة الحاكمة ، باستثناء مناصب قضاة عامـة الشعب فقط ، قد بقيت مرتفعة اذا ما قيست بعددهم الحقيقي .

بيد ان هذا الواقع ليس ذا شأن لانهم ما كانوا ليجدوا فيه سوى ارضـاء لانانيتهم او دور ابهة دون اثر سائد لا يحسب لآرائهم فيه اي حساب . فقـد اسهم كل شيء في ان ينزع عنهم طابع الطبقة المتميزة بنوع حياتها : تكرر الزواج المختلط وتراخي زوابط استزلام الزبن الذي غدا اوسع شمولاً ، وتجزئة الاملاك العقارية العائدة الى عائلاتهم ، واثراء عناصر اجتماعية اخرى. ومن جهة ثانية اخذ عددهم بالانخفاض لان انضمام العائلات الجديدة اليهم بعد انصهارها في المدينة الرومانية قد زال منذ القرن الثالث : ففي آخر الجمهورية ، على ما نعلم لم يبق هنالك سوى اربعة

عشر من هذه العائلات الكبرى تضم ثلاثين عائلة صغرى تقريباً . وبالاختصار ، فان الماضي ، على هذا الصعيد ، قد ادركه الموت ، وان الدم الجديد الذي وفره الاباطرة، تمسكاً مفرطاً منهم بالشكليات الدينية ، لم ينجح قط في اعادته الى الحياة .

وقامت ارستوقراطية اخرى اطلق عليها اسم طبقة النبلاء « *Nobilitas* » وكان مقياسها في ذلك عضوية رئيس العائلة في مجلس الشيوخ : فهي قد جمعت اذن ، في آن واحد ، عائلات من عامة الشعب وعائلات من طبقة الاشراف . وقد فتحت ابوابها مبدئياً للجميع بمجرد الانتخاب لمنصب من مناصب القضاء . ولكن هذه الابواب قد اوصدت عملياً اذا ما نظرنا اليها كطبقة اجتماعية . ومرد ذلك الى انه يغلب ان ابناء الشيوخ الذين استطاعوا حضور جلسات مجلس الشيوخ وقوفاً وافادوا ممن تضامن النبلاء اثناء الانتخابات قد دللوا على نقائص لا تعوض اذا هم لم يرتقوا سلم المراتب . وعلى نقيض ذلك فقد كان هزيلاً جداً حظ المرشحين الآخرين ، « الرجال الجدد » – ولا ينطوي هذا التعبير على مفهوم دقيق ، بل استعمل على العموم للاشارة الى اولئك الذين لم يتوصل واحد من جدودهم الى اعتلاء منصب ذي « سلطان » . وكان من الندرة المستهجنة وصول احدهم الى القنصلية : اربعة فقط ما بين السنة ٢٠٠ والسنة ١٤٦ ؛ اما في القرن الاول فقد كان شيشرون اول من توصل اليها في السنة ٦٣ ، بعد ماريوس الذي توصل اليها في السنة ١٠٨ .

وقبل ان يحظى النبلاء باعتراف الدولة الرسمي ، استفادوا من عادات راسخة في التقليد حتى يتميزوا عن الطبقات الاجتماعية الاخرى . اجل لقد فقدوا امتياز الخاتم الذهبي الذي شمل الفرسان قبل ان يشمل كافة المواطنين ، ولكن الطريدة الارجوانية المخيطة على القميص من اعلى الى اسفل كانت عندهم اوسع عرضاً منها عند الفرسان . وكان لهم وحدهم الحق في انتعال الاحذية الحمر . وكان لهم اخيراً « حق الرسوم » ، اي حق عرض اقنعة او تماثيل جدود العائلة المجيدين في المواكب الجنائزية .

وهكذا فان هذه الارستوقراطية التي برزت في القرون الاخيرة من العهد الجمهوري قد تمتعت بامتيازات وافرة جوهرية وشرفيـة على السواء . ومهما كان من أمر نجاحات الحركة الديموقراطية ، فقد تنكرت النخبة الرومانية لعملية التمهيد والمعادلة . اجل يستحيل علينا نكران ما تنطوي عليه من أهمية قانونية التنازلات التي انتزعتها عامة الشعب من طبقة الاشراف خلال صراعها الطويل . ولكن هذه الاصلاحات قد عادت بالفائدة على رؤساء عامة الشعب بنوع خاص ، أي على اولئك الذين كانوا في الواقع مساوين لخصومهم . وقد برهنوا ، بعد بلوغهم مأربهم ، عن النخبة الطبقية نفسها التي شكا منها جدودهم : فان والد الاخوين غراكوس مثلاً ، الذي شغل منصب القنصلية مرتين ومنصب قضاء الاحصاء مرّة واحدة ، لم يكن ، على الرغم من انتمائه الى عامة الشعب ، اقل عجرفة ولا اقل قسوة نحو الوضعاء من أي شريف من الاشراف .

لم يكن هنالك مبدئياً من ضريبة « مجلسية » ولم يفرض قضاة الاحصاء ، لإبقاء احد الشيوخ على « اللائحة » ، حداً أدنى من الثروة . وكانت المزاحمة الانتخابية وطريقة الحياة المحترمة ، من جهة ، تفرضان نفقـــات باهظة ؛ ولكن الوظائف التي تمارس خلال الحياة السياسية كانت تتيح ، من جهة ثانية ، التعويض عن هـــذا الانفاق وتحقيق المكاسب بطرق تتفاوت نزاهة . فكان الشيوخ اذن من الأثرياء ، لا بل اوسع الرومان ثروة على العموم ، وكانت ثروتهم مجمدة في الممتلكات العقارية لأن تخصيصها لغاية أخرى كان محظراً عليهم نظرياً كما سنرى ذلك قريباً .

الفرسان

هل احتفظ لهم ولأعضاء عائلتهم ، أثناء عمليـــات الاحصاء ، بالوحدات المئوية المعروفة « بوحدات الفرسان » ؟ يبدو ذلك ثابتاً في البداية ، ولكن التطور اللاحق غامض في توقيته وكيفياته الرسمية . فقد فقد المدلول الذي يحدّده اسم الفارس معناه العسكري الاول . وبهذا المعنى ، كان الشيوخ وابناؤهم ، هم ايضاً ، وهم خصوصاً ، من « الخيالة » . وبعد ذلك ، اي خلال القرن الثالث كأبعد حـــد ، تميز الاسم بفارق جديد بحيث لم يعد من الممكن ان يعني سوى « الفرسان » . وقـــد عنى في الواقع المواطنين الاثرياء الذين لا ينتمون الى مجلس الشيوخ ؛ ويبدو ان الحـــد الادنى للثروة الضرورية قد انتهى الى ما يعادل /١٠٠٠٠٠/ فرنك (١٩١٤) في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهو معدل ضرائبي يخوّل حق الانتخاب وقد يكون هو نفسه ايضاً معدّل الطبقة الاولى بين الطبقات الانتخابية الخمس .

تميز هؤلاء الفرسان خارجياً عن المواطنين الآخرين : فقد اجازت لهم عادة درج عليها منذ اواخر القرن الثالث بحمل الخاتم الذهبي والطريدة الارجوانيـــة الضيقة ؛ واعطاهم قانون سنّه كايوس غراكوس الحق في مقاعد خاصة اثناء التمثيليات المسرحية . ولكنهم افادوا من امتياز عملي هو اثمن من كل ذلك الى حدّ بعيد : كان باستطاعتهم ، على نقيض الشيوخ ، استثمار رؤوس اموالهم ، كما استطاعوا ، بسبب إقصائهم عن مناصب القضاء ، احتكار العمليات المالية في روما . اجل لم يتعاطوا جميعهم الشؤون الكبرى : فقـد انتمى بعضهم الى بورجوازية المدن الصغيرة في ايطاليا ، وحتى الى بعض الملاكين العقاريين الذين اكتفوا بادارة املاكهم . ولكن تعاوناً وثيقاً قد وحّد هذه الطبقة التي ليس بمكنتنا تقدير عددها المتزايد باطراد بفعل انتشار الثروة . وقد افضى تعاونهم الى خدمة المضاربين الذين اداروا مصالح ضخمة وتوصلوا في الحياة السياسية الى سلطة يبررها دورهم الاقتصادي ومركزهم المتوسط بين المجلس وخصومه ، ان لم يبررهـــا عددهم . وبسبب عدائهم للأنانية المجلسية ، وللفوضى الاجتماعية بنوع خاص ، فانهم قـــد ساندوا هذا الحزب تارة وذاك الحزب تارة اخرى ، وقبضوا ثمن مساندتهم تسهيلات في سبيل توسيع ثرواتهم .

الثروات والبذخ

ألّف الشيوخ والفرسان اذن نخبة المجتمع الروماني ، تلك النخبة التي عادت لها السلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة . وقد توصل بعضهم ، لا سيما من بين

الشيوخ ، – اقله اذا صدقنا التقليد الذي يميـــل الى الامالح وينقطع بالتفضيل الى الاشخاص المنظورين – الى تكديس ثروات طائلة جداً . ويبـــدو ان اعظمهم ثروة كان ، كما يبدو ، كراسوس الذي أطلق على جدوده ، منذ عدة اجيال ، لقب « الاغنياء » (*Dives*) . فقـــد ورث ما قيمته ٠٠٠ ٨٠٠ ١ فرنك (١٩١٤) ؛ ولكن مضاربات شتى ، ابتداء مـن تلك التي وفرتها له احكام « سيلا » بالنفي ، رفعت ثروته الى أكثر من ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠ فرنك ، وعـــلى الرغم من الخسائر التي لحقت به ، فما زالت تقدّر بـ ٠٠٠ ٥٠٠ ٤٢ حين انتقل الى الشرق حيث لقي حتفه . وباستطاعتنا ان نستشهد بلوكولوس وبومبيوس ايضاً . ودون ان نعمّم هـــذه الحالات الاستثنائية يمكن القول بأن ثروة تقدر بعدة ملايين – وليس من ضرورة لان تكون نقدية ؛ ولكن ذلـــك قضية اخرى – غدت شيئاً عادياً ، ابتداء من القرن الثاني ، في هاتين الطبقتين الحاكمتين . ولا يستحق النظام عملياً سوى اسم البلوتوقراطية (حكم الاثرياء) .

ولم ير الشعب في هذا القدر من الثروة ما يهين شعوره . لا بل ان خطب التأبين استندت اليه لتمجيد الميت. وقد نظر الرومان على الدوام الى مفهوم المُلك والى العناد في الدفاع عنه وتوسيعه والى الاقتصاد وحتى الى البخل نظرتهـم الى ضروب من الفضائل . وان كاتون القـــديم الذي تظاهر ، في اول القرن الثاني ، بتقشف روماني الازمنة القديمة ، قد كره التبذير وتباهى بضبط ادارة املاكه ولم يتراجع امام اية وسيلة شرعية لتوسيعهـــا : ففي نظره ، « عجيب والهي هو الانسان .. الذي يترك اكثر مما اعطي » . وقد شدد بوليب ، في كلامه عن سخـــاء شيبيون اميليانوس ، على هذا الطابع من الخلق القومي . « يبـــدو هـــذا السلوك ، عن حق ، حسناً في كل مكان . ولكنه يبدو في روما مدهشاً وذلك لسبب بسيط هو ان اياً من اهاليهـا لا يعطي احداً مما هو له... فكلهم يبرهنون عن حرص مفرط في شؤون مصلحتهم » . وان ما اعجب به بوليب قد ادهش عمّي تلميذه وصديقه ، المتربعَين في المرتبة الاولى بين النبلاء ، عـلى الرغم من انهما قد استفادا من هذا السلوك.

في رومــــا هذه حيث اعتمد المجتمع الرفيـع ، فيما مضى ، تقتيراً عسيراً ، وحيث قدمت الاطعمة لسفراء القرطاجيين المدعوين عند بعض الشيوخ في الاواني الفضية نفسها التي استعارها الشيوخ مداورة ، نشأت الفضيحـة ، بالضبط ، من التبذير الذي ظهر في ازدياد الفخفخة بنوع خاص؛ فثار مهذبو الاخلاق على هذه الاخيرة واصدروا حكمهم عليها كهدامة للامـــلاك التي كان تسلسل درجاتها في الاساس من جهاز الدولة نفسها ، وكهدامة للانظمة القديمـــة الفردية والاجتماعية . ولكن الثروة اعطت نتائجهـــا المحتومة في كل مكان ، لا سيا على رجال اتصلوا بشرق يفيض خبرة ودروساً فيما يعود لملذات الحياة المــادية . ففرض كاتون ، دون جدوى ، العقوبات الصارمة ، خـــلال اعتلائه منصب قضاء الاحصاء في السنة ١٨٥ – ١٨٤ ، مخمناً حلى النساء وعرباتهن وعبيدهن الشبان الباهظي الثمن بما يوازي عشرة اضعاف الثمن الحقيقي وفارضاً

على رأس المــال ، المقدر على هذا الاساس ، ضريبة توازي ثلاثة اضعاف الضريبة العـادية . وحاولت القوانين « التقتيرية » ، دون جدوى ايضاً ، اصلاح الاخــلاق بالحد من الانفـاق . ويطول بنا الكلام بسردها كلها ، ابتداء من قانون اوبيوس الحـامي عن حقوق الشعب الذي سن بعد كارثة « كانا » والغي بعد سبع سنوات من الانتصار على قرطاجة على الرغم من معارضة كاتون ، القنصل آنذاك ، حتى قانون الدكتاتور قيصر ، وجميعها اربية في تفصيل ما منعته بصدد بهرجة النساء او الافراط في الانفاق على الولائم او بصددهما معاً ، ولكنها جميعها بدون جدوى ، اذ يكفي تكرارها لاثبات ذلك . اما منذ القرن الاول ، فقد غدا البذخ احد توابع مرتبـة اجتماعية معينة : فقد درج شيشرون مثلاً على مداعبة صديقه اتيكوس بسبب اعتداله المفرط . وكان من الواجب امتلاك فندق خاص وحدائق في رومـا وبيتاً مزداناً بالتماثيل وزرائب الحيوانات وبيوتاً للطيور في مناطق مختلفة من ايطاليا ، وحتى على الشاطىء الكمبـاني الذي يقصده المجتمع الرفيع صيفاً . كما كان من الواجب اقتناء جمهور كبير من العبيد الشخصيين وامناء السر والحوذيين والخدام : فقد اعتبر بؤساً متناهياً ان يضطر بومبيوس الهارب الى حل سيور حذائه بنفسه ، وقد انفق شيشرون ، خلال خمسة اشهر من السنة ٤٤ ، مـا يعادل ٥٠٠٠٠ فرنك (١٩١٤) للمحافظة على مستوى معيشته الخاصة .

الافساد السياسي والدين

ليس من ريب ، من جهة ثانية ، كما شكا من ذلك المعجبون بالتقشف القديم ، في ان عدوى هذه الاخلاق الجديدة قد اضرت احيـاناً بالدولة ؛ ولن نشدد على الفجور والزنى والطلاق الذي انتشر ، خلال القرن الاول ، في صفوف الطبقة الحاكمة : لم يكن الرومان الاقدمون ليهتموا بطهارة الذكور ، وقـد بدا تحرر النسـاء بنتائج اخرى كثيرة لن يرضى احد اليوم بان يثور ثائره عليها ؛ وعلى الرغم من الاشمئزاز الذي ولدته بعض الفضائح ، فقد برهنت هذه الارستوقراطية ، في الحروب الاهليـة ، انها لم تكن متخنثة قط وان الكثيرات من نسائها قد تحلين بصفات الرجولة . ولكن وجه استخدام المـال قد اسهم في الاساءة الى نظام في طريق الانهيار . فقد ازداد الانفاق في سبيل التوصل الى مناصب القضاء ، لا سيا وانها تقود الى وظائف تسهل معها اعادة بناء الثروة المفقودة ومضاعفتها . وقد درج نظار الابنية والملاعب على زيادة المبلغ الذي يخصصه مجلس الشيوخ للالعاب العامة فتنافسوا في تنظيمها ببذخ مبتكر : فكان من قيصر مثلاً ، في السنة ٦٥ ، ان وضع برنامجاً لتبارز ٣٢٠ زوجاً من المسايفين ، المجهزين جميعهم بدروع فضية . وكذلك فان كل انتخاب ، على الرغم من قوانين غير نافذة تشبه بعدم جدواها القوانين«التقتيرية» ، قد افضى الى افلات الدسيسة من قيودها بشكل افساد مخز ، في الغالب ، لعب دوره في الدعاوى ايضاً بشراء المحلفين .

فلا غرابة والحالة هذه ان يلجأ كثيرون ، بعد انفاق دخلهم على الرغم من ضخامة ثرواتهم ، الى قروض تضمنها املاكهم ولا سيا ، في الواقع ، الثقة التي يوحيها مستقبلهم السياسي . اجل ان

شيشرون لم يعر الشؤون المالية عناية كبرى ؛ ولكنهـا ، طيلة حياته ، لم تترك له مجالاً للراحة ، في حال ان ممتلكاته يمكن ان تقدر بما يوازي ٠٠٠ ٥٠٠ ٧ فرنك تقريباً(١٩١٤). وقد اعترف قيصر ، قبيل سفره الى احد الاقاليم الاسبانية الذي أسندت ولايته اليـــه بعد انتهاء سنته في منصب القضاء ، بأن ديونه تفوق كل ما يملكه بما يوازي٠٠٠ ٠٠٠ ٦ فرنك، مما حدا بدائنيه لأن يمضوا في الاعتراض على مغادرته روما حتى الساعة التي كفل فيها كراسوس هـــذه الزيادة . وتكفي هذه الامثلة التي يسهل علينا تأييدها بكثير غيرها لإظهار ركاكة مثل هذا النظام القائم على الدين . فاذا ما انفجرت ازمة وألقت الرعب في قلوب الدائنين وحملتهم على رفض تجديـــد القروض وعلى إنذار المدينين بالدفع ، حصل انهيار شطر كبير من الارستوقراطية يزيـــد من خطورته انخفاض اسعار الممتلكات العقارية المعروضة للبيع . ويتضح بالتالي ان كثيرين من غير الفقراء قد ثقلت عليهم وطأة الديون ، وان تيارات الثورة الاجتماعية التي خلقها هـذا الوضع الوخيم ، « بمؤامرة » كاتيلينا في السنة ٦٣ وحتى أثناء دكتاتورية قيصر ، قد جمعت أكثر مـن مناصر ، ورؤساؤها انفسـهم من افضل الطبقات العليا : «جمهور من الرجال الغارقين في الديون» ان لم يكن في جميع الجرائم التي اسرع شيشرون ونسبها اليهم .

وكان كل ذلك ابعد من ان يدعم الطبقة الحاكمة والنظام .

٢ ـ الثورة الاقتصادية

ان الوقائع التي اوردناها أعلاه تعود الى القرن الاخير من العهد الجمهوري بنوع خاص : فالداء الذي كشفت عنه قد ارتدى اذ ذاك مزيداً من الخطورة . ولكن اعراضه قد برزت قبل ذلك لأنه النتيجة المباشرة للثورة الاقتصادية التي فجرتها الحروب الظافرة والفتوحات .

١ ـ جمع رؤوس الاموال في ايطاليا

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية

غدت روما شيئاً فشيئاً سيدة شبه الجزيرة الايطالية فاتسع أفق علائقها التجارية. وقد توجب عليها ان تعوض عن نقص انتاجها الزراعي باستيراد الحبوب من الخارج . وتوجب عليها ايضاً ، اقله لتسليح جنودها ، ان تضاعف مصنوعاتها او تتوفق الى اقنـــاع من يعمل لحسابها في المناطق الأخرى . وفي الواقع قامت في ايطاليا اقاليم اخرى أعظم خصباً وتقدماً تقنياً من « اللاتيوم »: اتروريا (الاتروسك) وكبانيا واليونان الكبرى. فلجأت روما اليها-منذ عهد مبكر، أي زمناً طويلاً قبل اوائل القرن الثاني التي شهدت اخضاعها لسهل « البو » الخصب اخضاعاً نهائياً. وهكذا زادت حاجاتها وعملها بفضل الوحدة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي سبق التوسع الاتروسكي والتجارة اليونانية ان مهدا لها تمهيداً عريضاً . وقـــد سبقت هذه الوحدة الاقتصادية في الزمن الوحدة المعنوية التي خيبت متانتها آمال هنيبعل . ومن حيث ان الواحـــدة دعمت الاخرى ، فقد حصل شيبيون من المدن

الاتروسكية على مؤن هامة وتلقائية من المنسوجات والعتاد والحديد والاسلحة على انواعها فجهز الاسطول والجيش المعدين لحملته على افريقيا في السنة ٢٠٤ ، ولا ريب في ان اتروريا قد امتلكت آنذاك قوّة صناعية وضعتها تحت تصرف روما . ولكن ليس مدهشاً ان تجمع في ذاك التاريخ بين قضيتها وقضية الرومان لأنها ارتبطت منـذ امد بعيد بجهاز المحالفات الذي أقيم في ايطاليا . فالمدهش المدهش هو الوضع السابق للوحدة المعنوية حين لم يكن لدى روما شيء تعوّض به عما يأتيها من الخارج. وقد يجوز الاعتقاد بأن قوة روما العسكرية ، منذ القرنين الخامس والرابع ، قد وفرت لها ، بفضل الغنيمة والاحتلال ، المساعدة الضرورية ، ويقول التقليد بأن المرتب العسكري قد اقر ابّان حصار « فييس » (*Véies*) الطويل ، الذي يغلب انه استمر من السنة ٤٠٦ حتى السنة ٣٩٦ ؛ ولم يكن من المستطاع اقراره لو لم تتصرف روما بموارد يستحيل علـى غير الحرب وحدها ان تؤمنها في ذاك الوقت . •

جنت روما بالتالي في عهد باكر ، فائدة مادية من انتصاراتها ، بيد انه يغلب على الظن ، من حيث وصايتها ، التي اتصفت بالحزم والتفهم والعطف في آن واحد ، انها لم تهمل مصالح اولئك الذين يصبحون رعاياها او محميهـــا . فلم تخرج عن حدود معتدلة في استثمار ثرواتهم المكدسة ومواردهم الطبيعية وامكانات نشاطهم البشري . وقد سارت حيالهم – وكان ذلك عاملا حاسماً في تكوين وحدة ايطاليا المعنوية – على سياسة تعاون اقتصادي جزيل النفع للجميع . فكان من واجبهـــا مثلا الحرص على استمرار علائقهم التجارية التي لم تخـل من النشاط فيما يتعلق بالاتروسك او الاغريق . وقد قامت به خير قيام كما يتضح من معاهداتها الاولى مع قرطاجة او من الحروب التي خاضت غمارهـــا ، في النصف الثاني من القرن الثالث ، ضد القرصنة الإلّيرية المضرة بسلامة البحر الادرياتيكي والبحر الايوني . ولكنهـا لم تبق هي نفسهـــا بعيدة عن تلك النشاطات التجارية التي لم يفت مواطنيها الاسهام فيها برؤوس اموالهم وباشخاصهم . ولم يؤلف هؤلاء يوماً ، كما حدث لشعوب فاتحة اخرى ، ارستوقراطية من المتصرين عاسمة في تنظيمهم العسكري ومقتصرة على مراقبة المغلوبين . فلم تخل صفوفهم من رجال الاعمال الذين ارتفع عددهم باطراد . اجل ان معلوماتنا لا تتيح لنا تتبع هذه النجاحات . بيد انه من الواضح ان فتوحات روما الايطالية قد جعلتها تهتم بالحياة الاقتصادية في العالم المتوسطي ، وهي حياة قطعت اشواطاً بعيده في التطور • وانها اقتطعت فيها لنفسها مكاناً مطرد الاتساع.

ولنا في تاريخها النقدي الادلة المقنعة على ذلك على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الموضوع ومن الخلاف بين علماء المسكوكات القديمة . فلم تبدأ روما الا في عهـــد متأخر نسبياً في ضرب المسكوكات الحقيقية ، ولم يحدث ذلك قبل القرن الرابع . ولم تضرب آنذاك سوى المسكوكات البرونزية . وحين بدأت في ضرب الفضة ، في اوائل القرن الثالث كما يغلب على الظن ، انما حصل هـــذا الضرب في كمبانيا لا في روما حيث تأخر حصوله حتى السنة ٢٦٨ . ثم حدثت بعض

الاضطرابات بسبب النفقات الباهظة التي اقتضتها الحربان البونيقيتان الاوليان ، واستقر النظام النقدي الروماني في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الثاني . فارتكز الى الدرهم الفضي اساساً الذي يزن اربعة غرامات تقريباً اي انه يوازي عملياً الدرهم الاوسع انتشاراً في العالم اليوناني ، الدرهم الأثيني الذي اعتمده الملوك المقدونيون . ولم يضرب الذهب الا في ظروف استثنائية . اما البرونز الذي كان « الآس As » وحدته الاساسية ، وعادلَ في النهاية ١/١٦ من الدرهم ، فقد فقد اهميته الماضية .

على الرغم من إيجاز هذه العجالة ، يظهر هذا التطور الانتقال التدريجي ، البطيء جداً حتى القرن الثالث ، والسريع نسبياً بعد ذلك ، حين أمنت روما سيادتها على ايطاليا ، الى اقتصاد اقل انكماشاً يمتد شعاعه باستمرار . فأحس الملاكون الريفيون ، الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة ، بمصالح جديدة ، وفي المشاغل التي أقامتها في وجههم فتوحاتهم الايطالية ، لعبت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية دوراً دونه دور سكان جبال الابنين الشكسين .

استثمار فتوحاتهم خارج ايطاليا

لماذا حدث يا ترى حين اصبحت روما ، بفضل توسع افقها السياسي والعسكري ودبلوماسيتها وانتصاراتها منذ « زاما » لا سيدة ايطاليا فحسب بل سيدة كل الحوض المتوسطي ، وحين وجدت في نفسها القدرة ، المباشرة او غير المباشرة ، على تشجيع او خنق كافة المراكز الكبرى لحياة اقتصادية نشطت وازدهرت منذ زمن بعيد ، كقرطاجة مثلاً ولا سيما بلدان الشرق الهليني ؟

ان سلوكها ليخفي مفاجأة كبرى للمؤرخ .

فهي ، حتى عندما بدت انتصاراتها وكأنها وضعت ايطاليا في مأمن من خطر الغزو ، لم تدخل أي تبديل في الأساليب التي اعتمدتها حيال شعوب شبه الجزيرة . اجل ليس هنالك من مجال ، على الصعيد القانوني وحتى العملي احياناً ، بصدد توزيع المغانم على الجيش مثلاً ، للكلام عن شراكة على قدم مساواة تامة بين مواطنيها والايطاليين غير المواطنين . ولكن هذه التمييزات ، مهما بلغ من ثقلها على اولئك الذين تألموا من وضع متدنٍ ، لم تتناول الجوهر ، اقله في الحقل الاقتصادي . وحتى قبل ان تمنح روما حق مواطنيتها للجميع ، درج سكان الاقاليم والاجانب على اطلاق اسم « الرومان » ، دون أي تمييز آخر ، على المواطنين وغير المواطنين شرط ان ينتسبوا الى ايطاليا : فقد كان هؤلاء واولئك ، في الواقع ، شركاء في الاستثمار المالي والاقتصادي الذي اخضعت له الفتوحات الجديدة .

بيد ان الجدة هي في ما يلي : انّ كلّ الشعوب وكل الاقاليم خارج ايطاليا ، بما فيها صقليا مع انها قريبة من شبه الجزيرة ومأهولة بسكان من الاغريق أو المستغرقين لا يتميزون عن سكان اليونان الكبرى ، قد خضعوا لنظام آخر . ولم تمرّ الحرب عليهم مرور العاصفة فحسب بما يرافقها من شدة محتومة وانفلات غرائز . فقد استمر النهب ، بعد عقد الصلح ، باعتماد الوسائل الرسمية

او غير الرسمية التي كان لها من الرواج والاستمرار ما جعل المستفيدين منها يعتبرونها قانونية .

فما هو مردّ هذا التناقض ؟ ان المفاجأة، والحق يقال ، اذا ما نظرنا الى تاريخ العصور القديمة – وقد برهن أكثر من استعمار معاصر عن تمامٍ مماثل – حيث استسلم المنتصرون لجشع مغر لا يعرف الشفقة معنى ، قد تنشأ خصوصاً عن معاملة الايطاليين معاملة ممتازة . فقد قامت روما حيالهم بشيء جديد كان مقدمة لعملها الاكبر في عهد الامبراطورية .

ولكن ما يلفت الانظار انها حصرت، في العهد الجمهوري، تصميمها على التعاون الاقتصادي، في ايطاليا دون غيرها. وكان من الممكن ان نفسر ذلك بتضامن عنصري لاواعٍ لو انها لم تشمل بهذا التصميم اغريق اليونان الكبرى انفسهم ، دون حاجة منا الكلام عن الاتروسك الذين امتزجوا منذ عهد بعيد بحياة شبه الجزيرة : فلماذا ادخلتهم فيه يا ترى واقصت عنه اخوانهم في صقليا ؟ لا ريب في ان تحقيق الوحدة المعنوية السابق قد أسهم في ذلك : فقد تكوّن – على غير اكتمال – شعب ايطالي اكثر منه روماني أفضى بـه وعيه التضامن الى احتقار الآخرين احتقاراً اثانياً والشعور بأن كل شيء جائز حيالهم . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ايضاً ظروف الفتح العسكرية وتشكيل الجيوش المعروفة بالرومانية مع ان نصفها « حليف » اي ايطالي ، في حال ان سكان الاقاليم والاجانب ، في العهد الجمهوري، لم ينخرطوا فيها إلا بنسبة ضئيلة جداً . ويجب ان نفكر اخيراً ، وربما خصوصاً ، بالتبدلات السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، التي احدثها امتلاك الثروات الاولى . فأثار النهب شهوة مفرطة للذهب ، اما مذاق البذخ ، فبالاضافة الى انه لا يعرف القناعة ، فقد امتد الى طبقات اجتماعية اعظم اتساعاً . وأية وسيلة لتحقيق الثروة أيسر من تعرية اولئك الذين اجاز قانون الحرب معاملتهم وفاقاً لهوى المنتصر ؟

ومما لا ريب فيه ، بهذا الصدد، إن الانحراف الحاسم قد سببته الحروب الظافرة العظمى التي دار رحاها ، خلال النصف الاول من القرن الثاني ، حول شواطىء بحر ايجه . فقد وجد المنتصرون انفسهم هناك امام ثروات طائلة كدستها اجيال لا تحصى في مناطق نعمت بحضارة قديمة تفوق ما غنموه في افريقيا حول قرطاجة . فلم يقاوموا التجربة ، ولكن ما جمعوه نقطة انطلاق إثراء ايطاليا المدهش بما ولّده من رغبة في الاستزادة . وليس ما يشبه هذا الحدث، في تاريخ حوض المتوسط القديم ، سوى مصادرة الكنوز الفارسية على يد الاسكندر . فقد وفرت هذه المصادرة للمنتصر ثروات اعظم شأناً، وتمت في وقت اقصر،اذ انها لم تتطلب خمس سنوات. بيد انها جرّت الى نتائج اقل تأثيراً . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان القسم الأكبر من هذه الكنوز كان مجمداً بشكل سبائك مفرغة في خواب مخبأة في دهاليز القصور الاخيمينية : فكانت النتيجة ان البزل من ممتلكات السكان كان خفيف الوطأة . ومرده في الدرجة الثانيـة الى ان الكسب من هذه المصادرة قـد توزع جغرافياً توزعاً اعظم اتساعاً : واذا ما عاد بعض الجنود القدماء والموظفين وغيرهم من الاغريق بقسم كبير منه الى اوروبا، فقـد استقر كثيرون غيرهم

نهائياً في البلدان المحتلة ، فوثب النشاط الاقتصادي في هـــذه البلدان ، بفعل وجودهم ورؤوس الاموال التي وضعوها في التداول ، وثبــة عظيمة جداً الى الامام . اما الفتح الروماني فلم يحدث فيه شيء من ذلك . فهو قد استولى على الثروات الحية والمتداولة والثروات المكتنزة على السواء. كما انه قد ادى الى انتقال تدريجي وشامل نحو منطقة واحدة هي شبه الجزيرة الايطالية حيث مالت طبعاً الى التجمع رؤوس الاموال المنتشرة حتى ذلك الحين في كافة انحاء الحوض المتوسطي. ولم يعرف مثل هــذا التجمع سابقة مماثلة بالاتساع الذي بلغه آنذاك ، كما ان الحدث الاقتصادي الذي يمثله لم يتكرر مراراً فيما بعد .

الغنيمة وتعويضات الحرب والغرامات و«الاملاك العامة»

لقد تم الانتقال وفاقاً لكيفيات مختلفة . كان ابسطهـــا الغنيمة التي يعود بها القادة ويدفعونها الى الخزانة العامة بعد عرض الموكب الظافر الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً . وكثيراً ما يحدث ان تتضمن مصادرنا بيانات مفصلة بها ، تتفاوت كمالا وصحة على كل حال . وقد يكون من الملل ان نستشهد بكافة الاحصاءات المعروفة . فلنقتصر اذن على معطيات هي في الوقت نفسه شاملة – اذ انها لا تتناول مواكب النصر التي تلت الحملات الأسيوية على الملك السلوقي والغلاطيين والحملات الاسبانية والايطالية الشمالية – وجزئية ، اقتبسناها عن دراسة بصيرة جـداً . فبين السنة ١٩٤ والسنة ١٦٦ بلغت الغنيمة التي اسفرت عنهـــا الحروب في شبه الجزيرة اليونانية فقط ، ذهباً مسكوكاً او فضة مسكوكة او ذهباً وفضة قابلين للسك فوراً ، قيمة تناهز السبعين مليون درهم ، اي ما يوازي سبعين مليون فرنك (١٩١٤) . وفي هذا المجموع تمثل غنيمة بولس اميليـــاوس الذي قضى في «بيدنا» ، في السنة ١٦٨ ، من الملكية المقدونية ٠٠٠ ٥٠٠ ٥٢ درهم .

واضيفت الى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحملهـا المنتصر . وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يدفع حين عقد الصلح من الممكن ان يحتل مركزه في الغنيمة الظافرة وعدداً مختلفاً من الاقساط السنوية: ٠٠٠ ٢٠٠ ١ درهم دفعتها قرطاجة كل سنة ، طيلة خمسين سنة ، بعد معركة زاما ؛ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ درهم دفعتها الملكية السلوقية سنويا طيلة اثنتي عشرة سنة بعد السنة ١٨٨ ، الخ .

لم تفرض هذه التعويضات الا على الدولة التي تحافظ على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب . اما الدول الاخرى فكانت تفرض عليهـا الغرامات السنوية التي تعتبر دائمة . لا بل ان روما لم تتردد في فرض غرامة قيمتها ٠٠٠ ٦٠٠ درهم على مجموع الجمهوريات الاربع التي نظمتها في مقدونيا بعد «بيدنا» مع انها منحتها ، لمدة عشرين سنة ، استقلالاً سريع الزوال ؛ ولكنها لم تفرض الغرامة في الظروف العادية الا على الاقاليم التي تمارس حيالهـــا سيادة حققتها بالنصر : وقد رمزت هذه الفريضة الى حقوقها المطلقة ، كما مثلت الغرامة ، من جهة ثانية ، القسم الاكبر من الضرائب التي تحصلها من اراض تعود اليها . وقد حدد قيمتها وتفاصيل جبايتها القانون الذي ينظم البـــلاد

ولاية . وغالباً ما استوحى القانون ، بصدد هذه القيمة وهذه التفاصيل ، الوضع السابق الفتح ، اذ ان الغرامة عادة قديمة واساسية من عادات الدول القديمة ولا سيا الملكيات منها . فلم تأت روما بجديد ، كما انها لم تهتم بالتوحيد بنوع خاص . بل حاولت ، رغبة منها بسلوك اسهل السبل واقصرها ، الاستفادة الى اقصى حد مما كان قائماً قبلها واعتاده رعاياها الجدد . لذلك فان الغرامة قد ارتدت اشكالاً متنوعة . ففي الشطر الاكبر من مدن صقليا ، وبفضل الابقاء على القوانين التي سنها ملوك سيراكوزا ، تألفت الغرامة كما في السابق من ضريبة عينية توازي ، بعد مراقبة البذار والحصاد ، عشر محاصيل الارض من حبوب ونبيذ وزيت وبقول . اما في الجمهوريات المقدونية الاربع ، على نقيض ذلك ، فكان لزاماً ان تدفعها نقدا طوائف السكان التي توزعها وتجبيها كما يطيب لها ، وهي لم تمثل في مجموعها ، على كل حال ، سوى نصف الضريبة التي كانت تجبيها الملكية الزائلة .

وكانت روما اخيراً ، عند الاحتلال ، تضع يدها على ممتلكات الدولة او الملك الذين تحل محلها . وقد شملت هذه الممتلكات على العموم ، بالاضافة الى الاملاك العقارية ، اهم المناجم والمحاجر والاحراج والملاحات . وهي كثيراً ما ضمت اليها ما تصادره من الجماعات والافراد الذين تصمم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها . فأنشأت بالتالي ، على غرار ما فعلت في ايطاليا، « أملاكاً عامة » (*Ager Publicus*) شاسعة ومتنوعة جداً ووافرة الدخل احياناً كانت هي تنشط في تنظيم ادارتها . ففي اواسط القرن الثاني تطلبت بعض مناجم الفضة في ضواحي قرطجنة في اسبانيا ٤٠٠٠٠ عامل وأدخلت عليها ٢٥٠٠٠٠ درهم يومياً. ولم يمض مجلس الشيوخ طويلاً في ريبته من الملتزمين التي جعلته في البدء يمنع العمل في مناجم الذهب والفضة في مقدونيا ويحصر بعد ذلك عدد العمال في مناجم الذهب في ايطاليا الشمالية .

اتيح من ثم لروما ، بفعل الغرامات واملاكها العامة ، ان تتلقى سنوياً من ولاياتها ، بعد تزايد عددها ، كمية اجمالية ضخمة من الخيرات . بيد ان كل ذلك ، لا سيما الغرامة بحد ذاتها وبعض الرسوم غير المباشرة ، الضئيلة اجمالاً ، والمعدة لاكمالها ، لم يشكل اوقاراً لرعاياها الاقليميين : فالنهج الذي جعل الاستثمار عبئاً لا يطاق قد لجأ الى طرق اخرى .

الاستثمار الخاص

ادار مجلس الشيوخ روما ادارة حكيمة فكنّزت بصورة خاصة الذهب الذي لا يسك في الظروف العادية ؛ بيد ان القسم الاكبر من هذه الموارد كان يلقى في التداول بفضل انفاق الدولة والمرتبات العسكرية ونفقات الاشغال العامة والعبادة . فانتقلت الموارد بالتالي من الجماعة الى الافراد مضافة الى الفوائد التي جناها المواطنون من الغاء ضرائبهم المباشرة وبيع القمح بسعر منخفض وتوزيعه مجاناً بعد ذلك . ولكن استثمار الافراد المباشر للفتوحات والولايات قد اتسع اتساعاً غريباً .

وكانت هنالك ، كما هو بديهي ، وفاقاً لما درجت عليه الجيوش آنذاك، غنيمة الجنود الفردية

تضاف اليها ، بصورة عادية منذ اوائل القرن الثاني ، المنح التي يهبها القائد جميع جنوده لمناسبة موكبه الظافر . وترينـــا احدى الحوادث الطريفة الجنود الرومانيين انفسهم يستفيدون من مغانمهم لاستثمار قنوتهم بالمراباة المحدودة والتجارة على نطاق ضيق مع الاجـــانب . وليسوا في الحقيقة ، مع التجار الثانويين ، بمن فيهم مشترو الغنـــائم البشرية المعدة لاسواق الرق ، الذين يسيرون دائماً وراء الجيوش ، سوى مقدمة جيش لجب من التجار والمضاربين الذين يتوافدون على البلاد فور تهدئتها .

انتمى هؤلاء الى كافة الطبقات الاجتماعيـــة – باستثناء الشيوخ – فكان منهم المواطنون الرومانيون و « الحلفاء » الايطاليون والاحرار والمعتقون ، فيعملون لحسابهم الخاص او يمثلون شركات كبرى ، ويستوردون او يصدرون ، مستعدين في الواقـع لشراء كل شيء ونقل كل شيء وتسليف كل شيء بغية استلاب كل شيء . وغـــدت جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في قلب بحر ايجه والمعادة الى اثينا في السنة ١٦٧ ، شرط ان تجعل منها مرفأ حراً ، احدى قواعد عملياتهم الرئيسية في الشرق وغيره حتى اليوم الذي امر فيه ميتريدات بتقتيلهم وبنهب الجزيرة في السنة ٨٨ . وقد وقفنا بواسطة الكتابات على نشاطاتهم المختلفة ، وثروتهم التي تثبتهـا الأبنية التي شيدوها ، وجمعياتهم بشكل اخويات دينية ، وتأثيرهم ايضاً على السلطات النظاميـــة التي استولوا في الواقع على صلاحياتها . ومرد ذلك الى انهم ، في ديلوس كما في غير مـكان ، وحتى في البلدان الحليفة ، اصحاب اخاذات كانوا ام مستقلين حين يسمح لهم بالدخول اليهـــا ، يحملون طابعاً مشتركاً على الاقل : فانهم يعملون في مأمن من نفوذ وقوة روما .

جمعيات الملتزمين

في عداد هؤلاء « التجار » يبرز علاء جمعيات الملتزمين (*Publicani*) . ويقصد بـ *Publicani* اولئك الذين يعنون بالـ *Publica* أي بشؤون الدولة المالية ، اولئك الذين تلزمهم الدولة جبـاية وارداتها واستثمار أملاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها ، الخ . وينطبق الاسم في الواقع على كبار الملتزمين الذين يتوجب عليهم ايجـــاد جهاز كامل من المساعدين والقبول بتسليف اموال هامة : يفسر اتساع شؤون الدولة وتنكرها لانشاء ادارة لا تستلزم سوى الاستعانة بصغار الملتزمين ، كيف انهم بلغوا مكانـــة كبرى . وترادف الكلمة في الواقع كلمة « فرسان » ايضاً ، وهم الملتزمون الحقيقيون المنتسبون كلهم الى هذه الطبقة الاجتماعية والمثلون أوسع اعضائها ثروة .

وكان من البديهي ، المسلم به ابداً ، ان يقصى الشيوخ وأبناؤهم عن الالتزامات من حيث ان رقابة وادارة الاموال العامة شكلتا إحدى صلاحيات المجلس الرئيسية . وقـــد حظر عليهم بالاضافة الى ذلك اقتناء مراكب يزيد محولها عن ثلاثمائة قاروزة أي ثمانية اطنان تقريباً . وقد اتخذ هذا التدبير قبيل الحرب البونيقية الثانية في مرحلة الصراع بين « الشعبيين » و« الافاضل » . ولم يبلغ التدبير حتى في اوج النظام المجلسي لأنه يتفق اتفاقاً تاماً وبعض المعتقدات الراسخة في روما ،

كما رسخت من قبل في اليونان ، التي اعتبرت كل نشاط تجاري امراً معيباً . وفي الواقع ما كانت التجارة البحرية الواسعة – لم يكن هناك من تجارة كبرى سواها – لتكتفي بهذا الحد الادنى من المحمول ، فحظرت ، عن طريق هذه المداورة ، على غرار تلزيمات الدولة ، على الشيوخ وابنائهم. فكانت النتيجة ان هاتين الطريقتين لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة ، وفي كليهما بعض المغامرة مع انها وفيرتا الارباح في حال النجاح، غدتا وكأنها وقف على اوسع المواطنين ثروة بعد الشيوخ، أي على الفرسان .

ولم يفت ذوي الاقدام بين هؤلاء ان يستفيدوا من ذلك . فتوجب عليهم العمل المشترك بغية جمع المزيد من رؤوس الاموال وتقاسم الاخطار ، وخصوصاً بغية توسيع إطار التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي قد يكون استخدامها مفيداً . ويعود اقدم توحيد للمصالح في سبيل مفاوضة الدولة ، على ما نعلم ، – وقد جرى ذلك بمناسبة دعوى في موضوع ضرر مقصود ألحق بأحد مجهزي السفن – الى الحرب ضد هنيبعل . ثم تألفت جمعيات قانونية نعرف الشيء الكثير عن تنظيمها في القرن الاول . فهي ترتدي مظاهر أشبه بما ندعوه اليوم مجلس الادارة والمدير العام والمساهمين والمتعهدين : فقد اقتضى الحرص على توفير ادارة حسنة البحث عن الحلول المبتكرة . بيد اننا لا نعلم شيئاً عن عدد هذه الجمعيات ، واننا نرجح ان جمعيات سريعة الزوال قد تألفت للالتزامات الطارئة كتشييد الأبنية مثلاً . اما بصدد الالتزامات الكبرى ، كمناطق المناجم او ضرائب الولايات ، فلا ريب في ان عمل الجمعيات المجهزة كان دائماً في الواقع لان وجود لوازمها وموظفيها في امكنة الالتزام لا يترك مجالاً لأية منافسة .

يضع قضاة الاحصاء دفاتر الشروط ويجرون التلزيمات لمرحلة السنوات الخمس القادمة، ولكن عوامل كثيرة تقضي الى تخفيض واجبات الملتزمين ، وليس التشدّد الذي يبديه كاتون اثناء ولايته ، على الرغم من تدخل مجلس الشيوخ « الذي نزل عند توسلات ودموع الملتزمين »، سوى تشدّد استثنائي وعابر . وليس من جهة ثانية ما يمنع الجمعيات من القيام بنشاطات اخرى الى جانب النشاط الذي تتحمل مسؤوليته أمام الدولة. وان في ذلك لفائدة لها لأنه يؤمن استخدام عمالها ورؤوس اموالها استخداماً ابعد استمراراً . ولذلك فهي لا تتوانى عن القيام بها متعاطية الأعمال المصرفية بنوع خاص – وقد غدت عمليات تحويل النقود ونقل الأموال اختصاصاً من اختصاصاتها لأنها تؤلف بالنسبة لها واجباً اساسياً – والمراباة ، ولا يتوانى بعضها على الاقل ، عند الحاجة ، عن تعاطي التجارة الواسعة . ولكن تعهد هذه الشؤون الخاصة جعلها تتداخل في الشؤون ذات الطابع العام وتستفيد من التسهيلات المتوفرة لهذه الاخيرة بفضل تنفيذ هذه وتلك في الاماكن نفسها وبواسطة الرجال انفسهم ورؤوس الاموال نفسها . وقد رأينا فيما سبق نقص الرقابة التي يستطيع ممثلو الدولة ممارستها حيال تصرفات رجال المال في الولايات .

تآزر من ثم عمل « التجار » والملتزمين وعمل الدولة لادخال المعادن الثمينة الى ايطاليا

بكيات ضخمة . لمنذ اواسط القرن الثـــاني ، وبفعل تيار ذي اتجاه واحد متزايد السرعة لا يقابله تيار آخر على بعض الاهمية ، اتخمت شبه الجزيرة الايطالية برؤوس الاموال في حال ان المناطق الاخرى في العالم المتوسطي اخذت تفتقر لمصلحتها .

٢ ـ النتائج الاقتصادية

لم يحدث ما حدث دون نتائج اقتصادية تأثرت بها الولايات وايطاليا على السواء .

عـــالم الولايات

ان الشرق الذي بلغ ، قبل وصول الرومان بزمن بعيد ، درجة رفيعة من التطور الاقتصادي ، قد تألم من هذا البزل اكثر من غيره . وهو قد استطاع ، في البداية ، ان يعوّض عنه بعض الشيء بفضل التقدم التقني في زراعته وصناعته اليدوية . انفتحت ايطاليا امامه سوقاً غنية بالمال ومتشوقة لارضاء حاجات جديدة ، في مصنوعات الفخفخة خصوصـاً . وحولت الاسكندرية ورودس نحوها جانباً هاماً من تجارتها . ولم تعرف ديلوس يوماً الازدهار الذي عرفته ما بين السنتين ١٦٧ و ٨٨ ، اي في فترة انتشار التجار الايطاليين فيهـــا بكثرة نادرة ؛ ولكن تفوق النفوذ الروماني ، اذا ما استثنينا مصر التي حال استقلالها المستمر دون اسوأ المظالم ، قد افضى منذ القرن الاول الى اوخم العواقب . فقد بيع في جزيرة ديلوس ، في يوم واحد احياناً ، حتى عشرة آلاف عبد يجر جلبهم نحو ايطاليا . ولم يحصل ذلك دون ضرر . فقد اخذت ايطاليا تنتج بعض المصنوعات ، وهي لم تكف نفسهـا من بعض الاصناف فحسب ، بل صدرت بعضها الى الخارج ايضاً . فعرفت المصنوعات الشرقية الكساد بفعل ارهاقها بالرسوم وانكماش زبنها المحليين في اعقاب افتقار الارستوقراطيات القومية . وفي صقليا نفسها التي صدرت الحنطة زمناً طويلاً ، انثنى السكان عن العمل : لم تكن الجزيرة ، في اواخر العهـــد الجمهوري لتستطيع ان تلعب الدور الذي لعبته في تموين روما خلال القرن الثاني . فاصيب الشرق كله ، قبيل الحروب الاهلية ، بتقهقر اقتصادي اعتبره بعضهم داء عضالا .

كان الغرب احسن حالاً لانه كان ابعد تخلفاً : وقد بقي فيه اثر الاغريق والقرطـــاجيين التربوي محدوداً . وهو قد ضم اكثرية كبيرة من البلدان الجديدة التي اخذت رومـــا تحث على استثمارهـا ، مدخلة اليها رؤوس الاموال وتجهيزات الانتاج والتقنيات . وقد اقدمت على مـا اقدمت عليه بدافع اناني محتفظة لنفسها بالقسم الاكبر من الارباح ، وبالارباح كلها احياناً ، كما فعلت في مناجم اسبانيا مثلا . ولكن بعض هذه البلدان اخذت تحتل مركزها في الاقتصاد العام العالم المتوسطي : غاليا الناربونية ، قاعدة العمليات التجارية المثمرة في اتجـــاه غاليا المستقلة ، وخصوصاً اسبانيا . فأفادت من ذلك عناصر غريبة قامت فيها قبل روما وعناصر قومية ايضاً : ويبدو ان مرسيليا وقادش عرفتا آنذاك ازدهاراً اعظم منه في السابق .

فما هو المستقبل الذي سينتظر الغرب اذا ما استمر النظـام الروماني في التغاضي عن هؤلاء

« التجار » ، هؤلاء الرجال المحترمين جداً » ، الذين تولى شيشرون ، في اشارته الى ارتفاع عددهم في غاليا وفي قدحه في الغاليين ، مديحهم وتقريظهم رغبة منه في الدفاع عن الحاكم فونتيوس ، سنة بعد هجومه على الحاكم « فيريس » ؟

ايطاليا : الانتاج والمقايضات

تبدل كل شيء في ايطاليا أيضاً .

يجب أن تتكيف الزراعة . فقمح شبه الجزيرة ، لا يستطيع منافسة الحبوب المستوردة ، إن لم يكن من غاليا ما وراء الألب بسبب الافتقار الى طريق ملاحة ، فأقله من صقليا وافريقيا ، ومن مصر ايضاً التي تتميز بانتاج أفضل ، ويرضى المنتجون فيها بمستوى حياتي أدنى . وضعت حرب هنيبعل أوزارهـا في السنة ٢٠٢ : فبين السنتين ٢٠٣ و ٢٠١ بيع القمح في روما بربع سعره العادي ، وبيع في السنة ٢٠٠ بثمن هذا السعر. وستتكرر بين آن وآخر الظروف الاستثنائية التي أدت الى هذا التدني . وحين تأخذ الدولة على نفسها ان تبيع القمح بسعر منخفض وان توزعه بعد ذلك بالمجان ، تضطر الى الحصول عليه من غير مكان بفضل الغرامات المفروضة عيناً أو عن طريق الشراء بأسعار محددة متدنية جداً يعينها حكام الولايات . ولم يعد انتاج الحبوب عملية رابحة في ايطاليا ، فعدل عنه المستثمرون بملء اختيارهم .

وجهوا من ثم عنايتهم الى تربية المواشي لأن الانعام يعسر نقلها مسافات بحرية طويلة ولأن لديهم عبيداً يسهل عليهم استخدامهم رعاة . ووجهوا عنايتهم بنوع خاص الى الزراعات التي تتطلب معارف خاصة : زراعة البقول في البساتين وزراعة الأشجار المثمرة كالكرمة وشجرة الزيتون وشجرة التين . وقد دفعهم الى ذلك كل شيء . فهم يمتلكون رؤوس الأموال التي تتيح لهم الانفاق الضروري . وأظهر ارتفاع الثروة لدى المستهلكين أذواقاً اكثر تطلباً . واستفادت ايطاليا ، أخيراً ، في ما يعنينا ، من الخبرة والمعارف الزراعية الكثيرة التي حصل عليها الشرق الهليني وقرطاجة ؛ وبعد ان أصدر مجلس الشيوخ أمره بهدم هذه المدينة في السنة ١٤٦ ، حرص على ترجمة البحث الزراعي الذي وضعه القرطاجي ماغون . فكانت هذه الأساليب الجديدة موضوع دعاوة رسمية ساندها الاختصاصيون الايطاليون في الزراعة منذ كاتون .

ظهرت جدوى مثل هذه الجهود بشكل واضح . فقد أنتجت خلال القرن الثاني خمور جيدة أشهرها خمر « فاليرنا » الكمباني . ولكن الانتاج الرائج ، المتوسط الصنف ، كان أهم من المحاصيل البلدية . وقد بلغ من غزارته ، أن المسؤولين قد اهتموا لتصريفه ؛ فصدر قانون حظر بموجبه على البلديين ، حين تنظيم الولاية الناربونية ، زراعة كروم جديدة واشجار زيتون جديدة . بيد أن المعضلة لم تبرز بعد بكل خطورتها . فإن ما يحسن عمله ، كي تدر هذه الزراعات دخلاً عريضاً ، هو أن يعنى الملاك بمراقبتها شخصياً ؛ اما الشاب الأرعن الذي يعوزه المال ، فعليه ، كما يزعم شيشرون ، ان يبيع كرومه ويحتفظ بأحراجه . وقد بيع النبيذ

الايطالي في ديلوس نفسها ، وابتاعت غاليــا المستقلة ، طيلة القرن الأول ، نبيذاً مستورداً من شبه الجزيرة . واذا كانت هذه الاخيرة ، بسبب تقدم تربية المواشي ، قد اشتملت على مناطق ريفية انخفض عدد سكانها كثيراً ، فانهـــا قد اشتملت ايضاً على مناطق أخرى يلفت الانظار ازدهارها وتقدم الزراعة فيها . وقد خصّص لهـــا العالم الزراعي « فارون » ، وهو معاصر لقيصر ، صفحة شهيرة امتدح فيهـا بحرارةٍ نوع منتوجاتها ؛ ويجب ألا ننظر الى هذا المديح نظرتنا الى مجرّد مقالاة أدبية : فإن الاكتشافات التي أجريت في كمبانيـــا ، حيث تنتشر في جوار بومبيي « معاصف » تقسر المعاصر وسقائف صنع الخمر شهرتها ، تؤيد هذه اللوحـــة ايما تأييد .

لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في حقـــل الصناعة . فالايطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي . وهم ، شأنهم شأن الاغريق ، لم يفكروا بابتكار الآلات ، وقد اكتفوا بتقنيـات الصناعة اليدوية ، وأتاح لهم اتصالهم بالشرق تحسين تلك التي اعتمدوها منذ أمـــد بعيد . وكان من شأن استيراد العبيد بأعداد لا تحصى ، وقد يفضل بعض الشرقيين منهم اسيادهم عـلى صعيد المعرفة ، أن ضاعف طاقات عملهم . فازداد الانتـاج بالتالي ازدياداً عظيماً . وليست صناعة الكماليات ما وجهوا عنايتهم نحوهـا ، بل صناعة الضروريات الرائجة الاستعمال المنتجة بكميات كبيرة وبكلفة ضئيلة يمكن معها تصديرها حتى الى الشرق نفسه أحياناً . ولدينا عن هذا التقدم مثلٌ مميّز توفره لنا الخزفيات التي نعرف عن صناعاتها القديمة ما لا نعرفه عن الصناعات الأخرى لأن حطامهـــا لا يفنى . فقد اقتدي في البداية بالخزفيـات « الساموسية » ببرنيقها الأحمر ونقوشها النافرة ، ثم حلت محلهـــا ، قبيل وبُعيد العهد الميلادي الخزفيـات المعروفة بـ « الأريتية » نسبة لـ « أريتيوم » (أريزو *Arezzo*) في اتروريا ، التي كانت المركز الأول لصناعتهـــا . وقد صُدرت الخزفيات الكمبانية ايضاً ، لا سيما نحو غاليـا . ثم انضمت صناعة المعادن ، لا سيا الشبه ، الى الخزفيات ، لتجعـــل من اتروريا وكمبانيـا أوسع المناطق الايطالية نشاطاً .

كانت النتيجة تجارة ناشطة ، لم تكن الصادرات فيهـا كمية مهملة ، على الرغم من رجحان كفـة الواردات . وقد مثلت الحبوب الجانب الأكبر من هذه الأخيرة ، بينما اشتملت الأولى ، بنوع خاص ، على النبيذ والخزفيات والمصنوعات المعدنية . ثم أضيفت اليها تجارة المستودعات الوسيطة . قضت روما ، في السنة ١٤٦ نفسها ، على مركزين اقتصاديين هامين همـا كورنثوس وقرطاجة . ولم تستطع ايطاليـا ان ترث سوى قسط زهيد من تجارة كورنثوس التي يغلب انها توزعت على المرافىء الإيجية . ولكنها ورثت تجارة قرطاجـة ، أي ان التجارة ما بين البلدان الغربية تمت عن طريقها ، فلعبت ايضاً ، بقدر ما استلزم ذلك افتقار الشرق ، دور السمسار بين حوضي المتوسط . ويفسّر تعدّد هذه العلائق نشاط المرافىء الايطاليـة الذي برز في القرن

الاول بروزاً خاصاً في اثنين منها . امـــا الاول ، كما هو بديهي ، فثنائي روما – اوستيا عند مصب التيبر ، الذي استخدم في الدرجة الاولى لتموين المدينة ، لأن الصناعيين لا يعملون فيها للتصدير . وأمـــا الثاني ، فهو بوتيولي « *Puléoli* » (*Pouzzoles*) في كمبانيا ، وقد تميز آنذاك بنشاط واسع جداً ، وبالتوازن التـــام في تجارته ، فغدا مدخلاً ومصرفاً لمنطقة كثيفة السكان، وذات اقتصاد متطور جداً .

يجب ألا تخدعنا بالتالي زفرات علمـاء الأخلاق القدامى . فإذا مـا نظرنا الى شبه الجزيرة كمجموع ، نرى أن الفتوحات لم تسيء الى طاقات انتاجها ومقايضتها . فعلى نقيض ذلك دفعت بها الى الأمام بتزويدها ايطاليا باليد العاملة ورؤوس الأموال والتقنيات ، وبخلقهـــا حاجات مجهولة تسعى بشق الطرق لإرضائها ، وبشدّها اليها شتى خيوط الحياة الاقتصادية العامة في العالم المتوسطي . أجـل نحن لا ننكر أن هذا الازدهار الذي أوجدته الانتصارات واستند الى القوة ينطوي على بعض الصنعة . وليس من شك في ان المنافسات الظافرة ستبرز حالمـا تخف الأعباء التي تشلّ الولايات ، وحالمـا يزداد تقدم بلدان الغرب الجديدة في الثقافة والتجهيز ، وهـــما شبه مفقودين آنذاك . ولكن السعة الاقتصادية ، في القرن الاخير من العهـد الجمهوري ، واقع راهن .

روما
وسط مالي كبير

تقدم لنا ، روما في ايطاليا النشيطة هذه ، المكبّة على الانتاج والمقايضات ، مشهداً مختلفاً كل الاختلاف . فالبطالة تزداد فيهـا باطراد يشجعها ، في اوساط المواطنين، سخاء الدولة والافراد الاثرياء. تمارس فيها الصناعة اليدوية، ولا سيا صناعة المهن الحقيرة ، طبقة كادحة من العبيد والأجانب . ولكن هذه الطبقة لا تعمـل للتصدير : فنحن أمام حوانيت خشبية ، لا أمام مصانع . ان رومـا تتعاطى الاستيراد فقط : منتوجات غذائية بكميات ضخمة لتغذية سكانهـا المتزايدين باطراد ، تأتيها من المناطق القريبة والبعيدة ، ومصنوعات ايضاً من شتى الانواع .

ولكنها تلعب مع ذلك دوراً رئيسياً في اقتصاد العالم الذي تسيطر عليـــه سياسياً : دور الوسط المالي المنظم الحركة ، وفي الواقـع دور السوق الوحيدة لرؤوس الأموال . وهي تضطلع من ثم بمهمة لا سابقة لها ، لم ترثها عن أي مركز آخر ، لأن مدينة واحدة، لم تجمع من قبل ، بالدرجة نفسها ، القسم الأكبر من الثروات القائمة في اطار على مثل هذا الاتسـاع . فاضطرت الى التجديد كما اضطرت الى تكييف أساليبها الدقيقة جداً، وفاقاً لأهمية المصالح المواجهة واتساعها الجغرافي وبروزها في كل مكان ، ان لم يكن الى ابتكار هذه الأساليب ابتكاراً. ومن البديهي ان هذا التكييف كان في الوقت نفسه تدريجياً وأنانياً ، وتحقق وفاقـاً لازدياد رؤوس الأموال الايطالية ، ولمصلحتها دون غيرها ، بغية الاستفادة منها بدخل أفضل وبمكاسب جديدة، دونما اهتمام – وهو اهتمام لم يزعج المستفيدين في أي مكان آخر – لشقاء اولئك الذين يدفعون أثمانها .

ولكنه على الصعيد التقني تكييف يلفت النظر بمرونته وتنوع أشكاله .

كانت شراكة رؤوس الاموال احد التجديدات الرئيسية ، اقله على هذا الصعيد . وقد سبق لنا ورأينا التنظيم الممتاز الذي أدت اليه بصدد جمعيات الملتزمين . وليست هذه الاخيرة سوى الطراز الرسمي الاول : كانت الدولة تعترف بها كل خمس سنوات وتحتاج ، في مفاوضتها ، لمعرفة أسماء مديريها وأهم مساهميها . ولكن مساهمات أخرى كثيرة لم يعلن عنها ، وأشكال شراكة اخرى كثيرة ، كانت تعمل خارج الجمعيات المصرح بها . وعلى الرغم من المنع الذي استهدف الشيوخ ، بصدد الاموال العمومية والتجارة على السواء ، فلم يمتنعوا بل اقرضوا الاموال واستخدموا المعتقين مستعيرين أسماءهم لهذه الغاية . وفيما يلي مثل فيه الدلالة كل الدلالة على مهارتهم ، لا سيما وانه غير مرتقب . فقد روى بلوتارك ان كاتون المتقشف نفسه اهتم التجارة البحرية حاثّا دائنيه على تأليف جمعية قادرة على تجهيز خمسين سفينة وعاهداً الى احد المعتقين تتبع العمليات الجماعية حتى النهاية : وهكذا جعل توزيعُ المخاطر التجارةَ بواسطة القروض ، التي عرفها الشرق واليونان ، امراً أخمن الى حد بعيد من المغامرات الكبرى . وتعود هذه الرواية في وقائعها الى النصف الاول من القرن الثاني : فيمكننا بالتالي ان نتصور بسهولة ما اقدم عليه في القرن الاول رجال هم دون كاتون اخلاقاً .

والحقيقة هي ان رؤوس اموال كافة الطبقات الميسورة في جميع نواحي ايطاليا ، اي الشيوخ والفرسان وغيرهم ، قد اخضعت آنذاك الى حركة محمومة . فانطوى توظيف الاموال في العقارات نفسها على بعض مظاهر المضاربة لأنه انما يستهدف الدخل الوفير وارتفاع الاسعار . وقد عكف بعضهم على انتاج المآكل والخمور النادرة المعدّة لموائد ذوي الاذواق الرفيعة . وضاعف كراسوس ثروته بتخصيصه ٥٠٠ من عبيده نجارين وبنائين ، وبابتياعه ، بثمن بخس ، وابان الكارثة بالذات ، البيوت المجاورة لمركز أحدى تلك الحرائق التي كثيراً ما اندلعت في روما القديمة . ومع كل ذلك فهو المال بالذات الذي آثروا الاتجار به عن طريق اقراضه لقاء ضمانات او عن طريق تشغيله في شؤون متنوعة . وكانت الساحة العامة القديمة في روما ، الفوروم *Forum* ، مركز مصفق حقيقي يتفق فيه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية . وقد بلغ النظام من الكمال ما جعل العمليات تتم ، القسم الاكبر من قيمتها ، بوثائق مخطوطة تجنب نقل المعدن الثمين نقلاً فعلياً الى مسافات بعيدة . ويعوزنا اليوم ما حفظته ارض بابل ووصل الينا احياناً عن عهود ابعد قدماً : المحفوظات الخاصة برجال الاعمال . لكن مراسلات شيشرون تشهد بتعدد الصلات بينهم والتسهيلات التي توفرها لزبائنهم واصدقائهم وبأهمية المصالح التي يديرون شؤونها . فاذا صح ان العالم القديم قد نظم وطبق تقنية المصرف الكبير في الاعمال ، فانما حدث ذلك في روما في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

بيد ان بناء على مثل هذا التعقيد لا يمكن ان يكون إلا سريع العطب بسبب التضامن الذي يوجده بين كافة عناصره . وقد برهن عن انـــه يتأثر بالشائعات : فما القول عن الاضطرابات والحروب الاهلية والصعوبات العسكرية ؟ وللأحداث البعيدة صداها الخاص اذا ما جرت في الشرق الأيجي ، أي في أغنى منطقة توظف فيهـا رؤوس الاموال الايطالية . وان خطب شيشرون التي استهدفت ، في السنتين ٦٧ و ٦٦ ، تكليف بومبيوس مهمة تنظيف البحر من القراصنة وتولي الحرب بعد ذلك ضد ميتريدات بعد ان أخفق فيها لوكولوس ، قـد صادفت في الزمان الاضطراب الذي ستكون « مؤامرة » « كاتيلينا » منتهاه في السنة ٦٣ . وتظهر هـــذه الخطب الخطورة الحقيقية التي ينطوي عليها قلق بل ازمة تهدّد بالخطر مصالح عظيمة ، متداخلة من أعلى السلّم الاجتماعي الى اسفله : وليس من ريب في ان هذه الازمة هي التي خلقت هـــذا الاضطراب بتجميد رؤوس الاموال وبمنع تشغيلها ، ان هي لم تقوضها ، وبحمل الدائنين على الالحاح في المطالبة بديونهم . ومنذ السنة ٥٠ ، ادت القطيعة بين قيصر من جهة ومجلس الشيوخ وبومبيوس من جهة اخرى ، الى ازمة مماثلة. فروما قد ضاعفت شجونها في الوقت الذي ضاعفت فيه ثروتها لأن الاطمئنان ليس نتيجة اقتصاد يتطور في هذا الاتجاه .

٣ ـ الطبقات الدنيـــا

كان التطور الاقتصادي صداه في تكوين المجتمع وفي نشاطات ومصير طبقاته المختلفـــة . وقد قلنا ما يجب قوله ، بصدد الطبقة الحاكمة ، في مستهل هذا الفصل . فلا يزال امـامنا سوى ما يتعلق بجمهور السكان الذين لن تمنعنا لامبالاة المصادر القديمة حيالهم من تراني مصيرهم .

١ ـ الرق وحروب العبيد

عدد العبيد

كان من نتيجة الحروب الظافرة والاثراء الذي عقبها ان دخل ايطاليـــا عدد لا يحصى من العبيد . اجل كان هنالك عبيد منذ اقدم العهود : فقـــد استطاعت روما ، بعد «كاناه» ان تجند منهم جوقتين. ولكنهم غدوا الآنجماهير غفيرة. وان قانون الحرب الذي تمشى عليه كافة المتحاربين — اصبح بعض اسرى هنيبعل عبيداً في اليونان — وقـد غذّى الاسواق بهم منزلاً اليها ، في الظروف العادية ، اسرى الحرب ، بل جميع سكان المدن المفتوحة عنوة في اغلب الاحيان . وقد حدث مـــا هو اسوأ من ذلك : التنكيل الذي لا يعرف الشفقة معنى . ففي السنة ١٦٧ ، بعد النصر واخضاع الاهالي ، اصدر بولس اميلياوس أمره باختطاف وبيع ١٥٠٠٠٠ شخص من سكان الابير . وفي كل مكان اذن ، في البلقـــان وآسيا وافريقيا واسبانيا وغاليا ، باع قضاة المالية بالدلالة، مرافقي الجيوش من التجار ، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك، مواكب كئيبة ، الى الاسواق الخاصة : ويجب الا ننسى ان قيصر قد امر ببيع مليون من الغـــالين . وان المصادر الاخرى من قرصنة ، وعبودية دَين — لم ينتج منها سوى

المواطنين – واستيراد برابرة ، لا اهمية تذكر لها اذا ما قورنت بهذا المصدر . ولن تخف تغلية الاسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض الحروب الظافرة . وقد انتهى الى ايطاليـا ، اوسع البلدان المتوسطية ثروة آنذاك ، العدد الاكبر من هؤلاء العبيد ، او على الاقل افضلهم قوة وذكاء وجمالاً . وبديهي ان ليس لدينا اي احصاء في هذا الموضوع ، ولكننا لا نشك في ان العبيد الذين دخلوا شبه الجزيرة بلغوا الملايين .

استخدامهم ومصيرهم

كان العبيد فئات متفاوتة الكفـاءات ، وقد استخدموا في شتى الاعمـال .

فكان هنالك عبيد للابهة يستخدمهم سيدهم للمتعة والتباهي؛ وكان اخرون خداماً مدربين ؛ واستخدم غيرهم ، من المثقفين ، امنـاء سر يوثق بهم ؛ وقام آخرون باعمـال تتطلب خبرة واختصاصاً ؛ الخ . وقد ادى تدريبهم الى نوع من التجـارة مارسه كاتون وكراسوس من قبله . وكانت اكثرية العبيد من الاغريق والشرقيين الاذكيـاء والماهرين . فبدأ تأثيرهم على المجتمع الرفيع يزداد اهمية منـذ هذا العهد : ومن ميزات شيشرون الفائتة دالته المطوقة على الجيته في الحقلين الادبي والمالي الذين لم يفته ان يمتهم . وفي اثناء حركة النفي والاعدام التي تولاها سيلا ، غضّ الطرف عن مرقات امين سره ، المعتق خريـسوغونوس . وليس ميتوذوروس ، اميرال اسطول بومبيوس ، سوى عبد معتق ايضاً .

وقد استخدم بعض العبيد عمالاً اختصاصيين في مشاريع خاصة صغرى . فاذا اتقنوا مهنتهم، غدا السماح لهم ، لا سيا في المدن ، بممارستها لحسابهم الخاص ، لقـاء اتاوة معينة ، امراً اعظم نفعاً ، بحيث ان النظام اليوناني حول العبد صناعياً صغيراً او حانوتياً « مقيماً وحده » ، قد ساد روما ايضاً . وغالباً ايضاً ، على غرار ما حدث في اليونان ، ما منح السيد الحرية القانونية لا سيا وان هذا المنح ما كان ليمنعه من اضافة واجبات مالية الى الحقوق التي يخوله اياها القـانون على المعتق . وهكذا انصهر هؤلاء العبيد القدماء بسرعة نسبية في سكان المدن وأثروا تأثيراً عميقاً في اخلاقهم . واذا ما حالف الحظ نشاطهم في العمل ، بلغ بعضهم مراتب رفيعة : فاتما كان عبداً معتقاً ذلك الخباز الثري ، م . فيرجيلوس افريـساسيس ، الذي ابتنى لنفسه ، في اواخر العهـد الجمهوري او اوائل رئاسة اوغوسطس ، على مقربة من المدخل « الاعظم » في روما ، الضريح المكعب المدهش ذا الكوى الواسعة المستديرة التي تمثل فوهات الفرن .

بيد ان هنالك عبيداً آخرين ايضاً . نذكر منهم ، في الدرجة الاولى ، المسايفين ، المقاتلين جيداً والمدربين في مدارس كبانيا الضاحكة . ولحن سنراهم فيا بعد حين يعم الميل الى الالعاب الدامية في كافة انحاء العالم الروماني . وقد رسخ هذا الميل في روما في اواخر القرن الثـاني ، فاستلزم اشباعه ممثلين ينتظرهم الموت كانوا عبيداً في اكثريتهم على ما نرجح . ونذكر في الدرجة الثانية عمال المشاريع الكبرى ، الاشغال العامة والمناجم . ولا حاجة لان تتوفر لدينـا حولهم

المعلومات ، التي تنقصنا كلياً آنذاك ، لتقدير شقائهم بسبب ظروف ناصبة احاطت بعمل قاموا به فرقـــاً وافرة العدد . ونذكر اخيراً العبيد الريفيين وهم بدون شك اكثر العبيد المقيمين في ايطاليا عدداً : وانما يهمنا معرفة مصيرهم .

تكلّم كاتون في بحثه حول الزراعة ، عن اولئك الذين تخيلهم في أملاكه ، ويقـــدر عددهم بالثلاثين . ويتضح من فحص القواعد التي يضعها بصددهم انه لا يغفل رأس المال الذي يمثلونه، فلا يرضى بأن يموتوا جوعاً او عملاً مرهقاً او ضرباً . واذا ما اشار ببيعهم عندما يتقدمون في السن او يمرضون ، فلا يشير بأن يباعوا مع « العربات والحدائد العتيقة » فحسب، بل مع « الثيران الطاعنة في السن » ايضاً . فكل شيء يؤول ، بالنسبة له ، الى مسألة انتاج مماثلة لمسألة انتـــاج المواشي التي يغذيها صاحبها ويحرص على ان لا ينهكها ولا يسيء معاملتها. ولا شك، على نقيض عمال كاتون الذين يشتغلون في بساتين الكرمة والزيتون، في انه توجب على أكثرية العمال الريفيين ان يكونوا رعاة ، لأن العناية بالقطعان ، وحدها تقريباً ، تتيح باستمرار تشغيل رجـل يقتضي تعهده طيلة السنة . ولكن هذا العمل ، بالاضافة الى انـه يبعد العبد عن رقابة مستمرة ، لم يغير شيئاً في طبيعـة الحساب الذي كان على الاسياد ان يحسبوه والذي حال دون الافراط في القسوة وفي الاقتصاد الغذائي او غيره . لذلـك ، اذا ما اخـذنا بعين الاعتبار اعمال العنف التي يأتيها ، في غياب السيد المتكرر ، وكيل هو نفسه عبد في اغلب الاحيان ، لا يجب ان نبالغ في تصور السجون المظلمة والتقييد بالسلاسل وعقوبات الشنق . ولكن يجب ألا ننسى النتـــائج الأخرى للحساب نفسه . فقد منع السيد ، إلا في الظروف الاستثنائية، من اعتاق العبد الذي يعجز عن استمالة جميله او يجمع بعض المـــال الذي يبتاع به حريته . وقد منعه ايضاً من القبول بالمحاذير والنفقات التي تستتبعها تربيـــة اولاد العبيد ، وهم قليلون على كل حال بسبب ندرة النساء بين العبيد . وهكذا فقد انحط العبد الى مرتبة الحيوان وفقـــد كل امل بالعطف وبمستقبل افضل ، فتألم في نفسه ، ان لم يكن في جسده ، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً .

حروب العبيد

اذا لم يكن هذا الاحساس فطرياً فيه، فقد كانت الحياة الجماعية كافية لأن تثيره فيه لأنه يجد فيهـا ابداً رفيقاً اعظم نباهة قد يكون منحدراً احياناً من النخبة الاجتماعية في بلاده. اضف الى ذلك ان العبيد الآتين من الشرق الهليني قد جاؤوا بصدى الآراء او التيارات الثورية . ولا يدهشنا ان تكون أشدّ الثورات خطورة قد طارت شرارتها من صقليا وايطاليا الجنوبية أي من المناطق اليونانيـــة المتأثرة تأثراً خاصاً بالتطور المؤاتي لاقتناء الاملاك الواسعة . وقد توصلت تدابير الأمن الشديدة ، في الظروف العادية ، الى كبح اضطراب خفي دائم الغليان : وكانت السلطات المحلية تتولى ذلك ، بمساعدة القضاة عند الحاجـة . بيد انه حدث ثلاث مرات ، تفصل بين الواحدة والاخرى ثلاثون سنة تقريبـاً ، ان حادثاً محلياً ، وحتى عائلياً ، قد اثار ، لأنه لم يقمع فوراً ، حريقاً يغذيه شيئاً فشيئاً المثل الذي توفره اليائسين

اعمال العنف الاولى . وقد اطلق الرومان على هذه الثورات الكبرى اسم « حروب العبيد » لأن قمعها قد تطلب عمليات عسكرية حقيقية .

ففي هذه الحروب توجب على قوات الامن ان تقابل ، لا عصابات متشتتة ، بل كتلا تحس بالحاجة الى الاتحاد تضم بضع عشرات الالوف من الرجال احياناً . وكل مرة تولى قيادة هؤلاء الثائرين زعيم لا ريب في انه تحلى بصفات غير عادية حتى توصل الى فرض نفسه على مثل هؤلاء الاتباع ، واذا ما هو لجأ ، كما تشير الى ذلك مصادرنا ، الى اساليب الخرقة ، فان هذه الاساليب هي التي تفعل فعلها في جماهير لا يمكن ان تتصف بروح نقدية عالية . وكان لهؤلاء الزعماء مساعدوهم ، وقد حاولوا تنظيم زمرهم وانتهاج بعض الخطط العسكرية بواسطتها . فاحرزوا على قوى الامن المحلية وعلى الجيوش المعبأة بسرعة انتصارات عديدة . ولكن ضعف تسلح الثائرين قد ظهرت نتائجه الحتمية امام جوقات مدربة نظامية . وهل يمكن من جهة ثانية ان يفرض عليهم نظام ما ؟ فهم قد خضعوا لغرائزهم الثأرية البدائية مكدسين الضحايا والخراب . فكان اندفاعهم بالتالي خطراً على الاسس الاولية للنظام الاجتماعي والحضارة . نتكونت ضد هذا الاندفاع في روما الجبهة الموحدة التي ضمت اشد الاحزاب تخاصماً . اجل كان من المستطاع ، في حمى الاشتباكات والحرب الاهلية ، تسليح بعض العبيد وتجنيدهم . ولكن اعظمهم جرأة قد تراجعوا امام الخطر الشامل : فاحس الايطاليون الاحرار بتضامنهم كما لو كانوا به امام ثورة في ولاية . فثوار سبارطة الهلينية ، في اليونان مثلاً ، قد تجاوزوا اقصى ما توصل اليه « الشعبيون » الرومانيون ونرجع ان السبب البسيط في ذلك هو انهم لم يهتموا ، على غرار الشعبيين ، لمكاسب الفتح المادية .

انفجرت حربا العبيد الاوليان في صقليا على يد زعماء وجيوش من اصل شرقي ؛ ولم تنتقل العدوى آنذاك الا الى بعض النقاط من ايطاليا الجنوبية . وقد قاست الجزيرة الامرين من هذه الثورات ومن قمعها . وتفسر هذه الاخيرة جزئياً انهيار انتاجها الزراعي ، الملموس في القرن الاول . وتفسر ايضاً تشدد الحكام ، حتى فيريس ، في توزيع العدالة ، لانهم مضطرون للاستمرار في تشديد الرقابة البوليسية حيال محاولات الدعاوة والاضطراب .

اما الحرب الثالثة فأعظم شهرة : وهي تلك التي تزعمها ، في ايطاليا هذه المرة ، رجل تراقي ، ربما من اصل ملكي ، هو سبارطاكوس . فقد جر وراءه اولاً ، في السنة ٧٣ ، رفاقه المسايفين في مدرسة « كابوا » ثم ، شيئاً فشيئاً ، ما لا يقل عن ٦٠٠٠٠ رجل: ملحمة غريبة مفجعة ، دامية ووحشية الى اقصى حد ، تخللتها احداث اتصفت بالفظاعة حيناً وبالعظمة حيناً آخر . وليس اقل هذه الاحداث تأثيراً ، حتى اليوم ، ذلك الذي أرغم فيه هؤلاء المسايفون ، الذين كانت العائلات الكبرى تضطرهم الى الاقتتال لمناسبة جنازة احد اعضائها ، مائتي زوج من الأسرى على الاقتتال بعد موت احد معاوني سبارطاكوس . ولكن عظمة هذا الاخير لا تتجلى

في تطبيق شريعة السن بالسن تطبيقاً فظيعاً، بل في اتساع الخطة التي رسمها. فعلى نقيض سابقيه، الذين قادوا رجالاً شرقيين بنوع خاص ، اضطر هو ، بعد الحروب ضد « الكبر » و «التوتونز»، وبعد نمو علائق روما بالبلدان الشمالية ، الى قيادة عصابات تضم كلتيين وجرمانيين في الدرجة الاولى . لذلـــك ، معوضاً عن ان يفكر بالسلب دون غيره ، واقتناعاً منه بأن الفشل والموت سيكونان نصيبهم المحتوم في ايطاليا، قد قرّر ان يقودهم الى الحرية الحقيقية بشق طريق اوطانهم لهم من الجهة الشمالية . ولكن المأساة التي لا نعلم أسبابها الحقيقية – ونرجح ان احدها هو جاذب ثروة شبه الجزيرة – قد حدثت حـين عاد الى ايطاليا الجنوبية بعد ان بلغ غاليا ما وراء الالب ظافراً . فقد قرر عمله هذا مصير الثائرين . كان كراسوس قد أعطي صلاحيات استثنائية وجند عشر جوقات فدحرهم حتى طرف شبه الجزيرة ، بينما كان فيريس يفرض رقابـــة شديدة على صقليا . وجاءت النهـــاية في اوائل السنة ٧١ وطورد الهاربون في كل مكان ولم يرحم المنتصر وبومبيوس – الذي اصطدم في بلاد الاتروسك باحدى عصاباتهم – شخصاً واحداً منهم: وقد نصب كراسوس على الطريق « الآبية *Appia* » بين كابوا وروما ٦٠٠٠ صليب علـّق على كل منها رجل محكوم بالموت .

اذا ما نظرنا الى الرعب الذي أثارته ادوار الازمة رأينا ان الارهاب الظالم لم يحل المعضلة . وعلينا ان نكتفي بالافتراضات ، اقله بصدد اواخر الجمهورية واوائل الامبراطورية، لنفسر عدم اندلاع حرب اهلية بعد ذلك . واقرب هذه الافتراضات الى الحقيقة ان الحروب الاهلية قـــد وفرت امكانات عديدة لابعد العناصر مغامرة وعنفاً . وفي سبيل تجنيدهم ، اعتق الخصوم العبيد او استقبلوا الفارين . وانتسبت قوات سكستوس بومبيوس ، الذي كان مقيماً في صقليا وارغم اكتافيانوس فترة من الزمن على التخلي عن حقوقه للاتفاق معه ، في أكثريتها الى هـذا الاصل ، وبعد ان استند اليها المنتصر حجة من حجج دعاوته، لم ير ضيراً في ان يستخدم جنود المغلوب وبحارته. ونحن نرجح ان اعتماد هـذه الطريقة قد ساعد ، بفعل انتهازية تخضع لمشاغل اخرى ، على تجنيب الخطر الاكبر، حين لم تكن روما لتستطيع بذل الجهد الذي بذلته ضد سبارطاكوس ثلاثين سنة من قبل . وبعد ذلك ، في عهد الامبراطورية ، تضاءل الخطر تلقائياً ، دون ان يعالج قط ، بعد معرفة حقيقية بالضبط ، بالادوية اللازمة : ولكن ما حدث ، باستثناء بعض التوقف بعيـــد الحروب الظافرة الكبرى ، هو ان عدد العبيد قد اخذ يتناقص تدريجياً بسبب العدول عن السياسة الداعية للحرب وتزايد عدد المعتقين وهبوط ايطاليا اقتصادياً .

٢ ـ الفلاحون الاحرار

ان ازدياد اليد العاملة العبدية ، المقابل للفتوحات العظمى في القرن الثـــاني ، ما كان ليجر سوى العواقب الوخيمة على المصير المادي لرجال احرار يعيشون من عملهم . ونحن نعرف ، من هـــذا القبيل ، متوسطي وصغار الفلاحين الذين كانوا يزرعون اراضيهم بأنفسهم . ولكنهم في

الحقيقة ألفوا ، في شبه الجزيرة التي عرفت فيا مضى اقتصاداً زراعياً بسيطاً، غالباً الى حد بعيد، طبقة وسطى ، وهامة ايضاً ، لأنهم قدموا لروما هيكلا اجتماعياً وعسكرياً – جمع المشاة من بينهم – لا نظير له من حيث المتانة . فكل ما قد يصيبهم يهدد بالخطر ، اول ما يهدد، الدولة التقليدية .

الازمة: الاملاك الخاصة والاملاك العامة

لا مراء في ان عددهم قد تدنى . وليست منافسة العبيد السبب الوحيد وحتى الاهم في ذلك لانها قد اضرت في الدرجة الاولى بالعمال الاحرار الذين يؤجرون سواعدهم للملاكين . بيد انها ، بصورة مباشرة ، وبتسهيل استثمار الاملاك الواسعة، قد اضرت بالاملاك الصغيرة . واثر واقع الحروب نفسه تأثيراً مؤسفاً؛ فخلال السنوات الخمسة عشر التي امضاها هنيبعل في ايطاليا اتلفت الجيوش الارياف . ثم ان التجنيد المتكرر وطول مدة الحملات فيا وراء البحر قد سلخا الفلاحين عن املاكهم التي حرمت من ثم ادارة وعمل السيد. واذا هم عادوا من هذه الحملات بالغنائم، فقد اكتسبوا عادات لا تشجع العمل الشاق المستمر . ولكن جميع هذه الاسباب ، مباشرة كانت ام غير مباشرة ، تتضاءل امام تطور الاقتصاد الزراعي الايطالي . وقد سبق لنا وبينا كيف استحال العيش على الفلاحين الايطاليين من بيع الحبوب باسعار متدنية فرضتهـا الواردات وكيف اضطروا لان يوجهوا عنايتهم الى نشاطات اخرى لا سيا تربية المواشي وزراعة الاشجار المثمرة . ولكن ذلك لم يتوفر الا لذوي رؤوس الأموال القادرين على توظيف المبالغ الضرورية لهذا الغرض . وقد توفرت رؤوس الاموال هذه باطراد للاغنياء ، المستفيدين الرئيسيين من اثراء الحروب . فتجمعت بالتالي الاملاك العقارية ونمت بينا هاجر الملاكون القدماء المستثمرون الى المدن ، والى روما بالتفضيل ، او تحولوا الى عمال ريفيين مأجورين، بائسين بفعل منافسة العبيد .

وازدادت خطورة الداء بسبب وجهة استخدام الاملاك العامة في ايطاليا، وهي بالضبط ما كان بالامكان ان يوفر له الدواء . فقد شملت هذه الاملاك مساحات كبرى من الاراضي المصادرة لمنفعة روما حين الفتح او بعد الثورات ، وقد انمتها الخيانات التي حصلت اثر نداء هنيبعل . وطالما استعملت الدولة بعض اقسامها ، بين وقت وآخر ، لتوزيعها انصبة مجموعة او متفرقة على مواطنين رومانيين او حلفاء « لاتين » : فحدث من ثم بزل في طبقة كادحة قديمة او حديثة العهد وتألفت مرة ثانية طبقة من الزراعين الاحرار . ولما كان امر ادارة ممتلكات الدولة يعود لمجلس الشيوخ فان هذا الاخير هو من تولى هذا التوزيع . غير ان احد المحامين عن حقوق الشعب قد تجاسر مرة واحدة ، في السنة ٢٣٢ ، وطلب الى الشعب الموافقة على ان تفرز وتوزع على المواطنين الفقراء منطقة محتلة وراء الابنين بمحاذاة الادرياتيك . ولكن مجلس الشيوخ ، بفضل السلطة التي جعلته الحرب البونيقية الثانية يستعيدها ويوطدها ، قد توصل الى تجنب تجدد هذا النهج الذي اعتبره نهجاً ثورياً . واستفاد من احتكاره للسلطة فقرر في اوائل القرن الثاني

بعض التوزيعات وانشأ بنوع خاص قرابة عشرين مستعمرة . ثم وضع حداً لهـذا التوزيع : فالاملاك العامة ، في نظر الاوليغارشية الجلسية ، يجب ان تستخدم لغايات اخرى.

لقد بيعت منها بعض القطع فقط لان الخزانة العـامة لم تشك من العجز الانادراً . وحاول الكثيرون استئجارها ، وتولى مراقبو الاحصاء التلزيم الذي تناول اجمالاً مساحات كبيرة: ذلك كان مصير البراحات *Landes* والمراعي بنوع خاص. واخيراً كان مسموحاً لاي كان ان «يحتل» الارض التي لا يشغلها احد مقابل ضريبة سنوية الغاية منها التذكير بملكية الدولة . وعملياً ، اذا استمرت الجماعات المحلية ، عن طريق الالتزام او بدونه ، في استثمار اراضي الجدود التي سلخها منهم الفتح الروماني مبدئياً ، فإن الريفيين المفتقرين لم يستفيدوا من الاملاك العامة الا بهذه المداورة مستكلين تغذية مواشيهم القليلة في المراعي المشتركة . اما ما تبقى منها فقد استأثر به الاغنياء بالنظر الى ان استثماره او مجرد استخدامه يستلزم ابداً رؤوس الاموال؛ وقد تألفت جمعيات من الملتزمين لتعاطي تربيـة المواشي كما وظف كبار الملاكين ولا سيما الشيوخ اموالهم في الاراضي المجاورة لاملاكهم لان تشغيل ثرواتهم في الاستثمار الريفي كان وحده جائزاً . ولهـذا السبب احجم مجلس الشيوخ خلال الربع الثاني من القرن الثاني عن توزيع القطع الفردية .

وهكذا لم يتلق الفلاحون الاحرار ، في ازمتهم الخانقة ، اي شيء يعوض عليهم ، وعوضاً عن ان تساعد املاك الدولة على استمرار التوازن الاجتماعي فانها قد ضاعفت امكانات التوسع التي توفرت من قبل للاملاك الخاصة في التطور الاقتصادي .

الحركة الاصلاحية

لقد لوحظ نهج هذا التطور منذ العصور القديمة . ويبذل المعاصرون اليوم جهدهم في اكتشاف بعض مفارقاته . وأهمهـا اختلاف زمن حصوله وفاقاً لمناطق ايطاليا . لنستثن في الدرجة الاولى ايطاليا الجنوبية التي هي ، كما نظر اليهـا بوليب ، حديقة غناء مخصبة زهيدة الاكلاف . فقد كان ايضاً في شبه الجزيرة مناطق يعسر الوصول اليها من الساحل ولا يدخل القمح الاجنبي اليها ، اعني المناطق الجبلية في ايطاليا الوسطى . امـا على مقربة من رومـا ، في اللاتيوم واتروريا الجنوبية ، فقد فضل الاثرياء توظيف رؤوس اموالهم في الاراضي حتى يستطيعوا مراقبة استثمارها مراقبة اجدى. ومن جهة ثانية غدت ايطاليا الجنوبية كلها، وهي التي قد عمها الخراب خلال الحرب البونيقية الثانية، المنطقة النموذجية لتربية المواشي على نطاق واسع : ولعل نظامها الزراعي الراهن قد تحدّد منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

اكتشف بعض المسؤولين الرومانيين الداء ، اقله من خلال بعض نتائجه . فلمسوا الصعوبات في تعبئة الجنود ولاحظوا انخفاض مستواهم : حصلت حوادث مؤسفة مؤلمة لا سيما خلال الحملات على نومانس في اسبانيا . ولاحظوا ايضاً الارتفاع العددي في الطبقـة الكادحة المدنية والرذائل التي اذلتها. فبرز في ايطاليا النقص في الرجال الذي علموا ان اليونان شكت منه ولا تزال ـ اجل نحن نفتقر الى المعطيات الواضحة حول الايطاليين الاحرار غير المواطنين ، ولكن قضاة مدنهم

قد اشتكوا احياناً من الصعوبة التي يصادفونها في جمع المتطوعين للجيش الروماني. اما المواطنون فان عددهم بعد ان بلغ الرقم القياسي ٠٠٠ ٣٣٧ في السنة ١٦٤ قد اخذ بالانخفاض ، من احصاء الى احصاء ، الى ٠٠٠ ٣١٨ في السنة ١٣٦ ، أي ما يقارب ٦ ٪ . فرأى الداء بعض المسؤولين الذين رضوا بفتح عيونهم وادركوا بسهولة احـــد اسبابه : طغيان الاملاك الواسعة واقتصادها العبدي على الاملاك الصغيرة : يعزو بلوتارك الى كايوس ان اخــاه طيباريوس غراكوس ، حين مروره في اتروريا ، « رأى هذه البــلاد الجميلة المقفرة التي لا زراع ولا رعاة فيهـــا سوى الاجانب والبرابرة » .

برز كذلك اثر الافكار الداعية الى حب البشر وحتى الى المساواة التي طلع بها بعض المفكرين الهليليين . فلا مجال مثلاً لنكران هذا الاثر عند طيباريوس غراكوس . ولكن اذا وجب ربط اسم هذا المحامي عن حقوق الشعب بحركة الاصلاح استناداً الى مبادرته ونهايته المفجعة ، فان فكرة وكيفيات هذا الاصلاح قد لاقت صداها لدى شيوخ من المرتبة الاولى ، من امثال «رئيس المجلس» آنذاك . وفي الحقيقة فكر هؤلاء الارستوقراطيون المستنيرون ، في الدرجــة الاولى ، تفكير رومانيين مفعمين بالتقاليد القومية ، وبمفهوم دقيق لمصلحة روما ايضاً . وكلنا يعـــلم المضادة البليغة الشهيرة التي جعلهـــا طيباريوس غراكوس بين الوحوش البرية التي تمتلك اوجرتها على الاقل وبين اولئك الذين يموتون ذوداً عن ايطاليا وليس لهم بيت تأوي اليه عائلتهم. ولكننا نلاحظ ، اذا ما امعنا قراءة صفحة بلوطارك بكاملها ، ان الخطيب لم يقصد سوى المواطنين دون غيرهم الذين « يطلق عليهم اسم اسياد العـــالم » والذين « لا يملكون مدرة » . فلا قيمة من ثم لاعتراض المعترضين انه يستحيل عليه التفوه بغير هذا الكلام امام جمعية من المواطنين .

فلم يفكر المصلحون ، لا في بداية حركتهم ولا بعدهـــا ، بالاقليميين الذين كان استغلالهم وبؤسهم ، مع ذلك ، في الاساس من انهيار الفلاحين الايطــاليين : وكايوس غراكوس هو الذي نظم لمصلحة الملتزمين جباية الفريضة على ولاية آسيا . لا بل لم يفكروا في البداية بالايطاليين غير المواطنين الذين كثيراً ما لجأت اليهم روما في جمع المتطوعين لجيوشها والذين اقصاهم القـــانون الزراعي عن توزيع الاراضي ، مع انه اخضعهم ، شأن غيرهم ، لمبدأ استعادة الاراضي المقطعة . اجل لقد تطوروا بسرعة بصدد هذه النقطة واقترحوا ، منذ السنة ١٢٥ ، حـــلاً يقضي بتعميم حق المواطنية في ايطاليا ، اي بجعل الايطاليين يستفيدون من القانون ؛ وان المثـــل الاعلى في المساواة القانونية الذي قالوا به لم يزل بعد ذلك من برنامج الشعبيين . ولكنهم لم يقولوا به الا لاعتبارات انتهازية ، اي رغبـــة منهم في جمع الحلفاء من حولهم والقاء مسؤولية الثورة على خصومهم . واذا ما اوجبت المعضلة الزراعية بحث المعضلة الايطاليــة جدياً ، فانها تحتفظ في نظرهم باولوية منطقية تتأيد في اولويتها الزمنية ، ولم يحملهم على التصدي للمعضلة الثانية الا تصميمهم على حلها هي .

هكذا افضى الاصلاح الى اصلاح آخر ، وافضى في الواقع تدريجياً الى عدة اصلاحات اخرى . ومرد ذلك الى ان الاصلاح الزراعي لم يكن ليتم الا على حساب الاوليفارشية العقارية التي ضمت اكثرية طبقة النبلاء المجلسيين . فاقتضى مواجهة مقاومة عنيدة تبديها هذه الطبقة اذ ان هزيمتها لا يمكن ان تعني سوى انهيار النظام السياسي الذي عرفته روما منذ الحرب البونيقية الثانية والذي القى في الواقع بزمام السلطة الى مجلس الشيوخ . امام مثل هذه النتائج لا يدهشنا ان يتخلى عن آل غراكوس بعض انصارهم الاول .

التشريع الزراعي

بديهي انه يستحيل هنا عرض تطور التشريع الزراعي عرضاً مفصلاً لا تتفق عليه الآراء احياناً .

كانت نقطة انطلاق هذا التشريع القانون الذي اقره الشعب بناء على اقتراح طيباريوس غراكوس المحامي عن حقوق الشعب ، وقد تقدمه بصورة اكيدة قانون آخر على الاقل . اختلف العلماء حول عدد هذه القوانين وتاريخها . ولكن لا نعبأن بذلك اذ ان قانوناً واحداً لم يطبق . وقد وضعت ايضاً ، منذ زمن قريب ، مشاريع كان مصيرها الحبوط . واستندت كافة القوانين او المشاريع الى المبدأ القانوني الذي احتفظ للدولة بمبدأ تملك جميع الاملاك العامة التي لم تنقل ملكيتها الى شخص آخر وفاقاً للانظمة المرعية الاجراء : فكان باستطاعتها من ثم استعادة الاراضي « المحتلة » او المؤجرة والتصرف بها كما يطيب لها . ولم يعرف القانون الروماني ، وشأنه في ذلك شأن القانون اليوناني ، الاستملاك الذي تلجأ اليه الاصلاحات الزراعية الحالية. واكتفى قانون السنة ١٣٣ ، على غرار النصوص السابقة ، بتعيين حد اعلى ، على بعض الاهمية ، — ما يعادل ١٢٥ هكتاراً لرب العائلة من « محتلي » الاراضي ، يضاف اليها ٦٢٫٥ هكتاراً لكل ولد — تنزع بعده الاراضي العامة الايطالية من مستثمريها ، ومقابل ذلك يصبح هؤلاء مالكين شرعيين للاراضي الباقية . وتقسم الاراضي المستعادة وتوزع على المواطنين انصبة مساحة كل منها ٧٫٥ هكتارات لا يمكن بيعها وتخضع لفريضة سنوية تسمح بمراقبة مصيرها : فتتكون مرة اخرى بالتالي طبقة صغار المستثمرين التي اعتبرت ضرورية لعافية المجتمع والدولة .

ذاك كان النظام . وقد أثار في الواقع ، بسبب بساطة تصميمه ، صعوبات سرعان ما تمسكت بها المعارضة . ولم تعرف هذه الاخيرة كللا في معارضتها فادى عنادها الى حوادث تعتبر من اعنف حوادث تاريخ روما الداخلي كموت طيباريوس غراكوس في السنة ١٣٣ وموت شقيقه في السنة ١٢١ . وكانت لها الغلبة احياناً : اجل لم تجرؤ قط على الغاء المبادىء المتفق عليها ، ولكنها علقت تطبيقها او اخرته او حصرته في مناطق ثانية هي ثانوية في نظر طبقة النبلاء . ولكن الاصلاح ، بفضل سلسلة طويلة من القوانين الزراعية ، اعتمد في النهاية ونقح ووسع توسيعاً اعظم سخاء على المنتفعين به . ولنكتف هنا ببعض التعديلات . فلم يقتصر على

حصص الـ ٧,٥ هكتارات : بل توصلوا الى الـ ٥٠ هكتاراً ، وألغوا الضريبة المفروضة عليها ، الشيء الذي سهل ، من جهة ثانية ، نقلها الى الغير ، واعترض من ثم الهدف المنشود . ولم يقتصر على الاراضي المستعادة من شاغليها : فقد ابتيع منها بمال الدولة . ورغبة في جعل التوزيع اكثر ثبوتاً ، جمعت الانصبة وانشئت المستعمرات . وسلكوا اخيراً ، بتخوف كلي ، الطريق المعدة لان تكون طريق المستقبل ، بان شرعوا بتطبيق هذه التدابير ، ليس في ايطاليا فحسب ، بل في الاقاليم ايضاً حيث شملت الاملاك العامة كثيراً من الاراضي الخصبة. وقد سبق لشيبيون ، في السنة ٢٠٦ ، قبل ان يغادر اسبانيا التي انتزعها من البونيقيين ، ان اسس ايطاليكا ، قبالة اشبيليا الحالية ، باسكانه فيها العاجزين والمتقاعدين من جنود جيشه . ولكن هـذا المثل لم يقتد به بعد ذلك . ثم عادوا الى هذه الفكرة في عهد كايوس غراكوس ، ولعل هذا العود كان مداورة للتخفيف من صعوبة استعادة الاراضي في ايطاليا ، فاقروا انشاء مستعمرة في افريقيــا هي « المستعمرة الجونونية القرطاجية » التي تأسست على مقربة من الموقع اللعين الذي قامت عليه المدينة المهدمـة في السنة ١٤٦ . فاخفقت المحاولة . ولكن انشاء ناربونا ، في السنة ١١٨ ، قد عرف نجاحاً كلياً .

وتطور في الوقت نفسه المنتفعون بهذه القوانين . فقد اراد المصلحون الاولون تخفيض عدد المواطنين الفقراء بالاستفادة منهم فوراً . فسُمح منذ ماريوس للكادحـين بالانخراط في الجوقات وحرص جميع القادة الظافرين على ايثاق تعلق جنودهم بهم بتأمين المكافأة لهم ، فلجأ المصلحون الى القوانين الزراعيـة كي يوزعوا على الجنود انصبتهم من الاملاك بعيد تسريح الجيش . ويضاف هذا النصيب الى الغنيمة الفردية ، فيحدث التوق اليه اقبالاً على التطوع عندمـا تندلع الحرب : كان الريفيون البؤساء يرضون بالمخاطرة بحياتهم بضع سنوات رغبة منهم في تأمين الحصول على قطعة ارض بعد نهاية الحرب . لا ريب في ان الهدف الاجتماعي قد تحقق ، ولكن بمداورة مادية، وبما هو اخطر من ذلك ، اي بانحراف اخلاقي . والدليل على ذلك ان الارض المقطعة لم تعبر عن اعتراف الدولة بواجبها في مساعدة المواطن على العيش من عمله بل اصبحت مكافأة على خدمات مؤداة . ولكن لماذا اديت يا ترى ؟ في اغلب الاحيان ، لطموح قائد يستخدم جيشه في الحرب الاهلية دونما خجل لا سيما وان انتصاره ، بما يستتبعه من مصادرات ونفي، يوفر له الاراضي التي يستطيع اسكان جنوده القدماء فيها : وكان سيلا اول من نهج هـذا النهج . وقد وجب ان يأتي قيصر ويستصدر خلال قنصليته في السنة ٥٩ ذلك القانون الذي طبقه الى حـد بعيد خلال دكتاتوريته ، حتى يعود الى توزيع الاراضي على المواطنين الفقراء على نطاق واسع ويستمر في الوقت نفسه في الانعام بسخاء على الجنود القدماء: فأسكن في كمبانيا ٢٠٠٠٠ ربّ عائلة لكل منهم ثلاثة اولاد على الاقل ، ولجأ بنوع خاص الى المعتقين المرسلين الى روما لاعادة بنـاء كورنثوس التي كانت قرطاجة قد هدمتها في السنة نفسها .

نتائج القوانين الزراعية

على الرغم من اللجوء الى الاستعمار الاقليمي، بقيت ايطاليا ، دون ريب، قبلة انظار الايطاليين . ويجب ان لا نقلل من اهمية النتائج التي اسفرت عنها الصراعات الحامية طيلة قرن تقريباً ضد استئثار الطبقات الحاكمة بالاراضي. اجل بقي عدد الاملاك الواسعة مرتفعاً لا سيما في ايطاليـــا الجنوبية : وقد سمح ببقائها للنصيب المتروك لشاغلي الاملاك العامة ، وتولى العمل الباقي حصر الثروات العقارية الطبيعي عن طريق الارث ام الشراء. ولكن الملكية الصغيرة ، في عـــدة مناطق ، لا سيما المتوسطة ، كانت قد عادت الى الوجود . وألـف الملاكون الجدد بورجوازية بدت وكأنها مستقرة. فهل عملوا بسواعدهم ؟ لا يمكننا اثبات ذلك . ولكنهم اقاموا في املاكهم وراقبوا استثمارها مراقبة دقيقة . وتوفر لهم المال أكثر من ذي قبل ، لا سيا اذا كانوا جنوداً قدماء ، فاستطاعوا اعتماد طرائق اوفر دخلاً : وليس ازدهار الكرمة والزيتون في اواخر العهد الجمهوري سوى ثمرة اتعابهم في اغلب الاحيان .

وليس هذا كل شيء . فقد افضى انتقال الملكية الى فرج سكان ايطاليا . اجـــل لا يمكننا اليوم قيـــاس الصهر المنصري . ولكن تقدم الوحدة اللغوية ، وهي عماد قوي للوحدة الادبية ، يمكن تتبعه خطوة خطوة . ففي القرن الاول زال استعمال اللغة الاتروسكية كما زال في بومبيي ايضاً استعمال اللغة الاوسكية *Osque*؛ وقد أسهمت في هذا الزوال القوانين الزراعية، تساعدها في ذلك عوامل اخرى كثيرة، ولا فرق اذا استفاد منها المدنيون ام قدامى العسكريين.

لا سبيل لمعرفة ما اذا كان باعثو هذه النتائج قد ارادوها وارتقبوها : فعلى غرار جميــع الظواهر الاجتماعية ، يغلب ان هذه النتائج تمثل تسوية بين التطور التلقائي المتعدد الاسباب وبين الاعمال البشرية المقصودة التي تحاول تعجيل ودعم واستمالة او مقاومة نتائج هذا التطور. ولكن الحقيقة الثابتة هي ان مجهوداً كبيراً قـــد بذل بغية تقويم نتائج الفتح الوخيمة بالنسبة للفلاحين الاحرار ، وان هذا المجهود قد ذلل أسوأ الصعوبات فلم يبق دون ثمرة . وامام هؤلاء الملاكين المتوسطين وتقدم اللغة اللاتينية تعود بنا المخيلة الى توطين المستعمرين اليونانيين الذي حققته بعض الملكيـــات الهلينية . ولكن الموضوع ههنا انتزاع الملكية من الطبقة نفسها التي في يدها زمام السلطة . لذلك يجوز التأكيد بأن تاريخ العصور القديمة لا يعطينا أي مثل آخر شبيه بهذا المثـــل عن تدخل الدولة النافذ بغيـــة التأثير ، على حساب فئة من مواطنيها ، على الواقع الاجتماعي، وبغية اعادة تكوين طبقة هي في طريق الزوال .

٣ ـ الطبقة الكادحة المدنية

غير ان هدفاً على الاقـــل ، بين الاهداف التي سعى وراءها القائمون بالاصلاح الزراعي ، لم يتحقق بلوغه . فهم قـــد توخوا تخفيض عدد الكادحين الذين يتجمعون في روما ، حيث تفسد اخلاقهم، باعادتهم الى العمل الحر في الحقول. ولكن هذا العدد لم ينخفض بل استمر في التضخم،

وجل ما نستطيع قوله هو انه كان من شأن هذا العدد ، لولا القوانين الزراعية ، ان يزداد أكثر من ذلك . وليس في واقع هذا الفشل ما يثير أية دهشة : فبين البؤس في البطالة والكدّ المشكوك في نتائجه لم يترك الانحطاط الاخلاقي لذوي العلاقة مجالاً للتردد ، وقد وجب ان يبرز دكتاتور من امثال قيصر حتى يجرؤ على القيام حيالهم بعمل قسري ، ولو غير مباشر . اضف الى ذلك ان خصوم القوانين الزراعية لم يكونوا ليهملوا حجة فوضى الحكم . ويمكن الحكم على مهارتهم بقراءة تحريضات القنصل شيشرون مقاوماً ، في السنة ٦٣ ، مشروعاً تقدم به رولّوس : « قال هذا الحامي عن حقوق عامة الشعب في مجلس الشيوخ ان لعامة الشعب المدنية مزيداً من الاهمية في الدولة وانه يجب « تفريغ » المدينة منها . هذه هي الكلمة التي استعملها كأنه يتكلم عن فنطاس ما لا عن طبقة من خيرة المواطنين . اما انتم ... فلا تتنازلوا عما هو ملككم ، الرصيد السياسي ، والحرية ، والاقتراع ، والكرامة ، والمدينة ، والساحة العامة (الفوروم) ، والالعاب ، وايام الاعياد وغير ذلك ، ما لم تفضلوا على بهاء هذه المدينة ، بتخليكم عن كل ذلك ، الاستيطان ، بقيادة رولوس ، في جفاف مدينة « سيبونته » او في طاعون مدينة « ساليبس » . فكانت الغلبة لشيشرون . وكانت الحجة مفحمة ، ولكن لجوءه اليها ، مع توفر غيرها لديه ، لم يخدم سمعته كرجل دولة .

اهمية ووحدة الكادحين المدنيين

لما كانت روما المدينة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في ايطاليا ، فان الكادحين المدنيين الوحيدين الذين كانوا على بعض الأهمية العددية هم الكادحون الذين اقاموا فيها . وكانوا كافين لتعمير اكثر من مدينة . وبسبب افتقارنا الى المعطيات الاحصائية الاخرى ، نرانا مضطرين لأن نقبل بالعدد ٣٢٠٠٠٠ الذي كان ، حين استلام قيصر السلطة ، عدد المواطنين المقيدين على لوائح توزيع القمح المجاني . ومع ذلك فلا يكفي هذا العدد لايقافنا على الحقيقة الكاملة . فلو افترضنا انهم لم يدونوا في هذه اللوائح سوى المواطنين القاطنين روما ، فهل أقصي عنها مبدئياً اولئك الذين بلغوا حداً أدنى من اليسار ؟ وما هو خصوصاً المعدل الذي يجب ان نضرب به هذا العدد اذا ما اردنا ان نأخذ بعين الاعتبار عائلات الذين يتقاضون المخصصات ؟ فهو لا يعطينا بالتالي سوى مقياس لأهمية الكادحين ، ولكنه في واقعه لا يخلو من قوّة التأثير . ويمكن ان يقدر تقديراً افضل اذا ما قورن بتأكيد ذلك الحامي عن حقوق الشعب الذي قال في نهاية القرن الثاني ان ليس في روما « ألفا رجل ممن يملكون شيئاً ما » . وعلى الرغم من ان شيشرون لا ينفي هذا التأكيد حين يستشهد به ، فانه يبدو مغالى فيه جداً . ولكن التفاوت العددي ، على كل حال ، كان عظيماً جداً بين الاغنياء والفقراء .

ليست هذه الطبقة مدينة بتكاثرها — الذي نجهل مراحله — لارتفاع عدد الولادات . واذا ما اعوزتنا الارقام فان الشهادات تتفق اتفاقاً كافياً للاعراض عن هذه النظرية . فقد جاز للوالدين الرومانيين ، على غرار الاغريق ، ان لا « يربوا » اولادهم اي ان يلقوا في الشارع مواليدهم الجدد ، ولم يستخدموا هذا الحق ، على كل حال ، بمقدار استخدام الاغريق له . ولكن الوفيات

بين الاطفال كانت مرتفعة. فمن اصل الاثني عشر ولداً الذين انجبتهم كورنيليا والدة آل غراكوس، لم يبق في قيد الحياة سوى ثلاثة فقط . فما هي حال الطبقات الفقيرة يا ترى ؟ حين تقرر ، منذ قيصر ، تشجيع العائلات الكثيرة العدد ، بدا وجود ولد ثالث مقياساً كافياً .

بعد استبعاد هذا السبب يمكن القول ان تكاثر السكان مرده الاستيطان الذي ليس من مر في اسبابه : زيادة دور المدينة سياسياً واقتصادياً ؛ نزوح الفلاحين الايطاليين المفتقرين اليها بعد ان ارعبتهم او ارهقتهم حياة المأجورين التي ارغمتهم عليهـا ، في الريف ، خسارة الارض التي اعتاش منهـا جدودهم ؛ نمو الرق الذي كان يفضي ، بشكل شبه عادي في رومـا ، الى الاعتاق

واذا كان المستوطنون احراراً ، تمتع شطر كبير منهم بصفة المواطنين حتى قبل اقامتهم . اما الآخرون ، الحلفاء « اللاتين » او الحلفاء الايطاليون ، فان التشريع ، الذي عاملهم بكل سخاء في اوائل القرن الثاني ، قد غدا فيما بعـد اشد قسوة ، ولكنه لم يتوصل قط الى الحيلولة دون حصولهم على حق المواطنية ، مع انه قد لجأ عند الحاجة الى مداورات لا تخلو من الغش . وحدث الشيء نفسه للاجانب غير الايطاليين ، وهم قلة على كل حال في عهد الجمهورية . امـا المعتقون فقد استفاد كل منهم من نظام سيده القديم . وهكذا فان التمييزات القانونية ، التي لا اهمية لها خارج العلائق بالدولة ، كانت تتلاشى خـلال جيل او جيلين على الاكثر : ولم تقوض وحدة الطبقة الكادحة الرومانية .

يصح القول نفسه في التمييزات العنصرية . فالعناصر الوحيدة الغريبة حقاً والكثيرة نسبياً قد وفرها العبيد المتعددو الأجناس : وما كان اعتاقهم ليتحقق الا بعد فترة اختبارية يمارسون خلالها اللغة ويقتبسون العادات السائدة . بيد ان الشرقيين لم يتخلوا عن عباداتهم بسهولة ، لا بل انهم نشروا حولهم عقائدها وطقوسها . ومهما يكن من الامر فان الوحدة الادبية قد كلت بالتالي الوحدة القانونية. ولسنا نعرف في روما آنذاك ، بين جماهير سجسة بالفطرة ، خصومات شبيهة بتلك التي برزت في كبريات مدن الشرق كالاسكندرية مثلاً : ولن ترتدي الكراهية ، التي استهدفت اليهود والمسيحيين بعد ذلك ، طابع العنف الا بايعاز من السلطات .

البطالة

كان من البديهي ، في مدينة بلغت هـذا العدد الكبير من السكان ، أن تبرز في الفوارق الاجتماعية ومستويات الحياة المادية خلافات شتى كثيرة . وليس من ريب في ان طبقة الكادحين هـذه ضمت عمالاً شجعاناً وشرفاء ؛ فليست امكانات العمل مـا اعوزهم . وقد بلغ بعضهم اليسار بمهارتهم وجدّهم ، لا بل توصلوا الى الانصهار في طبقة الاغنياء. ولكن معرفتنا بهذه الطبقات الوسيطة بسيطة جداً . ولا تلقي مستنداتنا ضوءاً آنذاك إلا على طبقات أشد غمراً، واكثر عدداً. بيد انه يعوزنا معرفة النسبة التي تنطبق عليها، في هذه الطبقات، الصفات المادية، والاخلاقيـة ، التي تعزوها المصادر الى مجموعهـا . والحقيقة الوحيدة هي ، ان

مثل هذه الفوارق التي لم تبد ضرورية للمعاصرين آنذاك لا تبدو كذلك ضرورية لاولئك الذين يحاولون اليوم ادراك وتفسير ما حدث يومئذ في روما .

فنحن لا نسعى وراء المغالطة ، والقعقعة الكلامية ، بل نقتصر على ملاحظة واقع عندما نؤكد ان القسم الاكثر نشاطاً ، في هذه الطبقة ، هو ايضاً اكثرهــا بطالة . وقد يكفي مجرد وجودها ، بسبب ضخامة عددها ، لأن يثقل على حياة المجتمع كله وعلى مصير المدينة نفسه . وباستطاعتنا تصور ما يمكن ان تأتيه بفضل سهولة العمل السجس التي توفرهـا لها بطالتهـا .

ما هو عدد هؤلاء الفقراء الذين يجهلون العمــل المنظم ، ويتوصلون مع ذلك الى تأمين معيشتهم ؟ يستحيل تقدير نسبتهم في مجموع لا يقع هو نفسه تحت تقدير . ولكن هـذه النسبة تتجاوز ، على كل حال ، تجاوزاً بعيداً مــا يستطيع ان يقبل به مجتمع حريص في المحافظة على توازن عادي . وشرّ ما في ذلك ، من جهة ثانية ، هو ان هذه البطالة تقمل فصــل الطعم . فهي تجتذب الى روما ، بالاضافة الى الكسالى بالسليقة ، كافة اولئك الذين يلاقون صعوبة مـا في تأمين معيشتهم من نتاج عملهم العادي ! فالكادحون العاطلون عن العمل في المدينة يرتفع عددهم ارتفاعاً مستمراً ، ولاحدود نظرياً لطاقاتهم ما دام معيلوهم قادرين على تحمل هذا العبء.

فالبطالة تستلزم الطفيلية .

الطفيليــة

قامت الطفيلية في البداية على حساب الاغنياء . وقد انحرف نظـام الزبن القديم الذي استتبع حماية « السيد » الأدبية والقانونية عن مفهومه الأول . وقد اصبح من السهل وغير النادر ان ينتخب « السيد » دونما تقيد بأي تقليد عائلي ، كما اصبح من واجب السيد ، الذي لا فرق بين قدرته وثروته المتكافئتين ، ان يؤمن الزبون حماية مادية ؛ هي أعطيــة مادية أطلق عليهــا اسم « سبورتولا » التي تعني اشتقاقاً « السلة الصغيرة » الملأى بالمواد الغذائية ، ولكنها استبدلت تدريجياً ببعض القطع النقدية . وقد أضيف اليها ، كما هو طبيعي ، الاشتراك في ولائم الأعياد العائلية او الاحتفالات العامة . ومــا كان الاغنياء الحريصون على الدعاوة لأنفسهم لأن يقصروا سخاءهم في هذه المناسبات على زبنهم دون غيرهم . فالولائم التي ينظمونها يقبل فيهـا الجميع ، ومن لا يستطيع احتلال مكانه حول الموائد التي تمدّ حتى في الساحـات العامة يعطى « السلة الصغيرة » وحتى « اناء الزيت والنبيذ » الذي يستبدل بمبلـغ من المــال ايضاً . وليس هــذا السخاء سوى ثمن التأثير الاجتماعي والسياسي . ومن واجب الرجل الذي قدّرت له الثروة ان يفيد بها مواطنين أقل حظاً : فامتناعه عن ذلك دليل بخل أي دناءة نفس. أجل لم يجهل الشرق الهليني هذا المفهوم ؛ ولكن نظامه السياسي قد جعله ، عملياً ، مقتصراً على الملوك . ومن حيث ان نبلاء الرومان قد تمثلوا بالملوك وتمتعوا ، كجماعة ، بسلطتهم ، فانهم قد تبنوا هذا المفهوم ، راضين بما يجره من موجبات : ويمكننا أن نتصور التجاوزات التي تدفعهم اليها ثروتهم ومنافستهم على السواء .

أفضى منطق النظام الى الطفيلية التي انتشرت على حساب الشعب - الملك نفسه ، أي على حساب الدولة ، ولكن ببطء . فبينما بدأ عهد اسباغ النعم الكبيرة الخاصة في اوائل القرن الثاني ، اكتفت الدولة خلال فترة طويلة نسبياً بأن تكرس ، شأنها في الماضي وشأن اكثر من مدينة يونانية ، جزءاً من موازنة الاعياد لنفقات الولائم العامة . ولم يفتها من جهة ثانية ان تترك لمنظمي هذه الولائم من القضاة الحرية في ان يجملوها ، بجودة اصناف مآكلها وبعدد المدعوين اليها ، تتجاوز الاعتمادات الرسمية ، اذا طاب لهم ، في هذه المناسبة ، ان يتباهوا بالانفاق من اموالهم الخاصة . ثم بدأت في ١٢٣ ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي يكفي هنا ان نستعرض تطورها العام . يبدو ان قانون السنة ١٢٣ قد اقتصر على القليل من الموجبات : فمن حيث انه ارغم الدولة على ان تبيع كل مواطن كمية شهرية معينة من الحبوب بسعر محدّد ثابت ، كان بمثابة ضمان ضد ارتفاع الاسعار وطبق عملياً ، على ظروف روما الخاصة التي تجبي عيناً الغرامة المفروضة على صقليا ، مجهوداً سبق للمدن اليونانية ان بذلته . ولم يتبدل القصد إلا بعد ذلك بواسطة مشاريع او قوانين تدخل على ثمن المبيع تخفيضاً عظيماً . واخيراً ، في السنة ٥٨ ، سن كلوديوس قانوناً يقضي بالتوزيع المجاني .

ان هذا التطور لمفيد ببطئه ، وباستطاعتنا ان نكتشف له اسباباً كثيرة لا تتنافى بل ترتبط ببعضها على ما نرجح: قصر نفَس الاغنياء الحاكمين الذين لا يمكن لسخائهم ان يرافق ازدياد عدد الافواه الواجب اطعامها ؛ اهمال المفهوم الاول للقوانين الزراعية واعتمادها لمنفعة قدامى الجنود وحدهم تقريباً ؛ المزايدة المحتومة في التدابير المتراخية لمصلحة طبقة كادحة اخذت تعي قوتها المتزايدة وتستخدمها ؛ اثراء لا نظير له تحققه دولة توسع فتوحاتها توسيعاً مطرداً . وقد انطلق بعضهم من العدد ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ واكدوا ان الانفاق السنوي قد بلغ آنذاك اكثر من ١٩ مليون فرنك (١٩١٤) : ولكن هذا الحساب يستند الى معطيات غير اكيدة وغير ثابتة . ومهما يكن من الامر فالعبء ثقيل . لذلك ، وعلى الرغم من ان الدولة تستطيع حينذاك تحمله دون ان تفرض ضريبة مباشرة على المواطنين ، يجدر بنا ان نلاحظ ان قبولها بهذا العبء يرتبط ، شأنه شأن امور اخرى كثيرة ، بمفهوم الحق ، الذي يعطيه النصر ، في سلب اموال المغلوب : فلماذا يجعل الاستئثار بمنافعه وقفاً على اقلية من الحكام ورجال الاعمال ؟

وهكذا فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بغذائه للاغنيـــاء الذين يجمعون او يستفيدون ثرواتهم على حساب الولايات ، ام للخزانة العامة التي تمولها الغنائم والغرامـــات ، يعيش عيّلَ العـــالم الذي فتحته روما او لا تزال مستمرة في فتحه : ان المجتمع الروماني تحوّل الى نقابة نهابين .

اسباب التسلية

تفسر كثرة المشاهد اعتبارات ووقائع مماثلة . اجل لقد سيطرت على نشوء مواكب النصر والالعاب ومبارزات المسايفين اعتقادات دينية موروثة عـــن الاتروسك. ولكن معناها التقوي ما لبث ان زال . ولما كان جمهور المواطنين عاطلاً عن العمل،

توجّب توفير اسباب التسلية له . فصرف الذهن في ابتكار الألاهي وفي مقاومة ملله بتنوعها وجدتها . ولما استحال جعل مواكب النصر أكثر تكرراً ، وزع استعراضها على عدة ايام وأدخلت عليها مشاهد تذكر بأهم حوادث الحملة ؛ ثم أحدثت ألعاب جديدة ، استثنائية في البداية ، ما لبثت ان أصبحت عادية . وكثيراً ما حدث ، بحجة الاخطاء الشكلية ، ان أعيدت الالعاب يوماً ثانياً وثالثاً وأكثر احياناً ، حتى سبعة ايام ، منذ السنة ٢٠٥ . ثم تنوع وتحسن برنامجها : فأضيفت ، الى الاحتفالات والتمارين الرياضية ومباريات العدو ، الرقصات الايمائية والتمثيليات المسرحية وعرض الحيوانات الغريبة وتقتيلها ، واخيراً مبارزات المسايفين التي لم يعد الافراد ينظمونها تقدمة لأرواح موتاهم بل غدت ، منذ اواخر القرن الثاني ، جزءاً لا يتجزأ من الالعاب المنظمة باسم الدولة . وباستطاعتنا ان نسرد ، في الكلام عن هذا التطور ، تفاصيل لا تحصى . ولنكتف بثلاثة ارقام : أمر سيلا بقتل ١٠٠ اسد ، فرفع بومبيوس هذا العدد الى ٣٢٥ وقيصر الى ٤٠٠ .

وسيتولى الاباطرة ما هو افضل من ذلك . ولكن النظام الجمهوري ، بصدد « الخبز » و « الالعاب » ، لا يلتزم موقفاً وجلاً : فقد حصل الشعب على قسطه من الملذات التي تسمح بها الثروة ، وخشي المسؤولون عن تأمينها له ، منذ ذاك الواقت ، ان يملّ نمطها الواحد .

الافساد والعنف

وجدت هذه المشاهد والالعاب والمبارزات المزيد مما يتممها في تلك التي وفرتها السياسة . ومرد ذلك الى ان الجمهورية لم تقص عنها عامة المواطنين كما ستفعل الملكية بل برهنت عن سخائها النادر في تقديم المشاهد التي لا يمكن حتى للمتطلبين ان يحكموا على الحياة والتنوع فيها بأنها غير كافيين. ومما زاد في جاذبيتها ان ليس ما يمنع احقر الناس من ان يلعب فيها دوراً نشيطاً ، لا بل ان لعب هذا الدور ، الذي هو الامتياز الملكي بالذات ، كان ، نظرياً ، حقّ وواجب كل مواطن . ولكن شتان بين النظرية والواقع . فمن الجلي ان ابسط المستحيلات المادية لا يسمح الـ ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ ، حتى ولو كانوا قاطنين روما ، ان يجتمعوا كلهم ، أي ان يمارسوا كلهم معاً نشاطاً سياسياً ، لا مستمراً فحسب ، بل مقتصراً على العمل الحاسم الذي هو الاقتراع . وقد غدا هذا النشاط بالضرورة وقفاً على شبه محترفين ينضم اليهم احياناً فضوليون تستهويهم احدى المناقشات الكبرى . فهل يمكن ان ينتمي هؤلاء الاختصاصيون لغير العاطلين عن العمل ، او الهواة ، او المأجورين للمتنافسين ؟

افساد : ولكن لا نستعملن الكلمة بدون تروّ . فان الرابطة بين الحامي والمحمي التي تفرض مساعدة السيد في الحياة العامة تعني ارتزاقاً في نظر المعاصرين . ولكن الرومان ، انطلاقاً من المفهوم الاول ، يرون غير هذا الرأي : لا استعطاء ولا شراء ، بل حماية وعرفان جميل توقيري . وكذلك يبقى السخاء الخاص الذي يتناول الشعب بكليته ، في نظرهم ، بعيداً جداً عن التعميم على الافساد الجماعي : انه انعام مجرّد عن الغايات ، وان القوانين التي حاولت ، في القرن الثاني ،

الحدّ منه ، يجب ان تفسّر كقوانين تقيد النفقات المفرطة . ولكن هذه الفوارق لا تنافي الحقيقة العارية : فعدد الزبن العظيم والمآدب والالعاب تؤمن النجاح السياسي . اضف الى ذلك ان قوانين اخرى حاولت تنظيم « المنافسة » ، أي الدعاوة الانتخابية ، وعاقبت خصوصاً شراء الأصوات الفردية الذي مورس على اتساع وقحة متفاوتين . ففي السنة ١١٠ صاح جوغورتا قائلاً : « مدينة معروضة للبيع وناضجة للزوال اذا وجدت من يشتريها » . وهو انما يفكر بالحكام خصوصاً ؛ ولكن هؤلاء مرغمون ، في الدرجة الاولى ، على شراء وظيفتهم التي تتيح لهم ، بعد ذلــك ، ان يبيعوا انفسهم . ظروف جديــدة للكسب تمنح للفقراء ، وضربات موجهة الى سير النظام الطبيعي .

وهنالك ما هو اسوأ من هذا الافساد المتستر او السفيه : العنف الذي يدفع اليـه الاخلاص المهووس لرجل او لقضية والضمير المسلكي الذي يتميز به الطاغوت المأجور لتنفيذ كافة المهام . وفي ارض الطبقة الكادحة المدنية تجمع عصابات المرجفين، من المواطنين وغيرهم الذين تنفلت صيحاتهم وفظاظاتهم انفلاتاً يزداد تكرره ، مقاطعة مناقشات الجمعيات والاقتراعات ومفضية احياناً الى الحريق والجريمة . ومنذ فاز طيباريوس غراكوس بمنصب الحامي عن حقوق الشعب، اضطرت جميع الاحزاب لان تلجأ الى مساندتهم ، لان العنف بدا وكأنه الحماية الوحيدة من العنف . فاستقرت الفوضى استقراراً دائماً : وهي مدينة بنجاحاتها المستمرة لوجود جمهور عاطل عن العمل تتولى عناصره المتطرفـــة ، في خدمة مستخدميها ، إرغام الباقين على الصمت حين لا تجرهم وراءها جراً .

البؤس والديون

الاحتداد امر يسير حين نحاول تهذيب الاخلاق. وفي ما يعنينا، لا يمنع الوقوف موقف الحذر من هذه المحاولات من النزول عندها قسرا ، حتى اذا اخذنا بعين الاعتبار تفرّض الذين يلقنونا الدروس والذين تفسر ثروتهم الاحتقار الملموس عند اكثر النـــاس انسانية . ولكن هذا الانحطاط مصدره البؤس . فمنذ القرن الثاني ، اتخذ التعبير « عامة الشعب المدنية » معنى ازدرائياً : فاتنلسي آنذاك ، بشكل نهائي ، المعنى القديم لـ « عامــة الشعب » وتحدد معناها المزدوج ، المادي والادبي ، الذي يرافقها حتى اليوم . وان شيشرون ، الذي يمالق الجماهير حين يتوجه اليها، ليعبر في ظروف اخرى عن اشمئزازه : « قذر المدينة وغالتها ». لم تخل اية مدينة كبيرة منها ولا تخلو منها اية مدينة كبيرة حتى اليوم . بيد ان المخيف في روما، في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، هو اهميتها العددية . ولذلك يمكننا القول بهذه الاستعارات على ان لا ننسى آلام هذه العامة ولامسؤوليات اولئك الذين شاهدوا قيامها لامبالين ، فتركوها تنمو وتتألم ، مستخدمين عيوبها وسجسها ومحركين حماستها وغضباتها .

اجل ليست اسباب التسلية ما اعوزها . وان غذاءها شبه مؤمن تقريباً شرط ان يبقى عدد افراد العائلة محدوداً . وهي تجمع بصعوبة بعض النقود بقيامها بعمل غير مضمون يزيد في ندرته

وجود العبيد . ولكن ما تجمعه لا يكفي لسد النفقات ، ولسنا نفكر هنـا بتلك التي تنجم عن البطالة نفسها . فما هو السبيل بنوع خاص لتأمين السكن في مدينة يزداد سكانها بسرعة مطردة ؟

ان تشييد المساكن الكبيرة الجماعية حيث يتكدس الفقراء محرومين من كل رفاهية ، تجارة راودت مخيلة ذوي رؤوس الاموال وانتظروا منها ارباحاً هامة . فالاجور مرتفعـة والتشريع قاس على المستأجر . واذا كان الاختلاط يفسد الاخلاق ، فان الاستدانـة والقلق الذي تثيره يفعلان فعل خمير الثورة . وان مسألة الديون ، التي تجعل منها ادنى ازمة معضلة حادة لا تواجه المبذرين الاغنياء فحسب . فهي اعظم اقضاضاً بالنسبة للفقراء الذين يجـد المهيّجون الفوضويون بينهم عدداً كافياً مـن البائسين لتعريض النظام السياسي والاجتماعي للخطر . وقد سبق ورأينا ان مؤامرة كاتيلينا قـد صادفت في الزمن احد هذه الاندفاعات المحمومة . وكانت بداية الحرب الاهلية الكبرى الثانية منطلقاً لاندفاع آخر ، لا سيا وان بعض انصار قيصر قـد اعتقدوا ان الساعة قد حانت ، بانتصاره ، لتحقيق كل بحبوحة ورخاء . وقد انتهز بعض المحامين عن حقوق الشعب غياب الدكتاتور واقترحوا ، في السنة ٤٨ ، وفي السنة ٤٧ ايضاً ، تأجيـل دفع الأجور وإلغاء الديون ، ولم يعد النظام الى نصابه دون اشتباكات دامية . وحين عـاد قيصر ، توفق ، بعد صعوبات شتى ، الى سن قانون تقدمي يقضي بحسم الفوائد وتأجيل الدفـع سنة واحدة والغاء سجن المدينين .

ان هذه الاضطرابات ، بتكررها وخطورتها ، تنمّ عن شيء آخر غير البؤس الخاص بهذه الطبقة : بؤس مادي وأدبي يجعل من ضحاياه أدوات في ايدي عنف أعمى .

الخاتمـة

ان هذا العرض أبعد من أن يستطيع تبيان كافة مفارقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وايطاليا . ولعل عيبه الاول انه لم يعط استقلالاً كافياً لطبقة لن تهب ريحها إلا في العهد الامبراطوري مع انها اخذت تبرز ، ناشطة جداً ، في العهد الجمهوري : اعني بها « بورجوازية » البلديات الايطالية ، والطبقـة الوسطى في المدن الصغرى . وهي في الحقيقة تكاد لا تتميز عن الفرسان الذين انضم اليهم أكثر اعضائها حظاً والذين لا يتميز جمهورهم ، بدوره ، عن الملتزمين العموميين . واتصفت بالنشاط فدانت هي ايضاً لاستثمار الفتوحات برؤوس اموالها الاولى ، حتى ولو وظفتها بعد ذلك في الاراضي التي راقبت تحسينها . غير ان دورها السياسي ، اذا كان دورها الاقتصادي هاماً ، قد بقي في العهـد الجمهوري بلا أثر له تقريباً : ولكن عناصر بشرية نشأت فيها لن يفوت النظام الامبراطوري الاستفادة منها للادارة ، وحتى لتولي شؤون الدولة في عهد فسباسيانوس .

لذلك فان الكلام عنها كطبقة مستقلة تقابل الطبقات الاخرى لن يبدل شيئاً في الاستنتاج العام. فقد هدف كل هـذا العرض الى تبيـان مدى العمق الذي بلغه الفتح الروماني في قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الشطر الاعظم من ايطاليا . فهو قد حقق ، على دفعات قوية تلتها تقنية منظمة ارهقت المناطق التي اخضعت لها ، انتقال كنوز ، الى شبه الجزيرة ، كدستها اقدم وأغنى حضارات شواطىء المتوسط . وبفضل هذه الكنوز ، احدث في ايطاليا اقتصاداً دقيقاً وركيكاً بفعل تركيبه . فأتاح للبعض جمـع ثروات طائلة وهوّر البعض الآخر بمنافسة المصنوعات المستوردة والعبيد الغرباء ، واوجد بالتـالي تفاوتاً اجتماعياً بيّناً وأثار معاضل عجز النظام ابداً في معالجتها عن اعتماد حلول غير الحيل واستخدام القوة ، او عن اكتشاف هـذه الحلول نفسها .

ليست اهمية التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بغيـة تفسير « موت » الجمهورية الرومانية ، دون اهميـة التطور السياسي نفسه ، وقـد وجه التطورين على السواء مدى الفتوحات وتوسعُها الدائم .

الفصل الرابع

هلينةروما : الديانة

لقد برز ايضاً تطور عظيم في حياة الرومان الادبية ومعتقداتهم وطقوسهم الدينية ومثلهم الجمالية . ومع انه يشبه ، باتساعه ، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، فانه ينطوي على بعض المميزات الخاصة .

ميزات التطور الثقافي

من هذه المميزات انه اقل استقلالاً حيال التأثيرات الخارجية . ويمكننا في الواقع تحديد هذا التطور بكلمة واحدة : « هلينة ». وبديهي ان هذا التحديد موجز ، شأن كل تحديد . لذلك سنحاول في هذا البحث ان نضيف اليه ما ينقصه بالضبط . ولكنه على العموم تحديد مقبول : فان الاغريقي الذي ينزل روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، لا يستطيع ، دون اطلاع مسبق ، ادراك المفاضل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما هو لا يستغرب المشاغل الدينية والفنية والفكرية . ولا يعني ذلك ان قرب ومَثَل الحضارة اليونانية ، الحاسمين هنا ، لم يتركا اثراً هناك . فهناك ايضاً قد فعلا فعلهما وقد سبق وألمحنا الى ذلك ، كاثر مَثَل الفاسيلفس(الملك)على القادة الظافرين . ولكن هذا الاثر ، المحدود دائماً ، لم يلعب سوى دور ثانوي ، ضائعاً بين العوامل الرومانية بالذات . وليس بالتالي ما يستحق المقارنة بما سيظهر الآن .

لما كان هذا التطور قد استطاع ان يجبل ، بصورة ابعد عمقاً ، النفوس والعقول وفاقاً لنماذج اجنبية ، فهذا يعني بالضرورة انه كان مطلق الحرية في العمل . ولا عجب في ذلك . فالدولة والمجتمع قد ابديا مقاومة افضل لان الانظمة والمصالح قد ساندتها ، بينما كانت الحياة الادبية اكثر مطاوعة . وقد اسهم التطور الذي تناولها في خلخلة التنظيم القديم لانه بدّل مثال الانسان الذي توافق معه هذا التنظيم . ولكن نتائجه كانت ابطأ ظهوراً : فهو لم يصطحب اية ثورة فورية في نظام الطبقات المختلفة وعلاقتها المتبادلة . لا بل لم يتضح قط للمعاصرين ان الملكية الامبراطورية قد استندت اليه لتجعل من نفسها وريثة الفوضى الجمهورية . فعلى نقيض ذلك ، حلول النظام الجديد ، اقله في اول عهده ، مقاومة بعض الشخصيات التي اعتبرها المحافظون

على التقليد افساداً وشراً . فعلى الصعيد الديني تظاهرت النزعة التي يمثلها اوغوسطس بالمحافظة على ما هو قديم . ولا فرق هنا اذا كانت صادقة وفعالة ام لا : ولكن الشيء الاكيد ان التطور الثقافي لم يرتبط ارتباطاً مباشراً ، بنسبة غيره ، بالتيار الذي افضى بروما الى نظام جديد .

ومن هذه الميزات ايضاً – وهو يرافق الاول – ان التطور ، على هذا الصعيد ، كان اسرع حصولاً . اجل لقد ازدادت سرعته وغدا اثره اعظم انتشاراً وعمقاً في القرنين الاخيرين من العهد الجمهوري . ولكنه اخذ بالبروز قبل ذلك بزمن بعيد . ويرد تقدمه النسبي الى انه اقل ارتباطاً بالظروف المادية ، ولاسيما الثروة . كان لهذه الاخيرة اثرها : وان نكران ذلك ، بصدد الفن مثلاً ، معناه المغالاة ، حتى الولودية ، في الخوف من التدنيس المادي . ولكن الارتباط ، على صعيد الديانة والادب ، لا يظهر بهذا الوضوح الملزم . لذلك فقد اكتفى الرومان ، دون ان ينتظروا الفتوحات الكبرى واستثمارها ، بروابط ابسط وايسر اقامة . منذ عهد باكر ، لعب الاتروسك دور الوسطاء مع الحضارة اليونانية ، بالاضافة الى اثرهم المباشر المعظم بفضل سيطرتهم . ناهيك عن ان الحضارة اليونانية لم تكن محصوره في الشرق المتوسطي . فمنذ القرن الثامن استوطن بعض الاغريق ايطاليا الجنوبية . وكانوا على صلة بكافة مناطق شبه الجزيرة . واقتبست عنهم روما الشيء الكثير حتى قبل ان تخضعهم . ومنذ ان بدأت تتدخل في اليونان البلقانية ، في اوائل القرن الثاني ، تكلم كثيرون من قادتها وساستها اللغة اليونانية بسهولة : منذ ذاك الوقت ، جبلت النخبة الاجتماعية بثقافة اجنبية كان من الطبيعي ، بعد تسربها ، ان يزداد انتشارها . لا بل كان من شأن تفوق الحضارة اليونانية وجاذبها ونفوذها ، لو استطاع العالم الهليني المحافظة على استقلاله ، ان يضمن هلينة روما ، ولو ببعض البطء . ولكن فتحه قد زاد ، بفضل الصلات المتعددة ونقل الرجال ورؤوس الاموال من الشرق اليوناني الى ايطاليا ، في سرعة تطور ترقى اصوله ونتائجه الاولى الى عهود قديمة جداً .

اجل « ان اليونان المحتلة قد احتلت قاهرها الفظ » . ولكن هوراتيوس ، حين أكد ذلك ، قد فكر بأدب معين ، وحتى بعروض معين . لذلك فلنحذرن الامثال السائرة : اذ ان هذا الجار الفظ لم ينتظر احتلال اليونان كي يلتمس دروسها .

١ – الديانة والحياة الدينية التقليديتان

تبدو سرعة هذا التطور بوضوح خاص في الحياة الدينية .

الديانة الاولى

لم يأل الاختصاصيون جهداً في البحث عن الديانة الرومانية الأولى وادراكها . وقد ساعدت مجهودهم هذا ، ولا تزال ، ظروف مؤاتية : معلومات علماء الاجتماع وأصول الشعوب عن الذهنية الاولى ، تقدم الألسنية ، اعتماد أساليب المقارنة ، اخيراً ،

وخصوصاً ، – اذ ان هذه الظروف ليست وقفاً على الدروس عن الديانة الرومانية – الوفرة ، اقله النسبية ، في المستندات الموجودة المدينة ، هي ايضاً ، للتعبير الاستثنائي الذي عرفته اسماء وطقوس يرفع التحليل ، بجلاء متفاوت، الستار عما يخبيها من معتقدات. ولذلك فقد ادى هذا المجهود الى نتائج اكثر اقناعاً ، بوضوحها ، من تلك التي ادت اليها حتى اليوم دراسة الديانة اليونانية مثلاً .

ليس في اي مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع ، المقارنة المؤثرة بين النزعات الدينية في شعوب العصور القديمة ونزعات شعوب اليوم المتخلفة. فعلى غرار هؤلاء ألّه الرومان الاولون القوة الحيوية والطاقة الخفية والقوة التي تتحكم بالعمل وتحققه ، سواء كان هـذا العمل بشرياً ام مستقلاً عن الانسان : والعامل ، يد او شيء جامد ، وهو غير منظور احياناً ، لا قدرة له بدون الارادة التي تستخدمه لعملها . فهذه الارادة اذن ، او ارادة غيرها تناهضها ، هي التي يتوجب على الانسان ان يحاول استمالتها حتى تنفعه اذا كانت متعطفة وحتى يبطل اذاهـا اذا كانت مضرة .

ان هذا الاعتقاد الذي استمر حياً ، يفسر ميلاً طبيعياً دفع الرومـان الى ان يكرموا ، كآلهة او عفاريت تدير هذه الأعمال ، اقل عمل ، لا بل اقل مرحلة من مراحله . وقـد اعترف الرومان بعدد لا يحصى من « القوى » او الارادات وخصوها بحركة احترام او تقدمة او صلاة قصيرة : فالطفل يرضع بفعل قوة من هذه القوى ويشرب ويأكل بفعل غيرها ، وتقوم « قوة » بالحراثة الاولى ، وغيرها بالحراثة الثانية والاسلاف وقلب الارض ونزع الأعشاب ، وتكون « قوة » عقّدَ جذع الحنطـة ، واخرى تعطي الحبة غلافها ، الخ . ان هذا الاستعداد العقلي ، الذي لم يتلاش في يوم من الأيام ، قد ادى بسرعـة الى تأليه مجردات هي خاصيات رمزية لبعض الآلهة ، ثم افضى ظهور الفلسفة الى اعتماد هذه الطريقة اعتماداً متزايداً : فكان لكونكورديا (اتفاق) معبدهـا منذ السنة ٣٦٧ ، ولليبرتاس « *Libertas* » (الحرية) ايضاً في السنة ٢٣٨ ، ولهونوس وفيرتوس (الشرف والفضيلة) في السنة ٢٣٣ ، الخ .

لم تمنع هذه النزعة المزدوجة الى تعميم ما هو الهي وتجزئته الى ما لا نهاية له من اعتبار بعض « القوى » اعظم شأناً من غيرهـا . ومن البديهي ان تسلسل مراتبهـا قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان . ويثير اكتشاف اسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض اخرى ، قد فعلت فعلهـا منذ عهد قديم جداً ، ولذلك فان الترتيب ، كما تجدر محاولته ، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكم .

ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن اقدم شعوب ايطاليا الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع « المتوسطيين » . ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبـادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسمـاء ، الى مبدأ الخصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكناً

لبعض مظاهر عبادة الاموات لا سيا وان ارتباطها بالعبادات الزراعيـــة ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، امر طبيعي جداً من جهة ثانية .

ويتمثل اسهام الهندواوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، إله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي اضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية « *Pater* » (الاب) . ومما لا ريب فيه ايضاً ان عبادات المنزل (فيستا) والعائلة تتصل بالمنشأ نفسه .

واخيراً فعلت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلا تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الآلهة شخصية مميزة . ولكن الاتفاق ابعد من ان يتحقق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها .

تعدد الآلهة

اضف الى ذلك ، ان هــذه التأثيرات الأخيرة ، مهما بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لامتناه في عـــدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان . فقد عرفوا أكثر من جوبتير واحـــد يُخص كل منهم بنعت عبادي يميزه ، وبمعبد او مذبح ايضاً . فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : إله المدينة الاعظم الذي اقام له الملوك الاتروسك معبداً على الكابيتول ، وإله اتحاد المدن اللاتينية ، لاتيـــار (*Latiar*) او لاتيال (*Latial*) الذي كان له معبده على الجبل الالبي ؛ وآلهة سماويون ، فكان هنالـــك جوبتير لوسيتيوس (*Lucétius* اللامع) واليسيوس (*Elicius* المطر) وفولغور (*Fulgur* الزوبعة) وسومانوس (*Summanus* البرق الليلي) وتونانس (*Tonans* الرعد) ؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبتير فيريتريوس (*Férétrius*) ، إله الشجرة التي تعلّق عليها غنائم العدو ، ولابيس (*Lapis*) ، الإله الذي تمثله صوانة ، ويغلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهـــة عسكريون ، فكان هنالك جوبتير بروبونياتور (*Propugnator* المدافع المحارب) ، وستاتور (*Stator* « موقف » الهاربين) ودبيولسور (*Dépulsor* « طارد » الأعداء) وفيكتور (*Victor* المنتصر) . وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة .

يبدو على بعض الوضوح ، من ثم ، ان مجهود التنظيم ، الذي لم يصبح قط قياسياً ، والذي لم يتجل إلا بالمماثلة ، قد حقق نتائج محدودة جداً . ويمكن القول نفسه عن مجهود التوضيح . فان الرومان بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهي في الطبيعة انتشاراً شاملاً ، يبدون وكأنهم قـــد رضوا ابداً عن مفاهيم متردّدة ومبهمة . فهم لم يهتموا إلا بقناعة قصوى مدهشة ، لإعطاء شخصية لآلهتهم وحتى للتثبت مـــن هوياتهم . فلا التشبيه ، ولا الميثولوجيا ، على ما تجيزه من فوارق ، شكلا بالنسبة لهم حاجات او قناعات حقيقيـــة ، حتى ولو تعلموا مبادئها على يد الاجانب . ودرجوا على ان يدخلوا على صلواتهم صيغاً متحذرة كهذه « ذكراً كنت ام أنثى » او « أياً كان الاسم الذي تؤثر اطلاقه عليك » . ومنعهم الاعتقاد نفسه من ابداء أي اعتراض مبدئي

على استقبال إله جديد : فقد كفام في السنة ٣٩٠ ان ينبىء صوت مجهول احد المواطنين ، ليلاً، بوصول الغالبين قريباً ، حتى يشيدوا ، دونما اعتبار آخر، منبحاً لأيوس لوكوانس او لوكوتيوس (*Aius Loquens ou Locutius*) (المتكلّم) . وهكذا ايضاً يمكن تفسير احدى خصائصهم الدينية البارزة ، أعني بها قابليتهم ، التي لا نظير لها في الشعوب القديمة ، حيال الآلهة الاجانب . فقد كانوا مستعدين لكل تقارب ، معتمدين دون صعوبة ما أسموه « بالتأويل الروماني » . أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه ، في الإله الاجنبي ، ولم يكونوا من جهة ثانية اقل استعداداً لتبني الإله الجديد باسمه الاجنبي دون ان يبحثوا في زونهم عن إله مماثل او إله يدخل هذا الإله الجديد في الزون (البانتيون) .

الانسان امام الآلهة

مهما يكن من ارتفاع عدد هذه القوى الخفية المبهمة ، وربما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في ارضائها جميعها ، فقد حدث للمؤمن ان خشيها : ولكنه كان من المستحيل عليه ان يحبها . وليس المقصود هنا بالشعور العاطفي : فكل شيء قد اقتصر على طقوس حدّدت تفاصيلها ووجب الخضوع لها .

لا ريب في ان هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل طابعاً سحرياً مكرماً القوة التي تقام الطقوس من اجلها . ولم يزل هذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات والجوء الاضطراري الى لباس التنكر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالقائد الظافر في موكب النصر ، لا تفسير آخر لها؛ واستمرت بعض الصلوات ايضاً بمثابة رقى حقيقية، ولم يتجاسروا في سواها ، إلا بكلّ عناية واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها . إلا ان هذه الطقوس ، حين نستطيع فهمها ، ترتبط في مجملها بالاصول القانونية التي تتفرع ، مع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر ايضاً . واننا لنجد احياناً مطابقة مدهشة بين ايماءات وصيغ مماثلة ، نقلت نقلاً احياناً من طقوس الى اخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة . « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الآلهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الامانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم . اضف الى ذلك ، في اغلب الاحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الاجل ، يعبر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب ممكن ، عما يلتمسه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتمسه .

اجل ليس هذا المفهوم خاصاً بالديانة الرومانية : فالانسان ، في ضعفه يستخدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شرّ القوى الفائقة الطبيعة . ولكنه لا يبرز ، في اية ديانة اخرى ، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول .

الديانة العائلية

كان هنالك تعبّد خاص . ومع ان الدولة لم تفرض اية عقيدة ، فقد كان لها الحق في مراقبته . ولكنها لم تستخدم هذا الحق الا عرضاً ، وفي عهد متأخر ، بغية منع العبادات التي اعتبرتها خطرة . ولذلك فقد ارتدى هذا التعبد اشكالاً مختلفة جداً . ونحن

نشاهده خصوصاً في مظاهر العبادة المنزلية لا لاننا نعرفها معرفة جيدة عند الرومان فحسب ، بل لانها عندهم اعظم شأناً منها عند اي شعب آخر .

فهل كانت علـّة ام معلولاً يا ترى ؟ وهل هي قاعدة تنظيم العائلة الرومانية الوطيد ام انعكاس وجودها السابق على الصعيد الديني ؟ لقد اخذ فوستيل دي كولانج ، بقوة منطقه المعروفة ، بالتفسير الاول جاعلاً من العائلة بعد ذلك الخلية الاولى التي كونت المدينة بانضمامها الى خلايا اخرى. ولكن اكثرية الناقدين الساحقة تميل منذ زمن بعيد نسبياً ، كما يبدو ، الى التفسير الثاني . ومهما يكن من الأمر ، فان هذه العبادة قد جاشت بحيوية ومقاومة اقوى منها في العبادات الرسمية .

استلزمت عبادة فيستا العائلية ، التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفىء ناره ، والذي تلقى فيه القرابين في ساعات معينة ، فيندلع منه اللهب الراقص ، ويقدم له رب العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته . واستلزمت ايضاً عبادة « جن » العائلة الذي غالباً ما تمثله حية مرسومة على الحائط قرب الموقد ، وهو روح الجدود والقوة الحيوية للذرية المتجسدة في رب العائلة ، بينما كان لربة العائلة إلهة حامية هي « جونون » . ولم تهمل العبادة شتى « قوى » المنزل وحياته ، ابتداء من آلهة البيت (*Pénates*) الذين اشتق اسمهم من كلمة *Penus* (المؤن) . وقد دخل عليها آلهة من الخارج لا سيما الـ « لار » (*Lares*) آلهة الاملاك : فمنذ اواخر القرن الثالث يتأيد وجود « لار » عائلي.

وما كانت الديانة المنزلية لتنسى الموتى . ولكن عبادتهم على ما يبدو ، كانت الجزء الاضعف فيها ، ما لم يشتركوا ، كجدود ادنين ، في عبادة جن العائلة ورئيسها . ولكنهم اعتبروا مستمرين في حياة غامضة ، دون ان يشعر ذووهم بحاجة الى توضيح اقامتهم تحت الارض . وكان من المهم ارضاؤهم بالقرابين ، وقد عنى اسم « مان *Mânes* » ، الذي ظهر في عهد متأخر نسبياً ، الموتى الذين امكن ارضاؤهم . اما اعمال الموتى الآخرين ، الـ «لارف» (*Larves*) والـ « ليمور » ، فقد جعلهم يعودون الى الأرض ، قلقين ومؤذين : حاولوا من ثم طردهم من المنزل باحتفالات خاصة . وهنالك اكثر من سبب يجعلنا نشك في ان كل ذلك كان رومانياً حقاً في الأصل . وانما تجدر الاشارة الى ان الذعر الذي استحوذ على الاتروسك لم يتسرب قط الى هذه العبادة .

ديانة فلاحين

لما كانت حياة الروماني القديم العادية حياة فلاح ، فقد رافق العبادة المنزلية بالضرورة عبادة لمنفعة الأملاك ، معدّة للمحافظة على المواشي والبذور والحصائد وازدهارها . ولدينا ، بهذا الصدد ، في بحث « كاتون » في فن الزراعة ، تفاصيل عديدة دقيقة عن الاعياد الواجب الاحتفال بها والذبائح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتها وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الأملاك . فكل عمل من اعمال الحياة الزراعية يجب ان يرافقه

عمل ديني يلتمس نجاحه او يحاول تهدئة غضب اله المكان ، قبل القطاف ، تقدمة نبيذ وامعاء خنزيرة لـ « سيريس » ، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يضاف الى كل منهما لـ « جانوس» وجوبتير ؛ وقبل تخفيف شجر الغابة او الشروع باحياء الارض ، تضحية خنزير ؛ الخ . وكان يتولى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد ، كرب العائلة للعبادة العائلية . ولكنه بذلك كان يسهم في الأزدهار الجماعي : فقد اقتنع « كاتون » بانه مواطن فاضل حين يقوم بواجبه كملاّك فاضل .

ومن جهة ثانية تسربت المشاغل الزراعية تسرباً عميقاً الى الديانة الرسمية ايضاً . اجل لم تأت أبعد الروزنامات قدماً ، التي نسب تحديدها الى الملك « نوما » (*Numa*) ، على ذكر جوبتير الكابيتولي ؛ ولكن العدد الاكبر من الاعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها قد مثلت ، بمواعيدها ، وطقوسها حين يمكننا تفسيرها ، وبالآلهة موضوع العبادة ، أعياداً من الحياة الريفية . وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القدم او اشتركوا فيها بمداورة ما . فكان هنالك « جوبتير ليبر » (*Jupiter Liber*) إله الكرمة وأعياد النبيذ الجديد . وقد كان « نبتون » (*Neptune*) إله الينابيع قبل ان يغدو إله البحر . واشتق اسم « ساتورن » *Saturne* من كلمة *Sata* التي تعني « الاراضي المزروعة » . وان « مارس » *Mars* نفسه ، الذي اعتبر في النهاية إلهاً الجيش والحرب ، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأناً كحام للعمل الزراعي ومحاصيله : فهو من أقيمت لأجله احتفالات « التطهير » بتطواف دائري تعقبه ذبيحة كبرى ، وصفها « كاتون » كما وصف الصلاة ايضاً ، مورداً كلماتها الكثيرة التدقيق «ان تمنع وتطرد وتبعد الامراض المنظورة وغير المنظورة والجدب والتخريب والكوارث وآفات الفلك ... » .

الديانة الرومانية القديمة هي قبل كل شيء آخر ديانة ارباب العائلات والفلاحين : ويجب ان نفكر هنا بما كانت عليه ، زمناً مديداً ، حياة الطبقة الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً في روما حيث اتاح التملك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها. وليس عرضاً انها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيين : فليس من التحكم ان نكتشف فيها ، مع اعترافنا بأن هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصة من القوّة ، الحرص على المصالح وتفهم الواقع ، وكلاهما محتومان ، او أقله أكثر طبيعية من الظواهر الصوفية الحارة ، في ملاكين ورؤوساء كتل عائلية يتحملون اعباء المسؤولية . فكان من المتوجب ان تتبدل أمور كثيرة كي تتبدل نفس البشر وتتبدل معها ديانتهم ؛ ولكن هذه الديانة ، بفعل القوة التي يوليها التقليد ، قد قاومت التبدل مقاومة عنيفة .

الكهنوت

تبنت المدينة بين الآلهة الكثيرين عدداً كبيراً ، ولم تكف عن تبني آلهة جدد ، دون ان ترضى ، في أي حال ، بالتخلي عن إله قديم واحد . وسيتباهى اوغوسطس بأنه أعاد بناء ٨٢ معبداً في روما : فاذا ما فكرنا بالمعابد السليمة والمذابح البسيطة جاز لنا ان

تتخيل عدداً مرتفعاً جداً . وقد اقتضى لهذه العبادات الرسمية من يؤمنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة . فعاد نصيب كبير من هذا العبء ، كما في المدن اليونانية ، الى القضاة الذين هم الوارثون الرئيسيون للسلطات الدينية التي تمتعت بها الملكية القديمة ، لا سيما حق استطلاع الحظ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهد بالنذور التي تقيده . ولكن بينما كان لدى الاغريق كهنة داغمون قليلون ، كان لروما عدد كبير منهم .

ان كلمة « *Sacerdoce* » تنطوي على واقع من الصعب جداً تحديده بسبب فقدان كل صفة مشتركة حقيقية . لا بل ان التحديد السلبي نفسه يجب ان يفسح مكاناً للاستثناءات . واذا ما نحن أهملنا اقل هذه الاستثناءات خطورة، يكفي ان نقول ان أعضاءه لم يؤلفوا اكليروساً او هيئة كهنوتية . فجماعاتهم قد بقيت مستقلة بعضها عن البعض. وكانوا جميعهم مكرسين ترافقهم صفتهم الكهنوتية حتى الموت . ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية دون ايقاف نشاطهم السياسي الذي قد يرغمهم ، مثلاً ، على التغيب عن روما وتولي قيادة احد الجيوش . إلا ان وظائفهم لم تكن شاغلة ، ولم تجعل منهم وسطاء بين المدينة والآلهة. فقد قاموا خصوصاً بدور القيّمين والمستشارين الدينيين لدى السلطات العامة. بيد انه يجدر القول مرة ثانية هنا ان أياً من هذه التأكيدات لا ينطبق تماماً على كافة الأعضاء . فقد مثل الكهنوت الروماني سلسلة من المؤسسات المتلاصقة التي ظهرت في تواريخ مختلفة واستجابت لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها . لا بل لا يجوز القول ان الكهنوت بجميع فئاته قد خضع لتطور عام: فكان للتطور سرعته الخاصة في كل من الفئات التي تناولها ، وقد تملّص بعضها منه .

فبالنظر الى مثل هذا التنوع في الفئات الكهنوتية والى عددها الكبير ، نرانا عاجزين عن استعراضها استعراضاً كاملاً ، لذلك نكتفي ببعض الأمثلة .

كان هنالك كهنوت فردي . حافظ « ملك الذبائح » (*Rex Sacrorum*) على الصلاحيات الدينية التي لم تنتقل الى القضاة . وأشرف على الذبائح والولائم المقدسة والاعياد : وليس هذا سوى دور تمثيل . وكان هنالك ١٥ كاهناً خاصاً افرد كل منهم لإله معين ؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهاً عظيماً ، جوبتير ، ومارس ، وكويرينوس (*Quirinus*) . واحيط دياليس (*Dialis*) ، كاهن جوبتير ، بأمجاد عظيمة ، ولكنه اخضع ، كما أخضعت امرأته « الكاهنة » لمراسم عبادية ملزمة جداً ولألف تقييد ، كلها قديمة المنشأ وغالباً ما يخيم الغموض على تفسيرها . فيجب ألا يلبس الجلباب ويشذّب الكرمة ويستهلك شراباً او طحيناً مختمراً ويرتدي ملابس كتانية او غيرها مما يقتضي عقدة او حلقة ، ويلمس او يمتطي الحصان ويرى سلاحاً او يشاهد ميتاً ، الخ . وتفسر شدة هذه المحرمات ، دون جهد ، كيف ان هذه الوظيفة ، في اواخر العهد الجمهوري ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة ارباع القرن بسبب عدم تقدم مرشح اليها بين الأشراف الذين استبقيت لهم .

ومع ان الفيستاليات (*Vestales*) قــد انتظمن في هيئة ، فانهن قمن ايضاً بدور نشيط كـكاهنات . كن ثلاثاً في البدء ثم غدون ستاً ترئسهن احداهن ، « الفستالية العظمى » ، وكانت مهمتهن الرئيسية الانتباه الى العناية بالنار المقدسة ، رمز حياة المدينة ، التي يجب ان تشتعل باستمرار في معبد « فيستا » . وكن يلتخبن صغيرات من العائلات الكبرى ، ويقمن في المعبد الذي يجب ألا يلجه أي رجل . وكن يؤدين ، من جهة ثانية ، نذر عفاف تعرضهن مخالفته لأن تدفن حيّات في حال ان عقوبة السوط تكفي لمن تكلف منهن العناية بالنار فتتركها تخبو . ولكنهن ، في سن الثلاثين يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج .

اما اعضاء بعض الاخويات ، كاللوبيرك (*Luperques*) والساليين (*Saliens*) والأرفال (*Arvales*) ، الخ ، فقد احتفلوا باعياد طقوسها قديمة جداً تستلزم التطوافات وسباقــات العــدو والرقصات والأغاني . ولكن احتفالاتهم ، في الحقيقة ، ترتبط بالعبادة العادية . وعلى نقيض ذلك فان هيئة العشرين قاضياً وكاهناً تكتفي بايفاد بعض اعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب « عادلة وتقوية » بدونها ، اي معلنة وفاقاً لقواعد القانون الانساني والديني ، ولا معاهدة مقبولة شرعاً : فلاعلان الحرب يلقي احدهم بقوة نبلة لا رأس لها في ارض العدو بينا يحمل آخر اعشاباً مقدسة مجموعة من الكابيتول يسلمه اياها احد القضاة .

ولا تتعدى الطقوس الظرفية ايضاً تلك التي يقوم بها ، بفعل دعوة إلهية ، الاحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة او خمسة اعضاء اولاً ، ثم من تسعة ابتداء من القرن الثالث ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، يرئسهم « الحبر الأعظم » (*Pontifex maximus*) . انطلق هؤلاء من وظــائف وضيعة واعترف التاريخ القديم كله بان اسمهم عنى « صانعي الجسور » ، ويبدو هــذا المعنى الاشتقاقي واجباً على الرغم من تردد بعض المعاصرين . فقد اسندت اليهم ابداً مهمة العناية بجسر « سوبيسيوس » ، الوحيد والمهم جداً ، الذي وصل ضفتي نهر التيبر ، ويغلب انه بني من الخشب فقط دون اية قطعــة معدنية . ولكن تطوراً لجهله جعلهم يسمون الى مصف حراس التقليد ، ومفسري الأنظمة ، وقضاة القانون الديني ومنظمي ومراقبي التعبد الرسمي . وبصورة خاصة راقب رئيسهم الفيستاليات ؛ وكانت مراسم الهيئة حول الاخطــاء الشكلية ملزمــة للقضاة والكهنة الآخرين . فمن الطبيعي اذن ان يتمسك اوغوسطس وجميع خلفائه بحمل لقب « الحبر الأعظم » . واذا مــا اقصرنا الكلام على العهد الجمهوري ، نرى ان تقدم سلطة الاحبــار على حيــاة روما الدينية قد ادخل النظام اليها ، ولكنه اسهم ايضاً في إحاطتها بالحظر والتمسك المفرط بالشكليات .

وكانت مهمة هيئة العرافين المؤلفــة من ثلاثة ، ثم من تسعة ، ثم من خمسة عشر ، تطبيق تقاليد العلم التفاؤلي ، لا سيا بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محددة في الفلك وبواسطة القضيب المنحني الذي امسى الشارة الرمزية للعرافين : ومن حيث انهم يعرفون مــا اذا كانت

استعدادات الالهـة موافقة ام غير موافقة ، فان آراءهم يجب ان تتقدم كافة افعـال الحياة العامة .

وانيطت العرافة ، عن طريق استقراء امعـاء الضحايا ، ولا سيما كبدها ، باختصاصيين اطلق عليهم اسم *Haruspices* ينتمون باغلبيتهم الى اتروريا بسبب ما اشتهر عن الاتروسك من اتقان هذا العلم والاحتفاظ به .

احل التقليد في عهد الملوك الاتروسك إتباع مجموعة من الأوامر الطقسية وهتافات الغيب صادرة عن عرافة كوم *Cumes* في كمبانيا ، اي في منطقة يونانية . وبغية المحافظة على « كتب العرافة » هذه ، واستشارتها – حين تبرز الحاجة الى ذلك لمجلس الشيوخ – وتفسيرها ، نظمت هيئة من عضوين ، ثم من عشرة في القرن الرابع ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، كان يشار اليهم بهذا التعبير « القائمون بالذبائح » مـع ذكر عددهم . فهم يكلفون ترؤس الاحتفالات التي يستصدورن امراً بها بعد استشارة الكتب . وان سلطة هذه الكتب اعطت الهيئة دوراً فعالاً جداً في ادخال العبادات والطقوس الهلينية الى روما .

كهنوت الدولة

لا نذهبن الى ابعد من ذلك في استعراض الكهنوت الروماني . فهو كاف لتبيان عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والأهمية والمرتبة اللتين احتلهما بعضهم في تنظيم المدينة . كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية . ولكن معرفتنا بها في روما، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت مما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية او الايطالية . اما ما يلفت النظر، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بان تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الواقعان احدهما الآخر ؛ على كل حال ، فقد كان لها خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جـاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جداً ان يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأمجاد، اهميـة استثنائية لنجاح ترشيحه لقب « الحبر الأعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الاولى . ولكن شيبيون الافريقي كان « سالياً » ، الشيء الذي اوجب عليـه ، في زمن العيد ، ان يبقى شهراً واحداً دون تنقل من مكان الى آخر ، وهو واجب مزعج حقاً لقائد من القواد . وقد تباهى شيشرون بلقب العرافة . وفي العهد الذهبي للنظام المجلسي ، سعى النبـلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحـدة حين استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وكانت هذه المهام ، شأن مناصب القضاء ، « امجاداً » تذكر بعنـاية في الكتابات المدفنية التأبينية ، التي تنوه بمراحل تألب الراحلين منهم في المناصب . وكان اغلبها في البداية ، شأن مناصب القضاء ايضاً ، وقفاً على الاشراف ، وقد احرزت عامة الشعب نصراً ، في السنة ٣٠٠ ، حين فتحت لها ابواب الهيئات برفع عدد اعضائها الى تسعة ، على ان ينتمي خمسة منهم

الى هذه الطبقة . وهدفت الحركة الشعبية بالاضافة الى ذلك ، اقله فيما يتعلق بالهيئة الحبرية ، الى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسهـا : لقد فرضت ، في اواخر القرن الثاني ، ان يتولى المواطنون انتخاب سبعة عشر قبيلة ، بالقرعة ، بين القبـائل الخمس والثلاثين الراهنة ، واذا ما الغي سيلا هذا الاصلاح ، فان اعادته في السنة ٦٣ قد جاءت في الوقت المناسب للسمح بانتخاب قيصر حبراً اعظم .

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية . فالحيـاة السياسية والحياة الدينية فيها قـد ألفتا كلا واحداً يقوم به الرجال انفسهم . حمل رب العائلة مسؤولية العبادة المنزلية . وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بخبرة دينية وخبرة سياسية ، كما توجب على علمه القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس . وقد لفت شيشرون النظر الى ذلك بحق : « ان الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن ادارة شؤون الدولة مكلفون الاهتمام بالديانة ، كما ان اوسع مفسري الديانة علماً مكلفون المحافظة على الدولة » . وقد عم الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمتها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون ان يتخطاه .

العبادة العامة

المثل الأعلى هو التوازن ، او ما دعي « بالصلح مع الآلهة » .

فاذا ما حدث ان اختل ، بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بهـا احد ، فان الآلهة يظهرون استياءهم الحق « بالمعجزات » . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاول الذي لم يتبدل قبل اواخر الألف الثالث ، على أية دلالة طبيعية على المستقبل؛ وليس من مفسر يستطيع ان يقرأ فيها مستقبلاً لا تتنبىء به . فلا معجزة مفيدة اذن . بل كلها ، الصاعقة ، والفيضان ، ومطر الحجارة ، . رولادة المسخ الغريب الخلقة ، وعرق او حركة التمثال في المعبد ، وصعود الثور الى السطح ، الخ . تشير ، بانقطاع مجرى الامور الطبيعي ، الى الغضب الإلهي . فيتقدم بها احد القضاة تقريراً الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ القررات او يشك في علمه فيلجأ الى الاحبار او الهيئة الموكول اليها امر استشارة كتب العرافة او مستطلعي امعاء الضحايا ، وينتظر اجوبتهم التداول فيها . وهكذا تصدر الاوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل « علاج » المعجزات وتعيد الصلح .

كان من الافضل ، في سبيل تجنب فترات تأزم غـير مفض ، اذ ان كل شيء يتم وفاقاً لاجراءات حازمة مدهشة، بل مستكره، الانتباه بعناية ودون ملل الى تأدية كافة واجبـات الجماعة نحو الآلهة . فانصرفت السلطات الى ذلـك . وكان لكل معبد عام نظامه الذي حدده العرف القدماء و « قانون » حقيقي الجدد، وفصل الاحبار في صعوبات التفسير . فكانت النتيجة طقوساً لا يحصى لها عد ، تخلو منذ زمن بعيد عن فهمها، كما ان العلماء المعاصرين ابعد من ان يفهموها فهماً افضل .

فهنالك في الدرجة الاولى ، الذبيحة ، أي تقدمة الغذاء للإله . ليس من ريب في ان الذبيحة البشرية قد اعتمدت في العصور القديمة . وقد عادت الى الظهور بين الحين والآخر . ففي السنة ٢١٦ ، تحت تأثير القلق الذي أثارته كارثة « كانا » وبعد استشارة كتب العرافة ، دفن زوجان، يونانيان وغاليان ، لا يزالان على قيد الحياة ، واذا ما أكد « تيت ليف » *Tite - Live* ، بهذا الصدد، ان الطقس « ليس رومانياً على الاطلاق » فقد يقصد بملاحظته احدى طرائق الاحتفال فقط. بيد ان هذه الضحايا البشرية ليست دموية . فقد اكتفي على العموم ، بظواهر خداعة كالاشخاص الخشبية السبعة والعشرين التي ألقي بها في نهر التيبر أثناء عيد الارجيه (*Argées*) . ولم يذبح سوى الحيوانات المختارة . فلكل إله تفضيلاته ولكل احتفال تقاليده فيما يعود النوع والجنس والسن – حيوان لا يزال رضيعاً ، او نبتت اسنانه العليا والسفلى ، او بلغ أشدّه – واللون وانعطاف الجزة : ففي احتفال التطهير العام الذي جرى في ظروف مختلفة ، فرض « مارس » ذبيحة قوامها خنزير ونعجة وثور . ولم تقدم الدولة ، شأن الافراد ، على الاستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشمع . ولكن ضحاياها رافقها قرابين أخرى ايضاً ، زهور وسنابل وطحين وحلويات وحليب وعسل ونبيذ الخ . وليس لكل ذلك من قيمة ، على كل حال ، إلا اذا لم يبد الإله استعدادات مضادة بإشارات غير موافقة ، كتلك التي يستطيع الاختصاصيون إبصارها جلياً بفحص امعاء الضحايا . ومن المهم جداً ، فوق كل ذلك ، ألا يرتكب أي خطأ او اهمال في القيام ببعض الايماءات واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والنذور : بينما يتوجب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق . ومن شأن اقل اخلال بأحد هذه الشروط ان يجر الى بطلان العمل وايجاب إعادته .

وهنالك الأعياد ، الثابتة او المتنقلة ، التي يعود أمر تحديدها للأحبار . فقد ورد ذكر خمسة واربعين عيداً في الروزنامات الكتابية التي وصلت الينا ، ولا تحجم الدولة عن التدخل ، مكتفية بنشاط الأفراد ، الا في عدد ضئيل منها . وقد تنوعت الطقوس بصدد الاعياد بنوع خاص مضاعفة المراسم المختلفة المنشأ والدقيقة التفسير . فلنأخذ مثلاً ، بين امثلة اخرى كثيرة ليست دونه غنى بالالغاز والاحاجي ، طقوس « حصان تشرين الأول » في عيد « الاكويريا » التي يحتفل بها في الخامس عشر من هذا الشهر : اكراماً لمارس . يقلد جيد الحصان الأيمن في العربة محرزة السبق عقداً من خبز ، يذبح كاهن مارس الخاص الحيوان الذي يتنازع رأسه سكان محلتين بغية اثباته في هذا البناء او ذاك ، يحمل العداؤون الذنب الى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق الموقد حتى يتساقط دمه عليه . تحتفظ الفيستاليات بما تبقى من الدم مع رماد الحلان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر ، مع العلم ان هذا الرماد نفسه يستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث . ولن يعجب احد من التردد والاقرار بالجهل حين يتوجب تفسير طقوس على مثل هذا التعقيد .

الفت الألعاب المشهد الرئيسي ، والوحيد احياناً ، في الأعياد التي تجري هي فيها . ويثير

كل منها مسائل شائكة جداً في اغلب الأحيان : تاريخ ظهورها كالعاب غير اعتيـادية ، ثم تقريرها كالعاب عـادية ؛ طقوسها الأولى وتطورها ، ملشأ ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس . فبدون ان نتعرض لهـذه المشادات يكفينا اقصار الكلام على مـا هو اكثر بساطة وأقرب الى المعقول . ان التقليد ، الذي يُحل في العهد الملكي تأسيس ابعد الألعاب قدمـاً ، « الالعاب الرومانية » ، اكراماً لجوبتير الكابيتولي ، التي بقيت ابداً « الألعاب العظيمة » وحتى « العظمى » ، والتي شيد من اجلها « الملعب المستدير الاعظم » ، نصيباً كبيراً جداً من الصحة . فقد استلزمت منذ البدء تطوافا ورقصات ايمائية واستعراضات وحركات جماعية وتمـارين . ثم اضيفت الى برنامجها السباقات ، والمصارعـات ، وفي النصف الاول من القرن الرابع ، عرض ممثلين عرفوا باسم « هيستريون » ، وهو اسم اتروسكي ، و « لوديون » ؛ ومنذ عهد باكر نسبياً ، ووفاقاً لعادة تمشت عليها شعوب ايطالية اخرى ، تركت حدة ذهن الممثلين الشعبيين المرتجلين لنفسها العنان ، بهذه المناسبة ، في انواع التمثيليات المضحكة . فاعدّ بذلك ادخال التمثيليات المسرحية على الطراز اليوناني ، في عهد لاحق . منذ القرن الثالث فعل التأثير الهليني فعله دون وسطاء : فله يعود الفضل في الملاكمات والجوقات المنظمة والمهـازل والمآسي . وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض العادات الاتروسكية سائرة . ومن هذه العادات ، على الرغم من اقتباس اسمها عن اليونانية ، عادة « البامبا » او التطواف الذي تفتتح به الألعاب الرومانيـة حتى في اواخر العهد الجمهوري والذي يقفو اثر موكب الظافر حتى في لباس القاضي الذي يرئسه . ومنها ايضاً عادة مدعوة لانتشار غريب ، هي معارك المسايفين التي ضمت الى الألعـاب العامة في اواخر الألف الثاني دون ان تدخل على برنامجها بالذات .

فقدت الالعاب اخيراً طابعها الديني : وكانت قد فقدته في اليونان ايضاً الى حدّ بعيد . فنظر اليها الحاضرون نظرتهم الى مجرد مشاهد . وان في الهوى الذي أثارته لدى الجماهير تعليلاً لمضاعفاتها السياسية التي سبقت الاشارة اليها ولتطويل مدة كل منها ولتزايدها ، فقد استغرقت الألعاب الرومانية خمسة عشر يوماً في عهـد قيصر . وظهرت « الالعاب الشعبية » بعدها بأمد قصير ، وأضيفت اليها بعد ذلـك إكراماً لابولون وسيريس والام الكبرى (*Grande Mère*) وفلورا (*Flora*) . وفي اواخر العهد الجمهووي غطّت الالعاب العادية خمسة وستين يوماً مـن ايام السنة . وأكملتها ألعاب ظرفية بعضها عام « ينذَر » خلال الحروب والبعض الآخر خاص كالألعاب « المأتمية » اكراماً للموتى . اما الالعاب « القرنية » المعدّة لافتتاح قرن جديد – ولكن طرائق الحساب عديدة – فلم تبلغ بعـد الشأن والروعة اللذين سيعطيها اياهما اوغسطس .

تلك هي الطقوس العبادية الرئيسية في الجمهورية الرومانية . اجل لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها : ولكن هذا البحث ، تجنباً للاطالة ، لا يستطيـع ان يتناول بالوصف ، على الرغم

من طرائقها ، لا « الالتماسات » التي يزور المؤمنون أثناءها المعابد طيلة ايام عدة بغية استنزال انعامات الآلهة على المدينة او بغية تأدية الشكر لهم ؛ ولا « المآدب » المقدمة لإله أو عدة آلهة التي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون العاديون ايضاً ؛ ولا المآدب المقدمة للآلهة الغرباء حيث توضع رسوم الآلهة وفاقاً للجنس ، على غرار الآدميين ، على أسرّة او على كراس ؛ ولا « الوسادات » التي توزع هذه الرسوم عليها بغية السماح لها بمشاهدة الالعاب او السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها ؛ الخ .

العبادة والدولة

مها يكن من الامر ، فقد قيل ما فيه الكفاف للاعتراف بأن المشاغل الدينية تعتبر بين المشاغل الرئيسية في الدولة الرومانية . وهي لا تنفصل عن المشاغل الاخرى ، بـل ترافقها ابداً وتشترك معها اشتراكاً حميماً. وهي نتيجة وجود روما، والواجب الاول الذي يفرضه هذا الوجود عليها ، وشرط مستقبلها .

اجل ليست الفكرة جديدة في التاريخ القديم . لا بـل نحن نرجح ، اذا ما اقتصرنا على الحالات المميزة ، ان مصر وبلاد ما بين النهرين قد خصتا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة . ولكن يجب ألا نقارن إلا ما يمكن مقارنته ، سواء في شكل الدولة او ذهنية الرجال الذين تضمهم : ففي كل مكان وزمان ، حرصت الملكية على الابقاء على الانظمة الدينية التي اعتبرتها بمثابـــة سور من أعز اسوارها ، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكاراً من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناداته بالحرية المدنية والدينية وبمعاداته للاكليروس . فلا يبرز تميز روما من ثم إلا بمقارنتها بالمدن اليونانية بنوع خاص . الفرق بينهما ، في الحقيقة ، فرق في الدرجة لا في الجوهر : فان ما يستمر هنا خاضعاً لتسوية معتدلة ، ينمو هناك نمواً عظيماً جداً . ولكن هناك أكثر من ذلـك ، اعني الفرق في التفكير ، اذ لا نصادف إلا في روما ذاك الحرص القانوني وذاك التمسك بالشكليات اللذين سيطرا على تفسير الفرائض العبادية ولم يحد عنها المسؤولون . كان الروماني رجل واجب ، ولعله كان بنتيجة ذلك رجل حق ايضاً .

٢ ـ المستحدثات

الروابط الدينية بالحضارة اليونانية

كان الاغريقي اوسع مرونة وأعمق تميزاً . وهو لم يدن بهذا العمق وهـــذا الاتساع الى سرعة تطوره فقط . وليس من ريب في ان لنجابته الخاصة نصيباً كبيراً في ذلك ، اذ ان سرعة هذا التطور ليست نتيجة المصادفة . فهو قد كان شاعراً وفناناً قادراً على تخيل الاساطير والاشكال العارمة بالسحر والظرف والحياة. وكان عالماً وفيلسوفاً يميل بالسليقة الى ان يذهب الى ابعد حد بتفكيره حول الكون والطبيعة ونفسه بالذات . وقـــد تجاذبته نزعة عقلية تقوده الى أعظم الانكارات جسارة ونزعة صوفية غذاها ابداً اتصاله القديم المستمر بالشرق ونفخ فيها التعايش الذي اوجده فتح الاسكندر قوة

عجيبة نادرة . اما روما ، فقد استطاعت ، بفضل ثروتها ، ان تضفي على الاحتفال بعباداتها فخفخة ما كان العالم اليوناني ليستطيع مضاهاتها . ولكن العالم اليوناني قد برهن عن تفوق واضح في كل ما لم يكن ثروة مادية، أي في الفكر والعاطفة الدينية والذوق في مظاهره الخارجية .

كان من الممكن ان يبدي الرومان ، بفعل تعلقهم بتقاليد ملزمة محددة ، مقاومتهم لكل جديد . ولكننا رأينا ، في ما سبق بيانه ، ان مفهومهم الواسع للالهيات لم يكن ليقبل بهذا التعصب . ولعلهم شعروا ايضاً ، شأن آدميين كثيرين ، بحاجة الى شيء آخر هو القناعة العاطفية والفكرية والجمالية التي لم توفرها لهم عباداتهم الخاصة . ولم يبلغ بهم الامر ، في عهد الجمهورية، ان يسمحوا بتفتح التقوى الفردية في صوفية حارة متحررة من شتى ضروب الضغط. فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة . بيد انها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون ان تعي انهـا بذلك تفتح ، للمستقبل ، ابواب المدينة لحصان طروادة .

والدليل على انها قامت بذلك دون جزع وتردد ان الاقتباسات الاولى قد حصلت في عهد ميكر جداً . لم يتم ذلك باتصال مباشر باليونان نفسها ، او اقله لا يمكننا إثبات ذلك على ذمة روايات يشك في صحتها ، بـل عن طريق الاتروسك والشعوب الايطالية حيث تركت الحضارة اليونانية اثراً عميقاً لا سيا في الاتروسك . اضف الى ذلك ان هذا الاثر قد صادف ، في روما ، ارضاً خصبة متمثلة بالجاعات الهندو اوروبية المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينية . واقتصرت السيطرة على كمبانيا في القرن الرابع وعلى كافة أنحاء ايطاليا الجنوبية في القرن الثالث على تسهيل استمرار تسرب – تعود بدايته الى ما قبل التاريخ – سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه ، حين وعت قوتها ، ان تحاول ، بدافع الكبرياء ، – ولكنها لم تحاول – مقاومة تقليد المغلوبين .

الاقتباسات القديمة

يجدر بنا ان نعطي فكرة عن اهمية الاقتباسات القديمة ، دون حاجـة منا الى تعدادها وخصوصاً الى توقيتها والبحث عن طرق حصولها .

منذ العهد القديم جاء روما من اليونان آلهة يغرينا ان ننعتهم « بالجاهزين » سواء حافظوا على اسمائهم اليونانية ام لا : ابولون الذي كان موضوع اكرام عظيم لا سيا في مدينة فييس القريبة ؛ سيريس، التي ليست سوى ديميتر (*Demeter*) ؛ مركور الذي هو هرميس ***Hermès*** نفسه ؛ كاستور وبولوكس ، الخ . ومنذ هذا العهد ايضاً مثلت ببعض الآلهة اليونانيين آلهـة ايطاليين تبنتهم او « قوى» جسدتها ، ولم يحصل هذا التمثيل قط دون تنقيح منقول عن النماذج اليونانية : فاقتربت ديانا من ارتيميس، وجونون من هيرا الخ . فغدا من ثم الزون الروماني ، في جوهره ، تابعاً من توابع الزون اليوناني ، ان لم يكن نسخة وفق الأصل عنه . امـا الميثولوجيا فقد اقتصرت ، منذ ان وجد ادب روماني ، على نقل او تقليد الميثولوجيا اليونانية .

وتبنت روما بعض الطقوس ايضاً . وقد سبقت الاشارة الى مـدى التحويل الذي طرأ على

برنامج الألعاب القومية الكبرى ، بحيث استلزم هـذا البرنامج تمثيليات مسرحية على الطريقة اليونانية . واذا صعب علينا تحديد زمن دخول المآدب المقدمة للآلهة الغرباء ، مع ما تتطلبه من أسرة ووسادات ، فليس من ريب في انهـا مقتبسة عن الطقوس اليونانية . ويبرز الاثر نفسه بوضوح في ممارسة العرافة . فلم تتح الطرائق الرومانية سوى معرفة ما اذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية ام غير مؤاتية . ولذلك فقد لجأوا ، بغية التزود بالنصائح ، الى هاتفي الغيب من الاغريق . وقد جاء في التقليد ان آخر الملوك تاركوينوس قد اوفد من يطرح الاسئلة على ابولون في « دلفي » . وكي لا يقطعوا هذه المسافة الطويلة اكتفوا على العموم باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من « العرافة » (*Sibylle*)، نبية ابولون في كوم . فلا عجب من ثم اذا ما ادت هذه الاستشارة اكثر من مرة الى تبني عبادات وطقوس يونانية . ولنأخذ مثلاً عبادة الاله الشافي اسكلابيوس : ففي اوائل القرن الثالث ، وبمناسبة انتشار احد الاوبئة ، ارسلوا الى بلاد ارغوس من يطلب اسكلابيوس في ابيذوروس (*Epidaure*) مركز عبادته الرئيسية ؛ نزلت الحية التي تمثل « قوته » الى اليابسة في الجزيرة التيبيرية حيث شيّد معبده ؛ تولى الإله المعالجة فيه ، كما في المعابد اليونانية ، بأن أرسل الى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه ، أحلاماً فسّرها الكهنة واعطوا « الوصفات » اللازمة . ثم أخذت « المعجزات » تدريجياً ايضاً ، كما حدث في اليونان ، تعتبر دلالات على المستقبل ، لا دلالات غير مؤاتية فحسب .

ازمة الحرب البونيقية الثانية

قد تجيز بعض العلائم الاعتقاد بأن الجماهير قد برهنت ، في هذه الحقبة القديمة ، انها اكثر قابلية لمثل هذه الأشياء الجديدة من مجموع المسؤولين . بيد ان هؤلاء ايضاً قد اضطروا الى تغيير موقفهم . وقد اضطروا الى ذلك خلال الحرب البونيقية الثانية بنوع خاص، حين هزت مداهمة الخطر الضمير الديني في روما كلها حتى أعماقه . وقد وصف كافة المؤرخين القدماء الدّوار الجنوني الذي استحوذ في بعض الفترات على النفوس . فكتب تيت ـ ليف ، بصدد السنة ٢١٣ : « خيّل ان تغييراً مفاجئاً أصاب البشر أو الآلهة . فلم تلغ الطقوس الرومانية خفية فحسب ، أي بين جدران المنازل ، بل ان جمهوراً من النساء لم يتقيدن ، حتى في الخارج ، في الفوروم وعلى الكابيتول ، في ما يعود للذبائح والصلوات الى الآلهة ، بالعرف الموروث عن الجدود » . اتخذ المجلس بعض التدابير آنذاك ، فأمر بتسليم كافة « مجموعـات النبوءات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبائح » ، وحظر « تقديم الذبيحة في مكان عام أو مكرس ، وفاقـاً لطقس جديد أو غريب » . لكن هذه الابتغاءات التأثيرية قد بلغت من القوة حداً لم يعد من مورد للحاكمين إلا محاولة تقنينهـا : ولم يهتموا ، كما سنرى ذلك ، لاتلاف الأوراق التي سلّمت اليهم دون ان يطلعوا عليها .

يبدو كوينتوس فابيوس مكسيموس (*Quintus Fabius Maximus*) ، في مرحلة الهزائم الأولى الكبرى ، وكأنه تجسيد التقوى الطقسية . وفي الحقيقة نمت هذه التقوى ، بفعـل حثّه

المنظم ، مع ما تستلزمه من شدّة : فبسب إخلال بنذر العفاف دفنت احدى الفيستاليات حيّة وانتحرت أخرى ، بينا مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالها الحبر الأعظم بنفسه . ولكن هـــذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانية بالذات ، لا بل ان صلات « المتمهل » (*Temporisateur*) ببلاد الاتروسك ، قد فتحت أمامه آفاقاً أوسع . فهو الذي كرّس « الجبـــل اريكس (*Eryx*) » الذي كان فيا مضى حصن السيطرة البونيقية في غربي صقليا ، معبداً لفينوس الاريكسية (*Vénus Erycie*) : فكانت هذه الإلهـــة المتعددة العنصريات ، وهي صقلية متأثرة الى حـد بعيد بمشارت الفينيقية وافروديت اليونانية ، الإلهة الاولى التي قام معبدها داخل النطاق الروماني . وفي السنة ٢١٦ أوفد أحد اعضاء طائفتهـا ، المؤرخ فابيوس بيكتور ، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي ، ولم يهمل شيء ممـــا أوصى به هذا الهاتف . وقد حظيت عبادة أبولون العراف آنذاك بنفوذ كبير . فأرسلت بانتظـام الى دلفي قرابين من أصل الغنائم المجموعة من العدو . وفي السنة ٢١٢ ، وبموجب نبوءة اكتشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيدتها استشارة كتب العرافة ، نظمت إكراماً للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبية وما لبثت ان اصبحت سنوية : ومنذ البداية اعتمد الطقس اليوناني بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها .

كانت اليونان متصلة بآسيا الصغرى ، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة « اينه » (*Enée*) التي تربط روما بطروادة ، صفة رسمية . وهكذا ، في اواخر الحرب ، وبغيـة استمالة طالع جديد اليهـا ، قبيل حملة شيبيون على افريقيا ، قرّ الرأي على الاقتبـاس عن عالم غير العالم اليوناني . وقد جاءت فكرة هـــذا المسعى عن كتب العرافة ايضاً التي اضاف اليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عملية . وفي السنة ٢١٤ اخيراً، عاد وفد يرئسه شيخ تولى فيا سبق منصب القنصلية مرتين، من فريجيا (*Phrygie*) حيث حصل في «بسينونتي» (*Pessinonte*)، بفضل الملك البرغامومي أطال الاول (*Attale 1er*)، على « الحجر الاسود » ، رمز « سيبيل » (*Cybèle*) «ام الآلهة» و « الام الكبرى في جبال ايدا (*Ida*) » . وعملاً بمـــا فرضه هاتف الغيب ، حمل « افضل » رجل في المدينة ، كان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا في نظر المجلس ، الإلهة من المركب الى شاطىء « اوستيا » (*Ostie*) ، ورافقتها « السيدات الرومانيات الاولى » الى روما حيث احتلت مكانها ، هي ايضاً ، داخل « النطاق » الروماني . لا سبيل لنكران أهمية هذا الحدث الشهير الخالد الذكر . فللمرة الاولى تنظم في روما عبادة إلهة شرقيـــة ؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيون كانوا يتجولون في الشوارع ، ايام الاعياد، بأزيائهم وينشدون ترانيمهم القومية الغريبة . يجدر بنا ألا نهمل الاحتياطات المتخذة : منع عبادة اتيس (*Attis*) الشبيهة الى حدّ كبير بسيبيل ، وتحظير الانتماء الى الاكليروس على المواطنين . ولكن الخطوة الاولى قد خطيت وستعقبها خطوات .

القمـع

بيد ان هذه الخطوات لم تحدث فوراً . فغداة الحرب بدا النظام المجلسي اقل حفاوة : ولعله خشي انتقال العدوى الى الجيوش المرسلة الى اليونان وآسيا . ومـا لبثت مقاومة العادات الجديدة، التي تجسّدت في كاتون وتأيدت في فترة تسلمه منصب قاضي الاحصاء ، ان ظهرت على الصعيد الديني .

تظهر لنا هذه المقاومة خصوصاً في فضيحة الرقصات الخلاعيـة ، حيث لا يزال الغموض محيطاً بنقاط عديدة ، على الرغم من جهود المؤرخين ، ولكن ملابساتها الكثيرة لا تحول دون بقائها قضية دينية في الدرجة الاولى . في السنة ١٨٦ اكتشفت الشرطة الحكومية او تظاهرت بأنها اكتشفت ان أسرار ديونيسوس قـد حققت تقدماً مخيفاً في جميع انحاء ايطاليا الجنوبية وتسربت الى روما نفسها ، وان فجوراً مخزياً يقترف فيها مقارناً بالاختلاسات والتقتيل ، وان المؤامرات تعد فيها لا لإفساد الاخلاق فقط بل لإفساد المجتمع والدولة ايضاً . فتوالت آنذاك ، طيلة خمس سنوات ، التحقيقات والوشايات والاستجوابات وأعمـال التعذيب . وانفجرت اعمال القمع : دخل السجون سبعة آلاف شخص تقريباً وقضي على عدد كبير بالاعدام بعد محاكمة سريعة .

ليست قضية الكتب البيثاغورية دون هذه القضيـة مغزى مع انها دونها عنفاً . كانت رومـا حتى ذاك العهد قد افسحت المجال للبيثاغورية ، تلك الفلسفة المتشبعة بصوفيـة حافظت ، على الرغم ممـا اعترضها من صعوبات ، على حيويتها في ايطاليا الجنوبية ، ولا سيما في طارنتا . ومن حيث انها لم تنفّر الرومانيين ، فأننا نرجح ان تلطيفات ملموسة قد ادخلت عليها . ومهما يكن من الأمر ، فان التقليد الذي جعل من الملك « نوما » تلميذاً مباشراً لبيثاغور ، قد حفظ ، فيما يعود لعهود اقل قدماً، ذكرى قرارات رسمية مؤاتية . ولعل « كاتون » نفسه، قبيل السنة ٢٠٠ ، حين مر في طارنتا ، اعار اذناً صاغية لبعض الأحاديث . ومـع ذلك ، ففي السنة ١٨١ ، حين اكتشفت في احد المدافن نصوص بيثاغورية تعزوها احدى الكتابات الى نوما ، كان كافيـاً للمجلس ان يعلنها احد القضاة ، بعد الاطلاع عليهـا ، متنافية والديانة الرسمية ، حتى يأمر باحراقها دون أن يقرأها احد .

عدم جدواه : ادخال العبادات الشرقية

ولكن انّى لمثل هذه الديانة الفاترة التي لا تهتم للاجابة على سؤال مقض يطرحه الفرد حول مصيره بالذات ، ان تجد ، في عون السلطات دون سواه ، الوسائل لمقاومة نجاحات عقـائد افضل تجهيزاً واعظم نفوذاً ؟ وأنى لها ايضاً ان تقاوم العدوى بينما الرومان موجودون في الشرق وبينما الشرق ، اقله بواسطة العبيد ، موجود في روما؟ فالموضوع، منذ ادخال سيبيل وتوسع المصالح الرومانية، لم يعد موضوع الآلهة الذين كيفتهم ونقّتهم الحضارة اليونانية الكلاسيكية، بل اولئك الذين خوّلهم العالم الهليني وتبناهم ارضاء لفرديته المخالفة الصواب ، واولئك الذين توفق العـالم الشرقي الى ابقائهم

بعيدين عن كل تأثير يوناني ، احياناً . اجل كان من المعترف به ، في القرن الاول ، ان تتلقى الشخصيات الرومانية المرموقة ، اذا ما مرت في اثينا ، مبادىء اسرار الفسيس (*Eleusis*) . ولكن هذا نفسه لم يعد كافياً اذ ان الشيء الذي لا مفر منه قد اخذ بالظهور .

قارن بعضهم احيانا قضية الرقصات الخلاعية بالاضطهادات التي سوف تتناول الديانة المسيحية . ولكن المقارنة عرجاء ، اذ ان المحاكة الامبراطورية ستلاحق الديانة المسيحية كديانة بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ ، في السنة ١٨٥ ، على تحريم ممارسة الطقوس الديونيسية على المؤمنين الزاعمين بانها مفروضة عليهم بنذر شخصي . فقد اجازها لجماعات محدودة يجب ان لا تتجاوز رجلين وثلاث نساء لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة ، ملزماً اياها بالاعلان عن نفسها للسلطات وبالحصول على موافقتها بحسب القانون . ولكن هذه التسوية انطوت على محال هو استمرار الرقابة الشديدة . فاختفى النهر على المرسوم المجلسي ، وفي اواخر العهد الجمهوري ، احتفل باسرار ديونيسوس في منازل كثيرة من « بومبيي »

اما ما تبقى ، مما لم يتناوله اي اضطهاد ، فلم يكن بحاجة لاي سماح بالدخول . وسنعود فيما بعد الى كل ما كان مدعواً للشهرة . فلنكتف اذن بالاشارة الى انه قامت في روما ، في زمن قيصر ، طوائف بيثاغورية على جانب من التأثير ، وان وجود عبادات شرقية مختلفة في ايطاليا لامر ثابت ؛ فمنذ الحملات على « ميثريدات » ، استورد الجنود عبادة عرفوها في آسيا هي العبادة الدموية للإلهة الكبادوكية « ما » (*Mâ*) التي اسرعوا واطلقوا عليها اسم « بلّونا » : اثناء العيد ، وفي وسط الشارع ، ينشد كهنتها الاناشيد ويجرحون اجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز الى الإلهة ؛ وسنكتشف في احد معابدهم أوان خزفية ملأى باللحم البشري . ومنذ القرن الثاني نشاهد عبادات سيرابيس(*Sérapis*) ، وايزيس الاسكندرية في ديلوس حيث يتعاطى التجارة ايطاليون كثيرون ، وفي بوزوليس ، المرفأ الرئيسي في ايطاليا ؛ وتدخل ايزيس روما في عهد سيلا . ثم يدخل « ميترا » نفسه ايطاليا بواسطة قراصنة كيليكيين سابقين وجنود اشتركوا في حملات بومبيوس الشرقية . ولعل صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادفة لا من قبيل عدم وجودهم في ايطاليا . ومهما يكن من الأمر فان روما تجتذب اليها ، في عهد مبكر ، عرافين ومنجمين شرقيين لا يخامرهم شك في انهم سيجدون فيها زبناً كثيرين .

من الثابت ان الدولة قد تحاشت ان تتبنى اية من هذه العبادات تبنياً رسمياً . لا بل ان المجلس قد اتخذ احياناً تدابير بوليسية سريعة الزوال : طرد المتجمين في السنة ١٣٩ ، وفي اواسط القرن الاول اصدر اوامره تكراراً بهدم معابد ايزيس التي شوهدت حتى على الكابيتول .

ولكنها استيقاظات باطلة ، ونادرة على كل حال . فباستثناء عبادة « ما – بلّونا » ، ستعرف هذه العبادات الشرقية ، وعبادات اخرى كثيرة ، في تاريخ لاحق ، نجاحات مدهشة واسعة

جداً . اجل لم تكن بعد في اواخر العهد الجمهوري سوى في مرحلتها الأولى . ولكن وجودها ينبىء بالمستقبل ويحضّره .

المظاهر الاجتماعية والسياسية للتطور الديني

ان موجة التدين القلق هذه عمت الطبقات الاجتماعية الدنيا بنوع خاص . فهي بفعل تألمها أكثر من غيرها قد شعرت أكثر من غيرها بحاجة الى التأثر والوعود . اضف الى ذلك انها كانت على اتصال يومي وودي بعبيد ينتمي الكثير منهم الى الشرق . وقد بدا هذا الميل نفسه خطراً للحكام . اجل ، لقد اعتبروا الديانة امراً ضرورياً للشعب . فمنذ اواسط القرن الثاني لم يتردد بوليب ، الذي عاش قريباً من شيبيون اميليانوس ، في ان يرى في العبادات الرومانية بناء صنعياً مصمماً خير تصميم لخير الدولة والمجتمع : « يخيل إلي ... ان الوجل الخرافي يحمي مصالح روما ... وبتنمية هذه العاطفة ، انما فكروا بالشعب في الدرجة الاولى . قد لا يكون هذا الاحتياط ضرورياً في دولة لا تضم سوى العقلاء ؛ ولكن لما كانت الجماهير تتصف بتقلب الرأي والاهواء المشوشة والاحقاد العنيفة والغير المتبصرة ، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من كائنات غير منظورة ، وبشتى انواع الاوهام » . وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقل وقاحة في التعبير . ولكن العبادات الغريبة ، من حيث هي تتوجه الى مؤمنيها دونما اهتمام للاطارات الاجتماعية التقليدية ، كانت في نظرهم خطراً ممكناً على النظام الضروري للمجتمع والدولة .

لذلك ، قامت النخبة الاجتماعية ، في ما يعنيها ، بجهود كبير للابقاء على تنفيذ كافة الطقوس . أما دلائل التخلي التي يمكن ملاحظتها فنادرة ، ولا أهمية حقيقية لها : الاهمال في ترميم بعض المعابد، والشغور المستمر ، منذ آخر السنة ٨٧ ، في منصب كاهن جوبتير الخاص . وفي القرن الثالث ، قام بين المسؤولين أنفسهم ، من يتظاهر بالالحاد في ممارسة وظائفه بالذات، ولا يتقيد بنصائح العرّافين . ولكن مصلحة الدولة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ، والتضامن الطبقي ، بعد الحرب ، وضعا حداً لهذه الجسارات : وان احتقار قيصر للعراقيل الدينية التي أقامها ، في السنة ٥٩ ، زميله في القنصلية ، في وجه قوانينه ، يمثل الشذوذ الوحيد عن القاعدة. ولكننا عبثاً نبحث عن تقوى حقيقية وراء هذه الظواهر المؤثرة . فلم يقم في الارستوقراطية الحاكمة ، على ما نعلم ، أي مشايع للعبادات الشرقية بالذات ، التي تركت للشعب ؛ بل على نقيض ذلك ، قام بعض الملحدين ؛ وقام بنوع خاص تلاميذ مذاهب فلسفية تنظر الى الآلهة التقليديين كما الى رموز أو خاصيات . ويبدو شيشرون معبراً عن الحقيقة ، حين يكتب في بحث عن العرافة : « على العاقل ان يحافظ على عادات الأجداد بالتقيد بالعبادات والطقوس . وبرغمنا جمال العالم ونظام الأجسام السماوية على الاعتراف بوجود كائن أزليّ يتوجب على الانسان إكرامه ، والاعجاب به » ؛ حكمة سياسية من جهة وتفسير فلسفي من جهة ثانية : لقد زال الايمان من الديانة الرسمية .

أعطى العالم الهليني ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة ، المثل عن هذه المواقف . ولكنه أعطى ، كذلك ، المثل عن المثالية الدينية التي توفر للملكية مرتكزها : الانسان المتفوق الذي يختاره الإله ويلهمه. أنّى لروما من ثم ان تنجو من العدوى؟ فقد سمع شيبيون الافريقي، قبلاً ، بأن تنتشر حول ولادته الالهية أساطير مماثلة للأساطير التي انتشرت فيما مضى حول ولادة الاسكندر ، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبتير الكابيتولي يناجي « أباه » الذي ينعم عليه بنصائحه ، فاتهمته مصادرنا بالهرطقة والخداع . واقتفى الكثيرون اثره منذ اواخر القرن الثاني ، على الرغم من عنادية عدد كبير منهم كانوا أشد اشمئزازاً من ان يحافظوا على أقل ايمان ، وأبعد مهارة من ان يهملوا التظاهر بأنهم مختارون من الله منذ الأزل . واتجه تفضيلهم الى فينوس ، والدة « اينه » وإلهة روما القومية . فعزا سيلاّ انتصاراته الى فينوس « السعيدة » ، وتبنى هذا اللقب لنفسه؛ والتمس بومبيوس النعمة من فينوس« المنتصرة » ؛ وأدى قيصر بأبهة العبادة لفينوس « الأم » ، إذ ان عائلته ، آل جوليوس ، تنحدر منها مباشرة .

وهكذا ، فبينما كان كل شيء يخلخل الدولة الجمهورية ، وحين لم يعد هيكلهـا الديني سوى مجرد ظاهر ، تباهى أشد خصومها خطراً ، امام الجماهير المستعدة لأن تؤمن بكل معجزة ، بالانعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها . فانضم التطور الديني من ثم الى التطورات الاخرى في سبيل القضاء على النظام القائم

الفصل الخامس

هلينة روما:
اليقظة الفنية والفكرية

بدأت اقتباسات روما الفنية والفكرية عن الحضارة اليونانية ، شأن اقتباساتها الدينية ، قبل تدخل الدبلوماسية الرومانية والجوقات الرومانية في قلب العالم اليوناني بزمن طويل : فان التأثيرات التي اصابت الاتروسك وانتقلت بواسطتهم قد فعلت فعلها منذ عهد مبكر جداً ، كما فعل فعله ايضاً مثل اليونان الكبرى وتعليمها عن طريق كبانيا والشعوب الايطالية . ولعل الاستدالة ، على هذا الصعيد ، من هذه الحضارة المتفوقة ، قد فاقت الاستدانة على صعيد المعتقدات الدينية . فليس هنا من معطية سابقة ، ولو بدائية ، يكفي تنظيمها وتصعيدها وانماؤها ، بل طاولة شبه ملساء ، او شعب خشن جداً استيقظ ، بصلاته غير المباشرة ، على مشاغل جديدة ؛ ومنذ ان برزت مثل هذه المشاغل في روما واخذت تلقى فيها رضى ليس على شيء من السخرية ، تتراءى اثر الحضارة اليونانية .

بيد ان هذا الاثر قد برز بقوة نادرة منذ ان بسطت روما سيطرتها المباشرة على ايطاليا الجنوبية . وقد شعر المؤرخون القدماء ، من هذا القبيل ، باهمية الاستيلاء على طارنتا في السنة ٢٧٢ واشاروا اليها . فاستُعرض آنذاك للمرة الاولى ، في احد مواكب النصر ، بعض الاسرى اليونانيين أو المستغرقين ، والتماثيل ، واللوحات ، والزخارف والنقوش التي ازدانت بها مدينة يونانية كبرى : غنيمة مزدوجة اجاز قانون الحرب للمنتصر التصرف بها تصرفاً واحداً ، وكان لامتلاكها اثر واحد دائم ، اذ قد اكل الاسرى العبيد ، بقولهم وبانتاجهم ، التربية التي وزعها صامتاً وساحراً ، مشهد التحف الفنية . ولم يكن ذلك ، في الزمن ، سوى الانتقال الاول بين انتقالات بشرية ومادية ، على مدى واسع ، ضاعفتها الانتصارات اللاحقة وتمادى فيها ، بعد الانتصارات ، استثمار الاقاليم اليونانية استثماراً لا يعرف الشفقة معنى. وان التقدم الذي احرزه العالم اليوناني منذ زمن بعيد قد جعل من فتنة هذه التحف وهؤلاء الرجال قوة لا تقاوم : فاستسلم الرومان لها دونما صعوبة لا سيما وان تمرنهم قد بدأ قبل ذلك العهد .

مهما يكن من الأمر ، فانهم لن يلبثوا ان يدينوا بالكثير لفن اليونان وفكرها . ولكن الى اي حد سيتركون هذا السحر يفعل فعله فيهم يا ترى ، وماذا سيفعلون من هذا الدرس ؟ كان بامكانهم ، اذا مـــا استفادوا من خبرة الغير وحافظوا على ميزتهم ، ان ينقلوا التقنيات المجربة الكاملة الى خدمة نزعاتهم الخاصة . وكان بامكانهم ايضاً بفضل القوى الجـديدة والثروات المادية التي فاض بها شبابهم ، ان ينوبوا ، على طرق شقها مثقفوهم ، عن حضارة يونانية اتعبها مجهودها وانهكهـــا السلب الذي كانت خاضعة له . وكان باستطاعتهم اخيراً ان يبقوا تلامذة منقادين لاساتذة قد يستمرون في التقدم عليهم ،او اقله مجرد زبن لعملاء ماهرين في إرضـــاء اذواق اوجدوها فيهم .

ثلاثة امكانات غدا كل منها ، هنا او هناك وبحسب العهود ، امراً واقعاً . وليس من ريب ، على العموم ، اقله خلال العهد الجمهوري ، في ان الامكان الثالث هو الذي كان غالباً : وعلى الرغم من الفوارق التي سنشير الى اهمها ، ومن الازدهار الادبي الذي برز اخيراً في روما ، فان رومـــا آنذاك قد دخلت في فلك العالم الذي اخضعته لسيطرة قسوتها المغرورة الجشمة .

١ ـ الفـــن

لا يستدعي هذا التأكيد ، تحفظاً يذكر بصدد الفن .

الاثر الاتروسكي

لما كانت روما قريبة جداً من مركز حضارة زاهرة هو اتروريا ، فقد دانت لها بفنها البدائي . فالملوك الاتروسك الذين اعطوها انظمتها الاولى كمدينة انعموا عليها بابنيتها الاولى ايضاً . وقد اجمع التقليد على ان يذكر بين هذه الأبنية المعبد المكرس على جبل الكابيتول لجوبتير ولاقرانه من الاناث . فقد رمّم ، واعيد بناؤه وربما حوّر اكثر من مرة ، وبقي على الدوام المعبد الرئيسي للديانة الرسمية . وقد حافظت روما ابداً ، حتى بعد ان وطدت استقلالها بالقضاء على الاستبداد الاجنبي ، على الروابط الثقافية التي شدتها الى بلاد اسيادهـــا القدماء . ثم احتلتها تدريجياً ولم تهمل الكسب الفني الذي احرزته باحتلالها : فكم وكم من عملية استلاب مجهولة اقدم الرومان عليهـــا في مدن اخرى قبل عملية استلاب الـ ٢٠٠٠ تمثال من فولسينيا في السنة ٢٦٤ ؟ لذلك فقد جاءت التربية الاولى من الاتروسك بنوع خاص .

تميزت هذه التربية ، من جهة ثانية ، بالسرعة ، في مدينة لم تخل ، كما رأينا ، من الموارد المالية ، وتجنبت النخبة الاجتماعية فيها ، التي أحسنت استقبال نخب المدن الايطالية الاخرى ، كما رأينا أيضاً ، احتقار ما من شأنه تجميل اطار وجودها . ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الرومان ، في القرون الاولى من العهد الجمهوري ، لم يكترثوا بالمشاغل الجمالية . فعلى الرغم من استمرار صفة حياتهم الخاصة بذلوا الجهد لكي يكرموا بأبهة الآلهة الذين دانوا هم بالنجاح لرضاهم ، وقد حرصت كل عائلة كبيرة على تخليد ذكر الجدود الذين أكسبوها الشهرة . لا بل ان بعض الرومان على الاقل

قد شعروا بسحر الفن الدنيوي اللطيف الذي تعلموه بواسطة جيرانهم . اجل يبدو انهم افتقروا الى العبقرية الخلاقة ؛ ولكنهم يستقبلون التحقيقات الاجنبية بسهولة ، وقد حدث ان استساغوها بمرونة .

الفن البدائي

منذ القرن الخامس شيدت روما عدة معابد . وقد عكست معابدها طرازاً اتروسكياً طبع هندسة العمارة الدينية الرومانية بطابع دائم . تميز هذا الطراز عن الطراز اليوناني ببعض الصفات الخاصة التي يجدر بنا ، دونما حاجة الى تبيانها كلها ، ان نشير الى أهمها ، او بالحري الى تلك التي تظهر بأجلى صورة في شكل هذا الطراز . فقد بقي تلاصق قاعات المعبد الداخلية الثلاث ، مثلاً ، التي فرضها جمع بعض الآلهة في ثواليث (جوبتير وجونون ومينرفا ؛ سيريس وليبير وليبيرا) طرازاً كلاسيكياً دائماً في معابد جوبتير «الافضل والاعظم» (*Optimus Maximus*) أي جوبتير الكابيتولي . ثم ان الرومان قد شيدوا عدداً كبيراً من معابدهم على مصطبة او قاعدة على بعض الارتفاع في البناء ؛ فاضطروا من ثم الى تجهيز سلّم يؤدي الى جبهة المدخل بينما انتصب جدار القاعات الخلفي ، والجدران الجانبية في أغلب الاحيان ، على حافة القاعدة تقريباً .

شيدت هذه المعابد الاولى بالأخشاب ، واستخدم كثيراً ، في سبيل صيانتها وتزيينها ، الخزف المتعدد الالوان : وكانت هذه العادة واسعة الانتشار ، ليس في اتروريا فحسب ، بل في كبانيا وايطاليا الوسطى ايضاً . ولم تسفر أعمال التنقيب في روما ، حتى اليوم ، عن اكتشاف أي شيء يذكرنا بمجموعة ابولون في فييس . ولكنه يتوجب علينا ، مع ذلك ، القول بأنهم لجأوا بمهارة الى التزيين الناتىء بواسطة لوحات التلبيس الترابية التي نضدوا فيها النقوش السعفية الشكل والرؤوس الصمراء الوجه وابتكروا مجموعات التماثيل لأعلى جبهات المعابد وللمثلثات في الجبهات نفسها والتماثيل المنصوبة داخل المعابد . فمن الثابت ان فن التشكيل بالفرين قد اعتمد بالتفضيل طيلة قرنين او ثلاثة قرون في روما ، وقد حدث ، حتى في عهد سيلاّ ، انهم لجأوا اليه ، احتراماً منهم للتقليد ، لتزيين المعابد الجديدة ، بينما كانوا قد اخذوا يستخدمون للمدافن والتماثيل المدفنية النصفية ، مواد أغلى ثمناً واقل قصماً .

وفتر فنّ التصوير طريقة أخرى للتزيين. فان الذوق الذي أوحى به الرومانيين ، وهو قديم ايضاً ومقتبس عن الاتروسك والكبانيين واللاتين ، قد استمر زمناً أطول . وقد لجأوا اليه في داخل المعابد وعلى جدران المدافن تحت الارض وحتى على جدران الابنية العامة ، ان لم يلجأوا اليه آنذاك — ترتقي اقدم رسوم بومبيي الى زمن أكثر تأخراً — على جدران المنازل الخاصة . ولم يأنف بعض اعضاء النخبة الاجتماعية من ان يتعاطوه شخصياً : فهنالك معبد دشن في اواخر القرن الرابع بعد ان زين جدرانه بالرسوم المدعو ك. فابيوس فحمل ، بفضل ذلك ، لقب « المصور » الذي انتقل الى ذريته . لم يبلغ الينا شيء من التصوير الديني . وعلى نقيض ذلك ،

ظهرت في احد مدافن الاسكويلينوس بقايا مشاهد تاريخيـــة ، معركة ومفاوضة ، رسمت في القرن الثالث على الارجح ، يبرز فيها نشاط قائد روماني يدعى ك . فابيوس . وكذلك فقد أمر م . فاليريوس مكسيموس ميسالا ، في اوائل الحرب البونيقية الاولى، بتصوير معركة ظافرة على جدار قاعة جلسات مجلس الشيوخ . ومن الجائز ان نرى ، في اختيار هذه المواضيع ، ظهور ميـل مبكر سوف يُجنح الفن الروماني إجناحاً دائماً نحو تمثيل الأحداث الواقعيـة التي تستعاد بوقار اظهاراً لمجد روما ومجد حكامها وآلهتها : المعـارك ، الاستعراضات الظافرة ، الذبائح ، الاحتفالات العامة .

جلي ان هذه المشاهد التاريخية قد جمّلت ونظمت بدافع من حرص الفنانين على إظهار عظمة تحرك العواطف، كما ستجملها وتنظمها فيما بعد النقاشة العظمى . وعلى نقيض ذلك ، فقـد برزت منذ اوائل عهد صورة الشخص المصنوعة بالتراب او المنقوشة ، واقعية فظة جداً وكأنها تعتمد في ان لا تخفي أية بلية من بلايا الطبيعة او السن. وقد تولدت هذه الصور من قوالب شمعية تؤخذ عن وجه الموتى بغية صنع « الصور » والاقنعة والتماثيل النصفية التي تحفظ في الاروقة العائلية ويؤلف منها موكب في جنائز الحفدة. لم تبلغ الينا أية قطعة قديمة من هذا النوع ، وانما يمكننا ان نتخيلها بالأستناد الى مجموعة الرؤوس شبه الهزلية التي سارت على هذا التقليد حتى اوائل الامبراطورية ، وهي مجموعة تحرك النفس ولا تعرف الشفقة معنى .

لذلك يستهوينا ان نعرف ما كان من امر التماثيل التي يغلب انها نصبت في روما منذ عهد باكر اكراماً لأبطال قوميين ، وحتى لألقيبيادس وبيثاغوروس : فهذان الاخيران هما اللذان لم يتردد مجلس الشيوخ في أن يعترف بأنهما ، كل فيما خصه ، الاولان بين الاغريق بسالة وحكمة ، واللذان امر هاتف غيب دلفي ، حين استشير أبّان الحرب ضد السمنيين في القرن الرابع ، دون أي ايضاح ، بأن تنصب لهما التماثيل . واذا ما تعذر الكلام آنذاك عن الصور المتقنة ، فما هو الحد الذي بلغه النقاشون ، حتى الاجانب منهم ، الذين توجب عليهم ان يأخذوا اذواق زبنهم بعين الاعتبار ، في مساهم لتحقيق تعبير مثالي شامل ؟ ولكن المصادر القديمة التي تشير الى هذه التحف لم تترك لنا وصفها .

بدت اذن بعض المقاصد الجمالية على الصعيد الجماعي . اما البذخ الخاص ، باستثناء مظـاهر تكريم الموتى ، فلا نعرف منه سوى نتاج صناعـــة تعدين الشبه الناشطة والمتقنة جداً منذ ذاك العهد عند الاتروسك والمنتشرة بواسطتهم في جميع انحاء ايطاليا الوسطى . ومن اطرف هـــذا النتاج مرايا وعلب مستديرة مزدانة برسوم محفورة بالازميل . ويبدو منذ القرن الرابع ان المركز الرئيسي لهذه الصناعة كان برينستا *Preneste* (بالسترينا الحالية)، احدى مدن اللاتيوم. واماالمرآة « فيكوروني »، وهي واحدة من اجمل امثالها، فتحمل كتابة تثبت انها صنعت في روما على يد فنان اجنبي لاحدى نساء برينستا. واستوحى الفنانون طريقتهم والمشاهد المصورة من الرسوم

المصورة على الخزفيات المزخرفة ، وقد صدرت اليونان القديمة زمناً طويلاً – كورنثوس اولاً ، ثم اثينا – هذه الخزفيات الى ايطاليا ، ثم استوردت ، ابتـداء من القرن الرابع ، من اليونان الكبرى ، ثم من فاليريا ، وهي مدينة قريبة جداً من اتروريا والتيبر ، شمالي روما .

الحضارة اليونانية والحضارة الايطالية والحضار الرومانية

تمثل الصور المحفورة على مرآة فيكورني احدى حوادث رحلة الارغونوط : والاثر اليوناني جلي فيها باختيار الموضوع وبمعالجته ، ولعلـها تقليد لتحفة من تحف فن التصوير المعظم . وباستطاعتنا ان نسرد امثلة اخرى كثيرة عن الاثر اليوناني في الفن الروماني البدائي . ثم ان اكثرية التحف التي عرفت مباشرة او عن طريق الوصف لا يمكن ان تفسر الا باللجوء الى الميثولوجيا اليونانية او الديانة اليونانيـــة . ونحن نعلم من جهـــة ثانية مدى اقتباس الاتروسك عن الفن اليوناني . كما ان اليونان الكبرى وكمبانيا قد ضمنا مراكز اخرى لنشر هذا الفن . وقامت اخيراً علائق مباشرة احيـاناً : فمنذ اوائل القرن الرابع اتى الفنانان اليونانيان ، داموفيلوس ، وغورغاسوس ، وهمـا مصوران على الارجح ، الى روما بغية زخرفة معبد سيريس .

ولكن هناك بعض الطوابع وبعض الميول التي لم ترتد قط في اليونان الحيوية نفسها مع انها لم تكن مجهولة تمامـــاً فيها : قد يمكننا التجادل حول قيمتها الجمالية ولكن لا يمكننا التجادل حول حقيقة وجودها . لا يجوز ، على ما يبدو ، نسبتها الى الرومان دون غيرهم اذ اننا لا نجدهـا في روما وحدها بل نجدها دائماً في فن مدن اخرى من اللاتيوم ايضاً وحتى في كافة انحاء ايطاليـا الوسطى . واذا ما استهدفت جهود المؤرخين اليوم استخلاص هذه الميزة ، فان اكتشافات علم الآثار لا تهيب بنا الى نسبتها الى الرومان فحسب بل الى الايطاليين عموماً . وليس في الحقيقة ما يثير الدهشة في ذلك . فالحضارة الاتروسكية نفسها ، حتى اذا سلمنا باصولهـــا الشرقية ، قد استساغت إرثاً ايطالياً ونزعات ايطاليـــة . اضف الى ذلك ان روما، على الرغم من اسطورة «اينه» الطروادي، لا تمثل جسماً غريباً في شبه الجزيرة . وما كانت عناصر سكانها الاولى لتختلف كثيراً عن عناصر سكان المدن المجاورة. اما ما يكوّن شخصية روما بينها فهو في الدرجة الاولى موقعها في مكان انتقال وبالتالي تلاقي البشر والمحاصيل ؛ وهو في الدرجة الثانية مصيرها العجائبي في تحقيق الفتوحات . وقبل ان تصبح عاصمة العالم فانها قد اصبحت عاصمة ايطاليا مبتلعة وناقلة باسمها للمستقبل كل ما بقي من الميزات الايطالية الخاصة .

الاشغال العامة الكبرى

هل كان بمكنة ظروف اخرى ورجال آخرين تأمين بقاءات اكبر عدداً وابعد مغزى ، وتميزاً احلى عذوبة؟ قد يصح القول بذلك. انما يجدر بنا، على كل حال ، الاعتراف بان روما ، بفضل عنادهـــا الصبور والجرأة التي عرفت كيف تبرهن عنها في وجه المسائل العملية ، قد خدمت ما ابقت عليه من هذه الحضارة الايطالية .

لا شيء ، في هذا الصدد – اذ لم يكن هنالك من حد فاصل بين الفن ، الذي قلمـــا يكون

اختياريا ، وبين الاشغال الكبرى ذات المنفعة العامة – يعطينا شهادة ابلغ من تحقيقات مهندسيها الاول . فقد كان علمهم وتقنيتهم مدعوين لان يبقيا احد اختصاصات روما الجيدة . برزا منذ هذا العهد القديم وبقي اسم ابيوس كلوديوس ، الذي لقب « بالاعمى » (*Caecus*) في شيخوخته السقيمة ، مرتبطاً بمشاريع عظيمة كانت منطلقاً ، طيلة قرون عدة ، لسلسلة متصلة الحلقات دامت ما دامت روما بالذات .

تولّى منصب قاضي الاحصاء في السنة ٣١٢ وبنى « القناة الآبية » التي جرّت الى روما مياه ينبوع يبعد مسافة تتجاوز ١٦ كيلومتراً . اجل لقد امكن ، في الريف الروماني ، توصلا لهذه الغاية ، استخدام أقنية سابقة محفورة لأعمال التجفيف توفرت للاتروسك والايطاليين الخبرة القديمة فيها . وعلى الرغم من ذلك فان تحقيق هذا المجرى تحت الارض كان نجاحاً جميلاً لا سيما وقد جهّز على أكثر من ١٥ متراً عمقاً في بعض الاحيان ، بعلوّ ١،٥٠ متر وبعرض متر تقريباً . ولم تستند القناة الى الاقواس إلا مسافة قصيرة جداً (٩٠ م) فوق منخفض في المدينة . ومنذ السنة ٢٧٢ ، استلزمت قناة جديدة ٣٠٠ متر من القناطر . ولما كان ارتفاع عدد سكان المدينة والاهتمام برفاهيتهم قد زادا باطراد ، فقد أفضى ذلك تدريجياً الى أبنية ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً ايضاً : « فالقناة المارسية » التي شيدت ما بين السنة ١٤٤ والسنة ١٤٠ قد بلغت ٩٢ كيلومتراً طولاً منها ١١ كيلومتراً على القناطر .لا شك في ان الاغريق، منذ زمن بعيد ، – تعود قناة افبالينوس في ساموس ، مع النفق الذي استلزمته ، الى القرن الرابع – قد حققوا مثل هذه الاعمال المعدّة لتموين مدنهم بالمياه . ولكنهم لم يحققوا ، ولم يصمموا على ما نعلم ، أعمالاً على مثل هذه الأهمية .

تجدر الملاحظة نفسها بصدد الطرقات . فان شعوباً أخرى قد أنشأت طرقات في السابق : وهنالك تقليد ، يشك فيه كثيراً على كل حال ، يعزو الى الرومان انهم استوحوا في ذلك أساليب القرطاجيين في صقليا . ولكننا لا نستطيع ان ننمطهم فضلهم في إنشاء اولى الطرقات الطويلة المدى . فحين كان ابيوس كلوديوس قاضي احصاء ايضاً ، وضع تصاميم الطريقة « الآبية » ولزم اعمالها، وهي التي وصلت روما بـ « كابًا » –١٩٥ كم – في كبانيا ، والتي سيدعوها احد شعراء العهد الامبراطوري « ملكة الطرقات » . وقد اخترقت المستنقعات البونتية بخط مستقيم فوق ردمية بلغت ٢٨ كم طولاً . واعتمدت في إنشائها الطبقات الحجرية التي شدّها الملاط الى بعضها البعض وتناقصت قياسات حجارتها بين الاساس والسطح ، واللوحات التي غطت هذا السطح فيا بعد ، فكانت اول تطبيق لتقنية ستعطي ، طيلة قرون وتحت كل سماء ، في الجبال والمنخفضات ، براهين أخرى كثيرة عن تفوقها . وفي العهد الجمهوري اخترقت ايطاليا بنوع خاص ، في كل الاتجاهات ، طرقات عظيمة مماثلة تولت الجمهورية بعد ذلك تعميمها على الاقاليم على نطاق واسع . لكن هذه الطرقات لم تستخدم للسير السريع . فان هدفها الرئيسي

كان تسهيل انتقال القوات المسلحة والبريد ؛ كما ان عمليات المساحة قد استندت اليها في تقسيم الاراضي . فجعل منها هذا الدور العسكري والاداري ، مع اتساع شبكتها ، دعامة من اوطد دعائم السيطرة الرومانية على ايطاليا اولاً وعلى الامبراطورية بعد ذلك .

فهل كانت هذه المشاريع وهذه النزعات رومانية يا ترى ؟ العدل يقضي ، في الحقيقة ، ان نصفها بالايطالية ، او باللاتينية على الاقل : اذ ان عائلة كلوديا سابينية المنشأ . فيجب بالتالي ان لا نضفي قيمة نوعية على العنصرية التي يفسّر الانصهار البشري الباكر استخدامها التقليدي في مفهومها العريض. واذا ما تم الاتفاق على ذلك، فان الاشارات الوجيزة السابقة الى هذه الاشغال العظيمة تكفي للدلالة على ان التصميم على قهر الطبيعة المعادية واستخدام الطرائق الفعالة في هذا السبيل قد سبقا ، في روما ، قيام الاتصال الودّي بالحضارة اليونانية خلال القرن الثالث . فقبل هذا الاتصال توفقت جرأة مهندسيها الى الانطلاق وأثارت سواعد عمالها الاعجاب – ولكن كم بينهم من العبيد ؟ – كما قام جنودها ، في كل مرحلة ، ببناء معسكرهم .

قبل ذلك بألوف السنين ، حققت حضارات الشرق الادنى الامبراطورية اعمالاً اعظم ضخامة . فهل كان ما أتته ابعد تجرداً عن المصلحة يا ترى ؟ يجدر بنا ان نجد مقياساً مشتركاً للمصلحة . فان اليد العاملة ، مندفعة كانت ام راضية بنصيبها ، التي استنفدت قواها في خدمة الآلهة وابنائهم او خلفائهم الملكيين ، قد آمنت بأنها توفر للجماعة ، على الدوام ، احسانات قوى كلية القدرة . اما الرومان فقد كونوا ، عن المنفعة العامة ، فكرة اقل غموضاً واقل بعداً . فمن حيث ان ديانتهم كانت ديانة قانونية ، او دنيوية اذا صح التعبير ، فانها لم تفتح امامهم آفاق مثل هذه الاعتبارات . ومن حيث هم لم يؤدوا واجباتهم مسبقاً لآلهتهم، بل اكتفوا نحوهم بوعود مشروطة ، فانهم قد تحاشوا القيام بتعهدات على مثل هذا النطاق . وهم قد كيفوا مجهودهم ، لا ضناً به، بل اقتصاداً، وفاقاً للكسب المباشر الذي ارتقبوه منه. ولم يبرز كبرياؤهم في الاعتداد بقوتهم وثروتهم إلا بعد حين ، وقد بقي زيغانه الشنيع امراً نادراً .

لا يجدينا ، على كل حال ، ان نسير الى ابعد من هذا الحد في مقارنة تصرفات على مثل هذا التباعد : فالمقارنة المفيدة يجب ان تجرى مع الاغريق . في الحقيقة تفوق الرومان عليهم على هذا الصعيد : اجل لقد اعوزهم ذلك الانسجام المرن وذلك التآلف السهل بين المنطق والتأثير اللذين احلا الفن اليوناني في المرتبة الاولى . ولكن ما ان شمروا بحافز المنفعة التي فهموها على طريقتهم والتي لم تختلف قط عن طريقة الاغريق ، حتى برهنوا ، باكراً جداً ، كما رأينا ، عن حدة خيال وسعة تفكير . وحين توفرت لهم بعد ذلك وسائل خلق ما هو اعظم ، عرفوا كيف يضفون على تحقيقاتهم العملية ، الخالية من الزخرفة، والمطابقة، منذئذ ، لمثل أعلى من الجمال الوظيفي ، طابعاً من الجلال الصافي .

نقل التحف اليونانية

حافظ الرومان اذن ، فيما يعنينا ، على عبقريتهم الخاصة . ولكنهم لم يحافظوا عليها على صعيد الفن الحقيقي .

فقد حدث امر جديد هو احتلالهم لايطاليا الجنوبية وصقليا وشبه الجزيرة اليونانية وآسيا الصغرى المستغرقة . وقد حدث معه ، لا استلهامهم فناً لم يكونوا ليجهلوه ، بل استئثارهم وتمتعهم المباشر بكل ما استطاعوا، مادياً، نقله الى وطنهم بعد ان اختاروا ما طاب لهم اختياره من نتاج كدّسه ارفع الشعوب فناً .

وليست الامثلة ما ينقصنا عن هذا الاستيراد الضخم للتحف الفنية . لن نعود مرة اخرى الى مواكب الظفر التي كانت تقدم ، طيلة ايام عدة احياناً ، لاعجاب الجماهير ، الغنائم التي تشترك فيها . فلننظر بالاحرى الى تصرفات القنصل ل . موميوس الذي هزم ، في السنة ١٤٦ ، الجيش الآخي على مقربة من كورنثوس . ويعود الفضل الاكبر في شهرة هذا الحدث الى تقليد ثالب طبع بعض الروايات بطابع مضحك فاظهر هذا الروماني بمظهر الخشونة والبربرية. واذا هو اقدم على هدم كورنثوس بعد نهبها فانما فعل ذلك نزولاً عند أمر مجلس الشيوخ ؛ وان بوليب ، الذي شاهد زمر الجنود يلقون باللوحات الشهيرة ارضاً ويلعبون عليها بالكعاب، يمتدح اعتداله وتجرده الشخصيين . وما ان علم بقيمتها حتى اسرع والغى بيع لوحة ، ضربت بجمالها الامثال ، الى الملك البرغاموسي اطّال الثالث واحضرها الى روما حيث وضعها في معبد سيريس . وعندما انذر ملتزمي نقل اللوحات والتماثيل الى ايطاليا بوجوب التعويض عما يفقد منها بغيرها ، فان انذاره يكون اقرب الى الصواب اذا ما نظرنا اليه كفكاهة لا كانذار حقيقي . اضف الى ذلك ان اعادة الاعتبار للرجل ليست هنا من الاهمية بمكان : فان قيمته كحالة نموذجية تختلف كلياً . وفي نظر « بلين القديم » ، اذا كان القادة الظافرون في آسيا الصغرى ما بين السنة ١٩٠ والسنة ١٨٨ قد ادخلوا الى روما عادة المصنوعات الفضية المنقوشة والأقمشة الثمينة والاسرة المنزلة بالشبّه ، ان موميوس قد ادخل عادة المصنوعات الشبهية الكورنثية واللوحات الفنية . وقد عزا احد معاصري اوغوسطس الى مغانمه اكثر واجل التماثيل التي ازدانت بها روما . فحين كان قاضي احصاء في السنة ١٤٢ وزع القسم الأكبر منها على كل انحاء المدينة تقريباً واستطاع بالفائض منها ان يوزع الهبات على البلديات الايطالية وحتى على مستعمرة ايطاليكا في اسبانيا .

هذا مثل بسيط بين امثلة اخرى كثيرة . ولكن المجال ليس مجال احتداد وتظاهر بالفضيلة. فان فاتحين كثيرين قبل الرومان قد اعتمدوا طريقة الاستلاب هذه التي تغري ، حتى اليوم ، اكثر من منتصر معاصر . ولعل الاغريق وحدهم انقطعوا ، منذ اواخر العصر القديم ، عن استلاب كنوز « البرابرة » الفنية لانهم تغلبوا على هذا الميل — وليس هذا اقل الدلائل مغزى على استقلالهم الجمالي . ولم يبد خصومهم ، الفرس والقرطاجيون والغلاطيون مثلا ، ترفعاً مماثلا .

أما الرومان ، فقد سبق لهم ونهجوا هذا النهج في حروبهم ضد الاتروسك ، ولم تنطو الأساليب التي اعتمدوها في العالم اليوناني على أي جديد باستثناء وفرة دخلها النادرة التي تفسرها رحابة هذا العالم ، وما يمكن ان ندعوه بكثافته الفنية . ولم تستلب الممتلكات الخاصة استلاباً منظماً إلا من قبيل العقوبة الفردية أو الجماعية ، وغالباً ما تحلى الرومان بظرف تقوي قضى باحترام المعابد بين الممتلكات العامة . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة وابلاً وتكديساً في مدينة لن تلبث ان تطفح بهذه التحف .

وساعد على ذلك ان النقل الذي اجري لحساب الدولة قد رافقه في الوقت نفسه أو في وقت لاحق نقل اجري لمصلحة الأفراد . وحصلت كذلك صفقات واغتصابات سهّلها تسهيلاً نادراً التفاوت المالي والاداري الذي أوجده الفتح بين الأسياد والرعايا . فما هو مصدر الشحنات الفنية المجموعة في مركبين غرقا في القرن الأول قبل الميلاد ، واكتشفنا في اوائل القرن العشرين، الاول في انتيكيثيروس (*Anticythère*) جنوبي البلوبونيز ، والثاني في مهديه على شاطىء تونس الشرقي ؟ هل هي غنائم حربية استولى عليها سيلا في اليونان ابان العمليات ضد ميتريدات ؟ أم صفقات وطلبيّات ؟ أم مجموعات أرسلها السماسرة بغية بيعها في أغنى الأسواق أموالاً ؟ مهما يكن من الأمر ، فليس أبلغ ، في استعادة الماضي ، من تنوع - أعمدة ، وقطع رخامية وشبهية ، وتماثيل مختلفة الاشكال والقياسات ، ونقوش ناتئة ، وأوان ، الخ .. - وجمال بعض القطع الذي يلفت الأنظار : بفضل هذه الاستيرادات المستمرة ، جمعت روما ، التي غدت مدينة - متحفاً ، ثروات فنية يونانية تفوق ما جمعته أية عاصمة هلينية عظمى .

سيطرة الفن اليوناني والفنانين اليونانيين

يكشف هذا العناد المستمر في تحقيق هذا المطلب ، دونما ريب ، عن شعور بكبرياء جشع فطري عند حديثي النعمة : كان من واجب الشعب - الملك على نفسه ان يبزّ الملوك الهلينيين ، وان تبز مدينته مدنهم والمدن الجمهورية اليونانية ، كأثينا ورودوس ، الذائعة الصيت بفخامتها . ولكنه قد وعى في الوقت نفسه مفهوم واجب الاحترام الذي يؤديه المنتصرون لتفوق المغلوبين الفني .

قارب بعضهم أحياناً بين ما حدث في روما ، خلال القرن الثالث وفي اوائل القرن الثاني ، وبين الصدمة التي شعر بها الفرنسيون في اواخر القرن الخامس عشر بعد ما قطعوا جبال الألب ودخلوا ايطاليا . فاذا كانت كل مقارنة قابلة للانتقاد ، فان هذه بنوع خاص تموّه الحقيقة تمويهاً . فبصرف النظر عن أهمية الاتصالات السابقة ، يؤخذ عليها ، في الدرجة الاولى، انها تهمل فقدان أية حركة توازي النهضة في البلدان اليونانية وفي روما : وما المقصود هنا ، دونما تعرض لمصادر الوحي ، سوى حركة فنية جديدة وقوية ، ربما أسهم فيها هنا وهناك فنانون قوميون .

يلاحظ « بلين القديم »، في اواسط القرن الثاني ، انبعاث الفن اليوناني بعد تقهقره السابق : ولكنه يعني ، وهذا امر آخر ، استعادة الازدهار المادي . شهدت الحضارة الهلينية من قبل

عادة المجموعات . ودرجت هذه العادة في روما مستهدفة التحف اليونانية وغيرها . فقد جمع الرومان منها ما يعود العهد الكلاسيكي ، وما لبثوا بعد ذلك ان جمعوا ما يعود العهد القديم أيضاً . وشهد الشرق ، في نطاق تجارة المصنوعات الفنية ، ازدياد النشاط في اوساط هذه التجارة التقليدية، أثينا ورودوس وبرغاموس، التي تردد اليها أثرياء الرومان مبتاعين منها لأنفسهم أو لأصدقائهم أحياناً ، كما فعل اتيكوس (*Atticus*) الذي وثق الناس بسلامة ذوقه . ثم دخلت هذه التجارة روما مع ما يرافقها من حرف تابعة ، كالترميم ، او طفيلية ، كالتزييف . فكان من شأن هذا الولع بالماضي ، انه أضر بالتجديد الذي بدا ، مع ذلك ، وكأن كل شيء يشجعه : انتشار التقنيات ، ووفرة الأموال ، وامثولة التحف المدروسة على هينة ، وتميز بعض النزعات الايطالية . ولكن كل ذلك بات دون جدوى . أجل لم تكن كثرة النتاج السابق لتسد حاجات زبن متزايدين باطراد . ولذلك ، فالنتاج الجديد لم يهبط ، بل أخذ في الاتساع بنسبة الطلب المتزايد وبفعل انتشار الثروة ؛ ولكنه لم يتبع أي تيار مجدد، ولم ينعشه أي نسغ جديد . فاقتصر أبداً على النسخ ، وعلى بعض الاقتباسات احياناً عن أصول برهنت عن نجاحها في البلاطات والمدن الهلينية .

غير ان هذا الجمود ليس مثاراً لمزيد من الدهشة ؛ فقد كان للاغريق ، بعد كل حساب ، مصلحتهم في استثمار مهارتهم وصيتهم . ولكن ما نجد مزيداً من الصعوبة في ادراكه هو كيف ان القليل القليل من الفنانين الرومانيين أو الايطاليين ، على الرغم من الظروف الكثيرة التي توفرت لهم التحصيل الفني، قد لاقوا آنذاك من التقدير ما أتاح للمصادر أن تحافظ على اسمائهم. فحتى اواخر العهد الجمهوري — ولن تتبدل هذه الحال ، في العهد الامبراطوري ، إلا بكل بطء — لم تذكر هذه المصادر فناناً رومانياً يحمل اسماً لاتينياً ، سوى كوسوتيوس المهندس المعماري . في السنة ١٧٥ كلفه الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، اتمام معبد زفس الاولمي في اثينا الذي أوقف بناؤه منذ اواخر القرن السادس ، والذي لن ينتهي ، على كل حال ، إلا بعد مرور ثلاثة قرون . كان هذا الملك معجباً جداً بالعادات الرومانية ، فاكسبه ذلك ، وغير ذلك من الغرابات ، ما اشتهر عنه انه نصف مختل . ولكنه كان ماهراً في العناية بشعبيته ، لا سيا في اثينا . ولذلك يغري بعض العلماء أن يروا في كوسوتيوس مواطناً رومانياً حديث العهد ، يوناني الاصل ، أضاف الى اسمه الصيغة اللاتينية .

ان صفة التحكم في هذا الافتراض اليائس تنطوي على بعض الرمزية : انها الحالة فريدة وشبه مشينة ان يكلف اغريقي فناناً رومانياً القيام بهذا العمل . وعلى نقيض ذلك فليس من سبيل لاحصاء الطلبيات المنفذة في البلاد اليونانية ، والصناعيين والفنانين اليونانيين المجموعين رضى او قسراً والمنقولين فرقاً كاملة والمستدعين او الآتين باختيارهم الى ايطاليا للعمل في خدمة الرومان. فاذا ما انطوى نتاج مغفل ما على بعض الجمال فان تحليل نمطه يدفع بالنقاد في اغلب الاحيان

الى نسبته الى فنان يوناني مجهول. اجل قد تبدو استنتاجاتهم مشوبة بذلك الميـــل اللاواعي نحو الحضارة اليونانية الذي لا يتخلى عنه مؤرخ الفن الا بصعوبة . ولكنها في الواقع تتفق مع كل ما نشاهده من العلائق الفنية بين الشعبين . وللدلائل الصغيرة بلاغتها احياناً : فقد درج الرومان حتى ذاك العهد على استيراد المرمر من الأتيك (*Attique*) والجزر الايجية ولم يستخدموا مرمر ايطاليا في روما قبل عهد قيصر .

وليس اقل بياناً ان رومانياً واحداً لم يتذمر من هذه السيادة الأجنبيـة . فالتقليد الذي لا ينضب معينه في الكلام عن انتقادات كاتون اللاذعة ضد فساد الأخلاق والبذخ والفلسفة والشعر نفسه والطب عند الاغريق ، لا يروي عنه اي انتقاد ضـد فنهم : ولعله اكتفى بالاعتراض على عدد التماثيل المفرط – ولكن اصبح له تمثاله اخيراً – وعلى استخدام الصور الالهية لاهداف دنيوية. والحقيقة هي انهم خضعوا جميعهم للتيار ولم تبد المتع التي جنوها منه وخيمة العاقبة لاي منهم . ولم تفتهم قط حطة فنهم او بالاحرى عدم وجوده . نحن لا نشك في ان الوطنيين المثقفين قد تألموا من ذلك بعد ان زالت النشوة الأولى التي أثارها فيهم الاعتقاد بان هـــذه البدائع اصبحت منذئذ ملكاً لهم ، ولكنهـم لم يعترفوا باستذلالهم . فان شيشرون الذي بحث بشغف عن التحف اليونانية كي يزين بها مقاصفه والذي دفع ثمنها غالياً على الرغم من مشاغله الماليـــة قد تظاهر بنسيان اسم بوليكليت احتقاراً حين وقف خطيباً في جمهور كبير . اذا كان هذا الاسم قد راوده دونما جهد في القسم الاول من كتابه (*Tusculanes*) ، فانه بذلك يحاول تفسير خضوع روما حيال الفن اليوناني بلامبالاة الجدود المرعبة : « لو أدى لفابيوس الاكرام الخليق بوهبته التصويرية ، وهو رجل ينتمي الى ارفع طبقات الاشراف ، امـا كنا احصينا بين الرومان فنانين عديدين من امثال بوليكليت وباراسيوس ؟ »اما في الواقع ، فقد اكتفوا كلهم بعذر واه ، معلن او ضمني : كان للرومان ، فاتحي العالم وحكامه ، مشاغل اخرى اعظم شأناً .

النقـاشة

يجوز لنا والحالة هـذه ان نمر مرور الكرام بنتاج ليس رومانياً إلا بجنسية زبنه . فنقتصر خصوصاً على الفنون العظمى .

ان منتجات النقاشة لا يحصى لها عد . فالدولة ، او بالأحرى القضاة الذين يمثلونها والذين تباروا بنخاً بالاسهام فيها بثروتهم الخاصة ، وزعت المزيـــد منها على الساحات العامة والأبنية القديمة او الحديثة في « المدينة » . وقد بلغ من زحمة الفوروم بتماثيل النبلاء التي أقامها ذووهم او المعجبون انه تقرر ، منذ السنة ١٥٨ ، ان يزال منه كل تمثال لم تصدر اجازة رسمية باقامته . ولم يهمل الأغنياء متعتهم الخاصة ومقتضيات العرف السائد فزينوا منازلهم في المدينـــة ومقاصفهم وحدائقهم . وحدث مثل ذلـــك في جميع انحاء ايطاليا حيث سارت المدن الصغيرة على خطى المدينة الكبيرة . فقامت حركة لا تقاوم ، شبيهة بتلك التي جرّت وراءها المجتمع الهليني منذ أواخر القرن الرابع ، مقتبسة طرائقها وتحقيقاتها على كل حال ، على انها أقوى منها لأنهـــا

اقل ذوباناً في الزمان والمكان وأوفر موارد مادية ، فجرّت وراءها كل المجتمع الايطالي الرفيع والمتوسط .

لا ينتظر من هذا الانتاج ، الرائج والوفير ، كما لم ينتظر ذلك من قبل من الفن الهليني ، ان يكون في مجموعه انتاجاً من النوع الاول . ونحن نميـل ، امام غزو الفن الاجنبي الذي لم يتجدد لمنفعة زينه ، الى الاسف لما حلّ بالميزات التي برزت في فن القرون الاولى من العهد الجمهوري ، بانقصائها الى مرتبة دنيا ، ان لم يكن باضمحلالها اضمحلالاً كلياً . فلو حوفظ عليها بأن يوضع في خدمتها ما امتلكه الفن اليوناني ، لزمن طويل، من تقنية وقوة منطق وأناقة وتحريك العواطف، لأدّى ذلك الى نتائج ذات قيمة كبرى .واذا ما استمر انتاج الصور الواقعية، فانها قـد بيعت لغير اعضاء الطبقات الاجتماعية العليا ، وما كانت لتطلب من الفنانين المتمتعين ببعض الشهرة : فللتماثيل النصفية والنقوش الناتئة في الانصاب المدفنيـة ، آنذاك ، أهميتها كـمستندات عنصرية واجتماعية ، لا كتحف فنية .

على الرغم من ذلك ، ترك لنا هذا العهد بعض النقوش الجميلة ، ويحاول الاختصاصيون اليوم تعيين تواريخها بغية تبيان تطورها . ليس من ريب في ان أهم عهد ، بهذا الصدد ، هو القرن الاول ، حين استطاعت مفاعيل الثقافة المتبادلة ان تستقر وتحدّد بعض النزعات وتشرع في نشر بعض المذاهب . وتهتم المصادر القديمة اهتماماً كبيراً لحالة اغريقي من ايطاليا أصبح مواطناً هو باسيتيليس الذي بلغ قمة الشهرة منذ زمن سيلا وتتلمذ عليه كثيرون ممن بلغت الينا أسماؤهم حتى ما بعد العهد الميلادي . وتصفه لنا عالماً بأصول الفن وممارساً النقاشة . ولكن لم يصل الينا شيء مما صنعته يداه . وهكذا ، باستثناء حالات نادرة جداً لا شأن علمياً لها ، فان كل ما وقعنا عليه غفل ، وما زالت تواريخ التنفيذ التي يهمنا معرفتها موضوع جدل حاد .

لنستعرض اذاً أهم هذه الآثار دون حاجة منا للتعرض لهذا الجدل . فنذكر مثلاً بعض تماثيل نصفية جافة الوجوه آذاها الهوى، ذلك الهوى نفسه الذي سيطر على المدافعين العنيدين عن هذه الفكرة او تلـك في الحروب الأهلية التي اندلعت في زمن ماريوس وسيلا . ونذكر ايضاً تمثالاً لبومبيوس وآخر لشيشرون وآخر لقيصر يتجلّى فيها التحليل السيكولوجي العميق : ولم تقصر امانة الصورة فيها بالتعبير الجليّ والعميق . ويجدر بنـا ان نشير خصوصاً الى نقشين ناتئين ، احدهما في مونيخ والثـاني في اللوفر يعودان الى مذبح دوميتيوس اهينوباربوس . فقد قرّ الرأي تقريباً على انها إحياء ذكرى تأسيس،نارونا على يد احد جدود ناقشها ، في السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري على الارجح . وهما انتاج فنانين مختلفين ، وعلى الرغم من ان المشهد الميثولوجي الممثل في النقش المونيخي على جانب كبير من المهارة والظرف ، فان النقـاد يعلقون مزيداً من الاهمية،على ما يتصف به من جفاف وتصنع،على نقش اللوفر الذي يمثل ذبيحة ومشهداً رسمياً اما لتسريح الجيش ، واما لتسجيل المواطنين المعدين لاستيطان المستعمرة الجديدة كما نرجح. وان

مثل هذه القطعة لدليل على استمرار النزعة الخيرة ، اقله عرضاً ، الى معالجة المواضيع التاريخية بنبل ، وهي نزعة ستلهم الكثير من روائع الفن الامبراطوري التي لا اعتراض عليها .

هندسة العمارة

كان على هندسة العمارة ، شأن النقاشة ، ان تواجه تزايـــداً عظيماً في الطلب . وقد وجدت هندسة العمارة بواعثها ، ونماذجها الكثيرة ايضاً ، في ابتكارات التجميل وتزيين الأبنية التي حققتها الحضارة الهلينية . أضف الى ذلك انها تفوقت على النقاشة في مطابقة الميل الروماني الى التقنية المتينة والمادية التي تتيح للبشر إثبات وجودهم على هذه الارض.

بنى الرومان كثيراً ، عمداً على عين ، بغيـــة إعلاء روما فوق العواصم الكبرى في العالم المتوسطي ، والمدن الايطالية الصغرى اقله الى مرتبة شبيهاتها اليونانيات . ولكنهم في الظروف العادية بنوا بلا تبصّر ، دونما تخطيط جامع . وكان هذا الشتات ثمناً لتعاقب القضاة وتنافسهم . وكان على مجلس الشيوخ ، تلافياً لذلك ، ان يقوم برقابة مستمرة : ولكنه شغل بأمور أخرى ولم ير الأشياء من زواياها الطبيعية ، على هذا الصعيد ، بتأثير الفطنة المحافظة ، والحقيرة طوعاً. ولذلك لا نشاهد برنامجاً حقيقياً ، لا مـــن حيث وفرة الأبنية الجديدة فحسب بل من حيث تلاحمها الداخلي ايضاً ، إلا حين عادت السلطات الادارية ، او اقله السلطة الادبية ، لفترة طويلة نسبياً ، الى الشان تتوفر لديه الاموال الضرورية ويرغب ، على غرار المستبدين او الملوك اليونانيين ، في تأمين العمل للكتل العماليـــة وافتتان الجماهير الشعبية بالتباهي بسخائه وفرض ذكره على الاجيال اللاحقة . فحدث ان توفرت هذه الشروط مجتمعة في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، حين لم يعرف ارتقاء الطامعين حدوداً . فحتى ذلك العهد اقدم هذا القاضي ، او هذا القائد خصوصاً ، على نذر معبد ، وذاك الاخير ، لا سيا بين قضاة الاحصاء الذين كانت الاشغال العامة احدى مهامهم الرئيسية ، على تشييد معبد ملكي – كان كاتون اول من شيّد معبداً ملكياً أطلق عليه اسم بوركيا (*Porcia*) باسم عائلته ، ثم سار على خطاه كثيرون غيره – او رواق او مستودع . لكن الدكتاتورين سيلا وقيصر ، وبينهما بومبيوس ، كانوا أرحب أفقاً فصمموا أبنية كبيرة غير مألوفة ، ومجموعات ايضاً ، وأنفقوا في سبيل تحقيقها دونما حساب بقدر الغنائم التي كدّسوها .

يجب ان تضاف الى هذه الابنية المعدة للاستعمال العام المنازل الخاصة التي تزايدت حتى في الريف بفضل القاصف : منازل بسيطة جداً يتكدس فيها الوضعاء متألمين من عدم توفر الاسباب الصحية وغلاء الأجور ، ولكنها اعظم اتساعاً وزهواً من ذي قبل بسبب نمو الثروات والسعي وراء الرفاهية ، ووراء البذخ الصاخب في اغلب الأحيان .

توجب اذن على مهندسي العمارة ان ينهضوا بعمل ضخم لا سيا في روما . وكان لعدد هـذه الابنية والسرعة في انجازها نيول سنحددهـا تحديداً افضل لدى دراسة هندسة العمارة في العهد الامبراطوري الذي اتصف بها للاسباب نفسهـا . لم يكن استخدام الملاط ، وسد الفراغ في

الجدران بالرضام ، والترميد والتلبيس التزييني اموراً مجهولة في المنطقة المستغرقــة ، فاضطر المهندسون الى اللجوء اليها بصورة قياسية . وكذلك ، فاننــا لن نستعرض ، الا بمناسبة درس الامبراطورية ، اهم نماذج الابنية : ظهر بعضها آنذاك ولكنها لم تعم الا فيما بعد . يكفي الآن القول بان ما يمكن رده منها الى اصول رومانية ليس كثيراً ، لا بل ان اكثر من معبد قد بني آنذاك على الطراز اليوناني . وقد اتى التكيف الضروري بطيئاً جــداً ، وكان حصوله وفاقاً للتقاليــد القومية ، من جهة ثانية ، اقل منه وفاقاً لحاجــات المجتمع الرومــاني والعادات الرومانية .

فلنحاول بالتفصيل اعطاء فكرة عن العمل الذي حققه « الأباطرة » العظام في القرن الاول والذي يبشر اتساعه بالتحقيقات الضخمة في العهد الامبراطوري .

لسنا نعرف معرفة تامة ما انجزه سيلا في روما بسبب اعمال الترميم والتحوير اللاحقة . بيد اننا نلاحظ انه اعاد تنظيم حي الفوروم القديم رابطاً بينه وبين مرتفع الكابيتول المشرف عليه من الشمال الشرقي . وشيد بين قمتي هذا المرتفع دار المحفوظات التي اطلت على الساحة العامة بجبهة تبلغ ٧٠ متراً طولاً مستندة الى اساس يعلوه رواقان من القناطر . ونرى ان هذا الطابع الفخم ، تتصف به هندسة تستمد نوعــاً من التزيين المسرحي ، كما اعتمد من قبل في برغاموس عــاصمة الاطاليين ، ولكن بتناسق يتفوق والنمطية الرومانية ، اشد بروزاً في معبد اله الحظ في برينستا الذي رممــه ووسعه : كان هنالك عشرة سطوح منضدة على منحدر الجبل ، مــع ما يرافقها من اروقة وسلالم ، تؤدي الى بناء مستدير ذي قبة ترتفع ١٢٠ متراً فوق قاعدة الجبهة . وليست هذه المدينة الوحيدة في ايطاليا التي استفادت من سخاء الدكتاتور .

اما بومبيوس فقد شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول . فبعد عودته من الشرق ، شيد فيه اول مسرح مبني بالحجر في المدينة ، ومعابد عديدة ورواقاً ذا اربعة صفوف من الاعمدة تحف بالحدائق ، وبناء لجلسات مجلس الشيوخ .

اما قيصر فقد قصد ان يبز سلفيه . ولا سبيل لعمري لاحصاء كافة الاعمال التي قام بهــا في روما وايطاليا وحتى في الولايات . فهو قد شرع بشراء الأراضي وتنفيذ الاعمال خلال حملاته على غاليا ، قبل ان يصبح دكتاتوراً ، وشيد المعبد الكبير « جوليا » الى جانب الفوروم القديم . ولم يتردد في تنظيم الفوروم الجديد بعد ان نزع الاتربة والانقاض من ارضه . وقد استخدمت هذه الساحة الفسيحة – ١٦٥ م × ٧٥ – المحاطة بالاروقة ، اطــاراً لمعبد نذره ، يوم انتصاره على بومبيوس ، للإلهة التي جعل منها جدة عائلته ، فينوس الام . وقد انتصب قبالة هذا المعبد تمثال الدكتاتور ممتطيا حصاناً مفلوّج الحوافر على غرار اصابع الانسان كان العرافون قــد تنبأوا بان مالكه سيسيطر على العالم .

هكذا قدّمت روما في تجهيزاتها وابنيتها الجديدة الدليل على التغييرات في نظامها السياسي

واخذت ترتدي شكلاً خليقا بقوتها وثروتها وخليقاً ايضاً بالرجل الذي تولى فيها السلطة . لاشك في ان التطورين، البنائي والسياسي ، سيحدثان على كل حـــال وان الموازاة بينهـما ستظهر ايضاً : فالطبيعة البشرية ، في وضع روما آنذاك ، كانت تستدعي ذلك . ولكن ما حدث انما حدث بسرعة بتأثير من سنى الحضارة الهلينية الساحر: فقد عينت هذه الاخيرة الابنية الواجب تشييدها وقدّمت اليد العاملة القادرة على النهوض بهذه المهمة بفضل تعليمها مثلاً اعلى في العظمة لا ترضى السلطة معه ، اقله التأثير في مخيلة الجماهير ، باطـــار عادي هو دليل الشح والجهل . واذا نحن نظرنا الى ملكية قيصر من زاوية برنامجها الفني ، لرأينا انها هلينية لا رومانية .

ولكن مدينة كبرى لا تتجدد في فترة دكتاتورية دامت سنوات معدودات . فقد توفي قيصر باكراً جداً . غير ان المثل الذي اعطاه سيراود الاباطرة ابداً .

٢ ـ التطور الفكري

على الرغم من ان الحياة الفكرية في روما قد تأثرت بالحضارة اليونانية ايضاً ، فانها تتصف بمزيد من التميز . فقد كانت الحضارة اليونانية لها مهذباً وقدوة. ولكن مجرّد الاستقلال اللغوي قد تنافى والنقل بلا شرط ولا استثناء الذي سهل تحقيقه بصدد النتاج الفني . كما ان الحاجة الترجمة ، بالاضافة الى ما اوجدته من اتصال اوثق اتضح انه أعظم فائدة من حيث الاساليب ، قد افضت اقله الى التغيير والتبديل . وقد تفاوت عمق التبديل ومدى الاضافات الشخصية التي كان هو منطلقاً لها باختلاف المؤلف واللون الادبي والعهد . وقد تطلع بعضهم ، بعـــد تفكير عميق ، بشطر الذرى يدفعهم الى ذلــك حنان متغطرس نحو وطنهم تجيش به قلوبهم . فصمموا على استخدام مرونة مهارة الفكر واللغة والنسق التي اعترفوا بأنهم مدينون بهــا الى المؤلفات الاجنبية رغبة منهم في ان يجعلوا لروما تراثاً فكرياً يتفق والنزعات القومية الخاصة التي يعود الفضل في بقائها او يقظتها اليهم . واذا لم يحالفهم النجاح التام في كل الحقول ، فانه قد جاء هنا وهنالك نجاحاً لا جدال فيه . وعند زوال الجمهورية كان الرومان قد تجاوزوا مرحلة الوعود . ففي نطاق بعض النشاطات الفكرية ومعرفة بعض العواطف والتعبير عنها تراهم وقد قطعوا مرحلة التلمذة والشراء فيما يعود لبهجة نظرهم وتزيين مدنهم ومنازلهم .

١ ـ اليقظة

شعب فلاح وواقعي

ان التركيب العقلي في شعب من الشعوب ابعد من ان يبدو ، بعد التحليل ، حاصلاً بسيطاً ، كما انه لا يلتبث كما تلتبث النظريات الهندسية . ولكن من يحاول تحديد وفهم هذا التركيب عند الرومان ، يرى ان مفهوم الشعب الفلاح حقيقة ملازمة لا تقاوم . فان عامة الشعب الروماني التي تعيش من نشاطها التجاري تتميز منذ عهد مبكر

باختلاطها وتأثرها بالتيارات الكثيرة وبقلقها واندفاعها وحتى بقابليتها. ولكنها لا تحمل الناس على الانقياد لقدوتها. فروما لاتينية وايطالية قبل ان تكون رومانية بالذات بما لهذا التعبير من مفهوم ضيق ومدني. فان ما يعتد به في الدوحة الاولى هو الارستوقراطية الحاكمة والطبقة الوسطى اللتان تتألفان في أكثريتها من الملاكين الريفيين القريبين من الارض المتهمكين باستثمارها شخصياً المتفانين في الدفاع عنها الموزعين اوقاتهم بين الحقول والجيش ومناقشة الشؤون العامة.

هل من داع للدهشة، والحالة هذه، اذا ما ساد الحس العملي والواقعي والملموس؟ فهو قد سيطر على اللغة نفسها التي لم تدخل عليها التعابير المجردة الا في عهد متأخر نسبياً دون ان تتمكن يوماً من تبديل التيارات الصرفية والانشائية التي فرضتها عليها سمتها الاولى. وقد قام احد علماء اللغات ممن يحسنون اكتشاف الفوارق الدقيقة بدراسة «اللاتينية لغة فلاحين» و «اللاتينية لغة المحسوس» فانتهى الى ان اكثر من كلمة ذات معنى ادبي تشتق من الحياة الريفية كـ (*Egregius*) مثلاً (وهي تعني اشتقاقاً «المفصول من القطيع»)فاصبح معناها بالتالي «السامي»، «الجيد».

وعلى الصعيد العقلي تميز الشعب الروماني بميل قليل نحو العلوم، لا سيا المجردة منها كالرياضيات، ونحو الفلسفة، وهما النطاقان اللذان شغف بهما الفكر اليوناني وغالباً ما خلط بينهما. اجل لم يعوز الرومان التفكير او الميل الى التنظيم المنطقي. ولكنهم آثروا تطبيقهما على الواقع القريب وعلى الابحاث ذات المنفعة المباشرة. ولن تغريهم العلوم قط إلا بتطبيقاتها العملية: الاحصاءات، الاشغال العامة، الشؤون المالية، المساحة، الزراعة، الخ. ومن حيث ان الروماني مجدّ وصبور وكثير التدقيق، فانه يراقب نفسه، ويطيب له درس الاخلاق وما يفضي اليه من قدح بتفاوت عنفاً وسخرية؛ ومن حيث هو عضو في مجموع، يستهويه الاهتمام بالاحداث السياسية والاجتماعية التي يطيب له تقديرها ومحاولة فهمها؛ وهو يعتز بماضي عائلته ووطنه ويريد ان يجد فيه دروساً للمستقبل. وهذا ما سيملي عليه موقفه حين يواجه نظامين فكريين: فالتاريخ سيستهويه دراكاً لا بما يعرضه من حقيقة مجردة عن الغاية بل كامثولة في السلوك الفردي والجماعي؛ اما الفلسفة فستستهويه بقدر ما تكون سيكولوجية اخلاقية وتحليلا لانظمة الدول والمجتمعات لا نسجاً نظرياً فحسب. ولم يفته اكتشاف ما للكلام من قوة في النظام الجمهوري، ولكن ما اعتبره اعظم قوة هو السلطة التي توفرها للمواطن الممتاز، كما حدده بلوت، «الثروة والثقة والاعتبار والجد والحظوة»، بحيث ان البيان المنمق لم يغره قط. وبالمقابلة، افضى به عنفه الشديد وحرصه على المصلحة والعمل الى ابتناء نظام فكري جديد هو نظام القانون: فلم يظهر الفكر الروماني في اي حقل آخر، وبشكل افضل، طاقاته العقلية واستعداده التصميم المنظم وحتى لحدة التصور، شرط الانطلاق من حالات حسية والخلوص في درسها الى وسائل حل سواها.

يجب ان نحذر الاوهام بصدد وضوح ومتانة مثل هذا التسلسل : فان التاريخ والعلوم التي تتناول معطياته لا تستطيع حتى اليوم – وهل سنستطيع ذلك يوماً ؟ – اثبات طابعه الكافي والضروري . من اليسير ان نعزو ما حدث الى بعض الجذور ، ولكنه من البساطة الكلية الاعتقاد بان ليس هنالك جذور اخرى او بان الجذور التي اكتشفنا ما كانت لتنبت فروعاً اخرى . فكم نوابت مجهولة اجهضت يا ترى ؟ وما هي التآليف الحقية المتسعة التي اتاحت تتنح ما ازدهر من هذه النوابت ؟

مهما يكن من الامر ، فليس ما ورد في بحثنا سوى امكانات فقط ، قد لا تكون الوحيدة على كل حال . وكان لا بد من تحقيقها .

اليقظة البطيئة والعسيرة

ولكن تحقيقها كان ابطأ منه في كثير من الحقول الاخرى . فقد اجمع التقليد على واقع هذا البطء لا بل اعلنه اعلانا : لم يشعر الرومان يوماً بكبرياء لا طائل تحته في تقديم تاريخ يقظتهم الفكرية ولا في انكار فضل الأجنبي عليهــا اي ، فيما يعنينا ، فضل الاغريق الجلي المباشر .

قد تقضي بنا معرفة الاتروسك والشعوب الايطالية معرفة اكمل الى اطالة لائحة اقتباسات روما القديمة عنهم . ولكن هذه اللائحة حتى تاريخه موجزة جداً . فليس من ينكر اليوم بان روما مدينة بابجديتها للاتروسك الذين استمدوها من اغريق « كوم » على الارجح . امــا عن الشعوب الايطالية فقد اقتبست في عهد منبكر ، لاغانيهــا البطولية الشفهية التي كانت تتلى في الجنــائز والمآدب ، الشعر « الساتورني » المتميز بوزن تتخلله المقاطع القصيرة والطويلة . وقد احتفلت معهم باعياد شعبية يطلق فيها العنان للتنكر الهُجري والقدح الهــازل ؛ ثم اعتمدت رسمياً ، في السنة ٣٦٤ ، الألعاب المسرحية على الطريقة الاتروسكية التي اشترك فيها الراقصون والممثلون الهزليون المحترفون ، فادخل ذلك بعض التنظيم على هذه الاعيــاد ، ولكن المسرح اللاتيني ، حين قام واقتفى اثر المسرح اليوناني ، قد حافظ على بعض هذه الغرابات .

اما ما تبقى فيغلب ان الاغريق مصدره المباشر منذ ذاك الحين حتى اواخر القرن الرابع . ولا يتردد البعض في هذا الاعتقاد .

تضعنا الشريعة التي حفرت ، في أواسط القرن الخامس ، على « اثنتي عشر لوحة » من الشبه ، امام مسائل كثيرة . فهي اجلّ أثر من آثار الادب القومي ، وقــد استخدم نصها زمناً طويلاً لتدريس التلامذة . ونحن لا نعرفها إلا عن طريق استشهادات مجزأة لا يتيسر جمعهــا وفاقاً لترتيبها الاصلي بصورة أكيدة . اضف الى ذلك عقم البحث فيها عن نظام قانوني حقيقي : فهي قد وفّرت سلسلة من القواعد المختلفة المصادر التي يعود بعضها الى ماض جاف وينم بعضها الآخر عن أفكار أكثر انسانية . واذا ما صدّقنا التقليد ، فقد استلزم تحضير تحريرها ارسال مفوضين يستفسرون في البلاد اليونانيــة ، حتى اثينا ، عن شرائع صولون . بيد ان الرومان يتباهون

باطراء تفوق القانون المدني الذي حدّدته على قانون أية مدينة يونانية . ولكن قيمة هـذا التقليد وهذا الحكم موضوع نقاش بين المعاصرين . وتقوم أهمية هذه الشريعة التي لا نزاع فيها في انهـا حددت ونشرت للمرة الاولى قانوناً واحداً لكافة المواطنين . فاذا كان جلياً ان الرومان قد استوحوا في عملهم هذا المثل الذي أعطاه الاغريق منذ زمن بعيد ، فان هـذا التأثير سياسي واجتماعي لا فكري .

هل يجدر بنا ان نذهب الى ابعد من ذلك بصدد ابيوس كلوديوس « الاعمى » قاضي الاحصاء المعظم في السنة ٣١٢ ؟ فهو قـد تقدم الرومان النبلاء المولعين بالالسنية فطبق الابجدية على العلم اللاتيني في تركيب الاصوات . لم يكن حرف *C* الأصمّ كافياً لهذا العلم ، فأوجد من ثم ، — ولكن الرومان لم يتخلوا عن عادة كتابة « *Caius* » الذي يلفظ *Gaius* — الحرف *G* وأحله محلا أصبح شاغراً بعد إقصاء الحرف *Z* النافل . وكرّس زوال الحرف *S* بين حرفي علة وابداله بالحرف *R* : فـ « *Fusius* » مثلاً أصبح « *Furius* » . وقد تقدم ايضاً ، على ما نعلم ، سلسلة نبلاء الرومان الذين افتخروا بالكتابة المفيدة ، في مواضيع عملية ، فألّف بحثاً قانونياً ومجموعة حكم اخلاقية منظومة . وقد رأى بعض القدماء أنفسهم ، في هذه الحكم ، أثر حكم بيثاغوروس الذي ما زال مذهبه منتشراً في اليونان الكبرى والذي تجعل منه الاسطورة معلّم الملك نوما. ولكن النتف القليلة جداً التي بلغت الينا من مؤلفاته لا تسمح لنا بالفصل في ما دان به هـذا المجدّد للحضارة الهلينية .

سرعة انتشار اللغتين معاً

غير ان بعض الشيوخ الرومانيين ، منـذ هذا العهد ، قـد تكلموا اللغة اليونانية . ولكنهم كانوا عادمي الحذاقة فيها: ففي السنة ٢٨١ استقبل احد الموفدين الرومانيين بسخرية سامعيه حين خاطب سكان طارنتا بلغتهم . ويدل ذلك ، فيما يدل ، على ان المجتمع الراقي ، الذي يغلب انه امتلك عبيداً يونانيين او مستغرقين واستخدمهم « مربين » ، قد شعر بحاجة الى « لغة ثقافـة حين لم يجد في التراث القومي ما يرضي بعض الاذواق ». وما لبث فتح ايطاليا الجنوبية، ثم فتح صقليا بفضل الحرب البونيقية الاولى ، ان زادا سرعة هذه الحركة .

ارتفع عدد العبيد الاجانب ارتفاعاً عظيماً . وأتى رجال أحرار وأقاموا في روما وفتحوا، على غرار المعتقين مدارس علموا تلامذتهم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية في آن واحد . فتعين اذ ذاك ، لقرون عديدة ، استخدام اللغتين على كافة العائلات التي فرضت على أبنائها متابعة دروس لا تقف عند حد الدروس الابتدائية . وما كان هذا المثل الأعلى ليبقى اضغاث احلام ، وليس نجاحه الشامل في حقل التربية اقل ما يدعو الى الدهشة في تاريخ روما الثقافي .

منذ اواخر القرن الثالث واوائل القرن الثاني أصبح باستطاعة بعض الرومان العريقين ان يضعوا باللغة اليونانية مؤلفات هامة . فان موفد مجلس الشيوخ الى دلفي بعد معركة « كانا » ،

ك . فابيوس بيكتور ، قد كتب باليونانية « اعمال الرومان » ، وحذا حذوه احد معاصريه : ويبدو ان ما دفعها الى ذلك ليس حرصها على تأدية الاكرام الواجب لمهارة المؤرخين اليونانيين التي ما كانت اللغة اللاتينية لتسمح لها ببلوغها ، بقدر رغبتها في تعريف الاغريق بماضي مدينة اخذت عظمتها في الامتداد الى عالمهم . ولم ينتظر كاتون نفسه سن الشيخوخة ، على الرغم مما جاء في تقليد معين ، حتى يتعلم لغة شعب بدا له انحطاطه داءاً سارياً : فقد كان في الخامسة والعشرين حين أتاحت له مصادفات الحرب البونيقية الثانية وبطاقات السكن ان يتلقى دروساً في البيثاغورية في طارنتا ، واذا هو امم استخدم ترجماناً خلال جولته الدبلوماسية في اليونان ، فقد تظاهر بالجهل ، كما يوضح بلوتارك ، بدافع من الفطرسة القومية ، وفي العقد الاول من القرن الثاني بدا بطل « سينوسيفال » تيتوس كوينكتيوس فلامينينوس ، للاغريق كواحد منهم يحادثهم ويداعبهم : وقد حررت ونقشت باليونانية كتابة اهداء التمثال الذى نصب له في روما . وقد نشر والد الاخوين غراكوس خطاباً ألقاه في رودوس باليونانية : ومما يثير الدهشة عدد المفردات اليونانية التي يستعملها حتى الكتاب الذين يوجهون كلامهم لحشد شعبي « كبلوت » مثلاً – وهذا يكفي لاستبعاد المقارنة بينه وبين رونسار – مقتصرين على انهائها وفاقاً للطريقة اللاتينية : ومن حيث ان عامة الشعب المدنيـــة هي في الاصل مختلفة الاجناس وتشترك بفضل حركة المرفأ التجارية ، في حياة اعظم اتساعاً ، فانها قد احتكت باليونانية على الاقل في اختلاطها اليومي بالعبيد والمعتقين .

شعراء العظمة الرومانية الأولون

ولكن غزو اللغة هـــذا ، من حيث هو رافق في الزمان نقل روائع الفن اليوناني بالجملة الى روما ، قد أسفر عن نتائج مختلفة جداً . فبدلاً من ان ينجم عنه استسلام فاتر ، رافقه مجهود واع لتزويد روما بشعر لاتيني . بدا الادب أبسط بوادر النشاط الفكري ، لأن اللغة واقع راهن ، ولأنه في متناول الجميع . وقد وفر الشعر ما لم يحسن توفيره النثر المخصص للحاجات التقنية التي لا شأن للفن فيها ، أي شكل التعبير ، وهو أكثر اغراء ، بفضل روابطه بالموسيقى ، وأكثر انطباقاً على حاجات الحيـــاة الدينية والجماعية ، بفضل تسهيلاته التذكيرية . وقد نهض بهذا المجهود الاختياري للتواصل أسمى النبلاء اعتباراً بالاتفاق مع الاجهزة الرسمية . فطلب مجلس الشيوخ قصائد تناسب الظرف خلال الحرب البونيقية الثانية ، وشجع التمثيليات المسرحية بمضاعفة الالعاب وزيادة مخصصاتها ؛ واجاز إنشاء هيئة من الممثلين والمؤلفين تجتمع في احـــد المعابد . قلما احرزت هذه المشاريع نجاحاً تاماً ، ولكن يجدر بنا حقاً ألا نستهزىء بالنتائج .

لم يكن المؤلفون الاولون من اصل روماني . انتسب باعث الحركة ليفيوس اندرونيكوس (*Livius Andronicus*) الى طارنتا التي جعل منه احتلالها عبداً – في الثامنة من عمره اذا كان المقصود حادثة السنة ٢٨٢ . أصبح مربياً في عائلة من قبيلة (ليفيا) الكبرى وأعتق منذ السنة

٢٤٠ كأبعد حدّ حين أخرج أولى مسرحياته « القانونية » أي المنطوية على مغزى متواصل . وجاء الآخرون ، وهم من الاحرار ، من ايطاليا الجنوبية حيث استساغت الحضارة اليونانية ، منذ امدٍ بعيد ، طبقات بلدية كبيرة . اما نافيوس ، وهو مواطن اشترك في الحرب البونيقية الأولى ، فكان كمبانياً ، وان مطالبته بحرية القول التامة وجرأته في انتقاد العائلات الكبرى التي أدّت به الى السجن ، وربما الى الموت في المنفى ، لا يفسرها تشاغفه بمواطنيته الرومانية فحسب: اذ اننا نلمس فيها صدى الفردية اليونانية المتأججة . اما اينيوس الكالابري اخيراً فكان جندياً « حليفاً » في اواخر حرب هنيبعل حين اختاره كاتون وأحضره الى روما حيث حماه شيوخ نافلنون : ضمه احدهم الى حاشيته خلال حملة في اليونان واستحصل له ابنه على حق المواطنية . ففتح ، على غرار ليفيوس ، مدرسة يونانية – لاتينية في روما . يتضح من ثم ان الحضارة اليونانية انما اثرت في نشوء الادب اللاتيني عن طريق رجال طبعتهم الى حدّ بعيد بطابعها الخاص .

أبدى هؤلاء الرجال نشاطاً واسعاً جداً بغية تحقيق نتاج متميز في كل الحقول . فألف كل من الثلاثة في مواضيع شتى: المآسي والمهازل والملاحم وقصائد المناسبات، لا بل ان اينيوس قد وضع بعض الابحاث الفلسفية . وقد توجب عليهم النسج على منوال الاغريق الذين غالباً ما اقتصروا على تقليدهم ، لا بل على النقل عنهم كما فعل ليفيوس اندرونيكوس بصدد الاوديسه (*Odyssée*) . واستوحوا التمثيليات اليونانية ، فاختاروا لمآسيهم احداثاً ميثولوجية عالجها أوربيد من قبل ، او أي مؤلف يوناني سواه ، وجمعوا احياناً مهزلتين يونانيتين في مهزلة واحدة وفاقاً للطريقة المعروفة « بالإعداء » . ولم يتردد نافيوس احياناً في إلباس بعض مهازله اسماء يونانية صرفة : اكونتيزومينوس *Akontizoménos* « الرجل المصاب بالنبلة ») أو كولاكس (*Kolax* « المتملّق »). ولم يتراجع اينيوس، الذي أهمل الوزن « الساتورني » الممل واعتمد وزناً دونه مقاطع قلّد به وزن الشعر اليوناني ، أمام قصيدة تعليمية ، ورد فيها ان هذه او تلك من الأسماك أو من الأصداف ، لا قيمة لها إلا اذا كان مصدرها هذه او تلك من المدن اليونانية .

مهما يكن من علاقة هؤلاء الشعراء بالحضارة اليونانية ، فإنهم على الرغم من ذلك اعطوا الشعر اللاتيني استقلاله . واينيوس هو الوحيد بينهم الذي وصل الينا منه أكثر من نتف حقيرة: ٦٠٠ بيت شعر من ملحمة بلغت أبياتها ٣٠٠٠٠ . وهو لا يزال فيها متصنعاً ومتلبكاً على الرغم من تقدمه الملموس بالنسبة لسابقيه. فقد كتب: « لم يهتم أحد من قبلي لفن اتقان الكلام ». ولكنه، على ما يبدو ، افرط في هذا الاهتمام ، بينما هو ما كان ليستطيع الاعتماد على لغة مرنة وذوق سليم . لذلك فقد برهنوا كلهم عن تردّد وخشونة وصبوة . ولكنهم كلهم كانوا عند حسن ظن الارستوقراطية الحاكمة التي ما كانت لترضى بأن يبقى وطنها خالياً من الاناقة الضرورية . فعرفوا كيف ينشئون مسرحاً رومانياً، حافظ ، على الرغم من اقتباساته عن المسرح اليوناني،

على بعض التقاليد الابطالية التي كانت من جهة ثانية قد اثرت في المسرح في اليونان الكبرى وصقليا . وحاولوا بنوع خاص معالجة المواضيع القومية. ويبدو ان الأوديسّه نفسها التي نقلها ليفيوس اندرونيكوس – مهملاً الالياذة – قد اختيرت عن قصد لأنها تأتي بأوليس(l'lysse) الى ايطاليا ، وتوحي بأنها ملحمة ادرياتيكية لا ايجية . وازداد بروز الناحية القومية في مؤلفات نافيوس . فقد دعيت احدى مآسيه « رومولوس » ؛ وكان موضوعُ مأساة اخرى اسمها كلاستيديوم ، النصر الذي أحرزه الجيش الروماني ، في جوار هذه المدينة ، على الغاليين، حين أقدم القنصل م. كلوديوس مرسلّوس ، في السنة ٢٢٢ ، على قتل الملك(فيردومار) بنفسه . أما ملحمته فهي « الحرب البونيقية » التي تنطلق من« اينه »و«ديدون»، قبل ان تصل الى قصة الحرب الاولى ضد قرطاجة بما فيها المعاهدة النهائية التي وضع نصها شعراً . أما اينيوس فقد عالج مؤلفه المظيم« الحوليات »، (Annales)بجمل تاريخ روما بنَفَس ملحمي حقيقي احياناً ، أقله في القسم الأول الذي ينتهي بهزيمة هنيبعل ، بينما يتناول القسم الثاني ، على مر السنين ، الاحداث التي عاصرته .

وهكذا ، خلال ثلاثة ارباع القرن تقريباً ، اي من السنة ٢٤٠ حين اخرج ليفيوس اندرونيكوس مأساته الاولى ، الى السنة ١٦٩ حين توفي اينيوس ، كان مجهود المؤولين المتأثرين بجمال الادب اليوناني آخذاً بإعطاء ثماره : أفرغ الفكر الروماني الفخور بماضيه وبتميزه في قوالب لا يمكن ان تقتبس الا عن اليونان لانه لا يمكن تصور قوالب اعظم كمالاً .

بلوت Plaute

خلال العهد نفسه برز شعراء آخرون، ولكن شاعراً واحداً هو في نظرنا اكثر من مجرد اسم : بلوت ، الذي ولد ومات قبل اينيوس بخمسة عشر سنة تقريباً والذي يجب ان ندرسه على حدة لانه يختلف كل الاختلاف عن السابقين .

نحن هنا امام ايطالي من شمالي روما ينحدر من اصل شعبي على الارجح ويمارس اكثر من مهنة قبل ان يتعاطى المسرح ويتعلم اليونانية اتفاقاً ، كلما سمحت له حياته المضطربة بذلك في الأرجح . الآخرون احرار في التفكير بإرضاء وتثقيف جمهور راق . اما هو فلا اعتبار عنده الا للجماهير التي يعرف لغتها وآراءها السائدة وجهلها للدقة العاطفية وغبطتها الفطرية الزاخرة في ايام الاعياد . فهي الجماهير التي اخذ على نفسه اضحاكها معترفاً دون خجل بان المال الذي يدفعه له ملتزم المشاهد يؤمن حياته المادية . ولكنه ، بفعل قربه اليها ، يسر بإطلاق العنان لقريحته الشخصية . ولذلك فالمواعظ ليست قسمته ، واذا برز وطنياً يحتقر الاغريق راضياً ، فبدون غطرسة وادعاء وجفاء وتذمر ، بل اقتناعاً منه بواقع تفوق جلي تثبته الانتصارات المتكررة : لا تشغله قط ابهات ماضي روما ولا هموم المستقبل ايضاً . وليس في مؤلفاته ملحمة او مأساة. ولا يريد ان يكون سوى شاعر هزلي، مع انه طرق المأساة – المهزلة مرة واحدة في موضوع مقتبس عن الاسطورة، امفيتريون *Amphitrion* .

قبل ذلك بقرن، طرق سيراكوزي الموضوع نفسه بالطريقة نفسها : لذلك فبلوت لم يكن مجدداً. وهذه هي حاله في تمثيلياته الاخرى ، التي بلغت الينـا باتفاق هو اشبه بالمعجزة : فمن اصل الاحدى والعشرين تمثيلية التي اعتبرها فارون اصلية في عهد قيصر ، وصلنا عشرون تمثيلية كاملة ونتف من الحادية والعشرين . لا ريب في انه لم يضع النماذج الجـديدة ؛ ولكن يجب الا نأسف لذلك حتى نتمكن من الحكم على بلوت : فهو يتباهى بالانتحال رغبة منه في ارضـاء مشاهدين شغفين بالتمثيليات التي لا يعرفونها الا بما ذاع عن مرحها ، ونحن نعلم من جهة ثانية انه لا يحجم عن التركيب والتشويه كما يطيب له ذلك . وتسيطر الركاكة ايضاً على عقدة مهازله التي هي في نظره مجرد لحمة ينسج عليها المشاهد التي تعجبه . واذا كانت افضل « مهزلة جديدة » هلينية قد نوعت درس الامثلة البشرية والسجايا والعواطف ، فان بلوت لا يحفل لهذا الدرس ايضاً . وليس ابطال تمثيلياته سوى دمى متحركة او ادوار مكرسة : شيخ قاس او حليم ، شاب مبذر ، فتاة ذات جاذب ، عبد محتال ، تاجر عبيد وقح وطفيلي ، جندي مجيد ، الخ . الحياة مفقودة فيها ، والناحية الهزليـة صنعية مبتذلة . ولكن الضحك الجديد ينفجر من المواقف التي تبتكرهـا وتنوعها مخيلة لا تعرف الملل بجموح طليق من كل وادع لا يخشى التحكم ويثق بتوفير التسلية بالتسلي، فيكثر من المفاجآت والالتباسات والحركات والسورات في المهزلة . وينفجر كذلك من الكلمات وتصادم الاجوبة البديهية السريعة والدعابات والشراسات الكلاميـة التي تستخدم مفردات لا ينضب لها معين بفضل الاقتباسات المختلفة والمشتقات المضحكة المستنبطة . ويوفر التحريف اخيراً قسماً هاماً – بينما يسحر القسم الآخر بلمعان شعره – من القطع الغنائيـة المنشدة ، الغزيرة جداً اذ انهـا تشغل ثلثي التمثيلية احيـاناً ، التي تمثل تراث المسرح الايطـالي .

وهكذا فان بلوت ، على غرار شعراء عصره ، يفرغ في قوالب يونانيـة مادّة رومانية ، ولكنها مادة من طينة أخرى : لا العظمة الارستوقراطية التي تريد ان تسمو بالنفوس حتى تتفوق على نفسها ، بـل المرح الشعبي الذي يحييه نسغ التربة القادر . ومن المؤسف ان ينتهي الانحدار المادي والاخلاقي في عامة الشعب المدنية والاهتمام لكرامة رسمية الى وضع حدّ ، بعد ذلك ، لهذا الانفجار الطليق المستعذب .

٢ ـ مقاومة الحضارة اليونانية وانتصارها

كاتون والصراع ضد الحضارة اليونانية

ان كاتون نفسه لا يجسّد مثل هذه الحركة إلا بصورة جزئيـة ، زائلة ، وغير حاسمة على كل حال . اجل يجب ان يحسب حساب لبلاغته حيث لا يعوز حدّة المعنى ، في المبنى ، لا الافتنان ولا الجرأة : عشرون سنة فقط تفصل ولادته عن ولادة بلوت ، واننا لنجد في بعض نبرات قريحته الساخرة « الرجل الجديد » المتحدر من طبقة الفلاحين ، ان لم يكن من طبقة الكادحين . ولكن التبدل الحاصل تبدّل في

الفكر المتصلب تصلباً يائساً في صراعه دفاعاً عن مفهوم قديم – لا بل ضيّق -- الحضارة الرومانية والحضارة الايطالية في الوقت الذي برز امامها المزيد من الامكانات لكي تطلا على بشرية ارحب .

ان هذا الانسان بفضل الدور الذي يريد ان يلعبه : ولا تتوصل خشونته المصطنعة الى اخفاء ثقافته . ووراء دوره الاجتماعي وقيمته كمثل اجتماعي اللذين اضطررنا للالماح اليها اكثر من مرة، يجدر بنا انلا نصغّره لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الأدبي. وليس كونه اقدم ناثر لاتيني وصلت الينا بعض آثاره ما يسترعي الاهتمام فيه، ولا يمكن من جهة ثانية ان يكون الاهتمام له من هـــذه الزاوية الا نتيجة مقارنته بمن سبقوه ، وهذا امر مستحيل . ولكن غرابتـــه عظيمة ومؤلفاته اعظم . حرص على الديومة بشهرته وعمله وعرف ان المناقشات السياسية لا تؤمّنها ، فصمم على الكتابة وكتب ونشر دون كلل. ليس من لون ذي شأن الا وطرقه : خطب وادب وتاريخ وحِكم وقانون وفن عسكري واقتصاد ريفي . وقــد جدد معـالم هـــذه الالوان احياناً ، كما فعل في التاريخ الذي طارد فيه غطرسة الاشراف حتى انه لم يذكر في « الاصول » اسماً علماً غير اسم احد فيلة بيروس ، والذي وسع آفاق دراسته فتخطى روما الى ماضي المدن الايطالية . والشعر في نظره تبلد ؛ ولكنه اكتشف اينيوس ، ولم ينتقد الا في عهد متأخر جداً، الحـــاية ، النفعية في نظره ، التي احاطه بها نبلاء يكرهم . وقد استسلم عند الحاجـــة الى الصنعة الفنية ولكنه حاول اخفاءهـــا جهد المستطاع . وهو قد آثر في كل ذلك الظـــاهر الخشن على الواقع .

ولكن انى لنا ان ننسى انه يوجه الى الفكر الاجنبي ، اي اليوناني ، تهماً واحقاداً تعميه ؟ فهو لم يرض سوى مرة واحدة بالتمييز بين الاطلاع المفيد على ادب الاغريق الذي قد ينطوي على اشياء ممتازة وبين درسه المتعمق المضر . امطر بلوانحه الشنيعة كافة اعجـــادهم : سقراطهم ، الفصيح الثرثار الفاسد ؛ وايزقراطم ، التافـــه ؛ واطباؤهم السفاحون المحلفون لتقتيل جميع « البرابرة » ، الذين لم تعوزهم الحيلة لايجاد الثقة في حمل المرضى على دفع اجورهم . ان في مثل هذه المبالغات مثاراً للقلق في كل نفس .

كان النجاح حليف الحركة التي جسدها ، في فترات قصيرة ، ضد الفلاسفة وعلمـــاء البيان الذين يلقون دروساً غموميـــة ، ولا سيا ضد الابيقوريين ، الذين تمنى احدهم ، فابريكيوس – فابريكيوس روسو – منذ اوائل القرن الثالث ، لو ان مذهب « اللذة » يستهوي اعداء روما دون غيرهم : في السنة ١٧٣ اقصي اثنان من ممثلي هذه الطائفة . وبعـــد ذلك باثنتي عشرة سنة اتخذ تدبير مماثل بحق جميع الباقين بتهمة تعلم مبادىء نظرية وعملية تسيء الى المبادىء الاخلاقية التي يرتكز اليها بناء الدولة . ولكن جاء غيرهم ، حتى من برغاموس واثينا احيـــاناً ، بصفة موفدين : فاستفادوا من الانتظار الذي يفرض عليهم والقوا المحاضرات . ويعود اشهر حـــادث

من هذا النوع الى السنة ١٥٥ حين اوفد الاثينيون ، على جناح السرعة ، الى مجلس الشيوخ ، رؤساء المدارس الفلسفية الثلاث الرئيسية ، الرواق والكلبية والأكاديميا . فكان ان ممثل هذه الاخيرة بنوع خاص ، وهو كرنياد ، قد سحر مستمعيه بالرشاقة الجريئة التي اتصف بها جدله غيرَ الحافل بالآراء السائدة والقادر على الدفاع ، على التوالي ، عن نظريات متناقضة . حينذاك استصرخ كاتون الناس على الفضيحة وحث مجلس الشيوخ على الفصل سريعاً في القضية الدبلوماسية ، « حتى يعود الموفدون الى مدارسهم ويناقشوا ابناء الاغريق ، وحتى يخضع ابناء الرومان ، كما في الماضي ، الشرائع والقضاة » . يتضح من ذلك وجه الخلاف : ترويض الفكر الفردي ويقظة الروح النقدية هنا وقبول الانظمة التقليدية ككل وكعقيدة هنالك . وهو لا يختلف في الحقيقة عن المسألة التي أثارها في وجه الاغريق ، في القرن الخامس ، تعليم السفسطيين . وهي مسألة حاضرة ابداً يجيب عليها كل منا على طريقته الخاصة . ولكن هل يحق لأولئك الذين ترفعهم هذه الأنظمة الى السلطة وتثبتهم فيها ان يفصلوا في هذه المسألة باسم المواطنين ؟ ومن يجرؤ على الجزم بان رومان ذاك العهد قد بلغوا التقدم الذي يتيح لهم طرح هذه المسألة على انفسهم ؟

ندوات الثقافة اليونانية في القرن الثاني

غير ان النظام المجلسي اعجز من ان يقدم على تنظيم حياة المواطنين الخاصة ، اذ ان من توفرت لديهم الوسائل المادية كانوا مطلقي الحرية في السعي وراء كل اناقة فكرية . فقد راجت رواجاً لم يسبقه نظير سوق « المهذبين » اليونانيين ، واخذ اوسع النبلاء نفوذاً ، ممن تفرض عليهم وظائفهم الاسفار المتكررة الى الشرق والاقامة فيه، يستميلون رجال الفكر من الاغريق ويستقبلونهم في منازلهم الرومانية استقبالاً ودياً ضنوا به على الفنانين الذين لم يميزوا بينهم وبين الصناعيين تمييزاً واضحاً .

تألفت من ثم عدة ندوات للثقافة اليونانية في الارجح. فكان هنالك ندوة في كنف الاخوين غراكوس ، وليس اقل ما يميزها الدور الذي لعبته فيها امرأة ، هي والدتها كورنيليا ، الراغبة في ان تؤمن لابنيها ، بعد ان اصبحت مسؤولة عنهما بفعل إرمالها المبكر ، خير تربية وتفتح صفات الرجولة فيهما. فبرزت ردة فعل محافظة عنيفة ضد بعض الأغريق ممن نسب لهم اعداؤهم تأثيراً مشؤوماً : فاعدم احد علماء البيان وطيباريوس وابعد فيلسوف رواقي .

وتنبئنا المصادر القديمة ، لا سيما بوليب وشيشرون ، بوجود ما اتفق على تسميته بـ « ندوة شيبيون اميليانوس » . احاط والد هذا الاخير ، بولس ـ اميليوس ، طفولته وفتوته بمعلمين يونانيين وكتب يونانية ، ولم يحتفظ لنفسه من المغانم التي اسقطها في يديه القضاء على الملكية المقدونية، سوى بمكتبة الملك « برسيه » بغية اهدائها ابناءه. وبعد مرور سنوات عدة ، صادق الشاب بوليب الذي كان قد نفي الى ايطاليا وابقي فيها سبعة عشر سنة مع غيره من الآخيين . وعاش معه حياة حميمة كانت جزيلة النفع لكليهما ؛ فدان بوليب له بسهولة الانتقال وسهولة

الاستطلاع اللتين اتاحتا له تصميم وتحرير « تواريخه »، بينما استفاد شيبيون من خبرة صديقه العسكرية ومن ثقافته الفلسفية. وبعد ذلك بزمن استقبل الفيلسوف باتاييتوس الرودسي، مجدد الرواقية، بدوره، في بطانة ذلك الذي سينتصر على قرطاجة ونومانس. وقد اشترك في احاديثهما رومانيون عديدون، اقارب واصدقاء ينتسبون الى العائلات الكبرى، ممن يتدرجون في « سلم الامجاد ». وكي لا نحصيهم كلهم نقتصر على ذكر كايوس لاليوس وسبوريوس موميوس ـ سبق لنا وتكلمنا عن اخيه ـ الذي يكفي وجوده في هذه الجمعية لالقاء الشبهة على سمعة الفظاظة التي الصقت بهادم كورنثوس. هؤلاء الرومان هم الذين يطيب لشيشرون نسبة الحوار اليهم في مؤلفاته الفلسفية، واذا هو لم يهتم، في ما يعنينا، للأمانة في التاريخ، فانه يعيد امام اعيننا جواً واقعياً لثقافة رفيعة ورقيقة. اضف الى ذلك ان هذه الندوة قد نادت الى حد بعيد بمبدأ الاختيارية الاجتماعية وبسطت حمايتها على احد المعتقين، هو الشاعر تيرنس، فانتشرت شائعات ـ لنتذكر هنا النظريات العصرية المماثلة في موضوع شكسبير ـ عزت الى شيبيون ولاليوس ابوة مهازله: ترهات لا قيمة لها لعمري، ولكنها قد تكون مستوحاة من بعض النصائح المعطاة في اطار ضيق.

ينتشر حتى اليوم سحر اخاذ من مثل هذه الندوات التي يجتمع فيها عظماء هذا العالم تسهيلاً لاحتكاك الآراء وبحثاً عن بهجات الفكر. ولكن يجب ان لا نتجاهل خطرها الذي تعرضت له الارستوقراطية الرومانية في القرن الثاني لاسيما وان الثقافة التي تهلل لها ثقافة اجنبية. فخطرها كامن في التنكر لميزة الخلق القومي والانقطاع عن القوى التي تنعش الشعب وتفجر فيه حياة خالصة طبيعية دائمة الجدة. اضر التصدع بالشعب لانه حرمه من عضد فكري كان على النخبة ان تؤمنه له. وقد اضر بالنخبة ايضاً لانه قادها الى البرودة والكلفة.

أدب الثقافة اليونانية

ان هذه الندوات لم تبلغ هذه المرحلة بعد، أو ان المصادر لا تقدم الدلائل الواضحة على ذلك. ولكن الادب اللاتيني، على أي حال، لم يفِ آنذاك بالوعود التي قطعها في اوائل القرن الثاني.

كان من بعض نبلاء الرومان، كبولس كورنيليوس شيبيون، ابن الافريقي، ووالد اميليانوس بالتبني، ان ذهبوا بالمغالطة، الى الكتابة باليونانية. فوضعوا بنوع خاص كتباً تاريخية و « حوليات »، وكان فابيوس بيكتور أول من أعطى المثل. ولكن السبب الذي دفعه الى ذلك قد زال منذ زمن بعيد، وكان الظرف مؤاتياً لقريحة كاتون التي لا ترحم، فثار على واحد منهم لم يكتف بمثل هذا المقصد الغريب، بل شعر بحاجة لطلب المعذرة عن خرقه؛ فقد بلغ من هؤلاء الرومان انهم اعتقدوا بأن التاريخ الذي ابتكره الاغريق وأشهروه لا يمكن ان يكتب إلا بلغتهم: لم يعتبروا ان النثر اللاتيني قد بلغ النضج اللازم، ولم يثقوا، في سرد الاحداث الرومانية، إلا بمرونة الأداة التي استخدمها معلمون أثاروا اعجابهم.

بيد ان بعض مؤرخي الحوليات ، قد كتبوا ، منذ هذا العهد ، باللاتينية ، وبديهي ان هذه اللغــة كانت لغة الخطباء . فقد جمعت ونشرت خطب عديدة سعياً وراء الشهرة الأدبيـة والدعاوة ، لا سيما منذ الأخوين غراكوس اللذين وسع عملها حقـل المنازعات السـياسية وزاد في حدّتها . لم يصل الينا أي نص كامل ، ولا نستطيع ابداء رأينا في هذه البلاغة إلا بمـا نقل عنها فقط أو ببعض مقتطعات ، أهمها ما بلغ الينـــا من كايوس غراكوس . تبدو فيها البلاغة ، على الطريقة اليونانية ، على شيء من تحريك النفس المصطنع والغليظ . ولكن طيباريوس غراكوس، على الرغم من الحرارة التي تجيش فيه ، قد أدرك قيمة صحة اللغــة والاعتدال كما أدرك أخوه ، المتفوق عليه تأثيراً ، قيمة الإيقاع. وهكذا نشأت الفصاحة اللاتينية كعـلم وفن ، بفقدان بعض بداهتها ونضارتها .

لم يقض تقدم النثر على تفوق الشعر . حاد هذا الأخير عن الملحمة وانكبّ عـلى المسرح بنوع خاص. وما فتىء ازدياد الألعاب يحمل على طلبٍ عظيم جداً على الرغم من اعادةالتمثيليات مراراً ، فكانت النتيجة نتاجاً وافراً في المآسي والمهازل . وهنا خصوصاً ، يبرز تيـار الثقافة اليونانية بقوّة .

أعار النقاد القدمــاء ، شعراء المآسي اهتماماً كبيراً آنذاك . أمـــا نحن فلا نعرفهم إلا بالمقتطعات التي وصلت الينــا منهم ، ونرى خصوصاً انهم ولعوا بسعة الاطلاع وبالكلاسيكية الصافية ، فتوجهوا آنذاك الى سوفوكليس واسشيل مفضلينهما على أوريبيد . وعلى نقيض ذلك، فقد بلغت الينا المهازل الست الوحيدة التي ألّفهـــا تيرنس العبد الافريقي المعتق – من أصل قرطاجي لا نوميدي على الأرجح – الذي أدركته المنية قبل سن الثلاثين : فهي تنطوي عـلى صفات وسيئات الالمام المراقب وتمّ عن اتصال حصري بالأدب الأجنبي .

ولد تيرنس حين توفي بلوت . وبين هذا وذاك عالم حضارة منظمة وموسّعة ومصمّمة . فعلى غرار بلوت ، اقتبس تيرنس عن المهزلة الجديدة الهلينية ، لا سيما عن ميناندروس والسائرين على خطاه ، مواضيع تمثيلياته التي احتفظ بأسمائها . ولكنه ، شأن الذين نقـل عنهم ، يتوفق الى تصور عقدة محكمـــة متماسكة . يعرض عن المشاهد التحكية والفواصل الموسيقية . فينتقل من المداعبة الى المهزلة التي تسيطر الوحدة على مختلف مشاهدها . واذا ما حافظ على أمثـلة الأبطال التقليديين ، فانه يعرف كيف ينوعها ، وقـــد ينجح في طبعها بطابع مميز أحياناً اذا أحسن فحص الطبـــاع . ويتفق التحليل السيكولوجي ، الدقيق والمؤثر ، عند الشعراء اليونانيين ، ونزعاته الخاصة : فهو يعتمده ويتوسع فيه ويدخل عليه مفارقات قد تكون شخصية . فهـــل يعني ذلك انه يتسامى فوق ما تسامى اليه بلوت من حقيقة ؟ نعم ، اذا كان المقصود حقيقة عامة أو مجردة ، اذا صح التعبير . اما اذا كان المقصود حقيقة رومانية فيختلف الأمر . يعوزه فتنـة المشاهدة بأم العين : وهو لا يدعي ذلك على كل حال ، اذ ان روايته تدور فصولهـا في البلدان

اليونانية التي رآها للمرة الاولى حين توفي فيها . أما بصدد مراقبة الاخلاق ، فان اتجـاه تفكيره يحمله على ان يرى التفاهة بدلاً من حمله على الاستشاطة غيظـــاً . ان فهمه اوسع من ان لا يعذر ويغضي . وأفضل مـــا يصفه جملة يضيّق النص صداها ولكن طاب للقدمـاء ان يوردوها منفصولة عن النص ويحملوها بمثابة مجاهرة بعقيدة ايمانية : « أنا انسـان ولا شيء في نظري ، ممـا هو بشري ، بغريب عني » .

كثير من الاناقة اذن : وربما مزيد من الاناقة المفرطة في الارستوقراطية، مع مزيد من الدقة والفكر الواعيين . ولا تلاحظ هذه الرقة إلا عند القراء ، اذ ان وحدة المنوال ، على المسرح ، تخفيها . فلا عجب من ثم اذا تذوقت الجماهير الرومانية هذه الميزة ، بينما هي طالبـة ضحك ، دونما اهتمام للنوع . فان « الحمـــاة » (*L'Hécyre*) قد أخلت المسرح مرتين قبل ان تحظى بالاصغاء حتى النهاية : في المرة الاولى اعلن عن مصارعة ورقص على الحبـال ، وفي المرة الثانية عن معركة بين مسايفين . هذه اماليح ، حقاً ، ولكنها ستؤدي الى نتيجة لأن لهـــا مغزاها . فالمسرح الروماني سيزول منذ اواخر القرن الثاني وستخلفه كل المشاهد الاخرى : أفليس مردّ ذلك الى انه لم يعرف كيف يسمو باولئك الذين اسندت اليه مهمة التوجه اليهم دون ان ينزل هو نفسه الى مستواهم ؟ فالمسرح الاثيني لم يقطع الأشواط بسرعة قبل ان يثقف مشاهديه .

نشوء الهجـاء :
لوسيليوس (*Lucilius*)

لم يكتب لوسيليوس للمسرح ؛ ولكنه ، لو فعل ، ربما خدمت صفاته المهزلة . واذا ما انتمى هو ايضاً الى ندوة شيبيون اميليانوس ، فانه قد عاش قرابة ثلاثين سنة بعد انفراط عقدها ، ولعل استقلاله البارز، مع انه يوفق بينه وبين احترامه الفائق لصديقه الشهير ، قد ازداد عزة بفعل هذا الفاصل الزمني. ومهما يكن من الامر ، فبدون قدوات يونانية هذه المرة ، اقله من حيث المبنى ، قد اوجد لوناً جديداً هو الهجاء . وسيقول كوينتليانوس : « انه روماني بكليته » . وفي الواقـــع ، اذا لم تكن السخرية وقفاً على شعب واحد ، فان تخصيص القصائد لها امر مميز ويتجلى الخلق القومي في الواقعية الطبيعية والأدبية التي كانت منذ البدء دستور هذه القصائد.

ان تيـــار الثقافة اليونانية ، الذي يهزأ بعاداته الغريبة المستهجنة ، لا يظهر الا في لغـــة لوسيليوس . اما ما تبقى فتسيطر عليه قريحة سليمة صادقـــة ، لا تتردد في ذكر اسماء الاعلام وتبرهن عن قوة عظيمة في وصف الطبائع التي تحيا حياة حسية ، عاكسة عهدها وبيئتها وكيانها الباطن . وهي تعتمد في إثارة الضحك ، وغالباً ما تمزح عن قصد ، وتداعب احيـــاناً . وتتحلى بالاساطير والامثال والنوادر والحوار . ويفوت مؤرخ المجتمع شيء كثير اذا هو لم يتمكن من قراءة كل ما ألفه لوسيليوس ؛ ومؤرخ الادب ايضـــاً ، اذ ان الادب مدين له ، على الرغم من النقد الذي وجهه اليه هوراتيوس ، بسلسلة طويلة وجيهة من الهجاء الروماني .

٣ - تفتح الأدب اللاتيني

انطلاقة القرن الثاني

يكفي مثل لوسيليوس للدلالة على ان اخذ النخبة بالثقافة اليونانية لم يستنزف ينابيع العبقرية الرومانية . واذا استمر القرن الثاني على جانب من الجدب بوجه عــام فانه قد حضر ازهرار القرن الاولى الذي يوافق ، قبــل اوغسطوس ، اوائل الكلاسيكية باكثر من نصف قرن . فقد ساعد هذا الاستغراق على خلق لغة متينة ومرنة معاً لا يشوبها سوى انفصالها عن اللغة الشعبية الذي يحول دون التجديدات والزيادات التلقائيــة . ووفر الناثر جملة جديدة بان تفرغ في قالب فكره وان تقيس التأثير الذي يريد احــداثه . وعلم الشاعر بعض اسرار وزن الشعر العلمي . وادخل الشعور على النفوس بان سلخ عنها قسوتها الاولى وبان حثها على تحليل احساساتها ان لم يكن بعد قد حثهــا على العطف على احساسات النفوس الاخرى . وفتح الاذهان يجعلها تلج معرفــة كدستها حضارة عرفت كيف تعمل للانسانيــة جمعاء . انتهت قرون التمرين : فالادوات والمواد والطرائق ، كل شيء اصبح جاهزاً او كاد يصبح جاهزاً .

فليست ساحات القتال ، من ثم ، الحقل الوحيد الذي تستطيع روما فيه ان تدعي بانهــا وريثة الحضارة اليونانية : فان عدد الرومان الذين يطمعون في متابعة عمل هذه الحضــارة يزداد باطراد . اما عامة الشعب المدنية ، المتروكة وشؤونها ، فقد احتفظت بلامبالاتها ، وبعدائهــا احياناً . ولكن الاثراء يفضي ، في وطن يتسع يوماً فيوماً ، الى انتشار بورجوازية رافق رقيهــا الثقافي رقيهــا المادي وايده تأييداً . واذا ما استمر تأليف النــدوات ، فهي لم تعــد تحتكر الشغف الفكري الذي يتسرب الى طبقات اخرى غير ارستوقراطيــة ويجد فيها اتباعاً جدداً متحمسين .

لا شأن المنازعات التي مزقت روما حينذاك : فهي اقل حدة من تلك التي مزقت العــالم اليوناني فيما مضى دون شك انطلاقة حضارته . اجل ليس من روماني خليق بهذا الاسم يستطيع اهمال الشؤون العامة : فلن يبرز الميل الى الابراج العاجية الا في عهــد لاحق . ولكن النشاط المقيد للمدينة (*Negotium*) لا يتنافى ونشاط الفكر الذي يشرّف وقت الفراغ ويبرره. ولد الرجال الذين اعطوا روما ، للمرة الاولى ، الزينة الفكرية التي اعتبرها الجميع ضرورية لمجدها ، بعد ان انفجرت الاضطرابات – البكر ، فارون ، في السنة ١١٦ ، واخواه التوأمان ، سالوستوس وكاتولوس ، في السنة ٨٧ – وعاشوا في جو اضطرابات اشد حدة لعب فيهـا قيصر وشيشرون اعظم الادوار نشاطاً .

وليس من قبيل المصادفة ، عندما انتهت السلطة الى ايدي حاكم فرد ، ان يغدو هذا الاخير ، وهو قيصر ، سيد الفكر والادب في عهــده وادهى سياسييه وانبغ قواده . وليس من قبيل المصادفة كذلك ان يستخدم دكتاتوريته لمحاولة نشر ثقافة يبدو له الانسان بدونها وكأنه يخون

الرسالة التي تحددهـــا له مواهبه . فيكفيه ان ينقطع الشخص ، ببعض الجدارة ، الى « الفنون الحرة » في روما لتبرير حصوله على حق المواطنية : انها لمكافأة عادلة للخدمات المؤداة ، وطعم ممتاز لاستمالة الذين قد يكونون قادرين على تأدية مثلها . وكذلك فأنه قد انشأ في ملحقـــات الفوروم الجديد المكتبة العمومية الاولى في المدينة . فشق بذلك طريقـــاً لن يتوانى احد من الاباطرة عن السير فيها على خطاه؛ اجل لقد كان اكثر قناعـــة من الملوك الهلينيين في عواصمهم واكثر قناعة ايضاً منه في حقلي التجميل والفن ، ولكنه نقل الى رومـــا مفهوماً تجهله هو المفهوم الهليني لواجبات الجماعة وواجبات من يحـدها حيال شؤون الفكر .

الجمود العلمي

بقي تفتح روما الفكري متفاوتاً على الرغم من اتساعه . واذا مـــا ظهرت بعض التأخرات الزمانية ، فهناك تأخرات اخرى لم يتوصل الفكر الرومــــاني الى التعويض عنها ، لا بل لم يحاول ذلك في يوم من الأيام .

ان هذا الجمود يلفت الانظار في الحقل العلمي بنوع خاص . فليس في روما من علماء طبيعة ورياضيين . ونادرون جداً اولئك الذين اعاروا علم الفلك اهتمامهم : وليس من الجسارة الافتراض بان البحثين ، او الابحاث الثلاثة التي روي عن نشرها تقتصر على نقل المؤلفات اليونانية . وقـد لجأت روما الى الاقتباسات حتى في التطبيقات العمليـــة . ففي السنة ٢٦٣ وضعت في الفوروم ساعة شمسية ؛ ولكنهم لم يضعوا ساعة اخرى ضبط عليها خطا الطول والعرض لرومـــا الا في السنة ١٦٤ . واذا سارت روزنامات اخرى كثيرة على الاشهر القمرية ، اسوة بالروزنامـــة الرومانية ، فقد اتاحت بعض الانظمة القانونية اصلاح اخطائها عن طريق اضافة يوم الى السنة. اما في روما ، فان اقرار الاشهر الاضافية كان منوطاً بهيئة الاحبار الذين ادى جهلهم ووساوسهم الدينية وحتى تحزبهم السياسي احياناً – اذ ان القرار المتخذ يطيل او يقصر السنة ، وبالتـــالي مدة سلطات القضاة – الى اضطرابات خطيرة: فقد بلغ التقدم على الشمس لربعة اشهر في السنة ١٩٠، وستة واربعين يوماً حتى في السنة ٤٦، وقد تخللت هذين الاصلاحين تغييرات اخرى تثير صعوبات مؤلمة في وجه المؤرخين المعاصرين .

حينئذ ، واخيراً ، جاء قيصر ، أو بالأحرى ، جـــاء من مصر ، حيث أتاحت له اقامته بالقرب من كليوباترا الوقوف على النجاحات التي حققها العلم اليوناني، بفضل ملاحظات الشرقيين الألفية ، علماء اسكندريون كان اوسعهم شهرة سوسيفينيس (*Sôsigénès*) . فطرد الدكتاتور الوساوس التقوية وفرض منذ السنة ٤٥ الروزنامة « الجولية » الشمسية التي كانت تحدد السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهنالك تفصيل اضافي يلقي نوراً فاضحاً عـلى جهل الرسميين في روما آنذاك : لمـا كان قيصر قد مات منذ السنة ٤٤ دون ان يتمكن من اجراء رقابة شخصية عـلى القرار القاضي بتعيين السنة « الكبيس » الاولى ، أساء الأحبار تفسير نص قراره فعينوا في البداية اليوم الثلاثمائة والسادس والستين كل ثلاث سنوات؛ ولم يُصلح خطؤهم إلا بعد مرور اثنتين وخمسين سنة .

على الرغم من النقص الذي انطوى عليه اصلاح قيصر حينذاك ، اذ أن البابا غريغوريوس الثالث عشر قد اضطر لاعادة النظر فيه ، فانه قد اثبت ابعد نتائج علم ذاك العهد تقدماً . ولكن هذا العلم كان اسكندرياً . فقد اقتصر فضل روما ، في ما يعنينا ، على اعتماد احدى هذه النتائج العملية اولاً وعلى تعميم استخدامها ، بفضل شمول امبراطوريتها . وجدير بنا ان نقدر هذا الدور حق قدره ، لا بل جدير بنا ان لا نخشى من اعطائه قيمة الرمز : اذا كانت روما قد نقلت الى البشرية جمعاء ما توصل الاغريق الى اكتشافه ، فان الطريق المختصرة تنطوي على حقيقة مؤثرة ايضاً . ومما يزيد في ملاءمة المثل ان حضارة شرقية قديمة قد اسهمت في العمل المشترك بتقديمها المواد الاولى . ولكن الحقيقة ، على الصعيد الفكري ، هي ان اسهام الاغريق قد استظهر على كل اسهام آخر .

أما الطب ، وهو التعليم الآخر الذي تلقى الاغريق من الشرق مبادئه الأولى التي حاولوا تنظيمها كعلم ، فلم يقف الرومان منه موقفاً مختلفاً. فما قام بينهم حينذاك عالم بأصول هذا العلم ، واذا وجد ممارسون بلديون — يكفي ان يعلن كاتون عن الحذر الذي يوحيه اليه اطباء الاغريق حتى يحكم على استدعاء كل طبيب — فلا يمكن ان يكونوا إلا جهالاً . وباستطاعتنا التكهن بمستوى خرافات الجماهير ، عندما نرى كاتون، في بحثه عن الاقتصاد الريفي ، يبدي النصائح ويصف الصيغ السحرية ويتوسع في فضائل الملفوف الذي يقي من كل الأمراض ويشفي من كل الجروح والدّمامل ، الخ .. فكيف يعرض الناس عن اطباء الاغريق الذين أموا روما بعدد كبير بغية ممارسة فنهم فيها ؟ ثم برز جرّاح قبيل الحرب البونيقية الثانية ، فعرف في البداية نجاحاً كبيراً : حصل على حق المواطنية ، وابتاعت له الخزانة العامة بيتاً كي يقيم فيه. وزالت بعد ذلك شهرته ، لأن قسوته في « القطع » و « الاحراق » قد اعتبرت مفرطة . فاقتضى ، هنا ايضاً ، انتظار قيصر حتى تدرك الدولة واجبها : انعم الدكتاتور بصفة المواطن على كافة الاطباء الممارسين في روما وكل من يجتذبهم مثل هؤلاء الاطباء اليها .

النزعة الى العلم الواسع والمعارف المتنوعة والقانون

استسهل الرومان المهام التي وافقت واقعيتهم القريبة ، بفعل طابع أقل خطراً ارتدته طرائقهم ، والنتائج المرتقبة منها . ويمكن استخدام التعبير « علم واسع » لجمع هذه المهام : فهو يقابل ، في مفهومه العريض ، أقله ميلاً فكرياً ، أعني به ذلك الميل الى الابحاث الدقيقة حيث يتوفق الجدل احياناً الى بلوغ نتيجة ثابتة . واذا ما اقترن هذا الميل بميل مواز يتناول المعارف المتنوعة والتربية معاً ، بغية عرض المعلومات المكتسبة عرضاً واضحاً ومنظماً — ان مسائل التربية و « المتاع المفيد » التي سبق وتسلطت على عقل كاتون ، ستجد أبداً رومانيين حريصين على درسها ، مما ينسجم كل الانسجام ودور روما التاريخي في التكييف والتعلم — فانه لا يبقى دون فعالية منذ العهد الجمهوري . بيد انه يجدر بنا ، بعد الاشارة الى هذه المقدّرات القومية نوعاً ما ، اذن لا نقلل من شأن العضد الذي استطاع البحاثون الرومان اكتشافه في العمل الذي انجزه قبلهم ، في المعنى نفسه ، العلماء الواسو الاطلاع والمتنوعو المعارف في العالم الهليني . وان

هذا العمل الذي أفضى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بحاثون لا يعرفون الكلل ، من امثال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أطال الثاني سفيراً الى رومـا حيث طرأ عليه طارىء أطال اقامته فاستفاد منهـا لالقاء المحاضرات ، ومن امثـال الاسكندري ديديموس « Chalkentere » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلّى أمرٌ أصدره الحبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيفولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاحبار حتى ذاك العهـد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية. ولكن ما هي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مهما يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً – اسعار الحنطة مثلاً – وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف البحاثين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليد العائلات الشريفة التي يشتبه بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم. ومن التفه وعدم الجدوى احصاؤهم لا سيما وان شيئاً لم يبلغ الينا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تقيداً وأعظمهم شأناً ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهزاً الثمين وبلغ من ذيوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوّع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتاجه الخصب النادر – ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً – قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي المنيبية [1] حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزئي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم اللغة والادب اللاتينيين فكان نحوياً ولغوياً ومؤرخاً للشعر المسرحي . وكان مؤرخاً لماضي روما في مؤلفات عديدة لا سيما الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء نشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي. لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام. «فالشؤون الريفية » وحده وصل الينا كاملاً ؛ ولا يمكن، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول الملأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النتف التي ينتسب اوفرها

---

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني ميليب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلبي ، الذي اعتمد في لواذعه اشعاراً مختلفة الاوزان في القصيدة الواحدة .

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلمس عنده مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابداً التقاليد التي جمعها ويُغذي فكراً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع انجاز مثل هذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحكم ان نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحاث العديدة التي كرست في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثنتي عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث عملاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، «ب.موسيوس سكافولا» الذي نشر الحوليات الحبرية ، وابنه كوينتوس ، واضع مؤلف ضخم اعتبر اساسياً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفاقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجياً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد ما سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القانوني الروماني تفتحاً كلياً .

التاريخ

كان لمادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة . وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثل ان نذكر سيلا بعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنها اوضحت السيكولوجيات وفاقت ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوهها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخورين جداً بماضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد ، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه . فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوساوس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهوون التأثير المذوق في النفوس ، ويغلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما . ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها ، لا سيا وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صداها . اما الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول ، فهو أثر بوزيدونوس ، ذلك العقل الشامل والرواقي الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحق الجغرافيا العلمية : لمن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت الينا ، عن طريق غير مباشرة ، اكثرية معلوماتنا عن الغاليين قبل قيصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتماماً لمسألة العلل من هؤلاء الاساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلموا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تبريرها الفردي او الجماعي وقيمة انشائهم الواضح . وهكذا تسامى التاريخ

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقليــــة التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اضف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهملة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النوادر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامـــه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً، ولكن ثقافته لم تلاش تصميمه المتأجج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يحيد ابداً عن هدفه الأوحد : السلطــة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منهــا . فقد نظم اشعاراً والف مسرحيــة – على غرار الاسكندر – ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل الينـــا منه سوى « تعليقاته » على حرب الغاليين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمري مؤلفات دعاوة قام بتحريرهــا على عجل في فترات راحته ونشرها نتفاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلامــه . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول؛ وعن اكثر الناس شغفاً بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقيس مجهوده بالفائدة التي يستطيع جنيها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملا خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكمها بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كماله اننا لا نشتبه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل مما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثـــل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غاليا ، يعوزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يجارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحـد اصدقاء قيصر وأحد اولئـك الانصار المتحمسين ، الجوحين ، والمتبكين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملا بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمـــام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب رومـا . لذلك ، فان التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و« حرب جوغورتا – دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ » المكرس لفترة مـــا بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منـه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامـع حتى الخشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته في افريقيا للاستعلام حتى عن البلديين وبالجهد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عـن البيان ان المشايع لا يمكن ان يتوارى في هـــذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاخفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته. بيد ان تمرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هـــذا الديموقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لممثلي الحزب المناوىء : وهـــذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي نتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

البلاغـــة

على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبهـا المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تمبق عند كليهما، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدى نزعاته . فمنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنـــة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانـــه حرياته في تلك الاثنـاء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلا لذاك الذي لعبه من قبل في اثينا الديموقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تحلى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلميـــة التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقـــد درّست وفاقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقـــة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقفلت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابهـا . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قـــد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخـذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم. فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعته .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الآسيوي » لانه نشأ في آسيا ودرّس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمّقاً جـداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سعى ايضاً وراء الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

هو هورتنسيوس وانكسب البعض الآخر الى الذوق « الأتيكي » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهـــذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا فيرودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا افراط في العري ولا إفراط في التنميق الصنعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كان برنامج شيشرون .

شيشرون انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هـــذا بالاثراء اذ ان خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر. وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية ، اقله في مرحلتها الاولى ، فأتاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد » ، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك » ،ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك. فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم، دكتاتورية كلامية حقيقيـــة ، منتزعاً من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب ، ولكن دون غاية » ، بأنه خلّص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اوليـــاً نهض به بسذاجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هو مات ضحية طامعين عَنِدَ هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احق ، فقـــد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدّة فصاحته العلمية ؛ ودان لها ايضاً بنهـــاية ديموستينس . وانمـــا هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهيها حقاً سوى شهرة ديموستينس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي الستين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : كأكثرية الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناها الشفهي قـــد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي، فانه قـــد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هـــذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتنضيد الجمـــل واختيار المفردات . فاليقين والاقناع والتأثر والاغراء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربية والمهنة .

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنعية هـــذه الاساليب الماهرة . ونحن لنتململ حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان تتصل اتصالاً مباشراً بالرجـل وبهواه الصادق الضائعين في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بـل بدافع الحدّة والحبّ ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وبغضاء جنونيـــة في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة – اوليس ذلك هو الاهم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ – هي انه توقف في بعض الظروف الى اثارة حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كاله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومـــان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كمالاً واناقـــة – يجب الا ننسى قيصر – في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتعليمية – نقل كتـاب « الظواهر » السماوية لاراتوس السولي – وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمنا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله بعد وفاته بتسع سنوات، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان مـــا املاه تصميماً على الثلب والتعيير . ولم تكن مجموعات الرسائل امراً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيـد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترتد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الأمر فان هذه المجموعة لا توفر لنـــا ، بالحياة التي تجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهـد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البداهة الانسانية والحدة البديعة او المطوقة في ردات فعله .

بحث اخيراً، في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته، عما يحوله عن شتى خيبات آماله وآلامه – عن كسوفه السياسي وعن انفلات عزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها وطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبهـا – في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إنماء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغـــة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقتها الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحصيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك . وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض بجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناولهـا ، المذاهب التي بدت له جديرة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغية تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة . ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساغة وذكاء حاد قل نظيرها . اضف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيا الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها . ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعة في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جعله اعظم الادباء الذين دانت بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

موت المسرح الادبي

وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة النبل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دونية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملا صمتت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البذخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا (*Clytemnestre*) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزهما لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمات المستمذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية الايمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

الفلسفة والشعر

لوكريس *(Lucrece)*

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقاً جديدة : ومنها الفلسفة على الرغم من قصيدتين قصيرتين قلد فيهما ايليوس مؤلفات يونانية . غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بها في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرها : فبعد ان برزت بعض وجوهها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيجيديوس فيغولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي أقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أثمن زينة عقلية للانسان ؟ وكان لتعلم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غراره ، الشبيبة الرومانية . وألقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الاشارة هنا الى افتقار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان : فليس من موجب عملي يرغم على ذلك ، وليس ايضاً – وهذا ما يفسر طموح شيشرون – من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداته الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة من النجاح . وقد خدمها في ذلك اقامة اهم ممثليها في روما الذين كان لهم من قوّة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : باناييتيوس ، صديق شيبيون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزايدونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، اقله في ما يعود للنزعات الادبية ، تجمعت ظروف عديدة وقدّرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يحيد عنه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بمجامع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سلطها عليها القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كاتون الأوتيكي حتى لمحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الخور الذي تمحوه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتز بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعباد .

على نقيض ذلك ، وقبل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أنانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجرّدها على السواء ، لم تستمل سوى عدد قليل من المشايعين في روما : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انه تألم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدئة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ على نفسه تعليمها . فتميّزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج بحمله ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لابيقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذا حذو أكثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هـذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ، – وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم – يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارىء بأن العالم ليس سوى مادة، وان كل شيء فيه ، حتى النفوس، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفاقاً لمصادفة التقائها ويحررها الموت حتى تُجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلّص الانسان من رعبه حيال الموت ، الذي لا تعقبه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياة دون غمام » . وان تميزه اخيراً وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . فمن حيث انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة جنونية في اشراكهم في حقيقته وفي احلالهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هـذه اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره . اضف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتها شعور زاخر . فهـل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليـد مقصود للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة مزاج الفنان .

الشعر الغنـائي
كاتولوس (*Catulle*)

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في روما الشعر الغنائي الذي سيتمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء . نشأ في الأندية المجتمعية التي لم ينقصهـا سوى شخص « الفاسيلفس » حتى تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيـات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ، اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجدة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلى بثقافة رفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي يتطلبها العمل السياسي ، الذي لم ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظريفة التي غالباً مـا تُداخل كلا من القصيدة والعمل السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهنالك ظرف في الغزل ، وكثير من التصنع المقصود ، وعـلم ميثولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولّوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل الينا منهم مجموعة قصائد غير كاملة على كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولهـا ٤٠٨ أبيات – وقد أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه – ؛ وهي قصائد مختلفة الاوزان والالوان ، طرق فيهـا الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

المبنى ومهارة في اللغة ، وجموح مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأثمن قيمة ايضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليهــا اسم « لسبيا » (*Lésbie*) التي ليست سوى شقيقة المهيّج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف ، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هــذه الآلام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفاً جديدة التعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيليـات ، « كشعر بيرينيس » مثلاً (*La Chevelure de Bérénice*) لكلّيماخوس. ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة ، تلك الشِرّة الهائمة والالم الصارخ ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب ، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرخ الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس ، الذين سيدينون له بالكثير من مهارتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هــذه الطريق .

الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري ، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجمودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولى في النصف الثــاني من القرن الثالث ! فان هلينة روما قد انبتت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتزاز بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اضف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التلكؤ والاجهاض . كان العقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت ، وباستطاعتها ان تسير طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينهما .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان نحدّد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية . فهي ، من حيث احساسها المرهف بالجمال وتعودها لذة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرية ؛ وهي لا تزال تنهل منها وتنقلها الى اللغــة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصيلة او حافظت عليهـا ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

التمييز ، في صيغ لا يغرب عنهـــا أي سرّ من اسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بمفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولّوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا (*Vérone*) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الغاليّة ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس مـن افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت بيقظة ادبها لايطاليين جنوبيين مستغرقين قـــد أمّنت تعبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هـــذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضمت الى مجدها القوى الحية التي برزت فيه. وان هذا الدور ينبيء، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقتها ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيدها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابـــة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها – تلـــك الحضارة التي هي المصدر الأم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .

القسم الثاني

مدنيّات الوحدة الرومانية

الكتاب الأول

المدنيّة الرومانيّة في عهد الأمبراطورية الأولى

(القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا اخيراً ، الى هذه الامبراطورية العظيمة التي ابتلعت في تآليفها كل ما تقدمها من امبراطوريات ، وعنها انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال نفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي امبراطورية كانت. وقد لاحظت يا سيدي الامير ، ولا شك ، أنني أعني الامبراطورية الرومانية .

(بوسويه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبـال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخهـا مباشرةً. وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية، في منتصف شتاء ٥٠ ـ ٤٩ ق . م ، واتجـه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفّرة التي كانت اداته الطيّعة في فتح غاليا ، في حملات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكّل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيـه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلالته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصميه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليهـا اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية ذمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

ويفرض القانون ، ويُشرف على الادارة ويحطها بمعزل عن طمع الطامعين اليهـا ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان ممالك اخرى عرفت ، هي ايضاً ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسمت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تستفيد منها وتتعظ بهـا . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كالنجاح الطويل الذي حالفه ، مما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هـذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هـذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة اوكتاف اوغسطس وإشرافه المباشر ، فترامت أقاصيه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصابّ نهر الرين شمالاً ، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ ، يصبح البحر الابيض المتوسط برمته ، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضيه : الشرقي المتهلّين ، والحوض الغربي الذي ، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمّنته لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارست دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاض افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيما بينها ، أمتن واوثق . فقد أطلّ على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدنيات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفاً وأوضاعاً ، اكثر حلماً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الاذهان وتتفتح الاكام عن قطوف متنوعة الجني والثمار ، تجود بهـا عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

الفصل الأول

من الحرب الأهلية
الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في روما ظهراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيأت العالم الروماني بأمره مصيراً جديداً .

المدينة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدير الامبراطورية

كان لا معدى من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيض مهيئة المجال لطلوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لابد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين النكرة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبتها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلها غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا المخاض وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية تحتت قسمات صورتها ، الظروف المتحكة المائلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى أراض نائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالياً .

فعندما سادت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتساع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع الماثل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيا اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتها على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

فرضته على ايطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤها الهزء والسخرية ان لم تكتمل باصلاح جذري ، لأداة الحكم وبخلق نظام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامر يتعلق في الدرجة الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريهة في جشعها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ، إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دوماً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تخوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون الفرص السانحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرّض معها وجودها وكيانها بالذات لخطر الحروب الاهلية . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة والخبرة المؤلمة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه وتأمن شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها يوماً ضد هذا الخطر الماثل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فتحلل دون ان تبالي ، من الاسفل ، وهمها ان يبقى شديد الامر في الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكم سولت النفس الامّارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا، تحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهذه الاداة الطيعة بين ايديهم ، فجرّت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المذلّة والهوان للوطن ، والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل موت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غايةً في الدقة ، هي قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية، فبرزت حدتها وخطورتها عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها . رأت النور مدينةً ، فلم يكن في وسع روما ان تتصوّر لها كياناً غير هذا الكيان الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نُظُمها المدنية للدور الذي تستوجبه سيطرتها على اراض شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم تُبدِ مثلها مدينة من المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق ان سخت مدينة بمثله من قبل . وهذا الامتداد البشري له حدوده وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناخبين فيها التشريع والقوانين وتعيين الحكام الاداريين . ولكي يُتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي أخضعتها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

الامبراطورية والحرب الاهلية

هي حروب قاسية مريرة ، فرقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء غزيراً ،وأرغمت الخصوم على اتخاذهم يدأ من كل شيء، والاستعانة بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثقالها ، لم توفر احداً ، بعيداً كان ام قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة رومـــا وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى اعدى اعداء الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهـم الالداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم . الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابيانوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب الفتح في غاليا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به باتجــاه البحر المتوسط . وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية *Arsacides* ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين وبسط سيطرته عليها . بينما راح لابيانوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى، وضرب السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته العسكرية على ميديا *Médie* ، فقد كان له الفضل في ارجـــاع حدود الامبراطورية الى ضفاف نهر الفرات .

ولحسن حظ روما، لم يكن فيالغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطوريةالرومانية، شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، مــا عرف معه ان يفيد من الأزمة الخانقة التي تخبطت فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بامرها ، بقي في مجمله، صامداً متماسكاً، فالمحاولات التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الرومـــاني الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرتجى . وهكذا، بدلاً من ان تنكمش رقعة الامبراطوية وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالهـــا ولو بصورة مؤقتة ، اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التــام ولا امتثلوا ، كما يجب ، للنواهي التي وصلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت للآن ، من البلدان الحليفة المرتبطة بالامبراطورية بمواثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشد مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً او قسراً، انينحاز لهذا او ذاك منهؤلاء الزعماء المتناحرين، الذين جاشت نفوسهم على السواء ، باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محموم وبحيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب.ولو كان بالامكان تقويم الخسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهليــة النَهِمَة ، الاكول ، لبلغت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقهــا من

تكالب مرير ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وتلاحمت في جميع الميادين ، تجــاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطامع الخصوم المتشابكين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهـداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتضرس بها كثيراً . ففي غاليا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر، إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقبت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هـذه الحرب الضروس ، ازدادت العـاصفة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكتوت بلهيبها جميع انحاء الامبراطورية لاسيما ايطاليا والشرق وصقلية، وتجلى العنف على اشده وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي، وإبعاد بالجملة، ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين، وهمجية الجند وفظاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غلاباً او قهراً وسلبهـا ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل، والاستعانة بالعبيد والارقــاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بمبيوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المدخرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعتباطية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة ،وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح ايطاليـا في فرض الرسوم البـاهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المغتصب المستبيح. وقد كتب على ايطاليا ان تمد كلا من الزعمـاء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطماعهم . ومهما كان من فظاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني استهدف لاكثر منها وافظع. فبعد ان سُلبت اقطاره ونُهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطـائلة وكانها لا تنضب ومصادره لا تنقطع. فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشابكين وقعوا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراحوا يمتارون منها ، تباعـاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها. وهذه الاعتدة المخيفة التي أتيح لانطونيوس جمعهـا ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدها من الشرق، بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به.

الشرق الهليني
ينازع روما الصدارة

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدو الشرق حقلاً مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد لهذا الوضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة فرسال في تساليا،حيث قيّض لقيصر ان يسحق جيش بمبيوس،ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث ثأر لنفسه من قتلة ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب كليوباترا وانسحابها من المعركة، الى هرب انطونيوس والتحاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه .

وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من الموارد الطائلة ما يساعد، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط الآمال والانظار . ولما ظهر لبمبيوس اولاً ، ثم للقتلة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقيموا فيه عدتهم للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتّم ان آثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه المحرجة لاوكتافيوس. وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له في الشرق ، قوة حربيــة ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغــة الكثيرة التي أتاحت لنا هــذه الازمة الخانقة ، استنتاجها ، الدرس التــالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في اعين البعض عيياً، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقات هائلة ، لم يتبينهــا اصدق الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ، فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيا وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل منها سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ، من اي لون او جنس كانت، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذه، بالرغم مما اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وحده ، يمكنها ان تجد الحلول المرتجاة للمشكلات الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الحصين وجهاً لوجه امام تغيرات وتطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتمويل بمبيوس على الشرق الذي عرف ان ينشىء له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكثه الطويل بين ربوعــه

وبين شعوبه ، ادرك جيداً ما سيلاقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منها . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غاليا ، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيا ، جعل مقومات قوته وطاقته مرتكزة على الغرب . ومع ذلك ، فقد تبدى لقيصر انه هو نفسه أقرب من خصمه بمبيوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظرته السياسية لأمور الدولة . فقبل ان نتعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤلهة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين ، انتصبا ، بفضل خصومة زعيميها ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لهما بها في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بامره بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فإقامة انطونيوس طويلاً في الشرق وتفاهمه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد اليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفائز تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أبشع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعاته « لحياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهما ؛ وهما في نظر فرجيل : « الإله النبّاح انوبيس *Anubis* » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبوا ، شاكي السلاح ، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافيوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تمسي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفيالق الرومانية غير رومانية ، عاصمتها الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

نتيجة الصراع

فاذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها ، ولا شك ، نقل العاصمة واستبدالها ، برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال[1] : « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فاذا ما تملينا النظر في هذا الانف لبدا لنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هذا الصراع لم يكن ليتوقف على تشوّه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الأنف . ومع ذلك ، فمدلوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جرارة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى امرها الرومان ، بعد ما أخذوا بسحر المدنية الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقريتهم في التنظيم ، ومدها بالأطر والملاكات اللازمة ، أمر مجرد التفكير فيه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تآليف اندرية كريسون - زدلي علما - منشورات عويدات

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تحرّج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خوره المعتقة من مستودعاته ليستمتع بأطايبهـا . فقد ذهبت أقدار الحرب ومصائرها الآن بهذا الجـزَع يعتري روما، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكنة القسطنطينية، بعد لأيٍ من الدهر ، تنازعها إياهـا . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امـام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغييرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت بـــه . فالاخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعيها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هـذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل، والتمطي على شكل لا يقاوَم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوتقة الرومانيـة وأنضجتها وهيأتها للاستعمال ، قبل ان تنتقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بلسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

السلام الروماني : مقوماته ووسائله

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه، منذ البدء ، النظام الجديد، فاتسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالمتانة والمهابة . والذي كان من شأنه ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمّن ، تمثل في هذا السلام الذي رفرف فوق رؤوس الجميع ، مشيماً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هـــذا السلام وبُذل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هـذه المدنية التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقـــد سميت بحق : « بالسلم الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهنات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وتؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المعاناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توفيقه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقـــد مهد لجيشهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننعت هذا « السلام الروماني » ، بالسلام الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استتبابه .

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطوس يستغل العياء العام الذي تملك الناس بعد ازمة خانقة كانت تخمد منهم الانفاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وحده لتأمين النجاح والاستقرار لهـذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عهد هذا ، ويقيمه على أسس ركينة ، عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلعت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهـذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجّ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خططاً منهجية اوسع وارحب ، قصد بهـا ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى،على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني، قبل ذلك بقرنين، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهـذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وتؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واضمن . فقد راح يخفف من سرعة السير ، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غاليغولا وكلوديوس يوسّعان : هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للادارة الرومانية ، وذاك يوزع بسخاء كلي ، الرعوية الرومانية وما تخوله لصاحبها من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كان شرع به اوغسطس ونداً عن الصدد . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الغرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألا نأخذ بحرفيـة المصطلح الذي كرّسه الاستعمال، وهو : « مدينة مغلقة » وهو اصطلاح، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من يُمنحون الرعوية الرومانية . ويقابل هذا، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيق واصغر ، رافضاً اعطاء الترقيمات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المواتيـة ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير . وهكذا وفـّر لها فترة للانتقال، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية،

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثُل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبذل لهم النصح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيئاً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لمِثُل المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاؤل الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت إليه من إقرار السلام، لم يكن أحد ليجهل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحوا بعنف أشد من العنف الذي يقع على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وايماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدير بنفسه كل شيء ، فانه ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استنّ كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فمظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيا بعد ، لا يمكن ان تخدع احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بانه لا بد لروما وللامبراطورية من سيد اعلى . وبالفعل ، فجمعه بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الويلات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وجباية الخراج والرسوم — وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعث على التذمر وتثير الخواطر – كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللاً . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيبته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم، بعد الاختبارات المريرة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جزيل لهم .

القوة اساس السلام الداخلي

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من المجاهرة به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغرّ ، المترهل، المستضعف، « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما تحتت منه القسمات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارجاء ، مستمدة دوماً الاستعمال القوة لصيانته من عبث العابثين .

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريق يعاني الحرمان ، لم تكترث له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغمه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليم بالوضع القائم. ثم ان ما لهذه المدنية من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدراً بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر امجاد السلف ومآثيهم وامجادهم ، كل ذلك يكوّن مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريدات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسوّل لهم الانتفاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعرة المسالك ، وبعض القطاعات الجبليــة في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزحزحة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتهوا اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غاليا، مثلاً التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها ايضاً مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في الخمود . فكيف السبيل ، والحالة هذه، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفطنة والحكمة في تصرفها نحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليـــه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعيض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شراذم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل التصديق. من ذلك ، مثلاً ، فرنسا، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الالزاس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحـــد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود. والامبراطرة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستعمالها ، اذ انهم كانوا يعوّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى الوراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقــد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبــل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لهيبها عام ٦٨ – ٦٩ ، بعـــد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيديوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اوريل . فقد وقعت كذلــك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضر ، إلا انهـا كانت نادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

الادارات المحلية عاجزة عن اعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية ممالئة للحركة الانتفاضية في البلاد ، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المرابطة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تخمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ — ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدريانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز المراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية

فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعيها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هـذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُقفلت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة. وبعد وفاته ، أُقفلت ابواب الهيكل مرات معدودات، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هـذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قلّ ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديات من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل، في منتصف القرن الثاني للميلاد، عندما تجاوبت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تغلي بها عالم البرارة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . وهـذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور ترايانوس بمناجم داسيا ، فيمم شطرها وعبر اليها ، مجتازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهـذه الحروب ، يقوم بها ترايانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن، وأنشأ منها ولاية رومانية

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليم اظافر الفارتيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرهقها الفارتيون بفرض رسوم باهظة .

وهنالك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ، ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود ، وذلك بانشائها سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم ، او لاحتلال مراكز ستراتيجية جديدة اكثر ملاءمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف نتوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الأمامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت ايما فشل ، التقدم حتى نهر الإيلب *Elbe* ، فيتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب ، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشأه قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المركز المعروفة بحقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص٢٨٣) وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعة .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل ، ولم تتضرس بها سوى الولايات الجانبية . فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب . وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جبهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على ما يظهر ، عبئاً ثقيلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً ويقظة مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتها مصدراً لحقوقها ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا محيد عنها . غير ان روما لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير ، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب ، هذه هي فنونك الجلية : ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي ألفتت على السواء ، القوة والاخلاق الحربية ، والتي تلسجم على لمثل ما يكون مع المثل الامبراطورية التي لم تكن غير مثل دولة عسكرية .

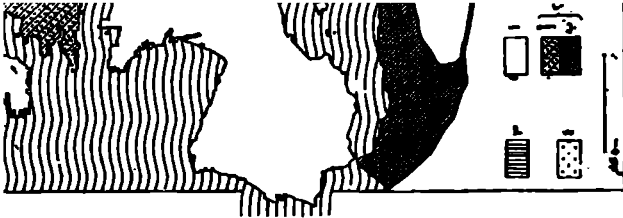

الشكل ٧ — الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود .

١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتوح الرومانية من أوغسطس الى ترايانوس ؛ ٢
بع عند وفاة اوغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيما بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح
الولايات التي ألحقها ترايانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

وهكذا ، مهما بدا هـذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كان « رومانياً » وأوغسطياً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابداً على استعداد لامتشاق الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاج غيرهـا : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

قصور الحلول العسكرية الجديدة

لنُلقِ منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام السلام الروماني وأداته الطيّعة ، والتُكأة التي قامت عليهـا المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

مجرّد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهـام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامهـا : عروقاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة بجوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلولاً جديدة . من الامور التي ميزت النظـام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده عـلى ظرف طارىء وحادث معين ـ هو حالة الحرب المستمرة ـ كما كان عليـه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هـذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخلُ قيـام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفيالق ، كيف السبيل الى تكتيبها وتعبئتهـا ؟ وانّى يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهقرى الى الوراء ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليهـا في الحروب الداخلية تدبيراً تعسفياً طالما تذمر منه الناس وتململوا . قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندمـا تتعرض البلاد لاخطار داهية ، دهماء ، توردها الهلكة . ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحـالات القصوى النادرة جداً . ولم يكن في طاقة احد ، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع ، تحت اي سماء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدن ، او كانو في اقاصي اطراف الامبراطورية ، حيث تمر الحياة رتيبة ، كئيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية ، حياة تقرع على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من جيش محترف ، تضرّس افراده بالانتظـار الممل ، وألفوا مواجهـة المخاطر والطوارىء . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً ، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وبهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بإلزام . فقد كان من المحال اجتذاب

مثل هـذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، بمثل هذه التعلاّت التافهة التي لوحت بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائها وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء، من جهة اخرى. والتطوع في الجيش يجب ان يُقبِل عليه الناس لما في السلك من غنم وارباح : كالمرتبات والجرايات، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات، وتعويضات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه منوّقات ومغريات كانت تتبلور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات ترزح كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُرزح به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّهم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآتي التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها مها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهـذه الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي تمشت عليها الجمهورية من قبل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعوية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقد أغرامم العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءاً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طمعوا في الحصول عليه ومنّوا النفس به . وهذا ابرز واوقع ما تميزت به المدنية الرومانية من قوة الجذب والاغراء. فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هـذه الامبراطورية والذود عنها .

فالقضية العسكرية ألّفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدةً عن الاولى . فمنذ عهد اوغسطس ، كان على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بَدَل خدمة، مقدارها واحد في العشرين من اصل التركات المورّثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويضات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ من غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيئها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الاعباء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكثر من اهتمامها بعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقت في هذا السبيل

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرّع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمنى بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه. وهذا الجيش المرابط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده. فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الحيلولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر مـا لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلكهم . فما السبيل ، لعمري، لتأمين هذه الملاكات،وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي؟ وعلى أي اسس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تنتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون محلهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية، وذلك بتحديد إختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها. كذلك، كانت المصلحة العامة تقضي ان لا ينظر، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الميل العميق للسلك العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يُؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابداً، ما اذا كان الامبراطرة اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المرعية .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امـام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وقفاً عـلى هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ. فالانتقال من جهاز الى آخر، لم يكن امراً مستحيلاً، وان دقت سبله او ضاقت منافذه. فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترفيعاً ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يُرجَع بها الى الهيئة من المحكمين، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاكات الجيش ، لعمري ، الاستعـانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ، فقدوا ، لقلة عددهم وضـآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل، وتمتعوا به طويلاً، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، عـلى مر

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف،من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملاء الملاكات لم ينحط ليبلغ ادنى دركات السلّم الاجتماعي . فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي ، على الغالب ، ادنى مرتبة من الاخرى ، ودونها جذباً واغراء ، بينما بقيت القيادات الاولى تعاني النقص . ولم تتم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه، ضباط الشفاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة .كما اوصل ضباط البيادي الى فرقة الخيالة . والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحملهم بالتالي ، على التنافس والمباراة فيما بينهم ، فساعد ذلك على صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال ، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليه ، اذ مكنه من ان يكافىء الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية . الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة : وانتقص من قيمتها والمؤهلات التي يجب ان تتحلى بها . فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتاً اطول لبروز الكفاءات كما اقصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات ، مثلاً.

تنظيم القوة : البحرية

طرأ على تنظيم الجيش وتشكيله ، خلال القرنين الاولين من عهد الامبراطورية ، تطورات كثيرة يقتضينا تقصي مراحلها استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا. فلنقتصر على نظرة عابرة نلقيها على خير العهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري ، على الوجه الامثل ، باعتبارها حصن العالم الروماني الحصين ودرعه المتين ، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد ، خلال حكم هدريانوس وانطونين .

فالاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر . فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس . ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية ، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها . واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول ، كادت تفقد ، الا ما ندر ، كل اثر لها . وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب اليم في اواخر الحروب الأهلية ، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتها . فمنذ ان انتصف القرن الأول اصبح في استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربية ، والحقتا نهائياً بالجيش البرّي . ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها ، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا، ومراقبة سواحل البحر الشمالي ، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي . اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود ، ولا سيما على الرين والدانوب ، فقد قامت فيها عمارات اخذت ، هي الاخرى ، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك . وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئاً يذكر في امر الدفاع . فقوة روما هي قوة جيشها البري . فالبحارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم ، لم يكن لها من الشأن ما يمكن

مشاركته بأقل فرق الجيش البري. ولم تندّ الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً، طوال تاريخها المديد، تعجز عن القيام بجهود بحري حربي استطال اكثر ممـــا اقتضته حرب معينة، الأمر الذي جعلهـــا دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس.

الجيش الروماني : اللجيون

استأثر الجيش بعناية الامبراطرة ورعايتهم. فقد بلغت قوةهذا الجيش نحواً من ٣٥٠٠٠٠، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة. وهذا العدد الضئيل جـــداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اللسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تتنقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دئبوا على أعمال السلب والنهب. ويجب الا ننسى ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منهـا بشؤون الادارة الداخلية احياناً، وغيرها من المهام التي كانت تستنفذ جانباً من الجيش العامل، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي. من ذلك مثلاً، وضع الحامية الرومانية في رومـــا نفسها، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثله في روما خلال العهد الجهوري. وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتهـا، وللأمن الداخلي في المدينة. فمن اصل الـ ١٢٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحـــامية، في عهد الامبراطور طيباريوس، شكل قسم منهم، بلغ عددهم ٤٥٠٠ جندي، الحرس الامبراطوري الخاص. وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الأمبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر. وما تبقى من هـــذه القوة، بين كتائب خاصة بالمدينة وبالحراسة ليلاً، لم يفارق المدينــة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليـــه من قوة بوليسية ومبرّيات لمكافحة الحرائق عند نشوبها. وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومـــانية المرابطة في اسبانيا، سواء منها القائمـــة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا – المغرب اليوم – فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي.

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده، والى كل مـــا تمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب، ليقوم على الوجه الاكمل، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي.

اما الوحدة النموذجية الكبرى، سيدة المعارك المعبأة، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل، وهو «اللجيون»، هـــذا الاسم الذي ارتبط ابداً بالامجاد التي حققتها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر، باستثناء سريّة من الخيالة ألحقت بها، لم يتعدّ عدد افرادها ١٢٠ فارساً. واللجيون،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتبة والمؤرخون الاقدمون في تحديـــده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes* ، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبـة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centurion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بما أظهروه من كفاءة ومقدرة ، ورقوا تباعاً ، الدرجات العسكرية ، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هــذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط مــن رتبة شفاليه .

على كل افراد الفرقــة ان يكونوا حاصلين على الرعوية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليــه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقــد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني ، تعود لهــذا العُرف وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعوية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقــة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط ، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سواهم ، بعد ان نُشّئوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الوحدات الاضافية

الفرق الرومانية الصرف لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غــير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة وتؤلف معها وحــدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي ، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتنهج في الحرب النهج الحربي الروماني ، تحت امرة ضباط يحملون الرعوية الرومانية . فالجناح كان يتألف عموماً من فرسان الخيــالة ، بينا كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمــل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطرار هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيا بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومهما يكنْ ، فأفراد هــذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانيـــة الاصل . ولم يَترومنوا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذ ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية يمنحون بموجبها حق الرعوية الرومانية .

وألحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقـــة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب مـــن نوع القنّاصة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعـــة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهات تقتضي السرعة والمفاجأة .

الجيوش

فالجيوش الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق، عند وفاة أوغسطس، ٢٥ فرقة، تتغير قليلاً فيا بعد وفقاً لمقتضيات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حُل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور ترايانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدريانوس. وقد شكل الامبراطور مـــارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجـة العسكرية ، وضرورات الدفاع والمحافظة على الأمن. فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما،او نقل الحامية المرابطة فيها، أجرت هذا التدبير بتمهل كلي وبتحفظ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير. ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد اوغسطس من ثمـان فرق، انخفض عددها الى اربـع عند وفاة هدريانوس ، بينا كان جيش الدانوب في هـذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينا رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تغطية، وتوسعاً ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطـامعين من الغزاة وتصون أمنهـــا ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وحدها القيام بها، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا مـا استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطـة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مداهم. وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقـــة توزعه على البلاد، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا باضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلتزم

دفاعية بحتة . فكل هجوم ، مهما كان مداه او طبيعته ، كان يعتبر امراً كاليا لا يمكم
نه إلا ما ندر ، وعند ضغط خارجي يكوّن خطراً على البلاد . وهكذا نستطيع ان
التردد الذي كان عليه الاباطرة في بعض الأحيان وانثناءهم فجأة ، في بعض الآونة

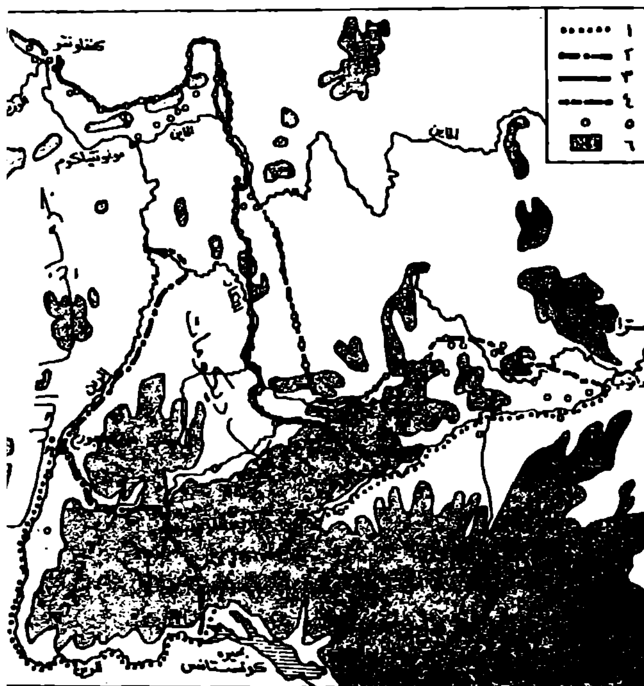

الشكل ٨ ـ الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ريتيا
١ ـ الحدود قبـل الامبراطور فسبسيانوس ؛ ٢ ـ الحدود في عهد فسبسيانوس ؛ ٣ ـ الحدود في عهد الأسرة الانطونية ؛ ٤ ـ الحدود في آخر عهد الاسرة الانطونية ؛ ٥ ـ بعض الحصون والقلاع الدفاعية ؛ ٦ ـ المراكز الواقعة على اكثر من ٥٠٠ متر .

ات وحملات عسكرية كانوا اخذوا بها وساروا فيها اشواطاً ، ثم مالوا عنها ، على غير
ار ، لتكاليفها الباهظة . ولذا كانوا يفضلون القيام بحركات هجومية محدودة ، وا
حية يجرونها على مراحل ، قد تمتد عشر سنوات وأكثر ، اذا ما اقتضى الامر . ك
وا القيام معاً ، وفي آن واحد ، بالحرب على جبهتين ، وضعاً يتهدد البلاد بكارثة ،
ه بأي ثمن .

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العادي ، وليؤمن استمراره النظم وسيره الرتيب ، لا ليعالج ازمات عارضة ، طارئة ، لا سيما ما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحي في النفس ، ولا يدخل في الروع سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها بـه الشعوب المجاورة لها ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستتعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فما فات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحي قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتىء ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود، هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليغفلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

الاشراف على الحدود وتنظيمها

ولكي تبقي الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانيـــة بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحـاول جهدها ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنهـا ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغـــاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادىء الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطىء الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفرات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذّر اقامتها امام نهر الإيلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بهـــا أحد. ولذا اخذت ، خلال القرن الثاني، تقيم لها او تستصلح ، في نقاط عديدة ، خطاً من التخوم والحدود اصطلحوا على تسميته بـ « *Limes* » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرنا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هـــذا الخط الحصين ، هو مخيم يحيط به خنـــدق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطعه ابراج للمراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعهـا الطوبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وخير مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هدريانوس، فينطلق من نهر التاين *Tyne* ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث *Solway Firth* . وامعاناً في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حتى نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب — وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية — هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (*Les Flaviens*) ،

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هـــذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بحقول ديكومات *Champs Décumates* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينـــة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن بهذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهنالك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هـــذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء. ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعدادها في المناطق الجدبـــة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استثمارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفـــاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالها بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عـــادة مخيمات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمـــة للمرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحث العلمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كالمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطوبوغرافي من الجو يؤازر هـــذه الكشوف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليهـــا الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع، فلن تبطل او تخلخل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فاينا وجدنا معـــالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي قطاعـــات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام مخيمات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جلية ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومـــا اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشرافها ، اكثر مـــا ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

الحياة في مخيات الجند

عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعة والرعوية بالتبني ، وروماني التبعة لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهذا الشرف الذي أوتيه بانخراطه في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثاني حتى بلغوا فيه حدود التقتير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وادبية اخرى.

فالراتب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيه النقد ، كعهدي اوغسطس وفسبسيانوس،ولم ترتفع قيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins*. والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يُقبل على الخدمة راضياً مرضياً ، وقد اتقن المهنة بعد ان تفقه بأمورها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماسة على المناورات وينقطع اليها بكليته ، لا سيا في عهود بعض الاباطرة ، كعهد الامبراطور هدريانوس مثلاً . فالامبراطور خبير بأمور الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لمبيز (الجزائر) *Lambèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كراديس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهنالك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيئتها ، وشق الطرقات وتعبيدها ، وبناء الجسور والعبّارات ، وتشييد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبناء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإيصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من المبرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البناء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابطصف،واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ،مع قيام الجيش واستقرار نظمه ، وقيام معسكراته ومخياته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، من

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوائرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هـذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كان لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطرة الحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته ومخياته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها ، على اقدار وانصبة مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم ، وأين يبتدىء الكمالي الزائد ؟ ولذا راح بعض الغُيُر من المتشددين على الاخلاق يتهمون هـذه الانشاءات بتميع وتخنيث من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شظف العيش ، وقسوة الحيـاة العسكرية ، وإحن الحرب ومشقاتها . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمة ١٦ سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافيـة الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم مـن افراد القوات السيارة ، نرى هـذه المدة تخفّض ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتخفض لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريح من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يتان إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠ سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العَلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومردّ ذلك ، على ما نعتقد ، الصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامـات نقدية وعَيْنِيَّة لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظـام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو المخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة رغم استمنالها بعد ان قـام على مقربة من انشاءات الجيش ومخياته ، مبانٍ مدنية عمّرها المتّجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقـل شبهة . وعلى كرّ الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنيـة الى ان أصبحت مدناً وحواضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون ، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجسـد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربها ومعيلها ، التسهيلات المادية اللازمة لها . وتغضّ القيادة النظر عن المخالفة في بادىء الأمر ، ثم لا تمتم أن تعترف بالأمر الواقـع وتقره ، لمـا يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتمدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجيـاً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

توفير المهمات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجدونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتقطعهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثمارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذراريهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع اولاً ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

على ضوء الموازنة

وهكذا لا تعتم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان يؤلف وحدة بل ينصهر في هذا العالم الروماني الذي أنيط به الدفاع عنه والسهر على أمنه وسلامته، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بها ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن توريداته ، يَرِدُ عليه من المؤخرة ، التي تتقلص رقعتها رويداً وتنكمش . وهذا الجيش الذي يرابط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق بأخلاقهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب ، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، اي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندما تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواءاً أكانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع عندما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فمنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز. فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقي والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططها الستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنا عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجه الجيش وتضطره للمرابطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية مما يراه او ينتصب امامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والخفة في التنقل. وعندما يحوّل البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفاع عن المواقع العسكرية، يذهب ضغطهم هذا بكل العراقيل ويجبر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديها في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتضته لها روما ،

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع للسيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لهما على الاطلاق ولا كفاء، من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور : كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية ، استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنيبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهائئة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثُل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحصين مناطق الحدود فتبعث فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية الخشوشنة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج. فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطبعت بطباع الرومان ، واخذت أعرافهم ، وتبنّت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعمل الذي حققه في القرنين الاول والثاني للميلاد، هو اداة طيّعة، فعالة لروْمنة وليْتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني.

الفصل الثاني

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية وطابعها النهائي

في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قتلة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الاخيرة. فالإصطدام الذي وقع في اكتيوم بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيّد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المعقول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مهما بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبّس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتيوم الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتماسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج وصوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بألاّ يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُدٌ له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الإصطلاح الذي تشدّه الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثرُ من آصرة اشتقاق وجذر ، بحيث راح خلفاؤه من بعده ، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلوها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالمظاهر التي تشددوا باحترامها تبدّت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المتفئلين الاغرار السذّج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المعلّمة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من المحتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فعَل الدهر فِعْلته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتيوم ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ للميلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يُقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه ، على التوطد والرسوخ ، ومكّنت له الاسباب المستحكمة ، من الإعراق . قد يكون بعض

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك٢ (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وفتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حداً لمخافات كاليغولا ومهاتراته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري. فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له ألدّاء، راحوا يترصدون الفرص المسعفة، والظروف المواتية. أفلم يضطر اوغسطس نفسه لخنق بعض المؤامرات في المهد! ولكن أنّى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكايد ودس ان تطرح على بساط البحث، ما تم من هذه المآتي الغرّ، والانجازات السياسية التي ألمّا على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤثّل، لم تلبث ان استحالت حيالها المقاومة، اسفاً شديداً واعجاباً، كالثناء العاطر لمآتٍ ألهبت الخيال ونالت تقديس الاجيال. فقد قام ابداً، على رأس السلطة « اوّل » لم تبرز ملامحه وتتضح قسماتــه الا بقدر ما اراده طبع هذا « الاول ». وليس القوى المندفعة في خصومته. وعندما قام، لفترة قصيرة، على السلطة، في عهد مارك اوريل، صاحبان يتلسبانها، لم تمسّ ازدواجية الشخصية، مبدأ الأولية، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة. وهكذا وجّه اوغسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغائي الفصل، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسمات هــذا النظام الملكي مع اكتماله.

١ ـ الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد اوّلٌ او مقدّم *Princeps*، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه، بل كان الكلمة، على عكس ذلك تماماً، صلة استعمال في النظام الجمهوري. فقــد عرف منذ عهد بعيد، بين نظم الجمهورية ومراتبها، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ « امير مجلس الشيوخ »، كانت ميزته الوحيدة، المبادرة، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش. وعندما يتنزّى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً مــا ورد على لسانه، فكلمة *Princeps* عنده، انما تدل على الاولية الادبية في التوجيه المؤثر. فاذا ما ازدادت هــذه الأولية شأناً لصالح الامبراطور، فلم يكن هذا سبباً او علة، بل جاء نتيجة او معلولاً، السلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها.

١ ـ الحـــكم

الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش

اولى هذه السلطات واخطرها شأناً وأبرزهـــا أثراً هي بالطبع السلطة العسكرية، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً، ومارسها فعلاً وعملاً. فهي أس او أصل السلطة التي يمنحها الشعب، او بالاحرى، التي تُمنح باسم الشعب، في بدء كل عهد من عهود السلطة، ولمدة السلطة ومدى عهدها. وهذه السلطة (*Imperium*)

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* اي السلطة البروقنصلية العظمى . وهـذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله او صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية او حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيات التي تمارسها روما نفسها . اما الصفة المشبهة « العظمى » او الكبرى فلكي يشدد على ان السلطة الممنوحة تبلغ اعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة اي حاكم او قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعها ، الرغبة الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثناياها ومطاويها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة اخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار اوغسطس في اكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ – ٦٩ بعد الميلاد ، واسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكأن الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم ُوجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقاء على زعيم وحيد اوحد ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت مخيماته وحامياته عن العاصمة روما . فبتسلم السلطة اليه وبالقاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Praefectus* ، اي والي او متولٍ . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* اي مندوب او معتمد . امـا الاول من هذه الالقاب ، فكان يحتفظ به ، وفقاً لاعرق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثـاني أبين مدلولاً ، واوضح معنى اذ يراد به او يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الإمبراطور وارادته المعبر عنها بقرار او مرسوم . ولذا فهو يسحبها منهما ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بمهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأتمران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهـذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب افريقيا المشيخي ، وتحت امرة صاحب هذا المنصب فرقـة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغاؤه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، آمرُ الفرقـة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعاً له ، بينا حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية نوميديا الامبراطورية .

لمن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن يُنسب

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كان او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتهيء لخوضها . فهو الذي يوحي ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط للوحي والالهام الالهي ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابداً ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للهتاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بترؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بترؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن ليترك لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصغر ، « بالملابس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية ، وعلى رؤوس الاشهاد: « وقع علي الاختيار » للطواف مرة، ولزياح النصر ثلاث مرات، وأعطيتُ لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، اما شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمديّ ، وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، إقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبتهجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً » .

وهذه الفكرة بعينها يعبّرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث . فالإمبراطور وحده يلبس الباليوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكرماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد حرب في الصميم ، وقائد دائم ، اينما وُجد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان تنتهي مهمتهم حتى يلفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مدني . ومن حقه، وهو في روما ، ان تسير في ركابه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسَم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية . وبيت المال الذي

يترتب عليه دفع التعويضات العائدة للمسرّحين، لا يتحرك بدون اشارة منه او كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقيها ، ويُعيّن الضباط ، ويقر الترفيعات لذويها . فإليه وحده ، يعود تقرير تشكيل الجيوش ، وتعبئتها ، وبقاؤها ونشاطها .

وهكذا ، فالقائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية . وله الرأي الأخير والكلمة الفصل ، في كل امر ومشكلة ، مهما كان طرفها الآخر . فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا ، دون فائدة تذكر ، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد ، عام ٦٨ – ٦٩ للميلاد ، لم يبق احد ليخدع نفسه . فالسر الحقيقي لهذه السلطة ، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite* ، يكمن في تفاني الجنود والملاكات التي تنتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

سلطاته المدنية

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها ، لا يمكن فصمها او عزلها او تجريدها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة ، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال . وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك ، غير واف بتأدية المراد ، واقتضى ، بالتالي ، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء ، او جُرّدت اعتباطاً من بعض الوظائف والمراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها . وأُلبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة ، او عن طريق قرارات قانونية سوّغت استعمالها ، كالصلاحيات التي نصّت عليها مواد القانون الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً ، واولاه ما اولى ، من سلطات وصلاحيات ، وقد حفظ لنا التاريخ نصّ هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش . وليس في وسعنا ان نستعرض هنا بالتفصيل والتبسيط الوافيين هذه السلطات ، فلنقف عند بعضها هنيهة .

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «اليوليو–كلودية»، او شرعاً بقوة القانون ، فيا بعد ، فلا يمكنه ، والحالة هذه ، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية . وقد رؤي ، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس وخلفائه من بعده ، فتتم له ولهم ، بذلك ، السلطات والصلاحيات الملازمة ، شرعاً وعرفاً ، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُولي صاحبها ، جميع الحقوق التي تمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري . فالامبراطور على شاكلة التريبون ، شخص مقدّس ، مكرّس ، لا يمكن مسّه . وعلى مثالهم ، يستطيع ان يأمر بتوقيف أي كان وان يقاصص ايا من اعتدى عليه او هزىء به او سخر منه . وعلى شاكلتهم ، له ملء السلطة والحق بأن « يشفع »، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار ، يتخذه مجلس الشيوخ او الحاكم . وعلى شاكلتهم ، يستطيع ان يدعو للاجتماع ، اعضاء مجلس الندوة ، في الحال ، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية ، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات . فاذا صح النظر ، وكانت هذه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب ، فهنالك مع ذلك فروق بعيدة

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبون . فالسلطة التريبونية تُعطى لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . والى هذا فالتريبون الآخرون ، الذين يجالسهم ويصاحبهم ، ويجلس معهم الى مقعد واحد ، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم الجرأة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بحكدار البلدية . ومع ذلك فقد ألقى الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها الى موظف ينعم برعايته ، يستطيع هو ، متى شاء ، عزله وطرده . كذلك عهد الى احد خاصته ، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤمّن مهامّها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه ، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القراصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئيا ، او يسخر ، او يُغفل او ينتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . وهمه جداً ان يقوم بها وفاقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردد ما كان يردده اوغسطس حين يقول: «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هذه الوظيفة (*Censor*) هو القيّم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفة كانت دوماً من وظائف «الرجل الاول» في الدولة ، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دومتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المعينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً اصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» الى الابد. ولم تلبث هذه الوظيفة ان تنوسي امرها ، فزالت الى الابد . وقد استطاع الاباطرة ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب ، فرفعوا الى طبقة الفرسان *Chevalier* او الى مرتبة الشيوخ ، من شاؤوا من الناس ، دونما رقيب او حسيب وأنعموا برتبة *Patriciat* على من شاؤوا من افراد الاسر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليها . ولذا نرى الاباطرة

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليهـا كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاها بصورة آلية في غرة كانون الثاني او (يناير) . فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تُعرف اذ ذاك باسم القنصل . فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها اللقب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هـذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومهما يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضيعة كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فبفضل النصوص القانونية ، وبمـاله من قوة النفوذ ، فالامبرطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوصي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تتيح لحاملهـا او لصاحبها بالاكثر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تتيح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اداها . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحلو له تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحيـاته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نمضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العـامة في الامبراطورية ، ولا سيا في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فنلتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تمتع بهـا الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هـذه السلطة ، في بادىء الأمر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة التي له ، كما يوليه كل سلطان *Auctoritas* *Imperium* ، فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

السلطة *Auctoritas*

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي تمت له واستقرت في قبضة يده . فقـد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انـه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول : « فقد تَفوّقت في السلطة على الجميع » أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلا منها يُنَاظر ناحية خاصة .

فالاصطلاح الاداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانون الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحف به من إشكال: فهو يوحي معنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية . وهذه السلطة يستمدها اوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندري انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف ينتسبها ويصيّرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر ، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتته صاغرة بعد انفاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجلى والمآتي العظام التي أداها للبلاد ، كما أتته من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هـذا جعل منه الرجل الاول – الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى اوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصّل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تمور تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاءه من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هـذا الماضي الثريّ الذي تم له ، فهم يستمسكون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

صاحب الجلالة في حمى القانون

وهـذا الإبهام الشامل ، والغموض يغلـّف كذلك ويلفّ « قانون الجلالة » الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد اوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى بعض الامبراطرة بعده ، ولا سيما طيباريوس ، يحرصون على تطبيقه بحذافيره. فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ « الشعب الروماني » في شخص الامبراطور ، وتجسده فيه ، ان يتم ، ولو شكلياً ، بطريقة شرعية قانونية . فأمر تفويض السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هـذه السلطة وجوهرها وصلبها . ومن ثم ، فصلاحيات التريبون التي حملها وتمتع بها ، كان لها هي الاخرى ولا شك ، اثرها العميق في جمام هـذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكرّس ، المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه أعداء هذه الطبقة الكادحة المتقمصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبة في يد الامبراطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لقسَم « اداء الامبراطور » والاخـلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تمثاله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيئته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية لملاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثر عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

الحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد به الحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله، استحال، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، يُنزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون ويعتصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكمات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفية من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول اكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولامراء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطانه .

٢ ـ الرجل الذي أعدته العناية الالهية

الهالة الروحية التي تجلل الامبراطورية: تطورها ومنابعها

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها، ولا يكفيها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من تقلب وتحول وتغير . فاذا كان فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالواقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسماتها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ،ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور. من ذلك مثلاً، الجيل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اكتووا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، ناؤوا بكلكلها وتضرسوا بويلاتها: وهذه الوحدة العميقة الجذور التي حققها فلمّت الشعث، وجبرت العظم المهيض ، وهذه الامبراطورية التي شيدها فبزهت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة ، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تباعاً ، قيصر ثم انطونيوس بعده ، اوضحت له الاخطار التي تكمن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل الا نظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الروية والفطنة والتحفظ يبديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيطة حملت النـــاس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كتـامة ، ولربما عن تحيّل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الا نسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والاوهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبيـــاً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقـاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمعزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الحالة الرومـــانية التي جلببت الامبراطور ، تم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقـــد راح بعض الامبراطرة : امثال كاليغولا ودومتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهوينا ، ان لم نقل القهقرى . وبجمل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة وفعلية ، لم نلحظ قط ان هذه الحالة اتسعت وتضخمت عما كانت عليه في عهد اوغسطس . فعلينا ان ننتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لنرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هـــذا الشرق الذي عرف ضروباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلابيبه منـذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تمامها ، اقله من الوجهة النظرية . وباستطاعة هـذا الشرق وحده ان يقدّم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من انجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواءاً أسقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، وزالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيدته . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطلّ من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهـاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يُهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منهـا استقى سيلاّ من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعـــد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض، التي كونت هذه الحالة، قام بينها أكثر من شبه ومجانسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في إلفة وانسجام.

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة، وتحديد قدر كل واحد منها، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها. وامام هـــذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدل العلمي المحتدم، نرى، مرة اخرى، ان من المستحيل ألا نقتصر إلا على بعض امثلة لا غير.

الامبراطور الحبر

بين هذه العناصر، عنصر روماني الاصل، يعبر عن تقليد مكرّس، يرى في الامبراطور: الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم. فقـــد حرص اوغسطس الحرص كله، وهمه كثيراً ألا يُهمـــل او ينتقص قط، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة. فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومنافسه ليبدس، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م، ليطالب بـــه وينتسبه لنفسه. وحرص خلفاء اوغسطس من بعده، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالحبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية. وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هـــذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين، وهو مَثَل حرص خلفاؤه من بعده، على احتذائه واقتفاء اثره.

والى هذا، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويُهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها، كما يستدل جيداً من الاواط والميداليات التي تحمل صورته. وهذه الرتبة هي رتبـــة العرّاف او العائف، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع. وقد رمزوا الى هـــذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت، فيما بعد، من الشارات المميزة للامبراطورية.

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة. فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة. فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأتفهها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهياكل، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها. وموجز القول، فالاسم الذي يحمله «اوغسطس»، مشتق من أقدم المراسم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم، هي رتبـــة العرافة *Augure*، وهي رتبة تضفي عليه شيئاً من الجلال وتجلببه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لهـــا

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منها الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته او مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

حالة النصر الامبراطوري

وهذه الآلهة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تُظهر عطفها وحدبها عليه بما يُؤتاه ، على يدها ، من نصر مبين وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الحالة الدينية . فالقازيلوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبين في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفضل الآلهة وهديها . وهكذا تلتقي هنـا ، مرة اخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتازجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حد بعيد ، هـذه التقاليد وتلوّنها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قيصر اولاً ، ومن ثَمّ لدى اوغسطس ثم بسرعة ، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يَردُ قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هـذا تصبح كلمةامبراطور مرادفاً لكلمة المظفّر او المنتصر ، والمؤهّل من قبل الآلهة والمصطفى ، بحيث راحوا يُضفون صفة الالوهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون : *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرمز : النصر المجنح ، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد . وفي عهد الاسرة واليوليو كلاودية ، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل ، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الاسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر ، ومن ثم راح هذا المؤلّه ينتقل من امبراطور آخر ، غداً رمز اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يُفرّدون ، أكثر فأكثر ، هذه الإلهة . فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا بالرمز *Victoria parthica* ، وطوراً *Britannica* ، وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها ، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين . ثم تطل علينا فكرة جديدة عُمل بها ، بكل تحفظ وحيطة ، منذ العهد الجمهوري ، قامت بتسمية ابن الملك او ولي عهده ، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربيبه دروسوس بلقب جرمانيكوس . ولم يمض كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتفادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة ، تتكاثر الالقاب والكنى وتضاف اليها نعوت وأوصاف تزيدهـا قوة ومعنى . فالامبراطور مارك أوريل لا يلبث ان يلقب بـ : صاحب الارمن او صاحب الفارثيين المعظم ، بينما الامبراطور ترايانوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عُرف ايضاً بـ : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمان ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانية الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر او الحاملة لرسوم أسرى حرب سجّد ، اشارة البلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

الفضائل الامبراطورية

كثيراً مــا تغنى الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبعطفهم ، ولذا راحوا يضفون عليهم ألقاباً وكنى منها : المنقذ او المخلّص. ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحورت قليلاً ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراتيوس في خطبة له القاهــا مرحّباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهيــة على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كأيام الربيع الضــاحك والشمس في رأد الضحى » . فمع اوغسطس نرى رتاج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي » الذي يقدمــه المواطنون لمنقذهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* ، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص الجنس البشري بأمره . فالخلاص او الفداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : بأبي الوطن ، هــذا اللقب الذي اصبح من ألصق ألقاب الامبراطور . ففي بهو اجتماع مجلس الندوة الروماني في رومــا ، كان يُرى ، على مقربة من مذبح إله النصر، ترس منصب نقش تحته ما يشير الى انه تقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكأن بقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبحة لا تنتهي ، تقص على النــاس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحبّز ، بما تحمل من شارات ورموز ، مناقب الامبراطور، ولا سيا الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويهــاً بالخيرات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الرومــاني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيهــا من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبــع ، ببعض الألفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع. فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها. فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تنطلق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهيــة التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتتبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

عبادة الإمبراطور

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أوتي اوغسطس من الفطنة مــا صانه من الانزلاق الى مبالغــات قيصر وتطرفه في روما ، ولا سيا من سفاهات انطونيوس وشططه في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصيبوا بمس في عقولهم او دخل على نفوسهم، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندورة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليــه

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالوهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في باديء الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للمبادهات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تتبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٨/٦٩ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مع بقائها غير مكتملة ولا مستجمعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كالدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكرياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية ، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لاول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه المسميات المصطلحة حتى يومنا هذا . والحلف او القسم باسم الامبراطور ، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات . وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق ، فتصبح في الاصطلاح العام : الآلهة الاوغسطية . فالمعجم الهليني غني بمثل هذه المسميات . فاستمدوا منه اسماء الاشهر ، والقسم مثلاً . هنالك اكثر من شبه بين الجن *Génie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة للغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الاسرة المالكة ، بشتى اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقرابين على شرفها . وتنظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك ، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تنتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهيمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان . « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر ، الى مؤسس الامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ إنما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

الفردي او الشخصي ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب .

وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما اوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمي . تضطلع بها جمعيات عامة وتطبع هذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحلية (البلدية) والاقليمية . فمنذ العهد الجمهوري ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس رفض ان تقام عبادة خاصة به ، إلا انه يسلم بانشاء عبادة خاصة : « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردي الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات، وهي احتفالات تقام بانتظام، وعلى قدر كبير من الابهة والفخامة فتنفق المدن عليها وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الالعاب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفدت موازنتها. من هذه الاعياد ما عرف في الغرب باسم *Flamines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منها في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرّم فيها، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشىء عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعملية التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد الشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد، بيمين مغلظة انه شاهد، اثناء الاحتفال بجنازة الامبراطور وحرق جثمانه، روحه تطير على اجنحة نسر. وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطرة ، سيئي السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة، ولذا تحفّظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا يتنطح فيها الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤلـه ، انما يكرّم كالآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحُل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

بين الجرأة والتشكك

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطرة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور ترايانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحـدة ، وذلك ، لأسباب روائية، خلافية او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما اوغسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هـذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً، يزول ما بينها من فوارق،فتتوحد او تكاد، دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطرنّ على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليههم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هـذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها إغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او الجافاة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشمئزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودومتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماتهم شر ميتة ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقه الذاتي وهو اشد امراً من التدابير والاجراءات المصطنعة مهما تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبة او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التمادي في هذا المجال فدفعوا غالياً ، بدمائهم ، السخافات والاسفافات التي أتوهـا ، الى جانب تجنيبهم الاثم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيئته اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحّدوا النهج ، الاستجابة لالتماسات عفوية تلقائية . وعلى هذا الأساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيـه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لهـا ارتدت طابع نظام حكومي او بالاحرى ، نظم حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغا في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله، حتى اذا ما نُظر اليهـا نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجية، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثير فيه من تشكك .

فالمستقبل ينفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصع ، كما انها اكثر ارتباطاً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها . ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً باكليل يشع من كل صوب ، رمزاً الشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبث ويتشدد في المناداة به إلهاً *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الأمبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الا وهي الدفاع عن الامبراطورية من تعديات البرابرة، بؤرة الفساد على الارض، وتأمين السلام، والحفاظ على النظام في البلاد، وتوزيع الخير والرفاه على الأرض،فهو بالطبع،يغض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً، ومن ثم تجسيداً للالوهية او للآلهة التي تسيطر، تحت اسماء شتى، على النظام الكوني. وفي عهد الاسرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء الناس في عهد اسرة سفيروس .

٣ ـ الخلافة في الاسرة
بين الواقع والنظر

الخلافة الامبراطورية ، البديل في الوراثة الممتنعة

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات الحربية والامجاد العسكرية، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش، وبنسبة ولاء الجيش لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ، اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور،من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية ما يطمعان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض اوغسطس حل مشكلة الملكية، لمنعه رفضه من الاخذ بالحد الادنى من الحق الملكي الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فمبدأ الخلافة الوراثية، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فمبدأ الحق الوراثي فيها كان كامناً او مضمراً ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد شاءت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تعاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفسبسيانوس ومارك اوريل، كان لهم ، عندما حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من الافاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيبه نيرون . ومن المؤسف لعمري ، ان تصبح الخلافــة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لابستهـا ، لتصبح فيا بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته ، الى رجل احد ، فرد .

ولئلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالي لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجـاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلاءم جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تقره، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبنى ابن اخيه او كتاف المعروف تباعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبنّي التي اتاها في عهده المديد. وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة: كالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها، الا تجعل العرش يشغر عند وفاة صاحبه الاول. والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحـة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كبرى ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه بحق، المتقدم ادبياً. وهكذا نرى دومتيانوس يعيّن ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هدريانوس جادَ بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تباعاً لقب « اوغسطس » الوسيوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينهما إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للاثنين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسميـة ، كما استحقا ان يحملا الالقاب ذاتها التي في حملها إعادة لذكرى الامجاد الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانيـة الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع بـه علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الاذهان، عهد الوصاية المشتركة التي عُمِل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر. ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الرومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عُمِل به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعنيهم الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقـــال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هــذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف المداراة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

تطور الحق السلالي والاسرة اليوليو ـ كلودية *Julio – Claudienne*

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا الاغراء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلالية . فالانسان نزّاع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجـل الذي أعدّته العناية الربانية ، مهّدت السبيل طبعاً امـام الفكرة الثانية وهي فكرة الأسرة المصونة ، الملهَمَة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها طابعه الفردي المميز .

فمن عهـد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليو – كلودية عما لاثنين من افراد هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي كانت جدته لأمه من هـذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذ لم يعقب تبنـّى أكبرهما سناً ، وأرغمه على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انصهرت اسرة يوليو بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيما بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيـدة وبناتها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بـين افراد الأسرتين وأفخاذهما وبطونها، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي يبدو هذا التعقيد على أتم صوره يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين الثانية من خالها كلوديوس ، كانت لحماً ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنـة اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيدته . كل هذا التشابك والتراكب والتماظل لم يخل من نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلّون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغب عن فطنة أغريبين وزكانتها . فآصرة التبني التي شدتها الى اوغسطس كانت احدى هذه الوسائل التي تذرعت بها لتحمل كلوديوس على تبني نيرون، احد افراد اسرة دومتيوس *Domitius* ، فاستطاعت بذلك ان تقصي عن الخلافة بريتانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ، حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليو ـ كلودية في عيون معاصريها، من هذه الاسر المختارة، المصطفاة، والمهيأة ، ان لم يكن شرعاً فوضعاً ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض، كان من الأسباب التي حالت او منعت

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرّج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تفتقر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظّم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة الناس ، وابتعاده عنهم وجافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دون المرتجى والمرغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألعوبة ، تتقاذفها شعبية المرشح في الرأي العام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحبكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعبث الأقدار . وعندما بادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الإمبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم ، خاف وأخذت فرائصه ترتعد هلعاً ، فتوارى خلف سجف القصر وستائره. وهذا الوضع حمل كل امبراطور على ان يتخلص من انسبائه وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وفن ، من قِبَل طامع في الحكم خالع العذار ، امثال «سيجان» ، تفعل فعلها الذريع بين الأسرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصدت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تودي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أُجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تخلى عنه حرسه ، لم يكن بقي احد من افراد الأسرة ليطالب بامجاد قيصر وأغسطس ، ويضرّح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونها كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى القوي بسمة يفاز بها الحظ .

الاسرة الفلافية
Les Flaviens

اما الرجل القوي في هذه الامرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول امبراطور اخرجته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد على ٢٦ سنة ، الا انها ألّفت كتلة بزت بتجانسها وتراصّها ، ما تم منه للاسرة اليوليو – كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الا ابنة ، فقد خلفه على العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان تُجري ، في روما ، حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بمعزل عن تقلبات الرأي ودسائس الدساسين .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاتاة الحظ له وسيره في ركابه . فما ان قبل تسنم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه ضمانة كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما » . وفي هذا السبيل عمل ما يترتب عليه عمله ، فعهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس الى رتبة القنصلية وثبّته فيها عدة مرات. وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة ، بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمنا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، ، العبارة التالية التي كتب لها ان تعمر طويلاً ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الاسرة الإلهية » ، تنوها بالأسرة الامبراطورية واشارةً اليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتُعرق في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى مــا شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هــلاكه وقتله . وما كاد جثانه يواري الثرى ، حتى راح مجلس الشيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كان تبنى بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

الاسرة الانطونية واختيار الاصلح

عرف المتآمرون ، هذه المرة ، ان يُحكموا الحبكة ويسددوا الضربة ، وينفذوا بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد. فالامبراطور الجديدالذي نادوا به : نيرفا ، قبل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطولية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد. اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة، فليس في التاريخ كله، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم، اسرة أعلق في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة. فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم، هو الأخير بينهم، الذي تم على يده وأدْ الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنوة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكوّن بحد ذاتــه ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القربى بين السلف والخلف، كأبناء العمومة أو الخؤولة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط، لعمري ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني – وهو أغرب مــا في هذا النوع – وجود بنوة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عملية التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أخِذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجــأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم. وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريــل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كومود نفسه . فاذا كان ثمّة مــا يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويزكيها، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكوّن

المفتاح الحقيقي لهذا السر المغلق وينأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قوّاداً ليس لهم من الحسب ولا من الجد العسكري – باستثناء ترايانوس – ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف بـــه ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الامبراطرة الذين دُعوا لخلافتهم ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل مـا جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حداً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذا ما قيست بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للامبراطرة الأنطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن تستنفد الاهتمام الخليق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاقت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية مُوجّهة تكون في مأمن من وصول امبراطرة الى الحكم يجيء بهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعْل الخلافة في الاسرة من حق « الأفضل » و « الأمثل » ، لها . وتحرص العهد عـلى تسمية الوريث الأفضل ، واعلان امره ، وذلك تقويةً للامبراطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينـا في « تواريخه » قصة تبني الامبراطور غلبـا *Galba* لبيزون *Pison* أو مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتبنّي : « لا يعني هذا قط ان لا أنسباء لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأني طمحت اليه ، وسميت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي السلطة بنَصَفَة ، وبمعزل عن الأخذ بالوجوه ، وتفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أمـــا الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعطل معهـا الفكر وينعدم النظر . فالمتبني هو الذي يقطع ويحزم في ما يُفتَصَل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمديح التي وجهها «بلين الاصغر» *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثيراً على السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرهـا من الامر الامبراطورية تتفتح في ظلها وعهدها ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

القدر العابث ، الساخر ، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

عدم اكتمال تجربة النظام الملكي الامبراطوري

قيّض لنا ان نشهد ، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما واوغسطس» او عبادة الإلهي *Divi* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية وبلوغها التمام ، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هل كان من شأن تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة ، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكية الامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتمام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر ، بالفعل ، الى الكثير من روحانية الدين. فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهرهم.

فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء ، على عكس الواقع ، بنتائج فعالة ، ربما تبلورت عن وضع قانونٍ لوراثة الخلافة الامبراطورية ، ثابت ، واضح ، وهو وحده القادر على ان يشيّد النظام الملكي على أسس ركينة من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان يصدمهم الموت ، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية، كلاً متجانساً ، اذ ان عدم توفر هذا العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية ، الفينة بعد الفينة ، لهزات عنيفة وخضات شديدة ، أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية ، باعتبارها مؤسسة بشرية ، وملكية عسكرية، لم يكن لها بدّ من التضرّس بما تضرّست به من إحن الدهر وصروفه ودُوَله ، انما قد يكون جاء هذا كله ، على نطاق اضيق وبعدد اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه ، والإشكال الضمني الذي اتصفت به، اقاماها، منذ الاساس، على خواء ، وجعلها واهية ، متداعية في الصميم . هنالك ، بالطبع ، عدد من النظم الملكية ، عانت ، منذ البدء ، الداء نفسه ، إلا انها عرفت ، فيما بعد ، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً. ومسؤولية عدم اكتمال فكرة النظام الامبراطوري في روما ، انما مردها قبل كل شيء ، والحق يقال ، الى الظروف التي لابست هذه الامبراطورية وأحاقت بها ، وللأفراد الذين تولوا مقدّراتها خلال القرنين ، وهي الفترة التي امتد اليها عهد الامبراطورية الاولى ، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أتوه من مخافات وترّهات .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان ، استطاعت هذه الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم ، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ ـ النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفتت حيويتها وضؤل نشاطها ، يوماً بعد يوم .

الاجتماعات الشعبية *Les Comices*

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة، انما قلت دعوتها للانعقاد. فاذا ما عقدت جلساتها ، فللأمور تافهة وبصلاحيات اخذت تضيق وتدق ، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى ، في القرن الاول للاجتماع ، عند مناسبة

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية، بعد ان بطل العمل بها فعلاً، منذ عهد اوغسطس، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألقت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هـذا الانتقال ، نظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ للميلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقـة الشفاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة *Centuries* تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائـة *Centuries* تحمل اسم حفيديْ اوغسطس ، توُفيا يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنـه الآخر بالتبني، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منها حملت اسماءهما. والاعتقاد السائـد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهام الناخبين المشاركين بعملية الاقتراع كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجهل الجهل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس وخلفائه من الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انـه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلاقل التي طالما اتصفت بهـا اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قـد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة، على المناداة به امبراطوراً، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة. وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبـيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

المناصب والوظائف

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلدها لأصحابها، اما رأساً ، كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل، باي استقلال خاص. فهي مراتب بقي معمولاً بها كالقاب لا غير، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أحمل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حامليهـا

احياناً ، نفقة تمثيل. ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرته هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنايتهـا ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعـــد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتخلى مع نوابه وممثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية. وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة، في وقت واحد،اسوةبما كانعليه الوضع في الماضي ايضاً، اكثر منمائتيقنصل. فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم. وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقابهم باقل مما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يحلان محلهما . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحــــاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل برتبة القنصلية يبرز على اشده ، عندمـا نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبيها سلطة البروقنصلية، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيــا (مركزه قرطاجة) ويتقاضيان عن وظيفتها هذه مرتبات ضخمة للغاية تقطع معهــا شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . وفضلاً على ذلك ، ان الاول منهما انتزعت منه ، في غرة العهد الامبرطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثـــاني منهما كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدها عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن أمامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة يتدبهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع علـى ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

تبقى دوما تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبدل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيما وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة الـ المقدّمين *Prêteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً، ولاأرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا. « ان سلك التشريفات والامجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تلمع لمثل هذه التبجيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بمهام وظائف الادارة الامبراطورية .

مجلس الشيوخ *Sénat*

بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير ونابها من التحويل والتبديل اقل من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كان يتخذهــا ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اوغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنيب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيزهم نفوذ هـــذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية ، *Dyarchie* ، كما يسميهـا المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة، سوى تغرير او تعلة. هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة – وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة – مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بهـا ، بينهم كثيرون معروفون بولهم الجمهورية وحدبهم عـــلى نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطماعهم الاشعبية وطموحهم، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر من امبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ، كهيئة قائمة بذاتها لم تكن لتجرؤ على الوقوف بوجهه ، فانه مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجـاً . فالمزاج الشخصي الذي فرّد هؤلاء« الطغاة » الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوهـا ، كما ذهب غيرهم فريسة الوشاة النفاثين والأرصاد المبثوثة عليهم . ولم يصفُ الجـو ويصحُ إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطّف والمهدّىء ، منها مثلاً كفاءة بعض الامبراطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على التعاب بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت عـلى تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشاركة في تجنيب البـلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨-٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد ماركاوريل يتوارى ويخلو

العرش بموته حتى عادت الخصومة على أشدّها .

وفي هـــذا القران الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كثب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هـذا المجلس، تختفي وتنسخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنهـــا في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احـد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الخفية في الأمر وسريرته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خانه الظن وطاش فأله . ولعـــل اهم امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوّض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللامبراطور ترايانوس . والموقف العادي المألوف الذي يقفه هو الاعتراف بمن وقع عليه اختيار الجيش واقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرّد المجلس المذكور من كل هـــذه السلطات والصلاحيات، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها. فحقُّ الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فمنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أُدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تتعدّ الاساس القائم ، والمبدأ المعمول بـــه . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيهـــا فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهـد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المـــال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذّى إلا من الرسوم الجباة من ايطاليا والولايات المشيخية، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون، اخذ الامبراطور يُعنى شخصياً بتعيين ولي بيت المـــال « *Aerarium* » والحدّ من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الخطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ومجرى نهر التيبر وشواطئه ، والمجارير

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمعزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريفية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولِغَ في الحفاظ عليها. غير ان انحطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظامَ الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ - النظم والمؤسسات الجديدة التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

ضرورة التطور ومصاعبه

قابل انحسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتنتظم تحت اشراف الامبراطور وبعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عُهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يقم احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بممالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنويه به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر فظاظة او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً ، امثال كاليغولا ودوميتيانوس مثلاً. فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس ، مثلاً ، بنُصح بطانتهم النيّرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حاسماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصول ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شتيت من المقاطعات ولَمِّ الولايات ضمت بعضاً الى بعض ، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفّرة ، حكمتها ونظّمتها بوسائل مرتجلة ، وأمّنت حاجاتها كما تبدت لهذه المدينة ، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقق الاهداف التي تضعها نصب عينيها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية. فأين يمكن لها ان تجد ، في هذا المجال ، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة ، مكتملة ، والمناهج القويمة التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يَرِدَ الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المعين الثري يعبّون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبس تقليداً حرفياً ، ونقلاً أعمى ، فراحوا يكيّفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقّفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يجدر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعوّل كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين رددوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، ورجّعوا ، عن وعي او غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائفية في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يجهل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زيدت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يُقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغط من الضرورات القصوى . ففي هذا الظرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوىء عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

ففلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شورى . فالألوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر ، كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تنشأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيما في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الامبراطرة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمري ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظائفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فأقصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والإشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتنعم بالديمومة والاستمرار .

مجلس الامبراطور الخاص .

هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التى اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هدريانوس .

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا » ، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألّفوا حوله اركان حربه . وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً – فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله – كما له اصول هلينية ، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه . ومـــع ذلك لم يبلغنا قط ، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألّفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهات، طائفة او هيئة مسلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين المدني والقضـائي هي التي تُبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة ، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس ، ولم يصبح قائماً ، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس . وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه ، في عهد هدريانوس . وكان اعضـاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات ، ويتقاضون مرتبات سنوية ويعقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط ، في حال تغيبه . وهم يتألفون عادة ، من شفاليه وشيوخ ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم فيهذه الوظيفة . وبين اعضاء المجلس عدد من كبـار الفقهاء والمشترعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة. وذلك للبت بالقضايا الحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه النظر فيها من جديد، وذلك تفسيراً لقانون جديد ، او شرحاً او تكملة للتشريع خاص . ففي مجال الشرع ، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري .

المكاتب الادارية

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، اسوة بسراة القوم وعظمائهم عند الرومان . فاستخدم اوغسطس ، في هذا السبيل ، أمثل ما لديه من الأرقـاء أدباً ، وارفعهم ثقافة ، وابرزهم علماً ، وهم على الغالب ، اقوام اغارقة او شرقيون ، اعاد اليهم حريتهم ، وأعتقهم ، بعد ان رضفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم ، تقديراً منه للخدمات الجلى التي أدوها .. وكانت امانة السر في بادىء الأمر ، ديوان كتابة خاص ، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص . ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس ، الذي انشأ ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح ، فجعل واحداً منها للآداب ، وآخر للمظـالم ، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة. واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة ، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد ، كديوان المخطوطات *Archives* . وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب ، رصين ، موصول الاصول ، لم يكن بد منه للانضباط .

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية ، لمدة ثلاثة ارباع القرن ، بين يدي المعتقين من الرق . من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور : نرسيس *Narcisse* وبَلاّس . فالنفوذ العريض الذي تم لهما ، والغنى الوافر الذي جمعـاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة ،

والاجلال الذي أحيطا به وهما في بطانــة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يحرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلــك لم يخفِ عن الناس ، الأصل الوضيع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمة من قوة شرعية أكثر مما تتجه للامبراطور نفسه . وعلينا ان ننتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بهـــا الى شخصيات لها شأنهــا في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهــة النظرية .

وصاية ونيابة

وأجهزة التقرير والتبليغ هــذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينما أنشأ الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، عُمل بها في ايطاليا وببعضها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة ، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة .

وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الممل والنافل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونهـــا ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لهاطابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكام والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب . والخاصة المميزة لهؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور ، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفيع ، والعزل والرفت ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصة ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنهـــا الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجارير المدينة ، الى غير ذلك. ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في رومـــا ، عندما يكون غائباً عنها ، وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بهـــا ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة ، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة ، بقي على رأس القضاء الجنائي ، في روما وضواحيها ،

على مسافة ١٠٠٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم . فاذا ما جمع الى وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ ، عد ذلك تكريماً لمجلس الشيوخ كما عـد اعترافاً من الدولة بالدور الجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها.

اما النيابات الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه، بينها ثلاثة خليقة بالاحترام تستحق التنويه بها بشيء من التفصيل .

فاولى منها هي نيابة الـ *Préture* او الولاية وتشبه رئاسة الاركان ، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات . فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى ، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير ، يعد الواحد منهـا بين ٩٠٠ – ١٠٠٠ جندي ، ومركزها روما منذ عهد طيباريوس ، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس ، في ايطاليا كلها ، سوى ٦ فرق لا غير . وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه ، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش.

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجراً صغيراً رمزاً لوظيفته والصلاحيات الواسعة التي يمارسها، يقلده اياه الامبراطور تنويهاً منه بان له حق الموت والحياة . ويقوم نائب الولاية ، من جهة ثانيـة بدور رئيس اركان الجيش ، ويتعهد تجهيزاته لا سيما في اوقات الحرب ، ويمارس ، في ايطاليا ، السلطة الجنائية ، على مسافة ١٠٠ ميل، كما ان موظفي هذه الفئة هم، بحكم الوظيفة التي يشغلونها، اعضاء مجلس الشورى ، كما نظمه الامبراطور هدريانوس . فصاحب هذه الوظيفة ، يأتي في قمة سلم الدرجات الوظيفية ، وهي وظيفة تحفظُ عادة لفئـة الشفاليه . غير ان أباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية ، يعهدون بها ، من وقت الى آخر ، دونمـا تمييز او تحديد في الصلاحيات ، الى اثنين من الموظفين ، او الى واحد ، على السواء . الا انهم يفضلون ، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ ، وضبطاً للادارة ، إسنادها ، في الغالب ، الى موظف واحد ، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له مـا يبرره ، اذ ان قصة سيجان ، في عهد طيباريوس ، وبيرينتـيس ، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان . فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان يوجس الاباطرة شراً مـن العهد بمثل هذه القوة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع. ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيهـا ، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام ، وافتقار الموظفين للاخلاص ، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تمخض بهـا جنود الولاية . فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن .

اما الولايتان الاخريان الاقل نفوذاً وتأثيراً : ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصلحة التموين والتوريدات *Annone* ، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها . فقد أولت ظروف الحياة وملابساتها المتشعبة والمعقدة في روما ، هاتين الوظيفتين ، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحباها من الاستعداد الفني والتقني . فلا عجب ، والامر كما ذكرنا، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية ، بعض الظلال الكاسفة ، وذلك بالنسبة للقوة

العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الاذهان سوابق من الوظائف الهلينية. فمدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهنالك، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحل المشكلة على مثل هـــذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى، فمرد ذلك ، من جهة، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والامجاد التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر، فالاباطرة، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولائهم فأولوهم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

فالنتائج النظرية جاءت جلية ، واضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قِبل قسم من الجيش والحاميات المرابطة دون ان يشارك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤ ـ الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بمكان، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات، تقتضي وحـــدة في السياسة ، كما تقتضي مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من الحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن ، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

ايطاليـــا

مجرد التفكير بتجريد ايطاليا مما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على الامتيازات التي كانت تنعم بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحــده ، الغبار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تنعم بما تنعم به من وضع مدني

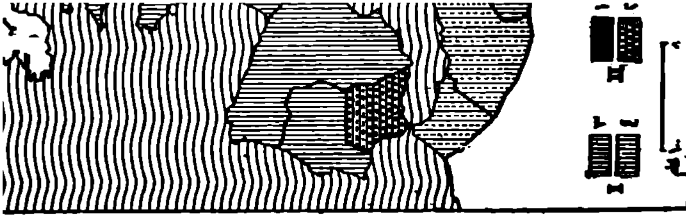

الشكل ٩ – خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني

I ـ ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقنصل : ١ ـ ولايات حكامها قناصل قدماء ؛ ٢ ـ ولا حكامها بريتور متقدمون.

II ـ ولايات امبراطورية يتولى ادارة الحكم فيها ؛ ٣ ـ مندوبون بروبريتوريان من فئة قنصل قديم او ٥ قديم ؛ ٤ ـ بروكوراتور او ولاة من رتبة شفاليه .

من العسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا ـ لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة، وتتولى الهيئات الشعبية ادارة شؤونها البلدية تحت مشارفة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين . وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام، كما استبدت به روما، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لا بد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها ،وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة. وقد طلع علينا الامبراطور هدريانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض »، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية، بينما القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاة المدن والولاة الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحياة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتهيئتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

توزيع الولايات والحكام

تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور، التعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيما بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان حاكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينها ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية، كما يلي: ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً، و ١٠ ولايات مرتبطة ادارياً بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ، سبق لهم ان شغلوا من قبل، مراكز قناصل او مفوضين، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرابطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلاً على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هذا الوصف *Proprétoriens* تدليلاً على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآنفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشفالية ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولّون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضمار التطور الحضاري، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش. وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والي . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدريانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مدّ روما وايطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني« تاسيت» ما كانت تخفيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي، اذ كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ، او أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوافرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بها ، فيأخذ في تبييت الدسائس وحبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالمجاعة. ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام، شيوخاً كانوا او شفاليه، نواباً للملك او ولاة او مفوضين، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصطفيهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاؤهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، او امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفت والعزل ، اذا ما اساؤا الى ما أؤتمنوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، او يجزيهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفيعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان نرى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تباعاً بين الوظائف الكبرى فيمارس تارة وظيفة *Proprétorieus* او بروقنصل،اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعتهم بالحياديين او الأحرار ، واصحاب الثانيـة من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات. وهكذا اصبحت هذه المفارقات النظرية،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنىً لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار لملء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلّون به من قدرات ومؤهلات ادارية، وعلى جدارتهم المسلكية للمهات التي ينتدبون اليها او تناط بهم. فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوه ، بعد ان عرفوا ان يحمموا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحه العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بمنأى عن روح الزلفى والملق التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

روح جديدة تغمر الادارة

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد الذي طلع على البلاد ، والى مثل هـــذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركزية الادارية التي سار العهـــد الجديد على مبدئها وطبّقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هـــذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحريات التي ما زالت بعض الجماعات والهيئات الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتمهل في معالجتها ، والتثاقل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهـد الامبراطور هدريانوس تحمّل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فُرض عليهم ان يُؤمّنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجته ، لم تتضرّس كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتأمتها احياناً . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدواوين، وان تطبّق بحذافيرها، نصوص القوانين المعمول بهـا من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الاباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات، فترك اثراً اختلف قدراً لدى سكان الولايات. فما عسى ان يكون الوضع ، والحـالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وتفرغوا للعمل الجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفسبسيانوس ، وترايانوس ، ومـــن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكـّنت لهـذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيا بالنظرية الانسانية التي تنزّت بهـا فلسفة الرواقيين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لقحتها. وتمتعت هذه الادارة، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها والتعبير عنها بأعمال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تتمتع ، هي الأخرى ، بجهاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكان من المتوجب على كل حاكم ولاية ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه ، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبثوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثالها في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتمام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالاً بكثير ، مما كان عليه من قبل .

العدالة

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات، لقيود وتضييقات متزايدة. فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر. فهو الذي يتولى النظر في أهم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقِرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كما حدث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدّق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقهم هذا ، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعاً كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعوية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكاثر عدد من يحملون هذه الرعوية لم يفضِ الى ازدحام هذه المحاكم بالمتداعين، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتعد فرائصهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلاً الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعوية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية، ويعلّق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيباً له،ثم تراه هو ذاته،بعد ان أصبح امبراطوراً، يحكم بالموت على نائب الامبراطور ومثله في جرمانيا السفلى،لاهماله التماس مجرم رفع محاكمته الى روما فضرب بالتماسه عرض الحائط . ومهما يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين على ان يقوموا بواجباتهم القضائية خير قيام . ولذا نراهم يجرون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، ويقيمون مجالس للعدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يمرون بها ، وهم في هذا كله ، يستعينون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصَفة ، اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيُصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحدّ منه حق المتهم بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكام انفسهم ، كانوا لدى أدنى شك يخامرهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط الحقوقي والقضائي يحتدم كثيراً في الحكومة المركزية، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها ويتوسع. فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان يغتنمها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسبما تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وايطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على الولايات التي عانت ما عانت من تَعنّت الحكام المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

المالية : استمرار التفاوت بين ايطاليا والولايات الاخرى

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملزمة بتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها . ومهما تعرضت له من احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة. فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال املاك التاج، وهي ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة. وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن تركات اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها مراة القوم في روما ، ومن بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثماري خاص، وتدر على الدولة الرومانية فيئاً يبزّ بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة. والى هذا، يجب ان نضيف الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تُفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التركات تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من اصل التركات التي تذهب الى اباعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ١٠٠ ٠٠٠ *Sesterces*[1] . وهذه الضريبة كانت تغذي« صندوق الجندي »، هذا الصندوق الذي كان يدفع تعويضات لأفراد الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثل هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

(١) السسترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة.

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م . غير ان الولايات الايطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الايطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة ، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلبث ان تَطلّع علينا اخيراً ما عُرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انـه بالفعل تبرع إلزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواءً أكانوا حاملين الرعوية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض ترايانوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن ايطاليا ، لما هذه ، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تفضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنهـا بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . ومما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

المالية الضرائبية وتوحيد رسوم الجباية

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المرزحة التي زادها وطأة قيام جيش لَجِب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ، تُدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد ، اذ ذاك ، من الكماليات ، وذلك بانشاء بلاط فخم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصروح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيما عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهوه ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الانفاق حتى يدب الاضطراب والبلبلة في مالية الدولة وتُرْمى بالعجز والعسر. وقد رأينا فيما سبق ، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر ، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقتير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيـان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هـذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياد الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتعنّت المعروف بخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك يهمه في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حـد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالـك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول : كالبطانة ، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بـل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحي بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحي بما يكنه من رعاية وعطف وروح النَصَفَة للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية. فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة ترتكز على التعداد، والمراقبة الشديدة، التي أمنت للبطالسة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه، وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسبما سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطورية من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الحراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليـــات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور ترايانوس، بعملية مسح للامبراطورية. كذلك كان هنالك ضريبة أعنـــاق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هـــذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب، بعد ان توارت عن المسرح، خلال ازمة الحروب الأهلية التي عانت منها البلاد الامرّين، جمعيات الجباة والعشارين القوية. وامام هذا النقص في الجباية ، راحت الدولة تعتمد ، في بادىء الامر ، تلزيم الخراج الخاص بالضرائب غـير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تلزيم الخراج ولذا استعانت بجبـــاة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصالهم بالناس من جهة، ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء. اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعهدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعنيها ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبـــار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الخراج، انقطع فيه كذلك، او قلّ كثيراً جداً، سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهلـين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين، مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور. كما أجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجبونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمـال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها، ولاسيما

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمّنون، من جهة اخرى ، ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون الماليون كانوا برتبة تحصيلدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليـا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف، من جباية الضرائب والاموال المستحقة للدولة. إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا، من الوجهة النظرية، على الأقل ، مديري مال، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم اصبحوا ، اكثر فأكثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات

ليس بتغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبّرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشتى الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس » التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية ».

فاللفظ المستعمل لا يعبر عن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والحواضر القائمة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغالية الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جمهرة الممثلين للأفراد الواقعين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطتها ، للشعوب التي أخضعتها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل: فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثله ، وفقاً للتقاليد المرعية عنده ، وحسبما يقتضيه واقعه العنصري أو السلالي ، ويؤلف عاملاً ضامناً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وايطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لهامن غنى مواردها الطائلة ، ووفرتها ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لهـا ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها، اذ ذاك، سوى عدد قليل من المدن. اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين، لاسيا وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيها وانبثقت منها بالذات. وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها. فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيما بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك، لا سيا ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم. وهكذا كان هؤلاء السادة، المعدود الاصغر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية. فقد كانوا ما هم عليه، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة، ولأن العبادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها.

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية، على مر الزمن، ان لا خوف عليها ولا خشية قط، من هذه المجالس، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هذه المجالس ونشاطاتها. فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس ترؤس الاحتفال المشترك، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد. فلم يعهدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلاً بين البلديات، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة. فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة. فاقتصروا على ان يسمحوا لهؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه، على شرط ان يحملوا تفويضاً من قبل من انتدبوهم للتكلم باسمهم في هذا الموضوع بالذات. وعلى هذا، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك، حسبما تقتضيه الظروف، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق، أو إقامة تمثال له، وإلا فارسال قرار الى روما للمطالبة بمحاسبته حساباً عسيراً او بملاحقته امام القضاء.

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما ينم، ولا شك، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددة وستبقى خافتة مكبوتة لوقت طويل بعد. ولربما تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلا على طلوع او بروز شيء من المركزية، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر. وهذه المحاسبة العسيرة او بالاحرى هذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفر على سلفه، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية. غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك. فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يهمه ويستلزم المزيد من المعلومات،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وان لم تكن أفعل الوسائل وأقطعها . ومها يكن من الأمر ، ان هيئة دينية في الاساس لا يصح ان تتحول الى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب ان تتصور المدن تعمد الى تعيين مندوبيها ، قبل ان تقطع في مؤهلاتهم وصلاحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

الادارة المحلية والمبادىء التي قامت عليها

هذه النزعة التحررية عُرفت مع ذلك ، انما على نطاق آخر ، في نطاق المدينة المتمتعة بالرعوية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية او حقوقية حول الحرية والمساواة وما للانسان من حقوق طبيعية اخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالاغريق قبلهم ، رأوا في المدينة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل ، على قطع السبيل امامها في مصر وسد الطريق في وجهها اليها ، اذ جل همهم كان ان ينصرف الناس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلك ، فامهات المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحالت تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، الى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعوية الرومانية . اما في غير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهلين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرص كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . فالى جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع ان تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ، وهو دور لا نود هنا الاستطراد في تفصيله وتبسيطه ، فقد كان من شأنه ان يسهل كثيراً مهمة الادارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، اذ يحررها من واجبات ومهمات ومتاعب كان عليها ان تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهلين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن تم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الاكفاء للاضطلاع بالادارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، ان يبقى هذا الاستقلال الاداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأوَد ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن انشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعوية الرومانية ، كمقاطعة غاليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر ، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الادارة الى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه ، بتكوين مجتمعات مدنية لم تعتم ان رُفعت الى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الاداري . كذلك ، من الواضح ايضاً ان كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح ادارة هذه المدن ، اينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحي الثقة لروما وترتاح اليهـا ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانيين قديمي العهد في رعويتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدين ألِفُوا النظـام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثُل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجوب التعاون مع الحكومة لنشر هـذه المثُل بالذات ، تحمساً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجوب الاخـــذ بأسباب التمدن . وهكذا اصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدّ الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أوتوا من مواهب مخبوءة تتفتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها. كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلـك لتحول دون انتقاضها او تمردها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوّم منها العوج ، وتصحح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام عـلى عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فارضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي. فحذت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتهـا التي نزل عندها هولاء الملوك ، فطبقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بإدارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً. فلو قُيّض لهذه التجربة انتأخذ مداها الكامل، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاورة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بـين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هـذه المحاولة لم تؤت أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتحيزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيما بعـد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكوّن خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جـاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصلحتها لأنه هيأ لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كالم يكن ، من جهة اخرى، بَدْوة من بدوات سلطة نزقة مستبدة . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه عـلى الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية

عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقاً للطراز الذي اتّبعته روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعوية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها، تتعلق بالحكام، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .

اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئـــة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعـد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرّجان تباعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجـــة بينهما يُكلّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيوخ البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عفوياً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بيّن واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولمشيئته ، كان ينتظم البعض الآخر منهـا شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل المواثيق والمعاهدات السابقـــة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع، اينما قام وَوُجد ، الى التوحيد ، سواءاً أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الرومـــاني » . وراحت المدن تلتمس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني «الأكبر» الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجمهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية .

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عادتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجرّدها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسناها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المـال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنوت،أو عضوية لمجلس الاختيارية اوالحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، التنافس فيالتبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقةالبورجوازية في المدينة، تحت رعاية الامر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة، لأنها لم تحظ بحق الرعوية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنىً ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعاً درجاته عن طريق الاثراء .

سير الادارة وبدء الأزمة

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح والتجاوز : فهي تترك السلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالمحافظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشييد الأبنية البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقها في التدخل بشؤون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صداه ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل العيش والبقاء . فبفضل هذا النظام، كثيراً ما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقة البورجوازية معها ان تنعم بالرعوية الرومانية . وبفضل هذا النظام ، عرف الاباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنية الرومانية ، ما هم بحاجة اليه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تُباهي بما تتمتع به من مراتب ومراكز، هي ابداً على استعداد للاهتمام بالشؤون البلدية وتخصيص ما يلزم لها من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأت فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغُرم الذي نابها يفوق الغُنْم الذي تنعم به،وهو غُنم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة، كما ظهر لها انها لا تستطيع سد النقص الذي طرأ على ثروتها.وهكذا لم تعتم انقامت الصعوبات . ومن الراجح جداً انالادارةاضطرت حتى في عهد ترايانوس، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعل ما هو أدهى من هذا وأنكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال الجباة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن. فسخاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاتمي لم يستطع سد العجز ، فراح الأباطرة ينفقون المساعدات لها ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنيّة اولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سموا مفوضين *Curateurs* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistai* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

النظام الملكي وبناء الدولة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لابست الحياة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزوال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هذه التطورات وأقربها النظر . لمن المغالطة والخطل في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب ، بل في النفوس والأذهان ايضا . فقليل من الواقع السيكولوجي يكن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية . ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيراً ما صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد الناس وايمانهم انهم من جِبلة فوق جبلة البشر ، وانهم "مسار" الآلهة ، لا بد ان يكون أطلّ شيء جديد على العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة ، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمّن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض ، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين ، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او تزهق الآخر ، وموجز القول دولة لها من السلطة ما يؤمّن اشاعة نمط من العيش شامل ، رتيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمري فهم هذه دون تلك ، لما بينهما من تفاعل وانفعال .

ليس ما يحول ، من الوجهة النظرية ، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتها المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منها النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبراؤها الذين تحلّوا ، على الإجمال ، بالنزاهة والمهارات الضرورية ، لأنها عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها ، فراحت تطبقها لمصلحة الجميع .

فقد دفعت البلاد غالياً من حرياتها الرومانية والايطالية ثمناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن به منه ولا محيص عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميع اطراف العالم الروماني ، وجود المجالس البلدية امراً يدعو للهزء والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اعجزه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعاً ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة ـ كثيراً ما تجلى تخطلهم ـ حسن سير الادارة المدنية مع هذه المشكلات

العويصة التي كانت تعترض سبيله . فالفوضى الكيانية التي كان لا بدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وابسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه اكثر فأكثر. اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة، أعقبه بصورة عفوية توطيد السلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بامكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزمات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدتها الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل همها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بها المواطنون من سكان المدينة ، دون ان تمدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني. اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية ، تحت تأثير ارادة واعية ، مدركة لاغراضها ، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هـذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهيء له الأسباب. وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات . صحيح انه بقي شيء من هـذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليثير الحفائظ ويبعث الحسد والضغينة في القلوب والنفوس ، بينما انتقاء اصحاب هذه الطبقات ، اقله فيما يتصل بالافراد ، اخذ يتم بصورة اوسع ، وبشكل ارحب ، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حياتي جديد ، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق. وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض مـا كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورهـا فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ ـ الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين ، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لعمري ، نقط سود في الصورة : أُفول نجم ايطاليـا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآن ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد ملطّف وقتي لهـا ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

همّ الحكام وهواجسهم: روما والجيش

راح معاصرو العهد يعزون الفضل في هـذا كله للادارة الامبراطورية ، ولا سيما للاباطرة انفسهم، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق الدعاوة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمداورة، نتيجة فرعية لسياستهم الحربية والادارية . فقد احترزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ، ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير ما كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغموا التمرس بمثل هذه الأمور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصيبتين هما : تأمين تموين روما ، وتموين الجيش الروماني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركينة التي يصح الاعتماد عليهـا . فقد فرّط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠٠,٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بمليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير المجمهرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العـاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكول ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حيـاة رخيصة ، نظراً التدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الحنطة رخيصة، ولتوزع الطحين مجـاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المرعية وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديموقراطي ، ويمثل الطريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هـذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين أوَد العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠ ٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما، الموزعين على ٤٥ دائرة، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعالتهم . اما الباقون فكان على دائرة التموين ان تسعى جهدها لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة، وبأسعار مقبولة. اما في اوقات الفاقة والمجاعات،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً التجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعاب المعدّة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدريانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوستي ايضاً .

اما امر تموين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تموين الشعب . فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراصة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود: حاميات تحمي حمى الاراضي والمزدرعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة الدراهم . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأىً بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرقات برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض – اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً – امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

العالم الروماني وجهاً لوجه مع مسؤولياته

وهذه المسؤوليات الحكومية، تقتضي للنهوض بها المال والاخصائيين . فاذا ما نظرنا اليها بمنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققه بعض اجزاء هذا العالم، لم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكيمة رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستغلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤاتياً لحياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألّفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقوام أود العيش، يجب ان نضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانىء البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصروحها . اما قيام الجيوش: حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائجه الخيّرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هـــذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليــا ، واسطة العقد وملتقى الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرقات الرئيسية ، ومهّد السبيل امام حركـة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية ، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها ، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحـدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطىء البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليـــا ، واخذت هذه الوحدة تتسع لتضم في نطاقها : قطاعـات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو، كما راح سكان مدينة آرل يتـّجرون مع لبنان، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبح وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حيـة ، بفضل الروابط التي شدت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

التجارة ووسائلها التقنية

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمـة . فمن مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة . وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حر لجميع رعايا الامبراطورية، لا يحد من امكانات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلـك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هـــذه المبادلات تخضع ، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابداً رسوم حماية ،

ندلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجبى :
اخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبيه الدولة عندما تجتاز البضاعة ش
ق مركزية، كما لو مرّت في غاليا مثلاً، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين ايط
في اقاليم آسيا الصغرى. كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المست
لمصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢،٥٠٪ عادة .
وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتعهدتها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية

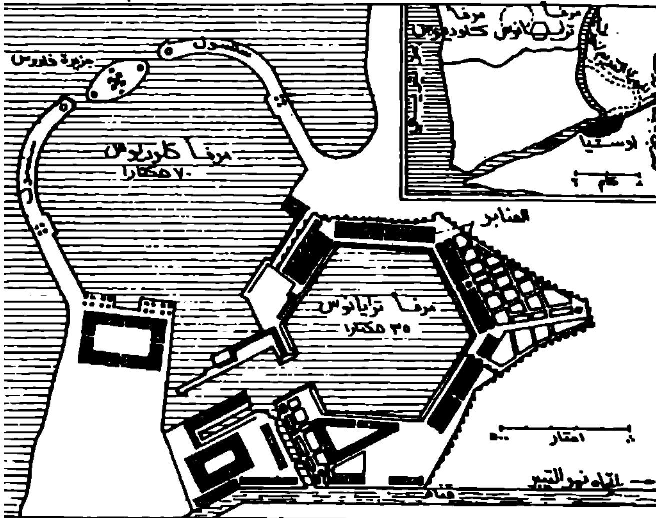

الشكل ١٠ — مرافىء أوستي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرافىء القديمة وتدعى الفيوميسيو

رق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات
، حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق، من المعجزات اذ ذاك، لت
ن النواتىء الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هـــذه الا
ندسية كانت مثالاً للجرأة. فكل عهد من عهود الأباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على ا
، آثاره المعمارية البارزة التي تحدث الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلا للعيان حتى
ا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطأطىء الرأس
عته . فالخرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبـــيراً من
نصور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب، يره

به الطرق رصفاً جيلاً. كذلك لم تأتِ وسائل استخدام الحصان كحيوان الجر والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بنــــاء الطرق . فبيطرة حيوانات الجر بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها . وطريقة كدن الحصان الى العربة لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين ، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطهـــا على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربة يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام ، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها . فالطرقات الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قويم غير مبالية بالنواتىء الطبيعية ، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاماً كثيرة ، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية .

ولهذا راحت الحركة التجارية تعول بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها مجذفون ، تذرع مجاري الأنهر ذهاباً وإياباً ، حتى ما كان منها صعب المسالك ، عسير المرتقى كنهر الرون ونهر الأود . ولو اقتضى الامر جر السفن بالحبال او نقل البضائع على الظهر . فمن الغريب جـــداً ألا يعمد المهندسون الرومان ، الذين عرفوا بجرأتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى ، الى حفر الترع والأقنية . ومن الأقنيـــة القليلة التي عرفت عنهم ، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل ، ولا سيما القناة المعروفـــة اليوم باسم إيسّيل التي كانت تربط النهر المذكور ببحيرة فليفو *Flevo* المعروفة اليوم ببحيرة زويدرزيه .

وعرفت الملاحة في البحر المتوسط ازدهاراً غريباً، بعد ان قُضي او كاد ، على اعمال القرصنة التي تعرضت لها ، وذلــك بفضل يقظة البوليس وحراسته الصارمة للطرق والمسالك البحرية . فالسفانة لم تسجل تقدماً ملموساً ، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور ، اذ كان ، على الاجمـــال متوسطاً ، باستثناء الاسطول الخاص بدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا ، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتى «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن ، بقطع النظر عن صابورة السفينـــة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن ، وهي ، على الاجمال ، من العدس . اما الترعـة التي شقت برزخ كورنثس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، والتي وضع تصميمها قيصر ، وتابع نيرون العمل فيها ، فلم يتم انجازها . وقد أدى إعداد المرافىء : البحرية منها والنهرية ، وتهيئتها ، الى اشغال عظيمة ، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق ، وبزّوهم في اشياء كثيرة . ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداد مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل . ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى ، في مواقع على سيف البحر ، مثـــل شنتوميليه ، وتيرّاسينا ، وترابيزو واسكندرية–ترواد ، وبمبيوبوليس في كيليكية ، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهتاجة ، والجزر الاصطناعية ، والمنائر الكبيرة ، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية . ولعل

غلطتهم الكبيرة هي انهم لم يفطنوا للحؤول دون غشيان الرمول لاحواض السفن ، او لترسب مياه الانهر . لما من مرفأ من هذه المرافيء عرف مدى كالمدى الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

النقد الرومـاني والعملات المستعملة

نام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي، سليم. فقد اجيز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعوية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة. ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . والتعامل بهذه العملات التي وصفها علماء النُميّات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفاداها بيسر، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس أماكن سكّه .

فالعملة البرونزية كان سكها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ، ويخضع بالتالي، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته. اما هبوط قيمته ، فقد اعتُمد في تفاديها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثالية كانت قطعة الـ *Sesterce* التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبيـة والفضية ، ممثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهد اوغسطس بجعل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى، وكان من جراء سيطرة الامبراطورية على مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف. وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعياره. فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ٪ ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيما ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ٪ في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ٪ منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرها اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الاباطرة ، عموماً، باستثناء الامبراطور نيرون، لم يلجأوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمال ، الى عهد مارك اوريل، فصادفت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتنائيها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء ، عالم البحر المتوسط ، وان أطلّت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي . وهـــذا العالم الشاسع الفسيح كان اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتهـــا لبعض المنتوجـــات والمحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت بأذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهد بسراة الشرق الهليني واغنيائهم ، فتطبعت بأذواقهم وتخلقت بأخلاقهم وعاداتهم . هنالك لعمري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الأقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارهـــا وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومـــا فيه ذهاب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها ، وان كانت دون الاولى اهمية وشأناً . وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها ، اكثر من دليل وبرهان ، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلّفتها ، اذ نجد في بعض انحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . والأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد وانسرابها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدّة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالاتجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل . فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت ، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الداوب . وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليـا الشمالية كانت تصدّر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالمينـــا . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافىء البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسمك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقيق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانىء النائيـــة . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في انحـاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثـــاني ، في اصقاع سكنديناڤيـا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن ليتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية بأي خطر .

وعلى هذا المنوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عوّلوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الأولى ، واتخذوا منـــه

الرواحل التنقل بين الشرق والغرب ، لم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحـــل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافـل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرآها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريتريا ألّفت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدّر هي ، في المقابل ، الاخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألّف المشكلة الكبرى ، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسعى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، واللآلىء والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المترمتين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هـــذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن ألِفوا اقتناءها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقـــل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت مناقسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرفين عليها والمتحكين بها (راجــع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع مــن شأنها ان تثير أعنف الرغائب واقواهــا وان تسيل اللعاب في حلوق طالبيها . فبعد ان رأت حكومة الامبراطورية نفسـها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها عـلى هذه الكماليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم ، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهمها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم مـــن ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هــذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق يتجه احدها نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كابول . وهنالــك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتصل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هـــذه الحروب القاسية التي قامت ، غبّاً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبـــين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعملاءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكاً بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء. فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهمل الاغريق امره، غب تدويخهم لايران وفتحهم لها . وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان: « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير منفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هـذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجنبين بحر قزوين شمالاً او عابرين له، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (اموداريا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينين القادمين من لوب – نور . وهنالـك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد اتاحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرباح ومغانم طائلة . فقـام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن. وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانىء المصرية الواقعـة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربـة من خليج السويس ، وبَرَنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانىء مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويُعزى الى احـد البحارة الاغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم.

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتّيغارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب،وهي شبه جزيرة الملايو، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية . فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند، وعند مداخل « اوك – ايو » في الكوشنصين، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتـة . ويحدثنا التاريخ عن وفادتين ارسلها احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو مخيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على ترايانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا الروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا – تسين التي كانت تقع فيا يرجحون ، عـلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكيا بالذات وهي تنوه على الأخص بقدوم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل آن ـ تون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبناه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هـذا الاسم عندما جرى تبنيه . وليس مـا يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكنّوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهمـاً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينـة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريتريا» (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبيذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة،ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميع انحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدّر الى الهند. وقطع الفخار والخزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثريـة في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصنّاع الهنـود تمكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلى والجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينـة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) مبلغ مـا يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر. وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعملة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويزوّرونهـا ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيـار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغـة السنسكريتية. واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليهـا اليوم في الشرق الاقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تنوّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفّت حركتهـا بعد هذا العهد . فسكان الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألِفوا تعاطيها .

وقد راح الأمبراطور طيباريوس يتململ ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحرير والحجارة الكريمة، والحلى والجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتيهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحه التشاؤمية ، كان من هؤلاء النفر المتزمتين المتقطعين عن معاشرة الناس . ولكي تتمكن من تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنـا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها للخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأغلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراحوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها. فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دون امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوّتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليتها لتيارات البذخ والاسراف والتنعم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

الزراعة : قصور وسائلها التقنية

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي . ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تنسى يوماً ، او تتناسى ، خطر المجاعة الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها البال ويقض مضجعها .

ليس من الخطل بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزري الذي كانت تتسكع فيه الاجهزة الزراعية وعتادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقضي الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خيّل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدهم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إذاً اذا ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به ، في هذه الانشاءات العظيمة التي اتوها ممثلة بهذه الموانىء والمباني ، والطرقات العريضة والصروح الشاهقة . وقد نظروا الى هذه الانشاءات ، ملوكاً كانوا ام نصراء العلم ، كبنيان لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشائها ويبذلون في سبيلها ما أوتوا من قدرات وسخاء . فأمور عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قمحاً وحنطة ، أمور لا تضفي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأتى الغين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترتب عليهم من مهمات ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواه من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل افتقارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمن الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرهم . ومما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذاك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان همهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد همّ الادارة الامبراطورية ان تُعنى بمصر وان تُسيّج حولها . او ليست مصر اهراء روما الاولى ؟ فترمم اقنيتها ، وتجفف غياضها ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح ، دون التفكير في التعمير والاحياء . فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها العيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من نافل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البـلاد سجلت ارقاماً لم تسجل مثلها من قبل، لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج.

فاثرة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يجيئها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية، ونمو المدن وتطورها الاجتماعي، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيراً هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهّد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشيء الذي افتقر اليه الجميع ، لعمري ، في كل قطر ومصر ، مع انـه كان من حق الجميع ان يروه ماثلاً امام اعينهم ، محققاً ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية ، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاضدتها لهذه الحركة ، قولاً وفعلاً ، نظرياً وعملياً ، على السواء. فالدولة حاولت دوماً، انما بتردد، وبشيء من الوجل ، ان تلطّف وتخفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابداً شدقيه ، للانقضاض. والشيء الذي كان الجميع بحاجة اليه هو رعاية هذه الطبقة الموجّهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنيين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري، في مرافق الزراعة يتبلور عن طلوع مزروعات جديـدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالاً واسعة لاحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلاً من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيا الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هـذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نرَ اعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البـلاد . فقد اقتصرت معظم أعمـال الري والسقاية ، عـلى المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية اكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضاً نظام فلاحة الارض الموات. وهنالك لعمري، بعض النباتات او بالأحرى، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في أقاليم لا تصلح كثيراً لهـا . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها اليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردوليه وبورغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليهـا . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل. فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وسيادتها . والكستنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفُرْس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعيها : الصيفي والخريفي .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلى مظاهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أو موجهاً، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغّلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباهاة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزروعات يسخون عليهـــا بالمال والجهد والعمال ، يتعهدونها بعرق جبينهم ، لتؤتي أُكُلَها ، لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما يكن مـن أمر هذا التطور، فلم يُحدث،ولم يكن في مقدوره أن يُحْدِث أي تحسين في انتاج المواد الغذائية الاساسية، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها، ولا سيما ما قام منها في المدن .. وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد مـا — مع الأحتفاظ بالنسبة — بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

المجاعة : خطرها وواقعها

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة، أن وجد العالم الروماني نفسه ، في بحبوحة من الاثمار والفاكهة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخمور على ألوانها ومذاقاتهـا . بينما بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحي للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع.ومعالجة لهذا الوضع المتأرجح، أصدر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذّر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انــه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لمـــا لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل بـــه لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانات الادارة التقنية . وابعد ما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلحت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة لو لتحد من توسيع رقعتها في البلاد. وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هــذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على اسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر المجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقيــة في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايتـــه ، أوصدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . لمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين ترزح تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بمحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت،في عهد سينيسا، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجه . وتتفق المصادر الادبية والنقائش الأثرية ، على التنويه بأخطار المجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات او التخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلاً ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار المتمولين بينهم في المدينة، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فتنعم عليهم بألقاب فخرية ورتب تشرَفيـة تضطرهم عند استنائهم بها للانفاق بسخاء، كلٌ بحسب امكانياته. إلا ان الادارة كثيراً ما اضطرت لجوء الى المصادرة .

بقطع النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغيرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوماً ماثلاً ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيراً ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annona* الذين يشبهون ، الى حد بعيد، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر، هما ايضاً، مثل هذه الأزمات من القحط والجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر، ويرجع العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلبي حاجات الجيوش المرابطة على مقربة منها وتمدها بالميرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منهما لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكاثر انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطاليـة وفي روما بالذات . وهكذا اصبح انحطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي همّ الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسر عطبه ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهـذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخمور ، وسلع الكماليات ونصف الكماليات . اما سر هذا الأزدهار فيكمن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هـذا الانتاج وتنفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي ينشط الاستهلاك ، كما يكمن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع سماجة ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات،

لعجزها عن تأمين حاجتها من الحبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دومـــاً ، بعوامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بهـا . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن تسبب لها بعض الشلل .

فقدان التجدد الصناعي وانعدامــه

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود فني وتقني ، ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجـــال ، من العلم والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ، موضع التحيز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعدمهندساً ميكانيكياً قدم اليه مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول، بإجزال سني العطاء ، بينما اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحـائط باختراع او اقتراح زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من « تدبير إعالة الشعب بيسر وسهولة » . قد يكون من المغري والمحرك الشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او نتصور عفواً ، ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ، او انه تبدى لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكمن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة يمنعنا من ألا نرى فيهـــا اكثر من رمز او تورية للامكانات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة كي يُرزح الدولة ويُفدحها ويؤلف وضعاً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل مرافق العمـل ، لم تكن لتفيض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ، وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهـــذا التفكير القديم الذي يكره انتـاج البضائع التي يتوقف تنفيقها على رغائب الزبائن بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالاذهان في الشرق الهليني . ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يحُلْ ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري ، دون انصراف بعض اصحاب رؤوس الاموال الى إنشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هـذه المعامل من وُرَش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى ادارته والاشراف عليه مهني يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومهما يكن ، فلم نرَ احداً يبذل صادقاً، أي جهد موصول في هذا الصدد، او يعوّل على رأس مال كبير، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيد الاستعمال .

فعمل من هـذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وان تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعان تمّا على يد بعض الغالين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الخشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكنتها توفيرها الناس ، فقد بقي القوم يعوّلون في شؤونهم المنزلية على الجرة المريعة العطب ، وعلى المحراث الخشبي الذي يكاد يخدش اديم التربة وسطحها البراني . فقـد سجّلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مدهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريق انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت الناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال. غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأساليب.

لامركزية صناعية

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل . ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من انحطاط صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدّر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعاتها المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعية وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانىء الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاوليـة ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات. فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها ، منذ القدم ، صنّاع مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ، من قبـل ، مثيلاً ، ولاسيما مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف اليدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لهـا اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليـا واجددها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم الناتئة. وما ان انتصف القرن الأول حتى نرى غاليا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيهـــا المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افيرون) ففزت مصنوعاتها ايطاليا واخذت تنافسها في عقر دارها . فقد عثر المنقبون بين انقاض مدينة بومبيي التي انساحت تحت حمم بركان الفيزوف، في ثورانه التاريخي الفظيع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غاليا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غاليا وتركز في مقاطعة الالزاس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من المميزات العامة للصناعـة اذ ذاك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثاً باسباب الرقي والتطور، وراحت بدورها تسام في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدرها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيـــا . كا راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليـا الصناعي نشاط صناعي عم انحاء الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته

كل الدلائل والنتائج المسجلة تشير بوضوح الى ان هــذا الانتاج كان ضخماً . وكيف لا يكون ضخماً، ليستطيع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجرارة، ويُلبّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هــــذه الانجازات والمشروعات العامة، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلات، التي تفيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفتقر للخامات الضرورية وللمواد الاولية اللازمة لمهرة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات؟ والثابت فعلاً ، ان نمو الانتاج وازدياده، واللامركزية الصناعية يصحبه دوماً هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن انحط وهبط بعـــد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان تقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد عـلى التجويد والاتقان . ويكفينا دليلاً على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاءلت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الخالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعيـــة الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية، فتدفع غاليا ما يترتب عليها دفعه مقابل كماليات لم يعد استعمالها مقصوراً على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثـاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقاً من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهداً على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسمياً لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدى لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوماً ، وبازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم وللمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استثمار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تلزيمها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة، وحددت منها الحقوق والواجبات، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين، الذين ترسو عليهم العطاءات. ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً، اذ اسندت الى ضباط الجيش، ادارة هذه الاحتكارات ومدها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة، عُهد بادارتها الى عسكريين. وهكذا اخذت مؤسسات وفرق تضطلع بمهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي. فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها، والاستفادة على وجه افضل، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك، قانون صدر في عهد الامبراطور هدريانوس، عثر عليه المنقبون في منطقة المناجم، تقع الى الجنوب من البرتغال.

والى هذا، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها. فقد وقفت، في البدء، من هذه التكتلات المهنية، موقف المتسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها، لتشمل، فيما بعد، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والحنطة، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس، واصحاب الأفران والخبازين، في عهد ترايانوس. فلا عجب ان تتقاضى بانتظام، بعد هذا، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادىء الأمر. فاذا ما اضطرتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب، فقد كان لها من مثل هذه السوابق، حجة.

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخمت وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية. فقد عرف الشرق، منذ القدم، مصانع وورشاً صغيرة، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطاع واسعة، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً. وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الخزف التي يملكها متمولون ايطاليون، او انخفض نشاطها. وظهر في بعض الولايات الغربية، خلال القرن الثاني، كبار الملاكين، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة، صدّرت منتوجاتها الى مناطق نائية. فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشمال من غاليا، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي جرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانز كومون ان يحدثنا بحق، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعة الأردين . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضاً دليلاً على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناولها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة. فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانيه البلاد من ركود تفشى في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي، وهي علة مزمنة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضاً بالمواد الأولية الضرورية له : كالمنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الاشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحث عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ ـ المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيما تلك التي أخرجتها من مصطرع الأحزاب التي مزّقت روما شر ممزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة وثقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية ومالأتها بعد ان أبقت على امتيازاتها الفخرية وما جمعته من ثروات طائلة ، ان لم تبق على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسس، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلت على الحياة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المختزنة واضمحلالها، ابان الحرب الاهلية الماحقة، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان همها الاكبر ان تبقي الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يبهظها ، طالما لا تستطيع التخلص منها، فعلى الاقل، الحد من خطرها باصطناعها. وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالعجز، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يجاريه او يبزه جرأةً في الاصلاح والتجديد ، فخضعوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطورية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظـــام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ - النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعتهم ارقى طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوها في كتاباتهم . الا ان اعترافهم باهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاصمة الاغلاط والمساوىء التي شابتهم .

الامبراطور

« الاول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجـــد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشباً . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدهم وتعاقبت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، محاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقـــع ، سوى سري او نبيل من سراة القوم ونبلائهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بهـا . وهكذا نراه بالفعل يبرز سريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهـذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبه ووظائفه وسلطاته ، ومـا كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابلته ، باي سليل لهذه الأسر الأرستوقراطيـة ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفـــاع مطرد من جراء المواريث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزينته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء، فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ، ان يأتي العجب العجاب.

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه بطانة قوية ؟ ووجه العجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه فيا بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال العجب . علينا ان نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلق منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء عربوناً له او رمزاً اليه . « فبيت » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطورية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً» حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول للامبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلا المثالين تجمع بينهما اكثر من ميزة واحدة . فمنذ ان راح عظماء روما يتصلون، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحياة ملوك الاغريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيد اوغسطس له صرحاً متواضعاً فوق رابية البلاتين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين، من بينهم شيشرون ، ان شيّدوا لهم عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتمت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما راح طيباريوس وكاليغولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها؛ ولهذا صارت رابية (*Palatin*) رابية الصروح *Palatium* والقصور ، ومنها اشتق الاصطلاح الفرنسي *Palais* — او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكأن هذا التوسع لم يكف اباطرة الاسرة اليوليو ـ الكلودية ، فقد توصلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين. ثم اغتنم الامبراطور نيرون مناسبة حريق روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ عليها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح الذهبي » وزيّنه بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاكت البحر في جوانبها ومواقعها ، احاطت بها المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ، يليها منظر ريفي أخاذ، تتسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتسرح فيها وتمرح قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيا بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلاً دون انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الانطونية حتى بادر اباطرتها الى ملء معالم هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص أغنيـــاء القوم في ايطاليا ومراتهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرعية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص، وبعضهم عدة صروح، يتفنّنون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطىء البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور *Tibor (Tivoli)* وراح يتفنن بحدائقها الغنّاء بانشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسيه ، والاكاديمي، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا، ووادي تمبيه في تساليا ، وكانوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة رياشة من الداخل ، يصلح بما فيه من اثاث وحُجر ، وصالات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة .. فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمّن راحة المالـــك سعيداً الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فارتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحمامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيه.» فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقهـا « صرحه الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بانشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المبـــاني الفخمة ، تحيط بهـــا الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شبيهاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وترويقها من الخارج والداخل. والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سراة القوم وعِليّتهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخلص وخاصته ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصراعيها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار. فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص، بينما نرى الامبراطور ترايانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط. فاذا ما نال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرعيـــة . فالالقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيريوس وكيريا) وباللاتينية دوميليوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام الى الامبراطور او الى احد اقاربه. فلم تعتم هذه الالقاب ان عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف. كذلك مرت بين هذه الطبقة عادة القبلة او التقبيل بعد ان ظهرت سوابق لها في البيئـــة الامبراطورية، شجبها الامبراطور طيباريوس لانها تنقل عدوى الامراض الجلدية، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليـــد، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ. اما عادة، السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضهما على زائريه، فقد زالت بزواله وموته لانها مُحِطة من شأن المرء ومهينة له.

كل هذه الأمثلة والشواهد، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أوجوهري، بين حيـاة الأمبراطور الخاصة وحياة سراة الرومانيين وأغنيائهم. فالشبه القائم بين الجانبين، الذي يمكن ملاحظته بسهولة، إنما يعود ولا شك، لاعتباره نظرياً على الأقل، بأنه واحد من الرومانيين. وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق، فيسارع عليّة القوم الى الاقتداء بالمثَل الهابط من فوق احتذاء حذوه، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نيرون، مثلاً وتوجيه الكلام اليه، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنغيم، كما يعتمدون، مع مارك أوريل، الأسلوب الفلسفي. ويأخذ الرجال بارسال لحاهم تشبهاً بالامبراطور هدريانوس، كما أن النساء أخذن تأتم، بزي الامبراطورة، في لبسها وهندامهـا، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصه وتقصيبه، وغير ذلك من الازياء التي تعتمدها الامبراطورة. كل هذه العادات انما تدل دلالة واضحة الى التطورات التي ألـمّت بنمط الحياة في البلاط. وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية.

بطانة الامبراطور

وهذا الامبراطور الذي يأتمّ الناس به في كل مـــا ينهج ويشرع، هو أقوى الناس، وأشدهم بأساً، وأوفرهم غنىً وثروة. ليس في مقدور أحد أن يجاريه في ما ينهج، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم، بقطع النظر عما بينه وبينهم من فارق الجوهر، أو الطبيعة، يزداد بروزاً وظهوراً. وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني، فهو قبلة أنظار الارستوقراطية الرومانية، وموضوع تقليدها وعما كانتهـا له، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدلـهم وأن يبزّهم، يأخـذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر، وحملة الأدب، فيحتاط بعدد كبير منهم، بين فلاسفة وخطباء وعلمـــاء، ويجزل لهم العطاء والتكريم. ويعين لامراء العائلة المالكة مهذّبين ومربين لهم شهرتهم الواسعة، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم، فيعين الفيلسوف سنيكا مهذباً لنيرون، والخطيب المفوّه كونتليانوس مربياً لدومتيانوس، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل، المربين: فرونتون وهيرودوس أتيكوس. وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحِق ببطانته أشهر نطس الاطباء، إذ ذاك. وعندما رفـع الامبراطور كلوديوس، الى ٥٠٠٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤)، لقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور، وذلك لكي

يحمـــل الطبيب اسكلابيازيس ألكوسي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامي (Gallien) الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة ، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحـــاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لون وصنف ، والسراري ، والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخـــاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم عبيداً ارقـاء او من المعاتيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالوراثة ، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء. وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او للشارقة المتأغرقين، صَقُلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيـداً هؤلاء الغربيين المخشوشنين . فالاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتندرون بروايتها ، وقصائد الهجو والثلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض ، تملأ صفحات بكاملها مع اسماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الغيرة على الاخـــلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستشاطة ، لمرأى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبطرته النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرّأهم الإغضـاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاب الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشترون بدناءتهم أو بذهبهم مداخلات الملك لصالحهم. ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول بخل فسبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدى محظياته ، هي انطونيـا تشانيس ، وهي أمَةٌ أعتقتها والدة كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف ، الى ما لا حد له. فاذا ما أسقطنا من هذا القصص ، ما هو ثرثرة وهراء ، يبقى مع ذلك ، واقع مؤسف : هو هذا الدس ، وهذه الموبقات المخجلة والجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغوة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشيء المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده ، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم تدرع الناس بتهذيب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لهـا ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المرعية بين سراة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن أعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهز نفسها بالأطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

اصل كلمة « نظام »

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهد الموصول الذي انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدريانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمقتضيات حاجات الدولة ، من جهة ، وللخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حلمت هذه الطبقات دوماً بها،والمرتبات المعينة للوظائف العامة الموقوفة علىاعضاء هذه الطبقات، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثل الرومانية القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القدم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هذه المثل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحن وأخذت تكمله وتوسع فيه الى ان استقامت لها ادارة بزت ما عرف من أمثالها من قبل ، فيها الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الرومي .

وهذه الطبقات الاجتماعية العليا تتألف من « منظمتين » هما المنظمة الشيخية او السناتوس ومنظمة الشفاليه. فالمصطلح « منظمة » ، او نظام جروا على استعماله من قبل ، لا سيما عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسيرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او النعت . ويستبد هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنظمتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، مميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز وخلص مما علق به من غموض او لبس ، مع بقائه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أدخل عليه التنظيم والتقييد،اصبح مفهوماً، وسهل بالتالي،على العقل ادراكه. وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة، شيء وراثي، ان لم يكن بالاتم فبالفعل، ولكن مع شيءمن القيد وبشروط معينة، وعلى شيء من التسلسل او التابعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندس بين الصفوف، او لصاحب درجة سفلى ان يندس بين أصحاب الدرجات العليا . والدخول في هاتين المنظمتين او الطبقتين ، والبقاء فيهما ، والترقي في معارجهما ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقته ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترفيع والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرنا الى قيام النظام

الامبراطوري من هـذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظمتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجهل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتمادهـا مثل هاتين المنظمتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترفيعهم . فقد التزمت الدولة بمراعـاة المبادىء العامة المرعية الإجراء ، دون خرقها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادىء التي ترعى وتصون هذه المُثُل القائمة في احترام التسلسل الإجتماعي . وعلينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادىء عرض الحائط ، أو أن تعبث كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه

الانتساب لهاتين المنظمتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه . وقد حرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس عـلى الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طُلب من هذه الطبقات الموسرة اكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تتفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتهـا ، وعربوناً الثقة التي يشرّفها بها الامبراطور ، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قسوة المبدأ وصلابته . فاقتسام الإرث ، من جهـة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظمتين بفقدان رتبته وباقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثـل هذا الوضع ، وبادر لمد يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن عضه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أُريدَ بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا مـا عمل بجد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحـده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون ، كما جاء في الرواية « ساتيريكون *Satiricon* » للمؤلف الروماني : بيترون لم تفد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظمتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يُسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوه القصة بأصله : فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فأعتق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشتى الطرق والأساليب الملتوية ، هـذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتقين الى مرتبة الشفاليه عُدّ خروجاً عـلى المألوف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحـــد اعضاء مجلس الشيوخ . فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ ، وان يكون حاملهـا مارس بصورة قانونية ، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها عـلى أعضاء مجلس الندوة ، وهي المراقبة *Quaestura*. ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هـــذه الطبقة ، وفقاً للدرجة التي هو فيهـا . وبالفعل ، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما صعوبة ، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش ، ضباطاً في بعض وحداته ، أو عملوا موظفين في إحدى الوظائف الادارية الصغرى . والتسلسل في داخل هذه المنظمة ، يجري وفقاً لجدول أو لائحة يضعهـا مجلس الشيوخ ، ويأخذ بالتدرج صُعُداً في سلم المراتب والدرجات . فالمناسبات عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه ، عن صاحب العلاقة . وقد أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع ، في تعيين من يشاء من أعضـاء طبقة الشفاليه في العضوية المشيخية ، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريدها له .

وهنالك مـــا هو أغرب من ذلك وأوقع . فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بارادة الامبراطور وحده ، دون سواه . فليس في الأمر أية عملية اقتراع أو ما يشبه ذلك ، في تعيين المراقبين ، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة ، أقل بروزاً هنا ، منهـا في الطبقة الممتازة الأولى . ولذلك ، فنشاط الشفاليه ، يُصرَف ، منذ عهد اوغسطس ، في خدمة الامبراطور ، فيختار من بينهم الوكلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته ، الى أن ينتقلوا الى الخدمة في الادارة العامـة . فهو يختارهم كما يشاء . ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه ، هم الآخرون ، بشيء من الاطمئنان الى مستقبلهم ، انما لا بد من اختيارهم وبلـو ولائهم . ومهما يكن ، فعددهم لا يفي بحاجة الادارة التي اتسعت وتشعبت كثيراً ، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين . وهكذا رأينا كيف انهم ، خلال هذين القرنين ، تفننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين . فوضعوا في هذا السبيل ، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدريبهم ، وفقاً للحاجات البادية . فبينا كان الامبراطور يفرض ، في بادىء الأمر ، على المرشحين للعمل في الادارة ، الخدمة في الجيش : ضباطاً في الفرق الاضافية ، وهم بعد في سن الشباب ، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة ، من يحتاج اليهم للعمل في الجيش ، ويرفع الى الدرجات العليا قواد المئة ، أي هذا الفريق من الضباط الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش . فـــاذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحد ، والمهيمن الأول والأخير ، على الانتساب الى طبقة الشفاليه ، فمن الطبيعي جداً ، ان يكون السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقيتهم وترفيعهم في داخل هذه المنظمة ، فيعين مرتباتهم وفقاً لدرجاتهم ، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ الف سسترس للصغرى ، و ٢٠٠ الف للكبرى .

السلك وامتيازاته

فالمنظمتان المذكورتان ، هما بمثابة سلكين اداريين . فسلك الرُّتَب الفخرية الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً بـه على نطاق اوسع في السلك المشيخي . فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما السلك الشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيا نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Annone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً، بينا اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ؛ بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكوّن ثروة له ويزيد من غنـــاه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والغنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلازم الانتساب لهذين السلكين. فقد احتفظتا بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بهما منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الارجوانية التي يُخاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والخاتم الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضيـة . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منـذ منتصف القرن الثاني للميلاد ؛ اذ ان كل اعضاء الطبقة الشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة، منها مثلاً « السَّنِيّ او السنيّة » ، بينا اعضاء الشفاليه يُخاطبون بنعوت وألفاظ فخرية ، منها : نيافة *Eminentissimus* ، وهو نعت يوَجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عنـــد مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egregius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية. وهكذا أطلّ على الادارة، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

الشعب الروماني

وهذه الطبقات الممتازة تهمنا ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا ان نقف عند هذا الحد لنتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني النظام الامبراطوري الجديد .

لنرَ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلـك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدراهم عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينا توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي » *Panem et Circenses* كلمتان اوجز بهما المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هيمن على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهوَس الجنوني ، والاندفاع الحامي ، والشعبية التي لا حد لها ،

التي كانت ترافق مجرد التلفظ بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين ، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض ولخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والأرجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كوليزيه تيطس ، يشترك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير ، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماستها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً ، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يوجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتملقون الجماهير ويتحببون اليها محاولين ان يبز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور ترايانوس ، بعد ان تكاثر عدد الأسرى والعبيد ، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وتدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يوليه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز ، وجيوش جرارة ، بالخبز واللهو والمسرح ، وان ينال كل ما يطمع فيه او يطمح اليه ؟ كما يقول جوفنال . ويحقّ نَطَقَ وقال . كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أوَد عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمَّن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصوَّن له من أيِّ انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسماؤهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهنالك حشود بين هذه الجماهير لا ينالها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القريبة والنائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وان يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والاثرياء المعروفين بالجود والسخاء . فقد كان ، في روما ، ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندنا

اليوم . فالانصراف لهـــذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثروات ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الاطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة ، طبقة وسطى اخرى ، هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع. فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرقُم والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عنـدمـا تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهـذه المصادر بالذات ، سواءاً أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وثقالة الشعب. فان لم تَخلُ مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك،من رُعاع تفح منهم رائحةالعطن والنتن، فمثل هذه الحثالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجد في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تجملها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من عضة الجوع أو لسعة الفاقة ، حؤولاً منها دون انحدارها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة .

اليد العاملة في املاك الدولة

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر . فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى وثروة طائلة يستمدهما من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لهـا ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينة ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجهل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته. فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عليهـــا ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطوابير، مكتّبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو باشراف بعض المتقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كتبة في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والآمال التي قد تبتسم لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، مما كان عليه وضع الذين كان حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي ينهدها ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكّناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام العمالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرتغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان كم الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هـذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرهـا بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندمـا خفت الحروب، وقلّ بالتالي ، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب .

ومع ذلك ، فهذا العدد العديد من الارقاء ، لم يكن ليكفي قط لاستثار أملاك الامبراطور على الوجه الاكمل ، اذ ان جانبـاً كبيراً من اليد العاملة الممثلة بهؤلاء الاسرى ، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة . ولذا نرى الامبراطور يستعين بعمال أحرار . ومـع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم . والطريقة التي كان يعتمدها عادة ، هي تلزيم استثار أراضيه الى متعهدين وملتزمين *Condoctores*- وفقاً لعقود خاصة يعقدها معهم ، على ان يترك أمر مراقبتهم لوكلاء يعينهم الامبراطور . فالكتابات الاثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسكا ، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قياماً بتعهداتهم الاستثمارية ، وذلك لقلة اليـد العاملة . وقد أصدر الامبراطور هدريانوس قانوناً خاصاً بالمناجم ، أجاز بموجبه لاي كان، ان يستثمر لحسابه الخاص ، أي منجم أو مقلع أهمل المتعهد الرسمي استثاره مدة ٦ أشهر متعاقبة. كما ان القانون المذكور ، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القـديم والمستثمر الجديد . ويدل عدد من الرُقم والنقائش التي عثر عليها في تونس ، ان تدابير من هذا النوع اتخذت بشأن أملاك الامبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين ، أوسع حرية من السابقة ، وهذه الاراضي هي عادة أراضي ممسكة ، لا تصلح لزراعة الحبوب ، ولا لها كبير مردود . والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب ، بزراعة الاشجار المثمرة كالزيتون مثلاً ، والكرمة والتين ، كما انه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لمدة سنوات. وعلى الاعتراف بملكية الارض لمن يقوم، من تلقاء نفسه ، باستثارها فيجعلها بجده وتعبه ، تثمر وتغل . وعندمـا لا يتوفر للامبراطور متعهدون نشيطون او يحتاج لليد العاملة ، نراه يستعين باناس يكونون بمأمن من السخرة او من تعسف الملتزمين ، وهو يستجيب في ذلك ، ليس لعاطفة انسانية ، بل لضرورات اقتصادية ، حتى اذا ما أعجزته الحيلة ، التجأ الى وسيلة اخرى هي السخرة .

٢ ـ وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثّر واقع الامبراطورية على تطوير المجتمع الروماني ، وأحياناً بشكل قوي عنيف، فهناك عامل آخر لم يقلّ شأناً وأثراً ، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص ، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الامبراطورية وأمصارها ، فكان في آن واحد ، عِلة ومعلولاً ، في تكوين دولة ، ان لم نقل أمة ، من هذا الفيف من الولايات التي كانت، من قبل ، متجاورة متلاصقة ، غـير متعارفة . وهكذا يبدو لنا ، مرة أخرى ، أثر هؤلاء الاباطرة البارز في بنـاء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها . وليس بغريب، قط ، ان نرى هذا التطور يأخذ مجراه، على عكس اراداتهم، بعد ان عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس.

روما مرآة الامبراطورية وبوتقتها. حركة العتق

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار. وهـذا الانصهار والاندماج يتم في روما: عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيها ومقر عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال، وقبلة انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُم الذكية والأمجاد الأدبية والفنية، وملتقى المغامرين والمتآمرين، من رجال ونساء في سعيهم وراء الشهرة وتصيد الحظوظ. وقد تلاقت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب، ممثلة على أدنى حد، في هـذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابع واللواحق، من كل عرق وصنف ولون. والمشارقة بينهم، كثر، حاذقون، مَهَرة، دوماً على استعداد لكل خدمة، هم، في الغالب، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة، وعلى أتم استعداد للقيام بالمهمات المشبوهة، وبكل أعمال الشطارة والخرقة حتى أحطها وأدناها، يمارسون النجامة والعيافة والقيافة والعرافة، والسحر والكهانة، ويشاركون في كل الطقوس والحرتقات الملتوية، ويتـجرون بكل شيء، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس، وبالفنون والألعاب حتى بأخس الأصناف. فلا عجب بعد هذا، ان ينشد الشاعر الروماني قائلاً: «منذ عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التيبر»، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع مع الامبراطورية. إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبى، بعد ان عم الرخاء وتشعبت الادارة العامة وفروعها.

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هـذا التيار الجارف، فيعهدون، من حين الى آخر، الى الشرطة بإخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة، كما حاولوا جهدهم، ان يحدّوا من حركة العتق التي انتشرت عادتها وأصبحت زياً يتنتهجه كبار القوم، ومادة دعائية يتنافسون بها ويتبارون. ولذا قام اوغسطس يحاول، بما عرف عنه من روح اجتماعية محافظة، الحد من حركة العتق هذه، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة، لمنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره، كما حظر عتق الخمس من العبيد، دفعة واحدة، وبإصدار براءة عتق رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة. كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبل التي لم تكن لتسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية.

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه، انما بصورة مخففة، لأن الملك الذي يتمتع بحق الاعفاء، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقربين اليه من معتوقيه أنفسهم. ومهما يكن، فالحواجز التي أقامها، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هـذه الحركة التطورية العارمة التي لا تقاوم. وبفضل حركة العتق الواسعة هذه، استطاعت روما ان تمازج بين العناصر المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها، بعد ان قصدتها من جميع اقطار الامبراطورية وأطرافها النائية. وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندمجت بعضٌ

ببعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقي .

استبدال السكان ونقلهم

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعمق أثراً، وان جاء على شكل أقل ظهوراً وبروزاً، لأنه لم يقتصر، على العاصمة وحدها .

قلما عمد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الاصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أيّ من البلدان التي دوّخوها وكونوا منها امبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد والرق بالجملة . فالرعب والهلع الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بركوكبا، في عهد الامبراطور هدريانوس، أجبر اليهود على الهرب والجلاء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إقفارها . وكذلك قل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تَلَيْتَنت هذه الولاية بعد فتح ترايانوس لها . وهكذا نرى ان الامبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك، لاساليب العنف والإرهاق التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عوّلت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الاباطرة يقتلعون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الامبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات ايطاليا الشمالية ، كما فعل اوغسطس ، في منطقة الرين ، ونيرون في منطقة الدانوب ، ومارك اوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الاراضي التي استباحوها ، كما أتاحت لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تخوم الامبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبها الازدهار الذي نعمت به الامبراطورية، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادىء الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا انهم لم يلبثوا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندمجوا معها .

وقد تفاعلت عناصر اخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشرنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوريون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشيء الذي لا يمكن ان نمر به هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاضطهاد الديني الذي اكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الامبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان، في آسيا وفريجيا. وهنالك عامل غير عامل التجارة يجب الا نسقطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يتمثل في هذه المناقلات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضّل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد، عند انتهاء خدمتهم العسكرية، ان يقيموا ويستقروا حيث هم، منصرفين الى استثمار قطعة الارض التي كانت تُقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدين عن وطنهم الاصلي . ومها يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لتنقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هدريانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراحوا يستسهلون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت ذخر الامبراطورية وعمادها ، تمدها بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

الاعتراف المتزايد بحقوق الرعوية الرومانية للمدن

فما من شيء أثّر ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت تشوبه نزعة غلابة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، عملاً بالمُثُل التي جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كان الامبراطور يجود بها ويسخو ، بمثله بحق الرعوية الرومانية التي كان يسبغه على بعض المدن .

فقد تباين الاباطرة الأول سخاءً في هذا المجال ، بين مُكثر من هذه الانعامات ومُقلّ . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لئلا نفرط في القول ونغلو ، ان اوغسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الاباطرة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعيها » . اما الشيء الثابت والأكيد، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولمرات عديدة ، لعدد كبير من الموطنين الجدد . وحق الرعوية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية، هذه او تلك من الطبقات الأجتماعيـة الوجيهة ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد ترايانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الاسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعوية الرومانيـة ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العبث أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني، يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب. وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشارفة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرّ على سكان الولايات غُنماً مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض الغُرم ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع – وهذا شيء نادر جداً – برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعْفَون إذ ذاك من ضريبتي الأملاك والمستقات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولاً كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

الواقع الاجتماعي في المدن : البورجوازية البلدية

وهذه الحركة التطورية ، لم يمكن لها أن تحدث لو لم تقترن بحركة تطورية مماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفته لفاً، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة، في الشرق الهليني. فقد جاءت فيه تتمة لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، والنشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس مجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة مَشْغَل ، أو بوتقة تُطلِع طبقة اجتماعية يريدها ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء. فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له اللامة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة. ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان ينشىء هنالك ، طبقة وسطى ، عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومها تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وتباينت وسائلها ، فهي لا تمثل مع ذلك ، من حيث عناصرها المقوّمة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فارغمهم الحاجة للعمل في الأرض عند الآخرين . ولم يدخل ابداً في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيما هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحط الأعمال وأشقّها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا العجائب في ما كانوا عليه من تقتير وتوفير وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الادنى من الكفاف الذي يسد بُلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمير لهم ولا عشير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حتى من نَعمَ بينهم بحريته الشخصية . وقلما نعموا بحق الرعوية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانات التي حُرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيين الايطاليي المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعوية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صغار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكّل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عُرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد نأتي على ذكرها هنا ، ألتفت مثالاً احتذاه معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكناهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه مواد المعتقين، يصبحون من أشدّ الناس ولاء للامبراطور ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم *Seviri Augustales* ، ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلاها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول لهؤلاء الناس، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعيها امام ذراريهم فيما بعد ، عند اول بسمة يفترّ عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركابهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة اخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الخشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعبيد . فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع يداً وأرحب مجالاً ، لا سيما اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عماله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئـة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لاصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فالاعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نمط الحيـاة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له، فيتصرّف بها على هواه، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلا بارزاً بين المثـُل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السَعة وراحة البـال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلّة والاكرام .

سخاء البورجوازية وجودها

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بهـا : الكرم والجود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجمل وأبهى ، محتفلا دوماً بالاعياد ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والدساكر . فلا عجب ان يحتـاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات، التي لا يمكن للرسوم الجباة ان تؤمنها، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها، نقداً او عيناً، وفقاً للتقاليد المرعية والشرائع المعمول بها ، من ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مهما صغر شأنه أو دق وزنه . ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً او بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشتد في مضمار التبرع ، منافسة حامية بين البورجوازيين القاطنين في المحلة ، وبين هؤلاء الذين أتاح لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية، ان يعيشوا بعيداً عنها. فقد همهم بعد ان برّزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأتهم الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بهـا وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليهـا ، فتسجل أسماءهم في سجل النابهين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد ممن طلعوا فلمعوا، يتفنن كل على طريقته الخاصة، بتمثيل دور النصير، تشبهاً منهم بالاباطرة والملوك في حدبهم على المواطنين ، والعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما عُثر عليه من الرُقم والنقائش التذكارية، اعداد قائمة بهؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنقتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لتكوّن فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أدّبوها ، والولائم

السخية التي أولوها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محلته او للامبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجدب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصُون بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة، فينتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم. فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً او متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما عُدّ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الحظوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فاتتنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر ، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي امور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفق بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حق البلدية منها، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالياً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالمُثُل التي ترسمها المدينة ، وهي مثُل لا تتعدى عادة، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج. فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديراً لعمله ، قراراً يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرخام والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تُنصَب له وللتنويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التمثال ورفعه . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره، بعد الوفاة، كانت تحدّث القوم عن ألقابه وأخبار أياده، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدرها لمصلحة البلدة .

الحياة البلدية عنصر من عناصر وحدة الامبراطورية

فأمام هذا التنويه العالي والأماديح الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الرخام والنقائش التي لا تحصى ، يعتري الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنيهم . كذلك فهي لتثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضاً. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهبت جزافاً، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها، لا سيما اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها، الا بشق المرائر، مسخرين في سبيل ذلك العديد من الناس.

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجهل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تتباهى بها اليوم، والذي وحّد بينها: ذوق مترف يتجلى على أتمه، في هذه الزخارف، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض. فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها، وجعلت من حياة البلديات، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها، وتأمين الوحدة بينها، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثُل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها. فاينما دفعت حوافز الحياة، المواطن الروماني، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او تزق الطبع، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤوليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي القت به اليها الأقدار. فاينما هبط او حل، طالعته، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة، واعراف واحدة، وتقاليد واحدة، والقيم الاجتماعية ذاتها، أدبية كانت او مادية، والزخارف المعمارية الواحدة، والاعياد ذاتها، وبمختصر القول، الكثير من مقومات الحضارة الرومانية الواحدة. فلا عجب والحالة هذه، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها اينما برزت وكيفما تجلت، فيقتنع في قرارة نفسه بانه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم، فتبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها، كما تملي نفسه جيلاً لهذا النظام.

المنشأ الهليني لهذا النظام

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل، خلال القرنين الاول والثاني، كان تكملة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي، وهي حركة لم تتعدّ في الشرق رقعة ضيقة، حدّها قيام دولة الفارثيين على الفرات، بينا بلغ مدها الزّبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية. فاتساع المدن القديمة، وإنشاء الحواضر الجديدة، وتزيينها بالمباني، وتحليتها بالزخرف، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفّهات المنزلية الاجتماعية، الهمّة في توفير ثقافة فكرية. كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون، جاهدين، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان، تحقيقها. وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة، اذ انهم، بعد ان تبنّوا المبادىء

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنهـا ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال النخبة في المدن على هذه المـُثـُل ، استطاعوا ان يبزّوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهيأوا لحواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهـذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

المستحدثات الرومانية : الصارعون

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هـذه المدنية التي انتشرت على هـذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي، وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقتها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي امتازت بهـا النـُظـُم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير ، بالمصلحة العامة . فعندما تنعم النظر في الموقف الذي وقفتـه الطبقات البورجوازية في الشرق من الامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئا من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقيين وتعاليمهم .

من بين هذه التغييرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع بـه الرومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان أثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يحدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلواهم المفضلة، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالعاب أينما قامت. فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عنـد الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالعاب ، بل على عكس ذلـك لقيت لديها الاستحسان ، بينما النخبة الاجتماعية التي رضيت طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هـذه الملاهي، راحت تزهو بها وتفخر ، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة، من يونانية ولاتينية ، على السواء . فلم تُثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفـّهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحة الواحدة تلاقت متشابهة في كل مكان. فالمصطلح اليوناني *Philodoxos*, *Philotimos*, *Philotimia* أصبح فيا بعد مرادفاً للمصطلح اللاتيني *Munerarius* و *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيا بعـد ، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المركة والمصارعة ولا سيا المعركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حماسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمعركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللها عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصها الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطـّل عند المشاهدين كلعاطفة إعجاب وإكبار وإيثار . ومهنة المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبعثت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيها من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هـذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات مهتاجة ومهيجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديمهم ملتزم معين او يبيعهم بيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهـذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينا يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأمجاد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومها يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهَوَسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطر مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظـّم فيـه أصول هـذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئـة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغاليين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمنديا) ، ترقى فيا بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هـذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً مـن المصارعين ، كل يوم ، ولمدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس. وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدراً في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالامكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه السخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

الطبقات الممتازة : احتياجاتها والملع الامبراطوري

هذا الدور الذي لعبته الطبقة البورجوازية في البلديات ، لم يقتصر على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجـد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدّهم بالعناصر الطيبة التي ألـّفوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة .

فعندما أنشأ اوغسطس نظامه الجديد ، تألـّفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

أشراف روما وسُراتها ، بينا تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جرى اختيارهم واصطفاؤهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الايطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين، إلا ان دوافع عديدة متباينة حملت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فاذا كان عدد اعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا ، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الاباطرة ان يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الادارة ، وإملاءً للمناصب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تباعاً . ولعل أهم هـذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعترى تدريجياً الأسر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهول الذي كان يزرعه الاباطرة في قلوب الناس، للقضاء عليها، حملهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة او رحمة ، ودفعة واحـــدة ، بعدد كبير من صفوف اعضاء مجلس الشيوخ. فمجرد حوم الشبهة او اخذ البعض بالظِّنة في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحملهم على الانتحار ، امتثالاً منهم للقدر الغاشم ، وغيرةً منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويثيرها . فليس من عجب ان يسيطر الهلع على اعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تخلصاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفَّت حدة هذا الخوف وخَفتت وطأة هـذا الهلع ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بألسنة حداد مستمطرين عليها وعلى أصحابها اللعنات . فاذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها – باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش – عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فمرد هذا يعود بالأحرى ، للحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جددت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها من غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالدسّ والتآمر . وهكذا قطفت الاسرة الانطونيـة ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

العراء وقلة الإنجاب

وعملية الفتك، بالجملة ، بالعديد من اعضاء الطبقة المشيخية، لم تكن بالطبع، لتقضي وحدها عليها بالفنـاء والمحق ، كما ان هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين، هذا اذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والمفجع في الأمر، هو ان معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والامر حرجاً هو ان طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والهلع الذي سيطر على اعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر اولئك ، على الاباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً. وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرّض الكتابة عن هـــذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت اليها، وقف في تحليله لها عند الاسباب الخلقية والادبية دون سواها، بعد ان تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما، خلال العهد الامبراطوري، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر. وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى، محافظة منه، ولا شك في ذلك، على الاخلاق العامة، مع ما استرسل اليه من اللوم، والشجب والانتقاد، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد.

كان المجتمع الروماني العالي يغص بالغنى ويرفل بالثراء. فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها، اذ ذاك، ٤٠٠ مليون سسترس، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس، من توابع الامبراطور. اما الثانية، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ، في عهد اوغسطس. فلاعجب اذا ما راح بلين الاصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة، زمانه وقسوة حظه، ويقابلها بامكاناته المتواضعة، مع العلم انه خلّف، وراءه، كما تنص عليه وصيته الأخيرة، وفقاً لمنطوق احدى النقائش التي وصلت الينا، ٢٠ مليون سسترس لا غير. وقد رأى بالطبع، مجتمع على مثل هذا الغنى، ان يستمتع بالحياة، على ما يرغب فيه ويشتهي. فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرف العالم مثله من قبل، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه، والكل يحاول ان يبز غيره في لذائذه، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية: في هذه القصور الشاهقة، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والجوهرات، والولائم المترفة، وانواع اللذائذ على اختلاف طعومها والوانها. من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق تبعث الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقهـا مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة. وهذه الشواهد التاريخية، على صحتها، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل. وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعهـا المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر، في كتابه الضخم الموسوم: «تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً»[1] لا يزال هنـالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات. ومهما تكن الصورة التي تطبعهـا في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أخرجت للناس حديثاً، أفلاماً سينمائية تضؤل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان، أمثال بترون *Pétrone* و مرسيال وجوفنال، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير.

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومـان، والبذخ الذي تجلى في مآدبهم، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح المعلّى في ولائمهم، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من امثاله في التاريخ القديم، فالذي يهمنا هنا، من هذا كله، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هـذا المسلك. ففي روما، كما في اليونان قديماً، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

(١) *Histoire des Moeurs de Rome*

يطرحهم في الشارع. غير ان الانصراف للحياة الحرة، الطليقة، المترفة، جعل كثيرين من الشباب، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد، لم يعقبوا، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق، وان أنجبوا، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة. وهذا النقص الفاضح في المواليد جاء يُتم، من جهته، عمل الفتك والتقتيل بالجملة، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة.

فشل قوانين محاربة البذخ والتشريعات الديموغرافية

حاول المسؤولون جهدهم ان يكافحوا ما أمكن، اسباب الداء وان يجتزوا الداء من الاساس. واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنها من قبل ضد بَطَر البذخ والاسراف والاملاق، راح ابنه اوغسطس يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق بإملاق وأسراف جنونيين. فحدد بـ ٢٠٠ سسترس لليوم نفقة الأيام العادية، و ٣٠٠ سسترس لأيام الأعياد، و ١٠٠٠ سسترس ليوم الزفاف والتالي بعده. ثم أصدر قانوناً جديداً، لم يكن له اثراً اكبر من غيره، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية. وقد رفض الامبراطور طيباريوس، بما عرف عنه من سلامة المنطق، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ، متسائلاً: « كيف نبتديء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه، في الدرجة الأولى، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى؟ هل نبتديء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف؟ او هل نخفض هذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء؟ او هذه المبالغ الضخمة من الفضة والذهب؟ أو بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع، من البرونز، أو هذه الرسوم التي يعتني الرسام نفسه برسمها بصبر جيل؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والجوهرات؟ هذه القوانين التي سنها السلف، وغيرها مما استنه اوغسطس وعفي العمل به او ما هو ادعى للخجل، مما للغي احتقاراً للقانون ودوساً له. كل هذه القوانين والتشريعات، ألم تشجع على الإثم وتدعو الشر».

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها، للحد من اسراف الطبقات الثرية، ولحملها على الإكثار من الولد والبنين. وقد أوصت هذه التشريعات على املاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد، كما انها تصعبت في قضايا الطلاق. وفي مصلحة أرباب الاسر، ولاسيما الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتيهم من ثالث او من نسيب بعيد القربى، اكثر من مبلغ معين. وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد. ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون. وكثيراً ما كانوا يبرمون عقود تبنّي مزيفة. غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق. فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لها غير ولدين، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيا بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور ترايانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتفعين بهذا التحيّل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرةعرفوا بقلة الولد ، ان يصمدوا ولا يلينوا امام أولادهم ، هذا ان كان لهم أولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بكافحة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على المواريث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

الاستعانة بالنخبة في الولايات

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الضرر بمصالح الحكومة وبالادارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بدّ ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يجف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرئها . وساعد الازدهار الذي نعمت به أمور عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي. وجاء هذا التدبير تتمة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعوية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ؛ اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥ رجلاً غاليّاً من ولاية ناربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريّ بنا ان نقف عندها ونتملى فيها النظر ، اذ كان عليها ان تتغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازتين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التماس رفعه وجوه «غاليا» وأعيانها ، بعد ان تم تدويخها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطاءهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعوية الرومانية وتمتعوا بما توليه من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه التدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية، والحرارة التي ابداها في تأييده هذا الطلب، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتماس إلا تدريجياً، وعلى مراحل، مبتدئاً من شعب الأدُوِين (ارتون اليوم) بوصفهم اقدم حلفاء روما في غاليا قديماً، ثم جاء تباعاً دور الولايات الاخرى. فولايات افريقيا لم يطلع منها قناصل قبل عهد الاسرة الفلافية، والشرق الاغريقي، بعد ذلك بكثير. ثم قوي التيار واصبح لا يقاوم. وعندما انقرضت الاسرة الانطونية كانت مصر وحدها، بين الولايات الرومانية الكبرى، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد. وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سفيروس *Sévères*.

ولم يستفد من هذه السياسة، حتى عهد الاسرة الفلافية، سوى الطبقة الارستوقراطية العليا التي حاكت، بما تم لها من غنى وثراء، الطبقة الارستوقراطية الرومانية، اذ كان بامكانها ان تقتني لها، املاكاً طائلة في ايطاليا وان تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الام، أي في الولايات التي انطلقت منها. الا ان ما كانت عليه من قلة العدد اجبر السلطة على توسيع طريقة انتقائها العدد اللازم لها، وذلك على اساس النظام الاجتماعي دون الاقتصار على النطاق الجغرافي وحده. وقد باشر السياسة الجديدة الامبراطور فسبسيانوس الذي خرج، هو نفسه، من الطبقة البورجوازية الصغرى. فقد كان، قبل ارتقائه العرش الامبراطوري، الاول في مجلس الشيوخ كما كان ابوه، الشفاليه الاول من بين اسرته. وبعد ان تسلم مقاليد السلطة العليا، إثر ازمة ٦٨/٦٩، لم يتردد قط ان أدخل، الى عضوية الشيوخ، عدداً من الشفاليه من اصل ايطالي او اختارهم من بين الولايات الاخرى. وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته، بحيث ان الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها، اعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى، ازداد عددهم مع الزمن.

اما طبقة الشفاليه، فلم يكترث الامبراطور يوماً باي اعتراض او مقاومة من قبل مجلس الشيوخ مما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات، اذ انه كان السيد المطلق، والمشرف الاوحد على تعيين اعضاء هذه الطبقة، يختارهم ويصطفيهم كيفما شاء. وكان يكفيه ان يكون المرشح حاملاً الجنسية، مسجلاً في دائرة الاحصاء والنفوس، معروفاً بولائه للامبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة، له الحد الادنى من الخبرة، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الامبراطور يستفيد منها. ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد، ترتب عليه ان يتغلب على بعض الصعوبات منها حَنَق الشرق على الغرب اللاتيني، كما ان الاخذ باسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح العتيد. ولكن هذه المحاذير لم تلبث ان فقدت شيئاً فشيئاً من حدتها، ابتداء من عهد هدريانوس. فبعد ان كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة، عدداً اكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق، فقد خف هذا التفاوت كثيراً واصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

التغييرات التي لحقت بالمنظمة المشيخية

لما راح الامبراطور يُرَقي الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم لتسلم الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ، بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التي ميزت « عصر الاسرة الانطونية » .

فالأسَر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ . فاذا ما عمّرت واستمرت – وهذا أمر نادر الغاية – فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبني. ولذا ألّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور. فقد طلعوا، على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتها وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ الأشراف والنبلاء ، غلاباً وجهاداً ، بعد ان أُدخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين، تم لهم، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قُيّض لهذه الطبقة ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وتدبير شؤون الامبراطورية. ولما كان الامبراطور يتحرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزّاع للمناقشات والمجادلات التي لا طائل تحتها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، نما في هذا الفريق ، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي الوطني أكثر من ذي قبل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراءً من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناء وجهد موصول ، استمرت عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفّظ . فبلين الاصغر الذي كان يملك في عهد ترايانوس، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا، حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ، في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينة اوستي ، وصرح توتشي ، عند منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبيلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخفخة مما مضى ، لأن معظم اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر عتداً لاسرتهم . فكان عليهم ، والحالة هذه ، ان يحتفظوا بحد أدنى من المبلغ المخصص لعاصمتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات تقع في ايطاليا . وهذا الحد الادنى تدنى وتناقص هو الآخر : فبعد ان كان الثلث ، في عهد ترايانوس ، اصبح الربع في عهد مارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقطنون ، ولأمد قصير ، في احدى فيلاتهم المحببة القائمـــة وسط املاكهم الواسعة في الولاية .
وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الريفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من اعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الحظوة التي كانت له عند اولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هـــذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاغتيالات واحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخية لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفّت فيها وماتت هذه الحيوية الجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت وامجاد. وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

الارتقاء الاجتماعي

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهـــذا المد التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليـه من استمرار نظم ، يؤلف احدى المميزات التي اتصفت بها مدنية الامبراطورية الرومانية في هـــذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفرّدتها عن المدنيات الأخرى التي تقدمتها .

ويحسن بنا مع ذلك ، ألا نجهل الحدود الجغرافية لهـذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدنية ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلّم به اساساً ، ان باستطاعة المعْدَم من النـــاس ان يتمكن من تكوين رأس مالٍ له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، على استثماره وإنمائه . و لم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع، بالنظر لما كانت عليه من تأخر والحطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر ايضاً (بالنسبة لما كانت ترزح تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة ايضاً امكانات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب، فيتقدمون، وهذا أيسر السبل، على الانخراط في خدمة الجيش، فيقطعون مراحل الترقي على مهل ، فتنفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية، ومنها يتدرجون الهونباء ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهـذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف العهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مهما كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، ناهيك عن ان تنظيم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هـذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهفاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظيم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلـــك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، اذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكيف واكتساب الخبرات . وكان على المعني بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كان عليه ان يحترز من إثارة الشكوك حول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بهـــا عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرهـا النظم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عمم في تأمين هذا التجانس الذي ، وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك، ما عرفت من أمثاله، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلـك العهد. ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها، بعد ان ربطت بينها مثـُل المدنية الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقـــة الجذور، المثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألـّفوا معاً طبقة واحدة تمرست بهذه المناقلات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة. فالفروق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي، سواءً اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو ـ كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطاليـة المتواضعة، كالاسرة الفلافية، او جاءت من بينهذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة ناربون الغالية، كالاسرةالانطونية، لا تبرز على نصاعتها إلا متى وضعناها جنباً الى جنب مع هذه الحقيقة . فبنظر هذه الطبقات الموجهة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امة" .

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النـُظم تستمرئها وتتمثلها .

٣ ـ الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب، والطبقات الدنيا تتألم وتتضوّر . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

اليد العاملة

عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدٍ عاملة كادحة، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاحتفظت بدورها ، بالمشاغل الصناعية واصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مُضرّدة ، لا تفي بالغرض . إلا أنه، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المُثُل اليونانية القديمة التي اعتمرت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية، بقيت تعتمل في الاذهان وتختمر بها الارواح، اذ ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربيـــة ، وترسّخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرستونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أتـّال القديمة . ومما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين التخفيف من حدتها. فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الأسيوية إعتصابات إثارت شكوك الامبراطور ترايانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيثينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ « كولـّيج *Collèges* »، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنائزية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتعاهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفـال براسم بعض العبادات وتأمين جنائز محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفـة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض . وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما، خلال العهد الجمهوري، وفي غيرها من حواضر البلاد الايطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤهـا يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية، في مطلع عهدها توجس شراً منها، وتنظر اليها بالتالي شذراً، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية، انتشار الروح الانسانية والمبادىء التي تقول بها ، كما أن اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هـذا التطور . إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيــام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري، فساعدت بما لهـا من نصراء يرعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد. فاليد العاملة في المدن، لم تكن أخذت تشكل بعد، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف على

استمرار مثل هذا الازدهار، واستبدال الشغيلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

اليد العاملة في الريف

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكل آخر. فالملكية العقارية الواسعة كانت دوماً آخذة بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: « كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار لإيطاليا »، وهي عبارة يحسن تكملتها بالفقرة التالية: « وكذلك قل عن الولايات ايضاً، اذ ان ستة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها »، غير ان طريقة استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواء أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة. والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي علي الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان تم مسحها على أيدي مهندسين مسّاحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية. فأينما استمر الاخذ بهذه الطريقة، كان استثمار الاراضي الصغيرة على ايدي اصحابها آخذاً بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الاراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر او وكيله، قل جداً بحيث اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذاة قصر رب الارض او على مقربة منه، اذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد باعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابعين، احياناً، لقاء قسم من غلة الارض، يعود « للمعمرين » الاحرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الاقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد العبيد (*Anachorésis*) الذين كانوا يعملون في الاراضي الزراعية، ليختبئوا بين غياض المستنقعات وأجمات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر، في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وتطالعنا نقيشة عُثر عليها في افريقيا تحمل نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومود يتظلمون فيها مما يرهقونهم به من اعباء فيحملونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه، ويزجّون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل بلين الأصغر وصف الصعوبات والمشقات التي يلاقيها الملاكون، اذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على ان صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم. وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي. فمنذ عهد ترايانوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً اشبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل ، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ – ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقاء رهن ارضهم ،على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بخصب تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي آخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم تسمع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفائظ.

الشعور بالعاطفة الانسانية

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء اخذ يرق وينمو في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة، وحركة العتق، وتحرير الارقاء، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباهاة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونية والشروط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيده القديم . ومن جهة اخرى نرى مجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وئيداً في بادىء الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استنجدوا بالجيش ، لِسوق فريق من العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ عُثِر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم. وقد أخضعوا للتعذيب والتنكيل، في عهد ترايانوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُراة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لحملهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتُصِر في عملية استجواب الشهود، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة. فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار، منذ عهد هدريانوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الأرقاء واصحابهم، بيع أية أمَة ما للتجرين بالنخاسة او القوادين، او بيع رقيق لأي من المتعهدين حفلات المصارعة والمصارعين ، او بإجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم ما كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الى القضاء . وأوردت مدونة يوستنيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص اخرى يجب وضعها بإزاء النصوص التي أشرنا اليها أعلاه ، تقف الى جانب الحرية والعتق في الحوادث التي يشتبه فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعتق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبلها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للمعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها، فيما بعد، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكّـر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيـــه ، او لا ترضى عنه . فحوادث المقارمة لزيجات مبكرة تفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهـذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرّد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعملياً ، بالغاء زواج ابنه . وهنالـــك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاتيان بهـا ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده، لنتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها، تعبّر مجتمعة، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحـكام التي تنطق بها ، خلق عادات جديدة، نراها تقتصر ، بالاحرى، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والأخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاحقة المخالفين لإنزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هـذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء في روما ، منذ زمن بعيد، وفي عهد الامبراطورية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعايشتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقـــاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عُرفت بقلة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، وينتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص رواجاً عظيماً بين سراة القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلاً : « أعبيدٌ هؤلاء الرجال ؟ ، لا لعمري ، انهم بشر – أعبيد هم ؟ – لا بل عشراء لنا وندامى ، ورفاق الحياة – أعبيد هم ؟ – لا بل اصدقاء حميمون ، أعبيد هم ؟ – لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عرفتَ ان الأقدار لها عليك كما عليهم ، مثل هذا السلطان ».
صحيح ان سنيكا لم يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقيين بصورة عملية ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يهتم بادارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كثب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنياء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول ، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من فظاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخيّر ، والحدب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث ان أدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يجعل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

حدود هذه النزعة الانسانية وقيودها

مهما برزت مظاهر هذا التعاطف الانساني ، وتكاثرت الشواهد على تجلي هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطّفت من حدة القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمـــة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات: فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم ،رأى في هذه الظاهرة نذير خطر مداهم. فاذا ما راح أحدهم يلبي لأسباب دنيوية ، نداء عاطفة انسانية نحو الطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجال . إن اطّلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهــذا العهد ، حملهم على الظن بأحقاد تتجمع وضغائن تتكدس . إلا اننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوٍ وتذمرات وتململات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرفوا ، في الشرق، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكلبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهاجة الجماهير وإثارتها ، بل على عكس ذلك تماماً ، دعوا لرذل الغنى واحتقاره . وعلى هذا الحال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ حلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم ،هو في نظر المعاصرين جميعهم ،وباتفاق الرأي ، نظام قوي متين، راسخ.

وهذا النظام ، عرف أن يقيم لمراكز دفاع تُحسن صد العدوان ، والصمود في وجه المهاجمين. فليس في النظـام الامبراطوري نفسه أي مغمزَ ضعف أو مكمن وهَن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كثب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيمتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المُصْلَت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحرج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَن مِن كاهنات الفستال *Vestales* تعبث بنذر العفة أو تحدثها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دومتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بوَأد رئيسة كاهنات الفستال حية لعبثها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء، وهو من مصاف الشفاليه، لقي من الضرب الشديد والجَلْد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثني منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضّال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجماهير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنهبها نهباً، اوبتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو بجلدهم وتعذيبهم ، أو بحرقهم أحياء أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمشاهدين الذين يتلذذون بمرأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنيكا يشجب بشدة بروقنصلاً عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا، لقتله ، دفعة واحدة، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطـــاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعييهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا.

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملطّفات تُؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبذل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشتد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبقية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمتي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شرفية وكنى فخرية. وتخطو الحُظوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية. فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية. ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة، من حيث شدتها او خفتها، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فتشتد وتقسو، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطف وتخلُم ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جمهرة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالعضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهيئات البورجوازية في المدن .

من العبث ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتهـــا التخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . وهـــذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان نتبين هنا انها ازدادة شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرتهم الى أشياء تكميلية .

٤ ـ الازمة الطالعة وأسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هـذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

حضارة ذات طابع معيني مغرق

بعبارة تستبد بالفكر لعمقها ودقتها لانها تصدم دونما عنف ، هذه الأوهام التي وجدت طريقاً سهلاً الى الاذهان ، هي هذه التي تفوه بها انطوان البرتيني ، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العـــالم الذي سيطرت عليه الاسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوالم التي عرفها التاريخ قديماً » . وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير الماثل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما ألحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانيـــة ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة . وليس من الغلو في الجرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجده ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني ، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد ــ وهذا هو دوره ــ فكّر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيـات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد . فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفوياً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشييدها ، متنكبـاً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً ، عن وسائل الضغط ، مقتصراً في اغلب الأحيان ، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقتير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الاكفاء ، وحضارة الحت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً ، من وطأة هذه الحاجة بعينها ، فلم يطلع عليها من المثل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانيـــة نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رُغِب فيها والتي لقيت قبولاً لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابتها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها ، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم .

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتفرضهـا ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشيبة من الواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدها مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأ ، كانت تتيه فخراً بهذا كله ، فلم يبق مـا يدعو خيال الامبراطور وغيلته للتفنن والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يجد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمرسوا بالاعمال الادارية ويبرهنوا عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهمل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتصميم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امعنوا في هدر مصالحها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجليلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعيـاد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافـاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهك خزينة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، مـا لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألق هذا الغنى وبالدعة التي عرف العهد ان يؤمنها لها ، شأن غرّ أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش ، فتكتبت بها الحياة بعد أن أعجزها توفير مثل هذا الفيء العظيم الذي تم لها من قبل ، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين حاجاتهـا محصول طيّب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنهـا ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيما بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارىء . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القويم والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتيلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقريات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركابها . هنالك مدنيات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكشفت عن مثل هذا النقص الفادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما تمّ لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاء العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومهما كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاتته الاحصاءات العلمية الدقيقة . والحال، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هــذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباطاً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت ، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفضى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كانت ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هــــذا المحصول الاساسي ، تسجّل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نمو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسؤ ، وقد يكون سجّل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عنــــد معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التظلم ، وهذه التشكيات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المتزايد في مصر *Anachoreseis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع. اضف الى ذلك تناقص عدد العبيد والأرقـاء . فحوادث العتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى ، في المدن ، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولاهم فيهبهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان ، قديماً . ولكن هذه النخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر العبيد على معدل عال . فاذا ما كان اسياد العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام المحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنفزهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو افظع من ذلــك ، هؤلاء المواليد الجدد من العبيد الذين يرضى مولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة. فلم نر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يخبئه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهــة اخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلــك بعد ان قلّت الحروب وانقطع عن هذه الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة بيع السائمة . ومن جهة اخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعــــل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها بيع النعاج.

واخيراً وليس آخراً ، فمارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الاخرى ، ضغثاً على أبالة ، وثالثة الاثافي فتحصد صفوفها ، فتنتقص من عددهم ، وتستنزف دماءهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الاسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يجف ، وينقطع بالتالي معينه . فاذا كان عدد اليد العاملة الخشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

خطر الازمة واولى مداخلات الدولة

وهذه المدنية الرومانية المغرقة في حركتها الحضارية والتمدينية معاً والتي انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم هي ، الإهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواه . فالاستقرار الغذائي ، في اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء ، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء الامبراطورية . فاذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها من الخارج ، والخراب الذي ينتج عن غزو طارىء او عن كارثة طبيعية ، مهما كانت محدودة ، تبينّا الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فاذا ما تضافرت كل هذه العوامل والمسببات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها امام ازمة تهزها من الاركان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية . وقبل ان يستفحل أمر هذه الازمة كان الوضع الحرج الذي تتخبط فيه المدن يبدو قاتماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع نمط الحياة فيها ، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف ، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود العقل ، في البذخ والزهو ، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها . وقد رأينا كيف ان بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها . كذلك رأينا كيف ان هذه القصور التي كانت محل دعة واستجمام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً باستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هذا الدخل الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ الاغنياء يهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثر ، لاملاكهم ويعنوا باستغلالها ، متفادين بذلك مضايقات الجماهير التي اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فامام هذه الحركة العفوية الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنها من سكان الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عيالاً على المدن ، اصبحت اليوم مزاحمة لها . فاذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت العيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ؟ عندمــا تتعقد قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتعطل حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً، على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يهدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتتعدم اسباب الترقي والتطور ، ويحال دون انتقال، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسّنوا بمثل هـــذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او تمرسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمّت لهم مثل هذه التجربة، لكانوا أبَوْا ان يُذْعنوا الواقع ويسلّموا، انهم ورعاياهم ، أولَـوا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما، ان تقرّ وتعترف بأذى او بعدم ملائمة المـُثُـل التي راودتهـا فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلواً من كل خطة ومنهجية ، تحدوهم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تقتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فاذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، تافهة للغاية ، وبالاكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيضطر ضغط الحوادث، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجدون انفسهم ، وجهاً لوجه، امام أزَمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادىء التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تتصرف الدولة التمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للنزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهــاية التاريخ القديم ، مضيفة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منهــا على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنها هدريانوس بشأن الاراضي الموات، واستثمار المناجم، عنَت، في الدرجة الاولى ، صغار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت بــه من إرهاق ووقفها الى جانب القانون المعمول به، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فاذا كانت المنافع التي نالتها النقابات المهنية ارضت ، على السواء، العمال ومتعهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابتها في صميم حرياتها الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجبرهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدهم من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة، من فخرية وقضائية، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هــذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء اللازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هــذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيأت له الأسباب. ولم يكن في وسع احد، اذ ذاك، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح، اذ لم يكن بوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بدّ من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة، ولا سيما هذه الحضارة المدنية بالذات ، فيفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .

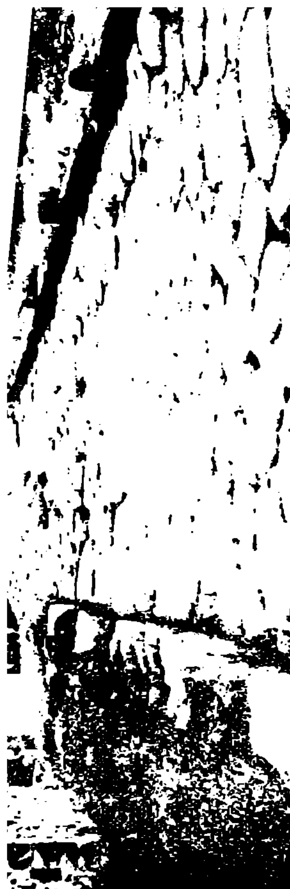

- روما وامبراطوريتها

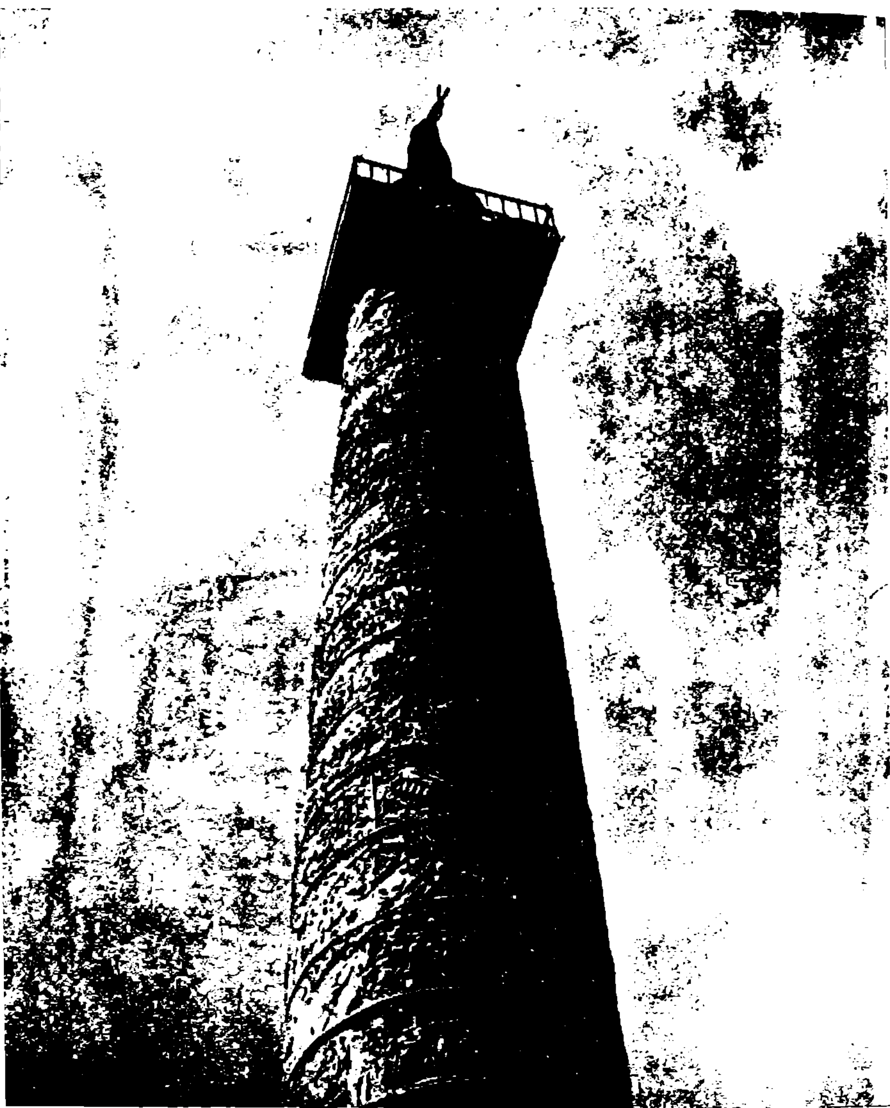

٢٣ – روما : عمود ترايانوس

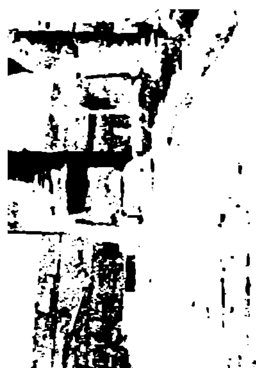

٢٦ – ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنس .

٢٧ – بقايا مسرح اوستيا

٢٩ – ميترا يقدم الثور قرباناً

٣٠ – قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) .

٣١ – الفوروم في هيبون (عنابة ـ الجزائر) .

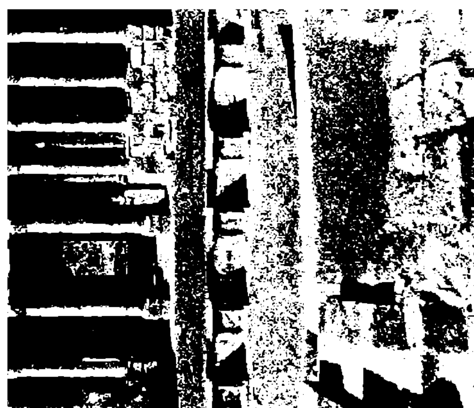

الفصل الرابع

الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالعقائد الدينية المتباينة ، قامت في هـذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهّلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصراعيها امام الديانات والعقائد الأجنبية ، فأدّت المنافسات التي اشتدت بينها قبل نهاية القرن الثاني الى فوز العقائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيا مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسة للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقيت بعض الاغضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعوية وأصبحت مهيأة ليس لزعزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اوغسطس وموقفه من الديانة

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقية من هذه العقائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيا بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثر ، لمبدأ ديني عاني ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبدّ بالأذهان . فالاعياد تُهمل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويُتناسى أمرها ، والهيا كل يتجافى الناس الدخول اليها ، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها .

وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُحِدّ من تدهور المشاعر الدينية . فقـد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاءً لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة . كذلك حَرِص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يمثلان خير تمثيل سياسته الدينيـة : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » *Pontifex Maximus* من ليبدس *Lépide* ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية *Triumvirat*. فقد آثر ان ينتظر حلول أجله حتى يُكرَّس ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتم له بذلـك أعلى سلطة دينية دون ان يمسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبهة وجلال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليال ، بالأعياد القرنيّة *Jeux Séculaires* التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السماوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لِسَبْر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدفينة ، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياب في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العـامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر ، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسالته . فاخلاصه يبرز بهـذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الأهتمام الذي برهن دومـاً عنه والذي طالما نوه به وألمع اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم » ،وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي لقح بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الألوهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوقار والجلال الذي اضفاه على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاخذه بالخرافات والاساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لهـا ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد حدث يافع ، وبرج الجدي الذي ولد تحته ، وهي طوالع خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما نُحفرت حفراً ناتئاً ، على رصيعة عُرفت برصيعة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطانته تأثيراً عميقـاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً هيكلاً في مصر ليسجد للإله ابيس او هابيس (*Apis*) ويقدم له القرابين ، وامتدح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين ، هو الآخر ، لإله اليهود في القدس ، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينيـة نحو الآلهة اليونانية المنشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتِد . وقد علّق أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعياد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية ، هذه الاعياد التي لقحت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدها من الميثولوجيا عند اليونان ودياناتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وايمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حرفي ، جامد ، بـــل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدع عمله الاصلاحي بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجمال ، بمعزل عن موجتي الكفر والالحاد اللتين غمرتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرُقم القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتهبة بالرغم مما شابها من خرافات صبيانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غمر الكفر والالحاد معظم بنيها ، فقد انقلب فيها الوضع فجأةً . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقليين ، كان خاتمة الملحدين ، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوتين لتعلم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك ، احدى النقائش التي عُثِر عليها في اثينا ، لا يستدعي قط ، تسلم ارملة الامبراطور ترايانوس بالنتائج التي تفضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نعزو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس النـــاس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر ، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكوّن عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية ورافق نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

الفلسفة والدين

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه ، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفية الكبرى ، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحث ، منذ الآن ، في تعاليم هـــذه الفلسفات ونمعن النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكنا وقعنا في مغالطة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بـل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحـــاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لهـــا أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلتاهما شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (*Epicurisme*) وحدها ، كانت ملحدة مُعطِّلة ، اذ أن الخوف والرجـاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، ينعيان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة، مصونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما ممثلها الاكبر لوكريس، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّهوا تعاليمها وغيروا من مقالتها، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها، أفله في روما، بعد ذلك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نوادٍ وحلقـات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع اتباعها من اظهار كفرهم وجحودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بهـا إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهدفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفحمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الاخرى تتكتل ضدها، بعد ان تجند من رجـال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف، اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني ، كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مأثور الكلام في هذا المجال»؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً اكثر منهـا فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الارقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلّم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتهـا وتقصياتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مراسم عديدة من التطهير، ومجالدة النفس بالصبر وطول الاناة ،وشظف العيش والاعتصام بحبل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل اتباعها بالسعادة في الحياة الاخرى. وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراح المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالمجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع للتأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالاعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيغولوس،في اواخر العهد الجمهوري وسكستيوس، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلـك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقـد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان. فوقع بلوتارخوس (بلوتارك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدّت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلاً كبيراً في شخص ابولونيوس دي تيان ، الملقب بصانع العجائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب اتباع لهم في روما، بيتما تكاثر عددهم في الشرق الهليني، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بشّر بهـا مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقـّوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين بهؤلاء الابالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoïcisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نيرون ، وطرده دومتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه باناتيوس وأكمله بوزيدونيوس. وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين عُرفوا بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونواديهم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلا مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعث الحياة فيه . فالقدرية بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبيّن الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزه التعلق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يُقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلاهما موضوع حبها . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُعنياً نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوالع الغيب ، حتى ان بعضهم تاهوا وراء رمزية سقيمة .

العناية الإلهية

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيما بعد ، لما قام من تجانس بين المبادىء الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشيَع . وقد تفادوا المجادلات الدينية ولاسيا بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المتهلّينة.

فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيما بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض، ولا سيا حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم أنها تتدخل في بعض الظروف الخاصة، اما مباشرة او بالواسطة . وقد توصلت الى شيء يشبه الإجماع فيما بينها ، إذ سلمت بأن هذه

العناية هي عَطوفة على الانسان ، فيقف حيالها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتها ، كلما أنِس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابداً على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً، أم انها اقتصرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاّب خارج عنها ؟ فبدون ان نقطع في الامر نفياً او اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجهل فوحّد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المدنيات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي متنكّبة عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتد قوة واندفاعاً ، اذ انه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا – مثال ذلك مارك اوريل – الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أوَليس من الاعتباط بمكان، ان نجد في هذا كله، اثراً لنظام سياسي آمر، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخضعوا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلت لهم في سلطة امبراطور كلي القدرة ، اوحت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

النتائج المترتبة على هذا الاعتقاد

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتها بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان من شأنه ان يسّعر الخوف في قلب اوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلغلت الى اعماق شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤىً من الاماني العذاب ، فقد عرّضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل. ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجهه هذه الآلهة من وعد ووعيد، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً التصديق بالعجائب والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات. ومن هذا الباب المسدوف ، اي الذي فتحه اوغسطس قليلاً، تدافعت الى الاذهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً وأصدمها العقل السليم ، فاستقرت فيها واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للابقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزون اقامتها الى اوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنا الهيولي

هذا. وبين هولاء الوسطاء من هو مجردفكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً ان ينزل الانسان ، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية ، هذه المنزلة : فالتضرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء . وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية ، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها . كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب ، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الابالسة تقديم النصح لابناء البشر. ومهما يكن ، فالتقليد الوطني او ما ينزلونه منزلته ، لم يعد في وسعه ان يقدم ، في هذا المجال ، ركيزة يمكن قبولها او التعويل عليها . فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون بأسره ، لا تعرف الحدود والسدود . فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان ام يونانياً ام رومانياً ، مُتهلينا كان ام مُتليتنا ، لا محل له على الاطلاق . فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها ، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يُرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة ، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيا آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى،وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي ، وبفضل مالها من غنى الرمز ، وبفضل ما توحي من ثقة بالنجاة والخلاص .

ومع ذلك ، ففوق الاسماء والكنى والالقاب والجنسيات تُلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق ، عند الذين لم تُعطّل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالعطف والحماية، القوة العاقلة والناقدة في النفس. ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد العنصر الالهي اينما وجد . وهذا بالذات ما حدا باديب بثينيا ، ديون ده بروس الذي لقب بحق : « فم الذهب » الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي : « أخذ البعض يدّعي ان ابولو ، وهيليوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد ، وانت تقول القول ذاته . واكثر من هذا بكثير يُجمِع عدد كبير من الناس ببساطة كلية . على ان يروا ، في كل الآلهة مجتمعة ، قوة واحدة ، وقدرة واحدة ، بحيث لم يعُد من فرق قط ، بين تكريم هذا أو ذاك ، من بينها » .

وأخيراً اخذ الناس يملون النفس ان باستطاعة الابالسة ، اخياراً كانوا أم اشراراً ، حتى الصغار منهم الذين يَسمُون فوق ضعف البشر بكثير ، ان يُرغموا الناس ، ببعض الوسائل المغرية التي لديهم ، على التصرف حسبما يريدونه منهم . وهكذا نرى باشكالها المختلفة ، اعمال السحر ، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض ، في حياة الانسان .

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية ، تجلت في الشعور الديني ، بفوز الرمزية الفردية . اما الحياة الدينية فقد تلبست مظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلى بها ومعناها ، بينا استأثر البعض الآخر بكل الشهرة . فالمراسم الميتة هي التي احياها اوغسطس وبعثها حية من جديد. اما الحية منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها . والتطور السياسي الذي اخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفاقاً للاتجاه الذي أراده اوغسطس واستطاع ان يوجهه . اما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً .

٢ ـ الوثنية وطقوسها

العبـادات

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي سِيرَ عليها في الديانة اليونانية اللاتينية ، وفي عبادة الامبراطور . فقـد ازداد عددها : فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية ، وفقاً لاعراف سِير عليها في روما منذ عهد بعيد ؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرهم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم . ولهذه الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة . وعلى الدولة تتوقف حياة هـذه الطقوس واستمرارها وازدهارها ، والاحتفال بمواسمها بشكل انتظام ، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة ، هي الحارسة لرومـا ، وهي التي تلهم الحكام، وتهديهم الصراط المستقيم .

ولهذه الاسباب ، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهـذه العبادات بكل دقة . فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح ، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها . فليس من منصب ديني إلا ويُملأ ، وليس من رتبـة دينية إلا ومن يمارسها ، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد ، في هـذه الرُتب التي تتدرج صُعُداً لتبلغ أعلى المراتب . فالوظائف الكهنوتية الصغرى والمحلية كانت تُمهّد الطريق لاصحابها الى البورجوازية ، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تخول حاملها ترؤس الاحتفالات الدينية التي تقـام في ضواحي روما وأرباضها، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ، اعضاء المجامع الرومانية. اما الامبراطور فكان يرقي امرأ جديدة الى مرتبة الحاكمية وذلـك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة ، ككهانة المشاري وجوبتير ، مثلاً . ولم تكن المعابد والهياكل يوماً ، أكثر منها عدداً ، ولا أبهى منها زينة ، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبذل . والاعياد لا افخم ولا أبهى، موزعة على ايام السنة. والرغبة في ممالأة الشعب والتزلف الى الجماهير، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء ، كل ذلك جعل سراة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار . وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب المحاكم يجعلها ١٣٥ يوماً في السنة . فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوَم . وكان إطار هذه الاعياد وجوّها خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي ، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عـن الفكرة الاولى .

ولكن لم يكن في الامكان ان تزدّ هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها ، ولا إضفاء شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها . وقد راحت المدن في كل مكان، ولا سيا في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة البلدنة كانت

ترادف التقدم الثقـــافي والاجتماعي والقضائي ، تتبنى آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانيــة واعضاء المجالس البلدية كان يهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلاً خاصاً بعبادة جوبيتير « العظيم » الخيّـر » الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولمظاهر حضارتها الخارجية أكثر منها لعقائدها . قــد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه َحدَثٌ ، تبدو مظاهره ولا شك ، عفويةً طوعية ، قامت بها جماعات مــن متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة، بالضرورة، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللازدياد المطرد لجماعة المتألهين (*Divi*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأمر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية، موازنة هذه الهيئات والمنظمات، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هـــذه الثروات الخاصة امام النكبات والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعْرضون عن الوظائف والمراتب الكهنوتية ويتحولون عنها. وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décurion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هـــذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

العبادات الاجنبية : الغرب

فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، حيث كان باستطاعتها ان تجد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والأعتراف بها، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجمد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات: تارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تُقصر نفسها على السلبية ، بل استقبلت باهتمام كلي ، وبَحثت جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسّع امامها مجال القبس في امور العبادة والدين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالعلاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة ـ وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق ـ كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب. فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات، ولم تضطهدها قط، انما تشددت في تحريم القرابين والذبائح البشرية، كما راحت تجتث من الاساس ، في غاليا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرويدية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمدنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبةً من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الآلهة المحليين واستمالته ، وعملاً بإيمانهم بقوة إلهية شاملة تتجلى بكائنــات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهنالك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقاً لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والنذور لبعض هذه الآلهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيراً ما تسبب في توطين احد الآلهة الغريبة عن البلاد، في المنطقة المرابط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الخيالة مثلاً ، نرى الإلهة إيبونا الغالية ، تزاحم بصورة غير متعادلة، عبادة الإلهة التراقية الاصل« هيرون »التي انتشر تكريمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية الهلينية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية لا كبير شأن لها. فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصيلة كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت ممراً لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

تفوق الشرق وتساميه الديني

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس الآلهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعــل ، الذي كان موضوع عبادة في مدن سوريا كهليوبوليس .(بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخــه الذي كانت عبـادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخــذ الاغريق بتسميته زفس استحال المشتري « جوبيتر » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمناقبية التي عرف بها في مواطن عبـــادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها ، دون ان يبدّل من عباداتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبســت روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هــذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم نقل الاضطهاد ، صحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوبترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانيـــة وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيبــاريوس ونهج نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والتبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم. فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانهـــا من سياسية واقتصادية وفكرية، كما أمدها بالكثير من الرجال والأرقـاء الذين امتازوا بحدة الذكاء وبالمرونة، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم ، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميـــع الطبقات الاجتماعية . ومع هــذا الدّفق من الهجرات ، وهذه المجاري الفكرية التي دخلت روما، دخلها في الوقت ذاته ، صنو كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتملك عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفةعندهم من قبل، لقيت هوىً في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية، وعرفت ان تجتذبهم وان تُغريهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضعهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الآمر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه، بعد ان احسن تجريدها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر، ناهضة مشرقة، جياشة بالحياة، تشبهاً بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه انخطاف وذهول روحي ، بعد ان خلُصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة، تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة، وذلك باشراكها الفرد نوعاً ما ، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تعطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية. وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينما طقوس الاحتفالات الرسمية كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عار من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

الفوران الديني في الشرق

ولكن هيهات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد راح فريق من المشعوذين والمخرقين، والسَحَرة والمنجمين، والمجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجّت بهم روما افواجاً وفرقاً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفةهذهالجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً، وذلك بما يأتونه ، مأجورين، من ألاعيب تتزّى بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على جوفنال في ما نمّ به من الافترامات التي غلّف بها الشتائم التي كالها ، فقد وجد في هذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقده الحقين . ولكي يُلهبوا الاخيلة ويهيّجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويُقعدوها، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينية ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطياف من الصوت والضوء، والابواب التي تنفتح او تنغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهتافات الهستيرية والصياح المهتاج . لمن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتـــاج ، وان يطفو عليها زَبَد الطفيليات و نزَق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العَنْفص *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للآداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارَن يقدّم لنا أكثر من مَثل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبّسا بمظاهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكره، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذّت نفوساً وأعدّت قلوباً عُرفت بنبل الاخلاق والمبادىء السامية.

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افترّ عنه منذ ألوف السنين ، لم يبد ما يشير الى انـــه أصيب بالنضوب والنزوح . فطلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تمدنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلهـا صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » يقصّ فيها على لسان احد الملحدين الكـفَـرَة ، مولد احـد الآلهة المنبئين بالكشف عن طوالع الغيب ، في أحدى مدن بفلاغونيـا الصغيرة ، يُعرَف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرفت باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس بوحي من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلها محلاً لائقاً بها ، في احد المعابد ، واخذ يجيب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه، ويردّ عليها بهاتف صوتي يخرج من قمقمة جهاز تألف من عدة مواسير او انابيب رُكّبت على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبه أغلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءٌ أصحّت ام لم تصح، تُهم التضليل والخداع التي عزاها لوكيانوس القائمين بهذه الألاعيب ، فالمهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصَهْر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة تامة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقـــاه هـــذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصهر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور لإلقـاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمّن بذلك، النصرعلى البرابرة. اما شاهدالاستمرار فيقوم في ان،بالرغم من وفاةالكسندروس، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهـد مارك اوريل بـ : إيونوبوليس ، وهو اسم نجهـــل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : اينبولي ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه، يرينا الى اية درجة بلغ الاختمار الديني في ربوع الشرق بعد الازدهار المظلم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل. فعبادة الإلهة تيخه خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هـذا الأمر لم يخل من اثر بيّن على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة. فالاهتمام بامر الخلاص، وتوق النفس البشرية اليه، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهـــة الصانعة العجائب، والآلهة التي في طقوس عبادتها اسرار، من الرواج، ما لقيته ، اذ ذاك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها، وكانت تماثيل سيرابيس وهي من الفئة الاولى، تنافس اسكلابيوس، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشخصية واقيمت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلماً أوحي فيه اليـه بوجوب تعلم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سمة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاينما يتجه المرء كان يطالعـه ناطقون بهواتف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم، للكشف عن طوالع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً باسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نعتوها بالمعجزات ، او سعياً وراء تفسير الرؤى والاحلام. وانتشرت بالتالي اعمال النجامة لاستطلاع طلع الأقدار المخبوءة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العارم الذي بلغ الهوس ، نحو القوى الخارقة الطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

العبادات الشرقية في الغرب

كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد مثلاً ببابل وايران ، الخاضعتين للفارثيين ، اندفع نحو الغرب ، فاغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهمـــا أبعد الى الغرب: الى الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروّجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدين مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الاقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يحيُون مناسك آلهتهم الوطنية ويقيمون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثياندروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً، ادّوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ، ومنهـــا جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بليرا : ملاغبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقتصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « قرينة الآلهة » سيبيل، الفريجية الاصل ، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقها أتّيس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الإلهة . الا ان اهم مادة في هـــذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوّامون (*Archigalles*)على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحليــة ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى عُبُداً (*Galles*) من الخصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاء وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الخصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣يوماً متواصلاً . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتّيس وما اليهــا من نوح النائحين وندب النادبين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تمازجها قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيـل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور *Taurobole* او الكبش *Criobole* ، اذ كانت ترمز الى انتقـــال عنصر الحياة من الضحية الى الانسـان الذي يُنضح بدمائها ، فيكون ذلـك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدده ثانيةً . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا نجهل وجه الرمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تُقدَّم لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيرابيس في هذه العبادة ، الإلهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفـــال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليغولا يعترف لها بحق المواطنية . ومنذ ذلك الحين احتُفِل بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول . واضطر يوماً الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقي الشعور ، يسيرون ونيداً ويقيمون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتعتري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين . واذا كانت هـــذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خـــلال فصل الشتاء القارس ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفّارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الإلهة المثلى بين اناث الآلهـات ، وذلك حسبما تصورها

التقاليد المتوارثة، في حنانها الامومي وضراعتها القوية. وكان اتباعها يقومون بعملية إزالة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها انا ذا»، نراها تتكرر كذلك في آخر «اسرار *Métamorphoses d'Apulée*»، قبل ان توحي الى الحمار لوسيوس الممسوخ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ... «ها انا ذا» القادرة، الوحيدة التي تعمّ عبادتها الارض كلها بأشكال مختلفة، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد ان عُرفت بأسماء: سيبيل، ومنيرفا، والزهرة، وديانا، وبروسيربين، وسيريس، ويونون، وبللونا، وهيكاتا ونميزيس.

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف القاطمة تجمع لها، على نغم المزمار، التقادم والعطايا التي يجود بها المتعبدون لها. كذلك، لنضرب صفحاً عن الإله السامي الاصل: بعل، بأشكاله وصوره المختلفة، منها بعل حمص الذي رُفع، لفترة قصيرة، الى مصافّ الآلهة العظام في الامبراطورية، وعقد قرانه على الإلهة شلسلس، أي الإلهة تانيت، إلهة قرطاجة، وذلك بفضل عبادة وغيرة رئيس أحبارها: إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى، من سنة ٢١٨ - ٢٢٢، مقاليد الامبراطورية الرومانية. الا ان التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد، يحملنا على ان ننوّه هنا باسم الإله ميترا *Mithra*.

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الايرانيين القدامى. وقد تطورت عبادته فيما بعد بما أضيف اليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الأسيوية السامية. وقد تجلى للناس كالنور والشمس، وارتبط اسمه بالنظام الكوني، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يهب الفضائل الكبرى: كالحقيقة، والولاء، والإخاء، واحترام القسم. وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع انحاء الامبراطورية، وأقيم له، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني، من الهياكل والمعابد ما نعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب. وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما، بحيث ان الامبراطور كومود همّه أن يشترك في اسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها. وكثيراً ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس، فتبرز ثاتئة صور الاله الشاب مرتدياً ثياباً شرقية ومعتمراً قبّعته الفريجية بعد ان أرغم الى الارض ثوراً ضخماً وأدماه. وبعد مدة طويلة من الاختبار يمر بها المريد، يخضع لمراسم أشبه ما تكون براسم العماد، واذ ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم. وكانت عملية الاطلاع على اسرار المذهب لا بد ان تقطع سبع مراحل او مراتب هي مرحلة: الغراب - الخاتم - الجندي - الأسد - الفارس - بريد الشمس، الى ان يصل في خاتمة المطاف الى «ابي الآباء». وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات ادبية ومراسم طقسية عليه ان يتقيد بها بدقة. وكان يترتب على الضالعين في اسرار عبادة هذا الاله ان يتحلّوا بالصبر، ومجالدة النفس، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الارض، لينالوا المثوبة التي عرفوا ان يستحقوها، يوم الدينونة العظيم، برئاسة الاله ميترا.

وهذا النجاح العظيم تلقاه عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعرف العام اذ جاء دليلاً ، اذا ما اعوزنا الدليل، على مدى النوازع الدينية في الامبراطورية الرومانية وإقبالها بتوق، على تمجيد وتبني إله، وتعاليم دينية اقتبستها من ايران وهي اذ ذاك اعدى اعداء الامبراطورية الرومانية ، واحاطته بمثل هذه المظاهر من التبجيل والتكريم ، وأحلته من آلهتها مثل هذا المحل الرفيع . وقد حملت عبادة هذا الإله الاجنبي المنشأ، الغريب الاصل، معها، للنفوس العطش وللقلوب الظمأى تقوى حية ، وسمواً في الآداب والاخلاق لم نعرف له مثيلاً عند الرومان من قبل . ومنذ القرن الثاني اصبح الوثني شخصاً نكاد لا نميزه ولا نتبين معالمه . فهو انسان يختلف تماماً عما كان عليه في زمان كاتون، حتى وفي عهد اوغسطس نفسه.

٣ـ الديانات الموحّدة وأتباعها

الشرك والتوحيد

هذه المستحدثات الدينية تمثلت في ديانتين رأتا النور في الشرق ، هما اليهودية والمسيحية . فكيف نفسر ، والحالة هذه الموقف العدائي الذي وقفته منها الامبراطورية الرومانية ، بعد الموقف اللين، العطوف ، الحليم ، الذي وقفته من الديانات الشرقية الاخرى ؟ فبعد ان وقفت منها هذا الموقف الخشن والعنيف احياناً ، عادت فألانت لها الجانب وتركت لها مجال العمل حراً طليقاً وعملت على تشجيعها . فبعد ان وقفت من اليهودية والمسيحية موقفاً متساهلاً في بادىء الامر ، عادت فقلبت لها ظهر المجن ولجأت الى القوة والعنف للحد من انتشارها .

فالمنطق السليم يدعونا للظن بان ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد الذي فردّها ، جعلها غير مقبولتين لدى الوثني المشرك. فقد كان يسلم بآلهة غير الآلهة التي يعبدها شريطة ان يسلموا هم بالآلهة التي يؤمن بها هو ويقول بوجودها، اذ ان تعداد الآلهة وتنوعها من شأنه ان يفتح المجال اما للانتقاء والاختيار بين هذا العديد من القوى الفائقة الطبيعة، ولكل منها قيمته ومنزلته ، يمكن التوحيد بينها في عملية إزالة الفوارق المتضادة وبالباسها شيئاً من الصفاتية المشتركة، نسج خيوطها الاغريق من قبل، ونسج على المنوال نفسه الرومان من بعد . فليس شيء من هذا مع التوحيد او عقيدة وحدانيـة الله ، وهو قول يجمع في نظر المشرك الخطل في الرأي ، والعناد المتشاوف والتعصب الشديد . ففي هذه المقالة نفي جذري وحكم قاطع ، لا استئناف فيه ولا تمييز، في نظر القائلين بوجود آلهة اخرى، فضلاً عن ان رفض عبادة الامبراطور من شأنه ان يخرج الحكومة عن موقف اللامبالاة تقفه ازاء الاديان .

فاذا ما اخذنا بهذا التعليل والتخريج نكون اعطينا أهمية كبيرة لمتناقضات متماندة نظرياً. فالتاريخ السابق اليهودية وضع ملوكاً فالحين امام مشاكل من هذا النوع، قبل ان يواجه الرومان شيئاً منها ، وقبل ان يُعنّي الاباطرة الرومانيون انفسهم بها ، كما ان أمثلة مستمدة من تاريخ الامبراطورية الرومانية تنطق جلياً بما تم من تسويات في مثل هذه الظروف العارضة. فالاصطدام

الاشد خطراً انما قام فعلاً ، على صعيد أدنى بكثير ، ونشأ من مواجهـــة وضع بعينه قائم في ماجريات الحياة اليومية . فالحقد والعداء ، كثيراً ما ظهر من الجماهير التي تنكرت لغرابـــة الطقوس الجديدة والتعالم الاخلاقية فأحدثت فيها صدمة دونها بكثير الصدمة التي أحدثتها التعالم الدينية المستحدثة . فالحكومة تستجيب عادةً لردة الشعب وقلّ ان تسبق الجماهير الى الخطوات الاولى ، فلا يستحوذ عليها القلق . ويضطرب منها البال بصورة عفوية وبغير حدوث مجس او اضطراب الا عندمـــا تأنس خطراً كبيراً يهدد مصالحها السياسية ، ومثل هذا الأمر لم يحدث الا ما ندر .

اليهودية واليهود

وعنذر اليهود ، في نظر الرومانيين هو انهم يعبدون إله آبائهم . فكان تمسكهم العنيد بالناموس وبشريعتهم ، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد . فقد عرف زعماؤهم ان يؤدوا لهم خدمات تذكر وان يظهروا ولاءهم في الوقت المناسب: لقيصر اولاً ولاوغسطس ثانياً ، خلال الحرب الاهلية التي مزقت البلاد ، فقدر لهم اوغسطس موقفهم هذا وبدا نحوهم متسامحاً ، لين الجانب احياناً .

إلا ان خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الادارة بينا حرص اوغسطس ان يترك شؤونها الداخلية لملوك توابع . وقد جاء تعيينهم لبعض الولاة غير موفق ، لا بل سيء الطالع ، كثير الشؤم ، اذ كان لا بد للحاكم الروماني من لباقة ومقدرة ادارية تقـــارب الاعجوبة ليستطيع معهـــا تفادي الاحداث لكثرة الاسباب التي تولدها . وقد توزع اليهود الى شيع وانقسموا فيما بينهم الى طوائف عديدة متشابكة متداخلة ، اقامها بعضاً على بعض مـــا بينها من اختلاف في الرأي والنظر ، حول قضايا كثيرة تتعلق بالعقيدة والتشريع وطقوس العبادة لدرجة نعجز معها عن تعدادها والتعريف بها . من بين هذه الفرق: فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين[1]. فقد عرفت الاولى بتصلبها وتمسكها بتفسير الناموس وتطبيقه حرفياً بينا استمسك اتباع الفرقة الثانية بالناموس المكتوب ، ومنها كذلك فرقة الأسنيين (الورعين – القديسين) الذين كانوا يعيشون هانئين ، جماعات معاً ، في عزلة تامة عن العـــالم ويخضعون لنظام وقوانين القت عليها اضواء كاشفة ، مجموعة المخطوطات النادرة التي عثروا عليها حديثاً بجوار البحر الميت. من بين هذه الفرق كذلك فرقة المغالين او الرافضة (*Zélotes*) التي عُرِفَت بشدة طباعها وحبها القتال ، الأمر الذي حدا بالرومان الى تلقيب اتباعها بـ القتلة *Sicaires* المشتق من كلمة *Sica* اللاتينية ومعناها : الخنجر ، اذ كانوا دوماً على استعداد لينتضوا الخنجر ويستعملوه للتخلص من خصومهم السياسيين . وقد بلغ من شدة هوسهم وضغائنهم ان راحوا يقذفون الكهنة بأقذع التهم ويرمونهم بالخيانة ، والمروق عن جادة الدين اذا ما أنِسوا فيهم ميلاً الى مصانعة الحكم الروماني في البلاد . ولعل ما هو ادهى من هذا كله المنازعات التي كثيراً ما شجرت بين سكان المدن خارج اليهودية ،

(١) نسبة الى صدوق رئيس الكهنة في القدس ، خلال عهد الملك داود .

بين اليهود والوثنيين ادت الى معارك دامية بين الطرفين . ولا بد من الاعتراف هنا ان المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين كان عبئاً ثقيلاً ومطلباً عسيراً ، فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تضطر الفيالق الرومانية التدخل في الامر واعادة الهدوء الى نصابه بدون رحمة او شفقة .

غير ان هذه القضية او قضية اليهود لم تكن مقتصرة على يهود فلسطين . ففي الخارج جوالي عديدة منهم بعد ان بدأ شتاتهم (*Diaspora*) باكراً منذ القرن السابع قبل الميلاد مع سبي العديد منهم الى بابل . وقد ازدادت حركة تشتتهم اتساعاً مع توالي الحكم الاجنبي على فلسطين وانتقاله تباعاً الى الفرس ، فالبطالسة فالسلوقيين ، فالرومان . ومنذ انتهاء العهد الجمهوري ، كان يوجد في معظم مدن الشرق الكبرى جاليات يهودية قامت منها في روما نفسها جالية مهمة تجاوز عدد افرادها الألوف ، مما حمل طيباريوس اولاً ثم الامبراطور كلوديوس على اتخاذ تدابير شديدة ضدهم ، منها النفي والاجلاء ، دون ان يكون لها تأثير يذكر . وبلغت هذه الجوالي شأناً كبيراً في عواصم الشرق الكبرى كانطاكية ولا سيما الاسكندرية الواقعة على مقربة من فلسطين . وقد اخذت هذه الجوالي ، منذ عهد بعيد ، بالجانب الثقافي من الحضارة الهلينية حتى ان بعض افرادها وقعوا تحت تأثير الفلسفة والادب اليونانيين وهذا يبدو واضحاً في آثار فيلون الاسكندري الكتابية اذ راح في القرن الاول ، يفسر حوادث التوراة تفسيراً مجازياً ، منها ظهور يهوه ومداخلاته في شؤون بني البشر . وهكذا توصل بفضل ما اقتبس من نظريات افلاطون وزينون الفلسفية ان يلسخ كل اتصال مباشر لله مع العالم الخارجي . ومع ذلك بقي عدد المارقين والمعطّلين ضئيلاً جداً ، بينما راح السواد الاعظم من اليهود في الشتات يعتصمون باهداب الدين ويستمسكون بالناموس الاسرائيلي . ولذا لم تذب هذه الجوالي في الاوساط والمجتمعات التي عاشت بينها ، حتى في حال تمتعها بالرعوية المحلية والرومانية منها . فليس بعجيب قط ، ان يشعر نحوها سكان المدن ، ولا سيما اليونان منهم بشيء من الكره والاحتقار ، بالنسبة لاخلاقهم وعاداتهم الخاصة ، دون ان نرى اثراً لاي عاطفة او شعور تم عن قطيعة اقتصادية . حدث ولا شك في ذلك ، ارتدادات بين الوثنيين اعتنقوا اليهودية . ولكن ليس عندنا اية فكرة عن عددها : اكثيرة كانت ام نادرة ؟ ولعل هؤلاء المرتدين قد اقتصروا إجمالاً ، بسبب الختان ، على ان يكونوا في عداد « خائفي الله » بعد ان أخذوا بالديانة اليهودية ، فقنعوا منها ببعض التعاليم والوصايا ليس الا . وقد بقيت غالبية السكان في المدن تكنّ اليهود بغضاً وعداءً ، كثيراً ما ادى الى مشاجرات لم تكن بذات بال الا انها لم تلبث ان استحالت الى اشتباكات دامية . فقد ارسلت كل من جوالي اليهود والاغريق في الاسكندرية ، وفوداً معاكسة ، الى الامبراطور كاليغولا ، يرأس الاولى فيلون ، ويرأس الثانية العالم اليوناني أبيون . وكم رأى ولاة الرومان انفسهم مضطرين التدخل لاعادة السلام الى نصابه والأمور الى مجاريها بين الكتل والفئات اليهودية التي شجر بينها من الخلافات ما عكر صفو الأمن ، قام بعضها من جراء الكرازة بالنصرانية الناشئة حديثاً .

وبالاختصار ، لقد كان اليهود في نظر السلطات الرومانية شعباً صعب المعاشرة ، صعب

الانقياد والحكم، كما كانوا من جهتهم، برمين بسيطرة الرومانيين عليهم يستثقلون ظلها ويتحينون الفرص السانحة للتخلص منها . فهل نعجب ، بعد هذا ، من هذا التكالب وهذا العناد يظهره كل فريق ضد الآخر ، في هذه « الحرب اليهودية » التي نشبت بين الفريقين . قام منها إثنان في فلسطين نفسها، دامت الأولى منهما من سنة ٦٦ – ٧٠ وانتهت بسقوط القدس بيد القائد الروماني تيطس ، بعد حصار عنيف مميت امتد بضعة أشهر، استسلمت بعده المدينة وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم . اما الثانية ، فقد وقعت في عهد الامبراطور هدريانوس ، واستمرت من سنة ١٣٢ – ١٣٥ ، بقيادة « امير اسرائيل » شمعون بن كوزيبا الذي رأى فيه مواطنوه : المسيح المنتظر الذي يخلص شعبه . وقد حدث في فترة ما بين الحربين ان اضطر الامبراطور ترايانوس الى وقف حملته ضد الفارثيين ، ليتفرّغ الى إخماد فتنة واسعة قام بها اليهود في جميع مدن الشرق ، بين سنة ١١٥ – ١١٧ . وقد جرى الدم أنهراً في كل من هذه الحروب العنيفة . ويروي لنا ديون كسّيوس كيف ان يهود القيروان ثاروا في عهد ترايانوس ، و « ذبحوا الرومان واليونان وأكلوا لحومهم ، وتمنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم ألبسةً من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرّضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري ، وأرغموا بعضاً منهم على العمل مصارعين في حفلات وملاهي المصارعة » . وهكذا فقد فتكوا بأكثر من ٠٠٠ ٢٢٠ منهم ، بعد ان فقدوا هم في حروبهم ضد هدريانوس ٠٠٠ ٥٨٠ قتيلاً ، ما عدا الذين قضوا نحبهم « جوعاً او حرقاً بالنار » . ومهما يكن من تجسيم هذه الارقام ، فهي تعطينا، مع ذلك فكرة صحيحة عن هذه الوحشيّة والفظاظة التي اصطبغت بها هذه الحروب التي رأى العالم الروماني نفسه امام اليهودية ليس كديانة فحسب ، بل كقومية تمثلت في مثل هذا الشعب ، وهذه الامة، وهذه المدنية الاسرائيلية.

اما النتائج فقد كانت خطيرة، فادحة. فقد اتسع شتات اليهود، ونجا كثيرون منهم بأنفسهم ورحلوا عن فلسطين . وحل محلهم فيها اقوام جديدة من عروق مختلفة . وقد قام محل القدس التي حُظّر على اليهود دخولها الا مرة واحدة في السنة ، مدينة جديدة عرفت باسم : « إيليا[1] كابيتولينا » وشُيد فيها هيكل لجوبيتير ، في المحل الذي كان فيه هيكل سليمان . وأحيوا في المدينة الجديدة عبادة الامبراطور ونصبوا تمثال الزهرة عشترت فوق جبل الجلجلة . وأجبر اليهود في جميع أنحاء الامبراطورية على دفع رسم معين ، بدلاً من الرسم الذي كانوا يدفعونه من قبل للهيكل، وينصب لخزينة الدولة، وهو رسم زهيد للغاية : لا يزيد على عُشر الدراخم الواحد أي ما يوازي لفرنكين فرنسيين ، في عام ١٩١٤ . وبذلك تمكنت الدولة من احصاء عدد اليهود في الامبراطورية ومن مراقبتهم مراقبة شديدة . وقد حُظّر عليهم البطالة يوم السبت كما حُظّر عليهم الختان ، وهي مراسم كثيراً ما أثارت حفائظ الناس عليهم وأهاجت الشعب ضدهم . إلا

---

(١) هو اسم اسرة الامبراطور هدريانوس قبل ارتقائه العرش .

ان الامبراطور انطونين رأى من الحكمة التخفيف من حظر الختان – بالرغم من بعض الاضطرابات التي قام بها اليهود – وأقصر مراسمه على اليهود وحدهم الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن صحة محتدهم . كذلك حظر عليهم القيام بأية دعوة او دعاوة للدين اليهودي .

المسيحية واليهودية

وهذه الدعوة كان قد امتنع عليهم القيام بها امام التوسع والانتشار الذي حققته ديانة جديدة أطلت على العالم من بين قمط اليهودية ، فاطرحت جانباً طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها او نسب مع اسرائيل .

وعندما قام يسوع يبشر العالم بالدين الجديد ، في عهد الامبراطور طيباريوس ، ظن كل من سمع بخبر الكرازة الجديدة ، بما فيهم الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي صادق على الحكم بالموت – هذا الحكم الذي أصدره عليه رئيس المجمع اذ ذاك قيافا – ان الامر لا يتعدى ظهور شيعة يهودية جديدة . وهو أمر لم يأت عندهم بشيء جديد ، وطالما خبروا منه مثل هذه الدعوات ، بين شعب حرص دوماً على بقاء العاطفة الدينية مشبوبة بين بنيه ، وحرصت كتبه المقدسة على تغذية نفوسهم بأمل مجيء المسيّا ، وفي امة أطلعت على مر السنين ، مثل هذا العدد من الشيع والملل . ولم تكن الشيعة الجديدة ، لتختلف ، في مناهج دعوتها وانتشارها وفي اوليات تعاليمها ، ظاهراً ، كثيراً عما عرفنا من شؤون الشيع اليهودية الأخرى . وقد راح أولوا الامر والمسؤولون عن شؤون الشعب اليهودي ، يحكمون بالصلب على المسيح ، تفادياً منهم لحركة انشقاق وقيام اضطرابات بين الشعب ، للحد من دعوة ناشطة رأوا فيها الخطر كل الخطر عليهم ، وقد فاتهم ، في تصرفهم هذا التصرف انهم يبتدعون جديداً .

ففي كل بساطة ودعة ، قام يسوع يعلن للناس من ذوي المسرة ، عواطف نبيلة : اقتراب يوم الدينونة ، ممهداً الطريق امام ظهور ملكوت الله ، محبة الله ومحبة القريب ، الايمان الحي ونقاء القلب وطهارة النفس من كل رجس ، وكلها تعاليم افضل من التمشي على طقوس حرفية . وعلى هذه البشارة الجديدة والمبادىء التي عمل بها وعلم ، وختم على صدقها بدمه وايدها بقيامته من بين الأموات ، اسس اتباعه إيمانهم ، وهو ايمان ، اهل لعمري ، بان يغري على اعتناقه واتّباعه ، البشر من اي امة كانوا ، ومهما كانت تربيتهم السابقة . كل هذا كان يقتضي له بالطبع ، تحديد مفهوم بعض الاشياء وتوضيحها وإغنائها ، وان يوسع نطاق الدعوة والكرازة بالدين الجديد الى مجالات اوسع من اليهود ، بعد ان اقتصرت الدعوة في بادىء امرها عليهم وحدهم .

وفي سبيل هذا التطور ، قام بولس بالخطوة الحاسمة ، وهو يهودي من ابناء الشتات ، ولد في مدينة طرسوس من اعمال كيليكيا ، حيث كان ابوه ينعم بالرعوية الرومانية . كان يزاول مهنة صنع المضارب او الخيام ولا يزال الجدل يرتفع بين العلماء والمؤرخين حول نوع التربية التي تلقاها والمؤثرات التي تأثر بها قبل اعتناقه المسيحية ، ومـا تدين له المسيحية من اثر الفلسفة والديانة الهلينية . ومهما يكن من الأمر ، فمن الثابت انه راح يبشر الامم ، فرَدَّل في هذا السبيل ، وحل

الناس على رَذْل الناموس اليهودي لانه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا يفيد بل يضر . فالقطيعة لم تتم دون ان تحدث مشاقات بين جماعة المؤمنين الاول والكنيسة التي انشأوها في القدس وملأتهم غماً. وقد سهّل القطيعة، الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من قبل السلطات الدينية. وكان من جراء الحرب اليهودية الاولى ان حملت جماعـــة النصارى المتهوّدين على الفرار من القدس والجوء الى بعض المدن الشرقية حيث بقيت جواليهم، عدة قرون، بين بين، لا نصارى معروفين ولا هم بيهود . ولولا هذه القطيعة لبقي باب المستقبل موصداً امام الديانة الجديدة . وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه بفضل النشاط الذي بذله بولس . ولم تمتم ان رسّخت العقيدة الجديدة أقدامها في سوريا وآسيا الصغرى اولاً ، ثم في مقدونيا وبلاد اليونان ، وحملها الى روما مبشرون نجهل امرهم قبل ان يصلها بولس ، حوالى عام ٦٠، ويَمْثُل امام«قيصر» ليحاكَم، أي امام والي الولاية ، بناء على طلبه بعد ان ابرز رعويته الرومانية .

اضطهاد نيرون

طبيعي ان تحتاج الحكومة الى بعض الوقت لتستطيع التميز بين المسيحيين واليهود . فقد اختلط الامر على الامبراطور كلوديوس نفسه ، عام ٤٩ ، اذ راح يأمر بنفي اليهود من روما وابعادهم عنها لما « سببوه فيهـا من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح » . اما خلفه نيرون فقد كان اكثر احاطة بالامر واطلاعاً عليه ، ربما عن طريق محظيته بوبيه *Poppée* التي تزوجها فيما بعد، والتي قيّض للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس ان يلقاها في احدى وفاداته الى روما، ووصفها بانها «تبارك الله» اي انها على عادات اليهود ، كما هو مرجح . وبالفعل فقد عرف نيرون ان يميز المسيحيين لما هم عليه من وضع متميز،حتى جعلهم مسؤولين عام ٦٤، عن الحريق الذي شب في المدينة ، اذ ذاك ، والتَهَم جانباً كبيراً منها .

وشهرة الحادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضاً جداً. فكل محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه هنا، لا تفيد شيئاً لا بل هي مضيعة للوقت . فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنها كانت تجهل عنهم كل شيء . وكانت تحمل البغض ذاتـــه لليهود الذين لم يكونوا احسن وضعاً بالنسبة لها ، حتى في عهد ترايانوس ، اذ راح المؤرخ تاسيت ، الذي كان في وضع يمكنه مع ذلك من الاطلاع على الحقيقة ، يأخذ بالأقاويل المغرضة والتهم التي يعزونها جزافاً الى هؤلاء واولئك على السواء دونما تميز ، وينسب اليهم جميعاً « الحقد » الذي يحملونه على النـــاس أجمعين . ومع ذلك، فقد كانوا يعرفون ان بين الجماعتين أكثر من فارق يميز بينهما، وبالرغم من الجدل والمناقشات التي دارت حول الموضوع اذ ذاك، وأكثر الاحتمالات اخذاً بالتصديق ، راح الامبراطور نيرون، تفادياً لنقمة الشعب وغضبه من جراء الحريق الذي التهم روما، والذي اتُّهم به هو نفسه،ينسب هذه التهمة لأقل هذه الفئات عدداً. فاذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف ان يستغل البغض الذي كانت تجيش به ضدهم .

ومن الثابت ، على كل حال ، ان الاضطهاد الذي اعلنه انما اقتصر على روما وحدها ؛ وهذا

ما يقلل من قوة عبارة تاسيت عندما يؤكد : « العدد الغفير » ممن اكتووا بلهيب هذا الاضطهاد الدامي، وهو اول اضطهاد يعلن عن سابق قصد وتصميم، وينفذ بمنهجية، تميزت بأساليب التعذيب وأفانين العذابات التي اخضعوا لها المسيحيين. وهل من بأس في الامر، بعد ان اصدر الامبراطور مرسوماً اعتبر جناية تستوجب الموت، مجرد اعتناق المسيحية. وهكذا فقد كان قرار نيرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد، من التعصب الديني عبر الاجيال.

الاسرة الانطونية والمسيحيون

فالاجتماعات التي كان يعقـــدها المسيحيون سراً، وإعراضهم عن المناصب الاجتماعية وبهارج هذه الحياة، ومقاطعتهم العلنية لكل التقاليد المتوارثة، والتأثير على الموعوظين من غير اليهود للنسج على منوالهم، وعدم اشتراكهم بعبادة الامبراطور، والدعاية التي كان يشنها بعضهم ضد الزواج والحياة العسكرية، كل هـــذه الأمور وما اليها، أدخلت القلق على أولي الأمر، في عهد الأسرة الانطونية. فقد كان متوقعاً من واحد من أتباع الفلسفة الرواقية، كمارك اوريل مثلاً، ان يقدّر عالياً قوة ارادة الشهداء وحماستهم، ومع ذلك فلم يستطع ان يرى في مثل هـــذا التصرف سوى مظهر من مظاهر التعصب النمم، وطريقة دعائية ليس إلا. « أي نفس هذه، يا ترى، التي تأنس من ذاتها القدرة على الزهـــد بالحياة والتخلي عنها في الحال ؟ قلت القدرة، وعن سابق قصد وتصميم، لا عن عناد او اصرار، بل عن طيبة خاطر، كما يفعل المسيحيون، بحيث يؤثر اقناعهم ويقينهم الوطيد، على الآخرين، بدون زهو منهم او مباهاة ». كما جاء في مذكراته، بالحرف الواحد. فالمسيحيون لم يأتوا بحركة ابان « الحروب اليهودية »، هنالك، الى هذا شعور، بالعدالة وبالكرامة الانسانية، كان يحول في خاطر الحكومة ويحملها على سلوكها هذا المسلك. وفي هذا ما يكفي لحملها على التحلي باللين والحلم.

فاذا صح ان الامبراطور نيرون استند في المرسوم الذي أصدره الى الجريمة التي عزوها الى المسيحيين كما يؤكد ترتليانوس ذلك، وان دومتيانوس تأثر بهذا المرسوم الى حد بعيد، فقـد ألغت الأسرة الانطونيـــة المرسوم المذكور وأبطلت كل مفعول له. وعندما راح بلين الاصغر يستفتي صديقه الامبراطور ترايانوس، الموقف الذي يترتب عليه وقوفه حيال المسيحيين الموجودين في ولاية بيثينيا، بلغه رد الامبراطور بألا يسعى اليهم، وألا يكترث بالسعايات الغُفل التي ترده ضدهم، وألا يصدر أي حكم على من لا يرضى منهم بالصلاة للآلهة. فاذا ما راح، بعد هذا، يحتاط لسلامة الاجراءات القانونية فلأنه بقي يرى في اعتناق المسيحية جرماً يعاقب عليه القانون. إلا ان مثل هذه الحيطة زالت في عهد هدريانوس، عندما أصدر امره لوالي آسيا بألا يحكم إلا اذا وجّه بعضهم اتهاماتهم الى أشخاص بالذات، وجاؤوا بالدليل على مخالفتهم لقوانين البلاد، كما حرص على ان يأتي القصاص معادلاً « لأهمية الجرم » المقترف عمداً وعن سابق تصور وتصميم. وقـــد حافظ الامبراطور انطونين *Antonin* على هذا المبدأ، وان لم يكن لدينا أي برهان حسي يخولنا الجزم بأن مارك اوريل ألغاه بالفعل.

ومع ذلك، فالأحكام بالموت لم تقل في عهـد الانطونيين. فالتقليد المتبع في إحصاء سيَر

القديسين الذين استشهدوا في عهد كل من الاباطرة ، هو ان يصار الى وضع قائمة متصلة بهم ، لا يستطيع النقد الصارم ، مها تشدد واقتطع من نوافل الاوصاف والاستطرادات التي زينوا بها قصة استشهادهم ، ان يدعي بطلانها او يقول بعدم صحتها . وقد اكتظت القوائم التي وضعت في عهد مارك اوريل بأسماء الذين بذلوا حياتهم في سبيل دينهم واستشهدوا من المسيحيين . فقتل ٤٨ شهيداً في مدينة ليون، عام ١٧٧، بينهم الاسقف بوتين الذي مات في زنزانته ، وله من العمر ٩٠ سنة، بينا الأمة الشابة بلاندين التي عرّضوها عبثاً لفتك الاسود الضارية، أجهزوا عليها بضربة سيف وهي في الحلبة، ثابت بفضل وثيقة تاريخية لا يمكن دحضها او تجريحها، هي الرسالة التي بعث بها شهود عيان هم خدام المسيح ، القاطنون في مدينتي فيينا وليون ، في غاليا الى إخوتهم بالرب، في آسيا وفريجيا. ولا سبيل الى الانكار ان الامبراطور مارك اوريل وافق على هذه المجزرة وأقرها بعد ان عرض حاكم المدينة الامر عليه، اذ كان بين المحكوم عليهم واحد يحمل الجنسية الرومانية، أجلسوه على صاج أحمي على النار ثم اجتزّوا رأسه .

فهل يحمل الامبراطور الفيلسوف انطونين ، كما يلقبه التاريخ ، وزر الجريمة والمسؤولية المترتبة عليها ، كما يحمل خلفاؤه جريرة الشهداء الذين قُتلوا في عهودهم ؟ لا شك في ذلك ، إنما بنسبة ما سمحوا ، لدى مراجعتهم واطلاعهم على إنزال ما أنزلوه بهم من آلام مُبرّحة ، ومثلوا بهم مثل هذا التمثيل الوحشي ، دون ان يأمروا بملاحقة الذين اتوها . غير ان معظم تراجم هؤلاء الشهداء تردّ ، في معرض وصفها لعملية استشهادهم بكل إسهاب وتفصيل ، هذا كله ، لحماسة الجماهير وهيجانها وهي تطالب ، بالحاح ، ملاحقة المسيحيين . فلم يتمكن الحكام ، امام هذه المظاهرات العدائية الصاخبة إلا ان يرضخوا ، على اقدار من التواطؤ معهم ، تقل او تكثر، حتى اذا ما رُفع الامر الى الامبراطور وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الشارع ، النزول عند الطلب . فالرأي العام بقي ، في كل مكان تقريباً ، معادياً للمسيحيين . ويطالع المرء بشيء من الذهول ، التهم الدنيئة يلصقونها بالمسيحيين ، وما نسبوا اليهم من اعمال الفسق والفجور ، التي لم يتورع أناس مستنيرون امثال الكاتب الروماني فرونتون ، وهو من مشاهير رجال الفكر ، اذ ذاك ، ومن اقرب المقربين الى الامبراطور انطونين ومن جاء بعده ، من الأخذ بها وتأكيدها . فأمام الكوارث والتهديدات التي اخذت تتراكم على الامبراطورية، في النصف الثاني من عهد الامبراطور مارك اوريل ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الاغراء بعزو هذه الامور، الى غضب الآلهة واستيائها من كفر خصومها ، وعدم اعترافهم بها واحتقارهم لها : هنالك قوى مجتمعة ، مادية وسيكولوجية على السواء ، لا يستطيع اشد السلاطين والملوك استبداداً وبأساً ، ان يوقفوها او يحدّوا منها ، لا سيا عندما يرون في مسايرتها والنزول عندها ، المثال الصوري للتقوى والتقرب الى الآلهة والتسليم بالاساطير المحكية عنها .

اسباب هذا التقدم والنجاح

وهكذا لم نلبث ان رأينا ترتليانوس ، يكتب في سنة ١٩٧ ، في كتابه : « ابولوجيا » او الدفاع، العبارة المشهورة : « دم الشهداء بزار المسيحية » (*Semen est sanguis Christianorum*) . فللاستشهاد سيكولوجية خاصة هي

واحدة في كل زمان ومكان « خالدة . فالاضطهادات الدامية التي أنزلوهـا بالمسيحيين تلقي نوراً ساطعاً على هذه القضية وتضفي عليها ادق المعلومات واوسعهـا . فالنخبة بين المسيحيين كانت تنظر الى العذابات التي ينزلونها بها ، نظرتها الى معركة يخرج منها الشهيد ظافراً ، مكللاً باكليل المجد، لانه « فاز برضوان الله » ونال الغفران الكامل عن كل خطاياه، وتأكد عنده الفوز بالحياة الابدية الخالدة . فلا عجب ان نرى بينهم من يجودون راضين مرضيين ، بارواحهم في سبيل هذا الشرف المؤثل ، وفي سبيل هذه المغانم ، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدموا ، في عهد كومود، من الحاكم الروماني ، في آسيا ، باعداد غفيرة للشهادة ، حتى اذا ما حكم بالاعدام على فريق منهم ، رد الآخرين بعنف ، داعياً لهم الى شنق انفسهم والى الانتحار ، مع العلم ان تعاليم الكنيسة الصحيحة كثيراً ما شجبت مثل هذه الغيرة الزائدة . اما في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية ، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدين هو « شهادة » حق لصحة دينهم ، كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني لهذه الكلمة ، اذ كان الاستشهاد حجة على صحة العقيدة وعلى الشجاعة التي يبعثها الايمان الصحيح ، في نفس الشهيد وقلبه ، وبالتالي لصدق الرسالة التي اؤتمنوا عليهـا وراحوا يحملونها .

علينا مع ذلك ، ان نحذر من ان نولي ، اكثر من اللازم ، أهمية كبرى على العامل النفساني والحافز السيكولوجي لتعليل انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وتكاثر عدد النصارى، بالتالي ، فيها . ومع انه لا سبيل لاحصاءات دقيقة، يبقى امر عدد الشهداء ، مع ذلك ، قليلاً نسبياً . ثم هنالك أقطار بكاملهـا لم تعرف الاضطهادات الدينية لمدة طويلة ولم تتضرس قط بالشدائد التي انهالت على المسيحيين في غير مكان. ومع ذلك فقد انتشرت فيها المسيحية بسرعة، وعلى نطاق واسع ، فقد كان بلغ عدد المسيحيين في افريقيا حداً بعيداً ، عندما أهرقت فيها دماء الشهداء لاول مرة ، عام ١٨٠ .

والحقيقة التي لا تماري ولا لبس فيها ولا غموض ، هنالك عوامل كثيرة أثرت بعيداً في هذا الأمر . فقد همنا ان نعرف ، على الوجه الصحيح ، المناقب التي ميزت شخصية كبار المبشرين بالديانة الجديدة، والصفات التي توفرت لهم للقيام بمطلب الكرازة الدينية ورسالة حملها الى اطراف العـالم الروماني ، اذ ذاك وكلهـا عوامل واعتبارات ساعدت جدياً في نشر الدين الجديد وتأمين النجاحات الباهرة التي حققها بين شعوب الامبراطورية واقوامها المتباينة عرقـاً ولغة . نحن نجهل كل شيء عنهم تقريباً حتى اسماء الذين نهضوا بهذه الكرازة بعد الرسل . ولذا كان لا بد من ان نعوّل هنا على الاسباب العامة والمميزات المفرّدة التي تميزت بها النصرانية من الداخل اي من ذاتها ، طالما لم تكن الوحيدة ، في الميدان، لتتخذ يداً وحدها ولتستفيد دون غيرها، من إعراض الناس عن الشعائر الدينية، وموقفهم موقف اللامبالاة والاستهتار بالطقوس الرسمية. فقد جمعت الديانة الجديدة جماع الصفات التي توفرت للديانات الشرقية الكبرى فأمنت نجاحهـا وانتشارها : قوة التأثر المنبثقة من حادث موت المسيح وقيامته ، وتعاليم ادبية واخلاقية رفيعة

سامية ، ووعد اتباعها بخلاص الأبرار منهم ، واحتفالات مهيبة تحرك مشاعر النفس في المؤمنين. ومع ذلك ، وبالرغم من هـذه العوامل المتشابهة المشتركة ، فالتوحيد الذي علّمت به وحملت، صانها من كل مصانعة خطرة . فقد عرفت ان تتفادى كل حركة التفاف ، او محاولة انصهار او ذوبان، يقوم بها مذهب توحيد الفروق الذي تغلغل في كل الديانات المعمول بها اذ ذاك، محاولاً التلطيف من حدة الفروق التي تباعد بينها . فبعد ان عرفت كيف تكسب مؤمنـــاً جديداً ، قلما خشيت من ان تفقده . وهكذا بحرية رأي واستقلال فكر ، راحت تمكّن بصورة اقوى لشرعية مبادئها ، وتنمي ثقتها الوطيدة بالفضائل التي تعمل بها وتعلمها . زد على ذلك ، ان ابوابها كانت مشرعة دوماً للجميع من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، دون ان يخضعوا لدور شاق ، صعب ، من الوعظ والارشاد ، فتقدم لهم مجموعة متناسقة من التعالم العقائدية ومبادىء الايمان ، مبسطة ، تستطيع إشباع كبار الحُجَى ، ويستمرئها ذوو العقول الحصيفة .

النتائج الثابتة

فماذا كان من امر هذه الديانة الجديدة ، في اواخر عهـد الاسرة الانطونية ، يا ترى ؟ يؤسفنا وايم الحق، الا نستطيع الحكم الا على انطباعات ترتبط صحتها، الى حد بعيد ، بنسبة ما تزيدهـــا وثائق ونصوص ادبية محفوظة ومصونة تعود لذلك العصر ، وإكتشاف الرقم والنقائش القديمة التي تتعلق ، من قريب او بعيد ، بهذه الامور . ولعل ما هو ادهى من هذا واخطر ، هو ان نخرج من هـــذا بما ينفي وجود مثل هذه الوثائق . هنالك لعمري ، مُعَامِل شك او ارتياب يلابس المسح الجغرافي الذي لا بد من ان نستعرض له فيما يلي.

دون ان تكاثرت المسيحية الحواجز الجغرافية التي انتصبت في وجهها، فلم تلبث ان تجاوزت بسرعة ، من الشرق ، نهر الفرات . وليس ما يشير قط انها رسخت اقدامهـــا في المقاطعات الفارسية الاصل، إلا انها تغلغلت بعيداً في اواسط بلاد ما بين النهرين ، وفي مملكة *Osrhoène* ، حتى ان الملك أبجر التاسع كان على وشك اعتناق المسيحية ، وعاصمة ملكه اذ ذاك ، الرُها ، وهو اسم مقدوني الاشتقاق والاصل ، أطلق عليها ، بعد الاسكندر بقليل ، بعد ان عُرفت ، من قبل باسم *Oshoe* او *Orrhoe* وبالعربية اورفة ، التي أصبحت مركزاً لإحدى الكنائس الكبرى في الشرق ، ومنها شعّت اللغة السريانية ، إحد فروع الأرامية ، وانتشرت في هذه الأرجاء من الامبراطورية أيما انتشار . ومن الرها تسربت المسيحية الى الشرق ، لتدخل عبر التركستان ، مشارف الشرق الاقصى ، دون ان تتمكن ، مع ذلك، من تتبع الصوى التي قطعتها، والمراحل التي سجلتها .

ومع ذلك ، فقد بقيت ، اساساً ، احدى ديانات الامبراطورية الرومانية وان اقتصر انتشارها على بعض ولايات منها لا غير .

اما من هذه الناحية من الفرات ، فقد غزت النصرانية مدن سوريا الكبرى دون الأرياف ، بعكس بلاد الاناضول حيث نرى كرازة الرسول بولس تلاقي نجاحاً كبيراً بين اهل فريجية واهل

غلاطية وانتشرت المسيحية بينهم على نطاق واسع ، ولا سيا بين سكان الارياف . وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في الاقسام المتبقية من الشرق حيث بقي انتشار الديانة الجديدة ضيقاً ، باستثناء مقدونية .

اما في الغرب ، فاننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما ، ملتقى جميع الملل والطوائف ومحجة الشعوب على اختلافهـــا ، اذ ذاك . فلا عجب ان تتجه اليها ، في تاريخ مبكر ، أنظار أتبــاع الديانة الجديدة . هنالك مسيحيون انساحوا وتغلغلوا بين طبقات المجتمع الروماني العالية ، حتى أننا نراهم يغشون البلاط الامبراطوري نفسه . أفنتم بحكم الامبراطور بالموت ، على قنصلين سابقين ، ويأمر بنفي لابنة أخيه التي كانت زوجة لأحدهما ، هو في الوقت ذاته ابن عمه ؟ هنالك دلائل قوية تحملنا على الظن بأن اتهامهم «بالالحاد» والعادات اليهودية » التي رموهم بهـــا لم تكن في الواقع سوى الاخذ بالمسيحية وتبني مقالتها العقائدية. مسيحية ايضاً مارسيا ، محظية الامبراطور كومود ، التي حاولت ان تدسّ له السم . ومع هذا فالأكثرية من أتباع الدين الجديد تتألف من صغار القوم وضعفائهم .

وهذا الدين الجديد ، لم ير في مكان ما من النجاح الذي حققه ما رآه في ولاية افريقيا . لا ندري كيف وصل اليها ، ولا كيف تغلغل فيها ، اذ تطلع علينا فجأة ، في اواخر القرن الثاني ، جماعة كبيرة من المسيحيين ، ناشطة في المـــدن والأرياف ، جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ، ومقرها الأكبر . وعندما يقوم ترتليانوس يعتز مفاخراً ، عام ١٩٧ بعدد المسيحيين ، فهو بالطبع يتصور عددهم في هذه الولاية التي شهدت مسقط رأسه . فاسمعه يقول : « نحن أبناء امس الغابر ، ومع ذلك فقد ملأنا الارض... ويمكننا ان نحصي افراد جيوشكم ، اما عدد النصارى في ولاية واحدة من ولاياتكم، فقد تبز كثرتهم عدد جيوشكم بكثير ».فهو في حماسته يعمم كثيراً ويغلو ،اذ لا يمكننا ان نذكر خارج نطاق افريقيا ، بالاستناد الى اضطهاد عام ١٧٧ ، سوى جماعة المسيحيين في وادي الرون . ثم انه يصف عدد الذين استشهدوا في سبيل ايمانهم في مدينة ليون ، هم أغارقة شرقيون – وليسوا قط من اهل البلاد – اعتنقوا فيها الديانة الجديدة . فاذا كان بولس ، بين دخوله روما لأول مرة وموته فيها، قد وصل في تنقلاته الى اسبانيا وتوقف عند ساحل غاليا ، لمروره في تلك الأرجاء لم يترك بعد، أثراً يذكر .

وعلى هذا ، فقد سجلت المسيحية نجاحات تذكر . علينا هنا ان نأخذ بعين الاعتبار ، عدد الولايات التي تدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية ومساحتها الشاسعة ، التي لم تكن وطئتها بعد ، اقدام المبشرين . ففي مطلع القرن الثالث ، نرى الاسقف الفريجي أبيركيوس يذكر في رسالة له نقشت عبارة منهــا على شاهدة ضريحه ، تعبر بصورة مجازية وبتوريات تلوية ، عن الانطباعات التي عاد بها من سلسلة من الاسفار والرحلات ، حملته تباعاً الى روما وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، جاء فيها : « أينما حللت ، ألفيت الإيمان المسيحي قـــد سبقني . فقد وجدت اخوة لنا أنّى نزلت وإينما هبطت » . بالطبع لم يحط اسقفنا هذا رحاله، الا في المدن.

حياة الكنائس الاولى وتنظيماتها الداخلية

نحس جيداً دون الحاجة للافصاح عنها ، اسباب هـذه الحماسة وأسباب النشاط العارم ، تجيش بها الديانة الجديدة . فهي لا ترى نفسها غريبة عن أي بلد دخلته مهما كانت اللغة المحكية فيه .

فاللغة الوحيدة التي عولت عليها المسيحية دون سواها هي اللاتينية . فلا يوجـد للكتاب المقدس ، في مكان ما ، ترجمة لاتينية ، حتى في افريقيا نفسها التي أطلعت اول كاتب مسيحي تجرّأ ، ان يعالج ، في مثل هـذا الوقت بالذات ، باللغة اللاتينية ، قضايا لاهوتية بحتة ، هو ترتليانوس . فجماعة المؤمنين ، في روما ، لا تستعمل في طقوسها ، غير اليونانية . وكذلك مسيحيو وادي الرون يكتبون باليونانية ، الرسائل التي بعثوا بها الى اخوتهم في الايمان ، في آسيا الصغرى . فاللغة اليونانية هي وحدها اللغة الطقسية في جميع البلدان . فالمبشرون الاكفاء الذين يحسنون اللهجات الوطنية الشعبية لا يزالون قلة يبقى معها أثر الكرازة التي يقومون بها ، وفعلها في النفوس ، محدوداً ضيقاً . فأحاديّة اللغة ، كانت الى حد بعيد ، وراء تأخر انتشار المسيحية ، في الشطر الغربي من العالم الروماني ، إلا أنه تأخير أفاد ، من جهة أخرى ، مع ذلك ، في الحفاظ على اولوية اللغة اليونانية بين اللغات واللهجات المحكية ، اذ ذاك .

تبرز وحدة الكنيسة ، على الأخص ، في مراسم العبادة والطقوس . هنالك عشاء مشارك يجمع بينها عرف باسم *Agape* . والكلمة يونانية الاصل ، إنما تعني «انعطاف» ، او مقاسمة عاطفية في اجتماعات مسائية . وبالفعل ، ان كلمة « كنيسة » انما تعني : جماعة . وبعد ان وقع مجيء المسيح وظهر على الارض بجسده ، صار من المتوجب ، على أتباعه ان ينتظموا وان ينظموا ذاتهم . ومنذ ذلك الحين ، اخذ التسلسل الوظائفي ينمو ويتطور على مر الزمن ، وفقاً للحاجة العارضة . فقد نزعوا الى تأخير سر العماد او التنصير ، عن الموعوظين ، أي عن الذين بلغهم الصوت وتردد فيهم « الصدى » ، أي من لُقّنوا الايمان بالصوت الحي ، فأخروا العماد عن موعـده سنتين او ثلاث سنوات . وقد برز عن جمهرة الشعب (*Laos*) فريق الاكليروس ، لفظ اشتق من كلمة يونانية (*Clèros*) تعنـي في بادىء الأمر : حصة او نصيباً ، ثم اخذت في الترجمة السبعينية معنى اكليروس او طغمة الرهبان ، وهي طغمة تألفت من رُتب ومراتب عديدة . ومن هـذه المراتب برزت كلمات : « كاهن » ، و « شماس » ، و « اسقف » . فالكهنة *Presbyteroi* او الشيوخ (المتقدمون في السن) يتألف منهم مجمعاً يتولى وضع القرارات ، والشمامسة *Diaconoi* الذين يناط بهم تأمين مهام الطقوس المادية . ولم تلبث ان تفرعت مهام اعمالهم الى شماس رسائلي ، وقارىء ، ومُعزّم ، وحارس الابواب ، ثم الاسقف او المشرف على التعليم وعقائد الايمان ، وعلى سلوك المؤمنين . وقد اخذ النظام الجديد ، بالنظر للخطر الخارجي ، وبالنظر لمقتضيات تأمين خدَمة الهيكل مما يؤثر على النوع او الكيفية ، ينزع الى الحكم المطلق . ففي كل مقاطعة ، يقوم على رأس الجماعة ، بدون استثناء ، اسقف واحد . فالشعب يصطفيه ويختاره ، بدون ان يخضع لمراسم خاصة ، من بين اشخاص يقترح أسماءهم الكهنة . فله وحده حق القطع او الجزم في القضايا التي

يتناقش الكهنة حولها ويتبادلوا فيها الآراء . وعندما تتكاثر أمكنة العبادة يصبح الكهنة مجرد خدّام لها ، يرعون جماعة المؤمنين فيها ، تحت اشراف الأسقف . فهو وحده يقوم بكسر الخبز وتقديس القربان ، وبدونه تنعدم الحياة المسيحية .

وهكذا تُصان وحدة الجماعة وتحفظ . وهي وحدة لا تذهب ابعد من ذلك . فبالرغم من وحدة العقيدة والطقوس فلا توجد كنيسة بل كنائس . ولكل منها إطارها الخاص ، له حجيرته الادارية الاساسية ، ممثلة بالمدينة التي تمثل في المنطقة ملء الحياة المحلية في مختلف مظاهرها . وهذا الأسقف يمارس سلطته على الجماعات المسيحية في المدن القريبة طالما عدد الأتباع فيها لا يسمح بوجود أسقف خاص يتولى رَعيهم . وعندما يصبح هذا العدد كافياً تنشأ كنيسة جديدة مساوية في وضعها الكنيسة التي انفصلت عنها ، مع الاعتراف لها بأولوية ادبية . فليس ما يدعو الاساقفة لإقامة علاقات فيما بينهم ، غير ان المصلحة العملية المشتركة تحدو بهم لتبادل الرأي : إما عن طريق رحلات فردية يقومون بها ، او عن طريق تبادل الرسائل او موفدين خصوصيين . ثم لم يلبثوا ان أخذوا يعقدون « سِينُودساً » وبالعربية مجمعاً إطاره الطبيعي الولاية ، هذه الوحدة الادارية الكبرى في البلاد .

كل هذا اولى أساقفة بعض الكنائس الموجودة في حاضرة الولاية او في مركزها الإداري ، او في القواعد الحضارية التي تؤلف قطب جذب فكرياً او اقتصادياً ، نفوذاً خاصاً ، فهو بالفعل والواقع وليس شرعاً اسقف المدينة . فالسلطة التي يتمتع بها اسقف روما لم تكن لتوازي سلطة بعض الاساقفة في مدن مثل انطاكية او افسس مثلاً . فترتليانوس يعرف جيداً شأن السلطة التي يتمتع بها صاحب الكرسي التي اسسها بطرس في روما عاصمة الامبراطورية . ولكن هذا الاسقف لا يستخدم الحق الذي اولاه اياه شرف الانتساب الى هامة الرُسل او رئيس الحواريين ، إما لانه لا يرغب في ذلك او لانه لا يستطيع الى ذلك سبيلا . فهذه الادارة التي تتصف بنظام مطلق يتوزع بين مدينة واخرى ، لا يبدو عليها ما يشير قط انها في سبيل التكامل ، حتى اننا اخذنا نشاهد بعض الصعوبات والعراقيل تعترض سبيلها الى هذا التكامل .

من غير الممكن ان يخفى مثل هذا الوضع على فطنة الادارة المسؤولة او ان تتجاهله ، لا سيا بعد ان تكاثر عدد المؤمنين في الكنيسة بين الطبقات الاجتماعية المتواضعة واخذت تتكون الاوقاف الكنسية وتنشأ . وتكوين هذه الاوقاف لم يلبث ان أثار مشكلات قانونية اخذ الجدل يرتفع بشأنها ، كما اخذت الآراء تتضارب حولها . ومهما يكن بالفعل الحل المقترح في تبريرها : سواء أنُسبت الى هيئات جنائزية او الى جمعيات غير شرعية ، فجماعات المؤمنين لم تلبث ان رأت نفسها مالكة لعقارات واملاك على وجه يختلف عن ملكية الفرد ، او لمبان يستخدمونها في اجتماعاتهم الخاصة او يتخذون منها مدافن لهم . فمن بين الفئة الاولى من هذه العقارات ، لم يُتَح لعلم الآثار ان يدرس خرائب اقدم عهداً من خرائب كنيسة دورا يوروبوس ، هذه المدينة التي كانت قائمة على نهر الفرات ، في الوضع الخاص الذي كانت عليه ، في الربع الثاني من القرن الثالث . فمبنى هذه

الكنيسة القديمة لا يتعدى ان يكون منزلاً قديماً خاصاً ، كانت الغرفة الخاصة باقامة شعائر العبادة فيه تضم مقعداً مستدير الشكل وقد زينت جدرانها بنقوش مختلفة يبدو بينها زمّارات لتقليد الأصوات ، ومساخر للوجه . كذلك نرى غرفة العماد مزدانة برسوم مستمدة من احداث العهدين القديم والجديد . امـا الفئة الثانية ، وهي فئة المقابر ، فقد اتاح لنا درس النواويس الموجودة تحت روما ان نتتبع توسعها وامتدادها عن طريق الدهاليز والممرات التي شُقت تحت الأرض انطلاقاً من مدفن اسرة من الأسر . وقد أنشئت مثل هذه النواويس، في المدن الكبرى، منذ ان شاع عنهـا خبر احترام بقايا الاموات المدفونين فيها . فوجود نواويس اليهود ونواويس اخرى في مدينة الاسكندرية يدل على ان عادة النواويس لم تكن محصورة على المسيحيين ولا على الرومان. ففي هذا العهد كانت روما الجوفية لا تزال في بدء امرها . وقد اقتضى تطورهـا واتساعها ان تكون الشرطة قد أغضت عن هذه الأعمال التي تجري في الخفاء او تحت الأرض ، كما انهـا غضّت النظر ، ولا شك ، عن هذه الاجتماعات التي كان يتكرر عقدها في الكنائس .

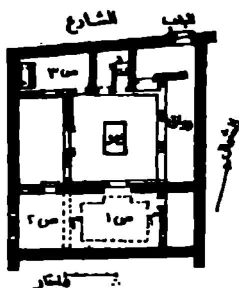

الشكل ١١ – كنيسة دورا يوروبوس. د ، درج يفضي بصاحبه الى الدور العلوي المهدوم؛ س١ صالة لمراسم العبادة جرى توسيعها بإضافة س٢ اليها وذلك بين ٢٣٢ – ٢٣٨ ؛ م ، مقاعد من الترميد ؛ س ٣ ، جرن المعمودية .

والحياة المادية للجماعات المسيحية لدى تكونها ، قامت، مثلها في ذلك مثل انتشار الديانة المسيحية على التسامح الضمني الذي أبدته السلطات العامة ، كما تنطق بذلك الشواهد التي استعرضنا لها وكما يعلمنا تاريخ الاضطهادات نفسه .

الجدل الديني والبدع

كانت المسيحية قد أصبحت ، في مثل هذا الوقت بالذات ، واقعاً روحياً عظيم الشأن والخطر ليبقى بدون صدىً في مجالي الفكر والنظر .

وقد استهدفت لهجمات جاءتها من أوساط مستنيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، هي من مجلى الحضارة نفسها ، اذ ذاك . فبقطع النظر عن الافتراءات والسعايات التي ألصقوهـا بالدين الجديد فتركت أثرها ولو الى أمد قصير ، فقد وجدوا فيهـا مادة ثريّة لمؤلفات لم تَخْـلُ من الأهمية ، وان لم يصلنا منها شيء يذكر عن طريق الكتبة المسيحيين انفسهم الذين لم يحفلوا بجمعها ولم يأتوا على ذكرها إلا بنسبة ما أتاحت لهؤلاء الكتبة من غبطة ورضى في دحضها والرد عليها . وخير ما تمثله هذه الكتابات، الكتاب الذي وضعه ، حوالي عـام ١٨٠ ، أحد اتباع الفلسفة الافلاطونية المدعو سَلْس *Celse* بعنوان: «خطاب حق *Discours vrai* » والذي يمكن اعادة تكوينه وجمعه من جديد عن طريق الاستشهادات التي ضمنها أوريجينس ردوده عليه في كتابه الموسوم : « رداً على سَلْس » . والطعون التي يحاول فيها الكاتب الوثني مهاجمة تعاليم الدين الجديد ، انما تصدر كلها عن نظريات فلسفية، كما انها ترتكز الى نظرات سياسية واجتماعية حرية

بالنظر . فهو يرمي المسيحيين بفرية تمسكهم بالوعود التي يقطعونها ، اكثر من محافظتهم على « الإيمانات المُغَلَّظة » كما يأخذ عليهم ، من جهة اخرى ، مخالفتهم وتجاوزاتهم لشرائع البلاد والقوانين المعمول بها ، وإعراضهم بسخرية ، عن « التعاليم والعقائد التي غذّت عقولهم يوماً وشبّوا عليها ». فكتابه هذا هو عبارة عن مستودع أسلحة ، كثيراً ما عوّل عليها وصدر عنها ، واتخذ لهم منها يدأ الكتبة الجدليون من الوثنيين الذين تطاحوا ، فيما بعد لدحض المسيحية .

فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، أن يهبّ المسيحيون للرد على خصومهم . فها هو القرن الثاني يمدنا بطائفة من أصحاب الردود الأول الذين لا يكتفون بدحض الاتهامات التي يحاول خصومهم إلصاقها بهم ، بل راحوا يهاجمون بعنف الديانات الرسمية المعمول بها في الامبراطورية. فأسماؤهم تؤلف قائمة طويلة ، واصحاب هذه الردود معروفة اسماؤهم لدينا جيداً بعد أن وصلت آثارهم الينا بينما عفت آثار خصومهم من الوثنيين ، بعد ان جرى تعقّبها وراحوا يتصيّدونها للقضاء عليها وإتلافها . وببساطة كلية وجرأة لا يخشون معها لومة لائم ، تراهم يوجهون ردودهم للأباطرة أنفسهم ، كما فعل اسقف أثينا كوادراتوس مع الامبراطور هدريانوس ، وكما فعل ايضاً الأسقف ارستيدس الاثيني مع الامبراطور أنطونين ، وغيرهما . ويوستينوس ، هذا الفيلسوف الافلاطوني المتنصّر ، السامري الاصل ، يطلب بجرأة من الامبراطور مارك اوريل ، وهو ايضاً فيلسوف مثله من اتباع المدرسة المذكورة ، ان يوافق على نشر كتابه المعروف باعتدال لهجته ، يرى نفسه مديناً باستشهاده مثلاً لحقد زميل له منافس . وتليانوس « الذي رأى النور على ارض الأشوريين » في مدينة نصيبين من اعمال ما بين النهرين ، قد يكون اشدهم تهكماً وسخرية. ولكي يكوّن القارىء فكرة له عن عنف ردوده وشدة اتهاماته للديانة اليونانية – الرومانية ، وتعاليمها الادبية والاخلاقية ، يستهجن مستنكراً تمثالاً يُشيّدونه في روما لأم انجبت ثلاثين ولداً ، عشرون منهم كانوا احياء عند وفاتها . يجب ان نشير هنا بنوع خاص الى ترتليانوس القرطاجي ، وهو اول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية ، وضع ، في اواخر القرن الثاني ، كتابه المعروف: « دفاع » عن المسيحية ، وجهه لأولي الامر في الامبراطورية ، كما وضع كتابه الثاني : « الى الشعب ». وهذان الاثران الادبيان ينطقان عالياً ، ببلاغة هذا الكاتب وفصاحته ، ووقاره ومقدرته ، وكلها امور تثير الاعجاب .

إلا ان ترتليانوس اشتطّ في تعليمه وانتهى به الامر الى الهرطقة . فقد عرفت المسيحية في القرن الثاني شقاقاً وجدلاً حول شؤونها الداخلية ، وهي امراض ملازمة الطفولة رافقت نموها وسيرها نحو التكامل ، فعانت منها وتضرّست بها ثمناً للنجاحات التي حققتها ، وللمقدرات الفكرية والطيبة التي توفرت لعدد من كبار اتباعها ، وللوهن الذي رافق تنظيمها في البدء ، فأوجب عليها إكمال هذا التنظيم وتقويته ، ولطراوة إيمانها وتعاليمها . وكان لا مندوحة من هذه الهرطقات لتدفعها على تقوية النظام الداخلي لكنائسها ، ولتحديد قضايا الايمان وتفسيرها وتبسيطها ، وهي بعد في مستهل تاريخ وحركة تطورية طويلين ، خصبين بالحوادث الجسام التي تخللتها.

بقيت الهرطقات قليلة نسبياً ، في ذلك العهد ، اثنتان منها طلع بها داعيان تميّزا بالفردية . اما الاول ، فهو مونتانوس الفريجي الذي راح يتنبأ مدّعياً نزول الوحي عليه . وقد تأثر ترتليانوس بتعاليمه ، قبل ان يؤسس هو نفسه شيعة مستقلة ، عاشت بضعة قرون في افريقيا ، انتهج لها نهجاً صارماً مجافياً لكل الاوضاع البشرية المعمول بها ، حتى الزواج منها . اما مارسيون الذي رذله ابوه ، اسقف سينوب وحرمه وقطعه من شركة المؤمنين ، فقد راح يعلم طريقة لم تقلّ زهداً وتقشفاً عن سابقتها . ولم يلبث أتباعه ان ألّفوا منهم جماعة لعبت ، مدة طويلة ، دوراً بارزاً ، في امور الشرق . وعندما راح يعارض العهد القديم ، صنيعاً غير مكتمل لباري الكون *Démiurge* ، بالعهد الجديد ، صنيعة المسيح المرسل من الإله الحقيقي ، حمل المسيحيين على الشروع بتحديد قانون الكتب المقدسة ، وهكذا امتد أثر هذه البدعة واستطال .

هنالك بدعة ثالثة هي بدعة الغنوسية التي راحت تعمل على إيهان شأن العهد القديم ، بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها البدعة السالفة ، كما انها رأت في المسيحية نفسها ، وجهاً خاصاً من وجوه «الغنوس» ، أي المعرفة الحقيقية التي أضفت على اللاهوت تفسيراً رمزياً للكون . وكانت هذه البدعة أدهى الهرطقات التي عرفتها المسيحية ، الى هذا العهد ، لما حوته من سحر وإغراء ، والنتائج التي أدّى اليها انتشارها السريع ، اذ يصبح المسيح معها كائناً إلهياً بالطبع ، انما ينبثق عن إله أكبر ، ابدعته الفلسفة اليونانية ، كما أضفت على حياة المسيح تفسيرات رمزية او مجازية ، وجعلت حياته وموته امراً صورياً وليس حقيقياً . ومن هذه المقالة المشاقة ، برزت منذ القرن الثاني ، تعالم أخرى ، تحارب الواحدة منها الأخرى . ولو ان المسيحية انزلقت الى واحدة منها لكانت راحت ، هي الأخرى ، فريسة لمذهب توحيد الفروق . إلا انها أظهرت ، منذ الاساس مقاومة كان عليها ان تزيدها أكثر صلابة على مر الاجيال ، وأكثر حيوية ويقظة .

الفصل الخامس

الانجازات الأدبية والفنية

حدودها ونجاحاتها

يشعر المؤرخ بشيء من الارتباك عندما يحاول وضع صورة اجمالية لما كانت عليه الحياة الادبية والفنية في الامبراطورية الرومانية . فقد كانت تؤلف هذه الامبراطورية ، عندما أطلّ عليها النظام الجديد عالماً قائماً بذاته ، تباينت منه الشعوب ثقافة ، واختلفت عروقاً وأخلاقاً وعادات . فهو عالم شاسع ، رحب ، مترامي الأطراف والنهايات ، تمّت له مع ذلك من اسباب المواصلات وانتظامها ما قرّب قواصيها الى دوانيها . وهـذا العالم متنوع المظاهر في أقسامه وأجزائه المقومة ، بالرغم مما يشد بينها من عوامل مادية تقرب بين أشتاتها ، وتسّهل لها جميعاً عيشاً مشتركاً ، وادارة حكومية واحدة ، وتؤمن العلاقات المتنوعة بين هذه الأقاليم والمناطق التي يتألف منها ، وتبني الطبقات الموجهة كمثُل مشتركة فيما بينها ، كما تبني لها هذه الوحدة الروحية التي يقوم عليها التطور بعد ان اخذ بأسبابه . فليس ما يذهب بهذا التفاوت القائم بين المدينة والريف ، وهذه الفروق التي نراها بين أنماط الحياة التي يحياها الأهلون في المناطق الزراعية المتحضرة ، ونهج الحياة التي ينهجها سكان المناطق الصحراوية الواقعة على حدود هذه الامبراطورية ، في الشرق والى الجنوب الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وليس ما يسد او يملأ ابداً هـذه الفجوة والهوة التي قامت بين الشرق الهليني والغرب اللاتيني . فالعامل الوحيد الذي يجمع بين هذه المفارقات المتضادة ، ويؤمّن لها نوعاً من الوحدة الادبية ، هو هذا الشيء الذي يؤلف في صميمه معجزة ، لأن لا مثيل له في التاريخ ولا كفاء ، اذا ما تعدينا النتائج لنقف عند نقطة الانطلاق . فالفوارق لا تزال قائمة بالرغم من ان التطور الذي ينبع مـن أفكار مشتركة ، وينزع لأهداف واحدة ، ويتجه من غاية واحدة ، هي العامل المقوّم لهذه الحضارة ، حسبما تتبلور في مظاهرها العامة اذ ذاك ، عند مقارنتها بهذا العالم البربري المتوحش القائم على اطرافها ، وهو عالم أعجز من ان يصل الى خط سَويّ ، لأنه لا يجري على حركة منسقة واحدة مؤتلفة بين جميع الأطراف .

ومهما يكن ، فهذه النزعة نحو الوحدة لا تبدو للعيان في مطلع العهد الامبراطوري . فاذا ما استشعرها بعضهم ، فلم يخطر قط على بال احد انها قريبة المنال ، دانية القطوف . وعلى نسبة

ما يتصف هذا الجهد البناء بالوعي، فهو يستهدف شيئاً آخر، لا مندوحة عنه في نظر أولي الأمر. وهذا الجهد الذي اقتصر سواده الاكبر على روما ، لقي النجاح الكامل وتكلل بالفوز الأتم.

١ - عصر اوغسطس

هذا النجاح يصيبه العهد هو السبب بعينه الذي لأجله اصطلح المؤرخون على تسميته بـ : « عصر اوغسطس » ، على غرار ما فعلوا بعهد آخر شابهه من وجوه عدة ، وان جاء بعده بوقت طويل ، هو : « عصر لويس الرابع عشر » .

روما منافسة العواصم الهلينية الاخرى

فالوضع القائم ، كما تبلور في روما من حيث تعبئة الجيوش البرية والاساطيل الحربية في السنوات العشرة الاخيرة من أزمة الحرب الاهلية كان تعبيراً رسمياً لا يختلف كثيراً عن المدلول الظاهر العيان . ففي أكتيوم، جمع اوكتاف او اوغسطس الذي سيكونه، حوله كل قوى الغرب، وانتصر على انطونيوس وكليوباترا المسيطرين على موارد الشرق الهليني وطاقاته الضخمة ومواردہ التي لا تنضب . ولما كانت روما قد نالت الفوز بقوة السلاح ، كان لا بد لها من ان تأتي بالدليل القاطع على ان لها من الاهمية والشأن ، في المجالات الاخرى ، ما لا يقل بشيء عما تم لها في الميدان الحربي ، وانها ليست على استعداد قط لتسيء استعمال تفوقها البارز في جميع الميادين . فالشيء الذي كانت الاسكندرية تمثله او ترمز اليه ، لم يخرج عن مظاهر خارجية ، دعائية ، ممثلة بهذه الديانات الفاسدة ، التي طالما عبثت بالاخلاق والآداب، وبهذا البذخ المخل ، وبهذا الترف الفكري والفني الذي يوهن النشاط ويضعفه. فان عجز هذا العالم الشرقي عن ان يرفع رأسه عسكرياً وحربياً ، فهو ، بالرغم من الازدراء له والاستهانة به ، له ، مع ذلك وقعه في النفوس واغراؤه العقول والقلوب ، ويحب بالتالي ، اللحاق به والتساوي معه .

وقد رغب أولو الامر في روما ، دون ان يبدو عليهم شيء من هذا ، ان يحققوا لوطنهم ، هذا التجلي الفكري والادبي والفني الذي اكسب الادب الكلاسيكي : الاغريقي والهليني ، هذه الشهرة البعيدة التي تمتع بها ، وهذه التربية التي تمت له ، هذه التربية المشبعة بالفلسفات والتعاليم اليونانية الاصل التي عكست على مرآتها هذا التسلسل الآسر القيم البشرية التي لم يكن ليخطر على بال احد الإنتقاص منها لئلا تصاب هذه التربية بشيء من رذاذ هذا الانتقاص، فيخدش من رواء أديها ويتنزل بها الى منسوب البرابرة . فالكل رأى ان تسير القوة في ركاب الحضارة وخدمتها . ولكي تزكي روما انتصارها الباهر وفوزها المؤثل ، كان لا بد لها من ان تظهر،عندما تم لها الأمر ، على ما ظهرت به أثينا وبرغاموس ، وانطاكية والاسكندرية . وكان عليها ان تسير على النهج الذي نزعت اليه منذ نحو من قرنين واحتضنته باحتضانها الادب ، وان تشجعه ، وان تزدان بالمباني الضخمة الجميلة والصروح الفخمة . فالإعراض عن مثل هذا المطلب انما كان يفسّر بالتخلي عن تفوقها ، والاعتراف ضمناً بعدم اهليتها ، والتنازل عن حقها الشرعي في الدفاع

عن الحضارة والثقافة ، وفقدان كل أمل بالتقاف الطبقة المستنيرة وسكان الريف حولها ، والالتقاء معاً في محرابها ، والسير بهديها .

كان هنالك ولا شك ، احتمال لا يخلو من خطر ، لم يفُت بصر النخبة المستنيرة من الرومان وبصيرتهم ، وهو ألا يُقتصَر على جعل روما مجرد عاصمة هلينية ، على شاكلة العواصم الهلينية الاخرى ، بما يحف بها من جيران مزعجين ، ومن فيض فكري وفني لا ضابط له ولا وازع فيه ، يزرع الخوف في القلوب وينزل الرعب في النفوس . كان عليها ان تستلهم مُثل العالم اليوناني بحيث تتفادى السقوط في المساوىء التي انتهى اليها هذا العالم . كان عليها ان تقتبس من هذا العالم ما خلقه من وسائل تقنية بشرط استخدامها بعقلية جديدة وروح جديدة ، وان تعمل بهدي الأمور التي استنبطت بخاطره على ان تصطفي منها أفضل ما توصل اليه . كان عليها انتهاج السبيل الذي انتهجه شريطة ان تعرف كيف تجانب هذا السبيل عند الاقتضاء ، فتضع هي لنفسها ، سُبلاً جديدة تتفق والتقاليد الوطنية بما ينسجم مع الوقار والرصانة التي عُرفَ بها الرومان وبها تميزوا .

هذه هي الخطة او المنهج الموضوع تحت الانظار ، وهو منهج لا بد من النهوض به ، والسير معه الى آخر الشوط ، وفقاً للخطوط العريضة التي وضعها له قيصر قبل موقعة أكتيوم ، ولجيل قيصر فضل السبق على اوغسطس في وضع مثل هذه الخطة ورسمها . وقد باشر قيصر نفسه وشيشرون وغيرهما كثيرون من النخبة لدى الرومان تحقيقها . وكان من نصيب جيل اوغسطس ان ينهض بهذا المنهج ويحققه على نطاق اوسع وارحب .

« عصر » في صميمه من صنع اوغسطس »

وأي عصر ! ... فالعرف التاريخي المعمول به ، لا يتبنى كل الالقاب والنعوت التبجيلية من هذا النوع التي اعتاد المدلسون إغداقها على بعض الملوك والعهود . ولكن ما من شيء يجعل من العرف قانوناً او يقيم منه قسطاساً . وهذا أمر يجعل التدقيق في الاماديح التي تكال لرئيس دولة كيلاً ، عملية عسيرة للغاية . كذلك ، ليس بين المقاييس التي يمكن ان تخطر على البال ما لا يصح تطبيقه على وضع اوغسطس بالذات ، أهي مدة حكمه المديد التي تبرر إطلاق كلمة «عصر» عليه ؟ فقد مرت اربعون سنة ، منذ ان أطلقوا عليه ، لأول مرة ، هذا اللقب ، في غرة كانون الثاني (يناير) ، من سنة ٢٧ ق . م ، مع انه كان منذ عهد بعيد ، سيد روما المطلق ، وبقي سيدها الأوحد حتى وفاته في ١٤ من آب (اوغسطس) سنة ١٤ للميلاد .

أهو لعمري ، الدور الذي لعبه ؟ فالسلطة المطلقة التي تمت له في الحقل السياسي ضاعفت من شأن الدور الذي لعبه في عالم الفكر والادب . صحيح ان عمله في هذا المجال لم يكن كله مجرداً : فقد عمل جاهداً في سبيل المجد ، وفي هذا السبيل وجّه رجال الفكر والفن ، واوحى اليهم بالموضوعات التي يهمه ان يراها مجلوة . فاذا ما اخذهم تحت رعايته واجرى لهم العطاء ، لمن الغلو القول بانه أوعز او تقدم بطلبات ، إلا ما تعلق بالمباني والانشاءات العمرانية . فلا

بفرجيل ولا بهوراتيوس بمستكتبين عنده. وقد قام بهذا كروماني من ابناء زمانه ومن ابناء طبقته، «حفي» بالآداب والفنون الرفيعة. وكلمة «هوي» *Amateur* يقصر مدلولها عن التعبير تعبيراً صحيحاً، كما لا يحسن التعبير عن كثيرين من اسلافه او خلفائه الذين عنوا، من قريب بشؤون السياسة. فاسم صديقه وخدينه «مكيني» اصبح رمزاً لنصراء العلم والادب بما اغدقه من مكرمات وأعطيات وهبات كان من شأنها ان تحمل كبار القوم على الاهتمام بامور ابقى وأخلد. الا ان الاكتفاء بالتنويه، والاقتصار على استعمال نفوذ مكيني وكرمه وسخائه على هذا الوجه من شأنه ان ينتقص من قيمة النشاط النير الذي تفرد به نصير من اكبر نصراء العلم والادب في كل زمان ومكان. فقد راح يحرب، هو نفسه حظه ويدلي بدلوه بين الدلاء! فيكتب، ويؤلف في كل موضوع، على شاكلة كتاب ذلك العصر، وعلى مثال الملوك الهلينيين، فراح يقصّد القصائد ويدير المحاورات ويضع كتباً في التاريخ الطبيعي. والحال فالمثل «معد»، ولذا لم يبق وحده في الميدان، فتطلع علينا وجوه عديدة تحلق بصورة ابرز بينهم اول نصراء فرجيل المدعو أزينيوس بوليون. فهو ايضاً يأخذ بنصرة العلماء والادباء نظير مكيني ويرعاهم برعايته، مع انه كان في عداد المعارضين للعهد وإن اعترف به ومالأه، فاعترافه هـذا لم يتعدّ طرف لسانه، بعد ان كان من انصار انطونيوس ومن مريديه. فراح يهتم بجمع التحف والأعلاق الثمينة، وينشىء لافراد الشعب مكتبة عامة، في الوقت الذي انقطع هو فيه للتأليف المسرحي ووضع التمثيليات، وكتابة تاريخ عام للحروب الاهلية. واليه يعزى الفضل الاول في اطلاع النـاس على المؤلفات التي يضعها اصحابها، وذلك بقراءات علانية منها، امام الناس، تعريفاً بهـا وبواضعيها.

وقد عاصره، في الوقت ذاته، في موريتانيا، الملك يوبا الثاني، احد ملوك التوميد المعروف بخصومته لقيصر. فقد جيء به يافعاً الى روما وسار في ركاب قيصر عند دخوله روما مظفراً. اعاده اوغسطس الى ملكه هو وزوجته الشابة، كليوباترا سيلانية، ابنة كليوباترا وانطونيوس التي كانت في الموكب الحافل الذي رافق دخول اوغسطس ظافراً الى روما، بعد معركة أكتيوم. وهذا الملك المزيل الشأن، البربري المحتد، الذي مَلك على قبائل بربرية استنكف اوغسطس من ان يضمّها الى الادارة الرومانيـة مباشرة، ونشأ في روما تحت إشراف عائلة الامبراطور نفسه، يبرز، في غير مغالاة ولا زهو، من كبار نصراء العلم والفن اليوناني: كاتباً، عالماً، عرف ان يُضفي على عاصمته قيصريّة (مدينة تشرشل، اليوم، في المغرب) سناءً بهياً وإشعاعاً عالياً، بما شيّد فيها من المباني والصروح الفخمة، وبما حشد في قاعدة ملكه هـذه من الآثار والتحف والمباني بحيث بدت كأنهـا متحفاً رائعاً، ضمت فيما ضمته، قصراً منيفاً، عثر المنقبون في خرائبه في فولوبيلس، على مقربة من مدينة مكناس، ما وجدوا من الاواني البرونزية التي تثير الدهش بدقة صنعها. وقد وضع هذا المُلَيك، في الوقت ذاته، عدداً كبيراً مـن المؤلفات باللغة اليونانية، بشتى المواضيع: كالتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغير ذلك، وهي

كتب اعتمد عليها ومنها عب ، فيما بعد ، بلين الاكبر .

فالاستشهاد ، في معرض الحديث عن أوغسطس ، بمثل هذا الملك الغريب المزيل ، قد يبدو من المزل بمكان ، وهو ، مع ذلــك ، استشهاد لا بد منه لندرك جيداً ، الى أي حدّ طبع اوغسطس عصره ، والسجم محيطه به . وهكذا نرى بصورة حيّة مُشرقة ، كيف ان أثرياء الرومان وعظماءهم تبنّوا المـُثُل التي نهض بها من قبل ، الفاسيلفس الهليني ، ومنهم امتد الى مثل هذا المـُليك النوميدي الذي كان مديناً بكل شيء، لسراة القوم في روما. وراح اوغسطس نفسه يقرض الشعر ، ويضع المسرحيات التمثيلية ، ويكتب مذكراتـه ، ويتعهد بالتهذيب والتشطيب مذكراته : « امور الحكم » ، احتذاءً منه بقيصر الذين كتب هو الآخر ، مذكراته التاريخيـة *Capitulaires* ، وألّف ما ألّف بما عرف عنه من مقدرة . وعندما زيّن روما وحلاّها ، وعندما أنشأ فيها مكتبتين عامتين،وعرض على هوراتيوس وظيفة كاتم سره، وعندما يأخذ بمباسطة ومفاكهة المؤرخ تيت ــ ليف الذي رأى النور في مدينة بومبيي ويتعهد اليه بشرف تهذيب حفيده كلوديوس الذي اصبح فيما بعد، امبراطوراً، وتوجيهه وجهة علم التاريخ ، وعندما يأمر باتخاذ جميع الوسائل لتأمين نشر الانياذه *Enéide* لفرجيل بعد ان أوصى هذا عند موته ، باتلافها ، راح يحقق ، على مثل هذا النحو من الشمول والرحب الذي تتسع له نظرة الامبراطور الواسعة ، والمقدرة التي اشتهرت عنه، وبوسائل أوسع وأشمل بكثير مما تمّ منها لمعاصريه ، هذا المثال الذي تبرز صورته الحقة والمثلى في خلفاء هوميروس وطغاة بلاد اليونان القديمة . وهــذه الصورة التي نرسم هنا قسماتها الكبرى،تفاعل على تركيزها وتحييزها نوازع ودوافع عدة. من المحال ان ننكر مثلاً ، رغبته في التلهي والتفريج عن مهام الحكم ، والرغبة في استثارة إعجاب الناس والفوز منهم بالثناء العاطر والأماديح المستملحة، والميل الشديد لاكتساب المجد والعظمة والفخار يخلد ذكرها الدهر . والى هذا ، ارادة صادقة في ان يبرز الناس رجلاً مثالياً لا يُقصر أطماعه على تأمين نجاح زمني . والى جانب هذا كله ــ كما يشهد بهذه العظمة النخبة الرومانية التي يكفيها شرفاً ان تكون تسامت في تقديرها الرجل الى مثل هذا الحد ــ الارادة الصادقة في ان يطلع على الناس برجل نموذجي المِثال لا يُقصر طموحه على نجاح زمني زائل .

كل هذه النظريات وما تثيره من ملاحظات، لأعجز من ان تستنفد مدلول كلمة « عصر » .

ولكي تستحق حقبة من الدهر ان توصف بمثل هذا الوصف ، يجب ان تشهد ازدهاراً عجيباً من الروائع الفكرية والادبية والفنية، ومثل هذه الأجيال من العظماء والمشاهير في كل علم وفن، وتجلّياً منقطع النظير من النوابغ والعباقرة لم يسبق لروما ، في تاريخها المديد ان رفلت بمثلهم .

كذلك من الواجب ، ان تعبر هذه الآثار الادبية والفكرية ، وربما بنسبة اكبر ، وعلى قدر اوفى ،عن نزعة نفسية ليست عادية فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر ، كلاسيكية ، إتباعية ، أي تصلح مِثالاً، في خطوطها الكبرى،لاجيال اخرى وعصور اخرى.فجاء ازدهار الآداب والفنون، في عصر اوغسطس يحقق ، الى حد بعيد ، هذا المطلب المروم . فانى أجَلنا النظر ، طالعنـا ،

هنا وهنالك ، توق عارم : النظام والانضباط ، والاتزان والوضوح ، وكلها مطالب عقلية او بالاحرى عقلانية ، تهيمن على المشاعر وتضبط انطلاقها والتعبير عنها ، وتمحصها وتنقيها مما يُشتم منه العنف او المرض ، فتترك فيا بعد دوياً بعيداً ، خالداً ، يتردد صداه على مر الزمن . فوضع هذه الروائع جنباً الى جنب مع روائع الادب الكلاسيكي الاغريقي ، واتخاذها غذاءً روحياً لنفوس الاجيال الطالعة ولأذواقها ، منذ عهد النهضة والانبعاث الى يومنا هذا ، في كل المدنيات التي توالت على مسرح التاريخ ، ليس فيه ما يدعو للدهش او للعجب . ففي ذلك شهادة حق ، تنطق عالياً بما فيه من جهد كريم حاولنا معه تجاوز نطاق الهواية ، وايمان رشيد قويم بصحة ما يقول ويعمل للوصول الى طريقة صورية ميسرة لا تستحيل لعبة مع نبوغ عارض ، لتمكين العقل من مراقبة تصادم الاهواء والنزعات ، ولاخضاع الشعورية الفردية لمعايير العقل ولقسطاس مثالي من التناسق والانسجام المشرق .

وهنالك ملاحظة اخرى تُركّي أيضاً، اذا كان ثمّة حاجة بعد للتزكية، اطلاق اسم اوغسطس على هذا العصر ، تقوم في هذا التوافق البيّن بين تفجر هذه النزعات الكلاسيكية وازدهار الآداب والفنون ، وبين السياسة العامة التي انتهجها الامبراطور . فعندما راح يعيد تشكيل الدولة والمجتمع الروماني ، بعد الفوضى التي رزحت فيها البلاد إثر الحرب الاهلية ، استوحى مبادىء النظام والاتزان التي هي قوام الأدب الكلاسيكي بالذات . فالسلام الذي نشر لواءه على الامبراطورية ، في الداخل والخارج ، شاده سلاماً لا يقوم على الضغط والإكراه ، بل على العقل والاقناع لدى من توخى تهذيبهم ، وحذّر عليهم السير مع الفتنة ، وهو سلام يعكس تماماً روح الانضباط والنظام الذي طبع الروائع الادبية التي طلع بها ذلك العصر وميزها . وهذه الانضباطية التي حققها في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية كان لا بد لها ، لكي تقوى وترسخ في النفوس ، من ان تقترن بانضباط الناس في اهوائهم ونزعاتهم وطبائعهم . فقد كان يشوقه ان يرى القلوب والأفكار تنعم بجو روحي ملؤه الدعة والطمأنينة بحيث ترسخ وتتوطد الانجازات التي حققها للامبراطورية . فكما ان العنصر الديني لعب هو الآخر دوره البارز في هذا البناء ، وفي هذا البعث الروحي ، ترتب على الآداب والفنون التي يشدها الى الدين اكثر من رابطة وآصرة ان تلعب هي الاخرى ، دورها الفعال في هذا البنيان القومي .

فلا عجب بعد ، ان يستجيب أهل الأدب ورجال الفن لهذا المطلب ، وان يبادروا لتحقيق رغائب الامبراطور على النحو الذي خطط وصمم . فقد تألموا كثيراً هم ايضاً ، روحياً ومادياً ، من هذه الأحداث الدامية التي اصطلحت على البلاد وانزلت بها ما أنزلت من الإحَن والمِحن ، فزعزعت روما وهزت منها الأركان، وهددت حضارتها بالدمار والزوال .وقد راحوا في زكانتهم يستجيبون لهذه الرغائب ويحققون هذا الانسجام المرتجى بين نزعاتهم الشخصية وبين مقتضيات السياسة الرشيدة التي انتهجها الامبراطور . فتجاوبت مشاعرهم عميقاً لما تبينوا الأسس التي ستقوم عليها عظمة روما، والرسالة التمدينية التي تضطلع بها لرؤية لواء السلام يرفرف خفاقاً فوق الجميع.

فقد أتاح لهم حاضرهم الماثل ان يدركوا جيداً ماضيهم المجيد ، وألا يقبعوا متغنين بالامجاد مجترين ذكريات الماضي البعيد. ولذا راحوا، طوعاً واختياراً ، يتبينون بعفوية ظاهرة، المطالب القومية الكبرى ومستلزماتها الركينة : حب الوطن ، والتمسك بالتقاليد والاعراف الوطنية التي هلبتها وصقلتها النظريات الفكرية المقتبسة من الخارج، ولم تمتّم ان انصهرت بها وتمازجت معها ، والتحدث بفضائل السلف الكريم بعد ان تعرّت من شوائبها الخشنة ، والاعتداد بهذه الامجاد الحربية التي حققها لخير المغلوبين على امرهم . من هنا ايضاً هذه الأماديح والتقاريظ العطرة التي ضفّرها القوم للمَليك المنقذ ، المخلص، حبيب الآلهة،الذي أعاد الى الامبراطورية: هذا الأمن وهذا الانسجام وهذا التناغي الذي كادت تفقده الى الأبد. وروح هذه الكلاسيكية نفسها، كانت تأبى ان تنطلق عاطفة الامتنان المتأججة في صدور القوم، بعبارات نابية تشذّ عن الصدد لتنتزل الى الزلفى المخزية . وهذا الآمر الناهي ، المطلق ، الذي كانه اوغسطس ، لم يأتِ آيةً أفضل على ما تم له من مهابة ووقار ، وعلى ما كنّه من احترام عميق لهذه المثل التي عمِل بها وعلّم ، لو لم يكن على جانب عظيم من المقدرة الفائقة ، بعد ان استعصى على الناس النفاذ الى أغوار نفسه وقلبه ، اذ لم يرض قط ان يوعز ، ولو من طرف خفي ، أو ان يُلمِع ولو من بعيد ، الى خاصته ، وصحبه المقربين من رجال بطانته، وهم بشر كغيرهم من الناس، وله في أعناقهم ما له من أياد بيض وغُر الفضائل ، ودانوا له بكل ما لديهم من نعمة ورخاء ، وجاه ونفوذ ، بشيء من هذا الثناء أو من هذا التدليس ، يحسنه أهل البطانة . فكلا الجانبين عرف أن يتفادى مثل هذا الإفراط ومثل هذا الانزلاق الذي كان من مميزات البلاطات الهلينية . وبذلك صَونٌ لكرامة الرجل وعزته وإبائه .

ولكن هذا التوافق لم يعمّر طويلاً، وقد تجلى ذلك على أتمه ايضاً في الجيل الذي عايش لويس الرابع عشر وعرف بالتالي سيطرة غير سيطرته. ولد كل من فرجيل وهوراتيوس قبل اوغسطس بسبع سنوات الاول ، وبسنتين ، الثاني ، وماتا قبله بـ ٣٢ سنة و ٢١ سنة . وبين كبار رجال الادب في هذا العصر ، كان المؤرخ تيت – ليف وحده أصغر من اوغسطس بأربع سنوات ، كما عاش بعده ثلاث سنوات . فقد عمّر اوغسطس طويلاً ، وعاش في مجتمع اعتنق كبار مفكريه فكرة الملكية وتبنوها بعد ان نسوا او تناسوا الاضطرابات العنيفة التي هيأت لها اسباب الطلوع، كما تناسوا ، على ما يبدو ، مدى المشاغل التي جاشت في صدور اسلافهم .

التاريخ : تيت ـ ليف

وهذا السلف اهتم كثيراً لهذا الوضع الذي نجم عن إنشاء النظام الملكي . ولكي نقف عند أبسط هذه النتائج ، لننظر ملياً الى فن واحد من هذه الفنون الادبية الذي راج من قبل أيما رواج في روما، هو الخطابة فنفهم كيف به ينحط ويهبط بعد ان انقطعت مناقشات الهيئات والمنظمات السياسية والجدل الذي كانت تثيره، اذ لم يعد مجال لهذا الفن يتغذّى منه . فالتاريخ والشعر استأثرا وحدهما باهتمام الجميع ، وهو اهتمام له ما يبرره اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الصفات التي تحلّت بها المؤلفات التي وصلت الينا من هذا العهد .

هنالك بالطبع ، مؤلفات ماتت وضاعت وعفا أثرها ، بعد ان لاحقها النظام القائم وجدّ في اثرها لتجاوز أصحاب القيود والحدود التي فرضتها السلطة على حرية المؤرخ . فقــد أمر مجلس الشيوخ مثلاً ، بحرق آثار كاتب من المتحمسين للعهد الجمهوري ، لمــا تبين فيها من نقد جارح للعهد الجديد .

فالتاريخ يتمثل هنا على أحسنه بالمؤرخ تيت ليف ، كما تبدّى في نظر معاصريه وكما نراه نحن في يومنا هــذا ، تشيل كفته عالياً اذا ما قارناه بمؤرخي العصر من اليونان امثال ذيوذوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكارناس،كما انالمؤرخالغاليّ ترُوغ بمبيوسالذي لا نعرفمن آثارهالتاريخية سوى مقتطفات ذكرها يوستينس ، ليس بشيء يذكر تجاهه . صحيح انه لم يصلنا تاريخه الضخم الذي أرّخ فيه لروما منذ تأسيسها الى منتصف عهد اوغسطس ، وهــذا التاريخ الذي جاء في ١٤٠ جزءاً ، لم يصلنا منه سوى ٣٥ جزءاً لا غير ، تقسم الى قسمين متميزين . يتألف الاول من ١٠ اجزاء، بينما يضم الثاني ٢٥ جزءاً ، يقص علينا حوادث الحقبة الممتدة من سنة ٢١٨ الى ١٦٨ ق . م . وفي هذا لعمري ما يكفي لنتعرف الى هذا الكاتب، ونتبين مناهجه وأساليبه والطرق التي اتبعها في وضع هذا التاريخ الضخم ، وميوله الفكرية ، ونزعاته الشخصية ، ومقدرته الفنية وغير ذلك من العوامل التي تقوم عليها كتابة التاريخ .

علينا ألا نتوقع منه أي جهد كبير يبذله في البحث الشخصي وفي التحري عن الحقائق ، او أي نقد متدبر للمصادر التاريخيــة التي عوّل عليها واستقى منها ، ولا أي تحليل لأغوار النفس البشرية عندما تعرض للحديث عن الاشخاص والجماعات التي يحدثنا عنها ، ولا الاطلاع الكافي لا نظرياً ولا عملياً، على عوامل التاريخ والمبادىء التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية . فبينه وبين ثوقيذيذس اليوناني ، وبوليب الروماني ، بَوْن شاسع من هذه الناحية ، فهو يفتقر اصلاً الى تربية الرجل السياسي وحنكة القائد العسكري المجرّب ، كما ينقصه ما قـد يكون فيه بديلاً عنها : النظرة السديدة الحلقة في آثار السلف ، والتفهم العميق للصفات التي تحلّوا بهــا . فهو يرغب ، تشبهاً بمن سبقه من بعض المؤرخين، ان يقدم خدمة نصوحة للقارىء من باب تزويده بأخلاقية صحيحة دون ان يهيئه للعمل ويسلحه له . « فالمفيد في علم التاريخ والمثمر معاً هو ان يرى المرء وكأنه على قمة بناء شامخ ، كل الامثال الصالحة التي يجب عليه الاقتداء بها لخيره وخير وطنه، كما عليه ان يتجنب كل ما من شأنه ان يجرّ الخزي والعار ، في هذه الامثلة ، من مفاتيحها الى مغالقها » . فبين المؤرخين الذين سبقوه في هذا الفن يطالعنا بالطبع بوليب الذي أرّخ لفتوح الرومان في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . ويشقّ علينا كما يؤذينا في الآن ذاته ، ان يستعمله ، في الحين الذي عاد عليه ، عــلى نسبة واحدة ، مع بعض الرواة الرومان ، دون ان يتبين ما تفوّق به بوليب : من جمع مصادره والاستيثاق بها ، والمقدرة الفكرية التي عالج بها الاصول التي عوّل عليها ، كما ان تيت ليف لم يأبه بشيء الى ما تحلى به تاريخ بوليب من تناسب في معطياته، وما فيه من دقة ملاحظة وتدبّر ، حتى انه يبدو عليه وكأنه لا يهتم كثيراً بفهم النص الذي بين يديه .

فهو ، اذا ما اشتَطّ وغلط ، فليس عن سوء قصد او نية ، اذ ان اتساع المهمة التي يضطلع بها ، ورحابة المدى التاريخي الذي وضعه نصب عينيه ، كل ذلك يرغمه على العمل بسرعة . فالاغلاط التي تتزّى بها شق قلمه لا توهن بشيء نزاهته ، هذه النزاهة التي هي في الصميم من هذه الفضائل السامية التي تشكل ، في نظره هـذا التراث القومي الجيد . فهذا المواطن البدواني الاصل ، والغاليّ المحتد ، الذي رأى النور في منطقة قاومت الفتح الروماني وحاولت صدّه ، بلغ منه التمسك برومانيته والشد عليها بنواجذه بحيث راح يقول : « فإما انّ حي للمهمة التي ندبت لها نفسي بعميني ، واما ما من دولة فاقت روما : عظمة وتقاءً وغنىً بهذه العظات البليغة الخيّرة التي يجيش بها تاريخها المديد » . ولكنه يتحرّز من الوقوف موقف المبرّر دوماً لروما ، ويتمالك عن حل الحقد والبغضاء ضد خصومها الألداء او الأكثر خطراً عليها . كذلـك ، كتاباته عن القلاقل والاضطرابات الشعبية التي وضعها ، لا تتزى بأي حقد او ضغن . فهو يقف منها موقف اللائم ، الشاجب ، انسياقاً منه مع الولاء الذي يحمله لروما . قد يهتز لأمر ما وتتحرك نفسه بعاطفة الاعجاب نحوه . إلا انه يتورع عن البغض والكره ، ليس رغبة منـه بفهم الأمور ، بل انسياقاً لما عرف به من اعتدال ومن نـَصَفة .

وكانت وطنيته خير مُسعف له ، وهي وطنية قوامها الانعطاف النابض والاستلطاف الذي يحمله على تقدير الحـُقب التاريخية الحاسمة ، وتقدير رجالات روما الذين نهضوا بالامر فيها . واشد ما تجيش هذه العواطف في صدره عندمـا يروح يقص علينا حروب هانيبعل الذي يجعل منها ملحمة وطنية تتعاقب فيها الويلات والامجاد ، الى ان أقبل اخيراً النصر المظفر ، مـكافأة لهذه الروح الوطنية التي تجلت على أتمها في هذه المحنة التي جثمت على صدرها ، وهذه التضحية والبذل السخي الكريم تجود بها الدولة دونما حساب ، وهذا الاباء في النفس والعزة والكِبَر ، ومكارم الاخلاق يتحلى بها الشعب وافراد الرومان على السواء ، واحترام الآلهة الذي ، استبد بالنفوس . فبدلاً من ان ينطلق في عظات مملة مُنَفّرة ، نراه يعرب عن اسفه الشديد لفقدان هذه الفضائل التي عُرف بها السلف الكريم ، وراح يكشف عن جذورها الاصيلة بهذه الامثلة التي يضربها لنا وبهذه المواعظ التي يسترسل فيها . وهكذا ، بفضل هؤلاء الرومان الذين يجلو لنا تاريخهم ، والذين قال فيهم لابروبير انهم « أشد رومانية » مما يمكن ان يكونه بالفعل اي إنسان ، يضع امامنا تاريخاً لروما ملؤه الجلال والعظمة . فليس من غريب قط ، انه بالرغم من تعلقه الموصول ، بالنظام الجمهوري – أقله في المرحلة الاولى منه ، طالما انـه يسلم بانحلال الاخلاق فيه في المرحلة الاخيرة – يرى فيه اوغسطس عـاملاً من العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في عملية الاصلاح العام الذي نهض له . كذلك ليس بمستغرب قط ان يعتمد عليه كورنايل ايضاً كما اعتمد على كثيرين غيره من مؤرخي الرومان ، لجلو هذه الصورة البديعة التي رسمهـا عن روما والرومانيين .

وبالفعل فقد استطاع المؤلف ان يحافظ ، بعد سقوط روما القديمة على مـا في فنه من قوة

الاغراء والتشويق ، وإلا لما تمكن ان يروي لنا قصصه بشكل جمع فيه بين الحماسية المرهفة ودقة الوصف مع المحافظة على مـــا فيها من حيوية وجاذبية ، متنكباً في الوقت نفسه ، عن التصنع والتكلف . قلما نراه يرسم لنا شخصيات كاملة، ومع ذلك فشخوصه متنوعة، لكل منها فروقها المميزة ، تتحرك على أقدار وتسام في الاحداث التي يعرضها، فتمر امامنا سراعاً دون أن نشعر بها أو ان نتبين حركتها ، ومع ذلك فهي تلفت اليها النظر . وهذه الشخوص تعرّف بنفسها في هذه الخطب والأحاديث التي يضعها على ألسنتهم ، وهي من الكثرة والوفرة بحيث تصدم ذوق أهل هذا العصر ، ولذا رأت برامج التربية الحديثة ان تخفف من المناهج التعليمية بالغاء تمارين الخطابة في منهاج اللغة اللاتينية التي نرى طائفة طيبة منها في المجموعة المعنونة *Contiones*، والتي منها استمد واضعو المناهج المحفوظات النموذجية . وهذه الخطب تخلو مع ذلك ، من كل قيمة تاريخية ، اذ أنها من نسيج خيال تيت ليف، كتبها هو بنفسه أو أعاد كتابتها، وقد سار فيها، ولو من بعيد، على نهج شيشرون ونسج على منواله ، وان كان دون شيشرون بكثير ، جزالة ونصاعة مهما اكثر من استعمال المحسنات اللفظية . وقد استطاع هذا المؤرخ المتحمس كثيراً لتاريخ روما القديم ان ينوّع فنه بحيث يضفي على عبارته قوة تعبيرية اكبر ، لها من قوة الايحاء والابانة ما مكن من إلهاب خيال العديد من الأجيال التي جاءت بعده .

الشعر : فرجيل

وبزّه قوة في شدة تأثيره وبلاغته الآسرة، شاعر العصر الاكبر : فرجيل الذي اطلق الشعر من عقاله وألهب بحماسته أخيلة الشعراء . فهو ايضاً من مواليد مقاطعة غاليا ما قبل الألب ، وأخذ على غرار تيت ليف، بعظمة روما وسمو فضائلها . نزعت نفسه دوماً للعيش في الريف والابتعاد عن محيط المدينة ما امكن ، فبقي ريفياً في قرارة نفسه . ولم يقلّ حبه لايطاليا ، هذه الأرض الثرية ، منبت عظام الرجال والابطال ، عن حبه لروما ، فسكب نفسه الشاعرة على سجيتها في ذوب كلي مع هـــذا النشيد الكوني ، الشجي ، الحقي ، يطلع علينا من اغوار نفسه .

وقد تم لهذا القروي من ضاحية مدينة مانتو ثقافة أدبية وفلسفية معرّفة، يونانية ولاتينية، على السواء . ولا نخاله يغلو عندما يروح فيؤكد لنا انه استمر يتعهد هذه الثقافة بالنماء والغذاء الموصول . وهذا الشاعر الفنان ، المفتنّ ، اللبق والظريف ، النحيل البنية والقوام الذي تأثر الى حد بعيد ، بثيوكريتس ، كما يبدو من قراءة قصائده الرعائية *Bucoliques* ، عمل دوماً على صقل قريحته وشحذها . فقد تعهد عشر سنوات متواصلة ملحمته الخالدة الإنيادة ، ومع ذلك تبدت له ، وهو يحتضر ، انها غير خليقة بالحياة ، فأمر باحراقها وإتلافها . خضعت فلسفته هو الآخر للتطور . وهذا الفيلسوف الابيقوري الذي نستشف قسماته من شعره الرعائي ، نراه في «قصائده الزراعيا» *Poésies géorgiques* « يطّوّب سعيداً محظوظاً من استطاع النفاذ الى اسرار الطبيعة، ووطيء تحت قدميه الخوف من القدر الذي لا يرحم ». نراه يأخذ، في ملحمته الخالدة، بقدرة وفن عظيمين ، وعلى نسبة متساوية ، بين الفيثاغورية وبين الرواقية . فكل أثر من آثاره

الفكرية يكشف لنا عن نوع المطالعات والقراءات التي أقبل عليها بتدبر، يتمثلها ويستمرؤها. فقد استلهم الفكرة الاولى لقصائده الزراعية من ملازمته قراءة هزيودس ومنظوماته في علم الفلك، ولم تتبلور في وضعها الاخير الا بعد ان قرأ ما كتبه فارّون عن الزراعة. من ينعم النظر ملياً في الإنياذة، ير ان الشاعر اتخذ له بدأ من كل ما اتصل به او بلغه خبره، من آثار التاريخ القديم الفكرية، منذ هوميروس الى معاصريه من علماء الآثار الرومانية. وهذا الطابع الموسوعي الذي يبرز في الانياذة ليس سوى إلفة متناغية من آداب اليونان والرومان وكان له فضل كبير في النجاح الذي اصابته هذه الملحمة الخالدة خلود الدهر، اذ كانت تعبيراً بليغاً، ولقاء جميلاً لهذه الروائع الفكرية التي تناثر نضيد درّها على لـُجَيْن التاريخ القديم.

غير ان فرجيل لم تُرْضه هذه الثقافة الكتابية التي تمّت له من عشرة موصولة الكتاب. فبالرغم مما عرف عنه من «دماثة» ولين الجانب، فقد عرف ان يتحامى عن شقشقة هذه المجادلات التي ارتفع عجيجها في عصره. ومع ذلك، فلم يَحُل ما عرف عنه من استسلام للأحلام المعسولة، دون الاهتمام بما يجري حوله من شؤون السياسة وتصرفات رجال عصره، حتى ولو شاء ان يتجاهلها بالكلية لما استطاع الى ذلك سبيلا، بعد ان أقلقه وهمّه كثيراً، أمر مصادرة أملاكه في الوقت الذي كان فيـه منقطعاً لنظم قصائده الزراعية. ومعظم قصائده هي رجع صدى احداث زمانه، وصدى الاحداث البارزة التي ماج بها تاريخ روما. فها هو في احدى قصائده الرعائية يغني السلام الذي أمكن تحقيقه، ولو الى حين، في مدينة برنديس، بين انطونيوس واوكتافيان، كما غنى في احدى قصائده الزراعية الجهد المبرور الذي بذله اوكتافيان لتركيز مكانة ايطاليا الزراعية والأدبية، على أسس ركينة قوامها حياة الريف. وفي الإنياذه، نراه يربط اوغسطس عن طريق أسلافه الذين غبروا، وعن طريق المآتي الغر التي حققها، بتاريخ روما، هذا التاريخ الذي ملك عليه جماع عقله ولبه، فراح يكتشف لأينه *Enée* أسراره المكنونة بأسلوب ساحر، خلاب، كما راح يعظّم هذا التاريخ ويمجده ويرسم لنا التطور المعظم الذي أخذت روما، منذ البدء، بأسبابه، وفقاً لما قدّرته لها، إرادة جامحة لا تُرَدّ. وهكذا نراه يتحزب لأوغسطس باكراً، وفقاً للخطة الموضوعة التي دغدغت اماني اوغسطس العذاب. واذا ما راح ينافح عن رسالته بمثل هـذا التسامي، فقد عرف مع ذلك، ان ينكب عن كل خسة او دناءة، او يميل مع الغرض او الهوى. كل ذلك بدافع من نفسه دون أي وازع من اوغسطس، مدفوعاً بعامل الشكر والمنّة لإعادة أملاكه المصادرة اليه، ولا سيما بهذه العظمة التي تتجلى بهذا السلام وهذا النظام الذي عرف ان يؤمنها للامبراطورية. وهب ان فرجيل كان مدفوعاً، فقد عرف كيف يتعالى كثيراً بما أوتي من نبل الأحاسيس والمشاعر السامية.

هذه الميزة طبعت شعره وأضفت عليه ما فيه من السحر الحلال والروعة المثيرة. فاذا ما وقفنا عند المعنى الاشتقاقي لكلمة «مبدع»، نرى ان فرجيل لم يكن قط شاعراً مبدعاً، اذ كانت تنقصه الشاعرية الخلاقة. فقد ألبس «إينه» شخصية معقدة تثير البسمة على الشفاه، وعلى

هذا ، برزت ايضاً من شق قلمه ، شخصية جوبتير المهيب . وبالرغم مما تم له من حدة الذكاء ، فهو أعجز من ان يحرك العواطف في النفوس ما لم تحوّل عاطفته قراءاته ومشاهداته الى أحاسيس حية نابضة . وقـــد منعه طبعه الحيي عن إظهار خوالج نفسه بصورة بارزة إلا ما ندر ، وهي خوالج من الدعة والحنان تشوبها سحابة من الحزن أكثر منها عاطفة مشبوبة . فاذا ما عرف ان يسمو بعواطفه الى الأوج، فأمام رهبة الموت وامام البؤس البشري والاوصاب التي تترصد الانسان. وبهذا يُدوّي الصدى الذي أحدثه اثره الادبي المظلم ولا سيا ملحمته الخالدة الإنياذة . فكل شيء روماني فيها ، يبدو ، في ظلال هذه الملحمة ، مـع الدهر وكرّ السنين ، موعظة بليغة في الوطنية وحب الوطن .

فالانياذة والالياذة فرسا رهان ، لا بل صنوان في عملية صقل العقول وتهذيب الارواح . فليس من عجب ان تُنقل الى اليونانية ، وفي هذا النقل الباكر شهادة حق على قيمتها الكبرى ومنزلتها السامية . فحاول الشعراء القدامى ان ينهجوا دوماً على منوالها ، وان يترسموا ما فيها من أصالة في الشعر وعفوية . فها هم المسيحيون أنفسهم يقفون حيالها وقفة الخاشع امام الخشوع والتقوى التي شعّت من أغوار النفس عند هذا الشاعر الوثني ، وما تحلى به من وقار ديني يبعث النفس على التأمل. ولا يزال يزداد كل يوم عدد المعجبين بهذا الشاعر الملهم لما يأنسون فيه من خصوبة العاطفة ، ومن انعطاف السانح وترصّن ظاهري ، وحدب شغوف على كل ما ينبض بالحياة في الطبيعة ، وبهذه الابيات الشعرية العامرة التي تبعث الكبر في النفس والاعتزاز بالقيم الانسانية .

هوراتيوس والشعراء الوجدانيون

وهوراتيوس نفسه يبدو دونه منزلةً شعرية ، إلا انه في نظمه املك للصناعة الشعرية من فرجيل. فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تبرز للأنظار قدرته الواعية على قرض الشعر . فهو مشبوب العاطفة ، فياض الشعور، صادق في تعبيره ، متحمس للتغني بأمجاد أوغسطس العسكرية ، ملتهب الخيال لا سيا في القصيدة التي نظمها بمناسبة الاحتفالات بالسنة القرنية تعبيراً عن بهجة الجميع للاصلاح الديني والأخلاقي الذي جنّد له اوغسطس ملكه العريض وعمره المديد . هو ابن رقيق أعيدت اليـه حريته السليب ، ودخل الجيش ورُقي صدفة ، وهو يخدم في اليونان ، الى رتبة عالية في جيش قتلة قيصر ، ثم طارت شهرته بعد ان عانى ما عانى من مشقات وآلام ، وقـد عرف كيف يصون نفسه من العاطفة التي استسلم لها صديقه فرجيل . وقد نحت لنفسه نوعاً من الأبيقورية جاءت على هواه : مزيجاً من هذه الحماسية الناعمة ، واللذة المترفة الرقيقة على شيء من نفـاذ البصيرة والتهكم الساخر حتى من نفسه ، واللباقة التي عرف معها أن يحافظ على فرديته في تشابك هذه التيارات التي أخلت بتلابيب حياة العصر، اذ عرف ان يقف موقفاً وسطاً بين إرضاء مسراته والابتعاد عن سحر المدينة ومفاتن العيش فيها ، يفرغ أيامه في دارته ، المدين بهـا لكرم نصيره مكينيو وأريحيته . فلم يلته به تجرده الى المذهب التشككي وصانه من الاستعلاء والكبر . وكان يصدر في سلوكه عن حكمة واعية ، وهي حكمة تجردت من كل عاطفة وحرارة بحيث أحت به

الى الاثرة وحب الذات. فلا عجب أن تلقى عقلية من هذا النوع الكثيرين من المريدين والمعجبين حتى بين مجتمعاتنا العصرية . الا انه يبدو اليوم بارداً بعض الشيء . فالأهمية التي يتمتع بها جاءته من الدور الذي لعبه في تطوير مدينة رومـــا من الوجهة الجمالية . فقد أغنى الآداب اللاتينية بأهاجيه *Satires* وبأغانيه وأناشيده وبرسائله الشعرية ، وكلهـــا روائع اتصفت بالاتزان بين قريحته الفياضة وبيانه المقتضب ، ناحياً في ذلك منحى المُثُــل اليونانية والروائع الكلاسيكية التي صَدَّر عنهـــا ، دون العَبّ كثيراً من شعراء اللاتين القدامى أو من الشعراء الاسكندريين المتحذلقين .

وقد تأثر به كثيراً ، أكثر الشعراء المعاصرين لأوغسطس ، ممن وصلتنا آثارهم الفكرية ، أمثال: تيبول ، وبروبيرس ، واوفيد. ولا شك في اننا نظلمهم كثيراً ونتزل بهم حيفاً كبيراً اذا لم نصنفهم بأكثر من مقلدين ماهرين لهوراتيوس ، نهجوا نهجه وساروا على منواله . فقد امتاز شعرهم بالرقة والجزالة كما امتاز بالعاطفة المشبوبة وبهذه الحساسية المرهفة والخيال الجنح ، والنكتة المستملحة ، وبمقدرتهم الفنية في التعبير عن خوالج النفس الدفينة التي يعلوها تارة الفرح ، وطوراً مسحة من الألم الشاكي الباكي. فقد عالجوا ، باستثناء تيبول بينهم ، الموضوعات العزيزة على قلب اوغسطس ، وطنية كانت أم دينية . ومن مطالعة شعرهم يبرز أمامنـــا مجتمع دنيويّ ، زاهٍ ، ثقيف رقيق بلغ في تأنقه حدود الحقة ، وفي أدبه الأناقة والهيام .

هذا هو المجتمع الذي خرج منه أوفيد بعد ان حز الحرمان شديداً في نفسه وهو في بلدة تومي (كونستنزا اليوم) الى الجنوب من مصب نهر الدانوب ، حيث كان اوغسطس امر بنفيه وإبعاده بعد ان اشترك في مؤامرة دبرتها بطانة الامبراطور . وهكذا نرى ان الادب اللاتيني في روما الامبراطورية اخذ يتسم بطابع الصالونات الادبية .

الفن الرسمي

كان على الفن ان يلعب هو الآخر ، اسوة بالادب ، دوره البارز في الخطة التي وضعها اوغسطس للنهوض بالامبراطورية ، وحرص على الافادة منه الى ابعد حد . فهو يتبجح بانه تسلم مدينة من اللِبن وسلم مدينة من المرمر » . في الامكان الاعتماد على كتابه : « امور الحكم » لننظم قائمة طويلة من المباني والصروح الضخمة التي شيدها ، او رممها ، والمبالغ التي تبرع بها افراد اسرته او بعض اصدقائه الخلص لترميم او إنشاء عدد آخر من هذه المباني . ان رفيقه الاول في الجهاد ، أغريبّا الذي اصبح فيا بعد صهره ، كان عنده بمنزلة وزير الاشغال العامة او التعمير . فالانشاءات العديدة التي شيدها في روما كانت غاية في الاهمية ، فجعلت من هذه المدينة عاصمة تليق بعظمة العهد الجديد ، ثم راح كل الاباطرة الذين تعاقبـــوا على الحكم من بعده ، يتنافسون في تجميلها وتزيينها واستبدال الكثير من معالمها الاولى . ففي هذا المجهود العمراني الموصول الذي كان يوليوس قيصر نفسه اول من أخذ به ، والذي استمر العمل به طويلاً ، كان مُلك اوغسطس حلقة طويلة في سلسلة الحلقات التي استمر الاخذ بهـــا قروناً ، بحيث لا يجوز التغاضي عن التنويه هنا بهذا الفضل ونحن في معرض الحديث عن عصر اوغسطس .

اما في النحت والنقش ، فكان الامر بعكس ذلك ، اذ ان بعض آثار هذه الفترة ، ولا سيا تلك النقوش التي تزين « هيكل السلام » او تلك التي ازدانت بها تماثيل اوغسطس وعلى الاخص تلك التي قامت منها في قصر زوجته ليفيا في بريما بورتا ، على مقربة من مدينة روما ، فقد جاءت كلها منسجمة تماماً مع السياسة الثقافية والحضارية التي انتهجها الامبراطور ، كما جاءت متفتحة تماماً مع روح ادب العصر . الا ان هذه النقائش لا تم بعد عن بلوغ روما ، في هذا المجال درجة من الاستقلال تستطيع معها البروز والاكتفاء الذاتي . وهذه الآثار هي إغريقية في معالمها الفنية كما هي اغريقية في طريقة صنعها وانجازها ، لسبب وحيد بسيط جداً هو وجود الفنانين الاغريق بكثرة في روما اذ ذاك ، ولهم فيها القِدح المعلى من هذا القبيل ، اذ ان بقاء هذه الآثار غفلاً من اسماء الفنانين الذين تولوا صنعها ، انما يدل صراحة على وضعهم الاجتماعي المتواضع ، اذا ما قيسوا ، من هذه الناحية ، بالادباء الذين كانوا روح الندوات الادبية وراحها . فلم يكن من الصعب قط على اوليـاء الامر ، ان يوحوا لهؤلاء ، بما يرغبون فيه ، بعد ان يقيدوهم بالموضوع ، ويوجهوهم في انجازه وتحييزه الوجهة التي يرغبون .

وتبدو على هذه الآثار الفنية نزعة ظاهرة نحو الواقعية ونحو الحقيقة المجردة ، كل ذلك بما ينسجم مع اصدق التقاليد الرومانية . كذلك يبدو عليها نزعـة الى التجريد البطولي ، والى الرمزية الميثولوجية انسجاماً مع هذه التقاليد ايضاً . غير ان النزعتين الفنيتين هما في خدمة المشاعر الوطنية ، ملكية كانت ام دينية ، وتؤولان معاً ، وفقاً للروح المسيطرة على النظام الجديد بحيث تؤول الواحدة الى تقوية الاخرى ودعمها . فتمثال اوغسطس لا يصدم الحقيقـة الا بعري الرجلين ، وهو آخر الآثار الباقية من العري الكامل الذي لازم ابطال اليونان ، بينما تفاصيل التوغة تظهر بوضوح كلي وتُبدي الدقة الكلية التي لازمت صنعها . فهامة التمثال ، بالرغم بما يبدو عليها من المثالية المصطنعة ، استطاعت ان تحافظ ، مع ذلك ، على قسمات الشبه ، والتشدد في الحفاظ على المهابة والوقار يبرز واضحاً في النظرة التي تفيض بالوقار ، وبهذه المهابة الهادئة التي تُكشف من الوقفة . فرسوم الدرع النافرة تبرز قسمات هذه الوقار هي الاخرى ، لانهـا تستحضر في الذهن حدثاً تاريخياً ، هو إعادة احد ملوك الفارثيين ، العلم الروماني بصورة سلمية بعد ان استولى عليه العدو اثر هزيمة نزلت بفرقة رومانية ، في اواخر العهـد الجمهوري ، على الحدود الشرقية للامبراطورية . والرموز المجازية تطالعنا من كل مكان في هيكل السلام . فالاجزاء المتقطعة التي وصلت الينا من افريز هذا الهيكل ، تمثل هي ايضاً حادثاً تاريخياً آخر : موكب حاشد من جمهرة الشعب الروماني من شيوخ وحكام ، وموظفين وقضاة ، وعائلة اوغسطس يرافقون الامبراطور في مسيرة كبيرة لتقديم الشكر للآلهة ، عند رجوعه مظفراً ، بعد غياب طويل عن روما . فالواقعية التي تشع من خلال الملابس والوجوه والمواقف لا تمس بشيء الفكرة الاساسية الا وهي التفاف المدينة باسرها حول الامبراطور ، اذ ان الخاطرة الاولى التي تنط الى ذهن المشاهد هي القيام بعمل ديني هو تقديم الشكر .

ويحسن بنا ان نقارن هذه النقوش الفخمة بهذه التحف الثمينة الممثلة بنفس الحجارة الكريمة ،

كالحجر المعروف بـ : « حجر فيينا » الذي نُقش ، ولا شك ، في حياة اوغسطس ، بيد النحات الأسيوي الاصل ديوسقوريدس. والحجر الكريم الآخر المعروف بـ « حجر فرنسا » – وهو دون الاول منزلة ، من الوجهة الفنية – والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ حفره ونقشه ، ليس ببعيد كثيراً عن موت اوغسطس. وهذه التحف الفنية ، هي بدون شك ، من وحي الفن الهليني وإلهامه المباشر ، لتأييده فكرة الوراثة السلالية ، اذ شدد الفنان فيها على بعث فكرة تأليه الامبراطور . وفي حجر باريس صورة امير مسجى على سريره .

اما النقوش التي تتجه من نظارة واسعة فيبدو عليها تحفظ كبير ، اذ همها الأكبر هو ان تبرز الجلال الامبراطوري منسجماً مع العظمة الرومانيـــة ، وان توحي للرأي بأن كليهما من مشيئة الآلهة وصنعها ، ولذا توجب على البشر التقدم نحوها بالشكر . وهذه الموضوعات تتخلل بكثرة ، الادب والفن الرومانيين . فليس من المنتظر ان يسكب فيها نحاتون غير رومانيين ، روح التقوى والخشوع التي سكبها فرجيل مثلاً ، في قصائده . ان تشبيه مقاطعة غاليا ما قبل الألب بروما هو شيء آخر يختلف عن الخضوع ، حتى ولو كان خلواً من كل فكرة مضمرة ، الشرق الهليني . فلـــقد قام هؤلاء الفنانون بتنفيذ هذه الطلبات بشيء من المرونة والتفهم السيكولوجي الذي فيها دليـــل على ما أوتوا من مهارة فنية ، وعلى انهم الوَرَثة الخليقون بهذه السلسلة الموصولة الحلقات من هؤلاء الفنانين الذين أنجبتهم الكلاسيكية اليونانية .

٢ ـ الظروف والاوضاع العامة

فاذا كان العهد الامبراطوري استهل بمثل هذا الازدهار البديع للآداب ، فلا بدع ان ينتهي عصر اوغسطس بمثل هـــذه الكلاسيكية الإتباعية التي عرفنا . فذروة المرتقى برهة وتنقضي . فالحياة لا تتسمر مكانها . فاذا كان من التقاليد المتوارثة التكلم عن رومانطيقية نيرون ، فلا حرج قط من التحدث ، والحالة هذه ، عن حركة انتكاس ورجعة الى الوراء في عهد هدريانوس . غير ان هذا النوع من التصنيف يصح تطبيقه ، على ما يبدو ، على روما بالذات ، وعلى هذه النزعات التي عملت الدولة على تشجيعها . فالنتائج المسجلة ليست في نتائجهـا على شكل تلزمنا ، وفقاً الوضع القائم في عهد اوغسطس ، الاخذ بهذه النظرية الضيقة .

فالتيار الحضاري راح يتسع ويرحب جغرافياً واجتماعياً ، والمظاهر التي تلبسها لم تكن لتصدر عن رجل فرد او عن بطانته التي واجهت مشكلة سياسية ترتب عليها حلّها على اساس ادبي وطيد.

الثقافة والطبقات الاجتماعية العليـــا

هنالك بعد ، ولاشك ، نخبة تردفهـــا بدم جديد ، وتغذيها الطبقات العليا في المجتمع الروماني ، على نطاق أوسع من ذي قبـــل ، اذ تبقى ابوابها مُشرعة أمام فريق طيب مختار ، قائم في الولايات. والتربية التي تتلقاها هذه النخبة تصقل فيها الذوق الذي تحمله للآداب والفنون الرفيعة ، كما تذكي عاطفة جياشة

مستمدة من مبادئها ، وان لم يلازم النجاح والتوفيق نتائجها ، في كل ما يتصل بنتاج الفكر والفن . وهذه النخبة هي مناصرة العلم ، مشجعة له ، تتعهد حملته ورجاله ، وتحنو عليهم وتغمرهم بوابل من سخي الوجود وكريم العطاء، وقد وقفت من رجال الفكر موقفاً مشرباً بالعطف والرعاية دونها نظر الى فوارق الحسب والنسب ، والعرق والدين ، وان بدت الفنون نوعاً ما ، دونهم رعاية وعطفاً ، فأمنت لهم الشهرة الواسعة ، والصيت الحسن والحال الرضي . فمرتيال *Martial* يؤلف وحده استثناء القاعدة ، اذ بقي ، طوال حياته ، في كرب وعسر ونصب ، أصاره الى بسط الكف والاستجداء ، بينما تنفتح أمام الكاتب ابواب الرزق الحلال ، فيعيش من شق قلمه ، فيدخل عدد كبير من الكتاب الادارة ، ويساعد نجاحهم الادبي على الارتقاء سريعاً في درجات السلم الاجتماعي ليبلغ بعضهم مرتبة القنصلية . فقد لعب الفيلسوف سنيكا هنا دوراً سياسياً مرموقاً ، وتاسيت عهد اليه بمنصب بروقنصل آسيا ، كما ان بلين الأصغر عُين حاكماً لولاية بثينيا ، ونال فرونتون القنصلية مرتين .

ومهم الامبراطور كثيراً ، ألا ينأى أو يعزل نفسه عن هذه النخبة المثقفة . فأباطرة هذا العصر كلهم من كبار البناة، وقليلون جداً بينهم من لا يتذوق الأدب أو لا يرعى لرجاله وحملته حرمة . فالامبراطور كلوديوس نفسه مؤرخ كبير، فقيه باللغة وعلومها، بينما أخوه جرمانيكوس قد شمل بعطفه صاحب القصائد الفلكية : الشاعر أراتوس ده سولس *Aratus de Soles* . ونيرون نفسه ، ألم يكن ذواقة ، موسيقياً ، مغنياً ، وشاعراً . والامبراطور فسبسيانوس الذي لم يسمع أحد نعته بالكرم ، هو اول من عيّن مخصصات ومرتبات عالية ، بلغت أحياناً ١٠٠٠٠٠ سسترس، في السنة، أي ما يوازي مبلغ ٢٥ ألف فرنك فرنسي من العملة عام١٩١٤، تدفع من خزينة الدولة لأساتذة ، أحدهم استاذ الخطابة والبيان اللاتيني ، هو كونتليانوس ، والآخر استاذ البيان اليوناني، ودوميتيانوس نفسه الذي طالما استهدف لألسنة حداد فهتكت منه كل ستر مغطّى ، أسس الى جانب المباريات الموسيقية ، مباريات لفن النثر باليونانية واللاتينية ، لم تلبث ان استبدلت بمباراة الشعر تقام على شرف جوبتير الكابيتولي ، كل اربع سنوات . والامبراطور هدريانوس الذي كان هو نفسه كاتباً مجيداً ، عالماً ، فناناً ، امتاز بثقافة عالية ، مكنته من معالجة موضوعات موسوعية ، بينما عُرف الامبراطور الفيلسوف مارك اوريل بنزعته الروحانية ، العميقة التي شرّفت ليس الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً البشرية جمعاء .

وفي مثل هذه الاوضاع والظروف المسعفة ظاهرياً، والتي توفرت لروما ، راح مؤرخو الفلسفة والادب والفنون، يتساءلون بحق ، ومنذ عهد بعيد، عن الاسباب التي جعلت الحضارة الرومانية التي بلغت الأوج في السياسة والحرب لم تبلغ مثل هذا التسامي في المجالات الاخرى . فاذا كان العقل السليم يأبى الأخذ بهذه الأقاويل الفارغة ، وهذه الآراء السفسطائية التي جاؤوا بها ، باسم العلم تعليلاً لهذا التقصير ، فلا بد من التسليم مع ذلك بأن هنالك سراً لا نزال نجهله . فلا تفتّح الروائع الفكرية او فشلها الذريع يرتبط بسببية يمكن تعليلها على مثل هذا الشكل المبتسر .

كثيرون رأوا ، وما زالوا يرون ، على أنساب وأقدار متباينة ، ان النظام الاستبدادي الذي عمل به اذ ذاك ، هو المسؤول الاول عن هذا التنافر . النظام الاستبدادي

فكل الذين حاولوا ولا يزالون يحاولون تعليل هذا الشذوذ ، يقصرون تفكيرهم على الامبراطورية الرومانية وحدها . فاذا ما لاقت هـذه الطريقة ارتياحاً كبيراً لدى احرار الفكر في منتصف القرن التاسع عشر ، فهي تبدو مبتسرة جداً في نظر احرار الفكر ، في منتصف القرن العشرين. لا مراء بأن نظام الحكم في العهد الامبراطوري كان نظاماً مستبداً ، وكان من بعض نتائجه ان يحول دون قيام أية معارضة صريحة ، حتى ولو اقتصرت على مجال الفكر . من الثابت كذلك ان هذا الضغط الفكري تلبّس، في بعض الاحيان ، ولفترات طويلة ، ولعدة مرات ، في نظر كل من يقيم وزناً بعد ، لحرية الفكر ، مظاهر فظة ، وحشية ، حتى درجة التحقير . كذلك من الثابت اخيراً ، وليس آخراً ، ان علم التاريخ – هذا التاريخ الذي عرف بأخذه بالوجوه والسير مع الهوى والغرض ، بما لا يتفق ومقتضيات العلم الحديث اليوم ، أثار هواجس السلطات العامة وشكوكها . فقد رأينا اوغسطس ، في اواخر ملكه ، يأمر بحرق كتاب في تاريخ الرومان وضعه مؤرخ عرف بنزعته الموالية للعهد الجمهوري . وفعل الفعلة ذاتها الامبراطور طيباريوس مع مؤرخ آخر ، للسبب نفسه ، فأوذي صاحبنا واضطر ان ينتحر متخلصاً مما استهدف له مـن أذى وضر .

ومع ذلك ، فقـد عرف العهد فترات خف فيها الضغط الفكري ، ان لم يكن ارتفع . فالامبراطور فسبيانوس يهزأ بالهازئين وتنكيت المنكتين. وكثيراً ما سلق النقاد بألسنة حداد، تصرف وسلوك المتوفين من اباطرة هذا العهد . فسنيكا ، مهذب ابن الامبراطور كلوديوس بالتبني وخليفته على العرش (نيرون) ، تهكم بسخرية لاذعة على الامبراطور كلوديوس ، في قصة لا تعني كبير شيء ، وضعها عنه بعنوان *Apokolokyntosis* ، أي المستثنى من شراكة الآلهة ، اذ نرى الـ *Dirus* الحديث العهد لا يستحيل بقطينة ، أطلق فيها القاص الفيلسوف العنان للسانه السليط وقذف الامبراطور الراحل بقوارع الكلم . وعندما تستلم اسرة ملكية زمام الحكم ، كالأسرة الانطونية ، مثلاً ، تسترسل في قذف سابقتها في الحكم بأبشع النعوت . فلم يقف الأمر عند حد الهجو ، كما فعل جوفنال ، بل راح المؤرخون امثال تاسيت وسويتون يكشفون ، بكل صراحة وحرية في التعبير ، مساوىء القياصرة الراحلين ، وعوراتهم .

ولِمَ نقف في استعراضنا هـذا عند التاريخ وحده ؟ فأسوأ عهود الارهاب يفتح الباب على مصراعيه امام النامين والنفاثين ، فاذا ما جاؤوا من فنون الخسة والدناءة ما يجعل النفوس تتقزز لسماعها ، فلدى البعض من افانين البلاغة والبيان ما يؤهلهم التنويه بالفضل في تاريخ الخطابة . فالقضية هي اوسع من هذا بكثير وارحب، اذ انها تتعلق بجميع مظاهر النشاط الفكري والثقافي، حيث يمكن لبعض القطاعات ، ولا سيما لقطاعي الفن والعلوم ، ان تنعم برعاية صاحب الامر دون ان تخشى شيئاً على نفسها من رعاية ضاغطة او خانقة ، ولا من نزواته المتقمة . كان لا بد

من بوالو ليوجه ، الى شخص لويس الرابع عشر ، كلمة جاءت على لسان مرتيال بشأن نصراء العلم من شاكلة مكيني قالها إيهاماً لسامعيه ، بأنه : « سهل على اوغسطس ان يخلق رجالاً على مثال فرجيل » ، فهو حكم تصدمه الحوادث ويكذبه الواقع . كذلك من الجرأة بمكان ان يذهب المرء الى عكس الآية ، مهما كشٌ من كان على شاكلة شيشرون ، لدى التأكيد بأن باستطاعة اشخاص على مثال طيباريوس ونيرون ان يحولا دون بروز او ظهور اشخاص من عيار فرجيل ومنع تجلـّيهم . فاذا ما حاول المرء اطلاق مثل هذا القول على الحفـّارين او على علماء الفلك ، او على علماء التاريخ الطبيعي ، على نسبة ما كان يسمح العلم اذ ذاك بظهورهم ، فيكون مثله مثل من يتشبث بالمحال او يتعلق بحبال الهواء او بمخاط الشمس .

الشعوبية

يعلل بعضهم هذا الوضع بنظرية أخرى ، لا حرج عليهم قط باعتمادها اكثر فأكثر ، شريطة أن تكون على جانب من الاقناع او تعيد الفكرة الأساسية التي عالجها الكونت دو غوبينو *De Gobineau* في كتابه الموسوم : « بحث حول التفاوت القائم بين العروق البشرية » . وتشدد النظرية المشار اليها بنوع خاص ، على الشأن الخطير الذي لعبته الشعوبية في روما من جراء توافد سكان الولايات اليها ، من كل جنس ولون ، وما سببته هذه الظاهرة الاجتماعية من فقدان التوازن على الصعيد الإجتماعي في روما ، وما ألحقت بالوقار الروماني من انتقاص ، بعد أن كان هذا الوقار من السمات البارزة التي طبعت الحضارة الرومانية وفرّدتها .

ان علم الأجناس ، شأنه شأن علم تاريخ الحضارات ، يشجب بشدة الرأي القائل بأن التهجين أو الخلاسية مدعاة للانحدار والهبوط ، يجمع بين الشوائب أكثر مما يوحد بين المناقب . ففي هذا الانبساط أو التوسع العرقي والخلقي الذي شهدته روما والذي انتقصوا كثيراً من قدره بعد ما ألصقوا به من ابشع النعوت وأحطها ، لم يكن كل شيء ، بالطبع ، عاطلاً او سيئاً . فالهلينية حملت معها ثمرات جهادها وجهودها الطيبة . وهذه الفلسفات والديانات التي حملتها معها ونقلتها بما امتازت به من طابع شرقي أجنبي ، على ما بينهما من فروق أصيلة او عرضية ، مكتسبة او مستوردة ، أغنت ولا شك ، عقول القوم ، وأخصبت قرائحهم ، وأطلقت مشاعرهم . وليس ما يدل قط على ان فلاسفة اللاتين ومفكريهم وكتابهم فسدت منهم حيالها النفوس والاذواق . وعلى عكس ذلك تماماً نرى ، بشيء من الغرابة ان ما من واحد منهم ، باستثناء « ابوليه » لا غير ، تأثر بما انطوت عليه من جمال ، ولا حاول باي حال من الاحوال ان يعبر عن الخشوع الذي بعثته في قلوب اتباعها . فالفن نفسه ، باستثناء روما بالذات ، لم يجد فيهـا اي معين يساعده على التجديد والانبعاث .

اما الغرب ، فقد قدّم لروما ، عدداً من الكتاب وحملة الاقلام الذين بالرغم من اتخاذهم اللغة اللاتينية ، ليعبروا عن آرائهم ومشاعرهم ، كتابة وتكلماً ، لم يتخلوا قط عن ميولهم الفردية الخاصة ونوازعهم النفسية ، مع العلم انه ليس من اللائق ولا من الجائز قط ان يبادر المرء للاستنتاج ، بصورة لا تخلو من الاساءة ، استمرار الخصائص الاقليمية فيهم ومحافظتهم عليها .

فالامر لا يتعدى نزعات فردية ، شخصية ، لا يصح تعميمها الا اذا افترضنا فيهم اعتباطاً ، مهارة وقدرة خفي علينا خيطها الممدود . فقد كشف ، احد المعاصرين ، على ما قيل ، في لغة المؤرخ الروماني تيتـ ليف ، تعابير ومصطلحات لغوية ، إقليمية او محلية اللهجة ، من العسير جداً على العلم اليوم ان يلحظها او ان يتبينها لما نحن عليه من جهل مطبق لهذه اللهجة البدوانية التي رضعها تيت ـليف في حداثته . ولم نرَ احداً قط يدّعي انه وجد في عبارة فرجيل او عبارة بلين الاصغر – مع العلم ان تاسيت تشده الى ايطاليا الشمالية وربما الى غاليا الجنوبية وشائج متينة – ما يدل او يشير لغوياً ، الى ارتباط هذين الكاتبين ، بمقاطعة غاليا قبل الألب . فلقد كان لروما من قوة التمثيل والامتصاص ما استطاعت معه القضاء على هذه الخصوصيات . فلماذا يريدونها ، اذاً ، ان تفشل هنا ، وفي هذا المجال بالذات ، برسالة ومهمة قامت بها على الوجه الأمثل ، في جميع اطراف ايطاليا ؟

وقد راح بعضهم يتذرع بذرابة اللسان التي عُرِفَ بها الخطباء اللاتين الذين انحدروا من مقاطعة غاليا . فقد عدت منهم روما ، اذ ذاك ، عدداً كبيراً اصابوا فيها شهرة واسعة . اما ان نرميهم مجاناً ، بثرثرة سطحية ، فافتراء رخيص لا يستند الى دليل ، ولا يمكن ان يستحقه ، لا «دومتيوس أفير» الذي ينحدر اصله من مدينة نيم *Nimes* ، في فرنسا ، اذ تمت له في اواسط القرن الاول مكانة عالية في الخطابة عادت عليه بالصيت الحسن ، ولا الآخر يوليوس الافريقي الذي ينسب اصلاً الى مقاطعة سانتونج ، ولا هؤلاء الاساتذة الذين يصورهم لنا تاسيت في كتابه : « حديث عن الخطباء » امثال : يوليوس سيكوندوس الذي كد وجد ، وماركوس أبير الذي كان خير من مثل الخطابة والبلاغة في زمانه والذي جمع الايجاز الى الاعجاز واشتهر ببيانه المنطلق الذي يفيض حماسة واندفاعاً . كذلك ليس من الغلو في شيء ان نرى سنيكا وابن اخيه لوقين ، وكلاهما من مواليد قرطبـة ، في اسبانيا ، يبذلان جهداً ظاهراً التبريز في صقل اسلوبهما البياني لفت النظر والبروز الميان ، وهي من مفارقات الاسبان ، كما يدعون ، اذ عبثاً نحاول العثور على هذا الاسلوب عند غيرهم من الكتبة المنتمين الى مقاطعة اسبانيـا الشمالية ، امثال كونتليانوس ومرتيال . وهذا القول يمكن إطلاقه ايضاً على هذا الفريق من الكتبة المعروفين بالكتبة الافريقيين ، امثال فرونتون من بلدة سيرت (قسنطينة اليوم) ، وابوليـه مادور ، وترتليانوس القرطاجي ، مع ان الأول بينهم استثمر ما عرف به من بلاغة ومقدرة خطابية في روما ، بينما لم يُلمّ الآخران فيها الا لماماً . ولا يسع المرء الا ان يأنس عندهما ميلاً ظاهراً للغلو ، والعبارة المعقدة البناء ، المتماظلة التركيب . اما حماسة ترتليانوس المناضل عن المسيحية بحرارة وايمان ، فيقابلها ، من جهة اخرى ، المقدرة البلاغية التي يبديها مواطناه الآخران دونما طائل ، اذ تستحيل عند ابوليه ، الى شيء من هذه الرمزية المخلخلة . فهذه الاحكام العامة لا يؤبه لها ولا يؤخذ بها ، بعد تسليط هذه الاضواء الكاشفة عليها . ومهما يكن من الامر ، فليس من يعتقد ان هؤلاء الكتبة الذين وردوا على روما من الولايات ، اساؤوا بشيء الى هذا التجلي الذي تفتّح عنه النبوغ الروماني ، بما تم له من طاقات وقدرات كامنة فيه .

ولكي نصل الى صميم القضية ، علينا الا ننسى فهم الشجب المبطن الذي تخفيه كلمة «شعوبية» التي اطلقوها هنا ، وبهذه المناسبة بالذات ، ضد السياسة الثقافية التي انتهجتها روما . والتهمة الصريحة التي يوجهها اليها الناقدون هي أنها استقبلت بالترحاب الحار ابناء هذه الولايات التي سبق لها ودوختها وضمتها الى سيطرتها . لا يستطيع المرء ، على عكس ذلك تماماً ، الا ان يقدر عالياً هذه الروح الطلقة التي تميزت بها روما فراحت تحتفي بحرارة، بهذه العلوم والافكار ، والآراء والاذواق التي حملها معهم من ورد عليها من الخارج ؛ وهذا النداء الذي وجهته لجميع الناس ، الى اي عرق اوجنس او طبقة اجتماعية انتموا، وعلى اي مستوى كانوا، وهذه القابلية التي برهنت عنها في استيعاب هذه المؤثرات وتمثلها ؛ وهذه الحفاوة التي احتفظت بها الشرق الهليني ، والعون المؤزّر الذي بذلته الغرب المتخلف ، اذ ذاك ، عن ركب الحضارة فساعدته على قطع المراحل حثيثاً والحاق بالمستويات المسجلة ؛ ففي هذا كله ، تتجلى على أتمها امثل الفضائل التي حققتها الحضارة الرومانية فكانت مثار مجدها المؤثل، بالرغم من بعض الشوائب التي اعتورتها، فضفرت لها اكليلاً من المجد الابلج الذي لا يخبو له سناء ، مهما تراكمت عليه الدهور .

رهافة الذوق عند النخبة الواعية

وبدلاً من ان يصيخ المرء أذناً صاغية لهذه التمِلات المحمومة التي ظاهرها حق وباطنها بطل ، يحسن بنا ، ونحن نسجل توقف ، ان لم نقل افول ، هذا الازدهار الذي شرّف عهد اوغسطس، من الوجهة الفكرية والفنية على السواء ، ان نتبين ما كانت عليه النخبة في المجتمع الروماني العالي من ذوق رهيف ، بعد ان اصبح البحث عن اسباب هذا الوضع الجديد والدوافع اليه ، بمنأى من مناهج التاريخ وأساليبه . وهذه النخبة القليلة العدد نسبياً ، التي هي وقف على العاصمة روما او تكاد ، والتي تنعم بما تنعم به من ثراء عريض ، وبما هي عليه من ظَرف عالٍ وثقافة عريضة ، والتي تهفو منها النفس الى المتعة العقلية والمادية على السواء ، كما تهفو الى كل ما يزيد منها الحياة بهجة وبهرجاً من حلي في الخارج ولذة في الروح ، وكلها أمور هيات ، على ما يظهر ، هذا المجتمع لعبث النوادي وطيش الحلقات ، رأت نفسها مفطومة من كل غذاء ، ومقطوعة عن كل اتصال بدافع الحياة . صحيح هذا كله . ولكن ، ما الذي جعل الكلاسيكية تشيل في فرنسا وتنتصر على تيار التصنع والتحذلق ، دون ان يطرأ أي تغيير على المجتمع الفرنسي اذ ذاك ؟ والى هذا ، فليس من ميزة واحدة من بين هذه الميزات التي توفرت لعصر اوغسطس ، بقي معمولاً بها او متوفرة حتى نهاية الامبراطورية الرومانية العليا . فالارستوقراطية القديمة زالت وتوارت من الوجود ، بينما الارستوقراطية : الجديدة كانت تغتذي دوماً، وبدون انقطاع ، بعناصر جديدة طلعت من مجتمعات طبقية مدنية او اقليمية اوسع . ولم تكن اذواقها المكتسبة لتصدر عن نوازع وراثية، كما لم تكن ميولها ميول اصحاب الذوق الرفيع من أبنائها . وهذا البذخ الجنوني عند الخاصة ، استبد مرة واحدة ، في منتصف القرن الاول ، وفي عهد الاسرة الانطونية ، بينما لم تحدث هذه النخبة فيما نعمت به من غنى وثراء، كان ولا شك، على الاجمال ، دون ما تم من أمثاله النخبة

السابقة مثل، ما احدثت هذه حولها من جَلَبة وقرقعة. غير ان ما تميزت به من نشاط فكري وثقافي وتهافت على كل المظاهر الجمالية ، والاستمتاع بكل ما ينمّ عن ذوق رهيف في تعبيره الفعلي والفني، كل ذلك لم يطرأ عليه تغيير يذكر. وليس من اقل فضائل هذا العهد واخلاقيته، وهو شيء لازمها حتى نهاية التاريخ القديم ، ان تحافظ هذه النخبة من نبلاء الدولة ، نزولاً منها عند رغائب الأباطرة ، وان تقدم الدليل دوماً ، على تمسكها بهذه المناقب ، كما تحافظ على هذا المستوى الثقافي والحضاري الذي خُيّل لها انه بلغ سدرة المنتهى .

من الظلم الفاضح ، وأيم الحق ، ألا يقدروا هذه الحضارة حق قدرها ، كما انه من العَمَه ألا يلاحظ المرء هذا الصغائر التي شابت هذه الحضارة والتي لا يمكن الاشارة اليها كلها لكثرتها .

الاعجاب بالماضي

ليس من أقل هذه الصغائر شأناً، سوء الاستعمال في المعرفة او الافراط فيها الذي أدّى الى تفضيل آثار العهود الماضية العقلية باعتبارها أقوى وقعاً ، وأوفر متعة في النفوس . ولقد كان سبق لبعض الاغريق في العهد الهليني ان نَحوا هذا المنحى. ألم يلشئوا في مدينة «برغاموس» شيئاً يشبه المتاحف الفنية؟ وهذه النزعة العارمة نحو القديم والحرص على جمعه والاحتفاء به ، ظهر اول ما ظهر ، في روما بالذات ، اذ راحت تحفل بآداب الاغريق وتُقبل على تلقفها واستمرائها ، اذ لم يكن يوجد بعد آثار رومانية قديمة حَريّة بالاهتمام . وقد رغب اوغسطس بنقائش الاغريق وهذه النقوش التي كانت سبب شهرة مدينة كورنثس ، منذ القرن السادس ق . م ، ودفع طيباريوس ثمناً باهظاً لصور ورسوم من ريشة الفنان اليوناني برّاسيوس من مشاهير رجال الرسم عندهم في القرن الخامس بعد ان نزلت من نفسه منزلة عالية فضلها على رسوم أبَيل الاغريقي الذي عاصر الاسكندر . وهذا التصنيف لم يلبث ان استبد بالنفوس فاتخذوا منه منوالاً نسجوا عليه ، بحيث ان آثار بوليكليت وميرون صادفت تقديراً أعلى مما صادفته نقائش فيدياس . ومع ذلك ، لم يظهروا أي إعراض او ازدراء بالاعلاق الادبية الكلاسيكية ، حتى ما عاد منها القرن الثالث . وراح كل روماني على جانب من الثروة والغنى يلشيء له منها مجموعة شخصية ، فذهبوا في ذلك كل مذهب وغالوا فيه حتى خرجوا عن حدود العرف والمعقول ، واستهاموا بالآثار القديمة حتى حدود الهوس والجنون بحيث ان المهندس فتروف خطط في التصميم الهندسي الذي وضعه لمنزل نموذجي ، محلاً لحفظ مجموعة خاصة من الرسوم والصور يأتيها النور من الشمال ، كما عثروا في جميع أنحاء الامبراطورية على مخابيء لمجموعات من الجوهرات ، بينها مجموعة من ١٠٠ قطعة وجدوها في بوسكوريال، على مقربة من مدينة بومبيي، وعلى مجموعة أخرى من نحو ٦٠ قطعة ، في مدينة برتروفيل ، على مقربة من برناي ، من اعمال مقاطعة نورمانديا. ومهما بلغ انتاج الاغريق قديماً من الآثار الفنية ، ومهما بقي هذا التراث الفني متوفراً بالرغم مما تعرّض له على مر الدهر، من سلب ونهب، وتَلَفٍ وعبث، فلم يكن بالطبع ليَسدّ او ليُلبّي رغائب الهواة . ففي الحين الذي نشطت فيه حركة الاتجار بهذه المصوغات والمصنوعات الفنية القديمة منذ العهد الهليني ، راح النسّاخ والمقلدون يزيفون الكثير من هذه

النفائس لتلبية شدة الطلب لها وإشباع نَهَم الطامعين فيها، المتحرقين لجمعها بعد ان اشتدت حولها رغائب القوم وافتتنوا بها دونما حساب . والى جانب هـذه القطع المزيفة التي بلغ الزيف منها درجة من الدقة والاتقان ، بحيث اختلط على أمهر خبراء العصر اليوم ، التمييز بين الزائف منها والأصيل ، كما نشاهد ذلك ، مثلاً ، في صورة هرمس لبراكسيتل التي عُثر عليها في مدينة اولمبيا . فقد كانت معظم الآثار الفنيـة الجديدة تستلهم القديم من هذه النفائس والأعلاق فيها ، احتذاء بالامبراطور هدريانوس الذي افتتن بهذه الهواية الى درجة الهوس . غير ان الانجذاب نحو الماضي أتى فعله السيء على الجهود التي لا بد منها لتأمين مقومات النجاح لكل حركة تجدد وانبعـاث تروم الانفتاح وتسعى الى الانتشار لتبلغ النضج والتمام .

شيء من هذا الهوس ظهر في عالم الادب على اختلاف مجالاته وقطاعاته . فالى جانب روائع الأدب اليوناني الذي كان محط آمال وانظار من يحسنون اللغتين اليونانية واللاتينية ، توفر للادب اللاتيني محصول طيب سَهُل الحصول عليه لمن يرغب فيه . وقد أخذت المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصة يزداد عددها في روما ، بعد ان طلعت على الناس اول ما طلعت في عهد يوليوس قيصر بحيث اصبح عدد المكتبات العامة فيها ، في القرن الرابع للميلاد ٢٨ مكتبة . ومن ناحية اخرى ، اتاح توفر الارقاء والنساخ ، استنسـاخ الكثير وتضعيف العديد من الآثار الفكرية القديمة التي كانت من الكثرة والوفرة بحيث راح الناس يختصرونها ويؤلفون مجاميع من مقتطفاتها الأثيرة ، واكثروا من هذه المختصرات الأمر الذي افضى الى إهمال المطولات وتعريضهـا بالتالي للزوال ، كلياً او جزئياً ، وبذلك فقدنا الامكانية التعرف عن كثب ، الى آثار الآداب اليونانية واللاتينية . ولكن لم يكن الوضع ، اذ ذاك ، بلغ مثل هذا الحد من الخطورة . وعلى عكس ذلك تماماً راح الناس يتدارسون هذه الآثار وينعمون النظر فيها ملياً بشيء من الاحترام تجاوز التقديس الى الوثنية ، أفسد منهم الروح ، وبهّم المعنى المقصود بحيث اضطر المعنيون بامرها الى استنباط المعاجم الخاصة ، ووضع الشروح والتفسيرات والتعاليق الايضاحية ، للاساليب البيانيـة والتعبيرية ، بدلاً من ان يستوحوا منها موضوعات جديدة ، في معناها ومبناها ، والتعبير عن الاحاسيس التي يجب ان تفيض بها . وقد بلغ منها التبذل في التقليد والمحاكاة بحيث انتحلت شعراء وكتاب العصر الكلاسيكي . ونسج كثيرون على منوال الإنياذة عدداً من الملاحم الاسطورية ، فوضع سيليوس إيطاليكوس ، في عهد الاسرة الفلافية ، ملحمة أدارهـا على تاريخ الحرب البونيقية الثانيـة ، كما يقص لنا تيت ـ ليف خبر ذلك ، واضاف اليها اضافات كثيرة شيبيو الافريقاني الى الجحيم رغبة منه في استشارة ابيه والعمل بنصحه وهديه ، تشبهاً بإينه الذي راح من قبل يستفتي اباه أنكيز . وقد اوغل بعضهم بعيداً في هذه الحركة بحثـاً عن غذاء اكثر استساغة لاذواقهم . نرى ، منذ اواخر القرن الثاني ، كونتليانوس ، وهو على ما اشتهر به من تعصب الكلاسيكيين يتساءل عمـا اذا كانت دواوين الشعراء الاقدمين تفيد في تربية النشء الجديد وصقل اذواقهم . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يطرحوا على بساط البحث مثلاً كتاباً بشهرة شيشرون وفرجيل ايضـاً . ولم يتورع هدريانوس من ان يفاضل بهم كاتون وأنيوس . ففي

الرسائل التي ارسلها فرونتون الى تلاميذه من امراء الاسرة المالكة والتي لم يبخل لهم فيها بالنصح والارشاد حول الكتب المستحسن مطالعتها وقراءتها ، لم نره يأتي ، ولو مرة واحدة ، على التنويه باسم فرجيل . وفي النصف الثاني من عهد الاسرة الانطونية ، كان أنيوس موضوع تقدير الجميع كما كان له الكثير من الانصار المتحمسين والمريدين الاشداء . ويروي لنا «أولوجيل» وهو من المتعصبين لأنيوس ، كيف كان يثير حماسة سامعيه في احدى المدن الايطالية عندما يقرأ لهم في مسرح المدينة قصائده القديمة .

الانحرافات الذهنية

القراءات العلانية، هذا ما يطالعنا من مستحدثات العصر ومن عادات المجتمع التي أطلّت علينا من شيوع هذه الثقافة الادبية وانتشارها بين الطبقات الرفيعة من المجتمع الروماني ، اذ ذاك ، والذي يشير بجلاء ووضوح الى الاتجاه الذي اتجهته هذه الثقافة . وهذه القراءات العلانية *Recitationes* التي ادخل اسيليوس بوليون استعمالها في روما، لأول مرة في اواخر عهد الحروب الأهلية ، والتي جعل منها الرومان بديلاً لنظام المحاضرات التي عرفها الاغريق منذ عهد السفسطائيين ولقيت نجاحاً منقطع النظير بما أثارت ، لمدة طويلة من حماسة وألهبت من مشاعر . فقد عرفت ان تجمع بين المتعة العقلية وبين لذة اللقاءات الاجتماعية، كما وجدوا فيها عِوَضاً عن هذه المناقشات والمجادلات التي عفا كل أثر لها في المجتمعات والمؤسسات الادارية، ولا سيا في جلسات مجلس الشيوخ . وسواءاً تناولت هذه القراءات الشعر او النثر ، فلم يبق مؤلّف إلا وراح يقرأ تباعاً، على حلقات من المستمعين والمستمعات يتحلقون حوله ، كلما انتهى من وضع فصل او جزء من كتاب يعمل على وضعه ، فيحاولون ، بشيء من التمثيل المسرحي الرخيص ، كالتصفيق الداوي المأجور والالقاء المتصنع المصحوب بالاداء ، ان يثيروا اعجاب القوم، فينطلق الحضور والنظارة بالثناء والمدح الرخيصين، قبل ان يكتمل نشر الكتاب ويرى فيه المتمكنون من العلم . ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من أذىً يقع على فكرة التأليف المنهجي في الكتب الطويلة النفس ، كما ان هذه الطريقة أفضت من جهة أخرى ، الى اضاعة وقت الكاتب وهدره جزافاً في البحث عن النكتة المستملحة والتعابير المستظرفة ، والكلمات المثيرة ، والمجازات الغريبة ، والتوريات النابية ، والاستدارات المستهجنة والمفارقات الصارخة، والتراكيب المعبّر عنها بالمعادلات، وغير ذلك من حوشي الألفاظ والاوضاع التي تنبو عن الذوق السليم . كل هذا ظهر في ادب العهد الامبراطوري ، فصبغه بهذا البهرج الزائف وبهذا الطعم التافه الذي يمجه الذوق .

وهكذا ساعد هذا النمط من القراءات العلانية على تقوية هذه النزعات الجديدة التي طرأت على المجتمع الروماني ، فاستسلم لها منذ عهد بعيد . وهذا الانزلاق الى هذا المنحدر الأدبي ، هل نسأل عنه المرأة الرومانية التي رضعت افاويق هذه الثقافة وحلبت أشطُرَها فلعبت دوراً بارزاً في هذه الحلقات والصالونات الادبية ؟ انه لفخر أثيل لروما ان تسهل عتق المرأة بتحريرها اجتماعياً وفكرياً وثقافياً ، سيراً منها مع الحركة التي وجدت منطلقها في المجتمعات والمنظمات

الهلينية. ومهما يكن، فاذا كان الامبراطور هدريانوس هو خير من يمثل هذه الهواية التي استبدت برجال العصر ، اذ ذاك ، فليس المسؤول عن هـــذا التدهور او الانحدار الأدبي هؤلاء النسوة الدّعيّات المتحذلقات ممن شاركن حياة البلاط ، كهاتين الشاعرتين : بَلْبيلا *Balbilla* وتريبولا *Trébulla* اللتين اشتركتا في الرحلة الى مصر عام ١٣٠ ، وفيها ماتتا ونقش احد اشعارهما على حافة تمثال ممنون *Memnon* الى جانب أسماء الامبراطور وزوجته وعشرين غيرهم ممن اشتركوا في هذه الرحلة .

وهذه الهواية التي كانت تتم في الصميم عن فضول عام وحب اطلاع، حملت الناس على السفر والقيام بالرحلة الى الأماكن والأقطار التي كانت مثاراً للخيال بما يرافق تاريخها السحيق من أسرار ، كانت ملهمة لعدد من الكتب والأبحاث في مجالات الفن والادب ، حتى ان بعض الأباطرة راحوا هم أنفسهم يستعملون ريشة الرسام ومنقش الحفار . وهكذا اخذت تدفع الناس الى الاكتفاء بالسطحي من العلم والثقافة ، او الى التصنع في هذه الفنون التي هفت اليها اذواق القوم اذ ذاك ، كالادب مثلاً . فالظهور بالظرف وتكلف الذكاء في الصالونات ، وقرض بعض القصائد من مجزوء الشعر ، وتنميق بعض الرسائل او صقلها ببهرج الكلام والمحسنات البيانية والمجازية ، كل هذه السمات الصغيرة اخذت حق التقدم والصدارة على غيرها من الصفات الاصيلة في صناعة القلم . ولئلا نستفيض في هـــذه الشؤون ونسهب في تفاصيل لا كبير جدوى منها ، يكفي ان نحيل القارىء الى الاجزاء العشرة الأولى من رسائل بلين الاصغر ، اذ ان العاشر منها يؤلف مجموعة رسائله الرصينة مع الامبراطور ترايانوس . ففي كل صفحة من صفحات هـــذه الرسائل مثال حي لسخافة هذا الاسلوب الذي ينم عن اغراق الذوق الذي تثير قراءته مع ذلك ، اللذة لما فيها من رقة ومتعة .

نظام التربية اذ ذاك : الخطابة

من التقاليد المتعارفة ان نجعل نظام التربية التي خضعت لها الشبيبة ، اذ ذاك ، والتي كانت تُعنى ، قبل كل شيء ، بالبيان والخطابة ، مسؤولاً الى حـد بعيد ، عن الاتجـــاه الفكري بالمجتمع الروماني الرفيع ، في ذلك العصر .

بالفعل ان ايثار البلاغة والبيان ، كما نصح بذلك ايزوكراتيس ، منذ القرن الرابع ق . م ، وتفضيلها على سواها باعتبارها قوام الفلسفة الحقيقية وخير المناهج التربوية وامثلها يكوّن ، ولا شك في ذلك ، احد هـــذه الاقتباسات التي تعترف الحضارة الرومانية صراحة بنقلها عن الحضارة الهلينية .

فظهور النظام الامبراطوري في روما اوجد شروطاً جد ملائمة لازدهار البلاغة والفصاحة والبيان ، فجاء هذا الظرف شبيهاً بالظروف ذاتها التي هيأها لها منذ عدة قرون، الاخذ بالنظام الملكي في البلدان الواقعة الى الشرق من البحر الابيض المتوسط . فقد انقضى عهد هذه المجادلات والمناقشات التي كانت تدور امام المجالس والهيئات البلدية ، كما زال وانقضى عهد هـــذه الدعاوى

التي كثيراً ما تخللها قضايا سياسية كبرى . فعلى الخطيب ، الآن ، ان يلقي دفاعــه في نطاق ضيق وحول قضايا خاصة ، او ان يقصر دفاعه على خطب وهمية ، تقرأ ولا تلقى ، كما فعل ايزوكراتيس ، مع وجوب التقيد بالمبنى او المعنى أو بالشكل والصورة ، او ان يُسهم مع غيره من الخطباء في ما يلقى في بعض المناسبات كالاعياد والحفلات يضمنها الثناء العاطر للملك والتغني بمآثره وأعماله . وهكذا يبدو من غير المعقول ، كما يبدو مخالفاً للعرف والتقاليد المرعية في العالم الرومـــاني والعالم اليوناني ، على السواء، الا تتمم الخطابة بمثل هذا الشأن الخطير في النظام التربوي المعمول به ، اذ ذاك ، في العالم الروماني ، في الوقت الذي فقدت الخطابة كل اهميـــة عملية لها .

وكانت الخطابة والبلاغة والبيان خاتمة المطاف في النظام التربوي الذي بقي على ما كان عليه دون ان يطرأ عليه اي تبديل ، وكما انتقل الى البلاد اللاتينية كما هو ، وعمل به فيها على علاته . وقد أهمل في هذه التربية شأن العلوم فقنعوا منها باوليات الحساب بينما كان تدريس العلوم وقفاً على بعض الخاصة ، ينصرفون اليه بعد انتهاء فترة التعلم العام . والمنهج التربوي العـــام لم يكن ليهدف الا لتكوين ادباء وحمَلة اقلام ولا سيما خطباء ورجال بلاغة . وبعد التعلم الابتدائي الذي كان ينحصر في الأجرومية ، من صرف ونحو ، كان الطالب يُلقن بعض مبادىء الادب عن طريق تعريفه الى مشاهير الشعراء وآثارهم البارزة، امثال هوميروس وفرجيل، يحفظها الطالب عن ظهر قلبه مع بعض الشروح والتفاسير والتعاليق . والى هذه المبادىء في اللغـة والادب كان الطالب يلقن دروساً في المعجمية والشعر والنحو ، كما يلقن دروساً في الاخلاق والميثولوجيـا . وعندما يبلغ سن المراهقة يأخذ الطالب بدرس الخطابة وما اليها من بيان وفصاحة وبلاغة ، في شروح وتفسيرات تتناول كبار الكتاب والخطباء ومشاهير المؤرخين ، وأمثلة من الخطب التي ينحلونها والامثلة العديدة التي يتمثلون بها أو يأتون بها شواهد ، مع ذكر طائفـة من النوادر والنكات المستملحة التي تدل على سرعة الخاطر وحضور الذهن ، كان على الخطيب ان يطلع عليها ليستشهد بها . وتدريباً للطالب على فنون الادب ، كان يطلب اليه معالجة موضوعات غير واقعية ، فيعد لهـــا مذكرات تؤيد او تدحض ، كما يقوم بمذاكرات ومناقشات ، أو ان يقوم باعداد دفاع عن أمر ما *Suasoriae* . ولكي يلهبوا من طالب الخطابة الخيـــال ، ويبعثوا في مُحيّاه النشاط ، كثيراً ما كانوا يضعونه ، عن سابق قصد وتصميم ، امام مواقف خيالية أو اوضاع يواجه فيها صعوبات معقدة ، مستعصية الحل من الوجهتين الادبية والقانونية . ولم يكن ليهول الحكومة او ليحركها ما كان يبلغ مسامعها او ما يُنقل اليها من الدعوة الى الحرية أو التغني بها، او تحبذ من يدعون للطغيان والاستبداد في الحكم وغير ذلك من المبادىء الهدامة في ظاهرها مما تتجاوب ارجاء المدرسة أو المعهد باصدائه ، اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان هنـــاك من يستجيب لهذه الدعوة أو ينهض بها ، اذ لم يقصد من هذا القول سوى الارتياض العقلي والذهني ، والتمرج بافانين البيان .

وكان السواد الاعظم من الشبان الذين باستطاعة والديهم ان يكفلوا لهم اسباب التعلم يقتصر

على مثل هذا المنهج الدراسي ، وقليل بينهم من ينهض لدراسة الفلسفة . إلا ان التطور الذي رافق الحركة العلمية والتربوية أوهن كثيراً من الوشائج التي شدّت طويلا ، عند الاغريق قديماً ، بين الفلسفة، من جهة ، وبين الرياضيات وعلم الفلك، من جهة أخرى . فقد ازداد عدد مدارس الطب غير ان فريقاً كبيراً من الأطباء كان يتخرّج بهذه المهنة عملياً ، بالمراس والمران ، وذلك بالتحاقه ببعض الأطباء فيلازمهم ويأخذ عنهم. ومن فضل الرومان على تطوير التربية والتعلم، سبقهم غيرهم الى تدريس الحقوق والشريعة بمعاهد خاصة أنشأوها لهذا الغرض ، بعد ان تبينوا الأهمية الكبرى لهذا العلم. فدرجوا على إعطاء شهادة تخرّج في الحقوق لمن أنهى دراسته القانونية، وهو أمر لم يجر ما يشبهه في الطب . فاذا كانت هذه الشهادة تفتح امام حاملها ابواب الوظائف، فلم تكن مع ذلك بشرط أساسي لولوج الادارة ، كما ان ممارسة المحاماة بقيت دوماً حرة من كل قيد .

فليس بغريب قط ان تحتل فنون البلاغة والخطابة ، في مثل هذا البرنامج الطويل الهادف لتأمين الاختصاص ، محلا هاماً أكثر من اللازم ، لا سيا وقد خصوا البيان والفصاحة بدروس ارادوها على مثل هذا الشكل من التقعر والتطويل ، بعيدة عن الحياة العملية ، وهي دروس ادنى الى ادب الخيال والتخصص لا تقيم وزناً إلا للقدرة البيانية والصياغة الحرفية ، بعد ان قضت الظروف بابتعاد هذه الدروس عن واقع الحياة العملي، مما لم يغب يوماً عن أعين ايزوكراتيس.

وكانت هذه الدروس تهدف ، في الاساس ، للبحث عن الأفكار والكشف عنها والتنسيق فيما بينها ، وفقاً للتسلسل المنطقي ، والتعبير عنها بأناقة ووضوح ورشاقة ، اذ تمكن من تلقاها من مواجهة أدق المواقف وأصعب المهمات التي تعرض له. فهل حققت ، يا ترى ، الاهداف التي رُسمت لها ؟ ومهما يكن ، لا بد من الاعتراف هنا ما كان للتربية والتعلم عند الرومان من فضل ، اذ زودت الامبراطورية بالأطر والملاكات التي شغلها افراد تسلحوا بالعلم والمعرفة ، بالرغم من بعض النواقص التى شابتها والأمور المستهجنة التي اعتورتها ، وسلحتهم بفضائل ومناقب تمثلت على احسن وجه بهذه النخبة التي قامت على خدمة الادارة ، ونهضت بأسبابها .

هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا تتعلق بالسهولة التي يأخذ بها البعض في نقد هذا النظام التربوي فيرمونه بكل فرية. فاذا ما انتسخ هذا النظام مع روما القديمة، فقد كتب له ان يبعث حياً فيما بعد . فعندما نرسم الخطوط الكبرى التي سارت عليها هذه التربية فاننا نلمح ، ولو من طرف خفي ، الى النهج الذي تبنته الدول الكبرى في غربي اوروبا ، منذ القرن السابع عشر حتى اواخر التاسع عشر . فقد نسجت روما في هذا المضمار على المنوال الذي تسلمته من الحضارة الهلينية. فسلكها هذا انما يعني السير معها على المُثل السامية التي سارت عليها الانسانية، وليس مجرد التزام تقليد متبع ، وعرف مستبد . وبدون ان نحسب بان هذه المُثل قد زال عهدها وانقطع ، فبالامكان ، مع ذلك ، التزام مناهج اخرى تضمن تحقيق هذه الاهداف . فاذا ما راحت مدنية هذا العصر تتنكر لهذا الدّين الذي تحمله في عنقها والذي طوقها به الاقربون من الأنسباء ، فتكون بذلك قد أتت أمراً إدّاً واستهدفت بحق لتهمة العقوق ونكران الجميل .

من الانصاف ألا نُهمِل هنا التنويه عالياً بهذه الجهود التي بُذلت اذ ذاك ، لنشر الثقافة عن طريق المدرسة . فالاصطلاح الاداري نَحَتَ من عهد قريب كلمة : التعلم المدرسي *Scolarisation* ، وهو مصطلح يحمل بنا استماله تنويهاً بالحاجات المشتركة ، من جهة ، وبالحلول المتشابهة التي يعتمدونها لسد هذه الحاجات ، من جهة أخرى ، اذ لو صح ان المبادرة جاءت من افراد يكلفون بالتعلم ، فالادارة الحكومية استجابت بدورها لهذا الشيء الذي طلع حديثاً وشجعته .

ولا بد من ان نردد هنا ما سبق وقلناه من قبل وهو ان الفكرة ، ليست في الاصل ، رومانية ، بل هلينية . وقد قطعت الطريقة الجديدة شوطاً بعيداً في تطورها نحو التكتل ، سواء في الشرق او في الغرب الذي راح يضاعف الجهد ويلهب الخطى ويحث السير ، اذ كان عليه ان ينشىء كل شيء وان ينطلق من الاساس. فباستمرار الأمر الكبير على الاستعانة بمربين خصوصيين أخذ عدد المدارس يزداد ويتسع باطراد . وكان التعلم في معظم هذه المدارس تُعين له رسوم وأجور كما يعين للمعلم مرتب لا بأس به ، ان لم يوفر لمعلم الصغار مستوىً كريماً من العيش ، فقد أمّن لمعلم المدرسة الابتدائية دخلاً محترماً . أما أساتذة البيان والبلاغة فكانوا ، على الاجمال ، من اصحاب المقامات المحترمة في البلد . وكثيراً ما كان العبء الذي يقع على الوالدين يخف او يزول تماماً من جراء هبة او تبرع يقوم به احد الخاصة يُسبِّلُها على إنشاء مدرسة او مكتبة ، او يقفها على اقامة احتفال تذكاري ما ، او يخصصها لبناء نصب او مؤسسة من المؤسسات . وكان الاهتمام بهذه الوقوفات وتأمين ادارتها يقع على المجلس البلدي فيخصص لها من الاعتمادات ما يكفل لها حسن سير العمل ، ولذا راحت السلطة المحلية تضطلع بالاشراف على هذه المدارس ، وتختار لها المدرسين الاكفاء ، كما انها كانت تعين لها طبيباً تدفع له المرتبات لقاء سهرة على الصحة العامة في المدرسة او المؤسسة .

وكثيراً ما كانت المدن الصغرى تضطر أكثر من الكبرى لبذل مجهود أكبر من التضحيات ، في هذا السبيل بالنظر لما للأخيرة من عدد السكان وشهرة المعلمين ما يؤمن حاجتها من الاساتذة والمدرسين والطلاب . وهذا الوضع بعينه يفسر لنا كيف ان الادارة الامبراطورية لم تتدخل حالياً في الأمر إلا بعد تاريخ متأخر . فالاباطرة الذين لم يكن ليستطيعوا الاهتمام بكل المدن الصغيرة اقتصر اهتمامهم على شيء بسيط جداً في المدن التي كانت تدبر شؤونها بنفسها . ولكن إياناً ورميهم بالتهاون او عدم الاكتراث . فمنذ ان ضُمّت مصر الى الامبراطورية أرصدت في باب الموازنة الاعتمادات التي اقتضاها حسن سير المعاهد الثقافية والعلمية التي رأت النور في الاسكندرية في عهد البطالسة : كالمكتبة والمتحف اللذين ألفا معاً معهداً عالياً للآداب والعلوم والفنون جعل منها مجتمعة ، جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، في التاريخ القديم . وانصرف الاباطرة ، في عهد مبكر من النظام الامبراطوري ، الى تأسيس المكتبات في روما . وعندما اخذت هذه الامبراطورية ، في عهد الدولة الفلافية ، على عاتقها تخصيص مساعدات مالية ليس

الشؤون الثقافية فحسب ، بل ايضاً للمدارس الخاصة ، فقد استجابت في ذلك، لرغبتها الصادقة في إظهار عطفها وتشجيعها أكثر منها لواجب مفروض . فلم يكتف الامبراطور فسبسيانوس بتخصيص مرتبات ضخمة لاستاذين من اساتذة البيان والبلاغة في روما ، بل عمم مكرمته هذه على اساتذة الصرف والنحو والخطابة ، كما جعلهم يستفيدون من الاعفاءات التي تتمتع بها الأطباء منذ عهد اوغسطس . وعلى هذا سار ايضاً اباطرة الأسرة الانطونية . فقد حمّل الامبراطور مارك اوريل خزينة الدولة مرتبات أربعة اساتذة للفلسفة ومرتب استاذ للبلاغة والبيان ، في اثينا ، وهذه المرتبات كانت دون المرتبات التي كانت تدفع لأساتذة العاصمة ، اذ كان معدلها يتناوح بين ٦٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ سسترس (١٥ — ١٠ آلاف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، بينما كان يتقاضى الاستاذ في روما ١٠٠٠٠٠ سسترس . صحيح ان الدولة لم تذهب الى ابعد من هذا الحد في امر تمويل التعليم ، إلا انها اخذت تحث المدن على مضاعفة البذل في هذا الحقل . وهكذا لم تلبث المدرسة البلدية ان أصبحت المدرسة النموذجية .

وكانت الدولة تضع نصب اعينها في هذا كله تأمين تربية الذكور بنوع خاص، وقد ساعد تطور الاخلاق على التوسيع من الحريات للمرأة . وهكذا فلم تلبث ان قامت مدارس خاصة بالاناث ، حتى ان المربي الفيلسوف موسونيوس روفوس اخذ يتمنى ، منذ اواسط القرن الاول، لو سير في تربية الاناث على الخطة التعليمية او المنهج الذي تخضع له مدارس الذكور . ومن النادر جداً ان نرى المدن او بعض نصراء العلم يولون مثل هذه المدارس اهتمامهم او يخصّونها بمكارمهم.

بين الثقافة والسياسة : الاهداف والنتائج

لم تكن قضية تعليم الذكور لتخفي وراءها أو لتبطن اية فكرة سياسية . فلم يبد اي مسعى أو أية رغبة ، من اي نوع للالتزام بتفسير معين للتاريخ او لفرض أية نظرية او فلسفة ملكية ، استبدادية ، على المدرسة . وعلى عكس ذلك تماماً ، كان العرف، التشديدَ عموماً ، على موضوعات تتصل اكثر بطبيعة النظام الجمهوري . فاينما أجلنا الطرف وجدنا هيئات وجمعيات للاحداث *Juvens* تشبه الى حد بعيد، ما عُرف عند الاغريق بمنظمات الفتوة *Ephèbes*. واقتصر نشاط هذه الهيئات على احياء حفلات واقامة اجتماعات تكريمية تتجه من الامبراطور، باستثناء الجمعيات أو المنظمات التي قامت في مناطق الحدود ، اذ كان نشاطها يُصرف في وجوه الرياضة البدنية والتربية العسكرية . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه المنظمات توفر لأعضائها أسباب اللهو والتسلية والتفريج . وتبدو هذه المنظمات اذا ما قارناها بشبيهاتها في عصرنا اليوم ، بدائية للغاية ، عدا عن انها اقصرت عضويتها على شباب الطبقات الرخية . وموجز القول ، فالامبراطورية لم تكن لتصدر، في التربية كما في غير قطاعات من شؤون الفكر ، عن نزعات اجماعية ، دكتاتورية ، عرفنا منها نماذج عدة خلال التاريخ الذي يحدثنا بشيء من الاستفاضة عن التربية في سبارطة قديماً بحيث لم نعد نجهل شيئاً من اسبابها بعد اليوم . فاذا ما حاز هذا النوع من التربية رضى البعض وفاز باعجابهم ، فقد اعتُبرَ مع ذلك قاسياً ، منفرّاً بحيث كان الاغريق اول من اعرضوا عن هذا النهج ، بحيث لم يخطر في بال احد ، في روما ان يتبنى مثل هذا النهج أو ان يقتبس منه ، لعدم صلاحه .

من الخطل في الرأي الظن بان المؤازرة التي بذلتها السلطات العامة في جميع درجاتها ، لتطوير الاسرة انما صدرت عن اهداف مجردة . فقد انطوت حتى عند اكثرهم اخذاً بالمبادىء السامية من اصحاب مذهب الرواقيين ممن تحمسوا بسمو واجباتهم، على أمر مروم ومنفعة يُسعى اليها، فهي تقوم وترتكز على هذه المعطيات الاولية التي تُسلّم بان الامبراطورية الرومانية والحضارة امران متلازمان مترابطين لا يمكن فصل الواحد عن الآخر، بعد ان اخذت الامبراطورية على نفسها صيانة هذه الحضارة والمحافظة عليها من عوادي الدهر وعبث البرابرة ، كما ، انه اصبح مترتباً على كل مواطن روماني ان ينعم باسباب هذه الحضارة عن طريق التربية وان يُخلص لها الولاء ، وان يكون دوماً على اتم استعداد لمناصرة الامبراطور والشدّ منه الازر في كل ما يبذ له من الجهود للدفاع عن المصلحة العامة وتأمين الخير للجميع .

من يعرف الى اين انتهى الامر بهذا التطور يدرك جيداً ان هذا الحسبان كان باطلاً اذ ان النجاحات التي حققها التطور لهذه الامبراطورية لم تحُل قط دون تفسخها وانهيارها . وهذا التفسخ والانهيار الذي أتأمته جاء نتيجة منطقية لاسباب خارجية تمثلت في هذه الغزوات المتلاحقة التي شنها عليها البرابرة في أمواج متتالية ، ولاسباب داخلية ايضاً ، ولا سيما لسبب سلبي يبرز من خلال تملي النظر في هذه السياسة الثقافية التي سارت عليها الامبراطورية ، بالاضافة الى الاعتبارات الاخرى التي طالما اشرنا اليها في تضاعيف الفصول الماضية .

فالتعليم الملزم محدوداً اقتصرت على سد حاجات الادارة ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية ، والبنيان الاجتماعي الذي ساد المجتمع اذ ذاك . فهو ان اشبع ، أو سد مطلب المدينة فقد قصر كثيراً عن اشباع حاجات الولايات والريف. هنالك امثلة فردية قليلة جداً على قيام بعض مدارس في الاقاليم التي قامت فيها المناجم والمعادن . ويستدل من نصب رسمي ان هنالك مدارس قامت ايضاً في ما اصطلحوا على تسميته بـ *Vici* ، وهي كلمة اطلقوها على بعض مجتمعات او اوساط اختلفت شأناً واهمية فيما بينها ، فلم يكتب لها ان ارتقت الى مرتبة حاضرة او قاعدة القضاء . ومهما يكن من امر هذه المدارس ، فهي لم تؤمن سوى تعلم ابتدائي متواضع ، ولم يكن لها ، بالتالي ، اي شأن في القضاء على اللهجات المحكية المباعدة أو التخفيف من حدتها . صحيح ان باستطاعتنا ان نشاهد بعض اساتذة اعلام للصرف والنحو والبيان في مدن الغرب المتواضعة ، اذا ما قارناها بالوضع الذي قام في الماضي . ومهما بلغ من اتساع الجهد المبذول في هذا المجال ، فهو لم يتناول سوى قسم ضئيل جداً من سكان الامبراطورية . ولكن التوسيع من نظام التعليم بحيث يتناول اكبر عدد ممكن يقتضي له مبالغ طائلة لم يكن بوسع الامبراطورية ولا في مكنة منظماتها تقديمها ولا تحملها ، كما كان يقتضي، على الاخص مفهوماً آخر للمجتمع ونظرية جديدة للحضارة لا تحتل فيها المدينة روما مركز الصدارة الضاغط . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تبقى جمهرة السكان في الريف غير مبالية ولا بمكترثة لمصير حضارة اهملتهم فاسقطتهم من حسابها وكادت لا تشعر بوجودهم .

وهكذا باءت بالفشل الاماني العِراض التي دغدغت خيال احسن الاباطرة وراودت خواطرهم

ولم يكن معدٌ من هذا المصير المحتوم ولا محيصَ منه ، مع انه لم يكن لعمري ، في الأمر شيء عسير او بمستحيل ، اذ يكفي ان نتذكر النجاح الذي حققه لدى قسم من سكان الامبراطورية . فالعناصر المدنية ، أينما كانت ، انضمت صادقة لهذه الحركة . فالتطور التدريجي الذي اخذت هذه العناصر بأسبابه وئيداً ، جيلاً بعد جيـــل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية ، وطلبها الثراء والغنى وانصرافها نحو الوظائف البلدية وهو البـاب المفضي الى طبقة الأشراف الجديدة ، رافقه تطور ثقافي وفكري . وهذه الحركة التطورية عولت على التربية واتخذت منها عماداً لها، ومكـّنت لها الاسباب في المدن اذ كان في مقدور هذه المدن وحدها ، بسبب ما لها من موارد طائلة ، ان تؤمن وسائل التعلم والتربية ، اذ ان التعلم كان الشرط الاول الذي لا بد منه لمن يبغي دخول الوظيفة والتدرج الى أعلى درجاتها . وهـــذا بعينه أتاح للنخبة المثقفة التي بيدها تصريف الامور ان تنصهر بعضاً ببعض ، وان تقيد ، على نطاق واسع ، بالرغم من اختلاف مصادرها وتباين المناطق التي خرجت منها، من مصدر واحد يغذيها . ولذا رأت الامبراطورية نفسـها مدينة لهذا الوضع القائم بكل ما اتصفت به من اتحاد وتضامن ، من الوجهـــة المادية والادبية على السواء .

الوضع اللغوي

فوحدة اللغة كانت أمثل رمز لهذه الوحدة . غير ان حكومة الامبراطورية لم تجعل من الوحدة اللغوية هدفها الاول لأنها كانت امام لغتين مختلفتين الثقافة اذ ذاك، ولم يُبدر في خلدها قط ان تعتمد الواحدة منها دون الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة القومية ، وكل شيء كان يؤهلها لتصبح اللغة الرسمية الوحيدة التي لا بد منها لوحدة الامبراطورية . غير ان اللغة اليونانية كانت هي الاخرى ، تنعم بنفوذ فكري وتكوّن قطب جذب لا يستهان به . فمنذ القرن الثالث ق . م ، كل الذين كانوا على شيء من النفوذ في روما ، كانوا يدرسون اليونانية ويحاولون تجويدها منذ حداثتهم الاولى بحيث كانوا يحسنونها كلغتهم الام ، مستجيبين في ذلـك لمقتضيات الادارة والثقافة، على السواء . وهذا ما حدا بالجماعة البحث عن طريقة واحدة للعيش المشترك . وفي هذا السبيل ، قام الرومان بتضحيات واسعة تجاوز بعضها المعقول ، وفي ذلـك دليل على ما كانت روما مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على هـــذه الحضارة التي كانت تشد عليها بالنواجذ .

وقام في الامبراطورية حد لغوي انشطرت معه الى شطرين متناظرين ، وان تعادلا تقريباً ، هما : الشرق الهليني والغرب اللاتيني . اما الى الجنوب من البحر المتوسط ، فقد وقع هـذا الحد بين مقاطعة القيروان وبين ولاية افريقيا التي تبعتها مقاطعة طرابلس الغرب ، ولم تلبث اللاتينية ان غزت صقلية وايطاليا الجنوبية بعد ان كانت ارضاً يونانية اللغة من قبل . اما في البلقان ، فالحدود بين الشطرين انطلقت من شمالي مقاطعة أبيروس ممتدة نحو الجنوب من مجرى نهر الدانوب الى سواحل البحر الاسود . واستقرت على هذا الشكل بفضل مرابطة الجيش في المنطقة، باستثناء بعض تغييرات طرأت فيما بعد .

وكل من هاتين اللغتين: اللاتينية واليونانية،راح بدوره يعمل على كسب مجالات جديدة محاولاً السيطرة على اللهجات المحكية محلياً . وبدلاً من ان تحاول روما الحد من اللغة اليونانية ، راحت تعمل على تأمين انتشارها ، اعتقاداً منها ، وبحق ، ان كل كسب تحققه في البلدان المتخلفة في تطورها الفكري والثقافي انما يعود عليها هي بالمنفعة والخير العميمين . وهكذا استطاعت اللغة اليونانية ان توسع من نطاق النجاحات التي حققتها منذ العهد الهليني . وبفضل هذه المؤازرة من جانب روما تمكنت اليونانية من ان تكمل ما ابتدأت به قبل الاسكندر بكثير الا وهو السيطرة ، لغة" وثقافة" ،على مقاطعات آسيا الصغرى. اما في سوريا ومصر ، فقد شهدت طلوع مدن لم يكن عددها ، مع الأسف ، كافياً بحيث تتغلغل بصورة قاطعة في الريف . غير ان ترك اهل الريف وشأنهم أظهر لنا واضحاً الدور الذي لعبته كل من اللغة السريانية ، احد فروع الآرامية ، واللغة القبطية احد فروع المصرية القديمة . اما اللاتينية في الغرب ، فلم يأت نجاحها نهائياً كاملاً، في كل مكان ، للاعتبارات ذاتها . فقد غزت اللاتينية شبه الجزيرة الايبيرية واستبدت بها. اما في غاليا، فقد زالت اللغة الكلتية من الاستعمال ، الى ان اعاد اليها شيئاً من النشاط الرهبان الارلنديون في مقاطعة الارموريك، وبقيت جارية الاستعمال في بعض مناطق الريف حتى القرن الرابع للميلاد. اما في افريقيا فقد اندرست اللغة البونيقية كلغة عكية ، على الاقل ، منذ مطلع القرن الثاني . ولعل آخر استعمال لها يبرز في هذه الكتابة الثنائية اللغة، المسماة *Leptis Magna* المؤرخة عام ٩٢ للميلاد . إلا ان اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة ، ولا عبرة قط هنا للنعت : « بونيقية » عندما يشير القديس اوغسطينوس ويقول ان اللغة المحكية في عهده في ضواحي هيبونة كانت البونيقية ، فالاصطلاح يجب ألا يؤخذ هنا بحرفيته . وبقيت البربرية الليبية قيد الاستعمال في ليبيا الى يومنا هذا . وهكذا ، فكل توسع تسجله احدى هاتين اللغتين ، يجب رده ، في الدرجة الاولى الى الإشعاع الثقافي الذي انطلق من المدن وحواضر البلاد الكبرى ، في هذا الوقت او بعده بقليل .

ومؤازرة السلطات العامة الرومانية لليونانية في تأمين انتشارها وتوسعها ، انما يدل بوضوح على ما اتصف به اولو الامر في الامبراطورية، من عمق التفكير والتفهم الصحيح للاوضاع القائمة، وهي مؤازرة تبدو على وجهها الصحيح في موقف السلطة من هذه اللغة وسلوكها معها . كل الدلائل تدل على ان الادارة الرومانية أبت ان تلزم الاغريق الأخذ بتعلم اللاتينية واستعمالها في معاملاتهم اليومية ومخاطباتهم كأنما يخشون فرض شيء ينتقص من كرامتهم ،'محط لهم . كذلك لم يكن بالامكان ، من جهة ثانية ، ان يتخلى الرومان عن هذه الإزدواجية اللغوية التي قامت عليها ثقافتهم ، وعوضاً من ذلك راحوا يفتشون جاهدين عما يؤول الى تأمين حياة مشاركة وتعايش تعاوني . ففي هذا القسم اليوناني من الامبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية وحدها اللغة الرسمية في الجيش والقضاء ، مع العلم ان المناقشات والمرافعات القانونية التي كان يقوم بها المحامون كانت تجري باليونانية مباشرة دون ترجمة . وفي ما عدا ذلك ، عوّلت الادارة دوماً على اليونانية ، كما ان الديوان الامبراطوري في روما ، كانت فيه دوماً دائرة يونانية لتضعيف

خ بهذه اللغة ايضاً . لمن كان يرغب بين الشرقيين في احتراف مهنة ما في روما كان عليه
م اللاتينية ، وهوامر لم يقبلوا عليه الا متأخرين ، أي منذ القرن الثاني فقط . وعلى عـ
ك ، فقد وجدت روما في الشرق ، منذ مطلع الامبراطورية ، موظفين اكفاء احسنوا اللا
ودوها ، كما ان نوع التربية التي سادت في البلاد اذ ذاك ، أمّن لها دوماً حاجتهـــا من م
ظفين . ففي الامر التربية ، كان المربون الخصوصيون من اهل الشرق ، من الكثرة والو

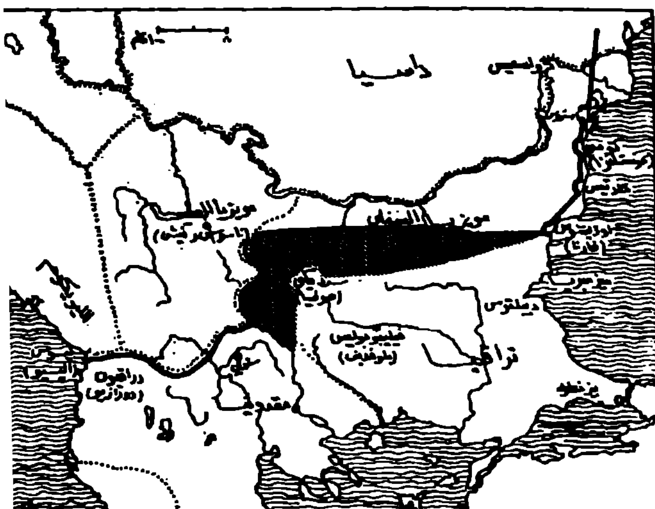

الشكل ١٢ – مواطن اللغات وحدودها

الخطوط المتكسرة تشير الى المناطق التي انتشرت فيهـــا اللاتينية في القرن الثالث . اما في الجنوب فالمستعمرات التي أنشأها الاباطرة للمعمرين اللاتين ، امثال ديراكيوم ، وستوبي وديلتوس ، فقد اتخذت اللغة اليونانية أداة التعبير .

ث لم يقلوا بشيء عن المربين اللاتين . وفي روما بالذات احتل الشعر والبيـــان باليوناني
المدارس وفي المباريات الادبية ، المنزلة ذاتها التي كانت للشعر والفصاحة والبيـان باللاتي
ن مدرسون اغريق يعلمون الصرف والنحو والبيان في كل الولايات الغربية . وكان من يرغ
بية في متابعة دروسه العالية ، يذهب لمرسيليا التي كانت تفتخر بمحافظتها على نصاعة ا
نانية ، وعلى الثقافة الهلينية التي عرفت ، في هذه الحقبة بالذات ، حركة تجدد عادت
دهار والاشعاع ، او يذهبون لاثينا كما فعل ابوليه الافريقي وغيره كثيرون . فلانتشار
كة واستمرارها طويلاً عاد بالثناء العاطر على هذه المجتمعات الغربية التي كان معظم
البلاد وكان عليها ان تجدّ في السير وتقطع المراحل بسرعة في سبيل تحقيق التطور المرغ

ومن المستغرب ، وأم الحق ان يقتصر الاتصال مع الحركة العلمية الهلينية إجمالا ، على نتائج جاءت في معظمها سطحية . فما مثل هدريانوس ومارك أوريل سوى نجاح يمكن اعتباره استثناء من القاعدة . غير ان الجهود والنشاطات التي بذلت في هذا المجال ادت ، على الاجمال ، الى نتائج لا يجوز الانتقاص منها او مقابلتها بعد طرف اللسان . فليس نرى بين المدنيات الحديثة ما استطاع ان يعطي على مثل هذا القدر من العطاء، وعلى مثل هذه النسبة من العظمة او اعطت بالفعل شيئاً يصح مقارنته بما اعطته روما في هذا المضمار .

ثقافة ووحدة ، كل هذه النتائج التي سجلناها هنا تثبت كيف ان قسمة الامبراطورية من الوجهة اللغوية ، لم يُفض الى انقسامها ، وهو انقسام تم بعد ذلك بكثير . فالحدود اللغوية التي قامت الى الجنوب من البحر المتوسط ، أصبحت بعد وقت طويل ، حدوداً سياسية . وهـذا الفارق اللغوي لم يؤلف في هذا الإنقسام، سوى سبب فرعي او عذر ثانوي افادت منه واستثمرته، على نطاق واسع ، القوى الدافعة عن المركز ، كما يفيد الصقيع من تخاريب الصخور حتى اذا ما جمد الماء فيها عمل على تفسخها وفلعها ، والا لبقي بدون أذى . اما في شبه جزيرة البلقان ، فالحدود اللغوية الفاصلة لم تكن لتلتقي. وهكذا نرى ان استعمال اللغتين معاً طيلة اجيال متطاولة لم يؤد الى شيء من خلخلة وحدة الامبراطورية .

ولهذا السبب ، فالمشكلة اللغوية ، لم تكن سوى وجه من وجوه مشكلة الثقافة العامة . والحل الذي لاقته هذه الاخيرة ترك اثره في حل القضية الاولى وزادها تعقيداً . فاذا كانت إزدواجية اللغة ، والحالة هذه ، وضعاً لا مندوحة لسكان الغرب ، في الامبراطورية الرومانية ، للاخذ به ، فلأنهم رأوا في هذه الازدواجية عاملاً يشد من وحدتهم ويزيدها تماسكاً ، وذلك توخياً منهم الوصول للمستوى الثقافي الذي بلغه الاغريق في الشرق . وهـذه الوحدة اخذت تتحقق في المجالات الاخرى من الحضارة، تارة ونبداً ، وطوراً بصورة سريعة ، حثيثة. وكانت تنهج ، فيما يتعلق بالدين مثلاً ، سبلاً حاول الاباطرة صدها أو الحد منها ، بينما راحوا كلهم يناصرون هذه المساعي ، عندما كانت تتعلق بامور الفكر والذوق الفني ، وكلها من توابع الكلاسيكية اليونانية ومن مشتقاتها ، التي لم تكن مستوردة كهذه العبادات والطقوس الدينية التي وردت على الغرب من الشرق البعيد، والتي اقبل الشعب الروماني يتلقفها ويتبناها ، بينما تلك كانت من صميم الثقافة التي لم يكن احد ليجرؤ على الانتقاص من كرم محتدها أو الحط من منزلتها السامية . والحقيقة ان الكلاسيكية اليونانية بعيدة لم يطلع عليها الرومان الا من خلال الشروح والتفاسير والتعاليق التي وضعها كتاب العصر الهليني . واي ضر او بأس من هـذا ، يا ترى ؟ فالكل رأى في هذه الثقافة الفنية والفكرية التي طلع بها العالم اليوناني ، الثقافة الحقة التي يتوجب على روما اقتباسها وتبنيها ونشرها كعنصر ضام ، موحد لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي انشأتها .

فاذا ما تعرّف الغرب الى هذه الثقافة وأقبل عليها ورضع أفاويقها فالفضل كل الفضل في

ذلك لروما وحدها . فقد أشرنا مراراً الى النجاحات التي حققها انتشار هذه الثقافة في الغرب . كذلك نوهنا بخواء الابحاث التي تتطلّع للقيام بها بعض المفكرين من رجال هذا العصر ، وعدم جدواها . كذلك لا بد من بعض التحفظات التي لا بد من الاعراب عنها هنا والتي لا تتعارض ، مع ذلك ، مع الشيء الذي جئنا به أعلاه ، إلا بصورة ظاهرية ، لأن الخطر المزدوج الناتج عن تجريد النخبة ، من جهة ، ومن سخافات الجماهير من جهة أخرى ، يكون خطراً على الثقافة كا عليها خطر من هذه التفاهات وهذا الاطراد والمحاكاة والفوضى على أشكالها التي تتحالف عليها. وهنا كا في اي ثقافة أخرى في أي زمان ومكان ، فإلى جانب انتاج النخبة المثقفة ، نرى الانتاج العادي جيء به طبقاً لأذواق زبائن يؤلفون الغالبية التي لم تُصقل منها الاذواق : فكان ان انحط المعدل الوسط ، لا سيا في ما يتعلق بالانتاج الفني . ومن جهة أخرى ، فهذه الثقافة التي جاءت من فوق ، ومن بعيد ، لم تكن لتمثل سوى ثقافة جماعة اقتُلعوا من بيئتهم وانقطعوا عن كل اتصال مباشر بالجماهير ، حيل بينهم وبين كل غذاء دسم تؤمنه تربة أصيلة . فلا يجوز ، والحالة هذه ، إلا ان نتصور ، ولو بالخيـــال ، ما عسى ان تكون عليه النتيجة لو استُعملت وسائل أخرى. والشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو ان هذه الوسائل كانت ستفضي الى وحدة مملة في السياقة دون ان تتمكن من انتاج أي رائعة من روائع الصف الاول .

وهذه الملاحظات التي لم يكن بد من إبدائها هنا والتي أبديناها بالفعل ، لا تمس بشيء عظمة هذا المشهد الذي يستبد بنظر المؤرخ ، الا وهو هذا الاجماع ، وهذه المطابقة التي اتصفت بها جهود الطبقات الموجّهة ، العديدة ، والقابلة للنمو والازدياد ، والاستجابة التلقائية التي لقيتها نداءات الاباطرة ، لدى النخبة بين رعايا الدولة في جميع الولايات . وهذه الامبراطورية الضخمة التي تألفت في البدء من أشتات متباعدة ، متنافرة ، وعلى جانب كبير من البربرية ، أقله في مطلع أمرها ، والنازعة الى الوحدة عن طريق نشر وتعميم ثقافة واحدة ، مؤتلفة ، هي أعلى وأمثل ما عرفه الانسان او مـــا حلم به عبر التاريخ حتى الآن ، وهذا الايمان الذي اختلج في صدور الجميع بأن هذا العمل كفيل بأن يؤمن الهيكل اللازم لهذه الوحدة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ويضفي عليها ما يلزم من زينة وحلية ، وهذا الحلم بالذات الذي راود خيـال الاسكندر من قبل ، وأملر في وجهه معارضة معاونيه ومساعديه ، وسبب موته الباكر وعجل في اجهاض الفكرة قبل ان تلد وأدى بالتالي الى فشلها ، فهل من يشك بعد انـه كان باستطاعة الامبراطورية الرومانية ان تخرج او ان تأتي بما هو دون ذلك ؟

٣ ـ العمل العقلي والادبي

هذه الازدواجية اللغوية تتلبسها الامبراطورية الرومانية ، أفضت الى أدبين مختلفين لا بد من درسهما هنا ، على انفصال الواحد من الآخر . غير ان الحياة العقلية والادبيـــة لا تنطبق ، بالضرورة ، الواحدة منها على الأخرى. هنالك مظاهر في النشاط الفكري او العقلي لا تؤثر ازدواجية اللغة فيها كثيراً على الوحدة ، في مجتمع كالمجتمع الروماني ، حيث اجادة اللغتين معاً ، أقله في

الغرب ، وعلى مستوى واحد ، لم يكن من الأمور النادرة قط . وهكذا يحسن بنــــا ان ننظر فيها دون ان نهتم بشيء باداة التعبير اللغوي التي استعان بها من انقطع لمثل هذا العمل .

١ ـ انحطاط الروح العلمية

بين التليفين : توقف هنا وانحراف هناك

هذه الروح العلمية التي طلعت في الشرق المتوسطي، تجلت بزخم عارم، خلال العهد الهليني . ثم بلغت روما حيث وجدت من الظروف التي هيأتها لها الامبراطورية ، ما اتاح لها الانشاء وتوسيع الفتوحات التي حققتها في هذا المضمار . وتهيأت لهذه الروح العلمية اسباب جديدة اتاحت لها التوسع والافادة بما تم لها من هذا العلم العريض الذي امكن لهــا جمعه وتحصيله والتحكم به وضبطه . فانتشرت في البلاد دور الكتب ومكتبات ، وانشأت لها الادارة الحكومية دوراً للمحفوظــات ، وادوات للبحث والتقصي ، بحيث استطاع البعض الوصول الى هذه الذخائر الفكرية والاطلاع على ما فيها من اسرار مكتونة . والعالم المعروف اذ ذاك ، والذي امكن قياسه واستثمار موارده ، اخــذ هو الآخر ، في الامتداد والتوسع ، بعد ان توفر له ، بنسبة أكبر بكثير ، فريق من حملة العلم ، تم لهم من اوقات الفراغ، ومن الوظيفة التي كانوا يشغلونها، ما حملهم على الرحلة والطواف في ربوعه ومجالاته شرقاً وغرباً . وهذا العالم الذي تعددت منه المناظر وتنوعت بين طبيعية ، ومناخية ، وحيوان ونبات وعروق بشرية ، تهيأت له اسباب المواصلات ويسرت بينه وبين اقطار متنوعة واقعة الى ما وراء حدوده المتنائية . ومختصر القول فقد توفر كل ما يساعد ذوي العقول العطشى الى مناهل المعرفة وحياض العلم ، الافادة من امكانات لا حــد لها ولا حصر ، معظمها جديد مستحدث ، باستطاعة جميع العلوم والفنون ان تفيد منها الى أقصى حد . وهذه الروح الواقعية التي عرفها الرومان وأخذوا بها على نطاق واسع، كان بامكانها ان تسخّر العقل اليوناني المنطقي الذي انساح في هذه النظريات والتجريدات الفلسفية وهام فيها ، فينصرف بدوره يعلم الرومان كيف يعللون شؤون هذا الكون ويحللونها على وجه يبين ما بينها من ترابط وانسجام . ويحلو للمرء ان يهيم بالفكر فينطلق مع الخيال الجموح ليتصور ما عسى ان يكون تمّ او خرج من اشخاص كأرسطو وايراتستينس لو عاشا مثلاً ، في القرن الثاني للميلاد .

فلم يكن لأحد منها قِرْن او منافس. فقد ظهرت بوادر انحطاط الروح العلمية التي ما لبثت ان اشتدت وازدادت باستمرار . صحيح ان الكفاءات لم تغب قط ولا القدرة على العمل ، ولا هذه الروح العلميـــة الطُلَعَة. كنا نرى ، كما في السابق، عقولاً تهتم بكل ألوان المعرفة البشرية وتطمح في ان يتم لها علم موسوعي، دائري، في كل شيء. وباستثناء بعض حالات ، نادرة للغاية، لما من احد يطلع بعمل جدي أصيل في أي قطاع من قطاعات العلم . فالعصر الذهبي للروح العلمية التي تجلت قديماً انقضى وذهب دونما رجعة ، وكذلك عصر البحث العلمي والتحري عن أسرار العلم الغامضة . كل ذلك ذهب وذهب معه هذا الاندفاع ، وهذه الحماسة ، وغابت عن

الوجود الروح المجددة في اهدافها ووسائلها ونتائجها وقطوفها ، ويبدو لكل عين باصرة ان الشجاعة العقلية قد زالت، أقله من حيث ترضى بالخضوع لقواعد العقل والمنطق. فها هي الاجيال الوسطى ، بقضّها وقضيضها ، تطل علينا ولو من بعيد .

والذي يهمنا من الأمر الآن ، وفي هذا الوقت بالذات، هاتان النزعتان التي سبق للعالم الهليني ان عرفها من قبل وأخذ يتربصهما أكثر فأكثر، فيما بعد، إلا انه استطاع التغلب عليهما بشخص أكبر رجاله وممثليه . فبدلاً من ان ينصرفوا نحو الواقع ويخضعوا له اتجهوا كلياً نحو الكتب يجمعون منها ما رأوا فيه خير ما يُمَثّل علوم الاقدمين او توهموا انه يجمع ما سجلوه او رأوه. هذا هو عهد « الموسوعات » بالذات . فما من احد يجهل منافع هذه الجماميع التي لا تخلو من ان تعطّل التفكير اذا ما اقتصر المرء عليها . قدّم لنا عهد الامبراطورية المتأخر أمثلة من هذه الموسوعات التي بقيت غذاء العقل البشري حتى اواخر القرن الخامس عشر . وقد أساؤوا من جهة ثانية ، استعمال الفلسفة ولا سيما هذه النظريات الفلسفية التي تثير الشك والريبة ، اذ انقطعوا لكل ما يثير العُجب والغرابة ، او يشجع على الرمزية التي كثيراً ما آذت المجهود العقلي ، ان لم تكن حوّلته عن غايته . فاذا ما كانت هذه النزعة التي اعتبرت بديلاً عن الروح العلمية لا تميل كفة الميزان ، فهي، مع ذلك لا تلين إلا لاعتبارات اخلاقية، او ادبية لم تكن لتشجع قط على تحصيل العلوم ولا على تبسيطها .

ومهما يكن ، فان لم نمس بعد أمام القطيعة التامة ، فنحن أمام بوادر فقدان الاهتمام التام تدريجياً بالروح العلمية واصبحنا بالتالي أمام نهاية الحركة العلمية التي ميزت العهد الماضي وطبعته . وكم نتمنى لو نستطيع الكشف عن الطريقة التي اتبعها هذا التطور ، والغاية التي هدف اليها . فهي بالطبع تتصل بحوادث لمسناها وأشرنا اليها من قبل : ضغط العقائد الدينية الاكثر رمزية والاشد إثارة للعواطف، واحترام مآتي الماضي والمجازاته حتى حدود التعصب والعبادة ، والشغف بالعلوم اللسانية والبيانية كالخطابة والبلاغة والفصاحة والإستمساك بالمحسنات اللفظية . ولكن هذه الأمور نفسها لا تلين كثيراً للدرس والبحث والتحليل ولا تقع تحت المبضع . فالتيارات التي تتجاذب الافكار والعقول بين كر وفر، واقبال وادبار ، تبقى دوماً بمنأى عن البحث لانها غامضة ، خفية ، سرية .

الاستبحار العلمي والتخصص

سمة الاطلاع انحصرت في تجميع المعلومات وحشدها من بين الكتب، وبذلك تتنكر من ذاتها قبل ان تختفي لمطلب المعرفة الحق دون ان تقيم وزناً للاسناد العلمي والمرجع الأصيل وكلها امور تولي المصدر العلمي القوة والحياة .

وهذه الحركة نعمت ببعض الاهمية في مطلع الامبراطورية وظهرت في كثير من المجالات الفكرية على اختلافها ، وتغلغلت بين مناهج علماء اليونان وفي هذا التوافق بين الفيلولوجيا وعلم الاركيولوجيا . وعلى هذه المناهج بالذات ، سار في روما : فارون من معاصري قيصر ،

واللغوي ويريوس فلاكوس ، احد النحاة المشهورين في عهد اوغسطس . وقد طبقا طريقتهما هذه والجهود التي قاما بها في هذا الصدد ، على اللغة اللاتينية وعلى تاريخ روما ، وبذلك قاما بعمل مجيد . وقد صدر بروبيرس واوفيد عن المؤلفات التي وضعها هذان الكاتبان ، وهي مؤلفات لم يعد يوجد منها شيء اليوم ، واليها يعزى الفضل في معرفة ما اصطلح عليه الرومان قديماً في امور اللغة والقضاء والدين بفضل الاقتباسات التي أخذت من هذه الكتب .

فالكتبة اليونان الذين سكنوا روما لمدد طويلة ،في عهد اوغسطس، وألّفوا فيها ، هم كتاب من المستوى الواطي ، بينهم سترابون الذي جاء من مقاطعة اماسيا في الشمال من آسيا الصغرى . فقد كان مؤرخاً وجغرافياً وترك لنا مذكرات تاريخية لم يصلنا منها شيء ، ومزج في كتابته بين التاريخ والجغرافيا ، الا ان بحثه عن التاريخ القديم بقي موجزاً مقتضباً . ومنهم كذلك ديودوروس الصقلي الذي وضع كتاباً بعنوان : المكتبة التاريخية *Bibliothèque historique* ، وهو تاريخ عام ، واسع الهدف بعيد المرمى ، اذ انه تناول التاريخ القديم الى فتح غاليا على يد يوليوس قيصر . وما تبقى من تاريخه هذا لا يفيد مؤرخي العصر الا بنسبة ما يفتقرون اليه من مصادر تخلو من النقد التاريخي والأفكار البناءة . ومنهم ايضاً دنيسيوس الهاليكرناسي وهو معلم للبيان والفصاحة ، تنقصه دقة النظر ، والناظرة اللاقطة في هذه المؤلفات التي وضعها حول النقد الادبي ، بينا حشا كتابه : « التاريخ الروماني » خطباً مملة ، جوفاء .

ومع ذلك ، فقد عرف ان يحافظ هؤلاء الكتّاب اليونان ، على شيء من هذا التفوّق الذي تحلى به الكتبة الاسكندريون ، وعلى حبهم العلم وتعطشهم اليه ، وهي رغبة لم تلبث ان خمدت شعلتها سريعاً وانطفأت بعدهم بقليل . وفي منتصف القرن الاول نرى رئيس بلغاء العصر واستاذ البيان والفصاحة الاشهر اذ ذاك ، كونتليانوس يتمتع بسمعة ادبيـة طيبة لتمكنه من العلوم اللسانية ، كما انه امتاز بمقدرة على التعليم والتربية تستحق التنويه بها عالياً . إلا انـه يحتاج الى فهم صحيح للتاريخ . فقد أمدّه تدريسه الطويل البلاغة بمنهجية وأصول راح يطبقها على كل شيء . ونرى فرونتون ، في عهد الاسرة الانطونية ، يهتم بالكتّاب القدامى اهتمام فنان يرغب في ان يجد في آثارهم وعلقاتهم الكتابية ، الكلمات الميات ، يتذوقها ويتدبرها كمعلم حاذق للبيان ، دون ان يبالي قط في صوابيـة وجوه استعمالها ومدلولها وتعبيرها ، عن الواقع الانساني ، مادياً كان ام ادبياً .

وهذا الاستاذ المتكلف الصناعة اللفظيـة والمتحذلق في الاسلوب ، كان بدوره استاذاً لأولوجيل *Aulu - Gelle* الذي أعجب كثيراً ، باستاذه ، ومع ذلك تنكّب عن خطاه ، ولم يحفل ، على شاكلته ، بالبهرج اللفظي الخارجي ، وعرف ان يعود بجنـيّ عقلي ، وغذاء ادبي ، أكثر تركيزاً . فقد عاش هذا الكاتب الروماني على مقربة من اثينا ، وهذا ما حمله عـلى تسمية كتاب له : « الليالي الاتيكية » *Nuits Attiques* وهو عبارة عن مجموعـة له من الامسيات واحاديث السمر ادارها بين نخبة مصطفاة من الخلاّن المشهود لهم بدراية اللسان، وبغيرتهم

الشديدة على الثقافة العالية ، وقد قرأ كثيراً وقيّد الكثير من الاوابد والشوارد . قام بهذا كله كذوّاقة، انتجع خير المجاميع الادبية ومختارات القطوف والمنتقيات المأثورة ، فتدبرها بنظر صاقب ، ورأي ثاقب ، وشرحها بعد معارضتها ، وعرضها على محك النقد . وقد تناول في ابحاثه الصرف والنحو والنقد الادبي ، والنُظُم السياسية والتاريخ . كل ذلك بعناية وتدبر وتفهّم في طول أناةٍ وجلد . فاذا ما رأيناه يوسّع من مطالعاته ويتوّع بينها ويغوص مستبحراً فليس حباً منه أصلاً ، بهذا الايغال ، ولا اخذاً منه بنهج العصر ، ولكن اشباعاً لفضوله العلمي ولنزعته التشككية . فنحن مدينون له كثيراً بمعرفة الشيء الكثير من تاريخ الرومان بعد ان عرف ان ينقل الينا الكثير من النصوص المهمة لعدد محترم من كبار حملة الادب اللاتيني في ذلك العصر ، وهكذا تمكن من صيانتها . فلو قدّر له وجاء قبل زمانه ببضعة قرون وان يسير على منهجية بعض الكتاب اذ ذاك ، ويتمتع على شاكلتهم ، بروح الانضباط التي كانت صانته عن الخوض في هذه الموضوعات وتعرض لها في بحثه أكثر من مرة ، كما لو عرف ان يفيد من هذه المصادر الوفيرة التي كانت تحت تصرفه وتناوله ، لأمكن ان يكون ، بالنسبة لما تجلى به من قدرة وكياسة وطلاوة صانته عن الادعاء والاعتداد، مساوياً لأكابر العلماء الذين عرفهم التاريخ القديم، بعد أن تمّ له ما تم لهم من رجحان العقل وتفهم للواقع .

وهذه الكياسة الادبية افتقر اليها معاصره الكاتب الفريجي بوزانياس كما افتقر الى صفات اخرى صاحب الكتاب الموسوم : « وصف اليونان » . وهذا الكتاب وصف اليونان ، مقاطعةً مقاطعة ، ومدينة مدينة ؛ فذكر لنا ووصف بالتدقيق والتفصيل النادرين ، المباني والمؤسسات القائمة فيها بعد ان زارها في الرحلة الطويلة التي قام بها . وكثيراً ما لقّب المؤرخون هذا الرّحالة بـ « الدليل » *Périgète* ، او بالوصّاف . ويمكن مقارنة كتابه هذا بكتب الأدلة التي يحملها معهم السوّاح في هذا العصر، إلا ان دليله يبدو جافاً ، مهما تحلى بالوضوح . كذلك يفتقر للنظرة الناقدة اللمحة البعيدة، إلا انه معنيٌ لا ينضب لعالم الآثار وللاختصاصي بأمور الطقوس الدينية. فقد قام ، من هذه الناحية بعمل غاية في المتعة والافادة ، وذلك في عهد قدّرت الأقدار ان تتوفر له النماذج الطيبة ، والوسائل المسعفة للبحث العلمي ، فبرز نموذجاً للعالم الجمّاع ، هذا النموذج الذي كان في سبيله الى الزوال،فلم يُلْهم عمله هذا، احداً ليطلع لنا أدلة من هذا النوع في بلدان اخرى .

معرفة العالم والنظام الكوني

لم يكن حظ الجغرافيا بأفضل من غيرها من هذه العلوم الانسانية . كان لا بدّ لها يوصفها علماً بأصول من دقة ملاحظة ، بعد ان عجز العلم اذ ذاك عن ان يسجل أي تقدم في العلوم الرياضية وعلم الفلك . وباعتبارها علماً يقوم على الوصف فقد رأت تحت تصرفها تسهيلات عظيمة . فلأول مرة في التاريخ القديم ترى الدولة تُعنى رسمياً بهذا العلم، منذ ان طلع علينا العهد الامبراطوري . فقد عهد اوغسطس الى صهره أغريبا ان يرسم على احد جدران الرواق المعروف برواق أغريبا ، خريطة كبيرة للعالم ، مات قبل ان

يفرغ من رسمها فأكملت بعد وفاته. ولم يصلنا عملياً شيء من هذا قط. فهذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقة، وذلك للفرق القائم بين طول الجدار وعرضه. غير ان النص الذي امر اوغسطس بنشره إثر وفاة أغريبا – وهو نص قام على احصاءات ومقاييس رسمية – ضم ولا شك كثيراً من المعلومات المفيدة. وهذا مثال جديد آخر من عدة أمثلة، تدل كلها على ما توفر من الظروف المؤاتية الجديدة التي كان من شأنها ان توسع معلوماتنا الصحيحة حول الارض.

وهذا النجاح لم يحصل او يتم بالقدر المرجو. فلم يقم سترابون باي جهد شخصي ملحوظ لاستكمال معلوماته المقصورة على الكتب ليتجاوزها الى ما هو احسن واكمل، اذ كان همه الاكبر ان يضع لنا كشفاً او ثبتاً دقيقاً للسفن الهوميرية، كما رأى ان لا فائدة من ان يتخطى في رحلته ايطاليا الى الغرب والتعرف الى معالمه. من الممكن كما انه من المؤسف جداً من جهة اخرى ان نضع قائمة طويلة بهذه الاغلاط التي وقع فيها كثيرون كانوا في وضع يسمح لهم ان يجمعوا معه معلومات هامة. فالملك يوبا الثاني ملك موريتانيا، ومن نصراء العلم في عهده، توهم النيل ينبع من ضواحي المحيط الاطلسي ثم يغور تحت الأرض في اتجاه الشرق، ليظهر، من وقت الى آخر، في بعض معالمه، في بحيرات الشط وغدرانه. وفي اواسط القرن الاول، راح الجغرافي الاسباني بمبونيوس ميلا، وهو من المتخصصين بعلم الجغرافيا، اذ ذاك، يسلم ويعتقد بهذه الخزعبلات والتلفيقات التي يرددونها حول العنقاء، والنساء الساحرات، وغير ذلك من الغرائب والكائنات العجيبة. كذلك كان يرى علاقة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي. وفي هذا العصر بالذات، كان بلين الاكبر ينظر الى بحر قزوين، خليجاً من هذه الخلجان التي يرسمها الاوقيانوس المحيط بالأرض، ولم يخامره من جهة ثانية، اي شك بان اوروبا اكبر بكثير من افريقيا وآسيا.

فالتقدم الصحيح الذي امكن تحقيقه على نطاق ضيق في علم الجغرافيا تناول هذه المناطق التي اخذ بارتيادها تجارة متاجرون. ففي القرن الاول استطاع المؤلف المجهول للكتاب الموسوم: «رحلة حول البحر الاريتري» (اي البحر الاحمر) ان يمدنا بمعلومات جديدة طريفة تتعلق بسواحل الهند حتى وبسواحل الصين الجنوبية. كذلك نرى كثيرين يضعون رحلات يصفون فيها أسفارهم وتنقلاتهم في البحر الاسود، منها «رحلات الى البحر الأسود». وقد برهن اريانوس الذي كان حاكماً لولاية قبادوقيا في عهد الامبراطور هدريانوس، عن اهتمامه الكبير بمقاطعة القوقاس. هذه وما اليها احداث فردية طارئة، ولا نرى قط اريانوس نفسه الذي كتب عن الهند، قد افاد كثيراً من المعلومات المستحدثة التي كانت في متناوله. فبعد ان كانت الروح العلمية على اشدها في العصر الهليني نرى هذه الروح التي كانت تشرئب بانظارها الى المجهول تحاول الكشف عنه، لم تعد لتسهد العلماء، ولا لتؤرق المثقفين، ولا تراود خواطرهم. فلم نعد نشهد رحلات كبيرة بعيدة يهدف القائمون بها الكشف الجغرافي الواسع. وبالرغم من الطرقات الجديدة العريضة التي امكن شقها، والاسفار البحرية المتواترة التي حصلت، نرى هؤلاء الجغرافيين يقعون في اغلاط سمجة، ويقترفون هفوات لا تغتفر لهم عندما يريدون تحديد المسافات والاتجاهات. فما عاد الانسان ليكترث كثيراً، ولا ليهتم بامه الأرض: موطنه ودار سكناه.

ففي ظروف وأحوال كالتي ذكرنا ، ليس من العجب قط ألا يتقدم البحث العلمي ، وألا يسجل أية خطوة ملموسة الى الامام . لم يعد لدينا شيء يذكر من آثار مارينوس الصوري ، احد حلة العلم في القرن الثاني . ولعل أكبر علماء هذه الحقبة وأشهرهم ذكراً واسماً هو معاصره بطليموس الذي رأى النور في مدينة بتولميس في صعيد مصر ، وعاش على مقربة من مدينة الاسكندرية . كان اختصاصياً بالرياضيات وعلم الفلك ، فوضع في هذا المجال كتابه الخالد : « المجسطي » حول نظام النجوم وعلم الفلك ، وبقي كتابه هذا معمولاً به طوال الأجيال الوسطى حتى وبعد هذا العهد . و « المجسطي » كلمة منحوتة من اداة التعريف العربية الـ ، ومن الكلمة اليونانية *Megistos* ومعناها « العظيم » . والحق يقال ان هذا النجاح النسبي يحققه بطليموس منحول ، مختلس ، لأن بحثه هذا كغيره من الابحاث الاخرى التي وضعها هذا المؤلف ، عول بالاكثر على ما تقدم من العلماء الهلينيين دون ان يعتمد على مجهود او تحصيل شخصي . فقد أقصر عمله على نقل المبادىء والنظريات التي علّم بها وعمل هيبارخوس ، كما انه أهمل الأخذ بالنظرية التي قال بها وعلّم ارستارخوس الساموسي التي جعلت من الشمس او من النظام الشمسي محور الكون ، كما رذل ، باعتبارها مضادة العقل ، نظرية دوران الكرة الارضية على محورها عند قطبيها .

اما جغرافيا بطليموس فلا تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم لأن غرضها الاول هو كيفية رسم الخرائط . فالمعلومات التي تتعلق بعادات الشعوب وأخلاقهم ، وبالمحاصيل الطبيعية لا يأتي على ذكرها إلا بالعرض ، ولماماً . فبعد ان تناول بالبحث النواتىء الطبيعية تراه يضع منطقة بعد منطقة ، قوائم بأسماء الجبال القائمة فيها ، وأسماء الانهر ، والشعوب والمدن ، ويحاول ان يحدد او ان يشير ، بكثير من الدقة ، إجمالاً الى خطوط الطول والعرض . فهذه الجغرافيا ليست سوى جريدة أسماء ومسميات حاول صاحبها ان يكسوها ما يزينها فأضاف اليها بعض المعلومات والمعطيات الجغرافية ، جمع فيها ، بعد جهد مبرور من المقارنات والتصويبات ، كل ما استطاع علماء عصره جمعه من معلومات . وما كان أسرع ما يتسرب الغلط على يد النساخ الذين تعاوروا على نسخ هذا الكتاب ، الى هذه القوائم الطويلة من المسميات الجغرافية ، الأمر الذي أثار جدلاً ونقاشاً بين علماء هذا العصر حول الشكل الصحيح الذي أورده بطليموس ، لم يخفت صوته به ، حول شكل اوروبا الشمالية وافريقيا ، والشرق الاوسط . ومهما يكن ، فهب ان هذا الكتاب لم يخرج عن كونه كشفاً دقيقاً وليس بعمل أصيل ، ومهما شابه من نقص او شكا من فراغ ، فلقد لعب ، مع ذلك ، في التاريخ ، دوراً كبيراً .

ومهما بدا بطليموس صغيراً ، اذا ما قارناه بكبار الجغرافيين في العالم القديم ، فهو يمثل مع ذلك ، آخر حلقة من كبار العلماء الذين اطلعهم التاريخ القديم . وهو الذي اوجزت واختصرت مؤلفاته لمدة قرون متتالية ، وسلمت للأجيال التالية ، النتائج التي أدى اليها البحث العلمي في هذه المجالات . فالترجمات العربية واللاتينية التي عرفت ان تؤمنها الأجيال الوسطى لهذه الكتب ، اعتبرت كحقائق مقررة ، ثابتة المعطيات التي فيها حول علم الفلك والجغرافي ، مع

كثرة الاغلاط التي ازلق اليهـا في كتابه الآخر . فاذا كان مارينوس استطاع ان يحصي ، بين جزر الخالدات *Iles Canaries* والصين الجنوبية ٢٢٥ درجة من خطوط الطول ، فقد احصى منها بطليموس ١٨٠ درجة أي نصف خطوط الطول في الكرة الارضية ، وليس الثلث . فاذا ما استطاع رحالة الاجيال الوسطى ، ان يحسنوا معلوماتهم حول الصين واضطروا ان يمدوا خريطتها اكثر نحو الشرق ، فقد لاح الأمل الذي حدا بكريستوف كولومبوس القيام بمغامراته الجغرافية .

التاريخ الطبيعي وعلومه

ليس مـا يستحق الذكر في العلوم الرياضية . فالرصد العلمي للنجوم كان أهمل أمره واستعاضوا عنه بهذه الحدسيات والافتراضات المحتمة الوقوع التي انصرفت اليها النجامة ، وعليها اقبل في عهد اوغسطس واليهـا انقطع ، الروماني مانيليوس الذي وضع ارجوزة شعرية في النجوم وعلومها ، اسماها : « علم الفلك » . أما العلوم الرياضية الأخرى ، فقد اقتصرت على اجترار ما سبق للعلم ان حققه من قبل ، وبقي العمل بـه محصوراً ضمن محافل خاصة ، في أثينا أو في الاسكندرية .

وعلى عكس ذلك ، انصرف الاهتمام اكثر فأكثر نحو الظواهر الطبيعية ، وبرز للأنظار في مجالات التاريخ الطبيعي شخصيتان ، هما : سنيكا وبلين الأكبر ، وان كانت آثارهما العلمية ذات قيمة ضعيفة .

فاذا لم يتعرض سنيكا للعلوم إلا لماماً ، من خلال بعض آثاره العلمية ولا سيما الأدبية منها ، فمباحثه في « العلوم الطبيعية » ، وهي التي وصلت الينا من بين مؤلفاته العلمية، تعطي الدليل على سعة المعلومات التي تمت له ، وعلى تنوعها ، ان لم تدل عـلى الهواجس العلمية التي جاشت في صدره . فهو لم يعالج هذه الموضوعات، بما تستحق من استعداد فكري وتهيئة سابقة . واذ كان يفتقر ، أساساً ، للاستبحار في العلم ويهزأ بفكرة البحث عن اصل بعض أسماء الاعلام الرومانية ويتساءل من ظهر قبل الآخر : الإلياذة او الاوديسة ، فقد كانت تنقصه اصلا الروح العلمية. فقد كان فيلسوفاً ، وأكثر من ذلك، عالماً اخلاقياً . وبالفعل ، نراه في أبحاثه عن العلوم الطبيعية يستطرد كلما سنحت له الفرصة لبحث القضايا الأدبية التي فيها موعظة للناس ، ويشجب بشدة ، الذوق المترف بمناسبة التحدث عن المرايا ، او هواية الاسفار عندما يتحدث عن مهب الأرياح . ومع ذلك ، فقد برهن عن نظرة صافية ورأي صائب عندما يأخذ بتقويم النظريات المتضادة او المتعاندة. وقد استطاع بما أوتي من نفاذ البصيرة ان يأتي بنظريات تقرب من التنبؤ، عندما استشعر التقدم العظيم الذي سيحققه العلم في المستقبل . إلا انه توقف عند طائفة من الحوادث والوقائع ، ناقصة وغير متناسقة ، التي تم العلم اليوناني درسها دون ان يزيـــد عليها شيئاً يذكر من ملاحظاته الشخصية .

ومع ذلك فقد كانت بحوثه العلمية خطوة كبرى لدى علماء الأجيال الوسطى .

ولم يتم ، من جهة ثانيـة ، لبلين الاكبر ، ما تمّ لسنيكا من قوة الفهم وتوقـد الذهن وصدق النظر . إلا ان ما عُرف عنه من نشاط حمله على بذل الجهود في جمـع ما أمكن له جمعه من المعلومات ، ابّان خدمته في الجيش الروماني ضابطاً ، ثم أثناء عمله في الادارة، واخذ فيها يرقى سلم الدرجـات الادارية حتى عُيّن أميراً البحر . ومن آثاره الفكرية الكثيرة — وهي عديدة

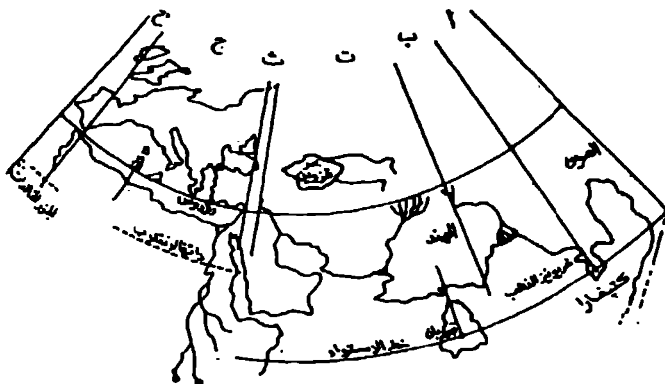

الشكل ١٣ — خطوط الطول عند بطليموس

أ و ب - التخوم التي يسميها بطليموس « الاراضي المجهولة » يصعب جداً تحقيق مواقع المدن التي يذكر اسماءها وهي كتيغارا ، وثيليه ، وسيرا .

ت - من الفرات الى لثخوروغان (برج الحجر) في مقاطعة سريكول الى باميره ٦٠ درجة (٤٢ درجة)

ث - من البحر المتوسط الى الفرات درجتان ونصف .

ج - من الجزر الخالدات (كنارى) الى جبل طارق ٧ ١/٢ درجات ، والحقيقة ١٢ ونصف .

ح - البحر المتوسط ٦٢ درجة (٤٢ درجة)

متنوعة تناول فيها القضايا الحربية والتاريخ الطبيعي والاجرومية — لم يبق سوى ٣٧ رسالة من كتابه « التاريخ الطبيعي » *Histoire naturelle* وهو كتاب ضخم وحصيلة جهد موصول من المطالعات، جمع المعلومات التي أفاد منها ، على عدد كبير من الجزازات او البطاقات بروؤس الموضوعات ، وضعه في اوقات فراغه . ويحكى عنه انه كان يطالع وهو الى مائدة الطعام ، وفي الحمام . وعالج بذهن يقظ متفتح كل الموضوعات : من الجغرافيا ، الى الفنون الجميلة ، الى علم النبات ، الى علم الحيوان، فعلم المعادن. والمؤسف من هذا كله، هو جعل هذا العطش الى المعرفة مشدوداً الى المطالعة المادية ، أي مربوطاً بالكتاب او المطالعة الحرفية ، دون ان يكترث او ان يهتم بما وراء الحادث والواقع الحيز، لا نلمس عنده أية نظرة ناقدة ، مفلسفة، معللة ، إلا ما ندر، وان فعل، فيتردد كل التردد من التعجل . وقلما رأينا الشك يخامره او ان يستنكر لما كتبه عن الرخ ، وعن العنقاء، وغير ذلك مما أثبته من الخرافات المحكية، والأساطير المتناقلة. وهو يؤكد

في معرض حديثه عن التمّ او الاوز العراقي الذي يغنّي وهو يحتضر ، بأنه لم يتفق له قط ان سمعه . وفي هذا ما فيه من تفويته الفرص التقصي عن الحقيقة العلمية، فقد تبنّى ، دون ان يختلج له طرف عين ، هذه الخرافات المضحكة المبكية حول ساحر يمسُّ ليلاً ويطوف متنكراً بهيئة ذئب ، وخلاف ذلك من احاديث أدارها على حيوانات اسطورية . ان ما عُرف به من سرعة التصديق المفرطة، أضرّ كثيراً بعمله العلمي ، وأساء اليه كثيراً بحيث نرى فيه، جنباً الى جنب، الخسيس والممتاز . إلا انه لا يجوز للمرء ، من جهة اخرى ، ان يمر مرور الكرام ، بما تقع عليه العين ، الفينة بعد الفينة ، من قوة الفراسة ، وصدق الملاحظة التي لا يمكن ان يتصف بها كاتب بين بين ، حيث تطلع علينا ، من وقت لآخر ، شطحات فيلسوف من المذهب ، شديد التشاؤم مما يشاهد من بؤس البشرية وتعاستها . كذلك ، يجب ألا يغيب عن ذهن القارىء قط ان هذا الكاتب ، يجب ان يلام لحصر البحث عن الحقيقة والتحري عنها في الكتب . فقد قضى حياته في خدمة العلم وجمع المعلومات ، وتصيّدها وطلبها أينما تجلّت له . فبدلاً من ان ينجو بنفسه من الخطر الماثل امامه والذي يتهدده بموت زؤام ، اذ خف مسرعاً ليشاهد عن كثب ثورة الفيزوف الكبرى ، عام ٧٩ للميلاد ، فكان احد ضحايا العلم ، وهلك في عداد من هلكوا في هذه الكارثة الرهيبة .

الطب

اشتد اهتمام الناس دوماً بالطب وبالاطباء . فليس من عجب ، بعد هذا ، ان يزداد عددهم في كل مكان وينمو بعد ان حرصت كل مدينة على ان يكون لها ، على الاقل طبيب واحد ، فدرّت هذه المهنة على اصحابها الكسب الوافر وتم لبعضهم ثروات طائلة . وقد عرف الطب ان يسجل تقدماً محسوساً في هذه الحقبة ، فأدخلت على الجراحة وادوات الكحالة تحسينات جمة، وتوصل الأطباء لاجراء عملية السادّة (الماء الازرق) في العين، كما امكن تسجيل بعض التقدم في جراحة التجميل لبعض اعضاء الجسم كالأنف مثلاً ، وتوصلوا الى اكتشاف بعض المخدرات الموضعية . وليس بغريب قط ان نرى نطس الاطباء المتخصصين بأمراض العين والاذن ، والاسنان وغير ذلك ، كما رأينا ، من جهة اخرى ، نساء يتعاطين مهنة القبالة . واتضحت للعيان بعض الطرق العلاجية التي استنبطوها ، كالاستحمام او التطبب بالتعرض لأشعة الشمس مثلاً ، والسكنى في المناطق الجافة الهواء للمصابين بالامراض الصدرية. كذلك وصفوا لبعض الأمراض العصبية المعالجة بالمياه المعدنية وراحوا في هذا السبيل يحصون ما يصلح منها للاستعمال .

فاذا ما راح علم الاقرباذين يدرس ويتبحر بخصائص بعض النباتات الطبية لما زلنا نرى بعض الاطباء يصفون زرق الحمام وبول الحمير للعلاج ، وقرن الأيل بعد حرقه . وعلى اثر توافد الاطباء الدجالين والعقائد المتناقضة من الأقطار الشرقية ، لم يكن من النادر قط ان يلجأ البعض لطرق التعزيم والسحر والرقية ، في الطبابة والجوء الى وسائل المنجمين . فكم من طبيب ، مثلاً رفض المباشرة بمعاينة مريض ما، الا بعد ان يستطلع مواقع النجوم وطلع الابراج، ومواقعها في مداراتها، وتوافقها في المكان والزمان . فالبشرية المتعذبة، راحت تنيط رجاءها في هذا العصر وتتطلع ،

اكثر من أي وقت آخر ، نحو القوى الفائقة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر ، وبيدهـا الخلاص والنجاة وتشرف على توزيع الحظوظ .

كل هذه النجاحات والتطورات التقنية التي حققها الطب، انما تمت عن طريق التجربة والاختبار، ولم تأت نتيجة منطقية لمبادىء علميـة . فقد اقتصر الطب باعتباره علمـاً بأصول ، على التقيد بالفتوحات العلمية التي أمكن لاطباء الاغريق تسجيلها ، من بعد ان تهيب اللحاق بهم في هـذا المضمار. فلم يكن ليجرؤ احد على الظن، بالرغم من التجارب والاختبارات الهلينية، بان الاوردة الدموية تصلح لغير نقل الهواء. ففي عهد طيباريوس، وضع سلس *Celse* موسوعة تناول فيها فيما تناوله من علوم: البيان والبلاغة والزراعة وفن الحرب ، والحقوق، كما افرد الطب في زمانه بحثاً مستفيضاً امتاز بالدقة والجزالة واوضح ان هذا العلم لا يخرج، في عصره ، عما كان عليه في العصور السالفة، باستثناء بعض ذرائع وطرق جديدة أتبعت في العمليات وفي منتصف القرن الثاني للميلاد توصل الطبيب اليوناني جالينوس البرغامي الى ان يستنبط بعض الوصفات الطبية التي لقيت نجاحاً واطلقت شهرته بعيـــداً في الارض ، بحيث اصبح الطبيب الخــاص لاواخر اباطرة الاسرة الانطونية . من العسير جداً ان يتمكن المرء من تبيان الاشياء العلمية الجديدة التي ابتكرها . فقد كتب كثيراً ووضع تآليف امتازت بالانسجام بين علم التشريح والنظريات الطبية والطرق العلمية التي اختلفوا نظراً حولها وتباينوا رأياً فيها . فقد كان بما عرف عنه من نبوغ طبي واختصاص، شأنه في ذلك شأن بطليموس ، آخر عالم أطلعته العصور القديمة . وعلى شاكلة بطليموس، حالفه الحظ بان ينتقل الى الاجيال الوسطى ، عن طريق المؤلفات التي وضعها بعد ان امن لها مـا أمكن من إتسـاق وانسجام ، هذه الكشوف والابتكارات العلمية التي امكن تحقيقها بفضل ما بذله من جهود طائلة وتقصيات لا تنقطع). فريق من العلماء طمحت نفوسهم الى المعرفة وجاشت صدورهم بحب الاطلاع ، وهفت عقولهم الى العلم، فهبطوا موارده في الاجيال السالفة بروح طُلَعَة لم تتم ان خبت شعلتها وكمن نشاطها .

الحقوق

يتضح من خلال الاستعراض العام للنشاط العقلي والفكري في شتى مجالاته ، الدور المتواضع الذي لعبه الكتبة اللاتين في هذا الميدان . فقد حرص الشرق الاغريقي ان يحتفظ لنفسه بالسبق الذي سجله على الغرب ، في هذا المضمار . فالدور الذي قـــام به هؤلاء الكتاب يبرز على اتمه اذا ما أمعنا النظر في بعض العلوم التقنية . فعلم الفلاحـة اللاتينية لا يزال مع فارون ومع زميله الاسباني كولوميل الذي جاء بعده بقليل ، عيالاً على الاساليب والطرائق الهلينية . فالهندسة المعمارية تزداد وضوحاً وواقعية في البحث الاصيل الذي وضعه فتروف حول هذا العلم ، والابحاث الاخرى التي وضعها فرونتون ، والمهندسون الآخرون . ولكن ليس من العدل بشيء ان نقصر على هذه الآثار وحدها حصيلة روما في هذا المجال . فقد استطاع ابناؤها من ان يستنبطوا وان يبتكروا علماً قائماً بذاته .

والمقصود من هذا العلم هو الحقوق . فالطابع الفارق الذي يميز عمل روما في هذا المجــال

ويؤمن لها مرتبة الصدارة هو استعمال اللغة اللاتينية ، دون سواها ، في معاهد ومدارس الحقوق التي فتحت ابوابها في الشرق ، اهمها على الاطلاق واشهرها طراً، المدرسة التي طلعت في بيروت، في مستهل القرن الثالث . ان استعمال اللاتينية دون سواها من اللغات المستعملة في الامبراطورية الرومانية ، كان لا بد منه، في مختلف مراحل القضاء ودرجاته ، اذ ان اللاتينية كانت ، أكثر تهيؤاً من اليونانية ، وأكثر قابلية منها للتعبير عن مفاهيم وافكار قامت في روما، وفيها تحددت وتناسقت . وهذا الواقع لم يحُل مع ذلك ، دون ان يردف الشرقُ العالمَ الروماني وبعده ، منذ منتصف القرن الثاني ، بجمهرة من اعلام الفقهاء والمشرعين ، بينهم : غايّوس ، دون ان يطبعوا الشرع الروماني بطابع الفلسفة . وقد صرف الأخير همه الى توسيع نطاق البحث العلمي في هذا المجال ، وعمل على تطبيق مناهج كانت روما اول من وضع أسسها .

وقد امتازت نخبة من رجال القانون باهتمامها الشديد بأمور القضاء، والاقضية ، التي صدرت عن المحاكم في روما ، كما ان فريقاً منهم عُرف بتضلعه العميق وباستبحاره في هذا العلم فاعتبروا بحق فقهاء *Jurisprudents* أي « حكماء » متضلعين بالحق الروماني. وبهذه الصفة كانوا يتقدمون بالنصح والارشاد، ويفتون في الأمور القضائية التي تعرض عليهم فيتحلّق حولهم اساتذة وطلاب هذا العلم ورواده دون ان يحمل هؤلاء الاساتذة اية شهادة تخصص او دون ان يكون لهم أي عمل رسمي في الادارة الحكومية . وقد تألف من اجتهادات هؤلاء الفقهاء، منذ عهد اوغسطس، مدرستان عُرفت الواحدة منها باسم رئيس كل منها ، هما : السابنيين والبروكوليانيين . وعلينا ان نقر هنا بأن ما كان يباعد اذ ذاك ، بين هذا وذاك، من التيارين المذكورين لم نعد نرى بوضوح ما يبرره الآن. فاذا كان الفريق الاول منها تميز في الاساس ، بقبول النظام الاستبدادي ، أي الامبراطوري ، فلم يبق في القرن الثاني ما يباعد، نظرياً ، بين الفريقين او التيارين المذكورين. وقد عمـد الامبراطور هدريانوس الى تعيين البارزين من مشاهير هاتين المدرستين ، اعضاء في مجلس الامبراطور الخاص ، وكان يحمل من اتفاقهم رأياً واحداً حول موضوع معين ، قانوناً له حق الإلزام . وهكذا برز بوضوح الشأن الكبير الذي مثّله من اصطلحوا على وصفهم بالفقهاء *Jurisconsultes* ، كما برز ما لرأيهم من قيمة قانونية . وهذا الشأن تبلور عن عملية توحيد عامة الحقوق ، اذ نشر هدريانوس ما يُعرف عندهم بـ : القرار الدائم *L'Edit perpétuel* الذي حلّ محل القرارات التي بقيت منذ عهد سحيق، بدون تبدل تقريباً، والتي بموجبها كان القضاة يعلنون لدى مباشرتهم وظائفهم، المبادىء التي يقضون بموجبها . كذلك برز التأثير في تهذيب الحقوق باضفاء العاطفة الانسانية عليها ، وما كان لهـذه النزعة من شأن بعيد على التطوير الاجتماعي، اذ ذاك . وفي الاساس من هذا التصرف المزدوج ، أطلّ ظاهرياً مثال واحد انبعث من صميم تعالم الفلسفة الرواقية ، الا وهو استواء الناس في خضوعهم جميعاً لقضاء واحد شامل .

وسيطرق اسماعنا خلال هذين القرنين اسماء عديدة من الفقهاء ورجال القانون واول من وصلنا من بينهم اثر هام، هو غايوس احد معارضي مارك اوريل، ممثلاً بكتابه المعروف *Institutes* . وما ان تميل شمس القرن الثاني للغروب حتى نرى من ألزم مميزات علم الحقوق : التحليل الاصولي،

والدقة والعدالة والمنطق ويأخذا هذا العلم بالازدهار. وهكذا يُهيء الجو ليشرق في سماء لبنان هذا الاشعاع الحقوقي الذي تمثل في عهد الامبراطور ساويروس ، خير تمثيل باسماء لمعوا عالياً في الفقه الروماني ، أمثال بابليانوس وبولس واولبيانوس . وحري بالتنويه هنا ان هــذا العلم الذي هو من وضع روما، ومن هذه الأشياء التي حملتهــا معها الى الشرق بقي ناشطاً في هذه الحقبة . فساعة الموسوعات القانونية التي في الرجوع اليها غنىً عن البحث والتقصي ، لم تَدُقّ بعد ، مع انها دقت ، منذ زمن بعيد ، لغيره من المجالات العلمية الاخرى .

٢ ـ الآداب اللاتينية

لا مشاحة قط ان الآداب اللاتينية اخذت تظهر عليها بوادر الانحطاط غداة عصر اوغسطس. فلم تعد تلمس بهذه الوحدة العميقة الجذور التي تألفت من هذا الاتزان بين العاطفة والعقل، ومن هذا التجانس والانسجام البديعين ، ولا من هذا الجرس الانساني النبرة والصدى ، في ما نقرأه لفرجيل وتيت ـ ليف، من هذه الآثار الخالدة التي حفظت ذكراها الى الابد. ولكن ايانا مع ذلك من ان ننبذ جانباً الآثار الخالدة التي خلفتها في هذه الحقبة . فاختلاف النزعات وتباينها ، والاهتمام الزائد بالشكل والمبنى وخفة الروح ، وتأثير الصياغة البيانيـــة والمحسنات اللفظية من انواع المجـــاز والبديع ، كل هذا وما اليه ، يجب الا ينسينا بعض ما فيها من روائع جميلة ومقطوعات بديعة .

افراد ، فنون ، مراحل

وهذه النجاحات تحققها الآداب اللاتينية هي، كالمألوف والمتعارف دوماً، انجازات افرادية نوعية . فقد تعددت مناحي العبقرية عند فريق منهم ، وعرفوا ان يبرّزوا في اكثر من فن من الفنون الادبية . ولعـل سنيكا هو خير مثل نضربه على ذلك ، اذ طلع علينا بآثار فلسفية وبابحاث علمية ، كما وضع عدداً من المسرحيات، ورسالة قدح وذم ضد كلوديوس . وتاسيت نفسه كان خطيباً ، مؤرخاً ، واتنوغرافياً ، كما ان بلين الاصغر كان خطيباً مفوهاً ، وكاتب رسائل له شهرته . فقد رأينا بعض هذه الفنون يزدهر فجأة ريثما ثم تنطفىء شعلته ويخبو ضوؤه، كعلم الاخلاق، مع سنيكا،والشعر الملحمي مع لوقين.وعلى عكس ذلك ، لا نجد شيئاً يذكر في الفنون الاخرى كالمسرح مثلاً ، بعد ان أهمل شأنه ، عقب ان حلّت العاب المصارعة وألعاب الاوبرا التعبيرية محله ، بما فيها مسرحيات سنيكا ، التي وضعها لتقرأ ، وليس لتُمثل على المسرح .

وفوق هذا كله ، تطل علينا فكرة « تطوّر » او عهد ، وهي فكرة جديدة ، لا بد منها في مثل هذه الحقبة التي استطالت قرنين بكاملها ، ألّفوا خلالها وكتبوا كثيراً، ووصلنا من هذه الآثار الفكرية الشيء الكثير، بالرغم من ضياع وفقدان جانب كبير منها.فسهولة التعبير التي تميزت بها، لم تحل دون بقائها مبهمة، غامضة، فكانت بالتالي،سبب ارتياب وتشكك للمؤرخين.ولعلها مع ذلك ، تبرز أقل غموضاً وتظهر بوضوح اكبر في تاريخ الادب . ولذا امكن قسمتها من هذه

الزاوية الى ثلاث مراحل او ثلاثة اطوار متباينة ، يتميز الواحد عن الآخر بوضوح .

فالطور الاول يتفق وعهد الاسرة اليوليو ـ كلودية ، وفيه بلغت الآداب اللاتينية الاوج ، لا سيا في عهد ملك كلوديوس ومطلع عهد نيرون . فيه برز سنيكا ولوقين ، وبترون وبيرس . وهذه الحقبة امتاز كتابها : برهافة الحس وتنوعه واتساعه ، ولو جـــاء ذلك على حساب قوة السبك والترابط المنطقي ، في هذا الفوران المزعج الذي أطل علينا من اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وانطلاق النزعات السياسية نحو واقعية كثافرة حيناً، عن جمال رائع، واحياناً، عن مظهر قاس متجهم ، قد يبرر وصفها بـ « الرومنطيقية » ، مهما كانت هذه النعوت التي طالما وصفوا بها الحركة الادبية في هذا الطور ، تقريبية ، وبالتالي مقصرة عن اداء التعبير .

ويلي هذا الطور، طور ثان يمتد فوق اسرتين،ويوازي عهد دومتيانوس وترايانوس، فيه حلّق كونتليانوس ومرتيال، وجوفنال وتاسيت وبلين الاصغر. فالآداب تسبق النضج والتوازن السياسي اللذين ميزا الامبراطورية ، اذ ذاك . فهي تزهر وتزدهر بطلوع كونتليانوس وتجلّيه ، وفي هذا الطور رجعة الادب الى العهد الكلاسيكي، بعد ان تخفف وتحلل من هذه الطفح والزبد الذي لصق بالادب من قبل . فاذا ما ارتضت الحركة الادبية ، اذ ذاك ، ان تخضع نفسهـــا للانضباط فقد عرفت مع ذلك ، الا تفقد شيئاً من طعمها الدسم ولا من الجرأة التي اتسمت بها .

وبالرغم من ان الامبراطورية بلغت الأوج سياسياً واجتماعياً في عهد الاسرة الانطونية ، فقد انتابت الادب ، اذ ذاك ، اعراض ذبول وتأخر . وأخلق الوجوه الادبية بالذكر والتنويه ، هي اسماء : سويتون ، وابوليه ، وترتليانوس ، وهم عدد ضئيل جداً لعمري ، لفترة امتدت اكثر من ٥٠ سنة ، مع العلم ان سويتون هو رجل ادب اكثر منه رجل فكر وعلم . فقـــد اضفى ، هو وامثاله ، على هذه الحقبة ، مستوى علمياً رفيعاً، مع العلم ان فضل الاثنين الآخرين يتصل بالادب الديني وبالتعبير عن المشاعر الدينية بصورة مغايرة للتعليم الرسمي . والظاهر ان الآداب اللاتينية لم يكن في مقدورها ان تتجدد الا بنسبة ما تتنكر لروما وللفضائل التقليدية التي عرفت بها .

افراد وفنون واطوار : ثلاث نقاط رئيسية على مستوى واحد من الاهمية والقيمة، في هذا العرض الذي نقوم به والذي يجعله صعباً معقداً ، ما بينها من اختلاف وتباعـــد وتنافر. لنختر واحدة منها ، هي الثانية ، وكلنا أسف ان يضطرنا الاختصار ، الى ترك النقطتين الباقيتين .

الفلسفة

أفلسفة ام خطابة ؟ لا بأس من ان يتردد المرء ويتساءل بمن يبتديء : بهـــذه او بتلك من الاثنتين . صحيح ان الخطابة هي الميزة التي تطبع بصورة اعمق ، وبصورة اوسع على كل حال ، العقول والاذهان في هـــذا العصر . ولكن الفلسفة تؤثر بدورها عليهم وتطبع انتاجهم ، كما ان علم التوقيت الخاص بتاريخ الادب يكفي وحده لايلائهـا حق الأولية . فاكبر فيلسوف روماني لمع اسمه في هـــذه الحقبة ، هو الاول ايضاً بين كبار الادباء اللاتين الذين لمع اسمهم بعد عهد اوغسطس : هو الفيلسوف سنيكا . قليلون جداً بين اصحاب

العقول من أوتوا ما أوتي سنيكا من المواهب العقلية ، كما انهم قليلون جداً ، من تم لهم ما تم له من خصب الانتاج الفكري ، وسهولة العمل ويسره ، مكنه من وضع ما وضع ، من آثار فكرية ، مع ان هذا القرطبي ، بعد ان انتقل مع والده الخطيب الى روما ، أضاع فيها جانباً كبيراً من وقته في هذه الحياة الاجتماعية التي استسلم لها . وفي هذه المؤامرات والدسائس التي شهدهـا في البلاط بعد ان عُيّن مهذباً لنيرون ومربياً له ، وفي شؤون الدولة ومهامها السياسية ، بعد ان تربع تلميذه على أريكة الملك . ولعل اسوأ ما نلمسه في انغماسه بهذه الحياة وفي اقباله عليها ، حيـاة سيّرتها ووجهتها فئات اجتماعية ضيقة، لم يظهر ما يدل على انه تعرف الى غيرها ، برهن فيها ، الى جانب الوقت الثمين الذي هدره سدى ، عن وصولية وانتهازية انحدر معها الى درجة الانحطاط الخلقي . فلولا هذا الهدوء والطمأنينة التي تلقّى معها خبر حكم الاعدام يصدره عليـه تلميذه المتوج، الكثير الشكوك والظنون، لاغتظنا كثيراً لهذا التناقض يطالعنا به رجل من بطانة الامبراطور ، اصبح بفضل منصبه من كبار اثرياء زمانه .

فعلم الاخلاق هزّه اكثر من الفلسفة . فلم يتحمس يوماً لعلم المعقولات او علم ماوراء الطبيعة، وقد ابى ان يوضح لنفسه ، العلاقات القائمة بين الالوهية والعالم والانسان ، مقتصراً على المذهب الروماني الذي صادف من الرواج اذ ذاك، ما الح له ان يجد لمدة طويلة، مريدين متحمسين بين المسيحيين انفسهم . والمهم عنده هو علم الاخلاق الذي دعا دوماً الى الاخذ به ، حتى في بحوثه العلمية ، وفي مسرحياته التي حذا فيها حذو يوريبيدس ، والى هذا، ان اهم واكثر آثاره الفكرية تتألف من مباحث روعيت فيها قواعد الفن ، او تؤلف مباحث بشكل رسائل الى اصدقائه . وهو يتصرف كأنه معلم ثمة لمن هم من طبقته من سعداء هذا العالم الذين يعانون ، مع ذلك ، من آلام هذه الدنيـا. فهو يوحي بقبول ما لا سبيل الى تفاديه من شرور هذا العالم بما فيها الموت ، وذلك بمثاليـة ، من بيده مِلاكُ امره ، وبشيء من الحكمـة المدروسة ، على ضوء من التحليل النفساني الدقيق الذي يليق جيداً باسلوبه البياني الآسر وبهذه الطواعيـة الفكرية التي عُرف بها .

وهذه المثالية ، التي وضعها نصب عينيه هي ، مِثالية الرواقيين التي لم تكن بعد أطلّت على روما والتي لم يكن تأثيرها قارَب الزوال بعد . وهذه المثالية ، تبرز اكثر تشدداً وقسوة عند بيرس *Perse*، كما تبرز عند لوقين، اشرق بياناً وأكثر وضوحاً . فالفلسفة بمعناها الصحيح ، لا تستأثر بأحد من مفكري اللاتين في هذه الحقبة ، والوحيد من تخصص لها، بين هؤلاء المفكرين، ثلاثة أو أربعة كراريس، هو أبوليه ، تناول فيها بالبحث ، بعض تعاليم الفيثاغوريين أو الفلسفة الارسطوطالية . وهكذا نرى اخلاقية المدرسة الرواقية ، تتفاعل على أقدار تختلف دقة ، في نفوس الكثيرين ، كما توحي ، في القرن الثاني ، ليس فقط الموقف العام الذي يقفه أباطرة هذا العهد ، بل ايضاً بعض القرارات التي اتخذوها . فان كان اسلوب سنيكا البياني ما لبث ان تناساه الناس، فأفكاره بقيت رائجة بعد موته بكثير .

الخطابة

لا شك في ان الخطابة واسلوبهـــا، طبعت الأدب اللاتيني في العهد المتأخر ، من الامبراطورية الرومانية اكثر من الفلسفة . فقد أتيح لنا ان نتعرض للحديث عنها سابقاً ، وان نتبين ازدهارها ، والشوائب التي اعترتها . ولذا يكفينا هنا ان نشير لِماماً، الى ابرز من يمثلونها ، أقلهم هؤلاء الذين وصلت إلينا آثارهم .

كثيراً مـــا أتينا ، في معرض الحديث ، على ذكر كونتليانوس ، والكتاب الوحيد الذي وصلنا منه ، هو : « فن الخطابة » ، فيبرز من خلاله ، مربياً كبيراً ، وعالمـاً سيكولوجياً نبيهاً . فالطفل ،مُمثل، تختلف كلياً عن ،مُمثل الخطيب،ولذا يحرص على ان يوجهه في كل شيء. فهو يوصيه بالبساطة ، وباسم هذه البساطة ، يتناول بالنقــد اللاذع ، سنيكا ويتهمه بانحراف الذوق ، بينا يمتدح عالياً شيشرون وذوقه الرفيع الذي يجب ان يكون قدوة الطالب وقاعدته . إلا انه لا يجرؤ على شجب التصنيفات ، وهذه الأساليب الملتوية التي راجت ايما رواج في عهده ، مع انه رأى ولمَس لمس اليد التعقيد الذي لحق بصناعة الكتابة ، فلم يكن ، على مـا عُرف عنه من وَجَـــل ، بالرجل الذي يكيل الضربات بعنف للتجاوزات المغالية التي وقعت فيها الخطابة ، اذ ذاك ، بعد ان وقع هو نفسه ، تحت اسرها وأخذ بها .

لم ينتهِ النقاش والجدل الصاخب الذي قـــام بين المعاصرين حول التوقيت الزمني لكتاب تاسيت المعنون : « حديث الخطباء » ، ومحله من مؤلفاته العديدة . فالكتاب بمـــا فيه من إستدارات بيانية تشبه الى حد بعيد اسلوب شيشرون ، هل كان بين اوائل الكتب التي وضعهـا تاسيت ، او انـه اختار له هذا الأسلوب الإنشائي الذي يليق بالموضوع ؟ وراح بعضهم يشك في ان يكون الكتاب المذكور من وضع تاسيت . ومهما يكن ، فالكتاب هو من وضع ناقد يملك ، بعكس كونتليانوس ، معنى علم التاريخ . فما غاب عن ذهنه قط ان انحطاط الخطابة يخرج عن نطاق الأدب ، وراح يعلل ذلك ويرده الى التطور السياسي والاجتماعي في البلاد اكثر منه لفساد الذوق ، وسوء اساليب التربية اذ ذاك.

وكان في مقدور هذه الحقيقة ، لو فُهمت على وجهها الصحيح ، ان تخفف من الاهتمام بفن تقادم عهده وزال اوانه . الا اننا لا نرى شيئاً من هذا البتة . فقد استمروا طويلاً في البحث بحماسة ، شؤون المعجم والانشاء ، والجزالة التي تأتي وليدة قناعة : « صارمة » ، « عابسة » ، « دقيقة » ، واستعمال المحسنات اللفظية والاوصاف الدالة على رهافة الذوق : « ناعم » ، «مشرق» ، وهو جدل انتقل إليهم من الاغريق قديمـــاً ، حول الاسلوبين البيانيين المعروفين بـ : الاسلوب « الاتيكي » والاسلوب « الأسيوي » . فالعلم الأتم هو ان يعرف الكاتب ان يستعمل ، عند الاقتضاء ، الاسلوبين معاً على ما يقتضيه الموضوع والمناسبة العارضة . وقد أريق المداد مدراراً وجزافاً ، حول طبيعـة الاسلوب الخطابي واهمية الموضوعات التي يجب معالجتها في المرافعات القضائية او في الخطب التي تلقى في بعض المناسبات العارضة كالحفلات الرسمية . وهكذا نرى

الكثير من الفن المتصنع المزهر يبذل هدراً ولو أضر بالحد الادنى من الشعور العميق الذي لم نعد نرى احداً يتحمس به .

ففي : « رثاء ترايانوس » ليس احد يشك في صدق عاطفة بلين الاصغر ، صاحب هذا الرثاء الذي عُدّ مع تاسيت اكبر خطباء هذا العصر . كان المجتمع الروماني الرفيع يحمل كرهاً شديداً للطاغية الرهيب دومتيانوس كما كان ، على عكس ذلك تماماً ، شديد الاعجاب بخير الملوك وامثلهم على الاطلاق ترايانوس . فقد رأى كيف تحقق على يده ، كما يقول تاسيت ، واقعان برزا متضادين من قبل: الملكية والحرية، كما ترك لهم « حرية التفكير بما يشاؤون، والتعبير عن افكارهم كما يريدون » كما راعه ما رأى ، بتأثر بالغ ، من قوة روما وعظمتها ، وهما من بعض افضاله عليها . وهـذا الرثاء ليس سوى نسخة منقحة ، مزيدة ، « لفعل الشكر » الذي رفعه بلين للامبراطور ، عملاً بالعرف المعمول به ، اذ ذاك ، عندما رقاه قنصلاً ، في غرة ايلول سنة ١٠٠ ، وقد اتاح هذا التعديل للخطاب إضافة ما لا بد من اضافته من المحسنات الشعرية ، وما فيها من اماديح وعبارات تفخيم أضعفت ما فيه من عاطفة مخلصة مشبوبة . ومما لا شك فيه قط ان رسائله التي أدخلت عليها بعض التعديلات لتصلح للنشر ، تحمل الكثير من سحر البيان ورشاقة التعبير ، وان كانت دون رسائل شيشرون بداهة وطبعية ، بالرغم ممـا يدعيه بلين نفسه بانه كفء عدل لشيشرون . فقد كان الافراط في تعهد الاثر الأدبي ، أبداً مفسدة له ، كما ان الافراط في الثقافة يسيء احياناً الى رهافة الذوق .

فالتاريخ القديم لم ير ، على كل حال ، في هـذا كله سوى فضائل وحسنات ، وعلى نسبة الشهرة التي تمتع بها فرونتون في عهد مارك اوريل ، برهنت الشهرة التي تمتع بها بلين الاصغر ، ما كان عليه وما صار اليه ، الذوق العام اذ ذاك . و « رثاء ترايانوس » امكن حفظه وصيانته لانه كان نموذجاً لفن ادبي راج كل الرواج في العهود التالية : فقد جاء الاول في مجموعة من ١١ رثاء ، قيلت في عدد من الاباطرة حتى اواخر القرن الثالث وبدء القرن الرابع ، فكونت مجموعة من قطوف الخطب اللاتينية القائمة على اساس تاريخي . وكم يحدث ان يجد التاريخ مصلحته في الكثير من هذه المحسنات اللفظية التي عُمل بها اذ ذاك ؟

الشعر

المثقف هو من عرف ان يضع خطاباً وفقاً للاصول ، كما هو من عرف ان يقرض الشعر وينظم القصائد . ومثل هذه الرياضة العقلية اقبل عليها كثيرون وحاولوا ان يتقنوها . وهذا المران على القريض والتمرس به من عهد التلمذة ، يفسر لنا كيف ان كثيراً من الاساليب ، والالفاظ الشعرية والصور البيانية جرت على اقلام الكتاب والسنتهم في النثر . غير ان صناعة الشعر كانت أبعد من ان تموت أو تضمحل، ولذا لاتزال آثار شعرية كثيرة تلفت النظر وتستأثر بالخاطر ، في هذا الانتاج الادبي الضخم الذي ليس كل ما فيه خليق بالحفاوة . وهذه المسرحيات التي وضعها سنيكا واتخذ مادتها ، ليس من الاسطورة رأساً ، بل من الآثار الفكرية اليونانية الفنية ، والبس شخوصها لبوساً هي من نسيج خياله الفلسفي، تتناوح بين سماجة الذوق

والجزالة ، وفخامة الاحداث التمثيلية والمواقف المؤثرة ، ورقص الاموات المرعب والرشاقة الناعمة ، وضغط العاطفة الرواقية ودقة التحليل السيكولوجي ، والاستدارات البيانية والوصفية الطويلة ومتانة السبك والحبك. وبالاجمال كل هذه المتناقضات او بالاحرى هذه الفروق وغيرها من المفارقات التي تتسم بها هذه المآسي ، ساعدت بالفعل كورناي على ان يفيد من بعض التغييرات التي ادخلها (سنيكا) على آثار يوربيدس .

وعندما قتل ابن اخته لوقين ، وهو ابن ٢٦ سنة تنفيذاً الحكم بالاعدام صدر عليه من نيرون ، فقد كان كتب وألف كثيراً . فلم يبق لدينا منه سوى ملحمته : « فرسال » ، دهمه الموت قبل ان يكلها ، وهي ملحمة تدور حول الحرب الاهلية في عهد قيصر ، وقد امتدح فيها ، بعد ان فقد كل حظوة لدى الامبراطورية ، بمبيوس وانصاره ، ولا سيا كاتون عوتيقة ، كما راح يتغنى ، بعد ان اطلق العنان لحقده ، بالنظام الجمهوري الذي عاشت البلاد في ظله قروناً عديدة . فللموضوع عظمته وجلاله . وقد عرف لوقين ان يحافظ على هذه العظمة وبصونها ، اذ جعل الآلهة تتحمس لحروب البشر وتشارك في معاركهم . فقد كانت معلوماته كذلك على جانب من الصحة والدقة . فاذا ما قنع باليسير من سيكولوجية الفرد والغوص في أغوار النفس ، فقد اظهر من جهة اخرى فهماً صحيحاً لتفاعل العوامل التاريخية المشتركة . ولذا راحوا يلومونه بمعالجة موضوعه بصورة زقاقية ، اي خالية من عنصر الجمال والسمو ، وبذلك قد يكون خان فرجيل وابتعد عنه عندما اطلق العنان لانفعالاته الشخصية باندفاع شديد ، بعد ان استسلم لخيلة جامحة تستبد بالخواطر حتى في ما طلعت به من غريب او مخيف . فميله للخطابة ، ومحاولته التأثير بأفانينها وألاعيبها واساليبها البياني يكشف عن مبلغ تأثره باساتذته من علماء البيان والخطابة . وقد عرف مع ذلك ان يتفادى اسوأ نواقصهم الا وهو تقليدهم الاعمى لمناهج الكلاسيكية .

كذلك عرف ان يتفادى هذه النقيصة ، ثلاثة آخرون من كبار شعراء هذا العهد ، مع الاعتذار الى ستاس ، اذ لا يمكن ان ننسى رواياته « المرتجلة » *Silvae* ، ان لم يكن ملاحمه ، ولا الاشياء الجديدة التي طلع علينا بها . فاذا كان الأدب اللاتيني لم يجهل منذ لوكيليوس وهوراتيوس المذهب الواقعي ولا الهجو ، فقد أتيح لهؤلاء الثلاثة ان يعالجوا هذه الفنون بجرأة ظاهرة ، وحماسة قوية جديرة بالانتباه .

كان بَيْرس معاصراً للوقين ، ومثله توفي وهو في شرخ الشباب ومَيْعة العمر . فقد عالج الهجاء واتخذ منه أداة التعبير عن خوالجه ، والتفريج عن ضواغط نفسه . من هذه الضواغط التي كشف عنها ، التقزز الذي سببه لمُثُله الرواقية ، مشهد المجتمع القائم . فقد عبّر عن شعوره بصراحة تامة ، دون مداورة او مداراة لأحد : لأهل القلم ، والشعب ، والاشراف النبلاء ، حتى وللامبراطور نيرون ، الذي ورّى عنه وألمح اليه باسم ألقبيادس. وقد قال ما قال ، بشيء من صلابة العقيدة ، دون ان يكترث او ان يهتم بحسن الاسلوب ، بل على عكس ذلك ، أراده جافاً ، قاسياً ، وعلى شيء من الغموض ، بعد ان يترك القارىء تحت وطأة المشاهد الجارحة التي رسمها بما هي عليه من واقعية وعري .

اما مارتيال فلم يكن تم له شيء من هذا النقاء الادبي ولا من هـذا المنف ، وعلى عكس ذلك، فقد رموه بالمَلَق والتدليس والتزلف الى النبلاء، والامبراطور، حتى ولو كان دومتيانوس، فلم يرض ان يكشف عن أسماء من تناولهم بالنقد . فاذا كان هذا المتسوّل اللجوج الذي لا يكلّ ولا يملّ، سمنب الضمير لوضعه مثل هذه الروايات التي وضع ، وضَفْره مثل هذه الأماديح التي يمجّها الذوق السليم ، فهو مع ذلـك خير من يمثل وخير من يعالج فن القصائد اللاذعة والاهاجي القارصة . وهي ، على الغالب مقطوعات شعرية وجـيزة ، مقتضبة كالمتاد ، انما تنضح بالهزء والسخرية اللاذعة . وها نحن نراه يبذل أقصى ما أوتي من حِذق ومقدرة، ليطلع علينا بالكلمة الجارحة التي تنفذ الى الصميم فتجرح وتدمي . فقد كان أكثر من هازىء او ساخر متهكم . فقد رمى ، بما تمّ له من روح ساخرة ومن دقة في التعبير لا بد منها في الهجاء، الى « أن تتعرف الحياة الى ذاتها وان تتطلع الى ما انحدرت اليه الاخلاق » . ولذا تسلح بالملاحظة الدقيقـة الناعمة . فالسرعة التي يرسم بها الصورة البشعة التي ارادها، ويصور لنا فيه شخوصه تنبض وتتحرك وتعمل بحيث تبعث فينا الضحك، وابراز ما يلبسه فيها من عيوب ومساوىء طبيعية او اخلاقية تنمّي كثيراً معلوماتنا حول مظاهر الحياة الخارجية عند الرومان في ما تحيّز منها وبرز. إلا انه اقتصر دوماً على القسمات البرانيـة للمشهد او للشخص الذي يستحضره امامنا ، ويهتم بما فيه وله من عورات ونواقص خارجية ، أكثر مما يهتم بالأشياء الاخرى الحرية بالذكر والتنويه ، بحيث لا يستطيـع المرء إلا الشعور بالاسف لأنه لم يهتم لنفوس الناس إلا بقدر ما يعتورها من صغائر ودناءات ، او ما تتصرف اليه من سفاسف هذه الحياة .

اما صديقه جوفنال ، فقـد أوتي على شاكلته ، قوة غريبة على الاستحضار ، فلم يتراجع ، هو الآخر ، امام ما وقعت نواظره على مخـازٍ من العري والصّلَف . فقد كان أطول منه نفساً، وهذا الطول في قصائده الهجائية مكّنه من ان يتجاوز بعيداً ، هذه المشاهد الصغيرة التي رسمها مارتيال . أوتي من عمق النظر ونفاذ البصر ما لم يتم بعضه للآخر . فمن الغلو ان نقف مشدوهين حيال شجاعته . فمهما بلغ من تفكيره ، فلن يذهب به بسط اليد الى تدليس مارتيال وتملقاته. فالذي هاجمهم وسماهم بأسمائهم قوم زالوا وأصبحوا في عداد الموتى ، فلم يكن ليخشى شراً من الاخذ بتلابيب دومتيانوس مثلاً ، بعد ان طلعت على العرش أسرة جديدة راحت ترمي سابقتها بالاوحال . ومهما يكن ، فالسخرية الفكهة لا تهمه بقدر ما تهمه الثورة . وكلمته المأثورة لا تزال على كل شفة ولسان : « فاذا ما رفضت الطبيعة انطلق السخط شعراً » . فكلمة « سخط » هنا لا تفي بالغرض ، فهي ضعيفة ، ليس لها من القوة ما يجب . فهو الحقد ، حقد رجل ، عاش على مقربة من متوسطي الحال ، ضد اغنياء قلما فقهوا للاحسان معنىً ، او بالاحرى ، مسكين ، قليل العطاء ، اذ لم يُعْرف عنه انه حمل يوماً بين ضلوعه حباً للفقراء او كنّ لهم شيئاً من هذا ، حقد مُعْجَبٍ بالماضي بعدالذي رأى وشهد من انحدار الاخلاق وتفسخها ، حقد مواطن روماني، عمُرَ قلبه بحب الوطن ضد هذا اللمم من هؤلاء الأغارقة، وهذا الشليت من المشارقة تغص بهم شوارع روما وأحياؤها . لم تكن هذه النبرة لعمري ، وهذه المواضيع بجديدة . غير ان

«الطبيعة» أي النبوغ، شيطان الشعر هذا، لن يبخل عليه بشعر كالحمم، لاذع، لاسع، زاده المران والبيان وضوحاً، وحرافة. وفخامة، أضف الى ذلك لساناً ذرباً، ولغة غنية، عامرة، قوية، ملوّنة في خدمة خيال مجنح جموح، خصب، لا يلين. وكثيراً ما سلّط هذا اللسان السليط، الحديد، ما يعيدنا بالذاكرة الى هيغو، في ديوانه *Les Châtiments*. فالشعر اللاتيني، بعد جوفنال، لن يجود بشيء يستحق الذكر: فقد أغناه وأخصبه. فكفى بذلك اثراً له.

فن الرواية

اذا كان الشعر اقوى تعبيراً عن مشاعر الغضب، فالنثر، من جهته، أطوع على تصوير الحياة في واقعها المتحيز في الزمان والمكان. واذا كان سبق الكتبة الهلينيين ان استعملوا في رواياتهم شخوصاً لا وجود لهم الا في الخيال، فالقصص التي وضعوها، انما هدفت التسلية والتفريج، بعد ان اضفوا عليها من نسيج الخيال والوصف الأخاذ ما يشيع البهجة والسرور في النفس. وهكذا لم يلبث الكتبة اللاتين ان كشفوا في فن الرواية، عن طاقـــات جديدة وقدرات في حبك الرواية وسوقها كان للخيال في ذلك شأن واي شأن.

فمن بين الآثار الادبية الاقرب الى الرواية الواقعية مما طلع به الكتاب في التاريخ القديم، الرواية المسماة: «ساتيريكون» التي وصلنا منها بعض نتف، وقد وضعها الروائي الروماني بترون احد المقربين الى نيرون، والذي يروي لنا تاسيت (تكيتوس) خبر انتحاره، بشكل يتفق تماماً وما اشتهر عنه من ظُرْف. وهذه المقطوعات تفيض بالتعليقات الادبية، وتتعرض بنوع خاص لفن الملاحم واورد فيها مقتطفات شعرية، منها واحد، لا ندري ما الغرض منه، أهو نقد لوقين او نقد لخصومه — اعاد فيه النشيد الاول من ملحمة فرسال، بعبارة فرجيلية تمور بالميثولوجيا والحكايات الاسطورية. ولا يخفي من جهة اخرى، رغبته في التهكم: فهو من نعومة الخلق بحيث اذا رأى الا يقص الأمور على واقعها، فلا يتورع، مع ذلك من اللجوء الى التصوير الهزلي الصارخ، فالفن الروائي يبقى معه والحالة هذه، فناً كثير التشابك والتداخل. والصفة البارزة التي تتسم بها آثاره العلمية تقوم في سهولة السرد التي تمت للقاص، كما تقوم في هذه الاضواء الكاشفة التي يسلطها على شخوصه فيبرزون في عوراتهم المضحكة المبكية، او في هذه الزقاقيـة التي يبدون عليها، وفقاً للمواقف والاوضاع التي يهيؤها لهم. وهذا الكاتب الدنيوي الذي عُرف بقدرته على الكشف والتحليل، استطاع ان يلاحظ اشياء كثيرة خارج الجو الذي عاش فيـــه واحاق به، حتى بين ثنايا الطبقات الاجتماعية السفلى. فمن الطبيعي جداً ان يتناول بالتهكم الساخر: هذا الفريق من حديثي النعمة الذين وصلوا الى الغنى في غفلة من الدهر، فراحوا يسخّرون بوقاحة، ما أوتوه من ثروة وثراء، للتنعم بلذائذ الطبقة الاجتماعية العليا، على مثال بطل روايته المدعو تريملكيون، احد هؤلاء المتقاء الاثرياء، الذي تكوّن «مأدبته» العامرة، خير الوان هذه الرواية، على الاطلاق. فقد اضفى عليه من زهو الألوان ومن بهرج الوصف ما يحمل على الهزل والتهريج، ينطلق من كلامه وأقواله، وحركاته وسكناته. وهذا المزاح يضفي على الحقيقة سمات تتجاوز بكثير المعقول او المحتمل، تجعل من بترون، بالفعل المبدع الاول لصورة «حديث النعمة».

اما الواقعية في الادب فتتمثل، في بعض المناسبات، بالكاتب الافريقي أبوليه الذي قضى معظم حياته الادبية ونشاطه العارم، في مدينة قرطاجة، في النصف الثاني من القرن الثاني. فقد ترك لنا هذا المحاضر المتعدد الاثر، انتاجاً متنوعاً، خصباً، وضع بعضه باللغة اليونانية، كما يبدو لنا ذلك واضحاً من بعض النماذج التي وصلت إلينا منه. وأشهر مؤلفاته وامثلها على الاطلاق هي الرواية التي وصلت إلينا تحت اسماء مختلفة: التحول *Métamorphoses* والحمار الذهبي، ولوكيوس. فهو يقص فيها علينا الحوادث والاختبارات والمشاهدات التي تمت لشاب استحال حماراً لدى استعماله مرهماً اخذه من يد ساحرة، واستطاع بعد فترة طويلة ان يسترجع شكله الاول، بفضل تدخل الإلهة ايزيس التي نصحته بأكل نوع معين من الورد. وهذه القصة المليئة بالغرائب والعجائب، ذات المبنى المتخلخل والتي تحتل فيها قصة: «الحب وبسيشه» اكثر من ربع حجمها، تفيض بالاقاصيص الماجنة وبأقذع التعابير، كما تفيض بحكايات قطاع الطرق وشذاذ الآفاق، والمآسي الغرامية والهزلية من كل نوع وجنس، نسجت مادتها من كثير من القصص اليوناني القديم ليس من السهل علينا تبيين خيوطها، كما كانت بدورها معيناً، ورده كثيرون من واضعي الحكايات بينهم لافونتين في مجموعته *Contes*. وقد اضفى عليها مؤلفها ثوباً فضفاضاً من اللغة والبيان افقدها شيئاً من قيمتها لما شابها من التصنع والتحذلق. غير ان وصفه لمشاهد الحياة الشعبية في الريف والمدن الصغيرة القائمة في الولايات يبعث في النفس السرور والحبور. ومع ذلك فهذا كله ليس بشيء يذكر امام هذا الشريط من المشاهد الدينية الذي امامنا في الجزء الاخير من روايته هذه، حيث يستسلم ابوليه، بعبارة تفيض حرارة وحماسة، لشطحات من الرمزية والتقوى والخشوع لا ترتبط بشيء بأجزاء الكتاب، سوى انها تدور حول بطل الرواية. فالصفحات التي حبرها والتي تلقي بعض الاضواء على مؤلفاته الاخرى، لا مثيل لها في الادب اللاتيني الذي تقدمه. كل ذلك ساهم على جعل روايته هذه *Métamorphoses* من بواكر الادب الواقعي تنطق عالياً بهذا القلق، وبهذه الآمال، وبهذه الاعراف والعادات التي تلازم دوماً الآثار الفكرية الخيالية التي صدرت عن الشرق.

التاريخ هنالك مناهج واساليب عديدة لكتابة التاريخ وتدوينه. ورغبة منهم في توجيه التاريخ نحو النقد، حاول بعض كتاب الاغريق من العصر الهليني ان يفصلوا التاريخ عن الادب. وهذا المنهج التاريخي قد يكون نال رضى اصحاب المنهب الواقعي الذي تميز به الرومان، لو ان الروح العلمية التي تعتبر الاستبحار في العلم (*Erudition*)، مظهراً من مظاهرها المفردة، عرفت ان تزيد هذا المنهج قوة واندفاعاً او ان تحافظ على مستواه. ولكن لم يحدث شيء من هذا قط. فالاهتمام بالتاريخ كعلم بقي على قوته، ولكن لأسباب بعيدة عن الرغبة في الاطلاع، كهذه المؤلفات العديدة، يضعها وفقاً للاسلوب الهليني، اشخاص من الصف الاول، من بينهم اباطرة امثال اغريبين والدة نيرون، او امبراطور كهدريانوس صاحب المذكرات، فقد أوحت بها اعتبارات سياسية وأخلاقية. وهكذا يبقى التاريخ قطاعاً من

قطاعات الادب . وبما هو أكثر من ذلك ، فالكاتب اللاتيني الذي يعلو اسمه باقي الأسماء من بين المؤرخين اللاتين ، يحمل التاريخ هوايته المفضلة ومسلكه المحبب ، هو تاسيت او تكيتوس .

بينه وبين تيت – ليف من كتاب اللاتين ، كثيرون تفرغوا لهذا العلم وانقطعوا له . وقد فُقِدَت معظم مؤلفات أكثرهم ولم يصلنا منها شيء خليق بالذكر . والذي وصلنا ليس له كبير شأن . « فتاريخ الاسكندر » المنسوب الى كوانت – كورس يثير مشكلة تتصل بصميم تاريخ الادب . وراح بعضهم ، امام جهلهم التـــام لهذا الكاتب ، يردّونه الى اواخر القرن الرابع . فالافتراض الذي يجعل منه معاصراً للامبراطور كلوديوس لا يستند إلا على اقتنـــاع شخصي . كذلك يثير هذا الكاتب قضية اخرى تتعلق بالأدب . ففي الوقت الذي يُشنّع فيه المؤرخون الكلام على كوانت – كورس ، نرى بعض مؤرخي الادب اللاتيني ، يكنّون له ، بعكس اولئك ، بعض التقدير . فاذا ما اخذت بقراءته ، فلا يعتريك أي حس بالملل ، إلا عندما يأخذ بإيراد بعض الخطب التي لها اول وليس لهـا آخر . يرضينا منه هذا الحس بالفراغ يحدثه فينا ، بسبب أسماء الاشخاص التي يذكرها ، والاخـــلاق التي يروح يصفها . فشخصية الاسكندر تتحرك سيكولوجياً امامنا بصورة مشوقة . والحزّ النفس ان كل هذه العوالم التي يحركها امامنا لا تنهض على سند تاريخي يخلو من الشك ، كما انـــه ينبذ جانباً ويهمل كلياً ، بصورة منهجية ، جذرية ، العنصر الآخر ، الذي يتوفر ، مع ذلك . فلِمَ لم يضع لنا ، والحالة هذه ، رواية واضحة؟

فاذا كان كوانت – كورس لا يعني غير اسم وكتاب ، فتاسيت (تكتوس) ، معروف لدينا جيداً بفضل الانوار الكاشفة التي تلقيها مؤلفاته . اقبل على كتابة التاريخ ومعالجة قضاياه وهو في الاربعين من عمره ، بعد ان كان عنى ، من قبل ، بتحصيل الخطابة والبلاغة التي تركت فيه طابعها ، مع ان اسلوبه وانشاءه بعيدان كل البعد عن التفخيم والاستطرادات البيانية . أحبّ الخُطَب فذكر الكثير منها في كتابه ، عدا عن تلك التي نحتها من وحي الخيال ، كهذه التمارين التي يقوم بها الطلاب . من ذلك مثلاً ، إثباته مرافعة الامبراطور كلوديوس امام مجلس الشيوخ بشأن طلب الغاليين قبولهم في وظائف الحكام والقضاة ، معتمداً في الاساس ، على نص الخطاب الاصيل ، فتوسّع فيه كما شاء له خياله . كذلـك أفاده تمرسه الطويل بشؤون الخطابة في صقل أحاسيسه وتهذيب مشاعره الشخصية فترك لها العنان واطلقها على السجية . ان أكثر الخطباء ابتذالاً لم يستطيعوا ، بعد ان أخذوا بسمو عواطفه ، إلا ان يشددوا على ما تحلى به من الصفات الاصيلة ، من ذوق مرهف في التحليل الادبي ، والرغبة في الإعراب عن التشاؤم الذي سيطر عليه ، حتى باهتمامه بهذا العالم البربري الذي جهلوا عنه كل شيء ، مع انه عالم له جالاته مهما خشن ، فاضلٌ لابتعاده عن هذه الحضارة الفسدة المنحلة ، وفيها كل الخطر على روما المتحللة .

هنالك عوامل أخرى أثّرت على تفكيره وروحه ، يرجع أكثرها لهذه الاضطرابات التي سببتها تصرفات دومتيانوس فسببت هلاكه فنجم عنها هـذا التحالف الذي تم عقده بين مجلس الشيوخ وبين ممثلي الأسرة الانطونية ، فقد قوّى فيه هذا كله الشعور بصدق اخلاصه وانقطاعه

في المصلحة العامة، والامتعاض الذي اعتراه من مشاهدة هذا التناقض بين المثالية والواقع المتحيز. كذلك، تم له الاطلاع على بعض القضايا العامة وما كان لها من ردة شعورية في النفوس. فقد تألم في قرارة نفسه كثيراً، من أمور لا تتعلق به شخصياً ولا بأقاربه او أنسبائه بشيء، بل به، باعتباره عضواً في مجلس الشيوخ ومواطناً رومانياً. فقد رغب ان يفهم ويدرك، وان يحمل غيره يدرك ويفهم ايضاً، بعد ان أمّن الامبراطور «نروه» وترايانوس من بعده، حرية الكتابة والكلام لمن يروم الكتابة عن الماضي ويؤرخ له. وهكذا قرر ان ينقطع لكتابة التاريخ وان ينصرف للتحري والتقصّي، أكثر فأكثر، وجمع المعلومات التي يرغب فيها. فابتدأ عمله بالترجمة لحميه أغريكولا، ثم عقد بحثاً مستفيضاً حول جرمانيا من الوجهة الجغرافية والاتنوغرافية، ثم انصرف الى وضع مؤلفاته الكبرى: «التواريخ» و«الحوليات» التي لم تصلنا بكل أسف، كاملة، والتي أرّخ فيها الحقبة الواقعة بين موت نيرون وطلوع الأسرة الفلاقية، ثم انصرف لمعالجة الحقبة السابقة الممتدة من تبوء طيباريوس أريكة العرش. وقد اعرب هو نفسه عن رغبته بالسير القهقرى الى الوراء، إلا ان الوقت لم يتوفر لإكمال بحثه من التأريخ لعهد اوغسطس. وعندما راح يعلن عن رغبته في ان يترك التأريخ للحقبة التي عايشها، للوقت الذي يبلغ فيه سن الكهولة، فكأن به أراد ان يتخلص بلباقة، من تلبية طلبات ورغبات جاءت من فوق. فقد همّه كمؤرخ يحترم نفسه، ان يعبر عن آرائه بحرية تامة، كما رأى نفسه مضطراً، من جهة أخرى، للتوسع بالرجوع الى المصادر والمراجع الأصيلة، للوقوف جلياً على بواطن الامور، ودوافعها الدفينة، ومسبباتها.

كان مفهومه التاريخ، وطريقة الأخذ به، يؤلف، من الوجهة العلمية المنهجية، ومن ناحية اصول كتابة التاريخ، تقهقراً، بالنسبة لبعض مؤرخي اليونان، أمثال ثوقيذيذس وبوليب. فقد استقى معلوماته من أفواه معاصريه والتقليد المتواتر على ألسنة الناس، وذلك بالرجوع الى آثار ومذكرات من سلفه، والوثائق والأوراق الرسمية، التي كان في مقدوره الاستفادة منها. فنحن أعجز من أن نتبين اليوم، المدى الذي بلغته تحقيقاته العلمية، والعناية التي وفرها لها وأحاطها بها، وكلاهما جدير بالتقدير والثناء. ولعل الشيء الوحيد الذي نأخذه عليه في جمعه معلوماته: هو قِصَر نظره، اذ انه اقتصر، في جمعها على حاشية الامبراطور وبطانته، وعلى ما تلبّد به جو مجلس الشيوخ وروما من شؤون وشجون. فلم يهتم كثيراً بأمر الولايات ولا بأمر الجيش الا بالقدر الذي كانت امورهما، مداراً ضيقاً للبحث في قاعات مجلس الشيوخ وموضوع مناقشاته. فادارة الامبراطورية الرومانية والحياة في أرجاء هذه الامبراطورية، تختلف تماماً عما ارتسم من صورها في ذهن اعضاء مجلس الشيوخ. فالبحث الذي اقتضته معرفة هذه الامور لم يجر بأكمله، والارجح انه لم يستفد كثيراً من الأسفار والاتصالات العديدة، والاقامة احياناً في الريف مما كان يقوم به بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ. كذلك لا بد من بعض التحفظ لجهة الطريقة التي استخدم معها هذه المصادر. ولكي يستطيع التمييز والانتقاء بين عدة روايات

مختلفة كان عليه ان يختار بينها، راح يستعمل بنجاح، مقياساً لها، ما هو محتمل الوقوع او الحدوث. وقلما نراه يحاسب ذاته في تقويمه المصاعب التي تعترض بحثه، الامر الذي يثير فينا شيئاً من القلق والاضطراب. ففي تعليله وتفسيره للتطورات والاحداث التاريخية التي استعرض لها، يترك بعض الحلول للقضاء والقدر، ويعزو الحل الى شيء من تدبير الآلهة. فاذا ما كان في عقائده الدينية وتصديقاته الايمانية، بارداً جامداً، فموقفه هذا يعكس موقف الدولة الرسمي، مشوباً بشيء من النزعة الفلسفية. فقد عوّل في بعض التعليلات التي ظلع بها على طوالع الغيب والقول بالاعاجيب. ولعل ما هو اهم من هذا كله، فلم نر انه التزم دوماً، كما يدعي، جانب النَصَفة. فقد كان له من الاباء، ما صانه عن المصانعة والكذب، حتى ما جاء او اندس تحت قلمه، من باب الاعمال، والاحكام التي اصدرها على الافراد والملك والدولة، صدرت كلها عما رسم لنفسه من مُثل، وهي احكام صادقة لا يشوبها، على الاجمال، الغرض او العاطفة، فلا تلبث ان تبرز بعد صدورها والتعبير عنها، على غير ظاهر الأمور.

ولكي نضعه في الصف الاول بين كبار الأدباء، ليس في روما الامبراطورية فحسب، بل ايضاً في كل البلدان والازمان، علينا إن نلقي نظرة متمليّة على ما أوتي من معرفة نادرة لأغوار النفس البشرية، وما تم له من فن، كمؤرخ ومؤلف، اذ لم يعدله، في الاولى، غير المؤرخ اليوناني توقيذيدس، وان اختلفا وتباينا منهجاً ونتائج. فقد راح توقيذيدس يحلل الأهداف والآمال والمخاوف التي ساورت الاشخاص الذين تكلم عنهم او أرّخ لهم، كما أخذ بتحليل الحوادث وتعليلها بحيث يدرك القارىء الاوضاع السياسية العارضة، ويبعث فيه التحرز من الناس دون ان يدع احداً يشعر بأنه يقوّمهم. اما تاسيت، فقد رأى في التاريخ وسيلة لموعظة الناس وارشادهم: « فقد حاولتُ دوماً ان أبحث عن الاشياء والافكار التي تتصف بالتسامي او بالدناءة، وانا وطيد الاعتقاد بأن الغرض من التاريخ الا تُغمط الفضائل والا يُزْهد بها، وان يحسب الانسان حساب الاجيال الطالعة، وان يتبين الضرر والاذى الذي ينجم عن الكلام الفارغ والاعمال الشريرة ». من الغلو الزعم هنا ان محاولته هذه أدت به الى النفور من الناس ومجافاتهم، مع انه عرف بينهم حكماء افاضل، وشهد لهم بذلك عالياً وهو منشرح الصدر، وان كانوا قلة، بحيث ان نفاذ نظرته التحليلية التي لم تكن لتتأنى او لتهادن، اضفت على تشاؤمه، حدة أكبر وعمقاً ابعد. ففي سَبْره لنفوس الافراد والجماعات، تقززت نفسه بهول ما وقع عليه بصره او صدم سمعه. فهذه الحقائق المرة من شأنها ان تصدم القارىء اذا لم يتضاعف الكاتب الفنان، بعالم نفساني يُضفي على مشاهداته وعلى المرويات التي سمعها ... لغة جميلة، وعبارة كريمة، عصماء، غنية بالشواهد الادبية والشعرية، ولو خفض من حدة ما وقعت عليه عينه، او ما اصطكّت له أذناه، في عبارة مقتضبة وجيزة، مفتولة العضل، معجزة المعنى والمبنى. فكل شيء عنده يتضافر ليضفي على عمله الادبي قوة من الاغراء تلقي على القارىء درساً قاسياً يجعله يتشكك بأمر هذه الانسانية، ما لم يسعفه التفكير فيرجع بالذهن، للزمان والمكان الضيّقين، في

النطاق الذي عاش فيه هذا المؤرخ وعمل .

بعد تاسيت ، يمكن لنا ان نضرب صفحاً عن ذكر بعض صغار الشأن من كتّاب هـذا العهد ، لنحتفظ من بينهم باسم سويتون لا غير ، الذي عالج نوعاً او فناً آخر من فنون التاريخ، فوصف بالعالِم المتقصّي ، كما اصطلح البعض على تسميته، والشرف الذي ناله من ذلك ، لا يقلل منه ان تعرف ان علمه استأثر بالدرجة الاولى بالنكتة اللاذعة، والتفاصيل السطحية الطفيفةالشأن غالباً ، والملحة التي تثير الغرابة . اشرأب ذهنه بما رُكّز فيه من فضول وحب الاطلاع ، الى آفاق ومجالات متنوعة : فتناول اللغة ، والصرف والنحو ، والنُظُم السياسية وعلم الآثار ، وغير ذلك من ابواب العلم . فقد مال لمعالجة فن السِيَر ، وانقطع لتراجم الرجال، وأرّخ لكثير من رجالات الادب، ولأباطرة زمانه. وهذه السير التي وصلتنا ، وعددها ١٢ سيرة مختلفة ، تمتد من قيصر الى دومتيانوس . فالوظائف التي شغلها في الديوان الامبراطوري ، في عهد هدريانوس، أتاحت له البحث والتقصي في محفوظات الدولة والمستندات الرسمية والوصول الى وثائق مـن الدرجة الاولى في أصالتها . عُرف بالدقة ، واهتم بضبط الوقائع مجردة عارية ، وعرف ان يجانب الهوى والغرض متنكباً عن المحاباة والاخذ بالوجوه . وكان بعيـداً عن الادعاء الفارغ والغرور ، وتسلح بلغة ناصعة، واضحة ، بسيطة، وحرص على ان يعرض الوقائع، كما هي، جنباً الى جنب ، دون الاهتمام بسوقها على ترتيب زمني ، غير مبالٍ بالفكرة الرئيسية ، بحيث يرسم لنا صورة ، كيفما كانت . وهكذا يتميز في نظرنا عن تاسيت ويكمله من بعض الوجوه . إلا ان كتابة السِيَر والتراجم ليست من صميم علم التاريخ ، والاخذ بهذا الفن من شأنه ان يضعفه . فقد عرف سويتون ان يفيد شأناً ومنزلة من وضاعة شأن الذين نسجوا على منواله ، وحذوا حذوه ، فراحوا يكتبون تراجمات للأباطرة بعد ترايانوس ثم جمعت في ما بعد ودخلت مجموعتها في الكتاب المسمى *Histoire d'Auguste* .

الخاتمة

يجدر بنا ان ننهي هذا البحث عن تاريخ الادب اللاتيني في الحقبة الممتدة من وفاة اوغسطس حتى اواخر القرن الثاني، بكلمة مقتضبة عن ترتليانوس، مع ان الفرصة سنحت لخصّه بكلمة وجيزة، في معرض حديثنا عن المسيحية اذ كان الكاتب الذي تصدى للدفاع عنها والنضال دونها . فهو مدين بما هو عليه من مقدرة خطابية وجدلية ، لروما ولهذه الحقبة التي عايشها ، ومنها استمد حبه للجدل وحرصه على الدقة القانونية واللهجة الخطابية التي تطبع دفاعه، وهذه الاستدارات البيانية الايقاعية ، وهذه التفخيمات وهذه الاستفهامات . فالشعلة التي تتأجج في صدره لا تمده بسلاح جديد يستعمله ضد خصومه من الوثنيين المشركين، هذه الاساليب الجدلية التي طالما اتخذ منها اداة وعدة . ومع ذلـك فترتليانوس هو كاتب كثيراً ما هاجم الحضارة القديمة : « فأي شيء مشترك بين اثينا والقدس ، وبين الاكاديمية والكنيسة » ؟ . ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب الذين ناضلوا في سبيل الدفاع عن المسيحية ، وبالرغم من الطابع الثوري

لعقيدتهم ، فهم خريجو معلمي الخطابة والبيان ، تتلمذوا عليهم وقبسوا منهم . فالمسيحية ستفوز بروما ، إلا انها تحذر من قتلها : فتتورع وتتئد .

ولكن الامر لم يصل الى هذا الحد بعد، ولمحن لسنا الا في اواخر القرن الثاني، وفيه اصبحت روما عاصمة جمة بنبمة للادب اللاتيني. وعرفت بعد ما تم لها من ازدهار ، في عصر اوغسطس، ان تحافظ ، بمدعهود الأسر الامبراطورية الثلاث التي تعاقبت على الحكم ، على هـذا الاشعاع الثقافي ، وان تتفادى الجدب والقحط الادبي . فقد اطلعت عدداً من كبار الكتاب اغنوا تراث اللغة اللاتينية. فضياع الحرية السياسية نهائيـاً لم يقعدهم او يشل منهم النشاط ، كما ان اعجابهم بالماضي لم يحل دون اصالتهم. ومع انه سبق لبعض هؤلاء الكتاب ان نعوا انحطاط الادب في عهدهم، فعلينا ان نحترز جداً من الاخذ بتذمرات المعاصرين حول تدهور الادب ، وهي شكايات لا بد منها بعد عصر اوغسطس الذهبي .

ليس من يتجرأ ، مع ذلك ، فينكر ، بان الانحطاط ذر بالفعل قرنه ، ولكن ليس بعـد موت اوغسطس رأساً ، بل بعد ذلك بنحو قرن تقريباً ، عند وفاة ترايانوس او عقب ذلـك بقليل ، عند موت المؤرخ الروماني الكبير تاسيت . ولكن لا بد من اشارة عابرة توضح وضع الحركة الفكرية بعض الشيء . فالادب اليوناني، بعكس الادب اللاتيني يسجل نهضة ادبية جديرة بالملاحظة والتقدير . فالآداب اللاتينية هي وحدها التي تشكو من اعراض هـذا الانحطاط ، ولكن على نسبة ما هي رومانية ، اي تمثّل مدينة روما العاصمة ، حيث نشأت وترعرعت .

فاذا ما عرفت هذه المدينة ، مدة طويلة ، ان تجتذب اليها حملة الأقلام، في الولايات الغربية، على الاقل ، فقد خسرت شيئاً من منزلتها كعاصمة الفكر في الامبراطورية ، ومناط رحال اهل القلم حيث تختمر الميول الادبية ، وتنضج النوازع الفكرية ، وتبرز الكفـاءات لتعود فتنطلق منها وتشع في جميع الجهات . فالكاتبان اللاتينيان الجديران بالذكر ، في القرن الثاني : ابوليـه وترتليانوس، ولدا في افريقيا وفيها قضيا معظم سني حياتهما، ولا سيما في مدينـة قرطاجة . ومما هو اجدر من هذا بالذكر، هو ان الكاتب الروماني، الصميم الاصل والمحتدم ، اولو ـ جيل، نزح عن روما وجاء وسكن على مقربة من مدينة أثينا . وهكذا ما لبثت روما ان اصبحت من الوجهة الادبية ، مدينة من هذه المدن الحواضر ، لا تتميز كثيراً عن غيرها من الوجهة الفكرية.

كذلك حري بنا ان نلاحظ هنا ان هذه اللامركزية التي اتسمت بها الحركة الفكرية، برزت في مجالات اخرى . فقد اخذت الولايات تنزع الى اشد اواصرها وروابطهـا الاقتصادية بعضاً ببعض ، دون ان تلوي على روما العاصمة بشيء ، حتى ان اعضاء مجلس الشيوخ انفسهم كانوا يشعرون ، وهم يضطلعون باعباء مسؤولياتهم الادارية ، بشيء من الغصة ، ازدادت مع الوقت ، لفصم علاقاتهم مع الولايات التي ولدوا فيها وترعرعوا في اجوائها . فهل في ربط هـذا الشعور بالحركة اللامركزية التي بدت بوادرها، ما يلقي ضوءاً على الوضع ؟ قـد يكون ذلك ، اذ ان الجزم والقطع إثباتاً للرأي ، يقتضي له حل بعض الأمور النظرية ، والتوقيت الزمني لما بين هذه

القضايا من ترابط وتماسك بعضها ببعض، اذ كل هذه الأمور تكشف عن تطور عام انطلق بوضوح منذ مطلع القرن الثاني واخذ يتسع ويتضخم مع الزمن .

٣ ـ الآداب اليونانية

منذ هـــذا الانبساط الفكري والتفتح العقلي الذي مر على الشرق ، إثر فتوح الاسكندر ، عرف الشرق الهليني ان يفيد من هذه اللامركزية الادبية التي أخذت بوادرها تدب" ، هي الاخرى، في الغرب اللاتيني. فقد كان لأثينا منزلة رفيعة، في كل ما يتصل بالادب والفنون الجميلة، او ما يتعلق بتعلم الخطابة والبلاغة والفلسفة . فقد كانت قبلة انظار يؤمها مع رواد المعرفة وطلبة العلم ، كل من جاشت نفسه بالعظائم واشرأب الى العلى، او رغب في ان يستمتع بعشرة هذه المجتمعات التي صَقَلَت منها الانواق وحلت العقول . فقد اتخذ منها داراً ، في النصف الثاني من القرن الاول ، وفي القرن الثاني ، كل من الكتبة والمفكرين ، كالفيلسوف الفيثاغوري ابولونيوس ده تيان ، القبادوقي الاصل والنشأة ، والخطيب المفوّه ديون الملقب بالذهبي الفم، من مدينة بروس من اعمال مقاطعة بيثيليا ، والمؤرخ اريانوس النيقوميدي، والهجّاء السليط اللساني لوقيانوس السميساطي . وبين هؤلاء من أصبحوا في اثينا ، واستوطنوا فيها ودخلوا الوظائف الادارية وتولوا ادارة الاكاديمية امثال امّونيوس المصري الاصل ، كما سكن غيرهم فيها ونالوا حق الرعوية ، ورُقّوا الى منصب الاريوباغوس ، امثال فيلوبابوس الكثير البذخ ، وهو حفيد ملك صغير على مقاطعة كوماجين ، جرّده الامبراطور فسبسيانوس من الملك . وهذا الاشعاع الفكري ينطلق من اثينا ، يبرز على أشده في كل من عواصم الشرق الهليني الكبرى: كالاسكندرية وانطاكية ، وأفسس وبرغاموس . زد على ذلك ان الشرق الهليني ، ألـّف منطقة ممتازة لفريق من الاساتذة والمحاضرين المتجولين ، ينتقلون من مدينة الى أخرى ، يلقون فيها من الخطب والمحاضرات ويعالجون من الموضوعات ، ما يثير حولهم لـَغَطاً، قد ينتهي ببعضهم الى شيء من الشهرة والى بروز كفاءات مخبوءة. وهكذا أمكن للأدب اليوناني ان يزدهر ويحظى ببعض الألـّق في أماكن مختلفة ، وهي حركة كانت روما وغيرها من حواضر البلاد في الغرب تحفل بها وتشجعها : وهكذا استقطبت روما عدداً من كبار ممثلي الثقافة اليونانية ، في هذا العهد ، امثال: سترابون وديودوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكرنامي ، كما ان الامبراطور فسبسيانوس رحّب احسن ترحيب ، بمقدم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس الى روما، وأنعم عليه بالرعوية الرومانية بعد ان استسلم، عام ٦٧ ، للقوات الرومانية التي قمعت ثورة اليهود بقيادة تيطس . وفي روما وَضَع يوسيفوس تاريخه المعروف عن الشعب اليهودي ، كما أرّخ لثورة اليهود الكبرى التي أخمدها تيطس بالنار والدم .

بين الخطاط ونهضة

هؤلاء الادباء الاربعة الذين ألمعنا الى أسمائهم أعلاه ، كان إشعاعهم ضعيفاً بحيث لا يتمالك المؤرخ ان يرى الثقافة الهلينية ، خلال هذين القرنين، تصاب بالعجز والقصورَ ، اذ لم تعرف ان تسجل بين حَمَلَة الفكر ، اذ ذاك ، من يفضلهم اثراً، بعد ان لم

يحسبوا لقيمتهم الادبية حساباً، في عملية تقويم القيم الفكرية. والصحيح ، انه لا بد من الاعتراف هنا بوضاعة الانتاج الفكري الهليني خلال القسم الاكبر من القرن الاول للمسيح . فالكشف عن الاسباب التي أفضت بالادب الى مثل هذا الوضع الزري ، قضية أخرى ، لا يمكن ردها ، بحال من الأحوال، لهذا الموقف السياسي والاداري المتسّم بالحذر وعدم الثقة، يقفه الاباطرة اذ ذاك، من الشرقيين ، الذي لا يمكن ان يجر لوحده الى مثل هذه النتائج .

ووضاعة الانتاج الادبي هذه، اتُخذت ذريعة او ارادة يستار بعض مؤرخي الادب وراءها ليتجاهلوا او ينكروا هذا الانبعاث أو اليقظة الفكرية التي ظهرت بوادرها ، منذ أواخر القرن الاول وشملت القرن الثاني بكامله . فكلمة « إنبعاث » ، الا تبدو هنا ، فضفاضة ، يا ترى ؟ ومها يكن ، فهي الكلمة التي اصطلح مؤرخو الادب على استعمالها تعبيراً منهم عن هـــذه الظاهرة الفكرية ، وان راح البعض الآخر منهم يُورّي عنها بكلمة : ازدهار رجيعي او رجعي . وسواء اكان هذا ام ذاك، فالامر سيان عندنا. فالنشاط العلمي يبذله بطليموس الاسكندري وجالينوس البرغامي ، يصحبه انتاج ادبي أخذت قيمته تبرز اكثر فاكثر وتتضح . ففي الحين الذي اخـــذ الهبوط أو الانحطاط يدب بالآداب اللاتينية ، نرى الآداب اليونانية ، تأخذ من جهتها ، بالاشعاع بعض الشيء . وهذه اليقظة دليل قاطع على انتعاش الحياة في عالم اخذ ، في هذا الوقت بالذات ، عهد الامبراطورية الرومانية بتناصل من أصل اغريقي ، بانتظار الساعة التي يزودها فيها بأباطرة اغريق او متهلينين، ويبعث، الى الغرب ، ما لم تكن سبقت ونشأت فيه من قبل ، بعقائد دينية جديدة . فالتأكيد هنا بان الثقافة الهلينية بقي لها سطو شديد ونفوذ قوي في رومـا ، خلال الامرة الانطونية ، لا يفيد شيئاً . فلم تتمتع هذه الثقافة يوماً في روما ، برعاية وكفالة مثل التي نعمت بها في عهد هدريانوس مثلاً ، الذي كان بثقافته يونانياً اكثر منه رومانياً ، وعندما راح الامبراطور مارك اوريل يحيز بنات افكاره ويسجلها سواداً على بياض ، قرر كتابتها باللغة اليونانيـــة .

بلوتارخوس *Plutarque*

بين رجال الفكر في هذه الحقبة ، لا بد من التنويه عالياً ببلوتارخوس، لانه أسبقهم في الزمن ، ولانه لا يمكن ان نفرق بين المفكر وبين الكاتب الذي كانه هذا الاديب الخصب بعد ان تناول في كتاباته شؤوناً عدة من شؤون الفكر .

ليس أبسط لعمري ولا اكثر وحدة ، من هذا المساق الهادي الذي انتظم سلك حياة هذا السيد الاغريقي ، الرخي البال ، الذي رأي النور في مدينة بيوتيا ، في غرة القرن الأول . فبعد دروس عالية ناجحة في اثينا ، واسفار عديدة القى خلالها محاضرات في الفلسفة الأدبية ، نالت استحسان روما ودوياً بين منتدياتها وصالوناتها الادبية ، استقر ، وهو في الاربعين من عمره ، في وطنه الام ، في اليونان ، الغافية تحت السيطرة الرومانية ، يتولى منصباً ادارياً في مسقط رأسه، ويقوم بوظيفة كهنوتيه في دلفي، يعيش ايامه في عشرة موصولة بين صحبه ورفاقـه ، يتناقشون ويتذاكرون ، يتفرغ للكتابة ، ولهذه الاعمال الموكولة اليـــه ، مدة اربعين سنة . فساعدت

مناقشاته ومجادلاته مع صحبه وخلانه ، على توضيح افكار هذا الرجل الوادع ؛ وهــذا الحلم الذي استنكف عن ان يستخدم ثقافته العريضة الواسعة، وكفاءاته ككاتب لامع، لتوفير اسباب الشهرة له، فأتته صاغرة طائعة، دونما صخب أو لـَجَب، على اجنحة من اعجاب الناس وتقديرهم العالي له .

تقسم مؤلفات بلوتارخوس الى مجموعتين، اطلق مؤرخو الادب على الاول منها نعت: « الآثار الاخلاقية » ضمت ٨٠ بحثاً مختلفاً في موضوعات ادبية شتى ، ساق بعضها احاديث حية ، مرحة ادارها بينه وبين صحبه وخلانه . ومع ان معظم هذه الابحاث تناولت قضايا فلسفية ، أدبية ، دينية ، ؛ فلا نرى بينها ، مع ذلك ، ما يمكن اعتباره مذهبــاً عقائدياً خاصاً به . افلاطوني النظر والمنهج ، فقد تفاعل ، بعض الشيء ، بتعاليم بعض المقالات الفلسفية الاخرى ، مــا عدا الابيقورية منها . وقد تركت الرواقية فيه بعض اثرها ، مع انه تناولها بالنقد والجرح ، اذ قام بينه وبين هذه الفلسفة ، من الوجهة الدينية ، هوة عميقة الغور ، حالت دون قيام تقارب بينهما. ويمكن لنا وصفه بعبارة وضعها هو على لسان احد جلسائه : « هدف الفلسفة اللاهوت » ، واستطاع بما وضع من تفسيرات وشروح رمزية المعنى والمدلول ، ان يوفق بين اهتمامــه بهذه العقائد الشرقية — اذ له بحث يفيض بالمعلومــات الدقيقة حول « ايزيس واوزيريس » — وبين احترامه العميق للطقوس الدينية القديمة في اليونان . وهذه النزعة ينزع بهـا نحو الوئام ، جعلته بالفعل ، يفيض ، بوصفه مرشداً دينياً ، بنصائح وارشادات تتناوح بين التشديد والتسامح . فقد عرف ، بما تم له من نفس مستقيمة ، صافيــة الاديم ، ان يجانب الضغط القاسي الذي لا يرحم ، وان يعتصم بلهجة كل ما فيها جديد .

اما مجموعته الثانية ، فلنحذر ، في تقويمها ، الاخذ بالشهرة التي اضفتها على: كتاب الابطال ، الثورة الفرنسية . فقد وضع في كتابه هذا ٢٥ زوجاً من السير المتوازية ، اذ يضع تباعاً حيــاة رجل دولة يوناني ثم يردفه بحياة روماني . وفي سبيل وضع هذا الكتاب ، لم نره قام لأجله ؛ بتحريات وتقصيات دقيقة من الدرجة الأولى . فقد راجع ، في هذا السبيل ، كثيراً ، وخير ما وصلت اليه يده في الموضوع، بحيث ان المؤرخ لا يزال يجد فيها اليوم، مادة طيبة له . صحيح انه يتمهل في سرده ، بحيث يورد لنا ملحاً مستظرفة صغيرة ، ودقائق وتفاصيل يرى فيها ما يفرّد الرجل ويميزه ، من خلال عمله او وظيفته . وهذا المرشد الاخلاقي الذي كانه ابداً ، والذي يتخذ له من التاريخ وحده كتاباً، ينتصب امامنا، بلحمه ودمه ، في هذه الملاحظات الشخصية والتعليقات التي يبديها بشيء من الافاضة والاستطراد. فالاستقامة التي اتصف بها تصونه من زيف التاريخ . فهو يرفع ابطاله الى مصاف العظماء ، تقوم مقدرته الحقيقية باشاعة الحياة في شخوصه فينبضون بها بصورة دراماتيكية ، بفضل ما اضفى عليهم من الوان وافياء ، وانوار وظلال . وبفضله استطاعت اجيال متطاولة ، ان تفهم ، كل على هواها، التاريخ القديم حسبما تريده . فاذا ما زينت للبعض نفوسهم ان يروا في هذه الأبطال او العظام ، الفضائل المثالية التي يهفون اليها ،

او ان ترى سيدة ، كمدام رولان ، في هـذه التراجم : « زخرفاً النفوس الكبيرة » ، فليس بلوتارخوس بمسؤول عن ذلك .

خطابة ، تاريخ ، فلسفة

والطريف واللذيذ معاً عند بلوتارخوس ، هو انك لا ترى عنده أي أثر للاسلوب الخطابي إلا ما وضع منها في شرخ الشباب. هذا الاسلوب الذي راج أيما رواج ، هنا في هذا العالم اليوناني ، وهناك ، في العالم اللاتيني ، مع ما رافق ذلـــك من جدل ونقاش بين مختلف التيارات الادبية ومذاهبها ، وان كانت النزعة الاتيكية هي الغالبة ، اذ لم يحل تمسك انصار هذه النزعة بالشكليات اللسانية واللفظية ، من تذوقهم الاسلوب البياني الخطابي . بعض هؤلاء الخطباء تبلغ منهم البلاغة ، شهرة واسعة ، فتطير اسماء اصحابها بعيداً ، بينهم مثلاً : ديون ، الذهبي الفم ، الذي ابعده دومتيانوس عن روما ، ثم اعتنق مقالة الرواقيين فراح يدعو لها متنقلاً بين مدينة واخرى ، وايليوس ارستيدس الذي يُعدّ من هؤلاء الكتاب الأسيويين الذين طارت شهرتهم في عهد الأسرة الانطونية ، والذي راح في خطابه : «الى روما» يشيد عالياً بمآتي هذه المدينة الخالدة؛ وهيرودس أتيكوس ، صديق الامبراطور هدريانوس ، ومعلم مارك اوريل ، من نصراء العلم الاغنياء الذي همّه ان يزيّن اثينا وغيرها من المدن اليونانية بأبدع الحلى، ويبني عدداً من المعابد والهياكل . وزراهم ، في القرن الثاني ، يفاخرون مباهين بتسمية أنفسهم : « سفسطائيين » وهي تسمية تكالب افلاطون على تحطيمها وانهاكها . فاذا ما تمت لهم جميعاً هذه المقدرة الخطابية التي عرفها السفسطائيون اثناء حرب البلوبونيز ، وعرفوا ان يثيروا ، على شاكلتهم وأكثر ، الفضول والحماسة ، أينما حاضروا او خطبوا ، نسبة لما كان عليه اهل العصر من تذوق البيان الرفيع والثقافة العامة، فلم يكن في مقدور أي واحد بينهم، باستثناء جورجياس وزملائه، أن يطلع، على اهل زمانه ، بأثر خليق بالذكر، بالفريق الآخر الذي لقّب نفسه بـ « السفسطائية الثانية » ، او ان يحدثوا ثورة روحية.

اما التاريخ ، فلم تكن قسمته ضيزى ، اذ اطلع لنا اريانوس *Arrien* من مدينة نيقوميديا في بثينيا .

فتصل قبادوقيا وحاكمها في عهد هدريانوس ، جاء أرّيانوس ، اثينا ، بعد انتهاء مهمته ، واتخذ منها دار سكنى له ، وانصرف فيها يكتب ويؤلف ، ويضع بضعة ابحاث في موضوعات شتى. وأهم آثاره على الاطلاق: « تاريخ الاسكندر » الذي لم يكفه ان حذا فيه حذو كسينيفون في بساطة الاسلوب والعبارة ، بل راح يسميه كما سمى كسينيفون نفسه كتابه : «اناباز *Anabase*» او « الرحلة » . ومن فضله البارز انه عرف ان يفيد كثيراً من هذه المصادر الاصيلة التي رجع اليها — ومعظمها مفقود اليوم — المتعلقة بفتوحات المقدوني الكبير ، هـــذه المصادر التي أهملها كوانت ـ كورس. والمؤرخان المعاصران له: بوزنياس البريجيت، وأبيانوس الاسكندري اللذان لم يبرهنا قط عن روح نقدية في ما وضعاه من كتب : الاول في الوصف الجغرافي لليونان ، والثاني

في تاريخ حروب روما : مع السمنيين والاسبانيين وقرطاجة . وبعدهما بقليل ، يطل علينا ديون كسّيوس ، حفيد ديون النعي الفم ، الذي بعد ان نال القنصلية مرتين في عهد امرة ساويروس، وضع لنا كتابه : « تاريخ الرومان » الذي يمور بالاسلوب الخطابي، مع انه جمع كثيراً من المصادر الاصيلة . ومع هذا ، وبالرغم من التحفظات التي لا بدّ من ابدائها بحق الآثار التي خلفها لنا هؤلاء المؤرخون اليونان ، تجدر الملاحظة هنا ان الكتب التي وضعوها في تاريخ روما ، تَفْضُل بكثير ، هذه التواريخ التي وضعها لها ، معاصرون لهم من مؤرخي اللاتين ، في هذه الحقبة.

فالافكار الفلسفية المنتشرة في جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، هي هلينية الاصل والمنشأ ، وبقي العالم الروماني يحتل المرتبة الاولى في تمهده لهذه الفلسفيات الدينية . ويكفي ان يُحيل القارىء هنا، على ما وردبهذا الشأن في البحث المعقود حول الوثنية واليهودية، لندرك لماذا لم تلق الرواقية ، وهي أكثر التعاليم الفلسفية نفوذاً وشيوعاً، من كشف عنها ، في بعض مؤلفات خاصة مهمة للغاية . فقد حفظ اريّانوس في كتابه : « خواطر » *Entretiens* ، وفي كتابه الآخر : « الدليل » *Manuel* ، اللذين لا يخلوان من مقاطع لها سحرها وفتنتها ، اثبتها بوضوح ، هنا وهناك من مظان الكتاب ، حول تعاليم هذا الرقيق القديم ابيكتيتس . وقد وضع مارك اوريل في « الافكار » وهو المعروف بإنشائه المتقطع المتفاوت – كأنّ به مجرد رؤوس اقلام وضعت على عجل – وهي مفكرة يومية لأحد الاباطرة . فالتعليم واحد هو : الخضوع الاداري للعناية الإلهية، التي بدلاً من ان تقضي على نشاط الانسان، تحرّكه وتوجهه . إلا ان الامبراطور، في ما تم له من مجد وعظمة ، يلاقي من المشقات والعناء في تطبيقه هذه التعاليم ، ما لم يفرض لهذا الرقيق تنفيذه ، من قبل . وهذا لا يعني ان مارك اوريل كانت تعوزه القوة ، انما يبدو عليه انه أكثر تصنعاً ، واقل قسوة ، كما انه اقل وثوقاً بنفسه . وبدون أية شفقة على نفسه ، وببصيرة شحذتها ارادة قوية ، وَضَعَ التكامل النفسي نصب أعينه ، نراه يدوّن شكوكه ومجالدة النفس وكبح ميوله ، ومقاومته للضعف البشري ، ووقوفه في وجه المؤثرات الخارجية التي تجرّب اخراجه عن جادة الحق والرشد. لما من أدب من آداب العالم، وما من أثر فكري بلغ مسامعنا، يشهد بأعلى واحسن ، على هذا الاخلاص الصافي في محاسبة النفس ، عند شخص خليق بالاحترام والحب ، وجدير بأن يشفق عليه لأنه وضع نصب عينيه ، طوعاً واختياراً ، راضياً مرضياً ، بلوغ مثل هذه العظمة .

لوقيانوس *Lucien*

لا بد من ان نختم بحثنا هذا بكلمة حول لوقيانوس الذي يحتل مرتبة خاصة . فبين مؤلفي الحقبة الموافقة لعهد الاسرة الانطونية هو اكثر هؤلاء الكتاب فردية ، ولذا يخرج على كل تصنيف وعلى اية صيغة ترابط . فبقدر ما يمكن ان نعتبر رسائل الهجو *Pamphlet* فناً من فنون الادب ، فهو خير من يمثل هذا الفن ، وخير من اتخذ منه أداة لجلد الآخرين ولنقد الناقدين انفسهم .

سوري الاصل والمحتد من مدينة سميساط، في مقاطعة كوماجين، فقد تأغرق ثقافة وعقيدة،

فبعد ان بلغت شهرته الخطابية أرجاء غاليا ، نراه يقاطع السفسطة ليقيم طويلاً ، في اثينا ، قبل ان يعين لوظيفة ادارية في مصر . فالادب اليوناني مدين له بعدة آثار كتابية ، بعضها رصين ، رزين ، وهي ليست قط بأجودها ولا بافضلها ، والبعض الآخر ، ادب سليط ، هازىء ، ساخر ، متهكم ، بشكل محاورات ، له منها مجموعة تعرف بـ « محاورات الاموات » . سدد سهام نقده للمذاهب الفلسفية اجمع من خلال نقده للفلاسفة ، فلا تفلت من لسانه شيعة او ملة أو مذهب ، أو مقالة ، حتى الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية او الكلبية . فاذا لم يُغر كل مذهب في نفسه الامتعاض والقرف ، فقد يسبب ما يقرب من ذلك إذ ان العقل الفلسفي والروح الدينية هما ، في نظره ، اعدى اعداء المثالية الهلينية على الاطلاق بما يضفيان عليها من رمزية غائمة ، هذه المثالية التي كانت تتمثل بهذا المنطق الجلي ، الواضح المعالم ، الذي كان في نظره ، ابرز خصائص الحضارة الاثينائيه ، ومن اطهر سماتها المفرّدة . الا انه على شيء من قصر النظر ، اذ فاتته ، على ما يظهر ، ملاحظة قوة التجريد التي جاءت تكلل عند أمثل رجال الفكر الاغريق ، في القرن الخامس ق . م ، فلسفة العقليين الجافة . فلم تضعه التربية التي تلقاها ، وجهاً لوجه امام مشكلات العلم وقضاياه . نراه يصول ويجول عندما يخطر له ان يسلط سياطه ، على هواة الخطب الهوائيـة الجوفـاء ، والاساطير الرمزية ، وهؤلاء المدجلين ، المدلسين الذي يهيمنون على معرفة اسرار الغيب وفواتحه المطبقة ، واتباع مذهب زينون وتعاليمه الكالحة الجافيـة ، واتباع الفلسفة الافلاطونية ، المتظاهرين بالعظمة . فخياله الخصب الولود يستنبط دوماً اوضاعاً تبعث على الضحك وتثير المجون ، يسري بها على القارىء ، لا يتهيب من التعريض بالآلهة ويسلقها بألسنة حداد ، كل ذلك بلغة عامرة ، بليغة ، وعبارة رشيقة ، وتعبير دقيق ، واسلوب يمور بالحياة والحركة ، والتهكم . ففي عصر من سماته الفارقة التشبه بأساليب الأقدمين ، فهل أسبق من لوقين لتمثيل اصحاب التيار « الاتيكي » ؟

للقيانوس مقلدون كثر ، حذوا حذوه ، فلا عجب • ان يشك ، والحالة هذه البعض ، في بعض الآثار الفكرية المنسوبة له . وعلى كل حال ، فهذا الكاتب اللامع الذي اسلوبه يلسع وينفذ الى الصميم ، لا يمكن إلا وان يترك له في الارض تلاميذ ينسجون على منواله . فلم يكن ليعالن المستقبل بكفاحه المرير ضد التيارات الجارفة التي كانت تجر معها الحاضر . فالنشاط الادبي والفكري في العالم الاغريقي ، بقي على سيره المطرد الذي حاول لوقيانوس ان يزحزحه عنه ويخرجه منه . والحق يقال ، فهذا الكاتب السوري الاصل ، الذي استهواه سناء تاريخ اثينا في قرونها الكلاسيكية العظمى ، والذي راح يكافح ، وينافح ضد النزعات والتيارات التي انبثقت من هذا التآلف بين اليونان والشرق ، فأدّى الى مثل هذا الازدهار ، يُعدُّ ظهوره أكثر من مفارقة ، فقد جاء في غير اوانه وزمانه .

٤ - الانجازات الهندسية والزخرفية

اذا ما اردنا ان نقف عند المدلول الحرفي لهذين المصطلحين ، كان لزاما علينا ان نأبى الاعتراف

بأي فضل لهذين القرنين ونرفض التسليم بأي يد لهما على الانشاءات والانجازات الفنية . فما من انشاءات فنية جديدة فيها ، وان حدث وتمّ شيء من ذلك ، فأمر نادر جداً ، والنادر لا يقاس عليه . فليس من الغلو بشيء ، والحالة هذه ، ان نرى في هذه الانجازات ، أية قيمة فنية جديرة بالذكر . غير ان من واجب تاريخ الحضارات ان ينظر اليها من ناحية اخرى . فالعمل البنائي الذي أنجز وتم ، باعتباره واقعاً تاريخياً حدث في الزمان والمكان ، هو تعبير لنشاط مُجتمع، تميز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني ، وهو عمل ضخم ، لم يفقد شيئاً من قيمته بزوال الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت هذه المخلفات ليست اليوم بالوحيدة ، كما بدت عليه في عصر النهضة والانبعاث لتعطينا فكرة صادقة عما كان عليه وضع الفن في التاريخ القديم ، فبامكان هذه الآثار الباقية معروضة في المتاحف او منتصبة تنطق وتحدث ، في هذه المشاهد التاريخية القديمة ، يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها ان يتصلوا بهذا التاريخ . ولذا تبقى لها ، على الأقل ميزة واحدة الا وهي تزويدنا بفكرة عن عالم تم لمن اسباب الغنى والثروة ، وجاش بمثل هذه الاماني العراض ، لا يمكن ان يشيد له الحضارة التي راودت خياله ، بدون ان يبذل مجهوداً فنياً ما .

قضية الأصالة

والحق يقال ، لم يبدُ على الفن ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ما يدل على انه حاول التجديد في كل ما يتصل بالبحث والكشف . فجل ما طمع فيه وطمح اليه ، هو ان يواصل وان ينشر على الملأ ، المجهود الذي بذله الفن الهليني الذي عرف ان يحافظ على نشاطه ، وعلى قدرته على الانتاج . فكانت هذه الآثار التي ينتجها تتجه مع الفنانين أنفسهم صوب روما ، التي لم تكن في ما مضى معارضة لمثل هذا التيار . ومهما يكن ، فقد كان للاغريق من المرونة ، والطواعية والقدرة ، ما استطاعوا معه ، تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلبات الذوق الروماني ، وتطويع ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم ، لينالوا حظوة لديهم وليزدادوا منهم تقرباً وتقيّة . قليلون جداً هؤلاء الفنانون الذي بلغتنا أسماؤهم ، ممن عاشوا وانتجوا في هذه الحقبة ، حتى من كان منهم في روما وعمل فيها . معظمهم اغريق بالطبع ، عني بعضهم بالحفر والنقش ، امثال ستيفانوس ، ومينلاوس ، والمهندس ابولوذوروس الدمشقي الذي كان موضوع ثقة الامبراطور ترايانوس . وليس بغريب قط ان يُخلّفوا لهم ، في الغرب ، تلامذة ومساعدين ، بحيث نتبين سبب هذا الانتاج الوافر الذي ظهر ، اذ ذاك . وقد نشأوهم ، على شاكلتهم ومثالهم ، وفقاً للقضايا والمشاغل التي استبدت بتفكيرهم . فما من شيء هام ظهر في الغرب ، اذ ذاك ، كان يعمل وحده في الميدان مستقلاً إلا وتنتقل عدواه الى الشرق . فليس من الغلو بشيء ان ننظر الى الفن في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر، في ما تم من مظهره العام، اذ ذاك ، كحقبة من حقب الفن الهليني ، بلغ فيها هذا الفن ، جميع اطراف العالم الروماني .

من المعلوم ان كل تحديد هنا يبقى تحديداً مقتضباً، مبسّطاً، فهو يحتاج الى بعض الايضاحات التي يتباين الاخصائيون حولها ، رأياً وقولاً ، ويعنف احياناً ، من حيث تحديدها وتقويمها .

هنالك فريق كبير بينهم ، يؤكد باصرار ، أصالة الفن الروماني ، في هـــذا العهد ، بينا يحاول فريق آخر ان يميز ، بنوع خاص، الفنون التي تجلت في الولايات . كل هذا يتطلب ابحاثاً وتحريات دقيقة ، مكنت لها النجاحات التي حققهـا علم الآثار ، إلا ان بحثنا هذا لا يتسع لها ، بكل اسف . علينـا ان نقتصر هنا ، فيا يتعلق بفن النقش والهندسة المعمارية ، على أهم العناصر التي تقتضيها كلمة تكميلية عامة التعريف ، تبقى مع ذلك عرضة النقاش ، اذ رأينا ان لا مندوحة من التقدم بواحدة منها .

فن النحت والمذهب الواقعي

تحرّز الرومان انفسهم من كل اعتداد او مباهاة لم يستحقوها . فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمته الانياذة الخالدة قائلاً: «ولينحت سواناً ، بمهارة أكبر ، كما اعتقد مخلصاً ، تماثيل من البرونز تستنشق الهواء ، وليحفروا لنا في المرمر وجوهاً تطفح بالحياة ، بينا يحتفظ الرومان بفن حكم الشعوب وادارتها » . ولكن هذا التواضع الذي يختفي وراء هــذا الاقرار العلني ، لا يصح إلا في المجال الفني الاستتيكي او عندما يُطبّق على جنسية هؤلاء الفنانين ، اذ ليس من ينكر ان النحاتين اليونان الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان ، اضطروا ان يكيفوا ابحاثهم وفقـاً لمقتضيات الفن الاغريقي ، التي وان لم يكونوا يجهلوها — وهل كان الفنان الاغريقي يجيز لنفسـه ان يجهلها بعد ان أوتي مثل هـــذه الروح الطـُلـَعـَة التي لا تني ولا تملّ — أهملوا مع ذلـــك ان يتقيدوا بها ، او اسقطوا العمل بها بالكلية .

وقد استهان الفنان الاغريقي في انتاجه هذه الآثار الفنية التي ظهرت في عهـد اوغسطس ، بهذا الوقار الديني وهذه الأنفة القومية ، وقد يكون حدث ذلك بمدان كانت ضعفت لديه هذه المشاعر ، في بعض الاحيان ، وخلال بعض العهود . فهي تظهر في اوقات اخرى ، في هذه النقوش النافرة التي طلعت علينا في عهدي ترايانوس ومارك أوريل لدى تروئنهم احتفالات دينية رسمية . فقد كانت جزءاً لا تتجزأ من فلسفة الحكم ، لازمته وفرضت نفسها عليه ، عندما كان يشترط ان تأتي وفقاً لمشاعر المواطنين واحساساتهم وتقديراتهم . ولكن لات ساعة الانجازات الفنية العظيمة التي تمت في عهد اوغسطس . فتماثيل الاباطرة وهم مرتدون التوغة (*La Toge*) او الدروع المثلة ، وهذه المواضيع التي ترسم لنا تقوى الاباطرة وكرمهم ، كلها غامت في التقاليد والاعراف التي استبدت ، وفقدت من جراء تمتعها المفرط بالحرية ، ما لها من قوة التعبير والمدلول ، التي كانت تشع منها .

فالنزعة الواقعية استمرت مدة اطول وظهرت في اكثر من شكل وصورة اولها على الاطلاق تحيز قسمات صورة الشخص . فهذا العدد العديد من التماثيل والتماثيل النصفية ، وهذه الانصاب الجنائزية ، كلها تم وضعها ، اذ ذاك ، وقد افرغت معظم رسوم الرجال والنساء في وقفة تظهر منهم الملابس وملامح الوجوه ، حتى في عريها ، اذا ما اقتضى الامر ، وفقـاً لنماذج تقليدية

وجدوا منها الشيء الكثير بين هذه القوالب التي تم صنعها على يد الفنانين الاغريق، وزادت عليها روما الكثير ، بفضل المثاليـــة التي طلع بها صديق الامراطور هدريانوس المهندس انطينوس. غير ان اشتداد الطلب على هذه الآثار، اضطر رجل الصنعة، بنسبة اكبر مما عرف عنه في مصر الفرعونية وفي الحضارة اليونانية ، على صنع تماثيل شبه جاهزة ، يضيفون اليها ، عند الطلب او التقدم بشرائها ، رأساً يُصنع على عجل، يمكن استبداله احياناً، حتى ولو كان التمثال لاستخدام الاباطرة انفسهم . الا انه في بعض الحالات ، كان النحات يتفانى في نحت قسمات الوجـــه بدقة معجزة ، فيرسم اسارير الوجه ، وما ارتسم عليه من سمات وعلامات فارقة او شوّه طبيعي ، وغضون الجبين او بارزة ظاهرة، او خال ، مع موقع الشعر ومفرقه على الرأس . من النادر جداً ان تتجاوز هذه الروح الواقعية الفرد او الحادث ، فيحاول النحات ابرازها بصورة تعبيرية تبرز مكنونات النفس البشرية ، وبعض الانطباعات والاحاسيس الداخلية ، وكلها امور لم تتم الا في هذه التحف والروائع الفنية المشهورة التي قلما جاد العهد بمثلها . وهذه الدقـة المعجزة ، أتاحت لنا اليوم ، ان ننعم برسوم فنية تعبيرية ، واحياناً ، عند تغيير الازياء النسائيـــة (الموضة) ، ببعض مواقف ثابتة للزينة النسائية ، فيتوفر للمؤرخ بذلك ، قواعد للتأريخ وتحديد الازمنـة بصورة ادق . وهكذا لا بد لفن نحت التماثيل الرومانيـــة ، من ان يثير اهتمام المؤرخ ، مع انه كثيراً ما يحمل "هوي" الفن الروماني جامداً لا يتحرك .

وعلى هذا قس عدداً من الرسوم الناتئة التي تمثل حوادث تاريخية بلغ من دقة نحتهـــا وشدة مطابقتها الواقع ان كونت مستندات ثمينة للغاية ، لا يتوفر مثلها في النصوص الادبية التي وصلتنا، او تبقى هذه النصوص حيالها مقتضبة موجزة . بالامكان الاتيان بامثلة عديدة . من ذلك مثلاً ، قوس النصر الخاص بالامبراطور ترايانوس ، والمسيرة المظفرة مع الاسلاب المأخوذة من القدس . وفي صورة ثالثة تقوم على فوروم ترايانوس ، في روما ، او على احد الاعمدة التي يقوم عليها قوس النصر الخاص بترايانوس ، في مدينة بنيفانت حيث تبرز مؤسسة الاطعمة *Alimenta* . لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، الرسوم الناتئة ، على اكليل اعمدة المرمر المعروفة بأعمـــدة ترايانوس ومارك اوريل ، امـــا الصور التي تمثل المعارك التي تقع في وقت واحد مع غيرها من الحوادث ، فشيء معروف في الفن المليني ، كما يظهر على افريز جداري . وصورة البرقع المتدلي بشكل حلزوني ، شيء جديد على الفن في روما ، وان كانت له جذور في مشاهد سابقـــة ، في الشرق ، وفكرة التعبير عن متابعة السير مع مرور الزمن ، مع مشاهد متنوعة من مفاوضات ، ومعارك وحصار مدن ، ومذابح ، وصور استسلام ، كلهـا صور ترسم سلسلة من الحملات العسكرية تشير هنا ، الى حروب ترايانوس ضد قبائل الداس — وهي ١٢٤ مشهداً يشارك فيهـا ٢٥٠٠ شخص منحوتة صورهم على حائط طوله ٢٠٠ متر — كما يشير هنالك ، الى حروب مارك اوريل على الداوب . وقد ابى الضمير المسلكي عند الفنانين ان يتأثر بعدم استطاعة المشاهـد ، التقاط هذه المناظر ، بالدقة المطلوبة ، اذ يوجد بعضها على ارتفـاع ٣٠ متراً . فاينما وقع نظر الانسـان ، طالعته هذه الدقة تبرز على أتمها في مشاهدة الملابس والاسلحة ، وكلها متشابهـــة ،

والمباني وانشاءات المهندسين الرومان تبرز بدقة كلية وكأن بهذه الرسوم الناتئة على هذه الاعمدة مظروفاً (ألبوم) من الصور الحيـــة ، لا بد للمؤرخ من الرجوع اليها ، ليس فقط التمييز بين البرابرة والجيش الروماني ، بل ايضاً ليستحضر في ذهنه سلسلة من الحوادث تبقى حيالها المصادر التي عول عليها ، شبه صامتة ، لا تلبث ببنت شفة .

وليس بغريب قط ان يسير الفن الخاص على منوال الفن الرسمي ، اذ كثيراً ما نجد الرسوم الناتئة على القبور والمدافن ، تمثل حوادث ومشاهد حياتية تمتّ للمتوفى او البيئة التي عاش فيها بصلة وثيقة . من ذلك مثلاً ، المشاهد المأخوذة من المقاطعات الغاليــة حيث لم يستنكفوا قط ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل ، من تمثيل مزاولة المهنة بشيء من الفخر والمباهاة ، اذ اخـذ الفنانون يَعْنُون عناية خاصة ، بالحوادث اليومية وحاولوا ابرازها على شكل يبدو عليهم تقصيرهم الفني ، ومع ذلك فمنظرها يبعث الارتياح . وهكذا نرى المجموعات العامة للرسوم الناتئة ، في غاليا الرومانية وجرمانيا الرومانية ، تؤلف مصادر ثمينة جداً لمن يبغي مـن المؤرخين درس المجتمعات البشرية في هذه الحقبة وما كانت عليه اخلاق القوم ، اذ ذاك ، ووسائل النقل التجاري وأدواته المستعملة ، والاساليب التقنية والعمل المهني . ولكي يعثر المرء على شيء شبيه بهذا في الفن اليوناني ، عليه الرجوع الى الرسوم الموجودة على بعض الآنية التي يعود صنعها لقرون الفن الكلاسيكية ، مع الفارق الناجم عن ان الفنان اليوناني لم يكن ليستوحي عمله من الوضع الحياتي للزبون الذي يوصي بصنع التمثال بل يستلهم فنه من ماجريات الحياة الخارجية . كذلك ، كثيراً ما استمد الفنانون موضوعهم من العمـل في الارض وهو شيء لم يخطر يوماً على النحاتين الغالو - الرومانيين الذين لم يتقدم يوماً اليهم احد من سكان الريف الاثرياء بطلب من هذا النوع .

ففن النقش عند الرومان هو دوماً مجرد نسخ او تقليد أعمى للنقش عند الاغريق . فالآثار التي استعرضناها وأتينا على ذكرها هنا تؤلف جزءاً صغيراً من هذا الانتاج الفني الذي تم اذ ذاك . على كل هي انجازات فنية تميّزت ، يبدو منها ان روما عرفت ، في بعض الحالات والعهود ، ان تضيف لوناً جديداً الى هذا الفن الذي برهن الاغريق في مزاولتهم عليه انهم اربابه وأساتذته .

الهندسة المعمارية : مناهج ونماذج

من حق المرء ان يتوقع من الهندسة المعمارية أصالة أكبر مما وجد عند الرومان ، في النحت والنقش . فالاصالة هنا ، بالفعـل هي أعمق وابرز . فكما ان المذهب الواقعي هو من التقاليد الرومانية المتوارثة في فن النحت الذي أفسح العهد الامبراطوري له المجال للتجلي والبروز ، في المناسبات الكثيرة ، فالانجازات الهندسية الرومانية ظهر الكثير منها قبل العهد الاخير للامبراطورية بكثير . كل ما قام في الامبراطورية او أطلّ عليهـا كان يدعوها للتجديد والابداع : هذه التقنية التي توفرت للمهندس ، وضخامة الموارد والامكانات المتنوعة التي وجدها تحت تصرفه او متناوله ، وهذه الجدّة والاهمية التي طبعت الطلبات والتوصيات تصدر عن عالم اخذ ينظّم ذاته على نطاق لم يألفه من قبـل لا سيا

وأحد نصفيه خال من كل شيء تقريباً ، مع الملاحظة ان التجديدات الاولى ظهرت في العهد الجمهوري . فالامبراطورية لم تستنبط نماذج جديدة للمباني ، فاتجه خيال المهندس بالاحرى للتفاصيل وعَني بالمقاييس بالنسبة لما كانت عليه في القديم .

ولما كانت الضرورة تقضي عليهم بأن يبنوا بسرعة . فقد اضطروا ان يهملوا استعمال الحجر المقصوب الذي طالما عوّل الاغريق على استعماله ، بالرغم مما يقتضي اعداده من وقت ، وراحوا يستعملون بديلاً عنه حجارة غير مقصوبة تختلف شكلاً وحجماً ، كما انهم استعملوا احياناً ، الطوب ، يُمَتّنونها بعضاً ببعض بملاط يصنعونه من الشيد وكسارة الحجارة ، نال شهرة واسعة ، مع ان هذه الطريقة افقدت فن العمارة شيئاً من الجمال الاستتيكي ، جربوا ان يعوّضوا عنها بالزخرفة من الداخل . وهذه الطريقة اتاحت لهم استعمال القنطرة والقوس والقبّة ، وكلها عناصر كادت الهندسة المعمارية عند الاغريق تهملها تماماً مع انها اقتبستها من الشرق . وعلى هذه الطريقة حُلّت قضية السطح ، وهي طريقة عرفوها في العهد الجمهوري ، إلا انهم طبقوها على نطاق اوسع فيما بعد . وخير مثال على ذلك هو مبنى البانتيون، احفظ مباني روما القديمة ، جدد بناءه هدريانوس ، وهو اليوم احدى كنائس روما ، ورفعوا على مبنى اسطواني الشكل قطره ٤٣ متراً ونصف المتر ، قبة على ارتفاع ٤٣ متراً ونصف المتر ، هي الاخرى عن سطح الارض ، تركوا فيها فتحة قطرها ٩ امتار ، ينفذ منها النور الى كل المبنى . ولا بد من الملاحظة هنا ان سماكة الجدار بلغت ٦ امتار وذلك لتتحمل ثقل القبة وشدة ضغطها . وهكذا راح وقع تأثير القبة من الداخل يعوض عن غلاظة المبنى من الخارج . وهذه الجرأة في تشييد سقف هذا المبنى لم تتكرر بعد ذلك ابداً .

والبانتيون هيكل مستدير الشكل ، اذ انه لا يؤلف ، من حيث تصميمه الهندسي ، شيئاً جديداً ، لا في العالم اليوناني ، ولا في روما . هنالك ابنية كثيرة قامت في كلا المدينتين لم يُدخِل عليها الرومان سوى تعديلات طفيفة . فالطراز الهندسي المتعارف عند الاتروسك لهيكل كلاسيكي ، هو الشكل الدائري ، وليس كما كان عليه عند الاغريق ، قائماً على ثلاثة سطوح ، وكذلك الأمر مع المسرح ، اذ جعلوا القسم الخاص منه بالاوركسترا على نصف دائرة ، بعد ان انقضى تماماً وزال ، المهد الذي كانت فيه الجوقة (الكورس) يتغير مكانها وفقاً لمقتضيات الفن ، وينتهي بجدار عالٍ قد يبلغ ارتفاعه احياناً ١٥ متراً ، تُنشأ امامه شرفة ومشكاة من شكل خاص ، وركيزة مستطيلة ، وصفّ من الاعمدة على شاكلة ما يقوم امام القصور .

فقد قام الى جانب هذه الاشياء ، إنشاءات رومانية بحتة : هي المدرج *Amphithéâtre* وهي كلمة مشتقة من كلمة مقعد باليونانية ومن الزائدة *Amphi* التي تعني : حول ، وهذه المقاعد تقوم حول حلبة أو ساحة ميدان ، إهليلجي الشكل ، حيث كانت تجري معارك المصارعة . اما البعض من اصحاب الاختصاص ، فقد يرى في هندسة مثل هذا المبنى تصميماً اتروسكي المنشأ ، جرى اقتباسه من الشرق أو اليونان ، وهو رأي لا يزال العلماء يختلفون حوله

ويناقشون ، إلا ان الرومان ادخلوا عليه من التعديلات الأساسية بحيث يصح معها اعتباره من مستنبطاتهم الخاصة . وهذا الطراز المعماري ، برز في هندسة السرك ، اذ لا يختلف تصميمه الهندسي لدى الرومان عنه عند اليونان ؛ وجعلوه كله من البناء، بدلاً من استخدام سفح جبل أو منحدر هضبة . كذلك برز في تصمم البازيليك *Basilique* المستوحاة هندسته من هندسة الأروقة الملكية الهلينية ، التي أصبحت على مر الزمن صالة كبيرة مستطيلة ، تنقسم من الداخل، طولانياً الى ثلاثة صحون ، بواسطة صفين من الأعمدة ، وفيها كان يجلس قضاة العدل للنظر في القضايا المعروضة للنظر . وقد برز ذلك ايضاً في وضع الحامات التي لم تلبث ان اتخذت ، فيا بعد ، مساحات كبيرة(راجع الشكل ٢٥) فضمت من الداخل العديد من الغرف والحُجر وفقاً للغرض : هذه للحمّام البارد ، وتلك للحمام الفاتر ، وثالثة للحمام الحار أو الساخن ، ورابعة لحام البخار *Sudatorium* ، مع ابهاء وساحات للألعاب الرياضية ، وما الى ذلك من غرف اضافية للمكتبة ، واروقة للرسوم والصور . وبرز هذا التصمم كذلك في قوس النصر يتكون عادة من ثغرة او فتحة تعلوها قنطرة ، تفتح في سور المدينة ، ثم اصبح شكلاً من اشكال الزينة ، او تذكاراً يعيد الى الاذهان عهد اسرة ملكية أو عهد سلطان ، كما برز في هذه المدافن والاضرحة التي اتخذت في روما اكثر منها في اليونان ، شكل بناء شامخ ، او هرم من الأهرام ، اسطواني الشكل ، أو مكعبه ، مع حجرات واسعة من الداخل تحمل جدرانها كوى لوضع جثث الموتى . وهذا التصمم يبرز في وضع المنازل الخاصة التي سنخصها بكلمة على حدة ، بعد قليل . ولا بد من الملاحظة هنا ان انماط هذه المباني في اشكالها المختلفة ، جرى استنباطها او الحقت بها تعديلات كثيرة ، في اواخر العهد الجمهوري ، او في مطلع عهد اوغسطس . فالهندسة المعمارية في الطور المتأخر من تاريخ الامبراطورية ، لم تطلع باي تجديد ولا استنبطت شيئاً في هذا المضمار .

السيطرة العبيبة على الطبيعة من اهداف هذه السيطرة على الطبيعة والتحكم بها ، التأثير على أخيلة الناس واذهانهم ، في مجتمع ترفل الطبقات العليا فيه بالمال الوفير والغنى الجزيل . فالتحسينات التي ادخلتها الوسائل التقنية ، وفاعلية الادوات والعدة المستخدمة مكنت بالفعل من تحقيق انجازات جبارة . فالتمثال الضخم الذي تجاوز علوه ٣٠ متراً ومثل الامبراطور نيرون مرتدياً شعار الإله الشمس ، ارتفع على مقربة من « البيت المذهب »عرف عندهم باسم *Colossum* اي التمثال الضخم ، وهي كلمة تحورت الى كلمة كوليزه وبها تُعرف اليوم ، اذ لا تزال تطلق على المدرج الذي شيده اباطرة الاسرة الفلافية . وكان هذا المدرج من الضخامة بحيث كان يتسع لـ ٣٠٠٠٠ مشاهد جلوساً، بينا ذكرت المصادر القديمة انه كان يتسع لـ ٨٠٠٠٠ مقعداً طول دائرته ٥٢٧ متراً وعلو جدرانه ٥٧ متراً ، وفي هذه المقاييس ما يضفي عليه هذه الضخامة دون ردفه بتمثال نيرون القائم على مقربة منه . والهرم الذي تكوّن من مدفن المقدّم لشستيوس الذي توفي سنة ١٢ ق .م ، ارتفع ٣٧ متراً. اما ضريح اوغسطس الذي

تركت عليه صروف الدهر وتقلباته أثرها الظاهر، فيُعرَف اليوم بقصر سانت أنج، وهو يتألف من مبنىً قطره ٨٩ متراً، يرتفع على اربعة طوابق من الأروقـــة ، يحف به صف من السرو والشربين كأنها ثلة من الحرس شاكي السلاح تقدم التحية العسكرية ، تتوسطه دعامة علوها ٤٥ متراً ، ارتفع فوقها تمثال الامبراطور ، ونـُصبت امام مدخل الضريح مسلتان فرعونيتان ، وعمودان عُلقت عليهما لوحات من البرونز تحدث الناس باعمال الالهي اوغسطس ، بينما لا يزال ضريح الامبراطور هدريانوس قائماً بعد ان أدخلت عليه ترميمات عديدة ترجع الى الاجيـــال الوسطى .

لا نجد في أي محل آخر ، غير هــذا المكان ، ولا تقع العين على ما تقع عليه هنا من عناصر الفن الشرقي : من هرم ومسلات فرعونية وقبور ومدافن مخروطية الشكل وكلها عناصر جيء بها خصيصاً لتوحي للرائي فكرة الضخامة والعظمة . ولكن هذا الشعور بالعظمة كان بالامكان اشاعته في النفس بواسطة اشياء اخرى لا تحصى. فقد آثروا الاستعانة بمثل هذه العناصر الشرقية لـمـا فيها من قوة إيحاء وتأثير بالغ على النفوس . فالهندسة اليونانية التي همها دوماً الاتـّصاف : بالاعتدال والاتزان والانسجام لم تتنازل عما تم لها من وقع إلا بصورة عابرة .

هنالك نزعة اخرى كانت تميـّز المهندس الروماني عن زميله الاغريقي . تصرّف المهندس الاغريقي بعدد اقل من الشغيلة واليد العاملة، كما كان تحت يده القليل من المواد الاولية. ورغبة منه في دمج عمله بالاطار الطبيعي المحيط به ، فقد حاول ان يفيد الى أقصى حـــد من طواعية الطبيعة لمساعدته بتكييفها وفقاً لرغائبه ، على عكس المهندس الروماني الذي جعل من مبانيه الهندسية انجازات ضخمة هي من صنع يديه ومن ثمرة تحكمه بالطبيعة وسيطرته عليها بقوتـه وبأسه وعلمه . فقد اشرنا لماماً اعلاه ، الى ما من فرق بين السيرك وميدان السباق ، وهو فارق يبدو على اشده ايضاً في مفهوم المسرح هنا وهنالك . والجدار المنتصب عنـد مؤخرة المسرح ، والذي يعدل ارتفاعه بارتفاع اعلى صف من المقاعد، لم يكن ليحدّ بشيء من مدى النصر. فاذا لم يتوفر لكل مسرح « الجدار » الذي توفر لمسرح مدينة اورانج وكان سبب شهرته، فكل المدارج كانت تضم ، على شاكلة مسرح نيم ، كل المشاهدين يشاهدوا الالعاب ، وقـــد مدّت فوق رؤوسهم ، سحائب من الستائر ترد عنهم وطأة حرارة الشمس وان حالت ، الى حين ، بينهم وبين منظر السماء . وهكذا كان المهندس يسيطر معاً على المدى فيتصرف ، على هواه ، بقسم منه ، معطياً بذلك ، الدليل على سيطرته على الطبيعة وهيمنته عليهـا . ففي مدينة برغاموس الهلينية التي شُيّدت على منحدر هضبة متدرجة السطوح ، لم تبلغ سيطرة الانسان على الطبيعة ما بلغته عند الرومان ، اذ ان هـــذه المدينة رتّبت مبانيها على مستويات متباينة ، وفقاً لانحدار التل .

وهذه الارادة التي روّضت الطبيعة ، وسيطرت عليها ان لم نقل طوّعتهـا بالعنف والقوة ،

تبرز على شيء من الكبر والتعالي والتيه ، في عدد من الانجازات الفنية التي نثر حباتها المهندسون الرومـان في جميع أرجاء الامبراطورية . من هذه الاعمال الانشائية الجبـــارة ، تغيير معالم طوبوغرافية بعض الاماكن ، بعد ان نقلت مقادير هائلة من الأتربة والحجارة بعمق يوازي علو عمود ترايانوس وتمثاله الذي بلغ ارتفاعـه ٣٨ متراً ، فأتاح المهندسين انشاء ميدان (الفوروم) المعروف بفوروم ترايانوس ، بين هضبتي الكابيتول والكويرينال ؛ وانشاء مثـل هذه المرافيء الضخمة على شاطيء البحر ، كما نشاهد عند مدينة اوستي (الشكل١٠–ص٣٤٣)،واقامة جسور وكباري فوق الانهر ، كجسر القنطرة على نهر التاج ، الى الشرق من البرتغـال ؛ وانشاء أقنية لجر المياه مارة فوق الوهاد والوديان ، بين هَضَبة واخرى ؛ وانشاء الجسور كجسر نهر الغــار الممتد بطول ٢٧٥ متراً وبارتفاع ٥٠ متراً فوق النهر المذكور ، أو جسر غاردون على مقربة من مدينة نيم ؛ وشق أنفاق لمرور الطرقات في الصخور أو بين الغياض والآجام والمستنقعات . كل هذه الاعمال وما إليها، قام بها المهندسون الرومان ، وأمنوا انجازها بنجاح عظيم . فلم يسبق ان خطر للانسان من قبـل تحقيق مثل هذه المشاريع ، كما لم يسبق له ان انجزهـــا على مثل هذا النطاق الواسع . والذي يبدو لنا ان الانسان أخذ يشعر بما تم له ، اذ ذاك من غَلَبَة ، بفضل ما أعطي من قوة وبأس، سخَّرها في سبيل الدفاع عن الفتوحات التي تمت على يده ، فأحال جانباً منها وسائل ترَفـُّه من عيشه وتبعث فيه الطمأنينة والسلام .

الفن الزخرفي من الداخل والخارج

عدد كبير منهذه الانجازات ، يؤلف بحق، نجاحــات تثير الاعجاب ، سواءً من الوجهة الفنية أو من الوجهة الزخرفية والجمالية. ولعل سرّ ذلك كله يقوم في هذا الاتقان الذي بلغه في نسبة تكييف الفن الغاية التي أريد لها . فهذا التناسق المعظم ، بين ارتفـــاع طوابق الجسر الثلاثة وبين عرض فتحات القناطر ، ومقاييس العواميد ، أضفت على الجسر القائم ، فوق نهر الغار ، هــذه الصفات التي تميزه ، وعُرف بها . وهذا الانسجام له أثره العميق في النفس ، يزيده وقعاً فيهـا انسياب هذه القناطر وتتابع انسحابها . فما من زخرف او نقش او حلية اخرى ، من أي نوع كانت،تخفف من حدة عرى هذه الخطوط والمساحات والحجوم الجافة التي لها وقعها البعيد في الخاطر ، بما يتم لها من تناسب واتزان وتعادل ، وكلها صفات تشير بذاتها الى تاريخ الجسر وتجعله من عهد اوغسطس .

ويبرز في المهندسين ، اكثر فأكثر ، ميلهم للزخرفـة ، بعد ان اتضح للجميع ان الزخرف يرفـــع من تأثير المبنى ويزيد من أثره في النفس ووقعه عليها ، اذا لم تكن هذه المباني معدة للاستعمال او كانت نفعية ، او عندمـا تكون أنشئت على عجل ، او استعملوا لهـا مواداً اولية بقيت على خشونتها الاولى . فيروح المهندس يضفي عليها، من الخارج ، اشكالاً ورسوماً استعمل الاغريق مثلها من قبل . فالجدران فُرشت بالرخـــام من الداخل ، كما تحلت وتزخرفت على الوجه ذاته: بالركائز والأعمدة، والتماثيل والأفاريز والأضافير المنحوتة نحتاً، ولم يلبث ان تغلَّب استعمال الطراز الكورنثي ، وعمَّ استخدامه ان تبيّن ان زهرة شوكة اليهود(*Acanthe*)البارزة

على اكليل العمود بفيض منظرها في النفس ارتياحاً وبهجة امام افتقار الطبيعة، كما تخفف من حدة نشوفة وجفاف الخطوط الهندسية التي تنبعث من الاطرزة الهندسية الاخرى (الايوني والدوري). واخذ الميل للزخرف يزداد ويتسع بتأثير الفن الهليني المنطلق من أرجاء آسيا الصغرى وسوريا، يصحب ذلك شيء من الطباق والجانسة، بطلوع الادب الزاهر المشمشع الذي أطل علينا في عهد كل من الامبراطوريين كلوديوس ونيرون. ومنذ ذلك الحين، لم نأنس أي رجوع الى البساطة الاولى. وقد تتشابك هذه الرسوم الزخرفية الناتئة التي تطل علينا من عمود ترايانوس، أكثر مما تطل من النقوش الظاهرة على عمود مارك اوريل.

حمل الرومان في جنباتهم ميلاً شديداً للرسم. فقد فُقدت وضاعت هذه الآثار التي تم وضعها على المسند، إلا انه بقي منها نماذج، بعضها على الجدران تتغطى ملاطها برسوم نافرة، ناتئة. وقد عثر على بعض هذه الرسوم في روما ولا سيما في مدينة بومبيي. فالصور التي كانت تزدان بها جدران المنازل في هذه المدينة الريفية الصغيرة، لا تحصى لكثرتها. فالهوَس الذي تملك الناس فيها، فجعلهم يُقبلون بداعي ماهم عليه من غنى ورفاه، على الزخرفة والاكثار منها في منازلهم، ليس ما يمنع ان يكون هو نفسه الهوس الذي تملك الطبقة البورجوازية في القسم الأكبر من ايطاليا، فراحت، اسوةً بسكان مقاطعة كبانيا، المعروفة برخاء سكانها، تقبل باندفاع كلي، على الزخرف الهندسي. جرى العرف على تميز اربعة أطرزة من الصور والرسوم التي وجدت في بومبيي، اقدمها جميعاً طراز اسبق لعهد سيلاّ، اقتُصر فيه على تقليد الرخام المعرّق. اما الثاني، فهو الذي ظهر مع مطلع الامبراطورية، اذ تألف معظمه من أشكال من الصور الديني والأسطوري الى جانب رسوم هندسية ومناظر طبيعية مع اهتمام ظاهر بالمدى. ويحدثنا فتروف في بعض كتبه عن « زخارف المسارح »، وليس من النادر قط ان نرى صورة حديقة مرسومة على الجدار الامامي في حديقة صغيرة. اما في النموذجين الآخرين، فالصورة تتألف من عناصر زخرفية لا ترمي الى بعث أي إيهام في خلد الرائي او الناظر، بل همها الاكبر، ان تراعي الذوق والانسجام بين الألوان، حتى ما كان منها وهمياً. وهكذا نرى الفن الروماني يستلهم هنا اقل نزعات الفن الهليني اعتدالاً.

وفن الفسيفساء الذي عرفه الشرق منذ عهد بعيد، ازدهر في جميع انحاء الامبراطورية، أيما ازدهار، مما اقتضى له عدداً كبيراً من الصنّاع المهرة. ففي مدينة بومبيي التي انساحت تحت انهيال حمم الفيزوف، في ثورته الكبرى عام ٧٩ للميلاد، تعثّرت معاول المنقبين بعدد كبير من هذه الفسيفساء في انية المنازل او على جدران البيوت حتى المتواضع منها. والاكتشافات الاثرية التي تمت في انطاكية تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ان سوريا كانت اذ ذاك، من أكبر المراكز لهذا الفن الزخرفي، مع انه لم يَرُج، منذ القرن الثاني، في أي مكان من الامبراطورية، رواجه في افريقيا. فقد انصرفوا مدة طويلة لتقليد هذا الفن عن طريق استعمال مكعبات ملونة صغيرة. وقد وجدوا في بومبيي فسيفساء تمثل اندفاع جيش الاسكندر في هجومه الساحق على

داريوس (دارا) في معركة أسوس ، بحيث تستطيع معها ان نكوّن لنا فكرة عما كان عليه فن الرسم الهليني على السيبة . وهكذا رسموا ، محاطة بأشكال هندسية ، مناظر ومشاهد ريفية من شتى الانواع وصور الافراد . ثم اقتصروا ، عقب ذلك بكثير ، بعد ان بسّطوا الألوان والرسوم على زخارف خالية من صور الاشخاص ، وهو نمط او طراز أقصروه على الفسيفساء المستعملة في فرش الارضية . وهذا الانتاج الوافر من زخرف الفسيفساء ، اقتضى له من الفنانين ، مقدرة عجيبة على الخلق والابداع ، كما اقتضى له صبراً طويلاً وطول أناة . ففي فسيفساء معركة اسّوس ، في مدينة بومبيي ٠٠٠ ٥٠٠ ١ مكعب صغير موزعة على اربعة ألوان .

والى هذه الفنون الزخرفية الخاصة بتزيين المسطحات وتحليتها ، يجب ان نضيف تلك التي تتعلق بزخرفة المفروشات والاثاث مما كان يستعمله الرومان بين اغراضهم المنزلية . فقد اقبل القوم على استعمال الخزفيات المطبّعة او المحلاة بتزاويق حمراء بعد ان يدمغوها بطوابع تفرّغ في قوالب خاصة . وهذا النوع من الخزف حل محل الخزف المحلى بالرسوم ، عند الطبقة المتوسطة كما اتخذوه بديلاً عن الآنية المعدنية المنقوشة . اما الطبقات الرخية الحال والوضع فقد كانت تفضل الحلي والجوهرات ، مما حدا ببعض الاسر الثرية ، الى تكوين مجموعات ثمينة منها . من اشهر هذه الكنوز على الاطلاق المجموعة المعروفة باسم : « كنز بوسكوريال » التي ضمت المرايا والاقداح والكؤوس . واستمرت صناعة الزجاج في انتاج قطع منه غاية في الروعة والجمال ، ثم اخذت تنتشر في الغرب حتى بلغت ضفاف نهر الرين . وهذه الخبايا التي عثروا عليها بين انقاض مدينة بومبيي المصنوعة من الرخام ، والآنية البرونزية ، من جميع الاشكال والمقاييس ، والتماثيل الكبيرة والصغيرة ، والمصابيح والشمعدانات ، والوجاقات والمدافىء والسيّب والأسرّة المتخذة من الابنوس المطعم ، كلها تشير الى ما اعتلج به صدور القوم من ُمثل فنية ، جمالية ، في مدينة صغيرة من مدن الريف . كل ذلك يعطينا فكرة عما كانت عليه منازل سراة القوم وعليتهم ، او منازل هؤلاء الاغنياء الذين رفلوا باوسع ما يرفل به مجتمع من رفاهية في تلك العهود .

ففي كل هذه الفنون يبقى العنصر الابداعي الروماني قليل الشأن . فالاشكال والموضوعات والاساليب الفنية او التقنية كلها مستوحاة اصلاً من العالم الهليني . وهذه النزعات الحقيقة التي ادخلت عليها مراعاة لذوق الرومان ، كالميل للمذهب الواقعي مثلاً ، لم يلبث الفنانون ان تكيفوا بها وراحوا ينفذونها ويتفننون بها حتى حدود الغرابة احياناً ، وكلهم اجانب اغراب اصلاً في عهد اوغسطس ، اذ قد وفدوا من الشرق المتوسطي . وقد قصّر هذا الشرق ، فيما بعد ، عن تلبية الطلبات المنهالة عليه ، وتقديم العدد الكافي منهم ، انما راح يمدهم بالمعلمين ورؤساء الورش ليبقى محتفظاً بهيمنته وسيطرته ، حتى اذا لم ُيرض انتاجه كل الاذواق ، صدّر نماذجه الى الخارج ، حيث يأخذ الناس بتقليدها والسير على نمطها . وهكذا نرى تطور الفن الهليني يمتد ليبلغ دونما تعديل يذكر ، جانباً كبيراً من الامبراطورية الرومانية . الا ان هذا الفن يراعي مقتضيات الاذواق المستبدة بالاهلين في الولايات الاكثر ازدهاراً ، اذ ذاك ، والاكثر نشاطاً ،

اي في آسيا الصغرى وسوريا . وهذا الفن الشرقي اخذ يتصل رأساً بالغرب دون المرور باليونان ليسيطر على روما ، في القرن الثاني ، اي في هـذه الحقبة بالذات التي تسجل الطقوس والديانات الشرقية فيها ، انتصاراتها ونجاحاتها الكبرى ، بحيث تتم الظاهرتان معاً وبحركة تعاونيـة ، في وقت واحد . ففي كل المجالات يبرز الاعتدال المنطقي ويتغلب على كل ما من شأنه ان يحدث صدمة في الاذواق .

المدينـة مركز الانصهار الحضاري

ففي هذه المدن وبواسطتها ، تمت في هذه الحقبة بالذات ، هذه الإلفة ، وحدث الإنصهار بين هذا الازدهار العمراني والانطلاقة في فن الزخرف الذي استعرضنا تطوره في مختلف المجالات التي تجلى فيها .

وهذه الحضارة تبرز مرة اخرى ، وفقاً للفكرة الهلينية التي جاءت حاجات الامبراطورية تشد من أزرها ، وهي حضارة لها سمة المدينة وطابعها . فالمدينـة تُسهّل الروابط بين الافراد والجماعات ، وتنظمها وتُقنّنها . فعندمـا تعمل على تيسير الاتصالات واللقاءات بينهم ، فهي تستدرج بالتالي، ما يؤمن النجاحات التي لا بد منها في الحقلين الاقتصادي والفكري وتساعدها على التطور والنمو والتكامل . واذ كانت لها القدرة والطاقة لتدرأ عنها تعديات شذاذ الآفاق وكيد الطامعين وغزو البلاد ، فقد عرفت ان تبعث روح الانضباط بين الجماعة، وتؤمن العدل والعدالة في دولة تشرئب باعناقها العيش الكريم . من الاعتقاد السائد هو ان ما من دولة قوية تتوطد لها الدعائم بدون بورجوازية تأخذ بأسباب الحضارة وترسّخ لها في القلوب والنفوس ، وتهتم لاكثر من تأمين اسباب العيش ووسائله المادية ، وتنزع ، دونما ضعف منها او استجداء، السلام ، لانهـا لا ترضى عن هذه الاشياء كلها بديلاً ، لانها عماد النظام ولبه وصميمه ، هـذا النظام الذي لا بد منه للخير العام ولمصلحتها الخاصة . ولكن ليس من بورجوازية بدون مدينة ، اي بدون مجموعة من المنازل والمساكن ، ومن ادارة تجهيز وتموين ، ومبان عامة تطلع وفقاً لمقتضيات الحاجـة والذوق في الفرد والجماعة . فالحكومة تشجع ، اذاً ، مادياً وادبياً ، حركة تنظيم الامبراطورية وتجميلها . وهذه البورجوازية التي تهيأت لها اسباب الظهور والانفتاح ، او اقله اسباب التطور ، تتصرف بدورها ، لتهيئة مثل هذه الانطلاقة . وهكذا ، فالمدينة تمثل اكثر من اي شيء آخر، واكثر مما تمثله الفنون ، هذا التأليف والانصهار الحضاري ، لا بل ، هي بالفعل ، هذه الإلفـة الحضارية بعينهـا ، اذ ان الواقع المديني الذي يأخذ مثل هذا الاتساع ، وهو واقع سياسي وعسكري واداري ، واقع اقتصادي واجتماعي بقدر ما هو واقع ثقافي . ولما كان قد سبق ودرسنا ، في الفصول السابقة ، هذا الواقع ، من وجوهه العديدة ، بقي علينا ان ندرسه هنا ، في اطاره المادي .

المدينة الامبراطورية ومبانيها العامـة

زينة المدائن وعروسها ، هي بالطبع روما ، التي تؤلف في كيانها وواقعها: استثناء ومثالاً .

اما الاستثناء ، فلأنه لا يمكن لها ان تأتي مدينة بورجوازية او ريفية . فلو حدث ، مثلاً

وصح هذا الافتراض وبرزت على هذا الشكل او الطابع، لما كانت سوى مقر نبلاء الدولة ومجتمعهم الامثل ، أي هـذه النخبة الرسمية في هذه الامبراطورية جمعاء . فالامبراطور لا يترك لمجلس الشيوخ سوى الاضطلاع بالمهام الصغرى في الادارة البلدية ، وهي مهام تقع مع ذلـك ، تحت اشرافه ، بواسطة المفتشين والمراقبين الذين ينتدبهم لهذه الغاية . والحقيقة ان روما هي المدينـة الامبراطورية، مقر الامبراطور ، شاهدة على عظمته وعلى كرمه وسخائه ، وجبروت سلطانه. فما من مدينة اخرى ترتبط بها، تستطيع مزاحمتها في هذا المجال .

اما كونها مثالاً، فلأنها ملتقى ممثلي كل الولايات وكعبتهم ، وقبلة كبار الموظفين الذين يتولون زمام الادارة في هذه الولايات حيث أقاموا وقاموا بوظائف ادارية او عسكرية . فهي فتنة لهم جميعاً ، تجتذب هولاء واولئك ، بما تم لها من سحر وجاذبية، وهي الوطن الاكبر للجميع، وان كانت لهم اوطانهم الصغرى ، فينظرون اليها لمصري ، نظرهم الى المثال الذي لا يرام ، ويرون فيها الصورة المثالية للمدينة ولكل مدينة . فكل ما سواها من مجتمعات وتجمعات لا تستحق ان تسمى مدناً إلا بقدر ما تحاول الاقتداء بها والسير على منوالها ، ومحاكاتها .

وهذه المدينة التي يفاخر اوغسطس بأنها تسلّمها من لِبن وطين فسلمها رخاماً ومرمراً ، لا يزال مجال العمل بعدُ فيها واسعاً ، ومجال الانشاء رحباً ، ولذا راح كل من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده يحاول ان يترك له فيها اثراً يحدّث بما شيّد فيها من مبانٍ وما ترك عليها من نظم ومؤسسات تبز بعقابيسها وضخامتها كل ما عداها . كل من فيها يتذوق الفن ويسعى اليه ويفخر بمناصرته ومناصرة حَمَلَتِه ، كما يحاول فريق من بينهم ، ممارسته والانقطاع له . وكل هؤلاء الاباطرة ، يدركون جيداً ، بفضل دروس التاريخ التي لُقّنوها ، وعلى ضوء عظات عهد الطغاة من اليونان قديماً ، ومن سلوك فراعنة السلالة الرابعة في مصر ، ان سبيلهم الوحيد للبقاء حديثاً بعدهم ، هو إلهاب خيال الناس ، بما يشيدون من المباني والمؤسسات الضخمة . ولذا كان لا بـد من ان نضرب صفحاً هنا وان نمر سراعاً عن سرد ووصف ما قام من هذه المباني ، وبينها مـا اقتضى انجازه أكثر من عهد واحد .

وهكذا ، فالفوروم الذي شرع دومتيانوس ببنائه ، حمل اسم الامبراطور نروه *Nerva* لأنه هو الذي أكمله وأنجزه ، نكاية وتشفياً بسلف بغيض ، كريه الاسم ، ترك من سوء الذكر بحيث تغاضوا عن اغتصاب الشرعية وجعلوا من اللاشرعية شرعية . والى هذا هنالك مبانٍ تعهّدوها اجيالاً طويلة بالتعديل والتحوير ، والتوسيع والتجميل ، منها مثلاً السيرك الأكبر *Circus Maximus* الذي كان يقع بين هضبتي البلاتين والافنتين في المكان الذي خصص له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وخضع مراراً للتوسيع بحفر جنبات الهضبتين المذكورتين ، بحيث اتسع في عهد قيصر لـ ١٥٠٠٠٠ مشاهد ، فاذا به يستوعب في عهد ترايانوس ٢٥٠٠٠٠ منهم ، طوله ٦٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر وطول ميدانه ٢١٤ متراً وعرضه ١٨٠ متراً . فتمداد هـذه المباني الذي لا ينتهي، من شأنه ان يسبب ، ولا شك، الملل ، اذا ما اخذنا بذكر عمليات الترميم

لحقت بها ، كما نسب الضجر والسأم بإيراد اسماء هذه العمائر التي لا حصر لها ولا عد التي
امبراطور ينشئها في عهـــده : من هياكل وميادين ، *Forums* ، ونواد ، وحمامات
. فلنكتفِ هنا ببعض النماذج التي تمثلها خير تمثيل .

ي روما (راجع الشكل ٩ـص٣٢٣)، خضع هذا القطاع الواقع منها بين الكابيتول وال
بلوس والاكيلين والكويرينال ، لتغييرات جذرية . فالمكان الذي بقي فارغاً في هذا ال

الشكل ١٤ – الفوروم الروماني والمباني القائمة عليه في القرن الثاني
اكل: ١ ـ انطونين ؛ ٢ ـ فستا ؛ ٣ ـ قيصر ؛ ٤ ـ كستور و بولوس؛ ٥ ـ اوغسطس ؛ ٦ ـ فسبسيانوس
وتيطس ؛ ٧ ـ الكونكورد ؛ ٨ ـ زحل او ساتورن .

يتألف من الفوروم الجمهوري القديم، وهو ميدان ، ضيّق ، محشور، بقي معروفاً فيما
«الفوروم الروماني» . ولكي ينشئوا في قلب المدينة ـ العاصمة مجموعات من العمائر الضخ
ة بالعاصمة ، كان لا بد من استعمال مساحات جديدة من الاراضي . فالحريق الكبير ا
ى به روما عام ٦٤ ، حرّر الكثير من هذه المساحات المطلوبة ، مما اتاح لنيرون ان
«المنزل المذهب» *La Maison dorée* ، بحيث امكن في ما بعد، استخدام هذه الار
ة ساحات ومتنزهات ضخمة . وهكذا ارتفعت الى الشرق من المدينة عمائر ضخمة ، م
ليزه ، وحمامات تيطس ، كما شيّدوا ، على هضبة الاسكيلين : حمامات ترايانوس التي
ا ٣٤٠ متراً وعرضها ٣٣٠ متراً ، واخيراً هيكل الزهرة ، وهيكل روما ، وكلاهما
ات الامبراطور هدريانوس .

هنالك مشاريع تجميل اخرى ، جرت في اتجـاه آخر ، أي بين الكابيتول والكويرين
ى كان سبق لقيصر أن انشأ الفوروم الجديد ، الذي يحمل اسمه . ثم تعقب ذلك انشاء

آخر من الميادين الامبراطورية ، تتالت من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، منهـــا : فوروم فسبسيانوس مع هيكل السلام ، وفوروم نروه *Nerva* ، وفوروم اوغسطس مع هيكل مريخ - أولتور *Mars - Ultor* (أي « مارس المنتقم » لموت قيصر ، الذي قتل في ١٥ اذار) ، واخيراً الفوروم الذي يحمل اسم ترايانوس . وهـــذا الفوروم كان يؤلّف جزءاً من وحدة هندسية فخمة أشرف على تخطيطها المهندس ابولودوروس ، بعد ما توفر له من الموارد الطائلة ، إثر وضع يده على كنوز داسيا ومـا فيها من مناجم الذهب الغنية . وقد اشتملت هذه الوحدة ، فـيما اشتملت عليه ، ما عدا ميدان فسيح ، سوقاً تجارية (هال) تألفت من خمسة ادوار ، ومنتدىً ومكتبتين : إحداها للغة اليونانية ، والثانية للغة اللاتينية ، قامتا في طرفي الساحة التي ارتفع فيها عمود ترايانوس . وأضاف هدريانوس الى هذه الوحدة ، هيكلاً يحمل اسم ترايانوس ، بعد ان أرسى الحجر الأساسي وأودع قاعدة العمود ، حقّـاً يضم رماد الامبراطور الراحل .

وجاءت بعد هذا ، باتجاه نهر التيبر ، الحدائق المعروفة باسم : شان ده مارس *Champs de Mars* وهي حدائق غنّاء : طليقة ، مفتوحة ، اخذوا ، منذ العهد الجمهوري ، يقيمون عليهـا المباني والعمائر ، زيد عليها ، في العهد الامبراطوري ، الشيء الكثير ، ابتداءً من اوغسطس الذي انشأ فيها ، هو نفسه ، مسرحين واربعة أرْوِقـة ، والحمّامات الأربعة الفخمة الاولى التي عرفتهـا روما ، والتي عُرفت باسم أغريبا ، وبضعة هياكل ، بينهـــا هيكل الباتنيون ، أي هيكل السلام ، ثم ، وابعد الى الشمال : ضريحه . وحذا خلفاؤه حذوه ، فربطوا بالجسور العديدة التي أقاموها فوق نهر التيبر ، ضفته اليمنى بحدائق شان ده مارس . وهكذا تم دمج هذه الوحـــدة بالشبكة الهندسية التي انتظمت مباني العاصمة .

أتينا على الكثير من اسماء هذه المباني ومسميات العمائر ، وقـــد كان من الممكن إيراد المئات منها . وهذه الشواهد والأمثلة ، نضربها هنا ، فيها ، على ما نعتقد ما يكفي من دليـل لندرك معه مدى ما تناوب على هندسة المدينة من تعديل وتحوير وتغيير بدلت منهـــا المعالم ، خلال قرنين من الزمن . وهكذا تمت لها صورة ولا اجمل ازداد بها منظر العاصمة ، بهاءً وسناءً بما تعهدوها به من تزاويق وتحلية ، في الاجيال اللاحقة ، جعلتها خليقة بعاصمة العالم .

التجميل والتازل

نرّف عدد سكان هذه العاصمة على المليون ، فبزت بهذا العدد سكان اية مدينة اخرى قامت في ذلك العهد ، وهو عدد لم يكن ليكفي وحده ليؤمن لها مثل هذا المرتبة اذ كان من الضروري ان يتمكن مثل هذا العدد من السكان ، يقطنون في مثل هذا الاطار وفي ظروف مثل التي تحيط بهم ، وسائل العيش الكريم ، خليق بشعب دوّخ الكثير من الشعوب وبسط عليها سيطرته وسيادته .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يخلق قيام مثل هذا الحشد الحاشد من السكان وتأمين اسباب معيشتهم ، مشاكل طائلة تتعلق بتنظيم المدينة وادارتها ؟ فكان على المسؤولين ان يضطلعوا بها ،

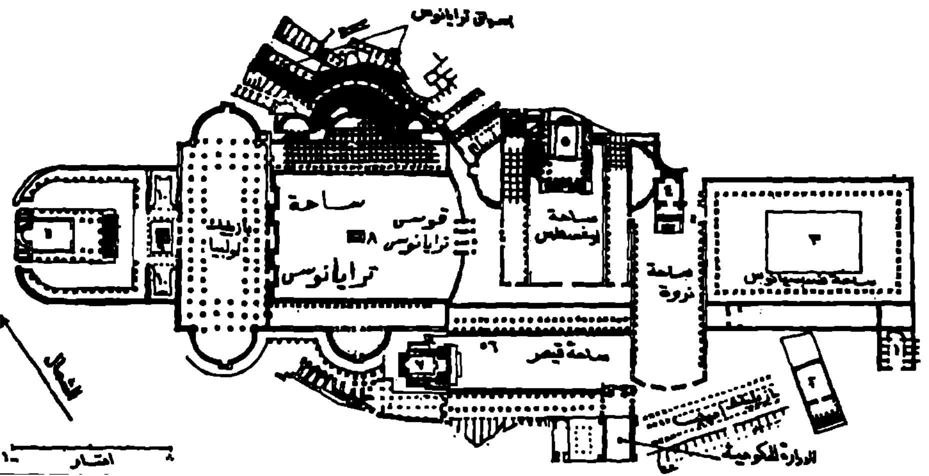
أسواق ترايانوس
ساحة ترايانوس
قوس ترايانوس
بازيليكا أولبيا
ساحة أوغسطس
ساحة نروة
ساحة فسبسيانوس
ساحة قيصر
الوزارة الحكومية
الشمال
أمتار

وهي مشكلات عرفت عواصم الشرق الهليني الكبرى ما شابهها ، كما عرف اباطرة روما انفسهم ان يفيدوا ، على نطاق واسع ، من الحلول التي وُضعت لها. وقد رأينا كيف ان هؤلاء الاباطرة، أنشأوا ، في سبيل تيسير اعمال الحكم ، مصالح ادارية وبلدية رئيسية ، عهدوا بمهامها وادارة شؤونها ، الى حكام وولاة يؤمنون لها حسن سير الاعمال ، كمصلحة التموين ، والشرطة ، ومصلحة مكافحة الحرائق . واقتضى حسن سير الاعمال في بعض هذه المصالح وانتظامها ، القيام ببعض اشغال عامة ضخمة . من ذلك مثلاً ان اخذ الامبراطور كلوديوس، ومن بعده ترايانوس، بانشاء مرفأ ضخم في مدينة اوستي(راجع الشكل ١٠ ــ ص ٣٤٣)تسهيلاً منها لرسو السفن التي كانت تقوم بنقل الميرة والسلع من مختلف الولايات لتغذية هذا الجيش اللجب من السكان ، حاملة على الاخص ، القمح من مصر . وهكذا قام على ضفاف نهر التيبر ارصفة طويلة كانت تفضي الى روما ، وهي ارصفة لا نزال نجهل ، اليوم ، الكثير من اوضاعها ، كثيراً ما تعرضت المدينة من جرائها ، ولعدم توفر الانشاءات الفنية اللازمة ، لاخطار الفيضانات . كذلك أنشئت في المدينة ، مصلحة تُعنى بشبكة المجارير وتسهر على صيانة وحراسة ونظافة المدينة ، كما أنشئت فيها قناطر عديدة لجر المياه تلبية لاشتداد الحاجة المتزايدة لها ، ولا سيا بعد ما قام من هذه الحمامات الكثيرة . فقد انشأ اوغسطس لوحده ، اربعة من هذه القناطر المائية ، وانشىء غيرها ، فيا بعد ، بحيث بلغ عددها ٢٤ قناة لتأمين مقطوعية المدينة ، من الماء التي بلغت في اواخر القرن الاول للميلاد ، مليون متر مكعب ، في اليوم الواحد .

ويصاب المرء بشيء من الخبل والدهش امام ضخامة الانشاءات التي اضطرت ادارة المدينة ان تقوم بها ، لتأمين حسن سير الاعمال ، وهي اعمال وانجازات كانت ، مع ذلك ، اعجز من ان تحل كل مشكلات روما من هذه الناحية ، أو ان تحول دون ما كانت تتعرض له من الإحن والمحن ، وما يتهددها الفينة بعد الفينة ، من اوبئة وافدة . فحالة الطرقات أقل من ان تفي بالحاجة ، وهي في الغالب ، طرقات ضيقة ، متعرجة . قليلة جداً بينها ، الجادات العريضة التي تفضي الى قلب المدينة لتتصل منه بالشبكة الرئيسية التي تنطلق في مهاب الارياح الاربعة لتتغلغل في جميع ارجاء الامبراطورية ، اذ كان اكثر هذه الطرقات عرضاً لا يتجاوز ستة امتار ونصف . وتفادياً للازدحام ، سبق ليوليوس قيصر ان اصدر امره بمنع دخول العربات والمركبات اليها . وكثيراً ما ارتفعت عقيرة مرتيال وجوفنال بالشكوى والتذمر من قرقعة وجَلَبَة اصوات العربات ليلاً ومن عرقلة السير نهاراً ، كما كانوا يتأففون ويتبرمون من تراكم الاوساخ والاقذار والنفايات في الشوارع غير المرصوفة يلقون بها في جادة الطريق. صحيح ان الانشاءات الصحية، كالمراحيض العامة كانت جمة بما تحلت به من المقاعد الرخامية والتماثيل والانصاب ، انما استعمالها لم يكن بالمجان اذ يترتب على من يستعملها دفع رسم طفيف ، في حين لم نكن نرى اصحاب المباني والعمارات الخاصة ينشئون شيئاً من هذه المرافق ، في سبيل المستأجرين عندهم . وكانت المنازل خلواً من المداخن بحيث ان استعمال المواقد والمدافىء ، شتاء ، كثيراً ما تسبب عن حرائق

ساعد ضيق الشوارع ، على امتدادها بسهولة فتنزل بالمدينة اضراراً جسيمة لا تلبث ان تتحول الى نكبة نكباء لا يحتاج معها لبد أثيمة توسع من نطاقها . كما راح الرأي العـام يتهم نيرون بذلك ، وهذا ، المسيحيين ، في الحريق الهائل الذي التهم جانباً كبيراً منها عام ٦٤ للميلاد .

يجب ان نعزو السبب الحقيقي لهذه المصائب الى ضيق المساحة وقلة المكان بالرغم من توسيع حدود المدينة الادارية ، في عهد اوغسطس . فلتشييد هذه المباني الضخمة في قلب المدينـة شغل منها المساحة المعدة للسكن ، وهي عمائر لم تقم مكان الحدائق العديدة الواسعة التي توفرت لهـا في مطلع الجمهورية والتي لم يبق منها فيما بعد شيء ، إلا ما جاء منها في الضواحي والارباض ، او حول القصور الامبراطورية . فانشاء ضواح جديـدة لم يؤلف حلاً للمشكلة بالنظر لبعدها عن المدينة ، فاضطروا والحالة هذه ان يزيدوا من ارتفاع البناء ، الامر الذي فتح المجال واسعاً امام المضاربات المالية، من جرّاء غلاء الاراضي او من ارتفاع اسعار الايجارات . فقد وضع اوغسطس حداً أعلى لارتفاع المنازل ٢٠ متراً، خفضه ترايانوس ، فيما بعد، الى ١٨ متراً ، ثم راح المسؤولون يغضون النظر ، كما يبدو ، عن بعض التجاوزات هنا ، والمخالفات للقانون ، هنالك . وكان الطابق الارضي يؤلف عادة مسكناً ثرياً او يتخذ منه مخازن ودكاكين للاستثمار . ويقوم فوقه خمسة او ستة طوابق يرقى اليها بواسطة ادراج من الخارج . ولم يكن من النادر حدوث انهيار بعض هذه المباني ، لانعدام المراقبة من قبل السلطة او من اصحاب العلاقة . وكان كل دور من هذه الدور يتألف عادة من بضعة مساكن ضيقة ، قلما تُقفل نوافذها ، وان أُقفلت فبستائر شفافة ، فيها يحتشد المستأجرون بعضاً على بعض ، ليموتوا شتاءً دفئاً من وطأة الزمهرير ، وليختنقوا ، صيفاً ، من شدة وطأة القيظ . فمن المعقول جداً ان يقضي السكان ، نهاراً ، معظم اوقاتهم في الخارج ، وهذا ما ارجب على الاباطرة الاكثار من الساحات العامة والاروقة والحمامات العامة، حيث تحتشد جماهير عاطلة عن العمل ، تؤمن لها الدولة ، ما فيه أوَد العيش والكفاف ، تتلهى بالتفرج على بعضها البعض ، ان لم تذهب لمشاهدة الالعاب في المدارج والمسارح .

وهذه المنازل العالية ، المشتركة السكنى، توصف عندهم بـ « الجزر » *Insulae* او «مربعات» لأنها كانت تقوم عند مقاطع اربعة شوارع . ومن هذه المنازل كان يتألف معظم المساكن في روما وفي مدينة أوستي ، كما دلت على ذلك الحفريات ، اذ عثروا على جدران بعضها قائم على ارتفاع الدور الثاني ، بينما لا نعرف عن اوضاعها في روما غير ما جاء عنها في الكتب الادبية .

ومع ذلك فقـد كان تحت تصرف الطبقة الثرية في روما – وهي طبقة ازداد عدد افرادها ايضاً في المدن الايطالية الاخرى – منازل *Domus* او دارات خاصة (فيلات) من طابق واحد بالأكثر ، ابرزت النماذج الاولى منها ، اثر الفن الهليني. فقد سيطرت العادات والاخلاق اليونانية في مدينة بومبيي ، حيث يمكننا ان ندرس هذه المنازل او الدارات ، كما كانت عليه في هندستها الاولى ، ونتتبع التعديلات التي خضعت لها فيما بعد. ففي أبسط النماذج كان المنزل يتألف بعد رواق مركزي ضيق يُفضي الى الشارع ، من حجرة رئيسية هي الدار او فنـاء البيت *Atrium* كان يقوم على سطحه حوض لجمع ماء المطر شتاءً . وفي هـذا الفناء او الدار كان رب

البيت يغطي معظم ساحاته يستقبل الاتباع و « الازلام » . ويلي الدار حجرة هي حجرة الأسرة *Tablinum* ، وفيها تحفظ ، كما يدل عليها اسمها ، الاوراق والوثائق والقراطيس الخاصة ؛ ويقوم الى جنبها غرفة اخرى هي غرفة الطعام *Triclinium* . ويلي ذلك ، الى الوراء ، مساحة غير مشغولة هي من اثر النموذج الهليني ، حديقة تحت رواق يقوم على أعمدة *Péristyle* مقسمة الى مربعات واحواض ماء ، بينها فستقية ، وتماثيل ، وغير ذلك مما يبهج منظره العين . وهذا النموذج المبسّط ، النادي ، هو بالطبع عرضة التغيير والتبدل ، كلما استطاع صاحب الدار الى ذلك سبيلاً ، فيضاعف مثلاً عدد الغرف والحجر تسهيلاً لعملية تهوية البيت وتعريضه لأشعة الشمس ونورها ، او باضافة حدائق جديدة حول المسكن . وعندما كانت تتوفر لصاحب الدار الوسائل المادية كان يضيف الى منزله جهازاً خاصاً التدفئة ، تفيد منه كل الغرف ، يُعرف عندهم بـ *Hypocaustes* ينقل البخار بواسطة قطع قرميد ، مثبتة تحت ارض الدار او يمر داخل الجدران اذا كانت مزدوجة ، وهو تطور جديد لم تعرفه منازل الاغريق من قبل ، وجهزت به بعض المنازل في روما . فايطاليا الجنوبية لم تعرفه ولم تستعمله ، اذ ان استعماله اقتصر على بعض الولايات المعروفة بقسوة شتائها وببردها القارس .

الشكل ١٦ المنزل المعروف : « بمنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبيي :
أ ـ المدخل ؛ ب ـ مخازن ؛ ت ـ الدرج ؛ ث ـ دار مع فستقية ؛ ج ـ حجرة الاسرة ؛ ح ـ رواق بأعمدة ؛ خ ـ غرفة الطعام ؛ د ـ مدخل فرعي . مزين بفسيفساء ورسوم ، منها على العتبة رسم يمثل كلباً مربوطاً بسلسلة ، مع الكلمات : احذر الكلب . في غرفة اخرى حوائج تحتوي التمثيل ، ومنها عرف المنزل بهذا الاسم .

حتى بدون هذا الجهاز ، كانت الدارة تختلف من جميع الوجوه عن المسكن العادي المتواضع .

ومما لا شك فيه قط ، تناقص عدد الدارات في روما ، خلال هذه الحقبة التي امتدت قرنين ، بعد ان بلغ الغنى ذُروته في عهد الاسرة اليوليو ـ كلودية ، ثم اخذ بالانحدار تدريجياً . فالاحصاءات الوحيدة التي لدينا تعود القرن الرابع . فهي تجعل عدد هذه الفيلات نحواً من ١٨٠٠ مقابل ٤٦٠٠٠ مسكن . كان يوجد ، بالطبع ، اذ ذاك ، طبقة من النبلاء ، يعيش افرادها على المرتبات التي يتناولونها من الدولة ، او من ريع ما تدره عليهم املاكهم في الولايات خارج روما ، حيث كانت تجد راحتها ومتعة العيش ، بعد لم تَعُد السكنى الفارهة في روما ، في متناول الخاصة .

مدن الولايات

اذا ما وضعنا المدينة ـ العاصمة جانباً ، فكم تعد الامبراطورية من المدن ، يا ترى؟

أينما اجلنا النظر وقعت العين على مدن جديدة تخرج الى النور بدافع من الحكومة بعد ان تغاضت عن المدن القديمة وصرفت لها تصريداً ، المؤازرة والمساعدة ، مفضلة الاحتفاظ بها

ة الناشئة تتعهدها بالتخطيط والتجميل والتوسيع .
وهكذا نرى الامبراطورية تستحيل ورشة عامة للاشغال . وكلما الحت طبيعة الا
ة التفلت من القلعة الضيقة ، حيث كانت تجثم منكفئة على نفسها ، ضمن اسوار تحد من انط

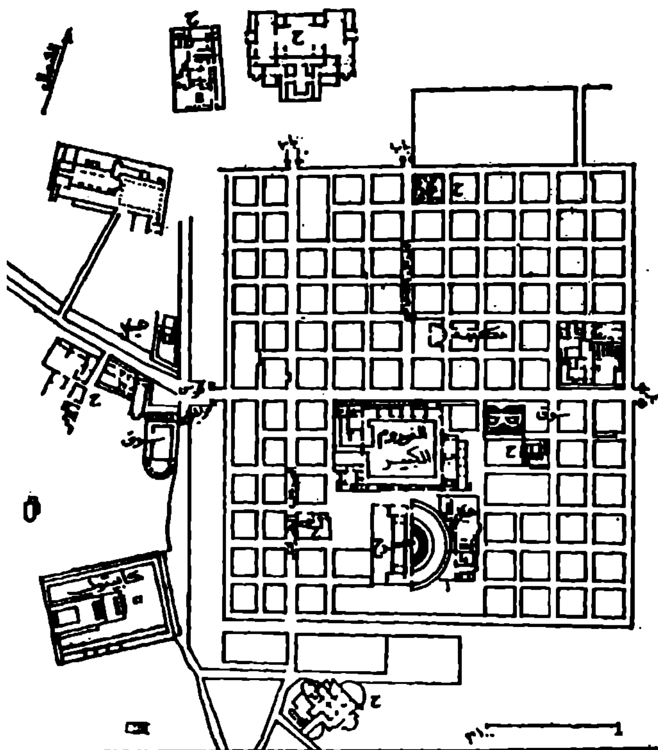

الشكل ١٧ - مدينة تمقاد في نوميديا
- حامات ؛ ب - بازيليك ؛ ت - هيكل صغير في الفوروم مع منبر الخطابة عند واجهة المبنى - مستعمر
المحاربين القدماء انشأها ترايانوس ، اما القوس المدعو بقوس ترايانوس ، هو بعد ذلك بقرن .
وقد اتسعت المدينة وتجاوزت كثيراً السور القائم حولها ، دون أي تخطيط هندسي .

الى الافق البعيد ، او من الحصن الذي كانت فيه والذي طالما ردعنها عاديات الدهر وطوار
، او من المعقل الذي كثيراً ما اعتصم فيه القائمون بانقلاب عسكري ، لتنبسط في السهل
ساحاتها العامة ومبانيها ومنازلها . اما المدن التي لا سبيل لديها لتغيير موقعها ، فقد قد
احياء سكن جديدة لها . وكل هذه المدن كانت بحاجة ماسة الفراغ تشيد عليـــه

ي ما فيه حليتها وزينتها ، والدليل على ما تتمم به من يسر وازدهار ، والشاهد على ء
بحيـــة كبار المواطنين وسراة القوم فيها ، بعد ان تحققت منهم المنى والرغائب
الي الحضرية .

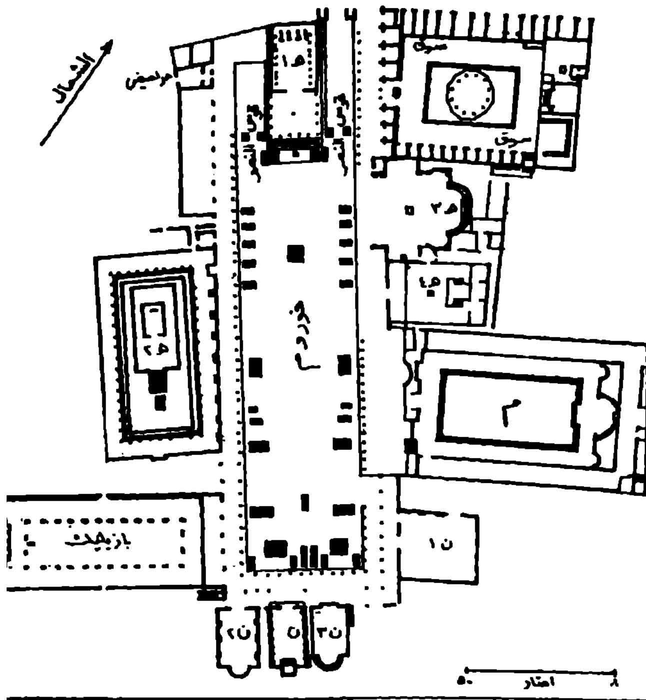

الشكل ١٨ — ميدان بومبيي

م ـ مبنى على اسم كونكورد اوغست وعلى اسم التقوى ، شيدته اوماخيا ، رئيسة نقابة القصارين ؛ يستعمل مقراً لهذه النقابة .

ن ـ الندوة ؛

ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ ـ مبان أخرى لاستعمال الادارة .

هـ ـ هيكل ؛ هـ ١ ـ الكابيتول؛ هـ ٢ ـ ابولون ، هـ ٣ ـ الآلهة المنزلية (؟) ؛ هـ ٤ ـ فسبسيانوس .

وقد يكون النموذج المثالي لهذه المؤسسات« المستعمرة »مدينة خططت وفقاً لترتيب م
ن اراض طليقة استوحوا مقومات تخطيطهـا من الطراز المستوحى من معسكر الج
ذا التخطيط الهندسي المربع الاضلاع« يستلهم عموماً» المبادىء العامة التي انتهجها الاغ

هندستهم ، منذ القرن الخامس ق . م اضاف اليها الرومان ، بدافع من عقائدهم وتقاليدهم الدينية ، هاجس او ضاغوط الاتجاه ، بحيث يستطيع المرء ان يحدد ، في مدينة كمدينة ليون ، في غاليا ، مثلا اليوم الحقيقي لتأسيس المدينة ، وذلك بملاحظة النقطة التي يلتقي عندها خط ينطلق من نقطة تقاطع الخط الرئيسي من هذه الطريق ، *Decumanus maximus* مع الخط الرئيسي للطريق ذي الاتجاه الشمالي الجنوبي ، حيث يجب ان تقوم الساحة العامة في المدينة او الفوروم . وعلى موازاة هذه النقطة المركزية تنطلق خطوط كبرى وصغرى بحيث تتحدد معها مواقع القطاعات الاخرى . فالمباني العامة ذات الشأن تحتل من هذه المواقع مراكز غير قابلة التغيير ، بحيث لم يعد موجب ليتكىء المسرح على منحدر هضبة او سفح تلة. وهذا النموذج القياسي تولى وضعه بالطبع مهندسون يعملون في مصالح حكومية خاصة .

الا ان تطبيق هذه الهندسة لا يمكن ان يأتي كلملا ، على الوجه الاحسن ، الا في حالات المدن التي تنشأ دفعة واحدة بجميع مقوماتها وقطاعاتها . اما تلك التي تنشأ حول معسكرات الجيش ، فتأتي عادة ، على غير نظام وانتظام وان كانت قيادة الجيش تسهر على هذه الضواحي وتنظيمها . فالتشويش لا يوجد الا في المدن القديمة ، او بالاحرى ، في الاحياء القديمة من هذه المدن ، اذ ان الجديدة منها تضطر للنزول عند قواعد التنظيم المعمول بها . وهكذا ، فالمدينة المعروفة بمدينة « هدريانوس » التي تقع الى الشرق من قلعة أثينا ، تنسجم تماماً مع قلعة مدينة تيزيه *Thésée* .

ونجد في معظم الاماكن ، اكثر من جو عائلي لاننا نواجه مباني من نموذج واحد لا بد منه ولا مندوحة عنه لكل مدينة . في اي مدينة كانت ، نجد ميداناً (فوروم) هو قلب المدينة ، وباحتها المركزية ونقطة الجذب منها . وقد يشاد فيها ، احياناً منبر للخطابة يسمى عندهم *Rostres* ، كما هي الحال في روما ، مع ان المواطنين انقطعوا ، منذ زمان بعيد ، عن عقد مثل هذه الاجتماعات . ويقوم الى جانب الفوروم، عادة ، ادارة المدينة (*Curie*) حيث يعقد المجلس البلدي جلساته ، كما تقوم البازيليك او النادي، وعلى مقربة من الفوروم تقوم ايضاً السوق التجارية (هال) التي تتألف من مجموعة من المخازن ودكاكين الباعة ، في صف واحد . وفي الاحياء تنتصب هياكل ومعابد على شرف آلهة متنوعة . والمدن التي تود ان تأتي بالدليل على رومانيتها وتحرص على المباهاة بهذه العاطفة ، تقيم لها في مكان تختاره لهذا الغرض « كابيتول » اي هيكلا على اسم الإله جوبيتير الكابيتولي ، او اكثر من واحد ، لعبادة : « روما ـ اوغسطس » او « اوغسطس » ، ولهذا وذاك من هؤلاء المؤلهين (*Divi*) .والحاجة للملاهي تقضي بانشاء مسرح تكاد لا تخلو منه مدينة ، وكثيراً ما مدرج . ولا بد في كل مدينة من حمامات ، وملعب للالعاب الرياضية . اما المكتبة ، وأن كانت اقل انتشاراً من غيرها من هذه المؤسسات ، فهي موجودة، مع ذلك ، في مدن عديدة . ويكتمل العقد النظم اذا ما اضفنا الى هذه السلسلة القناطر المائية .

والفارق الاكبر بين مدينة وأخرى، والمميز بينهما هو ما فيها من المباني الرسمية، وما هي عليه

هذه المباني الرسمية من العظمة وغنى الزخرف والنقش . وعندما أصيبت مدينة بومبيي بالخراب التام ، عام ٧٩ للميلاد ، كانت تعد ميدانين (فوروم) ، احدهما مثلث الاضلاع او الشكل ، وهو شيء غير عادي ، وعشرة هياكل ، بينها اثنان لعبادة الامبراطور ، وصالة للحفلات الغنائية (أوديون) تسع ٩٠٠ مقعد ، ومسرحاً يضم ٩٠٠٠ مقعد ، ومدرجاً يتسع لـ ٢٠٠٠٠ مشاهد ، وثلاثة حمامات ، وملعبين وغير ذلك من الانشاءات العامة . وبالفعل ، فقد كانت بومبيي مدينة غنية . غير ان القرن الثاني ، الذي هو عهد الأسرة الانطونية ، يؤلف العصر الذهبي للمدن ، التي راحت اذ ذاك ، تتنافس فيما بينها لتجميل معالمها ، كما كانت تحث مواطنيها على ان يتبرعوا ، في حياتهم او ان يوصوا ، بعد وفاتهم ، نقداً او عيناً ، بما يساعد على تشييد المباني . وهكذا راحت الميادين تزدان بأنصاب التماثيل ، كما راحت تمتد وتتسع ، وترفل بالرخام والمرمر ، وبأقنية لتصريف المياه ، حجارتها من المرمر ، شريطة ألا تكون مقالعه بعيدة كثيراً عن المدينة ، وبالأروقة القائمة على العُمُد بحيث يأمن المارّة حرارة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً . وهكذا لا تلبث حصون المدينة وقلاعها ان تزول وتختفي معالمها . وقد يقوم احياناً اقواس النصر مع ما لها من أرتاج ضخمة . كل هذا حدا بأحد الخطباء في آسيا الصغرى – مع ان مثل هذا المنظر ليس بغريب عن النظر في مدن الغرب – هو ايليوس ارستيدس ان يهتف قائلاً : « والظاهر ان العالم كله في شبه عيد ، فقد نزع عنه أثماله البالية ومباذله الرثّة المصنوعة من الجديد ليستسلم بكليته للحرية ولذة العيش . كل المدن تناست منازعاتها بعضها مع بعض ، او بالاحرى اخذت تتنافس بعضها مع بعض بحيث تحاول الواحدة منها بز الاخرى جمالاً وبهاءً وسناءً . أينما وقع الطرف ، وجد ملاعب واحواضاً للماء وادراجاً ضخمة ، وهياكل ، ومصانع ومشاغل ومدارس » . وبالفعل ، لا نجد مدينة من بين مدن الامبراطورية لا ترتدي ، بين عهدي ترايانوس ومارك اوريل ، حلة جديدة وزينة جديدة – كأنها تسهم من جهتها في تجميل العالم الروماني ، بهذه الانصاب البيضاء من تماثيل وعواميد وملاعب بيضاء ... لا – كان ينقصها كما نقص الكاتدرائيات ، في زمانها ، هذا اللون الزنجاري الذي تضفيه الاجيال والعصور على المباني .

الدارات *Villas*

استمرت حركة اتساع المدن وتجميلها ناشطة في عهد اسرة ساويرس . ومع ذلك ، سيراً مع سنّة التطور التي تقتضي أن يجيء الحاضر المستقبل ، وألا يطلع شيء بالطفرة ، أطل منذ عهد الأسرة الانطونية شيء جديد . فقد وجدت المدينة نفسها ، وجهاً لوجه ، مع منافسة عرفت حظاً كبيراً ، هي « الدارة » . فقد جاء الحديث عنها في معرض الكلام عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فالملكية العقارية الضخمة اخذت تنتظم وحدة متكاملة متكافلة ، كما اخذ كبار الملاكين ينأون عن المدينة هرباً من هذه المراسم والاعراف والعادات وما تجره من مضايقات ، وتفادياً منهم للنفقات الباهظة التي كانت تفرضها عليهم مستلزمات الحياة في المدينة . فلنلق الآن نظرة دقيقة على جوهر الوضع الذي قامت عليه « الدارة » في الاساس .

بالطبع ليس المقصود هنا المنزل الريفي *Villa rustica* الذي كان يضم المباني اللازمة لاستثمار

الاقطان مع مساكن الشغيلة والعمال ، وغير ذلك من اصطبلات وصِيَر ، ومزارب الخيل والمراتب ، والاهراء والمشاغل . فليس في هذه كلها مجال لمراعاة الذوق الفني والأخذ بأصوله ، والتقيد بقواعده : من عمارة وترتيب وتنظيم . فالشيء الذي يستبد بالانتباه ويستأثر به هو مسكن صاحب هذه الاقطان . فهذه الدارة ، عند قيامها ، كانت تقع على مقربة من البيت الريفي ، بحيث يتاح لرب الارض مراقبة الاستثمار والاشراف على ما يجري فيه من اشغال واعمال . ليس من المفروض قط ان يقوم مثل هذا النزل في كل الاملاك والاقطان الكبيرة . ولكن لكل من هؤلاء الملاكين الكبار دارة واحدة ، على الاقل ، وقد يكون له أكثر من دارة أحياناً . أفلم نرَ كيف ان بلين الاصغر كان له منها اربع : منها اثنتان في غاية الابهة والغنى ، احداهما بالقرب من مدينة اوستي ، والثانية في مقاطعة توسكانا .

عرف الشرق دوماً مثل هذه الدارات التي كانت عادة تقوم في وسط الاملاك الواسعة الشاسعة التي يملكها كبار الاقطاعيين ، اذ كان صاحب الارض يحرص دوماً على إقامة دارة له في قلبها ، يعيش فيها عيش السراة والنبلاء الإقطاعيين . وهذه النُزُل الريفية كانت تبدو كأنها حصون حصينة ، تحيط بها الحدائق الغناء حيث يتوفر القنص والصيد على انواعه ، تعلوها الابراج والقلاع . ليس عندنا فكرة قط عما كانت عليه بالفعل هذه الدارات في عهد الامبراطورية ، ولعلها قد تكون على شاكلة هذه الدور الافريقية المرسومة في بعض الفسيفساء .

وأكثر النماذج شيوعاً وانتشاراً هو النموذج الذي أطل علينا في مكان آخر من ايطاليا . فاذا كان على الملاك الكبير في شبه الجزيرة الايطالية ان يسكن بين املاكه واقطانه ، فقد اتخذت الدارة ، قبل نهاية العهد الجمهوري ، طابعاً مستقلاً عن استثمار الارض . وقد اخذ الناس بالزي المستبد بالعرف : فراحوا ينشئون لهم مراكز للاصطياف ، بالقرب من شواطىء البحر او في بعض المواقع الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الفتانة ، من جبال اللاتيوم ، او في نقاط معينة مشهورة ، مثل توسكولوم وتيبور . ففي عهد الاسرة اليوليو – الكلودية كان كل ابناء الطبقة الارستوقراطية العليا قد انشأوا لهم ، في هذه المراكز ، بيوتاً جميلة للغاية حيث تتوفر كل اسباب الراحة واللهو . وهذا النمط بعينه انتشر في الولايات الغربية اكثر من اي نمط آخر ، لما يوفره لاصحاب الدارة وسكانها من هدوء وطمأنينة وسلام ، ولسيد الدارة ، من نفوذ وشأن بين سكان الريف ، حيث كانت تتم للسيد : المشارفة على مزارعه ومزدرعاته ، وتتوفر له كل اسباب الاستجمام والراحة .

فالدارة السكن ، وحدها مشروع قائم بذاته ومنهاج . والذي يتوق اليه صاحب هذه الدارة ويرغب فيه هو تقليد المنزل الثري في المدينة ، بحيث لا يلبث ان يصبح هذا المنزل الدارة المفضلة . بالطبع ، ليس من المتوقع قط ، ان يكون عدد الوافدين والزائرين ، من صُحب وخلان ، على نسبة ما هم عليه في المدينة ، كما تنقص بالتالي وتقل ، علاقة سيد الأرض برجال الادارة وبالرسميين من ممثلي الحكومة . ولذا تصغر مساحة البهو أو صالة المنزل ، ويُقتصر فيها على ما يؤمن لصاحب الدار ولذويه ، متعة الحياة وهناءة العيش الرخي ، كالأروقة المنتصبة على المواميد ، والحدائق

والرياض الغناء بعد ان اتسعت الأرض ورحبت منها الارجاء ، وعلى نسبة الموارد والدخل الذي يؤمنه الاستثمار لتوفير اسباب الراحة واللذة . ينفرج الرتاج عن غرف يزداد معها المنزل طولاً ، كما يزداد عرضاً بما يضاف عليه من اجنحة جانبية تقوم بينها افنية واسعة رحبة ، وأروقة مستطيلة. ويأخذ بعض سراة القوم بمضاعفة الغرف بحيث يتوفر بينها اكثر من ردهة للاستقبال، واكثر من غرفة الطعام ، والعديد من الغرف، لفصلي الصيف والشتاء، تجهز الاخيرة منها بشبكة التدفئة على الهواء الحار . وكثيراً ما نرى في الدارة مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات مع كوى في الجدران، لاقامة الانصاب والتماثيل، كما نرى الحامات. وتفرش ارضية الحجر بالفسيفساء كما يتدلى من الجدران رسوم وصور فنية . وكثيراً ما كانت الجدران والعواميد تغطى بانواع فاخرة من الرخام الجميل كالبرفير ، كذلك كانت تقام في الحدائق أكشاك تلتف حولها الاغراس المتمرجة يتخللها متنزهات وملاعب وميادين ، لضروب الفروسية على انواعها وسباق الخيل ، واحواض السباحة وفستقيات تنطلق منهـا المياه وأحواض لتربية الأسماك على أشكالها . ويقوم تحت تصرف سيد الدارة الكثير من العبيد والارقاء لتأمين أعمال الفلاحة والزراعة والاشغال الاخرى التي يتطلبها حسن استثمار الارض ، تحت اشراف وكلاء ورؤساء ورش ، مما يزيد من نفوذه وعلو شأنه في المنطقة حتى وفي المدينة القريبة ، فينصرف بعد انتهاء عمله الرسمي في الوظيفة ، أو بعد إحالته على التقاعد والمعاش ، الى العيش الرخي يستمتع بما تم له من نعمة سابغة وبما وفره له غناه وثروته الطائلة من متع ذهنية ، ومسرات مادية .

وقد تختلف هذه الدارات التي عرفت منها ايطاليا عدداً كبيراً ، بعضها عن بعض بنسبة غنى اصحابها واخذهم باسباب الحضارة . ومن هذه الدارات الفخمة : دارة آل لورنتس ودارة آل توشي، التي خلد بلين الاصغر ذكرها من خلال الوصف الأخاذ الذي تركه لنا في رسائله المشهورة التي وضعها في عهد الاسرة الانطونية . امـا في الغرب ، فالحفريات الأثرية التي جرت هناك ، كشفت لنا عن العديد من هذه الدارات في مقاطعات بريتانيا ، وربنانيا وغاليا ، ويعود معظمها القرن الثاني ، وهي بعد ، لم تبلغ الذروة في تطورها نحو التكامل ، كما لم تبلغ هذا البذخ الذي تم لها بعد ذلك . وهذا البذخ وهذه الابهة التي تجلت في الدارات الريفية يؤلف تكذيباً لمن يدعي وقف الحضارة وإقصارها على المدن دون سواها، انما يبدو في الريف اكثر فردية واثرة، واقتصر على طبقة معينة من الناس اقامت رخاءها على بؤس الشعب وشقائه .

خاتمة المطاف

يجب ان نوسع من نظرتنا الى الافق . فعندما لا نتعرض الانجازات الفنية التي طلعت بهـا مدنية ما، نفسها بنفسها، بما لها من قيمة جمالها ، فالفن يبقى لا قيمة له إلا بنسبة ما يؤلف عنصراً زخرفياً للبناء القائم. ليس من عجب قط ان نختم بحثنا هذا عن الجهود البنائي الزخرفي بملاحظات تتناول كل حضارة الامبراطورية الرومانية، في طورها الاخير.

حضارة نبلاء

بين هذه الملاحظات، ملاحظة ليست بجديدة، طالما سبق وأبديناها من قبل أكثر من مرة. فبالرغم من هذه النزعة الانسانية التي انبثقت عن هذه الفلسفات اليونانية بقيت هذه الحضارة، قاسية، لا ترحم، شديدة الوطأة على الطبقات الاجتماعية الدانية ولا سيا على هذه الطبقات الريفية منها، فسخّرتها بلا رحمة لتأمين حاجاتها ولما نمت به من كماليات. والحال، فالكماليات استنفذ انتاجها قدراً كبيراً من الوسائل التقنية المعروفة اذ ذاك، وفي سبيل تأمين هذه الكماليات، هُدر جانب كبير من ثروة الدولة، وقدر كبير من الجهد البشري لتأمين رفاهية أقلية ضئيلة ولتوفير ما يضفي على حياتها: البهجة والغبطة والسرور، او ما يؤمن لها زينة الدنيا، دون ان يعود هذا الجهد وهذا الانفاق بشيء يذكر على تطوير وسائل الانتاج، كما ان هذه الطبقات الكادحة لم تفد، حتى في أكثر الحالات ملاءمة لها، سوى شيء يسير من هذا كله. وبأحسن الحالات، لم تجد هذه الطبقات سوى درس ثقافي لم يُثر فيها على الصعيد الديني اية عاطفة او شعور يعوض عليها ما سَخّت به من عمل شاق. ففي مدينة بومبيي المزدهرة كما في روما الامبراطورية، نرى السواد الاكبر من المساكن والمنازل في حالة مدقعة من الفقر والقذارة. فماذا نقول عن أكواخ الفلاحين التي تكاد تخلو من الضروريات، فلم يبق او يصلنا منها شيء؟

وحدة واطراد

مشكلة التوازن لم تكن مشكلة النظام الاجتماعي الوحيدة. فمتى يا ترى، فقدت هذه الوحدة قيمتها وأصبحت اطراداً؟

فمن أشتات هذه الولايات المتباينة، كونت الامبراطورية دولة، تولى الامر فيها رجل فرد، كان من أولى واجباته نحو روما، تحقيق مثل هذه الامبراطورية او السعي نحو هذه الغاية بعد ان تنكّبت العهود الماضية عن تحقيق مثل هذا الامر، او باءت المحاولات التي بذلت في هذا السبيل بالفشل، فكان ذلك كله مبرراً في نظره لمعاودة الكرة وتحقيقه. ولكي يؤمّن لهذه الدولة، ما يلزم من قوة وسلطان، راح هذا السيد المطلق يحاول، عن سابق قصد وتصميم، افراغ هذه الولايات الاقليمية في قالب واحد. فكتب له النجاح في ما يتعلق بالادارة وما يتصل بها، وتدخل شخصياً لكي يزيد من قوة التطور الذي اخذت الامبراطورية باسبابه في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن لاحد نكرانه. إلا انه باء الفشل عندما راح يحاول تحقيق الوحدة الدينية لهذه المراسم وطقوس العبادة الرسمية، وهي وحدة تمت فيما بعد لغير هذه الطقوس والعبادات. اما في المجال الفكري، فالوحدة تحققت بالرغم من الازدواجية اللغوية. ولكن ماذا من الفن بعد هذا؟

لا يستطيع احد ان ينكر ما تم من وحدة في هذا المجال. كذلك لا يصح اطلاقاً لأحد ان يتجاهل بعض الفروق والنزعات الاقليمية التي طبعت مظاهر هذا الفن. فاليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر، لم تكن اراضي جديدة او شبه جديدة، كما كانت افريقيا واسبانيا او غاليا. ففي مصر، الامبراطور هو فرعون، ولذا لا نراه يتنكر للفن المقدس. ففي عهد ترايانوس، أقيم

الكشك الذي اشتهر به هيكل فيليه . فبعلبك المشهورة باسم هليوبوليس ، وتدمر بما تم لها من العمائر الفخمة، ومن الاعمدة الضخمة وما فيها من وفرة الزخرف ، لا تشبهان بشيء، مدينة تمقاد او كولونيا. ومع ذلك ، فهذه الفروق زالت وانتفت امام هذه المُثل المشتركة التي هدفت كل المدن الرومانية لتحقيقها .

اما المشكلة الصميم ، فمشكلة هذا الغرب المتخلف عن ركب الحضارة. فلو عرف هذا الغرب ان يتدرج في اقتباسه ، بتؤدة وتمهل ، حضارة ادبية ومادية ، أقل ضغطاً وعنفاً من تلك التي فرضها عليه فاتح غاز ، بقوة السلاح ، الما كان استطاع ان يحقق مثل هذه الحضارة ، بالاعتماد على ما فيه من طاقات اصيلة كامنة ؟ فالفضل في إثارة مثل هذا الشك يعود لكميل جوليان الذي عرف ان يقف وحده ويعارض نظرية تقليدية إستبدت بالمؤرخين . وعلى شاكلته ، يمكن لنا ان نفترض طلوع حضارة اسمى بكثير من هذه المدنية الغالو ـ الرومانية ، كما يجوز لنا ان نفرض طلوع مدنية اسبانيا واخرى افريقية .

ولكن ، هذه كلها افتراضات من وحي الخيال ، واحلام خطرت في البال .

الكتاب الثاني

حضارة العهد الأمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الامبراطوري الثاني : ولا يعني هـــذا الاطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتواريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الوثبات السياسية ــ الحروب المدنية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب او كتافيانوس عنده نهايتهــا بـ « اوغسطس » ـــ التي تعين او ترافق احياناً ، اتجاهاً جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فمتى ينتهي العهد الامبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ — ٢٣٥)، مع ان التجديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً، في نظرة هذا المجلـّد الشاملة ، من ان لا نؤثر على هذا الحلّ حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهنالك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً: أين ينتهي العهد الامبراطوري الثاني ، أي الامبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقتـُرحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنهما . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجمعان حولهما العـــدد الاكبر من الانصار ، فالمجادلات ابعد من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحدثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فالافضل ألا نختار حتى نحتفظ بحريتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو العصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتتفكك العصور القديمـــة تدريجياً وتشيّد الاسس ، الزمنية او

الروحية» لما سيغدو القرون الوسطى ، لا سيا اذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي» في كل آن» على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم ، في ما يعنينا ، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان وللمجتمع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جدلاً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً» ان نرى في هذه الامبراطورية» «المتأخرة» زمنياً ، وفي حضارتها» الاشكال الذابلة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في مخيلة الرسّامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يبدو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه يتبع هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم ازدرائي امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحيـــاة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة. اما نحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني» فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة.

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتيموس ساويروس امبراطوراً ؛ وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخيين يحدان عهداً – هو القرن الثالث اجمالاً – مليئاً ببوادر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطوري الثاني . فليست الرتبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخللته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص معناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، ولمجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديد مظاهره الرئيسية .

نحن لم نخفِ قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجرجاً : وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما الح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جراثيمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جراثيم آنذاك وكان بالامكان ان تجهض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعدادات تعطي الأزمة اتساعها الفائق . فبدا العالم الروماني، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جارّاً في انهياره الحضارة التي وفر لهـا الاطار .

الفوضى العسكرية

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلبلة التي افادت منها كافة الجراثيم الاخرى هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانهـا استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جهله الرومان من الجراثيم : فقد سبق وبرهنت عن مفاسدها خلال ازمة السنتين ٦٨ – ٥٩ . لذلك اتخذ ضدها

المزيد من الاحتياطات : وكان تلاقي شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقلع الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادّين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدوها مستفيدين من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فالح ذلك اختيار الاجدر بنية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك - اوريل ، اظهار ركاكة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدّدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ابهام: كان من شأن الوراثة ان تبرز، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حق اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لا سيا وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايدة علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يعتلي جدار معسكرهم ويعدهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابناؤه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات احياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته . ولكن اغتيال آخر انسبائه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصّبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبيــة التي حاولت احصاءهم لم تأتِ على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم . فنادرون لعمري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات . وان غاليانوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشتراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ؛ ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدهم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثرية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يعش احدهم ، بعد المناداة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمنذ كومودوس حتى ديوكليسيانوس مات احد الاباطرة اسيراً في بلاد اجنبية ؛ وآخر متأثراً بضربات العدو ؛ واثنان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، العظماء الذين استماد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقين دون استثناء ماتوا

ضحايا اقاربهم او ضباط اركانهم أو جنودهم او جنود احد منافسيهم

ان الفكر يكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر — ويحدث ان تستغني عنها — لاختيار وزوال حظوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحاكين غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخياً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالوعود ، وقائداً يوحي لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناني ، رغبة منها بالاقتداء بالجيوش المجاورة . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قصوى في النظام أو بمجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا امــل البعض في التغلب على القدر ولم يتراجعوا امام الدسيسة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائصهم خوفاً ولا يقبلون الا تخلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المتفر : فهي توفر ، لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلا دراسيا واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنغض الطرف منا عن أوجــه الزيفان ، مفتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، الخشرشنين بفعل منشأهم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاخب والاولي يعبّر ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نغفل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيــام بجوهر واجبهم . انهم يتحاربون بــين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدوّ ايضاً . ويعرفه رؤساؤهم عند الحاجة ، وهم المستفيدون من هذه المتافات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، مــن خلّص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقصاء النظرية الساذجة القائلة بجنون جماعي لا يعقــل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

الخطر البربري

ان الخطر البربري ، الذي شجعته فوضى حوّلت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي شجعها بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بحسن ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طابعاً خطيراً مخيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حمى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بتيقظ ، وطوّق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيهــا بوادر انشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادىء نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليته حين اخذت تهز هذا العالم ، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهـــد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اتاح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات تهمّ ، في ما تضم ، كواديين وماركوماشين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيتيا . فكان

ذلك ، اذ ما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمتن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم : نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

اشتد ساعد شعوب صغيرة، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واهتاج بعض المستائين ممن أثقلت كاهلهم الحيـــاة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفيين البؤساء ممن ضحي بهم لأجل عظمة المدن. وابان الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس، خلق اشتراك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانته بأفضل جنوده بغية تحقيق آماله في غاليا، وضعاً أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبوراكوم *Eburacum (York)* اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هدريانوس . وارتدى مثل هــذا الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين الموريتانيتين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطىء الاسبانية . ومـا لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليـا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريتو جبـــال طوروس، آسيا الصغرى الجنوبية .

ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناوشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنـــة في اوروبا الوسطى والشرقية من جهة ، وايران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

اوروبا الوسطى والشرقيا

فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة، تقلق السهول الاوروبية الشاسعة . ويغلب على الظن ان مصدر هــذه التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد، بل يبدو بالتفضيل انما بعثها، في القرن الثالث، هو نزوحات انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فاقضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون، وبحر أزوف. فغلى العالم الجرماني ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ، في ارض اسوء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط إقتساماً لرئيس اختير طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجهل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة. وحدثت انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضيعة جداً في الماضي. وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر يبرره الاختبار ايما تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدّئها ولا ينهكهـــا شيء : الساكسون ، المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Francs* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي والاوسط ؛ والألامـان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد دفع بهم الى الامام البورغوند والفاندال ، بينما اهتاج الكارب والسارمات الإيازيجيين ، على طول نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حرّكهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذاك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ
يموس ساويروس. فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شوا
بط . وحدث ان اجتاز الفرنك غاليا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألامان ايطاليـ
سوا الا في بافيا . واجتاز القوط تكراراً نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة وموييسيا والـ

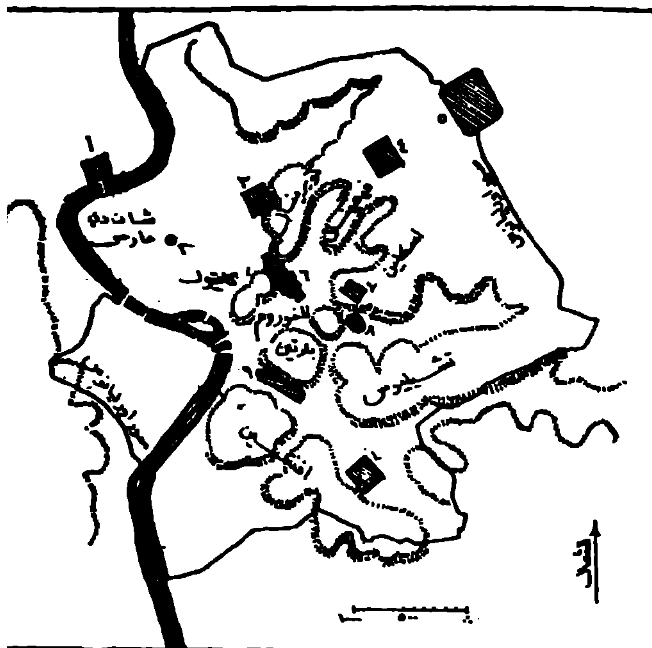

الشكل ١٩ ـ روما في القرن الرابع

احاط سور اوريليانوس بمساحة ١٣٧٢٫٥ هكتاراً ، في حال ان مساحة مدينة اوغسطس قد بلغت ،
تاراً . ١ ـ ضريح هدريانوس ؛ ٢ ـ الزون ؛ ٣ ـ حمامات قسطنطين ؛ ٤ ـ حمامات ديوكليسيانوس
كر الحرس ؛ ٦ ـ ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ ـ حمامات ترايانوس ؛ ٨ ـ مسرح فلافيانوس (كوليسا
ميدان سباق العربات ؛ ١٠ ـ حمامات كراكلا .

ة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرة
، نفسه ونهبوا المناطق الساحلية : فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي،ولكن اثينا قاو
عبثاً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالبـ
أ ـ ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحملوا الالقاب المجيدة ، ولكن زمن ما
صر ، حين كان باستطاعة روما افناء الجرمانيين ، قد ولّى . وقد توجب اكثار من

منذ ذاك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال وبوعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمّت طريقة أعطى مثلهـا العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعيـة تصبح نادرة في المناطق التي تجتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانيـة وأخضعوا لنظام عطوف نسبياً. واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم.

ولكن كل ذلك لم يجدِ فتيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانعزال داخل اسوار محصّنة أسرعت الى بنائها أو الى ترميمها: وأحيطت روما نفسها ، في عهد اوريليانوس ، بالأسوار ، متخلية عن بعض الضواحي التي ضمها اوغسطس الى تنظيمها الاداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبنية سابقة . وحين عـاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقـد أخليت أقاليم الحدود الملحقة بأملاك الدولة ، كما اخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه اوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراضٍ راسخة الاحتلال .

الشرق
الفرس الساسانيون

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدى ، لو لم تضطر في الوقت نفسه الى مقاومة عدوّ رهيب : وهي لم تتأمر قط ، خـلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحـد لأنها كانت عالمة بعجزها عن تعهّد الجيوش التي تفرضها هذه الحروب. وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك.

كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارتية : جار سجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدوّ يصعب اللحاق به في فلوات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي للحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنهـا في هذه المناطق ، وخصم ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرهـا للدسيسة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجموح امراء العائلة الملكية وكبـار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المتبسطة بين منعطف الفرات ودجلة .

تبدّل الوضع بعد ذلك بزمن قصير . فقد برز تيـار قومي ، يستغل زوال الحظوة الذي استحقته السلالة الارساسية بفعل هذه الهزائم ، وساند تمرد نبيل فارسي يدعي انـه حفيد الاخمينيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارتية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية. فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داريوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انهـا لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوّة الى حد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متعصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنوت المجوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعّالاً . وغدت المملكة من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو اللدود للحضارة المتوسطية .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة اولاً ؛ واجتيز الفرات اكثر من مرّة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا *Cappadoce* اخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غاليانوس، على يد ملك الملوك ، سابور الاول (شاهبور الايرانيين) . فأمر هذا الاخير باعداد نقوش ناتئة ضخمة تمثل الامبراطور متصاغراً ، جاثياً أمام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويروي التقليد المسيحي، الذي حقد عليه حقداً شديداً، ان جثته حشيت بالتبن وصبغت باللون الاحمر، وعلقت في احد المعابد: غير ان الرواية غير مقبولة، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية، لأن المازدية لم تشيد معابد حقيقية . ومهما يكن من الامر، فقد كان الكارثة الرومانية دويّها البعيد في الشرق، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديوكليسيانوس على العرش .

اخطار الانقسام

ان الحكومة المركزية ، أو بالاحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا الاسم ، لانها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجه الخطر الخارجي الماثل ابداً في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى. فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازبة نسبياً فيه تكييف توزيع الموارد عليها. وملّت بعض الجيوش والمناطق تقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب، بينما احدقت بها الاخطار من كل جهة. وبرز زعماء محليون متفاوتون جسارة في البدء، يغريهم التحرر باستثمار الخدمات التي يؤدونها السكان والهزائم التي يمنى بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان. فدب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تفتت الدفاع الآني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

ومما يدعو الى الدهشة ان هذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوّة الاسباب ومؤاتاة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . ولمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أثراً بعد عين . فهو قد اجتاز دونما انفصام مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلابسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فمنذ نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وأتمه ملاط وحدة الحضارة.

أضف الى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين الهامشين اللتين قامتا على اساس اقليمي واسع ودامتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغاليين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم تيتريكوس ، خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكره أحكار من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لعمري ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غاليا الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرس القوى التي تجمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باجتياز نهر الرون وجبال الألب. ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتية في أسيادها الذين يعينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدوّنون على نقودهم الاساطير القائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بلميرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هدريانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطرين للدفاع عن قوافلهم ضدّ غزاة الصحراء ، والطامحين الى حق المواطنية الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هـذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لا سيما غداة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على سابور : فاستحق اللقب الملكي وحظي بألقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صممت ارملته زنوبيا على القطيعة ، بعد ان اتضحت لها استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحمّلته ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد، وبحلة بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لونجينوس في بطانة زنوبيا، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجّعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني، مطران انطاكية، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه اخيراً بجرم الهرطقة. فمن ذا الذي سيستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زنوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر المخيلات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لاظهار قوّة الطابع الروماني على « الملكة الشهيرة والتقية سبتيميا باتزاباي » – او على مواهبها كممثلة مهازلة – ان نلفت النظر ، وفاقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوسطي » الى انها كانت تخطب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانيين معتمرة الخوذة

ومرتدية المعطف الارجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها، « فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الاقل » . اضف الى هـذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدّم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلاغابال من كهنوت إله حمص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجـدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقصاء قائد جيش امبراطورية الغاليين ، وبعـد ان اشرك في موكب نصره زنوبيا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي سنرى احفادها في روما بعـد مرور قرن كامل ، وأعاد الغاليّ الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . وينمّ هذا الحلم ، على الارجح ، عن شعوره بأن فائدة عمل هذين الملكين ، بعد كل حساب ، اهلم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضراره للقضية الرومانية .

التضخم النقدي الاول في التاريخ

اعار المؤرخون القدماء هذه الخلال السياسية والعسكرية ما تستحقه مـن أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاساتها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبلة التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد. فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة نادرة الاهمية بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدّد عـلى ظاهرة التضخم النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بعثاً مستمراً ايضاً. وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية. ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الأول، لا سيا فيا يعود القطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فمنذ سبتيموس ساويروس ادى الجهود العسكري الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينا كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد الحت الحاجـة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادرات ، الى تقرير التضخم بشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتعزو المصادر الى كركلاّ ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعله اقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الخفية ؛ فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومهما يكن من الامر ، فان كركلاّ قد انقص ١١ ٪

من وزن الـ « اوريوس » واحدث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » [1] الذي ما لبث وضرب بكميات كبيرة وحل اخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي اكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . وانخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عيـــاره عند حد : فعنصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غاليانوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنـه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيا وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسديد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امراً صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات . وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تم عيوبها عن السرعة في انجازهـــا . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعهم ، والذي توفر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا .

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم ونتائجه التي لا يستغربها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحكمة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بديهي ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات الصغر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، اهملت هـــذه الكنوز المكدسة في مخابئهـــا بعد وفاة مكدسيها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احدث القطع عهـــدا ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيا الفرنك والألامان منهم ، في غاليا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بديهي ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفـــاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام . ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاما عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قـــد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً — « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » — بغية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كركلا هو الذي حققها . غير انهـــا في

---

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بتبن صوري ، بسلالة الانطونيين ، وقد دعي كركلا رسمياً « مـــارك اوريل انطونين » . — وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانيوس » قد ساوى دينارين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحـــد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثاً اللحاق بهذا الارتفـــاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم الحت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

ويدهي ايضاً ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهافت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تبع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن اللذين كانا قد احتفظا بحق ضربها اوقفا الاصدار الذي غدا باهظ الاكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة، مع فقدان السمات النقدية التي توحي الثقة، تجميد التداول وتهديم الأسس الاولية لحياة اقتصادية ترتكز الى شيء آخر غير المقايضة .

ويديهي اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حدّ له ، وغذى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، بجنبات كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر.

الازمة الاقتصادية وعواقبها الاجتماعية

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها، مستقلة عن التضخم النقدي الذي فرضته الضائقة المالية على الاباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان تعد، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا ما شعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية، واعمال السلب ، والاوبئة التي تعقب كل هـــذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلالة ساويروس،

قد منيت به ايضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليـــد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتـاج يعوّل عليه . فانتهز الأشقياء فرصة الفوضى وخرجوا من الامكنة المحدّدة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً. وزادت في الطين بلة المصادرات الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموغلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منهـــا على الآخر خلقت القلق المضر بالانتاج: فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجوا بحراً ولجأوا الى المنطقة الرومانية .

وبوجه أعم ايضاً، توقف تداول المصنوعات. فلا مجال من بعد، عملياً، لقيام تجارة دولية .اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة، فتقهقرت ايضاً امام اللصوصية مرّة اخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه مـن تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فعرفت المدن الفاقة ، حتى تلـك التي لم تعرفها قط في سالف الازمان . وانقطع اتصال روما احيـاناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة اليدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قـد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخــل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها ، والدخل العقاري ايضاً. فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبن آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغيـة الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب ، ليس الازدهار الماضي وحده ، على تفاوت توزعه ، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهـد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة للمشاريـع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن ، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطية . لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

الاضطرابات الدينية
الاضطهادات العامة الاولى

كانت نتيجة هذا السيل من خيبـات الامـل والبلبلة والمصائب العامـــة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ القرن الثاني .

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . السلطات حريتها في تأدية الايماءات التقليدية ، التي تناقضت ابهتها من جهة ثانية ، وفي توزع الالقاب « إلهية » جديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعبّر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفائقة الطبيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضاً ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالاً سلبية وحاقدة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستقبل اهوال هذه الحياة. ومال الوثنيون بالفطرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاهوال: ان القوى الالهية ، اياً كانت ، تثأر من عموم السكان ، انتقاماً من جسارة الملحدين . فحدث من ثم ، احياناً ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابداً .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلها ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيمها . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعد من ان يكون مستمراً . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنيها عن واجباتهم نحو الدولة. الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عن تنوع ميزاتهم الشخصية التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، قد حدّت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلها لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط. فقد استدعت احدى الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيموس ساويروس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلته اطراف الحديث. وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساويروس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصلاه ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا – اول امبراطور مسيحي – كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداء المستحكم واقع يتكرر غالباً .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداء احياناً . فان سبتيموس ساويروس ، الذي كان مسايراً تقريباً ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحية . وصدرت آنذاك احكام عدة بالموت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريباً : فان «آلام القديستين بربيتوا وفيليشيتا» اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعمق النصوص تأثيراً في سِيَر الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التدابير ، في اسوأ الحالات ،سوى منطقة واحدة . اما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ اولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظاميـــة : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك، ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلّم العقوبات للمخالفين، الموت لاعضاء الاكليروس والنخبة اطلاقاً، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسياوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هموماً اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غاليانوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منـــذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية.

لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان نموّ هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبـــل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها، ومن حيث مزاياهم الاجتماعية غالباً، تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قـــد زادا في اضطراب وتصدع مجتمع انقضّت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

الثورة الاجتماعية ودعاي المصلحة العليا

فالأزمة من ثم واقـــع راهن متعدد الأشكال ، وقد شدّدنا الكلام عن قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجـــاز ، بالنسبة لواقع الحـــال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نعير اهتماماً كبيراً التفسيرَ العام الذي قدّمـــه منذ ثلاثين سنة مؤرخ روسي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ ــ وكأنه معدّ لفهم اشياء كثيرةــ هو ميخائيل روستوفتزيف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثهـــا اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المتنفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفهم لاقتسار واستثمار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات المماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفظاعة الانتقـــام وانفلات الغرائز البدائية . ونحن نلمس الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧، و(قرطاجة)في السنة ٢٣٨ ،و(أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيا في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة المجلسية ، فتعرضت لأحكام بالموت ، ولمصادرات لا تحصى ؛ التدابير السياسية والادارية التي حصرت دور المجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المدن أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلاً من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث، اذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودهـا ، يستجيب ايضاً لضرورات ملحّة مباشرة : معاقبة وتقريض كل مقاومة ؛ العجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتهـا . لذلك ، فان التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وان ميخائيل روستوفتزيف،بعد ان قدّمه في السنة١٩٢٣،قد ادخل عليه بعد ذلك،اكثر من تصحيح ومفارقة.

ان ما يلخّص الحركة العامة ويرمز إليهـا جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعملهم الذي أفضى الى تفريع الأزمة . أجـل ، لقد تمّ اختيار الرؤساء المتماثلين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غـير عضوية المجلس التي اكسبت فسبسيانوس، أو ترايانوس قيادة توكيلهـا . ولم تكن الجيوش، وشأنهـا في ذلك شأن ملهميها ، حين ترضى بالسير وراءهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية: فهي تبحث ، برجفات محيّرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسّر انفلات الغرائز وجه الغرابة فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجيالاً، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الأليريين »، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني، وأوريليانوس و بروبوس *Brobus* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسيانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرهـا ، سلالات الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجميلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المداهنة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . اجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، ان تسلم الحكم أباطرة ينتسبون الى الطبقات الشعبية في ايطاليـا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهـا نحن أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافـة ، ولدوا في الليريا *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانيـة ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتقين ، بفضل أهليتهم وحدها ، الى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا ان ننتظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فان هذا الضمير ابعد من ان يلهمهم وحده ، وحتى ان يكون الغالب فيهم . لا ريب في انهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجهلوا مفاتن الحضارة الرقيقة . ولكن مـا يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وازع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعلى روما التي يشعرون بانهم ابناؤها. وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعاء ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضاً العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل الجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم. فاذا كان المحظيون القدماء قد تواروا ، فقد حل عليهم محظيون آخرون : ولم تفض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . ومما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة، غير تصميم الريفيين، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم، قد فعلت فعلها في هذا الاعصار الغريب . ولعلهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفروا لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان موانع كثيرة قد اوقفت وحبست وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد أفلحت في اعادة نظام مادي يتيح للجماعة العيش ، مسايراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدّد الأخطار والاضطرابات خلال الاصلاحات الهزيلة في القرن الرابع

انقذ حزم الاباطرة الالليريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملاً اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . لقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها.

وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الخواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد بجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نحددها منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ ـ الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفق القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل تضحيات اقليمية ممكنة ، الى استعادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليهما مرة اخرى دفاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارغم الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق .

وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلماً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن. اجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعتي الزوال . ولكن الجهود العسكري الذي نهض به العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس مجهوداً يجوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة ثيودوسيوس *Théodose* في السنة ٣٩٥ ، إلا وقام بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها الاعداء الآن . فزيد عدد الجندين وعُدّل تنظيم الجيش .

تنظيم الحدود

ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالأملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ، لا سيا في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد اهملت الخنادق المتصلة واستعيض عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهار ، ببناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون والمعسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل الملاثق بالفرس : فاقتبست في الغرب بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحصينات عليها : فكانت المدن، أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقل تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضف الى ذلك ان لا مجال الخيار : فالافتقار الى العدد الكافي من الجنود المتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوّة في مناطق الحدود التي تسهل التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُددت لهم اجور أقل ارتفاعاً ، وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ،في الواقع، جنوداً لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات اثناء الغزو، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . اجل ، لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحملها إلا في ظروف استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود، قد أعوزهم آنذاك، كما يبدو ، التدريب والمناورات التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

جيش الريف

ليست هذه حال الوحدات الاخرى . في فترات الهدوء تؤلف هـذه الوحدات حاميـات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود ، وحتى في قلب الاراضي الرومانية في اغلب الأحيان . ويفرض الامن الداخلي احتياطات تفوق بعددهـــا الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في ان تعبأ هذه الوحدات بعرفة تامة ، وان تجمع اولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهـــذه الغاية الى تنقلات هامـة احياناً ، من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرر هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تتألف هذه القوى ، في الدرجة الاولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري . ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتتها الوحدات الاخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انزلها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢. فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منـــذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقي ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في القرن الثالث والتي استجاب وجودهـا في الوقت نفسه لاهداف اخرى .

يحمل الجنود الآخرون في الجيوش الريفية اسمـــاء تنم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الاشارة الى فصلهم عن الجيش او اقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتهـــا شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع ، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً ان يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري.

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم "تحل" بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود وجنود الإحتياط . فقد ثبت ابداً خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية . وليس من ريب ، حين جهز ليسينيوس ١٦٥٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤ ، وقسطنطين ١٣٠٠٠٠ لمجابهته ، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتهما في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي . ثم تبدلت الأمور تبدلاً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً : فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥٠٠٠ رجل في حملته على الفرس . وفي السنة ٣٧٨ ، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠٠٠٠ جندي في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط .

التجنيد

كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة الى الرجال ، على الرغم من الجهود المتزايدة ، من حيث قيمتهم النسبية – بسبب نقص السكان – وقيمتهم المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد الجنديين الاجمالي وتتبع ما طرأ عليه من تغييرات . ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديوكليسيانوس قد تعهد جنوداً اكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق واحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومهما يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مهما يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذها امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تعبىء كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لا بل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا نحكم عليها بقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بقياس الدول المعاصرة : فمنذ العهد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، انه في بعض المناطق، كإلليريا مثلاً، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فتوجب اللجوء الى الاجبار عن هذا العجز؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً؛ لان هذا الانتساب لمهنة الجندية قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيموس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن بجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديماً لم يستفد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعية ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، ما لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء.

غير ان ارتفاع نسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكّر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جعله وقفاً على الملكية العقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت أملاكهم على بعض الاتساع ، ومجتمعين ومكتتبين اذا كانت املاكهم على عكس ذلك ، ان يقدّموا المجندين . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استمالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استمالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هذه المهمة . وحاول الامبراطور احياناً حماية الضعفاء الذين يُقدّمون مرغمين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين: وصدر اخيراً قانون اقرّت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضّلت ان يقدّم لها الخضعون مالاً لا رجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان.

ويعني « غير مكان » البرابرة الخشنين ، المعتبرين جنوداً ممتازين ، لا سيا لمحاربـــة برابرة آخرين ، واقل ميلاً الى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان أدخلت بعضهم في خدمتها سامحة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع. وبديهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم لظلموا في النهـــاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعمير واستثمار المناطق التي تندر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدّموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تعذر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يجيء سوى الهموم للامبراطورية : فلولام، لحصل انهيارها قبل موعده بزمن بعيد؛ اضف الى ذلك انهم، بفضل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاغتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارتها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقصاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي باعادتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قـــد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جـــداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة ، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهوا الى تشكيل أكثريته الساحقة ، تلـــك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين: بل غدا اداة لنشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الخاطئة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشدّ عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هـــذا الوضع وازدياد خطورته .

التنظيم وفن الحرب

تأثر الجيش بأعدائــه وتسلحهم وأساليبهم الحربية تأثره بانخراط البرابرة فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقـــاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقـد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفاقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قـد زال ، منذ براءة كركلاّ في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنية الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى العبيد. لذلك فان تكرر استخدام فصائل الجوقات، منذ العهد الامبراطوري الاول، قد أفضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات ـ لا يزال الاسم يطلق عليها، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذاك العهد ـ والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدّل التسلح على طريقة البرابرة . فأهمل المشاة الاسلحة القومية ، البيلوم ، والمنصل ، والترس الكبير ، والدرع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدرع الجلدي . وتسلحت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرس، بالاقواس الجبارة، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والجياد صفائح حديدية او زروداً.

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى ان الفرسان الثقيلي التسلح ، القادرين على الانقضاض على العدو ، فرقاً متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهميتها ـ لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً ـ ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨، التي ربحت بفضل كرّ الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدّمة الفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم . فان اوريليانوس، قبل استلامه الحكم، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكوّنة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق. ومع ذلك فقد أصبح الكر مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

القيادة

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب العنصر السياسي دوره في ذلك لأن الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أمسى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصي الشيوخ من جهة عن القيادات. وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الأشراف على رأس الجوقات التي احدثها . ويعزو التقليد الى غاليانوس براءة تجعل من هذا الاقصاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد. وارتسمت من جهة ثانية، وبصورة اجدى، ثم انتصرت، مع قسطنطين، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وترفيع ذوي الأهلية دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع ايضاً . فبينا لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الا استثناء ، درجة قائد المائة ، أي درجة صغار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارته أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبما ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع نيله الطبيعي : فكافة القادة العسكريين ضباط ممتهنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم ، وكثيرون هم الذين أفادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خص الفرنك بمحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، ناهيك عن القرن الخامس . بيد اننا نقتصر على الاشارة الى وجود القوطيين فيناس والاريك والفاندالي ستيليكون والقفقاسي باكوريوس على رأس وحدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المغتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اربوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الحلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحدة « الحماة » . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ إحداثها في القرن الثالث ، من صغار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانخراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ « المتزلين » فالفوا البلاط وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسنم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر العهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط.

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العدد تنظم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب « القائد » ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئس من يحمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب « الكونت » (رفيق) ، ولكن هذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين « معلمي جنود » *Magistri militum* احدهما للمشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هذه الازدواجية سلطة

الامبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق أوسع، فعين « معلمون» لجيشين . ولكن مالنا ولهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالمهم هو اننا نادراً ما نرى احد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . اجل كان لهؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مسيطرة عملياً ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهلكون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريعة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالمناداة بهم اباطرة ، كجوليانوس وفالنتينيانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتواري لتسليم القيادة العليا الى القادة؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بها . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات الملموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الاخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، يتزوي في قصره في القسطنطينية او في رافينّا ، جُلَسة ومنفرداً ، تاركاً لبعض القادة ممن تقف لهم دسائس البلاط بالمرصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوهم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ، – لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ – مقاطعة التقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الإعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليل عليها على الأقل .

٢ – هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهرية . أمّن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان تتمكن من رؤية التراخي فيه او بداية انحطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقاة على عاتقه . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جدّد العدوّ هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

الفرس لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الاعداء اقلاقاً للرومان .

كانوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

، الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ،
مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاث
بعين يوماً ، الى دخول« اميدا »عنوة(ديار بكر الحالية على دجلة). وكانت ضرباته قا
مم جوليانوس على وضع حدّ لهذه التعديات بشن هجوم على الطريقة القديمـــة ، وسار

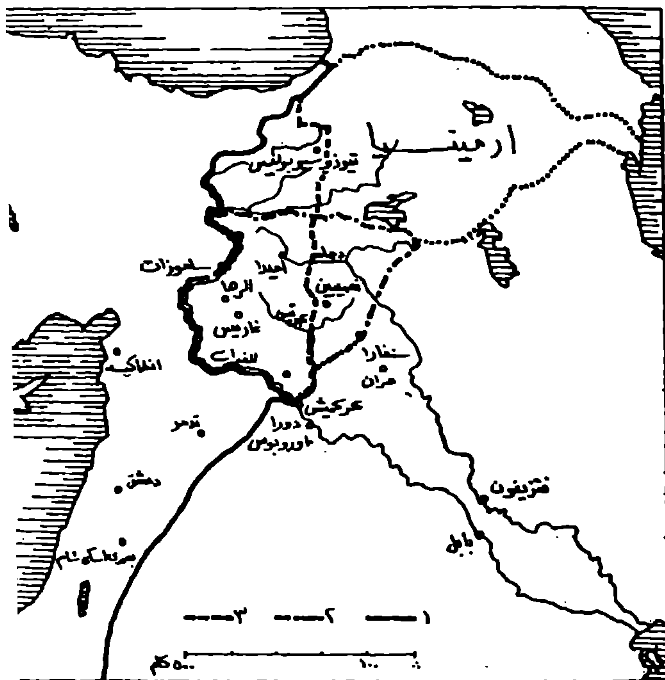

الشكل ٢٠ - حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ - الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠ ؛ ٢ - بعد حملات ديوكليسيانوس ؛ ٣ - بعد الاتفاق الذي
عقد في عهد تيودسيوس .

زيفون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بجرح مميت . فاضطر خلفه ، بغية انقاذ الجيش ، ال
جميع الاراضي الواقعة وراء نهر الخابور : وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم ايضاً واجهوا مش
ى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصلبهم في استئصاله
لتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . و

خلفاء شاهبور الثاني دونه حزماً وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وفداً قدم له الهدايا ، وتخلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كارنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها اسم « ثيودوسيوبوليس » .

اما الخطر الحقيقي ، المخيف ، فقد اتى من مكان آخر .

الرين

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغناس امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي مـــا زال على قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلهية ، بينما توجه المغتصب على رأس خيرة فرقه الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيهما : فشمل الغزو كافة انحاء غاليـــا الشمالية الشرقية .

استعيدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيا على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على مقربة من ستراسبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين انتقل اللقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضاً الى البلقان على رأس خيرة جنوده .

توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنهـــا اسياد الغرب المتعاقبين، فالنتينيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية ، ولا سيا الفرنجية منها ، بالاقامة عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هـذا الجزء من الحدود . فاتسع آنذاك نطاق التعديات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ، وقد انتهت بهزيمة منكرة . ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة انحاء غاليا .

وصول الهون وتعدي القوط

كان تصدع خط الدانوب ، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة ايضاً ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .

جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوروبا جمهور غفير من الهيونغ – نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمنـاً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاظمت باستمرار بين البدو المختلفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجهل كل شيء عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانتظارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحت ضغط ظروف بشرية واقتصادية ملحّة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجـــال الاخبية . دفـع هؤلاء المغول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « ألين » وبلغوا روسيا الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسيقدمون طيلة قرن وأكثر ، اول مثـــل تاريخي معروف – يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غمرت مصر وبلاد مـا بين النهرين في الالف الثاني واوائـل الالف الاول – لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السباسب الشاسعة التي كان انهيارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم المؤرخون المعاصرون فئتين[1]. ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألفت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السباسب الروسية : فوُضع بذلك حدّ لأعمال قرصنتها . اما فئة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر اهتياجاً . اقام احد افرادها ، اولفيلا ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الآري وسم اسقفا وعاد الى مواطنيه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أبجدية. بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضاها واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شكا من الغزوات ومن العضد الذي لقيه احد المغتصبين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعث منافس مسيحي للزعيم الوثني .وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطرا ذا شأن.

ولكن ها هم الهون يجتازون نهر الفولغا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختلفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المرعبة، المتمشون على عادات تقز منها النفس، الزارعون الحريق في كل مكان . قضوا على مملكة ألاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطردوا نحوا ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور.فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املاً منه بالاستفادة من رجالهم. ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧، ومع ان عدد محاربيهم لم يجاوز الـ ١٠٠٠٠ ، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على جثته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قد نقلوا الخراب الى الارياف . فلم ير ثيودوسيوس بُداً ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابعدت اسوأ الاخطار، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته، وباغداق الوعود عليهم بالخدمات، وبالسماح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلا ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراصاً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . ويمكننا هنا ان نستعيد تعبيراً

(١) فالاوستروقوط لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين. وكذلك « الفيزيقوط » هم « القوط المتعقلون ».

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانيـة كامبراطورية العالم المتوسطي .

المجوم الشامل

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّدت لقوة الامبراطورية ونفوذها قد دفعت باعدائها الآخرين الى التمادي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا الى الهجوم في كل مكان بعزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهـذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الايزوريون في آسيا، والاسماعيليون في الصحراء العربية والبليميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون من جبالهم ، مستغلين البلبلة التي اوجدهـا الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستار الهرطقة الدوناطية(نسبة لدوناط اسقف قرطاجة) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والايرلنديون من هجماتهم على الحاميـة العسكرية الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هدريانوس ؛ ثم جاء السكسون عـن طريق البحر الشمالي؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المغتصبين فرق الجيش وراءه الى غاليا، فأخليت الجزيرة التي لم يبق فيها، في السنة ٤٤٩ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر السيطرة الرومانيـة .

ما كان كل هذا، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الحنطة الى روما، ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية . فالبرابرة، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا. فحدث ان قاومهم اسلافهم ، ولكنهم توفقوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ، متلفقين بالدسائس ابـداً ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال المنافسات بين الزعماء والزمر والشعوب .

ستوفق القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابـداء مقاومة اجدى . ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه: بعد وفاة ثيودوسيوس، اجتاز الفيزيقوط « الاريك » تراقيا واليونان حتى البلوبونيز. فلنصغ الى الاحصاءات المحزنة التي ذكرها القديس ايرونيموس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . فبلدان سكيتيا (بلاد القز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا[1] وتساليا واخيا والابير ودلماتيا والبانونيتان

(١) تراقي ولاية سكيتيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها على ولايات جديدة جنوبي الدانوب تراقي ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من صربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارماط والآلين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحوهـا ومزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحوّل اليه الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص فبلغوها بعد ان داروا حول الادرياتيك . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخـل « الاريك » روما ، التي كانت تحت رحمته طيلة السنتين السابقتين، وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبقوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك، المستقر في قرطاجة ، الى روما التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

الفوضى

لنقف هنا في عجالتنا الخاطفة هذه: فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هـذا الكتاب تتبع تطورها وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال رومـا نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد أذهـل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هـذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك – لا يستطع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى غالا بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس، التي تزوج منها صهرها وخلفها اتهولف بعد سنوات ، بأبهة عظمة في ناربونا – ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحيها اليوم هي تلك التي ادلى بها القديس ايرونيموس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المحرزة على العالم بأسره، ستنهار يوماً ؟» ولكن في هذا التهويل بعض السذاجة ، اذ ان شيبيون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب الصواب الدهشة التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهوينا وصفه بالعظيم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء،بل مجرد عرَض في مركّب ابتدأ قبل ذلك بكثير ، وسيمتد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الاندراس بالذات هما من عناوين مجد رومـا ايضاً ؟ فلم يقتض لهدم مـا شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها منتشرة في عالم اصبح سكانه ابناءها ايضاً: وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلاّبون عنوة . قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يمسي هؤلاء البرابرة ابناءها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد بإخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحت ، حتى بعد سقوطها، الاحترام العدد الاكبر منهم فتركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساغة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لعمري ، لانهـا لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقـــاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ ـ الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يحملانا على اهمال الصعوبات الداخلية التي بلبلت جهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلته شلاً احياناً . كان القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منهـــا على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من الهموم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تقدمها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ ـ انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّ اليها الحروب الاهليـــة ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاغتصابات، تلك الامراض المزمنة في العهد الامبراطوري الذي لم يتوصل قط ، طيلة مدّته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجهوده ، آنذاك وقبل ذاك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، وببعض الفعّاليـــة اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بغية سدّ هذا النقص .

الظروف العامة

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي لقنتها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدّر لبعض هـــذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريعي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الخاضع نفسه لكل تقلب مفاجىء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأمسى السعي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة القائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّى لم تمنع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخليص حياتـه بحمل أنصاره على المناداة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشايات من تجنّ وافتراء ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المغتصب قبل مرور شهر على المناداة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حدّ ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجمت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضي عليـه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسنح فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر التغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابـه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر : فهناك سابقةمارك اوريل ولوسيوس فيروس (*Lucius Vérus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .

كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغرياً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلالي . فمنذ ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة أبيه طريقة دارجة جداً لأنهـا تحول دون شغور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هـذه الطريقة أكثر مرّة غير مكتفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فـان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » محتفظاً لنفسه بالحبرية العظمى دون شراكة وبالنفوذ الذي يوليه اياه فارق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجر العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة أبيه ، سناً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونيلين، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدر » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، اللجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثـاني ، التي ألجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بغية تأمين المهام الحكومية ، لا سيا العسكريةمنها، والتي نزعت مع ذلـك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلالية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفاقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبتلك السابقة أخرى ، لا بـل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة – فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبسيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس – بل هي جديدة على كل حال بحدة المنازعات التي أثارتها ، اعني بهـا تلك الناجمة عن امبراطور يترك عدة أبنـاء لا يفصل بينهم أي فارق كبير سناً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلّفها الافتقار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً منّ الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس الرباعي

قد يكون من الممل حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ ان اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحهما بالتساوي الالقاب نفسها والسلطات عينها بما فيها الحبرية العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل اذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال ـ دامت أربع سنوات ـ وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، اذ انها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التترارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . فمنذ قرن ، فسّرها يعقوب بوركارت ، بأنها نظرية عالم ،ربما انتسب الى « اسرة سييّس Sieyès » على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وبتعديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضع هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد ، يكون أحدهما ، رسمياً ، شقيقاً للآخر ، ويكون لهما الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي « الأقوى » و « الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصران » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي — فقد أقصي بعض الابناء — وتبناه حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية ارغام « اخيه » مكسيميانوس على احترامه ، ومتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر باعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استلزم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقله بين الامبراطورين. وقد أهمل بعض العواطف الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الابناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، ويأس الابناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختبار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد ،

قبل ان تدركه المنية في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه وتخلي المسؤولين عنه نهائياً . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المرابط في بريطانيا، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالمناداة بابن الفقيد ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرقي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

حل قسطنطين المتزعزع

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجاباً ، فمعنى ذلك انه كان ، قبل الميروفنجيين *Mérovingiens* والكارولنجيين *Carolingiens* ، بزمن بعيد ، اول من ذهب حتى الحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإرث عادي . ولكن ذلك يعني اما تصديع الدولة واما الالقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بامكان وجود مثل هذا العمه عند ذاك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بنا، من ثم، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيق . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

حكم الجماعة في استمرار الوحدة

لنضع حداً لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي تحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد . فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجوليانوس و جوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الا عملياً ، لا قانونياً ، اذ ان اخوين ، هما ابنا الإمبراطور ، قد حملا حينذاك لقب امبراطور ايضاً . لمدة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يجدر بنا ان لا نخطىء في فهم هذا الواقع : فالمقصود شراكة وجمعية لا تقسيم اقليمي ، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظرياً مع ان كل امبراطور ، سواء عين

معه قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه . ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه ، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقـــاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقـــد تكرس هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مهما تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكير » اودواكر (ابن اتيلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربعاً على عرشها الايزوري تاراسيكوديسا باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في ايطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع : وهذه المزاعم هي التي سيستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع » ، وهو موضوع تغن دائم ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضر تعدّد الاباطرة بالامبراطورية . وكان عجيباً ان يسود الاتفاق فيا بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطـات والاجهزة المركزية . وقد اصطدم تصميم الملوك على الاتفـاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشتى بوادر البطء او اقله بانانية مستشاريهم ودوائرهم وحتى الاهالي انفسهم . اضف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهقر أو ارتدى طابع السرعـــة بفعل الجهل أو الحماسة : فان فالنس مثلاً ، رغبـــة منه في احراز النصر منفرداً ، قـد هاجم القوط امـــام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهـــاً لنجدته . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي الجأته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

الفكرة السلاليـــة وفشل الاغتصابات

هنالك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلالية . لم يعرف القرن الرابع ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينية ، ترك القرن الخامس سلالة ثيودوسية . أجل لم تكن الجدة في اشراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمنـاً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر بابناء اخوته ، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائليـــة من القوة ما حملهم على ايجاد رابطة زواجيـــة بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره زوّجه ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابداً . فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاغتيالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضاً ثورات واغتصابات رافقهـا اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ماجرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المغتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم الجيشان . وهو الثائر الوحيد في ذاك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتاؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن نجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلالة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة. ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنذ نشأة الامبراطورية لم يقدّر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل – ثلاثة او اربعة – الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري. فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويحوز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

استمرار داء الامبراطورية المزمن

ومع ذلك ، فمها يكن من ضآلة عدد الاضطرابات بالنسبة لمقتضيات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويعرضنا اهمالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تستهدها الامبراطورية للدفاع عنها. وقد عرفت الامبراطورية ايضاً مذابح الحروب الاهلية وشدّة وطأتها بالاضافة الى ما عرفته من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حوّلت الجنود ابداً عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها: فأدت كل حرب اهلية الى تجسيم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يقم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزناً فوق حزن في نفوسهم .

٢ - النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وحدها ، امام هذه الاحزان، ان توفر التعزية والسلوان. وسنبين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

قد ساندت الانطلاقة التي أحيت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الاخرى، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

السلم الديني وانتشار الديانة المسيحية في اواخر القرن الثالث

اذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين، فان هـذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٢٦٠ وعرفت الديانة المسيحية حينذاك اربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منها افادة كبيرة .

ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودهـا أو انتشارها العلنيين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع : فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد اوريليانوس انطاكيـة من التدمريين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة اولئك الذين يؤيدهم أساقفة رومـا وايطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علائق بولس بزنوبيا ، كان لها أثرها في القرار الامبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مـع ذلك ، اثباتـاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يعكره طيلة النصف الاول من ولاية ديوكليسيانوس. فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الامبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون اكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيا في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبـة في الاختصار نقول ان افسيفيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكنسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المطوفة التي يرسمها حينذاك عن علائق المسيحيين بالمجتمع العلماني تبدو ، في خطوطها الكبرى ، منطبقة على الواقع .

اضطهاد ديوكليسيانوس

وفجأة ، تبدل كل شيء .

فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليلـه الخاص . فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقـل والمنطق هو ذاك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظـام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيـا : كإقدام بعض الجندين الجدد او القدماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيـام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت الهرطقة المونتانية ، التي رأى رأيها ترتوليانوس *Tertullien* الافريقي في البداية ، تلبث فروعـاً على الرغم من حكم الكنيسـة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في اعادة الوحـدة

لنظام الادبيين بمثل الشدة التي اعاد بها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً ،
تليد المسيحي ، تأثر بالحاح قيصره غاليريوس ، الوثني النشيط ، وبآراء العرافين . ولد
سطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلاً منها يقابله
ر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حل منطقي. ولكن الامبراطورة
رف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .

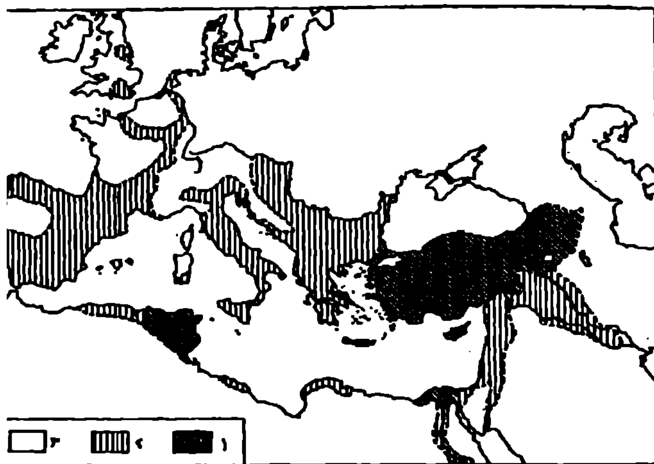

الشكل ٢١ ـ النصرانية في اواخر القرن الثالث
١ ـ مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ ـ مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ ـ مناطق
لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧
اشمت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للملكة الساسانية ، أي من اراض عدو
، البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقواهم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم
قت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المغتصب
نت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف الشفقة
ا . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تد
ة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفها . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير الج
يوش والادارات واقصاء الذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسيم . فتعاقب

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسيانوس وغاليريوس فيه . اقتصر المرسوم الاول على حظر الاجتماعات واقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واتلافهـــا . ثم أرغم العلمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبـل ذلك بخمسين سنة ، على تقديم الذبيحـة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أقسى الاضطهادات شدّة . ومهما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدته قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عددالمسيحيين الذي زاد من المخالطات في الحياة العامة، لم تتفجر الاحقاد الشعبيةانفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بغية ارغام الموظفين والقضاة على استعمال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي لميول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة التعليمات المتفاوتة شدّة التي يتلقونها . وقد صدرت هـذه التعليمات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غاليا وبريطانيا المرتبطتين « بكونستانس كلور » ، أرفق بالاشخاص وأسيء الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضهـا احترام سلطة ديوكليسيانوس : ومال كونستانس شخصياً الى التساهل لا سيا وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشتد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة ٣١٣ وتجدّد حوالي السنة ٣٢٠ ولم ينته إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

تمرّ قسطنطين : اقتناع ومصلحة

اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيّد فرد، سيد مسيحي هذه المرة . هكذا انتهى – بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً – العهـد المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتديها هذه الأحداث وهـذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقـد أثارت هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهّل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبيـة المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اضف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بـين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الخرافات بالتفضيل على العنادية . ومع ذلـك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتعذّر معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطرا على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم نتوصل الى الوقوف على سر كل نفس على حدة . ولنضف هنا ان كلا منهم قد استند الى اقليم وطمح الى أقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة ثانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة لسير وراء منافس، او على حيادها، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحي وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلابة . ويعترينا الخجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدّم ، الا بالمجاز هزلي ، اهم قضية تنجم عنها: قضية ارتداد ، أو بالاحرى ، تنصر قسطنطين. فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد، في الارجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقا من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للمسكوكات، حول تاريخ هذا الارتداد، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته. يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شنها على مكسانس ، على ضفة التيبر اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشمال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت١(اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحيا مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فان غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اي اقتناع، انتهازية سياسية مدروسة. وهنالك ، بين هذين الحلين المتطرفين، حلول اخرى كثيرة لن نتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان تنكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بانه انما يخلّص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثني عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الارتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، وبقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تساهل وامتيازات

مهما يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير الاضطهادات في اتجاه آخر ؟

تمشى قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد. وقد اضطر غاليريوس نفسه، عدوّ النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلّم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حلمنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم، حتى تنعم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة » . ولم تلغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣، قبل ان يصطدم ليسينيوس« بمكسيمينوس دايا »، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكتتنا ان نحفظ لها ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعاً لخير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه». ولم يضف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره، حين اعلن، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل » .

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمري ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يُقصد كذلك سوى ايجاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشييد الكنائس الجديدة ، واعفاء الاكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تمتع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تعدّل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العقوبات القانونيـــة التي اصابت منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، العازبين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك. فان بعض الذبائح على الاقل – ونحن لا نعرف اياً منها – قد حرّمت. وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظّر القيام فيه باي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذلك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حق السلطة القضائيـــة على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفاء قسطنطين رضى

الطرفين وان الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الأمس القريب ديناً محرماً .

نهاية الوثنية

ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة قسطنطين . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثريته ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تعتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات الجليلة التي تمتلك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدّر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدّل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في المجيء وزال بسرعة . وارتسمت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني للمسيحي في المغتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اربوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت «الريح الشمالية» بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف « النهر البارد[1] » ووضعت حداً لردّة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذ فالمرة الثانية كانت الغلبة « للجليلي » بتوجيهه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارسي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ، فارتدّ ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرّتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ومارسها في ايام المغتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد فتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين. وبديهي ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي ، وبحسب الظروف احياناً . فماد بعضهم الى فكرة التساهل: فأشهرها فالنتينيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنّاه في السنة ٣٦٤ وجدّداه بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلباً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها تكاثر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاتفي الغيب للمتآمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

---

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد روافد الـ « ايسونزو » .

عن حله حين اعتلائه العرش : فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثنية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية . وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنصوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور ؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق ؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢ ، ولم يظهر مرة اخرى ، ولفترة قصيرة ، على الرغم من الاعتراضات المتكررة ، إلا في عهد اوجانيوس . ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته ، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية .

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحريم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي الغيب والعرافين وزيارة المعابد ، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً . ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التحريمات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كمظاهر الايمان الفردي. فسلت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت، تحت طائلة عقوبة الموت ، بالكف عن « الاحتفال بالذبائح » ، و « عبادة الاصنام » ، و « الدخول الى المعابد » . كانت هذه التدابير سابقة لأوانها ، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين. ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت٢ (نوفمبر) من السنة ٣٩٢، قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة ، ولو لم ترافقه الذبائح ، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة . فقضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس .

الكنيسة والدولة

فلا ريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية التي ما كانت ، لولا هذه المساندة ، لتنتصر بمثل هذه السرعة . وهل كان من المقدر ان تنتصر يا ترى ؟ ان هذا الاعتقاد لجائز . اما تبيانه فأمر آخر ، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة. وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة ، في النتيجة ، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة . فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية : وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية . اضف الى ذلك انها ، من حيث علاقاتها بالدولة ، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة « السلطة المدنية » على المراطقة والحصول على هذه المساعدة : ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون افلاتها من قبضة رضيت بها في السابق ؛ ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة .

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة ، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل . فقد رغبت الدولة ، بشخص قسطنطين ، في توطيد سلطتها ، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها ، في أجل قريب ، انتصار ايمان يحلّ محل الوثنية الحائرة ، فأقله بالعضد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعياً وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنها حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي ايضاً بعض استقلالها . وقد سبقت الاشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بل لنصائح ايضاً قد يثبت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في جزرة تسالونيكي التي أدّت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس لأشهر مثل عن هذه الحوادث التي نرجح انها لم تكن مكدّرة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، امراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد فوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا، طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفل بالقداس ، بحضوره ، قبل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً : فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والملغاة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيّد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يثيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان لمنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

الدولة والهرطقات

على ان ذلك لم يعد ، على الفور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كان قسطنطين ، بعد ان جعل من الكنيسة نصيراً له، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الأجساد ؛ ويجب بالتالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً في فترة قيام مشادّات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الأساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بمزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنها بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدّتها الخاصمات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فأفضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاجة . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناطي نسبة لباعثه الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيا في نوميديا ، متعهداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنته وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمراً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على المجادلات الكبرى حول المسيح التي يجدر بنا ان نعود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كان ليسينيوس حاكماً في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . القي عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في المجادلة موضحاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعيت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة، وحين استولى قسطنطين على الشرق بعد انتصاره على ليسينيوس، علم واجماً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة.

امام هاتين المشادتين، راى قسطنطين التدخل ضرورياً لا سيما وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى المجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : مجمع « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناطية ؛ ومجمع نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كان مستشاره الاول هوسيوس اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولمس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفى آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقة لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فمنى طوعاً او قبل باعادة النظر فيها، واصغى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حمله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناطيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومنذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحدث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قوية ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اتناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعادة الاعتبار هذه، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد بتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام ، وقد جرّ ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تمليه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا عادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضّر وتراقب وتوجه بكل عناية . وزغبت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة . فاستفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . ومما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناطية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن اكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلموا بتخفيف أعمال القمع . أضف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسّد استياء وهياج الريفيين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبت الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشادات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساوىء المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عملياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطدمت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثناسيوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كونستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخراً ؛ وفالنس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارملة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في ألليريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها يتعذر درس تطوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الاباطرة الشركاء أو بين الاباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيد السياسي احياناً فرافقتها تبدلات وحوادث لا يحصى لها عد . ويكفينا لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها ممن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثناسيوس، الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدركه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجوليانوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق. ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكيين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء — وعددهم كبير — قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اولفيلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فمنذ قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهراطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأتهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باسترذالهم، مضيفاً : « ان الرب سيثأر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع بوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهـــذا العمل بتشبيههم بالمانويين ، الملاحقين بكل شدة منذ دير كليسيانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين، بين الهراطقة المسيحيين المثبتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل البريسيلانيين ، ولكن احتجاجه لم يلق اذناً صاغية. فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائجه القصوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انهـــا ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكيّة المطلَقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمّم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في القصد ولا في الواقع. شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيما الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض التحول. أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم وراءه. فما هو شأن مدى التطور اللازم للحياة، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدّل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكية الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

أسباب تحول الدولة

سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك هذه الطريق ، كما رأينا، بدافع الميل أو اللذة، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل مبتغاه ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولممثليها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، يبذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد آثر ، بسبب افتقاره الى الرجال، أي الى الموظفين الأكفاء، عدم الاهتمام بالشؤون الصغرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيما الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعنينا قد

فرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره العظيم ، فان الضرورات التقنية كان لها أثرها ايضاً . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، عملياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تعقيده وتكاثرت اجزاؤه باطراد ايضاً .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبيــة ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فان التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول، قد جرّ النفوس الى حيث اجتذبتها الوقائع ايضاً . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافةمظاهر حياة ونشاطالرعايا، انلم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفراعنةوالبطالسة . وجاءت من الشرق ايضاً مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالَب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده علىان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناهالحصري . وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كان مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان الشرق أثره البعيد عن طريق الأباطرة أنفسهم ولنساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذة السوابق وهـــذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كاملهدّدتوجودها بالخطر أزمة فريدة، ولم يحل تغلبها عليها دونالاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود،وفي قلبالاراضي الامبراطورية احياناً.وهناك،في الداخل،الاغتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضاً ، العجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامن في المدن التي كانتحتى ذاك الحينمراكز اولى للحضارة. لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم. اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهـد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنها بنخ غدا مستحيلاً .

١ ـ اموال الـــدولة

يتوجب علينا، انطلاقاً من هذه الملاحظة، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها. سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال امامنا المطالب التي لا مفر من تسميتهـــا

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النقد .

النفقــات

جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد الجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحـاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضمـانة ضرورية ضد ارتفاع الاسعار، وظرف مؤات، كما لا يخفى، لتبذير وخسارة تثقل وطأتها بالنتيجة على المكلفين . اضف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او لغيرهـا ، يتطلب تعهـداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرقات ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فالاباطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة اباطرة في اغلب الاحيان ، فهنالك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، ممـا يؤدي الى تشييد وتعهد قصر لكل منهم . انفق قسطنطين اموالاً طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة؛ وقد اسرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكتف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، واقر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تفقد الالعاب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد

اقتضى من ثم زيادة المجهود الجبائي . اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي . ولكن كركلا منح المواطنية الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دونما اهتمام للامتيازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمّس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما اصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هـذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيا وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة العقارية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً . يجري لهذه الغاية مرّة كل خمسة عشر سنة، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للانتاج الريفي ، أي الاراضي والاشجار والمواشي واليــد العاملة ، وتـُرَدّ ، بالاستناد الى معدّلات عدّده بحسب جلس الاشخاص ، وطبيعة المواشي ، والاقليم ، ونوع التربة ، والمزروعات ، الى عـــدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي « النير » ، او « الرأس » كما درجت تسميتها. تقف الادارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيعها بين الولايات والمناطق والملاكين . ويكفيها من ثم ان تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً ، بصورة آلية ، الفريضة المطلوبة من كل مكلّف .

تجبى الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً: وتتشعب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة الى مداخيل نقدية ايضاً، ولا يمكن ، من جهة ثانية ، ان تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان . لذلك أبقي على بعض الضرائب غير المباشرة ، المحدودة الدخل ، على الرغم من ارتفاع معدلها . ولذلك ، خصوصاً ، أحدث قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً او فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية . وفرض على أعضاء الطبقة الجلسية ، وجلّهم من الملاكين الاثرياء ، ان يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً اضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم. ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبــة « ذهب التاج » : والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد ؛ ولكن فالنتينيانوس نزع عنها الطابع الاختياري دون ان يجعلها دائمة على كل حال . وكان على التجار ، والصناعيين ، والبغيات أنفسهن ، والفلاحين الذين يقصدون المدينـــة لبيع محاصيلهم ، ان يدفعوا ، ذهباً وفضة ، مرة كل أربع سنوات ، رسماً نجهل معدله .

تضاف الى كل ذلك ايرادات ممتلكات الدولة وممتلكات الامبراطور الخاصة ، وقد ميز بينهما سبتيموس ساويروس . ان هذه الممتلكات ، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق ، قد ازداد اتساعها بفعل المصادرات التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث . ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع ايضاً ، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن ، ولم تتنازل لهذه المدن اخيراً إلا عن ثلث ايرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها . وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً . وعاش البلاط ، اجالاً ، من مداخيـــل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها الى القيّمين . بينما سلمت الادارة الممتلكات الاخرى الى بعض الملتزمين .

التسخير

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثـــاني بما فرضه على الافراد من خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون ان تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا . وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ « السخرة » ، وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera* . وكان لهذا التعبير ، منذ البدء البعيد ،

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى التي تستلزمها ، مع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسايفين » التي يقدمها الشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الراجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيرة او مجـــداً باطلا . وتجدر الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار المخضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او الميسورين .

تتنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تتنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية وثروتهم ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة بهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها تحدد تاريخ ظهور كل منها وتتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنيتها والطرق والجسور ،وتلزم بتقديم الزوامل وحيوانات الجر تأميناً لخدمةالبريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقل تقدم الادارة . ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً : كاستئجار الأملاك العامةالتي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية باسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضيعة جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً — وهـــذا اثقل تسخير — جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايراداها .

النواقص

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلا ومفهوماً ؛ لم توحـــه اية فكرة نظرية ، بل الحاجـة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكثرية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ،أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبـــل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الا جزئيا. فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد افضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستياء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة الجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نلمس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مراء في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعـــاً اكثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى ! فهناك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمنة.

وقد اعترض لاكتانس بقحة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرفتها في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطر في مدار السنة لزيادة رسم اضافي على الضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدس المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لموظفيها ، اقله لصغار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

تثبت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بتتبع تقلبات مطرحها . اضف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يتسع أي اعفاء وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهنالك اعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذاك، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الى جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة. فتزداد من ثم أعباء الجيران ازدياداً مرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمسك بمطالبها من كل مدينة وتتجه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي ألغت الاجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديد غيرها ، اوكلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، لخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجرأة على التخلص من عاداتها المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الاكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتيليانوس الاول قد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً ، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها : فألقيت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم ، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهيار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

المخاطط المدينة

ويقودنا ذلك ، عن طريق اموال الدولة – ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم الجبائي – الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بادارة الشؤون المحلية ، بل « قواد عشرة » ، « مرغمون » ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين الجانبيين المقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي اطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزوالها، عنصر مقوم جوهري من عناصر الحضارة التي تباهى بها العالم المتوسطي، ذاك العنصر الذي تعلق به الناس اما تعلق بسبب قربه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حملت الاباطرة على توسيع جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيّراً بالنسبة للمدن – لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كافريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى « قواعد الولايات » في مصر وباعطاء الاسكندرية الـ « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تنهض اكثرية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكمشت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صفروا من المال ، ومع ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانها يؤلفون الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكان ، فهنالك العائلة (*Curie*) والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو استعادته، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يدأ سخية امام الجماعة. اما في المدن الاخرى فليست هذه المراكز سوى ضرب من« التسخير ». فغدت وظيفة ممثل العائلة –الذي أخذ اسمه يحل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما من فوارق – واجباً تفرضه الدولة على كل من يملك حداً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق، مقتصرين هنا على المظهر الاداري. فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة. ولا تتعهد الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم. فان الوصي (*Curateur*) نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق،تنتخبه اليوم عائلته انتخابا . ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون العقوبات اذا لم ينفذوها . فالابقاء الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على التكرس لخدمة الجماعة المحلية والدولة، ليس بالمجان فحسب، بل بالمجازفة بالثروة ايضاً. فهم ملزمون، على الرغم من كل العراقيل، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن، والعناية بالابنية والشوارع ، والتموين ، والاعياد ، الخ . ، وتلبية الأوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب، وجمع المجندين، وتنفيذ اعمال« التسخير »المختلفة. فهل ما يدهش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامي المدينة » الذي لن يلبث ان يمسي واحداً منهم ؟

بدء اغتصابات الاملاك الكبري

تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقيها سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد بأية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (« المستعمر ») بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك الحيلولة دون فرار اليد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالاثرياء يوزعون ويحصون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصة الضرائب . ولما كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بايديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينيهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لاول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمعها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

البيروقراطية

بيد ان كل ذلك ليس سوى تباشير تطوّرا سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وان أجهزة الدولة، على نقيض ذلك، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة.

فالمركزية، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » التي تضع امام امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية، الشرقي والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دقيقة واحدة في النموّ المظم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركزية . فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نوائب الدهر بعد اليوم باهمالها . اضف الى ذلك ان تقسم العمل غدا ، الى حدّ ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية . واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نلمس هذه الزيادة في عدد صغار الموظفين في المكاتب ايضاً: في اواخر القرن الرابع، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم؛ ولكل نائب ٣٠٠؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صغار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزّعوا فرقاً فرقاً ، لا بل سجلوا اسمياً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة العامة ، في حدّ ذاتها ، *Militia* أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، ولقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية . لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية.

هذا واقع لا شك فيه، ولا أبسط منه ايضاً. ولكن ما هو جوهري ، على استحالة تحقيقه، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فللوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللدسيسة ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرّر ، حتى عند ملء المراكز الرفيعة، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هـذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدام جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعّالية هذا الجهاز. لما هي الأهمية التي يجدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلمّس وتردد، ولم تنظر الطبقـات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرنا عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستائين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

الولايات

ما زال اسم « الولاية » قائماً ، ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطارها التاريخي، وهي مغامرة مملة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتـة على كل حال . لم يعد هنالك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسّمت منذ ديوكليسيانوس الى دوائر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هـذا الاسم الذي قد يثير التزق والانفصال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، مـن قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . وتجزأت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ، وتخفيفاً من العبء الملقى على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكليسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هـذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة تيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غريبة ، يحملون لقب « بروقنصل » القديم : وهؤلاء هم ، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليهما ، احتراماً

لماضي اليونان ، حاكم آخيا . ويقسم الآخرون ثلاث فئات . ولكن أهمية هذه التمييزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قربهم من الرئيس او بعدهم عنه ، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القدماء لو لم يتعاظم دورهم القضائي في أعقاب انحطاط المدن : فدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السلطة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تفض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاغرب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أمجاد » التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء رونقها . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الحظوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً احياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثارة النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق تقدمة تاج ذهبي للامبراطور اركاديوس والتماس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها . وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حدّ أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد تحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

الابرشيات والوكلاء

لم يكن بمكنة حكام الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً بالحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « الابرشية » اسندت السلطة فيها الى وكيل قائد حرس القيصر . كان عدد الابرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى . بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى بروقنصل لم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشيتين ، احداهما النصف الجنوبي والثانية القسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف » وفيينا مقر الوكيلين ؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه الابرشيات جمعيات على نمط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استئنافية . واستفاد « كونت الشرق » ، وهو وكيل الابرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد

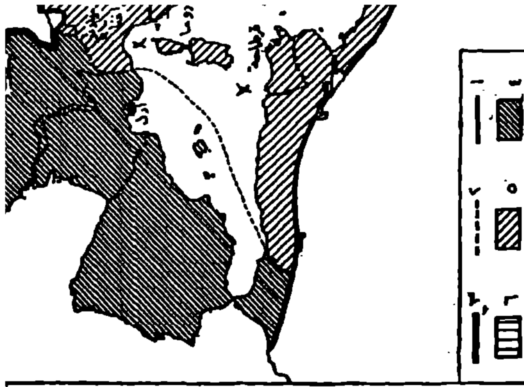

الشكل ٢٢ - الابرشات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٥ .

١ - حدود الامبراطورية؛ ٢ - حدود الابرشية؛ ٣ - الحدالفاصل بين شطري الامبر
غربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٥ ؛ ٤ - قيادة حرس غاليا ؛ ٥ - قيادة حر
٦ - قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابرشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام. كانوا يراسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لاضعاف قيـادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهـاز للتحويل ، وما عتمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمـه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

قيادة حرس القصر

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهـد الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيـادة فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لا سيما منذ القرن الثالث ، بفضل اشرافهم على تموين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً. ، مع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان النظام الرباعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ، بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدأ التجزئة الجغرافية قد سيطر في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والغموض امران غير نادرين ، ومرد ذلك الى اختلاف عدد الاباطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيـان ثلاث قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لايطاليا وافريقيا والمناطق الباقية من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . امـا المعضلة ، التي برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم الامبراطورية الى شطرين بفضل ازدواجية الاباطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات. وقد طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان الغى قسطنطين فرق حرس القصر ، الغى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العـام والتعلم والتسعير والمحافظة على النظام بصورة عامة ، الخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة صلاحيات هامة جداً؛على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانةقائد الشرق الغالي روفينوس الايلوزي – من بلدة ايوز في مقاطعة الأكيتين –؛ وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة ٣٩٥ . وروفين هـذا هو الذي عرف كيف يسوّي قضية تسالونيكي بالاتفاق مع القديس امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف – نقل هذا المركز الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع – فقد اشرفوا على التشريع واقترحوا كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيروا الادارة.، ومارسوا سلطة قضائيـة تمييزية اصدروا بموجبها احكاماًمبرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، اشبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قائدين .

العاصمتان روما والقسطنطينية

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقي فيها على الاسماء القديمة ، الخلافات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويصح القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها بروزاً على جانب اقوى .

يجب الا نخطىء في صيغة الجمع هذه: العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء ولفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه ممضياً ايامه في تريف ، أو ميلانو – ولن يلبث ان يمضيها في رافنّا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها – أو سيرميوم (ميتروفتزا الحالية على نهر الساف) الخ. ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانيـة ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المعاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرتا النوميدية التي رممت وأطلق عليها اسم قسطنطينة . وليس باستطاعة احـد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربه من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينما تقرر اختيـار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً. فقـد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتساماً عميقاً بالطابع الوثني : ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان تواري الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيـام بكافة الطقوس الوثنية المعدّة للتأسيس ، ثم التدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشييد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قـد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : لما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باتت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قـد حقق منها ما هو جوهري : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشتركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقـد آثر الامبراطور نفسه الاقامة فيها على الاقامة في روما. فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠ يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعها ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين؛ ولكننا لا نرى، على كل حال، الى جانب القسطنطينية، مدناً توازي ميلانو ورافنا.

الرواسب الشرقية في العواصم

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة، كما ان القسطنطينية مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هذه الانظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في العهود السابقة ، أي خاضع لسلّم المراتب وفاقاً للوظائف التي يمارسها القضاة او يسندها الامبراطور اليهم اسمياً. اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني. وقد بقي، لمدة طويلة، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هذا الجلوس . الى هذه البادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثبيته، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزانة باستثناء الصندوق البلدي؛ وليس من ضرب نقود؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانيها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاء الجمهورية القديمة، على نقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على اهمية اثره في الحصول على الوظائف العامة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلّم الامجاد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعياً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترفيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعواصم. فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة، لم يبق هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواه . وفي حال تعدد الاباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبة في تلافي الخاصمات ، قرّ الرأي منذ السنة ٣٩٦ ، اذ كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قر الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير ان هذا المنصب لم يبق له من امتياز سوى تنظيم الالعاب العامة. ولما كان الامبراطور ينفق عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة. فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط بابهة عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الاخرى ، سوى وزارتي المالية والمدلية . وهما قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العدلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعاب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هذه الوزارة . فانتهوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات:حين عين ابن سيمناكوس وزيراً للعدلية، اقيمت العاب استمرت سبعة ايام واستلزمت نفقات باهظة ، مع ان البذخ فيها كان عادياً – انفق آخرون ضعف ما انفقه عليها ، اي ما يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ – غير ان الوقت قد توفر لسيمناكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والألاهي . اما بالمقابلة فالصلاحيات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة الجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في روما في العهد الامبراطوري الاول، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع. فهو يمثل الامبراطور الذي يعينه ، وكثيراً ما يستبدله . يرئس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والملحقات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سيما في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيمناكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوئام .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين، بفعل التوزيع الجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذها ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومهما يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ ـ الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي

اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها تنفيذاً افضل ، أساليب مركزية ضيقة ، تنظيم حكومي قوي . لم يخل العهد الامبراطوري الثاني من هـذا التنظيم . لا بل يلفت النظر انه توصل ، على الرغم من قصره ، الى تحقيق تنظيم بمثل هذه القوة ، وبمثل هـذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ، ان لم يكن بصدد الرجال . وقـد توصل ، في بعض المواضيع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاشاة في أكثر الاحيان. ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تتسم به دولة في طور التكون، كما حدث في العهـد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تفسح مكاناً كبيراً لأهواء الامبراطور الشخصية والتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنبها يستلزم ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما بيننا ، مصاعب أخرى ايضاً : تعدّد الاباطرة أولاً ، وتبدّل عددهم ثانياً وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثـة تقسيماً او دمجاً بحسب التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت الامبراطورية بموجبه الى شرق وغرب . ومهما يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وطّده وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، ولذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلـك ، فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

الكونتية

ان التقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي يعكسها لقب الـ *Comes* ، أي « الرفيق » الذي اشتقت منه كلمة « كونت » كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هـذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال ، بمنحه موظفين او كلت اليهم في البداية مهمات خاصة تخـل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان يفرط في توزيعه ، فيحتذي حذوه خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، — سبق وأشرنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي ، فانه قد أصبح سمة تزيينية قبل كل شيء آخر استلزمت احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتيـة يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية . كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس التنظيم الحربي عنـد البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً ايضاً ان تكون هذه المثل حنيناً الى العادات والاعراف الهلينية والرومانيـة على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسـان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلا سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الالقاب البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصرت الـ « معية » التي كانت لها الغلبة بعد ذلـك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، عـلى استخدام مفرداتها.

الجمع والمصالح الكبرى

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها، اجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هـــذا القبيل ، موروثاً عن العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ، واقع راهن .

يطلق على «مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع، اسم « الموقف » (الجمع) اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية القصر » . يدرس شتى الشؤون ، ويشترك كبار رؤساء المصالح في جلسـاته . وللموقف ، بالاضافة الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتـــالي وظيفة على بعض الاهميـــة . ويدير الخزانة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة » و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرئس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاظم اهميته باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس «موظفي الشؤون» ايضاً ، الذين يمارسون، بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اتهامياً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويجدر بنا ايضاً ان نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير مالية القصر» مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز . وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف يستثمرون طاقاتها : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها . ولكن السبب الرئيسي، في الارجح، هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسموا السلطة بين مساعديهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة . ولنشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « فسيد الدوائر» هو من يرئس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن «الحامين» رئيساً خاصاً هو «كونت المنزليين» ، كما ان « اسياد الجنود » يرئسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد فرضت امثولة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعـد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياد الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان الحظوة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس وافتروبوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيبرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لا صلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم. فهم لا يدينون بهذه السلطة الا لعطف الامبراطور الشخصي ولعدد الزبن ، وحتى القرابات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنــة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنتيه على التوالي. ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطي صلاحياتها الرسمية دور تنسيق ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه.

كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟

دسائس البلاط

قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهــد الامبراطوري الأول — ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين، قد تركت اثراً قوياً في الاخلاق — ولكنه ليس دونه بطانة أو حقلاً خصباً للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس ووالدة كركلا وشقيقتها جوليا ميزا ، وابنتا هذه الأخيرة جوليــا سواميـاس وجوليا ماميّا ، والدتا ايلاغـابال وساويروس اسكندر ، بطموحهن وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، بأكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتاناً وتهيجاً . ومع ذلــك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اوعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلى من عطف الامبراطورة افساقيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملته جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرهـا لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فان « القصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص، « الغرفة المقدسة »، لمن ينتمي اليها، تقرباً شخصياً وحيماً من الامبراطور . فعلى نقيض كافــة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هــذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لا بل كان بينهم شرقيون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم. وعلى الرغم من هــذا الذل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديوس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهـــام الدقيقة وبالدورات التفتيشية وبأكثر من ذلك . تلك حال اقسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس. وتلك خصوصاً حال افتروبوس الذي كان متقدماً في الـسن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلـــك القيام بحملة عسكرية ورفعه الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عرم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو مـــن بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيكت فيه ايضاً مؤامرات مظلمة تقز منها النفس احياناً ، ناهيك عن الوشايات والخيانات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندهم اقرباؤهم او زبنهم .

الامبراطور : الرئيس العسكري

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق. بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع، بمثل هذا الحكم .

فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره. وقد سبق وألمحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب. بيد ان الأمر على خلاف ذلك مـــع الجنود . فالحدث الرئيسي، الفعلي والنظري معاً، الذي يرافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تنادي به امبراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فماذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذاك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدُ احد حملة الاعلام الكلتيين. وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصفق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسهم بالرماح . ظهرت للمرة الاولى في هـــذه المشاهد طقوس بربرية، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الارجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأعرق تقاليد النظام : والجدّة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول بجلوس الامبراطور على العرش. فالموظفون الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بزتهم تستلزم النجاد . والنجاد يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . واذا ما ندر الاحتفال بمواكب المنتصرين ، فان فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلّت محلياً محل هذه المواكب في اعياد الجلوس التي تقام برونق خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى العشرية الثالثة لجلوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

تمثيل الاله

إلا ان الجيش ، الذي هو القوة فحسب ، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكزاً أدبياً خشناً اذا ما اكتفي به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود ، الذين لا ينتخبون باختيارهم ، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذاك الذي أختاره ثيميستيوس « الكائن السماوي » و « رسول السماء » . وحين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائده امبراطوراً بعد النصر ، كان يحيي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الديني ومظهر الامبراطور الإلهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كلمة .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة . ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريق ، ما بلغه قبيل جلوس ديوكليسيانوس . ولنهمل هنا تجاوزات ايلاغابال التي ليست سوى حدث عابر . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني ، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور ممثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس . فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدى فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحلّ الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذاك الذي اعتمده أباطرة القرنين الاولين . اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الالهي » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفيوس » وأطلقه على قيصره ، بينما اختار الامبراطور والقيصر الآخران اسم هرقوليوس . ومعنى هذين الاسمين « ابن جوبتير » و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيّد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آبائهم . فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحظون بالهام وعضد اولئك ، بينما يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد احياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقبت اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتماد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الإلهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل. فقد سلمت النصرانية على الدوام، كما قال القديس بولس ، بأن « لا سلطان إلا من الله » ، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه. ولا يلزم لذلك سوى حد أدنى من التوفيق بين الاتجاهين ، أي إلغاء الابوة الالهية ، واسمي جوبتير وهرقل دون ابدالهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها ، منذ زمن بعيد ، على الكلام عن « الالوهة » و « الإله » بمعناهما الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً لخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمد له الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات

يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيميستيوس وسينيزيوس – الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليمايس في كيرينا حين وجه الى اركاديوس ، في السنة ٣٩٩ ، خطابه « حول الملكية » – او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية ، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات ، في الواقع ، عن تلك التي حددها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح. وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها ، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامبراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد، وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية .

لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل ، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لرعاياه مثل الخير بغية ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله ، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات، وقد سمع كثير منهم للخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل ، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركاديوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك ، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله ، وان تتقيد ، على نقيض ذلك ، بهذه القدوة ، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى ، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور ، على كل حال ، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحي باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبهم التحلي بها . فلنكتف ، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحد الاعلى : « فإلينا نحن الساهرين، نحن آباء الجنس البشري ، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية ، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها ، انفراجاً يؤول الى الخير العام ، بفعل تدابيرنا الاحترازية » . وان في التشريع ، الذي يتميز ، في القرن الرابع ، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية .

بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة ايضاً . عرّف الملك ، في العهد الهليني، بانه «الشريعة الحية»، فرُجع اليه غالباً آنذاك ، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيميستيوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته » . . . لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيميستيوس بهذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مهما يكن من الأمر ، لمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسيوس ، الذي يجول امام المؤمن بالسلاح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عمليا هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

العادات الجارية في الاحتفالات

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه ترافق الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » .

اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني مميز ترمز كلها الى سلطة الملك النظرية واشتراكه في طاقات لا تتوفر البشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الغليان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة استيحاء مثل الملكية الساسانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديو كليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداء . اما نحن فيكفينا ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة .

حلت الكلمة (« سيدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالقاب الامبراطورية ، على اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكان كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمعه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صوره . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يمسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه الملذات الشاقة . فهو يتعاطى القنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المآدب في البلاط حيث تؤدي معاقرة

الخرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنة . ولكن الابهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحرار الارجوان ، ولمعان الذهب والمينـا ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة والجواهر ، بما وصفه سينيزيوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس» ، يأتون من بعيد بالرمل الحاوي الذهب ويذرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه – اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها – يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يجمده على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تزاح في البرهة الأخيرة ، بينما يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجللين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجـارة الكريمـة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفائحها المعدنية المترجرجة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنثورة على الحمائل.. ، والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكماتها المذهبة » ، فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفائقة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الأبهات البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

الحكم المطلق

سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هـذه الابهات بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهـذه الابهات دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هـذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في تمرينها بالدعاوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتعبير نفسه يتلاشى امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغـة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يجسدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته على غيره ، ويدّعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

الفصل الرابع

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابع رئيسية .

هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت على على نفسها تطبيقه ونشره ، بل نزعت ، بتأثير أرسخ المفاهيم قدماً ، وعلى غرار كافة الدول ، الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هـذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحي به لها ، خدمة الضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقيـــة المسيحية ، فلم يؤثر تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي التيار الذي يعبّر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بحاجات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً. وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركتـه السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في البساطة – وهي غاية في البساطة فعلاً – ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط ، كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شنشنة ونهجاً قد تكوّنا ، هما شنشنة ونهج التدخل المستبد اللذان كان الخضوع لهما امراً محتوماً : ان بعض الآلات المتشابكة ، اذا ما اخضعت الحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكليته .

وهنالك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط ، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً . وان في ذلك لعمري مغالطة بـل مغالطات . فواجب الدولة ، وفاقاً للمثاليـــة المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الوضعاء . وتقضي مصلحتها والخطط العام لسياستها المستبدة بالحؤول دون تعاظم قوة الأقوياء القادرين أكثر من غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات نادرة في اضمحلال القسم الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمـة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث . فقد برزت ارستوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ، حفدة جامعي الثروات ابان الاضطرابات ، ولاسيا حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل العطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيا بصدد العلاقات بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيه. فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا .

اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمع خاص ، أعني به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان الكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة تزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجهل الخطر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جدية . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وستمسي مستعدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ - تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقى الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

الوضع النقدي

تتراءى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار الملموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الاباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً.

عاد ديوكليسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤٫٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقت عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١٫٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من ١/١٢ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى ١٣٫٧١ في زمن قسطنطين، و ١٤٫٤ في السنة ٣٧٩، و١٨ في السنة ٤٢٢؛ وسيعود بها جوليانوس، بعد مرور قرن الى ١٤٫٤ . ولكنها تغيرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حمل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذاك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة، وقطع برونزية ايضاً:

بواسطة هذا النقد غطت الخزانة عجزها دونما حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وباستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرنا من البرديات، غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظاتنا فيهـا قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الأمر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل [١] بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد انحصاراً شديداً في العلائق الاقتصادية، على مـا نرجح. ومع ذلك فهي دون ترجيحنا. فالنقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتنزها . ولكنها ، قليلة او كثيرة، كانت نقداً متداولاً، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى: ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي، ولكنها لم تنضب . ومـا ا: دهشتنا أمام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيمناكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعـد فقدان داسيا ، ورافق اقفال المعـابد أو تخصيصها لغاية جديدة مصادرة كنوزها ؛ وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لزاماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفـع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المقايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى. فحين حاصر الاريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين فقدم له ٥٠٠٠ لبرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ لبرة فضة و ٤٠٠٠ قميص حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ لبرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه الفدية ، من جهة ثانية ، بالاضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل لدلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تسويات .

الاسعار : « الحد الاول »

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجـة الحتمية لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحدّ منه في السنة ٣٠١ مع

(١) وهناك من يتكلم عن ٥٠٠٠٠ ، وحتى ٦٦٠٠٠ مرة. نحن نجهل التحديد الصحيح لما عرف بـ « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينـار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت اعجز من ان تضرب نقوداً برواتبية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمدته يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نقوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحدّ الاعلى » وصفاً لوضع مخيف . فهي تذكر بالمصلحة العامة ومصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية، وتعسّف التجار المحتكرين والمضاربين « المصمّمين على الاثراء ، ليس خلال سنوات او أشهر ، ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين يتزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط، مواد غذائية مجموعة في السنوات السابقة » . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة: عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحدّ الأعلى القانوني . ويلي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية، والخامات، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هـذا التعيين تمييزات دقيقة جداً تناولت الكية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاحت مكتشفات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التمييزات وبسبب المقارنة بين الاسعار: وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لعامل ريفي ينفق على مأكـله من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكيلو غرام واحد من لحم العجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لخمسة ليترات من الحنطة. ويكوّن هذا النص أول تجربة تحاوَل في ارض على مثل هذا الاتساع وبنطق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة المجهود ، لا نشعر بحاجة الىالتشديد على عظمة خرقه ايضاً: اذ انه لم يأخذ بعينالاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشارين الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة الحاصيل التي يرغبون في بيعها. ولم يتكلم عن تدبير ديو كليسيانوسهذا سوى مصدر أدبي واحد: ويغلب انه أفضى الى اراقـة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء الحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هـذا المؤلف سوى لاكتانس، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد. فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت. بيد انه لا يجوز لنا الشك في الفشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأن يتخلوا لها عن الذهب، عرضت عليهم ثمناً له، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم.

لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذّى نقمة الانطاكيين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدّد السعر الاعلى ايضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى برديّاتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننطلق من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤، اذ انه قد تحدد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطاب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً، لشراء الحنطة في آخر القرن، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طناً من النقد البرونزي. ولكننا نجهل كيف حلّت، عملياً ، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع . كما نجهل نسبة أثر هــذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الاخرى من الامبراطورية .

ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يعدّ قطعاً نقدية. فقد سمح ثباته باجراء المقايضات ، وتولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية

كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسلم الانتـــاج الضروري للحياة العامة. وليس مّن ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفــه كافٍ لإزالة كل ريبة حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة، مضمونة في كل مكان لمقتطعاتها ومصادراتها ومشترياتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من مِيَرٍ وخدمات ، وراقبت العديـد من نطاقاته .

كان عليها تأمين الغذاء العناصر المحظية من السكان . فامنته الضريبة المستوفـــاة عيناً ، التي الحت تسـديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشيتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانيـة عن سد حاجتها . وهكـــذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأميناً لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الخامات والمصنوعات . فالمناجم والمحاجر بكليتهــا تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانيــة مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات ايضاً . فقد اخضعت الاقمشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان عـــلى صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغـة الحرير ارجواناً كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولهــا الاحتكار، فقد نزعت الدولة، بصددها، الى تعميم نظام «الهيئات» الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الاولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية: الخبازون، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر. ثم شمل النظام تدريجياً المهن الاخرى في كل مدينة : فكان على كل هيئة — والهيئات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل — ان تنتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيا البحري. فتنظيم اصحاب المراكب الذين يمونون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الخبازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجيـــاً . فصودر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرضها الدولة .

تتألف مستنداتنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هـذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المتنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستثقل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية : ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية اقوى . ولا يجيز النقـد النزيه ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجه الاقتصادية .

نظرة عامة

فهو لم يؤدّ الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يعن أي مصدر معاصر بلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانيـة ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموّنه التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هـذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومهما يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً — لأن الاحصاءات تعوزنا — مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة أنحاء الامبراطورية ، لم يسدّ هذا العجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي الجدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يحدب الاهالي احياناً ولكن جديهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حيـن يوقف المتعصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غاليّ أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغاليّـة . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لا بل يغلب انـه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألـيريا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل. وغدا انتاج المناجم والتعدين وافراً. اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا، والتي حققت لنجاحات تقنية هامة، فقد صدرت مصنوعاتها الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانظار ، في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم يضن احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعدّدها وتنوعها،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيال مصر حيث أدى النقص في سكان الارياف ـ الاهمال في تعهـد الأقنية الى اختفاء بعض القرى القديمة في الفيوم تحت الرمال المتراكمة . ولكنه يؤيد أقواله في اماكن اخرى ايضاًبصدد الأبنية الجديدة او الموسّعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في اكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها اكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، اقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيا في سوريا. استمادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البذخيـة والعطور التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمـة والحرير الذين ازداد طلبه في الاسواق . واذا احتفظ بالحرير القصر الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الاغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقـد اهملت بصدد هذه التجارة العلائق المباشرة عن طريق المحيط الهندي. ولكن البضائع ، والتجار احياناً ، يمرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في اواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جمركيـة شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانىء المتوسطية ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وعطورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الاسميليون السجـون بالمرصاد. لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتموّن عن طريق البحر الأحمر ، قد حافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطىء ان نحن غالينا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا مـا نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينـة . فهنالك ظاهرة كافية لابراز الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول: ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تقهقرت وتأخرت. ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف » حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعاتها من الريفيين المجاورين. كما يرد الى منافسة المدن الكبرى ايضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هـذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً : فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها، مركز الجذب العام، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاجة والاسكندرية وانطاكية، قد احتفظت باهميتها ، حين لم تستطع انماءها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قـد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فمنها تنطلق كل التجـارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا، مروراً بآسيا الصغرى، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً. ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب ايضاً . فلينست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأدرياتيك ، مروراً بمقدونيا والابير ، بل تلك التي تجتاز سيرميوم وتتجه مباشرة الى غاليا أو ايطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مهما يكن من الأمر ، فان احداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كعقدة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ ـ المجتمع العلماني

ما كانت الدولة لتستطيع توطيد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

مرسوم كركلا

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد . على الرغم مما انطوى عليه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنية الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقد حصل على هذه المواطنية كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيه واستخدام ارتقائهم الاجتماعي وارتقاء أنسالهم من بعدهم . أفضى هذا السخاء المقيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنية على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هذا التدبير الى اسباب جبائية كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى .

جاءت الامبراطورية الثانية تعمل به ايضاً. فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بان تبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة بايجاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية التمييز بين المواطن والاجنبي الا عندما يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

جمدة السياسة الاجتماعية

قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم الارتقاء من درجة الى درجة في السلّم الاجتماعي، دونما قسر ، ووفقاً لما ترى فيه خيرها . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الفوضى . كما ارادة

مدرّجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، وارادته مفيداً للدولة اخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنهـا تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد، وبترفيعهم كما يطيب لها؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد النفي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذهنية نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على ابناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهـام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقرت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبحثت عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغمتهم على التجمع وحمّلت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكلها، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينها لدليل على فقدان كل برنامج مدروس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

الطبقة الوسطى والحياة المدنية

اضرت هذه السياسة في الدرجة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلى في العهد الامبراطوري الاول ، والفت درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي شعّت منها الحضارة.

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبة هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون «الأمجاد البلدية» : اذ ان أعضاءها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعمد في منع تهربهم او فرارهم . فان الانتساب الى « الجماعة » التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة الجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلـك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦٫٢٥ هكتارات على الاقل . وقـد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة — مراكز الممثلين المحليين — ان يقفوا عند حدّ أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر . وترث « الجماعة » ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلّف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل أعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة الجلسية اذا لم يمرّ مسبقاً في كافة « الامجاد » البلدية واذا لم يخلف ابناًيتوجب عليه ان يكفله ايضاً، كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذا لم يجد من يحلّ محله او لم يتخلّ عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حالفه الحظ في

قراره ، ان يعود الى صفوف الممثلين حال انفصاله عن الأدارة او الكنيسة . لذلك فقد رثى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الهرب.ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهملة التي يتوجب على الممثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها.

اما وجه المأساة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استلزمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفاقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها. ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت «ضرورية» في آخر المطاف؛ ولم ينج من اعتبار « الضرورة » هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والمحاماة ، التي تتمتع ببعض الحصانات، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقتهم ممارسة مهن اخرى، قد تعرضوا للمطاردة الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الهرب من الوظيفة، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفاقاً للحالات النوعية وطابع الاضطرار النسبي فيها . وليس أهم ، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابة بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الخباز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الخباز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة أخرى يا ترى ؟ فالبحار الذي يرث خبازاً مثلاً يرتبط بهيئة البحارة لجهة بعض ممتلكاته وبهيئة الخبازين لجهة البعض الآخر. لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة ينم عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتغلب مساعي المخالفين المبتكرة على احتياطات المشترع حين يكون موضوع المخالفة مغرياً . فقد توفق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الهرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعينتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم ممن عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق ، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كآبائهم ، وسلك ١٨ طريقاً اخرى تمكن ٥ او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فِرقاً أُسند لكل منها خدمة عامة او سد حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلاً من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته باحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادهة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى. فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تعهدها لاستنزاف الموارد. وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصددهـــا على « التسخير » المفروض . بديهي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفسّر بعض الاستثناءات . فما زال البذخ مسيطراً في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت الينا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجيء السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيما في الغرب ، قــد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبها : وهي لم تعــد لتستجيب لأية بداهة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفتقر .

الاشراف الرسميون

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة البورجوازية البلدية هذه المضادةبين مجتمع الامبراطوريةالثانية ومجتمع القرنين الاولين. وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها، على الرغم من ان تدخلها فيهاأصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى.

اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف. مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادرات التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والأدارة من جهة ثانيـــة . فزالت الفروق المبنية عـلى النسب والثروة . ورفعت الضريبـــة عن طبقة الفرسان . ولم يعد الضريبة الجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً : ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، احتجاجاً على قنصليــة افتروبوس ، سوى خصاء مدير الفرقة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الا تعترف الا بالنبل الذي تنعم به على خدامها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعنينا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقررت في ظله سلسلة

القاب رسمية . فانتهت ، منذ احداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المجيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمرموقين وفاقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الاوليان اللتان اقرهما الانطونيون فقدلشأتا عن الاستعمال : وعادتا اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك اثراً سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلّمها . ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالاشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأناً . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جر بالضرورة الى احداث القاب عليا جديدة والى قبول صغار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازاة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (*Tchin*) الروسي . ولكنه قد اصيب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب ويمنحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني . ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم التقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سواهم كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هـذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ «بطريق» وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضن خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدد البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ابهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة الجلسية ، وما زال وقفاً عليهم وحقاً وراثياً الغاية منه اكرام هـذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد احداث لقب « المجيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حمله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم الطبقة الجلسية ، وشأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير نادرة اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرّفين » أو « الشرفيين » كما ندعوهم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع ، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيا ممثل العائلة ، مما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطـــار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفـــة والنبل ، يحافظ مع ذلـك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : ويماثل الحكم المطلق ، في ذلـــك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفاقاً لتسلسل الالقاب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف رسميون .

أعباؤهم وامتيازاتهم

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التعويض عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة الجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً، اذا اراد هؤلاء الأعضاء قطف ثمـار الأمجاد الجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكاً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من «التسخير القذر» أي من المصادرات الشخصية . وبديهي ان الأشراف معفون مـن واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماة للمدن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلما يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل أراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السهر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشارف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصي الممثلون عنهـا الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المحظيين الجسدية والعمـل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى. ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف.

وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبثاً عليهم ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرهـــا قسطنطين للموظفين قاطبة : فالدولة بحاجة الى ابنائهم كما هي بحاجة الى ابناء الجنود و « الممثلين» والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انفع من مهنة الموظف : فالمحامون انفسهم يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبانيوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهـــذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية ومعيشة الاغنياء في املاكهم

بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تتميهـا الانعامات الامبراطورية ، تخصص الوظائف الرفيعـة . ولا تتكلم مصادرنا البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة، ولكنها غالباً ما تتكلم عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا. ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون: اذ ان الميل الى الامجاد والرغبة في العمل اللذين كان لهما ابداً مكانها في المثـل الاعلى الروماني ، يجذبانهم نحو خدمـة الدولة . ومهما يكن من الأمر ، فان الاغنيـاء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب علمهم الشخصي ، فأقله لان احد جدودهم قد رفع العائلة الى الطبقة الجلسية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهـد سلالة جوليوس – كلوديوس . ويؤكد احـد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في روما تؤمن لها ٤٠٠٠٠ لبرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليـه دخل عيني يوازي ثلث هـذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ، الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيا وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة. وها نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسـة ميلانيا وزوجها فاليريوس بنيانوس ، في السنة ٤٠٤ ، رغبة منهما في تكريس كل ما يملكانه لاعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي شيليوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترياً مستعداً لدفع قيمته الحقيقية، الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهبه جنود ألاريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكوّن اية ثروة من هذه الثروات . ولكننـا على نقيض ذلك نعرف وجهة استخدامها . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هـذه الابنية لم يشر اليها قط في مصادرنا . وعلى نقيض ذلك ، فهنالك ، بكل تأكيد ، الى جانب الحلي والمصنوعات البذخية، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك: ولكن الذين يتعاطون المراباة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض. وكان جميع الاغنياء في الواقـع اصحاب ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج والمشتريات التي تجري حين ينتقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعـة على عدة مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكان لتعبيراً ملموساً عن وحدة هـذه الامبراطورية : فقد كان على القديسـة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما باعا قصرهما في روما ، ان يبيعا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالاضافة الى قصره الخاص في المدينة ومتنزهاته في مناطق الاصطياف – وقـد اختارها الروماني ابداً في مرتفعات اللاتيوم وشواطىء كمبانيا – المقصف الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه اعادة بنائه لأنه قد تهدم في هـــذه الاثناء . واستفاد من هـــذا الظرف لتوسيعه وتجميله ، كما استفاد منه احياناً لتقوية جدرانه الخارجية ولتحصينه ببعض الابراج لجعله بمأمن من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان برابرة . في هذا المقصف يطيب له تمضية اوقات طويلة ، والى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوخته في هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيلا » حفيد اوزون: « لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . اشتهيت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالاصناف ، وخداماً كثيرين في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنهـا ، وفنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالجياد ، وعربات متينة وأنيقة النزهة » . حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثمانين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسيليا ، بعد ان قضى البرابرة على ثروته . ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كان متواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم الخصبة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء ، والاحاديث الطلية او المازحة ، والملابس الحريرية المطرزة ، وميدان السباق والمسرح في الحديقة ، وقفص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائمـــاً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضحيات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا تؤثر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

العبيد

استلزم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على أناس آخرين لا نعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيـد في ذاك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولمـــا سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتموّن من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقـد أكد سينيزيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويجدون بسهولة من يشتري مغانمهم . وما زال العبيد — يقدرهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين — يدخلون في خدمة كبـــار الأثرياء . واذا كانت الكنيسـة قد سهلت الاعتاق بإجراء مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعته اخيراً ، فانها لا تلزم نفسها ولا أتباعها به ، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

العبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن «مبتلاً» : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانفر *Gangres*»[1] سيلاقي تأييداً دائماً. وبالاختصار، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حدّ بعيد . ولعل هذا التدني يفسّر نمو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الارجح ، دون نتيجة ايضاً . ومع

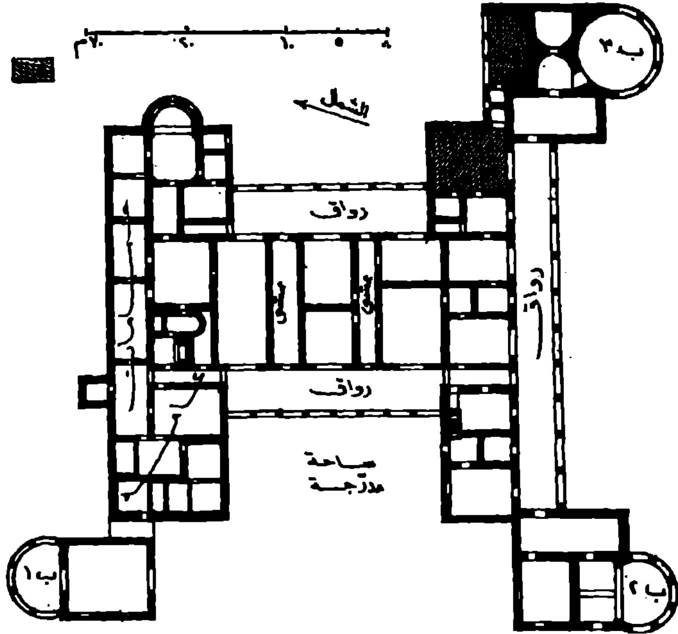

الشكل ٢٣ – « مقصف » اوردرانغ شمالي ترير
ب ١ – المدخل؛ ب ٢ و ب ٣ – كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستلزم طبقة علوية.

ذلك فنحن مضطرون، ربما بسبب النواقص في مصادرنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا ايضاً ان نتوقع تشريعاً أقلّ صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدتها الفلسفة الانسانية في عهد الانطونيين والتي لم تحرز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قد منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا *Paphlagonie* . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتعذر تحديده .

بالعقوبة المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيّد بها اوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهمية الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المنزليين تبدلاً كبيراً ، بل بقي ُمطابقاً شأنه في السابق؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح. ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين: تدنى عدد مصارعات السايفين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبية . ألغيت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ضمّت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقيض ذلك، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيا لمناجمها ، بواسطة الأسرى والمحكومين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسن حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد، اذا صح ان طريقة الاستثمار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الايطالية. ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانباً ، تشبه حياة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

الكادحون الريفيون : القطافون

لا نتوقفن عند الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهدهم إلا في العواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل، متطلبين، سجسين، سريعي الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهمنا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجراء كثيرون — وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هذا العهد بالضبط ، التي يلقى فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « *Circoncellions* » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجرأة عندما يشدّ أزرهم العبيد الهاربون وصغار الملاكين المقترين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناطيين للكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سنحت لهؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيمو الرأي اسماً واحداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى ، في نظرهم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص مخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ، ويحلّون فيها العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناطية ، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالمراطقة . ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاغتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف الشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

الفلاحون الشركاء

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فاللصوصية المسلحة المتفرقة ، في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لا بل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها – سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها – أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعته الدولة حيناً وحاربته حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدّ في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جاره القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف – باستثناء الاسم – عن العقد الحرّ نظرياً والملغى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هذا التطور الشرعي الذي يفوق بقوته القوانين والذي يتحول وفاقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، مماثلة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصبة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازدياداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريع هدريانوس الذي يجيز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات تتفاوت شدة وليناً بحسب نسبة القوى المتقابلة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الأميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة تتفاوت تاريخاً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملاك . وقابل هذه الانظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقته

السيد . واذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد. اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس. ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرته القانونية ايضاً .

الحماية

شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قد ضايقوها، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصميم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسعى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانتزاعها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معطيه ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الأحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلك حاول بعض الاباطرة مقاومة هذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليه فالنتيليانوس حين احدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه أمر انصاف المساكين ، لا سيا في حقل الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحمايات القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهتم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنع الحماية، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٦٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغية تحديد المسؤولية الأميرية الجماعية في القرية ، قد شجّعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، على غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخذ الفلاحون الأحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيا في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميها من الدولة ، قد بحثت أحياناً عمن يحميها من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماة أقوياء حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر يهدّدها فسعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع

كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة احياناً ، اللتين استفاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدّعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً .

لا يهتم إلا لان يؤمن ، باشرافه أو اشراف قهرمانه ، أفضل استثمار لاملاكه . وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تعهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مثمر ، لانه يستحيل مراقبة عملهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محميه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيه . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد حلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ايراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع باشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانية ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعه الشخصية . وسيعتمد هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع ، سائر نحو التحسن : فالعبد منذ ذاك التاريخ يعيش وحده مع عائلة لا يمنعه احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعالتها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعد من ان يعتقه . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبدلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق ، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات اخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قد تأصل وتوطد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف . وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم . اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلوا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جالحـة ابداً الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن آلامهم ، في الأرجح ، أخف من ان تحملهم على الثورة ، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين. أجل لقد ذكر ثيميستيوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قد تمنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم ينتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من بؤسهم . ولعلهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيا وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا القيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن ما تجدر الاشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتيحون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمة القرن الثالث وتخشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ ـ المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمع العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز اهماله .

ازدياد الاهتمامات

ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها . فقد أدى العطف الحكومي ، في الامبراطورية ، أقله الى تقريب ساعة انتصارها . واذا لم تنتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقد حالفها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستمالت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني ، اعتنق النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات . وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهنالك على خطى ملوكهم . اما في المناطق التالية شرقاً ، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتداءات قليلة : فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ، وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيا في بلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوها من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستمالوا بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم . وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الاقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ، ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان سامه اثناسيوس الاسكندري أسقفاً . ودخلت النصرانية الى اليمن نفسها . اما في اوروبا فقد سبق وتكلمنا عن دور اولفيلا عند القوط وعن نقل هؤلاء

المرطقة الآرية الى الجرمانيين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثنيتها حتى كلوفيس . واخيراً ، في القرن الخامس، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالاّديوس – إلا اذا كان هذان الاسمان قد أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلانديين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسالات الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجّعت تشجيعاً خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها وعملها الاداري اليومي ، نشاط الرسالات في داخل الامبراطورية. ومع ذلك ، فان الارياف ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هـذا النشاط حتى اول القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح التخلي عن عباداته التقليدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياف الغربية كانت ، في الزمان ، آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هـذا الانتشار فلسنا نعرفه إلا في غاليا حيث قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ، دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً على مدينة تور فأسس، في السنة ٣٧٢ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان هذان الديران منبتين حقيقيين للرسالات تربى فيها وخرج منها وعّاظ ساروا على خطى المؤسس. ولم يمت هـذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غاليا » بفضل تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه بـه والترجمة التي وضعها له سولبيس ساويروس. ولكن عملاً مماثلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

قوة الكنيسة الاقتصادية

لقد رافق كسبَ النفوس هـذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسبُ الممتلكات الزمنية . فقد اخذ الأنفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد الأبنية ، والعناية بها، والعناية بالمدافن، ونفقات العبادة، وحياة الاكليروس المادية، ومساعدات المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهمر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة ٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) . ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مدهش أملاه التقشف والتصميم على الزهد بخيرات هـذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ، الشيخ بوملخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كمبانيا . غير ان فالنتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاظ من بعض ضروب الضغط المريبة والنفعية : فحظر على الكهنة مساعيهم لدى الاوانس والارامل ، وألغى الهبات الوقفية التي قد يقدمنها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باتت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكمها على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل ، كما كانت تقول بصدد الزواج والتبتل ، ان الفقر خير منها . ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية الممتلكات : فأفضى اتفاقها مع المجتمع العلماني ، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل ، الى تخفيف حدة بعض الحيات . ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وبتجنب التمتع بها بأنانية وبخل . وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشييد المآوي للعجزة والملاجيء للأرامل وتربية الايتام . فألقت الدولة على عاتقها عمل برّ لم تعره يوماً أهمية جدية : اذ ان مشروع « التغذية » نفسه الذي تحقق في عهد ترايانوس كان يستهدف غاية أخرى . وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة ، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكا من جروح كثيرة. وقد قدّر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية ، دون المراطقة ، بـ ١٠٠٠٠٠ كان نصفهم من الفقراء ، أي ممن تؤدي لهم الكنيسة المساعدات .

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال . فقد ضمت العبيد . أجل لم تبتعهم الكنيسة ابتياعاً ، ولكنها كانت ممسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها . فهي قد اصدرت حكمها ، كما رأينا ، لا على الرق كنظام ، بل على اولئك الذين اغضبهم وجودها ؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية ، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كابعد حد ، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين . وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً : وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية ، بعد الامبراطور والدولة . غير ان وجود هذه الممتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة . فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة ، اخضعت الأملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها . وقد برز في كثير من المدن « المدافع عن الكنيسة » وهو مماثل « للمدافع عن المجلس » و « المدافع عن المدينة » ، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة . وقدمت الكنيسة الجندين للجيش . ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون الممتلكات موضوع مثل هذا الحجز : فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة محمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها . واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه .

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرنا الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية . ويؤسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك ، اذ ان هذه القوة لم تبق دون اثر في المجتمع العلماني كما نرجح . بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الأملاك ، كما نقدر ، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً . ويغلب ان نتائجه قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عددياً : اعني به الاقتطاع الذي حصل ، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس ، – في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها – من مجموع الطاقات

البشرية المنتجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

التنسك والترهب

ان هذه الملاحظة، التي قد تظهرنا بمظهر من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية، وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايما افادة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العـــام : التنسك والترهب .

ظهر كلاهما في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ،وعرفا في البداية نجاحاً عظيماً في الشرق . ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارها . بيد انه يستحيل الا نرى فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيهـا ، لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغريبة عن النخب المثقفة . غير ان الصوفية والتقشف لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكلبيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان »بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة . اما الحقيقة فهي انهذهالحركة،التي انطلقت من ادنى الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج عـلى التسويات الرسمية والزمنية التي فرضهـــا على الكنيسة انتصارهــــا . فيجب من ثم انـ نحترز من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على المتفردين : فهو يظلهم باولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ، التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيـــد ان فكرة الثورة الفردية والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل مـــا يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة العظمى ، قد أوحت بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بايمانها الذي اعطت عنه برهاناً باهراً . وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، امـــا في التطور الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضـاح سيكولوجيتهم الفردية للاجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .

أعطى المثـــل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب الشرقي من الدلتا حيث عاش حيـاة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبـال المقتدين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته قداسة احترمها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس الذي كان هو قد ايّده في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحـــاء الامبراطورية وقرأها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قـد أهلت بالنساك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدة آلاف من النساك لا يجتمعون إلا يوم الاحد الخدمة الإلهية، ويعيشون في قلال صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاريوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يغفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً .

كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم. وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبه في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة: فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنتان للنساء. اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات، اذا ما استثنينا منه بندي الانفراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المآكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدي بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضاً زهاد أثاروا الدهشة بتجلدهم وابتكاراتهم التقوية. . ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في اماتة نفسه ، وارتأى ان يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعتلي عواميد اخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بغية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتقع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة امتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البئريون » الذين اقاموا في قعر الآبار، الخ. اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيما العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اتقياء الغرب ، من امثال القديس ايرونيموس في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين. وفي النصف الثاني من القرن الرابع، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشاركة للاكليروس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجيل ثانياً. ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من تضحيات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيعة لم تتسرب اليها اللغة اليونانية ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعثه الاول شنودي ، رئيس « الدير الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الأرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الفرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة تجمع نيقيه على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثر والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويجتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لا سيا في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيعة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شغب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر نحوهم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « المتثلين » الهاربين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية ويفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبطىء ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في الغاء قانون يحرم على الرهبان الاقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في محاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجسهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجسهم وعن احتقارهم للسلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة – لم تخل منها غالبا نفسها بعد وفاة القديس مارتينوس – في الشرق اولاً ثم في الغرب ، التأمت بعض المجامع في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة: فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيا بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زخرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

الاسقف وكنيسته

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة ترافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . اجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء العبادة ويحاولون، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للاساقفة في النهاية .

فهم يعينون ويديرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكليريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للمعمودية ، قد اعتبروا اكليريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم دواتهم وكتابهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارمتهم . يستشيرون سواهم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معثراً . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد الهراطقة والملحدين ، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة . فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضمحلت الامبراطورية في الغرب .

لم يلطف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقصى عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين أساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناداة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة : فقد سقط قتلى كثيرون حين عين داماز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . اجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي ، و ٣٥ للكهنوت ، و ٤٠ للأسقفية واوجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن المخالفات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً . ولا يجوز القول بأن هنالك تألباً في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد المجامع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى : فقد حرّم ذلك مجمع نيقيه ، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسيوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والالتجاء الى خلوة قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مهما كانت مرتبة اسقفيته ، حتى من بين العلمانيين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقيه ومن انذار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت . فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سيم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسيوس حاكماً على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفاً لهذه المدينة . اما الريفي الكيريني سينيزيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحيا حين نزل عنـد الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتوليمايس . غير ان الشعب ، في اكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيا في الغرب، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبته للقريب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلهـا بصورة تدريجية . فغدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جـداً . ولم تكتف السلطة السياسية بالتدخل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأيها أحياناً ، كما فرضته دائماً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفتروبوس، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

الكنيسة : المجامع

بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منعزلة في حياتها الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تعي انتماءها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجل لقد جمع بينها ، منذ القديم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية العود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعوّدت سلوكها منذ القدم هي طريق المجامع : اذ ان الهيئة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هـذه المجامع . وكان اهتداء الامبراطور فرصة لعقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : مجمع نيقيه في السنة ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية في السنه ٣٨١ ، ومجمع افسس في السنة ٤٣١ ، ومجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعوهم اليها لأنه بحاجة اليهم للفصل في مسائل عقائدية، او الحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشارك في هـذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كاولفيلا الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيهات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم مجمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأمت ايضاً مجامع اقليمية كثيرة تتفاوت أهمية . ولكن صغار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل احياناً في شؤونهم . إلا ان التئامها ما لبث ان اصبح تقليداً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينهما هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

رؤساء الاساقفة والبطاركة

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون مرؤوسيهم . اما صلاحيات هذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستئنافي ، والدعوة الى المجامع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيا أهميتها الادارية، اذ ان الحكومة مصلحتها في إحكام تسلسل السلطة التي تسهل على رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسيماتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقصر الكلام على نتائجه الرئيسية .

اخضع الجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترتد طابع الاهمية آنذاك، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى. وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الابرشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يحظى ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادفات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم« البطاركة »، فمدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان، أهمية المدينة المادية ، واشعاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قط بلقب « البطريرك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيها على افريقيا . واعترف الجمع النيقاوي برتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأجمعه . وفازت اورشليم، في القرن الخامس ، بالبطريركية. اما النجاح الذي يلفت الانتباه ، فهو نجاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقيه في السنة ٣٢٥. حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته.فاعتُرف لاسقفها، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانية ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بها ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

البابوية

لا يبقى أمامنا سوى اسقف روما .

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتها الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعزعها غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفني القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً أخرى. لمتى طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال ، غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرقية – درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية – فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً الجمع النيقاوي وكافة المجامع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استئنافية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستعين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستبرز ، في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدّ .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا والّيريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقـة . ولا تعود اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئياً . ولكنها قد بقيت نادرة – ١٧ حتى آخر القرن الخامس – ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين التقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجة ، فلم يتراجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث اولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد ألهمت احدى هذه المشادات القديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطريركيات العظمى والعناد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يردّ ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ - ٤٦١) قـــد صادف بالتالي ظروفاً مؤاتية . فهو انما ناوض اتيلا في السنة ٤٥٢، وجنسريك في السنة ٤٥٥،بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ: وكانمن سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الحائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطوراً مقابلاً قدقلّل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالـــك بربرية بالسهولات التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .

الفصل الخامس

الفكر والفن

ان المقومات الثقافية في حضارة الامبراطورية الثانية ، اذا ما نظرنا اليها ككلّ ، لا تتسم في الحقيقة ، من حيث قيمتها المطلقة او النسبية ، بأهمية شبيهة بتلك التي تتسم بهـا حضارات أخرى في العالم المتوسطي القديم . ولكن هـذا التفاوت محصور في الحقلين الفني والفكري . فالفكرة الدينية تنم عن قوة حياة مدهشة ، ولا حاجة بنا للتشديد على الاهمية التي ترتبط ، في التطور العام ، بعهد يتسم بانتصار ديانة لا تزال حية في مئات ملايين النفوس حتى ايامنا هـذه . وقد بلغ خلال هذين القرنين ، من المركز الذي احتله الواقع الديني ، ومن الدور الذي لعبه في الحياة الفردية وحتى الاجتماعية ، انه اتحد بجوهر مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فلا سبيل لادراك أي من هذه المظاهر بدونه . ولذلك فقد توجب علينا فيما سبق ، عند الكلام عنها ، ان نتطرق اليه وندرس بعض شؤونه وبعض نتائجه . وقد آن الوقت لأن ندرسه في حدّ ذاته .

١ ـ الفكر الديني

سنحت الفرصة أكثر من مرة ، في الفصول السابقة ، للاشارة الى التأثيرات التي كان الشرق مصدرها آنئذ. ولكننا اشرنا اليها في عداد تأثيرات اخرى دون ان نحلها في المرتبة الاولى. اما الحقيقة فهي انها تحتل هذه المرتبة دون منازع على الصعيد الديني . فقد كانت شرقيةً العبادات التي اضطرت النصرانية لمناهضتها حتى تتحقق لها الغلبة. وكانت شرقية الديانة المسيحية نفسها. ونشأت في الشرق المجادلات الدينية وما رافقها من مشاقّات أرغمتها على التعمق في عقيدتها بالذات . وهل من سبيل ، والحالة هـذه ، لأن نستغرب هذه الاولوية ؟ فلم يبق الشرق ارضاً دينية ، شأنـه في السابق ، فحسب ، بل تغلب من جهة ثانية على الغرب بالحذاقة الفكرية والسحر الجمالي، والنشاط الاقتصادي ، أي بكل ما يحمل البشر جُسُراً ومغامرين ومستميلين ومقنعين .

١ ـ الوثنية

العبادات الشرقية ومذهب توحيد الآراء

لقد ظهر اثر الشرق ، فيما يعود للوثنية ، بصورة قوية جداً ، منذ الامبراطورية الاولى ، ونحن لن نرجع هنا الى الدلائل التي قدمناها على اسباب وميزات التيارات الكبرى التي احدثها فيها . ولكننا نقول انها برزت في القرن الثالث بمزيد من القوة .

فالقرن الثالث هو الفترة التي عرفت فيها عبادات الآلهة الشرقيين منتهى نجاحها . ونذكر على سبيل المثل ان عبادات ايزيس وسيبيل ولا سيا ميترا ، وهي العبادات الرئيسية ، قد بلغت آنذاك اوج انتشارها الذي سهّله لا تساهل الاباطرة فحسب بل مشايعتهم الشخصية ايضاً . ففي السنة ١٩٧ أحيا سبتيموس ساويروس ، في مدينة ليون ، بتضحية ثور عظمى ، ذكرى انتصاره على كلوديوس أليينوس. وشيّد ابنه كركلا ، في روما ، هيكلاً لسيرابيس ، وجهّز معبداً لميترا في دياميس حماماتها العامة . وغدا لقب ميترا (المنيع) لقباً من الالقاب الامبراطورية ، ويتضح من كتابة رسمية تعود الى عهد ديوكليسيانوس انهم جعلوا من هذا الإله شفيع الامبراطورية .

وقد برز في القرن الثالث بمزيد من القوة ، ميـل الى مذهب توحيد الآراء حظي بمساندة السلطة . فبعده ايلاغابال تجسيداً يستدعي السخرية باحتفاله بأبهة بزواج بعل حمص ، الذي كان هو كاهنه الاكبر وحمل اسمه ، من سيليستيس أي تانيت التي استحضرها من قرطاجة . وكذلك فقد نقل الى المعبد الذي شيده لإلهه نارفيستا ، وتروس مارس المقدسة ، وكعبة الأم العظمى ، أيْ سيبيل ، التي أتى بها مجلس الشيوخ من بسّينونته الى روما ، في اواخر الحرب البونيقية الثانية ، الخ . ولكن الواقع ، اذا ما وضعنا المستهجنات جانباً ، هو انهم قد رغبوا في التقريب بين الآلهة فوق رغبتهم في الابعاد بينهم . ولعلّهم شعروا ايضاً بميل فطري الى ان يقيموا ، في وجه إله المسيحيين ، إلهاً واحداً يجمع في ذاته كافة الطاقات الكونية . وبحسب الفكرة التي كونوها عنه ، كانت الغلبة لهذا الإله الخاص او ذاك : كالشمس مثلاً ، اما باسم ابولون ، واما مباشرة باسمها اليوناني هليوس، او اسمها اللاتيني سول ، او كجوبتير وسيرابيس وميترا . وقد يحدث ان تطلق عليه جميع هذه الأسماء في آن واحد . ومهما يكن من الأمر ، فقد انتقلت الصفات الإلهية من لمعان وسيطرة على العالم كله ، ومناعة ، دون أي تمييز ، من هذا الإله الى ذاك ، ونسبت في آن واحد الى الامبراطور نفسه الذي غدا تجسيداً لهذا الإله الكلي القدرة على الارض .

الافلاطونية الافلوطينية الحديثة

لقد سبق ورأينا ان الحركة الفلسفية قد جارت هذه الحركة الدينية منذ زمن بعيد ايضاً . فقامت في القرن الثالث بآخر خلق عظيم طلعت به العبقرية اليونانية في حقل برهنت فيه عن اخصابها : اعني به الافلاطونية الحديثة التي رسم خطوطها في الاسكندرية امونيوس ساكاس ، في اوائل القرن الثالث . وقد اتقنها ودرّسها

في روما ، ما بين السنة ٢٤٤ والسنة ٢٧٠ تقريباً ، اغريقي من مصر هو افلوطين . فبرزت فيها نزعات العصر بالذات ، اي الحرارة المتهوسة والدعوة الى الرفق واشتراك عناصر نظريات اخرى بالجوهر الافلاطوني ، اي البيثاغورية والارسطوطاليسية والرواقية .

استحث افلوطين الفكر على ان يتصور ، بفعل جهد تجريدي جريء ، وحدة مطلقة تنبثق عنها كل الموجودات ، العقل والنفس والجسد ، وكأنها سلسلة انعكاسات يزداد ضعفها تدريجياً . ولم يكن للواقع الظاهر من اهمية ، في نظره ، الا بالترتيب الذي يدخله عليه كائن اول تنصهر وتتسق فيه كل الاشياء . فيمكن القول ، من ثم ، ان دافعاً داخلياً قد حدا به الى الوحدة الالهية . ولكن نظريته في وحدانية الكون قد انطوت على الوهية الكون ايضاً ، لا بل انها لم تتنافَ ونظرية تعدد الآلهة . افليس الآلهة جميعهم منبثقين عن الكائن ؟ اضف الى ذلك ان بين العالم الإلهي الذي تنتسب اليه الكواكب وبين العالم الأرضي جماً غفيراً من الابالسة ليس باستطاعة الانسان اهمالهم .

انتهى تعليمه عملياً الى الحث على قهر النفس والتقشف أمام المحسوسات . فاذا ما اخفق الانسان في ذلك ، فان هذه النفس الخالدة تتجسد في الحيوانات ، لا بل في النباتات احياناً. واذا ما نجح ، فانها تشارك الكواكب نورها وتتلاشى في النهاية بذوبانها في الاله . ولكن النجاح منوط بالاختطاف الصوفي الذي يعطي وحده الالهام السماوي ويوفر رؤية السعادة الاخيرة الاكيدة ، ويتيح بالتالي الفوز بهذه السعادة . وهكذا فان الافلاطونية الحديثة قد صرفت العقل عن البرهنة ولم تلجأ اليها الا لدحض فعاليتها

السحر

لم يرض افلوطين الاعتراف بديانة لا تكون داخلية . غير ان الافلاطونية الحديثة ، بما انطوت عليه من تعلم حول الابالسة ومن تخلٍّ عن العقل ، قد افضت الى نتائج بعيدة الاثر . فقد انضمت الى نزعات اخرى قديمة وكثيرة تعهدها واستغلها مخرقون عديدون. ولم يؤمن الانسان يوماً ، اقله في العالم اليوناني الروماني ، بمثل ما آمن به في هذا العهد من تأثير القوى الخارقة عليه تأثيراً مباشراً يومياً ، اي العرافة والتنجيم والسحر والرقية .

بين المؤلفات الادبية التي عرفت مزيداً من النجاح حتى اواسط القرن الرابع ، « حياة ابولونيوس التياني» التي وضعها معلم البيان فيلوستراتوس بناء على طلب جوليا دمنه امرأة سبتيموس ساويروس . فقد أظهر هذا البيثاغوري ، الذي عاش في عهد نيرون وسلالة فلافيانوس ، ليس فقط كزاهد يطبق المبادىء التي وضعها مؤسس المدرسة وعززها احياناً بالانقطاع عن أكل اللحم ، وارتداء الكتان الذي لا يداخله أي خيط من أصل حيواني ، والسير عثقياً ، وارسال لحيته وشعر رأسه ، والامتناع عن الكلام طيلة خمس سنوات ، والتجول في آسيا الصغرى وايران والهند ومصر قبل ان يقيم في روما حيث دعا إلى عبادة الشمس وتعاليم حكمته ، بل كعجائبي ايضاً يجترح المعجزات المدهشة وينفذ الى أفكار البشر الخفية ويفهم لغة البهائم وينبىء بالمستقبل ويشفي العرجان والعميان والمخلّعين ويوقف الاوبئة والزلازل .

نحو هذا الاتجاه انحرفت الافلاطونية الحديثة بتأثير من خلفي افلوطين في ادارة المدرسة ، بورفيروس الصوري، ولا سيا جمبليكوس السوري (من خلقيس) في عهد قسطنطين. فقد صادق جمبليكوس ممتهني علم « هتافات الغيب الكلدانية » . ودرجت عادة الكلام عن « السحر » بدلاً من «اللاهوت»الذي لم يف بالمرام،لأنهم لم يكتفوا بمعرفة الآلهة بل طمعوا بالعمل معهم وبواسطتهم وعلى غرارهم . فبرز كهنة أنشأوا « مختبرات » اخرجوا فيها مشاهد خادعة أذهلت المبتدئين بما تخللها من أشباح نورانية وموسيقى وأصوات غير مألوفة وروائح عطرية وأبخرة ، وظلال وتماثيل متحركة ، وأضواء متقلبة . ونحن نعرف أسماء بعضهم ممن كانو ، في آن واحـــد ، فلاسفة وسحرة يتمتعون بكل سلطة وجاذب . ففي افسس ، علّم مكسيموس ، في اواسط القرن الرابع ، أولّيات اسرار هيكات التي تأثر بهـــا الامبراطور جوليانوس ساعة إلحاده ، كما تأثر بالتفسيرات التي قدمت له عن هذه الطقوس وهذه الرموز . وقد عرف جوليانوس في اثينا، بعد مرور عدة سنوات ، بريسكوس الذي كان شبيهاً بمكسيموس . وربطته بكليهما ، عندما أصبح امبراطوراً ، علائق صداقة كانت له جلية الفائدة : فعندما علم بدنو اجله اخذ يتحدث اليهما ، من على فراش موته ، عن سمو عظمة النفس .

مارس جوليانوس عبادة ميترا ايضاً ؛ كَرُش بالدم لمناسبة تضحية ثور ، وأشرك في اسرار ايزيس . يتضح من ثم ان الوثنية التي تخلى من أجلها عن المسيحية لم يجمع بينها أي جامع تقريباً — تقريباً فقط ، لأن اسرار القسيس التي أشرك فيها ايضاً لم تخل من الانصار القدماء — وبين وثنية القرون الكلاسيكية العظمى التي ادعى هو الاعتزاء اليها . فقد كان قوام وثنيته دفقاً عاطفياً امام سر الطبيعة المعظم ، وقلقاً حيال خلاص نفسه واندفاعاً نحو سعادة الخلود السماوي. فشتان بينه وبين بريكليس واوغسطس وحتى مارك اوريل الذين اعتقدوا بالخرافات، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم وجدوا التهدئة بالخضوع لنظام الكون ا غير ان وثنية جوليانوس هي وثنية عصره . فقد غدا اولو الفضائل العقلية ، من أمثال الابيقوريين ، نادرين جداً ، واخــذ الناس ينظرون اليهم نظرهم الى الملحدين .

الحضارة اليونانية والوثنية

بيد ان جوليانوس والوثنيين المثقفين قد طمحوا الى الدفاع عن الحضارة اليونانية ، حتى بالخضوع الى هــذه النزعات وباللجوء الى علوم السحر والتنجيم . ففي لغة الانجيل نفسها تظهر المضادة بين « هليني » و « يهودي » : ولم يكن المقصود آنذاك تعدد الآلهة والتوحيد بقدر ما كان جهل شريعة موسى او التقيد بها . فلم تقم المعادلة بين هليني ووثني إلا في العهد الامبراطوري الثاني ، وكان من استمرارها ان صفة « هليني » قد بقيت ازدرائية ، في البلاد اليونانيــة وفي لغة العهد البيزنطي وما بعده ايضاً ، حتى تحقق الاستقلال اليوناني في القرن التاسع عشر . وتأبر جوليانوس بنوع خاص على اعطائها هذا المعنى الذي اعتبره تقريظياً اذ انه درج على تسمية المسيحيين بـ « الجليليين » قاصداً بذلك « البرابرة » بكل ما في الكلمة من معنى محقر .

غير ان قانونه حول المدارس ، الذي سنعود اليه ، قد أعطى فكرة واضحة عن هـذا الاستعمال لكلمة « هليني » . فليس هناك من مدلول عنصري او لغوي ، بل مدلول ثقافي فقط . وان ما ابتغى اثباته الوثنيون هو اخلاصهم لجموع تراث اضطر المسيحيون لأن يميزوا فيه بين المبنى الذي قد يثير اعجابهم والمعنى الذي يرغبون عن اهماله . ومردّ ذلك الى ان الميثولوجيا المبنية على مذهب تعدد الآلهة قد اشبعت الروائع الادبية والفنية ، مفخرة الحضارة اليونانية التي نشأت في اليونان وتبنتها روما . وكان باستطاعة الوثنية ، مهما طرأ عليها من تبدل ، ان تقبل بهذه الميثولوجيا التي هي جزء لا يتجزأ من تراث فريد لم ترفض منه شيئاً واعتبرت من ثم انه وقف عليها .

وهذه لعمري هي الفكرة الوثنية بعد موت جوليانوس وبعد اخفاق آخر محاولة سياسية التف الوثنيون فيها حول المغتصب أوجانيوس . غير ان الحكومة الامبراطورية اخذت على نفسها ، منعاً واضطهاداً ، — فقد صدرت في عهد فالنس بعض احكام الاعدام — القضاء على هذه الفكرة . فبينما لا يزال الوثنيون المثقفون الاخيرون مكبين على علم اللغات في الغرب ، نراهم ، في الشرق ، متغنين بماضي اليونان العلمي والفلسفي المجيد ، ولا سيما بافلاطون ، وبارسطو عرضاً . بيد ان الافلاطونية الحديثة قد واصلت تعاليمها ، بصورة علنية ، في مدرستين مشهورتين هما مدرسة الاسكندرية ومدرسة اثينا . ويبدو ان الاولى ، وهي وريثة متحف البطالسة ، قد حادت عن الخرافات جمبليكوس واهتمت بالعلوم ، اقله الرياضية منها . وخير من يمثل هـذه المدرسة هيباتيا الحسناء والفاضلة ، ابنة الرياضي ثيون ومؤلفة بعض الابحاث الرياضية . فقد تتلمذ عليها سينيزيوس ، الذي ما انفك ، على الرغم من سيامته اسقفاً ، يعتبر نفسه « فيلسوفاً » . ولكن شهرتها اغضبت زعيم المسيحية في مصر ، الاسقف كيرلّوس المتجبر . فحدث في السنة ٤١٥ ، في اعقاب اشتباكات لم يلعب الوثنيون فيها اي دور ، ان قبض عليها بعض المتجنين وقتلوها ضرباً بالقرميد ومزقوا جثتها واحرقوها . فقرر هذا الاعتداء مصير مدرسة الاسكندرية . اما مدرسة اثينا فقد عاشت حياة اطول ، ولكنها لم تنفرد بشيء يميزها ، بل اكتفت بشرح اراء عظام المعلمين : امر جوستينيانوس باقفالها في السنة ٥٢٩ فلجأ اساتذتها الاخيرون الى بلاد الساسانيين .

٢ ـ المسيحية

كان جوليانوس في عالم الأموات حين استجوبه غريغوريوس النازينزي قائلاً : « فما هو المبرر الذي يعطيك الحق ، دون غيرك ، في اعتبار نفسك هلينياً »؟ والواقع هو ان المسيحية نفسها قد أفادت من الفلسفة اليونانية نفسها .

اوريجينوس

كان على المسيحية ، كلما اتسع شعاع انتشارهـا ، واذا هي حرصت على ارضاء تطلبات المثقفين ، ان توضح وتنظم لاهوتها ، الشيء الذي يعني عملياً ادخاله في الاطارات الفكرية المحددة منذ زمن بعيد .

كانت المحاولة الجدية الاولى في هذا الاتجاه محاولة مدرسة الاسكندرية التي انتصبت منافسة للمتحف في اوائل القرن الثالث . دانت بنفوذها وأهميتها ، بعد القديس اكليمنضوس ، الى اوريجينوس الذي درس على امونيوس ساكاس ووقف على دقائق الفكر اليوناني . كان ايمانه عظيماً ، فحاول ، انطلاقاً من تفسير الكتب المقدسة ، ان يدخل على العقيدة المسيحية عبارات توافق عادات الفلاسفة العقلية . وقد انطوت المحاولة على مزيد من المخاطر بسبب اطلالها على مذهب المعرفة وبسبب ابهام العقيدة في اول عمرها ايضاً . فاضطر اوريجينوس للدفاع مراراً عن وجهة نظره . وأرغمته الصعوبات المسلكية التي باعدت بينه وبين أسقفه لأن يقضي السنوات العشرين الاخيرة من حياته خارج الاراضي المصرية ، لا سيا في قيصرية فلسطين . اجل لم يصدر الحكم على بعض تعاليمه إلا بعد وفاته بزمن طويل ؛ ولكنه قد صدر اخيراً .

مسألة المسيح

ما لبثت هذه الجهود التي بذلت لتحديد اللاهوت المسيحي وتنظيمه ان اسفرت عن مسألة عقائدية مخيفة هي مسألة العلائق بين الآب والابن اللذين هما اقنومان الهيان متحدان ومتميزان في آن واحد .

اوقفتنا بعض البرديات المنشورة حديثاً على الخطوط الكبرى لجدال حاد اشترك فيه اوريجينوس ، حوالي منتصف القرن الثالث ، في الولاية العربية في الارجح . وقد بلغ منه في حمّى الجدال ان قال : « نحن نعترف بأن هنالك إلهين » . وكان قصده في ذلك الوقوف في وجه آراء مختلفة صادفت نجاحاً كبيراً في آسيا كانت تستهدف ، قبل أي شيء آخر ، الحيلولة دون تهشيم الوحدة الإلهية . اما سابيليوس فقد اعتقد بأن الإله واحد وبأنه كلّ ، وبأن الروح القدس والمسيح ليسا سوى خاصياته ، وبأن هذا الاخير بنوع خاص ليس سوى الاسم الذي أطلق على مجيئه وعلى ما صنعه على الارض لأجل خلاص البشر. وعلى الرغم من الحكم على تعليمه بالهرطقة ، فقد ترك هذا التعليم أكثر من أثر في بعض الاذهان في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع . أضف الى ذلك ان حلولاً أخرى كثيرة وجدت من يناصرها : ويكفي ان نذكر بينها ، على سبيل المثل فقط ، مذهب التبني الذي رأى في المسيح انساناً تبناه الله وأسكن فيه كلمته . كانت هذه فاتحة الجدال حول مسألة المسيح : وسيقتضي لاقفاله قرون عدة .

وهكذا فقد قدّم آريوس ، قبيل فتح قسطنطين الشرق ، وخلال الجدال الذي قام بينه وبين اسقفه الذي اتهمه هو بنصرة مذهب سابيليوس ، الخطوط الرئيسية لمذهب وضّحه في وقت لاحق حين التجأ الى آسيا ، حيث طبع مجادلة التي لا تزال معروفة باسمه : ان المسيح الذي دنّسه الجسد ، وخضع للموت ، أبعد من أن يكون إلهاً أزلياً ؛ فقد خلقه الله وسيطاً بينه وبين الأرض من مادّة تختلف اختلافاً كليّاً عن مادته . تلقى هذا الكاهن الاسكندري علومه في انطاكية . وتميز بمعارف لاهوتية وفلسفية غير عادية : وباستطاعتنا أن نظهر أوجه التشابه بين حلّه والحل الذي قدمته الافلاطونية لمسألة العلائق بين الكلمة والإله الخالق . ومهما يكن

من الامر ، فانه قد برهن ، في الدفاع عن آرائه وفي بثها ، عن حذاقة جدلية ، وقريحة رشيقة ، جعلتا منه ابناً للحضارة اليونانية ايضاً .

القضية الآرية

حين أعيد له اعتباره ، بعد الحكم عليه في مصر ، بقرار من مجمع محلي التأم في آسيا الصغرى ، كان ذلك تكريساً لقيام المشادة الآرية الكبرى . فطوال القرن الرابع كله تقريباً ، مزقت هذه المشادة الكنيسة ، بل مزقت الامبراطورية نفسها أحياناً ، كما سبق وقلنا ، اذ ان تهور قسطنطين قد جعل السلطة العلمانية تشترك في النزاع . ويبدو راجحاً على الاقل ، من جهة ثانية ، ان تدخل الدولة ، الذي أضر كثيراً براحتها ومصالحها، قد خلص في النهاية وحدة الكنيسة التي كانت آنذاك أعمق انقساماً من ان تتغلب على انقساماتها بوسائلها الخاصة . وقد رافقت هذه المشادة الطويلة حوادث ذات طابع سياسي أو اداري لا يحصى لها عد . أما تلك التي أثارها تحديد العقيدة تحديداً ملزماً ، فلا ريب في انها أقل عدداً ، ولكنها على كل حال، اكثر عدداً واشدّ تعقيداً وأعمق بحثاً لاهوتياًمن ان نتعرض لها هنا ببعض التفصيل.

بدا التحديد الذي أقره المجمع النيقاوي في السنة ٣٢٥ وكأنه تسوية نهائية : الإبن مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر (جوهر واحد *Homoousios*) : ولكن مقاومة الآريين ، جدّدت النقاش وأطالته ، لا سيا بعد ان حظوا بعضد الامبراطور قسطنطين الثاني . وانتهى الأمر بهم الى الانقسام شيعاً عديدة. فقبل البعض منهم، وهم المعتدلون ، بتحديد المسيح« مساوياً للإله في الجوهر » ، لا سيا وان الصفة اليونانية *Homoios* نفسها تحمل تفسيرين : اما « مماثل » وإما « شبيه » . أما البعض الآخر ، وهم المتطرفون – وقد عطف عليهم قسطنطين في النهاية – فقد رفضوا التشابه ، وقالوا بدونية المسيح المطلقة . فالتأمت بعض المجامع في سيرميوم في السنتين ٣٥٧ و ٣٥٨ ، وأقرت على التوالي ، تحت ضغط الامبراطور ، ثلاث صيغ تتفاوت تطرفاً ،ثم ابتدعت صيغة رابعة في السنة ٣٥٩ . ولعل الارثوذكسية (الرأي القويم) لم تحقق الغلبة في النهاية إلا بفضل اغتصاب جوليانوس الذي أتاح لها أن تتنفس الصعداء على الأقل.

الهرطقات الاخرى

عاد المجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية ، في السنة ٣٨١) ، في جوهر مقرراته، الى قانون المجمع النيقاوي . وهكذا غدا هذ القانون قانون ايمان الكنيسة الكاثوليكية . ومع ذلك فلم يكن الفصل في مسألة المسيح الا فصلاً جزئياً ، فقد برزت فيها نواح اخرى وما لبثت ان تعقدت بمسألة مريم « والدة الاله » وكان المجمع نفسه قد حكم على مذهب انكر كمال ناسوت المسيح الذي لا يمكن ان يتفق وكمال الوهيته . فأثيرت مناقشات ستفضي في القرن الخامس الى نشأة هرطقات كثيرة نكتفي بذكر اهمها: النسطورية المدعوة لحياة طويلة ، ان لم يكن في الامبراطورية ، فاقله في سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وحتى التبيت ومنغوليا ، ومذهب الطبيعة الواحدة . فيتضح بالتالي ان توضيح العقيدة كان آخذاً بالتقدم البطيء في وسط المنازعات الحادة .

اجل حادة ، ولكن في الشرق خصوصاً ، حيث امتدت الى الشعب نفسه مثيرة في بعض الاحيان ، بفضل تأثير الرهبان ، اضطراباً على جانب كبير من السجس . اما الغرب فقد كان

اكثر هدوءاً . فعلى الرغم من الدور الذي لعبه في النزاع الآري بعض البابوات واسقف بواتيه ، القديس هيلاريون ، واسقف ميلانو القديس امبروسيوس ، فمن الجلي ان المعنى الحقيقي لهذا النزاع قد فاق اكثرية المؤمنين ومعظم الاساقفة تقريباً الذين اعوزتهم قرون من الحذاقة الفلسفية التي اعطت ثمارها آنذاك في ذهن الشرقيين .

لم تبرز حينذاك هرطقات كثيرة في الغرب . برزت اثنتان منها حول قضايا مسلكية واخلاقية : الدوناطية التي نجمت عن آراء متباعدة في السلوك الواجب اعتماده حيال اولئك الذين تراخت عزيمتهم أمام الاضطهاد ، وتحولت بسرعة الى نزاع اجتماعي الطابع ، والبريسليانية التي نادت بصوفية متقشفة . ولم تداخلها الا في عهد لاحق ، اي في اوائل القرن الخامس ، المسألة العقائدية : مسألة الخطيئة الاصلية والنعمة ، وقد وقف القديس اوغسطينوس فيها موقفاً شديداً ضد البلاجيانية التي حكم عليها في النهاية . فجلي ان هذه الهرطقات ليست شيئاً يذكر اذا ما قورنت بالمناقشات حول المسيح التي اتصفت بمزيد من الحرارة والعنف في الشرق. اضف الى ذلك ان الشرق ، على تحمسه لقضايا العقيدة ، قد عرف في الوقت نفسه ، اكثر من الغرب ، شيئاً تتصرف في حياتها اليومية تصرفات تتفاوت تشدداً في الأمور الأخلاقية : فظهرت قوة نسقه الديني في النصرانية ، كما ظهرت من قبل في الوثنية .

المانوية

من النافل تعداد هذه الشيع : اذ ان واحدة منها لم تنتشر انتشاراً واسعاً . اما المانوية فقد عرفت انتشاراً اوسع . ولكنها لم تكن مسيحية المنشأ ، واذا احصاها اباطرة القرن الرابع بين الهرطقات التي حكموا عليها في قوانينهم ، فمرد ذلك الى انها قد جمعت اتباعها من بين المسيحيين ايضاً .

تأسست حوالى السنة ٢٤٠ في بلاد بابل على يد ماني – اما مانيشه فتحريف التسمية السريانية « ماني الحي » – احد رعايا الملك الساساني الذي عاقبه بالموت في السنة ٢٧٧ وزيما علق جثته المحشوة قَوْصاً عند مدخل احدى المدن. اقتبست هذه العقيدة عن المادية الايرانية فكرة ثنوية اساسية هي التضاد بين الخير والشر . ولكنها جمعت الى هذه الفكرة عناصر اخرى بوذية ومسيحية ومعرفية . قالت بنهاية العالم وأوصت ، انسجاماً مع هذا القول ، بالامتناع عن خدمة الدولة وبالعفة عن طريق رفض الزواج . وقد قام على ادارة شؤون اتباعها كهنوت منظم المراتب يضم « المختارين » الذين « يصنعون الخير » ، و « الكهنة » و « الاساقفة » ، و « الرسل » ، ورئيساً اعلى .

منذ عهد باكر جداً ، وحتى قبل معاقبة ماني بالموت ، انتشرت الدعاوة المانوية خارج المملكة الفارسية . فمن جهة بلغت الهند وآسيا الوسطى حيث اصبحت المانوية في تركستان دين الدولة في القرن الثامن ، وانتقلت من جهة ثانية ، بواسطة العرب ، الى مصر حيث كانت نجاحاتها امراً واقعاً حين قام ديوكليسيانوس بحملته . وامتدت بعد ذلك الى آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا وايطاليا ، على انها لم تتعد في هذه المناطق اطارات ضيقة من المطلعين على اسرارها . فأصدر

الاباطرة المسيحيون ، بعد قانون ديوكليسيانوس ، اوامر عدة باضطهادها . ولكن الاضطهاد لم يسفر عن نتيجة في البداية : والدليل على ذلك ان القديس اوغسطينوس ، قبل اهتدائه ، كان مانويا في افريقيا وفي ايطاليا بكل طمأنينة . الا انه اصبح اعظم فعالية منذ اواسط القرن الخامس ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فلعل حياة المانوية كانت اطول من حياة الامبراطورية من حيث انها وجدت وريثاً لها في هرطقة الانقياء الألبيجيين(*Cathares albigenses*) .

تكييفات العبادة والتحولات الاخلاقية

على الرغم من الاضطرابات التي هزّت المسيحية ، فقد انضم اليها باطراد مسيحيون جدد كثيرون . غير ان تهافت هؤلاء لم يبق دون نتيجة . لا سبيل الى انكار الرواسب الوثنية في العبادة المسيحية . اجل لا يجوز ان نجسمها او نعتقد خصوصاً بالابقاء عليها عن سابق قصد وتصميم . ومما لا ريب فيه ان الاساقفة ، منفردين او مجتمعين ، قد قاوموها جهد المستطاع ، واصمين اخفاءها والعود اليها بالعار . ولم يكن القديس مارتينوس ، المتصلب جداً ، ممن يتساهلون مع الاصنام والخرافات . ومع ذلك فان خير دليل على قوة العادات التي لم يستطع المسيحيون الجدد التخلص منها هو التسليات والتخليات التي وجب القبول بها .

فرض هؤلاء المسيحيون اعياداً . فأحدث المرفع بتأثير من أعياد ساتورن واحتفل به بتاريخ أعياد اللوبرك . ولما كانت بعض العبادات الوثنية تحيي ذكرى ولادة إلهها ، فقد توجب احياء ذكرى ميلاد المسيح . وقد حصل بعض التردد في تحديد تاريخه . فاختاروا في البداية اليوم السادس من شهر كانون الثاني (يناير) الذي يوافق في مصر عيد ولادة اله ابن عذراء ايضاً . ثم ما لبث هذا التاريخ في القرن الرابع ان اصبح تاريخاً لعيد الظهور (العماد) لأن الرومان فرضوا على كافة المسيحيين اليوم الخامس والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) تاريخاً لعيد الميلاد: فان هذا اليوم يوافق في نظرهم، منذ القرن الاول قبل المسيح، انقلاب الشمس الشتوي، وقد ارادوا ان يكرسوا للمسيح العيد الذي يحتفل به في هذا اليوم احياء لذكرى مولد الشمس.

وفرض الايمان الشعبي الابقاء على الاماكن المقدسة بما فيها الينابيع والبقع الجرداء في الغابة، الخ . كما فرض الملائكة والصور والتمائم وتوسيع عبادة الشهداء وذخائرهم .

ومن حيث ان عبادة الديانة الظافرة توجهت منذئذ الى الجماهير ، بات من غير المعقول احياؤها على غرار عبادة الفئات الصغيرة المرغمة على التخفي خشية من الاضطهاد . فأفضى ذلك الى الفصل بين المؤمنين والاكليروس. وأحيطت العبادة خصوصاً بأبهة وفرتها لها ثروة الكنيسة. فشيدت الكنائس الملكية ووسعتها وجملتها . واعتمدت طقوساً أكثر تدقيقاً . وأضافت الى الصلاة والقراءات الروحية والتناول بعض العادات الخارجية ، كالايماءات والترانيم والموسيقى ، القمينة بتغذية وتحريك حرارة الايمان في النخبة والسذج على السواء .

وهكذا استطاعت المسيحية ، بمنى مساكنها الالهية ونبل طقوسها وعظمة اعيادها ، ان تقدم لمؤمنيها فوق ما قدمته لهم الوثنية . واذا ما أتى بعض الآلهة بوعود خلاص مماثلة لوعودها،

فان تعاليمها قد انطوت على شيء جديد على الاقل، هو المحبة؛ فما من قيمة للايمان ، في نظرها، بدون الاعمال ، وقد سبق لنا ورأينا ان هذه الاعمال ، بفعل دعوتها ، قد تكاثرت بغية محاولة تخفيف الشقاء البشري . « فليبرهن كهنتنا عن محبتهم للقريب بأن يضعوا ، بطيب خاطر ، القليل الذي لديهم تحت تصرف المعوزين » . بهذا الأمر الذي اصدره الى الكهنوت الوثني ، أتى جوليانوس ببدعة جديدة اقتبسها عن المسيحية واعترف اعترافاً ضمنياً بتفوق الكنيسة التي ابتعد عنها . وانطوت بالاضافة الى ذلك على شيء جديد آخر دفع الى تمجيد البتولية ، ان لم يكن الى الحكم على الزواج ، هو جحد الدعارة والفجور . وأدت كذلك ، بعد فشل محاولة الاسكندر في ذلك الى نقصان مبارزات المسايفين تدريجياً . ولا يمنع الابقاء على الرق من الخلوص الى استنتاج واجب ، الا وهو ان الثورة الدينية قد رافقتها ثورة اخلاقية .

٢ ـ الحياة الفكرية

لا يسعنا القول ، على نقيض ذلك ، ان ثورة فكرية قد رافقتها ايضاً .

١ ـ الظروف العامة

استمرار سحر الثقافة التقليدية

ان التصميم على الاستمرار ، في شؤون الفكر ، يبرز بقوة في تصرفات النخبة الاجتماعية .

غالباً ما ينحدر الاباطرة من طبقة أكثر اتضاعاً منها في السابق . ولكن هذا القول يصح خصوصاً في الكلام عن جنود سمداء وخشنين هم الاباطرة الاليريون في النصف الثاني من القرن الثالث . فكلهم ، بعد غاليريوس ومكسيمينوس دايا ، ابناء أباطرة أو اقله أبناء ضباط من المراتب الرفيعة نسبياً . واسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ، كان مهذبو الامراء الحديثي السن من الاساتذة الذائعي الصيت. فقد طلب قسطنطين الى لاكتانس تهذيب كريسبوس، وأتى فالنتينيانوس الاول بأوزون من « بوردو » الى «تريف» لتهذيب ابنه غراسيانوس ، وو كل ثيودوسيوس الى ثيميستيوس أمر تهذيب ابنه اركاديوس. وأسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ايضاً ، توصل بعض الادباء الى المراتب الرفيعة وحتى الى مناصب الادارة . وخير مثل ، من هذا القبيل ، هو اوزون : عيّنه والد تلميذه كونتاً ووزير مالية البلاط ، ثم عينه تلميذه ، الذي أمسى امبراطوراً ، قنصلاً وقائد حرس في غاليا التي ضمت الى ايطاليا بهذه المناسبة ، بينما عين كافة أعضاء عائلته في وظائف مرموقة . واذا ما تركنا لحالة جوليانوس طابعها الاستثنائي، وهو من يستهوينا القول بأنه كاتب قبل كل شيء آخر ، لو لم يكن فوق ذلك فيلسوفاً صوفياً ، فاننا نلمس عند جميع أباطرة القرن الرابع عطفاً حقيقياً على النشاطات الفكرية . ولم يعبروا عن هذا العطف بأعمال يفيد منها بعض المحظيين دون غيرهم : فهم ، بدون استثناء ، قد أعفوا الاساتذة من فريضة التسخير ، غير انهم لم يدخلوا في عدادهم المعلمين الابتدائيين .

ليس الخطأ خطأ النظام اذا ما بدت لنا هذه النشاطات متوسطة الصفات . اجل كان النظام مطاليبه ، ولم يترك مزيداً من الحرية . ولكن نظام الامبراطورية الاولى نفسه قد دعا الى امتداح الملك في خطب رسمية ، وبرع في اذلال المقاومة على صعيد الفكر اذا لمس ان لها أدنى انعكاس سياسي . فحدث الشيء نفسه آنذاك ، ولكنه اتصف بمزيد من القسوة في استجواب المشتبه بهم وفي اعدام المحكوم عليهم . ولعلّ نفوذ علماء البيان أتاح لهم اسداء النصائح الطنية بمزيد من الحرية ، وغالباً ما يخفي ذلك نقداً ضمنياً . فلسن نرى شيئاً ، « في تأبين ترايانوس » ، مما يكشف من الخطب التي وجهها ثيميستيوس الى فالانس . وقد يشعر ليبانيوس ببعض المخاوف الشخصية في بعض محاولات الاغتصاب ، ولكن ليس ما يشغل منه الفكر حين يدافع عن المعابد الوثنية او ينتقد حق الحماية . اما في التاريخ ، حتى القريب منه ، فيبدو ان اميانوس مرسلينوس يتمتع بحرية تامة في النقد والمديح .

لا يزال المثل الثقافي الاعلى ، في الحقيقة، مماثلاً له في السابق. فعلى غرار ما حدث في النطاق السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تابع التطور سيره في الاتجاه الذي يمّمه منذ زمن بعيد . أضف الى ذلك انه لم يطرأ عليه ، تحت تأثير صدمة الكوارث الزمنية، ذلك الاستعجال العنيف الذي أفضى الى تصلب السلطة المطلقة وشجع الدولة على توجيه الاقتصاد واختار المجتمع. فالنبلاء الجلسيون، في المقاصف، ما زالوا يملأون أوقات فراغهم بالنوادر الفكرية والادبية، على غرار ما كان يجري في عهد الانطونيين ، وكأنهم استمرار للعائلات الكبرى التي قضت عليها أعاصير القرن الثالث الثورية ، ومرد ذلك الى ان حداثة عهدهم في الغنى قد جعلتهم يتجاهون بالاستئثار بأفضل التقاليد . واننا لنجد بين « اللامعين » ، كفئة الشيوخ الرومان التي شكلت في النصف الثاني من القرن الرابع ، حصن الوثنية المتيع في ايطاليا ، عقولاً رزينة وأدباء ظرفاء ومفسرين لروائع الادب اللاتيني يتحلون بعلم واسع. ولكن السيئات نفسها متماثلة ايضاً. فاننا نجد المتكلفين الذين يعتمدون طريقة الأشعار القصيرة وطريقة التقليد، بصنمية هي أشبه بصنمية عهد هدريانوس. أضف الى ذلك ان المجتمع الرفيع كله قد اولع بالبيان . اجل ان الميل اليه قديم العهد ولكنه قد ازداد قوة . ولم يحتل في يوم من الايام المركز المرموق الذي احتله آنذاك : فليس من احتفال امبراطوري بدون خطبة أبهة ، وقد درجت الولايات على هذا التقليد بغية الاحتفاء بكبار الموظفين الذين يسارعون الى توزيع هذه المدائح . ولجأت الادارة احياناً ، لملء المراكز الفنية ، الى تعيين قدامى تلامذة معلمي البيان، بعد عدة سنوات على الأكثر يقضونها في المحاماة ويتعودون خلالها معالجة الشؤون المختلفة : وهذا دليل على الاعتقاد السائد بأن البيان هو مادة التربية الاساسية التي تعد الانسان لتولي شتى المناصب . ويحلو لنا الاستشهاد بكلمة مشهورة لأحد خطباء اوتين : « ان علم اجادة الكلام هو علم اجادة العمل ايضاً » .

ان لهذا الاستمرار تفسيره في استمرار التعلم ، كما انه بدوره يفسّر استمرار التعليم التعلم ايضاً .

تواصلت الجهود في سبيل فتح المدارس وتضاعفت واستلزمت تضحيات يتوجب علينا ان

نصفها بالبطولية اذا ما فكرنا بالصعوبات التي اعترضت آنذاك سبيل الطبقة المتوسطة. ويبدو في الواقع ان الدولة لم تبذل مزيداً من الجهد : فهي لم تنظم التعلم العالي في القسطنطينية قبل السنة ٤٢٥ . ولكن المدارس البلدية توفرت منذئذ لكافة المدن تقريباً ، على تفاوت في العدد وفي درجة التعليم . اما انتقاء المعلمين فنوط بالعائلات المحلية التي تنظم مباريات حقيقية — في الفصاحة ، طبعاً — بين المرشحين ، والتي كثيراً ما تخضع لضغط الادارة : فكبار الموظفين ، وحتى الامبراطور نفسه ، قد أعاروا هذه التعيينات اهتماماً خاصاً في المراكز الكبرى. ودفعت المدن للاساتذة مرتباً رسمياً ما لبثت الحكومة ، بوحي من اوزون الذي ما زال يتذكر عمله التدريسي في بوردو ، ان حددت قيمته في النهاية . ولكن هذا المرتب ليس سوى كسب مضمون لا يكفي لتأمين المعيشة، يضاف اليه مجموع الرسوم المدرسية المستوفاة من التلامذة . لذلك فقد لجأت المنافسة ، بين مدينة ومدينة ، وبين معلم ومعلم ، الى أساليب مضاربة تخلو من اللياقة احياناً . ويمكننا التأكيد بأن معلم بيان ذائع الشهرة، كـ«ليبانيوس» في انطاكية مثلاً ، ابعد من ان يتوفر له يسار مالي دائم . ولذلك ايضاً فان تدني المنتسبين الى البورجوازية مرده الى سبب غير نقصان المدارس : فهي في المدن أكثر منها في أي وقت مضى ، ولكنها ما زالت نادرة في الارياف كما في السابق .

المسيحية والمدرسة: قانون جوليانوس

لم يتبدل النظام التربوي اذن منذ العهد الامبراطوري الاول . فما زال ينطلق من دراسة الشعراء ، والخطباء ، والمؤرخين الذين ينظر اليهم ابداً من زاوية البيان ، وبكلمة من دراسة الروائع الكلاسيكية العظمى موضوع الاعجاب العام : وما زال الولد ، حتى في ذاك العهد ، يتعلم القراءة في مؤلفات هوميروس وفرجيل .

لم يحاول المسيحيون أنفسهم تغيير هـذه العادات على الرغم من الانتقادات التي وجهها اليهم أشدهم تصلباً في امور الاخلاق ، كترتوليانوس مثلاً. لقد سلموا هم ايضاً بأن التربية الكلاسيكية ضرورية لتهذيب العقل ، اذ انها تجمله بالذوق والادراك ومعنى الجمال وقواعد البرهنة . فهي بالتالي ابعد من ان تقف في وجه أي نمو لاحق ، لأنها بدت وكأنها تجيز وحدها كل نمو . فكان كافياً للديانة الجديدة ان تحذر من عبادة الاصنام وان تستخدم ما هو أمامها بأن تضيف اليه تعليمها الخاص بواسطة العائلة او الكنيسة . ومنذ القرن الثالث كان الفوز حليف هذه التسوية ، كما نرجح . فمارس بعض المسيحيين، دون تنازل منهم عن أي من معتقداتهم أو أي من التقاليد المدرسية ، مهنة التعليم في مدارس الاولاد ، حتى الوثنيين ، اولاً ، ثم في معاهد التعلم العالي من بيان وفلسفة ، بينما تابع تلامذة وطلاب مسيحيون دروسهم على أيدي معلمين وثنيين : وقد سلم الطرفان بكل ما استلزمه هذا الوضع الراهن من تساهل متبادل .

لم يبرز الخلاف ، وهو قصير الامد على كل حال ، إلا بمبادهة من جوليانوس . فلم يرض هذا الاخير ان يميز ، في الثقافة اليونانية التي اراد الدفاع عنها جملة ، بين المبنى والمعنى ، بين التعبير الجمالي والعقيدة . ولذلك فقد اصدر في السنة ٣٦٢ قانوناً مدرسياً قيد السلطات البلدية بشروط

اخلاقية في انتقاء المعلمين المطلوب منها تعيينهم وألحقه بكتاب دوري يوضح ان هذه الشروط لا تتوفر في المسيحيين لأنهم لا يستطيعون تفسير الروائع الكلاسيكية تفسيراً نزيهاً: « يا للعجب ! أفلم يعترف هوميروس وهيزيود وديموستيلس وتوسيديد وايزوقراط وليزياس بالآلهة هداة لكل تربية ؟ ... فمن الخرق في نظري ان يلجأ مفسر روائعهم الى احتقار الآلهة الذين أكرموهم ... واذا ما تسبب احد الناس الحكمة الى من يفسّر روائعهم ، فالواجب يقضي عليه قبل كل شيء باقتفاء تقواهم نحو الآلهة. اما اذا تصوّر انهم أخطأوا بصدد أعظم الكائنات احتراماً ، فليذهب الى كنائس الجليليين كي يفسر فيها متّى ولوقا ». بديهي ان هذا الاقتراح تهكمي في نظر جوليانوس بسبب ركاكة الاناجيل الادبية . وهكذا ارتأى المسيحيون ايضاً ، وقد ثار ثائرهم بعد ان أقصوا بذلك عملياً عن التعليم ، على ان بعضهم قد سارعوا الى نظم الكتاب المقدس شعراً والى تأليف المآسي والمهازل في مواضيع مستوحاة من العهد القديم والى افراغ الاحاديث بين يسوع ورسله في حوارات على الطريقة الافلاطونية .

غير ان قانون جوليانوس المدرسي قد مات بموت واضعه : فقد فتح باب التعليم مرة اخرى للمسيحيين الذين عادوا الى النصوص التقليدية وما تنطوي عليه من ميثولوجيا ولّى عهدها . وسيقتضي زمن طويل حتى تظهر المدارس وأصول التربية المسيحية بالذات . وليس اللاهوت نفسه آنذاك ، على الرغم من بعض المحاولات ، كمحاولة اوريجينوس في الاسكندرية مثلاً ، موضوع دراسات نظامية: وليس امام الكهنة والمؤمنين الوقوف على مبادئه ، سوى المناقشات التي يحضرونها والعظات التي يسمعونها والقراءات التي قد يقومون بها . اما المدرسة الإبتدائية فقد انتظمت في بعض الاديرة فقط بغية تعليم الرهبان الاميين. لذلك فسيكون نموها بطيئاً في هذه الاديرة ، على غراره في المدرسة التي سيرغم الاساقفة في الغرب على احداثها ، لأجل تعليم كهنتهم ، اختناق الحياة في المدن .

اقتبس النظام المدرسي في العهد الامبراطوري عن النظام الذي وضعه الاغريق خلال العهد الهليني ودام ما دامت العصور القديمة . وهو لم يضمحل في تاريخ معين بل تلاشى تدريجياً . وبما ان المدرسة هي التي توجه او تسيّر الحياة الثقافية في مجتمع ما ، فان ديمومة هذا النظام هي التي تدعو الى القول بامتداد العصور القديمة نفسها حتى النصف الثاني من القرن الخامس ، دونما بحث عن ربط نهايتها بحدث سياسي معين .

الوضع اللغوي

على ان تبدلاً قد حصل منذ العهد الامبراطوري الثاني؛ فالمدرسة لم تحسن الحفاظ، كما في السابق ، على الوحدة التي وفرتها اللغة بل اللغات للامبراطورية ما دام الشرط الذي قامت عليه هذه الوحدة هو ازدواجية اللغة .

استمرت هذه الازدواجية أساساً ومثلاً أعلى للتربية التي يتلقاها الشباب . وقام الشرق ، من هذا القبيل ، بمجهود حقيقي لتعلم اللغة اللاتينية . فقد تعاظم شأن دور الادارة ، وتعاظم بالتالي شأن اللغة اللاتينية التي بقيت اللغة الرسمية الوحيدة لقيادة الجيش والوثائق التشريعية وأحكام

القضاة . القسطنطينية مدينة يونانية ؛ ولكن الموظفين فيها يكتبون باللاتينية تاركين السلطات المحلية أمر تأمين الترجمة . ولم يبدأ استخدام اللغة اليونانية في الاحكام ، إلا في اواخر القرن الرابع ، وفي التشريع ، في عهد جوستينيانوس . أضف الى ذلك – على نقيض ما حدث في السابق – ان بعض الشرقيين قد استخدموا اللغة اللاتينية في نشاطهم الادبي : كالمؤرخ اميانوس مرسلينوس الانطاكي في القرن الرابع ، والشاعر كلوديانوس الاسكندري في اوائل القرن الخامس ، وغيرهما ايضاً ممن هم دونهما شهرة . وكان كل ذلك نتيجة لاولوية الغرب السياسية والعسكرية ولاعجاب بعض الشرقيين بروما وبماضيها المجيد . فلا يجب من ثم ان نرى في ذلك دليلاً على تفوق الحضارة اللاتينية فكرياً على الحضارة اليونانية . واذا حققت اللغة اللاتينية آنذاك ، كلغة رائجة ، بعض التوسع الاقليمي في البلقان (انظر الشكل ١٢–ص ٤٦٣) ، فمرد ذلك ، في الارجح ، الى وضع احصائي نجهل معطياته والى وجود الجيش على الدانوب وتزوح العناصر اللاتينية عن دامسيا المتخلى عنها .

اما في الغرب فقد مال استعمال اللغتين الى الزوال . فقد انطوى انتشار هذا الاستعمال ، في الحقيقة ، خلال العهد الامبراطوري الاول ، على عمل بطولي متناقض لانه سبق للغة اللاتينية ان أثبتت اهليتها كلغة ثقافة . وبعد ان اعتمدت الكنيسة الغربية اللغة اللاتينية كلغة طقسية ، لم تعد معرفة اللغة اليونانية ضرورية للاكليروس . ومنذ القرن الرابع اكتنف الغموض المجادلات اللاهوتية بسبب الجهل المتبادل لدقائق اللغتين : فمع ان تركيب الكلمة اللاتينية *Substantia* (جوهر) مماثل لتركيب الكلمة اليونانية *Hypostasis* ، فليس للكلمة اللاتينية المعنى نفسه قط ، الشيء الذي اثار اكثر من سوء تفاهم بين انصار القانون النيقاوي . وما زال بعض الاساتذة اليونانيي الاصل يعلّمون اللغة اليونانية في المدن اللاتينية . وقد عرفنا منهم ، بواسطة أوزون ، خمسة في بوردو . ولكن المجهود قد صعب على التلامذة فنفروا من هذه الدروس : وقد اعترف اوزون « بانه ارتكب في حداثة سنه خطأً فادحاً صرفه عن الدروس اليونانية » ، واضطر القديس اوغسطينوس ، لمقتضيات لاهوته ، الى تعلم اللغة اليونانية في شيخوخته ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً عليه ، فلم يتمكن قط من اتقانها جيداً . ولم يدم استعمال اللغتين الا في اوساط الارستوقراطية الرومانية الواسعة الثقافة التي ما زال باستطاعتها استخدام المربين الخصوصيين .

على الرغم من استمرار الوحدة السياسية ، جاء التطور مماثلاً في الواقع لذلك الذي ظهر في الشرق بفعل نهضة اللغتين البلديتين ، القبطية والسريانية . بيد ان نجاح اللغة اللاتينية ابعد رسوخاً في الغرب على الرغم من يقظة اللغة الكلتية آنذاك واتيان القديس اوغسطينوس على ذكر اللغة البونيقية ، اللذين قد يفسرهما نشاط جديد استمادته هذه اللغات القديمة . ولكن تقهقر المدن وضعف البورجوازيات البلدية قد رافقها بالضرورة بعض الانكماش منذ ذاك الحين ؛ فكانت النتيجة المحتومة ظهور اللهجات الاقليمية الخصوصية تحت تأثير الفطرة الشعبية ، التي ستزداد قوة في العهود اللاحقة بفعل تأثيرات اخرى . واذا ما اقتصرنا على اليونانية واللاتينية ، جاز لنا التأكيد ، حين تفضي الاحداث السياسية وغزوات البرابرة الى انفصال الإمبراطوريتين ،

ن هذا الحدث سيسهله الحد من استعمال هاتين اللغتين .

لا يجوز ان نغالي في نتائج هذا الوضع على الصعيد الفكري . لمنذ قبل نهاية العهد الامبراطوري الأول كان لكل من اللغتين تراث قيمن ، بثروته وتنوعه ، بتهذيب العقل وتوجيهه في اية طريق يسلكها . اضف الى ذلك ان كل كتاب ينطوي على بعض الاهمية لا يلبث ان يُنقل اقله من اليونانية الى اللاتينية .

٢ ـ المؤلفات

ليس والحالة هذه من تبدل يذكر في الظروف العامة . ومع ذلك فان النتائج المحققة ، اذا ما نظرنا اليها كمجموع، ليست من الأهمية بمكان. فالانحطاط الذي نلمسه في القرن الثالث بنوع خاص – والذي يحتمه الاضطراب العام – قد توقف بعض الوقت في القرن الرابع ، ثم عاد الى الظهور متسماً بحركة حثيثة .

التقهقر العلمي

ان هذا التقهقر لمحزن على الصعيد العلمي . فان بعض التقدم في التطبيقات العملية ، الذي لا يجوز ان نقدره فوق قدره ، أبعد من ان يخفي ما هو أعظم خطورة : تأخر الروح العلمية وانصرافها عن الملاحظة والبحث بشغف مجرد ووفاقاً لقواعد المنطق . فهل من ريب في ان المسؤولية الكبرى في ذلك تقع على الاولوية التي سلم بها الانسان آنذاك للمشاغل الدينية ؟ شقت الوثنية هذه الطريق بفعل سيطرة الصوفية عليها . فهي قد شعرت قبل أي شيء آخر بالميل الى دفق عاطفي وبالحاجة الى الاتحاد بالكائن المطلق : لم تبد لها معرفة أسرار الكون أمراً مرغوباً فيه إلا اذا قادت الى يقين راسخ حول الحكمة الإلهية ؛ بل تصبح محزنة اذا صرفت النفس عن العبادات التي تشكل واجبها الرئيسي وعزاءها الاوحد . غير ان هذا الموقف المنافي للعلم قد صادف انصاراً أشد حماساً ايضاً عند المسيحيين الذين حصلوا على الوحي الاعظم الذي آتاهم اياه الكتاب المقدس فتوجب عليهم بالتالي ان يستغرقوا في درسه . وليس من العسير علينا ان نجمع ، لدى آباء الكنيسة ، تصريحات مبدئية تصدر حكماً مبرماً على كل مجهود يبذل في سبيل غايات أخرى . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى القديس باسيليوس الذي رضي بالابقاء على بعض التحقيقات السابقة بمقدار ما تتيح ادراك عمل الخالق العجيب ادراكاً افضل . اما النظرية التي عرفت الرواج فهي تلك التي حددها القديس اوغسطينوس باعلانه نافلاً كل ما هو خارج اطار الكتاب: «كل ما يستطيع الانسان تعلمه خارج الكتاب يخطئه الكتاب اذا كان مضراً، ويحتويه اذا كان مفيداً » .

ليس بكاف من ثم ان نتكلم عن ركود العلم: فهنالك تقهقر يرثى له على كل صعيد. ولنقتصر هنا، دونما استشهاد بأسماء المؤلفين والمؤلفات ، على الاشارة الى اهمال الرياضيات التي انحصر تعليمها في الاسكندرية ، وتأخر علم الفلك الذي طغى عليه علم التنجيم ، والذي مقته المسيحيون اسوة بهذا الاخير ، بصورة غير مباشرة، وذوبان العلوم الطبيعية في الكيمياء الممقوتة ايضاً، بسبب اتصالها

بالسحر ، وفي التلهيات المعجبة ، واندثار المعارف الجغرافيـــة التي كان تحصيلها في السابق امراً عادياً ، وذلك على الرغم من وجود البرابرة الآتين من المناطق النائية ، ومن المحافظة على العلائق التجارية بالشرق الأقصى . انتحلوا بلين القديم وبطليموس دونما اهتمام للحفاظ على ما جمعه هــذا الاخير . أنكروا ان تكون الارض كروية الشكل وان يكون بحر قزوين بحراً مقفلاً ، كما انكروا شمس نصف الليل وتفسير المد والجزر بجاذبية القمر . وأضيفت « الطريق البحرية » الى فهرست « طريق انطونينوس » (أي كركلا) وأحصي فيها البارثاس في عداد الجزر .

فلا أهمية من ثم للتراث العلمي الذي تركته للعصور الوسطى ، بصورة مباشرة ، عصور قديمة تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وسيكون للقرون الوسطى الفضل أقله في العودة الى مؤلفات القرن الثاني العظمى .

القانون

اما القانون ، وهو علم روماني دخل الشرق في العهد الامبراطوري الأول ، فلم يزدهر في هذا العهد ، بل في عهد سلالة ساويروس . وقد بلغ رجال القانون من الشهرة آنذاك ، وهم في معظمهم من السوريين ، ما جعل هذه السلالة الشرقية تستدعيهم الى روما ، فاصبح الثلاثة المشهورون بينهم ، وهم بابيليانوس وأولبيانوس وبولس ، قادة لحرس القيصر ، ولم يكن ذلك لخيرهم على كل حال اذ ان وظيفة الاولين قد انتهت بهما الى موت فاجع . اتصفت مؤلفاتهم بالقوة والاقناع وحاولت التوفيق بين النظام والعدالة . واتمت وضع تلسيق وتسلسل المبادىء وميزت المفارقات الضرورية لتطبيقها . فرفعت القانون الروماني ، بعد مؤلفات كايوس ، الى مستوى فكري لن يتجاوزه فيما بعد .

فاذا ما حافظت بعد ذلك مدرسة بيروت ، التي اشهرها رجال القانون ، على اولوية لن تتخلى عنها للقسطنطينية قبل القرن الخامس ، فان هؤلاء لم يهتموا للمنطق النظري اهتمامهم للتطبيق العملي . اضف الى ذلك ان غزارة القرارات التشريعية والادارية انما رسمت لهم هــذا الاتجاه . وقد غدت مهمتهم الرسمية محصورة في الحفظ والتنسيق . فظهرت حينذاك ، في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ، « مجموعات الدساتير » الامبراطورية ، اي النصوص الرسمية التي تحدث او تحور القانون ، مرتبة ترتيباً منطقياً وزمنياً بحيث يعمل باحدثها عهداً اذا كان مناقضاً لما قبله . جاءت هذه المجموعات في البداية ثمرة مجهود خاص ، ثم غدت عمــلاً رسمياً في القرن الخامس حين تألفت لجنة ، باتفاق الامبراطورين ، عملت طوال تسع سنوات في القسطنطينية وانتهت في السنة ٤٣٨ الى نشر « مجموعة القوانين الثيودوسية » التي اطلق عليها هــذا الاسم اكرامــاً لامبراطور الشرق ثيودوسيوس الثاني . وقد عادت اللجنة فيها الى قسطنطين لجمع وتنسيق الدساتير الحقيقية . ولكن صدور الدساتير الجديدة لم يتوقف سيله . فظهرت حينذاك « دساتير اباطرة الشرق » المتعاقبة ، الخاصة بهذا الملك او ذاك ، بانتظار مجهود اجمــالي جديد سيقوم به جوستينيانوس . هذه المجموعات عمل مفيد حقاً لا سيما للمؤرخ ، ولكن اهميتها عملية اكثر منها علمية .

العلم الواسع

في السابق وجد الميل الهليني الى علم اللغات ارضاً مؤاتية جداً في رومـــا حيث اسفرت الابحاث العلمية الواسعة في حقل الصرف والنحو، والابحاث الاثرية ، في حقلي القانون والدين ، عن مؤلفات هامة .

اضمحل كل ذلك ، في القرن الثالث ، في الشطر الغربي من الامبراطورية، ولم يسفر في الشطر اليوناني الا عن مؤلفات صغرى خالية من القيمة الفكرية أو اقله من الايضاحات المفيـــدة للعلماء المعاصرين : وليس في الحقيقة ما هو جدير باستيقافنا هنا في كتاب « السفسطيون في المأدبة » لاثيناوس ، وكتاب «تراجم مشاهير الفلاسفة» لديوجينس لايرس، وكتاب « تراجم السفسطيين» لفيلوستراتوس ، وجميع هؤلاء المؤلفين من معاصري سلالة ساويروس .

لم يتوصل خلفاء هؤلاء المؤلفين ، في الشطر اليوناني ، الى التفوق عليهم . اما في رومـــا فقد حدثت نهضة حقيقية في النصف الثاني من القرن الرابع رافقت المقاومة الوثنية التي شجعها جوليانوس. فليس من باب المصادفة ان ينكب مشاهير الشيوخ، الذين حاولوا الدفاع عن الوثنية آنذاك ، بريتكستاتوس وسيماكوس وآل نيكوماكوس فلافيانوس ، على نشر وشرح الروائع الكلاسيكية الكبرى ، ولا سيا مؤلفات فيرجيل وتيت - ليف . واعتبروا الحفاظ على هذا التراث الادبي ، المدين بالبقاء لهم الى حد كبير ، واجباً من واجبات المواطن الروماني والمتم على اخلاصه للديانة القديمة . وقد دون « ماكروب » احاديث هذه الندوة الفائقة الثقافة في كتابه « اعياد ساتورن » الذي اطلق عليه هذا الاسم بسبب العيد الذي درجوا على اختيـاره للاجتماع عند هذا أو ذاك من اعضاء الندوة . تناول هذا الكتاب في الدرجة الأولى مؤلفـــات فيرجيل وفضله ، واننا لنجد فيه كما في الشرح الذي يكرسه ماكروب لـ « حلم شيبيون » الذي اختاره من احد ابحاث شيشرون، شتى المعارف الدقيقة التي تفرض مطالعات كثيرة وجّهها تفكير صائب تحلى به هذا الفيلسوف الوثني الصوفي . ولكن ما يدعو الى الاسف ان هذه الشعلة الاخيرة لتقليد طويل قد انطفأت بسرعة خاطفة .

ومما يدعو الى الاسف ايضاً ان شعلة مماثلة لم تتّقد في المعسكر المقابل ، لا تقليداً ولا تصميماً على المجادلة ، مع ان الطريقة القديمة ممكنة التطبيق على مـــادة جديدة . وليس بمكنتنا ان نستشهد ، من الجانب المسيحي، الا بالقديس ايرونيموس الذي تتلمذ في صباه على دوناط . تاق الى الوضوح والدقـــة في تفسير الكتاب المقدس فدرس العبرية كي يترجمه : وستصبح ترجمته « فولجاتا » (أي الترجمة العامية) الكنيسة اللاتينية . نهض بعمل تفسيري عظيم تطلب منـه جدّاً وجهداً لا سيا في الاسفار النبوية ، وقاده الى ترجمات وابحاث عديدة . ولكن عمله الذي لم يقدره مسيحيو عصره حق قدره لن يصبح نهجاً لغيره الا في عهد لاحق .

التاريخ

سار التاريخ سيراً موازياً تقريباً .

فقد برزت في الشطر اليوناني ، في القرن الثالث ، بعض الاسماء المحترمة كـ « ديون كاسيوس » و « ديكسيبوس » و « هيروديانوس » : ومع ان واحداً من هؤلاء الكتبة لم يكن

مقرباً ، كما يبدو ، لأن ما وصل الينا من مؤلفاتهم يجعلنا نأسف لتشويهها او لايجازها .

اما من الجانب اللاتيني فليس آنذاك ما يستحق الذكر سوى مجموعة مجهولة صدرت في القرن الرابع نجب الاشارة اليها رغبة في اظهار فساد لون من الالوان الادبية ، هي المجموعة المعروفة بـ « التاريخ المعظم ». فنحن هنا امام تراجم الاباطرة ما بين هدريانوس وديوكليسيانوس . اما مرد المقت فليس في عددهم الذي ضاعفته الفوضى ، وبالتالي في فقدان الوحدة الموضوعية . وليس كذلك ، الى حد ما ، في تقليد فاسد لـ « سويتون » وايثار الاماليح وعفويات الحياة الخاصة . فان شر ما هنالك ، وما لا يمكن ان تعوّض عنه أية صفة من صفات الكتابة ، انما هو عدم الاستقامة الفكرية . فقد زيّن كثير من هذه التراجم بكذب مفتعل لا ينطلي على احد . يتضح لنا منها ان واضعيها مؤلفون تجهل عنهم كل شيء ، وانها مقدمة اما لديوكليسيانوس واما لقسطنطين. ولكن تحليل النزعات السياسية والمستندات الكاذبة يرغمنا الى استبعاد هذين التاريخين . وتقوم « معضلة التاريخ المعظم » اليوم ، التي لم يفصل فيها بعد ، في تحديد تاريخ آخر لوضع هذه التراجم او عدة تواريخ اخرى للتحويرات المتعاقبة التي أدخلت عليها .

وصلت الينا هذه المجموعة كاملة ، في حال ان الاجزاء الثلاثة عشر الاولى – المكرسة للانطونيين في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع – من مؤلف اميانوس مرسلينوس المشهور قد اضمحلت بأجمعها ايضاً . اجل ان الاجزاء الثمانية عشر التي قدر لها البقاء هي أهم اجزاء هذا المؤلف لأنها تتناول السنوات الخمس والعشرين التي سبقت موت فالنس : فمن حيث ان اميانوس قد عاشها اما ضابطاً واما مراقباً مقرباً متحمساً ، فقد تجمع لديه عنها أصدق الاخبار وادقها . لقد آثر هذا الاغريقي الكتابة باللغة اللاتينية ، واذا ما حالف التوفيق مجهوده احياناً ، فان طريقته الكتابية غالباً ما تتصف بالخشونة والصلابة . بيد ان هذا العيب يتضاءل امام صفات الفكر والمبنى. سار اميانوس على خطى « تاسيت » وبدأ تاريخ الامبراطورية حيث توقف هذا الاخير . وهو ليس دونه حدّة في السيكولوجية ولا حياة نابضة في الرواية ، ولا اصطفافاً في المشاعر . بل هو يتفوق عليه بخبرته العسكرية ، وباهتمامه لحياة الولايات وحتى حياة الشعوب الغريبة ، وبعدم تحيزه في الاشارة الى سيئات بطله جوليانوس وصفات كونستانس الثاني او فالنس . ومن دواعي الاعتزاز لروما ان القرن الاخير في تاريخ عظمتها قد اجتذب اليها رجل عمل وفكر من امثال هذا المواطن الانطاكي .

غير ان اميانوس مرسلينوس كان آخر مؤرخ كبير ، ولن يبرّز مؤرخ سواه قبل مرور فترة طويلة . فلم يكن بمكنة المسيحيين آنذاك ان يكتبوا التاريخ إلا عرضاً لأجل الدفاع عن ايمانهم والدعاوة له . وكانت هذه ، في اوائل القرن الرابع ، حال لاكتانس الذي روى « موت المضطهدين » وحال افسيفيوس القيصري الذي وضع مؤلفاً تاريخياً قيماً هو « التاريخ الكنسي » . وهذه ، بعد ذلك ، حال واضعي التراجم الكثيرين الذين قلّدوا لون الترجمة القديم بغية تقديم قدوة للمؤمنين . قد يجد المؤرخ المعاصر ما يفيده في كل هذه المؤلفات . ولكن شتان بينها وبين ذلك النظام الفكري الذي أوحى في اليونان وفي روما بذلك القدر الكبير من الروائع .

البيان

لقد جرى اميانوس مرسلينوس على النهج القديم فنثر الخطب في تاريخه . ومرد ذلك الى ان البيان لا يزال يحتل مركز الصدارة ، ويمتّ بصلة الى كل المواضيع. فالعالِم بأصول البيان يفضل الخطيب المحترف من حيث انه الانسان المثقف بالذات الذي تفتقد صفاته العقلية والكتابية والفكرية واللغوية المتلازمة ، في كل مكان : الى جانب الخطب ، توفر له الابحاث القصيرة ، والمقالات الانتقادية ، والرسائل، وسائل تعبير متنوعة جداً.

يثبت لنا اسما فيلوستراتوس ولونجينوس ان البيان لم يضمحل من العالم اليوناني في القرن الثالث . أما من الجانب اللاتيني فان هذا القرن صفر وخاو ؛ بيد ان بوادر نهضة قد رافقت فيه العودة الى النظام الامبراطوري . فقد لمع اذ ذاك نجم مدرسة (اوتين *Autun*) ووضع بعض اساتذتها أفضل الخطب الاحدى عشرة التي جمعت ، مع « تأبين ترايانوس »، في مجموعة «التأبينات اللاتينية » . واشتهر بعد ذلك المؤلف سيماكوس الذي تحلّى بثقافة عالية وامتاز بالأناقة والظرافة ، وبرهن أحياناً عن صدق طوية مؤثر . ومع ذلك ، فقد بقي البيان اليوناني اكثر لماناً في القرن الرابع : فقد برز فيه أربعة محترفين ذائعي الشهرة هم بروهيريسيوس وهيميريوس في اثينا وتيميستيوس في القسطنطينية وليبانيوس في انطاكية ، وقد اتقنوا جميعهم رخامة دوائر الكلام التي زاد في ابرازها فنهم في الإلقاء : ولكننا نؤثر على هذا الاتقان مادة أعمق جوهراً . ويجب ان نضيف اليهم جوليانوس الذي تتلمذ على الأولين وأعجب بهم جميعهم وناقسهم في مؤلفات حالت هموم حياته ومنيته دون الاكثار منها .

هذا هو مظهر النشاط الأدبي الذي فاق المظاهر الاخرى استمراراً . فقد تأثرت به بعض مؤلفات سينيزيوس نفسه ، كما تأثر به مباشرة اكثر من واحد من آباء الكنيسة .

الشعر

أما اللون الاخير من الألوان الأدبية الدنيوية ، فهو كان الشعر اليوناني في مظهره الكلاسيكي ، متهدّماً ، ان لم يمس ميتاً. بيد انه يجدر بنا الاشارة الى طرفة غريبة هي استمراره حتى اواخر القرن الخامس في « القصائد الديونيسية » ، الشاعر (نونّس *Nonnos*) الذي ولد في بانوبولس في مصر العليا . فقيل في ذلك : ان تومبوكتو أنجبت آخر مقلّد لـ « راسين » ؛ وقيل في ذلك فكاهات أخرى يصعب تبريرها ؛ ولكن هذه الفكاهة تلفت الانتباه الى ما ينطوي عليه الفكر اليوناني من قوة استساغة مدهشة دائمة.

اما الشعر اللاتيني فلا يزال ينبض بالحياة في اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، تغذيه الذكريات ويسانده التقليد . ومع ذلك فهو قد استعاد بعض التميز . ولنقتصر هنا على اسمين لا يستحق الذكر سواهما . فان استاذ البيان اوزون يجسّد الاعتدال ، بعد ان تاه فترة من الزمن في حياة البلاط والسياسة : والدليل على ذلك ان مسيحيته لا تتراءى في قصائده القصيرة التي تتجلى فيها سهولة الاتقان ؛ واذا ما شعر بعواطف صادقة واتسم شعوره بالنضارة امام جمالات الطبيعة ، فانه يقتصر على التعبير عن مشاعره تعبيراً مازحاً ورقيقاً لأنه يمقت المغالاة والافراط ؛ ولكن هذا الاعتدال يضفي على أشعاره بعض السحر احياناً . وعلى نقيض ذلك فان القوة الفاعلة

التي اعوزته تقبض قبضاناً عند كلوديانوس، وهو اغريقي من أتباع ستيليكون الذي جمع قصائده بعد موته ونشرها في شتى الاوساط . اجل لقد تملقت هذه القصائد القائد الحامي . ومع ذلك فقد أحب كلوديانوس بقين حاد . فهو يجمع ، باعجاب واحد ، بين عظمة روما وعبقرية حاميه، كما يجمع ، بكراهية واحدة لا تتراجع امام أية امانة ، بين الثائر الافريقي والبرابرة والخصي الحقير افتروبوس الذي يسيّر حكومة القسطنطينية على غير ما ترى ميلانو . ورغمنا متانة الفنة التي توصل هذا الاسكندري الى اتقانها ، ومهارة صناعته الشعرية ، ونضارة استعاراته ، وحيّا وطنيته ، على ان نتذكر ، في الكلام عنه ، اسماء فيرجيل ولوكان وجوفينال .

والى جانب الشعر الدنيوي ، ظهر آنذاك الشعر الديني : فلدفق الروح مطالبه الموسيقية ايضاً . فبعد ان كان الشعر فلسفياً ، بما انطوى عليه مفهوم هذه الكلمة آنذاك في اناشيد الاغريقي سينيزيوس ، غدا مسيحياً صريحاً في مؤلفات اللاتينيين برودانس والقديس بولين النولي، احد تلامذه أوزون . ولكن افراغ المشاعر الجديدة في قالب كلاسيكي كان مهمة شاقة : وقليلون جداً هم المسيحيون الذين توفقوا الى النهوض بها قبل زوال الثقافة القديمة .

آباء الكنيسة

يبقى امامنا ، في القرن الرابع ، انتاج رائع هو انتاج آباء الكنيسة اليونانيين واللاتين على السواء . افليس مغايراً اللباقة ان نتوقف عندهم هنا وننظر اليهم من زاوية الأدب يا ترى ؟ لا ريب في انهم كتبوا وان بعضهم كتبوا بغزارة ، وغالباً ما اصغى اليهم بعض المستمعين واختزلوا كلامهم نفسه بغية تأمين نشره . ولكن هذا المظهر الأدبي لنشاطهم يبقى ثانوياً في نظرهم . فهم قد اهتموا ، بالاضافة الى دورهم كاساقفة ، ومن ثم كساسة زمنيين، لنفسهم والنفوس الموكول امرها اليهم في الدرجة الأولى . ولا حياة ، من جهة اخرى ، بدون صراع : فقد ناضل المؤلفون المسيحيون الاولون ضد الاعداء الخارجيين ؛ ثم توجب عليهم ، بعد احراز الغلبة ، الدفاع عن الايمان ضد الهرطقة ، وتعليم المؤمنين وتوجيههم في الحياة الأرضية الملأى بالمكائد . فالعقيدة والتعليم والاخلاق كانت من ثم مواضيع ابحاثهم المذهبية وعظاتهم ورسائلهم .

بيد انهم ، على الرغم من كل ذلك ، وبما صرح به بعضهم ، كتبة يمثلون عهدهم . استعجلهم الوقت فاقتصدوه . وانسجموا عن قصد احياناً مع من يستمع اليهم من عامة الشعب . ولكنهم لا يستطيعون احتقار مستمعين او قراء آخرين . أضف الى ذلك انهم تلقوا تربية تطبع الانسان بطابعها الخاص، وتخرجوا من مدارس تعلّم الآداب الجميلة وألقوا فيها الدروس احياناً . فالقديس باسيليوس، الذي كان ابن معلم بيان، وعلم البيان هو نفسه حيناً ، كان رفيقاً في التلمذة لغريغوريوس النازينزي — وليوليانوس ايضاً — في اثينا ؛ ولعله تتلمذ على ليبانيوس على غرار فم الذهب ؛ ودرس القديس اوغسطينوس البيان في قرطاجة وروما وميلانو . ولذلك فقد توجب عليهم الاعتناء بالمبنى .

فاذا غذى الكتاب المقدس يقينهم وشحذت الافلاطونية جدلهم احياناً وغمرت التقوى الحارة

كل وجودهم ، فقد توفق بعضهم ، في مخالطتهم الطويلة لروائع الادب الكلاسيكي ، الى امتلاك وسائل التعبير التي روضها كتبة العهود السابقة . فيحق للكنيسة ، بفضلهم ، ان تعتبر نفسها ، على هذا الصعيد ايضاً ، وريثة الحضارة المتوسطية .

لنقتصر على ذكر اثنين منهم فقط من الجانب اليوناني : القديس غريغوريوس النازينزي ذو الفطرة الشعرية والخيال الفاتن والتأثر الحزين، والقديس يوحنا فم الذهب الذي يكفي لقبه للدلالة على فصاحة ذائعة الشهرة تبررها مواعظه الانجيلية الرشيقة وأماليحه التي تهدىء ، بتأثير من قوة سحر كلامه ، غضبات الجماهير المائجة ، في انطاكية والقسطنطينية .

ولنقتصر ، من الجانب اللاتيني ، على ذكر عظيم واحد فقط هو القديس اوغسطينوس . اتصف الرجل والاسقف فيه بقوة لا تجارى: كان في مدينته الصغيرة، هيبون (عنّابة)، الرئيس الروحي للعالم المسيحي الافريقي ، وحتى الغربي احياناً . لا ريب في انه مدين بهذه القوة الى عمله التنظيمي ونضاله الذي لا يعرف الكلل ؛ كما انه مدين بها ايضاً الى علمه اللاهوتي الذي لا يجاريه علم في الغرب آنذاك . ولكن كتابين فقط ، من اصل مؤلفاته الكثيرة التي يصعب مطلب معظمها على غير الاختصاصيين، ما زالا ينبضان بحياة دافقة : « الاعترافات » و « مدينة الله ». كلاهما يفيض فصاحة وشعراً مطرباً ، وصوراً وأسلوباً غنائياً، واحساساً مصطفقاً وحرارة حماسية. الاول هو التاريخ الداخلي الخاص لانسان ولروح تاها في ضلال الخطيئة وبحثا عن الحقيقة بقلق حتى الاستنارة النهائية : فالعصور القديمة لم تترك لنا أي أثر سيكولوجي تناول تحليلاً مؤثراً على مثل هذا العمق . اما الثاني فبحث فلسفي في تاريخ العالم الغاية منه اثبات النزاع القائم بين مدينتين موجودتين معاً ، احداهما تمارس « محبة الله حتى نكران الذات » بينما تمارس الثانية « محبة الذات حتى نكران الله » . وهو لا يكترث بانحطاط روما حين ينظر الى الأشياء بهذا المنظار . فالشيء المهم الوحيد في نظره هو انتصار المدينة الالهية الذي هو معنى الحياة الحقيقية ومبرّر وجود العالم : هذا هو المثل الاعلى الذي ستتغذى به القرون الوسطى والذي ستحييه قوة تعبير مدهشة .

أجل القرون الوسطى : ولكن المبنى ، مهما كان من طابعه الشخصي ، قد بقي قديماً . فما هي مدة هذا البقاء يا ترى ؟ توفي القديس اوغسطينوس في السنة ٤٣٠ ، ولم يأت بعده خلف بكل ما الكلمة من معنى . فعرف الأدب المسيحي بعده ، بمقدار تمادي الأدب الكلاسيكي فيه ، الانحطاط البطيء العقيم الذي دبّ في هذا الأخير بعد نهضة القرن الرابع لا سيما في الغرب

٣ ـ الفن

ان الحياة الفنية في العهد الإمبراطوري الثاني أشد تعقيداً من الحياة الفكرية ايضاً . فهي شأن هذه الأخيرة تخضع لبعض التقاليد . ولكنها أسرع تأثراً بالصعوبات المادية وأقل خصباً ، بالتالي ، منها في العهود السابقة . أضف الى ذلك ان الذوق العام يتطور فيها تطوراً سريعاً ،

أو بالأحرى ان متطلبات الحياة الروحية الجديدة تتخذ فيها طابعاً أشد إلحاحاً: هذه المتطلبات هي ما يجب النزول عنده في الدرجة الاولى ، وقد زاد في وضوح الاتجاه الذي فرضته ، ان الموارد لم تتوفر للمحافظة على انتاج وفير وفيّ للأشكال التقليدية .

قـط الماضي

لم يفكر أحد قط بالاقدام عن قصد وتصميم على التنكر لتراث القرون السابقة الذي ما زال يثير اعجاباً شمل الوثنيين الذين اعتبروا المثل الكلاسيكي الأعلى أحد نظم الحضارة الوحيدة الخليقة بالانسان ، والمسيحيين الذين ما كانوا ليقفوا من هذه العظمة موقف اللامبالاة .

كان كونستانس الثاني امبراطوراً منذ عشرين سنة حين جاء في السنة ٣٥٧ للمرة الاولى الى روما ، وقد روى اميانوس مرسلينوس زيارته في احدى اشهر صفحاته : انتقل الامبراطور ، كما يقول المؤرخ المسرور بتفصيل عجائب المدينة الأزلية ، من افتتان الى افتتان « معتقداً كل مرة بأنه لن يشاهد شيئاً أجمل مما شاهده . ولكنه ، ما ان بلغ ميدان ترايانوس ، حتى وقف مشدوهاً . . وحين شعر بعجزه عن تحقيق شيء مماثل ، صرح بأنه يريد ويستطيع الاكتفاء بتقليد تمثال ترايانوس على صهوة جواده المنتصب في وسط الميدان » . فأوحت رغبته هذه نصيحة خبيثة أسداها اليه امير فارسي لاجيء الى البلاط الامبراطوري : « ياسيّد ، اذا استطعت ، بناء اصطبل من هذا الطراز ، حتى توفر لجوادك الإقامة المتوفرة لهذا الجواد » .

على الرغم من نوايا اميانوس السيئة الواضحة ، ليس ما يبرّر الشك في واقع هذه النادرة . انها تحدّد خير تحديد موقف رجال ذاك العصر امام تحقيقات الماضي . فكلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، سارعوا الى العودة الى هذا الجمال والاقتداء به . وما زلنا ، حتى في اواخر القرن الرابع ، نشاهد نهضة كلاسيكية في الفن موازية لتلك التي شاهدناها في الادب . وقد دبت هذه النهضة في الاوساط نفسها ، أي في عائلات مجلس الشيوخ الرومانية الوثنية الكبرى : فهذه اللوحة العاجية مثلاً ، التي درج القناصل على نقشها احياء لذكرى الوظيفة المسندة اليهم ، تستوحي ، بموضوعها واختيار نقوشها التزيينية وطريقة صناعتها ، نزعات ترقى الى قرن اوغسطس على الاقل . اجل نحن هنا امام حالة قصوى ، وقد حدثت تبدلات عظيمة حتمية . غير ان التبدلات الهامة لم تنته الى مقاطعة شاملة ومفاجئة وواعية . فلكل منها أكثر من جذر في العهد الامبراطوري الاول . ولم يتناول احد التقاليد بالنقد المنظّم . ولم يعتقد المعاصرون يوماً بأنهم « عصريون » . فغدوا « عصريين » على كره منهم .

المتصف

اننا نشاهد هذا الاستمرار ، بصدد اطار الحياة المادي ، في تلك الاماكن بالذات التي تبدو فيها الظروف العامة مؤاتية جداً التميز والابتكار ، ولاسيما في « المتصف » . المتصف هو نموذج مساكن كبار الملاكين العقاريين الذين أشرنا الى أهمية دورهم الاقتصادي والاجتماعي . وُسّع في هذا العهد وحُسّن وجهز بغية تأمين الرفاهية والتسلية لضيوفه . ففي

معظم مناطق الأمبراطورية - ومنها ما استحال فيها ترميم اطلال القرن الثالث بسخاء - حين توصل المتقبون الى التميز بين التحويرات المتعاقبة في هذه الابنية ، يبدو ان أعظم بذخ قد تحقق في القرن الرابع . وان تاريخ المقاصف الغالية - الرومانية ، وهي أشهر المقاصف باتساعها وزخرفها ، في مناطق نهر الموزيل ، (نينيغ ، اودرانغ الخ .) ، يعود ، وفاقاً لوضع ترميمها اليوم ، الى ذاك العهد الذي اقام فيه ملك وبلاط في تريف ، ما بين ديوكليسيانوس وثيودوسيوس. ولكن نموذج المقصف كان قد ظهر في وقت سابق ، ومن النافل اعادة الوصف الذي أعطي عنه في الكلام عن القرن الثاني : فقد اقتصرت حضارة القرن الثاني على تحقيق عدد كبير منه وعلى توسيعه وتحسينه .

استمرار المثل الاعلى للمدينة : روما

لم يحل هذا التطور ، على الرغم من ارتباطه بالتطور الاجتماعي ، دون الحفاظ على الوفاء للمثل الاعلى القديم الذي استلزم في الدرجة الاولى الابقاء على مظهر المدن الفخم وتحسينه . استفرغت الامبراطورية الثانية جهودها على هذا الصعيد دون ان تحدث تغييراً جوهرياً في النماذج التقليدية . بيد ان المعبد قد تضرر من جراء اعتناق السلطة الرسمية الديانة المسيحية ، مع ان قسطنطين نفسه قد أمر بتشييد بعض المعابد في القسطنطينية . لذلك فقد أتى الفن البنائي المدني هنا وهناك بتحقيقات عظيمة .

في عهد سلالة ساويروس ارتدت المدن الافريقية أبهى حللها ، لا سيا مدن منطقة طرابلس الغرب ، لأن سبتيموس ساويروس الذي ينتسب الى لبتيس العظيمة قد غمر هذه المنطقة باعطياته: فالأبنية المدنية التي احاطتها أعمال التنقيب الايطالية ، ما بين الحربين العالميتين ، بشهرة حلال ، تعود الى هذا العهد .

غير ان روما لم تهمّل ، اقله خلال فترة طويلة نسبياً (راجع الشكل ١٩ ص ٥٩٣) . فبالاضافة الى قوسي نصر ، جهز سبتيموس ساويروس قصراً منيفاً على أكمة البالاتين ، وحجب أساساته بجبهة كاذبة مماثلة ، بطبقات أعمدتها الثلاث وجدرانها المتعرجة ومشاكيها ، للجبهات الكاذبة التي ازدانت بها الجدران الخلفية في المسارح . وقام كركلا في حيّ الافنتين ببناء حمامات لا تزال أطلالها تحدث تأثيراً قوياً في نفس الزائر المعاصر . فبينا تبلغ مجموع مساحة الميادين الامبراطورية في القرنين الاولين تسعة هكتارات ، بلغ آنذاك ١٤ هكتاراً ، واتسعت الحمامات المبنية في وسط الحدائق لألف وستمائة مستحم ، لا يدخل في عدادهم اولئك الذين كانوا يمارسون التمارين الرياضية في ميادين الرياضة الجسدية او يترددون الى دار الكتب وأروقة التصوير والنقاشة: في هذه الحمامات وجدت التحف الهلينية المعروفة باسم « هركول فارنيز » و « ثور فارنيز »

من البديهي ان اضطرابات القرن الثالث قد أثرت في هذه الحركة . ولكن الحركة لم تتوقف يوماً توقفاً تاماً: فقد حرص غورديانوس الثالث وداسيوس وغاليانوس واوريليانوس ، على الرغم من قصر عهد ملكهم او صعوباته ، على ان يعززوه بتشييد الابنية . وما ان استتب النظام حتى بدت الحركة وكأنها عادت الى حالتها السابقة . فان متحف الحمامات الوطني ، في روما الحالية ،

قد أنشىء في جزء ما زال قائماً من اجزاء حمامات ديوكليسيانوس التي تجاوزت مساحتها البالغة ١٥ هكتاراً مساحة حمامات كركلا . وأكمل قسطنطين الكنيسة الملكية التي شرع ببنائها ماكسانس وشيّد قوس نصر ورواقاً وحمامات .

بيد ان هذا الجهود لم يدم طويلاً . فليس باستطاعتنا، بعد قسطنطين ، ان نذكر سوى قوسي نصر وبعض الاعمال الترميمية : ومرد ذلك الى ان الاباطرة قد أقاموا في غير مكان ولم يهتموا لتزيين العاصمة التي لم تعوزها مظاهر التزيين . فانطفأت حياة العمران في روما التي أمست مدينة - متحفاً قلت العناية بها تدريجياً: لا بل أخضعت، بما انتزع من روائعها الفنية وأعمدتها ومسلاتها لتجميل القسطنطينية ، لعملية استلاب مماثلة لتلك التي جمعت بها هذه الثروة من التحف . فبدا الهبوط في الافق شيئاً فشيئاً .

المقرات الامبراطورية : القسطنطينية

على نقيض ذلك ، استأثرت بالعناية الامبراطورية ، منذ ديوكليسيانوس ، المدن الاقليمية التي اختيرت ، لاعتبارات ادارية او عسكرية ، مقرات للأباطرة والقياصرة. فتوجب تشييد الكنائس الملكية والحمامات والمسارح والملاعب في نيكوميديا وسيرميوم وميلانو وتريف وفي مدن أخرى ايضاً . وتوجب كذلك تشييد القصور التي يبدو انها اختلفت شكلاً عن مساكن اللهو التي هواها في روما أباطرة القرنين الاولين . ألحقت بها الحدائق كما في السابق ؛ ولكن قاعات الابهة ، انسجاماً مع تبدّل النظام ، غدت أعظم روعة ، كما ان الابنية العسكرية أمست أكبر عدداً . وألّف القصر ، داخل السور المحصّن ، مدينة حقيقية : اما نموذج هذه الابنية الجديدة فهو القصر الذي قضى فيه ديوكليسيانوس أيامه الاخيرة بعد تنازله عن العرش والذي لا تزال اطلاله حية حتى اليوم في مدينة سبالاتو على شاطىء الادرياتيك .

بذل أضخم جهود، في سبيل تجميل المدن ، في القسطنطينية التي أرادوها منذ البدء مساوية لروما . غير ان اعمال التنقيب الأثري، لسوء الحظ ، كانت محدودة فيها حتى تاريخه، اذ ان آثار القرون الوسطى العظيمة تحجب ما تركته فيها العصور القديمة : ولا يمكننا اليوم سوى تكوين فكرة اجمالية عما كانت عليه المدينة في القرن الرابع واوائل القرن الخامس .

نمت المدينة بسرعة بفعل ارادة اسياد الاقاليم الشرقية وبفضل النشاط الاقتصادي الذي ظهر فيها . كانت البقعة التي خصصها لها قسطنطين اربعة اضعاف بقعة بيزنطية القديمة ؛ ولم يمرّ قرن واحد حتى أبعد السور كيلومتراً الى الوراء . لم يدخل على الاحياء القديمة ، في الشمال الشرقي ، تحوير يذكر ، ويبدو انهم لم يعتمدوا في المدينة الجديدة تصميم المربعات المتساوية الذي اعتمده التجميل اليوناني ، والروماني من بعده ، في التحقيقات المماثلة . إلا انهم اتخذوا احتياطات بنائية ، بتحديد ارتفاع البيوت مثلاً ، وبارغام الملاكين على تجهيز القسم الاسفل من هذه البيوت بأقواس تطل على الشوارع العامة . لم يكن هناك في القسطنطينية سوى « جزر » سكنية نادرة، ولعلها لم توجد فيها اطلاقاً . ولكن السكان تكدسوا فيها تكديساً ولم تنج المدينة من الحرائق .

تم تزيين المدينة جزئياً ، رغبة في السرعة ، على حساب مدن او معابد أخرى . وهكذا فقد نقل قسطنطين ، من دلفي ، مشجب «بلاتيه» في ميدان السباق» ومن روما ، العمود المنتصب في وسط ساحتها العامة ، الذي وضع في أعلاه تمثالاً ذا رأس شعاعي الشكل كان يمثله في الارجح. واقتفى أثره عدد من خلفائه. وعلى الرغم من ذلك فقد توجب تشييد أبنية كثيرة أنهكت الخزانة الامبراطورية .

توسط المدينة الرسمية ميدان الاوغسطيون الذي قامت الى الجهة الجنوبية منه ثلاثة قصور

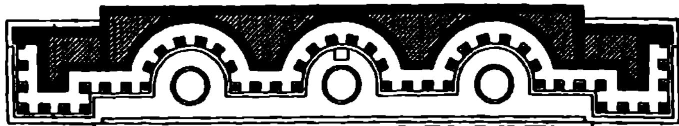

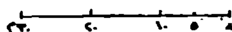

الشكل ٢٤ – السبليزونيوم او صرح سبتيموس ساويروس
في اتجاها نحو الشرق، ازدانت هذه الواجهة بتماثيل الكواكب السبع ، وأهمها جميعاً تمثال الشمس الذي رمزوا به الى الامبراطور سبتيموس ساويروس ، وكان يقوم في المشكاة الوسطى . وهذا المبنى شاهد على تأثير النجامة والنزعات التي تأثرت بها الايديولوجيا الامبراطورية .

تؤلف غالبا على حدة . كان باستطاعة الامبراطور ان ينتقل مباشرة من احد هذه القصور الى مقصفه في ميدان السباق الذي شيّد في عهد سبتيموس ساويروس ثم وسّع حتى يساوي ميدان سباق العربات في روما . من هذا الميدان انطلق الشارع الرئيسي الذي ينقسم بعد ساحة طوري التي أعدها ثيودوسيوس،الى شارعين فرعيين: يؤدي الشمالي منهما الى كنيسة الرسل القديسين التي جهز مرداها قبل وفاة قسطنطين وأعدّ لاستقبال جثمان الاباطرة المتوفين. وقد حرص جوليانوس على ان ينقل اليه بأبهة عظيمة جثمان كونستانس الثاني الذي كان هو قد اغتصب منه الحكم في لوتيسيا .

لن تستطيع القسطنطينية ، اذا ما استثنينا قصورها ، مضاهاة رومـــا بعظمة أبنيتها وستنحصر مظاهر الأبهة والبذخ فيها تقريباً في حياة البلاط والاعياد التي تقام في ميدان السباق. ولكنها وفرت للامبراطور ، منذ اواخر القرن الرابع ، اطاراً لائقاً بنفوذه وعظمته .

الخطاط التقنية

ولكن ، ما هو شأن مدينة ، بل عدة مدن ، في جانب أعمال لا تحصى حققتها الامبراطورية الاولى؟ فالجهود البنائي قد توقف عملياً في المدن الصغيرة والمتوسطة التي انحصرت في طوق من الأسوار . وفي سبيل تشييد هذه الاخيرة استخدمت الأبنية القديمة محاجر أو مساند . ثم ان الخزائن البلدية قد أقفرت ، والعطاء الخاص قد نضب، فأعوز المال حتى لتعهد الأبنية الباقية . تدنى من ثم طلب البناء ، ولم يعوّض عنه بتجديد المقاصف وترميمها ، فأفضى ذلك الى كارثة حقيقية ، نزلت في القرن الثالث بمهندسي العمارة والنقاشين والمزينين واليد العاملة الماهرة . وقد دام هذا التدني الى ما بعد استعادة الاستقرار . فلم يكن باستطاعة

الامبراطورية ، اذا ما نظرنا إليها كمجموع ، ان تقدم على ما أقدم عليه الانطونيون .

لذلك ، فنحن لا نكون مسلمين بنظرية مادية ، اذا ما حاولنا أن نفسر بذلك واقعاً راهناً: أعني به التدني الصريح في تقنية المنفذين المتوسطة . فهؤلاء قد غدوا أقل عدداً ، وقلما مارسوا مهنتهم أو تطوهـا تعلماً فقط ، ففقد معظمهم سر المخارط اليدوية ، والحيل الصناعية . لقد

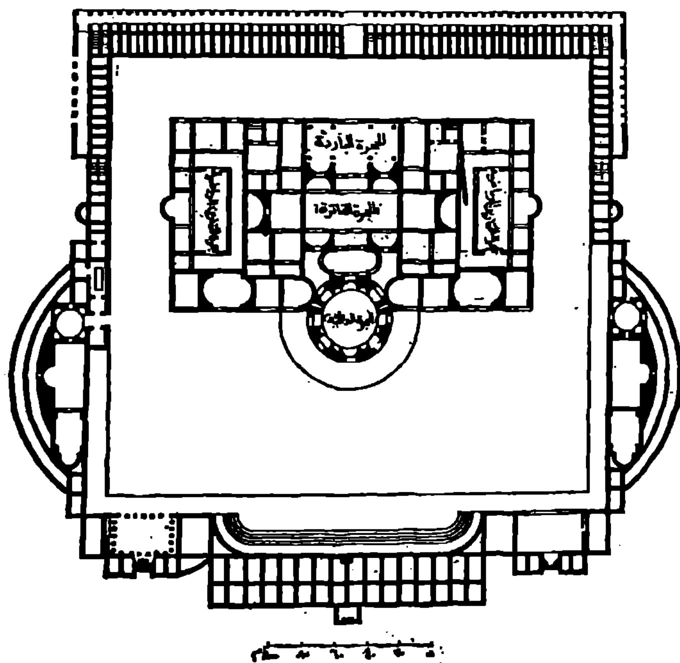

الشكل ٢٥ – حمامات كركلا

شكا الفن الامبراطوري الروماني ابدأ من الحاجة الى انتاج كثير وضخم ومريع؛ ولكنه برهن في السابق عن مهارة تلفت النظر في تحقيق ما يطلب منه . أمـا الآن فيتوجب عليه انتاج ضخم ومريع : برغمه عليه نفوذ النظام والامبراطور . ولكن التدني المظلم في كمية الانتاج، قد رافقه تدنٍ أعظم في النوعية : فلا أثر للاتقان ، وحتى للمهارة احياناً . وليس من الصعب علينا ان نرى بين اللاحظتين نسبة العـلة للمعلول : فقد تدنى عدد الحارفين الممتازين ؛ وخف انتقال الصناعيين الماهرين في الامبراطورية ؛ وأصبح من العسير وجود العمال المتمرنين محلياً وتأليف الفرق من بينهم .

بديهي ان هذا التأكيد العام يستدعي بعض المفارقات . فقد برهنت صناعة البذخ ، عـ
موم ، في حقل المصنوعات الصغيرة ، عن صفات حقيقية : اذ ان وجود طبقـة اجتماعية
ـاً قد وفر لها زبناً يبتاعون هذه المصنوعات . وهـا هي صناعة الزجاج الرينانية قد حا
منوعات تم عن مهارة مبتكرة نادرة ، ان لم تحقق مصنوعات يعوزها الذوق اللطيف .

الشكل ٢٦ – القسطنطينية في أواخر القرن الخامس

ـث ان حققت روائع صغيرة ، تم عن مهـــارة تقنية كبرى ، على أيدي الصائغ والجوهـ
ناش العاج ورامم الصور المصغرة على رق المخطوطات، الذي أخذوا في القرن الرابع يطو
كل كتاب ، بدلاً من لفه على طريقة البرديات . لذلك ، اذا ما وضعنا صناعة التماثيل النـ
ـناعة المسكوكات القديمة جانباً ، فان الفنون التي يطلق عليها اسم الفنون الصغرى لم تصـ
كل محسوس ، بالانحطاط التقني .

ما زالت هندسـة العمارة من جهتها تحقق أعمالاً متينة ، ان لم تحقق اعمالاً أنيقة . فقد اعتمـ
أغلب الأحيان القباب الواسعة الضخمة . ولجأت ، اكثر منها في العهد الامبراطوري الاو
استخدام القرميد الذي يوفر لها افادتين : كلفة أدنى ، وعمـل منظم اسرع . وقد درـ
ـع خاص آنذاك عادة ادخال عدّة سافـات من القرميد ، على مسافات متساوية ، في جد
ـنية بالرخام . لم يدخل أي تعديل على نوع الملاط ، ومع ذلك فقد أمن البقاء حتى اليوم لا

عديدة من القرميد . ولكنهم ، لم يترددوا أحياناً في استعمال الحجر دون ملاط : فهـا هو « الباب الأسود » في تريف قد سخر من الزمن ، ولا تزال ضخامته ، التي تتفق وغايته كحصن ، تفرض اعجاب الزائرين المعاصرين .

نهاية النقاشة

اما النقاشة ، بالمقابلة ، فتتصف بمزيد من الفلاظة . وليست هذه الفلاظة ، لسوء الحظ ، احتقاراً للاصطلاحات او عودة الى طوية أكثر بهيمية ، بل بمجرد خرق مرده الجهل . وها نحن نختار قليلاً من كثير من الأمثلة المحزنة على ذلك . فالتهشيم الذي تعرض له قوس نصر غاليريوس في تسالونيكي لا يخفي دونية تنفيذه . اما قوس قسطنطين في روما ، فان القطع المنتزعة من بعض أبنية القرن الثاني والمنزلة فيه تبرز بمزيد من الوضوح ركاكة القطع التي نقشت له . وكيف لا نذكر هنا جمود الامبراطورين والقيصرين المتعانقين الذين تمثلهم المجموعات الارجوانية في كنيسة القديس مرقص في البندقية ؟

تحسنت النوعيـة في اواخر القرن الرابع . ولكن بعض المكاسب التي حققتها النقاشة منذ اواخر العهد اليوناني القديم ، فقدت نهائياً . فقد فقدت في الدرجة الاولى معرفة الجسم البشري : فتوارت قسماته تحت الثياب الكثيفة والخطوط الايحازية . وفقـد في الدرجة الثانية ، بنتيجة مباشرة ، ايحاء الحركة وحتى تمثيلها : فجمدت الاجسام وبدت متصلبة ، هندسية ، مبسطة ، جبهية ، موزعة بتناسق في النقوش الناتئـة على النواويس وغيرها . فكان ذلك نهاية المطابقة والحياة في الحجر ، أي نهاية النقاشة كما فهمتها الحضارة اليونانية الرومانية التي أنتجت ذاك القدر العظيم من الروائع .

التأثيرات الشرقية

ولكن كل هذه المصطلحات ، من جمود كهنوتي وجبهية وتناسق ، مصدرها شرق بعيد جداً في الزمان خنقت نظرتـه الجمالية القديمة او اخمدتها ، منذ الحروب الميدية ، قوة النظرة الجماليـة اليونانية المدنية ، فأحيتها الآن تأثيرات عديدة مختلفة ومتشابكة . لم تترك في الفن الهليني ، وفي فن الامبراطورية الاولى من بعـده ، سوى عناصر ثانوية قليلة ، كبعض المواضيـع التزيينية مثلاً ، او بعض النزعات المريضة ، كالميل الى ما هو عظيم وما يفوق الانسـان . اما الآن فنحن وجهاً لوجه امام نهضتها العلنية والجريئة والتوسعية التي شجعها رجوع المملكة الساسانيـة القومية ، كما شجعها ، داخل الامبراطورية ، نشاط الولايات الشرقية على الصعيد الاقتصادي وغليانها الديني ويقظة تقاليدها البلدية .

الشرق : كلمة غامضة ونطاق شاسع تتراءى فيه أكثر من نزعة خاصة . فدراسة الفن في العهد الامبراطوري الثاني هي اليوم احد أعظم نطاقات علم الآثار نشاطاً ومستقبلاً باسماً بالآمال . ولا يرد ذلك الى أهميتها الخاصة بقدر ما يرد الى انها تحضير الفن البيزنطي . وبفضل تقدم هـذه الدراسة ، اخذ العلماء يلقون بعض الضوء على اسهامات مختلفة ، القبطية والسورية والايرانية . ولكن غالباً ما يجدون أنفسهم امام شرق هو نفسه معقد التركيب اذ ان ماضيه التاريخي قد اوجد

اتصالات قوية بين مختلف اجزائه . فليس باستطاعة بحثنا ، والحالة هذه ، ان يتناول سوى الخطوط الكبرى .

فالشرق يعود الافراط في التزيين الذي أظهر الفن الامبراطوري نفسه ميلاً إليه ، رغبة منه في اخفاء المواد السيئة المستعملة في البناء : وقد برز هذا الافراط في عهد سلالة ساويروس ، ولا سيا في اواخر القرن الثالث ، كما يمكننا التأكد من ذلك في بقايا قصر ديوكليسيانوس . وأضاف هذا التزيين ، الى الافراط ، الغنى المادي المعد التأثير في المخيلة ، وذلك عن طريق استخدام الألوان اللامعة ، لا سيا الذهبي منها ، والخامات النادرة الثمينة : كالأرجوان المصري مثلاً للنواويس الامبراطورية ؛ والعاج ، والجواهر ، ومكعبات معجون الزجاج ، وميناء الفسيفساء ، والخيوط الذهبية في الحرائر المطرزة ، الفنون الصغرى ؛ الخ . ثم نزع هذا التزيين، الذي لم يترك سوى حد أدنى من المساحات المكشوفة ، الى فرض نفسه بنفسه ، مستقلاً عن المشاهد المصورة ، مع ما يستلزمه ذلك من ابتكارات غريبة قوامها الخطوط المتشابكة . فبرزت آنذاك مواضيع تزيينية يعود أصلها الى ما قبل التاريخ . ونحن نكتفي بتقديم مثل بسيط عن ذلك : صفوف القلوب التي تزين اطارات صور « روزنامة السنة ٣٥٤ » ، وهي مخطوط نفيس جداً متقن الخط كتبه وزينه فيلوكالوس ، أحد فناني روما المشهورين في ذاك العهد . فان هذا الموضوع التزييني موجود على الفخاريات النيوليتية في بلاد ما بين النهرين . ثم زال بعد ذلك ولن نراه إلا في الفن اليوناني – البوذي في القرن الأول للميلاد ، وفي فن روسيا الجنوبية في القرن الثالث ، وعلى بعض الأقمشة القبطية في القرن الرابع، واخيراً في هذا المخطوط الروماني.

الروحانية

كانت نتيجة أهمية التزيين نقصاً في الرسوم الحية ؛ وغالباً ما انتهت هذه الأخيرة الى الزوال نهائياً في الموشيات والأقمشة والفسيفساء مثلاً . وحين لا تزول ، فانها تفقد حياتها وحركتها وتجمد في تصلب نقلته النقاشة عن الفنون الاخرى ، ولا سيا عن التصوير، ولكن الفنان يسعى الى جعل اوضاع اليدين والوجوه تنم عن تعبير باطني خالص . ولهذه الاوضاع ، في معظم الحالات ، معنى طقسي ، كالتقدمة والصلاة والبركة . وفي معظم الحالات ايضاً ، لا يتوفق خرق التنفيذ الى اخفاء المقصد الذي يجب ان يعبر الوجه عنه . وترتسم في الأعين بنوع خاص ، وحتى في غضون الشفاه ، روحانية كانت آنذاك مشتركة بين الوثنيين والمسيحيين : فان هذا العصر عصر صوفية ، ويحلم الناس جميعهم بخلاصهم في حياة ثانية .

لقد سبق وظهرت مثل هذه النزعة في الفن المليني : ولم يجهلها الفن الروماني نفسه كلياً . ولكن ذلك لم يتعد المفارقات الطفيفة . أما فن العهد الامبراطوري الثاني فقد اندفع عن قصد، وبعاطفة حادة مؤثرة ، على ما فيها من خرق ، في استقصاء الخيال الذي يتكلم له الآدميون، ملقياً عليه أحياناً ضوء اليقين الرائق . فهل هذا هو الشرق ايضاً ؟ أجل، أقله بمقدار إيحائه بهذا القلق الديني ، الذي لم يعرفه فن اليونان الكلاسيكية المستندة الى العقل ، ولا فن روما الظافرة المستندة الى القوة .

الكنيسة: البناء والزخرف

وجدت هذه النظرة الجمالية الجديدة ، في الكنيسة ، خير حقل تطبق فيه ، بالاتفاق مع الظروف التي أوجدها انتشار المسيحية . فالمسيحية ، على نقيض الوثنية التي تبقي جمهور المؤمنين خارج المعبد ، تفرض حضورهم الى الكنيسة حيث تقام مراسم العبادة ويلقن التعلم الديني .

ألحت الحاجة من ثم الى أبنية أكبر من المعابد ، لا سيا وان المعابد ، حتى في حال اتساعها ، كانت مقسمة الى عدة حجر . فمن النادر جداً ان يحول معبد الى كنيسة ؛ أضف الى ذلك ان هذا الحدث ، ويصح قولنا في الابنية العالمية الاخرى ، لا يمكن ان يحصل إلا في عهد متأخر ، لأن المسيحية تستقر الى جانب مجتمع وثني ومجتمع علماني يستمران في ممارسة حياتها الخاصة . فتوجب عليها البناء . ولكن الموارد الكثيرة التي وفرها لها سخاء الأباطرة والمؤمنين أتاح لها احداث أبنية عديدة : فمنذ اوائل القرن الرابع برز النشاط البنائي في تشييد الكنائس بنوع خاص .

اعتمدت في هذه الكنائس نماذج مختلفة جداً: فلم يكن هنالك من تقليد يفرض نموذجاً معيناً. ولا يزال الغموض ، على كل حال ، يكتنف مدى تأثير هذا النموذج في ذاك ، او هذه المنطقة في تلك ، او هذه المدينة في تلك المدينة الاخرى . وليس من سبيل الى جلائه إلا بمعرفة تلك الابنية المسيحية الاولى ، في حال ان معظمها قد اندثر او قامت على أساساتها أبنية احدث عهداً ، كما لا سبيل الى ذلك ايضاً إلا بتحديد التواريخ . لذلك فمن التحكم في الايجاز ردّ جميع الكنائس الى نموذجين رئيسيين .

قد يكون منطلق النموذج الاول مدفن شهيد يقوم في وسطه ويرغب العدد الأكبر من المؤمنين في الاقتراب منه . اما بصدد السقف فقد لجأ نموذج الكنيسة هذا ، عادة ، الى القبة ومشتقاتها .

واعتمد النموذج الثاني وهو أكثر تطبيقاً، في الكنائس الكبرى . وهو لا ينطوي في الحقيقة، على أية ميزة خاصة ، اذ انه حوّل للاستعمال الديني ، بأقل تغييرات ممكنة تقتضيها حاجات الطقس ، طرازاً بنائياً قديماً غير غريب عن هندسة العمارة العلمانية الرومانية ، كان الطراز الوحيد الذي صمم بغية استقبال جمع كبير نسبياً . و « الكنيسة الملكية » المسيحية — التي لم يتبدل اسمها — بناء مستطيل يستند سقفه الى هيكل خشبي ويقسمه في أغلب الاحيان الى ثلاثة صحون صفان من الاعمدة ، او الى خمسة صحون احياناً أربعة صفوف من الاعمدة في الكنائس الكبرى ، كما في روما مثلاً (كنيسة القديس يوحنا ، كنيسة القديس بطرس ، كنيسة القديس بولس ؛ وفي القصاء يقوم المذبح ، كما يعد عرش الاسقف في خنية شبيهة بتلك التي كان يحتلها القاضي جالساً على المنبر في الكنائس الملكية العلمانية . ثم وسّع البناء تدريجياً وأحدثت طبقة ذات منصات لاستقبال المزيد من المؤمنين . ثم ادخل على هذا التصميم البسيط ، تدريجياً ، مزيد من التعقيد : فأحدث النارثكس عند المدخل لجلوس الموعوظين (غير المعمدين) وظهر في بعض الكنائس،بين صحن الكنيسة والخوروس ، رواق أفضى الى توسيع هذا الصحن . اما نشأة هذا الرواق فلا تزال موضوع جدل بين علماء الآثار وقد تكون تغيرت وفاقاً للحالات المختلفة . ومها

يكن من الأمر فان هذا الرواق ما زال نادراً ولم ينتشر انتشاراً واسعاً .

ليس بالتالي من ميزة هندسية تذكر ؛ وليس ايضاً ، باستثناء المواضيع التي عالجتها الرسوم المصورة ، من ميزة زخرفية . فالنزعات العامة لفن الامبراطورية الثانية ، انما برزت ، بكل لمانها ، في الكتيبة والكنيسة . أجل لم تجمّل الكتيبة ، مؤقتاً ، بأي تزيين خارجي. ولكن داخلها يعوّض عن هذا العري بغنى زخرفه . فاستخدم المرمر للأعمدة ولتلبيس الأرض وتلبيس

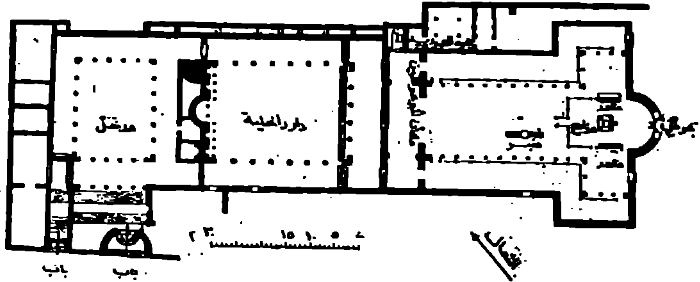

الشكل ٢٧ – كاتدرائية مدينة فيلبي
في مقدونيا (أواخر القرن الخامس)

الجدران حتى علو معين . أما الأقسام العليا في الجدران ، لا سيما في صدر الكنيسة ، فتغطى بالرسوم والفسيفساء التي تمثل العقيدة وبعض المشاهد الانجيلية . وهكذا يجد المؤمن في بيت الله الصورة القمينة بإكمال التعليم الشفهي ومساعدته ، بينما تتعاقب الاحتفالات الطقسية المؤثرة في جو فخفخة من الزخرف والأثاث الفاتنين ، وانسجام بين الأناشيد والموسيقى . فوفرت المسيحية لجميع المؤمنين اطمئنان النفس ، وللفقير بهجات جمالية استأثر الفن ، حتى ذاك العهد ، بالنصيب الأعظم منها خارج الكنيسة : ساعدته عن طريق الاحسانات الزمنية ، ولكنها لم تبخل عليه بالجمال ايضاً .

استخدم الفن المسيحي تقنيات الفن الدنيوي نفسها ، وخضع لنزعاته عينها ، فلم يلبث أن ساواه ؛ ولن يمر وقت طويل حتى يزول هذا الأخير ، أقله في الغرب ، ويبقى الفن المقدس وحده.

موت روما القديمة وإرثها

استمرار العهد الامبراطوري الثاني في الشرق

هل كان من شأن حضارة الامبراطورية الثانية هذه التي استعرضنا مظاهرها الرئيسية ان تعطي انتاجاً اوفر وأجمل لو قدّر لها أن تعيش حياة أطول ؟ يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بالإيجاب، ولكنهم قليلون جداً . اما الآخرون ، وهم السواد الأعظم ، فيكتفون بملاحظة دونيتها امام الحضارات القديمة الكبرى والمحاطها الفاجىء في اوائل القرن الرابع : فيستندون الى هذين الواقعين لإصدار حكمهم المطلق على الحضارة التي شيدها القرن الرابع كيفما استطاع الى ذلك سبيلا.

بيد ان في طرح السؤال خطأ كما يبدو . فلم تمت حضارة الامبراطورية الثانية ، بموت الامبراطورية نفسها ، سوى في الغرب : اذ انها قد استمرت في الشرق . فقد تمادت روما في بيزنطية . ولم تغتصب هذه الأخيرة اسم « روما الجديدة » اغتصاباً . فاذا ما اخذت الكلمة « هليني » آنذاك ، بتبدل غريب ، ولأسباب بيّنها جوليانوس ، المعنى الذي تنطوي عليه كلمة « وثني » ، فإن كلمة « روماني » قد اطلقت طيلة العهد البيزنطي وحتى بعده ، — رومي — على كل مسيحي دونما اعتبار للأصل العنصري : وهذه المفارقة الدينية هي التي سيستفيد منها السلافيون حين يلقبون موسكو ، الوريثة الارثوكسية القسطنطينية ، بـ « روما الثالثة » . ولكن الارث الذي تركته الامبراطورية الثانية لبيزنطية يتخطى النطاق الديني تخطياً بعيداً ، يستحيل هنا ان نضع به بياناً مفصلاً .

وغالباً ما يحدث ان تنكر أهمية هذا الإرث . والحقيقة هي ان الحضارة البيزنطية ليست حضارة الامبراطورية الثانية . فعلى غرار ديانة هذه الاخيرة ، لم تبق نظمها وأساليبها واخلاقها ومثلها الفكرية والجمالية دون تبدل في القسطنطينية ، حين حافظت عليها هذه العاصمة وحدها، منذ القرن الخامس . وقد تأثر التطور المحتوم الذي تناولها بظروف البيئة الخاصة التي حدث فيها . وقد تفوق الشرق آنذاك على الغرب في الحقل الاقتصادي بفضل تجارته الدولية وصناعاته البذخية : فاستطاع الحفاظ على اشكال حياة كانت في طريق الزوال في الغرب . فكان بصورة خاصة الشرق المستقل ، دونما نظير في الغرب ، تسيطر عليه حضارة يونانية لا تخشى سوى

التأثيرات البربرية ، ولا سيا التقاليد الشرقية ، التي عادت آنذاك الى الظهور بعد ان ساد الاعتقاد بأنها أثر بعد عين . ولو ان اطار التطور الجغرافي والبشري كان اكثر اتساعاً ، كما في السابق ، لسلك هذا التطور سبيلاً آخر ، ولبدا نسبه الروماني بسهولة .

زواله في الغرب

أما في الغرب ، فقد زالت حضارة الامبراطورية الثانية ، وحدّد زوالها نهاية عهد تاريخي عظيم . فهي قد مثلت التجسيد الأخير ، ان لم يكن الذروة ، الحضارة الوحيدة التي احتفظت ببعض الحياة ، منذ ستة أو سبعة قرون ، في العالم المتوسطي . بل مثلت في الحقيقة حاصل العصور القديمة كلها ، اذ ان الاغريق والرومان لم يتأخروا ، في تشييدها ، عن أن يضموا إليها كل ما بدا لهم ، في أرسخ الحضارات قدماً، مفيداً ومنسجماً مع نزعاتهم الخاصة ، ومع حاجات العصر . فقد جهل الغرب منذئذ ، وطيلة قرون عدة ، ما استمر الشرق في معرفته ومحبته . وقد حدث في القرن التاسع نفسه ، كما جاء في املوحة رواها بسلّوس *Psellos* ، ان رجلاً من حاشية الامبراطور في القسطنطينية قد اكتفى ، كي يعبر عن اعجابه باحدى النساء ، باستعارة الكلمات الاولى مما ورد على لسان الشيوخ في الالياذة حين مرت هيلانة أمامهم . فهل كان باستطاعة أي رجل بطانة في الغرب ، آنذاك ، ان يستشهد ببيت شعر من أشعار هوميروس ، وحتى من أشعار فرجيل ؟ يجب ان تحدث النهضة ويبرز (رونسار *Ronsard*)، حتى تجتمع مرة اخرى العاطفة الشخصية والتذكرات الهوميروسية .

ليس طمس الثقافة الكلاسيكية سوى مظهر من ظاهرة أعظم شمولاً . بيد انه يستهوينا ان نعطيه قيمة الرمز . فكما تعذر تعداد كل ما تسلمه العصر الوسيط البيزنطي من الامبراطورية الرومانية الثانية، كذلك يتعذر الآن تعداد ما رفضه العصر الوسيط الغربي من هذه الامبراطورية.

اجل ان الخطوط المميزة لحضارة العصر الوسيط، اذا ما وضعنا الديانة جانباً، اخذت ترتسم، في أكثر من نطاق ، في حضارة القرن الرابع، وقد اقتضت الاشارة ، عندما حاولنا تحديد هذه الاخيرة ، الى بذور ، بل الى أسس تلك التي ستغدو حضارة المستقبل . وعلى الرغم من ذلك ، فالفاصل كبير جداً بين الحضارتين ! فما هي قيمة الرواسب امام التخليات ؟ ونكتفي هنا بذكر أبسط هذه التخليات الماثلة للعيان، وهو تخل يستتبع اموراً اخرى كثيرة، أعني به انهيار النظام السياسي والوحدة الامبراطورية ، أي نهاية دور التوجيه الذي لعبته روما ، طيلة قرون ، في مصائر العالم المتوسطي .

كان موت حضارة الامبراطورية الثانية في الغرب ، في الدرجة الاولى ، انحطاطاً لروما كعاصمة . وقد مرّ زمن طويل قبل ان تعوّض لها اولويتها الدينية عن خسارة اولويتها السياسية نهائياً . وفي هذه الأثناء تجزأ الغرب ، الذي كان واحداً من قبل، أجزاء حققت كلها استقلالاً تاماً في تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وقد بقي إحياء الامبراطورية الغربية في يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ مشوباً ابداً بالنقص . أضف الى ذلك ان روما لم تكن يوماً مركزها الزمني الحقيقي . وما عسانا نقول عن الحياة، الحقيرة غالباً ، التي عاشتها هذه الامبراطورية حتى

تنازل فرنسوا الثاني الذي أصبح ، في ٦ آب (اغسطس)من السنة ١٨٠٦ ، فرنسوا الأول ، امبراطور النمسا فقط ؟

أسباب الانهيار

فنحن اذن امام تبدل كبير في مصير الانسانية ، تساءل المؤرخون ـ وغيرهم ـ عن أسبابه منذ زمن بعيد . ولا سبيل الى انكار ما قدمه احدهم حديثاً بقوله ان الحضارة الرومانية لم تمت « موتاً طبيعياً » بل « اغتيالاً » بأيدي البرابرة: وان في استمرارها في شرق لم تنل منه الغزوات إلا في عهد متأخر لدليلاً قوياً جداً . غير ان الاكتفاء بهذه الصيغة، أي بهذا السبب الخارجي ، ليس سوى تبسيط لقضية معقدة يدعونا تحليلها الى تحمل قسطنا من مسؤولياتها . فلا سبيل كذلك الى انكار الحقيقة التالية الاخرى : كان لدى الامبراطورية ، وهي اطار هذه الحضارة ودعامتها الطبيعية ، موارد بشرية تجعلها قادرة ، لو استخدمتها ، على ابداء مقاومة اقل ضعفاً في وجه مغتاليها . وتجدر الاشارة هنا ، دون ادعاء منا بقول كل شيء ولا بتقديم كافة الايضاحات اللازمة لما سنقوله ، الى ان هنالك ملاحظات لا تسمح لنا أهميتها باهمالها . ولكن لن يدهش احد ، بعد هذه الابحاث التي غالباً ما شدّدت ، في العهود المختلفة ، على اقتباسات الحضارة الرومانيـة عن حضارة الشرق اليوناني ، اذا ما بدت المسؤوليات ، من وراء الامبراطورية الثانية ، منعكسة على الحضارة الرومانية بصورة عامة ، وغالباً ، من وراء هذه الاخيرة، على الحضارة الهلينية التي هي امتداد لها بألف حجة ودليـــل . ولعل بعض المسؤوليات ، في الحقيقة ، تنعكس على التاريخ القديم كله الذي جاء وانصهر في الامبراطورية الرومانية .

لنبدأ بانكار ترغمنا عليه انتقادات عرفت انتشاراً واسعاً : ليس من الانصاف ان يستوقفنا هنا ، بين اسباب الهبوط ، التطور العاطفي والديني الذي بعثتـــه الحضارة الهلينية واقتصرت الحضارة الرومانية على مواصلته بمزيد من السرعة منذ القرن الثاني . فان هذا التطور ، بعد كل حساب ، وعلى الرغم من زيغان مؤسف ، قـد جنّل الانسان باقصائه عن تجريد عقلي جاف لم يكن إلا باستطاعة نخبـة مثقفة قليلة بلوغ ذراه . وبعد كل حساب ايضاً ، لم ينزع من الجندي ومن الدولة سلاحها ، بـــل اضاف ، بمثل الملكية ذات الحق الإلهي ، طابعاً دينياً الى واجب الطاعة السياسية والعسكرية : فأفضى الى مبدأ سلطة الملك المطلقة ، من حيث هو إله او نائب إله ، وكان من شأنه ، بالتالي ، ان يوطد متانة الدفاع .

يجدر بنا هنا ان نفكر بالتحيز الذي أفادت منه المدن افادة دائمة . كان لا بد من الوحدة الادبية كي يسهم كل فرد طوعاً في الجهود المشترك ، ولكنها لم تتحقق . اما سبب هذا الاخفاق فيجب البحث عنه في اهمال سكان الارياف باعتماد سياسة هدفت الى استمالة العناصر المدنية، فعلا او قوة ، دون غيرهم تقريباً . فنتج عن ذلك ان الأعباء التي استتبعها الطابع العمراني والمدني للحضارة كما نظروا اليها قد سحقت الفلاحين سحقاً : فحال البؤس الذي كان يصيبهم بفعل هذه الاعباء دون التفاهم المخلص ودفعهم احياناً الى اللصوصية المسلّحة والتمرد ، ودائماً الى السلبية .

اجل سبق للملكيات اليونانية الشرقية ان تألمت من هذا الداء . ولكن روما لم تستخلص أي درس من امثولة مصير هذه الملكيات . بل قوّى فيها اتصالها بالعالم اليوناني مثل المدينة الذي كان مثلها منذ البدء ، فخدمت هــذا المثل في نطاق جغرافي أوسع بمزيد من الثبات والوسائل المادية ، وبالتالي بمزيد من النجاح الظاهر . فقطفت من مجهودها الطويل الثمار المرّة نفسها : وهل يعقل ان يتفانى الريفيون بحماس ، او اقله بخضوع ، في سبيل قضية ما زالت غريبة عنهم ؟

وعلى غرار الحضارة الهلينية ايضاً ، لم تحاول الحضارة الرومانية استخدام المعارف النظرية التي توصل اليها العلماء لصناعة الآلات المتقنة . وليس من الاهمية بمكان هنا ان لا يحقق العلم أي تقدم في روما . فان روما قد وقفت على العلم اليوناني ولم تستفد منه عملياً ، كما لم يستفد منه العالم اليوناني من قبل . ولعل النخبة الاجتماعية الرومانية تفوقت على النخبة الاجتماعية اليونانية ، لا سيما في اواخر الجمهورية ، على صعيد استثمار رؤوس اموالها ، كما تفوقت عليهــا في الاهتمام لاستثمار أملاكها وبيع مصنوعاتها . ولكن ذلــك لم يدم طويلاً ، اذ ان نشاطها الاقتصادي الرئيسي ، حتى في هذه الفترة ، قد تناول الربا عــلى أشكاله . وهي لم تحدث ، على كل حال ، مصانع كبرى تقوم الآلات فيها مقام اليد العاملة وتؤمن انتاجاً صناعياً أوفر بكلفة أدنى : فبقيت الآلة أداة حرب او طرفة غريبة . ومع اننا لا نستطيع اهمال قــوة الحكم القديم عــلى العمل الصناعي، فان وجود الرق يفسر جزئياً هذا الاحجام. ولكن هذا الاحجام بدوره يفسر استمرار الرق : اذ ان شخصاً واحداً لم يفكر بإلغائه لأن شخصاً واحداً لم يتصور امكان تنفيذ الأعمال المادية الضرورية بدون ارقاء . ويمكن القول ، من ثم ، بسبب التنافس بــين الارقاء وكلفة الانتاج المرتفعة ، ان هذا الاحجام يفسر ايضاً استمرار بؤس الطبقات الاجتماعية الدنيا ، الريفية منها والمدنية .

لم يحسّن الانتاج الزراعي والتعديني والصناعي اذن طرائقه القديمة . فقد أنيط ، في مجموعه ، بيد عاملة متألمة وغير راضية بمصيرها ، لا يستميلها الى عملها شيء ، ويميل عددها الاجمالي – اقله بسبب صعوبة الحصول على أرقاء جدد – الى الانخفاض ، بينما يزداد عدد السكان العاطلين عــن العمل . فهل من عجب اذا ما هدد هذا الانتاج خطر عجز دائم؟ لم يعرف التوازن الاقتصادي في العالم الروماني أي استقرار : فكان تحت رحمة موسم سيء ، او اضطراب ، او حادث يخشى منه ان يتطور الى أزمة .

لذلك فان الدولة التي تتوقف مواردها في النتيجة على الانتاج العام قــد عرفت المزيد من الصعوبات المالية . ولم تنج منها الجمهورية إلا بفضل اسلاب أفقرت المناطق التي احتلتهــا ، كما لم تنج منها الامبراطورية إلا خلال فترات قصيرة جداً ، بعد وضع يدها على الكنوز التي كدّسها أفراد أثرياء صادر الامبراطور ثرواتهم او شعوب غرباء كالداسيين الذين هزمهم ترايانوس. ثم ألحت الحاجة بأن تصبح الدولة بيروقراطية ولتستلم زمام الاقتصاد وتسن نظام جباية مرهقاً : فلقنتها الدرس هنا ايضاً ملكية هلينية على الاقل هي ملكية البطالسة في مصر .

نشأ الخطر الأشدّ أخيراً من ماضي روما الجمهوري الذي اوجب عليها تأمين الغذاء الشطر الأكبر من الكادحين الرومانيين ، ومن النظرية الملكية التي فرضت سياسة البذخ في البناء ، فكان للعجز المالي صداه في القوى المسلحة بنوع خاص . ولم يكن الجندون يوماً يكلفون القيام بالمهام المطلوبة منهم . فقد ورثت الامبراطورية من الجمهورية جيشاً عترفاً باهظ النفقات . ومن حيث انها ملكية قامت على أشلاء الحريات السياسية ، لم يسعها اعادة خدمة عسكرية اجبارية ألغاها النظام الذي سبقها : فتوجب عليها ، والحالة هذه ، استمالة المتطوعين بالوعود المادية . وتوجب عليها ، بسبب افتقارها الى المال ، اللجوء الى اقل العناصر البشرية تطلباً، أي الى غير المواطنين، وتدريجياً ، الى البرابرة : فكان وقت فقد فيه الجيش الامبراطوري صفته الرومانية . غير ان هذا الجيش لم يبلغ عدداً مرتفعاً في يوم من الايام : فكان التوازن العسكري متضعضعاً على غرار التوازن الاقتصادي . فمنذ ان أضافت الثروات الناتجة عن الفتوحات ، خلال القرن الثاني قبل المسيح ، الى اجر حقير يتقاضاه مواطن يخاطر بحياته لأجل وطنه ، الغنيمة والمكافآت التي توفر له اليسار ، صدر الحكم على روما بهذا التضعضع . ولن يلبث هذا التضعضع ، عاجلاً ام آجلاً ، ان يعود عليها بالشؤم .

بعد قولنا هذا ، او بالاحرى بعد جمعه ، – لأن عناصره كانت موزعة على اجزاء هــــذا الكتاب – يجدر بنا الاعتراف بأن هنالك مجهولاً لا يجوز نكرانه . لنتصور حضارة اقل طابعاً مدنياً، تبذل جهدها لتحقيق المزيد من الانتاج ولتوفير المزيد من اليسار للساكين، وتقدم للدولة المزيد من الموارد، وتتيح لها تعهد جيش أكبر عدداً، وتلجأ الى خدمات مواطنيها على مدى اوسع: فهل كان من شأن كل ذلك ، الذي يبدو ممكناً نظرياً ، ان يسمح لروما بوقف موجات البرابرة المستمرة التي يدفعها نحو الرين والدانوب شعوب أخرى تتدافعها من الوراء آتية من عوالم نائية؟ ان في الاجابة على هذا السؤال ، اثباتاً او نفياً ، لجسارة كبرى: لا سيما وان الطريقة الاختبارية لا يمكن تطبيقها للتأكد من مثل هذه الافتراضات . فلنكتف بالقول ان هذه الشوائب قــد أضعفت دفاع روما حين احدقت بها كل هذه الاخطار : فالداء مزمن ولم تستطع الامبراطورية الثانية معالجته على الرغم مما انطوت عليه انتهازيتها من حزم .

انهيار حضارة

لقد ماتت روما القديمة اذن . في السنة ٤١٧ ، اي بعد مرور سبع سنوات على غارة ألاريك ، عاد روتيليوس نماتيانوس ، الغالي الوثني ، الى مسقط رأسه ، ورغب في الرد على تصريحات القديس اوغسطينوس اللامبالية في « مدينة الله » ، فأعرب آنذاك ، في ابيات شعرية كلاسيكية مؤثرة عن اليقين الواثق الذي اوحى به اليه مستقبل « المدينة » الزمني : « ان القرون التي ستعيشينها لن تعرف نهاية ما دامت الارض ارضاً والكواكب سابحة في السماء . انت تستمدين قوة جديدة مما يهدّم الممالك الاخرى . فالبحث في المصائب عن مبدأ النمو هو سنة الانبعاث » . ولكن الوقائع لن تلبث ان تناقض هذا التفاؤل . فماذا بقي مــن الامبراطورية الغربية مائة سنة بعد ثيودوسيوس «الكبير» ؟ او ماذا بقي من الحضارة الرومانية

التي هي الأهم في منظار هذا الكتاب ؟

لا شيء يذكر مما هو حي. لا شيء تقريباً سوى المسيحية التي لا تزال تحمل في تنظيم كنيستها وفي الفكرة المسكونية التي تجيش فيها طابع الامبراطورية الذي لا يمحى . ولكن المسيحية ديانة تبنتها روما وشاركتها دون ان تصدر عنها اساساً : لذلك فالمسيحية أمر عظيم بحدّ ذاته ، هزيل بالنسبة للوقائع السابقة . اما ما تبقى فأطلال وأطلال : ممالك بربرية مستقلة ؛ مناطق تنكمش على نفسها انكماشاً بدائياً وتعيش حياة خاصة ولن تلبث ان تنفصل ، حتى في لغاتها ، عن جذع الحضارة اللاتينية المشترك ؛ مدن مشلولة تعاني سكرات الموت تتداعى ابنيتها شيئاً فشيئاً ؛ مجتمع ريفي بنوع خاص يسيطر عليه سيّد تنازلت له الدولة عن حقوقها .

إرث روما

بيد ان هذه الانقاض المتراكمة لم تحل دون بقاء ارث غير مادي . ولا نعني بقاءه في القلوب : لأن لنكران الجميل ، الذي يفرضه النسيان ، مزية تسمح للانسانية بأن لا تذوب أسفاً على الماضي المفقود وتتطلع الى المستقبل . بل في الكتب التي ما زال بعضهم يستنسخونها ، ولو لم يفهموها دائماً ، والتي سيوجد في عهد لاحق من يعرف كيف يجمعها ويحيي تعليمها .

فروما لم تكتف بأن نقلت الى الغرب العناصر الهامة في الحضارة اليونانية بعد ان استساغتها لاستعمالها الخاص. بل أضافت اليها إسهامها ببناء القانون وبناء دولة غير المدينة الصغيرة . اجل، وضعت الملكية الهلينية الرسم الايحازي لهذه الدولة . ولكن روما هي الاولى التي سوّت ، امام السلطة الموكول اليها امر ادارة المصالح المشتركة ، الوضع القانوني لكافة الرجال الاحرار . وهي الاولى التي تخطت انتصارها وألغت التمييز بين غالب ومغلوب بإحلال قوميتها محل كافة القوميات . فقد أطلق المعاصرون على الامبراطور فيلبوس اسم « العربي » ، وهو الذي احتفل في السنة ٢٤٨ بأعياد الذكرى الالفية للمدينة التي أسسها رومولوس : وهو في الواقع قد ولد في ما وراء الاردن ، وان صفته الامبراطورية في مثل هذه الذكرى لرمز الى اعظم المظاهر تميزاً في السياسة الرومانية . وكذلك فان روتيليوس ناماتيانوس قد كتب ، لمناسبة « عودته » الى غاليا هذه الأبيات الشعرية المشهورة ، موجهاً كلامه الى روما :

« صنعت وطناً واحداً من شعوب مختلفة ،
... وصنعت « المدينة » مما كان العالم من قبل »

وتحمل شهرتها الحلال ، احياناً ، على اهمال التحفظات التي تستوجبها : فان لقب « المواطن الروماني » ، حين وزعته الامبراطورية الرومانية بسخاء ، كان خالياً ، منذ زمن بعيد ، من جوهره السياسي ، كما ان « المدينة » ، التي أصبح حامل هذا اللقب ابناً لها لم تعد هي نفسها مدينة الاخوين غراكوس ، او حتى مدينة شيشرون . بيد ان « المواطن » الجديد قد انتسب الى دولة تسهر على سيادة النظام وتفرض الطاعة على الجميع وتمنع تجاوزات السلطة وتحيط النشاط الجماعي

بإدارة منظمة . فهذه المفاهيم لن تنتظر عهد النهضة حتى تنهض ، اذ انها في الاساس من شكل جهاز سياسي معاصر .

وهل يجوز للمؤرخ اخيراً ان يبتعد عن روما دون ان يعبّر عن دهشته وذهوله امام مصيرها الذي هو واحد من اعجب المصائرالتي رسمها التاريخ؟ ولدت ولادة مغمورة كمركز لناحية ريفية صغيرة ، فأصبحت سيّدة عالم بأسره ، ثم عاصمته ، قبل ان تنحني امام هجوم فوضوي انطلق من عالم آخر . عرفت كل الانظمة على التوالي : الملكية التي حلت محلها جمهورية ارستوقراطية ، والديموقراطية المترنحة التي انتهت الى الدكتاتورية العسكرية ، والملكية المعتدلة التي انتهت الى الحكم المطلق ذي الحق الإلهي . كما عرفت ، في داخلها ، شتى الانظمة الاقتصادية والاجتماعية : الاملاك الريفية الصغيرة والاملاك الواسعة ، والشركة المالية القوية ، والصناعة اليدوية الفردية، والعمل التعاوني القاسي الذي فرضته السلطات العامة ، وملوك الثروة، والعاطلين عن العمل الذين تغذيهم الدولة، والمصارعين الذين تقدمهم ماركهم ودمهم وموتهم ألاهي الجماهير. وحققت بجهودها المتواصلة واقتباسها عن الاجانب ، ثقافة عقليـة وكلاسيكية ما لبثت ان طغى عليها تدريجياً التصنع والإسفاف والرمزية. فما هي الجماعة البشرية التي قطعت مثل هذا الخط المتحني الطويل وجمعت هذا القدر من المظاهر المختلفـة في ديمومة تطورها المنطقية ؟ ان من يرغب في تكوين فكرة عن التناقضات والتحولات التي يمكن ان يطلع بهـا مجتمع ما ، لن يجد في غير مكان امثلة ومواضيع تأمل اهم عظمة ووفرة وافادة علمية .

القسم الثالث

آسـيا الشـرقيـة
من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع

تخصيص مجلدين لهذا القسم اضطرنا لأن نقوم بعملية انقطاع او توقف في اواخر القرن الاول قبل الميلاد . فقد سبق ونوهنا ، في المجلد الاول[1] (ص ٦٠٤) ان ما من تغير ملحوظ حري بالانتباه طرأ على تطور الحضارة في الهند والصين ، يبرر مثل هذا الانقطاع . قد يكون له ما يبرره نوعاً ما ، من الوجهة التاريخية : فسقوط عهد سلالة الكتوا ، حوالي سنة ٥٠ ق.م. قـد يكون مهّد الطريق لظهور سلالة اخرى ، في الهند ، ابعد الى الشمال ، هي سلالة كوشانا . الا ان هذه الاسرة الجديدة ، رغبة منها في تيسير الاتصالات بين شمالي الهند والمناطق القندهارية ، اخذت بعد هذا التاريخ بعدة تحرص على بقاء طرق المواصلات هذه ، قائمة بين الطرفين لتأمـين تسرب المزيد من النفوذ الهندي وتغلغله نحو الجنوب ، ولكن هذا الامر لم يعطل قط الاخـذ بأسباب التطور الحضاري . وهكذا الامر مع الصين . فاستبدال فرع هان السابق ، عـام ٢٥ بعد المسيح، بفرعها اللاحق ، لم يترك له اثراً يذكر في مجال الحضارة التي لن يطرأ عليها اي تغيير ملحوظ الا بعد هذا العهد بنحو مائتي سنة .

ولكي نفهم جيداً ، وعلى وجه اتم ، الاحداث التي هي موضوع بحثنا هنا ، قـد يبدو من الضرورة بمكان ان نعالج ، من جديد ، احداثاً تاريخية ، سبق ان عالجناها في السابق .

---

(١) الشرق واليونان القديمة ـ منشورات عويدات.

الفصل الأول

وصف عام لآسيا الشرقية

١ - ثلاثة اقطاب للاشعاع الحضاري

بلغت المراكز الحضارية التي تألفت من قبل ، في تطورها الصاعد ، درجة من النضج بحيث تمت لها سلطة مركزية واشعاع ديني متقدم ومواصلات تجارية منتظمة . وعلى كل ، فميزة هذه الحقبة ليست الازدهار المتزن السوي – بل شيئاً اشبه ما يكون بهذا الغليان الفكري الذي عرفته الاجيال الوسطى حيث كان يجيش ، تحت ستار من التوازن الظاهر ، فكر غلاّب ، مبدع ، خصيب ، نذير فيض من الحيوية التي تسبق حقبة من الانجازات التي تلسم بالنضج والكلاسيكية .

فكل ما في هذه الحقبة يدل على انها حقبة اختبار وانتقال – حقبة تركيز العناصر التي لا بد منها لكل نظام ، وتأكيد السيطرة المكتسبة .

ايران من الخارج

حقبة الانتقال هذه ، تتميز بسلسلة متصلة الحلقات من الغزوات الحقت تغييراً كبيراً في الممالك الهند – اليونانية التي قامت بين الهند وايران ، في الحقبة السابقة . فهؤلاء الغزاة الجدد : الساكا هم اقوام من الغز او السكيثيين ، في شبه حركة دائمة منذ عدة قرون ، فاضطروا للرجوع القهقرى بعد ان اصطدموا بشعوب هيونغ – نو (الهون ، فنكصوا على اعقابهم الى بكتريان ومنها ارتدوا بموجات متتالية حتى مشارف الهند ، في القرن الاول قبل الميلاد ، واستقروا في دلتا نهر الهندوس ، فاتخذوا منه ممراً ليهاجموا ممالك اليونان في غندهارا ، وما لبثت هذه الممالك الهند الاوروبية ان تفتتت وزالت تباعاً من الوجود . وما عتمت اقوام الساكا التي استقرت في هذه المنطقة واتخذت منها موطناً جديداً لها ، ان راحت تقتبس الكثير من الحضارة الهلينية التي نقلها معهم الهند – اليونان . وقد جاشت هذه القبائل بالاطماع ، واشرأبت باعناقها الى الفتح ، فاتجهت باحدى نواظرها نحو ايران الواقعة تحت حكم الاخيليين ، وبالاخرى نحو الهند تحاول اقتباس الكثير من عناصر حضارتهـا . فالنقود التي خلفوها توضح تماماً هذا الاتجاه ولا تدع مجالاً للشك قط . فهي كالعملة اليونانية ، جميلة المظهر ،

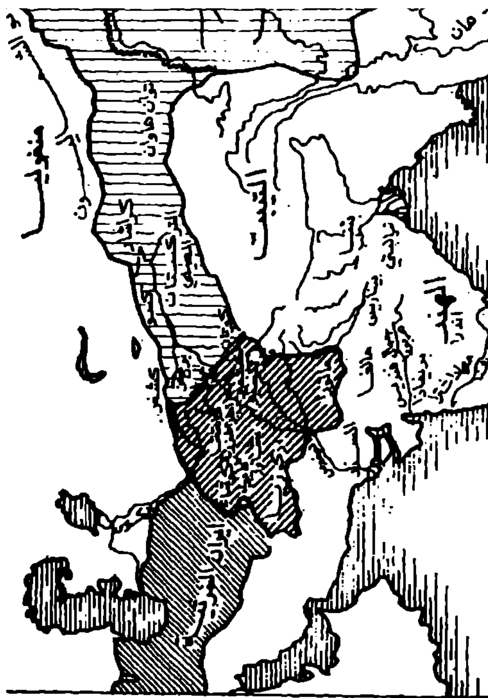

الشكل ٢٨ – آسيا في القرنين الأول والثاني
بعـــد الميلاد

فقد اسقطت اسم الفازلفس واستبدلته باسم ملك الملوك ، وهو لقب ملوك الدولة الاخيلية ونقشته بالحرف اليوناني من جهة ، وبالحرف الكاروشتي ، احدى لهجات الهند ، من الجهة الاخرى . وتتمثل السلطة المركزية في الولايات بمرزبان ، كما يتولى امر الجيش فيها قائد يحمل لقب ستراتيج *Stratège*، كما عُرف عند الاغريق، ولو حملوا اسماء هندية. ومن جهة اخرى نرى رابطة قربى بين قبائل الساكا وبين الفارثيين (فهلوى) ايران .

فالمؤثرات الهلينية التي تزداد وتنمو في عهد السيطرة الهندو – اليونانية ، تتسرب بدورها بمؤثرات ايرانية ، وان شئت ، فقل تنتقل عن طريق ايران التي سبق لها وتهلينت نوعاً . ولا يلبث مَثل روما ان اصبح مثالاً يحتذى ، لدى ملوك الشرق . وبهذا تحتل روما محل اليونان في مجال التأثير . وهكذا نرى الشعوب المجاورة للهند ولايران لا تلبث ان تقع تحت جملة من المؤثرات الاجنبية فتعملان على تمثلها واستمرائها وتكييفها ، طبقاً للتقاليد المرعية عندها . ويظهر ذلك كله بوضوح في هذا الفن المعروف بالفن اليوناني البوذي ، حيث نرى عناصر فنية هلينية ، رومانية وتدمرية ، ثم بيزنطية ، بعد فترة قصيرة .

الهند في القرن الاول للمسيح ، نرى سيطرة قبائل الساكا والفهلوى في خطر من جراء غزاة أطلوا من جديد لم يلبثوا ان قضوا عليها واطاحوا بها ، هم الكوشانا ، الذين يمتون بنسب وثيق لقبائل يوه – تشه الذين يرجح العارفون انهم من التوخاريين سكان منطقة خوتان ، من هذه العروق الايرانية الشرقية . فقد مرت عليهم عهود كانوا فيها من البدو واهل ظعن ، يهيمون في فيافي نهر الاوكسوس والبكتريان ، وبقيادة زعماء محنكين (حمل اولهم اسم كوبولا كاسا وباليونانية : كوزولوكادفيزيس ، وبهذا اللقب عُرف ايضاً ابنه وخليفته على رئاسة القوم ، المسمى : فيماكاتفيزا) ثم اقتطعوا من الفارثيين ، مقاطعات كابول واراكوزي وكل البنجاب . واستطاعوا ، خلال القرن الاول والنصف الاول من القرن الثاني ، ان يصلوا بغزواتهم الى مدينة بنارس ، ومنها جنوباً حتى مقاطعة نربودا ، ومنذ ذلك الحين اخذ هؤلاء الملوك يلقبون انفسهم : بـ « ملوك العالم اجمعين » وهو لقب مستمد من الالقاب التي كان يحملها ملوك الفرس قديماً . واستطاع الثالث بين ملوكهم ، وهو المدعو كانيشكا ان يوسع حدود سلطانه ، اذ جعل عاصمة ملكه ، شتاء ، مدينة بشاور ، كما جعل من مدينة بغرام عاصمته خلال فصل الصيف ، جامعاً تحت سيطرته المباشرة : مقاطعات غندهارا وكابول . كذلك بسط سيطرته على كشمير والبنجاب ووادي نهر الغنج حتى مدينة بلتنا وقد يكون اخضع لسلطانه مقاطعة ماهاراشترا ، كما يرجح بعضهم . وكان مركز الثقل في امبراطوريته ، بالنسبة الى دولة موريا بلخ ، من الشمال الغربي ، كما تدل اتصالاته العديدة على الحدود الشمالية الغربية ، مع الفارثيين (الفهلوى) الذين يعملون على نشر المؤثرات الهلينية والايرانية ؛ ومع الصين والتركستان الشرقي ، الذي ضرب عليه الجزية ، وان لم يتمكن من بسط سيطرته على هذه المنطقة . وفي عهده ، كما يرجحون ، ارسل عدة وفادات هندية ، الى الصين فسارت اليها متبعة

الشكل ٢٩ – الهند في عهد السكورشانا والأندهرا

طريق بحار الجنوب (١٤٧ – ١٦٧) .

ومع اننا نجهل بالتدقيق حدّيّ حكم كانيشكا، فالارجح انه حكم مدة اربعين سنة ، في النصف الثاني من القرن الثاني (اي كما يرجح غرشمان: من ١٤٤ – ١٨٥) . فهو يمثل ، على شاكلة موريا اسوكا ، العهد الذي بلغت فيه امبراطورية كوشانا ، الذروة من المجد والسلطان ، وراح يعمل على نشر البوذية بعد ان اعتنقها ، كما اخذ تحت حمايته ايضاً الجانية والبراهمانية ، واذا كان الاول بين ملوك الهند يضرب السكة حاملة صورة بوذا ، فقد حرص كذلك على سك بعض عملات تحمل آلهة الايرانيين . « سيد المفترق الكبير لهذه الحضارات الناشطة التي عرفها عهده». فقد تمت لهذا الملك شخصية ممتازة تحدثنا عنها التقاليد البوذية المرعية في شمال الهند والتيبت والصين حتى ومنغوليا . ومع انه سيطر على جانب كبير من الهند ، فهو يبدو ، في الصور التي أخذت له في المناسبات الرسمية ، مرتدياً الزي الدارج في قبيلته وبني قومه بلحية كثة . وهو شيء لم تعرفه الهند ، مع عمة طويلة وقفطان مسترسل، وجزمة ضخمة من اللباد ، وهو لبس قائد حلة ، يقطع الفيافي على صهوة حصانه ، يطأ على حين غرة ، ما تناءى من البلدان . ومع هذا ، فالفن البوذي في ذلك العصر ، الممثل خير تمثيل في ماتورا ، يستمر في تطوره وفقاً للنماذج المعروفة ، دون ان يبدو عليه اي تأثير من الخارج .

فهذه الوحدة السياسية التي تمتعت بها الهند جزئياً ، في عهد كوشانا، وهذا الاختمار الفكري الذي سببه اتصالها بالخارج، هيأ لها ازدهاراً فكرياً وفنياً انبثق من تقاليدها الوطنية المتوارثة. والراجح لدى اهل العلم ، ان الملحمة الهندية الرمّيانا اكتمل وضعها في هذه الحقبة ، كما ان الملحمة الاخرى : المهبهراتا ، كانت ، هي الاخرى ، في سبيل الانجاز . ومن المظنون كذلك ان هذه الحقبة شهدت ايضاً وضع البهاغافات جيتا. فان صح هذا الرأي ، فالقضية لا تخلو من اهمية ، لانها تعني ظهور نظرية البهاكتي وهي النظرية التي تقول بامكان وصول الانسان الى الالوهية ، ليس فقط عن طريق التضحية والزهد والتنسك ، والمعرفة الروحانية ، بل ايضاً ، ولا سيما ، عن طريق التعبد والتهجد ومحبة الله . كل هذا انما يعني وجود اله واحد احد ، ويسجل تقدماً ملموساً وتطوراً محسوساً بالنسبة للحقبة المنصرمة . ونظراً لاختلاط الشعوب وتمازجها بعضاً ببعض ، في هذه الحقبة ، ولظهور المسيحية واقترابها من الهند ، راح البعض يتساءل ما اذا كانت هذه العقيدة الدينية تأثرت ، من قريب او بعيد ، بالتعاليم المسيحية الناشئة ، كما تشير الى ذلك بعض الدلائل . من الامور المسلم بها ، حسب التقليد المسيحي ، ان الرسول القديس توما هو اول من حمل الكرازة بالانجيل الى هذه الناحية الشمالية الشرقية من الهند ؛ وبدون ان نأخذ بهذا التقليد الذي لا ينهض على اساس تاريخي ثابت ، قد يكون في التنويه به ، اشارة من بعيد او دلالة ما ، على شيء من هذا التفاعل الممكن .

وهذا النشاط يبدو على الآداب الدينية يقابله ، من جهة أخرى ، ظهور أقدم محاولات فن الدراما في الهند ، ممثلة بما وصل إلينا من بعض آثار أسفاغهوشا *Açvaghosha* التمثيلية ، الذي كان ، حسبما ترويه التقاليد المتوارثة ، وزيراً للملك كانيشكا ، وغيرها من هذه المسرحيات

الكاملة التي وضعها بهاسا ، (اواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع) ويمكن ان نتبين في هذا الانتاج ، كما يبدو ، اذ ذاك ، أسس المسرح الكلاسيكي ، الذي سيبلغ ازدهاره ، الذروة في عهد الاسرة الملكية الغوبتا . كذلك يمكن ان نرد الى هذا العصر ، ظهور مجموعة من الحكايات على لسان الحيوانات ، هو كتاب المكائد الخمس ، وهو كتاب أريد به الموعظة ، وعليه عولت البوذية كثيراً في الحقبة السابقة . ومن النتائج التي أدت اليها هذه الغزوات والفتوحات ، نشر اللغة السنسكريتية وتعميمها ، وذلك باطلاقها من حيز البرهمانية الضيق واستعمالها ، على نطاق واسع ، ليس فقط في الأدب العلماني او الدنيوي ، بل أيضاً في لغة العلم والثقافة ، واللغة الرسمية ، شاهد على ذلك هذه النقوش والكتابات الحجرية . وقد استخدمت البوذية هذه اللغة في المناطق الغربية الشمالية من الهند ، واتخذتها بديلاً عن اللهجة الهندية الوسطى المحكية في المناطق الاخرى . اما الأسباب التي جعلت السنسكريتية ، هذه اللغة القديمة المقدسة ، لغة حية ولغة علمانية ، فهي ، من جهة ، ردة الفعل التي قابلت بها الهند الغزاة ، فواجهتهم باداة تعبير لها احترامها في النفوس ومنزلتها في القلوب ، مفهومة لدى الهنود جميعاً ، ومن جهة اخرى ، أنَفَة من هؤلاء الدخلاء الأجانب الذين لم يتورعوا عن استخدام هذه اللغة المقدسة لأغراض دنيوية.

لم يكن للمتأخرين من ملوك دولة كوشانا ، من السؤدد والشأن ما كان للمتقدمين منهم . فقد أثارت الدولة الساسانية في ايران امامهم مصاعب كأداء ، تعثروا بها وتضرسوا بويلاتها فجلبت نهايتهم ، اذ توالت عليهم في منتصف القرن الثالث للميلاد ، انكسارات تقلصت معها سيطرتهم ، وانكمشت سيادتهم على آسيا الوسطى والسند . واذ كنا لا نزال نرى ، في القرنين التاليين ، بعض ملوك دولة كوشانا ، يحكمون في بعض مناطق الهند الغربية الشمالية ، فلن يعتموا ان يطويهم التاريخ ، ويدخلوا في خبر كان ، بعد ان اقتطع الايرانيون ، خلال فترة غامضة ، طويلة ، ولو تعذر علينا تحديدها ، بعض ممتلكاتهم . وهكذا انتقلت نقطة الثقل ، قليلاً ، ابعد الى الشرق ، مع ان نفوذ ايران بلغ اشده في الهند في هذه الحقبة ، واستمر فيها حتى عام ٤٥٠ .

واستجابة منها لهذا الازدهار الذي تألق سناه في مناطق الهند الشمالية ، شهدت المنطقة الدزافيدية طلوع عدد من الممالك على ارضها ، أخذ بعضها يظهر للوجود في الحقبة السابقة ، ثم ما لبث ان ازدهر وتألق . من اشهر هذه الممالك ، بالنظر للآثار الفنية التي خلفتها ، مملكة أندهَرا ، التي قامت بين المجرى الأسفل لنهري غودافاري و كريشنا . ومع أن الأحداث التاريخية التي ميزت عهد شاتاكارني أحد ملوك هذه الدولة ، لا يزال الغموض يكتنفها ، فالآثار الباقية تشهد عالياً على قيام مدنية وطيدة الاركان ازدهرت في هذه المنطقة ، كانت مدينة أماراقاتي حجر العقد فيها . والذي يبدو لنا ان ملوك هذه الدولة ، اضطروا مراراً ، للدفاع عن مملكتهم ضد تعديات ملوك تشاكا واليونان (يافانا) والفارثيين ، وبعبارة اخرى ، ضد كبار المرازبة ، خلال القرن الاول ومطلع القرن الثاني . ولعلهم اضطروا ايضاً لصد غزوة جاءتهم من الكوشانا . بعد هذا حدثتهم نفسهم بالفتح ، فاستولوا تباعاً : على مالفا (وحلوا فيها محل آخر ملوك دولة كانفا) ،

وعلى منطقة الكونكين الشمالية ، ومقاطعة فيدربا وعلى قسم من بلاد كنارا ، ومدينتها الكبرى فيجايانتي ، ونرى عدداً من الكتابات التي خلّفوها ، عُثر عليها في نازك وكارلي وكنهاري . الا ان هذه الدولة اصيبت بالانحلال ، في اواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث، ولم تلبث ممتلكاتها ان تشتتت بدداً ، بين شعوب الفنجي والبلاڤا الذين كُتِب لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في التاريخ (عاصمتهم كنشيبورام) .

أما في اقصى الجنوب من الهند ، فقد قام في بلاد التامول، ثلاث ممالك تقاسمت مقاطعاتها فيما بينها ، منذ عهد أسوكا ، وربما قبل ذلك : اما هذه الممالك فهي مملكة : بنديا ــ التي دعاها بطليموس : بنديون ــ وعاصمتها مادورا ، ومملكة كيرالا ، في ولاية ترافنكور اليوم، ومملكة تشولا ، على ساحل كوروماندل ، ومن حواضرها الكبرى تنجور ، الواقعة على حدود اندراه. اما حقيقة تاريخ هذه الممالك، فسلسلة متلاحقة من الحروب مع بعضها البعض او ضد ملوك سيلان.

كان القسم الجنوبي من الهند في منأى من المؤثرات الخارجية مبدئياً ، ومع ذلك فقد تعرض لبعض منها جاءته من الغرب وانتقلت اليه ، بحراً ، عن طريق العلاقات التجارية التي شدت هذه المنطقة بروما وآسيا ومصر . فقد قامت حركة من التبادل التجاري مع غندهارا ، وبذلك تمهّد السبيل للاتصال ، عن طريق البحار الجنوبية ، بما قام من الممالك المتهنّدة ، منها : فو ــ نان ، في الكوشنصين ، اليوم ، ولن ــ يي في مقاطعة شمبا ، على ساحل الهند الصينية الشرقي ، ودول شبه جزيرة الملايو ، وبعض نقاط في الانسولاند ولا سيا في سومطرا .

الصين

الى جانب هذه الكتلة الهندية قامت ، في الشمال ، الصين التي عَرَفت هي الاخرى عهداً عظيماً استتب فيه السلام، هو عصر الهان اللاحق الذي كان تتمة او استطراداً لعهد الهان السابق . اما الحاجز الذي انتصب حداً فاصلاً بين فرعي هذه الاسرة ، فقد وقع سنة ٨ للميلاد ، عندما اغتصب وَنغ مُنغ، العرش واستأثر بالسلطة . وكان ونغ منغ هذا ، احد مشاهير مثقفي عصره ، عمِل وزيراً في البلاد كما كان احد فلاسفة الكونفوشية . وعندما تمّ له الأمر واعتلى العرش ، راح يحاول اصلاح النظام المعمول بـه في المملكة اذ ذاك ، كفيلسوف كونفوشي اشتراكي . وقد لقيت محاولته الاصلاحية هذه مقاومة قوية من قبل الفئة المستبدة بالوضع الاجتماعي اذ ذاك، منذ اجيال . فقد استطاعت طبقة كبار الملاكين منذ عهد بعيد ، ولا سيا في عهد اسرة هان ، ان توطد نفوذها وأن تنميه وترسخه ، وان تزيد كثيراً من ثروتها العقارية على حساب صغار الملاكين، وعلى هذه الفئة من الافراد الذين تمتعوا بحرياتهم الذين ما لبثوا ان أصبحوا من التوابع او من الارقاء . وكما كان السيد المسيح، في فلسطين يرفع عقيرته عالياً ضد الاغنياء، هكذا راح معاصره: المصلح الاجتماعي الصيني ونغ منغ ، يهاجم بعنف ، نظام الرق والعبودية الذي وقعت البلاد تحت وطأته الشديدة . وفي هـذا السبيل وضع نظاماً اشتراكياً زراعياً وتشدد في تطبيقه . فقام بعملية توزيع الاراضي من جديد ، وفرض نظاماً من الاقتصاد الموجه رمى منه ليس الى توحيد الاسعار فحسب ، بل ايضاً ، الى تكوين احتياطي من غلال

الارض ومحاصيلها السنين العجاف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يلاقي عمله الاصلاحي هـذا معارضة قوية من قبل المحافظين ودعاة الشرعية ، فنشبت في البلاد ، من جراء هذه الاجراءات اضطرابات ونزلت بها قلاقل اجتماعية ، قامت على أثرها ، في مقاطعة شان تونغ ثورة لاهبة دامت ثلاث سنوات حاولت المعارضة استغلالها وتحويلها لمصلحتها ، مما اضطر ونغ منغ ، الى اعتزال الحكم. فأعاد الموالون للعهد الماضي وانصار الشرعية، الأمرَ الى أسرة هان من جديد، في شخص احد أبناء فرعها الاصغر . وقد امتد عهد هذه الدول الجديدة ، من سنة ٢٥ للميلاد حتى سنة ٢٢٠ ، فعادت معه الامور سيرتها الاولى ، دون ان يترك هذا الانقطاع في الحكم الذي استمر ١٧ سنة ، أي تغيير يذكر في سير تطور الصين . وفي عهد اسرة هان اللاحق عادت الصين الى سابق سيرها المألوف نحو التطور، سواء في الداخل ام في الخارج، كأنّ شيئاً ما لم يحدث. فقد استقرت فيها الامور ، من الوجهة الفكرية والروحية على ما عُرفت به من تقاليد المحافظة ، كما تابعت في المجال الفني ، الاخذ بالاساليب والمناهج ذاتها التي كان سَبق للبلاد ان اخذت بأسبابها ، في الماضي ونهجت فيها نهجاً سوياً ، أصبح معه من الصعب التمييز احياناً ، بين آثار هذا العهد والآثار التي تعود الى عهد الملوك المحاربين .

تمكن الفرع الثاني لأسرة هان من ان ينشىء له امبراطورية واسعة في الصين . فلم يقنعوا بانجاز فتوحاتهم في آسيا الوسطى ، بل راحوا يفرضون عليها نظاماً شديداً، استحالت معه هذه البلاد الى حماية فعلية ، بفضل الجهود الحربية التي قام بها نابغة الحرب الصيني بان ـ تشاو ، *Pan Tchao* ، الذي راح بين سنة ٧٢ – ١٠٢ ينظم ويدبّر الواحات القائمة في صحراء غوبي ، فأحسن بها العناية وتعهدها ، واستثمرها على أحسن وجه ، ملشئاً فيها ومتخذاً منها: مراحل يأتمُّ بها تجار الحرير في ما يسلكون من طرق تربط عبر جبال بامير ، الصين بالعالم الهندي ، والصين بروما في عهد الدولة الانطونية ، احتذاء بالتقاليد التي اتُّبِعت في الحقبة الماضية ، اذ بلغ فيها الغرب ، الصين بواسطة علاقاته التجارية . وقد حاول بان ـ تشاو ان يقيم ، كما يقال ، على أسس قومية ، علاقات تجارية وسياسية مع روما بالذات ، إلا ان محاولته هذه فشلت . غير ان الحركة التجارية بقيت ناشطة على طول هذا الطريق ، وذلك بفضل السلام الصيني ، كما يلاحظ المؤرخ الفرنسي رنيه غروسيه، هذا السلام الذي تلاقى مع السلام الروماني ، عبر ايران الفارثية.

نظر الصينيون ، في القرن الثالث ، الى الامبراطورية الرومانية وسيادتها ، نظرة ملؤهـا التقدير والاعجاب ، كما يبدو لنـا ذلك من خلال ما تم لهم من معلوماتهم المصرّدة جمعوها بالتواتر ، أي بالنقل عن ألسنة الناس ، لا تتسم بالضبط والدقة . وقد يكون من المثير الفضول أن نورد هنا نتفاً من هذه المعلومات : كانت تا ـ تسن ، أي تسن الكبيرة ـ وبهذا الاسم عُرفت الامبراطورية الرومانية في الصين قديماً ـ تضم ما يزيد على ٤٠٠ مدينة ، وان عاصمتها كانت تقع عند مصب أحد الأنهر، وان أسوار المدن كانت تقام من الحجارة. في هذه البلاد ، ينمو السرو والشربين ، والشوح والحور والصُّفيرا، والصفصاف وشتى اصناف الحشائش والأشجار . معظم الناس يعنون بالزراعة ، فتدرّ عليهم الأرض الحبوب على أنواعها . بين الحيوانات الأليفة عندهم:

الحصان ، والحمار ، والبغل والبعير . في البلاد عدد من المشعوذين والمخرقين ، يُخرجون النار من أفواههم ، لهم من الشطارة والقدرة ما يستطيعون معه من تقييد أنفسهم بأنفسهم ، وان يرقصوا على عشرين كرة . ليس لهذه البلاد سيد أو ملك دائم ، فالأهلون يختارون لهم ملكاً كفواً عندما يتهددهم خطر طارىء ، دون ان يثير ذلك أي اعتراض من قبل الملك المستبدل ؛ (في هذا تلميح الى النظام الجمهوري ، الذي سارت عليه روما قبل العهد الامبراطوري ، ولاسيما النظام القنصلي) . والناس فيها فارعو القامة ، معروفون بالعدل والنَصَفَة كالصينيين ، وهم يرتدون ملابس كملابس الأغراب ، ينظرون الى بلادهم نظرتهم الى صين ثانية ، دون ان تحمل هذا الاسم : تا ـ تسن . وقصور الملوك مكرمة لدرجة التقديس . يستعمل الناس فيها الأعلام ويقرعون الطبول ، ولمركباتهم سقف أبيض . في البلاد كذلك مراحل البريد وفيها محطات كالصين تماماً . ويقوم عند كل لِي علامة وعند كل ٣٠ لي ، يقوم مركز هام للبريد . ليس في البلاد سَرِقَة ولا لصوص ، تسرح في بلادهم السباع والضواري ، وكثيراً ما تهاجم المسافرين ، ولذا كان السفر والتنقل في قوافل . وللملك عشرة ملوك توابع ، ودائرة مقره تزيد على ١٠٠ لي ، وللملكهم خمسة قصور . يقضي الملك في شؤون الناس ويتولى القضاء في احدى سراياته ويجلس للافتاء والقضاء من الصبح الى المساء . اما قواده فعددهم ٣٦ قائداً (رقم ٣٦ هو رقم مقدس عند الصينيين) ، يرجع اليهم الناس في كل ما يتصل بشؤون السياسة . فاذا ما تخلف أحدهم عن الحضور في الوقت المضروب ، رُفِعَت الجلسة ولم تُعقَد . وعند خروج الملك يصحبه مرافق يحمل حقيبة من الجلد يُلقي فيها أصحاب القضايا مطالبهم وتشكياتهم مكتوبة ، حتى اذا ما عاد الملك الى مجلسه في القصر ، نظر في كل قضية ، على حدة . اما اعتاب القصر فمن البلور . والناس يعرفون القوس والنشاب ، وعملتهم من الفضة والذهب بنسبة واحد لعشرة . عندهم أقمشة ينسجونها ، على ما يقال ، من صوف الغنم . ويزعم البعض بأنهم لا يكتفون بأصواف الغنم ، فهم يستخدمون غزولاً نباتية او من الحرير الخام المحلول . ويحسنون صنع السجاجيد » .

يتضح من هذه الفقرة ، التي نقلها الى الفرنسية بول بيليوه ان بين التا ـ تسن والصين شبه كبير ومميزات مشتركة . نقد علق في ذهن الصينيين في ذلك العهد ، ان هذه الامبراطورية الرومانية التي يجهلونها ولا يعرفون عنها إلا اسمها ، هي واحدة من هذه الامبراطوريات الأربع التي ينقسم اليها العالم بنسبة واحدة من الاتساع . ففي العالم اربعة أبناء السماء : احدهم في الشمال هو ملك الحصان (الهندو ـ الغز) والثاني في الجنوب هو ابن سماء الفيَلة (الهند) ، وثالث في الشرق هو ابن البشر لأنه يحكم على احسن ناس في العالم (الصين) ، ويقوم في الغرب ابن سماء الثروة والغنى (التا ـ تسن) .

كانت الصين قد أقامت ، منذ القرن الثاني ، علاقات لها مع أسرة كوشانا ، في الهند ، عبر جبال البامير ، إلا انها فشلت في ربط سيطرتها على أرجاء آسيا الوسطى وقنعت منها بالجزية صاغرة . ففي الصين ، كما في الهند ، نرى الشعوب في هرج ومَرْج ، والأفكار ابداً في غليان محموم . فنجم من جراء ذلك ان تسربت البوذية ، الى داخل البلاد بعد ان سلك القائمون بالدعوة

لها ، الطرق نفسها التي سلكتها التجارة . وقد تابع ملوك اسرة هان في الشرق ، المهمة التي بدأ بها أسلافهم من قبل، فرسّخوا اقدامهم في كوريا حيث كانت الحضارة الصينية دخلت واستقرت، منذ عام ١٩٤ ق. م . ويُستدل من الآثار الكثيرة التي عُثر عليها في شمال تلك البلاد وفي الشمال الغربي منها ، ان حضارة عالية ازدهرت فيها ، خلال عهد اسرة هان ، أساسها هـذه المدارس الفنية التي زهت في عدة مناطق منها ، فتطالعنا ، كما في الصين ، مدافن وأقبيـة قبرية تحلت جدرانها بزخارف مختلفة غاية في الدقة ، كما تطالعنا مصنوعات ، كالمشابك البرونزية ، والحلى والجوهرات وحجر اليشب واللآلىء ، والتماثيل المصنوعة من الخزف . والحفريات التي قام بهـا علماء الآثار من اليابانيين ، تنطق عالياً بما بلغته حضارة الهان ، في هذه الحقبة من الازدهار كما انها تساعدنا كثيراً على درس شأن الفنون في هذه الحقبة . ومن بين هذه الآثار التي عثروا عليها: حُبيبات من الزجاج الملون، جيء به ، كما يقدرون ، من الشرق الروماني ، وفيها الدليل الناصع على هذه الحركة التجارية التي نشطت ، اذ ذاك ، فبلغت أقاصي الصين ، متبعة في تنقلها طريق تجارة الحرير . ونشّطت الصين كذلك ، علاقاتهـا مع الشرق ، فبلغت اليابان . ويمكن تحديد اول اتصال بين البلدين ، حوالي عام ٥٧ للميلاد ، ممهدة بذلك الطريق امام علاقات انتظم حبلها واتصل ولم ينقطع إلا بعد ذلك بكثير .

وقد توطد فتح الصين لمقاطعة التونكين ، في الجنوب ، ولم ينقطع حبل هـذه المواصلات بينهما إلا بعد قرون ، لتعود للرسوخ من جديد بعد تغلغل الصين في الشمال من بلاد الاتـام .

ويقابل الازدهار الفكري ، في الهند ، خلال اسرة كوشانا ، حركة من الركود الفكري والعقلي في الصين . وقد راح بعضهم يفسر ذلك باعتبار الادب الكلاسيكي الذي ميز عهد دولة الهان السابقة ، ككل متجانس ، بالرغم من اختلاف المصادر وتباينها . وهذا المجموع الكلاسيكي هو الركيزة التي قام عليها اذ ذاك ، واقع البلاد السياسي والاجتماعي . ويمكن اتخاذه مثالاً لما اتصف به هذا العهد من الاخلاقية والتمسك بالتقاليد المتوارثة . ومن بين الفنون الادبيـة التي اشتهرت بها الصين ، فن التاريخ بحسب تتابع الازمنة . وهذا الفن راج أيما رواج في عهد دولة هان . فقد اشتهر فرعها السابق بتجلي المؤرخ سو ما ـ تسن، الملقب بحق: هيرودوتس الصين (١٤٥ – ٨٦ ق . م) فترك لنا أثراً تاريخياً وثيق الاصول ، دقيقها . اما في عهد الفرع الثاني واللاحق فقد اشتهر بهذا الفن شقيق القائد بان ـ تشاو وشقيقته، وهما : بان ـ كو(٣٢ – ٩٢) وبان ـ تشاو التي توفيت بعد عام ٢٠٢ للميلاد . فقد أرّخا للأسرة بمهارة فائقة .

وعندما انهارت دولة الهان ، عام ٢٢٠ ، انقسمت الصين على نفسها وظهرت فيها ثلاث دول وطنية متنافسة . وعند مطلع عام ٣١٦ ، أطلّت على البلاد الغزوات الكبرى فمزقتها شر ممزق، ولم تسترجع البلاد وحدتها من جديد إلا في عام ٥٨٩ . فالحرب الاهلية والفوضى والغزوات والاحتلال الاجنبي ، كل هذه المآسي تتكالب على البلاد وتتوخ عليها بكلكلها ، فتجر عليها الفقر . ويرافق هذا الانهيار حركة دينية انبعثت من هذا القلق الفكري الذي سيطر على عقول الناس وقلوبهم . فالديانة التاؤوية *Taoïsme* تبدو للناس بمظهر جديد وتتقدم منهم كأنها خشبة

الخلاص ومناط الأمل، وتغلغلت بين طبقات الشعب وقويت شكيمتها بحيث أصبحت دولة ضمن الدولة. والادب نفسه اصطبغ بالنزعة الدينية الجديدة، واستلهم موضوعاته من احداث الفروسية والبطولة، ومن حياة البلاط وروحه، فسيطر الدين على عقول الناس وأذهانهم في عهد اختلط فيه الحابل بالنابل، وتلاحمت المعارك وسيطرت حوادث الحب الفج. اما الفن فقد سار في ركاب التقاليد المرعية في عهد اسرة هان ففسدت مزاياه. اما النحت المضلّع، النافر، فقد سيطر واستبد. فنحن في حقبة انتقال: فبعد هذا الازدهار والاشعاع الذي عرفه الادب في عهد دولة الهان، وبعد الحقبة المضطربة المترجرجة التي ميزت ادارة السلالات الملكية الست التي تناوبت على الحكم، بين سنة ٢٢٠ و ٥٨٩، انفرجت غمة البلاد وكربتها عن وحدة جديدة لمّت الشعث، وضمت الاوصال، بعد تقاطع طويل، وخيم السلام من جديد على الصين في عهد الاسرة الملكية الجديدة هي اسرة سواي *Souei*.

٢ ـ التبادل التجاري والثقافي

ان استتباب الأمر، ورجوع السلطات المركزية الى نصابها، في العهد السابق، والازدهار الذي لاقته، والتوسع الجغرافي الذي بلغته بعض الدول الكبرى: كالهند والصين، والتألق الذي بلغتاه فتجاوز حدودهما الى ما حولها من بلدان وأصقاع، كل هذا وما اليه، كان له أكبر الأثر في تشجيع مرافق التجارة وتنشيطها. والدور الذي كانت ايران من جهة اخرى، على أتمّ استعداد لتلعبه، كوسيط ناقل، والسطو الادبي الذي كان للصين على روما فاجتذبها وحرّك منها الفضول، كل ذلك زاد في أوار الحركة التجارية، كما ان اتصال الصين المباشر بالاقوام الهند ـ الاوروبية التي ماجت بها آسيا الوسطى، والعلاقات التي شدّت كذلك الهند بالشعوب الهندية العرق مما يقع في نهاياتها، والحركة الخلاسية الواسعة النطاق، وما استتبع ذلك من تبادل الافكار واحتكاك الآراء، اقتضى الآن، أكثر من أي وقت مضى، قيام علاقات دولية نامية على أساس وطيد من الاستقرار.

وفي سبيل هذا كله، وتيسيراً لهذا كله، قامت طرقات سار عليها الناس واستخدموها منذ عهد بعيد. من هذه الطرق، طريق انطلق من شمالي البحر الاسود وبحر قزوين عبر منغوليا ليُفضي بسالكه الى منطقة بكين. إلا ان هذا الطريق كان دوماً تحت رحمة الايرانيين والغزّ، يتحكون به كيفما شاؤوا. وهنالك طريق آخر سلك جنوبي صحراء غوبي *Gobi* او شمالي الجبال السماوية.

فطريق الحرير وفروعه المتشعبة بقي الطريق الرئيسي بين هذه المسالك، ان لم يكن أحكار الطرق التي شدت العالم الروماني بالعالم الصيني، وما اليه من توابع ولواحق. وهذا الطريق الذي امتد من انطاكية الى سي ـ نغان ـ فو *Si - Ngan - Fou* عبر بكتريان، والذي سلكه التجار منذ أقدم العصور، كان ملتقى القوافل المنطلقة من سوريا او القادمة من الصين، فتتلاقى في احد

أودية جبال بامير ، في مكان عُرف باسم « برج الحجر » ، هو اليوم تاش كورغان ، على مقربة من يارقند . وكانت مدينة كابيشي ـ بغرام، عاصمة كوشانا الصيفية، تقع على قارعة الطريق ، كما كانت مركزاً هاماً للتبادل التجاري ، كما دلت على ذلك ، الحفريات الاثرية التي قامت بها بعثة فرنسية اشترك فيها كل من الاساتذة: جوزف وريا هاكين، وجان كارل، حيث عثروا على آثار مهمة تدل على ما بلغته الحركة التجارية في هذه المدينة من نشاط . فقد كشفت هـذه البعثة الاركيولوجية عن حجرتين حرصوا على تعميتها بكل عناية ، ضمتا مجموعة مختلفة من الاغراض والحاجيات المستوردة من روما وسوريا والاسكندرية، او من الهند والصين . وهذا الاكتشاف الاثري العظيم ساعد كثيراً على تنمية معلوماتنا حول الحركة التجارية التي شدت ، اذ ذاك ، الغرب الى الشرق، كما تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ما بلغته المقايضات التجارية من نشاط. فقد صدّر العالم الروماني موازين وعيارات من البرونز بشكل صورة نصفية للإلهة اثينا ، من ذات الطراز الذي كشفت عنه حفريات مدينة بومبيي، وقوالب مفرغة من الجبص كان يستعملها من يتولون صبها وإفراغها ، وصوراً هليلية الصنع ، يقوم بافراغها فنانون من الغرب . كذلك من بين الاشياء المستوردة من الاسكندرية ، حاجيات ملونة ورسوم وصور كلاسيكية ، منها مثلاً : حادث خطف يوروبّا، وحادثة خطف غانيميديس على يد رب الارباب زفس بعد ان تلبّس بصورة نسر، ومعارك المتصارعين ، واعمال فروسية من الطراز القديم ، وغير ذلك . اما بين مصنوعات الهند المصدرة ، فقد وُجدت : كراس ومقاعد تقوم على قوائم ، وخزائن وغير ذلك من قطع الأثاث والمفروشات ، اتخذت مادتها من الخشب المطعّم والمكفت ، او المصفح بصفائح من العاج المنقوش او المحفور ، لا تزال تظهر عليها بعض الألوان والتزاويق ، او لُبّست بالميكا او الطلق . فاذا كانت أشكال هذه القطع وصورها المتنوعة معروفة لدينا الآن ، فالفضل يعود لما وصلنا من رسوم ذلك العصر ، واذا كنا نعرف اليوم ، ان العاج كان يستعمل في المفروشات ، كما نقرأ ذلك في ادب ذلك العصر ، فلم تتوفر لنا الفرصة من قبل لمشاهدة بعض آثار هذه المفروشات بعينها ، لأن اقليم الهند او تربتها لم يكن ليساعدا قط على حفظها ، وكان يقتضي لبقائها وصيانتها ان يتولى احد من سكان المقاطعات الشمالية التابعة لامبراطورية كوشانا، جمعها وحفظها في محل امين يكون بمنأى عن غزو طارىء مفاجىء ، قام به الملك سابور الاول، على ما يرجحون . اما الصين ، فقد كانت تصدّر طوساً من صمغ اللك ، تزينها رسوم خاصة ، مما استقرت عليه الأذواق في عهد دولة هان. وفي هذا الكشف ما فيه من دليل على الحركة التجارية التي كانت تعتمد على مصنوعات يستوردها التجار من الشرق والغرب على السواء .

فاذا كان هذا الكشف هو أهم الكشوف التي تعثرت بها معاول علماء الآثار في نقطة كانت تمر بها تجارة الخز والحرير ، من حيث طبيعة المقايضات التجارية والحضارية التي كان يتبادلها الطرفان ، فهنالك ، الى جانب هذا ، أدلة كثيرة على مبلغ نشاط المقايضات التجارية بين الطرفين ، في هذا العهد . من ذلك مثلاً ، وفرة قطع النقود الرومانية التي عُثر عليها في عدد كبير متلاحق ، من الاقطار الآسيوية ، سواء في الهند ام في الصين . فقد كانت الصين تستورد

عدداً كبيراً من البضائع المصنوعة في الغرب ، كالزجاج الروماني او الاسكندري ، والعنبر او الكهربا (الملقب بروح النمر) الذي كان يؤتى به من شطآن بحر البلطيق ، والمرجان المستخرج من مغاوص البحر المتوسط في عرض جزيرة صقلية ، اذ كانت السفن تتولى نقله الى مدينة بومباي ، في الهند ، ومنها تنقله القوافل البرية ، عبر التركستان الصيني حتى الصين ، وحجر القَتِيل ، وهو ايضاً من محاصيل بلدان البحر المتوسط ، والارجوان والطيوب ، والعطور على أنواعها ومختلف ألوانها ، وأنواع الديباج الغالي الثمن المزركش بأسلاك من الذهب والفضة ، وغير ذلك من الانسجة والحبوكات كالسجاجيد ، والمصنوعات الهلينية التي عُثر عليها في قبور نُورِن – أولا المغولية .

وهذه الطرقات العابرة القارات ، لم تكن وحدها السُبُل التي سلكتها التجارة ، في ذلك العصر . ويدعونا اكثر من سبب الظن والاعتقاد ، ان عدداً كبيراً من هذه الحاجيات التي وجدت في عدد من الأماكن الأسيوية ، تم نقلها عبر البحار على متن قوافل من السفن . علينا ان نعوّل هنا على مصدرين يونانيين ، اولها : « رحلة في بحر أرثريا » ، وهو دليل مقتضب التجار الذين يتجرون مع الهند ، يعود تاريخ وضعه النصف الثاني من القرن الأول . أما الثاني منها ، فهو القسم الخاص بالهند ، من جغرافية بطليموس التي يعود تاريخ وضعها الى حوالي سنة ١٦٠ ، ويكوّن هذا الجزء ، قائمة طويلة لأهم المراكز الجغرافية المعروفة ، اذ ذاك ، في الهند ، وقد اعتمد صاحبه في وضعه على مؤلف سابق ، هو من تأليف مارينوس الصوري . وتمدنا مصادر لاتينية أخرى بالمزيد من المعلومات ، بينها الكتاب الذي وضعه بمونيوس ميلا ، بعنوان « *De Chorographia* » ، ومنها « التاريخ الطبيعي » الذي وضعه بلين الاصغر (الكتاب السادس منه) ، وكلاهما من القرن الاول للميلاد . وبعض معلوماتنا بهذا الصدد مقتبسة من مصادر أخرى ، منها : *Niddesa* ، الذي يعدّ من الكتب القانونية *Canonique* في اللغة بالي ، يعود تاريخ وضعه الى القرن الاول للمسيحية ، ومنها ايضاً : « الحوليات الصينية » ، وهي ثمينة جداً لما تتسم به من دقة وضبط.

وقد انتظمت حركة النقل البحري ، في هذا العهد ، وبلغت فيه درجة من الانضباط والدقة لم تعرفه من قبل . فمنذ ان اتضح للرومان ، في مطلع القرن الاول للميلاد ، الفوائد والمغانم التي تعود عليهم من الاعتماد على نظام الارياح الموسمية لبلوغ الهند ولمبارحتها في الوقت المناسب ، رأينا (راجع ص ٣٤٩) كيف ان حركة الرحلات البحرية أخذت بالتحسن . فقد كانت تغادر في اوقات معينة من كل سنة ، قافلة قوامها ١٢٠ سفينة ، سواحل البحر المتوسط متجهة نحو الهند . وكانت السلع تنطلق من موانىء النيل ، عابرة البحر الأحمر ، مستعملة مرافىء شبه الجزيرة العربية لتبلغ منها موانىء الهند ، بعد رحلة تستغرق ثلاثة أشهر تقريباً . وكانت هذه السفن تفرغ شحنها في موانىء « معينة » متفق عليها من قبل ، أشهرها على الاطلاق ، ميناء موزيريس و باريغازول ، الواقعتان على ساحل بومباي . أما السلع التي كان على الهند ان تقدمها بالمقابل ، فكانت تودع عنابر وحواصل « معينة » هي الأخرى ، بحيث لا يمتد بقاء البحارة الغربيين في

الهند ، طويلاً ، اذ كان عليهم ان يغادروا الهند قبل ان تحول الرياح الموسمية دون ذلك. وكانت الرحلة ، ذهاباً وإياباً ، تستغرق نحواً من ثمانية اشهر . ومن المرجح ، ان قسماً من هذه البضائع كان يشحن ، فيما بعد ، عن طريق المجاري النهرية ، وعن طريق القوافل البرية ، لتبلغ أطراف البلاد في الداخل ، حيث كانت تلتقي بطرقات تجارة الحرير . ولم تكن هذه السلع دوماً من المواد الغالية الثمن . فقد كان بينهما كائنات بشرية : فقد كانت الاسكندرية تتولى تصدير الراقصات والمغنيات والقيان والسراري ، والمهرجين والراقصين على الحبال . وقد تلقت الصين منهم عدة دفعات ، منها دفعة وصلتها عام ١٢٠ ، تألفت من فرقة من الموسيقيين والبهّالين ، بلغت بلاد بورما والصين : كذلك كانت الهند تستورد باستمرار ، فرقاً من الراقصات والنساء « المحاربات » عُرفن باسم « يافاني » مؤنث يافانا ، وهو المصطلح السنسكريتي الذي أطلقوه على الإيونيين ، والذي اطلق ، فيما بعد على كل غريب أو أجنبي عن البلاد ، ولا سيا على أهل الغرب ، دون تمييز بين عروقهم واجناسهم ، وكانوا يُستخدَمون لعدة قرون ، حراساً للأمراء في الهند يسهرون ، بالأخص ، على سلامة « الحرم » وهم يمسكون بمقابض الرماح .

والطريق البحري الذي كان يفضي الى ساحل مدينة بومباي ، في الهند ، لم يكن بالوحيد ، اذ كان هنالك طريق أطول وأبعد بكثير ، يفضي الى هذه المنطقة من سواحل الهند ، ويوصل على الاخص ، الى جوار مدينة بُنْديشري التي ورد ذكرها عند بطليموس ، تحت اسم « بودوكيه » . فقد جمع هواة المسكوكات والاخصائيون بعلم النُميّات ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف قطعة من النقود الرومانية ، يرجع معظمها الى عهدي اوغسطس وطيباريوس ، كما عثروا على بقايا مركز تجاري يقع على مقربة من القرية المعاصرة اليوم فيرمباتنام . وقد ذهب الظن عند البعض ، قبل العثور على هذا الاكتشاف الهام ، الى ان تجارة الرومان مع هذه المنطقة كانت تتم مباشرة . فقد جاء الكشف الجديد يؤيد هذا الظن الى حد بعيد . فقد اطلعت الحفريات التي قامت بها بعثتان : انكليزية وفرنسية ، في هذا الموقع بالذات ، مستودعاً هاماً من الخزف الأحمر والاسود ، من مصنوعات ايطاليا ، يحمل طابع الخزّافين وهو خزف اشتهرت مدينة أرزّو بصنعه ، بين سنة ٢٠ – ٥٠ للميلاد ، ولا سيا فواخير فيبْيانلي *Vibienli* . كذلك ، وجدوا ، بين محتويات هذا المستودع ، جراراً وخوابي من الشكل الكلاسيكي المعروف ، لا تزال تحمل معالم الراتنج المستعمل زاووقاً للنبيذ المستورد من مناطق مختلفة من بلدان البحر المتوسط ، لحفظه في هذه الخوابي . أضف الى ذلك عدداً كبيراً من حُبيبات وكسارة الزجاج الملون ، كأنها « لآلىء » ، رومانية الصنع ، وهي زجاجيات ، هام بها وراح يقتنيها ، سكان هذه المناطق الأسيوية ، كما وجدوا كذلك ، قطعاً من العقيق الاحمر ، حفر عليها رسم اوغسطس وصورة شخص صغير على الطراز الهندي ، منقوشة على قطع من الزجاج وفقاً لطريقة الحفر الرومانية .

ولكن هذه الاسفار والرحلات الطويلة لم تكن لتقف او لتتوقف عند مجال الهند ، فما كانت الهند سوى مرحلة او حلقة في سلسلة هذه المحطات ، لأسفار ورحلات قام بها البحارة الغربيون ، أبعد من الهند نحو الشرق الاقصى ، اذ اجتذبتهم ثروات الهند الصينية واندونيسيا ولا سيا كنوز

هان الاصفر الرنان والافاويه على اختلافها. ومع انتظام توقيت هذه الأسفار والرحلات، لا بد من ان ننوّه هنا بالتحسينات الفنية التي أدخلت على وسائل النقل البحري فزادت الحركة التجارية نشاطاً في بحار الجنوب . ولدينا الآن معلومات هامة عن السفن الشراعية ، التي درج استعمالها في الصين وأعدّت للاستخدام في عرض البحار والسير في عباب اليمّ في القرن الثالث . وهــذه السفن الشراعية ، سواءً أكانت ايرانية الصنع او هندية او صينية ، فقد تتاوح طولها بين ٤٥ — ٥٠ متراً ، بينا بلغ ارتفاع جانبها من ٤ — ٥ أمتار فوق أديم الماء . فكانت تصنع من ألواح تُشد بعضاً الى بعض بواسطة حبال من ألياف الكوكو دون ان يضربوا فيها مسماراً من الحديد، وكانوا يلفطونها بنوع من الملاط او الورنيش، ويجهزونها بقلوع أربعة وينشرونها عمودياً بالنسبة لمحور السفينة ، اما منحنية او مائلة بنسبة الواحد منها الى الآخر ، فتتلقّى تباعاً ، هبات النسيم او هبوب الريح ، فيكسرها الواحد ويحولها للآخر . وتجهيز السفن بهذا النوع ، جعلها تستغني عن الصواري العالية ، كما زادها سرعة وجرياً ، كما كان يسمح لها عند الاقتضاء بتخفيف السرعة بطيئها . وهذه السفن الشراعية التي كانت تستخدم لنقل الركاب والبضائع على السواء ، كانت طاقتها من الشحن تبلغ ٧٠٠ راكب او مسافر و ١٠٠٠ طن من الشحن .

ورَدَفت طرُق النقل البحري، وسائل أخرى كثيرة، ممثلة بالنقل النهري، وهذه القوارب المعدة للعمل في مجاري الانهر . ففي مقاطعة فو ـ نان ، كانت هذه القوارب ، في القرن الثالث ، عبارة عن جذوع شجر ضخمة جرى تجويفهـا ، يتراوح طول الواحد منها بين ٢٢ — ٢٤ متراً بعرض متر ونصف تقريباً ، بُقص مقدمها ومؤخرها على شكل ذنب سمكة ، يقوم على العمل في كبيراتها مائة مجذّف ، وقد جهّزت بمجذاف طويل للمدى البعيد ، وبآخر قصير لحفظها في مكانها ، وبعتلات للاستعمال في المياه القليلة العمق . وكان المجذفون يأتون حركاتهم بانسجام كلي « كأنهم يصرخون بصوت واحد » .

كانت هذه السفن تنطلق من عدد كبير من الموانيء التي تخدم الملاحة في بحار آسيا الجنوبية . فالى جانب الوكالات التجارية التي جاء بطليموس على ذكرها مراراً، غير بودوكيه ، قامت كارا، المعروفة باسم خباري اليوم، وهي عند مصب نهر كافرت *Kavert* ، ومرفأ سوبَتما *Sopatma* القريبة من الاولى .والسفن التجارية الكبرى المسماة باليونانية *Kolandia*، وبلغة التامول *Kalam* وبالصينية: كوانـ لوّن ـ نان كانت تسير باتجاه اقليم خريزيه (او بلاد الذهب) الواقع وراء دلتا نهر الغنج . ويقع على مقربة شيكاكول ، الى الشمال ، مرفأ يعتمده المسافرون القاصدون مقاطعة خيرسونيز الذهب ، وهنالك مرفأ آخر ، على مقربة من مصب نهر الغنج، عند غرالبتي (تملوك اليوم)عُرف بنشاط حركته التجارية ، يعتمده سكان وادي الغنج ، الراغبون في السفر الى بلاد الذهب وبورما . اما على الشواطيء الغربية ، فالموانيء كانت تتناثر حباتها على خليج بومباي ، مؤمنة الاتصال مع الانسولاند (اندونيسيا) ، منهــا بهاروكاكا (اليوم : بروآش) ، وتشوربارا كا (*Suppara* او *Sopara*) او مرفأ موزيري (وباليونانيــة *Muziris*) ، واليوم تُعرف باسم غرانغانور .

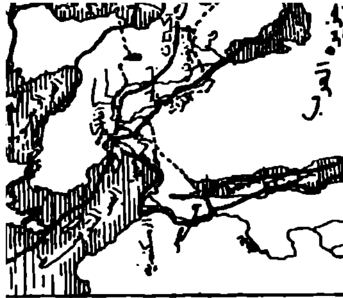

الشكل ٣٠ – طرق المواصلات بين أوروبا وآسيا

وأياً كانت نقطة الانطلاق هذه ، فقد بلغت التجارة البحرية اقطار جنوبي شرقي آسيا ، على نطاق واسع ، بحيث أمكننا العثور على بقايا مهمة من هذه المبادلات التجارية ، وعلى الاخص في مقاطعة الكوشنصين الغربية حيث كانت تقوم مملكة فو - نان، في القرن الاول للميلاد. فالحفريات التي جرت في نقطة أوك - أيو ، توصلت الكشف عن مركز تجاري يتولى ادارته اجانب أغراب عن البلاد . فقد كان من بين هـذه الآثار المكتشفة ، العدة والادوات الخاصة بأحد العاملين في صناعة الصب ، واحدى الصفائح الذهبية تحمل رسم الامبراطور انطونين التقي ، مؤرخة عام ١٥٢ للميلاد. كذلك وجدوا بعض قطع من العقيق الاحمر عليها رسوم ونقوش رومانية الطابع، ورأس من الزجاج الازرق الفاقع، عليه حفر ناتىء يمثل صورة احد ملوك الدولة الساسانية او احد امرائها . والى جانب هذه المصنوعات المستوردة من الغرب ، او من ايران ، عدد كبير من الحلى الذهبية من صنع الهند بينها طوابع نقش عليها بالسنسكريتية، وخواتم حفر عليها صورة ثور ، وغير ذلك ، وكلها تشير الى هذه الحركة التجارية التي نشطت بين فو - نان والهند ، والى ما كان يصادفه من رواج ونجاح، التجار الذين يتعاطون بيع المصنوعات الرومانية والايرانية. وهنالك دلائل أخرى تتناثر معالمها في طول البلاد وعرضها حتى تصل الهند الصينية وجزر الانسولاند ، كما توجد على سواحل الهند الصينية الشرقية : في مدن ثمبا ودونغ - دو - ونغ ، حيث تتمثل بتمثال لبوذا من البرونز ، من أصفى طراز أمارافاتي ، هو خير نماذج وأمثلها على الاطلاق . وهنالك صور من الطراز نفسه ، انما اقل مهارة واتقان صناعة ، وجدت في جزر السليبس وجافا الشرقية وسومطرة .

والملاحة البحرية التي وصلت الى أقصى النهايات التي بلغها الاستعمار الهندي ، اتخذت كلها مسالك مختلفة : بين بحرية ونهرية وأرضية . انطلق احد هذه المسالك من خليج البنغال شرقاً ، مجتازاً الممر البحري الضيق الواقع بين جزر أندمان ونيكوبار ، او بين نيكوبار ورأس أشين ، ليفضي بالسفن الماخرة في عباب اليم الى شبه جزيرة الملايو ، فترسو السفن في مرفأ تاكوا - بوا ، او في كيدا . وبعد ان يجري نقل البضائع براً، عبر برزخ كرا - كان باستطاعة المسافرين ان يأخذوا سفينة تقلهم شمالاً باتجاه الصين ، او باتجاه جزر السوند . اما نقل البضاعة براً فكان يتم بسهولة كلية، نظراً لما كان عليه البرزخ من ضيق العرض ، وتكاثر من كلا جانبيه المرافىء ، كما دلت على ذلك الحفريات الاثرية التي أجريت في بعض الاماكن ، في جايا مثلاً .

هنالك طريق آخر ربط ، على الطريقة ذاتها ، الهند بالبلدان المطلة على بحار الجنوب . وكان هنالك طريق ثالث ينطلق من اواسط الهند ويسير مع الشاطىء حتى مدينة تاتوى ، ومنها تجتاز سلسلة الجبال لتبلغ خليج سيام ودلتا نهر مينام عن طريق نهر كانبوري ، حيث كشف علماء الآثار عن مناطق قطعت شوطاً بعيداً في استهنادها واقتباسها الحضارة الهندية، منها بونغ-توك ، وبرا باتوم . والظاهر انه تم فيما بعد ، وصل نهر كانبوري الصغير الشأن بنهر ميكونغ ، وذلك بطريق بري ، مر عبر سهل كورات ، المرتفع وبلدة شريثدب، وهي نقطة قديمة، ثم بوادي نهر مون فتفضي بالمسافرين الى مقاطعة تشينلا التي ستصبح في ما بعد مهد حضارة الخمير *Khmer*. وأخيراً

طريق بورما القديم الذي كان معروفاً منذ القرن الثاني ، قبل الميلاد ، وكان لا يزال مطروقاً ، ولا شك ، في القرن الثاني بعده . وهذا الطريق كان ينطلق من شمالي الهند ماراً بمقاطعة أسام وشمالي بورما ويو ـ نان حتى يفضي بسالكيه الى الصين .

وهكذا نرى كيف ان الصين كانت تقع ضمن شبكة المواصلات البحرية والبرية على السواء ، التي كان يعتمدها التجار في مقايضاتهم بين الشرق والغرب . وحوالي القرن الثاني ، وربما قبل ذلك ، ربطت هذه الشبكة اليابان وكوريا . وهكذا ، فمن مشارف حوض البحر المتوسط حتى اطراف الشرق الاقصى ، كان العالم اليورو ـ آسيوي مرتبطة أطرافه وأجزاؤه بعضاً ببعض . وشبكة طرق المواصلات هذه ، في شتى شعابها وفروعها ، كانت تهدف لتيسير التجارة ولتسهيل سبلها ، بالرغم مما اعتورها من تقلبات على مر العصور وكر الاجيال ، وفقاً للدول التي قامت في تلك العهود وما اعتراها من تغييرات ، وقد تحكمت بها ايران بما تم لها من موقع جغرافي ممتاز ، لوقوعها من الصميم في هذه الشبكة الدولية للطرقات البرية والبحرية ، كما يعترف بذلك الكتبة الصينيون ، في ذلك العهد ، اذ ورد بالحرف الواحد عند بعضهم ما يلي : « ان سكان تا ـ تسين (الامبراطورية الرومانية) رغبوا دوماً في إيفاد سفارات وبعثات دبلوماسية الى الصين ، إلا ان ملوك الدولة الارشاكونية او الفارثية ، رغبةً منهم باحتكار فوائد التجارة مع الصين ، حالوا دوماً دون ذلك » . فقد حاولت ايران، في مناسبات عديدة، ان لم نقل بصورة مستمرة، ان تبقى مسيطرة على تجارة الحرير والطرق التي تمر بها ، وقد نهجت هذا النهج بعد الدولة الارشاكونية ، الدولة الساسانية ، بالرغم من المحاولات التي قام بها الاسكندر لكسر هذا الاحتكار ، ومن بعده بيزنطية اذ كانوا يعلقون أهمية كبرى على حرية التجارة مع أصقاع آسيا الشرقية .

المبادلات التجارية

كل الدلائل تشير الى ان الحركة التجارية كانت ناشطة ومزدهرة في القرون الاولى للمسيحية . فالطريق الذي شقه الاسكندر المقدوني ، بين العالم الغربي والشرق الاقصى ، عرف عهداً عظيماً من نشاط الحركة التجارية ، لأسباب شتى ، منها قيام دُوَلٍ في كل من الهند والصين تميزت بحسن تنظيمها الاداري واستتباب الامن فيها ، كما ان شدة احتياجات الامبراطورية الرومانية، من جهة أخرى ، وشدة طلبها لهذه الكماليات الغالية الثمن ، ساعد جدياً على بقاء الحركة على هذه الطرقات ناشطة للغاية . وهذه الكماليات الغالية الثمن والتي رغب الرومان في الحصول عليها بأغلى الأثمان ، لم يكن ليتيسر لهم الحصول عليها إلا من الهند والصين ، أو من الاقطار الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الأسيوية ، وكان من مصلحة الهنود والصينيين معاً ، تأمين وصول هذه البضائع والسلع وغيرها من المصنوعات التي كانت تصنع في البلدان او المقاطعات التابعة لها أو الواقعة تحت نفوذها او الدائرة في فلكها ، اذ ان مواداً تجارية كثيرة كانت تَرِد من البلدان الواقعة ما وراء نهر الغنج ، كالماس والافاويه والند والصندل والمندل *Bois d'aigle* والكافور ، والكُرْكُم ، والبخور الجاوي واللُّبان ،

والقاقـلـة او حب الهال ، والعاج والخز ، والديباج وغير ذلك من الانسجة الغالية الثمن ، وكلها من صنائع الهند والصين وايران ، او من محاصيلها . أضف الى ذلك ما كان للأصقاع الواقعة في بحار الجنوب من قوة الجذب ، لما فيها من الذهب ، بعد ان حالت الصين ، قبل ظهور المسيحية بقرنين ، دون حصول الهنـد ، كما في السابق ، على الذهب الوارد من الشمال ، أي من سيبيريا وجبال الألتاي . ولذا راحت الهند تحاول استيراد الذهب من الامبراطورية الرومانية بشكل نقود رومانية ، وهذا ما يفسر لنا جيداً وجود النقد الروماني من الذهب بكثرة في الهند . وقد شعر اولو الأمر في روما بتسرب الذهب من البلاد ، فراح الامبراطور فسبسياوس (٦٩ - ٧٩) يصدر مرسوماً يحظر فيه خروج الذهب من الامبراطورية ، بأي شكل كان . ولهذا اخذت الهند تحاول ان تستعيض عن هذا المورد الذي نضب او كاد ، بالاقطار الجنوبية الشرقية من القارة الأسيوية التي اشتهرت مناجمها بانتـاج الذهب ، والتي لم يكن يصح ، مع ذلك ، مقارنتها بوجه من الوجوه ، بما بلغه انتاجها منه في العصور الحديثة .

وكان استيراد الغربيين لهذه السلع والحاصيل يكلفها غالياً وينهك ثروة البلاد اذ كان الاستيراد يكلفها أكثر بكثير مما يدره عليها التصدير ، بعد ان قلت قيمة هذه الصادرات ، وهي تتألف ، على الغالب من العنبر (الكهربا) والمرجان وحجر الفتيل ، والارجوان وبعض الانسجة (التي بقي منها بعض النماذج في منغوليا) وصحائف من البرونز ، والزجاج والعقيق المنقوش ، والمصابيح الرومانية وغير ذلـك . فاذا كانت حركة التبادل التجاري تدر كثيراً على تجار الاسكندرية وسوريا ، فقد كانت روما ، على عكس ذلك ، تتكبد كثيراً من جراء تجارتها مع البلدان الأسيوية ، الامر الذي حدا بالمصلحين الاجتماعيين والغُيُر على الاخلاق ، الى شجب السعي وراء هذه السلع والتكالب على اقتنائها ، في القرن الاول للميلاد .

المؤثرات الفنية

وهذه الطرقات المائية والبرية تسلكها القوافل البحرية ومواكب التجار ، كانت بدورها خير أداة وخير مسعف على تسرُّب المؤثرات الفنية والادبية وانتقال القصص الشعبي والاساطير والعقائد الدينية والافكار .

ان استيطان الهندو - اليونان في شمالي غربي الهند ، والهندو - الفرز ومجاورتهم لايران الفارثية ، وعلاقاتهم النامية بمقاطعات وأصقاع آسيا الوسطى والصين ، وتكوين هذه الامبراطورية الشاسعة الاطراف على يد قبائل الكوشانا بعد ان وحّدوا بين الاقوام التي تألفت منهم ، وكلهم آريون ، وبين اقوام غندهارا وكابيشا المتهلينة ، كل هذا وما اليه ، ساعد كثيراً ، على انتشار الافكار الغربية في آسيا الوسطى . وقد عزّ الدليل على اثبات العكس ، مع العلم ان البضائع والسلع الأسيوية كانت تصل الى الغرب هي الاخرى . شاهد على ذلك مِقبض مرآة مصنوع من العاج عليه نقوش من طِراز سانشي ، عَثر عليه المنقبون بين أنقاض مدينة بومباي .

فبمعزل عن هذه الاتصالات المباشرة التي شدّت الغرب الى الشرق ، قام عنصر آخر هـام جداً مكّن لها ورسّخ لأسبابها ، وشجّع عليها ، يتمثل في البوذية . فعلى عكس البراهمانية ،

جاشت البوذية بروح تبشيرية ، فراحت تدعو لمقالتها وتعمل على بثها ونشرها ، ولذا حاولت الاستفادة من الطرق البحرية التي عوّل عليها التجار لتحمل رسالتها ودعوتها بعيداً ، فأصبحت بذلك من أهم العناصر للاشعاع الهندي في الخارج . وهذا المركب المزجي اليوناني البوذي الذي نشأ في غندهار والبكتريان ، بعد حركة بعث الممالك الهندو ـ اليونانية ، اخذ بالنمو على نطاق واسع ، يتقبل رويداً ويتمثل بصورة لاشعورية ، المؤثرات الرومانية ، سواء أصدرت عن العاصمة روما نفسها ام عن ولايتي مصر وسوريا ، فتألف من هذا المركّب ، الفن الهجين الذي استبد بالأذواق اذ ذاك .

وقد خضعت البوذية البدائية في هذا العصر ، لتطور ملحوظ من الداخل تميز ، من الوجهة الفنية بالايكونوغرافيا (فن رسم الصور) الخاصة ببوذا ، اذ أخذت بوادر هذه الحركة بالظهور والتجلي في منطقة غندهارا الشمالية الغربية في الهند ، وفي مدرسة ماتورا . ويوحي الطراز الذي سيطر على غندهارا أثر الغرب عليه ، اذ يحمل كل سمات النظريات الفنية الهلينيـــة والمميزات الاصيلة للفن الشرقي الاصيل (راجع صفحة ٧٠٣) . ففي طراز صناعة التماثيل الذي سيطر على مقاطعة كابلشا بالغرب من كابول ، نرى تتجمع حول هذه الشخصية اليونانية البوذية ، كل النماذج الفنية التي عرفها العالم اليورو ـ آسيوي اذ ذاك ، فأقبلوا على تمثلها بكل حماسة ، كالتي نجدها في تاغرا . وحول هذه النواة الهلينية ، ظهرت نماذج فنية تحمل الكثير من سمات هذا الطراز ، أشهرها على الاطلاق ، الطراز الفني الذي ساد ميران القائمة في احدى الواحات الجنوبية في آسيا الوسطى . فالمعتقدات والتقاليد البوذية نراها مرسومة على الجدران وهي تحاكي ، من قريب ، بفنها وألوانها ، معالم الرسوم الرومانية في سوريا .

من الحيف ان يحاول المرء الانتقاص من شأن التطور الفني الذي مرت به نماذج الطراز الفني الهليني الذي ظهر في أقصى حدود الهند. فقد عاش فيها طويلاً حتى الى ما بعد زوال النظم السياسية التي أوحت به ، فدخلت على أنساب مختلفة ، الفن البوذي ، فانتشرت في جميع أرجاء الهند ، وبلغت ، بعد بضعة قرون : الصين واليابان والانسولاند والتيبت ، مُتيحة ، الى حد ما ، امتداد الحياة للفن البيزنطي ، في هـــذه الانماط الفنية التي درجت عليها البلدان الصقلبية والبلقانية . ويمكن ان نعزو اليها الفضل في بقائها مستمعة لأجيال طويلة في هذه البلدان حيث خلّدت حتى عصرنا هذا ، ذكر تلـــك المحاولة الجبارة التي أريد بها ، جمع العالمين الشرقي والغربي ، في وحدة تامة .

وهنالك آثار غربية ، رومانية الطابع والسمة ، يمكن ملاحظتها بسهولة في آثار المدرسة الفنية التي سيطرت على القسم الشرقي الجنوبي من الهند ، ولا سيا في منطقة أمارأفاتي حيث توجد احسن النماذج . فهي تبرز بهذا المظهر او الوقفة التي تبدو على بعض صور بوذا ، في هذه المقاعد على شكل كراسي ، لها قوائم تشبه قوائم السباع والضواري .

ففي الحين الذي تأخذ فيه امبراطورية الكوشانا بالتفسخ والتفتت فالانهيار ، تحت الضربات

التي انهالت عليها من الدولة الساسانية ، في ايران ، نرى النفوذ الايراني يبرز في هـذه المناطق الشمالية الشرقية بالذات التي فيها رأى الفن اليوناني ـ البوذي النور ، قبـل ذلك بنحو قرنين تقريباً . والعنصر الجديد الذي انضم الى هذا المركّب الفني ، الذي ألمعنا إليـه اعلاه ، فرض سماته المميزة على المجموع . وهكذا يطل علينا طراز فني جديد ، هو الطراز الايراني ـ البوذي ، الذي ذاع وانتشر في مقاطعة كابتشا ، وفي آسيا الوسطى . فبوذا يبرز مرتدياً حلة من الارجوان (بدلاً من القفطان الأصفر الذي يرتديه الكهنة البوذيون) ، ويتربع على ارض نثرت عليهـا الازاهير حلقات في وسطهـا رؤوس خنازير برية ، او صور من البط تحمل في منقارها لآلىء . اما راهبات بوذا فيحملن في شعورهن أهلّة في وسطها لؤلؤة . فيعيد هذا المنظر الى الخيـال ، هندام الشعر الذي عُرف عنـد الساسانيين ، ويلوح فوق أكتافهن اطراف مناديل درج الناس على استعمالها في ايران قديماً . ومثل هذه المناديل تُشَدّ حول الأعمدة ، وتربط حول الآنية التي تتدفق منهـا المياه، وحول اشكال الستوبا *Stupa* . أما الطمانيون فيرتدون ملابس من الزي الايراني يتألف من سترة مشدودة الى الخصر ، لها ثنية مربعة تُرَدّ الى الوراء ، وفي الوسط زنار او نطاق ، وسراويل مع جزمة للرجال . اما النساء فيلبسن تنورة جَرَسِيّة القطع والشكل. كذلك يبرز الفن الايراني في هذه الاشكال الهندسية . وأسوة بالفن اليوناني البوذي ، نرى العالم الهندي يبرز جنباً الى جنب مع العالم الروماني : شخوص نصفية عارية ، تحمل الكثير من الحـلي الى جانب رجال ونساء بكامل ثيابهم يمثلون أسياد ذلك العصر. وعلى الشكل نفسه نرى النظريات الفنية الايرانية تعيش طويلاً في الهنـد ، حتى بعد زوال الدولة الساسانية ، وتنتشر بعيداً في جميع أرجائها . وهكذا نرى لبس الأحذية (الجزمات) ، يتفشى في الايقونوغرافيـا الهندية ، ولا سيا في صور الإله الشمسي « سوريا » ، وسيبقى على مظاهره هذه حتى العصر الحديث .

وهذه العناصر الفنية اليونانية ـ الهندية وبعض الاشكال الفنية الايرانية الأخرى ، شاع استعمالهـا في جميع أطراف آسيا ، ودخلت الهند رأساً ، كما وصلت الصين واليابان بالواسطة . فقد اهتمت الهند بنقل بعض هذه النماذج الفنية الى بعض ممتلكاتها في الخارج ، وبلغ من شدة تأثر هذه المقاطعات بالفن الهندي ، ولا سيا الهند الصينية والانسولاند منها ، ان أخذت تترسمهـا وتستوحي نماذجها لأكثر من ألف سنة . ففي العصور الاولى للميلاد ، يصعب كثيراً ابداء حكم صائب بهذا الشأن لندورة الآثار التي ترجع الى هذا العهد . ويمكن للانسان أن يصل بصورة جازمة للحقيقة ، عندما يتبين ، من جهة ، القطع المنتشرة في أرجـاء مقاطعة أمارافاتي التي بلغتها بحارة هنود، ومن جهة اخرى، القطع المقلّدة، الموجودة في تايلاند الشمالية والوسطى منها.

غير ان الصعوبة تبدو أكبر عند التكلم عن المؤثرات الفنية في الصين . فنحن هنـا امام مدارس فنية تطبع عدداً من الولايات ، اكثر ممـا نحن امام انتاج محلي متأثر بفن البلاد الأم . ولعل كوريا هي أشد هذه المقاطعات صموداً ، وأثبتها قدماً في وجه هذه السيطرة. ومع ذلك، فالطراز الكوري الذي فيه هذا الترصيد المطبّع ، وهذه التزاويق الجدرانية هو الذي يحمـل عميقاً اكثر من غيره اثر الفن الصيني . امـا المصنوعات الخزفية التي نراها في التونكين ، فهي

صينية الطابع ، في الصميم .

وجوه أخرى من التبادل الثقافي

وعلى هذه الشبكة من الطرقات التي استعرضنا لها على اختلافها ، من بحرية ونهرية وبرية ، تمت هذه الاتصالات الدبلوماسية والدينية والفكرية ؛ وتيار المبادلات بين شرقي آسيا والامبراطورية الرومانية الذي نشط خلال القرن الاول للميلاد ، بقي على أشده مدة قرنين ونصف القرن ، أي من مطلع النصرانية حتى عام ٢٥٠ تقريباً . ومع ان خريطة لجغرافية الامبراطورية الرومانية ، في القرن الثالث معروفة باسم : جدول بوتنجر *Table de Peutinger* ، تشير الى وجود هيكل لأوغسطس في مدينة موزيري او موشيري ، فاهتمام آسيا بالغرب خف وتحول ليقتصر على الممالك الجديدة التي أطلت في الجنوب الشرقي من آسيا : في الهند الصينية وفي الانسولاند . فطريق المواصلات بين الشرق والغرب انقطع وتعطل لمروره في ايران ، والامبراطوريتان العظيمتان اللتان تألقتا في عهد الهان وكوشانا ، قد زالتا من الوجود ، والعوامل التي مهدت لسلام دائم ، ساعد على قيام مثل هذه الحركة التجارية والمبادلات التي رافقتها ، زالت هي الاخرى وانقطعت .

هنالك اكثر من اشارة لهذه العلاقات الدولية ، وردت اكثر من مرة ، وفي عدة مناسبات خلال هذين القرنين والنصف . فمنذ غرة القرن الأول ، حتى وقبل ذلك بكثير ، نرى اسم آسيا يرد على لسان سترابون ، كما ان مصطلحات فلكية ، يونانية واسكندرانية ، دخلت المعجم الهندي والصيني ، وربما وصول الدعوة المسيحية والكرازة بها على يد احد الحواريين هوالقديس توما الذي يقال أنه بشر بالانجيل في هذا القسم الشمالي الغربيّ من الهند ، كما ان جزيرة سيلان ترسل عام ٢٧ للميلاد ، بعثة دبلوماسية الى الامبراطور اوغسطس . ويشار الى هذه العلاقات في مصادر عديدة ، ولا سيما في هذه الحوليات السلالية الصينية . ويأتي سترابون على ذكر بعثة دبلوماسية أرسلها الى اوغسطس نفسه ، أحد الملوك المدعوء باندیا ، وباليونانية *Pandionos* وهو من ملوك التامول الذين سيتمكنون ، فيما بعد ان يحققوا لهذه المنطقة الجنوبية ، من الهند ، المعروفة بالبلاد الدرافيدية ، إشعاعاً كبيراً . وفي سنة ٧٩ ، وهي السنة التي لقي فيها بلين الاكبر الموت الزؤام ، مختنقاً بالغازات الخانقة المتصاعدة من حمم بركان الفيزوف الذي أهلك بومبيي تحت الرماد المتصاعد ، دفنت هذه المواد المصهورة تحت الانقاض ، مقبض مرآة من العاج يحمل نقوشاً هندية ، كل هذا وما إليه شهادات متواضعة على هذه العلاقات المباشرة التي قامت مع آسيا الشرقية . وقد حاولت الصين ، من جهتها ، انما عبثاً ، ان تقيم بواسطة قائدها الحربي الكبير بان ـ تشاو ، علاقات دبلوماسية مع روما ، (حوالي عام ٩٠) ، ومع ذلك فالمؤرخون الصينيون ، ينوهون ، عام ١٢٠ ، بوصول فرقة من الموسيقيين واللاعبين على الحبال ، من الرومان الى بورما والصين . وقد اتسمت المواصلات في هذه الفترة بالدقة والانضباط . وفي عام ١٦٦ ، وصلت الى البلاط الامبراطوري ، في الصين ، بعثة من التجار السوريين ، يدّعون انهم مرسلون من قبل الامبراطور مارك اوريل. قد يكون هذا الادعاء من باب

التمويه والتزوير ، إنما فيه دليل قاطع على هذه الاسفار الطويلة لا يحجم معهـا تجار أغنياء من القيام بها ، وتجشم المشقات في سبيلها . وفي سنة ١٧٠ ، كان باستطاعة بطليموس ، ان يصف الهند بأوصاف جمعت من الدقة بحيث اعتمدت عليها الحفريات الأثرية التي قامت فيها .

وفي القرن الثالث، يقدم لنا التاريخ صورة لما يشبه جسراً، ارتفع فوق القـارة الأسيوية ، يتمثل في حياة المصلح الديني ماني . ولد ماني في بابل عام ٢١٦ للميلاد ، وابتدأ رسالته الدينية التبشيرية برحلة الى ضفاف نهر الهندوس، وهي رحلة تمت بين سنة ٢٤٠ – ٢٤١ – ٢٤٢–٢٤٣ ثم اشترك فيما بعد بحملة عسكرية قام بها سابور ضد الامبراطورية الرومانية ، أي بين ٢٤٢–٢٤٤ ضد الامبراطور غورديانوس الثالث أو بالأحرى ، كما يرجحون ، الامبراطور فاليريانوس ، بين ٢٥٦ – ٢٦٠ . فلو صح الافتراض الأول ، فلقد كان ماني موجوداً في الجيش الذي كان فيـه أفلوطين مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، اذ كان يحارب ، بصفة جندي متطوع ، بحيث يستطيع إشباع فضوله بالتعرف الى الديانات القائمة في ايران والهند. فقد كانت حياة ماني، فيما بعد سلسلة من الأسفار ، قام بها عبر الامبراطورية الرومانية، ثم أوفد من قبله مبشرين الى مصر (عام ٢٤٤ و ٢٦١) كما أوفد غيرهم من المبشرين الى المناطق الواقعة حول ضفاف نهر الأوكسوس. وفي عام ٢٦١–٢٦٢ ، أرسل فريقاً منهم الى المنطقة الواقعة جنوبي نهر الزاب الصغير . وهذا المثل ليس بالطبع حادثاً فردياً ، إلا أنه كانت له نتائج بعيدة جداً . ألم نشهد ، بالفعل ، في انتشار آخر مدرسة فلسفية رأت النور في الاسكندرية، وهي الأفلاطونية الحديثة، مع افلوطين وبورفيروس التي أفضَت الى هذه التعاليم الباطنية ، الموقوف الاطلاع عليها ، على بعض قلة من المريدين ، كما أفضت الى هذه الأعمال التي تتعلق بالنجامة والسحر ، وكلها أعمال وأفعال هي في النقيض من الروح اليونانية ؟ فالحقيقة الأخيرة ، النهائية ، والواحد الأحد ، والجوهر الفرد ، التي قال بهـا أفلوطين وعلم ، لا يمكن أن تُفهم إلا اذا رددناها الى علم الوجود الهندي ، اذا مـا أخذنا بعين الاعتبار الفراغ المطلق الذي تقول به البوذية، أي الوجود المطلق الذي تعلم به الفلسفة البراهمانية *Vedanta* ، كما يعلل ذلك ويفسره المؤرخ المشهور غروسيه. وهكذا نشهد عملية غسل العقول من الروح الهلينية ، في ذلك العصر ، وهي عملية تمت في هذه المنطقة التي كانت دومـاً ملتقى العروق والاجناس والعقائد ، من العالمين ، الايراني والهندي . ومن المحتمل جـداً أن تكون هذه الظاهرة ليس ردة فعل وحسب ، بل ايضاً صدمة هزت هذه المؤثرات الشرقية في الهلينية، أو بالأحرى ، هجومـاً تشنه الديانات الباطنية الأسيوية ضد العقـل اللاتيني المتميز بالاتزان والانضباط . ويمكن ان نجد دليلاً على هذا في الكتاب الذي وضعه، عام ٢٣٠ القديس هيبوليت (١٧٠–٢٣٥) في روما، بعنوان *Réfutation de toutes les hérésies* « دحض كل الهرطقات»، وفيه عرض دقيق لتعاليم البراهمانية، في الدَّخَن(الكتاب الأول، ص ٢٢٤) . وهنالك مصادر يونانية كثيرة ، تتعلق بالفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، تشيد كلها بالمكانة التي أحرزتها حكمة الهند في الغرب ، تُبَسّط ، بكثير من الإفاضة ، كل ما يتعلق ببراهما ، وفلاسفة الهند وحكمائها ، والسامان *Samanes* أو كهنة بوذا . ولا بد هنا من التنويه عالياً باسم برديصان (القرن الثاني)

السرياني ، وفيلوستراتس (غرة القرن الثالث) ، الذي يقص علينا خبر رحلة ابولونيوس ده تيان المجانثي ، الى كهنة براهما .

وعلى عكس ذلك ، فالعلم الهليني ، والعلوم الربانية ـ الروحانية ، والتعاليم المسيحية ، والمانية ، ونظرات ايران السياسية ، وغير ذلك من عوامل هذا التراث الحضاري في الغرب ، بلغ الأقطار الأسيوية ، ولا سيا الهند منها ، وساعد بدوره على إغناء إرثها الحضاري . وعلى هذا يجب أن نقيس هذه التيارات وهذه المجاري ، التي حملت في ثناياها هذا القصص الشعبي ، وهذه الحكايات كلها التي اتبَعَت ، في انتقالها وتنقلها ، شبكة المواصلات التي أتينا على ذكرها ، وغير ذلك من الأدب الحكي أو الشفوي ، المتوارث خلفاً عن سلف ، انتقل من أقصى الغرب الى أقصى الشرق . وهذا التيار ساعد الهند على ان تعي حقيقة حكمتها وتفهم حضارتها ، وان تصون تقاليدها ، وان تنشّط من حيويتها العقلية والثقافية ، والروحية والفنية ، وذلك بشكل من الحس اللاشعوري .

إلا ان طريق الاتصال بين العالم المتوسطي وأصقاع آسيا الوسطى ، منذ أواسط القرن الثالث وربما قبل ذلك بكثير ، فيا يتعلق بالصين وما اليها من الارضين ، انقطع تماماً من جراء قيام الدولة الساسانية في ايران . واذ وجدتا نفسيهما منقطعتين عن الغرب ، ارتد كل من الهند والصين الى ممتلكاتها ، مهتمة كل منها بتجارتها الخاصة ، تصدّر اليها فلسفاتها ، في كل ما يتصل بالسياسة والاجتماع ، والدين والفن ، بعد ان تمهدت السبل امام ذلك كله . لمنذ القرن الاول نرى الصين تعيّن حكاماً لها في واحات آسيا الوسطى ، كما أدخلت مقاطعة التونكين ، في الجنوب ، تحت تابعيتها . كذلك استطاعت الهند ، بما تم لها من قوافل التجار والرواد المغامرين ، من اعادة بعض الممالك ، الى الوجود ، في الهند الصينية : من ذلك مملكة لن ـ يي ، عام ١٩٢ ، التي عُرفت فيما بعد ، باسم مملكة شمبا *Shampa* ، وهي مملكة أسسها احد المواطنين على حساب ولاية جي-نان الصينية ، ثم أخذت هذه المملكة تتمثل حضارة الهند منذ تأسيسها . كذلك ، تأسست مقاطعة فو ـ نان التي لم تلبث ان تصبح مركز مملكة الخير على يد مغامر يدعى كونديليا *Kaundinya* ، الذي دخل البلاد اما من جنوبي الهند ، او من شبه جزيرة الملايو ، او من احدى جزر بحر الجنوب . وقد قام في شبه جزيرة الملايو ، عدد من الممالك الصغيرة المستهندة الطابع ، منها مملكة لانغ ـ يا ـ سيو (مطلع القرن الثاني) ومملكة تمبرالنغا (حوالي القرن الثاني) ومدينة تاكولا (في القرن الثاني) ، وكيداه ، وبيراك ، بعد ذلك بقليل .

وتميز القرن الثالث الذي عرف ان يستغل هذه الاجراءات ، بقيام تبادل البعثات والسفارات وبعلائق دبلوماسية اخرى . ففي الحين الذي كان فيه ملك من اواخر ملوك كوشانا ، ان لم يكن آخرهم بالفعل ، هو الملك فازوديفا ، يوفد ، عام ٢٣٠ ، بعثة دبلوماسية الى بلاط ملك الصين ، كنا نرى ممالك الجنوب الشرقي من آسيا ، يقيمون لهم علاقات سياسية مع الهند والصين على السواء . وبين ٢٢٠ ـ ٢٣٠ ، ارسلت مملكة لن ـ يي الى حاكم مقاطعة التونكين ، بعثة اهتمت لها ايضاً مقاطعة فو ـ نان .

وبين ٢٢٥ ـ ٢٥٠ ، قرر ملك فو ـ نان ان ينشىء له علاقات دبلوماسية مع الهند ، وذلك إثر ما سمعه وقصه عليه شخص قدم من مقاطعة تقع الى الغرب من الهند ، والذي سبق له ان زار الهند قبل قدومه الى فو ـ نان. وكان المتقدم في البعثة الدبلوماسية احد أنسباء الملك نفسه، فركب البحر من مدينة تاكولا (شبه جزيرة الملايو) كا يرجحون، وبلغ مصاب نهر الغنج وصعد مجراه حتى ادرك عاصمة شعب موروندا *Murunda* ، وهم أقوام يمتّون بصلة الى كوشانا والساسانيين . ورحّب الملك الهندي بالقادمين وأتاح لهم زيارة مملكته ، وقدم لهم عدداً من الخيول المطهمة هي من خيل الفرز، وعين لهم دليلاً هندياً من رعاياه، رافقهم الى بلادهم، وعادت البعثة من حيث جاءت ، ووصلت فو ـ نان ، بعد غياب أربع سنوات . وفي سنة ٢٤٣ (وقد تكون السنة نفسها التي التقى فيها افلوطين وماني) ، أوفد ملك فو ـ نان ، بعثة دبلوماسية أخرى الى الصين ، هذه المرة ، مقدماً لملك الصين هدايا من محاصيل البلاد ، معها فرقة من اهل الطرب والغناء والعزف . وحوالي عام ٢٤٥ ـ ٢٥٠ ، أوفد اليه ملك الصين بدوره ، وفادة من شخصين هما : كنغ ـ تاي وتشو ـ ينغ ، فقاما بزيارة المملكة ، واجتمعا في البلاط بممثل ملك موروندا الذي كان لا يزال باقياً هنالـك ، منذ رجوع البعثة الدبلوماسية من الهند الغنجية . والخيراً ، في سنة ٢٨٤ ، كررت مملكة لن ـ يي محاولة أولى قامت بهـا بين ٢٠٠ ـ ٢٣٠ ، فأرسلت الى بلاط الصين بعثة رسمية .

غير ان الوضع الحرج الذي آلت اليه أسرة هان ، في الصين ، وانهيار امبراطورية كوشانا ، في الهند ، وما كان لذلك من صدى وردة فعل ، وطلوع عهد الغزوات الكبرى ، كل ذلك تألب وتجمع ليضع حداً ، الى حين ، لهذه الاتصالات الدبلوماسية التي لن تستأنف سيرتها الاولى، إلا في القرن الرابع .

٣٦ – اورشليم: مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء.

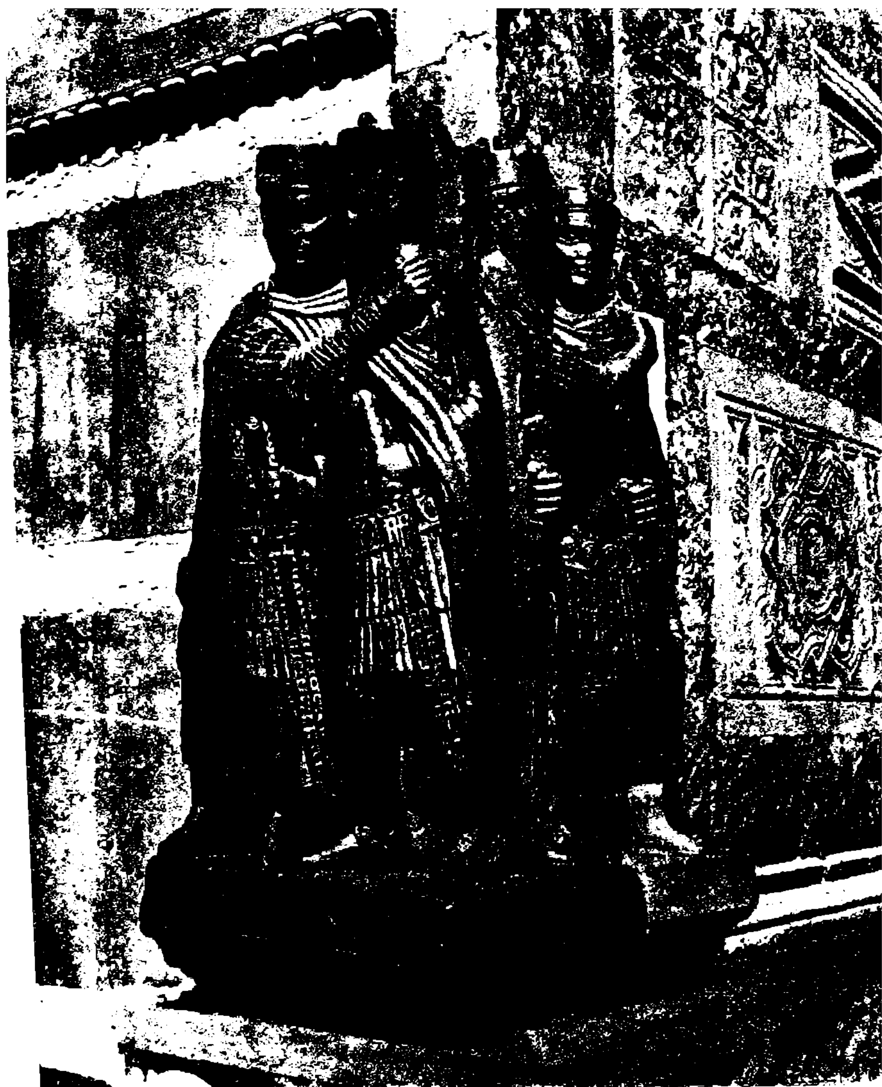

٣٩ – أباطرة الحكم الرباعي : ديوكلتيانوس ومكسيميانوس ،
غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) .

٤١ – بودهيساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) .

٤٢ - ملك - حية (ناغاراجا) .

٤٣ – نقش عاجي اكتشف في افغانستان (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) .

٤٥ - معبد كارلي من الداخل (حوالي القرن الثاني بعد المسيح).

٤٨ – تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع؟)

الفصل الثاني

تطوّر الهند (الهندية)

إطار المدينة والريف

عندما أطلّ هذا العهد ، موضوع بحثنا هذا ، كان من المحتمل جداً الظن بأن نقش الأرْوِقة التي تزيّن درابزونات الستوبا رقم ١ *Stupa* كان في طريقه الى الاكتمال . فنحن امام مناظر ومشاهد تساعدنا كثيراً على تكوين فكرة صحيحة عن الوضع الذي برزت عليه كل من المدينة والريف ، عندما كان المجتمع الهندي ، في حقبة ما بعد عهد الموريا *Maurya* آخذاً بالتطور . كان باستطاعة المرء ان يرى ، من جهة ، انه لم يقم ، اذ ذاك ، أي فارق بين هذه الحقبة والعهد الماضي ، كما انه لم يحدث ، من جهة اخرى ، أي انقطاع او أي فاصل ، بين هذه الحقبة والحقبة السابقة التي تألفت من القرنين الماضيين . فاذا ما حصل شيء من ذلك ، فبالأكثر ، بعض تفاصيل طفيفة دخلت على الرسم الهندي ، كما حدثت سهولة أكبر في تصوير الاشياء ، وبالتالي ، في تبسيط دراستها .

هنالك شيء يستبد بالفكر عندما يلقي المرء نظرة عجلية على مختلف المظاهر التي طلعت في القرون الاولى من ظهور المسيحية ، الا وهو هذه الوحدة ، وهذا التلاحم الذي اتّسم به المجموع ككل . فاذا ما قام بالفعل حدود سياسية بين مختلف الممالك ، واذا ما وقعت ماتورا *Mathura* وكابتشي بين ايدي الكوشانا ، واذا ما وقعت امارافاتي وقنهاري *Kanhari* ، وكارلي بين ايدي تشاتا كارني ، فالفروق التي نلاحظها في قطاعي الحياة العامة والخاصة ، وبين الشمال والجنوب ، او بين الشرق والغرب ، في الهند ، هي بالحقيقة فروق طفيفة للغاية . فالفضل كل الفضل في هذه الوحدة يعود ، اولاً واخيراً ، للبوذية ، اذ ان معظم مصادر هذه الحقبة هي بوذية في سوادها الاعظم ، وتتألف من رسوم وصور بوذية الطابع .

فالمدينة الملكية او الامبراطورية التي تتخذ مثالاً للوصف الادبي او موضوعاً للتصوير والرسم هي ، مبدئياً ، مربعة التخطيط ، يقوم في وسطها القصر الملكي يحيط بها ، كما في السابق ، سور كبير حصين ، تتخلله بوابات ضخمة يعلوها عدد من الطوابق للسكن . وهذه البوابات تتألف من مصراعين كبيرين يدوران على نفسيهما بواسطة رزّة . اما الشوارع الكبرى في قلب المدينة ، فتتقاطع عمودياً وتفصل بين مختلف الاحياء والجادات المخصصة للطبقات الاجتماعية الاربع :

الصناع والتجار ، ورجال البلاط والبطانة والحاشية ، ورجال الفن والموسيقى . ويقوم في قلب المدينة أبهاءٌ كبيرة عديدة : للرسم والتصوير ، للموسيقى، للقراءة ، والمطالعة ، والمستشفيات ودور حضانة، ومؤسسات البر، والجامعات وغير ذلك . فالحي الاداري يسكنه كبار الموظفين ورجال الحاشية وفيه يقع بيت المال ، ومكاتب الموظفين وكتبة السر ، وكلهم على مقربة من القصر . اما الاسواق التجارية وما إليها من المخازن والدكاكين والمستودعات ، والمصانع ، فتقوم في حي واحد ، اما البساتين التي ترتفع فيها الأشجار المقدسة ، فهي تقع على الغالب ، في قلب المدينة . ولكل حي من أحيائها هيا كله الخاصة به . كذلك تنوّه هذه المصادر بوجود مخارج سرية ، تحت الارض يستطيع معها الناس الخروج من المدينة او الدخول اليها ، دون ان يشعر بهم احد .

فالقصر الملكي او الامبراطوري ، هو مدينة بذاتها تحتل منها القلب ، تحيط بـه الأسوار العالية ، ويضم المئات من الغرف والحجر والابهاء والصالات التي يزداد طابعها سراً مطبقاً كلما اقترب الداخل من جناح الملك الخاص . وعلى مقربة من البوابات التي يقوم الجيش على حراستها الصارمة،تقع الاصطبلات ، وصير الفيَلة ، ومرائب المركبات الحربية . والميادين الموقوفة على مصارعة الطواويس والديكة والأكباش . ويأتي بعد ذلك ، الاجنحة الخاصة بولي العهد وغيره من الامراء ، والوزراء ، وأكابر رجالات البلاط ، وصالات للمقابلات العامة . ثم يأتي الجناح الخاص الذي تقوم فيه مراسم تنصيب الملك ، ودار الاسلحة ، ومستودعات الاغذية والمؤَن ، وغرف الحلى والجوهرات ، واخيراً دائرة مطبخ الملك وما فيها من غرف الطعام ، وداز الحريم، والغرف الخاصة بزوجة الملك الشرعية ، وغرفـة المجلس الخاص ، وحدائق الملك الخاصة التي تسرح فيها جميع الحيوانات الاليفة : كالقطط والطواويس، والببغاء والأيلة والغزلان والنُمُوس، والبط ، وغير ذلك ، مع احواض وبرك تشيع حولها الطراوة والرطوبة ونعومة الهواء العليل. والجناح الخاص بسكنى الاسرة الملكية يتألف من عدة أدوار يُصعَد اليها بسلالم وأدراج من الداخل . اما القسم الخاص بالنساء ، فقد كان محظوراً على أي كان ان يدخل اليه او ان يقترب منه باستثناء الحارس الخاص الذي يقوم بنوبة الحراسة .

وكل منزل خاص هو صورة مصغرة ، من حيث المبدأ ، القصر الملكي ، يشاد على الغالب ، بالقرب من بئر ماء او ينبوع ، وينقسم الى قسمين . فالقسم الخارجي منه ، هو خاص برب المنزل يقوم عادة بقربه ، حديقـة جمعت ما طاب منظره ولذ طعمه من الازاهير والثمار الشهية ، والخضروات ، وأرجوحة . ويدخل في بناء المنزل مواد عديدة ، منها الخشب على أنواعه والقرميد والتراب والحجارة ، والقش وغير ذلك .

اما القرى ، فلكل واحدة منها عادة ، وقف على أصحاب مهنة او حرفة واحدة . فالقرية، في مظهرها الخارجي أقل متعة للعين من منظر المدينة . فالمنازل ، فيها ، بسيطة ، مبنية من اللبن المكسو بالقش ، وفيها مبانٍ عامة للادارة المحلية ، كما فيها ما يجب من المعابد والهياكل . وقد تكاثرت المؤسسات الدينية في البلاد ، فقد كانت تقام عادة ، في الريف او في وسط

الغابات والاحراج . فالواحدة تتألف عادةً ، من عدة مبانٍ معدّة لسكن الرهبان والاساتذة ، والمريدين والطلبة ، يقوم في كل منها ما يلزم من الانشاءات الخاصة بالمساكن والمطابخ وغرف الطعام ، وصالات الاجتماعات ، والمطالعة ، والحامات ، وحواصل للمواد الغذائية ، والاهراء ، وغير ذلـك من الاقسام . وينشأ فيها احواض مقدسة وأماكن للوضوء والاغتسال والتطهير . ويقوم في الجامعات ، ليس الرهبان وتلاميذهم ، بل ايضاً علمانيون من كل الاعمار ، ونساء ، وامراء ، حتى والاولاد. ويقصد الناس هذه الاماكن للتبرك بالزيارة والحج اليها او لعقود الزواج. وقد أنشأت البوذية ، ديارات كبيرة لسكنى الرهبان تضم في ما تضمه ، كل مستلزمات الحياة المشتركة: من مساكن وحجر الطعام والمطابخ والمتنزهات ، وغرف للحمامات يصلها الماء الساخن من موقد خاص له من وطأة الحرارة والوهج ما يحمل المستحمين يسترون وجوههم بأيديهم ، او يطلونها ببعض الاتربة ، للتخفيف من وطأة اللهب ، ومعامل تحاك فيها ملابس الرهبان الخاصة ، والمراحيض ، وبئر ، وحواصل للمواد الغذائية وخزنهـــا ، ومخزن للعقاقير والادوية الطبية ، واخيراً منتدى يقوم على أعمدة ، خاص بالاجتماعات المشتركة .

أما قليّات الرهبان ، فقلما طرأ عليها أي تغيير اخرجها عما كانت عليه من قبل ، أي في العهد الماضي ، فهي ، في الغالب ، عبارة عن أكواخ مصنوعة من القرميد او الطوب وكثيراً ما من القش والحشائش ، تستخدم عادة لسكنى النساك ، ومزودة بخدمات ومنافع ، منها حجرة تحفظ فيها النار المقدسة . ويقوم في الحدائق والاحراج ، وعلى الطرقات ، ملاجىء يأوي اليها الحجاج والزوار ، في طريقهم اليها او ذهابهم ، بعضها محفور في الصخر الصلب .

فالمعابد بقيت على ما كانت عليه في العهد الماضي ، قلما طرأ عليها أي تغيير او تبديل يذكر ، انما زاد عددها في البلاد ، كما زاد بعضها اتساعاً . فمعبد امارافاتي كان يغطي مساحة ، قطرها ٥٠٠ متر . وكان بناؤها يتم وفقاً لطراز هندسي مرعي الاجراء . فبدلا من مبنى ضخم ، قليل النوافذ ، نشاهد في هيكل سانشي (الذي يعود للقرن الثاني ق . م .) وفي هيكل امارافاتي (القرن الاول او مطلع القرن الثاني للميلاد) مبنى مجهزاً بفتحات بشكل عَجَل له عوارض جانبية . وهـــذا النوع من البناء كان يساعد ، من جهة ، على تحمل ضغط القسم العلوي بشكل نصف دائري ، كما كان له ، في البوذية رمز خاص ، اذ ان العَجَل يرمز ، عند البوذيين لتعاليم ناموسهم . وكان منظر الهيكل *Stupa* قد طرأ عليه بعض التغيير ، فأصبح أكثر ضخامة ، من قبل ، والاساس الذي يقوم عليه ، أعلى كذلك . اما الدرابزون فكان يزداد زينة وزركشة ، كجسم الهيكل نفسه ، اذ كانوا يفرشونه بربعات من الحجارة ويبلاط عليه نقوش نافرة . اما الاروقة *Torana* التي كانت تقام امام المعابد والهياكل او عند الممر الذي ينتهي الى الباب الرئيسي للمدينة ، فقد لحقت بها بعض التغييرات ، بحيث أصبحت ، في أواخر هذا العهد ، قريبة من شكل القوس الذي سيعم استعماله فيما بعد ، كل أقطار الهند الغربية .

وقد استمروا في تشييد المعابد من الخشب ، او ينقرونها في الصخور الصماء المطلّة على الوديان ، بشرط ان يحمل الخشب الذي يستعمل فيها رسوماً ناتئة . وكانت هـــذه المعابد تقسم في وسطها

الى ثلاثة صحون ينفصل بينهـــا صفان من الاعمدة ، أكبرها أوسطها ، وينتهي المعبد بشكل حنيّة . ويزينون جدرانه بالنقوش والحفر النافر ، ويقوم في الجدار الامامي ، ثغرات عـلى شكل أمِلّة ، كما نرى ، بعض الاحيان ، (في معابد كنهاري وكارلي ، مثلاً) رسوماً وصور أشخاص محفورة حفراً ناتئاً . اما أكاليل الأعمدة فتزدان بصور حيوانات متشابكة يعلو صهوتها اناس ، ولعل ذلك آخر أثر من آثار الدولة الأخيلية .

والهندسة المعمارية العلمانية ، تبنّت ، هي الاخرى ، الكثير من هذه العناصر . فالأبواب صار يعلوها عَتب او إفريز بشكل نصف دائري ، كما أكثروا فيها من الدرابزونات وأكاليل العواميد ، وهي عناصر توفر وجودها في القصور كما وجدت في المنازل الخاصة . ويتعاقب ، في هذه المباني ، اهلم الابواب ، الرواق ، ونصف الدائرة . والابواب ، هي عادة ، من مصراعين ، كذلك النوافذ والفتحات وتتخذ شكل قوس هندي تشبهاً بطراز العهد الماضي . وتطالعنا ، أكثر فأكثر ، مبانٍ ، تحيط بها الاروقة القائمة على الاعمدة بحيث يشتد الاقبال عليها في العصور التالية ، وفيها تعقد ، عادة ، الاجتماعات العامة او الخاصة . وصالة الاجتماع هذه ، تزدان من الداخل بالنقوش والدرابزونات والاعمدة ، أسوةً بما هي عليه من الخارج . وفي غرف النوم ، تتدلى ستائر من السجاد ، شدّت أطرافها بمسامير دقّت في الجدار او في العواميد .

اما الأثاث والمفروشات ، فهي ، في هذا العصر ، أكثر زينة وزخرفاً منها في العهد الماضي . وهو يتألف ، على الغالب ، من أسرّة ومقاعد وكراسٍ ، لها متكأ الظهر او الساعدين ، وقد تخلو منه أحياناً ، ألبست أغطية ، كما نرى اسكلات وخزائن اتّخذ في صنعها مواد كثيرة متنوعة : كالحجر ، والمرمر ، والخشب ، على أشكاله ، ألبس بعضها صفائح ورقاق من العاج المنقوش او المخرّم ، رُكزت في الخشب بواسطة مسامير صغيرة من النحاس . ونرى بعض الاحيـان ، مقاعد ، حلّ فيها العاج محل الخشب ، وقد حُفرت من كلا وجهيها . وتبرز احياناً للعيان بعض معالم ألوان الرسم التي كان عليهـــا (ابيض واسود) ، او صفائح من اللك أنزلت في الأماكن المخرّمة . والغالب على الظن ان مقاعد هــذه الحقبة كانت تشبه ، الى حد بعيد ، المقاعد التي وجدت في مخبأ بَغرام ، كما يستدل من رسوم الشخوص المحفورة ، او من الصور المرسومة على الجدران . وكان يبدو على بعضها ، بصورة واضحة ، تأثير هذا الفن الغربي ، ولبعضها قوائم تشبه اقدام الحيوانات .

اما المصوغات والمجوهرات والحلى وكل المصنوعات المتخذة من المعادن ، فقد سجلت في هذه الحقبة ، تفوقاً فنياً ، لم تعرف مثله في العهد الماضي . فالصندوق الخاص بحفظ بقايا الاولياء ، والكؤوس ، والكئوب العريضة الفتحة التي عثر عليهـــا في تاكسيلا ، تقلّد كلها ، أشكالاً هلينية ، بعضها غني ، فاخر ، سني ، من الذهب المنقوش او المرصع بالحجارة الكريمة والفصوص الثمينة الكبيرة ، والبعض الآخر اتخذت مادته من الفضة او النحـــاس . اما ادوات المطبخ العادية ، فتتألف من أشكال وأنواع مختلفة : فالكؤوس تبدو احياناً شفافة ، وكأنها من هذه الزجاجيات الاسكندرانية الصنع ، تشبه الى حد بعيد ، هـذا الشكل الذي وجد في بغرام

وكابتشي . وراجت صناعة السلال أيما رواج . فالى جانب مقاعد الزينة تختلف اليها السيدات لتصلح من هندامهن ، نجد كثيراً من الاسكملات تصنع من الخيزران ، كما تصنع منه صوان وأطباق تستعمل لتقديم الفاكهة : كالسلال ، والمراوح ، وكلها تصنع من الخيزران المحبوك .

اما ادوات الزينة ، فهي الادوات ذاتها التي كانت ، قيد الاستعمال في العهد الماضي ولا سيما المرايا منها . فالمذبّة ، والمظلة ، والعَلَم ، هي من سمات الاشراف الذين يؤلفون حاشية الملك وبطانته ، في حله وترحاله .

وللموسيقى ، في هذا العهد شأن لا يقل عن شأنها في الماضي . فحفلات الطواف ، والمسيرة والمواكب الاحتفالية والزياحات تجري كلهـــا على انغام الموسيقى تنطلق من اجواق المغنين والمطربين والمطربات ، يسيرون كلهم على وقع الانغام . فالامراء والملوك ، في خدورهم يقيمون حفلات راقصة تشترك فيها نساؤهم . اما القانون فهو آلتهم المفضلة .

في المنزل العادي ، كما في القصر ، غرفة خاصة بالاسلحة ، عدة الحرب والقنص ، ولكل من هذه القطع رمزها الخاص ، وهي تمثل دوراً هاماً في حياة الملك وحياة النبلاء وسراة القوم . فعلى كل محارب ان يقتني له خمس قطع ، لا مندوحة له عنها : السيف والقوس ، والفأس الخاص، والنبّوت ، والرمح او المزراق ، والمِجَن . فهي كلها تستعمل وفقاً للهدف وعلى نسبة بعده : ابتداءً من أسلحة الرماية وختاماً بالسلاح الابيض . بعض هـــذه الاسلحة جميل الصنع ، غالي الثمن ، له مقابض متخذة من عظام وحيـــد القرن والجاموس ، او من العاج والخشب المطعم بالحجارة الكريمة . وهي تختلف شكلاً ونوعاً . والى جانب هذه القطع الخمس يمكن لرجل الحرب ، ان يقتني له أشياء أخرى ،منها خطّاف مثلث الشوكات ، وسيف قصير ، عريض النصل ، وخنجر وحربة . ويقتني هواة الصيد شباكاً وأحابيل وأنشطة من أنواع شتى تلائم طبيعة الطرائد المنوي صيدها . ويستعملون في نشر العاج أنواعاً شتى من المناشير .

اما وسائل النقل وعدته ، فهي اوسع واوفر مما كانت عليه في العهد الماضي. فهي تعوّل على الحصان والفيل والجمل ، في المناطق الشمالية الغربية ، يصنعون لها اسرجة بسيطة للغاية. فسراج الحصان لا رِكاب له ، على ما يظهر ، فيستعيضون عنـــه بالرباط . ويتخذ في سوق الفيلة من معقوفة ، وللحصان : اللجام والسوط ، والمركبات ذات العجلتين يجرها زوج او زوجان مـــن الخيل يفصل بينها عَريش العرَبَة او مِجَرّها . والعربة عرف استعمالها العهد الماضي انما احتفظ بها للملك ، وهي تحاكي ، في صنعها ، المركبات التي جرى الرومان على استعمالها ، وقد زُهد بها منذ القرن الثـــاني وسقط استعمالها ، إلا في الايقونوغرافيا الخاصة ببعض الآلهة ، كإله الشمس وسوريا *Sūrya* . ونرى في المقاطعة الواقعة الى الشمال الغربي من الهند عربات تجرها الخِراف . اما العربات التي تبدو بشكل صندوق مربع ، والمغطاة بالهوادج فتجرها الثيران المكدونة تحت النير ، وهي تستعمل لنقل الأسر والعائلات،وفي النقل التجاري، كما هي الحال معها اليوم.وبعض الاثقال والاحمال رفع، مُعلّقة على القضبان، وتحمل على الاكتاف او في قِفاف وسلال الحالين. والملاحة التي اتسعت مرافقها كثيراً وتشعبت، استخدمت قوارب كبيرة والسفن ، يقوم على

صنعها نجارون ، شأنها في ذلك ، شأن المركبات والعربات . هيكلها يتخذ من قشر الخشب السميك او من جذوع الشجر بعد تفريغها ، واطرافها في المقدمة والمؤخرة مرتفعة ، تستخدم في تحريكها المجاذيف .

الحياة الاجتماعية

واقتصاد الهند نهض ، في هذا العصر ، كما في الماضي ، على التجارة والصناعة والزراعة والحياكة ، وصناعة الحديد وجمع العاج وتوضيبه ، كل هذا كان موضوع حركة تصدير عرفت ازدهاراً كبيراً اذ ذاك . فصيانة الطرق ، وقيام المحطات والملاجىء على جنباتها ، ومراقبة المجاري النهرية وتنظيمها ، وانشاء الموانىء البحرية ، كل ذلك وما اليه ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الهند التي عرفت في هذه الحقبة عهداً من الازدهار لم تعرفه من قبل ، أقله بين الطبقات الحاكمة .

فالمعلومات التي تمدنا بها مصادر العصر في الادب والفن ، لا تصف لنا سوى حياة الملك وحاشيته : فالحياة الاجتماعية التي تنطبع ، أكثر فأكثر ، بالتسلسل الطبقي ، محورها الاول والاخير ، نهج الحياة الملكية . فالملك هو النموذج الاكمل ، والمثل الاعلى للمجتمع اذ ذاك ؛ كل شيء مرتبط به او متوقف عليه ، وكل شيء وُجد او صُنع لأجله او الصفة الملكية التي له . فكل الاصداء التي وصلتنا من هذا العهد ، تعكس تماماً هذه الذهنية او العقلية التي تربط كل شيء بالملك وتردّ اليه كل شيء . فالشعر يعبق بجو البلاط . فالملاهي والالعاب الرياضية هي من نفحات الآلهة التي يمثلها خير تمثيل وأتمه : والعلاقات الدبلوماسية والمبرات الخيرية والدينية لا وجود لها بدونه ؛ والفنون الصناعية والموسيقى هي من وحي رغائبه واستجابة لطلباته ، و « العلوم » والمعرفة لم يُعلن عنها الا لخدمته . ولهذا راحوا يصورونه بطلاً من الأبطال ، تمت له أسباب العلوم والفنون ، واستبحر في أفانين المعرفة البشرية ، يمارس أشرف الهوايات وأمثلها ألا وهو الرمي بالقوس والنشاب ، واقف على مكنونات السياسة وأسرارها ، لا تفوته خدعة من خدع الحرب ، مطلع على كل ما يؤمن سير امور مملكته ، مشرف على ادارتها ، ابتداءً من التجارة ، يهيمن على نظام « الكون » ، فهو منه المحور ، وقطب الدائرة .

حاكم فرد مطلق ، أوتي الكمال ، وبطل أمثل ، وسياسي محنك ، وقائد حرب مجرّب ، هذا هو الملك كما يبدو من خلال الصورة التي ترسمها له النصوص الأدبية ، وهذه هي الشخصية المثالية التي تتمثل على أتم وجه من خلال الـ *Kshatrya* . فهو الى هذا كله ، وبعد هذا كله ، ممثل الالوهية على الأرض وتجسيمها الحسي . ومع ان انتقال الحكم هو أمر وراثي ، فالملك شخص قدّرت ظهوره الآلهة منذ الازل ، وهيأته الأقدار ، يحمل تكوينه علامات مفرّدة ، مميزة ، منها الحجى ، او العقل ، وهو من ألزّم صفات الكهنة ، أو ان خارقة من الخوارق الطبيعية تظهره للملأ بكونه الوحيد ، الخليق بأن يجلس على عرش الملك . وعندما يتم الإعلان عنه يمسح بالدهن ، ويكرّس ، وينصّب في حفلة رسمية ، فيها من المراسم والطقوس ما فيه الكثير من الكنايات والتوريات الرمزية . وهذه المراسم توليه ليس فقط السلطة العليا ، وتؤمّن له استقرار

الأمر بين يديه، بل ايضاً لجعل منه شخصاً إلهياً، مساوياً لرب الأرباب، وملك الملوك، كفأً عدلاً لأندرا Indra، والذي يعادل كرامةً ويجسمه بصورة حسية، على الارض كما هو اندرا في السماء. فالملك هو قبل كل شيء الـ Kshatrya يتفرّد عن غيره بقدرته الفائقة، ومهارتـه على الرمي بالقوس والنشاب. فهو يعلو الجميع ويتربع دَسْتَ الملك عرشاً رفيعاً، ويرتدي خفاً (صندالاً) يرمز إليه في غيابه، وينوب عنه في حكم المملكة. فهو وحده يملك «الجواهر السبع» التي هي من حق الملك وحده؛ وهي: زوجـة، ووزير، وحصان، وعرش وعَجَل Chakra، ومظلـة بيضاء، ومِذَبّة تنتهي بذنب القُطاس (بَقَر وحشي له ذنب الفرس).

كل ما حوله ينمّ عن البذخ والزهو الشرقي. فهو في بلاطه بين بطانة كبيرة وعدد لا يحصى من الحَشَم والخدم. فحياته مليئة بالأعمـــال الجيدة، كما في العهود السابقة، وطريقة استعماله الوقت وتوزيعه على ساعات النهار، موضوع طالما تعرض له الكتّاب ووصفته آداب العصر. فيومه مقسم الى ثماني «ساعات» لكل من الليل والنهار، يضبط تعاقبها بالدقة اللازمة مِزْوَلَة وساعة مائية، من السهل أن نكوّن لنـــا عنها فكرة صحيحة من خـــلال وصف «علي» وصلنـا من أدب ذلك العصر؛ فهذه الساعة، تتألف أساساً من طشت أو جنطاس كبير من النحاس يُملأ ماءً تطفو على وجهه حبات صغيرة من حجم واحد، دقيقة الغـاية، مثقوبة من الأسفل، وفقاً لبعض المعادلات الحسابية، فالماء يدخل في الوقت المعين في الحبة من الثقب الذي تحمله، وعندما تمتلىء من الداخـــل تهبط الى أسفل الحوض فتحدث فيه رنّة، وعندئذ يقرع الحارس أو الخادم الواقف بإزاء الحوض، طبلة على مقربة منه إشعاراً منه بالحضور بالوقت الذي عبر وانقضى.

يستيقظ الملك في آخر هَزيع من الليل، أي عند الساعة السادسة صباحاً، وهي ساعـــة شروق الشمس في كل الفصول، ويقوم حالاً، بمراسم التطهير، ويقدّم القرابين للنار المقدسة، ثم يستقبل حاجبه والقيّم على امور منزله؛ ثم يتجه الى ديوان مظالمه، حيث يستمع الى شكاوى رعاياه ومطالبهم وقضاياهم، ليخلو بعد ذلك، الى محل سرّي مُنزَوٍ، مـع وزرائه، للتداول وتبادل الرأي. على قراراته يتوقف خير المملكة ورفاهها، وبعد أن يكون نظر ومعه وزراؤه في شؤون الدولة ومهـــام الحكم والادارة ينصرف ليقوم بقسطه من الألعاب الرياضية، وعند الظهر يستحم ويعود الى جناحه الخاص، فيتناول وجبة الطعام الذي يهيأ له بكل عناية، تحت مراقبة خدم مجربين، دوماً على أتم استعداد لتذوق الأطعمة قبل تقديمها للملك، تسييجاً حول صحته ليكون في مأمن من السموم المدسوسة. وبالرغم من هـــذا التحفظ، والاحتياطات المشددة، ينصح له الاطباء بتناول الترياق ضد السم، ويحمل الحلي والمجوهرات لكي تمنع عنه فعل السموم. وبينا هو منهمك في تناول الطعام، تَقِف عليه نساؤه وزوجاته، بعد ان يخضعن لتفتيش دقيق، لئـلا يخفين تحت ملابسهن سلاحاً أو سموماً، ويأخذن بالترويح عنه بالمراوح، وينضحنه بالماء والطيوب والعطور. وبعد تناول الطعـــام يترك له فرصة لمداعبتهن، ثم يعود للديوان يتابع النظر في شؤون الدولة والرعية. وبعد ان يرتدي ثياب الميدان، ويتخذ عدته،

ينصرف لاستعراض حرسه ، وما لديه من فِيَلة ومركبات وأسلحة وعتاد . وعند المساء يقوم بواجباته الدينية ، ثم يخلو الى جناح خاص يجتمع فيه الى عيونه وأرصاده ، يستمع الى تقاريرهم السرية ، ثم يعود الى جناحه الخاص، حيث تنضم اليه زوجاته فيتناولوا معاً وجبة العشاء . وبعد العشاء يحضر حفلات موسيقية تنظمها الفرق الموسيقية التابعة للبلاط ، ثم ينصرف للنوم والراحة ليستيقظ في صباح اليوم التالي ، وهو على خير ما يكون من نشاط .

وهذا النهج المنظم لحياة كل ظواهرها تنم عن الانتظام ، يفرغ في جو ومحيط ملؤهما البذخ الشرقي والزهو المعروف . فالقصر هو محور النشاط في حياة الدولة . يموج بالعديد من النـاس ، لكل فرد منهم مهمته الخاصة ودوره المعين . بعضهم يعمل بمعية الملك مباشرة ، بينما ينصرف فريق منهم لتأمين اسباب العيش الرغيد والرفاهية والطمأنينة للجميع ، وهي طمأنينة تبعثها في النفس ما يقوم على مداخل القصر ومخارجه من الحرس ، والحرس المؤلف من النساء الذي يحف دوماً بالملك ، والذي يذكـرنا بهـذه النساء المسترجلات (*Amazones*) اليونانيات الاصل اللواتي كثيراً ما جاء ميغاستيلس على ذكرهن، في القرن الثالث ق . م . أكثر اقسام القصر الملكي انزواءاً هو قسم الحريم حيث تعيش نساء الملك وسراريه. فالملكة وحدها زوجته الشرعية، ولها جناحها الخاص ، ولا يسمح لأي رجل بدخول دار الحريم إلا للملك وللحارس القديم الذي يتخذ دوماً من الخصيان، ذي الشعر الذهبي، ويرتدي قفطاناً أبيض ويحمل بيده خيزرانة . فهو يسير الهوينـــاء بين شقق الحريم يندب فعل الشيخوخة وينتحب لسوء حظه وقسمته الضيزى ويشكو من ثقل المسؤولية التي تقع عليه في السهر على راحة هذه الحسان الجميلات . اما شغل هؤلاء النسوة الشاغل ، فالاهتمام بهندامهن وزينتهن والتخضب والتضمخ بالطيب والعطر ، والظهور امام المرايا واسترقاق النظر الى بعضهن البعض ، والى جانب كل واحدة ، عدد من الوصيفات يأتمرن بأقل اشارة تبدو منهن. ولكل من هذه الوصيفات عمل خاص: هذه تعنى بدلك جسم سيدتها وهي مستلقية ، نائمة على سرير من الرياش الوثير ، تحمر لها أخمص الاقدام وتقدم لها الحلي والجوهرات وتساعدهـا على لبسها وارتدائها ، وتمدها بما هي بحاجة إليه من التُبل والافاويه ، وقماقم المراهم والمساحيق ، وسلال الاقمشة الحريرية ؛ بينما فريق آخر منهن يعمل على ترطيبهن بالمنعشات والمرطبات ، والترويح عليهن بالمراوح والمِذبّات ، في حين تقوم جوقة من الراقصات برقص إيقاعي على انغام الموسيقى الصادحة. وترى في قسم الحريم، احياناً، نساء أقزاماً بثياب الرجال . وبعد ان تطمئن هذه النسوة الى زينتهن بالرضى عما تعكسه المرايا منهن ، يتجهن الى حديقة القصر والى ما فيها من أفناء عديدة بصحبة وصيفاتهن ، فيختلفن الى الاكشاك الظليلة وافياء اشجار الموز ، يرتشفن بعض المشروبات او يتناولن أقراص الحلوى ويتلهين باقتسامها مع أسراب البط والببغاء والاوز الاليف. وهذه المرايا تتألف من اقراص من المعدن الصقيل تنتهي بمقبض من العاج البضّ . ثم يأخذن بضفر باقات من أغصان الكوكو ، رمز الحب المشبوب والربيع الأفيح، او يلعبن بالكرة. وكثيراً ما يأخذن بالترطيب والتبريد عن أنفسهن بالاستسلام للأراجيح المنصوبة في الظلال الظليلة ، ويأخذن بالعب ، ويسلمن للعبث البريء بعيدات عن

كل عين او رقيب ، يقوم على حراستهن من بعيد ، فرق لا حصر لها ولا عد من الحرس يسهر على امن القصر وسلامة من فيه . وكثيراً ما ترافق الملكة وغيرها من نساء الحريم ، والسراري والمغنيات والقيان والمطربات ، الملك في غدواته وروحاته ، خارج القصر . وتعرض مناسبات كثيرة يخرج فيها الملك من قصره ، يحف به عدد كبير من رجال الحاشية والبطانة والخدم ، في طليعة سرية غزو يقوم بها ، او حفلة صيد كبيرة او في زيارة حج التبرك لدى بعض المعابد والمزارات المشهورة ، او لزيارة وليّ اشتهر بالتقوى والخشوع ، ولترأس حفلة تأسيس معبد او هيكل . وقد يخرج الملك سيراً منه على الاقدام ، او ممتطياً صهوة جواده ، او راكباً على ظهر الفيل ، يتقدمه حامل سلاحه ، وفوق رأسه مظلة تردّ عنه وطأة الشمس المحرقة ، تحيط به حاملات للمذبات ، وامرأة عُهد اليها بحمل سيفه المُغمد ، ورجل يحمل ، مشدوداً الى صدره ، خفّ الملك ، وغيرهم من الخدم حمَلة الاعلام والبيارق ، ويسير في اثره ، موكب طويل يتألف من رجال حاشيته وأعضاء اسرته ، ترافقهم جوقة من اهل الطرب والعزف ليشنفوا آذان الملك وصحبه ، حاملين آلات الطرب على أنواعها ، ولا سيا القانون منها والطبل .

فالأعياد ، في هذا العهد ، كما في السابق ، عديدة ، يحتشد الناس لحضورها ومشاهدتها. بينها الأعياد الدينية والمدنية ، يضاف اليها الاعياد التي تفرض إحياءها ، بعض ذكريات خاصة في حياة الملك : كعيد مولده ، وذكرى ارتقاء العرش ، وولادة ولي العهد ، والفوز بنصر مبين ، وفتح أغر ، كل ذلك على نطاق واسع من الزهو والبذخ ، فتنتصب السُرادقات الثمينة لمناسبة العيد او الاحتفال ، وتقام الاروقة المزدانة بالاعلام ، وينصب العرش العاجي ، وتهوّم المراوح والمظلات والمذبات المتلألئة بما فيها من اللآلىء والجوهرات . ومن المشاهد المستحبة لدى الجماهير ، مواكب العربات والمركبات تخرج في عرض عام ومسيرة طويلة ، وحفلات الكرنفال .

وبمعية الملك ، يسير الحاجب ، والوزراء ، والخصي العجوز الذي يتولى حراسة جناح الحريم ، وحرسه من النساء ، وفرق الشرطة ورجال السر والمباحث ، وهذه الحشود من الخدم والحشم الذين يعهد الى كل واحد بينهم بمهمة خاصة ، فيحمل هذا صناديق الافاويه والعطور وذاك المرايا ، وآخر علب الجوهرات ، وآخر المذبات والمظلات ، وبينهم فرقة الاقزام والحُدْب والقزمات . كذلك في رفقته دوماً صياد هو دوماً على أتم استعداد لنصب الافخاخ والشباك والاحابيل . هنالك حراس مدججون بالسلاح يقومون على حراسة الغرفة التي يعقد الملك فيها مجلس وزرائه . وفي الموكب الملكي سائق عربة الملك ، وقائد الفيل الملكي وسائسه الذي يهتم كذلك بجواده ويجعله دوماً على أهبة الاستعداد ، ومهمتهم في هذا كله لا تعدو مهمة خدام الملوك في الاجيال الوسطى.

فالقصر هو قطب الحياة ورحى الحركة الناشطة في البلاد ، يحتشد في باحاته الخارجية الصاغة وتجار الجوهرات وما اليهم من صنّاع ومساعدين الذين يقومون باستمرار بفحص مجوهرات الملك واختبارها وعجم عودها . يقضون نهارهم في تركيب الحجارة الكريمة واصلاح ما يطرأ من خلل على الحلي ، وصنع الجديد منها ، او يُعدّون للملك الجوهرات التي يحملها او يعدها لحفلة قريبة . وعلى مقربة منهم الخدّام في حركة دائمة ، يغدون ويروحون لتأمين علف الماشية والحيوانات من

أفيال وخيل وأكباش المصارعة ، والعصافير والحيوانات الأليفة .

والحرف والمهن ، كالوظائف الحكومية ، تنوعت هي الاخرى ، وتخصصت ، واخذت الطبقات الاجتماعية تتميز أكثر فأكثر ، الواحدة عن الاخرى وتتفرّد عنها . فطبقة فيكيا تضم بين ثناياها : الفلاحين والتجار والصيارفة ، وأخذت تنعم بالامتيازات التي كانت وقفاً من قبل على الـ Kshatrya وأصبحوا، على شاكلتهم، قادرين ان يقدموا الذبائح ، ويدرسوا الكتب المقدسة ، ويقدموا القرابين للبراهمان . كذلك كان من واجبات الـ شودرا ، ان يقوموا دوماً بخدمة البراهمان ، وان لم يكن لهم نظرياً أي حق ديني ، فهنالك دلائـــل واضحة تشير الى اندماجهم تدريجياً في الطبقات الثلاث الاخرى التي كانت وحدها ، في العهد الماضي ، تمثل العرق الآري الاصيل . فالى جانب الفلاحين والارقاء المشدودين الى الارض، نرى قوماً يحترفون الصيد وتربية الماشية ، يؤمنون معيشتهم كما يستطيعون ، من الاعمال اليومية ، التي يقومون بها، وسكان الادغال ، ونصف العريانين، وقاطعي الحشائش ، وقادة المركبات والعربات، وحاملي الاسلحة، وسائقي الفيلة ، وسوّاس الخيل ، وحَمَلة الاعلام والمظلات ، والمذبات ، وحملة سيوف الملك وخَدمة القصر الامبراطوري ، وسراة القوم والموسيقيون، والمهرجون، والراقصون والمطربون. ويدخل في هذه الطبقة الدنيا من السلم الاجتماعي ، في الهند ، الاغراب والاجانب .

فاذا كانت معلوماتنا قليلة ، نادرة ، حول هذه الطبقة الاجتماعيـــة السفلى في الهند ، فنحن أوسع احاطة بوضع الطبقات الاجتماعية العليا. فالحَبَل يحتفل به عندهم برامم وطقوس عديدة، لا سيما عندما تدخل الحامل شهرها الخامس . وعلى مثل هذا ، تنعم حوادث الولادة ، وخروج المرضع لأول مرة بعـد الوضع ، واختيار الاسم للمولود الجديد ، والحفلة التي تقام بمناسبة قص الشعر، ومراسم الزواج والمآتم والدفن التي أصبحت منهجية أكثر من ذي قبل. كل مظاهر الحياة العادية ترافقها مراسم وطقوس دينية . فعبادة النار تُستبدل بعبادة الـ Sandhya ، أي بعبادة الشمس المشرقة في الصباح ، ومراسم الوضوء والتطهير ، وتمارين التنفس والاستـلام التأمل والتجريد . كل يوم يجب تقديم خمس تقادم تكرّس تباعاً : النار والبراهمان ، والآلهة ، الخ . والمراسم المتعلقة بالضيافة ارتدت طابعاً مهماً كالمراسم الخاصة بالغذاء والطعام . فعملية التغذية تكاد تصبح عمليـــة دينية طقسية : تبتدىء بتلاوة البركة على الاكل وتنتهي بصلاة الشكر . ومراسم الصوم هي كفّارة عن الذنوب والمعاصي والخطايا ، وفرائض الصوم والقطاعة الموقتة يراد منهـا تأمين بعض الاغراض والاهداف الخاصة . فالمنع الديني يحرم بعض اللحوم والبقول والثوم والبصل وبعض المشروبات ، بينها مشروب Sūrrā .

حياة البراهمان والكشاتريا والفيكيا تتوزع كما في العهد الماضي بين أربعة أدوار او مراحل : مرحلة الطالب ، مرحلة رب البيت ، مرحلة الزاهد ، مرحلة المتنسّك (راجع المجلد الاول[1] ، ص ٦١٩) . لم يتبدل شيء من هذا كله ، ولن يطرأ عليه أي تبدل في القرون التالية ، وقـــد راحت البوذية تقتبس ، هي الاخرى ، من التنظيم البراهماني ، وهي ظاهرة جديـدة طريفة . فبعد ان مرّت بطور تاريخي تميز بهذا التضامن الذي شدّ الطالب الى الراهب ، راحت البوذية ،

(١) الشرق واليونان القديمة ـ منشورات عويدات .

بدورها ، نرى في حياة الفرد أربعة ادوار متتالية : دور رب البيت – دور المبتدىء – دور الراهب المستعطي او المتجول – دور الزاهد المتنسك . كذلك الدعوة البوذية التي كانت غير منتظمة لا بل فوضوية ، اخذت الآن طابع التسلسل والارتباط ، من المبتدىء الى الدرجات العليا ، مع اعتمادها على العلمانية التي لم تلبث ان أصبحت أشبه شيء بعلمانيين خاضعين لقانون رهباني ولعدد قليل من الفرائض . وقد حدث ما لا بد من حدوثه ، في مثل هذا الوضع ، الا وهو ظهور رؤوساء وطلوع قادة يلتفون على نسبة ما فيهم من مؤهلات ، وليس بنسبة سنهم كما كان الأمر في العهد الماضي . ولكي يحافظوا على النظام الرهباني ، كان لا بد من وضع فرائض وقوانين اخذت تنمو وتشتد وتنتظم مع الزمن ، وتنظم كل تفاصيل الحياة المشتركة . وهذا التسلسل الاجتماعي الذي لا بد منه ولا مندحة عنه امام التوسع والانتشار الذي بلغته البوذية ، تضاعف بتسلسل ديني وروحي لا يصل اليه إلا كل من تفرّد بالروح الرهبانية الحقة وتقيد بفرائضها . وهذا الانفصال بين العلمانيين والرهبان ، دفع بالبوذية ، في ذلك العهد، لتستحيل الى شيء من الفلسفة والى مقالة تجادل وتناقش .

التطور الفلسفي والديني

وهذا التحول يطرأ على البوذية بزدوج ، من الناحية الفلسفية والدينية بالتطور الآخر الذي اخذت به البراهمانية . فالحقبة هي من اخصب الحقب التي عرفها الادب المقدس او القانوني . فالملاحم الهندية الكبرى هي في سبيلها الى التكوين والبروز ، وكذلك سِير بوذا او ياتاكا . فالتعالم الفلسفية لدى البراهمانية *Darçana* تطلع لنا . أصولها الكبرى ، وهي : *Mîmâmsâ* ، و *Nyâyasûtra* ، و *Vaiçeshika Sûtra* و *Sûtra* بينما يطلع علينا أشهر الادباء الجدليين الذين عرفتهم البوذية ، امثال : *Vasumitra* و *Açvaghosha* ، و *Vasubandhu* ، و *Asanga* و *Aryadeva* ، و *Nagârjuna* . وكلهم يشاركون في المعارك المنيفة في سبيل نشر البوذية . وفي هذه الحقبة تطلع علينا النصوص الاساسية ، منها ديفي الافاداما (القرن الثالث) وساتيافيديستترا ، وتاكاكا مالا وغير ذلك. كذلك تأخذ البوذية المبادرة في حقل الفنون . فليس من باب الصدف قط ، بل نتيجة لهذه السيطرة السياسية في شمالي الهند الغربي ، ان نرى الهندو – الاغريق يعتنقون البوذية . وليس من المستبعد قط ان يكون حدث تمازج او تفاعل بين هذه الفلسفات : الغنوصيّة والمانيّة والتوحيدية والتي كانت مقاطعات الهند الشمالية مسرحاً له فشهدت حركة فكرية ضخمة أتأمت الميتافيزيقا او فلسفة علم الوجود ، بينما لم تكن البوذية ، الى ذلك العهد ، سوى تعالم اخلاقية تلاحظ سلوك الانسان . فالعناصر الهلينية والسامية والايرانية من جانب ، وقرب المؤثرات الصينية ، من جانب آخر ، كل هذا ساعد جدّياً على حدوث تحول عظيم . فالديانات الشعبية تتركز وترسخ لتنضم للديانات الرسمية وتتغلغل على السواء ، في البوذية والبراهمانية وتمدها بعناصر جديدة ، هو هذا القلق وهذه الروح الرمزية وهو شيء لم يكن معروفاً من قبل. وهكذا تتبادل البوذية والبراهمانية القبس الواحدة من الاخرى فتنزع كل واحدة منها نحو الشمول الكلي او نحو الروح المسكونية .

ان بُعد كرازة بوذا في الزمن ، حمل أتباعه ومريديه على اتخاذ موقف تجريدي ، فلفي أكثر فأكثر . فراحوا يحاولون تحديد الناموس البوذي عن طريق نظرات تجريدية وليس بالاعتماد على بعض حوادث معينة من حياة المعلم . وتحت ضغط هذا الفوران الفكري الذي سيطر على الافكار ، في ذلك ، راحت البوذية تحاول ألا تحصر نفسها في الاخلاقية وفي خدمة الفرد بعد ان أصبحت فلسفة عامة وروحاً مسكونية . فالخلاص الفردي يستعاض عنه بخلاص الجنس البشري المتضامن مع كل ما في هذا الوجود .

وفي القرن الثالث تقريباً ، حدثت الوقيعة بين هذه الفئة التي تمثل البوذية المتمسكة بأهداب التعاليم الاولى ، وبين البوذية الحديثة او المستجدة التي جاشت بمثل هذه الحركة التي تتمطّى بها المدنيات المجاورة للهند والتي كانت احدى مفارقات هذا العصر . فمنذ الآن فصاعداً تعرف الفئة الاولى باسم:هيناياناً أي الباب الضيق بينما أطلق على الثانية اسم مهايانا او الباب الكبير أو الواسع. وستعرف كل فئة مصيراً مختلفاً عن الاخرى كما ستخرج كل منها بنتائج مختلفة سواء في الهند او في غيرها من الأصقاع الشرقية .

فالمهايانا التي سادت في جنوبي الهند وسيطرت على المنطقة ، التزمت جانب تقريرية سلبية ارتكزت على جدل آمر ، شديد الشكيمة . وقد كان خير من يمثله ناغارجونا ، الذي عاش بين ١٥٠ – ٢٠٠ بعد الميلاد . لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرة هذا الخطيب الجدلي الذي لا يُضام ولا يرام . فالذي نعرفه عنه انه من مقاطعة بيرار، في الدكن الأوسط، الذي كان اذ ذاك، جزءاً من مملكة أندهرا . فقد ترك لنا عدداً كبيراً من المباحث بينها بحث بعنوان: « في الطريق الوسط» وغير ذلك . فالموقف الذي وقفه يقارب القول بالعَدَمية .

وقد سار على نهجه ، ونسج على منواله ، تلميذه : أرياديفا السنغاليزي العرق والدم(النصف الأول من القرن الثالث) ، ثم تعود هذه النظرية للظهور ثانية ، في القرنين السادس والسابع . محور تفكيره تركز حول مشكلة الخواء أو العَدَم ، ونظرية النسبية الشاملة ، أو اللاجوهر . فالمشكلة في حد ذاتها ليست جديدة ، اذ رأينا في الحقبة السابقة البوذيين يقولون ويعلمون: « كل شيء خاوٍ خالٍ » ، غير أن ناغارجونا يطبق هذا القول على عدم وجود النبي . فهو يمضي في نفيه بحيث يصل الى أفكار ونظريات من هذا الشكل : « عندما نقر بوجود الأشياء التي استولدها الخيال ، فقد فقدت هذه الأشياء وجودها » .

بين الأشخاص البارزين الذين اطلعتهم المهايانا ، في القرن الثاني شخصية أشفاغوشا ، الذي كان معاصراً للامبراطور كانيشكا، والمرجع الاكبر ، والثقة العليا في الجمع الذي التأم في كشمير خلال حكم هذا الامبراطور . رأى أشفاغوشا النور في مقاطعة « أوده » ، فكان صناجة زمانه وموسوعة علم وأدب : شاعراً ، موسيقياً ولاهوتياً . نحن مدينون له بعدد كبير من المؤلفات التي بلغ فيها سُدرة المنتهى ، فتُعَدّ من اروع ما عرفه التراث الفكري البوذي ، على الاطلاق ، بينها : « بوذا كاريتا ، و سوترالامكارا» . وهو يرى نقيض ما كان يقول به ناغارجونا ، ان العَدَمية ، ليست فقط محور هذه المشكلات، بل الـ « تهاتا *Tahata* »، أي الجوهر الذات أو الفرد،

أي الواقع الجوهري ، أو الطبيعة المطلقة للأشياء والكائنات . فهو من هذا القبيل ، من القائلين بـ « اليوغا » التي ترى الحل في هذا الاستجماع الفكري الذي يبلغ تدريجياً أبعد ثنايا الروحية الشاملة فيتيح للفرد ان يتحرر من عوارض الزمان والمكان . فالعمل الذي قام به اشفاغوشا ، والذي سيكتمل فيما بعد على يد أسنغا ، في القرن الرابع ، هو هذه الميتافيزيقا البوذية التي كان من شأنها ان تجعل الديانة البوذية مفهومة من قبل العقول المشبعة بالثقافة التقليدية ، ويمكن للمرء ان يرى فيها محاولة التقرب من البراهمانية ، وهي محاولة جاءت منسجمة مع نزعة انتقاء الأفضل التي عُرف بها الامبراطور كانيشكا وراح يعطف عليها ويرعاها ، ان لم يعمل بها .

كل هذه الفورة الميتافيزيقية لم تخلُ من بعض الاضطراب بحيث يجب ألا نتصور وضع الفلسفة في هذه الحقبة متميزاً بالانسجام والوحدة . فقد قام بين الفئتين البوذيتين منافسة شديدة ، وان غامضة ، كان من بعض نتائجها عدد لا يحصى من الملل والشيع بعضها شايع الأخر في جوهر مقالته ، وبعضها الآخر استقل بنفسه ، كما عرف بعضها بحيوية ونشاط عارمين . ومن مراكز هذا النشاط (كشمير) ، التي تقع على مقربة من غندهارا ، حيث ازدهرت شيعة ، قريبة من الشيعة المعروفة باسم سارفاستيفادين ، في مقاطعة ماتورا ، والتي ساهمت كثيراً في تطوير « الباب الواسع » . من هذه الملل ايضاً ، الملة المسماة فايدهاسيكا التي سلمت بمذهب الذرية مع استمرارها على نكران : « الأنا » أو الذات .

ويقابل هذه الوفرة في الملل والنِحَل ، تمازج او تخالط عقائدي فيما بينها مع كثير من المفارقات بين الواحدة والاخرى ، بحيث لم يقم بينها أي تجانس ، ونشاهد بينها شيئاً من التلامح اللاشعوري او المقصود مع البراهمانية ، يبرز أثره ليس في النظريات والمبادىء فحسب بل أيضاً في مواصفات الآلهة التي يؤمن الطرفان بوجودها . فمنذ الآن وصاعداً ، لم يَعُد وحده ، هذا البوذا المعظم ، رجل الله ، بل هنالك سلسلة لبوذا تظهر جنباً الى جنب ، هي ثمرات تجريدات ذهنية ، في تشاكياموني ، خير ما يمثلها وأهمها على الاطلاق هما : اميتابها وأميتايوس ، أي النور الذي لا نهاية له (في الاول) والديمومة التي لا آخر لها ولا نهاية (في الثاني) . فالاول هو أشبه ما يكون بإله النور ، فيه الكثير من قسمات ايران والبراهمانية كما تتجلى ، على أحسن وجه ، في أوصاف فيشنافا . وهذه الميتافيزيقا التي طلعت علينا بمثل هذا العدد من الآلهة ، اوجدت فكرياً ، الى جانب هذه الصور المتعددة لبوذا التي عرفناها في الماضي ، بوذا المستقبل ، هو مترايا ، حيث تبرز بوضوح مفارقات فيدية وايرانية ، وربما رومانية ايضاً ، اذ نجد فيه بعض معالم ميترا ـ ميترا . وهؤلاء الكائنات السامية ، يصحبها كائنات فكرية ، مجردة هي الاخرى ، تُعرف عندهم باسم *Bodhisattva* ، التي سيلعب ، أكثر فأكثر ، دوراً بارزاً في الاجيال الطالعة ، ويأخذ عددها فيما بعد ، بالازدياد ، منسجمة مع ذلك ، مع التطور الذي طلع على الذهنية البوذية . فبعد ان تمت لهم حالة الاشراق ، لم يعودوا ليكترثوا كثيراً ببلوغ الغبطة او الطوبى او النرفانا ، بحيث يتاح لهم الانبعاث من جديد لينصرفوا العمل على فداء للبشرية وخلاصها : فالعبادة والمحبة الشاملة حلا محل الفكر الذي كان في « الباب الضيق » يفضي بصاحبه الى الخلاص .

وهذا التعلم أفضى حتماً الى التطور الذي مرّ به التعلم البراهماني المعروف باسم : بهاكتي و الذي يعني : المشاركة والمساهمة ، ثم توسع المدلول فيا بعد بحيث أصبح يعني : تعبّد او عَبَد او سَجَد. وهذا التعلم الذي ظهر في هذا القسم الشمالي الشرقي من الهند صدر عن الطقوس والعبادات الشعبية التي تأثرت ، على أقدار مختلفة ، بالبوذية ، المسيطرة على هذه المنطقة . وهو يرتكز أصلاً ، على حركة مزدوجة: انجذاب الفرد نحو الالهي ، واستجابة الالهي للفرد . في هذا التبادل الرمزي السري حيث تلتهي المشاركة ، بالتحرر ، بالخلاص *Moksha* مع انه يوجد فعل عبادة *Bhakti* . ففي هذه الحقبة التي تهمنا هنا ، تبدو هذه العاطفة نتيجة العقل ، وبالتالي اقرب الى «الغنوز »، الى الروح الشامل ، إلا انها في تطورها اللاحق ستتجه بالأكثر نحو العاطفة او الدفق الديني . فالعبادة *Bhakti* ليست سوى مظهر من مظاهر التعلم البراهماني .

وقد رأت هذه المدرسة البوذية ، بدافع من حركة رجعية ضد بوذية المهايانا والنِحَل الاخرى التي انبثقت عنها ، ضرورة تنظيم تعاليمها هي الاخرى وتأمين انسياقها . ففي الحين الذي كانت فيه المهايانا تتطور ، ظهرت على البراهمانية مدارسها المستقيمة الصحيحة التي ستضفي عليها، أكثر فأكثر ، طابعها التقريري المدرسي . وقد نشأ بين القرنين الاول والسادس للميلاد ، ست مدارس مختلفة في قلب البراهمانية ، ترجع في جذورها الكبرى الى أبعد من ذلك ، وكلها تدعي انبثاقها من التقليد الفيدي الذي يمكن اعتباره بالنسبة لها،المعدود الاصغر المشترك .واقدم هذه المدارس، على الاطلاق ، هي المدرسة المعروفة باسم *Vaiçeshika* ومدرسة *Mimamsa* ، التي ترجع تعاليمها وفرائضها -سيتراً-على ما يرجح العارفون، الى القرن الثاني. اما المدرسة المعروفة باسم نيافا، فهي تعود النصف الاول من القرن الثالث . والمدارس الثلاث الباقية ، وهي : الفيدانتا ، واليوغا ، والسمخيا ، فقد ظهرت للوجود نتيجة لهذه الاجتهادات التي قامت فيا بعد ، وليس هنا موضع الاستفاضة فيها والخوض في غمارها . وأصحاب المدارس الثلاث الاولى ، مشكوك جداً بوجودهم تاريخياً . والمبادىء والنظريات التي تميز الواحدة منها عن الاخرى تتباين فيا بينها تباين الملل والنحل البوذية ، هي الاخرى ، انما يوجد شيء يوحد فيا بينها ، هو انتسابها جميعاً ، الى جذر واحد ، وأصل واحد ، هو الجذر الفيدي. فبينا كانت المدرسة الميامزا لا تهتم إلا بالاصول والمراسم الطقسية دون انتقدم أي تفسير لتناسخ الارواح،نرى المدرسة الثانية فايسشيكا منها، تجعل من قضية الخلاص مشكلتها الاولى. فهي تبني تعاليمها على النظرية الذرية التي تعارض جوهر الفرد الروحي بالهيولى او المادة . ومن اتصال هذين العنصرين : الروح والمادة ، تبتدىء هذه السلسلة من التوالد والتناسخ التي لا انفصام لها ولا حد . ولكي يصبح في مكنة الجوهر الروحي الفرد الانعتاق من الجسم، وبالتالي ، حقيق الخلاص عن طريق انضمامه الى الجوهر الفرد للروح ، يجب ان تتم له معرفة تجريبية ، اختبارية تذهب بكل أثر للوهم أو الخيال . اما عند مدرسة نيايا ، فالتناسخ لا يقوم اساساً في هذا التناقض او التضاد بين الروح والهيولى ، بل في هذا النشاط الذي يسبب الغلط . ولكي نأمن جانب الغلط ، علينا الاعتصام بالمنطق الذي فيه الدليل القاطع الذي يعصم عن الغلط ، قبل التعبير . فالقياس ، في نظر النيايا ، قادر وحده على

ان يضع حداً لسلسلة التناسخ ، ويهيء للفرد النجاة والخلاص .

وهكذا تلتقي البراهمانية والبوذية ، خلال هذا العهد، عند البحث عن المطلق. وهذا البحث الموصول عن المطلق ، من نتائجه ان يسبب تغييرات مهمة يجب ان تدخل في الحساب ، عندما يراد تقويم هـذا العهد ، على الوجه الاكمل ، وتقديره حق قدره ، وهي تغييرات من شأنها التأثير على الفنون التجسيمية .

فالشعب الذي لا يهتم كثيراً بالامور التقريرية والتفسير ، يطلق بسهولة كلية العنان لمشاعره وعواطفه التي يحيّزها بتشييد مثل هذا العدد الكبير من المعابد والهياكل . وهكذا ازدادت البوذية غنى بعد ان خلصت من أسباب الفوضى التي خلخلتها فأرزحتها، وكسبت المزيد من الحظوة لدى العظماء . فهي بحاجة اكبر للمزيد من الأديار الكبيرة لتتسع لجماعاتها الآخذة بالازدهار يوماً بعد يوم ، وبفضل العطف الذي نعمت به لدى العظماء واصحاب النفوذ في البلاد، تلقت مساعدات مالية واسعة راحت معها تشيد الكثير من المباني ازدادت على مر الأيام غنىً وزهواً وزينة فنية . ففي الحين الذي راحت فيه تعمل على تنظيم ذاتها ، شعرت بحاجة ملحة مُلحِفة لتقوية نقاطها العقائدية الأساسية لتصمد في وجه الصدمات والهجوم الذي تلقاه من خصومها ، بحيث تستطيع عندما تحين الساعة ، الدخول معها في منافسة ، في مجال تشييد المؤسسات والمباني والانشاءات الفنية ، في حقلي الحفر والنقش . فمامدهـا لا تزال ، الى ذلك العهد قليلة العدد ، محدودة ، والايقونوغرافيا شبه معدمة عندها .

الفـن

تسجل البوذية ، في هذه الحقبة ، في مجال الفن ، اكبر النجاحات وأمثلها . فهي الملهمة لفن العصر ، والمسيطرة عليه والمستبدة بأصوله ومناحيه، لا منازع لها في ذلك . فهذا العهد ، يقع ، من الوجهة الفنية ، بين قطبي جذب ، يتمثل اولهما بزخرف الستوبا ١ و ٣ ، في مقاطعة سانشي ، (اواخر القرن الأول للميلاد) . امـا الثاني ، فيتمثل بظهور بوادر فن الغوبتا ، (النصف الأول من القرن الرابع) فليس هنالك ، مبدئياً ، أي انفصـال أو تقاطع ، بين العهد الماضي وبين هذه الحقبة ، اذ ان هذا الاستمرار الموصول يفضي بالفن الهندي من الطراز القديم الذي يتمثل بآثار بهارهوت و سانشي – والآثار الاخرى المتصلة بها – الى الطراز الكلاسيكي الاتباعي الذي تجلى على أحسنه في عهد الغوبتا ، وخلفائهم من بعدهم . ومع ذلك، يصح وصف هذه الحقبة موضوع هذا البحث، ونعتها بكونها حقبة انتقال، اذ انها تكملة ، من جهة ، للفن القديم ، كما انهـا ، إيذان ، من جهة اخرى ، بطلوع طراز جديد لا يلبث ان يحل محل الفن القديم تدريجياً . فالحقبة هي ، ولا شك بذلك ، من أخصب الحقب في تاريخ الهند من جهة اكتشاف الموضوعات الايقونوغرافية ، وتطوير الفن الجمالي وفلسفته . فالفـن يعكس اذ ذاك ، بدقة كلية : هذا التشابك السياسي الذي ميز وضع البلاد آنئذ ، واكتمال البوذية التي بلغت فيه الأوج .

في البلاد ، اذ ذاك، ثلاثة محاور أو مدارس تحتضن هذا الفن، ممثلة لأقطاب السيادة الثلاثة،

في الهند ، وهي مملكة الكوشانا في شمال غربي الهند (غندهارا) ومملكـــة ماتورا في الشمال ، وسيطرة الأندهرا، في الجنوب الشرقي(أمارافاتي) . والمدارس الثلاث امتازت في التطور الذي اخذت بأسبابه ، بهـذه الروح التجديدية التي أدخلت على فن الرسم ، ولا سيا عـــلى الرسم الايقونوغرافي الخاص ببوذا . ففي القرنين الاول والثـاني للميلاد ، يغلب استعمال صورة بوذا ، ومع ان صورته لم تكن تظهر قط ، في العهد الماضي ، في هـذه المناظر او المشاهد التي تُبرز حوادث ووقائع حياته على الارض ، اذ كانوا يكتفون بالرمز اليه تورية ومجازاً ، فكيف لعمري بهذه السلسلة من النقوش المعروفة بالحفر الناتيء . ومع انه يجب التحفظ كثيراً عند التأكيد في ان هذا الرسم، طلع اول ما طلع، في منطقة غندهارا أكثر منها في منطقة ماتورا ، فمما لا شك فيه قط ان هذه الصورة ظهرت في امارافاتي ، بعد ذلك بقليل .

قد يمكن ان تكون الفكرة يونانية المصدر والمنشأ ، نشرها على ما يرجحون ، فنانون يونان ورومان ، أصلهم من آسيا الغربية . وقد تركزت الفكرة، في مقاطعة كابيشا التي رأينا ما كانت عليه من نشاط الحركة التجارية ، في القرنين الاول والثاني للميلاد ، في هذه الحركة التي لم تلبث ان امتدت الى جميع أطراف العالم البوذي . فبروز هـذه الصورة الجديدة لبوذا ، لم يكن له تأثير كبير في الاسلوب الايقونوغرافي البوذي ، وان كان أضفى عليه شيئاً من عنصر الاستقرار ، عن طريق وضع رسوم المشاهد الحياتيـة الخاصة ببوذا ، وهي رسوم اتصفت أكثر فأكثر ، بالتناسق والتناظر .

لصورة بوذا كما تجسمت في المدرسة الشمالية الغربية قسمات ابولونية لمراهق شاب ، مستقيم الانف، بينما فمه يبرز بوضوح ، غير ان حواجبه الكثيفة تكاد تغطي الى النصف عينيه البارزتين. إلا ان وجهه المقلطح ، واستطالة شحمة أذنه لثقل الاقراط الذهبية المتدلية منها ، كل ذلــك يضعنا امام سحنة شرقية الطابع . وهو يرتدي قفطاناً يكاد يختفي تحت إسكيم رهباني غطّى منكبيه ، وبدا كأنه غلالة ملتصقة تماماً بالجسم ، لها ثنايا مربعة تبرز للعين بوضوح . وهو يلبس الشارات الرسمية التي تحدّث عن قداسته . نرى الحواجب المقفولة تظهر بوضوح ، وهو يمسك براحتي يديه العَجَل الذي يرمز الى الشريعة البوذية وسيرها الى الامام. اما شعره المتجعد بانتظام فتراه وقد شُدّ جماعه الى الامام بواسطة اسلاك ذهبية . وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذا التشوّه في الشعر الذي أدّى الى جحوظ الرأس على هذا النحو . وهذه العلامة تبرز في كل صور بوذا أينما وجدت في جميع ارجاء آسيا ، حتى يومنا هذا .

ففي مدرسة ماتورا نجد صورة نموذجية لبوذا الغندهاري ، برزت قسماتها وفقاً لمبادىء هذه المدرسة الفنية ، سواءاً أكانت مَحَلّية او مقتبسة من الخارج . فهي من طابع الصور التي وضعت في العهد الماضي ، من نفس الطراز المعروف بطراز يكشا او طراز ماغاراجا . يبرز فيها بوذا برأس مستدير يشبه رأس دمية تطفو الابتسامة على ثغره ، حليق الرأس كرأس الرهبان ، تغطيه قبعة يزيد لونها بروز الجمجمة . فانسان العين يبرز من خلال الهُدْب . وهو يرتدي معطفاً يشبه معطف الكهنة يظهر من فتحة فيه مائلة ، نصف جسمه . والنسيج الذي يلبسه يبدو أكثر

نعومة من النسيج الذي يظهر في النموذج المصنوع في مدرسة غندهارا ويلتصق بجسمه ، وتظهر عليه بوضوح هـذه الثنيات البارزة والمتوازية . فهو في مظهره الضخم نراه واقفاً على رجليه المتباعدتين قليلاً ، ويقوم بحركات بسيطة ، طبيعية ، لا تلبث ان تصبح تقليدية . ليس في هـذا الرسم ما يدل على وجود تأثير أجنبي او غريب فهو من صميم وحي التقليد الهندي ، وينسجم تماماً مع الاصول الفنية التي تقيدت بها المدرسة القديمة .

اما بوذا مدرسة امارافاتي الفنية ، فكل شيء فيه يدل على ان هذا الرسم جاء بعد النموذجين السابقين . وليس من النادر قط ان نشاهد في تقاطيع هذه الصورة البارزة بعض الطرق الفنية التي استعملتها المدرستان السابقتان ، أي ان الرمز يحمل محل الصورة ، او ان صورته تحمل السمات التقليدية المعروفة في الفن الهندي . فصور امارافاتي ، على شاكلة الصور الصادرة عن مدرسة ماتورا ، لها سمات هندية أصيلة ، افادت من التجارب الفنية الماضية . تبرز على سحنة بوذا هنا ، الاستطالة التي تميز المدرسة الدرافيدية الفنية ، هذه السمات التي يحمل منها فن الرسم الجمالي فيما بعد ، شيئاً نموذجياً . فنتوء الجمجمة يبرز قليلاً . فهو يستقر كباقي أجزاء رأسه ، تحت جدايل مضفورة ، رقيقة ، مائلة الى اليمين . فهو يرتدي معطفاً رهبانياً ، أكثر سماكاً من الذي نراه في نموذج مدرسة ماتورا ، ويظهر منه عري كتف اليمين ويبدو على جسمه ثنيات منسجمة تظهر من مقدمة الرأس الى مؤخرته ، ابتداء من الساعد المثني على صدره .

وهذه الفروق بين النماذج الفنية الثلاثة لصورة بوذا ، كما وضعتها هذه المدارس ، تبرز بوضوح المظاهر الفنية الاخرى . ففي غندهارا والمناطق التي تأثرت بالفن الهليني ، نرى الرسوم الفنية التي وضعها فنانو هذه المدرسة ترسم هذه المبادىء . فشخصية بوذا كما تبدو في رسوم هذه المدرسة ، تبرز بوضوح هذا المركب من المؤثرات اليونانية البوذية وتمدنا بصور مستوحاة من النظريات الفنية الهلينية او من التقاليد الهندية الصرفة ، من ذلك ، مثلاً : صور هؤلاء الاولاد ينفخون في الشبابة والناي المزدوج ، او حاملين الأكاليل المضفورة او عناقيد العنب : وهـذه الاعمدة المنحوتة بشكل أشخاص مفتولي العضلات لهم اجنحة « غريبة » ، وهذه النسوة وقد برزت في شعورهن المصففة ، رسوم على شكل أهلة او ابراج مصغرة مسننة ؛ ورسوم رجـال مفتولي الشوارب لابسين قفاطين قصيرة ، وأكمام ضيقة ؛ وهذه الراقصات ينقرن الكمان والعود ويضربن الطبول ؛ حاملات جراراً او عناقيد عنب . وفي المجال الزخرفي ، يجب ان ننوه بوجود أكاليل أعمدة كورنثية الطراز ، يضاف اليهـا من وقت لآخر صورة بوذا بين الشجر وبعض سعف النخيل . والشخوص الهندية تبرز وفقاً للطراز الهليني المشبع بعناصر فنية مستوحاة من انطاكية وتدمر وسوزه وسلوقية ، أي مستمدة من هذا الشرق الروماني الذي نرى الفن اليوناني البوذي يستلهم الكثير من عناصره . وهذا الفن الذي يحمل سمات الفن الكلاسيكي ، والذي جيء بـه لخدمة الديانة الهندية ، يحمل بين مقوماته كثيراً من سمات الفن الروماني ، كما يبدو بعد ذلك واضحاً من هذه الرسوم التي يدخـل في تركيبها الملاط ، والتي عثر عليها بأعداد كبيرة في الافغانستان ، ولا سيما في مقاطعة هدا ، وبينها رسوم تبدو على قسماتها العناصر اليورو ـ آسيوية ،

كهؤلاء النساك والزهاد ذوي الوجوه النحيلة الضامرة ، الشبيهة بالصور المعروفة للسيد المسيح ، في الفن الروماني التوطي ، او يحاكون هؤلاء الرجال مقر الشعر والزرق العينين ، والشارب المعتدل الذين يشبهون الغاليين، وهؤلاء الرهبان الحليقي الشعر ذوي الملامح الرومانية . وخلافاً التقاليد الهندية نحن امام فن يرغب في ابراز كل أطوار الحياة : اولاد صغار، ومراهقون وشيوخ مُطلقي اللحى ، والجباه المتغضنة بحيث تبرز الشخوص جميلة حية ، مثيرة .

وبالرغم من هذا التنوع الذي امتاز به الفن في هذه الحقبة ، يطالعنا مع ذلك ، شيء من الوحدة بفضل هذه العناصر المشتركة بين المدارس الفنية الثلاث والاشكال الهندسية الواحدة ، ومظاهر الحفر والرسم التي نشاهدها لاول مرة والتي لم تخضع كثيراً كما نلاحظ لاول وهلة ، لهذه التغييرات التي اقتضاها الزي المحلي الغالب . إلا انه لا يسعنا ، بعد هذه النظرة العامة نلقيها على الفن الهندي ، إلا ان نؤكد بأن هذا الفن كما تجلى في هذا القسم الشمالي الغربي من الهند ، لا يمكن ان يدخل في هذه الجمالية الخاصة بالهند لانجاته الفاضح ولانتسابه للعالم الروماني .

فالهندسة المعمارية ترتبط مباشرة بالفن المعماري الذي سيطر في الحقبة السالفة . فهي نتيجة منطقية لهذا التطور الذي اخذت بأسبابه ، مع مراعاة الحركة التطورية التي سارت عليها البوذية. فالمعاهد المحفورة في الصخور ، حافظت على الرسم الهندي المعروف ، وقلدت دوماً أشكال الهياكل المصنوعة من الخشب، إلا انها تزداد منهجية ونموذجية، كما نرى مثلاً ، في هياكل كنهاري وناژك رقم ٣ . فالهياكل التي نالت أهميـــة ملحوظة ، في العصور الماضية ، تغطي ، في بعض الاحيان ، مساحات شاسعة أي نحواً من ٥٠٠ متر قطر دائرتها، كما هو هيكل امارافاتي ، والبناء يزداد ارتفاعاً كما يرتفع الاساس أكثر من ذي قبل ، وقبابها تصبح أكثر كروية ، والاروقة التي تقام عند خطها الدائري تتطور بشكل واضح ، كما نرى ذلك، مثلاً،في هيكل سانشي، وفي هذه الثغرات الزخرفية التي تكثر منها الهندسة المعمارية، وهي ثغرات بشكل نضوة حصان . ويقوم الى جنب هذه الهياكل من الطراز التقليدي ، الديني الطابع ، هياكل ترتفع على أعمدة ، كما ان لبعضها الآخر شكلاً مستطيلاً ، ولها ابواب ضخمة ، كما هي هياكل الاجيال الوسطى .

اما التجديد فأكثر ما يتمثل في فن النقش والحفر ، مع الحرص على الاحتفاظ بالعمود الفني الذي ميز الاطرزة الفنية السابقة. فهو،من الوجهة التقنية فوق ذلك بكثير ، بعد ان جاء الفنانون بالدليل على تضلعهم من الاصول الفنية وتجويدهم لها تماماً . فمظاهره الخارجية متنوعة الغاية ، ليس من حيث طريقة الحفر والنقش ذاتها ، او المواد المختلفة المستعملة، بل أيضاً من حيث المنهجية التي تميز كل مدرسة من هذه المدارس الفنية ، في ما يبرز من هذه الصفائح العاجية الصغيرة التي نجدها في هياكل بغرام وكابتشي حيث تقوم هذه التماثيل الضخمة ذات الحفر الناتىء التي نراها ماثلة في هياكل كارلي وكنهاري ، مروراً بهياكل ماثورا ، ذات الحجارة النافرة ، وبهذه النقوش البارزة التي لا تحصى، الممثلة في هيكل امارافاتي حيث يبرز نتوء الاشخاص نحواً من ٢٠ سنتمتراً. فالحجر الرملي الوردي يضفي على هيكل ماثورا مظهراً يتسم بالمحافظة ويقربه جداً من طراز معبد بهارهوت ، بينما المرمر الابيض او الحقيف المروق الذي نجده في هيكل امارافاتي يضفي

عليه مسحة من الخشوع تنسجم تماماً مع الطراز الفني لهـــذه المدرسة التي لا تخلو من بعض أثر التصنع .

فالجمالية البادية في مدرسة ماتورا تبرز بوضوح التعقيد الذي ميز وضع دولة كوشانا اذ عرفت ان توفق بين مهابة ووقار هؤلاء الملوك الاغراب من سكان الفيـافي والقفار الذين ما زالوا محتفظين بألبسة البدو الرحل وأزيائهم والعمائم التي اصطلح الفز على لبسها ، وبين رهافة النساء الهنديات اللواتي تطفو البسمة على شفاههن ، في هذه السجدة المثلثة الرسمية التي يقمن بها بكل انسجام .
اما مدرسة امارافاتي الفنية فيشيـع منها شعور يختلف عن ذلك تماماً: مظهر عال ، مديد ، يبدو عليه بعض التصنع ، وهـذا التمهل الفاتن الذي عُرف به الطراز الفني المعروف بطراز غوبتا الارستوقراطي .

هذه المميزات المفردة تطبع كذلك فن الرسم والتصوير ، في هذا العصر ، واليه تعود بعض الصفائح العاجية التي عُثر عليها في مقاطعة كابيتشي ، والتي تمتاز بدقة القسمات وبروزها ، وبهذه الوقفة السليمة ، وهذه الدقة التي ترافق الصنعة مع الحفاظ على فن المنظور الهندي .
فالفن الهندي ، بعد حقبة الانتقال الفنية بالمؤثرات الجديدة التي جاءته من الخارج ، وبعـد التجارب العديدة التي تمرّس بها ، لن يلبث ان ينضج وان يهيء لهذا الازدهار الذي سيتجلى على أتمه في عهد دولة الغوبتا والحقبة التي عقبت هذا العهد .

الفصل الثالث

مراحل النفوذ الهندي في الأقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا

هذا الاهتمام الذي أظهره الهنود ، منذ مطلع المسيحية ، بالبلدان الواقعة على بحار الجنوب ، ازداد نشاطاً ، منذ الحين الذي وقفت فيه ايران حائلاً دون المواصلات التجارية مع الغرب . فراحت تجارة الذهب والافاويه تبحث عن منافذ لها، وطرق مواصلات أخرى. وهذا الاهتمام، من جانب الهند ازداد أواراً عن طريق تحسين طرق المواصلات . فقد قام في الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو ، عدد من « الدول » ، قدّر لها ان تسجل ، بعد قليل ، عهداً كبيراً من الازدهار التجاري ، وان تجتذب إليها أنظار الناس، بعد أن عرفت كيف تنمّي علاقاتها بالهند، وان تقتبس من الحضارة الهندية ما فيه قوام أمرها .

مملكة فو ـ نام

من هذه « الممالك الهندية » مملكة عرفها المؤرخون الصينيون ، في القرنين الثاني والثالث للميلاد ، باسم مملكة فو ـ نام ، وهي مملكة تقع في مقاطعة كمبوديا اليوم ، وفي هذا القسم السفلي من مقاطعة الكوشنصين . اما عاصمتها ، فتقع على مقربة من رابية با ـ فنوم ، على بعد ٥٠٠ لي أو ٢٠٠ كلم من البحر ، حيث عثر المنقبون ، على آثار مهنة لمركز تجاري ، قام في ناحية أوك ـ ايو *OC - EO* ، الى الجنوب من فنوم ـ باتيه . فالمصادر الصينية ونقيشة سنسكريتية من القرن الثالث ، عثر عليها في فو ـ كانه ، من أعمال مقاطعة شامبا ، هي خير ما يمدنا بأوثق المعلومات ، عن تاريخ هذه البلاد في هذه الحقبة التي تعنيناهنا .

فالظروف الاسطورية التي رافقت عملية استهناد هذه المقاطعة واقتباسها حضارة الهند ، في المصادر الصينية الممثلة بهذه الحوليات التاريخية ، وبالنقيشة التي عثر عليها في فو ـ كانه ، تكشف لنا بصورة غير واضحة تماماً، عن أولى هذه الاتصالات بين مدنية متخلفة عن الركب، وحضارة تفوقها سمواً وسناءً . فالمصادر الصينية تروي القضية على الوجه التالي : تراءى لرجل غريب قد يعود نسبه الى إحدى مقاطعات الهند الشرقية ، يعرف باسم هوان ـ تيان، وبالسنسكريتية : كونديليا *Kaundinya* ، كان يعترف بالآلهة (اسلوب تعبيري عن عبادة البراهمانية) حلم رأى

فيه جنيّاً يسلمه قوساً ويأمره بركوب سفينة شحن يخرج بها لعرض البحر . وعندما استيقظ هوان ـ تيان من نومه ذهب رأساً لمعبد هذا الجن، وما لبث ان وجد عند جذع احدى الأشجار القوس الذي سبق ورآه في منامه . ثم انضم لركب من التجار على أهبة السفر بحراً، وما كادوا يوغلون حتى راح هذا الجن يُعمّي الطريق عليهم ، فغير، من حيث لا يدرون، اتجاه السفينة التي حملتهم الى شواطىء مقاطعة فو ـ نام التي كانت اذ ذاك تحت ادارة امرأة تدعى ليو ـ يه ، أي ورقة الصفصاف، التي سوّلت لها النفس الأمّارة بالسوء ، نهب السفينة القادمة وسلب ركابها، فأرسلت ثلة من جيشها نحو الشاطىء كما أرسلت بعض السفن المسلحة لمهاجمة سفينة هوان ـ تيان. وبدلاً من أن يعتري الخوف هوان ـ تيان، أوتر قوسه ورمى سهماً اخترق هيكل سفينة الملكة وأصابت احد جنود الملكة فقتلته . واذ ذاك ، دب الخوف في نفس « ورقة الصفصاف » ، فاستسلمت له وتزوجها ، واستولى على المملكة . أما الرواية المستمدة من النقيشة ، فتقول بأن أحد البراهمان سلم كوندينيا مِزراقاً ، ولما وصل الى مقاطعة فو ـ نام رمى بمزراقه ليحدد المكان الذي ستقوم عليه العاصمة التي ينوي لتشييدها ، ثم تزوج من احدى كريمات ملك الـ « ناغا » ، المدعوة سوما .

في كلا الروايتين نرى سلالة جديدة من الملوك تطلع من هذا الزواج بين الملكة الوطنية والغريب الطارىء الفاتح . فانصرف في بادىء الامر الى تطوير طباع شعبه المتخلف عن ركب الحضارة مبتدئاً منهم بالملكة . فقد ساءه ان يراها تسير عارية ، فراح يخيط لها بزة تلبسها . وكان من عادة البلاد قديماً ان يسير النساء عراة وعلى أجسامهم الوَشم وجدائل الشعر متدلية على أكتافهن. وبعد أن أرغم هوان ـ تيان الملكة على ارتداء الملابس، راحت النساء يحتذين حذوها بارتداء ملابس بدائية للرجال والنساء الذين كانوا ، على السواء ، قبيحي المنظر وزنوجاً ، انما استمروا على السير حفاة مدة طويلة ، كما سنتبين ، ذلك ، فيما بعد .

كانت خلافة هوان ـ تيان قصيرة ، على ما يبدو ، اذ حاول رعاياه مراراً ، ان يأتوا بملك من أهل البلاد ، وليس من ذرية طارىء غريب . قام على الحكم بعده ابنه وعقبه ملك آخر اسمه هوان ـ بان ـ هونغ، مات في القرن الثاني وله من العمر ٩٠ سنة. وسلّم ابنه الاصغر أمره لقائده العظيم فان ـ مان ، او فان ـ شي ـ مان الذي تربع على سدة الملك حوالى ٢٢٥ ـ ٢٣٠.

وفان ـ شي ـ مان الذي نصبه على دست الحكم « أبناء المملكة » قد يكون هو نفسه شري ـ مارا الذي جاء اسمه في رقيمة فو ـ كانه. وقد أوتي من « الشجاعة والاقدام » ما كان معه بالفعل باني دولة فو ـ نان وباعث عظمتها ورافع لوائها عالياً. فقد اخذ البوذية تحت رعايته، وجعل السنسكريتية لغة الديوان . فرقيمة فو ـ كانه صريحة واضحة في هـذا المجال ، لا تدع مجالاً للشك . ثم راح يغزو الممالك المجاورة له ويضمها الى ملكه حيث تم له ما أراد ، ولقب نفسه بملك فو ـ نان الكبير . ثم بنى له بعد ذلك عمارة بحرية من السفن الكبيرة وراح يغزو بها عدداً من الممالك ولا سيما ما وقع منها في شبه جزيرة الملايو . ويرجح العارفون ان في عهده ، أنفذ لو ـ تاي، حاكم مقاطعة التونكين، رسلاً نحو الجنوب لينشروا في ارجائها الحضارة الصينية.

وقد دفع فان ـ شي ـ مان الجزية لأول امراء وو ، بين عام ٢٢٥ ـ ٢٣١ ؟ وارسل الى حاكم المقاطعة بعض المصنوعات الزجاجية التي كان الصينيون يرغبون جداً في الحصول عليها . اعتراه المرض في احدى غزواته وتوفي مجاهداً ، فتابع ابنه الاكبر : فان ـ كن ـ تشانغ الحملة التي كان باشرها ابوه ، بينما راح ابن شقيقه فان ـ شي المدعو فان تشان يستولي على الملك . وقد يبدو محتملاً جداً ان يكون تشان هذا هو صاحب النقيشة التي عُثر عليها في فو ـ كانه ، في المقاطعة المعروفة باسم نها ـ ترانغ ، الأمر الذي يشير الى ان مملكة فو ـ نان ، امتدت حدودها الى هذه المنطقة ، في ذلك العصر .

في عهده الذي امتد عشر سنوات ، وصل الى فو ـ نان تاجر غريب الاصل يدعى كيا ـ سيانغ ـ لي ، قادماً من الهند حيث كان مكث من قبل . فراح يقص على فان ـ تشان اخبار الهند وعادات أهلها ، ويخبره ما القانون فيها من حرمة ورعاية ، ويروي له ما فيها من الكنوز المكنوزة ، وما عليه تربتها من خصب وعطاء وانتاج وفير ، وانها تحوي كل ما يمكن للمرء ان يرغب فيه او يحلم به ، وان الممالك الكبيرة في الارض تكن الاحترام لهذه المملكة منذ اقدم العهود . فسأله فان تشان ، اذ ذاك : ما هي المسافة الهند من هنا ، وكم تستغرق الرحلة اليها من الوقت ؟ فأجابه كيا ـ سيانغ ـ لي قائلاً : تقع الهند على مسافة ٣٠٠٠٠ لي من هنا ، وان الرحلة اليها تستغرق ذهاباً وإياباً ثلاث سنوات ، وربما لم يرجع الراحل اليها قبل اربع سنوات. فهي قطب السماء والارض ، فما الذي راح الملك يحاول فعله بعد الذي سمعه من التاجر ؟ ومهما يكن ، فقد قرر ، بين ٢٤٠ ـ ٢٤٥ ، ان يوفد لهذه المملكة البعيدة بعثة برئاسة احد اقاربه ، هو : سو ـ وو . فأبحر سو ـ وو من مرفأ تيو ـ كيو ـ لي (قد يكون تاكولا التي ورد ذكرها عند بطليموس) فوصل مصب نهر الغنج . وبعد ان سار في النهر مسافة ٧٠٠٠ لي، بلغ بعدها بلاد موراندا ، الامر الذي ذهل له الملك وراح يسأل متعجباً ، أهنالك أناس يعيشون في أقاصي اطراف الاوقيانوس ! وأمر بأن يرحبوا بمقدم سو ـ وو وان يطوفوا به في جميع ارجاء مملكته ثم اعاده الى فو ـ نان مصحوباً بأحد رعاياه هو الهندي تشان ـ سونغ . ولكي يظهر شكره لفان ـ تشان ، على هذه الوفادة، أرسل مع سو ـ وو اربعة احصنة اصيلة من بلاد يو ـ تشيه (الهندو ـ الغز) . وبعد أربع سنوات قضاها في الخارج ، عاد الى فو ـ نان . وفي غيابه كان فان ـ تشان قد ارسل عام ٢٤٣ ، وفادة الى الصين ، عادت منها بفرقة من الموسيقيين . وهكذا دشن عهداً من العلاقات الدبلوماسية سيستمر طيلة القرن الثالث .

عندما عاد سو ـ وو الى بلاده ، وجد ان فان ـ تشان ، قد توفي مقتولاً على يد الإبن الأصغر لفان ـ شي ـ مان ، الذي قتل بدوره بيد قائد فان ـ تشان ، فنودي به ملكاً باسم : فان ـ سيون. وهذا الملك هو الذي استلم الأحصنة الأربعة المرسلة من الهند، كما هو الذي استقبل الرسول الهندي الذي صحب سو ـ وو في طريق عودته الى بلاده . وبعد رجوع هذا الأخير بقليل ،

أي بين ٢٤٥ – ٢٥٠ ، تلقى فان ـ سيون سفارة من الصين تتألف من كانغ ـ تاي [1] ، وتشو ـ ينغ ، اللذين وجدا في بلاط ملك فو ـ نان موفد ملك الهند الذي لم يكن غادر البلاد بعد . وقد ضاعت أخبار رحلة كانغ ـ تاي ورفيقه الى فو ـ نان ، إلا ان الحوليات الصينية التالية تأتي على ذكر هذه الرحلة ، وإليها يعود ، كما يرجح العارفون ، معظم المعلومات التي نملكها عن هذه البلاد ، في العصر المذكور . كان فان ـ سيون حاكماً مستبداً ، وطاغية عنيداً ، فبنى له السرادقات والأروقة الجميلة ، يختلف إليها للاستجمام والراحة . وكان يقيم بين الصباح والظهر من كل يوم ثلاثة مواعيد للمقابلات . وكان الأجانب وابناء الشعب يقدمون له الهدايا من الموز وقصب السكر والسلاحف والطيور . وقد استغرب الموفدان الصينيان ، كيف ان النساء في هذه المملكة يلبسن قطعة قماش بحيث لا يظهر سوى الرأس ، اذ ان منذ عهد هوان ـ تيان، بقي الرجال عارين ، لا يسترون عوراتهم . « فالبلاد جميلة بديعة ، والحق يقال ، انما على الرجال فيها ان يظهروا بمظهر الحشمة ؛ انه لأمر غريب ! » . فبعد ان أبدوا هذه الملاحظة ، اصدر فان ـ سيون امراً ، أوجب على كل رجل في المملكة ان يرتدي ثوباً من القماش .

وكانت البلاد على جانب من التنظيم . « تقوم فيها مدن لها أسوارها الحصينة ، وفيها قصور وصروح ومنازل سكن ، والناس معروفون بدماثة اخلاقهم ورقة جانبهم ليس من اثر للسرقة بينهم يشتغلون للأعمال الزراعية ، يبذرون الأرض سنة ويستغلونها ثلاثة مواسم متتالية . يجيدون الحفر والنقش ، معظم اواني المائدة من الفضة ، والضرائب تجبى عندهم ذهباً وفضة ولآلىء وعطوراً . في البلاد كثير من الكتب والمؤلفات ولهم دور للمحفوظات ، اما حروف كتابتهم فتشبه كثيراً الحروف المستعملة عند الهُو *Hou* (أي سكان آسيا الوسطى الذين يستعملون حروفاً هندية الأصل) . والحال ، فالزمن هو تقريباً العهد الذي قام فيه المركز التجاري الذي وُجد حيث مدينة أوك ـ أيو كانت آخذة بالنمو والتطور : فالمدينة كانت واسعة جداً ، رحبة تقوم على بقعة مستطيلة الشكل مُنبسطة ، طولها ٣ كيلومترات وعرضها ١٥٠٠ متر وتزيد مساحتها على ٤٠٠ هكتار . وكان يخترقها ماراً في وسطها قناة تنتهي الى مقربة من مرفأ . أما سكانها من ابناء البلاد فلم يتجاوزوا في تطورهم الحضاري مستوى العصر الحجري الجديد ، يقوم بينهم جوالٍ من تجار الهند يستعملون السلسكريتية ، وكانت كتابتهم تشبه الكتابة المستعملة في شمالي الهند بين القرنين الثاني والخامس للميلاد . وقد سبق وذكرنا بالتفصيل الموجودات التي عثروا عليها بين الانقاض . ومن المفيد حقاً ، ان نعود للموضوع من جديد ، بينها اغراض وحاجيات رومانية الصنع من الحجر العقيقي الأحمر المحفور حفراً نافراً ، أو من البلّور الصخري ، واكثر من سبعة آلاف لؤلؤة من البلور الصخري والعقيق ، والجزع والجَمَشت والزجاج الملون والرقاق الذهبية من عهد مارك اوريل وانطونين الوَرِع ، وكلها من مصنوعات القرن الثاني . والى هذا العهد بالذات ، يمكن ان نرد ، بقية مرآة صينية من البرونز عُثر عليها بين هذه المكتشفات . كذلك هذا الرأس الزجاجي من الفن الساساني الذي

(١) قد يكون أصله من مقاطعة الصغديان أي من أقطار آسيا الوسطى.

ألمنا اليه والذي يمكن ردّه الى القرن الرابع . وعلى هذا الأساس يمكن لنا ان نفترض بأن هذه المدينة التي مر على وجودها اكثر من ثلاثة قرون، هي من بين المدن التي زارها كانغ ـ تاي وتشو ـ ينغ ، اذ ان منظر سكان البلاد الاصليين يسيرون عراة ، ويستخدمون الفؤوس الحجرية، كان يثير العجب والدهشة اذا ما قارناه بهؤلاء التجار الاغراب وما كانوا عليـــه من حضارة رفيعة . غير ان عدداً من المسافرين ، في ذلك العصر الذين أظهروا دهشتهم من خشونة الاهلين وما كانوا عليه من تخلّف ، ينوهون من جهة ثانية ، بمستوى حضاري او بدرجة عالية في بعض تطورهم ، عندما يتكلمون عن الآنية الفضية والذهبية التي يستعملها الاهلون في منازلهم ، وعما اشتهروا به من مهارة في الحفر والنقش. لا شك في انه قام في البلاد اذ ذاك يد عاملة عرفت بنشاطها بعد ما عثروا عليه من ادوات خاصة بصنع القوالب وصب المعادن ، وما في ذلك كله من دليـل على استخدامهم المعادن ، ولا سيما القصدير والرصاص . ومع اننا لا نستطيع ان نحدد بوجه الضبط من أين كانوا يأتون بهذه المعادن ، من المهم ، مع ذلك ، ان ننوه هنا الى أي حـــد بلغ عندهم استخدام هذه المعادن في فو ـ نان . فاذا ما أغفل الرحالة الصينيون ان يشيروا الى عقائد القوم اذ ذاك ، فالآثار والعاديات التي اكتشفت ، تدل بوضوح ، على وصول البوذية والبراهمانيــة الى تلـــك البلاد . فالابحاث العلمية الصارمة والاكتشافات الأثرية التي لا بد ان تطلع من بطن الارض ، من شأنها ان تمدنا بمعلومات ثمينة ، بهذا الصدد .

تبع زيارة الموفدين الصينيين لبلاط فو ـ نان عدة بعثات أرسلها فان ـ سيون ملك فو ـ نان ، الى امبراطور الصين ، سنة ٢٦٨ ، و ٢٨٥ ، و ٢٨٦ ، و ٢٨٧ . وبقي يدفع له جزية تتألف من قصب السكر والصنادل (عدة مئات من الازواج) والخيزران. وكان موفدوه ينضمون الى العشر او العشرين موفداً للدول الاجنبية الاخرى ، بينهم ممثلون عن مملكة كوريا (٢٨٦) وبلاد الصغديان (٢٨٧) . ومع ذلـــك لم يكن خضوع ملك فو ـ نان كاملاً او تاماً ، اذ نرى حاكم مقاطعة التونكين نفسه مضطراً للتوسل الى امبراطور الصين الجديد ، الامبراطور تسن ، لكي لا يخفض عدد الحامية المرابطة باستمرار في المقاطعة، وذلك لأن ملك لن ـ يي ، يقوم دوماً بتعديات على حدوده ، بمؤازرة ملك فو ـ نان . فهو يكتب له قائلاً : « قبائلهم عديدة وفرقهم الصديقة المتحالفة، تتعاون وتشد أزر بعضها البعض ؛ وبالنظر لطبيعة بلادهم الجبلية واعتمادهم عليها ، فهم لا يخضعون للصين ولا يخلصون الولاء لها » .

ومع ذلك ، فتاريخ فو ـ نان يبقى غامضاً في هذه الفترة الواقعة بين اواخر القرن الثالث والنصف الثـــاني من القرن الرابع . يقوم بأعباء الحكم فيها ، حوالي عام ٣٥٧ ، ملك غريب الاصل ، يشير اليه الصينيون باسم : تشان ـ تان ، وهو اسم يشير بالفعـل الى لقب ملكي جرى اطلاقه واستعماله عند قبائل كوشانا ، بين سلالة كانِشكا . والحال ، كانت الهند ، في هــذا العهد تحت حكم الغوبتا بعد ان تمّ لهم اخراج الكوشانا خارج البلاد ؛ فليس بغريب قط ان يكون احد اعضاء هذه الأسرة الملوكية وصل بحراً الى فو ـ نان واستقر به المطاف في هــذه المقاطعة ، حيث نرى دلائل كثيرة تشير الى العلاقات التي قامت من قبل ، بين أولياء الأمر فيهـا وبين

الكوشانا . ونرى هـذا الأمير، يدفع عام ٣٥٧، جزية لامبراطور الصين بينها الفيلة الأليفة . والظاهر ان هذه الهدية لم تلقَ حظوة في عيني ملك الصين ، فأصدر رقيماً امبراطورياً جا فيه : « نظر أسلافنا من الاباطرة الى هذه الحيوانات المهداة من البلدان الاجنبية نظرة شؤم لما جرته على سكان البلاد من شرور وولايات ، فراحوا يمنعونها . والآن ، لما كانت هـذه الحيوانات لم تصلنا بعد ، كان من اللازم اعادتها من حيث جاءت » . وفي هـذا ، الاشارة الوحيدة ، لهذا الشخص « الذي يدعى انه ملك » . فتاريخ فو ـ نان لا يلبث ان يكتنفه الظلام من جديد ، في فترة تمتد حتى اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس .

شبه جزيرة الملايو ودولها العديدة

بالاستناد الى بعض المقتطفات من النصوص التاريخية الصينية ، والنقائش السنسكريتية والآثار القليلة التي كشفت عنها حفريات شبه جزيرة الملايو ، يمكن ان نذكر هنا بعض الممالك التي قامت هناك منذ عهد بعيد ، وأخذت بأسباب حضارة الهند . من هذه الممالك ، مملكة تيان ـ سون او توان ـ سيون التي أخضعها الملك فان ـ شي ـ مان لسيطرة فو ـ نان ؛ ومملكة لانغ ـ يا ـ سيو التي تغطي رقعتها عرض شبه الجزيرة من البحر الى البحر ، فكانت تتحكم بالحركة التجارية والنقل البحري في خليج سيام وخليج البنغال؛ ومملكة تامبرالنغا التي وردت الاشارة اليها في *Niddesa*؛ ومملكة تاكولا الواقعة على الساحل الغربي لبرزخ كرا ، او قليلاً الى الجنوب منه ، ومـن مرفئها أقلعت البعثة التي أوفدها ، في القرن الثالث ، ملك فو ـ نان ، الى الهند . واذا كان يحق للمؤرخ ان يفترض بأن هذه الممالك المختلفة عرفت شيئاً من الازدهار في القرنين الاول والثاني للميلاد، فما من أثر باقٍ لها يعود لهذا العهد السحيق ، ومن الصعب جداً العثور على تفاصيل تنير السبيل وتلقي ضوءاً عـلى تاريخ هذه الحضارة ، قبل العهد التالي لهذه الحقبة .

مملكة لن ـ يي

وكما ان مملكة «خمير» ستقوم على أنقاض مملكة فو ـ نان ، كذلك قامت مملكة تشامبا على انقاض مملكة لن ـ يي، اول نواة لمملكة مستقلة قامت على الساحل الشرقي لشبه جزيرة الهند الصينية . فحتى سنة ١٩٢ للمسيح ، حسب التواريخ الصينية ، ومنذ اواخر القرن الاول قبـــل الميلاد ، بسط الصينيون سيطرتهم على هذه البلاد . كانت مقاطعة جي ـ نان الواقعة بين مشارف الانام « ونهر الفيوم » تمارس شيئاً من السيطرة تمتد نحو الجنوب حيث يقطن اقوام من اصل اندونيسي، يعيشون على الفطرة ، عراة ، حفاة ، تغطي اجسامهم أشكال من الوَشم، لا يعرفون شيئاً من امور الزراعة، ويقتاتون مما يقعون عليه من صيد وقنص. ويتألبون بطوناً وأفخاذاً ، اشهرها جميعاً بطون الكوكوتيـة والأريكوية التي منها طلعت الاسر الملكية الاولى التي حكمت البلاد . وبالرغم مما كانت عليه هذه الاقوام من تخلف وتأخر، فقد اشتهرت بالقلاقل التي سببتها وبالاضرار التي الحقتها بالمعاقل الصينيـة وحامياتها اذ كانت تهاجمها على حين غرة منها وتنزل بها الحيف والخسف لا تحسب حساباً لاية ردة فعل من جانب الصينيين ، اذ كان رجالها يسارعون للتسلل الى الغابات الملتفة وبذلك يأمنون كل عمل تأديبي

ضدهم . ومنذ عام ١٣٧ للميلاد ، يقوم فريق من سكان البلاد الاصليين يُعرَفون ، في المصادر الصينية، باسم كي - يو بمهاجمة مقاطعة جي - نان ويحرقون حصونها ومعاقلها ويقتلون حاكمها. وقد اضعفت هذه الهجمات المتكررة الحاميات الصينية الواقعة عند اطراف الامبراطورية الصينية ، فراح اولو الامر من الصينيين يضربون اخماساً بأسداس ، حول ما اذا كانوا يُزيدون من حاميتهم هناك ، او ان يتركوا الوطنيين وشأنهم في مهاجمتها ، كما يحلو لهم . ولم يدُر في في حساب الصينيين ، ولم يدخل في سياستهم ان يسخوا برجالهم واعتدتهم واموالهم، الدفاع عن منطقة خطرة وغير صحيّة . فقنعوا بالخيبة والفشل لقاء ثمن تغاضيهم . وعندما يستتب الأمن، قال احد مستشاري الامبراطورية ، سنوعز الى هؤلاء البرابرة ان يتدبروا امرهم فيما بينهم بالتي هي احسن ، بحيث يقدمون لنا ذهباً وكمية من الانسجة الحريرية تعوض الخسارة التي تكون لحقت بنا» . وقد آثر الصينيون اتخاذ هذا الموقف مفضلين الوسائل الدبلوماسية على وسائل العنف ، ورراحوا يستغلون بوادر الاضطرابات التي شجرت في البلاد ، موطئة لسقوط دولة «هان» ، بقيادة موظف من سكان البلاد الاصليين ، تذكره المصادر الصينية باسم كيو - ليان ، وهو الاسم نفسه الذي عرفت به القبائل الوطنية التي اخذت بمهاجمة المراكز الصينية ، تولى ادارة الثورة التي انطلقت شرارتها ، عام ١٩٢ ، فانقض على جي - نان ، وقتل نائب الحاكم ، واحتل الولاية برمتها . ثم نادى بنفسه ملكاً ، ونقل كرسي مملكته الى حاضرة ولاية سيانغ - لن ، المعروفة اليوم باسم توا - تيان .

من الاهمية بمكان ان نلاحظ هنا ، ان هذه الحقبة الموافقة القرن الثاني، تتفق كما يرجحون مع الحقبة التي تم فيها صنع تمثال بوذا البرونزي في منطقة «كريشنا»والذي عثر عليه في دونغ - ديو - ونغ . وليس ما يمنع قط ، لا بل من المعقول والمحتمل جداً ، ان يكون تمثال بوذا هذا ، وصل الى لن - يي - في مثل هذا الوقت ، ففي ذلك دليل قاطع على تغلغل البوذية وتسربها الى الساحل الشرقي من شبه الجزيرة الهند الصينية ، في هذا العهد بالذات الذي كانت فيه القوات الوطنية آخذة بمهاجمة القوات الصينية . جاء سقوط اسرة الهان ، عام ٢٢٠ ، يخدم قيام الدولة الجديدة المعروفة باسم ، لن - يي التي برزت الوجود في هذا العهد بالذات . فالولاء الذي تكنه الصين مها كان إسمياً ، بقي مرعي الجانب بحيث ان المملكة الجديدة ما كاد يستتب الامر فيها حتى راحت عام ٢٢٠ و٢٣٠ ترسل بعثات دبلوماسية للحاكم الصيني في التونكين . فلم تحُل هذه البعثات ، مع ذلك ، من متابعة لن - يي ، مهاجمة الممتلكات الصينية وتشديد الخناق عليها . وفي سنة ٢٤٠ ، هاجمت القوات الوطنية مقاطعة هوبه واحتلت مدينتين ، ودكت معالمها بعد ان قامت بنهبها وسلبت جميع ما فيها من المقتنيات ، وقد استطاعت ان تصمد في وجه عمارة بحرية صينية جاءت تحمل تعزيزات للحاميات الصينية وأرغمها على التراجع والإنكفاء. وحوالي عام ٢٧٠ ، قام الملك فان - هيونغ ، حفيد الملك كيو - ليان من ابنته ، يستأنف هجماته على القوات الصينية بعد ان عقد حلفاً مع ملك فو - نان المدعو فان - سيون - الذي قد يكون بينه وبين الملك الآخر ، آصرة نسب ، كما يستدل من الكنية المشتركة : فان . وقد اقتضى حاكم

التونكين عشر سنوات من الجهاد المرير والصمود ، استطاع بعدهـــا حمل القوات المهاجمة على النكوص واخلاء المقاطعات التي كانت احتلتها : وهكذا لم تطل سنة ٢٨٠ ، حتى رأينا قوات لن - يي وفو - نان تعود على أعقابها الى داخل بلادهـــا . وقد تمتع ابن فان - هيونغ وخليفته على العرش ، وهو المعروف باسم فان - يي ، بملك طويل دام خمسين سنة ؛ واليه يعزى الفضل بارسال اول وفادة رسمية لتمثيل بلاده في بلاط ملك الصين، عام ٢٨٤ ، اذا ما رأينا ان نضرب صفحاً عن البعثات التي كانت أرسلت بين ٢٢٠ - ٢٣٠ ، الى مقاطعة التونكين . وقـــد ساد السلام البلاد ، في عهده ، بعد ان زاد من عدد جيشه ، واحسن تدريبه على فنون الحرب ، وزاد في تحصين المدن الكبرى في البلاد . وقد وجد في ادارته وحكه البلاد عوناً كبيراً ، من قبـل شخص يعرف باسم : وَن يقوم الشك حول أصله وفصله ، وحسبه ونسبه ، اذ يرى فيه بعضهم ، صينياً من مقاطعة يانغ - تشيُو ، بيع في أسواق النخاسة والرق وهو صغير ، كما يرى بعضهم فيه رجلاً من أبنـــاء البلاد تخلّق بأخلاق الصينيين . فقد عمل ، في بادىء الامر ، في خدمة زعيم متوحش في احدى مقاطعات جي - نان ، حيث كشفت له الاقدار بصورة عجيبة، الدور الذي أعدته له . وبعد ان هرب من خدمة سيده ، استجار بأحد التجار في مملكة لن - يي وعمـل في خدمته ، وفي هذا السبيل قام بعدة رحلات الى الصين. واستقر به المطاف اخيراً، بعد عام ٣١٥ بقليل ، في لن - يي ، ولم يلبث ان دخل في خدمة ملكهم الذي عرف ان يفيد من المعلومات والاختبارات الواسعة التي تمت لهذا الرجل ، خلال أسفاره ورحلاته الطويلة ؛ فأطلعه فيما أطلعه عليه من أشياء ، على كيفيـة تشييد القصور على الطراز الصيني ، مع الأبهاء القائمة على الاعمدة ، وطريقة أقامة التحصينات حول المدن ، وبناء القلاع والخنادق حولها ، وكيفية صنع المركبات الحربيـة والاسلحة على أنواعها ؛ كذلك تولى تدريب عدد من العمال والصنّاع على صنع آلات الطرب والموسيقى على اختلافها . وهكذا تمكن ، بما تم له من رجحان العقل وبمـــا أوتي من الكفاءات ان ينال حظوة عند الملك ، فعينه قائداً عاماً لجيشه ، وعرف ، بهذه الصفة ، ان يكسب ولاء جميع ضباط الجيش . ثم راح يوغر صدر الملـك ضد أولاده ، وهكذا تمكن من ابعادهم عن البلاط وبالتالي من حرمانهم حق الوراثة . ولما شاخ الملك وطعن في السن، دس قائده السم لورثته ، ثم اعتلى العرش ، عام ٣٣٦ ، باسم الملك فان - ون .

وعندما تم له الأمر ، اخذ في إنجاز ما كان باشر به من اصلاحات في عهد سيده ، واستخدم جيشه القوي للقضاء على الممالك المستقلة التي استطاعت ان تحافظ على استقلالها الداخلي . وما ان تمت له السيطرة التـامة على البلاد ، حتى أرسل عام ٣٤٠ ، هدية الى الامبراطور تسن ، تضم فيلة أليفة مع رسالة مكتوبة بخط هندي ، الامر الذي يدل على درجة اقتباس لن - يي الثقافة الهندية . وقد رمى من وفادته الدبلوماسية هذه ، لتحقيق هدف معين ، اذ طلب من الصين ان تُرجع حدودها الى جبال هوانغ - سن ، أي الى أبواب الانـّام، اذ كانت نفسه تزين له الاستيلاء على أراضي جي - نان الخصبة. ولما تأخر جواب امبراطور الصين وفرغ صبره من طول الانتظار ، اغتنم فان - ون اول فرصة سنحت له واستولى على الاراضي والمقاطعات التي رغب في امتلاكها؛

وقد تم له ذلك سنة ٣٤٧ ؛ وقد كان سكان جي ـ نان يتألمون كثيراً من المظالم وأنواع التعسفات التي كان الموظفون الصينيون ينزلونها بهم ؛ وهم على الغالب ، من شذاذ الآفاق فيرهقون الاهلين بصنوف أعمال الجور والاستبداد ، الامر الذي كثيراً ما حمل سكان البلاد على الثورة والانتقاض على الحكم الصيني . وقد اتفق ان راح حاكم المقاطعة يفرض على السكان ، عام ٣٤٧ ، ضرائب جديدة أثقلت كواهلهم ، كما اندفع بدون حساب لميوله الفاسقة . واذ ذاك قرر فان ـ ون استغلال هذا الظرف بالذات وان يستفيد الى أقصى حد ، من هيجان الشعب وانتفاضته ضد الحاكم الصيني، فهاجم المقاطعة، وألقى القبض على الحاكم ، وأمر بقتله، ونهب مدنها ودك معاقلها وحصونها . ثم وضع شروطه للسلم ، منها ضم المقاطعة لمملكته . وقد ردّت الصين على هذه الاعمال بارسال حملة عسكرية تأديبية إلا ان فان ـ ون هاجمها بقوة وشلتها في السنة ذاتها . وفي سنة ٣٤٨، هاجم وهو واثق من قوته، الولاية المجاورة ، وقام بمجزرة هائلة بين الحامية الصينية. وفي سنة ٣٤٩ ، جهّز حملة عسكرية جديدة ، الى الشمال من حدوده الجديدة . إلا انه أصيب في المعركة بضربة قاتلة فمات وخلفه على الملك ابنه فان ـ فو .

وراح الملك الجديد يتابع السير في الخط الذي رسمه أبوه ويسير على السياسة التي نهجها أسلافه في توسيع نطاق مملكته الى الشمال . وما كاد يعتلي العرش حتى استأنف الحملة العسكرية التي لقي أبوه فيها حتفه . إلا انـه أصيب بالفشل تباعاً ، عام ٣٥١ و ٣٥٩ ، وهكذا أرغم التخلي عن معظم الفتوحات التي قام بها فان ـ ون . واضطر منذ ذلك الحين فصاعداً ، ان يرعى حرمة الولاء التي تربطه بامبراطور الصين ، ويرسل له بانتظام ، الجزية المترتبة عليه ، كما أرسل اليه وفادتين : الاولى عام ٣٧٢ والثانية بعد ذلك بخمس سنين ، أي في عام ٣٧٧ ، ومات عام ٣٨٠ . وقد يمكن ان نرى في فان ـ فو نفسه ، الملك بهادرافارمان الاول ، صاحب النصب التذكاري لتأسيس اول معبد شيّد في مقاطعة مي ـ سون . فان صح الافتراض ، فقد يكون تم لنا البرهان القاطع ، على اخذ الطبقات الحاكمة في البلاد ، بأسباب الحضارة الهندية ، منذ هذا العهد بالذات ، وتغلغل سلطة البراهمان اليها . فهذه النقيشة التي تُعد بحق من أهم الآثار التي أطلعتها الارض الهندية الصينية تشيد عالياً وتثني على الإله سيفا ماهسفارا ، وعلى زوجته أوما، وعلى براهما وفيشنو ، وعلى الارض ، والريح والفضاء والنـار . ثم تأخذ بتحديد الدائرة التي تكون أساس وقفية دائمة باسم الإله سيفا بهادرسفارا الذي يذكرنا اسمه باسم مؤسس هـذه الوقفية ، وفقاً لعادة يعمل بها سواءً في مقاطعة تشامبا او في بلاد خمير . في هذه الدائرة المحددة «توقف الارض ومن عليها من السكان» . ويترتب عليهم ان يقدّموا للإله ، قسماً من غلة الارض، باستثناء قسم ضئيل جداً، يحتفظ به سيدالبلاد. ومقابل هذه الحصة المسلمة للإله ، يُعفى صاحبها من العمل المترتب عليه إلا ما كان لا بد منه لتأمين حياة الملك والبلاط ، ومع ان أسلوب انشاء هذه الرقيمة يتصف بالركاكة، وقواعد الاعراب فيها مضطربة قلقة، فهي تبرز مع ذلك ، شيئاً هاماً ، وهو ان الملك يحمل ، منذ اواخر القرن الرابع ، اسماً هندياً ، ويستعمل السنسكريتية كلغة رسمية مقدسة ، ويتشبه باله الهيكل فيحمل اسمه . ويشير الى الأهمية التي يعلقها على هذا

الانتساب بتخصيصه وقفية يجريها باحتفال رسمي . ومن المحتمل جداً ان يكون الإله يهادرسفارا إلهاً محلياً، ويرمز الى سيفا الذي تمتت عبادته بأهمية كبرى في مقاطعتي كمبوديا وشمبا .

فالمعلومات التي تجمعها من المصادر الصينية حول عادات لن ـ يي تُلقي ضوءاً جديداً على حوادث هذا العهد . فالملك ، يخرج راكباً الفيل ، يتقدمه حملة الاصداف والطبول ، فوق رأسه مظلة ، ويحيط بـه خَدَم يلوحون بالاعلام والبيارق . وهو يعتمر عمة مستطيلة محلاة بأزهار الذهب ، لها شرابة من الحرير . مراسم دفنه تتم في اليوم السابع من وفاته.« يُلف جسمه بكل اعتناء ، وينقل الى شاطىء البحر او النهر ، على قرع الطبول ورقص الراقصين ، ثم يحرق على كومة من الحطب يجمعها الحاضرون. وتجمع العظام وتوضع في وعاءمن الذهب وتطرح في البحر».

والتسلسل الاجتماعي او الطبقي يظهر بأشكال مختلفة . ففي الوقت الذي يلبس فيه الجميع زياً بدائياً ، هو عبارة عن قطعة من القماش يلفونها حول اجسامهم ، وأقراطاً في آذانهم ، نرى الطبقة الممتازة او المتميزة تضع احذية في أرجلها ، بينما العامة من الناس يمشون حفاة . كذلك مآتم الموظفين تقام ثلاثة ايام بعد وفاتهم ، في حين ان العامة من الشعب يدفنون في اليوم التالي لوفاتهم : وبينما رفات كبـار القوم توضع في وعاء من الفضة وتطرح في مصب النهر ، نرى سواد الشعب الذي لم يتميز عن غيره بشيء يقنع بوعاء من الفخار ويطرح في مياه البحر .

تعقد حفلات الزواج أبان شهر الحصاد . فالبنات يتقدمن من الشبان بطلب الزواج وليس محظوراً قط على ذوي القربى ان يتزوجوا من بعضهم البعض . ويضفر النساء شعورهن فوق الرأس بشكل مطرقة او قدوم . وعلامةً على الحداد ، يقص أقارب الزوجين ، خلال المأتم شعورهم . وبعض النساء الارامل اللواتي لا يردن ان يتعزين لفقد ازواجهن يدعن شعورهن تنمو ويرسلنه على أكتافهن الى آخر ايامهن .

اما المظهر الخارجي لسكان البلاد الاصليين الذين كثيراً ما نوّه المؤرخون والرواة بقسوة طباعهم ومغامراتهم في الحرب ، فقد وصفه لنا الصينيون كما يلي : « هم رجال حرب قساة ، لا تعرف الرحمة سبيلاً الى قلوبهم . عيونهم غارقة في محاجرها ، والانف عندهم بارز مستقيم والشعر أسود، جعد ، يسكنون بيوتاً من اللبن المشوي طُليت حيطانها بالجص ويعلوها سقف مسطح ، أبوابها تتجه دوماً الى الشمال ، وان شذ البعض عن العرف . سلاحهم القوس والسيوف القصيرة والرموح والنبال يتخذونها من الخيزران .. وعندهم عدة للطرب بينها القيثارة والعود ذي الخمسة الاوتار والناي .

وفي الحقبة التالية ، سيتاح لهذا المجتمع ان ينمو وينفتح . فترسخ عظمة بلاد لن ـ يي بعد ان صارت تعرف باسم شمبا وتتوطد ، بعد ان تخوض معارك قاسية ضد الصينيين وسكان بلاد الأنام . واذ ذاك فقط ، يمكن اعتبار عملية استهناد هذه البلاد تمت واكتملت .

الفصل الرابع

الكتلة الصينية

لسنا نقصد العودة الى اللوحة التي رسمناها عن صين الهان في المجلد السابق والتوسع فيها. فالتبدلات التي يمكن الاشارة اليها بين صين الهان السابقين وصين الهان اللاحقين ليست ذات شأن. ولذلك نرى من الافضل هنا استعراض بعض مظاهر الثقافة الصينية في القرن الاول حتى اواخر القرن الرابع وتشديد الكلام على ما قد تنطوي عليه من تفرد وما يميزها حقاً في هذا العهد. فالصفحات السابقة وتلك التي كرست لها في المجلد الاول[1] قد أبرزت تطورها السياسي ووصفت حياتها اليومية واطارها. ويجدر الآن، حتى تأتي اللوحة كاملة، ان نعلق أهمية خاصة على نمو الفكر والديانات والعلوم، أي، بكلمة موجزة، على كل ما يعطي معنى عميقاً لهذه الحياة اليومية المستمادة بفضل علم الآثار والنصوص.

تنفتح امامنا ثلاثة نطاقات لجولتنا هذه في حياة الماضي: في الدرجة الاولى، نطاق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة السياسية والتطور التاريخي، هو الوضع الاجتماعي طيلة هذا العهد وميزاته وأزماته. وفي الدرجة الثانية نطاق الديانات الذي يحمل طابع حدث على جانب كبير من الأهمية: دخول البوذية الى الصين، وتحضير هذا الدخول بفضل موقف الطاوية، وردود فعل هذه الاخيرة امام الداخل الجديد. وعلينا اخيراً امعان النظر في النطاق التقني والعلمي حيث احتل التنجيم مركزاً هاماً وحيث ظهرت بعض الاكتشافات الخطيرة.

ستبرز حينذاك الحضارة الصينية في عهد الهان والسلالات الست على حقيقتها الكاملة: حضارة بلاد شاسعة الاطراف، لا تزال في طور التكوين، تفيد من حيوية وذكاء سكانها من اعداد ثروة ثقافية ستجعل منها احدى حضارات العالم العظمى. وحين تنحصر فيها كمجموع تتجلى امامنا بتعقيدها الكلي، وبوحدتها الكلية ايضاً. يبدو مجتمعها، المرتكز الى العائلة: خاضعاً للتسلسل على غير جمود، وطافحاً حياة ونشاطاً، ومتمتعاً بسلم حقيقي، وخابراً مع ذلك عهود اضطرابات وثورات ومولعاً بالبذخ والمغامرة وموسعاً بفتوحاته التجارة والاستعمار، ومستنداً الى شغفه الفطري بالتمرن. الى العالم الذي ينبئه المسافرون بعجائبه وموطداً اخيراً واقعيته العميقة على الرغم من اخذه بالاساطير والخرافة.

---

(١) الشرق واليونان القديمة ـ منشورات عويدات.

١ ـ الوضع الاجتماعي

المجتمع

ان هذه اللوحة الشاملة للمجتمع الصيني في عهد الهان تستوجب تعميق النظر في نقاط عدّة . ليس حينذاك في الصين من مدن كبرى سوى العاصمتين الامبراطوريتين والعاصمتين او العواصم الثلاث للامارات الاقطاعية العظمى السابقة : وليست المدن سوى حصون صغيرة يعيش فيها الموظفون والحامية العسكرية وبعض التجار . يمارس الصناعيون اليدويون عملهم على نطاق ضيق في المدن والقرى ؛ ويستنتج بالتالي ان عددهم لم يكن مرتفعاً . يعيش باقي السكان في الأرياف : لذلك ألف الملاكون ، صغارهم وكبارهم ، مع الفلاحين ، الشطر الأهم في المجتمع ، ولذلك كان سواد السكان ريفيين لا مدنيين . غير ان كثافة السكان ما زالت متدنية لأن البلاد واسعة جداً .

في أعلى السلّم الاجتماعي يتربع كبار الملاكين ، أعني بهم «الملوك» ، أي أبناء الاباطرة الذين تسلموا امارة تابعة ، والاميرات التي يدير القيّمون ممتلكاتهن ، والمقدمون الذين أنعم عليهم باقطاعة بسبب لقبهم الشرفي ، والافراد الاثرياء ، ومعظم الموظفين . وتأتي بعدهم طبقة الفلاحين الكادحين الذين يملكون القليل من الاراضي وقد لا يملكون شيئاً . وفي أسفل السلم نرى العبيد الذين يخصصون للخدمة المنزلية والأعمال الشاقة ، ولا يحرثون الارض على العموم . وغالباً ما يكون هؤلاء العبيد من مجرمي الحق العام ويشتغلون بأكثريتهم لحساب الدولة : فيستخدم عـدة آلاف منهم في المشاريع القومية لاستثمار الحديد والملح ، بينما يخدم غيرهم في الادارات والقصر الامبراطوري . ولكن سوادهم الأعظم خدام العائلات الاشراف ومستخدمون عند التجار الأثرياء . وتتغذى سوق الارقاء بوسائل أخرى غير جمعهم بين المحكومين : فغالباً ما يسرق الاولاد او يُبتاعون من والديهم ، ويختطف الفتيان عنوة او مفاجأة ، ويبيع البرابرة أسرى غزواتهم من الجماعات الصينية . ولكن أبناء الارقاء ، كما يبدو ، كانوا احراراً في نظر القانون ، ما لم يبعهم والدوهم او يبقوهم في حالة الرق التي كانوا فيها .

عاشت العائلات الثرية حياة زهو كثيرة النفقات : فقد كان لدى بعضها عدّة عشرات من السراري المجموعات في الاحرام ، وعـدّة مئات ، او ألوف احياناً ، من العبيد والموسيقيين والمغنين والممثلين والكلاب والجياد ؛ وأقامت في مقرات رحبة تستلزم الاكمات المشجّرة والابواب الضخمة والفساطيط والشرف والشوارع والطرقات .

النظام العقاري

ان هذا التنظيم الذي يكاد يكون ريفياً ، ورثته صين الهان عن العهد السابق . فكبار الملاكين ومتوسطوهم لا يتعاطون الزراعة بأنفسهم . وهم فئتان : اولئك الذين يمتلكون الارض فقط ويطلق على أملاكهم اذ ذاك « منغ ـ تيان » ؛ واولئك الذين يمتلكون أرضاً تعرف باسم « يي » ، ويستوفون بالاضافة الى ذلـك رسماً على سكان الارض . اما امتلاك الارض « يي » ، الذي يقرّه مرسوم امبراطوري يمنح لقباً شرفياً ، فلا يخضع لبيع او ابتياع .

والاراضي الـ « يي » قليلة في عهد الهان لأن عدد المقدمين قليل جداً ، وليس لدينا من ثم سوى معلومات نادرة عنها ؛ وجل ما نعتقده هو ان سيد الـ « يي » يتسلم محصول الضرائب – الضريبة العقارية والضريبة الشخصية – ويدفع رسماً على السكان . فنحن نعرف مثلاً، سيداً يتوجب عليه ٢٥٠٠ قطعة نقدية عن ألف شخص ، في حال انه يستوفي ١٢٠ قطعة عن اليافع . فتصور الربح الصافي الذي يحققه .

اما الملك الخاص ، « منغ – تيان » ففي متناول الجميع ، النبلاء وعامة الشعب ؛ ولا يقرّر مساحته سوى الثروة الشخصية . وبما ان موارد الثروة الطبيعية محصورة في الاستثمار الزراعي ، فالملاكون العقاريون كثيرون : ولما كانت الادارة والمثقفون يتعمدون عرقلة التجارة والصناعة ، كانت الارض وحدها ما يوفر سبل العيش للعائلة الريفية . ولا يضم هؤلاء الملاكون الموظفين وعامة الشعب فحسب ، بل كافة العائلات الكبرى ايضاً .

لا يخضع بيع وابتياع هذه الاملاك لأي قيد . ويبدو ان الاسعار غير مرتفعة ايضاً . امـا العقود فقصيرة الاجل وصريحة جـداً يحدّد فيها التاريخ الكامل وقياسات الارض بالخطوات والسعر الاجمالي واسم الشاهدين والقيمة المخصصة لكل منهما لقاء أتعابهما. ووحدة قياس المساحة هي الـ « ميو » : وهي طريدة طويلة تبلغ ٢٤٠ خطوة طولاً وخطوة واحدة عرضاً أي حوالي ٢٤٥ م × ١,٤٥ م ، او خمسة آرات تقريباً . وهـذه المساحة هي ما تستطيع العائلة زراعته ، ولا يتجاوز محصول الـ « ميو » – الذي تفتح فيه ثلاثة اثلام – الـ ١٠٠ « شي » (Che) أي ٢٠ هكتوليتر تقريباً .

تؤجر الاملاك، لا سيا أملاك الموظفين الذين تمنعهم وظيفتهم من مغادرة المدينة، الى مزارعين او شركاء يتقاسمون محصول المزروعات مناصفة مع الملاك . اما املاك الافراد العاديين فيزرعها العبيد والعمال الزراعيون الذين تدفع لهم أجور خدماتهم . وهنالك فئة الاراضي المشاعية التي تكل القرية امر زراعتها مؤقتاً الى الفلاحين ، والاراضي البائرة التي يحوّلها الفلاحون المهاجرون الى ارض صالحة الزراعة ويستثمرونها لحساب الدولة .

يعيش كبار الملاكين ومتوسطوهم حياة على بعض السعة تؤمنها لهم أدوات مزارعيهم ؛ ولا يدفع الموظفون بعض الضرائب ولا تتناولهم اعمال التسخير . عندما ينهون أعمالهم ، يعدّون وجبة لذيذة قوامها لحم الضان فيأكلون ويشربون النبيذ، ثم يغنّون الاغاني في جو عائلي يرافقهم عبيدهم وينهون السهرة بالرقص

اما حياة الفلاح فغير ذلك، لأنه يخضع لأعمال التسخير الرسمية ويقوم بأعمال الارض الشاقة . « يفلحون في الربيع، ويقلعون الحشائش في الصيف، ويحصدون في الخريف ، ويخزنون المحاصيل في المزيّ في الخريف، ويقومون بأعمال السخرة، ويقطعون الخشب للتدفئة، ويخدمون السلطات . في الربيع لا يستطيعون النجاة من الريح والغبار ؛ وفي الصيف من الحر والشمس ، وفي الخريف من تقلب الطقس والمطر ؛ وفي الشتاء من البرد والجليد ؛ لا يتمتعون طيلة الفصول الاربعة بيوم

راجة واحـــد . ناهيك عن أعمالهم الخاصة : فانهم يشيّعون المسافرين ويستقبلون العائدين ؛ يعزّون بالموتى ويعودون المرضى ، يغذون الايتام ويربون الاولاد . وعليهم ، بعد هــذا التعب والشقاء، ان يتحملوا كوارث الفيضان والجفاف واوامر الحكومة الملحة بالطلب ودفع الضرائب في غير مواعيدها والاوامر المتناقضة بين صباح ومساء . حينذاك يضطر الذين يمتلكون شيئاً الى بيعه بنصف ثمن والذين لا يمتلكون شيئاً الى الاستقراض والتعهد باعادة الضعف ضعفين ؛ وقد يبيع بعضهم حقولهم وبيوتهم واولادهم وحفدتهم حتى يدفعوا ديونهم» («تشاور تسو» في كتابه تسيان – هان تشو ، الفصل ٢٤ ، الجزء الاول ، ترجمة شافان) .

يملك بعض الفلاحين بيتاً وحقلاً او عدة حقول . اما الباقون فلا يملكون شيئاً . وغالباً ما يضطر صغار الملاكين بينهم الى بيع ممتلكاتهم : وتستخدم العائلات الغنية احياناً اساليب مغايرة القانون لتوسيع املاكها ؛ فهنالك امثلة عدة عن ضغط كبار الملاكين على صغار الملاكين بغية انتزاع املاكهم منهم بثمن بخس : وبعد هذا التوسيع يشيدون في اراضيهم قصراً يحيطونــه بحديقة غناء . اما الذين افقروهم فيضطرون آنذاك العمل في الزراعة لقـــاء اجر يومي ؛ وقد يخصصون موقتاً بقطعة ارض مشاعية لا تكاد زراعتها تنتج لهم ما يسدون به حاجات عائلتهم ؛ اضف الى ذلك ان تصرفهم بهذه القطعة محدد الاجل ، ولا تمتلك كل قرية اراضي مشاعية تكفي لجميع الفلاحين ، فلا يبقى امامهم الا الهجرة الى المناطق البائرة الواسعة . ولكن استثمار هذه الاراضي يستوجب اعمالاً – صرف مياه وري – تكلف الدولة اموالاً طائلـــة ، وباستطاعة الدولة وحدها ان تتحملها. اضف الى ذلك وجوب النظر الى تعاقب زراعة الارض واستراحتها وادخال ذلك في حساب توزيع الاراضي على الفلاحين. واضف الى ذلك اخيراً ان ضيق مساحة الاراضي المزروعة من جهة ، ووفرة اليد العاملة الزراعية من جهة ثانية ، غالباً ما يضعان الكادحين الريفيين في وضع عسير جداً . فيغادر الارض فلاحون كثيرون ويطلبون عملاً زراعيـــاً في الممتلكات الصينية الجديدة في الجنوب او يمتهنون الجندية او القرصنة ، دون ان يتمكنوا مع ذلك من التخلص نهائياً من بؤسهم .

اقترحت على التوالي عدة علاجات لمداواة هذا الوضع . فحاولوا اما تحديد مساحة الاملاك الخاصة تحت طائلة حجز الفائض عن المساحة المرخص بها؛ واما تحديد عدد العبيد والعمال الذين يشتغلون عند كبار الملاكين ، وهذا يدني بكل تأكيد امكانات الزراعـة ويفضي بالضرورة الى تجزئة الاملاك الخاصة . وواجهوا ايضاً تحسين تقنية الزراعة بغية الحصول على انتاج اوفر . وقد سبق وتحققت هذه النجاحات في القرن الاول قبل المسيح ، وقامت بنوع خـاص بحمل الدورة الزراعية على اساس الثلم لا على اساس القطع الكاملة ، وبايلاء نزع الحشائش مزيداً من العناية ، على ان يلي هذا النزع تكويم التراب حول المزروعات الفتية حال ظهورها ، واستخدمت كذلك بذّارة تصلح لبذر ثلاثة اثلام في آن واحد. فنزعت هذه التدابير الى ازالة نظام استراحة الارض بصورة تدريجية .

ولكن القانون لم يطبق يوماً بحذافيره ، فبقيت الاملاك الواسعة ، في اغلب الاحيـان ، على

ما كانت عليه ، وشأنها في ذلك شأن وضع الفلاحين .

الاعباء الاميرية ومداخيل الدولة

فرضت بعض الرسوم والضرائب على السكان ، فأثقلت كاهلهم بصورة خاصة الضريبة الشخصية التي تناولت الغلمان والاولاد الذين تجاوزوا سن السابعة ، والرسم العسكري ، والضريبة العقارية ، والضريبة على الدخل التي تناولت الصناعيين والتجار في الدرجة الاولى . ولم تدفع كل هذه الاعباء نقداً بل عيناً ايضاً ، وحبوباً في اغلب الاحيان . وغالباً ما تكلف هذه الطريقة الاخيرة غالياً اذ انها تستلزم نقل الحبوب الى المستودعات الامبراطورية ، والنقل عملية بطيئة معرضة لاخطار اللصوصية المسلحة : فإذا ما حجزت الحبوب ، توجب نقل غيرها . واضيفت الى هذه الرسوم المباشرة تلك التي تعود الى احتكارات الدولة ؛ وهذه تتناول الملح والحديد والنقد والمحاصيل الطبيعية كمحاصيل الصيد والقنص والعسل وخشب الاحراج ، والخمور في عهد « وانغ مانغ».

تستخدم الدولة هذه الاحتكارات وهذه المحاصيل استخداماً يتيح لها ان تجني منها حداً اعلى من الارباح . وهكذا فهي تشتري الحبوب حين تبلغ سعرها الادنى وتعيد بيعها حين تبلغ سعرها الاعلى . واذا ما افضت هذه الطريقة الى اثراء الخزانة ، فمن الثابت ان الشعب هو الضحية لان هذه الضرائب وهذه «الرقابات» تتناول في الواقع المواد الغذائية الضرورية جداً . وقد جنت الدولة مزيداً من الارباح ايضاً من تقلبات الاسعار بين مناطق الامبراطورية المختلفة عامدة الى الشراء حيث تكون الاسعار اكثر تدنياً .

اصلاحات وانغ – مانغ

في القرن الاول بعد المسيح، ادخل المغتصب «وانغ مانغ» اصلاحات بلبلت الاقتصاد الصيني لفترة قصيرة . ولكن مهما بلغ من قصر هذه الفترة، فمن المفيد ان نتوقف عندها بعض الوقت لأن اصلاحاتها ترتكز الى النظريات الكونفوشيوسية التي وجهت الفكر الصيني والاخلاق الصينية منذ قرون . غير ان محاولة وانغ مانغ تتصف في آن واحد بأنها ترتدي طابع العمل المبتكر وتنطوي على سيئة تطبيق التقليد الكونفوشيوسي تطبيقاً اعمى دون اي اعتبار الى ما عله الاختبار . كان وانغ مانغ (٩ – ٢٣ بعد المسيح) في الحقيقة شخصاً غريباً : فهو الممهد الحقيقي للنظريات الاشتراكية ، وكان ماهراً جداً في توجيه الرأي العام كما يشاء. وإنما يبدو، على الرغم من تدشينه سياسة ترتكز الى الاصلاحات الاقتصادية، انه لم يكترث برفاهية الشعب ومصالحه ، بل ضحى بها في النهاية على مذبح انانيته . فكان في الواقع ، على عله بالاصول ، واقفاً عند النظريات ، متعصباً لمثل كونفوشيوس الذي نادى بتقليد العادات القديمة . بيد ان الكونفوشيوسية كانت في عهد الهان السلطة الوحيدة المعترف بها التي تساندها الحكومة الامبراطورية وتطبقها على اقل الاحداث اهمية في الحياة الخاصة او الرسمية.

وكان وانغ مانغ ، وهو ابن عم الامبراطور ، كونفوشيوسيا متحمساً ، إلا انه كان فقيراً لا يحمل لقباً شرفياً . عاش في البدء حياة تقتير ، مواظباً على درس الكلاسيكيين ومرتدياً ملابس رجال الفكر من الكونفوشيوسيين . اصبح نبيلاً في السنة ١٦ قبل المسيح وخدمته الظروف تدريجياً – وفاة الامبراطور ، وصاية عمته – فتوصل يوماً بعد يوم الى أن يكون له

أثر بعيد في البلاط الذي فرض عليه الأخلاق الكونفوشيوسية بشكل تشدّده . فازدادت بذلك شهرته وتعاظمت شعبيته ، حتى ان العرش ، عرض عليه ، حين توفي الامبراطور الشاب في السنة ٦ بعد المسيح . وافق ذلك طموحه وشغفه بالدسائس ، فاعتلى العرش في السنة ٩ بعد المسيح ، وشرع دون إبطاء في تحقيق اصلاحاته . شمل برنامجه النظام النقدي ، وأنظمة اقطاع الاراضي ، وإلغاء الرق ، واحتكارات الدولة والضرائب ورقابة الاسعار . فبرهن وانغ مانغ ، عن أنه دكتاتور حقيقي ، على بعض المثالية ، واستخدم لمصلحته شعبية المذهب الكونفوشيوسي ، ولكنه ضيّق الخناق على الشعب بتصميمه على ان يفرض عليه نهجاً حياتياً لا يتفق والمعاضل البشرية التي أثارها . في السنة ٢٢ بعد المسيح ، انفجرت الثورة عليه ، ففقد شعبيته لدى الشعب وزاد في فقدانها ما علق الشعب عليه من آمال ، وفي خريف السنة ٢٣ استولى الثائرون على العاصمة وقبضوا على وانغ مانغ وقتلوه .

ان الاصلاحات التي بعثت هذه البغضاء تناولت في الواقع كل اقتصاد الامبراطورية . فقد باشر وانغ مانغ اقرار التأميم في كل الحقول ، مما خلخل توازن النظام الذي اعتمده الهان ، والوضع الاجتماعي الذي وصفناه اعلاه .

كانت مسألة النقد اعظم المسائل حدّة . فقد كانت قاعدة النهب ، حتى ذاك العهد ، متداولة بحرية ، بشكل سبائك ، تزن الواحدة منها ٢٤٤ غراماً . ومع ان ضرائب وأجوراً كثيرة كانت تدفع عيناً ، كلها أو نصفها ، فان الذهب كان ضرورياً لتسديد الضريبة الشخصية التي تتناول اليفعان والأولاد فوق سن السابعة ، والضريبة على الدخل المفروضة على الصناعيين ، والرسوم المطلوب جمعها من الحكام الاقليميين في كل سنة ، والضرائب على بعض الأصناف التي لم تدفع عيناً إلا بنسبة ٥٠٪ فقط . فاتخذ وانغ مانغ ، منذ استلامه الحكم ، تدابير قاسية جداً لم يكن القصد منها ، على ما يبدو ، تطبيق النظريات الكونفوشيوسية فحسب ، بل إثراء الخزانة الامبراطورية أيضاً وبنوع خاص . ومع ذلك ، فعلى الرغم من الاعباء العسكرية التي أوجدها بمهاجمة الهون ـ وقد اوجب عليه ذلك إرسال ٢٠٠٠٠٠ رجل الى الحدود على أهبة الاستعداد للحرب ، وتعبئة ٣٠٠٠٠٠ رجل للقيام بحملة ضدهم ـ جمع وانغ مانغ اموالاً طائلة ؛ فقد وجد في الماكن الامبراطورية ، بعد اعدامه ، ١٤٠ طناً ذهباً ، يضاف إليها القطع الحريرية الثمينة والجواهر واليشب وغير ذلك مما جمع في مكاتب القصر المختلفة . غير أن وانغ مانغ لم يمسّ هذه الثروة لمنفعته الخاصة ، حتى ولو اضطرته الحاجة الى ذلك ، ولم ينقطع قط عن حياته التقتيرية .

لقد قرر وانغ مانغ ، رغبة منه في جمع النهب المتداول لمنفعة الخزانة الامبراطورية ، ألا يسمح إلا « للملوك » باقتنائه . فتوجب على الأشراف والشعب ، تحت طائلة عقوبة الموت او النفي ، نقل كل ما هو بحوزتهم منه الى خزانة الامبراطور الخاصة . ووضعت الخزانة في التداول ، بالمبادلة ، قطعاً برونزية متفاوتة الوزن هي أبعد من ان تعوض عن النهب . فكان لهذا التدبير الجذري في اسقاط قيمة النقد نتائجه الوخيمة على ذوي العلاقة ، لا سيا وان النهب

هو القوة الوحيدة لدى طبقة الأثرياء الذين يحتاجون اليه بصورة ملحة لدفع الضرائب والمطالب المخزانة . وقد افتقر ، بالاضافة الى النبلاء ، التجار والافراد الذين كانوا يملكون وحدهم تقريباً كل الذهب الذي لم يكن في حوزة الحكومة . ولعل اصابة التجار بهذا التدبير كانت أعظم من اصابة غيرهم لأن القانون حرّم عليهم امتلاك الاراضي والانخراط في الوظائف الرسمية . اما الفلاحون فكانوا افضل حالاً : لأنهم لم يستعملوا النقـد إلا نادراً معتمدين المقايضة في الدرجة الاولى ؛ أضف الى ذلك ان سياسة الحكومة كانت تستهدف محاربة التجارة وتشجيع الزراعة ، فقدمت الدولة للمزارعين تكراراً قروضاً متنوعة قد تكون بذاراً او مواد غذائية او ثيراناً الفلاحة ؛ وكان عليهم مبدئياً اعادتها للدولة ؛ ولكن غالباً ما تركت لهم بقرار امبراطوري .

غير ان حال الطبقة الزراعية لم تكن في الواقع كما يبدو من هذا الوصف : فعلى غرار قسم كبير من السكان اضطر الفلاحون الى الاستدانة بفوائد مرتفعة جداً . وإنما لجأوا الى الاستدانة للتمكن من الانفاق على الاحتفالات الدينية ، ولا سيما الجنائز منها ؛ وعقد التجار قروضاً بغية النهوض بمشروع تجاري جديد ، والنبلاء الجدد بغية التمكن من اقتناء العدة المفروض عليهم تقديمها للاشتراك في الحملات العسكرية .

ما ان نشرت المراسيم الامبراطورية التي اقر بموجبها تخفيض قيمة النقـد ، تحت طائلة عقوبة الموت أو النفي ، حتى عم الاضطراب الشعب بأكمله . ومردّ ذلك الى ان ثلاثة ارباع الصينيين تقوضت ثرواتهم بصورة قاسية ، وكسدت المواد الغذائية في الاسواق ، وبات الفقراء « يبكون وينوحون في الساحات العامة والشوارع» . فأصبح من الصعب احصاء المحكومين بالموت ابتداء من الوزراء حتى افراد الطبقات الدنيا . وارتفعت الأسعار ارتفاعاً مضطرباً ، ولم تستوف الضرائب إلا نقداً قليل القيمة ، ولم تكف الأجور لتأمين المعيشة . فاضطر وانغ مانغ في السنة ١٤ بعد المسيح الى اقرار نقد سليم ، ولكنه لم ينفذ قراره إلاّ جزئياً واعطى مهلة ست سنوات لاستبدال القطع النقدية القديمة بالقطع النقدية الجديدة . وفي هذا التحويل الثاني ، فقد اصحاب الثروات تسعة اعشار ما كان متبقياً لديهم . لذلك فقد زيف النقد على نطاق واسع . فأمر وانغ مانـغ ، للحيلولة دون التزييف ، ان تؤلف العائلات من خمسة اشخاص يكون كل منهم مسؤولاً عن تصرفات الأربعة الآخرين ، ويعاقب الخمسة اذا أقدم أي منهم على مخالفة القانون . ولكن عدد المخالفات وتكررها جعل تنفيذ هذا التدبير امراً مستحيلاً . ومع ذلك فقد نفي السكان بأعداد كبيرة وحكم على عائلات كاملة بالعمل في ظروف بلغ من قسوتها انها أدّت الى موت ستة او سبعة اشخاص من اصل كل عشرة .

اما سياسة اقطاع الارض فلم تكن اقل سوءاً . كان عدد السكان قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً في ظل سلم الهان السابقين ؛ فشجع ذلـك نمو الاملاك العقارية ، كما أدى احياناً الى المجاعة وازدياد أعمال اللصوصية . فأقر وانغ مانغ في السنة ٩ بعد المسيح اصلاحاً مبنياً على نظام نادى بـه منشيوس وزعم التقليد الكونفوشيوسي انـه يرتقي الى عهد الـ « تشيو » . قسم الـ « لي » (١٢١٫٥٠ م²) بموجب هذا النظام الى تسعة مربعات متساوية تعود الى مجموعة من ثماني عائلات؛ تزرع كلاً من المربعات الخارجية ، ومساحته ١٨٢ آراً ، عائلة تؤمن منه أودها لسنة كاملة .

ويقسم المربع الوسيط بدوره الى تسعة اجزاء تبلغ مساحة كل منها ٢٠ آراً ؛ تزرع كلاً من الاقسام الدائرية الثمانية احدى هذه العائلات الثماني ويقدّم محصولها فريضة للدولة ؛ اما المربع الوسيط فيكرّس للأبنية الريفية والمساكن . ومعنى ذلك ان كل عائلة تزرع هكتارين تقريباً يعود محصول عشرهما للدولة . يبدو هذا النظام ممتازاً من الناحية النظرية . ولكنه يكاد يكون مستحيل التطبيق من الناحية العملية : فالارض الزراعية لا يمكن تقسيمها الى مربعات متساوية تماماً ، ولشجون الارض دورها في تقرير حدود كل جزء من الاجزاء . أضف الى ذلك ان هكتارين لا يكفيان لتأمين معيشة عائلة ، إلا اذا كانت الارض جيدة جيداً . وبحجة اولى ، لا يمثل عشر محصول هذه الاجزاء شيئاً يذكر – غير الجهود – اذا كانت الغاية منه تكوين احتياطي جماعي ، كما ان بيع الحبوب لا يمكن ان يسهم في اثراء الخزانة بالنظر الى ضآلة المجموع منها سنوياً . لذلك فقد أضيفت رسوم كثيرة الى هذه الفريضة حتى غدا الفلاحون ، في النهاية ، يدفعون خمسة أعشار دخلهم .

في سبيل تطبيق هذا النظام ، الذي يغلب انه لم يطبق قبل وانغ مانغ او انه لم يطبق إلا على نطاق ضيق ، بدأ وانغ مانغ بتأميم كل الارض ؛ واعتبر الحقول ملكاً للسلطان يمتنع بيعها او نقلها او هبتها . ثم أعاد توزيع الاملاك بالاستناد الى عدد الافراد الذين تتألف منهم العائلة . وهكذا فقد أجيز لعائلة تضم تسعة يفعان من الذكور فما فوق « امتلاك » ٩٠٠ « مو » من الارض الصالحة للزراعة كحدّ أعلى (١٧ هكتاراً تقريباً) ، وفرض على كل عائلة تضم عدداً أعلى او أدنى من اليفعان الذكور ان « تعطي » الفائض من أراضيها الى الانسباء او الجيران . ففقدت الارض من ثمّ قيمتها التجارية ولم يعد باستطاعة كبار الملاكين ان يجنوا منها دخلاً كافياً . وكانت مخالفة هذا القانون ، وحتى انتقاده ، تعاقب بالنفي الى خارج الحدود او بالموت .

وفيما يتعلق بالرق – الذي كان ، الى حد ما ، شرطاً لازدهار الطبقة الثرية – اراد وانغ مانغ كذلك تطبيق النظريات الكونفوشيوسية ؛ وقد سبق ، قبله بمائة سنة ، ان فكر المسؤولون ، دون نتيجة مجدية ، بالغاء الرق . وكان سلف وانغ مانغ قد خفّض عدد العبيد بنسبة وضع الملاكين الاجتماعي : فلم يكن بمكنة الملوك ان يقتنوا منهم أكثر من مائتين ، والاميرات والمقدمين مائة والافراد ثلاثين فقط . ولكن هذا التحديد ايضاً لم ينفذ عملياً . فصمّم وانغ مانغ على إلغاء العبيد إلغاءً جذرياً ، مستنداً في ذلك الى نص من كونفوشيوس ، ومحوّلاً إياهم الى خدمة الدولة دون غيرها : فلم يبق بموجب القانون الجديد سوى العبيد الذين قضت عليهم أحكام الحق العام بتنفيذ بعض العقوبات . غير ان وانغ مانغ اصطدم هنا ايضاً بمقاومة عنيفة ابداها أثرياء الملاكين فاضطر الى الغاء قانونه سنتين بعد صدوره تحاشياً لثورة معلنة . وحين فرضت ، في السنة ١٧ بعد المسيح ، ضريبة قيمتها ٣٦٠٠ قطعة على كل عبد مستخدم ، لم يكن ذلك لمنع الرق بصورة غير مباشرة ، بل لأن الخزانة الامبراطورية كانت بحاجة آنذاك الى مداخيل هامة .

وكانت الاحتكارات خاتمة تدابير وانغ مانغ الاقتصادية . سبق ورأينا ان بعضها يعود الى العهد السابق – التدابير العائدة للنقد والملح والحديد بنوع خاص ، ورغبة منه في ربط عمله

بكونفوشيوس ، أطلق عليها اسم « كوان » ، أي رقابة ، الواردة في الادب الكونفوشيوسي ، فأقرّ الاحتكارات التي قامت من قبله والاحتكارات الملغاة ، واقام احتكارات اخرى ، كاحتكار المشروبات الخمرة مثلاً : فلم يعد باستطاعة الشعب منذئذ ان يستهلكها إلا لقاء رسم خاص ، بعد ان استأثرت الدولة بحق انتاجها وبيعها . واعاد احتكار محاصيل الجبل : ففرضت الدولة ضريبة على من يقطع الاشجار وعلى كل من كان بحاجة الى هـــذه المحاصيل : اسماك ، قنيص ، الخ .. فأحدثت بالتـالي ضريبة على القناصة والصيادين ومربي دود الحرير والصناعيين اليدويين والمهن الحرة : وتوجب على كل فرد تميين دخله السنوي ودفع جزء من احد عشر من قيمته . وحكم على كل مـــن يرفض تقديم تصريحه السنوي او يقدم تصريحاً كاذباً بقضاء سنة عبودية في خدمة الدولة . اضف الى ذلك ان الرسم الذي فرض على الاراضي البائرة حدّد بثلاثة اضعاف الرسم العادي . ونشرت قوانين نظمت كلاً من هـــذه الاحتكارات ونصت على ان مخالفتها تعرّض مرتكبها لبعض العقوبات وحتى لعقوبة الموت احياناً . حاولت عدّة شخصيات مقاومة هـذا التشريع وهذه الضرائب التي جعلت حياة الوضعاء عسيرة جداً ، ولكن وانغ مانغ وقف من هذه المقاومة موقفاً صلباً لا يعرف الشفقة معنى . افضت هـــذه التدابير في الحقيقة الى ارتفاع أسعار المواد الغذائية الرئيسية ارتفاعاً عظيماً ثابتاً والى استئثار الدولة بمعظم المشاريع الممتازة في ذاك العهد . غير ان أثرها في الشعب كان أقوى منه في طبقات الاثرياء المجهزة تجهيزاً افضل بفعل امتيازاتها او اجورها . كما ان الموظفين والمستخدمين لم يكونوا في مأمن من هـــذه القوانين القاسية : فان أجرهم كان يقرّر كل سنة بالاستناد الى وضع المحاصيل ، فتعذر عليهم من ثم التفكير بغدهم . غير ان بعضهم ، كما نرجح ، قد لجأوا الى الاختلاس وجمعوا بعض الثروة ، اذ ان وانغ مانغ قد امر ، في السنة ١٩ بعد المسيح ، بأن يدفع كافة الموظفين ، باستثناء ذوي الأجور المحدودة منهم ، اربعة أخماس ما تملك يداهم . واعتمد على الوشاية في جمع هذه الضريبة – المعدّة اساساً لتعهد جيش الحدود – : فطاف المفتشون في طول البلاد وعرضها وحثوا العبيد والمرؤوسين على الوشاية بأسيادهم . وقد طلب الى الموظفين ، بالاضافة الى ذلك دفع ضريبة خاصة بغية مكافحة أعمال اللصوصية المسلحة .

فلا عجب من ثم اذا ما لقيت ثورة اوساط الفلاحين ، التي اندلعت ضد وانغ مانغ في السنة ٢٢ بعد المسيح ، تأييد ومساندة كافة السكان القائمين بعمل من الأعمال .

وهنالك أخيراً اصلاح جبائي سادس – هو أطرف الاصلاحات إطلاقـــاً – تناول رقابة الاسعار وحصر القروض في الدولة دون غيرهـــا . ولم يكن هذا الاصلاح بالجديد ، إذ ان محاولات مماثلة قد جرت قبل ذلك بأربعة قرون : فكانت الحبوب ، مثلاً ، تجمع في سني الاقبال ، ثم تبيعهـــا الدولة حين تمحل المحاصيل ؛ فتتساوى حينذاك الأسعار ، ويتلافى القحط . تبنى وانغ مانغ هذا النظام ؛ وفي سبيـل تطبيقه ، وكّل أمر مراقبة الأسواق الست الكبرى في الامبراطورية الى رؤساء عاون كلاً منهم خمسة أشخاص في امور المقايضة ، وشخص واحد في امور النقد . وشيد المخازن ؛ فكان على كل رئيس سوق تحديد أسعار كل صنف من المواد الغذائية ،

أي الحد الاعلى والحد الوسط والحد الأدنى ، دونما اهتمام لأسعار الأسواق الاخرى . كما كان عليه تطبيق هذه الأسعار على الفئات الخمس التالية: الحبوب والمنسوجات والحرائر والخيوط وكتل الشعل والوبر ، التي يأتي بها المزارعون . فاذا لم تبع كلها ، اشترى مكتب الرقابة الفائض منها بسعر السوق . واذا تجاوزت الاسعار الحدود المعينة ، باع المكتب البضائع المجموعة بالأسعار المحددة . فيحال بذلك دون تقلبات الأسعار ، وتستحيل المضاربة على التجار ويضمن المزارعون تصريف محاصيلهم ، أقله من الناحية النظرية ، اذ ان النظام قد انطوى على كثير من العيوب ، كما سنرى ذلك.

أما مسألة القروض ، فقد اتصفت بمزيد من الجدة . احتاج الشعب باستمرار الى المال للانفاق على الذبائح والجنائز ، وهي احتفالات غالباً ما تكلف أموالاً باهظة ؛ واضطر آخرون الى استقراض المال لدفع أجور اليد العاملة التي يستخدمونها . فاختير بعض أغنياء التجار لتسلّم مكاتب الرقابة المعدّة لتأمين القروض ، في حالات الحاجة القصوى فقط . ضاربت هذه المكاتب في تجارة المواد الغذائية ومارست تسلم القروض التي تغذيها الضريبة على الدخل المفروضة على الصناعة اليدوية والمهن الحرة. وحددت الفائدة بـ٣٪ في الشهر ، وهو معدل اعلى من المعدل العادي المحدد بـ ٢٠٪ في السنة ؛ غير ان بعض النصوص قضت بأن لا يدفع طالب القرض اكثر من١٠٪ من دخله الصافي: فتحدد القرض من ثم بالنسبة لثروة طالب القرض .

غير ان نظام الرقابة والقروض ، الذي وضع نظرياً لتشجيع المزارعين بتأمين بيع محاصيلهم واستقرار الأسعار والمساعدة المالية عند الحاجة ، قد انطوى على مساوىء عديدة . ولم يؤد الى حماية الطبقة التي تؤمن مؤونة الامبراطورية ، مع ان هذه الحماية هي الغاية الأولى من وضعه . فقد لجأ اغنياء التجار المكلفين رقابة الأسعار الى الغش بغية جني الأرباح دون مشقة ؛ أضف الى ذلك ان ست اسواق فقط قد أخضعت للرقابة ، في حال ان الاسواق الاخرى قد تعرضت للتقلبات . أما مضاربات الدولة في الاسعار فكانت محصورة نسبياً ، لأن بيع المواد الغذائية التي تشتريها لا يمكن ان يتجاوز سعراً منخفضاً نسبياً بغية الحفاظ على ظاهر المعيشة الطبيعي ؛ لذلك فقد نزعت الى رفض الشراء إلا بأدنى الاسعار ؛ وقد تعذر حينذاك على المزارعين تصريف محاصيلهم .

لذلك ، فان اصلاحات وانغ مانغ ، في مجموعها لم تأت ، عملياً ، بأي جديد سوى التطبيق الآني لبعض النظريات التي قال بها كونفوشيوس ومنافسوه دونما اعتبار الى الناحية العملية . فنحن لسنا في الحقيقة أمام ثورة أو محاولة اشتراكية : فان وانغ مانغ كان دساساً وطموحاً اكثر منه مثالياً ، يغار على خير الشعب.. واذا ما هدفت تدابيره في الظاهر الى حماية الطبقات الدنيا وإفقار الطبقات الثرية لمنفعة الدولة ، فانها قد أفضت الى خلخلة الاقتصاد الصيني ، واستياء جميع السكان ، وافقار الملاكين ، كبارهم وصغارهم ، وموت وتعذيب أفراد لا يحصى لهم عد . وقد برهن وانغ مانغ في الدرجة الاولى عن منتهى القسوة امام الويلات التي تسببت فيها ، ولم يمنعه ذلك من مضاعفة العقوبات الصارمة المعدة لتأمين تطبيق نظامه .

في السنة ٢٢ بعد المسيح ، قام الفلاحون ضده وضد ممثليه بثورة حقيقية .(اطلق عليها اسم

حرب الحواجب الحمراء) . فشعر آنذاك بحقيقة وضعه اليائس ، وحاول القيام باصلاح معاكس بإلغاء معظم قوانينه . ولكن الأوان قد فات . فغضبة الشعب لم تهدأ ولم ترض إلا بموت ذاك الذي رفعه الشعب الى العرش منذ خمسة عشر سنة .

الازمة الاجتماعية في آخر عهد الهان

استمرت الفوضاء ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم تنظمت الحياة الاجتماعية على غرارها في عهد الهان السابقين . ثم أعاد سلم الهان اللاحقين توازن الصين الاقتصادي . غير ان الفكر والسياسة سارا ببطء نحو تطور البلاد تطوراً كلياً، وهو تطور سيتحقق نهائياً حوالي السنة ٦٠٠ بعد المسيح. ويمكننا اليوم، بفضل الدراسة التي وضعها « اتيان بالاز » (« تونغ باو » ، المجلد ٣٩ ، ١٩٥٠) تقدير التغييرات العميقة التي ظهرت بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٥٠ والتي ميزت نهاية عالم هو عالم الهان . يمكننا في هذا العهد مشاهدة حياةفكرية ناشطة، تميزها عودة المجتمع الى النظام الاقطاعي — وافتقاره ايضاً، وشعور ديني عميق ، ونشأة الشعر الغنائي وفن نقاشي جميل. وترافق كل ذلك اخيراً اخطار غزو أجنبي مداهم . في ذاك العهد مهّدت نظريات المثقفين لتطور سياسي هام .

منذ ولاية وانغ مانغ المشؤومة والاضطرابات التي عقبتها ، أتاحت عودة السلم للثروات الفردية ان تتكون مرة أخرى ، فتضاعف عدد السكان . غير ان السلطة الامبراطورية، بالمقابلة، ضعفت بالنسبة نفسها: فقد غدت السلطة الحقيقية مطمع اعظم الناس طموحاً. وجرّ الامبراطور النبلاء في ضعفه ، فعجز عن ان يضمن لهم الإمتيازات القديمة ؛ كما ان النبلاء قد أخطأوا ايضاً اذ أنهم اخذوا بحياة البلاط الفاتنة فأهملوا ادارة أملاكهم وآثروا اللهو والقنص والرقص والبطالة والترف على القيام بمهام اعتبروها تافهة . وانما البلاط عش دسائس : لذلك يجب انتهاز الفرصة السانحة ؛ فالثروات حينذاك تجمع وتنهار بسرعة كلية ، والنجاحات المدهشة تعقبها الانهيارات المدهشة ايضاً . كلّ تكتل يتكون ويسعى وراء بلوغ السلطة وينجح في مسعاه ثم يزول تماماً (بعد فترة ازدهار تتفاوت مدتها) جارّاً وراءه ، مع قادته ، اولئك الذين ساعدوهم او خدموهم . ويستسلم حديثو النعمة لحياة بذخ جامح ؛ وتتجمع لدى رئيس التكتل « المالك » ، ثروة تقدر بثلاثة مليارات وتخضع له المراكز الحساسة في الامبراطورية عن طريق الأعطيات أو الفائدة؛ ويعطى متنزهه القائم على بعض المسافة من لو ـ يانغ ، العاصمة ، كمثل نموذجي عن بذخ ذاك العهد ، اذ انه مجهز في وسط منظر صنعي ، بحديقة حيوانات ملأى بالطيور والحيوانات الغريبة . ولكن كل تكتل لا يلبث ان يتنازل صاغراً عن صلاحياته لأحد الطامعين الى السلطة. ومن أقوى التكتلات، تكتل الخصيان الذي حظي، حوالى السنة ١٦٠، بالعطف الامبراطوري؛ وقد تألف بصورة خاصة من خمسة خصيان يستخدمهم الامبراطور للقضاء على تكتل الدوليانغ، الذي تولى السلطة من قبله . وقد كوفىء الخصيان بلقب المقدمية الذي أعطاهم حقاً باستيفاء الضرائب المفروضة على ٧٦٠٠٠ عائلة ، ومبلغ من المال يعادل ٥٦ مليوناً . واعتمدوا على التجار والصناعيين ورجال الاعمال وحتى على انسباء الامبراطور وبرهنوا عن طمع أكال .

ولكنهم ، على نقيض تكتل « ليانغ »الذي كان رؤساؤه قادة اميين متفاخرين بنبلهم ، انتسبوا الى عامة الشعب ، وسعوا وراء العلم ، واستطاعوا تحمل المسؤوليات وشجعوا المخترعين (العالم مدين بالورق الى أحدهم) والتنظيم المدرسي المستقل .

غير ان سرعة نجاح تكتل الخصيان قد أثارت سخط طبقـــة المثقفين الذين شعروا بالخطر يهدد في امتيازاتهم القديمة : وكانوا في السابق يتولون الوظائف العامة ويحتفظون بنفوذ التربية والمعرفـة . فالفوا في سبيل الدفـــاع عن انفسهم جمعية هي اشبه بحزب سياسي وسعوا الى ان تستظهر النزاهة على فساد المسؤولين . كان الانتقاد سلاحهم الرئيسي ، وفي سبيل ايصاله الى المسامع ، اكثروا من الانذارات والمذكرات ، والعرائض والاعلانات الهجائية والقواذع الشعرية؛ وبرعوا في اصول الدعاوة فاشهروا سيئات النظام وتجاوزات متسلمي السلطة وتحدي البذخ عند الاسياد العظماء وحديثي النعمة.وارتشاءهم – بينما امتدحوا ، بكلمات نافذة ، فضائل رؤسائهم وتباهوا في كل مناسبة بنزاهتهم الكلية . وقد عرف معظمهم حياة المدرسة ووقفوا على مايثيره الفقر من معاضل ، اضف الى ذلك انهم استفادوا في الولايات من صغار الموظفين والمستخدمين والطلاب الذين يطلعونهم على آلام شعب يشاركونه حياته بوصفهم صناعيين أو عمالاً زراعيين او مرؤوسين . ناهيك عن ان افراد الطبقة المثقفة كثيرو العدد وموزعون على كافة انحاء البلاد. فكانوا بمثابة جمعية سرية حقيقية وما لبثوا ان اصبحوا عـــدواً رهيباً لتكتل الخصيان الذي سيشتد الصراع بينه وبينهم في سبيل السلطة . صراع لا هوادة فيـــه سينتقل النصر اثناءه من جبهة الى جبهة تكراراً وستكون نتيجته الاخيرة خراب البلاد والحرب الاهلية . والبؤس العام وتفكك السلطة الامبراطورية .

اما فصول المأساة فأطول من ان تروى ، وهي ،على كل حـــال ، لا تدخل في موضوعنا ، لانها احداث تاريخية ، ولكن ما يهمنا هو فحص كل ما انطوى عليه هـذا الصراع ، فلم يكن هنالك موضوع استلام السلطة فحسب ، بل بؤس الارياف الذي اوجد ثورة كامنـة ، وتطور آراء الفلسفة الاجتماعية التي هي ، في الصين ، اساس الفلسفة الفلسفة . وان هذا التطور ، الذي تم على يد ثلاثة فلاسفة رئيسيين ، قد طبع هذا العهد بطابعه . اما الوسط الذي تكونت فيه هذه الآراء فهو وسط هذا الاضطراب الذي اسعره المثقفون والذي انتظر كافة بؤساء الامبراطورية اول فرصة سانحة للاشتراك فيه .

كانت عودة النظام الاقطاعي ثقيلة الوطأة على الكادحين الزراعيين . وكان الفـــلاح الحر سائراً في طريق الزوال ، تحت تأثير المجاعة الدائمة ، والضرائب واعمال التسخير ، وما تعرض له تعرضاً دائماً من فقدان اراضيه بفعل اقدام الملاكين الجشعين عـلى استملاكها ، والكوارث الطبيعية ، من فيضان وجفاف ، التي لا مهرب له منها ، والديون الكثيرة التي غالباً ما يعقدها . فأخذ رويداً رويداً يعمل بالأجرة ، وتحول الى شريك في زراعـة الارض ، واشتغل كعامل زراعي او هاجر الأرض ، واصبح تاجراً متنقلاً ، او صناعياً ، أو خادماً منزلياً ، أو جندياً أو قاطع طرق. وباع اولاده كعبيد ونذر بناته للبغاء . وكان والحالة هذه حقلاً خصباً جاهزاً

لاسمار الثورة . حاولت شيعة طاوية نشأت منذ عشر سنوات تنظيم وجمع هذا الجمهور الفاقد التوازن ، فأسست طوائف ريفية تتناول افرادها وجبات الطعام مجتمعين في مكان واحد واعترفوا بخطاياهم علانية . واختار اتباعها لأنفسهم اسم «العمائم الصفراء » - إذ ان اللون الأصفر يرمز إلى الأرض ، وتلقنوا مبادىء ديانة تكثر فيها الصيغ السحرية والإشارات والرموز الطاوية ، وبشروا بعهد ازدهار ، عهد المساواة النعمي (تاي - بنغ) ، ووعدوا بشفاءات عجائبية . وقد خضعوا لتنظيم عسكري وتمكنوا في السنة ١٨٤ من تأليف جيش ضمّ ٣٦ فرقة (٣٦٠٠٠٠ رجل) وتحرك بغية احتلال الصين الآهلة بالسكان . فدخل الولايات واستولى على مراكز الادارة وقتل الموظفين أو طردهم ، وابدلهم بعمائم صفراء ، وجمع الضرائب واصلح الطرقات . كانت هذه الحركة مقدمة لاضطرابات خطيرة: فقد سيطر الموت الذي ترك وراءه اكداساً من الجثث، وانتشرت المجاعة في اعقاب هجرة السكان المفزعين ، وقامت الحرب الاهلية مع ما تستتبعه من موكب دام . فسوف تغدو الصين ، طيلة ثلاثين سنة ، فريسة المغامرين الذين سيستفيدون من الحالة الراهنة للانقطاع الى اعمال اللصوصية نهباً واستلاباً وتقتيلاً واحراقاً .

في هذا الجو المضطرب الذي انقلب فيه كل نظام وسيطر القلق والجزع والارتياب ، تبادل رجال الفكر الآراء . لم يؤلفوا بعد طبقة متلاحمة ، فزاد ذلك من تشوشهم ؛ اضف إلى ذلك ان الشك قد تسرب منذ اوائل القرن الثاني الى عقل مفسري التعليم الرسمي ، ولم تصادف الكونفوشيوسية حتى ذاك العهد شرحاً متلاحماً . فتطلبت الأزمة القاسية حلاً للخروج منها ، وجلي ان السلوك بمقتضى الظروف الذي نادى به الكونفوشيوسيون لم يوفر هذا الحل : فلم يعدمن جامع يجمع بين اللياقات والاعراف والطقوس وآداب المعاشرة وعدم التحيز والحقوق والواجبات وبين العالم الفاقد التوازن الذي احاط بهم حينذاك . اما اتباع مذهب الفقهاء الذين نادوا بالعدل عن طريق القوة ، فقد اصطدموا بالفوضى الثورية ، وعجزوا عن إعادة النظام الى نصابه . واكتفى الطاويون الفوضويون المتشائمون اخيراً بالمناداة بالعودة الى الطبيعة ، دون شرائع وعلم أخلاق : وهذا أعظم المواقف « ترينا » بين مواقف الفلاسفة المختلفة في هذا العهد المخيف . فلم يعد الموضوع تعيين « من » يسن القانون لأجله ، بل « ضد من » يجب أن يسن . أضف الى ذلك ان هذه المواقف الثلاثة قد انطوت على مفارقات اخرى كثيرة ، جعلت الغموض يكتنف الروابط السياسية والفلسفية- مع انها واقع راهن دائم في الصين. والحقيقة ، في نظر بالاز ، هي ان كلاً من هذه المواقف يعكس مثالية طبقة اجتماعية : الكونفوشيوسية تعكس موقف البيروقراطية وكبار الموظفين ، والحركة الفقهية موقف الأوساط العسكرية والتجار والفنيين ، والطاوية موقف صغار الموظفين وطالبي الاستخدام والفلاحين الذين تنكروا لوطنهم الريفي. وقد شرح هذه المذاهب وفاقاً لترتيبها اعلاه الفلاسفة : وانغ - فو (حوالى ٩٠ - ١٦٥) ، تسواي - شي(حوالي١١٠ - ١٧٠)، تشونغ - تشانغ - تونغ (المولود حوالي السنة ١٨٠) .

ولد وانغ -فو من سرية ، ولم يتمكن ، من ثم ، من تولي الوظائف الرسمية . ومع ذلك فقد كان على صلة طيبة بأشهر رجال عصره ، ولكنه كان شديد الحقد على مجتمعه ، وهذا ما يفسّر

حدّة كلامه . وان مؤلفه ذو قيمة كبرى لرسم لوحة عن المجتمع الصيني . خلال النصف الأول من القرن الثاني ، أي في الفترة التي سبقت ثورة العمائم الصفراء ، نادى وانغ ـ فو بإصلاحات أساسية مبنية على الكونفوشيوسية : العودة الى الزراعة ، صناعة يدوية منظمة ونزيهة ، حتى لا يتجاوز الناس حدود رفاهية دون بذخ نافــل ، تجارة معتدلة محصورة في مقايضة محاصيل الاقتصــاد الطبيعي . وطالب بأن يقاس الرجال بكفاءاتهم وفضائلهم الخاصة وليس بوضعهم الاجتماعي أو العائلي أو المالي . ولعلّه رضي بإسناد الوظائف الرسمية الى الأجانب اذا أجازت مؤهلاتهم ذلك . وثار على المحسوبية ، وعنّف اولئك الذين « يوزعون الثروات بسخــاء على خدامهم وسراريّهم » ، واولئك الذين « لا يقرضون الغير فلساً واحــداً » ، واولئك الذين « يعرفون تمام المعرفة ان الحنطة تفسد في مستودعها،ولا يرضون بإقراض الغير مكيالاً واحداً ». وان وصفه « للبذخ المفرط » الذي انتشر في الصين آنذاك لجليل الفائدة . فقد قال : « ان جيل اليوم يترك الزراعة ويتهافت على التجارة (التي ندّد بها الهان الكونفوشيوسيون تنديداً دائمــاً كما سبق ورأينـــا) . الثيران والأحصنة والعربات تسدّ الطرقات والمسالك . عدد الفلاحين يتناقص ، بينما يتزايد عدد اولئك الذين يكسبون معيشتهم بتعاطي مهنة باطلة . في هذه الايـام يبذر الناس اموالهم في الإنفاق على الملبس والمأكل والمشرب . يحاولون طلاقة اللسان ويمارسون الغش والاختلاس » . فالفلاحون الحقيقيون أنفسهم يهملون دورهم الأساسي في الزراعة : يتخلون عــن المحراث ، ويتركون الحقول فريسة للجرذ والطيور ، ويقتنصون في الجبــل ويصنعون الألعاب ، أمــا نساؤهم ، فبدلاً من ان يعنين بالنسج والشؤون المنزليـــة ، ينكببن على أعمال السحر والرقص والرقى التي يجنين منها مكاسب ضخمة ، بفضل سذاجة الفقراء والمرضى . ولا يقع البذخ عند الاثرياء تحت وصف لأنهم يتنافسون رغبة في التفوق بعضهم على بعض . واذا مــا حاول الفقراء تقليدهم ، فانهم ينفقون على وليمة واحدة كل ما جمعوه من مال في حياتهم . بيد ان احتفالات الزواج والجنائز تفوق كل ما سواها ، لأنها تكلف اموالاً طائلة ، وتجند لهـــا اليد العاملة من طرف الامبراطورية الى طرفهــا الآخر » من لو ـ لانغ الى توان ـ هوانغ . وقد أوضح وانغ ـ فو ذلك بقوله : « ان النبلاء الأثرياء في العاصمة وكبار الملاكين في الأرياف، الذين لا يعيرون كبير اهتمام للانفاق على ذويهم في حياتهم ، يكرمونهم بجنازة فخمة عند موتهم ».

وثار وانغ ـ فو اخيراً على اعمال الحاكم التي تضر بالشعب ببطئها واجراءاتها . وقارن بين انتاج دولة حسنة الادارة وجدب دولة فوضوية ، واحتج على امتيازات وطفيلية الطبقات الثرية ، وقال بإرساء النظام الاجتماعي على قانون غير متحيز يفرض على الجميع دون استثناء .

أما الفيلسوف الثاني الذي يمثل الفقهاء والذي وصفه اتيان بالاز في كتابه المشار إليه اعلاه ، فهو تسواي ـ شي الذي ينتمي الى جيل عقب جيل وانغ فو مباشرة . أضف الى ذلك انه كان ابن صديق كبير لهذا الأخير . انتسب الى عائلة نبيلة أضاعت اموالها في عهد هو ـ باي الحاكم ، واستدعي في السنة ١٥١ الى البلاط حيث عمل في المحفوظات وفي تحرير حوليات الهان الرسمية . ولكنه كان مرتبطـــاً بتكتل « ليانغ ـ كي » ـــ الذي لن يلبث تكتــل الخصيان ان يتغلب

عليه – فأقصي عن مركزه . غدت حياته منذئذ رمزاً لعهده ، وتخصص في المسائل التي يثيرها سكان الحدود ؛ ولما كان مشايعاً صادقاً لمدرسة القانونيين ، لم يكتف بالنظريات ، بل انتقل الى التطبيق العملي ، فعلّم البلديين ، الذين كانوا يرتدون الحشائش ملبساً ، كيف يستعمل القنب ، واشترى لهم من ماله الخاص دواليب المغازل والأنوال ، واعاد تنظيم الدفاع العسكري بواسطة الاشارات الضوئية . في هذه الحياة التي جعلته على اتصال يومي مباشر بالفقراء ، احتقر المراءاة الكونفوشيوسية وفجور الطبقات الثرية ، وتملّكَ منه الشعور القومي ، في مجاهل حدود الامبراطورية النائية ، وثار على الخداع والفساد المسيطرين على الوطن. وحين اعترف له بجدارته ، عين حوالي السنة ١٦٠ والياً على لياوو – تونغ في منشوريا الجنوبية . ولكن اضطهاد المثقفين الخصيان فرض عليه موقف الحكمة ، فرفض مركز أمين سر الدولة الذي عرض عليه في وقت لاحق . ثم أضاع أمواله على جنازة فخيمة أقامها لوالده نزولاً عند مقتضيات الاثرة السائدة في عصره ، فغدا على التوالي مقطرَ مشروبات روحية وتاجراً متنقلاً . ثم توفي معدماً لا يملك شروى نقير .

وضع دراسة « في السياسة » او « في الحكومة » (حوالي السنة ١٥٠) بلغ من صدق تعبيرها عن آراء معاصريه ان طالب بعضهم « بأن يستنسخها كل ملك ويضعها الى جانب عرشه » .

قاده فكره الواقعي الى طرح أسئلة واضحة والاجابة عليها اجابة جلية جذرية. رأى ان الشنشنة هي العدو الحقيقي للدولة الحية ، وان التكيف بحسب الظروف ، الى جانب الاختبار ، يمكن وحده من الحكم حكماً فعلياً مجدياً. ورأى وجوب تفسير التقليدالذي قد يناسب الاحداث ويستجيب للحاجات . اما اذا بقي متحجراً فيتأخر الناس عن ركبهم ويتعذر عليهم فهم حقيقة واقع الامور . ونادى تسواي شي ، لتلافي البلبلة المسيطرة على الصين ، بالعودة الى القوانين الصارمة التي قد تقضي بمزيد من المكافآت او مزيد من العقوبات على السواء ، وفي سبيل ذلك يجب ان توضع وتفسر بشكل يسهل فهمها . وقال كذلــك بالعقوبات الجسدية وثار بتهكم لاذع على تصوّف « الطاوية » الذي كان آخذاً في الانتشار بين السكان الريفيين .

رسم ، على غرار وانغ فو ، لوحة ملأى بالحياة عن اخلاق عهده : ان البذخ الذي تميل اليه الطبيعة البشرية بالفطرة « لا يزال يشحذه عرض البضائع النادرة وصناعة الادوات الجميلة . ان البذخ يرفع سعر الكماليات ويخفض سعر المحاصيل الزراعية . لذلك يترك الفلاح محراثه ويتهافت على مهن اوفر دخلاً . الاهراء فارغة والسجون غاصة بالسجناء . ان بذخ العبادة الجنائزية يفضي الى الافلاس . وكي يتفوق الانسان على جاره لا يتردد في التضحية بثروته العائلية ، فيجر البؤس بعد ذلك الى امتهان السرقة . وكذلك فان مفاعيل هذه الاخلاق مؤسفة لدى الموظفين والشعب ، اذ ان الشعب يتجرد لاعمال اللصوصية من جراء تجاوزات الموظفين » (بالاز ، ص ١١٣) . وماذا نقول عن عدم الاستقامة : فالموظفون لا يدفعون فواتيرهم ويرغمون التجار على استعادة ادوات اشتروها واستعملوها ، والصناعيون ينتجون مصنوعات سيئة ، وبائعو الاسلحة للجنود يسلّمونهم أسلحة معطلة – وسكان الحدود مضطرون الى صنع أسلحتهم الخاصة ليدافعوا عن

أنفسهم ضد هجمات البرابرة المتكررة . الدعاوى لا تحصى والقضاء فاسد .

المرتبات غير كافية وتدفع بالموظفين الى الاختلاس . وقد ذكر تسواي شي بعض الايضاحات بهذا الصدد : « ان كبار الموظفين ، المسؤولين عن منطقة لا تقل مساحتها عن مساحة الاخاذات في السابق ، يتقاضون مرتب كاتب بسيط . يخصص لهم عشرون مكيالاً من الحبوب عيناً ، و ٢٠٠٠ قطعة عملة نقداً . واذا لم يكن لديهم عبيد ، فانهم بحاجة الى خادم على الاقل يقبض من سيده ألف قطعة نقدية شهرياً . وينفق نصف الالف الثاني على العلف والشحم واللحم بينما ينفق النصف الآخر على خشب التدفئة والفحم والملح والخضار . يأكل هذان الشخصان ، الموظف وخادمه ، ستة مكاييل في الشهر الواحد ، ولا يكاد الباقي يكفي للأحصنة . فكيف يؤمن ثمن الملابس الشتوية والصيفية ، والانفاق على الذبائح في الفصول الاربعة وعلى الزائرين والاقرباء والزوجة والأبناء ؟ » (بالاز ، ص ١١٥) .

وعاش احدث هؤلاء الفلاسفة الثلاثة سناً ، في عهد عصيب جداً : ولد في السنة ١٨٠ ، بعيد اضطهاد الخصيان للمثقفين وقبيل ثورة العمائم الصفراء ، وعرف كل الصين الشمالية ، وهي آنذاك في غليان مفرغر : رسافر كثيراً لإكمال ثقافته ، ككل ابن عائلة ثرية ، وزار عدداً من الحكام الاقليميين الذين لم يترددوا في مصارحتهم في سلوكهم . في سن الثلاثين ، حوالي السنة ٢١٠ ، طلب لتولي أمانة سر الدولة . وتتبع عن كثب احداث زمانه السياسية الى جانب سيون ـ يو الاديب الكبير وأحد الوجوه الرئيسية في صراعات جيله ، الذي كان في خدمة تساوو تساوو المدعو لتكريس انهيار الهان . كان متعصباً للصدق لا يرضى بالسلوك على مقتضى الظروف ، وقال بفلسفة السعادة والرفاهية التي اوحت له بها التعاليم الطاوية . تنبأ بزوال السلالة مثبتاً ان هوان السلطة يدفع بالشعب الى الثورة وان غزو البرابرة يزيد في الطين بلة . بيد ان اللوحة التي رسمها (حوالي السنة ٢٠٦) عن طبقة الاثرياء في عهده لا تسمح بعد بافتراض حصول مثل هذا الانهيار : « تتجاور قصور كبار الملاكين بالمئات . وتغطي حدائقهم الغناء مساحات واسعة من الارياف ، ويعد عبيدهم بالالوف وزبنهم بعشرات الالوف . يتجول التجار بمراكبهم وعرباتهم في كل الاتجاهات ، وتملأ المدن بضائع كدّسها المضاربون . لا تتسع أعظم القصور لحليّهم وجواهرهم ، ولا تتسع الجبال والوديان لأحصنتهم وأبقارهم وأغنامهم وخنازيرهم . وتعج القصور الفخمة بغلمان وسراري آية في الجمال ، وتردد القاعات الكبيرة صدى انغام المغنيات وموسيقى البغايا . وينتظر الزائرون موعد استقبالهم ولا يجترئون على الذهاب ، ويزدحم الفرسان والعربات فيتعذر عليهم التقدم . ينتن لحم الحيوانات الأليفة دون ان يتمكن احد من أكله ، وتفسد افضل الخمور تصفيقاً دون ان يتمكن احد من احتسائها . لا يحتاج السيد لأكثر من طرفة عين حتى يطاع ، كما يكفي ان يظهر سروره او غضبه حتى يعرف الناس حقيقة فكره . هذه هي ملذات النبلاء ، وهذه هي ثروات الأسياد في جوهرها . وهذا ما سيبلغه اولئك الذين سيلجأون الى الخداع والاختلاس ! وحين يبلغونه ، لن يطالبهم احد بمخالفاتهم ! فمن ذا الذي يرضى آنذاك باقتفاء أثر المثقفين الطامحين ، وايثار الاملاق والبؤس على المجد والملذات ، والتخلي عن الراحة والحرية

لعبودية الواجبات ؟ » ولكن هنالك ، الى جانب هذه البحبوحة، مدناً متهدمة ومناطق مقفرة من السكان. ويستنتج تشونغ ـ تشانغ تونغ بحفظة قلقة: « لا اعرف الى أين نحن سائرون ... ».

نادى برنامجه السياسي بالغاء الارستوقراطية ، وباصلاح زراعي يحدّد مساحة الاملاك، وبسن قوانين جزائية أشد صرامة ـ على انه لم يطالب بحكم الاعدام إلا لجريمة القتل والثورة وسفاح ذوي القرابة . واقترح تخفيض مساحة التقسيمات الادارية بغية تسهيل رقابتها . وطالب بتدقيق ضبط جداول الضرائب وسجلات السكان ، واعادة تنظيم الشرطة بتوزيعها فرقاً تضم عشرة وخمسة رجال ، وتشجيع الزراعة وتربية دودة القز . وأعلن الحاجة الملحة الى التربية والتطهير الاخلاقي باشهار الأعمال الصالحة، والحاجة الى حسن اختيار النخبة الادارية المدنية والرؤساء العسكريين، وطالب اخيراً بقوانين صارمة ضد التجاوز والاخلال وبعقوبات ضد المشرّدين وبالتحقيقات في ابتزاز الاموال .

وكي يتحقق كل ذلك ، يجب الاعتماد على نخبة ذات سلطة قدّرها تشونغ ـ تشانغ تونغ حسابياً بالاستناد الى نسبة السكان الأصحاء . فجاء ما طلع به برنامج دكتاتورية تضمن ، في ما تضمن ، زيادة مرتبات الموظفين ، وزيادة الضرائب ، وسلطة الادارة المطلقة .

لسنا ندري ما كان من شأن الاصلاحات التي اقترحها هؤلاء الفلاسفة ان تصنعه من خير . فقد بلغ من الأزمة الاجتماعية ما جعل التوازن مستحيلاً اذا لم تجتز الصين شدائد عظيمة . ولم تعط تحذيرات الفلاسفة والمثقفين أية نتيجة في عالم فاسد ومتقلقل. فتمت نبوءة تشونغ ـ تشانغ تونغ بحذافيرها : في السنة ٢٢٠ من العهد المسيحي ، انهارت سلالة الهان وتفتتت السلطة ، وفي السنة ٣١٦ توغل البرابرة ـ التتر او الهون والمغول الاولون ـ في الشطر الشمالي من الامبراطورية . ولن تستعاد الوحدة قبل السنة ٥٨٩ .

الممالك الثلاث والسلالات الست

طيلة ستين سنة ، من السنة ٢٢٠ حتى السنة ٢٨٠ ، انقسمت الصين بين سلالة تساو تساو في الشمال ، وسلالة سوان كيوان في نانكين ، وأباطرة الهان اللاحقين في سو ـ تشووان . لم تستطع البلاد ان تنهض من كبوتها بفعل هذه التجزئة السياسية . فحصل نقص عظيم في السكان . وأخفقت ثورة الفلاحين . واخذ الجور الاقطاعي يزداد وطأة بعد ان تنازلت الحكومة المركزية عن اخاذات واسعة ومنحت أسيادها سلطة مطلقة على السكان . أضف الى ذلك اخيراً ان الحرب الاهلية قد استمرت . بيد ان عائلة سو ـ ما حاولت تحقيق وحدة سياسية ، فاستولت على مملكة الهان الشرعية في سو ـ تشووان في السنة ٢٦٣ ، كما استولت على عرش الصين الشمالية في السنة ٢٦٥ وعلى عرش مملكة نانكين الجنوبية في السنة ٢٨٠ ، وأعلن رئيسها نفسه امبراطوراً . وأطلقت السلالة الجديدة على نفسها اسم « تسين » . ولكن هذه الوحدة كانت قصيرة الامد (٢٦٥ ـ ٣١٧) ، وتعرضت منذ السنة ٣٠٤ لخطر غزوات البرابرة الذين سيستولون على كل الصين الشمالية وسيمهّدون لتجزئة الاراضي الصينية طيلة أكثر من قرنين .

كان التبدلات التي حدثت آنذاك مغزاها الهام : استسلمت السلالة الجديدة بسهولة للبذخ والترف ، فلم يدخل على الاخلاق العامة أي تحسن ، واستمرت الكونفوشيوسية في الهبوط ،

تسرّب الى طبقة المثقفين رجال كثيرون غير اهل للانتماء اليها مؤملين بذلك النجاة من ا
العمل اليدوي. وطرأ على مستوى الدروس تقهقر جلي . وانتشرت البوذية، وعرفت الد
كأنها شعرت بحاجة للدفاع عن نفسها ، نوعاً من النهضة بوصفها فلسفة وديانة .

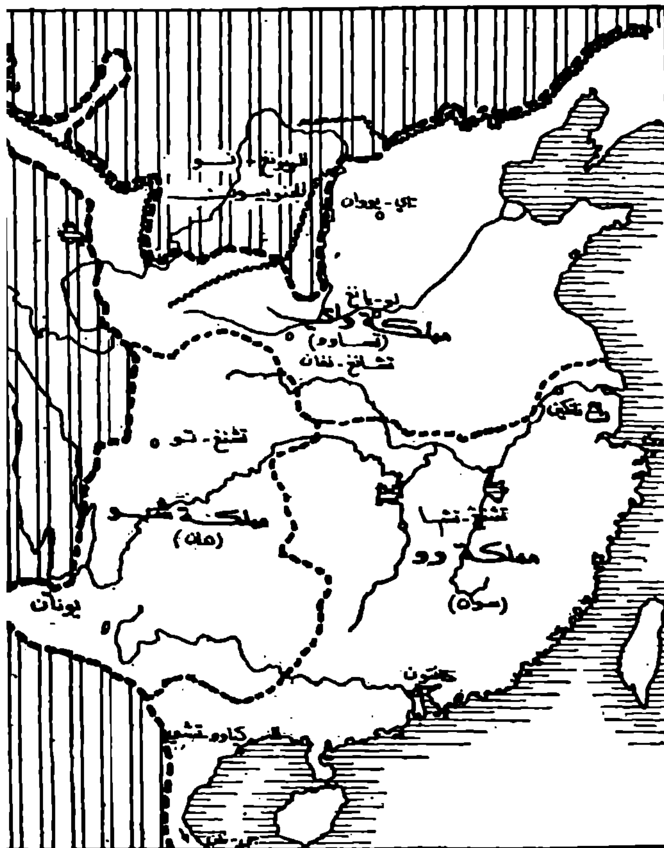

الشكل ٣١ – الصين في عهد الممالك الثلاث

كانت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية اعظم التبدلات اطلاقاً . انخفض عدد السكان ،
ضطرابات آخر عهد الهان ، الى ثلثي عددهم في عهـــد الهان : فقد ترك الموتى والمفق
المهاجرون والفارون فراغاً مشؤوماً في مجتمع صين سلالة التسين . فبرز مرة اخرى نظ
حماية ، الكبار للصغار : غدا المرؤوسون متاعـاً لأسيادهم ، واعتبر المستخدمون الحكو

أنفسهم مرتبطين ارتباطاً خاصاً برؤسائهم: حتى انهم لبسوا الحداد، بعد وفاتهم طيلة ثلاث سنوات، بحسب العرف السائد، وحصل المعلمون كذلك، لتلامذتهم على الاعفاء من أعمال التسخير، وخضع الزبن (كو) لسلطة كبار الملاكين، ولم تختلف حالهم عن حال العبيد (إلا بأنهم لا يباعون). وارتفع عدد الزبن والعبيد في عهد ولاية التسين. وقد لجأت الدولة، في مناسبات عديدة وظروف طارئة، الى مصادرتهم وتجنيدهم وادخالهم في فرق العمل، على الرغم من احتجاجات العائلات التي ينتسبون إليها.

غير أن دولة سلالة التسين، قد حاولت تشجيع العودة الى الأرض، بتشجيع الزراعة، وإحداث المستعمرات الريفية وتمهد أعمال الريّ. ويعتبر هذا الجهود أول نظام زراعي عرفته الصين. كان اساس النظام، كما في العصور القديمة، تقسيماً ادارياً هو القضاء (هيانغ). وتوزع الاراضي داخل القضاء على عائلات الفلاحين. كان اليفعان حق في استلام حصة كاملة، بينما لم يعط هذا الحق الصغار والشيوخ ولم يعط إلا جزئياً للفتيان والمتقدمين في السن. يجري التوزيع سنوياً، ولكنه لا يتناول سوى قسم من الأراضي، لأن اليافع يستلم حصة يحتفظ بها حتى مماته: فتوضع حصته حينذاك تحت تصرف الجماعة. غير ان هذا التوزيع قد تنوعت أشكاله، في الأرجح، وفاقاً لكمية الأراضي في القضاء، بسبب تفاوت عدد السكان في الأقضية. ويجب ألا نهمل ايضاً الاملاك التي يهبها الأباطرة، أو الأفراد للمعابد البوذية والطاوية، وقد ازدادت هذه الهبات السخية في عهد سلالة تانغ. أضف الى ذلك ان العائلات الكبرى المقيمة في أملاكها لا يسمح لها باقتناء بيوت أخرى، وحقول أخرى في العاصمة، وقد حظر عليها قانون صدر في السنة ٧٣٦، تحت طائلة الموت، تسييج أجزاء أراضيها، التي تشمل جبالاً ومستنقعات، بغية اتاحة دخولها لأفراد الشعب الذين يستطيعون بذلك جني العسل وصيد السمك. ولكن هذا القانون لم يعطِ نتيجة كبرى.

راقب تشجيع الزراعة موظفون محليون مكلّفون، وفاقاً لمرتبتهم، تأمين محصول الارض. كان لهم سلطة مطلقة على القرية وسكانها، فقد حق لهم، في سبيل غاية ما، مصادرة أدوات الصيد واسلحة القنص، بغية ارغام الفلاحين على الانصراف الى أعمال الزراعة وتربية دودة القز والى اعمال العناية بالاشجار المثمرة ويحذران صيانة المزروعات. وقد أضافوا أحياناً الى هذه التدابير العون السحري الذي توفره، بفعل الجاذبية، رايات خضراء تنصب في اليوم الاول من فصل الربيع، خارج المدينة على مقربة من ابواب سورها. كما انهم فرضوا كذلك تقديم الذبائح لإله الارض.

بموازاة هذه التدابير، يجب ان تنظر في مسألة النقد والضرائب ايضاً. فمنذ انهيار الهان حدث انخفاض أكيد في تداول النقد المعدني: اذ انّ صفقات كثيرة قد تمت لقاء اثواب حريرية او منسوجات، وان بعض الضرائب جمعت عيناً.

يبدو ان الضريبة العقارية لم تحدّد بشدة في أيام التسين. ويبدو انها تنوعت تنوعاً كبيراً بحسب المناطق والسنين. ان معلوماتنا بهذا الصدد لعلى بعض الغموض، ولكن ما لا شكّ فيه هو ان هذه الضريبة قد اقتطعت ابداً من دخل السكان واستوفيت حريراً ووبراً وحبوباً بنوع خاص، وقدّرت بالنسبة لعدد اليافعين تارة ولأهمية الاملاك تارة أخرى، على ان هذه الطريقة

أخيرة قد ألغيت في السنة ٣٧٧ ، ولكن الطريقتين ربما اعتمدتا في آن واحد قبل هذا التا
ند شكل ذلك ضريبة مزدوجة لبعض الافراد . ويغلب ان هذه الضرائب كانت ثقيلة اذا
تمدنا على شهادات المعاصرين .

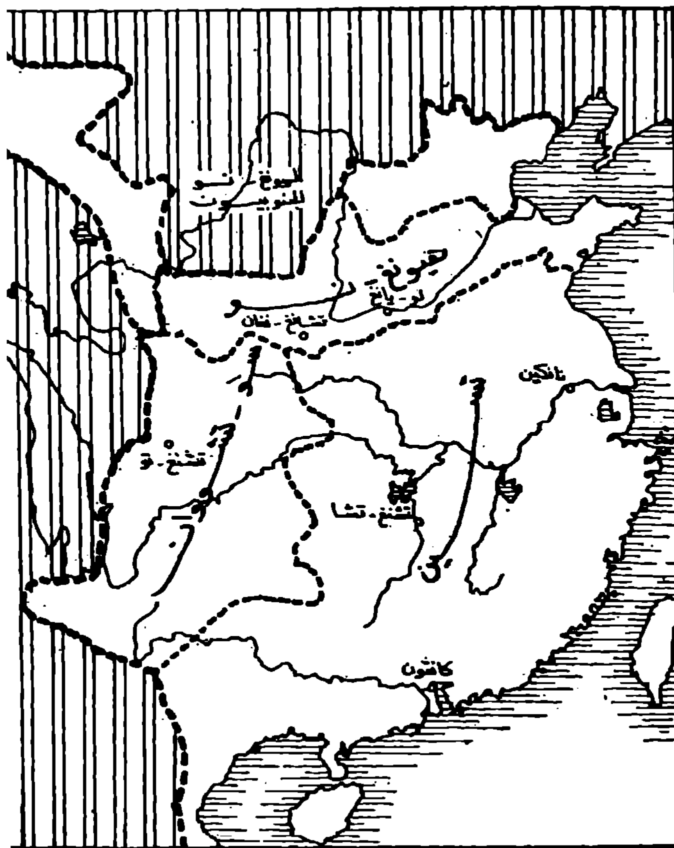

الشكل ٣٢ – الصين حوالي ٣١٦

كان من الجائز الاعتقاد بأن محاولات التسين لتوحيد الصين بعد الفوضى التي عمت البلا
ثل القرن الثالث ستعطي ثمارها. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، وكانت نتيجة ضعف الـ
يدة تدفق الغزوات الكبرى على الصين الشمالية . ففرّت السلطة الامبراطورية امام البر
نجأت الى نانكين التي جعلت منها مركز ادارة الحكم في الصين الجنوبية . ورافقت هـ

الانتقال هجرة السكان الشماليين – الذين اسهموا ، بمجرد وجودهم ، في « صيننة » هـذه المناطق التي لم تستعمر إلا منذ عهد قريب نسبياً. فقد تراوحت نسبة المهاجرين بين الطبقات الحاكمة بين ٦٠ و ٧٠ ٪ ، ويمكن تقدير الشماليين « المرتحلين » بمليون شخص تقريباً . أدخلت هذه الموجة خللاً عظيماً على الاقتصاد ، واعتبر المهاجرون أنفسهم ، في البداية ، في اقامة مؤقتة ، ولم يفقدوا الامل في عودة قريبة الى اخاذاتهم في الشمال . واتخذوا من موقفهم هذا حجة لاهمال واجباتهم المدنيـة . ولكنهم أرغموا منذ السنة ٣٦٤ على اتمامها ، على انهم حصلوا قبل ذلك على املاك واسعة ، مما أتاح لهم السيطرة على حشد ضخم من الزبن الوراثيين .

بينما كانت حياة المهاجرين ، في الصين الجنوبية ، سائرة في طريق التنظيم ، وبينما كان الادب والفن فيها ، على ما انطويا عليـــه من تشويش ، سائرين في طريق الازدهار ، عرفت الصين الشمالية ، في قبضة امراء الهون الظافرين ، اختلاطاً وبؤساً لا يوصفان . حافظت حكومة الغزاة على طابع عسكري صرف ، وبرز تقهقر ثقافي مخيف . كان الاسياد الجدد برابرة أميين عاشوا جميعهم حيـاة المغامرات التي قادتهم الى فتح مناطق الشرق الغنية ، على انهم لم يفتقروا الى الذكاء والعاطفة الانسانية ، كما انهم حرصوا على ان تربطهم أطيب العلائق بالمثقفين الذين أطلعوهم على نتاج الكلاسيكيين الصينيين ، لا بل تأثروا بالبوذية نفسها . ولكن معاضل خطيرة ، تفوق طاقات هؤلاء البدو السابقين ، جعلت حكمهم عديم التأثير . فقد أنهكت السكان الاضطرابات التي سبقت دخول الهون الى الصين وأفقرهم استلاب المدن والارياف على أيدي هؤلاء الاخيرين وأحدق بهم خطر المجاعة ، فعاشوا في بؤس مريع ضعضع قوامهم ، واستهدفهم جور اسيادهم . وقد زاد الصراع العنصري بين الصينيين والهون في خطورة الوضع وشل جهود الحكومة الجديدة في سبيل اقامة سلطة ثابتة .

ستعرف الصين ، بعد هذه الاضطرابات وهـــذه التجزئة الفاجعة ، أياماً باسمة تتفتح فيها الثقافة الصينية تفتحاً بهياً . ولكن لا بـــد للفكر من تمخض طويل وايناع شاق حتى تقطف الصين أخيراً ثمار هذه الاختبارات المؤلمة .

٢ – النطاق الديني

يغلب ان هذا العهد المديد ، والمضطرب ، والمفتّت ، والغني بكل جديد وكل كارثة ، قـد ولّد في من عاشه سخطاً وقنوطاً . فهو قد قام على المتناقضات ، اذ اننا نرى فيه ، جنباً الى جنب ، ازدهاراً عجيباً عند البعض ، وعوزاً مطبقاً عند البعض الآخر ، كما نرى البذخ والبؤس، والبحبوحة والمجاعـة ، والسموّ والانهيار . تجاورت في هذا العهد الخرافة والواقعية ، وذابت فيه الأفئدة بكلمة رأفة ، ودعا اليأس العميق الى الثورة ايضاً .

في هـذه الاضطرابات والازمات ، جاءت الديانات وألقت بمنازعاتها الخاصة ، كما سعت الى توفير التهدئة والطمأنينة .

دخول البوذية

ان أهم حدث على هذا الصعيد هو دخول البوذية الى الصين في منتصف القرن الاول للميلاد . كانت الطاوية آنذاك منتشرة في كافة الاوساط ، وستدرس مميزاتها فيما بعد ، ولكن تسرب البوذية كان له أثره وتفاعله فيها ، ولذلك رأينا لزاماً علينا ان نتكلم عن البوذية اولاً .

يبدو هذا التسرّب مرتبطاً بفتوحات الصين في آسيا الوسطى . فان الصينيين، الذين اقاموا فيها منذ القرن الثاني قبل المسيح ، كانوا على صلة مباشرة بالبختيار وفارتيا والهند وأقاموا علاقات دبلوماسية مع الملوك الكوشانيين . ولعل المبشرين الاولين دخلوا تلك البلاد في أعقاب دخول التجـــار الذين أحضروا الى الصين يشب خوطان وطنافس فارس وكشمير وعادوا بالحرير الى الغرب . ولكن الاسطورة ترى رأياً آخر : فهي تقول ان امبراطور الهان ، منغ ، رأى في الحلم ، في السنة ٦٤ بعد المسيح ، انساناً من ذهب يقترب اليه طائراً . في صباح اليوم التالي ، طلب ان يفسّر له حلمه فتكلم له احد وزرائه عن بوذا ؛ وتضيف الاسطورة انه قرّر حينذاك ارسال وفد الى الهند أحضر له كتباً وتماثيل وكهنة هنوداً . مهما كان من أمر هذه الاسطورة ، فالواقع هو اننا نجد ، في ايام هذا الامبراطور ، اول ذكر لطائفة بوذية في الصين ، أقامت الى الشمال من كيانغ ـ سو الحالية في املاك ملك تشو . في السنة ٦٥ ارسل هـذا الامير الى البلاط الامبراطوري ثلاثين ثوباً حريراً تكفيراً عن أخطائه : بعد ان صدر عفو عام من عقوبة الموت اذا سدّد المخالفون المفروض عليهم أقمشة ومنسوجات . فأعلن الامبراطوار براءته آتياً على ذكر « ذبائح بوذا الخيّرة » التي مارسها ملك تشو ، وأرفق المرسوم الامبراطوري بالمنسوجات « كي يستخدمها في تأمين الغذاء الوفير لـ « اوباسكا » والـ « شراماتا » » : وهذا لا يعني من ثم الرهبان فحسب ، بل المؤمنين العلمانيين ايضاً ، أي المهتدين . ولكن الحقيقة الثابتة هي ان البوذية بدت للصينيين وكأنها شيعة طاوية ، او طريقة لبلوغ الخلود تختلف بعض الاختلاف عن طريقة الطاويين آنذاك . فلا يجوز اذن ان نستخلص من ذلك ان ملك تشو نفسه قد اعتنق البوذية ، فهو قـد مارس في الارجح عبادة توفيقيـة معترفاً ، في الوقت نفسه ، ببوذا وبـ « هوانغ ـ لاو » ، الإله الرئيسي في الديانة الطاوية آنذاك .

لم تمت هـذه الطائفة الطاوية البوذية ، او البوذية فعلاً ، بموت حاميها الذي انتحر في السنة ٧٣ . فقد ورد ذكرها في الفترة ١٧٢ ـ ١٧٨ والفترة ١٩٠ ـ ١٩٤ اللتين أضيفت فيهما بعض الأبنية الى الدير : « ستوبا » مدفنية ، و « ستوبا » أخرى مؤلفة من عدة طبقات يحيط بهـا معبد يتسع لثلاثة آلاف شخص ، اذا صدق الراوي .

ولكن طائفة بوذية أخرى تأسست في العاصمة لو ـ يانغ نفسها ، على أيدي مؤمنين أتوا من كيانغ ـ سو ، في الارجح . وقد بلغ من نموها فيها ان الامبراطور ، هوان ، أحيا في القصر ، حوالي السنة ١٦٦ ، احتفالات بوذية وطاوية . وقد سبق في السنة ١٤٨ ان نقلت بعض الكتب البوذية الى اللغة الصينية على يد الفارثي نغان شي ـ كاو ، ثم واصل النقل مبشرون آخرون نذكر منهم الهندي تشو ـ شو ـ فو والفارثي تشي تشان . وكان أثر الطاوية هنا وفي كيانغ ـ سو ،

قوياً جداً اذ ان النقل قد اعتمد لغة ملأى بالمصطلحات الطاوية . ويستدل من اختيار الكتب المنقولة ان النقل قد تناول المواضيع التي اهتم لها الطاويون : كتب اخلاقية وكتب تأمّل . وقد اختصت هذه الاخيرة بالممارسات التحضيرية التأمل ولا سيما التمارين التنفسية والمواضيع نفسها المفروضة التأمل . وجلي ان المهتدين الصينيين انفسهم هم الذي قاموا بهذا الاختيار : ولم يهتموا لمعرفة المميزات الاساسية في البوذية بقدر اهتمامهم لاكتشاف الصلات بين هذه الديانة وديانتهم . وفسّرت بعض الكتب البسيطة الحياة الدينية للموعوظين، وبالغت في افهامهم واجبات سلوكهم في الاحتفالات الدينية: يجب سماع الشريعة مراراً كثيرة ، دونما اهتمام الى طول العظة وقصرها، والاصغاء اليها بكل انتباه ، دونما تفكير بأي شيء آخر ، والتأمل ملياً بما ورد على لسان الواعظ ؛ ويلي ذلك تعداد المبادىء الاولية للأخلاق والتقوى: الشرور العشرون التي تحول دون تقدّم المؤمن ، الخطيئة ، الفضائل الثلاثة عشر ، الخ . ثم تقترح مواضيع التأمل بمثل هذه البساطة متدرجة من المحسوس الى المجرّد .

بيد ان هذا الالتباس الذي قام ، عن قصد او عن غير قصد ، بين البوذية والطاوية ، قد زال شيئاً فشيئاً ، ومرد ذلك الى ان البوذية الصينية وعت واقعها وحقوقها وحاولت اثبات شخصيتها . منذ اواخر القرن الثاني بعد المسيح ، انتهى «طاوي» سابق اعتنق البوذية ، واسمه ماو ـ تسو ، الى رفض مبادىء لاو ـ تسو رفضاً كلياً والتمهيد للكونفوشيوسية التي اعتبرها مذهب الدولة .

افادت البوذية ، منذ دخولها ، من حماية بلاط اقليمي ثم من حماية بلاط الإمبراطور نفسه، فبلغت من القوة الراسخة ما سيتيح لها المقاومة والبقـــاء في احقاب الاضطراب التي ستلي سلم الهان . واستمر البوذيون الاجانب في دخول الصين معتمدين في أسفارهم طرقات القوافل او الطرقات البحرية : فبين السنة ٢٢٣ والسنة ٢٥٣ ، قام ابن سفير هندي ـ غزّي بنقل مؤلف بوذي جديد الى الصينية ، هو « اميتابها ـ سوترا » ، وفي السنة ٢٤٧ ، جاء تاجر سوغدياني من اقليم سمرقند ، مروراً بالهند والهند الصينية ، واخذ يبشر في نانكين . وبين السنة ٢٨٤ والسنة ٣١٣ ، قام الهندي ـ الغزي ، تشي فا ـ هو ، والهندي ، تشو شو ـ لان ، في مي نغان ـ فو ، بنقل مؤلف سادهارما ـ بونداريكا (بشنين الشريعة الجيّدة) الشهير من اللغة السنسكريتية الى اللغة الصينية .

لعبت البوذية ، دون ان تفقد طابعها التبشيري والتحضيري ، دوراً كبيراً في الظروف المؤلمة التي قسمت الصين في عهد التسين . فقد بعثت نصائح الرهبان البوذيين ، في زعماء القرن الرابع البرابرة، بعض الحنو والشفقة في الصين الشمالية . كان احد هؤلاء الرهبان ، المدعو فو ـ تو ـ تنغ او فو ـ تو ـ تشنغ ، والمولود في كوكا من أبوين هنديين في الارجح ، قد وصل الى الصين الشمالية في السنة ٣١٠ ، أي قبيل الغزو بالذات . وكان قد زار قبل ذلك كشمير وأوساطاً بوذية كبيرة أخرى . وكان قصده من المجيء الى الصين تأسيس مركز ديني في العاصمة الامبراطورية . لكن هجوم الهون المفاجيء في السنة ٣١٦ حال دون تحقيق مشروعه ، فرأى فو ـ تو ـ تنغ ، بدافع

روحه التبشيرية الحقيقية ، الكسب الذي يستطيع جنيه من الحقل الجديد المنبسط امامه، فوطد علاقته بالرئيس ، تشي لو، المشهور بقسوته ، ثم بابنه وخلفه، شي هو، الذي لم يكن دونه قسوة. توفق في الدرجة الاولى الى اقناعها بالاقلاع عن المشاريع الدموية، اذ ان تشي لو بنوع خاص كان مصمماً على تقتيل كل تقي مدين . وسعى طيلة ٣٧ سنة الى تحسين طبائع هؤلاء الزعماء وظروف حياة السكان الصينيين. وأخذ يبرهن عن سحر قوة البوذية في حقول مختلفة : كالزراعة، والحرب، والطب، والسياسة ، واستغل بمهارة فائقة سذاجة ايمان البرابرة ، فأوهمهم بقدرته على « استنزال المطر » ، وأعطى نصائح حصيفة في أصول فن الحرب ، وشفى من بعض الامراض (ممارساً الطب الهندي ، في الارجح) ، وبذل جهوداً متواصلة في سبيل استمرار التحالف بين حماته وفضح دسائس أعدائهم . فحظي بشعبية كبرى وحصل على ثقة زعماء الهون ، واعتبر حينذاك ان باستطاعته نشر عقيدتـه . وكان الظرف مؤاتياً جداً لأن البوذية كانت قد تسربت الى اوساط المثقفين ولأن الفلسفة الطاوية كانت ميالة للاعتراف ببعض النقاط المشتركة التي تقربها اليها . غير ان الشعب ، لا سيا في الصين الشمالية ، كان ، عملياً ، يجهل كل شيء عن هذه الديانة ، ويغلب ان معظم الرهبان البوذيين الذين كانوا في الصين قبـــل غزوة الهون قد لاقوا حتفهم خلال انقلابات القرن الرابع . كانت المهمة عظيمة ، ولكن بدا ان ساعة الاصلاح قد أزفت . فقام فو ـ تو ـ تنغ ، بمساعدة زعماء الهون ، بجمع التلاميذ وبتشييد المراكز الدينية المعدّة للعب دور تبشيري في كافة المناطق حتى النائية منها ، وأدخل رهبانه الى البلاط وتدبّر أمره حتى يكون لهم أثرهم في النطاق العام والنطاق الخاص على السواء . فوسمت هذه التدابير الاخيرة ، بطابع خاص مميز ، بوذية الصين الشمالية التي غدت بذلـك ديانة شعبية منظمة بغية العمل مع الشعب ، وكان معنى ذلك، من جهة ثانية، اسهاماً حكومياً في ادارة المعابد وعمل المترجمين والفنانين والمفسرين. وباستطاعتنا القول ان كل ذلك قد ترك صداه العميق في وحدة الصين في عهد سلالتي « سواي » و « تانغ » .

كرّس شي ـ هو عمل فو ـ تو ـ تنغ ، فأصدر مرسوماً يجيز تأسيس جمعية رهبانية بوذية . فواصل أعضاؤها بجدارة رسالة هذا الراهب المعظم الذي كان لعمله الديني والتحضيري والتاريخي تلك الأهمية العظيمة . ومنذ الساعات الاولى انضمت الى الرهبان بعض الراهبات . فدخلت «صينَنة» البوذية ، بفضلهم جميعهم ، مرحـلة التحقيق في الشمال والجنوب على السواء . فسار على خطى الملكين تشي لو وشي هو، في شن ـ سي ، الملك فو ـ كيان (٣٥٨ – ٣٨٥) الذي حمى المبشر الشهير كوماراجيفا ، المولود من أب هندي وأم تنتمي الى كوكا في كشغاريا . بعـد ان استقر هذا الاخير في تشانغ ـ نغان ، نقـــل من السنـسكريتية الى الصينية عدداً كبيراً من النصوص البوذية، ولا سيما الـ «سوترالمكارا» الشاعر الهندي « اشفاغوشا » ، وكتاب « فراديس الطهارة » (سوخافاتي) ، والنظام الرهبـــاني لمدرسة الـ « مرفستيفادين » ، وأبحـاث مدرسة الـ « مادهياميكا » ، الخ .

ينم مجموع هذه الترجمات عن انتقاء تفضيلي في النصوص الهندية. وقد برزت في ممارسة البوذية

في الصين ، في عهد مبكر ، طريقة ستفضي في العهد اللاحق الى الأميدية التي نجحت ذاك النجاح الباهر في الصين وفي اليابان : فقـــد تأسست منذ عهد التسين اخويات المتعبدين لـ « اميتابها » (اميدا في اليابانية) واخذت تعقد الاجتماعات بغية القيام بتمارين تقوية وتأدية صلوات مشتركة . ونمت عبادة الـ «بوديسـاتفا» العظماء نمواً كبيراً ، بأسماء صينية صرفة منقولة عن السنسكريتية : « فالوكيتشفارا » ، الرحيم ، أصبح « كويان ـ ين » ، الذي يخلص المبتهلين اليه من كافة الاخطار ومن الموت المفاجيء ، و « كشيتيغاربها » أصبح « تي ـ تسانغ » الذي يتجـوّل في الجحيم وينجي الهلكى .

تستلزم الحياة الدينية درجتين : الحياة الرهبانية والحياة العلمانية . الراهب يمتنع عن الزواج وعن اقتناء أملاك خاصة ، يعتمد في معيشته على الاحسانات ، ولا يأكل إلا مرّة في اليوم قبل الظهر ، وينصرف الى التأمل . ويكتفي المؤمنون العلمانيون بأعمال البر . ولكن البوذية الصينية ، على غرار الطاوية التي تحيي امام علمانييها احتفالات يتجلى فيها البذخ والأبهة ، لم تكتف بالعبادة البسيطة التي درجت عليها ، أي السجود وتقادم الزهور والبخور . فقد أحدثت آنذاك احتفالات التكفير ، واحتفالات الجدود الموتى ، واحتفالات للأشخاص الذين انتهوا الى مصائر سيئة : الجحيم ، الأبالسة الجياع ، الخ . تقرأ في هـــذه الاحتفالات مقاطع من الكتب المقدسة وترتم الصلوات ويشارك فيها المؤمنون ، على ان الكهنة يحتفظون بالدور الرئيسي . واتصفت بعض الاحتفالات بمزيد من الحياة : « في الاحتفال المقام لخلاص الجدود الموتى (ويغلب أنـــه صيني صرف) ، يقوم احد الكهنة المنود ، وعلى رأسه قبعة بشكل زهرة البشنين ، وفي يده عصا قصديرية ذات حلقات رنانـة ، بتمثيل دور تي ـ تسانغ متجولاً في الجحيم ومرغماً الأبالسة على فتح ابواب سجون الهلكى ؛ وللدلالة على فتح كل باب ، يحطم أناء خزفياً بضربة من عصاه السحرية . اما الميت الذي ينجو على يده ، فيجتاز النهر الجهنمي في مركب ، بينما يقلّد بعض الرهبان الصغار حركة الجذافين مدخلين على نشيدهم مزاحاً لا يخلو من التطرف . وفي احتفـال تخليص الغرقى ، تلقى في النهر اساطيل ورقية من زهر البشنين التي تحمل كل منها شمعة مضاءة ، يستخدمها الغرقى كمراكب تقلهم الى « الضفة الاخرى » فينجون » . (هـ . مسبرو ، الديانات الصينية) .

تجمّع المهتدون الاولون طوائف علمانية حول المبشر والمعبد الصغير . ثم اخذ الصينيون ، في القرن الثالث ، يترهبون بأعداد كبيرة ، فغـــدا المعبد الصغير ديراً . ثم شيّدت أديرة أخرى ازدادت ثرواتها تدريجياً بازدياد المؤمنين وتكاثر احساناتهم التي هي افضل وسيلة لمكافأة الاعمال . فأعطوا الطوائف الاراضي والمساكن والعبيد والمال . ومنذ القرن الرابع كانت هـذه الاملاك واسعة جداً ، وقد اقام فيها العديد من الرهبان المتقفين ، وقد اعفي هؤلاء وأراضيهم ومزارعوهم من الضرائب ، ولذلك فقد اتفق كثير من الفلاحين وصغار الملاكين مع الرهبان على ان يتنازلوا لهم صورياً عن ممتلكاتهم : فكانوا بموجب هـذا الاتفاق يؤدون لهم بعض الخدمات متأكدين بالمقابلة من انهم لن يدفعوا ضرائب ولن يلزموا بأعمال التسخير او بالخدمة العسكرية .

تولى ادارة الاديرة رئيس قام تأثيره العظيم على قيمته الاخلاقيـــة فقط . عاونه أمين صندوق وذوو رتب مختلفـة . وشملت سلطته الاملاك والسكان . وكان يحاكَم بحسب الانظمة الرهبانية حتى ولو أتى عملاً يطاله القانون المدني .

الطاوية نشأت في القرون الاخيرة التي سبقت العهد المسيحي ، وانتشرت خصوصاً في عهد الهان والسلالات الست ، حين كان العالم الصيني في غليان سياسي وديني . « لعبت في عالم الشرق الأقصى دوراً مماثلاً لدور عبادة اورفيوس والاسرار في العالم اليوناني» (هـ. مسبرو)، وهي في جوهرها ديانــة خلاص . فأثارت من ثم مسألة الخلود ، بمفهومها الصيني ، أي بشكل تتفوق فيه المادية على الروحانيــة . فليس هنا للنفس دور المقابل الروحي الغير المنظور للجسد المادي المنظور ، الذي قال بــه العالم اليوناني الروماني . ان نفوساً كثيرة – عشر في مجموعها – تقطن الانسان الذي ليس له بالمقابلة سوى جسد واحد يحاولون بلوغ الخلود فيه . فالمطلوب اذن اطالة دوامه او بالاحرى ابداله ، خلال الحيـــاة ، بأعضاء خالدة تحل تدريجياً ، بقوة الممارسة الدينية والتقشفية ، محل الاعضاء الزائلة ، وتتيح للمؤمن الخلاص من الموت و « الصعود الى السماء في وضح النهار » . فلا يكون موت هؤلاء الخالدين من ثم سوى موت ظاهر فقط : وليس مـا يودع في التابوت سوى سيف او عصا اعطاهما الخالدون ظاهر الجثة بينما هم انتقلوا كي يعيشوا بين الخالدين .

اما تحول الجسم الزائل الى جسم خالد فيتم بحياة دينية فردية ، وبحياة اخلاقية واعمال فضيلة ، وبتمارين جسمانية ، وبعلائق ذاتيـــة بالآلهة . وفي الاساس من الصوفية الطاوية الامتناع عن الحبوب ، والتنفس الجنيني . ولا تحظـر الحِميةُ الحبوبَ فحسب ، بل النبيذ واللحم والنباتات ذات الطـُعمة القوية كالبصل والثوم . اما التمارين التنفسـية فتستهدف تعليم «حصر النفس» للتغذي منه ، بعد التغلب على كافة الاضطرابات الجسمانية التي قد يتسبب فيها هذا الحصر . ويمكن ان يمهد التنفس الجنيني لاستخدام النفس، أي الى شتى أساليب تنقل النفس في الجسم . ولكن يجدر لبلوغ ذلك تدريج التمارين بغية الحصول منه على نتيجة أكيدة . وترافق هذه التمارين عقاقير تحضر كيماتها وتوزع بكل فطنة ، لا سيما الزنجفر الذي يصعب الحصول عليه بسبب ارتفاع ثمنه . بيد ان الانسـان ، حتى ولو بذل هذه الجهود في سبيل بلوغ الخلود ، لا يستطيع الخلاص من مصيره اذا مات في سن الشباب ، فبلوغ الخلود يتطلب وقتاً طويلاً ، ومقرر المصير يضبط بدقة كتاب الموت وكتاب الحياة ، ونادرون جداً هم الذين تدون أسماؤهم في هـــذا الاخير قبل ولادتهم . ويجدر لضمان هذا التدوين ارفاق هـذه التمارين الجسمانية بتقنية روحيــة تفضي الى المشاهدة الداخلية والتأمل والاتحاد الصوفي .

يجب في الدرجة الاولى ان يعيش المؤمن عيشة طاهرة ويأتي اعمالاً صالحة : اطعام الايتام ، وتعهد الطرقات ، وتشييد الجسور ، وتوزيع الثروة على الفقراء ، وتخليص القريب من الاخطار ، ووقايته من الامراض ، وتجنيبه الموت العجول . ولكن عدد الخطايا يفوق عدد الاعمال الصالحة الى حد بعيد ، ويكفي عمل سيء واحد لافقاد الافادة من كافة الاعمال الصالحة . إلا ان تلافي

ذلك ممكن اذا مورست بعض الطقوس . فغالباً ما يبحث الآلهة والخالدون عن المؤمن الجاهل، ولكن الواجب يقضي على المستنيرين بأن لا يقفوا هذا الموقف السلبي : عليهم ان يخطوا الخطوة الاولى ويبحثوا عن الآلهة الذين يستطيعون وحدهم تأمين الخلاص لهم . وهؤلاء الآلهة أكثر من ان يحصوا ، ويجب ان نرى في تعيينهم أثراً للزون البوذي . فهم موزعون بحسب تسلسل كثير المراتب يؤلف الخالدون فيه الوسطاء بين الآلهة والبشر . وكلما تقدم الاتباع المستنيرون أصبحت لهم صلة بالخالدين وتسلقوا درجات هذا التسلسل وغدوا تدريجياً من خاصتهم . ويقلّد نسب الآلهة هذا التسلسل الامبراطوري وادارته ويعيش على غرارها في القصور . وغالباً ما ينحدر الآلهة الى الارض ويقيمون في مغاور الجبال ، ولكن لا يخدم كل من يريد وجودهم اذ ان البحث عن الآلهة في العالم عمل شاق وطويل ، اضف الى ذلك ان الاسفار باهظة النفقات ولا تيسر للجميع .

هنالك سبيل مباشر للوصول اليهم لأنهم ليسوا في العالم فحسب ، بل في كل فرد ايضاً ، والانسان عالم صغير ، وهو يجمع في داخله ، بهذه الصفة ، آلهة العالم الكبير . فبالامكان اذن ، بجمع الأفكار في التأمل ، الاتصال بهم ، وهذه تقنية تقتضي علماً وتدرباً لأن المشاهدة في البداية على كثير من الغموض . ولا تتحسن إلا بالتمرين ، فتتضح التفاصيل تدريجياً مظهرة الآلهة بكل ميزاتهم .

غير ان المشاهدة الداخلية ليست سوى عتبة الحياة الروحية : فيجب الوصول الى المشاهدة العليا ، وهي الخطاف حرّ طليق ، التي تتيح بلوغ الطريق ، « طاو » ، أي الحقيقة الفائقة الدائمة الوجود التي يتحقق الاتحاد الصوفي بها . ولكن يبدو ، اذا كان هذا هو الهدف ، ان الحياة الصوفية لم تعرف رواجاً في الطاوية اذ ان المؤمنين قد استهووا اقل الممارسات سمواً .

تأسست الديانة الطاوية أصلاً لجمهور المؤمنين ثم تنظمت تدريجياً متخطية الى حد بعيد إطار الطبقات المحظية حتى تشمل الشعب بكليته . وحين برزت ، في السنة ١٧٤ ، بوادر ثورة العمائم الصفراء ، كانت قد أصبحت ديانة راسخة التنظيم خاضعة لقانون على بعض الصلابة على الرغم من مظهرها الوالدي . وخضعت طوائفها ، على الرغم من المسافات الطويلة التي فصلت بينها ، لنظام واحد . وقام في أعلى سلّم مراتبها ، عند العمائم الصفراء ، الى الشرق ، رئيس أعلى يعاونه رئيسان آخران . وجاء بعده السحرة (فانغ) الذين تقاسموا ادارة الاقضية : كبار السحرة (تا ـ فانغ) يديرون شؤون عشرة آلاف مؤمن فما فوق ، وصغارهم (سياو ـ فانغ) بين ستة وثمانية آلاف . وجاء اخيراً الرؤساء الكبار الذين كانوا وسطاء بين السحرة وجمهور المؤمنين . واذا اختلفت هذه الأسماء عند العمائم الصفراء في الغرب فان الرتب متعادلة تقريباً .

يستلم رئيس الطائفة ، المعلم (شي) ، وظيفته من ابيه ويسلّمها بدوره الى ابنه ، او الى عمه او اخيه ، الخ ، اذا لم يرزق اولاداً . يعاونه مجلس رعية مؤلف من اعيان طاويين ، رجالاً ونساء ، ينعم عليهم برتب تسلسلية ؛ ويبدو ان عمل هذا المجلس كان ، في الدرجة الاولى ، تأمين الاموال اللازمة للعبادة . ويتولى الرئيس احصاء « رعاياه » ، فيدون الولادات والوفيات،

ويسلّم نسخاً عن « سجل المصير » يستصحبها الميت الى العالم الثاني كي يحصل بموجبها على المعاملة التفضيلية التي يستحقها المؤمنون الاتقياء .

دور الرؤساء ديني في الدرجة الاولى : فهم مبشرون قبل أي شيء آخر ، وتجمع فرقهم عن طريق الاهتداء . وتحيي لهم العائلات ، في مناسبات مختلفة ، (ولادة صبي ، او بنت ، او موت احد افراد العائلة ، الخ .) احتفالاً أشبه بالعيد يقوم في جوهره على مأدبة وهدايا . ودور المعلمين ديني كله ايضاً : الجرائم تعتبر خطايا ، والامراض كذلك ، وتنال بهذه الصفة ، عقوبة صارمة : فيحكم على المرضى بدخول « بيت عزلة » – شبيه بالسجن – ويفرض عليهم تقديم خمسة مكاييل أرزاً في السنة . والغاية من ادارتهم نشر التقوى بين الجماهير ، وتوزع الرتب والالقاب ، وفاقاً لدرجة التقدم في الممارسة الدينية ، على الرجال والنساء على السواء ، لأن أبواب الحياة الدينية مفتوحة لكلا الجنسين دونما تمييز . وتستند هذه الحياة الى التمارين التنفسية ، والامتناع عن الحبوب ، وممارسة الفضائل والعناية بالصحة الجنسية ، وهي معدة لتوفير الصحة والحياة الطويلة والسعادة والبنين . في أقل من عشر سنوات استمال هذا التقشف وهذه الاخلاق وهذه العناية ٣٦٠٠٠٠ مؤمن ، الشيء الذي يفترض اهتداءات بالجملة . اما مظاهر هذه الحياة الدينية فجماعية : اعترافات علنية ، وشفاء بالجملة ، وصلوات مشتركة لشفاء المؤمنين . تقام أعياد كبيرة في تواريخ انقلاب الشمس واعتدال الليل والنهار ، يطلق على بعضها اسم « الصوم » وعلى البعض الآخر اسم « الجمعية » ، ولا يجتمع في الاولى منها سوى عدد محدود من المؤمنين (بين ستة وثمانية) تحت اشراف احد المعلمين ، في حال ان عددهم غير محدد في الاعياد الثانية . ولا تخضع الاعياد لطقوس ورتب معينة متماثلة ، بل تختلف بين شيعة وأخرى ، ولا يحتفل بها كلها في تواريخ ثابتة ، اذ ان بعضها تفرضه المناسبات ايضاً . بيد انها كلها تقام في الهواء الطلق في مساحة مقدسة . وتقوم بقرابين مختلفة هي ضحايا بشرية في الذبيحة الكبرى التي تقام لإله السماء ، وتوزع فيها تمائم حربية معدّة لمقاومة أبالسة الرقى الشافية التي توزع على المرضى . وفي « صوم » الوحل والفحم ، المعدّ لتجنب الامراض ، يطلى الوجه بالفحم والجبهة بالوحل ، ويستقيم المؤمنون منكّسين رؤوسهم ومرسلين شعراً متشعثاً يدخل أفواههم ، ويسيرون عاقدين الاصابع . ويصومون طيلة ثلاثة أيام ويضيئون مصابيح المذابح ويمارسون التوبة ويلتمسون الرحمة للجدود الذين ماتوا او سوف يموتون. وترتدي بعض هذه الاعياد طابع الافراط في الاكل والانهاك في السكر ويرافقها نكاح علني ، الشيء الذي يغتمّ له البوذيون . ولكن معظم الاعياد تتصف بالهدوء مستلزمة اخراجاً يوفر جواً صوفياً فقط : المصابيح والبخور والموسيقى وضرب الطبول والصلوات المشتركة الطويلة والسجود ، وقد تدوم حتى خمسة او سبعة أيام ، ويقام منها اثنان في الشهر على الاقل .

لقد أسهمت هذه الاعياد وهذه الاحتفالات الى حد بعيد في نجاح الطاوية .

الكونفوشيوسية

ان الكونفوشيوسية ، على نقيض الطاوية والبوذية لم تهتم بالفرد بل بالأخلاق الحكومية في الدرجة الاولى . بدت وكأنها عقيدة رسمية وانحصرت في الطبقات الحاكمة لأن اكتشاف الديانة الشخصية يوجه اليها كافة الاذهان الشعبية . فالكونفوشيوسية اذن

نقيض الصوفية : اذ انها مذهب عقلي ملحد عملياً . ولن نرى عقيدة المثقفين هـذه آخذة في الانتشار إلا ابتداء من آخر عهـد سلالة « تانغ » ولن تزدهر إلا في زمن لاحق ، في عهد سلالة « سونغ » وفي عهد الهان اللاحقين ، حين نجح مفسران مشهوران، هما « ماجونغ » (بين ١٤٠ و ١٥٠) و « تشنغ هيوان » (بين ١٦٠ و ٢٠١) في اعطائها ، للمرة الاولى ، مظهراً متلاحماً . فأتت بجوهرها مذهب حكم مبنيا على مبادىء فلكية ومستنداً الى تعليم الكتب الكلاسيكية .
وقد درجوا تقليدياً على نسبة هـذا التعليم الى كونفوشيوس في حال انه ، في مجموعه ، اقدم عهداً . فقد كان هنـاك « كتاب التحولات » (يي ـ كنغ) ، و « كتاب الاناشيد » (شي ـ كنغ) ، و « كتاب الوثائق » (شو ـ كنغ) ، و « فصول الربيع » و « فصول الخريف » (تشون ـ تسيو) و « كتاب الطقوس » (لي ـ كنغ) . اما التعليم فتقني ينطوي على صيغ عرافية وقصائد اخلاقيـة او تفسيرية النزعة ومختارات نثرية تتعلق بأخلاق الحكم والسياسة والحكومة والاخبار المحلية ووصف الاعياد والاحتفالات . واذا سعوا ، في عهد الهان ، لأن يستخلصوا منهـا عناصر علم المقولات الذي سيوضع في عهد لاحق ، فقد سعوا خصوصاً لأن يكتشفوا فيها الحكم على النظام او تأييده . وقد بنوا على مشتملاتها تعليماً فلسفياً لا ينطوي بعد على أية وحدة او بحث فلسفي ، ولكنه اتخذ ، للمرة الاولى ، شكلاً رسمياً . ثم تعددت مراكز التعليم تدريجياً : فبلغ عددها ١٥ في القرن الاول واقترح كل منها تفسيراً شخصياً ، واختلفت الآراء اختلافاً بيناً احياناً ، ولكن الاختلاف تناول التفاصيل دون الجوهر ، وهو قد دار عملياً حول تفاعل العالم المادي والعالم الادبي . ويتألف العالم من السماء التي تغطي وتلتج ، ومن الارض التي تحمل وتغذي ، وبينها الكائنات الحية والاشياء . الانسان أشرف هـذه الحاصيل ، ويتمتع وحده بالوعي والشعور . ويسير العالم سيراً طبيعياً طالما لا يخالف الانسان الطريق ، « طاو » ، التي تسوس النظام كله ، او تعاقبَ المبدأين « ين » و « يانغ » اللذين ينظمان توازنه . والحـكم السيء ، قبل الافعال السيئة ، مسؤول عن اضطراب العالم الادبي ويستجلب الكوارث السماوية والارضية .

أقر الهان السابقون مذهب المثقفين فأصبح تعليماً عاماً في كافة أنحاء الامبراطورية. وفي عهد الهان اللاحقين اشتملت « المدرسة الكبرى » ، الموكول اليها امر نشره ، على عدد ضخم من الابنية : فكانت أشبه بمدينة جامعيـة بقاعات دروسها ومكتبتها ومساكن معلميها وطلابها . وقد ألحقت بها في كل قضاء عدّة مدارس يتولى احد المدرسين فيها تدريس كتاب او عدة كتب من مؤلفات الكلاسيكيين . ونحن نرجح ان عدد الطلاب كان مرتفعاً جداً في السنة ١٣٠ بعـد المسيح اذ ان المجموعة البنائيـة بلغت ٢٤٠ والغرف ١٨٥٠، وقد استقبل فيها، بعد سنوات ، ٣٠٠٠٠ مستمع بالاضافة الى الطلاب المسجلين . أسندت ادارتها الى رئيس ، وكان تحت امرة المعلمين أساتذة مساعدون يتلقون تعليمهم وينقلونه الى الطلبة . اوجب نظام السنة ١٥٦ بعـد المسيح درس مؤلفين كلاسيكيين في سنتين ، وأخضع الطلبة في آخر الدورة الى امتحان يحق للناجحين فيه حمل لقب وتقاضي مرتب . اما الراسبون فيضطرون لمتابعة دورة ثانية تمكنهم من

التقدم الى الامتحان مرة أخرى . واذا رغب البعض في متابعة دروسهم ، درسوا المؤلفين الكلاسيكيين الثلاثة الآخرين بمعدل واحد في دورة تستغرق سنتين ، أي ان الدروس كلها تستغرق ثماني سنوات يتخللها امتحان في نهاية كل دورة . ويقوم الامتحان بسلسلة من الأسئلة المكتوبة على لوحات خشبية ، صغيرة اذا كانت الاسئلة سهلة ، وكبيرة اذا كانت الاسئلة عويصة . كانت هذه اللوحات تعلّق الواحدة قرب الاخرى ويختار الطلبة أسئلتهم بجهم يسدّدونه اليها .

هذّب هذا التعليم المنظّم عقل الطبقات الحاكمة . وقد تطور بسرعة ما بين القرنين الثاني والرابع نحو إلحاد وخلق سياسي كان لهما شأن كبير في ردود فعل المثقفين ابان الازمات المتعاقبة في ذلك العهد . ومن حيث هو مذهب اشراف ، لم يفسح مجالاً للفرد : فكل شيء مآله الى الآلة الكونية الضخمة . واذا ما حصّل الانسان ثقافة ، فليس تحصيله لغاية شخصية بل للمساعدة على حسن سير العالم ، أي للتمكن من شغل الوظائف الرفيعة اذا احتاج احد الملوك الصالحين الى مستشارين. ولم يفسح المجالَ لبعض مبادىء الاخلاق الاجتماعية سوى التقوى البنوية التي خصّص له كتاب هو « هياو ـ كنغ » . ولكن هذا الشعور الطبيعي بواجب الأبناء نحو والديهم ليس في الواقع سوى عنصر من عناصر الحركة العامة : فنحن امام دستور دقيق الوصف يفرض بعض الاعمال نحو الوالدين الاحياء والاموات ويتخطى الى حد بعيد الأطار العائلي، منظماً العلائق بين الرؤساء والمرؤوسين،وبين الرعايا والملك ، وبين البشرية قاطبة . ويؤدي هذا الدستور بالانسان الى تكامل ذاته من زاوية جماعية وكونية .

غير ان التلاحم الذي حققه المثقفون حتى القرن الثالث لم يصمد امام الهزات التي ذهبت بعد الهان. فأعاد الفوضى الى التعليم الرسمي انقسامُ الصين في عهد الممالك الثلاث. ولن ينهض المذهب الكونفوشيوسي قبل القرن السابع .

النزعات الى توحيد الآراء

أنجز الصينيون، خلال هذا العهد، بتأثير من الاضطرابات التي فرضت على الافراد الى البحث عن عضد عاطفي في الديانة ، وبتأثير من البوذية التي قدمت لهم علماً اخلاقياً بسيطاً وخلاصاً فردياً ، الى مبدأ توحيد الآراء الدينية ايضاً الذي ترك أثره في الارستوقراطية الكونفوشيوسية نفسها . أضف الى ذلك ان اختلاطاً حقيقياً قد قام بين الطاوية والبوذية منذ دخول هذه الاخيرة ، واذا تجادل رجال الدين في بعض النقاط العقائدية ، فان عامة الشعب لم تعرها أية أهمية : اذ ان اهتمامها الاول قد انحصر في الخلاص والحصول على الحياة الخالدة السعيدة . فلم يميز الشعب من ثم بين الفردوس البوذي والفردوس الطاوي ، وكلاهما محسوس ومفهوم .

تسرّبت عقيدة التقمص ، بتأثير من البوذية ، الى الطاوية التي تحوّل آلهتها تدريجياً بفعل التأثير نفسه . وسلبت البوذية ، من جهتها ، بلسرب الحرارة الروحية التي كانت سائدة آنذاك ، واستوحت احتفالاتها تلك الاحتفالات التي احرزت ذاك النجاح المعظم لدى المؤمنين الطاويين .

وتوالت ، من جهة ثانية، الظواهر «النفسانية الخارقة» التي رويت عنها بعض الحالات النموذجية: ففي اوائل القرن الثالث شرعت احدى المريضات فجأة بتكلم السنسكريتية وكتبت على الفور مؤلفاً سنسكريتياً من عشرين فصلاً تبين بعد ذلك انه « سوترا » بوذية . وحدث في اواخر القرن الرابع ان ابنة احد معلمي المدرسة الكونفوشيوسية الكبرى قد أملت باللغة الصينية ، بين سن التاسعة وسن السادسة عشرة، قرابة عشرين مؤلفاً بوذياً نزل الوحي عليها بها. وتسربت كذلك بعض الآراء البوذية الى مذهب المثقفين ، ومنها التقمص بنوع خاص .

سيزداد هذا التسرب المتبادل خلال القرون اللاحقة على الرغم من المحاولات التي بذلت هنا وهناك وهنالك للحفاظ على نقاوة العقيدة. غير ان البوذية والطاوية قد أنهكها صراعها في سبيل كسب النفوس الصينية ، فكانت الغلبة في النهاية للكونفوشيوسية . ولكن ذلك لم يحدث قبل سلالة « تانغ » .

٣ ـ الاكتشافات التقنية والعلمية

ان العهد الذي نحن بصدده هو عهد الاكتشافات الآلية والادوية او عهد استخدامها على نطاق واسع . وهي قد رافقت ، كما هو بديهي ، الثورة الفكرية التي أشرنا اليها ، والفتوحات الصينية، والميل الجشع الى البذخ والجدّة اللذين يميزان الصين في عهد الهان اللاحقين وعهد التسين.

وانما انتشرت هذه الاكتشافات ، او انتشر تطبيقها ، في حقول مختلفة . ففي الحقل الآلي ، يمكننا ان نذكر المحراث ذا السنن الثلاث الذي سبق واكتشف في القرن الاول قبل المسيح وانتشر آنذاك في كافة أنحاء الامبراطورية ، والمطحنة المائيـــة التي عرفت منذ اوائل العهد المسيحي ، واستخدمتها بعد ذلك جميع طبقات المجتمع ، لا سيا في القرنين الثالث والرابع ، والنول الذي بُسّط وحُسّن في القرن الثالث ، فخفض عدد الدراسات فيه من ٥٠ و ٦٠ الى ١٢ فقط ، و « العربة الجنوبية » التي صممت وفاقاً لمبدأ القطارات الآلية والتي دارت عجلاتها بواسطة أجهزة مسننة ومحاور متحركة يدفعها مِكبَس (بستون) الى الامام .

وفي حقل آخر ، اكتشف احد خصيان القرن الثاني صناعة معجون الورق الذي ستكون له تلك الاهمية العظيمة في المستقبل .

غير ان هذا العهد قد توصل الى العدد الأكبر من الاكتشافات في حقل علم الفلك . ليس من ريب في انه استفاد من بعض اكتشافات القرون السابقة ، ولكن ما ادخله عليها من تحسين وتكميل جعل الصينيين يعتمدون عليها حتى القرن الثالث عشر ، وهو تاريخ ادخال الآلات الفارسية الى الصين على أيدي المغول .

عرف الصينيون قبل الهان الادوات التالية : الساعة المائية ، والمزولة ، ولوحة القياس ، والساعة الشمسية . فأدخل الهان التحويرات عليها وأضافوا اليها المنظار والدوائر المعدنية التي تمثل حركات الاجرام السماوية ، والكرة السماوية . وبفضل ذلك ، « توصل علماء الفلك آنذاك

إلى تحديد الطول التقريبي للسنة الاستوائية ، ووضع روزنامة قانونية ، والاهتداء الى حركات السيارات ، والنهوض بأولى النظريات العلمية لتمثيل العالم ، وايجاد تقنية خاصة بملاحظة الفلك » (هـ . مسبرو) . أوضحوا حركات السيارات ، ولا سيا حركات القمر ، وتوصلوا الى بعض التدقيق في تحديد مواعيد الخسوف والكسوف واكتشفوا مبادرة نقطة الاعتدال (بين ٣٢٥ و ٣٥٠ بعد المسيح) . وباستطاعتنا القول ان علم الفلك قد انتقل بفضلهم من مرحلة التلمس الى مرحلة التحقيقات « العصرية » .

الساعة المائية

كانت الساعة المائية (ليو ـ هيو ، كو ـ ليو) أشبه ببناء حقيقي ، وقد حلّت محل ساعة مائية أقدم عهداً ، وصممت بحيث تقيس يوماً كاملاً . نظمت حياة القصر الجمهوري ليلاً ونهاراً ، لأنها كانت مزدوجة . تألفت من ثلاثة احواض مغطاة منضدة على مراقٍ : خزان ، وحوض ينظم الحركة ، ومَصَب . في اسفل المراقي يقوم اناء بشكل الساعة المائية القديمة يعلوه غطاء مثقوب يمر فيه ساق معدني مدرّج ، والاناء الاخير هذا هو اناء الساعة بالذات . الساق مثبت في عوامة ومقسّم اجزاء متساوية بخطوط يشير كل منها الى مرور ربع ساعة (كو) . ويقف امام الثقب تمثال يبسط ذراعيه يقوم بدور وكيل الساعة . يداه تشيران الى اقسام الساق التي تتوالى بين ذراعيه كلما ارتفعت العوامة بارتفاع مستوى المــاء في الاناء . وتتصل هذه الاحواض ببعضها بواسطة صنبور تنيني الشكل مثبت في القسم الاسفل من الاحواض العليا الثلاثة يقذف بالماء من شدقه . أضف الى ذلك ان الحوض الذي يعلو الساعة مباشرة ينطوي على مصب يحول دون ارتفاع مستوى المياه وينظم تموين الساعة بها . وتعلو الاغطية هذه الاحواض جميعها حتى لا يتسرب الى الماء أي جسم غريب قد يسدّ الانابيب .

واجه مهندسو ذلك العهد مسألتين : تأمين استمرار معدّل كمية المياه وتفاوت طول النهارات والليالي بحسب الفصول . كان الحوض الاعلى بمثابة خزان تكفي سعته نظرياً لاثنتي عشرة ساعة ، ولكنهم كلفوا يراقبون مستوى الماء فيه ويملأونه عند الاقتضاء بوسيلة من الوسائل . وكان الحوض الثاني اناء منظماً الغاية منه الحفاظ على مستوى ثابت . اما الثالث فقد كان معداً لاستيعاب الفائض من مياه الحوض السابق . وبفضل هذا الجهاز كانت المياه تصب في الساعة بانتظام تقريباً . وكانت هذه الساعة مزدوجة ، فالاناء السفلي مجهز بصنبورين : احدهما يفتح في اول النهار ويقفــل في اول الليل ، والثاني يقفل في اول النهار ويفتح في اول الليــل . اما الساق الذي يرتفع بارتفاع المياه ، فيخرج كله من الثقب حين يمتلىء الاناء ، أي انه يشير آنذاك الى ربع الساعة الاخير من النهار او من الليل . وعلى الرغم من ان شيئاً لم يذكر عن طريقة تفريغ اناء الساعة ، فالارجح انه كان يؤمن بصنبور او سدادة في اسفل الاناء ، وكان الوقت متسعاً جداً للقيام بهذا التفريغ لأن كل « ساعة » تتوقف اثنتي عشرة من أصل اربع وعشرين . ولا ريب في ان كمية الماء الصابة في اناء الساعة قد خضعت لحساب مدقق ، ويمكننا الاستنتاج ، بنــاء لتقديرات هـ . مسبرو ، انها كانت تصب ببطء ونقطة نقطة . وقد وجب لتأمين هذه النتيجة ان يكون الضغط في الحوض

المنظّم ثابتاً، وكان هذا الحوض الوسيط ضرورياً من حيث ان المهندسين لم يفكروا بجر الماء الى الخزان . ولكن هذا الحوض الوحيد غير كاف لتنظيم كمية المياه الصابة في اناء الساعة (كان من الواجب ان يقوم الى جانبه حوض ثان) ، ولذلك اوجد فيه جهاز آلي يؤمن التنظيم : هو ، على ما يبدو ، أشبه بميزان احد طرفيه متحرك يسد مصب فائض المياه والثاني ثابت عند المستوى الذي يجب ألا تعلوه الماء . وقد جهز هذا الطرف الاخير ببعض الزئبق. فما ان تعلو الماء المستوى المحدد لها حتى تتحرك بعض نقاط الزئبق فيرتفع طرف الميزان المتحرك ويفتح مصب فائض المياه ، وحين تعود الماء الى مستواها في الحوض يعود الزئبق الى مكانه ويستوي الميزان افقياً ويسدّ مصب فائض المياه مرة اخرى ، وبذلك ينتظم الضغط .

اما بصدد تقدير الوقت فقد واجه المهندسون الصينيون بعض الصعوبات لأنهم قد استخدموا ساعتين احداهما للنهار والاخرى لليل ، ولأن ابدال الاولى بالثانية كان يجري عند شروق الشمس وغروبها : وقد استوجب ذلك عمليات ضبط متعاقبة لماشاة قصر النهار والليل . ولكنهم تلافوا ذلك بتغيير الساق كلما طال النهار او قصر ربع ساعة كاملاً (كو : = ١٤' و ٢٤'') . فيتكون من ثم فرق يجمع أربعاً وعشرين ساعة خلال السنة ، وكان هناك بالتالي اربعون ساقاً (عشرون منها نهارية وعشرون ليلية) تبدل كل تسعة ايام . وجلي ان هذا التقدير قد أفضى الى فروقات على بعض الاهمية بالنسبة الى الواقع ، فحوّره « هو جونغ » في اواخر القرن الاول باستخدام ٤٨ ساقاً تبدل كل سبعة أيام ونصف. وعلى الرغم من الأخطاء التي كان من شأن هذا التقدير ان يجر إليها ايضاً، فقد عمل به حتى القرن الثاني عشر . اضف الى ذلك ان هذه الاخطاء لم تكن ذات شأن : خمس دقائق ونصف كحدّ أعلى في منقلب الشمس الشتوي مثلاً ، وهي اخطاء لا أثر لها في الحياة اليومية ولا تضايق سوى المنجمين .

المزولة اقتصرت المزولة في عهد الهان على وتد طويل يغرز في الارض عمودياً في مكان شامس. حدّد علوّه بثمانية اقدام (او بأحد أضعاف الثمانية) . ينتصب في ارض أفقية تماماً يستثبت من استواء سطحها بواسطة قادن مائي (استخدم قبل الهان) يجب ان يكون هو نفسه عمودياً تماماً ايضاً : فتشد لهذه الغاية ثمانية حبال من أعلى الوتد الى زوايا الارض المربعة وأوساط ضلوع هذه الارض ، فيؤدي توتر الحبال – المتساوية طولاً ٤ × ٤ – الى جعل الوتد عمودياً تماماً.

استخدمت المزولة لقياس الظل الذي يرسمه الشمس على الارض ودرس انتقاله ؛ فاستعمل علماء الفلك الصينيون لهذه الغاية « لوحة القياس » (تو – كواي) . عرفت هذه اللوحة في العهد السابق، وكانت تصنع من اليشب او الخزف او البرونز او الخشب، شكلها شكل المربع المنحرف، ويتراوح طولها بين ٣٤٢ مم و ٣٢٤،٨ مم . توضع ارضاً بجانب الوتد ، وفي نهار المنقلب الصيفي ، ظهراً ، يساوي ظل الوتد طول اللوحة . بعد ان يحدّد تاريخ المنقلب الصيفي ، يحدّد تاريخ المنقلب الشتوي حسابياً انطلاقاً من هذه الملاحظة : أي بعد مرور مائة واثنين وثمانين يوماً وخمسة أثمان اليوم . وقد انطوت هذه الحسابات على خطأ محسوس يبلغ يوماً وبعض اليوم بعد المنقلب الشتوي الحقيقي .

منذ عهد الهان أبدلت هذه اللوحة مسطرة حقيقية مدرّجة وطويلة يمكن استخدامها لقياس الظلال في كافة أيام السنة بما فيها ظل المنقلب الشتوي، أطولها اطلاقاً. فقل منذئذ شأن الاخطاء، ولكن الخطأ في تقدير السنة الشمسية رافقه بالضرورة خطأ في تقدير الشهر القمري، والتقديران مترابطان في الروزنامة الصينية. ولم يتوصلوا الى مزيد من الدقة إلا في القرن الرابع بعد اجراء حسابات كثيرة بواسطة لوحة القياس، كما لم تتح هذه الاداة، المحسّنة والمتممة الوتد الشمسي، إلا في القرن الخامس فقط، اثبات تفاوت الفصول الذي لم ينتبهوا له حتى ذاك التاريخ. وعلى الرغم من كل ذلك، فان الوتد الشمسي كان للصينيين الاداة الاساسية في علم الفلك التي بنوا عليها أبعد معارفهم وضوحاً حول شكل العالم.

الساعة الشمسية

استخدمت منذ عهد الهان أداة خاصة قريبة من المزولة للتأكد من تواريخ تغيير الساق في الساعة المائية. وكانت هذه الاداة لوحة (من يشب) مستطيلة الشكل ٢٨٨ مم × ٢٨٢ مم حفر في وسطها ثقب مستدير يبلغ قطره ٩،٦ مم ورسمت حواليه دائرة يبلغ قطرها ٢٤٣ مم. وقد حفر في الثلثين السفليين من هذه الدائرة ثقوب صغيرة متساوية الأبعاد مرقمة من ١ الى ٦٩ تصلها بالوسط خطوط مستقيمة. تشير هذه التقسيمات الى عدد أرباع الساعة في النهار، وتستخدم تقسيمات الاطراف في حساب سمت الشمس عند شروقها وغروبها. وقد توصل الصينيون في عهد الهان الى معرفته معرفة تامة. وجليّ ان هذه اللوحة توضع أفقياً على سطح مستو، فيشير الساق المغرز في الثقب الوسطي الى تقدم الشمس. ويوجه القسم الغير المرقم نحو الجنوب. ولا يمكن ان يكون القصد منها معرفة الساعة لأن ثخانة الساق تحول دون التدقيق ولأن ظله يغطي أكثر من خط، او خطين او ثلاثة احياناً. ولكن الساعة الشمسية، على نقيض ذلك، استخدمت، بمراقبة الظل، في تحديد موعد تغيير الساق في الساعة المائية. فمن الأهمية بمكان ألا يحصل خطأ في موعد هذه التغييرات، لأن ضبط الوقت متوقف بكليته على ضبط تغيير الساق الذي يضيف او ينقص ربع ساعة، صباحاً ومساءً. بفضل هذه الاداة أصبحت المراقبة أمراً ممكناً؛ فكل يوم يلاحظ إتجاه الظل عند شروق الشمس وغروبها؛ وكلما انتقل الظل من خط الى خط يكون النهار قد زاد او نقص ربع ساعة.

المنظار

وجد المنظار (وانغ - توانغ - يو - هنغ) منذ عهد الهان السابقين واستمر استخدامه الى ان أدخل اليسوعيون المرقب. اقتصر استخدامه على عزل حقل محدود المساحة بغية تتبع حركة نجم ثابت أو سيار معين. قوامه خيزران يبلغ ثمانيـة اقدام طولاً ويبلغ قطر فراغه الداخلي بوصة واحدة. يثبت على قاعدة تؤمن استقراره.

الدوائر المعتبلة لتمثيل حركات الاجرام السماوية

أتاحت الساعة المائية والساعة الشمسية والمزولة ولوحة القياس والمنظار تحديد الوقت بالضبط وقياس حركات الأجرام السماوية بتدقيق لم تبلغه العهود السابقة. غير ان القياسات الحيزية ما زالت ناقصة ومشوّشة. فاستخدمت في النصف الثاني من القرن الاول دائرة استوائية لتمثيل

حركات الاجرام السماوية في مرصد « المنجم الكبير » : قدّم كنغ شيو ـ تشانغ هـــذه الآلة ، للامبراطور في السنة ٥٢ قبل المسيح ؛ وكان باستطاعتها « قياس حركات الشمس والقمر والتثبت من شكل الفلك وحركاته » . وهي في جوهرها دائرة برونزية مقسمة الى درجات قياس الواحدة منها بوصتان ، يبلغ قطرها ٥٧٤ مم ومحيطها ١٫٨٠ م تقريباً . فخطر لـ « فو نفان » في السنة ٨٤ بعد المسيح ان يعطي احدى الدوائر انحناء مدار الشمس، فصنع ادوات خاصة : هي الدوائر المصنوعة وفاقاً لهذا الانحناء والمؤلفة من دائرة برونزية مدرّجة مثبتة بحيث تكوّن مع خط الاستواء زاوية قياسها ٢٤ درجة تقريباً ، ويرجح ان منظاراً متحركاً قـــد مرّ بوسط الدائرة ايضاً . فقدمت آلة مماثلة للامبراطور في السنة ٨٥ بعد المسيح ، واستخدمت آنذاك في مكتب « المنجم الكبير » لقياس حركة القمر اليومية والتثبت من مداها بالدرجات. فاستطاع علماء الفلك الصينيون منذ ذاك العهد، او بالاحرى منذ السنة ١٠٣ بعد المسيح، ان يصفوا حركات السيارات الظاهرة وصفاً يكاد يكون صحيحاً . غير ان هذه الآلة التي افتقرت الى دائرة خط الطول والى تعيين مركز القطب لم تكن سهلة الاستعمال عملياً، ولعل هذه الصعوبة هي احد اسباب اكتشاف الكرة التي جمعت الدائرتين في آلة واحدة .

جهاز الكرة والدوائر

ظهر هذا الاكتشاف بعد مرور عشرين سنة على اكتشاف الدوائر المعدنية المنفردة ، ولم يكن تحقيقها عملية سهلة . خطر لمكتشفها ، تشانغ هنغ ، حوالي السنة ١٢٤ ، ان يمثل الكرة السماوية كلها تمثيلاً اعجازياً بأن يضيف ، الى الدائرة الاستوائية ودائرة مدار الشمس ، دائرتين أخريين تمر احداهمـــا بالقطبين وسمت الرأس وتحدّد سطح خط الطول ، وتكون الثانية افقية ؛ وحاول ، بالاضافة الى ذلك ، ان يخضع هـــذه الكرة ، بقوة الماء ، لحركة الدوران التي يتم في يوم واحد . وقد كرّس تشانغ هنغ لاكتشافه مؤلفاً خاصاً لم يصل الينا لسوء الحظ ، ولكننا نعلم ان جهازه قد استخدم في لو ـ يانغ حتى غزوها في السنة ٣١٤ ، وان الغزاة قـــد قلدوه (٣٢٣) في مي ـ نفان ـ فو ، عاصمتهم الخاصة في تشن ـ شن . وكذلــك قلده أباطرة حوض الـ « يانغ ـ تسو » في نانكين . ويبلغ جهاز تشانغ ـ هنغ ٢٫٩٠ م محيطاً و٠٫٩٧ م قطراً داخلياً تقريباً، وقد مر في وسطه منظار يتحرك في كل الاتجاهات . وكان وزنه عظيماً في الارجح ، ولم يقم على قاعدة بـــل علّق تعليقاً . ونحن نعلم اليوم كيف استعمل جهاز مي ـ نفان ـ فو : « يبدأ العالم بتدوير دائرة مدار الشمس المتحركة ، وفاقاً لحركة الشمس في الفلك ، حتى تنطبق على وضع الفلك ساعة الرصد ، ثم يثبته في هـــذا الوضع بواسطة السنة الاقفال والرزات ، وبعد ذلــك يدوّر الدائرة الداخلية المتحركة حول الجرم الذي يرغب في رصده، ثم يرقب هذا الجرم بواسطة المنظار الذي يرفعه او يخفضه عمودياً بقدر حاجته الى ذلك» (ﻫ . مــسبرو) بفعل قوة الماء . كان هذا الجهاز يدور ويتبع باحكام حركات الدوران التي تتم في يوم واحد ، وتضبطه ساعة مائية ؛ ونحن نرجح ان الجهاز الداخلي وحــده كان متحركاً ، بينما تبقى بدون حركة الدائرتان الخارجيتان المكونتان بتقاطعهما زاوية مستقيمة .

قد يغرينا أن نرى في هذا الجهاز تأثيراً غربياً ، اذ أن بطليموس قد وصف في العهد نفسه تقريباً جهازاً مماثلاً من حيث المبدأ والمظهر العام للجهاز الصيني ، ولكن الحقيقة الثابتة هي ان الجهازين يختلفان تماماً ، لأن الدائرتين المتممتين في الصين وفي الغرب ، ليستا متشابهتين كلياً : فجهاز بطليموس قد انطوى على دائرتين ثابتتين ، هما دائرة مدار الشمس الموازية لسطح مدار الشمس ، ودائرة خط الطول التي تكوّن مع الاولى زاوية مستقيمة ، وبالاضافة الى ذلك ، على دوائر متحركة هي دوائر بعض خطوط العرض ؛ بينا لم ينطو جهاز تشانغ ـ هنغ إلا على دائرة خط الاعتدال ، التي هي دائرة خط الطول نفسها ، وعلى دائرة خط الاستواء ايضاً ، دونما إشارة الى القطبين ؛ أضف الى ذلك اخيراً ان عضادة الرصد قد وضعت في السطح الاستوائي. ثم ان الصينيين قد جهلوا علم الزوايا الذي اكتشفه هيبارخوس في اليونان قبل ذلك بعدة قرون، فاضطروا الى اعتماد وسائل اختبارية في حل مسائلهم ، وكانوا من ثم منجمين لا علماء فلك . فيرد معظم الاختلاف بين الطريقتين ، اليونانية والصينية ، الى تأخر العلوم الرياضية في الصين .

الكرة السماوية

وكان هنالك جهاز يتميز عن الكرة والدوائر الموصوفة اعلاه ، هو الكرة السماوية (هوان ـ تيان ـ سيانغ) التي كانت تصنع من خشب أو من برونز « مستديرة كالكرة » ، ويمر فيها محور باتجاه شمالي جنوبي ، وتتحرك بقوة الساعة المائية . وكان قد سبقها وضع خرائط الفلك حسنت في القرن الرابع ، وأشير فيها الى البروج بألوان خاصة . وستنتقل هذه الخرائط في القرن الخامس الى الكرة السماوية فتكمّلها .

وهكذا اكتشفت ثم تحسنت الرزنامة والساعة والنظام الكوني ، فعمّ انتشارها خلال هذا العهد ، الذي كان من جهة ثانية غنياً جداً بالاكتشافات .

الفصل الخامس

انتشار الحضارة الصينية

في العهد الذي يعنينا ، شمل النفوذ الصيني اراضي واسعة جداً : التركستان الصيني الى الغرب وقد احتلته الصين بكليته تقريباً، وكوريا الشمالية الى الشرق ، والتونكين وجزءاً من انام الى الجنوب . سببت لها هذه « المستعمرات » بعض المتاعب ، ولكنها فتحت لهـا بالمقابلة اسواقاً تجارية . فباستطاعتها ان ترسل إليها حاميات عسكرية تقدر بمئات الالوف تؤمن المواردالمحلية تغذيتها . وجنت منها مكاسب تجارية ايضاً ، ولا سيما من التركستان الصيني الذي تجتازه طرق القوافل الرئيسية . وتوفقت فيها ، على الصعيد الثقافي ، الى الاتصال بالعالم الغربي آنذاك ، الغني بكل خير فكري وديني ، وبشعوب « جديدة » مستعدة لتقبل نِعم (?) حضارة ابعد تقدماً من حضارتهم . وعلى الرغم من تقلبات احوالها الخاصة ، فانهـا قد استقرت بثبات في مناطق الحدود الثلاث هذه ، ولعبت فيها دور الدولة العظمى . وكان كل ذلك ، والحق يقال ، لحقيق الهان السابقين (إلا في كوريا) الذي ورثه وواصله الهان اللاحقون من بعدهم .

تكلمنا اعلاه عن فيتنام بصدد النفوذ الهندي ، ولن نكرر هنا ما قلناه ، اذ اننـا أبدينا في المناسبة نفسها ملاحظاتنا حول النفوذ الصيني . فسنكتفي بإيجاز العلائق التي ربطت الصين بالتركستان الصيني وكوريا، لا سيا وان هذه الاخيرة قد لعبت دور الوسيط مع اليابان في اوائل عهدها التاريخي .

آسيا الوسطى

رأينا ان الهان السابقين قد تولوا فتح آسيا الوسطى في التركستان وان احتلالهم لهذه البلاد « الغربية » قـد أتاح لهم الاتصال بالحضارات الهندية ـ الاوروبية . وطد الهان اللاحقون هذا الفتح وفرضوا على البلاد حماية راسخة . تنتثر في هذه البلاد الصحراوية، التي يجتازها نهر تاريم ، واحات تمر بها القوافل المنتقلة من البختيار الى الصين . اما الطريقان المعتمدتان في الذهاب والاياب فيها : طريق تمر في الشمال بـ « طرفان » وقاراشهر » و « كوكا » و « اكسو » و « اوك ـ طرفان » و « قشغر » ، واخرى تمر في الجنوب بـ « ليو ـ لان » و « خوطان » و « يرقند » . كانت هذه الواحات تؤلف ممالك صغيرة تتوقف حياتها على انتظام الاقنية القائمة فيها ، وكانت خاضعة آنذاك لهنود ـ اوروبيين يتميزون بلونهم الاصهب وعيونهم

الزرقاء ، ويتكلمون اللغة الطخارية في الشمال ولغة « الشاكا » في الجنوب ، وانتشرت بينهم لغة مشاركة هي اللغة السوغديانية المستعملة بين التجار بنوع خاص . واستوطن مناطق حدود هذه البلاد ، من جهة ثانية ، شعوب هاجرت الصين الغربية الى سوغديان والبختيار ، اشتهرت باسمها الصيني « يو - تشي » ، وأطلق عليها المؤلفون الكلاسيكيون اسم « الهنود - الفز » ، وقامت بينها وبين الايرانيين الحضريين في فارس علائق طيبة ، وكان هؤلاء اليو تشي من جهة ثانية على اتصال بالهند فاهتدوا الى البوذية في عهد مبكر ، وبواسطتهم دخلت البوذية الى التركستان الصيني الذي استخدمه المبشرون البوذيون جسراً للعبور الى الصين . وتبع هذا التسرب الطريق نفسها طيلة قرون عدة ، اذ ان معظم مترجمي النصوص البوذية الى اللغة الصينية ، كما رأينا ، انتسبوا الى الهنود - الفز او الفارثيين او السوغديانيين ، وهل يجب ان نذكر هنا بتاجر سوغدياني من سمرقند بشّر بالبوذية في نانكين في السنة ٢٤٧ ؟ او بفو - تو - تنغ الذي لعب في القرن الرابع ذلــــك الدور الكبير لدى شي لو وتشي هو ، وهو قد ولد في كوكا من ابوين هنديين ؟ او بكوماراجيفا ، في النصف الثاني من القرن الرابع ، الذي ولد من أمّ كوكية الاصل ايضاً ؟

كان من الطبيعي ان تثير الاهمية التجارية ، التي اشتهرت بها واحات حوض التاريم ، طمع الصينيين الذين توفقوا كما رأينا الى القضاء فيها على تدخل الهند ، وقد اهتمت ، هي ايضاً ، لأمر رقابة طرق القوافل هذه . فتأسست تدريجياً ، بفضل عدد من القادة الصينيين ، ولا سيما بان تشاو ، مستعمرات عسكرية وزراعية في الواحات . وكان لزاماً على هذه المستعمرت ، المنعزلة بين شعوب غريبة ، ان تدافع عن نفسها وتهتم لاستثمار اراض زراعية خصبة جداً . قبل سكان التركستان الصيني بهذا الاحتلال مرغمين ، ولكنهم حالفوا جيرانهم الـ « هيونغ - نو » وثاروا تكراراً مهددين الجنود والموظفين الصينيين بخطر مداهم . بيد ان بان تشاو استغل المنازعات الداخلية والاطماع وجشع السكان وفرض سلطة الصين حتى السنة ١٠٢ . ثم مرّت فترة نكبات أبعدت الصين عشرين سنة تقريباً ، ما لبث الوضع بعدها أن تحسن واستقر . غير ان الصين لم يحتفظوا فيها إلا بسيادة بروتوكولية . ولكن الصين استمرت في الاستفادة من حركة الانتقال على طرقات التركستان ، جانية منهـــا مكاسب هامة باعتماد الاستيراد والتصدير ، وكان يشب خوطان وأحصنة تاريم وموسيقيو كوكا مطامعها الرئيسية .

كوريا

استولى الهان السابقون كذلـــك على النصف الشمالي من شبه الجزيرة الكورية . ولكن كوريا لم تكن ممراً على غرار التركستان الصيني بــل منطقة مقفلة ستمثل اليابان مؤقتاً استمرار ثقافتها . فتوغل فيها التأثير الصيني وركد وتأصّل ، متأهباً للتوسع نحو الشرق دون أي اصطدام ، كما يبدو .

يعود وجود الصين في كوريا الى حوالي ١٩٤ - ١٠٨ قبـل المسيح حين استولى احد القادة الصينين على الشمال الغربي من شبه الجزيرة وأسس امارة لو - لانغ (راكورو ، في اليابانية) ثم ما لبثت المنطقة المحتلة ان تجاوزت حدود هذه الامارة - التي بقيت مركز الحكومة - وقسّمت

الى ثلاث امارات اخرى . فمين على رأس هذه الامارات الاربع حكام صينيون اعتمدوا فيها نظاماً ادارياً مقتبساً عن نظام الهان . وما لبثت الرقابة الصينية بعد ذلك ان شملت ، بواسطة هؤلاء الحكام ، المنطقة الجنوبيـة التي لم تعين حدودها بوضوح . وقد برزت سلطة الفاتح بنقاط عسكرية موزعة على جميع المراكز الهامة .

كانت كوريا منطقة آهلة بالسكان : فالحوليات الصينية تزعم بأن عدد البيوت فيها قد بلغ في عهد الهان ٦٢٨١٢ بيتاً وان عدد سكانها قد بلغ ٤٠٦٧٤٠ نفساً ، على ان امارة لو – لانغ كانت أهم الامارات الاربع من حيث عدد السكان والازدهار .

اما العاصمة ، التي قامت على بعض المسافة من بيونغ – يانغ الحالية ، فكانت مدينة يحيط بها سدّ ترابي وتبلغ قياساتها ٥٥٠ م × ٦٥٠ م . بنيت مساكنها بالقرميد الذي اكتشفت منه كمية ضخمة : والقرميد محكم الصنع يزدان برسوم متقنة ويحمل في غالب الاحيان كتابة تشير الى انه يعود الى مسكن احد الموظفين . وقد حفرت المدافن ، وهي كثيرة جداً (أحصي منها ١١٣٠ منذ ٢٠ سنة) ، على مقربة من المدن والقرى ، وكانت ضخمة الحجم احياناً ومتقنة الصنع ، واكتشف فيها أثاث مدفني ثمين ؛ شيدت جدرانها بقرميد مماثل لقرميد المنازل المدنية يحمل اسم الميت وبعض الصلوات القصيرة . وتبرهن الآثار التي جمعت فيها – اسلحة وزخارف وحلي وخزفيات واوان برونزية ونقود ومرايا – ، بنمطها وصناعتها ، عن انها قد أنتجت خصيصاً للجالية الصينية ، اذا لم تكن صينية المصدر ؛ فان جمال التقنية ، والصمغ ، ولا سيما المصوغ الذهبي المشبك ، ليس دون الانتاج الصيني ميزة . وقد أثبتت دراسة هذه المصنوعات ان عدداً كبيراً منها قد أنتج في كوريا وانها انتشرت في جنوب البلاد وفي اليابان .

ارتبط مصير مركز ثقافة الهان هذا بمصير هذه السلالة فعرف الهبوط حين عرفته هي .

اليابان

قامت علاقة اليابان بالصين بواسطة كوريا . وكان لطابع اليابان الجزائري أثره في حمايتها من جوار حضارة آسيوية ، في حال انها تنتسب عنصرياً الى اصل اينوي او اندونيسي في الارجح . وقد بقيت اليابان ، قبل تسرب سكان اليابسة اليها ، في المرحلة النيوليتية ، تجمع بينها وبين كوريا بعض اوجه التشابه . وحين دخلها النفوذ الصيني ، في السنة ٥٧ بعد المسيح ، كما يقال ، كانت الثقافة اليابانيـة متميزة بخزفيات بدائية وادوات محدودة (فؤوس ظرانية ، ومدى ، ونبال ، وسيوف ، ومصنوعات عظمية مختلفة ، الخ .) ؛ وتشير التلال المدفنية الى القبور التي قامت بجانبها – وكانت على صلة بها في الارجح – تماثيل خزفيـة مصنوعة بواسطة الخرطة ، تعرف باسم « هانيوا » ، وتمثل رجالاً ونساء وحيوانات . وعلى الرغم من ان طابع الأثاث المدفني والـ « هانيوا » طابع مميز ، فمن الواجب ان نبحث عن أصلها ، كما يبدو ، في البر الأسيوي ، وبالتفضيل في الصين الجنوبية ، مروراً بكوريا ، مما يحملنا نقول بعلائق سابقة للشهادات التاريخيـة . ويبدو في الواقع ، ان هذه العلائق قد قامت منذ القرنين الرابع والثالث قبل المسيح . ولكن اول ذكر لاتصال قام بين اليابان والبر الأسيوي لا يرقى إلا

الى السنة ٥٧ بعد المسيح ، وهو التاريخ الذي جاء فيه وفد ياباني الى الصين وقام بزيارة البلاط الامبراطوري في لو ـ يانغ. ويجدر بنا هنا ان نستشهد بالوصف الذي جاء في «الحوليات الصينية» عن اليابان : تقوم بلاد « وا » الى الجنوب الشرقي من كوريا الجنوبية ، في وسط المحيط ، وتتألف من بعض الجزر وتشمل أكثر من مائة مملكة . ومنذ ان فتح الامبراطور « وو ـ تي » كوريا الشمالية (في السنة ١٠٨ قبل المسيح) ، أصبح لأكثر من ثلاثين مملكة من هـــذه الممالك علائق بالصين بواسطة الموفدين او المؤلفين ... سكانها يتقنون فن النسج ... اسلحة جنودهـا الرمح والترس والقوس والنبال الخيزرانية التي قد يصنع رأسها من عظم . رجالها يستوشمون اجسامهم بالرسوم التي تعين تسلسل المراتب بشكلها وحجمها. يستخدمون اللون الوردي واللون القرمزي لطلي اجسامهم كما يستخدم الصينيون غبار الارز ». وتجدر الاشارة الى ان العلامات القرمزية التي تزين وجه ورقبة الـ « هانيوا » ليست وشماً ، لأن الوشم ، بحسب الأساطير والروايات اليابانية ، وقف على الطبقات الدنيا . وهنالك تفاصيل اضافية وصلت الينا عن طريق الـ « واي » يستفاد منها ان سكان بلاد « وا » يغوصون في المياه لجمع الاصداف وان اجسامهم مزدانة برسوم الحيتان.

يتمّم هذه المعلومات مقطع من « تسيان ـ هان شو » لِـ « بان كو » دخـل التقليد الادبي ، نستشهد به نقلاً عن جان بوهو : « يقيم الـ « وُوْ وُوْ » الى الجنوب الشرقي من مقاطعة « تاي ـ فانغ » (الى الجنوب الشرقي من لو ـ لانغ) ودول الهان الثلاث (شن هان ، وماهان ، وبيان هان ، التي بقيت زمناً طويلاً مستقلة عن الصين) . يقطنون الجبال والجزر ... يؤلفون أكثر من مائة دولة ربطت حوالي الثلاثين منها علائق بالهان بواسطة الموفدين والمراسلات منذ ان قضى الهان « وو ـ تي » على كوريا الشمالية . يحمل رؤساء هذه الدول لقب الملوك وتنتقل السلطة فيها من الاب الى الابن . ومنهم الـ « وُوْوُوْ العظيم » الذي يقيم في بلاد « ياماتاي » (ياماتو ؟) ... التربة جيدة للحصائد : الارز ، والقنب ، والـ « تشو » (؟) ، والتوت . السكان يعرفون النسج والغزل ، وحياكة الحرير والكتان. ويجمعون الجواهر البيضاء واليشب الاخضر (؟) . في الجبال تربة حمراء (« تانتو » ، زنجفر) او حديد غير خالص يذكّر لونه بالدم . الهواء رطب وحار . البقول والنباتات الصالحة للأكل متوفرة صيفاً وشتاء . ليس في البلاد أبقار ، واحصنة ، وأنمر ، وأفهدة ، ونعاج ، وطيور داجنة . الاسلحة حراب وتروس وأقواس خشبية ونبال خيزرانية قد يصنع رأسها من عظم أحياناً .

« الرجال يستوشمون ويزينون أجسامهم بالرسوم . وتميز المرتبة الاجتماعية بحسب (مكان) هذه الرسوم الى اليمين او الى الشمال وبحسب قياساتها . ملابس الرجـــال مصنوعة من طرائد معترضة تعقد وتجمع . النساء يرسلن شعرهن على ظهورهن (او) يثنينه ويعقدنه ؛ ملابسهن أشبه بُدثر بسيطة يرتدينها بادخال رأسهن فيها . يزيّنّ أوجههن بالزنجفر على طريقة نساء « بلاد الوسط » ؛ وتستعمل النساء غبار الارز . المساكن محاطة بالجدران والسياج . لكل من الاب والام والابناء مسكنه الخاص . لا ينفصل الرجال عن النساء إلا في الجمعيات. يشربون ويأكلون بأيديهم ، ولكنهم يستعملون السلة والصحن .

« من عاداتهم انهم يسيرون حفاة ؛ ويرون في جلوس القرفصاء دليل احترام . ومن مزاجهم الاكثار من شرب خمر الارز . يعمّرون طويلاً ، وكثيرون منهم يتجاوزون سن المائة . النساء كثيرات في البلاد ؛ فلدى الكبار منهن أربع او خمس زوجات ولدى الآخرين اثنتان او ثلاث. والنساء بعيدات عن الطيش والحسد .

« من أخلاقهم انهم بعيدون عن اللصوصية والسرقة والمنازعات ؛ واذا ما خالف احدهم القوانين، فانه يحرم من زوجاته وأولاده، واذا كانت مخالفته خطيرة، يباد أفراد عائلته وأنسباؤه.

« في حالة الموت ، تحفظ الجثة عشرة أيام أو اكثر . افراد العائلة يبكون وينتحبون ، ولا يتناولون نبيذاً او طعاماً ، ولكن الاصدقاء يأتون ويرقصون ويغنون ويحاولون الالهاء. يحرقون العظام لمعرفة الغيب ولإقرار ما هو فأل وما هو شؤم . في الرحلات البرية والاسفار البحرية ، يطلبون الى احد الرجال الامتناع عن الاغتسال وتسريح الشعر وأكل اللحوم ومقاربة الزوجة ، ويطلقون عليه اسم « لابس الحداد » (الزاهد) . فاذا كانت الرحلة ناجحة ، كافأوه بالهدايا الثمينة ، واذا مرض المسافرون او تعرضوا للاعتداء ، اعتقدوا بأن « لابس الحداد » كان مهملاً واتفقوا على قتله » .

في السنة ٥٧ بعد المسيح ، قصد احد اعيان « كيوشو » بلاط الهان ، حاملاً جزية جزيرته وتهانئه للبلاط الصيني ، فكافأه الامبراطور بان وهبه خاتماً ووشاحاً . ولعل هذا الخاتم هو ما اكتشفه احد فلاحي « شيكوزن » في السنة ١٧٨٤ . ولا يرد ذكر علائق اليابان الرسمية بالصين مرة اخرى إلا في السنة ١٠٧ ، حين ارسل « ملك » ياباني الى البلاط الصيني مائة وستين عبداً كما جاء في التقليد . ويروى بعد ذلك ان احدى العوانس المتقدمات في السن قد انتخبت في السنة ١٩٤ ملكة بالاجماع ، ويقال انها مارست عبادة الابالسة وعرفت كيف تفتن الجماهير بسحرها . « كان لديها ألف من الإماء ، ولم يسمح برؤيتها إلا لعدد قليل من الناس . وأنيط برجل واحد تقديم المشرب والمأكل لها ونقل كلامها وخطبها. اقامت في قصر أسندت حراسة ابراجه واسواره الى جنود مسلحين . وقد سادت في عهدها قوانين وعادات الزامية وصارمة » . ولعل هذه « الملكة » هي التي أرسلت الى لو ـ يانغ بعض الوفود في السنتين ٢٣٨ و ٢٤٣ وأقامت علاقات ديبلوماسية مع الحاكم الكوري في تاي ـ فانغ . ويروى ان ألف شخص قد دفنوا معها حين أدركتها المنية ، وقد وضعت جثتها في ضريح يبلغ ١٠٠ قدم عرضاً .

بيد ان كل ذلك يكتنفه الغموض ويختلط بالاسطورة . ويبدو من المرجح ان العلائق بين اليابان والصين كانت آنذاك تجارية أكثر منها ديبلوماسية ؛ اضف الى ذلك انها بقيت متقطعة حتى القرن السابع . فحتى هذا التاريخ قايضت اليابان عبيدها بالمنسوجات والاسلحة الحديدية والمرايا البرونزية . وقامت هذه العلائق ، في الدرجة الاولى ، بواسطة كوريا الجنوبية التي ربما جمعت بين سكانها وسكان الجزر اليابانية بعض اوجه التشابه . ولكن العلائق الصينية ـ الكورية ، على ما يبدو ، قد اتسمت مع ذلك ببعض العداء ؛ اجل لقد ورد ذكر بعض المقايضات : ففي اواخر القرن الثالث مثلاً، وصل احد امراء « ميانا » (كوريا الجنوبية) الى بلاط « يماتو » حيث قدّم له

حرير أحمر ؛ وبعد مرور زمن قصير قاسى اليابانيون الامرين من آلام المجاعة فقصدوا كوريا يطلبون الارز . وانما ورد ايضاً ذكر الاهانة التي وجهها احد القادة الكوريين ، في السنة ٢٤٠ ، الى رئيس وفد ياماتو الى مملكة « سيلا » (كوريا الشرقية) ، وذكر استيلاء اليابانيين ، في السنة ٣٩١ ، على جزء كبير من كوريا الجنوبية ؛ ويروى ان كوريا الشمالية قد دحرت اليابانيين ، فانسحبوا ، ثم أعادوا الكرة في السنة ٤٠٤ .

من الجليّ الثابت ان أثر الصين في اليابان قد بقي محدوداً : فقد عاشت هذه الاخيرة في شبه عزلة ، خاضعة لحضارة خاصة ، ومحتاطة ، على ما يبدو ، لكل تدخل اجنبي في شؤونها . يشق علينا اليوم معرفة ميزات هذه الحضارة معرفة تامة ، ولكننا نستطيع التنويه بتلك البيوت التي استندت العارضة الخشبية في أعلى سقفهـا الى اوتاد عمودية وتقاطعت روافدها بشكل × متجاوزة العارضة تجاوزاً عظيماً ، وقد غطي سقفها بالتبن الطويل وقشر الشربين ، وثبتت كافة أجزائه بالرُبُط ؛ كما احيط المسكن بسياج خشبي أو اكثر . ونعلم كذلك ان اليابانيين كانوا مُضرّين (كثيري الزوجات) ، وان الشبان والشابات كانوا يعيشون منفصلين ولا يستطيعون الاجتماع في مكان واحد إلا أثناء الليل . كما نعلم ان الزواج بين الاقارب الادنين كان غير نادر . ونعلم اخيراً ان الجثث لم توار الثرى ــ في نواويس فخارية ــ إلا بعد انحلالها .

اما الديانة ، الـ « شنتو » ، فقد سيطرت عليها فكرة النقاوة الطقسية : فالموت والمرض وكل اراقة دم مجلبة للدنس . لذلك بنيت أكواخ خاصة للولادة والحيض والنكاح الاول والموت ، على غرار المساكن العادية. اما الإمساك الطقسي على أنواعه فقد أنيط بـ « لابس الحداد » الذي يتعهد بالتقيد به عن جمهور معين . ولم يكن للآلهة (كامي) سوى أهمية محلية ولم يخصصوا بمعابد مسقوفة ؛ وكان هنالك غابات مقدسة . وربما كانت الضحايا التي تقدم للـ « كامي » رمزية فقط : أحصنة وابقار بيضاء ، قنيص ، نسيج كتان ، قنّب ، ورق . وقد أمنت الاتصال بالآلهة نساء وسيطات تعاطين مناجاة الارواح والسحر .

قام المجتمع على أساس العائلة او التكتل الذي يكرم جداً مشتركاً ، دون ان يكون هنالك عبادة خاصة بالجدود كما في الصين . وقد ضمت النقابات او المهن الفلاحين والصيادين وعمال الغابات ؛ ولابسي الحداد والعرافين والمغنين ؛ والقصابين ؛ وصناع التروس والحاكة والخياطين ؛ والجنود والسوّاس والقيمين على خزائن الاسلحة ؛ والكتبة والتراجمة والسرّاجين والرسامين والخزافين .

لم يكن بعد الصين ــ او لكوريا الصينية ــ أثر يذكر في هذه الحضارة الجزائرية التي ما زالت ابنة بيئتها . ولن تنفتح اليابان حقاً امام التأثير الاجنبي قبل تسرب البوذية في القرن السادس .

الخــاتمـــة

ان المجلّد الثاني من « تاريخ الحضارات العام » هــذا ، بتناوله بالبحث الغرب المتوسطي والاوروبي ، قد وسّع النطاق الذي تناوله المجلد الاول توسيعاً عظيماً . ولكننا حتى الآن لم نستطع ذكر شيء عن مناطق شاسعة في الكرة الارضية : اوستراليا ، القارة الاميركية بأكملها، آسيا الشمالية ، معظم اوروبا الشمالية والشرقية ، والشطر الاكبر من افريقيا .

ولا يعني ذلك ان الانسان لم يعرفها . فوجوده فيها ثابت كما في غير مكان . وهو قـد انتظم فيها مجتمعات، ودولاً احياناً. واستثمر الارض وحول محاصيلها الضرورية لحياته ولهوه ونزاعاته. وخضع لموجبات اخلاقية فردية وجماعيـة . وتساءل عن مصيره ، فأدى واجباته نحو موتاه . وحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، فاعتقد بقوى خارقة متفوقـة على ضعفه ، وصرف ذهنه وفطنته في استمالتها اليه ، او اقله في اخماد عدائها نحوه . وقد يكون كل ذلك بدائياً ، ولكنه ليس في الواقع أكثر بدائية منه في ما بدا عند نشأة شعوب عديدة خصّها هذان المجلدان بأكثر من فصل من فصولها .

غير ان هذا التحيز الظاهر لا يستدعي أي حكم هام، ولا أية تخطئة بصدد برنامج هذه المجموعة كما حددته المقدمة العامة . وان في الانتباه الذي أعرناه الشرق الاقصى لدليلاً كافياً على ان درس « الحضارات » لم ينحرف نحو درس « الحضارة » المتمثلة ضمناً بالحضارة الاوروبية . إلا ان التاريخ لا يمكن وضعه دون حد أدنى من النور ودون هيكل توقيتي أولي ايضاً . فحتى الآن ، بخلت علينا مصادرنا الأثرية المتفرقة بالنور والتوقيت اللازمين في كافة هــذه المناطق : ولن نستطيع إلا في عهد لاحق ان نشمل بنظرتنا الانسانية جمعاء .

شملت هذه النظرة هنا نطاقاً واسعاً يمتد من اليابان إلى المغرب ومن سكوتلندا الى الحبشة فشبه الجزيرة الماليزية : فراقبت فيه حضارات متباينة، مختلفة المصائر، زعزعتها ازمات مستقل بعضها عن بعض . لقد جرت بينها بعض الاتصالات : وقد حاولت استعراضاتنا أعلاه الاشارة اليها والى الاقتباسات المتبادلة بين حضارة وحضارة . وقد جاءت الحصيلة ، لعمري ، في هــذه القرون الاولى من العهد الميلادي ، اوفر منها في العهد السابق .

هنالك في الدرجة الاولى عمل روما الامبراطوري الذي وحّد الحوض المتوسطي كله وضمّ اليه قطاعات كبرى من اوروبا الغربية . ففي كل مكان ، وطيلة اربعة او خمسة قرون ، قامت دولة واحدة، ان لم يكن لغة واحدة، كما قام ، بفوارق اقليمية بسيطة، مجتمع واحد ، ومظاهر

حياة خارجية واحدة ، ومعتقدات واحدة ، وشواغل فكرية واحدة : ولما كان تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية على بعض السهولة نسبياً ، لأنها لا تحتاج إلا الى القوّة، فقد آزرتها نجاحات الوحدة الاقتصادية والاخلاقيـــة التي أتاحت هي تحقيقها . واذا كانت العوالم الأسيوية ، التي تكونت من قبل ، لم تتبع آنذاك مراحل الوحدة هذه ، فان احدها على الاقل ، اعني به العالم الصيني(وأننا نهمل العالم الهندي الذي خلخله دخول الغزاة الى أقاليمه الشمالية الغربية) ، يوفر لنا مشهد عظمة مماثلة .

ولكن هنالك ما هو أهم من الوحدة الداخلية في كل من هذه الكتل الاقليمية والبشرية . فقد قامت بينها علائق أقل ندرة وربما اوفر اثاراً من ذي قبل . فالمصنوعات الكمالية قويضت بكميات كبيرة ، ونقلت على طرقات طويلة ، لأن الحرير فعل في الغربيين فعل السحر ، وجعل منهم ، منذئذ ، زبن « بلاد الحرير » ، أي الصين . وقامت بعض العلائق الروحية ايضاً . فقد ظهر الفن اليوناني ـ البوذي بظهور صورة بوذا البشرية . وربما اقتبس أفلوطين بعض الشيء عن الهند ، ومهما يكن من الأمر ، فان غالبا نفسها قد تأثرت بالمانوية التي جمعت عناصر مختلفة أتتها من تعالیم زردشت وبوذا والمسيح . كما ان الإيمان بالمسيح ، من جهة ثانية ، قد دخل الى الهند ، ان لم يكن منذ القرن الاول بواسطة برتولوماوس وتوما ، فأقله في القرن الرابع : فان العجائبي المدهش ، تاوفيلوس الملقب بـ « الهندي » ، الآتي من جزيرة ثانية ، قد لعب دوراً على بعض الأهمية في بلاط كونستانس الثاني ، كما يبدو . وقد أخذت المسيحية ، في الوقت نفسه تقريباً ، تتجه نحو آسيا الوسطى متبعة في سيرها الطرق البرية المعروفة. اضف الى ذلك اخيراً ان تضامن هذه العوالم المختلفة ، وهو تضامن غير مباشر ، قد برز عند اكتمال العصور القديمة، بصدمة رجّع الغزوات : فهو دفاع الصينيين المستميت على حدودهم الغربية الذي دفع بالهون نحو الجنوب الغربي وأفضى الى النتائج التي جرّها هذا الدفع على البختيار والهند ، ثم على الامبراطورية الرومانية .

بيد أن شيئاً من كل ذلـك لن يؤثر في جوهر الامور . فالغرب لن يتأثر بالمانوية ، كما ان الشرق الأقصى لن يتأثر بالمسيحية . لا بـل ان غزوات البرابرة ستباعد بين العالمين بدلاً من أن تقارب بينهما . فهي في العالم الروماني القديم ، قد تسببت في نهاية الحضارات القديمـة ، أو في سرعة تطور ما بقي منها . أمـا في آسيا الشرقية ، فلا شيء يولد أو يموت في اواخر القرن الرابع ، او اوائل القرن الخامس : الحضارتان الصينية والهندية ، تستمران في الحيـاة بحسب نسقها القديم . فقبل ظهور الإسلام الذي لن يلبث أن يدخل بين هذين العالمين كإسفين أصلب وأثبت من الممالك الارساسية والساسانية ، أضعف انهيارُ الغرب العلائقَ السطحية القائمة بينهما: وستمر قرون وقرون قبل ان تشتد وتؤثر تأثيراً حقيقياً في مصير البشر .

١ ـ الغرب والامبراطورية الرومانية

١ ـ دراسات عامة

A. PIGANIOL, **Histoire de Rome**, (Paris, P.U.F., 4e éd., 1954).

P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, **Histoire de l'Art, I, L'Antiquité** (Paris, P.U.F., 1949).

L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, **Atlas historique, I, l'Antiquité** (Paris, P.U.F., 1937).

J. DELORME, **Chronologie des civilisations** (Paris, P.U.F., 1949).

A. PIGANIOL, **La conquête romaine** (Paris, P.U.F., 4e édit., 1944).

E. ALBERTINI, **L'empire romain** (Paris, P.U.F., 3e édit. 1939).

L. HALPHEN, **Les Barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle** (Paris, P.U.F., 5e éd., 1948).

Série de l'Histoire romaine :

- t. I, E. PAIS et J. BAYET, **Des origines à l'achèvement de la conquête, 133 avant J.-C.** (Paris, P.U.F., 2e éd., 1940).
- t. II, v. 1, G. BLOCH et I. CARCOPINO, **Des Gracques à Sylla** (Paris, P.U.F., 1935).
- t. II, v. 2, J. CARCOPINO, **César** (Paris, P.U.F., 1936).
- t. III, L. HOMO, **Le Haut-Empire**, Paris, P.U.F., 1933 .
- t. IV, v. 1, M. BESNIER, **L'Empire romain de l'avènement des Sévères au concile de Nicée** (Paris, P.U.F., 1937).
- t. IV, v. 2, A. PIGANIOL, **L'Empire chrétien** (Paris, P.U.F., 1947).

Dans la série Histoire du Moyen Age :

- t. I, **Les destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888**, v. 1, F. LOT, **De 395 à 768** (2e éd. 1940).
- t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, **Le monde oriental de 395 à 1081** (1944).

L'Encyclopédie photographique de l'art.

- t. II, **Mésopotamie, Canaan, Chypre, Grèce** (1936).
- t. III, **Grèce, Etrurie, Rome** (1938).

CH. PICARD, **La sculpture antique** (Paris, Laurens), t. II, **De Phidias à l'ère byzantine** (1926).

٢ ـ ايطاليا في أوائل عهدها والاتروسك

Storia d'Italia illustrata (Milan, Mondadori), t. I, P. DUCATI, **L'Italia antica dalle prime civiltà alla morte di Cesare, 44 a. C.** (1936).

R. BLOCH, **Les origines de Rome**, dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).

Du même, **Les Etrusques**, dans la même collection (1954).

B. NOGARA, **Les Etrusques et leur civilisation** (Paris, Payot, 1936).

P. DUCATI, **Le problème étrusque** (Paris, Leroux, 1938).

M. PALLOTTINO, trad. R. BLOCH, **La civilisation étrusque** (Paris, Payot, 1949).

A. GRENIER, **La religion étrusque**, dans le fasc. 3 du t. II, **Les religions de l'Europe ancienne**, de la collection « Mana» (Paris, P.U.F., 1948).

٣ - قرطاجنة

S. GSELL, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t. I-IV** (Paris, Hachette, 1913 et suiv.).

CH.-A. JULIEN et CH. COURTOIS, **Histoire de l'Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe** (Paris, Payot, 1951).

P CINTAS, **Céramique punique** (Paris, Klinckrieck, 1950).

G. CHARLES-PICARD, **Les religions de l'Afrique antique** (Paris, Plon, 1954).

C. PICARD, **Carthage** (Paris, Belles-Lettres, 1951).

٤ - الغاليون

C. JULLIAN, **Histoire de la Gaule, t. I-III** (Paris, Hachette, 1908-1909).

H. HUBERT, **Les Celtes et l'expansion celtique jusqu'à l'époque de la Tène, Les Celtes depuis l'époque de la Tène** et **La civilisation celtique**, vol. 21 et 21 bis de la collection « L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1932).

J. DECHELETTE, **Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine** (Paris, A. Picard), les quatre premiers volumes publiés de 1908 à 1914 et réédités en 1924-1927.

A. GRENIER, **Les Gaulois** (Paris, Payot, 1945).

E. THEVENOT, **Histoire des Gaulois**, dans la collection «Que sais-je ?» (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).

J. VENDRYES, **La religion des Celtes**, dans le fasc. 3 du t. II de la collection «Mana»

L. LENGYEL, **L'art gaulois dans les médailles**, (Montrouge, Corvina, 1954).

C. JULLIAN, les t. IV-VIII de **l'Histoire de la Gaule** (1914-1926).

E. THEVENOT, **Les Gallo-Romains**, dans la collection «Que sais-je?» (Paris, P.U.F., 1948).

P.-M. DUVAL, **La vie quotidienne en Gaule pendant la paix romaine** (Paris, Hachette, 1952).

J. CARCOPINO, **Points de vue sur l'impérialisme romain** (Paris, Le Divan, 1934).

٥ - رومـــا

L. HOMO, **La civilisation romaine** (Paris, Payot, 1930).

T. FRANK, **An economic survey of ancient Rom** (5 vol., Baltimore, The Johns Hopkins press, 1933-1941).

L. HOMO, **Les institutions politiques romaines, de la cité à l'État**, vol. 18 de la collection «L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1927).

A. GRENIER, **Le génie romain dans la religion, la pensée et l'art**, vol. 17 de la même collection (1925).

P. GRIMAL, **La vie à Rome dans l'antiquité**, dans la collection «Que sais-je?» (Paris, P.U.F. 1953).

J. BAYET, **Littérature latine : histoire et pages choisies traduites et commentées** (Paris, A. Colin, 6e éd., 1953).

H.-I. MARROU, **Histoire de l'éducation dans l'Antiquité** (Paris, éditions du Seuil, 1948).

E. STRONG, **L'art romain, dans la collection «Ars una»** (Paris, Hachette, 1932).

٦ - روما في العهد الجمهوري

G. BLOCH, **La République romaine, conflits politiques et sociaux**, (Paris, Flammarion, 1913).

E. MEYER, **Römischer Staat und Staatsgedanke** (Zurich, Artemis Verlag, 1948).

G. COLIN, **Rome et la Grèce de 200 à 146 avant J.-C.**, fasc. XCIV de la « Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome» (Paris, Fontemoing, 1905).

P. GRIMAL, **Le siècle des Scipions; Rome et l'hellénisme au temps des guerres puniques**, (Paris, Aubier, éd. Montaigne, 1953).

٧ - روما في العهد الامبراطوري

G. BLOCH, **L'Empire romain, évolution et décadence**, dans la collection «Bibliothèque de philosophie scientifique» (Paris, Flammarion, 1921).

M. ROSTOVTZEFF, **The social and economic history of the Roman empire** (Oxford, 1926), dont des éditions revisées et complétées ont paru en allemand (1931), en italien (1933) et en espagnol (1938).

M.-P. CHARLESWORTH, trad. par G. BLUMBERG et P. GRIMAL, **Les routes et le trafic commercial dans l'Empire romain** (Paris, éditions de Cluny, 1938).

F. CUMONT, **Les religions orientales dans l'Empire romain** (Paris, Leroux, 4e éd., 1929).

L. HOMO, **Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité**, vol. 18 bis de la collection «L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1952).

A. et M. CROISET, **Histoire de la littérature grecque**, t. V (Paris, de Boccard, 3e éd., 1914).

٨ - الامبراطورية الاولى

L. FRIEDLANDER, **Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms, in der Zeit von Augustus bis zum Ausgang der Antonine**, (10e éd., 4 vol., Leipzig, 1920-1923).

J. CARCOPINO, **La vie quotidienne à Rome à l'apogée de l'Empire** (Paris, Hachette, 1939).

J. CHARBONNEAUX, **L'art au siècle d'Auguste** (La guilde du livre, 1948).

٩ - الامبراطورية الثانية

E. STEIN, **Geschichte des spätrömischen Reiches, t. I, Vom römischen zum byzantinischen Staate, 284-476 n. Chr.** (Vienne, 1928).

F. LOT, **La fin du monde antique et le début du Moyen Age**, (Paris, A. Michel, 1927).

R. LATOUCHE, **Les grandes invasions et la crise de l'Occident au Ve siècle**, (Paris, Aubier, 1947).

H.-I. MARROU, **Saint Augustin et la fin de la culture antique** (Paris, de Boccard, 2e éd., 1950).

Du même, **Saint Augustin et l'augustinisme**, (Paris, éditions du Seuil, 1955).

١٠ - الكنيسة

L'histoire de l'Eglise depuis les origine jusqu'à nos jours, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay).

— t. I, J. LEBRETON et J. ZEILLER, **L'Eglise primitive** (1933).
— t. II, Des mêmes, **De la fin du IIe siècle à la paix constantinienne** (1935).
— t. III, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et J.-R. PALANQUE, **De la paix constantinienne à la mort de Théodose** (1936).
— t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et L. BREHIER, **De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand** (1937).

Mgr L. DUCHESNE, **Histoire ancienne de l'Eglise** (4 vol., Paris, de Boccard, 1910-1929).
H. LIETZMANN, trad. JUNG, **Histoire de l'Eglise ancienne** (3 vol., Paris, Payot 1936-1941).
P. DE LABRIOLLE, **Histoire de la littérature latine chrétienne**, 3e éd. revue par G. BARDY (2 vol., Paris, Belles-Lettre, 1947).
A. PUECH, **Histoire de la littérature grecque chrétienne** (3 vol., Paris, Belles-Lettres, 1928-1930).
CH. DIEHL, **L'art chrétien primitif et l'art byzantin** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).

١ ـ آسيا الشرقية منذ اوائل العهد المسيحي حتى آخر القرن الرابع

١ ـ دراسات عامة

راجع مصادر الجلد الاول : الشرق واليونان القديمة ١٩٦٤ ، ص ٦٤٧ وما يليها . منشورات عويدات — بيروت .

٢ ـ الهنــــد

A. L. BASHAM, **The Wonder that was India**, (Londres, Sidgwick et Jackson, 1954).
H. DEYDIER, **Contribution à l'étude de l'art du Gandhâra** (Paris, A. Maisonneuve, 1950).
A. FOUCHER, **L'art gréco-bouddhique du Gandhâra**, 3 vol. (Paris-Hanoï, 1918-1951).
R. GROUSSET, **Les philosophies indiennes**, 2 vol. (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).
R. GHIRSHMAN, BEGRAM, **Recherches archéologiques et historiques sur les Kouchans**, Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. XII (Le Caire, 1946).
J. et R. HACKIN, **Recherches archéologiques à Begram**, chantier N° 2 (1937), 2 vol., Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. IX (Paris, Les éditions d'Art et d'Histoire, 1939).
Des mêmes, **Nouvelles recherches archéologiques à Begram** (1939-1940) (Paris, P.U.F., 1954).
J.-E. VAN LOHUIZEN-DE LEEUW, **The «Scythian» Period** (Leyde, Brill, 1949).
H.-G. RAWLINSON, **Intercourse between India and the Western World— to the fall of Rome** (Cambridge, 1926).
J.-Ph. VOGEL, **Ars Asiatica**, (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1930).
L. RENOU, **La civilisation de l'Inde ancienne**, (Paris, Flammarion, 1950).

٣ ـ الصين

HIRTH, **China and the Roman Orient** (Leipzig, 1885).
H. MASPERO, **Les religions chinoises**, (Paris, S. A. E. P., 1950).
H. MASPERO, **Le taoïsme**, (Paris, S. A. E. P., 1950).
P. PELLIOT, **La haute Asie**, s. l. n. d.

٤ ـ الهند الصينية وجزر جنوبي شرقي آسيا

G. MASPERO, **Le royaume de Champa** (Paris, Van Oest, 1927).
P. DUPONT, **La statuaire préangkorienne** (Ascona, Ed. Artibus Asiae, 1955).

٥ ـ اليابان وكوريا

J. BUHOT, **Histoire des arts du Japon**, I (Paris, Van Oest, 1949).
A. ECKARDT, **A History of Korean Art** (Londres-Leipzig, 1929).
G.-B. SAMSON, **Le Japon** (Paris, Payot, 1938).

مراجع عربيـــة

تتمة للبحث ، واستكمالاً لجريدة المصادر المرجعيـة ، رأت دار منشورات عويدات في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف أسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات ، والخبير العالمي بالبيبليوغرافيا الشرقية ، وأحـد المترجين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة بأهم المراجع والمصادر التاريخية العربية العامة التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا وقام بإعداد هذه القائمة خدمة منه للبحث العلمي والباحثين في عالم الضاد ، ممن يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الممتد من أواسط القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى اواخر القرن الرابع بعده .

الإدارة

١ – التاريخ العـــام

يوحنا ايكاريوس: قطف الزهر في تاريخ الدهور – بيروت، المطبعة الأدبية ١٨٨٥، – ص٥٢٩.

بوسويه : خطاب في التاريخ العـام . ترجمة شاكر عون والشيخ عبد الله البستاني – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٨٢ ص ٣٤٤ .

جرجي زيدان : التاريخ العام ، منذ الخليقة الى يومنا هذا – القاهرة .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك – القاهرة ، المكتبة التجارية ٨ أجزاء ، ١٩٣٩ .

مايرز ، فيليب فان نيس : التاريخ العام . ترجمة عن الانكليزية – بيروت ، المطبعة الأميركية ، ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، ٣ أجزاء في مجلد واحد .

هامرتن ، السيرجون الكسندر : تاريخ العالم. ترجمة وزارة المعارف العمومية – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ ، وترجمة ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ – ١٩٦٠ في ٢٢ عدداً.

ولز ، هربرت جورج : معالم تاريخ الانسانية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ٣ مجلدات .

لانجر ، وليم ليونارد : موسوعة تاريخ العالم. أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ – ١٩٦٢ ، في ٤ مجلدات .

فير سرفس : أصول الحضارة الشرقية. ترجمة رمزي يس – القاهرة، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، ١٩٦٠ ص ٢٧٨ (الألف كتاب – ٣٠٤) .

رالف لنتون : شجرة الحضارة . قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ – ١٩٦٠ ، جزءان في مجلدين .

برستد ، جيمس هنري : العصور القديمة . ترجمة داود قربان ، وهو تمهيد لدرس التاريخ القديم واعمال الانسان الأول – بيروت ، ١٩٣٠ ، ص ٦١٦ .

» : انتصار الحضارة . تاريخ الشرق القديم . نقله الى العربية احمد فخري – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ (يحتوي هذا الكتاب ٣٠ فصلاً ... لم يترجم منها إلا الفصول الثانية الاولى) .

ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة ، ١٩٥٩ ، عدة اجزاء :
ج ١ ق ـ ١ : نشأة الحضارة
ق ـ ٢ : الشرق الادنى
ق ـ ٣ : الهند وجيرانها
ق ـ ٤ : الشرق الأقصى ـ الصين
ق ـ ٥ : « « ـ اليابان
ج ٢ ق ١ ـ ٣ : حياة اليونان
ج ٣ ق ١ : قيصر والمسيح او الحضارة الرومانية.

٢ ـ ايطاليا

فرنسيس دينوار : ايطاليا ... شعبها وارضها . ترجمة محمد نظيف، مراجعة عبد الرحمن زكي، تقديم عز الدين فريد ـ القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ ص ١٢ .

٣ ـ روما

فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة . دراسات لعبادة الاغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم. ترجمة عباس بيومي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ص ٥٥٠ .
الدكتور اسد رستم : عصر أوغسطس قيصر وخلفاؤه : ٤٤ ق.م ـ ٦٩ ب.م ـ بيروت ١٩٦١ ـ الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات التاريخية ـ ٧ .
فيشر ، هربرت البرت لورنس : تاريخ اوروبا في العصور القديمة . ترجمة ابراهيم نصوحي ومحمد عواد حسين ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ١٧٨ .
بلوتارخوس : العظماء . عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم . ترجمة ميخائيل بشاره داود ـ القاهرة ، دار العصور ، ١٩٢٨ .

٤ ـ الفينيقيون

جورج نقولا عطية : مباحث في المدنية الأولى ـ بيروت ، دار النشر الجامعيين ، ١٩٥٦ ص ٢٠٣ (قدم له خليل الجر) .
عبد الله يوسف نحاس : الفيليقيون وركاز النهب واكتشاف اميركا ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة مطبعة جريدة البصير ، ١٩٥٠ ص ١٢٦ .

٥ ـ الساسانيون

كريستنسن، آرثر: ايران في عهد الساسانيين. ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، راجعه عبدالوهاب عزام ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ ص ٥٩١ .
محمد محمدي : النظم الادارية الساسانية في دولة الخلفاء وما ظهر من اثر في الأدب العربي ـ بيروت ١٩٤١ (اطروحة بالدائرة العربية في الجامعه الاميركية) .
ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة الفارسية . ترجمة امين الشواربي ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٤٧ ص ٨٩ .

ان التوقيت القديم غير اكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى استعمال مصطلحات تشير الى تاريخ تقريبي فقط :

– ان كلمة « حوالي » تشير الى تاريخ متأرجح قد يبلغ التفاوت فيه بين نصف قرن وعشر سنوات .

– ان علامة الاستفهام (؟) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط .

ظهور حضارة هالشتا في اوروبا الوسطى ، وحضارة المدينة الجديدة في ايطاليا الشمالية . وعقبت هذه الاخيرة ، دون فاصل زمني، الحضارة الاتروسكية في ايطاليا الوسطى .

تأسيس قرطاجة ، مستعمرة صور .

التقليد يحدد السنة ٧٥٣ تاريخا لتأسيس روما . بدء الاستعمار اليوناني في ايطاليا الجنوبية وصقلية .

سيادة الاتروسك على روما . قرطاجة تجمع تحت سيطرتها الاسواق الفينيقية في المتوسط الغربي .

الاغريق الايونيون يؤسسون مرسيليا (٦٠٠) . الاتروسك يقيمون في كمبانيا . الكلتيون يدخلون شبه الجزيرة الايبيرية

الاتروسك والقرطاجيون يهزمون الاغريق قرب كورسكا . ثم لا يلبث الاتروسك ان يقيموا في سهل البو .

روما تقلب الملكية وتتخلص من سيطرة الاتروسك .

استبداد الدينومينيين في سيراكوزا : انتصار المستبد جيلون ، في ٤٨٠ ، على القرطاجيين في هيميرا ، اخوه وخلفه هيرون يهزم الاتروسك قرب كوم في السنة ٤٧٤ . الاتروسك يتخلون تدريجيا عن كمبانيا للسمنيين . بدء حروب روما ضد جيرانها في اللاتيوم وايطاليا الوسطى . بدء صراع عامة الشعب للحصول على المساواة المدنية والسياسية بالاشراف : في ٤٩٤ ، احداث منصب المحامي عن عامة الشعب . فاتان يونانيان يزينان معبدا في روما .

شريعة اللوحات الاثنتي عشرة .

ظهور الحضارة التينية في اوروبا الوسطى والغربية .

تجدد الحرب بين قرطاجة والاغريق في صقلية : استبداد مليز القديم في سيراكوزا (٤٠٥ - ٣٦٧) . الرومان يحاصرون (٤٠٦ - ٣٩٦) ويحتلون مدينة فيي الاتروسكية . ظهور الغاليين في ايطاليا في اوائل القرن الرابع وبلوغهم روما التي ينهبونها في ٣٩٠ . الغاليون في سهل البو بعد طرد الاتروسك منه ، احتلالهم فلسينا (حوالي ٣٦٠) التي تصبح بولونيا

الشرق الادنى	الهند والصين
ات الهنود الاوروبيـــــين واقامتهم في الشرق الادنـى يد • الامبراطورية المصرية الحديثة (١٥٨٠ ـ ١٠٩٠) • الحضارة الايجية حوالي ١٥٠٠ •	حضارة الهندوس (موهنجودارو هارابا) • كتابة لم تحل رموزها بعد • في الصين : سلالات هيا وشانغ وتشيو • حوالي ١٥٠٠ وصول الـ «آريه» الى حوض الهندوس •
ركات الشعوب في الشرق الادنى : « شعوب البحر » ، ة الفلسطينيين على ساحل فلسطين ، انحطاط الامبراطورية ية والمصرية ، غزو الدوريين لليونان •	
الفتوحات الاشورية الكبرى في القرن التاسع •	امتداد الآرية نحو الغانج
روع بوضع لائحة الفائزين في الالعاب الاولمبية •	
يض القوة الاشورية على ايدي البابليين والميديين واحتلال وى وهدمها في ٦١٢) • شرائع دراكون في اثينا (٦٢١)	
وخــذنصر يحتل اورشليم • سبي بابل • في السنة ٥٩٤ رائع صولون في اثينا حيث يقيم بيسستراتوس نظام الاستبداد	
ـد ولاية قورش • فتوحات فارسية عظمى • يطلق الاغريق اجرون بعد فتح آسيا الصغرى •	الهند : امتداد الآرية شرقا وجنوبا • قورش يحتل كابول (؟) • مولد بوذا (٥٥٦) • مولد جينا (٥٤٠ ؟) • فتوحات داريوس في الهند الشمالية • الصين : مولــد كونفوشيوس (٥٥١ ؟) •
لب الاستبداد الاثيني في السنة ٥١٠ •	
لحروب الميديــة : في ٤٩٠ و٤٨٠ ـ ٤٧٩ الاغريق يهزمون لفرس • نشأة ونمو القــوة البحرية الاثينية • اسخيــل سوفوكليس • حوالي ٤٧٠ مولد سقراط •	الصين : الممالك المحاربة • حياة الفيلسوف مو ـ تسو (٤٨٠ ـ ٤٠٠ تقريبا) • موت كونفوشيوس (٤٧٩) • الهند : موت بوذا (٤٨٧ ؟) موت ؟ جينا ، ٤٦٨
في ٤٤٧ ، الشروع ببنــاء البارثنون • من ٤٤٣ حتى ٤٣٠ بريكليس قاض اول في اثينا • ماسي الذهبيه •	انشقاق التشيو (حوالي ٤٤٠)
٤٣١ : اندلاع حرب البلوبونيز ٤١٥ـ٤١٣ : حملة الاثينيين على سيراكوزا • ٤٠٤ : استسلام اثينا ، سيطرة اسبارطة عـلى اليونان حتى ٣٧١ • توسيديدس يضع تاريخ حرب البلوبونيز • مهازل اريستوفانوس • دعوى سقراط وموته في السـنة ٣٦٩ افلاطون يؤسس الاكاديمية في السنة ٣٨٠ •	

عامة الشعب الرومانية تسوزيللساواة بالاشراف • حصولهافي السنة ٣٦٧ على حق القنصلية ، للمرة الاولى يصبحاحد افرادها قنصلا في ٣٦٦ ودكتاتورا في ٣٥٦ ولـ احصاء في ٣٥١ •

سلسلة الحروب « السمنية » بين روما وجبليي الابنين الجنوبي • ٣٢١ : هز الرومان • روما تحتفظ انجهاكمباتيا حيث تضرب النقود منذ٣١٢ وتخضع السمنيين

ابيوس كلوديوس للاعمى احصاءالقناة الابية والطريق الابيــة

حملة مستبـد سيراكــوزا «اغاتوكليس » في افريقيا ضدقرطاجة •

حملة بيروس ملك الابير عـلىايطاليا بناء على دعوة طارنتا•حروبه في ايطاليا ضد ر وفي صقلية ضدقرطاجة وعودةالى اليونان • دخول الغاليــين الى مقدونيا وبلوغهم دلـ اول ٢٧٨ • استيطانهم ترالياوقلب آسيا الصغرى •

خضوع طارنتا لروما •

ادخال مبارزات المسايفين الىروما • الرومان يدخلون مدينةفولسيني الاتروريـة ويه ثم ينتقلون الى صقليةويحتلونمسينا : بداية الحرب البونيقيةالاولى •

نـــزول ريغولوس الى البــرالافريقي ، هزيمته واسره •

حياة بلوت

نهاية الحرب البونيقية الاولى:سيادة الرومان على صقلية •

اول ماساة مسرحية لليفيوسالدرونيكوس •

حياة اينيوس •

« حرب المرتزقة » في افريقيا•قرطاجة تتخلى عن سردينيـــاوكورسكا لرومـــا • في هاميلكار برقا يقصد اسبانيا ويبسط عليها سيطرة قرطاجة

مولد شيبيون الافريقي وكاتونالقديم •

حملة الديمقراطيين على مجلسالشيوخ : فلامينيوس محام عنحقوق الشعب •

الحرب الاليريـــة الاولى : اولتدخل لروما وراء الادرياتيك• موت هاميلكار برقا : صـ سلفه •

الشرق الادنى	الهند والصين
الديمقراطية الى اليونا منذ٤٠٢ · قيام الاتحاد البحري ولي ٣٧٧ · حزيمةسبارطةفي لوكترا في ٣٧١ وبعد للوذ حتى ٣٦٢ · فيلبوسيحكم مقدونيا من ٣٥٩ حتى ، ولي ٣٣٨ يبسطنفوذهعلى اليونان بعد انتصاره في تيا على الرغم من جهود ديموستينيس ·	الصين : حياة منشيوس (تسو) حوالي ٣٥٠
ـ ٣٣٣ : ملك الاسكندرالذي يمر في آسيا الصغرى في ويفتح صور في ٣٣٢وتؤسس الاسكندرية في ٣٣١ ع بابل في ٣٣١ ويخضعالايرانيين من ٣٣٠ الى ٣٢٧ زب في الهند في ٣٢٦و٣٢٥ ويموت اخيرا في بابل ٣٢٣ · بعد موته يتنازعقواده ارثه بقوة السلاح ·	الهند : سلالة الموريا (١٩٦)
	الهند : شاندراجوبتا يه العرش ٣١٣-٣١٢ ؟
، انتيغونس الاحول وابنهديمتريوس بوليوركيتس في اظ على وحدة امبراطوريةالاسكندر لمصلحتهما · منذ ٤ ٣٠٦ حمل عدد منالقادةلقب الملك ·	الصين : قيام محكمة الـ (٣١٠) · الهند : ولـ ميغاستين الىباتاليبوترا (٣٠٠) ·
ترار الملكيات الهلينية : الانتيغونيون في مقدونيا ، جيون في مصر،والسلوقيونفي ايران وبابل وسوريا وآسيا ىرى · بوادر سلطةالاتاليين على برغاموس · مولد ئوستينوس في ٢٧٥ ·	
، ابيقور	
، زينون مؤسس المدرسةالرواقية ·	الهند : اشوكا يعتلي ا ٢٦٤ ـ ٢٦١ ؟
لي ٢٥٠ اول عهد سلالةالارساسيين الفارتية ·	استقلال البختيار بفضل الـ ذيودوتوس الاول · اشوكا يعتنق البوذية (٢٤٦ : مباشرة بناء سورا

اخر غزو يقوم به الغاليون على شبه الجزيرة الايطالية :القضاء عليهم في راس تيلامون(٢٢٥)٠ بعد هذا النصر انتقل الرومان الى احتلال سهل البو السلتي بينو انه كان خاضعا لروما حتى اندلعت الحرب البونيقية الثانية

الحرب الاليرية الثانية٠ هنيبعل الذي خلف ابن عمه ، في ٢٢١ على راس قوات قرطاجة ، يهتل ساغونتا، فيؤدي عمله الى الحرب ضد روما ٠

استفتاء كلوديوس الذي يحظر التجارة البحرية على الشيوخ وابنائهم ٠

الحرب البونيقية الثانية ٢١٨:هنيبعل يجتاز غاليا الجنوبية والالب ويبلغ ايطاليا ويهزم الرومان على التسين وتريبيا ٢١٧، : هزيمة فلامينيوس ومقتله في بحيرة ترازيمينا ودكتاتورية ق٠ فابيوس مكسيموس والثاني عن تدابيره الدينية ، ٢١٦: معركة كانا ، فابيوس بكتور يستشير هاتف عيسب دلفي ٠ ٢١٥ :استسلام كابوا الى هنيبعل ،هنيبعل يحالف فيليبوس الخامس المقدوني ، قانون اوبيوس ضد بذخ النساء٠ ٢١٤ : سيراكوزا تنفصل عن روما التي تستعيدها في ٢١٢ بعد حصار طويل مات ارخميدس في نهايته ٠ ٢١٢ :هنيبعل يحتل طارانتا التي لن يستعيدها الرومان قبل ٢٠٩ ،اول احتفال باعياد ابولون في روما على الطقس اليوناني ٠ ٢١١ : استعادة كابوا ، هزيمة السيبيون ومقتله في اسبانيا على يد هاسدرو بعل شقيق هنيبعل، اتفاق روما والايتوليين والطالثاني للقيام بالحرب المقدونية الاولى ، في اليونان ٠ ٢١٠ : شيبيون الشاب يوفد الى اسبانيا حيث يحتل قرطجنة في ٢٠٩ ، في ٢٠٨ يهزم هاسدرو بعل الذي يتجه الى ايطاليا لمساندة اخيه ٠ ٢٠٧ : هزيمته عند الميطور ، قبل اتصاله باخيه، الترابه يحدث قلقاً كبيرا في روما حيث تتخذ تدابير دينية :تقديم ليفيوس اندرونيكوس ٠

٢٠٦ شيبيون يقضي على قوة قرطاجة في اسبانيا ، ثم يعود الى روما ٠ ٢٠٥ : روما تعقد الصلح مع فيليبوس المقدوني٠ شيبيون ، الذي عين قنصلا ،يحضر حملته على افريقيا ٠ ٢٠٤ : ادخال عبادة سيبيل الى روما ، شيبيون ينزل الى البر في افريقيا ويحالف ماسينيسا٠ ٢٠٣ : هنيبعل يجلو عن ايطاليا ٠ ٢٠٢ انتصار شيبيون في زاما ٠ ٢٠١ : الصلح مع قرطاجة ٠

موت بلاوتوس

الهند والصين	العالم الروماني وجيرانه
	الحرب المقدونية الثانية وتدخل روما العسكري في اليونان ٠ ١٩٧ : انتصار ت٠ كونكتيوس فلامينيوس في سينوسيفال ٠ ١٩٦ : اعلان استقلال الدول اليونانية المسلوخة عن مقدونيا٠ ١٩٤ : جلاء القوات الرومانية عن اليونان جلاء تاما ٠
	روما تحتل غاليا الايطالية مجددا وتخضع القبائل الليغورية
	القوانين البوركية التي لا يعرف واضعوها والتي تستهدف حماية المواطنين ضد تحكم القضاة ٠
	هنيبعل يقوم باصلاحات داخلية في قرطاجة ٠ منفاه والتجاؤه الى انطيوخوس الثالث ، موته في بيتينيا في ١٨٣-١٨٢ بعد مطاردة روما له ٠
	قنصلية كاتون ، الغاء القانون الاوبي ٠ كاتون يقمع ثورات القبائل الاسبانية ٠
	حياة تيرانس ٠

وس الخامس يفرض السلم على اعدائه اليونانيين في ٢١٧ يه بطرد الرومان من الممتلكات التي احتلوها في يا · ٢١٢ الى ٢٠٥ ، انطيوخوس الثالث ، الذي سبق ع محاولة اغتصاب في آسيا الصغرى بحملة عسكرية كبرى ارمينيا وهضاب ايران : بعد اعادة السلطة السلوقية عليه للمناطق التالية ، فاشتهر في طريق عودته نحو سط · وس الخامس وانطيوخوس الثالث يقومان باعمال متوازية آسيا وبحر ايجه ، منذ ٢٠٣ للافادة من انحطاط قوة بيين أسياد مصر ·	الصين : سلالة الهان (٢٠٦ قبل المسيح – ٢٢٠ بعد المسيح) ·

العالم الروماني وجيرانه	التواريخ
الحرب بين انطيوخوس الثالث والايتوليين · شتاء ١٩٠–١٨٩ معركة مغنيزيا · ١٨٨ : معاهدة أباميا تحد من القوة السلوقية بعد الحملة على غلاطيي آسيا الصغرى ، لم يبق ، بعد ٨٧ اي جندي روماني في آسيا واليونان ·	١٩٢ – ١٨٨
فضيحة الرقصات الخلاعية	١٨٦
كاتون قاضي احصاء · مولد شيبيون اميليانوس ·	١٨٥ – ١٨٤
موت شيبيون الافريقي الذي انبعث عليه دعاوى عديدة في اواخر حياته ·	١٨٣
حياة باناييتيوس الرودسي ·	١٨٠ (؟) – ١١٠ (؟)
حياة لوسيليوس	١٨٠ (؟) – ١٠٣ (؟)
حرب الكلتيبير التي اشتهر فيها ط· سامبرونيوس غراكوس اب الاخوين غراكوس ·	١٨٠ – ١٧٨

الحرب المقدونية الثالثة ضد الملك برسيه : انتصار بـــول اميل في بيدنـــا . بوبيليوس يرغم انطيوخوس الثالث على الجلاء عن مصر . ١٦٧ : تنظيم اربع جمهوريات مستقلة فـــي مقدونيا . الغاء الضريبة المباشرة. نفي ١٠٠٠ آخي الى ايطاليا بينهم بوليب .

مشورة مجلسية تقضـــي بطرد الفلاسفة وعلماء البيان من روما. روما تحالف اليهود الثائرين على المملكة السلوقية .

حرب ثانية ضد الكلتيبر .

السماح لـ ٣٠٠ آخي بقوا على الحياة بالعودة الى اليونان

الحرب البونيقيـــة الثالثة : شيبيون اميليانوس يعين قنصلا لادارتها . يهدم قرطاجة فـــي ١٤٦ . احتلال ولاية افريقيا. في الوقت نفسه . احتلال حاسمة في اليونان . ١٤٩ : ثورة مقدونيا التي يلي تحولها البلاد الى ولاية . ١٤٧ : الاتحاد الآخي يعلن حربا تؤدي في ١٤٦ ، الى هدم كورنثوس على يد القنصل لوميوس .

الحبر الاعظم موسيوس سكافولا يوعز بتحرير ونشر الحوليات العظيمة » .

اللوزيتاليون يقاومون السيطرة الرومانية ، وقد اغتيل رئيسهم فيريات في ١٣٩

الحرب الثالثة والاخيرة ضد الكلتيبر . ١٣٧ : كارثـــة رومانية امام نومانس . شيبيون اميليانوس يعين قنصلا مرة ثانية في ١٣٤ لادارة الحرب الـى ١٣٣ يحتـــل نومانس ويهدمها .

الصين : ووتـــي (١٤٠ ـ ٨٧) ، امة الفتوحات نحو التركستا

الحرب البدية الاولى

حياة بوزايدونيوس

طيباريوس غراكوس محام عن الشعب قانونه الزراعي وموته. اطال الثالث يموت بعد ان عين الشعب الروماني وريثا له .

حوالي ١٣٠ ، بلغ الـ م البكتريان واخضعوها .

تحويل المملكة الاطالية القديمة الى ولاية » آسيا » بعد انكسار ارسطونيكوس . موت شيبيون اميليـــانوس . الفارتيون الارساسيون ينتزعون بلاد بابل وماذيا من المملكة السلوقية .

احتلال وتنظيم ولاية غاليـــا الناربونية . ١٢٢ : تأسيس اكواسكستيا (اكس) . ١٢١ :هزيمة بيتويت ملك الارفرن . ١١٨ : تأسيس ناربونا .

كايوس غراكوس محام عن عامة الشعب .

العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
ماريوس محام عن عامة الشعب، قانون سرية الانتخاب .	
مولد فارون الذي سيموت في ٢٧ .	علاقات دبلوماسية بين ا والبختيار
الحرب ضد جوغورتا . ١٠٧ تعيين ماريوس قنصلا لادارتها. ١٠٦ بوخوس ملك موريتانيا يسلم جوغورتا .	
غزوة السمبر والتوتون. ١٠٥: هزيمة الرومان في اورانج . ١٠٢ و١٠١: انتصارات ماريوس الحاسمة في اكس وفرسيل .	الهند : هليودوروس يقي الـ « فيديشا »
مولد شيشرون وبومبيوس .	
الحرب العبدية الثانية	
مولد قيصر .	
قنصلية ماريوس السادسة . اضطرابات في روما وموت ساتورنينوس	
حياة لوكريس	
ليفيوس دروزوس محام عن الشعب في السنة ٩١ . موته يثير الايطاليين . « الحرب الاجتماعية » تعصف بالمدة حتى السنة ٨٨ . تاريخ توسيع حق المدنية .	
نشاط التعاطي باسيتيلس فيه،	
بدء الحرب الاولى ضد متريدات : يأمر في السنة ٨٨ بتقتيل الايطاليين في آسيا وديلوس . اليونان تثور ، سيلا يستعيد اثينا في ٨٦ . يعقد صلحا مع متريدات في ٨٥ . اثناء غيابه اصبح الديمقراطيون مع ماريوس (الذي مات في ٨٧) وسينا (الذي مات في ٨٤) اسياد روما . سيلا يعود على رأس جيشه ، وفي السنة ٨٢ يهزم خصومه امام روما التي يدخلها عنوة ، احكامه بالنفي .	
مولد كاتولوس ، الذي سيموت حوالي ٥٤ (؟) ، وسالوستوس الذي سيموت في ٣٥ دكتاتورية	
سيلا ، اصلاحاته الدستورية ، تشييد الابنية في روما وبرينستا . . سيلا يستقيل في ٧٩ .	
الحرب في اسبانيا ضد الديمقراطي سرتوريوس . بومبيوس يضع لها حدا ويعيد الهدوء الى منطقة البيرينه .	ال شاكاه ينزلون نحو البنجـ ومالوا .
الحرب العبدية الثالثة (سبارتاكوس) . فيريس قاضي صقليا .	الصين : سيوان ـ تي يعتـ العرش في الصين (٧٣ـ٤٩) فتوحات جديدة نحو الغرب
بدء الحرب الثانية ضد متريدات بقيادة لوكولوس حتى ٦٧ . جيشه يثور عليه فيفقد الافادة من انتصاراته .	

قنصلية بومبيوس وكراسوس ، دعوى فيريس • الغاء قوانين سيلا • مولد فيرجيل الشاعر في السنة ١٩ •

اول عهد آ « اندرا » في جا الهند •

حملات بومبيوس في الشرق ضد القراصنة (٦٧) ، ثم ضد متريدات (٦٦) الـذي يلتجئ الى مملكة البوسفور حيث ينتحر ٦٣ • بومبيوس يجوب ارمينيا ، وسوريا التي يضمها الى الامبراطورية وينظمها ولاية (٦٣) ، وفلسطين حيث يحتل اورشليم (٦٣) •

قنصلية شيشرون ، انتخاب قيصر حبرا اعظم ، مؤامرة كاتيلينا ، مولد اوكتافيوس ، امبراطور الغد •

عودة بومبيوس الى روما ، قيصر يعين حاكما في اسبانيا بعد ان شغل منصب القضاء (٦٢)

اول عهد آ « كانفا » في ا (٦٤ ـ ٥٠)

قيصر ينتخب قنصلا في السنة ٦٠ قنصلا للسنة ٥٩ بفضل اتفاقية مع بومبيوس وكراسوس (الحكومة الثلاثية الاولى) • القانون الزراعي ، استثماره بالولايات التالية • مولد تيت ليف (٦٤ ؟) الذي سيموت في السنة ١٧ بعد المسيح •

فتح غاليا المستقلة على يد قيصر • في اواخر ٥٣ ، ثورة عامة برئاسة فرسنجيتوريكس ، ٥٢ : اليزيا • ٥١ : نهاية المقاومة في اوكسلودونوم • اضطرابات في روما طيلة هذه الفترة •

قنصلية بومبيوس وكراسوس الثانية • بعد اعادة الحكم الثلاثي •

الفارتيون يهزمون كراسوس ويقتلونه في كار •

الفوضى في روما • موت كلوديوس قتلا في اصطدام مع زمرة ميلون • بومبيوس قنصل اوحد •

الحرب الاهلية ودكتاتورية قيصر • ٤٩ : اجتياز الروبيكون • ٤٨ : معركة فرسال ، موت بومبيوس في مصر ، قيصر يصل الى الاسكندرية ويجتمع بكليوباترا ، يبقى في مصر حتى ربيع ٤٧ • ٤٦ : انتصار قيصر في تابسوس في افريقيا ، موت كاتون الاوتيكي ، اقامة قيصر في روما ، انتصاراته ، اصلاح الرزنامة • ٤٥ : انتصار قيصر في موندا في اسبانيا • ١٥ اذار ٤٤ : اغتيال قيصر •

الحرب الاهلية • ٤٤ : ذهاب قاتلي قيصر ، بروتوس وكاسيوس الى الشرق ، شيشرون ينطلق واوكتافيانوس ضد انطونيوس ويلقي الخطب الفيليبية ٤٣ • اتفاق انطونيوس واوكتافيانوس وليبيدوس (الحكومة الثلاثية الثانية) ، احكام بالنفي ، موت شيشرون ، ٤٢ : هزيمة بروتوس وكاسيوس في فيليبي ، اوكتافيانوس يعود الى ايطاليا ليوزع الاراضي على الجنود القدماء ، انطونيوس يبقى في الشرق ويعاشر كليوباترا • ٣٩ : اتفاقه مع سكستوس بومبيوس سيد البحر المقيم في صقلية • ٣٦ : اختلاف مع سكستوس بومبيوس الذي هزم ...ملت في ٣٥ ، حملة انطونيوس على الفارتيين ، ٣٤ : انطونيوس يهب كليوباترا واولاده منها اقاليم رومانية • ٣١ : معركة اكتيوم • ٣٠ : وصول اوكتافيانوس الى الاسكندرية ، موت انطونيوس وكليوباترا •

حوالي السنة ٣٠ اول عهد « كوشانا » في شمالي الهند

٢٧ قبل المسيح – ٦٨ بعد المسيح : السلالة الجولية الكلودية

م ادارة الولايات بين مجلس الشيوخ واوكتافيانوس
الذي لم يلبث ان لقب ب اوغوسطس ·

ع شمالي شبه الجزيرة الايبيرية ·

مملكة موريتانيا وتسليم عرشها الى جوبا الثاني

، مع الفارتيين حول الحدود وارمينيا واستعادة اعلام
ات المباحة في كار ·

فيرجيل قبل ان ينهي ملحمة ايتيه ، وموت تيبولوس ·

، الفرلية ·

، قصيرة وطويلة لتحديد ايستريا والليريا الى
ب ·

، « هيكل السلام »

، متكررة في جرمانيا لنقل الحدود الى نهر الالب ·

ميسينوس وهوراسيوس·

يسوع ، حدد خطأ في القرن الرابع ، بتأخير اربع
، في الارجح ·

هزيمة القائد الروماني فاروس امام الجرماني ارمينيوس :
اوغسطوس يتخلى عن مشاريع الفتح في جرمانيا ويعيد الحدود
الى الرين ·

١٤ - ٣٧ : طيباريوس

موت اوغسطوس

خطوة قائد حرس القيصر ،سيجان ، الذي يقتل امراء
مدينين ، افتضاح امره وقتله·

موت اوفيد

موت سترابون

تجارة منتظمة مع روما(سة

وصل ملك سيلان (بلديا
الامبراطور اوغسطوس

التاريخ المرجح لموت المسيح

اهتداء القديس بولس

كوجولاكالسا يطلى ا
(في الارجح) ·

٣٧ - ٤١ : كاليغولا

ضم موريتانيا الى الامبراطورية

اغتيال كاليغولا

٤١ - ٥٤ : كلوديوس

، فتح بريطانيا

بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
	العهد النيوليتي	القرن الاول
		٨ بعد المسيح
		٩
		١٤
		١٤ – ٣١
		١٨
		٢١ (؟)
		٢٣ – ٢٥
		٢٥
		٢٧
		٢٨
		٣٠
		٣٠ (؟)
		٣٢
		٤٠
		٤١
		٤٣

لحرب ضد الفارثيين بسبب تدخلاتهم في ارمينيا ، صلح اوربولون .

٥٤ - ٦٨ : نيرون

مقتل بريتانيكوس

مقتل اغريبينا

موت بوروس

حريق روما ، اضطهاد المسيحيين

موت سينيكا ولوكان وبترون

رحلة نيرون الى اليونان، ثورة اليهودية : اسناد قمعها لفسباسيانوس .

حرب اهلية ٦٨ : ثـورة فنديكس في غاليا ، المناداة بـ جالبا امبراطورا ، انتحار نيرون . ٦٩ : جيش الر ينادي بـ فيتليوس امبراطورا، فيتليوس يهزم ، اوتون ، ومقتل جالبا بالتبني ، فـي ايطاليا . جيوش الشـ والدانوب تنادي بفسباسيانوس امبراطورا ، هزيمة فيتليو ومقتله في ايطاليا .

٦٩ - ٩٦ : سلالة الفلافيين

قمع ثورة سيفيليس في غاليا ، احتلال وهدم اورشليم على تيطوس

احداث منابر لتعليم البيان اليوناني واللاتيني في روما

٤٩

٥٠ (؟)

٥١ — ٦٣

٥٥

٥٧ ابان (كيوشو) ترسل وفدا
الصين (لو-يانغ) . وهي
تزال في عهدها النيوليثي .
. ترك « بان كو » عنها وصفا
يلا .

٥٩

حوالي ٦٠ — ٧٠

٦٢

٦٤

٦٥

٦٦

٦٨ - ٦٩

العالم الروماني وجيرانه	الهند
احتلال الحقول التي كانت ملحقة باملاك الدولة وتقويم الحدود بين الرين الاعلى والدانوب الاعلى .	
	بدء العهد المعروف بعهد المرازبة (كشاهاراتا) غربي الهند .
٧٩ - ٨١ : تيطوس	
انفجار الفيزوف ، تهدم بومبي وهركولانوم ، موت بلين القديم .	
٨١ - ٩٦ : دوميتيانوس	
اتمام مسرح فلافيانوس (الكوليزه) الذي بوشر ببنائه في ايام فسباسيانوس	
دوميتيانوس يحمل لقب «ناظر الاحصاء العام» .	
مناوشات مع الداسيين على الدانوب	
احداث الالعاب الكابيتولية	
الالعاب القرنية	الامبراطور الكوشاني يطا الزواج من ابنة ملك الص فيرفض طلبه
اغتيال دوميتيانوس	
٩٦ - ١٩٢ : سلالة الانطونيين	
مجلس الشيوخ يعلن (نرفا) امبراطورا	
نرفا يتبنى ترايانوس ، قنصلية تاسيت .	
موت نرفا	

ـ يقدم للامبراطور
الشمس

الفيلسوف والغ لو

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٩٨ - ١١٧ : ترايانوس	
تعصليه بلين القديم الـــلي‌يلقي « تقريظ ترايانوس » .	
	تزيين الـ « ستوبا » في سانشي – ظهور صورة بوذا فـ... غندهارا . الباث النصـ... الجينية . البولاية تزدهر ا... سيلان .
	الـ « اندرا » في الجنـــ... يوسعون للوذهم . انشقاق البوذية يعم نهاليا .
ضم داسيا الى الامبراطورية بمستعربين ضد الداسيين	
اعمال مرفا اوستيا	
موت مارسيال	
ضم الولايـــة العربيـــة الى‌الامبراطورية	
تدشين فوروم ترايانوس	
موت بلين القديم الـــلي كـان‌حاكما في بيتينيا في الســنـــة ١١١-١١٢	
الحرب الفارثيـــة . ترايانوس‌يضم ارمينيا وما بين النهريـــن الى الامبراطورية. يبلغ سلوقية‌على دجلة وكتيزيفون . ١١٥: ثورة اليهود في المدن الشرقية. ترايانوس يتراجع . يموت في ١١٧ . وخلفه يتخل عـــــن‌فتوحاته .	
١١٧ - ١٣٨ : هادريانوس	
مـــوت تاسيت و (؟) بلوتارك	كتابة « ناسك » تذكر الـ... فرتاميبوترا (سلالة اندرا) الـ « شاكا »
هادريانوس يقوم بعدة رحلات‌تفتيشية الى حدود الامبراطورية	
الشروع ببناء متصف طيبور	

احد ملوك اليابان يرسل
بلاد الصين ١٦٠ نحبلا ٠

بان تشاو مؤرخة الهان
٠ القائد بان تشاو
الفيلسوف تسواي شي

البهالين والموسيقيين
ن عن طريق بورما

صنع يخترع جهاز الكرة
ية داخل دوائر تمثل
٠ الاجرام السماوية

العالم الروماني وجيرانه	الهند
مولد ابوليوس	نهاية ملك « ناهاباتا » مزربان للمراليء الغربية ـ ؛ الفن اليوناني البوذي ومدر. اماراواتي » ومدرسة «ماثور
	تجميل الستوبا في اماراواتي يد خليفة كوتا ميبوترا (الـ لاكره بطليموس) .
موت جوفينال	
مولد اولو جيل	
نشر « البراءة الدائمة »	
ثورة اليهود بقيادة سيمان بن كسبه في فلسطين . منع اليهود من دخول اورشليم التي اصبحت ايليا كابيتولينا .	
١٣٨ - ١٦١ : انطونينوس	
	الامبراطور كانيشكا يصـ بالامبراطورية الكوشانية الذروة
	شاكرشهاه رجل بطالة وادي وموسيقي وفيلسوف .
	الهند ترسل عدة وفود الى الصـ عن طريق بحار الجنوب .

« كيــو » (لن ـ يي) جون جي ـ لان	المحاربون الـ « كيو » يهاج المراكز الحصينة في جي ـ
ولغ يشرح عقيدة كونفوشيوس	
ود الهندية ثانيها عــن ق بحار الجنوب	الوفود الهندية تمر فيها طريقها الى الصين .
جمت البوذية الاولى على يد لي « لنان شي كاو »	
	اكتشاف مــــدالية الطولية اللحيـــة في اوك ـ ايـ (كونفشيوس) .
، الخصيان كلــي القدرة	
ـ هيوان يشرح عقيـدة ـشـ... .	

١٦١ - ١٨٠ : ملرك - اوريل

لوسيوس فيروس يحمل لقب الأمبراطور ويشترك في الحكم حتى مماته في ١٦٩

موت سويتون

هجوم الفارثيين . افيديوس يقود الحرب ضدهم بقوة

بدء ملك « شاتاكارني » (الارجح) الذي يخصه تاغا برسالة

هجوم الجرمانيين على الدانوب . يبلغون اكويليا في ايطاليا في ١٦٦ . مارك اوريل يوجه ضد الماركومانيين والكواديين والسرماطيين سلسلة حروب شاقة . يصد الحدود . مات في المعسكر في فينا بينما كان يستعد لاحتلال بوهيميا .

اغتصاب افيديوس كاسيوس في الشرق ينتهي بالقمع . موت ابولوس

انشاء اربعة منابر للفلسفة ومنبر لعلم البيان في اثينا

مارك اوريل يشرك ابنه كومودوس بالحكم ويحمله لقب امبراطور . . استشهاد الاسقف بوثين والقديسة بلاندينا ومسيحيين آخرين في ليون .

موت كايوس مؤلف كتاب : « الانظمة »

١٨٠ - ١٩٢ : كومودوس

كومودوس يضع حدا لمشاريع ابيه على الدانوب بعد انفراده بالامبراطورية

ـالة ابنية جديدة الى ديـــر
كيانغ ـ سو » البوذي

له الفيلسوف تشوانغ تشانغ
انغ

رة العالم الصفراء

ـالات جديدة الى دير كيانغ ـ
ر البوذي

تأسيس « لن ـ چي »

العالم الروماني وجيرانه	الهند
١٩٣ ـ ٢٣٥ : سلالة ساويروس	
١٩٣ ـ ٢١١ : سبتيموس ساويروس	
سبتيموس ساويروس يتخلص من المطالبين بالعرش لا سيما بسينيوس نيجر في الشرق (١٩٤ـ١٩٥) وكلوديوس البينوس (معركة ليون ، ١٩٧)	
ترتوليانوس يضع كتابه في الدفاع عن العقيدة المسيحية	
حملة على البارتيين : احتلال وتنظيم ولاية ما بين النهرين .	
كركلا يحمل لقب امبراطور	
	تجزؤ مملكة الـ « اندرا »
	توسع التجارة البحرية (سفن شراعية كبيرة) ـ ملحميديا الفلسفي ـ الـ « اكشفاكو » يملكون في الجنوب الشرقي (ناغارجونا كونذا) .
موت غاليانوس	
اوريجينوس يخلف اكليمنضوس في ادارة مدرسة الاسكندرية المسيحية . المعلم السبتيزوليوم	
الالعاب القرنية	
اعدام بلوتيانوس قائد حرس القيصر وتعيين القانوني بابينيانوس خلفا له .	
سبتيموس ساويروس يحارب في بريطانيا . في ٢٠٨ ابنه الثاني جيتا يحمل لقب الامبراطور . موته في يورك (٢١١) .	
	الـ « بلالا » ينتشرون حتى الـ « اندرا »
٢١١ ـ ٢١٧ : كركلا	
اغتيال جيتا . الحكم على بابينيانوس . براءة كركلا .	
مولد ماني في بلاد بابل	
اغتيال كركلا خلال حملة على البارتيين .	

لسوف كشولغ كتسالغ لوا
، سر الدولة لي دكتاتور،
و كساو -

٥٢ ـ روما وامبراطوريتها

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢١٨ - ٢٢٢ : ايلاغابال	
بعد مقتل مكرينوس القصير ، ايلاغابال يعتلي العرش	
مقتل ايلاغابال وامه لمصلحة ابن عمه الذي تبناه في ٢٢١ · موت ترتوليانوس حوالي هذا التاريخ ··	
٢٢٢ - ٢٣٥ : ساويروس الكسندروس	
اردشير الساساني يدخل كتيزيفون ظافرا : المملكة الفارسية تحل محل المملكة الفارثية	
	الـ « شوكولا » يملكون الـ « باناماسي »
	الامبراطور الكوشاني فاسوديفا يحالف ملك ارمينيا ضد اردشير
مقتل قائد حرس القيصر ، اولبيانوس ، على يد الحرس	
تكملة ديون كاسيوس المهداة الى الامبراطور ساويروس الكسندروس ·	
اوريجينوس يضطر الى مغادرة الاسكندرية ·	اخر وفد كوشاني الى البلاط الصيني (في عهد فاسوديفا المدعو « بو - تيزو » في الحوليات الصينية) ·
الحرب الاولى ضد الفرس ·	
مقتل ساويروس الكسندروس ووالدته في ماينس ·	

ـ الهان اللاحقين . تقسيم
اطورية الى ثلاث ممالك

« لن يي » (ولوسكان؟) .

لن ـ يي ولو ـ تان يرسا
ولدا الى البلاط الامبراطو
الصيني

ابن احد الموفدين الهنود
الغز ينقل الى الصينية كا
« اميتابها سوترا » .

تان شي ـ مان (كوي مارا
شي لو ـ تان ـ حاكم التوك
لو ـ تاي يرسل ولدا الى الجنو
تان شي ـ مان يخلع الج
الامير الـ « وو » .

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢٣٥ - ٢٨٤ : الفوضى العسكرية	
تعاقب اباطرة سريعي الزوال في جو من اسوأ المصاعب الخارجية والداخلية . الحدود تهاجم وتجتاز . ثورات وانفصالات في الولايات . الازمة الاقتصادية تتفاقم .	
المناداة بغورديانوس الاول والثاني امبراطورين في قرطاجة ومقتلهما .	
موت اردشير . شابور الاول يعتلي العرش .	
	رحلة ماني الى ضفاف الهندو
	ولد فولنان ال ال ه موروليا
	ايران الساسانية تحت الامبراطورية الكوشانية .
حملة غورديانوس الثالث على شابور (سابور) .	
افلوطين يقصد روما لممارسة التعليم فيها ، يموت في السنة ٢٦٩ .	
فيليبوس العربي : يحتفل باعياد روما الالفية في السنة ٢٤٨	
بعثات مالوية الى مصر	
ملك داسيوس الذي يموت في حملة على القوط . في السنة ٢٥٠ ، اضطهاد المسيحيين .	
	شابور يهزم فاسوديفا .
هورموزد يحمل لقب « ملك ملوك الـ كوشانا » .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
اليابان		ملكة اليابان العائس (؟) بعثة الى البلاط الصيني لو ـ يانغ وتقيم علاقات دبلوماسية مع كوريا .
	فان تشان يرسل وفدا الى الـ « موروندا » (منطقة الفانج)	
لو ـ لان واليابان	فان تشان يرسل وفدا الى الصين .	ملكة اليابان العانس ترسل الى الصين .
البلاط الامبراطوري يرسل وفدا لو ـ لان مؤلفا من كانغ وكسو يغ	فان سيون (لو ـ لان) يستقبل الموفدين الصينيين كانغ تاي وتشو ينغ اللذين يلتقيان موفد الموروندا الذي لحق بوفد السنة ٢٤٠ـ٢٤٤	
تجار سوغديانا ينتشرون في لانكين .		
ـ يي تهاجم منطقة هواي	لن ـ يي تهاجم المراكز الصينية المحصنة في منطقة هواي	
	القائد كوري يهين موفد يماتو (اليابان) في مملكة سيلا (كوريا الشرقية) .	

ملك فاليريانوس ٠ ٢٥٧ :اضطهاد ٠ ٢٥٨ : الالمان يصلون حتى ايطاليا الشمالية ٢٦٠:فاليريانوس اسير الساساني شابور الاول ٠

بوستوموس يحكم غاليا وبريطانيا واسبانيا٠ تتريكوس يخلفه ٠

غاليانوس ينفرد بالحكم بعد اشتراك اباه فاليريانوس منذ٢٥٣

بعثة مانوية الى جنوبي الزاب الصغير ٠

استقلال تدمر في عهد اذينة وزنوبيا والدة وهب اللات ٠

ملك كلوديوس الثاني القوطي الذي يطرد الالمان من ايطاليا والقوط من البلقان ٠

القديس انطونيوس يتنسك في الصحراء ٠

ملك اوريليانوس ٠ في ٢٧٢ ،يقوض دولة تدمر ، اعدام لونجينوس ، تحكيم في مؤتمر بولس الساموزاطي اسقف انطاكية الهرطوقي ٠ في ٢٧٣، تتريكوس يستقيل ٠ التخلي عن داسيا والاراضي الملحقة باملاك الدولة نهائيا ٠ تشييد اسوار محصنة حول روما ٠

غزو عام : الفرنجة يبلغون اسبانيا ٠

موت ماني ٠

ملك كاروس الذي يغزو مجموعة طاقرا حتى كتيزيفون

للتاهلة، ديوكليسيانوس امبراطورا في خلقيدونيا ٠ عقد الصلح مع الفرس

٢٨٤ - ٣٠٥ : ديوكليسيانوس والحكم الرباعي

اول عهد ديوكليسيانوس وتنظيم الحكم الرباعي ٠ ٢٨٥ :انتصاره على كارينوس ٠ مكسيميانوس يصبح قيصرا ثم امبراطورا في ٢٨٦ ٠ في ٢٨٨ : المغتصب كاروسيوس في بريطانيا ٠ ٢٩٣ : اختيار كونستانس كلور ، ثم غاليريوس قيصرين ٠

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
ة سو ـ ما تستولي على ـ تشوان ثم على الصين الية .		
بوسان في عهد فان سيون	فان سيون (فو ـ نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ يي تهاجم جي ـ نان اعدة فو ـ نان	فو ـ نان ولن ـ يي تتحالفان وتهاجمان جي ـ نان	
سو ـ ما » يطلقون اللقب ة باسم « تسين » .	الصين تهزم لن ـ يي وفو ـ نان الى تونكين	
لصوص سنسكريتية الى بنية . وفد لن ـ يي	لن ـ يي ترسل وفدا الى بلاط الصين .	
فو ـ نان	فان سيون (فو ـ نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين	

العالم الروماني وجيرانه	الهند
حملات مكسيميانوس الرئيسية على الرين .	
استعادة حدود الدانوب .	
اخضاع بريطانيا حيث كان اليكتوس قد خلف كاروسيوس.	
ديوكليسيانوس في مصر حيث يقمع اغتصاب اشيليوس .	
صدور البراءة ضد المانويين .	
حملة ديوكليسيانوس على الفرس. استعادة ما بين النهرين	
حملة مكسيميانوس في افريقيا	
	الكاتب « فاسا »
مرسوم الحد الاعلى .	
تدابير ومراسيم ضد المسيحيين.	
تنازل ديوكليسيانوس ومكسيميانوس .	
٣٠٥ - ٣٦٣ : السلالة القسطنطينية **٣٠٦ - ٣٣٧ : قسطنطين**	
وفاة كونستانس . الجنود ينادون بابنه قسطنطين امبراطورا.	
عهد اضطرابات يكثر فيه القياصرة والاباطرة . اخيرا ، في السنة ٣١٢ ، قسطنطين ينتصر على مكسانس في معركة جسر ملفيوس ، وفي ٣١٣ ، ليسينيوس يتغلب على مكسيمينوس دايا في الشرق .	
وفاة غاليريوس الذي توقف عن اضطهاد المسيحيين قبل ذلك بزمن قصير .	

ناه حبد لاوغسطس فـــي
رذيريس (كرالكالور) .

كتاب « لاليعالستارا » ينقل
رة اخرى الى الصينية .

ناية الغزوات الكبرى

ولد الراهب فو ـ تو ـ لنغ
ه كوكا .

احد امراء سيالا (
البحرية) يصل الى
(اليابان) .

٥١ ـ روما وامبراطوريتها

لين وليسينيوس يجتمعان في ميلانو ويتفقان على مبـــدا
ل الديني •

الاول بين قسطنطين وليسينيوس الذي يفقد الاقاليم
ية• مجمع آرل يحكم على الدوناتيين •

قسطنطين فـــي روما •حوالي هذا التاريخ ، لاكتانس
« ميتة المضطهدين »

شاندراغوبـ
الـ د غوبتا
الهند .

الثانية بين قسطنطين وليسينيوس الـذي يغلب على
• قسطنطين يعيد وحدةالامبراطورية • تكريس المركز
لبناء القسطنطينية •

نيقيه •

طين يامر بقتل ابنـــــه كريسبوس ، ثم زوجته فوستا•

يوس اسقف الاسكندرية•

، القسطنطينية •

طين ينظم الخلافة من بعده بين أبنائه الثلاثة وابني أخيه .

ملك سابور
الكبير،الذي
من اوربـــا

ية ووفاة قسطنطين •

٣٣٧ - ٣٦١ : كونستانس الثاني

ابناء اخي قسطنطـــين(٣٣٧) • كونستانس الثاني
اخاه كونستان في ٣٤٠اليهزم • المنتصر ينتحر بعـــد
ب ماغنانس على الريـــن(٣٥٠) • كونستانس الثانـــي
كان يحكم الشرق ينتصرعلى المغتصب في ٣٥٣ •

، يعودون الىالهجوم بقيادة ملكهم شابور الثاني عدو روما
د•الفرس يحاصرون نصيبين تكرارا ثم يدخلون اميدا فـــي
٣٥٩ على الرغم من دفاع روماني ســجيت اشترك فيـــه
س مرسيلينوس • لـــم يدخلون سنغارا ايضا في السنة
•

بحار الجنوب | اليابان وكوريا

العالم الروماني وجيرانه	الهند
الملكية الساسانية تضطهد المسيحيين بشدة .	
اولفيلا ، اسقف القوط ، يلتجيء الى الاراضي الرومانية.	
	اوج فتوحات سامودراغوبتا العسكرية التي ينشيء اوسع امبراطورية منذ الموريا .
كونستانس يعين ابن عمه غالوس قيصرا ويسند اليه ادارة الشرق، يامر بقتله في السنة ٣٥٤ .	
جوليانوس ، اخو غالوس يعين قيصرا ويرسل الى غاليا لمحاربة الالمان . انتصاره في ستراسبورغ (٣٥٧) . الجيش ينادي به امبراطورا (٣٦٠) .	
كونستانس يحظر تقديم الذبائح	
مجامع سيرميوم وقوانين الايمان المتوالية .	
موت كونستانس في طريق عودته من الشرق لمحاربة جوليانوس .	
٣٦١ - ٣٦٣ : جوليانوس	
جوليانوس في القسطنطينية	
قانون يحظر استعمال النصوص الكلاسيكية على المعلمين المسيحيين. جوليانوس في انطاكية .	
حملة جوليانوس على الفرس . وفاته اثناء التراجع .	
٣٦٤ - ٣٩٥ : السلالة الفالنتينية وثيودوسيوس	
عهد ملك جوفيانوس القصيرة الذي يضع حداً لأعمال الحرب ضد الفرس . الجيش ينادي بفالنتينيانوس الاول امبراطورا الذي يشرك اخاه بالحكم ويسند اليه ولاية الشرق .	
داماز بابا	
فالنتينيانوس يعين ابنه غراتيانوس امبراطورا .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
. لن ـ يي	فان ون (لن ـ يي) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ يي تحتل جي ـ نان . الراهب لو ـ تو ـ تنغ .	فان ون تنتزع جي ـ نان من الصين .	
	وت فان ون (لن يي). ابنه فان فو يسلك باسم فادرا فارما	
	هزيمة فان فو في تونكين .	
. فو ـ نان (فيلة مروضة)	تشان ـ تان (فو نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ كيان ، ملك شن ـ سي ي للبحر الهندي كوماراجيفا		
	فان ـ فو يهزم ثانية في تونكين .	

العالم الروماني وجيرانه

القديس مارتينوس اسقف تور. موت اثناسيوس اسقف الاسكندرية . امبروسيوس الذي كان حاكم الولاية يصبح اسقفا لميلانو .

ثورة فيرموس في موريتانيا. تحت اشراف تيودوسيوس الاب الذي اعدم بامر من غراتيانوس .

وفاة فالنتينيانوس الاول . المناداة بفالنتينيانوس الثاني امبراطورا لتحكم امه جوستينا باسمه .

الهون يهاجمون الاوستروقوط.

القوط يجتازون الدانوب . وفي السنة ٣٧٨ يهزمون فالنس ويقتلونه في ادرنا .

غراتيانوس يشرك تيودوسيوس بالحكم . يتخلى عن لقب الحبر الاعظم . قنصلية اوزون . القديس ايرونيموس يرسم كاهنا .

تيودوسيوس يوطن القوط كحلفاء جنوبي الدانوب . يحصر اسم المسيحيين الكاثوليكيين في انصار قانون نيقية .

مجمع القسطنطينية المسكوني الذي عزل في اعقابه كالة الاساقفة الاريوسيين . غريغوريوس النازينزي يعين اسقفا على القسطنطينية ثم ينسحب .

قضية مذبح اله النصر : فشل مسعى سيماكوس لدى تيودوسيوس .

مكسيموس يامر بقتل غراتيانوس . تيودوسيوس يعين ابنه اركاديوس امبراطورا .

وفد فارس الى القسطنطينية :المفاوضات تفضي الى اتفاق يعين الحدود بين الدولتين ويقسم ارمينيا . ستيليكون يتزوج من ابنة اخت تيودوسيوس سيرينا . القديس اوغسطينوس يعين استاذا في ميلانو .

القديس ايرونيموس يقيم نهائيا في فلسطين .

اعدام بريسيليانوس وانصاره الرئيسيين .

مكسيموس في ايطاليا . معمودية القديس اوغسطينوس .

تيودوسيوس ياتي الى ايطاليا ويهزم مكسيموس .

مجزرة تسالونيكي . الصراع بين تيودوسيوس والقديس امبروسيوس . تيودوسيوس يعين ليكوماكوس فلافيانوس قائد حرس القيصر ، ويخضع كمؤمن للاسقف . خطبة ليبانيوس « من اجل المعابد ».

تحطيم العبادة الوثنية ، هدم معبد سيرابيس في الاسكندرية. قنصلية سيماكوس . القديس اوغسطينوس يرسم كاهنا .

بحار الجنوب	اليابان وكوريا
لو (شامبا) يرسل وفدا البلاط الصيني .	

مقتل فالنتينيانوس الثاني على يد اربوغاست الذي ي
اوجينيوس امبراطوراً .ارستوقراطية روما الوثـ
هذا الاخير • يثبت نيكوماكوس في قيادة حرس القيصر
كافة الذبائح ، حتى المنزلية •روفينوس يعين قائـــد
القيصر في القسطنطينية• والقانونون •

ثيودوسيوس يعين ابنههونوريوس امبراطورا • اعتناء رو
ال المسيحية • وفاة ليبانيوس(؟) •

انتصار ثيودوسيوس على اوجانيوس •

وفاة ثيودوسيوس • ابناه اركاديوس وهونوريوس يملكا
في الشرق والثاني في الغرب• القديس اوغسطينوس ا
...نا •

بحار الجنوب	اليابان وكوريا
	اليابان تستولي على قسم كوريا الجنوبية .

- أ -

— ب —

— س —

— ص —

— ط —

— ل —

ـ م ـ

فهرست الخرائط والتصاميم

ص

فهرست الصور

(متحف الوظائف ، فلورنسا . تصوير الليناري) .

١٧ – بومبيي : طريق المدافن خارج باب هرقل . (تصوير الليناري) .

١٨ – عرس ألدوبرنديني (قطعة) تصوير على حائط (القرن الاول بعد المسيح) .
(مكتبة الفاتيكان . تصوير الليناري) .

١٩ – تقدمة خنزير وكبش وثور . نقش رخامي (القرن الاول بعد المسيح) .
(متحف اللوفر . تصوير اندريه فيليو) .

٢٠ – سر ديونيسي (قطعة) صورة على حائط . (القرن الاول بعد المسيح) . بومبيي مقصف الاسرار . (تصوير الليناري) .

٢١ – اول الطريق الآبية من جهة روما (تصوير فيوليه)

٢٢ – روما : الكوليزه . (تصوير جان روبيه) .

٢٣ – روما : عمود ترايانوس (في آخر القرن السادس عشر حل تمثال القديس بطرس محل تمثال ترايانوس) . (تصوير فيوتيه) .

٢٤ – القوس المعروف بـ « قوس ترايانوس » في تمغاد (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .

٢٥ – صورة محفورة تمثل مأتم احد الزعماء (القرن الثاني بعد المسيح) (تصوير مرسيل بوفيس).

٢٦ – ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا . (تصوير مرسيل بوفيس) .

٢٧ – بقايا مسرح اوستيا (تصوير فيوليه) .

٢٨ – غنائم واسلاب اورشليم . نقش في قوس تيطوس في روما (القرن الاول بعد المسيح) .
(تصوير الليناري) .

٢٩ – ميترا يقدم الثور قرباناً . نقش رخامي (القرن الثالث بعد المسيح) .
(متحف اللوفر . تصوير اندريه فيليو)

٣٠ – قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) . (تصوير بول انفولفان) .

٣١ – الفوروم في هيبون (عنابة – الجزائر) . (تصوير مرسيل بوفيس) .

٣٢ – مسرح سبراتا – ليبيا . (القرن الثاني والثالث بعد المسيح) .
(تصوير مصلحة الآثار في ليبيا) .

٣٣ – احد مشاهد الصيد . فسيفساء . متحف جيلة (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .

٣٤ – شحن سفينة ، فسيفساء في رواق النقابات في اوستيا . (تصوير فيوليه) .

٣٥ – عربة سفر . نقش في كنيسة القديسة مريم . سال ، على مقربة من كلاجنفورت
(تصوير الليناري) .

٣٦ – اورشليم : مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء . (تصوير فيوليه) .

٣٧ – روما : نقش وصورة جدارية ، في ديامس القديس سيباستيانوس . (تصوير فيوليه) .
٣٨ – قصر ديوكلتيانوس في سبليت (يوغوسلافيا) . (مجموعة امانة الآثار ، سبليت) .
٣٩ – أباطرة الحكم الرباعي : ديوكلتيانوس ومكسيميانوس ، غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) . كنيسة القديس مرقص ، البندقية . (تصوير فيوليه) .
٤٠ – ضريح غالاً بلاسيديا في رافينـا (النصف الاول من القرن الخامس) . (تصوير البناري) .
٤١ – بودهيساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن الثـاني بعد المسيح) . منضد . (متحف غيمه . بعثة الفرد فوشيه . تصوير لافو) .
٤٢ – ملك – حية (ناغاراجا) . مدرسة ماتورا (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
٤٣ – نقش عاجي اكتشف في افغانستان (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (متحف كابول . تصوير متحف غيمه) .
٤٤ – المعيشة في قرية هندية . مدرسة امارافاتي (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . رخام ابيض . (متحف مادراس . تصوير فيكتور غولوبيف)
٤٥ – معبد كارلي من الداخل (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (تصوير متحف غيمه) .
٤٦ – بلاطة مدفن وو – لينغ – تسو (١٤٧ – ١٦٧ بعد المسيح) . سلالة الهان . نقش حجري . (تصوير متحف غيمه) .
٤٧ – صورة مصغرة لمدفن خزفي في بيت صيني اكتشف في مقاطعة تونكين (القرن الثاني او الثالث بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
٤٨ – تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع ؟) (متحف غيمه . تصوير لافو).

فهرست عام

الكتاب الثاني

القسم الثاني

مدنيات الوحدة الرومانية

الكتاب الاول

المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاولى

ص

ص

القسم الثالث

آسيا الشرقية

انتهى المجلد الثاني ، ويليه المجلد الثالث

القرون الوسطى

منشورات هنداوي ٩١٩ / ٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME II

ROME
ET
SON EMPIRE

par

André AYMARD et **Jeannine AUBOYER**
Professeur à la Sorbonne — *Conservateur au Musée Guimet*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٢

روما وإمبراطوريتها

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

هذا الجزء، من ثلاثة أقسام:

١- يعالج الغرب ووحدة البحر المتوسط، من خلال المغلوبين على أمرهم (الأتروريين، القرطاجيين، الغاليين)، ومن خلال حضارة روما الجمهورية (الفتح الروماني، فشل مفهوم المدينة، التطوّر الإقتصادي والإجتماعي، هيلينيّة روما: الديانة واليقظة الفكرية والفنّية).

٢- يعالج مدنيّات الوحدة الرومانية تتابعاً: المدنية الرومانية على عهد الامبراطورية الأولى في القرنين الأول والثاني (ب-م) من خلال الإنتقال من الحرب الأهلية الى السلام الروماني، ومفهوم الدولة بين النظر والواقع، ولمحة موسعة عن الحياة الإقتصادية والإجتماعية، والديانات القديمة والجديدة، والإنجازات الأدبية والفنية، ومن خلال حضارة العهد الإمبراطوري الثاني (في القرنين الثالث والرابع) بما فيه من أزمة القرن الثالث وتجدّد الإضطرابات في القرن الرابع، وفترة الملكية المطلقة والبيروقراطية، والتجديدات الإقتصادية والإجتماعية، والنهضة الفكرية والفنية، وما بقي من روما بعد موتها إرثاً.

٣- يعالج مرحلة آسيا الشرقية من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع بدءاً من وصف عام للمنطقة، فتطوّر الهند الهندية، ومراحل النفوذ الهندي في الأقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا، حتى الكتلة الصينية وانتشار الحضارة الصينية واسعاً.

يقع هذا المجلد في ٩١٠ صفحات من القطع الكبير، مجلد بالقماش، ومزود بـ ٣٢ خريطة وتصميماً و٤٨ صورة فوتوغرافية لمعالم اثرية الى جانب جدول زمني مقارن وجدول أعلام وأماكن.

تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

القرون الوسطى

تاريخ الحضارات العام

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي — أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون
و
إرنست لابروس — أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ شرفي في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف
موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الثالث

تاريخ الحضارات العام

القرون الوسطى

تأليف

إدوار برّوى

أستاذ في السُربون

بالتعاون مع

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمة

كلود كاهين
أستاذ في السربون

جورج دُوبي
أستاذ في كلية الآداب في ايكس

ميشال مُولاّت
أستاذ في السربون

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر

فريد م. داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

مــــدخل

في هذا التقسيم الاتباعي الذي لا بدّ منه لدرس تاريخ الحضارة البشرية، ليس أوضح حدوداً ولا أبرز قسمات من حقبة الأجيال الوسطى التي تبتدىء من انهيار العالم القديم وتداعي كيان الامبراطورية الرومانية السياسي وبنيانها الحضاري، خلال القرن الخامس للميلاد، فهوت الى الحضيض تحت وطأة الغزوات التي قامت بها الاقوام الجرمانية وهي التي عرفت في التاريخ باسم «الغزوات الكبرى». وقد ظهرت هذه التسمية في اخريات القرن الخامس عشر مع انطلاق عهد الانبعاث الفني الايطالي، واكتشاف العالم الجديد والانشقاق الديني الذي قوّض أركان الوحدة المسيحية، وهيأ طلوع «العصر الحديث». باستطاعة المؤرخين ان يطيلوا النظر وان يتباحثوا ملياً حول ملاءمة او عدم ملاءمة هذه الحدود التاريخية المرسومة. هل يجب ان نردّ انهيار العالم القديم الى «أزمة» القرن الثالث، وبذلك نضم الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية الى تاريخ الاجيال الوسطى، أخذاً بنظرية الاستاذ فردينان لوط، او ان نذهب، مع نظرية هنري بيرين التي تحافظ على وحدة العالم المتوسطي الى ظهور الاسلام وامتداد فتوحاته المظفرة في أواسط القرن السابع؟ وعهد الانبعاث الايطالي الذي ظهرت بوادر طلائعه وروائعه، قبل عام ١٥٠٠ بكثير، ألا يفرض علينا هو الآخر، جعل القرن الخامس عشر بدء التاريخ الحديث؟ ومن جهة اخرى لما كانت نتائج الاكتشافات الجغرافية الكبرى اخذت تطبع بميسمها الوضع الاقتصادي في اوروبا، بعد عام ١٥٣٠ فهل يترتب علينا ان نلحق بالاجيال الوسطى كل الحوادث التي تقدمت هذا الانقلاب الجذري؟ ولا يزال المؤرخون الانكليز يتباينون رأياً اليوم ويتضاربون النظر متسائلين فيما بينهم ما اذا كان «النظام الملكي» الذي يميز الانظمة السياسية الحديثة، ظهر عندهم، أي في انكلترا، ابتداء من سنة ١٤٦١، او بعد ذلك بنحو ثمانين سنة، أي عام ١٥٣٩.

فاذا كانت حدود الاجيال الوسطى الزمنية قلقة مضطربة، فالتشويش لا يزال يلازم اليوم التسمية التقليدية لهذه الحقبة التاريخية. فالمصطلح الدارج الاستعمال يثير فينا فكرة انتقال، او فكرة مرحلة قائمة بين ذروتين او قمتين، او بالاحرى، صورة فجوة او هوة قائمة بين حضارتين: حضارة قديمة وحضارة كلاسيكية. غير ان مرحلة الانتقال المديدة هذه التي تطاولت ألف سنة وأكثر، تفقد أي معنى يفيد صفة الانتقال. ومع ذلك فهذا التقسيم الذي يجرون فيه على هذا الشكل، لا معنىً له، حتى في حال افتراض الغلط، إلا في ما يخص اوروبا الغربية.

فلا يمكن ان نطلقه لا على الشرق الروماني حيث بقيت التقاليد المتوارثة على حيويتها ونشاطها حتى القرن السابع للميلاد ، والتي تناسخ الاخذ بهـا والعمل بموجبها ، بالفعل ، قبل سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، عام ١٤٥٣ ، ولا على الشرق الادنى ايضاً الذي عرف ، منذ أواسط القرن السابع ، حضارة جديدة لا تزال قائمة لليوم ، ولا بالاحرى ، على آسيا القصية التي يجب ان نستعرض هنا تاريخها منذ غزوات قبائلها الرحل ، منذ القرن الرابع حتى أواسط القرن الخامس عشر ، عندما تأخذ امبراطورية المغول بالتفكك والانحلال فالانهيار . لا يتخلل التاريخ فجوات وفراغ . ففي حقبة تاريخية ، مديدة السحابة ، تنوعت فيها اجزاء هـذا العالم وتباينت وقلت فيها الاتصالات بين اجزائه المتباعدة ، كان لا بد من تراكب الازمنة وتعاظلها بعضاً على بعض ، ولو لأمد قصير . فاذا ما حافظنا ، مراعاة للسهولة ، على هذه التواريخ والمسميات المصطلح عليها ، فالطواعية التي تميز الاسانيد التاريخية ، تؤمن هـذا الأستمرار الذي لا بد منه للتاريخ .

هل من داع بعد هذا ، لتبرير خطة حتّمت الأحداث تناسقها وانسياقها على هذا النحو ؟. هنالك ميزتان أساسيتان تطبعان ، في نظرنا ، الحضارات التي تعاقبت بين القرنين الخامس والعاشر : اتساع الافق الجغرافي ورحابته من جهة ، ومن جهة اخرى هـذا السبق او التقدم الذي سجلته على الحضارة « الغربية » التي لا تزال في القُمُط ، الامبراطوريات الآسيوية الكبرى ودول العالم الاسلامي وممالكه . فاذا ما فتحت الغزوات الجرمانية ثم الصقلبية ، امام الاقطار الاوروبيـة الوسطى والشمالية والغربية ، أبواب الحضارات على مصراعيها ، وهي حضارات كانت تعاني كثيراً من عوامل التأخر والانحطاط ، وتخلفت كثيراً عن الحضارة المتوسطية القديمة ، واذا ما تجاوز المد الاسلامي وتعدى بكثير ، الحدود التي عرفها الاقدمون بحيث أوغل جنوبياً ليبلغ السودان واريتريا ومدغشكر ، واذا ما استطعنا ، لأول مرة في التاريخ ان نقتفي اثر هجرات البدو الرحل في أواسط آسيا في حدود الامبراطوريات التي أسسها اهل الحضر حتى حدود سيبيريا ، فقد كانت بيزنطية والعالم الاسلامي والامبراطوريات الاخرى التي تركزت في أواسط آسيا مركزاً لحضارات باسقة من أزهى وأزهر ما سجّل التاريخ من أمثالها ، هي هذه الحضارات بالذات التي عرفت ان تحافظ وتحتفظ بالتراث التليد الذي خلفته روما واليونان قديماً .

واخذ الوضع يتحول والحال تتبدل بين عام الف والقرن الحادي عشر . فاليقظة التي دب رسيسها في جنبات اوروبا ، اذ ذاك ، تبلورت عن فوران اخذ يتسع وينشط ليبلغ ذروته بعد ثلاثة قرون . فقد اخذ العالم الاسلامي يتبدل في هذه الحقبة اذ اعترته عوامـل ادّت به الى الانكماش والتوقف والجمود كما اعترى دولـه وممالكه عوارض تنبىء بظهور قوة جديدة تتمثل في هذه الأسر العسكرية التي برزت الى الصف الاول من العرق الطوراني ، حتى رأينا ، بعد لأي قصير ، جانباً من البلدان الاسلامية ومعظم هذه الامبراطوريات الآسيوية تغرق وتختفي تحت سيل المد المغولي الجارف . وهكذا ما كاد القرن الثالث عشر ينتصف حتى اخـذنا نتبين شيئاً من التوازن

القصير الامد ، يقوم بين اوروبا الاقطاعية والاسلام التركي وآسيا المغولية .

وهكذا لم يلبث ان ظهر في الاول والثاني من هذه المجالات ما اصطلحنا على تسميته بالأزمنة الصعبة . ففي الحين الذي تنكمش فيه آسيا على نفسها قابعة في قوقعتها وتقطع كل اتصال لها بالقارات الاخرى ، ويشهد الاسلام صعود دولة الاتراك العثمانيين ، ترى اوروبا التي تتجه اليها انظار المؤرخين محاولين تتبع اوضاعها ونظمها ، تحاول ، وهي تعاني من فقدان التوازن في اقتصادياتها ، ومن الصراع الطبقي في مجتمعها ، وفي ما نشاهد من نشأة دولها ، ان تتبين معالم الطريق أمامها وان تحدد ، قلقة ، اهدافها والقوالب الفكرية التي ستستقر عليها . تحوّل بطيء لعمري ، شأن كل هذه التطورات التي طبعت الحقب التاريخية قبل ان تبلغ حركتها السرعة المرجوة ، انما هو تحول استطاعت معه اوروبا الاقطاعية ان تنتقل ، وئيداً ، وتستحيل رويداً ، الى اوروبا العصرية وتنشيء لها ادوات سيطرتها الطالعة وفتوحاتها القريبة .

في هذه الحقبة التاريخية التي تمتد الف سنة ، وفي عالم كعالمنا هذا آخذ بالاتساع والتنوع تتراكب الحضارات او تسير جنباً الى جنب دون ان يستطيع المؤلف ان يتوقف ملياً عند كل واحدة منها . ومن الاهداف التي يترسمها هذا الكتاب ، ان يُبرز للعيان ، عوامل التقارب أو التباعد التي تجمع أو تفرّق ، من قريب أو بعيد ، بين المغرب الاقصى واليابان ، مثلاً ، أو بين إسلاندا واندونيسيا . فقد نتج عن هذا كله بالنسبة للحلقتين الأولى والثانية اللتين صدرتا من هذا التاريخ وتلك التي هي برسم الاعداد ، حدثان رئيسيان .

فقد اصبح من المتعذر ، ان لم نقل من المستحيل ، التكلم جملة عن عالم متوسطي ، قلب المدنيات القديمة ، والمحور الذي قامت حوله ، منذ اللحظة التي نحت فيها كل من اوروبا الجرمانية – اللاتينية ، والشرق البيزنطي ، وبعدهما بقليل ، الشرق الادنى الاسلامي ، اتجاهاً مغايراً للآخر . كذلك اصبح من المتعذر ايضاً ان نضع للحضارات الاسلامية الآسيوية دراسة خاصة مستقلة بذاتها وتكون نوعاً ما ، ذيلاً أو ملحقاً ، اذ ان هجرات اقوام الفيافي الآسيوية وشعوب فلواتها اخذت تمارس ضغطها في وقت واحد ، ضمن رقعة جغرافية تمتد من سهول هنغاريا حتى مشارف الصين . ولذا فقد حاولنا ان نرسم في خطوط متوازية ، صوراً مقتضبة لهذه الحضارات التي طلعت وازدهرت بين المحيط الاطلسي غرباً والمحيط الهادي شرقاً ، وبين الدائرة القطبية شمالاً ، والصحراء الكبرى جنوباً . وهكذا يستطيع القارىء الأديب ان يتتبع بتفهم ودراية ، بالرغم مما يواجهه من اختلاف البلدان وتباينها ، الروابط التي تشد تاريخ البشر بعضاً الى بعض ، هذا التاريخ الذي يرتكز اصلاً ، على وحدة الاصل والارومة ، وليس على الانقسام والتنابذ .

ومن جهة اخرى ، فتنوع هذه الحضارات وتلونها ، والتباين الكبير في معرفتنا لها وفي معلوماتنا حولها ، والمراجع والاسانيد العلمية والتاريخية التي تنهض بهذا كله يسمح لأي مؤرخ ان يتصرف لدرسها ، بالقدر الكافي من العلم والدقة . وعندما سنتكلم عن المدنية الاسلامية بعد

حين ، سنبين الصعوبة التي تعترض المؤرخ في رسم صورة كاملة لهذه المدنية ، لها من الدقة والضبط والصحة ما للصورة التي نرسمها لتاريخ اوروبا ، وذلك من ناحية اختلاف المصادر وتنوعها ، وقلة الاتصالات التي نشاهدها اليوم بين « علماء المشرقيات »، وبين «المؤرخين » وهي عوامل لا تساعد الا على رسم فكرة عامة ، آنية ، لا صفة نهائية لها . فما عسى ان تكون دراسة المدنيات الاسلامية النائية ولم يضع لها المؤرخون بعد ، الا صوراً موجزة مقتضبة . وتاريخ اوروبا نفسها الذي ينعم بدراسات تفوق دقة كل ما يتوفر من امثالها حول هذه المدنيات، لا تستقيم فيه وسائل البحث والتقصي ، ولا هي عندهم سواء ، او على نسبة واحدة ، سواء تعلقت بتاريخ القرون العليا للاجيال الوسطى التي تفتقر ، كثيراً هي الأخرى ، للنصوص التاريخية ، هذه النصوص التي اخضعها النقد التاريخي للصرامة ذاتها والشدة نفسها التي اخضع لها المؤرخون نصوص التاريخ القديم ، والتي لا يزال الكثير من معطياته ، بحاجة ماسة بعد ، كما هي الحال بشأن التاريخ الكلاسيكي ، لأيد الدليل الاركيولوجي والشاهد الاثري . وحوادث القرنين الرابع عشر والخامس عشر التي تفتقر للتأصيل والتسفير والتوثيق، دونها اكداس مكدّسة من الوثائق والمخطوطات تنتظر بصبر جيل من ينهض لدرسها ويتصدّى لتوثيقها توثيقاً منهجياً بعلم واصول .

وهذه المادة المتنوعة موضوع هذا القسم من تاريخ الاجيال الوسطى تقاسمها اربعة اساتذة وراحوا يعالجونها معالجة الاختصاصي المتدبر . فقد درست الآنسة أوبواَيه حضارات آسيا (القسم الاول : الفصل الثالث والرابع ، والقسم الثاني : الفصل الثالث) . اما الاستاذ كاهين ، فقد اخذ على نفسه معالجة تاريخ بيزنطية والعالمين الاسلامي والصقلبي (الفصل الثاني والرابع والسادس من القسم الاول ، والفصل الثاني من القسم الثاني، والفصل الرابع من القسم الثالث) . اما تاريخ أوروبا الغربية حتى القرن الثالث عشر ، فقد تولى الكتابة فيه الاستاذ دوبي (القسم الاول : الفصل الاول والخامس ، القسم الثاني : الفصل الاول والرابع) ، بينما تصدى الاستاذ مولات للتأريخ للقرنين الرابع عشر والخامس عشر (القسم الثالث : الفصل الاول والثاني والثالث والخامس) . وهذا العمل العلمي التعاوني لا بد له من ان يتصف بالوحدة والتجانس في جميع الابحاث التي تناهد على وضعها هذا الفريق من الاساتذة . وقد جرى النظر فيها ملياً وروجعت مراراً واعيدت احياناً كتابتها من جديد ، برضى المؤلفين انفسهم ، على يد مروض خبير ، همه الاكبر ان يؤمن لهذا الكتاب ، وحدة الخطة وافراغها باتساق ، ووحدة التجانس والتناغم ، اكثر مما يهتم لتصحيح بعض الاوهام والهنات ، والمفارقات التي انزلق اليها قلم بعض هؤلاء الكتبة ، وهي شوائب لا بد منها في عمل شارك فيه وساهم مثل هذا العدد من الاساتذة ، فلا يعنيه قط ان ينتسب او يدعي التوفيق والنجاح ، ويكفيه ان يعلن هنا أمام الملأ انه من المتعذر على القارىء ان يتبين امام وحدة الموضوع والمادة ، ما هو نصيب كل واحد من هذا الفريق العلمي الكريم .

القسم الأول

تَفوُّق الحَضارة الشّرقية

(من القرن الخامس الى القرن العاشر)

الفصل الأول

انهيار العالم الروماني : الغرب

(من القرن الخامس الى السابع)

حوالي عام ٤٠٠ ، احتفل رجال الفكر وجمهرة من كتاب اللاتين ومؤلفيهم ، بعيد عظمة روما ، هذه المدينة التي جمعت تحت مسمّى واحد ، كل « الجنس البشري » وأتاحت للنـــاس أجمع : « ان يعيشوا مواطنين ورعايا مدينة واحدة ، كأعضاء أسرة واحدة » ، وفتحت المجال واسعاً امام الشعوب ليتعارفوا ويتمازجوا وينصهروا معاً ، عن طريق الاتجار والحضارة والمصاهرة ، بينما اخذ الشعراء المسيحيون بينهم يطوّبون روما ويعظمونها لأنها هيأت العالم أجمع ، بعد ان نشرت فوقه ألوية السلام ، وجمعته كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ليشتركوا معاً في شراكة واحدة وإيمان واحد . وبهـــذه العبارات انطلقت ألسنة روتيليوس نماتيانوس وكلوديانوس وبرودانس ، معبرين عن مشاعر الارستوقراطية الرومانية بأجمعها ، بحماسة دافقة الشعور اندفعت من أغوار النفس المطمئنة . وقد آمنوا جميعهم وطيداً بأن حدود الامبراطورية لن تلبث ان تختلط بحدود العالم المتمدن اذ ذاك ، بينما ينعم من هم ضمن هذه الحدود ، بوحدة شاملة لمت منهم الشعث . وهذه الوحدة هي مادية ، في الدرجة الاولى . فقد اختفت هذه المنازعات الاقليمية ، وزالت هذه المشادات السياسية وما جرت اليه من دفع وجذب ، وقطـع ووصل ، وارتفعت الحواجز التي كانت تباعد بين الاطراف المتضادة ، ويرى أعضاء الطبقة المسيحية ، أينما وقع منهم النظر ، في أي من هـــذه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط إحاطة السوار بالمعصم ، أقارب لهم وأصدقاء ، ومصالح وأطياناً واملاكاً . وكلهم ينهـــج النهج الواحد ، سواء أقاموا على حدود الرين ، او سكنوا دارة من هـــذه الدارات الشارقة التي عمرت بها بريطانيا ، وينعمون بمستوى عيش رضي رغيد . وهذه الوحدة المادية تفتحت ، من جهة اخرى ، عن وحدة ثقافية . ففي كل حواضر المقاطعات الرومانية وقواعدها ومراكز أقضيتها ، مدارس توزع نعمة العلم والمعرفة على الراغبين فيها ، حتى اذا ما صقلت نفوسهم ، عاشوا معاً الامجاد التاريخية الواحدة ، وتذوقوا الروائع الادبية الواحدة وهاموا بهذه الصور والمحسنات اللفظية والبيانيـــة التي وردت على أقلام

الخطباء ، وهاموا بروائع الفن الهليني . وهي ، الى هذا ، وحدة دينية ايضاً بعـــد ان تغلغلت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني العليا ، فلقحت المناهج الدراسية بقوالب جديدة اتسمت بالعمق الفلسفي، وهو العنصر الذي كانت تفتقر اليه من قبل، كما انها اقتبست ، من هذا المجتمع، ما كان عليه من تنظيم فكري وذهني ، بدونه لم يكن في مقدور النخبة الرومانية ، ان تُقبـل على هذه الديانة الشرقية الجديـدة. فالذين عاصروا القديس اوغسطينوس وايرونيموس تحسسوا الروابط ذاتها ، وهجست نفوسهم بالهواجس ذاتها التي أثارتها فيهم مصائر الامبراطورية ، قبل ذلك بمائتي سنة ، في عهد أباطرة الاسرة الانطونية . فلم يكن ليخطر لهم على بال حتى ولا ان يتصوروا بأن حادثاً طارئاً مهما بلغ من شدتـه ، سيزعزع أركان النظام الامبراطوري فيحول دون مواصلة روما للرسالة السامية التي أعدتها لها التقادير الإلهية وهيأت لها أسباب النهوض بها ، فتحققت على يدها وحدة العالم ، ووحدة الثقافة ، والوحدة الدينية .

أخذت هذه الوحدة تتم ، والحق يقال ، منذ أواسط القرن الثالث في ظروف قاسية كانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . فالجهد الذي بذل بسخاء للحد من غزوات البرابرة ، او بالاحرى لتحويل اتجاهها وللتخفيف من أهوالها ، بعد ان طمعوا بخيرات الامبراطورية وسال لعابهم في حلوقهم لما خبروا من نعمائها ورأوا من ازدهارها وما بذل من جهـــد للمحافظة على استقرار الادارة الامبراطورية في الداخل بعد اضطراب حبل الامن لكثرة الثورات العسكرية يقوم بها الطامعون في السلطة والحاولون اغتصابها والاستئثار بها ، كل ذلك وما اليه أرهق البلاد وأبهظ الادارة وعطل جانباً كبيراً من نشاطهـا ففي أواخر القرن الرابع ، كانت الامبراطورية لا تزال تثير الاعجاب في النفوس وتستبد بالخواطر لرحابة رقعتها ، وهيبة عظمتها ، وهو وضع لا يستطيع المؤرخ إلا ان يلاحظ فيه بعض النزعات الخطيرة. فمن جهة اخذ شطرا الامبراطورية : الشرقي والغربي ، ينزعان منذ وفاة الامبراطور قسطنطين الكبير ، عام ٣٣٧ ، أكثر فأكثر ، للاستقلال التام ، بمعزل الواحد عن الآخر ، بحيث قام في كل منهما امبراطور خاص . ومـــن جهة اخرى ، لما كانت كل القوى الناشطة في الامبراطورية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية تتركز حول الشرق اليوناني، اخذ الغرب اللاتيني يشاهد اثر الاعراض التي انتابته، انحلال النظم السياسية التي ورثها من التاريخ القديم .

انحطاط الامبراطورية الرومانية

اول ما يطالعنا من عوارض هــذا الانحطاط تدهور الروح الوطنية وتحللها . فبعد ان كانت الامبراطورية في بدء أمرها ، عبارة عن اتحاد عدد من المدن ، تنعم بالاستقلال على أنساب وأقدار متفاوتة ، اذ بها تتحول الى ملكية مطلقة من الجنس الفرعوني ، معقدة الادارة . فالاعباء التي كانت البلديات تضطلع بها من قبل او متروك أمرها للمبادرة الفردية، أصبحت الآن من خصائص الادارة العامة ، او عبئاً على دوائرها المعقدة الكثيرة النفقات، فأثقلت كاهل الشعب وأرزحته تحت وطأتها. وهذه الروح الوطنية الرومانية التي كانت تبعث النشاط والحماسة في قلب كلوديانوس كما أثارت حماسة القديس

ايرونيموس ، استحالت شيئاً من التعلق الصوري او الشكلي بهذه المدنية التي رفعت روما منارها عالياً ، ولم تلبث هذه الروح ان شابها عاطفة من الزهـد وعدم الاكتراث بالحكم الامبراطوري والموظفين الذين يؤمنون الادارة ويصرّفون الاعمال. فأمام موظفين جشعين، لا يهمهم سوى تأمين جباية رسوم هم اول من يفيدون منها ، نرى المواطن الروماني يلتزم جانب السلبية ويحاول كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، التهرب من التزاماته المدنية والتملص منها . فمن عضتهم الفاقة بينهم اعتصموا بالهرب او أعلنوا العصيان المكشوف . وبينما يحاول الأغنياء وسراة القوم الحصول على المزيد من الاعفاءات والاستثناءات القانونية، تجيش نفوس الجميع بروح العصيـان والتمرد . وتتمثل هذه الروح ، على أشدها ، في هذه الحركات العسكرية التي تكررت حوادثها : فالناس يتملصون من الخدمة العسكرية . فبدلاً من هذه الفرق العسكرية التي لا شأن لها ولا كبير وزن، تفضل الدولة عوضاً عنها وبديلاً لهـا ، كمية من النقود ، تكبر أو تصغر ، تنقص أو تزيد ، على نسبة الفرصة السانحة والحاجة الطارئة ، تتيح لهـا تجنيد فرق من متطوعة البربر أقوى على الحرب وحمـل السلاح . ففي اواخر القرن الرابع ، ليس الجيش الروماني ، حتى في ملاكاته العليا ، سوى فريق لم من الاغراب المرتزقة . فهم ، في الغالب ، جنود ملء وفاضهم الحماسة ، يتجندون للدفاع عن الدولة التي تدفع لهم المرتبات والأعطيات، وعن مدنية يتمنون استمرارها وامتداد حقلها وتمثل نظمها . ومن دواعي القلق الذي يشغل البـال ويقلق الخاطر هو ان المنظمة السياسية الوحيدة الناشطة ، والقوة الفعـالة الوحيدة لدى هذا الشعب الروماني الذي يعاني الجمود ، هي بيد البرابرة أنفسهم .

وهذا الانحطاط الذي أصاب الجيش واوهنه ، نراه يخلخل مرافق التجـارة ويذهب برواء الحياة في المدن ويشل فيها كل حركة . ففي الغرب ، ولا سيما في غاليا حيث كان للسلام الروماني اكبر الاثر في تنشيط عوامل الزراعة وانهاض مرافقها ، اخذت الحركة الاقتصادية والتجارية التي قامت في القرنين الاول والثاني على قواعد اصطناعية واهية ، بالانحطاط تدريجيـاً واعتراها الذبول. فالطبقة الارستوقراطية كانت تعوّل على الاغريق في الحصول على ما ترغب فيه من اسباب البذخ والترف يؤمن توفيرها لهم، تجار شرقيون، سيطروا على حركة الاستيراد ، يبيعون الرومان اكثر بكثير مما يشترون منهم ، وبذلك اخذوا يمتصون ، شيئاً فشيئاً ، ما تراكم من احتياطي المعادن الثمينة في الغرب ، خلال الفتوحات الرومانية . فقد اشتدت حاجة الناس الى الذهب ، منـذ اواخر القرن الرابع ، الامر الذي أخّر ، الى حد كبير وشلّ حركة المقايضـات التجارية ، وترك بالتالي ، اثراً عميقاً على الحركة التجارية بين الاقطار النائيـة ، فأدّى الى تقهقر الحياة الاقتصادية في المدن وتردّيها . وقد انكمشت المدن الكبرى خلف اسوار اقامتها حولهـا على عجل لتتقي شر الاضطرابات التي نشبت خلال القرن الثالث في الامبراطورية، او استحالت الى حصون وقلاع حصينة لم تلبث ان فارقتها معالم الحياة وغابت عنهـا كل مظاهر النشاط . وكان من جراء هبوط قيمة النقد الفضي ، ان تعطلت حركة المقايضات في المدن واصبحت المواد الغذائية عسيرة المنال، الامر الذي دفع الاثرياء من سكان المدن الى مبارحتها والاعتصام بالدارات

يشيدونها لهم في الارياف، حيث كان من السهل عليهم تأمين حاجتهم من المواد الغذائية، وحاجة ذويهم . وهكذا اخذوا يتذوقون السكنى في الريف، كما يستدل من رسوم الفسيفساء التي يعود تاريخها الى القرن الرابع، فيستسلمون لملاذهم . وراحوا يستعيضون عن الكماليات المستوردة من الشرق بمصنوعات محلية، وان كانت دون الاولى دقة صنعة، الا انها دونها بكثير كلفة وثمناً . وقد خضعت جمعيات التجار والصناع التي ازدهرت من قبل في المدن، لمضايقات جباة الضرائب والرسوم، بعد ان تفننوا في ابتزازها، واخذت بالانحلال، بعد الذي عانت من ركود الاعمال والاشغال اثر تناقص عدد زبائنهم من ذوي اليسار. وهكذا اتجهت البلاد نحو نظام من المعاملات الاقتصادية قضى على الزراعة، فبارت الارض واجدبت، وهكذا راحت المدن واسواقها والطرقات القائمة في الريف تزول معالمها شيئاً فشيئاً، كما ضاقت فيها سُبل العيش على الاهلين، بعد ان قل النقد المتداول بين الناس، كما تعطلت الطرق التجارية، الأمر الذي لم يكن ليسهل مهمة الدولة في جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المفروضة على المحاصيل الزراعية، وأصبحت لا تعوّل إلا على ضريبة الخراج والأعناق التي كثيراً ما كانت تجبى عيناً، الأمر الذي كان يعقّد امور الجباية ويجعل من المتعذر الانتفاع من الرسوم المجباة . وكان من جراء اعتماد الامبراطورية المتزايد على الريف، ان اخذت الدولة الاعتماد على كبار الملاكين مباشرة، فعولت على المصادرة والسخرة في تأمين أوَد الجيش والموظفين الاداريين والحاميات العسكرية، فهيأت بذلك تفتيت السلطة وتشعبها .

وهكذا ساعدت الدولة على خلق نظام اجتماعي جديد بالرغم من الجهود التي بذلتها الامبراطورية التي رأت، تبسيطاً لمهمتها ولتأمين الاستقرار في تحصيل الضرائب، ان تربط، بصورة وراثية، كل رجل حر بوضعه الاجتماعي فيلازمه ويتقيد به ولا يحيد عنه . فانحطاط المدن واشتداد وطأة الضرائب تسببا في انهيار طبقة صغار الملاكين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال، وحملهم على طلب حماية من تتوفر لهم القوة والبأس، ليردوا عنهم غائلة المستبدين وجشع المستغلين، وبذلك قضي تماماً على الطبقة الوسطى، كما ازدادت الطبقة الارستوقراطية والطبقة المشيخية الاخرى نفوذاً على نفوذ، بعد ان اقتصرت الوظائف الحكومية عليها . وهكذا لم يلبث رب الارض الذي اتخذ من قصره حصناً حصيناً، ونصب حوله الحراس يسهرون على سلامته وامنه ان أصبح السيد المطلق على هؤلاء المعمرين الذي يعملون في ارضه ويحرثون مزارعه، ويضطرهم لدفع رسوم خاصة له او تأدية بعض أعمال السخرة مقابل حمايته لهم وتحمل مسؤولياتهم امام اصحاب الشأن . وهكذا لم يعتم المزارعون والفلاحون الذين يعملون في جواره ان وضعوا، هم ايضاً، أنفسهم تحت حمايته، وقدموا له بكل اخلاص، ما يلزم من الخدمات . والى جانب هذه الاقطاعات التي نشأت في البلاد وكانت بمأمن من مضايقات ذوي الشأن لما نعمت به من حماية المتزعمين، اخذ المجتمع اذ ذاك، بالتفتت والتفسخ، فاقفرت المدن من سكانها بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية وأخذت المجتمعات الريفية تتمتع بالمزيد من الاستقلال

وهي على أتم استعداد للدخول تحت طاعة من يؤمن لها الرعاية والحماية ، وعاثت في طول البلاد وعرضها جماعات من المتمردين ، وانتشرت في أرجاء البلاد طوائف من الأرقاء الفارين والفلاحين الذين يرزحون تحت وطأة الضرائب والرسوم المتراكمة عليهم سنة بعد سنة .

تداعي الحضارة وانهيارها

وهذه القيم الروحية للحضارة في الغرب، تبدو في أواخر القرن الرابع، على شتى مظاهرها : الدينية والثقافية والفنية ، وكأنها أقفل تأثراً بهذا الانهيار . فتحت تأثير المسيحية ، وبفضل ما للديانة الجديدة من جذور شرقية وشعبية ، أخذ الفن والفكر يبتعدان شيئاً فشيئاً ، عن مظاهرهما الكلاسيكية ويتلبسان أشكالاً وصوراً جديدة، فتحت تأثير الفلسفة الافلاطونية الجديدة التي اخذ بها كل من امبروسيوس واوغسطينوس، ارتدى الرسم على الزجاج المذهب ، والتصوير على الالواح العاجية المزدوجة التي كثر استعمالها في شمالي ايطاليا ، طابعاً نمّ عما بلغه التجريد الروحي . فاذا ما رأينا الفنانين يكثرون من حفر صور بشرية على جوانب النواويس ، بارزة غضونها ، ظاهرة تجاعيدها ، فبحثاً منهم بالاحرى ، عن أنماط فنية جديدة وليس عن قلة دربة فنية في الصناعة ، اذ كانوا يحاولون التعبير ليس عن الجمال الصوري بل بالاكثر، عن العنصر الفائق الطبيعة الذي جاءت الديانة الجديدة تعلن للانسان عن وجوده ، وتُفعِم به قلبه .

ومع ذلك ، فلا بد من ان نلاحظ ظهور بعض امارات التقهقر في هذا المجال . فالهبوط عن المستوى الذي لا بد من تسجيله هنا ، جاء نتيجة لانتشار القيم الدينية والثقافية بين الطبقات الشعبية . فكلما انتشرت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني الارستوقراطي ، وتغلغلت بين ثناياه، فقدت من سموها بنسبة ما حققته من سعة وانتشار . فالروح الدينية التي نلمسها لدى النبيل بولان ده بيلاّ ، احد سراة القوم في مقاطعة البوردوليه ، هي روح دينية ميسرة، مريحة جاءت على مقياس نهج الحياة والعيش الرخي الذي انتهجته الطبقة المشيخية ، اذ ذاك . وهبوط المستوى الثقافي يرتبط ، الى حد بعيد ، بهذا الانكماش الذي خلخل الوضع الاقتصادي وقضى على حياة المدينة ، وذهب بمباهجها . فقلة الطلب او انعدامه لدى الطبقة الارستوقراطية التي أخذت تألف، أكثر فأكثر ، مع حياة الريف وعادات أهله، أدت بالتالي الى التقليل من الانفاق ، والى اقفال المصانع الفنية، كما أدى هذا كله الى هبوط ملحوظ في الاساليب والمناهج الفنية نفسها ، كما يبدو ذلك واضحاً في معالم الفن الجنائزي ، في مدينة آرل ، عام ٣٩٠ . فالمدن يهجرها سكانها ، كما تخبو فيها جذوة الحياة الفكرية ، ممثلة بالمدرسة رمز النشاط الثقافي ، اذ ان المدرسة هي مكان لمطالعة الآثار الادبية ودرسها . وعندما يهجر هؤلاء الناس المدينة ويقطعون كل صلة لهم بها ، يألفون حياة الريف دون ان يقطعوا، مع ذلك، كل انعطاف نحو النشاط الفكري. فهم يعقدون اجتماعات لهم دورية كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، فيتعاورون الكتب ، ويتبادلون الرسائل مع بعضهم ، فتبقى المراسلة أنشط وسائل الاتصال ، ويعهدون بتربية أولادهم لمربين من الخاصة. ومع ذلك فكلما استحالت التربية نشاطاً عائلياً او عملية بيتية، وكلما ضعفت او قلت الاتصالات

مع الخارج ، ضمرت ، بالتالي ، الاعراف الثقافية والتقاليد الحضارية ، تحت تأثير الوسط الريفي الخشوشن . فالاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة ، في اخريات القرن الرابع ، أصبح وقفاً على نخبة مختارة . فطالما استطاعت هذه النخبة ان تثبت وجودها في الوسط الحضاري وفي المدينة ، استطاع بالتالي ، الفن والفكر معاً ، ان يحافظا على شعلتها مشبوبة وهاجة . اما اذا ما تفرق شمل هذه القلة المختارة وراح كل من أفرادها يقبع بين أملاكه وأقطانه الواسعة ، في عشرة موصولة مع الفلاحين ، فلا بد من ان تنقلب الحال غيرها . وهكذا بابتعاد المثقفين عن المدينة وانقطاعهم في شبه عزلة في الريف ، لم يلبثوا ان يفقدوا كل رواء المدينة وان تخشوشن طباعهم وتغلظ أرواحهم .

وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع تميل نحو الغروب ، حتى رأينا التحول يخيم على المدنية في الغرب دون ان يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري امامهم او يقع حولهم . ففي الوقت الذي تنعدم ، في الدولة، كل وسائل العمل والتنفيذ، ويتجاذب السلطة الفعلية كبار الاقطاعيين وقادة الجيش ، وجلهم أغراب ، لا تلبث تقاليد الريف وعاداته ان تنشط وتستبد بالاذواق والاخلاق والاعراف ، فتضعف ، بالتالي مباهج حياة المدينة وهذه الحياة الرهيفة التي سادت أجواء المدن وعمرت بها الحياة في ظل اقتصاد نشيط وتجارة مزدهرة . وسيحدث قريباً ما يعجّل من هذا الانهيار ويسير بهذا الوضع الذي صورنا الى النهاية المحتومة التي رسمت لها في هذه الموجات المتتالية من الغزوات تشنها القبائل الجرمانية .

الموجات الجرمانية

وقع وراء نهري الرين والدانوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم البربري او الهمجي ، أي هذا القسم شبه المجهول من العالم الذي لم يكتب له ان ينعم ولا قيّض له ان يسهم بالحضارة الرومانية . وهؤلاء الاقوام البرابرة الذين يعيشون على حدود الامبراطورية هم الجرمان ، وهم قبائل من سكان الارياف ، ما ان يستقروا فوق تربة ممسكة شحيحة حتى يعالجوها بأساليب بدائية . الوحدة الاجتماعية عندهم هي الاسرة ويؤلف مجموع الأسر من صلب واحد قبيلة تتوزع الى بطون وأفخاذ ، يتألف من بعضها احلاف عسكرية تعرف عندهم بأقوام او شعوب . من هذه الشعوب مثلاً : الفرنج *Francs* وهم على فرعين او شعبتين : *Saliens* و *Ripuaires* ، والألامان ، والبورغونيون *Burgondes* والفندال ، والاستروغوط والفيزيغوط ، تحت امرة رؤساء او قادة حرب ، هم على الغالب ملوكهم وأصحاب الكلمة النافذة ، والحل والربط عندهم . والحدود التي كانت تفصل بين هذه الاقوام الجرمانية والامبراطورية الرومانية ليست، على كل حال، صعبة النفاذ ، ولا من العسير التسرب عبرها والانسراح في المناطق الرومانية ، فقد سبق للمبشرين ان حملوا الى بعض هذه الشعوب ، النصرانية ، انما على مقالة الآريوسية *Arianisme* ، كما حدث للجرمان ان اجتازوا ، بأعداد كبيرة متراصة ، هذه الحدود ، ليعملوا مزارعين في بعض الاقاليم الرومانية ، او ليؤلفوا فرقاً مرتزقة في الجيش الروماني . وقد استطاعت روما ، منذ عام ٢٨٠ ، ان تهيمن على هذه الحدود

بنجاح وتتشدد براقبتها . إلا ان الضغط على هذه الفواصل اخذ يشتد، في أواخر القرن الرابع، بدافع من ضاغوط او كابوس لا يقاوم، من قبل هذه الشعوب التي اخذت تتملل وتتمطى وتهتاج في هذه الفيافي الشاسعة الممتدة من أواسط القارة الآسيوية . فلم تستطع الحدود الرومانية وما عليها من قلاع وحصون ، الصمود في وجه هذا الضغط ولا احتمال شدة الصدمة الدافعة، فانهارت أمام سيل جرّاف من هـذه الاقوام تدافعت من الثغرات التي انفتحت امامها ، فاكتسحت في اندفاعها اوروبا الغربية ودكت منها المعالم .

وأول من اجتاز حدود الامبراطورية على الدانوب ، من هذه الشعوب ، قبائل الفيزيغوط ، وثاروا في وجه الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ . وقد استطاعت حكومة الامبراطور تغيير وجهة هذه الموجة البشرية وتحويلها نحو الغرب ، فلم يلبث ملكهم آلاريق ان فتح مدينة روما ، عام ٤١٠ ، واحتلت جحافله ، عام ٤١٢، غاليا الجنوبية في الوقت الذي اجتازت فيه قبائل الفندال حدود الرين تجر وراءها لميماً من القبائل الجرمانية الاخرى كالآلين *Alains* والسويف *Suèves* ، وذلك في اليوم الاخير من سنة ٤٠٦ ؛ ومن اسبانيا التي استباحتها شعوب الفندال واقامت فيها ردحاً من الزمن تستعيد عافيتها وقوتها ، راح ملكهم جنسريق يفتح لهم ، عام ٤٢٩ ، مقاطعة افريقيا . أما شمالي غاليا ، فقد راح غنيمة باردة للفرنج والألامان والبورغونيين الذين انتهى بهم مطاف الغزو، الى مقاطعة سافوى، عام ٤٤٣ . وبين ٤٠٠ – ٤٣٠ ، اضطرت الفيالق الرومانية لاخلاء بريطانيا وترك شؤون الجزيرة لسكانها من اقوام الكلتيين الذين لم يلبثوا ان عانوا الأمرّين من غزوات السكسون ومهاجماتهم المتكررة ، محاولين من وراء ذلك ، اقتطاع الأراضي الواقعة على شواطىء بحر الشمال وخليج المانش . وتمكن الكلتيون من الصمود في وجه هؤلاء الغزاة حتى اواخر القرن الخامس . الا ان الجرمان توصلوا الى طرد سكان البلاد الاصليين ، الى الشمال والغرب منها . وجلا قسم من البريطانيين الى شبه جزيرة الارموريك، في غاليا، هرباً مما تعرضوا له من ضغط السكسون. ومنذ عام ٤٥١ – ٤٥٢ انطلقت موجة الهونز بقيادة أتيلا، من سهول بانونيا تدك تحت سنابك خيلها غاليا وسهل البو في ايطاليا الشمالية . وفي عام ٤٨٨ ، دخل ثيودوريق ملك الاوستروغوط ايطاليا ، على رأس جيش لجب . وهكذا في أقل من قرن واحد ، استباحت موجات عارمة متواصلة من اقوام الجرمان وشعوبهم ، معظم مقاطعات الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما بقي شطرها الآخر ، في الشرق ، سليماً مصوناً الى حين . والرأي المعول عليه لدى المؤرخين هو ان يجعلوا من هذه الحقبة حداً ينتهي عنده التاريخ القديم، ويبتدىء معه تاريخ الأجيال الوسطى . فما هي لعمري ، النتائج التي ترتبت على هـذا الحادث الطارىء الذي أثر عميقاً في تاريخ الحضارة ؟

فالانشاءات الرومانية الممثلة في هذه الدساكر والقرى والمزارع والحاميات المتناثرة حباتها على الحدود ، في ابعاد متفاوتة ، مما وطأه الغزاة الطارئون بارجالهم ، زالت معالمها تماماً من الوجود دون ان يبقى منها اثر بعد عين . فتقاسمت أقوام من السكسون والبريطانيين سكان

البلاد الأصليين ، مقاطعات بريطانيا . وسيطر على مقاطعة الفلاندر واقليم رينانيا بين الدانوب وجبال الألب ، قبائل الفرنج والألامان والبفاريون المتنصرة ، وراحت تستعمر بوسائلها ، هذه المقاطعات وتستغلها ، بينا نزح عدد كبير من الرومان عن هذه الارجاء ، واقامـوا بعيداً الى الجنوب ، بينهم سلفيان التريفي *Salvien de Trèves* الذي جاء وسكن مدينة مرسيليـا . ووقعت اعلاق الفن وروائعه ، والمباني التي كانت تزهى بها هذه المدن ، والرياش الفاخرة التي ازدانت به صروح سراة القوم ، ودارائهم الجميلة في الارياف ، كل هذا ذهب فريسة للغزاة الفاتحين . فلم يبالوا قط بما لهذه الدرر والغرر الفنية من قيمة وشأن فاهملوا امرها ولم يلبث ان عفا الكثير من معالمها فاصبحت نسياً منسياً . وهكذا زال من الوجود ما كان قائماً فيهـا من مدارس وكنائس ، كما بادت فيها الجوالي والجماعـات المسيحية ، وارتفع كل اثر للحدود الرومانية ، واقتسمت هــذه القبائل الجرمانية الاقاليم الرومانية الواقعة اليها فوزعتها على ما عندهــا من بطون وافخاذ ، فانتهبتها الجاعـة وحولتها الى مزارع ومراع فسادت فيها اخلاق الوثنيين وعاداتهم . وقد حدث شيء شبيه بهذا، في مقاطعة الارموريك التي نزلت بها جاليات من بريطانيا هرباً من وطأة الغزاة السكسون ، وفي جبال كنتبريا الى الشمال الغربي من اسبانيا حيث عاد السكان الى طبائعهم البربرية في المناطق التي لم تدرج فيهـا اللهجات الرومانيـة ، انما سادت فيها لغات البشق *Basques* والكلتيين وغيرهـا من اللغـات الجرمانية .

اما في الجنوب من هذه المنطقة فنتائج الغزوات البربرية كانت اخف وقعاً . فقد كان عدد البرابرة الذين انساحوا في بعض اطراف البحر المتوسط الغربية كاسبانيا وافريقيا ، قليـلاً نسبياً ، اذ لم يعبر مضيق جبل طارق ، الى افريقيا ، بصحبة جنسريق اكثر من ٨٠ الفاً كما لم يدخل اسبانيا تحت قيادة ثيودوريق، سوى ٢٠ الفاً من الاستروغوط، حيث اخذوا يستمرئون تدريجياً ، المدنية الرومانية ، اذ اعتنق السواد الاعظم منهم النصرانية . صحيح انهم كانوا مدججين بالسلاح ، قساة القلوب جشعين وكان عبورهم خلال ايطاليا وغاليا واسبانيا في طريقهم الى افريقيا كارثة هزّت اركان العالم اللاتيني وهددته بالمحاق ، لما انزلوا في هذه البلدان من خراب ودمار ، ونهب وسلب ، وما اضرموا فيها من حرائق ضروس اكلت الاخضر واليابس. فهذه الكنوز التي طمرها اصحابها من الاغنياء وسراة القوم في الأرض ، إستبقاءً لها وجعلها في منجى من عبث العابثين ، لم ترَ النور ثانية ولم يعد اليها اصحابها، بعد ان ارتفعت الغمة وانقشعت الغمامة السوداء ، مما يدل على ان عدداً كبيراً من اغنياء الرومان لقوا حتفهم خلال النكبة ، أو جلّوا عن اوطانهم دونما رجعة . وبين الذين آثروا البقاء حيث هم ، أو لم تقتلعهم العاصفة ، من آل امرهم الى الخراب والدمار، كما وقع مثلاً لبولان ده بيلا الذي جرب ان يتعاون مع الغزاة وآثر العيش بينهم محافظة منه على مقتنياته واملاكه وثروته الطائلة ، مع انه كان من الميسور له ان ينجو بنفسه مع ذويه ، الى املاكه الواسعة في الشرق . وعمت الفوضى البـلاد لكثرة

الاضطرابات والانتفاضات الشعبية . فقد ثار العبيد وتمردوا على اسيادهم ، وراح البائسون من الفلاحين والمزارعين يناصرون جحافل البرابرة الغزاة ويشدون من ازرهم. وعمت الفوضى مرافق البلاد الاقتصادية : اذ اختل حبل الأمن واختلت بالتالي الحركة التجـــارية ، وانقطعت وسائل الاتصال والانتقال كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج . وبما هو انكى من هـــذا كله وأحزّ في النفس واوقع ، سقوط روما عام ٤١٠ ، بيد البرابرة . فكان لهـــذا الحادث دوي بعيد في النفوس انزل الهلع في قلوب العالم المتمدن، حتى ان القديس ايرونيموس انقطع حيناً عن متابعة عمله ، في عزلته في بلاد اليهودية . اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المشيخيـــة ، فراحوا يردون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الآلهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها ، كما رأوا في هذه النكبة النكباء نتيجة وخيمة لزواجر المسيحية ونواهيهـا . وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب ، فأخذوا يتساءلون بشيء من الحيرة : لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس ؟ وراح فريق منهم ، بعد ان وقعوا فريسة الوساوس يتقربون من الأصنام التي رذلوها من عهد بعيد ، واطرحوها جانباً يعفرون أمامهـا رؤوسهم مستغفرين، قارعين صدورهم ندماً واسفاً، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم. واسمع ما قاله بهذا الشأن بروسبير الاكويتاني : « فارق السلام ارضنا هذه ، فاصبح كل ما تقع عليه العين سائراً للزوال . » ولكي يرد القديس اوغسطينوس شماتة الشامتين ودعاة السوء والشائنين ويقوي ضعاف الايمان وضع كتابه : « مدينة الله » *Cité de Dieu* . ومع ذلك فما كادت العاصفة تمر حتى تناسى الناس ويلاتها ونتائجها المشؤومة ، كما عادت الثقة الى النفوس . وما ان اطل عام ٤١٧ حتى راح روتيليوس ناماتيانوس *Rutilius Namatianus* يشيد عالياً ويتغنى بعودة البحبوحة والرفاه ، وعودة النشاط التجاري وحركة المبادلات وحياة اللهو . اما الكاتب اوروز *Oroze* فعلّق على الحادث قائلاً : فالغزو حادث طارىء وانقضى. فقد سمحت به العناية الإلهية لتتيح للبرابرة الانسراح في الامبراطورية الرومانية المظفرة، وليفيدوا مما فيها من حضارة ومدنية ونصرانية. وقد ارتفعت في روما بين ٤٢٢ – ٤٤٠ كنيستان : الأولى باسم القديسة سابينا والثانية باسم القديسة ماريا الكبرى (ماجور) ، وفرشت جدرانها بالفسيفساء ، سيراً مـع التقاليد الفنية المرعية منذ عهد قسطنطين .

التشكيلات الجديدة

لم يترك غزو القبائل الجرمانية ، للبلدان الواقعـــة حول البحر الابيض المتوسط ، أثراً عميقاً ، إلا في البنيان السياسي وتنظيماته . فبعد الغزو بمدة قصيرة ، راحت الحكومة الامبراطورية تحاول اعطاء صبغة شرعية لإقامة البرابرة في المقاطعات التابعة لروما . فقد اعتادت الامبراطورية ، منذ عهد بعيد ، استقبال رجال الحرب من بـــين البرابرة . فلم تكن جحافل الغزاة لتختلف كثيراً في الأصل عن فيالق الجيش الرسمي ، اذ ذاك . ففي توزيعهم على الأقاليم والمقاطعات ، دمج لهم في الملاكات والأطر العسكرية المعمول بهـا في البلاد ، بعد ربطهم والاستيثاق منهم بالمواثيق. فقبل ان يطأ ألاريق ايطاليا بسنابك خيله، كان

ضابطاً كبيراً في الجيش الروماني برتبة *Magister Militum* ، كما ان احلاف الفيزيغوط أقطعوا ، بموجب معاهدة عقدت معهم ، عام ٤١٥ ، مقاطعة الاكويتان . وجرت اتفاقات مماثلة مع غير هؤلاء الشعوب أضفت الشرعية على استيطان الحلفاء الجدد من الفندال ، ان لم يكن في اسبانيا ، عام ٤١١ ، أقله في إقليم نوميديا ، عام ٤٣٥ ، وفي افريقيا عام ٤٤٢ ، كما أضفت الشرعية على اقتطاع قبائل البورغونيين ، مقاطعة السافوى ، عام ٤٤٣ . وثيودوريق نفسه الذي كان رئيس هؤلاء الاحلاف ، أصبح ، منذ عام ٤٨٣ ، بطريقاً وقائداً للجيش . وقد احتفظ هؤلاء الحلفاء بقوانينهم الوطنية وعاداتهم من تشكيلات مستقلة اختصوا بها . فلملكهم وحده ، حق التفاوض مع روما ، وله وحده حق ابرام المواثيق، التي يتعهد بموجبها تقديم كل مساعدة عسكرية مقابل القيام بأود رجاله .

وتنفيذاً لمسؤولياتها من هذا القبيل ، راحت الامبراطورية تطبق ، بعد ان تبنتها وأخذت تعمل بموجبها ، الاساليب ذاتها والمناهج نفسها التي كانت متبعة من قبل، لتوفير السكن وأسباب الراحة لموظفيها وأفراد جيوشها. فكانت الدولة تسلمهم أذونات بالسكن ، وباستلام ما هم بحاجة اليه من المواد الغذائية ، من مستودعات التموين العامة ومخازن الإعاشة . وأمام انتشار حركة العيش في الريف التي نشطت أسبابها ، اذ ذاك ، ومواجهـــة ضرورة توفير مقومات السكنى الطويلة ، رأت الدولة نفسها مضطرة لتعديل قانون « الضيافة » المعمول بـــه ، اذ طلب الى الملاكين التخلي عن ثلث او ثلثي بعض ممتلكاتهم، لقواد هذا الجيش الذين راحوا يوزعونها بدورهم، بين كبار الرؤساء والضباط. والظاهر ان العملية تمت دون ان تثير صعوبات كثيرة ، لضآلة عدد البرابرة الذين اقتضى تدبير سكناهم ، نسبياً ؛ ومن جهة اخرى ، فقد جرت العادة ان يقيم بعض أعضاء الطبقة المشيخية حاميات عسكرية على ممتلكاتهم ، وحداتها من البرابرة . ولم يتمعض لهذا التدبير التعسفي سوى قلة من أصحاب الذوق الرفيع، أمثال سدوان ابولينير *Sidoine Apollinaire* الذي لم يكن ليطيق او ليحتمل خشونة هؤلاء النزلاء الخشان الطباع ومضايقاتهم . وبقيت الدوائر الادارية العامة ماضية في سيرها كالمعتاد ، لم يزعجها كثيراً ، تحمل أعباء جديدة نزلت على المدنيين من جراء تأمين أود جيش احتلال بصورة مستمرة ، وهو عبء جديد أضيف الى الاعباء الثقيلة الاخرى المترتبة على سكان بعض المقاطعات الرومانية ، من هذا القبيل .

كانت السلطة الفعلية، والحق يقال ، في هذه الولايات ، في يد ملك البرابرة الذي كان الشعب يختاره رئيساً عليهم . والقوة التي له ، والسلطة التي كان يمارس صلاحياتهـا بتفويض رسمي من ممثلي الشعب ، اتاحت له : مراقبة الادارة والاشراف عليها عن طريق نوابه الذين كانوا يلقبون بـ — كونت — وهو لقب مصطلح عليه في مراتب الجيش ، في عهد الامبراطورية الرومانيـــة المتأخر ، فيسهرون على سلامة الأمن في الاقضية الواقعـــة تحت اشرافهم المباشر . وهكذا لم تلبث تشكيلات الجيش وانظمته ان حلت محل النظم الادارية ، بعد ما اعتراهـــا من تحلل واسترخاء ، في جميع انحاء الامبراطورية . وهكذا لن تعتم المقاطعة ان تصبح مملكة يخضع من

فيها من رومان وبرابرة للقائد العسكري المتولي شؤون الحرب . وكثيراً ما حاول هذا القائد الملك بسط نفوذه وسيطرته الى ما وراء حدود المنطقة التي تخضع لادارته العسكرية، الامر الذي كثيراً ما اضطر معه الامبراطور على الانكفاء نحو الشرق فتتقلص رقعة الامبراطورية وينكمش سلطانه . وقد سبق ان تم نقل مركز العاصمة في القسم الغربي من الامبراطورية من مدينة تريف ، الى مدينة ميلانو ، فالى مدينة رافينا ، عام ٤٠٣ ، وهي مرفأ معزول منقطع يقع بين الغياض والمستنقعات وينفتح على البحار اليونانية . وعندما ثار الجيش الروماني ، عام ٤٧٦ مطالباً لنفسه بذات الامتيازات والمنافع التي كان ينعم بها جيش الشعوب المتحالفة ، قام قائده ادواكر *Odoacre* يخلع الامبراطور ويحتل القصر الامبراطوري في رافينا ويسكن فيه ، ويبعث بشارات الملك الى بيزنطية . وكان من شأن هذه الحركة ان اعادت إلى الامبراطورية وحدتها ، اذ لم يصبح لها من بعد الا عاصمة واحدة هي القسطنطينية . اما الغرب فقد بقي شرعاً وقانوناً، مرتبطاً بالشرق يحكمه باسم الامبراطور قادة القبائل البربرية باعتبارهم ممثلي الامبراطور ومفوضين سامين في هذه المناطق . وجاء في رسالة بعث بها سيجسموند ، ملك البورغونيين ، الى الامبراطور أنستاس في مطلع القرن السادس : « اني اظهر بمظهر الملوك وشاراتهم ، بين رعيتي ، بينما انا جندي من جنودك » . وهكذا نرى كيف ان الشطر اللاتيني من الامبراطورية كان يتقاسمه عدد من الممالك تنعم كل واحدة منها ، بالفعل ، باستقلالها التام .

وعلى نقيض ما حدث في المقاطعات الواقعة على الحدود ، لم يتسبب الترتيب الجديد الذي سارت عليه العلاقات السياسية ، باي انقطاع أو انفصام في استمرار سير الحضارة وتطورها . فالبرابرة لم يؤلفوا سوى اقلية ضعيفة حتى في المقاطعات التي استقلوا بامورها على ساحل البحر المتوسط ، حيث تم لهم ملء السلطة المطلقة ، كما انهم لبثوا ، مدة طويلة ، موزعين جماعات صغيرة معزولة عن سواد الرومان الأكبر . فقد احتل الاستروغوط ، في المدن الايطالية احياء معينة اختصوا بها . فالرؤساء الجرمان ، وحدهم ، اخذوا ينمّون اتصالاتهم بالطبقة المشيخية ، فيشايعون النظام الجديد ويسيرون معه بنسبة ما يمكنهم من العيش على هواهم ، ويستمرون في تأدية الوظائف الادارية التي يقتضيها نظام الحكم . وقد اخذ الغزاة يستمرئون حضارة سكان البلاد. فالاخلاق والعادات والاعراف والتقاليد التي حملوها معهم كانت من الانحطاط والتأخر ، ما منع الارستوقراطية اللاتينية من الاكتراث بها ، فاعرضوا عنها ورذلوها ، باستثناء بعض أشكال وصور من البذل والعطاء الشخصي التي ما لبثت ان تغلغلت بين الاعراف والتقاليد المعمول بها .

وعلى خلاف ذلك ، أقبل البرابرة بشوق من يقبسون أوضاع الحياة المهذبة المصقولة وهم على يقين بان علامة النبل الوحيدة ، وسمة الشرف المثلى ، هي اقبال المرء بكليته ، على الآداب الرفيعة والعب منها ، كما يقول سدوان ابولينير . وهكذا راح الكثيرون يتتلمذون على مدرسة الرومان وينهجون نهجهم .

فبالرغم من الخراب والدمار ونهب كنوز البلاد وغير ذلك من الاستباحة والأعمال الوحشية التي رافقت غزوات البربر او عقبتها، فقد كان من جرّاء دخول عناصر خشنة ، فظة بين النخبة المثقفة، ان تدنى كثيراً المستوى الحضاري العام، فساعد هذا التقهقر على الانتقال من حضارة مدن ناعمة الى حضارة ريف غليظة، فظة، مخشوشنة دون ان يحدث او يقع أي انقطاع في سير الحضارة واستمرارها . ويستدل من رسائل سدوان ابولينير الذي عاد مأخوذاً من زيارة قام بها لبلاط ملك الفيزيقوط ، في مدينة تولوز ، ان هـــذه الثقافة الحضارية لم تتأثر قط في بعض الأجواء الارستوقراطية الرفيعة، عند منتصف القرن الخامس ، ولم تفقد شيئاً يذكر من نعومتها وتهذيبها ورهافتها . وبعد ذلك بمدة وجيزة، نرى قصر "ملك الفندال ، في افريقيا ، يصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي والحضاري في تلك البلاد ، كما نرى الملك تيودوريق يحاول ، في القرن السادس ، ان يعيد الى سالف عزها ، الحضارة الرومانية في ايطاليا ، اذ أخذ يرعى معالم هذه الحضارة ، ويعنى بصيانة المباني في روما وترميمها، كما شيّد ، في مدينة رافينا، عدداً من الكنائس والعمائر وفقاً للطراز المعاري المعمول به في الامبراطورية البيزنطية ، وأجرى عطاياه بسخاء على المدارس ومعاهد الفصاحة والبيان القائمة في المدن الكبرى ، هذه المدارس التي لم يطرأ عليها ما غيّر من مناهجها وأساليبها ، بينما أهل القلم ورجال الادب يحاصرون باب قصره ، طمعاً منهم بصلاته السخية . ففي الحين الذي راح فيه الاسقف إينود *Ennod* ، أسقف مدينة بافي *Pavie* ، يُطري عالياً ، ويثني عاطراً ، في خطبه البليغة المحبوكة على قواعد الفصاحة والبيـــان ، ويمتدح الملك « البربري » لكونه رومانياً بقلبه وعقله وروحه ، أخذ الكاتب الشاعر ورجل الدولة بوسيوس *Boèce* (٤٨٠ – ٥٢٤) ، يحاول ان يوسّع من أذهان معاصريه ويشحذ أذواقهم لتذوق الروائع الفكرية والأدبية الكلاسيكية التي طلع بها الفكر اليوناني الخلاق ، بعد ان تعذر عليهم قراءتها بلغتها الاصلية ، كل ذلك ايماناً منه واعتقاداً بأن الجمهورية الرومانية باقية أبد الدهر ، وانه لا بد من العمل على إحياء آدابها . وكسيودوروس *Cassiodore* نفسه ، الذي ولِد رومانياً وتولى رئاسة الديوان الملكي، يحاول، عندما يدعو للتساهل والتسامح المتبادل ، ان يهيء انصهار القوط والرومان انصهاراً كلياً كاملاً .

وهذا الانصهار ، هل كان وشيك الوقوع ، بعـــد ان انثنت المدنية الرومانية عن حدودها الشمالية وانكفأت الى الجنوب حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، فعادت بذلـك وئيداً ، سيرتها الاولى ، ضمن الملاكات والأطر الجديـدة التي طلعت اذ ذاك ، على البلاد ؟ لا لعمري ، وذلك لأنه لا يزال هنالك حاجز يفصل بـــين الزعماء الجرمان ورعاياهم يتمثل بحاجز الدين . فالشعوب البربرية كانت اعتنقت المسيحية، انما على مقالة الآريوسيين وتعليمهم، أي انهم يرسفون في الهرطقة . فقـد كانت لهم كنائسهم ومعابدهم واكليروسهم ، كما ان حزبيتهم الدينية هذه كانت مدعاة لتوعيتهم من الوجهة القومية . فبدلاً من ان يعودوا الى الرأي القويم ، الى الارثوذكسية ، أخذوا باضطهاد الكاثوليك وراحوا يطردونهم من كنائسهم ويجلونهم زرافات عن أوطانهم . وفي الواقع ، فقـد كانت روما في نظر جميع المسيحيين رمزاً للوحدة في

الايمان الواحد ، ولهذا تولى الاساقفة الذين أصبحوا بعد هلهلة الادارة الرومانية وانحطاطها ، الناطقين الرسميين بلسان السكان والمدافعين الشرعيين عنهم وعن مصالحهم، كما أخذوا ينظمون حركة مقاومة طابعها ديني ، راحت تنتظم وتشتد ضد الدخلاء المحتلين. وهذه المقاومة تبدو على أبرزها، في غاليا، بزعامة سدوان ابولينير الذي أصبح أسقفاً لمدينة كليرمونت ، فسمى جاهداً، بعد عام ٤٧٠ ، يحاول منع اريق *Eric* ، ملك الفيزيغوط ، من ضم مقاطعة اوفيرني ، الى ممتلكاته ، وهي مقاطعة معظم سكانها كاثوليك . ومقاومة مماثلة في افريقيا يحرّض عليها ويدفع اليها مواعظ الاساقفة المبعدين عن كراسي ابرشياتهم ، وأخرى في روما نفسها حيث أخذت المؤامرات والدسائس تحاك بكثرة ضد الملك ثيودوريق. واذ رأى الملك نفسه في خطر يترصده، حزم أمره على الشدة ، والتزم موقف الدفاع العنيف . فقد قضى بوسيوس والبابا يوحنا الاول نحبهما أسيرين في بلاط ملك الاوستروغوط. واشتد الضغط وازداد أواراً بحيث اخذ يهدد، جدياً، الممالك التي أنشأها البرابرة ، من الاساس . ولكي يتخلص الشعب من سيطرة لا تطاق ، خارجة على الدين، راح الكاثوليك يؤيدون، من جهة، الدسائس التي كان الامبراطور يحيكها في بيزنطية، طمعاً منه باسترداد سلطته على البلاد ، ومن جهة اخرى ، كان تقدم برابرة الشمال ، وهم الفرنج الذين لا يزالون على عبادة الاوثان ، يغذي في النفوس ، الايمان بامكان اعتناقهم المسيحية على الرأي المستقيم . وهكذا ، بعد مائة سنة على بدء الغزوات ، ساعدت المعارضة الدينية التي قام بها الرومان ضد ملوكهم من القوط والفندال ، على طلوع وضع سياسي جديد في الغرب ، يفصل سواحل البحر المتوسط المرتبطة بالدولة اليونانية ، عن القارة التي وقعت فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية ، كان شأنه ان يرسم اتجاهاً جديداً لتطور الحضارة في الغرب ويرسم خط سير جديد لتاريخها .

بلدان البحر المتوسط

استطاع الامبراطور يوستنيانوس ، عام ٥٣٣ ، ان يحرر بسهولة كلية افريقيا ويستخلصها بيسر من مغتصبيها الفندال ، كما تمكن ، فيما بعد ، أي في سنة ٥٥٤ ، من ان يحرر مقاطعة بَتِيك *Bétique* (الاسم الذي عرفت به مقاطعة الاندلس في عهد الرومان وهو مشتق من اسم نهر بَتِيس *Bétis* او نهر وادي الكبير اليوم) ، وبذلك تم له الاشراف على شطري البحر الابيض، والسيطرة على معابره ومجازاته ومضايقه . غير انه لم يكن له من الوسائل الحربية ما يساعده على الايغال بعيداً داخل البلاد ، عن سيف البحر . وهكذا بقيت في المغرب مناطق شاسعة لم تخضع له، كما بقيت في داخل اسبانيا مناطق تخضع للفيزيغوط. ولم تجر أية محاولة ضد بلاد غاليا ومقاطعة البروفانس فيها فتركت وشأنها ، لتروح فريسة بيد الفرنج . ولكي يعيدوا ايطاليا الى سيطرة الامبراطورية ، مباشرة ، اضطر قواد يوستنيانوس ان يخوضوا غمار حروب دامية استنزفت الكثير من الجهد المرير ، والدماء المطلولة ، والتضحيات الغالية والوقت الطويل، اذ ان حروب الفتح هذه ضد الاوستروغوط ابتدأت، عام ٥٣٥، واستمرت حتى عام ٥٦٣ ، فاضطر عندها العدو ان يلقي سلاحه ويستسلم ، بعد حروب ومعارك طاحنة

جرّت معها الخراب والدمار .

وبالرغم من الشوائب التي اعتورت هذه الحملات العسكرية ، فقد ساعد الفتح على ضم بعض المقاطعات المطلة على البحر ، الى الامبراطورية الشرقية التي يقع معظم أقاليمها الشرقية على مقربة من البحر وتتقبل مفاعلات الشرق ومؤثراته . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النماذج الفنية تغزو هذه البلاد متغلغلة فيها عن طريق المرافىء الايطاليـــة الكبرى ، أمثال : رافينا ، ونابولي ، وقرطاجة ، يشجع على الأخذ بها ، وعلى الترويج لها ، هذه الجاليات اليونانية التي سبقت واستقرت فيها منذ القرن السادس ، ممثلة بأفراد الجند والموظفين الاداريين وغيرهم من شذّاذ الآفاق والتجار القادمين من بيزنطية ، كما انتقل اليها ، في القرن السابع ، عدد كبير من رجال الدين والرهبان الذين فروا أمام الفتح الاسلامي . وهذا التغلغل البشري الذي صحبه تغلغـل فني آخر ، يتمثل بهذه المباني التي شيّدت في مدينة رافينا بعد ان تم جلاء الغوط عن البلاد يشهد عالياً على روعة هذا الفن الذي كان تأثيره عميقاً ، كما يبدو من خلال هذه الرسوم الجدارية التي تزين تلك المباني ، ولا سيا كنيسة كاستل — سبريو الصغيرة على مقربة من مدينة ميلانو ، منها الى الشمال قليلاً . وكان من جراء ذلك تلقيح الفن الشعبي في البلاد بالاشكال والنماذج الفنية البيزنطية التي ، بعد ان تمازجت بالفنون المعمول بها في تلك البلاد ، كما نشاهد ذلك في فسيفساء الكنيسة الرومانية المشادة على اسم القديسين كوزموس ودميانوس ، وساعدت على انتـاج روائع فنية تفرض الاعجاب ، طبعت الفن الايطالي طيلة الاجيال الوسطى .

والاتصالات الوثيقة التي ربطت هذه المقاطعات التي تم تحريرها بالمراكز الثقافية والحضارية الكبرى في الشرق الادنى ، ساعدت كثيراً على اذكاء شعلة الحضارة فيها . إلا ان محاولة الامبراطور يوستنيانوس القيام بما قام به من فتوح جرّت الدمار والخراب على تلك المقاطعات ، وارزحتها تحت ما اناخت عليها من ارزاء فهوت الى الحضيض . وهزّ الخراب الذي نزل بها ، ما تبقى من معالم المدنية الرومانية التي حاول ثيودوريق ، من قبل ، صيانتها والحفاظ عليها . والى هـــذه الحقبة يعود بالفعل الانحطاط الذي أصاب روما . فقد الغيت فيها ، عام ٥٤١ ، وظيفة القنصلية ، كما ابطلت فيها الناب المصارعة عام ٥٤٩ ، والعاب الظفر عــــام ٥٥٢ . وآخر اجتماع لمجلس الشيوخ *Sénat* يعود لسنة ٥٧٩ . وقد دهك الريف في هـــذه الحروب وقضي على الكثير من النخبة بين صفوف الطبقة الارستوقراطية ، كما امتلأت النفوس وأفعمت القلوب حقداً وضغينة على البيزنطيين الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار ظفرهم الى اقصى حد . فلا عجب ان تصبح هذه المقاطعات ، بعد ان اناخ عليها الدهر بكلكله ، لقمة سائغة للطامعين اليها والراغبين فيها ، اذ لم يمض سوى خمس سنوات على استسلام آخر المحاربين من الاستروغوط ، حتى اجتاز ، عـــام ٥٦٨ ، شعب جرماني جديد ، هم اللمبارديون ، جبال الألب وانقض على شمالي ايطاليا التي كانت استنزفت كل دمائها . وبعـــد ذلك بنحو قرن ، راحت خيول المسلمين تدك بسنابكها أرض افريقيا ، فيغمر الاسلام شمالي القارة فتغرق تحت سيله الجارف . فبـــدلاً من ان يعيد الفتح

البيزنطي الوحدة الى الامبراطورية الرومانية ويوطد منها الدعائم ، ساعده بعكس ذلك تماماً على عزل هذا القطاع الجغرافي الواقع بين شواطىء البحر المتوسط الشمالية وجبال الابنين ومجرى نهر البو الاسفل ، كما ساعد على فصل شبه الجزيرة الايطالية وما اليها من جزر ، عن شمالي افريقيا وامتداداتها حتى اسبانيا من الغرب والحاقها بالشرق . وبذلك حيل بين القارة الاوروبية وبين هذا البحر اللاتيني وما يمثله من تراث ، قديم ، خالد ، فارتمى بين احضان البربرية الجرمانية وهمجيتها وراح ينظم نفسه تدريجياً متخذاً من استقلال غاليا الفرنجية محوره ونقطة دائرته .

غاليا الفرنجية

احتل الفرنج الساليون *Francs Saliens* المقاطعة الواقعة بين الرين ، شرقاً ، ونهر السوم ، غرباً . فانشأوا ، منذ منتصف القرن الخامس علاقات تحالف مع الدولة الرومانية الصغيرة المقتصرة رقعتها على مقاطعة إيل دو فرانس ، هي البقية الباقية من الامبراطورية الرومانية في غاليا ، يدفعون عنها ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، عوادي الدهر، وتعديات الهونز والفيزيغوط وقراصنة السكسون . وحوالي عام ٤٧٠ ، حل أوفر امراء قبائل الفرنج نشاطاً ، هو الملك شلدريق ، في مدينة تورنيه ، محل الحكام الرومانيين . وتمكن ابنه كلوفيس من التغلب ، عام ٥٨٦ ، على سياغريوس *Syagrius* ، آخر هؤلاء الحكام الرومانيين ، في معركة سواسّون راستولى على كنوزه ومجوهراته ، ثم راح يصفّي ، تباعاً ، ملوك القبائل السالية الاخرى ، الواحد بعد الآخر ، وتغلب على قبائل الألامان وقلّم اظافرهم ، واخضع لسلطانه النامي، كل المقاطعات الواقعة بين نهر الموز *Meuse* واللوار *La Loire* . واستطاع في السنوات الاخيرة من القرن الخامس طرد الفيزيغوط بعيداً عن مدينة تورس ، فوقع تحت تأثير مطرانها القديس مرتينوس فاحسن وفادته ، وتأثر بالخرقات والعجائب التي تمت على يده ، فقرر اعتناق المسيحية ، ليس على مقالة الآريوسيين كغيره من برابرة الجرمان ، بل على المذهب الكاثوليكي ، وتمت حفلة تنصيره في مدينة ريمس *Reims* ، بين ٤٩٦ و ٥٠٦ ، فاصبح كلوفيس بذلك الرئيس الاوحد للدولة الكاثوليكية الوحيدة في الغرب . فكان لهذا الحادث صداه الداوي في جميع الارجاء ، تبلغه بارتياح كل اساقفة غاليا حتى ان احدهم هو المطران أفيت *Avit* ، أسقف مدينة فيينا عبّر باسم الجميع عن ارتياحه لهذا التطور العظيم ، وراح يحث الملك الجديد على ان يشرف بنفسه على أعمال الرسالات التي تتولى الكرازة والتبشير بالدين الجديد . ففي هذا دعوة صريحة لمباشرته بتطهير جنوبي غاليا من طغيان هرطقة الآريوسيين. وبالفعل أرسل كلوفيس جيشه لمهاجمة الفيزيغوط ، فكسرهم وهزمهم شر هزيمة في موقعة فوييه *Fouillé* ، عام ٥٠٧ ، وقتل الملك ألاريق ، وطارد فلول جيوشه الى ما وراء جبال البيرانيس . وبعد غزوته المظفرة هذه ، ارتدى في مدينة تورس ، وشاح القنصلية الذي أرسله له الامبراطور انستاسيوس . ومنذ ذلك الحين، كما يؤكد القديس غريغوريوس التورسي أخذوا يلقبونه بـ «قنصل واوغسطس»، ثم اخضع قبائل الفرنج المعروفين بـ *Ripuaires* «على الرين» وجاء واستوطن باريس وفيها توفي

عام ٥١١ ، بعد ان ترأس ، في مدينة اورليانس ، أول مجمع وطني عقدته كنيسة غاليا الفرنجية واكمل بنوه عمله ، واتموا الرسالة التي شرع بها ، فضموا الى ممتلكاته مملكة البورغونيين ، عام ٥٣٤ ، واخضعوا مقاطعة تورانج . والملك ثيبرت ، الذي وقف الى جانب الامبراطور يوستنيانوس وآزره في حروبه في ايطاليا ، يقطع مقاطعة بروفانس ، وضرب السكة الذهب ، فكان أول ملك « بربري » يضرب السكة باسمه . وهكذا ما كاد ينتصف القرن السادس حتى أصبحت كل غاليا ، باستثناء مقاطعة بريتانيا والبشق منها ، ومقاطعة سبتيمانيا الفيزيقوطية ، مع قسم من جرمانيا ، تؤلف معاً مملكة واحدة ، هي مملكة الفرنج .

انه لنظام سياسي غريب : فالامبراطورية لم ترْعَ تكوين هذه الدولة ولا نشأتها ، فتم هذا كله بمعزل عن الأعراف والأطر الشرعية « للتحالف » واصول « الضيافة » والإقراء ، دون ان يحصل شيء من الخراب ، وربما بدون أي مصادرة بالجملة لأملاك الدولة . وليس ما يؤكد أو يثبت ان زعماء الفرنج استولوا على جانب من الأرضين التي كانت ملكاً للارستوقراطية الرومانية في غاليا ، هذا لو سلمنا فرضاً انهم صادروا قسماً من الاملاك العامة . وقد سهّلت وحدة الايمان المشترك عملية تمثل الطبقات العالية في المجتمع ، اذ ذاك . ففي الربع الأخير من القرن السادس يُغنّي غريغوريوس التورسي باعتزاز كلي ، وهو سليل الطبقة المشيخية ، المجد الأثيل الذي يملأ بردتيه لانتسابه الى أمة الفرنج . فلم يكن في هذه المرة ، دخول أي من البرابرة في حوزة العالم الروماني ، بل على عكس ذلـــك تماماً ، اذ ان جانباً من العالم الروماني دخل بين ممتلكات امة مسيحية ، لا تشدها الى بيزنطية صلة ما . من حواضرها الكبرى ومراكز الجذب والثقل فيهـا مدن مشهورة كباريس واورليان وريمس وسواسون ، وكلها واقع على مشارف العالم المتحضر ، كما ان قسماً من ممتلكاتها كان يمتد بعيداً ، سواء من الشرق أو من الشمال ، ليصل الى قلب البربرية الجرمانية . ففي هذا الإطار الجغرافي الاثنوغرافي نرى التقاليد الرومانيـــة تندمج بالعادات وتتمازج بالأعراف التي حملها معهم الغزاة الطارئون ليخرج من هذا الانصهار البطيء وهذا التمازج الوئيد ، حضارة كل ما فيها أصيل .

تميز هذا المركّب ، منذ بدء أمره ، والحق يقال ، بانخفاض ملحوظ في المستوى الحيـــاتي والثقافي والحضاري ، نمّ عن هذا الفارق العظيم القائم بين القارة والقسم الجنوبي منها : ايطاليـا وافريقيا الشمالية الذي نشطت فيه الحياة من جراء الاتصالات المستمرة مع الشرق . وهـــذا الانحطاط الذي استطال حبله حتى مطلع القرن السابع ، طبع بدوره النظم السياسية القائمة اذ ذاك ، كما ترك طابعه على الوضع الاجتماعي ، والحركة الاقتصادية والفكرية والدينية ، في المملكة .

المجتمع الميروفنجي

لم يكن كلوفيس وخلفاؤه من بعـــده ، بعكس الممالك الاولى التي أنشأها البرابرة ، من أحلاف الامبراطورية ، وملزمين بالتالي ، مثلهم ، بالولاء للدولة الرومانية واحترام نظمها ومؤسساتها ، بعد ان أولتهم رعايتها وأدخلتهم في خدمتها ، فاتحين ، أحراراً ، متحررين من كل التزام نحوها . فقد أخذوا السلطة عنوةً وغلاباً ، بعد ان قضوا على

منافسيهم وأزالوا مزاحمتهم . فقد رأوا في السيطرة التي آلت اليهم صاغرة ، حقاً من حقوقهم الشخصية ، وجزءاً من تركة لم يكونوا ليؤدوا عن ادارتهم لها حساباً لأحد ، يتصرفون بها كيفما يشاؤون ، وينتدبون لها من يرغبون من الانصار والمحاسيب ، يتقاسمها ورثتهم وفقاً للأعراف المتبعة . وهكذا قسمت مملكة كلوفيس ، عند وفاته عام ٥١١ ، بين أولاده الاربعة . فنظر الملوك الميروفنجيون ، الى المقاطعات التي آلت اليهم ، نظرة بدائية ، واعتبروها نوعاً من الاقطاع التوابع ، لهم عليها ملء السلطة ، أخذاً منهم بالتقاليد التي سار عليها أجدادهم ملوك تورنيه . فكانوا يعتبرون أنفسهم قادة حرب يقودون جيوشهم لخوض المعارك ، ويسهرون ، باسم الشعب ، على استتباب أسباب السلام والطمأنينة ، وترؤس الاجتماعات العامة ، يعقدونها لإجراء العدل وإقامة القضاء فيما بينهم ، ويحرصون على حسن تنفيذ قراراتهم وأوامرهم . فبعد ان نشروا سلطانهم على كل أطراف غاليا ، فرضوا على رعاياهم : رومانيين كانوا أم برابرة ، الخدمة العسكرية والولاء للتاج . ولم يخطر لهم على بال انه يترتب عليهم مسؤوليات او مهام أخرى ، كإتمام الرسالة التي قامت بها روما من قبل ، مثلاً ، ونشر أسباب الحضارة في أطراف البلاد ، كما تمنى ذلك وراح يحققه الملك ثيودوريق نفسه . وكان يكفيهم ان ينعموا بالسلطان . فالملك أو الحكم ، في نظرهم ليس سوى وجه من وجوه الاستثمار الشخصي . للملك وحده دون سواه ، حق الاستمتاع به ، على هواه ، دونما رقيب أو حسيب . وكان يتولى الادارة باسمهم ، في المقاطعات ، نواب الملك ، فيُعهد اليهم بجباية الرسوم والضرائب التي تؤمن نفقة المقر الملكي وما في المقر من حاشية عريضة . وكان جل ما يطمعون به ، توفير النقد المتداول بين الناس ، ولذا حرصوا الحرص كله ، على صيانة النظم والمحافظة على المؤسسات التي توفر لهم حاجتهم من المال . وكانت جباية الخراج وضريبة الاعناق معقدة للغاية لما كانت تقتضيه من الجهد الموصول لتأمين الدقة في سجلات المساحة والاحصاء . وكانوا يجهلون جهلاً تاماً كل ما يتصل بالضرائب المباشرة التي لم تألفها طباع القبائل الجرمانية وأعرافهم المتوارثة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان يُعرِض الملوك بسهولة كلية عن هذه الرسوم والحقوق المرتفقة التي كانت تؤمن دخلاً ضعيفاً لهم ، فاستبدلوها برسوم فرضوها على التنقل والانتقال ، وعلى معارض التجار وأسواقهم ، لما في جباية رسومها من سهولة وسرعة . وهكذا أهملت تدريجياً النظم الادارية التي عُمل بها طويلاً وروعي جانبها أبّان الادارة الرومانية ، فلم تلبث ان تنوسيَ أمرها وعفي ذكرها . اما الادارة المحلية في القضاء او الدائرة *pagus* ، فكانت من صلاحيات حاكم اداري ، من خاصة الملك يحمل لقب « كونت » تُركت له أعباء السلطة الادارية والعسكرية ، همه الاكبر ان يُوصل الى القصر الملكي ، العائدات التي جباها رسوماً او مخالفات ، فيحتفظ بقسم ضئيل منها كمرتب له ولرجاله ومعاونيه .

والمعنى المجرد او الاسمي للدولة ، فَقَدَ كل مدلوله في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة الدولة ورحُبت آفاقها ، فتخلخلت العلاقات التقليدية التي شدت ، من قبل ، الاحرار من الشعب

السالي ، الى ملوكهم ، فرأى الملوك الميروفنجيون أنفسهم مضطرين ، إبقاءً على السلطة المطلقة التي وقعت في قبضة أيديهم ، ان يفوزوا بأيد هذه الطبقة المتنفذة ، ويحوزوا على نُصَراء لهم عن طريق اشراكهم بمنافع السلطة . وفي هذا السبيل أخذوا يوزعون على من أنِسوا منهم الولاء، الذهب ، ويُقطعونهم الاراضي الواسعة ، جذباً لهم، واستدناءً ، لقاء تعهد بتقديم الولاء يقطعونه لهم . وآثروا لمناصرتهم والشدّ من أزرهم ، هذا الفريق من الاحرار الذين تعهدوا بالولاء للملك ، فجعلوهم في عـــداد رجال حرسهم ، وأنعموا عليهم بلقب كونت ، وأولوهم شيئاً من سلطانهم ، وأقطعوهم بعض الارضين ، وعهدوا اليهم ببعض الوظائف ، من بينهم أساقفـــة رأوا من حقهم وحدهم اختيارهم وترشيحهم لإدارة الابرشيات والاسقفيات . وهكذا ساعدت الهبات التي أغدقها هؤلاء الملوك ، والأعطيات التي أسبلوها اصطناعاً للانصار، على إنشاء طبقة جديدة من الاشراف ، توارث أصحابها هـذه المناصب خلفاً عن سلف ، وهي طبقة لم تكن معروفة من قبل ، في المجتمع الفرنجي حيث لم يكن ما يميز ، اجتماعياً ، الاغنياء عن الفقراء . وهكذا لم تلبث بعض أسر الفرنج ، على أثر ما أقطعت من ارض وسلطان ، وعلى أثر المصاهرات التي تمت بينها وبين الطبقة المشيخية من الغالو ـ الرومانيين، ان نعمت بامتيازات خاصة، من بينها « فدية الدم » المترتبة للقائمين على خدمة الملك، وهي فدية كانت ثلاثة إضعاف الفدية المترتبة لغيرهم من الاحرار وأزود .

طالما عرف الميروفنجيون ان يحافظوا على قوة بأسهم، استطاعوا ان يحتفظوا بأعنة السلطة، عن طريق توزيع عوارفهم وإنعاماتهم ، بدقة وحكمة وتدبر ، على من يصطفونهم . فأطفأوا بالدم والنار كل محاولة عصيان أو انتفاضة على السلطان ، وبذلك عرفوا ان يؤمنوا ولاء كبـار القوم ، وبواسطتهم ، السيطرة على البلاد . وعلى إثر وفاة ملكهم داغوبير *Dagobert* ، عام ٦٣٩ ، توالى على أريكة الملك ، عدد من الملوك ، مات كثيرون بينهم وهم في ميعة العمر وشرخ الشباب بعد ان انهكهم الاسترسال الباكر وراء لذائذ الحياة ومباهجها بينما تولى نفر منهم، مخبول معتوه، منحط، مهام الملك، فأناطوا امره وسياسته بغيرهم. فعاد ذلك على الطبقة الارستوقراطية بالمزيد من النفوذ والسلطان ، وراح النبلاء ، في كل من المقاطعات الثلاث التي توزعت اليها املاك التاج، وهي نوستريا *Neustrie* واوسترازيا *Austrasie* وبورغونيا ، ينظمون أمورهم ويضبطون شؤونهم على شكل يؤمن لهم استثمار هذه الإيالات لحسابهم الخاص واستخلاص خيراتها ومواردها لانفسهم، لهم في البلاط الملكي ممثل أو مندوب هو رئيس الخدم، أو قيم القصر *Maire du palais* الذي كان، أصلاً، المتصرف بخدم القصر وحشمه، يقوم بأحط الخدمات وأخسها. وكان يشرف، بحكم وظيفته ، على مصارفات الملك وحاشيته ، ويتولى تنظيم تنقلاته بين دارة واخرى ، ومن قصر الى قصر ، جامعاً في قبضة يده موارد المملكة ويقرر وجوه إنفاقها . فهو المسؤول الأول عن الترحيب بزائري القصر من أبناء الأسر الشريفة يستجدون منه التوصية ويطمعون على يده، بكسب العطف ونيل الرعاية للعمل في حاشية الملك ، يتدربون في المعية على الوظائف التي لا بدّ

من ان ينتدبوا يوماً لها . فليس من عجب ، والأمر كما ذكرنا ، ان يصبح سادن القصر *Le maire du palais* ، بعدما آلت اليه الاسرة المالكة من انحطاط ، الشخصية المرموقة الأولى، في البلاد ، مع ان وظيفته كانت ، في الاساس ، جد متواضعة . وهكذا تقع ، في اواخر القرن السابع ، حركة واسعة في ميدان التطور السياسي والاجتماعي ، اخذت بوادرهـا تطل ، منذ أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد ُتنوسي كل ما هو مصلحة عامة *Respublica* وُبُهمَ مفهوم هذا المصطلح ، وألغيت الضرائب عن الرجال الاحرار ، واستعيض عنها بفرض خدمات شخصية ، عليهم ان يؤدوها خدمة فعلية في الجيش أو في القضاء والمحاكم . فلوء السلطة المدنية صارت الى فئة صغيرة من كبار الملاكين من النبلاء الذين يحوزون اعداداً كبيرة من الارقاء والعبيد والاجراء العاملين في الارض ، والى مقدمي الفرنج ، ممن هم دونهم ثروة وجاهاً ، يعملون تحت إشرافهم .

وفي الوقت ذاته ، انتفت من مملكة الفرنج معالم هذه النظم الاقتصادية المتوارثة عن التاريخ القديم . فقد نشطت الى هذا العهد، الحركة التجارية ولا سيما حركة استيراد المنتوجات والمحاصيل الشرقية . فقد كان سبق للملك كلوتير الثالث ، ان أنعم ، في حدود عام ٦٦٩ ، على رهبان دير كوربي *Corbie* ، بحق الامتيار والتموين من المخازن الرسمية في دائرة المكس ، القائم في مرفأ فوس *Fos* ، من اعمال مقاطعة بروفانس، كما أعطوا الحق ان يتناولوا من المخازن المذكورة، حاجتهم من الطيوب والأفاويه ، والتمور والتين المجفف ، وكميات كبيرة من زيت الزيتون ، اذ كان رهبان الدير المذكور يستهلكون ، يومياً ، كميات كبيرة من هذه المواد التي كان يُؤتى بها من بلدان البحر المتوسط والشرق الادنى . وكان يقوم في حواضر البلاد الكبرى ، جاليات سورية من يهود ونصارى ، حذق اصحابها اليونانيــة ، وليس بعجب ، واحتكروا تجارة هذه المواد الاجنبية ، وكان من وفرة النقد الذهبي العائد لملوك الدولة الميروفنجيــة من جباية الرسوم المفروضة على بضائع التجار وسلعهم ، ما يقيم الدليل عالياً على رواج هذه التجــارة وازدهارها . غير ان هذه الحركة التجارية اخذت تضعف مع الزمن ، وما عتمت ان زالت معالمها تماماً واندرس كل اثر لها ، في فجر القرن الثامن . فحلت المحاصيل الوطنية محل البضائع المستوردة من الشرق والجنوب. وفي الحقبة الواقعة بين ٦٦٠ – ٦٨٠، اخذ الديوان الملكي ُيهمل استعمال ورق البردى ، المصري الاصل والصنع ، ويستعيض عنه بالرقوق ، كما حل في مقاطعات الشمال ، الشمع محل الزيت ، في انارة الكنائس . والمعادن الثمينة راحت تستعمل ، في الاكثر ، في صناعة الحلي والجوهرات التي كان يحرص الملوك على جمعها وتكوين مجموعات طائلة منها ، كما حرصت الرهبانيات وابناء الطبقات الارستوقراطية على ادخارها والإكثار منها . وتوقفوا عن سبك العملة الذهبية بينما تكاثر سك الفضة بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية ، ما افقدها الكثير من قيمتها الذاتية . ومن تدني قيمة النقد في عهد الدولة الميروفنجية نستطيع ان نتبين الى اي حد بلغت الحركة التجارية في انطوائها وانكماشها في هذه الحقبة بالذات .

تقهقر الحضارة

وهذا التدهور الاقتصادي ، كان من بعض نتائجه انحطاط الحضارة الكلاسيكية . فقد عرفت ان تحافظ على مستواها ، مدة أطول ، في المقاطعات الجنوبية من المملكة الميروفنجية ، ولا سيما في مقاطعة البروفانس . فقد عين الملك ، في اواسط القرن السادس ، احد رجال الاكليروس ، في باريس ، اسقفاً على مدينة أفنيون، فقد شعر الاسقف الجديد في صميم نفسه واعماق قلبه انه لا يليق بتولـّي رعي هذه الاسقفية ورعاية المؤمنين فيها ، لما كان عليه من خشونة الطباع وقلة البضاعة الثقافية اذا ما قارن نفسه بما بلغه مسيحيو منطقة الجنوب من درجة عالية في مدنيتهم . كذلك نرى مشاغل الحفر والنقش في مقاطعة الاكويتان ، تصدّر ، في القرن السابع، نقوشها الفنية ومحفوراتها، الى كل انحاء المملكة. ولكن هذه المقاطعات التي اغرقت فيها اصول التقاليد الرومانية ، وضربت جذورها بعيداً في الأرض منذ عهد سحيق ، كانت تقع على اطراف المملكة الميروفنجية ، في الجنوب ، وقعت بالتالي فريسة للنهب والسلب – ولا سيما مقاطعة اكويتانيا منها – من قبل جيوش الفرنج التي لا عل لها . وهكذا تعطلت عندها ، على مر الزمان ، كل قدرة على الاشعاع ، الى ما يقع وراء نهر اللوار ، فغلبت على اهلها النزعة البربرية ، وخشنت بالتالي طباعهم وبَهُمَت افهامهم ، وندرت فيها وسائل العلم وضمرت النوازع الى طلبه والسعي وراءه ، باستثناء بعض مبادىء بدائية ، ساذجة ، كان يتلقاها الرهبان ورجال الاكليروس ، في المدارس الاسقفية . وقد اختصرت الادارة الملكية واستهانت بحيث كانت تقنع بمواطنين اداريين على مستوى واطٍ من التعليم . فانعدمت القراءة ، وتضاءل جداً عدد الذين يحسنون مبادىء الخط ، وتباعدت جداً لغة التخاطب ، عن اللاتينية الكلاسيكية ، لتستقر منها على لهجات هي بالاحرى لغيّ . والشاعر فورتوناً *Fortunat* الذي تخرج على مدرسة رافينا ، وفيها نبه ذكره وعلا شأنه وامره ، وجد في اواسط القرن السادس ، من يتبادل معهم الرسائل من اعضاء الطبقة المشيخية القديمة في غاليا. وفي هذه الحقبة بالذات تقريباً، نرى غريغوريوس التورسي يكتب بلغة لاتينية مهلهلة، ويلوم زمانه الذي أصاره ليشهد ذبول الادب وأفول الثقافة . ففي القرن السابع ، يكاد الاسقف ديدِيَه الكاهوري *Didier de Cahors* يكون الشخص الوحيد الذي تمت له مسحة من الثقافة القديمة . ونرى صاحب *Chronique de Frédégaire* يشكو زمانه ، ويلوم دهره ، لكثرة ما يعثور تاريخه من شوائب ونواقص ، مسؤولة عنها هذه البربرية التي صارت اليها البلاد .

وهذه القهقرى العامة تظهر على اتمها في التنظيم البدائي الذي بدت عليه النصرانية ، اذ ذاك. صحيح ان غاليا حققت وحدة الايمان في عهد الدولة الميروفنجية . فلم يرتفع فيها ، خلال هذا العهد ، أي صوت ناشز ، ولا ارتفع فيها هذا الجدل الديني الذي يثيره ظهور المشاقين المراطقة ، الامر الذي يكوّن ، والحق يقال ، دليلاً قاطعاً على ما بلغه الفكر اذ ذاك ، من تبلّد وتبهّم وتحجر . صحيح ان الملك يرعى جانب المسيحية ويكلأ بعنايته الكنائس والمعابد فيغدق عليها

عوارفه بسخاء ، ويعترف للاديار بانعامات وامتيازات كثيرة ، ويعفي املاكهـا من الضرائب والرسوم . وليس من شك في ان ثروة الديارات والمؤسسات الدينية والرهبانية نمت نمـواً كبيراً في وقت ساد فيه الاعتقاد ان الخلاص الابدي وقف على الاحسان والتصدق . إلا ان هذه المؤسسات أصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ، بانحطاط ذريع كغيرها من المؤسسات التي يرجع عهدها للمدنية الرومانية في العهد الامبراطوري. فقد كان الاساقفة يُنتَقون، في القرن السادس، من بين أعضاء الأسر الارستوقراطية الغالو ـ الرومانية المحافظة ، ممن تم لهم شيء من الثقافـــة وكانوا من ذوي السيرة الحميدة ومكارم الاخلاق . ولذا ألـّف المصف الاسقفي ، في هذه الحقبة المعروفة بتفسخ الاخلاق وتحلل المبادىء القويمة ، أنشط الطبقات الاجتماعية وأنقاها على الاطلاق ، في عهد الدولة الميروفنجية . إلا ان ملوك هـــذه الدولة بالذات ، لم يعتموا ان رقعوا للمنصب الاسقفي الذي يتمتع بانعامات ومنافع عديدة ، عدداً من أنصارهم والمقربين اليهم من العلمانيين ، ممن لا قيمة خلقية او أدبية لهم ، ولا همّ لهم غير استثمار مناصبهم الجديدة في ما يؤمن لهم المزيد من الربح . والمجامع الكنسية القومية التي كانت تنعقد من وقت الى آخر وتضم أساقفة البلاد ، تحت رئاسة الملك ، ويتخذ انعقادها رمزاً لوحدة الكنيسة بكامل ما يتصل بالايمان والعقيدة ، أخذ انعقادها يقل ، شيئاً فشيئاً ، في القرن السابع ، الى ان انقطع تماماً بعد عام ٦٩٦ ، وبعد هذا التاريخ أصبح عدد من الابرشيات شاغراً ينتظر عبثاً من يمـــلأه باستحقاق ، ولا سيما في الجنوب .

وفي الواقع ، ان ما اصيبت به الحبرية من وهن وانحطاط ، وهي ما هي في النظام الكنسي ، كان شديد الخطر في نتائجه . فالوثنية كان لا يزال لها ، في الإيالات والمقاطعات الواقعة في شمالي البلاد ، عدد كبير من الانصار والاتباع . ففي كل اطراف المملكة ، تسرب الى صفوف المسيحيين كثير من أعراف الغزاة والبرابرة الفاتحين ، كما نشط الاخذ بالاساطير والخرافات الوثنية القديمة ، كما يبدو ذلك واضحاً من معالم المدافن والطقوس الجنائزية ، اذ ذاك . وهـــذا أدى بدوره الى تأخر الحياة الروحية ، وبالتالي الى تخلخل الاخلاق وتفسخها . وبلغ من انهيار الوازع الديني في الطبقة الارستوقراطية ما ترتعد لهوله الفرائص وتقشعر له الابدان ، فانتفت الاخلاق من الحياة الزوجية ، وشاعت أيما شيوع ، عادة التسري والمعاشرة الجنسية غير المشروعة ، وأهمل العدل واستبيحت العدالة ، فصارت الكلمة للقوة ، ومقاضاة الحقوق للسيف بهمجية لا تعرف الرحمة . وتبدو على الهياكل البشرية التي نبشت من أجداثها ، آثار الكلوم والجروح التي أصابت أصحابها وجرّت عليهم التشوّه او الكساح ، وكلها تنطق عالياً بارتفاع معدل الوفيات بين الاطفال وانخفاض نسبة المراهقين. وفي هذا كله، دليل ناصع وبرهان قاطع على صحة ما تنوّه به النصوص والوثائق التاريخية ، من عنف الكبار في معاملة مرؤوسيهم ، وبؤس الطبقات السفلى وما تعانيه من سوء التغذية . وظواهر هذا الوضع الزري ، تبدو على أتمّها ، في كل مرافق المدنية ، اذ ذاك : فساد التقاليد القديمة المتوارثة من أقدم العصور وتفسخها ، وتغلغل العادات والذهنية الجرمانية ، والانتقال الى الهمجية المرعبة .

ومثل هذا التحول والقهقرى ، حدث في اسبانيا ، في القرن الرابع ابان حكم الاوستروغوط على البلاد . فقد اعتنقت قبائل الاوستروغوط فيها العقيدة الكاثوليكية ، بعد ان تخلى ملكهم ريكاريد *Récarède* ، عام ٥٨٩ ، عن القول بمقالة الآريوسية ، الأمر الذي سهّل كثيراً ، حركة التقارب فانصهار البرابرة ، بالمجتمع الاسباني الروماني . فنجم عن هذا الانسياح الاثنوغرافي ، تحلل في المقومات الحضارية وتفسخها . وقد رسم لنا ايزيدوروس الاشبيلي الذي توفي عام ٦٣٦، في كتابه الموسوم : «*Etymologies*» صورة عن التراث الادبي للحضارة الرومانية التي زهد الناس في قراءة روائعها الفكرية وأعرضوا عنها أيما إعراض، كما زهدوا بقراءة روائع الادب الكلاسيكي، وتنوسيت اللاتينية ، وبطل إستعمالها بين الناس ، كما نلاحظ انهيار السلطة الملكية وبروز الطبقة الارستوقراطية . إلا ان العنصر الجرماني الذي اندسّ في شبه الجزيرة الايبرية وانساح في أرجائها ، كان اعجز من ان يلقحها بعوامل ومؤثرات جديـــدة تؤمن لها شيئاً من التجدد والانبعاث ولو كان فيه ما يؤول الى إفساد الحضارة الرومانية وتبغيلها . وقـــد تسبب الرجوع الى الهمجية وجاهلية الجرمان ، في هذه البلاد ، عن انهيار عام امتد افقياً وعمودياً ، بحيث ان السرايا العربية الاسلامية القليلة العَدَد والعُدَد التي هاجمت البلاد ، عام ٧١١ ، استطاعت على ضآلتها، فتح البلاد وتصفيتها بسرعة فائقة، بعد معارك قليلة دون ان تلاقي فيها مقاومة كبيرة. اما الوضع في غاليا ، فقد كان على عكس ذلك تماماً ، ولا سيما في هذه المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والموز ، وبين البحر الشمالي ، نقطة الاتصال بين البلدان الرومانية القديمة وبين البلدان الجرمانية . فالتقهقر التدريجي الذي اصيبت به النظم الحضارية في هذه المنطقة ، وتدهور الثقافة والاخلاق والعلوم التي تبلّغتها من الاجيال القديمة ، كل ذلك أمكن تعويضه ، الى حد بعيد ، عن طريق العناصر الاصيلة التي نقلها معه العالم البربري . فانصهار الشعوب والاقوام في هـــذه الرقعة من العالم جاء بنتائج طيبة وأعطى أشهى الثمار . ففي وسط أكبر انهيار حضاري، وأعمق انحطاط فكري وخلقي شهده التاريخ ، بدا من خلال القرن السابع ، مع ذلك ، رسيس حركة بشّر طلعُها ببدء نهضة جديدة مباركة .

بوادر يقظة تلوح في الافق

وهكذا ، فالحركة التجارية التي كادت تتوقف وتنقطع تماماً بين بلدان البحر المتوسط ، اخذت تستعيد شيئاً من نشاطها وتنتظم تدريجياً في أطُر جديدة ، وذلك بسلوكها طرقات تتجه شطر شواطي غاليا الغربيـــة والجزر البريطانيـــة . فالملاحة نشطت أكثر فاكثر على مجاري السين واللوار وعبر المانش صوب بحر الشمال ، تتنقل السفن بين مرافىء المحيط الاطلسي الاوروبية وقـــد نشطت حركة التجارة والمقايضات في مرفأ روان ومرفأ كنتوفيك *Quentovic* الذي قام من عهـد قريب على مجرى الكانش *Canche* في مقاطعة أرتوَى . وبفضل تجار من قبائل الفريزون *Frisons* الذين كانوا يؤمّون الاسواق التجارية في سان دنيس *St. Denis* وأسواق لندن ويورك التجارية، قامت علاقات بين غاليا وريتانيا الجرمانية والبلدان الواقعة على البحر البلطيقي . ففي الوقت الذي قلّت فيه

العملة الذهبية ، احدى وسائل المقايضات التجارية الكبرى ، في العهد الروماني ، درج استعمال النقد الفضي في جميع أنحاء غاليا ، وهو نقد ألِف الانكلو سكسون ضربه ، كل ذلك جاء دليلاً على رسيس اليقظة التي دبّت في الحركة التجارية واتجاهها ، اذ ذاك .

ومن بوادر هذه الحركة التجددية، انتشار الديانة المسيحية. فبعد ان رسخت الديانة الجديدة، في المدن وحواضر البلاد الكبرى ، اخذت تمتد الى الريف وتنتشر فيه على نطاق واسع ، لا سيا بعد انتقال الطبقات الطافرة اليه واقامتها فيه . وأماكن العبادة التي أقامها الاساقفة في القرى والدساكر الريفية ، والكنائس الخاصّة التي شيّدها كبار الملاكين في ممتلكاتهم الواسعة على مقربة من الدور والصروح والفيلات التي قامت لهم فيها ، لم تلبث ان اصبحت مراكز اشعاع ديني ، وقواعد للكرازة والتبشير يتجند لها عدد كبير من الرهبان والرهبانيات ، كما أصبحت بعد قليل ، مراكز لجماعات مسيحية تألفت منها رعويات وخورانيات جديدة . واخذت هذه الحركة التطورية تسير بخطى واسعة . فأبرشية مدينة بورج مثلاً ، التي لم تكن لتعد في اواخر القرن السادس سوى خمسين بيعة او كنيسة ، رأت هذا العدد يرتفع بعد خمسين سنة من تاريخه الى أكثر من مائة كنيسة . ومن جهة اخرى ، راح كبار الاساقفة الذين عاصروا الملك داغوبير ، أمثال القديس إيلوا ، والقديس أوان *Ouen* والقديس سولبيس ، يقومون دورياً برحلات راعوية ، يهدمون خلالها ويتلفون ما تقع عليه عيونهم من آثار الوثنية والصنمية ، كما يصادرون مراكز عبادة الاصنام بعد ان يغيروا منها الأسماء والمسميات ، ويضعوها تحت حماية او شفاعة احد الشهداء القديسين ، او على اسم احد رؤساء الملائكة ، كما أطلقوا مسميات مسيحية ، على مراكز العبادة ومواقع الحج الوثنية ، وألبسوا صِيَغاً وأشكالاً مسيحية ، المراسم الطقسية التي كانت تقام في الارياف ، ناشرين على هذه الكيفية الرمز الصوري او الحرفي ، على الاقل ، للديانة المسيحية . وقد قام أساقفة المراكز المتقدمة في الشمال ، في نويّون وكمبريه وريمس ، يساعدهم مرسلون قدموا ، هم ايضاً ، من مقاطعة اكويتانيا ، بينهم القديس اماند *Amand* ، بكرازة الدين الجديد في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا ، بعد ان اكتسحتها موجة الفرنج وتوثنّت منها العادات والاعراف. وهكذا تم لهم ان يرفعوا راية الصليب فوق معالم نهري الموز والإسكو. وفي القرن السابع ، اخذنا نرى الرموز والشارات المسيحية تحل في مقاطعة اللورين ، محل الرموز والشارات القبرية الوثنية فيها .

وهنالك رسيس حركة تجدد تبدو ، هي الاخرى ، على الفنون ، بعد ان حملت الغزوات الجرمانية معها فناً جديداً يحمل كل مقومات النشاط بحيث عمّ كل البلدان المتليتنة في غربي اوربا ، وهو فن ملازم للبداوة ولأهل الظعن ، يستوحي ملهماته من هذه الحضارة الجانبية ، مع ميل قوي للتركيز الصوري ونزعة شديدة لاستنطاق الأشكال الحيوانية ، هو فن مَهَرَة الحدّادين في صناعة الاسلحة وشغل المعادن وتصنيعها ، أوّل ما اخذوا في تطبيقه ، على صناعة الحلي والجوهرات الدقيقة الصنع ، أخذَت مادتها من أثمن العناصر وأجملها وأندرها ، كالذهب والحجارة الكريمة.

ففي زخارفه المستطيلة الأشكال التي تشبه ، الى حد بعيد ، زخارف القبور الجرمانية في الغرب التي تظهر على قبر شلدريك الميروفنجي ، المدفون في مدينة تورنيه ، عام ٤٨١ ، أو على القبور والمدافن الانكلوسكسونية أو قبور الفيزيغوط في اسبانيا . وهو فن طارىء ، جاء من الخارج ، مغاير في مقوماته الجمالية ، للجمالية الرومانية ، يتميز باحتقاره التصنع ، همه ان يرسم الأشياء كما تبدو في الطبيعة . وهذا الفن الدخيل على البلاد مغاير تماماً للمبادىء الجمالية التي التزم الرومان جانبها وعملوا بها ، فوجد في شمالي غاليا ، في القرن السابع ، مرتعاً خصباً وتربة صالحة للازدهار والتطور . فقد صنع الصاغة في بدء أمرهم مصوغات من الحجم الكبير ، اختفى تقريباً كل أثر لها اليوم ويمكن مع ذلك ان نتبين غناها من بعض فقرات من سيرة القديس إيلوا . فقد بلغت بعض وجوه الصناعة على أيديهم ، درجة عالية من الاجادة والاتقان ، كما طبقوا أساليب جديدة في افراغ الشبهان وصناعة الحديد والتفنن في شغله ، في منطقة باريس ، واستطاع الصاغة ان يجددوا من وسائل إلهامهم ، فحاولوا ، دون ان يتخلوا تماماً عن التجريد ، ان يرسموا على أشكال واوضاع معينة ، صوراً بشرية . ففي الحين الذي راح فيه الفن الجرماني يوسّع من أفقه في المناطق المجاورة لنهر السين ، شهد الناس نهضة حقيقية وبعثاً صحيحاً للأساليب الفنية الرومانية والحفر والنحت ونقش الحجر ، وذلك تحت تأثير المؤسسات والمباني الدينية وما رفلت به من غنى الزخارف وعناصر التحلية . وقد بلغ من شهرة بعض المهندسين والبنائين ما حمل الرهبان في انكلترا على استدعائهم ليشرفوا على زخرفة كنائسهم وتحليتها ، ولكي يبنوا لهم معابد جديدة تحلّت واجهاتها بهذه المسلات التي ميزت المباني الغالية الكلفة في هذه الحقبة . وكان من زخرفة هذه الكنائس وتحليتها ان نهض فن النقش والحفر الذي تركز اول ما تركز ، على مقربة من المحاجر والمقالع الرخامية في جبال البرانيس ، وراح يقلّد بعض النماذج الواردة من الشرق ، الحلاة بالنقوش والتعاريش النباتية ، ثم لم تلبث ان انتقلت ، في اواخر القرن السابع ، الى مقاطعة إيل ده فرانس ، لتكون من ثمة على اتصال مباشر ، بدكاكين الصاغة الذين يستوحون الفن البربري . وهنا أخذ الرسامون المعنيون برسم الصور البشرية ، يجددون ، على شاكلة الحفارين الذين نقشوا نواويس كنيسة جوير *Jouerre* الحفر الناتىء للصور البشرية ، في الحجر الكلسي الطري .

ان اقتباس الرموز المسيحية وتطبيقها على مشاهد حياة الانسان وفقاً لعقلية سكان الريف ، ورسيس الحركة التجارية الذي اخذ يظهر ويقوى ، ومهارة الرسامين الفنية ، كل هذا وما اليه ، كان بشير نهضة واضحة المعالم . ولكي تشتد هذه النهضة وتنطلق في غاليا الميروفنجية كان لا بد لها من وضع سياسي يغاير الوضع القائم يسمح بقولبة الأطُر الارستوقراطية . غير ان انتشار العادات والطبائع الجرمانية ، كالولاء الشخصي ، ورفاقة السلاح ، كل ذلك هيأ الأخذ بحركة تجدد النظم والاوضاع السياسية في البلاد . وقد اخذنا نرى في مقاطعة اوسترازيا ، التي كانت تعتبر أشد مقاطعات الفرنج إيغالاً في الهمجية ، وأبعدها ذهاباً في البربرية ، تظهر حول قيّم القصر او سادنه *Le Maire du palais* مكونات الولاء والبذل والتضحية وكلها من ميزات نظام جديد.

وكانت غاليا بحاجة ماسة الى أطر ثقافيـــة وفكرية ، ولا سيا لنظام منهجي لتعليم اللاتينية الكلاسيكية تساعد رجال الاكليروس وتوفر لهم الاسباب والوسائل ، لتفهم الكتب المقدسة ، وتتيح في الوقت ذاته ، إصلاح المصف الاسقفي ، وشد أزر رجـال الدين في أعمالهم التبشيرية ورسالتهم ، كما تساعدهم على محاربة أباطيل الوثنية وشجب ترهاتها ورذلها . وقد أخذنا نشاهد في اخريات القرن السابـع ، يفد على مرافىء المانش الجديدة ، مبشرون انكلو سكسون الذين استطاعوا ان يحافظوا على التراث القديم كاملاً ، نقياً ، وان يحتفظوا بديانة أنصع رسولية ، وأنقى تعليماً ، وأكثر فعالية ، واوثق ارتباطاً بالكرسي الرسولي .

الرهبان وعمل المبشرين الرسولي

تلقت الكنيسة ، خارج مملكة غاليا ، التراث الروحي لروما ، بعمالم جديدة طبعت الحياة الرهبانية والاسقفية والتبشيرية .

وهذه الحياة الرهبانية التي كانت ظهرت ، في وقت مبكر ، في مصر ، انتقلت عادتها الى الغرب وتركزت أسسها على شواطىء مقاطعة البروفانس ، حيث تأسس عام ٤١٠ و ٤١٨ ، ديران : أولهما دير لارينس *Lerins* ، والآخر دير سان فكتور ، في مرسيليا . ومن هناك انتشرت الحياة الرهبانية في ارلندا ، عام ٤٢٥ ، على يـــد القديس باتريك وتلاميذه الغُيُـر . ورسخت الديانة المسيحية والحياة الرهبانية في هذه الجزيرة بحيث أصبحت محور كل حياة دينية فعّالة ، حية ، محيية ، ومنها شعّت وانتشرت في بلدان اخرى . واستقر في خلد رهبان الجزيرة ان الاغتراب والارتحال الى الخارج ، من احسن الوسائل التي تؤول الى تقديس النفس وتدنيهـا أكثر فأكثر ، من الله سبحانه وتعالى ، وتزيـــدها تقرباً من الكمال المسيحي . وهكذا انتشر الرهبان المرسلون من ارلندا في كل البلدان الكلتيـــة الاصل واللسان : في ايكوسيا والشمال الغربي من انكلترا والارموريك . وفي اواخر القرن الخامس ، رحـل الرهبان الايكوسيون ، بقيادة رئيسهم ومديرهم القديس كولمبان ، الى مملكة الفرنج والى غيرهم من الشعوب الجرمانية ، فأسسوا تباعاً ، أدياراً عديدة ، منها دير لوكسويل *Luxeuil* ، عام ٦١٠ ، ودير سان غال ، عام ٦١٢ ، ودير بوبيو ، في لمبرديا ، عام ٦١٥ . وهكذا وضحت معالم اتجاه التيار الروحي الذي بلغ أقاصي البلدان المسيحية في الغرب ، حتى بلغ قلب جرمانيا وادخل فيها انماطاً مختلفة من الحياة الرهبانية ، ومناهج متنوعة . غير ان الحيـــاة الرهبانية في ارلندا لم تلبث ان عرفت صوراً وارتدت مظاهر قاسية متزمتة ، وبدائيـة في مظهرها ، اذ ان منطلق الحياة الرهبانية كان في الكتب المقدسة ، وعلى مجموعـــة من النصوص والآيات المقدسة تفرض في ملتزمهـا ، تعليما ابتدائيـــاً ومعرفة اللغة المكتوبة بها الكتب المنزلة والطقوس الليتورجيـة ، وهي لغة أحسنها رهبان ايكوسيـا واتقنوا استعمالها ، وعرفوا ان يحافظوا على نقائهـا ، لا سيا وان لغة الأهلين الدارجة الاستعمال ، كانت ، بخلاف لغة المسيحيين في غاليا ، مغايرة لها تماما ، لا يخشون البتة من افسادها . والظاهر انهم لم يكونوا ليكترثوا كثيراً بالثقافـــة العلمانية او الدنيوية ،

لا سيما وقد لبست الحركة الدينية مسحة من الزهد المتزمت والتنسك الجافي لواقع الحياة . كما صوروا المغفرة وخلاص النفوس على اسس منفّرة ، لا تصلح ابداً ركيزة للتمدن والتحضر .

الا انه اخذ يظهر ، في الربع الثاني من القرن السادس ، صورة جديدة للحياة الرهبانية ، انتشرت في ايطاليا التي استباحتها الحروب والغزوات القوطية . فقد نشأ في مقاطعة نورسي الايطالية راهب هو الراهب بندكتوس ، من اسرة ثرية من سكان الريف ، أتيح له ان يتلقى في روما ، قدراً ملحوظاً من الآداب اللاتينية . فقد وضع عام ٥٢٥ للرهبان الذين تحلقوا عليه والتفوا حوله ، في دير جبل كسّينو ، فرائض للحياة الرهبانية اتخذت قسطاساً لها الاعتدال . فقد رأى هذا المرشد الحكيم ان الاسرة الرهبانية التي يتولى رئاستها رئيس مسؤول ، يجب ان تبرز وكأنها مليشيا أو جمعية لها نظام فرقة عسكرية ، يقوم أفرادها معاً ، بالصلاة الواحدة المشتركة ، أولى وصايا الله الكبرى واسماها . وعلى اعضاء هذه الاسرة ان يرقعوا علناً وخطياً تعهداً كالتعهد الذي يقطعه رجال الحرب ، بان ينهجوا ، في حياتهم اليومية ، نهجاً سوياً ، متزناً ، يقسم يومياً ، بين العمل اليدوي دونما إرهاق مضنٍ للجسم أو تحرج ، تشبه ملابسهم ونظام عيشهم ، وطريقة إشغالهم الوقت وملء الفراغ ، نظام الجند العاملين في الريف ، اذ ذاك . فالدير هو مكان عزلة وانقطاع عن حياة العالم ، ينعم ويتصرف باملاك واسعة ، تجعل ساكنيه ومن فيه ، بمأمن من العوز والسؤل ، ومع ذلك ، منفتح للجميع بحيث لا يبعث في الناس النفور من النظام الذي يسير عليه ، ولا يجعل نمط العيش المتبع فيه ، الناس تجفل منه او ترغب عنه او تسخر به ، اذا ما عنّ لأحدهم اعتناقه والعمل به . ولم يدُر في خلد القديس بندكتوس قط ان يعهد الى الدير برسالة الكرازة والتبشير أو العمل على نشر الحياة الروحية والمسيحية . فالدير ، في نظره ، لم يكن سوى ملاذ منكفىء على نفسه ، منطو على ذاته ، في هذا العالم المضطرب الكثير الصخب والمنهار على نفسه . وكان من اختصاص البابوية المشعّة ، في أواخر القرن السادس ، ان تجعل الحياة الرهبانية ، كما وضعها القديس بندكتوس وقيدها بفرائض بيّنة ، صريحة ، تكوّن اداة طيبة لنشر المسيحية بين الناس .

منذ فتح يوستنيانوس لايطاليا، في القرن السادس، كان الكرسي الرسولي في الامبراطورية البيزنطية، ابرشية محورية أو دائرية تخضع لرعاية الامبراطور الضيقة . وكان تأثير نفوذ البطاركة الشرقيين ، في الكنيسة اليونانية المتصاعد ، يهدد جدياً ، رئاسته الروحية واولويته . وكان البابا ، على عكس ذلك ، يحتل مركزاً مرموقاً في إيطاليا التي مزقتها غزوات البرابرة والحروب التي جرت فيها ، شر ممزق وارهقتها ، وتخلت الامبراطورية المهيضة الجناح ، والمنهوكة القوى ، عن مهمة الدفاع عنها . فقد أصبح البابا ، على إثر انهيار النظم والمؤسسات المدنية والادارية ، سيد روما ورئيسها غير المنازع . وكانت املاك السدة البطرسية ، وهي اغنى عقارات من نوعها ، في ايطاليا ، تدرّ عليه موارد طائلة . فاضطره هذا الوضع بالذات ليتولى بنفسه الدفاع عن روما ، لصد الهجمات المتتالية التي شنها عليها اللمبارديون ، كما انه رأى نفسه مسؤولاً عن تنظيم الأمن والسهر على استتبابه . واذ كان يمثل على احسن وجه الوطنية الرومانية

كانت سلطته هي السلطة الحقة التي يتوجب عليها الدفاع عن المصلحة الرومانية العامة . فلا عجب ، والحالة هذه ، من ان ينظر اليه الحجّاج والرحالة البرابرة ، نظرتهم الى الممثل الحقيقي

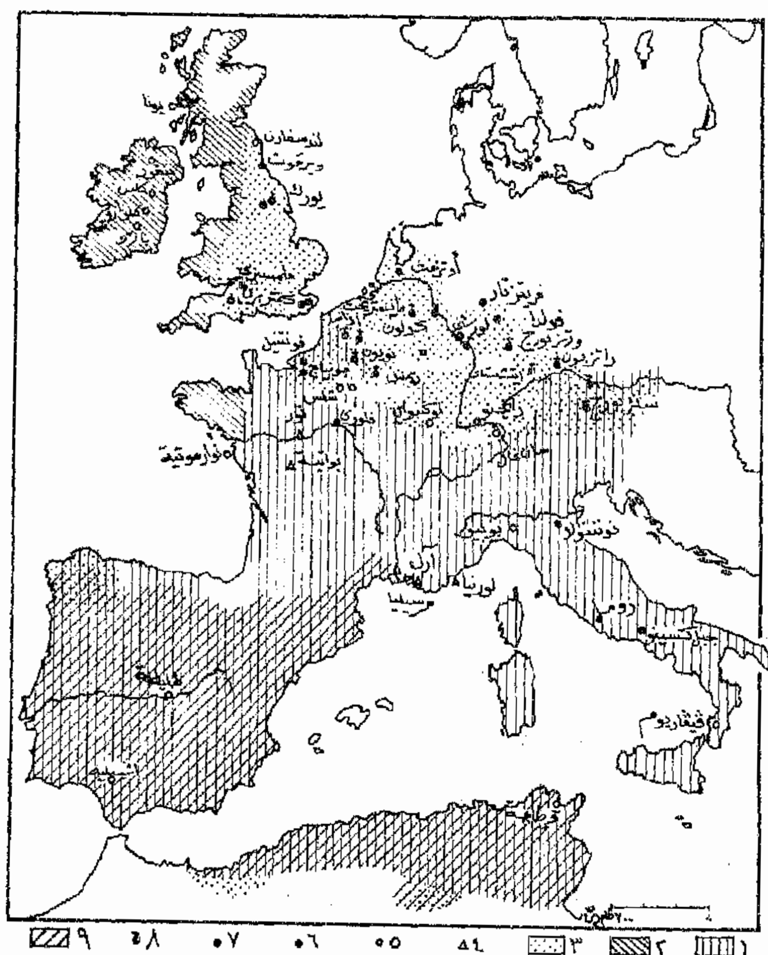

الشكل (رقم ١) ـ المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع

الوحيد لروما ولفكرة الامبراطورية التي بقيت عالقة في اذهان الناس وجمهرة السكان . وهذا لعمري شيء طبيعي وتفكير في محله، لبعدهم عن بيزنطية والعالم اليوناني، اذ ذاك . وهذا الوضع المتحيز على هذا الشكل ، عرف البابا غريغوريوس الكبير ٥٩٠ – ٦٠٤ اعظم بابوات الاجيال الوسطى واشهرهم على الاطلاق ، ان يستغله وينتفع منه على الوجه الامثل ، لمصلحة الكرسي

الرسولي . وهذا الروماني الذي كان يقرّ ويعترف متواضعاً ، بجهله اللغة اليونانية ، والذي كان اسس في دارته ، على هضبة التشيليوس *Coelius* نظاماً رهبانياً ، سار على وتيرة القانون الرهباني الذي وضعه القديس بندكتوس ، ادرك جيداً انه يتحتم على البابا ، ليصبح في مأمن من القيصرية البابوية البيزنطية وطوارئها ، ان يكون رأس الغرب البربري ، وراعيه . فالكتب التي وضعها وانتشرت بسرعة ساعدت على توطيد الكرسي الرسولي وإشاعة هيبته . فقد هيّأ وأعدّ اعتناق اللمباردين للديانة المسيحية في ايطاليا ، وتبادل مع اساقفة غاليا واسبانيا ، عدداً من الرسائل التعليمية التنظيمية ، وراح يعمل على تشجيع الكرازة بالدين المسيحي ، بين الوثنيين في الغرب . فقد راودته بين ٥٨٦ ـ ٥٨٨ فكرة تبشير الانكلو سكسون بالمسيحية . وقد تم له ذلك ، عام ٥٩٦ ، عندما ارسل الى الجزيرة البريطانية ، عدداً من الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب اوغسطينوس .

وكانت انكلترا السكسونية ما تزال على الوثنية والصنمية بعد ان حَنِق الرهبان الايكوسيون حنقاً شديداً على الغزاة . والبعثة الدينية التي جاءت برئاسة اوغسطينوس ، اسست لها ديراً في كنتوربري ، كان اول دير تؤسسه الرهبانية البندكتية خارج ايطاليا . فقد لقيت في باديء امرها ، نجاحاً عظيماً بحيث شهدت تنصير معظم ملوك الدول السكسونية القائمة في انكلترا ، اذ ذاك . وحدث على إثر ذلك ، ردة فعل وثنية اوشكت تؤدي بكل شيء وتذهب بالنجاحات التي حققتها البعثة الدينية ، هباءً منثوراً . واستؤنف العمل التبشيري الديني ، في البلاد ، على يد رهبان إرلنديين استقروا ، عام ٦٣٤ ، في لندسفارن بحيث رأت انكلترا نفسها ، التي أصبحت كلها مسيحية ، على نهجين في الحياة الرهبانية ، مختلفين متباينين ، هما نهج الرهبان الايكوسيين ، والنهج الروماني .

في خدمة البابوية ، وبعد تعرفهم على النهج الرهباني المتجول الارلندي ، تحول الرهبان البندكتيون ، الى مبشرين . الا انهم لم يكونوا ليكترثوا ، وهم بعد في اواسط القرن السابع ، لأمور الفكر والثقافة . ففي الكنيسة الغربية ، كان العهد الكلاسيكي ومن يمثله من الكتبة ورجال الفكر ، يقابل بالازدراء ، كما كان الناس يشعرون برهبة أو يتهيبون العناية والاهتمام بالآثار الفكرية الكلاسيكية التي لا تزال تحمل اجمل ما في الوثنية من غذاء ادبي . وقد راح عامل من الزهد والتحرج يجعلهم يستنكرون كثيراً هذه المتعة الفكرية التي توفرها قراءة آثارهم العلمانية الدنيوية . أفلَم يتعرض الاسقف ديزيه ، مطران فيينا ، للشجب الشديد والتنديد العنيف ، من قبل البابا غريغوريوس الكبير لانه راح يعلم اجرومية النحو والغراماطيق . وقد ظهرت ضد هذا الوضع الشاذ المتحرج ، اول ردة فعل ، في اواسط القرن السادس . فبعد موت ثيودوريق ، راح وزيره كسيودوروس يحاول ، بالاتفاق مع البابا اغابي ، فتح مدرسة لتعليم الآداب في روما ، تكون على شاكلة مدرسة نصيبين ، واخذ في تكوين مكتبة في روما وجمع نواة طيبة لها عندما سقطت روما بيد جيوش الامبراطور يوستنيانوس ، فقضي على المشروع وهو في المهد . وكان كسيودوروس

التجأ الى ساحل كلابريا وسكن دارة له جميلة للغاية في مدينة فيفاريوم، ودخل الدير بعد ان نهج الحياة الرهبانية . وهذا النهج الجديد الذي ارتضاه في حياته ولرفاقه كان نهج قوم من السراة ذوي ثقافة عالية ، تحرروا من المهام المادية وجمعوا حولهم طائفة من الكتب. اما عملهم الرئيسي فانصرف للاهتمام بامور الفكر والثقافة ، يقضون اوقاتهم بين استنساخ المخطوطات ومطالعة الكتب المقدسة . وخلافاً للتقاليد المتبعة من عهد إيرونيموس التي كانت تنتقص من قيم الثقافة الكلاسيكية ، رأى كسيودوروس انه لكي يتفهم الانسان الكتب المقدسة حق فهمها ، كان لا بد له من الاستعانة بالآداب الرفيعة . وراح ، في آخر ايامه ، يعد في هذا السبيل ، برنامجاً موحداً يجمع بين الدراسات الكتابية والعلوم الدنيوية ، وهو منهاج بسطه باستفاضة في الحلقتين اللتين يتألف منهما كتابه المعنون : « النظم » وبفضله "كتب" للمدرسة القديمة البقاء بعد ان كادت تفقد كل اثر لها وتضمحل ، لو لم تجد لها في الدير والحياة الرهبانية خير معوان لها وخير مسعف . غير ان المحيط لم يكن حليماً ولا مسعفاً . فالمحاولة جاءت في غير اوانها ، ولم تتخذ لها الظروف المهيئة ، كما ان الاهتمام بامور العقل والفكر لم يكن تملك بعد الاديار البندكتية.

وهذا الموقف يقفه الاكليروس من الثقافة الكلاسيكية تبدل تماماً ، بعد هذا ، بنحو قرن من الزمن ، وذلك بتأثير من رهبان مشارقة لجأوا الى ايطاليا وافريقيا . ففي البلاد اليونانية ، راحت المسيحية بعد ان رسخت أصولها وأعرقت في الارض ، تتمثل جانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، واخذ الناس يتذوقون التراث الادبي القديم. فزاد اقبال الناس على تلقف هذا الادب، في روما أولاً ثم في انكلترا التي تنصّرت منذ عهد قريب . فالبعثة الرسولية الثانية التي عهد اليها، عام ٦٣٩ ،في استكمال تنظيم الكنيسة الانكلو سكسونية كانت تحت ادارة رجلين تشبّعا من الثقافة الشرقية العالية ، هما ثيودوروس الطرسوسي الذي قـد يكون من خريجي مدارس اثينا ، وهدريانوس ، وهو رجـل افريقي الاصل تخرج بالآداب اليونانية واللاتينية في قرطاجة البيزنطية . ففي الوقت الذي سربلا فيه الكنيسة الانكليزية بهذه المزايا ، منحاها تنظيماً أسقفياً شديد الأمر وشدّاها الى البابوية بروابط متينة وأدخلا على المدارس الابتدائية القائمة في الاديار، حيث كان المرتدون الى الدين المسيحي ، يتلقون مبادىء اللاتينية التي لا بد منها لتفهم الكتاب المقدس ، برنامجاً تعليمياً أقوى بكثير من البرنامج المعمول به ، الى ذلك الحين ، يضم على شاكلة البرنامج الذي سبق لكسيودوروس ان وضعه من قبل ، وكان يتوخى التعمق بأسرار اللغة اللاتينية وآدابها ، « ساكيا » ، كما جاء على لسان الطوباوي باد المحترم ، وهو أبرز من خلفهما وأشهرهم على الاطلاق: «على القلوب» العلم دِفاقاً» . فلم تعتم الديارات البندكتية الجديدة ، أمثال دير ويرماوث ويارو،ان اصبحت منائر للثقافة في تلك البلاد وراح مؤسسها بندكتوس بسكوب ينشىء فيها مكتبات ، اذ جاء روما زائراً ست مرات متوالية ، وكان يعود في كل مرة منها محملاً بالمخطوطات، ولم يلبث ان قام في مدينة يورك، أكبر مركز للتعليم في المسيحية جمعاء. وتحت تأثير هذا الازدهار غير المتوقع على هذا الشكل الذي عرفته الثقافة الكتابية في ديارات ارلندا

وانكلترا الشرقية والغربية ، ظهرت عام ٧٠٠ ، في الجزيرة رسوم التحلية والتزاويق البديعة التي تزين روائع المخطوطات واعلاقها ، في هذه الحقبة ، منها مثلا كتاب مزامير دير كنتوربري الذي يحمل صوراً ورسوماً مستوحاة من نماذج قديمة جيء بها من ايطاليا ومن افريقيا ؛ ومنها ايضاً انجيل لندسفارن الذي استعار رسوماً حيوانيـة وأشكالاً زخرفية استعملت في مجوهرات بربرية بعد ان جرى تكبير حجمها .

وفي أواخر القرن السابع، في الوقت الذي أغرق الفتح العربي تحت سيله الجارف، الممتلكات البيزنطية في افريقيا وكادت أمواجه الطامية تهدد الفيزيغوط في اسبانيا، غادر مبشرون، الاديار الانكلو سكسونية ليقوموا بتأسيس ارساليات تبشيرية، في الاطراف الشرقية للمملكة الفرنجية حيث كان لا يزال يوجد بعد جماعات من المشركين . وهكذا أقاموا من جهة ، صلات وطيدة ، بين البابوية الرومانية وأقوى الدول من الوجهة السياسية اذ ذاك ، حيث كان لسدنة القصر أكبر شأن في مقاطعة أوسترازيا ، ومن جهة اخرى ، بين وجوه الثقافة اللاتينية الأكثر حيوية ونشاطاً ، هي الثقافة التي وطد أركانها الطوباوي باد المحترم في البلاد وتعهدها تلاميذه من بعده ، وبين الفن الغالو – الروماني في منطقة باريس . وعن طريق هذه الاتصالات الرباعية الاطراف ، تمهد السبيل امام طلوع حضارة الاجيال الوسطى .

الفصل الثاني

انهيار العالم الروماني : الشرق

لا يتوهمنّ أحد ان الشرق ، في الحقبة الواقعة بين القرن الخامس والسابع ، اختلف عن الغرب كثيراً ، من حيث الوضع الاساسي . ففي الوقت الذي قامت في الغرب دول جرمانية حلت محل الامبراطورية الرومانية ، قامت في الشرق ، واستمرت قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، دولة نعتت نفسها « رومانية » ، هي الامبراطورية « البيزنطية » باسم عاصمتها بيزنطية التي عُرفت في عهد قسطنطين الكبير باسم « القسطنطينية » . فلم يكن وضعها ، وهي على منتصف الطريق بين الاجيال الوسطى ، ليختلف كثيراً عن الوضع الذي لابس سميّتها في الغرب ، بعد ان جدد شارلمان واوتون ، شبابها ونفخا فيها دماً جديداً . فالقطيعة جاءت اقل مفاجأة في الشرق منها في الغرب ، بينما سارت حركة التطور والتبدل لدى كليهما ، باتجاه واحد حتى في المراحل الاولى من هذا التطور .

الامبراطورية الرومانية الشرقية

تألفت هذه الامبراطورية من مقاطعات مختلفة كل الاختلاف . فشبه الجزيرة البلقانية ، باستثناء بلاد اليونان منها ، هي أقرب شبهاً الى الغرب الاوروبي ، من آسيا ، كما ان مصر تميزت ، هي الاخرى ، عن باقي أجزاء آسيا الرومانية ؛ اذ كثيراً ما يحلو لنا ان نطبق على كل أجزاء الامبراطورية الرومانية ، الصورة المغرية الجذابة ، التي ترسمها لها الوثائق التاريخية ولا سيا البرديّات منها . صحيح ان هذه الاقاليم نعمت ببيروقراطية ونظام اداري ومالي افتقر الغرب الى أمثاله مع ما يستتبع من نتائج الا وهي كره الناس والسكان لشكل الدولة . فقد قام في الشرق والغرب على السواء ، اقطاعية عرفت بأملاكها وأقطانها الواسعة ، كاسرة آل ابيون في مصر ، بينما زالت طبقة الفلاحين الاحرار من الوجود او كادت ، اذ استحال قسم منها عبيداً او شبه عبيد علقوا بالارض وارتبطوا بها ونجا القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب او من قسوة اسيادهم الى حيث استطاعوا سبيلاً . أما في المدن والقرى فقد راحت الدولة تحجز كذلك على اوضاع الحياة الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آبائهم ، والتمرس بالمسؤوليات العامة التي عهدت اليهم ، فأحصيت عليهم الانفاس في كل صناعة احترفوها او متجر فتحوه ؛ فاحتكرت الدولة صناعة

الاسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلمت بنفسها امور تموين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش، منها العاصمة القسطنطينية، وذلــــك عن طريق المصادرة او الشراء بأبخس الاسعار. والجيش نفسه يتألف، كما هو في الغرب، من «برابرة» محترفين، لم يلبث قواده ان استأثروا بالسلطة، كما استأثر زملاؤهم بها، في غاليا وايطاليا واسبانيا وافريقيا، بينما يستقر رجالهم في أراضي الامبراطورية بشكل يشبه، من وجوه كثيرة حق «الضيافة» المعمول بــه في الغرب، وضرورة محاربة الغزاة الطارئين وفقاً لأساليبهم المتبعة في فرقة الخيالة، كل ذلك وما اليه، عقّد جداً تنظيم الجيش وطريقة تشكيله وجعلت تكاليفه باهظة مرهقة.

فما هي، يا ترى، الاسباب التي جعلت الامبراطورية الشرقية تصمد بنجاح، للعوامل الهدامة التي هددتها، فمكنتها، أكثر مما مكنت الغرب، من المقاومة والوقوف بوجهها ؟ لفترة قصيرة لعمري، كما يجب ان نعلم، اذ ان الولايات الاوروبية لم تلبث ان اكتسحتها في القرن السابع، قبائل من «البربر» أكثر شراسة وضراوة من قبائل الجرمان، كما ان معظم القسم الآسيوي والافريقي منها سيذهب فريسة غزاة جدد لم يكونوا في الحسبان. فقـــد أمكن تفادي شر موجات البرابرة الاولى عن طريق تحويلهم شطراً آخر، او بادماجهم في الجيش، في حال تعذر امتصاصهم وتمثلهم. فالسر يمكن رده، والحالة هـــذه، لسبب خارجي، في بعض وجوهه. فالامبراطورية لم تتعرض لضغط ملموس إلا في اوروبا. فالولايات الآسيوية المعروفة بغنى مواردها بقيت سليمة، تتعرض الفينة بعـــد الفينة، لحروب يشنها عليها الفرس، وهي حروب لم تتسم بالخطر الذي تمثل على أشده، في تغلغل البربر وانسرابهم في جميع ارجاء اوروبا، اذ ان الاخطار التي كانت تهدد الدولة الساسانية من الشمال، كانت تحول دون توغل جيوشها بعيداً، داخـــل الامبراطورية، مع العلم ان هذه الحروب لم تكن لتهدف إلا للسيطرة سياسياً، على بعض الولايات الشرقية وليس الى ضمها واقتطاعها نهائياً. وهنالك سبب آخر يقوم أساساً في القوة الكامنة في قلب الامبراطورية الشرقية التي حالت دون اكتساح البرابرة لمدينـــة القسطنطينية والاستئثار بالسلطة، اذا ما حالفهم الحظ وعبروا مضايق البوسفور والدردنيل، اذ كانوا يفضلون، لدى سنوح الفرصة الملائمة، التوطن في مقاطعات الغرب.

تفوق الشرق اقتصاديا واجتماعيا

وتفوق الشرق على الغرب كان يتمثـــل، قبل كل شيء، في التجارة والصناعة التي أدّت بدورها الى ازدهار المدن، والى تكثيف عدد السكان في الريف. صحيح ان التجارة الدولية كانت تقتصر على بعض السلع الثمينة التي كانت تفي برغائب الطبقة الارستوقراطية، فلا تأثـــير لها، والحالة هذه، على الجماهير والطبقات الشعبية، بينما انحصرت حركة النقل في الداخل على محاصيل زراعية بالاكثر، ذات طابع اداري محض اكثر مما هو تجاري. وبالرغم من هذا، فقد كانت لهذه الحركة التجارية اهمية كبرى، كما كان لها تأثير كبير على الطبقة البورجوازية الغنية في المدن وبالتالي، على سكان المدن، اذ كانت تؤمن لهم أسباب العمل وأود العيش. فالحركة التجارية تتجه بالاكثر شطر آسيا: الهند

وحتى الصين . فقد فقدت هذه الحركة البساطة التي طبعت المعاملات المالية خلال الاجيال المنصرمة ، اذ كان التجار الرومان يبلغون بيسر المراكز والاسواق التجارية في الهند والصين . اما الآن ، وقد عرف الساسانيون ان يربطوا بقوافلهم البرية اقطار آسيا الوسطى بسواحل البحر المتوسط الشرقية ، وان يؤمنوا الاتصال بحرياً بالهند وموانئها بعد ان عزلوا البحر الاحمر لخير الخليج الفارسي ، فقد سيطروا تماماً واحتكروا حركة النقل فكان ذلك مورد ربح عظيم لهم كما سبب القلق والانزعاج للامبراطورية « الرومانية » . قد يتنطح البعض للقول فيزعمون ان الشرق المتوسطي ، كان بالنسبة لآسيا القصية النائية ، في وضع يشبه ، الى حد بعيد ، وضع الغرب بالنسبة لهذا الشرق الادنى ، يعاني مريراً كما كانت تعاني اوروبا ، من استنزاف الذهب . انه استنتاج لا يخلو لعمري من الغلو والشطط ، مع ان هنالك حوادث ثابتة لا تدحض لتسرب كميات من الذهب « الروماني » . فالصناعة التي عثر على بعض انتاجها في الصين ، كان باستطاعتها ان تؤمن التوازن ، مع انه لا يزال سراً من الاسرار كيف استطاع النقد البيزنطي ان يحافظ ، اجيالاً متطاولة ، على متانته وقوته على الشراء ، بحيث اصبح النقد الدولي المتعارف ، وهي متانة لا تأتلف ولا تنسجم البتة مع افتراض افتقار البلاد للنقد أو القول باختلال الميزان التجاري .

ولكن ما عسى ان تمثله ، في أعين تجار البحر المتوسط الشرقي ، هذه التجارة مع الغرب؟ فاذا ما انعمنا النظر ملياً في احوال الغرب ، في هذه الحقبة ، كان لا بد من الاعتراف ، بالدليل القاطع والحجة المؤيدة ، باستمرار هذه العلائق التجارية في قلب الدول « البربرية » ، وانحطاطها في آن واحد ، وذلك لقصور الغرب عن الشراء بعد ان ضمرت وسائله وضعفت ، وبعد ان قام اسطول الفندال باعمال القرصنة في البحر ، ولو بصورة موقتة . وقد يتغير الوضع تماماً اذا ما نظرنا اليه من الشرق . فقد استطاعت الحركة التجارية ان تحافظ على مستواها وعلى اهميتها ، بالرغم مما كان عليه الغرب من ضعف في اقتصادياته ، دون ان يعلق اهل الشرق كبير اهمية على هذا الوضع ، بالرغم مما اصطلحوا اجيالاً على تأمينه من الارباح الطائلة . والشيء الثابت الذي لا يوجه الشك هو ان الامبراطورية الشرقية ، تمكنت ، منذ اواخر القرن الخامس ، ان تنشىء لها عمارة قوية ، وان تؤمن سيطرتها على البحر في الوقت الذي بدا لنا فيه انها في سبيل التخلي للبربر ، عن سلطتها على البر . وبفضل هذا الاسطول ، ستتمكن من استرجاع اقاليمها المغتصبة من قبل ، قانعة بالشواطىء البحرية ، بعد ان استرجعت افريقيا واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا ، مكتفية بما عليها من موانىء ومرافىء تنفذ منها الى الداخل دون ان تتوغل فيه كثيراً مع ذلك ، مما يؤمن لها أسباب الدفاع عنها ، نزولاً منها عند مقتضيات الدفاع . ومع ذلك من يستطيع ان يزعم ان حركة الاتجار مع اقطار « البرابرة » كانت اكثر صعوبة مع الولايات «الرومانية» فالمصنوعات البيزنطية كانت تصل ، حتى اواخر القرن السابع ، الاقطار الواقعة حول الدانوب أو في اوروبا الشرقية لتبلغ منها شواطىء البحر البلطيقي ، على يد زعماء وطنيين مقابل الفراء والرقيق

يردهم عن طريق القبائل او عن طريق مساومات الحرب أو كانت تجده بهـــا هبات واعطيات الديبلوماسية البيزنطية ، استدناء لزعماء القبائل والشعوب البربرية . وليس مـا يثبت البتة أو يؤيد بشكل من الاشكال ، ان الاوساط التجــارية في القسطنطينية أو في سوريا دعت الى الحروب او حبذت قيامها بغية عرقلة الحركة التجارية ، أو طمعاً باسترجاع اراض طالما تعرضت للغزو ، وتألمت مما وقع عليها من نهب وسلب ، وذلك طمعاً منهم في استثمار هــذه الحروب والاستفادة من الفتوحات الحربية . فاذا ما اتفق واعرض الامبراطور يوستنيانوس عن هــذه وضرب بها عرض الحائط وقام بمجلاته العسكرية المعروفة للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب والجنوب ، فنزولاً منه وامتثالاً لدوافع ونوازع مالية ، ملحّة ، لا ترحم. فكم من مرة تحكمت بالسياسة البيزنطية العليا، الرغبة الملحة بفرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة ، وذلك بالرغم من معارضة كبار الملاكين وارباب الاعمال والتجارة الذين لم يكونوا ليساهموا كثيراً بهذه المنافع الحكومية . ولذا كان على الدولة ان تؤمن ، بجميع الوسائل ، مقتضيات الدفاع وما يحتاج اليــه من وسائل الاغراء ، لاصطناع الانصار ، وقطع الالسنة ، وإثارة البرابرة ، وتأليبهم بعضاً على بعض ، وتوفير اسباب البذخ للبلاط وحاشيته ، وتأمين أوَد الغوغاء في العاصمة ، وعدم تهييجها بشيء . وهكذا ، اذ عرف الشرق ان يضحي بمقاطعاته الدائرية في الغرب ويتخلى عنها للقبائل الجرمانية ، استطاع بمـا لديه من موارد ، ان يؤمن أسباب وجوده وان يستمر حيــاً ، وان يقوم بهجوم معاكس ، ويحقق في الداخــل الاصلاح المنشود .

والتعبير الاجتماعي عن الحركة الاقتصادية التجارية ظهر، على أتمه، في ازدهار المدن. فقد نشأ في الغرب من آسيا الصغرى، وسوريا وأعالي الجزيرة، في ما بين النهرين، مدن عظيمة، كانطاكية مثلاً ، وشيء آخر له مغزاه ومدلوله الواضح ، عدد كبير من المدن الوسطى والصغرى برزت كالفطر في هذه البقاع ، أوجبت على أولي الامر ، مسؤولية تأمين أسباب العيش لسكانها وأدت بالتالي الى انشاءات هندسية ، زراعيــة ، لاستثمار خيرات هذه الارضين كما يستدل من الحفريات الحديثة ، واستغلال سهول سوريا الداخلية . ومن المدن الكبرى الاخرى في هــذه المنطقة ، مدينة الاسكندرية التي خلافاً للمألوف من هذه المدائن ، قامت وازدهرت على سواحل بــلاد ظلّت ريفية في الصميم . ومن بينهـا ايضاً مدينـة القسطنطينية العاصمة الاولى للامبراطورية ، ومرفأ جبل الموقع حصينه، ملاذ البلقانيين يكتّون اليها هرباً من غزوات البرابرة ونجاة بأنفسهم من المخاطر التي تتهددهم باستمرار ، فاتسعت بذلك رقعتها وتضخم عدد السكان فيها متجاوزين المليون ، فارضة على أولياء الشأن مسؤوليات جساماً لتأمين أسباب المحافظة على النظام، والمواد الأولية لتموين السكان واعاشتهم وأسباب الدفاع التي أصبحت أكثر حرجاً . ولذا كنا نرى — وهذا من بعض سمات هذا العصر المميزة — الاسوار وأعمال التحصين تقام حول هذه المدن تزيدها منعة وقوة مقاومة ، ولا سيما في عهد الامبراطور يوستنيانوس . فجمال المباني العامة وأبهة

الصروح الخاصة تشهد عالياً عـلى ما عرفت الامبراطورية ، اذ ذاك ، من نعمة سابغة وازدهار حق ولو كان آنيّاً ، موقوتاً ، وغير مستقر ، ولو قامت على أنقاض من الخرائب . وكان أصحاب هذه العقارات يسكنون تلك المباني ، وان لم يكن دائماً في ممتلكاتهم العقارية . وقـام حول المدن مباشرة ، طبقـة بورجوازية متوسطة الغنى ، عدّلت من شأن اصحاب الاقطان الكبرى الأبعد الى الوراء . والملكية القروية الصغيرة نفسها ، بدت راسخة ، في بعض الاماكن، وتساهم بدورها في تموين المدن الكبيرة . فالطبقـة الصناعية نفسها في المدن تتوزع الى فئتين كبيرتين هما : الفئة الزرقاء والفئة الخضراء . ولقد لعبتا دوراً بارزاً في تنشيط الالعاب الرياضية، عن طريق المباريات التي تنظمها من آن لآخر ، وهي ألعاب كانت من الحيوية والنشاط ما نسينا معه ان نتذكر بأنها كانت تؤلف جزءاً من الحرس الوطني المسؤول عن النظام العام ، كما كانت تؤلف جمعيات نجهل الكثير من دقائقها تنعكس عليها الحزبيات التي انتابت الطبقات الاجتماعية ، اذ ذاك . وعلى هذه الكيفية يمكن لنا ان ندرك جيداً ان الانتفاضات الشعبية التي كانت تؤول الى اسقاط الأباطرة كانت ، على الغالب ، ترتكز على احدى هذه الفئات . وقد يحدث أحياناً ان اكثر من واحد من هـذه الاحزاب كان يشترك في التآمر على صاحب السلطان ، كما حدث ذلك تماماً في الفتنـة التي أثارها نيكا على الامبراطور يوستنيانوس ، ولم يتمكن من اخمادها إلا بمذابح هائلة ، مريعة ، عهد بتنفيذها الى المرتزقة من جند « البرابرة » .

يوستنيانوس

اصطلح المؤرخون على ان يروا في عهد الامبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) العصر الذهبي للمدنية البيزنطية . وهذا خطل في الرأي ووهم لا سند له ولا دليل عليه ، يجب رده اصلاً ، الى الاثر الذي تركته فتوحاته الحربية ، والى غنى المباني التي شيّدها ، وما كانت عليه من فخامة وأبهة ، وطائفـة محترمة من الأدباء والشعراء عمر بهم البلاط الامبراطوري . ومع ذلك ، فلم تَحُلْ هذه الاعتبارات كلها ، دون تحرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل كارثة، لما حف به من ضعف وأخطار . وعلينا ان نعترف هنا، مع ذلك ، ان ما تم له من ارادة حازمة ، شابها لعمري ، شهوة جارفة للبذخ والاسراف ، مكّنه كثيراً من حشد القوى والطاقات التي كانت له خير معوان على انجاز المآتي التي تمت على عهده وأقامت له الشهرة العالية التي يتمتع بها وحفظها له التاريخ .

كان عليه قبل كل شيء ، ان يقبض بيد من حديد ، على أداة الحكم والادارة ويهيمن عـلى المجتمع . لننسَ الآن الفشل الذريع الذي آل اليه . باشر حكمه بتوسيع محاولة بُدىء بهـا من قرن ماض ، تتمثل بالقانون الثيودوسي ، وهي موسوعة قانونية ضمّت ما يمكن الانتفاع به من التشريع الروماني ، على ضوء التطور الذي لحق بالاخلاق والعادات ، وانتصار المسيحية النهائي وفوزها المبين . فالقانون اليوستنياني هو المعين الذي استقت منه كل الشعوب اللاتينية شرائعهـا وقوانينها . فهو الاثر الخالد الذي يعتمده المؤرخون والفقهاء في تصويرهم ملامح التاريخ القديم . ويجد هذا القانون تكملته في المجموعة المعروفة بـ *Digeste* ، وهي مجموعـة أضيفت اليه فيا

بعد ، وهيمن على وضعها الروح الذي سيطر على من قاموا بجمع الموسوعة الاولى ، تتألف من اجتهادات رجال القانون ونظرياتهم الفقهية .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت الدولة البيزنطية بعض السمات التي لازمتها ، وهي سمات كانت ، والحق يقال ، نتيجة حركة تطورية طلعت مع عهد قسطنطين ، تبدو ، قبل كل شيء ، في دمج الكنيسة بالدولة . فقـد أظهرت الكنيسة ، في الغرب ، العداء ، للملوك والامراء الجرمانيين لضلوعهم بالهرطقة الآريوسية ، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة ، ومسكنة في الحضارة وعجز في الادارة ، ولذا نفرت من وصايتهم ولم ترضَ منهم بأي رعـاية . اما في الشرق ، فالدولة هي تجسيم لارادة الحكومة ، فسطاسها الدين حيث تنعم الكنيسة برعاية الدولة التي لا تقل عن الكنيسة نفسها ، مسيحية". وهذه الكنيسة ، تلقت من أبنائها المؤمنين ومـن الدولة نفسها ما أفاء عليها الغنى والسلطان . فبطاركتها ، ولا سيما بطريرك القسطنطينية بينهم ، هم اقطاب جذب ووزن . انما الكلمة الاخيرة للامبراطور ، حتى في ما هو من امور الدين ، مهما كان رأي البابا القابع بعيداً ، في روما . وفي هذا يقوم ما اصطلحوا على تسميته بالقيصرية البابوية .

فالامبراطور او الفاسيلفس هو السيد السند المطلق ، من أي اصل نشأ ، وأياً تكون السلطة العسكرية التي افترعته ، والسلطان الذي آل اليه على الأكثر ، غلاباً واقتداراً . يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما نشهد له من غنى لا يتصوره عقـل ، ومراسم يجب التقيد بها والعمل بموجبها في قصر أشبه ما يكون بمدينـة مقفلة على نفسها تشبهاً ، من بعض الوجوه ، بالتقاليد التي سارت عليها هذه الاسر الملكية الشرقية ، والتي جاءت وفقاً لحركة تطورية داخلية . وقد خشي بعضهم في مطلع القرن الخامس ان يزهد الفاسيلفس بالحكم فيتخلى عن أزمّته ، كما حدث في الغرب . فها هو يصبح في نهاية القرن ، ويبقى ابداً : القائد الاعلى الذي يرئس الجيوش ، ورئيساً يدير كل شيء ويشرف على كل شيء . وقـد احتشد في معيته رهط كبير من المساعدين عمرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها ، او تولوا قيادة الجيوش في الولايات ، كما يشرف على المصالح العامة موظفون كبار ، لهم مكانتهم الشخصية . ومع ذلك ليس هنالـك من ارادة واعية منظمة تؤمن التعاون بين هذا الشتيت مـن الدوائر والدواوين ، غير ارادة الفاسيلفس والكل مصيره اليه وحده ، في نظام مسلسل من الالقاب والرتب ، بعضها شرفي محض يشير الى وضع خاص في المجتمع ، والبعض الآخر يتبلور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية . وكل هؤلاء الموظفين علمانيون ، سيصبحون تدريجياً ، مع الزمن موظفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والاجور ، بعد ان استبدلوا بهم الحكام المحليين الذين يحاولون دوماً التهرب من الاعمال الشاقة . وهكذا نرى ان المركزية في أبان ذروتها .

وتتمثل لنا نزعة يوستنيانوس الى الابهة والعظمة في هذه المهاثر التي شيدها وتأخذ الالباب بعظمتها ، رامياً منها الى تمجيد الله عز وجل واعلاء شأن الامبراطور . والمهم في هذا كله ان اطلّ من هذه الرغبة التي نزلت من الشعب منزلة التقدير والرضى فتبناها ، ار فني جديد هو من

اروع واوقع ما عرفت البشرية من امثاله ، مثلاً بكنيسة الحكمة أو آجيا صوفيا التي يغرق اليوم في ظلالها الظليلة الوارفة ، هـــذا الحي من استانبول الواقع الى الغرب من مدخل القرن الذهبي ، مع ان ليس في مظهرها الخارجي من روعة الجمال ما يصدم الرائي أو يصدعه . ولكن ما ان يدخل المرء الى صحن الكنيسة حتى يدهش لضخامـــة المبنى ولفن ما تقع عليه العـين من الرخام المتعدد الألوان ، ومن هذا البذخ في الزخرف الذي لا تشوبه شائبة ، وارتفاع قبته التي تملأ القلب روعة ورهبة من هذه الجرأة التي راودت المهندسين اللذين أشرفا على هندسة هذه الكنيسة ، هما ايزيدوروس الميلي وانثيميوس الترالي . فكان عملها الفني هذا ملهماً بعد ألف سنة للمهندسين الاتراك العثمانيـــين والروس من بعدهم . فالمآسي البشرية التي توالت فيما بعد ، لم تترك شيئاً يستحق الذكر او التنويه به من هـــذه الكنائس الاخرى ، التي زانت العاصمة بهندستها المتنوعة ، اذ كان بعضها يرمم لنا بازيليكا مستطيلة الشكل ، كما يرسم البعض الآخر شكل صليب يوناني . ففي مدينة رافينا ، احدى مدن ايطاليا الشمالية الغربية التي أعيد فتحها من جديـــد ، يستطيع المرء ان يتذوق أجمـــل الفسيفساء وأحفظها التي تخلّد صورة الامبراطور وزوجته الامبراطورة ثيودورا يحيط بها كبار الموظفين . صحيح ان فن الحفر والنقش كان اذ ذاك ، في ابان انحطاطه ، غير ان فن الزركشة وتزيين المباني لم يبلغ يوماً من الدقة ما بلغه اذ ذاك . فالمرء لا يزال يتذوق النقوش الفنية الجميلة التي أودعها الفنانون البيزنطيون الخشب والعاج . ولا تقـل عنها جمالاً هذه المنسوجات المشرقية المتداخلة الالوان ، الشرقية الطراز ، والتزاويق البديعة التي كانت تحلّي المخطوطات . وهذا الذي يبدو لنا اليوم على شيء من الجمود في الايكونوغرافيا ، قد يكون سببه الانحطاط الفني ، انما يجب رده بالاكثر الى نظرية أسمى في رسالة الفن .

فالفن « البيزنطي » مدين لعوامل اخرى غير يونانية ، تتصل بسوريا وارمينيا . وهو أعجز من ان يلخّص او يمثل كل فنون الشرق الادنى . علينا مع ذلك ان نتجنّب المغالاة لئلا نقع في الجهة المعاكسة التي وقع فيها بعض من كشفوا عن هذه الفنون . فباستطاعة عاصمة امبراطورية كبرى وحدها ان تفرغ مثل هذا العدد العديد من المؤثرات المتباينة في بوتقة واحدة . وفي مقدور دولة كبيرة قوية ان تبني وحدها كنيسة على مثال كنيسة آجيا صوفيا . وهـذا الفن البيزنطي لم يقتصر في اشعاعه على الذين أسهموا في العثور على الاكتشافات التي حققوها وعلى من جاء بعدهم . فمن قبل يوستنيانوس ، استقدم أسياد رافينا وحكامها ، من بيزنطية ، مَهرة الصناع الذين نقف اليوم مشدوهين امام انجازاتهم الفنية . وعلى بيزنطية عولت القرون العليا من تاريخ الاجيـــال الوسطى في استلهام أسرار الفن واستيحائه .

وقد نهجت الآداب البيزنطية ، هي الاخرى ، النهج الذي ارتضته لهـــا مسلكاً ، وبقيت محافظة عليه ، ممسكة به . فالانحاء الفلسفي والعلمي ضاقت منه الانفاس ، لعمري ، مع انـــه بقي محافظاً على تقاليده التي اعتمدتها مدرسة الاسكندرية ومن ثمّ « الجامعة » الجديدة الـــتي تأسست في القسطنطينية . وفي المقابل ، ازدهر علم التاريخ الذي وجد مادة جديدة له في الاعياد

العالية التي حققتها المدنية البيزنطية ، وفي هذه الحروب التي نهضت بهـا . في طليعتهم المؤرخ بروكوبوس (+ ٥٦٢) الذي انتقد الامبراطور يوستنيانوس بعد ان كال له المدح والثناء، وذلك في كتبه المتعددة : « حروب الفرس » و « الفندال » ، و « الاوستروغوط » وكتابـه الآخر : « رسالة في المباني» وفي كتابه : « التاريخ الخفي » (الذي اقل ما يقال فيه انه يزرع الشكوك). فمع مـــا يتصف به من صغائر الخلق ، فهو شديد الملاحظة ، كاتب مجيد ، زودنا بمعلومات من الطبقة الاولى حول عهده. وقـد عاصر بروكوبوس جمهرة من المؤرخين من علمانيين وكنسيين ، بعضهم من اصـل شرقي . ومن الشرق خرج ايضاً هؤلاء الفقهاء الذين عاونوا الامبراطور يوستنيانوس في موسوعته القانونية وفي *Digeste* . كل هذا وما اليه ، ادب يتجه بالطبع ، من الارستقراطية وقـد افسحت الديانة الجديدة المجال ، في هذا التعاون الذي قام بين المؤمنين ورجال الاكليروس ، لظهور شعر ديني ، مقفى ، طلع له اول من طلـع رومانوس ، وعلى شعره ومدائحه تغذت تقوى الشعب اليوناني طيلة اجيال متطاولة .

الطالبة والنزعات الاخلاقية

هذه المدنية التي كان محورها على البوسفور ، راحت تعلل نفسها مع ذلك بانها « رومانية » . فالفكرة التي تجسمها روما وتمثلها قيمـاً تسمو بكثير فوق هذه الصور الزائلة التي تبلورت على شاشة المجتمع ، عاشت طويلاً بعد انهيار الوحدة الرومانية وزوالها . ومن ثم ، فالاعتقاد الوطيد بان تراث روما القديمـة انتقل الى القسطنطينية ، روما الجديدة ، جعلها رأس العالم المتمدين الاوحد . وهذا الايمان لم يأت يومـاً اقوى وأرسخ تشد عليه الدولة بالنواجذ، الا عندما ترى نفسها مرغمة للتخلي عن احدى مقاطعاتها للبرابرة . فلم يكن اقوى من هـذه العاطفة يجيش بها قلب يوستنيانوس ، هذا اللاتيني الايليري الاصـل والمحتد فتحمله على القيام بسلسلة من الحروب لاسترجـاع الولايات المنفصلة ، فتسول له نفسه بتحقيق هذا الحلم المعسول . ومع ذلك فقد ادارت بيزنطية ظهرهـا لروما، وعندما سقطت ولاية الإلليريكوم بيد البرابرة واستباحوا باحتها ، لم يكن احد من رعايا الامبراطورية ، باستثناء سكان ايطاليا ، يعبر عن افكاره وخواطره باللاتينية . ولم يكن من أدب معروف رائج الا الآداب اليونانية والآداب الشرقية . ويوستنيانوس نفسه الذي عمـل على جمع النصوص القانونية والتشريعية الخاصة بالحق الروماني ، باللاتينية، اضطر ان يصدر باليونانية القوانين التشريعية التي اصدرها فيما بعد ، وتسمى عندهم بـ *Novelles* . فالانحطـاط الذي أصاب في الغرب ، منذ القرن الثالث ، الطبقة الارستوقراطية نصف المتهلينة ، قضى تماماً على كل انتشار للثقافة الاغريقية، فليس من الغرابة بشيء ان تتسع الهوة في الممالك البربرية كما سنتبين ذلك عما قريب : فلم يعد الشرق والغرب يتفاهمان .

وهذه الوحدة البديعة المنظر التي كانت تبدو على الشرق في الظاهر ، اخـذت هي الاخرى بالتصدع شيئاً فشيئاً بعد المشاكل الاجتماعية والقومية التي تحالفت عليه ، فمزقتهـا كل ممزق . وهذه الدولة « الرومانية » التي عجزت الفينة بعد الفينة ، عن تأمين حماية مقاطعاتها الشرقيـة والدفاع عنها ضد تعديات اعدائها الاقوياء ورد كيدهم الى نحورهم ، والتحوط للأزمات الاخرى

التي اشتدت فيهـــا جباية الضرائب ، وغير ذلك من الاسباب كالمركزية الادارية والدينية ، كل ذلك وما اليه ، قوّى النزعات القومية . وقد اخذت الشعوب الآسيوية ومصر على الاخص تعي ، أكثر فأكثر ، الدور العظيم الذي لعبته في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية وترسيخ حضارتها ، وهو دور زاد خطره وشأنه بعد سقوط الأمبراطورية الغربية . ومن جهة اخرى ، فقد كان لهذا اللقاء التدريجي الذي تم بين الارستوقراطيـــة القيّمة على التراث الهليني وبين المسيحية المتغلغلة بين الطبقات الشعبية الواسعة التي لم تفقد الشعور بقوميتها ، ان زاد في ازدهار الحضارات الوطنية التي غشتها مسحة دقيقة من الطلاء اليوناني . ولذا ، فقـــد بدت الدولة البيزنطية والنظام السياسي الذي انشأته بعيداً عن محور سوريا ومصر ، وكأنها سيطرة اجنبية دخيلة على البلاد ، ليس ما يبررها ، والانتظار البَرِم الطويل الذي اضطرت إلى الاعتصام بـه عناصر قومية متعددة كالاقباط والساميين والارمن ، اخــذ يفت من عضــد الدولة ويخلخل وحدتها . فما ان جاء الاسلام وظهرت موجاته الاولى حتى راح يستثمر بنجاح ، هـــذا الوضع المـلائم .

المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي

وهذا التفسخ بداعلى اشده في هذه المشاجرات الدينية التي ادى اليها اختلاف العقيدة وتباين تعاليم بعض الشيع والهرطقات التي شجرت بين المسيحيين . ويصعب على المؤرخ تصور مـــا بلغته هذه المشاقات من العنف والبغضاء حول القضايا اللاهوتية ومـــا اثارته من انشقاق بين الطوائف الكثيرة التي طلعت في الاجيال الثلاثة الاولى للمسيحية . قد يكون في اهمية الادب الكنسي ما يطبع بالغلو هـــذه الحدة . ومع ذلك ، فالروح الدينية الشرقية تسيطر عليها ، اكثر مما تسيطر على الروح الدينية الغربية التي تهتم ، قبل كل شيء بمشكلة سلوك الانسان ، النظرية القائلة بان الخلاص يقوم ، قبل كل شيء ، في تفهم النظـــام الالهي بحيث يفنى فيه الانسان بصورة سلبية او يتدبر امره معه بصورة تكاد تقارب السحر . ولم يعتم ان اصبح واضحاً بان وراء علماء اللاهوت ، الجماهير التي كانت تخضع لمؤثرات اجتماعية وقومية اكثر من خضوعها لمؤثرات دينية صرفة . ومع ذلك يبدو من اللازم ان نعرض هنا بايجاز ، القضايا الدينية التي ادت الى مثل هذا الوضع الحرج ، اذ انها كانت بالفعل سبباً مباشراً لهذه الانفصالات التي لا يزال بعضها قائماً لليوم .

فالاختلاف الجوهري يقوم اصلاً على الصعيد الديني ، ويتناول وجود طبيعتين في السيد المسيح : الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ففي نظر البعض الذين كان يهمهم في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوحدة الالهية او الجانب الالهي في شخصية المسيح ، فظهور السيد المسيح بلحمه ودمه ، وآلامه وصلبه ، لم يكن الا تشبيهاً . وبهذا قال اتبـاع الطبيعة الواحدة . اما خصومهم ، فقد رأوا في هذه كلهـا حقائق مطلقة ووقائع لا يواجهها الشك ، تختلف عن الطبيعة الالهية بحيث ان الآلام التي تحملتها احداها لا تمس كمال الثانية بشيء . وصاحب هذه المقالة هو نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس ، ولذا عُرف اتبـــاعه بالنساطرة او النسطوريين .

والحقيقة ان كلا التعليمين ، في جعلها الله بمعزل عن الألم عرّضا عمل الفداء للخطر . بحيث ان ما اصبح فيما بعد الارثوذكسية اليونانية ـ الرومانية كان قوامه القول باتحاد الطبيعتين، وهذا سر عظيم لا ينفذ اليه عقل الانسان . فبعد ان حال النفوذ القوي لاصحاب العقيدة المونوفيزية في القرن الخامس ، دون انطلاق العقيدة النسطورية ، استطاع النساطرة ان يجدوا لهم منطلقاً واسعاً في الدولة الساسانية . وانتشرت مقالة القائلين بالطبيعة الواحدة بين الساميين ، بعد ان رأوا في هذه العقيدة استمراراً للتقاليد والتعاليم بوحدانية الله كما إنتشرت كذلك بين الاقباط ، وبين الارمن ايضاً ، على شيء من التخفف والتسامح . اما « الارثوذكسية » فاحتفظت باليونان الى جانب روما ، والعالم اللاتيني ، واخذ اصحاب الطبيعة الواحدة ، ينظرون اليها نظرهم إلى ديانة اسياد البلاد الغرباء اصلاً عنها . وقد تبنى بطاركة انطاكية والاسكندرية ، ولا سيا كيرلس الاسكندري ، في القرن الخامس ، مقالة المونوفيزية.ووقفوا الى جانبها ، نكاية بزميلهم بطريرك القسطنطينية، للمركز السامي الذي كان ينعم به لدى السلطة العليا . وقد مضوا في موقفهم هذا بعد الذي نالوه من تأييد الشعب لهم ومؤازرة الرهبان لهذا الموقف المتشدد .

عرف الشرق قبل الغرب بكثير ، الحياة الرهبانية التي ازدهرت فيه وازهرت على اشكال وألوان مختلفة ، على السواء ان في اليونان أو عند الارمن والاقباط . وكانت الحياة الرهبانية تعتمد قاعدة لها القوانين التي وضعها القديس باسيليوس فاتخذها الرهبان دستوراً لهم ، سواء انقطعوا للحياة النسكية التقشفية أو لحياة التأمل والذوبان في الله . فبعضهم عاش حياة مشتركة بين جمهورهم كرهبان دير القديس سابا الذي انشىء في القرن الخامس ، على مقربة من القدس ، اما البعض الآخر فقد ارتضى لنفسه حياة نسك وتوحد فانعزلوا عن الناس وانقطعوا للتأمل ، شأن رهبان القديس سمعان العمودي ، الذين كانوا على شاكلة معلمهم ومرشدهم ، يقضون حياتهم في التأملات وهم قابعون على رأس عمود لا يفارقونه ليلاً أو نهاراً ، ولا صيفاً أو شتاءً ،متهجمين لله في شبه انخطاف مهما بلغ من حمّارة القيظ او زمهرير البرد . وقد أحاطت برجال الله هؤلاء هالة من القداسة والتقديس حلت في قلوب الشعب ، فتكاثر عددهم ونما بحيث بلغوا عدة آلاف في منطقة واحدة ، مما حدا بالكثيرين الى الكفر بالعالم ، والالتحاق بهم ، ُمعرضين طوعاً واختياراً ، عن ملذات هذه الفانية وبهارج الحياة. فقد كانت حياتهم كما كانت اقوالهم وتعاليمهم شجباً للشر وسوء السلوك والغنى والسلطة . واذ كانوا يفتقرون الى سلطة اسقفية حازمة ، فكثيراً ما كانوا اداة طيعة لاثارة الفتنة اذ كانوا غالباً وراء كل تجسس او انتفاضة شعبية تقوم بها الجماهير بمناسبة المشاجرات اللاهوتية وما تجر اليه من اعمال العنف . وكانت هذه الخصومات الدينية سبب تنغّص الحياة في جميع اطراف الامبراطورية البيزنطية وتسمم العلاقات بين مختلف طبقات الشعب ، جالبة على البلاد جماء ادهى المخاطر ، طيلة قرنين كاملين ، حتى اذا ما جاء الفتح العربي قضى على اسباب الفتنة الكامنة تحت الرماد ، بعد ان سلخ عن السيطرة البيزنطية الولايات التي كانت معظم سكانها من المشاقة ، فوضعهم بمأمن من طغيان الكنيسة اليونانية .

ويمكن إيجاز المراحل الحاسمة في هذه الحقبة على الوجه التالي ففي عام ٤٣١ انعقد مجمع أفسس وحرّم الهرطقة النسطورية ، فراح اتباعها يلجأون الى الدولة الساسانية . وفي سنة ٤٥١ ، إنعقد مجمع خلقيدونيا ورذّل هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . ومع ذلك بقيت مقالتهم تلعب دوراً بارزاً في سوريا ومصر ، وكان تأثيرها بالغاً على الاوساط الحاكمة حتى في القسطنطينية . وتردد الاباطرة في اتخاذ سياسة ترمي الى تهدئة لصحاب البدعة المونوفيزية واشاعة السلام في طول البلاد وعرضها ، وذلك عن طريق تنازلات وامتيازات خاصة . وقد فشلت هذه السياسة ولم تأتِ اكلها المرتجى كا انها خلقت للدولة صعوبات مع روما نفسها ، تلتها محاولة اتحاد بين الكنيستين ، كا ادت من جهة ثانية الى اعتماد سياسة البطش والقسوة ضد اتباع الهرطقة المونوفيزية . وقد اصلام الامبراطور يوستنيانوس حرباً حامية اصاب رذاذها جميع الطوائف والبِيَع المشاقة وجميع الخارجين على الارثوذكسية : كالآريوسيين والمشركين ، والقائلين بالمانوية واليهود على السواء . وراح اتباع المونوفيزية من جهتهم ، ينظمون جبهتهم وصفوفهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم : كالكنيسة القبطية والنسطورية واليعقوبيـــة ، نسبة الى مؤسسها يعقوب البرادعي ومن ثم ارمينيه ، لكل منها ليتورجيتها الخاصة بلغتها القومية واساقفتها . وهكذا اصبح لكل من هــذه القوميات كنيستها « الوطنية » الخاصة بها .

وعبثاً حاول الامبراطور هرقل ، في القرن السابع ، وهو يواجه ادهى الاخطار والغزوات من قِبل الفرس والآفار والعرب ، إيجاد مجال لاحلال التفاهم والسلام ، عن طريق صيغ عقائدية جديدة . وهذه المحاولات تصدر عن الامبراطور انما تنبثق عمّا يعتقد من حقه بالتشريع في مـا يختص بالايمان . وانتهى به الامر الى تحريم الحديث عن طبيعة أو طبيعتين في السيد المسيح ، محاولاً الترويج للقول بمشيئة واحـــدة فقط (هرطقة القائلين بمشيئة واحدة في السيد المسيح *Monothélisme*) دون ان يتمكن من اقناع احد على القول بمقالته هذه . وكان من نتيجة هذه المحاولة ان ادت في عهد خلفه الامبراطور قنسطان الثاني ، الى اثارة ازمة حادة مع البابوية كان من بعض نتائجها ان اثار ضده رعاياه اليونان في ايطاليا بزعامة الراهب مكسيموس المعترف ، وما عتم ان جاء الفتح العربي يسلخ عن بيزنطية رعاياهـــا في الشرق ، فتؤول هرطقة المشيئة الواحدة في السيد المسيح الى هزيمة نكراء وفشل ذريع اضطرت معه الحكومة الامبراطورية ، في النصف الثاني من القرن السابع ، للتراجع والتنكر لهذه العقيدة .

المدنيات القومية

وفي وسط هذا المصطرع العنيف اخذت حضارات جديدة تنظم نفسها على أساس من الثقافات القومية كالسريانيـــة والقبطية والارمنية والكرجية والمصرية ، وهي ثقافات معظمها نقول وترجمات واقتباسات عن اليونانية امتزجت بتراث قومي ساعدت شعوب الشرق الادنى على ترسيخ دعائم استقلالها الروحي والكنسي . ولم تلبث ارمينيا التي وقع معظمها تحت نفوذ الساسانيين ان ألّفت جزءاً من اصل هذه المجموعة من القوميات ذات

الثقافة المسيحية في آسيا الغربية فقد أدّت مساعي رئيسها الديني ساهاك والكاهن مسروب ، في القرن الخامس ، الى تزويد لغة البلاد بأبجدية خاصة بها ، ساعدت على تكوين أدب قومي ارمني، هو ، في الغالب ، ادب ديني مسيحي ، منقول ، والى وضع عدد من كتب التاريخ تخلّد ذكر الامجاد الوطنية . ولعل أشهر هؤلاء الكتاب هرموس خورين الذي تجمله تقاليدهم من رجال القرن الخامس، بينا يُرَجّح انه عاش حوالي ٧٠٠ ، والى جانب ارمينيا قامت بلاد الكرج التي، مع بقائها على الارثوذكسية ، تأثرت كثيراً بالنفوذ الارمني واليوناني على السواء .

اما الادب القبطي ، ومعظمه ديني ، فهو قليل الشأن . والادب الحبشي الذي اشتق من الادب القبطي ، لا يزال اذ ذاك في القمط . وأهم من هذه الآداب بكثير ، الادب السرياني . فالعلوم الدينية تؤلف منه السواد الاعظم ، وهو على جانب كبير من التنوع : كاللاهوت والحق القانوني الكنسي ،والليتورجيا والادب الروحي، ولا عجب في ذلك اذ ان معظمه ادب رهباني. وينقسم الادب السرياني الى قسمين تجمع بينهما حدود سياسية واحدة : الادب الغربي والشرقي ، وذلك نسبة الى مواطن الشعب الذي كان يزاوله . فالادب السرياني الغربي ازدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة ، ومركزهم العلمي هو الرها ومدرستها اللاهوتية المشهورة التي أنشئت في أواسط القرن الثالث . اما الادب الشرقي فتألف من أتباع الكنيسة النسطورية ، ومراكز العلم عندهم نصيبين من مدن الجزيرة في سوريا ، وجنديسابور ، في العراق ، وكلاهما يقعان ضمن نفوذ الدولة الساسانية . والذي يهم المؤرخ بنوع خاص هو الكتب التاريخية التي وضعها اصحاب الطبيعة الواحدة (يشوع العمودي ويوحنا الافسسي ، المتوفى سنة ٥٨٧) وهي مؤلفات يشهد لها بالجودة والبراعة اللغوية . والجدير بالذكر هنا التنويه عالياً بحركة الترجمة والنقل التي نشطت عند السريان ولا سيما النساطرة منهم ، اذ تم على يدهم نقل معظم الروائع الفكرية الفلسفية التي وضعها اليونان . وعن طريق هذه الترجمات وصل الى الاسلام، وعنهم الى اوروبا الغربية، معظم التراث الفكري الهليني وفي مقدمتهم آثار ارسطو والافلاطونية الجديدة ، وبطليموس وهيبوقراتيس وجالينوس . وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وبيمارستانها ، كما اهتمت بالهندسة (إقليدس) وبالكيمياء . وقد تكاثرت في هذا العهد، الكتب المنحُولة مما خلق مشكلة امام الاجيال الطالعة في التمييز بين الاصيل منها والمدخول . غير اننا لا نرى في هذا الادب ، باستثناء الادب المسيحي منه ،محلاً للتاريخ القديم ولا للادب اليوناني الدنيوي،ولا بالاحرى للادب اللاتيني باستثناء « رواية الاسكندر » . وقد أدى السريان ، في هذا المجال ، خدمة عظيمة للعالم بعد الذي عُرِف من اعراض الغرب المسيحي حتى وبيزنطية عن كل ما ينضح بالوثنية ، وازدرائها له .

كذلك وقع على الحدود الفاصلة بين بيزنطية والدولة الساسانية ، اليهود الذين ، بالرغم مما تعرضوا له من اضطهادات وتشريد، عرفت آدابهم، في هذه الحقبة التاريخية فترة من الازدهار. يرئس الطائفة ، في المنفى ، زعيم روحي ، مسؤول في نظر أولياء الامر وممثل السلطة العليا ،

عن امور طائفته ، كالبطاركة انفسهم . ولما زهدوا في كل مطمع سياسي كان أكابر القوم في هذه الملة ، هم العلماء الذين كانوا ينصرفون لدرس الكتب المقدسة والشريعة الموسوية، الذين ألفوا طبقة الربانية يتقدمهم المعلم الاكبر المسمى : غاوون . وقد كانوا يتحسسون ، منذ عهد قديم ، بضرورة جمع الاجتهادات الدينية والاحكام والسنن الفقهية المتعلقة بالعقيدة او المنظمة لشؤون الحياة . وقد ابتدأت حركة التجميع هذه ، في القدس ، منذ القرن الثاني ، وانتهى العمل منه في المدارس المشهورة: سورا وبومبديتا الواقعة على مقربة من مدينة طيسفون، في القرن الخامس فتألف من ذلك ، التلمود المعروف بالتلمود البابلي . وهو يتألف من مجموعة ضخمة من النصوص والاحكام والاجتهادات التي تنتظم التقاليد اليهودية ، بعد ان انكمش هذا الشعب على نفسه وانطوى على ذاته امام ما لاقى من اضطهادات ، وبعد غلبة المسيحية وانتصارها وانتشارها . وقد كان اليهود في الغرب يعوّلون على اخوتهم في الشرق اجيالاً عديدة، في كل ما يتعلق بأمورهم الدينية يستفتونهم في كل معضلة عقائدية .

وليس اقل جدارة بالاعجاب والتقدير ، اهتمام هذه الكنائس المسيحية بالفنون الجميلة . فقد اخذت ارمينيا بتشييد الكنائس العديدة بعد ان اعتمدت على عدد كبير من ابنائها المهندسين انتشروا في انحاء الامبراطورية البيزنطية . ولعلهم ساهموا في نقل مميزات الهندسة المعمارية الكنسية الى الغرب لما بين هذه الكنائس او البيع من تشابه ومحاكاة ، وعنها اخذ الفن المعماري الروماني اولى مفارقاته المميزة . وقد كان لكنيسة الكرج ، هي الاخرى طرازها المعماري الذي طبع مدرستها . وقد اعطى الفن المعماري الكنسي في سوريا عمائر بديعة لا تزال مقوماتها الجميلة بادية للعيان في خرائب هذه الكنائس والاديار في القرنين الخامس والسادس التي زادها روعة ومهابة انها قامت في بقاع اقفرت اليوم واصبحت مهجراً منسياً ، منها : قلب اللوزة ، وطور مانين ، ومار سمعان العمودي . وقد ازدانت هذه الكنائس بالكثير من الوشي الزخرفي الشرقي الطابع واللون . وازدانت باشكال متنوعة من الرسوم الهندسية التي تحاكي ضروباً متنوعة من نبات وحيوان تأتلف مع المجموع الهندسي . كذلك ازدهر في مصر فن مستقل من الهندسة المعمارية الكنسية ، امتاز بانسجام الالوان الزخرفية ، وبامانته لاصول الفن الهليني مميزة بهذه الصور البشرية وبالعاج المحفور والاقمشة المزركشة، مما عاد على هذه الانجازات المعمارية بالشهرة الواسعة .

الدولة الساسانية

كم من مرة تجاوزنا ، ونحن نستعرض صورة هذا الشرق في واقعه المحيّز ، في هذه الحقبة التاريخية ، حدود الامبراطورية الساسانية، اذ من الصعب جداً، ان لم نقل من المستحيل ، ان نقتصر على الامبراطورية البيزنطية في درسنا لتاريخ الشرق الادنى في مطلع الاجيال الوسطى . وهذه الدولة الساسانية التي قامت منذ القرن الثاني، خصماً عنيداً ، ومنافساً خطيراً للامبراطورية البيزنطية ، يمكن مضارعتها ومقارنتها ببيزنطية من عدة وجوه. فقد ضمت ، فيما ضمته بين ممتلكاتها ، ايران برمتها حتى مشارف الهند ، وجانباً كبيراً من بلاد

ما بين النهرين وارمينيا ، كما ضمت ما وراء النهر من بلاد الصغد وبكتاريا ، وخوارزم وخراسان (بحر آرال) والجـــازات المفضية الى التركستان الصيني . ووصف هذه الدولة « بالقومية او الوطنية» فيه تجاوز لا يسوغه مسوّغ : فسكان ما بين النهرين والارمن ليسوا بايرانيين اكثر منهم بيزنطيين . ومع ذلك ، فما من شك ان هذه الدولة عرفت ان تحقق ، بالنسبة للدول التي تعاقبت على الحكم من قبل ، تمازجاً اكبر ، وتلاحماً اشد واقوى ، عند الاكثرية الايرانية او اقله عند الطبقة الارستقراطية فيها .

قامت هذه الدولة على توازن متأرجح بين المقومات الثلاثة التي تألفت منها : طبقة الاشراف وهي طبقة قديمة قوية في البلاد ، إقطاعية حاكمة ، وطبقة رجـــال الدين ، وهي طبقة غنية متدرجة المراتب ، مسلسلتها ، تنعم بعطف الدولة وسندهـا ، وادارة مركزية محكمة السبك والحبك ، وفوق الجميع نظام ملكي مهيب يفرض الاحترام . وفي اسفل السلم الاجتماعي طبقة الشعب تعنى بالفلاحة وحراثة الارض ينتظمها طبقة وسطى من صغـــار الملاكين . وتكتظ حواضر البلاد الكبرى ولا سيا عاصمتها طيسفون الواقعة على نهر دجلة ، بطبقة من الصنـــاع المهرة النشيطين . وهذه الطبقات لها ما للطبقات في الهند من تماسك ان لم نقل من تحجر وتعدد، تتحسس الى حد بعيـد ، بالروابط العائلية المتوارثة التي حاولت الدولة في روما ، النهج عليها والنسج على منوالها . وقد تمكنت الدولة ، بعد ان اعترضت محاولتها صعوبات عديدة ، من بينها الاخطار التي تهدد، كما لدى بيزنطية ،حدودها الشمالية لاستهدافها لغزوات البرابرة الطارئة، من ابقاء سيطرتها على الطبقـــة الارستقراطية العليا التي كانت تصطرع مع طبقة الفلاحين . ولعل محاولة الاصلاح المالي والضرائبي التي قام بها الملك قواد وانوشروان (سنة ٥٠٠) كانت ترمي من جهة الى تأمين المزيد من الفعالية ، كما رمت من جهة اخرى ، الى تأمين المزيد من العدالة ، في توزيع ضريبة الخراج . وليس من المستبعد ولا من الخطل بشيء ان نفترض بان السياسة الحربية العدائية التي انتهجتها الدولة الساسانيـــة كانت تخفي وراءها رغبة شديدة في كبح جماح كبار النبلاء ومـا عُرف عنهم من جشع وقلة انقياد .

وعلى هذا الجيش الذي يؤلف النبلاء أطرَه وملاكاته الاساسية، تهيمن روح الدولة الاخمينية التي عُرّفت بشهوتها الجامحة للفتح والتوسع . ويردف الجيش وحدات من المرتزقة، سوادهم من الارمن . اما فرقة المشاة التي كان افرادها من بين طبقة الشعب ، فقد فقدت الشأن الذي كان لها في الماضي كما خسرت بالتالي ، الكثير من نفوذها الاجتماعي .

والملـك الساساني الذي يلقب بملـك الملوك ، كان يتولى بالفعل قيادة الحروب كما كان رأس الحكومة والادارة ، وله شخصية تحف بها المهابة والعظمة والقدسية ، ويعيش في جو من البذخ والغنى والاسراف لا يمكن ان يتصوره عقل ، يعود اليه الملك بحق الوراثة ، بعكس الامر في بيزنطية . وهـذه الابهة والعدالة ، وحسن التدبير والادارة الرشيدة ، والاقـدام في الحروب ، والثقافة الواسعة ، هي كلها من بعض قسمات الصورة التي رسمها لنا المؤرخون عن بهرام غور

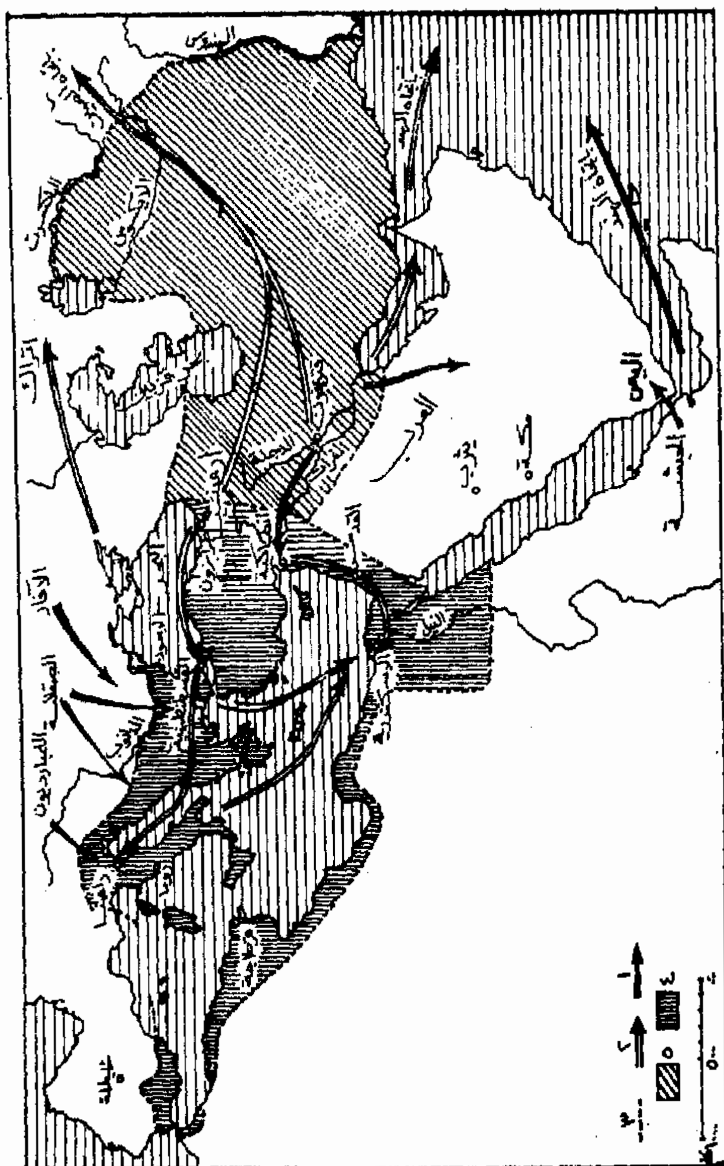

الشكل (رقم ـ ٢) الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس

١ ـ التوسع الجغرافي ٢ ـ الطرقات التجارية ٣ ـ الحدود الفاصلة ٤ ـ الدولة البيزنطية ٥ ـ الدولة الساسانية

وكسرى انوشروان . وعاشت في اذهان الاجيال اللاحقة ، بعد ان ضفرت حولها التقاليد ما ضفرت من وشي الخيال المجنح ، بعد زوال الدولة الساسانية بكثير ، وهي قسمات لونها لنا بالوان أخاذة زاهية ، الفردوسي في ملحمته الخالدة «الشاهنامة » او كتاب الملوك ، التي وضعها في حدود سنة الف . وفي عهد فراهمدار الكبير ، الصورة المثالية لمنصب الوزارة في الاسلام ، نعمت الادارة الملكية بكثير من الشهرة . فالادارة تبهى بما لها من قوانين ادارية دقيقة كما تفخر بما لها من خبرة عملية في تدبير شؤون الدولة ، وهي تؤلف من ذاتها طبقة خاصة ، عرفت في عهد الدولة العباسية ان تستعيد سبق وكان لها من نفوذ واسع .

وخلافاً للدولة الفرثية ، اصبحت الديانة المزدكية أو الزرادشتية ، دين الدولة الرسمي ، تشدها الى النظام الملكي اوثق الروابط . وهي ديانة تتدرج فيها الرتب وتتسلسل المراتب ، يأتي في المرتبة الأولى منها الموبذان أو المجوس الاكبر ، تطالعك هياكل النار اينما وقع مأتى العين . وتمّ في القرنين الخامس والسادس استنباط ابجدية جديدة ساعدت على وضع الأفستا وما اليه من أدب ضخم ، يعدل آداب الديانات الاخرى التي عرفت الكتابة . ومع ذلك ، جرت ، من وقت لآخر ، اضطهادات شبيهة بما كان يجري منها في الامبراطورية « الرومانية » اخذت بها الدولة من ليسوا على دين ملوكهم ، وبذلك شهادة ضمنية على ان هذه الديانة ليست قوة لا اعتراض عليها او مسلماً بها من الجميع . والسبب في ذلك ، انما يعود أصلاً : لعلاقاتها بالنظام القائم ، وبالطبقة الارستوقراطية . وباعتبار هذه الديانة دين الدولة الرسمي ، لم تحاول يوماً ان تتجه في دعوتها من غير الايرانيين ، وان تعاليمها بالرغم مما تحمله من عوامل «العلم » والحق التي تقول بها بقيت ، بالنسبة للديانات المسكونية الاخرى التي تسعى للانتشار وجمع المريدين والانصار ، غامضة ، مبهمة ، تعاني من الجفاف والقحط ، وتبقى اعجز من ان تحور جواباً عن القضايا والاسئلة التي يوجهها اليها ابن العصر . ولذا أطلّ على ايران في القرن الثالث ، ديانة جديدة ، كتب لها ، بالرغم مما تعرضت له من عنف واضطهاد ، ان تعرف بعض الشهرة ، هي الديانة المانوية ، التي عرفت رواجاً اكبر بين الطبقات الشعبية ، وعنت نفسها بقضية الخلاص ، وتقدمت من اذهان الناس بكونها تأليفاً للديانات الاخرى ، تحلم بالذيوع والانتشار وكسب الانصار . وفي القرن الخامس نرى المانويين ، اتباع الديانة الجديدة ، منتشرين ليس في الامبراطورية الساسانية فحسب ، بل أيضاً في شمالي افريقيا ، ومصر ، وروما والقسطنطينية حيث لم يستطيعوا البقاء طويلاً اذ ان مرطقة الالبيجيين ستظهر بعد ذلك بزمن طويل ، ولا سيما في اواسط آسيا ، حيث اعترفت بالديانة الجديدة رسمياً احدى ممالك الاتراك ، في القرن الثامن ، وبقيت تقريباً شبه ديانة رسمية في تلك البلاد ، الى ما بعد الفتوحات الاسلامية ، في القرن الثالث عشر .

وفي الولايات الشمالية والشمالية الغربية من الامبراطورية الساسانية المفتوحة للثقافة الهندية ، بعض أتباع البوذية . كذلك نشاهد لدى الشعوب غير الايرانية التي تقطن الولايات الغربية ، النصرانية تنعم بحرية كاملة . فمقاطعة طور عابدين الواقعة الى الشمال الغربي من مدينة الموصل

تغص بأديار السريان، كما نرى طوائف من النسطوريين تلتجيء الى الدولة الساسانية، اثر القطيعة التامة بينها وبين الحكومة البيزنطية، وتعمل على تنظيم نفسها ككنيسة مستقلة تحت رعاية الدولة، وتنشيء لها مقراً بطريركياً في طيسفون، ومدارس عرفت بنشاطها وازدهار الآداب فيها، كما مرّ معنا ذلك. وتقوم الكنيسة النسطورية بدعاية واسعة لكسب الانصار والمريدين. إلا ان العراقيل التي ثارت في وجهها في المناطق التي سواد سكانها على الزردشتية، وفي الاقاليم التابعة لبيزنطية، جعلتها تتجه بأنظارها نحو آسيا الوسطى، ضمن الدولة الساسانية وخارج حدودها. وسيلعب المرسلون النسطوريون دوراً بارزاً بين الاتراك، وفي ما وراء ممالكهم، طيلة الاجيال الوسطى. وكان لليهود جوالٍ في الدولة الساسانية، كما رأينا ذلك في حديثنا عن «التلمود البابلي».

وعند نهاية القرن الخامس، ظهرت في ايران، دعوة الى ديانة جديدة، هي المزدكية، كانت في حقيقتها، أكثر من كل دعوة دينية سابقة، استنكاراً صارخاً للوضع الاجتماعي في البلاد. وقد امتازت الديانة الجديدة عن المانوية التي اشتقت منها وصدرت عنها، بالدعوة الى شيء من الاشتراكية في مقاسمة خيرات هذه الارض ونعمائها بالسوية، وهي دعوة طالما تردد صداها في الاجيال الوسطى. وينسب خصوم هذه المقالة، الى اتباعها، الشطط والمروق، ويتهمونهم بالمطالبة باشتراكية المرأة، ليس لعمري انسياقاً منهم مع شهوة الجسد بعد الذي عُرفوا به من مُغالاتهم باحترام الطواهر، بل احتجاجاً منهم على عادة التسري المتبعة على نطاق واسع بين عظماء البلاد الذين كانوا يحشدون في حرمهم، من النساء ما يشاؤون، وتحطيماً منهم للفوارق الاجتماعية. وقد أخذ الملك قواد مدةً، بتعاليم مزدك، اذ رأى فيه عوناً له على الارستوقراطية، إلا انه عاد وتخلى عنه وأسلمه للعذاب والتنكيل به. وسنتبين اثر المزدكية في بعض الحركات الدينية والاجتماعية التي ظهرت، فيما بعد، في العهد الاسلامي.

الادب والفنون في عهد الدولة الساسانية

فالادب الديني ابعد من ان يمثل وحده حضارة الايرانيين. ففي بلد هي نقطة التقاء الحضارات وتقاطع الطرقات التجارية – وهو امر لا يتنافى مع الخلق الاصيل والابداع – تلتقي معاً: التقاليد القومية، والمؤثرات الهندية، والتفاعلات اليونانية والسريانية، حتى و «الطورانية»، وتترك اثرها ظاهراً في آداب البلاد وفنونها، على نسبة ما يسمح بتقديره وتقويمه، ما تبقى من حطام هذه المدنية التي وصلت الينا بالرغم مما انتابها من تقلبات الدهر ودُوَله وصروفه. فالتاريخ الرسمي، والحكايات على لسان الحيوان التي وصلت الينا شعراً أو نثراً، وبعضها من الهند، والقصص الملحمي أو العاطفي، كل ذلك فيه ما يرضي الطبقة الارستوقراطية، والطبقة الوسطى، وفئة الموظفين. فعن طريق ترجمة هذه الآثار الى العربية أو الى الفارسية، لغة البلاد في عهد الفتح الاسلامي، والى الارمنية، واليونانية والكرجية والسريانية، وفي الاقتباس منها والتعليق عليها، وصلنا صدر طيب من تاريخ الدولة الساسانية الذي علق به شيء من الاسطورة، كما وصلتنا آثار هي على كل شفة ولسان، كقصة برلعام ويوشافاط التي فيها استعادة لحياة بوذا،

وكتاب كليلة ودمنة ، وهو من كتب الحكايات على لسان الحيوان مشهور ؛ كلاهما منقول عن الادب الهندي ، على يد احد علماء النساطرة المدعو بُرزُويه . وطالما تغنى الشعراء بحب خسرو الثاني وشيرين . ويروي لنا الرواة نكات تبين الدور الذي لعبه اثنان من رجال الطرب هما سركاك وبرباد فكانا مصدر وحي للموسيقيين « العرب » فيما بعد وقد جاء اكتشاف لعبة الشطرنج وسيلة تسلية وترفيه نقلها الصليبيون معهم الى الغرب، بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة، وشاع استعمالها في الديار المسيحية . وقد برز الى جانب فضل اليونان على تقدم العلوم، ما للهند من تأثير في هذا المجال، ولا سيما على الطب، وعلم الفلك والرياضيات. ولم يكن اثر الهند على الفنون الجميلة باقل من ذلك ، في الولايات الشرقية .

وقد ظهر في غربي ايران فن جديد ، ساساني الطابع والنشأة ، عرف ان يمازج بين المؤثرات الفنية من العصر الهليني والفرثي وبين تقاليد قديمة تعود لعهد الدولة الاخمينية. وفي جملة ما وصل الينا من معالم هذا الفن ، باستثناء ابراج النار ، القصور الواسعة الابهاء المفقودة (إيران) ، والنقوش المحفورة حتى في قلب الصخر الاصم والتي تعيد الى الاذهان، المآتي الجيدة التي سجلها احد الملوك فيما مضى ، والفسيفساء ، والالواح الموشاة بالمينا ، وغير ذلك من مصنوعات البلور الصخري ، وانسجة الديباج المزركش حيث يرسم الفنان ، على هواه ، صور النقوش المحفورة او الصور التي تكون صاغتها مخيلة شاعر جموح . وقد اثر هذا الفن بعيداً في جميع اقطار الشرق الادنى ، ودخلت بعض عناصره هندسة بعض الكنائس دون ان يفقه الناس لها معنى ، حتى ان بعض هذه المصنوعات الفنية بلغت اوروبا الغربية على يد فنانين قدموا من الشرق .

واسس ملوك الدولة الساسانية في آسيا الوسطى وفي الغرب من ايران وبلاد ما بين النهرين ، مدناً عديدة عرفت الازدهار بفضل الحركة التجارية الناشطة التي تحولت بعض مسالكها القادمة من الهند ، عن مصر ، واتجهت الى موانىء البحر المتوسط الشرقية ـ ناهيك عن القوافل البرية التي كانت تؤمن الاتجار مع الصين . أما كون النقد المستعمل في هذه المملكة هو الفضة وليس الذهب ، فمرده الى افتقار الامبراطورية الساسانية لهذا المعدن ، ولا تأثير له البتة على توازن الميزان التجاري ، اذ ذاك . وكان لحركة التجارة بين الصين وموانىء البحر الابيض المتوسط من الشأن ما اثار خصومات عنيفة بين بيزنطية وايران ، فتحاول الاولى الافلات من الطوق الذي نصبته الثانية لتجارتها ، كما تحاول التخفيف من حدة الاحتكار لطرق التجارة فتتحكم بدورها بمرافىء البحر الابيض المتوسط للقضاء على هذه المحاولات .

بيزنطية وآسيا

كان أمام بيزنطية وسيلتان لا غير ، لتفادي الطوق الذي ضربته الامبراطورية الساسانية حول تجارة الامبراطورية الرومانية ، اولهما ايجاد طرق مواصلات جديدة لتجارتها الدولية مع اواسط آسيا. فاتجهت انظارها شطر البحر الاحمر ، اذ اخذت تشتهر وتُشرق عنده دولة جديدة اعتنقت المسيحية منذ عهد قريب عند الطرف الجنوبي لحدود مصر ، عرفت باسم مملكة اكسوم ، هي الحبشة اليوم . فبعد ان فتحت اليمن

واخضعت لسيطرتها اليمنيين الذين كان لهم فضل يذكر في تأسيس هذه المملكة ، راحت تكسر من حدة احتكار البحارة والتجار العرب للحركة التجارية في هذه المنطقة ولا سيما مع الهند ، كما ان الامبراطور يوستنيانوس اخذ يحرضهم على مزاحمة الايرانيين في هــــذا المجال . فلم تأت المحاولة أكلها المرتجى في هذا الباب، الا انها تركت اثراً طيباً وخدمة علمية جلى، اذ انها اتاحت لبحّار هندي يدعى *Cosmas Indocopleustes* ان يضع جغرافية حشاها بالمعلومات والفوائـــد العلمية جمعها من مصادرها الوثيقة . وقد رأى البيزنطيون في الدولة التركية التي قامت في آسيا الوسطى ، حوالي منتصف القرن السادس ، فرصة سانحة افادوا منهـــا واستخدموها بنجاح لكسر حـــدة الطوق المضروب على تجارتهم . فبالاضافة الى مواثيق الصداقة والتحالف التي عقدوها بيسر ، بين بيزنطية والاتراك ، حاولوا في عهد الامبراطور يوسلينيس الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ان يفتحوا طريقاً جديداً امام التجارة الدولية مع آسيا تمر عبر القوقاس، متفادية بذلك المرور بالبلاد الايرانية . لا نعلم بصورة قاطعة ما الذي ادت اليه هذه المحاولة . ومـــا لا شك فيه البتة ، ان حركة من المقايضات التجارية انطلقت من الصين نحو الشرق ، مرت بمقاطعات روسيا الجنوبية والبحر الاسود ، على اثر سقوط المقاطعـــات الواقعة بين نهر الفولغا والبحر الاسود ، بيد الخزر الذين اسسوا دولة تركية الاصل ، في هذه المنطقة ، في القرن التالي .

ولكي تتحرر من ايران وتخفف من شدة قبضتها على التجارة، راحت بيزنطية تحاول أقلمَة بعض السلع والمحاصيل الغالية الثمن التي تستوردهـــا من الخارج ، وذلك عن طريق توطين زراعتها في بعض الاقاليم الصالحة ضمن الامبراطورية. واستطاع رهبان من النساطرة ، في اواخر عهد يوستنيانوس ان يطلعوا ، ليس على اسرار صناعة الحرير فحسب ، بل ايضاً ان يجلبوا معهم الى القسطنطينية ، كمية من الفيالج مع ما يلزم من المعلومات والفوائد والخبرة اللازمة لتربية دودة الحرير. ولم تلبث تربية الحرير ان دخلت سوريا واليونان وكيليكيا . صحيح ان الحرير البيزنطي لم يُغنِ قط عن استيراده عن طريق الصين وايران ، لا من حيث الكمية ولا من حيث النوع او الجودة ، فقد رأى فيه الايرانيون ، مع ذلك منافساً خطراً حسبوا له الف حساب .

وهذه المنافسة الشديدة بين بيزنطية وطيسفون ، تلبست وجهاً جديداً ودخلت مجـــالاً جديداً هو مجال الدين . فبالرغم مما عُرِف وشاع عن تجرد المبشرين وكرازتهم للدين الجديد ، فاعتناق المسيحية ، انما كان يعني ، في نظر الساسانيين ، تقدماً محسوساً لصالح بيزنطية وربحاً لها في بلاد « بربرية » والسير على نظام سياسي واجتماعي وفقاً للنهج البيزنطي، الا اذا كان النظام الكنسي الجديد والبيعة التي ادى اليهـا ، كنيسة لا تمتثل لنواهي الفاسيلفس واوامره . ولذا اخذ الساسانيون ينظرون شزراً ، لانتشار المسيحية بين قبائل الهون ، في جنوبي روسيا او في الجزيرة العربية ، ما لم تكن على النسطورية ، كما هي الحـال مع حلفائها اللخميين في الحيرة ، ولم يكن من الممكن محاربة المسيحية عن طريق المزدية او الاتخاذ منها يداً ، في هذا المجال .

فالوضع الحربي او العسكري بين الدولتين ازداد حرجاً وحدة لاشتراكها بحدود واحدة .

والمنافسة التجارية التي احتدمت بينهما ، والدسائس التي حاكهـا من كلا الجانبين : الارمن والسريان ، والمزاج الحربي الذي عُرفت به الارستقراطية الايرانية ، والموقف الذي وقفته منها الحكومة الساسانية ، كل ذلك وما اليه ، يفسر لنا ، حالة الحرب المزمنة التي قامت باستمرار بين بيزنطية وطيسفون او بين « الرومان » والايرانيين ، منذ القرن الثالث . فالضغط الذي استهدفت له ايران من قبل « البرابرة » في القرن الخامس ، أودى ، ان لم يكن الى زوال هـذه العداوة الزرقاء التي اقامتها بعضاً على بعض ، فالى التخفيف ، أقله، من حدة هذا العداء وكسر شوكته ، لخير بيزنطية . غير ان شعور ايران بالاخطار التي تتهددها ، وازدياد كلا الدولتين ، مقدرة اكبر على الحرب ، كان من شأنه ان يزيد الوضـــع اضطراماً ، والحرب اندلاعاً بصورة اقوى واعنف . وقد بلغ الوضع الذروة ، في مطلع القرن السابع ، اذ استحال الشرق الادنى شعلة واحدة ، وكأنه بركان نار اندلعت حممه على آسيا الصغرى وسوريا بما فيها فلسطين . وقد ُشدِه العالم المسيحي لهول الصدمة، اذ سقطت هذه البلدان فريسة في يد الفرس، واصبحت مصر نفسها في خطر ماحق ، حتى انهم أجْلَوا الاحباش عن اليمن وحلّوا فيها محلهم. وفي عام ٦٢٦ اشتركت جيوش الساسانيين والآفار بحصار القسطنطينية والكل يتحسس قلبـه في مكانه من احتمال سقوطها بايدي الفرس وحلفائهم . وقد قام الامبراطور هرقل بهجوم معاكس اضطر معه العدو الى التقهقر والنكوص على اعقابه والتراجع الى ما وراء حدوده التي اصبحت هدفاً لهجوم الروم . غير ان هذا الجهد الحربي الكبير انهك قوى الجانبين لكثرة مـــا استنزف من دماء الفريقين . وراح آخر ملوك الساسانيين يحاولون عبثاً الخلاص من الورطة التي سقطوا فيهـــا والازمة التي استهدفوا لها . اما في بيزنطية فقد كان يُعْوِز الحكومة لحمل الشعوب المستقلة على الاخذ بوجهة نظرها ، كثير من الذوق والمقدرة في اجتذاب الناس ، اذ ان الكنيسة اليونانية على الاخص ، كانت اكثر تصلباً واشد تعصباً من اي وقت مضى . وعلى بال مَن من النـاس خطر يوماً او تصور احد انه سيخرج من الجزيرة العربية خصم جديـــد سيرمي بكل ثقله على الدولتين المتخاصمتين وهما اعجز من التصدي له او الوقوف بوجهه؟ وقبل ان تنزل بكلا الطرفين مثل هذه الكارثة الدهماء ، كانت حروب الفرس سبباً لذهـاب الشطر الآخر من الامبراطورية البيزنطية الا وهو شبه جزيرة البلقان ، فريسة بين البرابرة يتصرفون به على هواهم، بعد ان عاثوا به طويلاً واستنزفوا خيراته .

برابرة افريقيا واسبانيا

يجب ان نطـّرح جانباً الوهم القائل ، بان التـــاريخ ، ولا سيما تاريخ الحضارة، يجب ان يقف عند حدود الدول التي تعرف النظام وتتمسك باسبابه. فالتفوق غير المنازع الذي تم لهذه الدول، لا يعني البتة انه عمّ جميع الميادين، وانه تم للجميع على السواء وبنسبة واحدة ، وان الانحطاط الذي أُبتلي به البعض او ان الرقي الذي حققه البعض الآخر ، قد ازال الفوارق وذهب بالمسافات ، كما أنه ليس من الممكن ان نتصور الواحـــد دون الآخر من هذين العالمين : عالم « الروم » وعالم ايران ، او عالم « البرابرة » . فكم بالاحرى

ان يكون الوضع على مثل ما وصفنا عندما تداعت الحدود العسكرية للخراب والانهيارت . فالفقر شبه المدقع الذي نعانيه لجهة المصادر والمراجع ، لا يسمح لنا بان نذكر شيئاً عن هذه الاقطار الافريقية الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى او على حدود السودان . واقل مـا يمكن ان نؤكد هو ان المجتمعات الزنجية التي كانت تمور في هذه السباسب، لم يربطهـا بشعوب البحر المتوسط ، روابط وثيقة بحيث تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل . فالجمل ، مركبة الصحراء ، كان يتيح للبرابرة الرحل،التغلغل مع ما اليهم من السلع،داخل الصحراء ليبلغوا مشارف النيجر . وتمتع الأحباش في مواطنهم الجبلية بمدنية اتصلوا معها بيسر، مع مصر واليمن، كما السف من قام منهم على سواحل البحر الاحمر ، مملكة تعرف بمملكة اكسوم، اتينا على ذكرها من قبل. اما ما تبقى من اقطار افريقيا الاخرى ، فلن يدخل التاريخ العام الا بعد مجيء فاسكو ده غاما .

ومقابل ذلك ، فقد دخل في القسم الشرقي من جغرافية اوروبا الحديثـة قبائل وشعوب جديدة ، او بالاحرى ، شعوب بقيت حتى هذا العهد بمعزل عن الدول « المتمدينة » . وسنروي فيما بعد بالتفصيل والتبسيط اللازمين ، قصة الشعوب التي وطئت اوروبا الشرقيـة او اوروبا الوسطى منذ القرن الرابع ، واستقرت بها، بينهم شعوب من الاتراك والمغول والفنلنديين، الذين يؤلف تاريخهم شطراً من تاريخ اوروبا، والهونز الذين لم يبق منهم شيء يذكر في اوروبا الوسطى بعد ان توارى عنهم أتيلا، ومنهم ينحدر مع عروق اخرى، البلغار (دولة الكوبرى، في مطلع القرن السابع) الذين انقسموا فيما بعد على انفسهم الى شطرين ، اقام احدهما على نهر الفولغا الاوسط بينما استوطن الشطر الآخر، مقاطعات الدانوب الاسفل ، ومن بينهم شعوب الآفار القادمين من البلدان الواقعة حول الدانوب (القرنان السادس والسابع) الذين لم يبق من عرقهم شيء يذكر ؛ والهنغاريون الذين استقروا بعد طول المطاف ، في القرن العاشر في هذه المقاطعـة التي لا تزال تحمل اسمهم اليوم ؛ والاتراك بحصر المعنى ، الذين تركوا ، ما وراء آسيا الوسطى ، بين الفولغا والقرم ، بعد ان اختلطوا مع غيرهم من هـذه الاقوام ، مملكة الخزر التي قامت ، بين القرنين السابع والعاشر ، وذلك قبل ان يبعثوا ، ابتداءً من القرن العاشر بصحبة *Petchinègues* والاوغوز ، قبائل واقواماً أقل منهم تطوراً ؛ واخيراً المغول ، ابتداءً من القرن الثالث عشر . والشيء المشترك بين هذه الممالك ويميزها عن سواها، سواء أبلغت في تطورها درجة عالية أم لا، هو سيطرة طبقة ارستوقراطية محاربة ، رحالة ، وتحكمها بجانب من سكان البلاد الاصليين ، يرسف معظمهم في الرق والعبودية ، يجرونهم وراءهم كيفما اتجهوا ويستقرون حيث انتهى بهم المطاف ، بعد زوال قائدهم ، بحيث ان الرواة والمؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مغامراتهم ، بل يكتفون بذكر مآتي القادة والرؤساء ، ضاربين كشحاً عن بروز الصقالبة وتوسعهم في الأرض ، فلا يشعر الكتاب بوجودهم بعد ان يكون استفحل شأنهم ونبه ذكرهم .

فسيطرة البدو كانت ابداً مسترخية الحلقات ، خفيفة من الوجهة السياسية، اذ كانوا يؤلفون أصلاً ، أحلافاً من القبائل تشتد بينها أواصر القربى او تتراخى ، لا يمارسون على الشعوب التي

أخضعوها ، سوى سيادة خارجية يقنعون منها بدفع الخراج وشد الازر يوم الوغى ، فلا تؤثر بشيء على وضعهم الاجتماعي والنُظُم التي ينهجون عليها ، بقطع النظر ، طبعاً ، عن الاشخاص الذين يفشلون في حركة عصيان او تمرد فيفرضون عليهم ذل العبودية. وأقل مايمكن ان يكونوا أدّوه لهؤلاء الاقوام الخاضعين لسيطرتهم ، ان نمّوا فيهم عادات جديدة كركوب الخيل ، او المحافظة على أسباب التجارة والنقل في اخشن مظاهرها ، وقد توارثوها جيلاً بعد جيل ، من التاريخ القديم ، وساعدوهم على احلال بعض التشكيلات السياسية محل نظمهم القبلية التي كانت تتراخى أواصرها مع التنقل والظعن . ومع ذلك ، علينا ألاّ نغلو في الامر فنقع في النقيض ، كما جرى لبعضهم في تقييم المفهوم السياسي عند الجرمان ، بعد ان خضع فريق منهم ، كالصقالبة مثلاً ، لنير العنصر الاصفر ، فاستنتجوا من ذلك عدم عجز الصقالبة السياسي الذين عرفوا ، مع هذا ، ان يتطوروا كالجرمان انفسهم ، عندما كانت الظروف تسمح لهم بذلك .

انتشار الصقالبة وتوسعهم

ان توسع الصقالبة في شرقي اوروبا وانسياحهم في أقطارها ، لا يقل أهمية في التاريخ عن انتشار الجرمان في غربي اوروبا . ولذا ترتب علينا ان نتعرض لهذه القضية بإسهاب في دراستنا هذه ، اسوة بالجرمان . والواقع انه قلما يأتي الامر على هذا النحو ، حتى لدى المؤلفات التي تسهب في وصف الغزوات التي أدت الى تبديل الوضع في اوروبا ، بينما تقتصر هذه المؤلفات نفسها على التعرض بإيجاز ، للصقالبة وتحركاتهم ، ان لم تضرب صفحاً عن ذكرهم بالكلية . يمكن ان نرد ذلك لفقر مصادرنا وندرتها . ومع ذلك ، لا بد من ايراد ما هو معروف ثابت في هذا المجال ، ليس في فصل عابر بجزوء ، بل كجزء أساسي ، اصيل من تاريخ اوروبا المشترك .

تضاربت آراء المؤرخين حول أرومة الشعوب الصقلبية واصلهم الاول . فهم يرجعون ، من حيث اللغة ، الى العرق الهند – الاوروبي ، ابناء عمومة الليتوانيين ، ولو تميزوا عنهم واختلفوا . ففي بدء النصرانية ، نراهم يسكنون البقاع الواقعة الى الشرق من نهر الفستول ، كما نراهم ، في العصور المتأخرة للامبراطورية الرومانية ، قد يمموا بتأثير من موجات القوط ، بعضهم شطر جبال الكربات ، والبعض الآخر الذين عرفوا باسم *Antes* ، شطر القسم الجنوبي من روسيا اليوم . ان انتقال الجرمان وارتحالهم غرباً اوجد فراغاً شغله الصقالبة بعد ان قاموا بحركة التفاف ، وراء الكربات فاحتلوا بقاع الدانوب الاسفل ونهر الإيلب . كذلك حمل سيل غزوات الهونز والبلغار والآفار ، قسماً منهم . وكان من جراء فناء قبائل *Gépides* وارتحال اللمبارديين أن حدث فراغ آخر في سهول الدانوب ، لم يكن في وسع الآفار ملأه وحدهم ؛ ولذا جاءت قبائل صقلبية عبر الكربات واحتلتها ، وبلغت في تقدمها نهر الساف ، وجبال الألب الشرقية ، كما اطلت على مشارق بافاريا ومقاطعة التورنج ، واشرفت على سواحل البحر البلطيقي ، ونهري دنيبر والدونا حيث كان يسيطر ، الى الجنوب ، قبائل من الاتراك ، والى الشمال ، قبائل الفنز او الفنلنديين غير المتراصة الافراد . وقاموا ، على مثال البلغار والآفار ، بأعمال الغزو والسلب

كما قاموا باعمال السلب والنهب في الاقاليم الواقعة عبر نهري الساف والداوب بعد ان اجتازوهما، في مطلع القرن السادس . ولا شك ان في البيزنطيين لم يعلقوا كبير امر على هذه الغزوات والتجاوزات التي ادت اليها ، فاهملوا الدفاع عن هذه المقاطعات لما تكلفه غالياً من العزيزين المال والرجال ، وهو ثمن مرتفع لا يعد له بشيء الفيء الذي تجنيه الدولة من هذه المقاطعات ، والفوائد المالية والاقتصادية التي تؤمنها لها،لاسيما وقد حدثت هذه الغارات يشنها البلغار والصقالبة ابان حروب الفتح التي نهضت بها بيزنطية لاستعادة ولاياتها السليب ممثلة بايطاليا واسبانيا وافريقيا، فتعرضت لغزوهم المقاطعات التي تتناوح بين تراقيا ودلماتيا . وكان الشعور العالق بالاذهان ان هذه التجاوزات لم تكن طليعة فتح منظم ، وعندما تمت الغلبة ، عام ٦٠٠ على الآفار عم الناس شعور عارم بان حدود الداوب صامدة ، تقوم على حراستها والدفاع عنها وحدات يمكن الوثوق بولائها . غير ان حركة العصيان التي قام بها الجيش « الروماني » المزعوم ، بعد ان عيل صبره وثار ثائره من حروب مريرة لم تعد عليه باي نفع او كسب ، والهجوم العنيف الذي شنه الساسانيون ، كل هذا ادّى الى تحطيم الدفاع عن الحدود ، ودك معاقلها وحصونها . وقد سبب عبور « البرابرة » الموصول لهذه الانهر واستباحتهم للاقاليم الواقعة وراءه جلاء قسم كبير من سكان الريف راحوا يبحثون عن ملجأ امين يلوذون به ، بقوم في هذه المواقع الدفاعية الحصينة ، كما ادى ، من جهة ثانية ، للابقاء على بعض مدن حصينة تحيط بها الحاميات العسكرية . كل هذا لم يكن فيه كفاء ولا بديل لما تقتضيه الحرب من ثمن ولا لما تجره من ويلات . وكم من مرة بقيت الارض شاغرة تنتظر من يشغلها . وقام الصقالبة اذ ذاك ، بحركة عامة حملتهم الى سواحل بحر ايجيه وشواطىء البحر الادرياتيكي ، دونما وحدة في القيادة او خوض معارك كبيرة ، وبدون « حوادث » تذكر . وحوالي عام ٦٤٠ ، جاءت موجة جديدة من الصقالبة ، فيها الكروات والصرب، انطلقت من جوار نهري الاودير والفستول ، وانضموا الى من تقدمهم من ابناء عمومتهم فاحتلوا مقاطعة الليريكون بعد ان استعان هرقل بهم لدفع الآفار وحدهم ، مهما كلفه هذا العون من تضحيات تمثلت بتخليه عن بعض المقاطعات ، وسمح لهم بالاقامة الى الجنوب الشرقي من نهري الدراف والساف، وعرفوا هناك باسم السلوفين . وفي الفترة الواقعة بين ٦٧٠ – ٧٨٠ ، جاء فريق من البلغار بقيادة أسبروخ ، ابن الملك كوبرات ، واقام بموافقة السلطات البيزنطية ، في المقاطعة الواقعة بين الداوب الاسفل والبلقان ، محيطين بالصقالبة الذين سبقوا ونزلوا في تلك الكورة ، معترفين لهم بالسيادة والصدارة .

وفي الربع الاخير من القرن السابع ، بعد ان دب الفساد والانحلال بشعوب الآفار ، تمكن أمير يدعى سامو ، من انشاء اول مملكة صقلبية قامت حتى ذاك ، في البقعة الممتدة من جبال الألب النمساوية ، حتى مشارف البحر البلطيقي ، ضمت بين العناصر التي تألفت منها : التشيك والموراف والسلوفاك . اما ما تبقى من قبائل السلاف، في الشمال ، وهم الذين عُرِفوا منذ التاريخ القديم باسم *Vendes* ، فهذا كل ما يُعرف عنهم، مع ما تم لهم من مواقع بين الفرنج والسكسون .

ومع ذلك ، فليس بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب من مفارقات ملحوظة . فصقالبة الشرق وحدهم يعيشون في شبه عزلة او انفراد .

يغشى ضباب حالك القرنين اللذين استغرقهما انتقال البلقان «الرومانية» الى أيدي الامارات الصقلبية الاولى التي عرفها التاريخ . فالآراء تتضارب حول الاتساع الذي بلغته الموجة السلافية او الصقلبية : ففي الوقت الذي يميل فيه المؤرخون اليونان الى التقليل من شأنه، يبالغ المؤرخون الصقلبيون في أهمية الدم الصقلبي الذي انصب في جسم بلاد اليونان القديمة ، مسبباً لها الانحطاط، في نظر البعض او باعثاً فيها دفقاً من النشاط، في نظر البعض الآخر. فاذا ما استطاعت اللهجات الصقلبية ان تتغلب على مقاطعة مقدونيا وترسخ فيها ، بقيت اليونانية مع ذلك اللغة المسيطرة على شبه الجزيرة البلقانية . اما مقاطعة إلليريكون ، « فتصقلبت » الى حد بعيد يفوق كثيراً « جرمنة » أية مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، في الغرب . ليس من يدعي ، والحق يقال ، ان قدامى « الرومان » انقطع دابرهم تماماً او زال كل أثر لهم في هذه المقاطعات ، بالرغم مما استهدفوا له من مذابح وعمليات اجلاء وإفناء فقد بقيت جاليات منهم متمسكة ببعض سواحل دلماتيا ، او مطمئنة الى بقائها في بعض المدن الحصينة . الا ان الغزاة الفاتحين لم يلبثوا ان امتصوا تدريجياً هذه الجاليات المعزولة وسط شعب جديد دخيل ، اضطرت لمصانعته والتقرب اليه عن طريق المصاهرة والزواج . ولا بد من ان نلاحظ ، بعد ذلك بعدة قرون ، ظهور شعبين جديدين: هما الالبانيون والرومانيون الذين لا يمكن ان يكونوا طلعوا من لا شيء او هبطوا من السماء . فالشعب الاخير ذو الاسم الغني المدلول ، والذي يعرفه التاريخ قديماً باسم الفلاك او الفلاخ وهو الاسم الذي عرفهم به الصقالبة، قد يكون، على الارجح ، من ذراري هؤلاء الاقوام الذين جرى نقلهم الى هذه المقاطعة بعد ان تم فتحها على يد الرومان ، في عهد الامبراطور ترايانوس ، فَتَـلَـيْـكَـنَـت وَتَروْمَنَت على مر الزمن، لتكون في مأمن من دسائس البيزنطيين ومكايدهم . فبعد ان تمثل البلقان من استقر منهم فيه ، عرف الذين أقاموا منهم في الكربات ان يصمدوا ويحصنوا الدفاع عن انفسهم بوجه الطامعين ببلادهم .

يعجز المؤرخ ان يرسم صورة أمينة ، دقيقة للمجتمع الصقلبي بعد ان تم له ما تم من توسع ويقظة في رقعته ومجاله الحيوي . فالقبيلة او الحياة القبلية هي الاطار الذي يتحرك ضمنه . فالحجيرة الاجتماعية الصغرى تتألف من مجموعة من الأسر تستثمر معاً رقعة معينة من الارض . دون ان يتمتع أفرادها بملكية معينة . فالصقالبة هم ، اصلاً مزارعون من اهل الحضر ، يشبهون الى حد بعيد ، الجرمان ، قبل هجراتهم المعروفة ، ألِفُوا ، بالنظر لاتساع رقعة السهول التي يقطنون بينها ، استبدال مساكنهم بصورة دورية ، دون ان يركنوا الى نظام زراعي نشيط . انصرفوا مع تمسكهم بالزراعة الى الصيد والقنص وجمع الفراء الثمين ، وجني العسل والشمع يقدمونه لزعمائهم ورؤسائهم ، رسوم طاعة وولاء، فيتصرف به هؤلاء في متاجرهم او مقايضاتهم او يتخذون منه هدايا وأعطيات . وتوصلوا الى صنع بعض الحاجيات الاولية يستعملونها في

معايشهم . لا نعرف شيئاً عن امورهم الدينية وان كانت معالم الديانة الطبيعية عاشت طويلاً بين تقاليدهم الشعبية . فلم تبلغهم النصرانية بعد ، ولا عرفوا شيئاً من أمرها .

وهذا التلون الاجتماعي الذي اخذ يبدو عليهم ، ظهر في هذه الفترة التي تمت خلالها هجراتهم ، والحملات العسكرية التي قاموا بها . ونشأت تحت ظل بعض الرؤساء والزعماء جماعات او فئات صغيرة. ولكي يؤمن الزعيم أوَد جنوده اضطر ان يقتني له أملاكاً وأطياناً عَهِدَ بأمر العناية بها وحرثها الى أرقاء وعبيد وقعوا في الأسر . وأدت حركة النقل والاستيراد الى انشاء مخازن ومستودعات لهم على بعض الانهر او على مقربة منها ؛ وهكذا نشأت مثلاً ، في روسيا واوروبا مدن أمثال : كييف ونوفغورود . هذه صورة ذهنية تقريبية ، أكثر مما هي حقيقية لما كان عليه الوضع الاجتماعي عند هؤلاء الاقوام .

استهل تاريخ الشعوب الصقلبية على شكل يختلف تماماً عما بدا عليه تاريخ اوروبا الغربية في هذه الحقبة . فالجرمان الذين كانوا تفاعلوا ، بعض الشيء ، بالحضارة الرومانية قبل ان تصير اليهم تركة روما ، استقروا بعد طول المطاف ، في ممتلكات الدولة الرومانية وعجلوا بانحطاطها وانحلالها ، انما عرفوا ان يحافظوا على خط السير القديم دون احداث اي فراغ او فجوة . وهكذا فالمجتمع الذي قام في الغرب خلال الاجيال الوسطى ، هو الوريث ، من وجوه عدة ، للتركة التي خلفها المجتمع الروماني . اما الصقالبة ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فقد بقوا بالفعل ، خارج العالم « المتمدن » . فمن انتهى بهم المطاف للاقامة في المقاطعات التي كانت يوماً ، رومانية ، فقد ألفوا هذه المقاطعات تفقد الكثير من معالم رومانيتها ، فَتَبَرْبَرَت فهان لديهم ان يحلوا محل الاقوام التي اكتسحوها وان يستأصلوا ، دونما عناء ، المدنية التي وجدوها منذ قدومهم ويقتلعوا منها الاعراف والعادات . فالاجيال الوسطى شهدت اذاً انتقال الصقالبة من الطور القبلي وخروجهم من الوضع الذي كانوا عليه من قبل ، دون وساطة روما .

فامام هذه الاحداث التي توالى وقوعها على ايطاليا اضطرت بيزنطية للانكفاء والتراجع ، امام اللمبارديين في ايطاليا ، والبربر في افريقيا ، والفيزيغوط في اسبانيا . وهـا هي على قاب قوسين وادنى لتفقد اغنى ولاياتها ، واكثرها عطاء وسخاء في آسيا ومصر ، حيث ستقع امور واحداث على شكل لم يعرف مثله من قبل .

الفصل الثالث

بين البدو والحضر في آسيا
(من القرن الرابع حتى السابع)

هذه الاجيال المتعاقبة التي شهدت ، في العالم المتوسطي ، إنحلال الحضارة اليونانية اللاتينية ، او انهيارها التام سجلت عند الدول والممالك الكبرى ، في آسيا ، عهداً بارزاً من الازدهار والتجلي والانجازات الكبيرة. وهي حقبة تميزت،من جهة ثانية بغليان القبائل الرحل الضاربة في فلوات هذه القارة وصحاريها ، وبما احدثته فيها من اضطرابات وتحركات عمت جميع ارجائها .

ففي مطلع هذه الحقبة الجديدة التي انطلقت في القرن الرابع ، ترى المحاور الثلاثة الكبرى للمدنيات الآسيوية الضخمة : ايران والهند والصين ، تتفاوت درجة ونسبة في منسوب التطور الذي اخذت باسبابه . فقد مر معنا كيف ان ايران ، في عهد الدولة الساسانية ، استبطرت وتطلعت الى التوسع ، محاولة ان تحل محل روما ، في ولاياتها الشرقية ، وان تستأثر لنفسها بطرق المواصلات التجارية التي تخترق قلب القارة الآسيوية ، وان تتكافأ نفوذاً ، في اواسط آسيا مع قطبي الجذب الكبيرين : الصين والهند . فقد عرفت الهند في عهد السلالة الملكية غوبتا طوراً من ابرز واشرق عهود تاريخها المديد إشعاعاً حضارياً وفكرياً قيّض لها ان تحياها . فالوحدة السياسية التي حققتها في الداخل ، قابلها في الخارج ازدهار امتد إشعاعه ليبلغ اعالي آسيا والصين وكوريا واليابان ، من الشمال ، كما بلغ من الجنوب ، اقاصي مقاطعات الهند الصينية والانسولاند . فقد بلغت البوذية في هذا العهد ، اعلى ذروة عرفتها من الازدهار ، وذلك بفضل النفوذ والتقدم الذي حققته على يد فلاسفة اطلعتهم مشهورين بينهم :آزنغاوفازوبندرهالذين لم تلبث آثارهما الادبية ان دخلت الصين وانتشرت فيها ايما انتشار . وفي الوقت ذاته عرفت البراهمانية بعثاً دينياً جديداً اعتبُرت معه دين الدولة الرسمي في الهند ، كما نالت المنزلة ذاتها لدى امارات جنوبي شرقي آسيا . اما الصين ، فبعد الازمة الادبية والاجتماعية التي ادت الى سقوط دولة الهان وجدت نفسها ، في اواخر القرن السادس ، منقسمة على ذاتها ، موزعة أشتاتاً ، ولم تلبث بعد الذي اصابها من ذل وهوان ان ذهبت فريسة لجحافل الهونز التي أوغلت بعيداً حتى بلغت

اقاليمها الشمالية ، جارّة وراءها قبائل مغولية كثيرة ، التي عُرفت بعدم استقرارها ، وهكذا انشطرت الصين من الوجهة السياسية الى شطرين : في الجنوب الحكومة الامبراطورية الشرعية بينما نشأ في الشمال عدد من الممالك التركية ـ المغولية ، التي لم تستقر على وضع ولا حال ، شأنها في ذلك ، شأن الدول الجرمانية التي ظهرت للوجود في الغرب اللاتيني ، خلال القرن الخامس ، كما يصورها لنا المؤرخ غروسيه ، فراحت تتطاحن فيما بينها وتقتتل محاولة تصفية بعضها البعض الآخر . وفي سنة ٣٩٨ ، تمكن اتراك تبغالش او توبا من فرض سيطرتهم التامة بتأسيسهم دولة «واي» المهيبة الجانب ، وحموا حماها ووقفوا بوجه كل من تحدثه نفسه بمهاجمتها . ولم تلبث هذه الدولة ان اعتنقت البوذية واصبح رجالها من اشد الناس استمساكاً بتعاليمها والتشدد في الحفاظ عليها ، واخذوا يتطبعون بطبائع الصينيين ويتمثلون عاداتهم واخلاقهم ، فأنشأوا في شمالي البلاد عدداً كبيراً من المعابد الجميلة .

وكانت فيافي آسيا وسباسبها مرتعاً لعدد من القبائل التركية ـ المغولية تضرب في آفاقها المترامية الاطراف ، مع فريق من قبائل البدو الرحل التي اخذت هي الاخرى ، تتحرك باتجاه البلدان المحظية ، حيث يقوم بحرثها والعناية بها اقوام من الحضر الذين ألفوا الدعة والحياة الناعمة . واخذت هذه القبائل الرحل ، تدق ، على فترات متقاربة ، في موجات متراصة متلاحقة ، حدود الهند وايران . ولم تلبث ان احتلت واستأثرت بكابول والبكتريان وغندهارا وتاريم ، بينما راحت دولتا الغوبتا (الهند) والساسانيين (ايران) تحاولان صدهم ومنعهم من التغلغل في الداخل والعيث فيها فساداً . واستمر الصراع عنيفاً عندما تمكنت معه قبائل الهونز الهفتالية من خفض شوكة ايران والنيل منها . وقد تعرضت الهند لغاراتهم بعد الضعف الذي آلت اليه اثر انهيار دولة الغوبتا عام ٤٧٠ ، بعد ان انشقت على نفسها ، فعاثوا فيها نهباً وسلباً ، والحقوا بها الذل والهوان . وقد استطاع احد امرائهم المدعو ميهيراكولا ان يتوغل مرتين داخل البلاد ، سنة ٥٠٢ و ٥٣٠ حتى بلغ سهول الغانج فاحالها خراباً يباباً وقام فيها بقتلة ومذابح هائلة . وكان سبق لأتيلا ، قبل ذلك بنحو ثمانين سنة ، ان قام في الغرب ، بمثل هذه الفظائع التي تقشعر لهولها الابدان .

وخلال هذه الانتفاضات الدامية وبالرغم منها احياناً نشهد ازدهار البوذية التي كانت عامل تقارب وتهدئة بين هذه الشعوب المتباينة ، كما اتاحت الصين المحافظة على مواصلاتها مع الهند والبلدان الاخرى الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية . فلم تعد الهند بالمحور الوحيد في هذه المنطقة . فقد طلع علينا ، في اواسط آسيا ، مراكز غاية في الاهمية ، منها : كوكا وافغانستان وغندهارا . والى هذه المراكز الجديدة الموزعة بين الهندوسيت والفر والايرانيين والطوخاريين ، اخذ الحجاج البوذيون يفدون من الصين على الاخص ، محاولين العثور على النصوص التي كانوا بأشد الحاجة اليها ، بحيث بلغوا الهند الغانجية حتى انهم ادركوا الانسولاند . ونشطت بين هذه الاقطار حركة من التبادل الثقافي ، استهدفت على الاخص ، البحث عن النصوص البوذية

الى جانب تأمين العلاقات الديبلوماسية وهي علاقات ، كثيراً ما عهد اباطرة الصين الى الرهبان البوذيين الرحالة بتأمينها . وكانت اول وفادة غادرت الصين ، برئاسة فاهيان ، سنة ٣٩٩ ولم تعد اليها الا سنة ٤١٤ ، بعد ان جابت اقاليم تاريم وغوندهارا وسهول نهر الغانج ، واقامت مدة في سيلان وصومطرا . وقد توالى ارسال الوفود بعد ذلك ، فأرسل تشي – مونغ ، من سنة ٤٠٤ الى ٤٢٤ ، وتلاه تاو – يو من ٤٢٤ الى ٤٥٣ ، ثم واي – تسي من سنة ٦٠٥ الى ٦١٦ ، وكانوا يتبعون طرقاً صعبة المسالك ، عسيرة المرتقى ، اذ كان عليهم ان يجتازوا سلسلة جبال بامير ويعرضون انفسهم للمخاطر المتعددة ويقضون بعض الوقت في الاديار التي كانت ترحب بهم وتحسن وفادتهم ويمتعون انظارهم بمشاهد البلاد الطبيعية التي كانت تختلف كثيراً عما ألفوا مشاهدته منها في بلادهم ، وهمهم ان يصفوا بدقة المؤرخ ، ما رأوا وشاهدوا من معالم ومشاهد ، في وصفها على مثل هذا النحو من الدقة ما فيه متعة المؤرخين المحدثين . وقام بدوره فريق من الرهبان البوذيين ، من اصل هندي او فرثي او كوتشي ، برحلات معاكسة بلغوا معها الصين ، بعضهم وفد اليها من مقاطعة فو – فان القصية (كمبوديا) . ونحن مدينون كثيراً لهؤلاء الكهان البوذيين بهذه المعلومات الدقيقة والاوصاف الرائعة التي وصلتنا عن اواسط آسيا والهند والبلاد الواقعة جنوبي شرقي آسيا . فمن المشاهد التي وصفوها لنا ترتقص امام اعيننا اليوم ، ماجريات ملوك الهوز في هذه الحقبة ، وانماط معايشهم تحت المضارب واخبية اللباد التي كانوا يعيشون تحتها ، كما نستطيع معها ان نكون لنا فكرة صحيحة عن هذه الاحتفالات الدينية في الهند ، وغنى الطبيعة فيها ، وعادات السكان واعرافهم من الخمير والشام .

ولما كانت البوذية الهندية بلغت الذروة من الازدهار في هذه الحقبة ، فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تصبح الهند قطب جذب لآسيا الشرقية برمتها . ولذا فالمنطق يدعونا لالقاء نظرة متفحصة على الحضارة الهندية في هذه الحقبة التاريخية الواقعة بين القرنين الرابع والسابع .

١ ـ الهند تبلغ أوجها في عهد دولة الغوبتا

بعد هذه الحقبة التي شهدت ازدهار امبراطورية كوشانا في الشمال، ومملكة اندراه في الجنوب، والتي حاولت فيها كل من ايران وروما اثبات وجودها والعمل لترسيخ نفوذها، عرفت الهند فترة من الدهر انقسمت فيها على نفسها وخفضت من جانبها فخبت فيها شعلة النشاط وتضاءلت فيها مظاهر الحياة الثقافية والفنية . لمنذ عام ٣٢٠ ، في هذا الوقت الذي قد يكون عاش فيه فيلسوفان هنديان من اشهر الفلاسفة الذين اطلعتهم سماء الهند هما : آزنغا وفازوبندره ـ مع انه ليس ما يمنع الافتراض انهما ظهرا بعد ذلك بنحو قرن ـ ظهر في اقليم باتاليبوترا، امير من قبيلة غوبتا قام ببعض الحروب عادت عليه بفتوحات موفقة . ونقطة البدء انطلقت من مدينة ماغادها القديمة . هذه البقعة المقدسة التي رأت البوذية فيها النور ، وكان لايزال المشاهد يرى ، عليم

٤١١ ، قصر آسوكا ، قائماً في باتاليبوترا ، عاصمة الموريا . فبعد ان بعث امراء الغوبتا الى الوجود مملكة ماغادهي ، راحوا يوسّعون اطراف مملكتهم هــذه لتشمل جانباً كبيراً من الهند ، كما

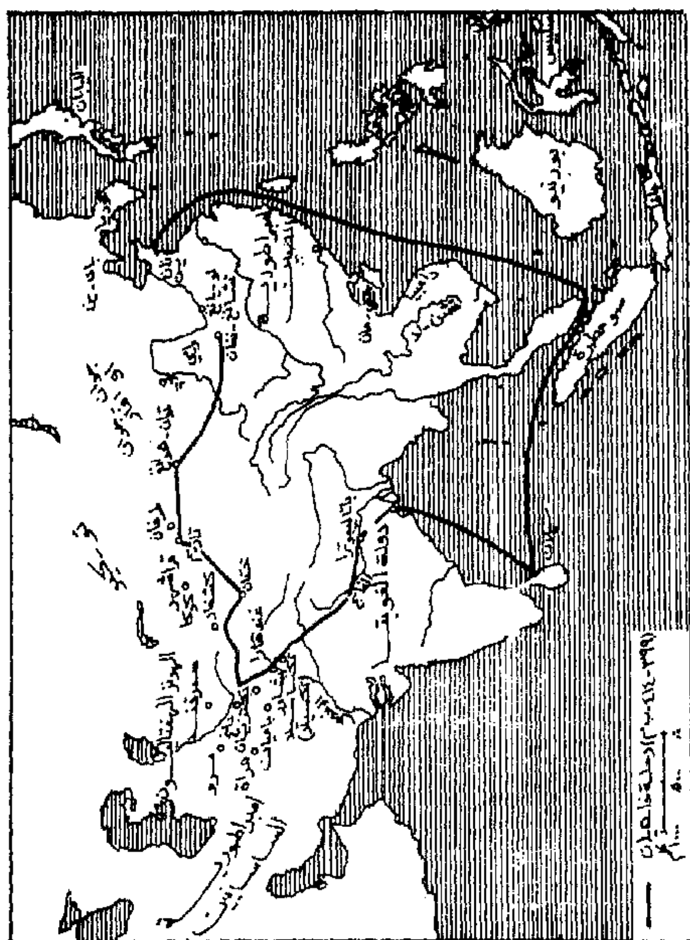

الشكل (رقم ٣) - آسيا في القرنين الرابع والخامس

ان نفوذهم امتد الى ولايات الهند الجنوبية، واشتد على الاخص ، في اقاليم البحر الجنوبي . عمرت نفوس هؤلاء الاباطرة بروح الفتح كما عمرت بحب الآداب والاهتمام بهما والاحتفاء بالعاملين لها ، فراحوا يشيدون المباني ويكلأون بعنايتهم ورعايتهم الديانات الكبرى في البلاد ، كل ذلك وهم يحتذون حذو ملوك الدولة الاخمينية والدولة الساسانية في ايران ، كما جاؤوا بأكثر من دليل على

اظهار بطشهم وقوتهم وسيادتهم .

وقد تعاقب على الحكم بعد شاندراغوبتا الاول ، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة الذي لانعرف عنه ما يطفيء غلة ، عدد من كبار الملوك ، اشهرهم سامودراغوبتا (٣٣٥–٣٨٥؟ وشاندراغوبتا الثاني (٣٧٩/٣٨٥ – ٤٠٤/٤١٤ ؟) وكوماراغوبتا الاول (٤١٤ – ٤٥٥) واسكندراغوبتا (٤٥٥ – ٤٦٧ او ٤٧٠) . وفي عهد الاخير منهم بدت على هذه الدولة عوامل الضعف والوهن، فانفصلت عنها بعض الإيالات التي كانت تابعة لها من قبل ، ولم تلبث ان انهارت هذه الامبراطورية تحت الضربات التي انهالت عليها من جانب الهونز الهفتاليين، كما نفضت الدول التوابع لها النير الذي كان يرهقها وتتبرم بـه . ومع ذلك فقد تابعت هذه الدول المهيضة الجناح ، الحكم وتدبرت أمرها حتى القرن السابع ، الى ان انهارت وسقطت ، على أثر ظهور دولة جديدة برهنت على ما تمّ لها من حول وطول ، وبأس وبطش .

شخصية الامبراطور

لأول مرة منذ عهد سحيق ، أي من القرن الثالث ق. م. استطاعت الهند ان تعيد وحدتها وان يتولى الحكم فيها ملوك وطنيون ، والشيء الذي له أهمية خاصة هنا ، هو ان الغوبتا ، شعوراً منهم بهاتين الميزتين ، وتقديراً منهم للمنافع التي تعود منها على البلاد ، راحوا يحاولون ربط اسرتهم الملكية باسرة موريا ، التي تركت اسماً عالياً وشهرة واسعة تناقلتها الاجيال خلفاً عن سلف : فقد حمل عدد من ملوكهم أسماء ملوك دولة موريا ، وراحوا يزعمون انهم يتحدّرون من سلالتهم وعرقهم. فالى جانب الشعور بالوطنية والعزة القومية، اخذوا يتطلعون الى ترسيخ سيطرتهم وتركيز سؤددهم ، وفقاً للتقاليد والاعراف الهندية . فأعادوا الى الوجود وأحيوا عادة الذبيحة الفيدية بأبهى مظاهرها ، بما فيه الحصان ، وهي عادة كان سقط الاخذ بها والسير عليها ، لكلفتها الباهظة . والظاهر ان الغوبتا علقوا على اعادتها أهمية كبرى ، بحيث ان عدداً من ملوكهم تلقّب : « بمجدد ذبيحة الحصان » . وكان القيام بهذه الذبيحة يقتضي له عدداً كبيراً من أضاحي الحيوانات الكثيرة التكاليف ، فقد كان الاحتفال بها يستدعي استعدادات طويلة قد تمتد سنة او سنتين. كما ان الاحتفال بها كان يستغرق شهراً بكامله . وكان الملك الذي تم في عهده هذه الذبيحة يقوم هو نفسه بمراسمها فيخلد ذكره كما تخلد أمجاده مدى الدهر. ومن الدلائل التي تشير الى رغبة الغوبتا بالظهور بمظهر السلطة المطلقة والقوة والبأس ، هذا العدد العديد من تماثيل الاصنام التي أمروا بنصبها وكانت تنصب وفقاً لمراسم عبادة خاصة وتحمل اسم الامبراطور نفسه فتجعل منه بذلك شخصاً الهيا او بالاحرى إلهاً . وليس من المستحيل البتة ان تكون الوقفة او الوضع المسمى : « بالوضع الاوروبي » ، الذي تكثر مشاهدته في الصور والرسوم (*Iconograghie*) العائدة لهذا العصر ، اقتبسها ملوك الغوبتا وأخذوها من وقفة الامبراطورية لشاهايران. لا يخلو من أهمية البتة، ان نشير هنا الى ان هذه الوقفة ترتبط الى حد بعيد، بعرش يحمل من التزاويق الحيوانية ما يشير ، ولو بصورة رمزية، الى ما للشخص الجالس من صفة عامة الشمول .

فالملك الذي هو شبيه بالآلهـــة ، وملك الكل ، هو الامبراطور نفسه ، صانع (الزمن) (Kala) . فهو كالشمس يخضع لنظام دقيق ويضفي على النظام الكوني دقته وانتظامه .

فالمصادر التاريخية تبرزه لنا نموذجاً كاملاً للكشاتريا او الجندي النبيل . ومع ان السلطان يأتيه عادة بالوراثة ، عليه ان يستحق عرشه وصولجانه بما له من مناقب شخصية رفيعة ، أسماها وأرفعها ، على الاطلاق ، ما فيه مسرة شعبه وغبطته ، وذلك عن طريق تأمين العدالة واشاعته العدل على السواء . وهذا بعينه ما يشير اليه اللقب الذي يحمله « راجا » والذي يطلق عليـه ، وهو لقب او كنية انمـــا تعني « السار او التبرج » ثم زاده الفوبتا سمواً وتفضيلاً بنحت كلمة : مهراجاً وهو وصف لا يُطلق إلا على الاباطرة أنفسهم .

ولكي يتمكن الملك من القيام بواجباته على الوجه الاكمل والامثل، يقتضي ان تتوفر له تربية تامة . فهو يخضع ، في عهد الطفولة ، لما يخضع له أطفال الطبقات الثرية وسراة القوم ، ويُقصّ شعره على شكل اكليل ويتم زواجه في السن القانونية . عليـه ان يكون متضلعاً من النصوص والآيات المقدسة وان يضعها دوماً نصب عينيه عندما يجلس للحكم والقضاء، وان يحسن الاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على أكتافه . ويدرس الفلسفة وما وراء الوجود ، والمنطق ، وعلم السياسة ، وفن الحرب واصول الزراعة والتجارة ، وفرض الشعر والموسيقى . فالهدف الاول الذي يضعه نصب عينيه هو الاكثار من الفتوحات الحربية بحيث تبلغ أطراف مملكته « أقاصي المعمور » . وفي هذا السبيل عليه ان يعرف تماماً ما في مملكته من امكانات وطاقات كامنة ، ويتبين حقيقة وضع الدول التي يرغب في مهاجمتها وضمها الى ممتلكاته ، فيستعين على ذلك بالوسائل الديبلوماسية قبل كل شيء ، حتى اذا ما باءت بالفشل ولم تُؤتِ أكلها، عمد الى السيف واتخذه عدة الحرب . كل شيء يتوقف على السياسة التي يضع الملـــك اصولها وينهض بأسبابها ، كما يتوقف بالتالي على الروح المعنوية العالية في الجيش .

وعندما يكون ولياً للعهد ، قبل ان يصبح ملكاً ، عليه ان يخضع لحفـــلة تكريس خاصة وفقاً للمراسم التي يتم بموجبها تكريس الملك ، انما على قدر اقل ونسبة اخف من الزهو والغنى . ينضحه الكهنة بالزيت وتتم المراسم التالية ، وفقاً للتقاليد المرعية الاجراء، بينما ينصرف الشعراء والزجالون للتغني بامجاد الاسرة المالكة ، وتنتهي الحفلة بتقديم التحية لوالديه . واذ ذاك يصبح اهلاً لتحمل اعباء الحكم مع الملك ، اذ اصبح يتمتع الآن بنصف السلطة . واذ ذاك ، يعهد اليه بادارة احدى الولايات ، يَحفّ به لفيف من الموظفين وبطانة تدور في فلكه وتزور بها قصره .

وفي الوقت المقدور ، يجري تكريسه ملكاً بكل ابهة وجلال، وفقاً لمراسم لا تتغير وُضعت منذ العهود الفيدية ، ويجري الاستعداد لحفلة التكريس وتحدد مراحلهـــا وترتيباتها ، في قرار يتخذه الملك الخارج ، في جلسة رسمية لمجلس الوزراء . ويتولى المهندسون بناء جنـــاح خاص يرتفع على اربع ركائز ، ثم يؤتى برئيس البراهمان فينضحه بالماء المأخوذ من انهر الهند المقدسة . ويوزع الملـك بهذه المناسبة السعيدة مكارمه وهباته بسخاء ، كما يأمر بالعفو عن المساجين حتى

من كان منهم محكوماً عليه بالاعدام ، ويأمر باطلاق سراح الحيوانات المعتقلة ، ويعيد الحرية الى العصافير في اقفاصها . وبعد هذه المراسم ، يأخذونه الى دارة جديدة اعدت له خصيصاً ، ويجلسونه على اريكة بعد تطهيرها ويلبسونه حلة جديدة ثم ينظر الى المرآة ويعهدون اليه بشارات الحكم ، من بينها مظلة وزوج من المذبات وعرش وصولجان وحذفة ، واكليل من الذهب ، وكرسي قوائمه من الذهب الخالص . ثم يتربع الملك الجديد على اريكة العرش في بهو القصر الكبير ، تحت المظلة . وعند الانتهاء من هذه المراسم ، يطوف ممتطياً احد الفيلة ، في احياء المدينة ماراً بشوارعها الكبرى .

فالمصادر الادبية التي تعود لهذا العهد لا تنفك عن وصف الابهة والجلال الذي كانوا يحيطون به الملك ، وهذه المواكب الزاهية بالحجارة الكريمة والثياب المزركشة ، والزهو الذي كان يتلألأ به القصر الامبراطوري ، ولمعان الملابس وبريقها ، ونور الحلي والجوهرات ، وغير ذلك من مظاهر الغنى والثراء والجمال التي تنم عن ذوق رهيف مما نرى صورة عنه في هذه الرسوم التي تزين جدران المعابد والهياكل .

واوقات الامبراطور تحدد بانتظام ودقة ، كما في الماضي ، فيعلن مؤذن خاص مكلف بهذه المهمة ، تعاقب الساعات ومرورها اذ ان بين الزمن وشخص الامبراطور ، علاقة مباشرة. يبتديء النهار بتعيين العسس في اماكنهم ، وفقاً لنوباتهم ، ثم يجلس الملك للنظر في امور الدولة. وبعد ان يكون الامبراطور اخذ القرارات اللازمة واصدر التعليمات التي يقتضيها تصريف شؤون الدولة سواء في المدينة ام في الريف ، يستحم ويتناول وجبة خفيفة من الطعام وينصرف للدرس والبحث . ثم يأخذ باستلام رسوم الجباية والخراج ، عيناً او نقداً ، وينظر في ترفيع المأمورين والموظفين ويجري عليهم مكافآته . وبعد ذلك يرأس مجلس الوزراء ويستمع الى التقارير الواردة على القصر من العيون والارصاد المبثوثة . ثم يأخذ قسطاً من الراحة اذ ينصرف لهوايته المحببة او ينصرف للتأمل . وبعد ذلك يذهب ليستعرض الفيلة ، وخيوله ومركباته الحربية وجيش المشاة ، وينظر برفقة قائد الجيش الاعلى ، في الخطط العسكرية التي يقتضيها النهوض بالحرب . وعند غياب الشمس يأخذ بتلاوة صلاة الغروب، ليستقبل بعد ذلك موفديه السريين . ثم يتناول حماماً جديداً ، ووجبة ثانية وينصرف لدرس بعض القضايا العالقة ، ليتجه بعد ذلك الى جناحه الخاص على اصوات الموسيقى ، ويتناول وجبة العشاء . وهو يستيقظ باكراً عند الفجر ، على صوت الابواق الصادحة ، ويستجمع افكاره مستعرضاً في خاطره اهم الواجبات المترتبة عليه ، ويطلع على كيفية تنفيذ القرارات التي اتخذت من قبل ، ويصدر اوامره وتعليماته السرية ، الى عماله وجواسيسه ، ويتقبل بركة البراهمان وادعيتهم وتضرعات الكهنة ، ويعرض شؤونه الخاصة على طبيبه ومنجمه الرسمي، ويعطي الطاهي الارشادات اللازمة ، ويقدم مراسم التكريم لبقرة مقدسة . وهكذا يرى نفسه على اتم استعداد للاضطلاع بالمهام والواجبات التي ستعرض له في يومه .

فاذا كان كل شيء يتوقف على الملك او الامبراطور ، محور الدولة وركنها الركين ، فهو لا يزال بحاجة الى مؤازرة وزرائه والجمعية التي تمثل الشعب وكبار الموظفين الذين لا يستغنى عنهم في تصريف شؤون الحكم. فالمجلس التمثيلي هو هيأة سياسية عُمل بها منذ العهد الفيدي ، وهو عبارة عن مجلس شورى خاص . ومع ذلك ، فهذا المجلس هو احدى القوى الحيوية في الدولة ، ينتخب الملك ويحاكمه اذا ما بدر منه ما يحط من شأن الملك ، ويقدم له النصح والرشد في كل ما يتصل بأمور القضاء وشؤون الادارة . ليس عندنا أية فكرة عن تشكيله وتأليفه ، اذ نرى بين أعضائه امراء من العائلة المالكة ، وقادة حرب ، وكهنة وممثلين عن الحرف والمهن ، حتى وبعض المقدمين من الطبقات الشعبية . اما القضايا السياسية وما اليها فهي من اختصاص مجلس الوزراء الذي يتألف من ٣ وزراء ، على الاقل ، وقد يبلغ عددهم أحياناً ثمانية او عشرة ، وربما وصل أحياناً للثلاثين والقرارات التي تؤخذ بأكثرية الاصوات ، تأتي نتيجة المناقشات السرية وتبادل الرأي بشأنها . فاذا ما أصبحت المناصب الوزارية وراثية ، كان لا بد مع ذلك من موافقة الملك على ممارسة صاحب الحق لها . وقد يحدث بالطبع، ان يختلف مجلس الوزراء رأياً مع الملك، او انه يفرض على الملك وجهة نظره . والملك يصدر القرارات بمراسيم او « فرمانات ملكية » يعتمدها الديوان الملكي ، لها قوة القانون وتوجب الإلزام ما بقي الملك حياً ، الا اذا صدر أمر او قانون خاص بالغائها . وتشدد المصادر التاريخية على ما للوزراء من أهمية ، اذ انهم يتولون الحكم في حال تغيب الملك . فالى جانب وزراء دولة ، تذكر هذه المراجع منصب الوزير الاول ، الذي لا يقل صاحبه شأناً وأهمية في الامور المدنية ، عن منصب كاهن الملك الخاص او مستشاره الديني للأمور الروحية . وبين هؤلاء الوزراء وزير الخارجية ، ووزير الشؤون المالية ، والعدلية فالوزير الاول او رئيس الوزراء هو الوسيط بين الوزراء والملك ، او الناطق باسمه والمعبّر عن آرائه وسياسته . غير ان القرارات التي تتعلق بسياسة الدولة وتصريفها التصريف الصحيح ، فتؤخذ في مجلس الوزراء . من اختصاص الوزراء النظر مثلاً ، في كل ما يتعلق بهيبة الملك وأبهته وجلاله : كحفلات التتويج ، ومواكب اسفاره ، ومراسم الجنائز الملكية . فعليهم ان يسهروا على النظام وتأمين أسبابه في حال غياب الملك او موته، فعلى وزير الخارجية ان يؤمن حسن العلاقات الديبلوماسية والثقافية وان يهيء عقد الاحلاف والمعاهدات السياسية ، وان يرفع للملك تقارير مفصلة حول الهدايا المرسلة اليه من الخارج . ويشرف وزير العدل على ايرادات الدولة ودخلها ، ويجلس الى الملك عندما يقعُد للقضاء ، ويعد التقارير لكل قضية ينظر فيها ، ويتقبل عرائض الملتمسين وشكاويهم ليرفعها بدوره للملك. ومن الادوار المهمة والمسؤولية الكبرى ، الدور الذي يترتب على كاهن الملك ، فهو لا يقل شأناً عن دور الوزير . فالملك يكن له احتراماً كبيراً ويستشيره في امور كثيرة ويعوّل على رأيه السديد .

ويلي الوزراء اهمية ، الحكام الاداريون فجباة الضرائب والرسوم ، الذين يعهد اليهم بتأمين

الادارة في القطاعات التي يشرفون عليها ويضطلعون باعبائها : كالمساحة والمالية والشرطة والعدل ، وادارة مزارع الملك واملاكه الواسعة ، ومراقبة الاسواق التجارية وتقنيتها ، وادارة معامل الدولة ، واستغلال الاحراج واستثمارها ومراقبة الزراعة وتربية الماشية ، والاشراف على الصناعة ، ومراقبة تجارة المخدرات والمشروبات الروحية ، والاشراف على المسالخ والمواصلات النهرية والبحرية ، والنقل البري . وبين هؤلاء الموظفين الكبار من يعنى خصيصاً بالأمور الدينية ، بما فيها النظر في شؤون النساك والمتزهدين .

عدد كبير من الموظفين يعمل باستمرار لتأمين حسن سير الادارة في البلاد وامنها : كالسفراء الذين يتمتعون بمبدأ الحصانة ، وحكام الولايات والاقاليم والقادة وكبار الضباط في الجيش ، والقوامون على محفوظات الدولة وغيرهم من الموظفين في هذه السلسلة التي استطالت حلقاتها في عهد دولة الغوبتا ، ولكل منهم القابه الخاصة ومراتبه .

ويأتي في اسفل السلم الاداري مأمورون أقل شأناً : كالشعراء المتجولين ، وكتبة السر ورجال الادب والكتاب ، وحملة شارات الملك والحرس الخاص بكنوز الملك أو بحريمه ، وسائقو المركبات الحربية او الفيلة ، والحرّاس والخدم والحشم ، والحارسات المدججات بالاسلحة المعروفات باسم *Yavani* .

وتقسم البلاد ، ادارياً الى ولايات واقضية ، يتولى الامر في الولاية حاكم عام يعرف باسم نائب الملك ، له في مركز الولاية بلاطه وحاشيته كالملك في عاصمة الدولة . وتقوم في القرى ، هيئات ادارية تعقد لدى الاقتضاء ، مقابلات مع نائب الملك ، وتتمتع بصلاحيات قضائية وتنفيذية كما تتمتع بحق الاشراف على المؤسسات الدينية . والعاصمة نفسها التي فيها يقوم الملك ووزراؤه ، تخضع ادارياً الى لجنة من اربعة اعضاء يرأسها مقدم يشرف كل عضو على قطاع يضم ربع السكان القاطنين فيها ، كما يقوم الى جانب هذه الهيئة مجلس بلدي من اعضائه ممثلون عن التجار والصيارفة والكتبة . اما في الريف ، فالهيئة الادارية المحلية يرأسها موظف قائم بالاعمال . وعلى هذه الوتيرة تسير الادارة الخاصة لدى كبار الاقطاعيين فيشرف على هذه الاملاك مدبّر عام ، يتلقى اوامره وتعليماته جيش من الخدم والمأمورين . وكذلك قس الدول التوابع او الدول الدائرة في فلك المملكة فهم ينهجون ، على العموم ، النهج المتبع والمعمول به في الولايات ، مع الاحتفاظ شرعياً بشيء من الاستقلال الاداري .

والجيش الذي هو الركن الركين الذي يقوم عليه استقلال الدولة وقوام هذا الاستقلال ، يؤمن اسباب سلامة البلاد والدفاع عنها . وهو يتألف عادة من فرقة المشاة ، وفرقة الخيّالة وفرقة الفيلة . اما فرقة المركبات الحربية ، فقد استغني عنها في عهد دولة الغوبتا ، مع انها من عدة السلاح التقليدية في الهند . وهنالك فرقة جديدة ، عُمل بها منذ عهد قريب ، هي الاسطول الحربي الذي يتولى حماية الشواطىء البحرية ويسهر على سلامتها ، كما يحافظ على الملاحة النهرية . ويقوم على الحدود ، حاميات عسكرية بقيادة ضباط مجربين . وهذا الجيش يتألف من فئات عدة

بينها فرقة الحرس الدائم ، يتوارث افرادها الخدمة خلفاً عن سلف ، وهم حسنو التدريب ويتناولون رواتب طيبة . وهنالك فرقة من المرتزقة ، حاضرة دوماً للخدمة وللتدخل ،

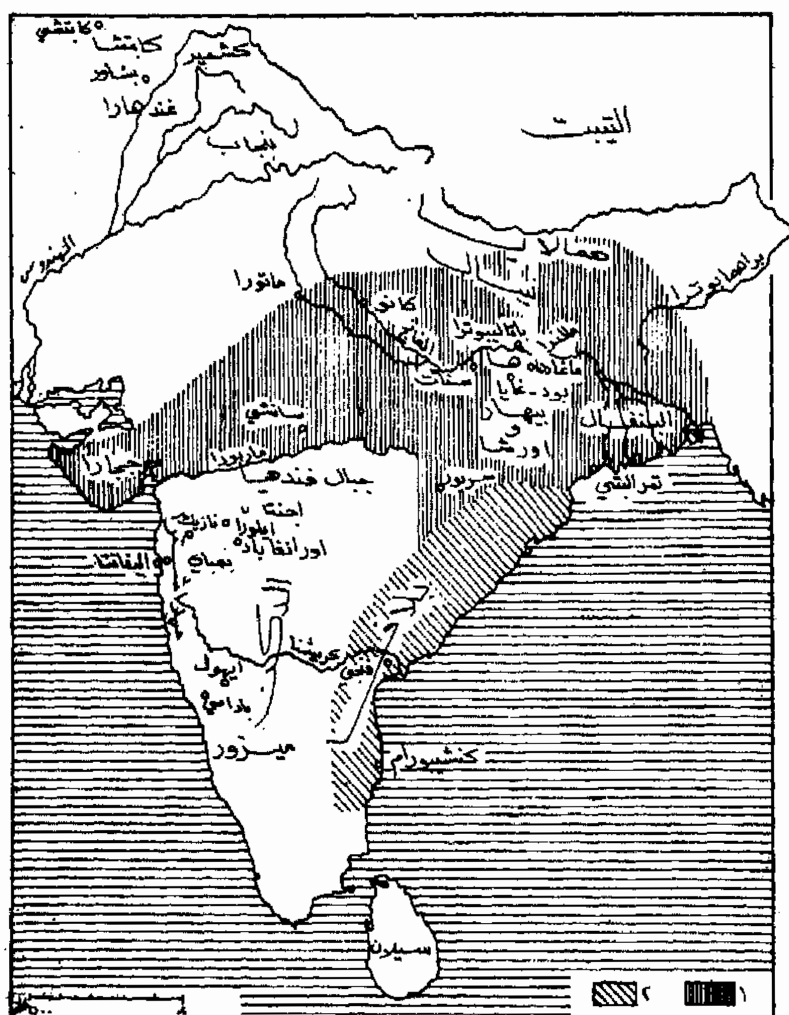

الشكل (رقم ـ ٤) الهند في عهد دولة الغوبتا

١ ـ امبراطورية الغوبتا ٢ ـ حرب سامودرا غوبتا (٣٢٥ ـ ٣٨٥ ?)

و « كتائب » تؤخذ وحداتها من بين أصحاب الحرف والمهن ، و « احلاف » يستمان بهم ويرجع اليهم بحذر كلي وتحسب ، ووحدات يتألف افرادها من جنود لجوا بانفسهم من صفوف العدو هرباً من مظالم تعرضوا لها ، كما توجد وحدات اخرى تضم رهطاً من لم الهمج وسكان الغابات

والاحراج . وتتألف الكتائب في الجيش من وحدات يتوزع افرادهـــا الى عشرات ومئات والوف . فاذا كان الملك هو ، مبدئياً ، قائد الجيش الاعلى ، فالقيادة الفعلية يتولاهـــا قائد عام *Machâsemâpâti* وهو شخصية بارزة في الدولة تعدل ، ان لم تبز ، شخصية ولي العهـد ، يتقلد مهام وظيفته السامية بعد ان يجري مسحه ، وفقاً لمراسم معينة كمراسم الملوك ، يرفرف أمامه علم مذهب .

فلا عجب ان يكون هذا الجهاز الاداري الضخم كثير التكاليف ، باهظها ، بالنظر للاعباء المرزحة التي تواجهه في توفير المرتبات لكل هـــذا الجيش العَرِم من الموظفين على اختلاف درجاتهم .

مرافق البلاد ومصادرها

تغتذي خزينة الدولة بموردين رئيسيين هما جباية الضرائب ، والخراج. فرسوم الجبـاية هي التي تفرض على غلـّة الارض والمحاصيل الزراعية والحيوانية . فللامبراطور منها ، مبدئياً ، السدْس الا ان هذا المعدل عرضة للتغير : فقد يبلغ ثلث غلة الارض او ربعهـا اذا كانت الارض غنية معطاء ، وقد تصل حصته الى نصف الغلة اذا كانت من المواد الثمينة كالعاج والجلود . والعادة المتبعة هي ان تُدْفع هذه الرسوم نقداً بعد ان توزن محاصيـــل الارض وزناً دقيقاً . فالرسوم تُفرض على الفاكهة والخضراوات ، والعسل والخشب ، كما تفرض على القرى ، في الريف ، ضريبة مشتركة يتناهـد المزارعون والاهلون على دفعهـــا ، كل بحسب طاقته ودخله ، كما تفرض ضرائب سنوية على اصحاب الاطيان الكبيرة والصغيرة ، على الســواء . وفي عهد الفوبتا ، فرضت على البلاد ضريبة خاصة اصابت مستأجري الاراضي . ولما كانت الدولة تأخذ على نفسهـــا مهمة السهر على سلامة المراعي والحقول ، فهي تفرض عليهـــا رسم حراسة خاصاً ، كما تفرض رسوماً اضافية على الذين يستفيدون من شبكة الري والسقاية . وهنالك رسوم دخولية وتعريفات جركية على البضائع الواردة من الريف الى المدينة . يتناوح معدلها بين ٥٤٪ وبين ٢٠٪ . ولعل أخف هـــذه الرسوم هي التي تفرض على الحطب والحبوب والمواد الدهنية ، بينما يرتفع معدل الرسوم المترتبة على تجـــارة المشروبات الروحية ، المقننة من حيث المبدأ ، ان في ايام الاعياد والتجمعات العـامة . كذلك يفرض رسم خاص على تعيير الموازين والمقاييس ، وهي عملية تجري ثلاث مرات في السنة ، كما تفرض رسوم خاصة على وسائل النقل وانواعها ، حتى ما كان خاصاً منها . وتخضع للرسوم في دوائر المكس كل عمليـــات التصدير ، كما انه محظور تصدير بعض المواد ، تحت طائلة الجزاء والمصادرة : كالاسلحة والجلود ، والحلي والحبوب والمواشي ، ويستثنى من هـــذا الرسم بعض الحبوب المستوردة . ويُلزم العمال والصناع بدفع ما يتراوح بين ١٠ — ٢٠ في المائة من دخلهم ، ويعفون من دفع هذا الرسم ، اذا قبلوا ان يعملوا ، بعض الوقت ، لحساب الدولة . ويدفـع العاملون في تربية الماشية، عيناً او نقداً، حسبما يختارون. وهنالك رسوم اخرى تغذّي خزينة الدولة. كرسم التأشيرة على تذاكر السفر ، والمسالخ والمومسات والبغي وغير ذلك .

هذه الرسوم والضرائب تنال كل المواطنين مبدئياً ، الا انها عرضة للتخفيف او الاعفاءات ، في مناسبات وظروف معينة ، كالمعدّنين ، والحبـالى ، والمرضى والطاعنين في السن والزهّاد وكهان البراهمان وهؤلاء ينعمون بحق إلهي . كذلك نعفى من الرسوم المقاطعات التي تمد الدولة برجال الحرب .

وتملك الدولة عقارات واطياناً طائلة . كما تملك احتكارات عديدة يعود دخلها للخزينة . وفي عهد الفوريتا فرضت الدولة ملكيتها على الاراضي الموات ، غير المستثمرة وحظرت على اي كان تملكها او التصرف بها تحت اشد العقوبات . ويعود لها وحدها ملكية معامل الحياكة والنسيج ومعامل تنقية فلزات الفضة والذهب ، ومناجم الحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ والملح ، وقاعات اللعب والملاهي . والى الملك او الامبراطور تعود التركات التي لا وريث لها ، باستثناء البراهمان ، والاغراض التي يعثر عليهـا بعد ان تفقد ، كما ان رسوماً خاصة تفرض على الحاجيات المسروقة او المفقودة ثم يُعرف صاحبهـا . وفي حالات الحرب او الأزمات المالية تفرض ضرائب استثنائية ، يتحملهـا الجميع ، على اساس تأمين التوازن بين دخل الدولة ، ونفقاتها العامة ، مـع تأمين فائض للطوارىء . والدولة تتحمل نفقات مرزحة كالهبات التي تقدمها ، والاحتفالات الدينية التي تقيمها ، وتأمين اعاشة القصر ومن فيـه من رجال الحاشية والبلاد ، وتكاليف المصانع والمعامل ، والمشروعات التي تأخذها الدولة على عاتقها ، ومرتبات هذا الجيش العرم من المأمورين والموظفين ، بين مدنيين وعسكريين ، اذا مـا ضربنا صفحاً واهملنا جانباً المرتبات والاعطيات الملكية الاخرى . ولا بدّ من الملاحظة هنا، ان هذه النفقات الباهظة لا تصيب دافعي الضّرائب على السواء : فهي تنال بالاكثر ، التجار والصناع ، اذ ان البراهمان معفون من هذه الضرائب ، كما ينعم الى *Kshatriya* بانعامات كثيرة .

الحالة الاقتصادية

يستدل من المراجع العائدة لهذا العهد ان الازدهار عم جميع أطراف البلاد ، ابان حكم دولة الفوريتا ، أفراداً وجماعات . فقد سيطر على البلاد جو من الطمأنينة والامن ، لا بد منه ولا ندحة عنه لنمو التجارة وانتشار مرافقهـا ، فكانت الطرقات تغص بقوافل التجار وما اليهم من عربات النقل، يقود خطواتهم دليل محنك . اما المدن فتزدان بالمباني الجميلة المتناثرة على جانبي الشوارع العريضة ، كما كانت دكاكين البقالين وعربات الباعة ومخازن التجار تغص بالسلع والبضائع على أنواعها . والزراعة التي هي أهم مرافق البلاد الاقتصادية هي قوام الثروة وركنها الركين ، فلا غرو ان تنشط ويتسع ميدانها يوماً بعد يوم .

والمزارعون ، وعددهم لا يحصى ، يستخدمون المحاريث التي تجرها الابقار ويؤمنون حاجة البلاد من الشعير والارز ، وقصب السكر والسمسم والزعفران . وبفضل نظام الري البديع ، وتسميد الارض وتخصيبها، كان باستطاعتهم ان يستغلوا عدة مواسم في السنة الواحدة. فالمراعي تغص بالكلأ حيث تسرح وتمرح الثيران ذات السنام والثيران العادية والبقر والعجول ، والحصان والبغل ، والماعز والجمل .

وبين المهن والحرف الدارجة نذكر النجارة والحدادة والصياغة، وحياكة الحرير والاصواف، والصباغة ، والبناء ، والهندسة المعمارية والتقطير ، واستخراج الزيوت ، وحفر العاج والصيد والقنص وطحن الحبوب ، والطب ، والطب البيطري ، والموسيقى والرقص ، وألعاب الخفة والرشاقة والتسري ، والصرافة والتجارة . وأصحاب هذه الحرف ينتظمون جمعيات ونقابات بحيث كثيراً ما نرى قرية ما يحترف سكانها حرفة واحدة ، لها رئيسها وكاتب سرها وجلاوزتها.

والى جانب التجارة التي تقوم على التعاطي بالحبوب والحجارة الكريمة ، وملسوجات الحرير وصناعة العاج والافاويه والماشية ، تزدهر الصناعة التي تعنى بالغزل والحياكة ، وصناعة الحبال والسيور ، ودباغة الجلود وشغل الحلي والجوهرات ، وصنع المعادن واستخراج الفلزات والحجارة الكريمة وتوضيبها ، واعداد العقاقير الطبية وبعض المواد الكيماوية .

اما معلوماتنا عن النقد والعملة ، في هذه الحقبة ، فقليلة . فقد درج استعمال الدينار الذهبي في عهد القوبتا ، وهو اصطلاح دخل الهند من العالم اليوناني الروماني ، وكان يساوي عندهم ١٦ *Rūpaka* ، وهي عملة من الفضة ، أي ما يوازي قيمة ٢٤ روبية، في الوقت الحاضر . وقد عرف القوم ، اذ ذاك ، السفتجة او السند المالي . والمعروف ان ١٢ ديناراً ونصف كانت تكفي لاعالة خمسة رهبان في اليوم .

الوضع الاجتماعي

كانت الهيئة الاجتماعية لا تزال منقسمة الى طوائف . فلم يطرأ أي تغيير جذري على هذا الوضع . وقد زاد التقاطع والتباعد نظرياً بين هذه الطبقات تحت تأثير البراهمان ، اما بالفعل ، فاننا نلاحظ بعض التخفف من هذه الناحية ، اذ كثيراً ما تعقد عقود زواج بين أبناء طبقات متباينة ، مما أدى الى شيء من تخالط الطبقات وتمازجها بعضاً ببعض، الامر الذي حمل القوبتا على اصدار اوامر مشددة باحترام نظام الطبقات والتقيد بمستلزماته التي تعود الى عهد بعيد. ففي عهد تميز بالازدهار التجاري والاقتصادي وتخزين الطبقات الدنيا ، ثروات طائلة، أوجس اولو الامر من ان ينزع ممثلو هذه الطبقات الى الاستئثار بالسلطة معتمدين في تحقيق ذلك ، على ما تم لها من غنى وافر . والذي يبدو لنا من المراجع الادبية التي تعود لهذا العهد، ان الثروة او الغنى، أصبحت المعيار او المقياس الاجتماعي الامثل، وبالتالي الوسيلة الفضلى لتخطي نظام الطبقات ، بالرغم من تشدد البراهمان وتشبثهم باصرار وعناد ، بموقفهم ، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة ، بينما بقيت طبقة كشاتريا مقتصرة مبدئياً ، على الملاكين ورجال الحرب، ولم يكن من النادر ان نرى بينهم من يمارس مهنة او حرفة ، او يشترك عضواً في النقابات المهنية .

فالاسرة هي الحجرة الاجتماعية الاولى . ولذا بقيت التربية تسير وفقاً للمنهج المتعارف القديم الذي كان يقسم الحياة الى أربع مراحل متميزة : الطفولة ، المدرسة ، الحياة الزوجية ، الزهد، وهي مراحل كان للتربية فيها شأن وأي شأن ، تبتدىء بفترة قصيرة عند الابتداء ، ثم يعقبها انقطاع الطالب بكليته لمعلمه (*guru*) ، ويلازمه ويعيش في محيطه . فيتعلم منه كل ما يرى نفسه

بحاجة اليه في هذه الحياة ربما فيه للتمرس على استعمال السلاح . وبعد أن يتم دائرة تحصيله يتزوج ليؤسس بدوره اسرة . وأنواع الرياضات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، الا اننا لم نعد نسمع في عهد الغوبتا، بما كان متبعاً من قبل أو مشروطاً من العاب الخفة أو العاب عسكرية أو رياضية .

والعائلة بمعناها الواسع ، لم تكن لتقتصر على الجدود والابناء من الصلب الواحد بل تضم أيضاً البطون والارحام الجانبية وذراريهم ومَن اليهم من احلاف وتوابع ، وخدم وحشم ، وعمال وارقاء. كل هذه الجموع تسكن معاً رُبّما هو نزل أكثر منه مسكن خاص.ورب الاسرة هو كبيرها وسيدها وقائدها ، له حق تعدد الزوجات ، زوجته الاولى هي امرأته الشرعية ، تشرف على البيت وتهيمن على الادارة المنزلية ، ومن هنا تبدو الاهمية التي يعلقونها على الأولاد الذكور . فان لم ينجب الاب ذكوراً تعقدت امور الوراثة وارتدت أشكالاً وألواناً هي أقرب الى الاعراف منها للقانون . فاذا لم يكن في الأسرة ولد ذكر احتاط الاب للأمر وراح يتلمس الحيلة فيجعل من ابنته الوحيدة « ابناً لا اخ له » . وباستطاعة الاب ان يتبنى ابناً له او يشتري له ابناً . وباستطاعة هذا الابن بالتبني ان يرث أباه الحقيقي وأباه بالتبني . وقد يحدث ايضاً ان ينقطع نسل الاسرة ، فتذهب املاكها للملك ، باستثناء البراهمان .

اما نظرة الرجل لزوجته فالنظرة الى سيدة جليلة ، محترمة مرشدة وهادية وصديقة . ولذا كان تأثيرها عظيماً في الاسرة . فهي قلما تخرج من البيت ، واذا ما خرجت فبتحفظ كلي ، بعد ان ترتدي إزاراً او ملاءة. فاذا لم تُعقب فقدت الكثير من منزلتها وشأنها.فاذا ما ترمّلت فقدت حق رعاية الاسرة وذهب هذا الحق شرعاً لكنّتها او زوجة ابنها . فهي لا ترث ، انما يحق لها ان تأخذ صداقها والهدايا التي قدمها لها زوجها في حياته ، ولا سيما بجوهراتها وما لها من حلي تبقى لها مدى الحياة . والى هذه الحقبة بالذات يجب ان نرد ظهور تقاليد « المرأة الأمينة » التي تحرق نفسها فوق محرقة الحطب مع زوجها ، كما يستدل من نصب تذكاري تاريخه سنة ٥١٠ ، اكتشف في آران . فالارامل اللواتي لا يتيمن مثل هذا التقليد ولا يمتثلن له يحكمن على أنفسهن ، شأن أم أبين ، بالانزواء ، والانكماش عن المجتمع ، يتجنبن التبرج ، ويقصصن شعورهن ، ويعشن منزويات متزهدات . فزواجهن من جديد ، أمر غير مرغوب فيه ، تشجبه العادات ، وتمجه ، الا اذا وقع من احد افراد الاسرة ذاتها ، أي أقرب أقارب زوجها المتوفى .

قانون الجزاء

وهذا المجتمع الذي يقوم أصلاً على الطبقية، محوره الاسرة او العائلة وينتظمه عدد من القوانين . فالسرقة هي الجرم الموصوف ، يحترفها محترفون مجربون ويستعملون لها عدة خاصة . يدخلون المنازل بعد تحطيم الابواب وكسر النوافذ ، او خرق الجدران . ويقوم على تعقب اللصوص واقتفاء اثرهم موظفون خصوصيون ، يتخذون لهم يداً من كل الوسائل الممكنة : كالحيلة والتجسس والترغيب والتشجيع . ولما كان الملك هو القوّام على أملاك رعاياه ومقتنياتهم ، فليس بمستغرب قط ان يولي أمر تعقب اللصوص اهتمامه الخاص .

وتنزل منزلة السرقة ، كل الجنح الشبيهة لها : كالغش في اللعب ، والتلاعب بالمقاييس والمكاييل وتزييف العملة ، وتزوير المستندات العامـــة او الخاصة ، والشهادة الكاذبة ، والغش في صنع الحاجيات الموصى عليها . ويدخل بين كبائر الجنايات والجرائم الموصوفة : القتـــل ، والخطف والاغتصاب ، ووسائل العنف والاكراه ، والاهـــانات ، والحاق الضرر المـادي او الاذى وللدولة وحدها حق الاقتصاص من المجرمين . فالعقاب يختلف طبعاً باختلاف نوع الجريـة أو الجناية ، فيتراوح بين دفع تعويض وبين الحكم على الغريم بالتعذيب أو بالقتل أو بالنفي ، بعد السجن والاعتقال مدة من الزمن . فقد بطل تعذيب المذنب ، في عهد دولة الغوبتا ، الا في حال تكرار ارتكاب الجريمة فيحكم على الجاني بقطع يده اليمنى . فاذا مـــا جلسوا للقضاء ُعقدت المحكمة واحيطت الحاكمة بالمهابة والجلال ، سواء ترأسها الملك بالذات ، أم احد القضاة في الحالات الاخف . وكثيراً ما تنتقل هيئة المحكمة بكاملها في إثر حملة عسكرية ، فتشكل ، اذ ذاك ، من الملك او من احد نوابه ، ومن القضاة أو المستشارين ، ومن كاتب عدل ، ومن محلفين . أمـــا المحاكم المكلفة النظر في قضايا النقابات المهنـية فتتألف هيئاتها عـادة من ذوي الخبرة المشهود لهم بالنصفة لحل المشكلات العارضة . ُتعرض الدعوة وفقاً للقواعد والاصول القانونية في عريضة أو التماس يرفع للقاضي ، وُيعلّق على لوحة ، موجز مقتضب للقضية ، بحيث يتاح للنظارة والمشاهدين ان يقفوا على الوقائع . ويؤدي شهود الإثبات ، وعددهم ثلاثة شهادتهم بهيئة رسمية ، وهي شهادة مفروض فيها ان تكون صادقة ، ناطقة بالحق . فاذا ما ثبت زور الشهادة وبهتانها ، عوقب الشاهد ببتر احد اعضائه عقاباً له . واذا ما ظهر ان القضية مرتاب بامرها أو مشكوك بها أمر القاضي بالاحتكام الى الله ، أي تعريض الجهة المشكوك بامرها للتعذيب والتنكيل : كالكي أو السلق بالماء الحـار لاستخلاص الحقيقة . ويبلـّغ الحكم كتابة للجهة المدعية ولا يمكن نقض الحكم الا عنـــد ظهور بيّنات جديدة دامغة . ويناط بمأمور خاص هو مأمور الاجراء ، تنفيذ الحكم الصادر ؛ أما اذا نص الحكم على عقوبات جـسدية أو على القتل ، ُعهـــد بتنفيذ الحكم لجلاد لا ينتمي لطبقة المحكوم عليه .

الحياة العامة والخاصة

وهذا الاطار الحضاري او الريفي الذي يَلِفـّ المجتمع الطبقي في الهند يبدو عليه بعض التحسن دون ان يكون دخل عليه اي تغيير جذري . فالعاصمة هي المدينة المنهجية او المثلى ، يحيط بها سور ضخم يستدير حوله خندق يطفح بالماء ، ويرقى اليها من ابواب ضخمة . ويستعملون في بنـــاء القصر الملكي والمباني العامة والهياكل وبيوت السكن ، الحجر والطوب او الخشب . اما السقف فمسطح ، وقد يأتي مقعراً او محدودباً من جهتيه او على شكل هرم ، بحيث تطل عليك كل الاشكال الهندسية . اما العواميد فتطلى او تلبّس باللِك الازرق او الاحمر ، وتحلى برسوم نباتية او حيوانية بالوان زاهية ؛ اما النوافذ ، فتلبس شعريات من الحجر او من الخشب لترد العيون الشوارد والنواظر الوَقحة . ويعلو العواميد : اكاليـــل مزركشة تحمل رسوم حيوانات في شتى المواقف او الاضافير من الزهر

الفواح واللآلىء الساطعة ، يتدلى بعضها من السقف او من الجدران . وتلبس الجدران احياناً الطنافس الجميلة تتهاوى منها القلائد والاضافير . امـــا الكوى ، وهي من مميزات الهندسة المعمارية القديمة ، فاصبحت عنصراً زخرفياً ، وتلبّست اشكالاً وصوراً شتى تحت ازميـــل النقاش ومرقمه .

وكان الأمن يرفرف والسلام يسود الطرقات والمسالك النهرية وكلها بحراسة الشرطة ، بعد ان نشطت عليها حركة المرور والتنقل ، بالرغم من الرسوم المفروضة على من يسلكها . ويمخر عباب اليم عمارات من السفن الضخمة تعمل على الاشرعة العديدة ، مرتفعة المقدم والمؤخرة ، تزينها رؤوس التنين وغير ذلـــك من الحيوانات البحرية . والملاحة النهرية تقوم على قوارب بيضاوية الشكل ، مجهزة بمجاذيف مفلطحة الرأس . وتدرج على الطرقات : الفيلة المسرجة بأناقة ، والاحصنة على اختلاف امرجتها الخالية من الركابات ، وقد زُيّن رأسها بالريش وتدلت من عنقها قلائد الجلاجل والاجراس . امـا السابلة فيمرحون ويسرحون ، يحمل العتالون والحمالون بينهم ، سلالاً من الاحمـــال على ظهورهم او على اكتافهم او رؤوسهم ، كما يحملون اولادهم على اوراكهم . امـــا عقيلات الاشراف والنبلاء فيسرن في هودج تجره عربة مزينة بالرياش ، او يحمله حمالون خاصة ، او يجره زوج من البقر ، كما لا تزال هي العادة اليوم . ويقوم على جوانب الطريق ملاجىء يأوي اليها الزوار والحجاج ، فيجدون فيها ما يحتاجون اليه من اسباب الراحة ، وما يرغبون فيه من طعام ، لمدة محدودة من الوقت لا يمكن تجاوزها ، وفقاً للحالات العارضة . ويقوم في المناطـــق المحظوظة ، كمنطقة مقادها مثلاً ، وهي المنطقة التي خرجت منهـــا سلالة الغوبتا الملكية ، مستشفيات ومستوصفات لمعالجة المرضى الفقراء ، والمرضى المعوزين الذين لا مورد لهم ، واليتامى والارامـــل والمقطوعين الذين لا عماد لهم ولا سند ، فيخضعون للفحص الطبي من قبـــل طبيب ، ثم يصف لهم العـــلاج الناجع ، وتؤمن حاجتهم من الادوية والاغذية ، ولا يسمح لهم بترك المستشفى الا بعد ان يتم شفاؤهم تماماً .

والبذخ الاتم يطالعنا في القصور الملكية وصروح اهل اليسار ، من الطبقة الارستوقراطية . هنالك مقاعد واطية تقوم على قوائم ُجلجليّة الشكل ، أو تشبه اقـدام الحيوانات ؛ واخرى اعلى مقعداً ، موشاة بالطنافس ، ازدان ظهرها برسوم حيوانية ، دقيقة الصنع ، ناعمة الصنعة ، تكفل للجالس عليها الراحة التامة كأنه على اريكة الملك . وقد بَطل استعمال الكراسي ذات المرافق ، كما زال ، استعمال الاستدارات المصنوعة من الخيزران وحل محلها مساند مستديرة من القماش المخطط . كذلك دخل الاستعمال نماذج جديدة من الصحائف واواني المطبخ ، جيء ببعضها من ايران ، كالكرافيات الطويلة العنق ، والاباريق وهنالك ما يشير الى رواج بعض الادوات الزجاجية ، وصناعة القصب والخيزران جوّدت كثيراً صنع الاطباق والسلال التي اعتاد الناس تعليقها بسواعدهم . أما غرف النوم ، فهي ، على الاجمال ضيقة يشغل السرير معظم مساحتها من الداخل ، مجهّز بمسند او وسادة عند الرأس وباخرى ، عند الارجل . والكوة او المشكاة التي

ترى احياناً في بعض الجدران تضم عادة الآلة الموسيقية الحبيبة لدى صاحب الدار كالقيثارة المقببة . ويقوم في الحجرة منضدة تطرح عليها المساحيق والمعاجين التي يمكن استعمالها اثناء الليل ، كما ألفوا ان يتركوا على الارض الشماعدين والاباريق المذهبة . اما غرفة السلاح فهي تغص بالاسلحة على انواعها وتختلف اشكالها تتألق بياضاً ولمعاناً ، كالسيوف المهندة ذات المقبض المستدير ، والخناجر القصيرة النصل ، او طويلتها . ويوجد في قصر الملك وفي دارات الاغنياء ، مجموعات من الاسلحة المنظمة تنظيماً خاصاً بينها الرماح والفؤوس ، والخناجر على انواعها ، والقسي والنبال والهراوات والدبابيس . وللالعاب الرياضية محلها المرموق في باحات القصر وحدائقه ، كالنرد الذي عم استعماله كثيراً وادخلوه حتى على حفلات تتويج الملوك الرسمية ، والاراجيح الطقسية او التي تستعمل للتلهي ، والخضاريف ، والعصي المتراكبة . واهم الملاهي واكثرها شيوعاً هي الموسيقى والرقص ، فالملك نفسه هو من كبار هواة اللاعبين على القانون ، وكم من قطعة نقدية تبرزه لنا ينقر على القانون .

كذلك تنوعت كثيراً الازياء والملابس ، وغلا ثمنها بعدان سنا صنعها. فالشاش الناعم الصنع، والديباج المزركش والانسجة القطنية التي تحاك في جميع اطراف الامبراطورية، او يؤتى بها من ايران ، هي اكثر الاقمشة رواجاً واستعمالاً . فالملك والامراء يرتدون الـ *Dhoti* القصيرة او الطويلة ، كما تتدلى على اردافهم ، علائق وسلاسل تنتظمها الحجارة الكريمة والمجوهرات ، كما ان كبار الموظفين ورجال الحرب والصيد يلبسون اردية فضفاضة الاكمام والاردان ، قد تكون كما يرجحه العارفون ، جاءت من الغرب . كذلك ترفل عقيلات البيوتات الكبرى ووصيفاتها بفساطين تختلف شفافية وطولاً ، بينما حاملات المذبات والراقصات ، وغيرهن من المرافقات يلبسن سترات فصلت على قدودهن قصيرة الاكمام . وهذا التنوع ذاته يبدو على اشكال : فالراجا يلبس عمة مزركشة تشبه التاج ، اسلاكها من الذهب ، كما اعتادوا ان يضعوا في القرنين الخامس والسادس ، شعراً مستعاراً مقصباً . ويقص اهل الكيف من رجال الرقص والموسيقى ، وغيرهم من الخدم ، شعورهم قصيراً ويزينونها بزهرة . اما النساء فيعقصن شعرهن على اشكال مختلفة بين مقبب ومخروط، او يعقصنه فوق جباههن او يضفرنه جدائل تتدلى طويلاً على الظهر او الاكتاف ، كما ترتدين بعضهن اكاليل من الزهر او الحجارة الكريمة . ثم يضفن الى زينتهن عقوداً من اللآلىء تشع نوراً وبهاءً وسناءً وتحمل على صدورهن انواطاً كريمة تتدلى من اعناقهن، وفي معاصمهن ثروات من الاساور الكريمة . ويشدّ الرجال حقويهم بسير من الجلد الناعم كما تضع النساء الخلاخل بارجلهن ، ويلبسن اقراط الذهب او الماس ، والخواتم الكريمة في البنصر او في غيره من اصابع اليد الواحدة .

الحياة الدينية والفكرية والفنية

في هذا الجو العابق بالبذخ والغنى ، بلغت الحياة الدينية في الهند ، أوجها . فالبوذية المتفتحة والمسيطرة على عالم الروح والمادة ، عرفت ازدهاراً كبيراً من الحياة الرهبانية التي جمعت بين التأنق والبذخ . فالرهبان

في اديارهم ينعمون بحماية الملوك، وعطفهم فيغدقون عليهم ، ولا سيا على طبقة البراهمان ، الهبات الطائلة ، والاعطيات السخية . وفي ظل هذه الرعاية المشبعة بعطف الغوبتا تزدهر الحياة الروحية سمحاء ، أثيرة ، متخيرة . فتتكاثر الاديار وتنتشر في البلاد وتصبح منائر للعلم يقصدها الرهبان الاغراب العطاش الى المعرفة والحكمة الالهية . وهكذا نرى مثلا عاهل سيلان يأمر ببناء دير في بلدة بودغايا ، للرهبان السنغهاليين ، كما ان اسرة سوماترانية تشيد لها ديراً آخر في مدينة نالاندا ، وهي مدينة بوذية رأت النور بين ٤٦٧ – ٤٧٣ والتي جاءها فيما بعد زائراً هيوانغتسان . ويلقى الرهبان المتجولون في كل هذه الديارات ، كل ما يحتاجون اليه من اسباب السلوى والترفيه، كما حصل للراهب الصيني، فما هيان اذ يأتي رئيس الدير بنفسه ليرحب بقدومهم ويتصدق عليهم بما يحتاجون اليه من لباس وماء وطاس ، ومن زيت ينضحون به اقدامهم ورحيق عصير قصب السكر الذي يمكن تناوله في غير اوقات وجبات الاكل القانونية . ثم يخصهم بغرفة فيها من الاثاث والمفروشات ما فيه راحتهم ويجيز لهم الاشتراك بالحياة الرهبانية وفروضها طيلة بقائهم في الدير. ولم يكن من النادر قط ان يتسع الدير لاكثر من الف راهب وراهبة ومبتدئين من كلا الجنسين . وكان الزوار يدهشون لكثرة الاديار في مدينة نالاندا ، وتعدد مبانيها ، وغنى أثاثها ، ورحابة غرفها ، تجري فيها الطقوس الدينية مواسمها بكل ابهة وجلال ، في جو يتناغى بصدى الاناشيد الروحية ويعبق بالبخور المتصاعد كالغمام ، وباريج الزهر والريحان ، تتلألأ زينة الهيكل على اضواء القناديل التي لا عد لها ، والمضاءة طوال الليل، على انغام شجية من الموسيقى الناعمة المتصلة .

وتتناوح المدارس الهندسية بين مناسك بسيطة متواضعة وبين باحات وافناء شاسعة تمور بحركة الطلاب وروام العلم يتحلقون حلقات حول اساتذة ومعلمين مشهود لهم بالفضل ، فيتلقون الى جانب دروس الفلسفة والحكمة ، اصول الصرف والنحو والمنطق ، وتعليقات مستفيضه ، وشروحاً موسعة في الموسيقى وفن التمثيل ، والرقص والرسم الملون .

وهل من غرابة في هذا كله بعد ان ازدهرت الفلسفة وأينعت الآداب الرفيعة ؟ فالشعر الوجداني والملحمي ، وفن التمثيل نفسه ، وغير هذا من النشاطات العقلية يحمل بارزاً ، أثر الشاعر الهندي الاشهر كاليداسا (القرن الاول ق . م) الذي اعطانا : الغيمة الرسول (*Meghadûta*) ومولد كومارا ، ونزول راغو *Raghuvamça* وروايته الخالدة « إعتراف» التي نراها مترجمة اليوم الى جميع لغات العالم ، والتي مُثّلت مراراً في دور عديدة للتمثيل في الغرب . وقد بلغت اللغة السنسكريتية القِدْح المعلى نقاءً تحت ريشة كاليداسا . فقد رسم لنا هذا الشاعر الهندي المبدع ، صوراً اخّاذة تبناها المسرح الهندي ودرج عليها منذ عهد سحيق ، وهي صور تمور بالطبيعة والجنان السندسية الغناء ، وجلت لنا اغوار النفس البشرية بفن فيه الكثير من نوازع الادب الكلاسيكي . بعد ان ابرزت لنا مشاهد حية عن : ملك مدنف، تيمه الحب ، ومهرّج ماجن ضحوك ، ولاعب مدمن اخذ منه الهَوَس كل مأخذ ، والراهبة البوذية

والملكة الحسود ، والملكة الظليم وغير ذلك من صور النفس البشرية التي نطالعها في كل زمان ومكان . كل هذه الصور ليست بالفعل سوى ركائز عرف كاليداسا ان يضفي عليهـا من فنه وعلمه الواسعين ، ومن الجمال الجسم ما بلغ فيه سدرة المنتهى ، كل ذلك في نظم جزل ، ولغة مشرقة، مشعشعة، وبيان مزهر وقوافي راقصة مرقصة، حمّلها من المعاني ما لا تستطيع الالفاظ حمله . فالفن ، في عهد الغوبتا ، بلغ الذروة ، اذ جمالية الاسلوب ، تقوم ، قبل كل شيء ، في الايماء دون الافصاح ، وفي الاكتفاء والاكتناه دون التعبير ، وفي الرمز ، دون المرموز اليه ، وفي الاشارة دون العبارة. هنالك شعراء لا يقلون شأناً وشأواً عن كاليداسا . اضاؤوا كالشهب جو الغوبتا ، وألقوا على عهدهم ، ألقاً قلما عرفت الهند مثله . منهم : شودرا كا المؤلف المفروض لـ « عربة الفخار » ، وفيشا كادتّا ، وامارو وبهارتراهري .

ولم يكن تألق الفلسفة ، في هذا العهد ، عند البوذيين اقل منه عند الهنود . فالاخوان ازانغا وفازوبندو من اتباع المدرسة الرمزية في الهنـد وضعا اذ ذاك ، مؤلفات كانت ، لقرون عديدة ، المحور بل الاساس الذي نهضت عليه التعاليم البوذية التي يمثلها احسن تمثيل « الوسيلة الكبرى» او *Mahayana* سواءً في الهند او في البلدان الآسيوية الاخرى . ولم تلبث ان بلغت آثارهما الصين ، بعد ان ظهرت في الهند ، بقليل . وهذه الصيغة التي برزت عليها البوذية على يديهما ، بالرغم من ظهورها في مطلع النصرانية تقريباً ، اختلفت تماماً عن التعاليم الاساسية الممثلة « بالوسيلة الصغرى » *Hinayâna* او *Theravadha* . وليس من العبث ان نذكر هنا بان أزانغا وفازوبندو خرجا اصلاً ، من غندهارا ، هذا الاقليم الذي وقـع تحت تأثير المدارس السريانية الفارسية وانفعل بها ، وهي المدارس التي عقبت مدرسة الاسكندرية وورثتها ، اي الفلسفة الاشراقية والمانوية . تقوم فلسفة اليوغا على النظرية القائلة بان الواقـع او الحوادث الواقعية ، ليست سوى خيال ووهم. وخلافاً للمدرسة او نظرية *Madhyamika* التي ادت باتباعها الى القول بالعدمية ، وصل بهـا آزانغا ولا سيا فازوبندو الى نتائج مناقضة تماماً : فاذا كان كل شيء وهماً في وهم ، فالوصول الى هـذه النتيجة والتأكد من الامر ، هو الاقرار ذاته بوجود فكر ، وهكذا ، فالفكرة المجردة او الفكرة الوعاء ، تؤلف الاسس التي تقوم عليهـا المثالية المطلقة .وقد كُتِبَ لهذه النظرية ان تنتشر في جميع ارجاء آسيا وادت بالتالي الى هذه التيارات البوذية العارمة التي بلغت أقاصي الصين واليابان .

وبرهنت الفلسفة الهندية ، من جهتها ، هي ايضاً ، عن نشاط يصح مقارنته ، من قريب ، بالنشاط الذي سجلته البوذية في هذه الحقبة . ففي الوقت الذي اخذت فيه تتبلور المحاولات الاخيرة لتركيز الملاحم الكبرى راحت النظم الفلسفية الهندية ، تبرز وتتطور بما تعرضت له من شروح وتعاليق وتفسيرات ، بشتى الصور والاشكال التي تفتّح عنها الفكر الفلسفي الهندي ، وتبلور عنه : كالاخلاقية الدينية ، والزهد والتنسك ، والمنطق ، وعلم الطبيعة ، وعلم ما وراء الطبيعة الديني ، واللاهوت والفلسفة ، وتناسخ الارواح او التقمص ، وما للفعل من اثر ضار ،

مؤذ (*Karman*) والوسائل المختلفة لخلاص النفس *Moksha* ، وغير ذلــك من الموضوعات والتجريدات العقلية التي راح العقل الهندي يغوص فيها . كل ذلك يقوم على اساس وطيـد من استقلال الطبيعة الانسانية « والارواح » ، المادة والروح . وعن طريق سلسلة من النفي ، توصلوا ، هنا وهنالــك ، الى تحديدات وتعريفات لها من الدقة واللطافة مـــا في اللغة السنسكريتية من طواعية وليونة ومرونة ، او مـا تتيح له من مقارنات ومقايسات تنبض بالحذق . ومن هذه النظريات الفلسفية الهندية التي طلعت اذ ذاك ، نظرية الفيدانتا الـتي أطلت علينا بين ٣٥٠ — ٤٠٠ ، ثم اخذت تتطور في العهد التالي .

وبالمقابل ، نرى فن الرسم يبلغ اذ ذاك تمامه . فبعد ان استفاد من خبرة الماضي ، راح الفن ، في عهد الغوبتا ، يحاول التعبير عن الافكار الجديدة . فبينما نرى المثالية المطلقة تسيطر على الفلسفة البوذية وتستبد بها ، ويبرز في النظريات الفلسفية الهندية عنصر الروح واحتلاله الصدارة ، فالنزعة للتنويه عن الاشياء المحسوسة بالرمز ، واضفاء شيء من الروحانية عليها ، بلغت أوجها في فن التصوير التشكيلي . وقد وضعت ، اذ ذاك ، أبحاث تحددت فيه وتعينت الاسس التي تقوم عليها القواعد في المستقبل . فلم يسبق ان رأينا في الهند ، مثل هــــذه الاهمية يعلقونها لنقاء الصور والأشكال وسنائها ، ولتأمين مثل هذا التوازن بين الكتلة والقيمة ، وتأمين مثل هـذا التناغي والانسجام بين المقاييس والمسافات . فقد كان للنظرية الفنية في الهند ، في عهـد الغوبتا ، تأثير شديد الدفع على جمالية الفن ، بحيث ان الموضوعات الفنية التي عالجها هذا الفن ، في تلك الحقبة ، أصبحت نماذج احتذاها الفنانون وساروا على هديها ووحيها ، حتى بعد زوال هـذه الدولة ، وتواريها عن مسرح السياسة في الهند ، بحيث امتدت المبادىء التي اعتمدتها وقامت عليها ، ليس الى جميع أقطار آسيا الجنوبية الشرقية فحسب ، بل ايضاً الى أقصى ما بلغته الركبان والقوافل الذاهبة الى الشمال والشرق . والهندسة المعمارية التي ترعرعت في الهواء الطلق ، اخذت اصولها تطبق على المعابـد والهياكل والاماكن الصخرية المؤلّهة كالمغاور والكهوف . وهكذا أخذت الجدران ترتدي أشكالاً وصوراً ، هي اليوم من أروع ما طلع به الفن في الهند .

٢ ـ أقطار آسيا الجنوبية الشرقية

بعد ان خبرت أقطار آسيا الجنوبية الشرقيــة ، في القرنين الثالث والرابع ، حركة واسعة من الاستهناد واقتباس الحضارة الهندية ، اذا بها تقع من جديد ، في الحقبة الواقعة بـين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن السادس ، تحت تأثير موجة جديدة من انتشار هـذه الحضارة ، والاقبال على مقوماتها وتمثلها . ومع ان هذه الاقطار كانت تدور ، اذ ذاك من الوجهة السياسة ، في فلك الصين وتخضع لنفوذها ، وان مصادر تاريخها الركينة في هذه الفترة بالذات من تاريخها ، هي صينية في معظمها ، فتاريخها الحضاري والثقافي ، في هذا العهد هو مع ذلك ، امتداد لحضارة

الهندية فيها . فمن المعقول ، جداً ، والحالة هذه ، ان نلقي على هذه الاقاليم ، نظرة شاملة من هذه الناحية بالذات .

مقاطعة فو ـ تان

يبرز تأثير الهند على أتمّه» في مقاطعة فو ـ تان ، عام ٣٥٧ ، وهي تخضع اذ ذاك ، لسيطرة دخيل طارىء معروف باسم الهندو تشان ـ تان الذي أرسل الى امبراطور الصين ، آنئذ ، هدية تتألف من أفيال حَسُن ترويضها . والملك هو أمير هندي الحتد يلقب « Chandan » ، وهو لقب جـــاري الاستعمال عند الكوشانا ، من سلالة كانيشكا . من المعقول جداً ان تكون الفتوحات التي قام بها الغوبتا في هذه المقاطعات المتسهندة الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، دفعت أمامها عدداً من الامراء والبراهمان والادباء ، جلوا عن مواطنهم واستقروا نهائياً في تلك الربوع . وبفضل هؤلاء القادمين الجـــدد الذين اقتلعتهم الاعمال الحربية وقذفت بهم بعيداً عن مساكنهم ، انطلقت الموجة الجديدة من النفوذ الهندي في البلاد ، عناصرها الرئيسية كانت في معظمها من شرقي الهند وجنوبيها . وقد آل الامر بعـــد تشان ـ تان الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر ، الى ملك جديد يدعى كونديتيا ، وهو من براهمة الهند ، وقع عليه الاختيار ليتولى الامر في فو ـ تان باسم الشعب «الذي اخذ بتغيير قواعد الحياة واسسها وفقاً لمناهج الهند » ، كما جاء في تاريخ آل لوانغ . وقد أرسل احد خلفـــائه المدعو سري اندرافارمان او سريستافارمان عدة بعثات الى بلاط ملوك سونغ Song ، وذلك بـــين ٤٣٤ و ٤٣٨ ، كما أبى ان يؤازر ، عسكرياً وحربياً ، مملكـــة لن ـ لي (٤٣١ ـ ٤٣٢) في حروبها ضد التونكين .

ومن سلالة هؤلاء الامراء ، طلع المدعو جايا فارمان ، الذي كان أوفد بعثة من التجار الى مدينة كنتون ، غرقت سفينتهم ، لدى عودتهم فتحطمت على شواطىء لِن ـ يِي ، ولجأ بينهم من لجأ ، ومعهم راهب هندي اسمه ناغازينا . وفي سنة ٤٨٤ ، ارسل جايا فاورمان ، الراهب المذكور بمهمة رسمية الى ملك تسي ، في الجنوب ، يلتمس مؤازرتهم عسكرياً في حمـــلة يوجهها ضد لِن ـ يِي . وحمل هذا الموفد السياسي معه : « صورة لأريكـــة الملك من الذهب المنقوش المصنوعة من جلود الضباب، وفيلاً مصنوعاً من خشب الصندال، وصورتين لاحدالمعابد مصنوعتين من العاج وإنائين من الزجاج ، وطبقاً من فلوس السمك لتقديم التمر » . ويتبين من العريضة التي كان عليه ان يرفعها لملك تلك البلاد ، ان البوذية كانت معروفة ومنتشرة في فو ـ تان ، مع ان عبادة سيفا كانت هي المسيطرة عليها، اذ ذاك . ومقابل ذلك استودع الامبراطور السفير هدية للملك جايا فارمان ، مجموعة من خمسة اثواب من الاقمشة الحريرية الفاخرة تتناوح بين البنفسجي والعقيقي ، عليها رسوم صفراء وزرقاء وخضراء ، ولكن ابى ارسال المساعـــدة العسكرية المرجوة . ويتابع تاريخ آل تسي الجنوبيين روايته فيقول :

« سكان فو ـ تان مشهود لهم بالحيلة والمكر ، فيستولون عنوة على سكان المدن التي لا تخضع لهم ويتخذون منهم أرقاء ، من مقتنياتهم الوافرة ، الذهب والفضة والاقمشة الحريرية ، ويرتدي أولاد الاسر الكريمة الديباج ، كما تلبس

النساء عندهم أقمشة تشدها من الوسط وترسلها على أجسامهن بدون خياطة . اما الفقراء بينهم فيسترون عورتهم ببعض المنسوجات الغليظة . ويشتغل السكان في فو ـ نان بصنع الخواتم والاساور الذهبية ، وصنع صحائف الفضة. ويبنون مساكنهم من الخشب . اما ملكهم ، فيسكن منزلاً ذا أدوار متعددة ، ويقومون أسواراً حول منازلهم من دعائم الخشب . وينبت على مقربة من البحر نوع من النبات أوراقه من ٨ الى ٩ أقدام ، يضفرونها ويجعلونها على أشكال متنوعة يغطون بها منازلهم . ويفضل الناس لسكنانم الاماكن المرتفعة . ويصنعون لهم قوارب من جذوع الشجر يبلغ طول الواحد منها من ٨٠ الى ٩٠ قدماً ، ويجوفونها بعرض ٦ ـ ٧ أقدام ، ويجعلون مقدم القارب ومؤخرته على هيئة سمكة . فاذا ما انتقل الملك ، ركب فيلاً ، وهو مطية يركن اليها النساء ايضاً . ويتلهى الناس بالتفرج على مصارعة الديكة والخنازير . وهم لا سجون لديهم . فاذا شجر بينهم اختلاف ، رموا في الماء الغالي خواتم من الذهب او بيضاً برغم المتشاجرون على التشالها . وبدلاً من ذلك ، فهم يحمون سلاسل معدنية حتى تحمر ، على المتشاجرين ان يحملوها في ايديهم مسافة اقدام فتحترق اصابع المذنب ، اما البريء فلا يصاب منها بأذى . او انهم يلقون بهم في الماء فمن كان الحق عليه انحدر الى القعر بينما البريء منهم يطفو على وجه الماء . من فاكهة البلاد عندهم قصب السكر ، والرمان والبرتقال والتمر . اما الطيور والثدييات فهي ذاتها الموجودة في الصين » .

وبعد ذلك بقليل ، أي بين ٥٠٢ و ٥٥٦ ، يزودنا تاريخ آل لانغ بمعلومات اضافية جديدة :

لا آبار لهم في المحلات التي يقطنونها . ويشترك عدد من الأسر في التزود بالماء من حوض مشترك . من عاداتهم عبادة القوى الطبيعية والجوية ويضعون لها صوراً من البرونز : فمن كان له منها وجهان صنعت له أربع أيد ، ومن كان له اربعة وجوه ، صنعت له ثماني أيد ، تمسك كل واحدة منها بشيء ما : عصفور هنا ، وولد هناك ، او حيوان هنالك ، او القمر والشمس . يركب الملك في تجواله وتنقلاته الفيلة وكذلك سراريه وحظياته ورجال البلاط . فاذا ما جلس الملك جثم على احدى ركبتيه بينما يرفع الثانية ، وتفرش الارض امامه بالطنافس والسجاجيد ، توضع عليها آنية الذهب والمجامر . في المآتم والجنائز ، تحلق الذقون ويقص الشعر . والجنائز على أربع طبقات . فالدفن في الماء وذلك باطراح الجثة في النهر ، والدفن بالحريق تستحيل معه الجثة رماداً ، والمواراة في الثرى او في قبر ، والدفن في الهواء الطلق بحيث تأتي الطيور والنسور وتتلاش جثة الميت .

توفي جايافارمان عام ٥١٤ ، بعد ان انعم عليه الامبراطور عام ٥٠٣ بلقب « قائد الجنوب وملك فو ـ نان » . في عهده ، دخل راهبان من فو ـ نان ، الصين ، فاستخدمهما الامبراطور لمعرفتهما اللغة السنسكريتية معرفة جيدة ، لنقل الكتب الهندية المقدسة وترجمتها الى الصينية . وهكذا استمرت العلاقات الثقافية والدينية ناشطة بين الاقطاب الكبرى في آسيا ، وهي الهند والصين والهند الصينية .

وخلفه على العرش ابنه المدعو رودرا فارمان الذي ارسل ، الى الصين ، بين ٥١٧ و ٥٣٩ عدة وفود سياسية ، فكان بذلك آخر ملوك دولة فو ـ نان التي زالت من الوجود ، عقب حوادث مبهمة تضرست بها البلاد وأدت ، في اواسط القرن السادس ، الى انشقاقها فانقسامها على نفسها ، تاركة وراءها ذكراً لا يمحى في شبه جزيرة الهند الصينية ، بعد ان قيض لها ان تلعب دوراً بارزاً ، طوال خمسة قرون . وقام في البلاد حكم جديد تولته اسرة ملكية يعرفها الصينيون باسم تشان ـ لا ، احتلت عاصمة فو ـ نان عنوة ، واضطر الملك الى الهرب ناجيا بنفسه نحو الجنوب . واول عاهل من هذه الاسرة الجديدة هو شيتراسينا . واذ ذاك تألف من فو ـ نان ومن تشان ـ لا دولة جديدة ، تولى الامر فيها الملك بها فافارمان الاول ، الذي كان لا يزال يملك ، عام ٥٩٨ عند مطلع امبراطورية الخمير التي بقيت حتى اواخر القرن

الثالث عشر ، اكبر دولة ارتفع لواؤها في الهند الصينية ، اذ ذاك ، والتي خلفت لنا حضارة عريضة ، لا تزال معالمها الماثلة تحدثنا عن العظمة التي نالتها والسيادة التي حققتها .

سلالة الشمبا

بقيت دولة لن – يي ، في هذه الحقبة ، تتابع حملاتها العسكرية ضد جي – نان كما ان اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها زرعت الخوف في خليج تونكين، كما بقيت على عادتها في ارسال الجزية وبعث الوفود الى بلاد الصين . وقد تم للملك فان – ون ان يفتح قسماً من جي – نان ، لم يلبث ان فقده فان – فو ، عام ٣٥٩ ، الذي يرى البعض انه هو نفسه الملك بهادرا فارمان الاول ، الذي ترك لنا عدداً من الرُقم والكتابات السلسكريتية وغيرها من النقائش التي تساعدنا على تكوين فكرة صحيحة ، عما كان عليه الوضع الديني في تلك المملكة ، حيث نرى عبادة سيفا تسيطر على البلاد ، وتهيمن فيها على النفوس . ولاول مرة نشاهد ، على ارض الهند الصينية الننفا الملكية هذه العبادة التي اخذت رمزاً لها قضيب *Phallus* سيفا ، وهو رمز بقاء الملك واستمراره وفي سبيله شيد الخير والشامز د الجبال الهيا كل ، مأوى للملك الإله الذي كان يلقب بـ : بهادرسفارا . وقد اضطر حفيد الملك فان – فو او ابن حفيده ان يتنازل عن عرش جدوده (القرن الخامس) لحساب ابن اخيه ، وسافر الى الهند لتكتحل عيناه بمرأى نهر الغانج ، الامر الذي يحملنا نفترض انه كان هندياً ورعاً وتقياً .

كان الشامز لا يزالون بعد ، على ما عُرفوا به من خشونة الطباع وجفوة الاخلاق ، قراصنة قبل كل شيء ، يزرعون الخوف في قلوب جيرانهم من سكان مقاطعة جي – نان ، بعد ان استباحوا شواطئها ، عام ٤٣١ في حملة ضمت اكثر من مائة سفينة من سفنهم . وقد حاولت الصين تأديبهم في حملة اعترضتها عاصفة هوجاء ، فاعادت الكرة عليها ، بعد ذلك بقليل ، اي سنة ٤٤٦ ، ادت الى نهب عاصمة الشامز ، الواقعة في مقاطعة هويه ، وسلبت منها اكثر من ١٠٠،٠٠٠ ليرة ذهباً . وبعد ان اعلن خضوعه ، راح ملك الشمبا يوالي بعثاته ووفودها الى الصين كما فعل عام ٤٥٦ و ٤٥٨ و ٤٧٢ ، ثم بين عام ٥٠٢ و ٥٢٧ .

وبعد ان توالى على الملك اسرة جديدة ، راح ملوكها يرسلون كعادة اسلافهم بعثاتهم الى الصين . وفي عام ٥٣٠ ، تقلد الملك الجديد الولاية من الصين . الا ان خلفاءه من بعده ، حاولوا الخروج عن طاعة الصين وزحزحة نيرها عن اعناقهم الا ان حظهم العاثر جعلهم يتضرسون بيأس اسرة سويه الصينية الجديدة وقوة بطشها ، فاجبرتهم على استئناف التقاليد المرعية ووصل ما انقطع منها . وسنرى الشمبا ، في عهد دولة تانغ ، يوسعون نطاق مملكتهم ، في الجنوب ويزرعونها بالاديار والوقوفات الدينية .

شبه جزيرة الملايو والانسولاند

تشير المعلومات التي يمكن التعويل عليها ان شبه جزيرة الملايو والانسولاند بلغت في هذه الحقبة درجة قصية من الاخذ باسباب الحضارة الهندية : فالسنسكريتية فيها هي اللغة الرسمية ، والبوذية والهندوكية بلغتا منها اعلى

مبلغ ، في وقت كانت فيه مدنية سكان البلاد الأصليين لم تكن بعد تطورت كثيراً . والملايو مقسمة الى عدة ممالك صغيرة ضالعة بالحضارة الهندية ، على درجات متفاوتة في تطورها . يرتدي الناس فيها ثياباً قطنية وشعورهم مسترسلة ، يتحلون بالحجارة الكريمة ويتزينون بعقود اللآلىء والجوهرات ، وقد جودوا البناء ، وعرفوا إقامة الحصون والإسوار حول مدائنهم ، وبنوا لها الابواب المتحركة على مصراعين . والى هذا ، هنالك اقوام لا يزالون على همجيتهم الاولى يجهلون فن العمارة وبناء الاسوار واتخذوا بديلاً عنها صفاً من السياج . والملك يحيى حياة كلها بذخ واسراف يحيط به العديد من البراهمة ، وهو نصف مستلق على سرير مصنوع من جلد الضب ، فاذا ما غادر قصره ، فعلى فيل غليظ الجثة تعلوه خيمة بيضاء اللون يتقدمه ضاربو الطبول وحَمَلَة الاعلام، يحف به حرسه الذي يسمّر الخوف في القلوب لفظاظته وخشونة طباعه. وكانت جزر صومطرة وجافا تابعتين ، آنذاك ، لملوك هذه البلاد ، تطالعنا فيها معالم الحضارة الهندية ، جاءتها من جنوبي الهند متجهة نحو رأس كومورين . ومما لا شك فيه قط ان هذه البلاد تتبادل التمثيل والبعثات مع الصين ، في القرنين الخامس والسادس غير ان الاشياء الفنية التي امكن العثور عليها وجمعها تنم عن تأثير الهند البالغ، اذ نرى بينها تماثيل لبوذا من طراز مدرسة امارافاتي (جزيرة صومطرة) أو من طراز الغوبتا في جزيرة بورنيو ، مؤيدة بذلك المعلومات المستمدة من النقائش الحجرية .

٣ ـ الامبراطورية الصينية في اعقاب أزمة القرن الثالث

في الوقت الذي كانت فيه الهند تشع بعيداً الى ما وراء حدودها ، كانت جارتها الصين تتربص الدوائر وتعاني الصعاب في الداخل . قام على الحكم ، بعد زوال دولة الهان فيها ، سلالة تسين التي اسسها ساو ـ ما ، على انقاض الامبراطورية السابقة . الا ان الامبراطورية الجديدة لم تتمكن من السيطرة على الصين برمتها الا لفترة عشرين سنة تقريباً (٢٨٠ — ٣٠٤) اذ اخذت غزوات البرابرة : من تتر وهونز ومغول ، تقرع ابوابها بعنف ، وتحاول بنجاح ، مراراً ، عبور حدودها من الشمال . وقد كان من جراء إقامة هؤلاء الاقوام من قبائل رحّل في المقاطعات الشمالية ، ان ادت منذ عام ٣١٦ ، الى انقسام الصين دولاً وممالك تناحرت فيا بينها ، طيلة قرنين كاملين ، جرّت على البلاد الذل والهوان .

انها لحقبة حالكة مظلمة ، هذه الحقبة التي تكالب فيها الغزاة الفاتحون ، بين ٣٠٤ — ٣١٦ على اقتطاع اوصال الصين فذاقت البلاد من بطشهم وهمجيتهم ألواناً من العسف وصنوفاً من الجور والاذى . ففي عام ٣١١ ، استولى الغزاة الطارئون على العاصمة لو ـ يانغ ، والقوا القبض على الامبراطور ، وذبحوا ، اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ ـ نغان ، وساموا الامبراطور الاسير الذل والمهانة ، ثم قتلوه شر قتلة ، بعد ان استخدموه ساقياً ، لسيد البلاد الجديد ، الطاغية

الماني : هيونغ ـ نوليوتان ، الملقب بحق : « أتيلا الصين » إمعاناً منهم باذلاله وتحقيره . وقد تكررت المأساة ذاتها ، بعد لأي قصير من الزمن ، عندمـا قام الهيونغ ـ نو بغزوة جديدة أوصلتهم الى تشانغ ـ نغان واقاموا فيهـا . وكان مصير آخر ملوك تسن ، في الشمال ، وهو الامبراطور منتي (٣١٢ ـ ٣١٦) الذي وقع في قبضة ملك الهونز ، ان امسى غاسلاً الصحون والطناجر ، ثم أعدم .

فامام هذه الاهوال التي انزلها الغزاة بالصينيين ، وما الحقوا بهم من مهانة ومذلة، بعد ان استباحوا باحتهم وزرعوا البلاد خراباً ودمـاراً ، راح السكان ينزحون عن املاكهم ويفرّون بانفسهم ، نحو الجنوب . وفي عام ٣١٨ ، نُودي في نانكين بامبراطور جديد من اسرة تسن ، فكان ذلك إيذاناً بان هذه الدولة لن يُكتب لها استرجاع الشمال . وكان من جراء هذه الهزات العنيفة ان زادت من الفوضى في البلاد ، وافقدتها بالتالي لذة العيش الرضي وجعلت أمن البلاد الداخلي ريشة في مهب الريح ، وزادت من شقاء الشعب المسكين وبؤسه . وعزا الادباء ورجال الفكر سقوط دولة الهان وزوالها من الوجود ، الى فشاء سوء الاخلاق في المجتمع الصيني ، اذ ذاك ، بعد ان دب الفساد في كل مكان ، فأوهن الطبقات الاجتماعية وخلخلهـا ، فتفسخت وانساحت وذهب ريحها في الارض ، وليس من يرعوي او يبالي بين الاشراف والنبلاء والطبقة البورجوازية . كل شيء كان يتوقف على اخلاق الامبراطور الذي بهديه يأتم الناس وعلى منواله ينسجون وعلى خطته ينهجون : أفَلَم يكن الامبراطور التقويم المتبع وقسطاس العدل المروم؟ فسوء سيرة الامبراطور وفساد سريرته ذهب بالتوازن الذي كان يمثله وشجع الآخرين على احتذاء حذوه ، وعلى التحلل من الاخلاق الفاضلة ، والتنكر لمكارم الاخـلاق والعبث بالفضائل البشرية . فلكي يعود النظام العام ويعود الناس الى الاعتصام بمكارم الاخلاق ، كان لا بد من ذهاب الدولة وزوالها . فالأزَمَة التي نزلت بالبلاد وكادت توردها الهلكة ـ كما مر معنا في المجلد السابق من هذا التاريخ ، احدثت البلبلة والفوضى في نظام البـلاد الاجتماعي والاقتصادي ، واقلقت الخواطر والضمائر ، واثارت الشكوك في قلوب الحكماء ودفعت المفكرين الى اليـأس والقنوط ، مما حمل الحكيم الصيني تشونغ ـ تشانغ ـ تونغ (حوالي سنة ٢١٠ تقريباً) على القول : الى أين المصير يا ترى ؟

فسلالة تسن الملكية التي استرسلت في البذخ وانصرف ملوكها لأطايب الحياة ولذائذها، أغفلت كل ما من شأنه ان يعيد النظام الى نصابه ويضبط سير المؤسسات العامة وحسن عملها . صحيح انها حاولت ، في اول عهدها ، الاهتمام بمرافق الزراعة ، عمود الاقتصاد الصيني وركنه الركين ، وذلك عن طريق انشاء المزارع وتعمير الارض ، واقامة السدود للري ، وتوزيع الاراضي على الأسر الصينية بنسبة معينة . كذلك حاولت الحد من اطماع كبار الملاكين وصدهم عن توسيع أملاكهم عنوة واغتصاباً ، والحؤول دون منعهم افراد الشعب من الانتفاع بالاحراج ، ومجاري الانهر ، والمرتفعات الجبلية . وفي هـذا السبيل عينوا جيشاً من الموظفين للاشراف على حسن

تطبيق هذا الاصلاح الزراعي الذي اخذت الدولة بأسبابـــه . الا ان كل هذه المحاولات ذهبت سدىً وصارت الى الفشل . فالملكية الكبيرة بقيت الاساس الذي قام عليه المجتمع الصيني . ولم يطمع هذا الشعب الضعيف ، المهيض الجناح ، البائس اليائس ، الذي يتأكله الاسى والاسف ، الا ان يلوذ بهذه المثالية الدينية ، قانعاً من امره ودنياه ، بالكفاف باهون الشرور ، والقناعة بأي قسمة ضيزى ، بعد ان وقعت البلاد فريسة المحسوبية والاتجار بالنفوذ .

الصين الجنوبية

عندما رأت السلطة الامبراطورية نفسها مرغمة للتخلي عن القسم الشمالي من البلاد للغزاة من البرابرة ، اخـــذ الشعب ينزح زرافات ووحداناً ، كما اخذت أسر تجلو بقضها وقضيضها عن الاوطان متخلية عن ارزاقها ومقتنياتها ، بعد ان سُدّت في وجهها ابواب الرزق وانقطعت امامها سبل العيش . والطبقـــة الارستوقراطية التي استقر معظمها في نانكين ، اخذت تطالب، كحق من حقوقها المكتسبة الاستئثار بالوظائف ومرافق البلاد الكبرى .

وهذا القسم من البـــلاد الذي تساقط عليه جيش لجب من النازحين الذين نجوا بانفسهم من الشمال ، لم يكن الصينيون استكلوا ، بعد ، تعميره واحياءه . صحيح ان إقامة العائلة المالكة في هذا الشطر من البلاد ، ساعد كثيراً عملية التصيّن وحمل الاهلين على الاخـــذ باسباب المدنية الصينية وتمثل حضارتهـــا ، كما ازدادت الحركة نشاطاً ، باقامة الموظفين ، واصحاب الرتب العالية في البلاط ، والادباء والمفكرين ، واصحاب المهن والحرف ، بين ظهراني الشعب ، والخلود الى الدعة والاستقرار ، بين افراده . وعملية التطبيع والتخلق بالاخلاق الصينية هذه ، لم تتم بالسهولة المرجوة . فالملايين من اللاجئين الذين اقتلعتهم العاصفة وطوحت بهم نحو الجنوب، اقاموا فيه تراودهم الفكرة بالرجوع يوماً من حيث أتوا ، ويعاودهم الحنين الى الفردوس المفقود، ولن يعتم ان يعود اليهم استقرارهم المنشود . ولهذا رفضوا ان يدفعوا مـــا يترتب عليهـــم من رسوم ، وأبوا ان يقوموا بالتزاماتهم الوطنية . وعبثاً حاولت الحكومة اعادتهم الى الصواب وتذكيرهم بوجوب اعتماد جادة الاعتدال والرشد . وعندما ادركوا ان الوضع قد يطول أمده ، وربما امتدت سحابته اكثر من الوقت المتوقع ، قبلوا باقطاعهم بعض الأرضين في جو تلعب فيه المصالح الشخصية وتتضارب المنازع الفردية . ولم تكن سنة ٣٦٤ حتى استطاعت الدولة ان تفرض عليهم ضريبة الاملاك واستيفائها . ففي الحين الذي راح فيه اللاجئون يتجاذبون المنافع ويجرون المغانم اخـــذت سفينة الدولة تغوص في بحر من الفوضى المخزية فتزول من الوجود مفسحة المجال لغيرها .

كان لا بد من الانتظار الى عام ٤١٠ ، حتى نرى رسيس الحيـــاة يدب من جديد في جسم هذه الامة ، بعد ان تمكن ، اسكافي قديم اصبح فيما بعد قائداً باسم ليو ـ يو ، ان يسترجع ، باسم سلالة تسن ،مقاطعة نان ـ ين من أيدي المغول مو ـ جونغ ، كما تمكن من استرجاع مملكة هيو ـ تسن في تشن ـ سي ويستولي على مدينتي تشانغ ـ نغان ولو ـ يانغ . لم تكن هـــذه النجاحات .

سوى برق خلّب ، اذا استطاعت قبائل هيونغ ـ نو من استرداد تشانغ ـ نغان ، كما ان ليو ـ يو توصل ، بعد ذلك بسنتين ، الى خلع آخر امبراطور من اسرة تسن ، وتأسيس السلالة الملكية الاولى من اسرة سونغ . واستطاعت هذه السلالة ان تجر أذيالها متعثرة حتى سنة ٤٧٩ ، دون ان تتمكن من القضاء على اسباب الفوضى واستئصال شأفة فساد الاخلاق في البلاط وحاشيته ، ولا ان تكون أهلاً لأن تحكم بلاداً لتجتاز مرحلة من الازمات الخانقة . وخلافاً لما كان منتظراً ، فقد تعاقب على الحكم سلسلة من الملوك الفاسدين المفسدين ، او من الشباب الغر الذين تنقصهم الخبرة انمازت حياتهم بالاجرام السياسي او قتل امراء الاسرة المالكة ، او الاوصياء على العرش وعشيقات الامبراطور . وهو عهد ملطخ بالدماء المطلولة ، في غمرة من البذخ وفساد الاخلاق ، وقد فشا السكر والتهتك حتى بين اصحاب التيجان .

وقد خلف اسرة سونغ على الحكم، سلالة تسي (٤٧٩ – ٥٠٢) فسارت على غرار سابقتها، فكأنها من معدن واحد وطينة واحدة ، ففي جو من القتل السياسي والاجرام ، صار الامر في الدولة الى المقربين واصحاب الحظوة من الخاصة . وقد كان عهد الامبراطور لنغ ـ فو ـ تي (٥٠٢ – ٥٤٩) مرحلة قصيرة من التمهل في اتيان الموبقات والمنكرات الشائنة . فقد كانت حياته من بساطة العيش ما قارب الزهد ، ومع ذلك فقد عرف هذا الامبراطور ان يوفق بين شجاعة الجندي الباسل الاديب الذوّاقة . واعتنق، عام ٥١٧، البوذية وانقطع بكليته لواجباته الدينية ، حتى انه دخل بعد ذلك بعشر سنوات طغمة الكهان ، بحيث أهمل واجباته ومسؤولياته في الحكم فانهالت على الامبراطورية الازمات واضطرب حبل الامن فيها بعد ان اشتد ساعد الجند المرتزقة ، وراح احدهم يغتصب عام ٥٢٨/٢٩ ، الملك ويستأثر به لمدة ثلاث سنوات ، ويجعل من نانكين عاصمة ملكه . وفي سنة ٥٥٦ ، صار العرش الامبراطوري في الجنوب الى سلالة جديدة تولى الامر فيها اسرة تشن التي عجزت هي الاخرى ، عن ادخال أي اصلاح في الدولة ، فلم تمهلها اسرة سواي فاحتلت نانكين ممهدة بذلك السبيل لتوحيد الصين من جديد .

الصين الشمالية

وكانت قبائل البرابرة ، في هذه الحقبة ، قد انقضّت على الصين الشمالية واقامت فيها دولاً وممالك ناصبت بعضها العداء واخذت تتناحر فيما بينها . من هذه الدويلات : هيونغ ـ نو في شانسي ، وتبغانش في منطقة تا ـ تونغ ؛ ومو ـ جونغ في منشوريا الجنوبية . صحيح ان اسرة هيونغ ـ نو استطاعت ان تؤلف ، في الشمال ، مملكة قوية عاصمتها تشانغ ـ نغان لم تقل مساحتها عن مساحة الدولة التي نشأت في الصين الجنوبية . غير ان ما تعرضت له من المنازعات العنيفة الدامية ، في الداخل ، بين الغزاة ، جعل من المتعذر جداً قيام سيادة مركزية ، فلم نكن لنرى الا مذابح لا حد لها ، وفساداً في الاخلاق وغير ذلك من الموبقات التي يندى لها الجبين خجلاً . وكان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الرابع ، اذ نهض ضابط من اصل مغولي ، كما هو الراجح ، يستقل بالامر في مدينة تشانغ ـ نغان ،

ويؤسس فيها دولة . وقد تمكن ابنه فو - كيان (٣٥٧ - ٣٨٥) من تدويخ مملكة مو - جونغ وضمها الى املاكه وأصبح بذلك سيد الصين الشمالية ، بالرغم من تصدّي امبراطورية الصين في الجنوب له ، وقيامها لاول مرة ، بهجوم معاكس . وكذلك يشتد في هذه الحقبة ساعد امارة تبغاتش ، التركية الاصل ، اذ استطاع زعماء امرة توبا ان يؤسسوا لهم مملكة ويحكموها من ٣٩٦ - ٣٩٨ باسم ملوك وابي *Wei* ، ثم الى سنة ٥٣٤ ، بعد ان دخل القسم الاكبر من الصين الشمالية تحت امرتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من غزوات البدو الرحل في الفيافي المجاورة لهم ، فأنشأوا بذلك وحدة عاشت مائة وخمس سنين . ويقصّر القلم عن وصف العظمة التي بلغتها اسرة وابي في الحكم ، اذ بفضلها رسخ امر البوذية في الصين ، وتلبست باخلاق الصينيين وطباعهم . فكانت ادارتهم من اكبر العوامل في نشر أسباب الحضارة في البلاد . فالتقوى التي عُرف بها ملوك هذه الدولة ، تركت اثرها عميقاً في النقش وفن الحفر ، اذ بلغ الفن الديني ، في هذه الحقبة الذروة من الاتقان ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه ، بحيث يمكن مقارنتها بهذه الروح التقوية التي ميزت معاصريهم من ملوك الدولة الميروفنجية ، فكان ذلك خير اداة لتأمين وحدة البلاد وصهرها في بوتقة واحدة . وهنا ايضاً نرى الديانة تلبس عادات واعرافاً تنتزى بالهمجية وان بقيت بعيدة ، مع ذلك ، عن المنكرات والفظائع التي اتاها التتري الملقب باللحية الزرقاء : شا - هو (٣٣٤ - ٣٤٩) الذي لم تمنعه غيرته على البوذية ورعايته لها ، من ان يتلذذ ، وهو الى مائدة الطعام ، بشواء لحم بعض محظياته الجميلات .

وتبقى ، مع ذلك ، قصة الامبراطورة هو (٥١٥ - ٥٢٨) خير مثال يُضرب على وحشية القوم وهمجيتهم بالرغم من اعتناقهم البوذية والعمل بفرائضها . فقد قُيض لها ان تدخل حرم الامبراطور ، محظية من محظياته المحببات ، سعياً من احدى عماتها وهي راهبة بوذية عُرفت بالبلاغة والفصاحة وذرابة اللسان وخرّجتها في تعاليم البوذية . فقد كانت الوحيده من بين هؤلاء السراري التي رغبت بالمجاب صبي ، وهي رغبة تجر الوبال على صاحبتها لو تحققت ، اذ ان العرف المتبع عند ملوك دولة وابي كان يحتم قتل ام ولية العهد ، تفادياً لقيام الامبراطورة الضرة بمحاولة اغتصاب العرش ، ومع ذلك ، ابت ان يجروا لها اية عملية اجهاض ، ووضعت ابناً دون ان يأمروا بقتلها ، ولم تمتم ان اصبحت بعد موت الامبراطور تشي - سونغ ، وصية على العرش ، تحكم باسم ابنها الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات . وتميز حكمها بالحزم والشدة والعزم بعد ان تسلمت زمام امور الدولة ، واشرفت على سير الادارة الحكومية ، الى ان توفي ابنها فجأة وله من العمر ١٨ سنة . وقد حامت حولها الشبهات فراحوا يتهمونها بانها دبرت قتله بدس السم له . ولكي تخفف من غضب الشعب راحت تدعي ان ابنها ترك وريثاً للعرش اتضح فيما بعد انها ابنة . واذ زينت لها النفس الامارة بالسوء ان الامور استقرت وان ثورة الشعب هدأت ، راحت تزعم ان القضية مجرد سهو بعد ان التبس الامر على القابلة ، واقترحت ان ترفع على العرش ابن عم ابنهـا ، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة بعد ، تكون وصايتها عليه امتداداً

لادارتها وحكمها . ونشبت على الاثر ثورة حمراء قام بها الشاكون المتذمرون ، يتزعمهم احد قواد الجيش الذي امر بمحاصرة القصر الامبراطورة ولكي تتفادى غضبة الثائرين وانتقامهم ، التجأت الى احد اديار البوذيين وقصّت شعرها ، وادعت عبثاً انها سلكت الحياة الرهبانية . فبعد ان قبض عليها حكموا عليها بالموت غرقاً ، فطرحوها في نهر هوانغ ـ هو . كل هذا ، وقد برهنت الامبراطورة هو عن غيرة شديدة على البوذية والمحافظة على طقوس العبادة . فبإيعاز منها سافر سونغ ـ يان وصاحبه هواي ـ شانغ قاصدين الهند ، وحملا معهما ، لدى عودتهما ، ١٧٠ كتاباً من كتب البوذية على مذهب الوسيلة الكبرى .

وفي سنة ٥٣٤ انشقت مملكة وابي على نفسها الى شطرين : شطر هو ـ تان الذي عاش ١٦ سنة ، وشطر شانسي الذي استمر سبع سنوات بعد زوال الاول . ولاسرة سواي يعود الفضل الاكبر في ضم الصين الشمالية التي رسفت طويلاً تحت حكم الغزاة الدخلاء ، الى امبراطورية الصين ، في الجنوب التي عانت ، الى عهدهم ، ما عانت من سوء الحكم وفساد الادارة .

استمرار العمل الحضاري في الصين

بقيت الحضارة في الصين آخذة بأسباب التطور ، بالرغم مما رنها من شوائب وعورات في الظاهر ، وبالرغم مما تساقط عليها من ضربات ونزل بها من كوارث قاصمة . فقد كان لها من الحيوية والقوة والنشاط ما صانها من الانسياح ، وأمّن لها الاستمرار ، بالرغم مما تحالف عليها من ويلات . فهؤلاء الملوك البرابرة أنفسهم أدركوا جيداً ضرورة المحافظة على هذه الحضارة وصيانتها من كل ما من شأنه ان يلحق بها الاذى او ينتقص من قيمتها . فامتد خيطها ولم ينقطع بالرغم مما دق واسترق وأمكن تمتينه بفضل ما أدخل على البلاد من اصلاحات جديدة منها تبني الخط الصيني ، وانشاء نظام عقاري جديد ، واقتباس البوذية .

فالخط الصيني تمتع باستقلاله بمعزل عن اللغة ، اذ هو تصور رمزي للافكار ، لا يبالي كثيراً ولا يهتم لما يطرأ على الالفاظ من تغيير يتعلق بالنطق . ولهذا كان الخط في الصين ، كما يقول فيه ولهلم ، أشبه ما يكون بجريدة حية ناطقة للأطوار المختلفة التي مرت بها المدنية الصينية تشهد على ديمومة الافكار واستمرارها بالرغم من طروء الغزاة للبلاد واقتطاعهم لبعض اجزائها . واذا كان على اسياد البلاد الجدد ان يستعملوا اللغة الدارجة فيها، كان لا بد لهم من ان يتعلموها ويستعملوها فيسهل عليهم الاخذ بأسباب الحضارة الصينية .

ولم يقل نظام الاراضي المعمول به في البلاد، فعلاً او اسماً ، أهمية في تأمين استمرار الحضارة الصينية وديمومتها . فالمشكلة كانت لعمري تختلف في شمالي الصين والسلالات الملكية التي قامت فيها ، عنها في الجنوب . فقد انصرف جل هم الحكام، في الشمال، الى تشغيل اكبر عدد ممكن من اليد العاملة في الأرض اكثر منه الى تأمين استغلال الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ولذا راح ملوك اسرة وابي يحاولون توزيع الاراضي بالسوية ، اذ ان الاملاك الصغيرة المتروك استثمارها

الفلاحين ، تتطلب ، اذا ما تساوت مساحات ، قدراً من اليد العاملة اكبر مما تتطلبه الاملاك الكبيرة . الا انها لم تستطع ، لوحدهـا اجراء اي تخفيض في مساحة الاراضي غير المزروعة ، ولا ان تؤمن المدخول المالي الذي كان من المتوقع ان يؤمنه نظام السقاية ونظام التصريف الذي عملت به الحكومة في الاملاك الزراعية الواسعة . ولذا عُمِل بالنظامين معاً في وقت واحد .

فغزوات البرابرة وسيطرتهم على شمالي الصين هـــدد البوذية بكارثة ماحقة ، اذ راح الغزاة يضيقون عليها الخناق ويضطهدونها لدرجة انهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع. وعندما استفحل شان هذه الغزوات ، اخذ الرهبان البوذيون ينزحون عن لو - يانغ ، ملتحقين بالبلاط الامبراطوري الذي إنتقل الى نانكيين ، مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد والاديار بعد ان عاث فيها الغزاة واستباحوا باحتها ، وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف فنية ، بحيث لم يبق منها سوى ٤٢١ معبداً من اصل ١٣٧٥ . وغيّر اباطرة اسرة واي ، فيا بعد ، موقفهم العدائي من البوذية ، وعاملوا اتباعها ومريديها بالحسنى ، فاعتنق بعضهم مقالتها وقالوا بتعاليمها ، حتى أن احدهم وهو الامبراطور هونغ ، تنازل عن العرش ، عام ٤٧١ ليدخل احد الاديرة ويقضي مـا تبقى من حياته راهباً . ان تصرفاً من هذا النوع كان ينبع ، ولا شك ، من تقوى هؤلاء المرتدين الحديثي العهد ، كما كان يرمي ، من جهة اخرى ، الى اهداف ديبلوماسية . فالبوذية ، هــــذه الديانة التي دخلت البلاد من الخارج، والتي كانت تزرع في روع أتباعها الايمان بقدرتها على خلاص نفوسهم ، كانت تتسع لاقامة علاقات مع البلدان التي كانت ، بالقوة ان لم نقل بالفعـل ، منطقة لانتشار الحضارة الصينية فيها . ومها يكن ، فقد بلغت البوذية في الصين ، في القرن السادس ، ما بلغته المسيحية في جرمانيا ، خلال الحقبة ذاتها .

ومن الصين الشمالية انطلقت اولى بعثات المرسلين البوذيين الذين لم يكونوا ليقتنعوا بما لديهم من الكتب البوذية ، بينا كان الرهبان البوذيون في الهند ، يخاطرون بانفسهم ويتجشمون المخاطر والمشقات ، في اتجاه الصين، يدعون للبوذية فيها ويعملون على انتشارها في ارجائها.وقد تكونت من هذه الرحلات مكتبات كاملة ومجموعات كبيرة من كتب البوذيين الدينية. فقد قام في اواخر القرن السادس، برعاية الامبراطور فو ـ نيان، دائرة للترجمة والنقل كانت تعمل بنشاط في مدينة تشانغ ـ نغان . وخير من يمثل هذه الحرية الثقافيـة هو الراهب البوذي كومارا جيفا ، الذي اشرف على هذا العمل فلا بأس اذاً ، من الوقوف قليلاً عنده ، نستجلي شخصيته البارزة ، فقد رأى النور في اسرة هندية من مقاطعة كوكا ، واخذته امه ، التي كانت ابنة ملك هذه المقاطعة بالذات ، وهو بعد في ميعان الصبا ، الى مقاطعـة كشمير ليتخرج في الآداب الهندية والبوذية على علمائها ورهبانها . وقد كان ابوه بوذياً ورعاً ، راودته الرغبة من قبل، في ان يسلك الحياة الرهبانية . وقد غادر الفتى كشمير بعد ان أتم تحصيله،وتوقف في طريق عودته الى كوكا ، في مقاطعة كشجار ، سنة واحدة ، يلازم علماء مدرستين من مدارسها كانتا قبلة انظار طـلاب العلم ورواد المعرفة ، كما كانت معاهدها موئل الثقافة وبهجة الرحالة الصينيين في ذلك العهـد .

وفي تلك الاثناء ، هاجم نائب ملك فو ـ كيان مدينة كوكا. عام ٣٨٣/٣٨٢، واخذ اسيراً معه الراهب كومارا جيفا الذي كان لمع اسمه واشتهر امره بين علماء زمانه . وهكذا كُتِبَ لهذا الراهب الذي يجري في عروقه الدم الهندي والكوتشيني ، والذي إستبحر بعلوم البوذيين ، على يد علماء كشمير ، ان يَقْدم الى الصين حيث اخذ بترجمة اهم كتب البوذية الهندية وتعاليمها ، ولا سيا الكتاب المسمى : « لوتوس الايمـــان القويم أو *Lotus de la bonne foi* » وكتاب *Sutralamkara* الذي وضعه الشاعر الهندي الاشهر اسفاغوزا بعنوان : « دليل الارض الطاهرة» وكتاب فينايا لأصحابه *Sarvastivadin* وكتاب المدرسة الناقدة أو *Madhyamika* .

ففي الوقت الذي كان فيه الراهب فا ـ بيان وصحبه يغادرون الصين في اتجاه آسيا الوسطى والهند ، كان عدد كبير من الرهبان الهنود ، يَصِلون باستمرار الى تشانغ ـ نغان او الى تانكين. فبعد قدوم فا ـ بيان بقليل، أي حوالي عام ٧٢٠، قام بوذا بهادرا يترجم الى الصينية: «اضفورة الزهر » ، وهي رسالة رمزية في وحدانية الكون ، هي بمثابة التوراة لدى القائلين بالباطنية في مقاطعة هوا ـ يَن . ففي مطلع القرن السادس ، أقام راهب هندي آخر ، اسمه بوذيذارما من تانكين عند ملوك وابي في سونغ ـ تشان . وتولى رئاسة فرقة دينية ينقطع أصحابها للتفكير والتجريد الديني والفلسفي ، هي ديانا ُعرِفت ، في الصين ، باسم تشان . وفي سنة ٥٤٨، قدم تانكين راهب هندي آخر يدعى بارامارتا وترجم فيها المجموعة الفلسفية الدينية المسماة: «الواسطة الصغرى » التي ألفها فازوباندو ، قبل ان يعتنق مقالة « الواسطة الكبرى » .

وبعد ان تم للفكر الفلسفي الصيني مثل هذه الكتب المهمة ، من قديمة وحديثة عرف الفكر الفلسفي الديني في الصين عهداً من الازدهار والتألق ، اتجه في كثير من مناحيه ليس شطر البوذية فحسب ، بل ايضاً نحو الكونفوشية والطاوية . وهكذا هيمن الفكر الهندي ، مع ان الفلسفة الصينية ، انتهت في أواخر القرن السابع ، بعد ان رفعت من سمو هـــذه التعاليم ، الى تكوين فلسفة طاوية لا تقل سمواً ومثالية عن الفلسفة البوذية .

وهذه الحركة الفلسفية الجديـدة التي برزت في الصين ، اذ ذاك ، وأدت الى ازدهار البوذية بحيث جعلت منها بحق ، منافساً للطاوية يُحسب لها ألف حساب ، لم تُلحق ، مع ذلك ، أي تغيير يذكر في صميم البوذية . فقد بقيت ديانة شعبية ، عماليـة . فالى جانب العمل المظيم الذي حققه القائمون على حركة الترجمة ، اخذت اولى المعابد المنحوتة في الصخر تظهر للوجود ، عام ٤١٥/٤١٤ ، ولا سيا في مقاطعة يون ـ كانغ على شاكلة المعابد البوذية المحفورة في قلب الصخور العالية في توان ـ هوانغ ، احدى مقاطعات أفغانستان (باميان وككراك) ، والى ما وراء هذه البلاد في الهند ، حيث يكثر عددها . وكان إعداد هذه الهياكل وتوضيبها ينشط او يخمد وفقاً لصروف الدهر في عهد دولة وابي ، واستمر الاهتمام بها حتى طلوع دولة تانـغ ، بينما انصرفت العناية ، في الوقت ذاته ، الى حفر معابد صخرية اخرى في لونغ ـ من ، الواقعة الى الجنوب من

لو ـ يانغ ، كما كان انشيء ، عام ٥٢٣ معبد سونغ ـ يو ـ سو ، في مقاطعة هونان .

ففي الحين الذي انقطع فيه بعض الرهبان الصينيين للتأمل والتجرد واوغلوا بعيداً في حركة التجريد الفلسفي البوذي الى ان بلغوا فيها الأوج ، وقف السواد الاكبر من الشعب عند بعض الطقوس العملية البسيطة ، الكفيلة بان تفضي بصاحبها الى الولادة من الجديد ، في السماء ، مع الآلهة ، أو اقله ، الى تأمين حياة بشرية تتوفر فيها اسباب الغبطة والسعادة. فالحياة النسكية في الاديار العادية مقصورة اساساً ، على الاخذ ببعض القواعد المهمة، كعزوف الراهب عن الزواج ، وعن اقتنائه خيرات هذا العالم لنفسه ، وان يعيش من الصدقات التي تقدم له ، وان لا يأكل الا مرة واحدة في النهار ، قبل الظهر بقليل ، وان يقوم بفروض التأمل . وعلى مثال الطاوية انشأت البوذية في الصين ، مراسم وطقوساً غاية في الروحانيات ، مع ما فيها من تعقيد، مخصصة لتكريم الموتى . اما العبادة نفسها ، فقد بقيت على بساطتها ، اذ كانت تقوم على فعل العبادة ، وعلى تقديم النذور والتقادم ، من زهور وبخور .

وكان تأثير البوذية ظاهراً جداً على الطاوية ، في هذه الحقبة : فالعزوبية امر مفروض على التلاميذ أو الرهبان الذين يعيشون عيشاً مشتركاً ، وانتشر القول بتقميص الارواح وتناسخها بين الناس ، وقد أصبحت الآلهة كائنات سماوية ، حرية بكل احترام ، مهمتها الاولى إرشاد الناس وتأمين خلاصهم الابدي . والى جانب الديانة الشعبية يطلع من صميم الطاوية مفكرون وفلاسفة عرفوا باستقلالهم الفكري ، أشبعوا بتعاليم المدرسة الكونفوشية ، وان كانوا خرجوا عليها لما آلت اليه من تحجر في مبادئها واوضاعها العامة . من هؤلاء المفكرين ، مثلاً تاو ـ يوان ـ منغ (٣٦٣/٣٧٢ — ٤٢٧) اكبر شاعر عرفه الشعر الغنائي ، قبل تانغ . والشيء المميز لدى هؤلاء المفكرين ، هذه الحرية الفكرية التي كثيراً ما أفضت بهم الى مواقف مستقلة ،غيرت اساساً من مجرى حياتهم الوظائفية أو المسلكية. وفي عهدهم اخذت تظهر بوادر هذا الشعر الوجداني الذي بلغ الاوج في عهد اسرة تانغ ، هذا الشعر الذي غنى جمال الطبيعة ، وبرزت فيه رهافة الحس الصيني على أتمها .

الحياة الاجتماعية

ألحق دخول البرابرة الى الصين الشمالية الفوضى فيها والقلق بين الشعب . فبعد ان نزحت طبقة النبلاء باجمعها ونجت بنفسها نحو الامبراطورية الصينية في الجنوب ، راحت تعيد تنظيمها وتستولي على املاك شاسعة ، وتحيي الامتيازات التي كانت تنعم بها ، وبمختصر القول ، العمل على تنظيم الامبراطورية . اما في الشمال ، فقد وجد اسياد البلاد الجدد أنفسهم ، في بلد يحول فقره بالموارد البشرية ، دون تنظيمه على الوجه الذي يرغبون . ولذا راحوا يستعينون على نطاق واسع ، بهذا الفريق من الادباء المفكرين الذي بقي قائماً في المقاطعات الشمالية في الريف ، واتخذوا من بينهم ، الموظفين الذين يقتضي حسن سير الادارة وجودهم ، وقسموهم الى تسع طبقات ، على نسق مسلسل في علاقاتها ، تتألف منها الطبقة الارستقراطية في البلاد، تتميز فيما بينها بالقاب خاصة كالباب القديم — والباب الجديد — والباب

الشريف ، وغير ذلك من الكنى والالقاب . وهذه الارستقراطية الجديدة لم تكن لترضى قط بالزواج بغير الفريق الآخر او بمصاهرة من هو ادنى نسباً ولا سيما مع الغزاة الدخلاء بعد استفحال الشعور بكره الاجنبي وكل ما هو اجنبي ، واحتدام الروح العرقية في هذه الديانات الواقعة تحت حكم وسيطرة سلطان دخيل . ومثل هذا الوضع لم يحل قط دون بعض التدابير والاجراءات العالية كما أدى بالتالي ، الى امتصاص المجتمع الصيني لهذه العناصر الدخيلة على البلاد . وهكذا تكونت في البلاد أسر وعائلات كبيرة ، ذات املاك وعقارات واسعة ، يعيش رؤساؤهـا في المدينة ، ويتدخلون بحسب الوظائف التي يقومون بها ، في امور الحكومة وشؤون الدولة ، وهكذا انتقلت السلطة شيئاً فشيئاً من الحكومة المركزية ، الى الارستقراطية صاحبة الاراضي الواسعة . وهذه الطبقات الاجتماعية متميزة ، تكاد تكون مغلقة على نفسها ، وتقسم الى النبلاء والبورجوازية والشعب . فالوظائف والمراكز الكبرى هي وقف على النبلاء ، اما ابن الشعب الذي يستحيل عليه ، الوصول الى اي منها ، فيترتب عليه ان يقنع بالدون منهـا . فالفوارق الطبقية عظيمة جداً بين دولة واي ، حيث الترابط المسلسل يتحجر ويقسو ، وبين المجتمع الصيني في عهد دولة تسن والهان ، حيث كان في مقدور شذاذ الآفاق ان يثروا ويرتفعوا اجتماعياً ، حتى يبلغوا العرش . وهذا التراكب الطبقي الاجتماعي تضاعف بشيء من الوحدة السياسية ، ازالت معها هذه الامارات والدويلات الصغيرة ، الواحدة تلو الاخرى . وكانت الامبراطورية الصينية في الجنوب لا تزال تعاني اعراض التفسخ الخلقي . وكان لا بد من انتظـار مجيء دولة سواي للقضاء على هذا التفسخ الاخلاقي ، ولاعادة الوحدة الى الصين برمتها .

ولعل اهم اثر تركه لنا المجتمع الصيني في هذه الحقبة ، هي هذه التماثيل او الدمى الجنائزية التي عثر عليهـا دون ان تمكننا الحفريات الاركيولوجية التي اجريت في هذا المجال ، من نسبة بعض منها الى الجنوب ، او ان نردها كلها الى الشمال . ومهما يكن من أثرها ، فهي تتيح لنا ان نتبين السمات التي طبعت بعض الشخصيات التاريخية في هـذا العهد ، معظمهم من النبلاء كما يرجحون ، من فرسان بين نساء ورجال ، ولا عجب ، اذ ان اسياد البـلاد الجدد هم اصلاً من هؤلاء الفوارس البدو الرحل ، الظاعنين في الفيافي الرملية . ويستدل من هذه الدمى ما كانت عليه هامة الحصان من صغر وانحناء في العنق ، وارتفاع في المؤخرة ، بينما يرتدي الفارس منهم رداء فضفاضاً له قبعة ، واحياناً قبعة من اللباد ، بينما نرى منهم من يلبس رداء صينياً ، ومشداً عند خصره . اما الفرسان النسـاء فيرتدين فساطين طويلة ضيقة تصل اردان اكمامها المتدلية ، الى الارض ، بينما نرى بعض النساء يلبسن فساطين فصلت على قدودهن ، لها "ذنب" طويل جداً ، بحيث تضطر الواحدة للم اطرافه وحملهـا على ساعدها ، اما شعرها فمرفوع ، تغطيه قبضة مفلطحة تنزل الى الاذنين ، لها طرطور ، ينتهي طرفه بعقفة ، وهو زي يشبه الزي الذي عرفت به المرأة المغولية .

واذا صح تاريخ نسخة الرق المنسوب الى كو — كاي — تشي (٣٤٤ — ٤٠٦) صح لنا ان

نستنتج بان ما درجت النساء على لبسه في الجنوب ، كان اخف وانعم ويحمل سحائب متمايلة . فامـــام تصلب ملوك وابي في الشمال ، تطالعنا في بلاط اسرة تسن رهافة الذوق والظرف . فالرسوم الجدارية القائمة في مغارة بن – يانغ ، في مقاطعة لنغ – من (حوالي عام ٥٣٥) حيث نرى صنوفاً من ملوك دولة وابي ، تبرز لنا مـــا هم عليه من لبس وثير وظرف كيّس صيني الطابع ، له اردية طويـــلة الأرداف ، متدلية الاكام ، وعمة مختلفة الاشكال والاذواق . وفي الطرف الاقصى من الصين، نرى في كوريا مقدمات النذور ، نساء تنانيرهن مطبعة ، مكسرة ، وفساطين مزينة بالفرو . والفرسان يمتطون صهوة جياد غنية السروج ، ويلبسون قبعة عـلاة بالريش ، سلاحهم القوس والنشاب وكنانة من الزي المغولي .

٤ ـ آسيا العليا وانتشار الهونز

يُفهَم من المصطلح الجغرافي : آسيا العليا ، هـــذه المناطق الشاسعة التي تشمل منغوليا والتركـستان الصيني والتيبت وتفرعاتها السياسية والعرقية واللغوية ، مما يُلامس الهند او يشارف ايران : كمقاطعات كابيتسا وغندهارا ، وبكتريا ، وأركوسيا ، وبلاد الصُغْد حتى مشارف نهر الأوكسوس ، اذا ما اقتصرنا على الأسماء القديمة . ففي هذه الفيافي الشاسعة رأينا ، منــذ القرن الرابع، بين الشعوب والقبائل والاقوام التي تمور فيها، حركة عارمة لشعوب تروح وتغدو، وقبائل تتحرك ، وأقوام تغلي بالنشاط المحموم ، وقوافل تروح وتجيء في هذه المسالك التي كان يسير عليها تجار الحرير والسلع الشرقية، وسرايا الرهبان وكهنة البوذيين، يقطعون هذه الصحارى ناشرين البوذية داعين الناس لاعتناقها ، وجيوشاً جرارة تسير ، هذه مظفَّرة منتصرة ، وتلك جارة وراءها أذيال اليأس والفشل. وتطالعك ، الفينة بعد الاخرى ، في هذه الصحارى المحرقة، بجزء من الاراضي الصالحة للحرث والزراعة ، هي واحات تُطلِع من الزرع والضرْع ، ما فيها صلاح الهابطين فيها، او القائمين عليها، كواحات تاريم مثلاً، تليها قفار لا حد لها ولا قرار يرتد عنها الطرف وهو كليـــل ، تسمّر الخوف وتزرع الرعب في قلب من يشرف عليها ، فكيف بمن يجازف بالمرور فيها .

ففي هذه الحقبة التي نحن بصددها ، نرى موجات من البدو الرحل تـــدق أبواب المناطق الزراعية بشكل مقلق لم تآنس مثله من قبل ، طمعاً منها بما بلغته هـــذه المناطق من تطور في أساليب استثمارها ، او شهوة منها بما ينعم به سكانها من خيرات وافرة ، بعد ان نفرت نفوسها من خشونة الصحراء وجفوة الطبيعة ، امام ما تقع عليه العين من غنى وثراء بين اهل الحضر ، في وقت غصت فيه البادية بالفائض من سكانها وأهلها ، فاندفعوا كالشهاب الساطع ، يقتطعون منها ما رغبوا في اصطفائه من خيراتهـــا ، ويستبيحون ما طمعوا به من فيء ورغاء . ومعظم هؤلاء الاقوام الذين يسرحون ويمرحون في هذه الفيافي هم من الترك والمغل ، لم يتجاوزوا ، في تطورهم،

نطاق حياة الظعن ، بالرغم مما عُرف عنهم من ذكاء وتوازن في القوى العقلية ، وما جبلوا عليه من روح عملية ، بينا اهل الحضر من سكان المدن والريف ، الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاملاك والارضين ، وسجلوا تطوراً لا بأس منه في زراعتهم ، قد استسلموا للدعة والسكينة ، واسترخت منهم الاخلاق .

وتقوم هذه الشعوب ، في القرن الرابع بدفع وضغط لا يقاوم اخذت معه تغلي كالقــدر . ولاول مرة منذ عهد بعيد ، توصل البدو الى تأسيس ممالك لهم مستقلة ، أولاها مملكة جوان — جوان التي انشأتها قبائل الآفار بين ٤٠٧ — ٥٥٣ ، كان قبائل من المغول تشدهم الى الآفار وشائج الدم والقربى ، تأخذ بمهاجمة اوروبا ويتمكن شارلمان من كبح جماحهم فيما بعد ، وبسط سيطرته عليهم . وتكاد لا تقل بأساً عن هذه المملكة ، مملكة اخرى ، اسسها اقــوام الهونز الهفتاليين ، فانقضت جحافلهم ، في مطلع القرن السادس (عام ٥٠٠) على الافغانستان والهند مخلفة وراءها الخراب والدمار ثم تطالعنا مملكة اخرى هي مملكة تو - كيو ، اسسها أقوام من الترك اخلوا الساحة ، فيما بعد ، في منطقة طُرفان ، لقبائل الويغور *Uigurs* في أخريات القرن السادس .

ومع اختلاف عروق هذه الاقوام ، فقد جمعتهم خصائص مشتركة ، بعد ان صهرتهم ظروف البيئة القاسية ، وطبعتهم بيبسها وتضرسوا بخشونتها . فلم يكونوا ، والحق يقال ، من البدو الخُلّص ، اذ كان ملوكهم يقطنون في المدن .

« وكانوا يظعنون وفقاً لمقتضيات الماء والكلأ ، يبنون لهم مساكن من اللباد ، يقصدون صيفاً المناطق الباردة بينا يهبطون شتاء المواقع المعتدلة . فالزوجة الواحدة هي مشتركة بين عدة اخوة ، يفصلون نساءهم في اماكن منزوية ، يتراوح بعدها عن مضارب القبيلة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ لي (قياس للمسافات عند الصينيين قديماً يوازي طوله ٥٧٦ متراً) . ويقوم الملك او رئيس القوم عندهم باسفار ورحلات متنقلاً ، ويغير مقره شهراً بعد شهر . يقيم في مقره خلال فصل الشتاء مدة ثلاثة اشهر . عرفوا بالعنف والشجاعة والاقدام . » (مأخوذ من *Pei Che* فصل ٩٧) .

وعندما يسافر الملك أو ينتقل :

« يصطحب معه خيمة مربعة من اللباد ، طول كل ضلع من اضلاعها ٤٠ قدماً ، جدرانها من السجاد والطنافس الجميلة . ويرتدي ثياباً من الديباج والحرير الموشى ، ويتربع فوق سرير من الذهب يقوم على اربع قوائم من الذهب بشكل عنقاء . وترتدي زوجته الاولى الحرير المزركش ، تجر وراءها ذيلاً لا يقل طوله عن ٨ اقدام تتدلى منه اللآلىء والحجارة الكريمة بالوان مختلفة . فاذا ما خرجت الملكة خرجت في هودج تحمله عربة . اما في المنزل ، فهي تتكىء على سرير من الذهب بشكل فيل ابيض ، له ستة انياب ، واربعة اسود » (من رحلة سونغ - يون بعنوان : « الهونز الهيتاليون - ترجمة شافان)

ويشرف هؤلاء الاقوام الرُحّل على كثير من المدن والارياف يسيل لعاب البدو لرؤيتها لما فيها من رفاً وخيرات فتحدثهم نفوسهم بالاستيلاء عليها . وكانت مملكة خوتان منهــا ، على الاخص ، مثالاً للشهوة ، لما كانت عليه من ثراء وغنى .

فالملك يعتمر قبعة يعلوها حرف كعرف الديك ، ويتدلى على رقبته من الوراء منديل من الحرير الخــام طوله قدمان وعرضه ٨ قراريط . فاذا ما حضر حفلات رسمية ، قرعت الطبول ، ونفخت الابواق ودقت الصنوج ، في جو يعبق بمرأى القوس والنشاب ، وحربتين وخمسة رماح ، ويحيط بالملك ، حرسه الذي لا يقــل عن المائة بخناجرهم . وتلبس النساء نوعاً من السراويل ، وسترة مشدودة الى الخصر بزنار ويركبن الخيل كالرجــال (المصدر ذاته) .

وعلى مثل هذا الوضع من الازدهار المثير ، تبدو مقاطعة غندهارا .

سهول خصبة فيحاء تتوسطها مدينة شاباس غارمي بما حولها من أرياض غناء ، عامرة بالسكان الناعمين بما هم عليه من دعة وازدهار ، والبلاد كثيرة الاحراج دافقة المياه ، والتربة خصبة تعطي بسخاء (المصدر ذاته) .

وكان هؤلاء البدو الرحل يصطدمون في تنقلاتهم اما بممالك قائمة ، منظمة او يعترض سيرهم وتقدمهم حواجز طبيعية ، يحول دون وصولهم الى الصين ، سورهــا المنيع ، كما ان افغانستان كانت بدورها تتحكم بالمعابر والمجازات التي تفضي الى غندهارا والهند ، ويقع جزء منهــا تحت سيطرة ايران الساسانية ، بينما تقوم في المناطق الاخرى جبــال هالايا الصعبة المرتقى ، حائلاً دون الوصول الى التيبت .

اما اواسط آسيا ، فسكانها من الهند الاوروبيين ، يتكلمون الطوخارية ، وهي لغة بينها وبين الارمنية والسلافية ، والايطالية والكلتية ، اكثر من آصرة ورابطة ، او يستعملون في تخاطبهم الايرانية الشرقية ومعظمهم شقر ، ولهم عيون زرقاء وهم على البوذية . وقد تأثر بعضهم بالحضارة الهلينية كما يستدل من آثارهم الفنية ، ولا سيما من قام منهم في غندهارا والبكتريا ، بينما اخذ البعض الآخر ولا سيما من سكن منهم الواحات الشرقية ، بأسباب الحضارة الصينية ، وتطبعوا بها ، فتبلغهم متأخرة جــداً ، المؤثرات الايرانية ، كما يستوحون احياناً ، مبادىء الجمالية البيزنطية . فالافغانستان جزء لا يتجزأ من هذه المجموعة التي تؤلف كلا جغرافياً وحضارياً . وتصدر هذه المناطق القريبة التجانس ، عن طراز جديــد مشترك فيما بينها ، ذي طابع ايراني بوذي ، يتزّى بمنصر حضاري مُشترك هو حصيلة هـــذا الاتصال الواقع بين ايران الساسانية والعالم البوذي . وهذا المزيج الذي تتمثل معالمه ، بين القرنين الثالث والرابع في باميان وككراك ، ثم في طرفان وقزل وكوكا (في القرن السادس والسابع) وصل الصين عن طريق اسرة وايي التي احتل ملوكها ، عام ٤٣٩ ، توان — هوانغ ، وهي موقع حربي وسوق تجارية تقع عند تخوم الصين الغربية ، عند مشارف صحراء غوبي ، في نقطة تتجه اليها وتلتقي عندها ، هذه المؤثرات التي تسلك طريق تجارة الحرير .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يقوى هؤلاء الاقوام الرحل الذين يحومون في هذه الفيافي ، على مقاومة الرغبة الشديدة التي تراودهم على احتلال هذه الاراضي الزراعية الخصبة ، ويتحرقون لاغتصابها من اصحابها ، والاستئثار بما فيها من مراكز حضارية جذابة ، مغرية ، وما اليها : من معابد وهياكل ، ومدارس وأديار ، قائمة بجوار القصور الملكية ، ومن أسواق تغص بالبضائــع

والسلع والمواد الغذائية . فأخذوا يرنون باشتهاء وعُجب، الى هذه المدهشات المغرية التي عرف اهل الحضر ان يطلعوا بها ، بعد ان يقابلوها بما هم عليه من قسوة الحظ وقسمته الضيزى ، أبداً في طلب الكلأ والماء ، وقد ضمرت اجسامهم ، وخوت بطونهم ، لما أصابهم من حرمان ، وقاسوا من جدب الارض وجفوة الاقليم ، وعضة الطبيعة . ففي القرن الثالث ، نرى قبائل الهونز تتعامل بصفوف مكتظة ، على سور الصين ، تربطهم الى ملوك الصين روابط أشبه ما تكون بتلك الروابط التي شدّت ، في الغرب ، القبائل الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع . وكثيراً ما كانزعماء الهونز يختلفون الىعاصمة الامبراطورية الصينية ويترددون عليها ، متكسبين من هذه الاتصالات . وكثيراً ما استعملتهم في الفرق المرتزقــة من جيشها واتخذت منهم عوناً لها عندما اصيبت دولة الهان بالعجز والوهن . وهكذا أتيح للعديد مــن هؤلاء البدو الرحل الخيفين ، ان يجتازوا ، بأعداد متزايدة ، السور الكبير ، وان يعيشوا داخل الصين . وعندما انطلقت شعلة الحروب الاهليــة ، اثر انهيار دولة الهان ، راح الهونز يثبتون وجودهم وقد شجعتهم الفوضى الضاربة أطنابها في البــلاد ، فوضع المقيمون منهم في الداخل ، أيديهم على الاراضي التي كانت بتصرفهم ، تحت ستار شفاف من الشرعية ، ملوحين بأقدميتهم الصينية . اما من كان منهم في الخارج ، فقــد توافدوا عملاً بسنة التضامن مع ابناء عمومتهم . وهكذا ، بفضل هذا الدفع المشترك ، اضطر ملوك تسن ان يتخلوا لهم عن شمالي الصين . وقد مر معنا كيف ان هذه الممالك التركية – المغولية ، العديدة ، التي تكونت ، اذ ذاك ، لم تلبث ان ذابت في قلب مملكة واسعة اقامها الهونز ، زالت بدورها ، هي الاخرى ، عام ٣٤٩ ، وراحت فريسة ممالك ودول أنشأها البرابرة فيما بعــد ، انهارت بدورها هي ايضاً ، وزالت من الوجود ، عندما استطاع أتراك تبغاتش او توبا انشاء امبراطورية وايي ، عام ٣٩٦/٣٩٨ .

وفي الوقت ذاته ، قامت ، قبائل اخرى من الهونز – يُعرفون بالهونز الهفتاليين ، أي الهونز البيض ، كما يسميهم المؤرخون البيزنطيون ، وهبطت من اعالي جبال ألتاي ، واستقربهم المطاف في التركستان الروسي ، ثم إتجهوا نحو الصغديان (سمرقند) والبكتريا التي بلغوهــا في عهد الملك الساساني بهران غور (٤٢٠ – ٤٣٨) . وبعد ان انتصروا على خليفته الثاني : فيروز (٤٥٩ – ٤٨٤) استقروا في مدينــة مرو وهراة . الا ان ايران الساسانية كانت منيعة وعرفت ان تدافع عن ممتلكاتها . ولذا تحول الهونز ، بقضهم وقضيضهم ، باتجاه افغانستان ، بعد ان دفعوا امامهم ، باتجاه غندهارا ، الهندو – الغز الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة . ومن ثم ، راحوا يهاجمون الهند ، ويحاولون بسط سيطرتهم عليها ، في سلسلة من المعــارك والحروب الدامية انهكت دولة الغوبتا . وامعن الهونز في همجيتهم : فساموا سكان هذه المنطقة الذين اخذوا ، منذ عهد بعيد ، باسباب الحضارة الهلينية واعتنقوا البوذية ، الواناً من العذاب واصنافاً من الآلام ، وأذاقوهم الذل والهوان ، بعد ان قاموا بذبائح هائلة بين السكان ، واضطهدوا بعنف ، الجماعات البوذية وهدموا اديارهم ، وقضوا على ما عندهم من روائع الفن الجميلة ، ودكوا

معالم الحضارة اليونانية ــ البوذية ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه. وعندما بدت ترتسم امارات الضعف على دولة الغوبتا ، هاجمهـــا الهونز بعنف شديد ، فتوالت غزواتهم الماحقة بقيادة طورامانا وميهيراكولا ، فزرعت الخراب والدمار وارزحت الهند لمدة قرن . واستهدفت الديانة البوذية للاضطهاد الشديد ، فهدمت الاديار ، واستبيحت المحرمات ، وقضي على روائع الفن ، فاتلفوا كل ما وصلت اليه ايديهم ، وبفضل ما الحقوا بالبلاد من خراب ودمار ، نرى انفسنا عاجزين عن درس معالم فن الغوبتا ، الا من خلال بعض النماذج النادرة التي وصلت الينا . وخلافاً لابناء عمومتهم الذين استقروا في شمالي الصين واعرقوا فيها ورسخوا ، نرى برابرة الهونز ، في الهند ، يزولون تماماً من أرجائها ، منذ اواسط القرن السابع ، اما لاستئصال شأفتهم ، او لذوبانهم بين سكان البنجاب وغوجارات ، حيث لم يلبث زعمـــاؤهم ونبلاؤهم ان انصهروا في بوتقة الارستوقراطية الهندية .

وكالاخطبوط يرسل مجسّاته في كل اتجاه ، هكذا ارسلت قبائل البدو الرحـل في اواسط آسيا ، سرايا جحافلها في كل مهب ، مضيقة الخناق على العالم البوذي ، دافعة امامهـــا كل من صدمته من شعوب واقوام ، تدك منهم الممالك والامبراطوريات . فقد واجهتهم ايران بدرع منيع من قوة جيشها وبأسه ، تحول معه الهونز في شمالي بحر ارال ، نحو اوروبا ووطئوا بسنابك خيلهم ورجلهم الامبراطورية الرومانية (٣٧٦) . فالوصف الذي ترك لنا عنهم المؤرخ اميان جاء يؤيد الى حد بعيد ، ما ذكره عنهم المؤرخون الصينيون :

ان الهونز همجية ، كل ما يمكن ان يتصوره العقل او يخطر على بال انسان . فقد جهلوا الزراعة ولم يفقهوا يوماً معنى لمنزل او بيت او كوخ . فهم ابداً في دوران ، ألفوا منـــذ الصغر ، زمهرير البرد شتاء وحارة القيظ صيفاً ، وانطوت بطونهم على الجوع ربمـــا بالوا يوماً بطماً . تجري قطعانهم من الماشية حثيثاً في اثرهم ، ويجرون وراءهم عيالهم واولادهم بعد ان يكردسوهم في عربات تسير متثاقلة . يلبسون صيفاً شتاء ، اردية من الكتان ، ومعاطف من جلود الجرذان خيطت بعضاً الى بعض ، وقد اعتمروا خوذاً من الجلد ولفوا افخاذهم الكثيفة الشعر بسيور من الجلد الخشن ، وانتعلوا في اوجلهم احذية لا شكل لها ولا قوام ، ولا تساعدهم على السير على الاقدام . ولهـــذا لم يصلحوا قط لحرب المشاة، بينما اذا ما صاروا على صهوة جيادهم ، خلتهم قطعة من الجواد الذي يركبون ، والهونز من هذا الجيل الصبور الجليد الذي ينطلق فارسه كالنسيم العاصف او كالشهاب الخاطف . ليس من يضاهيهم برمي القسي والنبال ، عن بعد ، فهي لا تخطيء .

والفارس منهم مجهز بقوس ُشدّ وَتره ، وله نظر حديـــد يقدح شرراً من عين غارقة في محجرها الضيق ، وأنف مفلطح ووجنتان بارزتان . هو من هؤلاء البرابرة بالذات الذين سيطلون علينا بعد ذلك بالف سنة ، اي في القرن الثالث عشر ، عندما تندفع الموجة المغولية ثانية ، بعد ان تبلغ قوتها الذروة .

وبعد ان سيطر الهونز على منطقة السهول المترامية ، بين جبال الاورال وجبال الكربات ، أفضوا الى سهول فلاخيا ، ومنها دخلوا هنغاريا. واجتاز احد زعمائهم أتيلا، نهر الدانوب ، عام ٤٤١ ، واتجه بعد ذلك بعشر سنوات ، بقضّه وقضيضه ، نحو غاليا ، فبلـــغ الرين ، واضرم

الحرائق في مدينة ميتز ، يوم ٧ نيسان (ابريل) ٤٥١ ، وجاء يهاجم مدينة اورليان ويضرب الحصار حولها؛ ولم يلبث ان تراجع القهقري الى مدينة تروى حيث ابتُلِيَ بابشع هزيمة ، ومنها عاد ادراجه الى الدانوب وها هو ينقض من جديد على ايطاليا ، عام ٤٥٢ ، وعاد منها ليموت ويقضي نحبه في مقاطعة بانونيا بعد ذلك بسنة . وهذا الغازي المرعب الذي لقبوه بحق « سَوط الله المصْلت » هو الانسان النموذجي للهونز . قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الرأس ، غارق العينين ، أفطس الانف ، كالح الوجه ، امرد او يكاد ، سريع الاستشاطة والغضب ، ومع ذلك فقد كان يؤثر السياسة والديبلوماسية ، وان شئت فقل الحيلة والمكر ، على عنف الحرب ؛ عُرِف عنه تكالبه على زرع الخراب والدمار ، وان حدّث الناس عن روح النَّصَفة عنده قاضياً بين اهله وذويه ، مستسلم بكليته للخرافات . وعلى مثال الهونز في الصين الذين كانوا يتخذون مهذبين لهم من العلماء والادباء ، نراه يحيط نفسه برهط محترم من ادباء اليونان والرومان والجرمان . فهو صورة مسبقة ، ونذير بطلوع الغازي الفاتح المغولي الاشهر جنكيز خان . وكما زال كل اسم وذكر للهونز الهفتاليين في الهند ، فقد تفتت جماهير الهونز التي استاقها اتيلا ، إثر ما نابها من تشمث وشتات في اعقاب موت رئيسها وقائدها . فانكفأت نحو سهول روسيا ومقاطعتي دبرودجا وميزيا . ونالت منهم بيزنطية ، عام ٤٦٨ ، عند مجرى الدانوب الاسفل ، ونالت منهم ثانية ، عام ٥٥٩ ، وفتت مشاحناتهم الداخلية والحروب الاهلية التي نشبت بينهم ، من عضدهم فتقلص ظلهم ، وانكمش امرهم ، عندما اطلت موجة جديدة كاسحة من هؤلاء البرابرة ، هي غزوة الآفار الذين انقضوا على الامبراطورية البيزنطية ، يوم كان يوستنيانوس يلفظ انفاسه الاخيرة (٥٦٥) واتجهوا الى اوروبا واسسوا لهم ملكاً امتد من الفولغا الى مشارف النمسا ، ولم يلبثوا ان دخلوا من جديد ، في عراك مميت مع القسطنطينية ، في القرن السابع .

وقد اسس « البدو » الرحل في القرن السادس ، امبراطورية اخرى ، في مغوليا والصحاري المجاورة ، كان الامر فيها لاسرة تو – كيو ، فتحالف ملوكها مع بيزنطية ضد ايران ، واعتنقوا المزدقية ، كما يرجح العارفون ، استناداً لما ذكره ثيو فيلكتس سيموكاتا .

يرسلون شعورهم تتدلى على اكتافهم ويسكنون مضارب من اللباد ، ويتنقلون بين مقاطعة واخرى طلباً للماء والكلأ . ينصرفون لتربية الماشية والصيد . سلاحهم السهم والقوس الصافرة والدرع ، والرمح والخنجر والسيف . ويتمنطقون بمنطقة على حقويهم ، فخرهم الاكبر ان يموتوا في ساحة الوغى ، والعار الاكبر عندهم ، ان يموتوا مرضى ، على أسرتهم (من مؤلف غفل ، عام ٥٨١) .

ولم يحسن ملوك هذه الاسرة سياستهم ، فانقسمت دولتهم قسمين متنافسين ، لم يلبثا ان ضعف شأنهما ، فزالا من الوجود امام سيطرة اسرة سواي ، ثم اسرة تانغ ، وعفا كل اثر لهما .

فبالرغم من الفوارق التي باعدت بين هذه القبائل البدوية ، وبالرغم مما قام بينها من حروب أهلية داخلية اقامتها بعضاً على البعض الآخر ، فقد شدها معاً : وشائج مشاركة ، وتقاليد واعراف متقاربة ، أمنت لها شيئاً من التجانس . فقد غلبت على هذه القبائل الأمّية ، وجهلوا القراءة والكتابة ، ونهجوا جميعاً نهجاً سوياً من حياة البداوة ، يقضون معظم اوقاتهم على

صهوة جيادهم ، كما يصف لنا اخبارهم كتاب القدامى ، يعيشون بين قطعانهم ومواشيهم ، ويستظلون مضارب من اللباد . طباعهم خشنة فظة وهم متوقدو الذهن والفهم ، يحيطون انفسهم برهط من الادباء ورجال الفكر والقلم، مع ما كانوا عليه من سرعة الغضب، وما ُعرف عنهم من همجية ووحشية تزرع الارض خراباً ودماراً ، فكانوا خير سلف لهؤلاء المغول الذين طلعوا في القرن الثالث عشر واسسوا امبراطورية من اوسع ما عرف التاريخ من امثالها . وتدل آثارهم والمعالم التي تركوها وخلفوها على فن متجانس يعرف بفن الصحراء ، وهو فن قوامه تصوير الحيوان ، نجهل الكثير للآن من مقوماته ومفارقاته ، لعدم وجود حفريات اثرية منتظمة . ومع ذلك ، بالامكان الآن تمييز بعض مدارس خاصة في فن الصحراء تحمل في ثناياها الكثير من المؤثرات الايرانية والصينية ، حسبما تكون قامت وازدهرت على مقربة من الصين او من ايران . فاينما وقعت العين رأت رسوماً لحيوانات مختلفة : هنا أيّل جاثم ، وهناك عراك عنيف بين حيوانات حقيقية او وهمية ، فن تكاثر فيه ملامح الصيد والحياة بصحبة السائمة تظعن طلباً للماء والمرعى ، لا يخلو من اثر ظاهر على فنون اهل الحضر المقيمين على مقربة من البادية ، تبدو معالمه أكثر فأكثر كلما اتسعت اعمال النبش والحفريات الاثرية .

٥ ـ الصين في عهد دولة سواي

عرفت الصين عهداً من الاضطراب والقلق ، إثر انقسام دولة واي على نفسها الى شطرين متميزين : هما دولة باي ـ تسي (عام ٥٥٠) ، ودولة باي ـ تشاو (٥٥٧) ، ُعرفت الاولى بتمسكها الشديد بالبوذية كما قالت الثانية بالكونفوشية . واوشك هذا الوضع ان يلحق الاذى الكثير بالبوذية . فقد عرفت الدولة الاولى ، طوال عهدها الذي استمر ٢٧ سنة، ازدهاراً غريباً للفن البوذي ، الذي اخذ ينأى ويبتعد ، اكثر فأكثر في تلك المملكة ، عن الفن الجاف الذي ساد عهد دولة واي ، واتجه نحو حركة تجددية ناشطة ، ممهداً بذلك الطريق لظهور المدرسة الفنية التي طلعت في عهد اسرة تانغ . وقد تميزت هذه الحقبة بالاضطهاد العنيف الذي شنه ملوك دولة باي ـ تشاو ضد البوذية واتباعها في المملكة . وعندما تم لهم ، عام ٥٧٧ ، الاستيلاء على دولة باي ـ تسي ، امتدت حركة الاضطهاد التي اطلقوها بحيث عمت الصين الشمالية . ولم يدم هذا الوضع الشاذ طويلاً ، اذ استبد بالامر احد سَدَنة القصر هو يانغ ـ كيان ، بعد ان استولى على الحكم عام ٥٨١ ، واسس دولة جديدة هي دولة ملوك سواي . وبعد ان ملك سبع سنوات ، على الصين الشمالية وحدها ، تمكن من فتح نانكين ، عام ٥٨٩ والاستيلاء على امبراطوريتها وبذلك تم له توحيد الصين بعد ان بقيت مجزأة نحواً من مائة وسبعين سنة .

وقد ُعرف الامبراطور يانغ ـ كيان شخصياً، برعايته للبوذية وبتعلقه بالطاوية، بينما تنكّر للكونفوشية وراح يناصبها العداء . ففي الوقت الذي راح فيه يرمم هيا كل البوذيين ومعابدهم ،

ويشارك في الحج الى مقدسات الديانة الطاوية ، تقيـةً منه وتقرباً ، أصدر أوامره باقفال عدد كبير من المدارس الكونفوشية . خلفه على العرش ابنه يانغ – تي (٦٠٥ – ٦١٨) الذي انتهج له نهجاً جديداً اقل تمسكاً من ابيه بامور الدين . فصرف جهداً كبيراً في تجميل العاصمة لو – يانغ بعد ان آثرها على سن – غان – فو ، واتخذها دار سكنى له ، وفتح ترعة مائية ، بين يانغ – تشاو ويو – يانغ ، واستسلم للملذات يقضي أيامه بين الكأس والطاس . واضطرته النفقات البالغة التي اقتضتها هذه الانشاءات ان يفرض رسوماً وضرائب باهظة على رعاياه ، فأرزحها ، ونشب من جراء ذلك ثورة لاهبة أدّت الى قتله . وبموته انتهت دولة سواي التي استمر حكمها تسعاً وعشرين سنة .

وبالرغم من قصر مدى هذه الاسرة في الحكم ، فقد كان تأثيرها بالغاً في سير الحضارة وتطورها في الصين . وكان من جراء تحقيق وحدة الصين ، ان نشطت حركة فكرية عارمة : أدت الى محاولة توحيد بين الاديان الكبرى الثلاث في الصين ، الا وهي البوذية والطاوية والكونفوشية . والرهبان الهنود الذين غادروا الصين على اثر موجة الاضطهادات التي هبّت عليها ، استأنفوا العمل بتقليد قديم من الرحلة الى الصين : فالراهبان ناراندرياساس وجيناغوبتا اللذان قرا بتفسيرها ، عام ٥٧٤ ، عادا الى الصين في عهد دولة سواي . كذلك قام الراهب بوذيسري يكرز ويبشر في هو – نان واستطاع حمل الراهب الطاوي تان – لوان ، الذي توفي حوالي عام ٦٠٠ ، على اعتناق البوذية الصوفية التي عُرفت في اليابان ، باسم *Amidisme* . وقد بذلت الجهود السخية ، من جهة اخرى ، لربط ما انقطع ، وازالة الضعف الذي أوهن العلاقات بين البلدين المتجاورين خلال القرنين الماضيين، عرفت خلالها البلاد عهداً من أسوأ العهود استباحة واضطراباً وخراباً . وقد وضع عام ٦١٠ ، فهرس بالكتب والاسفار الدينية التي امكن انقاذها .

فاذا ما تمكن عهد سواي القصير من اعادة الامن والنظام والوحدة الى الصين ، وأتاح للنفوس المهتاجة ان تهدأ وتعود سيرتها الاولى الى التجريد والتأمل الفلسفي ، فلم يكن هذا العهد لعمري ، بعهد مبدع خلّاق . فقد بدت على الفن سمات العهد : فهو فن جامد متثاقل ، جاف ، قاس ، تنقصه ، اساساً ، نبضة الحياة وهذا التألّق الذي عرفت دولة تانغ ان تضفيه على هذا الفن . فالصين على شفا عهد جديد من الانبعاث والتوعية يبشر بطلع زاهر ، مجيد .

الفصل الرابع

فجر الاسلام
(من القرن السابع الى القرن التاسع)

بين اوروبا الغربية الآخذة مدنيتها بالقهقرى ، وبين العالم الآسيوي الذي لم يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته ، مما ألمّ به من ضربات موجعة أنزلتها به جحافل برابرة البدو الرحل ، ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها .

نحن امام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا به يتحد ويتضامّ في بوتقة الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية . اكتسحت جيوشه ببضع سنوات ،الدولة الساسانية وهدت منها الاركان ،ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وافريقيا ، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى ، ولم تلبث جيوشه ان استولت بعد قليل ، على معظم اسبانيا وصقلية ، وان تقتطع ، لأمد من الزمن ، يقصر او يطول ، بعض المقاطعات الواقعة في غربي اوروبا وجنوبيها ، ودقت جيوشه بعنف شديد ، ابواب الهند والصين ، والحبشة والسودان الغربي ، وهددت غاليا والقسطنطينية بشر مستطير . وقد تهاوت الدول ، امام الدفع العربي الاسلامي ، كالأكر ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الاديان التي سيطرت على الشعوب والاقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ، ذابت كما يذوب الشمع امام النار ، بعد ان أطل على الدنيا دين جديد له من الاتباع والمريدين ، اليوم ، ما يزيد على ثلاثمائة مليون . وانجلى غبار الفتح وصلصلة السلاح عن امبراطورية جديدة ولا اوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا اروع ، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء ، بعد ان نفخ الاسلام في قسم موات من التراث الانساني القديم روحاً جديدة عادت معه اليه الحياة ، فنبض وشعّ وأسرى . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من ان يحتل تاريخ العالم الاسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيداً ان المدنية لا يقتصر مدلولها ، على شعب

او بلد متحيز في الزمان، وان يعرف جيداً انقبل توما الاكويني الذي رأى النور في ايطاليا، طلع ابن سينا المولود في احدى مقاطعات التركستان، وان مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتر دام في باريس بزمان ، والا ينتقص من شأن العالم الاسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنقشع بأسرع مما يظن ، وألا ينظر الى التـاريخ الاسلامي من خلال مرئيات ألف ليلة وليلة ، هذا الاثر المدهش ، الاجنبي النشأة ، الذي طالت ايامه وزالت لياليه ، والذي ما لبث العرب ينظرون اليه بشيء من الحنين الى الفردوس المفقود ، بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الانساني المتنوع بتنوع الازمنة والامكنة ، والذي لا يزال ، بالرغم من جزئياته وخصوصياته ، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجامعة الجماء .

يتحتم علينا ونحن نستعرض تاريخ العرب والاسلام ، التصريح ، بكل تواضع هنا ، انه بالنظر للظروف الماثلة في وضعها القائم ، لا نستطيع ان نجلو تاريخ الاسلام بالصورة التي جلونا بها تاريخ الغرب . فالنقص الفاضح الذي نراه في الوثائق التاريخية ، والفقر المدقـــع الذي عليه المخطوطات الاسلامية العربية ، لا تسده هذه الوفرة ، ولا يعوضه هذا الغنى الحافل في التراث الادبي الذي خلفه العرب من طارف وتليد . فبالرغم من الجهد الطيب الذي بذله المستشرقون في الغرب ، في مجال فقه اللغة والألسُنيّة اكثر منه في التاريخ ، وبالرغم من الحركة العلمية الحديثة التي اخذ الشرقيون باسبابها بعلم واصول ، فلا يزال العمل بحاجة بعد ، الى قرن واكثر ليلحق بركب المؤرخين في الغرب . فالشيء الذي سنقوله ونقرره بهذا الصدد سيكون لاقتضابه وإيجازه ، اقصر بكثير ، من الفصول التي مهدنا بها لهذا البحث .

الجزيرة العربية قبل الاسلام

لم يكن العرب ، في القرن السابع ، حديثي العهد بالوجود . فقد سكنوا شبه الجزيرة التي تحمل اسمهم قبـــل ظهور المسيحية بزمن طويل ، يعيشون فيها عيش البدو الرحل ، في وضع اشبه ما يكون باهل البادية والوبر ، اليوم، ذراريهم الاقحاح . وكانوا منقسمين قبائل يخضعون لمشيئة الشيخ او لرئيس القبيلة ويأتمرون بامره ويسيرون بهديه ، بينما تتفرع القبيلة نفسها الى بطون وافخاذ ، لكل منها زعيمها ، يجمعها بعضاً الى بعض عصبية قبلية ، هي القاسم المشترك ايام الكر والفر ، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم . اما دياناتهم فكانت من التبسيط بحيث تتصل بالعقائد السامية المشتركة في جوهرها، مع جميع شعوب المنطقة، يخشون اكثر ما يخشون عمل الابالسة وكانوا يعبدون بعض الحجارة المؤلهة، كما هي الحال في مكة ، يقيمون في اعيادها مواسم للشعر والمفاخرة . وينقسم العرب في مجموعهم الى قسمين متميزين : اليمنيون في الجنوب ، والنزاريون القيسيون في الشمال . وقـد حدثت موجات بشرية انتقلت معها بعض قبائل الجنوب متخطية الى الشمال ، ابناء عمومتهم هناك . وبالرغم من هذه الانقسامات ، كان يخامر العرب شعور بشيء من الوحدة ممثلة خير تمثيل بهذه اللغة الشعرية التي قطعت شوطاً بعيداً في التكمل والاستقرار . ومن بين مشاهير الشعراء في هذه الحقبة امرؤ القيس . فقد فاخروا بامجادهم الوطنية ومآتيهم الحربية ، كما فاخروا « بايامهم »

التاريخية ونظموا الحكمة فاوجزوا واعجزوا .

وقام عند أطراف الجزيرة العربية في اليمن مثلاً ، مجتمعات بشرية قطعت شوطاً قصياً في تطورها . فقد قام في اليمن ، قبل طلوع المسيحية بعهد كبير ، مملكة اشتهرت باحدى ملكاتها هي الملكة بلقيس أو ملكة سبأ . وقد قام بعد ذلك بكثير ، عدد من الممالك اشتهر أمرها في عهد الرومان ، كمملكة النبطيين أو الانباط ، في بتراء ، تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، والملكة زنوبيا التي ملكت على المنطقة الواقعة غربي الفرات ، كما قام في عهد البيزنطيين مملكتان ملوكها من النصارى ، هما مملكة آل غسان أو الغساسنة ، ومملكة اللخميين ، تؤازر الأولى منهما ملوك بيزنطية وتدور في فلكهم ،بينما يدور اللخميون في فلك ملوك فارس ويشدون منهم الأزر . فبينما كان الغساسنة يقيمون في اذرع ، اتخذ اللخميون طيسفون (الحيرة) قاعدة لهم . والجدير بالذكر هنا هو ان قبيلة كندة استطاعت ان تؤلف في القرن الخامس ، في قلب الجزيرة العربية ، تحالفاً حقيقياً . وقد انشأت بعض القبائل ، في بعض المدن لها ، نوعاً من الحكم على اساس من النظام الارستوقراطي تولى الأمر فيه كبار التجار اصحاب القوافل التجارية كما في مكة مثلاً ، اذ كان الامر بيد قبيلة قريش . وكانت الحركة التجارية قد نشطت في شبه الجزيرة العربية ، اما عن طريق البحر الاحمر ، او عن طريق القوافل البرية التي تحولت عن موانىء البحر المذكور تفادياً للاخطار التي كانت تتهددها . وكانت هذه المنطقة قد اخذت تتأثر ، الى حد بعيد ، بنفوذ الدول القومية المجاورة ، فتتجاوب اصداؤها هذه المؤاثرات . فقد حاول الساسانيون ان يحققوا لمصلحتهم الخاصة ويسيطروا على الحركة التجارية في المحيط الهندي ، بينما اخذت بيزنطية تحاول ، عن طريق مصر ، تحويل هذه التجارة ، الى مرافقها بمساعدة حلفائها من الاحباش . وهكذا راح الفرس والاحباش يتجاذبون السيطرة على المراكز التجارية الكبرى . وليس من المستبعد قط ان تكون المشاحنات التي قامت بين الطرفين ، بهذا الصدد ، سبباً من الاسباب التي ادت الى انهيار سد مأرب ، وخراب نظام السقاية الذي عمل به مدة طويلة ، والى هذه الهجرات الواسعة التي عقبت انهيار السد . كما أدت الى هذه اليقظة التي اخذت تتململ بها القبائل العربية ، اذ ذاك . وقد حدث في الوقت ذاته ان تغلغلت المؤثرات الاجنبية في البلاد العربية ، اما بواسطة القبائل المقيمة على الخط الدائري ، او بواسطة الجوالي المسيحية واليهودية التي نشأت في بعض المدن ، كالجالية اليهودية في يثرب التي أصبحت المدينة بعد ان هاجر اليها النبي العربي . وهكذا نرى جيداً ان العرب لم يبقوا في عزلتهم ، كما كانوا من قبل، بل بدت عليهم معالم يقظة عارمة زاد من أوارها وقوعهم الى أطراف المدنيات الكبيرة . صحيح ان البلاد التي جاوروها لم يتوفر لها جماعة من كبار اللاهوتيين ، ولذا تنزت عقائد سكانها الدينية ، بكل ديانات الشرق وعقائده الشعبية ، الا انها ديانات جديدة ، حديثة لمن كان مثلهم ضالعاً بالشرك الاكبر، منذ أجيال سحيقة ، في هذه الحقبة بالذات ، اذ ساعدت الظروف المادية القائمة ، اذ ذاك على ايجاد حالة من القلق والاضطراب كان يكفيها شيء بسيط جداً لاضرامها وتحويلها الى غليان دائم .

هذا هو بإيجاز ، الوسط الذي رأى فيه النبي العربي النور ، وشب في جو تجاري شارك ببعض نشاطه قبل ان يتفرغ للدعوة التي قام بها .

محمد

في هذا المحيط الذي وصفنا ، ولد محمد بن عبدالله ، النبي العربي وخاتمة النبيين ، الذي جاء يبشر العرب والناس اجمعين بدين جديد ، ويدعو القول بالله الواحد الأحد ، وليكمل الوحي الذي نزل من قبل ، مجزوءاً ، على اليهود والنصارى ، وهو على يقين من امره انه يتلو آي الله في خلقه ، ولم يدّع يوماً انه غير انسان مخلوق ، وهو من سلالة الانبياء ، وليس باسم يسوع الناصري ، نبيهم الكريم كانت تعاليمه في غاية البساطة ، تذكرنا من وجوه عديدة بتعاليم موسى ووصاياه في نطاق القربى العنصرية التي تشد العرب الى العبرانيين الاقدمين. فالله الذي يدعو الى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة . يدعو الانسان الى الطاعة والتسليم المطلق ، الى الاسلام ، اذ ان الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسلّم امره اليه ، اي المسلم ، بالجنة ، ويبعث في قلبه الايمان والثقة بوعد الله . وهو لا ينهي المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا ، انما بالشكر تدوم النعم ، اذ ان الله هو واهب الاشياء ومقسم الارزاق . وهذا الموقف ، وهذه القناعة الداخلية لا تلزم صاحبها الا بالدعاء لله والشكر له ، والسير على تعاليمه ووصاياه ، والجهاد في سبيله حسبما يدعو اليه نبيه ورسوله ، والاعتصام بمكارم الاخلاق ، والتزام حبل الفضيلة ، والتصدق للغير ، من اي لون او جنس كانوا ، وفقاً للتقاليد العربية المرعية ، والرفق بالمرأة . هذه هي بإيجاز الرسالة التي قام محمد يدعو اليهـــا العرب في مكة ، باسلوب جزل ، وعبارة جمعت بين الايجاز والاعجاز .

غير ان قريش خشيت على نفسها من أمر هذه الدعوة الجديدة ، ووجد أسيادها فيها تهديداً لعقيدتهم وخطرا على نفوذهم . فقاموا يضطهدون النبي وصحبه ، مما حمله على الهجرة الى يثرب ، عام ٦٢٢ ، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «المدينة» او مدينة الرسول. ومن هذا التاريخ او الهجرة اخذ العرب يؤرخون ، ومنها يبتدىء الحساب الهجري. وقد تغير موقف النبي العربي في المدينة : فلم يعد ليكتفي بالدعوة ، بل راح ينظم جماعته من الانصار والصحابة . اذ كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة او الايمان ، وتتمتع مثلها بسلطة الهية ملزمة ، تضبط ليس الامور الدينية فحسب ، بل ايضاً الامور الدنيوية ، فتفرض على المسلم الزكاة ، والجهاد ضد المشركين لحملهم على الاسلام ونشر الدين الحنيف . وبعد مواقع عديدة مع قريش ، استطاع محمد فتح مكة فأسلم أهلها وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية . وقد فُرض على كل مسلم ومسلمة الحج مرة الى بيت الله الحرام لكل من يستطيعه . ولم تلبث القبائل ان اقبلت على الدعوة تقدم خضوعها . وعندما قُبض النبي العربي ، عام ٦٣٢ ، كان محمد انتهى من دعوته ، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الاسلام ، وصهرهم في وحدة قوية ، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة ، لم تعرف مثلها من قبل .

وقد اوشك موت النبي ان يقلب الوضع في الجزيرة ، رأساً على عقب ، لو لم يتـداركـ الامر ابو بكر خليفة الرسول ، وامير المؤمنين بعـده ، في سلسلة من الحروب العنيفة تعرف بحروب الردة . وولي الامر ، بعد ابي بكر، الفاروق عمر بن الخطاب ٦٣٤ — ٦٤٤ ثاني الخلفاء الراشدين، بعد الرسول . ولكي يبقى العرب كتلة متراصة ، كان لا بد من تجنيدهم في خدمة الدين الحنيف، وارسالهم في سرايا لفتح الاقطار المجاورة .

الفتوحـات العربيـة

تم الفتح العربي بسرعة ادهشت الفاتحين انفسهم . ولم يكن الغرض من هذه الحروب ، في الاساس سوى الغزو ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي ينتابه ، فاستحالت الفكرة الاولى ، الغزو ، الى فتح ، ساعـد عليه ، وسهل امره ، الحماسة التي جاش بها الغزاة الفاتحون . وهذا الضعف يتكشف عنه العدو قام اصلاً في هذا الكره الذي حمله الاهلون لحكم الروم ، فآثروا عدم مقاومة الغزاة ، بل ان قسماً من سكان البلاد تواطأ مع الغزاة وعمل على نصرتهم . وليس بالامر اليسير قط ان تتخلص من ربقة حكم الروم ، كما جاء على لسان احـد المؤرخين من النساطرة . تم فتح سوريا سنة ٦٣٦ ، بعد ان بوشر به عام ٦٣٣ ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام ٦٣٧ ، امـا فتح مصر فقد تم بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ، وقد تم فتح ايران نهائياً، باستثناء بعض المقاطعات الدائرية، عام ٦٥١ . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفـاع « الوطني » خلافاً للامر في الولايات البيزنطية ، اذ ما كادت جيوش العرب تطل على هـذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة ، ويفرون الى القسطنطينية ان لم يتواطأوا مع الغزاة الفاتحين . وقد بات من الصعب على المسلمين ، بعد ان خفتت حماستهم وخف اندفاعهم ، ان يفتحوا آسيا الصغرى بعد ان فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية ، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى حيث اصبح نهر السير داريا ، منذ اواسط القرن الثامن ، الحـد الفاصل ، بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين وقبائـل البدو الرحل من تتر ومغول . كذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا ، بالامر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح ، ولم يستقم الامر امامهم الا بعد ان جروهم للمساهمة بفتح اسبانيا، ثم صقلية، بعد ذلك بنحو قرن من الزمن. اما تقدمهم في غاليـا فامتد حتى بلغوا مدينة بواتيه حيث كتب لشارل مارتيل ان يكسر الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ .

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتـدت من نهر الهندوس ، شرقاً ، الى نهر التاج ، في اسبانيا ، غرباً ، ومن بحر أرال شمالاً الى اقليم السنغال جنوباً ، وكلها مناطق تأتلف مع طبيعة العرب ، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للامور المعايشية من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هـذه البلاد الاصليين ، عن احتياجات العرب ومطالبهم الاساسية . وهنالك مفارقات شتى في الجغرافية والتاريخ ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلاد . لا بد من التنويه عالياً هنا ، انه بعد الفتح ، جرى تنظيم هـذه

البلدان في إطار وحـــدة فضفاضة على اساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم . بقي ان نقول انه اذا مـــا ادت الفتوحات الجرمانية الى تقسيم اوروبا ، فالفتح العربي ادى بدوره الى وحدة الشرق الاوسط .

وبدلاً من ان يذوب الفاتحون العرب بين اكثرية سكان البلاد الاصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والاخلاق ، تراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم ؛ في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور ، فاذا بسكان البلاد يفدون على هذه المخيمات التي لم تلبث ان اصبحت مـــدناً عامرة ، كالكوفة والبصرة مثلاً ، في جنوبي العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في المغرب ، وكلها مراكز زراعية ، عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل ، بعيدة عن البحر ومواصلاته اذ لم يكونوا قد طوعوه بعد ، ولا ألفوا ركوبه . اما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح ، فينقسم الى فرق ، تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم « جند » تجري عليهم الارزاق والمرتبات من الاسلاب والغـــانم الحربية كل بحسب مرتبته ، او من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين . وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي، بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري ، تحت امرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابـــة والانصار والتابعين . وكثيراً ما ادت العصبية القبلية الى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب ، مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا اليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي ، فمزقت شمله وفرقته شيعاً واحزاباً ادت الى اشتباكات دامية استمرت قرناً واكثر .

كان لزاماً ان تفضي الاوضاع الجديدة ، بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حـــل ازمة خلافة النبي العربي محمد ، الى ازمة جديدة ، اطول من الاولى واكثر تعقيداً . فقـــد واجه تنظيم الدولة الجديدة، مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولا خطرت على البال، منها مثلاً قضية الحكم ، انطلقت من صميم هذه الفوارق العميقة والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والاهواء الشخصية ، في الظاهر ، والتي اقامت الجماعة واقعدتها ، بعد ان زال الجيل الاول الذي صحب النبي وناصره . ويمكن رد هـــذه الاختلافات الى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض ، والتي يمكن ردها اصلاً الى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينيـــة الى النظام الاجتماعي . فالتكتلات السياسية التي طلعت علينــــا ، اذ ذاك ، لم تلبث ان اصبحت احزاباً وشيعاً لها عقائدهـــا وتعاليمها اللاهوتية التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعهـــا السياسي والديني .

الدولة الاموية

في هذا العراك السياسي العنيف الذي وقف فيه الخليفة عثمان ، ثالث الخلفـاء الراشدين ، ومن بعده معاوية امير الشام ، ضد علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، ورابع الخلفاء الراشدين ، تبرز للعين والنظر ثلاث نزعات لا بد من الوقوف عندها . فمنذ البدء ، نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول ، الصعب المنال ، الذي يتبدّى لكل دين

جديد ، والذي يرمي للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية الاولى واحيائها ، ممثلة خير تمثيـــل « بقدامى المسلمين » ، والفئة الاخرى التي تتألف من هذا الفريق الجريء الذي يعمل على الافادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية ، وبعبارة اخرى ، بين من يقول بالتقية ويتمسك باهـــداب الدين الحنيف ، وبين هؤلاء الحكام الاداريين ، ممن يتولون تصريف الامور ، ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجـة الاولى ، ان يسترجعوا ، في الامة ، النفوذ الذي كان لقريش في مكة ، أبـّان عهد الجاهلية ويعيدوا اليهـــا ، السيادة والنفوذ اللذين تمتعت بهما من قبل . وظهر بين الفئة الاولى نزعتان . فالخوارج رأوا ان المؤمنين سواء فيما بينهم اصلاً ، فاذا كان لا بد لهم من امير يتولى الامر بينهم فأولاهم به اقربهم الى الله ، دون نظر الى الاصل او العرق ، مـــع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه ، من المسلمين ، باعتباره مارقاً ، خارجاً عن جادة السبيل . ومثل هـــذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي المرعي الجانب بين العرب . اما الشيعة ، فالتمسك بالاسلام الحنيف ، انما يعني في نظرهم ، التمسك بعترة النبي ولا سيما باهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب . فالامر عندهم اكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية ، هو الرفض بالتسليم بما يذهب اليه خصومهم بان صاحب الامر : الامام ، ليس سوى مجرد حاكم ، بل اعتقدوا عن يقين ان الوحي المحمدي يجب ان يستمر وان يبقى في اهل عترته ، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في امور الدين ، وبالتالي العزم على عـــدم التفريق بين الدين والسياسة . فلا عجب ان يفوز ، بنهاية الامر ، السياسيون بشخص معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في دمشق (٦٦١) . وقـــام الخوارج بحوادث دامية وفتن في معظم انحاء الدولة الاسلامية دون ترابط قط . اما الشيعة ، فقد رأوا اهل البيت منهم يستشهدون في كربلاء ، عام ٦٨٠ ، وينالون شرف الشهادة ، بينما انصرف بنو امية لتثبيت دعائم ملكهم وتوطيد سلطانهم .

وعندما بُويع معاوية بالخلافة ، جعل دمشق عاصمة لملكه ، مكرساً بذلك مـا كان لا بد منه ، وهو التحول عن الجزيرة العربية ، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته باعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً شعّا الى خارج الجزيرة العربية ، ليغمرها الصمت من جديـد . صحيح ان لفريضة الحج الى مكة ، واستمرار ابنـــاء الانصار والصحابة في المدينة المنورة حفظا لهاتين المدينتين اللتين يقدسها المسلمون ، منزلة كبيرة في القلوب ، غـــذت في نفوس البعض الرغبة في الثورة والانتفاضة في وجه السلطة ، الا انها محاولات باءت جميعها بالفشل . وقد اضفى انتقال مركز الخلافة الى دمشق اهمية متزايدة لعرب الشام فاصبحوا عمـاد الدولة الجديدة وذخرها ، واصبحت الشام في المنزلة الاولى بين الاقطار الاسلامية تفضلها جميعاً ولا سيما العراق حيث كان انصار اهـل البيت اقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم . واضطرت الدولة الناشئة ان تعتمد في ادارتها على اهل الشام الذين اصبحوا عماد الدولة فأمدّوها بالعمال والموظفين من ابناء البلاد ، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية على التقاليد الساسانية .

قلما عرف التاريخ والحق يقال ، فتوحات كان لها ، في المدى القريب ، على الاهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الاقطار . فمن لم يكن عربياً من الاهلين لم يشعر باي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من اهل الكتاب ، حق لهم ان يتمتعوا بالتساهل وان لا يُضاموا . وكان لا بد من الوقوف هـذا الموقف نفسه من الزردشتية والمانوية والبوذية وصابئة حران ، هذه الطائفة التي كان اصحابها يعبدون النجوم والكواكب ، وغيرهـا من الملل والنحل الاخرى . والمطلوب من هؤلاء السكان ان يظهروا الولاء للاسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه ، وان يؤدوا له الرسوم المترتبة على اهل الذمة تأديتها ، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدى المسلمين ، وان يحافظوا على عروبة الجيش . وفي نطاق هـذه التحفظات التي لم تكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية ، تمتع الذميون بكافة حرياتهم. والى هذا، فقد كان من الصعب جداً على العرب المسلمين الذين ألّفوا اقلية ضئيلة جداً في وسط هذا الخضم من الأمم والاقوام التي يسّر الله لهم السيطرة عليها ، ان ينهجوا نهجاً آخر ، ويأخذوا النـاس بالشدة والا لكانت الحروب افنتهم واكلتهم .

وتألفت ادارة الدولةمن قطاعين، ينتظم الاول سياسة المسلمين، فينظم منهم شؤون الحرب والسلم وامور العبادات ، ويؤمن اقتسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الادارة، في عاصمة الخلافة دمشق، وفي الاقاليم موظفون عرب . اما الثاني فيعنى بشؤون سكان البلاد ولا سيا بتنظيم الضرائب وجبايتها ، يتولى القيام به والاشراف عليه عمال وموظفون من اهل البلاد، يتولون كتابة الديوان وضرب السكة بلغة البلاد ، وبغير ذلك من امور الادارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين . ونرى في القطاع الاول ، يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين . فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحيـاة العامة والحياة الخاصة ، بحيث لا يمكن ادخال أي تغيير عليها أو تعـديل .

وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الاصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد ، والنظام الساري المفعول ، كما هي الحال مع كل فتح جـديد . وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندهـا ، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام، فمرجعه الحكومة ، أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض ، فكان امره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة ، مع انها هي التي تتولى امر تعيينهم وتأمين مرتباتهم ، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة اصدرته . ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعـد ان احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الامور الخاصة ولا سيما العائلية منهـا . وهكذا برز البطاركة والاساقفة ، الرؤساء الاعلين لطوائفهم تعلو سلطتهم سلطـة الموظفين الاداريين المحليين ، حتى ان اليهود انفسهم لم يجـدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وربابنتهم وبحاخامهم الاكبر .

الشريعة الاسلامية اساسها الوحي المحمدي وهو وحي وتعاليم لم تكتب في عهد محمد، فتناقلها الصحابة في قلوبهم كما تناقل الرواة الشعر من قبل ومن بعد. فهل يمكن، لعمري، القول او التسليم بوجود او بامكان وجود اختلاف، او تناقض في كلام الله ؟ وامام خصومة الذين راحوا يتهمونه بعدم التدين او المروق، راح ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان ابن عفان، يجمع القرآن من حامليه ويدونه بحرف عربي لم يبلغ بعد الطواعية اللازمة، وهكذا ظهر القرآن بوضعه الحاضر. ولم يكن الغرض من جمع آي القرآن على هذه الصورة إعداد ترجمة مفصّلة لحياة النبي العربي او ترجمة مسهبة له، بل بالاحرى جمع وقائع حياته وتعاليمه التي حدثت او وقعت في ظروف وامكنة مختلفة، والخروج من ذلك كله بكتاب او قرآن، منهجي، نهائي، غير مربوط بزمان او مكان. ولذا جاء ترتيب آيات هذا القرآن وسوره لا يراعي التطور التاريخي لهبوط الوحي المحمدي، اذ يجد العلماء اليوم من الصعوبة بمكان، تحديد اماكن هذا الوحي وتحديد الظروف التي نزل فيها.

ومع ان القرآن هو اصل العقيدة الاسلامية وركنها الركين، فهو ليس مع ذلك، مصدر الشريعة والعقيدة الاسلامية الوحيد. فالقرآن هو كلام الله المنزل. الا ان سلوك الرسول العربي، واقواله، واحاديثه، حتى ما كان منها لا يتعلق بالوحي، لها قوة تعليمية اسمى بكثير مما للناس من امثالها. ولذا بدا من المفيد لا بل من اللازم، الرجوع الى هذا كله والاسترشاد به والهدي بما فيه من موعظة وحكمة وعبرة لاتمام الشريعة المحمدية، اذ هنالك حالات وظروف واوضاع طرأت على الامبراطورية العربية، لم يرد في القرآن ما يعرض لها او ما يسمح بمعالجتها. وهكذا راح المهتمون، بالامر يدرسون التقليد او سنة الرسول يستخرجون منها الاحكام والقياسات المرتجاة، يستخدمونها ضد الشيعة والخوارج. وهكذا اخذوا بجمع اقوال النبي واحاديثه بالرجوع الى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ولم يلبث ان نشأ من هذه الحركة علم جديد هو علم الحديث، كما اطلقوا على من يعنون به اسم المحدثين. وقد قام اصحاب الملل والبدع الاسلامية، تعزيزاً لمقالتهم او لمواقفهم، يدعون أحاديث نبوية، بعضها محرف وبعضها منحول من الاساس، بحيث راح المحدثون يضعون حدوداً صارمة ليميزوا بين الصحيح منها والزائف. ويرى مؤرخو العصر في هذه الاحاديث، وثائق تتعلق بتطور الاسلام اكثر منها وثائق تنير جوانب غامضة، في حياة النبي العربي.

وهكذا اخذت تتضح مبادىء العقيدة الدينية في الاسلام، كما تحددت اركانه الخمسة أو القواعد الكبرى التي ينهض عليها الدين الجديد، الا وهي: الشهادتان، والزكاة وصوم رمضان والجهاد أو الحروب المقدسة ضد المشركين، والحج الى بيت الله الحرام، مرة في الحياة على الاقل، وإقامة الصلاة خمساً في النهار. وهي تقام، بالافضل، في موضع معين للعبادة هو المسجد، ولا سيما يوم الجمعة جرياً على عادة إقامتها يوم السبت، عند اليهود، ويوم الاحد، عند النصارى. فالمسجد، كالكنيسة، هو مكان للعبادة كما هو مكان تعقد فيه الجماعة اجتماعاتها العامة للنظر

وتبادل الرأي . وقد حدث ان حوّلوا كنائس الى مساجد ، غير ان العرف المتبع هو ان يُعهد، في أكثر الحالات ، بتشييد المساجد ، الى عمال من أبناء البلاد . وهـــذا المسجد يتألف ، في الداخل ، من بهو فسيح الارجاء الى صحن كبير أبهاء فرعية وأروقة تقوم جميعها على صفوف من الاعمدة ، تنتهي الى حائط مستقيم الخط تقوم امامه حنيّة تتجـــه الى القبلة ، والمحراب والمنبر حيث يقف الامام مصلياً وخطيباً . ويمتد امام البهو فناء رحب أُعدّت فيـه أماكن للوضوء تجري فيها المياه . ويعلو المسجد عادة ، مئذنة تشبه القبة في كنائس النصارى ، يمتليها المؤذن خمساً في النهار يدعو الجماعـة : « حيا على الصلاة » . فالصلاة لا تستدعي ولا تتطلب ، مبدئياً ، أية رقبة دينية لترؤسها . فمن السهل على كل مسلم ان يتفهم دينه ويحفظ ما فيه من حدود. وما من احد يتلقى من الله عن طريق التكريس أي مراسم اخرى ، عوناً خاصاً او نعمة ليسير بحسب هدى دينه . ومع ذلك ، فلم يلبث ان ظهر بين الجماعة طائفة من الفقهـاء تخصصوا بأمور الدين وتفقـّهوا بفرائضه، كتب لأصحابها ان يلعبوا دوراً بارزاً في الاسلام، هم طائفة العلماء.

سكان البلاد الوطنيون

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً، ولا على السواد الاعظم من سكان المدن ، وكلهم غير مسلم ، أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد اخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ، ينظمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينيـة والكنسية الخاصة بعد ان تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها. وسيدفعون غالياً ، في المستقبل، ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي ، فقد اقتصرت علاقاتهم ، مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الحاضر ، على بعض الاتصالات الانسانية ، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم . وقد رأحت بيزنطية ، بالاحرى ، تشعر بالاسف المرير لفقدانهـــا أغنى ولاياتها مادياً وروحياً . وخير من يمثل هذا الوضع ويصور هذا الواقع ، احسن تصوير ، هو يوحنا الدمشقي ، احد كبار الموظفين في البلاط الاموي ، الذي كفر بالعالم بعد حين ، وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا ، القريب من القدس ، واشهر لاهوتيي الكنيسة الشرقية الملكية في هذه الحقبة ، ولعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين . وقد عُرفت هذه الكنيسـة بالملكية ، لبقائها على الولاء « للمـــلك » او لامبراطور بيزنطية ، وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية ؛ كما لحقها أذىً كبير من جراء فقدانهـــا السلطة الكنسية ولشغور كراسي بطريركيتها ، في المرحلة الاولى ، ثم لتوليها ، فيما بعـــد ، من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافـــة الاسلامية ، منهم بطريركية القسطنطينية . وقد بقيت ، بالرغم من هذا ، نشيطة حية ، كما نرى من سيرة القديس يوحنا الدمشقي .

والى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسـة المارونية التي اخذت اسمهـــا من اسم راهب يدعى مارون ، الا ان ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية انطاكية ، جعلهـا تتردى في الهرطقة المونوثولية او القول بمشيئة واحدة في السيد المسيح ، في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها. وقد اخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع ، بين بين،

من الانشقاق والانفصال ، تحت ادارة بطريرك خاص بها ، وبدون قصد معين . وبالرغم من عداوة اتبـاع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في اعينهم ، اخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية ، بعد ان اخذوا في حرثها واستغلالها ، وبعد ان رأوها امنع جانباً وآمن لسكناهم من تلـك الهضاب والنواحي الواقعة الى الشمال من سوريا والتي سكنوها ردحاً من الزمن في بدء امرهم . اما اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبة واقباط وارمن ، والنساطرة ، فقد استطاعوا في اول عهد السيطرة الاسلامية ، ان يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم . وقد هب البطريرك إيشوعيهب الثالث النسطوري ، الى وضع سلسلة من التشريعات الليتورجية والقانونية ، ثم انصرف الى التأليف في الامور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي مع الحرص الشديد على السير مـع الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك ، ولا سيما في الطب . وقد برز عند اليعاقبة في هذه الحقبة ، ولا سيما في الحياة الرهبانية ، يعقوب الرهاوي الذي كان اوحـد علماء زمانه ، بل قطبهم وعميدهم ، اديب ، شاعر ، ناقل ، مؤرخ ، مفسر ، مشترع ، وفيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة . ما ازدحم العلم في صدر احد ازدحامه في صدره ، فكان ملفان البيعة الاكبر . وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقـد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني . وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين ، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية ، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية والليتورجية لغة واحدة بالرغم من بعض الفوارق الطفيفة . فقـد أثـّر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الاقباط والارمن ، بينا تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الاقطار الوسطى من آسيا .

وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد وُزّعت الاراضي في الريف الى قسمين متميزين : الاملاك الخاصة ، والاملاك العامة ، ثم اضيفت اليهـا الاملاك التي فقد اصحابها ملكيتهم لها ، لفرارهم من البلاد عنـد الفتح او لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها اذ ذاك . فالقسم الاول من هذه الاراضي ترك لاصحابها ، شريطة ان يدفعوا عنهـا ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل للدولة البيزنطية او الساسانية . اما القسم الثاني من هذه الاراضي ، فقد أجر الى مزارعين او مرابعين (إقطاع) معظمهم مـن العرب ، بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة ، رأى فيها بعض الفقهاء من اهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا به طويلاً ، مـع ان الدولة الجديدة التي لم تكن ألفت بعد مثل الفروق الدقيقة ، اعتبرتها املاكاً تشبه في ملكيتها ، هذه الاملاك التي كان معمولاً بها في الجزيرة العربية قبل الفتح . فالاقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية ، مع ما لذلك من حدود . فعلى سيد الارض ان يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ، ويحمل مما يتصدق به عُشر ربحه او مدخوله . فهو لا يتمتع باي من الامتيازات التي تحق قانوناً للسلطات العامة ، على المرابعين او المستأجرين ، فسلطته عليهم هي اخف من سلطة اصحاب

الاملاك على مزارعيهم ، في عهد البيزنطيين والساسانيين . وعلى هؤلاء المزارعين ان يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الاملاك من الفلاحين ، وهكذا نرى ان هاتين الفئتين من الاراضي لم تخضعا لنظامين اقتصاديين يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً . وهكذا لا نرى وجهاً « للاستعمار » العربي ، الا ما جاء استثماراً او استغلالاً للاراضي الموات غير القابلة للحرث والزراعة . وهكذا نرى ان الفتح العربي ، كان اخف وقعاً بكثير على الاهلين ، وكان شعورهم به أقل بكثير من شعور الناس ، في الغرب ، بغزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية .

ان هرب « ارباب » الاراضي البيزنطيين من البلاد ، وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم بنظم الاقطاع ، لم يجلب معه الحرية للفلاحين . وكان من المحظور على العرب ، مبدئياً ، ان يصادروا أو ان يختلسوا أملاك سكان البلاد . اما في الواقع ، فقد ساعد الشعور والسرور بالخلاص من المحتل المستبد ، وفقدان الادارة والنظام الذي ران على البلاد ، في اول الفتح ، بعض قادة العرب وزعمائهم ، على اقتناء قرى وضياع ضموها الى ممتلكاتهم السابقة ، وأعفيت من ضريبة الخراج ، فلم تستفد الدولة منها غير استيفاء العُشر ، ومثل هذا الوضع لم يكن واحداً سوياً في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية . ففي ايران مثلاً ، أسقط في ايدي أسياد البلاد وكبار الملاكين، وسُدّت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا ان ينجوا بانفسهم، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه . واذ رأى زعماء العرب انفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية ، قاموا بعدد من التجاوزات ، حدّ منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن املاكهم بداعي الجهاد ، وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها . وتمسك الفلاحين بالارض وتعلقهم بها في عهد الادارة السابقة ، لم يتأثر كثيراً مع الفتح العربي . ولذا كان لا بد من الكشف عن الهاربين لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن املاكهم في الريف، من ضرائب ورسوم ، لانهم لا يزالون مسؤولين، قانوناً ، عنها امام الادارة المالية . ولذا نرى الوثائق البردية في مصر ، حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على اشدها ، تأتي على ذكر هؤلاء الفارين ، لدرجة انها اصطلحت على تسمية ضريبة الاعناق او الجزية المستحقة عليهم ، بكلمة « جوالي » أي اللاجئين ، وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الاعناق أو الجزية ، بقطع النظر عن الاراضي أو العقارات التي يملكونها . وهذه الضريبة الثانية ، أي الجزية ، التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح عليهم ، اذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً،او لم يكن حراً . وهكذا فالحياة وطرق الجباة، كل هذا بقي على ما كان عليه قبل الفتح ، ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة . وهو أمر لم يكن ليكترث له الاهلون ، او ليهتموا له ، بقليل او كثير .

أما المؤسسات البلدية والخاصة ، في المدن، فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في ظل النظم التي سارت عليها الادارة الجديدة .

وهل من تغيير يطرأ على التجارة ، يا ترى ؟ فقد تم بالطبع ، الغاء الاحتكارات الرسمية ، كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية ، على الاسواق في مصر ، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين اسباب تموين العاصمة القسطنطينية . وقد تكون خفت ، ان لم تتوقف تماماً ، الحركة التجارية في شمالي الشام ، ولا سيما تصدير الزيت والزيتون ، الى مقاطعات آسيا الصغرى . والذي نرى انه لم يحدث اي توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على ايدي بعض التجار، كما ان الانتاج بقي على وفرته،حتى في حال توقف حركة التصدير، وتحولت الى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء، جديدة كانت ام قديمة،وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الاموية . ومن الجائز ان نفترض هنا بان الوحدة السياسية التي لفت هذه الاقطار بعضاً الى بعض ، مما وقع بين العراق وآسيا الوسطى ، والتي كانت ، الى ذلك الحين ، بين دفع وجذب ، بين امبراطوريتين متجاورتين ، متنافستين ، كان لها وقع طيب في الاوساط التجارية ، مع ان الناس لم يتبينوا فائدة هذه الوحدة ، إلا بعد حين. والمهم ان نلاحظ هنا ، على ضوء سوء الفهم الناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة، ستطالعنا بعد حين، انه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية : لا في بحر الهند الذي سيطر على التجارة فيه الايرانيون ولا في البحر المتوسط : فالعرب لم يكونوا رجال بحر كالبيزنطيين ، فلم يروا ما يمنع الا في بعض الحالات والاصطدامات المسلحة ، استمرار العلاقات التقليدية التي ربطت ، منذ اجيال ، بين البلاد المسيحية الواقعة الى الشمال من البحر المتوسط ، وبين سكان البلاد الواقعة في جنوبي هذا البحر والتي دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين . فقد يكون لحق ، بعض الاذى بالثغور السورية الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية ، أو لوجودها على مقربة من جزيرة قبرص . والظاهر ان نشاط الاسكندرية التجاري لم يتأثر بشيء يذكر من هذا كله .

حضارات متقاربة

وهذا الاستمرار عينه يلازم الحياة الفكرية : فحضارة سكان البلاد الوطنيين وحضارة العرب تسير كل منهما في خط أو اتجاه معاكس ، الا ما اتصل بمجال الفن . فالادب عند العرب ، في القرن الاول للهجرة يسيطر عليه الشعر وفقاً لعمود الشعر العربي في العصر الجاهلي ، بعد ان اخذ ينعم برعاية الامراء والخلفاء يستدنون رجاله ويقطعون ألسنة الشعراء ، فقد تلقح بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الامراء ، استدراراً لعطائهم ، أو كتصوير حياة الاحزاب ، وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الدعة التي اخذ العرب باسبابها. ومن بين الشعراء الذين برّزوا في هذه الحقبة في المدح والهجو على السواء ، ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بني امية اسماً ، واعلاهم شأناً وذكراً ، الاخطل من قبائل الشام النصرانية ، والفرزدق وجرير . هنالك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنّوا ، في نظمهم ، بمآتي الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة ، كما نظموا في موضوعات شتى ، كالحماسة والموعظة والرثاء ، وفي العقائد وفقاً للاحزاب التي ينتمون اليها . ونرى كذلك ضروباً من النسيب والتشبيب ، شعراً يلتهب حباً عذرياً ، كما نرى في شعر مجنون ليلي ، أو يفيض اسى ً ولوعة فيصف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة ، على انغام المغنين

والقيان . اما النثر ، فيبقى باستثناء القرآن ، وقفاً على التغني بايام العرب والحوادث المروية . كل هذا ، واللغة تزداد طواعية ومرونة ويسلس قيادهـا مع المفسرين والمحدثين ، لتصبح في اواخر القرن السابع لغة الادارة والدواوين .

اما الادب القومي ، فمجال الكلام فيه قصير ، اذ لا يخرج منظمه ، عن التأليف الكنسي ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، اخذت تطالعنا بوادر حركة علمية ، تتمثل خير تمثيل في حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند الى العربية ، على يد النصارى من سريان ونساطرة . فبينا لا نرى احـداً يبرز في التاريخ عند الروم ، يلتمع امام نواظرنا اسم المؤرخ الارمني سَبِيْئُوس اذ بقيت بلاده تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري ، في العهد الذي كتب فيه (القرن السابع) ، كما نرى ، عند الاقباط ، يرتفع اسم الكاتب يوحنا نيكيو. وهذان الكاتبان عاشا الفتح العربي وتركا لنا شيئاً عنه . وهكذا فالحضارة المسيحية ، في الشرق الادنى ، في القرنين السابع والثامن ، تتمثل خير تمثيل في الامبراطورية العربية ، بينما لا نرى في هذه الحقبة ، شيئاً عند الروم يستأهل الذكر والتنويه ، باستثناء بعض الآثار في التاريخ والتصوف ، وذلك في هذه الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى مطلع القرن التاسع .

وقد اشتركت الحضارتان معاً في ما نرى من انتاج فني ، يعهـد به العرب الى المهندسين المعماريين من أبناء البلاد ويستخدمون له مواداً هي ، في معظمها ، من مخلفات العهود الماضية . فاذا ما اقتضت فروض العبادة ومناسك الدين في الاسلام ، ان يتميز بناء المسجد بالاصالة والاتساع من حيث مقاييسه ، فنقوشه وزينته من الداخـل وتحليته تبقى مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد . وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الاهلية ، يبرز أكثر فأكثر ، في المباني المدنية بحيث ان نسبة قصر المشتى في الاردن ، تبقى أمراً مشكوكاً فيه جداً ، ولا يمكن بالتالي ، التسليم به بصورة مطلقة . ومن أشهر هذه الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا ، مسجد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، في الفسطاط ، ومسجد قبة الصخرة الذي يسميه البعض غلطاً مسجد عمر ، والمسجد الاقصى ، في القدس ، وكلاهما من انجازات الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ويرجع تاريخ بنائها الى أواخر القرن السابع . وبعد ذلك بقليل المسجد الكبير في دمشق ، المعروف بالمسجد الاموي ، الذي كان ، أساساً ، كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان ، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر .

اقبال سكان البلاد الاصليين على اعتناق الاسلام

اخـذ الوضع الناجم عن الفتح العربي يتغير تدريجياً ، وينقلب ظهراً لبطن ، تحت عوامل جديدة عديدة . منهـا في الدرجة الاولى ، إقبال الاهلين على اعتناق الاسلام افواجاً افواجاً . وهي حركة تثير الدهش في مظهرها ، اذ يقوم بها اصحاب اديان اوفر غنى ، مادياً وحضارياً ، واوفر عدداً . الا ان هذه الحركة لم تأتِ سواءً ، في كل مكان ، اذ بقي في بعض الاقطار اقليات دينية

متراصة العدد ، كما هي الحال مثلاً ، مع الطائفة المارونية في لبنان . وقد كان المسيحيون ، على الاجمال ، اكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزردشتية ، مثلاً ، وهي ظاهرة يمكن ردها بالاحرى ، الى اسباب عديدة ، منها مثلاً القوة الادبية التي كانت للمسيحية في كثير من الاقطار الاخرى ، ومن جهة اخرى ، تغلغل المسيحية بين الطبقات الشعبية في المجتمع القائم اذ ذاك . ويتضح من جهة اخرى ، ان العرب ، خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل ، اخـذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم ، بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى ، ان يقبلوا على اقتباس ديانة البلاد التي فتحوها ، وهي في مستوى ثقافي اعلى وارفع . ومهما بلغ من حدة الجدل الديني ، وعنف الحروب التي قامت بين الاسلام والديانات الاخرى ، فقد كانت هذه وتلك ديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط ، اذ كان من العسير على المؤمن العادي ان يدرك ، او ان يفهم كما يجب ، او ان يميز بين مفارقات رجال اللاهوت . فبعد ان ملّ النصارى وسئمت نفوسهم عطـّن المناقشات التي ادت اليه المشاقات الدينية والمذهبية ، وهـذه الشروح ، والتفاسير والتعاليق الفلسفية اللاهوتية التي آلت اليها او شجرت عنهـا ، فقد رأوا في الاسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم ، غاية في الاستمرار والتركيز . وهـذا الاسلام الذي اقبلوا عليه يعتنقونه زرافات ووحداناً ، كأنه لم يكن في نظرهم ، هذا الاسلام الذي خرج من بين يدي محمد : فهو دين طرأ على اتباعه تطور كبير منذ ان اصبح في تماس شديد مـع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها ، بعد ان ادخل عليه معتنقوه من الاعاجم ما ادخلوا من رواسب تراثهم الروحي ، وبعد ان لفحوه بما لفحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة. ولكي نفهم، من جهة اخرى، حركة اعتناق الاسلام بالجملة، علينا ان لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والادبية والاجتماعية التي طمع المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الاسلام ، اذ ان اتخـاذ الاسلام ديناً لهم ، يجعلهم من أبناء الطبقة السائـدة المهيمنة في الدولة ، ومن أعضاء المجتمع المسيطر . وهكذا فاعتناق الاسلام ، كان في نظر القوم اشباعاً لنهم طبقي، ولشهوة اجتماعية ، وتحقيقاً لرغبة او لحلم طالما راودهم بتحسين وضع اجتماعي، وطالما اوردهم، وهذا وضعهم، مورد الذل والهوان، أكثر مما هو ارضاء لنزعة دينية ، او لمطلب اسمى من مطالب النفس البشرية السامية . فالمرتدون للاسلام ، لم ينالوا حالاً ، المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية، التي طمعوا بالحصول عليها . فالاسلام الذي اعتنقوه لم يكن دوماً هذا الاسلام المتمثل في الحكومة والادارة المركزية . فهو كثيراً ما كان ، اسلام هذه الملل والنحل الاسلامية المعارضة . وهكذا فلكي تقوّي هـذه الملل من جانبها المستضعف ، وتشد من أزرها امام الاسلام الدولة او الاسلام الرسمي ، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الوطنيين ، لحملهم عـلى اعتناق الاسلام ، وفقاً لمقالتهم او حزبيتهم الخاصة .

فالدولة الاموية كرّست سيادة العرب وسيطرتهم . ففي نظر الفاتحين، العربي والمسلم شيئان او وضعان مترادفان . فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة ، من قبل سكان البلاد ، ميدان هذا

الترادف ، وذهاب بهذا التوافق ، اذ في مثل هذه الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر ، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الامر البتة . فالأول الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب ، أنزلوا منزلة القوم من القبيلة ، فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناءً لها بالتبني، هم « الموالي » ، بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم . ومع ذلك فوضع هؤلاء الموالي كان بالفعل ، دون أبناء القبيلة ، وهو وضع تبرموا منه ، وتألموا له كلما ازداد عددهم ، وكلما تباعدت عن الاذهان ذكريات الفتح ، واخذت الدولة الجديدة في تنظيم امورها بعد ان اصبحوا ذخر الدولة يرفدونها بالعنصر الاداري . وقد اقتصر وضعهم في الحروب ، على دور ثانوي ، لا يخولهم أي حق بالغنائم والاسلاب التي يصيبها العرب في فتوحاتهم . وفوق هذا، فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مما يُرغَب فيه . فاعتناقهم الاسلام ، كان يجب ان يؤدي ، في نظرهم ، الى اعفائهم من الجزية المضروبة عليهم قبل اعتناقهم الاسلام ، كما كان يجب ان تُحوّل ضريبة الخراج المترتبة عليهم ، الى عُشر . فلم يحدث شيء من هذا عملياً . أفكان من المعقول ، ان تقبل الدولة بمثل هذا الرأي الخطل وقد أوشكت حروب الفتح ان تنتهي ، وان تقبل بمثل هذا الفيء المتدني من الرسوم والضرائب ؟ والحل الذي انتهوا اليه مع الوقت، هو الغاء الجزية ، هذا الميسم الذي يدمغ الذميين والخاضعين للاسلام ، على ان تستبدل ، فيما بعد برسوم اخرى تحل محلها ، وان بقي تصنيف الاراضي ، من الوجهة الضرائبية ، على ما كان عليه ، منذ الفتح : فتبقى ارضاً يترتب عليها الخراج ، هذه الاراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام . وهكذا استمرت قائمة، هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم المساواة ، ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ، هذا النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة . وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة ، قام المرتدون الى الاسلام يطالبون باجراء العدل بالسوية وتأمين المساواة بين المسلمين ، من أي جنس او عرق كانوا ، وليس بين العرب فقط . وهكذا ، فحركة التذمر التي ارتفعت ، اذ ذاك ، بين سكان البلاد ، لم تتجه ضد سيادة الاسلام وسيطرته ، ولا ضد الديانة الجديدة . فقد هدفت الى السيطرة على الاسلام من الداخل ، في هذه الأطر ذاتها التي ارتضاها الاسلام له وعمل بها . وعلى هذا الاساس، قامت الحركة في ايران، بلد الموالي الامثل، وفي المغرب الاقصى ، بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يجيلون فتيانهم عبيداً ، وبعد ذلك ، في اسبانيا ، بين طبقة المولدين ، هذه الطبقة التي تألفت من ملاطي المسلمين او من الذين اعتنقوا الاسلام ، من سكان البلاد الاصليين . وبلغت الحركة اشدها في ايران ، وقد ساءها ان يعتمد الامويون على اهل الشام دونهم ، في تدبير امور دولتهم ، بينما رأى سكان الولايات الاخرى أنفسهم يذهبون هم أيضاً ضحية هذا النظام . والحال فقد كانت ايران ، من بين هذه الولايات ، القطر الوحيد الذي كانت له تقاليده الوطنية أو القومية .

وهكذا تلتقي في مجال النظام الضرائبي ، جنباً الى جنب ، القضية القومية والقضية الاجتماعية ، وزادتا تداخلاً وتشابكاً وتعاظلاً في نظام الملكية الذي عُمل به في الدولة الاسلامية . ففي ابان الفتح ، تُركت للعرب ، الحرية في ان يقتنوا ، شراءً او غلاباً ،

الاراضي التي كان على سكان البلاد ، مبدئياً ، ان يحتفظوا بها . الا انهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التَلْجِئة ، وهي ضرب من التوصية او من الإرتفاق ، في الغرب ، يلجأ اليه من الناس المستضعفو الجانب ، ليأمنوا شر الجباة الشرهين ، وسوء معاملاتهم ، او لعجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المؤجلة الدفع ، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد ان يجعلوا املاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية . امـــا في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود ، فكثيراً مـــا عمد العرب ، في غفلة من الخليفة او الأمير ، الى اغتصاب املاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ، بعد ان يسيموهم الهوان الواناً ، كما فعلوا مثلاً ، مع قبائل البربر ، في المغرب . وقد رأينا في اماكن اخرى ، كايران مثلاً ، كبار الملاكين من سكان البلاد ، يعقدون صلحاً مع القادة من امراء الجيش ، من مندرجاته : استثمار الطبقات الشعبية السفلى ، بحيث يعارضون اعتناقها الاسلام ، لئلا يزعجهم مثل هذا الارتداد، في طريقة تأمين المنافع التي تؤمنها لهم هذه الترتيبات الخاصة التي عقدوها مع اولي الشأن . وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية ، وفي هـــذه المعارك التي لن تلبث ان قامت بين المسلمين ، نرى فيهـــا كل فريق يضم بين صفوفه ، عرباً وغير عرب من الانصار .

اما على صعيد العواطف والمشاعر ، فالاصطدام وقـــع بشكل مدهش : بين اشد العرب استمساكاً بالتقاليد ، من جهة ، وبين اشد سكان البلاد ثورة ومطلباً . فبينما راح الفريق الاول منهم يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى ، وهـــذا يعني الوقوف في وجه الدولة الاموية المتصف العلمانية ، بينما رأى الفريـــق الثاني ، في تطبيق الشريعة الاسلامية، المساواة بين المسلمين ، على صعيد الأطر والملاكات التي تنتظم الادارة العربية ، منذ الفتح . وبدون ان يوضحوا مطاليبهم والاهداف التي يرمون اليها ، نرى كلا الفريقيـــين يطالب الأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه. وهذا التحالف لم يكن قائماً على ما فيه لبس او غموض فمن المعقول جداً ان تجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع ان يطفىء بالدم الانتفاضات التي قامت هنا وهناك ، باتحاد اوسع واشمل ، وهو اتحاد ادى ، على ما حف به من غموض ، الى النصر المرتجى .

ثورة بني العباس وانقلاب الحكم

وقد اتخذت المعارضة اشكالاً شتى . فالخوارج نالوا تأييداً مؤزّراً في كل من ايران ومصر ، ولا سيا في المغرب حيث استفحـــل امرهم وعظم شأنهم بعد ان استجاب الاهلون من البربر لهذه الدعوة لتوافقها مـــع النزعات الفوضوية الدينية المتأصلة بينهم ، غير ان بُعْد بلاد البربر من جهة ، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة اخرى ، اذ كانت طباعهم طبائع اهـــل البادية الذين عُرفوا بالعنف والتهور ، كل ذلك حال دون ان يحققوا فوزاً فاصلاً . وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة ، او بالاحرى ، في هـــذا الشعور العارم الذي كان الشيعة خـــير من يمثله ، الا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبهـــا من الله رأساً ، مناقب خاصة ، فكرة تستهوي معـــاً

أصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية ، كما تبسم للايرانيين الذين ألِفوا حكم الساسانيين وارتاحوا اليه . وقد اخذ البعض يضيفون الى نظرية الحكم هـذه ، آراء وتعاليم تعكس امجاد السّلف والجدود عند الاعاجم . وكان الشيعة يطالبون بان يكون الحكم في اولاد علي بن ابي طالب وذريته ، بينما راح غيرهم يتمسك باسرة النبي دون ان يخصوا منها فرعاً معيناً ، واظهروا استعدادهم لمناصرة اية حركة ذات شأن . واستطاع احـد اولاد العباس ، عم الرسول العربي ، بما تم له من دراية وحسن سياسة ، ان يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) ، هو ابو مسلم الخراساني ، وان يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس ، وان يسقطوا الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ، فيؤسسوا هكذا دولة جديدة استطاعت ان تستمر في الحكم ، ولو نظرياً او مبدئياً ، على الاقـل ، الى مطلع القرن السادس عشر .

حاولت الدولة الاموية، لعمري، ان تكيف نفسها حسب مقتضيات الوضع القائم، واستطاع الخليفة عبد الملك ، ان يُوحّد ، لاسباب اقتصادية وسياسية معا اقتضتها حروب الامويين ضد البيزنطيين ، ضرب السكة والنقود في ايام حكمه ، فضرب نقوداً تحمل كتابة عربية ، منهـا الدينار الذهب ، وزنته ٤ غرامات و٣٥ سنتيغراماً ، والدرهم الفضة ، وزنته غرامـان و ٧٩ سنتيغراماً ، وهي اسماء مشتقة أصلاً من الدينـار والدراخم البيزنطيين ، وكانت قيمة الثاني الى الاول بنسبة ٧ الى ١٠٠ على اساس الفضة ، اي بمعدل ١ ÷ ١٠ من سعر الذهب . ومن الاعمال التي حققها الخليفة عبد الملك ، في عهده ، تعريب الادارة ولغة الدواوين ، اقله في مركز الخلافة . وقد حاول الخليفة عُمر بن عبد العزيز ، وهو الملك المثالي ، في نظر المؤرخـين العرب بتقواه ، ان يطبق خلال حكمه الذي دام سنتين لا غيره ، البرنامج المالي أو الضرائبي الذي طالب به أهل المدينة . وعلى ضوء حالة الحرب مع بيزنطية التي لم تعد ، كما في الماضي ، سلسلة متصلة الحلقـات من الانتصارات ، ندرك بعض الشيء ، سياسة الشدة والتدابير القاسية التي اتخذها الخليفة ، ولا سيما يزيد الثاني ، ضد النصارى ، في بعض المناطق ، ولا سيما ضد الملكيين ، اذ فرض عليهم ابراز جواز سفر في تنقلاتهم في أطراف مصر ، كما فرض عليهم زيّاً خاصاً من اللباس ، وتحطيم الشارات المسيحية البارزة للعيان . كل هذه التدابير ، لم تكن على شيء من الرصانة ، ولم تأت باي علاج للمشكلة المتأتية عن اعتناق الايرانيين للاسلام بالجملة ، كما انها لم تفد شيئاً ولم تجْدِ فتيلا في تأخير اعلان الثورة ، ولا في إنساء أجل سقوط الخلافة الاموية .

بالطبع لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي الى ما كان عليه من بساطـة في عهد محمد . فلم يُدخِل أي تغيير على نظام الخراج . ومع ذلك ، فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة . فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون وبه استطاعوا الإطاحـة بالخلافة الاموية ، انما يعود ، أصلا ، لعرب العراق الذين ناصبوا الامويين في الشام العداء ، ولا سيما للموالي من الايرانيين ، وعلى الاخص ، للخراسانيين من بينهم ، اذ كانوا ذخر الدولة العباسية وسيفها المصلت ، فأعادوا الاعراف المتبعة في عهد الدولة الساسانية . امـا البدو من العرب ،

فقد أُبعدوا الى الصحراء بعد ان يئسوا من تطويرهم وتكييفهم ، كما أبعدوا كذلك، عن الجيش ، الذي تألفت صفوفه من الخرسانيين ، فاقبلوا ينخرطون في كتائبه واصبحوا العنصر الفني فيه ، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها ، تأسست عاصمـــة جديدة للدولة العباسية ، هي بغداد ، التي قامت على مقربة من مدينة طيسفون ، عاصمة الساسانيين من قبل. وقد انتقل معظم سكانها الى العاصمة الجديدة ، ونقلوا معهم عاداتهم واعرافهم . وهكذا زالت سيادة اهـل الشام وذهبت سيطرتهم مع ذهاب الدولة الاموية ، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة ، من البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي وبحر العرب .

هدف النظام العباسي الجديد الى وصل ما انقطع من التراث الساساني ، كما رمى ، من جهـة اخرى ، الى إحلال التمسك باهداب الدين محل « الالحاد » الاموي . فالنظام القـــائم هو نظام إسلامي ، لان صاحب الامر فيه هو من سلالة النبي ، فاتاح له ذلك ، ان يتمتع ، بوصفه الإمام، بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار ، دون ان تكون له القوة ، بالفعـــل ، ليغير شيئاً من الشريعة او ان يكملها . وهذه الصفة الفائقة للبشر التي تلبّستها ، الامامة ، تجعلنــا ندرك جيداً البذخ الذي كان عليه بلاط الخليفة ، وعزلته عن النـــاس ، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته ، الا في مناسبات خاصة ، كالاعياد العامة مثلاً ، وهو يرتدي بابهة وجـــلال ، ملابسه الفخمة تحفّ به كل مظاهر المهابة والوقار ، تشبهاً بملوك الدولة الساسانية ، من قبـل . اسلامي كذلك هذا النظام القائم ، لانه قضى على كل ما يشتمّ منه امتيازات سياسية ومالية ، وقضائية وعسكرية ، بحيث تعود فائدتها على المسلمين كافة ولا تقتصر على العرب وحدهم . اسلامية أيضاً هذه الدولة لاعتمادها كل الاعتماد على علماء الدين والفقهاء ، حتى اذا ما اجمعوا على امر كان اجماعهم هذا تبريراً له ، واعترافاً بعدم مخالفته او مغايرته للعقيدة الاسلاميـة ، بحيث ان جميع المؤسسات والنُظُم التي طلع بها الحكم قد تبدو وكأنها من مستلزمات التنظيم الاداري للدولة . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم « كتاب الخراج » الذي ألّفه ابو يوسف الانصاري ، المتوفى ٧٩٨ ، بأمر من الخليفة هارون الرشيد .

فقد اعتمدت الادارة العباسية المناهج الادارية التي عول عليهـا البيزنطيون والساسانيون ، من قبل ، وهي ادارة ، تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة – ومن كلمة ديوان هـذه اشتقت كلمتان فرنسيتان ، هما *Divan* و *Douane* – يشرف عليها موظفون اداريون كبار ، اشبه ما يكونون ب *Sekreta* لدى البيزنطيين ، دون ان يتألف من مجموع رؤوساء هـــذه الدواوين ، مجلس وزراء . وخلافاً لما كان يجري في بيزنطية حيث كان الامبراطور هو نفسه ، روح هذه الدواوين وهمزة الوصل بينها ، كان الخليفة العباسي ، في بغداد ، يعهد بالاشراف على الديوان ، الى وزير يشبه من بعيد ، *bozorg - frahmadār* لدى الساسانيين. وكان الوزير يتعهد تأمين العمل الاداري ، مستعيناً على ذلك بعدد من العمال يأتي بهم من بين انصاره ورجاله. ولذا كان يُخشى من نفوذ سلطانه ، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة ، هذه الاسرة الفـــارسية التي

اثارت ، بما بلغته من غنى وسؤدد وسلطان ، هواجس الخليفة هارون الرشيد ، فنكبها شر نكبة ونكل برجالها وقضى عليهم . ومن اهم الدوائر التي يهم الوزير انتظام العمل فيهـا دائرة جباية الرسوم والبريد ، وديوان الرسائل . وكان البريد يؤمّن ، احيـــاناً نقل بعض الامتعة الخاصة ، انما الغاية الكبرى منه تأمين تبليغ العمال ، في الولايات ، الاوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة ، كما يحمل الى الادارة المركزية مطالب الاهلين في الملحقات ، ومظالمهم . فالبريد كان يلعب ، في هذا المجال ، دور الامن العام ، في حكومات هذا العصر . ويقوم باعمال البريد سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات ، وهي على الاجمال حسنة ، يقوم على ابعاد متساوية ، محطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين ، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة . أمـــا الدواوين القائمة بمعية الوزير ، فكانت تقوم باعداد الاوامر ، وتعيين الموظفين والكتبة والعمال ، وتأمين المراسلات الديبلوماسية بعد ان يمهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الادارة التي عولت اكثر مـــا عولت على الدواوين ، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات ، كما تكثر من السجلات الرسمية . وهي ادارة مركزية ، قائمة دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد . وهذا لا يعني قط ان الفوارق الاقليمية مثلا ، ولا سيما ما تعلق منها بجباية الرسوم والضرائب ، قد زالت واختفى كل اثر لها من الوجود . وكانت هـــذه الدواوين تجمع في مكاتب الادارة العامة ما تحتاج اليه من المعلومات ، كما كانت تشرف على اصدار الاوامر والتبليغات ، وتؤمن استلام رسوم الجباية ، بعـد حسم تكاليف الادارة المحلية . وكانت ادارة الملحقات تمتاز ، هي ايضاً بالدقة كالادارة المركزية . وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة ، كما ان الوزير كان يتمثل فيهـا بحاكم مدني او عامل ، اليه امر الولاية وضبط الادارة ، يستقل الواحد عن الآخر ، يشرف الاول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج اليها الادارة .

اما العدل الذي كان امره ، ابداً على هامش الادارة او الحكم ، فقـــد بقي من اختصاص القاضي . غير ان عدم كفاءة القانون احياناً ، وعـــدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة او الاعتراض ، وعجز القاضي عن تنفيذ الاحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين ، كل هـــذا اضطر الدولة لايجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاض ، هي ديوان المظالم الذي كان ينظر في امور التجاوزات على حقوق الآخرين . اما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يساعد على تطبيق احكام الشريعة . وهكذا رأينا يطل علينا قضاء دولة الى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي . وقام في حواضر البلاد الكبرى ، دوائر للشرطة كان يعهد اليهـــا السهر على الأمن وتأمين راحة العباد ، مستعينة في تحقيق هذا كله ، على فرقة « الاحداث » ، او الفتوّة .

استمرار الاضطرابات

وهذا النظام او الحكم الاسلامي القائم ، كان اعجز من ان يحـــل كل المشاكل العارضة ، أو ان يزيل اسباب شكوى الشاكين او الناقمين ،

شكل (رقم ٥) ـ العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع

١ ـ الطرق التجارية ٢ ـ طرق الحج ٣ ـ اراض اسلامية ٤ ـ اراض بيزنطية

التي اتخذت منها الثورة العباسية "تكأة" لها . فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تفقـد شيئاً من حدتها ، اذ لم يؤخذ شيء من اصحاب الاملاك الكبيرة ، عرباً كانوا ام اعاجم ، لارضاء هـذه الطبقات، او للحد من هذه المعارضة الدينية، عن طريق فوز حلف تألف من اشتات الاحزاب، فكيف يرضى للشيعة مثلاً ، عن عهد ، ليس رجاله والقائمون على امره من ولد الامام علي بن ابي طالب ، وبين انصار الامويين ، فريق من الاكراد، تشبع بالتقاليد القديمة ، وبينهم ظهرت فرقة الزيدية . كذلك بقيت راكدة تحت الرماد ، هـذه الحزبيات والعصبيات التي فرقت بين العصبيات ، او انها انبعثت من جديد تحت مظاهر واشكال جديدة . فانتصـار الايرانيين لم يزحزح العرب من طريقهم ، بل إضطرهم احياناً للوقوف موقف المعارض . امـا المنتصرون الحقيقيون ، فقد كانوا اهل خراسان الذين تركوا جانباً ، فئات كثيرة من الايرانيين تعرضت من قبـل لأذى الساسانيين ولسوء معاملتهم ، فبقوا على تشكياتهم يتذمرون بمرارة . ولعلهم قابلوا بشيء من الاسف والحسرة ، بروز بعض الاعراب الذين ساعـدهم انتصارهم على الظهور، فـارعوا ، بعد ان تمت لهم الغلبة، للتخلص من بَطـلهم القومي بالقضاء على ابي مسلم الخراساني الذي امّن النصر للعباسيين . كل هذه الامور تبقى غامضة ، مبهمة ، مجهولة ، تصعب معرفتهـا بالتفصيل المرتجى ، الا انها واضحة في خطوطها الكبرى بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً ان هذا الغليان الفكري والاجتماعي الذي هيأ الثورة العباسية لم يهدأ بعد ان تمت له الغلبـة وحقق النصر .

وهذا الاضطراب الذي ضرب سرادقه عالياً في كل مكان : في اسبانيا حيث إستطاع احـد الامراء الامويين بعد ان نجا بنفسه من المذابح التي اعدهـا لهم العباسيون ، ان ينشىء له دولة مستقلة ، وفي المغرب، مع الخوارج كما سنفصّل ذلك بعد حين ، وفي مصر، تحت ضغط عمـلاء الخراج الذين زاد وضعهم حرجاً ، الصعوبات الناجمة عن الاتجار مـع بيزنطية ، وفي سوريا التي لم تتغفر للعهد الجديد ، إغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها . ومما هو اوقع مدلولاً من هذا كله ، واقدح نتيجة ، الاضطرابات التي شجرت في ايران نفسها ، حيث نرى تطل علينـا ، تحت مظاهر دينية ، مطالب ادهى واكثر تعقيداً . وبمجـل القول ، فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وارمينيا وما اليها من سكان، سوادهم يعيشون على جوانب الاسلام في هذه المناطق الجبلية التي تشرف على قزوين ، تبقى ابداً في غليان من جراء هـذه الدعوات الدينية المتتالية التي ادت اليها بعض التعاليم الدينية الاسلامية المنحرفة مما يحتمل به سكان هـذه المناطق من رواسب المانوية والزردشتية ، هذه القوالب الدينية التي حنّت اليها دوماً نفوس الطبقـات الشعبية في ايران القديمة . وهكذا كشفت هـذه الاقوام عن وجود معارضة قوية ، قومية ، واجتماعية ، انتصبت في وجه هـذه الاوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها ، في المجالين الديني والسياسي ، بمصير العباسيين « الشعوبيين » . ومن اعماق بعض هـذه الانتفاضات انطلق عجيج المطالب الصاخبة ، فرددت اصداءها طبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كبـار الملاكين ،

فراحوا ينزلونهم ، وفقاً لنزعاتهم الدينية ، منزلة الغريب المغتصب . ولعل ادهى هذه الثورات طراً ، الثورة التي قام بهـــا الخرمية ، فانطلقت من بدعة اسلامية منحرفة قالت بمبدأ الخير والشر ، واقرت عبادة ابي مسلم الخرساني ، وقالت بالتناسخ والاباحة الجنسية ، وباستواء الاديان جميعاً ، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية . فبعد ان هُزِم زعيمهم بابك الخرمي ، في مطلع القرن التاسع ، في اذربيجان ، انضمت بعض فرقهم ، فيما بعد ، الى الثورة التي قام بها مزيار . واذ ذاك ، قام صعاليك الفلاحين يهاجمون كبار الملاكين من العرب ، في هذه الاقطـــار الجبلية الواقعة الى الجنوب من بحر قزوين ، مما اضفى على هذا العراك طابعاً قاسياً . وبعد ان سيطر الخرميون واتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة ، حقبة من الدهر ، انهزموا شر هزيمة ، في عهد المعتصم ، على يد قائده الافشين . الا ان ابادتهم لم تؤدِ قط الى اية تهدئة في المعارضة التي اخذت تعتمد ، منـــذ ذاك ، على عناصر اسلامية خارجية . صحيح ان العباسيين خرجوا من المعمة ظافرين ، كاسبين ، الا ان المجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هـــذه التغييرات العسكرية التي ستفضي بهم الى الهاوية ، بعد حين .

الفكرة الدينية

وهذا التطور ليس باقـل وضوحاً منه في الاخرى ، ان دخول السكان في حظيرة الاسلام واقحام الاسلام بالتالي في الحضارات القوميـــة وتغلغله في الطبقات الشعبية كان بمثابة اقحامه في هذه المشكلات الملازمة لهذه الحضارات ، واعطاء العالم الاسلامي حضارة واحدة حلت محل الحضارتين المتجاورتين اللتين رافقتا قيام الدولة الاموية . ففي هذه المحاولة لتوحيد الحضارة ، راح اهالي البلاد الوطنيون يطالبون عالياً ، في ان يكون لهم دور بارز ليس في المجال الروحي فحسب بل ايضاً على الصعيد الاجتماعي ، ولا سيما الايرانيون بينهم ، عن طريق اعتمادهم الشعوبية . فالعنصر العربي لم يكن ليهمل جانبه ، مع هذا فالاسلام نفسه ، منذ دعوته الاولى ، اثار ضمناً هذه المشكلات ، ووعد اتباعه بالثراء والنعمى ، فجـاء الاعاجم بينهم يسهمون بتحقيق الوعود المقطوعة . في هذا الايغال عميقاً في الفكرة ، وفي هذا التوسيع في جنبات المعرفة ، ساهم عدد كبير من العرب ، كما ساهم باعداد اكبر ، الاهلون من سكان البلاد ، لا سيما الموالي بينهم . وهذا التمييز العرقي العنصري الذي تلبسه الغموض وسيطر عليه الابهام احياناً ، لم يُعد له من اهمية أو قيمة . فالكل يشاركون في نهج واحد من الحيـاة : فالشيء المهم الآن هو ان الثقافة الجديدة التي تطلع على البلاد ، لم يعـــد يعبر عنها باليونانية او السريانية ، بل بالعربية . وهكذا صح لنا ان ندعي قيام ثقافة عربية . ولغة العلم والعلمـــاء انفسهم ، التي أينعت وأثرت ، فارتاضت ولانت ، لم تعد هي العربية الدارجة . صحيح ان العربية الدارجة تغلغلت عميقاً بين الطبقات الشعبية ولا سيما بين الجماعـــات اليونانية والقبطية والسريانية ، بعد ان اصبحت اللهجات المحلية من قبل لدى هذه الطوائف ، لا يفهمها غير رجال الدين . فكان لا بد للعربية من ان تظهر وتظفر ، بعد ان اصبحت لغة القادة والزعماء والشريعة الاسلامية . وهل كانت بلغت ما وصلت اليه من سيطرة وسيادة وسؤدد ، لو لم يتم لها ما تم من

دقة البيان في التعبير ؟ الا ان الانتصار الذي حققته كان لعمري ، لبعد من ان يكون كاملاً . فاللغة البربرية بقيت اللغة المحكية في المغرب . والجدير بالملاحظة هنـا هو ان الايرانيين الذين لم يجدوا قط غضاضة عليهم في ان يعتنقوا دين الفاتحين ، احتفظوا في معاملاتهم بلهجاتهم المحكية ، ولم يلبث بعضها ان اصبح لغة الفكر والادب ، بعد ان تأثرت كثيراً ، في مفرداتها تأثراً لم نر له مثيلاً في دراسة علم اللغات وتطورها .

فان لم نستطع ان نحدد بالفعل ، هذه الفوارق بوضوح وجلاء ، فسهولة العرض تقتضينا ان نلقي تباعاً نظرة عجلى على النشاط الفكري الذي تجلى باحسن مظاهره ، اذ ذاك ، في هـذا التيار الذي رمى الى تفهم اعمق وتطبيق ادق للاسلام ، او التيار الآخر الذي يتمثل في ثقافة اغنى واوسع ، هي على الغالب ، خارجية عن الاسلام . فتفهم الاسلام يقوم اساساً على تفهم القرآن ، فادت هذه الحركة الى هذا الفيض من التفسير والشرح والتعليق ، وتعدد مجامع الاحاديث النبوية ، وغربلتها وتخلها لانتقاء صحاحها ، بعد ان ارتاب كثيرون في صحة جانب كبير منها ، مما اقتضى عدداً من الاسانيد التي ، وان لم ترض النقد الحديث ، تشهد ، أقله ، على هذا الاهتمام ، وعلى هذا الحرص لتمييز الصحيح من المدخول أو المنحول أو المدسوس منها ، فكانت هذه الصحاح التي من اثبتها صحيح البخاري ، ومسلم (اواسط القرن التاسع) . ولكي يطمئن المرء الى انه يفهم فهماً صحيحاً منطوق الآيات الكريمة ومدلولها ، اضطر الناس لدرس مباني اللغة من صرف ونحو ، ومعنى المفردات واشتقاقها واصولها ، وكلها علوم قام عليها علماء اعلام ، ولا سيما بين الاعاجم من سكان البلاد الاصليين . وقد سيطر في هـذه الحقبة التي امتدت اكثر من قرن مذهبان في اللغة : مذهب البصريين وزعيمهم غير المنازع سيبويه ، ومذهب الكوفيين .

وبعد ان استقرت النصوص واتضحت منها المعاني والمدلولات ، كان لا بد من لاهوت يشرح أحكام العبادة ، ويوضح الحق العام والخاص ، ويؤمن له الانسجام ويوضح معاينه . كل هذا تم في القرن الاول من الدولة العباسية ، على يد كبار علماء الدين والفقهاء . فالذين باعد بينهم نظرياً ، ليس اختلاف النص ، بل الروح الذي يستعملون فيه تطبيق هذه الآيات ، وغيرها من الأحاديث الدينية . فالمذهب المالكي اعتمد النص الحرفي . اما الشروح والتفاسير التي لا بدّ منها فيتقبلها اذا ما حازت اجماع علماء المدينة ، لأنها مدينة الرسول ومهد الاسلام . اما مذهب ابي حنيفة ، فهو على عكس المذهب السابق الذكر ، يرتكز على الفكر الشخصي ، أي على الاجتهاد ، شرط ان يحظى بالاجماع ، وليس بآراء فقهاء المدينة وحدهم . فأمام هذا التجاوز في الحرية الذي قلق له البعض ، ومع اعتقادهم انه من المستحيل ان ينص الكتاب على كل شيء ، راحوا يقولون بالقياس جوازاً . وهو ما قال به المذهب الشافعي بالذات . وبحركة رجعية ضدّ المذهبين الأخيرين اللذين رماهما بالتجديد المذموم ، وامام المشاكل التي عانت منها الجماعة كثيراً ، راح ابن حنبل يدعو للتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب ، دون ان يبالي برأي الفقهاء وغيرهم من علماء الأمة . هذه هي المذاهب الفقهية الاسلامية الاربعة الكبرى التي يعترف بها السنة والتي يجوز لأي مسلم ان يتّبع

منها ما يريد ، وبالتالي القاضي الذي يعهد اليه النظر بأمور الناس ويقضي فيهم .

وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الاقصى ، بينما سيطر المذهب الشافعي ، خلال الأجيال الوسطى ، على العالم الشرقي الذي نطق باللسان العربي ، قبل ان يتنكر له الأتراك ليقتصر ، فيما بعد ، على جزر الملايو . وقد كان للمذهب الحنفي مثل هذا النفوذ وسعة الانتشار ، عند العباسيين ولا سيا عند اهل خراسان فيما بعد ، وعمل الأتراك على نشره في جميع البلدان والأقطار التي رفرف فوقها لواؤهم . اما المذهب الحنبلي الذي لم يعرف له رواجاً كبيراً الا في العصر الحديث ، عند الوهابيين ، في الجزيرة العربية ، فقد كان أثره بارزاً في عدد من الأقطار التي يتكلم أهلها العربية . وهذه المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة التي يجب ان يضاف اليها المذهب الجعفري المعمول به لدى الشيعة ، تمتاز فيما بينها باعتمادها على الاجماع ، أي اتفاق الفقهاء والعلماء رأياً في موضوع معين . وهكذا فلا نرى عند المسلمين قانوناً او تشريعاً واحداً ينبثق عن هيئة تشريعية في الدولة ، انما يوجد لديهم قوانين تأتي من خارج الدولة ، وعلى الدولة ان تأخذ بها وان تطبقها . فالقضية تقوم كلها على معرفة ما تقوم عليه دكتاتورية الفقهاء في وجه الدولة . ففي مطلع العصر العباسي نرى أنفسنا لا نزال من الاسلام الدولة في طور التنظيم .

وهكذا بعد ان اعتمد الفكر الاسلامي على اللاهوت والفلسفة ، وجد نفسه ، وجهاً لوجه أو أخذ لحسابه مواجهة هذه القضايا البشرية الخالدة التي تلازم كل الديانات الكبرى . منها مثلاً قضية الحرية والقدر . فبين قدرة الله الكلي القدرة وعدله الالهي ، وبين القدرة والحرية الشخصية ، راحت نصوص القرآن والحديث تتسع لكل التفسيرات . فالقدرية التي قال اصحابها بحرية الارادة ، في اواخر الدولة الاموية ، بدا اصحابها في نظر الأمويين عناصر تدعو للعصيان والثورة ، الامر الذي جعل العباسيين يرحبون بهم . ثم طلعت علناً قضية العقل والايمان . وهكذا ظهر علم الكلام أو القياس الفلسفي ، والمتكلمون ، اي جماعة الذين يعتمدون على الكلام لتوضيح ما غمض من الوحي المحمدي وتفسيره . وهكذا طلعت النظرية الدينية الشعبية التي أخذت بمبدأ التشبيه . ولما كانت هذه النظريات مجردة ، أي عقلانية ، كان يخشى ان تبدو مخالفة للدين أو مغايرة له بعض الشيء . فقد نشب ، في هذا المجال ، جدل عنيف كان له اثره العظيم على التطوير الفكري في الاسلام ، تمثل في مذهب المعتزلة ، الذي ضم ، في الاساس ، قوماً همهم جداً النقد الادبي ، والإتزان السياسي ، فناصروا الدعوة العباسية . فراح بعض خلفائها يؤيدون الاعتزال ويفرضون على الناس الاخذ به والدعوة له . وقد علّمت المعتزلة القول بخلق القرآن فادخلت القلق والاضطراب على القلوب والاذهان ، وانتهى الامر الى محاربة الخلفاء العباسيين الذين جاؤا بعد المأمون ، للقائلين بالاعتزال .

الثقافة القديمة والنزعات الدينية

وهكذا بلغنا عطفة حساسة من تاريخ الثقافة في الشرق الادنى . فقد نظر العرب الى التراث الادبي القديم نظرتهم الى عنصر دخيل جاءهم من الخارج . فقد عني الداخلون في الاسلام حديثاً ، بدمج الديانة الجديدة في تقاليدهم

واعرافهم الفكرية : ومثل هذا الاهتمام واجهـــه المسيحيون في العصور السابقة . الا ان ادماج ادب دين جديد في تراث امة ما ، كان بحاجة الى عمليـــة توضيح ، أي الى شيء من التكييف والتركيز . ومن جهة اخرى ، اتخذت هذه الثقافة ، اللغة العربية اداة تعبير لها واقتضت جهداً طيباً من الترجمة والتعريب ، والتفسير والتعليق والتلخيص . فهذا التشابك والتداخل بين التقاليد والأعراف المتباينة الذي شهدناه في العصر العباسي ، لم يلبث ان ادى سريعاً الى وضع هـــذا العصر ، وجهاً لوجه مع التفاعل والانفعال المتبادل ، وبالتالي الى اغناء بعضهـــا البعض ، والى طلوع عدد من الاكتشافات الجديدة . وهكذا ، بدون ان يحدث أي تغيير جذري على أسس الفكر ، في تلك الحقبة ، شهد العالم ، مع ذلك ، يقظة عارمة تشبه من نواح كثيرة ، الانبعاث الفني والفكري الذي شهدته اوروبا في القرن السادس عشر ، فادى الى نجاحـــات وتطورات مدهشة .

انصرفت الجهود ، بادىء ذي بدء ، لتأمين حركة نقل العلوم الدخيلة وترجمتها ، وهي حركة اخذت بوادرها تظهر في عهد الدولتين البيزنطية والساسانية ، على يد علماء السريان ومفكريهم ، وادبائهم . وقد اعتمدت الترجمات الجديدة على نقول سبق وضعهـــا بالسريانية ، الى ان عادت تعول على النصوص اليونانية الاصيلة . ولقيت حركة الترجمة والنقل تشجيعاً حـاراً من الخليفة المأمون الذي اخذ تحت رعايته ، عدداً كبيراً من المترجمين في الشرق ، فنهلوا ، على نطـــاق واسع ، من الادب اليوناني ، كما نهلوا ، على نطـــاق اضيق ، من اللغة الفهلوية التي كانت اداة الاتصال ، بين الهند والبحر الابيض المتوسط . وقد اقتصرت حركة النقل هذه ، على المؤلفات العلمية التي يسهل تطبيقها عملياً ، وعلى الفلسفة ، بعد ان حاولت البدع الدينية التي أطلّت اذ ذاك ، ان تجد فيها سلاحاً لها في هذه الخصومات والمجادلات الدينية التي شجرت ، اذ ذاك . اما الآثار اليونانية الادبية او التاريخية الصبغة ، فقد استبعدها النقلة العرب ، عمـداً وقصداً ، كما استبعدها من قبل واهمل نقلها السريان والنساطرة ، هم ايضاً . وقد سار الغرب ، فيما بعـد ، على هذا النهج ، عندما راح ينقل ، بدوره ، الآثار الادبية التي خلفها الاسلام والمسلمون . فقد نقل العرب ، عن الفهلوية او الهندية ، في عداد مـــا نقلوا من الآثار العلمية ، القصص والحكايات والامثال التي وصل منها قدر كبير الى عهد لافونتين فاستخدمه ، كما نقلوا غير ذلك من القصص التي لقيت رواجاً عظيماً لدى الشعب . والجدير بالملاحظـة والتنويه عالياً ، هو ان ، في دولة سيطر فيها الايرانيون ، ورجحت فيها كفتهم ، استمر المسلمون ، في نقل كل ما يتصل بتاريخ ايران وتاريخ العرب القديم معاً ، بينما بقي التاريخ اليوناني الروماني مستبعداً .

فكل الملل والنحل والاعتقادات شاركت ، على اقدار متفاوتة ، بهذه الحركة . ان اعتناق عدد كبير من سكان البلاد ، الدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية في الاقطار وبين الطوائف التي بقيت على النصرانية او على اليهودية ، والاتصالات العلمية بين العلماء المتخصصين ، ولا سيا بين الاطباء ، كل هذا وما اليه هو من بعض النتائج التي اتيح لنا تسجيلها ، بحيث ان الثقافات

الاصلية وجدت نفسها منقسمة الى قسمين متباينين. دخل اولهما كعنصر مقوّم، في ما اصطلحوا على تسميته بالثقافة الاسلامية ، بعد ان أسقط في ايديهم الجهاد صفة اخرى اكثر ملاءمة. اما الثاني الذي يجب قصره على المجال الديني ، والتسلم بتمتعه بشيء من الاستقلال الذاتي ، فقد تبلور في ما بدا من آثار اللغات السريانية والقبطية والفهلوية والعربية ، حتى بعد ان استمربت، فقد بقيت على هامش التيار الكبير، وظهرت مظهر المستحاثات المتحجرة وهو طابع ما لبث ان زال من الوجود في اواخر الاجيال الوسطى .

وهكذا انتشرت ، في الشرق ، مؤلفات ارسطو الحقيقية او تلك التي انتحلها أصحاب الافلاطونية الحديثة ، كما انتشرت مؤلفات ابوقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، وبين هؤلاء النقلة الذين كانوا، في الوقت ذاته ، كتاباً مشهوداً لهم بالابحاث الدينية والفلسفية، الراهب النسطوري حنين بن اسحق ، والرياضي الصابيء ثابت بن قرّة من حران ، وكلاهما من رجال القرن التاسع ، وقد كان سبق لابن المقفع ، احد اعلام الكتاب العرب في ذلك العصر ، ومن كتاب الرسائل المشهورين ، ان ترجم عن الفهلوية كتاب كيلة ودمنة .

وتجند لهذا الغرض عدد كبير من المترجين ، كما قام للترجمة مدارس عديدة . وحدث ايضاً ان الادب المسيحي وجد طريقه الى اللغة العربية لتقريبه من اذهان المسيحين. فاذا كان البطريرك ديونيسيوس التلمحري (+ ٨٤٥) كتب بالسريانية ما كتب في العلوم الدينية والتاريخ ، فقد وضع الراهب الملكي ثيودسيوس ابو قره مصنفاته باللغة العربية ، ناهجاً في ذلك ، نهج القديس يوحنا الدمشقي .

فقد كان من جراء اختيار الافكار ، وظهور بعض الصعوبات التي اعترضت عملية الانسجام والتكيف مع الوضع الجديد، ان احدث الهيجان بين اليهود فالترحيب الذي كان يلاقيه، من حين لآخر ، من يدعون انهم المسيح المنتظر القادمون من اسبانيا الى فارس ، كان يسبب تحسّساً كبيراً بين أتباع هذه الديانة من جراء اجترارهم للتعاليم التلمودية . وكانت الولايات تشعر في الصميم بوطأة الدكتاتورية الادبية والسيطرة الاقتصادية التي تمت لعلماء الناموس في العراق . وقد حدث ان اشتد شأن شوكة فرقة القرّائين التي وُجد عدد من اتباعها في بلاد القرم. فقد كانوا ، وهم يحاولون الرجوع لأسفار العهد القديم ، يحاولون تفسير عقائدهم الدينية ، وفقاً للمبادىء التي قالت بها المعتزلة .

لا نعرف شيئاً يذكر عن طائفة الزردشتية. وجُل ما نعرف عنها ان في القرن التاسع تم جمع النصوص الدينية القديمة المعروفة بالنصوص الأفستية ، كما تم وضع مؤلفات دينية جديدة لهذه الطائفة ، محاولة من اصحابها المحافظة على تراثهم امام الاسلام ، كما ان في هذا النشاط شهادة عالية على حيوية هذه الطائفة . وقد يكون مسلكها هذا اوحى للعباسيين الموقف الذي وقفوه من أتباع المانوية ، بعد ان نعم أصحابها بالتسامح الديني الذي نعم به أتباع المذاهب الدينية ،

الاخرى ، فقد اخذوا بمطاردة رجالها بعد ان رموهم بالزندقة ، وهي التهمة التي ألبسوها ، بعد ثورة بابك الخرمي ؛ لكل هذه الدعوات الدينية التي خشيت السلطة جانبها وأوجست منها شراً ، باستثناء الشيعة والخوارج. وقد رأى العباسيون أثراً للمانوية وتعاليمها في هذه الثورات الاسلامية والحركات الهدّامة التي قامت بها بعض الفرق الدينية ، في ايران ، بعد ان هدد نشوبها الدولة العباسية بأخطار شديدة .

فالازدهار الفكري والادبي ، وهذه الانتفاضات التي جرّت اليها بعض المعتقدات الدينية . لم تكفِ لتملأ وحدها كل نشاط الاسلام. هنالك اناس ظمئت نفوسهم للكمال الانساني ، وهامت قلوبهم بمكارم الاخلاق والتقرب من الله . من المحال التساؤل ما اذا كان التصوف الاسلامي نص عليه الاسلام الاول ، ام اذا كان نشأ عن العادات والاعراف الدينية التي حملها معهم السكان الذين اعتنقوا الاسلام ، ام اذا كان نشأ عن الحياة الرهبانية عند المسيحيين والهنود. فقد كان التصوف ، في مظاهره الاولى ، لدى بعض الاشخاص ، نوعاً من الزهد . وقد تمثل على أتمه في عهد الدولة الأموية ، في شخص الحسن البصري . ولما راح يستعيض عن الادعية الاسلامية بطلبات تهيء قائلها للانخطاف الروحي ، راح العلماء والحكام ينظرون اليه نظرة كلها التشكك والتحسب . وقد استطاع رجال الصوفية ان يتعرفوا ، تدريجياً ، الى النظريات التي تقول بها الافلاطونية الحديثة ، مما أدى الى تجديد في الافكار الصوفية . فقد راح المتصوفة يلبسون « الصوف » مسوحاً لهم ، ولعل من هذه الكلمة اشتقت ، في الاسلام ، كلمة « الصوفية » .

الآداب والفنون

بعد ظهور الآثار الفلسفية والدينية ، في القرن الاول من الدولة العباسية ، ازدهرت حركة أدبية عارمة عادت على اللغة العربية وآدابها بالثراء والنمو ، بما اطلعت من الروائع الادبية في الشعر والنثر ، فتصقلت معها العقول والأذواق ، وهذبت الخيال والعاطفة ، بقطع النظر عن القصص والحكايات الشعبية التي كان يتناقلها الناس ابا عن جد . وهكذا ظهر « الادب » الذي كان يراود ظهور الرجل الاديب ، في القرن التاسع والعصور التالية . وقد دخل الانشاء الادبي كل المؤلفات الادبية والدينية ، اذ اضفى عليها عبارة رشيقة وبياناً ناصع الاسلوب ، يقبل على الاخذ به ، كل من تعشق الحرف ومال اليه . والفضل في ظهور الادب على هذا الشكل ، يعود للكاتب البصري المشهور الجاحظ (٧٧٦ – ٨٦٨) الذي عرف ان يوفّق بين مذهب البصريين والكوفيين . كذلك عرف ان يوائم بين تعاليم المعتزلة وبين ما تم له من ثقافة عريضة ، متنوعة ، كل ذلك في بيان عربي ناصع ، ولغة ساخرة ، متهكمة ، كما يبدو لنا ذلك في كتابه «الحيوان» وهو كتاب في العلوم الطبيعية ، حشاه معلومات لا تثمن وأقاصيص كل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية التي هزّت مشاعر جميع معاصريه . وبعد الجاحظ بقليل ظهر الكاتب الفارسي المشهور ابن قتيبة الذي شارك الجاحظ في تكييف الادب العربي .

اما الشعر فهو اكثر تمسكاً من النثر ، بالتقاليد العربية . وقد لمع في هذا العصر شاعران كبيران ، هما : ابو تمام والبحتري . وضع كل منهما « حماسته » التي بالرغم مما فيها من شعر

منحول ، وسرقات شعرية ، تبقى اثراً لا تبلى جِدّتُه . فالشعر « الحديث » يطـل علينا من شعراء ايرانيين ، شعرهم عطـل من اية مسحة اسلامية ، يفتقر كلياً للترصن والاخلاق الرضية ينضح احياناً بالفجور ومجون البلاط ، ويفح منه الحب العابث الذي تعتمه السكر يسير مترنحاً في الازقة والشوارع ، انما هو شعر ينبض بالرقة والاحاسيس المرهفة ، بانتظـار طلوع الشعراء الناجحين الذين يأخذون بمعالجة الموضوعات السياسية والدينية، وما لبثوا ان فضلوا على القصيدة العامرة الابيات المبنية ، على عمود الشعر العربي ، شعراً مهفهف العاطفة ، يتمثل خير تمثيل بالرمز. ولعل اكبر هؤلاء الشعراء وأسيرهم ذكراً هو ابو نواس (+ ٨١٥) ويجب ان نذكر معه شاعراً آخر ، عُرِف بالوصف الدقيق ، تولى الخلافة ليوم واحـد ، هو ابن المعتز (أواسط القرن التاسع) .

وبنسبة ما نستطيع ان نتبين الامور ، نرى ان الفن العباسي اخذ يزدهر بدوره ، محاولاً ان يوحد بين مختلف المذاهب : فالمساجد ازداد عددها ازدياداً كبيراً لاستيعاب المسلمين المتزايـد عددهم باستمرار، وذلك عن طريق بناء مساجد جديدة او بتوسيع القديم منها. فمسجد القيروان، يعود القسم الاساسي منه الباقي لليوم ، الى مطلع القرن التاسع ، ويبقى طراز بنائه منسجماً مع الطراز الهندسي للمساجد السورية التي اقيمت في العهد الاموي . وعلى عكس ذلك ، نرى قصور الخلفاء العباسيين في العراق ، تستوحي في عمارتها التقاليد الساسانية . فان لم يصلنا بالفعل شيء من المدينة « المستديرة » اي بغداد القديمة ، فقد وصلنا من الفن المعماري العباسي المدني ، بقايا حرية بكل ملاحظة ، هي كل ما تبقى من مدينة حلت يوماً ان تحل محل بغداد كمركز للخلافة ، هي مدينة سامراء التي كان يعلوها برج عالٍ يشبه ابراج النار المعروفة لدى اتباع الزرادشتية . وهذا الفن يستفيق على نفسه وينشط ، مـع ان معظم الانشاءات الباقية منه لليوم ، تعود الى تاريخ لاحق للعهد الاول من دولة العباسيين . ويجب ان نشير ، منذ الآن الى الفارق الذي يزداد اتساعاً وتبايناً بين المباني المدنية والمباني الدينية . ففي الاولى نرى رسوماً بشرية وحيوانيـة كثيراً ما عمد اليها الرسامون في تزيين الحاجيات العادية ، مهما كان من تأثير حركة تطورية ظهرت فيما بعد ، وسيطرت على بعض المناطق دون غيرها . امـا في الثانية ، فلم تلبث هذه الرسوم ان حُرِّم استعمالها ، اذ كان مرآها يبعث ، كما هي الحيال في الديانة العبرية ، على الاعتقاد بشيء من عبادة الاصنام .

*

الحياة القلقة في بيزنطية

تبدو بيزنطية ، ازاء العالم الاسلامي في القرن الثامن ، مدعاة للاسف والسخرية معاً . فقد خرجت من العاصفة التي هبت عليهـا في القرن الماضي ، مثخنة الجراح ، مهشمة الجناح ، فراحت ببطء وتمهل كلي ، تستجمع قواها وتسوّي من حالها وتعيد تنظيم شؤونها في الداخل . والأزمة الدينية التي اخذت تتربص بهـا من جديد ،

تنسجم الى حد بعيد ، مع الاحداث والافكار التي تتفاعل بها وتمتاج، هذه الولايات التي اقتطعها منهـا الاسلام .

وقد أرغمت الامبراطورية على التخلي عن الكثير من المقاطعات الاخرى : فقد اخـذ سكان ايطاليا في الولايات التي لا يزال مصيرها مرتبطاً بمصير بيزنطية ، ينفضون عنهم تباعـاً ، سيطرة اجنبية طالما تبرموا منها ، ارهقتهم فارزحتهم : تحت وطأة جباية صارمة زادت تهجماً وتجهماً بعد فقدانها الشرق ، ونفرتهم بهذه الارهاصات الدينية ولم تمنع عنهم خطر الغزو اللمبـاردي . واستقلت منها صقلية في القرن التاسع . ولكن ما العمل وهذه كلهـا ممتلكات نأت عن قلب الامبراطورية ومراكزها، يغلب في الحفاظ عليها الغرم على الغنم. اما في البلقان ، فقد أصبح الخطر البلغاري ، بعد عام ٧٥٠ ، في المنطقة الواقعة عند الدانوب الاسفل ، سيفاً مصلتاً فوق رأسها وكابوساً يقض مضجعها . وقد استقر الصقالبة في الباقي من اطراف شبه الجزيرة البلقانية ، بعد ان أقصوا قليلاً الى الشمال . وبفضل عملية تبادل السكان الصقالبة في اسيا الصغرى ، والاسيويين في اليونان وتراقيا ، استطاعت الامبراطورية ان تعيد سيطرتها التامة على مناطق حيوية جداً لها. أما الى الشرق ، فلم يقم بين المسلمين والبيزنطيين ، اثر الفشل الذي آل اليه حصار العرب الثاني للقسطنطينية ، عام ٧١٨ ، سوى غزوات دورية ، عرفت عند المسلمين « بالصوائف » ، لم تحدث تغييرات جوهرية في مناطق الحدود الدائرية بين الجانبين ، وان كانت انزلت فيهـا الخراب والدمار. وهكذا اقتصرت الامبراطوية بالفعل، على المناطق المحيطة ببحر ايجه ، وهي مناطق معظم سكانها اغريق أو متأغرقون، انتفت منها أو كادت تنتفي ، الفوارق العنصرية او العرقية.

وهذا الانكماش او التقلص الجغرافي لرقعـة الامبراطورية ، تم وسط تغييرات وتطورات اجتماعية من الصعب على المؤرخ ان يتبين مداها ، وان يحدد ابعادها . فالحاجـة الشديدة لليد العاملة التي عانت منها المقاطعات الصالحة للزراعة ، في القرون الماضية ، حل محلها الآن ، فيض من الشغيلة ونقص في الاراضي الصالحة للزراعة ، بقطع النظر عن الوسائل التقنيـة الزراعية . والذي يبدو للمدقق ، مع انه من العسير جداً تحديد الكيفية ، ان الممتلكات الواسعة والاقطاع الشاسعة ، انكمشت رقعتهـا بعض الشيء ، بينما ازدادت الملكية الصغيرة ، وهو تطور جاء ، لعمري ، مفيداً جداً ، للتنظيم العسكري . ولعل خير دليل على ذلك ، القانون الزراعي ، هذا القانون الذي صدر في مطلع القرن السابع ، والذي ينوّه بوجود جماعات او فرق ريفية ، بدا لبعض المؤرخين ان يروا في طلوعها، أثراً من آثار الجماعات الصقلبية التي تكاثر عددها بين طبقات الفلاحين وسكان الريف . وهذا الاثر لا يمكن تجاهله او التغاضي عنه. فهو يتمثل ، خير تمثيل، في هذه المستعمرات الريفية التي عرفت ان تندمج وتنصهر في هذه الأطر والملاكات البيزنطية ، مع ان المبالغة في تقدير هذا النفوذ وتقييمه لا تخلو من خطر ، اذ ان هذه الجماعات التي يشير اليهـا القانون الزراعي لا تتضامن فيما بينها الا امام جباية الرسوم وفرض الضرائب ، مع العلم ان هـذه الجماعات القروية الصقلبية لم تتعرف على نظام الا بعد ذلك . ومن جهة ثانية ، نرى ان نمو الملكية

الصغيرة وتوسعها لم يقض على الملكيات العلمانية الكبيرة، ولاحال دون اتساع الملكية الكنسية. فادّخار الارقاف، والهبات التي كان يجود بها المؤمنون ليرفع الله غضب السماء عنهم، وليجنبهم الويلات التي ما زالت تنتابهم، ورغبتهم في استيداع املاكهم ومقتنياتهم في حماية الكنيسة، كل ذلك ساعد كثيراً في اثراء وثراء الاكليروس القانوني والعلماني، ولا سيا الاديار التي ما زال نفوذها الادبي والمادي، آخذاً بالنمو والازدياد في جميع انحاء العالم المسيحي.

والصفة العسكرية التي طبعت نظام الحكم والادارة في بيزنطية اذ ذاك، ولا سيا البلاط الامبراطوري، أدّت عن طريق التجديدات التي أتّخذت والتي يعود بعضها أصلاً، الى عهد الامبراطور يوستنيانوس، ومعظمها في عهد اسرة الامبراطور هرقل، الى اعادة تنظيم الجيش والادارة معاً. فقد كانت ادارة الولايات، من قبل، بيد الحكام المدنيين، مهما دعت الاعمال الحربية، الادارة العسكرية والجيش الى التدخل، حتى عندما يضطر الوضع العسكري الجيش للبقاء في الولاية، فتقوم الادارة المدنية فيها بتأمين أود الجيش وما يلزمه من تجهيزات، ولو التجأ أحياناً الى اعمال المصادرة والاستملاك. اما الآن فقد انقلبت الامور أمام خطر الوضع القائم، وانعكست الادوار وبسطت الادارة. فقد انقسمت البلاد الى دوائر عسكرية أو «ايالة» يقيم فيها جيش يتولى قيادته قائد، يضطلع نفسه بكل اعباء الادارة المدنية ويشرف على اعمالها المختلفة. وتوريدات الجيش ووسائل اعالته تتأمن محلياً، ليس عن طريق المصادرات الادارية، كما في السابق، بل عن طريق اقطاع افراد الجيش، حصصاً في الارض يستثمرونها في ما يؤمن معيشتهم وأوَد ذويهم. وهكذا عمموا على كل الجيش في الامبراطورية البيزنطية نظاماً خاصاً يعرف عندهم بـ *Limitanei* (وباليونانية *Akritai*) جرى تطبيقه، منذ عهد بعيد، على «حلفاء» روما من البرابرة. وهذا النظام الذي جاء تكملة طبيعية لقيام المستعمرات العسكرية، كان له تأثير بالغ على روح الجيش ومعنوياته، اذ انه ساعد كثيراً على نمو الملكية الصغيرة وما ادّت اليه من نتائج اجتماعية.

من المفارقات الصارخة التي استبدت بالخواطر اذ ذاك، هو ان الاعمال الحربية، بين المسلمين وبيزنطية التي ركدت ريحها وخفّ أوارها، قد اعقبتها بالفعل على ما يظهر، حرب إقتصادية. ان اخفاء الطابع الاسلامي على النقد المتداول، واحتكار الدولة لصانع ورق البردي، والتدابير التي تتسم بالحذر وعدم الثقة، التي اتخذها المسلمون ضد النصارى، ولا سيا ضد الملكيين اوغرت صدر اباطرة بيزنطية وحملتهم على اتخاذ تدابير زجرية، انتقامية. فاذا كانت رقعة الامبراطورية تقلصت وانكمشت، فقد بقيت بيزنطية سيدة البحر، كما يشهد على ذلك القانون المعروف بقانون الرودسيين، وهو اشبه ما يكون بالقانون البحري الذي تمّ وضعه في ذلك العهد. فالاباطرة البيزنطيون المعروفون باسم الاسرة الايصورية، الذين انتهجوا هذه السياسة الحازمة، لم يكن بوسعهم قط ان يحولوا دون ذهاب سيطرة الامبراطورية على التجارة مع آسيا وتفلّتها

من ايديهم ، حتى انهم رأوا انفسهم مضطرين للتنازل للتجار ولكبار اصحاب الاقطاع الواسعة المسيطرين على القطاع الخاص ، عن تأمين تمويل القسطنطينية الذي كان تحت اشرافهم المباشر ، والتوقف عن توزيع المواد الغذائية على الفقراء من سكان المدينة . ولذا راحوا يحاولون الحؤول دون إتجار الدول الاسلامية مع اوروبا ، كما سعوا لابقاء القسطنطينية وبعض الموانىء البحرية الكبرى التي يسيطر عليها البيزنطيون ، تتحكم بالنقل التجاري وتأمين الاشراف على الملاحة في البحر المتوسط ، ناهجين النهج الذي كانت نهجته انكلترا في العصر الحديث بتحكمها بمسالك البحار على نطاق اوسع . غير ان النجاح لم يحالف قط هذه السياسية البعيدة المرمى . فاذا ما امكن الاستمرار في عملية تأمين أوَد العاصمة والبلاط الامبراطوري ، وهما هدف الحكومة الاول والاكبر ، فلم يعرفوا ان يحولوا دون هبوط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

فاذا ما اخذنا بوجهة نظر المؤرخ البلجكي هنري بيرين الذي كان رائداً من رواد البحث في هذا المجال ، فالاسلام هو المسؤول عن تدهور التجارة في البحر المتوسط ، في هذه الحقبة ، وعن انقطاعها المفاجىء الذي ادى الى زرع الاضطراب والبلبلة في حياة الغرب الاقتصادية ، اذ ذاك وتدهور الوضع التجاري الذي لم يكن كاملاً ، يمكن رده مع ذلك الى اسباب ودوافع اخرى . فقد رأى فريق من المؤرخين ان الاسلام احدث يقظة عارمة في الحركة التجارية في الغرب : ألم يكن مؤسسه ورجاله الأول تجاراً ماهرين من قبل ؟ أو لم يُكتَب لاتباعه ان ينشروا ألوية الاسلام في كل قطر وصقع ، فرفرفت اعلامه وخفقت بنوده ، فوق هذه الاقطار الواقعة بين السودان في الجنوب ، ونهر الفولغا في الشمال ، او الممتدة من الصين شرقاً الى مشارف جزيرة مدغسكر جنوباً ؟ ومن جهة ثانية ، ان تدهور الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، تمّ قبل الفتح العربي الاسلامي بكثير ، ولم يكن للاسلام كبير اثر عليه . فقد عرفت بيزنطية ان تحافظ على تجارتها وعلاقاتها الاقتصادية مع ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من ايطاليا ، وعلى شواطىء البحر الادرياتيكي . فالركود التجاري الذي اصيبت به البلدان الواقعة الى ما وراء هذا القطاع الجغرافي المحدود ، يجب رده ، الى هذا التطور الداخلي الذي اخذت به اوروبا ، اكثر منه الى هذه السياسة التي انتهجتها بيزنطية فأبت عليها ، لاغراض مالية ، ان تتجر مع اي قطر ، او تقيم علاقات اقتصادية مع اي مرفأ لا يقع تحت سيطرتها واشرافها المباشر ، وهو وضع لم يلبث ان ادّى ، بعد لأي قصير ، الى سيطرة مدينة البندقية على الملاحة البحرية سيطرة كادت تكون تامة ، وتحكمها شبه المطلق ، بالاسواق التجارية ، اذ ذاك . ومن جهة اخرى ، فالغرب الاسلامي كان بَعدُ ، طري العود ، تَخشِن الطباع ، ليبعث النشاط في الحركة التجارية مع بلدان الشرق الادنى . ولم يحدث هذا كله الا بعد ان تم للاسلام السيطرة على جزر البحر المتوسط والتحكم ، بالتالي ، بالملاحة البحرية بين اطرافه المتباعدة ، وذلك منذ القرن التاسع .

تكريم الايقونات المقدسة وتحطيمها يعم بيزنطيــة ويقعدهــا

عانت بيزنطية ، في هذه الحقبة ، من قضية دينية اقامت الاملين واقعدتهم في جميع انحاء الامبراطورية البيزنطية ، لم يكن من الصدف قط ان تحدث، في هذا الوقت بالذات الذي شهدت فيه آسيا الغربية ، ولا سيا الولايات التي تجاذب اطرافها المسلمون والبيزنطيون ، هــذه الاضطرابات التي كانت ارمينيا نقطة الدائرة منها . فالحماية التي تمتعت بها هذه المقاطعات الناعمة بشيء من الاستقلال الداخلي تحت اشراف الاسلام، فصلت بين الكنيســة الارمنية والقسطنطينية، وباعدت بين الطرفين . وقد ساعدها الوضع السياسي المضطرب الذي ساد تلك المنطقة وسيطر عليها ، في نشوب هرطقات دينية حادة ، كالهرطقة « البولسية » ، التي لا نعرف شيئاً يذكر عن تعاليمها ولا عن نشأتها والتي ترتبط بعض الشيء ، بتعاليم مرقيون التي انتشرت من قبــل ، في مصر والشام وفارس ، وآلى امرهــا الى مذهب ماني الذي كان اساس تعليمه الثَّنَوية اي القول بوجود عنصرين الهيين : الخير والشر ، وهي مقالة سيطرت ردحاً من الدهر ، على اذهان الناس وتفكيرهم وتحكمت بايران قبل الفتح الاسلامي . وقد كان من اشد المنكرات لدى اتباعها القول : بالتشبيه ووضع الصور للمقدسات والمؤلهات ، وهو تَعنّتٌ شاركهم فيه ، الى درجــة اخف ، جيرانهم اتباع العقيدة القائلة بطبيعة واحــدة في السيد المسيح ، اذ كانوا يأبون التسليم برسم صورته لانه يتنافى والألوهية . ففي هذا الجو العابق بالكره للصور والحنق الشديد عــلى من يرسمها ، نشأت هرطقة تحطيم الايقونات والتنكر لتكريمها ، هـــذه الهرطقة التي اقامت الناس واقعدتهم ، ومزقت الامبراطورية كل ممزق ، اذ لم يعــد الامر محصوراً كما في العصور الماضية ، بجدل لاهوتي ، بــل تعداه الى العبادة ، ليستحيل ، بعد قليل ، قضية سياسية واجتماعية ، هزّت الخواطر واقلقتها .

من مظاهر التقوى والعبــادة لدى الشعب البيزنطي ، تكريم صُوَر القديسين والايقونات المقدسة ، وهي عبادة غالى الشعب في بعض مظاهرها وخرج عــن الصدد المرسوم ، اذ اتجهت بالاكثر ، الى الرمز منه الى المرموز اليه ، وأوشكت ان تفضي الى الصنمية او عبادة الاصنام . وهذا الانحراف في التقوى عن هدفها الاسمى ، كان يسبب صدمة عنيفة في النفوس العطشى الى النقاء الروحي ذات الحســاسية الدينية المرهفة التي احبت ان ترى في نائبات الدهر والنكبات التي توالت على البشرية ، في ذلك العصر ، صواعق السماء وذاجر غضبها ، تأديباً لهم على معاصيهم . فما كان من الامبراطور ليون الثالث الأيصوري ان اصدر ، عام ٧٣٠ ، امراً بتحطيم الايقونات المقدسة ، بعد ان حرّم تكريمها ، وتقديم أي احترام لها . فليس من عجب ان يقابل المؤرخون المسيحيون هذه التدابير التعسفية ، وهذه الاضطهادات ، بالحقد ويناصبوها العداء ، ويروا فيها رجع صدى للتدابير التي اتخذها الخليفة الاموي يزيد الثاني ، بهــذا المعنى . ومن الثابت ان فكرة محطمي الصور من البيزنطيين ومعظمهم ينتمون الى الولايات الشرقية في الامبراطورية ، تتصل من قريب ، بالمسلك الاسلامي المسيحي ، وتمت الى الدعاوة البولسية والمونوفيزية بأوثق

الصلات ، وتتضح بل تتلاقى بالكثير من مقالة المعتزلة التي احدثت ثورة في قلب الاسلام . وقد انطلق صوت يوحنا الدمشقي مدوياً في الشرق ، يسدّ القائلين بتكريم الايقونات المقدسة بالحجج الدافعة والبراهين الدامغة : فاذا وجب رذل عبادة الصور والايقونات ، فليس من ينكر ما لها من قيمة تهذيبية مثالية تحتذى، ورمز مستطاب لا بد منه للحفاظ على ايمان حيّ ، حي ، يخشى عليه من التجريد الجاف .

ولم تلبث المعركة الدائرة حول الصور ان ارتدت مظاهر جديدة وتلبست وجوهاً جديدة وكثر المناضلون عنها والمكافحون دون شرعيتها بين الرهبان، وفي مقدمتهم ثيوذوروس الستودي (مطلع القرن التاسع) ، اذ ان الحياة الرهبانية بدت منفّرة للعقليين ، كما ان عدداً كبيراً من الايقونات المقدسة الموجودة في الاديار ، كانت تولي اصحابها الكثير من النفوذ والسلطان ، كما تجلب لهم وللاديار التي تحتفظ بها ، الكثير من الربح الحلال والدخل الوافر ، مثلاً بهذه النذور والأعطيات التي يغدقها المؤمنون بسخاء . ولم يكن بمستطاع هؤلاء الاباطرة العسكريين، ولا في مقدورهم قط ان يتصرفوا بهذه الكنوز ولا ان يتسلحوا بما للاديار من هيبة ونفوذ ، كما تشهد على ذلك الاجراءات والتدابير المالية التي اصدرهـا ضد الاديار ، في مطلع القرن التاسع الامبراطور نيقوفورس الاول ، مع كونه من اتباع القائلين بتكريم الصور، ومن انصارهم. وقد احتدمت هذه المعركة وبلغت ذروتها من الشدة ، في حقبتين متواليتين (منتصف القرن الثامن والربع الثاني من القرن التاسع) واصبحت حدثاً مميزاً في هذا الصراع الطويل يقوم به الامبراطور للسيطرة على الكنيسة ، وللحد، على الاخص ، من نفوذ الرهبـان ، والخفض من سيطرتهم الاقتصادية والاجتماعية . فلاعجب ، والحالة هذه ان تثير هذه المعركة المحتدمـة ، صعوبات جمة مع الغرب ولا سيما مع البابوية حيث لم تتجاوز عادة تكريم الايقونات الحد المعدل ، ولم تبلغ الزبى من الغلو ما بلغته في الشرق ، ولذا لم تستصوب الاسباب والدوافع الكامنة وراء الدعوة لتحطيم الصور وتحريم تكريمها . وفي النهاية لم تلبث السلطة الامبراطورية ان نكصت على اعقابها وانثنت وتحطمت التدابير التعسفية التي اتخذتهـا على صخرة التقوى الشعبية والتضامن الشديد الذي قابل به الشعب المؤمن والرهبان ، استعداء الدولة للايقونات والتنكر لتكريمها .

وهكذا استحال هذا التضامن الديني الصلب شكلاً من اشكال الوطنية الواعية ، واصبح شعاراً يرفع في وجه هذه المقاطعات والولايات التي يتسكع سكانها في مهاوي الهرطقات والتماليم الدينية الهدامة ، والطابع المميز للتاريخ البيزنطي ، ليس بالنسبة لماضي هذه الامبراطوريـة فحسب بل ايضاً بالنسبة للعالم الاسلامي المجاور لها. كل ذلك جاء نتيجة لخفوت النشاط الفكري والادبي ، البارز هنـا بروزه في كنيسة الغرب ، ولا سيما منذ ان جرى التعبير عن خواطر الجماعات الاسيوية وافكارها، في أطر المدنية الاسلامية وحضارتها . وقد بقيت مقالة البولسيين الدينية الهرطقة الوحيدة ذات الصولة في الامبراطورية البيزنطية ، الى ان محقت بالدم واطفئت جذوتها ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، في هذه العمليات الحربية التي اقتضتها تقويـة

الحدود ، ودعا اليها لتدريع الثغور ضد الهرطقـــة ، الطابور الخامس للمسلمين بين صفوف الارثوذكسية . وهكذا خرجت الكنيسة من محنة بدعة تحطيم الايقونات ، ممحصة ، مطهّرة منقاة ، مجلوة كالعروس في خدرها ، كما يتمثل الوضع خير تمثيل في صورة ثيوذوروس الستودي وهكذا بمؤازرة قوى الشعب رأيده ، خرجت الكنيسة في الشرق اقوى جانباً واصفى عقيدة وأدل فناً ، وابين تعبيراً ، وانصع رمزاً بما اعترف للايقونات المقدسة من تكريم يتجه للرموز اليه اكثر منه للرمز .

ومع ذلك ، فقد كان من توالي الضربات ، وفقدان الامبراطورية لخير ولاياتها واغناهــا ، اكبر الاثر على الآداب والفنون . فقد مر معنا كيف انه حتى مطلع القرن التاسع ، لم يعدنا الادب بغير عدد وجيز من سير القديسين . فلا مؤرخين ، ولا فلاسفة ولا مفكرين حتى ولا لاهوتيين . فالقديس يوحنا الدمشقي ، ابرز رجال العصر فلسفة ونضالاً عن تعاليم الكنيسة ، لمع اسمه وشاع ذكره في محيط اسلامي . والفن ، عاودته الحياة وعرف شيئاً من النشاط ، وان لم تترك لنا بدعة تحطيم الصور وتحريمها ، شيئاً من اثر العهد يمكن التعويل عليـــه لابداء رأي معلل مسنود . واستناداً الى مخلفات الفن في العصر اللاحق ، يحق لنـــا ان نقرر بان التنكر للايقونات وتحريم صنعها ، ساعد كثيراً على البحث عن رسوم للتحلية والزينة . وقد راح فنانون شرقيون ، ولا سيا الارمن منهم ، يعنون ، باحياء رسوم التحلية والتزيين ، من حيوان ونبات ، مما هو متبع في بلادهم الام . والبعض منهم يحيون تقاليد مدرسة الاسكندرية الفنية ويبعثونها حية . وهكذا يصح لنا ان نتكلم عن ظهور فن علماني ، بينما الفن الديني ، بعد ان عم انتشاره بين طبقـــات الشعب أصبح يقنع برسوم عادية من الحياة اليومية ، توحي الكثير من السخرية اللاذعـــة التي تذكرنا بفن الغرب ، اذ ذاك . فزوال بدعة تحطيم الصور والايقونات وضع حداً لتحلية الكنائس بالرسوم الدنيوية . اما في مجالات الفن والفكر الاخرى ، فسنشهد ، منذ منتصف القرن التاسع ، يقظة فنية وادبية حرية بالذكر .

الفصل الخامس

أوروبا في عزلة وانزواء
(القرن ٨ ـ ١٠)

رأت اوروبا نفسها، في مطلع القرن الثامن مهددة بشر مستطير أطلّ عليها من الفتح الاسلامي العربي ، بعد ان وطئت سنابك خيل العرب ارض جزيرة الاندلس ، فاذا بهذه القارة موحشة بعد إيناس ، تعاني البقية الباقية من الثقافة القديمة فيها سكرات الموت ، باستثناء بعض ملاجىء لها معزولة ، بينما كادت تلتبس على الرائي معالم النصرانية فيها ، بعد ان تداخلها ما تداخل من رواسب الوثنية ، انتقلت اليها فيما انتقل ، من اعراف برابرة الجرمان وأساطيرهم ، بعد ان استباحوا باحة البلاد وعاثوا فيها خراباً ودماراً . فاوروبا ارض العنف والعسف على ألوانه ، تسيطر عليها ارستوقراطية عطل من كل ثقافة ، صاخبة ، جشعة ، هي ابداً وراء لذاذاتها ، وقد أطلقت لها العنان ، فاستبطرت، وعبثت، دون حسيب او رقيب ، ولا من يكبح جماحها. واوروبا هذه ، أوحشها سكانها ، وافقرت اقطارها ، فراح من يُعنى بالارض منهم ، يحرثها بأساليب بدائية ، فيؤها محدود ودخلها مقسوط .

تفتتها السياسي

صحيح انه يطالعنا ، هنا وهنالك ، بعض مراكز ، للحياة الروحية ، فيها وزن ومقام، وبعض ملاجىء للفكر، فيها حيوية واشعاع، وبعض تشكيلات سياسية اقل تخلفاً من غيرها ، وهي عناصر ، على طيبتها ، مشتتة ، موزعة ، معزولة ليس لها من أثر كبير . فانكلترا التي تحتفظ في أديارها البندكتية بأغنى المكتبات وأحفلها طراً ، بالتراث المسيحي وبالثقافة الكلاسيكية القديمة ، هي منقسمة على نفسها ، متفسخة ، تتقاسمها ممالك ، سواء في ضعفها، تتناحر فيما بينها وتتقاتل لأتفه الاسباب . وبالمقابل ، فاذا ما تم لسادن القصر في مملكة اوسترازيا ، بابن دو هرستال ، ان يروّض الارستوقراطية في المقاطعات الثلاث الاخرى ، ويكبح من جماحها ، ويخفف من غلوائها ، واستطاع ، بقوة السلاح ، اخضاع الشعوب الجرمانية المجاورة له ، فبفضل ما له من سلطة وشكيمة شخصية ، لا اساس لها مبدئياً

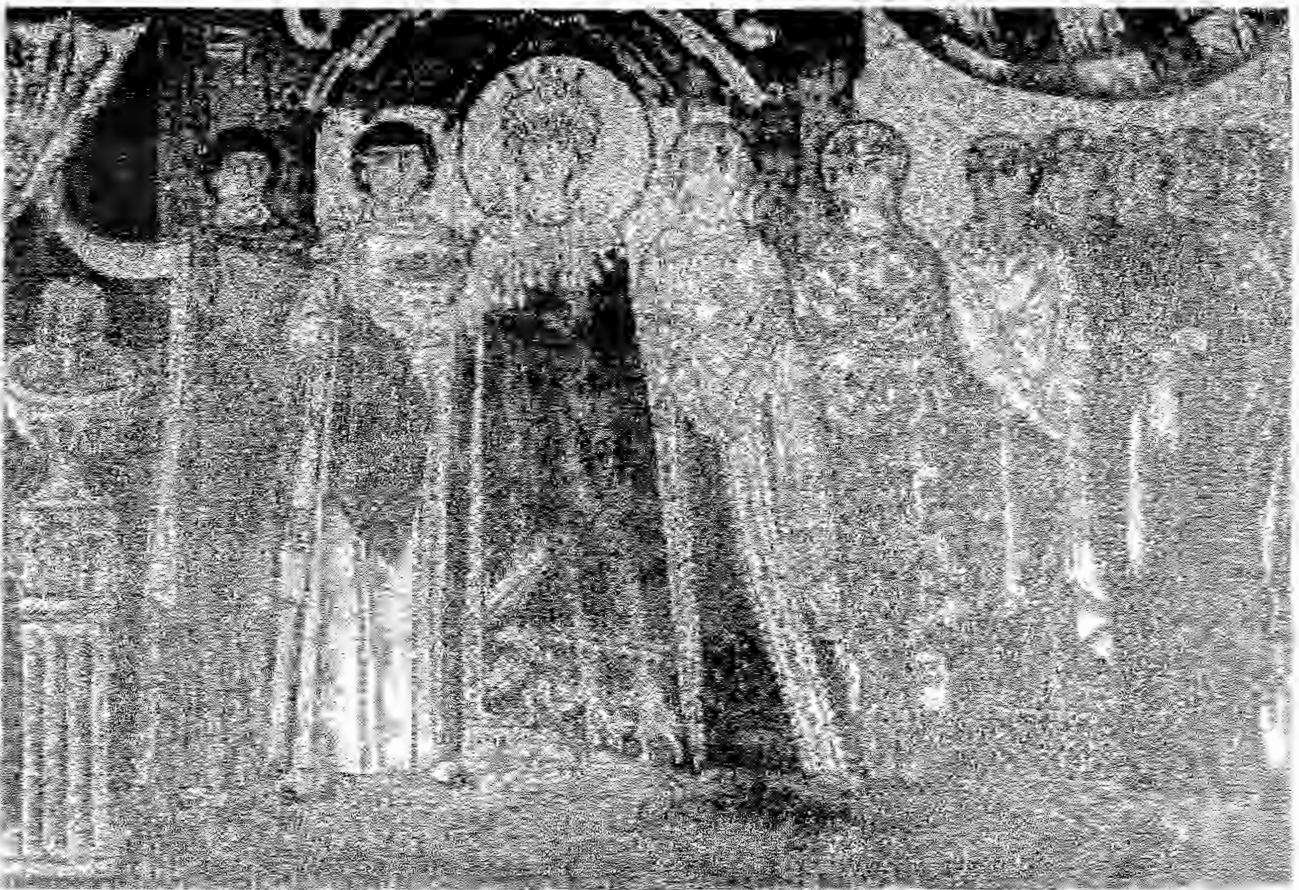

اللوحة ١ – الامبراطورة ثيودورا ووصيفاتها .

اللوحة ٢ — كنيسة اجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .

اللوحة ٣ — شاهد مدفني من حجر يمثل شهيدين مصلوبين (القرن الثامن) .

اللوحة ٤ — الملك شارل الاصلع

اللوحة ٥ — حديث صوفي بين بوذيين . نصب برونزي مذهب يرتقي الى السنة ٥١٨ .

اللوحة ٦ - محاربون يشتركون في حرب الاديان .

اللوحة ٧ ــ لاعبة الصنوج

اللوحة ٨ — فارس وخادمه.

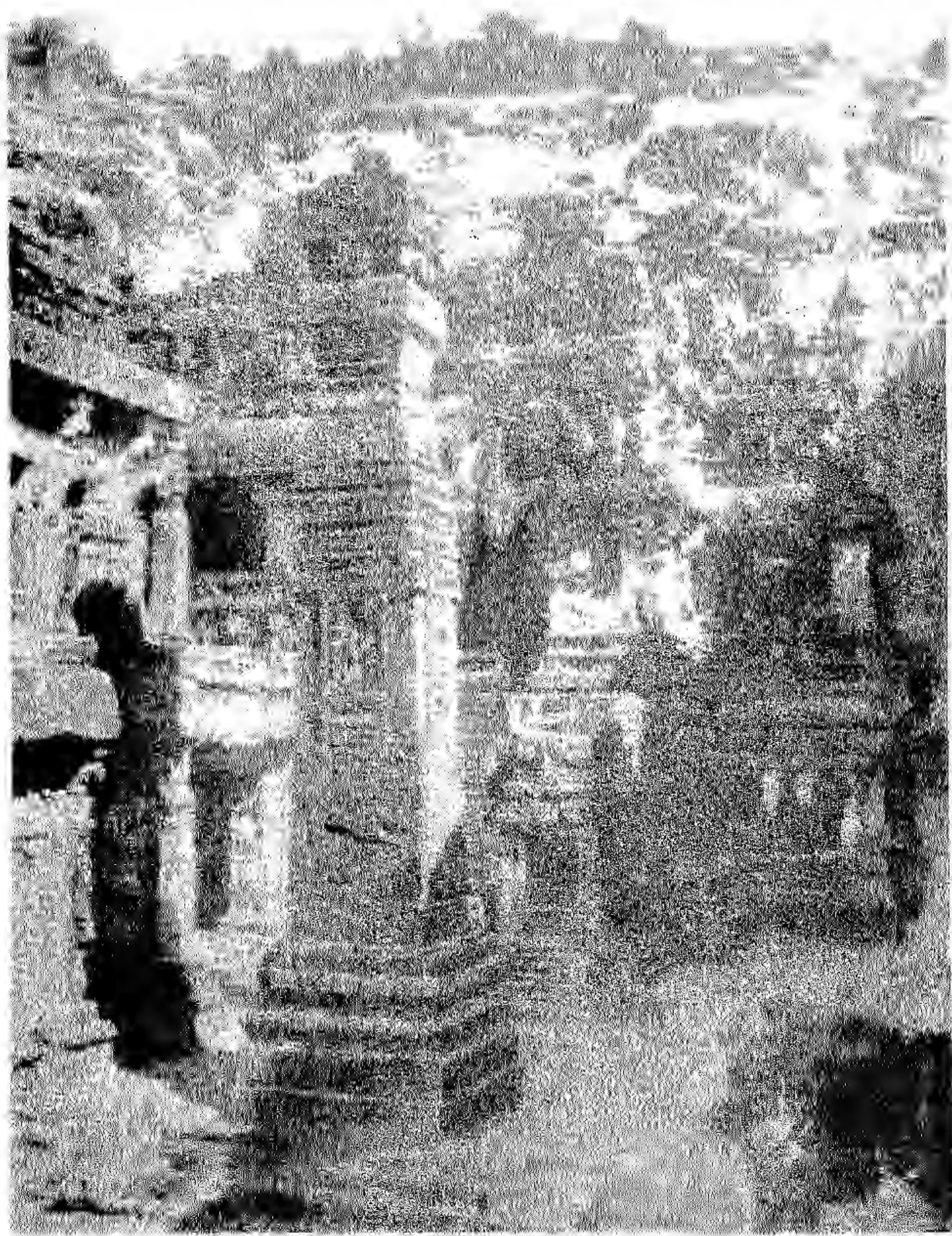

اللوحة ٩ — كيلاسا في التورا (الهند)

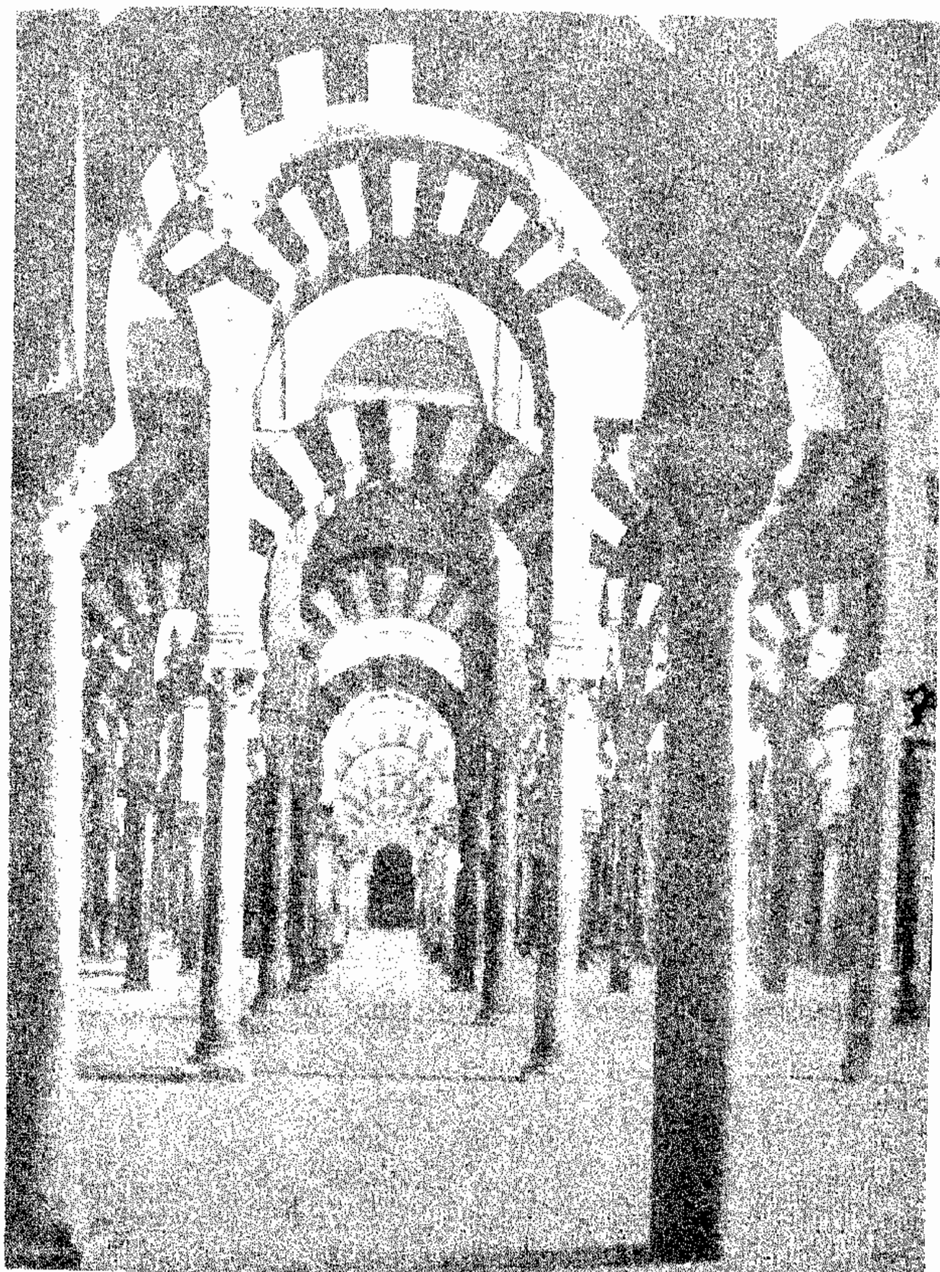

اللوحة ١٠ ـ المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ، القرن الثامن ـ القرن العاشر.

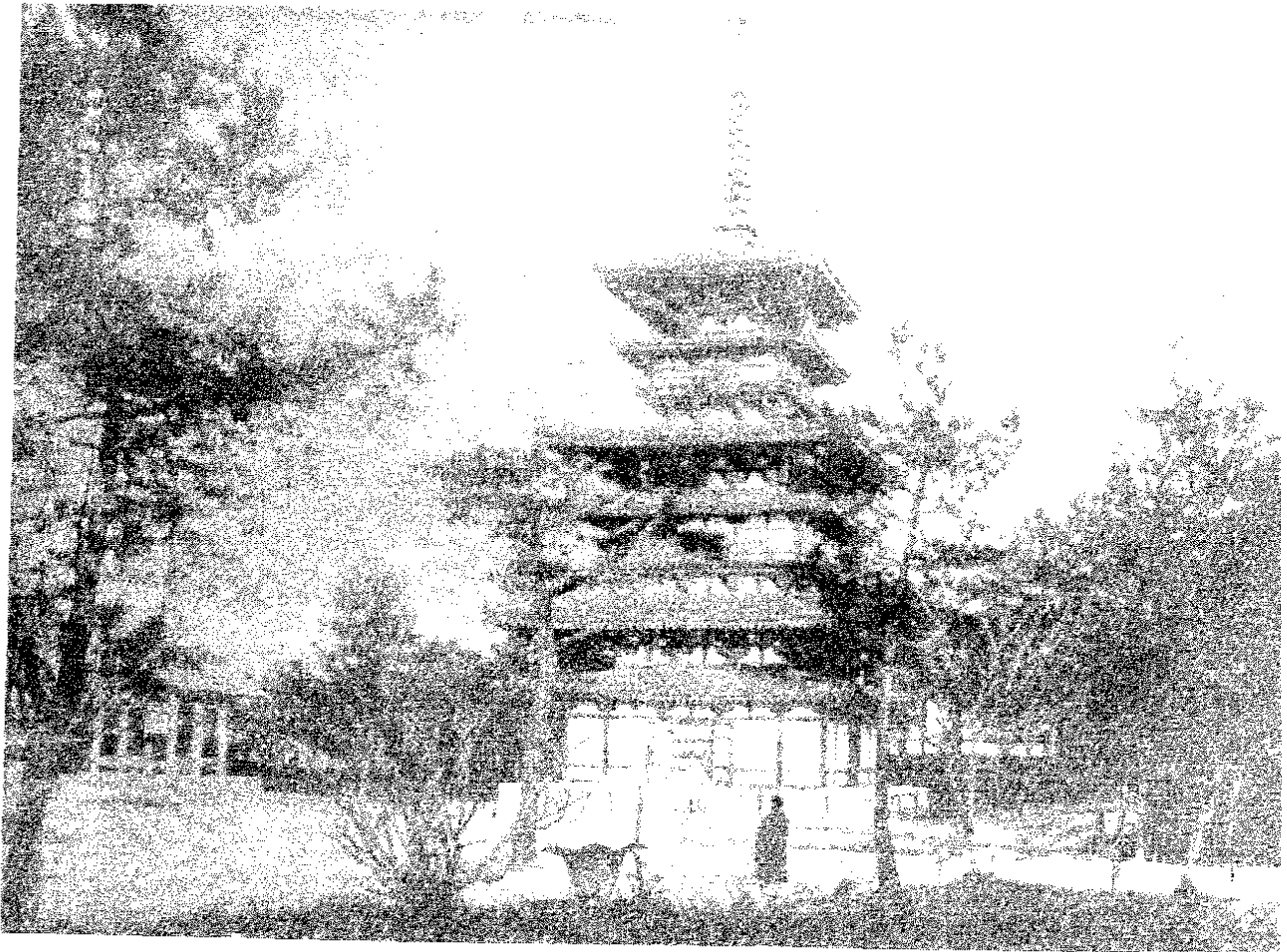

اللوحة ١١ — الـ « ياكوشيجي » في نارا (اليابان) .

اللوحة ١٢ — معبد بهوفانشفارا (الهند) ، القرن العاشر .

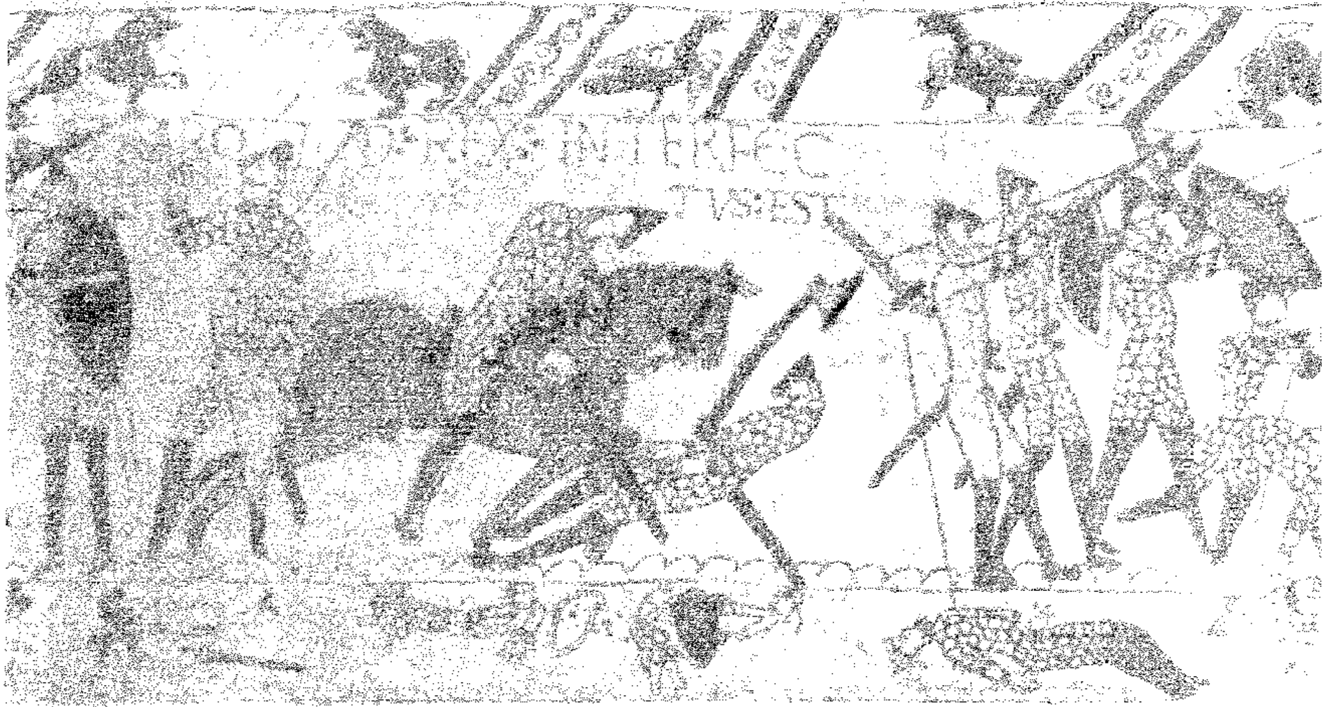

اللوحة ١٣ — موت هارولد .

اللوحة ١٤ — جوفروا بلانتاجنيه .

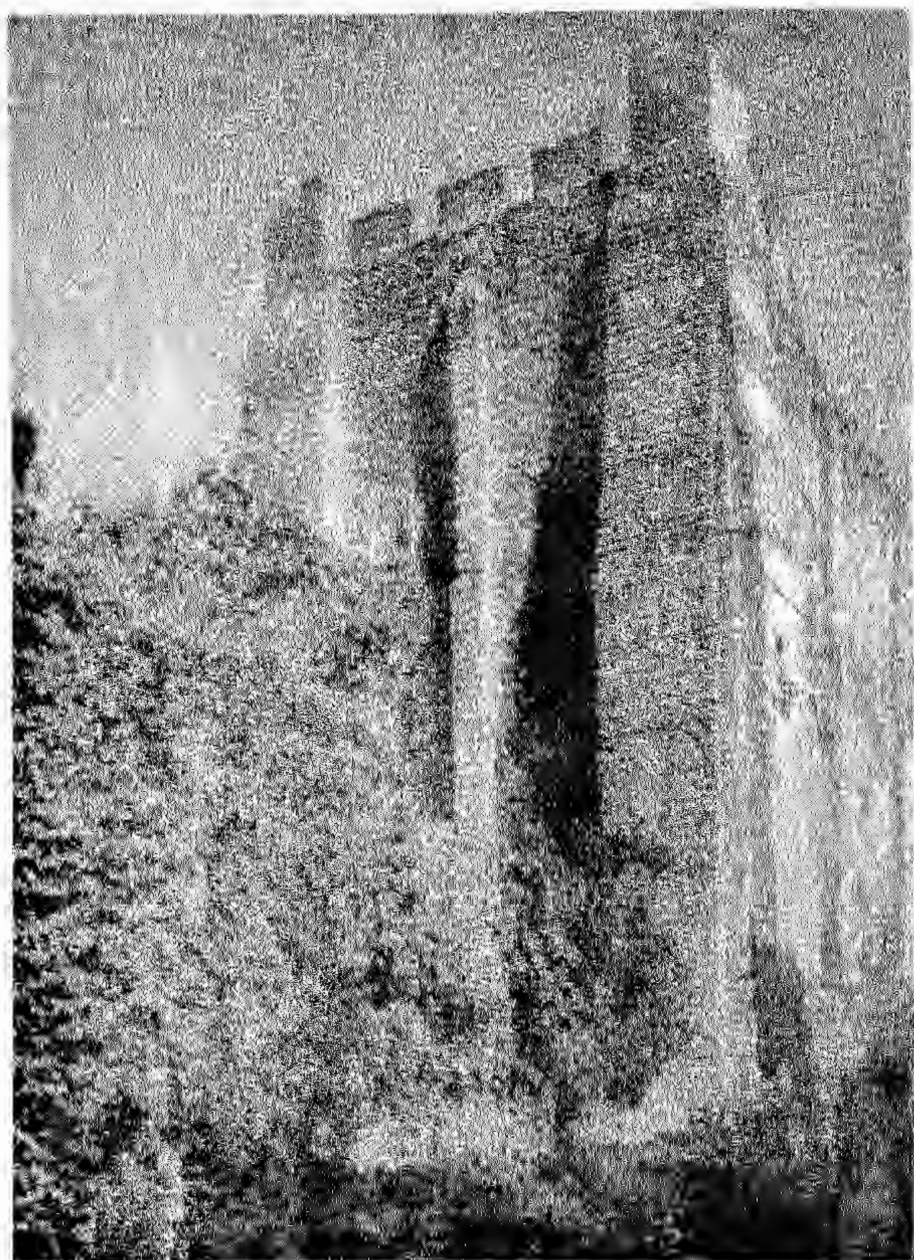

اللوحة ١٥ – البرج الكبير في حصن سان جان في «نوجان-لو-روترو» (القرن الحادي عشر).

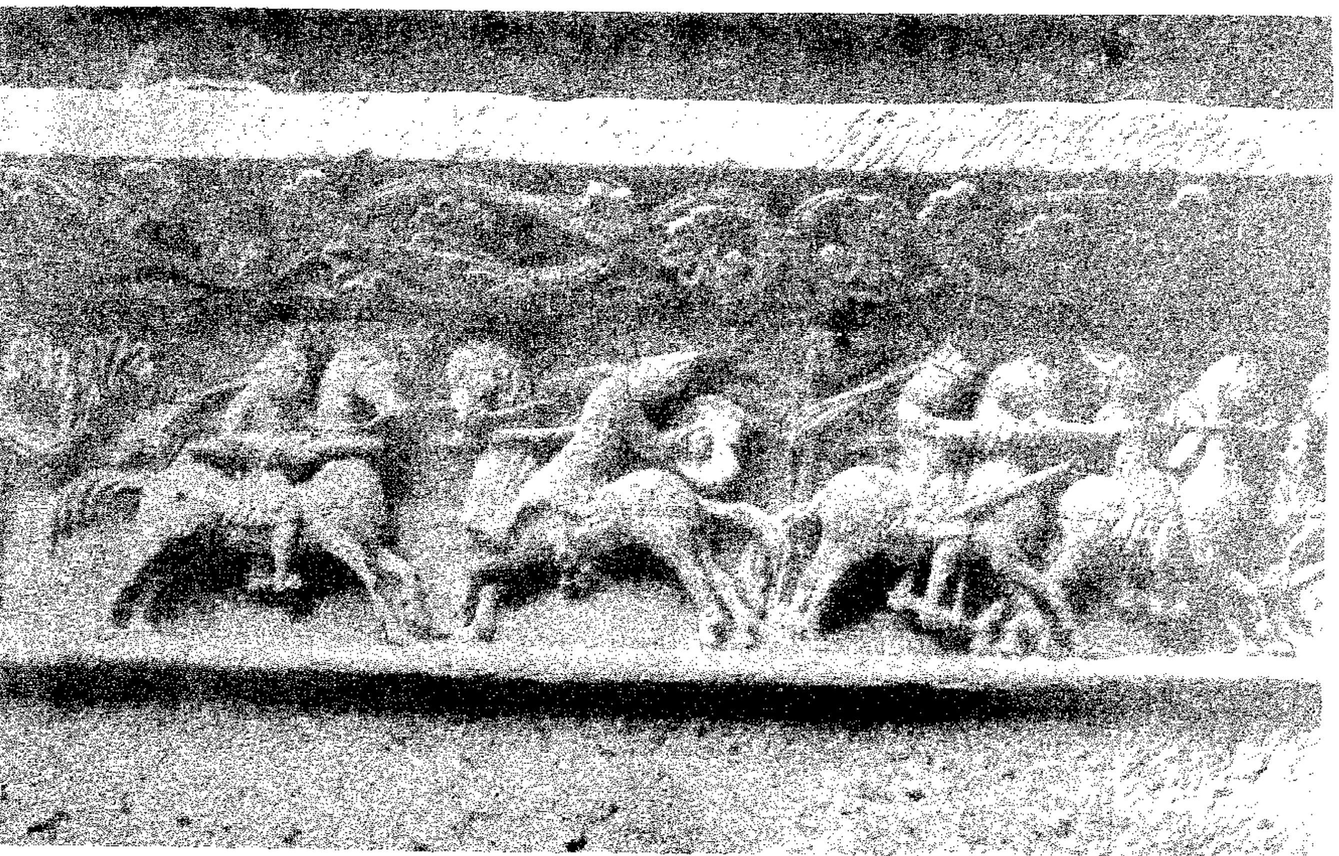

اللوحة ١٦ — المسابقة بالرمح على الطريقة الجديدة .

ولا قوام ، في وقت انحدرت فيه الحضارة في شمالي غاليا الى الدرك الاسفل ، بينا كانت الأطر الكنسية من الركاكة والضعف بحيث تعجز عن مساندة ومعاضدة أي بعث سياسي قويم في البلاد . اما مملكة اللمبارديين في شمالي ايطاليا ، فذكريات أمجاد روما وأيامها الغر لا تزال حية في النفوس ، والتقاليد الفنية فيها محترمة مرعية ، والمدن في ازدهار ، والنخبة بين العلمانيين لا تزال بعد ، على اتصال بالثقافة القديمة . وقد جعلت هذه العوامل نفسها العمل الاداري في البلاد صعباً عسيراً : فالدوقة من اهل الحسب والنسب ، في نزاع موصول مع نظام ملكي لا سند له ولا عماد ، لنهك قواه في محاولات للاستيلاء على الولايات البيزنطية ، بغيـــة ضم ايطاليا تحت سيطرته . واخيراً وليس آخراً ، فاذا ما استطاعت البابوية، بفضل الرهبان الانكلو سكسون، ان توطد من نفوذها بـين الجماعات المسيحية المتكاثر عددها في الغرب ، فالبلاط البابوي الذي تهيمن عليه جوالي من الاغريق والسريان والدلمات ، محاولة اضفاء الطابع البيزنطي على الطقوس الليتورجية ، يقع تحت تأثـــير بطاركة القسطنطينية العقائدية ، كما يرزح تحت وطأة ولاية الامبراطور الثقيلة بينا نراه يعاني مرباً في الشمال ، من ضغط اللمبارديين الذين أصبحوا خطراً مداهماً يتهدد باستمرار ، املاك الكرسي الرسولي وسلامتها . فانتفاء أي تعاون بين هذه القوى القائمة ، المتنافسة فيما بينها ، والتي يقعدها انفصالها ويشل فيها كل حركة ونشاط ، جعل اوروبا المسيحية منطقة مكشوفة ينال منها بيسر وسهولة . فالغزوات الموسمية التي تشنها عليها قبائل الفريز والسكسون الوثنية من الشمال ، توهنها وتنهكهـا . اما في الشرق ، فقبائل الآفار الذين استقروا في مقاطعة بانونيا ، تهدد بخطر مستطير ، سكان مقاطعة فنيسيا ، ولذا فروا هاربين وفزعوا الى الغياض والمستنقعات الواقعة عند مصب نهر البو ، يعتصمون بجزرها وخلجانها . اما الجنوب من اوروبا ، فموجة الاسلام العارمة ، تهدد ابتلاعه تحت جرف من الغزوات الكاسحة . والكتائب العربية التي سحقت ببضعة معارك، مملكة الفيزيغوط في اسبانيا ، تجاوز مدها شمالاً، جبال البرانيس ، واحتلت ، عام ٧١٩ — ٧٢٠ ، مقاطعة الروسيّون ، والقسم السفلي من اللانغدوق، وفي سنة ٧٢٥ اتجهت كتيبة من فرسان المسلمين ، عبر وادي الرون ، ونهبت مدينة أوتون . وبعد ذلـــك بسبع سنين ، أنفذ الامير عبد الرحمن الغافقي سراياه على طريق بوردو وبواتيه ، في اتجاه نهر اللوار .

واتفق في هـــذا الوقت بالذات ان تمّ شيء من تجمع القوى ، في الغرب . ونشأت روابط زادتهـــا الايام متانة خلال القرن الثامن ، وحدّت بين زعماء الفرنج وقادتهم ، وبين المرسلين الانكليز والبابوية ، التي راحت تسعى للتحرر من سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وكان من شأن هذا التيار الوحدوي القوي ، ان لاحم بين اجزاء الغرب اجمع وقوى من عضدها ، وكون منها درعاً تتقي به شر الغزوات وما تجره من ويلات ، ولو لفترة قصيرة او لأمَد وجيز. وفترة التمهل هذه واستجماع القوى ، كان لها تأثير حاسم على مجرى التاريخ ، في الاجيال الوسطى ، اذ افسحت المجال لاول عملية تأليف ذاتي في اوروبا ، كانت الاساس الركين والمحور الوطيد الذي ستبنى عليه نهضة اوروبا وبعثها ، فيما بعد .

ظهور الامبراطورية الكارولنجية

نشأت على سواعد فريق من عبادة الاصلاح السياسي ، ينتمون الى اسرة من كبار الملاكين في منطقة الموز ، فاتخذوا تكأة لهم في ما ينشدون من اصلاح ، وظيفة سادن او قيّم القصر ، وهي وظيفة لم يلبث شاغلها ان أصبح ، بعد ما آلت اليه النُظُم الملكية في عهد الدولة الميروفنجية من هلهلة وانهيار ، الاداة الطيّعة للقيادة والتوجيه ، واتخذوا قاعدة لانطلاقهم احدى ممالك الفرنج الثلاث ، اكثرها خشونة طباع ، واقلها سكاناً ، هي مملكة « اوسترازيا » ، حيث بدت الطبقة الارستقراطية فيها ، اكثر مرونة ، واقل حرثاً وتهذيباً ، والمسيحية الحديثة النشأة فيها ، اكثر رواء ونشاطاً ونقاءً . فعند وفاة بابين ده هرستال ، عام ٧١٤ ، إستولى على الحكم والادارة بعده ، احد اولاده الطبيعيين ، هو شارل ، الملقب بـ مارتل ، يشد ازره معظم رعاياه ويلتفون حوله . فما لبث ان اخمد الفتن واخضع لسلطانه مملكة « نوستريا » ، وصد في مقاطعة « بواتو » ، عام ٧٣٢ تدفق سيل الغزاة العرب بقيادة اميرهم عبد الرحمن الغافقي ، فبرز للناس اجمع مخلّص البلاد ومنقذ المسيحية في الغرب . واستطاع ، بعد حروب ومعارك لاحقة ، ان يوقف سيل الغزو الاسلامي ويحول دون تقدمه الى الشمال ، ويخضع لسيطرته ، بضربة معلم حاذق ، مقاطعتين : الاكويتان وبروفانس . واسند الوظائف الكبرى في الحكم والادارة ، الى موظفين اكفاء يتمتعون بثقته ، إصطفاهم من بين اعضاء اسرته ومن خاصة الأسر الكبيرة في اوسترازيا ، واعتمد على مناصرة رجال الاكليروس يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من عدّة وعتاد . واذ بدا له ان لا بد من اخضاع جرمانيا لسيطرته ، قرر ان يساعد المرسلين والمبشرين على نشر المسيحية فيها ، ولذا وضع جميع امكاناته ونفوذه تحت تصرف المبشرين الانكلوسكسون ، امثال « فيليبرورد » ، رسول قبائل الفريز ، وفيرمان ، الذي اسس ، عام ٧٢٤ ، في رايخنو ، على ضفاف بحيرة كونستانس ، اول دير انشىء على ارض جرمانيا ، واخيراً بونيفاسيو ، واسمه الاول « فنفريد » ، الذي عمل بعد ان تزود بتوجيهات البابا وارشاداته ، على تنظيم الحياة الرهبانية في مقاطعتي هس ، والتورينج ، وكنيسة بافاريا .

ولما كان اولاد شارل مارتل ، قد نشأوا نشأتهم الاولى في الاديار ، فقد وقعوا ، الى حد بعيد ، تحت تأثير رجال الدين ، فأخذوا ، بمساعدة القديس بونيفاسيو ، القيام بعملية اصلاح شامل المؤسسات والنظم الكنسية ، اذ ذاك . ولما تم الامر لبابين ، عام ٧٤٧ ، واصبح سادن القصر وحده ، اخذ بمؤازرة رسول جرمانيا ومبشرها الاكبر ، في اقامة صلات له مع الكرسي الرسولي الذي استجاب لهذه المبادرة وعطف عليها مشجعاً تخلصاً من ولاية بيزنطية البغيضة ومن اللمبارديين بعد ان ازداد ضغطهم عليه . ورغبة من البابا في توطيد سلطة سادن القصر ، مصلح الكنيسة وحامي المرسلين الغيور ، سمح له رسمياً ان يحل محل آخر ملوك الميروفنجيين الضعيف . وفي سنة ٧٥١ تمّ انتخاب بابين ملكاً على الفرنج . ولكي يزكي هذا التبدل في الاسرة الحاكمة ، باسرة اخرى ويبرره ، فيضفي بذلك على مغتصب السلطة هالة من المهابة والوقار تفوق

بقيمتها الهالة التي كانت تحف بخلفاء كلوفيس الشرعيين ، راح القديس بونيفاسيو يدهن الملك الجديد بالزيت المقدس . وهكذا تم تكريس العاهل الجديد وتنصيبه رسمياً . وقد جدد البابا نفسه ، عام ٧٥٤ ، تكريس الملك الجديد ومسحه بالزيت المقدس ، كما بارك ذريته من بعده ، وبهذه البركة يمنحها لعائلة بابين ، تكريساً للاتفاق أو التحالف المعقود بين ملك فرنسا واسقف روما ، وتوطيداً له ، راح الملك بابين يأخذ تحت رعايته الخاصة البابا غريغوريوس الثاني ونزع من ملوك بافيا اللمبارديين ، الولايات التي اغتصبوها حديثاً واقتطعوها من بيزنطية ووقفها ، بكل احتفال ، على الكرسي الرسولي . فانعم عليه البابا ، بالمقابل ، بلقب : « بطريق الرومان » وهو تصرف فيه الكثير من الاعتباط والتعسف ، بدا لذا ، غير قانوني ، اذ انتزع ممتلكات كانت تابعة ، من قبل ، للامبراطورية البيزنطية ، كما ان البابا انعم برتبة ليس من حقه ولا من صلاحياته ان ينعم بها ، بل هي من صلاحيات الامبراطور . وقد كانت هذه الاحداث والخطوات التي رافقتها ، الحجر الاساسي في إقامة سلطة البابا الزمنية ، كما كانت المسعف على تحريرها نهائياً ، من تابعية القسطنطينية ، وجعلها تحوّل دوماً ، على حماية دولة الفرنج لها . وهكذا تهيأت من بعيد اسباب اعادة الامبراطورية في الغرب .

وقد سهّل القيام بهذه السياسة ويسّر تنفيذها ، الفتوحات الحربية التي حققها ابن بابين ، المعروف باسم كارلوس الكبير او شارلمان ، الذي قاد جيوش الفرنجة كل سنة الى ظفر مؤثّل ، موسعاً بذلك حدود المملكة الى اقصى ما بلغه تغلغل المسيحية في الغرب . واستولى على عرش اللمبارديين وبسط سلطانه على الدويلات المستقلة ادارياً ، في جرمانيا المسيحية ، وبذل جهوداً مريرة في اخضاع السكسون وحملهم على إعتناق النصرانية ، وقضى على سيادة « الآفار » ، الشديدة الشكيمة ، وحمل كتائب الاسلام على التراجع والانكفاء ، عبر جبال البرانيس . وبلغ من اتساع رقعة مملكة الفرنج عام ٨٠٠ ، ومن قوة نفوذها ان راحت الاوساط الكنسية تفكر جدياً ببعث الامبراطورية الى الوجود ، لصالح الدولة الجديدة ، والرجوع بذلك الى التقليد القديم الذي انقطع عام ٤٧٦ ، عند سقوط روما بيد ادواسر ملك الهيرول ، وامتد هذا الانقطاع ثلاثة قرون بات فيها الغرب منقسماً على نفسه ، دائم القلق والاضطراب ، لا يعرف الاستقرار ، وبذلك عادت اليه وحدته السياسية والروحية . ويوم عيد الميلاد بالذات من سنة ٨٠٠ ، جرى تكريس شارلمان في كنيسة القديس بطرس ، وفقاً للطقوس والمراسم المتبعة في القسطنطينية ، وألبس التاج ونودي به امبراطوراً على الرومان . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اعترفت بيزنطية بواقع الامبراطورية ، وإعادتها من جديد في الغرب .

ومع ذلك فقد كان من نصيب الجيل التالي اي الجيل الذي عاصر الامبراطور لويس الورع وشهد النفوذ الذي كان يتمتع به ، اذ ذاك ، رجال الكنيسة ذوو الثقافة العالية ، تطبيق المبادىء التي أدّت الى بعث الامبراطورية . فالامبراطور هو القائد الاكبر للشعب المسيحي ، عليه ان يؤمن ادارة كل القضايا الزمنية ، كما ان سلطته او خلافته لا يمكن تجزئتها . وهكذا

فالمرسوم الامبراطوري الذي اصدره عام ٨١٧ بعنوان *Ordinatio Imperii* . يكون قد وضع حداً للتقليد الجرماني الذي عُمِل به الى ذلك الحين ، والذي كان يوجب بان يتقاسم ورثة الملك مملكته من بعده ، بينما ادعى الامبراطور نفسه عام ٨٢٤ ، حق الاشراف على دولة الكرسي الرسولي والتدخل بانتخاب البابا .

ساعد ما كانت عليه الاسرة الكارولنجية من ثراء وغنى ، وانبساط سلطان الفرنج واتساع مملكتهم ، على النهوض باسباب المدنية الغربية ، وهي مدنية محدودة الطاقات مع ذلك ، فلم يطرأ سوى تغيير بسيط على المقومات والعناصر المادية ، والاتصالات التجارية ، والتأليف الطبقي الاجتماعي في البلاد ، بينما نلحظ تطوراً محسوساً في القطاع المدني ، هذا القطاع كان يتردى في احط دركات الفوضى والانحطاط . وقد امكن استدراك هذه الاوضاع غير الملائمة ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، عن طريق تقوية النظم والاجهزة السياسية ، مما ادّى الى إستتباب النظام وتوطيد اسباب الوحدة . وهكذا نشأ جو ملائم ، حليم ، يسمح بازدهار امور الفكر وانتشار الثقافة التي كادت شعلتها تنطفيء في اواخر العهد الميروفنجي ، وهي ثقافة أطلّت علينا فكرية ذهنية ، في البلدان الانكلوسكسونية ، وفنية في المقاطعات الشمالية من غاليا ، فأدّت طوالع حركة الانبعاث هذه الى نتائج طيبة ، مهدّت الطريق لطلوع نهضة أخذت تنمو وتتسع دونما انقطاع . وقد عادت هذه الحركة التجددية بالغنم والنفع على المناطق الواقعة بين نهري اللوار والرين ، اي على هذه الولايات الفرنجية القديمة ، قلب الدولة الكارولنجية ونقطة الدائرة فيها . ففي هذه الولايات قامت اوطد الاسس وارسخها . ومن هذه المنطقة جاءتنا اكثر الوثائق والمستندات . فمن هنا يجب ان نُطِل لنرى الصفات والميزات التي طبعت بين ٧٨٠ و ٨٣٠ المدنية الكارولنجية ، قبل ان نتبين ما كان لها من أثر بيّن ، على الاقطار الاخرى ، في الغرب المسيحي .

ضعف الوضع الاقتصادي ووهنه

فلا عجب من ان تأتي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في شمالي غاليا ، والحالة هذه ، واهية ، ركيكة ، بدائية المظهر والمخبر ، بعد هذا التردي الطويل خلال هذه المدة . فالسكان فيها قليلون ، وتوزيعهم ليس على سواء ، والوسائل التقنية المتبعة في الزراعة لم تكن لتصلح الا للاراضي الخفيفة التربة ، السهلة الحرث والفلاحة ، سوادها من الدلغان والرمل ، بينما الاراضي العميقة التربة والكثيرة الرطوبة أهمِل امرها للاحراج والغابات والغياض والمستنقعات . ويفصل بين رقاع الارض المزروعة مساحات واسعة من الغابات والاحراج ، خالية تقريباً من السكان ، يرتادها من حين الى آخر بعض الحطابين والرعاة . والظاهر ان استتباب الأمن في هذه المنطقة ، بين ٧٥٠ — ٨٥٠ احدث تبدلاً ملحوظاً من الوجهة السكانية او الديموغرافية . فالقرى القائمة في السهل المحيط بمنطقة باريس حيث يقوم باستثمار الاراضي واستغلالها ، العديد من الأسر ، كانت تضم من السكان ، اذ ذاك ، ما كانت تضمه ، تقريباً ، في اواخر القرن الثامن عشر . وهي كثافة كبيرة

اذا ما نظرنا اليها من خلال عطاء الارض ومحصولها . ومع ذلك ، فهذه النسبة العالية في معدل السكان لم تتسبب بأية هجرة نحو الاراضي البكر . ويبدو ان الناس في ذلك القرن ، كانوا اعجز من ان يوسّعوا نطاق اراضيهم الزراعية عن طريق احياء اراض جديدة للزراعة . ولم يَحُن الوقت بعد ليسمح باستمرار الازدهار الديموغرافي واطراد نموه ، بحيث يتضاعف عدد العاملين في الارض والمستهلكين على السواء ، فيؤمنوا استمرار نموّ ثروة البلاد باطراد .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ألا يكون أي أثر يذكر للحركة التجارية ، اذ ذاك . ان استمرار غزوات العرب في الجنوب ، والحروب التي ساقها كل من شارل مارتل وبابين ، أخذ بعضها برقاب البعض الآخر ، وقد قضت على كل ما بقي من آثار النظام الاقتصادي القديم ، وذهبت بمعالمه في تلك المنطقة ، فاتجهت الحركة التجارية صوب البحر المتوسط . فالمستعمرات الصغيرة التي نشأت في عهد الميروفنجيين بفضل تجار مشارقة ، والتي تألف منها محطات على طريق القوافل ، قد تلاشت واندرست ، وحل محلها ، مع الزمن ، تجار من أبناء البلاد يتعاطون البيع والشراء وفقاً للمناسبات ، بقوا ، مع هذا ، ندرةً . ومع ذلك ، نرى كيف ان هذا الاصلاح البدائي من جهة وتوطيد اسباب الامن ، في شمالي غاليا ، من جهة اخرى ، ساعد ، منذ عام ٧٥٠ ، على اضفاء شيء من النشاط ، على الحركة التجارية في البلاد .

ومن جهة ثانية ، استمرت حركة استيراد المصنوعات الشرقية الغالية الثمن : كالأفاويه والطيوب والعطور والديباج وغير ذلك من الانسجة الجميلة التي يتهافت على اقتنائها الأثرياء وأبناء الارستوقراطية من علمانيين وكنسيين ، على السواء . والشيء الوحيد الذي تبدّل هنا وتغير ، هو تحول التجارة عن المسالك القديمة التي كانت تسلكها في طريقها الى الغرب ، الى مسالك جديدة . فراحت تعتمد بالأكثر ، اما على الموانىء البيزنطية الواقعة في جنوبي ايطاليا ، وعلى البحر الادرياتيكي ، وعبر وادي البو ، او على مجازات جبال الالب بممراتها ومعابرها ، او انها كانت ترد براً ، متتبعة الطرقات التي تجتاز البلدان الصقلبية او طريق البحر البلطيقي المائية ، وهي ، اذ ذاك ، اخطر الطرق ، وقاعدتها الكبرى جزيرة غوتلاند ، ومنها تدخل مجاري الأنهر الكبيرة في اوروبا الشمالية . ومن ناحية اخرى ، تطلع علينا تيارات جديدة تتمثل بحركة المقايضات التجارية ، بعد ان اخذوا بنسج الاقمشة وحياكة الاجواخ في بعض البلدان الواقعة حول البحر الشمالي ، ممـا كان يغذي ، بعض الشيء ، حركة تصدير بطيئة . كذلك اخذ تجار الفرنج ، ابتداءً من القرن الثامن ، يبيعون في الاسواق الاسلامية ، بعض مصنوعاتهم كالأسلحة الجميلة الصنع التي كانت تصنع في المعامل الواقعة الى الشمال من غاليا ، كما كانوا يتولون الاتجار بالرقيق ، فيبيعون ارقاء وقعوا في الأسر ، من البلدان الوثنية ، وهي تجارة رابحة انما كانت تجري بتحفظ كلي ، وبالخفاء . وذهب بعضهم الى القول ان حركة التصدير هذه ونموها المطرد كانت ذات شأن كبير على الغرب ، الذي كان اقتصر حتى الآن ، على استيراد المواد الشرقية لقاء أثمان باهظة ، معتمداً في دفع أثمانها على ما كان لديه ، بعد ، من احتياطي النقد ، دون ان

تكون له القدرة على تعويض التَّلِف او المتسرب منها الى الخارج . وهكذا فتح التيار التجاري مع العالم الاسلامي ، المجال لادخال معادن ثمينة وعملات قوية وطرحها للتداول لتُغذي الحركة الاقتصادية والمقايضات التجارية ، الأمر الذي مكّن الغرب من دفع ثمن السلع والبضائع التي كان يستوردها عن طريق بيزنطية والتي كادت حركة استيرادها تنقطع لانعدام وسائل الدفع فكان ذلك بدء حركة لم تلبث بعد لأي من الزمن ، ان قلبت الوضع تماماً .

وهذا الانتعاش ، الوَجِيل - انما مؤكد - للحركة التجارية ، والاتجاهات الجديدة التي اتجهتها ، أدّى الى نتيجتين ثابتتين : تبدو الاولى في هذا الاصلاح التدريجي للنقد والعملة ، عند الفرنج ، وهو اصلاح تم بين ٧٥٤ و ٧٦٥ ، وعام ٨٢٠ . فأمام تداول النقد العربي والصقلي ، في البلاد ، كالدينار الذهب او الدرهم الفضة ، استطاع ملوك الفرنج ، عن طريق سك عملات مماثلة لها ، من حين الى آخر ، ان يعيدوا الى التداول دينار الفضة ويثبتوا قيمته ، وربما تم لهم ذلك بربطه بالنظام النقدي المتبع في العالم الاسلامي . فليس من عجب قط ان يكون لاصلاح النظام المالي وتقويته اثر كبير على الحركة التجارية . ثم ان هذا النشاط التجاري جاء نتيجة طبيعية لهذه الحركة الديموغرافية السكانية التي برزت بوادرها في هذه المنطقة الواقعة بين نهري السين والرين ، فأدّت بين ٧٥٠ - ٨٥٠ ، الى نمو عدد من المدن القديمة وتوسعها ، امثال : أرّاس وفردون ومتز ، بينا نرى مناطق سكانية تطلع وتكبر وتتوسع ، حول مراكز ناشطة للتجارة ، او لتفريغ البضائع وشحنها ، تقع على مجرى نهر السين الاسفل ، ونهر الموز والاسكو ، او على ساحل المانش والبحر الشمالي .

ومع ذلك ، لا بد من الاعتراف هنا ان تباشير هذا الانبعاث الاقتصادي كانت ضعيفة وخفيفة للغاية ، يكاد المرء لا يشعر بها ولا يلمسها . فاذا ما اخذ المؤرخ على نفسه الاشارة اليها والتنويه بها ، فلانها تهيء من بعيد ، وتمهد الطريق للنهضة العمرانية والاقتصادية التي انطلقت موجتها في القرن الحادي عشر ، اذ لم يكن ، في مقدور المرء ، ان ينسى ، او ليتناسى التدهور العميق والانكماش الذي طبع ، على العموم ، الوضع الزري الذي كان عليه القطاع الاقتصادي في العهد الكارولنجي ، وهو اقتصاد ريفي الطابع ، لا شأن يذكر للمدن فيه ، اذ كانت المعادن الكريمة مجمدة بشكل مجوهرات يختزنها الصاغة ، والنقد المتداول نادراً للغاية ، كما يستدل على ذلك من الرهونات على الاملاك ، ومن المسابك الكثيرة للعملة ، اذ كان يقوم على مقربة من كل مركز تجاري هام ، معمل لضرب السكة يؤمن ما يحتاج اليه الناس والعملاء من نقود ، عند الاقتضاء . وهذا النوع من الاقتصاد هدفه الاول تأمين أوَد العيش للتاجر ، دون ان يأبه لتحقيق أي ربح اضافي ، معتمداً في ذلك على غلة الارض دون سواها .

الاقتصاد العقاري : الامـلاك

لهذه الاسباب التي اتينا على ذكرها ، كان عماد الاقتصاد ، في هذه الحقبة ، الثروة العقارية أو الملكية العقارية ، متكأ النظام الاجتماعي منذ اقدم العصور ، ولكن لا يبرز شأن هذه المؤسسة على حقيقته الا على ضوء الوثائق

والمستندات العائدة لمطلع القرن التاسع . وقد اطلقوا على هذه العقارات أو الملكيات الضخمة اسم *Villae*، وهي مزدرعات كبيرة قام منها عدد كبير في ايالات نوستريا وأوسترازيا، ولا يدخل تحت هذا المسمى الاملاك الصغيرة الحجم التي يستقل اصحابها في استثمارها . وهذه الاملاك الواسعة الاطراف لا يستقر وضعها على صورة ثابتة ، لما ينتابهـا من تغيير وتبديل ، ناتجين عن الإرث والبيع ، والشراء والهبة ، وغير ذلك من الاسباب التي تعتور الملكية من عوامل التصرف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتفاوت فيا بينها مساحة واتساعاً . فبينا تكون مساحة العقار هنا مائة هكتار ، مثلاً اذ بها ، هنالك ١٨،٠٠٠ أو ٢٥،٠٠٠ هكتار . وبالرغم من هذا الفارق في المساحة ، فطريقة استثمارها واحدة هي ، يعمَل بهـا على شيء من التوافق والانسجام . فهي على العموم تقسم في استثمارها ، الى قسمين أو شقين : القسم المحفوظ لصاحب الارض أو مالكها ، ونسميه : « الرباعة » ، والقسم المؤجر للاستثمار . فالقسم المحفوظ هو الذي يحتفظ صاحب العقار باستثماره لحسابه الخاص محوره الفيلا أو الدارة وهو نقطته الدائرة في العقار ومحوره، الذي يضم، عدا منزل صاحب العقار،عدداً من المنازل وبيوت السكن لمن في خدمته من خدم وحشم ومزارعين، كما يشتمل عادة على كنيسة او مصلّى. وهذه الرباعة تضم قطعاً مختلفة من الاراضي الزراعية، يؤلف مجموعها ثلث او ربع مساحة العقار القابل للحرث والزراعة، بينها قطع الكرمة عندما تسمح طبيعة الاقليم بزرعها، ومروج، واراض بور، ومراع للماشية، وغابات واحراج للصيد والقنص. أما القسم الثاني من العقار، فيتألف من قطع للزراعة هي الدوّار *Manse* الذي يقسم بدوره الى عدد من قطع قابلة للزراعة، توضع تحت تصرف المرابعين يستثمرونها ويستغلونها، وفقاً لشروط معينة ، ولهم حقوق الإرتفاق على بعض القطع البور في القسم المحفوظ لسيد الارض . ولبعض هذه القطع الزراعية ميزات خاصة تنعم بها وتميزها ، ولذا سميت *Ingénuiles* ، تمتاز عن سواها بالاتساع . وكثيراً ما يستغل الدوّار الواحد لاتساعه ، اكثر من مرابع واحد فيقسم حصصاً بينهم .

وتقسم الاملاك الكبرى والعقارات الواسعة على النحو الذي اقتضته الطريقة المستعملة اذ ذاك للاستثمار . فالفيلا هي اضخم واوسع من ان يستطيع صاحب الارض تشغيلها واستثمارها لوحده . فهي تحتاج ، بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة ، اذ ذاك ، الى عدد كبير من المزارعين والشغيلة . غير ، ان ندرة النقد بين ايدي الناس ، كثيراً ما حالت دون اكتراء ما يلزم لها من اليد العاملة. كذلك كان من المرهق والمرزح معاً لصاحب الاملاك الواسعة، استخدام أو تشغيل عدد كبير من الارقاء والعبيد ليس من السهل اخادهم أو توفيرهم ، ولا سيما ونتيجة العمل لم تكن قط مشجعة . ولهذه الاسباب ، فضّل أصحاب العقارات الواسعة استثمار قسم من املاكهم هذه على يد عبيدهم او احرار المزارعين ، فيستثمرون وفقاً لشروط معينة ، الارض المقطوعة لهم ، كما يرغبون ، على ان يؤمّنوا أوَدهم وأوَد ذويهم ، لقاء تعهدهم بشيئين : الاول تقديم مبلغ من المال ، كل سنة ، لصاحب الارض، وفي هذا دلالة واضحة على ان هؤلاء الفلاحين كان باستطاعتهم ان يقوموا ببعض الاعمال التجارية التي تعود عليهم ببعض الدخل ، مهما كانت

ضئيلاً ، كما كان عليهم ان يقدّموا ، موسمياً ، بعض محاصيل الارض وشيئاً معيناً من غلالها ، وشيئاً مما تنتجه العائلة من الاشغال اليدوية ، كقطع من الخشب المشغول أو المنقوش ، وبعض الاقمشة مما ينسج على اليد أو يحاك في المنزل . كذلك يترتب عليهم ان يساعدوا بالمجان ، صاحب الارض على استثمار القسم المحتفظ باستثماره لنفسه ، كما يترتب عليهم ان يقدموا له ، عدداً من أيام السخرة ، في السنة يتبرعون بها لفلاحة أرضه ، أو مساعدته في الحصاد ، وقطع العشب والقصيل ونقل الغلال ، والسهر على سلامة وصيانة المباني القائمة على املاكه . وهذه الخدمات يتبرع بها الفلاحون ، هي في نظر صاحب الارض ، اهم بكثير من الرسوم النقدية أو العينية التي يترتب عليهم تقديمها له . وبالفعل ، فقد كان كبار الملاكين ، في القرن التاسع ، يؤجرون قسماً من اراضيهم ، ليس طمعاً منهم بما تدره عليهم من دخل وغلال ، بل ليؤمنوا لانفسهم الخدمات الثانوية التي كان يتوجب على المرابعين تقديمها لهم ، بعد ان يوفروا لهم الشيء الصعب أو العسير في الامر ، الا وهو دفع اجورهم . من الطبيعي جداً الا تؤمن هذه الطريقة لسيد الأرض في السنة الواحدة ، سوى دخل بسيط . غير ان كبار الملاكين كان يهمهم جداً ان تؤمن نفقات معيشتهم ومعيشة ذويهم ، وان ترسل الى اهرائهم وحواصلهم بانتظام ، المواد الغذائية عن طريق نقلها بالسخرة ، وان تساعدهم هذه الحفنة من الدراهم التي يقبضونها من المرابعين أو من بيع المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم ، على شراء ما يرغبون في شرائه من الكماليات ، التي يبتاعها من وقت لآخر ، من التجار المتجولين .

المجتمع الريفي فالمجتمع في عهد الدولة الكارولنجية هو مجتمع يرتكز في الاساس ، على الثروة العقارية ، ويحمل تنظيمه الطبقي سمات الملكية العقارية . فهو مجتمع يقوم أصلاً ، على الرق والاسترقاق او الموالي ، شأن المجتمع الروماني في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، والدولة الميروفنجية . فالتميز التقليدي المتوارث بين الملاكين وبين الموالي ، أساسه نظرة اهل العصر في ذلك الزمان . فالملاكون هم وحدهم اعضاء في المجتمع ويشاركون وحدهم بنشاطاته العسكرية والقضائية ، كما يستدل على ذلك من بعض المصطلحات والمترادفات اللغوية كما نرى في كلمتي *Libre* و *Franc* ، مع ان الرق كان ، والحق يقال ، سائراً القهقرى ، كما هو ثابت .

فالآداب والاخلاق المسيحية التي كانت تحظّر استعباد المعمّد او المتنصّر ، كانت تعتبر تحرير الرقيق عملاً يستحق الاجر والمثوبة . فلا عجب ان تكون ساعدت بعض الشيء على الانتقاص من قيمة الطبقة العاملة . فالأسباب التي تكمن وراء هذا الوضع ، هي ، في صميمها ، اسباب اقتصادية صرفة . فالارقاء الذين كان يؤتى بهم من البلدان الوثنية ، اصبح الاتجار بهم عملية رابحة منذ ان اصبحوا سلعة تشرى وتباع ، يشد التجار المسلمون اليها الرحال . ومن جهة اخرى ، فالاخذ بنظام التملك الواسع والعمل به ، أدّى الى اهمال استعمال فرقاء الارقاء في الاعمال الزراعية الباهظة التكاليف . ففي مطلع القرن التاسع كان الارقاء يؤلفون عشرة في المائة من مجموع سكان الريف ، سوادهم الاكبر يعمل في المزارع والحقول . وقد ساعد وضعهم هذا

على التخفيف ، بصورة محسوسة ، من الروابط التي كانت تشدهم بسيد الارض ، مع العلم ان هذا الوضع كان عندهم وراثياً ، يجعلهم دوماً مرتبطين ، دونما محيص ، بسيدهم ، فيسومهم القصاص ألواناً والعذاب أصنافاً ، وله الحق المطلق والاخير ، على كل ما يملكون حتى على ولدهم وذراريهم . فهم لا يستطيعون الافلات او التنقل ، ولا ان يتزوجوا الا بناءً على رغبة سيدهم وباذن صريح منه ، كما عليهم ان يستجيبوا ، سريعاً ، لكل مطالبه . فاذا ما استقر احدهم مع اسرته في الدوار الزراعي الذي تحت تصرفه ، فواجباته تخف نوعاً ، اذ ينحصر معظمها في استثمار الارض المقطوعة له ، وهو استثمار باستطاعته ان يورثه اولاده من بعده . ففي الايام التي لا سخرة عليهم فيها ، يستطيع الواحد ان يعمل في ارضه دونما اعتراض من احد ، وان يتصرف بغلاله كيفما يشاء ، فيبيع قسماً منها . كذلك باستطاعتهم ان يوفّروا ، وان يدخّروا لهم مالاً ، وان يؤمنوا لهم ربحاً حلالاً ، كما باستطاعة من كان بينهم على شيء من النشاط والاقدام ، ان يشتروا ارضاً حرة ويتصرفوا بكل حرية باستغلالها . وكلما ازداد انتشار النصرانية في الريف اندمجوا ، أكثر فأكثر ، في المجتمعات المسيحية واكتسبوا ، بالتالي ، شيئاً من الشخصية الادبية ، فزواجهم لا يصبح مجرد مساكنة وتسرٍّ ، بل يتم وفقاً لمراسم الاسرار المسيحية ، له ذات القيمة ويجري على النمط الذي يجري مع الاحرار .

فاذا كان وضع العدد الاكبر من الأرقاء اخذ يتحسن في نطاق الملكية العقارية الواسعة ، فوضع المرابعين الذين تسميهم الوثائق التاريخية التي ترجع لهذا العهد بـ *Coloni* ، لا ينعم بسوى شيء ضئيل جداً من الحرية . فهم بالاسم ، جزء لا يتجزأ من الشعب الحر ، ويخضع بالاسم للنظم التي يخضع لها العامة . غير انهم يخضعون ، بالفعل ، لمشيئة رب الارض الذي ينظر اليهم نظرته الى متاع ، يستغلهم كيفما يشاء . ويصدّر اليهم اوامره دونما رقيب او حسيب . فهم ، في الاساس معفون من الواجبات العسكرية ، الا انهم ملزمون الدخول في تنظيمات سيد الارض التي يعملون عليها ، كما انهم مجبرون على دفع رسوم خاصة اذا ما رغبوا في تكليف من يحل محلهم ، كما أن مَن كان منهم يعمل في اراضٍ خاصة بعمل العبيد ، يلزمون القيام بالاعمال الشاقة التي يطلب الى العبيد ، القيام بها . فالمدلول بين الحرية والعبودية لا يزال بعيداً ، والفارق بينهما قوياً ، ليصح انزال المولى او الفلاح المعمر ، قانوناً ، منزلة العامل الشغيل . ومع ذلك فهم يؤلفون معهم ، عملياً ، طبقة واحدة مرهقة ، رازحة . وهذا الفارق الاجتماعي الاقتصادي الطابع الذي يفصل بين العمال الذين يعملون في الاملاك الواسعة ، وبين الرجال الاحرار الذين يعملون في اراضيهم الخاصة ، يزداد اهمية يوماً بعد يوم .

والفلاحون الاحرار يشاركون بجميع النشاطات العسكرية والقضائية في مجتمع الفرنج . الا انه عندما تكون ثروة الواحد منهم متواضعة ، فليس في وسعهم ان يعهدوا باستثمارها الى آخر ، يكبدهم حضورهم امام الحاكم واشتراكهم خلال الصيف بالحملات العسكرية ، مصارفات ونفقات لا قِبَل لهم بها ، يتفادى الكثيرون منهم تحملها ، وذلك عن طريق وضع انفسهم

تحت حماية احد كبار الملاكين ، ورعايته فيحوّلون قطعة الارض التي يملكونها الى اقطـــاع يستثمرونه كفلاحين في حماية متنفذ كبير . وهكذا لم تلبث الطبقة الوسطى ان ذابت فذابت تدريجياً . والانهيار الذي اصيبت به الطبقة الحرة يُبرز بصورة اجلى ، تفوق كبار الملاكين العقاريين الذين يعمل في استثمار اراضيهم ، اثنتا عشرة عائلة على الاقل ، بحيث يلتحقون بخدمة الجيش فرساناً لابسي الدروع . وهـــذه الطبقة التي تتميز في الشرائـــع البربرية والقوانين الكارولنجية بالقـــاب فخرية وشرفية ، ونعوت طنانة ، منهـــا *Proceres* ، و *Optimates* و *Nobiles* ، تزداد ثراءً وغنىً بما ينهال عليها من الانعامات والأعطيـــات العقارية الموقوفة على الوظائف العالية واصحاب المراتب السامية ، عسكرية كانت ام كنسية . فهم اسياد الفلاحين العاملين في املاكهم ، لهم وحدهم الحق بمراتب الجيش ومجالس القضاء والمحاكم ، والدنو من الملك والاتصـــال به مباشرة ، والتمتع بالحرية التامة . فهـــذا المجتمع الريفي الطابع حيث المراتب تعطى بنسبة ما يملك الفرد فيه من اطيـــان وامـــلاك ، منقسم الى طبقات منعزلة بعضهـــا عن بعض ، مغلق عليها ضمن الاراضي التي تستثمرها ، لا منفذ لها على الخارج ، جمـــاع السلطة والشأن فيها بيد قلة من كبار الملاكين .

وسائل الحـــكم

لما كان سَدَنة القصر في مقاطعة اوسترازيا هم اكبر اصحاب الاملاك ، فقد استطاعوا ان يقبضوا على زمام الحكم فيها ويستولوا على السلطة . فحاولوا ان يحكموا بالفعل ، وهي مهمة شاقة للغاية دونها خرط القتـــاد . صحيح ان الوضع الاقتصادي الذي كان عليه المجتمع ، اذ ذاك ، كان يساعدهم على ذلك ويجعل مهمة الحكم سهلة نسبياً ، اذ ان معظم سكان الريف والطبقة العاملة في الارض ، كانوا كلهم يخضعون ، بحكم ظروفهم الاجتماعية ، لملاّك كبير ، يقوم في منطقتهم . وتحقيق هذا الهدف لم يكن يطلب اكثر من المحافظـــة على التاج وعلى احترام ما للملك من سيطرة اقتصادية ، واكتســـاب ولاء بضع مئين من كبار النبلاء في البلاد . ومن جهة اخرى ، فقد كان المفهوم العام للدولة وللواجب الوطني لا يزال بعـــد غامضاً ، غائماً مستغلقاً . فاكتساب ولاء كبار النبلاء انما كان يتم عن طريق اغراقهم بالهـــدايا والهبات ، أو باخضاعهم بالقوة والبطش . وهذا الاستسلام والخضوع هو بالطبع موقوت ، ووضع متأرجح ، وذلك لعدم وجود اجهزة تمتّن من العلاقات بين البلاط والرئاسات الاقليمية . ففي وقت كان فيه تجول الافراد ونقل الارزاق والمقتنيات ضيّقاً للغـــاية ، والقراءة والكتابة في سبيلها الى العفاء والزوال ، فالعلاقات السياسية كان لا بد من ان ترتكز على العهـــد المباشر المتطوع ، وعلى الاتصالات الشخصية وعلى الذكريات ، اذ ان الملك الذي لم يكن في وسعه ان يكون في كل مكان ، لم يكن له من ممثل في المقاطعات سوى الكونتية ، هؤلاء الموظفين الكبار الذين كانوا ، على الاجمال ، دون المهمة الموكولة اليهم ، يعاونهم قلة من العملاء يعملون في الوظائف الثانوية الدنيا ، يفتقرون كلياً ، الى عدد كاف من صغار المساعدين ، ليتمكنوا من القيام بمهام الادارة في دوائرهم ، كما يجب . وهؤلاء الحكام الاداريون هم انفسهم من كبار الملاكين ، غير

قابلين للرفت أو العزل ، مبدئياً ، بعيدون عن الملك ، ويعتمدون محلياً على انصارهم في المنطقة. فكثيراً ما تمرّدوا هم انفسهم على النظام ، وضربوا بالانضباط عرض الحائط . ومن جهة اخرى فالرسوم الجباة من افراد الشعب ، والتقادم التي كان عليهم ان يرفعوها للملك ، وهي عـادة يُعمل بها منذ عهد الميروفنجيين ، لم تكن تمـد الملك بموارد كافية ، منتظمة الدخل ، بحيث يستطيع معها ان يجتذب ولاء الامراء ، ويصطنع النبلاء حوله عن طريق توزيعه ، الفينة بعـد الفينة ، الاعطيات والهبات السخية .

ومـع ذلك ، فقد استطـاع الكارولنجيون ان يسيطروا ، في اواخر القرن الثامن ، على الارستقراطية معتمدين ، في ذلك ، على وسائل وذرائع شتى . منهـا انهم كانوا ينظمون كل سنة ، حملات عسكرية يرسلونها وراء الحدود . فالملكية الفرنجية ، هي عسكرية في الاساس ، لانها جرمانية ، بربرية في صميم طبيعتها . فالشعب هو قبل كل شيء ، الجيش ، والملك هو ، قبل كل شيء ، قائد حرب وقائد سلاح . فبمجرد ما كان يقوم بوظيفته هذه ، ويؤدي هـذه الخدمة ، كان ذلك امتداداً لسلطته وسلطانه ، فيتقوّى ويتوطد ، وعندما يجند شعبه ويدعوه لحمل السلاح ، يصبح هذا الشعب في قبضة يده وتحت تصرفه . فكل من كان حراً ، ولا سيا الاغنياء ، عليه ان يلبي نداء الملك بدقة وان يتقيد بالموعد المعين ، وإلاّ تعرض لجزاء ثقيـل ولغرامة باهظة . فأقل تلكؤ او تأخر يبدر منهم خلال العمليات الحربية ، يجر على المذنب او المخالف اشد العقوبات . ففي كل صيف يتوجب على الارستوقراطيـة الفرنجية ان تحتشد على ادق ما يكون من الانضباط والنظام ، في فترة تطول من حزيران الى تشرين الاول ، فتشعر ، فيا بينها ، بتضامن اكبر عن طريق مـا بينها من زمالة السلاح ورفاقة الحرب ، تحت ادارة الملك وقيادته . ثم فالحرب كانت دوماً حرفة مربّحة ، مغذّية . فالغزو والاسلاب والمغانم ، والاراضي المفتوحة ، كل ذلك يمد الملك ويوفر للملك ، ويعـد له ظروفاً جديدة ومناسبات ناهزة ، ليوزع عوارفه ومكافآته على الذين يتفانون في خدمته ، وبهـذا السخاء يكسب ولاء الآخرين . والشيء الجدير بالملاحظة هنا هو ان محاولات التمرد او شق عصا الطاعة ، حوادث لا تقع الا في اعقاب معركة خاسرة او موقعة فاشلة . فالحرب وما تتيحه للجيش من اسلاب وغنائم ، هي اولى ادوات الحكم وأمثلها على الاطلاق .

واذا كانت الحرب تتجدد في كل سنة ، فهي ليست بذلـك مستمرة دائماً ، والا أصبحت سلطة الملك نفسه فصلية موسمية او حينية ، عليها ان تتوارى وتختفي في الاشهر القـعود ، أي عندما يكون المحاربون ملازمين بيوتهم ومنازلهم . من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الاتصال بهم لوعورة المسالك ، وصعوبة المرتفعات معزولين بعضهم عن البعض لاتساع رقعة المملكة ، أثر حرب ناجحة وسّعت من اطراف البلاد . ولذا كان من المهم جـداً ان يبقى استنفار الملك لوحدات جيشه معمولاً به والبلاد في حالة حرب معلنة ، من حين الى آخر ، بحيث يتم للجميع مشاهدة ما للملك من قوة وبأس ، وما له من بطش حتى في أيام السلم ، عندما يكون الجيش

مرابطاً في قواعده خلال فصل الشتاء. ولذا كان من الحتم على الملك ان يكون له عيون وارصاد، له بهم كل الثقة، يبثّهم في جميع الولايات، تشدهم الى الملك او الى الأسرة المالكة، وشائج القربى الوثقى، وأخلص روابط الود عن طريق علاقات شخصية لها من المتانة ما لآصرة الدم. ولذا بين ١١٠ كونتاً الذين كانوا يمارسون الحكم ويضطلعون بمهام الادارة في مختلف الإيالات والولايات، في عهد شارلمان والامبراطور لويس الورع وتحديد مراكز اقامتهم، كان ٧٠ من بينهم اصلهم من مقاطعة اوسترازيا، و ٥٢ بينهم من اقارب الملك وأنسبائه. ولهذه الاسباب عينها، يهم الملك ان يترعرع تحت انظاره، في البلاط الملكي، أبناء النبلاء، وهكذا يصبح لدى هؤلاء اليافعين الذين عاشوا في رفاقة الملك مباشرة، واتصلوا به، وسكنوا في غرف القصر وحجراته العديدة الفسيحة، شعور الابن نحو الاب، كما يجعلهم تذكرهم لهذه الالفة، أكثر ولاء له، وأكثر ثقة به عندما يعودون، بعد انفراطهم من الخدمة، الى ايالاتهم الخاصة. ولهذه الاسباب لجأ الكارولنجيون الى طريقة عملية طالما عُمل بهـا منذ عهد بعيد، في الاوساط الارستوقراطية في شمالي غاليا، وهي ان يجعل الملك، عظماء الدولة ووجوه البلاد وأعيانها، أتباعاً له.

ملكية وتبعية

في مطلع القرن الثامن كان عدد الرجال الاحرار الذين يضمون انفسهم تحت كنف سيد يحميهم، او رئيس يسيج عليهم بجناحيه، كبيراً جداً دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم وحقوقهم. وهذا الخضوع او التكريس الذاتي كان يتم وفقاً لمراسم وطقوس، نقرأ وصفاً لها، وبياناً عنها، لاول مرة، في وثيقة حررت عام ٧٥٧، فيجثو طالب الحماية ويضع يديه بين يدي السيد السند الذي يلتمس رعايته، فيصبح بذلك من «ازلامه»، مديناً له بالولاء والخضوع والامتثال. ثم يؤيد او يختم تكريسه هذا بتأدية قسم احتفالي، ويُشهد الله والناس، على صدق ولائه وامانته. وكان يتلقى بالمقابل، الحماية وغير ذلك من المنافع المادية، منها مثلاً اقطاعه، بالمجان، ارضاً يستثمرها طالما بقي موالياً ومحافظاً على العهد المقطوع، تعرف عندهم «باقطاع» او أخاذة. وينشأ بين الرجلين شيء من القرابة الروحية والادبية. فالضعف الذي كانت الدولة تتردى فيه، واضطراب حبل الأمن في البلاد، وتطبع الاقتصاد بطابع ريفي محض، كل ذلك ساعد على ترسيخ هذه التقاليد، والتمكين لها في النفوس، وهي اعراف وتقاليد لها جذور عميقة في المجتمع الغالي، الروماني، وجرمانيا البدائية. ان اسلاف بابين وشارلمان استخدموا الطريقة ذاتها، وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على اوسترازيا باكملها، وهي تقاليد تغلغلت في صلب الحكومة بعد التغيير الذي طرأ على دولة الفرنج، بحلول الاسرة الكارولنجية محل الاسرة الميروفنجية.

فالملوك تشبثوا، قبل كل شيء، بان ينالوا ممن يعهدون اليهم بمهات رسمية، كونتية كانوا أم من ارباب المناصب الكنسية العليا، الاعتراف بالولاء والطاعة، وان يُتمّوا الواجبات الملقاة عليهم من جراء الوظائف التي يعهدون بها اليهم، منها خدمتهم للملك، سيدهم وزعيمهم، خدمة

نصوحة. وعن طريق انابتهم لبعض دوائر الجباية ، او بتوزيعهم عليهم قطعاً من هذه العقارات الواسعة الارجاء التي يملكونها ، استطاع اوائل الكارولنجيين ان يجعلوا ، في عداد زبائنهم أو تابعيهم ، اغنى الملاكين ، وكبارهم الذين لم يلبثوا ان امسوا « توابع الملك » ، ولذا ترتب عليهم اكثر مما يترتب على غيرهم من الناس ، ان يقوموا بواجباتهم كرعايا مخلصين ، فينخرطوا في الجيش وهم باحسن عدة وعتاد ، والاختلاف الى محكمة الملك ، ومساعدته بكل قواهم ، على تأمين اسباب الراحة واستتباب الامن في البلاد . اما الصغار من بين اصحاب الاملاك ، فكان عليهم ان يضعوا انفسهم تحت كنف اتباع الملك انفسهم . وهكذا ، فالطبقة العليا في هذا المجتمع الحر رأت نفسها مندمجة كل الاندماج ، في نظام مترابط من الولاء المسلسل ، والمواثيق المقطوعة للتابع ولتابع التابع ، حتى تصل الى شخص الملك .

وقد جاء هذا النظام مجدياً فعالا ، ثابتاً ارتكز عليه كل بنيان الدولة وكيانها ، بعد ان مكنت تقاليد التبعية والولاء في نفوس القوم ، وانتظم الأخذ بها عرفاً ونصاً . ومدة الاستعهاد تحددت بكل دقة ووضوح ، فالفريقان مرتبطان الواحد بالآخر مدى الحياة ، الا ان يتجاوز السيد واجباته تجاوزاً يخرج بعيداً عن الصدد ، واقطاع التابع أخاذة يستغلها ويستثمرها ما دامت قائمة رابطة العلاء ، هو ما يميز ، اكثر فاكثر ، العمل بنظام التَّبَعيَّة . وهذه المنافع تعود على التابع ، تأتي ثمناً لولائه وخضوعه ، ولذا استثمرها مدى الحياة . اما اذا أخلّ بواجباته وحنث بقسمه ، كان من حق سيد الارض ان يستخلصها منه وان يقطعها عنه . وهكذا فالكَرَم الملكي يبقى مشروطاً ، واحتمال المصادرة يبقى اكبر وسائل الضغط والتأثير . اما طبيعة التبعية نفسها ، وطبيعة واجباتها ، فتبقى غامضة ، مبهمة . غير ان الملك يتوقع ان يقوم رجاله بواجباتهم بكل اخلاص ، وان يأتوا بالدليل على تعاونهم تعاوناً نيراً ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

وبعد ان أخضع الكارولنجيون ، بواسطة نظام عسكري شدّت من متانته ومداه روابط الدم ، ومتّنته روابط التبعية والمواكلة ، بعض عشرات من الأسر والبيوتات الشريفة المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد ، اخذوا يحاولون ادخال بعض التحسينات على النظم الادارية التي توارثوها من الميروفنجيين . فبدأوا طلبوا من الكونتية ان ينظموا اعمالهم الادارية ويضبطوها ويحكموا قيدها ، وان ينشئوا لهم دوائر خاصة لحفظ الوثائق والمحفوظات . وقد راحوا هم أنفسهم يضعون مذكرات ومفكرات تبلورت ، في آخر الامر عن هذه القوانين التي جاءت تضبط الأوامر الشفوية الصادرة التي كانوا يسنّونها في ربيع كل سنة ، امام الجيش المحتشد والمتأهب للانقضاض . وحاولوا ان يتشددوا في مراقبة عملائهم الاقليميين . وفي سنة ٧٨٩ ، تُلْمِع الوثائق التاريخية ، لأول مرة ، الى نشاط مفتشين متجولين يسمونهم : *Missi Dominici* ، لم تلبث صلاحياتهم ان اتضحت ، شيئاً فشيئاً واتسعت . فقد كان موفدو الملك ، في مطلع القرن التاسع ، يجوبون ، في فرق مختلفة ، تضم الواحدة منها دوماً : اسقفاً وكونتاً ، وعدداً من

الإيالات يتراوح عددها بين ٦ – ١٠ ليس للبلاط فيها أي ممثل . وقد انتظمت هذه الدورات ، وأصبح القيام بها فرضاً لازماً اربع مرات في السنة . فبعد ان يتزود موفدو الملــك بالتعليمات اللازمة ويتصرفوا النظر في امر تنفيذ أوامر الامبراطور وكيفية تطبيقها ، يشرفون على اوضاع الامن في ربوع البلاد . كذلك كان عليهم ان يجمعوا شكاوى الرجال الاحرار ، اذا كان لهم الجرأة على الاعراب عنها ، وان يُصلحوا ما ساء او اختلط امره من شؤون ادارة الكونت في الإيالة التي عُهد اليه بادارتها .

واذ تبين للكارولنجيين بأن هذا التفتيش لم يفِ دوماً بالفرض وليس بالتالي كافياً ، فقــد راحوا يحدّون كثيراً من حرية تصرف الكونتية ، لا سيا في ما لهم من صلاحيات تخولهم النظر في امور العدل وشؤون القضاء ، في أثر توسيع صلاحيات محاكم البلاد ، عندما انشىء في قلب كل ايالة ، هيئة من القضاة المسلكيين المعروفين بـ *Echevins* ، غير قابلين العزل والرفت ، يجري اصطفاؤهم وانتخابهم من قبل المفتشين . وقد كلفوا حضور الجلسات الاحتفاليــة العامة لمحكمة البلاط وكان على الكونت ان يأخذ رأيهم بعين الاعتبار والاحترام .

ثم ان امتداد سلطة الملك وسلطانه الى مناطق شاسعة ، جعل من المحتم انشاء حلقات اضافية متوسطة ، بين البلاط والكونتية ، اتسمت بالاحكام . والى جانب الولايات والايالات الفرنجية امثال لوستريا واوسترازيا وبورغونيا ، هنالك مناطق اخرى في الامبراطورية كايطاليــا والاكويتين والبافيار ، اصبحت ممالك لها استقلالهــا الاداري ، بينها الولايات الواقعة تماماً على الحدود : في الشرق ، باتجــاه شعوب الدانمارك والصقالبة والآثار ، وفي الغرب ، على حدود بريطانيا ، وفي الجنوب في هذه المناطق التي استخلصوها من سيطرة العرب المسلمين ، فقد انشئت فيها ادارة عسكرية خاصة هي دائماً في حالة تأهب للحرب ، تحت ادارة قائد عسكري مباشر ، يراقب ، عن كثب ، أعمال الكونتية ويخضعهم لاوامره . وهذه الاعفاءات التي اعطيت لعـدد كبير من المؤسسات الدينية ، في عهد الدولة الميروفنجية ، جرى توسيعها . فمنذ القرن التاسع ، اخذنا نرى أملاك الاساقفة ، ورؤساء الاديار خارجة عن سلطة الكونتية ، ومُداخـــلات معاونيهم ، وبذلك أصبح صاحب المركز الديني ، في نظر الرجال الاحرار ، القاطنين على املاك هذه العقارات ، الممثل الوحيد للسلطة الملكية . فهو الذي يقودهم للجيش ، والذي يقتص من مخالفاتهم ، ويقدم للمحاكم الملكية ، المجرمين الذين اقترفوا جرائم كبرى . وهكذا اخذ الاحبار ورؤساء الاديار يمارسون ، بالنظر لما يتمتعون به من نزاهة ، ومن ولاء للبــلاط ، جانباً من الادارة الحكومية في قسم كبير من المملكة . وهكذا نرى ان الميزة الاخيرة التي اتصفت بهــا النظم والمؤسسات السياسية ، في عهد الدولة الكارولنجية انما كانت الاتحاد الوثيق بين السلطة الملكية والكنيســة .

وبالفعل ، فقد ارتدت السلطة الملكية ، خلال القرن الثامن ، في كل من مملكـــة الفرنج وبيزنطية والعالم الاسلامي ، صبغة دينية ظاهرة ، أدخلت تغييراً عميقاً على طبيعة السلطـــة

ومفهومها . فقد جاء ذلك نتيجة منطقية لحفلة التكريس . فبعد ان يكون الملك مختاراً من الله ، ليمثله على الارض ، اصبح من حقه ان يمارس شيئاً من الكهنوت وواجباته . فلم يعد حاكماً مطلقاً . فقد ترتبت عليه مسؤوليات ، وتحمل واجبات جديدة نحو شعبه ورعيته ، عليه ان يسهر على الكنيسة وان يدافع عن الضعفاء والمساكين وان ينشر على الارض العدل والسلام» وهما اهم ما يراود خواطر مستشاري الملك من رجال الدين والكنيسة. فاذا ما تحددت سلطته على مثل هذا النحو ، كان لزاماً على رعاياه ، ان يتعاونوا معه وان يبذلوا اقصى ما بيدهم، لتأمين السلام وتوطيد اركانه . وهكذا تبدو الفكرة الذهنية» المجردة» للدولة» هذه الفكرة التي غامت كثيراً في عهد الدولة الميروفنجية ، وتتبلور على هذا الشكل الشؤون المسيحية العامة لتختلط بشؤون الشعب الذي اصطبغ بالعماد والذي تؤلف الكنيسة فيه ، قوامه الادبي والديني والعنصر الضابط له . قد يشك المرء في ان تكون هذه الفكرة الذهنية لهيكل الدولة السياسي قد وجدت لها صدى قوياً في خواطر الارستقراطيه العلمانية ، في عهد شارلمان . فليس بالقليل النافل ان تمسي هذه الفكرة ، التي ظهرت واطلّت علينا في هذا العهد ، الاطار الاساسي لكل النظم الملكية التي عرفتها الاجيال الوسطى . هنالك مراسم او تدابير خاصة ، ليتورجية الطابع ، رآها شارلمان خليقة بان توطد حكمه وتشيد سيادته ، تتمثل في هذا القسم او اليمين المغلظة يؤديها صاحبها ويده على بعض المقدسات . فقد بعث الى الوجود تقليد قديم تنوسي امره ، وذلك عندما اوجب ، عام ٧٨٩ ، على كل رعاياه ، ان يقسموا بإلاّ يأتوا شيئاً إدّاً ، يسيء الى الملك او يضر به ، ثم فرض ، عام ٨٠٢ ، الالتزام والتقيد فعلاً ، بواجباتهم الدينية من حيث تناول الاسرار ، والتعهد بالامتناع عن كل مخالفة للشرائع الكنسية والمدنية ، والعمل على ما فيه مرضاة الله وخدمته . وتحت طائلة قسَم يؤدونه وايديهم على الانجيل او على ذخائر القديسين ، يضعون بموجبه نفوسهم وقواهم تحت تصرف الامبراطور ، اصبح المجتمع في مملكة الفرنج مرتبطاً بالملك ، الملزم ، بحسب التكريس الذي تم له ، بتوجيه شعبه وقيادته الى الخلاص . وهكذا فالمشاعر الدينية ، كوّنت عضداً ادبياً قوياً شد من أزر القوى المادية العظيمة التي تمت للدولة الكارولنجية .

ومع ذلك ، فهذا التنظيم السياسي للدولة يبقى ، لعمري ، واهناً لما هو عليه من طابع بدائي . وبين ٧٨٠ و ٨٣٠ أُخضع اصحاب الملكيات الواسعة لشيء من الانضباط والانتظام ، وهو تدبير ضروري لم يكن بدّ منه ، فلاقى نجاحاً مدهشاً ، اذا ما نظرنا اليه من خلال الاوضاع الاقتصادية والمجتمعية غير الملائمة جداً ، فاصبحت مملكة الفرنج ، اذ ذاك ، اشبه شيء بمملكة يرفرف فوقها النظام وتنعم بالسلام الداخلي ، مدة نصف قرن ، وهي نعمة بقي ذكرها طويلاً في اذهان الناس وخواطرهم ، وهكذا ، اتاح بعث السلطة واعادة النظام في البلاد للحياة الدينية وللثقافة ان تحققا الكثير من التطور والازدهار .

الكنيسة الكارولنجية

الرواد الأول لهذه النهضة ، هم المرسلون الانكلوسكسون الذين نشروا لواء المسيحية فوق ربوع جرمانيا، بعد ان شدّ من ازرهم، سدّنة القصر في اوسترازيا وجعلوهم يفكرون بان التعاون بين الكنيسة المتجددة بالاصلاح من شأنه ان يوطد سلطتها . وبطلب صادر عن بابين القصير القامة واخيه كارولمان ، قام القديس بونيفاسيو باصلاح شامــل عم الكنيسة الفرنجية وتناولها من جميع نواحيها ، وذلك وفقاً للمبادىء والمناهج التي وضعت خلال المجامع الاقليمية الثلاثة المعقودة تباعاً ، عام ٧٤٢ و ٧٤٤ ، في اوسترازيا ونوستريا وقد تابع عملية الاصلاح هذه ونهض بأسبابهـــا ، ملك الفرنج الذي أصبح ، عقب تكريسه ، شخصية كهنوتية الى جانب كونه حليفاً للبابا ، ليصبح ، عام ٨٠٠ ، الامبراطور ، اي رائد المسيحية ومرشدها . وقــد تمّ في مطلع القرن التاسع ، اصلاح كل النظم والمؤسسات الكنسية وتنقيتها من الشوائب اللاصقة بها . وهكذا برزت كنيسة الاجيال الوسطى .

لهذه الكنيسة قانونيتها المميزة . ففي أواخر عهد الدولة الميروفنجية ، كان قام في شمالي غاليا ، العديد من الأديار التي ، عانت الامرين من الفوضى الضاربة أطنابهـــا ، اذ ذاك ، ومن مداخلات العلمانيين ، واختلاف نهج الحياة الرهبانية لدى الكثير من هذه الرهبانيات التي لم يحافظ عليها اصحابها ، وتوزيع شارل مارتيل جانباً كبيراً من املاك هذه الاديار ، على اتباعه ورعاياه . ومع ذلك فقد كانت هذه الاديار أسلم وأنقى هذه المؤسسات على الاطلاق ، فقد كاد اهتمام القديس بونيفاسيو بها لا يذكر . ولم يتمكن قط من حمل جميع الرهبان على اتباع قانون بندكتوس وفرائضه ، هــذا القانون الذي كان على احسن ما يكون تطبيقاً وعملاً به ، في الاديار الجرمانية، الحديثة النشأة، ومنها انتقل، على النمط ذاته، الى أديار اوسترازيا . وفي هذه الاديار ازدهرت الحياة الرهبانية وفقاً للنزعات والمناهج الانكلو سكسونية ، اذ لم يكن رؤساء هــذه الاديار مجرد مديرين قابعين بين رهبانياتهم ، كما ارادهم ان يكونوا القديس بندكتوس ، بل رسلاً ومبشرين ، النشاط ملء وفاضهم ، يقومون بأعمال الكرازة بالانجيــــل ، تحت اشراف روما مباشرة . ولم يلبث البحث والدرس ان رجحت كفته في هذه الاديار على كفة الاشغال اليدوية .

وقد حرص كل من بابين وشارلمان على ابقاء هذه الاديار ، في حالة جيدة وعلى مستوى عالٍ ، محاولين مع ذلك استخدامها لسياستهم الخاصة . فقد استمروا يُنعِمون ببعض الاملاك المأخوذة من عقارات الاديار ، ويقطعون بعض انصارهم وخدّامهم من العلمانيين الذين ينعمون بألقـــاب رهبانية ، اطيب املاك الاديار وأجودها . الا انهم حرصوا على ان تنال الاملاك الباقيــة بين ايدي الرهبان ، احسن عناية وأنها . وبالفعل فقد تمتعت الجماعات الرهبانية ، في عهــدهم ، بجميع اسباب اليسر والراحة . وفي هذا الوقت بالذات برزت الدعوات التي انصرف اصحابهـا للعلم والدرس ، اذ ان الاخذ بالنظام العقاري على النهج المعمول به اذ ذاك ، والسير بأمـلاك الاديار على الطريقة العقارية التي وزعت بموجبها الامــــلاك ، حرر الكثيرين من الرهبــان من

الانصراف للاعمال اليدوية التي يتطلبها تأمين أوَد الحياة . وقد نظر الملوك الى رؤساء هــذه الاديار نظرتهم الى موظفي الادارة ومأموري الحكومة ، فراحوا يصطفونهم ويتخيرونهم من نفس الوسط او مستوى الطبقة الاجتماعية التي يختارون منها الكونتية ، او من بين اولاد النبلاء الذين نُشّئوا في البلاط الملكي ، وعهدوا الى هــذه النخبة وهم عادةً من الشباب الذي يزخر بالنشاط ، بمهات ادارية وسياسية دقيقة . فقد كانت الكنيسة ، بين ٧٥٠ – ٨١٤ ملاذاً للثقافة، وموئل العلم والفكر ، والبوتقة الاولى التي صاغت وافرغت النهضة الفكرية والفنية التي اخذت تظهر اذ ذاك ، كما كانت بلا منازع ، الاداة المثلى والعنصر الفعّال ، والعامــل الاقوى في نحت الحضارة الفرنجية وافراغها وفقاً للقالب الاقتصادي الذي تحكم بالوضع الاجتماعي ، في هــذه الحقبة ، وبذلك كانت الكنيسة السند الاقوى والدعامة الكبرى في هذا الانبعاث الذي انطلق في العهد الكارولنجي .

في عهد لويس الوَرِع ، وقع حادث هام يمكن رده لتأثير رئيس احد الاديار هو بندكتوس انيان الاكويتيني الذي تاقت نفسه للأخذ بتفسير جديــد اكثر صرامة ، للفرائض الرهبانية البندكتية . فقد اقلع الامبراطور من جهة، عن الاغتراف من اموال الاديار واملاكهم ، ووهب علانية عدداً منها ، حق انتخاب رؤسائها بكل حرية ، كما ان القانون الذي صدر عــام ٨١٧ ، اوجب العمل بفرائض القديس بندكتوس بعد ان اجرى فيها تعديلات مهمة ، اذ ابطل الاخذ بالنظرية الانكلوسكسونية للحياة الرهبانية المفتوحة التي تتوزع بين الدرس والتبشير ، واحــل محلها نزعات ، تلسجم ، اكثر فاكثر ، مع الحياة الرهبانية المشتركة التي عُمِل بها في دنيا البحر المتوسط ، والتي تتميز بالتشدد في عزلة الرهبان ، والاقلال من الدروس ، والاكثار من التمارين الليتورجية . ومنذ ذلك الحين ، اخــذ عمل الاديار التبشيري بالتضاؤل شيئاً فشيئاً ، واخذت الاسقفية تلعب في الكنيسة الدور الاول في هذا المضمار .

كانت الرتبة الاسقفية قد بلغ منها الانحطاط كل مبلغ ، في مطلع القرن الثامن ، مع انها لها المحل الاول والدور الابرز في التنظيم الكنسي . وقد كان اصلاح هذه الرتبة ، الشغل الشاغــل للقديس بونيفاسيو الذي اولى جــل اهتمامه اصلاح الناحية المادية للكنائس القائمة في كراسي الابراشيات ، واملاء الكرامي الشاغرة منها باساقفة اكفاء ، واقصاء من كان غير اهــل منهم وقطعهم عن شراكة الكنيسة ، وتنظيم المجامع الكنسية . وقد كان هذا الاصلاح عملية شاقة ، بطيئة ، ولم ينتهِ منهــا الا في عهد الامبراطور شارلمان . فكان الاسقف ، اذ ذاك ، يجري اختياره من بين كهنة البلاط او من بين رؤساء الاديار المتقدمين في السن ، شريطة ان يكونوا من اصحاب الكفاءات ، مشهوداً لهم بالفضــل والتقى ، اذ كان الامر يتعلق بتنصيب اسقف راعياً روحياً لمنطقة يقوم مركزه في قاعدة هي على الاجمـال ، مدينة رومانية الاصل ، يتولى هو نفسه تدبير الكهنة رعاة الكنائس ، ويتولى امر تربيتهم وتخريجهم في امور الدين ، ومراسم الطقوس الكنسية والعبــادة ، في مدارس خاصة تقوم على مقربة من المقر الاسقفي ، ويشرف

على مسلك المؤمنين وتصرفهم ، ويساعدهم على القيـــام بواجباتهم الدينية والمدنية على احسن وجه ، وبذلك يمهدون السبيل امام الكونت والملك ، لاستتباب الامن والسلام في البـــلاد ، واشاعة العدل بين الناس وخضع الاساقفة انفسهم لمراقبة شديدة من قبل موفدي الملـــك ومفتشيه ، وكانوا عرضة للقطع والفصل من مناصبهم ، من قبل مجمع كنسي يجتمع بتوجيه الملك او تحت رئاسته ، كما ان مجالس الاكليروس العـــامة كانت تزودهم بارشادات وتعليمات عليهم بالتقيد بهـا ، وتدرج اهم قراراتها في القوانين الرسمية . فالاساقفة ومصف المطارنة هم اجهزة ضرورية في دولة تتداخل فيهـا الامور الروحية والزمنية بصورة لا يمكن انفصامها . وتمكيناً للاساقفة القيام بخدمة امثـــل ، واحياءً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة ، راح الامبراطور شارلمان في مطلع القرن التاسع ، يعطي انعامـــات مميزة للمتقدمين من الاساقفة او المتروبوليت الموكول اليهم امر الاشراف على الاساقفة التـــابعين لهم ، والذين اصبحوا يُعرَفون ، كما في الكنيسة الانكلوسكسونية ، برؤساء اساقفة . وهكذا بعد ان تم على مثل هذا النحو ، اصلاح الاسقفية ، وتنقيتها من الادران والشوائب التي تسربت اليهـــا ، وبعد ان أُمِدّت بالأطر والملاكات اللازمة ، احتل المصف الاسقفي ، في الامبراطورية الكارولنجية ، بعد عام ٨١٤ ، محلاً بارزاً ، ورأى نفسه مدعواً ، كما جاء عـلى لسـان يونان الاورلياني ، في كتابه : « حول النظام الملكي » ، ليس فقط لقيادة الرهبان وتوجيههم ، فحسب ، بل ايضاً العلمانيين والرهبان على السواء ، وعلى السير احسن مما تستطيعه السلطة الملكية الآخذة بالتقهقر ، بجماعة المسيحيين الى معارج الفضيلة والكمال المسيحي .

وهذا الاصلاح الذي تناول الرتبة الاسقفية والمصف الاسقفي ، ادّى ، من جهة ثانية ، الى تقوية الاجهزة والمؤسسات الكنسية والعلمانية السفلى . فقد اخـــذ الكهنة ، في المدن يعيشون عيشاً مشتركاً ، تحت اشراف ورئاسة المقدم بين الكهنة ، وفقاً للفرائض والقوانين التي سنهـا الاسقف كرودغانغ ، مطران مدينة متز ، في منتصف القرن الثامن ، للفيف الكهنة الذين يخدمون في الكاتدرائية الاسقفية . اما الريف ، فقد اخذ بتنظيم كنائسه على اساس راعويات ، وذلك منذ عهد الدولة الميروفنجية . فقد بقي امر خدّام هذه الكنائس الريفية مرتبطاً الى حد بعيد ، بكبير الملاكين ، ولي الكنيسة الاول ، لا سيما وهم على الغالب ، في جهل مدقع لـما هم عليه من تربية سطحية للغاية ، تزداد انحداراً وسوءً لمعاشرتهم اناساً مخشوشنين ، اجلافاً . ومع ذلك فالتطور جاء عظيماً ، اذ اتاح لهـــذه المجتمعات الوثنية ، المنعزلة في هذه المقاطعات المسيحية ، ان تذوب تدريجياً وتندمج معها ، بحيث اصبح تحت تصرف اكثر الجماعات الريفية خشونة ، كاهن يعنى بخدمتهم الروحية .

وهكذا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها كل من البابا وملك فرنسا ، أمكن توحيد الاعراف الكنسية ومناهج الانضباط بين رجال الكنيسة . فقد تلقى شارلمان من روما ، عام ٧٧٤ ، المجموعة القانونية المسماة *Hadriana* التي لم تلبث ان اصبحت القانون الذي تمشت عليه كنيسة

الفرنج ، كما تلقى على التوالي ، فيما بعد، نصوصاً ليتورجية طقسية منها: «الليتورجية الغريغورية» التي أحلت الليتورجية الرومانية محل العادات والطقوس الغالية المتباينة

وهذا الاصلاح الكنسي الذي مكّن من تحقيقه ، اعادةُ السلطة الملكية وتقويتها كان يحق ، النقطة الاساسية التي انطلقت منها نهضة ثقافية وحركة تجديدية تناولت الآداب والاخلاق . وبفضل هذا الاصلاح للاخلاق والآداب الذي تم بفعل ما كان لرجال الاكليروس من تأثير فعّال، اصبح الفرانيون أسلس قيادة ، واقل خشونة في طباعهم . يجب ألا يذهب المرء للظن ان الناس ، في هذا العصر ، كانوا يسيرون بهدي التعاليم الانجيلية بكل دقة . فقد كانت الامور الدينية خارج الأديار ، على جانب كبير من البساطة والسذاجة ، لا يتحرج الناس فيها كثيراً ، ولا يتورعون في ركوب المركب الخشن . الا انه هنالك تطور ملحوظ يبدو بوضوح في الاسرة الملكية . فمنذ عهد بابين ، لم يعد القتل السياسي القاعدة المطردة للوصول الى الحكم ، كما ان عادة التسري اخذت في الانتساخ من الاذهان، كما ان الاولاد السفاح اصبحوا من الندورة بمكان، كما انصرف الامبراطور لويس الورِع الى اصلاح البلاط منذ ان اعتلى العرش، وحرص على استئصال الموبقات والمنكرات. وهكذا اخذت الامة الفرنجية تتخلص تدريجياً مما علق بها من شوائب الهمجية .

ازدهار الآداب

هنالك ، كذلك ، بعث ثقافي وفكري، انما على نطاق أضيق واشعاع اخف، افاد منه قلّة من رجال الكنيسة ، وبضعة آلاف من الرهبان وبضع مئات من رجال الدين الفرانيين . ففي نظر روّاد هذه النهضة والناهضين بأمرها ، كالقديس بونيفاسيو ومساعديه الاقربين ، فالحياة الدينية يجب ان تسير جنباً الى جنب مع الدرس والبحث والتعلم ، الامر الذي حمل المبشرين على تأسيس مدرسة في كل دير أنشأوه ، في جميع اطراف اوسترازيا . وهكذا جاء الاصلاح الديني للكنيسة في الغرب مقروناً ، منذ البدء ، ببعث الحيــاة الفكرية والثقافية . وهذه الثقافة هي دينية بحتة تهدف ، في النهاية ، الى خدمة الله والى انتهاج نهج قويم في الحياة ، قواعدها الكبرى : الديارات الرهبانية والكاتدرائيات المتوزعة بين شعب خشوشن الطباع ، بليد الذهن ، متبلد الفهم . وهي كذلك ثقافة لاتينية الطابع ، لغوية في جوهرها ، لم يكن الغرض منها سوى تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة، كما نقلها الينا مترجمة ايرونيموس، ومؤلفات آباء الكنيسة في الغرب ، عن طريق دراسة الادب الكلاسيكي اللاتيني . وهي الى هذا كله، ثقافة من وحي الطقوس الليتورجية، ساعدت الاماديح والأناشيد الفنية الرائعة التي أبدعتها على تحلية وتزويق الكتب التقوية والكنسية والكتاب المقدس .

انطلقت هذه الحركة الاصلاحية من بين المرسلين الانكلوسكسون ، ولم تلبث ان اتجهت الاتجاه السديد في السنوات الاخيرة من القرن الثامن ، عندما وضعت الفتوحات الكارولنجية ، الولايات الفرنجية ، وجهاً لوجه مع البلدان الجنوبية ، حيث كان التراث اللاتيني الروماني اقــل اندثاراً وانحطاطاً مما صار اليه امره في البلدان الاخرى، وعندما اخذ شارلمان نفسه يهتم برفع المستوى

الثقافي بين رجال الاكليروس ، في شمـــالي غاليا . وفي هذا السبيل ادخل العاهل الفرنجي في بطانته ، وألحق بحاشيته ، فريقين من اهل الفكر والادب من الاغراب ، أتى بهـم من بلاط اللمباردیين ، امثال بطرس البيزي ، وبولِن الاكيلي ، والشماس بولس ، كما استقدم بعضهم ، مـن بين الاسبانيين ، امثال ثيودولف الذي سِيم ، فيما بعد ، اسقفاً على مدينة اورليان ، ومن بين الانكليز : ألكوينس احد مدرسي مدرسة يورك ، بعد ان اجتمع به اتفاقاً ، في ايطاليا ، واستقدمه الى بلاطه عام ٧٨٢ . وقـــد كان هؤلاء المثقفون عوناً له وعضداً قوياً اذ كلفهم اعداد الأطُر والملاكات اللازمة لتعليم منهجي يعطى بانتظـــام في مدارس الكنائس الاسقفية ، والديارات الرهبانيـــة او في مدرسة البلاط ، يرتادها رجال الاكليروس من أبناء النبلاء وسراة القوم اذ اعتاد الامبراطور ان يختار من بينهم ، أساقفة الكنيسة وأحبارها . وقد وضع ألكوينس بنوع خاص برنامجاً نموذجيـــاً للدرس أمّن ذيوعه وانتشاره في سلاسل من كتب النصوص التي هيأها وأخرجها للناس ، وهو نهج جاء عن طريق مرتيانوس كابيلا ، امتداداً للنهج الذي كان عليـــه المعوّل في الادب الكلاسيكي القديم . ويتألف البرنامج المذكور من حلقتـين متميزتين ، تُعرف الاولى باسم *Trivium* وتشمل التعليم الاساسي الذي يضم ثلاثة فروع: الصرف والنحو، مع شروح وتفاسير للنصوص الكتابية لتيسير فهم اللغة اللاتينيـة ، والخطابـة او فن الانشاء ، والجدَل او فن المنطق . اما الثـــاني فيعرف باسم *Quadrivium* ، وهو يهدف عن طريق تعليم الحساب والموسيقى و « الهندسة » اي الجغرافية الى تزويد الطالب بدورة موسوعية من المعلومات حول الطبيعة والعالم .

سارت هذه الحركة الهويناء في البدء ، فجاءت نتائجها متواضعة ، اذ لم يكن لدى المفكرين والكتّاب المعاصرين لشارلمان ، ومعظمهم اغراب ، باستثناء الراهب سان ريكيـه انجلبرت ، رغبة في وضع مؤلفات اصيلة ، بل كان جل رغبتهم ان يحتذوا ، ما استطاعوا، النماذج والقواعد التي يلفت اليهم من التاريخ القديم . وقد تصرف ، هؤلاء الاساتذة ، تصرف طلاب متواضعين ، ليس لهم من هاجس سوى طلب العـــلم والسعي اليه . فالمهم عندهم وضع الادوات والاجهزة الموصلة للعلم ، واعادة النقاء والاصالة اللغوية الى النصوص المسيحيـــة ، وتنقيح نص الكتاب المقدس . وفي هذا السبيل، وتوفيراً لنصوص واضحة، مُوثّقة ، وتيسيراً لعدد اكبر من النسخ، طلع علينا طراز جديد من الخط يعرف عنـدهم بالكاروليني الصغير ، وهو حرف اعتمدته على نطاق واسع ، دار النسخ (*Scriptorium*) التي أنشئت في مدينة تورش . وهكذا لم يتجاوزوا كثيراً الدرجة الابتدائية من الحلقة الاولى *Trivium* ، أي درس الصرف والنحو على أساس من الشروح والتعاليق التي وضعها دوناتس ، وبريسيانوس . وقد امكن بعد هذا الجهـد الطيب ، وبعد عدة قرون من الهمجية والبربرية ربط ما انقطع ، ووصل من انفصم من امور اللاتينيـــة الكلاسيكية ، اذ بفضل ما تحلى به النساخ من الرهبان، من صبر جميل واحترام لهذه النصوص، امكن انقاذ القسم الاوفى من تراث روما الادبي والفكري . وهكذا اصبحت اللغـة اللاتينية ،

في غاليا ، المنزلة التي بلغت اليها في البلاد الانكلوسكسونيـة : لغة علم وانضباط ودقة ، تتميز جيداً عن اللهجات الشعبية المحكية ، وتسمو فوقها بكثير . ومن الحوادث الاساسية البارزة التي ادت اليها هذه المرحلة الاولى من الانبعاث الكارولنجي ، هو ان اللهجات الرومانية اتجهت كل منها ، في اتجاه مفرّد . وهكذا أصبحت البلاد المسيحية ثنائية اللغة ، مزدوجتها .

وهكذا ُقيّض الجيل الذي تخرج على هذه المناهج واخذ ينتج في الحقبة التي عقبت وفـــاة شارلمان ، ان يمضي قدماً في مضمار التقـــدم والرقي . فالحركة الاصلاحية التي قام بها بندكتوس الانياني الذي خشي من انصراف الرهبان نحو الادب العلماني وانقطاعهم اليه وراح ينقص من الساعات المخصصة للدرس ، في الاديار ، تؤلف دليلا آخر على الاتساع الذي بلغته حركة البعث الادبي ، يجب اضافته الى الدليل الآخر القائم في هذه المقاومة التي لقيتها هذه الحركة الاصلاحية ، في الاوساط الكنسية الاكثر تطوراً . فقد جاء يقوّي من هذا التيار فريق من المثقفين الاجانب معظمهم ارلنديون، هذه المرة، فرّوا من وجه الغزو السكنديناڤي الذي تعرضت له بلادهم، بينهم سيدوليوس سكوط ، وجون أريجينا الذي كان على اتصال مباشر بالفكر الفلسفي ، وهو اول فيلسوف نبغ ، خلال الاجيال الوسطى ، في الغرب تميز بالجودة والإصالة ، مع ان معظم رجال الفكر اللامعين ، في القرن التاسع هم من الفرنج . وقـــد اعرقت ثقافتهم ورسخت ، واتسعت مداركهم ورحبت منها الجنبات تشهد على ذلك رسائل لو ده فارپار . فاذا كان البعض منهم امثال راپان مور سار على خطى ألكوين، ووضع لجيله كتب نصوص للمدارس ، كما وضع نصب عينيه تثقيف الرهبان ورجال الاكليروس ، فالسواد الاعظم بينهم حاول ان يشق طريقه بوضع آثار شخصية تتميز بالاصالة ، رامياً منها الى اربعة اغراض رئيسية . اولها اغناء الليتورجيا والطقوس الكنسية عن طريق وضع اناشيد وتراتيل دينية تأتي منسجمة مع الروح الموسيقية التي تجددت بعد ان روعي فيها التناغم المسلسل على أساس من الرموز الجديدة . والثاني هو النظر في المؤسسات والنظم السياسية المعمول بها ، اذ قام أحبـار واساقفة ُعرفوا بقوة عارضتهم ومقدرتهم على الجدل والمناقشة ، أمثال اغوبار ده ليون وجوناس الاورلياني يحاولان التنسيب والتكييف وتأمين الانسجام بين المجتمع العلماني والمجتمع المسيحي . والثالث هو التاريخ الذي يمثله ، في هـــذه الحقبة أدْجنهارد ، وأرْمولد الاسود المعروف ايضاً بإسم نيثارد ، اذ في علم التاريخ تتبع ، واقتفـــاء أثر سير الشعب المسيحي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه . واخيراً اللاهوت ، وهو الغاية القصوى لكل ثقافـــة دينية تحاول مع بسكاسيوس ردبرتوس ، المتوفى ٨٥٦ ، اكبر لاهوتي الفرنج في القرن التاسع ، وغوتشالك ده فولدا تقريب فهم قضايا الايمان الكبرى . صحيح انه يجب الا نغلو كثيراً في تقدير هذه الآثار الادبية التي يثقلها ويرزحها كثرة الاستشهادات ، والتي كثيراً ما تفتقر الى بساطة العفوية والبداهة ، وتبقى تعليمية بحتة ، الا ان ما فيها من زخم وقوة ، يكوّن بوادر اليقظة الفكرية ، في الغرب .

نهضة الفنون

كما في الادب والفكر ، كذلك نهضة في الفن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الذي تناول الوضع السياسي والحياة الدينية . وقد جاء هذا الاصلاح اسبق من غيره مما رافقه من وجوه الاصلاح الاخرى ، واكثر اصالة ، وأقل اتكالاً وتعويلاً على الماضي ، اذ لم يعد الفنانون كالادباء ، مثلاً ، منهمكين باحتذاء النماذج الكلاسيكية ، فتتنزّى انجازاتهم الفنية ، بنوازع وتيارات فنية بدت طوالعهـا منذ اواخر القرن السابع ، بين نهري اللوار والرين ، في هذه المنطقة بالذات التي تم فيها التقاء التقاليد القديمة مـع العنصر البربري الجديد ، فتمازجا بعضاً ببعض .

وقد تجلت قدرة الفنانين والرسامين الغالبين الفنية ، في هذه الانشاءات الهندسية التي تمت خلال عهد شارلمان ، ممثلة خير تمثيل ، في كنيسة جرميني التي شُيدت وجرى تزيينهـا وفقاً للاساليب والمناهج القومية المرعية الاجراء . واذا كان ملك الفرنج الذي بنى كنيسة البلاط في مدينة اكس ، واراد‌ها دليلاً على ان قوته هي من طبيعة قوة اباطرة بيزنطية ، فالمهندس أويد ده ماتز ، هو ايضاً من مقاطعة اوستراسيا .

فالعهد الخصب بالانجازات ، هو ، هنا كما في مجال الادب والفكر ، العهد الذي جاء بعـد عام ٨١٤ ، فالكنائس والمباني الاخرى التي ترجع الى زمن لويس الورع ولوثير ، امثـال كاتدرائية ريمس القديمة ، وبزيليكا سان جرمين دوكسير ، تحوي هندستها المعمارية ، ما ينمّ جيـداً على التجديدات التي جاءت تعبيراً عن حاجات الليتورجيا الجديدة والتي تمهد السبيل مباشرة ، للهندسة الرومانية . ان انتشار عادة تكريم دخائر القديسين ادى الى الحاق البزيليكا من الطراز القديم ، والتي نرى منها وجهاً في كل من الشرق والغرب ، بمبان جديدة لاستعمال الزوار والحجاج ، اذ يقوم الى الامام ، حنيـّة بشكل مغارة حيث نرى جدث القديس في صحن من صحون الكنيسة ، يعلوه معبد بشكل محدّب ، وفي الداخل اروقة ، قليلة الارتفاع يعلوهـا منصّات ، وكنيسة فرعية يعلوها برج من كل جانب . والشيء الجدير بالملاحظات هنا ، هو هذا التغيير الاساسي الفاصل ، اذ نرى الانشاءات الفرعية ، الضخمة تحل فيهـا الاعمدة المتخذة من الحجارة ، محل الاعمدة الرخامية التي ساروا على استعمالها في البزيليكات ، كما حـل الخشب محل العقود .

وهذا الفن الكارولنجي يبلغ ذروته في تزويق الكتب والمخطوطات والتوشيات البديعة التي وُشّيت بهـا انواع الجلود المستعملة لتغليف الكتب ، وهو ازدهار يكاد يكون مفاجئاً ، لم يوطىء له العهد الميروفنجي السابق ، بشيء ، اذ ان زركشة الانجيل المعروف بانجيل غودسكال تمت قبل قدوم العلماء الاجانب الى بلاط شارلمان . وتجديد الليتورجيا لم يكن بعيداً عن هـذه الانشاءات بعد ان جرى تبني الليتورجيا الرومانية وتجديد نسخ الكتب المقدسة ، كل ذلـك تسبب عن إنشاء مدارس خاصة لتحلية المخطوطات وزركشتها بالعـاج ، كمدرسة سان دنيس وتورس ، ومتز ، وهوتفلر ، وكوربي ، واكس لاشابيل ، وقد اطلعت هذه الورش او المعامـل

الفنية كبار الفنانين الذين بعد ان استوحوا الصور والرسوم البشرية المرسومة على الافاريز ، كما هي الحال في منـارة اوكسير ، والنقوش الظاهرة على بعض الاقمشة المستوردة من الشرق ، وحفر المصنوعات الحديدية في منطقة الموزيل ، طلعت علينا بروائع فنيـة ، كتوراة كنيـسة القديس بولس خارج الاسوار ، وكتاب القداس المعروف بكتاب دروغون، ومزامير اوترخت، او توراة شارل الأصلع .

وحدة الحضارة في الغرب

هذا هو الوضع الذي بدت عليه الحضارة في الغرب ، بين ٧٨٠ – ٨٣٠ ، في هذه البلدان الواقعة بين نهري اللوار والرين ، وهو وضع اخـذت تتأثر به وتتفاعل معه جميع اجزاء الامبراطورية الكارولنجية . واذ كانت هـذه الامبراطورية تتجه ، مشبعة الى حد بعيد ، بالعوامـل والمؤثرات الدينية ، وكان جميع الذين يقومون بالتوجيه الروحي فيهـا من رجال الدين ، فليس من عجب ان تتجه افكارهم ، في الدرجة الاولى ، اتجاهاً مسيحياً وان يروا ، كما رأى اغوبارد الليوني ، بان كل النزعات الخاصة يجب ان تنصّب وتنسكب في وحدة شاملة . ولما كانت الولايات التي تشع منها هذه الحضارة هي محور هذه الدولة التي تغطي رقعتها الجغرافية جميع ارجاء الغرب تقريباً ، وملك الفرنج هو المالك للقسم الاكبر من العقارات الواقعة الى الشمال من غاليا ، ورأس الطبقة الارستوقراطية في كل من أوسترازيا ونوستريا ، فقد اصبح الامبراطور الروماني ، والرائد المشارك للبابا ، ولجميع المؤمنين بالسيد المسيح . وقد مهد لانتشار هـذه الحضارة الكارولنجية ، العلاقات التي شدت الفكر ورجال الدين بعضاً الى بعض ، شداً محكماً عن طريق الزيارات والرسائل التي يتبادلونهـا فيما بينهم ، والكتب التي يتعاورونها ، كما ربطت بينها هذه الاجتماعات الدورية التي تعقدهـا الارستوقراطية العلمانية بمناسبة الحملات والسرايا العسكرية، والاصل الواحد المشترك الذي يجمع بين مختلف القائمين باعمال الادارة : من اساقفة ورهبان وكونتية ، الذين ، بالرغم من توزعهم في جميع انحاء الامبراطورية ، يمودون تقريباً للاسرة الكبيرة الواحدة ، اذ قضوا معاً في البلاط الواحد ، حداثة واحدة مشتركة . صحيح ان الامبراطورية ليست الغرب كله او بكامله ، وانه لا يزال في بعض الاقاليم ، تقاليد ونزعات محلية قومية . ولهـذا لم يكن الاشعاع الحضاري في هذه المدنية الكارولنجية ، على نسبة واحـدة ، وبمعدل واحـد في جميع انحاء هـذه المناطق على السواء .

عرفت الاقطار الواقعة عبر نهر الرين ، من نهر الإلب حتى جبال الألب ، كيف تنصهر في بوتقة واحدة . فقد قام الكارولنجيون بتحضير جرمانيا في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب الفتح ليخضعوا هذه الاقطار لنفوذهم . فبتعيينهم الكونتية في هذه المقاطعات ، وبانشاء الولايات العسكرية على الحدود ، أو "لـرا" ، من حيث يدرون او لا يدرون، الاقوام المتأرجحة في تحالفها اتجاهها المرسوم وأطـُرها السياسية . ان دمج هـذه الولايات في صلب المملكة الفرنجيـة ساعد كثيراً على تشجيع النشاط التجاري على اختلاف وجوهه ، وعلى تمهيد السبل لظهور التجمعات

المدينة الكبرى . ولم يلبث النظام العقاري ان عم الريف وانتشر فيه ، دون ان يبلغ ، مع ذلك ، من التوسع والامتداد ، ما بلغه في القسم الشمالي من غاليا ، اذ بقيت الملكية الصغيرة الحرة معمولاً بها بكثرة ، ورائجة كل الرواج في الولايات الدائرية : في الفريز ، وسكسونيا والمقاطعات الألبية الاخرى . وقد قام المبشرون بنشر الدين والثقافة معاً ، بعد ان أقاموا لها مراكز اشعاع واحدة تتمثل ، خير تمثيل ، في هذه الديارات البندكتية ، امثال دير راينخو ، وسان غال وفولدا ، وكو في (كوربي الجديدة). ولما كان من الواجب لهذه الثقافة اللاتينية ان يتلقفها رهبان ورجال الاكليروس من اصل جرماني ، فقد ساعدت ، عن طريق المعاجم التي أدّت الى وضعها وتصنيفها ، الى تثبيت بعض اللهجات الالمانية القومية . وهذه الثقافة التي تغلغلت في محيط لا يخشى ان يزاحمها فيه منافس او مزاحم لغوي يفسد عليها نقاء الاصل والمصدر ، لم تأتِ الحضارة الكارولنجية ، في أي مكان ، بأنقى منها في المانيا ، وقيّض لها ان تستمرَ في تطورها الصاعد مدة اطول لم يتم مثلها لأي منطقة اخرى .

وعلى عكس ذلك ، فقد اصطدمت العوامل والمؤثرات الفرنجية ، في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من مدينة تورس وشالون على الصون ، وجبال الألب ، بتقاليد وطنية متأصلة في نفوس اصحابها ، لا تلين ولا تني ، في قليل او كثير . فالجنوب من غاليا كان يؤلف محيطاً شديد التماسك والتضامّ ، صعب النفاذ اليه : فلا النظام العقاري المعمول به على نطاق واسع في غير هذه المقاطعات ، ولا أعراف التبعية وتقاليدها تأصلت فيها او أعرقت في ارضها . فالنظم والمظاهر الثقافية المعمول بها في هذه الاقاليم عانت كثيراً ، وأصابها المزيد من الاذى ، خلال هذه الحملات والغزوات العسكرية التي تعرضت لها تلك الاقطار خلال النصف الاول من القرن الثامن ، والمقاومة العنيفة التي قام بها السكان هناك ، حالت دون تجددها عن طريق المؤثرات الفرنجية المتسربة اليها من الشمال . وهكذا نرى مقاطعتي الاكويتين وبروفانس تؤلفان ، في عهد شارلمان ولويس الورِع ، فراغاً في خريطة الغرب الثقافية ، في هذا العصر . وعلى عكس ذلك ، فبقايا الحضارة القديمة في ايطاليا اللمباردية وفي المقاطعات التابعة للكرسي الرسولي ، دب اليها النشاط وفاضت بالحياة عندما نعمت بالأمن والسلام الكارولنجي ؛ والحركة التجارية مع الشرق شقت لها مسالك جديدة عبر شبه الجزيرة الايطالية ، بعد ان تعطلت او تمهلت الاتصالات والمقايضات التجارية في البحر التيريني ، فعادت هذه الحركة بالنشاط على التقاليد المدنية ، وعادت الحياة تزخر من جديد في هذه المدن العريقة ، ولا سيا تلك التي وقعت منها في سهل البو ، أمثال ميلانو ، وكومّارشيو ، وفراره . وقامت في نفس هذه المدن ثقافة لم تنقطع وشائجها بالثقافة الهيلينية لانها بنجى عن السيطرة الكنسية . امــا في الفن فتعود الصور والاشكال الرومانية للظهور بشيء من الجمود ، تحت تأثير العوامل البيزنطية ، سواء في محفورات العاج اللمباردية الاصل أو في الصفائح الذهبية التي تغطي كنيسة القديس امبروسيوس في ميلانو ، أو في الفسيفساء الرومانية الموجودة في كنيسة القديسة براكسيدس ، أو في تماثيل سيفيدال ده فريول

المصنوعة من الملك. وولاية اسبانيا العسكرية هي في الوضع ذاته: فالروح العسكرية الفرنجية قليلة الاثر في هذه المقاطعة التي يأهلها لاجئون من الفيزيغوط ، وهي نقطة عبور ومركز تجـاري كثير الاتصال بالعالم الاسلامي .

وهنالك اخيراً ، بعض المقاطعات في العـالم المسيحي اللاتيني التي لا تخضع للامبراطورية ، كالممالك الصغيرة التي قامت الى الشمال من اسبانيا او في الجزر البريطانية ، اذ لم تخـلُ النهضة الكارولنجية من اثر على مملكة أستوريا حيث سيطر التداول بالنظام النقدي الفرنجي ، وحيث اخذ تدريس الآداب اللاتينية يزدهر وفقاً للمناهج ذاتها ، وحيث راجت بعض نماذج الهندسة المعمارية المعمول بها في الشمال . اما الجزر فبقيت في شبه عزلة . فانكلترا وحدها لها حساب ، اذ ان المقاطعات الكلتية الاخرى التي دبّ اليها الانحطاط منذ عهد بعيد، أي منذ ان تعرضت، في اواخر القرن الثامن ، لغزوات السكندينافيين ، هي في حالة تضعضع كلي . ومع ان البلدان الانكلوسكسونية لم تقع مباشرة تحت تأثير نفوذ الدولة الكارولنجية الا في ما يتصل بنظامها النقدي، فالفرق يكاد لا يذكر ، في الوضع الحضاري ، بين الطرف الواحد والآخر من المانش . فقد اخذت حضارة القارة ، من انكلترا ، بعض العناصر والمؤثرات الاساسية ، من بينها النظم الكنسية والتعليمية ، فاذا كانت الخطوات التي قطعتها النهضة الفكرية في الدولة الفرنجية اقل بروزاً من العنصر الذي استمدته من ثقافة الجزيرة البريطانية ،فالمدرسة الاسقفية في يورك، لا تقل شأناً ، حتى بعد ان غادرها الكوينس ، عما لمدارس غاليا الشمالية من سطوع وتألق ، ولا شك في انه تمّ في خلال القرن الثامن، وضع الرائعة الشعرية باللهجة القومية، المعروفة باسم *Beowulf* . ومن جهة اخرى ، فكلا الطرفين ، مشبعان بالتقاليد الجرمانية الواحدة . ومع ان النظـام القضائي المعمول به في المجتمع الانكلوسكسوني ، والنظام الآخر الجاري الاخذ به ، في بلدان الفرنج ، ينمّان عن كثير من مواطن القربى وفيها الكثير من الوشائج الوثقى ، فالاول هو ، مع ذلك ، اكثر تحرراً لان روابط التبعية فيه ليست من التماسك والترابط في نظامها ما هي عليه في الثانية ، واوضاع الأطر التي يتم فيها استثمار الملكية العقارية ليست محكمة الحلقات . فانكلترا افادت كثيراً ، كما افادت غاليـا الشمالية ، من ازدياد النشاط في حركة المبادلات والمقايضات التجارية . فتجارها يصدّرون المنسوجات الصوفية للاقطار المجاورة لبحر الشمال ، ويبيعون من التجار المسلمين القصدير والعبيـد . كذلك أفادت انكلترا ، بين القرنين السابع والتاسع ، من الناحية الادبية ، اذ ان ملكها « أوفّا » تعامل مع شارلمان ، كالند للنـد . وهكذا كانت حضارة الغرب المسيحي ، حوالي عام ٨٠٠ ، لاول مرة منذ انطلاق موجات الغزوات الجرمانية الكبرى ، ذات تأثير بيّن ، ومتجانسة كل التجانس ، بالرغم من الفوارق المحلية العارضة .

انقسام الامبراطورية الكارولنجية

ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع ، اصيبت هذه الوحدة ، وهذا الزخم الذي جاشت به المدنية الكارولنجية بصدمتين عنيفتين ، متلازمتين الواحدة مع الاخرى : من جهة : انحطاط الملكية الكارولنجية التي كانت

الركن الركين لهذا البيان السياسي الذي قام في الغرب، ومن جهة اخرى، الغزوات التي تعرضت لها هذه المملكة في وقت واحد من الجنوب والشمال والشرق .

ففي عهد بابين وشارلمان ، وتحت تأثير الانصهار التدريجي للسلطات الروحية والزمنية ، دخل على النظام الملكي الفرنجي عاملان متضادان : الاول عامل بدائي قديم ، يقوم على مبدأ عسكري ، اساسه العنف والحرب والسلب ، وبفضل هــذا العامل ، امكن السيطرة على ارستوقراطية الفرنج . اما الثاني فمبدأ ديني اصلاً ، وعنصر جديد رأى ان يقيم السلطة ويُقعِد سيادتهـا على مراسم وانظمة طقسية ، ليتورجية ، اساسها مراسم التكريس الرسمي والقسم الاحتفالي تصبح معها مسؤولية الملك الاولى والكبرى ، المحافظة على السلام وتأمين العدالة بين الناس ، وتؤمن له مناصرة النخبة الممتازة من رجال الفكر واهــل الرأي والثقافة بين رجال الكنيسة . وهــذا التوازن الذي قام واستمر ردحاً من الدهر ، كان واهي الاساس اصلاً ، فلم يمتد ان اختل واضطرب . فمنذ ان تولى لويس الورع مقاليــد الحكم ، افضى تطور النهضة الادبية والفكرية الى المزيد من نفوذ رجــال الكنيسة ، فراحوا يُقنِعون الامبراطور بالتزام حدود واجباته في المحافظة على السلام ، والسهر على اشاعة العدل بين الناس

وهكذا بدا الامبراطور وديعاً ، مسالماً ، وانقطع عن ترأس الحملات والتجريدات العسكرية وقيادتها الى مــا وراء الحدود . ومضى المبشرون في دعوتهم للمسيحية والتبشير بتعاليمها ، يحاولون اقناع رؤساء القبائل الوثنية باعتناقهم الدين الجديد . وكان من جراء هــذا الموقف والوضع الموصوفين ان فوّت على الملك فرص النهب والسلب التي كانت تتيح لها الغزوات والحملات العسكرية ، اي ان ذلك حرمه من الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكّنه من بسط عوارفه ، والجود بانعاماته على رعاياه ، دون ان يمسّ هــذا الكرم والسخاء بشيء ثروته العقارية . ولذا لم تلبث ثروة الكارولنجيين العقارية الضخمة ان ذابت وتطايرت بدداً .

وحاول الملــك ان يبرز للناس ، متصفاً بالعدل والعدالة ، وان يتم واجباته بكل دقة ويقوم بالمسؤوليات التي تولاها في حفلة التكريس الرسمية ، وهذه الواجبات التي فرضتها عليه روابط التبَعِيَّة التي تشدّه الى النبلاء . والحال ان حفلة التكريس ، وهذه التبعية ، اللتان زادتا كثيراً من نفوذ الملك الكارولنجي الاول ، ورفعت عالياً من شأنه ، وزادته مهابة ووقاراً ، اخفتا ضمناً ، تحديداً ضيقاً لسلطة الملك .

فحفلة التكريس الرسمية التي كانت تتم بحضور رجال الاكليروس الاعلين ، وتحت اشرافهم ونفوذهم ، لم تلبث ان صحبها وعد رسمي يقطعه الممسوح باسم الرب ، على نفسه ، بان يضع حدوداً لسلطته وسيادته . فمنذ عام ٨٤٣ ، راح الامبراطور شارل الاصلع ، يتعهد في كولين ، وهو بحضور كبــار رجال الدين والدنيا في مملكته ، ويقسم مغلظاً ، انه سيتصرف وفقاً « لمقتضيات العقل والعدالة » ، وان يعطي لكل واحد : « مهما كانت الطبقة التي ينتمي اليها ،

والوظيفة التي يشغلها ، والمرتبة التي يحتلها ، الحق بالمحافظة على القانون » . اما الترابط القائم

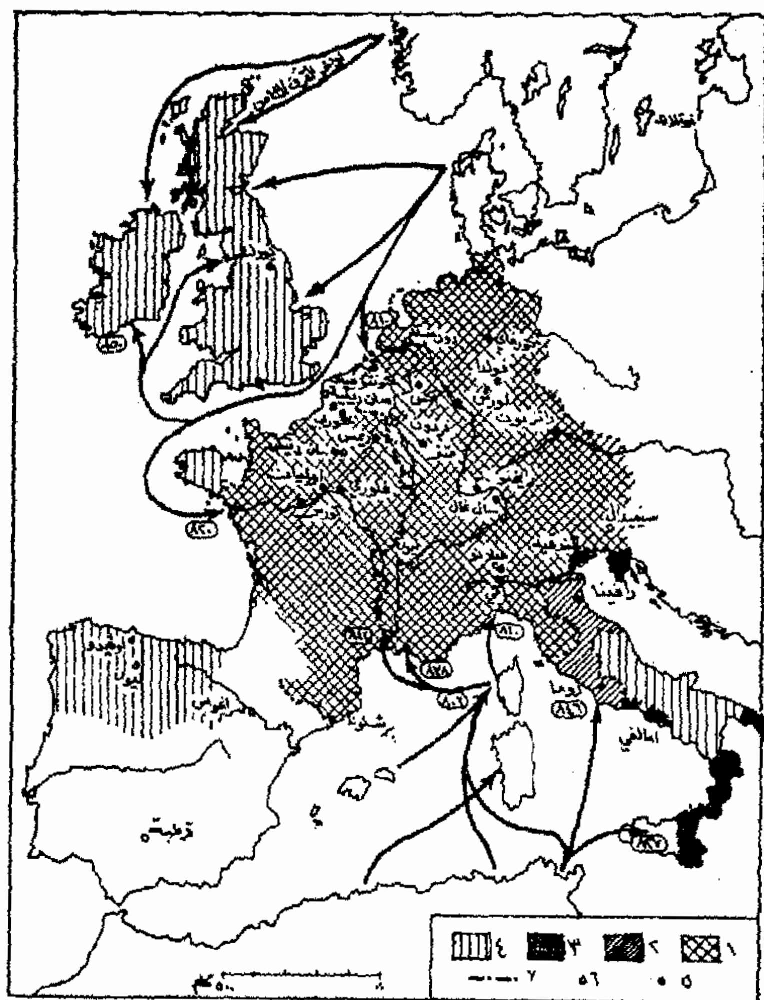

الشكل (رقم ٦) - أوروبا الغربية في القسم الاول من القرن التاسع
١ - الامبراطورية الكارولنجية ٢ - الدولة البابوية ٣ - الممتلكات البيزنطية ٤ - بلاد مسيحية اخرى
٥ - مراكز الاشعاع الثقافي الرئيسية ٦ - المحطات التجارية الكبرى ٧ - الحدود الشرقية « لفرنسا الغربية » عند انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، عام ٨٤٣ .

على التبعية ، فلم يكن يقيم سلطة غير مشروطة من قبل السيد الرئيس ، على التابع المرؤوس ، بل على عكس ذلك ، كان يلزم السيد ان يهب لمساعدة تابعه والدفاع عنه ، اذ كان من حقه ان

لا يتوقع اي ضرّ او أذى من سيده . وهكذا ، فالملك كان يتردد في استرجاع الامتيازات والالقاب الشرفية التي كان يُنعم بها على رعاياه ، عندما تحين وفاتهم ، او ان يعاقب ، بالمصادرة لهذه الانعامات ، مَن من رعاياه يتهاون او يقبل بما يلطخ هذا الشرف او يشينه . وهكذا كان الملك يفوّت عليه فرصة تجديد الموظفين كلما سنحت له ، من وقت الى آخر ، وان يزيدهم شعوراً بقيمة الولاء له عن طريق اعطائهم درساً في قصاص مثالي يكون عبرة لمعتبر . وهكذا فالرابطة التي قامت على الولاء اخذت تتحلل شيئاً فشيئاً ، ولم تعد لتؤدي ما يرجى لها من خدمات ومنافع . وهكذا بدا في الثلث الثاني من القرن التاسع ، ان نظام التبعية الذي أحكم وضعه رؤساء الدولة الكارولنجية الأول ، بات اعجز من ان يتيح ، إخضاع عظماء هذه الدولة لسلطان ملك متردد ، كثير الوساوس والهواجس وهو لم يعد عندهم ، بقائد حرب يقود جيشه للنصر ، ولا بالواهب الجوّاد الذي يوزع عوارفه ، وأعطياته بسخاء . اما في اوساط الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تتأثر بعيداً بهذه الافكار والنظريات الكنسية ، فقد عرف هذا النظام ان يَبقي محكة ، الروابط التي شدّت ممثلي الأسر الارستوقراطية الدنيا الى رؤساء الأسر الاستوقراطية العليا . وعلى هذا الاساس تألفت تدريجيا ، هيآت سياسية صغيرة ، جاشت نفسها بالنزوع للمزيد من الاستقلال ، التي ، بالرغم مما تمّ لها من شأن محدود ، وجدت نفسها اكثر استعداداً للانسجام مع البنيان الاقتصادي الذي لم يترك مجالاً واسعاً للعلاقات ، من بعد ، ومع البنيان الاجتماعي الذي كان يؤمن السيطرة والسيادة لكبار الملاكين من اصحاب العقارات الشاسعة . فالسلطة الملكية ، رأت نفسها مشلولة ، لا تبدي ولا تعيد ، امام الاعتبارات الادبية المشدودة اليها ، وامام مشاركة المصف الاسقفي ومراقبته ، فاخذت بالانقسام على نفسها تتوازعها اجزاء مملكة الفرنج ، وتتجاذب اطرافها وصلاحياتها ، كل لنفسه .

والذي عجل في هذا الانقسام ، الاختلافات التي مزقت الاسرة الكارولنجية ، عندما رأى لويس الوَرِع ، بعد ان طعن في السن وشاخ ، نفسه تتنازعها الرغبة في الحفاظ على وحدة الامبراطورية والميل الى الاخذ بالتقاليد العائلية القديمة التي كانت توحي بان يوزع امبراطوريته على اولاده بالتساوي . نجم عن هذا الوضع عراك عنيف بين الامبراطور الوالد واولاده ، زاده احتداما آراء رجال الاكليروس الذين أفتوا بضرورة المحافظة على سلامة الامبراطورية . ثم اشتدت عنفاً بعد موت الاب ، بين الاخوة المتنافسين . وقد راح كل من هؤلاء ينثر الوعود ويُغدق الأعطيات، جذباً منه للانصار من ابناء الارستوقراطية ، الذين راحوا بدورهم يبيعون ولاءهم بالمزاد ، يرسو على من يدفع أعلى الاثمان واسناها، مما زادهم ثراءً وغنى. واخيراً تم اقتسام اوروبا الغربية فتوزعت الى ممالك متباينة ، وذلك وفقاً لمعاهدة فردان ، المعقودة عام ٨٤٣ ، اما الحدود الفاصلة بين هذه الممالك فخطوط الطول ، بحيث دخل في هذه الممالك واحدة من هذه الدويلات التي احترم شارلمان استقلالها ، الا وهي الاكويتين ، وبافاريا وايطاليا ، يضاف اليها جزء متساوٍ من الولايات التي تألفت منها مملكة الفرنج . وهكذا أطلّت علينا مملكة فرنسا

أو فرانكيا ، في الغرب ، وقفت حدودها الشرقية عند نهر الاسكو والموز والصون وجبال السيفين ؛ ومملكة فرنج الشرق الواقعة ما وراء الرين وجبال الألب ، ودولة ثالثة تتوسطهما امتدت من البحر الشمالي الى ايطاليا في الجنوب ، فضمت المدينتين الامبراطوريتين : روما واكس لاشابيل ، وهي الحصة التي عادت للامبراطور ، هذه الرتبة الشرفية التي لم تكن تؤمن لحاملها سوى صدارة اسمية لا غير . أما المملكة الشرقية حيث النظم والمؤسسات الملكية كانت احدث عهداً ، وأعلق في النفوس ، فقد عرفت السلطة الملكية فيها ان تحافظ ، لمدة اطول ، على تماسكها ، مع انه اخذت تبرز فيها أكثر فأكثر ، نزعات اقليمية هي تعبير عن نوازع الشعوب الجرمانية الدفينة . ومقابل ذلك ، رأينا المملكة الوسطى تتناثر اشلاؤها الغربية حيث اخذ ممثلو السلطة الملكية المحليون ، من مركيز ودوق ، الذين كانوا يتولون إيالات حربية كبيرة ، ينظرون اليها كأنها اقطاعات عائلية ، دون ان يقطعوا أو ان يصرموا ، على المكشوف ، روابط التبعية المتخلخلة التي كانت تشدهم الى الملك ، فاستطاعوا ان يتحرروا ، بسرعة ، من كل وصاية أو ولاية ، وان ينشئوا لهم امارات وراثية . وقد راح بعضهم ، بعد ان اصبح التكريس ، وليس الدم ، هو الذي يولي الشرعية ، يغتنمون وضع الانحطاط الطبيعي الذي آل اليه حفدة احفاد شارلمان ، وانتزعوا منهم ، بالقوة ، الرتبة الملكية عن طريق انتخابهم من قبل طبقة الاشراف في الامارة .

ولم يخلُ اقتسام الامبراطورية وتناثرها ، كما رأينا ، من أثر سيء على وحدة الكنيسة نفسها . فقد حاول رؤساء الاساقفة ، في الغرب ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، ناهجين في ذلك نهج المركزة ، بسط سيطرتهم على المطارنة الذين تحت ولايتهم ، كما حاولوا التحرر او التخفيف من مراقبة الكرسي الرسولي واشرافه ، كما فعل مثلاً ، هنكمار ، رئيس أساقفة ريمس (٨٤٥-٨٨٢) وقد رد الكرسي الرسولي ، بالطبع ، على هذه المحاولة ، متذرعاً بمجموعة من القوانين ، تعرف في التاريخ باسم *Fausses Décrétales* ، مع انه لم يشك احد في صحتها . وقد اغتنم البابا نيقولاوس الاول فقدان هيبة الامبراطور ، وراح يدعي الأولوية الادبية لخليفة القديس بطرس ، ويعلن بالتالي ، انه القائد الوحيد لجماعة المسيحيين ، كما ادعى لنفسه الحق بمحاكمة الملوك والجزم قطعاً بقضاياهم . ولكن هذا الحبر الروماني ، رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، واسقف روما ، هو ابداً عرضة لاضطرابات تثيرها في وجهه الارستوقراطية الرومانية والشعب في روما ، وهو بأشد الحاجة لحماية فعّالة من قبل الامبراطور . وهكذا في مطلع القرن العاشر ، والامبراطورية ليست بعد ، سوى لقب هزيل يتنافس على حمله عظماء سهول لمبرديا ، رأى الكرسي الرسولي نفسه ينحدر الى أدنى دركات الانحطاط ، دون ان يفقد ، مع ذلك ، سلطته الروحية تماماً ، على الكنيسة في الغرب .

وهكذا ، في الوقت الذي لم تستطع فيه مملكة مرسيا الاحتفاظ بسيادتها في انكلترا ، جعل

التصدع الذي اصيبت به الدولة الكارولنجية في القرن التاسع ، اوروبا كلها هدفاً لاطماع الغزاة يحاولون نهشها وقضمها من جميع الجهات .

العرب والنورمنديون والمجر

تعرضت المسيحية في الغرب ، للهجوم من كل الجهات : فقد هاجمها المسلمون في الجنوب ، فاستطاعت جيوش الفرنج ، في القرن الثامن ان تصد هجوم العرب وان تحملهم على التراجع والنكوص على أعقابهم الى ما وراء جبال البرانيس . فقد كانت الولاية الواقعة على الحدود الاسبانيـة ، وهي ولاية عسكرية ، في الاساس ، درعاً قوياً تولى أمر الدفاع عنها اسرة من القادة العسكريين الاشداء ، وقفت سداً منيعاً ضد توسع العرب والمسلمين ، من هذه الناحية . غير ان البحر كان حراً والبلاد الواقعة على سيفه مكشوفة . فمن اسبانيا الى المغرب، استطاع قراصنة المسلمين ان يحتلوا الجزر الواقعة الى الغرب من البحر الابيض المتوسط ، كجزر البليار وكورسكا منذ عام ٨٠٦ ، ثم صقلية التي تم فتحها تدريجياً بين٨٢٧ ـ ٩٠٢؛ومن هذه الفتوحات المتقدمة اخذوا يرسلون سراياهم لغزو السواحل البحرية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين ، بقصد السلب والنهب . وهكذا تعرضت لغزواتهم المتعاقبة مدينة نيس (٨١٠) ومرسيليا (٨٣٨) ، وآرل (٨٤٢) وروما نفسها (٨٤٦) ، كما ان مقاطعات بويل وكمبانيا تعرضتا مراراً لهذه المغازي . وفي السنوات الاخيرة من القرن التاسع ، أنشأ فريق من المسلمين ، في جبال المورس، الى الجنوب من الالب، قاعدة لهم، تحصنوا فيها ، واخذوا يتسللون منها الى كل جهات الألب ، قاطعين بذلك طرق المواصلات ، بين غاليا وايطاليا ، فارضين الرسوم الباهظة على التجار ووفود الحجاج ، مدة ثلاثة اجيال .

ومن البحر ايضاً جاء الغزاة يطرقون ابواب غاليا من الشمال ويهزونها بعنف . فالقبائل الجرمانية المستوطنة حول الاقطار السكندينافيـة ، كالنرويج والدانيمارك ، كانت بلغت شأواً بعيداً بفن الملاحة ، واستطاعت، خلال القرنين السابع والثامن، ان تحسن كثيراً من بناء السفن التي تستعملها ، وهي ، على الغالب ، قوارب لا ظهر لها ، متوسطة الحجم ، تسع الواحدة منها من ٤٠ الى ١٠٠ رجل، يمكن استخدامها في الملاحة النهرية ومجاري الانهر الخفيفة المياه . وبفضل ما كان عليه هذا الجيل من تقدم فني وجرأة واقـدام ، راح هؤلاء الاقوام الذين اصطلح الغرب على تسميتهم باسم النورمان او النورمنديين (أي رجال الشمال) يهاجمون الامبراطورية مدفوعين الى ذلك بعوامل عديدة . من ذلك مثلاً ، الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية ، وازدياد السكان في سكندينافيا ، الامر الذي حدا بهم للبحث عن موارد جديدة للعيش . وقد انطلق النروجيون افواجاً صغيرة ، يبحثون لهم عن اراض جديدة يعمّرونها . وهكذا لم يلبثوا ان احتلوا، دون ان يحدث احتلالهم أي دويّ او صدى له في الخارج، جزر شتلاند وجزر الاوركايد وارخبيل هبريدس ، وراحوا ، منذ عام ٨٣٤ يحاولون ، من سواحل لانكشير ، الاستيلاء على ارلندا واستباحتها ، بينما استطاعوا ، في أواخر القرن التاسع ، ان يحتلوا اسكتلاندا نفسها . اما قبائل الدانيمارك فقامت بسلسلة من الغزوات الجريئة اشتركت بها فرق أكبر واوفر عدداً

يتولى قيادتها زعماء من الشعب .

وهذا الايغال يتم هذه المرة ليس على ايدي مزارعين او صيادين، بل على ايدي تجار قراصنة، تعاطوا ، منذ عهد بعيد ، الاتجار مع التجار المسيحيين في البحر الشمالي، وهم يعرفون جيداً ما عليه سكان مناطقه المتاخمة ، من غنىً وازدهار ، في شمالي غاليا او في المقاطعات الانكلوسكسونية فكلما أنسوا وجود حامية بوليسية تحافظ على الامن ، في المرافىء التي كانوا يأتونها ، اقتصرت معاملاتهم على تأمين الربح الحلال من المقايضات التجارية ، التي يقومون بها . الا انهم عندما كانوا يأنسون مكنةً للضعف او مقاومة خفيفة ، كانوا يتخلون عن التجارة فيقبضون بالقوة والبطش ، على ما في الموانىء التي يؤمونها ، والمدن التي يهبطونها ، من ثروة ومتاع ، ويأخذون السكان عبيداً وارقاء ، ويستولون على ما تقع عليه ايديهم من مال وفضة ، ويوغلون في داخل البلاد بحثاً عن مغانم جديدة . فقد اقتصرت غزواتهم ، في بادىء الامر ، على سواحل الفريز ، منذ عام ٨١٠ ، وسواحل انكلترا والمنطقة الواقعة عند مصب نهر السين ، ثم تحولوا من المانش ، فنهبوا نوارموتيه ، عام ٨٢٠ ، وسواحل التافار ، عام ٨٥٩ ، واخيراً داروا حول شبه الجزيرة الايبيرية ، فدخلوا البحر المتوسط ، واذ لم يبق شيء في المناطق الساحلية توغلوا في الداخل على متن سفنهم ، ثم تراهم يتخلون عنها ويتحولون فرساناً . وليس ما يمثل تغلغلهم مثل قصة جلاء رهبان دين سان فيليبرت ، الذين غادروا ديرهم في نوارموتيه ، قبل عام ٨١٩ ، وراحوا يبحثون عبثاً لهم عن ملاذ يلجأون اليه ، الى ان استقر بهم المطاف في بلدة تورنوس ، على نهر الصون ، عام ٨٧٥ . ومنذ منتصف القرن التاسع اخذت هذه الفرق الدانماركية تستقر في المناطق التي يغزونها ويستبيحونها وينشئون فيها مستعمرات لهم بعد ان استخدموها قواعد مؤقتة يقضون فيها فصل الشتاء . وهكذا ، فقد انشئت دولة سكندينافية شملت القسم الشمالي الشرقي من انكلترا، قامت حول يورك. وفي سنة ٩١١، انتزع النورمنديون ، من ملك فرنسا ، الاعتراف رسمياً باحتلالهم المنطقة الواقعة عند مصب نهر السين واقامتهم فيها نهائياً ، فعرفت باسمهم « نورمنديا » .

وبعد ان استُبيحت اوروبا ونُهبت على مثل هذا النحو ، تعرضت ، في النصف الاول من القرن العاشر ، لغزو جديد ، قام به فرسان جاؤوا من بوادي آسيا ، هم الهنغاريون أو المجر . فقد كان استقر بهم المطاف في سهول بانونيا . ومن هناك ، قاموا ، قبل عام ٩٠٦ ، بغزوات خاطفة ، بقصد النهب ، باتجاه المانيا الجنوبية ، ومنها يمموا شطر اللورين ولمبارديا ووادي الرون، وبلغوا مقاطعة بورغونيا ، ومقاطعة برّي ، عام ٩٣٥، وروما عام ٩٣٧، والأكويتين، عام ٩٥١ ، وهكذا لم تسلم اية مقاطعة في الغرب من ويلات الغزو .

نتائج الغزو الجديدة

يدهش المرء عندما يفكر بهذا النجاح البعيد تصيبه غزوات القرصنة والنهب والسلب . فالمسيحية اللاتينية لم تكن معبأة لحرب دفاعية . فقد قاد ملوكها حتى الآن ، هم انفسهم ، حملات دائرية ، وجيش الفرنج الذي كان بطيئاً في تحركاته

الحشد والتجمع ، كان مكيفاً لمثل هذه التجريدات العسكرية توجه ضد عدد معين يمكن تحديد موعد الهجوم عليه مسبقاً ، قبل المباشرة بالهجوم بكثير ، وكان دفاعه يرتكز على سلسلة من الحصون ، القلاع تقوم فيها حاميات بعدد واف تستطيع ، كما هي الحال في كتلونيا ومصب نهر الالب ، الدفاع عن حدود الامبراطورية ضد عدو طارىء يهاجم بوسائل واساليب شبيهة كل الشبه ، بالاساليب والوسائل التي كانت تحت تصرفه . الا ان هذه الترتيبات والتجهيزات برهنت عن عجز تام في مواجهتها غزوات طارئة ، غير متوقعة ، تتجه ، بالاحرى ، ضد السواحل البحرية التي اهمل تحصينها لعدم توقع الهجوم عليها ، أضف الى ذلك عنصر المفاجأة ، وتأثير الفشل الذي لحق بالمدافعين في الاصطدامات الاولى ، فثارت فيهم عقدة نفسية وشعوراً بالعجز فت" من عضدهم وزادهم ضعفاً واهناً . لهذه الاسباب مجتمعة ، وقعت اوروبا ، خلال قرن كامل ، فريسة سهلة المنال ، وتألب عليها من الويلات والذل والهوان ما كان له التأثير السيء في المناطق الواقعة الى الغرب حيث كانت الحدود البحرية مكشوفة في كل من الجزر البريطانية ومملكة الفرنج .

فقد ساعدت هذه الغزوات ، على هلهلة النظم وتفسخ المؤسسات الملكية وانتقصت كثيراً من هيبة الملوك وخفضت من شوكتهم ، بعد ان عجز الجيش عن ردّ غائلة هذه الغزوات ، فحاولوا ، منذ عام ٨٤٥ ، الحد من اعمال النهب ، في غاليا وانكلترا ، عن طريق شراء سلامة ممالكهم بتنظيم جباية خاصة ودفع غرامة سنوية للنورمانديين، وهو حل ليس فيه ما يشرفهم ، كما انه ينفّر الشعب ولا يعطي نتائج يمكن الاطمئنان اليها . ومن جهة اخرى ، ان تفاقم اضطراب حبل الامن والشعور بعدم الاطمئنان اضطر الدولة لتوسيع نظام الولايات العسكرية (*Marches*) الى جميع اطراف المملكة والاكثار من القلاع والحصون، وعلى توزيع الجيش الملكي على نقاط معينة للقيام باعمال السهر على الامن ، وان يتخلّوا عن المبادرة في الاعمال العسكرية ، لممثليهم الاقليميين . وهكذا أعدّ الناس وتهيأت افكارهم لقبول فكرة توزيع سلطات القيادة .

وقد سببت هذه الغزوات خسائر مادية جسيمة للغاية . فقد نهب الغزاة اوروبا وسلبوها جانباً كبيراً مما لديها من مختزن المعادن الكريمة . واذ لم يحدث فقدان الجوهرات المذخورة في الاديار ، تأثيراً مباشراً على تداول النقد ، بين الناس وعلى الحركة التجارية ، فالامر جاء على عكس ذلك من هذه الفديات والغرامات التي كانت تفرض بانتظام على الممالك والمقاطعات ، اذ حرمت البلاد من كميات كبيرة من العملات المسكوكة. وقد قاست الارياف على الاخص ، كثيراً من هذه الغزوات، اذ ان سكان المدن كثيراً ما وجدوا لهم مأمناً وملاذاً ضمن الاسوار الحصينة التي ردّت عنهم هجوماً مفاجئاً . وهذا التطور الديموغرافي الذي لوحظ في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا ، في مطلع القرن التاسع ، توقف فجأة وانقطع بغتة فافتقرت اجزاء البلاد الاكثر تعرضاً لهذه المخاطر، من جراء ما تعرّض له الاهلون من اعمال القتل والمذابح، والخطف

والإجلاء ، والفرار ، ونقص المواد الغذائية ، فعادت الأرض بوراً ليس من يعنى بها .

كذلك لحق بالتراث الادبي والفكري الكثير من الاذى ، اذ ان الغزاة اخذوا يهاجمون على الاخص ، الديارات ، في ارلندا وانكلترا وشمالي مملكة الفرنج ، للنهب والسلب والخراب، بينما فر عدد كبير من الرهبان من الاديار الاخرى ، هرباً من الغضب المداهم ، حاملين معهم ذخائر القديسين وما خف حمله من الحلى والجوهرات والاواني الكريمة ، سعياً منهم وراء ملجأ يأمنون اليه ويطمئنون الى سكناه، وقد استهدفوا، بعد ان انقطعت اسباب العيش للصروف والظروف المريرة التي يخفيها الجلاء المفاجيء ، لمن عضتهم الاقدار بانياب حداد ، فتحللوا من فرائضهم الكهنوتية ، واستبيحت مكتباتهم ، وتفرقت محتوياتها من المخطوطات ايدي سبا ، واهملت الدروس ، وانقطعت كل عناية بها . وهكذا قضي على الحركة الفكرية التي كانت اخذت تزدهر في عهد الدولة الكارولنجية مع انهذه الحركة لم تتأثر كثيراً من جراء التقهقر الذي بدت بوادره مع انحطاط الدولة المذكورة . وقد انحدر المستوى الثقافي والحضاري بعد ان تغلغلت في البلاد وانسرحت فيها عوامل البربرية والهمجية والوثنيـــة ، وعمت الفوضى التي يحملها معه البؤس والشقاء ، ومثول الخطر الماحق باستمرار .

صحيح انها رجعة او حركة الى الوراء ، انما حركة محدودة ، موقوتة . أما انهـــا محدودة فلأن كل بلدان اوروبا الغربية لم تتضرّس بدرجة واحدة من الخراب والدمار ، الذي جرته هذه الموجة من الغزوات على الناس ، كما انها كانت قصيرة المدى ومرت بسرعة باستثناء تلك الـــتي تعرضت لها الجزر البريطانية ، وغاليا الشمالية ، ومقاطعة بروفانس ، تخللها فترات طويلة مـــن الهدوء والسلام، أمكن رتق الفتق واصلاح ما تعطل او اختل من شؤون الادارة والامن، ولأنه قام ، في كل مكان تقريباً ، ملاجيء وغابات ومدن حصينة وأديار امكن تسويرها وتحصينها بسرعة، حيث يمكن التخفي فيها والتواري وراءها، عند اول بادرة خطر ، ووضع أثمن الاشياء بأمن من عبث الغزاة . وأما انها حركة موقوتة ، فلأن الغزوات توقفت ، وقـد ألِف الناس ، في الغرب، شيئاً فشيئاً هذه الاساليب الحربية. فكلما ازدادات أعمال التحصينات حول الصروح والقصور ، قلّت ، بالتالي المخاطر التي تنطوي عليها هذه الغزوات ، كما عادت على القائمين بهـــا بكسب اقل . وفي الوقت ذاته ، وقعت في البلدان الاصلية التي خرجت منها هـذه الغزوات ، تغييرات جذرية خففت من شوكتها وكسرت من حدتها. فالمجر الرُحّل استقروا نهائياً في سهول هنغاريا حيث انقطعوا للفلاحة والزراعة . والسلطة الملكية ، اشتدمنها الساعد وقوي العَضُد في البلدان السكندينافية : في النروج ، في اخريات القرن التاسع، مع الملك هاوالد هارفغر ؛ وفي الدانيمارك ، خلال القرن العاشر ، مع الملكين غورم و « هارالد ذي السن الزرقاء » . وهكذا خفتّ وطأة الخطر الى ان توارى تماماً . وآخر مرة استهدفت بلاد الفرنج لخطر جلل ، كانت عندما تعرضت ، عام ٩٢٦ ، لغزو جيش لجب من الدانيماركيين ، والنصر الذي سجله ملـــك جرمانيا ، عام ٩٥٥ ، عند نهر الليخ ، فوضع حـــداً نهائياً لخطر المجر . وعندما سقط ، عام

٩٧٢، المعقل الذي اتخذ منه المسلمون قاعدة لهم في جبال *Maures* من اعمال مقاطعة بروفانس، امكن تطهير منطقة جبال الألب من هؤلاء القراصنة الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة ، مدة طويلة . وهكذا انقضى عهد الغزوات دونما رجعة لتبقى انكلترا تعاني وحدها ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ضغط قبائل النورويي ، بحيث اصبحت اوروبا البرية في مأمن من اي غزو اجنبي .

ومع هذا ، فالغزوات التي وقعت في القرنين التاسع والعاشر ، لم تحمل في ثناياها ، غير الخراب والدمار . فالاتصالات الجديدة التي ادت اليها ، ساعدت كثيراً على نشر المسيحية وتغلغلها بين هؤلاء الاقوام . هنالك عدد لا بأس به من الفيكنغ ، اقتبسوا مبادىء الديانة المسيحية ونقلوها معهم الى ارجاء سكنديناقيا حيث امتزجت بالعقائد الوثنية واختلطت بها . وهذه الفترة من « الايمان المختلط » مهدت السبيل نهائياً، لارتداد هؤلاء الاقوام، الى المسيحية ، بالجملة بعد ان لقوا تشجيعاً حاراً من قبل الملك هارالد ، ملك الدنمارك ، والملك « اولاف » ملك النرويج . وقد كان من اثر هذه الغزوات ان عادت بالنشاط على الحركة التجارية . فالانتقال من مجال القرصنة الى مجال التجارة حركة يكاد لا يشعر بها الانسان . والمخيمات الدائمة للغزاة النورمنديين ، كانت خلال فترة الحروب ، امكنة تقام فيها الاسواق التجارية والمعارض . والحركة التجارية، في البحر الشمالي، التي اصيبت بشيء من التأخر، خلال الهجومات الاولى العنيفة، لم تلبث ان عادت سيرتها الاولى من النشاط . واخيراً وليس آخراً ، شهدت بعض المقاطعات استيطان الفيكنغ واستقرارهم نهائياً في ربوعها ، بشتى الاشكال والاوضاع ، كصيادي اسماك ، وتجار متجولين بين ارلندا والسواحل البحرية الاخرى ، وبعض وحدات من المعمرين الزراعيين في الشمال الشرقي من انكلترا ، وظهور ارستوقراطية عسكرية ، سيطرت على سكان البلاد الاصليين ، عند مصب نهر السين . وهذه المقاطعة « نورمنديا » لم تمتم ان اصبحت من انشط المقاطعات التي عرفها الغرب ، تشهد الحركة الزاخرة التي قامت فيها ، على خصب التربة السكندينافية .

وهكذا بعد ان توقف تطور المدنية في الغرب ، من جراء الاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت هذه الغزوات ، لم تلبث الحضارة ان استأنفت سيرها وئيداً عندما عاد الامن الى نصابه والسلام الى محرابه . صحيح انه لم تعد الى اوروبا وحدتها ، ولكنها احتفظت بخير ما خلفه العصر الكارولنجي . وهذه البذور الطيبة التي هبطت في الارض في العهد الذي احاط بشارلمان وحفّ به لم تلبث ان أتت طلعاً شهياً، اختلف طعمه وتباين مذاقه باختلاف الاقطار المسيحية .

انكلترا السكسونية

قاست انكلترا من هذه الغزوات التي تحالفت عليها اهوالاً شداداً ، مدة طويلة . فأديارها التي كانت منائر أشعّت على القارة جمعاء ، أصبحت خراباً يباباً . ومدينة يورك ، مسقط ألكوينس ، اشهر علماء زمانه ، اصبحت ، بين ٨٦٧ — ٩٥٤ عاصمة مملكة سكنديناقية وثنية . ومع ذلك ، فالحضارة الانكلوسكسونية

عرفت ان تجتاز المحنة التي نزلت بها ، بسلام ، ولم تلبث ان نهضت بعد ان استجمعت قواها ولمت من شعثها . فاتخذت من مملكة وسكس ، اكثر ممالك الجزيرة الى الغرب ، قاعدة لها ، وعرف ملكها ألفريد الكبير (٨٧١ — ٨٩٩) ان يقاوم بعناد ، الغزاة السكندينافيين وان يسترجع منهم قسماً من الارض التي كانوا اغتصبوها منه ، واستطاع ان يبقي تحت سيطرته وسلطانه كل الاراضي التي فتحها او استرجعها ، بحيث ألفت كل المقاطعات الانكلوسكسونية مملكة واحدة . وحاول الملك الفريد ان يعيد الى الثقافة رواءها ، فاستقطب حوله في البلاط ، عدداً من العلماء الرهبان استقدمهم من القارة ، ولا سيا من مدينة ريمس . ولما كان مقتنعاً كل الاقتناع ان اسباب المعرفة يجب ان تنتشر بين طبقات المجتمع العلماني ، لم يقصر جهده فقط على نشر الآداب اللاتينية والكنسية . فوضع تحت اشرافه المباشر ترجمة الآثار الكلاسيكية الى اللهجة الشعبية ، من بينها كتاب غريغوريوس الكبير المعنون « *Cura Pastoralis* » او الرسالة الراعوية ، حيث نرى تحديداً واضحاً لمهمة الاسقفية ولاهدافها ، كما أشرف على ترجمة « التاريخ الكنسي » للطوباوي بَيد ، ونقل مؤلفات « بويثيوس » و « أوروز » وكتاب *Soliloques* للقديس اوغسطينوس ، فساعدت هذه الترجمات والنقول على تقعيد اصول النثر الانكليزي وتوطيدها .

ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الملك ألفريد الكبير : كأدارد القديم «وأثلستان»، يواصلون الجهاد ضد غزاة الدانياركيين وتوصلوا الى تحرير القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، تماماً ، استمرت الثقافة ، في ازدهارها مستعينة على ذلك بالمؤسسات والهيئات الكنسية التي عادت اليها العافية واخذت تتجدد . وعلى نقيض الحركة القديمة ، عولت حضارة الجزيرة ، هذه المرة ، على مؤازرة القارة لها ، وجلب دم جديد لها جيء به من المراكز الثقافية والحضارية الجرمانية المشبعة بإخلص وانقى التقاليد الكارولنجية . فاصلاح الحياة الرهبانية الذي باشر به القديس « دونستان » ، في دير غلاستونبري ، في مقاطعة سمرست ، جرى الاخذ به وفقاً للمبادىء والقواعد التي يسير عليها رهبان دير فلدري سير لوار ، وسان بيير الكبير « وايفسيدالن » ، يرعى هذه الحركة الاصلاحية كل من الاحبار « إيثلوولد » من ونشستر ، واوزوالد من ورسستر ، الذي استقدم الى الدير حيث يعيش ، ليعهد اليه بالتعليم ، الراهب الفرنجي « ابون ده فلوري » . وقد انتهت هذه الحركة الاصلاحية باعلان ما يعرف : « الاتفاق القانوني للامة الانكليزية » ، وذلك في مجمع ونشستر ، الذي انعقد حوالي عام ٩٧٠ . وهذا الاصلاح للحياة الرهبانية في إنكلترا ، ساعد كثيراً على ازدهار الحياة الفكرية والفنية فيها ، اذ كانت قاعدتها الأم كاتدرائية ونشستر التي كانت مركزاً ممتازاً لنسخ المخطوطات وزخرفتها وتنميقها ، بعد ان استوحت في عملها الفني هذا النماذج الكارولنجية . وقد درج اذ ذاك استعمال الحرف « الكاروليني الصغير » ، وانتشر في جميع مراكز نساخة المخطوطات في انكلترا ، بينما سارت الكنائس الجديدة التي انشئت اذ ذاك ، في طراز عمارتها ، على الطراز الهندسي المستعمل

في منطقة رينانيا . وقد اخذ النشاط يدب ايضاً ، في اواخر القرن العاشر ، بين هذه المقاطعات الانكلوسكسونية التي ما زالت عرضة للخطر السكنديناڤي . واشتدت سلطة الملك وقويت هيبته في النفوس ، خلال الحروب التي دارت رحاها لاسترجاع البلاد المغتصبة . غير ان انكلترا فقدت ما كان لها من مركز الصدارة في الاشعاع الحضاري المسيحي . فالسناء الذي طبع مدنيتها ، اذ ذاك ، مكتسب منقول هو ، والنهضة التي نشهدها فيها ليست سوى وميض جاءها من تألـّق النهضة في القارة .

فرنكيا الغربية

في مملكة فرنكيا الغربية ، كما حددتها معاهدة فردان ، بلغ انحلال السلطة السياسية وتدهورها ، في هذه الفترة ، حداً لم تبلغه من قبل . فقد تنازع السلطة الملكية ، طوال القرن العاشر ، خلفاء شارل الأصلع وورثة المركيز « روبرت القوي » الذي كان تولى امر الدفاع ضد النورمنديين ومقاومتهم ، بعد ان استقر بهم المقام ، بين اللوار والسين . وقد ادت هذه المنافسات بالنتيجة الى المزيد من انقسام السلطة الملكية . فقد اصبحت المملكة عبارة عن امارات مستقلة الواحدة عن الاخرى ، بينها دوقيات : فرنسا ، وبورغونيا ، واكويتانيا ، ونورمنديا ، ممثلة لاهم العناصر العرقية او الاثنوغرافية التي تسكنها ، بعضها امتداد لهذه الدويلات البربرية القديمة ، آخرها الدوقية التي تكونت من استيطان غزاة النورمنديين واستقرارهم فيها ، بينما تألفت امارات اخرى حول كونتيات عديدة ، منها : كونتية الفلاندر ، وفيرماندوا ، وشمبانيا ، وأنجو ، وتولوز ، بعد ان تمكن امراؤها من فرض سيطرتهم وهيبتهم على الطبقة الارستوقراطية المحلية . صحيح ان اسياد هذه الامارات والكونتيات ، يستمرون كالموظفين الكارولنجيين الذين يتحدرون منهم ، على ولائهم للملك انما هو ولاء لا يعني اية تابعية او علاقة خضوع ، او اي ارتباط بالملك . فالمناداة بهم التي كانت توليهم حق اصدار الاوامر وفرض القصاص والعقاب — وهو حق كان يناله اسلافهم بانعام خاص من الملك — اصبحت حقاً وراثياً مكتسباً ، يستعملونه دونما رقيب او حسيب . وانحطاط السلطة الملكية وانحلالها هو اشد وطأة في جنوبي المملكة حيث لم يُتح لتقاليد التبعية الكارولنجية ان ترسخ وتتمكن بين الناس . ففي السنوات الاخيرة من القرن العاشر ، لم يلبث الكونتية انفسهم ان فقدوا سيطرتهم ، والحقوق الملكية تتفلّت لتستقر في المقاطعات والاقضية او في احد الاديار التي تتمتع بالاعفاء او بيد القيّم على احدى القلاع او احد الحصون . وامر المناداة بالملك تنوع وتشعب ، واذ بنا يطل علينا وضع خاص او نظام خاص هو ما يعرف بالاقطاع .

ويتميز هذا الوضع السياسي القائم بالغموض الذي يكتنف معنى السلطة العامة . فكل سلطة ، هي سلطة خاصة . فالذي يتولاها بالارث يرى فيها جزءاً لا يتجزأ مما تم له من ميراث ، فيمارس هذه السلطة لما فيه خيره ومنفعته الخاصة . فهو يجنـّد احرار الرجال دفاعاً عن شؤونه الخاصة ، والرسوم التي يتقاضاها الفلاحين لقاء الحماية التي يوليهم اياها ، لا مبرر لها سوى العرف المعمول به ، ولذا راحوا يطلقون عليها اسم « العوائد » . فاذا ما أفتى في امر ، او اصدر حكماً في

قضية ما ، قطعماً منه بما تؤمنه له هـــذه الاقضية والاحكام ، من منافع خاصة ، كالغرامات والمصادرات . طبيعي جداً ان تكون هذه النظرية غيّرت كثيراً من مفهوم مؤسسات الدولة الكارولنجية وتنظيمها ، ومن قوام المجتمع نفسه . فالجيش الملكي توزع بين المخافر او رابطت وحداته في القصور . وهذه الهيئات القضائية العامة القديمة العهد ، استحالت حاشيات خاصة ، ودوائر استشارات الكونتلية تحولت ، هي الاخرى ، الى بلاطات اقطاعية يختلف اليها أعضاء الارستوقراطية المحلية ، ومجالس المائة او الألوية اصبحت محاكم تابعة للأمراء تتولى محاكمة الفلاحين التابعين لرب الارض ، سواء منهم الاحرار والارقاء . وامام السلطة الخاصة التي يتمتع بها ارباب القصور واصحاب الامتيازات ، فلم يلبث التمييز بين الحرية والعبودية عندهم ان زال تدريجياً من اذهان الناس، بينما اتسعت الهوة بين هؤلاء الفقراء الذين يستثمرون بأنفسهم املاكهم وعقاراتهم ، وبين الأغنيـاء او السراة من الأثرياء الذين تؤمن لهم أملاكهم الواسعة دخلاً طيباً يستطيعون معه اقتناء حصان للطعان ، وتأمين اسلحة كاملة كفارس ، والتمرن على مسابقـة الفرسان في اوقات فراغهم ، فهم وحدهم يستطيعون ان يلعبوا دوراً له شأنه في المعارك . ففي اواخر القرن العاشر ، في هذه الفترة التي انتسخت فيها كل معالم المنظمات العامة التي عُمل بها في عهد الفرنج ، نرى المجتمع العلماني يقسم الى قسمين بارزين : من جهـة ، الفلاحون سواءاً أكانوا مرابعين او مستأجرين او مشدودين الى ملكيـة الارض . فهم يخضعون لعدل وعدالة السيد او الرب الذي يعيشون في كنفه واستثمار ارضه ، هذا السيد الذي له الولاية على المقاطعة ، او مـن تعود اليه ملكيتهم بحق وراثي . ومن جهة ثانية ، الفرسان وهم محاربون محترفون معفون من الضرائب المعمول بها في المنطقة، والذين لا يرتبطون به الا برابطة الولاء يؤدّونها طوعاً واختياراً، والذين تربطهم برئيس الاقطاع روابط وعلاقات خدمة السلاح والاستشارة ، وكلهـا خدمة محدودة النطاق ، والذين لا يخضعون لأي ضغط او اكراه . من هذه الفئة تطلع النخبة المحدودة لأصحاب الولاء المحلي ، من نسل المساعدين العسكريين في عهد النظام الملكي القديم .

ان استيلاء رؤساء الشرطة المحلية على صلاحيات القيادة لم يكن سوى تطبيق موفق للنظم السياسية والاجتماعية المتبعة في الاقتصار العقاري حيث المواصلات في وضع لا تحسد عليـه ، وحيث السلطة الفعلية هي بيد كبار الملاكين . وهـذا التقاطع او التوزع للسلطة الذي تهيأت أسبابه منذ عهد بعيد وتأخر تطوره برهة من جراء توحيد السلطة الملكيـة في عهد الدولة الكارولنجية ، بدا للناس ابان غزوات السكندينافيين والدانيماركيين ، المنظمة الوحيدة التي باستطاعتها المحافظة على السلام والنظام. فلنحاذر من ان نرى في هذا الحادث ، عاملاً من عوامل الانحطاط والانحلال . فالنظام الاقطاعي حقق ، على العكس ، بعض التوازن ، ويبدو انه مهّد السبيل جيداً امام انتشار المدنية الغربيـة . وبالفعـل ، ففي الوقت الذي استقر فيه النظام الاقطاعي نهائياً في فرنسـا ، في اواخر القرن العاشر، ظهرت بوضوح وجلاء بوادر نهضة جديدة.

الأمال المعقودة على مجتمع قوامه النظام الاقطاعي

كان النظـــام الاقطاعي اقوى وامتن ركن ارتكزت اليه السلطة الملكية. ففي عام ٩٨٧، وهي السنة التي تم فيها انتخاب روبرتيان هوغ كابت ملكاً، دخل هـذا النظام صميم التقاليـد العائلية لمركيزة فرنسا القدماء، اغنى الامر على الاطلاق في غاليا الشمالية.. فمنذ هذا التاريخ فصاعداً ليس للملك حقوق مجزأة، متقطعة، متناثرة، بين مجموعة المقاطعات التي تشكلت منها فرنسا، اذ ذاك، من السير استثمارها والانتفاع بها، بعلم واصول، بـل جملة من الحقوق المتماسكة، نواتها وركيزتها الكبرى، املاك وعقارات ومداخيل مختلفة محشودة حول باريس ولورليان. والى هذا الاساس العقاري القوي الذي تفوق متانته متانة اقوى الامارات الاقطاعية، اذ ذاك، يجب ان يضاف دعامتين قويتين اوجدهما النظام الملكي الفرنسي، هما: من جهة حفلة التكريس الرسمية التي أضفت على شخصية الملك، هالة رمزية ومهابة في قلوب الجميع، فجعلت منه بحق، المدافع التقليدي عن الكنيسة، وهو تكريس، يوليه، وفقاً للتقاليد الكارولنجية، حق تقديم عدد كبير من خيرة رجـــال الدين والاكليروس لترشيحهم للمناصب الاسقفية ورئاسة بعض الاديار، ومن جهة اخرى رابطة التبعية التي تصبح الاساس الصحيح لعلاقة ادبية، روحية، شدّت الى شخصية الملك، ليس كل ارباب السلطة في المملكة، على اختلاف مستوياتهم، اذ ان سلّم الولاء او تسلسله فقد شكله الهرمي، وتوزع الى وحدات من التبعيات المستقلة، لا عد لها ولا حصر، بل اكثر الدوقية والكونتية سلطة ونفوذاً.

ومن جهة اخرى، فهذه النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في عهد شارلمان، اخذت معالمها تتضح اكثر فاكثر. ففي سنة ٩٥٠ وما اليها، نرى أدلة بينة تشهد على نشاط العاملين على احياء موات الارضين، وتكاثر عددهم في البلاد، وذلك بفضل تحسين تقني ادخـــل على وسائل الفلاحة والزراعة، استطاع معها الفلاحون والمزارعون ان يعمّروا الاراضي الحرجية، وان يتعاونوا معاً ويتناهدوا على إحياء اراض جديدة للزراعة، بعد ان اقتصر عملهم من قبل، على القطع الجرداء الواقعة في قلب الغابات. فمهدت هذه الورش والمشاريع الزراعية السبيل لمضاعفة انتـاج المواد الغذائيـة، وسهّلت بالتالي، الطريق امام تطور ديموغرافي وتكاثر عدد السكان، الامر الذي ادّى، تباعاً، الى القضاء على الاراضي البور، والى تسهيل اتصال الناس بعضهم ببعض، فنشطت المقايضات التجارية، وتبايع النـاس نبيذ حوض باريس، والملح المستخرج من سواحل المحيط الاطلسي، جرى تسويقه وتنفيقه في مناطق الشمال، بينما نشطت الحركة الاقتصادية، مع اسبانيا الاسلامية، كما ازداد، في النصف الثاني من القرن العاشر، عدد التجار المتنقلين الذين كانوا ينقلون سلعهم من البحر الشمالي، عبر وادي الموز، وهضاب مقاطعة شمبانيا وبورغونيا واوفيرنيا ووادي الرون حتى البلاد الاسلامية.

وعلى طول هذه الطرقات في هذا القسم الشرقي من مملكة فرنسا، اقرب هذه المقاطعات الى مراكز الاشعاع الفكري والفني في جرمانيا وايطاليا، في هذه الولايات بالذات التي لم تتعرض كغيرها

لغزوات قبائل الشمال، والتي كانت ملاذاً لرجال الفن والعلماء والكتب، نرى ينشط ويزدهر هذا التراث الادبي والثقافي الذي انتقل الينا من عهد الدولة الكارولنجية . وقد نشطت العمل بعض المدارس الكاتدرائية ، منها مدرسة ريمس ، مثلاً ، التي جرى تجديدها وبعثها في اواخر القرن التاسع ، على يد رئيس الاساقفة فولك ، ليتولى ادارتها بنجاح ، بعد عام ٩٧٢ ، جربرت دورياك الذي استطاع ان يحصل ، خلال اقامته في روما وفي الولايات العسكرية المتاخمة لاسبانيا ، وان يجمع اكبر قدر من المعارف والمعلومات ، حول الفنون والعلوم التي تؤلف نواة منهاج الـ *Quadrivium* . ولما كان الصف الاسقفي منهمكاً اذ ذاك ، بالشؤون المادية والدنيوية ، ومنغمساً بالمؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في الاقطاعات والامارات ، ويتسكع ، على العموم ، في وضع زري من الانحطاط ، فالمراكز الاكثر نشاطاً وإثماراً ، كانت ، ولا شك الاديار ، أمثال دير فلوري سير لوار، حيث كان علم المنطق والجدل يزدهر على يد الراهب ابّون ، احد تلاميذ مدرسة ريمس ، ودير سان مرسيال ده ليموج المشهور بكونه قاعدة نشيطة لنساخة المخطوطات وتزويقها وتحليتها ، حيث كانت تبذل عناية خاصة بتطوير الطقوس الليتورجية ، وادخال تحسينات على التراتيل والاناشيد الكنسية المتعددة الاصوات ، مهيئة السبل لطلوع المسرح الديني . واخيراً دير كونك ، حيث تم حفر ونقش صندوقة ذخائر القديسة فوا ، فكان اول تمثال تم وضعه في الاجيال الوسطى ، واخيراً « دير كلوني » .

تأسس هذا الدير عام ٩١٠ ، على يد غليوم الاكويتاني ، وتولى ادارته الراهب « برنون » رئيس دير « بوم » ، ودير « جيني » ، وادخلت عليه الفرائض البندكتية ، كما شرحها وفسّرها وعلق عليها بندكتوس الأنياني . فبعد ان تخفف الرهبان عملياً ، من كل المهام والاشغال المادية واليدوية ، وعهدوا الى خدام بقضاء حوائجهم وتأمين خدمتهم وأمّنوا كفاف معيشتهم بفضل ايرادات املاكهم الواسعة ، انصرفوا بكليتهم لما فيه مرضاة الله ، والاحتفال بكل ابهة ، بالطقوس الليتورجية . وكان الدير ، وفقاً لارادة مؤسسه ، بمعزل من كل تدخل علماني بشؤونه ، يرتبط مباشرة بالكرسي الرسولي في روما ، ونال في اواخر القرن العاشر انعام الاعفاء الذي يجعله خارج نطاق اشراف اسقف المحلة او البلدة . وساعدت الحياة الرهبانية المثالية التي سار عليها جمهور الرهبان والآباء ، على اذاعة شهرة هذا الدير ورفع اسمه في العالم المسيحي ، فتدفقت عليه الهبات والأعطيات . وعهد الى رؤسائه « أودون » ، و « أيمارد » ، و « مايول » ، وكلهم من رجال التقى ، مشهود لهم بالفضل والعلم وحسن السريرة ، التفرغ بهمة قعساء ، لاصلاح بعض المؤسسات الرهبانية ، كما عهد اليهم بقيادة هذه الاديار التي تولوا اصلاحها ورئاستها . وهكذا ، اطلت علينا الرهبنة الكلونية التي ضمت عدداً من الاديار ، تعمل تحت رئاسة رئيس عام ، اخذت تمتد وتنتشر باتجاه مقاطعة الاوفيرني وشواطىء البحر المتوسط ، كما قام لها اديار تناثرت حباتها على طول الطرقات التجارية

وكانت هذه الطرق تفضي بسالكيها الى مشارف اسبانيا الاسلامية . اما الولايات المسيحية الواقعة على هذه الحدود، كمملكة استوريا ،مثلاً فقد كانت ملاذاً لعدد كبير من مسيحيي اسبانيا لجأوا بانفسهم من حكم خلفاء قرطبة حاملين معهم اساليب هندسية معمارية جديدة ، وعناصر تحلية وزركشة مستمدة من الفن الشرقي . وقد قام في هذه الولاية الاسبانية اديار مزدهرة كان لها من الشهرة وبعد الصيت ما جذب اليها جربرت دورياك ، ليدرس فيها الرياضيات والعلوم العربية . وقد اصبحت هذه الاديار مراكز ثقافية عرفت بنشاطها وعملت على اغناء الثقافة الاوروبية . ومع ذلك فقد كان الجانب الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، المركز الاكبر لهذا الاشعاع الفكري الديني في الغرب .

جرمانيا وامبراطورية اوتون

فكما ان تأسيس الدولة الكارولنجية ارتكز ، في القرن الثامن ، واتخذ قاعدة له اقل المقاطعات الفرنجية تطوراً ، وابعدها إيغالاً في الروح المسيحية ، هكذا تمّ تجميع القوى السياسية وتوحيدها ، في القسم الشرقي من اوروبا ، في قطر هو احدث الاقطار الجرمانية عهداً بالمسيحية حيث الاعراف والعادات والتقاليد الجرمانية ، كانت لا تزال محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وحيث قام التنظيم العسكري وارتكز على طبقة واسعة من الرجال الاحرار ، هو قطر الساكس الذي انتخب حاكمه الدوق هنري ، عام ٩١٩، ملكاً على جرمانيا . فقد اخذ العاهل الجديد ينظر الى السلطة التي تمت له ، نظرة بدائية وصرف جل همه للدفاع عن ولايته غير ان ابنه اوتون الكبير (٩٣٦ — ٩٧٣) جهد نفسه ليعيد للملكية سيادتها وهيبتها باحياء التقاليد الكارولنجية وبعثها من جديد. فقد جرى تتويجه في احتفال رسمي علني ، وجرى تكريسه ودهنه بالزيت المقدس في مدينة اكس لا شابيل . وحاول ان يحد تدريجياً ، دون ان يلغي رتبة الدوقية ، من استقلال حاملي هذا اللقب من امراء البلاد ، وان يحملهم على الاعتراف بحقوق الملك داخل الدوقيات الوطنية ، وان يقيم علاقات مباشرة مع الكونتية أنفسهم . وراح يطبق اخيراً الأساليب التي سار عليها الاوائل من ملوك الدولة الكارولنجية ، محاولاً ان يجعل من رجال الاكليروس الذين يتولى هو نفسه ترشيحهم للمنصب الاسقفي ، ويقلدهم لقب كونت يحملونه في المنطقة التي يقع فيها الكرسي الاسقفي ، معاونيه ومستشاريه في الادارة ويثق بهم كل الثقة . وهكذا تمكن من الحد من امتيازات الامارات المحلية ، وان يؤمن السيادة وحق الصدارة للملك الذي هو وحده المدافع الاول ، والمناضل الاكبر عن السلام ، ومقيم العدل بين الناس ، وموزع العدالة في كل ارجاء المملكة الجرمانية ، دون ان يغلو في استعمال حقوق التَّبَعيَّة وآصرة الولاء التي له عليهم . وهكذا لم يتمكن صغار الرؤساء المحليين من ان يغتصبوا ، كما فعلوا في فرنسا ، السلطة الملكية ، اذ بقي الناس في المقاطعات الجرمانية يشعرون عميقاً بوجود جيش وبوجود هيبة السلطة العامة . وهكذا بقي حياً في النفوس الشعور بالحرية ، هذا الشعور الذي جعل الناس يحسون انفسهم مرتبطين رأساً بأعراف وتقاليد ملكية .

وهذه الانتصارات يحققها الامبراطور اوتون الكبير على الصقالبة والمجر ، زادته مهابة في النفوس واحتراماً عندهم ، فاستطاع ان يتابع الرسالة التي قام بها الكارولنجيون بنشر الديانة المسيحية وحملها ابعد الى الشرق والشمال ، واصبحت مدينة همبورغ في عهده ، قاعدة للكنائس السكندينافية الحديثة العهد ، ومرجعاً رئيسياً لها . وفي سنة ٩٦٢ ، انشىء في مجدبورغ كرسي اسقفي ، واخذ نفوذ ملك المانيا يمتد الى البلدان المسيحية المجاورة لجرمانيا ، كما كان الملك الحكَم الفَصْل في هذه الاختلافات والمنافسات العائلية التي نشبت في فرنسا ، بين الكارولنجيين وانصار روبرت كابت ، واخضع عام ٩٤٠ ، مقاطعة لوثرنجيا لسلطانه ، وأتاه ، عام ٩٤٢ ، ولاء ملك بورغونيا ، واخيراً اعترف به ملكاً عام ٩٥١ ، وفي عام ٩٦١ نودي به ملكاً على ايطاليا ، وولاّه البابا يوحنا الثاني عشر ، رتبة الامبراطورية ، وهو شرف عاد حقاً وشرعاً لمن له حق الصدارة في لمبرديا . إلا ان الشيء الوحيد الذي أضفى أهمية كبرى على تتويج الامبراطور ، عام ٩٦٢ ، هو انه ، لأول مرة منذ اواسط القرن التاسع ، وجد الامبراطور نفسه ، اقوى سلطة وأشد سطوة من أي امير قام في الغرب ، اذ كان باستطاعته ان يؤمّن ، بالفعل ، توجيه العالم المسيحي وقيادته . وخير دليل ، وأقوى شاهد على ما نقول ، هو ان الامبراطور اوتون ، غيرةً منه على الدور السياسي الخطير الذي أسنده للأسقفية الجرمانية ، أولاها مهمة اصلاح الكرسي الرسولي وانقاذه الارستوقراطية الرومانية من الدسائس التي تحط من شأنها . فقد خلع البابا يوحنا ، في مجمع عُقد تحت رئاسته ، واستبدله ببابا آخر . فقد كان اوتو الكبير ، بحق ، شارلمان ثانياً ، وكان لتتويجه بالتاج الامبراطوري ، المدلول الذي يعني انه الباعث الجديد للامبراطورية الرومانية .

وهذا البعث ، وهذا التجديد للامبراطورية الرومانية طال واستمر ، اذ حصر الامبراطور هذه المرتبة في اسرته ، ففي الوقت الذي جرى فيه تكريسه ، تم تكريس زوجته امبراطورة ، كما توّج ابنه مسبقاً ، باسم اوتون الثاني ، عام ٩٦٧ . وبعد ان أمّن هذا المنصب بالوراثة ، تلبّست الامبراطورية معنىً اقوى واوقع في النفس ، كما راحت هيبتها تمكن في عقول الناس وترسخ في نفوسهم تمشياً مع النظرية البيزنطية في هذا المجال ، وهي نظرية عُمِد على نشرها والدعوة لها رجال الاكليروس في روما والاميرة اليونانية ثيوفانو زوجة اوتون الثاني . وكان من الامبراطور الجرماني الثالث ، اوتون الثالث (٩٨٣ — ١٠٠٢) ان امر بنقل كرسي ملكه الى روما . وبالاتفاق التام ، رأياً وروحاً ، مع الكرسي الرسولي الذي شغله اذ ذاك تحت اسم سلفسترس الثاني ، صديقه الحميم العالم جربرت دورياك ، رغب ، على شاكلة الامبراطور قسطنطين الكبير ، من قبل ، ان يجعل من وظيفة الامبراطور ، بعد ان يستبدل تدريجياً كل اشكال السلطات السياسية التي تقاسمت اذ ذاك ، المسيحية اللاتينية ، رئاسة هي في الصميم : ادبية ، مسكونية ومسالمة . فكأنه كبر شأناً وزاد مهابة بعد ان تبنتها نظريات الرهبان الاكثر ثقافة الذين تألفت منهم بطانة الامبراطور لويس الورع ، وسياسة الملاينة التي اتخذها تجاه الاستقلالات

القومية ، ساعدت كثيراً على ربح الشعوب التي اعتنقت المسيحية حديثاً ، في جماعة المسيحيين الكبرى ، كالدوق البولوني « ماسكو » ، والملك اسطفانس المجري اللذين اعترفا برئاسة البابا الامبراطور رئيساً اعلى لهما .

والى الشرق من الحدود التي جعلتها معاهدة فردان حداً لمملكة فرنسا ، رافق اعادة الامبراطورية ازدهار واسع في الحياة الروحية والنشاط الفكري والفني ، هذا الازدهار الذي جاء تتمة للنهضة التي تمت في عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للأطر والتوجيهات التي وضعتها له الكنيسة ، والتي اتخذت عماداً لها ، تطوير المؤسسات الدينية برعاية هؤلاء الملوك ومؤازرتهم الشديدة ، اذ ان هذه المؤسسات نفسها، ألـّفت، هنا ، كما ألـّفت ، في عهد شارلمان، سنداً قوياً للدولة الجديدة ، وأيداً قوياً شدّ من ازرها ووطّد من شأنها .

كذلك ، انطلقت الحركة ، في كل من انكلترا وبورغونيا ، باصلاح شامل للحياة الرهبانية ، في القرن العاشر ، راعى ، ولو بعيد ، وضع الكنيسة المختلف في كل من شبه الجزيرة الايطالية واللورين . واشرف على بعث الحياة الروحية ، في ايطاليا ، فريق من الزهاد والنساك ، تأثروا الى حد بعيد ، بنسّاك الصحاري والقفار ، امثال القديس نيل الذي رغب الامبراطور اوتو الثالث في استقدامه الى روما ، والقديس « روموالد » ، الذي عرف ان يوحّد بين طريقة الرهبان العائشين معاً عيشة مشتركة ، وبين النسّاك والحبساء ، في رهبانيات مشتركة تتألف من رهبان وزهاد ، جرى تأسيسها على مقربة من مدينة رافينا ، وفي جبال الابنين ، عرفت فيما بعد برهبنة « كامالدول » . وعلى عكس ذلك ، كان القائمون بالاصلاح في اللورين عديدين ، اولهم « جيرار ده بروني » ، فراحوا يحاولون اصلاح فرائض القديس بندكتوس لارجاعها الى نقائها الاول . واكثر هـذا الفريق نشاطاً وحماسة ، هو حنا فندير ، الذي انتخب ، عام ٩٥٩ ، رئيساً عاماً لدير « غورز » في ابرشية متز ، وفرض على الرهبان قانوناً صارماً ، وافسح مجالاً واسعاً للطقوس الليتورجية ، وشدد ، بعكس دير كلوني ، على التقيد بفرائض التنسك واعمال التقشف ، وفرض على الرهبان ، العودة الى الشغـل اليدوي والاتصال الدائم بالاساقفة . فلا عجب ان يحدث هذا الاصلاح للحيـاة الرهبانية الذي تم تحت رعاية الامبراطور وانتشر في جرمانيا ، تأثيراً بعيداً على رجال الاكليروس العلمانيين ، وساعد على تكوين احبـار لهم قيمتهم الادبية العالية ، امثال نوتجر ده ليج ، و « برنار هلدشايم » ، الذين انقطعوا لنشر الثقافة ، وتأمين ازدهار الآداب والفنون .

وهذه المطالب الثقافية العالية ، تفهمها الامبراطور اوتون وتبنّاها ، وراح، تشبهاً بشارلمان وللاسباب ذاتها ، ينشىء مدرسة في قصره ويلحقها ببلاطه ، واستدنى اليه عدداً من علمـاء زمانه وحملة الثقافة ، فاستقدم من اللورين : « روثيه ده لوبّس » ، وعدداً كبيراً من ايطاليا ، بينهم « لاون ده فرسايـل » و « ليوتبراند الكريموني » ، الذين انشأوا في مراكز التعلم

الكبرى ، في لمبرديا ، المعروفة بتمسكها بالتقاليد الادبية والبيانية الرومانيــة . ففي كل مكان من هذه الامبراطورية التي عمها الاصلاح ، سارت الحركة الادبية والفنية ، في النهج الذي انطلقت منه في اواخر القرن الثامن ، وهو نهج اخذ ينمو ويزداد متأثراً بالروح والاهداف الواحدة ، اذ كانت وطأة الغزوات خفيفة عليه ، فلم تحدث فيه اي انحراف عن الصدد ، او اي انقطاع عن الـسير . والمراكز الرئيسية لهذه الثقافة هي هذه الاديار البندكتية الكبرى التي تأسست في مطلع الامبراطورية الكارولنجيه ، امثال كورفاي ، في مقاطعة الساكس ، ورايخنو ، وسان غال ، في مقاطعة « الصواب » . فهي التي غذّت المراكز الاخرى القائمة في منطقة الموزيل ، وذلـك عن طريق العلاقات الثقافية التي ربطت بين مناطق الشمال وسهل البو في ايطاليا ، فامتد اثرها نحو الشرق البيزنطي عبر البندقية ، التي كانت في أبان ازدهارها .

فالحالة هي أشبه ما تكون بالوضع الذي تهيأ في مطلع القرن التاسع : فأهم وجوه النشاط لرجال الفكر هو درس الصرف والنحو وتأليف كتب في التاريخ ، منهــا مثلاً : « تاريخ الـكـون » الذي وضعه « فيتوكند » ، والاهتمام بدرس الليتورجيــا وتهذيبها عن طريق وضع اناشيد والحان موسيقيه دينية ، كالانجازات التي حققها في هذا المضمار هوكبالد ده سان امان ، ونوتكر او تويتيلوده سان غال ، ولا تزال الآثار التي وضعوها حية الى يومنا هــذا بصيغتها وروحها . واذا كانت وضعت القصائد الشعرية المسماة *Walthurius* كالتي وضعها أكـّهار ده سان غال ، او ان الاساطير الجرمانية القديمة قد نقلت شعراً الى اللاتينية ، فقد تلقحت بافكار وموضوعات جديدة جدّدت منهــا الشكل وبعثت فيها روحاً جديدة ، الا انها كانت على الاجمال ، محاولات تقليد ومحاكاة لآثار كلاسيكية ، كهذه الهزليات والملهيات التي وضعتهـــا الراهبة الرئيسة « هرُوسْويثا ده غندرشايم » محتذية فيها حــذو الشاعر اللاتيني تيرانس . وعندما اراد المهندسون ان يشيدوا الكنائس الكبرى من غير عقود مزدوجة الحنايا ، كالكنيسة القائمة في دير جيرنرود ، راحوا يستلهمون المباني الضخمة التي انشئت في عهـد لويس الوَرِع . واستمرار الاساليب الفنية ورسوم الديكور والتحلية التي واجت في العهد الكارولنجي ، يبدو واضحاً في الفنون التي اعتادوا ان يسموهــا الصغرى ، كما نرى ذلك في بدايات هالدشايم البرونزية ، وفي قطع العاج الموجودة في كنائس كولونيا ومتز أو في الجوهرات الموجودة في مدينة تريف وراتزبون ، وفي منمنمات « اختر ناك » المزوقة ، ورايخنو ، أو في افاريز غولدباخ واوبرزيل . « فالنهضة التي رافقت عهد الاباطرة أوتون » ، هي بالفعل المصير الذي انتهت اليــه جهود ألكوينس ، والمهنــدس « أويد ده متز » والفنان الذين تولى تنميق مخطوطة المزامير في اوترخت .

والجدير بالنظر والملاحظة في معالم الحضارة الغربية ، في اواخر القرن العــاشر هو التأثير البالغ للعهد الكارولنجي . فاوروبا برمتها ، بما لها وفيها من حدود وتخوم ، وما هي عليــه من نُظُم ومؤسسات سياسية ، ومن نظام التبعية وعادة تكريس الملوك ومسحهم بالدهن ، وبعث

الامبراطورية ، ومؤسساتها الاقتصادية ، والسيادة الاقطاعية ، والنظام المالي ، وما الى ذلك من مؤسسات دينية ، وما يجيش فيها من روح وفن ، كل ذلك اخذ شكلاً واضحاً في هـذه الفترة التي نعمت فيهـا هذه البلاد بالامن والوحدة ، وهي هذه الحقبة البالغة النصف القرن تقريباً التي احاطت بسنة ٨٠٠ ، فالمسيحية اللاتينية ، اذ اتخذت ها مثل هذا الزمن الوطيد اصبحت بنأى عن الغزوات ، وبمعزل عن الطوارىء المفاجئة ، وتجددت كلياً عن طريق المبـادلات وازدياد السكان ، هي في أتم ازدهار وعلى احسن ما تكون استعداداً للانطلاق .

الفصل السادس

الشرق الأدنى : ازدهاره وأزماته
(القرنان التاسع والعاشر)

عرف العالم الاسلامي ، بين منتصف القرن التاسع ومطلع القرن الحادي عشر ، كيف يفيد الى حد بعيد ، من هذه النهضة الروحية وهذا الازدهار المادي اللذين تهيأت أسبابها في القرنين السابقين ، وهما نهضة وازدهار تحالف عليهما من الازمات والضائقات الاجتماعيــة والسياسية والدينية ما افقدهما الكثير من الرواء ، واذهب عنهما الكثير من مباهج النعماء . ففي هــذا الوقت بالذات ، راحت الامبراطورية البيزنطية ، تلم ما تشعث من احوالها ، وما تفكك من اوصالها ، وتقوم ، هي الاخرى ، باصلاح شامل لاوضاعها، لاقى هو الآخر ، مشاكل وصعوبات اجتماعية تجاوبت اصداؤها في جميع ارجاء الامبراطورية . فنحن أمــام امبراطوريتين تتعادل فيهما كفتا ميزان القدر ، في وقت كان كل منهما يحاول ان يطبع مصير المدنية ويفرغ أحداث الدهر بما يتفق وطاقته على البناء والتكوين والانشاء . ومها بلغ بينهما الخصام والعداء ، واشتدت بين الجانبين النفرة والجفاء حتى راحتا تستمطران السماء اللعنات الواحدة على الاخرى، فلم يكن لهما بد من ان يقوم بينهما شيء هو اشبه ما يكون بالتعايش السلمي ، خال معــه كل منهما ذاته خالداً ابد الدهر ؛ فيهما على شيء قريب أو شبيه ، مما تم لهما من نظم اجتماعية وحيــاة فكرية وادبية لمن هو في عمر واحد من الزمن مع الآخر . فاذا ما تشاجرا وتراشقا الضربات واللكمات، ففي اوضاع ومصطلحات مشتركة يفهمها جيداً كلا الفريقين، لانهما على صعيد سوي واحد .

فالصعوبة القائمــة في وضع رسم بياني للمجتمع الاسلامي المترامي الاطراف : من جبــال الاطلس ومشارف الاوقيانوس غرباً ، حتى نهر الهندوس شرقاً ، هي نفسها الصعوبة يلاقيها من يرسم مثل هذا الشكل البياني للمجتمع الاوروبي ، الممتد من نهر اليبر (في اسبانيا) الى جبال الاورال . فلن نقف ، والحالة هذه ، الا عند القسمات البارزة ، والملامح المميزة ، والمفــارقات المشتركة ، والاحداث الكبرى الناتئة .

التجـــارة

فالعلم الاسلامي والمجتمع البيزنطي ، كلاهما ، من الوجهــة التقنية ، في حــدود المستوى القديم تقريباً : فلم يحدث في اي من الجانبين ، اي اختراع واكتشاف جديد استطاع ان يغير أو ان يبدّل من الاوضاع السياسية التي احاقت بالانتاج والمبـــادلات التجارية . فالتجارة واوضاع الحياة في المدينة ينعمان بمركز ممتاز اذا ما قيسا بالوضع الذي كان عليه الغرب في هذا العصر المشترك ، وعلى درجة اقل ، اذا ما قيسا بما كان عليــــه الوضع في التاريخ القديم . ومع ذلك ، فليس هو بالوضع المسيطر أو المتحكم ، اذ ان معظم الاهلين يقطنون خارج المدن، في الريف ، والزراعة وتربية الماشية هما المعوّل عليها بالاكثر لدى الدولة والمجتمع، ونتائج التجارة ، تبقى ، مــــع هــذا محدودةٍ . ومع ذلك ، لا بد من التشديد هنا ، على التجـــارة اذ ان التطورات العظيمة التي خضعت لها ، كان لها تأثير بالغ ، وصدى عميق في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

فالتجارة الاسلامية والبيزنطية حركتان متلازمتان متعاقدتان ، لا يمكن فصلها او تصوير الواحدة منهـــا دون الاخرى . فهذه هي حاصل تلك . غير ان الاولى ، كانت اوسع مجالاً وارحب افقاً من الثانية ، وتتحكم بتجارة السلع الاساسية مع آسيا ، التي اصبح العراق منهــا اشبه شيء بالمفتاح . والخليج الفارسي ، اكثر بما هو البحر الاحمر نفسه ، الطريق الموصـــل بين المحيط الهندي وبلدان البحر الابيض المتوسط . فمن مرفأ سيراف ، على ساحل ايران، ومن أُبُلّة والبصرة ، في العراق ، كان التجار ، شأنهم في هذا العصر شأنهم في عصر الساسانيين ، يخرجون حاملين بضائعهم باتجاه اقطار الهند الغربية ، يتجرون مع جواليهم العديدة في هــــذه الاقطار، ويلتقون مع التجار الصينيين في طريقهم الى سيلان . وقد قطعت تعديات القرصان ، في القرن الثامن هذه الحركة واوقفتها ، ثم عادت سيرتها الاولى في القرن التاسع ، ونشط التجار فبلغوا معها الصين وشارفوا خان – فو ، الواقعة على مقربة من كنتون، حيث كانت توجـــد جالية اسلامية تتمتع بشبه استقلال اداري . ولمـــا كانت الاضطرابات الدامية التي وقعت في الصين ، خلال هذا العصر ، قد سببت خراب هذه الجالية، انتقلت نقاط تلاقي التجار ، الى شبه جزيرة الملايو او الى سيلان ، دون ان يكون لهذا التغيير اثر يذكر على الحركة التجارية . وقد تركت لنا اخبار الرحّالة والاوصاف التي وضعوها لنا ، ذكر هذه الاسفار ، منهـــا في القرن الثامن : الرحلة المنسوبة الى سليمان ، وفي القرن العاشر الرحلة التي وضعها سيرافيان بوزورج التي تذكرنا اخباره بقصص السندباد البحري . ففي الاسفـــار التي قاموا بها ، باتجاه اليمن والبحر الاحمر حتى مرفأ جدّة ، وافريقيا الشرقية حتى مشارف جزيرة مدغشقر ، تفوق الفرس ، قبل القرن العاشر ، على المصريين ، في هذا المجال .

والطرقات البرية كانت تنطلق من العراق متجهة الى اواسط آسيا مارة بالحناء ، في ايران ، لملاقاة التجار الصينيين ، بينما اتجهت طرق اخرى نحو سوريا ومصر والامبراطورية البيزنطية ، وكانت آسيا الوسطى ، منذ القديم ، احد مراكز الاشعاع التجاري ، اذ كثيراً مـــا يمم التجار

المسلمون في هذه المنطقة ، الصين والهند وبلاد الفولغا . ويستدل من النقوش التي عثر عليها المنقبون انهم وصلوا الى مناطق بحر البلطيق ، كما ان تجاراً آخرين بلغوا الاقطار الشمالية الغربية التي لا يعرف عنها الرحالة العرب ، شيئاً كبيراً ، ويرى البعض ان هذه القطعات الوفيرة التي عثر عليها انما هي من بقايا الفدية والاسلاب التي اصابها « النورمنديون » في الغزوات التي بلغوا فيها مشارف بحر قزوين . وقد بلغ هؤلاء التجار في اسفارهم اقوام البلغار في منطقة الفولغا كما تشهد على ذلك رسالة تركها بن فضلان حول وفادة ديبلوماسية ، عهد بها اليه احد الخلفاء العباسيين ، اجتاز فيها آسيا الوسطى ، وهي رسالة لها أهمية كبيرة للتعريف بأقطار اصبحت فيما بعد روسية . ولعل هؤلاء المسلمين بلغوا في اسفارهم ، نحو الغرب ، مدينة براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، اليوم . وقد يكون من الغلو بمكان ان ننسب أهمية كبرى لهذه الاسفار ، او تأثيراً لا تستحقه على اوروبا الوسطى واوروبا الغربية .

فاذا لم يكن للتجارة المصرية نشاط يذكر في المحيط الهندي ، قبل الدولة الفاطمية ، فقد بلغت قوافل التجار المصريين ، باستثناء الشام والعراق ، الى الحبشة وقلب السودان والمغرب الاقصى . فالازدهار الداخلي الذي عرفته البلدان الاسلامية في الغرب ، واستيلاؤهم على كبريات الجزر في البحر الابيض المتوسط ، كجزيرة اقريطش (التي احتلها لاجئون اسبانيون) وصقلية ، والقواعد التي أقاموها في شبه الجزيرة الايطالية – ولا سيما باري منها ، منذ القرن التاسع – وسردينيا وكورسكا وجزر البليار ، شجعت كثيراً حركة التجارة في البحر المتوسط ، وأمنت للمسلمين السيطرة التامة على البحار الواقعة الى الغرب ، كما جعلت الطمأنينة والسلام يرفرفان على طرق المواصلات بين مصر والمغرب الاقصى . وقد طردت بيزنطية من كل بحر ايجه والبحر الادرياتيكي لما لقيت من تهديد القراصنة السوريين والدلمات ، اضف الى ذلك ان اسطولها التجاري اصبح في خطر مداهم ، من جراء الثورات والانتفاضات التي قامت في البلدان التي تستمد منها حاجتها من البحارة كالثورة التي قام بها توما الصقلبي ، والعراقيل التي قامت في وجه التجارة الحرة ، وبعد ان اعيد تنظيم هذا الاسطول في اواخر القرن التاسع ، بقي ، سواء منه عمارته الحربية وعمارته التجارية ، عاجزاً عن تحقيق ما كان له ، في الماضي ، من سيطرة وسيادة . ولذلك اتجهت الحركة التجارية ، في بلاد النصارى ، الى تجار البندقية ومدينة امالفي ، من رعايا الامبراطورية ، ولو بالاسم ، وقد عرفوا ان يعقدوا ، في هذا المجال ، مع جيرانهم من المسلمين ، عقوداً واتفاقات مجدية للغاية وستعوا من احكامها فيما بعد ، بحيث دخلت مصر في احكامها ، بعد ان احتلها ملوك الدولة العبيدية الذين جاؤوا من المغرب . والشواطىء المسيحية الممتدة من روما الى برشلونا ، بقيت مقفرة موحشة بعد ان عاث فيها القراصنة المسلمون ، وتوصلوا الى اقامة معاقل لهم في جبال المورس بينها المعقل المعروف بـ *Garde Freinet* . وقامت في اسبانيا حركة تجارية ناشطة ، اتصلت براً بمملكة الفرنج في الغرب ، كان واسطة العقد فيها ، تجاراً من اليهود يقيمون في البلاد المسيحية اكثر منهم تجاراً من المسلمين ، اذ لم يكن يرضون

بالتعامل معهم في المناطق الواقعة جبال البرانيس الى الشمال . اما في البحر، فلم يعد ليرضي التجار المسلمين ، ان يستقبلوا ، قانعين ، التجار القادمين من الشرق مع ما لديهم من السلع والبضائع . ويبدو ان نشير هنا الى هذه الجمهورية البحرية الغربية القصيرة الامد التي قامت في بتشينا على مقربة من الماريا والتي بقي عام ٩٠٠ ، نطاق اتصالاتها البحرية مقتصراً على نقطة ضيقة ، فقد كتب ابن خردازبه أن التجار الاسبانيين من اليهود، كثيراً ما يلغوا ، عن طريق البر أو البحر ، بلدان الشرق الاقصى ، فكانوا بذلك يهيـــأون قلب الوضع التجاري لصالح الغرب ، لصالح النصارى . اما في المغرب ، فقد كانت أفريقيا (تونس) الملتقى الحركة التجـــارية في البحر المتوسط ، اذ كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء فتنتعش لمرورهم الواحات القائمة اكثر الى الغرب، امثال مدينة سلجلماسة القائمة على سفح جبال الاطلس الغربي، والقاعدة الكبرى للخوارج في هـذه المنطقة .

وقد ظهرت بيزنطية ، أمام الاسلام ، مظهراً زرياً . ولا يعني هذا انها لم تستفد من ازدهار الحركة التجارية الكبرى التي كانت ناشطة ، اذ ذاك ؛ فالطرق الآسيوية التي تفضي الى سواحل البحر الاسود يجب ان تمر حتماً بالقسطنطينة، وعلاقاتها مع شعوب الدانوب واوكرانيا ميسّرة. والمشاريع التجارية الايطاليـــة في الشمال من البحر الابيض المتوسط يقابلها قدوم الروس الى القسطنطينية . والمسلمون ايضاً الذين انشأوا لهم فيها جامعـاً ، وهي حركة عادت على اباطرة بيزنطيـــة بالربح الوافر من الرسوم التي كانوا يتقاضونها ، كما عادت عليهم بالكثير من النفوذ والمكانة ، دون ان يلاحظوا قط ما تخفي هـذه الحركة وراءها من خطر في المستقبل بنسبة ما يتخلى رعاياها عن تحكمهم بالاسواق التجارية وفتح اسواق جديدة لتجارتهم .

وهذه الحركة التجارية الناشطة في كل قطر وصقع من بلدان الشرق الادنى ، كانت تدور ، في الدرجة الاولى ، على الخامات والمواد الاولية التي تفي بمطلب الحياة كما تناولت سلعاً غاليـة التكاليف والاثمان هي ابداً مطمع العظماء وكبار الاغنياء . وكان التجار المسلمون يستوردون من الشرق الاقصى التوابل والأفاويه (في مقدمتها الفلفل) ، والحجارة الكريمة والعاج من الهند ومن افريقيا ، والذهب من السودان والحرير من الصين الى جانب الحرير الوطني ، والاخشاب الثمينة كالقُنّر والصندل ، من اندونيسيا ، وخشب البناء من آسيا الصغرى واوروبا ، والجلود والفراء ، والعسل والشمع ، من روسيا ، واخيراً العبيد والارقاء : من بين صقالبة دلماتيا على يد تجار ايطاليين ، أو صقالبة من بلدان اوروبا الوسطى ، من سوق النخاسة في براغ ، واتراكاً من قبائل الخزر او يأتون بهم من اواسط آسيا ، وزنوج السودان . ومن بين السلع التي كانت تنفق في داخل البلدان الاسلامية : حرير مناطق بحر قزوين ، والقطن والبخور المستورد من البـلاد العربية ، واللآلىء والاسفنج من اطراف عُمان ، كما استوردوا كل المعادن التي تفتقر اليها البلاد العربية من ايران وشمالي العراق والمغرب والاندلس ، حيث كانت تتوفر بغزارة هذه المعادن على أنواعها . وكانوا يصدّرون الى البلاد الواقعة خارج الاسلام السلع والمصنوعات التي تنم عن تفوق

مهارات الفن الاسلامي الصناعية ، في مقدمتها المنسوجات والمصنوعات المعدنية . فاذا ما وضعنا تجارة الرق جانباً ، نرى ان تجارة بيزنطية كانت تقوم على مثل هذه الاصناف ، انما على درجة اخف من التنوع . فالاولوية التي احتفظ بها هذا العالم وذاك ، تقوم بان كلاهما كان يصدّر للخارج بضائع وسلعاً مشغولة ، غاية في الدقة بينما اقتصرت الحركة التجارية في البلدان الاخرى ، على استيراد المواد الاولية .

من الصعب ، وايم الحق ، ان نتبين كيف كان يتم التوازن في هذه الحركة التجارية وتداول النقد ، اذ ان كل الوثائق التي لدينا غامضة للغاية . فاستمرار هذا التيار التجاري بين بلدان الشرق الادنى واقطار آسيا النائية ، على الاخص ، دليل كاف على سلامة اوضاعها ، اما ان ينتقل قلب هذه الحركة التجارية ، فيما بعد ، الى مصر ، فامر يعود لاسباب ودوافع اخرى . وبعد هذا كله ، فقد احتفظت كل من بيزنطية ودول العالم الاسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم منه للغرب شيء ، وهو نقد مستقر ، قوي ، معتمد دولياً ، مع العلم ان كلاً من ايران ، ومن اسبانيا ابتداءً من القرن العاشر ، عوّلتا بالاكثر ، على النقد الابيض ، أي الفضة . وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت طاقة النقد الشرائية لأسباب ضرائبية ، منذ القرن العاشر . ولا شك عندنا قط في ان هذه الحركة التجارية العالمية كانت ادت الى احداث نقص في النقد المتداول ، لو لم تعوض مناجم الفضة والذهب الموجودة في نوبيا والسودان هذا النقص ، بيسر . ويقال ان بيزنطية التي كانت تشتري من الشرق اكثر مما تبيعه ، حققت التوازن في ميزانها التجاري بفضل المشتريات الاوروبية ، كما ان توفر النقد في اوروبا الغربية يعود لما كان تصدره الى البلدان الاسلامية ، في الشرق والغرب ، من سلع وبضائع . ولعل في هذا التأكيد بعض الغلو من حيث تقدير أهمية الحركة التجارية في هذا المثلث الجغرافي . ومهما يكن من الامر ، فبيزنطية لعبت دور المستهلك أو الوسيط ، ولم يكن لها بالحقيقة كبير تأثير على الحركة التجارية العالمية .

التقنية التجارية

قلما قام التجار باسفارهم لوحدهم او منفردين . فالتجارة البحرية ، اقله في ما يتعلق بالمحيط الهندي ، كانت ، تبعاً للرياح الموسمية ، تتكيف بها من حيث مواعيد الذهاب والإياب . وكانت كل سفينة تضم دوماً الى جانب قبطانها ، عدداً من التجار . اما في البر ، فالى جانب هذه الاساطيل النهرية التي كانت تمخر في النيل ودجلة وغيرهما من الانهر ، كانت الاسفار البعيدة تتم مع القوافل ، فتعتمد الجمال ، وطرقاً سالكة لتعذر الرحلة على مسالك غير صالحة .

والتاجر المثالي الذي يجوب الارض مستثمراً ماله ومهارته ، هو هذا الذي يصفه لنا كتاب « الف ليلة وليلة » . ولكن لم يكن احد ليتجر بماله وحده . فمن طريق اتفاقات يجريها مع غيره من التجار ، او بالاشتراك برأس مال يتناهد بعضهم على تكوينه بدفع اقساط منه على

النجم معينة ، كان التاجر ينهض لعمله ويمضي في مغامراته على بركة الرحمن ، وهي عادة ترجع باصولها الى الاجيال القديمة .. والاموال المستثمرة على هذا الشكل ، كان يُؤتَى بها من جهات شتى ، فيشارك بها العمال ورجال الادب ، وصغار التجار من جميع طبقات المجتمع ، وكبار الملاكين وابناء الارستوقراطية من رجال الجيش . فاذا ما راح التجار يستثمرون بعض اموالهم ومكاسبهم في ابتياع الاملاك ، عمد كبار الملاكين الى تشغيل جانب من اموالهم ، في المشاريع التجارية ، وهي مشاريع كثيراً ما تهددتها المخاطر والارزاء . الا ان هذه المضاربات كثيراً ما عادت على اصحابها والقائمين بها بالربح الوفير ، وحفزت اصحاب الطبقة الوسطى على الاقبال عليها . وعلاوة على ذلك ، فالدولة كثيراً ما ساهمت من جانبها بهذه التجارة ، اذ لم يكن الملوك والامراء يأتمنون هؤلاء التجار على مبالغ طائلة ، مساهمةً منهم بهذه الحركة فحسب ، بل كثيراً ما كان التجار يشاركون بجباية الخراج ويتصرفون ، في تجارتهم ومضارباتهم باموال لم تكن لتتوفر لهم منها اقتصدوا وادّخروا . وكان بيت المال نفسه يستفيد ، هو ، الآخر ، من جباية الرسوم المفروضة على هذه المقايضات ، اذ كان عليهم ان يتقيدوا بدفعها وفقاً للاصول .

وتحسين الاعتماد ، وتوفير النقد لم تكن اخس فوائد هذه المعاملات التجارية ، فليس فيها من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت هذه المعاملات تجري على نطاق لم يبلغ من السعة ما بلغه ، اذ ذاك . فاذا ما حمل التاجر معه نقداً عداً ، فلم يكن ، على الغالب ، كميات ضخمة او مبالغ كبيرة ، اذ كان لكبار التجار ، في الاسواق التجارية الكبرى ، عملاء او وكلاء معتمدون يسحبون عليهم سندات لشخص ثالث ، فيدفعون له من ضمنهم ، ما يطلب اليهم دفعه ، لقاء فائدة معينة . والعمل بهذه السفاتج (جمع سفتجة ، والكلمة فارسية) كان شيئاً متعارفاً لدى التجار ، اذ ذاك ، كما ان السند او الشيك كان تعهداً بالدفع من قبل موقعه ، اذ ان السَنَد ، كان بيد حامله ، بمثابة قيمة السند . ولم نرَ تركة او ميراثاً ، مهما بلغت ، لم يذكر المورّث ، في جردته ، من السندات المستحقة عليه ، ما يربو على ما يتركه من ثروة نقدية . وكان بيت المال يستوفي حصته من هذه الرسوم ، ويدفع بدوره ما يستحق عليه من ديون . ففي مركز تجاري كبير كالبصرة ، مثلاً ، كانت المبالغ المستحقة على التجار اولهم ، تدفع لاصحابها او تستوفى منهم عن طريق الاعتماد المالي . وكثيراً ما كان التجار المتنقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة ، بعد ان يتعهد هؤلاء بعدم مسها او التصرف بها الا بامر صريح منهم . وقد كان القانون يحرم شرعاً ، الربا اينما كان ، ومع ذلك فقد كان الربا فاشياً ، في كل مكان ، يتحيل التجار على القانون لتأمين الكسب غير المشروع .

كانت المعاملات المصرفية وقفاً على كبار التجار. اما الصيارفة فقد تميزوا عنهم بأنهم اختصوا بأعمال الصيرفة المحلية . وكثيراً ما كان هؤلاء الصيارفة ، جهابذة (الكلمة فارسية) أي يُعهد اليهم من قبل بيت المال ، لخبرتهم ، بتمييز الجيد من الزائف ، بين هذه النقود التي تدفع للخراج ، وكانوا يتقاضون عمولة عن خدماتهم هذه ، كما كان باستطاعتهم ان يشاركوا ، بالمضاربات المالية

والاعمال التجارية .

وكان من جراء اعتناق سكان البلاد للاسلام واقبال المسلمين على التجارة ان كثر عدد الصيارفه في المدن والمراكز التجارية ، وهي اعمال تعاطاها النصارى واليهود والمجوس وعدد من المسلمين ، على السواء . فالفوارق الدينية لم تؤلف حاجزاً او حائلاً دون احد لتعاطي مثل هذه الاعمال . وكان كبار التجار ، ولا سيما البزازون بينهم ، يأنفون من التعامل مع التجار بالمفرق ، او التجار المتجولين في الاسواق لانتماء معظمهم للطبقات الدنيا .

والتاجر ، سواء أكان مسلماً او غير مسلم ، لم يكن ملزماً بدفع رسوم المكس إلا عندما يجتاز الحدود بين بلد مسيحي وآخر اسلامي. غير ان التجزؤ الجغرافي وقيام الممالك والسلطنات والجاقات الكثيرة ، في العالم الاسلامي ، جعل من هذه القاعدة شيئاً وهمياً او حبراً على ورق . ومهما يكن ، فقد انشئت في المدن والحواضر الكبرى للتجارة رسوم خزن ومرور ، كثيراً ما ندّد بها وانتقد من فرضها ، الفقهاء الذين كثيراً ما خرجوا من الوسط التجاري ذاته ، مع انهم لم يتعرضوا بكلمة نقد ضد ضريبة الخراج . وليلزموا التجار دفع هذه الرسوم ، كان عليهم ان يودعوا سلعهم في الفندق الذي كان يقوم عادة ، عند مداخل المدينة ، ثم يعمدون الى التصرف ببضائعهم وبيعها من تجار المفرّق ، اذ كان من المحظور على التاجر ان يبيع بضاعته بالفرادى . وكثيراً ما تقاضى رؤساء القبائل وكبار الاقطاعيين رسوماً خاصة « خوّة » يفرضونها على القوافل كرسم حماية . وكانت حركة التجارة في المدن مستمرة ؛ اما الاسواق القائمة على طريق الحج ، فلم يكن لها شأن يذكر .

وكانت الدولة والهيآت المحلية تستوفي رسوماً عالية من المكوس بلغت ١٠٪ على المسلمين ، و ٢٠٪ على غيرهم ، ما لم ينعموا باستثناء خاص . وقد يحدث ان تقوم الدولة نفسها بالتجاره ، في بعض الحالات التي تشتد فيها المجاعة ، تأميناً منها للمواد الغذائية . وقد كانت تحتكر في بعض الاحيان الاتجار ببعض الاصناف أو المواد ، كبيع الذهب الخام مثلاً . وهذه الاحتكارات كثرت انواعها ، وتعددت مناهجها في مصر . وعلى هذ النهج سارت ايضاً بيزنطية عندما كانت تستورد كميات وافرة من المواد الغذائية ، يحدوها الى ذلك ، الرغبة في تأمين تموين البلاط والعاصمة . اما في البلدان الاسلامية ، فتدخل الحكومة لم يتعدّ على ما يظهر ، الاهتمام بخزن مقادير كبيرة تحسباً للطوارىء ، وفرض رسوم على المواد الغذائية الاساسية كالطحين والخبز عند ارتفاع الاسعار ، وبيع المواد باسعار مخفضة عند نشوب المجاعة . وفي ما عدا هذه الاستثناءات ، يبدو ان اسعار المواد الاساسية لم تتبدل كثيراً. الا ان الاسعار كانت تختلف اختلافاً بيناً بين قطر وآخر : فالطحين ، في مصر كان سعره ارخص مرة او مرتين مما كان عليه في العراق .

وهكذا نرى ان العالم الاسلامي برمته نظم جيداً اعراف التجارة وآدابها واساليبها التقنية وهي اعراف وآداب واساليب لم تلبث ان انتشرت في جميع أطراف عالم البحر الابيض

المتوسط المسيحي . ولكن من أين لنا ان نعرف ، في هذه الحركة التجارية التي ازدهرت ، في ايطاليا مثلاً ، ما هو ، في هذه الاعراف ، بيزنطي او عربي ، من التراث الماضي القديم أو من الاشياء المستحدثة في الظروف المتشابهة الواحدة ؟ والثابت الاكيد هو ان الحركة التجارية البيزنطية التي تميزت بالسلبية والحصرت في حيّز جغرافي ضيق ، لم يتمّ لها شيء مما تمّ للحركة التجارية في العالم الاسلامي ، من تنظيم للاعتماد المالي ولا من مرونة الرسوم والجباية .

الحرف والمهن

والصناعة التي كانت دوماً من النوع اليدوي ، لم تكن تتعارض وتشغيل عدد كبير من الفَعَلة والعمال ، في بعض الحالات . نحن نعرف الكثير عن وضع الصناعة في الامبراطورية البيزنطية ، في القرن العاشر ، وذلك بالاعتماد على كتاب مشهور عنوانه : « كتاب الرئيس *Livre des Préfets* . اما معلوماتنا عن الوضع التجاري في العالم الاسلامي ، فهي متوفرة جداً ، ولو جاءت متأخرة عن تلك ، وذلك من الكتب الموضوعة في « الحسبة » والتي يمتمدها « المحتسب » الذي يشرف على تنظيم الاسواق التجارية ويسهر على اسباب الأمن فيها . ففي كلا الوضعين ، فالمظاهر البرانية أو الخارجية والناحية الادارية للمهنة تحظى بعناية اكبر مما يُحظى به وصف المهن أو اصحاب الحرفة انفسهم .

لا بد من التمييز ، سواء في بيزنطية او في الاسلام ، بين الحِرف التي تقوم الدولة بتنظيمها والاشراف عليها ، وبين الحرف الاخرى الخاصة . يدخل في الفئة الاولى ، الى جانب ضرب السكة ودور الصناعة والمصانع الحربية ، مصانع النسيج التي كانت تؤمّن صنع الملابس الفخمة اللازمة لرجال الحاشية والبلاط او لديوان الملك ، كالديباج الموشّى بالذهب واسلاك الفضة ، او الحرير الملون بالقرمز والارجوان مما تدأب على صنعه دار الطراز ، في الدول الاسلامية ، والـ *Gynécée* ، عند البيزنطيين ، كذلك كانت الدولة تحتكر صناعة البردي في مصر ، الى ان زالت صناعته وماتت عند ظهور صناعة الورق او الكاغد . اما ما تبقى من الصناعات الاخرى فصناعات خاصة ، ولو فرض على بعضها ، كما في بيزنطية مثلاً ، وجوب تأمين بعض الاصناف اللازمة للحكومة ، في الدرجة الاولى ، تبتاعها بالثمن المعين مع الرسم المفروض ، او تستوفي منها عيناً بعض المصنوعات ، كرسم مقطوع ، وهي طريقة ليس عندنا ما يشير الى وجود مثلها في العالم الإسلامي ، اذ ذاك .

وكانت الحرف في التاريخ القديم والاجيال الوسطى تنتظم حلقاتها على اساس نقابي . وهذه النقابة ، هل كانت تشبه لعمري ، الـ *Collège* في التاريخ المتأخر عند الروم وهو جهاز دولة في الصميم ، ام انها كانت صورة سابقة أوانها ، لهذه النقابات التي قامت في الغرب ، فيما بعد ، أو هي مؤسسات ومنظمات خاصة ، في جوهرها ؟ لا شيء من هذا على الاطلاق في بيزنطية . فمذهب تدخّل الدولة المعمول به في بيزنطية والمنتقل اليها في جملة من انتقل من تركة تاريخ الروم المتأخر ، جرى تطبيقه على النقابة او اهل الحرفة الواحدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان وفرة اليد العاملة

جعل من غير الضروري قط، انتساب العامل للحرفة امراً متوارثاً أباً عن جد، او امراً إلزامياً. وقد خضعت الحياة النقابيـــة والنشاط النقابي ، عندهم ، لقانون محكم ، دقيق ، تضعه الدولة وتشرف عن كثب ، على تطبيقه . فالنقابات المهنية في القسطنطينية تقع ادارياً ، عـلى رئيس الشرطة الذي يتوجب عليه ان يسجل الاعضاء في الحرفـــة المعينة ويرخّص بانتماء أعضاء جدد اليها . وسترى ، فيا بعد ، ما هو عليه الوضع النقابي ، في العالم الاسلامي . فمع ازدياد الطابـع الديني للدولة في الاسلام ، خضعت الحرف والمهن لادارة المحتسب ولاشرافـه ، وهو الموكول اليه ، أصلاً ، السهر على التقيد بالفروض والواجبات الدينية ، والاعتصام بالآداب العامة ، أي انه مشارك للقاضي من بعض الوجوه والصلاحيات ، وتقوم الدولة بتعيينه كذلك ، دون ان يكون للقاضي أي اشراف فعلي على وظيفة المحتسب. والشعور السائد، مع ذلك هو ان النقابات اجهزة تعمل من ضمن الادارة العامة اكثر مما هي تشكيلات عفوية ، اذ ان هنا ، كما في بيزنطية، ليست الجمعيات الشعبية التي تنتظم سلك الجماهير ، مهنية قط. ولا يبدو قط ان النقابة تكوّن، عند رؤساء الورش ، الاطار العادي لحياة « معلم الكار » .

ومهما تكن عليه طبيعة هذه النقابات،فالقانون الذي تخضع له يحمل الطابع الاقتصادي الواحد، ويهدف الى غرض واحد ، الا وهو الحؤول دون المنافسة وتأمين شيء من الاحتكار للحرفـــة الواحدة ، الامر الذي يفرض القول بوجود سوق ضيقة تملأ بسرعة ، وبتحديد الاجور والصفات التي يجب ان تتوفر في صاحب المهنة ، تأميناً لمصلحة المستهلكين والمنتجين ، على السواء، بعد ان يصبحوا في مأمن من كل مزاحمة أو منافسة . هذا اهم ما جاء من احكام وتوصيات في كتاب *Livre des Préfets* الذي اشرنا اليه اعلاه . اما في الولايات والإرياف ، سواء في بيزنطية أم في العالم الاسلامي ، فالامر لم يكن على مثل هذه الدقة ، اقـــله فيا يتعلق بالاجور والاسعار ، بعد ان يكون المحتسب اخذ على عهـــدته ، تحديد الأجور ، وتحرير المكاييل والموازين والسهر عليها من الزيف والتلاعب . وعندما تعمل الصناعة تلبية لحاجة سوق في الخارج ، تضفي عليها المراقبة من قبل الادارة ، ضمانة أكبر لحسن الانتاج واتقانه .

اما في المدن فالمهنة أو الحرفة لها اختصاصها ومحترفوها . واصحاب المهنة الواحدة يعملون في سوق واحدة أو في حي واحد ، وعلى هذه الوتيرة سار الغرب فيا بعد . والروح النقابيـــة هذه تغلغلت بعيداً بين الموظفين الاداريين واصحـاب المهن الحرة . ويخضع لرئيس المهنة العمال المتدربون والعمال المياومون ، واصحاب المرتبات المعينة ، حتى العبيد الارقاء ، في بيزنطيـة ، حيث كان يسمح لهم بممارسة بعض المهن ، على مسؤولية اسيادهم الذين كانوا يحتفظون لانفسهم بقسم من اجورهم . وعلى الاجمال ، فالعمل اليدوي هو بيد اصحاب الحرف والمهن ، سواء في المدن أو في الريف، في كل ما يصون مصالح سيد الارض. واصحاب الحرف لا يشاركون، الا ما ندر، في الاعمال الزراعية ، فقد نظر الفلاح الى الرقيق نظره الى ابن المدينة ، لا يراه الا عندما يحضر مطالباً ، بكل خشونة ، بحصة سيده من الغلال . ففي الورش العامة ، يؤلف العمال المياومون

القسم الاكبر من اليد العاملة ، بينا لا يكوّن الارقاء سوى قلة بينهم ، يتصرف بهم سيدهم وفقاً للحاجة ومقتضيات العمل .

المدن كثيراً مـــا غصت المدن بثالة السكان تتألف من الافاكين ، والشطّار ، والدجالين والحَطّـقَة والسرقة ، يتحيل الواحد منهم في عيشه على المغفّلين ، ويقتاتون من فتات موائد الاغنياء ، كما في روما قديماً ، وكما هو الوضع في بعض مدن الشرق اليوم، حيث عدد السكان هو اكثر بكثير مما تمّ عليه اهبة الوضع الاقتصادي فيها .

فالمدينة ، في الاسلام ، ابتعدت كثيراً عما عُرِف لها من هندسة وتخطيط في عهد اليونان والرومان . فلم تحتفظ بما كانت عليه من شوارع واسعة عريضة تسير في اتجاه واحد مشترك ، ولا بالوسط المحوري الذي كان يؤلف منها قلب الحياة المدنية والاقتصادية . فباستثناء القيصرية ، التي هي سوق الاقمشة والبزازين ، والتي بقيت قائمة في قلب المدينة ، انتقلت الحركة التجارية فيها بالاحرى الى الاطراف ، الى خارجهـا ، اي ابوابها البرانية . وكثيراً ما قام محل الساحة العامة المكشوفة مسجد كبير. وقام في المدينة الواحدة، المتعرجة الشوارع والازقة، احياء عديدة كاد الواحد منها يستقل تقريباً في عزلته ويقتنع بما يقدم فيه من حركة مهما انكمشت معالمها . وتنفتح البيوت في هذه الاحياء من الداخل ، على افنية مكشوفة بينما تدير ظهرها للشارع في جدار أصم لا ثغرة فيه ولا نافذة . ومع ذلك حذار من ان نغلو في تقتيم الصورة المرسومة . فالمدينة القديمة التي لم تتميز دوماً بتخطيط هندسي مبَسَّط ، لم تتبدل معالمها بالسرعة المرجوة ، ولا بالقـــدر اللازم . فانقسام المدينة الى حارات او احياء لم يَحُل قط دون قيام نشاط جماعي فيها امتد الى جميع اطرافها . فقد لا تقع منا العين على معالم للتجدد جديرة بالذكر او التنويه ، الا انـه يبرز في كثير من هذه المدن ، كدمشق وبغداد ، مثلاً ، شبكة ممتازة من الاقنية البديعة لجر المياه ، وايصالها الى جميع الاحياء ، والاكثار من سُبُل المياه والاحواض فيها ، وبالتالي من الحمامات العمومية .

وهذه التقسيمات الادارية التي كانت عليهـــا المدن في عهد الامبراطورية البيزنطية الاعلى ، يبدو لنا انها مثلت دوراً بارزاً في هذه الاضطرابات التي كانت تنشب ، الفينة بعد الاخرى ، في القسطنطينية وتهزها بعنف . وقد عرفت المدن الاسلامية مثل هـــذه التنظيمات والتقسيمات التي جاءت استمراراً لما عرفت من امثالها قديماً . فقد قامت في المدن السورية ، منذ القرن العاشر ، منظمات الاحداث يتولى افرادها السهر على الامن والهدوء ، وهي منظمات كثيراً ما قام الاعضاء المنتمون اليها بحركات انتفاضية عندمـــا كانوا يأنسون ضعفاً او تراخياً من جانب صاحب السلطان ، وذلك تعبيراً منهم عن عـــدم رضى المواطنين ، او عن وجود غليان فكري بين الناس . ومن جهة اخرى ، نرى في عـــدد كبير من مدن ايران ، وفي بغداد بالذات ، منظمات اكثر تعقيداً في نظمهـــا ، تعرف عندهم باسم « الفتوّة » ، التي تفيد ، من حيث الاشتقاق ، معنى

الاحداث ، واعضاؤهـا « الفتيان » ، وهي منظمة وعت الكثير من عادات العرب واخلاقهم قديماً ، كالشجاعة والجرأة والجزد والعصبية او التضامن . فاذا كان المصطلح عربياً ، من حيث الوضع والاشتقاق ، فمدلوله ينمّ عن تشكيلات يعود اصلها لعهد الدولةالساسانية ، فَقَدَت الكثير من عروبتها او سماتها العربية . فبمعزل عن الاسرة والقبيلة ، يتعاون افرادهـا على العمل معاً ، كما يتعاونون فيما بينهم على كل ما يؤمّن لهم الرفاهية والانشراح والترويح عن النفس ، وكلهـا اهداف لا تمت على شيء من الامور الدينية . والى جانب هذه الفئة ، نرى طبقة العيّارين ، وهي طبقة تتألف من جمهرة البائسين والمعوزين الذين لا قِوام لهم ، ولا سند ، يهيمون على وجوههم ويتطفلون على موائد الناس ، وقد يقومون بحركة تَجحّس من وقت الى آخر ، فتتثاقل وطأتهم على الاحياء الغنية ، ويطالبون بجعلهم من شرطة المدينة ليحدوا من وطأتها . ومع ذلك نرى هؤلاء الفتيان ، يصبحون في القرن التاسع ، نقطة الثقل لتجمع فئة العيارين ، فينظمون انفسهم في وحدات غير قانونية . فالمدلول الادبي لهذا التضامن الذي يدين به الفتيان ، لا يتنافى مـع حق او واجب سرقة الاغنياء واستخلاص ما يرغبون في استخلاصه من ارزاقهم ، والا كيف نستطيع ان ندرك او نفهم تصرف هـذه الطبقة من اللصوص الاشراف الذين يسرقون لمساعدة غيرهم . وقد عرف الفتيان في القرنين العاشر والحادي عشر ، مواقف سيطروا فيها على الوضع السياسي في البلاد ، اذ كثيراً ما اصبح رئيسهم ، كما هي الحـــال تماماً عند الاحداث ، رئيس الشرطة ، في المدينة .

حياة الريف في البلاد الاسلامية

وحياة الناس في الريف اصعب إحاطة بها من الحياة في المدينة التي اصبحت مـــادة التاريخ الاسلامي الاول والمعين الاول لمصادره المختلفة . فالريف هو قوام الحياة منها ، يمدها بحاجتها من القمح وبغير ذلـــك من الغلال والمحاصيل . فهي لا معنى لها بذاتها ، ولا بدون الفلاح او المزارع الذي يصعب مع ذلك تحديد محله في المجتمع البشري . فبين المدينة والريف ، لا محل لحركة تبادل تجاري . فالتجـــار يتعاطون الاعمال ، بين مدينة واخرى ، والارباح التي يحققونها ، يجب ردها ، بعد كل حساب ، الى المنافع التي يجنيها سكان المدن الاغنياء ، من عمـل الفلاح والشغل الذي يقوم به . ولكن مقابل ذلك لا يتلقى الريف شيئاً من المدينة . فالسكن فيه ، والغذاء ، واللبس والادوات ، كلها امور في غاية البساطة ، تدبّر محلياً .

فليس من داع بعد هذا ، للتبسط والاستفاضة في تبيين مـــا كانت عليه الوسائل الفنية في الزراعة من طابع بدائي ، اذ لم يطرأ عليها اي تطور اساسي منذ التاريخ القديم حتى القرن العشرين . ومع ذلك فقد شجع الاسلام أقلمة بعض المزروعات ووطنهـــا في اماكن جهلت زراعتها من قبـل . فقصب السكر ، وزراعة التوت الذي عليه تقتات دودة القز او الحرير ، دخلت فنون زراعتها الى الغرب . والاساليب الفنية التي عولوا عليهـــا في ري الاراضي ، في الشرق ادخلت الى الاندلس وراجت فيها ايمـــا رواج . ونمو المدن ، وتكاثر السكان ، زاد من

شدة الطلب على المواد الغذائية . فقد كانت عمارات كثير من السفن تمخر دجلة ناقلة المواد الغذائية الى بغداد . ومع ذلك فلم تؤدِ هذه الحركة الى اي تحسين يذكر في حياة الفلاح، وبالتالي في حياة الريف .

فالنشاط الزراعي هو ابداً رهن بحاجة الاراضي والناس للماء . وكانت مسؤولية الادارة الاولى تأمين الاعمال والاشغال التي تؤمن وصول المــاء من الآبار او الانهر ، وإسالته الى حيث تشتد الحاجة اليه . واساس الضريبة على الاراضي ونسبة الرسوم المفروضة عـلى المزارع تختلف باختلاف طبيعة الارض ونسبة ما هي عليه من ري طبيعي او سقاية . فالاراضي المشجرة تؤلف طبقة خاصة . وتربية الماشية كانت تجري على نطاق ضيق ، والفلاحة لم يكن يقتضي لها جهداً كبيراً ، بينما أهمل امر تسميد الارض بالاسمدة الطبيعية . والظاهر ان صناعة الالبان ومشتقاتها كانت ، مع الحنطة ، اهم ما يعول عليه الانسان في امور غذائه .

وكانت تربية الماشية جل ما يعتمد عليه البدوي في امور معايشه . فالبدو الرحـــل منهم اعتمدوا تربية الجمل ، بينما اتخذ البدو الظواعن ، عماداً لهم تربية الاغنام ، يظعنون بهـــا طلباً للكلأ والعشب مع تقلبات فصول السنة . والتعاون المشترك بين البـدو والحضر هو من الامور الحيوية في العالم الاسلامي ، وهو في ايران اقل منه في البلاد العربية الاخرى ، قبـــل هجرة الاتراك الذين وحّدوا من مظاهر الحياة في البلاد . فقد قام الجانبان بتبـــادل محاصيلهم . ففي الازمنة والاقطار التي طغت فيها الانقسامات والتحزبات السياسية كثيراً مــا فرض البدو على سكان المدن تقديم العوائد العينية . والاملاك الواقعة عند الحدود ، كان استثمارها ينتقل مناوبة وبصورة مطردة ، بين البدو واهــل الحضر ، الا ان اختلاف انظمة الحكم ، والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تقع ، كثيرا ما الحقت تغييرات اساسية في نسبة سكان الحضر والبدو ، على الســواء ، وبالتالي بين المناطق التي اعتاد البدو ارتيادها والمناطق الاخرى التي كان يستغلهـا سكان المدن . وكثيراً ما تحول اهل الظعن الى مزارعين ، وهو وضع كثيراً ما نظروا اليه نظرة هزء وازدراء ، واعتبروه حطاً لهم . وعندمـا يستقر بهم المطاف ، ينزع زعماؤهم للسكنى في المـــدن ، الامر الذي ساعدهم على تعاطي الحياة الريفية دون ان يقوموا ، هم انفسهم ، بامور الفلاحة .

ونود كثيراً ان نعرف فيما اذا كان الازدهار الاقتصادي ادّى الى اي تحرر أو تحسين في حياة الريف ، او ادى ،بعكس ذلك ، الى المزيد من ابهاظ الحياة وارزاحهـا . فالجواب الواحد لا يمكن ان يعبر تماماً عن الوضع الذي ساد واستبد في جميع انحاء العالم الاسلامي . ويمكن القول باختصار ، دونما اطـــلاق او تعميم ، انه حدث ، ولا ريب ، من جراء ذلك ، شيء من تركيز للملكية ، ومن التضييق على الفلاحين ، والى المزيد من الاحراج في وضعهم ، والامعـــان في البوس . فالمسؤول الاول عن هذا المصير القاتم ، انما هو الطبقة البورجوازية التجارية ، واكثر منها مسؤولية ، الجيش نفسه . فالملكية البورجوازية التي عادت الى عهد بعيد ، سيطرت على

الحدائق والجنان والبساتين الرائعة قرب المدن ، وهي اقطان عرفت بغناها وخصبها مع ما هي عليه من ضيق المساحة او الرقعة ، كما انها سيطرت على مساحات عقــارية واسعة شملت قرى بكاملها . فلم يكن من النادر قط ، ان نرى هنا وهنالك ، في العهد الاول من الدولة العباسية ، الفلاحين يتمتعون بملكية قوية الجانب ، وهي ملكية لم يستطيعوا ان يحافظوا عليها فيا بعد ، الا بشق الانفس . فالظروف التي ساعدت على استمرار المشاركة في مزارعة الارض ، لم تعد تتوفر الا في المقاطعات التي توزعت فيها الملكية العقارية وكلّف تشغيلها غاليا ، الا انها كانت تعطي دخلاً طيباً ، وتزخر بالسكان ، كما هي الحال في لبنان الماروني مثلاً ... امــا في غير اماكن ، التي كانت توفرها الاعــــال التجارية ، فالارباح قد استخدمت في شراء الاملاك والاقطان العقارية ،وهي ملكيات نمت وازدادت على اساس نظام الجباية الذي ُعمل به اذذاك . وكان الفلاح عندما يروح فريسة العوامل الطبيعية او يقترض لأي حادث عائلي ، يقترض ، عادة من المالك المجاور له ، وعندما يرى نفسه عاجزاً عن الدفع كان يرى من مصلحته الخاصة ، ان يتخلى عن ارضه للدائن واضعاً نفسه وذويه تحت رعايته وحمايته ، ويعمل مزارعاً عنده . ومع ان القانون لم يكن ليقر او ليعترف باية عبودية تشد الفلاح الى ارضه ، كان الفلاح المعسر الذي يعجز عن دفع دينه ، يتعهد بوفاء الدين بالعمل في الارض . فاذا ما حاول الهرب أو التهرب أو التملص ، امكن مطالبته بما عليه ، لا سيما وان جميع سكان القرية كانوا مسؤولين ، جماعياً ، أمام ادارة الجباية ، عن جميع الرسوم المترتبة على قريتهم .

وقد عرف القسم الجنوبي من العراق تغييرات اخرى تقربنا من عهد الرومانيين . ولكن يجب الاحتراز من القول بتعميمها . كان كبار الملاكين في بغـــداد يستثمرون الاراضي الخصبة الواقعة على جنبـــات شط العرب ، ويزرعونها قصب السكر مستخدمين لها عدداً كبيراً من الزنوج بعد ان تناقص كثيراً عـــدد الفلاحين ، يأتون بهم باعداد كبيرة من سواحل افريقيا الشرقية. تألف منهم جماعات تسكع افرادها في فقر مدقع والبؤس، كما يشهد على ذلك كتّاب العصر . وقد زاد هذا الوضع الفلاحين بؤساً بعد ان تعذر عليهم مقاومة هــذه المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها . وقـــد ادّى الوضع المذكور ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، الى ثورة الزنج ، فانضم اليهم بدافع من الشعور بالتضامن ، عدد كبير من الفلاحين . وقد امكن ، بعد جهد طويل ، التغلب على هذه الثورة اسوة بثورة الزنج ، في عهد سبارتاكوس ، بعد ان وضعوا الخلافة ادنى من قاب قوسين من هلاكها . الا ان هذه الثورة تركت في الطبقات الشعبية بذوراً لم تلبث ان طلعت في انتفاضات عنيفة قامت فيا بعد .

وكان من جراء البؤس الذي غمر الريف ان توافد الناس على المدن،فغصّت بسكانها وزخرت ارباضها بالوافدين عليها طلباً للعيش وفراراً من الضيق الخانق الذي اخذ بتلابيبهم ، مما ادّى الى اضطراب حبل الأمن في البلاد ، ولا سيما في هـــذه المناطق التي يأهلها الاكراد ، اذ كانت اعمال اللصوصية ضاربة اطنابها . فقامت في البلاد عصابات من شذاذ الآفاق تسلب المــارة

وتبلص كبار الملاكين وتقتسرهم ، واستفحل خطرها بعد ان انضم الى هـــذه العصابات عدد كبير من اهل البدو .

الجيش في البلاد الاسلامية

لما كان نظام الجيش مسؤولاً ، الى حد بعيد ، عن المصير المظلم الذي آل اليه الوضع في الريف ، كان لا بد هنا من إلقاء نظرة الى الوراء تتحلى الجيش وتشكيله .

كان هذا الجيش عنـــد الفتوحات الاسلامية الاولى يعني العرب ، يتأمن أوَدُه من المغانم والاسلاب ، ومن المرتبات والاعطيات التي تدفع له . غير ان بعض العناصر المقيمة باستمرار على الحدود ، تميزوا بعض الشيء ، عن اخوة لهم في السلاح توزعوا على الحاميات في المؤخرة. الا ان توقف حروب الفتح ، وعدم الانضباط ، الذي نشأ في صفوف الجيش ، والتفاوت في التدريب المهني والتقني ، بينا كانت الحرب تتطور وترتدي اساليب لم يألفها العرب من قبل ، والحاف الموالي بالطلبات ، كل هذه الاسباب وما اليها ، ادت كما رأينا ، مع الانقلاب العباسي ، الى إقصاء العرب واقصارهم على المرتبة الثانية ، تؤخذ منهم عند الحاجة ، بعض العناصر اللازمة للاعمال السريعة . فالعنصر الخراساني اخذ يؤلف نقطة الثقل في الجيش وقوامه الاولى ومادته الاساسية ، تدفع لهم المرتبات السخية . وهذا الجيش نفسه هو الذي شال ورجّح ، في مطلع القرن التاسع ، بعد المعارك المتتالية ضد الامويين ، كفة حاكم خراسان ، اذ ذاك ، على اخيه الأمين الذي كان يسانده العنصر العربي في الجيش . وكان من الصعب ، وايم الحـــق ، على الخراسانيين الذين كانوا يشعرون بقوتهم ونفوذهم ، ألاّ يدلّوا لهـذا النفوذ على غيرهم ويبهوا به ، او ان يبقوا محافظين على ولائهم ، نحو الخليفة ، في كل المناسبات ، ناهيك عن ان تجنيد عناصر تم لها الاستعداد الفني والمسلكي ، لم يكن دوماً بالامر اليسير ، وهو امر يمكن نكرانه او التشكك فيه ، الا في بلاد البربر حيث كانت طبيعـة المعارك والحروب ، تتطلب الاعتماد على الخيالة الثقيلة والتعويل عليها ، مما كان يقتضي له تدريباً اكبر واوسع . وكانوا يحولون ضد صغار القوم العمل في الجيش ممن لم تكن لهم طاقة على شراء حاجتهم من الجياد والعتاد .

وفي الربع الثاني من القرن الثالث ، تمت خطوة ثانية ، الى الامام ، وذلك بتدبير من الخليفة المعتمد . فازدهار التجارة ، والجـــاه حركتها نحو البلدان الشمالية ، سهّل اقتناء الكثير من الارقاء والعبيد ، من سكان هذه البلدان ، ولا سيا من بين الاتراك منهم الذين اشتهروا بتقاليدهم الحربية ، حيث كان الاهلون يتخلون بارتياح ورضى عن اولادهم ، رغبةً منهم في تأمين مستقبل افضل لهم عن طريق الخدمة في جيش المسلمين ، حتى ان قبائلهم كانت تحارب بعضهـــا بعضاً وتتقاتل فيا بينها طمعاً في اسرى يقعون بين ايديهم ، فيبيعونهم بيع النعاج في سوق النخاسة ، كما جرى ذلك من بعد ، لرؤساء القبائل من العبيـــد في افريقيا . وهكذا ضم جيش الخليفة وحدات من العبيد اخذ عددهم بتكاثر وينمو بما يردفه من الاحداث الارقاء ، بعد ان يتم تدريبهم

في القصر، وتخريجهم في امور الدين والجيش، ويدربوا على اعمال الحروب وفنون الكر والفر. اما ما تبقى من وحدات الجيش فقد كانت تتألف من ابناء البلاد، ولا سيا من بين العناصر الخشنة الطباع، شأنهم شأن العبيد الاتراك، يعملون تحت امرة ضباط رؤساء من ابناء جلدتهم. وبعد ان يرقوا المراتب، ويصبحوا في مصف الضباط الاعلين، ينهجون، معتقين كانوا ام عبيداً، حياة تختلف كثيراً، بما تم لهم من اسباب الرفاه والقوة والسيطرة، عن حياة معظم احرار الرجال، اذا ما شئنا ان نسقط من كل حساب، العبيد العاملين في الاعمال المنزلية.

الاقطاع والوقف

وهذا الجيش الجديد، كان اكثر كلفة ونفقة، بالطبع من الجيش القديم فالخليفة، كالاباطرة الرومان بالنسبة لقائد الولاية، كان يجعل اعتماده على الجيش، كما ان مصيره كان يتوقف، الى حد بعيد، على ولاء هذا الجيش له. وكانت معرفة هذه الامور لا تفوت الجيش، ولذا لم يكن ليتورع في مطالبه والتشدد فيها. فبيت المال لم يكن يستطيع الاعتماد على دخل مطرد بحيث يمكن له مواجهة دفع مرتبات عالية. ولهذا كان افراد الجيش يفضلون ان يُمنطَوا بعض الاطيان التي تدرّ عليهم مزيداً من الدخل والارباح يطمئنون لها ويعوّلون عليها اكثر من تعويلهم على مرتبات يقتّر صاحب السلطان في دفعها. ولهذه الاسباب، كان لا بد من خصهم بتوزيعات خاصة من الاقطاع، كان الخليفة، الى هذا العهد، يتصرف بها للذين يلاقون عنده حظوة خاصة. ولم يكن هذا التدبير وحده كافياً، اذ ان كمية الاراضي التي امكن للخليفة التصرف بها، كان يحد منها اتساع الاملاك الاميرية، ولم يكن من الممكن انتزاعها من ايدي الذين صارت الى ملكيتهم منذ عهد بعيد، ومنذ بدء القرن العاشر، اخذوا يوزعون على الجند، تحت اسم اقطاع، الرسوم المستوفاة عن الاملاك الخاصة، ليس فقط عن طريق مرتبات عُهد الى مأمور بيت المال، او الى متعهدي الاملاك الاميرية، بدفعها لهم، بل ايضاً بالاعتراف لهم بحق استثمارها واستيفاء رسومها بعد ان تتخلى الادارة عنها لهم. هذا بعض مما كان عليه الوضع، أقلّه في سواد العراق وفي غربي ايران. اما المناطق الدائرية الاخرى، فقد سارت الحركة فيها بتمهل كلي، كما اختلف الوضع كذلك في الولايات التي بقي الجيش يعول في تشكيله، على القبائل التي بقيت تقاليد الحرب فيها قوية، كبلاد البربر، مثلاً.

وعلى كل، فقد آل الامر الى كارثة على الدولة وعلى سكان الريف معاً. فالدولة فقدت، ان لم يكن بالفعل، فاقله بالاسم، الاشراف الاداري على قسم متزايد من الارض كما فقدت الإشراف على جانب من الفيء. فبعد ان جهل اسياد الأرض الجدد ومن يعمل فيها من المزارعين، كل شيء يتعلق بكيفية استثمار الارض والوسائل المساعدة على ذلك، فلم يعد لهم من هم سوى الاثراء باسرع ما يمكن، سيان عندهم أأقفرت الارض أم اجدبت، طالما كان بوسعهم استبدالها بقطعة غيرها اكثر عطاء واقل إمساكاً. وبعد ان اصبح الجند اسياد هذه الاقطاعات، رأوا انفسهم يتمتعون بالثروة والقوة. فقد كان من اليسير على الملاكين البورجوازيين ان يرغموا صغار

الفلاحين أو متوسطيهم ، على طلب حمايتهم ، وحملهم على التنازل عما يملكون من عقار ، طمعاً منهم بحمايتهم ورعايتهم . فاذا ما استطاعت الملكية البورجوازية ، ان تحافظ على شيء من نشاطها في المناطق التي اشتدت فيها حركة تجميل المدن ، فتند اضطرت للتخلي عن جانب كبير من هذه الاقطاع ، لهذه الطبقة الارستوقراطية ، العسكرية والعقارية ، التي طلعت من جديد .

وبما هو أنكى من ذلك ، الخطر الذي كان يزحف على كواهل الدولة. فالنظام الاداري الذي عمل به في عهد اوائل الخلفاء العباسيين ، كان ينص ، كما سبق واشرنا الى ذلك من قبل ، على وجود قائد للجيش وحاكم اداري، في كل ولاية، يستقل الواحد عن الآخر في ما له من صلاحيات وما يقع عليه من مسؤوليات . فلا يستطيع الاول دفع مرتبات الجند العاملين تحت امرته الا من المدفوعات التي يقدمها له الحاكم المدني ، بينما لا يستطيع هذا الاخير النهوض بما يدبّر من خطط الا بالاعتماد على الجيش وقائده ، والدولة في شبه اليقين من ولائها لها . أما الآن ، فقد اتجه هم كبار القادة في الجيش الجديد ، للسيطرة على الادارة المدنية ، والتصرف بعملائها ، بين تعيين وعزل ومراقبة ، والتصرف على هواهم بموارد الدولة يوزعونها على الجند أو يحتفظون بها كما يشاؤون . وهكذا لم يلبث قائد الجيش ، في الولاية ، مهما حافظ على الشكليات ، ان اصبح السيد المطلق . ولم يفت الوضع على الخلفاء ووزرائهم مهما بلغت منهم الغفلة ، فراحوا يحاولون الحد من الامر . ولكن ما ان تندلع ثورة أو تبدر في الولاية حركة انتفاضية حتى يستنجد ذوو الأمر بصاحب الجيش لاخماد الفتنة ، فيضطروا للتسليم مرغمين ، بما رفضوا التسليم به من قبل . واذا ما رغبوا في استعادة ما سلّموا به ، كان عليهم ان يُنعموا بذات الامتيازات ، على من يصطفونه ، لاعادة الامر الى نصابه . وهكذا أطل الخطر على وحدة الامبراطورية من خلال مطامع العسكريين ، ومن هذه النزعات القومية التي كان يتمخض بها سكان البلاد الاصليون .

وبالرغم من الغلَبَة التي تمت في النهاية للارستوقراطية العسكرية ، بعد ان خفضت من شأن القطاع التجاري وجعلته في المرتبة الثانية بالرغم مما كان يملك من قوة ، والذي كثيراً ما استعان بأموال العسكريين لتحقيق ما كانوا يقومون به من اعمال تجارية ، يحمل بنا ان نجانب المغالاة في تصوير قوة البورجوازية . فمهما بلغ من نشاط هذه الطبقة ومن حيويتها ، فهؤلاء التجار ، سواء في العالم الاسلامي او في الغرب ، لم يكن نفوذهم ، مهما بلغ من قوة ، بالعامل الاكبر في خلق الامبراطوريات الواسعة .

وبالفعل فقد افضى التخصص المسلكي في الجيش وتشكيله العنصري الى التفريق بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية : كسائل التوجيه ، الوظائف الادارية . فقد كان يُعهَدُ بهذه ، الى المواطنين الاصليين من سكان البلاد ، وبتلك الى عنصر اجنبي دخيل عليها . وقد حصل على

النظام الاسلامي القديم نظام احتلال عسكري ، بلغ اشده مع فتوحات الدولة السلجوقية ، الا ان معالم هذا التطور برزت بوضوح ، منذ القرن التاسع .

وفي الوقت ذاته ، برز الى جانب الملكيـــة البورجوازية ، والعسكرية وطلـع من تفاعلهما ، نوع آخر من الملكية ، كُتِبَ لها ان تلعب ، فيا بعد ، حتى في التاريخ الحديث ، دوراً متزايد الاهمية ، الا وهو نظام الوقف او الحبوس . وقد كانت نواة هذا النظام ، وهذه الاملاك والاقطان التي صارت ملكيتها الى رجال الدين ، من أبناء الطوائف الاخرى التي لم يمسُّها الاسلام ولم يُلْغِها . غير ان الوقوفات التي كان يجود بها المسلمون تلبست لبوساً شتى ، أفاد منها افراد المجتمع او بعض الهيئات والمؤسسات العامة . ففي الحالة الاولى ، أدّى النظـام الى حفظ تركة درية خاصة وصيانتها من الضياع ، وان كانت ، اجمالاً ، صغيرة ، لا كبير شأن لها ، وذلك بحجة تأمين اسباب العيش لأسرة فقيرة ، وبذلك يحيلَ دون توزع التركات . امـا في الحالة الثانية ، فقد كان الغرض من الهبة دعم عمل خيري ، او اقامة بنـاء ديني ، كمسجد ، مثلاً ، او ذات منفعـــة عامة ، كالحامات والمستشفيات والخانات ، اذ لم يَرِد نص قانوني على صيانتها والمحافظة عليها . وقد يفيد من هذه الوقفية اسرة ما من الاسر عندما يعهد اليها بادارة الوقف وباستيفاء ما يدره من عطاء . وقـد شاعت عادة الوقف للأفراد وذاع استعمالها ، وهو يتألف ، على الاجمال ، من اطيان وعقارات وأشياء اخرى غير منقولة ، اذ انه كان من المحظور ، على الواقف ، في بدء الامر ، في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقف املاك منقولة . ويبدو ان التبرعات للمؤسسات العامة لم تكن مهمة قبل القرن الحادي عشر . وكان الوقف على الاجمال وضيع الشأن اذ كان في مقدور الملوك والامراء وحدهم ، واصحاب المراتب العليا ، في البلاط ان يقوموا بتبرعات ووقوفات لها أهميتها . ومع ذلك ، فلم يلبث ان اصبح للوقف شأن كبير ، كما لحق ادارته شيء من التشدد والتحرج ، الامر الذي أفسد تحسينه ، من الوجهة الاقتصادية ، فأدّى الى اهماله .

المجتمع البيزنطي

وقد اخذ المجتمع البيزنطي يتطور هو الآخر ، متبعاً الاتجاه ذاتـه الذي سار عليه التطور في العالم الاسلامي ، وان تميز ببعض الميزات الخاصة به . فالاملاك والاقطان الخاصة بالبورجوازية التي لم ترتكز على ثروات عينية تجارية ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، لم يكن لها شأن كبير . فالثروة العقارية التي كانت تحت تصرف النبلاء ضؤُل شأنها من جراء الغزوات التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية . وهكذا برزت في المرتبـــة الاولى ، حتى القرن التاسع ، الملكيـــة الكنسية التي حاول الاباطرة الذين قالوا بتحطيم الصور منهم ، حتى نيقوفورس الاول ، عبثاً ، الحد منها . ولم تلبث الملكية العلمانية ان استأنفت تطورها الصاعد بالنسبة التي ضعف فيها شأن طبقة الفلاحين ، في كل من الامبراطورية البيزنطية ، في عهدها الاعلى ، وفي العالم الاسلامي ، اذ ذاك ، امام تزايد عظماء الدولة شأناً . فقد احدثت موجة الغزوات ، حركة تراجع وقهقرى ، دون ان تلحق حركة التطور ، أي تغيير او تحوّل

يذكر . غير ان اضطراب حبل الامن ، وتراكم الديون ، ربوياً او بغير ربا ، وجشع عظماء الدولة وطمعهم الاشعبي ، كل ذلك وما اليه ، أدّى بالتالي : الى بيع الفلاح التركة العقارية التي وصلت اليه بالارث ، والى استخذاء المستضعفين والتماسهم عطف الاقوياء ، كما ان العجز عن الدفع أدّى الى شد الفلاح وربطه بأرضه ، والسلطة التي توفرت للعسكريين ساعدت على توسيع ما لهم من الاملاك الواسعة والاطيــان والعقارات ، فنشأ في قلب آسيا الصغرى ، منطقة اصبحت تنعم تقريباً بالطمأنينة ، إلا انها ما زالت مع ذلك ، المجال الاكبر للجهاد من كلا الجانبين ، وفيها تمت أكبر ملكيات من الاطيان لضباط الجيش الذين كان معظمهم من أبناء البلاد الاصليين ، تغطي الواحدة منها باتساعها ، ولاية برمتها ، كما حصل للأسر الشهيرة من آل فوكاس ، وسكليروس ، وماليئوس وكومنينس ، بحيث استطاعوا ان يقفوا بوجه الامبراطور نفسه .

وقد عاد هذا الوضع بالحيف الكبير على الدولة نفسها ، اذ فقدت الكثير من دخلهـــا ووارداتها ، بعــد ان عجزت عن إرغام عظماء القوم على دفع ما يترتب عليهم دفعه من رسوم وضرائب مفروضة على الاراضي التي اضطر للتخلي عنها صغار الملاكين ، كما أسقط في يدهـــا عندما ارادتهم على التزام حدود الاحتكارات العامة ، عندما يعمدون لتصريف محاصيلهم . كذلك فقـــدت الدولة كل سلطة لها ، وراح عظماء القوم واكابرهم يتحدّون الحاكم في الاقضية التي تصدرها ضدهم . كذلك فقدت وحدات جيشها بعد ان اخذ هذا الجيش يعتمد في تشكيله على طبقة الفلاحين الاحرار . فالوحدات التي كان هؤلاء العظماء يشكلونها من بين الفلاحين التابعين لهم ، لم يكن لها من كثرة العدد ، ولا من الولاء للامبراطور ما كان للجيش قديماً . ولذا جاءت ردة الفعل من قِبَل حكومة الامبراطور قوية وسريعة جداً ، طوال القرن العاشر ، ضد تضخم الملكية العقارية ، كنسية كانت ام علمانية . فقد حظر القانون على كبار الملاكين شراء اراضي الفلاحين، واعاد الى هؤلاء الاملاك التي اغتصبها منهم مغتصبوها بالحيلة او بالعنف والاكراه، وفرض على العظماء ، في هذه المجتمعات المسؤولة بالتكافل ، امام بيت المال، الضرائب التي لم يكن في مكنة صغار الملاكين حملها والقيام بها .

كل هذا لم يُجدِ فتيلاً . فمنذ القرن العاشر راح بعض الاباطرة ، امثال نيقوفورس فوكاس ، ويوحنا كزيمنيس ، مـــن الارستوقراطية العسكرية يلملمون باليمين ما يهدمون باليسار . فتجاه تطور السلاح الثقيل، لم يعودوا يكترثون الا بالملكيات المتوسطة الحجم بينما ضحوا بالصغيرة منها، التي فقدت كل قدرة لها على الاحتمال، والنهوض بما يترتب عليها من واجبات . ففي اواخر القرن المذكور ، أتاحت المنافسات التي نشبت بين العظماء ، وامكانية الحروب مع الخارج ، للامبراطور النشيط باسيل الثاني ، ان يتغلب على هذه الثورات التي نشبت في عهده ، وان يقوم بمصادرات كثيرة ، فيكبح من جماح الارستوقراطية ، ويشد من شكيمتها . وقد اخذت هـــذه الحركة تتطور بسرعة أكبر ، في القرن الحادي عشر ، وهي حركة شابهت الحركة التي قامت في العالم الاسلامي ، وان تأخرت عنها قليلاً ، مع فارق وحيد هو ان الامبراطورية البيزنطية استهدفت،

لصغرها ، للعديد من محاولات الانقلابات ، يقوم بها العظماء للاستيلاء على الحكم والاستبداد به ، وليس لتوسيع رقعة الامبراطورية او لاقتسامها ، لما كانت عليه من متانة الجانب ، والتضامن العنصري والتماسك الديني ، ولبقاء الجيش معتصماً « بالروح الوطنية » .

الملل والنحل الاسلامية

ادى اشتداد النزعات الاجتماعية في العالم الاسلامي الى استفحال امر الملل والنحل التي تلبست مظاهر دينية اسلامية بينما اخفت في ثناياها مطالب ودعوات قومية مبطنة . واتسعت الفروق بين هذه الملل ، يوماً بعد يوم . فالخوارج لم يحافظوا على كثرة عددهم الا في بلاد البربر حيث استفحل منهم الامر ، واخـــذ يتلبس شكل دكتاتورية جماعية بزعامة آل رستم الذين ألّفوا ، في اواخر القرن الثامن ، امارة لهم في مقاطعة تباريت (ولاية وهران اليوم ، في الجزائر) وستمهد هذه الفرقة السبيل لظهور الحركة التي قـام بها « رجل الحمار » في منتصف القرن العاشر ، ضد الفاطميين . وقد اقتصر عملها ، في البـدء ، على بعض الواحات الواقعة في القسم الشمالي من الصحراء ، وثم في مقاطعة المزاب ، ومنهـا اخذ اتباعها ينتشرون في الجزائر .

اما الشيعة ، فهي التي استقطبت ، في الشرق ، جميع الناقمين على الدولة ، بعد ان انقسمت الى عدة فرق ونحل اشتدت بينها المنافسات الشخصية ، وبرزت الفوارق العقائدية والمنافسات الاجتماعية العنيفة ، وظاهر الاختلاف المحصر في شخصية الائمـة الذين ينحدرون ولا شك ، من سبط علي بن ابي طالب ، الا انهم يختلفون في بُنوتهم منه . الا ان سوء سلوك بعض العلويين ، والاختلافات العقائدية التي نشبت فيما بينهم ، اوجدت بـين الجماعة شعوراً بان سلسلة الائمة انقطعت عند اختفاء الامام الاخير وتواريه ، دون ان يكون مـات ، وسيعود يوماً بشخص المهدي ، على شاكلة المسيح المرتجى ، في النصوص الكتابية ، قبـل انقضاء الدهر ، ليملأ العالم عـدلاً وسلاماً . ولذا ، لا يمكن ان يقوم على ادارة الجماعة سوى قادة يتولون الامر انتداباً او بالوكالة ، ليحافظوا مع علماء الملة على نقاء العقيدة ، وكلها امور تناقض تماماً مـا اجمع عليه اهل السنة . فالثورة عليها لا تجدي فتيلاً ، ولا تفضي الا لانحلال الجماعة . ولذا كان من الافضل التقيد بالعقيدة الرسمية ، والاخذ بالتقية .

قلنا ان فرق الشيعة تباينت فيما بينها . فمنها من رأى ان الامامة الشرعية تقف عند الامام الخامس زيد ، الذي مات سنة ٧٤٠ ، وقام اتباع هذه الفرقة بثورة عارمة ، في منتصف القرن التاسع ، فانشأوا في طبرستان (مازدران) الى الجنوب من بحر قزوين ، كما انشأوا في اليمن ، امارتين لا تزال الثانية منها قائمة الى يومنا هذا . فتعاليمهم وفقهم لا تختلف كثيراً عن عقيدة السنة وفقهها ، الا انهم غلبوا على امرهم امام شيع أخرى .

اما الشيعة الامامية ، فعدد الائمة عندهم ١٢ إماماً آخرهم الأمام محمد ، في اواخر القرن السابع ، فهم يتميزون عن السنة بانتظارهم المهدي ، وبقولهم ان جوهر الألوهية ، ينصب في

الامام ، كما يختلفون معهم ببعض الاحكام الفقهية كزواج المتعة او الزواج الموقت . وقد انتشرت هـذه الشيعة في ايران ، ولا سيا بين الديلم ، وبين العرب من سكان العراق وسوريا الشمالية ، وتغلغلوا على نطاق واسع بين طبقة التجار ، الا انهم بقوا شبه مجهولين في الغرب ، وفي مصر . صحيح ان بعض زعمائهم الديليين قاموا احياناً بثورات لاهبة ، دون ان يفعلوا ذلـك باسم تعاليمهم الدينية ، ودون ان يجروا وراءهم اتباعهم . وهكذا بقي اثرهم السياسي ضعيفاً .

ويختلف عن الشيعة الامامية ، الشيعة الاسماعيلية التي يقف الائمة عندهم عند الامام السابع اسماعيل بن الصادق ، وهو شقيق الامام موسى الكاظم ، كما هو حسب ترتيب الائمة عند الامامية . فالاسماعيلية التي حافظت ، ولو ظاهرياً ، على العقيدة الاسلامية ، اخذت الكثير من تعاليم الافلاطونية الحديثة والقول بالاشراق وهي مبادىء شاعت في بلدان الشرق الادنى ، قبيل الاسلام بقليل . فهي تشرح آي القرآن على اساس من التورية والرمزية ، بحيث ان الاديان لديها كلها سواء تقريباً . فالانتقال من الله الى الانسان ، انما يتم على سبعة ادوار او مراحل : اولها الله ، ثم العقل الكلي الذي تجسد تباعاً في سبعة أنبياء ، سادسهم محمـد ، وسابعهم ابن الامام اسماعيل الذي توارى ، حوالي عام ٨٧٠ . وبين كل نبي ونبي ، سبعة أئمة ، اولهم بعد محمد ، علي ابن ابي طالب ، اما الفاطميون فهم ائمة النبي السابع . وهم يعتقدون ان الامام معصوم ، وهو ملك النفوس كما انه سيد الناس اجمعين . اما الخلاص والجحيم والجنة ، فأشياء لا تعني شيئاً كبيراً عند الاسماعيلية ، بعـد ان سلموا بتناسخ الارواح او التقمص . وهكذا ابتعدوا عن جادة الاسلام .

يظهر مما تقدم ، ان عدداً قليلاً جداً من الاتباع والمريدين استطاع فهم هـذه التعاليم واستمراءها . فقد كان على المريد ان يمر بسلسلة من التعاليم السرية ، لا يبلغ منها القمة إلا فريق مختار . وتعاليمها تبقى سرية ، ويقوم بالدعوة لهـا جيش من المبشرين الداعي (جمع دعاة) يجوبون العالم لنشر الدعوة ، ودعوة الناس للاستعداد والتهيؤ ، بعد ان اقترب موعد مجيء المهدي ودنت نهاية العالم . وقد انتشرت تعاليم الاسماعيلية ، بين الطبقات الشعبية ، سواء في المدن او الارياف . وتألفت منها جمعيات مهنية ونقابات على أساس من مبادئهـا التي كانت محوراً لتنظيماتها . وفي الهيئات السرية التي نشأت فيها ، جماعة « اخوان الصفا » التي نعرف الكثير من تنظيماتها عن طريق « رسائلها » . وهذه الرسائل عبارة عن موسوعة العلوم والفنون في ذلـك العصر . ووجدت الاسماعيلية موطناً لها في الهند وبعض انحاء فارس وأفغانستان ، وفي زنجبار وافريقيا الشرقية .

ومن الحركات الهدامة ، في الاسلام ، حركة القرامطة ، وهي نحلة قامت على اساس مـن المطالب الاجتماعية والتعاليم الدينية ، هزّت بما أتته من الحوادث الدامية : الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق وايران والهند ، وتركت في اذهان الناس ، ولا سيما المثقفين منهم ، ذكريات مريرة لما جرته على البلاد من ويلات ودمار . وقد امكن كبح جماحهـا او حصرها في مناطق

ضيقة لا يخشى من شرها . وحوالي عام ٩٠٠ ، اشتعل العراق والتهبت جميع أطرافـــه بثورة لاهبة قامت بها جماعة الفلاحين بعد ان أنضم اليهم من نجوا من ثورة الزنج . وبعد جهود طويلة ووقائع مريرة امكن اخماد الفتنة وانقاذ الخلافة العباسية والحؤول دون سقوط بغداد .

ولم تستطع السلطة ان تقضي على اعشاش الثائرين المتحصنين في المستنقعات او في المنـــاطق الصحراوية ، الا بشق الانفس ، ولا ان تخفف من روع الطبقة الحاكمة الا بعد طول عناء ، كما انها عجزت عن منع القرامطة من اقامة حكومة مستقلة في جزيرة البحرين في الخليـج الفارسي هي اشبه ما تكون بجمهورية شعبية جماعية ، معادية للطبقة الارستوقراطية ، مع انها شجعت اعمال الرق ، فزرعت الخوف في البـــلاد وروعت مكة بالذات ، بعد ان استولت على الحجر الاسود الذي يتبرك الحجاج بلمسه ، والحقوا اضطراباً في الحركة التجارية بين البصرة وسيراف . وقـــد الحقت الحروب التي دارت ، اذ ذاك ، الخراب والدمار في طول البلاد وعرضهـــا ، وانهكت الدولة العباسية ، فالقت بها بين ايدي العسكريين ، وهي ضربة لم تستطع ان تنهض منها . وبعد القضـــاء على حركة القرامطة ظهرت الاسماعيلية بشكل سياسي ابرز ، فراحت تؤيد دعوة الفاطميين ومطالبتهم بالاستيلاء على السلطـة ، وهم من سلالة علي بن ابي طالب وابنته فاطمة ، وقد كتب للحركة ، هذه المرة ، نجاحاً تاماً .

انقسام العالم الاسلامي

وبدون هذه الاضطرابات التي مزقت الاسلام، كان من الصعاب المحافظة على هذه الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف . ان كبح الحركات الانفصالية كانت تذكي المطالب القومية ، وتحد من رغائب الشعوب التي ألِفت ان تحكم نفسهـا بنفسها . اما الحل الآخر القائم بارسال حاكم عسكري شديد الشكيمة ، فانما يعني انشاء امارة جديدة مستقلة . وحركة الانقسام السياسي هـــذه التي ابتدأت في القرن الثامن ، اخذت تشتد فيما بعد . فبالاضافة الى الدولة الاموية في الاندلس ، ودولة الخوارج في المغرب ـ نشأت عنـــد البربر الحديثي العهـــد بالاسلام ، دولة جديدة ، هي الدولة العلوية ، التي لم تكن من دول الشيعة ـ هي دولة الادارسة التي اسست مدينة فاس وجعلت منها عاصمة امارة مستقلة . ولـكي تكبح الخلافة من شكيمة هذه الحركات ، اولت الامر في افريقيـا الى دولة وراثية هي دولة الاغالبة في تونس ، التي عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع الشرق كما حافظت على نفوذ الخلافـة في الغرب .

اما في الولايات الشرقية ، فالوضع كان اكثر اضطراباً منه في الغرب . فاذا القينـا النظر ، رأينـــا الانقسام السياسي ضارباً اطنابه على حساب سلطة الخليفة . فالزيديون يسيطرون على اليمن برمتها ، والقرامطة على البحرين وما اليها ، امـا مصر التي بقيت ، مدة طويلة ، مسرحاً لاضطرابات دامية فلبثت محافظة على ولائها للسلطة الشرعية . وقد استطاع ابن طولون ، وهو قائد تركي اوفدته بغداد لارجاع الأمن الى نصابه ، ان يؤلف في البلاد دولة جديدة : هي الدولة

الطولونية ، زالت من الوجود ، في اواخر القرن التاسع امـــام طلوع الدولة الاخشيدية ، التي عرفت ان تحافظ على علاقتها ببغداد . وفي القرن العاشر ، سقطت سوريا الشمالية وولاية الموصل تحت سيطرت الدولة الحمدانية ، حيث استطاع سيف الدولة ان يكسب مجداً مؤثلاً ، بما حقق من انتصارات في حروبه ضد البيزنطيين ، وبرعايته للادب والادباء .

اما ايران ، فقد شهدت ، خلال القرن العاشر ، قيام عدة دول كردية تقاسمت البــلاد من بحر قزوين حتى شطآن دجلة . فقـــد قام في قلب البلاد ، بين الديلم الحديثي العهد بالاسلام ، دولة قوية ، تولى الامر فيها البويهيون ، من الشيعة الامامية . اما في شرقي ايران ، فقــد تألفت في خراسان وبلاد الصغد ، دولة اخرى هي الدولة السامانية التي انحدرت من آل الضحــاك ، احدى الاسر الوطنية التي امنت للبلاد ازدهاراً اقتصادياً واشعاعاً ثقافياً عالياً . وهكذا قامت في جميع ارجاء ايران ، دويلات وطنية ، تولى الامر فيها امراء من اهل البلاد . وهــذه الفترة القصيرة التي عرفت في التاريخ : « بالفترة الايرانية » ، فان لم تستطع ان تحل شيئاً من هـــذه المشكلات العارضة فقد ارضت المطامع الوطنية . وبعد فترة وجيزة ، اي حوالي عام ١٠٠٠ ، سقطت الدولة السامانية فريسة لهجوم استهدفت له من الخارج ، ومن الجيش في الداخل ، كلاهما على يد عناصر تركية . وقد تقاسم الغزاة الاسلاب بالسوية : فتمكن العصاة من قادة الجيش من انشاء دولة ضمت الجانب الاكبر من افغانستان ، عاصمتهــا غزنة ، اشتهرت بالمآتي العظيمة التي قام بها محمود الغزنوي . ولم تلبث ايران بعد ذلك بقليل ، ان وقعت فريسة لغزاة جــــدد من الاتراك .

وقبل هذا التاريخ بكثير ، كان الانحطاط بلغ من الخلافة العباسية ، كل مبلغ . فقد وقعت بغداد نفسها فريسة لفتن متعددة قام بهــا العيّارون ، ورجال الجيش . وعبثاً حاول بعض الوزراء ، بالرغم من المنافسات الشديدة التي قامت فيما بينهم ، منهم الوزير علي بن عيسى ، وابن الفرات ، ارجاع الامن الى نصابه وانقاذ ما يمكن انقاذه من الادارة العـــامة ، ولا سيما ادارة بيت المـــال . وتعاقب سراعاً على السلطة اذ ذاك ، باسم الخليفة عدد من الامراء عرفوا بـ : « امير الامراء » ما كاد يستتب لهم الامر ، حتى يتهادى بين ايديهم الى الحضيض ليقع بيــــد أقوى . وفي سنة ٩٤٥ ، سقطت بغداد بين ايدي سلاطين الدولة البويهية ، كما وقع الخلفـــاء العباسيون تحت سيطرة الديلم الامامية ، ولمـــا كان السواد الاعظم من المسلمين بقي معتصماً بالشرعية ، لم يعمد الفاتحون الى إلغاء الخلافة ، بل حافظوا على ما لها من سلطة روحيـــة كانوا يتسلحون بها لتبرير استئثارهم بالسلطة في نظر السنيين .

الفاطميون في مصر والاوميون في الاندلس

اما فتح الفاطميين لمصر فقد أخفى في ثناياه ، خطراً أكبر هدد الخلافـــة العباسية . وبفضل داعيتهم ابي عبدالله، الذي لاقى عند الفاطميين المصير السيء الذي لاقاه ابو مسلم الخراساني عند العباسيين، راح احد الائمة الفاطميين هو عُبيد الله الفاطمي ، يستغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين البربر

الروس
بلغار
الفولغا
اتراك اوغوز
كييف
البندقية
المجر
البتشنيك
روما
الخزر
الدولة الكاراخانية
سمرقند
بخارى
بلخ
مرو
غزنة
لاهور
الدولة الغزنوية
هراة
نيشابور
خوارزم
الري
طرابزون
بلاد الكرج
تبريز
الأكراد
الموصل
حلب
الحمدانيون
همذان
البويهيون
بغداد
اصفهان
طرابلس
دمشق
القدس
الاسكندرية
القاهرة
الفاطميون
المهدية
القيروان
البصرة
شيراز
القرامطة
الهند
المدينة
مكة
١٠٠٠ كم ٥٠٠
١
٢

الشكل (رقم ٧) ـ الشرق الادنى حوالي عام الف
١ ـ الامبراطورية البيزنطية ٢ ـ الدول التوابع لها

وتذمراتهم ضد الاغالبة ، يستولي على الامر ، في افريقيا ، في مطلع القرن العاشر ، كما استولى على صقلية والمقاطعات التابعة لامراء آل رستم . وفي سنة ٩٦٩ ، استطاع احد خلفائه هو المعز لدين الله ان يستولي على مصر ، وأسس قائدهم جوهر الصقلي ، على مقربة من الفسطاط ، مدينة جديدة هي القاهرة ، وتركوا امر تدبير افريقيا لأمراء استقلوا بها تحت سلطة الفاطميين . ولم يلبث ان اصبحت الاسماعيلية في مصر العقيدة الرسمية في البلاد ، مع ان الشعب لم يقبل عليها اقبالاً واسعاً ، كما ان الذميين فيها حققوا لهم بعض النفوذ السياسي . إلا ان قيام خلافة فاطمية في القاهرة ، مناهضة للخلافة العباسية في بغداد ، كرّس فصل مصر عن القارة الآسيوية . وقد نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر ، ترعاها السلطات الحاكمة ، تشد من ازرها جامعة الازهر، وامتدت هذه الدعوة الى الخارج ، مما اقلق اهل السنة .

ان قيام دولة الفاطميين ، عند مداخل آسيا من الغرب ، لم يهدّىء من هيجـــان العناصر المتطرفة في الاسلام . فبعدم تحقيقها أي اصلاح اجتماعي في البلاد ، أفقدها عطف القرامطة . اما الاسماعيلية الذين حلموا دوماً بقيام دولة نصف إلهية ، واعتقدوا دوماً بقرب انتهاء العالم ، فقد شق عليهم كثيراً ما شهدوا من الضعف البشري في الخلفاء والحكام . فالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اعتلى عرش الدولة حوالي سنة ألف ، والذي عُرف بشذوذه ، تبدّى للناس ، لهذه الاعتبارات بالذات ، تجسيماً للألوهية . وقد لقيت دعوته قبولاً عند بعض سكان سوريا ممن عرفوا فيما بعد بالدروز نسبة للداعية الذي قام بالدعوة للحاكم في اوساطهم . وفي الوقت ذاتــه تقريباً ظهرت في شمالي سوريا فرقة النصيرية او العلوية،وهي فرقة قد يكون بعض أتباعها من بقايا الاقوام الوثنيين الذين اخذوا بشيء من المسيحية والاسلام ومبادىء الشيعة المتطرفة . فقد رأوا في علي نفسه ، الله بالذات ،فتمثلوه واحتفلوا بذكراه وفقاً للأساطير الميثولوجية القديمة . اما الخليفة الحاكم فقد راح يضطهد المسيحيين والذميين من رعاياه ، نزولاً منه عند انتفاضة شعبية، اذ ساء الجماهير ونغّصهم كثيراً ما رأوا من حسن معاملة الخلفاء الفاطميين الذين تقدموه للذميين ، وأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف. إلا ان هذه النزوة لم يطل أمدها ، وبقيت برقاً خُلّباً . وقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الحجاج المسيحيين الى القدس ، وبقي صداها يـتردد بعيداً في الارساط المسيحية في الغرب، بعد ذلك بقرن، فاتخذ منها بعضهم حجة لهم عندما قاموا يدعون للحروب الصليبية .

ولم يستطع الفاطميون ، كالعباسيين منافسيهم في الشرق ، ان يؤمنوا الاستقرار السياسي في البلاد . فقد وجدوا انفسهم أسرى جيوشهم من البربر والزنج اضافوا اليها ، تأميناً للتوازن ، وحدات من الاتراك والاكراد والارمن ، بينما راحت افريقيا الشمالية تحاول الانفصال عنهم بعد ان زهدوا بها وتناسوا امرها . ولكي يقتصّوا لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفته ضدهم الدولة الزيرية في تونس ، اطلقوا يد القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف والفزع في جنبـــات مصر ووجهوها ، في اواسط القرن الحادي عشر ، ضد افريقيا ، فجرّت عليها الخراب والدمار،

وأنزلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبة نكباء لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألبت عليها منذ القديم ، وبدّلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي . فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترتادها الركبان والقوافل ، وانتفت منها معالم الزرع والضرع ، وتهدمت شبكة الاقنية التي كانت تؤمن سقاية الارض . ولم يستطع البربر ان يحولوا دون تقدم الهلاليين نحو الغرب . فقد أنزلت غزواتهم الخراب في البلاد ، وقد كانوا السبب الاول في هـذا الخراب الاقتصادي الذي لا يزال يعاني منهم المغرب الامرين .

ولم يلبث الفاطميون ان تحولوا عن عقيدتهم الاسماعيلية . فقد كان من جراء حرمان الامير نزار ، بكر الخليفة الفاطمي المستنصر ، من حق الخلافة ، في اواخر القرن الحادي عشر ، ان تحزّب له فريق من الايرانيين ونهضوا بأمره، فكان ذلك اول انفصال وقطيعة للفاطميين . وقد عقبه انفصال ثان ، في مطلع القرن الثاني عشر ، عند اختفاء ابن الخليفة الآمر ، الذي ولد بعد موت أبيه وقد رأت فيه اليمن، الوريث الشرعي للخلافة . وقامت بـين الفاطميين فتن وحروب داخلية أفقدتهم ما بقي لهم من شأن ومنزلة في النفوس ، كما زادت من نقمة السنة عليهم . ومنذ وزيرهم بدر الجمالي ، وهو ارمني اعتنق الاسلام (اواخر القرن الحادي عشر) الذي قام باصلاح شامل في البلاد ، صار امر الدولة الى عدد من الوزراء معظمهم من قادة الجيش . فاذا ما استطاع الفاطميون البقاء في الحكم الى عام ١١٧١ ، مع ما كانوا عليه من ضعف ووهن، فالفضل فيه يعود لجيرانهم الضعفاء ، من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، لهـذه الدولة العازلة التي قامت في الاراضي المقدسة ، مع الصليبيين ، وفصلت بين مصر وبلدان آسيا .

اما في الاندلس ، فقد راح الامير عبد الرحمن الثالث ، في مطلع القرن العاشر ، يعلن نفسه خليفة مستقلاً ويقطع بذلك كل صلة له بالعباسيين والفاطميين على السواء ، جاعـلاً من اسبانيا الاسلامية – الاندلس – ومن سكانها الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، منارة العالم الاسلامي اذ ذاك . فالممالك المسيحية التي قامت في الشمال الغربي من اسبانيا والتي عرفت ان تحافظ على سيادتها واستقلالها بالرغم من هجمات المسلمين ، والتأثير البالغ الذي كان للاندلس على المغرب الاقصى ، ولا سيما لعاصمتها الجميلة قرطبة ، أمّنت للاندلس اشعاعاً ادبياً وفكرياً عظيماً ساهمت فيه جميع عناصر البلاد على اختلاف عقائدها ونحلها . وقد اقبل مسيحيو البلاد على مناصرة الحـكم والاسهام بهذا الاشعاع الفكري والروحي الذي عرفته الاندلس اذ ذاك ، مع حرصهم الشديد على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الدين في الشمال ، وهو وضع لا نرى له مثيلاً ، ولو على نطاق اضيق ، إلا عند الارمن . وقد لعب اليهود دوراً بارزاً اذ ذاك وازدهرت اعمالهم وبرز نفوذهم بحيث ان احدهم المدعو حسداي بن شبروط، وزر للخليفة عبد الرحمن، كما ان احدهم نال الوزارة بعد ذلك بقرن، وتمتع بنفوذ عريض في احدى دول الطوائف في الاندلس. فلا عجب ان يقوم بين العرب والبربر ، وسكان البلاد الاصليين ، والارقاء – ومعظمهم من الصقالبـة – اختلافات واصطدامات لم يكن بد منها ، إلا انها لم تصل يوماً لما وصلت اليه هذه الاصطدامات من عنف في

الشرق ، كما انها لم تفض قط الى وقوف العسكريين وسكان البلاد الاصليين ، وجهاً لوجه . واذا كان استطاع المذهب المالكي ان يسيطر في كل من الاندلس والمغرب ، فقد تمّ له ذلك دون ان يترك أية ردّة في البلاد او بسبب أي ضغط او اكراه . فقد كانت الاندلس ، حتى القرن الحادي عشر ، مثالاً للتساهل . ومع ذلك فلم تستطع ان تحول دون وصول بعض الشخصيات المدنية والعسكرية الى الحكم واستئثارهم بالسلطة ، على شاكلة سدّنة القصر عند ملوك الفرنج . وقد اشتهر احدهم حوالي سنة ألف، هو ابن ابي امير المنصور – المعروف باسم « المنصور » في الملاحم المسماة *Chansons de gestes* . غير ان اولاده لم يستطيعوا الحد من العناصر المتنافسة في الداخل : من بربر وصقالبة ، ووطنيين ، الذين ألفوا عدداً من الامارات المستقلة عرفت باسم ملوك الطوائف لعبت احداها، أي مملكة اشبيلية، دوراً بارزاً في الاشعاع الحضاري . وهذا الانقسام والتوزع كان من شأنه ان يهدد الاسلام في الصّميم ، في الاندلس ، في الوقت الذي راحت فيه المسيحية في الغرب تستفيق من سباتها وتستجمع من قواها .

بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، لم يعد من الدقة بشيء التحدث او التغني بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال الشعور بالتضامن قوياً بين اقسام هذا العالم . وسيبقى هذا الشعور الميزة التي تطبع العالم الاسلامي بالرغم مما اعتراه من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الالف من السنين التي تعاقبت عليه .

النهضة السياسية في بيزنطية

فتجاه عالم الاسلام الذي اخذ في التفتت ، نرى الامبراطورية البيزنطية ، تقوم في القرن العاشر بحركة اصلاحية تجدد فيها من قوتها ونشاطها ، فلم تعد تعاني ، الا بعد ذلك بزمن طويل ، وعلى نطاق ضيق ، من هذه الانقسامات الدينية التي عانى العالم الاسلامي فيها ما عانى . فالحياة الرهبانية المشتركة تبلغ الذروة ممثلة باديار جبل آثوس التي تؤلف فيا بينها ، تحالفاً دولياً من هؤلاء الرهبان الذين ينتمون الى عدة بلدان من العالم الارثوذكسي ، أضف الى ذلك وحدة الايمان التي تشد من الوحدة الوطنية ويشتد منها الساعد عن طريق نشر المسيحية الارثوذكسية بين الشعوب الصقلبية ، والدفاع عن امتيازات الكنيسة الارثوذكسية من تدخلات البابوية المستضعفة الجانب . وقد تمثلت الحركتان خير تمثيل في شخص علم من اعلام الكنيسة ، اذ ذاك ، هو فوتيوس . فقد كان من امجاد جامعة القسطنطينية ، رُفع الى الكرسي البطريركي ، عام ٨٥٣ ، في ظروف مشبوهة كانت مدعاة للفتنة والجدل ، وراح يقاوم مطالب الكرسي الرسولي الذي لم يعترف بشرطنته بطريركاً على القسطنطينية ، كما راح يغذي حركة ارتداد الصقالبة والبلغار الى الديانة المسيحية ، وهي رسالة نشطت للنهوض بها كل من روما والقسطنطينية ، على السواء . وقد نظر الرأي العام البيزنطي الى البطريرك فوتيوس نظرته الى خير من يمثل المطالب الوطنية ، والى من يعرف ان يحدّ من تدخلات روما ويقف في وجهها . فالفوارق ، مهما كانت طفيفة ، التي قامت بين الكنيسة

الشرقية والكنيسة الغربية ، برزت على حدتها : كاختلاف الطقوس الليتورجية ، اذ ان الكنيسة اللاتينية تستعمل الفطير في الذبيحة الالهية بينا تستعمل الكنيسة الشرقيه الخبز ، واختلاف في بعض الانظمة كقص الشعر عند الرهبان في الكنيسة الشرقية لاي طقس انتسبوا ، وهذه الفروق بين الطبقات الدنيا في الاكليروس واصحاب المراتب العليا منهم الذين كان يؤتى بهم من رهبان الأديار ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة ، واللغة المستعملة في الليتورجية والطقوس الكنسية ، وبعض قضايا الايمان بعد ان ادخلت روما على قانون الايمان القول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن . والانفصال الذي تمّ على يد البطريرك فوتيوس لم يلبث ان امكن رتقه رسمياً ، دون سد الثغرة او الهوة التي شجرت بين الكنيستين الشقيقتين ، وعندما سنحت ، عام ١٠٥٤ ، امام البطريرك ميخائيل كيرولاريوس فرصة جديدة للانفصال من جديد ، تمت القطيعة نهائياً بينهما ، وهي قطيعة تهيأت ظروفها منذ عهد بعيد .

وفي سنة ٨٦٧ ، صار العرش الامبراطوري ، في شخص الامبراطور باسيل الاول ، الى الاسرة « المقدونية » التي بذلت جهداً طيباً في اصلاح نظم الدولة البيزنطية ومؤسساتها العامة ، وفي توطيد دعائم الادارة وهيبة الدولة في قلوب الاهلين . فالمجموعات الفقهية ، والمؤلفات الوصفية التي ظهرت في هذه الحقبة نتيجة طيبة لهذا الاصلاح ، هي خير المصادر التي تمدنا باوثق المعلومات حول النظم والمؤسسات التي راجت في الامبراطورية البيزنطية ، في هذه الحقبة بالذات . ان اعادة النظر بالقانون اليوستنياني وتكملته باللغة اليونانية ، كل ذلك افضى الى نشر ما يعرف بالقوانين الباسيلية ، التي ظهرت في مطلع القرن العاشر ، في عهد الامبراطور لاون التاسع ، والى هذه المجموعة من القوانين يجب ان نذكر هنا : « كتاب **الولاة** » الذي جاء ظهوره يكمل سلسلة الكتب الشرعية المعمول بها اذ ذاك . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن ، راح الامبراطور العلامة قسطنطين المتدثر بالارجوان ، يضع عدداً من الرسائل والابحاث تؤلف مجموعة هامة من الوثائق والمصادر الاولى ، تصف لنا العادات والاحتفالات الرسمية التي كانت تجري في البلاط الامبراطوري ، كما تصف بالتفصيل ، الادارة العامة في الامبراطورية ، والعلاقات التي قامت بينها وبين البلدان الاجنبية الاخرى . كذلك ظهر في هذه الفترة بالذات ، كتاب ، *Taktikon* ، وهو بحث يدور حول تنظيمات الجيش ، تم وضعه في نطاق حاشية الامبراطور العسكري نيقفوروس فوكاس . ومع ان هذه التشريعات ، والقوانين والتنظيمات التي وضعت ، اذ ذاك ، لم تأت اكلها كاملاً ولم تتبلور عملياً عن اعمال ووقائع ذات شأن ، فليس في مكنة احد ان ينتقص من قيمة هذه المحاولة الجبارة او من نتائجها الطيبة ، ولو جاءت منقوصة ، غير مكتملة .

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية : أكثفا عدة ، وأمضى سلاحاً ، لاستئناف الهجوم ضد العالم الاسلامي المتفكك الاوصال . فلقد اقتضى لها قرناً (٨٥٠ — ٩٥٠) لبسط سيطرتها وتأمين سيادتها على قلب آسيا الصغرى ، وهي منطقة جديدة لها ، بعد ان تخلصت من خطر البولسيين

وشوكتهم ، فقتلت منهم من قتلت ، وأجلت منهم الى مقاطعة تراقيا ، من أجلت وأبعدت . وقد استعادت على الساحل الدائري للبحر الابيض المتوسط ، ما فقدته من املاكها السابقة في ايطاليا الجنوبية باستثناء صقلية ، وحررت جزيرة كريت من سيطرة العرب عليها . وقامت على حدودها الشرقية بسلسلة من الحملات والغزوات ، تلقى ضرباتها وهجومها الامير سيف الدولة الحمداني وحده تقريباً ، واستولت على المقاطعات الواقعة الى ما وراء جبال الطوروس ، كاقليم انطاكية في سوريا الشمالية والحصون الواقعة على الفرات كملاطية والرها . وبمساعدة الارمن الذين اشتهر عدد كبير منهم على رأس الامبراطورية امثال يوحنا تزيميسيس الذي خلف نيقوفوروس على كرسي الملك ، حل النفوذ المسيحي في ارمينيا محل النفوذ الاسلامي . وقد جمعت وحـدة المصالح والعداء المشترك ضد اسياد العراق ، بين البيزنطيين والفاطميين ، بالرغم مـن الموقف العدائي الذي وقفـه الحاكم بأمر الله ، من المسيحيين ، وقاربت الاهداف فيما بينهم فأتاح ذلك للامبراطور ان يأخذ تحت حمايته المسيحيين، ولا سيا الملكيين بينهم في الاراضي المقدسة. قلما رأينا النفوذ البيزنطي يبلغ ، بعد الفتح العربي ما بلغه من نفوذ في هذا العهد .

وبفضل الوهن الذي نزل بالعالم الاسلامي ، والتفكك الذي آل اليه ، استطاعت ارمينيا ان تسترجع استقلالها السياسي . فهذه البلاد التي لم تنسجم يوماً مع النظام الاداري الاسلامي ولم تأتلف معه ، انقسمت بالرغم مما قام في اطرافها من بعض الحاميات الاسلامية، الى عدة امارات مسيحية مستقلة ، حيث تولت مقاليد الحكم فيها والتوجيه السياسي ، ارستوقراطية عسكرية وكنيسة عمرت بالحياة النسكية والرهبانية ، يأتمر بتوجيهاتها ، شعب يعتاش من اعمال الفلاحة والزراعة ، مشدود كغيره من طبقة الفلاحين في اماكن اخرى ، أكثر فأكثر ، الى الارض ، وبينهم تجمعات قوية من سكان المدن ، من محترفي المهن والحرف . كل هـذه الامارات اعترفت على انساب متفاوتة ، برئاسة « ملك الملوك » من السلالة البغرتية التي كانت عاصمتها مدينة آني الواقعة عند منتصف نهر أراكس، وقامت الى الغرب، وحدات ارمنية ، في الاراضي البيزنطية، كما قام غيرها، من جهة الشرق في امارات ودول اسلامية. وقد جاشت هذه الوحدات السياسية، على اختلافها ، بروح وطنية عارمة ، فراحت تتجاوب مع كل معضلة وتتفاعـل بكل جدل طارىء ، وتتوزع احزاباً تميل ، هذه مع النبـلاء المتنافسين ، وتلك مع اتباع الكنيسة اليونانية ، فقد رأى الامبراطور باسيل الثاني ، حوالي السنة الألف ، في هـذه المناسبة ، فرصة سانحة لبسط سيطرته على بعض هذه الامارات الارمنية ، كما اتاح لخلفائه ، عندما أطل عليهم الخطر التركي بعد ذلك بنصف قرن ، بسط سيطرتهم على الامارات الاخرى . وقد راح عـدد كبير من الارمن ممن انقطعوا لاعمال الفلاحة والزراعة وتعمير الارض الموات ، ولبعض نبلائهم ممن اقطعتهم بيزنطية ، بعض الاراضي ، ينزحون الى اواسط آسيا الصغرى ، بعد ان افقرتهـا الحروب المتتابعة ، من سكانها ، كما راح غيرهم يطلب الرزق لهم في ارض مصر . ومنـذ ذلك الحين ، لم تعرف ارمينيا في تاريخها المديد قيام دولة موحدة في اراضيها ، باستثناء امارة صغيرة قامت في كيليكيا ، سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

فامام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية ، استطاعت ان تواجه معاً الصقالبة والبلغار في البلقان ، بشكل عاد على الامبراطورية بنجاح اكبر مما عادت عليها به حملاتها المتكررة ضد الولايات الشرقية التي افاد منها كبار الاقطاعيين من الرجال العسكريين ، في آسيا الصغرى . فالتوسع الديني ، والديبلوماسية البيزنطية التي عرفت ان تقيم الشعوب بعضاً ضد بعض ، والانتصارات الحربية التي حققتها جيوشها ، كل ذلك ساعد بالتضافر والتضامن ، على تحقيق مثل هذه النهضة ، التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي الى اقطار مرت بتطورات جذرية منذ الغزوات الصقلبية الكبرى .

البلدان الصقلبية

بين القرن التاسع والعاشر اخذت معلوماتنا حول البلدان البلقانية تزداد اكثر فاكثر ، وضوحاً وتوثيقاً . فاذا ما اجلنا النظر ، رأينا الاقوام الصقلبية تتكون وتنشىء لها امارات مستقلة ، فيتفاعل القائمون منهم في الغرب ، امثال الكروات والسلوفين بنفوذ الكارولنجيين ، بعد ان دخلوا برهة ، في وحدة الامبراطورية التي شكلوها . اما الذين قاموا منهم في الوسط او في الشرق ، كالصرب والهرسك على الاخص ، فقد ساروا في تطورهم الصاعد ، على نهج مماثل . فالبلغار وحدهم ، بين هذه الشعوب ، يتمتعون بنظم سياسية نامية ، يبز ما عرف من امثاله عند الشعوب المجاورة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، حل محل المعاهدة التي عقدت بين بيزنطية والمملكة التي انشأوها الى الجنوب من الدانوب الاسفل ، سلسلة من الحروب ، لم يكن بد منها ، عادت على « القيصر » كروم ، بعد عام ٨٠٠ بقليل ، بنصر مبين ، استطاع معه البلغار ان يوسعوا شيئاً فشيئاً ، من نفوذهم وسيطرتهم ، على حوض نهر مارتزا الاعلى ، ثم وسعوا من نفوذهم نحو الغرب والجنوب الغربي ، على الاقوام الصقلبية المستوطنة في حوضي نهر المورافا والفردار ، اما في الشمال الغربي ، فقد اصطدم نفوذهم بغزوة المجر . وحوالي سنة ٩٠٠ ، نرى القيصر سمعان يسيطر على امبراطورية فعلية امتدت اطرافها من البحر الاسود شرقاً الى البحر الادرياتيكي غرباً ، حيث العنصر البلغاري اخذ يذوب ، تدريجياً ، بين الاكثرية الصقلبية : فالعنصران يعتبران مترادفين ، واللغة السلافية اخذت تدريجياً تحل محل اللهجة البلغارية التركية الاصل .

لا نعرف شيئاً يذكر عن صقالبة اوروبا الوسطى من قبائل الصوراب ، والبولاب والبوميرانيين والبولونيين القاطنين ما وراء نهر الإلب ونهر السال ، ممن دخلوا في حروب كثيرة مع الكارولنجيين واباطرة الاسرة الاوتونية . ونملك معلومات اوثق حول المملكة القوية التي انشأها ، في اواسط القرن التاسع ، امراء مورافيا فضمت ، فيما ضمت من اقوام وشعوب ، التشيك والسلوفاك . وليس من شك قط ان قامت بين الروس ، وعلى الاراضي الروسية ، نزعات مماثلة وامارات متشابهة . وسيشهد تاريخ هذه الاقوام ، هنا ايضاً ، تطورات جذرية ، اثر تدخل عنصر اجنبي جديد ، يتمثل خير تمثيل في هؤلاء الاسوجيين ، اخوة « النورمنديين » في اوروبا الغربية ، الذين كانوا يجوبون على ظهر سفنهم ، خلال الاراضي الروسية ، متنقلين عبر

الانهر الكبيرة ، حتى بلغوا مشارف بحر قزوين والبحر الاسود . وقد صرّفوا نشاطهم بين التجارة والسلب ، كما تشهد على ذلك النقود التي عُثر عليها في مناطق بحر البلطيق ، واسسوا خلال القرن التاسع مواطن مستقرة على طول الطريق التجارية الكبرى الممتدة من البلطيق الى البحر الاسود مروراً بمدينة نوفغورود وكييف ، وبسطوا منها سيطرتهم على الصقالبة . وحوالي عام ٨٥٠ ، قام زعيمهم روريك ، وهو شخصية تحيط بها كثير من الاساطير ، بتوطيد هذه المناطق التي تمر بها هذه الطريق السلطانية ، ووضعها تحت سلطته . وليس ما يؤكد قط ان لفظة « روس » ، أطلقت ، اول ما أطلقت على الاسوجيين قبل ان يعم اطلاقها على هـذه الطائفة من الصقالبة ، كذلك ليس ما يؤيد قط ان هذه الكلمة أطلقت ، قبل ان تطلق عليهم ، على فريق من الصقالبة خضعوا لسيطرتهم . وقد اصطلح البيزنطيون ، بعد ان استعملوا العديد منهم مرتزقةً في جيوشهم ، على تسميتهم بشعوب *Varègues* ، مع انهم لم يجهلوا اسم : « روس » الذي عرفوا به ايضاً . ومهما يكن من الامر ، فليس من يزعم بعد ، ان مملكة كييف لم تقم لها علاقات مع الصقالبة ، ولا تلقت شيئاً من اثر الاسوجيين . فتاريخ هـذه المملكة هو بالفعل حبيكة من هذه العوامل والمؤثرات ، ونتيجة منطقية لصقلبتها ولاخذهـا بسرعة ، بالعوامل والعناصر السلافية . وهذه المملكة التي حدهـا من الشرق ، بصورة عامة مملكة البلغار الواقعة على نهر الفولغا ، ومن الجنوب الشرقي مملكة الخزر ، ومن الجنوب مملكة البلغار على نهر الدانوب ، كما تاخمت بعد ذلك بكثير قبائل *Petchenègues* والبحر الاسود ، ومن الغرب امارة بولونيا الناشئة التي كانت دولة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، تولى مقدّراتهـا ملوك خلّدت اسماءهم الآداب الشعبية ، منهم أوليغ وإيغور ، وأولغا وفلادمير وياروسلاف . والثابت ان احدى اميرات كييف تزوجت بهنري الاول من آل كابت .

وقد استهدف صقالبة الدانوب لضغط قوي من قبـل المجر ، وهم قوم من العِرق الفيني ، اقتبس الكثير من الطباع والاخلاق التركية . وقـد زحزحهم عن مناطق الأورال حيث كانوا يقيمون ، قبائل البتشينيك ، فاستقرّوا ، بعد غيرهم من الغزاة الذين سبقوهم، في سهول بانونيا ، وهكذا سيطروا على من فيها من صقالبة ، فصلوا بصورة نهائية ، بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب . وقُيّض « للمجر ان يسيروا في تطورهم على نهج لم يعرف شيئاً منه ، لا شعوب الهونز ولا قبائل الآفار . واستطاع المجر ان يصمدوا في وجه الشعوب التي جاورتهم ، وان يتخلّوا عن بداوتهم، ويتحضروا ويستقروا في مواطنهم،ويؤلفوا مجتمعاً تميز بالملكية الجماعية التي سارت جنباً الى جنب والملكية الفردية وكادت تحل محلها ، وهو مجتمع اخذ في عهـد سلالة ارباد يتماثل مع المجتمعات المجاورة له .

وبقي المجتمع السلافي سواءً في تركيبه تقريباً ، لدى جميع الدول الصقلبية او ذات الاكثرية الصقلبية ، عماده الاكبر وركيزته الكبرى القرية أو الاسرة الكبيرة التي عُرفت في البلقان باسم زدروغا ، كما ان زعماءهم أو امراءهم – وهم حكام الأقضية على الغالب – وقد عرفوا في البلقان

باسم : جوبان ، احتفظوا لانفسهم بحق توزيع الاقطاعات الخاصة ، على انصارهم وازلامهم الذين اطلقوا عليهم اسم *Boiars* ، يمهدون بفلاحتها وزراعتها لعدد كبير من الارقاء ، من أسرى الحروب . وقد ألف الرق السلعة الكبرى في هذه الحركة التجارية التي اخذت بوادرهـا تظهر عندهم ، في هذه المبادلات التي اخـذوا يقيمونها مع مدينتي تسالونيكي والقسطنطينية . ومن الاصناف التي كانوا يقايضون بها او يبيعونها ، ما كان يقع في ايديهم من حصائل الصيد والقنص وجني العسل ، وكان كبار القوم منهم يستوردون المنسوجات الجيدة والكماليات التي تؤمنهـا الصناعة في بيزنطية . اما في روسيا ، فالآفاق اخذت تتسع وتنبسط امـام الحركة التجارية في مملكة كييف ، فربطت بين البحر البلطيقي والبحر الاسود ، وكانت ضعفي تجارة بلغار الفولغا التي اتجهت بالاحرى نحو آسيا الوسطى . ولا شك قط في ان المحاصيل الريفية كانت اساس الاستهلاك المحلي ، وعليها قامت بالاكثر الحركة الاقتصادية في البلاد ، وقد اخذت المدن الكبرى فيها تنمو وتتطور بسرعة بعد ان استحالت اسواقاً تجارية نشيطة ، ومراكز سياسية وعسكرية لها شأنها ، كمدينة كييف مثلاً ، ونوفغورود . وقد كان لملوكهم حاشية تشبه الى حد بعيد ، ما كان منها لملوك الجرمان ، إبان غزواتهم على الغرب . من الصعب جداً تحديد السرعة والاساليب التي استحال معها اعضاء هذه الحاشية الى ملاكين اسياد ، كما يبدوا لنا منـذ القرن الثاني عشر ، وبالتالي يستحيل علينا ان نعرف ، ما هي نسبة الفلاحين *Smerdi* الذين كانوا ، من حيث المبدأ ، احراراً ، انما اخذوا يتحولون تدريجياً الى توابع ، من جراء الديون التي ارهقتهم ، أو لاسباب اخرى . وهذا التطور تمّ على اقـدار متفاوتة ، حسبما يكون القوم في وسط المملكة ، او في المقاطعات المكسوة بالاحراج الواقعة عند اطراف البلاد حيث السكان قليلون ، وحيث الناس يلسكمون في فقر مدقع ، في عزلة تامة من كل توجيه او مراقبة ، في جوار بعض الاقوام الفينية الممعنة في خشونة الطباع والهمجية .

التبشير بالمسيحية بين الصقالبة

اخذت المسيحية تتغلغل بين اقوام الصقالبة وتنتشر في اوساطهم الشعبية ، مغيرة نظمهم السياسية ، والاجتماعية . فقـد رأت بيزنطية في حمل الدعوة المسيحية اليهم بسطاً لنفوذها . وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً كبيراً بين الصقالبة المقيمين في مقدونيا واليونان ودلماتيـا . وبفضل علاقات الكرواتيين بالامبراطورية الكارولنجية ، اعتنقوا المسيحية اللاتينية ، بينما تولى تنصير الصرب رهبان يونان ومبشرون على الطقس البيزنطي ، وهو اختلاف لا تزال آثاره باقية ، ظاهرة على اشدها حتى يومنا هذا ، بين العنصرين القوميين اللذين يتألف منهما الشعب اليوغوسلافي . اما الكرازة بين المورافيين والنجاح العظيم الذي اصابته ، فالفضل فيه كل الفضل يعود : « لرسولي الصقالبة » كيرلس وميثوديوس . فمن الانجازات العظيمة التي حققاها في هذا المجال ، تزويد الصقالبة بابجدية خاصة مستوحاة من الابجدية اليونانية ، استجابة منهما للرغائب التي كثيراً ما اعرب عنهـا المبشرون الذين سبقوهما الى هـذه الدعوة ، كما اعدّا نصوصاً بلغتهم مكتوبة بالحرف الجديد ، ونظّما لهم الطقوس

الليتورجية ، وشكلا كنيسة سلافية ، بحيث يمكن التأكيد هنا بان دخول الدين الجديد الى هذه الشعوب الصقلبية ، وآدابهم القومية ، كل ذلك هو من صنعها . فالمسيحية الشرقية التي نشأت وتطورت بين لغات وثقافات مختلفة ، حاولت دوماً ان تكييف الطقوس الدينية وفرائض العبادة وفقاً للسان كل شعب من هذه الشعوب ، وقد ساعد هذا على تغلغل الروح الدينية بين الطبقات الشعبية ، الا انها اضعفت من جهة ثانية الشعور بالوحدة المسيحية واوهنت الاتصالات بين الثقافات الام الاخرى . فلا عجب ان تكون روما نظرت الى عمل كيرلس وميثوديوس نظرة ملؤها القلق والريبة ، اذ لم يكن عندها الا كنيسة واحدة ، ولغة واحدة هي اللاتينية . كذلك اثار هذا الوضع الهواجس بين الالمان وحرك حفائظهم ، فعارضوا قيام كنيسة سلافية لا تخضع لسلطة الاكليروس الجرماني،وهذا ما يتفق تماماً والقاعدة المرعية في الكنيسة اللاتينية . الا ان دخول المجر مناطق الدانوب جعل الولاء للجرمان امراً لازماً، وهكذا ندّ تاريخ الصقالبة في اوروبا الوسطى عن تاريخ الشرق المسيحي .

فالعمل الكيرلسي عرف حركة انكفاء عند البلغار كما لاقى لديهم مجالاً ارحب واخصب ، اذ ان امراءهم لم يلبثوا ان وقعوا تحت تأثير المدنيات المسيحية التي اتصلوا عن كثب بقواعدها الكبرى ، كما انهم لم تفتهم المنافع التي يجنونها من هذه النظريات السياسية التي طلعت بها هذه المدنيات . الا انهم كان عليهم ان يحسبوا حساباً لمعارضة كبار القوم وعظمائهم الذين كانوا يرون في المسيحية نظاماً سياسياً مليئاً بالخطر ، وشكلاً يتلبسه التدخل الاجنبي في البلاد . ولذا راح القيصر بوريس (اواسط القرن التاسع) يتشدد في إنشاء كنيسة قومية وطنية في بلاده . فالمساومات التي دارت سوقها اذ ذاك ، كانت ولا شك ، من هذه الاسباب التي ادت الى الوقيعة بين القسطنطينية وروما والى الانفصال الذي تم في عهد البطريرك فوتيوس . كل هذا حدا بالكنيسة البلغارية المستقلة للسير في الاتجاه الذي رسمته لها القسطنطينية ، والبقاء في إطار الكنيسة اليونانية ، الامر الذي لم يساعد ، بطبيعة الحال ، على تهدئة خواطر ملوك البلغار لمعارضته الاهداف والمرامي السياسية التي دغدغت آمالهم .

وبعد ذلك بنحو قرن،كان لا بد للروس من ان يعتنقوا النصرانية بقالبها البيزنطي فقد سبق واعتنق بعض امراء العائلة المالكة المسيحية . وقبل عام الف بقليل ، رأى القيصر فلاديمير انشاء كرسي اسقفي في كييف يتربع عليه رئيس اساقفة . وفي الحين نفسه ، اخذ المجر يعتنقون المسيحية ، بعد ان رأوا جميع البلدان المجاورة لهم ، سبقتهم اليها ، فحذوا حذو ملكهم القديس إستفانس ، فأخذوا المسيحية بقالبها اللاتيني . ومنذ ذلك الحين اخذوا يسيرون في فلك الغرب ويهتمون ، أكثر فاكثر ، بامور شعوب الكروات والالمان وغيرهم من الاقوام المجاورة للبحر الادرياتيكي .

فانتصار المسيحية وفوزها النهائي في اوروبا الوسطى ، عنى اكثر من انتصار دين جديد وحضارة جديدة . فقد نتج عنه فكرة جديدة للدولة ، ومعنى جديد لتشكيلها ، وهي فكرة

حلا لرؤساء الدول الصقلبية تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، الا وهي انشاء كنيسة تنعم ، على شاكلة الكنيسة في بيزنطية ، باملاك ووقوفات غنية يرتبط بها فلاحون ومزارعون ، يكون لها اكليروس يؤتى بقسم منه ، أقله في البدء ، من بين الاكليروس اليوناني . فلا عجب قط ان تلاقي مثل هذه النظرة ، حركة مقاومة على الصعيدين الاجتماعي والوطني ، كما لاقت في بلغاريا ، في الحال ، دعاوة ناشطة معادية للمسيحية ، غذتها وبثتها سموم التعاليم التي شرتهــا الجوالي البولسية التي كانت أبعدت الى تراقية ، من قبل ، بتوجيه الداعيــة بوغوميل زعيم هــذه البدعــة ورسولها .

الشرق الادنى ومتاعبه الجديدة

استهدفت الامبراطورية البلغارية ، أكثر دول البلقان تطوراً اذ ذاك وأوفرها أخذاً بأسباب الحضارة ، لهذه الاسباب بالذات ، لخطر مداهم ماحق ، كاد يطيح بها . فبالرغم من الانحطاط الذي صارت اليه ، في الداخل ، فقد بقيت مع ذلك خطراً ماثلاً على البيزنطيين يتهددهم باستمرار ، اذ كانوا ادنى من قاب قوسين من البلغار الذين امتدت سيطرتهم الى مشارف القسطنطينية . وبعد ان حشدت بيزنطية جيوشها قام باسيل الثاني يهاجم الملك البلغاري صموئيل ويصليه حرباً طويلة لا رحمــة فيها ولا هوادة ، استطاع معها كثيرون من امارات الصقالبة ، في الغرب ، خضعوا لبلغاريا ، الى ذلــك الحين ، التحرر من ربقتها والتنعم باستقلالهم تحت رعاية الامبراطورية البيزنطية ، بينما وقعت بلغاريا نفسها تحت سيطرة بيزنطية واصبحت احدى ولاياتها في الغرب (القرن الحادي عشر) . وكان لا بد من مرور قرنين على الشعب البلغاري يرزح معها تحت نير العبودية ، قبل ان يستعيد حريته من جديد وينعم بشيء من الاستقلال المشروط .

اما مملكة كييف الروسية ، فقد استهدفت ، في هذا الوقت بالذات ، لسلسلة غير منقطعة من الهجمات العنيفة ، شنتها الاقوام الرحل الضاربة في تلك الفيافي ، بينهم قبائل البلشنيك ، والاوغز والكومان (بولوفتز بالروسية) ، ملحقين البوار بتجارتها ، والخراب باقتصادياتها ، وان عجزوا عن النيل من استقلال البـــلاد السياسي . واذ عجز خلفاء ياروسلاف عن تأمين سلالة ملكية وراثيــة ، انشقت المملكة ، في اواسط القرن الحادي عشر ، على نفسها ، اذ راحت كل من نوفغورود وكييف ، وهما حواضر البلاد الكبرى ، اذ ذاك ، يتجه الواحد شطراً مغايراً للآخر . فمن الطبيعي ان يؤلف هذا الضعف ، تصاب به البلاد ، خطراً عليها .

وقد وقعت بيزنطية نفسها ، في القرن الحادي عشر ، في خطر مماثل ، سببته لها الانتصارات نفسها التي حققتها . فقد دخل ضمن حدودها ، من جرّاء الفتوح التي قامت بها ، شعوب وقوميات مختلفة ، متباينة . من هذه الشعوب ، الارمن مثلاً ، الذين ألفوا الاغلبية الساحقة بين سكان ولايات الامبراطورية الشرقية ، وكانوا حانقين على بيزنطية ، لا يصفحون لهـــا عبثها باستقلالهم الوطني ، كما ان الكنيسة اليونانية التي لم تستفد شيئاً ، على ما يظهر ، من عظــة الماضي ، راحت

لتعاود سيرتها الاولى ، وتتابع اضطهادها للارمن ولأتباع المونوفيزية القائلين بوجود الطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اما البلغار ، فقد زادت معارضتهم الاجتماعية للاكليروس اليوناني من الكره لسيطرة الاجنبي وحكمه البلاد ، وهذا العداء الشديد للاجنبي اوشك ان يجعل من المبادىء التي حملها بوغوميل ، وعمل بها وعلم ، الديانة الوطنية في البلاد . ومن بلغاريا ، انتقلت هذه التعاليم والعقائد الى الكروات ، ومنهم انتقلت الى فرنسا ، لتطلع في القرن الثاني عشر بشكل جديد ، هي الهرطقة المعروفة بـ *Albigèisme* او مقالة الالبيجوا .

وفي الوقت ذاته تفاقمت المصاعب والمشكلات التي نشأت غب استفحال امر الارستوقراطية العقارية في البلاد ، بعد ان عرف الاباطرة العسكريون في بيزنطية كيف يوجهونها ويسيّرونها . فالملوك الذين تعاقبوا على الملك بعد الامبراطور باسيل الثاني ، لم يكونوا على شيء من قوة الشكيمة ، فاستخذوا في الملحقات واستسلموا للامر الواقع ، بعد ان احاطت بهم بطانة من المدنيين اخذوا باسباب الثقافة وفضلوا الدعة والطمأنينة ، فاستفحل شأن الارستوقراطية العقارية في هذه الولايات ، وراحت تسعى جهدها لانهاك الفلاحين الاحرار وخرابهم . وعندما كان الاباطرة يطلبون من النبلاء التجند وخدمة السلاح ، كانوا يغدقون عليهم ، من املاكهم الخاصة الاعطيات الوافرة ، كما كانوا يجودون عليهم بانعامات خاصة ، موقتة او يستثمرونها مدى الحياة ، لا تلبث ان تصبح وراثية عندهم ، فتألف من هؤلاء النبلاء وحدات عسكرية لم تكن اكثر ولاء للامبراطور من زميلاتها في الغرب . ولكي يأمن ملوك الروم شر هذه الوحدات ويؤمنوا لهم ما يوازيها ، راحوا يشكلون من بين سكان الولايات القريبة من القسطنطينية ، بفضل الموارد الغنية التي امنتها لهم التجارة ، اذ ذاك ، وحدات من المرتزقة ، ازداد عددها فيما بعد ، بازدياد ازدهار التجارة في البلاد ، تألف معظمها من قبائل الفاريغ ، الى ان راحوا يستبدلونها ، بعد عام ١٠٥٠ ، بوحدات من النورمنديين في الغرب ، او من قبائل الصقالبة او من الاتراك بعد ان يجري تنصيرهم . وقد دخل الجيش البيزنطي ، فيما بعد ، وحدات من الارمن والبلغار أفقدته وحدته الادبية . ولما كانت هذه الوحدات العسكرية تحتفظ بولائها لقادتها ، فلم يكن خطرها على الملوك باقل من الخطر الذي اطلّ عليهم من تشكيلات النبلاء العسكرية او من الجيوش المرتزقة التي عمل بها في البلاد الاسلامية . فاذا لم يفض الامر الى خلخلة الامبراطورية وانقطاع اوصالها ، فلان الثورات والانتفاضات التي تعرضت لها كانت كثيراً ما تنتهي بالقضاء على الفتنة وهي في المهد ، او باستيلاء الثوار على السلطة . وعندما اطلت فيما بعد من الخارج اخطار ماحقة ، كانت الارستوقراطية تسارع للسيطرة على الامر بالاستيلاء على السلطة .

والحال ، فقد مثلت امامهم هذه الاخطار وكانت منهم ادنى من قاب قوسين ، ممثلة بقبائل التشنك الذين اصبحوا على الدانوب ، وبالاتراك السلجوقيين عند مداخل آسيا الصغرى ، والنورمنديين الذين بعد ان انتزعوا ايطاليا الجنوبية من بيزنطية ، وصقلية من الاسلام ،

اخذوا يحاولون ان ينشئوا لهم موطىءقدم على سواحل البحر الايوني الشرقية ، وبفضل حادث مؤسف هيأته الاقدار العابثة ، اتاح الانفصال الذي اعلنه كيرولاريوس ، للبابوية المتحالفة مع النورمنديين للاستعانة بهم في الخصومة القائمة بينها وبين الاباطرة الالمان ، ان تسلك نهجاً معادياً لبيزنطية . صحيح ان روما والقسطنطينية وقفتا فيما بعد ، موقفاً اكثر اعتدالاً ساعد على القيام بهذه المفاوضات التي مهّدت للحروب الصليبية ورافقتها ،الا ان الوقيعة الكبرى كانت قد وقعت ، هذه المرة ، على يد شعوب جديدة اعتنقت الاسلام حديثاً .

ان استعادة بيزنطية للولايات التي فقدتها من قبل ، والاضطرابات التي شجرت في جميع انحاء العالم الاسلامي وادت بالتالي الى انقسامه الى امارات ودويلات وسلطنات ، الحقت تغييراً محسوساً في العلاقات التجارية ، في الشرق الادنى ، خلال القرن الحادي عشر ، وجعلت من اللازم القيام بعملية تنسيب جديدة عسيرة . فالهجرات التركية باتجاه الفلوات الروسية خلخلت كثيراً والحقت اذىً عظيماً بالعلاقات التي ربطت بين البلدان الروسية وبين اقطار آسيا الوسطى والامبراطورية البيزنطية . وكان من جراء هذه التغييرات والتطورات الجذرية التي لحقت بطرق المواصلات التجارية بين آسيا والغرب، ان حل البحر الأحمر ومصر محل الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين ، كما راح التجار الايطاليون ينافسون التجار البيزنطيين والتجار الاسلام في علائقهم مع بلدان البحر المتوسط . وقد ساعد على هذا التطور ، في الشق الاول ، عوامل عدة ، منها : القلاقل والاضطرابات التي شجرت في الطرق ، وقوة الجيش والاعمال الوحشية التي قام بها بفظاظة لا توصف في عهد العباسيين ، وجشع بيت المال واعمال القرصنة التي قام بها قرامطة العراق والبحرين ، وقيام حدود جديدة فاصلة بين بغداد ومقاطعة انطاكية او احتلال البيزنطيين لها ، يقابل ذلك انفصال مصر السياسي عن الخلافة العباسية ، وحركة الاستقطاب التي تمت حول القاهرة ، وسهولة نقل المواد الغذائية وانتشارها بسرعة اكبر في الموانيء القائمة على شواطيء البحر المتوسط . وقد عادت هذه الحركة بالفائدة الكبرى على مدينتي البندقية وامالفي ، الاولى من جراء استعادة بيزنطية للمقاطعة الواقعة الى الجنوب من شبه الجزيرة الايطالية ، وجزيرة كريت ، ومن جراء الانتصارات التي تمت على حساب الكروات التي امنت لها الاتصال بسهولة مع بيزنطية ، اما الثانية ، فبعد ان اقامت لها علاقات طيبة مع الاسلام في افريقيا الشمالية ، راحت توسع من نطاق هذه العلاقات ، الى مصر الفاطمية ، حتى ان غزوة الهلاليين لتونس والخراب الذي زرعوه في البلاد ، كل ذلك افاد منه الايطاليون الى اكبر حد . وبعد ان رأى المغاربة القاطنون على سواحل البحر المتوسط الغربي الحيف الذي نزل بهم من جراء انقطاع حركة النقل التجاري ، راحوا يعوضون عن خسارتهم بممارستهم القرصنة البحرية على السواحل القريبة من فرنسا وكتلونيا وايطاليا الشمالية . وبانتظار رد الفعل المسيحي لاعمال القرصنة هذه التي كانت استعادة صقلية من احدى نتائجها،فقد افادت البندقية وامالفي، لحين موقعهما التجاري من هذه الحركة . ومن جهة اخرى ، لما كان المغرب رأى ثروته من الخشب في

خطر ، وكان عاجزاً عن بناء عمارة من السفن قوية، كان باستطاعة بيزنطية ، بالطبع ، ان تفيد كثيراً من الوضع الذي كانت عليه الحركة التجارية اذ ذاك ، وقد آثرت ، لاسباب مالية بحتة ، ان تجذب اليها الايطاليين فيهبطون القسطنطينية، عوضاً من ان تيمث باليونان الى ايطاليا نفسها ، بعد ان عجزت من دفع الايطاليين الاتجار مع المسلمين مباشرة . وهكذا قامت حركة منظمة من التبادل التجاري بين ايطاليا والاسكندرية حلت جزئياً محل الحركة الاخرى التي قامت بين محوري بغداد والقسطنطينية ، واربت عليها بكثير . فان لم تنقطع حركة النقل التجاري التي قامت على القوافل في آسيا ، فاننا نلاحظ نقصاً كبيراً في المنقول من الثروة المنزلية ، في الشرق الاسلامي كما يشهد على ذلك ، نهوض طبقة جديدة تتألف من العسكريين وكبار الملاكين العقاريين .

وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها

في هذا العالم الاسلامي القلق ، الجيّاش بعظائم الاحداث ، والمضطرب في الصميم ، ليس مما يلفت النظر ، ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب ، والازدهار الذي آلت اليه الحركة الفكرية . فما من امير الا وقامت حوله حاشية انخرط فيها جماعة من اهل الفكر والحجى ، ومـا من قاعدة او حاضرة الا وقام فيها للادب والفن اسواق رائجة ، وراح كثيرون ممن صَلُحَت احوالهم وبسم لهم الدهر ، كما راح كثيرون من عظماء القوم وعليتهم يتبارون في تشجيع حَمَلَة الادب ورجاله ، ومناصرة اهل الفن والنبوغ ، من اي لون كانوا ، او الى اي مذهب انتسبوا . فاذا حدّثت الركبان عن امجاد بغداد والسامانيين ، والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، فاخبار القاهرة والقيروان ، وباليرمو وقرطبة ، في الغرب ، عن الحركة الادبية ، تمـلأ بطون الكتب والتاريخ . واتساع هذه الحركة الفكرية التي عمت مشارق العالم الاسلامي ومغاربه ، فتحت الباب على مصراعيه امـام التنوع لظهور مجار فكرية عامة وتلقيح الافكار والاذهان في كل مكان بالتالد والطريف من الآثار الادبية .

وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الاسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرّف به في فهارس علمية . من ذلك مثلاً ، فهرس ابن النديم ، وكتـاب الاغاني لصاحبه ابي الفرج الاصفهاني ، الذي يعد بحق ، من الكنوز الادبية الغالية . وقد ساعد على كثرة التأليف في العالم الاسلامي وفرة الكاغد او الورق الذي اخذ العرب سر صناعته من الصين ، وأدخلوا بعض اجناسه عن طريق سمرقند ، وما ان جاء القرن العاشر حتى انتشرت صناعته في جميع اطراف العالم الاسلامي ، فتلاشت امامه صناعة البردى كما قلت الحاجة الى الدروج والرقوق الجلدية الـتي طالما عوّل عليها النساخ في اديار الغرب . وقامت في بعض حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور الكتب ، غصّت بعشرات الالوف من الكتب جرى تسفيرها على نُظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على ابواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين ، والخطاطين

والمزوقين والمنمقين . كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين ، وطائفة كبيرة من الكتّاب وحملة الاقلام والمفكرين .

اما نتاج الادب الوجداني، وادب الخيال او الرواية فقد كان اقل رواجاً من الكتب التي تبحث في الموضوعات الفلسفية، بنسبة ما يمكن التفريق بين النوعين المذكورين. وقد رعى الامير سيف الدولة الحمداني الادب وقرّب الأدباء الى بـلاطه ، فراجت دولة الشعر عنده ، وراح الشعراء يتغنون بالحروب التي شنها ضد الروم كما راحوا يدعون للجهاد ، كما نرى خبر ذلـك في شعر ابي الطيب المتنبي (٩١٥ — ٩٥٥) . اما في سوريا فقد بلغ الشعر الذروة مع شاعر المحبسين : ابي العلاء المعري (٩٧٩ — ١٠٥٨) الذي امتاز بقريحته الوقادة وبما وضع من الكتب التي تفيض سخرية وتهكماً بكثير من امور الأدب والدين والفلسفة. وقد اسهمت الاندلس بهذه الحركة اسهاماً كبيراً . فقد نبغ فيها ، في مطلع القرن العاشر ، الشاعر ابن عبد ربّه الذي له حماسة ووضع عدداً من الشعر الاصيل . ثم طلع علينا ابن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) الذي غنى لنا في كتابــه « طوق الحمــامة » الحب العذري ، وقام في اسبانيا من راح يقلده ، كما لقي كثيراً من الاتباع والمريدين . فليس من ينكر ما كان لهذا النوع من الشعر في ما بعد ، على شعراء الزجل أو أهل الطرب ، في جنوبي فرنسا *Troubadours*.

اما في العراق ، فقد كانت العناية شديدة بالنثر ، يحاول الكتاب تتبع خطى الجاحظ دون ان يتمكنوا من مجاراته او سبقه في هذا المضمار . وقـد ازدهر فيه فن القصص والنوادر الذي برّز فيه التنوخي (٩٣٩ — ٩٩٤) ، كما برز فن المقامة وهي نوع من القصة تسير حوادثها حول بطل يستقطب ماجريات القصة ويرويها بشكل من النثر المسجع المليء بالتهكم والسخرية . وأشهر اصحاب المقامات ، الهمذاني (٩٦٨ — ١٠٠٧) ومن هذه الفنون التي راجت في هذا العهد ، فن الرسائل الذي امتاز بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى جامعاً بين الايجاز والاعجاز

وفي القرن الثاني للعباسيين برز فن التاريخ والجغرافية وبلغ الأوج من الازدهار . وقـد عني اول من عني بسيرة الرسول ، لاتصال هذا البحث بالحديث ، وقد اخذ فن السيرة يتسع ويتنوع محافظاً على وسائل الاعلام والعرض التي كانت له في الاصل . وقد ظهر في منتصف القرن التاسع مؤرخون امثال ابن قتيبة وابو حنيفة الدينوري واليعقوبي الذين وضعوا تواريخ عامة . فبعد ان أرّخوا لعهود الكتب المقدسة ، و « للأيام » عند العرب والفرس ، ولا سيما منذ عهد الاسكندر المقدوني ، نرى غيرهم يتعرض للبحث في الفتوحات العربية كالبلاذري الذي له «فتوح البلدان» . اما واضع علم التاريخ عند العرب ، فهو الطبري (٨٣٩ — ٩٢٣) الذي وضع كذلـك تفسيراً للقرآن . فقد كان عالماً نابهاً ، ومؤرخاً وضع كتاباً ضخماً في التاريخ ، يمكن اعتباره موسوعة تاريخية ضم كل ما وضع عن التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي على السواء ، وذلك بعبارة واضحة وباسلوب من السرد الاخباري ، وهو نهج حذا حـــذوه كثيرون ، دون ان يبدي في الموضوع الذي يبحث ، آراءً شخصية مما يجعل له قيمة كبيرة لدى النقد الحديث . ومنذ ذلك الحين اصبح

التاريخ اكثر فنون الآداب رواجاً في العالم العربي خلال الأجيال الستة التالية . وقد برز بين المؤرخين، في القرن التالي، أي في القرن العاشر، المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦، والذي وضع لنا كتاباً ضخماً لخص فيه كتباً لم يبق منها سوى قسم ضئيل، «مروج الذهب» ضم عدداً كبيراً من سير الخلفاء طواها على فوائد كثيرة. ومن بين هؤلاء المؤرخين ايضاً الصولي، المتوفى عام ٩٤٦ الذي يحدثنا بكثير من الحرارة، عن ذكرياته كمواطن بغدادي عمل في بطانة الخليفة العباسي . وقد راح عدد كبير من المؤرخين لمعوا بين القرنين العاشر والثاني عشر، يكملون تاريخ الطبري، انما في غير النهج الذي سار هو عليه، منهم هلال الصابىء، المتوفى عام ١٠٥٦ الذي لم يبق من آثاره سوى بعض نتف، وابن مسكويه المتوفى عام ١٠٣٠، صاحب كتاب «تجارب الامم» . وقد برهن كلا المؤرخين الاخيرين عن اطلاع واسع، ومعرفة دقيقة لشؤون الادارة عند العباسيين والبويهيين، وضمنا كتاباتهما معلومات جزيلة الفائدة فكانت معيناً لا ينضب من الفوائد والمعلومات .

وقد كان من جراء الانقسامات السياسية التي مزّقت وحدة العالم الاسلامي، اذ ذاك ان طلعت علينا تواريخ عديدة تبحث في تاريخ المغرب والاندلس ومصر وايران، ليس في ذكرها هنا كبير فائدة . وقد شارك في حركة التأليف هذه، عدد من كتّاب النصارى، كتبوا بالعربية تاريخ بطاركة الاسكندرية (الاقباط) ساهم في اكماله فيما بعد كثيرون . وبين هؤلاء المؤرخين المؤرخ الملكي يحيى الانطاكي الذي سكن انطاكية، في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، وهي اذ ذاك، تحت سيطرة البيزنطيين، وفيها وضع تاريخه المشهور الذي جمع فيه تاريخ العالم الاسلامي، لا سيما مصر والشام، وتاريخ بيزنطية . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر عدد من كتب التراجم، وفقاً للبلدان او المدن التي سكنوها، وتراجم العلماء وفقاً لطبقاتهم : كطبقات الفقهاء والحكماء والشعراء والمحدثين والقضاة . ولم يلبث هذا الفن ان ازدهر فيما بعد، ازدهاراً عظيماً .

اما الجغرافيون العرب، فقد وضعوا لنا آثاراً حرية بالذكر، فكتبوا في الرياضيات وعلم الفلك، سيراً منهم على النهج الذي انتحاه بطليموس، وتركوا لنا اوصافاً حية، شيقة افادت منها الدوائر الادارية التي كانوا يعملون فيها او تابعين لها، وهي كتابات تفيض بالمعلومات الدقيقة والفوائد الجزيلة، دارت حول العالم الاسلامي، وتناولت وصف الهند والصين وآسيا الوسطى وروسيا، والقطران الأخيران لا نعرف عنهما شيئاً إلا من خلال هذه الكتب .

فالمعلومات التي ضمنوها كتبهم ترتكز الى نصوص من الوثائق الاصلية، كما تعتمد، من جهة ثانية، على ما نقله عنها الرحالة العرب، امثال سليمان وابن فضلان . فالكتب التي وضعها ابن خرداذبه في القرن التاسع، والاصطخري وابن حوقل، في القرن العاشر، واخيراً المقدسي، حوالي سنة الألف، وهو اوسعهم واحوالهم مادة، على الاطلاق، اذ عوّل فيما كتبه، على من تقدمه في هذا المضمار، وهي كتب كثيراً ما ضمت خرائط ومصورات جغرافية، وصل بعضها الينا . وهذه الكتب تذكرنا بالكتب التي جاءت على وصف الادارة الحكومية، وهي على منتصف الطريق بين الابحاث النظرية التي وضعها بعض الفقهاء، كأبي يوسف، والكتب الأخرى التي

ظهرت فيا بعد ، وهي اسهل أخذاً . ولعل أهم هذه الآثار ، على الاطـلاق ، كتاب ابن قدامة الذي باشر بوضعه في مطلع القرن العاشر ومات دون ان يتمه . وقد كان المؤلف من كبار نقـّاد الادب في عصره .

وما عـلينا ان نقول عن نابغـــة عصره البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨) المعروف باوروبا باسم *Aliboron* . فقد عالج بنجاح جميـع الموضوعات ، وكتب بالعربية والفارسية . فنحن مدينون له بهذه المعلومات الوافرة الدقيقة التي جمعها بعـلم ومعرفة ، بفضل وصف الفتوحات والغزوات والعلاقات الديبلوماسية ، التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، في كل ما يتصـــل بمدنيات آسيا والهند . فهو ، من هذا القبيل ، مؤلف ليس من يعدله في التاريخ الاسلامي ، على الاطلاق .

ونرى بعضاً من كتـّاب العجم يستعملون تارة البهلوية الهندية ، وطوراً العربية الدخيلة على البلاد . والجديد في الامر هو ظهور ادب جديد ، فارسي ، اسلامي في الوقت ذاته . وساعد على ذلك اقتباس الايرانيين للأبجدية العربية . وقد جاءت حركة التأليف هذه على غير استواء في بعض البلدان : قوية ، ناشطة في الدولة السامانية ، البعيدة عن العالم العربي ، وشديدة ، بطيئة ، متأخرة ، في ايران الغربية . ومع ذلك فستبقى اللغة العربية في ايران مدة طويلة ، الاداة الوحيدة للتعبير في كل ما يتصل ، من قريب او بعيد ، بالقرآن الكريم ، والعلوم الاسلامية والفلسفة . فاجادة العربية وتجويدها أمر لم يكن منه بد في الاوساط المثقفة ، وهي وحدهـــا قادرة على معالجة الموضوعات اللغوية . غير ان ما للغة الايرانية من ميزات ، وما لها من قدرة ظاهرة على معالجة الموضوعات الخيالية تفوق ما للعربية منها ، والرغبة في التأثير على أكبر عدد ممكن من القراء ، كل ذلك جعل من اللغة الايرانية اداة طيعة ، مثلى ، للتعبير عن خلجات الفكر بفن وجمالية . ويبدو الفرق بعيداً مع الولايات الاسلاميـة الاخرى التي توارى كل اثر فيها للغات الايرانيـــة والآرامية واللاتينية ، ومع لغة البربر في المغرب ، وما كانت عليه من ضعف ووهن ، جعل منها مجرد لهجة من اللهجات المحكية قلّ من يكتبها او يستعملها اداةً للتعبير عن مكنونات النفس. فالادب الملحمي في الايرانية بلغ الذروة في المحاولة الاولى ، مع « الشاهنامه » (او كتاب الملوك) للشاعر الخالد الفردوسي ، الذي باشر بوضعها في اواخر القرن العاشر ، وهو في بلاط السامانيين ، ولا تزال اليوم اكبر وأكمل ملاحم الايرانيين على الاطلاق ، يقرأون فيها امجادهم الوطنية قبـل الفتح الاسلامي ، بلغة شعرية بديعة . وقام بين الايرانيين من عالج قبل الفردوسي الفنون الشعرية على نطاق اضيق واضعف . ثم ظهر النثر الايراني في كتب التاريخ ، في بلاط الملوك الأول للدولة الغزنوية ، مع البيهقي (حوالي عام ١٠٥٠) وأحياناً في الكتب العلمية .

ففي الحين الذي تبرز في ايران وترسخ اللغة الفارسية الوطنية ، يطل علينا في العالم الاسلامي نوع جديد من الأدب الشعبي ، من العسير على المؤرخ تتبعه وتقصي مراحله لأن النـــاس تناقلوه شفوياً ، ولم يُكتب الا بعد ذلك بمدة طويلة ، بلغ ازدهـاره في عهد العباسيين . وهذا الادب الشعبي الجديد ، يتألف اصلاً ، من قصص اخذ بعضه من الآداب القديمة ، كما أستمد البعض الآخر

من تاريخ الاسلام وتاريخ شعوبه الى ذلك الحين ، فيتألف من هذا كله مجموعـــة قصص تعرف بألف ليلة وليلة ، التي لم يستقر وضعها النهائي الا في اواسط القرن الرابع عشر. وقصص البطولة كقصة عنترة بن شداد مثلاً ، تضع أمامنا صوراً ومشاهـــد من بطولات العرب ، بين قدامى ومحدثين ، بينما تتغنى الاخرى بالبطولات التي شهدتها الثغور الواقعة على الحـــدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فتروي لنا المكان والدسائس والحيل التي كانت تجري كل يوم حتى ايام الجهـــاد المقدس ، والعلائق الودية التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين الذين كانوا اكثر تفهماً للواقـــع من سادة بغداد والقسطنطينية . من تلك القصص مثلاً الملحمة النصف التاريخية، بعنوان : « سيد بطّال غازي » التي بعد ان تحولت وتطورت اصبحت الملحمة الوطنية الكبرى عند الاتراك ، في آسيا الصغرى . ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، لا بد ان ننوه هنا ، ولو بصورة عـــابرة ، بالقصة البيزنطية التي لم تلبث ان وضعت شعراً ، وهي المعروفة بـ « *Digenis Akritas* » التي تضع أمامنا مشاهد مثيرة من حياة رجال الحرب على الحدود .

العلم والفلسفة

اطلع القرن التاسع والعاشر، أطيب الآثار العلمية والفلسفية التي عرفها الادب العربي في هذه الحقبة. وقد حاول واضعو هذه الآثار الفكرية ان يبرزوا أمامنا كعلماء محيطين بكل شاردة وواردة ، على شاكلة بيك ده لاميراندول ، في عصر الانبعاث الفني والادبي ، في الغرب . ولذا يصعب تصنيفهم الى فئات معينة . ومع ذلك يمكن ردّهم الى قسمين رئيسيين : الفلاسفة المتكلمون أو اهل الكلام ، وهي تسمية اطلقت في الاسلام على البـــاحثين في شؤون العقل أو الحكمة ، والعلماء وهم هؤلاء الجماعة الذين يعوّلون على الأيمان فيتخذون من العقل اداة تشد من ايمانهم . فالفلاسفة والعلماء ليسوا على الغالب سوى مظهر واحد للفكر ، اذ كان العقل يتجه دوماً من المشكلات الفلسفية اكثر من تعويل هؤلاء على العلم . اما بين العـــلم والتكنولوجيا التي تعتمد عليها المهن الاخرى ، فالاتصال يبقى ناقصاً ، اذ ان الملاحظة والتجربة هما المعول عليهما للوصول الى تحديدات وتعريفات واضحة ، ولو لم يؤلفا أساس العمل . فسواء عالج العالم المقاييس والوسائل الحسابية التي يلجأ اليهـــا الرياضيون ، واستعان بوسائل النجامة والكيمياء ، فهو يضع نصب اعينه ، اهدافاً عملية ، مع التأكيد ان النتائج لا تتحكم قـــط بتوجيه العمل وفرضه .

وعلى عكس اهل الكلام الذين تراهم منتشرين في جميع انحاء العالم الاسلامي ، لا نجد الا في الشرق ، ولا سيا في ايران ، علماء يعملون للعلم ، وفي القسم الشمالي الشرقي منهـــا . فالطب يسجل تقدماً محسوساً . فهو يؤلف مهنة او حرفة مغلقة ، او موصدة ، لا تتفتح لاصحابهـــا ومحترفيها ، الا بعد درس ومراس وامتحان عسير ، يجب اجتيازه بنجاح . وهي مهنة ممارستها مباحة للجميع من يهود ومسلمين ومسيحيين ، كما نرى في اسرة آل بختيشوع السريانيـــة ، التي سيطرت على بيمارستان جند يسابور . ومنذ القرن التاسع ، نرى الامراء والحكام ينشئون لهم مستشفيات حرية بكل احترام وتقدير. فالطبيب ، سواءٌ أعَمِل في البلاط أو في المدنية ، فهو شخصية بارزة لها شأنها واهميتها . وقد اشتهر منهم عدد بما بلغوه من كفاءات وقدرات عالية ،

وان فاتتنا معرفة الكثير من وجوه هذه القدرة . وليس من يشك قـط بالتطور العظيم الذي تحقق على ايديهم ، في مجالات : الكحالة وطب العين والقبالة وفن الاقراباذين ، والاكتشافات العلمية التي حققوها في هذا المضمار ، كالدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئة . وقد برز بين اطباء هذه الحقبة طبيبان طبقت شهرتها الآفاق، هما الرازي المعروف عند الغربيين باسم *Rhazes* الذي برع ايضاً بالكيمياء وقد رأى النور في مدينـة الري (٨٦٥ – ٩٢٥) ، وابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) الذي ولد في بخارى، والذي اشتغل كذلك بالفلسفة، فكان من اكبر واشهر فلاسفة الاسلام ، في الاجيال الوسطى ، فكان له فضل عمم على الطب ، لا سيا بعد ان وضع كتابه المشهور بـ « القانون » وهو موسوعة طبية ، واسعة ، منهجية . وكتابه هذا كان عليـه المعوّل في الشرق حتى عهدنا هذا فكان القسطاس او النبراس الذي سار عليه الاطباء في الشرق الى هذا العهد ، كما اعتمده الاطباء في الغرب الى عهد موليير ، بعد ان تم نقله الى اللاتينية وطبع في روما لاول مرة ، سنة ١٥٩٣ .

اما علم الهيئة الذي اعتمد كثيراً على علم النجامة ، فقـد حقق تطوراً محسوساً ارتكز من جهة، الى ترجمة كتاب « المجسطي » لبطليموس، كما ارتكز ، من جهة اخرى ، على ترجمة مجاميع طبية تعود لعهد الساسانيين والهنود . فمنذ مطلع القرن التاسع ، أنشأ الخليفة المأمون مرصداً له في بغداد ، كما انشأ بعده ، غيره من الامراء مراصد اخرى اشهرها على الاطلاق مرصد فرغانة ، كالمرصد الذي بناه شرف الدولة البويهي ، في اواخر القرن العاشر . والاعمـال العلمية التي حققها العرب والمسلمون حول : الإهليلج ، والكسوف والخسوف ، وحركات النجوم السيارة ، وقياس درجة الدائرة الارضية على اساس فرضية استدارة الارض ، وما الى ذلك ، يثير الدهشة والاعجاب ، اذا ما فكرنا في الادوات التي كانت بين ايديهم كالاسطرلاب مثلاً ، وغير ذلك من ادوات توارثها العرب في التاريخ القديم ، وعولوا عليها في تحقيق ما حققوه من هذه الكشوف العلمية ، ولا شك ان البتاني (٨٧٧ – ٩١٨) هو اكبر علماء الفلك في زمانه . فقد كان من صابئة حران ، هؤلاء الصابئة ، الذين كانوا يعتمدون على النجامة ورصد النجوم . وبلغت شهرته الغرب حيث عرف باسم *Battenius* .

ومع ان العرب تمهلوا جداً في اقتباس الارقام الهندية ، فقد استعملوها مع الكسور العشرية والصفر ، فنحن في الغرب ، مدينون لهم ، مع ذلك ، بهذه الاعداد التي اخذناها بالفاظها العربية احياناً . واشهر رياضيي العرب، واقدمهم على الاطلاق ، هو الخوارزمي (٧٨٠ – ٨٥٠) الذي ولد في خوارزم، بالقرب من بحر آرال ، واليه تعزى الجداول الحسابية المعروفة في الغرب، باسم *logarithmes* ، مع انه ليس بواضعهـا الحقيقي ولا عرفها . غير ان كتاباته حول المعادلات الجبرية قد جعلته اول من اخترع علم الجبر ووضع اصوله في العالم . وقد عالج غيره من الرياضيين الذين جاؤا بعده ، الهندسة وحساب المثلثات .

اما الكيمياء ، فلن نهتم لها بنسبة الاهتمام الذي لقته عند المفكرين في الاجيـال الوسطى .

فالأكسير الذي بحث عنه كل الكيميائيين ، في الشرق والغرب ، على السواء ، هو من اشتقاق عربي . واشهر من عالج هـذا العلم هو جابر بن حيان ، الذي عرف في الغرب باسم *Geber* ، وعاش في القرن الثامن . والذي وصل الينا باسمه من المؤلفات ، تم وضع بعضه بعـد وفاته بقرنين ، واكثر . وقد كانت اكثر تطبيقاً ، المؤلفات التي وضعها فريق من علماء المعادن وعلماء النبات والفلاحة ، اشهرهم على الاطلاق ابن وحشية الذي ينسب اليه ترجمة ، كتاب الفلاحة ، من النبطية الى العربية ، والذي لا يخلو مع ذلك من كثير من الاوهام والاساطير والخرافات .

كثيراً ما جمع هؤلاء الفلاسفة بين العلوم والفنون والموسيقى ، فراحـوا يستلهمون نظريات ارسطو العلمية والعلوم الكونية والادبية التي قالت بها الافلاطونية الحديثة . واقـدم هؤلاء الفلاسفة واعرقهم عروبة هو الكندي الذي لقبوه بفيلسوف العرب ، وقـد عاش في القرن التاسع . اما المفكر الكبير والفيلسوف الذي جدد الفلسفة القديمة فهو الفيلسوف التركي المحتـد والنسب ، اعظم فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، هو ابن سينا الذي عاش في بغداد وحلب ، في القرن العاشر ، وعلى يده تطورت الفلسفة نحو الاشراقية العقلية .

فامام مظاهر هذا التفكير التي جاءت مغايرة للدين ومناقضة لتعاليمه ، ولهـذه الهرطقات العديدة ، والتفاسير المخالفة للنصوص القرآنية ، اخـذ القلق يساور رجال الفكر الذين تهمهم كثيراً امور العقل والوحدة . فقد رأينا كيف ان المعتزلة راحوا يحاولون التوفيق بين الايمان والعقل. فالاشعري (٨٧٤ – ٩٣٥) والماتيريدي الذي توفي عام ٩٤٤، حاولا ان يضما في خدمة الايمان ، سلاح القياس الذي عمل المعتزلة على تطويره . ولم تلق هذه الطرق والمناهج ، في بدء الامر قبول الاجماع . الا انها لم تلبث ان انتصرت وانتشرت في القرن الحادي عشر ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من تعليم الامة في الاسلام ، اضيف عليها شيء من التفكير العقلاني والشرعي ، على يد اهل الكلام الذين ظهروا فيا بعد .

ولهذا السبب قامت القطيعة بين موقف هؤلاء المفكرين المؤمنين حتى عندما يدافعون عن الايمان ضد العقل ، وبين فئة المتصوفة ، هؤلاء المؤمنين بقلوبهم الذين كثيراً مـا رموهم بالكفر والزندقة . فالمحاسبي والجُنَيْد ، في القرن التاسع ، يعربان عن رغبتهما في الزهد والنقاء الخلقي عند هـذه النفوس التي لا تقيم وزناً للقياس ، كالحلاج ، مثلاً (٨٥٨ – ٩٢٢) . الذي قال في بعض تعاليمه : « انا الحقيقة » وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه الحرب ضـد القرامطة ، فكفّروه ورأوا فيه خطراً على الجماعة . فظهوره يعتبر حادثة نادرة في الاسلام ، جرت عليه الموت ، بعد عذابات اليمة ، مبرحة تذكرنا بمأساة المسيح .

ادت محاربة هذه الزندقة الى ادب خاص ، منه نفهم ما كانت عليه هذه الملل والنحل. وقام في الاندلس ، عند مطلع القرن العاشر ، حول ابن مَسَرّة وأخذه بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، شعور بالقلق من جراء استفحال هذه التعاليم ادى الى وضع ابن حزم كتابه المشهور عن الملل

والنحل ، وهو احسن كتاب في الموضوع يصف لنا الفروق التي باعدت فيما بينها . وقد رأينا ما كان لابن حزم من اثر على الشعر في عهده .

الادب المسيحي واليهودي

على نقيض البحث العلمي الذي انفتحت ابوابه امام الجميع ، يبدو ان الفكر الديني لدى الطوائف غير المحمدية ، اختلفت عنده مظاهر الحياة العقلية ، عنها لدى العالم الاسلامي ، مع انه استعمل اللسان العربي ، تعبيراً وتبايناً . فهو يجدب ويتصلب عند المسيحيين فلم يطلع بأي اثر بارز ، ولا أفسح المجال لطلوع أية مشاقة دينية مهمة . وقد اقتصر الجدل ، بعد ان تصلّب وقسا ، على الامور الكنسية دون العقائدية . اما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر ، ونفض عنه الجمود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلمودية . ففي الوقت الذي راح فيه الاشعري يدخل على الاسلام المناهج الفلسفية المعروفة ، عرف رئيس الكهنة سادياً ، في بغداد ، ان يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم ، وراح يحاول من جهته ، التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين ، أي بين مطلب الايمان ومناهج العقل . ومن كل الجوالي اليهودية في اوروبا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة . ومن الرسائل المتبادلة بين هذه الجماعات الدينية ، تكونت مجموعة الوثائق المعروفة باسم *Papiers de la Genisah* التي عثر عليها في القاهرة ، منذ نحو خمسين سنة ، وهي مجموعة تمدنا كل يوم بنماذج مثيرة . ومع ذلك ، فازدهار المدارس الملّيّة التي قامت في كل من القدس ، والقاهرة ، والقيروان – التي تجاوز اشعاعها ولايات ايطاليا الجنوبية – والاندلس ، يبدي بصورة قاسية ، الصدارة التي احتلها ربانية مدرسة بغداد ، على غير استحقاق او جدارة احياناً ، مع ان الانحطاط اخذ يدب اليها ويتغلغل فيها ، اثر القلاقل والاضطرابات التي نشبت في القرنين العاشر والحادي عشر . واذ ذاك ، انتقلت جذوة النشاط للأدب اليهودي ، الى البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط ، وراحت رئاسة الاحبار ورئاسة الربانية تضمحل تدريجياً وتموت . فاذا ما عرفت مدرسة القيروان الضعة والهوان في عهد الهلاليين ، فقد اشتهرت مدرسة الاندلس بأن انجبت جبريل الملقّي ، احد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة الذي كاد يكون غريباً عن ملته ، كما كان شاعراً مشهوراً ، كما ان بهيا بن باكوري راح يضع كتاباً في مجالدة النفس والزهد ، يبدو غريباً جداً في الادب اليهودي . ومنذ القرن الحادي عشر ، اصبحت الاندلس ، ملاذ الفكر اليهودي ، كما اصبحت مركزاً للاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي .

الادب البيزنطي

اذا ما قارنا الادب البيزنطي بما ظهر حوله من آداب اخرى في الشرق او في الغرب ، استطعنا ان نكوّن لنا رأياً معللاً ، وان نبدي حكماً حول قيمته الحقيقية او النسبية . فهو يتمم بعلم اكبر ، وبدقة اوفر ، من الادب في الغرب ، واصاب نجاحات اكبر من التي حققها ، الا انه اقل غنى وتنوعاً من الادب الاسلامي . فقد عرف

الاسلام ان يتمثل آداب الشعوب التي دوخها ، وان يطبعها بميسمه المميز ، وان ينميها ويطورها بينما لم تشع بيزنطية على الشعوب التي خضعت لحكمها وسلطتهـا الا في المجال الديني ، وفي بعض مظاهر خاصة من مجالات الفن ، مع العلم ان الشعوب التي اخضعتها لنفوذها لم يسمح لها طابعها البربري أن تستمريء عناصر ثقافيـة اخرى ، كما ان بيزنطية كانت اعجز من ان تعطي الغير شيئاً مما كانت تحرص عليه من تراثها الهليني التليد ، وبذلك جعلت نفسهـا بمعزل عن كل مؤثر اجنبي يأتيها من الخارج . فقد استطاعت ، وايم الحق ، ان تقتبس، من الخارج ، بعض العناصر التي شاركت في تكوين فنها . ولكن ما من شيء جديد في المجال العقلي او الفكري . فلم تكن من القوة بحيث تستطيع ان تستغني ، دون أن تتعرض للخطر ، عن هذه العوامل التي ساعدت في إخصاب ثقافتها واغنائها . وهكذا راحت الثقافة البيزنطية تتطور وتتكامل من الداخل ، وتعمل ضمن حلقة مفرغة ، اتازت بالاخذ والقبس دون ان تكون لها القدرة على العطـاء ، وبالتالي على الاشعاع . فقد كانت تحيا وتعيش لنفسها ، لا للغير . قد يكون الادب الشعبي هو الشيء الوحيد الذي شذّ عن هذه القاعدة ، الا انه ادب مجهول القدر ، منقوص القيمة ، ليس من يشعر به الشعور الذي نعمت به بعض المؤلفات العلمية التي وضعت لنخبة مختارة من الطبقة الارستوقراطية .

وبالرغم من هـذا ، وبعد الركود الادبي الذي طبع العصور الماضية ، وسيراً مـع حركة الازدهار والاشعاع الفكري الذي عرفتها الثقافة العربية ، عرفت بيزنطية ، في القرن التاسع ، ازدهاراً عظيماً وتطوراً كبيراً في امور الفكر ، فازدادت فيهـا المدارس ، ودب النشاط في جامعة القسطنطينية بعد ان اجرى فيها البطريرك فوتيوس ، وهو من اشهر تلاميذها ، إصلاحاً جذرياً وسكب فيها دماً جديداً ، وصقلت الاذواق والطباع في كل مـا يتعلق بامور الفكر والفن . وبعـد قرون من المناقشات البيزنطية الجوفاء حول قضايا دينية او كنسية لا طائل تحتها ، اخذ الناس ، بتأثير من هـذه اليقظة الجديدة ، يحفلون بالتراث الحضاري القديم ، ولا سيا بالهليني منه . فبينما راح الاسلام ينقل من هذه الثقافة اليونانية بعض مـا يتعلق بالعلم والفلسفة ، انصرفت بيزنطيـة للجانب الادبي الذي كان من العسير نقله الى العربية لما يتنزّى به من الاساطير الوثنية والميثولوجيا ، ولما يستدعي تمثّله من ذوق رفيه . وراحت تكمل رسالة مدرسة الاسكندرية ، وان تعثرت منها الخطى واشتط النهج في القبس ، اذ اقتصر على حرفية مرزحة ومقعدة . ففي هذا التطور من تاريخها ، إكتست الثقافـة البيزنطية أريجاً من الفكر العلماني لا يتعارض او يتنافى قط مع الايمان ، انما يتميز تماماً عما خلفته العصور السالفة واللاحقة كما يتميز كلياً عن الانتاج الفكري ، في الغرب ، خلال هـذه الحقبة . فبالاضافة الى المؤلفات التعليمية الطابع او الموسوعية الهدف ، وكتب النصوص والادلة الموضوعـة للحكام الاداريين والخاصة ، كانت كل الفنون الادبية ، من نثر او شعر ، موضوع اهتمام خاص . ويبرز من بين هذا الادب السقيم الهزيل ، بعض قصص ومسرحيات لها قيمتها الفنية . وعـلم التاريخ الذي

يرى مادته الاولى تتجدد باستمرار ، ترك لنا ، قبل القرن الحادي عشر ، مؤلفات قوية بقيت على الزمن ، ابتداء من التاريخ الذي وضعه ثيوفانس (غرة القرن التاسع) ، والتواريخ الاخرى التي رأت النور في القرن العاشر ، بتشجيع من الاباطرة امثـــال لاون السادس ، وقسطنطين المسربل بالارجوان ، وخلفاؤهم من بعدهم ، منها التاريخ الذي وضعه لاون دياكر . وقد لقيت تراجم القديسين على انواعها ، رواجاً عظيـماً لما كان لها من وقع في نفوس افراد الشعب. وحرى بنا ، ان نذكر هنا ، بعض الآثار النقدية التي نحا فيها واضعوها ، نحو لوقيانوس ، وان جاءت المحاكاة حرفية ، وكان علينا ان ننتظر القرن الحادي عشر لنرى آثاراً ذات قيمة ارفع واسمى . ويأتي التاريخ في خدمة هذه الآثار ، منها التاريخ الذي وضعه ميخائيل اتاليات ، ونيقوفوروس بريين ، وكدرينوس ، وسكيلتزيس . كذلك علينا ان ننوه عالياً هنـــا ، بالكتاب الذي وضعه « النبيل » كيكومانوس الذي ضم قصصاً مثيرة وعظات وارشادات عملية . وقد برزت فوق هذه الحركة ، شخصية بسيلّوس ، الذي كان من الطراز الاول : رجل ادارة ، وفيلسوفاً موسوعياً ، ومجدداً للفلسفة الافلاطونية ، وللافلاطونية الحديثة ، كما كان مؤرخاً وسيكولوجياً يخترق اغوار النفس البشرية ، في كتابه الموسوم « كرونوغرافيا » ، والمنظم للتعليم الجامعي بمساعدة الامبراطور قسطنطين مونوماخس (اواسط القرن الحادي عشر) ، والمؤسس لمدرسة الفلسفة ، الى جانب مدرسة الحقوق التي كانت تمد الدولة بما تحتاج اليه من رجال الادارة والحكم.

وبالرغم من هـــذا النشاط ، فليس ابرز للعين ، من الادب الشعبي الذي امتاز بالاصالة والعفوية والطبيعية . ويمكن ان نضيف الى هـــذا اللون ، فن كتابة سير القديسين ، والقصص المستوحاة من القصص الشرقي ، امثال قصة برلعام ويوشافاط . واسوة بمـا كان عليه الوضع في الغرب ، فالمسرحية ، كالقصص الشعبي في الأجيال اللاحقة ، مزيج من التلاحين والاغاني والسرد القصصي ، تغنّى احياناً ، وحيناً تتلى وتقرأ ، ويبقى هذا الفن ناشطاً حتى القرن العـــاشر . وقد طلع بعد قليل فن تمثيل الاسرار (*Mystères*) ، وهو مسرح ديني عرفه الغرب ، اذ ذاك ، يتألف أصلاً من حوادث يراعى في سردها الليتورجيا . ولعل أشهر هـــذه الآثار طراً ، وان جهلها العلم مدة طويلة ، هي بلا مراء ، الملحمة المعروفة بـ *Digenis Akritas* التي استقرت في شكلها النهائي ، في القرن الثاني عشر ، مع ان القسم الاسامي منهـــا يعود لقرن أو قرنين من قبل . وهذه الملحمة تذكرنا بالقصص الحماسية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، مما سبق واشرنا اليه من قبل . فهي تصف لنا وصفاً حياً ، مثيراً ، مشاهد من حياة جندي يعمل في حاميات التخوم والثغور، وما تمّ له من علاقات مع بعض المسلمين ، تارة حربية ، وطوراً سلمية، نستطيع معها ان نتبين ظروف وصروف الحملات والصوائف التي كانت آسيا الصغرى ملعباً لهـــا ، في القرنين التاسع والعاشر ، كما نتبين ما كانت عليه ، اذ ذاك ، اخلاق القوم الساكنين على الحدود . ولا تزال ذكريات هذه الملحمة حية لليوم في نفوس افراد الشعب في اليونان .

والادب الارمني الذي استوحى قسماً من مقوماته ، من النماذج البيزنطية والسريانيـة ، ولا

سيا الدينية منها ، اخذ يتحرر أكثر فأكثر ، ويعتمد على نفسه في هذه الآثار التاريخيــة التي خلفها لنا توما الارزرومي، واستفانس طارون، وارستفاكس ده لسديفرد وهي آثار جد مفيدة، بالرغم مما هي عليه من تفخيم واطناب . وقد ازداد الادب الرهباني إزدهاراً ، خـــلال عهد الأسرة البغراتية . واكبر شخصية علمية في هذا العهد ، هي شخصية غريغوريوس ماجستروس (النصف الاول من القرن الحادي عشر) ، وهو نبيل ارمني ، وقائد عسكري ، عمل في الجيش البيزنطي ، موسوعي الثقافة ، جوّد اللغتين : الارمنية واليونانية ، وراح يحاول اخراج مواطنيه من العزلة التي وضعتهم فيها لغتهم الأرمنيـة . صحيح ان الشاعر الصوفي الأرمني غريغوريوس ناريك، الذي عاش في اوائل القرن العاشر والذي لم يقع تحت اي اثر اجنبي، تمتع بين الأرمن، ولا يزال ، بشهرة اوسع مما تم لماجستروس . ولما كانت بلاد جيورجيا هي الأخرى، مفترق طرق، وملتقى الثقافات البيزنطية والارمنية والايرانية ، فقد اخذت تستيقظ تحت تأثير ترجمة الآثار والمؤلفات الكنسية ، وتتفاعــل مع الحركة الفكرية في البلدان الصقلبية الاخرى التي اخذت تتحرك وتتحرر سياسياً ، لتصل بعد القرن الحادي عشر ، الى آثار تتميز ، أكثر فأكثر ، بالطابع الشخصي .

فنون الشرق الادنى

في جميع أقطـار الشرق الادنى ، المسيحي والاسلامي على السواء ، ينزع الفن نحو التنوع ليقيم له مذاهب أو مدارس « وطنية » خاصة ، مع حرصه مع ذلك ، على التمسك بعناصر مشتركة . وبالرغم من الفروق القائمـــة بين الفن الاسلامي والبيزنطي، حدود واضحة المعالم والصوى، بين هذه المذاهب الفنية المعمول بها، في كلا الجانبين، فكلاهما يتجاوب وحاجات مجتمعه الخاص الذي استعرضنا، من قبل، لتطوراته المتوازية، فيستعمل كل منهما وسائل تقنية مماثلة. ويهمنا هنا ان نكشف، ولو بايجاز واقتضاب عن العوامل المشتركة التي تؤلف ما بينهما من وحدة، بحيث نستطيع ان نُظهر، بصورة محسوسة ، ما في هذه الانجازات التي حققتها هذه الفنون ، من قوة التأثير والاغراء .

نحن نجهل تماماً التكنيك الهندسي الذي يختلف ، هنا وهناك ، باختلاف المادة المستعملة في البناء كالحجر او الآجر او اللبن ، في كل ما يتصل بالمباني العسكرية ، والقلاع والحصون ، الدفاعية ، بالرغم من كثرتها وعددهـــا . للدفاع عن حدود بيزنطية ، او للدفاع عن البلاد الاسلامية ، ضد المشركين ، في آسيا وفي افريقيا ، وهذه الرُبُط التي تقيم فيها متطوعـة الغزاة الملبين نداء الجهاد المقدس ، ليوطدوا من سلطان الزعماء المحليين ، او لمراقبة المقاطعات الصعبـة المرتقى ، التي كانت ، في كل من سوريا وكردستان والمغرب ، شهوداً ناطقة على ما بلغته السلطة المركزية من شدة التفتت ، والانحلال . اما الهندسة المعمارية المدنية ، فلم يصل الينا منهـا شيء يذكر . غير ان الحفريات التي جرت في سامراء العاصمة الموقتة للعباسيين ، بعد بغداد ، فقــد كشفت عن معالم القصر الخلافي التي تساعدنا كثيراً على تفهم ما كان عليه هـذا القصر من اوضاع خاصة ، كما نعرف جيداً ان القصر المقدس الذي شيدته اسرة الاباطرة المقدونيين ، في القسطنطينية ،

استوحى خطوطه من الطراز الهندسي المعمول به في بغداد . وهو عبارة عن مدينة ضمن مدينة، أكثر مما هو قصر . فقد ضم العديد من الأبنية : هذه للسكن ، وتلك للتلهي والترفيه ، والاخرى للدفاع ، واخرى للتموين وخزن المؤن التي يحتاج اليها الخليفة وحاشيته . كل ذلك يبدي الفارق الكبير بين هذه القصور الفسيحة الارجاء ، وبين هذه المنازل القذرة التي كانت مأوى السواد الاعظم من سكان المدن .

اما الهندسة المدنية التي حفظت مبانيها أكثر من الاولى ، فقد قام فيها فروق بارزة اوجدتها مقتضيات العبادة ، سواء أكانت مساجد او كنائس . والقضية المشتركة التي كان على المهندسين مواجهتها وحلها بالتي هي احسن ، تنحصر في السقف الواسع الذي كان يجب ان يغطي الردهة الكبرى المعدة لاجتماع المصلين . وهكذا راح المهندسون المعماريون ، في كل من القسطنطينية وايران ، يتعاونون معاً لاقامة قباب او قناطر من الآجر، بينما استعمل مهندسو ارمينيا وسوريا ، ثم البلقان، الخشب لسقف كنائسهم المبنية بالحجر . وقد أدى التطور الذي رافق إقامة القباب ، في كنائس بيزنطية ، الى جعل السطح بشكل صليب يوناني .

فاذا ما زالت معالم الكنيسة الاولى التي بناها الامبراطور باسيل الاول، فلا يزال قائماً لليوم، سواء في القسطنطينية ام في الولايات التابعة لها ، كنائس عديدة متواضعة المظهر ، استحال بعضها الى مساجد وجوامع . ان عهد السلالة البغراتية هو بالفعل العصر الذهبي للهندسة المعمارية عند الارمن ، كما يبدو ذلك في هذه التحفة الفنية الرائعة التي تتمثل على أتمها في كاتدرائية آني ، وما تركته من اثر بيّن في كنائس جيورجيا ، ولا سيما في كاتدرائية عاصمتها القديمة كوتائيس .

اما المسجد الذي هو عبارة عن بهو او صالة كبيرة لا مكان فيه لحنية او هيكل ، فهندسته لم تثر أية مشكلة او صعوبة . فمسجد ابن طولون ، في القاهرة (اواخر القرن التاسع) استوحى خطوطه الكبرى من مساجد بغداد العباسية . وبقيت هذه الهندسة مرعية الجانب في عهد الدولة الفاطمية ، كما يظهر ذلك بوضوح ، في مسجد الحاكم الذي استوحيت في هندسته بعض العناصر البنائية المستعملة في الغرب وطبقت في بناء جامعة الازهر . اما في افريقيا ، فروائع الفن المعماري الهندسي، تتمثل في مسجد القيروان الذي تم تشييده في مطلع القرن التاسع ، ودخلت في هندسته عناصر مستوحاة من عمارة المساجد في الشام والعراق . اما في الاندلس ، فتحفة الفن الهندسي فيها ، هي مسجد قرطبة الذي استمر البناء فيه اكثر من قرنين (القرن التاسع والعاشر) . اما في ايران حيث مواد البناء لم تقوَ على مغالبة الزمن وعوامل الفناء ، والهزات الارضية الكثيرة الوقوع ، فلم يبق لنا شيء يذكر مما سبق بناؤه القرن التاسع ، وهو العهد الذي قام فيه مسجد أصفهان الكبير الذي أدخلت عليه فيما بعد ، تعديلات واضافات جديدة . ونحن مدينون لايران بهذه الاضرحة التذكارية الكبيرة التي تنتهي ببرج او قبة هي التي أوحت بالطراز الجديد للمساجد

الجنائزية . وبعد ان اضيفت على هذه المساجد ابراج حلزونية الشكل مستوحاة من الفن القديم العمارة ، في البلاد ، انتهت بظهور هذه المآذن المستديرة التي تنتصب مرتفعة نحو السماء والتي تختلف كل الاختلاف عن هذه المآذن المربّعة الشكل ، ذات الادوار او الطبقات الضخمة التي شاع استعمالها في مساجد بلدان حوض البحر المتوسط . ومما يلفت الانظار في هذه المساجد ، بعد ان يجتاز المرء الساحة المسورة التي تحيط بها ، وبعد ان يدخل بهو الجامع وصحنه ، هو هذه الأعمدة العديدة التي كثيراً ما تعلوها اقواس او قناطر متنوعة الأشكال ، من هلال الى قنطرة كاملة .

ووحّد بين المهندسين النصارى والمسلمين رغبة قوية في زخرفة المبنى وتحليته (الديكور). فقد زالت تماماً ، معالم التماثيل والشخوص والنقوش الضخمة، لتفسح المجال لفيض من الرسوم والزركشة للسطحات عن طريق الألوان او عن طريق نقش الحجارة وتفريغها ، أو عن طريق التلبيس او التكفيت . وكم سمعنا ورددوا على مسامعنا ان الاسلام حرّم ويحرّم تصوير الكائنات الحية في المعابد . فهذا القول لا يخلو من تشدد وعنت ، لا نرى قط الايرانيين يأخذون به او ينزلون عند حدوده . فالمسألة لم تكن لتعني تصوير ذات الجلالة . بهيئة انسان ، او على شكل حيوان مهما كان كريماً ، اذ ان الله روح يعلو فوق كل مادة وعَرَض ومخلوق ، كما لا يعني تمثيل الكائنات لذاتها . فالفنان المسلم لا يتحرج قط ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ، عن تزيين المباني المدنية بكل ما لديه من وسائل التحلية والزينة : من نبات وحيوان وانسان ، اذا كان في هذه الرسوم ، ما ينهض باسباب الفن ، او يزيد من قوة جاذبية التحلية ، في اي المظاهر التي تبدو عليها ، وفي اية حالة من الحالات ، كالصيد والقنص والحرب . والثابت هو ان الفنان في البلاد السامية، همه الاول ان يأخذ من الكائنات رمزاً يُسقِط منه ما له من معالم حسية لنصل منها الى فكرة التجريد ، بما توحيه هذه الحبائك والشجرات والدوائر الهندسية ، والخطوط الكتابية المتشابكة التي راجت رواجاً عظيماً في العالم الاسلامي . وهذه النزعة بالذات لم تكن غريبة عن الفنان البيزنطي نفسه بالقدر الذي يُظن او يذهبون اليه ، صحيح ان هؤلاء الفنانين لا يترددون قط منذ بدعة محطمي الصور والايقونات ، في تصوير القديسين والألوهية نفسها ، في الكنائس . الا انهم على عكس الفنانين في الغرب الذين نزعوا دوماً الى تجسيد او تشبيه قصص الكتاب المقدس، ليعبّروا بذلك ، عن لاهوت مجرد ، باشكال وصور لا تتغير ولا تتحول، هي فوق البشر ، لا تعود اليها الحياة الا عندما يستطيعون التصرف بفنهم بكل حرية .

والفسيفساء ، هذا الفن الذي يمكن وصفه بالفن الارستوقراطي والذي طالما ركن اليه الفنانون وعولوا عليه في الاجيال الاولى من تاريخ البيزنطيين والاسلام ، راحت بيزنطية تستبدله او تستعيض عنه بالاكثار من الافاريز التي تكلف ما تكلفه الفسيفساء ، من نفقات . فالشواهد العديدة التي وصلت الينا من المباني الواقعة خارج القسطنطينية ، تبدو احياناً فخمة ، كما نرى ذلك في كنيسة القديس مرقس في البندقية (القرن الحادي عشر) ، وفي صقلية النورمندية

(القرن الثاني عشر) ، وفي مدينة كييف (القرن الحادي عشر) ، واكثر بساطة في الكنائس الواقعة في الملحقات ، ككنيسة دفنة في اليونان ، واحياناً كنائس من ذوق شعبي خشن ، ككنائس قبادوقية « الكهفية » التي عثر عليها من عهد قريب . ومع ان العالم الاسلامي عرف استعمال الافاريز ، فقد فضّل مع ذلك استعمال القاشاني المغطّى بالمينا والذي تفننت مصر كثيراً بصنعه . اما ايران ، فقد اشتهرت بصنع البلاط المربع ذات اللمعان المعدني ، فاستعملت مجموعة كبيرة منه في مسجد القيروان . ولكي يستروا المباني المصنوعة من القرميد البسيط ، راح الفنانون ، سواء البيزنطيون منهم او المسلمون ، يغطون السطوح بطلاء متعدد الالوان . اما المرمر ، فقد أقتصروا استعماله على الداخل ، واستعملوا فيه جميع العروق . اما الفنانون في ايران الشرقية فقد حاولوا ان يخلقوا نوعاً من التحلية بمجرد رصف الآجر دون الركون الى الألوان .

اما الزركشة والتزيين بالحفر فلا يستعمل الا في تيجان الأعمدة والكورنيش. كذلك الجدران المخرّمة التي بالغوا في دقة صنعها ، فيكثر استعمالها ، بالاحرى ، تحت القناطر والقباب والسطوح التي لم تكن مرصوفة بالفسيفساء . وتكتمل اسباب الزينة بوجود الأرتجة الضخمة والمفروشات والطنافس والسجاد .

فبعد ان زهدت الهندسة المعمارية بالحفر والنقش ، راح هــذا الفن يثأر لنفسه بسيطرته على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . فالاخشاب الثمينة تُحفر في العالم الاسلامي وتستخدم فيه على نطاق واسع ، في المساجد وفي المنابر . كذلك التكفيت والترصيع فهو من هذه الفنون التي اختص بها الاسلام . واستعمال العاج يبقى رائجاً على نطاق واسع في بيزنطية ، لما كانت الارستوقراطية فيها ، ميسورة ، ثرية ، قادرة على إقتناء الصناديق الخشبية التي تحمل نقوشاً تنبض بالحياة ، وهو فن بقي مستعملاً في جميع ارجاء البحر الابيض المتوسط : في مصر ، وصقلية والاندلس . واشتهرت بيزنطية بالابواب الضخمة المصنوعة من البرونز وبمصنوعاتها الفضية وبجوهراتها المنقوشة والمطعمة . وكنا نرى في العالم الاسلامي الصحان الكبيرة والصواني الواسعة ، والمغاسل النحاسية ، والمصابيح المصنوعة من البرونز ، المستوحاة نماذجها من الفن الساساني ، والتي كانت تصنع كذلك في مصر وفي الاندلس ، كما كانت تصنع في العراق وايران ، فنالت شهرة واسعة لا يزال يفيد منها من راحوا يقلدونها ، حتى في عصرنا هذا . والاسلحة الفنية المصنوعة في الهند اولاً ، ثم في دمشق وقرطبة لم تكن لتقل عنها شهرة . وفي صنع الحلي والجوهرات والدمى ، كانت بيزنطية تخضع ، كاوروبا نفسها ، لفن سكان البدو ، الذي لم يُعرف كثيراً في الاسلام .

ومن الفنون الخاصة ببيزنطية والغرب ، تحلية المخطوطات وتزويقها بصور ورسوم دينية ، يضاف اليها احياناً صور بعض الامراء ومشاهد مأخوذة من الحياة اليومية . وفن تزويق

المخطوطات الذي مارسه المسيحيون في البلدان الاسلامية ، لم يلبث ان انتقل الى المسلمين في أقطارهم ، فراحوا يزينون العديد من الكتب الاسلامية الدينية كالقرآن ، مثلا . ولم يصل الينا نماذج سابقة للقرن الثاني عشر . والتحف الفنية لفن التزويق الايراني التي وُضعت بعد هذا العهد بكثير ، جاءت وليدة عوامل ومؤثرات اخرى .

اما الخزفيات التي استعملت على نطاق واسع في جميع انحاء العالم الاسلامي، ولا سيا في مصر وايران ، فأمدّتنا بصحائف وصوان واطباق ترفل بمشاهد متنوعة ، وبعضها عطل من كل حلية، وان وجدت فغاية في البساطة . وقد عرفت بيزنطية هذه الصناعة ، انما على نطاق ضيق . الا انها اشتهرت على الاكثر بصناعة الزجاج ، فلم يبق من مصنوعاتها سوى عدد قليل يحفظ معظمه بين مجموعة كنيسة القديس مرقس الفنية ، في البندقية ؛ وهي صناعة تمثلت على احسن وجه ، في العالم الاسلامي، سواء في سامراء وفي الغرب وفي مصر، حيث اضيفت اليها صناعة البلوريات، وقد عرف الصناع ان يتفننوا كثيراً بمصنوعاتهم ، فلونوها واستعملوا الزجاج مع المعادن . وقد عرفوا كذلك صناعة النوافذ الزجاجية الملونة وان لم يبلغوا فيها مبلغ الصناع المسيحيين في الغرب .

وقد اشتهر الشرق الادنى بصنع الانسجة الفاخرة التي استعملت في الملابس كما استعملت لأمور الزركشة والتحلية . وقد اطنب الادباء وصفاً بصناعة الديباج والخز ، كما تفنن الصناع في استعمال هذه النسائج في اعمال الزينة، وهي مصنوعات عرفت في بيزنطية قبل الاسلام، وقامت لها دور ملكية في بيزنطية ، كما عرفت بغداد والقاهرة وقرطبة دور طراز ، اخرجت لثراة القوم واعيانهم ، منسوجات حريرية مقصّبة نسجت بأسلاك الفضة والذهب ، لا يزال باقياً منها للآن نماذج رائعة في بعض الكنائس القديمة في الغرب . اما فن صناعة السجاد الذي اشتهر بها الشرق منذ عهد بعيد ، فلم يصلنا شيء مما تم صنعه قبل اواخر الاجيال الوسطى . كذلك عرفت صناعة الجلود فنا عظيماً جوّده الصناع المسلمون وأتقنوه للغاية . فالكلمة الفرنسية *Cordonnier* (اسكافي) اشتقت من اسم مدينة *Cordoue* التي اشتهرت بهذه الصناعة . كما ان صناعة الجلود الثمينة جاءت هي الاخرى من كلمة *Maroc* المغرب الذي جوّد هذه الصناعة .

أما البلدان السلافية التي كانت حضارتها على مستوى أدنى ، فلم تعرف اذ ذاك ، فنا خاصاً بها . صحيح ان الاصنام الخشبية التي وُجدت عند صقالبة الغرب ، لفتت اذ ذاك، انظار الرحالة والمسافرين ، كما ان مخلفات قصور الامراء البلغار هي أكبر شاهد ، على انتقال التقاليد الساسانية عبر الفيافي الصحراوية . كل ذلك ، مخلفات حقيرة ليس لها شأن يذكر ، فليس من عجب ان يُعرض عنها العالم المسيحي ويزهد فيها . وقد كان من نصيب الفنانين البيزنطيين ان يحملوا الى الصقالبة فناً متكاملاً ، لم يلبث ابناء البلاد ان اقبلوا عليه يتمثلونه ، ويقبسون منه ما شاء لهم

القبس ، بعد ان تتلمذوا عليه .

وهكذا نرى ان الازمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي هزت الشرق الادنى من اركانه ، كانت اعجز من ان تسبب ، في الحال، انهيار المدنية . إلا انها مهدت الطريق وأفسحت المجال امام عوامل وقوى جديدة، لم تلبث ان اثرت تأثيراً عميقاً في هذه المدنية ، وهددتها بخطر ماحق نزل بها في القرن الحادي عشر .

الفصل السابع

الحضارات الآسيوية في الأوج
(من القرن السابع حتى الثاني عشر)

في القرون الاولى من تاريخ الاجيال الوسطى التي شهدت في الغرب ، انطواء العالم المسيحي كما شهدت ، في الشرق الادنى، ظهور الاسلام وانطلاقه كالشهاب الراصد، عرفت البلاد الآسيوية، من جهتها ، درجة رفيعة من الازدهار سجلت معها مدنياتها المختلفة رقماً قياسياً في جميع هـذه البلدان . ففي مطلع هذه الحقبة ، أي في غرة القرن السابع ، كانت الامبراطورية الساسانية على قاب قوسين وادنى من انهيارها وزوالها . أما الهند ، فلم تلبث ان نهضت من كبوتها ، بعد ان نفضت عنها غبار الدمار والخراب الذي انزلته بها الغزوات الماحقة التي قامت بها قبائل الهونز ، وراحت اسرة هارشه ده كانوج تسعى ، على مثال اسرة القوبتا ، لتعيد اليها وحدتها . أما الصين، فبعد ان تغلبت على غزاتها من الاتراك والمنغول بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعتها سلالة تانغ الجديدة ، راحت تبسط سيطرتها وسلطانها على التركستان والتونكين ، وشمالي مقاطعة الانام ، بينما ربطت الاقطار الاخرى الواقعة على سواحل البحار الجنوبية مصائرها بالهند ، فاخذت تتطور وتتكامل تحت حمايتها ورعايتها ، فتمهد بذلك لهذا الازدهار الذي تميز بهـذه الروائع الهندسية الفخمة التي تتمثل على احسن وجه في هياكل انككور وبارا بودور ، كما راحت أقطار جديدة تعبّ ، بملء رئتيها ، من الحضارات الآسيوية . فهـا هي التيبت التي اعتنقت البوذية ، لن تلبث ان اصبحت ، على شاكلة الترك ، خصماً عنيداً للصين ، وملاذاً للبوذية الهندية ، وحمىّ لها توفر لها الرعاية والحماية . أما اليابان فقد اخذت ، هي الاخرى ، تستيقظ من سباتها العميق ، وتقتبس بدورها من مقومات الحضارة الصينية ، ولم تعتم ان كشفت عما هي عليه من الصفات والمناقب التي لن تلبث ان ميزتهـا وفرّدتها . وحركة التطور والتكامل التي اخذت الاقطار الآسيوية باسبابها ، وجدت جذوتها الكبرى في الهند والصين . فكلاهمـا استطاع ان يحافظ على مناطق نفوذه التقليدية التي عرف ان يسيطر عليها : الصين في التركستان والتونكين ، والهند في المناطق الهند الصينية واندونيسيا ، كما استطاع كل منهما ان يحتفظ بمناهجه وأساليبه الخاصة ، اذ في الوقت الذي كانت فيه الصين تعتمد على القـوة والبطش في

سياستها وتعمل على توطيد النظم الادارية التي اتقنتها ، واحتفظت الهند ، مع البلدان الدائرة في فلكها ، باحسن العلاقات واطيبها في المجالات التجارية والدينية والثقافية .

عند هذا القدر نقف في هذه الموازنة ، وهـذه الازائية التاريخية التي تقابل التطور الذي اخذت الاقطار الغربية باسبابه والمدنية التي اطلعتها . فلا نرى في آسيا حول هـذه العطفة التاريخية التي تكونت من سنة الالف ، شيئاً يمكن مقارنته بهذه اليقظة ، هـذا الانبعاث الذي دب في الغرب الآخذ باسباب النظام الاقطاعي ، كما لا نرى شيئاً يمكن ان نقارن به هذا الانقلاب الجـذري الذي قلب الشرق الادنى ، رأساً على عقب . صحيح ان الامبراطوريات الاسيوية الكبرى ليست بمعزل او بمنأى عن اي تغيير او تبديل ، ولا مؤسساتها ونظمها متحجرة بحيث لا تقبل التبدل . فهنالك اخطار كثيرة تترصدها ، يتحتم علينا تحديدها وتبدل باستمرار من حدودها واوضاعها ، قبل ان تحمل اليها الخراب . ومع ذلك فقد استطاعت ان تحافظ على مقوماتها الاساسية مدة اطول وان تصونها من عبث العابثين . فليس من فجوات عميقة يلحظها المؤرخ في تاريخ هذه الامبراطوريات ، قبل طلوع الفتح المغولي الذي اخذت بوادره ترتسم منذ فجر القرن الثالث عشر ، فبعد ان عبثنا قليلاً بالترتيب الزمني الذي نحاول ان نرسم ضمنه التطور المتوازي لهذه المدنيات البشرية الكبرى ، علينا ان نكشف ، في هـذا الفصل ، عن الخصائص المميزة لهذا العالم الاسلامي كما تبدت لنا من خلال تطوره التاريخي حتى السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر او ابعد من ذلك بقليل .

هي نظرة خاطفة ، جريئة نلقيها على تاريخ هذه القارة الشاسعة ، خلال حقبة من الدهر على مثل هذا الاتساع ، والمدى الذي نيّف على خمسمائة سنة . هنالك امران يساعداننا في الكشف عن الطابع المميز لوحدة التاريخ هنا ، بالرغم من تلـك الاحداث الكثيرة كما يساعداننا على التسامي فوقها ، همـا : انتشار البوذية وتوسعها ، في بدء هذه الحقبة ، والنشاط البالغ الذي عرفته الحركة التجارية ، طوال هذه الحقبة بالذات .

انتشار البوذية

في هذا العالم الاسيوي ، كما يبدو لنا في القرن السابع ، الذي ينعم بالاستقرار الموقت وبالازدهار ، كما يظهر ، تلعب البوذية ، دوراً اساسياً . فالبوذية ، تنعم في الهند رسمياً برعاية الامبراطور هارشا ، والمناطق التي تسيطر عليها كجزيرة سيلان ووادي نهر الغانج ، هي اراض مقدسة . وقـد بلغت البلدان الواقعة على سواحل البحار الجنوبية وتغلغلت بين شعوبها ، واقامت لها في التركستان نفسه ، نقطة ارتكاز قوية ، أشعّت منهـا بعيداً . وقد اغدقت عليهـا اسرة تانغ ، الصينية ، الانعامات السابغة ، وساعدتها على ايفاد كتائب من المرسلين والمبشرين والحجاج ، الى الهند والبلدان الواقعة الى الشرق من القـارة الاسيوية ، وبلغت التيبت التي كانت بقيت ، الى ذلك الحين ، مغلقة في وجه المؤثرات الاجنبية ، كما دخلت اخيراً كوريا واليابان ، حيث استقرت ، وازدهرت بفضل ما عُرفت به من روح

مسكونية ، اذ كانت عنصراً ضاماً ولحمة ربطت بين اشتات المدنيات التي لاحمتها وتغلغلت بين ثناياها . فاينا حلت ونزلت ، ساعدت على بعث مذاهب ونزعات فنية حملت معهـــا ليس تيار المؤثرات المختلفة التي عملت على نشرها فحسب ، بل ايضاً العبقرية التي ميزت كل قطر من هذه الاقطار بمفرده .

قام خلال القرن السابع سلسلة متصلة الحلقات من قوافل الحجاج الصينيين بغية زيارة الهند والمراكز البوذية المشهورة في الانسولاند والتركستان ، يبحثون جادين في اثر الوثائق والاسانيد التي كانوا بحاجة اليها ، ويحرصون على جمعها وحفظها . وقامت ركبان اخرى ، في القرون اللاحقة ، تؤم اليابان التي ارسلت بدورها العديد من الوفود الدينية الى الصين. وقد علّق البلاط الامبراطوري في الصين ، اهمية كبرى ، على تبادل هذه الرحلات وتنظيم هـــذه الاسفار ، بين الجانبين ، اذ كثيراً ما اردف الوفود التي كان يرسلها ، بكاهن له شخصية لامعة ، كثيراً ما عهد اليه بمهات دبلوماسية ، وكان هـــذا الكاهن موضوع احترام كبير ، كما تم للراهب يي تسنغ ، الذي استقبلته عند رجوعه ، الامبراطورة نفسها ، عندما بلغ البوابة الرئيسية من جهة الشرق، على قرع الطبول والزمور وتصداح الموسيقى ، على رأس وفود من الرهبان جاؤوا من كل اديار البوذية ومعابدهم في العاصمة ، حاملين الاعلام والمظلات ، سائرين على انغام الاجواق الموسيقية والتراتيل الدينية . ان عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج لم يعودوا قط لبلادهم ، إما لانهم استقروا نهائياً في البلاد التي هبطوا فيهـا ، او لانهم قضوا نحبهم في طريق عودتهم ، لما تعرضوا له من الاخطار الكثيرة التي هددت حياتهم : من بحار هائجة تمخر عبابها سفن تجارية سريعة العطب ، او من وقوعهم في ايدي القراصنة الذين كانوا يعبثون بطرق المواصـــلات البحرية والبرية على السواء ، او من وقوعهم اسرى بين ايدي اللصوص وقطاع الطرق الذين كثيراً ما جردوهم من امتعتهم وملابسهم او قتلوهم،او المخاطر التي كانوا يصادفونها في الاحوال الجوية والمصاعب البرية كالرمال المائعة التي كان يغوص فيها سالكها ، وغير ذلك من جهد وضنك وعناء عندمـــا يحاولون قطع هذه الطرق والمسافات الشاسعة التي تباعد بينها .

نشاط الحركة التجارية

ففي الوقت الذي راحت فيه قوافل الحجاج والوفود الدينية تهزأ بهذه المخاطر العديدة التي تعترض طريقهم ، نشطت نشاطاً كبيراً الحركة التجارية التي قامت بين البلدان الواقعة على سواحل بحار الجنوب وبين الاقطار الاخرى في آسيا. فالسفن الصينية الكبيرة التي كان باستطاعتها ان تشحن من ٥٠ ـ ٦٠ طناً ، كانت تمتار من جزر السوند وتــتبضع ما طاب لها من مواد ، بينما كانت سفن العرب تبلغ يانـغ ـ تشيو ، في الوقت الذي كانت فيـه سفن جزيرة جاوا المصنوعة من الخيزران ، تتجه غرباً لملاقاة التجار المسلمين . صحيح ان الاخطار الناجمة عن هذه الملاحة التجارية التي عرفت ان تعتمد على الرياح الموسميـــة كانت كبيرة لكثرة حوادث الغرق التي طالمـا ادت اليها ، ولهجوم القراصنة عليها ، او التحول

عن خط السير في الطريق المرسوم لتفادي هيجان البحر ، او بيع البضاعة بسعر بخس جداً عند مراجعة الموقف ، مع ان الناس في المرافىء والاسكلة البحرية ، ينتظرون وصولها بفارغ الصبر ، كما ان مستودعات التخزين في المرافىء ، كانت عرضة للحرائق ، عدا عن رسوم الدخولية والباج المترتبة على التجار ، مع العلم ان الصينيين كانوا يدفعون ابهظ الرسوم وأثقلها ، اذ ان وسق سفنهم كان يبز الجميع . ومع ذلك ، فحركة المقايضات التجارية هذه التي وصفها لنا الرحالة العرب بكثير من التفصيل والاسهاب ، كانت تقوم على قواعد راسخة ، ثابتة ، كما نمت بالازدهار .

وقد بلغت الحركة التجارية هذه مدينة كنتون ، وهاي ـ تشيو على مصب نهر هواي ، ومدينة يانغ ـ تشيو على مصب نهر اليانغ تسيو ، كما بلغت مقاطعة فو ـ كيان . والقناة الكبرى التي تم فتحها بأمر الامبراطور يانغ ـ تي ، والتي جرى توسيعها فيما بعد بأمر من الامبراطور سواي (٦٠٥ ـ ٦١٧) ، سهّلت وصول الملاحة البحرية والنهرية الى داخل البلاد . وعند بلوغ التجار مرفأ يانغ ـ تشيو ، وهو مرفأ دولي نشيط الحركة ومزدهر التجارة ، كان وكلاء الامبراطور يتسلمون البضائع ، ويحتفظون بها في العنابر الحكومية لمدة ستة اشهر . وكان البائع يدفع للشاري مبلغاً من المال تأكيداً منه وضماناً لجودة بضاعته ، بينما يأخذ الاخير على عاتقه بعض الاخطار التي قد تتعرض لها البضاعة . وفي نهاية الرياح الموسمية عندما يكون البائع على أهبة مغادرة المرفأ ، تصبح الصفقة التجارية قطعية ، اذ يعمد وكلاء الامبراطور الى قبض ثلاثة اعشار البضاعة ، ويسلمون الباقي للشاري . اما اذا كان الامبراطور هو نفسه الشاري ، فيدفع نقداً ضعفي الرسم المفروض ، لا سيما اذا كانت البضاعة كافوراً . وكان الاجانب الذين يتجولون داخل الصين ينعمون ببعض الحماية . كذلك كان عليهم ان يبرزوا جواز سفرهم والترخيص المسبق لهم ولتجارتهم ، والتصريح عن المبالغ التي يحملونها . وكانت هذه الرخص تبرّز في كل مركز لجباية الرسوم التي تمرّ بها البضاعة .

وفي الواقع ، فقد ألفت الصين ، خلال اجيال سحيقة ، ولا سيما من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، سوقاً ممتازة لتجار الخليج الفارسي ، وللتجار المسلمين القادمين من بغداد ، اذ كانت الأسعار مقبولة ، وتدع مجالاً لتحقيق ارباح طائلة عند طرفي المحيط الهندي . وهكذا نشطت حركة تجارية عارمة بين العراق والصين ، على طول المراحل والمحطات العديدة التي تمركزت في قواعد : كيداح (شبه جزيرة الملايو) وامبراطورية الخمير ، وسومطرة ، وجافا ، بالرغم من تباين العملات التي كانت الصفقات التجارية تتم على اساسها ، سواء أكانت نقداً ذهباً ، ام فضة ، في الهند ، او نقداً من الفضة ، وسبائك النحاس ، في الصين او عبارة عن مقايضات عينية في بحار الجنوب . والوزن المعمول به في الصين وبلاد الخمير وفي غيرها من البلدان ، كان القبّان المعروف بالقبان « الروماني » ، انما بموازين صينية . والنشاط الذي عرفته حركة المقايضات التجارية ، كان تعبيراً عن ازدياد مطالب العالم الآسيوي بأسره وحاجاته المتنوعة ، ولم تكن حاجات الهياكل والاديار دونها جميعاً فلنبين عن كثب ، لائحة الاصناف المستهلكة يومياً في

هيكل تا ـ بروهم ، احد الاديار المهمة في كمبوديا ، في القرن الثاني عشر ، وهي : ٧ أطنان من الارز غير المقشور ، و ٦٤ كيلو غراماً من السمسم ، و ٤٨ كيلو من الفاصوليا ، و ٢٠ كيلو من القمح الاسود ، و ٣ كيلو من سكر القصب ، و ٥ ليترات من الزيت ، و ١٢٠٠ غرام من الزبدة المذوبة . والتبرعات الملكية التي يجود بها الملك ، كل سنة ، لم تكن تقل شأناً عن هذه الكميات ، وهي ٢٦٧٩ طناً من الارز غير المقشور ، و ٤٠ طناً من الرصاص ، و ٥٢٦٤ كيلو غراماً من المصنوعات الذهبية ، و ٣٨٦٠ كيلو غراماً من المصنوعات الفضية ، وبضع مئات من الكيلوات من النحاس الاحمر والنحاس الاصفر والقصدير ، و ٣٥ الماسة ، و ٤٠٦٢٠ لؤلؤة ، و ٤٥٢٠ حجراً كريماً ، و ٥٢٣ مظلة ، و ٩٦٧ قلوعاً صينياً ، و ٥١٢ سريراً من الحرير ، و ٢٣٨٧ بدلة معدة لأكسية التماثيل والاصنام .

وفي الدرجة الاولى بين المواد التي كانوا يتجرون بها ، تأتي المعادن على انواعها . الذهب الذي كان يؤتى به من مناجم صومطرة وكوريا ؛ والفضة من مناجم شبه جزيرة الملايو ، بالاضافة لما كانوا يسمونه «الرصاص الابيض»،او الزئبق الذي كانت الصين بحاجة اليه لتأمين مطلب علمائها، والنحاس الذي لم يكن بد منه لسك النقد ، والحديد الذي اشتد طلب اندونيسيا عليه بعد ان كانوا يقايضون به جوز الهند ، والنفط اللازم للسفن الصينية . ويأتي بعد ذلك ، الأخشاب الثمينة كالبقم (*Campêche*) الذي كان اكبر انتاج شبه جزيرة الملايو ، والصندال الذي كانت الهند وبلاد الخير تنتجانه بكثرة ، والخيزران ، والكافور لمنافعه العديدة ، اذ كان يستخرج منه زيت الكافور، ذات القيمة العالية لدى التجار العرب والصينيين ولا سيما امبراطورهم على السواء، وخشب التيك في الهند وكمبوديا وأخيراً الابنوس . والعطور والطيوب على أصنافها العديدة ، منها : القر او الصبر الذي كان ينبت اصلاً في مقاطعة أسام والتي كانت اجود اصنافه تأتي ، مع ذلك ، من مقاطعة تشمبا وبلاد الخير ، والبخور الذي كانت الصين تستورده ، والمسك الذي كان عبارة عن فوح يعطيه بعض الماعز البري الذي كانوا يصطادونه في الصين وفي التيبت بعد برميه بالنبال او نصب الشباك . وأفخره على الاطلاق عند سكان الخليج الفارسي ، النوع الذي كان يؤتى به من التيبت ، عن طريق القوافل البرية ، بينما المسك الصيني والاخر الذي يؤتى به من جزيرة صومطرة ، كان سريع الفساد والتلف عندما يتعرض لرطوبة البحر . ولذا كانوا يعمدون لصرّه في نوافج ويضعونه في أوعية مقفلة اقفالاً هرمسياً . وهذا النوع من المسك كان يؤخذ من بعض الجرذان المسكي . وتجارة التوابل والافاويه التي اشتهرت بها الهند وبلدان جنوبي آسيا الشرقية : كالفلفل على أنواعه ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل الذي كان يؤتى به من مقاطعة كيداح ، وحب الهال الذي كان يطلع في بلاد الخير ، والكبابة او حب العروس ، والصعفران الذي كان يُصدّر من الهند وكمبوديا ، والقرفة ، يجب الا تنسينا تجارة بعض المواد الطحينية الغذائية كجوز الهند الذي يستخرج منه الزيت ، وزيت الوورون المستورد من الصين ، وسكر القصب والارز وغير ذلك من الحبوب . وبين المواد الثمينة الاخرى يجب ان نذكر العاج الذي كان

يؤتى به من الهند ومقاطعة كيداح وبلاد الخير ، والعنبر او الند الذي يؤتى بـــه من الصين ، وحراشف السلاحف البحرية يؤتى بها من البلاد الواقعة على سواحل بحار الجنوب، وقرن وحيد القرن من جافا وكمبوديا، وغير ذلك من المواد الثمينة التي كانت تدر على التجار العرب والمسلمين مكاسب طائلة ، اذ زبائنهم من الصينيين كان يهمهم اقتناء سيور يتمنطقون بها ، مرصعة بالحجارة المذهبة او المفضضة وبغير ذلـــك من الحجارة الكريمة ، والياقوت الاحمر ، والماس واللآلىء ، والعقيق التي كانت تصدر من الهند وسيلان وغيرهما من بلدان آسيا الجنوبية الى الصين. والى تجارة المواد الصبغية او الكيماوية المعدة للصباغة ، كالزنجفر الذي تصدره الصين ، والكبريت وملح البارود ، وشلش السوسن ، والسنباذج المستعمل في صقل المعادن ، وشمع العسل المستورد مـن بلاد الخير ، يجب أن نضيف الانسجة الثمينة والفراء : كالانسجة النباتية ، والخمل ، والجوخ والموسلين القطني، والديباج المزركش بالحرير وأسلاك الذهب . وكلها مواد كانت تصنع في الهند وتصدّر الى الصين، مع غير ذلك من الحصر وقماش القنّب. وكانت الصين تصدّر الفراء المصنوع من جلد السمّور مع ان البلاد كانت تستهلك منه مقادير كبيرة تستعمل كبطائن لمعاطف الشتاء عند الاغنياء ، حتى ان بعض الحيوانات كانت تصدر للخارج كالببغاء مثلاً ، يرسلون بـــه من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي ، وكلاب الصيد ، تصدّر من المقاطعات الشمالية الغربيـــة في الهند ، الى العراق ، بينا كانت الصين تستورد : الماعز والجاموس والثيران . وبالاضافة الى هذه الاصناف والسلع، هنالك مصنوعات اخرى كانت تصنع في الصين وتنفـّق في الاسواق الخارجية، منها القيشانيات الصينية التي كان يراعى في صنعها اذواق الزُبُن في الخارج ، وأطباق من اللك والنحاس والورق وأمشاط مصنوعة من الخشب، ومظلات، وقدور حديدية، وغرابيل ومناخل وابر ، وبرادع الاحصنة وأحسن أنواع الخفوف وأجملها على الاطلاق تلـك التي كانت تصنع في مقاطعة كباي ، في الهند . وكمبوديا التي كانت تصدر ريش الرفراف او الورْور ، كانت طريقاً لمرور المرايا الزجاجية الزرقاء التي هام الصينيون باقتنائها وكانت تصنع في بلدان الشرق الادنى.

وقد درت هذه التجارة الناشطة على البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الأسيوية ربحاً وافراً ، يتوافد اليها الهنود والصينيون لجمع في مايرغبون في جمعه من الذهب والافاوية لكثرتها ، كما ان عدداً كبيراً من بينهم كان يقصد هذه البلدان ويقيم فيها تفاديـــاً للقلاقل والاضطرابات والثورات التي كثيراً ما كانوا عرضة لها . وقد عاد ذلك على هذه البلدان بالغنى الوافر ، كما ان الاهلين عرفوا ان يفيدوا من هذه الاتصالات المثمرة ، بحضارات الهنـــد والصين معـــاً .

الاخطار الخارجية

وهذا العالم المزدهر على احسن وجه ، والذي كان مسرحاً للحجاج البوذيين في القرن السابع يسرحون فيه ويمرحون ، ومرتعاً لرحالتهم امثال : هوان ـ تسانغ (٦٣٠ ـ ٦٤٥) وبي ـ تسنغ (٦٧٥ ـ ٦٨٥) لم يكن ليدور في خلد

انسان ، ولم يخطر على بال احد من السكان ، اذ ذاك ، انه على قاب قوسين من الاخطار الخارجية تهدده بأسوأ مصير ، تنتابه الواحد بعد الآخر ، على فترات متلاحقة ، وجرت عليه الخراب والبوار . هنالك حادثان ثقيلان رزح تحتها تاريخ هذه البلاد : إطلالة الغزاة العرب على ابواب آسيا الشرقية ، وبروز الغزاة المغول ، في الشمال .

ومنذ اوائل القرن الثامن ، اخذت جحافل الغزاة المسلمين تقرع ابواب الهند وتدق مداخلها من الغرب ، بدافع من الجهاد المقدس فيحتلون تدريجياً المواقع الستراتيجية التي كانت تتحكم بالحركة التجارية مع الهند والصين ، ويدوخون الولايات الشمالية الغربية كأفغانستان وتركستان وقد زرعت هذه الفتوحات معها الدمار والخراب مما لم نر له مثيلاً منذ عهد الهونز ، فحطموا كل شيء . وقد شهدت البوذية ، اذ ذاك ، تراجعاً قوياً وانكفاء بعد ما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك ، في ابان ازدهارها ، واخذت تتراجع امام الغزاة العرب يوغلون بعيداً حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الغانج . وعندما قضي تماماً على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من أسرة بالا — سينا ، كانت البوذية تلفظ في الهند آخر انفاسها ، مع انها البلد الذي اطلع البوذية وشهدها تترعرع وتنمو وتنتشر . وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل ، كياناً مضطرباً : فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كانوج ، في النصف الاول من القرن السابع ، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي ، اذ راحت الدول الكبرى فيها تتطاحن فيما بينها في سبيل تحقيق السيطرة التامة ، الامر الذي ادى الى حروب واشتباكات متصلة ، كما ادّى ، من جهة اخرى ، الى تشتيت القوى وهدر الجهود ، وانهاك المناطق الاكثر عرضة للخطر . والهند الجنوبية التي كانت بمنأى عن هذه النزوات لبعدها ، قامت دويلاتها تتناحر فيما بينها وتتقاتل تحزباً منها مع هذه او تلك من الممالك الكبرى . ومع ذلك ، فقد عرفت البلاد عهداً من الازدهار رعى فيها جانب الفنون والآداب . كما استطاع هذا القسم من الهند ان يحافظ على علائقه مع البلدان الواقعة على شواطىء بحار الجنوب ، وبذلك امكن المحافظة على معالم الحضارة الهندية فيها .

اما الخطر الثاني الذي كُتِبَ له ان يبدّل ويغيّر كثيراً ، من معالم آسيا الشرقية ، فقد بدت بوادره تبرز بوضوح ، منذ القرن الثامن . فمنذ عام ٧٤٤ ، اخذ الترك من العرق ويغور ، ينشئون لهم امبراطورية ، خلفها بعد ذلك بنحو قرن ، امبراطورية اسسها الترك من العرق كيرغز ، فكان ذلك تمهيداً من بعيد ، لهذه الامبراطورية الضخمة ، المترامية الاطراف التي اقامها المغول فيما بعد . صحيح ان الخطر ، من هذه الجهة ، كان لا يزال بعيداً ، اذ عملية توحيد الاقوام البدوية الرحل الذين كانوا خطراً على الصين من الشمال والغرب ، لم تكن اكتملت بعد ، ولن تتم وتكتمل بكل ما كان لها من نتائج الا في سنة ١٢٠٦ ، اي عندما ظهر جنكز خان .

فانحلال الامبراطورية الساسانية ، وانقسام الهند وتفسخها على بعضها ، والضعف الذي اصاب ملوك تانغ ، والفتوحات التي قامت بها سلالة سونغ ، ثم انكفاؤهم السريع في الصين

الجنوبية ، واخيراً الاضطراب والقلق الذي احدثه المغول ، كل هذه الاحداث الجسام وما اليها هي من معالم هذه الحقبة التاريخية التي امتدت خمسة اجيال بكاملها ، مع ما جرت وراءها من بؤس وشقاء ، وقتل ونهب وسلب ، بما تحمله الغزوات في مطاويهـا . ومع ذلك ، لا بد من التنويه عالياً هنا ، ان الثقافة البوذية بقيت آخذة في الاتساع والتغلغل طوال هـذه الاجيال ، فانشأت في الهند طرازاً فنياً جديداً هو مـا يعرف بطراز بالاسينا ، وبطراز تانغ في الصين ، وطراز مدرسة نارا في اليابان ، والطراز الهندي الجاري الذي سيطر في اواسط جاقا ، دون ان تهمـل الانتاج الفني الذي ازدهر في تشامبا في القرن التاسع ، وفي امبراطورية الخمير ، وفي مملكة التاي التي قامت في السيام ابتداءً من القرن الحادي عشر . وهذه الثقافة الهندية لم تكن لتقل ازدهاراً في الممالك الاخرى التي قامت في الدكن، كمملكة آل بلافا ، وآل غالوكيا ، وآل تشولا ، وآل باندايا التي اعطتنا مباني هندسية لم يكن لها مثيل في جمالها . ولذا كان لا بد من استعراض نتائج هذا الازدهار الفني ، بلداً بعد بلد .

مصائب الهند وويلاتها

تُبْرِز المعلومات التي يمدنا بهـا الحجاج الصينيون عن الهند ، في القرن السابع ، استمرار التقاليد الهندية وديمومتهـا ، وتنوع العادات التي سار عليها القوم ، اذ ذاك ، وهـذا البذخ والجود الذي تحلى عند حكام البلاد وملوكها . فهي تصف لنا بدقة متناهية نظام الطبقات المعمول به في طول البلاد وعرضها ، والفروق التي باعدت بينها : كالبراهمان الذين جعلوا قاعدتهم المثلى في الحياة الطهارة الى اقصى حدودهـا ، والنبلاء *Kshatrya* « الذين كانوا من السلالات الملكية » ، والتجار *Vaigia* والمزارعون والفلاحون *Gadria* ، واخيراً طبقة المنبوذين وهم اهل الطبقة الدنيا *Paria* كالجزارين والصيادين والجلادين، الذين اجبروا على الاقامة والسكنى، خارج المدن . فاذا ما خرجوا من بيوتهم وتنقلوا ، ساروا وحدهم منزوين ، ولزموا اليسار من جانب الطريق او الجادة .

فالملك او الامبراطور له الدور الاول . فهو يعطي المَثل في كل شيء كما يختصر في شخصه جميع الفضائل التي يمثلها الحاريون *Ksha Triya* . فالامبراطور هارشا هو صورتها الاتم ، ومثلها الاعلى في نظر الحجاج الصينيين ، وهو المدافع المخلص ، والحـامي الغيور للبوذية ، ينهج نهج النعوبتا في البذخ والابهة . فقـد فاز على الاخص ، باعجاب هيوان ـ تسانغ ، الذي نزل عليه ضيفاً بضعة اسابيع، فوصفه : بانه من اثقف رجال عصره، واعلاهم كعباً، فحرص على ان يجعل من بلاطه ملتقى رجال الفكر والادب ، من شاكلة : مايورا ، وباقا ، وضع عدداً من القصائد المستطابة والتمثيليات الحية . وكان الى جانب هذا رجل حرب ، كما دلل على ذلك بمناسبات عديدة ، وكان رجل دولة ، كما برز خلال الحروب والمفاوضات السياسية التي ساعدته على توحيد شمالي الهند . فاذا لم يلتزم دوماً جانب الحياد في الامور الدينية ، فقد نحا مع ذلك ، نحو كبار ملوك الهند ومشاهير عظمائهم ، اذ كان متساهلاً ، سمحاً مع الديانات الهندية الاخرى ، وسار بعيداً في هذا الطريق بحيث افضى الى مذهب توحيد الاديان .

وباعتباره الوريث الادبي لملوك الغوبتا ، فقد نهض الملك هارشا بالمدنية التي خلفوها ، ورفع عالياً مشعل الازدهـــار الذي حققوه للهند حتى القرن السابع . اما عاصمة ملكه كانيا كوبجا او Kanan وهو الاسم الذي تحمله اليوم ، فكانت موضوع اعجاب هيوان ـ تسانغ ، اذ جاءت شبيهة تمام الشبه بعواصم اسلافه :

« كانت على مقربة من نهر الغانج ، يحيط بها سور عال وخندقُ ماء عميق . يرتفع فيها الى عنان السماء العديد من الابراج الشاهقة ، وتقوم فيهـــا الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ، والبرك المائية والاحواض البديعة كأنها صفحة مرآة . اما اسواقها ، فتغص بالبضائع الاجنبية من كل لون وجنس . يرتع سكانها بالهناء والغنى كما ترفل أسرهـــا بالرفاه . اينما اجلت النظر ، وقعت منك العين على معارض من الزهور والرياحين والفاكهة اللذيذة . وفيها نحو من مائة دير يضم مجموعها اكثر من ١٠٠٠٠ راهب ، وفيها نحو من ٢٠٠ معبد لمختلف آلهة الهند ، كما يقوم فيها بضعة آلاف من الخوارج على البوذية » .

وهذا الوصف يمكن اطلاقه ايضاً على المدن والقرى والدساكر في الارياف ، اذ كلها ترفل بنعمة الرفاه والثراء ، كما نجد فيها كثافة السكان . وهـــذا الغنى قوامه الاقتصاد الزراعي ، مع العلم ان التجارة كانت ناشطة للغاية ، كما ان المقايضات التجارية كانت على اشدها مع البحـــار الجنوبية .

ويفيض الحجاج الصينيون وصفاً وتعريفاً بامور الدين واوضاعه اذ ذاك . فبعد ان شالت الديانة الهندوكية وراجت ، اصبحت كل المراكز البارزة التي سيطر عليها البوذيون من قبـــل محوطة بمدن ومعابد هندوكية ، فمدينة بيناريس ، احدى المـــدن المقدسة عند الهندوكيين ، كانت تضم نحواً من ٣٠ ديراً للبوذيين ، و١٠٠ هيكل للبراهمانية ، لم تفقـــد لليوم شيئاً من ابهتها وفخامتها :

« ترتفع فوقها ابراج من عدة ادوار او طبقات ، ومعابد لها جمال فتان ، صنعت من الحجر المنحوت والخشب بشتى الالوان ، وكلها يقع في رياض غضيضة ، كثيفة الظل ، يترقرق فيها الماء السلسبيل » .

وقد أثار اتباع سيفا اعجاب الحجاج الصينيين ودهشتهم :

« اذ ان بعضهم كان حليق الشعر ، بينما احتفظ البعض الآخر بغدائر متدلية فوق أكتافهم ، وهم عرايا الاجسام تماماً ، لا يسترون عريهم بشيء (فرقة الـ Jaina) والبعض الآخر يأخذ بفرك اجسامهم بالرماد ويخضعون نفوسهم لأصعب العذابات وأشدها ، فتصبح جسومهم دكناء كالحة . وبينهم من اعتمر ريش الطاووس كما ان بينهم من يغطون اجسامهم ببعض الاعشاب المضفورة ... وهنالك فريق قلعوا شعورهم ، واحفوا شواربهم ، وبينهم من ارخى سوالفهم وأعقصوا شعورهم فوق رؤوسهم » .

اما المباني البوذية والجماعات التي تختلف اليها ، فشيء آخر تماماً . فالمدينة الرهبانية : نالاندا التي كانت ، اذ ذاك ، في اوج عزها ومجدها ـ هذه المدينة التي خربها المسلمون ابان القرن الثالث عشر وجعلوها قفراً يباباً ـ كانت تضم نحواً من عشرة أديار تكون معاً وحدة ، يحيط بها سور من القرميد ، له من جهـــة الغرب ، رتاج ضخم . وكان الدير عبارة عن قاعة او بهو مسقوف ،

مربع الشكل تقريباً . اما المباني فكانت هي الاخرى ، تصنع من القرميد ، وتتألف الواحدة من ثلاثة او اربعة ادوار، تضم مساكن الرهبان ، وقاعات للاجتماعات العامة ، واخرى للصلاة،

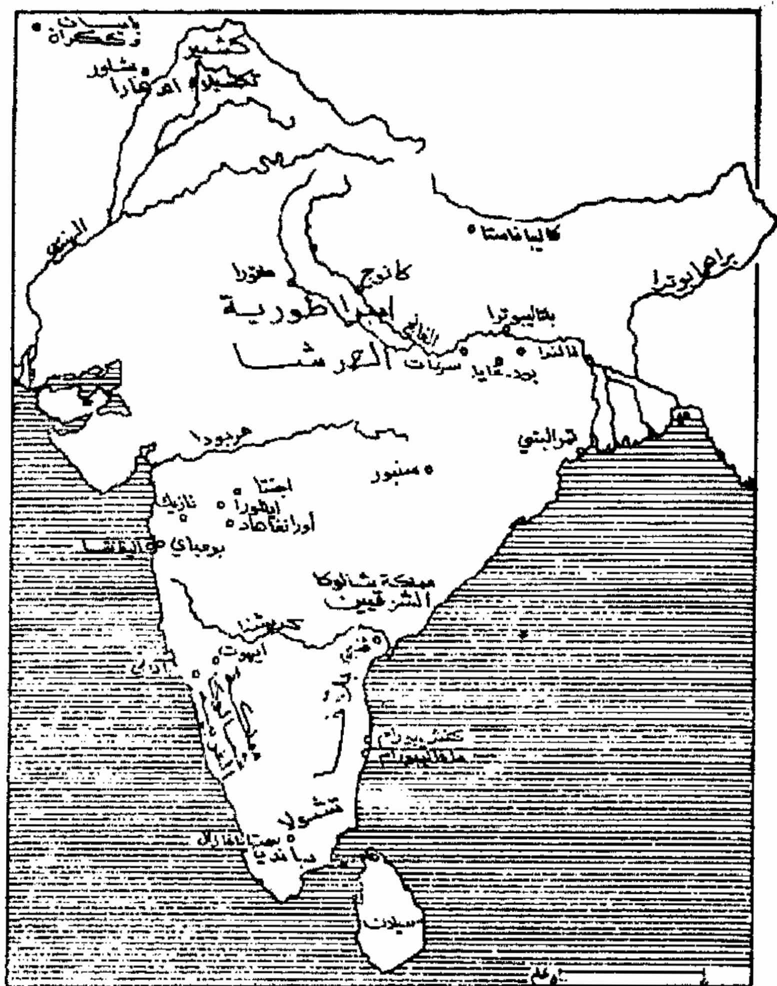

الشكل (رقم ـ ٨) الهند في عصر الملك هارشا ده كانوجا (٦٠٦ ـ ٦٤٧)

وشرفات . ويفصل بين الدير والدير فسحات واسعة فرشت ببلاط القرميد ، او جرى رصفها بشيء اشبه ما يعرف بالمَدَاسية، ترك لنا الرحالة يي ـ تسنغ وصفاً دقيقاً لصنعها. اما الجدران فمغطاة ببلاط مصقول ، مزيج بماء الذهب وكسارة الحجارة الكريمة ، وأنشئت فيها ، على مسافات محددة ، مشاكٍ للتماثيل المموهة بالذهب . وهذه الاديار التي تؤلف معاً مجتمعات زاهرة

وجامعات مشيمّة ، كانت لها املاك واطيان واسعة بينها أكـثر من ٢٠٠ قرية تؤمن لها الرزق والمؤن اللازمة . ويرسل عدد كبير من المحسنين يومياً ، لهـــذه الاديار ، مقادير كبيرة من المواد الغذائية كالارز والسمنة والحليب اللازم لغذاء الرهبان وتلامذتهم ، كما ان الملك نفسه كان يجود عليهم من عوارفه الـسابغة، بهبات طائلة. ويدرّس في هذه المعاهد الدينية أكبر جهابذة البوذيين، واوسعهم علماً ، فيلقنون العلوم الدينية كما يدرّسون العلوم الاخرى، وهو تعليم ناجح، رصين، على مستوى طلاب جامعيين ، بلغوا العشرين من عمرهم ، ونالوا درجات جامعية عديدة . ولا يمر الطالب من صف الى اعلى إلا بعد ان يجتاز بنجاح ، امتحاناً صارماً. ويخضع الطلاب لنظام آمر بني على الحكمة والاختبار البشري. ويترأس كل دير رئيس يكون عادة المتقدم عليهم سناً. والحياة الرهبانية تفرّغ على ترتيب دقيق ، وفقاً لسير الساعة المائية ، هذه الساعة التي ترك لنا عنهـــا يي ــ تسانغ ، وصفاً دقيقاً في كتابه *Nan - hai - ki* ــ الفصل الثالث منه ، ولها جرس يقرع في الوقت اللازم إيذاناً بانتهاء عمل ما وحلول عمل جديد: كوقت الاجتماع العام ، او وقت الصلاة، او وقت تناول الطعام . وعندما يأتي الليل ، تقفل ابواب الدير ، بعد ان تُركت مفتوحة على مصراعيها طوال النهار ، وتختم ، وتسلم الاختام والمفاتيح للرئيس . وجماعة الرهبان أنفسهم يقضون في امورهم فيأخذون احكامهم بالاجماع ، كما ان جمهور الرهبـــان بهيأته الكاملة هو الذي يقرر كل ما يلزم لادارة الدير وأملاكه الواسعة . فكل سرقة او اختلاس ، يعاقب عليه فاعله بالطرد ، في الحال . وهذه القوانين والانظمة ، يخضع لها المبتدئون انفسهم في السلك الرهباني ، كما يخضع لها الطلاب العلمانيون ، ويجبرون عليها جبراً .

والحياة العلمانية نفسها تتأثر الى حد بعيد بنهج حياة الرهبان في الاديار الهندوكية والبوذية. وهذه الاديار هي ملتقى تجمعات وحشود كبيرة تؤمّها في بعض الاعياد التذكارية التي يحتفل بها الشعب، والتي تصبح مظهراً من مظاهر البذخ والجاه . وكان الملك هارشا، يقوم في كل سنة بتوزيع المواد الغذائية ، على كل الرهبان في الامبراطورية ، كما كان يعقد ، كل خمس سنوات، «ندوة الخلاص»، وذلك في السهل الفسيح الواقع على مقربة من مدينة الله اباد ، عند ملتقى نهري الغانج والجمّنا ، ويقوم ، اذ ذاك ، بتوزيع الصدقات ، على نطاق واسع . وقـــد حضر هيوانغ ــ تسانغ ، سنة ٦٤٣ الندوة التي وقعت في تلك السنة، ضمن سياج من القصب يرفع في الوسط برادفات من القش، حيث توضع الهدايا على اختلافها : من ذهب ، وفضة، ولآلىء ثمينة وزجاجيات حمراء؟ وحجارة كريمة ، وألبسة الخز والديباج والقطن ، ونقود الذهب والفضة . ويعدّون في خارج هـــذه الحظيرة ، غرفة للطعام ، فسيحة الارجاء ، مسقوفة ، وقاعة للاجتماعات تتسع لأكثر من ألف مقعد وكرسي ، يدعى اليها الرهبان واتباع الهندوكيـــة ، والنساك العريان ، والبؤساء ، والمعوزون ، واليتامى ، والاولاد الذين لا سند لهـم ولا قوام . ويضرب الامبراطور وحاشيته خيامهم على مقربة من نهر الغانج حيث ترسو عمارة من السفن النهرية ، بينما تأخذ الفيلة والجيش مواقفها المعينة ، في السهل . وكانت عملية التوزيع هذه ، تستمر شهرين ونصف ، اذا ما اخذنا

بأقوال هيوان ـ تسانغ ، فتبتديء بالبوذيين المحتشدين امام تمثال بوذا ، وتنتقل بالتوالي ، الى عَبَدة الشمس حاملين صورة أديتيا ، ثم اتباع سيفا ، ويأتي بعد ذلك اتباع الديانات الهندية الاخرى ، ثم تمر مواكب النساك والزهاد العراة ، ثم مواكب الرهبان والعلمانيين والبؤساء واليتامى . فيوزع الامبراطور كل الاموال التي جمعت في خزينة الدولة خلال السنوات الخمس ، بما في ذلك : « ملابسه الملكية ، واحذيته واقراط الذهب واساوره والاكليل المحيط بتاجه ، واللآلىء التي تزين عنقه ، والدرة الثمينة التي تتدلى من عُرْته » . فيهب رجال حاشيته العمال لشراء هذه الكنوز ويعيدوها الى الملك هارشا ، وفقاً لتقليد سار عليه جدودهم الأولون كان بمثابة رسم او ضريبة يتحملونها طوعاً واختياراً . ويزيد هيوانغ ـ تسانغ على ذلك فيقول : ولكن ما هي إلا بضعة ايام ، فيعود المالك ويهدي هذه الكنوز من جديد ، ويوزعها كما فعل في المرة الاولى .

اما الحياة في مقاطعات الهند الاخرى ، فكانت على مثل هذا النحو المتناقض ، من البذخ والفقر المدقع ، كما كانت عليه في مملكة هارشا . فالسكان ، كأهل الدكن مثلاً ، شديدو السمرة ويتكلمون لهجات مختلفة ، كلهجة تلغو والتامول ، بينما كانت الطبقات الاجتماعية العليا ضالعة بالثقافة السنسكريتية . وقد جعلهم المناخ الاستوائي الذي يعيشون فيه ، على استعداد نفسي للغلو والتطرف : خمول من جهة ، وفيض في الكلام والعاطفة ، من جهة اخرى . وكانت الهندوكية هي المسيطرة بالفعل ، مع ان البوذية كانت لا تزال قائمة على بعض نشاط . وقد دارت بين الجانبين معارك وحروب طويلة تورطت فيها الأسر الملكية الدرافيدية ، التي عرفت كلها ادواراً زاهية زاهرة من الاشعاع الحضاري . وقد استطاعت احداها ، وهي الاسرة الملكية البلافا ، التي سيطرت على ساحل الدكن الجنوبي الشرقي ، ان تقيم لها حضارة ازدهرت حتى القرن التاسع ، فبنت في القرنين السابع والثامن ، الهياكل المشهورة في مدينة : مامالبودام ، وشدّت من ازر الآداب والثقافة التامولية التي عرفت ، اذ ذاك ، عهداً من الازدهار ، لم تسجل مثله من قبل ، كما كان لها اثر كبير على البلدان المستهندة او التي اخذت بالثقافة الهندية : كالهند الصينية وكمبوديا ، وتشامبا . اما دولة تشالوكيا التي سيطرت على سواحل الدكن الغربية الشمالية والتي تمكن احد فروعها من تدويخ مملكة اندراه القديمة وفتحها ، فقد تركت ، هي الاخرى ، آثاراً حرّية بكل تقدير واحترام . فقد كان ملوكها رؤساء شعب مهرات ، وهو شعب حربي ، شجاع ، باسل ، فاخر افراده بقوامهم البدنية ، وربّوا جنودهم ونشأوهم على ذلك ، ولذا راحوا يضرّسون جيوشهم وافيالهم بالحروب ويكوونهم بنيرانها . وقد تركوا ، هم ايضاً ، مباني ضخمة ، تأخذ بمجامع الالباب ، لا يزال بعض هذه المعاثر ماثلاً للآن في مدينتي ألورا ، وبادامي (القرن الثامن) .

اما مقاطعات الهند الشمالية الغربية ، فقد تخالطت العروق فيها : كالترك والايرانيين والآريين ، وتمازجت المذاهب والعقائد والاديان ، كالديانة الفارسية القديمة ، والمانوية ،

والنسطورية والهندوكية ، والبانية والاسلام . واستمرت اتصالاتها التجارية ، بحراً مع ايران وبلدان الغرب على اساس من تبادل السلع والبضائع المصنوعة في الخارج ، كالديباج والخز والسجاد والطنافس على انواعها الكثيرة . فكانت هذه المقاطعات ، بالنسبة لموقعها الجغرافي ، اولى الاقطار الهندية ، التي وطأتها سنابك خيل غزاة المسلمين لدى الفتح . ومع ان سكان هذه الاقطار كانت طباعهم الفت الغزوات منذ اكثر من الف سنة وهم يتعرضون لها من الميمنة والميسرة ، اذ كانت كلها تتسع طريقاً واحداً واعتادت رؤية الفاتحين يدقون منها الابواب بعنف وجلبة ، فقد هبوا جميعاً يستميتون في صد الغازي الجديد ويبذلون ارواحهم في سبيل الدفاع عن ديارهم ومنازلهم . ومنذ ذلك الحين نشأت بينهم عادات واعراف ، لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كزواج الاولاد منذ الصغر ، مغالاة منهم في محافظتهم على نقاء العِرق وصيانته ، والحجر على المرأة وفرض الحجاب عليها ، صَوْناً لها من عبث الغزاة وشرود نظراتهم الامارة بالسوء . وكان من نتائج الفتح الاسلامي ، لتلك الاقطار ، ان انكفأت الحياة في الهند على نفسها ، وانطوت على ذاتها ، وايقظت ، في النفوس النزعات القومية الغافية بين الاجناس والملل والنحل ، واوقفت تطورها وحجّرته . وبعد محاولة اولى نحو المصالحة ، من آثارها هذه المساجد الهندية الطراز الماثلة اليوم في مدن غوجارات وكاتياوار ، عادت مقاومة الاهلين تتصلب من جديد . وبذلك طلع على الهند عهد قاتم ، حالك ، اضاعت معه هذه البلاد استقلالها ، كما استنزفت فيه كل قواها . وهذا السبات العميق الذي استسلمت اليه ، لم تفق منه الا لماماً ، في انتفاضات محلية ابدتها مقاومة الاقوام الوطنية . وكان من فضل هذه الردة ان صانت لنا ، سالماً صحيحاً حتى اليوم ، التركيب الاجتماعي الذي عُرِفت به الهند ، وهذه التقاليد الدينية والفلسفية ، وهذه المناقبية التي ميزت شعوب الهند ، والتي لا تزال اليوم ، في كثير من امورها واحوالها ، ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن .

امبراطورية الخمير

يتذكر القارىء الكريم كيف ان في السنوات الاولى من القرن السادس ، هوت الى الحضيض ، مملكة فو ـ نان ، اقوى الدول المستهندة الواقعة على بحار الجنوب ، وانشطها طراً منذ عهد بعيد ، وذلك تحت الضربات القاصمة التي انهالت عليها من ملك تشان ـ لا (منطقة بساك اليوم) ، احد الملوك التوابع لها الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية الخمير . وقد ازدهرت هذه الامبراطورية طيلة قرن من الزمن ، وعاش ملكها ، في مقاطعة *Sambor Prei Kuk* اولاً ، ثم في مقاطعة انغور بوراي ثانية ، عيشة ملوك زمانه ، محوطاً بجيش لجب من رجال بطانته وكبار موظفي دولته ، يستقبل بكل أبهة وبهاء ، ثلاث مرات في الاسبوع ، من يطمع بشرف المثول بين يديه .

اما الموظفون فهم على مراتب مسلسلة تسلسلاً آمراً ، وفقاً لوظائفهم التي نعرف القاب حامليها اكثر من معرفتنا لحقيقة او ماهية الخدمة التي يؤدونها . وقد عاشت معظم الطوائف الدينية الهندية الاصل ، معاً في ظل هذا النظام الواحد ، كما نستدل على ذلك من هذه الرقم والنقائش الحجرية ، وكلها بلغة سنسكريتية ، شعرية صحيحة ، ثم بلغة الخمير ، منذ مطلع

القرن السابع . كل هذه المصادر تنوه عالياً كيف ان هذه البلاد تمثلت حضارة الهند السنسكريتية . والجدير بالذكر هنا ، طلوع عبادة خاصة هي عبادة الـ *Linga* (وهو الـ *Phallos* عند الاغريق) وهو رمز الخصب والاخصاب عند الاله سيفا ، التي كادت تصبح ديانة الدولة الرسمية . ومن الاهمية بمكان التنويه هنا بهذه الظاهرة ، كما سنرى بعد حين .

كان القرن التاسع في تاريخ البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، عصر اختمار ونضج. فلم تلبث الدولة الجديدة التي ظهرت ان امتصت دولتين « هنديتين » قامتا معاً في مقاطعة تشامبا ، التي ابتلعت تدريجياً مملكة لين ـ يي القديمة فتكوّنت حوالي منتصف القرن التاسع مملكة تشامبا الموحّدة . اما مملكة شريفيجايا التي تألقت في الجنوب الشرقي من جزيرة سومطرة وضمت قسماً من الملايو اليها ، والتي برزت للعمل بنشاط منذ عهد قريب ، فقد اخذت تمتد الى أطراف شبه الجزيرة الهند الصينية والتونكين وتشامبا ، في الشمال ، واضعة منذ انطلاقتها الاولى ، الاسس التي قامت عليها سيادتها وسيطرتها على البحار ولا سيما مضايق تلك المنطقة . وفي الوقت ذاته ، ظهر في جزيرة جافا ، مملكة جديدة هي مملكة سايلاندرا ، أي مملكة الجبل ، وهو تعبير هندي للعقائد الاندونيسية التي كانت تجعل من الجبال مهبطاً للآلهة تستقر عليها ، كما انه لقب حاكى ، الى حد بعيد ، اللقب الذي كان يحمله ملوك فو ـ نان قديماً . فباحيائهم هذا اللقب ، رمز ملوك جافا الى الدوافع التي جالت في أفكارهم ، والاهداف التي نشدوها من اقامة سلطة شاملة . وقد يكون في تكنّيهم بهذه الكنية ما قد يشير الى حقوقهم المكتسبة على فو ـ نان . وقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مهمة جداً زرعت الفوضى في مملكة الخمير وجعلتها تنقسم على نفسها الى مملكتين هما : تشان ـ لا البرية (ضمت جنوبي اللاوس والقسم الاوسط منه) ، وتشان ـ لا المائية (ضمت حوض نهر الميكونغ) . وهنالك من الدلائل ما يشير الى ان جافا حاولت ان تفيد من هذا الظرف بالذات لتخضع كمبوديا لسيطرتها وتضعها تحت نفوذها. ومع ان المقاطعة الاخيرة كانت تجتاز عهداً مظلماً ، فقد عرفت ان تحافظ على استمرار الانتاج الفني فيها اما جافا ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، ان وصول سلالة سيلاندرا للحكم يتفق في الزمن مع الوقت الذي عرفت فيه الوسيلة الكبرى للبوذية ، ازدهاراً كبيراً في البنغال الغربي ، والاتصال الذي تم بينها وبين جامعة نالاندا ، واستشهاد كل الادارة الرسمية للبلاد ، كاتخاذها مثلاً أسماءً مشابهة لأسماء الهند ، وتبني اللغة السنسكريتية المعمول بها في شمالي الهند . وغصّت جافا اذ ذاك ، بالمباني والمعابر البوذية برز بينها الأثر المشهور المسمى *Chandikalasan* ، الذي شيّد ، سنة ٧٧٨ ، وبواسطته نستطيع ان نضع ترتيباً زمنياً للآثار المعمارية الاخرى . ولعل اهم هذه الآثار وأجلها على الاطلاق هو البارابودور ، اذ في نقوشه البارزة الحفر ، ما يشير الى بعض النصوص البوذية الهندية . فبعد ان سيطرت البوذية على أواسط جافا ، دفعت أمامها ، الى اطراف الجزيرة الشرقية ، العناصر الموالية للهندوكية ، حيث نرى ، منذ عام ٧٦٧ ، بعض آثار لعبادة شارة الخصب الملوكية .

وفي مطلع القرن التاسع ، وقع حادث عظيم في مملكة كمبوديا ، وذلك عندما رجع امير من

سلالة ملوك الخير ، من جزيرة جافا ، وراح يحرر المملكة من نير الاستعباد لجافا ، وأسس عام ٨٠٢ عبادة الإله ، الملك ، في هيكل شيده ، هو نفسه ، على قمة رابية هو جبل كولين الذي يطل على سهل انفكور . وهذا الحادث كان لا يخلو من مغزى كبير . فللتحرر كلياً من عبودية ملوك الجبل ، في جافا ، كان لا بد له من الاحتفاظ باللقب ذاته الذي بعثها الى الوجود وأقامها هو نفسه ، فيضم اسمه ، وبالتالي شخصه ، الى عبادة الـ *Linga* او شارة الخصب عند الإله سيفا العجائبي ، فهو درع المملكة ، وحامي ذمارها . ولهذا السبب بعينه ، اقام قصره على قمة احدى التلال المرتفعة ، وتسلم من يد احد البراهمة رمز الخصب (*Lingu*) الملوكي الذي رمز به الى قوة ملوك الخير وسيطرتهم . واعتمد الراهب البراهماني النصوص الهندية وراح يحتفل بالطقوس الدينية ويعلمها لحاجب الملك الذي كان هو الآخر كاهناً براهمانياً ، وأخذ منذ ذلك الحين يسير في صحبة الإله ــ الملك ويرافقه في جميع تنقلاته . وهكذا أطل على مملكة كمبوديا عهد جديد بولود امبراطورية الخير ، هذه السلالة الملكية الانفكورية الناجزة الاستقلال .

ففي الحين الذي كانت فيه الصين تواجه عهداً من الاضطراب والقلاقل بتفق وآخر عهد سلالة تانغ والسلالات الخمس ، وبينما اخذت سيطرة ملوك سيلاندرا ، من جهة اخرى تنحط لتزول تدريجياً امام بأس مملكة جافا الشرقية ، راحت مملكة الخير تتجه بخطى ثابتة نحو الازدهار ، وتنحت لها الخصائص التي ميزتها والتي حافظت عليها حتى بدء انحلالها في القرن الرابع عشر .

فالملك هنا ، كما في الهند ، هو محور الدولة وقطب الدائرة فيها . فهو رأس كل سلطة فيها واليه مصيرها . فهو حارس القانون ، والمشرف على النظام ، وحامي الدين ، والحافظ على النذورات والوقوفات التقوية ، والمناضل في سبيل سلامة البلاد واستقلالها . فهو الإله على الارض . ويجلس الملك للديوان مرتين في النهار ويبرز من خلال نافذة ، مصراعاها من الذهب ، حاملاً سيفاً بيده . يعلن عن وصوله بصداح الموسيقى وعن ترؤسه الديوان بالبوق . فان مشى فليس على الارض العارية ، بل يفرشون دوماً تحت قدميه الطنافس البديعة . فاذا ما غادر قصره فعلى ظهر فيلته ، فوق هودج فخم . عاصمته صورة مصغرة للعالم ، فالقلب منها هيكل قائم على رابية يشبه جبل ميرو ، هو محور الدنيا ، ونقطة الدائرة ومهبط الإله الملك . ويحرص كل ملك على ان يشيد ، على نسبة امكاناته ، جبلاً معبداً وينصب عليه بكل حفاوة ، محوطاً بالمراسم الرسمية شارة رمز الخصب ملفوفاً بالقمط الملكية دون ان يدري احد ما اذا كان هذا التمثال جديداً او من القرون الماضية .

يتولى الادارة في البلاد ويتحكم بها الطبقة الارستوقراطية : كالبراهمان واعضاء الاسرة المالكة ، واقارب حاجب الملك . والمجتمع نفسه يحمل طابع التسلسل : فبعد الملك يأتي البراهمان تواً ، ومن كان على شاكلتهم من اساتذة الدين واللاهوت و « ارباب المنزل » ، ثم يأتي ولي العهد ، فالوزراء ، فقادة الجيش ، فاصحاب المقامات العليا والمراتب ، فرجال الحرب الاشداء ، ثم سواد الشعب ولميمه من البائسين ومناكيد الحظ . وفي ثفالة المجتمع يأتي المقعدون

والمشوهون ، والحُدْب والاقزام ، وكبار المجرمين وشذاذ الآفاق، والبرص ومن لا عذار لهم . فاعضاء الطبقة الاولى وحدهم : من الملــك الى المحاربين البواسل ، لهم الحق بدخول الهيكل . فالادارة هي كذلك بين يدي موظفين يخضعون لتسلسل دقيق وترابط آسر : من وزراء ، الى قادة جيش ، الى مستشارين ، فولاة ، وحكام اقضية ، ومدراء ناحية ، ومأموري المخازن والمستودعات ، ورؤساء السُخرة الذين يقسمون الى اربعة مراتب يصعب علينا تحديد ماهية كل واحدة منها على حدة . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي بلغتها السوق التجارية عنــد الخير ، ظهر لنا كم كان ضخماً عدد التجار في البلاد ، وقد يكون حكمهم حكم الفلاحين وسكان القرى من السلم الاجتماعي ، وهو وضع لا نعرف عنه كبير امر . وجل ما نعرف هو ان عدداً كبيراً منهم كان يعمل في خدمة الهياكل والمعابد ، عرضة لسخرية كبار القوم والتهكم عليهم .

وقد سارت هذه الاقلية ، فترة من الدهر ، تارة مــع الهندوكية واخرى مع البوذية ، وراحت تحتفل بالاضافة الى هــذا ، بعبادة خاصة ترتبط ولا شك بعبادة الجدود : فالملك والامراء ، واصحاب المراتب العليا ، ورجال الجيش البواسل ، اخذوا يشيدون وهم احياء ، معابد باسمائهم وينصبون فيها تمثال احد الآلهة يسمونه باسم الاله الشفيع . وكان الواقف يحرص جداً على هذه العبادة ويؤمن استمرارها ، اذ كان الناس يهتمون كثيراً لامر المصير بعد الموت ، كما يبدو من نقيشة محفورة في معبد انفكور – قات ، مكرسة للسماء والجحيم على السواء . وهذا النوع من العبادة والتكريس غير مألوف قط في الايقونوغرافيا الهندية .

ففي هذه الدولة التي حَسُنت ادارتها فسلست امورها ، نمت المواصلات بشبكة جيدة من الطرق النهرية والبرية ، منها طريق بري مبلّط ، تراوح عرضه بين ١٠ و ٢٥ متراً ارتفع نهره فبرزت جادته في تقاطع مستقيم الزوايا، وتمر فوق الانهر والمجاري المائية الضخمة على جسورة كبيرة . ويقوم على طول الطريق مراحل ومحطات معينة ، يسهر على الاهتمام بهــا فريق من القرويين ، ويقوم في هذه المحطات باعة متجولون امامهم اطباق شتى يعرضون عليهــا سلعهم . والنقل يتم بواسطة حمالين يحملون الاثقال على الظهر او الرأس او الكتف . اما المزرح مــن الاحمال ، فينقل على ظهور الافيال او يُعهد بأمره الى عربات النقل ، وهي على عجلتين ، يجرها زوج من الثيران او الجاموس تعلوها مظلة مــن القش . اما اصحاب الرئاسات ، فيتنقلون في هوادجهم الخاصة ، بصحبة آلهتهم وما اليها من مقدسات . كذلك نرى عربات كبيرة للنقل لها اربعة او ستة عجلات فوقها مظلة وستائر مدلاة تغطي مستودعات البضائع . ويمخر في الأنهر العديد من القوارب التي ترك الحجاج الصينيون وصفاً دقيقاً لها .

فباستثناء الهياكل المبنية كلها من الحجر ، وأجملهــا على الاطلاق يعود للقرن الثاني عشر ، كمعبد انفكور – قات ، مثلاً ، فبيوت السكن كلها تقريباً تُصنع من الخشب وتسقف بالقش ، ما عدا القصر الامبراطوري الذي كان سقفه من القرميد الاحمر . لم يصلنا شيء من هذه المباني الخشبية . وكان في القصر، على ما يقدر العارفون ، وفقاً للنقائش المحفورة ، جناح خاص بالعامة

من الشعب ، بينما لم يترك احد من الرحالة ، في ذلك العهد ، أي وصف للجناح الخاص بالملك . ومهما يكن من الامر ، فقد كان فيه قسم خاص بالحريم ، وآخر خاص بسكنى الملك ، يسهر على سلامته حارس خاص .

اما الاثاث ، فكان يتألف من مقاعد واطية ، وغير ذلك من الادوات المختلفة الجميلة النقش والمنظر ، اضف الى ذلك شكّة كاملة من السلاح على اختلاف أنواعه بينها مجموعة من السيوف الهندية، واخرى من القسي ، والنبال والعرّادات التي قلدوا منها المنجنيقات المستعملة في الصين ، والمظلات ، والمذبّات ، والمراوح والألوية ، وآلات الطرب التي كانت تحتفظ في مخازن خاصة ، اسوة بما كان يجري في الهند . ويبدو الحاربون لابسي دروعهم ومعتمرين خوذهم . اما المدنيون، فكانت ملابسهم ترفل بالكثير من الحلي والحجارة الكريمة ، وتتألف اصلاً من سروال طويل للرجال ، ومن تنورة او قفطان للنساء . وتمر اوقات النهار رتيبة على دقات الساعة المائية . ولفت نظر السياح ، كثرة استعمال القوم للخلال او السواك ، وما عليه القوم ، عادة ، من نظافة ، يتلهون برؤية مصارعة الديوك بعد ان اعتاد الملك الاستمتاع بهذه الألهية البريئة يومياً ، ويراهن عليها ، ويدفع في حال خسارته ، ذهباً . وتلعب المرأة ، في المجتمع ، على ما يبدو ، دوراً بارزاً . وليس بغريب قط ان يراعى في النظام الوراثي قرابة الرحم ضمن الصلب . والاسر الكبيرة التي تعد بين افرادها كريمات جميلات ، تهدينهن للملك ، فيقمن في بلاطه مع سراريه وقيانه وراقصاته . وكثيراً ما أدى هذا الوضع بهن الى التدخل بشؤون الدولة ، والى لعب دور بارز في الحياة الدينية .

فاذا ما عولنا على الوثائق الخطية التي وصلت الينا ، يبدو لنا ان المعابد ومن اليها من خدَم وحَشَم ، لعبت دوراً هاماً . فالى جانب المعبد يقوم عادة دير يتولى ادارته رئيس عام يؤمّن النظام ويسهر على ضبطه وصيانته بكل دقة ، كما يقوم بتدبير اموره المادية . فالرئيس هو الذي يعيّن مقرّبي الذبائح والمنجمين ، بينما يطلع الحاجب بتأمين مراسم العبادة ، ثم يأتي المراقبون ، والبراهمة والنساك والكهّان معهم عدد كبير من الحراس : هؤلاء يقومون على حراسة الودائع الثمينة وكنوز الذهب والفضة ، واولئك يسهرون على النار المقدسة ومشاكي الموتى، بينما يحرس البعض منهم الابواب ، والحدائق ، والبعض الآخر الرحى التي تطحن الارز او تحلجه . ويلي هؤلاء حشود من الاتباع يقيمون ضمن دائرة الهيكل او خارجها يسهرون على تأمين انتظام الحياة في المعبد وراحة سكانه وخدَمه على انواعهم كالمغنين منهم بضفر الزهور والعناية بالحدائق ، وغير ذلك كالنسوة اللواتي يعملن في تنقية الارز او طحنه ، ومتعهدي الماشية ، وناظري الارقاء والحراس ، وآخرون يعنون بالكتب ونسخها وبالمحفوظات وصيانتها . اما الراقصون والراقصات وأهل الكيف، فيؤلفون طبقة خاصة بهم . ومعظم هؤلاء الخدم قرويون، جيء بهم من القرية القريبة ، ويؤتى منهم باعداد أكبر في فصل الامطار ، وكلهم معفون من السخرة او مصادرة الحكومة لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس الدير . ويحظر عليهم القيام

بأعمال سخرة لغير آلهة لا يعملون في خدمتها . ان معبداً واحداً هو معبد باكو ، ضم وحده ، في القرن التاسع ٢٢٥٣ شخصاً ، تلثام من العبيد الارقاء . وقد بلغ معبد تا ـ بروهم ، في القرن الثاني عشر ، شأناً اكبر ، اذ كان يعمل في خدمته ٣٦٥ ٧٩ شخصاً ، من بينهم ١٨ من كبار الاحبار ، و ٢٧٤٠ كاهناً ، و ٢٢٠٢ مساعداً و ٦١٥ راقصاً . وهكذا نستطيع ان نكوّن لنا فكرة تقريبية عما كانت هذه الجموع المحشودة تحتاج اليه من المواد الغذائية والكميات الضخمة اللازمة لتأمين عيشها . ولذا فليس من عجب قط ان يبلغ عدد القرى التي يملكها هذا الهيكل والدير القائم الى جنبه ، ٣١٤٠ قرية لوحده وكل هؤلاء الخدام ومن اليهم من نُظّار ، ومراقبين يعملون جميعاً في خدمة المعبد ، جميعهم معفون من الرسوم والضرائب ، إلا انهم يتعرضون لجزاوات قاسية اذا ما أتوا شيئاً يمس المعبد او يلحق الاذى والضرر بجمهرة الرهبان ، او يؤلف تعدياً على املاكه ومقتنياته . فاذا ما كان المسيء براهماناً ، فقصاصه الطرد دون أي عقاب او جزاء مادي آخر ، او فرض أية غرامة مالية عليه . ويفرض على كبار القوم ، اذا ما كانوا من المعتدين ، غرامات عينية ، تدفع ذهباً ، يختلف مقدارها باختلاف المراتب التي ينتمون لها : من ولي العهد الى أدنى مأمور . فمن حاول التملص من الدفع ، حُكِم عليه بالجلد على ظهره ، مائة جلدة .

ومظاهر الحياة عند الخير التي استمرت خصائصها المميزة في كمبوديا الى وقت حديث ، بقيت معمولاً بها ، دونما تغيير كبير ، بينما اخذ شأن الدولة الانقكورية ينمو باطراد ، منذ تأسيس انقكور على يد باسوفرمان الملك (٨٨٩ — ٩٠٠) ، الى ان بلغت اوجها في عهد الملك باسوفرمان السابع (١١٨١ — ١٢١٩) الذي كان من اشهر الملوك الذين اعتلوا عرش كمبوديا. ونحن مدينون لهذا الملك الذي كان من معاصري ملك فرنسا فيليب اوغست ، والملك بودوين الرابع ، في المملكة اللاتينية في القدس ، باشياء كثيرة ، ولا سيا بهذه المباني الكبيرة التي وصلتنا من عهد دولة الخير ، وعلى يده تممت مدينة انقكور بسور دائري ، طوله ١٢ كيلو متراً ، يحيط به خندق عميق ، وله خمسة ابواب ضخمة . وقام خارج السور المعبد الكبير الذي بلغت مساحته ٨٢٠،٠٠٠ متر مربع . وهو يقوم في وسط هذا المجمّع الضخم المسمى بايون ، الذي يعلوه عدد من الابراج ذات الاربعة الوجوه . وقد كان الملك جايا فارمان السابع ، بوذياً صادقاً ، يرعى عبادة الاله الملك ، ولكن ليس على مذهب الـ *Lingu* الخاص بسيفا ، بل وفقاً لتمثال ضخم لبوذا جالس فوق الثعبان . وقد يكون هذا الملك أصيب بالبرص ، وهذا ما حمله على انشاء ٢٠٠ مستشفى للبَرَص ، وزعها على جميع انحاء البلاد . وفي عهده بلغت العبادات الشخصية الذروة من الازدهار والاقبال ، انطلاقاً من عبادة الملك نفسه الذي برزت صوره ، ليس على ابراج المجمّع الضخم ، على شكل ملك العالم « وجهه في كل مكان » ، بل ايضاً في ٢٣ مدينة اخرى من مدن الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين ، ارتدى المظهر الامبراطوري صبغة دينية عنه . فالعاصمة الملكية والمملكة كلها ليست سوى صورة مصغرة لهذا العالم الألهي ، حيث النظام البشري يبقى صورة طبق الاصل للنظام الالهي او السماوي .

فاذا كانت امبراطورية الخير هي القطر الوحيد ، بين الاقطـار المطلة على بحار الجنوب التي نملك بشأنها معلومات واوصاف دقيقة ، علينـــا ان نعتبر ، مع ذلك ، ان جميع البلدان التي تألفت منها هذه المنطقة الآسيوية الواقعة الى الجنوب الشرقي ، قد تميمت جميعهـــا بحضارة واحدة ، في هذه الفترة من تاريخها كانت التقاليد والاعراف الهندية نسيج وحدها . فقد كانت هذه البلاد بطريقة ليس هنا محل تفصيلها باسهاب ، تعبيراً واضحاً لاشياء وامور لم يُرْمَز اليها في الهند إلا تضميناً وتلميحاً . ومن بين المميزات المفرّدة لهذه البلدان ، اقله لفترة معينة ، العبادة الملكية للـ *Linga* التي كانت رمزاً للسيادة التامة والسيطرة الشاملة .

الا ان الحوادث التي تألبت على البلاد فتضرّست بها ، وانبعاث العقائد والعادات القومية ، كل ذلك ذهب بفوائد هـــذه الوحدة ومنافعها ، وافضى ، بالتالي ، الى تغييرات هامة ، في جغرافية الهند الصينية والانسولاند . ففي الوقت الذي تابعت فيه كمبوديا توسعهـــا الجغرافي باحتلال بعض ولايات تشامبا والسيام ، وراح الاناميون ، من جهتهم ، يستولون على الشمال من مقاطعة تشامبا ويتابعون ، وئيداً ، تغلغلهم صوب الجنوب ، طلعت قبائل التاي ، قادمة ولا شك من يو - نان وظهرت في شمالي السيام ، ثم اخذت تتحدر رويداً نحو مصب نهر مينام . ثم ان الانحـــلال الذي اصيب به ملوك سْريفيايا ، مكّن امراء جافا الشرقية ، من بسط سيطرتهم على بلدان ارخبيل الملايو .

وعندما قام ماركو بولو ، حوالي عام ١٢٨٨ ، وتشيو ـ كاكوان ، عام ١٢٩٦ ، بالرحلة الى الولايات الجنوبية الشرقية ، كانت دولة الخير تُودّع آخر ايامها ، تحت الضربات التي انهـــالت عليها من قبائل التاي التي كانت فرضت سيطرتها ، اذ ذاك ، على الجانب الاكثر من السيام ومع ان التشامبا فقدت نصف اراضيها ، فقد كانت عرفت مع ذلك ، اذ ذاك ، مرحـلة من الهدوء جاءت بين عاصفتين : فقد راحت بورما نفسها التي عرفت في القرن الحادي عشر عهـداً عجيباً من الازدهار ، ومعها مقاطعة الانام ، فريسة احتلال مغول الصين. كذلك استطاعت جافا الشرقية ان تحافظ على استقلالها وان تستمر المضي في تطورها ، انما في اتجـاه جديد ، ملايوي الطابع ، اخذ يطبعها ويفردها ، على حساب التقاليد والاعراف الهندية التي درجت عليها اجيالاً طوالاً واخذت بها حقبة طويلة من الدهر .

* * *

الصين في عهد سلالة تانغ

من ستة الى سبعة قرون مضت ، رزحت الصين ، في اواخر عهـد دولة سواي ، تحت فوضى قاتلة ، استطاع معها شاب شجاع ، جريء عُرف بكفاءته وبقدرته ، ان يخلص البلاد مما تعاني ، هو لي ـ شي ـ مين . فقد كان هذا الشاب ابن الكونت الذي عمل ، من قِبل أباطرة سواي ، حاكماً عسكرياً على احدى المقاطعات وبرهن عن صدق ولائه لهم . وقد نمت لهذا الشاب شخصية بارزة ، فنصب اباه ، عام ٦١٨ ، على العرش

الامبراطوري ، وقام خلال اربع سنوات كاملة ، بعدة حروب وتجريدات حربية دوّخ فيها جميع اقطار الصين، ثم اعتلى العرش هو نفسه، بعد ان بذل ما بذل من الشجاعة والدهاء السياسي وحسن التصرف ، وتوّج باسم تاي ـ تسونغ ، في الرابع من ايلول ٦٢٦ . وفي مدة ملكه الذي

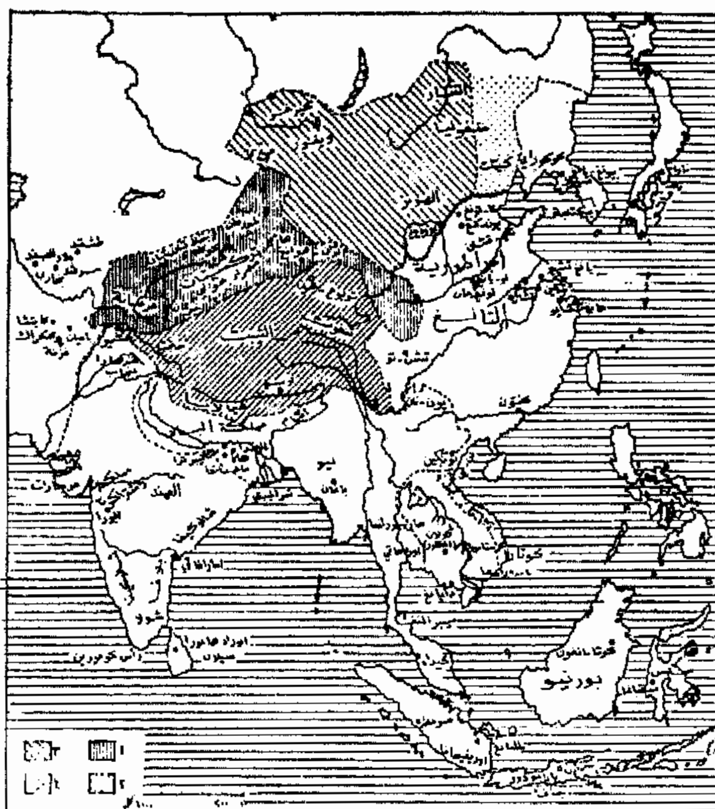

الشكل (رقم ـ ٩) آسيا المسيحية حوالي عام ٧٥٠

امتد ٢٣ سنة ، استطاع ان يعيد الى الصين ، ما كان لها من امبراطورية شاسعة ، وما كانت تنعم به من مجد وفخار . فضمت اليها مقاطعة منغوليا برمتها (٦٣٠) واخضعت اتراك التركستان ، والواحات الهند ـ الاوروبية في صحراء غوبي ، وأنشأت لها من بين هؤلاء الاقوام التي عُرفت من قبل ، بعدائها للصين ، انصاراً لها وعيوناً . ولا شك في ان الدسائس التي حيكت في البلاط ، في اعقاب هذا العهد المجيد ، والوهن الذي اصاب بعض الاباطرة ، والفظاظة التي بلغتها بعض السراري والمحظيات إذ زين الغرور لاحداهن ان اعلنت نفسها امبراطوراً ، وهذا الوضع المخزي

الذي استمر نحواً من قرن كامل ، عرف ان يضع له حداً نهـــائياً ، الامبراطور هيوان تسونغ (٧١٢ – ٧٥٦) لدى اعتلائه العرش . فالسيطرة الصينية التي عرف هذا الامبراطور ان يوطدها ويرسّخ من اسبابها ، بلغت اذ ذاك ، ابعد مدى عرفته الصين ، في آسيا ، من قبل . فقد دخلت في حدودها ، من الغرب جبال تيان – شان وجبال بافير ، فأخضعت لها طشقند ، وفرغانة ، وجلجيت ، ووضعت تحت حمايتها كشمير وبلخ وكابول ، وتحالفت ضد المسلمين ، مع بخاري وسمرقند ، وسيطرت على التركستان بكامله ، وحملت قوافلهـــا التجارية كما بسطت دبلوماسيتها ، نحو الجنوب والشرق . وهكذا تم لها التحكم والسيطرة على الممرات والمجازات المفضية الى الهند ومضايق المحيط الهندي . وهكذا عرفت الصين عهداً من الحروب والفتوحات المظفرة تجاوبت أصداؤها الانجازات الفنيـــة الصينية ولاسيا ما اتصل برسوم المعارك ورسوم الحيوان . وفي هذه الحقبة استقرت امور الصين ، ولو موقتاً ، وبلغت حضارتها واشعاعهـــا الفكري عهداً مشرقاً من الازدهار ، كما نشطت المبادلات التجارية والدينية بين الصين والاقطار الآسيوية الاخرى ، وبينها وبين بلدان الشرق الادنى الواقعة تحت السيطرة الاسلامية .

ومع ذلك ، فقد انهار هذا البنيان الشامخ دفعة واحدة ، حوالي عام ٧٧٠ ، عندما راح قائد صيني اخرق ، يهاجمة اتراك طشقند بالرغم مما كانوا عليه من صدق الولاء للصين. واذ ذاك، شرعت مقاطعة يو – نان ، في أقصى جنوبي الصين ، تتململ وتتحرك في محاولة لها للتحرر من نير الصينيين ، واخذت بمهاجمة القوات الصينية العاملة فيها . واذ كانت الصين استنزفت الكثير من دماء بنيها في هذه الحروب الدامية التي استمرّت اجيالاً وكلفتها زهرة شبابها ، ورغبة منها في اعادة الطمأنينة والهدوء الى البلاد ، استسلمت للتفسخ الاداري والانقسام السياسي . وعندما زالت سلالة تانغ ، من الوجود ، عام ٩٦٠ ، لم تكن الصين تتألف من غير الولايات الجنوبية ، كما ان عدد السكان فيها كان قد تناقص كثيراً .

فسلالة تانغ الصينية التي امتد عهدها ثلاثمائة سنة ، قامت في بـــدء ملكها ، بفتوحات هي اوسع ما حققته الصين من فتوح ، الى ذلك العهد . فقد حققت في المجال الفكري ، التآليف التام بين التقاليد الماضية وبذلك رسمت لها نموذجاً ووضعت منهاجاً نسجت على منواله ، الاجيال الصينية الطالعة . فملوك سولاي الذين حققوا وحدة البلاد من جديد، لم يسعفهم الوقت من حل المشكلات التي تأتت عن عملية الوحدة هذه. فباشر ملوك تانغ الامر منذ ان تسلموا الحكم، فحاولوا، بادىء ذي بدء ، القيام باصلاح شامل في الادارة العامة . ولكن اياما والغرور ! فقد جاء هــذا الاصلاح نظرياً أكثر منه عملياً او واقعياً ، اذ ان الادارة كانت من التعقيد والتشابك بحيث بدا مـــن المستحيل تقريباً ، اجراء أي اصلاح فعلي في البلاد . فالتمسك بالتقليد ، والاخـــذ بالاعراف المستبدة ، وجهل الموظفين المدنيين للمشكلات التي عانى منها كثيراً سكان الريف وتربصوا بها ، كل هذا يفسر لنا كيف ان الحكومة كانت تضطر الى إلغاء او تعديل القرارات التي كانت تتخذها او تصدرها ، قبل ان تأتي هذه التدابير ثمارهـــا ، او قبل ان تباشر بتطبيقها . فكل سلطة

مصدرها ، مبدئياً ، الامبراطور الذي كان يصدر قراراته عندما يجلس للديوان ، بينا كانت التعليمات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية ، وترسل للموظفين والحكام الاداريين العاملين في الملحقات . وقد تغيرت صلاحياتهم مع الزمن كما سنرى .

الاطر الادارية والعسكرية

الوصول الى الرئاسات العليا وبلوغ المراتب الكبرى ، طريقة الامتحان الناجح بين حملة الشهادات العليا ، في مباريات يجتازونها لهذه الغاية : شهادة العالمية التي تخول صاحبها التقدم للمناصب ، ومباريات لاصطفاء خير الموظفين والعمال المدنيين والعسكريين ، واخيراً شهادة تقويم الكفاءات ، تبنى على علامات وترقيات يضعهـا رئيس الموظفين على طالبي الوظائف والمتقدمين اليها ، ان يكونوا من خريجي الجامعات ، وان يزكي ترشيحهم اساتذتهم . فاذا ما كانوا من ابناء الاسر الكبرى ، وهو الوضع السائد لعمري لدى الجامعيين ، كثيراً ما نالوا المنصب الذي يرومونه ، بأيسر السبل ، بالاستناد الى حسبهم ونسبهم ، وبالنظر لان الاب تولى الوظيفة من قبل ، او لاستطاعة المرشح ان يحصل على الوظيفة المرومة باساليب اخرى . غير ان عدد المراكز كان محدوداً ، الامر الذي اوجب على طالب الوظيفة ان ينتظر طويلا للحصول عليها . اما المباراة ، فقد كانت تدور ، على الغالب ، حول مواضيع ادبية . وقد يتضمن الامتحان بعض المواضيع الرياضية والفلكية اذا ما اقتضت طبيعة الوظيفة ، من صاحبها ، مثل هذه المعلومات ، مع حفظ بعض النصوص او التعليق عليها أو التفسير لها او كتابة موضوع خاص . وكانت عنايتهم بضبط الحروف واتقان كتابتها تفوق عنايتهم بالترتيب . والنجاح في المباراة كثيراً ما ادى الى اقامة المآدب الرسمية التي لم تلبث ان استحالت عادة رسخت في القوم واستبدت بهم في المناسبات العارضة .

وقد سيطرت ، في العاصمة ، خلال القرن الاول من حكم ملوك تانغ (٦١٨ ـ ٧٠٥) مركزية شديدة قوية ، أضفت بالتالي اهمية اكبر على ثلاثـة اجهزة رئيسية هي : دائرة شؤون الدولة ، والديوان الامبراطوري ، والسكرتيرية العامة . فقـد ضم الاول ، مناصب الوزراء الستة وهي: الادارة العامة ، المالية، الاديان ، الجيش ، العدل ، الاشغال العامة . اما الديوان ، فقد اشتمل ، الى جانب صلاحياته المعروفة ، الاشراف على مدرسة البلاط التي كانت تؤمن مع تدريس الادب ، تعليم اولاد الاسرة الملكية ، بينا دخل في صلاحيات السكرتيرية العامـة ، الاشراف على مكتبة القصر والمحفوظات الملكية ، ودائرة المؤرخين ، ودائرة الاقتراع ، وغير ذلك من الدوائر الفرعية . فارتبط بالبلاط ، مثلا مجلس الدائرة الفلكية الذي انيط به السهر على ضبط الساعة المائية وتأمين الارصاد الجوية والفلكية ووضع التقاويم المختلفـة ، ثم الشؤون المنزلية ، واخيرا تدبير الامور الخاصة بالقصر الموكولة امورها الى فريق الخصيان . ولا بد هنا من ان نذكر ، ولو بصورة عابرة ، الدوائر التسع التي كانت تشرف على المراسيم الرسميـة والاحتفالات الدينية ، وكلها تتمتع باختصاصات وصلاحيات لها شأنهـا تتعلق بادارة المعابد والهياكل والمدافن ، وتأمين الاضاحي والتقادم ، وتنظيم المآدب الامبراطورية ومراسم

التشريفات المتبعة في استقبال ممثلي الدول الاجنبية ووفودها ، كما كانت من اختصاصهم النظر في امور القضاء العليا والزراعة .

وطوال المدة التي سيطرت فيها على البلاد مركزية آسرة ، حتى مطلع القرن الثامن ، لم تعرف الادارة في تقسيماتها الادارية ، دائرة اكبر من الولاية او المحافظة التي كانت تنقسم بدورها الى عدد من الاقضية وهذه الى عدد اكبر من النواحي . وباستثناء بعض الظروف الخاصة ، لم تكن السلطة العليا في الولاية ، تلقى ليد موظف كبير واحد . وكان هنالك مندوبون ملكيون يعهد اليهم الامبراطور بزيارة الولايات ومراقبة سير العمل في الملحقات على اختلاف دوائرها . وقد تراخت هذه المراقبة تدريجياً ، نتيجة محتومة لحركة ارتبطت ، ولا شك ، بانحلال طبقة الفلاحين من جهة ، ومن جهة اخرى ، بظهور طبقة ارستوقراطية عقارية . ومثل هذا الوضع ، طلع على الخلافة العباسية وفي تشكيلات سياسية اخرى لدى الغرب . ونلاحظ من ناحية اخرى ، بين ٧٠٥ ـ ٧٥٦ ، ازدياد سلطة الموظفين الاداريين ، في الملحقات ، بالرغم من وجود مفوضين حكوميين ومفتشين اداريين مهمتهم مراقبة الاقضية والمحافظات والولايات الكبرى . واستطاعت معظم الوحدات الادارية الكبرى ان تحقق ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، وطوال القرن التاسع ، شبه استقلال اداري تحت زعامة حكام جمعوا بين السلطة المدنيـــة والعسكرية . وبمجمل القول ، فقد شهدت العاصمة التي تمتعت بالسيطرة التامة في الشطر الاول من هذا العهد ، سيادتها تتناهبها الولايات الاخرى ، ورأت في هذه السيادة والقوة العسكرية التي سارت في خدمتها شبحاً اخاف السلطة الامبراطورية ، بحيث ان كلا من كبار الحكام في الولايات الكبرى اصبح في القرن العاشر ، دولة ضمن الدولة ، يوقف سلطة الامبراطور عند حدها . وراح اقوام ساعداً يعلن سقوط العائلة المالكة ويتربع هو مكانها على العرش . وهكذا أطلت علينا ، عام ٩٦٠ ، سلالة سونغ .

فالخطوط الكبرى لهذا التطور تهمنا أكثر من الصلاحيات التي تمتع بهـــا جيش لجب من الموظفين ، موزعين على مراتب ودرجات . وبـــدلاً من الافاضة في التفصيل والاسترسال في العموميات يكفي ان نعطي بعض الايضاحات التي لا بـــد منها . فالحكام المدنيون في الولايات كانوا ينتقون من بين اعضاء العائلة الملكية . وكانوا قلما يقيمون في الملحقات ، فيكلون امر الحكم والادارة الى نائب او وكيل يعينونه ويعتمدون عليه في تصريف الامور . ومن هنا نتبين بعض الشيء ، الاهمية التي اخذها الحكام العامون وكبار القواد الذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين ، وكان تحت امرتهم وحدات من قوى الجيش يتراوح عدد افراد الوحدة ، عام ٧٤٢ ، بين ٢٠،٠٠٠ و ١٤٥،٠٠٠ ، جندي بينا بلغت القوة العسكرية التي رابطت في ولاية هو ـ باي ٩١،٠٠٠ ، اذ ان أكثر من ثلثي قوة الجيش كانت ترابط في المقاطعات الحربية الواقعة على الحدود . وقد اضطرتهم الامور العسكرية ، شيئاً فشيئاً ، لأن يسيطروا على كل المصالح الاخرى : على مستودعات وعنابر التموين ، والشؤون المالية ، والاشغال العامة ، وامور القضاء . وكثيراً ما ادت اقامتهم مـــع

الحكام الاداريين في دار الولاية الى اصطدامات، الى استصفائهم ملء السلطة الفعلية في القاطعة.

ففي الايالات العسكرية القائمة وراء حدود الصين الخارجية ، كان يقيم المفوضون العامون السبعة ، وهو عدد لم تعرف مثله الصين في ازهر عهودها وفي اعظم امتداد لسيادتها عبر التاريخ، وهي ايالات كادت تزول من الوجود ، في اواخر عهد هذه الاسرة بنسبة فقدان الصين السيطرة على هذه الايالات العسكرية . فرقعة الحمية الواحدة التي يتولون امرها كانت شاسعة ، اذ ان حمية واحدة ضمت بين أرجائها ما يؤلف اليوم التركستان الرومي والتركستان الصيني وأفغانستان وكان هؤلاء الحكام يصطفون من بين كبار الاداريين المحليين ، ويعمل تحت ادارتهم موظفون محليون ويمارسون صلاحيات مدنيـــة وعسكرية على السواء ، ويقومون بالاشراف على عدة مقاطعات او عدة ولايات عامة .

فالولاة الذين يرتبطون بالامبراطور شخصياً ، بلغ عددهم عام ٦٣٩ نحواً من ٣٥٨ والياً ، ثم نزل هذا العدد الى ٣٢٨ ، سنة ٦٤٠ ، دون ان تدخل في هذا العدد البلدان التابعة للصين بموجب مواثيق . ويقسم الولاة الى رتب ودرجات تختلف باختلاف عدد السكان في الولاية التي يعملون فيها، وهو عدد كان يتحدد دورياً بعملية احصاء تجري في اوقات معينة،ويتراوح بين ٢٠٠٠٠، و ٤٠٠٠٠، عائلة او اسرة. فاذا ما تعادلت ولايتان احداهما في الداخل والاخرى على الحدود، بعدد سكانها ، جاءت الثانية في مرتبة اعلى . والنواب الولاة كانوا أثبت عملاء الامبراطور مركزاً ، تناوح عددهم بين ١٥٢٨ و ١٥٧٣ نائب والي بـــين عامي ٦٣٩ و ٦٤٢ ، كما كانوا اقربهم اتصالاً بالأهلين . وفوق الأسر التي كان رئيسها يتحمل كل مسؤولية ويتعرض وحـــده للجزاء اذا ما اتُّهم احد أعضاء اسرته بالتقصير ، تأتي القرية التي كانت تتألف عادة من ١٠٠ اسرة ، كما ان خمس قرى كانت تؤلف ناحية . ورئيس القرية هو الشيخ أي المتقدم في السن بين سكانها ، ويترتب عليه كما يترتب على مدير الناحية ان يعد قائمة بالافراد الخاضعين في القرية وفي الناحية ، للضرائب او لأعمال السخرة ، وبذلك يصبح في مقدور نائب الولاية ان يصنف السكان حسب فئاتهم ، ويشرف على توزيع الاراضي ، ويحافظ على السجلات العقارية وجدول الضرائب وادارة الجباية ، كما كان باستطاعته ان يحافظ بدقة على نظام البريد ، وعنابر الدولة ومستودعاتها ويضع تحت اشرافه السير على الطرقات العامـــة ويؤمن سلامتها وسلامة الملاحة النهرية . وهو بوصفه حامي الشعب ، عليه ان يرعى مكارم الاخلاق ويؤمن أَوَدَ العيش للأرامل ، ويضع تحت جناحيه الايتام والبائسين ، وينظر بنفسه في القضاء ويكافح الاوبئة .

والجيش الذي اصبح طيلة عهد اسرة تانغ في الحكم قوام النظام وركنه الركين ، خضع خلال الاجيال المتعاقبة ، لتطور سار جنباً لجنب والتطور الذي مرت به الادارة . ومع ذلك فتعبئته بقيت مشكلة مستعصية بحيث ان الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة في بـــدء الامر يجب ردها للمقدرة والكفاءة التي تحلى بهـــا قواد الجيش وليس لتنظيمات الجيش . فالى سنة ٧٢٢ تقريباً ، كانت الوحدات العسكرية التي تقدمها كتائب المليشيا الباسلة تعمل لشهر واحـــد في

الحرس الامبراطوري ، بينا الوحدات الاخرى التي ترسل للخدمة على الحـــدود كانت تمضي في خدمة الجيش ثلاث سنوات ، بينا الحاميات المرابطة على الحدود الشمالية ، كانت تفذيهـا اسر خاصة فُرضت عليها الخدمة العسكرية الاجبارية لقاء بعض امتيازات ومنافع خاصة . وكثيراً ما أجبرت الوحدات العاملة في الجيش المرابط في قواعده على الحدود، على تجديد تعهدها بالخدمة دون ان تعطى الحق بالرجوع الى البلاد ، فتؤلف بذلك جيشا محترفا مستمراً في الخدمة . ومن المحتمل كثيراً ان تكون وحدات من هذا النوع ، ألفت حرس الامبراطور الخاص او عملت في خدمة بعض كبار الحكام او القادة . اما الوحدات الاضافية الاخرى ، فقد جيء بهـــا من بين الذين صدرت عليهم أحكام قضائية ، فيرسلونهم الى المسكرات الحربية . وفي القرن الثامن ، كان الحرس الامبراطوري يتألف أفراده من سكان العاصمـة وارباضها الذين يُعفون من السخرة ، لقاء خدمتهم في الحرس ، مدة ستة اشهر ، ثم انزلت الى شهرين ، عام ٧٢٥ . وكثر عدد التجار الذين راحوا يتجندون لقاء اعفائهم من الضرائب المترتبةعليهم، ثم يعمدون الى استبدال أنفسهم بعبيد وأرقاء في خدمتهم . فبينا كانت الجيوش المرابطة في الشمال تتألف بمعظمها على هـــذا الشكل ، كانت الوحدات المرابطـــة على التخوم تؤلف جيشاً محترفاً بعد ان برهنت الطرائق الاخرى لتشكيل الجيش التي عمل بها، عن عدم جدواها . وفي سنة ٧٤٩ صدر مرسوم امبراطوري ألغيت بموجبـــه « الكتائب الباسلة » ، ولم يحتفظ إلا ببعض وحدات للمحافظة على الامن . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد بأن الجيش بين ٧٥٦ و ٩٠٧ كان برمته جيشا محترفا .

فقد عُرف الصينيون بمقتهم للحروب واعراضهم عن كل ما يسببها او يدعو اليهـــا ، وهو شعور تحسسوا به ليس فقط أثر الانكسارات العسكرية العديدة التي منوا بهـا ، بل ايضاً بعد الصعوبات المتزايدة التي صادفها اباطرة الصين في الداخل . فمن علامات الازمنة المميزة : ان الناس، اذا ما ملّوا القتال وسئموا الحروب، مالوا الى الدعة وطلبوا الهدوء والراحة ، وفضّلوا الاخلاد للسكينة والانزواء بعيداً عن صَخَب الدنيا . ولكي يتفادوا داعي الحرب راح الصينيون يشوهون انفسهم . فهستيريا الحرب التي ميزتهم في القرن الاول من عهد سلالة تانغ ، حـل محلها روح الاستسلام والمقاومة السلبية ، وكلها امارات تدل على مبلغ تفسخ الامبراطورية . وهـذا السأم تردد صداه عالياً على لسان الشعراء ولا سيا تو ــ فو الذي كتب عام ٧٥٢ قائلاً :

> مما يؤسف له جداً فالحشود تتوالى ،
> في الخامسة عشرة ترسل الى الشمال للدفاع عن النهر الاصفر
> وفي الاربعين نجد انفسنا جنوداً نفلح ونزرع ، في غربي البلاد
> وكهولاً وبعد ان ابيض منا الشعر ، ندعى للسلاح من جديد بعد عودة قصيرة
> تباً لهذه الحياة ، وما أشقاها مع الاولاد .

تطور المجتمع

وهذا التحول والتطور نحو سيطرة جيش محترف له ما يبرره ويزكيه في هـذه الثورات والانقلابات الاجتماعية التي جرت البؤس والشقاء على الجماهير الشعبية .

صحيح ان البلاط يستمر كمألوف عادته ، في هـــذا البذخ والبطر الذي عُرف به وشاع عنه من قديم الزمان . واحسن شاهد على ما نقول ، هذه الخزفيات القبرية، الدقيقة الصنع ، العائدة لهذا العهد التي تبرز لنا صوراً من ترَف البلاط ، ومواكب الراقصات في غلائلها المثيرة تستر منهـــا الاقدام الناعمة ، ومنظر المحاربين ممتطين صهوات جيادهم ، كل ذلـــك ينم عن مجتمع قرومي مترف . غير ان الشعب اخذ منذ القرن الثامن يتربص بمشكلات عانى منها الامرين ، كان من بعض نتائجها هذا التناقص الفاضح في عدد السكان . ففي اقل من ٧٥ سنة اي من سنة ٧٥٤ الى ٨٣٩ ، هبط عدد سكان البلاد من ٥٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً ، بعد ان زال في اواسط القرن الثامن كل اثر للملكية القروية التي كانت الدولة تحافظ عليها ، فرزحت تحت ما تواقع عليها من الضرائب واعمال السخرة والخدمة العسكرية والديون المتراكمة ، مما اضطر معه صغار الملاكين الى بيع ما يملكون من عقار والعمل في خدمة كبار الملاكين الذين كانوا في الوقت ذاته من كبـــار الموظفين . ونسمع صدى هذا كله في ما كتبه تاونغ – يوان (٧٧٣ – ٨١٩) ، اذ جـــاء على لسانه :

« تزداد حياة جيراننا من القرويين بؤساً يوماً بعد يوم . فما امرع مـــا يستنزفون غلال ارضهم ، ويدفعون الى آخر بارة مـــا يترتب على اكواخهم من رسوم ، ويأخذون بالبكاء والعويل وهجران اوطانهم ، ويتضورون جوعاً ويموتون عطشاً ، ويخرون صرعى الى الارض . تتناهبهم الارياح والامطار ويشكون البرد شتاء وحرارة القيظ صيفاً ، ويستنشقون السموم القتالة المهلكة ، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى . فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة . وبين الاسر العشر التي عاشت هنا مع ابي ، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة ، ومن بين الاسر العشر التي عاشت معي هنا مدة اثنتي عشرة سنة لم يبق سوى اربع او خمس اسر لا غير . فاذا لم تمت كلها ، فقد هاجرت ورحلت عن الديار وبقيت وحدي هنا » .

واذا اردنا ان نأخذ باقوال الشعراء ، لسان حال هؤلاء الناس والمتكلمون باسمهم ، فالتجارة بارت وماتت هي الاخرى . « فقـــد كانت الحكومة في ابتزازها لمرافق التجارة كالنمرة في جشعها » . ومع ذلك فقـــد اخذ التجار يتابعون ، بكل الوسائل لديهم ، المقايضات التجارية طمعاً بالارباح التي تدرها ، مع التجار المسلمين والاسواق التجارية في بلدان جنوبي شرقي آسيا ، وهكذا استطاع بعضهم ان يتغلب على مـــا تعرضوا له من فداحة الرسوم الباهظة التي فرضت عليهم ، واعمال المصادرة والضرائب التي رزحوا تحتهـــا ، بحيث انهم كانوا يدفعون ١٠ في المائة رسماً على الشاي الذي كان قد اصبح ، في هذا العهد ، مشروباً وطنياً .

فانهيار طبقة الفلاحين ، والعراقيل التي سدت سبل التجارة ، وهما عماد الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الصينية ، كانا من اكبر الاسباب التي دعت للثورة التي انطلقت في اواخر سنة ٨٧٤ . فالاتراك الذين كانوا استقروا في شمالي الصين وجدوا في الوضع الموصوف ، فرصة سانحة لزحزحة النير الصيني عن اعناقهم . فلم تقو الاسرة المالكة على تحمل الصدمة ، وراح النظـــام

الاقطاعي الجديد الذي أطل على البلاد من خلال كبار الموظفين ، يسدد لها الضربة القاضية فسقطت وتوارت عن مسرح التاريخ .

الحياة العقلية والدينية

في هذا العالم الصيني الشاسع الاطراف الذي عرف عهداً من الازدهار في بدء الامر ، وما عتم ان راح فريسة طغيان سلطة ناشزة ، تمتع الناس بحرية فكرية لم يعرفوا مثلها من قبل ، فارتفعت الاصوات منددة بعبث الارادة الامبراطورية . ولم يكن من الغريب قط ان نسمع في المجال الديني جدلاً صاخباً ، مع البوذية وضدها على السواء . ومع ذلك فقد عرفت البوذية في هذا العهد ازدهاراً انتشرت معه وامتد في واحات التركستان الصيني الذي خضع اذ ذاك ، لاشراف ملوك التانغ الا انهم نظروا اليها ، في بدء الامر ، نظرتهم الى ديانة غريبة ، ولذا ناصبها العداء المكشوف ، المتمسكون بالتقاليد والتعاليم الكونفوشيوسية : « ما بوذا ، بعد هذا كله ، سوى بربري دخيل ، يختلف عن الصيني لغة ولساناً وزياً » . وبالرغم من شدة هذا النقد وطرافته ، رعى اباطرة التانغ للبوذية عهداً واخذوا بنصرتها ، ورحّبوا بتعاليمها وحجاجها . وبدافع من هؤلاء الملوك ، راحت مصانع الحفر والنقش البوذية تعمل بكل نشاط : والى هذا العهد تعود المغاور المشهورة في لونغ – من وما تحمله من حلي النقوش ، فارتفعت في البلاد معابد وهياكل بوذية كثيرة ، وهذا العدد العديد من التماثيل والشخوص ، وكلها ينم كم كانت البوذية غريبة بالفعل عن الصين ، اذ ان كل هذه الانجازات الفنية كانت من طراز هندي حاول الفن الصيني ان يلطف قليلاً من طابعها ، حيث تطل علينا مُثلٌ وتقاليد جمالية تختلف كثيراً عما عُرف في الصين من امثالها . صحيح ان تَطَبُّع البوذية بطابع الصينية في المجالين الفكري والفني تم ببطء كلي ، فاقتربت بالاكثر من التاوية ، سيراً منها مع حركة تطورية اخذت باسبابها قبل مجيء سلالة تانغ بكثير .

وتابعت ديانات اخرى دخلت الصين منذ عدة اجيال ، انتشارها في البلاد . فقد تغلغلت المانوية منها في منغوليا ، وكسبت لها انصاراً ومريدين صادقين لدى اتراك ويغور في تاريم وشيدت لها معابد وهياكل في معظم المدن الكبرى في الصين . والمسيحية على المقالة النسطورية دخلت ، هي الاخرى ، الصين وشيدت اول بيعة لها في مدينة تشانغ – نغان ، عام ٦٣٨ ، ونعمت فيها برعاية مستمرة . ومنذ عام ٨٤٥ ، تعرضت البوذية فيها لاضطهاد عام اصطلت بنارها ديانات اخرى « دخيلة » . كذلك استهدفت التاوية والبوذية لمهاجمات عنيفة من قبل اتباع الديانة الكونفوشيوسية ، باعتبارهما ديانتين كثيرتي التصوف وذات مراسم غريبة . واخذت المهاجمات تشتد ضد الحياة الرهبانية والنسكية ، واللاعمل البوذي ، وضد سلبية التاوية والاعمال السحرية التي أتهمت بها وغير ذلك من التهم التي الصقوها بها ، كما يجب التسليم ايضاً بان اتباع التاوية والكونفوشيوسية لم يروا اي فائدة من تحالفهما ضد البوذية التي عرفت ان تتخلق باخلاق الصين وتتطبع بطباعها بحيث بدت وكأنها ديانة جديدة قالت بوحدانية الوجود ، واخرجت للناس نحلة جديدة تعرف عندهم بنحلة التأمل او التجريد لقيت انتشاراً واسعاً في طول البلاد

وعرضها ، حتى انهـــا بلغت اليابان تحت اسم « زن » ، وهي مذهب روحاني يحرك المشاعر ويحمل الفرد على القيام ببرامج دينية شخصية تحرك العواطف والشفقة في القلوب ، حيث طريق الخلاص مفتوح لاصحاب الشطحات الصوفية .

وعهد دولة تانغ الذي امتاز ، من جهة ، بالبطولة والفروسية ، كما امتاز ، من جهة اخرى ، بروح النقد والسخرية والصوفية ، شهد انتشار صناعة الورق واستعماله أكثر فأكثر فنشّط ذلك ظهور الطباعة الخشبية ومهد الطريق امام الطباعة بالحروف المتنقلة ، وذلـــك بعد التوصل الى حروف متنقلة اتخذت من الدلغان او الفخار (النصف الاول من القرن الحادي عشر) . وقــد اتاحت الكشوف العلمية التي أمكن تحقيقها ، في هذا المجال ، للثقافة ان تقطع مراحل من الرقي والتقدم خلال حكم التانغ والوصول الى شيء مـن التآليف في مجالات الفكر والدين والفلسفة كما وصلت عبر الاجيال الماضية .

الحميات الصينية في عهد دولة تانغ

لا يصح قط ان نجهل او نتجاهل الدور البارز الذي لعبته البلدان المجاورة للصين في هذا الطور الحضاري الذي مرّت به البلاد في عهد ملوك تانغ . وهذا الدور يبرز على امثله ، من كتابات الرحالة هيوان ــ تسانغ الذي قام في القرن السابع ، برحلة الى واحات التركستان ، وعرف ان يصفها لنا وصفاً دقيقاً . وكان يقيم في هذه الاقاليم ، ممالك توابع ، تباينت فيها العروق الاثنوغرافيــة واختلفت اللغة واللهجات ؛ وكانت تمر بها طرق تجـارة الحرير ، فتترك فيها حركة ناشطة بالازدهار ، كما كانت ممراً للمؤثرات الحضارية الغربيـــة في تغلغلها نحو الصين ، فكانت بالتالي ملتقى حضارة العرب وايران الساسانية كما انتهت اليها معالم الثقافة الهلينية البوذية، والهند بعد ملوك الغوبتا ، والمانوية حتى والتيبت. وعن طريق هذه الواحات بلغت البوذية الصين مع المؤثرات الخارجية الاخرى، اذ ان المناطق المتاخمة للصين من الجنوب الشرقي ، والتي كانت تقـــع تحت مراقبتها واشرافها المباشر ، كالانام والتونكين ، كانت قطعت شوطاً بعيـداً في تصيّنها بحيث لم تكن قادرة على مدها بعناصر جديدة تجدد من ثقافتها وحضارتها .

وكان سكان هذه الواحات، ومعظمهم رجال حرب ورعاة ، يعيشون على التجارة والزراعة تحت تبعية الصين وولاتها ، مع محافظتهم على عاداتهم الخاصة وعلاقاتهم الروحية بالهند . فقــد كانوا مـستمسكين بالبوذية. ويتكلمون لهجات هندو اوروبية ، فقد جعلوا من ممالكهم متاحف للادب والفن البوذي ، وأضفوا على هذا الاخير طابعاً ممـــيزاً ، هو صيني السمت في الواحات الشرقية ، ايراني الطابع في الشمالية منها ، هندي المظهر في ما وقع منه في الجنوب . وهـــذه الرسوم والصور التي تغطي جدران المغاور تعطينا صورة صحيحة لما كانت عليه الحياة والنشاط الديني في هذه المناطق من معالم ومظاهر . وهذه الرسوم التاريخية التي تعود لهذا العهد ، قـــد زالت من الصين وايران ولم تسلم لليوم غير تلك التي كانت في التركستان الصيني ، فوصلت الينا

شاهد عدل على ما كان عليه قادة القوم من ملبس ومعشر بثياب على الزي الهندي او الصيني ، ممتطين صهوات جيادهم في هجوم على الحصون والقلاع تحت خفقان البيارق ، او سائرين الهوينا، مرتدين اجمل حللهم وزينتهم . فنحن امام عالم جيّاش ، يعيش على الحدود عيش بذخ واباء وشمم ، في اطار اجتماعي خاص به . وهو عالم يرجع القهقرى ليهوي وئيداً في البربرية ، خلال هذه الحقبة التي تمتد من اضمحلال ايران الساسانية وسلالة تانغ في الصين .

الصين في عهد سلالة سونغ

ظهور سلالة تانغ في الصين ، في القرن العاشر حمل معه الى البلاد ، جواً جديداً ، اتسم بالهدوء والسلام . فبقدر ما حافظت سلالة تانغ على تقاليد البلاد القديمة ، وخاضت من حروب ، وهدرت من دماء زكية ، وعانت من المجاعات وتضاريس الحياة بين حلوها ومرها ، احتقر ملوك دولة سونغ العنف والحروب الفتح والغزو فقد هم ملوك تانغ ، في ايام دولتهم ، ان يتشبعوا اذواقهم من الفنون والاشياء الخارجية ، بحيث بدا اشهر شعراء هذا العصر : لي ـ تايبو اقرب الى الفكر الغربي منه الى نفسية الصينيين وذهنيتهم . اما في عهد السونغ ، فاننا نشهد ، خلافاً لذلك ، تجديداً للقيم التقليدية ، وراحت مدنيتهم تبرز ، في كل المجالات ، ما هو صيني الطابع ، في الدرجة الاولى .

فاذا ما رضي ملوك سونغ ان يفقدوا نصف اراضي الصين وان يقنعوا بالقسم الجنوبي منها ، فما ذلك لضعف فيهم ، او لزهد او عدم اكتراث قط . فقد كان باستطاعة الأول من ملوك هذه السلالة ، بما تم لهم من حزم وعزم وسمو الهمة ، ان يعيدوا الى الصين ، قوتها وبأسها بعد ان استحكمت الفوضى بخناق البلاد في اواخر عهد تانغ (السلالات الخمس) . فقد وجدوا امامهم صعوبات جمة في الداخل والخارج على السواء، ولا سيا هذا الفقر المدقع الذي كان الريف يتسكع فيه من بعد ما تكالبت عليه المحن والاحن : كالمجاعة ونزوح السكان، التي فتّت من عضد الصين، وقتّل فيها كل الرغبة في الحروب وخوض المعارك . والاصلاح الزراعي ، هذه المشكلة التي أقضّت مضاجع المسؤولين وأقعدتهم ، ازدادت تأزماً بدلاً من ان تلقى الحل المرتجى ، فشلّت ميزانية البلاد وأوقعتها في الفوضى ، بعد ان انعدمت اسباب الجباية ، وتخلخلت انظمتها ، وزادت تكاليف الحكم والادارة ، وأسقط في يد الدولة بعد ان رأت نفسها في حلقة مفرغة . وعهدَ مؤسسو هذه السلالة، الى بعض العلماء الكونفوشيوسيين، من محافظين ومجددين، بتحقيق الاصلاح المنشود . ولكي يؤمنوا ما هم باشد الحاجة اليه ، ويمدوا الادارة بموظفين اكفاء ، اخذوا باصلاح نظام الامتحانات ووضعوها على مناهج واساليب سارت عليها طويلاً . واعادوا الى الاستعمال النظام الذي جروا عليه من قبل بانشاء احتياطي للقمح حفظوها في حواصل للحكومة . واعادوا التوازن في ميزانية الدولة بتخفيض النفقات العامة الى ٤٠٪ وقد شجعوا الانتاج عن طريق التسليف على الغلة ، والغوا نظام السخرة واستبدلوها بضريبة على الاعناق تدفع سنوياً . واعادوا مسح الاراضي من جديد ، واجروا توزيعاً جديداً لها ، وهو اصلاح قصد منه في الدرجة الاولى ، تحسين الوضع المالي ، اكثر منه اصلاح النظام الاجتماعي ، اذ ان

نظام الملكيات الكبرى بقي معمولاً به ، كما انه كان من الايسر تأمين الضريبة العقارية . كل شيء نُظّم وفُرضت عليه الرسوم : الزراعة وملكية الارض والتجارة ، حتى البضاعة الموجودة في المستودعات فُرض عليها رسم بلغ ٢٠ في المائة من قيمتها ، يضاف اليه ٢ في المائة اذا لم يتم الدفع في اوانه . وتشجيعاً للاعمال التجارية ، اخذت الدولة بنظام التسليف على الاملاك ، فانشأت لهذا الغرض وكالة خاصة تعطي التجار سلفة لقاء رهن . فاخذت تكاليف العيش تنزل تدريجياً ، واخذ الناس في الريف والمدن يعوّلون على الارز في معايشهم ، كما تشددت الدولة في ملاحقة المحتكرين .

من المؤسف ان هذا الاصلاح لم يعمر طويلاً . ولكي يتمكن المزارعون من تسديد ما استلفوه على غلالهم راحوا يستدينون من مصادر اخرى : من المرابين بفائدة تبلغ احياناً ٥٠ بالمائة بالاضافة الى ٢٠ بالمائة المستحقة عليهم للدولة . وقد راح المتعلمون المرروفون بتحفظهم يرفعون عقيرتهم عالياً ضد الذين قاموا بحركة الاصلاح هذه ، فانقسم الناس على بعضهم في الداخل وعمت الاضطرابات ، وفقد التوازن ، بينما وقعت الصين الشمالية بما فيها العاصمة بكين ، فريسة بيد اقوام الكيتات ، والجرتشات . وبعد محاولات فاشلة قام بها اباطرة الاسرة سيونغ ، قر الرأي عندهم ان يقيموا نهائياً في مدينة هانغ – تشيو ، متخلين عن القسم الشمالي من الصين .

وهكذا بعد ان تحرر المفكرون والمثقفون من ضواغط الروح العسكرية البغيضة راحوا يعملون على تحقيق نزعاتهم السمحاء واهدافهم السامية . فما من عهد حقق في مجال الفكر والفن ما حققه عهد ملوك سونغ في تاريخ الصين . فالاباطرة انفسهم ضربوا بسهم في الثقافة ، لا بل كانوا اثقف من تربع على عرش الصين طراً ، كما يشهد على ذلك الامبراطور هواي – تسونغ (١١٠٠ – ١١٢٥) ، الذي كان ذوّاقة ، وعالماً بالآثار وحفياً بها ، جامعاً لها ، وناقداً فنياً وادبياً ، ورساماً في بعض الاحيان . فلا عجب ان تصبح العاصمة الجديدة ، بين ١١٣٢–١٢٦٧ اشبه ما تكون بمدينة متحفة ومقراً لحفي الفنون الجميلة ، تحفّل موقعها الجغرافي البديع ، بالمعابد والهياكل ، والقصور والصروح الجميلة في مثل هذا الجو العابق بالسلام ، وفي متعة من العيش المترع ، وفي مثل هذا الاطار الجغرافي البديع المناظر ، اعطت مدرسة الرسم والتصوير في عهد دولة سونغ ، ابهج روائعها الفنية . فبعد ان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناهج الفلسفة والشعر الرفيع ، راحت تضع لنا مناظر تعبق بالظلال المترعة بالسحر ، السابحة في غلالة من الندى ، الغارقة في البعيد الرجراج ، القائمة على خطوط شاطحة . وقد رُسمت على أرضيّة من الحرير الشفاف بالحبر الصيني فبدت في قدمها كانها عنبر ماصع . وقد خضع فن التصوير عندهم لهذه المثالية الصوفية التي آل اليها مفكرون انقطعوا للتجريد والتأمل ، معظمهم من اتباع الديانة التاوية ، فبدت المناظر وكأنها رؤى متحيزة ، عبّرت عن النفس برموز ، وورّت عن طبيعة الرسام الفيلسوف برسوم مهفهفة وهو تصوير نفساني حارل ، على طريقة الفلسفة ، وستعيناً بالمحسوس ، ان يتلمس جوهر النفس وحقيقتها وان يذوب معها . فاذا كانت الصورة

ذات اللون الوحيد تؤلف وجدها قصيدة، فالقصيدة التي تسبح نسج بردتها ملوك سونغ هي نفسها صورة ناعمة مهفهفة تمور بالحس والشعور ، وبكل ما في الطبيعة من حب وهيام .

وقد رافق هـــذا الازدهار الفني إشعاع ادبي واسع النطاق ، مكّن له اختراع الطباعة فانتشرت الفلسفة الكونفوشيوسية . فاذا كانت البوذية والكونفوشيوسية والتاوية، لا تزال مثاراً فيا بينها لجدل عنيف ، هو من مميزات هـذا العهد المفرّدة ! فقد وَضَعت كلها نصب عينيها ، هدفاً واحداً : وحدة الوجود او الكون ، فترد الكون والانسان الى مادة واحدة لا غير . فاسمع ما يقوله تشاد – يونغ (١٠١١ – ١٠٧٧) بهذا الصدد : « فللانسان والارض والسماء تؤلف جميعاً وحدة واحدة ، مع كل الكائنـات التي كانت في كل الازمنة والامكنة ، اذ ان ناموس الكون واحد هو ... فمبدأ الحياة واحد هو ، وينبض في الجميع ... » ويضاف الى هذا عامل تطوري تختلط فيه وتتمازج به اقدم مـــا عُرف به المجتمع الصيني البدائي والنظرات الفلسفية الهندية التي حملتها البوذية الى اطراف الشرق الاقصى . وقد ألبس تشو – هي (١١٣٠ – ١٢٠٠) هـــذه الفلسفة صيغتها النهائية التي تبرز لنا على أتم وجه ، هذه الفكرة كما تبدت لنـــا في عهد ملوك سونغ . وبالرغم من متانة هذه النظرية الفلسفية التي وضعها تشو – هي وذهب صداها بعيداً في الارض ، فقد فتحت ، مع ذلك ، الباب على مصراعيه ، أمـــام التأمل في شبه حلقة مفرغة ، مانعة في المستقبل ، كل انطلاقة ، نحو المذهب الروحي . وهكذا كان السبب في هـــذا الشلل الذي اصاب الفلسفة الصينية بين القرنين الثالث عشر والعشرين وهو شلل زاده جموداً وقموداً الفتح المغولي ، وفيا بعد ، الروح المحافظة التي ميزت عهد ملوك مِنْغ .

دخول اليابان الحلبة

منذ اواخر القرن الرابع بلغت الحضارة الصينية كوريا واليابان . كما دخلتها البوذية . وفي سنة ٥٥٢ ، حملت بعثة كورية الى امبراطور اليابان تمثال بوذا ، ومجموعة من الحكم البوذية والكَلِم المأثور ، وهو حادث كان له تأثير عظيم ودوي كبير تمثل في اعتناق اليابان رسمياً للديانة البوذية . وقـــد نشبت اذ ذاك ، حركة عنيفة بين المحافظين المشهورين بمعارضتهم للبوذية ، وبين المجددين التقدميين الموالين لها ، بزعامة اسرة سوغا الكبيرة . وعندما تمت الغلبة للفريق الثاني ، تمت معها المناداة بالبوذية ديانة اليابان الرسمية ، مـــع ارتقاء الامبراطورة سويكو العرش (٥٩٣ – ٦٢٩) ، وهي من اسرة سوغـــا ، فكانت اول امرأة تجلس فوق عرش اليابان واتخذت مساعداً لها احد امراء سوغا هو اومايادو سوغا الذي عُرف منذ ذاك ، باسم شوتوكو تايشي ، الذي كان من اشهر رجـــال عصره . واذ كان بوذياً مخلصاً وغيوراً ، فقـــد ادرك سمو الثقافة البوذية وتعاليها وتساميها فوق ديانة البلاد البدائية المسماة شنتو ، التي لم تستطع ان تعلو فوق الاساطير والخرافات التي علقتهـــا حول مراسيم التطهير والرجس ولم تخرج من هذا كله بأية نظرية ادبية . واعتماداً منه على الخلقية البوذية، راح شوتوكو يصدر ، عام ٦٠٤ مرسوماً تألف من ١٧ مادة صح إتخاذه دستوراً لحكومة ذات سيادة تأخذ الناس بالعدل ، بعيداً عن كل استبداد . ومن هـــذا العهد ارتفعت في البلاد اولى الاديار والمعابد

البوذية ، فقد عدّ منها ٤٦ عام ٦٢٤ ضمت ٨١٦ راهباً ، كما ضمت ٥٦٩ راهبة ، وهي مبانٍ من الخشب صممت وفقاً للتقاليد اليابانية ، وسهروا على حفظهـــا وصيانتها فوصل معظمها الينا سالماً حتى القرن العشرين ، كما كانت تماماً في مظهرهـا القديم . فليس من فرق جوهري في

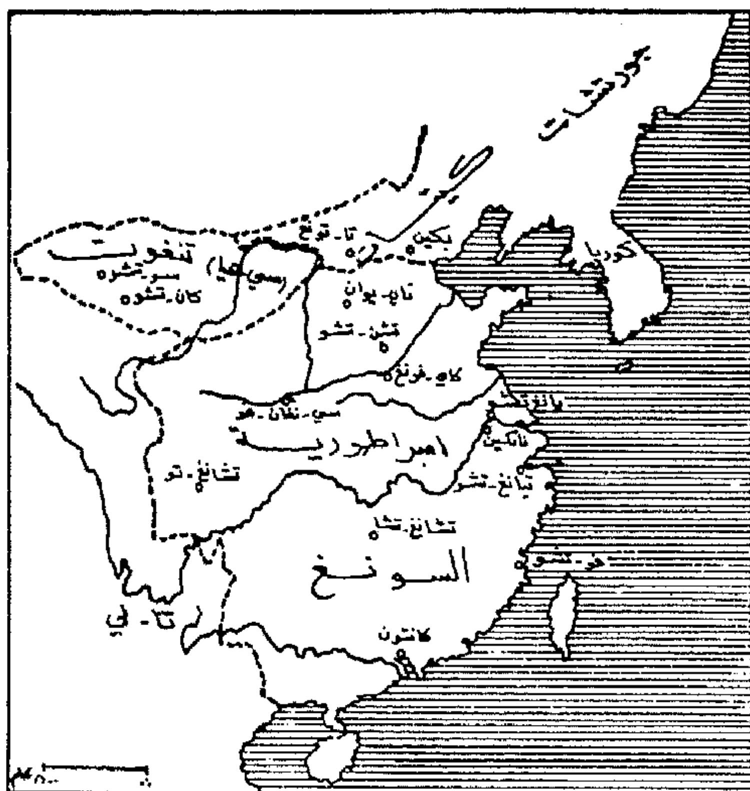

الشكل (رقم — ١٠) الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠)

المظهر ، بين المعبد الياباني والهيكل الصيني . فهو يقع في ساحة مربّعة الاضلاع تحف به الاروقة كالدير ، ويحيط به افناء واسعة وعدة مبانٍ مخصصة للاعمال الادارية في الدير . ويرقى الى هذه الساحة الفسيحة الارجاء من عدة ابواب ، فيطل علينا الهيكل الذي يشابه الـ *Stupa* في الهند ، والسرادق المذهب (*Kondô*) الذي يضم الايكونوستاز حيث لا يسمح للجمهور بالدخول ، ثم قاعة الوعظ والارشاد ، فالمكتبة ، فقبة الجرس ، فبيت المنامة ، وغرفة الطعـــام ، والمطبخ ، وجناح الحمامات تقوم كلها في الخارج ، الى الشمال من سور الدير . ومن ابرز هياكل هذا العهد

ومن اجلها على الاطلاق ، هيكل هوريوجي ، الذي تأسس عام ٦٠٧ ، والذي اكلت النار احد أفرزته ، في حريق شبّ فيه عام ١٩٤٩ .

فاذا كانت العلاقات الرسمية المباشرة بين الصين واليابان ابتدأت في سنة ٦٠٧ ، فالعلوم والفنون الصينية كانت دخلت اليابان، قبل ذلك بقليل عن طريق كوريا، منذ اواخر القرن الخامس. فقد احدث دخولها الى اليابان ، بين الطبقات الاجتماعية العليا، حركة تعاطف واقبال قوية للغاية، بعد ان صدمت بمنظرها الخارجي البسيط ، وباعتقاداتها البدائية ، الرجال الذين تألفت منهم البعثة الصينية . فقد بدا القصر الملوكي كانـّه مجموعة من الاكواخ تعلو ابوابهـا احواض المياه وعقّافات عديدة يركن اليها عند شبوب النار لهدم المباني ، منعاً لانتشار اللهب واتساع الحرائق. اما الزي فكان يلبس الجسم لبساً، مع سترة تشبه ما كان مستعملاً من امثالها في كوريا. اما الفتيان ، فكانت شعورهم توزع بين ضفيرتين ، تعقص فوق الاذنين او تعقص فوق الجبين . والوشم الذي يعتبره الاغراب من سمات النبل والشرف ، فقد اصبح فرضه على الناس ضرباً من القصاص .

وقد اثـّر الازدهار الذي عرفته الصين في عهد الأول من ملوك تانغ تأثيراً بالغاً على اليابانيين ، فراحوا يقتبسون كل ما هو صيني ، كالكتابة والرسم على الحرير وصنع اقلام التصوير والورق ، وعلم النجامة ، والتقويم ، وحساب تواريخ ايام السنة ، وهندسة المناظر ، وبناء الجسور . وتشبهاً بالصين ، راح اليابانيون يحصّنون من شواطئهم البحرية ، ويتبنون نظام الضرائب، وسك العملة ، ووضع المراسم في استقبالات البلاط ، والملابس والزين الرسمية في الاستقبـالات ، والرتب والمراتب في الوظائف . وقد كانوا اقتبسوا منذ عهد بعيد ، اي منذ عام ٤٠٥ ، الخط الصيني ، اذ قدم الى اليابان ، هذه السنة بالذات كاتب كوري ، لاستخدامه في القصر ، ومـا انتصف القرن الخامس حتى اقتبست اللغة المحلية في اليابان، الابجدية الصوتية المستعملة في الصين التي كانت تتألف من ٥٠ صوتاً صوروها حروفاً رُتـّبَت على النسق الهندي المعتمد في التعليم . ومنذ ذلك الحين طلعت علينا المحفوظات ، والسجلات ، والاوامر والمراسيم المكتوبة ، مرسّخة في البلاد لاصول السلطة المركزية الحاكمة وسهلت وضع تاريخين للبلاد هما الـ *Kojiki* والـ *Nihonji* ومجموعة من القصائد *(Manyoshi)* وبيان طوبوغرافي *(Fūdoki)* كذلك طلعت بوادر يقظة فكرية وذوقية تردد صداهـا في الموسيقى الوطنية ، اذ ان اليابان تبنـّت الموسيقى التي راجت في عهد تانغ، وهي صينية الاصل ، وموسيقى *Kan* المستوردة من كوريا ، والنظرية الموسيقية التي حملها معه لن – يي ، وهي هندية الاصل، واكثرها رواجاً، وموسيقى تمرا ، من اسم جزيرة قريبة من كوريا . وكل هذه المدارس الموسيقية الاربعة ولا سيما المنسوبة منها الى لن – يي ، تبدو معالمها واضحة من خلال التطور الذي مرت به الموسيقى في اليابان .

كل هذه المؤثرات الفنية والفكرية دخلت اليابان عن طريق الكوريين . فالعديد من رجـال الفن والصناعة ، بين مهندسين ورسامين ونقاشين ونسّاخ وغيرهم من ذوي المواهب الصناعية ،

قدموا من بعيد وسكنوا اليابان، لا سيا ابان الاضطهاد الذي اعلنته الصين ضد البوذية ، في اواخر القرن السادس. ولا بد من التنويه هنا بهذه الحركة التي قامت في العصر التالي فحملت عدداً كبيراً من طلاب العلم يفدون من اليابان على الصين لاقتباس العلوم ولا سيا الطب منها .

وعندما راحت اليابان تقلد الصين تقليدا حرفياً ، اخذت عنها في جملة مـا اخذت ، النظام الاداري الذي عمل به في عهد دولة تانغ ، كما اقتبست اصلاحاتهم ونظمهم الاقتصادية ، دون ان يدركوا جيداً كيف ان الشكل الديموقراطي لهذه السلطة لا يأتلف قط مع التقـــاليد الارستوقراطية الصرفة المتبعة في الطبقة الموجّهة التي تتألف ، في اليـــابان ، من كبار الملاكين للارض المتوزعين احزاباً والمتنعمين بامتيازات الطبقات الممتازة . فادّى الامر في عهد الملك نارا (٧٠٢ – ٧٨١) ، الى شيء من الاتفاق المتطرف اصبح معه الامبراطور *(Tenno)* الذي هو في الاساس نظام وراثي ، حاكماً زمنياً وروحياً ، فكان بهذا ، زعيماً وطنياً ، وإلهاً قومياً. فتحت سلطته يعمل جهازان خاصان، هما الـ *Shinto* الذي لا نرى له مثيلاً او مرادفاً ، في الصين ، والآخر هو مجلس شورى الدولة . فالاول يهتم بكل الامور الدينية ولا سيا ما تعلق منها بالعبادات القديمة ، في اليابان ، بينا الجهاز الثاني يؤلفُ رأس هرم الادارة العامة الذي يتشعب منحدراً من الوزراء لينتهي بالدوائر المحلية. فالوظائف لا تعطى لاصحابها والرتب لحاملها ، وفقاً لاستحقاقات خاصة او لنجاح يصيبونه في الامتحانات. فالوظائف والمراتب هي من حظ ابناء الاسر الكبيرة الذين تهيأوا لها واستحقوها بالدروس والعلوم التي تلقوها في الجامعة الامبراطورية . وابناء كبار ارباب البلاد الذين ساهموا من قبل في قيادة المملكة وتوجيهها ، تسند اليهم وظائف تستمر في بيوتهم بالوراثة. ولما كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة لقاء هذه المراتب الشرفية التي يحملونها ، فقد ألـقَوا عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة التي كانت تتغذى من الرسوم المفروضة على المكلفين من غير النبلاء وعلى العبيد الارقاء . وقد سببت الضرائب الباهظة خراب الملكية الصغيرة التي فرض على اصحابهـــا من كلا الجنسين ، دفع رسوم ، منذ بلوغهم السادسة من عمرهم . ولما كانت الارض لا تُورّث ، فقد كانت تعود الى ملكية الدولة عند وفــــاة صاحبها ، كما كانت الدولة تعمد الى توزيعها من جديد ، بعد كل ست سنوات ؛ فلا يمكن التنازل عنها لاحد او بيعهـــا من احد ، باستثناء قطع الارض التي تقوم عليها عمائر ومبان ، او فيها اغراس من شجر اللك. وكان افراد الشعب يخضعون لثلاثة انواع من الضرائب : ضريبة على الارز تتناسب واهمية الاراضي المزروعة أرزاً ، وضريبة اخرى تترتب على الرجال وحدهم يدفعونها عيناً : انسجة او محاصيل زراعية محلية ، وإخيراً السخرة . والى هذا ، فقد سُمح لحكام الولايات ان يحتفظوا لانفسهم بقسم من الفوائد المترتبة على السلفة التي استلفها المزارعون من الدولة ، فيضطر هؤلاء لدفع فائدة فادحة ، تكوّن ضريبة اضافية جديدة . ثم ان الخدمة العسكرية الاجبارية ، تلزم رجلاً من اصل ثلاثة ، على قضاء ثلاث سنوات ، في خدمة الجيش بعيداً عن ذويه ودياره ، هذا ان لم تضطره الظروف للبقاء في الخدمة العسكرية الى مـا لا حد له ، مع العلم ان على الجندي ان يتكفّل بتأمين غذائه

وعدله، وان يستمر في دفع الضرائب الثلاثة المترتبة عليه، كما عليه ان يُسهم في التجهيزات العامة. وهو يمضي اكثر اوقاته في اعمال السخرة اكثر منها في خدمة عسكرية فعلية. والياباني مدين لما هو عليه من وبالة الصحة لانه لم يتعرض يوماً للغزو من الخارج، اذ ان جيشه كان في وضع زري جداً بحيث لم يكن يرجى منه شيء.

صحيح ان طبقة النبلاء رأت أملاكها تنتزع منها، ولو اسمياً، وتُعطى لأعضاء الاسرة الامبراطورية، إلا انه قبل ان يوضع القانون موضع التنفيذ، نال رؤساء البيوتات الكبرى تعويضات محسوسة على الاملاك التي انتزعت من ملكيتهم، كما نالوا مراكز عالية، وأعفوا من الضرائب والرسوم المفروضة، والسخرة والخدمة العسكرية والمدفوعات العينية، وكلها امتيازات أصبحت وراثية في اسرهم يتوارثونها خلفاً عن سلف. وبموجب المراتب التي أجريت عليهم، يحق لهم الحصول على بعض الاتاوة من الأرز وغيره، وان يفرضوا بعض الرسوم، وان يتقاضوا فوائد على ما يقرضون. واذا ما أدّوا للامبراطور ولحكومته خدمات سنية، نالوا عنها تقديرات محسوسة ومنافع عينية جزيلة. وقد اخذوا يعملون بنازع من النفس، على توسيع دائرة مقتنياتهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً: فيجمعون بين وظائف عديدة عالية، ويُعترَف لهم بحق املاء المناصب السفلى من اتباعهم ومريديهم، وبذلك فتحوا الباب على مصراعيه امام الرشوة والفساد. وهذه المكاسب والامتيازات العريضة التي كانت تزداد قيمتها بارتفاع المركز وسمو الوظيفة، تمتع بمثلها وأكثر، رجال الدين من رؤساء ديانة الشنتو والبوذية.

النظام الاقطاعي في اليابان

هذه القوانين التي صدرت عن جماعة مضت بعيداً في حركة تصينها وأخذها بأسباب الحضارة الصينية، وهامت كثيراً بالمركزية التي سادت البلاد في عهد دولة تانغ، صدرت لعمري، عن سلطة مركزية طرية العود، ضعيفة العضل بحيث تستطيع ان تفرض ارادتها على مصالح بعض الخاصة. وجاء توزع السلطات واقتسامها يخدم الى حد بعيد، الجشع الذي جاش في صدور ونفوس بعض كبار الزعماء الذين راحوا، امعاناً منهم في المقاومة، يعتصمون في املاكهم الواسعة او في اقطاعاتهم *Shōen* ولم يلبثوا ان نالوا تدريجياً، اعفاءات متزايدة عن اراضيهم كما اعفي المزارعون والفلاحون العاملون في اراضيهم من السخرة. ولم تلبث هذه الاقطاعات الشاسعة ان اصبحت ممالك مصغرة، مستقلة ضمن الامبراطورية. والموظفون الذين كانوا من كبار الملاكين ازدادوا نفوذاً وشأناً: فقد نعموا، من جهة، بأعطيات واسعة اجرتها عليهم الدولة، كما استطاعوا، من جهة ثانية، ان يستثمروا دونما قيد، اراضيهم والمزارعين العاملين فيها. وهكذا تمكن كبار الزعماء في البلاد من استرجاع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وجاه، واستطاع كبير زعيم هؤلاء الاقطاعيين الـ (*Fujiwara*) ان يجمع بين قبضة يديه، كل مراكز القيادة والتوجيه، وتوصل عن طريق أنصاره وأتباعه ومريديه بعد ان اخذ عددهم بالنمو والازدياد، ان يسيطر على المجلس الاعلى للنبلاء، والوظائف الكبرى في الدولة، ويقدم للعرش الامبراطوري، الامبراطورات والوصيفات.

وسواءٌ اعتبرت هذه الاقطاعات Shōen متلكات خاصة او انعامات نالها اصحابها للخدمات الجلى التي أدّوها للبلاط، فقد كانت النقطة التي انطلق منها وارتكز عليها النظام الاقطاعي في اليابان. صحيح ان وحداتها اختلفت مساحةً ووضعاً وقواماً. فالتي قطعت منها شوطاً بعيداً في التطور، نزعت الى الانقسام والتفرع الى استثمارات تولى امرها ملتزمون، بينما راحت الاخرى تتسع وتزداد بضم الاراضي المتفرقة بين أقضية مختلفة، ومعظمها يتألف من مزروعات الارز يستغلها مكترون او مرابعون. اما التي كانت منها ملكاً لمؤسسة دينية، فكان يتولى تشغيلها وكيل فوّضت اليه العناية بها والسهر عليها فكان شبه مالك لها، يتقاضى لحسابه الخاص بعض العائدات التي يجبيها من اصل غلة الارض، بمثابة مرتب له. وكثيراً ما كان صاحب الارض يقدّم، هو نفسه، للمزارع ما يحتاج اليه من نصوب وبزار على ان يقدّم الفلاح عمله بالمجان وان يسلم كامل المحصول عند تمام المواسم، كما كان عليه ان يقدم، علاوةً على ذلك، عيناً بعض محاصيل الارز وغيرها من نتاج الارض، كثيراً ما اضطر المزارع لشرائها من اصحاب الاملاك المجاورة. ومن كان من هؤلاء المرابعين والخدّم والارقاء صالحاً للخدمة في الجيش، كان عليه ان يقوم بشيء من الخدمة العسكرية عند سيد الارض ليردّ عنه عوادي الغزاة والمهاجمين. اما في الاقطاعات الواسعة، كان الوكيل يتولى ادارة الاقطاع فينظمها على شاكلة الادارة العامة في الدولة، بعد ان كان تحت امرته، عدد كبير من العمال التوابع لسيد الارض. وهذا السيد المستقل في اقطاعه، كان يخضع، مع ذلك، لرئيس اعلى هو الحارس القانوني لهذه الاقطاعات الذي كان ينتخب عادةً من بين أعضاء مجلس النبلاء الاعلى، فيكون من كبار الاشراف او من الاسرة الامبراطورية، او من بين سراري الامبراطور، او ممثلاً لأحد الهياكل الكبرى في البلاد الذي ينعم بنفوذ عظيم. ومقابل هذه الحماية والرعاية التي يؤمنها الحارس، لهذا السيد، يترتب على هذا الاخير، ان يدفع سنوياً مبلغاً معيناً يتناسب والخدمات التي يتلقاها منه عن البلاط.

ان تاريخ اليابان الداخلي طوال هذه الاجيال التي نتعرض هنا لبعض معالمها، ليس سوى سلسلة متصلة الحلقات من خصومات ومواثيق بين رجال الاقطاع على اختلافهم وذلك رغبة من السلطة المركزية بتخفيض عدد هذه الاقطاعات، او الغاء بعضها او اخذها بنظام آمر عليه ان تتقيد به؛ ولم تعتم هذه العقارات الكبرى ان استحالت تدريجياً الى اقطاعات فاقت بقوتها العسكرية، قوة السلطة المركزية للامبراطور. فالبنيان السياسي الذي حذوا فيه حذو ملوك تانغ في الصين، ساعد على اتخاذ مثل هذا الوضع، اذ كان على رأس الادارة المركزية، موظفون كبار يتوارثون هذه المراكز، لا يمكن عزلهم او رفتهم، فسدت منهم الاخلاق والضمائر، وماعت نفوسهم. فحيث اخفقت الدولة، استطاع نظام الاقطاع ان ينجح، لأنه عرف ان يساير تطور الشعب الياباني، وان يراعي طبيعته، فتوصل الى حل مشكلة تزايد السكان، وان يؤمن النظام في الداخل، بعد ان كان الـ Shōen احسن ادارة مما كانت عليه الدولة، وان يرفع من مستوى العيش. واستطاع ان يشكل وحدات عسكرية تفوق كثيراً بنظامها وفعاليتها ما

كان منها لدى الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية ، لدى الدولة اشبه بسجن يقوم السجين فيه بأشغال شاقة ، كان جنود الاقطاع يجدون في خدمتهم لذة وفخراً .

وبالرغم مما كان عليه هذا الوضع الاجتماعي في اليابان ، من معاناة وغموض ، فقد جاء ، مع ذلك ، وضعاً بنّاءً ، سجلت الدولة فيه ، خلال القرن الثامن ، اي في عهد العاصمة نارا ، رقماً قياسياً في تطورها التاريخي . فقد راحت الدولة التي نعمت ببنيان سياسي واقتصادي قوي ، ترعى الآداب والفنون وتؤمن لها الازدهار . وقامت الدولة باصلاحات رمت منها للحد من نفوذ الاسر الاقطاعية القوية والتسييج حول ملكية صغار الملاكين . والبوذية التي اصبحت دين الدولة الرسمي ، عرفت عهداً من الازدهار لم تعرف مثله من قبل ، تمثل بهذه المؤسسات التقوية او الانسانية العديدة ، التي بفضل ما نعمت به ، تحت اشراف الامبراطور ومراقبته المباشرة ، من ادارة قوية ، صحيحة ، استطاعت ان توسع من نطاق عملها الاجتماعي ، فانشأت المستوصفات ، واهتمت بامر المرضى ، ومدت يداً رفيقة للمعوزين وساعدت رجال الدين ، ونشرت اسباب المعارف . فالجامعة الحكومية التي قامت في العاصمة نارا ، عرفت ازدهاراً كبيراً عام ٧٠١ ، اذ تألفت من اربع كليات ، هي التاريخ والادب والحقوق والرياضيات ، كما كانت تعلم علم الاصوات والخط . وكان للرهبان البوذيين نفوذ كبير ، فقد ترأسوا الحفلات الدينية ، ونظموا الاعياد الوطنية ، وشقوا الطرقات في البلاد وانشأوا الكثير من الكباري عليها ، وساعدوا على التشجير وزرع الاغراس على جوانب الطريق ، وقاموا بحفر الآبار واقنية صالحة للري . ولم يقل عدد الرهبان اذ ذاك عن ٨٠٠٠٠ راهب وراهبة في بلاد تراوح عدد سكانها بين ٧ و ٩ ملايين نسمة ، اي بنسبة واحد في المائة من السكان . واستطاع الاباطرة ان يسيطروا تباعاً على الجزر المتاخمة ويحققوا انتصارات مدوّية على اقوام الـ *Ainu* الذين ما عتموا ان ذابوا تدريجياً في جسم الامة اليابانية .

كان فن التصوير العنصر الذي وحّد بين هذه النزعات على اختلافها ، بالرغم من ان منابعه الكبرى لا تزال بعد صينية ، الا انه اخذ يبرز اكثر فاكثر ، بطابعه الياباني . وقد اتخذ مادة له عناصر شتى ، منها اللك الناشف المفروش على صحائف من المقوى ، والنحاس المذهب والقوالب المتخذة من الصلصل الممزوج بقصاصة القش والتبن ، والطلق ، فاتخذ من هذه العناصر التي عالجها بمهارة المنقوشات الفنية التي امدنا بها . واخذت المصنوعات الثمينة المعدة للاستعمال ترد على البلاد من الصين والتركستان الصيني ، وايران ، حتى ومن اقاصي الهند ، وتحفظ في مبنى *Shôsoïn* الذي استعمل متحفاً فكان اقدم متحف في العالم على الاطلاق ، يفتح ابوابه امام الزائرين ، مرة في السنة . وقد انشأت الدولة ، في طول البلاد وعرضها ، مصانع ومعامل ، اهتمت بشؤون الرسم وصناعة الجوهرات ، واللك ، والسلال والخزفيات ، على اختلاف اشكالها وغير ذلك من الصنائع والمهن لا نعرف شيئاً كبيراً عنها . والموسيقى والرقص الايقاعي اللذان ترعرعا تحت رعاية واشراف دائرة الطقوس والمراسم ، استمدا الكثير من موحياتها من الصين

نفسها ، ولا تزال تمتع النظر ، اليوم ، بمرأى وجوه مصطنعة يعود صنعها الى هذا العهد ، حتى ان الشعر نفسه ظهرت له مجموعات من المنتقيات المختارة .

وكلما امعنا السير في هذه الحقبة طالعتنا الفتن الكثيرة والدسائس تحيكها الامر الكبيرة ضد بعضها البعض ، بتحريض مفضوح من الفوجيوارا ولحسابهم ، اذ لم يكن احد لينكر ما كان لهم من شأن وشأو ونفوذ عريض . وراحت الدولة من جهتها تنشىء لها جيشاً له قدرة ثابتة على الحرب والكفاح ، تألفت وحداته من طبقة رجال الحروب والشفاليه ، هذا الجيش الذي كُتِبَ له ان يلعب فيما بعد ، دوراً كبيراً في المجتمع الياباني . ومهما يكن ، ففي عهد دولة هايان (٧٨١ – ١١٦٧) ، ولا سيما في الحقبة الاولى منها التي امتدت حتى سنة ٩٦٧ ، بلغ الفوجيوارا القمة من القوة والسؤدد ، كما بلغت اليابان الذروة في هذه الحقبة من اقتباس الحضارة الصينية ، مع ان حركة التعاطف هذه بين الجانبين كانت خفت قليلاً ، كما هو ملحوظ . فالعاصمة الجديدة كيوتو ، بما قام فيها من هياكل ومعابد ، وقصور وصروح ، وبما بلغه فيها البلاط الملكي من بذخ في العيش ورهافة في الذوق ، برزت بالفعل ، المرآة التي تجلت على اديمها هذه النزعات ، فبعد ان صقلت الاذواق لدى طبقة النبلاء ، مالت افكارهم نحو الفنون الصينية الجميلة ، الا انهم اخذوا ، بعد ان وعوا شخصيتهم وشعروا بقيمة الذات ، بتكييف العناصر الدخيلة وفقاً لما يأتلف وطبيعة مزاجهم القومي . وهكذا قل ايضاً عن البوذية التي اخذت علاقاتها مع الصين تخف وتتباعد ، بعد ان ارتدت طابعاً قومياً . وهكذا بدت اليابان اكثر استعداداً من اي وقت مضى ، لتعي ذاتها وتشعر بنبوغها وعبقريتها ، بعد ان اخذ الانحطاط ينخر في دولة تانغ الصينية ، فانحطت وزالت من الوجود ، فتراخت بالتالي العلاقات الاقتصادية والروحية التي ربطت طويلاً بين البلدين .

وهكذا بدا البلاط الامبراطوري في اليابان أقل اخذاً بالثقافة الصينية ، كما تَلَبَّس الشعر سمات اكثر يابانية واقل تقليداً من قبل ، واكثر طبيعية . وبعد ان تكاملت وسائل الخط والكتابة راحت المرأة اليابانية نفسها تهتم بالأدب وتعنى بالتأليف وأمور الفكر وراحت بعض النساء ينظمن قصائد تفيض عذوبة وتميل اكثر فاكثر الى التجدد . من ذلك مثلاً : « مذكرات مخدة » التي وضعتها الاديبة اليابانية : ساي شوناغون (٩٨٧ – ١٠١١) . وقد تسبب التعليم الجامعي عن فتح المزيد من الكليات ، فاقبل عليها التلاميذ وهم بعد في سن حداثتهم يدرسون علم الاصوات ، وآثار الصين الكلاسيكية ، والطب ، بنسبة واحد على خمسة طلاب . والفنانون من ابناء البلاد راحوا يمارسون بنجاح كلي الخط وفن التصوير الصيني ، اذ بالرغم من التحرر الذي حققوه ، بقي رجال الادب من اليابانيين ، على اتصال متين بزملائهم في الصين ، حتى بعد زوال دولة تانغ . ورهافة الذوق هذه برزت على اتمها في بلاط الفوجيوارا الذين بزّوا بما وصلوا اليه من بذخ ، البلاط الامبراطوري نفسه ، فمارسوا في الدولة دكتاتورية فعلية . فاكثروا من اقامة الولائم في اسواق الادب والحفلات الموسيقية ، والمراقص الايمائية التي كثيراً ما تلهّوا بها . فقد ألفوا في فصل الربيع الترفيه عن انفسهم برؤية حدائق الكرز في ابان نورها وزهرها ، واستمتعوا بمرأى الاشجار تتعرى من اوراقها في الخريف ، وجلوا نواظرهم بمنظر الثلج يكسو

قمم الجبال . اما المرأة ، فقد كانت بهجة القصر وعطره ، وشمم الحياة ومتعتها .

طلوع عهد الشوغونات

هذا النظام الاقتصادي والسياسي الذي اقامه في اليابان المتعصبون للثقافة الصينية والمقتبسون لها ، في القرن السابع ، لم يلبث ان انهار ، عام ٩٦٧، في الوقت الذي يضعف فيه نفوذ الفوجيوارا في البلاد بعد ان استكانوا الى الدعة واسلموا بكليتهم للملاذ . وتضخمت قبيلتهم الى درجة فقدت معها الوحدة ، فانقسمت على نفسها تحت تأثير الدسائس والمؤامرات والاحزاب الداخلية والعصبية التي شدت البطون بعضها الى بعض فلم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ، وعهدوا بامرهم الى رؤساء من المرتزقة ، فاضطروا اخيراً للتنازل عن سلطتهم وسيادتهم للنبلاء والبارونات ، القائمين في المقاطعات ، والى اصحاب الاقطاعات الضخمة .

وطلوع هذه الاقطاعية الريفية جرّ على الشعب موجة من التطير والتشاؤم ، زاد من حدتها هذه الاعتقادات والاوهام الشعبية التي راحت تروج وتنتشر ، منذرة بان سنة ١٠٥٢ ، ستحمل معها زوال الناموس البوذي . فبعد ان اثرى الرهبان البوذيون ، واستبحروا في البذخ والجاه ، راحوا يناصبون بعضهم البعض العداء ، ويوغرون صدور بعضهم بالنم والدس والافتراء ، وكلها امور يتبرأ منها الدين . ولذا راح الشعب يبحث له عن ديانة جديدة تحمل معها التعزية والسلوان لمن ذهب فريسة التشكك والارتياب ، فالتفت الى بوذا أميدا ، فاخذت عبادته تزدهر اذ ذاك وتنتشر . وفي الوقت نفسه اخذت اليابان تنكفىء على نفسها وتنطوي على ذاتها ، ولو بصورة مؤقتة ، واقصرت علاقاتها مع الصين على الامور التجارية دون سواها ، وانصرفت لفتح الجزر الواقعة على مقربة منها الى الشمال ، حتى اذا ما تمّ لها تدويخها ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عادت اليابان سيرتها من الاتصالات مع الغرب .

فالحقبة القصيرة التي مرت على البلاد في عهد دولة الروكوهارا (١١٦٠ — ١١٨١) ، رأت المنافسات والحروب يشتد أوارها بين الاسر الاقطاعية الكبرى التي راحت تتنازع السيادة وتحاول الخفض من جانب الفوجيوارا ، كما اشتدت المنافسة بين قبائل التايرة والميناموتو، وتحول الاسرة الامبراطورية نحو ساحل البحر الداخلي . وقد تم الامر في سنة ١١٨٤ ، لامير من اسرة ميناموتو ، ان يعيد الامر الى نصابه ، فأنشأ له عاصمة جديدة هي مدينة كاماكورا ، وأقام فيها نظاماً جديداً من الحكم هو ما يعرف عندهم بـ *Shogunat* ، وهو نظام حافظ ، ولو بالاسم ، على سلطة الامبراطور الذي استمر يعيش في بلاطه وبين حاشيته عيشاً سداه العبث ولحمته الغرور ، الذي بعد ان حاول عبثاً اعادة نفوذه والاستقلال بالأمر ، وقع تحت وصاية الشوغون زعيم النظام العسكري الذي جمع في قبضته ملء السلطة . وقد عول في ضبط الامر على رئيس الاركان العام ، وعلى محكمة عليا للاستئناف ، ومجلس تنفيذي . وقد مثله في المقاطعات حاكم عسكري لم يلبث ان جمع بين يديه السلطة المدنية ايضاً . وأخذ على نفسه جباية الرسوم

والضرائب المترتبة واستلام ما يعود للسلطة من غلال الارض . ولكي يحدوا من استغلال كبار الموظفين المحليين، أنشأت الدولة دائرة التفتيش، وخلقت عدداً من المقررين او الخبراء الاقتصاديين، ومحققين استثنائيين. وهكذا استمرت الآلة الحكومية تسير ظاهرياً وفقاً للتقاليد المرعية ، بعد ان أدخلت عليها مثل هذه الاصلاحات الجذرية .

وهذا الاصلاح الاداري الذي جاء يسدد من خطوات السلطة ويقوّمها لصالح الشوغون ، لم يلبث ان اعطى اطيب النتائج في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فنشطت التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، فزادت حركة المقايضات والمبادلات . وقد نال التجار بعد ان توزعوا الى نقابات محلية ومهنية حتى نقل تجارتهم بكل حرية ، بعد إن تعهدوا بدفع رسم سنوي مقطوع ، كما تعهدوا بان يدفعوا للهياكل شنتو ، قيمة المبالغ المفروضة عليهم كذلك اخذ وضع الفلاح بالتحسن ، وسار الرق في طريق الزوال .. والحادث البارز الذي احدث في اواخر القرن الثالث عشر ، دوياً عظيماً في حياة البلاد الاقتصادية . هو ادخال زراعة الشاي الى اليابان . والمرأة نفسها نالت هي الاخرى ، نصيبها في هذا الاصلاح بنيلها بعض الحقوق الجديدة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الشنتو هي ديانة الطبقة الارستوقراطية في البلاد وانتشرت بين الطبقات الشعبية الديانة المعروفة بـ *Amidisme* ، تلقت اليابان من الصين، مذهباً صوفياً جديداً لقي رواجاً عظيماً في البلاد هو مذهب *Zen* وهو نظرية فلسفية يُعــد ظهورها عطفة في تاريخ الفكر والفن في اليابان ، وساعدت على تحييز النبوغ القومي . ومذهب الـ *Zen* هذا ، الذي هو تأليف للتعاليم البوذية والتاوية والهندوسية ، هو تعبير لهــذه الحركة الاجتماعية العكسية التي استهدفت محاربة البذخ والبطر لدى الطبقة الموجهة ، وردة فعل ضد صنمية المثقفين وعبــادة المتعلمين ، وحركة رجعية موجهة ضد الشكليات التي سارت عليها ديانة الشنتو ، وضد ميوعة العبادات الطقسية التي سار عليهــا اتباع أميدا ، وضد العصبية الدينية الذميمة التي يمثلها ، على احسن وجه ، نيكيرين (١٢٢٢ — ١٢٨٠) والاساطير الخرافية التي راجت في هذا العصر ومنها انبعثت نظرية جديدة في الهندسة المعمارية الدينية، واستعمال الحبر الصيني في تصوير المناظر، واخيراً الاحتفال بالشاي ، وكلها امور تركت طابعها العميق في الثقافة اليابانية . وفي هــذه الحقبة تم حريق الهياكل والمعابد الكبرى التي احترقت او هدمت اثناء الحروب الاهلية : وقد جاء الصينيون يعملون في حركة التجديد والبعث ، وصنع التماثيل بعد ان اشتد الطلب عليهــا بكثرة . وبفضل هذا الانبعاث ، راح الشعر يجدد من نشاطه ، كما راح النثر ، بعد ان استقامت الجملة البيانية ، يتحفنا بهذه الآثار التاريخيــة ، اشهرهــا على الاطلاق *Heike Monogatari* و *Heiji Monogatari* .

وهذه اليابان المتجددة ، ستقوم وحدها ، في القرن الثالث عشر ، بعد تضحيات كثيرة في اقتصادياتها ، وفي روحها الحربية ، بحروب دفاعية مظفرة ، ضد غزو المغول للصين .

القسم الثاني

عصور أوروبا الأقطاعيّة والأسلام التركي وآسيا المغوليّة

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

الفصل الأول

تحوّل أوروبا
(القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

طالما نظر المؤرخون الى السنة ۱۰۰۰ نظرتهم الى فترة رعب وظلمة وفتور واعتقدوا ان مسيحيي الغرب ، الذين اقتنعوا بدنو نهاية العالم ، قد عاشوا هـذه الفترة منكمشين على ذعرهم عاجزين عن النهوض بأي عمل . اجل ، كل مـا هنالك يحمل على الاعتقاد بان ارتقاب نهاية الازمنة ، في طبقات عريضة من المجتمع ، قـد غدا ، بفعل التأمل المتواصل في كتاب الرؤيا ، اشد اقضاضاً في اواخر الالف الاول من العهد المسيحي ، ولكن مما لا شك فيه ايضاً ان كبار المسؤولين في الكنيسة قد حاربوا هذه الاعتقادات وان سواد المؤمنين قـد تغلبوا على مخاوفهم واستمروا في مسيرتهم قدماً الى الامام . ولا تبدو السنة ۱۰۰۰ في الواقع ، كشفق حسير يسـدل كفجر لامـع : ففي ذاك التاريخ توطدت نهضة اوروبا ، في كافة الحقول ، بعد مرحلة اعداد طويلة الامد . أبعد خطر الغزو الذي تثاقلت وطأته منذ قرون وزال نهائياً ، واقام انضمام الشعوب البولونية والتشيكية والهنغارية الى المسيحية سوراً دفاعياً منيعاً ، في وجـه الشعوب الرحل من سكان الفيافي ؛ وبينما كانت آثار الغزوات الاخيرة في طريق الزوال ، برزت حركة توسعية لن تعرف الوهن طيلة مائة وخمسين سنة ونيف .

بيد ان هذا النمو ، حتى منتصف القرن الثاني عشر ، قد سار سيراً مطرداً دون ان يدخل على الانظمة السياسية والاجتماعية التي قامت في اواخر الانحطاط الكارولنجي اي تبدل يذكر . فالاقطاعية – وهي الاسم الذي اطلقه التقليد على هذه الانظمة – قد توطدت ثم استفادت من التقدم الشامل فحققت ، في آن واحد ، مزيداً من المرونة والاقدام .

١ ـ المجتمع الاقطاعي

لم يبق في اوروبا ، في القرن الحادي عشر ، من وجود لتلـك السيطرات السياسية العظمى

التي يتوقق سيدها ، بواسطة وكلائه المحليين الامناء ، الى بسط النظام والامن على اقاليم واسعة الارجاء. فان آخر هذه الامبراطوريات ، تلك التي اسسها ملوك الدانمرك ، حوالي السنة ١٠٠٠، على شواطىء بحر الشمال وبحر البلطيك ، لم تلبث ان تفسخت . وفي جرمانيــا نفسها ، التي حرصت على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث تحالفت العظمة الامبراطورية مع الملكية ورفعت من شأنها ، نرى السلطة الملكية تتفتت بسرعة بعد ان انهكها اتساع مهامها المتنوعة وتنازعتها وتقاسمتها روما والولايات السلافية المتاخمة ؛ فمنذ السنة ١٠٧٥ ، نرى هنا ، كما في فرنسا او ايطاليا قبل ١٠٠ سنة ، ان السيادة اخذت بالتجزؤ . ففي كل مكان ، نرى المناصب العليا والملكيات تفقد ، دون ان تزول ، كل سلطة فعلية ، ولا تلبث ان تصبح مجرد اساطير . امـــا الملك ، وهو المكرّس ، فيحتفظ في اعين الجميع باولوية تتميز بطابع خارق الطبيعة ، واحاطت مسح الرب بهالة عجائبية مجموعة من الاساطير تكونت وانتشرت انذاك : فالزيت الذي يمسح به يوم التكريس يأتي مباشرة من السماء ؛ وهو يستطيع ، بمجرد لمسة من يديه ؛ شفاء بعض الامراض ؛ ومن حيث هو نصف كاهن ، ويحتل مرتبة دونهــا مراتب كافة البشر ، لا يستطيع احد ان يعتدي عليه بالضرب ؛ وهو اخيراً تجسيد للنظام الالهي . ولكن على الرغم من رأي العالم الاقطاعي هذا في الوظيفة الملكية ، فان الملوك قـــد فقدوا في الواقع حقيقة سلطتهم . ولم تعد سلطتهم الفضلى ملكية بل اقطاعية او عقارية : فالملك الذي ليس تابعاً لاحد موضوع احترام عظماء المملكة ؛ وهو ، الى ذلك ، شأن الاسياد الاخرين ، سيد اراضيه العائلية واملاكه الوراثية وحامي الفلاحين المباشر فيها . ولكنها في اغلب الاحيان سلطة هزيلة جداً . ويكفي هنا ان نقدم مثل ملك فرنسا لويس السادس الذي عنِد ، في اوائل القرن الثاني عشر ، بمعاونة بعض التبعة المنزليين ، في اخضاع بعض صغــار حكام الحصون في « جزيرة ـ فرنسا » *Ile - de - france* ، ووضع حد لتجاوزاتهم . والمضادة بين واقع ضعف الملك وبين الرسالة السامية الملقاة على عاتقه هي بالضبط احد مواضيع الاغاني الايمائية الفرنسية وتلك التي تعبر بامانة عن مشاعر كبار الارستوقراطيين العلمانيين من امثال « عربة نيم » او « تتويج لويس » .

بيد ان الشيء المهم ، اذا غدت الملكيات مناصب روحية غير ذات فعالية ، ان تؤمن مهمة الهية هي مهمة الامن والعدالة الضرورية للمحافظة على المجتمع المسيحي . فقد امنتها في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، الكنيسة التي سارعت منذ العهد الكارولنجي الى الحلول محـل الملوك المستضعفين ؛ كما امنتها بعد ذلــك ، تحت اشد الاشكال اليومية حقارة ، القوى المحلية الخاصة واسياد الحصون .

السلطات الجديدة

في السنتين ٩٨٩ و ٩٩٠ ، روّج المؤولون الكنسيون في مجمعي شارو وبوي – وكلاهما من اعمال الأكيتين ، تلك المقاطعة المسيحية التي بدا فيها الانحلال السياسي أقوى منه في سواها – حركة سلام الرب التي ما لبثت ان انتشرت في كافة أنحاء غاليا الجنوبية والشرقية وتسربت ، بموافقة الاسياد انفسهم ، الى مناطق شماليـــة ارسخ

تنظيماً كامارات متراصة . لنستثني من ذلك جرمانيا حيث ما زال الملـــك ينعم بقوة تسمح له بالدفاع عن السلام بنفسه – وفي هذا دلالة على حقيقة الغاية من هذه المحاولة : فالمقصود هو أن تستبدل ، حيث تصاب بالوهن ، جمعيات السلام المشكلة بصورة طبيعية بين الرجال الاحرار في اطار الممالك البربرية والموضوعة تحت اشراف الملوك ، بجمعية جديدة يكون الاحبـار رؤساءها وتكون وسائل العقوبة فيها العقوبات الكنسية ، أي الحرم والابسال . ويشترك في عضويتها كل الاسياد ، و « كل من أوتي سلطة من الله » ، وكل الاغنيـاء ، الذين تنحصر وظيفتهم في الحرب وقد يصبحون خير سجس وبلبلة ، ويعقدون جمعية شلبية احتفالية ويقسمون يميناً جماعية تجدد كل جيل . ويتعهد الجميع بالامتناع عن القيام بأعمال العنف حيال الاشخاص الكنسيين والممتلكات الكنسية اولاً ، والفقراء الذين ليس من يدافع عنهم ثانياً ، ويمتنعون بالاضافة الى ذلـــك ، في علائقهم المتبادلة ، عن اللجوء الى السلاح خلال شطر من كل اسبوع وخلال بعض ايام الروزنامة الطقسية ، أي ايام « الهدنة الالهية » ؛ ويتكتلون جميعهم اخيراً ضد من قـــد يخالف الميثاق المشترك . ان هذا التنظيم الذي ارتكز الى احدى أقوى العواطف الجماعيـة في طبقة المحاربين ، أعني بها احترام اليمين ، لم ينجح ، والحق يقال ، في الحؤول دون كل اضطراب ؛ بيد انه ، دونما ريب ، قد فاق الادارة الكارولنجية فاعلية ؛ وقـــد توصل طيلة قرن ونصف (لقد عقدت اجتماعات سلام الرب الاخيرة في فرنسا حوالي السنة ١١٥٠) ، بانتظار اعادة السلطة الملكية ، الى تأمين السلامة اللازمة . وبالفعل نفسه ، وسمت حركة السلام شقة الخلاف بـــين فئة رجال الحرب اعضاء الحلف السلمي ، وفئـة رجال الكنيسة الذين يؤلفون مجتمعاً خاصاً يخضع لنظام مستقل يصونه ، وبين جمهور الوضعاء من احرار وغيرهم . فقد فرضت على هؤلاء ، حيطة لما قد يقدمون عليه من اعمال عنف ، عقوبات أشدّ صرامة ؛ وبينما لم يتعرض الفلاحون الاحرار ، في الماضي ، وفي الظروف العادية ، الا للجزاء النقدي ، تعرضت جرائمهم ، في القرن الحادي عشر ، للعقوبات الجسدية ، وأسندت مجامع السلام تنفيذ هذا القانون الاستثنائي ، أعني به قضاء الدم ، الى ورثة قوة الملوك العسكرية ، أي حكام الحصون .

فان الحصن ، ذلك البرج المربع المؤلف من طبقتين او ثلاث ، الذي شُيّد في السابق بالاخشاب واخذ يشيد آنذاك بالحجارة ، والذي يعلو مرتفعاً طبيعياً او صنعياً تحيط به أسوار من أوتاد خشبية ، قد بقي ، بعد زوال السيادات الاقليمية ، رمزاً ومركزاً للسلطة الفعّالة ، أي « للحكم » اما هذه الابنية العسكرية ، وهي قليلة العدد نسبياً ، لأنها ، في أغلبيتها ، أبنية عامة قديمـــة (وعلى المغامر الذي تحدثه نفسه باقامة حصن جديد ان يحسب حساباً للصعوبات المادية ، ومقاومة الاهالي ، وغارات حكام الحصون المجاورة الذين يقفون صفاً واحداً في وجـــه الدخيل الذي يتطاول على حقوقهم) ، فهي في الدرجة الاولى ملاجىء يحتمي فيها ساعة الخطر ، ونقاط تتجمع فيها الفرق العسكرية المحليـــة . وان مهمة تأمين السلام – وبالفعل نفسه ، اصدار الاحكام الزجرية في القرى العشر او العشرين التي تحيط بالحصن وتقوم ، كما درج التعبير ، تحت حمايته ،

او تحت كابوسه ، او تحت سلطانه ، تعود بصورة طبيعية الى سيد الحصن ، أي الى ذاك الذي يبدو وكأنه السائد بالذات ، أعني به السيّد . ليس لهذا الاخير ، مبدئياً ، وفاقاً لتنظيم السلام الجديد ، أي حق على ما قد يوجد في اراضي الحصن من رجال الكنيسة وممتلكاتها ، فيتكون من ثم عدد مواز من الاقطاعات والحصانات الصغيرة . وينتظر هذا السيد ، من الاسياد المجاورين المساوين له ، ومن كافة العلمانيين الذين يتمتعون بقسط من الثروة يتيح لهم الاشتراك في الحرب على صهوة جيادهم والقيام خير قيام بوظيفتهم العسكرية ، احترام العهود التي قطعوها في جمعيات السلام على الاقل ، والصداقة وتأدية الخدمات الموعود بها ، مقابل مجاملات متبادلة ، حين تقديم الاحترام والدخول في طاعة السيد ، على الاكثر ؛ ولكنه لا يمارس حيالهم أية سلطة قسرية . اما كافة علمانيي الطبقات الدنيا المقيمين في نطاق الحصن فتحت سلطته المطلقة .

يتضح من ثم ان توزيع السلطات بعد انهيار السلطة الملكية قد فرض تنظيم المجتمع . توزع الناس في ذاك العهد ، وفاقاً لموقفهم من القوى الرادعة ، الى ثلاث « طبقات » . والمقصود بذلك فئات محدّدة ، ثابتة ، اوجدها الاله نفسه ، منذ الخليقة ، وباعتراف الجميع ، لتأمين انتظام العالم ، يقابل كل منها « حالة » خاصة او رسالة معينة . احل في الطبقة الاولى اولئك الذين يصلّون وتنحصر مهمتهم في التغني بمجد الرب وبالحصول على خلاص الجميع ؛ وجاء بعدهم اولئك الذين يحاربون ، وقد اسند اليهم امر الدفاع عن الضعفاء ونشر السلام الالهي ؛ واحل ، تحت هاتين النخبتين ، العمال الذين يتوجب عليهم ، وفاقاً لأحكام العناية الالهية ، الاسهام بعملهم في اعالة اختصاصيي الصلاة والحرب . ذاك هو المخطط الموجز الذي رسخ في اذهان الجماهير حوالي السنة ١٠٠٠ ، وعبّر عنه منذئذ في كل مكان ، في الابحاث التعليمية او المواعظ وفي تنظيم الاحتفالات العادية ، وانتقل من جيل الى جيل ، فأصبح طيلة قرون عدة الهيكل الاساسي للمجتمع الغربي .

كانت اولى هذه الطبقات نفسها مؤلفة من فئتين : فئة الكهنة برئاسة الاساقفة ، وفئة الرهبان التي اعوزها التلاحم ، ولكن اصلاحات تدريجية ادخلت عليها مزيداً من الوحدة وجمعت عدداً من الاخويات الكبيرة في عدد مواز من « الجمعيات » الخاصة . وكانت هذه الطبقة قديمة العهد تؤلف وحدها جسماً حقيقياً له تقاليده واجهزته وقوانينه الخاصة . وتجدر الاشارة منذ الآن الى ان حركة تجديدية وتطهيرية بطيئة ، تنزع الى التمييز تمييزا افضل بين الروحانيات والزمنيات ، كانت آخذة تدريجياً بطبعها بمزيد من الفردية وباحكام الفصل بين العلمانيين والاكليريكيين . ومن حيث ان هؤلاء الاخيرين مكرسون لخدمة الله ، فانهم يعتاشون من احسانات المؤمنين ، لا الاعشار التي تعود بمعظمها للاسياد العلمانيين الذين اسس اجدادهم الكنائس القروية ، بل التقادم الطقسية او الفصلية التي يستفيد منها خدام الخورنيات ، ولا سيما دخل الاراضي التي تقدم هبات تقوية للمؤسسات الدينية ؛ ولعل الاعتقاد بما للاحسانات من فعالية فدائية لم يكن يوماً اعمق منه في الفترة الممتدة من اواخر القرن العاشر حتى اوائل القرن الثاني عشر ، وقد ضمت خلال هذه المدّة نسبة مرتفعة من ممتلكات

العلمانيين المقدمة للاله وخدامه الارضيين الى ممتلكات الكنيسة . والطبقة الكنسية طبقة غير مقفلة : فكل انسان سيد نفسه يستطيع الدخول اليها بعد ان يتخلى عن اسلحته اذا كان من طبقة المحاربين ؛ ويجب عليه في الظروف العادية ان يقدم مهراً « للبس » ، ويتوقف المركز الذي سيحتله في سلم الوظائف الروحية ، بصورة عامة، على اهمية هذه التقدمة الاولى. فهنالك تفاوت ظاهر في فئة « المصلين » ، والمسافة القائمة بين مجالس الكهنة القانونيين في الكاتدرائيات، وكلهم ابناء اسياد يعيشون في بحبوحة كاسياد من محاصيل دخلهم القانوني ، وبين الاكليريكيين الوضعاء القائمين بالخدمة الروحية في الارياف ، وكلّهم ابناء فلاحين يستفيدون من دخل عارض ضئيل وغالباً ما يضطرون الى ان يدفعوا المحراث بانفسهم في اراضي الخورنيات الضيّقة ، هي بالضبط تلك التي تفصل بين الاغنياء والفقراء، وبين فئة المحاربين المحترفين وفئة العمال. وان هذا التمييز الاجتماعي الاخير هو في الواقع اعمق تمييز لان له انعكاسه داخل الكنيسة العلمانية نفسها ، وحتى في الاخويات الرهبانية : فقد اخذوا في القرن الثاني عشر ، يفصلون فصلا واضحاً في اديرة البندكتيين ، بين رهبان الترتيل ، اخوة الفرسان ، وبين الرهبان المساعدين ، اخوة الفلاحين . ولحن هنا امام تمييز حديث العهد يسدل الستار تدريجيا على التمييز القديم بين الانسان الحر وبين العبد ، ولكنه تمييز واضح جداً يعين حدّاً لا يمكن تخطيه في الظروف الطبيعية .

الفروسية

جمع في هاتين الفئتين الرئيسيتين اولئك الذين تطلق عليهم النصوص اللاتينية المعاصرة اسم « الجنود » بينما تطلق عليهم اكثر اللغات الشعبية الغربية اسم « الفرسان ». وبالفعل بات مفهوما المحارب والفارس مترادفين خلال القرن العاشر ، حين امسى دور المشاة ثانوياً في المعارك وتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار ، الذين لا يستطيعون تأمين عدّة الفارس الكاملة بسبب فقرهم المدقع . فكان على كل جندي ، في الواقع ، ان يتسلح وفاقاً لثروته ، ولذلك كانت فئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد توجب ، حوالى السنة ١٠٠٠ ، للانتساب اليها ، اقتناء حصان وشتى الاسلحة الهجومية والدفاعية اولا ، والقدرة ، بعد ذلك، على التمرّن على مسابقة الفرسان الشاقة ، وتخصيص وقت كاف ، اخيراً ، لتلبية الدعوات الى الاجتماع والاشتراك في الحملات العسكرية . وكان لزاماً عليه بالتالي ان يكون لديه رأس مال هام (فقد كان ثمن الدرع وحده ، في القرن الحادي عشر ، يوازي ما يتطلبه مشروع استثمار زراعي على بعض الاهمية) ومتسع كاف من الوقت بنوع خاص . فامتهن الفروسية ، من ثم ، كبار الملاكين العقاريين ، اولئك الذين يحصّلون دخل املاك واسعة يحرثها خدام كثيرون ولا يحتاجون الى ادارة استثمارها بانفسهم ، والاتاوات المفروضة على عددمن الاراضي التابعة لهم قد يبلغ العشرين ـ وبكلفة واحدة ، اولئك الذين يخدمهم عدد هام من العمال .

بيد ان طبقة الفرسان ، التي كانت في البدء مفتوحة الابواب لكافة الاغنياء ، ما عتمت ان اقفلت وامست طبقة وراثية ، وجاء هذا التطور طبيعياً جداً في زمن انحطاط اقتصادي

كانت فيه جميع الثروات عقارية ونذر فيه ان يتوصل احد الناس ، بمساعيه الفردية ، الى رفع او تخفيض قيمة ارثه بصورة محسوسة . وكان تطوراً سريع الخطى في فرنسا الوسطى حيث اكتمل في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، بينما كان بطيئاً في غير مكان وبقي ناقصاً هنا وهناك . وحين بلغ حدّه ، لم يعد للثروة اي شأن ، بل النسب وحده . فورث ابناء الفرسان منذئذ – وحدهم ، باستثناء حديثي النعمة من المغامرين او الفلاحين المثرين – صفة الفروسية ؛ وحق لهم دون غيرهم ، عندما يبلغون اشدّهم ، الانخراط في فئة اختصاصيي الحرب ، بعد حفلة اشراك عائلية وبسيطة جداً يتسلمون خلالها اسلحتهم ، بعد امتحان اهليتهم العسكرية ، من ايدي احد متقدّمي عائلتهم سناً. فكانت هذه الطبقة ، والحالة هذه ، قليلة العدد نسبياً : ويبدو ان هنالك عائلة فرسان في كل قرية على وجه التقريب .

وكان بين اعضائها تفــاوت ملموس في الثروة ، فالبعض يملكون حصناً ، ويتمتعون من ثم بحق توزيع الاوامر على الفلاحين ومعاقبتهم واستثمارهم ؛ ولكن هؤلاء الاسياد الكبار يؤلفون نخبة محدودة العدد . ويعيش معظم الفرسان ، في بيت ريفي ، حيــاة نصف قروية ويشرفون بانفسهم على استثمار املاكهم الصغيرة حين لا يقومون بوظيفتهم الحربية ؛ وليس من النادر ان نرى فرساناً فقراء ، هم اخوة الابكار في بعض العائلات الكثيرة العدد ، يضيق بهم ارثهم ويتعذر عليهم تعهد اسلحتهم فيضطرون الى المغامرة وركوب الاخطار خوفاً من الانحــدار الى طبقة الفلاحين. بيد ان الفرسان جميعهم، سواء كانوا اغنياء ام فقراء، يشتركون، اقله في بعض المراحل، في معيشة واحدة هي معيشة المحاربين المحترفين، ويكتسبون العقلية الملازمة لهذه المعيشة: اعتبار خاص للقوة الجسدية ؛ ميل الى المآثر الرياضية ، في الحرب نفسها او في التمارين العنيفة التي تقوم مقامها وتعدّ لها – كقنص الوحوش المفترسة الذي تحف به المخاطر ؛ والمبارزات التي تكاد لا تتميز عن المعركة نفسها والتي لم تكن لمدة طويلة مباوزات فردية في حلبة مقفلة ، بل تجابه فرقتين من الفرسان ، في ارض واسعة الاطراف ، يتعاقب فيه الكر والمطاردة والتقتيل والفدية – واخيراً تقاليد الشرف والايمان التي تستند الى قوانين الحرب . ويشكل هــذا المجموع من العادات والشواعر التي تردّ الى التخصص العسكري في طبقة الفرسان ، اول عامل من عوامل الوحدة . اما العامل الثاني فامتياز يضاف الى الارث ويجعل من الفرسان ، منــذ القرن الحادي عشر ، طبقة حقيقية من النبــلاء ؛ فالفرسان جميعهم ، بسبب الخدمات المفروض عليهم ان يؤدوها للجماعة كلها ، يعفون من الفرائض والاعباء التي تنوء بثقلهــا على طبقة العمال ، ولا يؤدون واجباتهم التافهة ولا يعترفون بقاض يستطيع معاقبتهم ؛ ولا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا لسيد اقطاعتهم ، بملء ارادتهم ، القيام بها .

الاقطــاع

ان طبقة الفرسان – وهذا ما يميزها ايضاً – محاطة كلها بالانظمة الاقطاعية . منذ نهاية العهد الكارولنجي ، اقدم معظم الرجال الاحرار المنتمون الى مرتبة عليا ، رغبة منهم في تأمين الحماية او فوائد اخرى مختلفة ، على تقدمة شخصهم الى وليّ نصير ؛

وهكذا فان الفرسان ، المقيمين في الاراضي التابعة للحصن والملزمين بالتجمع فيــه عند اول طارىء ، قد غدوا اصحاب اخاذات خاضعين لسيد الحصن ؛ ومنذ انهيار القوة الملكية – اي منذ او خر القرن العاشر في غاليــا ، ومنذ اوائل القرن الثاني عشر في جرمانيا – اصبحت هــذه الارتباطات الشخصية الروابط السياسية الوحيدة بين اعضاء الارستوقراطية . ولكن صفة هذا الخضوع ، في الوقت نفسه ، قــد تبدلت بشكل محسوس ايضاً . فقد رسخ في كل مكان ، منذ السنة ١٠٠٠ ، ان خدمات التابع النبيل تستحق مكافأة قانونية ؛ فليس من واجب السيد، خلال الجمعيات التي تضم رجاله حواليه بصورة دورية ، ان يوزع عليهم الهدايا والاحصنة والاسلحة والنقود والحلي فحسب ؛ بل يجدر به ايضاً ، منــذ تقديم خضوعهم له ، ان يكلفهم تعهد بعض الاراضي ، طيلة اخلاصهم له ، او يخصهم بأي انعام آخر – سيادة كاملة على اقطاعة ، او جزء من الاعشار او الاتاوات ، او استثمار ارض بسيطة في اغلب الاحيان ، او ارض يتسلم الفلاحين – على ان يدر دخلاً منظماً يعوّض على الرجل شقاءه : وهذا الانعام هو الاقطاعة . في اوائل القرن الحادي عشر كان تسلم الاقطاعة يلي يمين الاخلاص مباشرة ، ثم درجت العادة على ان يدخل في احتفال تقديم الخضوع ؛ وقــد اوجدت هذه الوحدة الوثيقة بين الاقطاعة والخضوع تحوّلا في الرابطة بين رجل ورجل . ومرد ذلك الى ان تعهد الارض ، وهو العنصر المادي الملموس المثمر ، قد غدا اعظم اهمية في نظر رجال الحرب هؤلاء الذين يكادون يعجزون عن التجريد ؛ وعكست اخيراً العلاقة الاصلية بين الهبة الاقطاعية والارتبـــاط الشخصي ، فاعتقدوا بان وفاء صاحب الاقطاعة وخدماته وحتى تقديم شخصه امر واجب بسبب الاقطاعة وان واجبات التابع تمثل بدل هذا الاستثمار . وقد تم هـــذا التحول في الاعتقاد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر : فاصبح السيد وصاحب الاقطاعة مرتبطين بحقهما المشترك على ارض واحدة اكثر من ارتباطهما بوعد الصداقة . فما هو والحالة هذه موقف كل منهما ؟

ليس الفارس صاحب الاخاذة مطلق التصرف باقطاعته : فقد يفقدها اذا لم يحترم بنود عقد خضوعه ؛ ويحجز السيد الاستثمار حال ثبوت اخلال صاحب الاخاذة بواجبه امــام جمعية كافة اصحاب الاخاذات . اما اذا برّ التابع النبيل بيمين ولائه فلا يمكن ان يكدره مكدر في تصرفه باقطاعته ؛ ويستطيع ان يتنازل عن بعض اجزائهـــا لاصحاب الاخاذات التابعين له ؛ وينزع طبيعياً الى اعتبارها كاحد املاكه الخاصة التي لا شيء يميزها عنها في الظروف العادية؛ وقد اعترف له ، في اواخر القرن الحادي عشر ، بصورة عامة ، بحق بيعها او نقلها الى ورثته . اجل ان هنالك بعض الاستثناءات : فالاقطاعة ، من حيث هي وراثية ، لا تقبل التجزئة ، ولا مناص بالتالي من موافقة السيّد وتدخله حتى يستطيع متسلم الاقطاعة الجديد التمتع بحق الاستثمار ؛ وكثيراً مــا يضطر هذا الاخير لدفع رسم الانتقال ويخضع لاحتفال تقديم شخصه . ولكن هذه الضمانات لحق السيادة لا تحول دون انتقال الاقطاعات من يد الى يد ، ولا دون قيام او زوال الولاء الذي تستلزمه . فادت سهولة الانتقال هذه الى تراخ اكيد في الروابط بين انسان وانسان . فلم ينتخب

السيد ، بعد ذلك ، اصحاب الاخاذات التابعين له ، بل غدت الوراثة والبيع يدخلان في خدمته اتباعاً جداً غالباً ما لا يصلحون « لخدمة » اقطاعتهم بسبب صغر سنهم او عجزهم الصحي ، او يكونون مجهولين منه ان لم يكونوا معادين له ؛ ومن حقنا الشك في حقيقة قيمة ايمان تقسمها الشفاه وحدها خلال احتفال لم يعد سوى معاملة شكلية تخضع لها علاقة عقارية بحتة . اضف الى ذلك ان وراثة الاقطاعة وحق بيعها رفعا عدد الفرسان الذين باتوا ، بعد تسلمهم اقطاعات مختلفة بشتى الطرق ، خاضعين لعدة اسياد : وهم قد وعدوا كلاً من هؤلاء بالاخلاص والخدمة ؛ وجلي انه يصعب عليهم التفرغ كلياً لكل من اسيادهم في حال انهم ينزعون بالتفضيل الى التحجج بتعهداتهم الكثيرة حتى لا يقوموا باي منها . لذلك فان الارتباط الاقطاعي ، من حيث هو خاضع للاقطاعة ، ابعد من ان يكون ابداً ، شأنه في العهد الفرنجي ، خضوعاً كلياً من الانسان لحاميه لا يحل من موجباته سوى الموت .

يجب الا نعتقد مع هذا بان خضوع صاحب الاخاذة للسيد قد فقد كل قوته ؛ فهو قد بقي مرتكزاً الى احد اخطر الافعال التي يمكن ان تصدر عن المسيحي ، اعني به القسم . ولكن قوته قد غدت اكثر تفاوتاً وتأثراً بالظروف . وهـــا نحن نورد هنا ما جاء في رسالة وجهها فولبير اسقف شارتر ، حوالي السنة ١٠٢٠ ، الى دوق « أكيتين » ، الذي استشاره في هذا الامر ، حول مفهوم العلائق بين السيد وصاحب الاخاذة انذاك . هناك في الدرجة الاولى الاخلاص المتبادل من حيث ان المتعاقدين يحتلان مستوى واحداً تقريبا ؛ فـ « على السيد ، في كل الامور ، ان يعامل تابعه بالمثل ، وان لم يفعل صح اتهامه بسوء النية » . واذا ما رددنا هذا التعهد الى حقيقة جوهره ، بدا لنا انه وعد ذو طابع سلبي : فان كلا من الطرفين يمتنع عن القيام باي عمل قد يلحق الضرر بالآخر . وانما يستحسن ان تكون الصداقة اشد حرارة وان تظهر بخدمات ايجابية : واذا كان من العدل ان يمتنع التابع عن الحاق الضرر بسيده ، فهو لا يستحق اقطاعته بهذه الطريقة ؛ ولا يكفي الامتناع عن فعل الشر ، بل يجب فعل الخير ايضا ؛ ويتوجب من ثم على صاحب الاخاذة ان يقدم لسيده المشورة والمساعدة باخلاص ، اذا اراد ان يكون جديراً بالاقطاعة ومنسجماً مع يمين الاخلاص التي اقسمها . و « المساعدة » تعني تقديم العون بكل الوسائل الممكنة والوسائل التي تفرضها الظروف ، وذلــك بتقديم المال ، واستخدام النفوذ ، في القضاء وغيره ، لدى خصوم « الصديق » ، وفي اغلب الاحيـــان بالقوة والاسلحة ، كما يليق ذلك في مجتمع عسكري . واتضحت تدريجياً خــــلال القرن الثاني عشر طبيعة ومدى المساعدة الاقطاعية ، وتحددت في الاعراف المحلية : وهكذا فقد بات من المعترف به في فرنسا ان من حق السيد ان يفرض على صاحب الاخاذة ، بالاضافة الى الدورات التدريبية في الحصن ، الخدمة العسكرية المجانية اربعين يوماً في السنة ؛ وان باستطاعته ايضاً مطالبة تابعه بمساهمة مالية ، حين يتوجب عليه دفع فدية او تسليح ابنه او مهر ابنته او حين يشترك في حملة صليبية . اما واجب المشورة فيجب ان ينظر اليه من زاوية عرف خاص بمجتمعات القرون الوسطى ، اعني به الشعور الراسخ بان رئيس الفرقة

لا يستطيع اتخاذ قرار خطير واصدار حكم والبت بمصير ممتلكاته ، دون عرض الامر على رجاله والاستئناس برأيهم ؛ فعلى صاحب الاخاذة ، والحالة هذه ، كلما طلب اليه ذلك ، التوجه الى سيده والاقامة في ديوانه ؛ وان هــذا الاجتماع ، من جهة ثانية ، ظرف يتيح للرجلين اعادة الاتصال بينهما وتوثيق رابطة قد يكون ارخاها البعاد . وغالباً ما تضاف الى هـذه الموجبات العامة خدمات متبادلة اكثر تلقائية واعمق انعكاسات ادبية : وهكذا فغالباً ما يحدث ان يرسل صاحب الاخاذة ابنه لتمضية حداثته وتعلم مهنة الفروسية في كنف السيد وبرفقة اولاده ، لا سيما وانه سيدعى « لخدمتهم » فيرتبط بهم من ثم ارتباطاً اوثق . وليس من النادر اخيراً ان تكون العلاقة اشد وثوقاً ايضاً ، فـلا يميز بين صاحب الاخاذة وبين اقرب اقرباء سيده ؛ اذ ان الرابطة الاقطاعية ، حين تنميها مجاورة جسدية وروحية ، تبرز بكل قوتها وتمسي ، كالرابطة الدموية ، ملزمة وموجبة .

الاخلاص ، والقسم ، والنسب

ان العقد الاقطاعي ، كما رأينا ، اطار مرن جداً ؛ فقـد يحدث ان يقيم بين رجلين قرابة حقيقية ، اعني بها تلك الاخوة الممتازة التي تصفها اغان ايمائية كثيرة ؛ ولكنه قد يؤول ايضاً الى مجرد ضمانة ضد الاعتداءات الممكنة حين يقوم بين قوتين غريبتين او متعاديتين . ويبدو بصورة عامة ان قوة الاخلاص منوطة في جوهرها بقوة كل من التابع وسيده : فالفارس الصغير الفقير ، التابع لسيد عظيم ، مضطر لان يخدم ، بمزيد من الانقياد ، هذا السيد الذي يخشاه والذي يستطيع ان يقدم له مساعدة فعّالة . وهي تختلف باختلاف المقاطعات ايضاً : ففي المناطق المسيحية الجنوبية ، تبدو الموجبـات الاقطاعية اكثر حصراً واقل وضوحاً . وقد تحوّرها اتفاقات خاصة ايضاً : فان بعض الوعود بالخضوع والطاعة ، لا سيما حين تقطع بين عظام الاسياد ، معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالباً ما تدون في وثيقة خطية وتوضع خلال مقابلة تجري في ولاية متاخمة وتحدّد بالتفصيـل كيفيات المساعدة

غير ان سؤالاً يرتسم امامنا هنـا : اذا كانت النظم الاقطاعية ، المتفاوتة الفعالية ، تؤلف الاطار السياسي الوحيد لطبقة الفرسان ، فهل باستطاعتها ان تحافظ على النظام داخل هـذه الطبقة ؟ يمكننا الاعتقاد بانها تتوصل دائماً الى ايثاق ارتباط صغار الفرسان الريفيين بسيد الحصن المجاور ؛ فهي تجمع حوالى الحصن ، وهو المركز الرئيسي للنشاط العسكري ، جنود الجوار في وحدة متينة تزيد في تراصها اخوة السلاح وتجتمع دورياً ، اما في التمارين الحربية ، واما في البلاط الاقطاعي ، حول السيد المشترك ، الحكم الطبيعي للخلافات الداخلية . ومن الثابت من جهة ثانية ان شعور الخضوع ، في طبقات الفرسان العليـا ، يشكل حاجزاً فعالاً في وجه المشادات : فان اقـل اصحاب الاخاذات اكتراثاً يوحي ضميرهم يتردد دائماً في مهاجمة سيده مهاجمة سافرة ، وقد اسهم هذا الاحجام في ايقاف كثير من المعارك ورفع الحصار عن كثير من الحصون . وعلى الرغم من ذلـك لم يكن التنظيم الاقطاعي كافياً . فهو في الدرجة الاولى لم

يؤلف ، كما يسود الاعتقاد ، جهازاً متلاحماً يجمع في كتل متراصة ، حول كل ملك او كل امير عظيم ، كافة الموالين في الاقاليم ، بل تجزأ الى خاليات نحلية كثيرة ، مستقلة عملياً بعضها عن بعض . ثم ان السيد ، وهذا هو الاهم ، ما كان ليستطيع مراقبة كافة تصرفات تابعه : فبامكانه ان يعاقبه بحجز اقطاعته أذا اساء الاخلاص المتوجب عليه ، ولكن حقوقه عليه تقف عند هذا الحد ؛ وباستطاعة صاحب الاخاذة ان يرتكب ابشع الجرائم ، اذا ادى لاسياده المختلفين خدمات المساعدة والمشورة ، دون ان يتمكن هؤلاء من اتخاذ اي اجراء بحقه . وقد برز بكل جلاء نقص النظم الاقطاعية في الاجراءات القضائية المطبقة في كافة انحاء الغرب في القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر .

عندما يتجشم احد الفرسان ضرراً يلحقه به احد افراد حاشيته ، ليس من محاكم نظامية تستطيع قبول شكواه واتخاذ اجراء مباشر ضد المتدي ، الا اذا كان الرجلان عضوين في جمعية اقطاعية واحدة . فيتوجب على الضحية والحالة هذه ان تحصل حقها بيدها ؛ فتقوم بمساعدة اصدقائها ، بعمل عسكري ضد الخصم وذويه : وتبتديء بذلك حرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً وقد تتسع تدريجياً بحسب المحالفات ، وهذا هو الثأر الخاص . فكل خلاف وكل نزاع حول الارض وكل اهانة وكل بادرة في غير محلها قد تفضي من ثم الى نزاع مسلح يولد بدوره احقاداً اخرى وانتقامات اخرى . بيد ان الفريقين المتعاديين يقبلان عموماً ، بوساطة الاصدقاء المشتركين ، وبعد مساومات طويلة ، بان يفصل في خلافهم مجلس مؤلف بالتساوي من انصار كل منهما . تعرض الضحية شكواها ، تدعمها في موقفها ايمان اقربائها واسيادها واتباعها ، ثم يتناقشون ويلتمسون غالبا حكم الاله اما بدعوة ابطال الفريقين الى المبارزة ، واما باخضاع المدعى عليه لامتحانات الماء والنار الطقسية ؛ ويضعون في النهاية تسوية تقرر بالتخلي عن بعض الحقوق . واذا كان موضوع النزاع مالاً ، تقرر قسمته بصورة عامة ؛ اما اذا كان جريمة او ضرراً جسدياً ، فيحدد « ثمن الدم » الذي يتوجب على المعتدي دفعه لجميع من الحق بهم ضرراً . وانما يتوجب على المتخاصمين ان يقبلوا كلهم بشروط الصلح ؛ فالقضاة ليسوا في الحقيقة سوى مصلحين ولا يأخذون على انفسهم فرض حكمهم بالقوة . فنحن من ثم امام قضاء بطيء وناقص وباهظ الاكلاف (بسبب الدفع للوسطاء والقضاة والشهود والابطال) وبالنتيجة غير ذي فعالية لانه لا يعيد الى الضحية حقها كاملاً ويشجع على اللجوء الى العنف . وما كان التنظيم الاقطاعي بمفرده ، من ثم ، ليكفي للحفاظ على النظام والسلم ، لو لم يكتمل اطار طبقة الفرسان بوسيلتين : الاكثار من ايمان الضمانة المتبادلة ، وتوثيق الروابط العائلية .

تقسم اليمين بوضع اليد على الذخائر المقدسة او على كتاب الاناجيل ، وتعني رهن النفس رهناً احتفاليا ؛ فليس من عمل آخر اكثر الزاماً لانسان يهتم لخلاصه الابدي ويخشى بالاضافة الى ذلك ، في اموره الزمنية ، نتائج الغضب الالهي . ويلفت النظر ان فارس القرن الحادي عشر محمول على اقسام ايمان كثيرة يمتنع بموجبها عن استعمال القوة والحاق الاذى بالغير . فهنالك اليمين العامة

المقسمة جماعياً في جمعيات سلم الرب ، وايمان الخضوع التي تعددت بعد تزايد المشاركات الزراعية والايمان الخاصة اخيراً التي تفرض في ظروف عديدة تتصدق كل اتفاق وصفقة ، ويقسمها ليس كل متعاقد فحسب، بل كل الاصدقاء الذين يرافقونه ايضاً والذين يصبحون ، بمعهدم هذا، شركاء له في عمله ويتعهدون بالحفاظ على السلم . فيدخل الفارس بهذه الطريقة في شبكة من الوعود التي تربطه نهائياً بكافة جيرانه تقريباً ، اي باولئك الذين يتاح له ظروف كثيرة يقابلهم فيها، فيضطر بالتالي الى كبح نزواته والركون الى الهدوء .

بالاضافة الى ذلك ينتسب الفارس الى وحدة ضيقة ، تحميه وتراقب اعماله ، اعني بها نسبه . فقد غدت العائلة ، بعد اختلال حبل الامن الذي عقب انهيار الملكيات ، الخلية الاساسية لمجتمع الفرسان. فامست في آن واحد اشد تلاحماً (ودرج استعمال اسم العائلة المشترك بين جميع الاعضاء، وهو رمز هذا التجمع ، في الطبقة الارستوقراطية منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر). واعظم اتساعاً : فاحتفظت روابط الدم بكل قوتها طيلة اجيال عديدة جامعة ، حول الاكبر سناً ، الحفدة وابناء الاخوة وابناء الاعمام . ولا يحدث البتة ان يعمل النبيل آنذاك مستقلا عن اقربائه ؛ وهو في الحرب واثناء المرافعة امام القضاء يحاط ابدا بـ « اصدقائه بالجسد » الذين يقدمون له المساعدة والذين يتوجب عليه مساعدتهم بالتفضيل على اعز اسياده ؛ وهو ، اذا حرم كل ثروة فردية ، حتى ولو كان متزوجاً ولم يرزق اولاداً ، يشترك معهم في تلك ارث الجدود الذي ينظم رئيس الجماعة استثماره بمشورة الجميع. وهذا التضامن الاقتصادي الذي يلزم بالتعاون الدائم هو العامل الملزم الاول بين عوامل الوحدة العائلية . وجدير بالذكر ان قوة الموجبات النسبية تسهم اسهاماً كبيراً في الحفاظ على النظام . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان الفارس غالباً ما يثنيه انسباؤه عن تنفيذ نواياه الحربية خشية منهم من ان يجروا جراً الى عمل لا يوافقون عليه ؛ وفي الدرجة الثانية الى ان تأكد المعتدين من ان يناصبهم العداء كافة اقرباء ضحاياهم غالباً ما يحملهم على التراجع عند اعتداءاتهم المحتملة . ولذلك فان طبقة المحاربين، التي هي تجمع ليس قوامه الافراد المنعزلين بل عدداً كبيراً من الجماعات المتشابكة نسباً وانتساباً اقطاعياً ، هي طبقة سجسة وعنيفة لعمري ، ولكنها ليست خارجة كليا على النظام .

الفلاحون

تختلف الظروف الاقتصادية في الطبقة الاخيرة من المجتمع اختلافها في الطبقتين الاولين . فبين العاملين الذين لا ينتسبون الى نخبة الفرسان ، وبين العمال الذين يحصلون من الارض بعرق جبينهم ما يلزم لاودهم واود غيرهم ، من لا يملكون شيئا ويستعطون خبزهم على ابواب الاديرة وينطلقون الى كل جهة سعيا وراء اي عمل ممكن ويتمنون ويشتغلون في املاك الاسياد الواسعة تحت امرة الخدام المنزليين . ولكن سواد هذه الطبقة من الفلاحين الاحرار في ان يستثمروا اراضيهم العائلية على هواهم ؛ انما يجب ان نميز ، في عداد متعاطي اعمال الزراعة هؤلاء، بين العمال الذين يستخدمون المحراث واولئك الذين يركشون ارضهم بالمعول .

وهناك اخيراً فئة من غير النبلاء الذين لهم شركاؤهم الخصوصيون، الخدّام، والذين يعيشون حياة بطالة ؛ فهؤلاء فلاحون ورثوا ارضا أحسن استثمارها ، او عملاء الاسياد وو كلاؤهم في ادارة خدمة منزلية او ادارة قطعة ارض نائية كوفئوا بنصيب من الواردات التي يكلفون جمعها ؛ وهم من جهة ثانية على جانب كبير من اليسار ، يمتطون الجياد ويمتلكون الاقطاعـــات في غالب الاحيان وتتجاوز مواردهم موارد فرسان كثيرين، على انهم نادراً ما يدخلون (اقله في فرنسا) في طبقة النبلاء المقفلة اقفالا عكسا في وجه حديثي النعمة .

بيد ان هؤلاء العمال ، بصرف النظر عن مقدار ثروتهم – وهذا ما يميز وضعهم – قد خضعوا خضوعا تاما لسيد لم يختاروه ، يحميهم ويقودهم ويعاقبهم ؛ والنظام المفروض عليهم نظام شديد يطبقه رئيس يتمتع بحق نفيهم . وينتسب عدد كبير منهم ، ممن دعوا بالفداديين في القرن الحادي عشر ، وبالحرس الخاص في القرن الثاني عشر ، الى رجال آخرين يزعمون ان لهم عليهم كل سلطة ؛ ويخضع الباقون منهم لسيطرة سيد الحصن في الارض التي يقيمون فيها . وسواء كانوا عمالاً في القرية او اتباعا شخصيين – وهم يتساوون في سوء المعاملة – فانهم مرغمون تجاه سيدهم بتأدية خدمات مختلفة يطلق عليها اسم « العادات » – لان مداها يحدّده العرف – او « الهدايا » احياناً ، لانهم اعتبروها تقادم تلقائية من الاتباع المحميين الى حامي السلام . فهنالك الالزامات العسكرية اولا : على الرعايا ان يؤمنوا حراسة القصر ، ويقيموا في التحصينات عند حدوث اي طارىء ، ويسيروا مشيا على الاقدام وراء الفرسان كي يؤدوا لهم بعض الخدمات ؛ وعليهم بنوع خاص الاسهام في بعض الاعمال التسخيرية كالترميم والنقل وتقديم القرطان او الاغذية في سبيل تعهد الحصن وحاميته . وهنالك الخضوع القضائي ثانيا : فهم تابعون لسلطة محكمة السيد التي تجازيهم ، في حال الجرم ، بالاضافة الى التعويض على المعتدى عليه ، بغرامة مالية تتراوح بين ثلاث (٣) وستين (٦٠) نحاسة ، والتي ترفع قضيتهم الى السيّد نفسه اذا ارتكبوا زنى او سرقة خطيرة او جريمة قتل مقصودة . وهناك الخدمة المختلفة اخيراً : فجامعو واردات السيد الحاكم يستوفون الرسوم على الصفقات وانتقال المواد الغذائية واستخدام طاحون السيد وفرنه ومعصرته ؛ والعمال القرويون ملزمون في بعض الظروف باضافة السيد ورجاله او تقديم كمية من المواد الغذائية توازي ما تكلفه هذه الضيافة : وهذا ما يعرف بحق المأوى ؛ وهم ملزمون اخيراً « بمساعدة » حاميهم الذي يدعي لنفسه بحق مصادرة المال او المحاصيل الزراعية او كل ما ينقصه وما يريده ايضا في الغالب من منازلهم : وهذا ما يعرف بحق الاقتطاع .

ان هذه الحقوق السيدية ، المختلفة بين سيادة واخرى ، التي تنوء بثقلهـــا على كافة الرعايا بالتساوي ، سواء كانوا مالكين او مستثمرين ، وسواء كانوا احرار التصرف بشخصهم او غير احرار ، تمثل في القرن الثاني عشر ، بالنسبة للسيد ، دخلا اجـــل فائدة من كافة واردات الاملاك ؛ فاستغلال حق القيادة انما هو مـــا وفر لحكام الحصون وللجمعيات الرهبانية الكبرى اهم الموارد ورفعهم الى مرتبة دونهـــا مرتبة الفرسان العاديين الذين لم يستفيدوا الا من كراء

اراضيهم . وتشكل هذه الموجبات كذلك ، بالنسبة لمن تفرض عليهم ، عبئاً دونه الفرائض العقارية ، وينطوي بعضها على المزيد من الازعاج ، لا سيا فريضة الاقتطاع التي نظر اليها الكثيرون نظرتهم الى السرقة ، والتي ارغمت على التظاهر بالفقر وقضت على روح التوفير انما يجب الا ننسى ان هذه « العادات » هي ثمن الضمانة والسلامة ؛ فبفضل السيد يسود النظام داخل الجماعة ؛ كما ان كل تعكير للامن يقمع بصرامة يزيد في شدتها ان السيد ، وهو الحريص على احقاق الحق ، لا ينتظر شكاوى الضحايا كي يطلب تدخل عملائه . فلهذا السبب ، ولان الفلاح الخاضع للسيد الحاكم غير مرغم على تأمين الدفاع عن نفسه ، كانت الروابط العائلية في الطبقات الدنيا اقل منها وثوقاً في طبقة الاشراف . بيد ان التجمع هنا ايضاً امر مرغوب فيه لانه يتيح دفاعاً افضل ضد المطالب السيدية : فقد وقف الفلاحون تدريجياً ضد استخدام حق النفي ، خلال القرن الحادي عشر ، في اطار القرية ، حول المعبد ومقبرته ، وهما مكانان يحميهما سلم الرب بصورة خاصة ، وباستطاعة الفلاحين ان ينجوا فيها من اشد اعمال العنف والمصادرات ازعاجاً – وحول الاخوية التي هي جمعية صلاة وتعاون متبادل . وهكذا تكونت الخلية الاساسية في المجتمع الريفي ، اعني بها الجماعة القروية ، اي جمعية عمل يتمتع اعضاؤها بممتلكات وحقوق عرفية جماعية ويتفقون على تنظيم استثمار الارض وعلى جمع القطيع المشترك في الاراضي البائرة وعلى تنظيم الدورات الزراعية – وجمعية دفاع ايضاً تحافظ على « العادة » ، وتعارض استحداثات السيد ، وتتوصل احياناً ، في القرن الثاني عشر ، الى حمل هذا الاخير على تخفيف نظام النفي .

هذا هو ، بخطوطه الكبرى ، نظام المجتمع الاقطاعي . اجل ، ان هذه اللوحة الاجمالية ، التي تنطبق على مملكة فرنسا ، قد لا تنطبق جملة على كل مجتمع اقطاعي ، لان اوروبا متنوعة المناطق والسكان . فالانظمة الاقطاعية ، في المناطق الجنوبية مثلاً ، اقل رسوخاً الى حد بعيد ؛ وفي المانيا ، ابقى استمرار السلطة الملكية ، الى جانب نظام الاقطاع « *Lehnrecht* » الذي ينظم العلائق الناجمة عن الاقطاعة ، على القانون البلدي العقاري « *Landrecht* » ، الذي يمكن تطبيقه على كافة الرجال الاحرار ، نبلاء كانوا ام فلاحين ؛ وقد جهلت بعض المناطق الاخرى ، كمنطقة الفريز ، مثلاً ، حكم السيد والاقطاع ؛ اضف الى ذلك اخيراً ان قيام العلائق السياسية والاجتماعية في البلدان الشمالية التي دخلتها النصرانية ، اي الجزر البريطانية وسكندينافيا والساكس ، لم يتحقق الا بتأخر زمني محسوس : وهكذا فقد تألفت معظم فرق الفرسان الانكلو نورمندية ، حتى السنة ١١٠٠ ، من مغامرين فقراء لا يملكون فتراً من الارض ، دخلوا الخدمة جنوداً منزليين يعيشون على طاولة اسيادهم ، ولم تصبح ارستوقراطية اقطاعية الا ببطء وبعد مرور زمن طويل .

وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكز التنظيم الاجتماعي ، بصورة عامة ، الى تحديد النشاطات : فهنالك نخبتان ، اسندت الى احداهما الوظائف الروحية والى الاخرى المهام العسكرية ،

يتعهدها عمل جمهور الفلاحين . لذلك كان مستوى حياة رجال الكنيسة والفرسان رهن انتاج العمل الريفي ؛ وما زال هذا الاخير ، في منتصف القرن العاشر ، انتاجاً هزيلاً يكاد لا يكفي لاعالة رجال الاكليروس والنبلاء ؛ فاذا مـــا ارتفع ، وزادت المحاصيل الزراعية ، استطاع المختصون بالصلاة والحرب الحصول على نصيب اوفر من الثروة والتصرف به لرفاهيتهم والنفقات البذخية ومشاريع الفتوحات النائية والابحـــاث الفنية والفكرية . ويلفت النظر ان يقظة النشاطات الريفية تبرز بالضبط حوالي السنة ١٠٠٠ التي كانت منطلقاً للحضارة الغربية .

٢ ـ النمو الاقتصادي

ان استئناف النشاط الاقتصادي الذي لاحت دلائله منذ العهد الكارولنجي قد برز بصورة حاسمة ، في اوروبا ، حوالي السنة ٩٥٠ ، بعد ان حالت دونه ، طيلة قرن ونيف ، الغزوات النورمندية والاسلامية والهنغارية . في هذه الفترة ، كما يبدو ، اي في العقود القليلة التي سبقت السنة ١٠٠٠ ، انتشرت بسرعة في الارياف المسيحية ، التي اعيد تعميرها ، عدّة اكتشافـــات تقنية ذات نتائج عظيمة جداً . اجل كانت هذه الاكتشافات قديمة العهد، ولكن تطبيقها في الغرب قد بقي محدوداً حتى ذاك التاريخ . يتعذر في الحقيقة تتبع هذا الانتشار لان الادلة المباشرة ، واعني بها آثار الادوات او رسومها ، نادرة جداً ويصعب تحديد تواريخها ، ولان النصوص لا تنطوي الا على القليل القليل من المعلومات . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان الانطلاقة الكبرى في الغرب ترتبط آنذاك ارتباطاً وثيقاً بتبدل اساسي في الطرائق الزراعية ، اي بثورة حقيقية بطيئة اتاحت انتاج مزيد من المواد الغذائية بجهد اقل منه في السابق ، فقلبت ظروف الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

التحسينات التقنية

ان هذا التبدّل على جانب كبير من التعقيد ويتناول شتى عناصر الطرائق الزراعية ؛بيد انه يجدر بنا، في سبيل توضيحه، ان نعزل التحسينات المختلفة التي تترابط في الواقع ترابطاً وثيقاً وتتداخل تداخلا مستغلقاً . يقوم التحسين الاول في استخدام قوّة المياه الجارية استخداماً افضل : فيبدو ثابتاً، منذ القرن العاشر ، ان مجاري المياه قد نظمت وحولت مياهها الى اقنية وخزانات وشلالات معدّة لتحريك مطاحن الحبوب ومعاصر الزيوت. فاغنت المطاحن المائية عن الهواوين والمطاحن اليدوية ، ورفعت عن اليد العاملة المنزلية عبء تحضير الحبوب الذي كان عملا شاقاً جداً ، واتاحت لهـــا الانصراف الى مهام اخرى اعظم انتاجاً. وفي الوقت الذي استخدم فيه الناس الطاقة المائية توصلوا الى استخدام قوة الجرّ الحيوانية استخداماً افضل ايضاً: فقد ظهر وانتشر في الوقت نفسه تحسين عظيم في اساليب قرن الحيوانات؛ فاستعيض بالطوق الصلب عن لبَب الحصان الرهل الذي كان يخنق الحيوان وينقص قوته انقاصاً

محسوساً ؛ اما نير الثور الذي احكم صنعه وفاقاً لقوى الحيوان الفاعلة ، فقد نقل من الكاثبة الى القرون. ويرتبط بهذه التقدمات الاولى تحسّن في الادوات : فقد استعيض، في المذراة والمجرفة، عن الخشب بالحديد ، ففدت الاداة اعظم فائدة ؛ واخذ الناس يستخدمون المسلفة ؛ واستطاعوا بصورة خاصة ربط آلات زراعية اعظم طاقة الى دواب مقرونة ازدادت قوتها . فقد انتشر آنذاك في كافة مناطق اوروبا الشمالية، وفي كافة الاراضي الخصبة التي لا يخشى ان تتضرر بالحراثة العميقة ، استخدام المحراث الكبير الثقيل ذي المجلات والمقلب ؛ اما المحراث الخشبي القديم ، الذي لا يقلب الا وجه الارض ، فقد خصص تدريجياً بالاراضي الخضخاضة الجافة .

قلبت الارض قلباً افضل وهوّيت تهوية احسن ، واستفادت ايضاً من تقدم طرق اخصابها ، واصلاحها بالسجّيل، وهي طريقة انتشرت في غربي فرنسا، وربّما الذي اعتمد على نطاق واسع في لومبارديا منذ اوائل القرن الثاني عشر ؛ فتحسن من ثم انتاج العمل الزراعي وحدثت اخيراً ثورة في تحديد مواعيد زرع الحبوب المختلفة ، فحلّت تدريجياً محل نظام الدورة الرومانية التي تتجدّد كل سنتين ، ومحل طرائق بدائية اقل انتاجاً ، كالزراعة المتنقلة او المؤقتة ، او زراعة الارض المحرقة ، الدورة التي تتجدد كل ثلاث سنوات ؛ اجل لقد جرى هذا التبدّل بكل بطء (اذ ان الطرائق الجديدة قد ادخلت ، كما يبدو ، في العهد الكارولنجي وفي الاراضي الملكية والرهبانية الواسعة) ولن يكون الا جزئياً ، ولكنه يشكل تقدماً حاسماً . فقد سمحت هذه التقنية بزراعة الارض سنتين من اصل ثلاث بدلاً من سنة من اصل سنتين وحققت زيادة في انتاج المواد الغذائية تعادل نصف الانتاج السابق على الاقل ، وانتشر مع الدورة الجديدة استعمال القرطمان الذي آثره الفلاحون على الشعير . فقد استخدم في اغلب الاحيان حساء لتغذية الانسان ؛ كما استخدم لتغذية الماشية جزئياً ايضاً فاسهم في رفع عددها وتحسين نوعها. وانتشرت بصورة خاصة تربية الخيول ؛ وكان لهذه الظاهرة الرئيسية ، التي غدت اساس تبدل كلي في اساليب الحرب ، ووجهت من ثم تطور الارستوقراطية الغربية ، صداهـا البعيد في الاقتصاد الريفي : فمنذ اواخر القرن الحادي عشر اخذ الحصان يقوم مقام ثور الفلاحة لانه يفوقه سرعة في الحركة ويساعد ، بحراثة الارض مراراً متعددة ، على زيادة الانتاج ، مع ان تعهده اعظم اكلافاً . تلك هي الاستحداثات التقنية الهامة . ولنشر ايضاً الى انها استخدمت ببطء ايضاً ، في اهم المشاريع الزراعية اولاً ، وان مركز انتشارها كان ، على ما يبدو، السهول الفرينية الكبرى في المقاطعات الفرنجية القديمة بين نهري اللوار والرين ، وانها لم تدخل فعلاً ، خلال القرون الوسطى ، سوى ارياف جنوبي انكلترا وفرنسا والمانيا الشمالية ؛ اما جنوبي فرنسا فقد حافظ، لاسباب مناخية بحتة ، على العادات القديمة ، اي على المحراث القديم وزراعة الارض دورياً كل سنتين .

الانتاج والسكان

احدثت هذه الثورة التقنية تجدداً كلّياً في الحياة الريفية . فجادت الحصائد ، في كافة المشاريع الزراعية ، وبالمجهود نفسه ، اهم منهـا في

السابق الى حد بعيد . ولم يعد للسيد من حاجة ، بغية زراعة القطع الكبرى الصالحة للحراثة في اراضيه الاحتياطية ، لذاك الجيش اللجب من المسخرين : اذ ان بعض الافراد يكفون للقيام باعمالهم . فهو بالتالي لا يستدعي الآخرين بل يتفق معهم على ان يدفعوا له ، عوضاً عن هــــذه الخدمة ، بعض المال او محصولات زراعية . وهكذا زالت تدريجياً معظم اعمــال التسخير التي فرضت في املاك الاسياد خــــلال العهد الكارولنجي . ففي السنة ١١١٧ مثلاً ، ابدلت برسم تفدي ايام العمل الثلاثة المفروضة اسبوعياً للسيد على بعض مزارعي دير « مار موتيه » الالزامي. الا ان هذا الطراز نفسه من الاعمال التسخيرية قد استمر حتى منتصف القرن الثالث عشر في بعض املاك الاسياد من المنطقة الباريسية . ومع ذلك فقــد توقف شيئاً فشيئاً اسهام المشاريع الزراعية التابعة للسيد في استثمار الاراضي الاحتياطية ، باستثناء بعض الايام التي تحددهـــا روزنامة الفلاح والتي توافق نبت المزروعات ، وخلال مرحلة الحراثة بنوع خاص . ثم ان ابدال الخدمات القديمة بالاتاوات ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن التقنيات ، قــــد درّ على سيد الارض موارد اضافية : اتاوات عينية تؤمن له تموين بيته وتتيح له انقاص مساحة اراضيه الاحتياطية وتأجير قسم منهـــا وزيادة عدد المزارعين ومن ثم زيادة الارباح ، واتاوات نقدية تتيح له شراء مزيد من الاراضي . فغدا السيد ، والحالة هذه ، اقل ارتباطاً بارضه ؛ واحتل الدخل الدائم في ايراداته مكاناً متزايد الاهمية ؛ واخذت مشاريع الاعمال الزراعية ، في امــلاك السيد ، تتفتح شيئاً فشيئاً على الخارج .

اما في الاراضي التي يستثمرها الفلاحون ، فقد اتاح تزايد انتاج ادوات العمـــــل وتناقص اعمال التسخير التي استأثرت دوريا في الماضي بقسم من اليد العاملة المنزلية ، الحصول من الارض على حصائد اوفر . اجل ، لقد توجب عليهم تسليم او بيع بعض هذه الحصائد لتسديد الاتاوات التي تقوم مقام الخدمات القديمة او لتلبية مطالب السيد الجديدة . بيـــد انهم يحتفظون بفائض كاف لتأمين تغذية أفضل لعائلاتهم التي تنعم ببعض اليسار في ارض زاد جنيها دون ان تزيد مساحتها : فكان هذا دواء ناجعاً لمعالجة سوء التغذية المزمن ، الذي ثقلت وطأته منذ قرون على العالم الريفي ، ورفع نسبة الوفيات بين الاطفال وحال دون ازدياد عدد السكان. فغدت المجاعات نادرة بعد السنة ١٠٠٠ وانتهت الى الزوال ، بينما اخذ عدد سكان البلدان الغربية يزداد باطراد. يتعذر لعمري تحديد اهمية هــــذه الظاهرة بسبب افتقارنا الى الاحصاءات الدقيقة ، ولكننا نستطيع ، على الرغم من ذلك ، ملاحظة مداها الهام : فبحسب احد التقديرات المقبولة النادرة جداً ، ارتفع عــــدد سكان انكلترا من ١١٠٠٠٠٠ في السنة ١٠٨٦ الى ٣٧٠٠٠٠٠ في السنة ١٣٤٨ ؛ واذا ما اعتبرنا ان ارتفاع عدد السكان قد سبق العقود الاخيرة من القرن الحادي عشر بزمن بعيد ، جاز لنا القول بان عدد سكان اوروبا الغربية قد ازداد ، خلال القرون الثلاثة التي عقبت السنة ١٠٠٠ ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كان عليه قبل هذه السنة .

يتميز هذا الارتفاع، في بدايته ، بارتفاع كثافة السكان في الاراضي الزراعية القديمة اولاً :

فالمساحة نفسها من هذه الاراضي قد تؤمن الغذاء ، دون جهد يذكر ، لعدد اكبر من الناس ؛ كما ان نصف او ربع الارض العائلية القديمة يكفي اليوم لتغذية عائلة من المزارعين ، لذلك فقد تقسمت الاراضي التي يستثمرها الفلاحون جزأين او اربعة اجزاء ، فارتفع ، بالفعل نفسه ، عدد المساكن والسكان في القرية . ولكن ارتفاع كثافة السكان قد رافقه بسرعة توسع الاراضي المزروعة على حساب المساحات المهملة ، لانها كانت ، بسبب وضع التقنية ، اما قليلة الانتاج واما صعبة المعاملة . وهناك ثلاثة وقائع متوافقة كانت منطلقاً لنهضة احياء الارض الكبرى التي ابتدأت ، وفاقاً لمناطق النصرانية ، مـا بين السنتين ٩٥٠ و ١١٠٠ : استخدام وسائل جرّ وادوات حراثة اقوى من ذي قبل قادرة على استئصال الاورمات العميقة وقلب الاراضي الكثيرة الاتربة التي برهن المحراث القديم حتى اليوم عن عدم جدواه فيها ، وفائض اليد العاملة التي حررها اعتماد الطرق الزراعية الفعالة ، وارتفاع عدد الولادات التي يقابلها نقصان الوفيات بين الاطفال .

احياء الاراضي

اسهم الفلاحون والاسياد العقاريون في هذه المشاريع المدة لتحويل الاحراج والمستنقعات ، شيئاً فشيئاً ، الى اراض منتجة . وغالبا ما سبق الفلاحون الاسياد الى النهوض بهذا العمل ، لان استثمار الاراضي القديمة الصالحة للزراعة يتطلب جهداً اقل منه في السابق : فبعد ان ينهي رب العائلة اعمال الحراثة يبقى امامه متسع من الوقت لاصلاح الاراضي البائرة المتاخمة لحقوله ، فيتاح له بذلك توسيع املاكه تدريجياً ، فيقوم في فصل الشتاء باحراق الاشجار الصغيرة وقطع الاشجار الكبيرة واستئصال الجذور ، وتصبح هذه الارض في الربيع مرجاً اخضر يمكن في السنة التالية حراثته وبذره ، وبعد ذلك غرس جفون الكرمة فيه ؛ واذا كانت الارض تعود لسيد يقظ ، فانه يفرض اتاوة على من اصلحها ، والا طالب الفلاح بضمها الى ارضه الوراثية . وهكذا ، بفضل هذا التقدم البطيء الذي أحرز على كافة تخوم المقاطعة ، اتسعت الارض المزروعة سنة بعد سنة . وما لبثت الحقول الجديدة ان باتت نائية عن القرية ، فاقام الذين اصلحوها مساكنهم فيها ، وهكذا برزت عند حدود المقاطعة مساكن متناثرة ، وغالبا ما وجد مصلحو الاراضي انفسهم وجهاً لوجه امام غيرهم ممن اتى من القرى المجاورة ، ففقدت الاراضي البائرة ، التي كانت ، فيما مضى ، تعزل القرى عزلاً تاماً ، رقعاً متشتتة مجدبة جداً . اضف الى ذلك ان ابناء الفلاحين ، حين يبلغون اشدّهم ، لا يتوفقون جميعهم الى العمل في املاك آبائهم ، فيضطر بعضهم الى البحث عن الثروة في غير مكان ، ويتوجه من لا يذهب منهم نحو المدن ، او من لا ينضم الى جمهور الاخوة المساعدين في الاديرة الجديدة ، الى الاسياد ذوي الاملاك الحرجية الواسعة حيث يقيمون مع بعض رفاقهم ويكوّنون في قلب الاحراج ارضاً زراعية جديدة ، بعد اعتماد الزراعة المؤقتة على الارض المحرقة : هؤلاء هم « الضيوف » ، وقد ثبت الدليل على وجودهم في كافة المساحات المهملة التي الفت كلها في العهد الكارولنجي جزراً مقفرة بين الواحات الآهلة بالسكان .

اما الاسياد العقاريون فقد حدث لهم ان وسعوا استثمارهم المباشر ، كما حدث لهم ، بغية الاستفادة الى اقصى حدود الاستفادة من عمالهم المنزليين الذين اصبح لديهم متسع من الوقت ، ومن اعمال تسخير المزارعين التي لم تستبدل بالاتاوات ، ان اقدموا على زراعة بعض اقسام اراضيهم الاحتياطية المتروكة مراعي او احراجاً . بيد ان معظم الاسياد سعوا في الدرجة الاولى وراء زيادة دخلهم الدائم والاكثار بالتالي من المشاركات الزراعية. فقدموا لطالبي الاراضي من الفتيان قطعاً بكراً وطلبوا اليهم استثمارها ، وغالبا ما امنوا لهم ، رغبة في استمالتهم ، الادوات وحيوانات الجر والمال اللازم لمباشرة العمل ، ورفعوا عنهم ، بصورة عامة ، الاتاوات المزعجة ، وتعهدوا لهم بعدم استيفاء ضريبة القطع التعسفية وبتحصيل الضرائب الاخرى بنسبة مقبولة : فكان على المزارع ، بعد ان يحصل على الضمانات التي تقيه مخاوف الخسارة في السنوات الاولى ، ان يقدم للسيد قسماً من حصائده يتراوح بحسب المناطق بين ١/٤ و ١/١٢ ، بالاضافة الى البدل الضئيل الذي يدفعه لقاء اقامته في البيت الذي يشغله . كانت هذه الشروط مغرية ، وقد اذيع خبر حسناتها في المناطق البعيدة احياناً فافضت الى تنقلات السكان مسافات بعيدة ، من المناطق المأهولة قديماً والكثيفة السكان الى القطاعات الزراعية المستحدثة ، كالتنقلات التي جرت في اوائل القرن الثاني عشر مثلاً وانتهت بسكان سنتونج ، الى مناطق مصب نهر الغارون، او بالفلنك ، الى مستنقعات سواحل البحر الشمالي بين نهري الفيزير ، والإلب .

كانت نتيجة هـذا الاستعمار الزراعي النشيط تبدلاً سريعاً في منظر الارياف الغربية . فتناقصت المساحات الجدبة المهملة في كافة الاراضي السيِّدية ؛ وقد بلغ من هذا التناقص احياناً ان اختل توازن الاقتصاد القروي ، حين لم يبق سوى القليل القليل من القطع المحرجة التي توفر ، بالاضافة الى خشب التدفئة ومختلف الحصائد ، المادة الخـام لمعظم المصنوعات القروية والبلوط لتغذية الخنازير ، وتؤلف احد العناصر الاساسية في النظـام الزراعي – او من تلك المراعي والاراضي الهادرة التي لا مناص منهـا لتغذية المواشي بسبب ندرة المروج وفقدان زراعات الكلأ . وتجزأت الاحراج الكبرى التي تخللتهـا الفسح الجديدة ، وبرزت « الارياف » وقامت القرى الكبيرة ذات التخطيط المنتظم في « السهول » المفتوحة ، حين كان اصلاح الارض جماعياً ، اما « الغابة الظليلة » فقد قسّمت غابات صغيرة قامت بينهـا المشاريع الزراعية التي انتثرت في وسط البراحات ، حين استثمر الاراضي السيدية مستعمرون منفردون . وكذلك نمت الزراعات اخيراً على جنبات السواحل الرسوبية وفي مستنقعات الوديان على ضفاف الانهـار الكبرى ؛ فالحرب هنا لم تعلن على الشجرة بل على المـاء ، وقد اوجب الفتح ، المستند الى شبكة من السدود ، تدبيراً جماعياً لتصريف المياه يكمله نظام جماعي شديد ، للعناية بجهاز الوقاية. فتزايدت في كل مكان الاراضي التي تنتج الحبوب ؛ وقد بلغت هذه الزيادة ذروتها في منتصف القرن الثاني عشر ؛ وجاءت اعمال احياء الارض ، التي انضمت نتائجهـا الى نتائج التقدم التقني ، تزيد في حجم المواد الغذائية وتتيح ارتفاع كثافة السكان .

انتقال الممتلكات والسكان

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الازدياد في مواد الاستهلاك وعـدد السكان نمواً في حركة المقايضـات . في السنة ١٠٠٠ ، تمثلت طبقة « العمال » تمثلاً شبه حصري بفلاحين عندوا في الحصول ، من اعمالهم الزراعية ، على مـا يؤمن معيشتهم ويسد حاجـات الفرسان والاكليروس الضرورية ؛ وباستثناء حالات نادرة ، جرى انتقال الثروة ، عن طريق الاتاوات ، داخـل الاراضي الخاضعة للسيد التي هي شبه مقفلة . ولكن تحسن انتاج العمل الزراعي قد افضى شيئاً فشيئاً ، بفعـل تزايد المشاركات وارتفاع الارباح من الرسوم النسبية المفروضة على الحصائد ، وربما بفعل ارتفاع قيمة الاعشار الكنائسية بنوع خاص ، الى تزايد محسوس في موارد الاسياد : ممـا حدا باعضاء الطبقات العليا الى رفع مستواهم المعيشي وعـدم الاكتفاء بالمواد الغذائية الضرورية لاودهم . واتاحت الظاهرة نفسها ، لعدد متزايد الارتفاع من العمال ، الانصراف عن الارض الى نشاطات غير زراعية بالضرورة ، والقيام باعمـال جديدة ، كالصناعة اليدوية او التجارة ، تلبية لطلب الاغنياء . وقد تأمنت المواد الغذائية الضرورية لهؤلاء الاختصاصيين من فائض انتاج الاستثمارات الريفيـة ؛ الا انهم اضطروا لشرائها بمالهم ؛ فتعددت من ثم المقايضات خارج اطار الاراضي الخاضعة للاسياد ، واتصفت العلائق الاقتصادية بالانفتاح والمرونة ، وخضع انتقـال الثروات لحركة حثيثة . فكانت النتيجة الطبيعية ان النقد احتل مركزاً اعظم اهمية في الحياة اليومية ، ومست الحاجة للدراهم ؛ فاعيدت الى التداول تدريجياً المعادن الثمينة المجمدة في خزائن الصاغة ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فضربت في مصانع النقد قطع اخف وزناً وعيـاراً ؛ فعمت النقود وفقدت في الوقت نفسه بعض قيمتها ولا سيا قيمتها الشرائية وغدت من ثم اسهل تداولاً وامكن استخدامها آنذاك لتأمين عمليات الشراء اليومية . وكانت النتيجة الاخيرة للتوسع الاقتصادي ارتفاعاً بطيئاً ومستمراً في الاسعار : وبامكاننا تقدير مدى هذا الارتفاع متى علمنا ان ثمن الحبوب ، في احدى مناطق فرنسا ، سيصبح في اواخر القرن الثالث عشر اعلى منه في السنة ١١٠٠ بعشرين ضعفاً .

وقد لفت انتباه المعاصرين ، بعيد السنة ١٠٠٠ ، بين كافة مظاهر النهضة العامة في العلائق بين السكان ، كثرة الاسفار وتعددها والحركة الناشطة المفاجئة على الطرقات . فقد سهل التنقلَ احيـاءُ الاراضي الذي قلل من العراقيل الطبيعية (الاحراج الواسعة ومستنقعات الوديان) واسهم من ثم في تقريب المسافات بين الجماعات البشرية . بيد ان تقنيات هذا التنقل مـا زالت بدائية : فليست العربات متوفرة بعد ، والانهار والبحر هما للجميع اسهل الطرقات والوسيلة الوحيدة لنقل الاحمال الثقيلة ؛ اما في البر فينقل المشاة والدواب ، في الاكياس او على الاجلال ، مواد غذائية خفيفة الوزن وغالية الثمن بكميات صغيرة جداً ، الا انهم يسلكون طرقاً مختصرة غير محددة قد تفرضها هنا وهناك بعض نقاط المرور الاضطراري كالمجاز او الجسر او المخاضة ، والاديرة وبيوت الرب المشيدة حديثاً التي تؤاوي الضيوف مجاناً .

على الرغم من بطء المسير ومشاق الطريق واخطارها ، كثيرون هم ، في القرون الاقطاعية ،

الذين يهجرون عائلتهم او جماعتهم ويقومون بالاسفار : رجال او نساء ، اكليروس او رهبان فرسان او اناس من الطبقات الدنيا . فالسفر هو اعظم لهو آنذاك ، وافضل وسيلة لرجل الدرس والبحث كي يزيد معارفه ويطلع على كتب اخرى او يخالط معلمين آخرين ؛ ولغير الابكار من الابناء كي ينجوا من وصاية النسب المملة . ولعل المكوث في مكان واحد اقسى واجب يصعب على الرهبان احترامه . فكل حجة للتنقل مستحسنة ، وغالباً ما يكون الحج مناسبة للسفر . وتأتي حينذاك في رأس الممارسات التقوية زيارة بعض الاماكن المقدسة – وهي عادة وثيقة الارتباط بعبادة الذخائر : والمقصود هو الاقتراب بالجسد من بعض الحاجيات التي تشع بنعم فائقة الطبيعة منذ ان لامستها في الماضي اجسام القديسين . وغالبا ما تكون هذه الزيارة كفارة تطهر من الخطايا المميتة ، ووسيلة ايضاً للحصول على مساعدات فورية ، ولشفاء الجسد من الامراض ، ولاستمالة القوى الروحية . وهكذا فان الرجال يحتشدون في بعض التواريخ حول بعض المعابد العجائبية (وقد سبق ورأينا ان الحرص على اعداد الكنائس لاستقبال هذه الجماهير هو في الاساس من تحويرات التصميم والتجديدات الهندسية قبل القرن التاسع) ؛ ومنذ السنة ١٠٠٠ اتسعت حركة الحج الروحي هذه ، فاختار القسم الاكبر من الحجاج آنذاك ، هدفاً لزياراتهم ، اما روما ، واما اورشليم والاماكن المقدسة في فلسطين ، واما مدفن القديس يعقوب في كومبوستيل .

لم يكن هؤلاء المسافرون ، الذين يسيرون على مهل ، لينقلوا مؤنا غذائية تكفيهم طيلة سفرهم ؛ ولم يكن بمكنتهم كذلك الاعتماد ابداً على الضيافة المجانية في المؤسسات الخيرية ؛ فحملوا من ثم نقوداً كي يدفعوا في طريقهم اكلاف مأواهم وغذائهم وغذاء دوابهم ونقلهم بحراً . وسلموا هذه النقود لبائعي المحاصيل الزراعية ، واصحاب الفنادق المقيمين على جنبات الطرق ، والنحامين ، والخبازين ، الذين اخذوا آنذاك يقيمون باعداد متزايدة في امكنة التوقف ويجمعون ثروات طائلة ، كما تؤيد ذلك المستندات . فانفتحت من ثم امام المستثمرين الزراعيين اسواق جديدة بفضل حركة التنقل المتزايدة : فغدا باستطاعة الفلاحين تصريف قسم من فائض حصائدهم ، وانتشرت النقود في الاوساط الريفية .

بيد ان المزارعين الصغار لم يستفيدوا في الحقيقة استفادة كبرى من هذه الاموال ؛ فان القسم الاكبر من حصيلة مبيعاتهم قد عاد الى خزائن الاسياد الذين وفقوا قوانينهم الجبائية لاتساع حركة التداول النقدي ، باحلال الاتاوات النقدية او العينية محل الخدمات القديمة ، وبالاكثار من الموجبات ورسوم القطع . وانتهت النقود التي انتشرت بواسطة المسافرين الى الاسياد (الذين قاموا مباشرة احياناً بمقايضة فائض مواردهم ، ولا سيما موجودات اهراء جمع الاعشار القائمة على مقربة من الطرق الكبرى ، بالمواد الغذائية) فكان حكام الحصون وافراد المؤسسات الدينية ، الذين يجبون رسوم القطع العامة والغرامات القضائية الطائلة الارباح ، اول من استفاد من هذه

الحركة . فبات باستطاعة اعضاء الارستوقراطية الكنائسية والعلمانية ادخال زيادة محسوسة على نفقاتهم . واستخدم رجال الكنيسة بنوع خاص مواردهم النقدية الجديدة لتجميل المعابد : فشيدوا بدراهمهم ابنية جديدة واسسوا مصانع نقاشة واشتروا للواهف حللاً كهنوتية جديدة؛ وان هناك لصلة وثيقة بين الازدهار الفني في اواخر القرن التاسع ونمو صناعات التخصص ، ولا سيا صناعة النقاشة ، وبين نهضة الاقتصاد النقدي .

اما الفرسان فقد ضحوا بامكاناتهم المالية على مذبح رغبتهم في الظهور، وفي التألق في الجميات العالية ، وهي من ملاذ النبلاء الاولى . فما عادوا يقسمون بنتاج املاكهم والصناعة المنزلية ، بل تعودوا البذخ : بذخ المائدة ، الذي حمل على تقديم الاصناف النادرة للضيوف، والنبيذ في المناطق الشمالية ، والتوابل في كل مكان ؛ وبذخ الزينة الذي حمل على اهمال المنسوجات المبتذلة واقتناء الفراء والاقمشة الاجنبية الثمينة والاجواخ ذات الالوان النادرة . اضف الى ذلك ان الميل الى المصنوعات المستوردة الجيلة ، الذي لم يَخْبُ في يوم من الايام والذي حافظ على حركة تجارة طويلة المسافات في عهود الانكماش الاقتصادي ، قد زاد بصورة مفاجئة واحدث توسعاً جديداً في تجارة المواد البذخية . وبينا تزايد شراء المصنوعات الشرقية الذي قابله تزايد في التصدير الى البلدان الاسلامية ، نشط ، داخل العالم الغربي ، انتاج ومقايضة بعض السلع الثمينة : تجارة الخمور بين مناطق السين والواز ، التي قامت فيهما اقصى الكروم الشمالية ، وضفاف اللوار ، وسواحل الاطلسي ، وبين انكلترا وهولندا ؛ وانتشار الاجواخ الممتازة المنسوجة والمصبوغة في مدن مقاطعتي « الارتوا » وفلاندر ، فنشطت بذلك حركة انتقال البضائع في الوقت الذي نشطت فيه حركة تنقل الحجاج . ومن المستحدثات التي تثبت الاتساع المطرد في النقل التجاري ان حكام الحصون ، وقد اغرتهم المصنوعات الثمينة التي تمر تحت حمايتهم في الاراضي الخاضعة لسلطتهم ، فرضوا ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، رسوماً جديدة تناولت سلع الترانزيت ، واضيفت الى الرسوم القديمة المفروضة على عرض هذه السلع في الاسواق . وتألفت داخل طبقة العمال طبقة اقتصادية بلغ من اهمية عددها في اوائل القرن الحادي عشر انها كانت موضوع شروط خاصة في ايمان سلم الرب ، وقد نمت باطراد ضامة اولئك الذين يؤمنون لاعضاء الطبقات العليا المصنوعات البذخية التي يطلبونها : اعني بها طبقة التجار .

التجار

كان بين اختصاصيي التجارة بعض افراد الجماعات الاسرائيلية في المدن القديمة التي تخلّفت في اوروبا ، خلال مرحلة التقهقر الاقتصادي ، مستعمرات التجار الشرقيين القدماء واسهمت ، كما هو طبيعي ، في اتساع حركة المقايضات . بيد ان المسيحيين الذين اخذوا يجنون الارباح من الاعمال التجارية قد ارتفع عددهم باطراد: الوكلاء الذين اسند اليهم سيدهم مهام تجارية فعقدوا في الوقت نفسه بعض الصفقات لحسابهم الخاص وانتهوا الى الاستعفاء من وظائفهم الاولى ؛ وبعض العاملين في الطرقات والانهار الذين وظفوا في التجارة الاموال الاولى

التي جنوها من خدمة المسافرين ؛ وبعض ابناء الفلاحين الذين اضطروا للنزوح عن املاك عائلية ضاقت بسكانها وآثروا المغامرة بتعاطي التجارة الصغرى على العمل الشاق في احياء الاراضي ، كل هؤلاء كانوا تجاراً متجولين . والمجال لم ينفسح بعد امامهم حتى يستطيعوا انتظار الزبن في بيوتهم ويستحضروا البضائع من الاماكن النائية دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الانتقال: فالبحث عن البضائع حيث تكون وافرة ومعتدلة الاسعار، ونقلها وعرضها على من يمكنه شراؤها باسعار مرتفعة ، والامراع ، في مكان البيع ، الى شراء السلعة الموافقة التي يمكن بيعها في غير مكان ، والانتقال بعد ذلك الى مكان بعيد آخر، تلك كانت حال تاجر ذاك العهد، وهي شبيهة كل الشبه بحال البائع المتجوّل ؛ وطابعها المميز هو الحركة ، التي اشار اليها المعاصرون ، بحيث ان تسمية المحاكم الناظرة في الخلافات التجارية الصغرى بـ « محاكم الاقدام المغبرّة » قد استمرت في انكلترا النورمندية زمناً طويلاً بعد ذاك العهد .

كان هذا النشاط في الحقيقة جزيل الفائدة ، ويبدو ان عدد التجار الذين اثروا بسرعة كان كبيراً جداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الكراهية الدائمة التي استهدفت المهنة التجارية وسوء نية التجار الذين كانوا، في شيخوختهم ، يقدمون للكنائس والفقراء كميات ضخمة من الفضة والذهب كفارة عن الخطايا التي ارتكبوها ، بحكم تجارتهم ، ضد محبة القريب : فهذا « بنتلكون » ، احد سكان أمالفي ، الذي توفي في السنة ١٠٧١ ، قد وهب كنيسة القديس بولس القائمة خارج الاسوار في روما ابواباً برونزية طلبها من بيزنطية ، وشيّد كنيسة القديس ميخائيل في جبل غارغانو وجهّز وتعهد بعض المستشفيات في انطاكية واورشليم .

غير ان حياة التاجر محفوفة بالاخطار ايضاً: اذ عليه الدفاع عن امواله في الاسفار، ومقاومة جباة رسوم القراتزيت الذين يحاولون ان يأخذوا منه كل ما لديه من اموال ، وتحصيل اثمان بضائعه من الزبن النبلاء ؛ وعليه ان يكون شجاعاً ويحتاط للخطر بحمل السلاح ؛ وغالباً ما يتشارك التجار وينظمون القوافل كي يواجهوا الاخطار بقوة. اضف الى ذلك ان للتكتل حسنات اخرى : فكل تاجر يستفيد من خبرة رفاقه، ويحدث ان توحد الرساميل احياناً ، فيتاح للتجار عقد صفقات اوفر كسباً .. في البدء كانت هذه الشركات ، التي حملت اسماء مختلفة ، مؤقتة ومؤسسة لرحلة واحدة ، ثم ضمت ، بصورة قانونية ، رفي جماعة دائمة ومنضبطة نظمت تنقلاتها في مراعيد معينة وحدد خطّ سيرها سلفاً ، كبارَ التجار في منطقة واحدة ، وناقلي البضائع في نهر واحد ، والمتوجهين الى مركز تجاري واحد . يلتقي التجــار على اختلاف مناطقهم ، سواء كانوا منفردين أو منخرطين في هذه التكتلات المهنية لمقايضة سلعهم في نقـاط تقاطع طرقات التجارة الرئيسية، في اجتماعات تجارية كبرى؛ فان سوق العرض، وهي مركز سلم خاص في كنف سيد المنطقة الذي يعد لفترة من الزمن ، لقاء رسم طفيف ، بحرية المعاملات التجارية وتوفير الحماية للجميع ، جهاز اساسي للتجارة المتجولة ؛ اما المدينة ، وهي مأوى الاستراحة بين مرحلة انتقال واخرى ، فجهاز اساسي آخر . فالحاجة ملحة الى مستودعات يقضي فيها التجار

اشهر فصل الامطار القاسية بانتظار فصل القوافل واسواق العرض. ولذلك فان حركة المقايضات التجارية وحركة التنقل على الطرقات قد احدثتا نهضة في الحياة المدنية في الغرب .

نهضة الحياة المدنية

ان المجموعات السكنية الجديدة ، اي « الضيع الكبرى » – هذا هو الاسم الذي اطلق عليها آنذاك ، وغالباً ماوصفت بـ « الجديدة » للايضاح – نشأت ونمت في موقع مناسب للانتقال ، لأن المدينة مكان اتصال ، وللدفاع ايضاً ، لان في المدينة ثروات يجب الدفاع عنها . فقامت من ثم ، على وجه العموم ، في جوار مدينة رومانية روعيت في تأسيسها سهولات الاتصال ، واحيطت بالاسوار ، وضمّت بالاضافة الى ذلك مقر الاسقف والكهنة القانونيين ومركز عدة اديرة ومحل اقامة بعض العائلات النبيلة في اغلب الاحيان، وجمعت من ثم زبناً اثرياء دائمين . وقامت كذلك بعض الضيع الكبرى في جوار الحصون الهامة التي هي مراكز سلطات قضائية واسعة تقوم فيها حامية عسكرية كبرى يجب تموينها ؛ او في جوار الاديار ، تلك المراكز المحصنة ايضاً ، التي تجتذب المسافرين من حيث هي نقاط لاجتماعات دينية دورية . ولكن الحي الجديد يكاد يبقى متميزاً ابداً عن النواة السكنية القديمة التي اسهمت في تعيين مكانه : وتنحصر في هذه الاخيرة ، المنكمشة وراء اسوارها، المهام الدينية او العسكرية ، ولا يقيم فيها بصورة عامة سوى رجال الاكليروس والجنود ؛ اما الضيعة وهي في البدء مكان مفتوح قائم خارج الاسوار، فتنتظم حول المكان المخصّص للاعمال التجارية (المرفأ، الساحة العامة) ، وهو في الغالب فسيح جداً تقام فيه سوق اسبوعية ؛ وتستطيل شوارعه، التي تحيط بها الفنادق وفاقاً لاتجاهات السير الرئيسية ؛ ثم ان بيوتها نفسها ، التي يطل الدور الاول فيها ، بباب عريض ، على الشارع الذي يكثر فيه المارة ، تعبر عن الغاية التي من اجلها احدثت المجموعة السكنية : فهي وليدة الطريق ، وهي بالتالي مكان مرور وتجارة .

ينتسب الرجال الذين أسسوها وتجمعوا فيها الى اوساط مختلفة . فالبعض منهم ، وهم قليلون في الارجح ، « دون جنسية » ، يدخلون في عداد التجار الجوالين المجهولي المنشأ الذين توقفوا فيها يوما وأسسوا عائلة . وينتسب شطر هام من السكان الى المدينة القديمة او الحصن او جواره : كالوكلاء ، وخدام الاسقف او حاكم الحصن او الدير ، وبعض فلاحي الضواحي السابقين ، الذين استهوتهم مكاسب التجارة فتركوا استثمارهم الزراعي وجمعوا بعض المال ببيع عقارهم وأسسوا عملا . وينتسب معظم سكان الضيعة اخيراً الى الارياف المجاورة . الا انهم ، مهما كان منشأهم ، اندمجوا في طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية ، التي اتضحت صورتها في منتصف القرن الحادي عشر ، وتميزت ، قبل أي شيء آخر ، بدور اقتصادي خاص : فأعضاؤها متخصصون في التجارة والصناعة اليدوية ، حتى ولو لم يتجردوا تماماً عن الارض او ما زالوا يجمعون بعض الحنطة والنبيذ من القطع التي يحتفظون بها في جوار الضيعة وحتى داخل نطاقها ، او حصلوا على استخدام المراعي السيدية (نسبة الى السيد) المجاورة لمواشيهم .

لذلك ليست الارض، شأنها في غير مكان، الثروة الرئيسية في المدينة ، بل احتياطي الفضة،

سبائك او نقوداً ، والبضائع الثمينة المخزونة . ولذلك ايضاً تجمع الثروات في المدينة وتنهار بسرعة ، كما ان الرابطة العائلية اضعف منها في المجتمع الريفي لان النشاط المهني هنا وطبيعة الاملاك لا يخضعان للموجبات النسبية .

اذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في الضيعة الكبرى ، فان تنظيم السلطة فيها مماثل في الاصل لتنظيم السلطة في الارياف . فكثيرون بين سكان القرية ، ممن ينحدرون من فلاحين مهاجرين لم يبتعدوا كثيراً عن قريتهم الوالدية كي يتملصوا من كافة روابطهم ، كانوا فداديين واتباعاً شخصيين لاحد الاسياد ، وكثيراً ما ازعجتهم الخدمات ، التي الزموا بها نحو سيد شخصهم ، في ممارسة مهنتهم . اضف الى ذلك ان الضيعة الجديدة قد قامت في الارياف ، والارض التي ارتفعت عليها المساكن تؤلف على العموم جزءاً من اقطاعات ريفية قديمة ، واسياد الارض يطالبون شاغلي هذه القطع بالاتاوات السابقة نفسها ، وتقادم المواد الزراعية ، وحتى خدمات الحراثة . وخضعت المدينة كلها اخيراً الى حكم سيّد او عدّة اسياد ، وفرض اسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن ، الذين استوفوا الرسوم نفسها المستوفاة في الاحياء الريفية من ممتلكاتهم ، الخدمة العسكرية اثناء تنظيم الاسواق وجمعوا ضريبة القطع ، وكادوا ينتزعون من التجار رؤوس اموالهم ، ومارسوا اخيراً بعض الحقوق التي عرقلت اعمال المقايضة ، كامتياز الشراء بالدين ، وحق ارهاق التجار الغرباء ، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع . لذلك فان النظام السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي . ولذلك ايضاً سوف يحاول سكان المدن الحصول من اسيادهم على تعديل نظام الحكم هذا مستخدمين بعض الاسلحة : احتياطي المعادن الثمينة الذي كدسوه والذي قد يغري من بيدهم السلطة ، وعادات التضامن المكتسبة في الجمعيات التجارية ، وتدربهم على خوض المعارك بقوة ، وقد حققوه في تجولاتهم التجارية ، ومثلَ الجمعيات السلمية القائمة بين اعضاء طبقة الفرسان .

حركة التكتل البورجوازي

وفي سبيل تثبيت اقدامهم امام سيد السلطة ، اتحدوا في أغلب الاحيان ، اتحاداً اشد وثوقاً ، في هيئة جماعة تضم كل الفئات وكافة رؤساء العائلات في القرية : اعني بها جمعية البورجوازيين . قامت هذه الجمعية ، شأن الجمعيات التي تألفت للدفاع عن سلم الرب ، على يمين متبادلة ، واستهدفت ، في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوفاق بين المتحالفين ؛ فالذين يعتدون على « سلم المدينة » يقعون تحت طائلة عقوبات صارمة تنفذها الجماعة بحضور كافة اعضائها . ووحّدت هذه الهيئة كذلك كافة النشاطات الفردية بغية القيام بعمل جماعي ضد اعداء الجمهور . فكانت من ثم جمعية منضبطة يشرف على ادارتها ، كما هو طبيعي ، اوسع الاعضاء نفوذاً في اعظم الفئات قوة ، أي فئة التجار ، بوجه عام ، التي تتوفر لديها اعظم الوسائل المالية .

برزت مقاومة البورجوازيات اولاً في المقاطعات الغربية حيث ساعدت الحركة التجارية المتميزة بمزيد من النشاط على نمو المدن المبكر ، أي في المنطقتين اللتين تأثرتا منذ العهد الكارولنجي

بنمو حركة المقايضات : ايطاليا اللومباردية حيث بذلت ، منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر جهود التجار الاولى (وهم هنا حلفاء طبقة الاشراف التي ألفت في المدن الجنوبيـة أقوى عنصر بين مجموع السكان) للافلات من قوة السيد ؛ وشمالي فرنسا حيث تألفت الجمعيـات البورجوازية في « المان » في السنة ١٠٧٠ وفي كمبريه في السنة ١٠٧٧ ، ثم في بوفيه وكانتان ؛ وامتدت المقاومة شيئاً فشيئاً الى المدن المختلفة ، الصغرى منها والكبرى ، وافضت قبل السنة ١١٥٠ ، في معظم المراكز التجارية ، الى التخفيف من وطأة اقتسارات الحكام المزعجة . فرضي الاسياد ، تحت ضغط التمرد احياناً – في السنة ١١١٥ ، اقدم بورجوازيو « لان » على قتـل اسقفهم الذي رفض تخفيف مطالبه – وتحت تأثير مبلغ كبير من المـال غالباً ، واقتناعاً منهم بفوائد الاتفاق الذي يساعد على نمو المدينة ويؤدي في النهاية الى ارتفـاع عدد رعاياهم ، بمنح الجمعية البورجوازية دستوراً ، أي عقـداً خطياً ومذيلاً بالاختام ، يضمن « الحرية » أو « الاعفاءات » ، أي تخفيض الرسوم .

تضمنت بنود دساتير الحريات في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، وعداً لكافة سكان المدينة ، وبعد انقضاء فترة من الزمن تحدّد عادة بسنة ويوم ، لكل من يقصدها للاقامة فيها ، بالاستقلال الشخصي : فحلّت بذلك كافة روابط القنادية والاستئثار التي كان من شأنها اخضاعهم وراثياً ، في السابق ، لرجل آخر – وزالت بالفعل نفسه الواجبـات المفروضة على الاتباع ، كزواج القنادي خارج الاراضي السيدية ، وحرمانه من التصرف بأملاكه اذا لم يرزق اولاداً ، وحظر التنقل عليه . اضف الى ذلك ان العادات السيدية ، ان لم تلغ بكليتها (اذ غالباً مـا يحتفظ السيد ببعض الامتيازات وبعض المكاسب) ، فقـد انقصت انقاصاً عظيماً : فالخدمة العسكرية ، المطاقة على مضض ، لانهـا تعرقل التنقلات التجارية وقد ترغم على استعمال القوّة ضد الزبن والعملاء ، قد الغيت احياناً وتحدّدت ابداً ، واقتصرت صلاحية السيد القضائية ، على معاقبة الجرائم الفظيعة اذا تقدمت الضحايا بالشكوى ، وفقدت ضرائب القطع طابعها التعسفي ، والغيت بصورة خاصة كافة امتيازات السيد التجارية ، وكافة العراقيل المقامة في طريق الانتقال والتجارة والتردد بحرية على المعارض والاسواق .

كانت الجمعية البورجوازية ، بعد تحقيق هذه النتيجة ، تنتهي الى الانحلال في معظم الاحيان. فتصبح المدينة حرة آنذاك . ولكن غالباً ما يحدث ان يستمر التكتل البورجوازي حتى بعـد احراز النصر وان يعترف بوجود الجمعية في الدستور ويوافق عليه . فتحصل جمعية البورجوازيين بالتالي على الشخصية القانونية وترث قسطاً من حقوق السيد الحاكم القديمة وتمسي سيادة جماعية: سيادة عسكرية ، اذ ان البورجوازيين ملزمون بحمل السلاح ، لاجـل خدمة المدينة لا السيد ، ولأجل الدفاع عن مصالحها التجارية ولتأمين نجاح الجميع ؛ وسيادة قضائية، اذ ان الصلاحية الاستثنائية التي حصلت عليها خلال النضال من اجل الحرية والتي يمارسها مندوبو التكتل ، قد حلت الآن محل سلطات القمع القديمة التي اقصاهـا الدستور عن المدينة ؛ وسيادة مالية اخيراً ،

فتتصرف باموالها وتفرض الرسوم على كافة اعضاء الجماعة سواء كانت هـذه الرسوم مساهمات اقرت في السابق تدعيماً لمناهضة السيد ام عادات اقطاعية قديمة استردت بالشراء من المستفيدين منها . ويشترك كافة البورجوازيين على السواء في هذه السلطة الجماعية ويعقدون جمعيات عمومية ويتخذون القرارات الهامة متضامنين . الا ان إدارة الشؤون العادية والشؤون القضائية وادارة الاموال العمومية تسند الى هيئة مختصرة منبثقة بصورة عـامة عن الاوليغارشية التجارية ، اطلق عليها اسم المشيخة في البورجوازيات الشمالية واسم القنصلية في البورجوازيات الجنوبية .

وهكذا تكونت ، بين السنة ١٠٠٠ ومنتصف القرن الثاني عشر ، ونتيجة لنهضة التجارة ، وفي وسط العالم الريفي والمجتمع الاقطاعي ، اجسام غريبة هي المدن . اجل انها لا تزال صغيرة جداً وتكاد لا تضم سوى بعض المئات ، ونادراً بعض الالوف ، من البورجوازيين غـير ان ظهورها قد احدث تبديلات عميقة في الوسط المجاور . فقد شجع نمو المدن ، في الدرجة الاولى ، تسرب الاقتصاد النقدي الى الارياف . كانت المدينة التجـارية ، في البدء ، مخزناً تعرض فيه بصورة دائمة سلع مغرية غريبة عن الانتاج المحلي ؛ وكان هذا العرض يحرك في الطبقات الريفية ، اي الفلاحين ، ولا سيما في الاشراف وكبار اعضاء الاكليروس ، رغبة في الانفـاق ، فتستجمع المدينة في خزائنها دراهم هؤلاء الناس ، اي فائض الثروة الناجم عن انتاج زراعي افضل . الا ان الاموال المنقولة ، المكدسة في المدينة ، توزع بدورها بعد ذلك : بالدين ، لان التجار يسلفون الريفيين ، زبنهم ، المال الذي يفتقرون اليه ، فتتكاثر القروض بالفائدة التي يمارسها اليهود بنوع خاص ، لان الربى محظر مبدئياً على المسيحيين ، والقروض لقاء رهونات عقارية التي تضع تحت تصرف الدائن الارض ومحاصيلها حتى تسديد الدين ؛ وبالشراء من اهالي المدن ايضاً : اذ ان المدينة مركز استهلاك ثابت لمحاصيل الحقول والمواد الغذائية (فالبورجوازي ، ولو كان نصف فلاح ، لا ينتج كل ما يؤمن غذاءه) والمواد التي تستعملهـا الصناعة المدنية كالصوف والخشب والجلد . فساعد وجود المدينة على طبع حركة التداول النقدي بالسرعة واستعجـل التطور الداخلي للاقتصاد الريفي والاقدام تدريجياً على تأسيس المشاريع الزراعية .

اضف الى ذلك ان المحاولات البورجوازية للفوز بالاعفاءات قـد قلبت التوازن السياسي قلباً اعتبره المعاصرون مشيناً . فهـا قد برزت في قلب التنظيم الاقطاعي ، المبني على الاباء والتسلسل ، سيادات لا هي بالنبيلة ولا هي بالدينية ، واحلاف تربط المتساوين ؛ وهـا قد جاء تأليف فئة اجتماعية جديدة، الطبقة البورجوازية ، المتميزة بدورها الاقتصادي الخاص وبنظامها القانوني الممتاز ، اي الحرية الشخصية ، يدخل البلبلة في نظام « الطبقات » القديمة وفي التسلسل التقليدي في توزع الثروات ، اذ ان العمال قد نزعوا ، عن طريق التجارة ، الى ان يمسوا اعظم ثروة من الفرسان . وهكذا فـان المدينة — الحديثة ، التي كانت ملجأ للمستثمَرين الفارين من اسيادهم الذين ينضمون ، بعد مرور سنة ، الى الجماعة البورجوازية ، وعبرةً لسكان القرى الذين بدأوا بدورهم ، بعـد سكان المدن بنصف قرن تقريباً ، يطالبون اسيادهم بتحديد العادات

الاقطاعية وتخفيفها ، قد غدت جرثومة تفكيك في قلب العالم الاقطاعي . بيد ان نهضة المدن والازدهار التجاري قـــد شكلا موقتاً ، وحتى اواخر القرن الثاني عشر ، عوامل توسع قوية كانت الطبقات المسيطرة ، اي الفرسان والاكليروس ، اول من افاد منها .

٣ ـ التوسع العسكري

أدى ارتفاع عدد سكان الارياف الفلاحين الى اتساع الاراضي الزراعية وانشاء قرى جديدة والى نمو المدن؛ وأدت الظاهرة نفسها الى تنمية روح المغامرة في الارستوقراطية. فاستهوت المشاريع العسكرية أبناء العائلات الشريفة ، الذين ارتفع عددهم ايضاً ، بتأثير من ميولهم والتربية الـتي خضعوا لها ، لا سيما وانهم كانوا يبحثون عن موارد اضافيـــة ؛ ولما كانت نظم السلم والقانون الاقطاعي والروابط المختلفة التي تشدهم الى كافـــة جيرانهم تقصر على جوار مسكنهم ظروف ومكاسب الحرب، فقد قرروا القيام بحملات عسكرية بعيدة. وهكذا كان ارتفاع كثافة السكان منطلقاً لتوسع طبقة فرسان البر ، وبخاصة طبقة فرسان « الفرنجة » والارستوقراطية العلمانيـة في المقاطعة الكائنة بين نهري « اللوار » والرين . ولكن نجاح هذه المشاريع يفسره كذلك تحسن تقنيات الحرب المعتمدة لدى المحاربين المسيحيين .

تقنيات الحرب

يعود اهم هـــذه النجاحات الى استخدام الحصان في المعركة استخداماً متزايداً؛ ويرتبط هذا النجاح من ثم بتحسين عدة الخيول ، ولا سيما باعتماد الركاب وتقدم تربية الجياد ، وبالتالي بتقدم التقنيات الزراعية وانتشار دورة استراحة الارض كل ثلاث سنوات وزراعة القرطمان . ومهما يكن من الامر ، فان المحارب الجدير بهذا الاسم ، في القرن الحادي عشر ، هو فارس كما نعلم . فنتج عن ذلـــك ، في الدرجة الاولى ، ان المحارب استطاع ، لانه فارس ، حمل اسلحة دفاعية اثقل وزناً ، وبالتالي اشد متانة وفعالية. وفي الواقع تحسنت الاسلحة تدريجياً منذ العهد الكارولنجي. وقد تألفت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كما يمكننا مشاهدة ذلك في الرسوم المطرزة على « فروش » « بايو » التي تصف حملة غليوم الفاتح على انكلترا ، من عناصر ثلاثة : الخوذة المعدنية الطويلة التي تتمّمها الى الامام قطعـــة مسطحة (الانف) تقي مقدمة الوجه،والدرع الطويل الذي يقي الجسم من الذقن حتى الركبتين، وهو مصنوع من جلد تغطيه صفائح معدنية صغيرة ، او محبوك بكليته بالزرود المعدنية ، وهي طريقة اخذت بالانتشار تدريجياً، والترس الجلدي الكبير اخيرا ، وكان شكله اما مستديراً واما ثلاثي الزوايا . وكانت هذه الوقاية المتقنة باهظة الاكلاف (ولتحسن التسلح ، كما نرى ، علاقة مباشرة بتقدم صناعة الحديد وبزيادة الدخل السيدي الذي يتيح للنبيل تكريس مزيد من المال لعدته) ؛ الا انها تجعل الفارس ، عملياً ، بمأمن من اسلحة القذف ، أي الحراب وسهام القوس الصغيرة،التي لا يمكن ان تؤذي سوى ركوبته .ولذلك فقد تبدلت أساليب خوض المعركة ايضاً.

ليس بعد اليوم من هجوم ينطلق من مسافة طويلة ؛ لقد ترك استعمال القذائف للمشاة الذين غدا دورهم ثانوياً ، فكلفوا مهمة تأخير اقتراب الاعداء فقط ؛ اما الجنود الحقيقيون ، فانهم يتبارون الآن بالمصارعة وجهاً لوجه . اجل قد يقوم الجنود بالهجوم راجلين احياناً ، — اذ ان الحصان ، الذي يستخدم للنقــل فقط ، يُترك حين يصطدم المتصارعون — ولكن الاسلحة الهجومية ايضاً غدت آنذاك اثقل وزناً ، كي تتيح فري الخوذ وتمزيق الدروع : وهذه الاسلحة هي الفؤوس او الرماح الكبيرة التي تستعمل بالذراعين . الا ان التبدل الحاسم بنوع خاص كان ان المرحلة الفاصلة في المعركة غدت ، شيئاً فشيئاً ، تصادماً بين الفرسان . واعطت الركابُ الفارسَ مزيداً من التوازن واتاحت له نهج خطة هجومية جديدة : يمسك الترس باحدى يديه والرمح الطويل بالاخرى ويحمل على عدوّه بسرعة عدو حصانه ويحاول قلبه عن السرج . فيكفي ان يلقى على الارض بعنف فارسٌ متلبك بعدّة ثقيلة حتى يصبح مؤقتاً عاجزاً عن القتال ؛ لذلك ، وبسبب الضمانة الكبرى التي توفرها للمحارب اسباب وقايته المعدنية المعززة ، تبدل الهدف من الاصطدام تدريجياً : فلم يعد القصد قتل العدو بــل اسره وقبض فديته . واكتمل التطور في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، فقامت المعركة حينــذاك بسلسلة من الهجمات المتعاقبة يقوم بها فرسان ثقيلو العدّة ولا يمكن مقاومتها اذا لم يمارس الاعداء التقنيات نفسهــا ويجهزوا باسباب الوقاية نفسها . وقد اضيفت الى تحسن الادوات والاساليب العسكرية تربية استهدفت ، بكليتها ، تنمية الجسم واتقان فن الفروسية ، وطراز حياة كانت افضل تسلياته التمارين العنيفة والالعــاب الحربية ، وذهنية تحل ، فوق كافة الفضائل ، الشجاعة الجسدية والغيرة على رفاق السلاح ، وذلــك رغبة في توطيد تفوق الفارس الفرنجي ، انطلاقاً من السنة ١٠٠٠ ، على كافة المحاربين المتمهنين الآخرين .

نورمنديو انكلترا وايطاليا

منذ اوائل القرن الحادي عشر انطلق المغامرون الارلون المسعودون من ضفاف السين في نورمنديا ، حيث استمرت تقاليد « الفيكنغ » الحربية ، وحيث ارغم النظــام الدوقي الصارم معكري صفو الامن على الانتزاح عن بلادهم . وكان اهم احداث التوسع النورمندي نتيجة اقــدام غليوم الفاتح في السنة ١٠٦٦ ، على رأس زمرة من المحاربين المحشودين من املاكه ، ومن بريطانيا وفلاندر ايضاً ، على الاستيلاء عــلى مملكة انكلترا . فاقصيت المناطق الانكلوساكسونية ، منــذ ذاك الحين ، عن النفوذ السكنديناڤي وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحضارة غاليا الشمالية . ولا ريب في ان عناصر الثقافة المحلية ، المنحدرة الى مستوى التقاليد الشعبية ، قــد حافظت على نشاطها ، بينما اوسخت الطبقات المسيطرة لغة اليابسة وعاداتهــا الاجتماعية وطرق تفكيرها . وانضمت العادات الاقطاعية المستوردة الى النظم الصارمة التي خضعت لها الجماعات الساكسونية لتجعل من ملك انكلترا اقوى اسياد اوروبا في عهده .

سبق لنورمنديين كثيرين ، في عهــد الفتح الانكليزي ، ان ذهبوا يبحثون عن الثروة في

اقاصي التخوم الجنوبية للمسيحية اللاتينية . فاكرى القسم الاكبر منهم خدماتهم العسكرية ، في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية حيث تجابهت سيطرات مختلفة ، وحيث كان اصحاب الدوقيات اللومباردية في الأبنين والحكام البيزنطيون في الساحل والمدن التجارية والعرب اخيراً الذين كانوا قد استولوا على صقليا يتصارعون باستمرار. فاستخدم هؤلاء الجنود الاقوياء بسهولة واستدعوا اخوتهم وابناء اعمامهم الذين كانوا يعيشون حياة حقيرة في قصور الاسياد العاجة بالاولاد . وهكذا فان احد هؤلاء المرتزقة المدعو روبير غيسكار ، وهو رئيس فرقة عسكرية تجمعها روابط النسب والاقطاعية ، قد انجز عملاً مدهشاً : اذ انه قد اقتطع بسيفه في كالابريا ، و « بوي » ، دولة عاد واستلمها اقطاعة من البابا في السنة ١٠٥٩ ، ثم سار قدماً في فتوحاته على باري ، في السنة ١٠٧١ وطرد الاغريق طرداً نهائياً من ايطاليا الجنوبية ، وانتزع ، في الوقت نفسه ، وبمساعدة اخيه روجيه ، صقليا من المسلمين قطعة قطعة ، وخضعت له باليرمو في السنة ١٠٨٢ ، وحين اصبح حماً لامبراطور القسطنطينية خطر له التوسع في إليريا ، فاحتل دورازو وكورفو .

احرز بذلك في نقطة تلاقي العوالم المتوسطية الثلاثة ، اللاتيني والبيزنطي والعربي ، اول تقدم حققته المسيحية الغربية ، وتأسست دولة جديدة اقطاعية الهيكل في اجهزتها العليا على غرار نورمنديا ، على ان ملكها ، كما في انكلترا ، قد تمتع بحقوق واسعة جداً على السكان الذين اخضعهم الفتح ، وافاد ، بالاضافة الى ذلك ، من موارد جبائية وافرة تضمن له خدمات عملاء مخلصين . فان صقليا ، وهي ملتقى لغات واديان وحضارات ، كانت ايضاً ميناء على الطرقات البحرية الكبرى تتمون فيه البواخر وسوق ذهب وتجارة كبرى . فمن هذه الزاوية الاخيرة ، كان احتلال الجزيرة من قبل المسيحيين وضمها الى ملكية ثابتة الاركان حدثاً ذا أهمية عظمى للغرب بأكمله ؛ وقد أفضى ذلك فعلاً الى الحد من نشاط القراصنة بصورة محسوسة ؛ وتوفرت كذلك محطة امينة للبواخر المسيحية التي استطاعت باوغ مرافىء الشرق بمزيد من السهولة . ورفع الحصار عن حوض المتوسط الغربي ؛ فلم تعد البندقية والادرياتيك الطرق الهامة للتجارة مع الشرق ، واتيح للنشاط التجاري الامتداد الى شواطىء كاتالونيا ، ولنقدوك ، وبروفنسا ، وكلها قطاعات لا يزال قراصنة الباليار المسلمون يضايقونها – بينما احتلت بيزا ، وجنوى ، على شواطىء البحر التيريني الايطالية ، محل امالفي التي استطاعت بمفردها حتى ذاك العهد ، بموجب اتفاق مع عرب صقليا ، اجتياز مضيق مسينا ، والتوجه ببواخرها التجارية شطر الشرق .

الحرب الاستردادية والحروب الصليبية

امست شبه الجزيرة الايبيرية جبهة اخرى لاسترداد فتوحات غير المؤمنين ، فاستقبل رؤساء الدول المسيحية الصغيرة في الجبال الشمالية ، اي كاتالونيا والاراغون قشتالة ، بدورهم ، فرساناً من الفرنجة ، والنورمنديين ايضاً ، ولا سيما البورغونيين والشمبانيين . واستطاعوا بفضل هذه النجدات القيام بغزوات فصلية على مناطق الاحتلال الاسلامية المستضعفة : غارات نهب مفاجئة اولاً ، ثم

حملات فتح اكسبت المسيحية ، شيئاً فشيئاً ، طرائد فتحت امـــام الاستعمار الريفي والمدني وتكون في اسبانيا ، ابان هذه المعارك المثمرة ، شعور جديد هو تعبير عن القوة التوسعية الفتية لدى الفرسان الغربيين : فكرة الحرب المقدسة كعمل تقوي يؤمن الخلاص . اما هذا الشعور ، الذي ستعبر عنه وتبثه الاغاني الايمانية ، فقـــد استغله ووجّهه المشرفون على ادارة الكنيسة . ففي السنة ١٠٦٣ ، اعدّت ، باتجـــاه وادي الايبر ، اولى الحملات العسكرية المنظمة على غير المؤمنين ، وقـــد حصل المشاركون فيها على ضمانة بسلامة ممتلكاتهم وعائلاتهم ونيل بعض الغفرانات والفوائد الروحية . وقد قابل بطء النجاحات البيريلية هذه – اذ ان ساراغوسا لن تسقط الا في السنة ١١١٨ – الانتصارات الصاعقة التي حققهـا فردينان الاول ملك قشتاله : فهو قد دخل كوامبر منذ السنة ١٠٧٤ وفرض الجزية على معظم الامـــارات الاسلامية في شبه الجزيرة ؛ واحتل ابنه مدينة طليطلة في السنة ١٠٨٥ . ثم اضطر المسيحيون بعد ذلك لفترة من الزمن الى التراجع امام « المرابطين » الآتين من افريقيا ، ولكنهم مـــا لبثوا ان استعادوا الاراضي التي تخلوا عنها ، وغالبا ما حالف الحظ الصراع ضد غير المؤمنين ، وهو صراع لن يعرف بعد ذاك التاريخ توقفاً طويل الامد .

اختلفت الحروب الصليبية، بفهومها الحصري، عن الحروب المقدسة التي خيضت ضد الاسلام ، بتفاصيل بسيطة : فالمحاربون المسيحيون تجندوا في مشروع اشترك الكرسي الرسولي في ادارته، وتسلّموا شارة مميزة رمز الفداء نفسه ، وحصلوا على امتيازات واسعة ومحدّدة بدقة ، وعين لهم هدف اعظم تهويساً من استعادة هضاب قشتاله ، اعني به انقاذ قبر المسيح . منذ ان انتشرت ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، عادة القيام بالحج ، تزايد السفر الى الارض المقدسة لانه اعتبر اعظم الممارسات نفعاً للخلاص الابدي ، وقلمـا ضايقه العرب ، الذين كانوا متساهلين جداً ، كما يبدو من جهة ثانية ان الغزو التركي لم يجعل الدخول الى معابد فلسطين اكثر صعوبة . الا ان فرسان الغرب، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة، اخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، يؤدون فريضة الحج، جماعات صغيرة مسلحة ؛ كما اخذوا بعد عودتهم ، يبسطون شعورهم بأن الفتح ليس امراً مستحيلاً ، ويصفون في الوقت نفسه ثروات الشرق الطائلة . وجاء الاندفاع التركي اخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جدياً خطيراً ، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق . استفاد البابا اوربانوس الثاني من هذا الجو الملائم ودعا كافة المسيحيين المتهنين الخدمة العسكرية والحاملـــين شارة الصليب ، الى الذهاب بأسلحتهم الى القدس ؟ فصادفت دعوته، في وقت قصير، نجاحاً منقطع النظير قلب المخطط البابوي الذي كان متواضعاً في البداية. ففي كافة مناطق المسيحية اللاتينية ، لبى الفرسان هذه الدعوة بحماس . وهكذا ابتدأت عملية معدة لأن تدوم أكثر من قرنين سيساور الحنين اليهـا عقول النبلاء حتى فجر العهد المعاصر . اعدت الحرب الصليبية الاولى على مهل وبالتفصيل : تنطلق اربعة طوابير مسلحة وتسلك طرقاً مختلفة وتلتقي امام القسطنطينية . ليس هنـاك من ملوك ، لأن هؤلاء لم يتمتعوا آنذاك بسلطة

فعلية ؛ ولكن أكثر المحاربين عدداً وثباتاً ، اولئك الذين أفلحوا اخيراً في الاستيلاء على اورشليم في ١٥ تموز من السنة ١٠٩٩ ، انطلقوا من المناطق الفرنجية القديمة .

تنظم في الارض المقدسة بعد ذلك شبه مخفر امامي بعيد للاقطاعية الغربية . الا ان هذا الصرح السياسي كان في الواقع ركيكاً : اذ ان السيطرة « الفرنجية » لم تتخط سواحل الشرق قط ، ولأنها لم تبلغ قط في الشمال ، حيث حققت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة كيليكيا ، الصحراء التي كان من شأنها ان تكوّن لهذه السيطرة حدوداً داخلية على بعض القوة ؛ فالاسلام ما زال راسخ القدم في دمشق وفي حلب ، وهو ينوء بثقل وزنه على هذه الطريدة الساحلية . وكان ركيكاً في تركيبه الداخلي ايضاً : فهي العادات الاقطاعية الغربية ، المنقولة الى الشرق نقلاً صنعياً ، ما استخدم هيكلاً اوحد لكيان سياسي لم يوجده رئيس زمرة – كما في الدولة الصقلية او المملكة الانكلو – نورمندية – بل حكام حصون وفرسان اتحدوا على قدم المساواة في جمعية مؤقتة لتأدية فريضة الحج وخوض غمار المعركة . اجل لقد قامت هناك مملكة كانت اجهزتها في البدء اعظم فعالية مما تبدو في الابحاث التي وضعها رجال القانون الاقطاعيون في القرن الثالث عشر : فملوك اورشليم هم الوحيدون ، مع ملوك انكلترا ، الذين استطاعوا ، في منتصف القرن الثاني عشر ، الحصول على الخدمة المباشرة من اصحاب الخانات لا يرتبطون بهم مباشرة ، والوحيدون ايضاً الذين لم تكن الخدمة العسكرية ، بالنسبة لهم ، محددة في الزمان. ولكن هذه المملكة لم تمارس الرقابة على امارات الرها وانطاكية وطرابلس التي تأسست ، ابان تقدم الصليبيين ، بمبادهات مستقلة ، فلم يستطع الملك من ثم تحقيق وحدة القوى الضرورية للذود عن حدود تحيق بها الاخطار المداهمة . وكان ركيكاً ، بالاضافة الى ذلك ، لأن الصليبيين ، على نقيض المرتزقة في كالابريا ، او رفاق غليوم الفاتح ، لم يقصدوا اقتطاع سيادة وراء البحار والاستقرار فيها . فهم قد تعهدوا بانقاذ اورشليم بحراستها حراسة مستمرة ، وقد عاد معظمهم الى بيوتهم بعد بلوغ امنيتهم ونيل الغفرانات . ولهذا السبب لم تكن الدول الفرنجية في الشرق مستعمرات معدة للاسكان . اجل استقرت بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في بعض الحصون المتشلتة وبعض المراكز التجارية ؛ ولكن الغربيين بقوا أقلية ضئيلة في وسط سكان البلاد .

بيد ان المؤسسات اللاتينية في شواطىء المتوسط الشرقية قد طال بقاؤها . ويعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الاسلام كان مستضعفاً جداً ؛ ويعود ايضاً الى ان مشروع الحرب الصليبية ، خلال القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر – على نقيض ما تحملنا الارقام التسلسلية التي نسبتها المؤرخون في الماضي الى اعظم الحملات اهمية على الاعتقاد به – هو في الواقع مشروع دائم: ففي كل سنة نذور جديدة، وفي كل ربيع يتوجه شطر من الفرسان الاوروبيين الى ما وراء البحار ويقضون في الارض المقدسة بضعة اشهر، وبضع سنوات احياناً، فيوفرون لمنظمي الدفاع جنوداً قد يكونون اقل خبرة وتدريباً ولكنهم اشد همة وحماساً من جيش الاقطاعيين المحليين

يفسحون المجال بعد تأدية خدمتهم المسيحية ، لافواج اخرى من المجندين ؛ فتكونت بذلك حركة دائمة ذهاباً واياباً. زد على ذلك ان جمعيات دينية جديدة قد تأسست وخصصت لهذ النوع الجديد من التقوى ، الذي هو الحرب المقدسة ؛ فقد كان في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً فرسانُ المعبد الذين وضع قانونهم في السنة ١١٢٨ ، وفرسان مستشفى اورشليم ، والفرسان التوتونيون ، وقد اسندت اليهم مهمة استقبال حجاج الارض المقدسة وحمايتهم ضد غير المؤمنين ؛ ولم تلبث فروع اخوياتهم ان انتشرت في كافة المناطق المسيحية وجندت صليبيين جدداً وجمعت الاحسانات ممن تعذر عليهم وفاء نذورهم فابدلوها بالمال واستخدموها للدفاع عن المؤسسات الصليبية في المشرق ؛ وان الحاميات الدائمة التي تعهدتها هذه الاخويات في الحصون الضخمة المجهزة خير تجهيز والقائمة عند تخوم العالم الاسلامي ، قد اسهمت اسهاماً فعالاً ، على الرغم من المنافسات التي قامت بين الجمعيات ، في اطالة وجود الامارات المسيحية . اجل لقد انكمشت هذه الامارات شيئاً فشيئاً : فقد فقدت الرها في السنة ١١٤٤ ؛ وسقطت اورشليم في السنة ١١٨٧ . ولكن المنطقة الساحلية صمدت ، واذا كان الفرنجة قد انكفؤوا امام الاسلام ، فانهم اخذوا ، في اواخر القرن الثاني عشر ، يستعيضون عن خسارتهم ببعض اراضي بيزنطية . فهم قد استفادوا من تفوقهم العسكري ، واغرتهم ثروات المدن اليونانية ، وغاب عن بصرهم الهدف الديني للحملات الاولى الى ما وراء البحار ، فاستولوا على قبرص في السنة ١١٩١ ، ودخلوا القسطنطينية ونهبوها في السنة ١٢٠٤ واسسوا فيها امبراطورية سريعة الزوال ووطدوا اقدامهم لبعض الوقت في الموريه . وهكذا فان الروابط بالمتوسط الشرقي لم تحلّ قط ، بل اشتدت تدريجياً .

كان لهذه الاتصالات المتمادية اثرها الكبير في تطور الحضارة الاوروبية . فنادرة هي عائلات الفرسان في فرنسا او انكلترا او جنوبي المانيا التي لم يشترك عضو من اعضائها على الاقل في الاسفار الى اسبانيا او الارض المقدسة او اليونان ؛ وقد غدت الحرب الصليبية تقليداً في بعض العائلات الثرية ، يشترك فيها مداورة جميع الذكور الذين يحترفون الجندية ، وما ان يعودوا حتى يبحثوا عن سبب للسفر مرة اخرى . لذلك فان الحرب المقدسة والتنقلات البعيدة التي اوجبتها ، قد ادت ، في الدرجة الاولى ، الى تخفيف نتائج ارتفاع عدد السكان في الارستوقراطية العلمانية ، وحدّت من ظروف الفوضى والصعوبات الاقتصادية التي كان من المحتمل ان يحدثها ، لولا هذه الحروب ، تزايد سريع في عدد اعضاء طبقة المحاربين المحترفين .

اضف الى ذلك ان هذه المشاريع العسكرية قد ساعدت الى حد بعيد على اثراء الغرب مادياً وعلى انطلاقة تجارته البحرية . الا ان هذا القول لا يصح في الحملات الصليبية التي وقفت ، بمفهومها الحصري ، ولو بصورة متقطعة ، موقفاً عدائياً حيال غير المؤمنين فعرقلت بذلك بعض الاعمال التجارية ، كما يصح في الحملات الايبيرية ، ولا سيما في عمليات استعادة صقليا كما سبقت الاشارة الى ذلك . ومهما يكن من الامر ، فان مجرد الحاجة الى نقل طوابير الحجاج المتزايدين باطراد قد بعث ، في كافة موانىء المتوسط اللاتينية ، حركة بناء السفن ونشاطات الملاحة ، فدرت رسوم

المرور ارباحاً هامة على مجهزي السفن والبحارة الذين وظفوا رؤوس الاموال المجموعة في مشاريع تجارية وملأوا سفنهم الفارغة ، في موانىء التموين ، بالمنتوجات الشرقية ، كالتوابل ، وحجر الشب ، والمصنوعات البذخية التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة في اوروبا ، وقدموا احياناً ، على الرغم من التحريمات البابوية ، الارقاء والاسلحة المهربة للمسلمين . فازداد بسرعة كلية ، بفضل هذه التجارة المتواصلة احتياطي المعادن الثمينة في المدن البحرية ، ولا سيما في ايطاليا ، فعوّض تكديس الثروات المتقولة عن تخلف البلدان المسيحية المتوسطية في حقل الانتاج الزراعي . وكان ذلك نقطة انطلاق توسع التجارة الجنوبية التي كانت بوادرها أسرع ظهوراً منها في سواحـــل البحر الشمالي .

ان تجار البحر في برشلونة ومرسيليا ، وبخاصة في بيزا وجنوى والبندقية ، الذين مارسوا ، منذ الحملة الصليبية الاولى ، بعض اشكال الشراكة المالية ، كالشركات العائلية او شركات التوصية ، المؤسسة لسفرة واحدة او لسلسلة عمليـــات ، وفي ذلك دليل واضح على تقدم البورجوازيات الايطالية ، قد اسهموا اسهاماً ناشطاً في الحملات الحربيـــة المشنونة على المسلمين والبيزنطيين ؛ فحصلوا بالمقابلة ، في افضل المواقع التجارية من البلدان المحتلة ، على امتيازات اقليمية ، «فنادق» هي مستعمرات تجارية صغيرة ومراكز اعمال ومضاربات اسهمت مكاسبها في اثراء القرى الغربية التي انتسب التجار اليها . وتذكـّر احياء التجارة هذه ، القائمة في المدن الاجنبية ، تذكيراً غريباً بالمراكز التي شغلها التجار السوريون في مدن غاليا واسبانيا في اوائل القرون الوسطى ؛ فنرى والحالة هذه ان وضع المسيحية اللاتينية قد انقلب كلياً ، من الناحيـــة الاقتصادية ، بالنسبة الى الشرق : فهم التجار الايطاليون والكاتالونيون والبروفنسيون من يستلم الآن زمام التجـــارة في سواحل المتوسط الآسيوية والافريقية ، ويجني الارباح .

افضت الحملات الصليبية بسرعة اخيراً ، باقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً ، الى تهذيب اخـــلاق الفرسان ، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغريبة ، وادخال التقنيات الجديدة – وهكذا فان تقنيات التحصين التي نقلهـــا الصليبيون الى الشرق تحسنت فيه خلال القرن الثاني عشر ، فافادت اوروبا ، بالمقابلة ، بعد ذلك ، من هذه التحسينات – واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والادب في العالمين العربي واليوناني : فجاءت هذه الاشكال والمفاهيم والطرائق والعادات ، التي حصل عليها احياناً في امارات فلسطين وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية او على جبهة القتال في شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتشرت بفضل العائدين من الحج ، تنمي التراث الثقافي في اوروبا المسيحية . ودفـع كل ذلك الى الامام بالنهضة الروحية ، التي مهد لها العهد الكارولنجي ، فتواصلت ببطء وعلى غـــير انتظام ، يساعدها آنذاك اليسار العام وازدياد الاتصالات وسرعة المقايضات على اختلاف انواعها .

٤ ــ النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

لما كانت الكنيسة قد احتفظت في الغرب ، حتى في القرن الحادي عشر ، بامتياز التعليم ، ارتبط تقدم الثقافة والنشاطات الفكرية ارتباطاً مباشراً بوضع الاجهزة الكنسية . اجل لقد تحسنت هذه الحالة منذ اوائل القرن العاشر ، ولكن النتائج الاولى تناولت الكنيسة النظامية اولاً ؛ واذا سارت الحياة الرهبانية ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، في طريق التطهير بتأثير انتشار العادات الكلونية ، بنوع خاص ، فان الكنيسة العلمانية ، على نقيض ذلك ، ما زالت تعاني من النقائص الخطيرة نفسها التي تألمت منها المؤسسات الرهبانية ، لا بل من نقائص اعمق تأصلا ، لان افراد اكليروسها اكثر اختلاطاً بالعالم واكثر تعرّضاً بالتالي لفساده .

فساد الاخلاق والاتجار بالقدسيات

اما هذه المعايب فهي ، على حدّ تعبير اولئك الذين اشهروها وشكوا منها آنذاك ، « النقولاوية » اي فساد الاخلاق – فقد عاش معظم الكهنة العلمانيين ، في كافة درجات التسلسل الكهنوتي ، عيشة العلمانيين ، وحملوا الاسلحة ولم يحترموا قانون التبتل – والسيمونية ، اي الاتجار بالقدسيات ، والمقصود بذلك ، بصورة عامة ، الرغبة في الربح ، وبالتحديد ، الاتجار بالاسرار المقدسة وبيع الوظائف الدينية بالمزاد . ولهذين العيبين سبب واحد عميق : هو الدور الذي لعبه العلمانيون في توزيع المهام الكنسية . فالكنائس ، كل الكنائس ، هي في الواقع تحت سلطة العلمانيين . وكنائس الرعايا الريفية هي ملك العائلات الشريفة التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقها استثماره على غرار املاكها الاخرى والتي لم تستحلّ كافة مداخيل المذبح فحسب ، بل عينت خدامه من بين اتباعها واختارتهم بين اوضع الناس مرتبة حتى يكونوا اسلسهم انقياداً . اما الاساقفة ورؤساء الاديرة فقد عينهم الملوك او بعض الامراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية . لذلك ، وبتأثير من المفاهيم الاقطاعية ، كانت الوظيفة الدينية ، والسلطات والمكاسب المرتبطة بها ، – لا سيما الانعام العقاري ، كالسيادة الاسقفية او الاقطاعة الكهنوتية ، وهو ملازم لكل خدمة دينية – في نظر المعاصرين ، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليد رمزية ، ثم يؤول اليه ، على غرار الاقطاعة عند وفاة صاحبها ، حين يصبح المركز شاغراً . ليس من الصعب رؤية نتائج هذا الوضع : فمن جهة ، حمل التقارب الذي حصل في الاذهان بين الوظائف الكنسية والاستثمارات الاقطاعية ، على عدم التمييز بين اخلاص التابع الاقطاعي والعلاقة التي تربط خادم الكنيسة بسيدها ؛ وهذا لعمري تمثيل خطر لانه قد يعني اخضاع السلطات الروحية الى السلطات الزمنية . ومن جهة ثانية ، ونحن هنا امام واقع خطير آخر ، لم ينظر الاسياد العلمانيون ، حين توجب عليهم الاختيار بين المرشحين لاحد المناصب الدينية ، الى صفاتهم الادبية ، نظرتهم الى الخدمات التي قد يؤديها المختار لهم ، وحتى الى الهدية التي سيقدمها لهم : وهكذا فان عدداً من ملوك القرن الحادي عشر ، من امثال فيليب الاول ملك فرنسا او

معاصره غليوم الاشقر ملك انكلترا ، وجدوا في الاتجـــار بالمناصب الاسقفية وسيلة لزيادة مواردهم النقدية القليلة زيادة مهمة جوهرية . فافضت هذه الطريقة الى فساد الاختيار : اقصي المرشحون المثقفون المشهورون بحياتهم المثالية ، وانتخب الدساسون ، ابناء العائلات النبيلة من طلاب الوظائف ، الذين فكروا قبل اي شيء آخر ، حين جمعوا كل كسب ممكن من وظيفتهم ، باستعادة ثمن انتخابهم ، والذين لم يهتموا اطلاقا للتوفيق بين اخلاقهم وموجبـــات رسالتهم الراعوية . ذاك هو الشر الاساسي الذي غدا استئصاله امراً واجباً . لقد سبق رواجه مصلحو الحياة الرهبانية ، في الماضي ، معضلة مماثلة : فحلت ، لا سيما في كلوني ، بمنع كل تدخل علماني في الشؤون الدينية ولا سيما في ملء المناصب الشاغرة . فتحت تأثير الرهبان الذين كانوا ، لا سيما في « اللورين » ، على علاقة مباشرة باكليروس الكنائس المركزية ، والذين توصـل بعضهم الى الوظائف الاسقفية ، قامت حركة لاجل حرية الانتخابات العلمانية وتسربت تدريجياً الى العالم الكنسي . سقطت الكنيسة ، منذ وفاة اوتون الثالث تحت سيطرة الارستوقراطية الرومانية . الا انها انقذت مرّة اخرى من الفساد المحلي ، بعد السنة ١٠٤٦ ، بفضـــل الامبراطور هنري الثالث الذي عين في الادارة البابوية العديد من الكهنة اللوتارنجيين ، المتحلين بقيم اخــلاقية سامية ، والمتأثرين الى حد بعيد بالتيار الصوفي اللوريني ، والضليعين في دراسة الحق القانوني ، والعارفين بالعيوب التي تألمت منها الكنيسة . فانتهت الروح الاصلاحية الى الكرسي الرسولي ، واتسمت فيه ،بواسطة بعض الرجال المتصلبين ، من امثال الكردينال «هومبيردي موايانموتيه» بطابع اشد تنظيماً . وانيط بروما ، منذ ذاك الوقت ، تنسيق الجهود المبذولة هنـــا وهناك لانقاذ الكنيسة العلمانية من التأثيرات الزمنية المفسدة ؛ فكان ذلك بداية تنظيم عـام سيتتابع طيلة نصف قرن ونيف ، وقـــد درج التقليد على تسميته بالاصلاح الغريغوري نسبة للبابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، احد أهم باعثيه .

الاصلاح الغريغوري

كانت نتيجته الاولى تعظيم مركز الكنيسة الرومانية . فان اولوية الكرسي الرسولي ، التي سبق واوضحت واثبتت في ايام الانحطـــاط الكارولنجي في المجموعات القانونية المعروفة خطأً بالايزودورية اعيد ايضاحها واعلنت بمزيد من القوة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي الوقت نفسه (١٠٥٤) الذي انفصلت فيـــه الكنيسة الغربية انفصالاً نهائياً عن الكنيسة البيزنطية ، اخذت تظهر بمظهر هيئة تسيطر عليها ادارة البابوية المركزية التي غدت سلطة عليا ارتفعت فوق كافة سلطات هذا العالم . واعتمد في روما منذ السنة ١٠٥٨ ، وتحت ظل قصور ملك جرمانيا هنري الرابع ، مبدأ الانتخابات الحر المستقل ، بمعزل عن رقابة الاباطرة الالمانيين ودسائس الارستوقراطية المحلية معاً ، ثم ما لبث ان سُنّ قانوناً في مجمع السنة ١٠٥٩ : سوف ينتخب البابا بعد هـــذا التاريخ على يد اعضاء الاكليروس الروماني الكرادلة . بعد هـــذا الاصلاح الاول ، ارتقى اشد اعضاء الاكليروس حرصاً على عظمة مركز الكرسي الرسولي الى رتبة البابوية ، فاسهم ذلك ايضاً في اعـلاء نفوذ

خليفة القديس بطرس ادبياً . ولم يرَ الاكليروس والرهبان ، منذ ذاك الحين ، عظيم غضاضة في الخضوع لسلطة روما ، ليس في حقل العقيدة فحسب ، كما كانت الحال منذ زمن بعيد ، بل في حقل النظام والانضباط ايضاً . اما الاسس الضرورية للنظام الكنسي ، وفاقاً لمجموعة المراسيم التي اختيرت بنـــاء لامر غريغوريوس الـسابع ، والتي ليست سوى موجز لها ، فهي التالية : رئاسة مطلقة للبابا الذي لا يمكن ان يقاضيه احـــد ولا يمكن الاعتراض على احكامه ، ادارة الكنيسـة الجامعة من قبل الكرسي الرسولي الذي يمثله قصّاد يجب ان ينحني امامهم اعلى الاحبار رتبة ، والذي يلم بكافة الاسباب الهامة ، وله وحده حق التشريع ، خضوع رؤساء الاساقفة والاساقفة خضوعاً تاماً للسلطة البابوية الحرة في تعديـــل حدود الابرشيات ونقل او اقالة الرعاة .

وفي الواقع ، تحقق هذا البرنامج بسرعة : فان مبادرات امثال « هوغ دي ديه » او «امات دولورون » ، مندوبي البابا غريغوريوس في غاليا ، وموقف البابا اوربانوس الثاني الذي لم يقذف في مجمع « كليرمون » المنعقد في السنة ١٠٩٥ ، بالمسيحية في الحروب الصليبية فحسب ، بـــل رسم باعطاء انظمة سلم الرب قيمة شاملة ، اثبتت النجاحات المستمرة التي حققتهـــا المركزية الحصرية . ففدت الكنيسة اللاتينية ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، ملكية اوطد رسوخاً من كافة السلطات الزمنية في الغرب ؛ وقد فكر المثقفون في الكنيسة الرومانية ، في سبيـــل مصلحة البابا الذي حمـــل التاج والمعطف الارجواني ، باعادة المنصب الاعلى الذي يشرف على ادارة المسيحيين في الحقلين الزمني والروحي ، مقدمين بذلك على عمل جريء هو تحويـــل الاسطورة الامبراطورية الى شخص البابا .

مشادة التوليات

اضف الى ذلك ، في درجة ثانية ، ان تعسلب البابوات ومساعديهم ، ان لم يقض نهائياً على تدخل الاسياد والعلمانيين في تعيين الاساقفة ، فقد حدّ منه حداً عظيماً على الاقل . في السنة ١٠٧٥ ، اوضح البابا غريغوريوس السابع علانية مغزى القرار السادس من مجمع السنة ١٠٥٩ ، الذي كان قد رسم بأن لا يدين الكاهن لعلماني بتولية كنسية ؛ وبذل جهده بصورة خاصة بغية تطبيق هذا المبدأ في وظائف الاساقفـــة ورؤساء الاديرة . فاصطدم بمقاومة عنيفة ابداها كافة المستفيدين من الاتجـــار بالقدسيات ، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم وباتوا عرضة لان يمنعوا من ممارستها ؛ والامراء ايضاً الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الارباح التي توفرها لهم ، ولا سيما بسبب الفوائـــد السياسية التي يوفرها لهم الاشراف على الكنائس الكبرى . فقام آنذاك بين باعثي الاصلاح والملوك ذلك الصراع الطويل المعروف بمشادة التوليات . وصدرت اعظم مقاومة عناداً عن الامبراطور لان الامارات الاسقفية في الملكية الجرمانية تمثل اضمن عضد للملك الذي حرص على مراقبتها عن كثب ؛ اما الخلاف ، فبعد تجابه طويل الامد طرحت خلاله على بساط البحث مسألة العلائق بين السلطتين الشاملتين — وقد رأينا غريغوريوس السابع يستند الى حق الربط والحل الممنوح للقديس بطرس ويدعي

بمراقبة اعمال الامراء ويجيز لنفسه خلع الامبراطور – قد انتهى الى الهدوء، بعد تنازلات متبادلة.

في السنة ١١٢٢، تم الاتفاق في معاهدة «وورمس» على صيغة تسوية اعدّها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر علماء القانون في دير «بيك» النورمندي، ونقحها الاسقف «ايف دي شارتر»، واعتمدتها كل من فرنسا وانكلترا، حيث لم تتسم معارضة الملوك بذلك الطابع من الشدة. ففُصِل، في الوظيفة الاسقفية، بين المهمة الروحية التي اقصر منحها، عن طريق العكاز والخاتم، على الكنيسة وحدها، وبين امتيازاتها الزمنية، من سيادات عقارية وقضائية، التي ترك امر توليتها للسيد العلماني وفقاً للمراسم الاقطاعية. فليس بعد من خضوع حقيقي للأمير بل مجرد يمين اخلاص، واذا توجب على الاسقف التوجه ابداً الى سيد كنيسته كي يستلم من يديه، بشكل مادة رمزية، خاصيات السلطة، فما كان ذلك ليحدث الا بعد انتخابه الحر من قبل مجلس كهنة الكاتدرائية. اجل لم يعدم الملوك وسائل الاقناع لانجاح مرشحيهم؛ غير ان التعيين يعود الى رجال الكنيسة، وفي ذلك ضمانة لاختيار بعيد عن الشبهة: فتحقق بذلك الهدف الاساسي.

الا ان نجاح المصلحين كان، بالمقابلة، محصوراً جداً في ما تعلق بالمناصب الدنيا. فقد احتفظ العلمانيون برعاية الكنائس الريفية، وأقله بحق اقتراح تعيين «خادم النفوس» على الاسقف، ان لم يكن بحق تعيينه بمعزل عنه؛ ولهذا السبب بقي الاكليروس الوضيع عادي الصفات جداً. وعلى الرغم من ذلك فان الاصلاح الغريغوري لم يبق دونما نتيجة هنا ايضاً: ففي غضون القرن الحادي عشر حصلت مجالس الكهنة ولا سيما الاديرة على عدد كبير من كنائس الارياف قدمها اليها مالكوها تلقائياً بمثابة احسان وتصدق؛ وحوالي السنة ١١٠٠، بعد ان انضم الخوف من عذابات الحياة الثانية الى مساعي رجال الكنيسة، ازدادت هذه الحركة سرعة، فأعاد العلمانيون معظم المعابد التي كان الاحبار قد اقطعوهم اياها استثمارات اقطاعية. وهكذا فان حق الرعاية، في القرن الثاني عشر، قد مارسته في الغالب جمعيات دينية انقادت للضمير وأحسنت اختيار خدام الكنائس، على الرغم من انها طالبت لنفسها بالقسم الاكبر من مداخيل الكنيسة، تاركة خدام الرعايا في حالة عوز واملاق. يضاف الى ذلك ان حسن اختيار الاساقفة الذين اهتموا، كل في ابرشيته، لدعوة هؤلاء الخدام لاجتماعات دورية، ولمراقبة الاكليروس الريفي، قد اسهم في تحسن الاجهزة الدنيا في الكنيسة العلمانية. بيد ان هذا التحسن كان بطيئاً في الحقيقة: فلن تخلو القرى، لمدة طويلة، من الكهنة المتزوجين والاميين والبؤساء، او من الكهنة الجشعين الذين يستثمرون رعاياهم ويحاولون جني الارباح المادية من الخوف السحري الذي يبعثونه في النفوس.

بيد ان تقدماً محسوساً، هو النتيجة الاخيرة لحركة الاصلاح، قد بدا، خلال القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، في سلوك العلمانيين الديني. فقد انجلى امامهم، بصورة خاصة، مفهوم الخلاص: فلأجل خلاص النفس، كان من الموافق، في الدرجة الاولى، التعويض عن الاخطاء المرتكبة، بعد ارتكابها، بالحسنات المتوالية، التي نظر اليها كما الى غرامات قضائية

تدفع للاله لاستعادة راحة الضمير ؛ اما الآن فقد ساد الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأن الاعمال وحدها هي ما يعتد به وبأن تطبيق تعاليم الانجيل في الحيـــاة امر مستحسن ، أقله تلك التي لا تتنافى كثيراً واخلاق الفرسان وضرورات الحياة اليومية. ويبدو من جهة ثانية – وهذا هو بنوع خاص الشعور الذي نخرج به حين ننظر الى تطور الايقونات المسيحية – ان الاله امسى اقرب الى البشر، فقد غدا منظره اقل ارعاباً ؛ وأخذ يظهر تحت اشكال الطفل يسوع الليّنة القلب ؛ واتسمت العذابات والمكافآت الموعود بها بعد الوفاة ، بطابع أكثر بعداً عن التجريد ؛ وانتشرت عبادة العذراء ، الوسيطة والمعزية ، لارتباطها في الارجح بدور متعاظم الاهمية لعبته المرأة ، نتيجة لتهذب الاخلاق ، في مجتمع ذاك العهـــد . ومهما يكن من الامر فان نفاذ المواقف والمشاعر المسيحية الى اقل حركة من حركات الحياة العلمانية ، الذي لن يتوقف طيلة القرن الثاني عشر ، هو النتيجة المباشرة لاصلاح المؤسسات الكنسية ولتعيين الاكليروس تدريجياً بمنأى عن التأثيرات الزمنية فغدا ، بفعل ذلك ، اشد تطلباً من نفسه ومن الغير .

الابتغاءات الدينية

ما ان سارت مسألة تنظيم الهيئة الكنسية واستقلالها حيال العادات الاقطاعيـــة في طريق الحل حتى طرحت تدريجياً مسألة اخرى اعظم اتساعاً وسمواً ، هي موقف رجال الكنيسة من ثروات هذا العالم . هــذه معضلة جديدة اثارها مباشرة تبـدل الظروف الاقتصادية ، ونمو حركة المقايضات والتداول النقدي، واثراء الغرب . فان حرمان الاسياد والعلمانيين من حق التوليـة لم يكن لعمري ، بالنسبة لافراد الاكليروس الواعين واجباتهم ، سوى خطوة اولى : اذ ان تحرير الكنيسة يجب ان يكون كاملاً ويتميز بعود الى « الحياة الرسولية » والى طرائق المعيشة في جماعات النصرانية الاولى . ولا يكفي من ثم ان يكون الاساقفة افضل اختياراً وعلماً واخلاقاً؛ فحتى يتمكنوا حقاً من تأدية رسالتهم الراعوية، يحسن ايضاً ان يتخلصوا ويخلصوا اعضاء إكليروسهم من كافـــة الاطماع الزمنية والسعي وراء السلطة ومحبة البذخ . اما الحياة الرهبانية فمن المستحسن ، بدون شك ، ان تكون أكثر انعزالاً عن التأثير العلماني وان تنظم تنظيماً أشد صرامة عن طريق التقيد بالقانون تقيداً صحيحاً ؛ ولكن هذا ليس بجوهر الامر : اذ يجب بنوع خاص ان تقود الى الزهد التام في الشؤون الدنيوية، لا سيما وان اناساً كثيرين اخذوا ينتقدون رغد عيش « الكلونيين » ؛ فقد تكونت في « كلوني » ارستوقراطية رهبانية ماشت البيئة الاقطاعية والتقسيم المجتمعي مماشاة تامة . ولكن الناس قـد تساءلوا عما اذا كان يحسن بالراهب ان يعيش حياة الاسياد ، في ابنية فخمة ، ويرتدي الملابس البذخية ، ويأكل افخر المأكولات ويتباهى بمحبوحته ويحرص على تأمينها . فنشأ من ثم ، في القرن الحادي عشر ، تيار تأصل في التيار الغريغوري ثم تجاوزه قوة ؛ واستهدف اصلاحاً اعمق جذوراً ليس في اجهزة الكنيسة فحسب ، بل في روح الكنيسة نفسها ايضاً .

برزت هذه النزعة في كل مكان ؛ وحتى عنـد العلمانيين انفسهم ، وبنوع خاص لدى طغام الناس في المدن ، السريعي التأثر ، بسبب نشاطاتهم المهنية ، بالمعاضل الاقتصادية ، والعارفين

خير معرفة بخطر الثروات ، والحذرين ايضاً من ثراء الاحبار الذين يستطيعون مشاهدتهم عن كثب والذين تقف ادعاءاتهم بالسلطة الزمنية وقوفاً مباشراً في وجه توقهم الى الحرية . وليس من النادر ، خلال صراع التكتلات البورجوازية ، انتقاد ثروة الكنيسة ؛ وهكذا فقد نمت في مدن لومبارديا ، عند اولئك الذين اطلق عليهم بسرعة اسم « الباتاران » ، حركة قوية غايتها تحقيق فقر الاكليروس ؛ واستوحى الشعور نفسه المهيج « ارنو دي بريشيا » الذي حرض بورجوازيي روما ، في منتصف القرن الثاني عشر ، على السلطة البابوية . الا ان كهنة كثيرين قد شعروا هذا الشعور ايضاً وتأملوا ملياً في هذه المعضلة وبحثوا عن حلول عملية لارضاء هذه الرغبات . فبرزت هنالك نزعتان : احداهما تعود الى الحياة النسكية ، أي الى حياة أكمل عزلة واعظم تقشفاً؛ بينما تقود الثانية الى الاملاق ، وليس المقصود بذلك « فقر » « كلوني » فحسب ، الذي وفق بين الزهد الفردي والثراء الجماعي ، بل الفقر الحقيقي، أي فقر آباء الصحراء ، ايضاً.

الجمعيات الرهبانية الجديدة

بدأت مثل هذه المحاولات باكراً جداً ، أي بعيد السنة ١٠٠٠ ، في الكنيسة العلمانية ، ولا سيما في غاليا الجنوبية وايطاليا حيث كانت تكملة مباشرة للعمل الذي قام به القديس « روموالد » بغية تجديد الحياة الرهبانية : فقرر بعض الكهنة ، دون التخلي عن خدمتهم الروحية ، الابتعاد اكثر فأكثر عن العالم ، واتفقوا على التجمّع بغية سلوك حياة مشتركة في الفقر، كأولئك الذين تجمعوا في « سان – روف » (١٠٣٩) في أبرشية فالنسيا. فشجع هذه المبادرات خيرُ الاساقفة فضيلة، وساندها بطرس داميانوس أحد عظام رسل الاصلاح ؛ وأكب الغريغوريون على استحداث مبادرات جديدة مماثلة . تعددت جمعيات الاكليروس شيئاً فشيئاً ، وعاد كهنة مجالس الكاتدرائيات ، على مثالهم ، الى النظام الذي كان قد فرضه عليهم ، في العهد الكارولنجي ، « بنوا دانيان » : فان هذه الجمعيات الارستوقراطية ، التي سلك افرادها ، وجميعهم ابناء اشراف يمتلك كل منهم قسماً وافراً من سيادة كنيستهم ، حياة حرة جداً في مسكنهم الخاص ، تحولت هنا وهناك الى جمعيات حقيقية تخضع لبعض التقشف . غير ان كهنة علمانيين آخرين قد تاقوا الى حياة اكثر املاقاً : فقد فرض « غليوم دي شامبو » والقديس «نوربير» على التلاميذ الذين تهافتوا عليهم في « سان – فكتور » في باريس ، وفي بريمونتريه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، قانوناً صارماً جداً مستوحى من ثلاثة مؤلفات للقديس اوغسطينوس ؛ (وتبرز هنا ايضاً النزعة الخاصة بهذا العهد ، اعني بها التصميم على العودة ، من وراء العهد الكارولنجي الذي استقرت فيه الكنيسة في العالم استقراراً فيه الكثير من سعة العيش ، الى تقاليد المسيحية الاولى) . لم يكن «الفكتوريون» و«البريمونتريون» ملزمين بالفقر التام والحياة المشتركة فحسب ، بل بالسكوت ايضاً والعمل اليدوي والاحتفال الطقسي ، وسلوك حياة مادية فقيرة جداً ، فعاشوا من ثم في الواقع عيشة الرهبان ؛ ولم يتميزوا لا بفارق واحد: لم يلزم الكهنة القانونيون بالحياة الرهبانية على الرغم من انتمائهم الى الاكليروس؛

فان رسالتهم الاساسية ، التعلم والوعظ، هي في العالم ، ولذلك فانهم قد اسهموا بنشاط في نهضة الاكليروس العلماني والعلمانيين ادبياً .

تأثر العديد من الرهبان كذلك بقراءة آباء الصحراء – وكان النساك الايطاليون اول من بدأ هذه الحركة ايضاً في اواخر القرن العاشر – فرغبوا في سلوك حياة منعزلة والاهتداء الى الفقر الانجيلي . ونحن نرى في عدم ارتياحهم للتفسيرات التي تناولت قانون الرهبانية البندكتية منذ العهد الكارولنجي تعليلاً لنجاح المصلحين الذين اسسوا ، قبالة « كلوني » ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، جمعيات قوية جديدة . وتجدر الاشارة الى ان اتجاهاتها كانت مختلفة على كل حال : فهنا يبحثون عن الزهد التام بالعالم، كما هي حال جمعية « غرانمون » التي أسسها « اسطفان دي موريه » في السنة ١٠٧٤ والتي يتوجب على افرادها ان لا يقتنوا أية ثروة زمنية ، حتى ولا ارضاً للزراعة ، وان لا يمارسوا أي عمل ، فاضطروا بالتالي لأن يستعينوا بمساعدين يكونون رهباناً من الدرجة الثانية ويكلفون جمع الصدقات لتأمين معاشهم اليومي ؛ اما هناك فقد شدّدوا على فكرة العزلة ، كما هي الحال في الجمعيات الكرتوزية التي أسسها القديس « برونو » وتلاميذه في الصحارى القائمة وسط الجبال والتي ضمت نساكاً يجتمعون بين وقت وآخر لحضور القداس ويقضون معظم حياتهم في السكوت والورع داخل قلّية فردية .

الا ان الجمعية الجديدة التي عرفت اكبر نجاح والتي تأسس مركزها « سيتو » ، في السنة ١٠٩٩ ، على يد « روبير دي مولسم » ، قد اعتمدت عادات اعتبرتها مجرّد عودة الى قانون القديس بندكتوس وتقويماً للانحراف الكلوني ، فجمعت بين العزلة والفقر وحققت التوازن بين النزعتين . العزلة عن العالم اولاً : اقام السيسترسيون ، شأن الكرتوزيين ، بعيداً عن الاماكن المأهولة ، في قلب الغابات والوديان المستنقعة . الا انهم اعتقدوا بأن اضمن وسيلة للاهتداء الى الله هي الانصهار في جماعة ، فعاشوا حياة مشتركة صافية في خورس الدير ومائدته ومنامته . والاملاق التام ثانياً : فقد ألصق بالموجبات البندكتية مفهوم تقشفي جداً ؛ وكل رغد في المآكل والملبس قُبِل به في كلوني رفض هنا رفضاً باتاً؛ السيسترسي يحتقر جسده ويسيطر عليه . الا ان العائلة الرهبانية قد اقتنت ممتلكات عقارية لأن في ذلك ضمانة استقرارها واستقلالها . وانما حظر عليها ، بالمقابلة ، استيفاء الواردات على انواعها ، سواء كانت هذه الواردات محصول الاعشار ام اتاوات المستثمرين ام خدمات الاتباع الشخصيين ؛ فللاخوة ان يستحصلوا من الارض بأنفسهم على غذائهم ؛ وجمع كل دير ، في وحدة عمل وثيقة ، رهبان الخورس ، المنتسبين الى الاكليروس او الارستوقراطية ، وهم اوسع ثقافة ومقيدون بتمارين روحية كثيرة ، والمساعدين ، أي افراد الطبقة الدنيا الميالين الى الحياة الرهبانية الذين لا يقدمون سوى عملهم لخدمة الله ويؤلفون اليد العاملة القوية . ويفسر ارتفاع كثافة السكان من جهة ، ولا سيما ضرورة عزل حياة الروح عن عالم طغت عليه الرغبة في جني المكاسب طغياناً متزايداً ، غرابة تكاثر جمعيات الكهنة والرهبان الجديدة ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ولا سيما السرعة الفائقة في امتداد الجمعية

السيسترسية بفضل صفات نادرة تحلى بها احد اعضائها، برناردوس ، رئيس دير «كليرفو» ، الذي كان صوفياً ورجل عمل معاً ، وواحداً من عظام ذاك العهد .

ولكن الجهود في سبيل تأسيس كنيسة اعمق حياة روحية قد امتدت الى ابعد من ذلك ايضاً . فقد انتهى بعضهم ، في صراعهم ضد الزمنيات ، أي المادة ، الى اعتبار هذه الاخيرة مبدأ يناقض الخير ، والى الالتقاء بالمفاهيم المانوية ، نذكر منهم في ذاك العهد «بيير دي بروس» و «هنري دي لوزان» اللذين استمالت تعاليمهما ، على الرغم من حكم السلطات الكنسية عليها ، اتباعاً مقتنعين ، لا سيما في فرنسا الجنوبية . فساد الشعور في كل الاوساط ، في الشعب كما في أكثر دوائر الاكليروس العالي ثقافة ، بأن المحاولات التقوية الحارة تتعرض لخطر الزيغان عند حدود الايمان القويم . فقد بدأ في الكنيسة الغربية زمن الهرطقات ، والصراع ضد ضلال العقل، والمجامع التي يضطر فيها المفكرون الجريئون الى التراجع عن اقوالهم ، وقد بلغ من القديس برناردوس الجهد في اعادة الوحدة الى جسم الكنيسة الذي مزقته الخلافات العقائدية الاولى . اما سبب هذا الاضطراب فهو ان الكنيسة لم تمس اسيرة نظام جماعي يفرض معتقداً مشتركاً ، وحريصة على العودة الى الحياة الرسولية والهرب من غواية الثروات فحسب ، بل اوسع علماً وأقوى حجة ايضاً. ان الاضطراب في اوائل القرن الثاني عشر لدليل نضج فكري لا مراء فيه.

٥ ـ النهضة الروحية : الحركة الفكرية

ان لانطلاقة النشاطات الفكرية والحياة الادبية ما يبررها : فالبحبوحة المتزايدة والتحرر التدريجي حيال المشاغل المادية والاطماع الزمنية أتاحا لرجال الكنيسة الانكباب بكليتهم على رسالتهم الخاصة ، اعني بها عمل الفكر . اضف الى ذلك ان امتداد نشاط الفروسية الغربية قد شجّع الاتصالات بحضارات الشرق ، فاستحضرت من سوريا وآسيا الصغرى مخطوطات عربية ويونانية ؛ وفي اسبانيا المستعادة ، ولا سيما في طليطلة ، وفي ايطاليا ، في بيزا ، وروما ، وصقليا ، ودير جبل كسينو ، المركز الامامي للحضارة اللاتينية ، الذي اعيد تأسيس مكتبته في منتصف القرن الحادي عشر ، أكب المترجمون على وضع هذه المؤلفات في متناول الكهنة الناطقين باللغة اللاتينية .

المدارس

بتوفر هذين السببين تبدلت الاطارات المادية، أي المدارس، والاطارات الفكرية، أي برامج الدراسة ونظم الفكر ، التي اطبقت على الحياة الفكرية منذ النهضة الكارولنجية . كانت الاديرة حتى ذاك العهد اعظم المراكز نشاطاً ، وما زالت بعض المدارس الرهبانية ، في القرن الحادي عشر، على جانب كبير من النجاح، كمدارس الاديرة في «سواب» ومدرسة دير «بيك» في نورمنديا . وعلى الرغم من ذلك فان اعظم المراكز حياة آنذاك كانت علمانية وازدهرت في جوار مجالس كهنة الكاتدرائيات، في «لياج» ، و «تور» ، و «انجيه»

و « المان » و « شارتر » التي لمعت مدرستها ، بعد ان احياها فولبير تلميذ روما ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، طيلة القرن الحادي عشر ، وباريس اخيراً التي تخطت مدارسها حدود المدينة نحو منحدرات جبل القديسة جنفييف وغدت في اوائل القرن الثاني عشر مكان اجتماع خيرة علماء المنطق المسيحيين الغربيين . افضى انتقال المدارس هذا من الاديرة المنعزلة في الارياف نحو المدن الاسقفية ، وهو ظاهرة وثيقة الارتباط ايضاً بتوسع المدن وانتشار الاقتصاد النقدي ، الذي حرّر رجل الفكر من جميات الانتاج، أي من الاديرة الريفية، الى جعل مؤسسات التعليم أعظم انفتاحا وأكثر حرية ؛ فبات باستطاعة المعلمين تلقين دروسهم جنباً الى جنب دونما تقيد بنظام مشترك؛ وغدا باستطاعة الطلاب الانتقال من معلم الى آخر ومن مدينة الى اخرى ـ وقد احصوا، مع الحجاج والتجار ، بين مستخدمي الطرق التي نمت حركة السير فيها ـ وكان هذا التنوع نفسه مثمراً مخصاباً .

اضف الى ذلك ان آفاقاً فكرية اعظم اتساعاً قد انفتحت امام المستمعين الذين يجلسون على الارض المغطاة بالموص ويصغون الى « الدروس » ، أي القراءات التي يشرحها المعلمون ، ويدونونها هم بايجاز . كان درس الفنون العقلية السبعة يؤلف جوهر العمل المدرسي الذي كان مجرد مخالطة سلبية وسطحية لبعض النصوص المقدسة او غيرها وتأمل بطيء في « المراجع الكبرى » ؛ فلم يكن باستطاعة رجال الفكر ، بعد مثل هذه الثقافة ، وحين يضطرون للانتاج ، الا جمع ذكرياتهم الدراسية دون منطق واحكام . الا ان تقدماً مزدوجاً قد احرز منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر : فقد دُرّست الفنون العقلية باعتماد طرق افضل ، ولم يعد لها ، خصوصاً ، بالنسبة للعقول النيّرة ، سوى دور تحضيري في حلقة الدروس .

تميز التقدم في المواد القديمة ، اللغة والبيان ، بتليّن ادوات التعبير . الا ان اللغة اللاتينية ، وهي لغة حية حقيقية لكافة رجال الكنيسة ، وقادرة على التعبير عن ادق الافكار، قد حافظت على نقاوتها كاملة لأنها امست ، ببعدها عن الالسن الشعبية ، بمنأى عن إعدائهم ، وخصوصاً لأن مطالعة كبار مؤلفي العهد الكلاسيكي انحصرت تدريجياً في حلقات ضيقة . فحدثت في أوائل القرن الثاني عشر « نهضة » جديدة ، هي مجهود اختياري في سبيل العودة الى ثقافة العصور القديمة الكلاسيكية عن طريق دراسة خير مؤلفاتها الادبية ؛ فتناول الشرح ، في المدارس العلمانية ، « فرجيل » و « اوفيد » و « لوكان » و « هوراس » ، لا كأمثلة لغوية ممتازة فحسب، كما في السابق ، بل باعجاب وتعطف عميق. فتحرر المعلمون والتلاميذ تحرراً كاملاً من ذاك الحذر الذي ابداه معظم المفكرين المسيحيين بصدد المؤلفين الوثنيين ؛ وجعلوا منهم غذاء روحياً ، فاستندوا طوعاً ، مثلاً ، لحل المعاضل الاخلاقية ، وحتى المعاضل التي واجهوها في علائقهم بالخالق، الى كتاب « الصداقة » لشيشرون والى رسائل «سينيكا». ورافق مخالطة الكلاسيكيين هذه تصنع في الانشاء ؛ ويلفت الانتباه انشغال رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر بالمهارة الادبية ؛ فقد هذبوا الرسائل التي وجهوها الى أصدقائهم ، وألفوا مجموعات رسائل اخرى على

الطريقة الشيشرونية معـــدّة للنشر ؛ ودرج رئيس دير « كلوني » ، « بطرس المحترم » ، على طلب الراحة من متاعب وظيفته بكتابة قصائد رقيقـة الصيغة والنظم برفقة اوسع مرؤوسيه ثقافة ؛ كما ان القديس برناردوس ، الزاهد ، الذي كان يؤكد مازحاً لأبنائه في دير « كليرفو » انه لا يعرف معلماً افضل من اشجار الغابات ، قد كتب عظاته وأبحاثه الصوفية في لغة مليئـة ببيان رفيـع . الا ان هذا الميل الى التصنع قد رافقه تقدم محسوس في الثقافة الحقيقية ؛ واذا ما استندنا الى النتائج ، للحكم على أساليب تعلم الفنون العقلية كما طبقت في مدارس شارتر وباريس، جاز القول بأنها حسنة ، وقادرة، بتوجيهها الادبي، على بعث الشغف بالادب والايغال في معرفة القلب البشري .

غير ان هذه الدروس قـــد اعتبرت آنذاك مجرد اطلاع أوّلي وتحضير لاستكشاف حقول جديـــدة . فبدون ان نتكلم عن لهجة غدت اعظم ذاتية ، ومحاولة اقناع وفراسة بدت آنذاك في المؤلفات الادبية البحتة التي توغلت بعيداً ، ككتاب « أبيلار » « تاريخ مصائبي » او رسائل الى « ايلويز » ، في التحليـــل السيكولوجي ، او حاولت درس الانظمة السياسية ، ككتاب « جان دي ساليزبوري » ، « الحاكم » ، نرى ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، تقدماً سريعاً في بعض المواد الدراسية التي لم تكن حتى ذاك العهد سوى ملاحق غير ذات شأن للفنون العقلية — بعض العلوم العملية التي لم يكن لها مكان في حلقـــة الدروس العادية للاعداد الكنسي البحت — كاللاهوت و « أمته » التي اخذت تتحرر شيئاً فشيئاً : اعني بها الفلسفة .

العلوم واللاهوت والفلسفة

ساعدت العلائق الودية بالعالم العربي على تحقيق التقدم في حقلين من حقول المعرفة : علم مجرد اولاً ، الرياضيات ، الذي درّسه جربير في كاتالونيا منذ اواخر القرن العاشر ، واندمج تدريجياً في برامج التعليم المتمـــدة في « شارتر » و « لان » ، والذي ساند التعمق في دراسته جهود اصحاب النظريات الموسيقية وأتاح الاكتشافات الهندسية الرومانية ؛ وعلم تقني ثانياً ، الطب ، الذي اقتبست طرائقه عن مفسّري ابقراط من المسلمين، وانتشرت بواسطة مدارس خاصة اسست على مقربة من الحدود الاسلامية ، كمدارس « سالرن » التي اشتهرت منذ القرن العاشر ، ومدارس « مونبلييه » التي تأسست في اوائل القرن الثاني عشر . وهنالك ابحاث اخرى تخطت اطار الفنون العقلية السبعة ، اعني بها ابحاث الحقوقيين . فقد دفع اليها ، في آن واحد ، نمو المقايضات التجارية وتوسع المدن ، اللذان اوجدا صعوبات قانونية لم يكن العرف الاقطاعي ليستطيع حلها ، ومشادة التوليات التي أدت الى تصحيح المجموعات القانونية ووضع جدول عام بالمراسيم بغية تمكين الادعاءات البابوية . وهم الايطاليون بنوع خاص من قام بهذه الابحاث التي سارت في اتجاهين : نحو درس القانون الروماني بتفسير « المجموعة » ، الذي تواصل في « رومانيا » بنوع خاص ، في المقاطعة اللاتينية الـــتي خضعت لأطول سيطرة بيزنطية ، في « رافنّا » اولاً ، ثم في مدارس بولونيـا التي أشهرها ، في وائل القرن الثاني عشر ، إرنيريوس مفسّر النصوص المبهمـة ؛ ونحو وضع الحق القانوني نهائياً

بالتقريب بين المقترحات المختلفة الواردة في مجموعات المراسيم ، وهو محاولة توفيق افضت حوالي السنة ١١٤٠ الى « مرسوم » غراتيانوس .

بيد ان اعظم تقدم تحقق آنذاك في الحقل الفكري هو تقدم المنطق والبحث العقلي المطبق على المسائل اللاهوتية . ما زالت الفلسفة ، في القسم الاول من القرن الحادي عشر ، مجرد تمرين ثقافي تابع للجدل ومعدّ لترويض عقل الطلاب ؛ وهكذا يفسّر المعلمون امامهم ، في مدارس شارتر ، بعض النصوص التي تعكس المذهب الافلاطوني ، وبعض الصفحات من مؤلفات سينيكا ، وبعض ابحاث « بويس » و « جـان سكوت » ؛ ثم يثيرون النقاش بطرح المسألة التي استهوت مفكري ذاك العصر ، أعني بها مسألة حقيقة « المثل العامة » . ولكن هذه التمارين العقلية ما زالت بعيدة كل البعد عن المشاغل الدينية : فالمسيحي آنذاك يحاول الاقتراب من الخالق بواسطة المحبة لا بواسطة مجهود عقلي . الا ان الحاجة قد برزت حوالي السنة ١٠٧٠ ، بفضل نمو المعارف والرشاقة المتزايدة في القوى العقلية ، لا الى مناقشة مضمون الوحي ، بل الى التعمق فيه بالبرهان : فلم يعد الاله ، بالنسبة لكهنة الجيل الجديد ، محبة فحسب ، بل حقيقة ايضاً ، وانما على العقل بني تشابه الانسان به ؛ فشرعوا من ثم يدرسون العقيدة درساً عقلياً ؛ واخذ ايمانهم يبحث عن التفهم . اما هذه الكلمة « الايمان يبحث عن التفهم » فقد قالها السيد « انسلوس » (١٠٣٣ — ١١٠٩) رئيس دير « بيك » ، ثم رئيس اساقفة « كنتربري » ، وهو من شق الطريق امام اللاهوت العقلي ، الوثيق الارتباط بالفلسفة ، الذي تقوم مهمته بالتوفيق بين الوحي والعقل . فطبقت طرائق الجدل على قراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وبدّلت منها الطابع تدريجياً . وتعاظم رويداً رويداً دور التفكير الشخصي ؛ اجل ما زال القارىء يستند الى المراجع التقليدية العظمى ، ولكنه تصرف حيالها بمزيد من الحرية ؛ وحل محل الشرح الانتقادي والتفسير الحرفي بفضل « انسلوس دي لان » ، تلميذ القديس انسلوس ، وأحد مشاهير المدرسين ، « الحكم » ، أي مجموعة مقاطع الكتاب المقدس والآباء المتعلقة بهذه النقطة الهامة او تلك من العقيدة . وعن الحكم صدرت « المسألة » : فاذا ما برز خلاف بين المراجع المتقابلة ، يعود الى المنطق امر التوفيق بينها ، فيلعب العقل آنذاك ، وهو ابداً في خدمة الايمان ، دوراً اساسياً في البحث عن الحقيقة . وهكذا تأسست الطريقة المدرسية (*Scolastique*) في غضون جيلين من الزمن .

لم تلبث اخطار تحرر القوى البشرية هذا ان ظهرت ، لا سيما في تعاليم بيير ابيلار في باريس وفي مجموعة المسائل التي وضعها تحت اسم « هكذا وكلا » . افليس احترام النصوص المقدسة والايمان نفسه مهددين الآن بجسارة بعض المعلمين العلمانيين الواثقين من حجتهم وطاقاتها؟ فارتسمت منذ ذاك الحين ردود الفعل الاولى ضد الجدل : لقد تصدى القديس « برناردوس » و « هوغ دي سان فكتور » — وهما « نظاميان » يمثلان خير تمثيل اولئك الذين يسمون وراء التواضع والفقر ويتوقون الى الاهتداء الى روحانية الكنيسة الاولى والعودة الى الحياة الرسولية ، ويستندون ، في سبيل ذلك ، الى العهد القديم والقديس اوغسطينوس والآباء اليونانيين — للاهوتيين العقليين ،

وقابلوهم بالطريقة الصوفية معتبرين ان المحبة هي السبيل الحقيقي الذي يقود الى الله ، وقد وجدوا ، في طريق التأمل هذه ، عوناً في التعبد للعذراء الوسيطة . وفي السنة ١١٤٠ توصل رئيس دير « كليرفو » ، في مجمع « سنس » ، الى استصدار حكم على بعض اقتراحات جسارة تقدم بها ابيلار ، الذي خارت عزائمه فهجر العالم ؛ وفي مجمع « رمس » الذي انعقد في السنة ١١٤٨ توصل ، بعد نقاش طويل ، الى حمل المعلم الباريسي « جيلبير دي لا بوريه » على التراجع عن رأيه . ولكن هذه الانتصارات تحققها الروح الرهبانية ، وهذه العقوبات ، وهذه الاذعانات ، وهذه التضحيات يقدمها كبار المفكرين في سبيل وحدة الكنيسة ، لم تكن لتنتقص من نشاط الابحاث المنطقية . فما زال عدد الطلاب يتزايد باطراد في مدارس باريس حيث يجتمع اعظم الجدليين مهارة وحيث يكتمل بناء اول مذهب بين المذاهب الفلسفية الكبرى في الغرب .

الشعراء المتجولون والاغاني الايمائية

لم يبق نمو النشاط الفكري في الكنيسة دونما صدى في ارفع طبقات المجتمع العلماني التي وسعت آفاقها وهذبت أذواقها الحملات العسكرية النائية ؛ فقد نشأ وازدهر ادب مكتوب باللغة العامية معد لتسلية اولئك الذين لا يستطيعون الاطلاع مباشرة على المؤلفات اللاتينية . ثم جمعت في اواخر القرن الحادي عشر ، خدمة لأعضاء طبقة الفرسان ، وبمساعدة ادباء محترفين ، من الكهنة في الارجح ، او اقله من خريجي المدارس الكنسية ، قصائد وأناشيد تناقلها الناس شفهياً حتى ذاك العهد . وكان ثمة مركزان رئيسيان يقابلهما وحيان مختلفان . ففي الأكيتين ، انشدت ، في الاجتماعات الاقطاعية التي تختلف اليها السيدات الارستوقراطيات ايضاً ، قصائد قصيرة باللهجة الجنوبية من نظم بعض الأسياد في القالب (اول هؤلاء الشعراء المتجولين النبلاء هو دوق اكيتين « غليوم التاسع دي بواتيه ») تدور حول موضوع أساسي هو العلاقة الحبية . ان هذه العاطفة ، وقد كانت في الاصل شهوانية جداً وموصوفة بوقاحة ، تخلت شيئاً فشيئاً عن شهوانيتها ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وتبدلت تحت تأثير العادات الاقطاعية والروحانية المسيحية ، وغدت تفانياً على بعض اللبس في سبيل السيدة المختارة ، « البعيدة » بالتفضيل وبصورة عامة . وفي الوقت نفسه ازدادت القواعد والاوزان الشعرية تعقيداً ودقة .

اما في شمالي فرنسا ، فان مجتمع الفرسان ، وهو اكثر ميلاً الى الحروب منه الى الحياة العالمية ، قد آثر الملحمة العسكرية ، اذ قد تأخر هنا ارتقاء المرأة في حياة المجتمع العالي الذي يعبر عنه الهام الشعراء الغنائيين الناطقين باللغة الشمالية ، واتساع العبادة المريمية ، او نشاط الصوفي « روبير داربريسيل » الذي أسس جمعية راهبات في « فونتفرو » في السنة ١١٠١ ؛ فأشيد بالفضائل النبيلة ، البسالة ، والامانة للسيد والانسباء ورفاق الحياة الاقطاعية ، في قصائد مسجعة متعاقبة طويلة يواجه ابطالها من الشخصيات التاريخية في العهد الفرنجي معاضل راهنة ، كالصراع ضد « الوثنيين » المسلمين او متناقضات الاخلاق الاقطاعية ؛ وقد جاءت بعض هذه الاغاني الايمائية ، ولا سيما اغنية « رولان » ، على جانب كبير من الجمال المنيف احياناً ، وهي

من نظم فنانين عظام انقادت لهم التقنيات الادبية . وفي الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، بينما توثقت الروابط ، بفعل اتساع حركة المقايضات الشامل ، بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية ، وبينما اخذت العادات الجنوبية تدخل الى بلاطات شمالي « اللوار » بفعل زواج لويس السابع ، ملك فرنسا المقبل ، من « اليانور » ابنة دوق « الاكيتين » ، تسربت الى ادب فرنسا الخشن ، مواضيع الشعراء المتجولين الحبيبة التي توسع فيها وحسّنها بعض الكهنة المعجبين بـ « اوفيد » . وتكون في الوقت نفسه ، تحت تأثير النهضة الادبية والمقتبسات الشرقية ، لون جديد للقصة القديمة تشابكت فيه ، تمشياً مع تطور الذوق ، حول شخص الاسكندر او « اينيوس » ، المغامرات الحربية والدسائس العاطفية .

٦ ـ النهضة الروحية : الازدهار الفني

ان محاولات مهندسي العمارة والرسامين والنقاشين ، التي لم يوقفها الانحطاط الكارولنجي ولا الغزوات ، قد افضت اخيراً ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، الى تكوين نمط عظيم . كما ان تسهيلات التنقل ، التي أتاحت سرعة انتشار التقنيات المهنية ومواضيع الالهام ، والتقاء الفنانين التقاء متكرراً ومقابلة نتائج اختباراتهم ، قد شجعت هذا الازدهار الحاسم الذي بعثه كذلك تقدم الدروس ، والمعارف الرياضية بنوع خاص ، واثراء المؤسسات الرهبانية الكبرى : فاستخدمت الاموال الناتجة عن بيع فائض الحصائد وحصيلة الاعشار والاتاوات على الاراضي المستثمرة ، لنقل مواد البناء وتعهد البنائين ، بينما أتاحت حركة التداول النقدي المتزايدة نهضة المصانع الفنية الاختصاصية . الا ان النشاط الفني قد بقي سائراً في الاتجاه نفسه : خدمة الله والاحتفاء بمجده عن طريق تجميل الكتاب المقدس ، ولا سيما المعبد . فلسنا نشاهد بعد ، كما هي الحال في الادب ، فنانين يلبون طلبات الزبن العلمانيين ؛ لذلك فقد بدت النهضة في تشييد وتزيين الابنية الدينية المختلفة الاحجام ، ابتداء من الكاتدرائيات حتى اوضع المعابد الريفية . بيد ان ارحب الابنية هي الابنية الرهبانية : ففي الاديرة البندكتية ، حيث استمر تقليد اوجده « بنوا دانيان » ، لا سيما فروع جمعية « كلوني » ، دفع الحرص على تحقيق « عمل الله » كاملاً ، بالرهبان ، الى تكريس معظم مواردهم النقدية لعظمة أماكن العبادة . فبعثت هذه المشاريع الكنسية فناً بنائياً هو الفن « الروماني » الذي يتميز في الهندسة بشمول استعمال العقود ، وفي التزيين بالعودة الى النقاشة الكبرى التمثيلية والبنائية .

هندسة العمارة « الرومانية »

ظهرت الدلائل الاولى لنهضة هندسة العمارة في السنة ١٠٠٠ في الوقت نفسه الذي حدث فيه تقدم الرياضيات ، وقد لاحظها المؤرخ « راوول له غلابر » ؛ وان تنويهه « بالمعطف الابيض من الكنائس الجديدة » الذي التحفته الارياف الغربية آنذاك لذو شهرة حلال . الا ان الابنية التي ارتفعت في السنوات الاولى

من القرن الحادي عشر بقيت بسيطة وعابسة وعارية ، ولم تتطور الطرائق المتمدة في العهد الكارولنجي الا بشكل بطء وتردد . فتصميم المعابـــد لم يتحول : اذ ان المستحدثات الرئيسية (اضافة الكنيســة السفلية والصحن المحيط بالخورس والنارتكس أي جناح الموعوظين) قد حققت في القرن الحادي عشر ، اشباعاً لحاجات الطقس الجديدة . اما المعضلة التي سعى الفنانون آنذاك لحلها فهي معضلة الفناء؛ فحاولوا نشر العقود فوق كافة اقسام الكنيسة، ولا سيما الصحن الوسطي الكبير ، بعد ان كانت محصورة في الاقسام الضيقة المتينة من البنـاء ، كالسرداب ، والطابق الارضي من المدخـــل الذي يعلوه برج الاجراس ، وصدر الكنيسة فوق المذبح . وتوجب عليهم من ثم ايجاد طريقة تمكنهم من تحميل جدران الكنيســة حجارة وملاطاً اثقل وزناً الى حد بعيد من وزن الهيكل الخشبي المعتمد تقليدياً في الكنائس الكبرى . اجل لقد توفرت لهم بعض عناصر الحل : اذ ان المهندسين الكارولنجيين قد استعاضوا عن العمود بالركيزة واستعملوا الدعائم الخارجية للجدران . ولكن ما زال امامهم تطبيق هذه التدابير الجزئية على المساحات الكبيرة. فتميزت مراحـــل محاولاتهم بالفشل المتكرر وتطأطؤ عقود الصحن او انهيارها ، كما ورد في اليوميات الرهبانية . وقد ظهرت الصحون المعقودة اولاً ، على ما يبدو ، في كنائس الارياف الوضيعة الضيقة المظلمة المحفورة في الصخر ، في مناطق استوريا ، ثم في جبـــال البيرينيه الكاتالونية . وانتشر شيئاً فشيئاً استعمال الاقواس المتوازنة المتقاربة في العقود المستديرة التي ترمي معظم ثقلها على ركائز تساندها الدعائم من الخارج ؛ ثم استعمال العقود المستديرة المتقاطعة التي تحول ضغطها الى اركان الزوايا الاربع ؛ ثم استعمال القبة ، وقد امتدت على اقواس صغرى في الزوايا او على الاقواس الكبرى ، وقد اتاح ذلك اسناد غماء الكنيسة الوسطى الى الاقسام الضيقة الاربعة المحيطة بالوسط ؛ واكتشفت تدريجياً اخيراً كل الحلول المعدة لاسناد العقود بعضها الى بعض . ولنا على هذه المحاولات وهذه التجارب ، الموفقة او الفاشلة ، التي استغرقت القسم الاكبر من القرن الحادي عشر ، امثلة كثيرة في بعض الابنية المعقدة ، كدير « تورنوس » في بورغونيا . فكانت نتيجة هذه الجهود ، حوالي السنة ١٠٧٥ ، ظهور تحف رائعة كثيرة وابتداء عهد العمارة « الرومانية » العظيم .

جاءت هذه الهندسة متنوعة جداً ، فبذلت من ثم محاولات كثيرة لنسبة كنائس هذا العهد الى مدارس اقليمية مختلفة . اجل ان تصميم البناء الجديد الموفق ، الذي يعود فضل نجاحه الى فنان معين ، قد اقتبس تكراراً في عدد من الابنية الثانوية المجاورة ، ولا سيما في المعابد الريفية الصغيرة التي اعتمدت في تشييدها تصاميم هندسية اقل توفيقاً . بيد ان من شأن هـــذا التوزيع الجغرافي اغفال نشاط المقايضات الاقليمية ، وهو بالضبط الظاهرة التي تميز أواخر القرن الحادي عشر : فالواقع هو ان عناصر مشتركة تتجانب في الكنائس الكبرى المقامة على طريق معينة مطروقة ، كتلك الكنائس مثلاً التي تقع ، بين « تور » و« كومبوستيل » مروراً بـ « ليموج » و « تولوز » ، على احدى طرقات الحج الكبرى الى مزار القديس يعقوب . ونلاحظ كذلـــك

الالهام نفسه والمبتكرات المتماثلة في بعض الاديرة النائية عن بعضها والتي تجمعها روابط دينية الطابع . لذلك يجب ألا نسقط من حسابنا العلائق الشخصية التي قامت بين رؤساء الجمعيات الكنسية ، وانتقال فرق العمل من مكان الى آخر ، في تفسير هذه التأثيرات المتداخلة التي تبدو في بورغونيا مثلاً حيث ظهرت وتوازت نزعتان متباينتان نشأتا عن النجاحات الاولى المحققة في المنطقة البريونية (نسبة الى *Brionnais*) فأفضت اولاهما الى كنيسة كلوني الكبرى والاخرى الى كنيسة دير فيزلاي . ولكن الواقع الهام هو تنوع الحلول التي تناولت معاضل التوازن : وهكذا فقد تجاورت في « بواتو » الكنائس ذات الصحون الثلاثة المتساوية الارتفاع، والكنائس ذات الصحن الواحد، والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتقاطعة والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتوازية ، والصحون الكبرى ، اخيراً ، المسقوفة بالقباب المتلاصقة . وان في هذا التنوع لتعبيراً عن المحاولات الحثيثة والقوة الخلاقة العظمى التي اجتابت الحضارة الغربية كلها قبيل وبعيد السنة ١١٠٠ .

الزخرفة

خضعت تقنيات الزخرفة واساليبها لتطور أبطأ حركة . ففي النصف الاول من القرن الحادي عشر لم تستخدم سوى الطرائق والمواد المعروفة في العهد الكارولنجي تقريباً : فكان المزخرفون مصورين على الجدران ، او مصوري لوحات مصغرة ، او صاغة . وأنتجت اجمل الزخارف الملونة ، التي تجدد فيها الالهام بدخول المواضيع التصويرية المقتبسة عن الكنائس المسيحية الشرقية ، في معامل « تريف » و « اختيرناخ » الجرمانيــة ، او في اسبانيا الشمالية والاكيتين المتأثرتين بفن النصارى من رعايا دولة الاندلس ، كتلك التي تزين مخطوطات بياتوس في تفسير كتاب « الرؤيا » ، ولعلها اجمل زخارف الكتب الغربية المصورة في القرون الوسطى . اما الفن المعدني فقد حقق اجمل مصنوعاته في المناطق التابعة للامبراطورية ، ولا سيا في وادي « الموز » ، حيث أكمل « رينييه دي هوي » في السنة ١١٠٨ جرن العماد البرونزي في كنيسة « القديس برتلماوس » في «لياج» . الا ان زخرفة الابنية التي تقدمت الابنية «الرومانية» العظيمة قد بقيت زمناً طويلاً في منتهى البساطة : وقد تمثلت في جوهرها ببعض تنضيدات بنائية في الجبهة ، كالطرائد اللومباردية المقتبسة عن الزخارف الخارجية في أبنيــة « رافنا » . اما الابتكارات الوثيقــة الارتباط ببعضها والتي تحققت فجأة في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر ، فهي التالية : تزيين البنــاء الديني بالاشكال الزخرفية المتمدة على نطاق ضيق منذ زمن بعيد في الرق والعاج والبرونز ؛ وانطلاقة النقاشة على الحجر التي لم تندثر تقنياتها اندثاراً تاماً في غاليا منذ النواويس الاخيرة المزخرفة المنتجة في المصانع البيزنطية وتيجان الاعمدة الاولى المستعملة في كنيسة «جوار» المدفنية . انها لثورة فنية حدثت في آن واحد في « بورغونيا » حول «كلوني» — ربما تحت تأثير الصياغة الاسبانية وتحت تأثيرات فنية اخرى أكيدة ؛ لأن الدير الكبير كان آنذاك ، شأنه شأن روما ، قلب المسيحية النابض وأقوى مراكز الجاذبية — وفي « لنغدوك » ، في « تولوز » و « مواساك » ، بفضل الاتصال المباشر بالزخارف التصويرية والاشكال الحجرية

في اسبانيا المستردة . فارتبطت الزخرفة المنقوشة منذئذ ارتباطاً وثيقاً بنجاحات الهندسة « الرومانية » .

المواضيع التصويرية

انطوت هذه الزخرفة على فن تصويري اولاً : فاذا حافظت المواضيع الهندسية والنباتية في الزخرفة البربرية على حيويتها ، واذا تكاثرت وتجددت بفضل المصنوعات الشرقيـة المستوردة ، فقد غدا الموضوع الرئيسي ، مرة اخرى ، الشكل البشري ، وفي هذا التطور دليـل عودة الى المفاهيم القديمة ، أي نهضة اخرى ملازمة للنهضة الادبية . ولكنه فن مقدس ايضاً : فليس تمثيل الاشكال في نظر المصور « الروماني » سوى وسيلة لجعل القوى الفائقة الطبيعة محسوسة ، ولا سيما عظمـة قدرة الله الذي يظهر ، في أبهى جلاله ، ديّاناً في الدينونة الاخيرة او في وسط رموز رؤيا القديس يوحنا. وفن تزييني في جوهره اخيراً ، مرتبط بالاطار الهندسي ، تتميز نجاحاته ، بالضبط ، في التوفيق توفيقاً مطرد الكمال بين الاشكال وهندسة البناء . ولم تزخرف في البناء سوى بعض عناصره فقط : تيجان الاعمدة ، ببعض التبسيطات النباتية اولاً ، وببعض مشاهد الحياة التي تملأ الاطارات المخصصة لها تماماً ايضاً ، كما في كنائس منطقة «اوفيرنيه» ، في كاتدرائية «سان – لازار» في اوتين وفي دير « فيزلاي » ؛ والجبهة ايضاً ، سواء كانت الزخرفة مجموعة عريضة من الافاريز والنقوش الناتئة التي يتوشح بها الجدار الغربي بكامله ، كما في « بواتو » ، ام تزييناً في الابواب فقط . الا ان الباب الضخم ، وهو مجموعة معقدة تتداخل فيها المسطحات المزيّنة والتقبيات وصفوف الاعمدة ، الذي اخذ شكله النهائي ، على ما يبدو ، في « كلوني » اولاً ، بعد محاولات عديدة في الكنائس البرغونية الصغرى ، والذي نسج على منواله في « بروفنسا » بأشكال تستلهم الصور القديمـة استلهاماً مباشراً ، كان ، دونما ريب ، اجمل ما حققه المزينون في اوائل القرن الثاني عشر .

حدّت انطلاقة النقاشة المفاجئة في تزيين المعبد من دور الرسم الذي بقي رئيسياً حتى اواخر القرن الحادي عشر . ومع ذلك ففي داخل الكنائس ، وتحت العقود المستديرة وفوق المذبح وفي اقسام الجدران الواسعة التي تتخللها نوافذ ضيقة ونادرة ، ما زالت العصور ترسم بالالوان الممزوجة بالماء والصمغ والآح ، يتمادى فيها المنحى الكارولنجي في الرسم على الجدران ، بحرية احياناً كما في « تافان » ، او بتبسيط وتمظيم على غرار الصور البيزنطية المصغرة .

ان في هذا الازهرار التزييني لأوضح دليل على ازدياد الثروات في الجمعيات الدينية . لذلك فقد تشكى الراغبون في احياء روح الفقر في الكنيسة من الميل الى الزخارف الزاهية : فانتقد القديس برناردوس بشدة النقاشة الكلونية ؛ اما السيسترسيون الذين برهنوا في اول عهد جمعيتهم عن حرية رائعة ومهارة عظمى في زخرفة كتبهم ، فقد حظروا كل تزيين في كنيستهم حرصاً منهم على الاملاق التام . ولكن فنهم المجرد الذي استهدف توازن الكتل الحجرية العارية قد حقق مع ذلك اروع جمال ، كما في «فونتناي» او تورونيه ؛ جمال صاف ومجرّد منبثق عن علم الاعداد

بفعل ذاك التوافق الموسيقي نفسه الذي رغب القديس « هوغ دي كلوني » في رؤيته ممثلاً ، بشكل رمزي ، على التيجان المنقوشة فوق اعمدة الخورس في « كنيسته الكبرى » .

بيد ان الفن « الروماني » جنوبي في جوهره ، عميق الجذور في المقاطعات التي تأثرت من قبل تأثراً قوياً بحضارة روما ؛ وصنّاعه الاولون هم المصورون الاستوريون والبناؤون اللومبارديون ؛ ازدهر في بروفنسا ولنغدوك وبواتو وبورغونيا ؛ ولم تختلف ركائز الكاتدرائية وأفاريزها، في اوتين وآرل ، عن الزخارف التي تزين الاطلال الرومانية القريبة. الا ان المانيا، في الوقت نفسه ، بقيت أمينة للتقاليد الفنية الكارولنجية ، كما ان الصحون المرتفعة في الكنائس النورمندية لم تسقف بالعقود . وعلى الرغم من ذلــك فقد جرت في اوائل القرن الثاني عشر محاولات هندسية جديدة في شمالي اللوار : فقد انتشر في « ايل دي فرانس » بين السنة ١١٢٠ والسنة ١١٣٠ استعمال الاقواس المتقاطعـــة التي سبق واستعملت في السنة ١١٠٠ في خورس كاتدرائية « دورهام » ؛ وبرزت حسنات طريقة البناء الجديدة في بناءين كبيرين ، كاتدرائيـــة « سنس » وكاتدرائية « سان ـ دني » . اما باب هذه الكنيسة الاخيرة ، فقد نقشه ، بناء على اشارة « سوجر » رئيس الدير ، فنانون ربما جاؤوا من لنغدوك ؛ فهو ، بتماثيله – الاعمدة ، حاصل النقاشة « الرومانية » واولى آيات فن التمثيل القوطي .

كانت التبدلات الاقتصادية العميقة التي حدثت في السنة ١٠٠٠ اساساً لتقدم فائق السرعة تحقق ، بين السنة ١٠٧٥ والسنة ١١٥٠ ، في كافـــة حقول النشاط البشري . حيوية نابضة ، اخصاب ، وتنوع ايضاً : كان عهد النمو هذا حافلاً بالمتناقضات في السجايا والميول والاذواق . وقد برزت المتناقضات، مثلاً، في اشخاص ثلاثة رجال قاموا بالوظائف نفسها، وظائف مديري الجمعيات الرهبانية ، وتعارفوا وتحابوا ومثلوا معاً وبالتساوي اوائـــل القرن الثاني عشر : « سوجر دي سان – دني » ، وهو اداري ماهر ومستشار رشيد لملوك فرنسا ؛ وبيير المحترم رئيس دير كلوني ، وهو اديب رقيق ، متزن وعطوف ؛ وبرناردوس رئيس دير كليرفو ، وهو متقشف وصوفي ومرشد حازم وعنيف للنصرانية .

الا ان هذه التيارات الصاخبة المتباعدة اخذت تهدأ وتتقارب ، في منتصف القرن الثاني عشر ، بعد ان توارى هؤلاء الرجال الثلاثة . فانفتح عهـد جديد امام الغرب المسيحي ، عهد تنظيم وانضباط وتهدئة وكلاسيكية وأبنية كبيرة متوازنة .

الفصل الثاني

انكفاءات الاسلام وبيزنطية وصراعاتهما
(القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر)

ان اللوحة التي نستطيع رسمها للعالم الاسلامي في النصف الاول من القرن الحادي عشر قد تتميز ، اذا ما قورنت بانطلاقة اوروبا المسيحية ، بالفوضى السياسية والانقسامات الدينية ، وحتى بالانحطاط الاقتصادي في مناطق واسعة من هذا العالم . وتاق المسلمون المتزايدون عدداً ، امام هذه المحن الخطيرة ، الى الوئام والوحدة ، لا سيما وان الحكومات الخارجة على السنة ، كحكومة الفاطميين في مصر مثلاً ، لم تحقق الآمال الموضوعة فيها . فقدر لبعض المغامرين ، الذين ضموا قوة السلاح الى الدعاوة الدينية فحققوا انتصار الدين القويم وأسسوا قوة سياسية جديدة لن تلبث وتثبت قدرتها ، أقله على اضعاف او ايقاف توسع المسيحية الغربية . وقد حدثت هذه النهضة ، في آن واحد تقريباً ، في طرفي العالم الاسلامي : في الولايات الغربية – المغرب واسبانيا – بفضل البربر ، وفي الشرق بفضل تدخل القوة التركية .

المرابطون والموحدون

عاشت بين الصحراء الكبرى والسودان قبائل من البربر الرحل اعتنقت الاسلام منذ عهد قريب . فكون منها بعض المبشرين ، في منتصف القرن الحادي عشر ، مجموعة من غلاة المتعصبين شنت على الاوثان من العبيد الحرب المقدسة التقليدية . اقام البربر في اديرة محصنة يدعى الواحد منها بالرباط الذي اشتق منه اسمهم « المرابطون » – « اهل الرباط » – . وأقنعوا ، دونما صعوبة ، بوجوب تنظيف المراكز التي صورها لهم فقهاء المغرب المالكيون كمراكز افساد الاخلاق : فاحتلوا في سنوات معدودات مراكش والنصف الغربي من الجزائر الحالية . ثم استدعاهم الى اسبانيا اولئك الذين أقلقهم ضعف الامراء المسلمين وتخلياتهم في وجه الفتح المسيحي ؛ وصادف ذلك من الجهة المسيحية ، فترة حلول تصلب فرسان ما وراء البيرينيه ، الذين سيقومون بالحملات الصليبية في الشرق، محل روح التفاهم بين الاديان التي ما زال يمثلها (السيد) في فالنسا. فتوحد بين السنتين ١٠٨٦ و ١١١٠ على

ايدي المرابطين كل ما تبقى من اسبانيا الاسلامية، أي النصف الجنوبي من شبه الجزيرة بين مصبي التاج والايبر. وتوطدت بوجودهم الدكتاتورية المالكية المتمسكة بحرف القانون واللاهوت؛ كما تجددت في عهدهم الحرب المقدسة ضد المسيحيين وأصبح موقفهم من اهل الذمة في الداخل أشدّ تصلباً.

الا ان البربر الاشداء ما لبثوا ان ترفوا في الاندلس؛ اضف الى ذلك ان حاجات الجماهير الدينية ما كانت لتتقبل دكتاتورية الفقهاء زمناً طويلاً. فنشأت حركة جديدة اعظم قوة، وأعظم تميزاً ايضاً بسبب انتمائها الى البربر المراكشيين الحضريين، هي حركة الموحدين التي أسسها ابن تومرت ونظمها من بعده عبد المؤمن الذي ستملك سلالته منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر. فنادى ابن تومرت، الذي تلقن في الشرق تعاليم الغزالي الصوفية، بالعودة الى مصادر الايمان المباشرة. ثم قرر تحطيم حكم الفقهاء المطلق، فأعلن نفسه مهدياً، بالمفهوم نفسه تقريباً الذي ألصقه الاسماعيليون بهذا الاسم. اجل، لم يفلح بعمله هذا في القضاء على نفوذ الفقهاء الذي ما زال عظيماً في المغرب حتى ايامنا هذه؛ ولكنه استطاع، كما حدث في الشرق، ان يدخل على الدين القويم في الغرب عاطفة صوفية عميقة ستتجسم ارتقاءاتها باكرام الأولياء الذي هو الصفة المميزة للورع الشعبي.

الحضارة الاندلسية

ان اسبانيا الموحّدة، بعد ان تحررت من ظلم المالكية، وعلى الرغم من استمرار تصلبها حيال المسيحيين، وحتى اليهود، شجعت انطلاقة الفكر الاسلامي الذي بلغ فيها اوجه آنذاك. انها، والحق يقال، لفترة هامة جداً: فقد حلّت الثقافة الاسبانية ـ الاسلامية محل الشرق في الحقول التي اخذ هذا الاخير في اهمالها، وفي الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي مستعداً لأن يتقبل، من ايدي المفكرين الاسبانيين، اصول الثقافة الاسلامية. حرية في البحث والفكر لعل ابن طفيل عبّر عنها خير تعبير في قصته الفلسفية «حي ابن يقظان» التي توصل فيها الى نوع من الديانة الطبيعية تتغلب فيها العاطفة على التمسك المفرط بالشكليات. ولكن الأثر الاكبر في فكر الغرب المسيحي ستتركه مؤلفات ابن رشد الذي وضع اوضح شرح منظم لمذهب ارسطو: فقد عرضت فيه تعاليم الفيلسوف القديم وكأنها تفترض توافق الايمان والعقل؛ ولكنه اجاز القول بتطور الفلسفة تطوراً مستقلاً، كما قال ابن باجه من قبل. وأكب العلم الاسباني، في الوقت نفسه، على الابحاث الطريفة، بعد ان اكتفى زمناً طويلاً بما يتوصل اليه الشرق: فقام مؤلفو الزيجات التي ما لبثت ان ترجمت الى اللاتينية، وعلماء النبات وعلماء تركيب الأدوية كابن البيطار، وعلماء الزراعة كابن العوام والاطباء اخيراً كابن زهر. وما زال التاريخ محافظاً على مستواه، فترك لنا الرحالتان ابن جبير وابو حميد الغرناطي وصفاً قيّماً جداً، الاول للشرق كله بما فيه بلاد الصليبيين، والثاني لروسيا. وقد حافظ الادب الصافي على مستواه ايضاً، فرفع الشاعر المتجول الفاجر، ابن كزمان، اللون الشعبي المعروف بالموشحات الى مرتبة الادب الرفيع.

ولم يكن الفن دون العلوم مرتبة مجيدة في عهد الموحدين ، في اسبانيا ومراكش على السواء ، حيث انصهرت تعاليم الشرق والتقاليد المحليـــة في تحقيق شخصي اصيل . فان حصن الرباط ، وجامع الكتبية في مراكش وقصر اشبيلية لا تزال توحي حتى اليوم بما انطوى عليه هذا الفن من متانة وأناقة ، على الرغم من بعض التحويرات اللاحقة .

امتدت هذه الثقافة الاسبانية الى ما وراء حدود السيطرة الاسلامية المنكمشة . ففي صقليا المخصصة للنورمنديين ، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره ، تألق مركز اشعاع ثان ، دون اسبانيا شأناً على انه اعظم أهمية ، الى حد بعيد ، من الشرق اللاتيني ، انتقلت بواسطته الثقافة الاسلامية الى الغرب . وقد عمل فيها بعض المسلمين أنفسهم في خدمة الامراء المسيحيين : ففي منتصف القرن الثـــاني عشر وضع الادريسي ، المولود في سبتة والمقيم في صقليا ، لروجيه الثاني ، المؤلف الجغرافي الوحيد المزين بالخرائط القيمة الذي ضمنه عربي معلومات وجيهة عن اوروبا بالاضافة الى ما سبقه اليه كبار الجغرافيين المسلمين .

وأتاحت الثقافة الاندلسية بدورها اخيراً انطلاقـــة الفكر اليهودي الذي كانت مستعمراته الاسبانية ، آنذاك ، اوسع مستعمرات اليهود المتشكلتين ثقافة . لا بل ان الفتوحات المسيحية أولاً ومضايقات الموحدين ثانياً أهابت باليهود الى الانتشار في العالم كابن ميمون مثلاً الذي استقر نهائياً في الشرق بينما اتصل معظم اخوته في الدين ، المقيمين في اسبانيا المسيحية وفرنسا الجنوبية حيث أحسنت وفادتهم آنذاك ، بأبنـــاء ملتهم في ايطاليا ؛ فخلصوا هؤلاء من سيطرة نفوذ صقليا الاسلامية والقيروان ؛ وهكذا تكوّنت في مناطق الحدود بين الاسلام والمسيحية ثقافة يهودية ارسخت التقاليد اليهودية ـ الاسلامية القديمة حتى اوائل القرن الثالث عشر ، وعنيت باللغـــة العبرية والشعر الديني والدنيوي والتاريخ اليهودي والدروس العلمية والفلسفية والدينية . فروى بنيامين التوديلي ، على غرار معاصره ابن جبير ، رحلته الى الشرق . وليس من شك في ان المؤلفات الفلسفية والدينية ، التي تأثرت جزئياً بأبحاث المسلمين ، واطلع المفكرون المسيحيون عليها بدورهم ، هي أهم ما تحقق بالنسبة للتاريخ العام . تصارعت فيها نزعات الافلاطونية الحديثة ، التي يعكسها « يهوذا حلاوي » عكساً على الاقل ، ومذهبا الارسطوطاليسية والعقلية اللذان أشاد بهما ابن ميمون . فان هذا الاخير ، على غرار معاصره ابن رشد ، بالنسبة للاسلام ، لأكبر مفكري اليهود وأعظمهم جرأة في القرون الوسطى ، ولكنه آخر فلاسفة اليهود في هذه القرون . ومرد ذلك الى ان حياة الجماعات الفكرية ستتجه بعد ذاك التاريخ اتجاهات مختلفة : فان يهود البلدان المسيحية ، الذين لم يعدوا لتقبل مبادىء العلوم والفلسفة الشرقية ، وصادفوا صعوبة في الانسجام والبيئات الجديدة ، سينادون ، في الجو نفسه الذي انتشرت فيه الحركة « الألبية » ، بالنزعات الدينية والصوفية المعروفة باسم حركة « القبّال » السرية التي رأى كتابهـــا « زهر » النور في اسبانيا في القرن الثالث عشر . وظهرت بموازاة ذلـــك صوفية يهودية اخرى تعرف بالحاسدية اقل ارتباطاً بالتعاليم الفكرية الآتية من الشرق وأشد تأثراً ببعض مظاهر الحيـــاة

الرهبانية المسيحية ، في احياء اليهود في ريتانيا التي كانت موضوع اضطهاد قاس بمناسبة الحملات الصليبية وبحجتها . فارتبطت الحياة اليهودية منذ ذاك الحين بثقافة البلدان المسيحية .

حقق النظام الموحّد اكمل عمل توحيدي كان باستطاعة الغرب الاسلامي ان يحققه عبر تاريخه الطويل ؛ او اقله الخصب وحدة بين بلاد البربر المراكشية واسبانيا الاسلامية . فالمغرب الشرقي نفسه ، الذي هدده خطر غارات نورمنديي صقليا ، قد التجأ الى امبراطورية الموحدين ، التي لم يبق خارج نفوذها ، من العالم الاسلامي الغربي بأكمله ، سوى بعض المغامرين المنتسبين الى سلالة المرابطين من بني « غانية » المتحصنين في جزر الباليار . فادت هذه الوحدة ، وهـــذا السلام النسبي الذي أمّنة في البحر آخر اسطول قوي ، الى انعاش الحياة الاقتصادية . اجل لقد كانت التجارة مع ايطاليا وفرنسا شبه محصورة في البيزيين والجنويين والمرسيليين ؛ ولكن مراقبـــة نشاطاتهم ما زالت امراً ممكناً في الموانىء التي حصلوا فيها على بعض الامتيازات ؛ اضف الى ذلك ان المحاصيل المحلية ، أي المواد الآتيـــة من السودان النيجيري الغني بالذهب والذي قامت العلائق بينه وبـــين اسبانيا منذ دخول المرابطين ، قد وجدت لها اسواق تصريف مثمرة نحو اوروبا المسيحية .

الا ان فترات التوازن والازدهار هـذه لم تدم طويلا . فمنذ السنة ١٢٠٠ تقريباً ، تجددت عمليات المسيحيين الحربية لاستعادة اسبانيا؛ وبرزت بوادر الشقاق بين السكان المغاربة والاندلسيين الذين لم يوحدوا كلمتهم؛ وغدا التجار الاوروبيون اشد تطلباً. فلم تمر خمسون سنة حتى انكمشت اسبانيا الاسلامية في مملكة غرناطة الصغرى ، بينما عاد المغرب الى انقسامه التقليدي . وكان كبار مفكري الاسلام ، كالصوفي ابن العربي ، قد شعروا بالجو يكفهر من حولهم في هـــذه الولاية المنعزلة في اقاصي العـــالم الاسلامي ، فغادروها وتوجهوا الى الشرق يقضون فيه ايامهم الاخيرة لأنهم ما زالوا يعتبرون الشرق ، على الرغم من محنه الخاصة ، مهداً لثقافتهم .

الغزوات التركية

هل ترد المحن التي مرّ بها الشرق الاسلامي الى قيـــام السيطرة التركية يا ترى ؟ ان الرأي، المتأثر في الارجح بما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية في القرن الاخير من انحطاط وفقدان اعتبار ، لا يتورع عن التأكيد بأنهـــا خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً. ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن اذ ان الاتراك لم يحتلوا آسيا الاسلامية دون ان يُستدعوا لهذا العمل او يُساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الالوان الادبية على الاقل قـــد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان الانحطاط اخـيراً لم يحدث الا في القرن السادس عشر ، أي بعد انقضاء خمسمائة سنة على فتحهم . وتوفق الاتراك في هذه الأثناء ، بعد ان بسطوا سيادتهم على الشرق الاسلامي بأكمله اولاً ، وعلى الامبراطورية البيزنطية كلها وجيرانها البلقانيين ثانياً ، الى تأسيس اطول امبراطورية متوسطية عظيمة عهداً بين الامبراطوريات التي تأسست بعد انهيار السيطرة الرومانية . لذلك فان الواقع التركي ، بفعل نتائجه القريبة او البعيدة ، جدير بأن لا نمر

به مرور الكرام . فهو ابعد من ان يكون انحطاطاً ، لانه حدّد معظم الخطوط التي ميّزت الدول الاسلامية حتى ايامنا هذه .

نحن نعلم كيف ان الدول الاسلامية في الشرق الادنى انتهت منذ زمن بعيد الى تعبئة جيوشها من الارقاء الاتراك الذين وقعوا في الأسر او ابتيعوا فتياناً وأعدوا للخدمة العسكرية وأدمجوا في المجتمع الاسلامي . الا ان الحركة التي نشاهدها الآن تختلف اختلافاً كلياً عما سبقها . لقد تم الاتصال بين دول الاتراك في آسيا الوسطى وبين الاسلام بواسطة بعض التجار وبعض المبشرين وحتى بواسطة الغزاة المتطوعين الذين غذّوا ، عند حدود الوثنية ، روح الحرب المقدسة القديمة. امام عظمة هذه الحضارة المتفوقة، اقتفى عدد كبير من الاتراك ، في القرن العاشر ، بين «الفولغا» و «ألتاي » ، خطى بلغاريي الفولغا واعتنقوا دين الاسلام الذي كان قابلاً في نظر الجماهير للاتفاق وبعض التقاليد السامانية او لفتح ذراعيه لمعتقدات اخرى كثيرة ، والذي تلقى ، في نظر الرؤساء ، توجيهات فقهاء الدولة السامانية الحنفيين . زد على ذلك ان الاسلام هو دين الغزاة ايضاً فاستهوتهم نضاليته الاصيلة ؛ واذ كانوا قليلي الاهتمام لحذاقة اللاهوتيين ، وجدوا في الحرب المقدسة ، التي شنت اول ما شنت على الوثنيين من اخوانهم ، وسيلة لارضاء ميولهم التقليدية الى الغزو .

استحال بذلك على الامارات الايرانية جمع الارقاء من بين هؤلاء المسلمين الجدد. فانتهى الامر بها ، تأميناً لتعبئة الجيوش ، الى استدعاء وتوطين قبائل تركية كاملة تدخلت بالتالي في النزاعات بين الاحزاب او اسهمت في القضاء على الشيع السجمة . وهذا هو اصل مملكة القراخانيين التي ضمّت الى التركستان الصيني ، الحديث العهد في الاسلام ، منذ أواخر القرن العاشر ، المناطق المنتزعة من السامانيين . وأسس الجيش التركي التابع لهؤلاء الامراء ، في « غزنة » من اعمال افغانستان ، امارة اخرى ما لبثت ان امتدت الى خراسان ، آخر ممتلكات السامانيين .

جاءت الدولة الغزنوية مماثلة لامارات اخرى أسسها قواد الجيوش التركية ؛ الا انها اتسمت ببعض المميزات الجديدة : فقد اعلن زعماؤها ، وهم من السنيين المتصلبين ، عن تصميمهم على انتزاع الخلافة من الشيعيين؛ وأدركوا بالاضافة الى ذلك انهم لن يستطيعوا السيطرة على جيشهم ، ولا دفع مرتباته بسخاء ، ولا احتباس نشاط الغزاة ، الا بتشجيعه على الفتح ، فنظموا بقيادة محمود الغزنوي حملات موفقة على وادي الهندوس . اجل ، لم يستهدفوا في البداية سوى غزو المعابد البراهمانية ؛ ولكن النتيجة الثابتة ، كما رأينا ، كانت نشر الاسلام في الهند الشمالية الغربية : وهذا واقع تاريخي تؤيده جغرافية باكستان الحالية .

وهم الغزنويون انفسهم من استقبلوا في اراضيهم السلجوقيين ، زعماء منطقة بحر آرال وقبيلة اوغوز التركية ، فتأثر رؤساء هذه الجماعات من الرحل ، ولا سيما طغري بك ، بتعاليم المبشرين السنيين ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الحرب المقدسة انما هي تحرير الاسلام من البدع التي مزّقته .

في السنة ١٠٤١ سحقوا الجيش الغزنوي الذي تأخر في العودة من الهند : ففتحت امامهم ابواب ايران على مصراعيها. وصادف ان الخليفة العباسي كان راغباً آنذاك في التحرر من حماية البويهيين الشيعيين ، وقد وضع القانوني الكبير ، الماوردي ، تلبية لرغبته ، بحثاً ضمّنه اصول الحكم القويم . ولكن القوى الدينية لم تكف لاصلاح الاسلام فاستدعى طغري بك الذي دخل بغداد دون قتال ومُنح ، بالاضافة الى لقب ملك الشرق والغرب ولقب السلطان ، ملء السلطة السياسية ، واسندت اليه مهمة نصرة الدين القويم على البدع في الداخل وعلى الفاطميين في مصر . فضم خلفاء طغري بك ، الى ايران وبلاد ما بين النهرين ، سوريا التي انتزعوها من المصريين . قد يقال ان هذا الحل جاء خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سيد ضعيف بوصي كثير الطلبات. ولكنه جاء نصراً للدين الاسلامي القويم ايضاً : اذ ان الاسلام الملتف رسمياً حول راية العباسيين الخضراء سيتمكن، في كافة أنحاء الشرق الادنى، من اعادة تنظيم الدولة في كنف الجيش التركي.

غير ان للفتح التركي وجهاً آخر . فهؤلاء التركان الرحّل لم يهتموا لخلوص العقيدة اهتمامهم للغزو وكسب الغنائم من غير المؤمنين . فكان طبيعياً بعد ان استقر هؤلاء الغزاة في ايران الغربية ان يوجهوا نشاطهم ضد الامبراطورية البيزنطية . اضف الى ذلك انهم ألفوا اتحاداً من جماعات قبلية غير متلاحمة واعتبروا السلطان قائداً حربياً مؤقتاً، فخضعوا بصعوبة لقوانين دولة منظمة اصبح سلطانهم رئيساً لها . أفليس من الطبيعي ايضاً ، والحالة هذه ، في سبيل تحويل اعمالهم الفوضوية عن الدولة ، الحدو بهم ، وقيادتهم عند الحاجة ، الى غزو البيزنطيين ، لا سيما وان الجيش في الامبراطورية اليونانية في حالة يرثى لها من الفوضى ، والسكان لا تجمعهم وحدة ادبية ؟ فعندما سحق السلطان الب ارسلان ، في السنة ١٠٧١ ، آخر جيش بيزنطي في « مانزيكرت » وأسر الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينس ، انفتحت امامهم ابواب آسيا الصغرى . وكان العديد من بني عرقهم قد خدموا في الجيش اليوناني ، ولم يتردد المطالبون بالعرش ، في نزاعاتهم الداخلية ، في استخدامهم لبلوغ غاياتهم : فاستدعوهم الى أبعد من الهدف الذي حددوه لانفسهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا ليستطيعوا دخولها عنوة . ولم يدرك اليونانيون الا بعد فوات الاوان ان الشعب التركي، باستيطانه آسيا الصغرى، قد مزّق اطارات الامبراطورية، وان الارمن والسوريين اليعاقبة ، المعادين لبيزنطية ، قد ارتضوا بهؤلاء الأسياد الجدد ، وان يونانيي آسيا الذين انكفأوا تدريجياً نحو شواطىء بحر ايجه . وأنهكتهم الحروب الطويلة قد أعدموا وسائل الوقوف في وجه الاتراك . وهكذا تكون وطن تركي ، هو تركيا ، لن يلبث المسافرون ان يتحققوا من حقيقة واقعه ؛ وهكذا حقق الاسلام فتح بلاد جديدة .

الشرق الادنى السلجوقي

لم توفق الدولة السلجوقية في الحقيقة الى فرض رقابتها على التركان الذين توزعوا خارج حدودها ؛ ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية تركية يدير شؤونها الخراسانيون السنيون . فباستثناء اذربيجان حيث استوطن التركان جماعات كبيرة ، لم يطرأ تعديل يذكر على توزيع السكان في الشرق الادنى ، كما ان الانظمة الادارية

والادارات نفسها الـتي خلـّفتها ايران والدولة الغزنوية لم تتغير قط ايضاً . كان السلاطين الاول الثلاثة – طغري بك والب ارسلان وملك شاه – رجال حرب نوابغ ، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الادارية فتركوا للوزراء أمر ادارة الشعوب المحتلة . وقد عبّر احد هؤلاء الوزراء ، نظام الملك ، وهو شخصية بارزة نادرة ، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء ونوادر . ولكن مجموعته لم تأت بجديد .

ليست الادارة اذن ما حوره السلجوقيون – وما الطغراء التي استعملت حتى السنة ١٩٢٢ لتصديق الفرمانات والشهادات العثمانية سوى طرفة فحسب – بـل توجيه الدولة نفسها . وفي الوحدة السياسية الكبرى التي حققوها ، كان الجيش ، وهو غريب تمـاماً عن السكان ، المستفيد الوحيد من الفتح: فقد خصّص باقطاعات عظيمة من الاراضي ، على ان هذا التوزيع ، على الرغم مما قيل فيه ، لم يفض الى اقامة النظام الاقطاعي ، لأن الدولة السلجوقية قد احتفظت حيـال قياداتها العسكرية برقابـة حازمة أتاحت لها السيطرة بقوة على المحاربين الذين كانت اقطاعاتهم وضيعة على العموم . اما السلاطين فهم رجال الحكم يقضون على سجس المدن في مهده ويراقبون حركات القبائل العربية او الكردية ويقتصون من المخلـّين بالأمن والنظام .

عادت هذه السلطة المستعادة بالخير ، في الدرجة الثانية ، على السنة وفقهائها . واذا كان الاضطهاد لم يتناول اتباع البدع الجديدة فردياً ، فقد هدمت مؤسساتهم ، وبذل مجهود مادي وأدبي ضخم لرفع شأن الدين القويم وحصر ادارة المجتمع الاسلامي باتباعه دون غيرهم . فأسس المسؤولون مدارس خاصة تأمنت فيها للمعلمين والطلاب سبل المعيشة والعمل ؛ لقـد ولـّى عهد المؤسسات نصف الخاصة التي تلقن شتى الدروس ، وجاء عهـد المدارس العامة المعدّة ، على غرار جامعة الازهر ، مركز الاسماعيلية في مصر ، لتوزيع ثقافة دينية قويمة رفيعة . سيتخرج من هـذه المدارس موظفو الادارة ، والقانونيون ، مرشدوها ، والقضاة ، دعامتها : تلك هي «المدارس» . يعود انشاء اقدمها عهداً ، وقد كانت في منتهى الوضاعة ، الى السامانيين الاخيرين والغزنويين من بعدهم . ثم ازدادت عدداً في كافة أنحاء العالم السلجوقي بناء على رغبة الحكومة اولاً ورغبة كافة العظماء ثانياً . وأول من أعطى المثـل ، في قلب بغداد ، نظام الملك ، بتأسيسه المدرسة « النظامية الفخمة التي تولى التدريس فيها اوسع فقهاء العصر شهرة ، ولا سيما الاشعريون ، الذين اهتم الوزير الكبير لنجاحهم .

وفي الوقت نفسه قام السلجوقيون ، المولعون بالبناء ، بتشييد الجوامع العظيمة والمستشفيات والمدارس والخانات والجسور ، وكلها أبنية يدخلها التقليد في واجبات الملك الواعي لمسؤوليته الدينية . وخصت هذه المؤسسات بموارد متزايدة الاهمية : فالأوقاف التي كانت في معظمها خاصة ومحدودة غدت منذ ذاك الحين ذات أهمية عمومية واتسعت اتساعاً غريباً وزادت من أهمية المتعاشين منها ، رجال الجوامع والمدارس ، وكلهم دعائم أساسية للدين القويم الذي ينفق عليهم .

شاهدت الدولة السلجوقية اخيراً المصالحة التي جرت ، في ذهن المؤمنين وموقف الحكومة

على السواء ، بين الصوفية والدين القويم الذي أمسى الصوفيون حلفاءه ، بأعداد متزايدة ، لدى الشعب . وحين اكتشف المفكر الكبير الغزالي ، بعد خبرة طويلة في تدريس الفلسفة الكلامية، ان لا قوة للدين بدون رضى القلب ، وان العاطفة الدينية التي لا تستند الى ارشاد العقل غالباً ما تؤدي الى فقدان التوازن ، وان ما يدوم ، في الواقع ، هو اتحاد القلب والعقل معاً ، انما كان يعبر تعبيراً نافذاً وشخصياً عن نزعة عامة في اوساط الارستوقراطية الاسلامية . اضف الى ذلك ان الصوفيين قد انصرفوا تدريجياً ، في الوقت نفسه ، عن حياة العزلة وألفوا الجمعيات وخضعوا لقانون قربهم من الجمعيات الدينية المسيحية . فكان من المحتوم ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، ان تفضي هذه العادات الجديدة ، التي اخذت تنتشر منذ اوائل العهد السلجوقي ، الى تأسيس جمعيات دينية حقيقية كانت اولاها جمعية القدرية التي اسسها عبد القادر الغيلاني . اجل لم يحل ذلك دون ابقاء الصوفيين على عادات غريبة عن العبادة المشتركة ، وزائفة جداً احياناً ؛ ولكن صفة منافاتها للديانة الرسمية واصطباغها بالبدعة قد زالت عنها . وها هم السلجوقيون انفسهم يسبغون عليهم الاوقاف ويؤسسون الاديرة في المناطق المحرومة منها . فجذبوهم من ثم اليهم واستغلوا النفوذ الادبي الذي كان لاوليائهم على الجماهير الشعبية .

لم يبق من ثم امام المارقين من الدين سوى المداهنة ، او اللجوء الى المناطق النائية ، او النشاط السري ايضاً ، وهكذا تاسست جمعية ارهابية توصل محركها حسن الصباح ، وهو مبشر اسماعيلي اغضب الفاطميين بسبب انتصاره لحركة نزار ، الى الاستيلاء ، عن طريق الخدعة او التهديد بالتشهير ، على حصون منيعة عديدة ، ولا سيما قلعة الموت في الجبال القزوينية . وليس المعتقد هو ما يميز هذه الشيعة بل سرها وتنظيمها المدهش واعتمادها الاغتيال السياسي كوسيلة عمل كانت اولى ضحاياه البارزة نظام الملك نفسه . وكانوا يسكرون المبتدئين بشراب ممزوج بحشيشة الكيف يذيقهم لذة الافراح السماوية . ولكن الاغتيال الذي مارسه هؤلاء الحشاشون قد اعطى الكلمة ، *Assassin* ، مفهومها الفرنسي : ومرد ذلك الى ان هذه الشيعة لم تلبث ان انتشرت في سوريا حيث عرفها الصليبيون . وقد بقيت طوال اجيال عدة مثار رعب في كافة انحاء الشرق الادنى على الرغم من ضآلة عدد اتباعها الحقيقيين .

يجدر بنا ، في هذا الجو الديني الجديد ، ايضاح وضع اهل الذمة الحقيقي الذي شوهته دعاوة الحروب الصليبية . ليس من ريب في ان تركان آسيا الصغرى قد اذاقوا المسيحيين اليونانيين مرّ العذاب الوانا ؛ وفي المرحلة الاولى من غزواتهم الحقوا الضرر والاذى بالارمن واليعاقبة ايضا . ولكن وضع المسيحيين لم يتغير قط في الدول السلجوقية المنظمة ، ولا سيما في فلسطين . فان الحج الذي توقف عن طريق الاناضول قد نشط عن طريق البحر ، ولم تقم في طريق الحجاج اية عقبة حتى اورشليم . والواقع هو ان الغرب قد ارتكب خطأ ، ربما كان مقصوداً عند بعضهم ، بعدم التمييز بين عذابات يوناني آسيا الصغرى وحال مسيحيي فلسطين ، وهو خطأ وقعوا فيه تحت تأثير شعور الفرسان الفرنجة حيال المسلمين بعد اشتراكهم في حروب اسبانيا . ولكن

تساهل الاسلام التقليدي لم يتغير قط ، الا في اسبانيا بالذات ، بفعل التصلب المسيحي . اما في الشرق ، حيث لم تلصق بهم ، كما جرى في الأندلس ، تهمة التعاون مع الفرسان اللاتين ، فلم يتأثر التساهل حتى بالحملات الصليبية نفسها .

تجزئة الاسلام التركي

لم تتمكن الدولة السلجوقية ، على الرغم من احيائها العالم الاسلامي ، من الابقاء على تلاحمها زمنا طويلا . فقد انفرط عقد السلالة المالكة غداة وفاة « ملك شاه » في السنة ١٠٩٢ : وافضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، وتوزيع الاقطاعات والوفيات المبكرة ، والقصور الشرعي الضعيف ، الى تجزئة الامبراطورية التي استعجلها تعيين الاتابكة ، اوصياء على أبناء السلطان القصّر ، ووكلاء على اقطاعاتهم ، فرغبوا ، كما هو طبيعي ، في الحلول محلهم . فتوجب من ثم تخصيص افراد الجيش دونما حساب باقطاعات جديدة ما عتمت ان اصبحت سيادات وراثية . وتزايدت كذلك اسباب التنافر بين العرب والاتراك ، وبين التركمان والاكراد . كل هذا يفسر نجاحات الصليبيين وتقدم الجيورجيين واستمرار الخلافة الفاطمية . الا ان امارات مستقلة اقل عدداً واعظم قوة واطول عمراً ايضاً تأسست على انقاض الامبراطورية السلجوقية السريعة الزوال وابقت في الشرق الادنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية : العراق وسوريا وايران وآسيا الصغرى .

غدت العراق آنذاك مجرد ولاية في عالم اسلامي لم يعد ليعتبرها مركزه الرئيسي ، ولكنها استعادت ، بفضل الانحطاط السلجوقي ، بعض الاستقلال تحت ادارة الخلفاء الزمنية ، غير المترقبة حقاً . وقد حاول احد هؤلاء ، الناصر ، حوالى السنة ١٢٠٠ ، ان يعيد الى الخلافة سلطة دينية حقيقية تعلو سلطة الفقهاء ، فلم ينصرف ، في سبيل هذه الغاية ، عن مطاردة جمعيات الفتوة في بغداد فحسب ، بل جعل منها احدى وسائل حكمه ، ساعيا جهده لاصلاحها من الداخل ، وتوحيد تنظيمها تحت كنفه ، وتشجيعها على تحقيق مثل روحي اعلى اوحته منذ امد بعيد بعض اشكال الصوفية الجماعية ، ثم حاول جمع الامراء والنبلاء في فتوة ارستوقراطية جعل منها نوعاً من جمعيات الفرسان ؛ واذا كانت هذه المحاولة الاخيرة قصيرة الامد ، فقد كتب للفتوة الشعبية ، التي اشرف على اصلاحها ، ان تلعب دوراً غير قصير في حياة البلدان التركية .

اما تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد سيطر عليه ، طوال القرن الثاني عشر ، الصراع ضد الصليبيين . كانت هذه المناطق حتى ذاك التاريخ ، اما تابعة للعراق تارة ولمصر اخرى ، واما مراكز لامارات هزيلة . ولكنها غدت آنذاك ، بفضل تقدمها على بغداد الناشئة استعداداً للقيام بهذه المهمة ، مركز تجمع لنهضة عسكرية وتجدد ادبي وثقافي . وقد حدث في اول القرن ان الارستوقراطية العربية ، ولا سيا في امارة دمشق التي لم يحدق بها خطر الفرسان الفرنجة كما احدق بحلب ، رضيت ، طوعاً او قسراً ، بالفتح اللاتيني كما جاء في المذكرات الطريفة التي وضعها آنذاك اسامة بن منقذ . ولكن تجاوزات بعض الفرنجة واستمرار تدفق الصليبيين

خلقت ، في سكان المدن السورية وبين علماء الدين ، حركة اعتراض على هذه اللامبالاة الاثيمة ، وعلى انقسامات المسلمين . فعرف بعض الامراء الاتراك كيف يستغلونها في سبيل بعث الكيانات السياسية الكبرى لمصلحتهم . وهذا ما حققه زنكي اولا وابنه نور الدين من بعده في منتصف القرن الثاني عشر : فقد ضما الى امارتهما في حلب ، وهي محور الحرب المقدسة ضد الفرنجة ، شطراً هاماً من بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا باجمعها ، وجندا في جيوشهما اعداداً متساوية من الاكراد والاتراك . فاستطاعا رد الفرنجة شيئاً فشيئاً الى الساحل السوري على الرغم من النجدات البيزنطية او الغربية التي تلقوها . وهكذا جعلا من سوريا ،بتدابيرهما الجائرة ضـــد الشيعة وبتأسيسها العديـــد من المدارس والجمعيات الصوفية التي اسهم فيها بعض المهاجرين الايرانيين ، اوسع المراكز نشاطاً لصراع مزدوج ضد اعداء السنة في الخارج والداخل . اضف الى ذلك ان هذا التجمع سهلته زيادة الثروة المادية : فقـــد خسرت بغداد مركزها الاول في تجارة الشرق بعد ان احتفظت به مـــدة طويلة احتفاظاً صنعياً ؛ اما الموصل ، وهي مركز صناعي اقرب منها الى مناجم دجلة الاعلى ، وحلب ودمشق القريبتان من الموانيء السورية ومستعمرات الايطاليين التجارية ، فقد امست، مع القاهرة والاسكندرية ، اوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً ، لا بل تقدمت على القاهرة والاسكندرية ، وأمست مراكز الاسلام الفكرية والفنية ايضاً . ومرد ذلك الى ان مصر الفاطمية التي فتت شقاقات جيوشها وانقسامات الاسماعيلية وفقدان الثقة بها في عضدها ، لم تحافظ على استقلالها الا بفضل الحاجز المزدوج الذي يفصلها عن الاسلام التركي : الصحراء والدول الفرنجية . ولكن ما ان حاول الصليبيون الاستيلاء على موارد دلتا النيل الغنية حتى اضطر المصريون لطلب النجدة من نور الدين . فارسل سيد حلب بقيادة صلاح الدين الكردي ، جيشا فتح مصر ثم وضع حدا للخلافة الفاطمية في السنة ١١٧١ فوحد ، بعمله هذا ، الاسلام الشرقي كله بعد انشقاق دام قرنين كاملين .

افضى هذا الفتح بدوره الى قلب القوى الاسلامية قلبا مباشرا في الحقل السياسي ، وبطيئاً غير كامل في الحياة الروحية . فاستقوى صلاح الدين بتفوق مصر المادي واستغل ضعف خلفاء نور الدين ، فاستلم إرث هذا الامير العظيم . وهكذا وضعت موارد مصر وسوريا معا في خدمة جيش تركي – كردي تحمس لخوض الحرب ضد الفرنجة فاستعاد القدس من الصليبيين (١١٨٧) وردهم الى طريدة ساحلية ضيقة . الا ان الهجوم المعاكس العنيف الذي شنته الحملة الصليبية الثالثة اتاح للصليبيين الحفاظ على حصونهم الاخيرة ؛ لذلك اخذ خلفاء صلاح الدين ، الايوبيون ، وان صدوا عند الحاجة هجمات الحملات الصليبية الجديدة ، يؤثرون اقامة علائق تجارية طيبة مع التجار الايطاليين على اطالة الحرب المقدسة . لا بل ان احدهم ، الكامل ، عرف كيف يردّ على دبلوماسية فردريك الثاني الحكيمة بموقف كريم ايضاً . كان اثر ذلك ، في مصر ، وهي ملتقى تجارة الهند عن طريق البحر الاحمر والتجارة الايطالية في المتوسط ، ازدهاراً عظيماً متزايداً : ويؤيد هذا القول ان احدى الشركات التجارية الكبرى (شركة كارمي) حاولت آنذاك احتكار

استيراد الابازير ؛ وان الحماية الايوبية ، نتيجة لذلك ، قد تاءت بوطأتها على اليمن والمدن المقدسة . الا ان العهد الايوبي ، على الرغم من ان مصر المتجانسة والموحـــدة السلطة لم تعرف القيادات الاقطاعية الكبرى والثورات والانفصالات الاقليمية ، قد خضع بدوره للجيش ايضاً . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ، اخـــذ الجيش ، بعد ان عزّز لدفع خطر الهجوم الفرنجي والغزو المغولي ، يرفع رؤساءه الى السلطة ، وجلهم ينحدرون من أصل عبدي ؛ فأسس هؤلاء الجنود ، لقرون عدة ، عهد المماليك العسكري .

اما ايران فقد عرفت تاريخاً اعظم اضطراباً ، وغموضاً ايضاً ، لانها ما زالت تتأثر بحركات الشعوب التي كانت تقلق آسيا الوسطى . وسقطت المناطق الاسلامية الواقعة وراء الاوكسوس ، منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، تحت حماية « القراخيطاي » من غير المسلمين — فقد دان الكثير منهم بالنسطورية — الذين عاملوا الاسلام معاملة غـــيره من الاديان غير مبالين بانتصار السنّة . وقد تكونت عند الفريقين ، على اثر الهزيمـــة التي أنزلوها بسلطان ايران السلجوقي ، سنجر ، اسطورة الخوري يوحنا ، ذلك الملك الغامض الذي قالوا عن مملكته انها تقع في مكان ما وراء الدول الاسلامية وتكهنوا بأنه سيقضي على الكفرة . ولكن كل ما حققه « القراخيطاي » في الواقع هو الدفع بجماعات جديدة من الاشقياء التركمان نحو ايران الشرقية فعاثوا فيهـــا فساداً دون ان يؤسسوا فيها حكماً دائماً . ولم يقاوم هذه الجماعات ، في المناطق الشمالية الغربية المتصلة بالصحراء ، سوى خوارزم التي ما لبثت ان بسطت سيادتها على ايران بكاملها . ولكن الخوارزميين لم يستطيعوا ضم بغداد اليها ، ولا فرض حمايتهم على الخليفة ، فافتقروا الى عضد الاسلام القويم ؛ ولما كانوا ، بالاضافة الى ذلك ، يجندون جيشهم من قبائل تركية لم تعتنق الاسلام بعد ، ويعيشون لأجل الحرب والسلب ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا كل شعبية . فلقم الغزو المغولي خوارزم لقمة واحدة ؛ وتدفق الجيش المهزوم على العالم الاسلامي في الشرق الادنى ، وعاث فيـــه فساداً وخراباً . ولم تنج من هذه الغزوات سوى الهند الشمالية الغربية بفضل تحصنها وراء جبال منيعة ؛ وقد عاشت آنذاك في كنف امارات تركيـــة انتسبت ، من قريب او بعيد ، الى الغزنويين ، وخضعت منذ اوائل القرن الثالث عشر لنظام عسكري شبيه بنظام المماليك في مصر .

اما آسيا الصغرى المحتلة منذ عهد قريب ، وهي آخر ممتلكات الاسلام التركي ، فقد كوّنت في البدء عالماً شبه مغلق . ولا يزال الغموض يكتنف هذه الفترة من تاريخها ، لأن الذين احتلوها كانوا تركاناً خشنين غرباء عن تقاليد الدول الاسلامية القديمة وعن العالم البيزنطي الذي حلوا محله ، ولأن مؤرخيها ، بالتالي ، لم يبرزوا الا في عهد متأخر . الا اننا نميز فيها ، على الرغم من ذلك ، قطاعين متقابلين : ففي الولايات المتاخمة للحدود اليونانية من جهة تركان غـــير مستقرين تقريباً يشنون غزوات الحرب المقدسة باستمرار ، كاولئك الذين خضعوا لسلطة رئيس مثّل لقبه — دانشمند — ، في الارجح ، صفة « الحكيم » ، لا اسم العائلة ؛ ومن جهة ثانية أسس احـــد فروع السلالة السلجوقية ، بمساعدة بعض المواطنين الايرانيين ، ورغبة منه في التعايش السلمي مع

بيزنطية ، دولة قوية وحـّدت آسيا الصغرى تدريجياً وضمت اليها أرمينيا الغربية نفسها . وفي اوائل القرن الثالث عشر بدت سلطنة « الروم » السلجوقية – أي تلك التي سيطرت على الولايات « الرومانية » القديمة – وكأنها دولة عظمى : فنهضت فيها المدن التي كان التركمان الرحل قد أخضعوها ؛ ونشطت التجارة مع آسيا الداخلية والقسطنطينية ، ومع مصر وروسيا ؛ وتدخلت المملكة اخيراً ، بفضل جيشها القوي ، في شؤون سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا . فالتجأ الايرانيون الهاربون من تعسف الخوارزميين ومن الغزو المغولي الى منطقة الاناضول التركية التي ورثت آنذاك حضارة ايران وأطالت بقاءها ؛ اما علاقتها بالعالم العربي ، حيث ألف الاتراك ارستوقراطية عسكرية فحسب ، فقد كانت مقطوعة تماماً .

أدى تقدم تركيا الجديدة نفسه وأخذها بالحضارة الايرانية تدريجياً الى ايجاد هوة بين سكانها وبين التركمان المتمسكين بعاداتهم . ولكن جماعات مشردة جديدة ، هاربة امام هجمات الشعوب الآسيوية ، ظلت تجتاز الحدود الاناضولية باستمرار طامعة بالمراعي ، ثائرة على كل تنظيم اداري . فاتخذ عداؤها للدولة السلجوقية طابع حركة اجتماعية ودينية ، يقودها المدعو « بابا اسحق » الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر . فاليه تعود ابوّة كافة النزعات ، المارقة من الدين في الغالب ، التي ارجفت دورياً ، حتى فجر العهد المعاصر ، التركمان المتضايقين في الممالك التي أسسوها بقوة سلاحهم . اجل لقد غلب بابا اسحق على امره ولكن الاضطرابات التي أثارها مهّدت الطريق امام نجاحات المغول الذين فرضوا حمايتهم ، في ١٢٤٣ ، على الدولة السلجوقية ، وقضوا نهائياً ، في الواقع ، على سلطتها .

ثبات الحضارة الاسلامية

نرى لزاماً علينا هنا القول مرة اخرى ان الشرق الاسلامي ، الذي تبدل تبدلاً عظيماً بفعل الغزوات التركية ، والذي تجزأ ، سياسياً او عنصرياً ، تجزؤاً لم يشاهده من قبل ، ما زال يعرف حضارة زاهية جداً ، بوجهيها الرئيسيين ، العربي والايراني. وانما انطفأت الحياة الفكرية تدريجياً في نطاق البرهان الحر فقط : فالغزالي كان آخر الفلاسفة الشرقيين، بينما تحول العلم الى ترداد اقوال السابقين . اما التاريخ فقد أمسى اعظم الالوان الادبية حيوية في العالم العربي ، واسفر عن انتاج وفير : التواريخ العامة او المغفلة ، او الموسوعات الضخمة الموضوعة للقراء « العرفاء » ؛ مذكرات ابن القلانيسي الدمشقية الى جانب مذكرات اسامة بن منقذ ؛ ترجمة صلاح الدين لعماد الدين الاصفهاني ، وهي مجملة جداً في نظرنا ، الى جانب التاريخ العام الذي وضعه ابن الاثير الواسع الاطلاع (اوائل القرن الثالث عشر) وضمنه معلومات وأخباراً صحيحة كثيرة جداً عرضت ببصيرة وألمعية ؛ تراجم العلماء والاطباء لابن القفطي وابن أبي أصيبعة ، وهي جليلة الفائدة لمؤرخي العلوم ، وقد جاورت ، في رفوف المكتبات ، القاموس الجغرافي الضخم لياقوت ، الذي يعود الى السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ايضاً . وكان الانتاج الادبي بالمقابلة اقل وفرة ؛ ولكنه بلغ ذرى الجد « بمقامات » الحريري الذي سار على خطى الهمذاني ، بينما تمثلت الصوفية خير تمثيل بالاسباني

ابن العربي الذي أمسى ، في ملجأه الشرقي ، اول عالم عربي باصول الصوفية الجديدة ، وبالمصري ابن الفارض الذي كان شاعراً كبيراً .

واستطاع الادب الايراني من جهته ، بعد ان تخلص من قيود كل ارستوقراطية مستعربة ، ان يتفتح بحرية كاملة. واذا بقيت خوارزم مركزا لتدريس الثقافة العربية واشتهر فيها اللغوي الزمخشري وكثيرون غيره ، فان اللغة الفارسية قد تفوقت ، منذئذ ، على اللغة العربية كوسيلة للتعبير الادبي . وهو الشعر هنا ما سار في الطليعة وانتج اجمل روائعه : فعمر الخيام الذي عاصر كبار السلاطين السلجوقيين واشتهر خصوصا برباعياته ، الملأى بتشاؤم مستعذب ملحد ، كان رياضيا وفلكيا كبيرا ايضا ؛ وفي القرن التالي ، كتب النظامي ، الذي جاء من حدود اذربيجان الشمالية ، روايات شعرية طويلة تتميز بشعور رقيق واسلوب متقن السبك ؛ اما السعدي اخيراً ، الذي عمّر طويلا وانهى حياته في عهد المغول ، فهو بدون منازع اشهر الشعراء الفرس بديوانه « حديقة الورود » الذي ضمنه ، نثراً وشعراً ، امثالاً مختلفة في الحقائق الاخلاقية . وانتج الادب الفارسي في الوقت نفسه مؤلفات صوفية أكثر عدداً واروع جمالاً منها في الادب العربي : ونذكر هنا على سبيل المثال السهروردي الناثر ، والشاعر « فريد الدين العطار » (اواخر القرن الثاني عشر) الذي اتجه نحو الادب التعليمي ولكنه اوجد لوناً سيبلغ منه الذروة ، ابان الفتح المغولي ، في منتصف القرن التالي ، جلالُ الدين الرومي الذي ولد في ما وراء النهر ، وقضى كل حياته ، كما يدل على ذلك اسمه ، في آسيا الصغرى حيث اسس جمعية الدراويش المشهورين باسم الدّوارين .

بيد ان بعض الاوساط التركية ، حتى بين الذين لم يأخذوا بالحضارة الايرانية ، تأثرت بالثقافة الاسلامية . ويبدو ان الاتراك قد نسوا كتابتهم الخاصة ؛ فاعتمدوا كتابة القرآن . فاستخدمت وسيلة التعبير هذه ، في آسيا الوسطى ، منذ القرن الحادي عشر ، في وضع ملخص الحكمة الاسلامية ، « كوداتكوبيليك » ، وفي نظم أشعار تركية لا تزال شعبية حتى أيامنا هذه . ادخل عليها « احمد يسفي » بعض المقتبسات الايرانية التي تتفق وشعور ابناء جلدته الاتراك من الناحية الدينية . وارتسم عند تركان آسيا الصغرى ايضاً ادب تناقله الالسن اولاً ، ثم أنتج بعض نفثات الاقلام في عهد السيطرة المغولية .

اضف الى هذا ان العهد التركي – الذي امتد اجمالاً من منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر – كان ، بالنسبة للشرق الادنى الاسلامي ، فترة ازدهار فني عظيم . اجل ان من شأن اندراس الابنية السابقة اندراساً تاماً تقريباً ان يحملنا على المغالاة في الاهمية النسبية للآثار البنائية التركية . ولكن الواقع هو ان السلجوقيين والزنكيين والايوبيين كانوا مولعين بالبناء وان نوع أبنيتهم ليس دون عددها اهمية وشأناً . ويبرز فيها الاثر الايراني ، او بالاحرى الخراساني ، بروزه في الادب ؛ ولكنه ربما تداخل فيها بعض التقاليد التركية ؛ ومهما يكن من الامر ، فان فناني الاسلام الاتراك هم الذي دفعوا بهذه النهضة العظيمة الى الامام .

لم يبق من الابنية المدنية شيء يذكر ؛ ولكن هندسة العمارة العسكرية كانت اوفر حظاً في البقاء . رأينا من قبل ان حصوناً كثيرة شيدت في الشرق الادنى خلال القرنين العاشر والحادي عشر . اما في القرن الثاني عشر فقد ارتفعت بصورة خاصة القلاع والاسوار حول المدن : فقد اضاف صلاح الدين قلعة المقطم الى أسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي قبل السنة ١١٠٠ ، بينما شيّد ابنه الظافر في حلب ، القلعة المشهورة التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه والتي بنيت بهذا الحجم ، كما يبدو ، حتى لا تكون دون الحصون الصليبية اهمية ؛ ولم يتوفق المؤرخون حتى يومنا هذا الى التمييز بين التأثيرات المتبادلة التي تفاعلت في الشعبين المتزاحمين في سوريا فادت الى تقدم سريع في هندسة العمارة العسكرية .

ترك نشاط الملوك الاتراك الديني وأعمالهم الخيرية ، آثاراً بنائية كثيرة . وقد درس العلماء درساً مستفيضاً جامع اصفهان العظيم المجهز بأربعة أواوين فخمة على جوانب فنائه ، وبكشك داخلي كبير مخصص للسلطان ، ومئذنة مستديرة رشيقة لن يلبث طرازها ان ينتشر انتشاراً واسعاً ، وبشرفة منقوشة اخيراً يعتليها المؤذن للدعوة الى الصلاة . وراجت سوق القبور الفخمة كضريح سنجر في مرو الذي جاء اجمل وأكمل من القبور السامانية السابقة . اما المدرسة ، وهي طراز بنائي جديد بساكنها وقاعات التدريس فيها ، فقد جاورها باطراد ، على غرار الجامع ، ضريح مؤسسها . وباستثناء سوريا ، اتاح استعمال القرميد للبنائين الاستفادة من تنضيد القراميد نفسه لزخرفة الابنية من الخارج ، بينما استمرت طرائق التزيين النقاشي او المتعدد الالوان في اعمال الزخرفة الداخلية . ونشأت عن ايصال القباب المستديرة بجدران القاعات المربعة ، وعن تزيين اقواس الابواب الكبرى ، المشاكي المدرجة ، و « المقرنصات » ، التي درج استعمالها انطلاقاً من تركستان حتى المغرب . اما نمط الكتابة المدفنية الذي حافظ على دوره الزخرفي ، فقد اقترب تدريجياً من الخط العادي ، وغدا بالتالي أكثر اناقة ورشاقة . اضف الى ذلك ان فن الخطاط ملازم لفن المزوّق الذي تعود نماذجه المعروفة الاولى الى مصانع بلاد ما بين النهرين في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر . ويجب ألا ننسى اخيراً آيات الصناعة النحاسية في دمشق ولاسيا في الموصل ؛ فهي تفيض حياة بتمثيل المشاهد على سليقتها ، كتلك المثلة على جرن العماد المنسوب الى القديس لويس ، الذي احضره هذا الملك من الارض المقدسة ليزين به « الكنيسة المقدسة » في باريس .

وفتح الاتراك في الاناضول نطاقاً جديداً للفن ، كما لدين الاسلام ايضاً ؛ فاكتست البلاد بالجوامع والمدارس والضرائح والخانات في قونيه وقيصرية وسيواس وديفريقي ؛ وقد تداخلت فيها التأثيرات الايرانية بالتقاليد المحلية في بناء الحجر ، وبالتقنية الارمنية الخاصة بالنقوش البارزة . وليس بمستبعد ان تكون بعض التمثيلات الحيوانية ، وحتى البشرية ، مستوحاة من نماذج تركية قديمة اتقن صنعها في آسيا الوسطى . فلا مجال والحالة هذه ، امام هذا القدر الكبير من المنجزات المعقدة والمبتكرة ، للكلام عن طابع هدام ترتديه السيطرة التركية .

الطوائف المسيحية الشرقية

امام هـــذا الازدهار الادبي والفني ، تبدو نشاطات الطوائف المسيحية الشرقية هزيلة جداً وشبه رسوبية . وقد أعرب عنهـا منذ ذاك الحين، الا عند الارمن واليعاقبة، باللغة العربية وفي مؤلفات معدّة لجمهور محدود جداً. وانما تجدر الاشارة الى ان الاقباط ، الذين كانوا متخلفين عن مسيحيي آسيا ، قد بذلوا جهوداً كبيراً في سبيل نهضة روحية لا مناص منها لبقاء طائفتهم. فنتج عن ذلك وضع مجموعات قانونية أشرف عليها آل عسّال في القرن الثالث عشر، بينما برز بعض المؤرخين الاقباط ايضاً: وهكذا فان ابن العميد، الموظف لدى الايوبيين، قد اشتهر في عهد مبكر في اوروبا باسم *Elmacin* ، وان مؤلفاته لقنت « مستشرقينا » الأول مبادىء تاريخ البلدان الناطقة بالضاد . ويجب كذلك ان نخص بالذكر الطوائف اليعقوبية التي حدثت نهضتها الفكرية في العهد السلجوقي منطوية عـــلى مغالطة ظاهرية . ولكن لهـــا ما يفسرها فأسياد آسيا الصغرى الجدد ، الحذرين من العرب واليونانيين معاً ، قد آثروا اختيار موظفيهم المحليين بين مسيحيي الطقس السرياني ؛ ولما كان بعض هؤلاء يقيمون في بلاد تتكلم اليونانيـــة والبعض الآخر في بلاد تتكلم العربية ، آثر باعثو هذه النهضة الادبية العودة الى اللهجة السريانية القديمة، مع ان أبناء دينهم قد انقطعوا عن التكلم بها : بهذه اللغة العلمية ، الميتة ، وضع مفكر كبير ، هو البطريرك ميخائيل السوري ، في القرن الثاني عشر ، يوميات نقلت الى الارمنية وهو بعد على قيد الحياة ؛ وبلغت هـذه الحركة ذروتها في اوائل العهد المغولي بمؤلفات ابن العبري التاريخية والسياسية والدينية ؛ الا ان عدم انتشار هذا الادب قد جعل من هذا المؤلف آخر مؤلفيه المشهورين .

كانت الثقافة الارمنية آنذاك اعظم حيوية وأكثر تنوعاً . ما زال بعض الارمن يعيشون ، عند حدود الاناضول واذربيجان ، تحت سيطرة الامراء الاتراك ، وضم البعض الآخر منهم الى مملكة جيورجيا التي تأسست وتوسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فشجع هـــذا الانصهار في دولة مسيحية ، وان يونانية الطقس ، على نشأة اول مركز للثقافة الارمنية حول بعض الاديرة في حوض الاراكس الاعلى . اضف الى ذلك ان أرمناً آخرين قد فروا الى كيليكيا امام الفتح التركي لأواسط آسيا الصغرى . فتأسست هنا، خلال القرن الثاني عشر، دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطية وفرنجة سوريا تارة وضايقوها اخرى ، بلغت اوج عزها في اوائل القرن التالي مع أميرها ليون الكبير وفتحت أبوابها واسعة امام المقتبسات اليونانية او اللاتينية، محافظة في الوقت نفسه على قومية متحذرة . اما مركز الاراكس ، البعيد عن التأثيرات الغربية ، فقد أنتج خصوصاً مؤلفات تاريخية والمجموعة القانونية الهامة الـــتي وضعها مخيطار غوش . ولكن مركز كيليكيا والفرات يعنينا مباشرة، اذ ان «متى الرهاوي» هو احد المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الاولى، وان للترجمة الارمنية لمجموعة القوانين الانطاكية الفضل في ايصال هـــذه الوثيقة الاساسية للقانون اللاتيني في الشرق .

ويعود لتأسيس دولة جيورجيا اخيراً بعث ادب هذا الشعب وفنه . فقد انضمت آنذاك الى

المؤلفات الدينية المستوحاة من اليونانيين المؤلفات التاريخيـــة ، والملحمة القومية التي وضعها « شوطا روستافيلي » والتي يـــبرز فيها الاثر الايراني . واستمرت الطوائف الارمنية في الوقت نفسه ، حتى تلك التي حرمت حق تشييد الكنائس ، في وفائها لتزويق المخطوطات . ولكن اسهامها الاعظم في تاريخ الفن يقوم حتى تاريخه في الدروس التي لقنتها الارمن والجيورجيون على السواء للفنانين الروس وفناني البلقان ايضاً في الارجح .

اما النتيجة فهي ان حياة هذه الطوائف في وسط الجماهير الاسلامية قد ازدادت انعزالاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما يفسر ضعف انتشار ثقافتها ؛ وقد شعر رجال الفكر المستنيرون من أبنائها بمخاطر هذا الوضع . فما ان اتضح ، في القرن الثالث عشر ، فشل الحمـــلات الصليبية للغرب اللاتيني، حتى جرت بعض الاتصالات بين المرسلين الآتين من روما وكهنوت الطوائف الشرقية، ولكن على الرغم من الاوهام الساذجـــة التي غرر موفدو البابوية من فرنسيسكان او دومينيكان انفسهم بها ، فان الاختلافات قد بقيت اعظم من ان يمسي التقارب مثمراً ودائماً ؛ وكان من شأن هذا التقارب ، لو حصل ، ان يهدد بالخطر التساهل الذي أفادت منه الطوائف الشرقيـــة لدى المسلمين الذين ربما كانوا اعتبروه تحالفاً سياسياً مع اعداء الاسلام. اما الموارنة ، الذين ضموا كلهم الى سوريا الفرنجية فقد عادوا كلهم منذ القرن الثاني عشر الى الوحدة الكاثوليكية ، دون ان يضحوا بشيء من استقلالهم على كل حال ، ولكن لم ينح نحوهم ، من الكنائس الاخرى ، سوى بعض الفئات الارمنية في كيليكيا . ثم تجددت هذه الاتصالات بعد الفتح المغولي ، الا انهـــا ، على الرغم من فائدتها ، قد انتهت الى فشل ذريع .

غسق بيزنطية

اذا ولّى انصار هذا التقارب وجههم شطر كنيسة روما ، دون كنيسة القسطنطينية ، فلأن الامبراطورية البيزنطية قد زالت عملياً من الوجود ، على الرغم من التماعتها الاخيرة في القرن الثاني عشر . فلا ريب في ان عيوبها الداخلية كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الكارثة التي حلت بها من جراء الفتح التركي لآسيا الصغرى والتي اضيف اليها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي‌عشر تقدم "بلشنيك في أعالي الدانوب وهجوم النورمنديين الايطاليين على ابيروس . ولكن البتشنيك محقوا ، والنورمنديين صدوا بعد زمن قصير . أما أتراك آسيا الصغرى الذين لاقوا صعوبات جمة في تنظيم فتوحاتهم ، فقـــد استطاع البيزنطيون – بفضل عضد الحملة الصليبية الاولى ايضاً – ايقافهم واقصاءهم عـــن مشارف النجد الاناضولي على البحر . فباتت بيزنطيـــة آنذاك سيدة المضائق وايجه واليونان وتراقيا وبلغاريا دون منازع ؛ ومن حيث هي حامية الصرب ، فان قوتهـــا ، على هبوطها ، ما زالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية . وقد استطاع مانوئيل كومنينوس، في الربع الثالث من القرن الثاني عشر فرض احترام رأيه في الشؤون الدانوبية والتدخـــل في الدسائس الايطالية ولعب دور هام في الشرق اللاتيني. اجل لقد ثقلت وطأة تأثير الارستوقراطية العلمانية في داخل الامبراطورية : فقد ازدادت « مداخيل الحيطة » وأمست وراثية ، وضم العظماء اليهـــا موارد الاديرة التي قدمت لهم بمثابـــة مكاسب ؛ وكانت سلالة آل كومنينوس عوناً كبيراً لانتصار

الارستوقراطية التي انحدرت منها. ولكن خسارة آسيا الصغرى ، قد اضرت ، في الوقت نفسه ، اضراراً بالغاً بأعظم عائلات الامبراطورية ، فاستطاعت الدولة القاء الاهابـة والخوف في قواها الهدامة . وهذا ما يفسر استقرار عهد هذه السلالة اذا ما قورن بالانقلابات المتعاقبة في القرن السابق : فقد خاضت بيزنطية آنذاك حروباً عديدة للذود عن حدودها ، ولكنها نعمت في الداخل ، على العموم ، بسلم نسبي .

بفضل هذا الاستقرار ، سارت النشاطات الفكرية والفنية سيرها الطبيعي . فالتاريخ لا يزال حقلاً خصباً : فروت آنّا كومنينوس وقائع ملك ابيها ألكسيوس ، وأكمل كيناموس روايتها حتى ملك مانوئيل ، وألف نيكيتاس خونياتوس بحثاً مفصلاً مستفيضاً في التاريخ البيزنطي منذ تولي يوحنا كومنينوس حتى بعيد الحملة الصليبية التي نظمت في السنة ١٢٠٤ ، بينما حظي موجز التاريخ العام الذي وضعه زوناراس ، بعد مرور زمن قصير على تأليفه ، بشهرة واسعة عظيمة . وكتب في الوقت نفسه ثيوفيلاكتوس الاوكريدي ، المعاصر لالكسيوس ، ثم ميخائيل خونياتوس واوستاخيوس التسالونيكي ، في اواخر القرن الثاني عشر ، وبلغة كلاسيكية وعلمية ، رسائل وخطباً ومؤلفات دينية ملأى بالمعلومات المفيدة . ووصلت الينا ، بالاضافة الى ذلك ، حاملة اسم ثيوذوروس برودروموس بنوع خاص ، مجموعـات قصائد منظومة باللغة الشعبية تذكرنا بـ « فيّون » ، وان هذا اللون ، الجديد في بيزنطية ، سيكتب له البقاء . اما الابحاث الفلسفية فقد ضعفت بفعل حركة مماثلة لتلك التي عرفها الاسلام آنذاك : فان جسارات يوحنا الايطالي ، احـد تلاميذ « بسلّوس » قد أقلقت الارثوذكسيين ؛ واحترز الناس من المستوحيات الوثنية ، التي اخصبت ذاك الاخصاب العجيب في الاجيال السابقـة ، واذعنوا كل الاذعان لتعاليم الدين .

اما الفن فـلم يصب بالمقابلة بأي وهن . فان قصر بلاشيرن الذي شيّده آل كومنينوس في اقصى « القرن الذهبي » ، والذي تبقّى منه الجزء المعروف اليوم بـ « تكفور - سراي » ، قد اثار الاعجاب على غرار « القصر العظيم » الذي اهمل شيئاً فشيئاً . وما زال البيزنطيون يشيدون الكنائس في الاديرة والابرشيات ، ككنيسة « الضابط الكل » في القسطنطينية . ويلفت الانتبـاه بصورة خاصة ان اثر الفن البيزنطي ما زال يمتد الى ما وراء حدود الامبراطورية المنكمشة : فالبلدان السلافية التي اعتنقت الدين المسيحي حديثاً طلبت الى مهندسي العمارة اليونانيين تشييد كنائسها ؛ وفي ايطاليا الجنوبية وصقليا وضعت مواهب الفنـانين المحافظين على التقليد البيزنطي في خدمة كبار البنائين من الامراء النورمنديين ؛ واستوحت بعض أبنية الغرب اللاتيني نفسها كـ « سان - فروت في بريغو » بفعل تأثيرات غير واضحة ، بعض النماذج البنائية البيزنطية . واستغل مؤلفو وفنانو البلدان اللاتينية او السلافية ما تعلموه بحرية ، ولم يترددوا في البحث عن مصادر وحي اخرى في امكنة اخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد حصل التوازن آنذاك بـين بيزنطية التي ما زالت تنبض بالحياة ، وبين الغرب الذي اخذ يستيقظ من سباته .

ان التضاد المدهش بين نشاطات الفكر هذه والانحطاط الاقتصادي الذي منيت به الامبراطورية اليونانية منذ اواخر القرن الحادي عشر . فلما كانت الفتوحات التركية قد حالت تقريباً دون الاستعانة ببحارة الولايات الآسيوية ، حين مسّت الحاجة الى اسطول للوقوف في وجه النورمنديين ، اضطر الكسيوس كومنينوس الى التحالف مع البندقية ، القوة البحرية الوحيدة في البحر المتوسط ، لقاء امتيازات وضعت في يدها عملياً احتكار تجارة الامبراطورية الخارجية (١٠٨٢) . ولم يجد خلفاء الكسيوس حلاً آخر لاضعاف نفوذ البندقية الا بموازنتها بامتيازات مماثلة يمنحونها الجنويين والبيزيين ويفيدون من المنافسات التي تقوم بين الطرفين . اما في الامبراطورية التي تناقصت مواردها الجبائية تدريجياً ، فقد تعاظم باطراد تأثير الجاليات الايطالية المقيمة في الاستانة ، وتعاظم معه تدخل اللاتين في السياسة البيزنطية : فدول الصليبيين التي لم تقم بعملية مفيدة ضد اتراك الاناضول ، قضت في الشرق على النفوذ اليوناني ؛ والجيش البيزنطي نفسه قد لجأ الى خدمات المرتزقة الغربيين الذين ازداد عددهم ازدياداً مطرداً ؛ وتعددت في العائلات المالكة كما في الارستوقراطية الزواجات المختلطة ، التي ادخلت على بلاط مانوئيل كومنينوس عادات نصف لاتينية . الا ان الشعب اليوناني لم ينجرف في هذا التيار ، فأظهر اشمئزازه ، بتأثير من اكليروسه ، من التدخل الغربي . فحاول مانوئيل اخيراً (١١٧١) ، بعد فوات الاوان ، التخلص من التجار الايطاليين ، مع انه لم يكن بغنى عنهم ؛ فجاءت محاولته بمثابة حرب معلنة في غير أوانها افضت ، بعد وفاة الامبراطور ، الى تقتيل كافة لاتين القسطنطينية . وبذلك قطعت بيزنطية المستضعفة اتصالها بالغرب حين بدا رجحان كفة الغرب على كفتها في ميزان القوى .

جاءت النتيجة مريعة وغامضة ومسرحية . انتهج مانوئيل كومنينوس سياسة عظمة ارهقت رعاياه ، دون ان تجدي فتيلاً على كل حال ، اذ ان كارثة ميريو كيفالون في السنة ١١٧٦ قد أعطت البرهان القاطع على استحالة استعادة تركيا الآسيوية . فاستهدفت غضبة الشعب الارستوقراطية العسكرية واللاتين على السواء ؛ وعجز اندرونيكوس كومنينوس المغتصب ، وحكم سلالة « الملائكة » القصير ، من بعده ، عن تأسيس أي بناء دائم على الانقاض التي كدستها الحركة المعادية للاتين . فاستفاد النورمنديون والبلغاريون والصرب واتراك الاناضول من تصارع الاحزاب وقاموا في آن واحد بهجماتهم او بثوراتهم على الامبراطورية . واذا سعى « الملائكة » آنذاك للتعاون مع صلاح الدين على اللاتين ، فقد فكرت فئات اخرى بالتعاون مع هؤلاء لاستلام الحكم . اجل نحن لا نعلم بالضبط مدى اطماع بعض قادة الحملة الصليبية الرابعة ، منذ مغادرتها الغرب ، ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن الواقع هو ان البندقيين وفرسان فرنسا الشمالية قد دخلوا القسطنطينية عنوة في اوائل السنة ١٢٠٤ وعملوا فيها نهباً واستلاباً وأقاموا على انقاض بيزنطية « امبراطورية لاتينية » ضعيفة .

قد يجوز ، لاعتبارات شتى ، التوقف بالتاريخ البيزنطي عند هذا التاريخ . ولا يعني ذلك قط ان اللاتين استطاعوا تدويخ كافة الاراضي اليونانية : فلا يزال منها ، خارج سيطرتهم ،

منطقة « طرابزون » ومنطقة ابيروس و « امبراطورية » نيقيه بصورة خاصة التي يرجع ان الأتراك رأوا من الخير ابقاءها على شواطىء آسيا الصغرى الغربية، والتي توصل ملوكها ، بفضل جيش من الفلاحين ، الى توطيد هذا الملجأ الاخير لثقافة يونانية عرفت الازدهار آنذاك على يد « نيكيفوروس بلميدس » واضع دائرة المعارف . ولكن ما أوردنا ليس سوى بقاع متشتتة تسودها التفرقــة نفسها التي تسود امارات الامبراطورية اللاتينية . اما الذين سيستفيدون من هذه العملية فهم دول البلقان السلافية في الدرجة الاولى ثم الاتراك في اجل لاحق بعيد . لذلك لم تخدم حملة السنة ١٢٠٤ قضية التقارب اليوناني اللاتيني قط ، بــل اوجدت هوّة يستحيل اجتيازها بين فرسان الغرب والجماهير اليونانية المتكتلة حول كنيستها؛ ويمكن القول بهذا الصدد، ان الانشقاق الديني الذي لا يزال قائمـاً حتى أيامنا هذه انما يعود تاريخه الى السنة ١٢٠٤ لا الى السنة ١٠٥٤ .

روسيا قبيل الفتح المغولي

كان مقدراً للشعوب البلقانية ، بعد ان تحررت بسقوط بيزنطية، ان تبلغ ذروة قوتها في القرن الرابع عشر . ولكن هذا القول لا يصح في روسيا التي توقف تاريخها بقسوة ، على غرار الاسلام ، منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، بفعل الفتح المغولي . كان التصدع ، في هذه المساحات السلافية الشاسعة ، قد لحق بامارة « كييف »؛ ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي باعادة توزيــع الاراضي ، بحسب تسلسل معين، كلما توفي احد امراء العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة . الا ان انحطاط الدولة « الكييفية » يردّ ايضاً الى توسع الشعب الروسي الذي اتجهت تجارتــه ، آنذاك ، شطر المانيــا وقزوين بالتفضيل على القسطنطينية ؛ ويرد ايضاً وخصوصاً الى غارات سكان السهول البائرة من « كومان » او « بولوفتس » الذين طردوا سلافيي المناطق الجنوبيــة وأرغموهم على استعمار السهول القليلة السكان التي يرويها الدنيستر، او منطقة الغابات شبه المقفرة، في الشمال الغربي ، التي تمتد حتى اواسط الفولغا . فنشأت عن هــذا التشتيت شعوب مختلفة ، الاوكرانيون ، والروس البيض ، والروس الطوال . وتحررت آنــذاك منطقتان : نوفغورود وبسكوف، في اقصى الشمال، اللتان اعطتا الجمعيات الاقليمية استقلالاً داخلياً وتنظمتا كجمهوريتين تجاريتين ما لبثت عامة الشعب فيها ان قاومت اوليغارشية رجــال الاعمال والحكام ؛ ونظّم « اندريه بوغوليوسكي » في الشمال الشرقي ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في المنطقة الــتي ستنمو فيها موسكو قريباً ، امارة « سوزدال التي احدثت انقلاباً في تاريخ ماض تمركزت فيه روسيا حول الدنيبر .

على الرغم من هذه التيارات المختلفة التي ترتسم بين الشعوب الروسية ، احتفظت « كييف » بمركزها الادبي . فانما وضعت في كييف نفسـها ، في السنوات الاولى مــن القرن الثاني عشر ، الـ « روسكايا برافدا » أي مجموعة القوانين الروسية ، وظهرت اليوميات المنسوبة لنسطور التي تشيد بمآثر اسطورية او واقعية أتتها السلالة القديمة . وفي « كييف » ملك على التوالي قسطنطين

مونوماكوس الذي ستتجسم الحكمة بخياله الشعبي» و « ايغور » ، بطل الحرب ضد «الكومان».
وان ما يلفت الانتباه في كل ما بلغنا من الادب المكتوب في ذاك الوقت، او من التقاليد الشفهية؟
هو عمق التضامن والوطنية الروسيين. ولذلك لم يكتف الادب بالنقل عن اليونانية ، بل انطلق
انطلاقة قادته الى الاستقلال. ففي هذا العهد اخذ بعض الشعراء يشيعون روايات تصف اسطورية
تعبّر عن الحكمة الشعبية، استهوت الفلاحين الروس حتى فجر القرن العشرين. اجل ان تحريرها
قد حدث في عهد متأخر جداً ، وهذا ما يحمل الشك عَشَماً على صحة رواية « حكمة ايغور »
الشهيرة . ولكن اذا صحت نسبتها الى القرن الثاني عشر فانها ترينا روسيا الناهضة قادرة على
وضع ملحمة خليقة ، من حيث قيمتها الادبية ، بأعظم حضارات العصر . وبدا الاستقلال نفسه
والعبقرية نفسها في الفن : فلم تعد روسيا القرن الثاني عشر، على غرار الدولة الكييفية القديمة ،
مجرّد ولاية من ولايات الفن البيزنطي . فقد عرف مهندسو أبنية نوفغورود وبسكوف كيف
يوفقون بين التأثيرات اليونانية وتأثيرات المانيا البلطيكية ، كما عرف ذلك ايضاً رسامو الإيقونات
ومزوقو الكتب . ونشأت بصورة خاصة في المنطقة التي سيطلق عليها اسم موسكوفيا ، أي
في سوزدال وفلاديمير ، هندسة عمـــارة حجرية ، جديدة كل الجدة بغنى زخرفتها المصورة ،
يستحيل علينا ان لا نرى فيها تقليداً للنماذج الارمنية والجيورجيـــة . ويبدو في كل مكان ،
بالاضافة الى ذلك ، ان فنانين روسيين كثيرين قد حلوا محل الفنانين الاجانب وطبقوا دروسهم
بحرية متزايدة .

بيد ان روسيا التي بدت حضارتها على وشك التفتح، لن تنجو، شأن الاسلام التركي الذي بدا
مستقراً ، من كارثة جديدة : فقد دقت ساعة الغزو المغولي .

اللوحة ١٧ - المسيح في جلاله

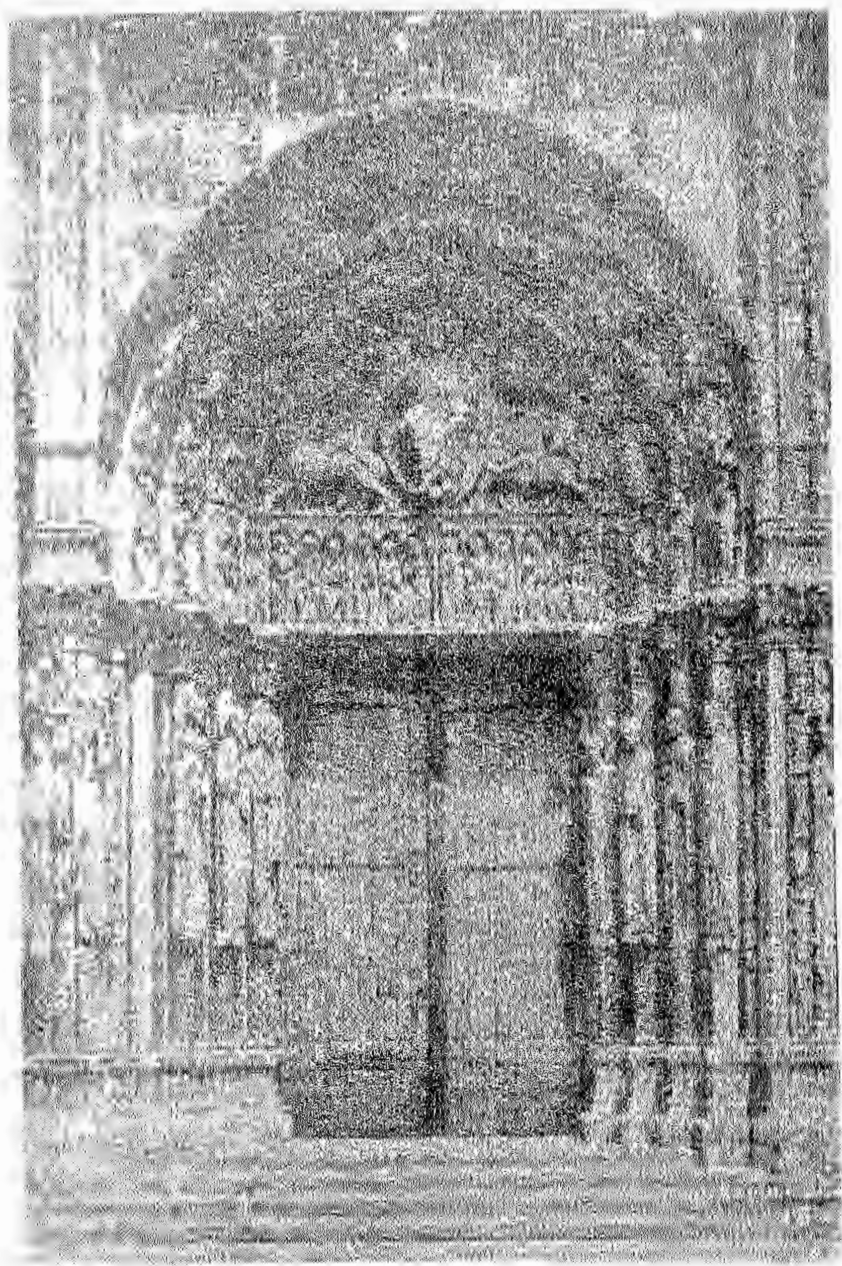

اللوحة ١٨ – الباب الملكي في كاتدرائية شارتر (القرن الثاني عشر) .

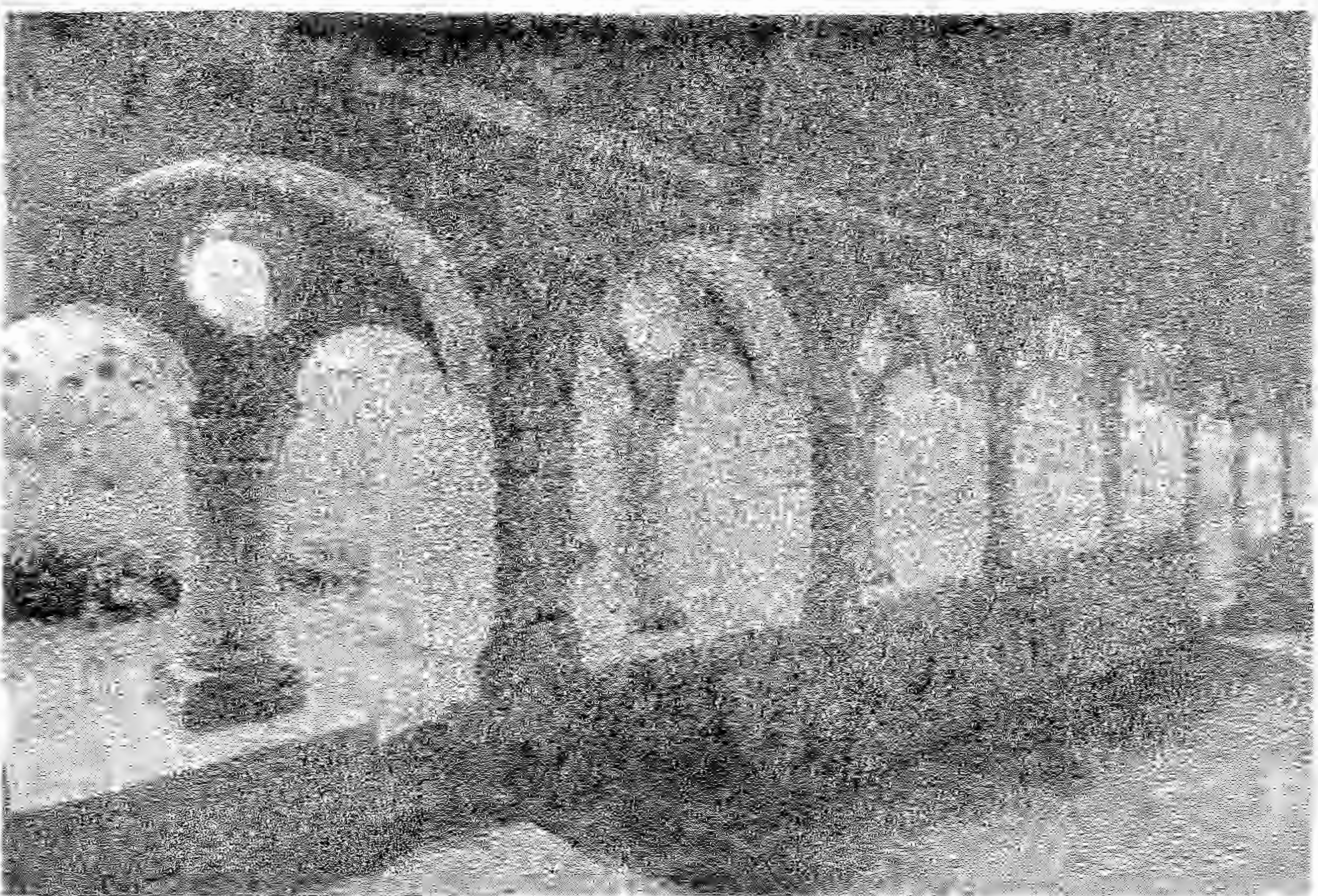

اللوحة ١٩ – رواق دير تورونيه (القرن الثاني عشر) .

اللوحة ٢٥ – قلعة الفرسان (حصن الأكراد) ، قلعة صليبية في سوريا (القرن الثاني عشر) .

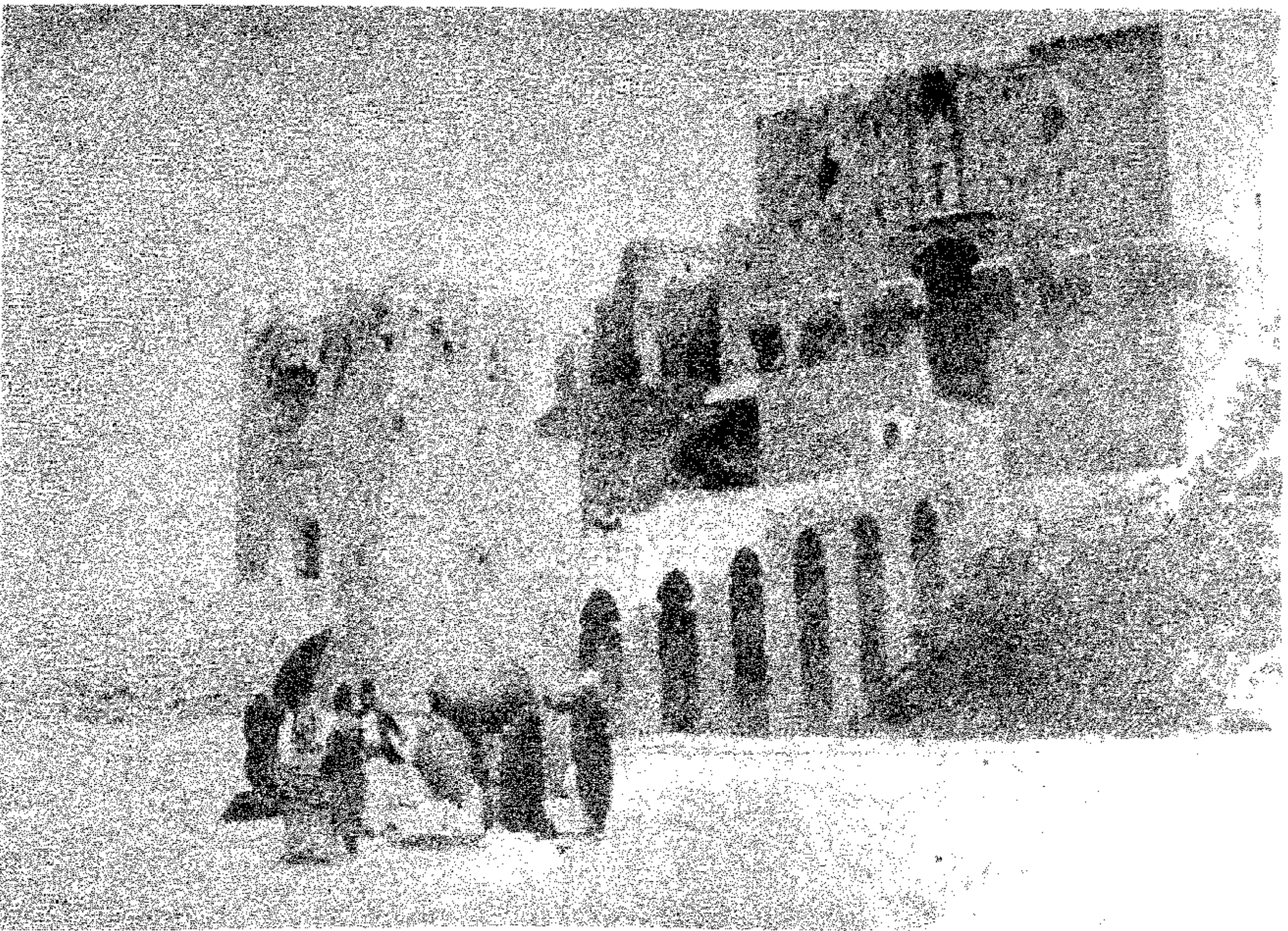

اللوحة ٢١ – قلعة حلب (سوريا) ، القرن الثاني عشر .

اللوحة ٢٢ رأس بوذا خميري

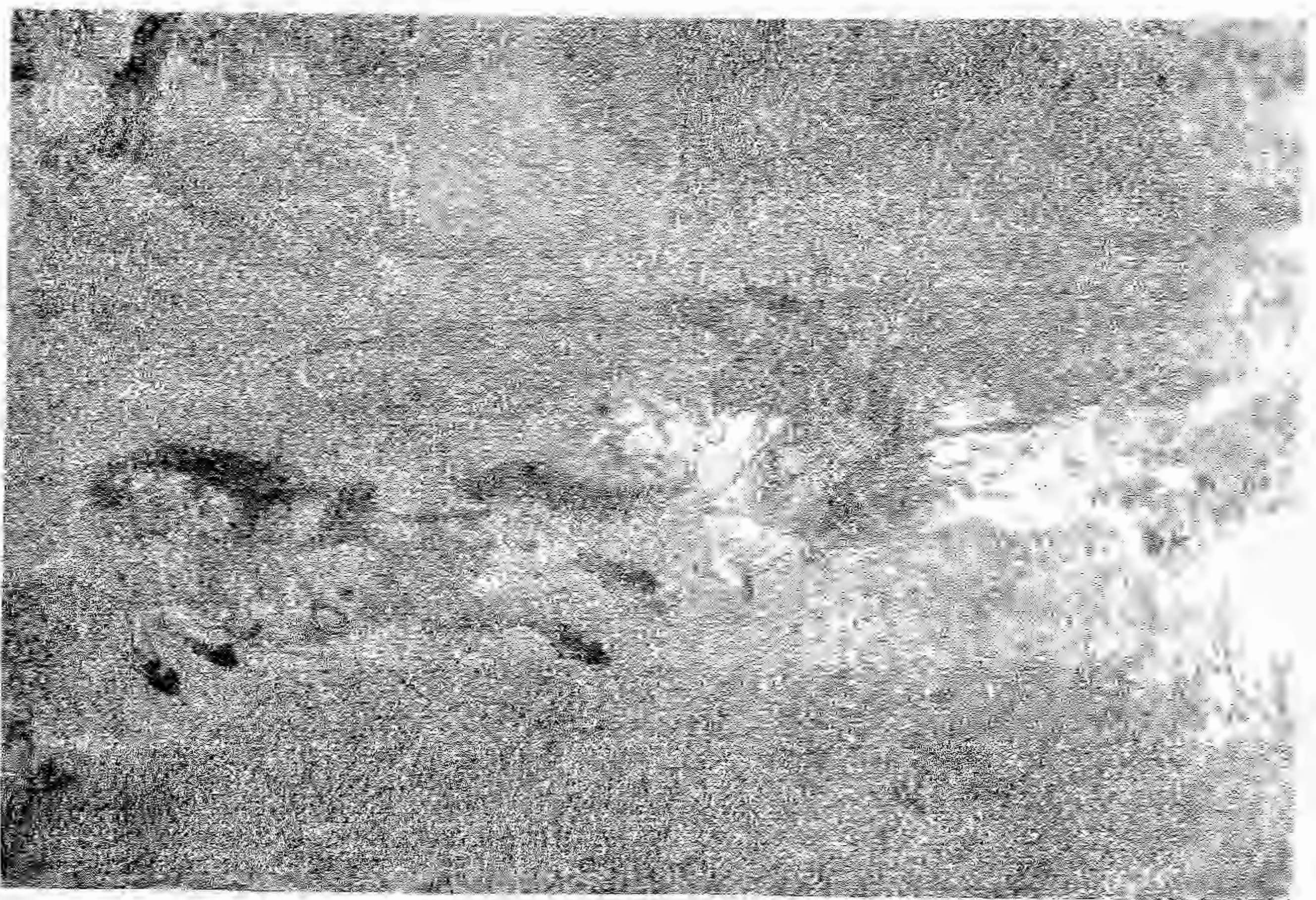

اللوحة ٢٣ – فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً .

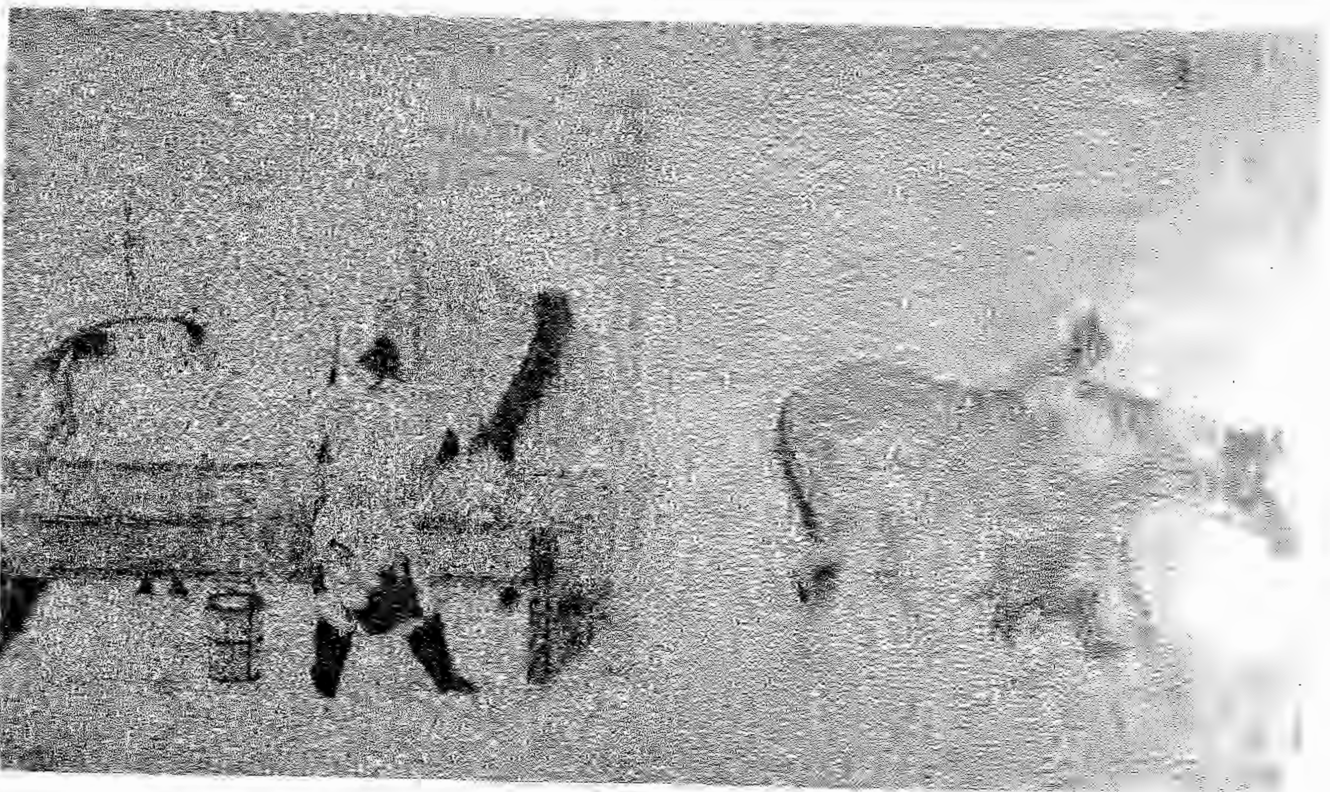

اللوحة ٢٤ — الاحصنة في المشرب

اللوحة ٢٥ — اعمال الحقول

اللوحة ٢٩٠ — سوق لنديت

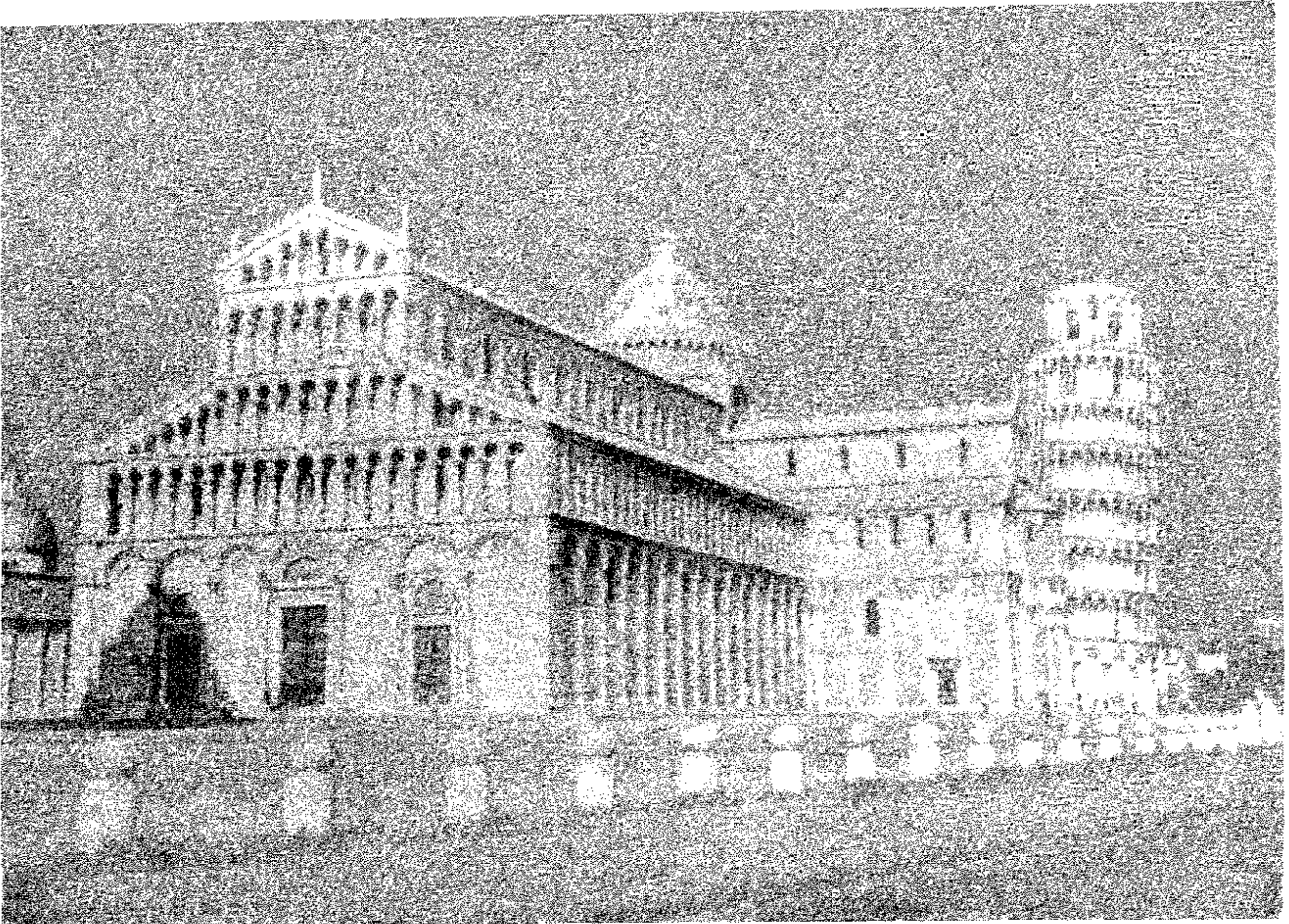

اللوحة ٢٧ – قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر .

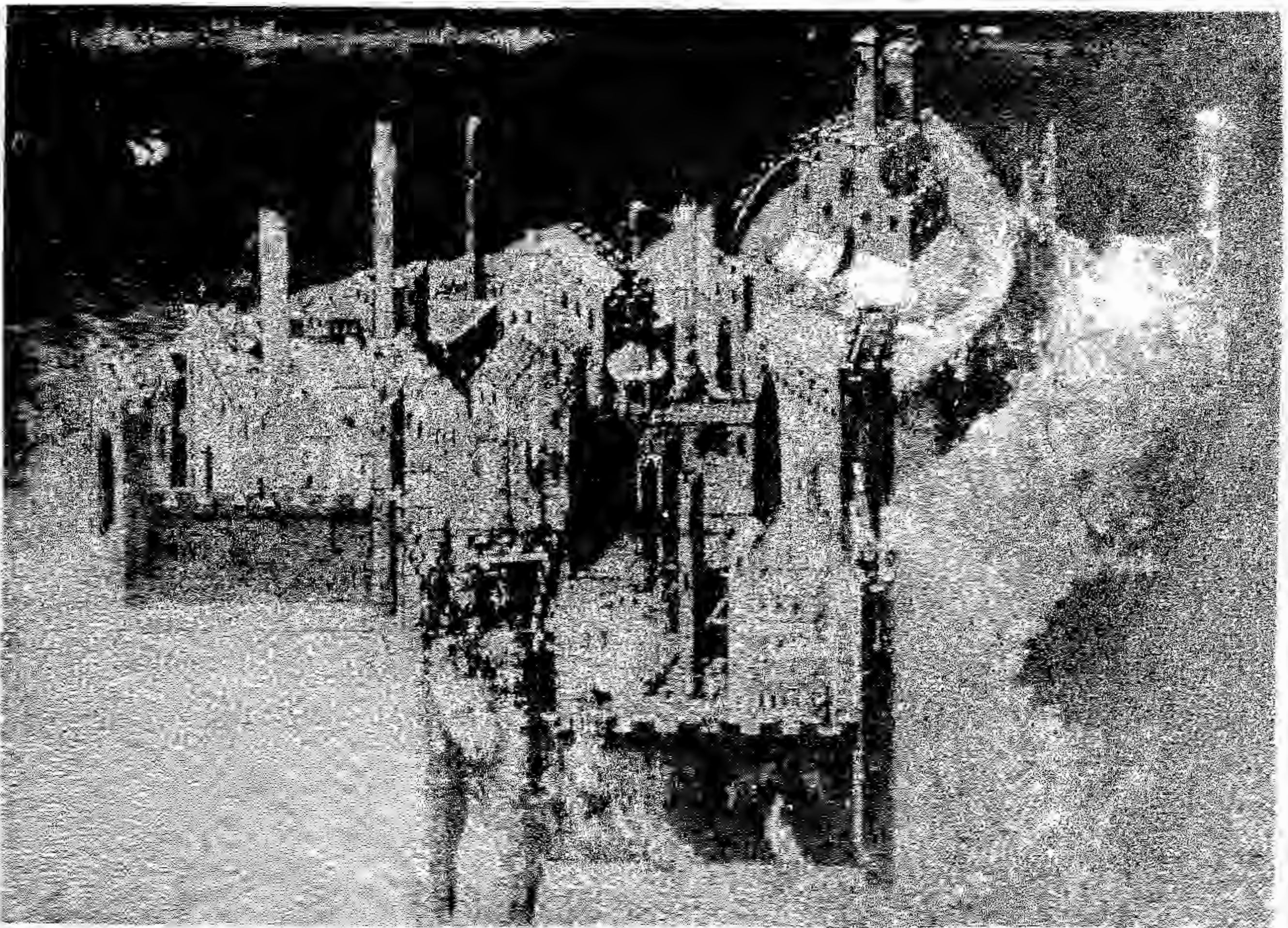

اللوحة ٢٨ — مدينة إيطالية في القرون الوسطى .

اللوحة ٢٩ ـ مدينة كركسّون .

اللوحة ٣٠ — كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) .

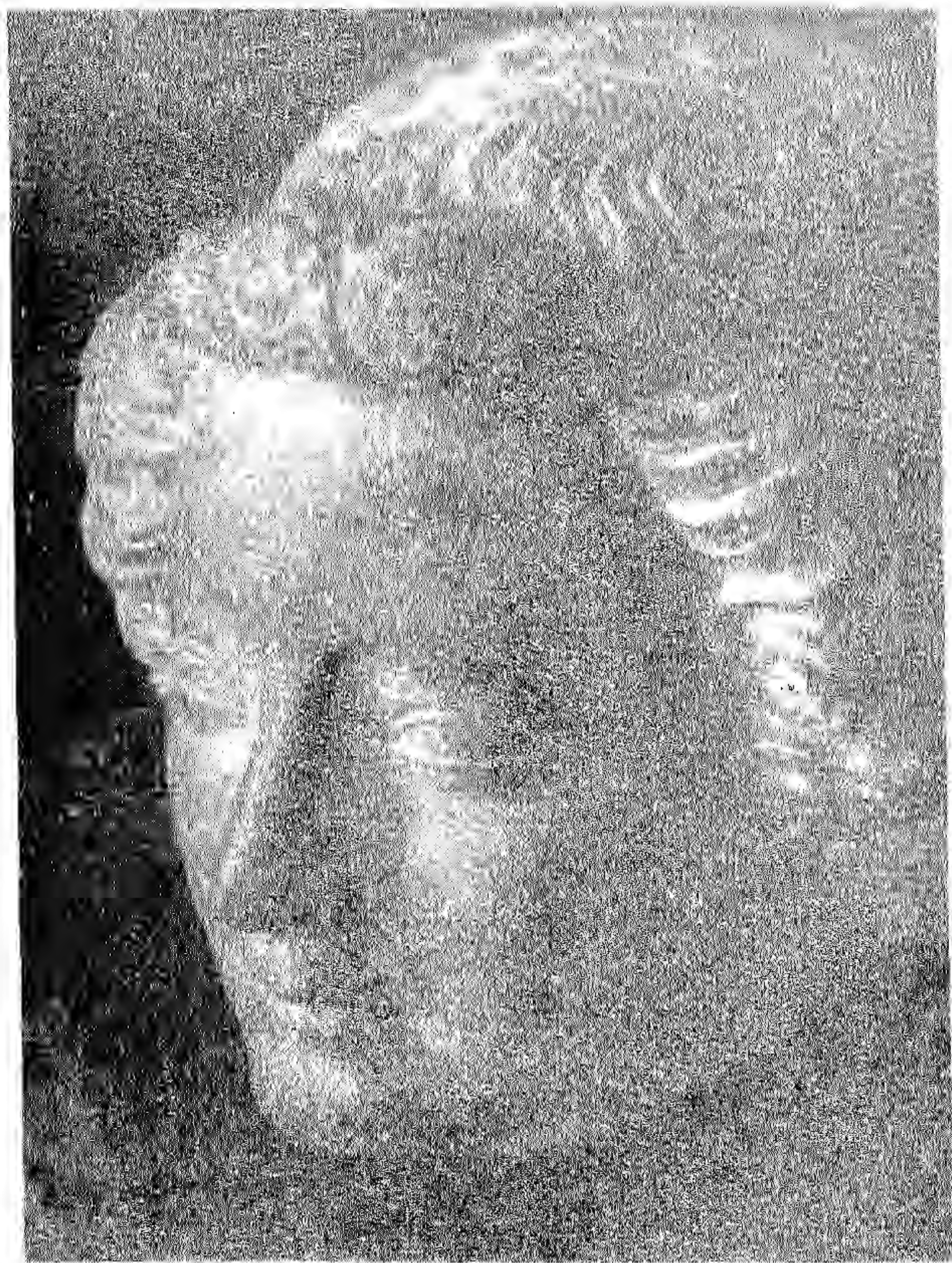

اللوحة ٣١ – ملك نواتي

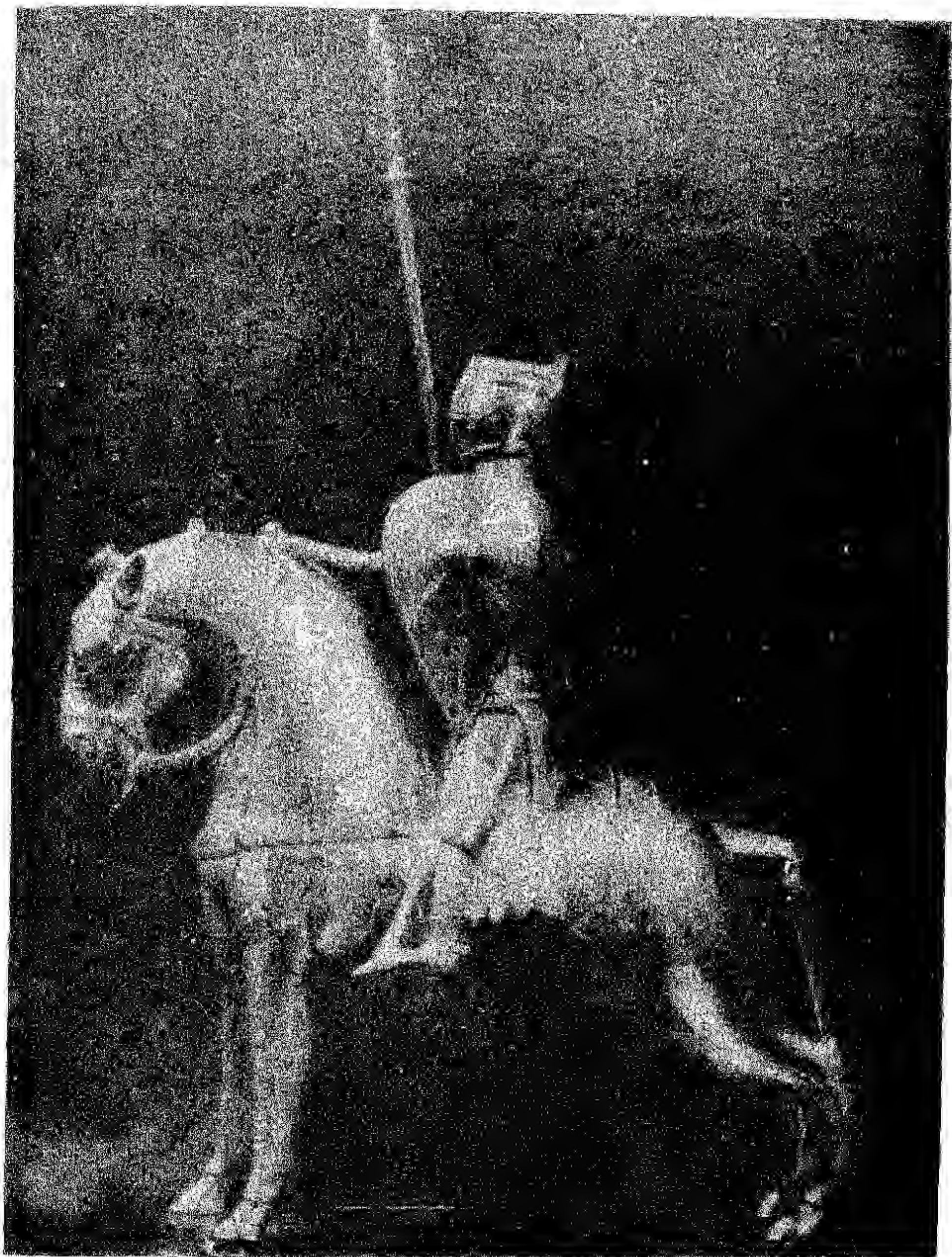

اللوحة ٣٢ – فارس شاكي السلاح

الفصل الثالث

آسيا المغولية
(القرن الثالث عشر والرابع عشر)

ان الواقع الجديد الذي يميز آسيا في القرن الثاني عشر والذي رأينا في فصل سابق تحيزه البطيء، هو ان الهند والصين قد فقدتا نفوذهما العريق في القدم على الدول الشرقية في هذه القارة الواسعة الاطراف. اجل كلتاهما تليهان خيلاء، استناداً الى ماضيها التاريخي الطويل، بتحقيقاتها المدهشة في الحقل الفلسفي والديني وفي حقول الادب والموسيقى والفنون التصويرية . وكلتاهما لا تزالان الزعيمتين الروحيتين لبلدين احدث عهداً في آسيا الجنوبية الشرقية، أي كوريا واليابان، تساند مركزهما هذا تجارة لا تزال ناشطة . ولكنها تشكوان كلتاهما من وهن داخلي هو النذير بانحطاط قريب .

آسيا قبيل التوسع المغولي

قسّمت الهند عملياً الى شطرين بفعل الغزو الاسلامي الذي سار في اندفاعه نحو الشرق وبلغ البنغال التي أكمل فتحها في السنة ١٢٠٢. ولم تحل الحروب الداخلية التي مزقت الدول الاسلامية الحديثة العهد وأفضت الى هزيمة الغزنويين امام الافغانيين الغوريين، دون تقدم الفاتحين نحو الجنوب ايضاً. فانكفأت الممالك المحلية نحو « دكن » وتقاسمت شبه الجزيرة وانتقلت السيطرة من هذه الى تلك بحسب محالفة الحظ لهذه او لتلك في المعارك . اجل كانت المقاومة ضارية في وجه الغزاة ولكنها تأثرت بهذا الانقسام وهذه الحروب بين الاخوة .

وتجزأت الصين بدورها ايضاً بعـــد ان اعرض السونغ نهائياً عن استعادة ارث « التانغ » وآثروا، في مدينتهم – المتحف «هانغ-تشيو»، الانصراف الى الفن وعلم الجمال وعلم المعقولات. فخضعت كافة مناطق البلاد الشمالية لـ « كين »، « الجورتشتات » الاذكياء الذين قوّضوا مملكة الـ « كيتات » وحققوا السيطرة عليهم خلال القرن الثاني عشر، وبلغ منهم انهم هددوا عاصمة « السونغ » فترة من الزمن . وفي منتصف هـــذا القرن، بلغ عدد العواصم في الاراضي الصينية

ستاً على الاقل : « تا ـ تنغ » في الشمال (جيهول) ؛ « لياوو ـ يانغ » في الشرق ؛ « تا ـ تونغ » في الغرب، بكين في الوسط؛ كي ـ فونغ (تاتكين) جنوبي مملكة الكين ؛ وهانغ ـ تشيو اخيراً، عاصمة السونغ . وكان من شأن الصلح غير الثابت المعقود مع الكين، الذين ينقضوه تكراراً ، ان أتاح لهؤلاء السيطرة على اراض شاسعة قاست الامّرين من غزوات وحروب متتاليـــة دامت قروناً عديدة ؛ واذا انهمك بلاط السونغ بالمجادلات الادبية والفلسفية ، فان شعوب الشمال قـد اختبرت الحياة القاسية التي تعيشها بلدان خاضعة لحكام لا يزالون برابرة .

كانت النتيجة الاولى لهذا الانحطاط المزدوج تحرّر الدول الآسيوية الاخرى عملياً ان لم يكن نظرياً ، من سيادة الصين والهند . فسطع نجم الامبراطورية الخميرية آنذاك في عهد ولاية الملك « شوريافارمان » الثاني الكبير (حوالي ١١١٢ – ١١٥٢) ؛ اجل انه اغتصب الملك اغتصاباً ، ولكنه كان محارباً شجاعاً وادارياً لامعاً ضم الـ « سيام » الوسطى (مملكة لوبوري) الى مملكه، وأرغم الـ « شمبا » على محالفته لمحاربة « واي كوفييّت » (انام) وشيّد معبد « انغكورفات » المدهش ، وهو افضل طراز للمعبد ـ الجبل ، المكرّس لـ « فيشنو » والمعدّ لأن يكون ضريحاً ملكياً : وفي كال هذا البناء وجمال زخرفته العظيم ما يجعل منه رائعة من روائع الفن العالمي . ثم سطع كذلك ، بعد كسوف نجم عن هجوم الشمبا ، في ايام جايافارمان السابع (أواخر القرن الثاني عشر) ، ولعله أشهر ملوك كمبوديا ، الذي جهز المملكة وعاصمتها بأفسح معابدها ، وأنجز العديد من الاعمال العمرانية ، وأسس المستشفيات وسما بالسلطة الامبراطورية حتى ذروتهـــا . وتناقصت بالمقابلة قوة الشمبا الـــتي أفضى اندفاع « انام » نحو الجنوب الى حصرها في الولايات الجنوبية من الهند الصينية ، فانكفأت التأثيرات الهندية ، بالفعل نفسه ، امام حضارة صينية الطابع . على الرغم من هذا الوضع اليائس الذي جعـــل الشمبا تواجه التقدم الانامي في الشمال والقوة الخميرية في الغرب والجنوب، نراها محافظة على نزعتها الى الحرب ومستمرة في شن الغارات، براً وبحراً ، على كافة جيرانها . الا ان السيام قد بقيت مجزأة : فبينما توسع الـ « طاي » ، الآتون من الشمال، حتى اواسط البلاد الخاضعة آنذاك لسيطرة الخميريين ، استطاعت مملكة «هاريبونجايا» الابقاء على حضارتها المونية المتأثرة بالحضارة الهندية تأثراً عميقاً . وانطفأت في « بورما » سلالة الملوك العظام الذين دفعوا بلادهم الى الامام في القرن الثاني عشر ؛ ولكن التقاليد الثقافية ، على الرغم من الفوضى السياسية ، قد انصانت بفضل بوذية «الباب الصغير» التي كانت بورما مركزها المفضل . وبقيت الجزر اخيراً مقسمة الى ثلاث ممالك : مملكة الشيلندرا اسياد « كريفيجايا » وأتباع الـ « شولا » اسياد الهند الجنوبية؛ ومملكة « سورابايا » (جافا الشرقية) التي لا نعلم عن تاريخها سوى النزر اليسير ؛ ومملكة « قاديري » ، وهي أقوى هذه الممالك وأعظمها نشاطاً ، التي تتبين ان ثقافتها الهندية تخضع تدريجياً للتقاليد المحلية .

اما اليابان، التي سبق ورأينا انها عاشت طوال قرون عديدة من المستوردات الصينية ، والتي كانت آخذة في العودة الى عبقريتها الخاصة في الحقل الفكري والفني ، فما زالت خاضعة لسيطرة

عائلة الـ « فوجيوارا » القوية . واذا ما سادها الاضطراب ، في القرن الثاني عشر ، بفعل منازعات العائلات الكبيرة الطامعة بالسلطة ، واذا ما طرأت على السلالة الامبراطورية تبدلات خطيرة ، واذا ما فرض نظام « الشوغونا » السياسي الجديد قوانين صارمة ، فان الانطلاقة لن تتوقف الا في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، والاختلال الذي سببه هـــذا التوقف سيحدث في الزمن حين يبرز خطر الغزو المغولي. الا ان هذه المرحلة هي ايضاً الفترة التي أخذت فيها الصوفية « زن » ، وهي في اول عهدها ، تطبع الثقافة اليابانية بطابعها الخاص المميز .

يتضح من ذلك ان البذور التي ألقتها الهند والصين في كافة البلدان الشرقية والجنوبية الشرقية قد أنبتت حضارات جديدة – الخميرية والجافانية واليابانية – وجعلت بعض الشعوب المتخلفة تعي حقيقتها وطاقتها . الا ان الهند والصين قد افتقرتا الى القوة اللازمة لبسط سيطرتها عـــلى الشعوب المحيطة بها ؛ لا بل تعسّر عليها مقاومة ضغط امبراطورية اسلامية تحركها عصبية الحرب المقدسة وعالم بدو سائر في طريق التنظيم .

ماضي عالم البدو

منذ العصور القديمة ، جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي البائرة الشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من اوراسيا . وقد انتسب هؤلاء بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتائيـــة أي التركية المغولية . ولكن مساكنهم نفسها فرضت عليهم ، منذ الوف السنين ، نمطاً حياتياً راعوياً اتسم بطابع بدائي غريب الى جانب الحضارات المستقرة التي عاصرتهم . استهوت قبائلهم منذ القدم الاراضي الزراعية المتاخمة لبوراتهم فتجمعت شيئاً فشيئاً واكتفت في فترة من الزمن بشن غارات صاعقة وحشية على جيرانها ، ثم تكتل عدد كبير من هذه الجماعات بصورة مفاجئة وقام بغزوة رهيبة فرّ امامها السكان المزارعون الذين تحولت مزروعاتهم الى مراع على يـد بدو رحل لا يهتمون الا لزواملهم ومواشيهم . بهذا المدّ والجزر وهذا الكر والفر قام تاريخ البلدان المتاخمة للبورات الاوراسية : البدو يوسعون البورات في الاراضي الزراعية ، والفلاحون يوسعون اراضيهم الزراعية عند حدود البورات . الا ان نوع حياة سكان الحدود ، وهو شبيه بحيـــاة البدو ، واختلاط القبائل في الاراضي التي سلكتها في تنقلاتها ، قد سهلا الاتصال بين البدو الرحل والسكان المقيمين . ومع ذلك فان سكان البورات ، الامناء لحياة الفرسان والرعاة القاسية ، قد استهوتهم ثروة الحضارات المتطورة وتفخلها . واذا هم عندوا في تقويضها ، فان بعضهم قد تأثروا بسحرها وتكيفوا احياناً بحضارة المقيمين : فتصيّن البعض ، كالمغول الكيتات ، الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين الشمالية وجعلوا من بكين مقراً لهم ، وتأثر البعض الآخر بالحضارة الايرانية ، كالاتراك الـ « ويغور » ، الذين اعتنقوا المانوية وتعلموا اصول الادب فغدوا المربين الحقيقيين للدول التركية ـ المغوليـــة الاخرى ورفضوا العودة الى الحياة البدوية .

لقد برهنوا احياناً عن اخلاصهم في محالفة الدول الكبرى الـــتي ارتأت طلب مساعدتهم

او أرغمت على طلبها ، ولكنهم كانوا في الغالب تهديداً خطيراً وداعاً : فقد أتاحت لهم خيولهم الصغيرة القيام بهجمات صاعقة ، ودرجوا على ان لا يتركوا وراءهم الا الخراب والدمار ، فكانوا أعداء مرعبين . اجل لم يتوصلوا بعد الى توحيد جماعاتهم القبلية المتشتتة في البورات . ولكنهم توصلوا الى تأسيس امبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقباً مطرداً على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية . وغالباً ما قوض فيها اقل الناس تحضراً الممالك التي توصل أكثر الناس تطوراً الى تأسيسها . لذلك بات لزاماً علينا هنا القاء نظرة سريعة على هذا التاريخ منذ غزوات القرن الرابع الكبرى التي بلغت امتداداتها اوروبا ، مع اتّيلا ، والهند ، مع ميهيراكولا . ومن شأن هذه العجالة ان تساعد على فهم نشأة عمل جنكيز خان وطابعه المميز .

في القرن السادس ، استقرت فيما بين الصين ومصاب الدون ثلاثة شعوب كبرى : الـ « جوان ـ جوان » في منغوليا ، من منشوريا حتى « طرفان » ، و « الهون الهفتاليون » ، من شمالي منطقة قراشهر الى مرو ومن الآرال الى البنجاب ، والهون الاوروبيون ، وهم من العرق التركي في الارجح ، حول بحر آزوف ومصب الدون . الا ان الجوان ـ جوان وهفتاليي تركستان ردّوا الى الوراء ، في السنة ٥٥٠ ، على يد الـ « تو ـ كيو » مؤسسي الامبراطورية البدوية الاولى التي عرفت تنظيماً على بعض الاستقرار . اجل لقد انقسم التو ـ كيو الى مملكتين توأمين امتدت أراضيها من منشوريا الى خراسان ، وكان هذا الانقسام ، بالاضافة الى فوضويتهم التقليدية ، مدعاة لضعفهم . وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة بينهم وبين بلاد فارس الساسانية التي التمست بيزنطية مساعدتهم عليها فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه سلالة « تانغ » الصينية القوية سحق اخوانهم في منغوليا ، فبسطت حينذاك سيطرتها عليهم . ثم حلّت محلهم امبراطورية تركية اخرى هي امبراطورية الويغور الذين اقاموا الى الجنوب من بحيرة « بَيقال » ، جاعلين من « قره بلغاسون » عاصمة لهم ، وسيطروا ، حول طرفان ، على شطر من تركستان . ثم غدا الويغور اهل قرار وضعفوا بفعل تحضرهم ، فانتزعت عاصمتهم منهم في السنة ٨٤٠ ، على يد « الكرغيز » وهم من الاتراك الهمجيين . كان الـ « آفار » ، في هذه الأثناء ، قد خلفوا الهون في البورات الروسية وأقاموا بين الدنيستر والدانوب ، بينما استفاد الـ « شا ـ تو » من الاتراك المتصينين العائشين حياة بدوية حول « ها ـ مي » عند طرف البورات الآخر ، من ضعف التانغ ليستولوا على شمالي غربي الصين (٨٠٨) . وعادت منغوليا ، في عهد « الكرغيز » ، وحتى السنة ٩٢٠ ، الى همجيتها الاولى ، بينما تمكن الويغور ، على الرغم من ضعفهم ، من تثبيت أقدامهم في تركستان .

في أوائل القرن العاشر طرد الكرغيز بدورهم وأبيدوا على أيـدي برابرة آخرين من العرق المغولي ، هم « الكيتات » . كان هؤلاء قد حاولوا ، لثلاثـة قرون خلت ، التسرب الى الاراضي الصينية ، ولكن التانغ ردوهم الى الوراء بضراوة ، فاستفادوا آنذاك من انهيار القوة الصينيـة ودخلوا بقيادة رئيس جريء وراء الجدار الكبير وأقاموا على العرش الامبراطوري قائداً صينياً

فرضوا حمايتهم عليه ، فكان ذلـــك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في الصين التي ستتولى جماعاتهم فتحها. وقد دامت اقامة الكيتات زمناً طويلاً: فتصيّنوا وحملوا اسم « كين » (ذهب) الصيني ، وأغاروا تكراراً ، طيلة قرنين ، على حدود الصين الجنوبية دون ان يفقدوا شيئاً من طاقتهم الحربية . ولهذا فان تاريخهم يختلف بعض الشيء عن تاريخ معاصريهم « الجريّين » الذين سبق ورأينا انهـم وصلوا الى اوروبا الوسطى في اواخر القرن التاسع وشنوا غارات مدمّرة ، وان متفرقة ، على بعض ربوع الغرب المسيحي قبل ان يردوا نهائياً الى سهل الدانوب ويستقروا ويعتنقوا الدين المسيحي ويؤلفوا بعد ذلك سوراً منيعاً للمسيحية في وجه الموجات الاخـــيرة لغزوات البدو المتدفقين على اوروبا . وفي الواقـــع اقام برابرة آخرون ، في عهد متأخر ، بين الفولغا وقزوين: ففي هذه الرقعة من الارض التي يتلاقى فيها البيزنطيون والعرب من تجار الفراء، والتي لجأ اليها العديد من اليهود هرباً من اضطهادات الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس، يبدو ان الخزر اعتنقوا الدين اليهودي . فردوا الى الوراء في السنة ٩٦٥ على يد امير روسي من « كييف » ، ثم سحقوا في السنة ١٠١٦ على يد الامبراطور باسيليوس الثاني ، ولم يتلاشوا نهائياً الا في السنة ١٠٣٠ . في هذه الاثناء ، نجح الاتراك القربيون ، او القراخانيون ، في اجتياز دولة السامانيين الاسلامية ــ وهؤلاء ايرانيون سبق ورأينا كيف سيطروا سيطرة واسعة ، سريعة الزوال ، على البختيـار ، ومنطقة ما وراء النهر ، وخوارزم وخراسان وسيستان ــ وانتزعوا منهم منطقة ما وراء النهر التي ضموا اليها قشغاريا فتركوها بأن نشروا فيها الدين الاسلامي الذي كانوا قد اعتنقوه .

بعد تلاشي الخزر، احتفظ « الكيتات » والقراخانيون بمواقعهم طيلة القسم الاكبر من القرن الحادي عشر . ثم ادمج القراخانيون ، حوالي السنة ١٠٧١ ، في الامبراطورية السلجوقية الـتي كان مؤسسوها ، المنحدرون من الاوغوز المغمورين ، قد اعتنقوا الاسلام ديناً : فانفصل تاريخهم منذئذ، كما سبق ورأينا ، عن تاريخ عالم البدو ، مع ان ذهنيتهم التركانية المتأصلة ستبرز تكراراً في تصرفاتهم . وفي الوقت نفسه ، اقام شعب تيبتي في « الاوردوس » و « الالاشان » ، فأخضع هؤلاء الرحـــل الآخرون ، الذين عرفوا باسم « سي ــ هيا » ، شمالي غربي الصين بينما احتفظ « الكيتات » بشماليها الشرقي .

خلال القرن الثاني عشر ايضاً ، جرت تنقلات الجماعات البدوية عند طرفي عالم البورات . ففي سهول روسيا الجنوبية ، حـــل محل « الخزر » « البتشنيك » الذين سبق وعلمنا أي خطر شكلوه على حدود الامبراطورية البيزنطية من جهة الدانوب ، الى ان قضى عليهم الامبراطور يوحنا كومنينوس (١١٢٢). ثم جاء « الاوغوز » الذين عاثوا فساداً بدورهم في البلقان وخلفوا الـ « كبشاك » . وأحدق الخطر من جهة ثانية بصين السونغ ايضاً ، اذ هدّدها « الكيتات » في الشمال الشرقي ، و « السي ــ هيا » في الشمال الغربي. فكان خطأ الامبراطور «هواي ــ تسونغ»، وهو شاعر افضل منه سياسي ، محاولة منه لاخراج الكيتات من بكين ، في الاستعانـــة

بالـ « جورشات » الذين تشدهم أواصر النسب الى المنشوريين الحاليين. فلم يكتف انتصاف البرابرة هؤلاء بمنغوليا الداخلية ومنشوريا اللتين عينهما لهم « هواي ـ تسونغ » . فبعد ان قوّضوا امبراطورية « الكيتات » ، الذين كانوا قد ركنوا الى التعقل والهدوء بعد ان تعوّدوا الحياة الصينية ، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية مندفعين بحملاتهم حتى بلاد السونغ التي لم يصدوا فيها الا بصعوبة .

شملت سيطرة الجورشات ، من ثم ، عند فجر القرن الثالث عشر ، وقبيل مغامرة جنكيز خان العظيمة ، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية ، بينما احتفظ السي ـ هيا بالمناطق الشمالية الغربية . واقام الويغور ، بعد ان باتوا اهل قرار ، في واحات تاريم وكوكا ، وطرفان ، التي يبدو ان ازدهارها قد تأخر بفعل تراكم الرمال . وعاش القراخيطاط ، المتصينون والمتنصرون ، عيشة البدو الرحل في الشطر الاخر من تركستان ، من « ها ـ مي » الى «الآرال» و «خوجند» ، باسطين حمايتهم على المنطقة القائمة بين أعالي نهر ينيسايي ونهر « آمو ـ داريا » . وحلّت وراء هذا النهر ، امارة الخوارزميين ، وهم اتراك اعتنقوا الاسلام ، محل السلجوقيين في منطقة واسعة الاطراف ضمت ، بالاضافة الى خوارزم نفسها ، خراسان ومنطقة « كابول » وغزنه وبلاد فارس كلها حتى جيورجيا . اما شمالي الهند اخيراً فقد احتله الغوريون الافغان الذين تغلبوا على الغزنويين . وشمل العالم التركي كافة أنحاء الشرق الادنى الاسلامي ؛ وتوسع الاتراك ـ المغوليون في روسيا والبلقان حتى سهول الدانوب .

هذه هي الفسيفساء الغريبة التي كوّنها السكان الرحل ـ وقد أمسى بعضهم اهل قرار ـ حين ظهر جنكيز خان : تنقلوا تنقلاً مستمراً منذ قرون ، دون ان يربط بينهم تلاحم حقيقي ، وأسسوا ممالك وامبراطوريات غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً. لم تعوض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية ؛ تأثروا بالحضارة الصينية تارة والحضارة الايرانية اخرى او بقوا امناء للتقاليد التركية ـ المغولية ، واهتدوا اتفاقاً ، بحسب تنقلاتهم المختلفة ، تارة الى البوذية او الكونفوشيوسية ، وطوراً الى المسيحية النسطورية او المانوية او الاسلام او اليهودية . كانت محالفاتهم سريعة الزوال ، ولم يتأثروا بتقدم الحضارات بل حافظوا في الغالب على عاداتهم الهمجية .

تكون الامبراطورية المغولية

ان خضوع هذا العالم البدوي المتشوش لارادة جنكيز خان قد أعد ، والحق يقال ، منذ زمن بعيد . فمنذ القرن العاشر تحرّر المغول ، بفضل تغلب الخيطاط على الاتراك الكورغيز ، من الوصاية التركية التي فرضت عليهم منذ سقوط الجوان ـ جوان . اضف الى ذلك ان تأسيس امبراطورية القراخيطاط في الربع الاول من القرن الثاني عشر ، قد مثلت سلفاً ، على الرغم من ضعف رؤسائها ، موجة الغزوات البدوية الجديدة الظافرة قبل حصولها بمائة سنة : فهي الامبراطورية المغولية الاولى التي اقامت

بعيداً عن مناشئها الاصلية ، في منطقة هامة من الاراضي الخاضعة حتى ذاك العهد لجماعات من المقيمين .

ولكن قبائل مختلفة جداً ما زالت تتنازع البلدان المغولية حوالي منتصف القرن الثاني عشر : التتر ، والمغول بحصر المعنى ، والكونجيرات ، والاويرات ، والماركيت . وأقام ابعد الى الغرب ، في رقعة غير محددة تماماً ، الكرايت الذين عاشوا عيشة بدوية واهتدوا الى النسطورية منذ اوائل القرن السابق ، والنيمان ، ولعلهم من اصل تركي ، الذين اعتنق بعضهم النسطورية وبقي البعض الآخر أميناً للشامانية . واذا حقق الكرايت والنيمان ، كما يبدو ، بعض مظاهر الحضارة السطحية ، فان مجموع البلدان المغولية قد استمر منذ سيطرة الكرغيز في حالة همجية ظاهرة . ليس هناك من مجموعات سكنية كبيرة ، ثابتة او متنقلة ، محاطة بالاوتاد ، على غرار « مدن » « الويغور » او « التو – كيو » ؛ بل دساكر حقيرة ومعسكرات تتجمع فيها بعض العائلات او تقيم فيها عائلة واحدة في اغلب الاحيان . فتفسخ المجتمع ، المبني على القبيلة وفروعها ، حتى عاد الى مستوى العائلة . ثم تفككت العائلة نفسها ايضاً بفعل الفوضى السائدة .

ارتسمت عند أكثر هؤلاء البدو الرحل تأخراً ، في منغوليا الداخليـــة ، بعض محاولات التوحيد على ايدي جدود جنكيز خان أنفسهم . فقد جمع احدهم ، المدعو قايدو ، عملاً بطريقة اعتمدها الفاتح فيما بعد ، حول قبيلته الخاصة ، – البرجين – العائلات التي طلبت حمايته فأسس بذلك « المملكة » المغولية الاولى وأسند ادارتها الى حفيده « كابول » الذي خلفه ابن عمه « امباكاي » ، ثم ابن هـــذا الاخير ، كوتولا . اشتد ساعد المغول شيئاً فشيئاً فاقاموا علائق صداقة « بالكيتات » ، أبنـــاء جلدتهم المتصينين والمتحضرين . ودعي كابول الى بلاط بكين الامبراطوري فأدهش ضيوفـــه ، الذين لم يشتهروا برقتهم ، بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة . ولكنه ، على الرغم من الهدايا التي أسبغت عليه ، قد تحسّب لكمين ينصب له ، وامر فيما بعـد بتقتيل موفدي الامبراطور وانقلب على الكيتات الذين لم يقاوموه ، بسبب انشغالهم بمحاربـة السونغ ، الا مقاومة ضعيفة ، وتخلوا له اخيراً عن بعض المراكز المحصنة في شمالي النهر « سي – بنغ » وتعهدوا له بتقديم خرج سنوي من الابقـــار والاغنام والحبوب (١١٤٧) . ثم تخاصم المغول وأشقاؤهم التـــتر ، فتحالف التتر والكيتات وأحرزوا عليهم نصراً سريعاً ، فزالت « المملكة » المغولية في الصراع وعادت القبائل والاحزاب الى تجزئها الفوضوي .

في هذا التاريخ تقريباً (١١٦٧) ، أبصر جنكيز خان النور في سرادق العائلة المنصوب على ضفة نهر « الاونون » اليمنى . كان أبوه « ياسوغاي » ، وهو ابن شقيق الخان « كوتولا » ، رئيساً على فئة « الكيتات » في قبيلة البرجين ، وكان قد اختطف زوجته من بلاد « الماركيت » . حارب التتر الى جانب عمه وقتل احد زعمائهم ، « تاموجين – اوغا » حوالي السنة ١١٥٥ ؛ ثم تدخل في خلافات الكرايت الداخلية وفاز بصداقة خانهم طغريل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه .

أطلق على بكر أبنائه الاربعة اسم « تاموجين » تخليداً لذكرى انتصاره على الزعيم التتري. ولكن المنية قـــد أدركته ، على اثر سم دسه له التتر ، حين لم يتجاوز تاموجين منه التاسعة. فانتزعت مواشيه من ارملته وأبنائه القصّر الذين آلت حالتهم الى البؤس والشقاء. اما تاموجين فقد التجأ ، بعـــد طفولة قاسية وغير مستقرة خلقت فيــه جلداً نادراً ، الى حليف ابيه ، خان الكرابيت الذي جعـــل منه صاحب اخاذة تابعاً له. واتاح له ذكاؤه العملي الفطري ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشؤون العائلية ، ثم محاولة تجديد الملكيـــة المغولية لمصلحته، وحمل لقب الخان ، الذي لم يحمله ابوه . هللت له القبائل التي جمعها حوله فاختار لنفسه (١١٩٦) اسم « شنكيز خان » الذي جعلنا منه جنكيز خان استمر في استقـــلال تحالفه الجدي مع طغريل ، فنظم حملة على التتر ، تلبية لطلب الكيتات ، مما اتاح له جني الالقاب الشرفية الصينية ، ثم اقتص من اعدائه الشخصيين ، واخضع العديد من القبائل المجاورة لسلطة الكرابيت . الا ان تعاظم قوة طغريل قد اثار بعض الانتفاضات ولا سيما ثورة بعض القبائـــل المتحالفة بقيادة رئيس نودي به امبراطوراً (غور — خان) على منغوليا . ولكن الغلبة تحققت في النهاية لجنكيز خان الذي سانده طغريل. فهزم واخضع، على التوالي، «التاييشيوت» — الذين تشدهم اواصر نسب الى قبيلته — والتتر (١٢٠٢) ، والماركيت ، والعديد من جماعات اخرى دونهم شأناً . لمس حينذاك من نفسه القدرة على الانقلاب على الكرابيت ، الذين قبلوا بالخضوع له ، بعد ان قتل طغريل ، على الرغم من انتصارهم عليه في معركة ضارية . ثم جاء دور النيمان الذين استتبعت هزيمتهم خضوع« الاويرات »« والماركيت »المنشقين والكرغيز(١٢٠٧) وغيرهم.

بعد ان توحدت منغوليا كلها تحت سيطرته ، تولى جنكيز خان ، الذي نودي بهـــا خاناً اعظم (كاهان) ، تنظيم الدولة والجيش وباشر فتح الدول المتحضرة . بدأ بالصين الشماليـــة ، مهاجماً السي — هيا (١٢٠٩) اولاً ، وشانـّاً بعد ذلك حرباً على الكيتات ستدوم خمساً وعشرين سنة . وقبل ان ينجز احتلال الصين الشمالية ، اندفـع غربـــاً ضد القرا — خيطاط (١٢١٨) وخورازم (١٢٢٠) ، ضامـّاً الى سلطته كافة المناطق الخاضعة لرقابة هذه الامـــاره الاخيرة : مناطق ما وراء النهر ، وافغانستان ، والقسم الاكبر من ايران . وارسل اثنين من خيرة قواده الى المناطق القزوينية ، فاجتاحا جيورجيا واذربيجان واحرقا مدينة همذان، واصطدما «بالالين» شمالي القفقاس ، واخيراً هزما « الكيشاك » (١٢٢١) وامير « كييف » (١٢٢٢) .

اسس جنكيز خان ، في اقل من عشرين سنة — فهو قد مات في السنة ١٢٢٧ — امبراطورية شاسعة امتدت من بكين الى الفولغا . ثم جاء ابنه الثالث ، « اوغوداي » ، الذي كان قد عينه خلفاً له . وتابع بدوره توسيعها ، فانجز القضاء على الكيتات في مناطق الصين الشمالية الشرقية ، وفتح كوريا ، ودخل في حرب طويلة الامد ضد السونغ سيجني ثمارهـــا خلفه الثاني ، وتولى استعادة بلاد فارس الغربية التي كان قد انتزعها وريث الامبراطورية الخوارزمية . وبلغ بعض

قواده في اندفاعهم ، جيورجيا وأرمينيا ؛ وارسل غيرهم ضد اوروبا : فان بلغاريا وروسيا الجنوبية واوكرانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا ، وحتى شواطىء الادرياتيكي ، قد عرفت على التوالي ، بين السنة ١٢٣٦ والسنة ١٢٤٢ ، اعمالهم التخريبية وقساواتهم التي لا توصف . اجل ، لقد حملتهم وفاة اوغوداي والتنازع على خلافته على الارتداد الى الوراء حتى الفولغا ؛ ولكنهم كانوا قد وسعوا الامبراطورية حتى ابواب اوروبا الوسطى .

وحالت مدة ولاية الخان غويوك القصيرة (١٢٤١ ــ ١٢٤٨) دون تحقيق فتح الدول المسيحية ، وهو مشروع قد راوده كما يبدو . ثم انصبت جهود الفتح المغولي من بعده على الشرق الاقصى . فتولى ابن عمه « مونكا » (١٢٥١–١٢٥٩) في الدرجة الاولى امر اصلاح ادارة الامبراطورية ؛ الا ان عمله لم يحل دون تفسخها بعد وفاته . وانهى اخوه « كوبيلاي » الحرب ضد السونغ ؛ وتخلى المغول هذه المرة عن الاساليب التدميرية العزيزة عليهم ونهجوا نهجاً جديداً نظموا بموجبه البلدان المحتلة تنظيماً منطقياً وحموا الزراعة ودرسوا المعاضل الادارية الاجتماعية . وبعد انهيار السونغ نهائياً في السنة ١٢٩٧ ، اسس كوبيلاي ، وهو اول اجنبي سيطر على امبراطورية عمرها ١٥٠٠ سنة ، سلالة « يُوان » وتبنى سياسة اباطرة الصين التقليدية . فاوجب على اصحاب الاخاذات الذين كانوا خاضعين لهذه البلاد ان يخضعوا له ايضاً ، ووطد السيادة المغولية على كوريا ، وحاول تكراراً الاستيلاء على اليابان ، ولكنه اضطر للعدول عن مشروعه بعد ان افنى احد الاعاصير افراد فرقه الغازية افناء تاماً . ولم يكن اوفر حظاً مع انام وشمبا اللتين فرض عليهما – وعلى بورما ايضاً ــ حماية غير ذات اثر تقريباً . وتوفق ملك « قاديري » بفضل الحملة التي وجهها على جاوا في السنة ١٢٩٣ الى الالقاء بالغزاة في البحر ، فتعاظمت قوته بعمل الانقاذ هذا واسس امبراطورية « ماجا باهيت » .

كان واضحاً من ثم ان الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى ؛ وكانت الحروب الاهلية ، من جهة ثانية ، قد اندلعت في منغوليا نفسها ، فاضطر كوبيلاي الى تأديب ابناء جلدته حتى يعيدهم الى النظام . وقد اصبحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات . اجل لقد بقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير المقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل « ولاية » اسند الى خان ايضاً : فقد حكم بلاد فارس ، مثلاً ، هولاكو ، اخو كوبيلاي ، (١٢٥٦ — ١٢٦٥) وافراد ذريته من بعده .

مميزات الحضارة المغولية

لم تخضع اية حضارة ، على ما نعلم ، خضوع حضارة المغول للمستلزمات الجغرافية والاقليمية . فكانت اقامتهم في البورات الشاسعة عرضة لتبدلات قصوى في حالة الطقس : ربيع قصير ، وصيف شديد الحرارة والجفاف وشتاء شديد البرد ؛ وكسحت هذه المساحات ارياح عاصفة لا تصادف في طريقها ما يعيقها . فكان هذا المناخ القاسي قمينا بتقوية صحة الاقوياء ، وبالقضاء على السقماء في سن مبكرة . ولا عجب من ثم

اذا كان الشعب المغولي،سواء اقام في البورات ام في الغابات ، شعباً جليداً قوي الشكيمة . وكان طبيعياً ان تفضي حياة القناصين الشظفة ، في مداخل الغابات ، او الرعـــاة في قلب البورات ، الى تطوير الاجساد وفاقاً لمقتضيات البيئة : جذع ضخم وقفص صدري تام فوق سيقان قوّسها ركوب الخيل ؛ بصر حاد ، ورشاقة عظمى . يأكلون اللحوم ويستهلكون الالبان ويميلون الى احتساء المسكرات . يتميزون بالمرح والشجاعة ، وبوحشية لا توصف احياناً ، ويبرهنون في الغالب عن ذكاء.ودهاء وحتى عن قابلية للتقيد بالقوانين .

تألفت معظم القبائل من الرعاة . اما القناصون ، الذين يحتقرون الرعاة ، مـع انهم دونهم تحضراً ، فلا يمتلكون ماشية وخيولاً ، بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعـات اليدوية ، كالنجارة والحدادة . يحتذون النعال الخشبية (شافا) شتاء ويتوكأون على عصي طويلة للسير او التزلج على الثلج ، ويحتـذي بعضهم نعالاً من العظم الصقيل تساعدهم على التزحلق على الجليـد واللحاق بالحيوانات . يبنون اكواخهم من اغصان الشجر ويغطونهـا بقشور شجرة تعرف بالبتولة ، ويستطيعون نقلها جاهزة على العربات .

اما القبائل الراعوية ، فرغمة ، بحسب تقلبات الطقس في البورات وحالة المراعي ، عـلى انتجاع الكلأ دورياً وعلى العيش عيشة بدويـة . في الشتاء ، تنزل القطعان الى البورات حيث المناخ اقل برداً وتبقى فيها طيلة اشهر الربيع لان اعشاب البورات آنذاك خير ما تأكله الماشية؛ ثم تعود في الصيف الى منحدرات الجبال حيث المناخ اقل حرارة . ولاجل هذه الجولات الطويلة يصمم كل شيء في المساكن الوقتية من زاوية سهولة الانتقـال . تنضد العربات في دائرة فتؤلف سوراً . اما المظال ، التي غالباً ما تبقى جاهزة فوق العربات ، فعلى نوعين : بعضها (جير) مستدير ومصنوع من لبد وبركب على هيكل متحرك من قضبان والواح خشبية حول قضيب وسطي يعتبرونه مقدساً ؛ ويثبت في اللبد انبوب صغير للتهوية وتصريف الدخـان ؛ والبعض الآخر (ميخان) عريض وقليل الارتفاع ويغطى بالصوف ، بينما تمتاز مظلة الرئيس بلونهـا الابيض او المذهب .

تجهز العربات الخشبية بحملين كي تنقل ، بالاضافة الى المؤن ، بعض الادوات البدائيـة كالاوعية الخشبية، والقدور، والدلاء الجلدية، والقرب ، والمنافخ، وتغطى بلبد اسود يمنع تسرب المياه ، ثم تجرها الثيران فتصر وترتج في سيرها على الطرقات . تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيراً على الاقدام . ثم تليها القطعان التي يحيط بها فرسان يمتطون جياداً صغيرة منشعثة الرؤوس مجهزة بسروج جلدية ليست دون ممتطيها حيـاة ونزقـا . ويختلط في القطعان ، التي تهيجها النّعَر ، الاحصنـة والافراس والثيران والعجول والابقار والكباش الداجنة والاغنام والنعاج وحتى الابل احياناً .

لا يتقيد المغول بنظام معين في مأكلهم بل ينتقلون ، شأن كافة البدو الرحل ، من التقتير الى الافراط في تناول الطعام . فكل عيد وكل حدث سار مناسبة لاقامة الولائم . يتغذون من لحم

الحصان او الضأن مسلوقاً او مشوياً ، واللبن الخاثر (كرك) ، والثوم والبصل ، ونوعاً من الزبدة المضروبة في أوعية خشبية بواسطة عصا مجهزة جزئياً بقطعة من جلد ؛ اما اذا مسّت الحاجة ، فانهم يكتفون بالغبيراء والعتبيات البرية والجذور الصالحة للأكل . يثملون باحتساء لبن الفرس المختمر (كوميز) ، الذي يحرصون على التزود بـه اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية. تشعل نيران المعسكر بالزناد وتضرم بالمنافخ وتغذى بالاخشاب المجففة والاشواك والجذور. قبيل حلول فصل الشتاء ، تنحر الاغنام وتدخر لحوماً مبردة ، ويحفظ كذلك الحليب المجفف المسحوق . ولا يتوفر الطحين الا للقبائل التي تعيش حيـاة البدو الرحل على طرق القوافل ، كقبيلة « الماركيت » مثلاً .

ومن حيث هم رجال حرب وقناصون وصيادون ورعاة، فقد اتقنوا استعمال القوس والسهام، الموضوعة في حقيبة جلدية واحدة شبيهة بتلك التي اعتمدها الغز ، والسيف المقوف ، والرمح الحديدي . يتعاونون منذ الطفولة على صنع الاقواس والسهام من خشب شجر الدراق او العرعر ويجهزونها برؤوس من العظم أو من خشب الشربيـن . ويجهزون بعض السهام برأس حديدي رهيب يحصلون عليه لدى حدادي قبائل الغابات ويطلونه بالسم احياناً . اما الطرائق الـتي يعتمدونها في القنص فهي التاليـة : اخراج الحيوانات من مخابئها ومحاصرتها قبل القضاء عليها ، الاستعانة بالبيزان والشواهين والصقور لقنص الطيور ، استخدام الوهق في قنص الحصان البري والحمار البري والكبش ، او اللجوء الى الجياد والاقواس في مطاردة الايائل والاوعال والظباء . يعرفون كيف يخرجون اليرابيع من الارض بواسطة اداة حديدية وينصبون الشراك للحيوانات ذات الفراء ، ويطردون الدببة من مآويها ، ويصطادون بالشباك اسماك البحيرات والانهـار ، وتساعدهم في القنص ، كما في الحرب ، كلاب مشهورة بشراستها . فوق المعسكر تحلّق أسراب من غربان الزرع ، وتطوف حوله ، ليلاً ، الذئاب والثعالب وحتى الانمر .

بعد اقامة المعسكر لقضاء الليل ، ينظم السمر حول النيران ؛ يلعب البعض بالكعاب او يصغون الى الروايات التي يتناقلها اهل البورات . ويتحول المعسكر ، في مكان الاقامة الفصلية ، الى « مدينة » ؛ فيتألف حينذاك من دوائر عربات عديدة ؛ تنصب المظال في الارض ؛ وتؤلف مظال الرئيس وحرمه، على بعض المسافة من المظال الاخرى، قصراً بدائياً يرتبط به ، بالاضافة الى الخدام والعبيد الكثيرين ، قطيع خاص ومراع خاصة. ينصرف المغول، في اوقات فراغهم، الى صنع اللبد والسيور والحبال والسروج وعُدد الخيل والجعاب والاسلحة والهياكل الخشبيـة للمظال والعربات ، ويعدون اخيراً الجلود والفراء .

يعترف تاريخ اليُوان السري « بان رائحة كريهة تنبعث من الملابس السوداوية اللون الـتي يرتديها المغول » ؛ ومرد ذلك الى انهم يغطون اجسامهم بالجلود والفراء والى ان الاغنياء بينهم يبطنون معاطفهم الشتوية بجلود السامير والثعالب والقواقم والسناجب ؛ فهم لن يرتدوا الحرير والمنسوجات المقصبة في فصل الصيف قبل ان يفتحوا بـلاد الصين . يرسل الفتيان والفتيات

شعورهم ويتركونها تتدلى على آذانهم . ويجز الرجال شعر رؤوسهم ما بين الاذنين ويحلقونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة اصابع بين هدبين ، ويجدلون ما تبقى منه ويعقدونـه وراء الاذن محتفظين بذؤابة تتدلى فوق الحاجبين . وتعتمر النساء المتزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيتين ، يغطينها احيانـاً بقماش صوفي، او حريري ، للدلالة على الثروة ؛ وتنتهي القبعة بذيل طويـل شبهه « كيو تشانغ ـ تشون » (١٢٢١) بالاوزة او ذكر البط .

كان هؤلاء المحاربون الجسورون الروّاغون في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد الحيوانات المفترسة او القبائل المجاورة وكانوا يترصدون مجيء العدو الذي يعلمون به اذا ما رأوا غمائم الغبار ترتفع في الافق او الصقوا آذانهم بالارض . ويجتمع هؤلاء الفرسان حول راية الحرب التي ترافقهم في كل المعارك والتي هي لهم موضوع عبادة . يعتمدون على مطايا ليست دونهم قوة ـ تكتفي باعشاب البورات ـ ويعرفون كيف يداورونها ، ويستطيعون الحصول منهـا على اكبر مجهود ممكن اذا ما استعملوا معها السياط : فالحصان رفيق الانسان ، وتضفي عليـه الروايات المغولية شخصية حقيقية . يتدرع المغول ، للاعمال الحربية ، بملابس وقـاية من الجلد المسلوق ، وينقضون على الاعداد انقضاض الصاعقة ، ولا يترفقون بالحياة البشرية . وهم بالاضافة الى ذلك نبالون مخيفون ، بل « امهر النبالين المعروفين في العالم » كما يقول ماركو بولو . تتحلى جيوشهم ، المتعودة حياة الصحراء ، بقدرة نادرة على تحمل المشاق وتكتفي بلبن الفرس ، الذي يشربـه الفرسان من القرب المعلقة بالسروج ، والعنبيات البرية ، والطرائد التي يقتنصونها في رحلاتهم . يسهرون وينامون على صهوات خيولهم ، ويقطعون مسافات طويلة دون توقف . ويستطيعون اذا ما نفدت مؤنهم ، تأمين معيشتهم لمدة عشرة ايام ، بامتصاص دم جيادهم ، التي يفتحون احد عروقها ثم يشدونه بمشاقـة الحرير او الكتان ، او باذابة بعض الحليب المجفف في قليل من الماء .

يعتصمون ، اذا ما فوجئوا بهجوم ، وراء عرباتهم المخفاة بالدغال : او يهربون ويرشقون مهاجميهم ، اثناء هربهم ، بالسهام ، لانهم يتقنون الالتفات نحو ردف جوادهم السائر بهم بسرعة : وقـد اعتمد الغز والفارتيون هذه الطريقة المخيفة من قبلهم . يلجأون بسهولة الى خدمات الجواسيس والجنود المتحققين بهم من الاعداء ، ولا يرون في الحرب سوى ظرف للتقتيل والسلب والنهب . يخضعون الاسرى لاعذبة وحشية : ولا يستفيد من عقوبة الموت خنقاً ، بدون اراقة دمـاء ، سوى اولئك الذين يكنون لهم بعض الاعتبار ، لانهم يعتقدون بان الروح تقيم في الدم . ولما كانوا ، شأن كافة البدو الرحل ، لصوصاً ونهابين وقطاع طرق ، فانهم يأتون باستمرار اعمالاً ثأرية لا يكفر عنها ، مبيدين عائلة بكاملها دونما تبكيت ضمير ، مستولين على المواشي ، مخربين المواد والادوات ومضرمين النار في مراعي اطراف النزاع المغلوبة على امرها . وتوزع غنائم الحرب ، شأن الطرائد المقتنصة ، بين الرؤساء والقادة والمحاربين .

المجتمع المغولي

خضع المجتمع البدوي ، في هذا العالم المهدد بالاخطار ، خضوعاً مبدئياً على الاقل ، الى تسلسل سلطة منظمة جداً يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المنحدرة من جدّ واحد التي يعتبر جميع اعضائها بان مـا يجمعهم هو صلة النسب الشرعي . يحظر من ثم اختيار الزوجة من التكتل نفسه ؛ ولما كانت صلة القربى من جهة الاب قد شملت ، بسبب المتفرعات العائلية ، عدة تكتلات مجـاورة ، توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا جد مشتركاً بينها وبينهم ، والتي غالباً ما تكون مع مواشيها في مراع نائية جداً ؛ وغالباً ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذي لا تشدهم اليه اواصر القربى . ولذلك فان العناية تبذل في نقل حقيقة روابط النسب ، شفهياً ، من جيل الى جيل . ويرافق هذا الزواج من الغريبات تعدد الزوجات ايضاً ، الا ان الزوجة الاولى تعتبر ابدا الزوجة البكر او الزوجة الرئيسية . اختطاف الزوجات عادة دارجة غالباً ما تؤدي الى اعمال ثأرية . وقد يحدث ان يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات –ويكون اذ ذاك تكملة مفيدة للتحالف بين التكتلات – ، فاما يهب الآباء ابناءهم قبل سن البلوغ بزمن طويل ، فيذهب الخطيب في هذه الحالة ويعيش في عائلة عروسه ، واما يتفق اليافع مع اهـل الفتاة فيبادلها الهدايا – عجل او جلود سمامير سوداء – ويدفع لها فدية ، في حين تقدم العروس ، بالاضافة الى مهرها وخدامها ، هدية تعدها والدتها لحماة ابنتها .

العائلات كبيرة ابداً ، وولادة الصبي حدث سار جداً ؛ يطلقون عـلى المولود الجديد اسم اول شيء وقع عليه نظر امه بعد الوضع ؛ ثم يسبغون عليه بعض الهـدايا : دثار ، وفراش من جلد السمامير ، وقمط مبطنة بالفرو . كل الاولاد ، حتى اولاد النساء الثانويات ، يعتبرون شرعيين ، ويعاملون معاملة الاخوة والاخوات ويربون معاً تربية واحـدة . يضاف اليهم اولاد بالتبني من الايتام ، والمخذولين ، والمفقودين ، وحتى من ابناء الزنى ؛ بيد ان ابناء الزنى الذين يشتبه بانهم ينحدرون من اب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذبائح ؛ وطبيعي انهم يقصون عن التكتل ، فيرغمون في اغلب الاحيان ، على تأسيس تكتـل آخر . ولكن الاولاد المتبنين ، وان كانوا غرباء عن التكتل قانوناً ، يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بهـا الاولاد الشرعيون .

يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم . الا ان الابن الثاني وحده ، حتى بعـد زواجه ، يبقى في خباء ابيه ، لانه هو الذي يصبح ، بعد وفاة ابيـه ، حارس الدار ، ويرث خباءه وزوجاته والادوات والمواد والمراعي العائدة له. ويتقاسم الآخرون ما تبقى من الاملاك ؛ اما المتبنون فلا يصيبهم سوى قنوة وضيعة ، ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى عبادة التكتل . وغني عن البيان ان كثيراً من البدو ، حتى في الطبقة الارستوقراطية ، يؤولون الى الاملاق ولا يستطيعون الحصول على نصيبهم من الارث اذا لم ينتزعوه بالقـوة من انسبائهم الاغنياء الجشعين .

ان للنساء، اللواتي تعود الاعمال المنزلية اليهن، دوراً عظيماً جداً في هذا المجتمع: فهن ينصبن ويفككن المظال؛ ويقدن العربات ويحلبن المواشي ويضربن الزبدة ويعددن الحليب المجفف ويساعدن الرجال في اعداد الجلود وصنع الاحذية وجمع اللبد ويشترين بالمقايضة كل ما هو ضروري للمنزل. ويرافقن القادة احياناً في الحروب ويقمن ابان المعركة باعمال الرجال. ولذلك فان هؤلاء كثيراً ما يطلبون مشورتهن؛ وقد حفظ التاريخ اسماء من كان لهن اثرهن في مقررات بعض القادة. يضاف الى ذلك ان الامرأة، بعد ترملها، تؤمن الوصاية على اولادها القصّر، وتتصرف تصرفاً مطلقاً بممتلكات العائلة، وتتولى ادارة المعسكر وتقود المحاربين احياناً.

وقد تقوم اخيراً، عن طريق اقسام اليمين، بعض الاخوّات، خارج نطاق العائلة؛ فقد يحدث ان يعقد رجلان، ينتسبان على العموم الى تكتلات مختلفة، اتفاق صداقة يوطده بالضرورة تبادل الهدايا ويحتفل به بوليمة ورقصات طقسية؛ وبعد ان يصبحا «اخوين حلفين»، يلزمان بتبادل المساعدة في شتى الظروف.

النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية

يتألف مجتمع المغول الرحل من اربع طبقات متميزة: الارستوقراطية الحاكمة، والرجال الاحرار او المحاربون، وعامة الشعب، والعبيد الذين يشملون، الى حد ما، الخدام والصناعيين اليدويين.

يختطف العبيد من تكتلهم اثناء حرب خاسرة او غزوة يستلب فيها الفتيان والجياد على السواء، وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهبون انفسهم لتكتل غير تكتلهم، او بعض ابناء عامة الشعب الذين يقدمهم آباؤهم لأحد القادة او احد المحاربين اعترافاً بخدمة مؤداة. يصبحون كلهم جزءاً من املاك العائلة التي تقتنيهم، ويوزعون مع الاملاك او يدخلون في مهر الفتيات ويرافقونهن عند ازواجهن. عبوديتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق. وقد يحدث ان تستعبد قبيلة كاملة اذا ما غلبت على امرها، بينما تخضع قبائل اخرى، بملء ارادتها، الى قبائل اعظم شأناً. حياة العبيد قاسية، ولكن عملهم لا يختلف قط عن عمل الخدام الذين ازداد عددهم بازدياد ثروة الارستوقراطية.

تتصرف عائلات عامة الشعب بممتلكات فردية ما عدا المراعي وربما القطعان — فهذا مختلف عليه — المشتركة بينها في التكتل. ويرجح انها ملزمة بتقديم بعض الخدمات والاتاوات للقادة.

المحاربون او «الرفاق»، وهم شبيهون بمتطوعي الجيوش الجرمانية، يأتون عادة من تكتل غير التكتل الذي يدخلون في خدمته، دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم. يمثلون بالطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي ويرتبطون بزعيم التكتل او بالنبلاء المتحكمين باتباع كثيرين، ولكن لهم الحرية في ترك خدمتهم والانتقال الى تكتل آخر دون ان يتهموا بالخيانة. يؤلفون حرس السيد الخاص وينفذون بهذه الصفة المهام الخطيرة الفجائية، فيختطفون اجمل نساء القبائل المجاورة ويستولون على الخيول ويسيرون بها نحو المعسكر، ويشتركون في المعارك؛ يعينون قادة على جيش التكتل الذي لا يجند الا في حالة الحرب. يستخدمون كذلك مندوبين

وسفراء وموظفين اداريين ، ويتحولون ، بعد اعــادة السلم ، الى خدام ويدخلون في حاشية الزعيم الذي قد يغدون مستشاريه واصدقاءه الخلص والذي يتوجب عليه حمايتهم على كل حال: فهو ملزم باسكانهم واعالتهم واكسائهم وتسليحهم، ومضطر بالتالي الى شن المزيد من الغزوات.

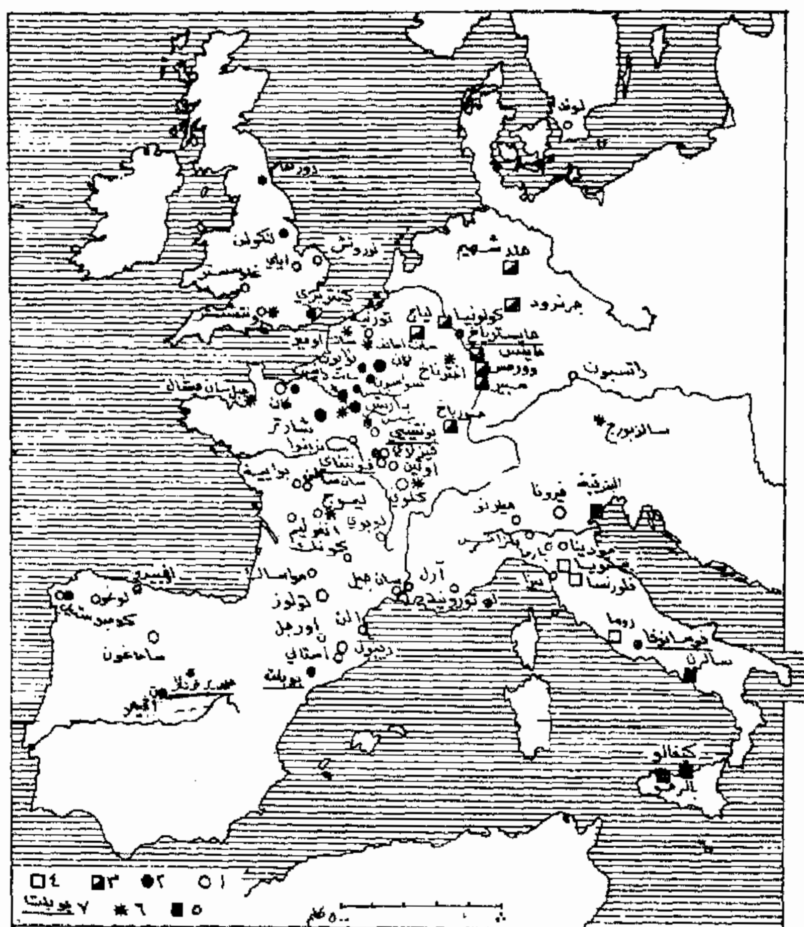

الشكل (رقم ١١) ـ الفن في الغرب (١٠٧٥ ـ ١٢٠٠)
١ ـ الفن « الروماني » ٢ ـ الفن القوطي ٣ ـ التقليد الكارولنجي ٤ ـ التقليد الروماني
٥ ـ التأثير البيزنطي ٦ ـ مصانع تزويق المخطوطات ٧ ـ الابنية السيسترسية

وتضم الارستوقراطية اخيراً العائلات ، المتفاوتة الثروة ، التي توصل زعيمها ، بقوتـــه او مهارته او بصيرته او ثروته ، الى فرض قبوله في فئة المقتدرين . تستطيع هذه العائلات ، بقيادة زعمائها ، التمتع بمزيد من النفوذ بارتفاع عدد مؤاكليها وزبنها ؛ فتنزع من ثم الى الاستقلال عن التكتل ، والانفصال عن الذين يضايقونها ، وجمع كل من قد يعود عليها بالفائدة حول زعيمها ،

مشتّتة بذلك تركيب القبيلة . فهي قد شعرت ، قبـــل ان يحقق جنكيز خان توحيدها تحت سلطته ، بضرورة الاتحاد تحت قيادة الزعماء الذين يختارهم مجلس القبيلة لفترات معينة ، كالحرب والصيد المثمر مثلاً ، والذين لا يمكن من ثم ان تصبح سلطتهم وراثية .

يؤلف مجموع التكتل ، من الزعيم حتى العبيد ، وحدة وثيقة العرى ، عرفت باسم «اولوس» الذي يعني على وجه التقريب « التراث » او « المُلك » . ويمتلك ارضا (يورت) تسرح فيهـــا قطعانه ويتقوت هو بما هو ضروري لحياته ، ولا يعرف من انواع التبادل سوى المقايضة البدائية . للزعيم يعود امر معرفة المراعي المخصصة للتكتل وحدود أراضيه ، وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكر ، وتعيين الطرقـات الواجب سلوكها او تجنبها وادارة عمليات القنص لتوفير المواد الضرورية لأود التكتل .

النظام الاجتماعي في ظل الامبراطورية

منذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقام الخان الأعظم ، توطد التسلسل الاجتماعي ، ولكنــه ارتدى في الوقت نفسه طابعاً اقطاعياً : غدت الامبراطورية « الاولوس » المغولي ، و « الشعب ــ الدولة » ، كما غدت تراث التكتل الامبراطوري . وغدا افراد هذا التكتل ، وكلهم أنسباء الامبراطور امراء امبراطوريين ؛ فمجلسهم هو الذي ينتخب الخان الأعظم ، ولا يحق لأحد سواهم ان يعين خليفة للامبراطور . يطمعون ايضاً في امتلاك « اولوس » خاص بهم ، ويصبحون بذلـــك اصحاب الأخاذات الكبرى في الامبراطورية ، ويخضعون ، حين التنصيب ، لواجب السجود تسع مرات على ان تمس جبهتهم الارض كل مرة . اجل للخان الحق في ان يسلخ كل او بعض تراثهم الذي هو عظيم جداً على العموم : جمهور كبير من السكان ، الاراضي الضرورية لتجولاتهم ، وخصوصاً المداخيل الضرورية لتعهد المنزل الاميري التي توفرها الأتاوات المفروضة على اهـــل القرار في البلدان المحتلة حديثاً . وتوزع هذه « الاقطاعات » من جهة ثانية دونما نظر الى التجمع الجغرافي لأن الامبراطورية ، بحسب ذهنية البدو ، واحدة لا تتجزأ .

توزع الاقطاعات ايضاً على خدام الامبراطور الأمناء ومرافقيه وعلى الارستوقراطيين والمحاربين المتقفـين وراء الامراء الامبراطوريين الذين يحملون جميعهم اسم الزعيم (نويان) : وتتألف الاقطاعات من بعض العائلات وما يعود اليها من مراع ؛ وقد تصبح هذه الاقطاعات «اولوس» اذا ما امتدت وتوسعت . يقيم المستفيدون من هذه الانعامات في وسط أتباعهم ولكنهم يستمرون في خدمة زعيمهم مع الجنديين الذين يخضعون لارادتهم ؛ واذا هم ألزموا بالاخراج وبوضع مجنديهم تحت تصرف الامير الامبراطوري وباحتفال التنصيب امام الامبراطور ، فان لهم ملء السلطة على مرؤوسيهم ، وينظرون في الدعاوى ، ويوزعون المراعي ، ويتولون ، بالوراثة ، قيـــادة الجيوش المقسمة ، بحسب أهميتها ، مئات والوفاً (حتى عشرة آلاف رجل) ، ويحتلون افضل مركز في عمليات القنص ، ويستأثرون بأحسن الطرائد المقتنصة ، ويفرضون اخيراً الأتاوات

وأعمال التسخير على عائلات اتباعهم. وباستطاعتهم تعيين مرؤوسيهم العسكريين ايضاً، فيكتفي الامبراطور اذ ذاك بالموافقة على اختيارهم، وفرض حماية على بعض المواقع في اراضيهم يدفن فيها

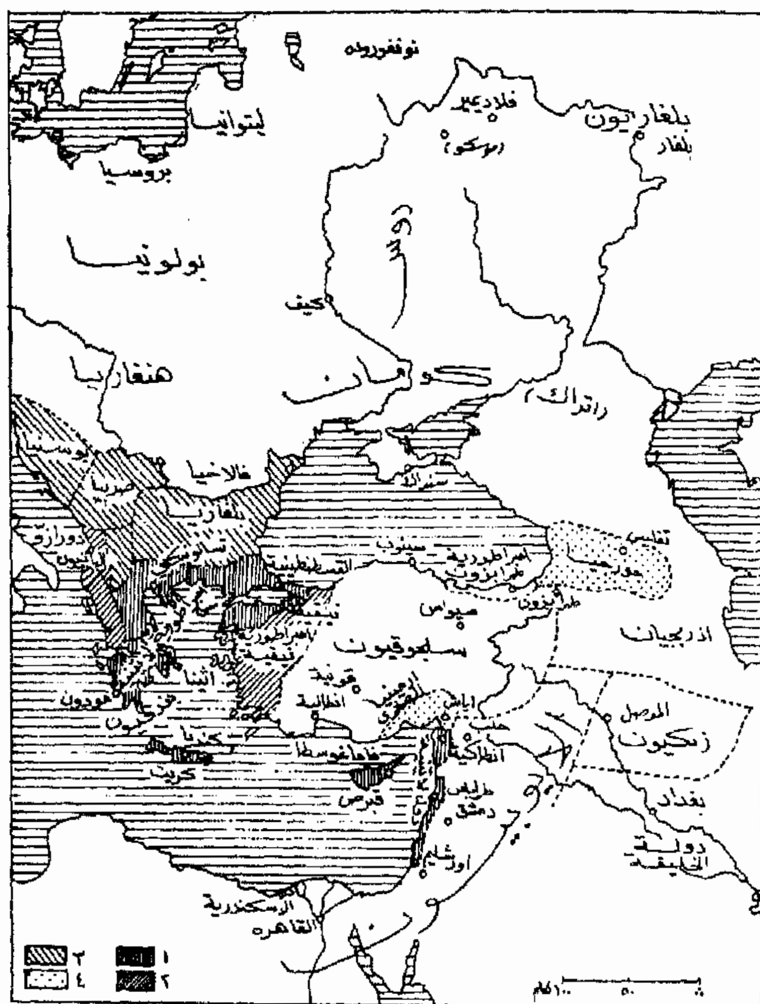

الشكل (رقم ١٢) ـ الشرق الادنى واوروبا الشرقية في اوائل القرن الثالث عشر
١ ـ الدول اللاتينية ٢ ـ الدول اليونانية ٣ ـ دول البلقان السلافية ٤ ـ الدول الارمنية والجيورجية

أعضاء التكتل الملكي او تخصص للقنص. الا انهم، بالمقابلة، يخضعون خضوعاً عميقاً للامبراطور ولسيد عهدتهم اللذين لا يمكنهم ترك خدمتهما كما لا يمكنهم بيع اقطاعتهم؛ اما سيدهم فيستطيع حرمانهم من هذه الاقطاعة وتسليمها لغيرهم؛ كما يستطيع حرمانهم من قيادتهم العسكرية دون

ان يقبل بأية مراجعة او شفاعة . ولكن مركزهم يكرس رسمياً بكتاب توليـــة ، او ببعض الالقاب الشرفية - كلقب « حامل الكنانة » الذي منحه جنكيز خان – او بلوحات فسّر لنا « ماركو بولو » تسلسلها : فللسيادة التي تضم ١٠٠ رجل – أي تجند ١٠٠ جندي – الحق بلوحة ذهبية او فضية مذهبة ؛ واللوحة ذهبية ابداً ومزدانة برأس اسد للسيادة التي تضم ألف رجل . وتحمل اللوحة كتابة منقوشة تبارك الخان الاعظم وتلعن من يعصي أوامره . ولمالكي اللوحات جميعهم حق بالمظلة في تنقلاتهم ، وبالعرش الفضي عند مقابلة الناس لهم . وباستطاعة أرفعهم مرتبة اقتناء جياد لنقل البريد دون اذن صريح من الامبراطور ، ويستفيدون كذلك من الانعامات الامبراطورية : الآنية الفضية ، و « السروج الجميلة » ، والجواهر والحجارة الكريمة ، والخيول أخيراً ، وهي خير ما يُهداه أبناء البورات هؤلاء بعد ان يجمعوا ثروة طائلة . وأضاف كوبيلاي الى هذه الانعامات انعاماً اخيراً يمنح مرة كل ثلاث سنوات : لباس ابهة ، وزنار ذهبي ، وأحذية من جلد الابل المطرز بالخيوط الفضية ، وكان كل ذلك « مزداناً بالحجارة الكريمة والجواهر وأشياء اخرى غالية الثمن عظيمة القيمة » . ففي كل عيد ، يرتدي الامبراطور وأصحاب الاقطاعات الـ ١٢٠٠٠ الذين يشكلون حرسه الخاص ، ثياباً فاخرة كلها من لون واحد .

الخان الاعظم

ان اعتلاء جنكيز خان عرش الامبراطورية لم يغير في الظاهر شيئاً من الاصول المغولية القديمة الـتي اعتمدها مجلس التكتل في تعيين رئيس لا يتمتع بسلطة وراثية . فبعد ان اصبح تكتل الفاتـح مجلساً امبراطورياً ، بات من حقه انتخاب الامبراطور الذي لا يمكن اختياره الا من بين أعضائه . الا ان الوراثة أمست في الواقع امراً واجباً ، بعـد ان اخذ الامبراطور يعين خلفه بموجب وصية ، - ابنه الثاني بحسب تقاليد المظال - وهو اختيار يوافق عليه المجلس بصورة عامة . ترتدي جمعية التكتل ، في هـــذا الظرف ، مظهراً احتفالياً خاصاً استطاع الراهب الايطالي « جان دي بيان كاربينو » رؤيته والاعجاب به في السنة ١٢٤٦ ، حين جرى انتخاب « كويوك » : فبينما تـــدور المذاكرة في السرادق الامبراطوري ، يجتمع الفرسان وأهل المقامات داخل اسوار القصر ، وفي الخارج ينتظر الحدث حشد غفير بالاضافة الى الجيش الملتف حول اعلامه . وما ان يتم التعيين حتى يقوم اعضاء التكتل بالطقوس التقليدية التي ترافق كافة الاحتفالات المدنية او الدينيـــة ؛ يرفعون القبعة عن الرأس ، ويحلون الزنار الذي يلقونه على الأكتاف ، ويُجلسون الملك على العرش المذهب الذي حل محل الطنفسة اللبدية القديمة ، ويحيونه بلقبه الجديـــد . ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم الأرض ، فتحذو حذوهم جماهير المنتظرين في الخارج . وبعـــد اقسام الايمان الاحتفالية وتقديم الذبائح الحيوانية (فحول وحجور) ، يدشن الامبراطور عهـــده بتوزيع الالقاب والمراتب والدرجات الرفيعة على خدام الامبراطورية الممتازين .

حين بلغت السيطرة المغولية أقصى حدودها ، نظمت حياة الخان الاعظم ، مستقرة كانت ام نقيلة ، تنظيماً دقيقاً جداً . فخلال أشهر الامطار الستة ، أي من ايلول الى شباط ، يقيم في

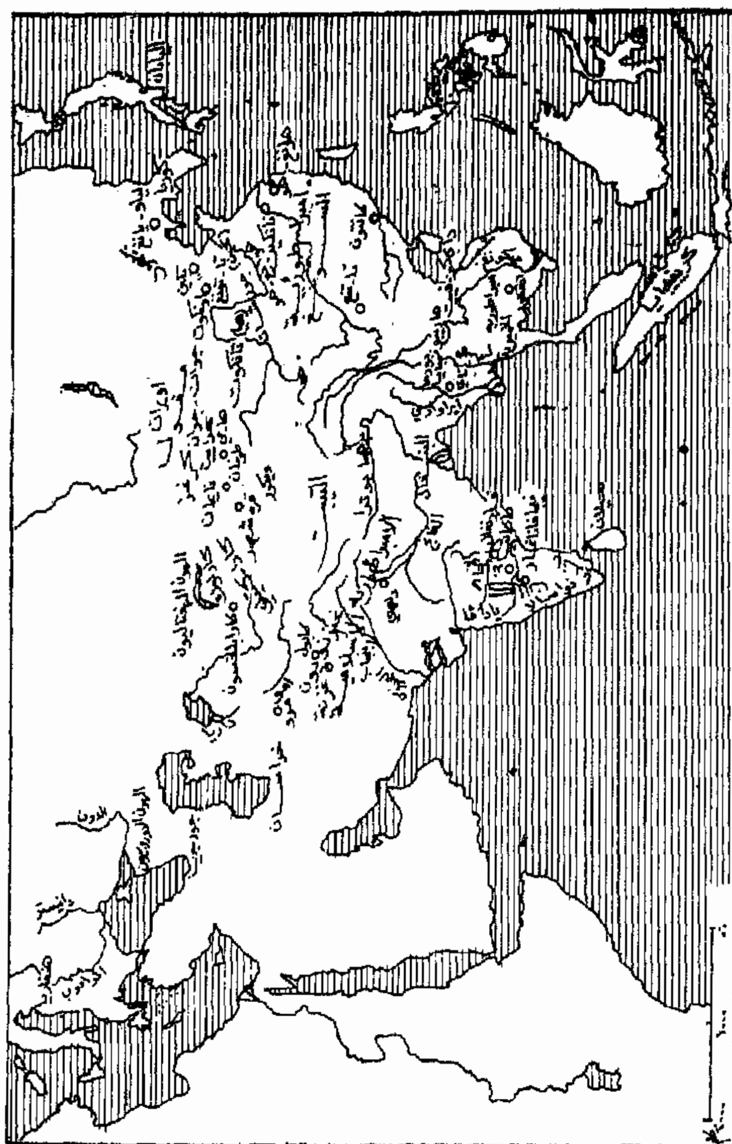

الشكل (رقم ١٣) ـ آسيا في عهد جنكيز خان

قصره في بكين ، حيث يحتفل ببدء السنة الجديدة في شهر شباط . ومن آذار الى نوار ، ينتقل المعسكر الامبراطوري الزاهي الى القنص بواسطة الشواهين . بعد العودة ، لا يقيم الامبراطور في بكين سوى ثلاثة ايام يحتفل خلالها بأعياد كبرى ، ثم يذهب لقضاء فصل الحر في مقره الصيفي « شانغ ـ تو » ، في قصر من الخيزران . فالبون شاسع بين هذه الحياة المتفخلة وشظف العيش والاخطار في المعسكرات المغولية القديمة . يُقام الى جانب المعسكر الامبراطوري ، الذي يضم مظال لا تحصى لأهل المقامات وعائلاتهم واخرى تجمع فيها الأسلحة والسروج والشواهين، معسكر آخر خاص بزوجات الملك، « الاوردوس » ، له خدامه ومراعيه الخاصة. وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى ، وهي أنفس المظال اطلاقاً ، مظلة اخرى يستخدمها الملك مسكناً له؛ يحرس مدخلها باستمرار ، وهو ابداً الى الجنوب ، اسياد من المراتب الرفيعة. تغطى بجلود الانمر وتفرش جميع اقسامها الداخلية ، بما فيها العوارض الخشبية ، بجلود القواقم والسامير ، وتشد فيها حبال حريرية ، وتستخدم لاستقبال السفراء الأجانب – كغليوم دي روبروك في السنة ١٢٥٣ ؛ يجلس فيها الامبراطور على سرير مذهب يصعد اليه بثلاث درجات ، ترافقه زوجته الرئيسية ويحيط به كبار موظفيه الذين يجلسون بحسب مرتبتهم .

كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليمة . وقد وصف لنا تنظيمها ماركو بولو : يجلس الامبراطور باتجاه الجنوب امام الطاولة العليا ، وتجلس الى يساره امرأته الاولى (اليسار عند الصينيين هو المقام الاول) ؛ يجلس الامراء الامبراطوريون الى اليمين امام طاولات أدنى ارتفاعاً « بحيث لا يتجاوز رأسهم اقدام السيد الاكبر » ؛ ويجلس الأسياد الآخرون امام طاولات اقل ارتفاعاً ايضاً ؛ وتجلس الى اليسار ، وفاقاً للتدريج نفسه ، زوجات الأمراء والأسياد ، بحيث يستطيع الامبراطور رؤية جميع مدعويه . يوضع على طاولته اناء ذهبي كبير يغترف منه النبيذ بأكواب من الللك الصيني المذهب ويسكب في أكواب اصغر حجماً ، ملأى بالتوابل ، يغترف النبيذ من كل منها مدعوان . يؤمن خدمة الخان اسياد عظام يستر أنفهم وفاهم حجاب حريري مذهب، فيقدمون له اصناف المآكل والمشرب. ترن الآلات الموسيقية حين يهمّ بالشرب ؛ فيجثو كافة الحاضرين الى ان يشفي غلته .

لنذكر بين الأعياد البارزة في حياة البلاط عيد الذكرى السنوية لجلوس الامبراطور الذي يرتدي، مع كبار موظفيه، الثياب المذهبة ويتقبل الضرائب والهدايا العينية من رعاياه. ولنذكر خصوصاً عيد رأس السنة الجديدة الذي يحتفل به في شباط ؛ ترتدي البلاد كلها حلة بيضاء ، والبياض لون يتيمن به المغول ـ مع انه سيصبح لون الحداد عندما تتولى الحكم سلالة المنغ. يحاط الامبراطور في هذا العيد بأفراد عائلته ويستقبل صفوف اصحاب الاخاذات ابتداء من الامراء حتى المنجمين ومن كبار الاسياد حتى الاطباء والقناصة . تقدم له الهدايا التي يتبادلها الجميع في ذاك النهار ؛ وتقدم له كذلك ، في هذه المناسبة ، الجزى المفروضة على البلدان المحتلة : الاحصنة من تركستان ومنغوليا، والفيلة من الهند وشمبا والابل من خراسان، والآنية الذهبية والفضية.

كل فرد يقدم الخضوع بدوره للامبراطور ثم يبخر اللوحة الذهبية الحاملة اسمه والموضوعة على طاولة أشبه بالمذبح . وتلي المأدبة التقليدية ألعاب المشعوذين لتسلية الحضور .

يتلهى الامبراطور بلعبة الكرة الهوائية التي يشارك معه فيهـا كبار موظفيه ، وبمعاقرة المسكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى ؛ ولكن لهوه الاول هو القنص الذي يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط ويروض لاجله ٥٠٠ باز وصقر وشاهين ، بالاضافة الى الحيوانات السنورية الصغيرة التي تروض لاجل قنص الطرائد الكبيرة ، والى اسراب كلاب الصيد التي يتعهدها بعض كبار الاسياد لخدمة الامبراطور . ويخضع لهذا النظام كذلك اطلاق الشواهين واسترجاع الطيور المفقودة والتعهد بالبحث عن الاشياء الضائعة . يسهم الامبراطور بالقنص من على ظهر فيله ، في محمل هو له بمثابة غرفة اثناء تنقلاته . وعلى كافة سكان المنطقة ، المسموح لهم باقتناص الطرائد ، باستثناء الايائل واليحامير ، طيلة الشهرين او الثلاثة اشهر التي يستغرقها القنص ، ان يقدموا للامبراطور حصة اقتناصهم .

اعدت المدافن الامبراطورية منذ جنكيز خان في منحدرات جبل « كنتاي » المقدس ؛ ينقل جثمان الخان الميت اليها في موكب جنائزي طويل يسير ببطء في المسالـك حتى قلب البلاد المغولية القديمة . وعلى غرار ما درج عليه الغز والصينيون ، يقتل جميـع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن امام طقس من طقوس الذبائح طالما رافقه ذبـح الخيول ايضاً ؟ ام اننا ، كما يزعم رشيد الدين ، امام تدبير احتياطي للمحافظة ، ما امكنت المحافظة ، على سر وفاة الملك ؟ مهما يكن من الامر ، فان المجزرة التي اودت ، كما يبدو ، بحياة ٢٠٠٠ ضحيـة اثناء جنازة « مونكا » تذكرنا تذكيراً غريباً بطقوس « مدافن العربات » في عهد اوئل التاريخ المعروف .

الجيش والحرب

قبل ان ينظم جنكيز خان جيشاً امبراطورياً ، قامت الحرب عند المغول على اكتاف السكان المسلحين والجنود المحترفين معاً . وقسّم رجال التكتلات ، برئاسة زعمائهم القبليين الى فرق محاربة وفرق مساعدة ، يضاف اليها ، حول الرئيس ، فرقـة مختارة قد تضم الف رجل . اما المحاربون المحترفون ، الى اي تكتل انتسبوا ، فيحيطون بالحرس القومي او يوضعون احياناً ، بحسب مقتضيات الظروف ، تحت امرة هذا القائد او ذاك .

احاط جنكيز خان نفسه ، في البدء ، بحراسة متواضعة — ٧٠ رجلاً فقط — وتولى في الوقت نفسه القيادة العليا لكافة وحدات الجيش المغولي . ثم اضطره توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح في المناطق النائية الى وضع تنظيم ثابت حازم . فوزع السكان الذكور ، اعداداً للتعبئة ، عشرات ومئات والوفاً ثم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل . ورفع الحرس الامبراطوري كذلك الى عشرة الاف رجل يجندون جميعهم من بين ابناء الاسيـاد والاحرار البواسل ؛ واختارهم الخـان نفسه ، بالاستناد الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهم ، من بين المجندين المتطوعين — « لا يجوز لاحد الاحتفاظ بمن يريد الانضمام الى الحرس » — الذين يقدمهم اصحاب الاتخاذات

وفاقاً للقاعدة التالية : « اخ » وعشرة رجال لقائد الالف ، اخ وخمسة رجال لقائد المائة ، اخ وثلاثة رجال لقائد العشرة ، على ان تؤمن كل من هذه الفئات ، بالاضافة الى ذلك ، احصنة جنديها وعُددهم . على عاتق هذه الوحدة المختارة ، التي يشكل ١٠٠٠ من خيرة رجالها مقدمة الجيش ابان الحرب ، القيت واجبات دقيقة دائمة . فهي توزع على الشكل التالي : الف عاس والف « حامل كنانة » ، وحراس نهاريون وحراس مائدة وحراس مظلة وامراء اخور . يخدمون مناوبة طيلة ثلاثة نهارات وثلاثة ليال متواصلة . لا يستطيع احد دخول المظلة الامبراطورية اذا لم يرافقه رجال الحراسة ؛ ومن واجب هؤلاء ، منذ الغسق ، القاء القبض على كل من يحاول الاقتراب منها ؛ ويعاقب افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم بغرامة عينية : ملابس وجواد مجهز بكامل عدته . وتتراوح العقوبات ، التي يحكم بها الامبراطور نفسه ، بين الضرب المكرر بالعصا وقطع الرأس . اما التخلف عن الخدمة فيعاقب بثلاثين ضربة عصا في المرة الاولى ، وسبعين في المرة الثانية وبالنفي اخيراً في المرة الثالثة . ولكن الحراس استفادوا من امتيازات تعوض عن هذه العبوديات . فالحارس البسيط يقدّم على قائد الالف ؛ واذا ما تنازعا فالقائد هو من يعاقب .

اهتم الحكام ، في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية ، بالجيش والحرب فوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية . لذلك فان المصادر الادبية الحافلة بالنصائح المسداة للجنود ترفع النقاب عن الاساليب الحربية الخاصة بالشعوب البدوية ؛ يشدد فيها على العناية بالطبول والرماح ، وحراسة الاعلام ، وسلامة العربات والمظال ؛ كما يشدد على ضرورة الاقتصاد في المؤن ابان المعارك وعلى حصر انتجاع الكلأ الضروري لتموين الجيوش ، وعلى عدم اصطحاب الاحصنة الهزيلة العاجزة عن تسلق الجبال او اجتياز الانهر ، واخيراً على تخفيف عدة الحصان بالاستغناء عن كل ما هو مزعج او ثقيل : يجب ان لا تضايق الاثفارُ الركوبةَ وان لا يترك الفارس الاعنة منسدلة .

والامبراطور هو الذي يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأي منجميه ، ويرسل ، قبل هذا الموعد بيومين ، بضع مئات من الفرسان الكشافة . لا تزال القوة خفيفة ، اذ ان الجندي لا ينقل سوى قربتين ملأيين بلبن الفرس الرائب ، واناء خزفي لطهي الطرائد التي قد يقتنصها في الطريق ، ومظلة فردية صغيرة تقيه من المطر ، ويعلق كل ذلك بالسرج . فجميع الاحتياطات متخذة اذن لتأمين سهولة تحرك الجيش . وهذه السهولة هي ما جعل المغول يتفوقون على اعدائهم واحداث ثورة في فن الحرب شبيهة بتلك التي حدثت في القرون الوسطى واعطت الاولوية ، في الغرب والشرق الادنى على السواء ، لكتائب الفرسان الثقيلي التسلح . وهي ايضاً ما اوهم العدو ، الذي يواجه فجأة نبالون خفيفو الحركة ، بانه امام جيش لا يحصى له عد . اجل لقد فاق عدد الجنود المغوليين ، وقد ضم شعوباً كاملة تحمل السلاح ، عدد الفرسان الغربيين ، الموزعين وحدات صغيرة ، الذي لم يتجاوز ، الا في ظروف استثنائية نادرة ، عشرة آلاف محارب . ولكن

ما نعرفه عن الغارات الصاعقة التي شنها المغول عـلى تركستان والشرق الادنى واوروبا يحملنا على الاعتقاد بان الذين اشتركوا فيها لم يتجاوزوا عشرين او ثلاثين الف رجل دفعة واحدة. وقد بلغ الجيش المعد للحرب ، حين وفاة جنكيز خان ، على ذمة رشيد الدين، ١٢٩٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ لحراسة الامبراطورة والامراء الامبراطوريين ووزع الباقون ثلاث وحدات في الوسط والشرق والغرب . وحين يتكلم المؤلفون الشرقيون والرحالة الغربيون ، في عهـد لاحق ، عن جيش مؤلف من ٥٠٠٠٠٠ رجل كوحدة غازية قليلة العدد ، وحين يشيرون الى ان الامبراطور يهمل قواد العشرات والمئات والالوف ولا يصدر اوامره المباشرة الا لقواد وحدات المائة الف ، فان هذه الاعداد غير جديرة بالتصديق اذا لم ندخل فيهـا فرق الجنديين المعبئين في البلدان الخضعة للسيطرة المغولية ، وهي فرق لا قيمة لها ولا تنقل الى مسافات بعيدة. ونحن نعلم من جهة ثانيه ان وحدات الفرسان قد بقيت اهم وحدات الجيش ؛ فان سرعة تحركها وخدماتها الكشفية والجاسوسية الممتازة ، وتموينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قـد فرضت الاكتفاء بجندين اقل عدداً ـ واعظم تفوقاً ـ الى حد بعيد من كل ما استطاعت تعبئته آنذاك الامبراطوريات والملكيات المتحضرة .

يبدو ان المغول قد تعودوا أساليب اعدائهم الحربية ، وانهم قبلوا في الدرجة الاولى بالمعركة بين جيشين متقابلين . ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها . اذ ان مصادرنا لا تصف لنا سوى نوع من قانون مثالي يفرض الاقتراب « في الاعشاب الكثيفـة » واعداد الجنود للمعركة « بشكل بحيرة » ، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الاعداء « كالمثقب » . يعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات الجيوش ويتسم قواه ثلاث وحدات : أقلها عدداً يوضع تحت قيادتـه المباشرة ويتألف من اشد المحاربين مقاومة ويشكل الوسط ؛ وتنتشر الوحدتان الرئيسيتان على جانبي الوسط يميناً وشمالاً ، أي شرقاً وغرباً ، لأن المغول يتجهون أبداً الى الجنوب . قبـل المعركة التي تعطى اشارتها بدق طبول الخان ، ينشد المحاربون « ويعزفون على آلة شجيـة ذات وترين » (ماركو بولو) . لا تدور المعركة الا في النهار ، وتتوقف في الليل ، ولكن ذلـك لا يفيدنا شيئاً عن مراحلها الفنية. الا ان اعتماد الآلات الحربية الشبيهة بالغرف المستطيلة التي تصنع من الاخشاب وتنقلها الفيلة ، لا تخلو من الدلالة . يتباهى ماركو بولو ، بما عرف عنه من مخرقة ، انه واعمامه قد علموا ضباط كوبيلاي، استعمال المنجنيق الذي اتاح في السنه ١٢٧٣ دخول سيانغ ـ يانغ على الهان السفلى ، بعد حصار دام خمس سنوات . اما نحن فنرجح ان مثل آلات الحصار هذه قد احضرها مهندسون مسلمون آتون من بلاد ما بين النهرين .

التنظيم الداخلي

لم يتصور المغول ، شأن أمثالهم من البدو الرحل ، قانوناً غير قانون القبيلة وانتجاع الكلأ، فاحتقروا اهل القرار ولم يفكروا الا بتدمير قراهم وتخريب حقولهم . الا ان فتوحاتهم جعلتهم يخالطون أناساً تفوقوا عليهم حضارة ، فأحسنوا صنعاً احياناً بالاصغاء اليهم . وهكذا فان جنكيز خان قد صادف ، في السنة ١٢٠٤ ، كاتباً تركياً في خدمة

زعيم « النيمان » يتكلم ويكتب لغة « الويغور » ؛ عندما وقع في الاسر حاملاً خاتم سيده — مما أثار دهشة الفاتحين البرابرة — استخدمه جنكيز خان، فحررت وثائقة الرسمية، منذ ذاك التاريخ، باللغة التركية الويغورية . ثم اسندت اليه مهمة تهذيب أبناء الامبراطور وتعليمهم الكتابة الويغورية، المشتقة من الكتابة السريانية، التي ستشتق منها الاحرف المغولية . ثم الحق به شخص آخر كرايبتي الاصل « ويغوري » الثقافة ايضاً؛ فاسندت اليهما اعمال ديوان الامبراطورية الذي قسّم بفضلهم شيئاً فشيئاً الى دوائر ، وما لبث ان شمل « الدوائر الصينية » بغية ادارة امبراطورية واسعة الاطراف .

نمت هذه النواة الادارية وتجهزت في عهد اوغوداي ، لا سيا بفضل وزيره وصديقه الكيتاني « يي — ليو تشو — تساي »، وهو رجل عالي القدر لم يلبث ان اخذ بالحضارة الصينية. فأضيفت الى الدوائر المغولية والصينية مصالح اخرى تانغوتية وفارسية . فقسمت أراضي الامبراطورية أقساماً ادارية ، كالمقاطعات العشر في المنطقة المحتلة من الصين مثلاً . وبذلت المحاولات اخيراً لتحديد اراضي التجول والمراعي لكل قبيلة مغولية . وأقرت في الوقت نفسه ، على أسس نظامية، الميزانية التي قامت على نوعين من الواردات: عشر نقدي يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من اصل مواسمهم ، واقتطاع رأس من كل ١٠٠ رأس ماشية فرض على الرعاة . وفي سبيل تأمين الجباية بسرعة احدث جنكيز خان هيئة من المفوضين الامبراطوريين ، استطاعت استخدام البريد الامبراطوري ، ثم اعاد اوغوداي تنظيمها ، ولكنها لم تعش طويلاً .

في عهد كوبيلاي، الذي اصلح الطرقات وخانات القوافل وزرع الاشجار الظليلة على جوانب المسالك ، أثارت خدمة البريد هذه اعجاب ماركو بولو . ولما كان المؤرخون قد انخدعوا منذ ذاك التاريخ بمواهب المغول الادارية وعبقريتهم التنظيمية ، يجدر بنا هنا ان نصف هذه الخدمة وصفاً موجزاً : فالطرقات والمسالك تسمح للسعاة بنقل الاوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية . تقوم على مسافات معينة — من ٢٥ الى ٤٥ ميلاً — محطات يوجد فيها على الدوام ساقة ، وهَداة ، ورباطات ، وقطيع غنم ومخزن حبوب لتموين المسافرين ، بالاضافة الى مبيت مجهز خير تجهيز ، معدّ لكبار الموظفين من ناقلي الاوامر الامبراطورية . واذ كانت بعض المحطات الهامة تتسع لأربعمائة حصان ، أمكن القول بأن أكثر من ٣٠٠٠٠٠ حصان كانت من ثم موزعة على الطرقات ، يقدمها كلها ويتعهدها — الا في المناطق الصحراوية حيث يأخذها الخان على عاتقه — اسياد المناطق وملاكوها . وقامت بين المحطة والمحطة ، كل ثلاثة اميال ، قرى او مراكز سعاة ينقلون ، سعياً على الاقدام ، الرسائل والمواد الغذائية و «الأشياء الغريبة الاخرى» المبعوث بها الى الامبراطور؛ كان هؤلاء موظفين ذوي اجور معفين من الضرائب على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين ، يراقب تنقلاتهم كتبة مقيمون في كل مركز . اما السعاة الفرسان السرعان الذين يحملون ابداً اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب ، فكانوا ينقلون الاوامر العاجلة الى الأماكن البعيدة .

واذا نسبت الى اوغوداي ايضاً بعض اشغال المنفعة العامة ، كحفر الآبار في المناطق الصحراوية تسهيلاً لاجتيازها ، فان الادارة قد تنظمت تنظيماً نهائياً في عهد كوبيلاي . ولكن الخان كان آنذاك ، في الدرجة الاولى ، امبراطور الصين ؛ لذلك كانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيين . وفي الواقع اسندت ادارة الامبراطورية ، المقسمة الى ٣٤ مقاطعة ، الى اثني عشر وزيراً صينياً من عظام الاسياد يقيمون في احد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع من الشؤون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ، ويؤلفون اخيراً محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة ويتخذون قرارات مطلقة في الشؤون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجنيدها ويصدرون ، في الدعاوى الهامة ، احكاماً مبرمة ، باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها .

اما تنظيم القضاء في المقاطعات فأكثر تعقيداً اذ ان ثمة محكمة اولية تسوّي الخلافات في كل معسكر ، بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية في اقطاعاتهم ، وتلتئم في الاولوس محاكم خاصة يرئس كلاً منها قاض كبير . ويبدو ان السرقة أكثر الجرائم تكراراً في العالم المغولي . وهي تعاقب بحسب أهميتها اما بضربات العصي — من ٧ الى ١٠٧ — واما باعدام تراق فيه الدماء ، الا اذا استطاع السارق دفع تسعة اضعاف قيمة المسروق .

امام صعوبات التموين في امبراطورية على مثل هذا الاتساع ، اضطرت حكومة كوبيلاي ، أكثر من سابقاتها ، الى حصر جهودها في المشاغل الاقتصادية . فأحدثت أقنية كبرى بين بكين ويانغ ـ تشيو ؛ وطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجاتها ؛ وأعفي ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقتاً من الضرائب ؛ وأعيد نظام قروض الدولة الذي عرفته الصين في ايام السونغ ؛ ووزعت الادارة ، في السنوات القحيطة ، الحبوب والمواشي التي جمعتها في سنوات الاخصاب . ومن أدلة سياسة المساعدات هذه تأسيس المستشفيات والمياتم ومستوصفات العجز ، وتوزيع الاطعمة والالبسة بالمجان ، و الاحسانات اليومية في فناء القصر .

كانت الاتاوات والضرائب ، لفترة من الزمن ، كافية لتغذية الخزانة الامبراطورية . وكان للضرائب العينية أهمية عظيمة : الطرائد الصغيرة والكبيرة ، الاحصنة التي يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش ؛ المواد الغذائية على أنواعها ، بما فيها البطيخ والعنب ، التي تقدمها البلدان المحتلة . يضاف الى ذلك الضريبة النقدية (فضة) المفروضة على المزارعين المتحضرين ، وضريبة اخرى خاصة (ذهباً) مفروضة على الملح ، ورسوم اخرى على السكر والفحم الحجري المستخرج من جبال الصين الشمالية بكلفة اقل من كلفة الوقود . ويدخل الخزانة أيضاً قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع والجزى المتوجبة على البلدان الاجنبية او التابعة للامبراطورية . فبدت ثروة الامبراطورية وكأنها ممتنعة النفاد ؛ ولكنها تلاشت بالاكثار من النقد الورقي الذي كان ، كما سنرى ذلك ، احد الأسباب الرئيسية لانهيار « اليوان » .

فأين نحن اذن من اقتصاد بدائي ساد عالم المغول الذين لم يعرفوا، كما نرجح ، القطع النقدية واكتفوا بالمقايضة البدائية ؟ الا ان بعض تجار تركستان الصيني قد ركبوا الأخطار منذ أوائل القرن الثالث عشر وتوغلوا في منغوليا بغية تبادل الاغنام والابل بجلود السمامير والسناجب. اضف الى ذلك ان قيام الامبراطورية الجنكيزخانية ، بتسهيله جمع الثروات الطائلة في المعسكر الامبراطوري ، قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر المسير في البورات . ولكن منغوليا ليست من أفاد من ذلك ، اذ ان نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية . وقد يكون جنكيز خان أدرك بسرعة أهمية طرق الحرير الخاضعة آنذاك لسيطرة الويغور ؛ فنظم ، بالاتفاق مع هذا الشعب ، قافلة كبرى ، مؤلفة من ٥٠٠ جمل حمّلها من كافة ثروات آسيا ، وأعدها لاقامة العلائق التجارية مع خوارزم . فكان الهجوم على هذه القافلة ونهبها ، اللذان نظمهما احد الحكام الخوارزميين ، مصادفة مشؤومة وفاتحة حرب لا هوادة فيها استمرت عدة سنوات خرّب المغول خلالها تخريباً نهائياً المناطق الغنية التي كان الخان قد رغب في الاتجار معها . اضف الى ذلك ان الوزير يي ـ ليو تشو، حين جاء دور الصين ، لم يتوصل الا بكل صعوبة الى اقناع جنكيز خان بالعدول عن مشروع وضعه ، تحت تأثير ذهنيته البدوية ، لافناء السكان وتقويض المدن والاسواق واعادة المساحات المحتلة الشاسعة الى بورات ومراع للمغول . ولكن فتح بلاد السي ـ هيا آنذاك (١٢٢٦) قد سمح بجعلها طريقاً رئيسية للقوافل بين الشرق الاقصى والغرب ، بينما كان لا مناص في السابق ، لبلوغ ايران والصين ، من سلوك طريق طويلة محفوفة بالاخطار تمر بمنغوليا العليا . فأتاحت الطريق المباشرة ، المارة بـ « سو ـ تشيو » و « توان ـ هوانغ » ، واعادة النظام ،وقتاً الى الربوع المغولية ، ظهور التجار الاجانب مرة اخرى في آسيا العليا وبلوغهم الصين .

كان استثمار السكان استثماراً منسقاً ينظم في هذه البلاد الأخيرة، كلما امتد الفتح المغولي،فكر الأسياد المغول ، الذين غدوا من كبار الملاكين في البلاد المحتلة ، باقراض الصينيين ، بفوائد مفرطة ، الأموال التي انتزعوها منهم ، وذلك بالاتفاق مع تجار جلبهم من المسلمين ، أسسوا نقابات وشركات مصرفية، وقاموا بدور الوسطاء لاقناع الاسياد بالموافقة على القروض للصينيين. الا ان هذا النظام ، الذي جنى منه « تجار الاموال » المكاسب الرئيسية ، قد الغي رسمياً في السنة ١٢٩٨ : فان السكان الصينيين ، الذين عوملوا منذئذ معاملة المغول ، قد حصلوا على ضمانات قانونية ضد الفوائد الجائرة التي تتقاضاها النقابات الاسلامية وضد مصادرة نساء المدنيين واولادهم . ولكن هذا التشريع لم يأت بالنتيجة المتوخاة ، فاقتضى اقرار تشريع جديد في السنة ١٣٠١ والسنة ١٣٠٢ ضد استثمار استهدف الفلاحين والصناعيين البدويين ، لم يحل دون انطلاقة التجارة الكبرى : ويبدو ان نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها في عهد كوبيلاي؛ او ان ما يجوز قوله فيها هو ان ماركو بولو قد افتتن آنذاك بمشاهدتها .

في الصين الوسطى مخرت السفن الشراعية نهر « اليانغ ـ تسو » وسار غيرهـــا في القناة الكبرى ، التي رممها واكملها كوبيلاي ، لتموين بكين بالارز والحرير الضروري لانتاج اقمشتها الموشاة بأشكال الزهور ومنسوجاتها التي تتخللها الخيوط الذهبية ، ومنسوجاتها الحريرية الملساء ؛ وقد صدرت تشنغ – تو ، في الغرب (سو – تشوان ،) الحرائر الصينية حتى اواسط آسيا . وانتثرت على السواحل البحرية مرافىء عجت بنشاط منقطع النظير ، فكانت « يانغ ـ تشيو » ، سوق الارز الكبرى ، وكانت « هانغ ـ تشيو » ، حيث عاشت النقابات عيشة الامراء ، مستودعاً للسكر وصدرت الحرائر الى الهند والعالم الاسلامي ؛ واتجرت فو – تشيو بالتوابل والحجارة الكريمة التي قامت اهم اسواقها في « تسيوان – تشيو » بينما اشتهرت منطقة « فو ـ كيان » بصناعة الاواني الصينية . فتوافد التجار الاجانب على الصين من عرب ، وفرس ، ومسيحيين شرقيين وغربيين ، وهنود وماليزيين ، فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائلة من بيع توابل جاوا والهند بارباح مرتفعة جداً . وبفضل المعاهدات التجارية التي عقدها كوبيلاي مع « راجوات » الهند الجنوبية ، ولا سيما راجوات ترافنكور وكرنات . وقصد التجار الصينيون بدورهم المناطق النائية كي يبيعوا فيها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ويستحضروا منهـــا التوابل والاقمشة الموصلية والمنسوجات القطنية والحجارة الكريمة .

نشطت العلائق التجارية ، براً وبحراً ، مع ايران ، حيث تولت الحكم آنذاك عائلة هولاكو المغولية ، التي صدرت الطنافس والسروج وآلات الوقاية المعدنية والادوات البرونزية والاواني المزدانة بالمينا . وما الاثر الصيني البارز في التزاويق الفارسية سوى نتيجة هذه العلائق . واخيراً اقيمت العلائق مع اوروبا ايضاً . فوصلت طرقات عدة بين مصب « الدون » وبكين مروراً بخانية الكبشاك المغولية وشمالي تركستان الصيني ومنغوليا و« وقره كورم » . وانتهت الى هذه الطرقات طرقات اخرى تنطلق من ترابيزون والمتوسط الشرقي وتجتاز خانية فارس وتمر بتبريز وسمرقند وطشقند وواحات تركستان . واسست البندقية وجنوى اسواقــاً تجارية في القرى ومستعمرات في بلاد فارس ، فقامت للمرة الاولى في تاريخ العالم الغربي ، على طول هذه الطرقات ، علائق مباشرة بينه وبين الشرق الاقصى : وهذه هي المغالطة في نتيجه فتوحات المغول الحربية .

ونشطت في الصين نفسها حركة الصفقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي ، الذي سبق للسونغ ان استعملوه ، والذي اقتبس اوغوداي مبدأه ، منذ السنة ١٢٣٦ ، عن الكيتات في الصين الشمالية ، والذي استعمله كوبيلاي اخيراً استعمالاً منظمـــاً . صنعت الاوراق النقدية « السوداء » من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود في بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التي تمثلها ، وحاملة خاتم الامبراطور الذي يضمن شرعيتها . وقد فرض التداول بها ، تحت طائلة عقوبة الاعدام ، على كافة رعايا الامبراطورية . اجل لم يبد التجار استياءهم من هذا النقد لانهم استطاعوا بسهولة استبداله بمواد غذائية مفيدة للتصدير . الا ان كوبيلاي ، بالاكثار من هذه الاصدارات ، قد فتح الباب امام التضخم الذي سيقضي في القرن الرابع عشر الى انهيار الامبراطورية الصينية .

الشامانية

ادت اعادة العلائق الدولية واستتباب الامن على الطرقات ، بدورهمـــا ، الى ازدياد عدد المبشرين المتوافدين على الشرق الاقصى من كل قطر ومصر . ولكن المسائل الدينية ليست شغل المغول الشاغل . فاذا اعتنقت بعض القبائـل النسطورية او البوذية وحتى الاسلام ، فان اغلبية القبائل قد حافظت على مفاهيم البدو القديمة حيال تكوّن العـالم ، وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بكافـــة الشعوب التركية ـ المغولية . العالم في نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة؛ المنطقة السماوية ، وهي مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة ، تضم ١٧ طبقة عليا ؛ العالم السفلي ، وهو مقر الظلمات والاشرار ، يقسم الى سبع او تسع طبقات ؛ وتقوم بين الاثنتين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان . تخضـــع السماء والارض الى كائن اعظم يقيم في الطبقة العليا ، تانغري ، او السماء ـ المؤلهة . وبين الآلهة الآخرين ، تعنى الإلهة اوماي بالاطفال ، وتتمثل اتوغان أو إيتوغان ، الهة الارض ، بإلهـــة الجبل ، اوتوكان ، في الارجح . ويقيم عفاريت لا يحصى لهم عد في الارض ، والمياه ، والجبال ، والينابيع ، وهي اماكن مقدسة احيطت بالاكرام منذ القدم . ويتمثل العفريت حارس القبيلة ، « السولد » ، تمثلاً محسوساً ، بسارٍ تعلوه جدائل من سبيبة الفحول ، وهي في الارجح حيوانات مقدسة ، عنبية اللون وسوداوية الذنب والغفرة ؛ وينصب الساري في حظار يحيط به نطاق من شجر الصفصاف يقوم على حراسته متولو شؤون العبادة . ولكن العفريت يسكن علم القبيلـة ايضاً (توك) الذي تقدم له ذبيحة قبـــل كل حملة عسكرية . ولكل انسان كذلك إله مصير يؤدي له واجب عبادة: فقد اكرم جنكيز خان اله مصيره ، السماء ـ الزرقاء ـ الازلية ، في كافة ظروف حياته العصيبة : وقد درج الفاتح على أن يتسلق جبلاً مقدساً ويرفع قبعتـه عن رأسه ويلقي زناره على كتفيه ، ويسجد تسع مرات مولياً وجهه شطر الجنوب .

ومن الجائز ايضاً ان يكون « السولد » قد استخدم كذلك نطاقاً لارواح الاجـــداد اذ ان المغول قد قدموا لها فيه لحوماً كان افراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك في مأدبة طقسية . واعتبر جنكيز خان بعد وفاته كعفريت حـــام ، فاديت له عبادة خاصة كادت تمثله باله حقيقي . ولكن الطقس الذي احتفلوا به اكراماً للجدود كان اهم الطقوس اطلاقاً ؛ وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة .

كان لسجود « الكوميز » وسكب الخمر الطقسي صداهما حتى في العيـــد الكبير الذي امر كوبيلاي باحيائه في بكين في الثامن والعشرين من آب ؛ فقد سكب فيه على الارض ، لاخصابها ، حليب الافراس الامبراطورية : قربان جماعي يقـــدم ، كما ذكر ماركو بولو ، للارض والسماء والارواح ، ومن شأنه ان يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار .

فنحن اذن امام ديانة بدائية احيطت بعادات خرافية ، كالتامل في راسل خروف محموس بغية معرفة الحظ ؛ وباللعنات : فاذا ما قذفوا بالحجارة الى الماء ، استنزلوا على العدو عاصفة ثلج ومطر ؛ وبالدلالات الطبيعية المشؤومة ، كنباح الكلاب ؛ وبالايمان التي ترافقهـا الهدايا

والمآدب والرقصات الطقسية ؛ وربمـا بالوشم اخيراً : فان بعض تلميحات « التاريخ السري » تحمل على الاعتقاد بان الذئب والوعلة كانا رمزين لجدود القبيلة الجنكيز خانية بينما الصق ببعض المصنوعات ، كالمرآة ، طابع مقدس يحرم مسها او استخدامها .

ليس لهذه الديانة من كهنة سوى السحرة او الشامانيين المتسلحين بطبل شد عليه جلد ثور اسود. استخدم هؤلاء الرجال الخشنون الدهاة ، السلطة الفائقة الطبيعة ، المعترف لهم بها ، بغية لعب دور شعبي عام ، والاستئثار ـ لا سيا بين قبائل الغابات ـ بلقب الزعيم (باقي) وفرض انفسهم على ولاة الشعب . فلم يتردد جنكيز خان وخلفاؤه في اقصاء اكثرهم ازعاجاً وحتى في التخلص منهم اغتيالا . وعلى الرغم من ذلك كان وجود الشاماني ضرورياً للقيام ببعض الطقوس وتقديم بعض الذبائح وتفسير بعض الدلالات الطبيعية . وفي البلاط ، تقدم الشاماني الاعظم ، المتجلبب بالثياب البيضاء والمعتلي صهوة جواد أبيض ، على كافة اصحاب المقامات في حاشية الامبراطور ؛ وقد درج التقليد على التماس تنبؤاته قبل كل مشروع حربي .

الديانات الغريبة

لم يكن المغول ، على امانة سوادهم الاعظم للمعتقدات الشامانية القديمة ، مرتبطين باية عقيدة معينة . فبرهنوا من ثم عن تساهل متساو ، في كافة انحاء الامبراطورية ، حيال الديانات المتجانبة فيها : البوذية والطاوية والكونفوشيوسية والاسلام والمانوية واليهودية والمسيحية النسطورية او الكاثوليكية ، بالاضافة الى شتى الشيع الشاقة . فتمتعت كل كنيسة بنظام قانوني وصلاحيات قضائية عادلة ؛ لا بل حصل بعضها على اعفاءات من الضرائب لاتباعها . واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الاجانب عن ديانتهم دون ان يعني ذلك ، بالضرورة ، اعتناقهم اية ديانة ؛ واذا ما اقدم بعضهم على ذلك ، فانهم كانوا يحتفظون بخرافات غليظة ادت بكثير من الديانات الغريبة الى الفساد والانحطاط .

يبدو ان جنكيز خان قد اعار الطاوية في البداية اهتماماً خاصاً . ومرد ذلك في الارجح الى القوى الفائقة الطبيعية المعزوة الى كهانها ، والى انه نظر اليها نظرته الى شامانية فضلى . استدعى الى معسكره كاهناً مشهوراً من « هو – بي » ، يدعى « كيو تشانغ – تشوان » ، آملا الحصول منه على العقار الذي يؤمن الخلود . ذهب الكاهن العجوز في شهر آذار من السنة ١٢٢١ واضطر الى سلوك طريق طويلة تفادياً للمخاطر ، فلم يبلغ الاوردوس الامبراطوري ، وهو آنذاك في البلاد الافغانية ، الا في الخامس عشر من نوار من السنة ١٢٢٢ ، ومكث فيه قرابة السنة . الا ان رواية مرافقه ، وهي مفيدة جداً لمعرفة البلدان التي اجتازاها ، لا تخفي اخفاق المهمة الدينية ؛ فخاب امل الفاتح لأنه لم يجد فيه ذلك العجائبي القادر على ان يؤمن له الخلود ، ولكنه أصغى بلطف الى الحكم وتظاهر بالتأثر بتعاليمه واصدر أمراً ممهوراً بالخاتم الامبراطوري بإعفاء كافة رؤساء الطاوية من الضرائب ، على الرغم من انه لم يهتم اهتماماً خاصاً لفلسفة الطاو .

اما في بلاط خلفاء جنكيز خان فكانت المسيحية النسطورية اولى الديانات التي تمتعت بنفوذ

واسع. انتشرت النسطورية في آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن بفضل كنائس ايران ، ولكن التانغ حرّموها في السنة ٨٤٥ ، فتلاشت بعد ذلك في الصين . بيد انها حافظت على حيويتها في تركستان فاستعادت نشاطها التبشيري في الشرق، ولا سيما في اوساط قبائل الكرابيت والاونكوت والتانكوت المغولية . وفتح لها الاحتلال الجنكيزخاني ابواب الصين مرة اخرى ، فتمكن البطريرك النسطوري ، في السنة ١٢٧٥ ، من احداث أسقفية في بكين .

بيد ان النساطرة لم ينتظروا هذا الاعتراف الرسمي حتى يظهروا في البلاط المغولي؛ فان النسطوري تشنكاي الكرايبتي (١١٧١ — ١٢٥١) ، الذي جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل ان يبلغ ذروة قوّته ، قد احتفظ بمهامه في ولايتي اوغوداي وغويوك . ولم يفته ، كما نرجح ، بينما كان يشغل منصباً اسهم فيه اسهاماً كبيراً في تنظيم ادارة الامبراطورية ، ان يقدم كل مساعدة ممكنة لأبناء دينه، اذ ان رشيد الدين يشكو من عدائه للمسلمين الذي شاطره اياه نسطوري آخر هو كاداك ، ذو الثقافة الويغورية ايضاً ، والذي اسندت اليه مهمة تهذيب غويوك ثم أصبح رئيس وزرائه . الا ان الاثنين اعدما عندما آل الحكم الى مونكا الذي أتى بذلك عملاً سياسياً لا اضطهاداً دينياً ، اذ ان هذا الامبراطور الجديد قد اختار نسطورياً آخر ليحل محل تشنكاي . اضف الى ذلك ان مونكا ، وهو ابن اميرة كرايبتية نسطورية ومتزوج من امرأتين نسطوريتين ، قد شمل بتساهله كل الديانات لأنه رأى فيها خير اداة لتسيير دفة الحكم. ففي « اوردوسه » — كما ذكر روبردك — اشترك رجال الدين النسطوريون والمسلمون والبوذيون والطاويون ، بألبستهم الدينية الرسمية ، في اعياد البلاط وباركوا كأس الخان الاعظم ؛ الا ان النسطوريين كانوا في مقدمة هذا الموكب المقدس. وقد حدث احياناً ان رافق مونكا زوجته الى القداديس النسطورية التي كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح . وقد اشتهرت والدته ، التي اعتلى ثلاثة من أبنائها العرش الامبراطوري ، ببصيرة سياسية وسلوك لا لومة فيه . وبعد مرور ٨٤ سنة على وفاتها ، أي في السنة ١٣٣٣ ، توجهت ادارة كنيسة الصليب ، وهي احدى الكنائس النسطورية الثلاث في كان ـ تشيو من اعمال كان ـ سو، الى البلاط الامبراطوري بسؤال عن الاكرامات التي يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الامبراطورة التي كانت قد وضعت في المعبد .

في عهد كوبيلاي رغب راهبان نسطوريان شرقيان في الحج الى اورشليم . وصلا الى بلاد ما بين النهرين في السنة ١٢٧٨ ولم يتمكن أي منهما بلوغ الاماكن المقدسة ، ولكن الاونكوني مرقس (الذي توفي في السنة ١٣١٧) قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد بينما اصبح رفيقه « ربان صوما » ، الذي ينتسب الى « هو ـ بي » سفير خان فارس لدى ملوك الغرب ؛ فاستقبله « فيليب له بيل » في باريس ، ثم استقبله في « بوردو » ادوارد الاول ملك انكلترا ، واستقبله اخيراً في روما البابا الجديد نقولا الرابع (١٢٨٨) . اجل لم يتوفق الى حمل الغرب على محالفة سيده ضد المماليك ، ولكن زيارته قد اطلعت الكاثوليك الرومانيين على أهمية المسيحية المغولية التي كانت اعظم ازدهاراً في فارس منها في الصين على كل حال .

الشكل (رقم ١٤) ـ آسيا المغولية في عهد كوبيلاي

وحدث باتجاه معكوس ان عين كوبيلاي النسطوري السوري عيسى ، الذي كان قد دخل في خدمة غويوك ، مديراً لمكتب الابحاث الفلكية (١٢٦٣) . ويبدو ان هذا العالم والطبيب الذي ألمّ بلغات كثيرة قد أوحى قراراً صدر في السنة ١٢٧٩ قضى بحظر الدعاوة الاسلامية في الصين . وعُين بعد ذلك مفوضاً لشؤون العبادة المسيحية ، ثم وزيراً ، فعين كافة أبنائه ، وهم نسطوريون ايضاً ، في مناصب مرموقة .

يجب اخيراً ان نفرز مكاناً خاصاً ، في حاشية كوبيلاي النسطورية ، للأمير الاونكوني « كورغوز » الذي أطلق عليه الصينيون اسم « كورو ـ لي ـ كي ـ سو » والاوروبيون اسم « الامير جورج » . كان ، لجهة والدته ، حفيداً للامبراطور ، ولم ينقطع ، بهذه الصفة ، عن استخدام نفوذه في البلاط لخير المسيحيين ، فأسس المدارس والكنائس النسطورية . اضف الى ذلك انه كان ذا ثقافة رفيعة واقتنى مكتبة قيمة ، واستهوته المباحثات حول الكلاسيكيين الصينيين والفلسفة والتنجيم والرياضيات . انضم في السنة ١٢٩٤ ، تحت تأثير المبشر « جان دي مونتيكورفينو » ، الى الكثلكة الرومانية ، وعمد ابنه باسم يوحنا (شو ـ غنان) اكراما للراهب الايطالي . وكان لارتداده صداه البعيد لأنه ادخل الكثلكة الى قلب العائلة الجنكيزخانية .

المغول والمسيحية الرومانية

أدى تقدم المغول الصاعق منذ نصف قرن قريباً ، الى اختلاطهم بالمسيحية اللاتينية في اوروبا الوسطى وفي سوريا الفرنجية على السواء . الا ان غزوهم ، على ما رافقه من تخريب وارهاب ، قد خلق في نفوس الحكام المسيحيين وهماً ـ غذاه استمرار اسطورة الخوري يوحنا ـ بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم على الاسلام . ومن واجبنا هنا ان نأتي على ذكر هذه المحاولات التي لا فضل لها ، بالنسبة للمؤرخ ، سوى انها أتاحت الظرف لروايات عديدة دوّنها المسافرون ، ما كنا لنعلم بدونها شيئاً يذكر عن العالم المغولي . كان البابا انوشنتيوس الرابع ، منذ افتتاح مجمع « ليون » ، قد أوفد الراهب الفرنسيسكاني « جان دي بيان كاربينو » الى الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق الدين المسيحي مع شعبه . فسار الرسول عن طريق المانيا وبولونيا وامارة كييف وبلاد الكبشاك وبلغ منطقة قره كوروم حين كان مجلس الامبراطورية ملتئماً لانتخاب غويوك (١٢٤٦) . قدّمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم ـ مع ان التفاهم لم يكن امراً سهلاً بين النساطرة الذين يحميهم المغول لأنهم يؤلفون جزءاً من شعوب آسيا العليا ، وبين الرومان الغرباء عن الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها ـ فتلقى جواباً خطيا (مقدمته تركية ونصه فارسي) ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع الى من هو ، بنعمة السماء ـ الخالدة ، « الخان المحيطي لشعب المغول العظام » . بيد ان القديس لويس قد جدّد المحاولة خلال اقامته في الارض المقدسة في السنة ١٢٥٠ ؛ فأوفد الرهبان الدومينيكان الثلاثة « جان دي كاركاسون » و « اندريه دي لونجومو » وأخاه الذين ساروا عن طريق تبريز وطالاس وبلغوا المعسكر الامبراطوري في منطقة الايميل والقوبق ؛ فتقبلت ارملة غويوك هدايا ملك فرنسا ، ولكنها طالبته بخضوع صريح .

وانطلق رسول آخر ، هو الفرنسيسكاني غليوم دي روبروك ، من القسطنطينية في السنة ١٢٥٣ واجتاز بلاد الكبشاك حيث ادرك مدى اطلاع الاوساط النسطورية على شؤون الغرب ، ومرّ في « قياليغ » وهي مركز طائفة نسطورية وطائفة بوذية ، وقابل مونكا في جبال الالتاي . فصادف هناك اوربيين عدّة اختطفوا في هنغاريا واستخدموا في البلاط المغولي ـ لورينية من متز متزوجة من مهندس روسي ، وصائغ باريسي « يقيم أخوه على الجسر الكبير في باريس » متزوج مسلمة هنغارية ، وابن رجـــل انكليزي مولود في هنغاريا ايضا ـ وسمح له بالاحتفال بالخدمة الالهية ، يوم عيد الفصح ، في كنيسة قره كوروم النسطورية ، واستطاع ، امام ثلاثة محكّمين عيّنهم الخان ، الاشتراك في مجادلة دينية علنية وقف فيها ، على صعيد الايمان بإله واحد ، الى جانب الفقهاء المسلمين ضد الفلاسفة البوذيين . ولكنه على غرار سابقيه ، لم يحرز أي نجاح على الصعيد السياسي . « هذه هي وصية السماء ـ الأزلية : لا اله الا اله واحد في السماء ، ولا ملك الا ملك واحد على الارض هو جنكيز خان بن الله » . فطولب ملك فرنسا من ثم بتقديم خضوعه للخان الاعظم . وقابل روبروك ، في طريق العودة ، ملك ارمينيا (كيليكيا) هيثوم الاول الذي كان أكثر واقعية ولم يتردد في الاعتراف بسيادة الخان الاعظم ، فحصل منه بعد ذلك على صك حماية « يحرّر الكنائس في كل مكان » ، ويعد بمساعدة عسكرية .

تبدلت الامور بعض الشيء في أيام كوبيلاي بعد ان بلغ بعض التجار الايطاليين، من جهة ، أسواق الشرق الاقصى ، وبعد ان اطلعت بعثة « رابان صوما » الفرنسيين ، من جهة ثانية ، على أهمية الطوائف المسيحية الآسيوية . وليس ، بين المسافرين الايطاليين ، أشهر من الأخوين البندقيين نيكولو ومافيو بولو اللذين حظيا ، أثناء اقامتهما الأولى في بكين (١٢٦٦) ، بمقابلة كوبيلاي الذي كلفهما رجاء البابا بأن ينتدب الى الصين مائة مثقف « متعمقين في الفنون السبعة » . وعندما عادا في السنة ١٢٧١ ، دون التمكن من تلبية طلب الخان ، اصطحبا ابن نيكولو ، ماركو بولو ، الذي تسمح لنا روايتـــه المشهورة بتتبع مغامراتهم . مرّوا بفارس وخراسان وقشغاريا ولوب نور ، وبلغوا الصين الغربية ؛ ثم اجتازوا بلاد الاونكوت التي أوهمهم معتقدها النسطوري بأنهـــا مملكة الخوري يوحنا ، وانتهوا في شهر نوار من السنة ١٢٧٥ الى « شانغ ـ تو » مقر كوبيلاي الصيفي . عين ماركو بولو في الادارة الامبراطورية ـ في مكاتب جباية الضريبة على الملح ، في الارجح ـ وأسندت اليه عدّة اعمال هامة ، فمكث في الصين أكثر من ١٥ سنة : ويغلب انه رافق بعض البعثات المغولية الى شمبا وسيلان . وغادر الصين بحراً في السنة ١٢٩١ عندما طلب اليه كوبيلاي مواكبة اميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه ، خان فارس . ولم يعد بعد ذلك الى الشرق مع انه كان قد حمل رسائل موجهة الى البابا وملوك فرنسا وقشتالة وانكلترا . ولكن مغامرته ليست فريدة من نوعها ؛ فان ايطاليين آخرين قد أقاموا في الصين وجمعوا ثروات طائلة وأسندت اليهم مهام رسمية ، كـ « أندالو دي سافينيانو » الجنوي الذي عاد الى اوروبا في السنة ١٣٣٨ بصفة سفير لخان الصين .

في هذه الاثناء ، كان المبشرون الكاثوليك الأولون قد توجهوا الى الشرق الاقصى بايعاز من البابا نقولا الرابع . وحمل الراهب الفرنسيسكاني « جان دي مونتيكورفينو » رسائل بابوية الى خان فارس وكوبيلاي ، فأقام بعض الوقت في تبريز ، وذهب الى الهند مستهدياً تاجراً ايطالياً، ثم الى الصين حيث قابل حفيد الخان الاعظم وخليفته ، تيمور ، ومرّ بأنه حمله على «تقبيل الصليب بكل تقوى» . ولا ريب في ان اعتناق الامير جورج للايمان الروماني وتشييد كنيستين في بكين قد خلقا تياراً تنصّرياً : « أكثر من عشرة آلاف تتري » ، وهو عدد مبالغ فيه في الارجح ؛ ولكن النتائج كانت مرضية حقاً اذ ان البابا اكليمنضوس الخامس قد رقّى « مونتيكورفينو »، في السنة ١٣٠٧ ، الى درجة رئيس أساقفة ، ثم ارسل اليه اساقفة آخرين ، قبل احداث الاسقفيات في القرم و « تسيوان ـ تشيو » . وتؤيد وجود هذه الجمعيات التبشيرية رواية « اودوريك دي بوردينون » ؛ فبين السنة ١٣١٤ والسنة ١٣٣٠ زار هذا الراهب الفرنسيسكاني بلاد فارس التي تعرّف الى كنائسها النسطورية ، والهند حيث أفضى التعصب الاسلامي ، قبيل زيارته، الى تقتيل اربعة اشقاء قصّر، وحيث ما زال للكنيسة النسطورية مؤمنوها في « القديس توما » (ميليابورا) وسيلان رجاوا وشمبا ، والصين اخيراً عن طريق كانتون ؛ وكان هنالك جمعيات فرنسيسكانية في تسيوان ـ تشيو ، وهانغ ـ تشيو ، وبكين حيث مكث ثلاث سنوات. وقد استفاد رئيس الاساقفة مونتيكورفينو الذي خصّ ، كغيره من المبشرين ، بمرتبات رسمية ، من « حماية بعض ذوي المقامات الرفيعة الممتدين » ؛ وكان يتوجه الى الخان الاعظم بموكب احتفالي ويبخره ويقدم له الصليب كي يقبّله .

بعد وفاة مونتيكورفينو ، شغر مركزه زمناً طويلاً ؛ ثم عين بندكتوس الثاني عشر خلفاً له لم يقم في بكين سوى خمس سنوات ؛ وحين عينت البابوية ، في السنة ١٣٧٠ ، رئيس أساقفة جديداً، كانت الصين قد آلت الى سلطة المنغ الذين حرّموا ممارسة الدين المسيحي في امبراطوريتهم بسبب ارتباطه الوثيق بالسيطرة المغولية . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم تكن الارساليات الكاثوليكية ، حتى بدون ردة الفعل القومية هذه ، صائرة الى فشل محتم . فهل يجب ان نعير أهمية كبرى لارتداد جمهور من الألين المسيحيين التابعين للطقس البيزنطي المنخرطين في الحرس الامبراطوري الذين جاء مندوبوهم يقدمون خضوعهم للسلطة الرومانية في السنة ١٣٣٨ ؟ ان الاباطرة المغول أنفسهم ، على الرغم من تساهلهم نحو كافة العبادات ، قد برهنوا ، منذ قبل كوبيلاي ، عن تفضيل ظاهر للديانات الآسيوية . فقد سبق لمونكا ان استدعى الى بلاطه طاوياً ولاما تجردا فيه للمجادلات اللاهوتية ؛ وقد انعقد في قره كوروم في السنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بمجمع بوذي اصدر حكماً صريحاً على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرّف تاريخ الاصول البوذية . فرجحت منذ ذاك التاريخ كفة البوذية . واذا أبقي على « مكاتب » العبادات المختلفة التي كانت وسائل مفيدة للحكم ، واذا تأيد تكراراً الاعفاء من الضرائب الذي استفاد منه كافة « الرهبان » ، نساطرة او طاويين ، مسلمين او بوذيين ، فان ذلك لم يمنع كوبيلاي من اتخاذ تدابير تمييزية تناولت المسلمين — كالمرسوم الذي صدر في السنة ١٢٧٩ حول تنظيم ذبح المواشي

المدة القصابة بشكل يتنافى والطقوس الاسلامية – ولا سيما الطاويين : اذ قد صدرت الأوامر تكراراً بملاشاة مؤلفاتهم التي تسخ الاصول البوذية . ولعل الخان ، كما يؤكد ماركو بولو ، قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيلان مستقبلاً اياها بأبهة عظيمة ؛ ومن الثابت انه استدعى الى بلاطه لاما تيبتياً ، مستهدفاً ، من وراء ذلك ، هدي المغول وضمان وفاء التيبت على السواء .

إزدادت هذه النزعات شدة في عهد خلفاء كوبيلاي الذين كانوا كلهم بوذيين نشاطاً، باستثناء الأمير أناندا الذي اعتنق الاسلام ثم اغتيل قبل ان يجلس على العرش . عرفت الصين من ثم غزوة حقيقية من الرهبان التيبتيين حاول الامبراطور يسون (١٣٢٣ – ١٣٢٨) في فترة من الزمن اخضاعها لقانون ، بينما كان بعض المثقفين الكونفوشيوسيين قد حصلوا من أسلافه على بعض الاصلاحات الوجلة التي لم تحدّ من تجاوزات الكهان البوذيين . فاستمدت القومية الصينية من عدائه للبوذية غذاء جديداً لمقاومة سلالة اليُوان .

تصدع آسيا وانحطاطها في أواخر القرون الوسطى

ان المغامرة المغولية المدهشة، بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية عظيمة ، قد حوت في نفسها جراثيم انحلالها . فما ان انتهى الفتح حتى مست الحاجة الى تنظيم وادارة . ولكن التفاوت كان عظيماً جداً بين البربرية المغولية وتفخل الشعوب المتحضرة التي شملتها وطمعت في حكمها . وقد برهن النظام الاقطاعي للمجتمع الجديد عن إنه مجرّد مسكّن وقتي لكبح هذه البربرية وتدارك فوضى المغول العميقة التي غدت الآن خطراً سياسياً ؛ ومرد ذلك الى انها قد خلقت، بدورها ، في قلب الشعب المغولي ، هوة بين الأسياد والكبار المتشبعين عظمة وبذخاً ، وبين المحاربين البدو الذين ما زال بؤس البورات مخيماً عليهم . وكان من شأن سجس هؤلاء ، اذا تعذر اخضاعهم للنظام ، ان يهدد بالخطر وحدة الامبراطورية وازدهارها ؛ وكان من شأن تحضر أولئك ، من جهة ثانية ، ان يفقد العنصر المغولي الضائع في بحر الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها . اجل لقد احتفظ بمركز ممتاز لمسقط رأس الجدود ، منغوليا ؛ وأبقي على التقاليد والعادات والطقوس المغولية ؛ ولكن المغول ، في الأمور الجوهرية ، قد ذابوا في حضارة البلدان المتحضرة المتفخلة ؛ وقد زاد في ذوبانهم ان الادارة ، التي تعذر تنظيمها وفاقاً لطريقة البورات السريعة في تصريف الأمور ، قد اسندت بالضرورة الى موظفين بلديين . ولذلك فان كوبيلاي وحفيده تيمور (١٢٩٤ – ١٣٠٧) ، وهما الممثلان الحازمان الاخيران للسلالة الجنكيزخانية، كانا امبراطورين صينيين أكثر منهما خانين مغوليين. فما لبث سجس مغول منغوليا، المحرومين من مكاسب السلطة، ان عاد الى الظهور : فقد أسس «قايدو» في آسيا العليا، خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية. واذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل البورات اعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته، فانه قد شكّل حاجزاً بين الصين التي انحصرت فيها ، في الواقع ، سلطة الخان الاعظم ، وبين فارس التي ما زال حفدة هولاكو جالسين على عرشها . فكان هذا التكتل من ثم عاملاً أساسياً من عوامل التقسيم اللاحق .

سندرس في فصل آخر تأثر خانية فارس السريع بالحضارة الايرانية وسنبين كيف ان نفوذ العناصر التركية المتعاظم في المناطق الغربية من الامبراطورية الجنكيزخانية، قد لاشى ، خلال أجيال معدودة ، كل ما يميز الاسم المغولي ، ان لم يلاش هذا الاسم نفسه كلياً . ويكفينا هنا ان نذكّر بأسرع انهيار مفاجىء للسيطرة المغولية في الصين الذي سهّله ، في آن واحد ، ضعف الاباطرة الاخيرين ـ وقد كانوا منحطين يتحكم بهم أحباؤهم المفضلون او بعض المتطرفين في التقوى ـ ويقظة القومية الصينية .

ولدت هذه الحركة الاخيرة في أوساط جمعيات سرية سهّل نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانيين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء . وكانت هذه الجمعيات قد انضمت في البدء الى النظام المغولي لأنها قد ذاقت الأمرّين في السابق من اضطهاد السونغ . استمدت شيعة النيلوفر الابيض ، وهي احدى اعظم هذه الجمعيات نشاطاً ، نفوذها القوي من ايمانها بمسيح بوذي ، ميتريا ، بشرت بمجيئه القريب . فانطلقت الحركة الثورية من منطقة كانتون في السنة ١٣٥٢ ، وتعاظمت قوتها بفعل الفوضى المتفاقمة ، وتجاوزت « اللامات » المسيطرين على البلاط ، والاضطراب المالي اخيراً الذي سببه التضخم المستمر في الورق النقدي، فما لبثت ان عمت كافة أنحاء الصين الجنوبية . الا ان الاضطراب قد سيطر عليها في البداية ، اذ ان العصاة المسلمين قد أتوا اعمالاً تخريبية فظيعة . ولكن احد رؤساء الفرق المسلحة ، الكاهن السابق « تشو يوان ـ تشانغ » ، وهو مغامر في الخامسة والعشرين ، ما لبث ان تميز ببعد نظره السياسي وبالنظام الشديد الذي فرضه على جنوده ، محظراً عليهم كل سلب ونهب ، واستلم قيادة حركة التحرير . وبعد ان بات سيد الصين الجنوبية كلها ، استولى على بكين بسهولة في السنة ١٣٦٨وقتّل، دونما شفقة، كافة المغول الذين لم يتبعوا امبراطورهم الاخير في فراره نحو البورات.

انه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طالما اخضعها الفاتحون الشماليون . فالثورة القومية قد حررت ، في الدرجة الاولى ، الصين الجنوبية من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن ؛ ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ ٤٠٠ سنة ملوك وارستوقراطيات عسكرية من اصل اجنبي . كان عمل تشو يوان ـ تشانغ ، الذي أسس سلالة المنغ ، باسم « هونغ ـ وو » الامبراطوري ، حركة قومية في الدرجة الاولى ، استمدت قوتها الرئيسية من العودة الى التقاليد الصينية الصميمة . وقد أدعى هذا المؤسس نفسه ، بفعل غريزة استمرار غريبة ، الانتساب الى عائلة التانغ ، آخر سلالة قومية سيطرت على الصين بكليتها مع ان سقوطها يعود الى ٤٠٠ سنة . وسيستهدف كل عمله ، خلال ملك دام ثلاثين سنة ـ اذ انه لن يموت قبل السنة ١٣٩٨ ـ طمس خلة السيطرة المغولية وربط الصين الجديدة بأبعد ماض قومي ، وذلك باعداد حضارة تراعي ، في جوهرها ، التقاليد الصينية : وقد ارسخ كل هذا على سلطة امبراطورية مطلقة توطدت تدريجياً ، واعادة منصب المندرين والالقاب الشرفية ، والاحتفال بالعبادة الكونفوشيوسية ، واحياء مجامع المثقفين العلمية . ولكن هونغ ـ وو الذي ما زال يذكر انه

عاش في احد الاديرة حياة كاهن صيني، لم يستجب كل الاستجابة ، في الحقل الديني فقط ، لرغبة الكونفوشيوسيين ، واستمر في حماية البوذية . اما في الحقول الاخرى ، فقد عبقت الصين بروح قومية وتخثرت في تقاليد ستعرف الديمومة حتى سقوط المنغ في القرن السابع عشر .

نترك اذن حضارات الشرق الاقصى ساعة جعلها تقسيم الامبراطورية المغولية تنكمش على نفسها وقطع كل علاقة بينها وبين الغرب . فلن يجدّد الاوروبيون هذه العلائق الا بعد مرور اجيال عديدة ، أي في اوائل القرن السادس عشر ، بتاريخ اسفار البحارة البرتغاليين . اجل لم يبق من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شنّعتها الصين الجديدة ، ولكن متاحفنا تجملت بما بقي من رسوم مدهشة لفرسان وحيوانات جمعت بين الاناقة الصينية والواقعية المغولية . اما في آسيا الغربية فكان مقدرا لذكريات الملحمة الجنكيزخانية ان تعرف ديمومة اطول عهداً وتحاط بهالة من المجد . فطيلة قرون سيطلق اسم التتار على جماعات مختلفة الاجناس ، اعتنقت كلها الاسلام ، وعاشت حياة البدو الرحل في السهول الروسية . وعندما سيقرر التركاني تيمورلنك ، بعيد تولي المنغ السلطة في الصين ، ان يقذف بمواطنيه من وراء النهر لمهاجمة كافة انحاء الشرق الادنى ، ستراه يختبىء وراء الاسم المغولي ويزعم انه انما يكمل او يجدد عمل جنكيزخان وجاغاتاي : ولكنه انتساب خادع ، اذ ان النفوذ التركي قد حل منذ زمن طويل محل السيطرة المغولية في البلدان الممتدة من قشغاريا حتى مصاب الدانوب .

الفصل الرابع

تفتّح أوروبا الاقطاعية
(حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)

يتوافق المؤرخون على اعتبار الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر حتى السنة ١٣٢٠ تقريبا بمثابة العهد الكلاسيكي للقرون الوسطى الغربية ، والفترة التي بلغت فيها حضارة القرون الوسطى ذروتها وحققت توازنها . لا ريب في ان الانطلاقة الصاخبة التي اتاحت مزيداً من التقدم منذ السنة ١٠٠٠ قد هدأت آنذاك وانتظمت : فان اطراد السهولة في اقامة العلائق ، واختصار المسافات ، وقيام المفارق الفكرية الكبرى - كجامعة باريس مثلا - حيث يلتقي رجال قادمون من كل البلدان المسيحية ، قد مهدت الطريق لزوال الفوارق الاقليمية وتلاشي العقليات المتباينة وانسجام الاكتشافات المتنافرة والتوق الى الوحدة . ان هذا العهد هو عهد التآليف الكبرى ، عهد « المرايا » ، اي دوائر المعارف التي احصيت فيها المعارف الشاملة ونسقت تنسيقا منظما ؛ وعهد « المجموعات » حيث يجمع اللاهوتيون ويقارنون كافة الآراء العقائدية ويصرفون ذهنهم وفطنتهم في التوفيق بين البرهنة والوحي ؛ وعهد البحث عن الوحدة والتوازن اللذين تعبر عنهما ، عند مدخل الكاتدرائيات ، صور المسيح التي تجمع جمعاً يثير الاعجاب بين قسمات الاله وقسمات الانسان والتي هي اجمل تمثيل تصويري لسر التجسد المسيحي .

بيد ان هذه الوحدة وهذا التوازن لقصيان . فتحت الانسجام الظاهر اخذت القيم تنقلب انقلابا كلياً عميقاً . فقد اخذت تزداد ، ويوما بعد يوم ، اهمية النقد والتجارة في عالم كان مايزال شبه ريفي ، فتخلخلت قواعد النظام الاجتماعي ؛ كما ان رسوخ قدم الملكيات ، التي اخذت تتجابه ، ونشوء الروح العلمانية ونموها السريع ، قد هدد تلاحم المسيحية بالخطر ؛ فبدت من ثم في الافق دلائل الازمات الاقتصادية ، والخلافات السياسية ، وقلق الضمائر ، التي ستبرز بكل واقعها في القرون الاخيرة من القرون الوسطى .

١ ــ الاقتصاد الاوروبي

استقرار الاقتصاد الزراعي

بعد السنة ١١٥٠ اخذت حركة الاستثمار الداخلي تسير ببطء في دول الغرب القديمة . اجل ما زلنا في القرن الثالث عشر نشاهد امتداد الاراضي الخصيبة في منطقة لنكولن وقيام قرى جديدة في حوض الفارون ؛ ولكن المساحة الزراعية ، بصورة عامة ، لم تتوسع قط . فقد امتد الاصلاح الى اقصى حدود الاراضي الصالحة للاستثمار وذلك نتيجة لتقنية زراعية لم تتحسن تحسنا محسوساً منذ التجديدات التي ادخلت عليها في القرن الحادي عشر ؛ وقد كان يحدث احيانا ان بعض الحقول ، التي جوزف باستثمارها تحت تأثير الشعور بالرضى الذي يحدثه كسب مساحات جديدة من الاراضي الجدبة ، قد يتكشف إمحالها ، فاهملت بعد عدة مواسم مخيبة . وغالبا ما ضاقت مساحات الغابات الضرورية لتوازن الاقتصاد الريفي ، فاصطدم جامعو الاخشاب بمقاومة الإسياد والجمعيات القروية ، دفاعاً عن حقوقهم في الكلأ والاحتطاب . ونتيجة لاطراد نشاط الفلاحين ، بات نمو تربية المواشي ، لتموين المدن باللحوم وصناعات الاجواخ بالاصواف ، يتعارض وتوسع اعمال الحراثة : اذ ان ملاكي الاراضي البائرة ، الذين كانوا يحاولون استمالة واجتذاب الفلاحين لزيادة مداخيلهم ، في الماضي ، اصبحوا يرفضونهم لانهم باتوا يجنون مزيداً من الارباح من هذه الاراضي بتخصيصها مراعي للاغنام والابقار ؛ وفي ولايات كثيرة ــ خصوصاً في انكلترا حيث سمحت انظمة مورتون وانظمة ونشستر للاسياد ، في القرن الثالث عشر ، بضم الغابات الى المراعي العمومية ــ امست الزراعة محصورة في مساحات معينة بفعل توسع المراعي . ولما كان عدد السكان ما زال يرتفع باطراد ، على الرغم من توقف اصلاح الاراضي البائرة ، فقد حدث في اوائل القرن الرابع عشر ان اكتظت الارياف بالبشر وكادت الاراضي الزراعية لا تكفي لتغذية عائلات الفلاحين ؛ ولنذكر هنا مثل احدى الاقطاعات ، الى الشمال من حوض لندن ، حيث ارتفع عدد الشركاء الزراعيين بنسبة الثلث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دون ان تتبدل مساحة الاراضي الزراعية ، فكانت النتيجة ، بعد هذا الارتفاع ، ان ثلاثة ارباع العائلات لم تتمكن من تأمين اودها في الاراضي الضيقة التي استلمتها . وهكذا فقد ضعفت ، قبل ان تنقلب كلياً ، النزعة المؤاتية الكبرى التي بعثت في آن واحد ، منذ ٣٠٠ سنة ، انطلاقة الاقتصاد الريفي وتقدم الاسكان ، واعطت امتن اساس لتفتح الحضارة الرومانية . وما توازن منتصف القرن الثالث عشر ، الجزئي ، سوى نتيجة الركود الذي سيطر على انتاج معظم المواد الغذائية

ومع ذلك ، فعلى الرغم من ظهور اولى دلائل التقهقر في النشاط الزراعي في بلدان اوروبا الغربية ، توالى التقدم الاقتصادي في حقول ونطاقات اخرى . فقد برز اولا ، في مناطق الحدود الشمالية والشرقية للعالم المسيحي ، باعداد الحقول الزراعية وتأسيس القرى : ففي سكندينافيا تضاعف عدد المراكز القديمة المأهولة ، آنذاك ، بمراكز سكنية اخرى عرفت باسم (تورب) ؛

وحصل في السهول الشرقية الكبرى ، بنوع خاص ، حدث ذو اهمية رئيسية في تاريخ الغرب ، اعني به انتشار المزارعين الالمان .

الاستعمار الالماني في الشرق

حوالي السنة ١١٥٠ ، ما كان الجرمانيون ، الذين توسعوا بسرعة في المستنقعات المقفرة القائمة على شواطىء بحر الشمال وراء نهر الفيزير ، ليتخطوا ، شرقاً ، المنحدر الشرقي لغابات تورنج ، الا في حالات نادرة ، مما يثبت تراجعهم المحسوس تحت ضغط السلافيين منذ العهد الكارولنجي . اما هؤلاء ، فهم وان اقبلوا تدريجيا على التنصر وخضعوا شيئاً فشيئا لنظام الامارات ، قد استقروا في مستوى حضارة مادية غاية في التدني . فالفلاحون منهم ، الذين يعيشون جماعات في قرى صغيرة ومتنقلة ، قد خضعوا خضوعاً تاماً لطبقة الاشراف والكنيسة اللتين استغلتاهما بقساوة ؛ وقد تعاطوا بصورة خاصة تربية المواشي وزراعة الحبوب الثانوية والذرة البيضاء ، معتمدين ادوات بدائية جداً ، في اراض صالحة للزراعة ؛ لذلك خلت بلادهم من المدن وبار الشطر الاكبر منها .

الا ان الالمان ، الذين اهتموا في الدرجة الاولى لمقاومة غزواتهم ، توصلوا ، بفضل ارتفاع عددهم وتحسن اسلحتهم ، الى بسط سيطرتهم عليهم . وبينما كان بعض الرهبان الجرمانيين ، من سيسترسيين وبريمونتريه ، عاكفين ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، على تأسيس اديرة كثيرة بين نهري الالب والفستول ، ادخل الامراء المستقرون عند حدود الامبراطورية ، في طاعتهم ، الزعماء السلافيين المسيحيين في « شوارين » ومكلمبورغ وبوميرانيا وسيليزيا واقدموا على فتح اراض مازالت وثنية . وسار دوق ساكس ، « هنري الاسد » ، وافنى القبائل الفندية في «نوردالبنجيا» ؛ كما ان انسال « البير الدب » ، فاتح « براندنبورغ » ، وسعوا دولتهم على طول نهر السبريه بين الامارات السلافية المسيحية واجتازوا نهر الاودر في السنة ١٢٥٣ ، وضموا بوميرانيا في السنة ١٢٦٩ . وانجز في القرن الثالث عشر عمل على جانب من الاهمية ، في مناطق نائية ، بغية فرض الايمان بالمسيح على الشعوب البلطيقية : الروس والفنلنديون والليتوانيون ، الذين كانوا آخر مجموعة وثنية هامة في اوروبا . وقد نهضت بهذا العمل جمعيات دينية وعسكرية من المتطوعين الجرمانيين : مثل جمعية الفرسان المعروفين باسم « حاملي السيوف » ، وقد أسست خصيصاً لنشر تعاليم الانجيل في « كورلاند » ؛ وجمعية الفرسان التوتونيين الذين نقلوا من فلسطين الى الجبهة التبشيرية في المانيا الشرقية . وقد استدعى هؤلاء دوق مازوفيا البولوني ، فتولوا فتح بروسيا فتحاً منظماً انطلاقاً من الفستول الادنى ؛ فجمعوا في حملات صليبية سنوية امراء وفرسان جرمانيا وبوهيميا وبولونيا ونظموا الاراضي المحتلة تدريجياً وأسسوا بين السنة ١٢٣٠ ومنتصف القرن الرابع عشر دولة رهبانية وعسكرية كبرى .

رافق هذا العمل السياسي استعمار زراعي واسع . فقد أقدم السيسترسيون والنوربرتيون ، رغبة منهم في توفير النجدة لرهبانهم المساعدين واستثمار ممتلكاتهم استثماراً افضل ، والفاتحون

الجرمانيون ، لأجل احكام السيطرة على البلاد المحتلة ولجني أعظم مكسب منها ، والامراء السلافيون الحميون ، لأجل تأمين رعايا اشد اخلاصاً من رعاياهم البلديين ، والتوتونيون اخيراً ، لاجل اعادة اعمار بروسيا بعد ثورة السنة ١٢٤٠ وعملية الافناء التي استهدفت البلديين بسببها ، على الاستعانة باليد العاملة الالمانية . وكان جمع المهاجرين ونقلهم الى مسافات بعيدة عملا شاقاً يستلزم اموالاً طائلة وجهازاً دعائياً ، فأسنده الأسياد الى ملتزمين ، عرفوا بـ « المستأجرين » ، من الفرسان ولا سيا البورجوازيين الذين حصلوا ، لقاء اتعابهم ، على مركز ممتاز في القرى الجديدة التي أسهموا في اعمارها ، وتقاضوا جزءاً من المداخيل السيدية. فاستمالت شروط المشاركة الزراعية (ضرائب خفيفة) فلاحي هولندا وويناليا وتورنج فجاؤوا من ثم ونزلوا بأعداد كبيرة في المنطقة الواقعة بين الالب وبحر البلطيك والاودر والجبال المعدنية ؛ ونزل آخرون ابعد الى الشرق في بروسيا وبولونيا الصغرى وحتى في الاراضي المجاورة للبرغ ؛ ونزل غيرهم اخيراً في بعض البقاع المنعزلة من السهول الهنغارية وترانسيلفانيا . فكانت نتيجة هذه الهجرة الكبرى تزايداً سريعاً في عدد السكان : تأسست في سيليزيا وحدها أكثر من ١٢٠٠ قرية جديدة بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٣٥٠ . وكانت نتيجتها كذلك تبدلاً كلياً في منظر الارياف . ومرد ذلك الى ان المزارعين الالمان قد أدخلوا الى البلاد السلافية تقنيات زراعية أكمل اتقاناً الى حد بعيد : أدوات فضلى، والمطحنة المائية، والآلات ـ المحراث الكبير ذو الباسنة الحديدية وفأس الحطابين الثقيلة ـ التي أتاحت استثمار الاراضي التاربة والغابات الظليلة ؛ وزراعة الكرمة ، وزراعة الحنطة التي حلت محل الذرة البيضاء ؛ واراحة الارض سنة كل ثلاث سنوات ؛ والتخصص الزراعي الذي لم يترك للنشاط الراعوي سوى مركز ثانوي . وقامت في المساحات الكبرى المقفرة ، التي باعدت في ما مضى بين المراكز السكنية السلافية ، قرى كبيرة ذات نظام جماعي تأسست في وسط مقاطعة مقسمة الى اراض تزرع اصنافاً مختلفة متعاقبة .

لم يكن الاستعمار الالماني عسكرياً ورهبانياً وزراعياً فحسب . فقد جاء اختصاصيون آخرون ايضاً : معدّنون فحصوا الاراضي في كافة بلدان اوروبا الوسطى واستثمروا عروقها المعدنية ، واهل تجارة خصوصاً ـ ولذلك تميز الوجود الالماني بظهور بعض المدن في مناطق لم تعرف المدن قط . فان المستعمرات الزراعية الجديدة ، التي قامت في اراض بكر خصيبة جداً، واستندت الى انتاج الحبوب الثمينة السهلة التصريف ، واستثمرت على أيدي شركاء زراعيين فرضت عليهم أتاوات نقدية في الدرجة الاولى وأرغموا من ثم على العمل في سبيل البيع ، قد تهيأت بصورة طبيعية للاقتصاد التجاري . وقد توفقت قرى جديدة كثيرة، منذ تأسيسها ، الى احداث سوق ذات امتياز، وكانت كلها وثيقة الارتباط بمدينة قام دورها، بالضبط، بتأمين اتصال هذه القرى بالتيارات التجارية الكبرى . فانتثرت من ثم في مهاجر الفلاحين الالمان قرى كبيرة تكاد تكون محض جرمانية . بيد ان الاستعمار المدني قد تخطى هذه المنطقة تخطياً بعيداً : فقد قامت سلسلة من المدن التجارية على شواطىء البلطيك الجنوبية والشرقية ابتداء من لوبك (١١٤٣) حتى ريغا (١٢٠١) وريفال (١٢٧٠) ، كما أعمر التجار الالمان ، في القرن الثالث

عشر أكثر الأحياء نشاطاً في المدن الجديدة التي قامت في بولونيا والدول الدانوبية وسكنديناقيا، ابتداء من « برغن » حتى ستوكهولم .

ان هذه الهجرة الجرمانية الكبرى ادخلت نظم الحضارة الغربية المثلى الى بلدان لا تزال بربرية ، وحتى حدود البورات الخاضعة آنذاك لسيطرة المغول ، وأعطت البلدان السلافية مقوماتها . فعوض هذا التوسع الجانبي ، باعداد اراض جديدة لزراعة الحنطة التي اتيح تصدير معظم مواسمها ، وبتنمية الصيد في بحر البلطيك الغني بأنواع الرنك ، وبتشجيع كافة انواع المقايضات ، عن الركود الزراعي التدريجي في البلدان الغربية، كما اسهم في انطلاقة التجارة الاوروبية الكبرى .

اجواخ « فلاندر » والتجارة الداخلية المشتركة

ان النشاط التجاري الوثيق الارتباط بتقدم الصناعة وحركة تداول النقود قد تزايد باطراد في كافة انحاء اوروبا حتى اواخر القرن الثالث عشر . وانتظمت نهائياً حركة اقتصادية دائرية : مركزان رئيسيان هما شواطىء بحر الشمال وشبه الجزيرة الايطالية – وقد اشتهرا منذ اوائل القرون الوسطى ، بسبب موقعها ، بنشاط التجارة – ومركز منظم هو اسواق شمبانيا الدورية .

كان المرتكز الرئيسي للازدهار المطرد في المركز الشمالي التقدم المستمر في صناعة الاجواخ . وكان هذا التقدم نفسه وثيق الارتباط بذيوع الميل ، في طبقات المجتمع العليا ، للمنسوجات الصوفية التي تفوق انتاج الانوال المنزلية اتقاناً وتنوعاً والواناً ؛ ووثيق الارتباط من ثم بتقدم الحياة الاجتماعية . وانتشرت اهم مراكز حياكة الاقمشة وصباغتها ، في القرن الثاني عشر ، غربي الواز والاسكو : سانت اومير وأرّاس وليل ودواي واميان وبوفيه وكمبريه وتورنيه . ولكن اكثر المصانع نشاطاً تجمعت شيئاً فشيئاً في الفلاندر التي حاول كونتيتها بشتى الوسائل ، منذ القرن التاسع ، بعث حياتها الاقتصادية . فأقيم معظمها في دواي اولاً ، ثم في ايبر وغنت اللتين انتهى نشاطها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، الى السيطرة سيطرة تامة على سوق الجوخ . لم تكن الصناعة ، في هذه المدن الصناعية الكبرى – وهي الاولى من نوعها التي عرفها الغرب والتي جاوز سكانها ، للمرة الاولى في ذاك العهد ، ٣٠٠٠٠ نسمة – متمركزة في مصانع كبرى ، بل موزعة على عدد كبير من المشاغل الصغرى المتخصص كل منها بمرحلة معينة من مراحل العمل ، والمشرف على ادارتها رب عمل هو ، بحسب المشاغل ، حائك او مقصّر ، حلاج او صباغ ، ينظم العمل كما يطيب له بمساعدة بعض الرفاق . الا ان الانتاج ، المعد جله للتصدير البعيد، خضع بكليته لرقابة تجار مهرة ، اصحاب اموال طائلة ، وقادرين وحدهم على ابتياع الخامات في الاسواق النائية ، وتأمين تصريف المصنوعات . وكان هؤلاء التجار ، الذين غالباً ما اجّروا ادواتهم للصناعيين اليدويين ودفعوا لهم اتعابهم على اساس الوحدة المصنوعة ، يمارسون رقابة اقتصادية تامة على ارباب الحرف الصغرى الذين استغلوا بدورهم الرفاق ، وهم

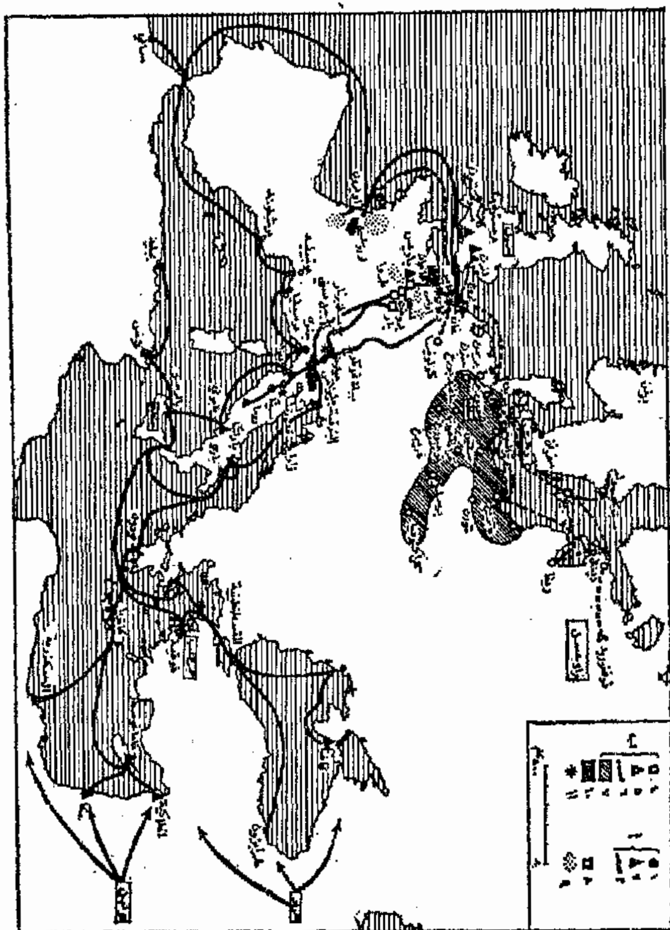

الشكل (رقم ١٥) ـ الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الثالث عشر

أ ـ الايطاليون : ١ ـ المراكز الاقتصادية الرئيسية . ٢ ـ الاسواق الرئيسية . ٣ ـ الطرق التجارية الرئيسية .

ب ـ الهانسيون : ٤ ـ مدن الهانس الرئيسية . ٥ ـ الاسواق الرئيسية . ٦ ـ الطرق التجارية الرئيسية. ٧ ـ منطقة الاستعمار الزراعي الجرماني . ٨ ـ الاسواق الدورية الشمبانية . ٩ ـ أهم مناطق تصدير النبيذ . ١٠ ـ أهم مناطق تصدر العظم . ١١ ـ أهم مراكز صناعة الاجواخ .

عمال متضورون جوعاً يستخدمون اسبوعياً ولا ينعمون بأية حماية . فنجم عن مثل هذا الوضع ، منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر ، قلق اجتماعي عبّرت عنه الاراجيف

والاضرابات عن العمل . وقد حدثت اولى الاضرابات ، بمفهومها الحاضر ، في السنة ١٢٥٠ . فاوجد هذا الصراع الخفي اخيراً بين اليد العاملة وكبار الملتزمين ، وقد استمر بفعل الخلافات السياسية والرسوم على المواد الغذائية التي فرضها شيوخ البلد النبلاء حتى لا يلزموا برفع الاجور ، في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ازمة انتاج ، انحصرت في المدن الفلنكية على كل حال ، وعوّض عنها نمو صناعة الاجواخ في « برابان » « وهينو » وبيكارديا وشمبانيا .

كان انتاج الاجواخ صناعياً ، منذ فجر القرن الثاني عشر ، حافزاً لنشاط التجارة في المنطقة الفلنكية التي قامت فيها ، منذ ذاك التاريخ ، اسواق اقليمية دورية . فكان لا بد من تموين الانوال الناشطة المتزايدة ابداً بالاصواف الاجنبية التي ما لبثت انكلترا ان اصبحت سوقها الاولى ؛ كما كان لا بد من الحصول ، في الارياف ، على المواد التلوينية ، الاسليخ ، والفوّة التي تزرع في نورمانديا بنوع خاص ، والوسمة ، او العظلم ، التي كانت منطقتا اونيس وبيكارديا اسواقها الكبرى ؛ وكان لا بد ايضاً من استيراد حجر الشب ، وهو مادة خام اساسية تستعمل لتقصير الصوف وتثبيت اللون وصقل الاقمشة ، من شواطىء البحر المتوسط الشرقية . وكان لا بد اخيراً من ارسال المنسوجات الى المشترين المنتشرين في انحاء الغرب المسيحي ، وحتى في مناطق اخرى نائية . فجاءت هذه التيارات التجارية المتزايدة القوة تعزز التيارات التي تقاطعت تقليدياً في بحر الشمال ناقلة الملح والنبيذ من فرنسا ، والتوابل الشرقية نحو البلدان الشمالية . واستقر مركز كافة هذه المقايضات شيئاً فشيئاً في مرفأ بروج الذي جهز تدريجياً ، بفضل بناء ميناءيه الاماميين ، دامّ (١١٨٠) وايكلوز (اواخر القرن الثالث عشر) ، لاستقبال اكبر السفن حمولة .

ولكن بروج – وهذا ما يميز نشاطها عن نشاط المدن البحرية الايطالية – لم تكن سوى محطة او نقطة لقاء مفتوحة الابواب للتجار الغرباء ؛ فان سكانها ، الذين لم يتعاطوا الملاحة وتجهيز المراكب ، لم ينصرفوا الى المهن البحرية ، فبقي زمام حركتها التجارية في ايدي الاجانب ، اعضاء شركات التجارة الداخلية اولاً ، ثم الايطاليين في اوائل القرن الرابع عشر .

نشأت الشراكة التجارية بين المدن (الهانس) عن اقامة الالمان في شواطىء البلطيك وعن تأسيس المدن الحديثة – وهي المدن التي قامت على مصاب الانهار وخففت الضغط عن المناطق الزراعية الداخلية من شلسفيغ حتى لتونيا . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتحد تجار هذه المدن في شراكة تجارية اقامت حوالي السنة ١١٦٠ سوقاً للبضائع المنقولة في فيسبي من اعمال جزيرة غوتلاند ، واستوردت من النروج التي مني اقتصادها بالعجز ، حنطة اراضي المزارعين ، وضمنت رقابة صيادي الرنك الوفير في سكانيا ومونتهم بالملح ، واحدثت سوقاً دائمة في نوفغورود ، فاحتكرت من ثم كل التجارة في البلطيك . وفي اوائل القرن الثالث عشر ، افضت الرغبة في تأمين المزيد من الاسواق للمحاصيل الشمالية ، وللاسماك المجففة بنوع خاص ، والرغبة من ثم في تنظيم العلائق بين قطاع تجارة البلطيك وقطاع تجارة بحر الشمال ، عن طريق

اتصال بري بين نهري التراف والالب ، بكبار تجار لوبك الى عقد معاهدة صداقة مع تجار همبورغ؛ثم انضم الى هذا التحالف تجار مدن اخرى، في الشرق وفي الغرب على السواء، كـ« بريمن » في الساحل ، وكولونيا على الرين ؛ وبعد ان قامت هذه الشراكة بين التجار ، في البداية ، باتت ، في منتصف القرن الثالث عشر ، شراكة بين المدن بقيت لوبك والمدن الفندية قلبها النابض . واسست فئة « الاسترلين » اسواقاً ثابتة ممتازة في « بروج » التي غدت محطتهم الرئيسية ، ثم في لندن حيث حصلت هذه الشراكة من الملوك الانكليز ، بين السنة ١٢٦٠ والسنة ١٣١١ ، على وضع موافق جداً . وتعاطى هؤلاء التجار المتشاركون تجارة المواد الثقيلة التي نقلوها وواكبوها في سفن مستديرة تتسع لحمولة كبيرة وتجهز بسطح يفصل طبقاتها . وقام نشاطهم خصوصاً ، في اواخر القرن الثالث عشر ، بامتيار محاصيل الشمال ، الفراء والعسل والرنك وقمح مناطق الاستعمار الجرماني (حوالي السنة ١٢٥٠ استهلك القمح المستورد من براندبورغ في فلاندر وانكلترا) ؛ وامنوا كذلك نقل الصوف الانكليزي الى المدن التي قامت فيها معامل الجوخ ، وتجاوزوا بريطانيا واتجهوا نحو شاطىء فرنسا الاطلسي ، الى جون بورنوف ، واوليرون ولاروشيل، بغية نقل الملح الى مصايد الاسماك في سكانيا والنبيذ الذي يباع في فلاندر وانكلترا والمانيا . فغدا هذا الساحل الاطلسي نقطة تألب تجارة دولية ، كما غدت اعراف اوليرون ، التي دوّنت كتابة في اواخر القرن الثاني عشر ، قانوناً بحرياً دولياً لكافة الربابنة الشماليين . وكانت التجارة على هذا الساحل بسيطة لا تستلزم رؤوس اموال كبيرة بالنسبة للحمولة المنقولة واكتفت بالتقنيات التجارية والمالية البدائية . فاختلفت بذلك عن تجارة الايطاليين الذين زاحموا هؤلاء التجار ، في السنة ١٣٠٠ ، ادارة الاعمال التجارية في بروج ولندن .

رجال الاعمال الايطاليون

ان النشاط الاقتصادي في المركز الجنوبي ــ وهو قد تخطى ايطاليا على كل حال ومال الى دخول مركز بحر الشمال وضمه اليه ــ كان في الحقيقة اشد تعقداً الى حد بعيد . كان مرتكزه الرئيسي التجارة البحرية ايضا التي تمركزت تدريجياً في مرفأين : البندقية القديمة الشهيرة ، وجنوى التي لم تخلف وراءها منذ منتصف القرن الثاني عشر ، مرسيليا وبرشلونة فحسب ، بل توصلت اخيراً الى التغلب على منافستها بيزا التي سقطت وافتقرت نهائياً بعد معركة « ميلوريا » (١٢٨٤) . اجل كان من شأن الحملات الصليبية ان تعيق تجارة المدن البحرية الايطالية التي اتجهت في البدء نحو الشرق بنوع خاص ؛ ولكن التجار ، في الواقع ، استغلوا الحملات العسكرية المسيحية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا فقدموا لها مساعدة اسطولهم لقاء اسواق وامتيازات اقتصادية : ولنا في عمل البندقيين الذين نكبوا بحملة السنة ١٢٠٤ عن طريقها ، خدمة لمصالحهم واعمالهم ، فقادوا فرسان الغرب الى فتح مدن مسيحية ، زارا اولا ثم القسطنطينية ، خير مثل عن هذا الاستغلال ؛ اضف الى ذلك ان روح الحرب المقدسة ، التي وهنت كثيراً منذ اواخر القرن الثاني عشر على كل حال ، لم تمنعهم ، من جهة ثانية ، من عقد اتفاقات تجارية مع الامراء المسلمين . لذلك ، وبفضل تقدم فن الملاحة

ايضاً ، واستخدام السفن الشراعية الكبيرة والمتينة ، ووضع الخرائط البحرية الاولى قبيل القرن الرابع عشر ، فقد اتسع حقل نشاطهم اتساعاً مستمراً .

فتحت لهم في اوائل القرن الثالث عشر أبواب البحر الاسود الذي كان وقفاً على التجارة البيزنطية . فاتجروا مع شعوب البورات في كافا من اعمال القرم ، وفي تانا في اقصى بحر ازوف. واستفادوا من ان المغول اسسوا دولة تضم آسيا بكليتها حتى شواطىء البحر الاسود ، فاخذوا يحاولون اقامة علائق مباشرة مع الشرق الاقصى : فتوصل بعض الجنويين والبندقيين ، كما رأينا، الى الهند وبحر الصين واندونيسيا. وتخطى الجنويون جبل طارق نحو الغرب وترددوا على «سالي» وساروا ابعد الى الجنوب بمحاذاة الشواطىء الافريقية وعرضوا انفسهم للمخاطر ، من الجهة الشمالية ، بالدوران حول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي اواخر القرن الثالث عشر ، وصلت طرق الملاحة الايطالية ، المارة في الاراضي المسيحية والاسلامية على السواء ، (اذ ان سقوط عكا في السنة ١٢٩١ ، وفقدان المراكز اللاتينية الاخيرة في الارض المقدسة ، لم يعيقا التجارة قط) كافة انحاء العالم المتوسطي ، من كافا وطرابزون حتى بيرا ، ومن القاهرة ودمياط والاسكندرية حتى تونس وبوجي وسبته بواسطة مستعمرات ثابتة .

اما نشاطات الملاحين الجنويين والبندقيين الثانوية ، خلال هذه الحقبة فهي التالية : استيراد محاصيل الشرق من شب وتوابل ومصنوعات بذخية الى اوروبا ، وتصريف بعض انتاج الصناعة الاوروبية ، ولا سيما الجوخ ونسيج الكتان الى الشرق ، ومساحلة بين الموانىء الاسلامية ابتداء من آسيا الصغرى حتى مراكش وهي نشاطات وافرة المكاسب حقاً لانها تناولت بضائع ثمينة جداً ، ولان المبيعات ، في المرافىء المغربية الغنية بالمعدن الاصفر ، كانت تسدد ذهباً دونما صعوبة . ولكنها نشاطات خطرة ايضاً ، لانها تفرض المجازفة برؤوس اموال هامة تكون بالضرورة تحت رحمة البحر والقرصنة . لذلك فان التحسينات التقنية المدخلة ، منذ السنة ١١٥٠ حتى اوائل القرن الرابع عشر ، على العمل التجاري والمالي ، قد استهدفت اول ما استهدفت، بالاضافة الى تنظيم التصريف ، الحد من هذه الاخطار وتخفيف شدتها . ولكن مثل هذا التقدم لم يتحقق في البندقية اذ ان الجمهورية ، وهي شراكه مصالح واسعة خضعت بكليتها ، منذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، لرقابة كبار التجار ، قد اخذت ابدا على عاتقها ومسؤوليتها كل الاخطار الكبرى واحتكرت بناء السفن ونظمت ، في مواعيد محددة ، قوافل تجارية جماعية تواكبها سفن الحماية . ولم يؤمن ضمان رؤوس الاموال الا بالاكثار من عقود الشراكة الفردية : وكانت الغاية من هذه العقود التوفيق بين رجل شاب ونشيط يكلف مواكبة البضاعة بحراً وادارة الاعمال في المناطق النائية ، وبين متمول في سن النضج يقدم القسم الاكبر من رأس المال ويوظف في كل رحلة عدة مبالغ مماثلة بغية موازنة الاخطار . اما جنوى ، وهي مدينة خضعت لنظام اكثر فردية ، فقد عرفت انواع شراكات اعظم كمالاً . فقد كان بناء السفن ، وهو الصناعة الرئيسية في كافة هذه المدن البحرية — لان السفينة ، في القرن الثاني عشر ، تخلق بسرعة ويجب ابدالها بعد مرور خمس او ست سنوات — منوطاً بشركات

يملك كل من اعضائها قسماً من السفينة ويبتون باكثرية الاصوات في امر استخدامها وينتخبون القبطان ويتقاسمون الارباح . وارتكز تمويل المشاريع التجارية بصورة خاصة الى عقود «طلب» لا تفرض على التاجر البحار اي اسهام في رأس المال بل تكلفه استثمار النقود التي يقدمها المتمول. وما لبثت هذه العقود ان تطورت فتركت للشريك العامل مزيداً من الحرية والمبادهة ، فقام في منتصف القرن الثالث عشر ، بين الاسواق الجنوية المختلفة وبين المدينـــة الأم ، نوع من نظام القروض البحرية المرتفعة الفائدة ، على ان لا تسدد الا اذا حالف التوفيق الرحلة ، وهي الاشكال الاولى للضمان ضد الاخطار البحرية . فادت هذه التوظيفات المجزأة ، وهذا التعاون بين مقرضي الاموال ، المنحدرين بمعظمهم ، من ارستوقراطية ملاكي الاراضي ، وبين العملاء الضليعين بامور الملاحة والتجارة ، الى تقدم الاعمال تقدماً مستمراً في المرافىء الايطالية .

وتعاطى بورجوازيو المدن الايطالية الداخلية ، التي تأخرت في الاهتمام باقتصاد المقايضات ، تجارة المسافات الطويلة ايضاً ، باستخدام سفن المدن الساحلية ولا سيا سفن جنوى . ولكنهم الفوا شراكات اطول بقاء من شركات « الطلب » ، وشركات العقود الفردية وجمعوا رؤوس اموال اعظم شأناً ، فتعاطوا ، الى جانب هذا النشاط ، الصناعة والعمل المصرفي : صناعة الحرير في لوبك والصوف في ميلانو حيث الخامات الآتية من سردينيا وافريقيا الشمالية وانكلترا ، وفي فلورنسا حيث حولت الاجواخ المحلية والفلمنكية الى مصنوعات بذخية من الطراز الاول، وعمل مصرفي في الاوساط اللومباردية والبيمونتية الصغرى ، استي ، وكييري ، ونوفاري التي سلك سكانها منذ القدم طرقات جبال الالب فانتشروا ، صرافين ودائنين وتجاراً ، في كافة انحاء فرنسا الشمالية حيث زاحموا سكان كاهور ، الاختصاصيين الاول في العمليات النقدية ، وفي سينا التي اخذ رجال الاعمال فيها على عاتقهم منذ عهد مبكر ، جمع مداخيل الكنيسة الرومانية ، وفي بليزانس التي تعاطت نقل البضاعة والصرافة والاقراض بالاتفاق التام مع جنوى والتي جاء منها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، اكبر متمولي باريس . ثم ان فتح ايطاليا الجنوبية على يد « شارل دانجو » (١٢٦٦ — ١٢٦٨) ، وقد انفق عليه البورجوازيون التوسكانيون لقاء الحصول عـــلى مركز اقتصادي ممتاز في مملكة صقليا ، وانهزام السينيين واللوكيين بعد ذلك ، جعلا الحظ يحالف الشركات الفلورنسية ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، محالفة مدهشة .

تأسست هذه الشركات حول احدى العائلات بانضمام بعض الدائنين (ويتراوح عددهم بين ٥ و ٢٠ على العموم) المتساوين قانوناً ، المنصرفين عن الاسهام في اي مشروع آخر ، المكرسين كل نشاطهم لخدمة الجماعة ، وكانت تتصرف برأس مال هام جداً قوامه مساهمـــة الشركاء ولا سيا الامانات الخاصة . وكان يعاونها عملاء مأجورون يوزع معظمهم على مختلف الفروع المؤسسة في شتى مراكز الاعمال الرئيسية في ايطاليا والشرق الادنى والغرب الاوروبي (في بروج ولندن وباريس ، وفي افينيون بعد ان امست مقراً للبلاط البابوي) . وزاولت هذه الشركات ، التي عنيت بصناعة الصوف وكافة الاعمال التجارية ، النشاطات المالية بنوع خاص ، اي نقل الاموال

من مكان الى آخر ، والاتجار بالنهب ، مسكوكات او سبائك ، ولا سيا الاقراض بفائدةتتراوح بحسب الاخطار ، بين ٧ و٣٣ ٪ . وما لبثت ان اضطرت، توطيداً لمركزها في البلدان الاجنبية، وتلافيا لاخطار الابعاد والحجز المحدقة ابداً بالاجانب ، وسعياً وراء الحماية من عـــداء البلديين المستتر الدائم ، الى تسليف الأمراء اموالا طائلة جداً . ثم انتهى الأمر بها ، بسبب تفوقهـــا التقني، واحتياطها النقدي الذي اتاح لها تقديم مبالغ طائلة، في قليل من الوقت، الى ادارة اموال بعض الدول . وهكذا فقد آل كل اقتصاد مملكة أنجو الايطالية ، في اوائل القرن الرابع عشر ، الى ايدي الصيارفة الفلورنسيين ؛ ولعب هؤلاء دوراً متزايد الاهمية في الآلة الجبائية ، المطردة التسلط، العاملة في خدمة البابوية؛ وبين السنة ١٢٨٠ والسنة ١٣١٠ سلفت شركة «فرسكوبالدي» ملك انكلترا اكثر من ١٢٢٠٠٠ ليرة استرلينية ، بينما كان اثنان من عملائها « بيش » «وموش» مستشارين ماليين للملك « فيليب له بيل » . وجلي ان اعمالا تجارية على هذا الاتساع ، متوقفـة على حسن نوايا الملوك ، ومهددة بالحروب والاضطرابات الشعبية وهبوط اسعار المعادن الثمينة ، لم تكن بمأمن من الاخطار ؛ وبما ان الامانات كانت متوجبة الدفع حين الطلب كان من شأن اقل ارتباك عابر ان يفضي الى انهيار الشركة كلها وافلاس الشركاء ، المسؤولين بأجسادهم وممتلكاتهم دونما تحديد . ولذلك لم تكن الافلاسات امراً نادراً في فلورنسا . الا ان هذه الاعمال التي أدارها مركزيا تجار مقيمون في اماكن ثابتة اجمالا، والتي قامت باطراد على الكتابة والمحاسبة الصحيحة (وهي ما زالت بدائية في الحقيقة على الرغم من استخدام الاعداد العربية والصفر منذ السنة ١٢٦٠ تقريباً)، لم تتوقف، في الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، عن التوسع توسعاً مستمراً في كافة انحاء ايطاليا ، وانتهت تدريجياً الى تطويق الاقتصاد الاوروبي بكليته : واذا حافظت الشراكة الهانسية على استقلالها واستمرت في التحكم بتجـــارة البلطيك كلها ، فهم التجار الايطاليون من سيطروا ، بعد السنة ١٣٠٠ ، على معظم تجارة الاصواف الانكليزية — حيث حلوا محل التجار الفلمنكيين — والذين كانت مؤسساتهم في بروج اعظم المؤسسات ازدهاراً .

اسواق شمبانيا الدورية

تم الاتصال ، حتى ذاك العهد، بين المركز الايطالي ومركز بحر الشمال بواسطة الطرقات البرية التي تجتاز جبـال الالب ومملكـة فرنسا . فقامت منذ القرن الثاني عشر ، في هضاب شمبانيا حيث تتقاطع هذه الطرقات ، اسواق تلاقى فيها التجار الاوروبيون . في القرن الثالث عشر ، غدت هذه الاجتماعات التجارية الستة (واحد في لانيي وآخر في بار ــ سور ــ اوب ، واثنان في بروفين ، واثنان في طروا) التي يدوم كل منها ستة اسابيع وتتعاقب في مدار السنــة ، المركز الحقيقي للتجارة الكبرى ، الذي لم يؤمه تجار الاجواخ في ارتوا وفلاندر، والايطاليون بائعو الشب والتوابل فحسب ، بل تجار بروفنسا وانكلترا والمانيا وكاتالونيا ايضاً . انطوت كل سوق على مرحلتين متواليتين ، خصصت الاولى منهما (دخول ومبيع) للصفقات التجارية ، والثانية (خروج) لتصفية الحسابات بين التجار وقد احكم فيها نقل الاموال من سوق الى سوق ،، منذ اوائل القرن الثالث عشر ؛ ولما كان

كبار رجال الاعمال في العالم المسيحي هم الذين يشتركون في هـــذه الاجتماعات شبه الدائمة ، اختيرت الاسواق الشمبانية تدريجياً مكاناً تدفع فيه معظم الديون وامست مركزاً لمعاملات كثيرة تستهدف التعويض عن الديون . وانتشر كذلك ، بواسطة هذه الاسواق وبفضل الايطاليين ، اللجوء الى الاقرار بالديون الذي اعتبر ، بشكل بدائي ، بمثابـة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقاً . فلعبت اسواق شمبانيا ، بفضل هذه « السفتجات » ، وعمليات التعويض بين التجار ، دوراً رئيسياً في توسيع التجارة الغربية الكبرى ، اذ انها ساندت اعمالا مطردة النمو على الرغم من الحاجة الى تغطية نقدية حقيقية .

بلغ نشاطها المتزايد ذروته حوالي السنة ١٢٩٦ . غير اننا نشاهـد في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، بروز ظواهر لن تلبث ان تحد من دورها . فهنالك في الدرجـــة الاولى استقرار التجار تدريجياً في مراكز ثابتة ، مما اتاح لهم ، بعد تعـــدد الشركات ذات الفروع واستخدام الوثائق التجارية المكتوبة ، التفاوض في امور الاعمال دون مواجهة الزبن ؛ واقامة الايطاليين في الامكنة الرئيسية من شمالي غربي اوروبا ؛ وانشاء شبكة طرقات جديدة تحايد شمبانيا . فان بناء جسر فوق نهر الروس قبـل السنة ١٢٣٧ قد فتح طريقاً جديـدة وصلت البندقية وميلانو بالفلاندر مروراً بسان غوتار . ثم اتاح تقدم التقنية البحرية ، في السنة ١٢٧٧ ، للسفينة الجنوية الاولى بلوغ بروج مباشرة ، ثم انكلترا في السنة التالية . وهكذا فقـد قامت منذ السنة ١٢٩٨ اتصالات بحرية منظمة ، واقيم في العقد الثاني من القرن الرابـع عشر خط بندقي بموازاة الخط الجنوي ، فتم بذلك تجهيز وسيلة نقل نحو الفلاندر افضل الى حد بعيد من النقل بواسطة العربات . وحدث اخيراً تبدل ذو طابع اعم اسهم في انحطـاط اسواق شمبانيا، اعني به تقدم الحياة المدنية المطرد . وقد ارتدى هذا التقدم اشكالا كثيرة ـ ففي القرن الثالث عشر اخذت المدن الصغرى تظهر في المناطق الدائرية من العالم المسيحي ، المانيـا وانكلترا وسكنديناقيا ، التي كادت تكون ريفية بكليتها قبل ذلك التاريخ ـ ولكنه تميز خصوصاً باحداث المراكز المدنية الكبرى ؛ فغدت هذه الاخيرة اسواقاً ناشطة واماكن دائمة لتصريف البضائع في مناطق مطردة الاتساع ، وقامت ، بالنسبة لكل منطقة ، بدور الاسواق نفسه : وهكـــذا اتجه النشاط التجاري في فرنسا الشمالية الى التمركز في باريس ، المدينة العظيمة ، التي ربما بلغ سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد « فيليب له بيل » . وجاء اخيراً التحول الداخلي في الشركات الايطالية الكبرى ، التي باتت اجهزة ذات فروع ، تتفق والظروف الجديـدة الناشئة عن قيام هذه المدن .

النقد

ان التوسع التجاري ، الذي تحقق بسرعة لا سيا في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر ، قد احدث تغييراً في الوسط الاقتصادي واستلزم في الدرجة الاولى وضع نظام جديد للتداول النقدي . فقد ارتفعت كمية المعادن الثمينة المتداولة بفعل تجارة الحاصيل الفائضة التي زاولها الايطاليون في سواحل افريقيا الشمالية وانتاج المهاجرين الالمان الذين استثمروا مناجم فضية جديدة في اوروبا الوسطى ، لاسيا مناجم فريبرغ في ساكس التي اكتشفت حوالي السنـة

١١٧٠ . ولكن هذا الارتفاع في الكمية المعدنية بقي طفيفـــاً ، ولم تتعادل نسبة وسائل الدفع ونسبة الصفقات الا بفضل تزايد تداول النقود الذهبية والفضية وتنظيم وسائل الدفع الاخرى والبيـع ديناً . ومع ذلك فقـــد طرأ تحسن ملموس على المسكوكات . ففي الدول التي توطدت سلطتها في كل مكان على السيادات الاقطاعية ، لم يترك اصدار الامراء للنقود الجيدة الثابتة القيمة ـ كالجنيهات السترلينية الانكليزية في اواخر القرن الثاني عشر اوكالهلـّر في سواب ـ سوى دور محلي للنقود الصغيرة السوداء غير القانونية ، التي كانت تسك في المصانع الخاصة . اضف الى ذلك ان مقتضيات التجارة الكبرى قد اوجبت ضرب قطع نقدية تفوق ، عياراً ووزناً ، تلك التي راجت اثناء حقبة الانكماش الاقتصادي . فهنالك اولا القطع الفضية «الكبيرة» التي تزن اكثر من غرامين وتعادل ١٢ درهماً ، اي انها تعادل القطعة القديمة المعروفة بـ *Sou* التي حصر استعمالها في حسابات بيـع الجملة ؛ وقد ضرب القطع الفضية الاولى في البندقية في السنة ١١٩٢ ، فاعتمدتها على الفور المدن الايطالية الاخرى ؛ وفي السنـــة ١٢٦٦ أصدر القديس لويس القطع التورية (نسبة الى مدينة تور) الكبيرة ثم القطع الباريسية الكبيرة (وهي اربعة اضعاف القطع التورية) التي انتشرت في هولندا ووادي الرين عن طريق اسواق شمبانيا الدورية ، وغدت اساســـاً لحسابات بيع الجملة في الامارات الفلمنكية . وفي منتصف ١٢٣١ اصدر فردريك الثاني في صقلية القطع الاوغسطية ولكنه لم يضربها الا طلباً للنفوذ وللاستهلاك المحلي فقط ؛ وفي السنة ١٢٥٢ ، اصدرت في جنوى وفلورنسا في آن واحد قطع نقدية ذهبية مرتفعة العيار تزن ٣ غرامات ونصفاً وتساوي عشرين قطعة فضية كبيرة (الجنوي ، الفلورين) وهي القطع التي اصبحت ضرورية لاقتصاد سريـع التوسع آنذاك ما كانت النقود البيزنطية او العربية لتفي بحاجاته . ووضعت في التداول قطع مماثلة في ميلانو ، ثم في البندقية ، في السنة ١٢٨٤ . وفي فرنسا وانكلترا اصدر القديس لويس وفيليب له بيل وهنري الثالث ايضا بعض القطع الذهبية ولكن بكميات محدودة ؛ واذا راج المعدن الاصفر في هذه البلدان ، فقد راج بشكله الايطالي بنوع خاص. وان في النجاح الغريب الذي صادفه الفلورين الذهبي ، وهو اساس قوة الشركات المصرفية التوسكانية ، لاوضح رمز لاتساع النشاط الاقتصادي .

ان ارتفاع الاسعار الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المقايضات والتداول النقدي قد تواصل خلال هذه الحقبة : وهكذا ارتفعت الاسعار الزراعية في نورمنديا ، كما ارتفع بدل الارض ، نتيجة لذلك ، بنسبة ٥٠٪ بين السنة ١١٨٠ والسنة ١٢٦٠ . وتميزت هذه الحقبة ، كما سبق ورأينا، بقيام المدن الكبيرة، وان في تشييد الكاتدرائيات العظمى لدليلا على الرخاء الذي عم كافة هذه المدن المطردة النمو . وتنظمت آنذاك من جهة ثانية الحرف الصناعية: فالتف ارباب العمل والرفاق والعمال الاختصاصيون في عمل معين ، حول اخوية دينية خيرية ، والفوا شركات عرفت بـ « الحرف » «والفنون» ؛ وقد نظمت هذه التجمعات مزاولة المهنة وحاولت في الدرجة الاولى ، عن طريق رقابة مدة العمل وطرائقه ونوع الانتاج ، الحد من المزاحمة وتأمين المساواة بين ارباب العمل .

تكيف الاقتصاد الريفي

تسرب الاقتصاد التجاري في الوقت نفسه تسربا عميقا الى الاوساط الريفية . فقد انفتحت امام المنتجين الريفيين اسواق متزايدة الاتساع دعتهم الى تخصيص قسم من محاصيلهم للبيع . ورافقت هذا الوضع الجديد ، الذي تشهد عليه بعض بنود الاتفاقات حول الاعفاءات ، والذي أجاز للفلاحين اقتناء العبارات وألغى العوائق المقامة في وجه التجارة والاحتكارات السيدية ، واحدث في القرى اسواقاً دائمة ومعارض موسمية للحيوانات ، تبدلات عميقة في نظام المشاريع الاستثمارية الريفية . فنمت زراعة الكرمة على جنبات طرقات التصدير ، وانتشرت من ثم كروم واسعة في مناطق فرنسا الاطلسية اتصلت اتصالاً مباشراً بمرافيء التصدير ، اوليرون ولاروشيل وبوردو . وانتشرت كذلك زراعة النباتات الصباغية في شمالي فرنسا وفي المنطقة التولوزية وفي سهل الدو . ونمت تربية المواشي لتموين المدن الكبرى باللحوم ؛ فمنذ القرن الثالث عشر امن اللحامون الباريسيون حاجتهم من « بريا » ونورمنديا . وقلبت تجارة الصوف اقتصاد الارياف الانكليزية ظهراً على عقب ، اذ ان الفلاحين والاسياد اخذوا يسعون وراء اقتناء المزيد من المواشي لتلبية طلب المصدرين . ويجب هنا ان نذكر واقعين يمتان بصلة الى هذا التبدل في ذهنية المنتجين الذين لم يهتموا آنذاك للعيش من ارضهم فحسب بل لتحسين انتاج استثمارهم ايضا رغبة منهم في الكسب التجاري . فهناك ، من جهة ، تعدد الاشكال الجديدة لاستئجار الاراضي ، الذي لم يعد دائما بل حدد باجل قد لا يتجاوز سنوات معدودات احيانا : فقد انتشرت عقود الضمان وعقود المزارعة انتشاراً سريعا في فرنسا وايطاليا ، مما اتاح سهولة استبدال المزارعين المهملين بالمزارعين الاكفاء ، والمطالبة باعتماد افضل الطرائق انتاجا ، والتوفيق دوريا بين دخل الارض وانتاجها الحقيقي . ومن جهة اخرى وضعت المؤلفات الزراعية ، كالبحث في « زراعة الكرمة وتربيتها » لـ « والتر دي هنلي » او بحث « بيير كريسنتيوس » البولوني (نسبة لـ *Bologne*) في الموضوع نفسه ، التي كان نجاحها ، في كافة انحاء اوروبا ، عظيما جدا وراهنا . يضاف الى ذلك ان انتشار الدين في الارياف ، حيث غالباً ما ينص العقد على ان الحبوب هي مادة قرض الاستهلاك حتى تفرض عليها فائدة مموهة (اذ ان اجل الوفاء يحدد في موعد ارتفاع الاسعار) ، وان عقود الطلب التي يسلم المتمول بموجبها مواشيه لاحد المربين بغية مقاسمته انتاج القطيع ، هما ايضاً من بوادر هذه الذهنية التجارية التي تسربت الى عالم الحقول .

ويلفت النظر ان أسياد الارض قد أفادوا احياناً اكثر من الفلاحين من هذا التوسع التدريجي في آفاق الاستثمار الزراعي ومن هذا الارتفاع في نسبة النقد المتداول ، وذلك بمضاعفة الجهود في الأعمال الزراعية وبفرض المزيد من الموجبات . فكانت هذه اولاً حال البورجوازيين الذين وظفوا اموالهم في السيادات العقارية بغية استثمارها كما تستثمر في الاعمال التجارية ؛ فقد طبقوا بشدة الصيغ الجديدة للاستئجار المؤقت ؛ وحدث بسرعة في ضواحي المدن التوسكانية ان ثقلت وطأة شروط المزارعة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر لمصلحة سكان المدن . وفي الوقت نفسه ، تميز تقدم المقايضات ، في الارياف الانكليزية ، بتعزز وضع السيد وبنمو

الاستثمار المباشر: فقد توسع باستمرار، وعلى حساب اراضي المزارعة، احتياطي الارض السيدية التي اطرد تحسن استثمارها بفعل اتقان طريقة استراحة الاراضي سنة كل ثلاث سنوات وبزراعة القرنيات في الاراضي البائرة ايضاً؛ وقد ضوعفت في الوقت نفسه الخدمات المفروضة على المزارعين.

الا ان صغار المستثمرين كانوا، احياناً اخرى، المستفيدين الاول من الاتجاه الاقتصادي الجديد. فان نبلاء فرنسا بنوع خاص، الذين اعتبروا الاهتمام للكسب متعارضاً وشرفهم واحتقروا كل نشاط تجاري، قد استفادوا من انتشار الاقتصاد النقدي كي يتحرروا من استثمار أراضيهم استثماراً مباشراً. ودون ان يصبحوا يوماً اصحاب دخول من اراضيهم، انقصوا مساحة احتياطيهم وأجّروا منه قطعاً كبرى رؤساءَ الأعمال القدماء في منزلهم، وآثروا استيفاء الأتاوات قطعاً نقدية، فاستبدلوا بالنقد الضرائب العينية القديمة، وذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين لمسوا الفائدة من تصريف فائض حصائدهم بأنفسهم في الأسواق المختلفة. وهكذا فان تصريف محاصيل الارض تجارياً قد تحقق، في معظمه، بفضل الفلاحين أنفسهم ولمصلحتهم، ناهيك عن ان وضعهم في السيادة العقارية قد تحسن تحسناً مستمراً. فان انقاص الاحتياطي قد أدى بالسيد الى التخلي عن معظم اعمال التسخير التي ما زال يفرضها لقاء تعويضات مالية؛ ولم يطالب مزارعيه قط، بعد ذلك، الا بالدراهم؛ ولكن الارتفاع المستمر في الاسعار قد خفض قيمة هذه القطع، فخفض من ثم اعباء الفلاحين: فقد غدا كراء معظم الاراضي، في اواخر القرن الثالث عشر زهيداً جداً نسبياً. واضطر أسياد كثيرون اخيراً، للتعويض الى حين عن الهبوط التدريجي في قيمة مداخيلهم وللتخلص من ضائقة عابرة، الى ان يبيعوا من اتباعهم بعض الحقوق التي كانوا يمارسونها حيالهم: فحصلت الجمعيات القروية، المتزايدة باطراد، بموجب اتفاقية اعفاء، على الغاء أكثر الموجبات ازعاجاً.

التبدلات الاجتماعية

حوّر التطور الاقتصادي من ثم العلائق بين فئات المجتمع المختلفة التي كانت قد تحددت في مرحلة الانكماش على الارض. كانت هذه التبدلات الاجتماعية معقدة في الواقع، وكانت أجلى نتائجها ايجاد المزيد من الفوارق بين الطبقات وتبعيد المسافات – كما درج التعبير في ايطاليا آنذاك – بين الجسام والهزلى. وآلت على العموم، كذلك، الى ازالة التوازن بين الطبقات القانونية: فقد تحسن وضع العديد من غير النبلاء بينما ظهرت بوادر الانحطاط في طبقة الاشراف.

اما داخل طبقة الفلاحين، حيث كانت الاوضاع الاجتماعية، في اوائل القرن الثالث عشر، آخذة في التناسق والتشابه، فقد ادخل انتشار الاقتصاد النقدي مزيداً من الفوارق. واجه بعض الريفيين حركة المقايضات المتزايدة على حين غرة ولم يُهيأوا للسعي وراء المكسب وأرغموا على مضاعفة الانفاق، فتأخروا مادياً واضطروا، لسد عجزهم، الى الاستقراض، ورهن قسم من ارضهم، وبيع بعض دخول ملكهم، وتحويل ملكهم الخاص احياناً، لقاء مساعدة ما،

الى ارض تابعة لاقطاعة ، والقبول ، في سبيل تأمين المعيشة ، بأوضاع متزايـــدة الشدة . وما لبثت هذه الطبقة المنحطة المعرضة للاستثهار من قبل الاغنياء ، ان رأت بأم العين اقرار تدنيها، حين أقدم رجال القانون المحترفون ، خـــلال القرن الثالث عشر ، وبتأثير من معرفتهم للحق الروماني ، على تطبيق مفردات العبودية الواردة في هذا الحق على أفرادها ، باعتبن حيالهم رقاً جديداً يختلف بعض الاختلاف عن الرق القديم ويتميز بأعباء نوعية وبالخضوع لتعسف السيد . كان هؤلاء الارقاء القدّادون قليلي العدد في فرنسا ، ولكنهم ألفوا في انكلترا ، بفعل اشتداد النظام الاقطاعي ، سواد سكان الارياف . وانما يبدو بصورة عامة ، باستثناء الارياف الانكليزية وضواحي بعض المدن الايطاليـــة الكبرى ، ان وضع جمهور الفلاحين قد تحسن تحسناً مادياً محسوساً ، وعرف في النصف الثـــاني من القرن الثالث عشر ، على الرغم من زيادة الحقوق السيدية الاميرية وتكاثر ضرائب الاقتطاع والمساعدات النقدية التي غالباً ما فتحت الثغرات في ادخار الارقاء، فترة يسار استثنائية تمادت ذكراها لدى الجماهير وأسهمت في فرنسا، كما نرجح، في اعلاء نفوذ القديس لويس واطالة التحدث بملكه . وحدث اخيراً ان ارتقت نخبة ضئيلة من الريفيين سلـّم الثروات . والدليل على هذا الارتقاء ، الذي اعتبره الفرسان مشيناً ، ان موضوع الفلاح الحديث النعمة ، الهزأة والغير الجدير بالثروة ، قد انتشر فجأة في ادب اوائل القرن الثالث عشر . فنادرة في الحقيقة هي القرى التي لم يتوصل احد فلاحيها، بفضل مهارته في بيع انتاج عمله، الى ادخار رأس مال صغير وتحصيل بعض الدخول من اراضي جيرانه وابتياع بعض الاراضي من الفرسان المفتقرين ، وبالتالي الى تكوين سيادة صغرى ، وفرض سيطرة اقتصاديـة راجحة على القرية ، والعيش عيشة النبلاء دون عمل ؛ وتزوج العديد من هؤلاء الحديثي النعمة من بنات الاشراف الريفيين وتوفق البعض منهم ، بعد السنة ١٢٥٠ ، الى الفوز بلقب أشراف .

جليّ ان الارتقاء الاقتصادي كان أكثر تقدماً الى حد بعيد في المدن حيث يمكن كسب المال واستثماره بمزيد من السهولة . ولكنه لم يكن شاملاً هنا ايضاً ، وأدى التطور الى اخضاع شطر من سكان المدن للشطر الآخر . ولدينا الكثير من الامثلة ، في الاوساط التي مرّت بها الطرقات التجارية الرئيسية في منتصف القرن الثاني عشر، عن تجار جمعوا ثروات طائلة. وأخذ الكثيرون منهم منذ ذلك الوقت اموالهم المنقولة الى ممتلكات غير منقولة : فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر واسترهنوا العقارات واشتروا الاعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن . فاستقرت من ثمّ الثروات وتكونت شيئاً فشيئاً في كافة المدن طبقة محدودة مسيطرة استمر افرادها في جمع الثروات عن طريق مزاولة الاعمال ، متسلحين ضد تقلبات التجارة بثروتهم العقارية . ولما كانوا يتعاطون المقادة والصيرفة ، فقد احتفظوا لانفسهم ، بفضل اموالهم النقدية ، باوفر النشاطات كسبا وبتجارة المسافات الطويلة والاتجار بالنقد . وقد سيطرت شركاتهم المهنية سيطرة كلية على « حرف » الصناعيين والسماسرة الصغيرة ؛ ولما كانت هـــذه التجمعات تؤلف هيكل مجتمع المدن وتقوم ، كما هو طبيعي ، بادارة الشؤون العامة ، فقد راقب اوسع البورجوازيين ثروة ،

بواسطة اقوى الشركات المهنية ، ادارة الشؤون البلدية ، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسية في المدن الداخلية في نطاق تكتلهم . وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجار الجوخ الاشراف في مـــدن فلاندر الصناعية ، لمصلحتها ، الانظمة على المهن الدنيا ، التي يزاولها عمال الصوف ؛ وهكذا ايضاً اديرت شؤون التكتل في فلورنسا من قبل الفنون « الكبرى » الاثني عشر ، وقد احتل المركز الاول بينها كبار رجال الاعمال، «تجار كاليمالا» . فتوصلت فئة البورجوازيين الاثرياء،بقبضها على زمام المؤسسات المدنية ، الذي اتاح لها ان تنظم حياة المدينة الاقتصادية خير تنظيم لمصلحتها وتدير اموالها العامة ، الى ارساخ تفوقها ارساخاً نهائياً ، فاتسعت الهوة التي تفصلها عن الطبقات المتوسطة . ومالت طبقة الاشراف طبعاً الى ايصاد ابوابها في وجه حديثي النعمة ، وهذه ذهنية طبقية يعبر عنها اقفال المجلس البندقي الكبير في السنة ١٢٩٦ مثلاً . وقد فاز بعض اعضائها بالنبل عن طريق الفروسية : ففي فلورنسا اختلطت الارستوقراطيـــة المنحدرة من اصل غير نبيل ، خلال القرن الثالث عشر ، بانسال عائلات الفرسان العريقة ؛ ولم يكن ارتقاء النخبة البورجوازية هذا الى مرتبة الاشراف وقفاً على المدن الكبرى دون غيرها . ولكن اولئك الذين لم يتسلموا اسلحة الفرسان ، وامتلكوا مع ذلك الاراضي الواسعة والقصور ومارسوا حق التصرف وجمعوا بالاضافة الى ذلك كميات ضخمة من الذهب والفضة ، قد احتلوا في مجتمع اواخر القرن الثالث عشر مركزاً ارفع مرتبة من مركز معظم الفرسان .

اذا ما استثنينا انكلترا حيث عرف الاسياد كيف يستثمرون اقطاعاتهم بحذاقة ، واراضي الاستعمار الزراعي في المانيا الشرقيـــة حيث تألفت طبقة قوية هي طبقة الاشراف القرويين ، وايطاليا وبعض مدن فرنسا الجنوبية حيث اقام الاشراف برضاهم في المدينة واسهموا في النشاط التجاري ، رأينا ان التطور الاقتصادي قـــد الحق الضرر بالاشراف العريقين . فقد تعددت مناسبات الانفاق امام الفارس ، الذي لا يأتي عملاً ، والذي يعتبر التبذير فضيلة كبرى . ولم يعد في القرن الثالث عشر ليرتضي بمعيشة اجداده الريفية القانعة ؛ بل ثابر على التردد على الجمعيات والبلاطات ، ولم يكن جائزاً له ، من باب اللياقة ، الدخول اليها اذا لم يرتد ملابس « شريفة » الالوان يبتاعها من التجار ؛ وما زالت العـــدة العسكرية تتعقد يوماً بعد يوم ، واذا هي أمست أكثر فعالية ، فقد أمست أكثر غلاء ايضاً . وتكامل كذلك فن التحصين ومهاجمة الحصون ؛ فتوجب تحويل البرج الخشبي والترابي القديم الى جهاز مركّب من الاسوار الحجرية ؛ وغالباً ما اضطر حكام الحصون آنذاك الى تجنيد المتطوعين المحترفين المأجورين – انتشر الارتزاق العسكري في الغرب في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، وبعـــد مرور مئة سنة غدت الجيوش كلها مأجورة – كما اخذ صغار الاشراف ايضاً يحفرون الخنادق حول مزارعهم ويشيدون بجانبهـــا الحصون ويحولونها الى بيت محصّن . وجليّ ان كل ذلك تطلب مالاً وفيراً ، لا سيما وان الأسعار كلها كانت آخذة بالارتفاع . وانتشر استعمال الدراهم من جهة ثانية في كل مكان ؛ وكفوا عـــن اعطاء البنات نصيبهن من الارث العقاري مبدلينه ببائنة نقدية ؛ وأخذوا يهبون الكنائس قليلاً

من الارض ومزيداً من النقد ؛ وطلبوا في وصياتهم احياء الاعيـــاد السنوية واقامة القداديس وتشييد الكنائس بفرضهم على املاكهم دخولاً نقدية دائمة تضخمت قيمتها جيلاً بعد جيل ورتبت أعباء ثقيلة على الورثة . اجل لقد ساعد امتلاك الاعشار والاستمرار في استثمار احتياطي ضيق استثماراً مباشراً على ايدي الخدام المنزليين على تأمين معيشة العائلة وتلافي النفقات الغذائيـــة ؛ ولكن الفارس يفتقر الى المال لكافة الحاجات الاخرى . فعـلى الرغم من ان استبدال الأتاوات وأعمال التسخير بضرائب نقـــدية واتساع الحقوق الاميرية السيدية – فجميع الأشراف طالبوا أتباعهم آنذاك بالمساعدة المالية ، وأخضع الفدّادون الجدد في فرنسا للاقتطاع التعسفي – قـد زادا موارد الاشراف النقدية ، فان هذه الموارد باتت غير كافية واختل باستمرار ، في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، ميزان حسابات الفرسان . فالجيء الاشراف ، المحافظـــة على مستوى معيشتهم ، الى الاستدانة ـ لا من انسبائهم واصدقائهم ، كما فعلت الاجيال السالفة ، وكلهم يتخبطون في الضائقة نفسها ـ بل من المؤسـسات الدينية المزدهرة ، ومن البورجوازيين و « لومباردي » المدن والامراء . ثم اخذوا ، بعد استنزاف المال المستدان ، يبيعون اراضيهم قطعة قطعة : فكان هناك بيـع الخضوع (لقاء مال مسلف او تسديداً لدين) وبيع الحقوق او الاراضي النبيلة التي كثيرا ما اشتراها فلاحون اثرياء او متمولون بورجوازيون يبحثون عن توظيف مضمون لاموالهم .

كان من شأن هذا الاضطراب الاقتصادي وهذا الافتقار التدريجي ـ الذي اعتبره الفرسان ضيقا عابراً لن يلبثوا ان يتغلبوا عليه ـ وهذا الهبوط الذي يسترعي الانتباه اليه ارتقاء بعض الطبقات من غير النبلاء ، ايجاد ردة فعل دفاعية في اوساط الاشراف . فتخلوا تدريجيا ، بغية حماية الاملاك العقارية ، عن العادة القديمة القاضيـــة باجراء قسمة متساوية بين ورثة من درجة واحدة ، ودرج العرف على ابقاء النصيب الاكبر للبكر ، او ادخال كافة اخوته الحياة الرهبانية . وتمسك الاشراف في الوقت نفسه بعد ان فقدوا تفوقهم عملياً ، بامتيازاتهم الشرفية وبالشارات الخارجية لتميزهم الطبيعي . واحتفظت لهم انظمة السلم الالمانية ، في اواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر ، ببعض الملبوسات وبعض الالوان المعينة ، وحظرت حمل الاسلحة على غير الاشراف ؛ وقد حاولت المجموعات الفرنسية ، التي تبحث في الاعراف ، اظهار استخدام المؤسسات الاقطاعية وكأنه وقف على الاشراف ، واعارت اعتبار النبلاء اهمية اعظم ـ على الاقل ـ من اعتبار العامة . اما نتيجة تفاقم الروح الطبقية هـــذه ، فهي ان الفرنسيين نظروا الى النبل في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، وكأنه صفة مميزة من صفات الرسالة العسكرية ، اي الفروسية ، ومن ثم الثروة ، تنتقل بالوراثة طبعا : فبرزت نعوت جديدة (« الفارس » في الشمال و « الشريف الشاب » في الجنوب) تظهر تفوق انسال الفرسان اجتماعيا الذين لم يتوفقوا الى حمل الاسلحة على الرغم من بلوغهم السن القانونية لذلك . اجل ان اثبات الطابع الوراثي للنبل قد حصره ضمن حدود معينة ، ولكنه لم يمنع الاثرياء الجدد من اجتيازها :

قلة اجتازتها بالكذب بعد ان عاش افرادها حياة الاشراف مدة طويلة كافية لانساء اصلهم ، وكثرة بالحصول من الامير على تعديل القانون لمصلحة افرادهـا والاجازة لهم بالانخراط في صفوف الفرسان المسلحين .

ان هذه التبدلات الاجتماعية كلها : اثراء النخبة من غير الاشراف الذين كانوا بحاجـة الى عضد السلطة لتثبيت ارتقائهم ، ولا سيا افتقار النبلاء الذي عرضهم لكل اذى وارغمهم عـلى بيع حقوقهم وخدماتهم من العظماء ، اتاحت لبعض الامراء ، الذين عرفوا ، بفضـل مركزهم المؤاتي، بالنسبة للتيارات النقدية كيف يستغلونها لمصلحتهم ، توسيع بسط سيطرتهم . وكانت هذه ، احياناً، حال بعض اصحاب القصور الذين تحكمت حصونهم بالطرقات الكبرى او بسوق تجارية أو بمدينة مزدهرة ، والذين جنوا مكاسب هامة من الضرائب التي فرضوهـا على مرور البضاعة وبيعها،واستطاعوا ارساء دعائم امارتهم الصغيرة. ولكن الحركة امنت الربح الوفير، في الدرجة الاولى ، للملوك ولورثة المناصب الكبرى في القرون الوسطى الأولى الذين مارسوا سلطتهم الجبائية على مناطق فسيحة وتمتعوا من جهة ثانية بوجاهة كافية ، واعتمدوا وسائل عمل ذات فعالية كافية أيضاً للحصول من المتمولين على قروض بشروط حسنة جداً .

٢ - رسوخ أركان الملكيات

يتضح من ثم ان انتشار الاقتصاد النقدي، يضاف اليه اطراد سهولة العلائق بين البشر وبروز الأفكار الجديدة التي بثها التعمق في دراسة الحق الروماني ، كان احد الاسباب الرئيسية للتبدل الذي نشاهده، بين منتصف القرن الثاني عشر واوائل القرن الرابع عشر،في نظام الغرب السياسي: فقد حلّت محل تلك الكتلة الواحدة الكبرى ، التي لم تتميز عن المسيحية اللاتينية ، والتي تألفت من خلايا صغيرة مستقلة كثيرة العدد ، هي السيادات ، ملكيات كبرى متميـزة ، هي الصور الاولى لدول اوروبا المعاصرة . بيد ان هذا التبدل قـد ارتدى ، بحسب المناطق ، مظاهر على بعض التباين .

الملكية الفرنسية

ليس من ريب في ان تجمع السلطات قد تم بمزيد من الاعتدال والاستمرار في مملكة فرنسا على الرغم من انها قاست أكثر من غيرها من الانحلال الاقطاعي . فقد كان فيها للملكية مركز مرموق منذ منتصف القرن الثاني عشر. وحدث خلال ستة اجيال متعاقبة ان الملوك لم يرزقوا سوى ابن واحد ، فساعدت هذه المصادفة ، في الدرجة الاولى ، على ارساء مبدأ الوراثة في الملك تدريجياً ؛ وبفضل هذه المصادفة ايضاً ارتبطت الثروة العقارية العائدة للسلالة الكابيتية ارتباطاً ممتنع الانفصال بالتاج ، فأعطته مرتكزاً سيدياً ثابتاً ، على ما يتسم به من تواضع . فمنذ السنة ١٠٨٠ تقريباً ، توصل الملوك ، الذين أحاطوا هذه الاملاك بكل عنايتهم ، الى تخليتها سليمة ، وموسعة احياناً ، الى وريثهم ، وسعوا من جهة ثانيـة ،

داخل حدودها ، الى اخضاع الأسياد العلمانيين لسلطتهم . وحوالي السنة ١١٦٠ ، حين أخذت القوى الاقتصادية المتفاعلة تشجع ، في كافة أنحاء فرنسا، قيام سيادات اقليمية ليست دون املاك الكابيتين اتساعاً ووحدة ، صمم هؤلاء على تخطي حدود الـ «ايل دي فرانس» . فأخذت السلطة الملكية منذ ذاك الحين ، وطوال قرن ونيف ، تتمكن وتتقوى ، ولكنها لم تتغير في جوهرها ولم تفقد الطابع الخاص الذي طبعت به في ظل النظام الاقطاعي .

كان ملك فرنسا، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً عقارياً وسيداً حاكماً مطلق التصرف. وقد ألفت هذه الامتيازات الخاصة المعقدة ، التي يستحيل حصرها في اطار واضح الحدود ، ما اطلق عليه بالضبط اسم « التراث » . فاستفاد لويس السابع وفيليب اوغست ولويس الثامن والقديس لويس من كل سانحة لتوسيع هذه السيادة : الفتح العسكري ، او الصفقات الحقيرة ، او التطاولات التي أضفى عليها العرف ، شيئاً فشيئاً ، صبغة قانونية ، او سياسة المصاهرات ، او حماية المؤسسات الدينية مقابل الاشتراك مناصفة في ممتلكاتها ؛ وحققوا هذا التوسع احياناً بضم مساحات كبرى الى تراثهم (كضم دوقيـــة نورمنديا في السنة ١٢٠٤ ، وقد كانت أهم من الامارة الكابيتية الاولى) او بمكاسب صغيرة متعاقبة كثيرة ليست دون الضم فعالية ،وان حصلت في الخفاء او بتقدم تدريجي بطيء . وقد سعى الملوك في الحقيقة ، من وراء هذه المكاسب ، الى تجميع الكفاف من الاراضي لتأمين المال اللازم لانعاماتهم والاقطاعات لأبنائهم غير الابكار ، فلم يهتموا لاقتناء سيادة شخصية واسعة الاطراف اهتمامهم لمستقبل أنسالهم ولضمان اخلاص اصحاب الأخاذات ؛ وقد اعترفوا في قرارة أنفسهم بأن املاك الملـــك ، المعدة لتأمين معيشة البلاط والمحاطة بامارات تابعة ، لا يجب ان تسير في توسع لا نهاية له . ومع ذلك فان التراث الملكي ، بفضل المصادفات السلالية ومبادهات العملاء الملكيين الجادّة ، قد شمل ، طوال السنة ١٢٧٥ ، القسم الاكبر من المملكة ، فغدا الناس لا يميزون بين املاك الملك والسيادات العلمانية الصغيرة الداخلة فيها وممتلكات الكنائس الملكية ، ويعاملونها المعاملة نفسها . ولم ينبع من التوسع الكابيتي آنذاك سوى أربع امارات قامت عند حدود المملكة وتوطدت دعائمها بعد تطور داخلي شبيه بذاك الذي أتاح توسع سيادة الملك وألفت كيانات ذات طابع خاص تميزت عن فرنسا الملكية بلغتها احياناً وباعرافها وذهنيتها ابداً : فلاندر ، غويان ، بورغونيا ، بريتانيا .

وكان ملك فرنسا من جهة ثانية ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً اقطاعياً ، وقد أعطاه مجموع الاراضي الخاضعة له حق الاستفادة من خدمات شخصية يؤديهـــا له بعض اصحاب الاقطاعات . فسعى الكابيتيون كذلـــك وراء استغلال هذا الوضع ، واستخدام التفاني الذي يفرضه الاقطاع – والذي اعتبر في ولايـــة القديس لويس نفسها خير وسيلة مضمونة لاستمالة الاشراف – وتنظيم العلائق الاقطاعية داخل المملكة بحيث يتألف منها شبه هرم يكون التاج رأسه الوحيد ، على ان يشمل كل الاراضي النبيلة التي لم تدخل بعد في الاراضي الملكية . ولعـل هذا الهدف تراءى لهم بمزيد من الوضوح بعد ضم نورمنديا التي ارتدت الانظمة الاقطاعية فيهـا

طابعاً خاصاً من التنظيم والوحدة . اجل ، لم يتوفقوا قط الى تحقيق هدفهم تحقيقاً كاملا . ولكن فرنسا ، حيث كانت معظم اراضي الفرسان أملاكاً خاصة بحتة ، وحيث الف الاتباع جماعات محلية صغيرة غير وثيقة الارتباط ، قد سارعت ، بفعل عملهم وعمل اسياد الامارات الاقليمية الموازي له ، الى اتباع النظام الاقطاعي ، فخضعت الطبقة العليا كلها لنظام من العلائق الشخصية والعقارية بات متلاحماً ومتجهاً بكليته نحو شخص الملك . فأقرّ في الدرجة الاولى المبدأ القائل بأن الملك لا يقدم خضوعه لأحد ؛ ثم حصل الملك تدريجياً ، اما عنوة ، بعد حملة تأديبية ضد سيد سجس ألحق الضرر بكنيسة يحميها الملك ، واما بشراء امتيازات احد الاشراف المدنيين في هذا القصر من قصوره او تلك الارض من اراضيه ، على خضوع كافة الاشخاص البارزين في المملكة الذين لم يخضعوا له بعد. وقد سعى بصورة خاصة الى ان يدخل في تراثه الحصون وأعظم الحقوق مرتبة وأوفرها كسباً ، ودعا مرؤوسيه المباشرين من رجال الاقطاع الى ان يستميلوا اليهم بهذه الطريقة اشراف الجوار من المرتبة الثانية . وحرص الملك وعملاؤه اخيراً على الاستفادة من تفوق السيادة ؛ ولما كانت هذه الاقطاعات جديرة بأن « تخدم » ، فقد غدت الموجبات الاقطاعية آنذاك موضوعية وملزمة مع انها لم تزل ، في معظم المقاطعات ، مستبهمة ومتقلبة : خدمة السلاح وخدمة البلاط ، والمساعدة المالية ايضاً ، وقد اوضحها العرف في بعض الظروف ، ايضاحاً تاماً ؛ وحق الاقطاع المجدد ، كلما حمل اللقب شخص جديد ؛ وخصوصاً قدرة مساعدي الملك على التدخل في السيادات المستقلة ، واستخدام الحصون « المنتجة » ، والنظر في دعاوى الدرجة الثانية والتلاعب بروح العرف الاقطاعي لاكتداد صاحب الاقطاعة . فأثبت النظام الاقطاعي ، يطبقه امير يقوي مركزه استمرار توسع املاكه ، بينما اضعفت الصعوبات المالية العدد الاكبر من الاشراف ، انه اداة ذات فعالية نادرة . وقد استخدمه فيليب اوغست حتى ينتزع من « جان سان تير » تابعه خير ممتلكاته في فرنسا ؛ وحين ضحى القديس لويس بشطر من فتوحاته الحديثة ، بغية حمل هنري الثالث ملك انكلترا على الاعتراف به سيداً عليه بالنظر لممتلكاته في اليابسة ، كان مقتنعاً بأنه انما يقوم بصفقة رابحة ؛ وان في المصير الذي انتهت اليه دوقية غويان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، التي انكمشت رقعتها باستمرار بفعل مصادرات متعاقبة تليها ردود ناقصة ، انه كان مصيباً في اعتقاده .

أفضى توسع سلطة ملك فرنسا الخاصة ، السيدية والاقطاعية ، الى توسع اجهزة الادارة . كانت هذه الاخيرة ، في القرن الثاني عشر ، بدائية جداً : فالملك ، شأن أي صاحب قصر آخر ، يلجأ ، لمساعدته على ادارة ثروته العقارية واعمال حكمه ، الى اهل بيته او « نزله » ، أي انسبائه وخدامه وبطانته ؛ وان هذا الجمهور الصغير ، الذي انضم اليه ، بين حين وآخر ، اصحاب الاقطاعات الآتون لتأدية واجب المشورة ، هو ما الف « بلاط » الملك . واستخدم الملك اخيراً ، بغية المحافظة على مركزه في السيادات التي تؤلف تراثه وممارسة حقوقه فيها وجمع دخوله منها ، مأمورين من اصل وضيع ، هم الممثلون ، الذين يلتزمون وظيفتهم التزاماً بغية تبسيط عملية جمع

المال . وعندما توسع التراث في اوائل القرن الثالث عشر ، بات لزاماً على الملك تعيين ممثلين اضافيين أكثر امانة وارفع نسباً ، هم القضاة الذين اختار العدد الاكبر منهم بين صغار فرسان حاشيته . وتميزت في الوقت نفسه اجهزة الادارة المركزية . فبينما تنظمت شتى ادارات «نزل» الملك ، شيئاً فشيئاً ، وفي تواريخ يصعب تحديدها لأن قيامهـا كان تلقائياً دون ان تقره قوانين نظامية قبل القرن الرابع عشر، تفرعت عن البلاط ادارات ذات اختصاص ما لبثت ، تدريجياً، ان أصبحت مستقلة ودائمة : ادارة أسندت اليها شؤون القضاء وعرفت بـ « محكمة البرلمان » ، وأخرى انيطت بها رقابة الأموال الملكية ، وعرفت بـ « غرفة الحسابات » . غير ان الموظفين ، الذين دخلوا في خدمة الكابيتيين ، قد حفظوا من اصلهم الوضع الخاص ميزتين أساسيتين . فهنالك اولاً وحدة ذهنيتهم وثقافتهم : فلم يقم قط أي تميز او تعارض بين «النزل»،منبت الخدام، والبلاط ، وبين حاشية الملك واجهزة الحكومة . وهنالك خصوصاً الانقياد : فبعد مجموع مصالح البلاط الكبرى منذ اوائل القرن الثالث عشر ، بات كل رجال الملك وضيعي الاصل واستمدوا قوتهم من قوة الملك وحدها وبرهنوا عن انصياع تام وعن تفـان كلي في الدفاع عن الامتيازات الكابيتية . وهكذا فان سيطرة ملك فرنسا تعززت تعززاً عظيماً حوالي السنة ١٢٧٥ بفعل حركة يعود الفضل الاكبر في بعثها الى هؤلاء المساعدين . اجل ربما تعاظمت هذه السلطة بفضل المركز الفكري الذي احتلته باريس ، مدينة المدارس ، وقد غدت عاصمة الكابيتيين الحقيقية الدائمة ، ولكنها تعززت من جهة اخرى بالاشعاع الروحي القوي المنبثق عن الملك السابق ، القديس لويس ، الذي اهتم اكثر من اسلافه بالعدل ، اي بالفضيلة الملكيـة بالذات ، والذي كان اول ملك في سلالته وضع انظمة تشمل المملكة كلها في المجال الاخلاقي الصرف . وعلى الرغم من ذلك فما زالت سيطرة سيد اقطاعي توسعت سلطته الخاصـة حتى شملت معظم انحاء المملكة .

الا ان السلطة الملكية ، التي ما زالت تتوطد باستمرار ، اخذت في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، تتطور في جوهرها ، وذلك بفعل تأثير مزدوج . هناك اولا تأثير فكرة السلطة العامة التي بعثت حية في اعقاب الدراسات التي تناولت الحق الروماني منذ اوائل القرن . فان هذا المفهوم الجديد للسيادة ، الوثيق الصلة بالاقتناع بأن السلطان ، المستخدم « للخير العام » ، لا يمكن ان يكون ملكاً خاصاً، قد انتشر خصوصاً بفضل « قانونيي» القسم الجنوبي من الاملاك الملكية الذين تلقوا علومهم في مدارس «مونبلييه» . وهنالك كذلك تأثير اهل البطانة أنفسهم الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً عظيماً بفضل تعقد الادارة المتزايد واطراد استخدام الكتابة: فقد نشأت طبقة جديدة آنذاك ، هي طبقة ممثلي السلطة واهل القانون والقلم . ولما كان هؤلاء قـد عمموا مفهوم السلطة العامة ، مؤكدين ، بصيغ واضحة ، ان الملك وحده ، في حدود مملكته ، يتمتع بالسلطة الملكية ، بات لمجرد وجودهم اثره الهام ايضاً . فان هيئـة الموظفين الحاكمين ، المؤمنة جماعياً على سلطة اعتبرت آنذاك مثالية ومغفلة ، والباعثة الحياة في آلة ادارية امست

قادرة على السير بمجرد حركتها ، اخذت في تلك الايام تتفوق على شخص الملك نفسه : ولعل «فيليبله بيل» هو اول ملك فرنسي تدنى تأثيره على تسيير الشؤون العامة. وبينما اخذ الاحتفال بتكريس الملك يفقد الكثير من اهميته اخذت السلطة الملكية ترتدي طابعاً اشد تجرداً وابهاماً

ان هذا المظهر الجديد للسلطة المطلقة ، المتفوقة على كل سلطة اخرى والمختلفة في جوهرها عن سلطة الاسياد ، ساعد التأثير الملكي على احراز تقدم جديد . فقد تهيأ الناس شيئاً فشيئاً للأقرار بان للملك ، الذي يعمل بعد اليوم للخير العام ، ويعبر عن ارادة المجموع بحسب المبادىء التي استقتها الفلسفة الكلامية من مؤلفات ارسطو السياسية ، ويدعو احياناً ممثلي الطبقات المهيمنة في المملكة كي يعرض عليهم الاسباب الموجبة لقراراته ـ ذاك كان الهدف من استشارات السنوات ١٣٠٢ و١٣٠٨ و١٣١٤ ـ الحق في ان يوجب على رعاياه ، خارج نطاق املاكه او نطاق العلائق الاقطاعية ، الخدمة العسكرية او ضرائب نقدية تقوم مقامها . غير ان التقدم ، بصدد هذه النقطة الاخيرة ، كان في الحقيقة بطيئاً : فان الرأي القائل بان للملك الحق في فرض الضرائب ، بالاضافة الى دخول سيادته العادية ، لم يكن غالباً قط في اوائل القرن الرابع عشر . ومرد ذلك الى ان الاجهزة المالية في المملكية ما زالت ابتدائية في عالم لعب المال فيه دوراً متعاظم الاهمية وفي الوقت الذي انتشر فيه دفع المرتبات في الجيش الملكي وأحلّ الارتزاق المأجور محل الخدمات الاقطاعية .

انكلترا

في كثير من الامارات ، كفلاندر ، وبورغونيا ، والغوبان في داخل مملكة فرنسا ، وبرونسا او هينو عند حدودها ، تعززت السلطة بالطريقة وبالسرعة نفسها تقريباً ، اي بتوسع الاملاك وتمدد اجهزة الادارة وتوطيد السيادة بفضل القانونيين . ولكن التطور لم يتم دائماً في زمن واحد . فهو قد تأخر في مناطق اسبانيا المسيحية التي نجت من خطر العرب منذ اوائل القرن الثالث عشر وسارت في طريق التوحد حول تاجي قشتالة واراغون لأنّ السلطة الملكية فيها كبحتها ارستوقراطية دوستها معارك استعادة البلاد وحدّدت منها قوة الامتيازات المحلية وخضعت لرقابة جمعيات الممثلين القانونية . ولكنه كان مبكراً وحثيثاً في مملكة صقلية حيث استطاع « فردريك الثاني دي هوهنستوفن » ، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي بيئة تميزت بانقيادها وطواعيتها ، تنظيم سلطة ملكية واسعة الصلاحيات ترتكز الى ادارة تسلسلية مخلصة جداً ، وتسيطر على الكنيسة نفسها حيث تتصرف بموارد جبائية وافرة . واتجه التطور اخيراً ، في انكلترا والامبراطورية ، اتجاهاً آخر مختلفاً تماماً .

افضى الفتح في المملكة الانكليزية الصغيرة الى اقامة نظام تبعية اقطاعية ومشاركات زراعية على الطريقة النورمندية يخدم مصلحة الملك ولا يتساهل ، باستثناء الحدود العسكرية في الشمال والغرب ، بقيام امارات اقطاعية متراصة . بعد ان كبح الفاتح جماح الارستوقراطية الانكلو-نورمندية ، حاولت هذه الاخيرة الاستفادة من المنازعات السلالية التي عقبت موت هنري الاول (١١٣٥) ، بغية الحصول ، على غرار ارستوقراطيات اليابسة ، على استقلال حرمت منه :

فاستولت على شطر هام من الاملاك الملكية واستأثرت بالقصور وشيدت حصوناً جديدة واوجدت سلطات اقليمية اعظم تلاحما. ولكن هذه الحركة كانت سريعة الزوال. بيد ان اصلاح الملكية، الذي مهد له هنري الثاني بلانتاجنيه في السنة ١١٥٤، قد تم بمزيد من السهولة، لا سيا وقد ابقي على معظم انظمة العهد السكسوني الاساسية التي جمعت الشعب كله، بفعل جمعيات الكونتية والمئات المحلية، في ظل « قانون مشترك »، هو قانون الملك، يؤمن لهذا الاخير، في احوال الغزو، وبحسب الكيفيات التي نصت عليها اتفاقية الاسلحة في السنة ١١٨١، الخدمة العسكرية المفروضة على كافة الرجال الاحرار الذين ينضم اليهم، عند الحاجة، الاتباع الخاضعون لتجنيد الزامي ايضاً. لهذه الاسباب، وعلى الرغم من ان الملك المفتقر الى املاك واسعة والحريص ايضاً على الاستفادة من حق المأوى، لم يقم اقامة دائمة في عاصمة واحدة، اتيح للسلطة الملكية فيها ان تنطلق دون ان يعيقها عائق. والدليل على انطلاقها المبكر أن أجهزتها الرئيسية توطدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر: ممثلون محليون، مأمورو أحكام مدنية، يعملون بسلطة الملك، وقضاة يقومون بجولات دورية، واداة رقابة مالية، هي رقعة الشطرنج، ومحكمة قضائية مركزية ما لبثت ان تجزأت محكمتين، احداهما ثابتة (المحكمة المشتركة) والثانية متجولة ترافق الملك (محكمة الملك)، فاعطى كل ذلك المملكة هيكلا متيناً. وكان هنري الثاني وريكاردوس قلب الاسد اعظم ملوك عهدهما اطلاقاً، واستطاعا وحدهما منذ ذاك العهد الاعتماد على تفاني وغيرة موظفين محترمين، « كتبة الملك »؛ وكانا اوسع ملوك عهدهما ثروة ايضاً لانهما استثمرا، الى اقصى حدود الاستثمار، حقوقهما الاقطاعية ومكاسبهما القضائية. ولكن شدة هذه الاعباء نفسها، التي ناءت بثقلها على اسياد عقاريين عززت نزعتهم الاقتصادية مركزهم - بينما هي قد اذلت الاشراف في فرنسا - جعلت السلطة الملكية، على نقيض سلطة الكابيتيين، تميل الى الانكماش والحصر. وحدث مرتين خلال القرن الثالث عشر ان ارغم اوسع اتباع الملك ثروة، البارونات، تساندهم الكنيسة، على الحد من ادعاءاته؛ لا بل حدث مرة في السنة ١٢٦٤، انهم اخذوا على عاتقهم ادارة شؤون المملكة طيلة اشهر عدة. ووضعت وثائق خطية، كميثاق السنة ١٢١٥ الذي تأيد تكراراً، اظهرت بجلاء الحدود النظرية لتحكم ملكي استحالت ممارسته دون رضى علية الاشراف ومساعدتهم. اضف الى ذلك اخيراً ان القوة الجديدة التي استمدتها جمعيات الكونتيات من اثراء الفرسان، تلك الطبقة العسكرية التي بات افرادها اعياناً ميسورين وولاة محليين، جاءت بدورها تزيد الطين بلة في الحد من بطانة الملك وممثليه، باحتفاظها للمأمورين الذين تنتخبهم هذه الجمعيات، اي لجماعة من الفرسان المحلفين، بادارة العديد من الشؤون، ولا سيا المحافظة على النظام. بيد ان ما يجدر لفت النظر اليه هو ان تضامن البارونات والجماعات المحلية في ممارسة السلطة قد حققت، بين الامة والملك، وحدة لا مثيل لصفاوتها في اي مكان آخر. واذا كان الملك حاذقاً وشعبياً، توفرت له وسائل عمل قوية.

كانت هذه حال ادوارد الاول في الربع الاخير من القرن الثالث عشر. فقد كان اول ملك

انكليزي الاسم منذ الفتح ، ان لم يكن انكليزي النزعة ، وملكا ظافر توصل بفضل ضم بلاد الويلز وحملاته العسكرية في سكتلندا ، الى الحد من دور وتأثير عظام البارونات في اطراف المملكة ، فقام باستقصاءات واسعة للحفاظ على الحقوق الملكية أو استعادتها ، في أطار العلائق الاقطاعية ؛ واستفاد في الحكم من خدمات قصره المتميزة بالسرعة والمرونة ووسع بصورة خاصة اجهزة « الصوان » المالية . واستفاد كذلك من انطلاق التجارة ، فوجد موارد وافرة في استثمار الجمارك ولا سيما الرسوم المستوفاة على استيراد الخمور وتصدير الاصواف والجلود ، وعقد قروضاً ضخمة لدى رجال الأعمال المقيمين في لندن . فاستطاع بذلك ، الا في بعض فترات الشدة ، تمويل سياسته دون أن يثقل بالاعباء مملكة تفتقر الى الثروات الكبرى . وغالباً ما أمر أخيراً ، رغبة منه في ابراز الجلالة الملكية بكل سناها ، باجتماع مجالس الممثلين ومجالس البارونات ، وجمعيات اصحاب الاتحادات المكلفة مساعدة الملك على توزيع العدل ، « والمجلس المشترك » الذي يقر الاعتمادات التي يطلبها الملك، وفرسان الكونتيات وبورجوازيي المدن الناشئة . وباستطاعتنا القول ، بعد كل اعتبار ، ان الملكية الانكليزية ، وان مرت في فترات عاكست مصالحها واضطرت الى تراجعات غير ذات نتيجة ، لم تكن في اوائل القرن الرابع عشر دون ملكية فرنسا متانة ورسوخاً .

مناطق الامبراطورية

اما السلطة الملكية فقد اذلت اذلالا تاماً في الامبراطورية آنذاك . ومع ذلك فان احياء الحق الروماني والعلائق الوثيقة ببيزنطية وشخصية فردريك بربروس نفسها قد عززت المفهوم الامبراطوري تعزيزاً قوياً . اجل لقد تلابست آنذاك الامبراطورية والملكية الالمانية بحيث كاد مسح الامبراطور من قبل البابا يعتبر مجرد اجراء طقسي واخذ امراء جرمانيا يعتقدون بانهم هم الذين ينتخبون الامبراطور فعلاً ، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقليد الكارولنجي ، كما ابرز ذلك اعلان قداسة شارلمان في السنة ١١٦٥ ،واختارت « إيكس لا شابيل »والمناطق الرينانية مركزاً لنشاطها ،ولكن الامبراطورية، مع ذلك ، بدت وكأنها امتداد مباشر لامبراطورية الرومانيين التي مجد قانونيو بولونيا عظمتها الفريدة وطابعها المقدس . وفي الوقت نفسه الذي اعلن فيه الامبراطور اوغسطوس ، في ممالك جرمانيا وايطاليا وبروفنسا ، عن حقه في الامتيازات المطلقة ، كان يستخدم الانظمة الاقطاعية لتوسيع سلطته . وقد طالب اخيراً ، على غرار اسلافه ، بالسيادة على العالم ، اي بادارة كافة الدول المسيحية ، وبمراقبة البابوية على الطريقة الكارولنجية ، وبالسلطة الادبية على ملوك الغرب الآخرين المعتبرين تابعين للامبراطورية . وسعى هنري السادس ، في الواقع، الى بلوغ هذه السلطة بواسطة العلائق الاقطاعية ، ظفر بخضوع ملوك قبرص وانكلترا ، وحاول الظفر بخضوع فيليب اوغست .

غير ان هذا البناء الساحر ما عتم ان انهار لانه لم يقم على اسس متينة . فالملكية الالمانية التي كانت بمثابة ركيزة للامبراطورية قد افتقرت الى الاستقرار والعزيمة : ومرد ذلك الى انها

كانت ملكية غير وراثية لضعفها ، بمناسبة كل خلافة ، التنازلات التي يضطر الملك المنتخب الى القبول بها لمصلحة العظماء كي ينتخبوه ، وملكية دون املاك ، هائمة ، منتشرة في كل مكان وغير ثابتة الاركان في اي مكان . فكان متعذراً عليها والحالة هذه الاحتفاظ بنفوذها على المملكتين الاخريين. فالى الغرب من جبال جورا والالب، لم تكن السلطة الامبراطورية آنذاك سوى كلمة لادلالة لها ، وقد امسى تأثيرها السياسي دون التأثير الفرنسي بمراحل . وكان لزاماً لاحكام سيادتها على ايطاليا ، الجوحة ، الوافرة المدن ، اهمال الارياف الجرمانية ، وتخلى الاباطرة الالمان كذلك عن ادارة عملية التوسع نحو الشرق التي تمتبدونهم لمصلحة امراء الحدود. ثم اتجهت الامبراطورية تدريجياً شطر الجنوب: فقد رغب هنري السادس، سيد صقلية، في السيطرة على المتوسط، كما صمم ابنه فردريك الثاني على تشييد سلطته في روما. اضف الى ذلك ان مطالبات ملك المانيا ببسط سلطته على كافة الدول المسيحية اثارت معارضات ضارية قضت في ايطاليا وجرمانيا على ما تبقى له من سلطة حقيقية . فقامت معارضة الممالك الغربية حيث اخذت تنضج الفكرة القائلة بان الملوك ، وهم اباطرة في ممالكهم ، لا يمكن ان يرتضوا باية وصاية : وهكذا فان فردريك الثاني ، الذي سبق له وتخلى عن كل حق حماية مراعاة منه لشعور غيره قد فشل فشلاً ذريعاً عندما دعا ملوك الغرب لتأليف مايشبه وحدة روحية تكون بمثابة حلف يقاوم الهرطقة وادعاءات الكنيسة الزمنية في آن واحد . وقامت معارضة اشد نضالية نهضت بها البابوية المتمسكة تمسكاً متزايداً بأولويتها الروحية .

زالت الامبراطورية اذن ، كنظام ، في منتصف القرن الثالث عشر ، حين عجزت عن التغلب على هذه العقبات الكثيرة ، ولم يعرف الديمومة ، كحلم وحدة وسلام ، سوى المثل الامبراطوري الذي أحياه تيار فكري مسيحي غذته مؤلفات الكاهن الايطالي « يواكيم دي فلور » ، وقوّته في الآونة الاخيرة أبحاث عقائدية وضعت بايعاز من فردريك الثاني أثناء صراعه مع البابا . وقضى هذا الانهيار على الوحدة التي ربطت ايطاليا بالمانيا وأحدث في المناطق التي كانت خاضعة خضوعاً مباشراً للامبراطور تقهقراً سياسياً عميقاً ، اذ انه ، على نقيض ما حدث في الممالك الاوروبية الغربية المتلاحمة ، أدى بها الى التجزئة والمنافسات . ففي المانيا عرفت السلطة الملكية الذل والهوان خلال فترة شغور العرش التيعقبت موت فردريك الثاني وتجاوزت عشرين سنة وتميزت بأعمال العنف والحروب الأهلية واستباحة السلب في املاك الملك وامتيازاته وتوطد السلطات المحلية في ظل الفوضى الشاملة . فباتت هذه الدولة من ثم مجموعة امارات مستقلة استأثرت بكافة الامتيازاتالملكية اما اغتصاباً واما بفضل الامتيازات الخاصة التي منحها فردريك الثاني والمطالبون بالعرش من بعده . وكانت هذه الامارات في الشرق متراصة وواسعة الرقعة بينما هي كانت في الغرب متشتتة ومتناثرة جداً ، لا سيما في وادي الرين ؛ وقد أفسحت مكاناً للمدن الحرة الداخلة في اتحادات تستهدف الدفاع السياسي ، كما أفسحت احياناً ، في جبال الالب ، مكاناً لطوائف مستقلة من الجبليين اخذت في سويسرا تؤلف الاتحادات .

وعرفت ايطاليا الامبراطورية تجزؤاً أعظم في السلطات التي توزعت على بعض الامارات الاقطاعية وراء الالب ، ولا سيما على المدن . ولكن التكتل البورجوازي ، الذي ما زال قوياً في توسكانا ، والذي اخذ – وهذه ظاهرة من ظواهر شمول انتصار المبدأ الملكي – يتوارى في لومبارديا امام قوة « مستبد » يتولى « السيادة » هو الذي عاد اليه السلطان وكافة الحقوق التي أحيتها دراسة التشريع الروماني ، وخضعت له الارياف المجاورة . ولكن خلافات دائمة قامت بين هذه المدن المتنافسة تجارياً، وحتى بين جماعات المدينة الواحدة احياناً حيث تباينت مصالح الاشراف والأثرياء وصغار الصناعيين فتجمعوا فئات متخاصمة متزاحمة . في هذه البيئة المضطربة بالذات، وبين المبعدين الذين تاقوا في منفاهم الى وطنهم السليب، استمر الامل الوطيد بالامبراطورية، أي امبراطورية رومانية حقاً متملصة من التأثير الجرماني .

وهناك اخيراً ادعاءات البابوية بادارة العالم السياسية ، وقد تعاظمت بفعل انهيار السلطة الامبراطورية نفسه . فقد رسخت عقيدة الأولوية البابوية في مقاومتها فرض الامبراطور سيطرته على العالم المسيحي وعلى الكنيسة ؛ وقد وجدت عضداً لها في الانظمة الاقطاعية وفي المفهوم الجديد للسلطان كما جاء في مجموعة القوانين *Corpus Juris* . وفي القرن الثالث عشر اعتمر البابا تاجاً ثانياً دلالة على تفوقه . ثم قام انوشنتيوس الثالث بمشروع يقابل مشروع الامبراطور هنري السادس، فبذل الجهد كي يؤلف حول الكرسي الرسولي شبكة واسعة من التبعيات الاقطاعية كان من شأنها ان تجمع وراء الكنيسة الرومانية كافة ملوك العالم المسيحي ؛ وقد امست أراغون ، وبلغاريا ، وسيادة سيمون دي مونفور في لنغدوك، ثم مملكة انكلترا ، اقطاعات تابعة للكنيسة وبرهنت عن خضوعها بدفع فريضة سنوية . وقر الرأي شيئاً فشيئاً على ان الامبراطور نفسه صاحب اقطاعة خاضع للبابا ؛ واستند البابا بونيفاسيوس الثامن ، في ابهة يوبيل السنة ١٣٠٠ ، الى اطروحات جيل الرومي وجاك الفيتربي التي بنيا فيها مذهباً متراصاً من آراء القانونيين حول السلطة البابوية ، فاحتفل بسلطة اسقف روما، المرشد الوحيد للشعب المسيحي زمنياً وروحياً.

الا ان هذه الادعاءات جاءت متأخرة في الواقع . فلم يكن باستطاعة البابا ، كما لم يكن باستطاعة الامبراطور، ان يفرض حمايته على الدول التي تقاسمت اوروبا آنذاك . وكان من شأن هذه التأكيدات إثارة عدد متزايد من اولئك الذين تأثروا بتحذير المؤلفين السابقين ، ابتداء من القديس برناردوس ، للحبر الاعظم ، من مغريات السلطة ، واعتبروا ، بفعل الدعاوة العنيفة التي يشنها المناضلون في خدمة فردريك الثاني ، ان البابا انما يتنكر لرسالته الحقيقية بسعيه وراء السيطرة الزمنية . فالعالم المسيحي الذي توحد في العهد الاقطاعي وفي الحملات الصليبية الاولى قد تجزأ في الواقع نهائياً . وقد احدث هذا التجزؤ نفسه ، وتعزز السلطات العلمانية من جهة ، والتطور الاقتصادي من جهة اخرى ، وتعاظم قوة المال وما انتهى اليه من تحوّل في الاخلاق، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، قلقاً متزايداً داخل الكنيسة .

٣ - تعرض وحدة الكنيسة للاخطار

بيد ان السلطة الملكية قد تعززت باستمرار في الكنيسة ، كما تعززت في الممالك الغربية وامارات المانيا الشرقية والسيادات المدنية في ايطاليا الشمالية ، بفضل الصراع نفسه الذي جعلها تبدي تلك المقاومة الطويلة في وجه السلطات العلمانية بمناسبة التوليات اولا ، و « السيطرة على العالم » ثانياً . فقد جعل توسع الحق القانوني من اسقف روما ، الذي نظمت المقررات المجمعية انتخابه تدريجياً ، المشترع الاعظم في العالم المسيحي ؛ ومعصوماً عن الخطأ ، لان « حكم البابا وحكم الاله حكم واحد » كما اعلن ذلك في اوائل القرن الرابع عشر مؤلف وضع بحثاً حول الاولوية البابوية . وكما ان الاجهزة المركزية في الملكيات الزمنية قد تميزت وفُرّق بينها تدريجياً، كذلك توزعت الشؤون الكنسية على لجان مختصة من الكرادلة الذين تعاظم شأنهم تعاظما مطرداً، والذين استلموا في منتصف القرن الثالث عشر شارة مميزة هي القبعة الحمراء . وقد تزايدت هذه الشؤون في الواقع تزايداً مطرداً ايضاً: التدخلات المتعددة في تعيين الاساقفة، والدعاوى القضائية المتكاثرة المقامة امام محكمة روما . وتوسعت اخيراً ، خلال القرن الثالث عشر ، الاجهزة المالية التابعة لهذه السلطة المتعاظمة : فبينما طولب بشدّة آنذاك باعفاء رجال الاكليروس من الموجبات الجبائيـة الزمنية فرضت رسوم على الكنائس والمستفيدين من الارباح وفرت موارد نقدية شعرت البابوية، على غرار السلطات العلمانية، بالحاجة اليها . فساعدت هذه المركزية وهذا التقدم في الجهاز الاداري على غرار ما حدث في الدول الاخرى ، على تلاحم الكنيسة ووحدتها .

القوى المعادية

الا ان هذه المركزية اصطدمت بنزعات معاكسة قوية جداً حرّكت جمهور الشعب المسيحي نفسه . فبصرف النظر عن التطور السياسي العامل على خلق الحواجز والمهيب بالامراء وسكان المدن، الغيارى على امتيازاتهم، الى مقاومة الحصانات الكنسية ومقاضاة رجال الاكليروس واخضاعهم واستغلالهم اسوة بغيرهم من الرعايا – وان في موقف الملك حيال رجال الكنيسة ، منذ القرن الثاني عشر ، في انكلترا ، حيث بلغت السلطة الملكية مرحلة النضج قبل غيرها ، لمغزى عظيما في هذا المجال – قامت حوالى السنة ١١٥٠ ، بتأثير من تقدم الحضارة نفسه ، ثـلاث حركات تناهض النظام الادبي والفكري والروحي الذي فرضته الكنيسة الرومانية بوسائل اعظم قوة .

فهنالك، في الدرجة الاولى، تزايد التهافت على ملذات العالم، وهو نتيجة مباشرة لتحسن ظروف المعيشة ونموّ العلائق بين الناس . فان ميل الفرسان الى الاجتماعات العالمية ، الذي ظهر منذ اواخر القرن الحادي عشر في فرنسا الجنوبية وفي بروفنسا وتسرب تدريجياً الى كافة انحاء اوروبا خلال القرن الثاني عشر، وارتقاء الامرأة في مجتمع الاشراف، وانتشار تلك الآراء واللياقات التي اطلق عليها اسم « الأنس » واستهدفت الحبة قبل اي شيء آخر وخدمة السيدة المختارة، خارج انظمة

الزواج المسيحي ، واطراد التفخل في الملذات على انواعها ، كل ذلك صرف افراد الطبقة العليا تدريجياً عن المفاهيم والموجبات التي فرضتها الكنيسة وافضت رويداً رويداً الى نوع من التبدل في القيم الاخلاقية . فنشأت من ثم في هذه الاوساط محبة للعالم ظهرت اولا في القصائد الغنائية للفرسان الفرنسيين في اواخر القرن الثاني عشر وفي الاطراء البريء للبهجة الدنيوية وادّت اخيراً الى الخشية من الموت الذي لم يعد ينظر اليه كنهاية السفر وبداية الافراح الصافية ، بل كانتزاع وحرمان ؛ ومما يؤيد هذه الخشية ، في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، التغيير الذي طرأ على المواضيع التصويرية . اضف الى ذلك ان الرغبة في الكسب ، في اوساط التجارة – وغالباً ما رافقها عند البورجوازيين انحطاط كبير في الاخلاق – والحرص على جني الارباح من البيع والاقراض ، لم يأتلفا تماماً مع ممارسة المحبة . وهكذا فقد افضى التقدم المادي ، عند رجال الاكليروس وعند العلمانيين على السواء ، الى التنكر الصريح للتعاليم المسيحية .

وهنالك ، في الدرجة الثانية ، تقدم العلوم العقلية النظرية . فان الاداة الجدلية التي استنبطت في النصف الاول من القرن الثاني عشر استخدمت بعد ذلك بحماس في عالم رجال الفكر وانتهت الى توجيه تفكيرهم توجيهاً كلياً . ولعل الحضارة الغربية لم تعرف حقبة أشد اهتماماً بالمنطق والبرهنة والنقاش والتبويب والتجريد من القرن الثالث عشر . وتفسر حمى هذه الابحاث النظرية اهتمام المفكرين المسيحيين وشغفهم بمؤلفات ارسطو التي نقلت تباعاً من العربية الى اللاتينية في اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثاني عشر . وكان من شأن اعادة العلائق الثقافية ببيزنطية – وهو حدث رئيسي في تاريخ ذاك العهد يسّره فتح القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، مع انه مدين في الدرجة الاولى لتقدم المواصلات بوجه عام ولتقلص المسافات – انها ادخلت مزيداً من الخلوص على مخالطة المذاهب الفلسفية السابقة للعهد الميلادي . وقد اعطت المخطوطات اليونانية بنوع خاص دروساً اعظم صراحة عن مؤلفات الستاجيري (ارسطو) بعد ان نزع عنها غشاء المفسرين المسلمين المشوه ، ومبنى أعظم سحراً ايضاً . واخذ اساتذة المدارس الباريسية حوالي السنة ١٢٢٥ ، يحذون حذو غليوم دوفارنيه في تطبيق اساليب الفلسفة العقلية على بحث المسائل اللاهوتية ، وهو اتجاه حاسم لعمري اذ ان العقل ليس سوى حرية الانسان واقفة امام « المراجع » وجرثومة استقلال في وجه الاقتسارات الفكرية . وقد زاد من اقلاق هذا الموقف ان الاساتذة والطلاب ، وكلهم من الاكليروس ، لم يجدوا بواسطته آنذاك منجاة من نظم الكنيسة القائمة . فمنذ اوائل القرن الثاني عشر اخذ رجال الفكر يقصدون بعض المراكز الكبرى حيث يجتمع خيرة الاساتذة وتتوفر افضل الكتب ؛ وهكذا تكونت ندوات الباحثين الاولى ، في بولونيا لدراسة القانون الروماني ، وفي باريس لتعليم الفنون العقلية والاستقصاء اللاهوتي . فزاحمت هذه المدارس ، المتميزة بمزيد من الحرية ، مدرسة الاكليروس المحلي ؛ ولم يعد باستطاعة الاسقف ورئيس ديوانه ، على الرغم من احتفاظهما بامتياز منح « اجازة التعليم » لاساتذة الغد ، مراقبة التعليم والفكر مراقبة فعالة .

وهنالك اخيراً نزعة اعم انتشاراً ورسوخاً في الطبقات الشعبية وعلى جانب كبير من القوة ، كما يبدو ، في عامة سكان المدن ، برزت اشد خطراً على الانظمة الكنسية ، مع انها كانت ، على نقيض النزعتين الاخريين ، عامل اثراء وتجديد للروحانية المسيحية . وقوامها تحـول عميق في الموقف الديني وممارسة التقوى يؤيده استمرار تلطيف المواضيع التصويرية الدينية وتفهمهـا وانتشار عبادة العذراء التي باتت آنذاك ، للعديد من النفوس ، محور الحياة الدينيـة ، والرواج الغريب الذي عرفته الروايات المزيفة المعطفة المنسوجة حول النصوص الانجيليـة ، وازدهار المأساة الطقسية التي كانت نقطة الانطلاق للمسرح الديني باللغة العامية . وقد سعت هذه الحركة الصوفية الطابع وراء التأثيرات العاطفية القادرة على ادخال مزيد من الحرارة على مجموع الطقوس التي تفرضها الكنيسة ، ووراء كل ما من شأنه ان يؤثر مباشرة على الحواس ويتيح للبسطاء من الناس الاتحاد ، بدون مداورة فكرية ، باله عطوف ومعزٍ ، فمالت من ثم طبعاً الى الحد من دور الكنيسة القائمة . والكنيسة القائمة هي بالضبط موضوع اللوم والتعيير بسبب تعلقهـا المفرط بالماديات ، اذ ان تطور العاطفة الدينية هذا كان في الواقع امتداداً مباشراً للجهود المبذولة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، اي منذ حدوث النهضة الحاسمة في الاقتصاد النقدي ، بغيـة احياء الفقر الانجيلي ضد رغبة الرؤساء الروحيين .

استهدف هذا التوق الاتحاد العاطفي المباشر بالمسيح ، باحتقار وساطة الاكليروس الغاطس في الزمنيات والمشغول بالشؤون الادارية ، واصلاح اجهزة المجتمع الديني اصلاحاً جذرياً . وقد افضى ، في اشكاله القصوى ، الى قيام نخبة مختارة من « الصالحين » المنحدرين من المجتمـع العلماني مباشرة ، « الانقياء » حقاً اي فقراء واطهار ، المكلفين ايصال الروح القدس ، بطقوس غاية في البساطة ، الى جمهور الشعب واقتياد هذا الجمهور نحو الخلاص بقراءة العهد الجديد عليـه بلغته الخاصة . عرفت هذه الحركة انتشاراً واسعاً وافضت في بعض النقاط ، خـلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، الى هرطقات شهيرة . نذكر منها « هرطقة الاطهار » الـتي سببت اضراراً بالغة في جنوبي مملكـة فرنسا ؛ ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تعاليمها ، وليس القول بثنوية مانوية ، تقيم اله الخير في وجه اله الشر ، سوى احد اشكالها المتطرفـة في الارجح الذي زاده تطرفاً الثائرون من اتباعها ؛ وهي قد جاءت متأخرة على كل حال وافسحت المجال لاقتباسات كثيرة ودخلت غربي اوروبا بفعل الاتصالات التي جرت حوالي السنة ١١٦٧ مع بعض الاحبار البوغوميليين في البلقان . وهي مدينة بنجاحها ـ الذي تجـلى باهراً لدى الفرسان الجنوبيين المنجرفين وراء الملذات الارضيـة – لتقشف رؤسائها المسؤولين الذين تحملوا وحدهم ، على نقيض الاكليروس الكاثوليكي الفاسد ، اعباء الموجبات الاخلاقية القاسية وسمحوا لجمهور المؤمنين بالاشتراك بسلام في افراح العالم . ونذكر هرطقة اخرى هي « الفالدية » التي كانت في البدء شيعة فقراء اقتفوا خطى احد بورجوازيي ليون وحرموا انفسهم من ممتلكاتهم بغيـة التوفيق بين حياتهم وحياة المسيح ؛ اصطدمت هذه الحركة الانجيليـة المصدر بمعارضة الرؤساء

الروحيين حين اراد اتباعها العلمانيون، حوالي السنة ١١٨٠ ، الاستغناء عن الكهنة وادّعوا حق تفسير نص العهد الجديد بعد ان أمنوا ترجمته ، وطالبوا كذلك بحق الوعظ ؛ ولكنها في الارجح حركة استجابت لرغبات عميقة اذ انها ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، ما لبثت ان انتشرت انتشاراً سريعاً جداً غربي وشرقي جبال الالب .

رد الفعل البابوي

كانت الكنيسة من ثم مهددة بخطر فقدان الاخلاق ، ورقابة الفكر ، ورسالتها نفسها،أي دورها كوسيطة بين البشر والاله. ولكن مقاومة هذه التيارات الثلاثة جاءت قوية تحت ادارة الكرسي الرسولي المتوطدة وبفضل كافة الموارد التي أمّنها تنظيم الكنيسة الجديد . فبغية استعادة تأثير الكنيسة على سلوك النبلاء مع النساء ، استمر في الدرجة الاولى المجهود الذي بذله رجال الاكليروس منذ منتصف القرن الحادي عشر لطبع طقوس وذهنية الفرسان بالطابع المسيحي وجعل هذه الطبقة العسكرية « جمعية » بالمفهوم الديني لهذا التعبير تكون اشبه بالاخويات ، وذلك بالصلاة على الاسلحة اولاً ، ثم بادخال بعض الممارسات الطقسية على الاحتفال بتسليم الفارس اسلحته ، كالاغتسال المطهر وحراسة الاسلحة ليلاً والمناولة سلفاً ، وباليمين المفروضة على المبتدئين بالسلوك بحسب بعض القواعد الاخلاقية . ويجب الاعتراف هنا بان المثل الاعلى الذي وضع نصب اعين الفرسان كان قمينا ، بالشكل الذي ارتداه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، في اسطورة « غرال » ، بارضاء النزعة الصوفية ، التي جعلت الفرسان اللنغدوكيين سريعي التأثر بهرطقة الاطهار .

الا ان ردّ الفعل الاول للكنيسة ضد الانحرافات في الاخلاق والفكر وممارسة التقوى كان على العموم عنيفاً وزجرياً . فهي قد أقدمت ، بغية استئصال عادات التجار المخالفة للمحبة ، على اعلان تحريم الربى . وأصدرت حكمها على أدهى الابحاث خطراً في مؤلَّف (ارسطو الجديد) ؛ وفي السنة ١٢١٠ ، منعت في باريس تفسير كتابي « ما وراء الطبيعة » و « الطبيعيات » ؛ وفي السنة ١٢٢٨ دعا البابا اللاهوتيين الى الكف عن الاستعانة بمبادىء الفلسفة الوثنية في براهينهم لاثبات الحقيقة ..وطورد الفالديون من قبل السلطة الاسقفية . وشنت في السنة ١٢٠٨ ، للمرة الاولى ، حملة صليبية على مسيحيين ثبتت هرطقتهم ، أعني بهم « اطهار » اللنغدوك ؛ نظمت في البدء كوسيلة ضغط على الامراء المحليين لحملهم على الاسهام في عملية القمع ، ولكنها انتهت الى عزلهم والى انتقال ممتلكاتهم الى الصليبيين الآتين من « ايل دي فرانس » . اما استقصاء وقمع انحرافات العقيدة ، اللذان تركا لمبادهة الاساقفة حتى ذاك التاريخ ، فقد نظما ونسّقا خصوصاً على يد بعض الامراء اولاً — وضع فردريك الثاني ، ما بين السنة ١٢٢٠ والسنة ١٢٢٨ ، أول تشريع متلاحم في هذا الحقل فرضت بموجبه عقوبة النار على الهراطقة — ثم على يد الباباوات الذين تسلموا ، ابتداء من السنة ١٢٣١ ، ادارة التحقيق ، او « التفتيش » . ولكن هذه التدابير الزجرية ، التي لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها على كل حال ، تكاملت في النصف الاول من القرن الثالث عشر بما بذلته الكنيسة من جهد واع — ويعود الفضل في ذلك الى انوشنتيوس الثالث

الذي تمثل حبريته اوج السلطة الرسولية – لماشاة التيارات الجديدة وجني أكبر فائدة منها .

جمعيات التسول

فقد بات لزاماً على الكنيسة ان تضم اليها الحركة القوية الداعية الى الفقر والى ممارسات دينية اسهل منالاً على الوضعاء . وضع انوشنسيوس الثالث تحت حمايته جماعات العلمانيين المنقطعين للعمل المشترك والزاهدين في الثروات الذين أطلق عليهم اسم « المتواضعين » في ميلانو ، واستمال اليه بعض جماهير الفالديين الذين رجعوا الى الرأي القويم باسم « الكاثوليك الفقراء » . وشجّع البابوات بصورة خاصة تاليف وانتشار فرقتين دينيتين داخل الكنيسة ، تجيش فيها الروح الجديدة ، أعني بها جمعيتي التسول ، الدومينيكان والفرنسيسكان . تأسست الاولى أبان الحملة على « الاطهار » : فقد جاء اتفاقاً الى لنغدوك في السنة ١٢٠٦ كاهن اسباني قانوني يدعى دومينيك (عبد الاحد) ، واستقر في تولوز ، وحاول ، مع عدد صغير من رفاقه ، اقناع الهراطقة ، بكلامه ولا سيما بسلوكه الذي لم يكن دون سلوك « الصالحين » تقشفاً وزهداً ، واعتمد في رسالته الجديدة قانون القديس اوغسطينوس الرهباني ، فتخلى عن كل ثروة زمنية وصمم على العيش من التسول وكرّس نفسه بالكلية للوعظ والتبشير . اما منشأ الفرنسيسكانية فقد كان شبيهاً بمنشأ الحركة الفالدية : تأثر فرنسيس ، ابن احد التجار الاسيزيين الأثرياء ، بالارشادات الانجيلية فوزع في السنة ١٢٠٦ كافة ممتلكاته على الفقراء وسلك حياة زهد تام وفرح كامل في خدمة « السيدة الفاقة » ، وأسس في السنة ١٢٠٩ ، مع بعض الشبان المتأثرين بمثله ، أولى الأسَر الأخوية . وقدّر لنوع حياة هؤلاء العلمانيين – وهو تقشف غنائي في اتحاد صوفي مع المسيح بلغ من خلوصه انه انتهى عند فرنسيس بظهور آثار جروح المسيح في جسمه – الذين درجوا ، دون ازعاج أنفسهم بالموجبات الطقسية الكثيرة ، على التنقل والتبشير بالاخلاق الانجيلية ، مستعطين خبزهم ، او طالبين عملاً لكسبه بشغلهم اليومي في المشاريع الزراعية الكبرى ، ان يعرف لدى سكان مدن ايطاليا الوسطى نجاحاً شبيهاً بذاك الذي أحرزه الفالديون .

ان هاتين الرسالتين ، المتباينتين أهدافاً وطابعاً روحانياً ، الهادفتين الى الاتصال المباشر بالاله عن طريق الفقر ، نشأتا تلقائياً على غرار العديد من الهرطقات . ولكنهما بقيتا على اتصال وثيق بروما . فقد احسن انوشنتيوس الثالث الالتفات الى دومينيك وفرنسيس . وعرف خلفاؤه كيف ينظمون هاتين الجمعيتين ويستخدمونهما : في السنة ١٢١٧ استقر دومينيك في روما نفسها ، وما لبثت جمعية الوعاظ (الدومينيكان) ان عرفت ازدهاراً مفاجئاً ؛ فان أديرتها ، التي تم تنظيمها الداخلي آنذاك ، انتشرت من ثم انتشاراً سريعاً في كافة أنحاء العالم المسيحي ؛ وتجاوز عددها الـ ٣٠٠ في السنة ١٢٣٥ . وسبق للقديس فرنسيس ان أوفد بعض رفاقه الى فرنسا واسبانيا ؛ ثم ان الكردينال هوغولين الذي فوّض اليه البابا ، في السنة ١٢١٩ ، حماية ورقابة الاخوة « الصغار » (الفرنسيسكان) ، اصبح بدوره حبراً اعظم باسم غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٢٧ ، أي بعد مرور سنة على وفاة فرنسيس ، فباتت الجمعية من ثم تخضع خضوعاً تاماً

لادارة الكنيسة الرومانية. باستقبال هاتين العائلتين الدينيتين، المتميزتين عن الجمعيات الرهبانية، استعادت الكنيسة نشاطها ووضعت تحت تصرفها قوى ذات قيمة كبرى؛ فقد وفرت لها جمعيات التسوّل وسيلة بزت بها شيع الهراطقة، واستجابت لنزعات التدين الشعبي الجديدة التي لم تؤمن لها الكثلكة، حتى ذاك العهد، ما تصبو اليه. وقد عرف الدومينيكان و «الاخوة الرماديون»، في الواقع، نجاحاً منقطع النظير، لأنهم مثلوا، على غرار الأخويات التي ترعرعت فيما مضى، قريبة من الهرطقة، عقيدة مسيحية صوفية زاهدة بالخيرات الزمنية، ناشطة وعاملة في الخارج، متأصلة في قلب المدن بين الجماهير القلقة، مشركة العلمانيين، بواسطة العوام الخاضعين للقانون الرهباني، في اصلاح الاخلاق والتطهير الجماعي؛ وعقيدة مسيحية تبشيرية، لا طقسية فحسب، تؤمن بالوعظ الحر، الملقى بلغة عامية، معرفة الانجيل معرفة مباشرة؛ وبهذا الاتجاه الجديد ترتبط التعديلات المدخلة على المعابد المشيدة بجانب أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان التي غدت أسواقاً فسيحة تلقى فيها المواعظ وتفتح لجماهير المدن الغفيرة. ولم يلبث «الوعاظ» و «الصغار» – ولهذا السبب أصبحت هذه الجمعية العلمانية الاخيرة، في عهد مبكر، وبدافع من البابا، أخوية كهنة – ان حلّوا محل الاكليروس العلماني العاجز عن القيام برسالته.

الجامعات

حاولت البابوية كذلك استعادة الاشراف على الحركة الفكرية في المدارس. وهم باباوات النصف الاول من القرن الثالث عشر، أي انوشنتيوس الثالث اولاً، ثم خلفاؤه، من انتصروا لأساتذة ومستمعي المدارس الجديدة على مجالس كهنة الكاتدرائيات والسلطات العلمانية وساعدوهم على تأسيس شركات مهنية متلاحمة، هي الجامعات – أي نقابات المعلمين والطلبة المحلفين – وعلى تحقيق امتيازاتهم واستقلالهم الاداري. واذا استمرت الجامعات الفقهية في ايطاليا الشمالية، أي جامعة بولونيا، التي تأسست في عهد مبكر وحظيت بحماية الأباطرة، وجامعات بادوا ومودينا وفيتشنسا، في تمردها على التأثير البابوي، فان هيئة المعلمين والطلبة الباريسيين قد سعت، ما بين السنة ١٢١٢ والسنة ١٢٤٦، وراء نصرة الكرسي الرسولي على ممثل ملك فرنسا ومستشار مجلس كهنة الكاتدرائية؛ وقد أوجدت البابوية في ايطاليا جامعات روما وسيينا وبليزانس ووضعت تحت حمايتها مدارس مونبيلييه، وأسست في السنة ١٢٢٩ جامعة تولوز لنشر العقيدة القويمة في بيئة أفسدتها هرطقة الاطهار، وعطفت أخيراً على انطلاقة اوكسفورد حيث ادخل بعض المعلمين الانكليز بنجاح باهر أساليب التعليم الباريسية. بفضل هذه المساندة، وبينما كان المحسنون الجوّادون يؤسسون المدارس والنزول بغية رعاية وايواء الطلبة الذين لا مورد لهم، انتظمت هذه الجمعيات التعليمية وتفرعت الى كليات أعدّت احداها، كلية الفنون، للتربية التحضيرية ووجهت الاخرى شطر ابحاث التخصص، كاللاهوت او القانون او الطب. اما في باريس فكان طلاب الفن، أكثر الطلاب عدداً على الاطلاق لأن درس الفنون العقلية كان يستغرق بين سبع وتسع سنوات اجمالاً ويجمع قرابة مئة معلم وأكثر من ألف طالب في الارجح. وقد توزع هؤلاء بدورهم، وفاقاً للغاتهم، الى أربع «امم»، يوجه كلا

منها وكيل منتخب؛ وما لبث الرئيس الذي عينه الوكلاء رئيساً عليهم ان أصبح مع الزمن رئيس الجامعة كلها والناطق الرسمي باسمها .

ولكن السلطة الرسولية أصرت على رقابة هذه المؤسسات المتحررة، وقد استخدمت جمعيات التسوّل لبلوغ هذه الغاية دون عناء . اجل لقد تنكر القديس فرنسيس أساساً لنشر العلم بين افراد الأخوية التكفيرية التي أسسها والتي كان عليها ، في رأيه ، ان تستميل النفوس بمثلهم الصالح في ممارسة المحبة والفقر والتواضع ؛ ولكن الكهنة الذين ارتفع عددهم تدريجياً في صفوف « الصغار » ، لا سيما بعد مماته ، وجهوا الرسالة الفرنسيسية شطر الوعظ العلمي ، ناهجين من ثم نهج الدومينيكان ، وقد شجعهم الباباوات في ذلك . اما الدومينيكان المتقطعون لمناقشة الهراطقة فكانوا منذ تأسيسهم رجال فكر حريصين على تلقي دروسهم في أشهر المدارس ؛ انتشرت جمعيتهم في البداية ، انطلاقاً من باريس وبولونيا ، في المدن الجامعية الكبرى ؛ اضف الى ذلك انها تقيدت بقانون صارم بادارة رؤسائها العامين ، فقدمت بذلك خير ضمانة لمعتقدها القويم أسند الباباوات الى هؤلاء واولئك النهوض بشؤون التفتيش اولاً ثم وجهوهم شطر التعليم ، فدخل « المتسولون » من ثم الى الجامعات. وقد حدث ذلك اما عرضاً ، باهتداء بعض المعلمين العلمانيين، كالاستاذين الباريسيين الانكليزيي التابعية ، ايون دي فافرشام والكسندر دي هيلز اللذين ارتديا ثوب القديس فرنسيس في السنة ١٢٢٤ والسنة ١٢٣١ ؛ اما مباشرة : ففي السنة ١٢٢٩ ، حين أعلنت جامعة باريس الاضراب ضد الاسقف ، أسند هذا الاخير تعليم اللاهوت الى دير الدومينيكان القائم في شارع سان - جاك . ومنذ السنة ١٢٤٠ ، تولت الجمعيات الجديدة ، العاملة باشراف الكرسي الرسولي المباشر ، ادارة الدروس اللاهوتية ، وتصدت للمسألة الكبرى الناشئة منذ سنوات عن انتشار الفكر اليوناني . فحاولت التوفيق بين فلسفة ارسطو - التي انتشرت في المدة الأخيرة بعض أبحاثها: «السياسة» ، و « البيان » ، و «الاقتصاد» - والوحي ، والاحتراز بذلك من خطر القطيعة المتزايد بين النشاط الفكري والتعليم الكنسي فنجحت بالفعل في تحقيق هذا التأليف العسير : واذا مال الفرنسيسكاني بونافنتورا، الذي لم يثق بالمنطق العقلي، الى المثالية الافلاطونية ، وهي في الواقع امتداد للاختبار الصوفي الذي قالت به مدرسة سان - فكتور ، فقد توصل استاذان من الدومينيكان في جامعة باريس ، هما البير الكولوني وتوما الاكويني ، الى التوفيق بين لباب فلسفة ارسطو والعقيدة المسيحية . وكانت ثمرة الجهود المبذولة منذ قرنين لتكييف الاداة الجدلية المؤلفين اللاهوتيين غير المتجزين اللذين وضعهما توما واللذين يؤلفان اول مذهب لاهوتي كامل قام في العالم المسيحي الغربي .

بيد ان الكنيسة، على الرغم من هذه النجاحات الثابتة وهذا التجدد الذي دانت به للروحانية الفرنسيسية والفكر الدومينيكاني، لم تتوصل الى استعادة وتوطيد مركزها الذي أحرجته التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية . ويمكن القول ان المسافة قد ازدادت اتساعاً ، في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، بين حاجات المؤمنين الروحية والنظام الكنسي السائر سيراً مطرداً نحو التصلب والقوة .

فقد برز الخلاف اولا بين العلمانيين ورجال الاكليروس . مما عند هؤلاء

نمو الروح العلمانية

المسيحيين الذين ارهف حسهم والذين بحثوا آنذاك عن غذاء روحهم في قراءة العهد الجديد – وتلبية لهذه الرغبة أنجز حوالي السنة ١٢٥٠ في جامعة باريس نقل نص « الترجمة العامية » تقرأ بعد اعادة النظر فيه – شعور عميـــق بالسخرية والحذر وحتى بالعداء الصريح نحو رجال الكنيسة . ولكن لا تخدعنّ بهذه الظواهر : فان هذا الانطباع ناجم جزئياً عن ان العلمانيين ، وقد استطاعوا التعبير عن مشاعرهم ، بفضل تقدّم العلم ، لم يعودوا بحاجة لقلم رجال الاكليروس لافراغها في قالب الكتابة الدينية . ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الموقف العدائي من رجال الاكليروس ، الذي ربما زاده تصلباً وعظ الأخوة المتسولين أنفسهم ، وقــد ثاروا في مواعظهم على امتيازات الكهنـــة العلمانيين ، فباتوا من أشدّ المنافسين لهم في أغلب الاحيان ، قد كان في جوهره موجهاً ضد وضع الكنسيين الزمني . أي انه استهدف هذا الوّضع في المقاطعات الايطالية والفلمنكية حيث طمع رجال الاكليروس بأن يعفوا من الفرائض المالية؛ وفي مملكة انكلترا ، اقطاعة الكرسي الرسولي ، حيث عينت الادارة الرومانية عدداً كبيراً من الاجانب في مناصب الكنيسة العليا ، فاستثمرت الادارة البابوية هذه الكنيسة أيما استثمار ؛ وفي فرنسا ايضاً حيث رأى الفرسان المفتقرون أملاكهم العائلية القديمه ، التي تبرع بها اجدادهم احساناً ، املاكاً كنسية مزدهرة جـــداً ، وحيث تحالف البارونات للدفاع عن امتيازاتهم القضائية ضد تجاوزات المحـاكم الكنسية وطالبوا القديس لويس ، في السنة ١٢٤٥ ، بأن « يعاد رجال الاكليروس ، الذين اثروا بافقارهم ، الى وضع الكنيسة الاولى ، ويعيشوا حياة تأملية ... ويحيوا المعجزات التي حرم منها العالم منذ زمن بعيد » ، وحيث ثار « روتبوف » بشدة ، يؤيده الجميع ، على اثراء الفرنسيسكان ، الذين تخلوا آنذاك ، في أديرتهم المعدة للدوس ، عن زهدهم الأول ، وكشف الستار عن نزعتهم الخفية الخطرة الى المذهب الصوفي القائل بمحبـــة الله وجمود النفس .

الا ان الانتقادات ، التي حركتها حملة فردريك الثاني العنيفة ضد روما ، قد تخطت هـذه التفاصيل وتصدت بالقدح لكيان الكنيسة نفسها، ولا سيا للملكية البابوية التي تميزت في أواخر القرن الثالث عشر بايطاليتها وتعاطيها السياسة واندفاعها وراء المادة . وقد وجدت هـــذه الانتقادات لها، في بعض أفراد الجمعية الفرنسيسية، مناصرين نشيطين جداً ، بعد وفاة بونافنتورا (١٢٧٤) الذي كان قد أفلح في الحفاظ على وحدة الأخوية التي أصبح هو رئيسها العام. فقد اعتبر بعض « الاخوة الصغار » تلطيف مبدأ الفقر ، أي حق امتلاك العقارات وقبول الاوقاف وتعهد الخدام، الذي شجعه البابوات لتقوية عمل الجمعية والسماح لها بالقيام بوظيفتها الدراسية والدعائية قياماً افضل ، بمثابة خيانة كبرى لروح القديس فرنسيس . وهكذا فان أقليـــة « الروحيين » الضئيلة ، التي حركها في ايطاليا خصوم السياسة البابوية وأفسدتها من جهة ثانية نزعات صوفية تتنافى كلياً والعقيدة القويمة ، ولا سيا النظرية اليواكيمية القائلة بارتقاب مجيء المسيح ثانيــة ،

قــد وقفت بعنف في وجه « الديريين » المثقفين الساعين وراء سعة العيش ، وقاومت السلطة الرومانية . وفي مستهل القرن الرابع عشر زلت بها القدم خارج الكنيسة فالتحقت بالفالديين ، ورثة هرطقة « الاطهار » في ريتانيا والاخويات التقوية العلمانية العديدة وراحت تضخّم التيار الصوفي ، الهرطقي او القريب من الهرطقة ، الذي لم ينضب معينه في يوم من الايام .

في الوقت نفسه أقامت ادعاءات بونيفاسيوس الثامن الثيوقراطية في وجه الكرسي الرسولي كافة المدافعين عن الملكيات العلمانية ولا سيما القانونيين العاملين في خدمة « فيليب له بيل » : فكان للشتائم التي أطلقها جاكوبوني دي تودي باسم «الروحيين» الفرنسيسيين صداها في هجمات « غليوم دي نوغاريه » العنيفة. فجاء الحكم الصادر باشارة من ملك فرنسا على جمعية الهيكليين ـ التي استفادت من توزع فروعها في كافة أنحاء العالم المسيحي وتعودت جمع الاحسانات للحملات الصليبية ، فلعبت ، قبل الشركات الايطالية ، دور مصرف الايداع والتحويل ، والتي أدى بها فقدان المؤسسات اللاتينية في الارض المقدسة الى هذا الدور المالي – انتصاراً للسلطة العلمانية ، وزاد من النقمة على رجال الاكليروس بتشديده على اندفاع الكنيسة وراء الزمنيات . وحين أقامت الادارة البابوية ، بعد السنة ١٣٠٥ ، في جنوبي فرنسا ، قبل ان تستقر في افنيون ، هرباً من جوّ روما الفاسد وسجسها ، على مقربة من المملكة الكابيتية او تحت كنفها تقريباً ، كانت قــد فقدت الكثير من قوتها الروحية . فتسرب الى العالم المسيحي قلق واضطراب لم يكونا عميقين حقاً – ويجدر بنا ، الى جانب مظاهر العداء للاكليروس هــذه التي اتسم معظمها بطابع المرح ، ان نشير هنا الى قوة وبساطة ايمان أكثرية المسيحيين الساحقة – الا ان خطرهما كان في تفاقم مستمر .

العلم والعقيدة

ان الجهود التأليفية التي بذلها القديس توما الاكويني لم تسفر آنذاك عن اية نتيجة ، فحصلت القطيعة بين العلم والبحث العقلي ودراسة العالم والانسان من جهة ، وبين حقيقة الايمان التي تخضع لرقابة الكنيسة من جهة اخرى . فالجامعات لم تنقد انقياداً سلساً للنظام الفكري الذي رغبت روما في فرضه عليها . وقد حدثت في باريس ، ما بين السنة ١٢٣٣ والسنة ١٢٥٧ ، ازمة عنيفة اقامت في وجه السلطة البابوية الاساتذه العلمانيين الراغبين في تخفيض عدد منابر التعليم المسندة الى الدومينيكان والفرنسيكان لانهم شكّوا في تضامنهم معهم واخذوا عليهم خضوعهم الاعمى لسلطة غريبة عن سلطة النقابة . وكان مقدراً لهذا الصراع ان يتجدد جيلا بعد جيل ويعم مدارس انكلترا نفسها . وقد تعرضوا كذلك ، في الجامعة ، لنواح فكرية انطوى التعرض لهـا على المزيد من المغامرة ، ضاربين بانذارات الكرسي الرسولي والاساقفة عرض الحائط . وقد رافق انتشار مؤلف « ارسطو الجديـد » انتشار فلسفة ابن رشد بواسطة اطباء مدرسة ساليرن بصورة خاصـة ، فتغلغلت في المدارس الباريسية ؛ اجل انها كانت مستوحاة من ارسطو ، ولكنها اقل منه استساغة مسيحية الى حد بعيد . ان هذه التعاليم الخطرة التي ابرزت استقلال البحث العقلي حيال العقيـدة ، عرضت للخطر ،

منذ السنة ١٢٧٠ ، محاولات القديس توما للتوفيق بين العقل والايمان ، فصرفت ابعد المفكرين المسيحيين بصيرة،ولا سيما الاساتذة الفرنسيين، عن الابحاث الفلسفية ووجهتهم نحو الافلاطونية الصوفية ؛ واعدت الطريق للتأليف الجديد الذي اقترحه « جون دونز » السكوتلندي ، في مستهل القرن الرابع عشر، ليحله محل تأليف القديس توما، المستخف به آنذاك ؛ فهو قد تخلى ، بتأثير من تشربه تعاليم القديس اوغسطينوس ، عن التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والايمان ، وفتح امام هذه الابحاث طرقاً متباعدة: « ان الله لم يوح للانسان الحقائق التي يستطيع العقل بلوغها ؛ كما ان العقل لا يبلغ الحقائق الموحاة من الله » ، ويستنتج من ذلك ان كل ما ليس منزلا يمكن مناقشته بحرية . اما الاساتذة الباريسيون المشهورون بجرأتهم، وعلى رأسهم «سيجر دي برابان » ، فقد استمروا في تفسير ارسطو وابن رشد على الرغم من الاحكام التي استهدفتهم في السنة ١٢٧٠ والسنة ١٢٧٧ ؛ فميزوا هم ايضاً بين امور الايمان – التي يُسلم بها بدون مناقشة – وامور العلم التي يمكن ان يتناولها العقل بكل حرية .

فتحت هذه الآراء امام البحث ، باستخفافها بالمراجع وبمناداتها باولوية الاختبار ، الذي اعتبر بمثابة مصدر لكل معرفة ، حقلاً متحرراً من كل وصاية كنسية . وبينما اخذت اسفار المبشرين والتجار تعطي صورة اكمل ، ان لم تكن اصح ، عن مساحة العالم وتنوع الطبيعة ، وبينما اخذ ينتشر استخدام اللغات الاجنبية ، اليونانية والعربية والعبرية ، التي فكر الراهب الكاتالوني « رامون لول » بتلقينها المبشرين في فترة اعدادهم لرسالتهم ، بات ممكناً ، منذ ذاك التاريخ، اخضاع اخلاق الكنيسة وسياستها وحتى كيانها للبرهان العقلي، خارج نطاق الايمان فتبدل المناخ الفكري تبدلا اساسياً حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يتأثروا مباشرة بفلسفة ابن رشد . ففي جامعة اكسفورد ، انقطع الكاهن العلماني « روبير غروستات » ثم « الاخوان الصغيران » « جون بيتشام » و« روجيه بيكون » وهم اقل اهتماماً بالمنطق منهم بالعلوم الطبيعية والرياضيات ، لملاحظة الاشياء ، اي للطريقة التي كان بيكون اول من وصفها بالاختبارية . واذا لم تقترن هذه الابحاث آنذاك بنتائج حاسمة ، فقد تأيدت مع ذلك ، في اوائل القرن الرابع عشر ، بحصر نطاق الوحي حصراً دقيقاً ، حرية البحث الشخصي وعلمنة العلم التي تقدمت علمنة المجتمع في الارجح .

٤ – اشعاع الحضارة الفرنسية

تقدم التدريس

كان لتطورات العقلية في طبقات المجتمع العليا،خلال هذه الحقبة التي تداعت فيها انظمة الاقتصاد الريفي والعالم الاقطاعي والعالم المسيحي ، انعكاسها الطبيعي في تطور التعبير الادبي . فنحن نلاحظ فيه توسعاً هائلاً ، اذ منذ منتصف القرن الثاني عشر تجملت المواضيع الغربية بتأثير سير القديسين والطقس البيزنطي وادب القصة العربي

والعادات المحلية الكلتية ، كما اننا نرى ميلاً متزايداً الى الجدل الحر وملاحظة الانسان والطبيعة ملاحظة مباشرة ، وتحرراً متمائلا ، اخيراً ، حيال الانظمة الكنسية .

ان الحدث الرئيسي في هذه الحقبة هو انتشار الثقافة الادبية التي تمت بصلة الى تحسن ظروف الحياة المادية. لقد تطلب توسع الاعمال من البورجوازيين دراسة مهنية منسقة؛ وبات لزاماً عليهم ان يعرفوا القراءة والكتابة والحساب وفهم اللغة الفرنسية التي كانت آنذاك لغـة التجارة الكبرى . فتأسست لاجلهم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في المدن الايطالية والفلمنكية مدارس عامة لا تخضع لسيطرة الاكليروس وتلقى الدروس فيها باللغة العامية ، وقد ساعد ذلك على رسوخ هذه اللغة . وانتشر التعليم كذلك في طبقة الفرسان من قبيل اللياقة العالمية اولا ، خلال القرن الثالث عشر ، فتباهى فرسان كافة البلاطات الاوروبية وسيداتها ، على غرار نبلاء الأكيتين ، بانهم يعرفون القراءة ؛ ومن قبيل الحاجة التقنية ايضاً ، لأن استخدام الكتابة في المعاملات القانونية ، وكان محدوداً جداً في السنة ١١٠٠ بسبب ارتكاز العقود والحقوق المتبادلة الى الحركة الطقسية او الذاكرة او الشهادة الشفهية ، قد تقدم تقدماً سريعاً منذ منتصف القرن الثاني عشر : فقد حررت الوثائق ونظمت السجلات وجمعت العادات المحليـة في كتب. توجب من ثم على الفرسان أن يعرفوا القراءة لتصريف شؤونهم الخاصة ، ولا سيما اذا اسندت اليهم وظيفة ادارية في خدمة الامير . وادى تنظيم الدول وتوسع اجهزتهـا السياسية ، في القرن الثالث عشر ، الى تكوين فئة متزايدة العدد من الكتبة ومسجلي العقود ومقيـدي الدعاوى وماسكي الدفاتر الذين حصّلوا من العلم مبادئه على الاقل . وبات الكتاب اقل ندرة اخيراً . فمنذ القرن الثاني عشر اخذ بعض الخطاطين المحترفين ، في الاوساط الجامعية الكبرى ، يستنسخون المؤلفات استنساخاً سريعاً ويعرضونها للبيع ، تلبية للطلبات المتعددة .

الادب

افضى انتشار الثقافة الادبية في الاوساط العلمانية الى تقلص الادب اللاتيني . اجل لقد وضعت باللغة اللاتينية ، حتى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مؤلفات هامة كيوميات الحبر الالماني « اوتون دي فريسنغ » ، و « الانتيكلوديانوس » ، وهو بحث فلسفي رمزي كبير للاستاذ الباريسي « ألان دي ليل » ، والاناشيد الكنسية الرائعـة التي ألفها « آدم دي سان ـ فكتور » ؛ ولكن اللغة اللاتينية ليست بعد السنة ١٢٣٠ ـ اقله في فرنسا ـ سوى لغة التعليم العالي واللغة الطقسية فحسب ، مما ادّى الى فصل النشاط العلمي عن المشاغل الجمالية بعد ان كانت هذه المشاغل وهذا النشاط وثيقة الارتباط في الحضارة الغربية منذ النهضة الكارولنجية . فارتفعت بالنسبة نفسها منزلة اللغات الشعبية التي انبثقت منها لغتان ادبيتان جديدان اضيفتا الى اللهجات المحلية ، لغة الارك من جهة ، التي استخدمهـا الشعراء الغنائيون في كافة المناطق الجنوبية من العالم المسيحي اللاتيني ، ولهجة ايل ـ دي ـ فرانس ، من جهة ثانية ، التي تبسطت في اوساط شمبانيا وبيكارديا الادبية والتي كان انتشارها شاملاً. ومرد ذلك ـ اذ ان الصفة الاخيرة هي ما يميز هذا العهد ـ الى ان فرنسا احرزت في حقل الادب اولوية مطلقة يفسرها عظم المملكة بالذات ، وهي المتقدمة على كل مملكة غيرها في اوروبا من

حيث عدد السكان ، وازدهارها ، والدور الذي لعبته في الاقتصاد الغربي الاسواق الدورية الشمبانية ، وتوسعها العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الذي احل نخبة فرنسية اللغة في انكلترا والارض المقدسة وقبرص وموريا ، وبث الفرسان الفرنسيين في اسبانيا المسيحية وايطاليا الجنوبية ، وقيام اهم مركز فكري في باريس اخيراً . ومهما يكن من الامر فان الادب الفرنسي هو ما يجب ان نتتبع فيه التيارات المختلفة التي استجابت على التوالي لاذواق الجمهور .

حوالي السنة ١١٥٠ ، اخذت العادات الجنوبية تنتشر في فرنسا الشمالية ؛ ويغلب ان نقل بلاط بواتيه الى « ايل دي فرانس » ، في اعقاب زواج لويس السابع من « اليانور داكيتين » في السنة ١١٣٧ ، واقامة بنات اليانور ، أليس في « بلوا » ، وماري في شمبانيا ، قد ساعدا مساعدة كبرى على هذا الانتشار . وفي المناطق المحيطة بالأملاك الكابيتية ، درج أسياد الامارات الاقطاعية الآخذة في التثبت والتوطد ، وكونتية فلاندر وشمبانيا ، والبلانتاجنيه ، على ان يضموا حولهم ، في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، جمعيات زاهية زاهرة ، ويرعوا الأدباء في منازلهم . ثم خفت نصرة الأمراء هذه للأدباء قبيل القرن الثالث عشر حين آلت نجاحات السلطة الملكية الحاسمة الى اكفهرار سني الدول الدائرية . الا ان تذوق الشؤون الفكرية كان ، في ذاك الحين ، قد شمل أوساطاً اعمق رسوخاً في المجتمع ، فبلغ أهل القصور انفسهم : ففي السنة ١٢٠٠ ، أخذ الكونت « دي غين » نفسه ، الذي كان محاطاً بالمشعوذين ، يتعود نظم الشعر . وأفضى انتشار هذا الادب البلاطي ، الجنوبي المنشأ ، في البداية ، الى تغيير الشكل الخارجي للمؤلفات الشعرية التي لم تعد معدّة للانشاد ، على غرار الملاحم العسكرية الاولى ، بل للقراءة بصوت عالٍ ، ولذلك بات الشعر مقفّى . وحدث في الوقت نفسه ، تحت تأثير لغة « الاوك » ، ان انتشرت وتبسطت عواطف العشاق المتدللين وعاداتهم . لذلك فقدت الاغاني الايمائية ، بعد السنة ١١٥٠ ، ميزاتها الاولى وتشربت روحاً أعظم رقة ، ارستوقراطية الطابع ، واهتمت بالتحليل السيكولوجي وتناولت المواضيع الغرامية في جو لا يخلو من كل مدهش وعجيب . الا ان لوناً أدبياً اكثر انسجاماً مع المشاغل الجديدة ، هو القصة المتدللة ، قد ازدهر آنذاك مديناً بشهرته لـ « ماري دي فرانس » و « غوتيه داراس » وخصوصاً لـ « كريتيان دي طروا » الذي أعطى هذا اللون رائعته بكتاب « ايفين » (حوالي ١١٧٢ — ١١٧٥) . وقد تحولت فيه الملحمة الحربية ، تحت تأثير « اوفيد » وبعض الملاحم القديمة ، وربما القصص البيزنطية ، وخصوصاً تحت تأثير التقاليد الاسطورية الكلتية التي وفرت حوالي السنة ١١٧٠ ثلاثة مواضيع روائية كبرى هي مواضيع « تريستان » و « دي غرال » و « ارثور » ، الى سلسلة من المغامرات المدهشة و « التسولات » التي تتخللها دسائس عاطفية تناولها وصف دقيق . فجاءت القصة من ثم منسجمة مع تهذب الاخلاق وتسرب عادات التدلل الى طبقة الاشراف التي أشاد هذا اللون بقيمها الرئيسية : « الفروسية » ، أي الشجاعة والاناقة ؛ و « العلم » ، أي الثقافة والعدالة .

في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر، طرأ تطور محسوس على هذه النزعة الارستوقراطية التي يختلط فيها الواقع بالخيال. فقد تقلص الشعر امام النثر اولاً بفعل تقدم الطالعة الفردية. ثم جعـــل ازدهار الطبقة البورجوازية من المدن مراكز رئيسية للحياة الأدبية، كان أشهرها، بالاضافة الى باريس، آراس، مدينة صناعة الاجواخ والاعمال المصرفية الكبرى، ومقر مجمع اشبه بمجمع ادبي عرف باسم (*le Puy*) أسسته جمعية مهنية ودينية من المشعوذين؛ ونحن نعرف أكثر من ١٨٠ كاتباً عملوا فيه خلال القرن الثالث عشر. ثم اصيب ادب التدلل بالنهكة، ولم نعد ليلبي رغبات المجتمع العالي فأبدى مزيداً من الاهتمام للواقع المحسوس وتأثر كذلـــك بالمفهوم المسيحي للفروسية وأساليب الفلسفة الكلامية وتطور الفكر الشامل نحو الرقة والسرية، فانتهى مع مؤلفـــات لانسلو (١٢٢٠ — ١٢٣٥) و « قصة الوردة » « لغليوم دي لوريس » ١ حوالي ١٢٣٦) الى رمزية غالباً ما تتكلف تهذيب الاخلاق. وانتشر بالمقابلة ادب المناسبات المعاصرة، بشكل روايات عن الحملات الصليبية — فقد ألف « روبير دي كلاري » و « فيلوهردوين » بمناسبة حملة القسطنطينية، التاريخين الاولين اللذين وضعا نثراً باللغة الفرنسية — وبرزت الرغبة في وصف التفاصيل الواقعية والمزاح البذيء التي لبتها الحكايات القصيرة وطابقتها كذلك الاوصاف الدقيقة التي طلع بها جان رينار في القصة الغزلية؛ كما برزت اخيراً السخرية الرشيقة المرحة التي استهدفت النساء والاكليروس وتعرضت للتدلل والاخلاق الارستوقراطية، كما يتضح ذلك في قصة « اوكاسين ونيكوليت ».

ان هذه النزعة الى الواقعية والهجاء، التي أظهرت تفوق العقل على العاطفة، وهو موقف جديد ينم عن بصيرة وذكاء، قد توطدت نهائياً بعـــد السنة ١٢٤٠ بينما اهتمت الجماهير اهتماماً متزايداً للمؤلفات الهادفة الى جعل العلوم في متناول الجميع. كما ان المكتبات الخاصة، التـــي اخذت تتكون في منتصف القرن الثالث عشر، قد عبرت عن الاتجاه المزدوج، المتزايد تباعداً، نحو الورع الشخصي والصوفي من جهة، ونحو معرفة الانسان والعالم معرفة عقلية طليقة مـــن جهة ثانية، واشتملت بصورة خاصة على الكتب التالية: المؤلفات التعليمية، كدوائر المعارف، « الكنوز »، و « صور العالم »، المستوحاة من مؤلفات « فنسان دي بوفيه » (حوالي ١٢٥٤)، ومؤلفات تقوية كتراجم القديسين ونصوص الكتاب المقدس او « مدائح العذراء ». لذلك فان الميزة التي تتسم بها المؤلفات الادبية الكبرى حوالي السنة ١٢٧٥، أي في الوقت نفسه الذي اخفق فيه مشروع توما الاكويني، هي عودة، لا تخلو من الجفاء، الى الحقيقـــة والبساطة والملاحظة المتحررة من كل اقتسار صريح او معنوي. وفي نـــدوة آراس بشّرت ألعاب آدم دي لاهال الموسيقية (١٢٦٢ — ١٢٨٠ تقريباً) بمسرح متحرر من اصوله الطقسية منقطع لتصوير المجتمع؛ وازدهر، بفضل الباريسي روتبوف، شعر بسيط صادق يعكس مشاعر عامة البورجوازيين ويشدّد بالمقابلة على انحطاط فضائل الفرسان. اضف الى ذلك ان جان دي مونغ وهو خير ممثل للروح الجديدة، قد هاجم بقحة، في « قصة الوردة » التي وضعها حوالي السنة ١٢٧٥ في باريس،

كافة الآراء الاجتماعية المسلّم بها وكافة العواطف المصطنعة والمعقدة؛ فهدم اسس الاخلاق التدللية وسخر من عبادة المرأة وانكر تفوق شرف النسب ؛ وان في المركز الاولي الذي يحلّ فيه الطبيعة والعقل لاجلالاً مباشراً لمفاهيم فلسفة ابن رشد . فانتهى بهذا العمل الهدام عهد عظيم من عهود الادب الفرنسي .

الا ان هذا الادب قد استمر ، حتى وفاة القديس لويس ، ادباً دولياً تتذوقه النخبة في كل مكان ، فأوحى من ثم ، في مظاهره المتعاقبة ، كافة الانتاجات الموضوعة باللغة العامية في اوروبا الغربية . ففي كاتالونيا ، ولا سيما في البرتغال ، سار الشعراء منذ اواخر القرن الثاني عشر على خطى شعراء جنوبي فرنسا المتجولين ، وكان للأغاني الايمائية في فرنسا الشمالية تأثيرها على ملحمة « السيد » القشتالية في الارجح . وفي أثناء الرحلة التي قام بها فردريك بربروس الى آرل كي يتوّج فيها ملكاً على بروفنسا ، تعرف المشعوذون الالمان الى الشعر الغنائي الجنوبي واقتبسوا عنه مقومات ادب التدلل . فنقلوها الى المنطقة الرينانية حيث اعطت النور للأغاني الايمائية الالمانية ؛ وبعد السنة ١١٧٠ ترجم « وولفرام فون اشنباخ » ومنافسوه القصص الفرنسية الجديدة . وغزا الشعر البروفنسي المدن الايطالية ، ولا سيما جنوى ، وحتى البندقية ، فأكبّ عليه بلاط فردريك الثاني في صقليا اكباباً مثابراً . وآثر الفلورنسي « برونتّو لاتيني » ، حتى ما بين السنة ١٢٦٢ و ١٢٦٨ ، ان يضع بالفرنسية كتابه « الكنز » الذي كان قد ألّفه لتعليم حكام المدن الايطالية ، لأنه اعتبرها « اعذب اللغات وأعظمها شمولاً » .

الفن القوطي

لعلّ اشعاع فرنسا هذا يبرز بمزيد من القوة ايضاً في المظاهر الفنية لحضارة القرن الثالث عشر . في الموسيقى اولاً : فمنذ حوالي السنة ١٢٠٠ حتى منتصف ولاية القديس لويس ، توسع الفنانان الباريسيان ليونين وبيروتين في أبحاثهما حول الموسيقى المتعددة الاصوات ووضعا الاسس النهائية لبعض الالوان الجديدة التي ازدهرت من بعدهما . وفي الفنون التصويرية خصوصاً : ففي فرنسا الشمالية تكون اعظم فنون القرون الوسطى أي الفن القوطي ، قبل ان ينتشر في كافة انحاء اوروبا باسم « الفن الفرنسي » . وهو فن مقدس شأن الفن « الروماني » ، ولكنه اعظم منه انسانية وواقعية ، فاستجاب من ثم للتطور الفكري العام ؛ وهو فن المدن ايضاً يعبر عن ارتقاء البورجوازيات واشعاع كنائس المدن واحتجاب الأديرة الريفية بفعل تأثرها بصعوبات الاقتصاد في السيادة .

تحرر النمط القوطي من الاشكال « الرومانية » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ولكن هذا التحرر كان بطيئاً . فقد ادخل الفنانون السيسترسيون ، منذ السنة ١١٤٨ في ستيو ، ومنذ السنة ١١٥٠ في بونتينيي ، الأقواس المتقاطعة الجارية بين الزوايا المتقابلة في سقوف كنائسهم النسقية العارية ؛ وقد استعملت أساليب التسقيف الجديدة كذلك في انجو وبواتو ، ولكن دون ان يفضي هذا الاستعمال الى تعديلات هامة في هندسة الأبنية التي ما زالت ربعة متراصة .

وتحققت النجاحات الحاسمة في الاراضي الملكية بتأثير من الهندسة البنائية في « سان – دني » . وحاول مهندسو العمارة ، في كاتدرائيات نوّيون وسنليس ولان وباريس وسواسون التي شرع بتشييدها ما بين السنة ١١٤٥ والسنة ١١٨٠ ، مختلفة كل الاختلاف عن بعضها شأن الكنائس « الرومانية » ، وقريبة كلها ، في تصميمها العام ، من الفن « الروماني » في نورمنديا ، استثمار كافة الامكانات التي يوفرها تقاطع الاقواس والتسنيد بالزوافر ، فتوفقوا في « لان » الى جبهة تتألف من ثلاثة مداخل عميقة مسقوفة يعلوها موضوع هندسي تجميلي وردي الشكل ، بين برجين ، وتوصلوا في باريس الى رفع القباب الى أكثر من ٣٠ متراً . اما الرسامون والنقاشون المكلّفون تزيين الاغلاق ، فقد حوّلوا النقاشة « الرومانية » شيئاً فشيئاً باضفاء مزيد من الاناقة والعذوبة على التماثيل – الاعمدة والاشكال ، وخصوصاً بطرق مواضيع حياة العذراء في سنليس اولاً ، ثم في لان ، واخيراً في باريس حوالي السنة ١٢٢٠ .

ادت هذه المحاولات ، بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٢٥٠ في فرنسا الكابيتية هذه بالذات ، الى خلق علم الجمال القوطي الذي نجد أمثلته النموذجية في شارتر ، وقد شيدت بين السنة ١١٩٤ والسنة ١٢٢٠ ، وفي « رمس » التي بوشر بتشييدها في السنة ١٢١٢ ، وفي اميان التي ابتدأ العمل فيها حوالي السنة ١٢٢٠ . فجاء هذا العلم نمطاً استبدادياً سيطر على الابنية كلها فحدّ من تنوعها ، وتميز هندسياً بتشامخ تدريجي نحو العلاء. في هذه الكنائس التي احتل فيها الخورس مكاناً متزايد الاتساع ، والتي قامت بحذاء صحنيها المنخفضين كنائس جانبية – هي اوقاف عائلية خاصة تنم عن ثروة بعض الفئات الاجتماعية وبروز بعض المظاهر التقوية المتميزة – تحققت الوثبة العمودية بارتفاع القباب ، وتحول القسم العلوي من ابراج الاجراس ، والانسجام بين الزوافر الخفيفة وبين دعائمها ، وايقاف الركائز الكثيرة المتحررة من التيجان حتى لا يعيق صعودها عائق . وقد بلغ هذا الشموخ حدّه في أبنية « بوفيه » القصيمة التي ارتفع خورسها ، قبل انهيارها ، الى قرابة ٥٠ متراً وابراجها الى أكثر من ١٥٠ متراً . وفي الوقت نفسه تجوفت الجدران وكادت الأبنية تصبح مجرّد هيكل يقوم على الركائز والاقواس ؛ فاتسعت الأبواب واستطالت النوافذ العلوية باتجاه أقسامها السفلى بحيث زالت تدريجياً المسافة الوسيطة الفاصلة بينها وبين اقواس صحن الكنيسة ؛ وباتت من الاتساع بحيث توجب تقويتها ببعض عناصر التقوية الداخلية . وتمثل كنيسة « سانت شابيل » الشاهقة في باريس ، التي ليست سوى هيكل زجاجي ، اكتمال هذه التهوية التدريجية .

تتميز الطريقة القوطية اساساً ، في النقاشة ، باستعداد روحي آخر حيال مواضيع الصور المقدسة . اجل لم تزل هذه المواضيع مقدسة ، ولكن الفنانين لم يحاولوا اذ ذاك ، تحت تأثير التبدلات التي طرأت على الشعور الديني ، تمثيل قوة الاشخاص الفائقي الطبيعة ، بل ما يمكن ان يحملهم اعظم عاطفة اخوية نحو الانسان . ولا يعبر هذا الفن عن عظمة الاله بقدر تعبيره عن محبته . لذلك فاننا نشاهد في الحركات والوجوه حنواً ورقة، وفي الابتسامة تصنعاً ، وفي العيون تغضناً وفي الجفن تثاقلاً يطبعان النظر بلطف بشري يناقضه التحديق الساهي في الوجوه

« الرومانية » . وكانت المخلوقات ، في الوقت نفسه ، موضوع اهتمام خاص . فبات للكائنات ، من نبات وحيوان، ولأعمال الانسان، مكانها في النقاشة التزيينية التي رتبت ووجهت بكل اتقان. وقد أفضى هذا الترتيب الجديد ، الذي لا تزال تنعكس فيه نزعتا النفس الرئيسيتان في القرن الثالث عشر ـ البحث الآني عن العطف الالهي وملاحظة الأشياء بتبصر ـ في الحقل التصويري ، الى اهمال المواضيع الخيالية (اذ ان المزينين لم يستوحوا الرؤى الجليانية آنذاك ، بل المواضيع الواقعية وسير المسيح والعذراء والقديسين) ، واتقان تقليد النماذج النباتية التي عم استخدامها في التزيين وانتشرت في كل مـــكان ، ومراعاة القياسات والتناسق في الشكل البشري . فبرزت النقاشة شيئاً فشيئاً في الجدار وغدت تمثالاً (فالصحناء ، بعد تاج العمود ، سائرة نحو الزوال)، وانتهت ، بفعل قبلتها الانسانية ، الى الاقتراب اقتراباً غريباً من فن صناعة التماثيل القديمة : فان اشخاص مشهد الزيارة في رمس لا تختلف بوجوهها وملابسها عن التماثيل اليونانية .

وأدى تجوّف الجدران اخيراً ، بحؤوله دون النقوش والرسوم التزيينية ، الى ازدهار تقنيــة الزجاج التي اعتمدت في الغرب منذ القرن العاشر على الاقل بحـــدّ منها ، حتى ذاك التاريخ ، ضيق النوافذ «الرومانية» . فانتشر استعمال ذاك الزجاج المقطع بواسطة مصانع الزجاج الكبرى التي قامت على التوالي في سان ـ دني في منتصف القرن الثاني عشر ، ثم في شارتر ، وأخيراً في سانت ـ شابيل، وسيطر على كافة الطرائق التصويرية الاخرى،وفرض على تزاويق المخطوطات نفسها ، التي أنتج أجملها في المصانع الباريسية ، اسلوبه الخاص : الاصباغ المتماثلة التي تفصل بينها دوائر سوداء تقوم مقام الفواصل الرصاصية بين القطع الزجاجيـــة ، والخطوط المنكسرة ، والتبسيط الكلي .

تكوّن هذا النمط في الحوض الباريسي ثم انتشر في كافة أنحاء اوروبا . ويرد هـــذا الانتشار الى الاسباب التالية : تعاظم الدولة الكابيتية ونفوذ القديس لويس في العـــالم المسيحي ، والمنشأ الفرنسي لبعض التيارات الدينية ولا سيما للجمعية السيسترسية التي انتثرت اديرتها في كل مكان ، وشهرة المراكز الفكرية في « ايل دي فرانس » ـ فقليلون جداً هم ذوو المقامات الكنسية الذين لم يترددوا على جامعة باريس في القرن الثالث عشر والذين لم يستطيعوا من ثم نقـــل قبس من الطرائق الفنية الفرنسية الى الكنائس التي اسندت اليهم ادارتها في عهد لاحق ـ، وتأثير المصنوعات الصغيرة ، كالتماثيل العاجية الباريسية او المذاخر الليموسينية النحاسية المزدانة بالمينا ، الـــتي قلّدت اشكال الفنون الكبرى خير تقليد وصدرت الى كل مكان .

تميز هذا الانتشار بعمقه وشموله في الارض المقدسة بصورة خاصة ، وفي البلدان الجرمانيـــة بعد السنة ١٢٠٠ على الرغم من أمانتها الطويلة للتقاليد الكارولنجية . ادخل السيسترسيون اولاً استعمال الاقواس المتقاطعة في مناطق المانيا المختلفة وحتى في اسوج؛ ثم استوحى بناؤو كاتدرائيات ا عبرغ ومغدبورغ ولمبورغ منجزات لان وسواسون ، كما استوحى بناؤو ستراسبورغ وكولونيا الكاتدرائيات الفرنسية الكبرى التي يعود تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر ؛ وعلى شواطىء

البلطيك سقفت الكنائس الكبرى المبنية بالقرميد ، في كل مدينة من مدن الشراكة الهانسية ، وفاقاً للطرائق القوطية . وتم التقليد نفسه في النقاشة حيث انتشر النمط الجديد ، في الغالب ، كما في ستراسبورغ مثلاً ، بفضل الفنانين الآتين من فرنسا ؛ ولكنه تقليد مكثار : اذ ان تماثيل نومبورغ وبمبرغ الجميلة هي ، خارج فرنسا ، التماثيل القوطية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بتماثيل شارتر او رمس .

اما في البلدان الجنوبية ، وهي مهد النمط « الروماني » وأرضه المختارة ، فلم يكن لفن « ايل دي فرانس » هذا الأثر الكبير . فحتى أواخر القرن الثاني عشر بقيت غاليا الجنوبية أمينة كل الامانة للطرائق التقليدية : والى هذا التاريخ يعود ازدهار النقاشة الرومانية في بروفنسا وتحقيق النقوش في فيلك وفي كاتدرائية « بوي » . ولم يدخل الفن الشمالي الا بدخول الجمعية السيسترسية وبسط السيطرة الكابيتية ، أي بعد حروب الالبيين في لنغدوك ، ومع سلالة انجو في بروفنسا ــ وبصورة سطحية جداً ــ أي بعد السنة ١٢٥٠ . ثم انتقلت تقنية الاقواس المتقاطعة عبر طرق الحج ، فظهرت في السنة ١١٦٨ في سان ــ جاك دي كومبوستيل ، ولكن كاتدرائيات لوغو وسيغوفيا ، العائدة الى اواخر القرن الثاني عشر ، ما زالت آنذاك رومانية ، على غرار النقاشة الكبرى في كتالونيا وروسيون التي تمادى عهدها زمناً طويلاً بعد ذلك العهد ؛ ولم يشع علم الجمال الفرنسي حقاً ، بعد ان نشره السيسترسيون في بوبليه ايضاً ، الا في اوائل القرن الثاني عشر ، اذ فرض نفسه ، في طليطلة وبورغوس وليون ، على مهندسي الكنائس الجديدة . وهنالك اخيراً بلدان ، هما ايطاليا وانكلترا ، لم يتأثرا بالنمط الجديد الا تأثراً جزئياً .

ففي انكلترا ، التي بلغ من تشربها الثقافة الفرنسية وانقيادها ، في حقل التصوير ، للتقنيات الفرنسية المصدر ، اننا لا نستطيع التمييز ، في القرن الثالث عشر ، بين النقوش الباريسية ونقوش ونشستر المزوقة ، واصلت الطرائق القوطية ، التي اختبرت فيها قبل سواها ، تطوراً مستقلاً منذ عشية الفتح الكابيتي لنورمنديا ، واستغرق تحررها من طرائق النمط « الروماني » النورمندي مزيداً من الوقت . فحتى حوالي السنة ١٢٥٠ ، نرى ان كنائس « الفن الانكليزي البكور » ، وأشهرها كنيسة سالسبوري ، تتألف من اجزاء متجمعة متلاحمة وتتمّ عن ايثار فنانيها ــ الذي سنشاهده في العهود اللاحقة ــ لانبساط الاجزاء القائمة وراء المذبح ، ولا تزال محتفظة بأبواب وضيعة . اما النمط « المزخرف » الذي عقبه ، وهو يتميز ببروز خطوط طفيلية ، فقد تحرر تدريجياً من التأثير الفرنسي . وسواء غطت النقاشة الجبهة كلها بالتماثيل ، كما في كاتدرائية « ولز » ، او اعتمدت في الابنية المدفنية لتمثيل الموتى تحيط بهم مواكب النواحين مذرفي الدموع ، فانها على مزيد من التميز والتفرد ايضاً . اما في ايطاليا ، حيث لم يرسخ النمط « الروماني » نفسه في يوم من الايام ، فان المستوردات السيسترسية الى فوسانوفا وسان غالغانو ، ثم استخدام الاقواس المتقاطعة في الكنائس الدومينيكية والفرنسيسية الكبرى ، الذي انحصر هنا في السقف ولم يفض الى العمودية ولا الى تجوّف الجدران ، لم تتوصل الى تغيير اتجاهاتها الفنية الاصلية الخاضعة اما

التأثير البيزنطي واما التقاليد القديمة .

ضعف التأثير الفرنسي

اضف الى ذلك ان الفن الفرنسي قد اصيب حوالي السنة ١٢٧٥ بنهكة شبيهة بتلك التي اصيب بها الانتاج الادبي . فقد نضبت القريحة الخلاقة ؛ حلت المسائل التقنية كلها ، ولم تتجدد المفاهيم قط ، وافرط الفنانون في التدقيق والرقة، دون ان يتجرأوا بعد ، كما في انكلترا، على نهج تزيين مستهجن . ساروا في النقاشة شطر التصنع والتفه . وليس هذا سوى مظهر من مظاهر الانحطاط التدريجي في الحضارة الفرنسية : فالمملكة الكابيتية قد فقدت آنذاك المركز الرئيسي الذي احتلته في تطور الثقافة الغربية . ويرد هذا التواري الى اسباب عديدة نذكر منها في الدرجة الاولى التغييرات التي طرأت في اواخر القرن الثالث عشر على الاقتصاد الاوروبي . استفادت فرنسا في ما سبق ، أكثر من أية دولة اخرى ، من التوسع الزراعي ؛ ولكن هذا التوسع قد توقف خلال القرن الثالث عشر ، فأدى توقفه ،بفعل فقدان التوازن بين السكان المتزايدين عدداً والانتاج الذي انتهى الى الاستقرار ، الى أزمة كانت مجاعة السنة ١٣١٦ ـ ١٣١٧ الخطيرة اوضح دليل على واقعها . واتضحت في الفترة نفسها مظاهر انحطاط الاسواق الدورية في شمبانيا ؛ وغدا الاقتصاد الفرنسي المزدهر ، بعد نمو التجارة الكبرى المطرد ، وتوسع الأعمال المصرفية ، وانتشار النقود الذهبية ، خاضعاً لسيطرة رجال الاعمال الايطاليين ، كما يبدو ذلك بوضوح في باريس نفسها .

الى هذا العامل الاول من عوامل التراجع انضم تقهقر السيطرة الفرنجية في الشرق الادنى : ففي السنة ١٢٦١ استعاد اليونانيون القسطنطينية وحصروا اللاتين في بعض السيادات في شبه جزيرة موريا حيث لم يلبثوا ان تطلينوا ، وفي السنة ١٢٩١ سقطت عكا آخر معقل مسيحي في سوريا : واذا لم يؤثر هذا التقهقر بشيء على التجارة الايطالية ، فانه قد حدّ من نفوذ الثقافة الفرنسية . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك توسع الدول الدائرية : المانيا التي امتدت نحو الشرق وقامت فيها المدن الكثيرة وازدهرت اقتصادياً بفضل الطرقات التجارية الجديدة المنحدرة اليها من جبال الالب ، وانكلترا التي احيت بعض تقاليدها المحلية بعد ان فقد الملك والارستوقراطية ممتلكاتها في اليابسة الاوروبية ، وقشتالة التي توصلت الى حصر العرب المغاربة حول غرناطة ، واراغون التي نمت تجارتها في المتوسط والتي انتزعت ، منذ السنة ١٢٨٢ ، صقليا من أيدي امراء انجو الذين انحصروا في ما خضع من شبه الجزيرة الايطالية لمملكة نابولي . ففرنسا ليست وحدها بعد اليوم ، ويمكننا تكوين صورة عن هذا التنافس في تاريخ جامعة باريس الداخلي : لا تزال المدارس الباريسية ، في منتصف القرن الثالث عشر ، تحتل مركزاً اولياً معترفاً به ، ولكن المفكرين العاملين فيها والاساتذة الذين يوزعون التعليم على طلابها ينتسبون بأعداد كبيرة لبلدان أجنبية ، كـ « البير الكولوني » و « توما الاكويني » والقديس « بونافنتورا » . واحتلت مدرسة اوكسفورد ، التي ما زالت تتقدم باستمرار ، مركز الصدارة في بعض حقول البحث . وأفضت

النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين البابا وملك فرنسا الى هجرة بعض الاساتذة والطلاب ـ وهي هجرة اولى . اضف الى ذلك ان تجزئة العالم المسيحي الى دول مستقلة متميزة قد حدّت من مكانة المراكز الفكرية الكبرى ، كجامعة باريس مثلاً : وهذا ما حدث في السنة ١٣٠٢ حين نفى فيليب له بيل جون دونس، المعروف بدونس سكوت، بسبب مناصرته لروما.

لهذه الاسباب جميعها ، تدنى شأن النفوذ الفرنسي . فبينما لم يبق من أثر لانتشار اللغة الكابيتية الواسع في الشرق الا في قبرص وموريا ، ازدهر في البورتغال واسبانيا شعر غنائي بلغة الشعب . اجل لا يزال افراد الطبقة العليا في انكلترا يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولكنها لغة فرنسية مشوهة باطراد ، وبقوا امناء للقصص الفروسية التي تؤلف بهذه اللغة ، ولكن اللغة الانكليزية ، وهي لغة الارياف ، اخذت تنتشر في المدن وتستعمل في الكتابة مرة اخرى . وتخلى الشعر كذلك عن اللغة الفرنسية في ايطاليا الشمالية ثم في ايطاليا الجنوبية بعد تقهقر « شارل دانجو » . وفي الواقع انتقلت ادارة الثقافة من فرنسا الى ايطاليا في هذه الحقبة الممتدة من السنة ١٢٧٠ الى السنة ١٣٢٠ التي هي بمثابة مرحلة نضج نهائي بالنسبة للملكيات الغربية اشتدت فيها الانتقادات الموجهة الى البابوية ، وقد افضى الحكم فيها على ارسطو الى الحكم على فلسفة توما الاكويني ، ومرحلة توسع التجارة الكبرى توسعاً عظيماً ، ونهضة البندقية وجنوى البحرية والعمليات المصرفية الفلورنسية الكبرى .

تباشير النهضة الايطالية

ان ايطاليا هذه ، التي خيّم عليها الانحطاط حتى ذاك العهد وخضعت خضوعاً متمادياً للغزوات والحمايات الاجنبية، والتي تأثرت أكثر من أية دولة اخرى ، منذ القديس فرنسيس الاسيزي ، بالرسالة الوحيدة القادرة على تجديد مسيحية القرون الوسطى ، قد استعادت بفضل التجارة التي أحياها البحر ، استقلالها الروحي وقوتها الخلاقة . فقامت في مدنها ، حيث تكدست اعظم الثروات المنقولة في الغرب ، ثقافة خاصة متميزة أغنتها العلائق بالشرق ورواسب الثقافة الرومانية التي اخذت تستعيد نشاطها . فهي ايطاليا اذن التي تسلمت إرث فرنسا الادبي ونفخت حياة جديدة في الألوان التي وهنت فيها بعد ان ازدهرت في ما وراء الجبال : ان تقليد قصص الفروسية الذي تلاشى ، داخل المملكة الكابيتية ، في اكثار معقد لا رونق له ، قد وجد له موطناً ، في اوائل القرن الرابع عشر ، في بلاطات حكام لومبارديا المستبدين ؛ كما ان الشعر الصقلي اولاً ، والشعر التوسكاني والبولوني ثانياً ، قد اقتبسا وجدّدا شعر الشعراء المتجولين في فرنسا في « النمط العذب الجديد » . اضف الى ذلك أخيراً ان ثقافة القرون الوسطى الكلاسيكية ، المدرسية والصوفية على السواء ، قد حققت آنذاك ، في « المهزلة الالهية » ، التي تجمع بين الايمان العميق وانتقاد الملكية البابوية بمرارة والاعجاب بفرجيل وارسطو ومعرفة ابن رشد وتمجيد محبة التذلل، منتهى كمالها وأعظم منتجاتها.

وأدت ايطاليا للفنون قسطاً اعظم تميزاً ايضاً . وهذا القسط هو بعث تدريجي للأشكال

القديمة نهضت به ايطاليا الوسطى بصورة خاصة ، في تلك المقاطعات ، الملاجىء ، التي لم تتأثر شأن غيرها بسيطرة المفاهيم الجمالية الاجنبية . فلم ينقطع السكان قط في هذه المناطق عن تشييد الكنائس ذات الاعمدة الداخلية والجدران العارية المغطاة بالاخشاب وفاقاً لنمط الكنائس الملكية الصافي : فان كاتدرائية اورفياتو التي بوشر بتشييدها في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، أشبه بكنيسة ملكية قسطنطينية ، على غرار كنيسة «سانت ماري دي ترانستفير» التي شيدت قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف ؛ وبرزت مثل هذه الامانة للطرائق القديمة في التزيين ايضاً سواء في الجبهات حيث تتعاقب القطع الرخامية بأشكال هندسية ، كجبهة «سان ميناتو» في فلورنسا ، ام في اشكال التبليط بالفسيفساء التي رسمها آل «كوزماتي» اليونانيو المنشأ للكنائس الرومانية . اما النقاشة التي تأثرت تأثراً اطول عهداً بالطرائق المستوردة من الخارج ، فقد رجعت بدورها الى الماضي الروماني ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في «بارم» حيث تتميز الاشكال الرومانية التي حققها « بندتّو انتلامي » بتوازن وجلال رشيق لا يتميزان عنها في النقوش الناتئة . وفي الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، غدت صقليا ، التي أعدّها فردريك الثاني ، في تفكيره ، لأن تصبح مركز الامبراطورية بعد تجديدها ، مركزاً لنهضة صناعة التماثيل القديمة التي أنتجت ، في الفترة نفسها التي أنتج فيها « الاله الجميل » في اميان ، التماثيل النصفية المطبعة المتسمة بطابع روماني عميق التي حققها ازميل « نيكولو دي فوجيا » . واقتبس جمهور من فناني توسكانا اخيراً ، ابتداء من نقولا البيزي وانتهاء بـ « تينو كايينو » مواضيع النقوش المقدسة المستوردة من فرنسا مستوحين في عملهم نقوش النواويس استيحاءً مباشراً . وفي اواخر القرن الثالث عشر شملت هذه الحركة التصوير ايضاً . ولما كان هذا الاخير مستقلا عن فن التزيين الزجاجي الذي لم يجد له مكاناً في كنائس ايطاليا المعتمة ، فقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن البيزنطي الذي كان مزدهراً جداً في اواخر عهد النهضة المقدونية ، فجاء التزيين الفسيفسائي الذي انجز في بيت العماد في فلورنسا ، بين السنة ١٢٢٥ والسنة ١٢٨٠ ، تقليداً خالصاً للنماذج الشرقية . ولم يهتم « شيابوى » (١٢٤٠ – ١٣٠٢) الا لاضفاء الحنان الفرنسيسي على الصور البيزنطية ، وقد واصل محاولاته في سينّا ، دوشيو و « سيمون دي مرتيني » . اما في روما فقد انصرف الفسيفسائي توريتي في كنيسة « سانت ماري » الكبرى (١٢٩٦) ، والمصور الجدراني كافاليني في كنيسة « سانت ـ سيسيل » ، عن تقليد صور الشرق اليوناني الجامدة المستوية واهتدوا الى حياة الصور القديمة ودقة قياساتها . فكانا كمن مهّد الطريق لـ « جيوتو » الذي ادخل العاطفة القوطية على الاشكال « الرومانية » فأحياها في صور جدران كنيسة « اسيز » العليا (١٢٩٦ – ١٣٠٤) وفي ارينا دي بادوا .

ولكن الفترة (١٣١٧ – ١٣١٨) التي صور فيها جيوتو ، تلبية لطلب آل « باردي » ، وهم من كبار صيارفة فلورنسا ، مشاهد حياة القديس فرنسيس على جدران كنيستهم الخاصة المعروفة باسم كنيسة « الصليب المقدس » ، تصادف في الغرب فترة عقبت مجاعة كبرى انهارت فيها الاسعار الزراعية رأفضى القلق الاقتصادي وتوسع السلطة الملكية في فرنسا الى قيام التكتلات

الاقطاعية ، بينا بدأت اعمال حربية شبه مستمرة مع انكلترا عند حدود غويان ؛ وتصادف ، كذلك الفترة التي اختارها البابا يوحنا الثاني والعشرون لتوسيع القصر الاسقفي في افينيون وللدخول في نزاع معلن ضد « الروحيين »؛ كا تصادف اخيراً الفترة التي وضع فيها دانتي ، في كتابه « الملكية » ، نظرية امبراطورية لم يعد لها من وجود ، ومجّد ، في كتابيه « المطهر » و « الفردوس » ، العظمة الايطاليــة . فقضي آنذاك نهائياً على التوازن بين العناصر السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية لحضارة القرون الوسطى الذي قدّر له ، قبل خمسين سنة ، في عهد القديس لويس ، ان يتحقق بصورة عابرة في « ايل دي فرانس » . فاعترض العالم الغربي ، الذي ما زالت قوته الخلاقة شبه سليمة ، قلق فكري وصعوبات مادية ما كان ليرتقب مدى ديمومتها .

القسم الثالث

الأيام العصيبة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

الفصل الأول

وعي مصاعب أوروبا

بعد ان اختل نهائياً ، في الربع الاول من القرن الرابع عشر ، توازن العالم المسيحي السريع الزوال ، دخلت اوروبا الغربية مرحلة طويلة من الاضطرابات تمخضت بتحول عميق في الدول والانظمة الاجتماعية والاقتصادية ، والعقليات . وليست بلايا حرب المئة سنة ، والكوارث البشرية ، وتراجع العالم المسيحي امام الغزو العثماني ، واضطرابات الكنيسة الرومانية ، سوى المظاهر السلبية لهذه الولادة الشاقة . اجل لقد قوّت هذه المظاهر المنافسات بين القوى الملكية ؛ واستعجلت تحرر الدول حيال السلطة الكنسية ؛ وأظهرت عدم التناسب بين موارد الامراء المالية والعسكرية وبين وسائل ولايتهم على مجتمع زالت فيه زوالاً نهائياً روابط التعلق الشخصي والعقاري في النظام الاقطاعي . وبدا النظام الاجتماعي وكأنه يتفكك في شقاء الارياف ، وفي انقسامات الاوساط المدنية حيث انفجر حقد الوضعاء على اشراف متشبثين بامتيازاتهم المهنية والبلدية . فبرزت في كل مكان عواقب انكماش الاقتصاد المتمادي : نقص في الانتاج وتنافس صناعي وتدن في النقد المتداول وفوضى في الاسعار .

الا ان هذه الايام العصيبة لا تعني قط ، كما يميل الناس غالباً الى الاعتقاد ، تشوشاً كلياً في الافكار وفساداً في الاخلاق او نهكة في القوى الخلاقة . فان الناس آنذاك ، وان عاشوا عيشة جائرة كانت نهاية الحياة فيها قريبة جداً من منبعها احياناً ، لم يبيتوا على اليأس قاعدةً ولا على الدوار نظاماً . وان القرن الرابع عشر الحافل بالمضادات والمتناقضات – التي هي سمات الحياة بالذات – لا يستحق ، في حقل نتاج الفكر والفن ، الازدراء الذي درج الناس على قذفه به .

فيجدر بنا في الدرجة الاولى ان نلم بالابعاد الحقيقية والانسانية لهذه الحضارة التي أرادت ان تكون شاملة مع تشبثها بتنوعها والتي حددت الدولة تجردها في اجوائها .

١ ـ أبعاد الحضارة الغربية

الرقعة الجغرافية

ما برحت رقعة العالم المسيحي الروماني، منذ منتصف القرن الثالث عشر، تنكمش انكماشاً مطرداً . فقد أقصرت ، امام الامبراطورية اليونانية

الجدّدة ، وامام الاسلام ، على الجزر - قبرص وزودوس وكريت والارخبيـل - وعلى بعض مقاطعات موريا والآتيك ، ولكنها قواعد انطلاق ضعيفة للنهوض بهجوم معاكس . ولم يكن لهذه المراكز المتقدمة ، القليلة السكان، المتزعزعة بفعل غارات المغامرين الكاتالونيين والناقاريين، سوى قيمةعسكرية هزيلة؛ ناهيك عن ان مشاغل جنوى والبندقية وبرشلونا التجارية كانت كافية للحيلولة دون تنفيذ مشاريع الحملات الصليبية لو ان هذه المشاريع كانت أشد عزماً ولم تقتصر على احلام تغذيها البلاطات الاميرية دون ان يكون لها أي صدى في الجماهير . لذلـك تضاءلت العلائق بين الغرب والشرق في المتوسط الشرقي بعد ان عاث فيه القراصنة الاتراك فساداً. يضاف الى ذلك ان تدخل السلطة العثمانية قد ارغم الحضارة المسيحية على الانكفاء براً ايضاً. فقبل نهاية القرن الرابع عشر تراجعت حدود العالم الغربي حتى شرقي كرواتيا وهنغاريا وبولونيا التي باتت كلها ، منذ ذاك الحين ، ولقرون عدة ، مواقع تهددها الاخطار امام الاسلام التركي. وهو تراجع لم يكن ليعوض عنه الفتح المسيحي للتوانيا عند الحدود الشمالية لهذا العالم .

ولم تعد الممالك الايبيرية كذلك من القوة بحيث تستطيع ، في القرن الرابع عشر ، مواصلة الانتصارات الصاعقة التي أتاحت لها الاستيلاء على كثير من المواقع الاسلامية في الغرب؛ وسيقدر لامارة غرناطة ، في ارض شبه الجزيرة نفسها ، ان تدوم حتى اواخر القرن الخامس عشر . فقشتالة غدت مسرحاً للنزاعات السلالية ولاضطرابات الحروب الاهلية التي تحالف اطراف النزاع فيها مع المسلمين احياناً ؛ وعندما حاولت شن الهجوم على هؤلاء اخفقت امام غرناطة في السنة ١٣١٩ ، وعلى بعض المسافة من « الجزيرة » *Algéciras* في السنة ١٣٤٣ . اجـل لقد برهنت اراغون وحدها عن طاقة توسعية؛ ولكنها، بعد ان استعادت من العرب المغاربة القطاع الفالنسي والجزائري الذي يعود اليها، اقتطعت لها امبراطورية متوسطية في العالم المسيحي نفسه : فالسيطرة الكاتالونية ، وهي آخر سيطرة اشتركت في التسابق البحري ، لم تتخط اليونان حيث أسست بعض الدوقيات السريعة الزوال ؛ ثم اضطرت ، منذ اوائل القرن الخامس عشر ، الى العودة الى حوض المتوسط الغربي : صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، الباليار .

كانت النتيجة انتقـال مركز ثقل العالم المسيحي نحو الغرب . ولعل روما نفسها اعتُبرت عاصمة لا تليق بأن تكون هـذا المركز بسبب دنوها من الحدود الجديدة وتعرضها للأخطار . ويمكن القول ، من هذا القبيل ، ان اقامة البابوية في افينيون قد جاءت نتيجة اختيار حصيف ؛ فان افينيون ، وهي ارض بروفنسية ضمن اراضي الكنيسة ابتيعت في السنة ١٣٤٨ من «جان» ملكة نابولي ، كانت عاصمة موافقة يستطيع المندوبون والقصاد وناقلو البريد والرسل الانتقـال منها الى اهم مدن الغرب في آجال متساوية تقريباً : باريس في خمسة او ستة ايام ، لندن في ثمانية او عشرة ايام ، بروج في ثمانية ايام ، البندقية في ثلاثة عشر او اربعة عشر يوماً ، فالنس في ثمانية ايام .

في هذا الغرب الذي تحددت آفاقه ازداد وعي التجار والعلماء والحكام لتقاربهم المتبادل .

وقد شجعتهم على ذلك بعض النجاحات التقنية والنزعات الفكرية الجديدة التي جعلت التحليل والدقة في المرتبة الاولى من مشاغل الفكر . فسوف يتيح قياس الزمن ، بفضل اكتشاف الساعة الدقاقة المتقنة ، حساب دوائر الطول ؛ كما ان تقدم رصد الاجرام قد شق الطريق امام تحديد دوائر العرض بمزيد من الدقة . وبات بمكنة المسافرين ، بفضل قدرتهم على تعيين الاماكن بنقطة تحدد باحداثياتها وعلى وضع الخرائط ، اختصار المسافات وتوفير الوقت . وتحسنت كذلك وسائل النقل على الطرقات البرية والبحرية التي غدا التغلب على مشقاتها امرأ اوفر سهولة . ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أفضى دخول البواخر المرتفعة والسفن الحربية العاملة بين المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، ودخول القوارب الشراعية المسطحة والمراكب الطويلة الضيقة والخفيفة العاملة بين الاطلسي والبحر المتوسط ، والتعامل في بروج وعلى سواحل ملاحات بواتو مع بواخر الشحن الشمالية الثقيلة ، الى اعتماد هياكل متشابهة في بناء السفن . ويشير المؤرخ « فيلاني » ، في كلامه عن انتشار المراكب الطويلة الضيقة والخفيفة ، الى شمول استعمال الدفة المحورية . وقد أمنوا للسفينة استقرارها فوق المياه بزيادة عدد الصواري واضافة الشراع اللاتيني الى الشراع المربع ومضاعفة صفوف الجذافين في السفينة الحربية وتقوية الهيكل بتجهيز مقدّمها بطرف قوي . ونبهت « الانوار » الى مداخل المرافىء والشواطىء القريبة من الطرقات البحرية، وعم استعمال البوصلة . فادت الطمأنينة والسرعة الى اختصار المسافات . ومع ذلك فان السفر من البندقية الى بروج كان يستغرق في القرن الرابع عشر ثلاثة اشهر ، بما فيها رسو السفن في بعض المرافىء للتمون ؛ اما نقل البريد براً بين هاتين المدينتين فكان يستغرق خمسة عشر يوماً في الظروف العادية، بينما كان يكفيه في الظروف الطارئة اسبوع من الاحضار المتواصل .

اما سبب هذا التباين فهو ان الطريق البرية تفضل الطريق المائية، النهرية او البحرية،من حيث السرعة : اذ ان المسافة بين مراحلها لا تتعدى ٤٠ او ٥٠ كيلومتراً اجمالاً . واتسعت العربات الكبيرة والثقيلة ، التي تجرها الخيول المقرونة ، لأكثر من ستة عشر شخصاً . الا ان العربة ذات العجلة والحصان والبغل ما زالت، في الارجح، الوسائل المفضلة لنقل التجار المبادرين والمسافرين الذين لا ينقلون أمتعة كثيرة ؛ وهي وحدها ما يوافق الطرق الصعبة ، ولا سيما معابر الالب التي أصبحت سالكة بفضل اعمال فنية جريئة فاختصرت المسافات بين المتوسط وبحر الشمال . وهكذا تحولت لمصلحة الرين الطريق التي كانت تؤدي في السابق الى اسواق شمبانيا الدورية ؛ فانحدر المسافرون عن طريق البرينر والسبتيمر والسان ـ غوتار – الذي تأكيد قيام « جسره المزيد » في السنة ١٣٧٠ – و « السان برنار » الكبير والصغير ، نحو جنيف واسواق المانيا الجنوبية ؛ وأثارت اقامة البابوية على ضفاف الرون ، لجاز « مون ـ سني » ، منافسة حركة نقل متزايدة في مجازي لارش و « مون ـ جنيفر » . ولذلك لم تقس المسافات ، بالنسبة لأناس يواجهون اخطار البحر والجبل، بقياسات الطول المألوفة، بل قدّرت بالايام التي يستغرقها قطعها . وقد ذكر المنادي الحربي « برّي » أن « جيل له بوفيه » حدد ابعاد فرنسا في منتصف القرن

الخامس عشر كما يلي : « اثنان وعشرون يوماً طولا وستة عشر يوماً عرضاً » . وهكذا فان ابعاد الغرب في القرون الوسطى ما زالت تقاس بمقياس الانسان .

عدد السكان

هل باستطاعتنا اقامة مقابلة بين انكفاء العالم الغربي وتوقف حركة الارتفاع في كثافة سكانه يا ترى ؟ ان معلوماتنا اولية ومتقطعة وغير متلاحمة : بعض الاحصاءات المدنية في الامبراطورية وايطاليـــا وهولندا ؛ وفي فرنسا ، احصاء عام للعائلات وسجلات تقديرية ومطارح ضرائب ؛ وفي انكلترا جدولان بالضرائب الشخصية . فهل يمثـــل مفهوم العائلة ثلاثة اشخاص او خمسة اشخاص ؟ ان السؤال موضوع جـدل . ولكن المؤرخين يجمعون على النظر الى القرن الرابع عشر والشطر الاكبر من القرن الخامس عشر نظرهم الى حقبة طويلة تتميز بهبوط كثافة السكان .

اجل لقد أدى ارتفاع هذه الكثافة في القرون السابقة الى اكتظاظ المناطق الخصبة بالسكان، ولكن هذا الارتفاع يجب ان يقاس بالنسبة لوسائل الانتاج لا بأرقام مطلقة . وليس محتملا ان تكون فرنسا قد بلغت الـ ١٥ مليون نسمة التي توصل اليها «ف. لوت» انطلاقاً من جدول العائلات العائد الى السنة ١٣٢٨ ، بينما ما زال سكان انكلترا في الوقت نفسه دون الاربعة ملايين . فان مساحات جدباء واسعة قد بقيت ، بسبب الافتقار الى التقدم التقني ، شبه خالية من السكان : كالجبال التي لا يعيش سكانها الا من تربية المواشي (الالب، والبيرينيه، وجبال السييرا الاسبانية، والابنين، والجبال القديمة في اوروبا الوسطى) ؛ والتلال البائرة او البراحات في اسكتلندا وبلاد الويلز ؛ ومستنقعات المانيا الشمالية التي لم ينجز صرف مياهها ؛ وسهول المتوسط الساحلية الـتي انتشرت فيها الملاريا . فلا عجب من ثم اذا تفاوت توزع السكان في الارياف : ففي سهول زراعة الحنطة على مقربة من باريس ، في هضبة فرنسا ، عشرون عائلة تقريباً في الكيلومتر المربع ؛ بينما ليس في تلال « هوربوا » الحرجة سوى ثلث هـذه النسبة ؛ وعاش كذلك نصف فلاحي انكلترا في بعض كونتيات الجنوب والشرق .

اضف الى ذلك ان هؤلاء السكان، الذين تفاوت توزعهم وبات عددهم مرتفعاً جداً بالنسبة لحالة الانتاج الغذائي ، قد عانوا الامرين، في بعض المناطق ، من اضرار الحروب . فقد اقفرت بفعل مثل هـــذه الاضرار بعض مناطق ولاية « بوردو » التي سيهاجر اليها الـ « غافاش » في وقت لاحق . كما ان نورمنديا التي بلغ عدد سكانها، حوالي السنة ١٣٠٠ ، أكثر من مليون نسمة ونصف المليون ، كانت قد فقدت ، في السنة ١٤٥٠ ، ثلثي سكانها ، فأثار خراب أريافها مراثي « توما بازين » أسقف ليزيو . ولكن هذا النقص في السكان يلاحظ في كافة انحاء اوروبا : ومرد ذلك الى ان نتائج سوء التغـــذية والانحطاط الاقتصادي كانت اخطر وأعم من كرّ الجيوش الغازية وفرّها .

وقد سبق انقلاب الوضع هذا ما يمكن اعتباره تمهيداً ومقدمة له . لمجاعة السنة ١٣١٦ قد

أفنت عشر الاهالي في مدن صناعة الاجواخ في فلاندر الكثيفة السكان . كما ان الطاعون الاسود، الذي نقله من حيفا الى مسينا احد المراكب التجارية ، قد انتشر ، خلال اشهر معدودة ، حتى في انكلترا وسكنديناڤيا . اما اضراره ، التي جسّمها المؤرخون المعاصرون ، كما نرجح ، فقد تجاوزت مع ذلك كل تصور ممكن ؛ فتراوحت نسبة الوفيات ، بحسب المناطق المبتلاة ، بين ثمن وثلث مجموع السكان . وقد دوّن سجل خورنية جيفري في بورغونيا ، وهو الوثيقة الوحيدة من نوعها التي وصلت الينا من هذا العهد ، ٦٤٩ حادثة وفاة من اصل ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ نسمة ، في السنة ١٣٤٨ وحدها ؛ اضف الى ذلك ان اديرة المقاطعات المتوسطية قد اقفلت عملياً : فلم يبق في مونبلييه سوى سبعة اخوة من اصل ١٤٠ راهباً دومينيكانياً ؛ وفقدت توسكانا ثلاثة ارباع او اربعة اخماس سكان مدنها ، في الارجح .

كان الطاعون بلاء شاملا تجدد تكراراً حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ثم فتك بسكان بعض المناطق بصورة خاصة ، فطبع هبطة كثافة السكان بطابع خطير جداً . وان هذا النقص الكبير في عدد السكان — منتجين ومستهلكين — هو الظاهرة الاساسية التي تفسر تقهقراً اقتصادياً طويل الامد . ومهما كان من امر التقديرات العددية ، فانها توحي لنا مع ذلك بمدى حركة لا نظير لها من قبل: فان عدد سكان انكلترا قد هبط ، على ما يبدو ، الى ما دون المليونين والنصف في السنة ١٣٧٧ . اضف الى ذلك ان ندرة اليد العاملة آنذاك واقع أكيد في كافة أنحاء اوروبا : في المدن المزدهرة كبرشلونة وفالنس واشبيلية ، كما في ارياف قشتالة التي لم تكن كثيفة السكان في يوم من الايام — وليس توقف حرب استعادة اسبانيا بغريب عن هذه الحاجة الى السواعد في الارجح ؛ وفي انكلترا كما في فرنسا حيث انكمشت مساحة الاراضي المستثمرة انكماشاً عظيماً ؛ وفي سهول ايطاليا الجنوبية ، وحتى في المانيا التي تأخر العمل في استعمارها الداخلي مع انها لم تصب بالطاعون بنسبة غيرها .

لم يكن الضرر الذي نزل بالمدن أخف منه في الارياف . الا ان المدن ، في اعظم المناطق تحضراً ، ما زالت آنذاك وضيعة جداً: فربما قاربت فلورنسا الـ ٤٥٠٠٠ نسمة ، قبل الطاعون ؛ وربما بلغت ميلانو ضعف هذا العدد ؛ وتراوح عدد السكان في معظم المدن الداخلية — كمودينا وسينا وپادوا مثلاً — بين ١٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة . اجل لم تعرف مدن اوروبا كلها نسبة النقص نفسها في عدد السكان . فالى جانب هويسكا في اراغون التي فقدت ٥٠ ٪ من سكانها ، ضمت برشلونة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، ٧٠٠٠ عائلة تقريباً ؛ وعلى بعض المسافة من البي التي هبط سكانها من ١٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠ نسمة ، بينما تجدد أكثر من نصف العائلات التي تألفت منها ، لم يهبط سكان تولوز ، بفضل تقاطر الفلاحين الهاربين من حقولهم المتضررة ، بالنسبة نفسها: فقد انخفض عددهم من ٣٠٠٠٠ حوالي السنة ١٣٣٥ الى اقل من ٢٠٠٠٠ حوالي السنة ١٤٥٠ . ويشاهد هذا التفاوت نفسه في مدن صناعة الجوخ في هولندا التي لم يسجل بعضها أي هبوط قط — فقد استقر عدد سكان غنت حوالي ٥٠٠٠٠ — في حال ان بعضها الآخر قد

انهار انهياراً بكل ما في الكلمة من معنى . ويلفت النظر ايضاً البطء الذي رافق ، على الطرق الجديدة للتجارية الدولية، تقدم المدن في مثل هذا الظرف العسير : فجنيف لم تضم سوى ١٣٠٠ عائلة في السنة ١٤٠٤؛ وفي الوقت نفسه تقريباً، كان سكان زوريخ دون عددهم عشية الطاعون؛ وفي منتصف القرن الخامس عشر لم تبلغ نورمبرغ الـ ٢٠٠٠٠ نسمة قط ، متجاوزة بذلك الى حد بعيد سكان فرنكفورت ـ على الماين ـ بينما لم يبلغ سكان لوبك ، وهي محور تجارة المدن الهانسية ، سوى ٢٠٠٠٠ او ٢٥٠٠٠ نسمة . وماذا عسانا نقول عن انكلترا الريفية حيث لم تبلغ أية مدينة ، باستثناء لندن ، أكثر من ١٠٠٠٠ نسمة في السنة ١٣٧٧ ؟

في كافة هذه المدن ، وحتى في باريس ، أكبر مدينة في اوروبا ـ ١٠٠٠٠٠ وربما ١٥٠٠٠٠ نسمة ـ برز الطابع النصف الريفي الذي لم تفقده كلياً في يوم من الايام . فسواء أفضى الازدهار في القرن الثالث عشر الى ايهام الناس بتقدم مستمر ، ام دفعهم الخوف من الحصار الى ابقاء مصادر التموين قريبة منهم ، فان المساكن المجموعة ، المتقاربة جداً في بعض الاماكن ، قد تباعدت ضمن اسوار انبسطت داخلها اراض واسعة غير مأهولة : حدائق وكروم ومراع وحقول . ويعود ذلك ، بعد ان ندرت اسباب العيش ، الى ان الناس لم يكونوا ليبتغوا اكثار النسل الا في الفترات التي تعقب الاوبئة ، اذ نلاحظ عند الباقين على قيد الحياة ارتفاعاً كبيراً في نسبة الزواج . وقد لاحظ « بيرين » ، في هولندا التي لم تصب شأن غيرها بالطاعون، أصابتها بأزمة الصناعة ، اقبال ابناء النبلاء على الحياة الكهنوتية والفلاحين على جيوش المرتزقة ، بينما كرست الفتيات بتوليتهن لله في سكون حدائق أديرة المدن . وراح الصناعيون الفلمنكيون والبرابانيون يطلبون عملاً في مصانع سينا وفلورنسا المفتقرة الى امثالهم ، بينما اختار الكاتالونيون والنابوليون المجازفة والمغامرات .

ربما حدثت آنذاك مهاجرات هامة لم تستهدف ، كما سنرى ذلك في اواخر القرن الخامس عشر ، اعادة استثمار المناطق المتضررة ، بل كانت دلائل اختلاف التوازن بين نسبة السكان والموارد . فقد انتقل السكان في هولندا من المدن التي عمتها البطالة الى الارياف ، وفي الاماكن الاخرى من الارياف التي سيطر عليها الخوف من مجندي الحروب الى المدن المقفلة . وحيثما استطعنا استشفاف وضع السكان لاحظنا نسبة كبيرة من العازبين ونسبة ضعيفة من الاولاد في العائلات ، وفي الوقت نفسه انخفاضاً كبيراً في معدّل الاعمار . واذا ما استندنا الى بعض الحسابات التي اجريت بالنسبة لانكلترا ، فان معدل الحياة ، الذي قدر بـ ٣٤ سنة حوالي السنة ١٣٠٠ ، قد هبط الى ١٧ سنة ابان انتشار الطاعون ، ثم ارتفع الى ٣٢ سنة في الربع الاول من القرن الخامس عشر . وقد بلغ من قصر الحياة آنذاك ان « كومين » نفسه قد نظر الى انسان في الثامنة والخمسين نظرته الى انسان « مسن جداً » . ولم يعجب احد من ان يحكم الامير شارل فرنسا في السابعة عشرة من عمره ويموت في الثانية والاربعين متحلياً بحكمة الشيوخ ؛ في حال ان معاصره ادوارد الثالث ، الذي قضى في الخامسة والستين ، بدا لأبناء جلدته ، في السنوات

الاخيرة من حياته ، وكأنه فضولي ينتمي الى جيل غير جيلهم. وقد اسهم اقتراب الموت بدوره في تضييق آفاق اوروبا التي سبق ورأينا انكماش حدودها .

ولادة الامم

اضمحلت في الوقت نفسه بعض الخطوط التي أعطت ، أثناء اشعاع الحضارة الفرنسية ، ظاهر الوحدة للعالم المسيحي. فان تعاظم سلطة الملوك او الامراء، بعد ان علم الناس كيف ينظرون الى أبعد من الحدود التقليدية للسيادة او لضواحي المدينة ، قد صلّب الاطارات القومية التي انكمشت داخلها آنذاك روابط الفئات الاجتماعية . اجل ليست ظروف الاحتكاك بين عقليات شعوب الغرب المتباينة ما اعوز الاجيال السابقة : مشاجرات الفرنسيين والاسبانيين على الطرقات المؤدية الى « سان ـ جاك »؛ منافسات البحارة النورمنديين، رعايا ملك فرنسا ، والبحارة الفاسكونيين رعايا ملك انكلترا ؛ تزاحم الايطاليين والفرنسيين والكاتالونيين في اساكل البحر المتوسط الخاضعة للسيطرة العثمانية ؛ تصادم السلافيين والالمان في سهول الشرق ، وتصادم الالمان والسكندينافيين في البحار الشمالية . ولكن التضاد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد ازداد شدة بازدياد وعي الشعوب لفرديتها تحت تأثير الحياة المشتركة في كنف أمير واحد وتأثير المصالح المشتركة وتشابـه الاخلاق والمشاعر . وفي الوقت نفسه الذي تفاقمت فيه المزاحمة الاقتصادية،اخذت المنازعات الدينية والمنافسات السياسية وتعابير « الوطن » و « الامة » ترتدي، في كافة اللغات، طابعاً حاداً جداً ، لأن كل شعب اخذ ينصرف الى تحديد نفسه ضد جيرانه في الدرجة الاولى .

نشأت الامة الانكليزية قبل غيرها بفضل قلة عددها وتلاحمها في جزيرتها . فقد تكون ، في القرن الثالث عشر ، ضد المطالب البابوية والتعسف الملكي ، شعور جماعي بـ « وحـدة المملكة » بلغ درجة كبرى من القوة في مناطق الحدود حيث اصطدم بالقومية السكتلندية او بتشبث سكان منطقة الويلز بعاداتهم الخاصة . واهتز سكان ما وراء المانش لكارثـة بانوكبورن (١٣١٤) ولمعاهدة نورثمبتون المذلة ، وبغضوا السكتلنديين وسكان منطقة الويلز الذين دفعهم « مكر » الفرنسيين ضدهم ، فوحدوا جهودهم وحددوا شعورهم القومي ، بينما نشأ في الالم الشعور نفسه عند الفرنسيين : وكان العامل الحاسم في الحالين حقداً مشتركاً واحداً كما يشهد بذلـك مؤرخو المعسكرين : فرواسار، جان له بيل ، متى دسكوشي ، توما بازين ، او جون دي ريدنغ وتوما ولسنكهام . وقد تباهى كل من المنادي الحربي الفرنسي والمنادي الحربي الانكليزي، في «نقاش» شهير تميز بالحدة ، بتفوق وطنه وتفوق العادات السائدة فيه . واعترف « جيل له بوفيه » ، في «وصف البلدان»، بما لكل من الشعبين من مميزات وعادات، ولكنه لم يخف تفضيله لأمته الخاصة : « ان شعوب هذه المملكة اناس بسطاء ولا يهوون الحرب شأن الآخرين » . وقبل مئة سنة ، أي منذ ولاية « جان له بون » اعتبر انصار سلالة « الفالوا » انهم وحدهم « الفرنسيون الصالحون » ، بينما مثلوا بالاعداء الانكليز كافة الجنود الغزاة الذين يجوبون البلاد ؛ وقد وجّه بورجوازيو باريس اللوم « لاسطفان مرسيل » رئيس التجار وقتلوه (١٣٥٨) لأنه حالف عصابات هؤلاء

الجنود ، بينما صرخ قضاة «كاهور» البلديون ، الذين أرغمتهم معاهدة كاليه على الاعتراف بادوارد الثالث (١٣٦٠) : « واعذاباه ، ما اصعب التخلي عـــن السيد الطبيعي والقبول بسيد اجنبي مجهول ! » وهو هذا الشعور القومي نفسه ما اثار الحماس ، في عهـــد شارل السابع ، في قلوب اهالي « تورنيه » وليون المخلصين ، وبعث حرب الانصار في الارياف النورمندية ضد « الفرنسيين المنكرين » المواطئين على الاحتلال الانكليزي والمستفيدين منه .

وتصلبت بفعل الحركة نفسها ، في الطرف الثاني من اوروبا ، مقاومة البلدان السلافية للسيطرة الجرمانية او للفتح التركي . اجل ان الامبراطورية الصربية التي أسسها اسطفان دوسان ، والتي كانت ردة فعل استقلالية ضد الحماية البيزنطية ، قد زالت من الوجود بعد هزيمة كوسوفو الاولى (١٣٨٩) ، ولكن مآثر الجبليين البلقانيين قد عرفت فترات مجيدة بفضل هونيادي واسكندر بك : كانوا ، والحق يقال ، اعداء للاسلام ، ولكنهم لم يتشبهوا بصليبيي القرن الثاني عشر ، بل بالبولونيين ، الذين انتصروا على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ (١٤١٠) او بالمحاربين الهوسيين القساة الذين لم تنل منهم حملات عسكرية استمرت عشرين سنة ولا التدابير الامبراطورية القمعية الوحشية ، ولا التنازلات الكنسية التي أقرت في مجمع « بال » . وقد جاء في المرسوم التنظيمي لجامعة براغ الذي أعلن تحت تأثـــير « جان هوس » : « يجب ان يكون البوهيميون الأول في مملكة بوهيميا ، اسوة بالفرنسيين في مملكة فرنسا او الالمان في المانيا .

وعرفت مناطق اخرى ايضاً لم تبتل كغيرها بالحروب والاضطهادات ، يقظة التضامن القومي : فقد كتب محرر العقود اللياجي «همريكور» ، حوالي السنة ١٤٠٠ : «البلاد آخذة في الاتحاد» ؛ وليست البلاد في نظره ارضاً فحسب ، بل مجموع الارادات التي تمثلها وتتحد للذود عن استقلالها ضد السيطرة البورغونية وعن لغتها ضد الثقافة الجرمانية ؛ ونحن هنا امام طليعة امة صغيرة ترمز اليها درجات الساحة العامة في لياج . وليست بأقل فائدة ، من هذا القبيل ، مع انها أكثر تأخراً في الزمن ، ولادة شعور قومي بورغوني في امارات هولندا التي وحدتهـــا منذ السنة ١٣٨٤ ، السلالة المتفرعة عن سلالة الفالوا . وقد اضاف الحاح الضرورات السياسية والاقتصادية والنقدية والانضواء تحت سلطة امير واحد ، ووحدة المصالح ، الى النزعات المحليـــة الخاصة المتأصلة ، صوفية مشتركة لم يكن الأسياد ، في اجتماعات « الجزة الذهبية » ، الوحيدين الذين أخـــذوا بجاذبيتها . فحتى السنة ١٤٣٥ ، استطاع « فيليب له بون » ، الامير الفرنسي ، تعليل النفس باعتلاء عرش فرنسا الذي كان هو اول صاحب اخاذة فيها ؛ اما ابنه شارل « المتهور » فقـــد أعلن نفسه برتغالياً ، حتى لا يقول انكليزياً ، بسبب امه المنتسبة الى آل « لنكستر » . وحدث في الوقت نفسه ان كلمة « بورغونيون » التي أطلقت اساساً على انصار خاصموا انصاراً آخرين هم «الارمنياك» اصبحت نقيضاً لكلمة « فرنسيون » . وقد اسف « شستلين » مؤرخ الحوليات نفسه للنزاع بين « هاتين الامتين المختلفتين ، الفرنسيين والبورغونيين » ؛ ولكن « اوليفيه دي لامارش » و « جان مولينيه » من بعده قد بغضا فرنسا ، وعبر الهتاف « لتعش بورغونيا » ،

في آخر القرن الخامس عشر ، عن يقظة وعي شعب مختلف تماماً ، هو شعب هولندا ، الذي ما زال يتلمس طريقه .

اجل ان اوروبا لم تشترك اشتراكاً متساوياً في هذه التطورات . فليس هناك من وعي قوي حقيقي في المانيا مثلاً ، على الرغم من انها حاولت جمع شتات أبنائها . كما ان الدول التي كانت تؤلف مملكتي آرل وبورغونيا القديمتين توصلت الى التخلص نهائياً من القبضة الامبراطورية ودخلت الواحدة تلو الاخرى في التبعية الفرنسية او في تبعية دوقية بورغونيا أسياد هولندا ، ولم تعد الهجمات الامبراطورية ، بعد منتصف القرن الرابع عشر ، لتهيج الانصار الجرمانيين في ايطاليا الشمالية . ولم تع « الامة » الالمانية حقيقتها ، بسبب حرمانها من عناصرها الغريبة ، الا في ظروف نادرة ، كاحتكاكها بالقومية التشيكية مثلاً ، اذ لم تبرز في أماكن اخرى سوى نزعة عاطفية غامضة لا تتراءى الا في التوريات الادبية .

اما في شبه الجزيرة الايبيرية فيجب علينا ان نتكلم عن القوميات في صيغة الجمع . فالكاتالونيون والاراغونيون والقشتاليون والنافاريون يشعرون ويعلمون انهم يتميزون عن بعضهم ، كما تشهد على ذلك الحروب الأهلية الفظيعة التي قامت بينهم باستمرار . وسبق للبرتغاليين كذلك ، في معركة « الجوباروتا » (١٣٨٥) ، ان أعربوا عن تصميمهم على العيش منفصلين عن مملكة قشتالة .

على الرغم من تألق ايطاليا آنذاك في حقل الفنون والادب ، فانها قد تأخرت ، أكثر من أية دولة اخرى ، عن ركب القوى القومية هذا . وعبثاً نادى دانتي ، في مستهل القرن الرابع عشر ، بمثاله المسكوني المبني على الامبراطورية الشاملة والمسيحية الرومانية ، فكان الجواب الوحيد الذي تلقاه أنانية اقليمية غاية في القذارة . وما زال الوطن ، بعد مرور مئة سنة ، كما تتضح في محاكمة « اوران فالا » ، سوى خليط من الافراد لا يجوز ان يكون أي منهم أعز عليه من نفسه : « فهل يجوز ان ارغم على الموت من اجل وطن هو حصيلة هؤلاء ؟ » وليس باستطاعتنا الاستشهاد ، امام هذه الانكارات ، الا ببيترارك الذي تمكن لعمري من تذوق عذوبة الحياة في ارض بروفنسا ، ولكنه شمّر على افينيون ، منفاه في الديار « الاجنبية » ، وراء الجبال وعبّر عن خلفة الشعبين في « دفاعه » ؛ او بكاترين دي سيينا ، التي تدين لها سلطة الكنيسة ، سواء لمصلحة العالم المسيحي اجمع ام بموجب رسالة قومية ، بالاقامة في روما والبقاء في أيد ايطالية ، « بين سكان روما او ايطاليا » .

اللغات القومية

ان قومية القرن الرابع عشر ، من حيث هي مجرّد عاطفة تفاوت وعيها ولم تجش بعد الا بحميا بدائية ، وجدت اوثق روابطها في وحدة لغة تعبر فيها ، بالكلمات نفسها ، طرائق الشعور والتفكير نفسها . فقد اهتدى شعب فرنسا ، في ازدهار النثر الذي بات وحده موافقاً آنذاك للأخبار المحلية والقصة والمسرح الشعبي وفي « يوميات »

فرواسار ، وتتمة « قصة الوردة » ، وملاحق « قصة الثعلب » ، وفي التحويرات الكثيرة التي أدخلت على قصص الفروسية والأسرار والمزحيات ، الى مميزات سجيته التي عبر عنها بلسان واحد انكفأت امامه اللهجات الاقليمية . اجل ما زالت فرنسا الجنوبية « وطن لغة الاوك » ولكن لغة باريس ، التي ازداد استعمالها باطراد في وثائق الديوان الملكي وفي وضع صيغة القوانين اخذت ، حتى في هذا الوطن ، تنتشر يوماً بعد يوم ، اذ ان « اللغة الام » هي ما كان يعتمد عليه في الصكوك الرسمية . ولذلك فقد دهش المنادي الحربي « بري » من ان سكان بريطانيا ، على الرغم من انهم رعايا الملك ، « يتكلمون لغة لا يفهمها احد غيرهم اذا لم يتعلمها » ، في حال ان سكان كونتية بورغونيا وساقوا يتكلمون اللغة الفرنسية « بسهولة » .

اما ايطاليا والمانيا ، الامتان اللتان تتلمسان طريقهما ، فما زالتا متمسكتين بلغتيهما الخاصتين. فقد بلغت اللغة الايطالية كمالها دراكاً مع دانتي؛ وعبرت اللغة الالمانية ، لا سيما في المدن التجارية، عن التصنع الرمزي والعاطفي ، بينما اتاحت مؤلفات « اكهارت » النثر ان يغدو التعبير عن الفكر الجرماني بالذات . الا ان الحركة القومية لم تجد لها في لغة أية بلاد مرتكزاً اقوى منه في لغة بوهيميا. فقد انتصرت هنا اللغة التشيكية مع شارل الرابع الذي أوصى، في رقيمه الذهبي، باستخدامها وتعليمها . وقد أثبتت انهــا جديرة بمعالجة اصعب المواضيع ، أي القانون والطب والفلسفة واللاهوت ؛ فكانت لغة المصلحين والوعاظ ومترجمي التوراة ، وقــد هتف توما دي ستيتني قائلاً : « ليست محبة الرب للتشيكية اقل منها للاتينية » . وحين حاربها سيجيسمون دي لوكسمبورغ والبارونات الالمان ، استخدمت للتعبير عن الغضبة والالم القوميين ، على غرار الشعر الغنائي الصربي الذي مجّد لعازر ، المغلوب على نفسه في كوسوفو ، « تاج صربيا الذهبي » .

وليست النهضة الادبية والاجتماعية التي حققتها اللغة الانكليزية اقل ما يميز هذا العهد. كانت الرطانة الانكلو-نورمندية لغة الادارة والمحاكم وأوساط البورجوازيين الأثرياء والارستوقراطية ، فبلغ من بُعدها عن هذه الطبقات الاجتماعية في اواخر القرن الرابع ، انه بات لزاماً فتح المدارس لتعليمها وان المناقشات، رغماً عن انف رجال القانون ، اصبحت تجري باللغة الانكليزية في البلاطات الملكية . وحين تجاسر هنري دي لنكستر على التقدم بحججه باللغة الانكليزية ، امام مجلس السنة ١٣٩٩ ، لاقالة ريشار الثــاني الموالي للفرنسيين ، كان الشاعران « لنغلاند » و « شوسر » وناقلو التوراة نثراً (بايعاز من ويكليف) قد توفقوا منــذ ربع قرن الى التعبير الادبي عن رغباتهم الاجتماعية وانتقادهم للأخلاق ومثلهم الديني الاعلى .

السلالات والكنائس القومية

كان مقدراً لهذه القومية الناشئة ان تنحدر شيئاً فشيئاً من هذا المستوى العاطفي والادبي الى المعــترك السياسي بشكل تعلق بالسلالات القومية في وجه كل منافس اجنبي مهما كان من امر حقوقه الوراثية . فــقد هدّد السكتلنديون ، المشهورون بولائهم الراسخ لسلالة البروس، باقالة ملكهم داوود ، حين فكر هذا

الاخير ، وهو في الاسر ، بالتخلي عن مملكته لادوارد الثالث ، « مفضلين تقديم جميع ممتلكاتهم فدية له » (١٣٦٢) . وفي السنة ١٣٢٨ فضل البارونات الفرنسيون فيليب له فالوا على ادوارد الثالث نفسه مع ان هذا الاخير حفيد فيليب له بيل من جهة امه ، لأن فيليب له فالوا من « مواليد المملكة » . وكان لتهمة موالاة فرنسا اثرها الكبير في تخلي الانكليز عن ريشار الثاني وحملهم على القبول بابن عمه هنري دي لنكستر ملكاً عليهم ، كما ان البرتغاليين هللوا لابن زنى مغتصب ، هو جان الاول مؤسس سلالة الآفيز ١٣٨٥ ، رغبة منهم في الحيلولة دون اتحاد سلالي مع قشتالة. وحدث على نقيض ذلك ، كما نرى في اوروبا الوسطى ، ان السلالات الاجنبية تجنست في وطنها الجديد: فقد خلف جان دي لوكسمبورغ الذي تزوج من آخر اميرة من اميرات البريميسليين في بوهيميا (١٣٠٦) ، ابنه شارل الرابع الذي سبق ورأينا ما فعله في سبيل الثقافة التشيكية ؛ وبعد ان استقرت سلالة انجو في هنغاريا بفضل مصاهراتها للاربادبين ، دان لها تاج القديس اسطفان بكثير من امجاده وحتى ببسط السيطرة على بولونيا التي عادت وأقامت فيها بعد ذلك سلالة سلافية جديدة بزواج الملكة هدفيج من الامير اللتواني لادسلاس جاجلون (١٣٨٢) . اما دوقية بورغونيا الذين ارسخوا اقدامهم في هولندا بسلسلة من محالفات المصاهرة فقد بلغ من قوة مركزهم انهم لم يتخلوا عنه قط ؛ ومنذ الجيل الثاني كان « جان سان بور » يتكلم لغة الفلاندر الشعبية ؛ وفي اواخر القرن الخامس عشر وقف الشعب بكليته في وجه مكسيميليان دي هبسبورغ لأنه لم يكن « سيده الطبيعي » .

وبرزت في الغرب اخيراً ، خلال القرن الرابع عشر ، قوميات كنسية حقيقية . ألم يقل الكثير خطأ والقليل صواباً عن اقامة البابا في افينيون منذ ان اتهمه بيترارك « بتزويج البابوية من مملكة فرنسا » ؟ اذا كان البابوات « الليموسيون » قد قبلوا في غالب الاحيان بأخذ سياسة الملوك الكابيتيين والفالوا تحت حمايتهم ، فان مهمة دوق انجو الكبرى لدى غريغوريوس السادس في السنة ١٣٧٦ لم تستهدف سوى محاولة ابقائه على ضفاف الرون . ولكن ردة فعل الرأي العام الانكليزي ضد الفرنسيين المستأثرين بالكرسي الرسولي كانت اعنف منها ضد دسائس البابوية الايطالية . فقد كان حكم التشريع البرلماني قاسياً جداً على منح الاجانب براءات التولية الرسولية وتهريب الموارد الكنسية وفوائد الحقوق الاميرية البابوية والاكثار من تقديم الدعاوى الى محكمة روما : فقد اضيف في السنة ١٣٦٥ الى انظمة « التولية » (١٣٥١) و « التحذير » (١٣٥٣) ، منع دفع الضريبة الاقطاعية التي توجبت على ملك انكلترا منذ خضوع « جان سان تير » للبابا انوشنتيوس الثالث . واذا كانت المملكة البحرية ، عند حدوث الانشقاق ، بين الممالك الاولى التي جمعت شمل الخاضعين لبابا روما ، فانما كان ذلك ، كما كتب آنذاك اسقف « غالواي » السكتلندي ، « انتقاماً من الفرنسيين ، لا محبة بالحقيقة » .

وتجدر الاشارة هنا ، على كل حال ، الى ان موقف الدول المختلفة من البابويين المتنافسين قد أملته النفسية الاقليمية الخاصة عينها ، فكانت الحكومة الفرنسية ، بدافع من الجامعيين ورجال

الشرع الذين كانوا جداً سعداء في مراقبة جمع المكاسب الكنسية والمحاكم الروحية ، اول من قام بالاختبار الغلـّيكاني ، طيلة سنوات عـــدة ، بتحظيرها الخضوع للبابا (١٣٩٨) . او ليس في التوزيع غير المألوف ، بحسب القوميات ، الذي اخضع له اعضاء مجمع كونستانس المعدّ للحكم على الهرطقة التشيكية – وهي كنيسة اخرى قومية تماماً – الدلالة كل الدلالة ايضاً على تطور مفهوم « الامة » بالذات ، الخصص حتى ذاك العهد بالفئات الجامعية ، وعلى الانظمة الدينيـة الجديدة ؟ فقد طالب الامراء – ويشهد على ذلـــك في فرنسا الامر الصادر عن سلطق الملك والمجلس في السنة ١٤٣٩ – بأن يديروا عـــلى هواهم شؤون الاكليروس في الامم المختلفة ، كلما استحال الاتفاق مع البابا على الاشتراك في هذه الادارة : وهكذا فان القومية اقامت الحواجز حتى في حقل الكثلكة المسكوني مبدئياً .

الحدود البرية والبحرية

وقد قوّى هـــذه الحواجز التقسيم التدريجي الذي تناول الامارات والممالك . الا ان مفهوم الحدود ما زال ، بفعل الحاجة الى الخرائط الطوبوغرافية الدقيقة ، مجرد مجاز قانوني لأن الحدود غير معروفة تماماً حيث يجب ان تقوم في الارض . وقد رافق الرغبة في الحيلولة دون توضيح حدود الاراضي التابعة للاقطاعات ، رغبة خفية في عدم تعيين حدود التوسعات المفيدة التي قد تحققها السلطة . لذلك غالباً ما كان الفاصل بين الممالك منطقة دفاعية : كالولايات المتاخمة للحدود الشرقية الخاضعة لرقابة الكتائب الجرمانية، ومقاطعات الحدود بين سكتلندا والويلز حيث فصلت انكلترا عن سكتلندا ، كما يقول المنادي الحربي برّي ، « ثلاثة ايام من البلاد الصحراوية »، ومقاطعات الحدود الاسبانية المتاخمـــة للعالم الاسلامي . وكان الهدف من الحصون التي شيدت عند تخوم الويلز وقشتالة والاكيتين رسم الحدود رسماً تقريبياً حيث لم تؤلف الجبال او الاحراج « سياجاً » تقليدياً ملائماً : ونحن هنا امام معنى جديد لكلمة « الحدود » التي اقتبست اساساً من جبهة الحرب ، فحلت في اوائل القرن الرابـع عشر بمحل كلمة « ولاية متاخمة » . ويبدو ان الملك لويس العاشر قد استعمل كلمة « حدود » في السـنة ١٣١٥ للمرة الاولى في كلامه عن الحاميات التي تدافع عن المملكة في منطقة الفلاندر ، ثم استعملت ، في وقت لاحق ، في الكلام عن الجبهة الاكيتينية ، وعن كل منطقة تتنازع حدودها الجيوش المتقابلة . فسعى المسؤولون حينذاك ، رغبة منهم في التدقيق والضبط ، الى تعيـــين الحدود بالصلبان والانصاب والاشجار ؛ وقد درجوا على تنظيم الاحتفالات الدورية احياء لهذه الذكرى ، كذاك الذي كان يقيمه اهالي باريتوس ورونكال منذ السنة ١٣٧٥ ، ويتبادلون فيه التعهدات والجزى على نصب مجاز « بيبرسان ـ مارتين » الفاصل بين أوديتهم البيرينية . وقد كان لوضع علامات الحدود بين الامبراطورية وجيرانها، وهو اعظم سهولة على جوانب الانهر – فربان الزورق في الرون يعرف ان الضفة اليمنى هي المملكة واليسرى هي الامبراطورية – دوره في تدريب لجان التحقيق ، وان رافقه الاخفاق احياناً ، على التبصر والفطانة ، كما لوحظ ذلك ، في السـنة ١٣٥٥ – ١٣٥٦ ، في منطقة اللورين والبار والكونتية . ولكن الحدود ، على صعوبـــة

رسمها في الاراضي ، موجودة في الاذهان ، وهذا هو الاهم .

واعتبرت حدوداً ايضاً ، في نظر اقوام القرن الرابع عشر ، التخوم البحرية، مع ان الحرب لم تتقيد آنذاك بأي قانون وان الشعب الانكليزي ادعى الملك على المانش ، الذي اطلق عليه اسم « البحر البريطاني » في الخرائط الاولى . وامتـد مفهوم البحر الاقليمي – الذي ظهر في المتوسط – الى الشواطىء الاطلسية ، ولا سيا شواطىء هولندا التي تمخضت آنذاك عبـادىء مخصابة في حقل الحق الدولي العام. وادعت البندقية الملك على البحر الادرياتيكي بكامله، وجنوى على البحر الليغوري ؛ وقد قدّر القانوني برتولو دي ساسوفراتو (١٣١٣ – ١٣٥٦) بـ ١٠٠ ميل روماني – ١٥٠ كلم تقريباً – نطاق المياه الاقليمية المطلقة . ودرج التقليد السكنديناڤي في بحار الشمال على تحديد المياه الاقليمية بخط يقسمها مناصفة ؛ على انهم، باستثناء الانكليز، قد اعتبروا البحر نطاقاً حراً بصورة عامة . ومع ذلك فان الفلاندر ، حرصاً منها على الامن والسلامة ، اعلنت سيادتها المطلقة على طريدة من المياه الساحلية يبلغ عرضها ٢٠ كيلومتراً تقريباً وتوازي المسافة القصوى التي يمكن رؤيتها من الشاطىء ، وقد عرفت باسم « ستروم » الفلمنكي ؛ واعترف الفرنسيون والانكليز والمدن التجارية الهانسية، مداورة ، بهذا الستروم بين السنة ١٣٧٠ والسنة ١٤١٤ . والدليل على هذا الحرص توسع صلاحيات المحاكم البحرية، على غرار ما حدث في الدول المتوسطية والايبيرية؛ وقد احدثت هذه المحاكم براسيم في انكلترا (١٣٦٠) وفي فرنسا (١٣٧٣) وشملت صلاحياتها البحارة والملاحين على الشواطىء وفي المراكب وفي المياه الاقليمية .

غدا من ثم لزاماً ، لاجتياز هذه الحواجز الجديدة، الحصول على اجازات مرور مؤقتة وقابلة الابطال. فأضيفت آنذاك الى الضرائب على عرض البضائع ومرورها دوائر الجمارك التي أحدثت في كافة دول اوروبا . غير ان فكرة هذه الدوائر ارتسمت في انكلترا قبل نهاية القرن الثالث عشر « بالرسم القديم » الذي استوفي منذ السنة ١٢٧٥ على تصدير الاصواف والجلود ، والذي اضيف اليه الرسم على الاجواخ والخمور المستوردة « والرسم الصغير » على الصادرات المختلفـة والرسم على الحمولة الذي استوفي بنسبة المشحونات ، فبرهنت منذ ذاك الحين انها حاجز جمركي قمين بحماية المملكة البحرية . اما في فرنسا فان الضرائب على البضائع ، التي اضيفت الى الحقوق القديمة وتناولت معظم المواد الغذائية ، قـد تنظمت منذ السنة ١٣٥٨ تحت اشراف « رئيس مرافىء المملكة ومعابرها » . واستجابت الرسوم المماثلة في هولندا واسبانيا والبرتغال للحاجات نفسها ، بينما عقد اتفاق في كولونيا ، في السنة ١٣٦٧ ، فرض في كافة المدن التجارية الهانسية رسماً نسبياً لقيمة البضائع المستورة من المناطق الاخرى او المصدرة اليها .

فتنظمت بالتالي اقتصادات اقليمية هي امتداد لروح تقليد القرون الوسطى حـول حماية الصناعة في المدن ، ولكن اطارها أمسى قومياً آنذاك . وطالب المواطنون ، في وجه الاجنبي الذي حسدوه وارتابوا منه، بالاستفادة من نظام يفضّلهم عليه، ان لم يكن من احتكار النشاطات التجارية . فالى السنة ١٣٨١ ، يعود المرسوم الاول حول الملاحـة الذي أعلن حصر التجارة في

مرافىء ما وراء المانش بالسفن الانكليزية ، دون ان يستطيع الى ذلـــك سبيلاً على كل حال ؛ ولكن المصدرين الاجانب اضطروا الى دفع رسوم اضافية لأجل التخلص من محطة الاصواف التي تديرها شركة واسعة الامتيازات من التجار الانكليز ، والتي تنقلهــا من مكان الى آخر في البر الاوروبي ، جاعلة منها وسيلة للضغط السياسي : وفي ذلـــك دليل على توسع استخدام السوق الممتازة. تأثر وضع الاجانب في كل مكان بهذه القومية الاقتصادية؛فاذا هم تمتعوا ببعض الامتيازات فانهم في الغالب يخضعون لحق الملك بوراثتهم؛ اضف الى ذلك ان المجموعات القومية التي يؤلفونها تعيش بمعزل عن البلديين، على الرغم من تمتعها باستقلال داخلي: كالمستعمرات (*Loges*) البندقية والفلورنسية والكاتالونية في بلدان المتوسط ، والمستعمرات البرتغاليـــة والقشتالية في هارفلور حيث منحها « فيليب دي فالوا » بعض الامتيازات ، وأسواق تجار المدن الهانسية في لندن وبروج ، ولا سيا « الملل » الاسبانية والايطالية في هذه المدينة الاخيرة .

وجلي ان الاجنبي المنعزل ، الذي كان موضوع حذر ، لم يطمئن قط لمصيره . فقد تكررت بعد السنة ١٣٨٠ فورات غضب الشعب اللندني ضد تجار المدن الهانسية والصناعيين الفلمنكيين بتأثير من كرهه للأجانب . وكذلك فان المسلمين الذين خضعوا للنير المسيحي وعوملوا بتساهل في قشتالة واراغون ، قـــد عوملوا معاملة قاسية في ماجورك والبرتغال حيث بقيت للرق شوكته . كما ان اليهود ، وهم كثر في اسبانيا والمناطق الالمانية ، قد ذاقوا الامرين حين اعتبرهم الشعب مسؤولين عن الكوارث الطبيعية ولا سيا عن الطاعون الاسود : فقد انفجرت الحركات المعادية للأحياء اليهودية في نورمبرغ وفرنكفورت (١٣٤٩) وبروكسيل (١٣٧٠) . وان التشريع العام ، المستوحى من الحق الروماني ، قد غدا حيالهم قاسياً جداً .

اضطر الاجنبي ، رغبة منه في التخلص من هذه المعاملة القاسية ، الى طلب التجنس ، الذي قد حصل عليه احياناً : وفي هـــذا برهان جديد على ان الجنسية كانت سائرة في التطور نحو مفهوم قانوني معين . ففي فرنسا مثلاً ، سن مجلس باريس ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قانوناً يعلن ، باسم التضامن القومي ، حق السلطة المدنية في منع الزواج من الاجانب .

فقدان السلطة المنظمة

جاء مفهوم الأمة في الوقت المعين ليساند مبدأ السيادة الروماني الذي حاول الملوك والامراء الغربيون ارساء سلطتهم عليه . وقــد ركّنه تقليد قبول اعضاء المجلس الاعـــلى في فرنسا و « وحدة المملكة » في انكلترا ، فغدا هنا « السيادة والقوة » ، وهناك « السلطة المطلقة » التي تحدد كلها السلطة الملكية . واعترف الملك في اقسامه اليمين للرب ، وللرعايا امام الرب ، بأنـــه ليس سوى حارس شعبه . وفي فرنسا نفسها ، كتب مؤلف « حلم الروضة » ، بايعـــاز من شارل الخامس ، « ان الملك يقام ... بارادة الشعب وحكمه » . ويبحث الملوك في كل مكان عن نقطة يرتكزون اليها في الاستشارات القومية : جمعيات مجالس الطبقات ، البرلمانات ، المجامع ، ومجالس المندوبين ، التي يطلبون اليها ابرام او

رفض المعاهدات ويعتصمون بآرائها ، وكأنها آراء رجال القانون ، لتبرير اخطر القرارات في حقل السياسة الدولية . وباستطاعتنا القول ، في هذا الصدد ، ان الامة ، التي يرمز اليها اتفاق الامير وممثلي الجماعات ، كانت مدعوة طبعاً لان تصبح مرتكز السيادة بالذات . واذا ما نظرنا من هذه الزاوية الى الصراع الفرنسي الانكليزي الطويل ، الاقطاعي في ظواهره والسلالي في أسبابه المعلنة، لرأينا انه ملكي وقومي معاً في جوهره، لأنه استعجل انهيار الانظمة الاقطاعية وبرهن في الوقت نفسه عن انه محاولة لتحديد النطاق الاقليمي والبشري حيث يستطيع كل امير ، بل يتوجب عليه ، ممارسة السيادة كاملة .

لا ريب في ان فاعلية النزعات التي أدّت الى تجزئة العالم المسيحي وحدات ملكية وقومية قد اختلفت باختلاف درجة تطور الدول والشعوب على الصعيد السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي او الفكري . ولكنها قد صادفت في كل مكان حقلا خصباً بفضل فقدان السلطة المنظمة ، منذ ان تزعزعت القوى الثلاث التي تركز عليها الامل بتهدئة العالم الغربي وتنظيمه وادارته . فالامبراطورية قد تحطمت منذ انهيار فردريك الثاني ولم تستعد قط ، على الرغم من محاولات هنري الرابع و « لويس دي بافيير » ، النفوذ والقوة اللذين كان من شأنها دعم مطالبتها بادارة الامراء. وبعد ان بات التاج يباع بالمزاد العلني، وبعد ان سلخت عنها الاقاليم الفرنسية والايطالية وجاورتها الممالك السلافية وعمتها الفوضى الداخلية، لم تعد الامبراطورية سوى حلم لا طائل فيه .

اما البابوية ، التي غدت على الصعيد الزمني أعظم ملكية مركزية منظمة ، فلم ينازعها احد قط دورها العقائدي ورسالتها الاخلاقية . ولكن أنى لها بعث مزاعمها الثيوقراطية البالية حين تبدو ، في ملجأها الافينيوني ، وكأنها خاضعة لرغبات ملك فرنسا ، وحين تمزقها ، ابان الانشقاق ، المصالح القومية المتباينة ؟ فلم تفقد دورها في ادارة السياسة فحسب ، بل اخذت تفقد دورها التحكيمي ايضاً : اذ ان محاولاتها الكثيرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وانكلترا قد ذهبت ادراج الرياح . فاضطرت من ثم ، في القرن الخامس عشر ، امام ازدياد مطالب الملوك ، الى ان تسلم للدول بشكل جديد من التسوية : اتفاق التخلي .

اما مملكة فرنسا ، وهي القوية بنفوذها التاريخي، فقد بدت لرجال القانون المحيطين بفيليب له بيل ، قادرة على الحلول في ادارة سياسة العالم المسيحي محل الامبراطورية والبابوية اللتين برهنتا عن عجزهما. وقد سبق ورأينا كيف ان هذه الاحلام وغيرها لم تستند الا الى الذكرى. ففي الوقت الذي تكونت فيه ، كان نفوذ فرنسا ، مادياً وروحياً ، قد مال الى الهبوط . ثم جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط فكذبت الوقائع اقوال العلماء النظريين .

لذلك فان مفكرين كثيرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد ان أعياهم ادراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته . وقد اتخذ موقف الانتظار هذا، في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الانكليزي ، أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ، ولا سيما في هولندا ، شكل الحياد وحتى اسمه الجديد . وعجزت الممالك الاسبانية عن تحديد موقفها على الصعيد الديني ، فاعتصمت طيلة

سنوات ، بعد قيام الانشقاق ، في « اللامبالاة » ؛ وان شق عصا الطاعة ، الذي رغب فيه الجامعيون الباريسيون في اواخر القرن ، كان هو ايضاً ، من بعض الاوجه ، ما اطلق عليه اسم « الطريق الوسط » في الانتظار التي زاد في مغزاها ان الذين نادوا بها هم انفسهم الذين تلبكوا بدقة قياساتهم وادعوا مع ذلك قول كل شيء ومعرفة كل شيء : فقابل تواري السلطة الروحية عجز في السلطة الفكرية .

٢ ــ هبوط السلطة الروحية

ان القرن الرابع عشر ، الذي هو « قرن الانشقاقات » ، قد نقل مضاداته ومناقضاته الى صعيد الفكر نفسه . لقد اهملت تأليفات القرن السابق الجريئة ، بسبب سخافاتها ، ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قد فتحت آفاقاً بلغ من بعدها ان الناس توغلوا آنذاك في مسالكها المتباعدة . فسواء كانت الطريق فلسفة تبتغي الاستقلال عن اللاهوت وتستطيع ان تذهب بسالكها بعيداً في مجاهل الارتيابية ؛ او روحاً علمية تخطو ، بسلطة المنطق ، خطواتها الاولى نحو التدقيق والوضوح ؛ او ايماناً يتعثر احياناً امام الظلم الاجتماعي والكوارث المتعددة، ويختلط غالباً بالمحبة الالهية والخوف المقض من الموت ، ويفضي الى تفتح شتى انواع الصوفية وتحريك العواطف ؛ فاننا نلاحظ في كل مكان ، وحتى في قصر الحياة الذي يقرّب بين الرذيلة والفضيلة ولا يميز بينهما ، التباعدات نفسها والاختلاف عينه في السلوك والتصرف . ولم يكن من العسير فضح التباسات القرن وغباواته وافراطاته وانحرافاته ، ولم يتأخر مهذبو الاخلاق عن ذلك في حينه . بيد ان الجهد الفكري هذا في سبيل انماء المعارف الخاصة وانطلاقة الروح هذه نحو ايمان مسيحي حي قد كانا اختباراً خصاباً ودليلاً على حيوية في الحضارة الغربية يزيد من أهميتها ان سلطة البابوية الروحية وسلطة الجامعات الفكرية نفسيهما لم تتوصلا بعد ذلك الى مراقبتها ، كما لم تتمكنا ، بأولى حجة ، من توجيه مظاهرها المتعددة نحو هدف مشترك .

الانتقادات الموجهة الى البابوية

أقيمت الدعوى على بونيفاسيوس الثامن عشية يوبيل السنة ١٣٠٠ الذي بدا وكأنه أرغم جمهور المؤمنين المسيحيين على ان يخروا سجّداً على اقدام الثيوقراطية الظافرة ، وقد تابعها مستشارو فيليب له بيل بكل عناد طوال عشر سنوات تقريباً ، فكانت الظاهرة الاولى من ظواهر مأساة الضمائر المسيحية امام زوال نفوذ أعلى سلطة مسؤولة عن مصائرهم . وقد شعر الملك الورع شارل الخامس نفسه ، في منتصف الطريق التي سلكها هذا الهبوط السريع ، بالحاجة الى استشهاد الله على حسن نيته في مناصرة البابا الافينيوني : ولكن المؤمنين لم ينتظروا انفجار الانشقاق المعثر حتى يشكوا في خليفة بطرس .

بيّنا اعلاه الاسباب البعيدة التي أدت الى هذا الهبوط : فان النصر المبين على الامبراطورية،

بعد سقوط فردريك الثاني ، قد أُلقي على البابوية وحدها عبء ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية ؛ فكان هذا العبء اثقل من ان تنهض به وسائلها الراهنة ؛ واخطر تهديداً ايضاً من ان لا يثير ردود فعل السلطة العلمانية التي سارع فانونيو فيليب له بيل الى مساعدتها واهتدوا في الحق الروماني الى ما يؤيد مطالبة سيدهم بالامبراطورية الشاملة . انه انتقام السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وقد زاد من مخاتلته انه تناول ، اول ما تناول ، شخص البابا بالذات ، الذي غالباً ما نعت « بالمسيح الدجال » ، وان حدّته لن تخف في المستقبل أياً كانت سيئات البابوات او حسناتهم .

وما ان خطيت الخطوة الأولى حتى تناول انتقاد التجني حاشية البـــابا وشخصه وحق سلطته . ولم يحظ بالاحترام العام ، بين بابوات القرن الرابـــع عشر جميعهم ، سوى اوربانوس الخامس وحده ، ذلك الرجل القديس الذي انحنى أمامه بترارك . امـــا الآخرون فان الأحكام التي اصدرها معاصروهم عليهم كثيراً ما تحولت الى الثرثرة ، كروايات فيلاني الخبيثة او احقاد بترارك الجائرة ، وكان هذا الأخير أول من يستفيد من الانعامات البابوية وأول من ينتقدها اذا منحت سواه . اجل لقد افسحت محبة اكليمنضوس الخامس ويوحنا الثاني والعشرين المفرطة لاولاد اخوتها وتبذيرات اكليمنضوس السادس مجالاً للانتقادات الشرعية ، ولكن يوحنا الثاني والعشرين اتهم بالبخل تجنيـــاً ايضاً . وكان بندكتوس الثاني عشر ، وهو الـسـترسي المتقشف والمرجع اللاهوتي الذي نعلم ، هدفاً بعد موته لحملات بترارك والامبراطوريـــين والمتسولين الذين حاول اصلاحهم . وان في عنف هذه الحملات ، التي لا توحي الثقة اجمالاً ، لدليلاً على وقاحـــة متزايدة : فالمعروف عن « ماتيو فيسكونتي » ، الذي اتهـم بمحاولة السيطرة على يوحنا الثاني والعشرين ، انه كان يصرح علناً ان « البابا بعيـــد عن البابوية بعدي عن الالوهية » . والحقيقة ، على كل حال ، هي ان ترددات هذا البابا في موضوع مشاهدة الله في السماء وتهوراتـــه العقائدية ورجوعه عن اقواله قبيل اسلامه الروح لم تكن لتوحي ثقة عمياء في شخصه .

وقد بلغ السيل الربى عند حدوث الانشقاق حين تراشق الحرم باباوان متنافسان . فتبنت جامعة باريس ، دون ان تقصد ذلك ، جسارات ويكليف الذي حكم على البابارين منـــذ السنة ١٣٨٣ ودعا المسيحيين للاتحاد ضدهما : وبلغ منها حوالي السنة ١٤٠٧ ، بعـــد فشل « طريق التخلي » ، ان نعتت بندكتوس الثالث عشر بـ « المنشق المتصلب » و « الهرطوقي الحقيقي » ، وغريغوريوس الثاني عشر بـ « مخرب الكنيسة » ؛ ثم اتهمها مجمع كنستانس بالرقي والسحر بعد ان اطلق على الاول تهكماً اسم *Benefictus* (المستغل) والثاني اسم *Errorius* (الضال) ؛ ولن يلبث آباء مجمع كنستانس ان يعزلوا يوحنا الثالث والعشرين لانه « خطر وغير نافع » .

يغلب على ظننا ان اباحية الكلام هذه انما كانت في تقاليد القرون الوسطى ؛ اذ ان بترارك الذي اصدر احكاماً سيئة القصد على البابوات، لم يكن قط ليقصد تحقير المركز البابوي لانه كان محافظاً ويعتبر البابوية مصدراً لكل سلطة . بيد ان انتقاد الاشخاص لم يكن من جهـــة اخرى

ليعزز هذا المركز الذي ادركه ايضاً رشاش الانتقادات اللاذعة التي وجهت الى مجمع الكرادلة . فمركزية الحكومة البابوية المتعاظمة قد اولت الكرادلة في الواقع شأناً عظيماً . كانوا مستشاري البابا حين يدعوهم الى الاجتماع وقاموا الى جانب ذلك بالاشراف على شؤون الديوان والمحاكم والمجلس الرسولي والقصادات وادارة دول الكنيسة . وتمكن بعضهم احياناً من اتباع سياسة شخصية او اقله خدمة صوالح الأمير الذي يدينون له بارتقائهم الى مقام الكردينالية . وقد توفرت لامراء الكنيسة وسائل الحفاظ على مرتبتهم : حشم وخدم منزليون ، مساكن عظيمة ، ثياب رسمية ، نصيب من موارد الكنيسة العادية (الخدمات المشتركة) ، انعامات استثنائية خاصة ، موارد الرتب الكنسية الكثيرة على الرغم من مساعي يوحنا الثاني والعشرين للحدّ من سوء استعمالها . وامتلأت مصالح الادارة البابوية بازلامهم الذين كان الكثيرون منهم يتخبطون في حالة عوز شديد ويبحثون عن رتب كنسية شاغرة . وتذكرنا لهجة الانتقادات ضد هذه التجاوزات بلهجة القديس برناردوس معنفاً احبار عصره . فبعد وصف بترارك لهؤلاء الرجال « الذين اغتنم قطعة جوخ حمراء صغيرة تتألف منها قبعتهم » ، اعتبر جرسون *Gerson* ان « الذين يجمعون ٢٠٠ وحتى ٣٠٠ رتبة كنسية » خليقون بان يعرضوا في معرض جثث المجرمين ، وتكلم نقولا دي كلامانج ، في « دراسته عن خراب الكنيسة » عن « لجنة جشعهم القاتمة المرعبة » . واغتمت بريجيت السويدية ، وكاترين السينية من بذخهم اغتمام الروحيين الذين تعرضوا لاضطهاد مؤسف في الوقت نفسه الذي توسعت فيه الحقوق الاميرية البابوية . ولكن هل كان لكرادلة افينيون ابناء اخوة ومحميون اكثر من اسلافهم كرادلة روما يا ترى ؟ وما هي قيمة كلام المخادع الذي لم يثبته بالدليل قط لا بترارك ولا فيلاني ولا مارسيل البادواني . فقد استطاع جوفروا الباريسي بدوره ان يتهم الرومانيين بانهم لا يحبون البابا الا لغاية مادية .

الا ان الشكوى الحقيقية لاعداء البابوية ، وهي ابعد هوى وبغياً، فغير هذا كلّه : فالمآخذ على باباوات افينيون انهم كانوا فرنسيين ، وملأوا مجمع الكرادلة بغاسكونيين وكرسينين وليموسيين يضمنون اخلاصهم ، وانتظروا تهدئة دولتهم الايطالية حتى ينتقلوا الى بلاد لا تكرم الضيف ، وايدوا اخيراً وجهة نظر ملك فرنسا ضد انكلترا على الصعيدين المالي والدبلوماسي . ومهما بالغ من غلو بعض هذه التهم ، فانها قد اسهمت مع ذلك ، في حينه ، في احراج مركز السلطة الروحية في معترك المنافسات السياسية واضعاف ثقة الناس بها اضعافاً ملحوظاً .

النظريات الامبراطورية الجديدة

استفاد في الدرجة الاولى من هذا الضعف اصحاب النظريات السياسية وانصار الروح العلمانية والتواقون الى الحلم الامبراطوري الذين رغبوا في تحقيق انتقام الدولة من ادعاءات ثيوقراطية ما زالت متاصلة حتى بعد ما الحقه بها القانونيون الفرنسيون من استذلال واخزاء . ففي السنة ١٣١٢ بالذات ، اعلن اكليمنضوس الخامس في رسالته « العناية الراعوية » ، كمال السلطة البابوية ، كما اعلن يوحنا الثاني والعشرون ، في السنة ١٣١٦ ، حقه في الرئاسة في السماء وعلى الارض . فوجد الكرسي الرسولي

آنذاك مرّة اخرى اشد مناوئيه عناداً في المطالبين بالتاج الامبراطوري الذين تمكنوا من ابقاء ايطاليا تحت رحمتهم. اجل قضى الموت على طموح هنري السابع عشية تتويجه في روما (١٣١٣)، ولكن لويس دي بافيير قد توفق الى حمل التاج، رغم انف البابا، في المدينة الازلية، في السنة ١٣٢٨. انه لنجاح سريع الزوال في الحقيقة، ولنجاح ظاهري اكثر منه واقعي: اذ ان كردينالاً واحداً لم يتخل عن يوحنا الثاني والعشرين؛ ولم ينظر احد نظرة جدّية الى البابا المزيف «بيير دي كوربارا» وادارته الوهمية، فاضطر الدخيل بسرعة الى الخضوخ وانهى ايامه في قصر افينيون حيث فرضت عليه اقامة هنيئة مغمورة. ولم تحضر الجماهير البيزية تمثيلية اذلال الشخص الخشبي الذي يمثل يوحنا الثاني والعشرين الا مكرهة وبناء على امر امبراطوري. اما الامبراطور فقد اضطر الى الهرب من ميلانو تخلصاً من سخرية الجفراء. ولكن اذا اثبتت هذه الهجمات الامبراطورية عدم جدواها، فان الصراع المرير الذي اوجدته بين الامبراطورية والبابوية قد اتاح للروح العلمانية التي سيرت أصحاب النظريات ان تطلع بجسارات لم تخطر على بال بشر من قبل.

فحوالي السنة ١٣٠٨، لم يجاري السسترسي انجلبرت دادمون، في نقاش قريب العهد، على تميين من تعود اليه السلطة الواحدة الضرورية للعالم المسيحي. وبعد مرور خمس سنوات، وبوحي من بعض نظريات ابن رشد في الارجح، اشاد دانتي بدوره بـ «الشمسين» المتساويتين بالتطابق. اجل لقد كان من المنادين بالوحدة المسيحية ولكنه انبأ بانفصال محتوم بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية، فقوض من حيث لا يقصد احد الاسس التقليدية لهذه الأخيرة، برغبته في الدفاع عن قميص الجسم السري التي لما تخط بعد: وان دحضه الجدلي لـ «هبة قسطنطين» قد مهد الطريق، قبل قرن كامل، لانتقاد لوران فالا. وألف ماوسيل البادواني، أحد انصار لويس دي بافيير، في السنة ١٣٢٤، كتاب «نصير السلام» الذي اعلن تفوق الدولة التي يعود اليها وحدها أمر الاشراف على المصير الزمني للجنس البشري. فليست من ثم سلطة البابا الزمنية، والبابا مجرد معتمد للمجمع او للامبراطور، سوى حصيلة سلسلة من الاغتصابات؛ وليس بالتالي للسلطة الكنسية من وجود الا في الدولة وبواسطة الدولة: هذه هي النتائج القصوى التي استخلصها مارسيل من مفهوم الخير العام في فلسفة ارسطو. اضف الى ذلك ان مصدر السلطة الدينية، الذي هو جمهور المؤمنين، علمانيين وكهنة، قد جعل من نظام المراتب امراً نافلاً؛ وان الكهنة، المتساوين جميعهم، يرشدون رعاياهم الى خلاصهم بانوار الوحي دون غيرها. فلا عجب من ثم اذا ما حيّا مشايعو «الانجيل الازلي»، من روحيين واخوة صغار، في لويس دي بافيير، المنتقم للحكم على ميشال سيزينا، الذي يجسد الفقر الفرنسيسي الملزم؛ واذا ما اقدم سكان روما على المناداة بالامبراطور في الكابيتول. وهكذا فان القحمة الامبراطورية، التي هتف لها اليواكيميون، قد تلوّنت بالذكريات الماضية والابتغاءات القومية ايضاً.

لهذه النزعات نفسها استجابت، بعد مرور عشرين سنة، مغامرة «كولا دي ريئزو»

الغريبة في روما : تولي السلطة يوم أحـــد العنصرة من السنة ١٣٤٧ ؛ استحمام رمزي في بيت العماد القسطنطيني في اللاتران، عقبه تسليم الاسلحة في أول آب المصادف ذكرى حمل اوكتافيوس للقب اوغسطوس ؛ بعد مرور اسبوعين ، حمل المحامي عن حقوق الشعب ستة تيجان كمقدمة لتسلّم السلطة الامبراطورية . فحدث آنذاك هذا التناقض الغريب : روما امبراطورية بدون امبراطور وبابوية بدون بابا : وكان على شعب روما وعلى المدن المتحالفة معه ان تستعيد السيطرة على العالم وحق منح الشارات الامبراطورية . اجل كانت المغامرة قصيرة الامد وانتهت بشكل محزن ومضحك معاً . ولكن في مجرد حدوثهـا لمغزى بعيد الدلالة على عجز الكرسي الرسولي عن ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية .

ففي منتصف القرن الرابع عشر هذا لم يعد تعبيرا « الشعب الروماني » و « الامبراطورية» ليشملا كافة الشعب المسيحي ولا كافة العالم المسيحي . اطلق التعبير الاول آنذاك على سكان مدينة روما دون غيرهم ، كما اطلق التعبير الثاني على المملكة الجرمانية دون غيرها . ولم تكن مطالبات لويس دي بافيير الشاملة لتخدع بلاط افينيون : فقد درج احد الكرادلة على ان يقول للبابا : « ايها الأب الأقدس ، احذر القضية التوتونية » . والشيء الوحيد المهم في نظر البافيري كان مملكته الجرمانية وسيطرة عائلته على الامراء الألمان ، وهو قد اكره على الدخول في صراع لا مخرج منه ، لان التاج الامبراطوري كان ضرورياً لتحقيق ما يصبو اليه . وأدرك خلفه شارل الرابع ان تتويجه في روما (١٣٥٥) احتفال لا اهمية له ؛ وحين حصرت « البراءة الذهبية » ، في السنة ١٣٥٦ ، حق انتخاب الامبراطور بسبعة ناخبين من الألمان ، لم يدهش أحد من اغفال ادعاءات البلاط الروماني ، لان تحرر الامبراطورية من الوصاية البابوية كان أمراً مفروغاً منه .

الكنائس القومية

وبينما كانت الامبراطورية تحقق هذا التحرر ، وروابط التبعية الاقطاعية بين الكرسي الرسولي والتيجان الخاضعة له تسترخي أو تنحـــل ، لم تعد المبادهات والآراء البابوية لتلقى اذناً صاغية لدى الحكومات الا بمقدار تأمين صوالح هذه الأخيرة . لقد كثر الكلام ، طوال القرن الرابع عشر ، عن حملة صليبية شاملة ، ولكن الصوالح الخاصة جعلت الامراء يتصامّون في كل مكان حيــال نداءات الدبلوماسية الافينيونية في سبيل التهدئة : فلم تتحقق بالتالي وحدة الممالك ضد القائلين بغير الدين المسيحي . وبرزت مجددة آنذاك بسبب تعاظم المركزية في حكومـــة الكنيسـة ، مشكلة تقليديّة هي مشكلة العلائق بـــين السلطتين . فقد تعارض منح بعض الرتب وصوالح المانحين العاديين ؛ كما ان تعيين الاجانب خيب آمال خريجي الجامعـــات واصطدم بالشعور القومي لا سيما في انكلترا ابان الحرب الفرنسية . وكان من شأن استئناف الأحـكام أمام « محكمة روما » احتمال اعـــادة النظر في الدعاوى التي فصلت فيها المحاكم الملكية ؛ كما ان جمع الغرفة الرسولية للاعشار والضرائب والرسوم المختلفة قد حرم الحكومة الانكليزيـــة من بعض الموارد الاميرية . لذلك كانت انكلترا أول من عارض هذا الوضع ، وزاد في معارضتها له انهـا اتهمت البابوية بالتحيز لعدوهـــا . وليس مردّ اهمية

الشكاوى البرلمانية المتكررة من تجاوزات الكرسي الروماني الحقيقية او الوهمية ، بما فيها حملات البرلمان الصالح على «مدينة افينيون الخاطئة»، واهمية الانظمة المعادية للبابا التي اعلنت في السنة ١٣٥١ والسنة ١٣٥٣ وجدّدت او اكملت في السنوات ١٣٦٥ و١٣٩١ و١٣٩٣ ، الى فعاليتها – فقد بقيت حرفاً ميتاً – بل الى المبادىء التي تستخلص منها . فلما كان الملك هو الولي الأخير لكافة الرتب في انكلترا بوصفه سيداً على حفدة واقفيها ، ادعى لنفسه بحق الحلول محل الأولياء المقصرين كي « يعيد حرية الانتخابات » ؛ وما ذلك في الواقع الا ليراقب مراقبة مباشرة كل تعيين في المناصب الكنسية الهامة ويفرض على الاكليروس اكبر اسهام ممكن في نفقات الدولة ويدير بنفسه كنيسة قومية لا يكون البابا سوى مرشدها الروحي البعيد . ومنذ السنة ١٣٧١ اقترح اخوان اوغسطينيان على البرلمان حجز ممتلكات الكنيسة كي تسدّد بواسطتها ، للخير العام ، النفقات الباهظة التي تقتضيها حرب مشؤومة ، فسبقا بذلك النظريات الويكليفية . ولم يخطىء الأساقفة الانكليز في تخوفهم من هذا الاقتراح : فقد كانوا يخشون الوصاية الملكية الثقيلة فوق خشيتهم المطالب البابوية . الا ان الملك ما زال يؤثر الاتفاق مع الكرسي الرسولي ومقاومته اسلاب كنيسة انكلترا على السير حتى النهاية في تنفيذ المقررات البرلمانية المتطرفة .

ولم ينقض جيل على ما حدث في انكلترا حتى نظمت فرنسا بدورها ، اثناء اضطرابات الانشقاق ، كنيسة قومية خاضعة للسلطة العلمانية . وطيلة بقاء البابوية فرنسية ، اقتصرت الاصطدامات بين السلطتين على المنافسة المثيرة بين المحاكم المدنية والمحاكم الكنسية التي حاولت جمعية فنسيان ، في السنة ١٣٢٩ ، التمييز بين صلاحياتها الخاصة ، والتي اصدر شارل الخامس في معرضها مرسوماً حدّ من صلاحيات المحاكم الاسقفية ، الا ان الموقف الملاطف الذي وقفه بلاط افينيون قد ساعد كثيراً على تذليل الصعوبات النادرة التي اثارتها براءات التولية الرسولية وحق الاسلاب او عدم اقامة ذوي الرتب من الأجانب . ولم يحدث في الحقيقة اي امر هام حتى اليوم الذي اقدمت فيه الحكومة الملكية ، بعد مرور عشرين سنة على الانشقاق ، على تبني قضية « الوحدة » ، ودعت الأمراء ، رغبة منها في اكراه البابوات المتصلبين على الاستقالة ، لان يحرموهم حق رقابة الكهنة الوطنيين واسباب المعيشة معاً . وان حركة شق عصا الطاعة في السنة ١٣٩٨ ، التي اعدّتها كليّة اللاهوت في باريس ، وهي أول من طلع بالغليكانية الجامعية ، والتي حظرت مؤقتاً استئناف الأحكام أمام الكرسي الرسولي، قد أولت البرلمان صلاحية مطلقة في قضايا الرتب الكنسية التي تمنح أصحابها دخلاً معيناً والدعاوى الخاصة بجباة الاسقفيات والخورنيات وجمعيات التسول . وحين تقررت في السنة ١٤٠٣ العودة الى الطاعة ، لم تتخلّ صحابة الملك عن هذه الغليكانية البرلمانية، التي خولتهم حقاً لاطلاع على الشؤون الروحية . فقد فرضت مراسيم السنة ١٤٠٧ على الكرسي الرسولي اختيار أصحاب الرتب الكنسية من بين عدد من الكهنة تقرره لجنة جامعية . فسارت فرنسا بذلك على الطريق المؤدية الى الأمر الذي صدر عن الملك والمجلس في بورج حول الشؤون الكنسية وأتاح تحديداً واضحاً « للحريات الغليكانية » .

فكان هنالك أولاً حق كنيسة فرنسا في ان تدير شؤونها بموجب « القوانـــين المقدسة » ، أي مقررات المجامع الأولى والأحبار الأولين ، وهي كل لا يمس ولا يمكن ان يحوّر بارادة البابا التي لم يعد لها على المملكة سوى « سلطة معتدلة » . وكان هنالك ثانياً ، في حقل الرتب الكنسية أو الحقل الجبائي، سيطرة صحابة الملك سيطرة فعلية على الشؤون الكنسية : اذ ان الانشقاق المثير الذي تقاسم المسيحيين حول باباوين أولا ، ثم حول ثلاثة باباوات ، قد حمل اللاهوتيين على ان يسندوا ، ولو مؤقتاً ، ادارة كنيسة فرنسا الى « ابن الكنيسة البكر » وقضاته . وكي لا تتألم من هذه السيطرة العلمانية الجديدة ، لن تجـــد بابوية القرن الخامس عشر وسيلة أفضل من قسمة الصلاحيات عن طريق اتفاقات التخلي .

المذهب المجمعي

اضطرت البابوية ، قبل ان ينتهي بها الأمر الى هذا الحل ، الى مواجهة خطر آخر مصدره الكنيسة نفسها استهدف اذلال سلطتها اذلالاً نهائياً. فحتى حدوث الانشقاق الكبير ، كانت الأسباب المتذرع بها أبداً، لعزل أحد البابوات وانتخاب بابا آخر يقاومه ،عدم الاهلية أو جريمة الهرطقة. وبحجة الهرطقة هذه ادعى لويس دي بافيير عزل يوحنا الثاني والعشرين ، كما سبق لفيليب له بيل ان عزم على استصدار الحـــكم على بونيفاسيوس الثامن . ولكن باباوين تحليا اثناء الانشقاق باهلية شخصية متساوية وتقاسما الشعب المسيحي ، فازهرت القداسة في كلا الجانبين : كاترين السينيّة ، وكاترين الاسوجية وجيرار كروت بـــين مناصري اوربانوس الرابع؛ والرسول العظيم فنسان فرييه بين مناصري اكليمنضوس السابع. فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ ان تهمة الهرطقة تلصق بدون تبصر ، مـــا زالت في نظر اللاهوتيين أضعف من ان تحل مسألة جديدة . فدوت حينذاك ، كما لم تدو يوماً من قبـــل ، الدعوة لعقد المجامع ، ونضجت النظرية المجمعية .

اذا كان الاحتكام الى المجمع ، بصدد مقررات اصدرها بابا ظالم أو غير واقف على الحقيقة ، قد بات أمراً عادياً منذ قرابة قرن ، فمرد ذلك الى انه استجاب لبعض نزعات الفكر المسيحي التي لا تخلو من خطر كبير على كل حـــال . استخلص بعضهم ، من تحديد الكنيسة كما نقحـــه كونراد دي جلنهوسن (جماعة المسيحيين المؤمنين في العـــالم بأسره) في السنة ١٣٨٠ ، النتائج القصوى ، مقلّلين من دور نظام المراتب أو ملاشينه تمامـــاً . وعلى نقيض ذلك ، حمل بعض الاساقفة ، الدلالة على خضوعهم للكرسي الروماني، هذا اللقب : « الاسقف بنعمة الله والكرسي الرسولي » ، وتناول التأديب الكنسي جان دي بويي في السنة ١٣٢١ لانه علّم في باريس ، ان سلطة الاساقفة وحتى الكهنة تنبثق مباشرة من الله دون ان تمر بالبابا : فكان ذلك بمثابة عودة الى أحلام « الروحيين » بصدد كنيسة يتنازل فيها الكهنوت الرسمي عن مكانتـه لحياة رهبانية ينزل عليهـا الوحي ، وانباء بتهجمات أمثال ويكليف وهوس على نظام المراتب ، وتشجيع للجمعيات الدينية والرهبانية على مقاومة محاولات الاصلاح التي قام بها يوحنا الثاني والعشرون وبندكتوس الثاني عشر وانوشنتيوس السادس .

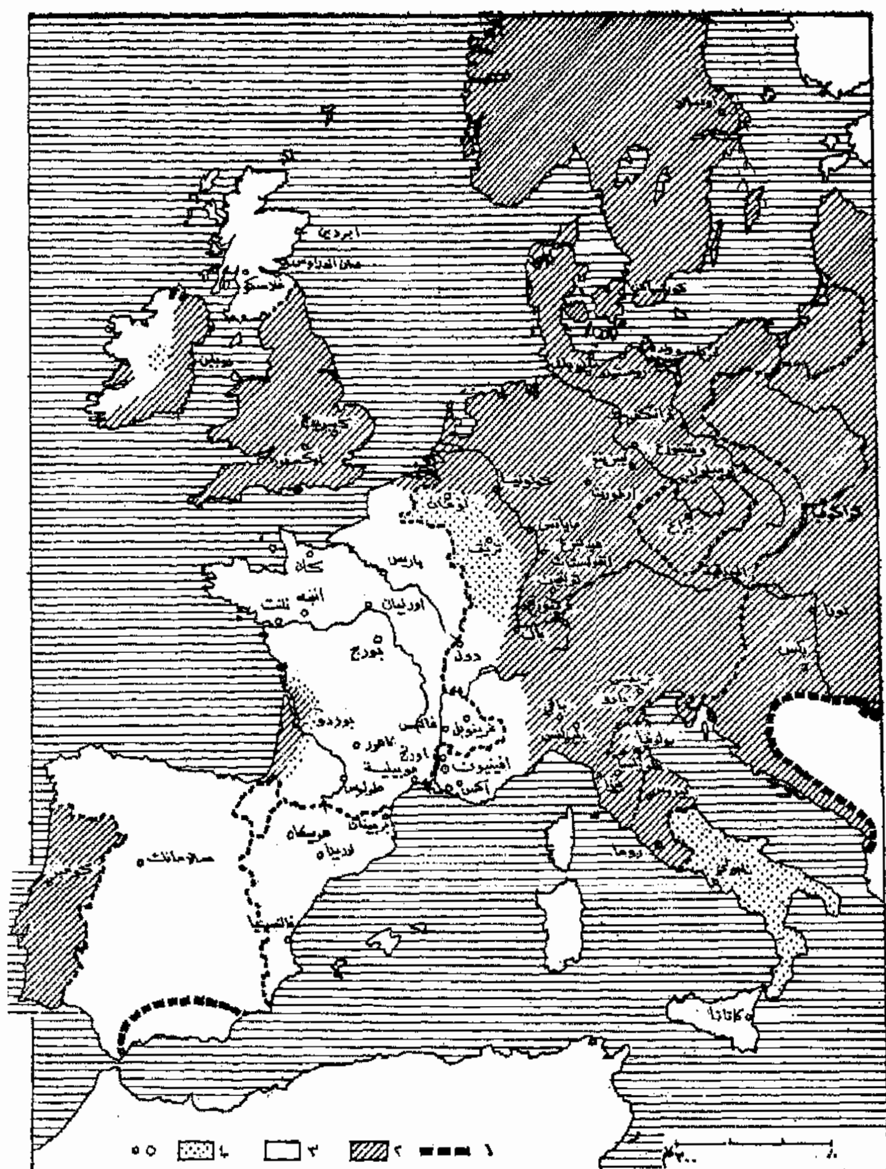

الشكل (رقم ١٦) العالم المسيحي الغربي في عهد الانشقاق الكبير

١ - حدود العالم المسيحي اللاتيني . ٢ - العالم المسيحي الخاضع لاوربانوس حوالي السنة ١٣٩٠ .
٣ - العالم المسيحي الخاضع لاكليمنضوس حوالي السنة ١٣٩٠ . ٤ - مناطق التنافس بين هذا وذاك .
٥ - مدن جامعية و « مكاتب » في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

اضف الى ذلك ان النظرية المجمعية قد نضجت في القرن نفسه الذي شاهد توسع نظام الجمعيات التمثيلية في كافة الممالك . واعتقد مجلس الكرادلة بامكانية الاستفادة من مثيلها فحاول بعد السنة ١٣٥٢ فرض وصاية الكرادلة على الأحبار الجدد . الا ان انتقاد القانونيين والمفكرين قد تخطى هذه الرغبات الاوليغارشية . فقد انتهت آراء مارسيل البادواني في السياسة الى حملة عنيفة على نظام المراتب : اذ انها قالت بمساواة كافة الكهنة وعينت لادارة الكنيسة العليا المجمع العام الذي ليس البابا سوى ممثله فحسب . وعلى غراره مجد « غليوم دوكهام » ، في « حواره » ، دور المجمع ؛ وقد اتاحت له حذاقته الجدلية التأكيد بأن وحدة الكنيسة لا تتنافى وتعدد البابوات .

بيد ان معاصري الانشقاق ، على الرغم من تأثرهم بالآراء الجديدة ، لم يقبلوا كلهم بواقع انقسام الكنيسة وزوال نفوذ البابوية . فان مؤلفات « جان بتي » و « ونقولا دي كلامانج » ولا سيا « جرسون » و « بيير دايي » تنم عن توقهم الى وحدة العالم المسيحي . وقد اشتهر جرسون، في حكمه على وسائل العنف بقوله : ليست الحرب او اراقة الدماء ما يحل معضلة الانشقاق » . ولكن تصلب البابوات ولامبالاة الحكومات قد اديا الى فشل الحلين الاولين بين الحلول الثلاثة التي اقترحها دايي في السنة ١٣٨١ : التسوية والتخلي . فلم يبق غير الحل الثالث ، أي المجمع العام ، الذي يلحق ضرراً كبيراً بسلطة خليفة بطرس . وقد سبق لجامعة باريس في السنة ١٣٩٤ ان اخضعت ، بما يشبه الاستفتاء ، لحكم ١٠٠٠٠ شخص تقريباً ، آراءها في حكومة الكنيسة ؛ الا ان ترددات البابوات المتعاقبين وتراجعاتهم وممانعاتهم ورفضهم لكل مصالحة ولكل تنازل قد جعلت اللجوء الى المجمع أمراً لا مناص منه . وتجدر الاشارة هنا الى ان فعالية المجمع لم تبد ، في البداية ، اعظم من قدرة البابوات على الدفاع عن شرف حقوقهم : اذ ان كرادلة الجبهتين تخلفوا عن حضور المجامع المزعومة التي دعا اليها البابوان المتزاحمان واجتمعوا في بيزا في السنة ١٤٠٩ ؛ فوضع المجمع نصب عينيه تخليص الكنيسة من صراع بابوين دون كرادلة ضد كرادلة دون بابا ، واهمل نصائح جرسون الحكيمة ، وسارع الى ايجاد منافس ثالث « للعجوزين المشؤومين » ، مما زاد بالطين بلة .

في جو البلبلة هذا طلبت النفوس الخيرة المتدينة ، بادعيتها ، تحكيم مجمع مسكوني حقيقي . وكان الظرف من الخطورة بحيث توجب الاعتراف له بحق الاجتماع دون دعوة بابوية وبانضمام ملافنة الجامعات الكبرى اليه للاستشارة . ورأى الامبراطور سيجيسموند من واجبه أخذ المجمع تحت حمايته والترحيب بانعقاده في كونستانس (١٤١٤) . فانبأ اختيار العقول وايضاح الفكرة المجمعية في مذهب فلسفي باصلاح حكومة الكنيسة اصلاحاً ينطوي على مزيد من الديموقراطية . اكد المجمع انه يستمد سلطته مباشرة من الله وان له ملء الحق في الاجتماع كل عشر سنوات ؛ وحددت مراسيم أخرى صلاحيات الحبر الأعظم في ما يتعلق بالحكم والرتب الكنسية والقضاء والشؤون المالية وحق بالنظام الكنسي ؛ وفرضت عليه العمل بقرارات المجمع

تحت طائلة التأديب والعزل . وكان في النتيجة ان اصلاح الكنيسة « في رأسها واعضائها » لم يترك للبابا سوى سلطة رمزية : وهكذا فان البابوية ، التي اكتفت السلطة المدنية بمناقشتها ، قد اتضعت أمام ملافنة الجامعة ورأي المؤمنين العاديين . ولم يقتض لاعادة سني السلطة البابوية قبل منتصف القرن الخامس عشر سوى عناد مارتينوس الخامس وخلفائه ، وقـد ساعده على النجاح فقدان ثقة المؤمنين في مجمع « بال » بسبب تجاوزاته وعجزه .

٣ ــ وهن السلطة الفكرية

ادعى الجامعيون ، في الوقت الذي هيمنوا فيه على الكنيسة ، حق اصـلاح المجتمع العلماني ايضاً . فاعتقدوا ، بفضل القانون الكابوشي في باريس ، وفضل جان هوس في براغ ، وويكليف وتلاميذه في اوكسفورد ، بانهم مدعوّون لان يُدخلوا على الحكم مبادىء منطقهـم الصارم أو يعيدوا المجتمع الى بساطة المساواة الانجيلية . واذا كذّب الواقع ادعاءاتهم ، فرد ذلك الى ان المدرسة ، التي غالباً ما تكون سبّاقة في الحقل النظري ، كثيراً ما تكون متأخرة في الحقـل العملي . فان اولئك الذين توجهوا بانظارهم الى « نور الامم » في محنة الايمان ، لم يلبثوا ان شعروا بأن الجامعة ، بعد ان فقدت وحدة تعليمها الصافية وشمول ثقافتها ، قـد تباعدت عن السلطة السياسية ، وان طرائقها الجافة لم تسفر عن أي شيء من شأنه ارضاء العقول المجـدّدة والنفوس الصوفية .

تعدد الجامعات

بدت الحياة الجامعية ، اقله في الظاهر ، وكأنها تتقدم تقدماً عظيماً . فان « المكاتب » ، وقد تكاثرت في البلدان التي ازدهرت فيها المدارس منـذ زمن بعيد ، قد انتشرت ، في اقل من سنتين ، في كافة انحاء اوروبا الجرمانية والسلافية ، وبلغت شاطىء البلطيك وحتى ضباب ايرلندا وسكتلندا .

نظمت هذه الجامعات الجديدة كلها تقريباً على غرار جامعة باريس او جامعة بولونيا . واذا ما استثنينا اوكسفورد حيث انصهرت « امة الشمال » و « وامة الجنوب » في السنة ١٣١٣ ، توزع الطلبة « امماً » امـّن مفوّضوها ادارة الجامعة بالاشتراك مـع عمد الكليات والرئيس . وعرفت المدارس الثانوية كذلك تقدمـاً كبيراً ايضاً . وهكذا ازدهرت في باريس مدارس السوربون ونافار وكليرمون ومونتيغو وليزيو ولوان و « سانت - بارب » ؛ وفي اوكسفورد ، مدارس اوريل وكوينز ونيو كولدج وماجدولين و « اول سولز » التي أسست تخليداً لذكرى ابطال « ازنكور » ؛ وفي كمبردج ، كلية الملك ؛ وفي براغ ، كوليجيوم كارولينوم ؛ وفي ايطاليا ، التي لم تتأثر بنسبة غيرها بهذه الحركة ، عرفت بولونيا حيوية الكلية الاسبانيـة التي أسسها الكردينال البورنوز والكلية الغريغورية التي أسسها غريغوريوس الحادي عشر . وتحقق كذلك

بعض التقدم في تنظيم العمـــل وحتى في تخصيصه : ففي السنة ١٣٧٩ ، دشنت نيو كولدج في اوكسفورد نظام « الاوصياء » ؛ وبعد مرور عشرين سنة انبأ توزيع المهام على الاساتذة باحداث المنابر المصرية . وأخـذت كليات الطب ، التي ترتدي بالضرورة طابعـــاً تقنياً ، تشرح الجسم البشري ، مستعينة في ذلك بجثث المحكومين بالاعدام ؛ وصدرت المبادهة في هـذا الشأن عن البابا الذي امر بتشريح جثث ضحايا الطاعون في افيليون ومدن أخرى كثيرة في ايطاليـــا . فغدا التشريح ودراسة الاعشاب الطبية مواد دراسية مستقلة . واهملت كلية الطب في باريس ، في السنة ١٤٧٠ ، حزم العلف التي كانت لها ، في شارع فوار ، بمثابة المقاعد ، وانتقلت الى بناء خاص في شارع لابوشري اودعته المكتبة التخصصية التي تجمعت لديها منـــذ قرن ، على غرار مكتبة المؤلفات القانونية في اورليان . وتكوّنت خارج ايطاليا ، حيث تعددت المكتبات ، مكتبات أخرى في افينيون وانجيه و « كان » وناتت وبواتييه وكمبردج ؛ وكانت عطايادوق غلوستر القِوام الاساسي لما سيصبح « المكتبة البودلية » .

اذا سطع نجم كبريات الجامعات في بعض حقول المعرفـة – الفنون واللاهوت في باريس ، واللاهوت في سلمنكا واوكسفورد وكولونيا ، والطب في مونبلييه ، والحقوق في بولونيا – فلانها قد سعت كلّها لتأمين تعليم كامل ، دون ان تتوفر دائماً لديها الكليات الخمس التي جهزت بها جامعة كان . فان البابوية ، السخية في توزيع الامتيازات ، لا سيا في عهـد اكليمنضوس السادس واوربانوس الخامس ، قد ترددت احياناً في الموافقة على انشاء مراكز الدراســات اللاهوتية : واذا حصلت جامعة براغ على هذه الموافقة منـذ تأسيسها في السنة ١٣٤٧ ، فان جامعتي فينّا وكراكوفيا لم تنشئا هذه المراكز الا اثناء الانشقاق الكبير ، الاولى بعد مرور ٢١ سنة على تأسيسها (١٣٨٥) والثانية بعد مرور ٣٨ سـنة على تأسيسها ايضاً (١٤٠٠) . ومرد ذلك الى ان كل كلية سعت آنذاك للاستعانة باكبر عدد من اللاهوتيين اللامعين كما تشهد بذلك براءات تأسيس جامعات هيدلبرغ (١٣٨٦) وكولونيا (١٣٨٨) وارفورت (١٣٨٩) .

كانت الجامعات ، على غرار امها الباريسية ، مدارس اسقفية سابقة في اغلب الاحيان ، فبقيت من ثم خاضعـــة للسلطة الكنسية . وخضعت فوق ذلك الى نصراء الآداب والفنون والامراء الذين انعموا عليها بهباتهم . فغنى الوقوف الجامعية – لا سيا في لوبك وغريفسوولد – هو احدى ميزات نصرة الآداب والفنون آنذاك . وكان المهم في نظر الملوك ارساخ اســتقلال الدولة فكرياً وابقاء الطلبة الوطنيين فيها واجتذاب الاجانب اليها واخـــيراً اعلاء اسمهم بين الناس . وحين غدت الحياة الجامعية سلّماً للمجد واداة للحكم ، ارتدت طابعاً قومياً صرفـاً ، فكان ذلك سبباً أولاً من اسباب ضعفها .

قابل تعدّد الجامعات ، في الواقع ، تقدم الدول القومية وتجزئة نطاق الصلاحيات الدينية . فان جامعة براغ التي اسسها الامبراطور شارل الرابـع في السنة ١٣٤٧ وتألفت من « امتين » جرمانيتين (بافاريين وسكسون) و « امتين » سلافيتين (بوهيميين وبولونيين) كانت معـدّة

لجمع الشعوب في ثقافة مشاركة وبث تعاليم اللاهوت في الامصار السلافية . فسارع الامـــراء المجاورون ، بدافع التنافس ، الى تأسيس جامعات زاهرة مماثلة : ارشدوق النمسا في فينا ، وكازيمير الكبير في كراكوفيا . وسار مارسيل « دنجن » على خطى البير دي ساكس ، الرئيس الأول لجامعة فينا ، فادخل الفكر الباريسي الى جامعة هيدلبرغ التي جعل منها الكونت البلاطي روبرخت الأول دي ويتلسباخ مركز دعاوة « عمرانية » تمد دائرة اشعاعه الى مناطق الرين الاوسط والاسفل .

يفسر ازدهار الجامعات الايطالية وطنية البلديات ونصرة الامراء للآداب والفنون والتنافس في حقل الثقافة . فان شهرة جامعة « المعرفة » في روما ، التي خبا نورها في السنة ١٣٧٠ بعد لمعان دام ٦٧ سنة ، قد استعيدت في السنة ١٤٠٦، ثم في السنة ١٤٣١، بفضل اوجانيوس الرابع ؛ ودانت كذلك جامعة بادوا لاسرة كرارا بتأسيس كلياتها ؛ وفي السنة ١٣٤٢ والسنة ١٣٤٩، اي خلال سبع سنوات، اضافت بيزا وفلورنسا الى اسباب تزاحمها، تنافس جامعتيها ؛ ويصح القول نفسه عن بافيا وفراري وبليزانس في السهل الباداني . وكذلك اتفق بورجوازيو روستوك (١٤١٩)، بمساعدة المدن الهانسية، على تعليم اولادهم في مدينتهم، ثم اسست جامعتهم فرعاً لها في غريفسوولد (١٤٥٦) . ثم حذي حذوهم على التوالي في تريف ومايانس وتوبنجن وفريبورغ (بريسكو) وبال والجولستات وليبزيغ . وانتقل التنافس الى الممالك الجنوبية فتولت سلالة اراغون وحدها تأسيس جامعات بربنيان وهويسكا وليريدا وفالنس . ويرد ذلك الى تعاظم الاثرة الاقليمية خلال القرن الخامس عشر : فهدف فيليب له بون الى تحرير دوله من وصاية باريس بتأسيس جامعة « دول » في السنة ١٤٣٢ (وقد نقلت الى بيزنسون في السنة ١٤٨١) وجامعة لوفان في السنة ١٤٢٥ ؛ واكره « رينيه دانجو » رعاياه البروفنسيين على الاختلاف الى آكس التي تأسست مدرستها في السنة ١٤٠٩ ؛ وفي السنة ١٤٦١ تأسست مدرسة في نانت عاصمة دوقية بريطانيا . وكان جواب الانكليز على تأسيس حكومة ولي العهد لجامعة بواتييه (١٤٢١) احداث جامعة في بوردو (١٤٤١) ؛ وكان الهدف من تأسيس جامعة كان (١٤٣٧) الحيلولة دون اختلاف النورمنديين، وهم لا يزالون خاضعين لملك انكلترا ، الى باريس التي استعادها شارل السابع . وفي ما وراء المانش كذلك ، كان طرد الارلنديين من اوكسفورد باعثاً لقيام « مكتب » « دوبلن » ، كما كان طرد السكتلنديين ، اثناء الانشقاق ، باعثاً لاحداث جامعة « سانت اندروز » وجامعتي غلاسكو (١٤٥٠) وابردين (١٤٩٥) من بعدها . وتوقف السكنديناڤيون انفسهم عن الاختلاف الى كولونيا وباريس حين توفر لهم التعليم في اوبسال (١٤٧٧) وكوبنهاغن (١٤٧٨)، لا بل ان الملك كريستيان الرابع سيعمد بعد ذلك الى منع رعاياه من التعلّم في الجامعات الاجنبية .

تأخر الدروس

بات عدد هذه المؤسسات مرتفعاً جداً : فتأخر بعضها او اقفل نهائياً . فاضطرت جامعتا بيزا وفلورنسا، في منتصف القرن الخامس عشر لان

لان تنصهرا في جامعة واحدة ، وانحط مستوى جامعات نابولي وافينيون وغرينوبل وبربنيان وغلاسكو ؛ وانضمت جامعة كاهور الى جامعة تولوز . وكان للظلامة التي رفعها الملافنة الباريسيون الى البابا في السنة ١٤٢٣ ما يبررها : « ان ما بقي منا مهدّد بالزوال النهائي بسبب احداث « المكاتب » الجديدة . واذا تارجح عدد الطلاب في المراكز الكبرى — باريس وبولونيا وسلمنكا — حول ٥٠٠٠ طالب ، فان طلاب اوكسفورد لم يتجاوزوا ال ٣٠٠٠ ، وربما لم يبلغ طلاب تولوز وفينّا وليبزيغ الـ ٢٠٠٠ ، ولم يختلف الى القسم الأكبر من الجامعات الاخرى سوى بعض المئات فقط . فأخذ العالم الجامعي يفقد حيويته بذوبانه تدريجياً .

اضف الى ذلك ان الاساتذة والطلاب ، باهمالهم المبدأين الاساسيين اللذين سلكوا بموجبهما حتى ذاك التاريخ ، اعني بهما دولية شؤون الفكر والاستقلال حيال السلطة السياسية ، قد عرضوا مستقبلهم لخطر كبير . فلم يكتف الامراء بابقاء جامعاتهم تحت وصايتهم المالية واكراه رعاياهم على الاختلاف اليها ، بل ادعوا اكثر من مرّة حق تعيين الاساتذة ومراقبة تصرفاتهم . فالحركة الويكليفية ، على الرغم من انها قمعت بسرعة ، قد اتاحت للملك انكلترا وضع اوكسفورد مرّة اخرى تحت السلطة الاسقفية ، وقد عين فيها هنري الرابع اول « استاذ ملكي » . وفي فرنسا نفسها ، وطن الحريات الجامعية ، باتت الاضرابات المدرسية دون جدوى . وكادت جامعة اورليان تقفل ابوابها في السنة ١٤٠٥ ، حين فقدت سندها الزمني . وما لبث البرلمان ، الذي لم ينقطع عن التدخل في شؤون المدارس ، ان اصبح في السنة ١٤٦١ مرجعها الرسمي الأعلى .

اضف الى ذلك ايضاً ان الجامعات ، التي تأثرت بالخلافات الدينية والتحاسد القومي وتدخلت في الامور السياسية ، كانت بذلك كمن يسعى لموته بنفسه . فبعد ان سادتها الاهواء الجماعية وحياة العصر ، باتت لسان حال الرأي العام ، كما تشهد بذلك امثلة براغ وباريس بنوع خاص . ففي براغ عجزت « اتفاقات الامم » ، التي اعلنت اكثر من مرّة دون جدوى ، عن وضع حدّ للمشاجرات بين الطلاب الالمان والطلاب السلافيين الذين أدّت بهم النوايا السيئة والمنافسات العنصرية واللغوية والاخلاقية الى التنافر والتعادي . وحين اعلن جان هوس ان الامة البوهيمية (بمعناها الجامعي) يجب ان تحكم الامم الاخرى ، توصل الى فوز التشيكيين ، في الجمعيات ، بثلاثة اصوات مقابل صوت واحد للالمان ، في حال ان اربعة اخماس الاساتذة كانوا من الالمان . فكان ذلك سبباً لرحيل هؤلاء الى ارفورت وهيدلبرغ ولا سيما الى ليبزيغ . وكان اختمار الافكار هذا مؤاتياً لتقبل آراء ويكليف ، وهو يفسر كيف ان المنازعة الهوسية نقلت جامعة براغ من الصعيد اللاهوتي الى المعترك السياسي .

اما النفوذ السريع الزوال الذي استعادته جامعة باريس في عهد شارل الخامس والدور الرئيسي الذي لعبته في حل عقدة الانشقاق ، فلا يخفيان الضرر العظيم الذي الحقته بها مناجزاتها في النطاق السياسي . فإن انتصارها لاكليمنضوس السابع كان سبباً لنزوح العديد من الاساتذة

والطلاب الاجانب الذين استهوتهم مراكز الدروس الجديدة في المنطقة « العمرانية » : كالبير دي ساكس ومارسيل دنجن كما سبق ورأينا . ثم ان مظاهر الانشقاق السياسية قد ارغمت الملكة على تحديد موقفها من الشؤون الانكليزية او الايطالية ومن المسألة الكنسية على السواء . وكان من سوء طالعها اخيراً ان الحرب الاهلية جاءت تجهز على ما تبقى من سمعتها . فلم يفلح « جان بتي » في اعلاء نفوذها بتطوعه للدفاع عن قاتل « لويس دورليان » دفاعاً لم يغتفره له جرسون قط ولم ينثن عن لومه عليه أمـــام الكلية وأمام مجمع كونستانس ايضاً . بيد ان الجامعة ، باكثريتها ، قد ساندت القضية البورغونية لانها رأت فيها نصرة لاصلاح الدولة ، ذلك الاصلاح الذي اعتقدت ان باستطاعتها فرضه في السنة ١٤١٣ بواسطة خطب « اوستاش دي بافيي » و « بنوا جنتليان » وبرضع القانون الكابوشي. اضف الى ذلك ان علائقها بالتمرد وقبولها بمعاهدة طروا وتخليها عن ولي العهد قد انتهت في داخلها الى ردود فعل متعاقبة وعمليات تطهير متوالية فقدت اعتبارها، في المرحلة الاخيرة من مراحل حرب المئة سنة ، بالموقف الذي وقفه اعضاؤها وبهبوط مستوى التعليم فيها .

جمود الناضج

وعت جامعة باريس هذا الهبوط وعزته الى سوء الحظ ومنافسة شقيقاتهـــا الصغرى ولها . وقد ادعت منذ زمن بعيد ايضاً ان الكهنة انما هجروها لان الكرسي الرسولي لم يحتفظ لهم برتبهم الكنسية التي تدر عليهم دخلاً . غير ان الهبوط مردّه في الواقع الى أسباب ابعد خطورة واعظم شمولاً : فالازمة الجامعية قد عمت الغرب باجمعه بسبب انحطاط المنهج والعقيدة والفكر .

ولم تكن جامعة اوكسفورد آخر جامعة تأثرت بهذا الهبوط . فقد فقدت في القرن الرابـــع عشر التقدم الذي حققته منذ روجيه بيكون في دراسة الطبيعة دراسة صحيحة ، مؤثرة العدول عنها بحكة الى المنطق السديد والدوران في حلقــة من السفسطة العقيمة . وكان ويكليف على صواب في تهكمه من زملائه الذين يبتكرون ، كما يقول ، مذهباً منطقياً جديداً كل عشرين سنة . اجل لقد استهدف علم الصرف والنحو النظري غاية حميدة هي تعبير دقيق عن مداليل واضحة : ولكن التمسك بالشكليات قد جفف التعبير واستنزف المداليل . ثم انتقل الداء الى جامعـــات البر الاوروبي التي تأثرت قبل ذلك بالاضطرابات البلدية في ايطاليا ، والحروب الاهلية في اسبانيا والمانيا وبوهيميا ، والحرب ضد الاجنبي والتنافس بين الاحزاب في فرنسا ، والخلافات الدينية في كل مكان . اخذ بيترارك على « مكتب » كولونيا جمود فلسفته المقلدة ، ولكنه شكا كذلك من ان بولونيا « تبدو وكأنها لم تعد بولونيا » ، وقيل بالاضافة الى ذلك انهـــا كانت في السنة ١٤١٦ ، على شفير « الانحلالـــا التام » . وكتب « انكا سيلفيو » في كلامه عن جامعة فينا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، « ان البيان والشعر شبه مجهولين تقريباً » . ولم تكن جامعـــة باريس افضل حالاً : فقد اعوزتها الكتب شأن الجامعات الاخرى ؛ وعمت الشكوى فيها من المشاجرات وعدم انتظام الدروس واهمال الاساتذة وتعطيل الطلاب ؛ اجل لم يكن كل هؤلاء

« فرنسوا فيون » ، ولكن الكسالى كانوا كثراً : فقد كتب شاهد عيان في القرن الرابع عشر « ان الذين ينسخون مادة دروسهم لا يتجاوزون العشرة بالمئة ؛ وان صفوتهم اولئك الذين لا يستفيدون من اية منحة ، والذين يتأخرون في دروسهم حالما يتحسن وضعهم المالي » . ولكن لا تسل عن الحجج حين تطرح امثلة لا طائل تحتها كهذه : « لماذا يكون الرهبان اكثر سمنة من باقي الناس » او « لماذا يصاب اليهود بالنزيف اكثر من المسيحيين » ؟

ان الاصلاح الذي نهض به الكردينال « دستوتفيل » لم يستطع ، على الرغم من فضله ، استئصال جذور داء عضال . فقد تعود الناس الشنشنة ورضوا بها ، وبدت الجامعات الفرنسية ، ولا سيا جامعة باريس ، على الرغم من احداث المنابر الجديدة فيها ، وكأنها مصابة بالشلل . ضمت كلية الفنون علماء واسعي الاطلاع ، ولكنها افتقرت ، منذ وفاة نقولا دي كلامنج في السنة ١٤٣٧ ، الى مفكرين مبتدعين ، وكانت كلية اللاهوت ابعد تأخراً ايضاً بعد ان فقدت اعلامها في عمليات التطهير – لا سيا عملية ابعاد الاوكهاميين في ايام الاحتلال الانكليزي – فباتت توزع علماً مهنياً نفعياً تقليدياً . ولم تهتم هذه الكلية وتلك للبحث العلمي بل تنكرتا لعلم اللغات والأدب القديم اللذين كانا بمثابة خشبة الخلاص « للكاتب » الايطالية . فما عادت هذه الجامعة « ذات الراسين» كما درج روبير « غاغين » على تسميتها، لترضي العقول المتميزة والنفوس التواقة الى التقدم . فبحث جان جرسون وبيير دايي وامثالها ، خارج انظمة المدرسة ، عن تفتح شخصياتهم . اضف الى ذلك ان المدارس الثانوية نفسها ، وكانت المبادهات في معظمها اقل تقييداً ، لم تنفتح قط على آفاق الفكر الجديدة . فلم تجهل مدرستا مونتيجو والسوربون علم اللغات فحسب ، بل الأدب والشعر والعلم الروحاني ايضاً . وقد بلغ من حياة الجامعات على هامش العالم المعاصر ان استطاع احدهم ، في معرض الكلام عنها ، كتابة ما يلي : « ان فقدان الانسجام بين عمل الجامعات التقليدي وتزايد نشاط العالم الخارجي يترك انطباعاً بان هنالك تناقضاً وصراعاً . ففي الوقت الذي تخمرت فيه العقول ، وتساءلت القلوب في عالم مضطرب عن معنى الحياة ، لم يكن لدى الجامعة من جواب سوى قياساتها المنطقية » .

٤ – اختمار الافكار والقلق الديني

ما هي الحقيقة ؟ ومن هما العالم والانسان ؟ لقد واجه القرنان الرابع عشر والخامس عشر هذه الاسئلة الازلية بقلق خاص . لقد تزاحمت فيها وتشابكت آراء جديدة ، هي مصادر الفكر المعاصر ، وخيال خلاق ، وكافة مظاهر الفكر العابس .

نزعات العصر

ان في قصة « الخواتم الثلاثة » التي كتبها بوكاس لوصفاً موجزاً للقلق الذي ساد ذاك العصر : ترك احد الآباء ، لابنائه الثلاثة ، ثلاثة خواتم متشابهة دون ان يعلن عن الاصلي الصحيح بينها ، فاعتقد كل من ابنائه بانه هو من يمتلك هذا

الخاتم الاصلي ؛ وهذه هي حال الديانات الثلاث، المسيحية واليهودية والاسلامية ؛ فالاب السماوي يعرف الفضل بينها ، بينما يعتقد كل واحد بانه يمارس الديانة الحقيقية . يتضح من ذلك ان بعض العقول انحرفت عن التآليفات الجامعية الكبرى وانتهت الى التسليم بحقيقة متعددة. ثم ان كراهية بيترارك لدانتي والسرور الذي شعر به في معارضته يكشفان القناع عن المضادة بين الجيلين . استطاع مؤلف « المهزلة الالهية » ان يوفق بين مذهب العقليين والمذهب الاوغسطيني وان يتصور امكانية وحدة العالم المسيحي في توزيع السلطات توزيعاً متعادلاً ؛ فسلك ، في موضوع رؤية الثالوث ، طريقاً كانت مراحلها الشعر والمحبة – التي تنقل النعمة – والاختطاف ؛ وكان مرشدوه في هذه الطريق فرجيل وبياتريس والقديس برناردوس . فهل كان ذلك منه انتحالاً لفلسفة القديس توما ام حكمة بشرية صرفة ومفهوماً علمانياً للمدينة ؟ لا بل ان فكر دانتي المرتكز الى اليقين بان العصور القديمة تكوّن جزءاً من مخطط العناية الالهية قد استعاد كال الانسان والتاريخ البشري السائر في طريقه نحو مصيره الواضح المعالم . اما قلق بيترارك ، وهو خاص بالقرون الوسطى دون منازع ، فيتصل بالتقليد الاوغسطيني : فالثقة المعقولة افسحت المجال لاقتضاض الوجود الذي لم يكن ليرضى بالتآليفات الكبرى . وكان الوقت قد فات حين الغت كلية اللاهوت البارِيسية الرقابة المفروضة على فلسفة القديس توما . ومرد ذلك الى ان العلم الفرنسيسي الموجه نحو اعادة النظر في المبادىء والمناهج والنتائج قد حال دون كل رجوع الى الوراء .

ان الفكر في القرن الرابع عشر قد اخذ يتطور في الواقع انطلاقاً من دونس سكوت لا من القديس توما . كان دونس خصماً للروحيين وابناً حقيقياً للقديس فرنسيس راغباً في اقصاء الفطرسة الوثنية عن الفكر ، فمال طبعاً من ثم الى ابعاد المذهب العقلي عن مفهومه للاله والعالم ؛ فأراه وحي الكتاب الهاً هو ارادة خلاقة وحرّة أكثر منه منظم عقلي للخليقة . لذلك فبينما لا يستطيع العقل الوضيع بلوغ الحقيقة الا عن طريق القياس المنطقي الأمينة ، يجب ان يكون البحث عن الله اندفاعاً ترشده المحبة . فمن جهة اذن بشّر ايثار المفاهيم الصريحة المتميزة بالتقدم العلمي والسعي وراء الدقة ؛ ومن جهة ثانية ، مهدت موجبات المحبة الطريق لازدهار صوفي يثير الاعجاب . ومهما يكن من الأمر ، فان انكار الاتفاق بين الايمان والعقل قد اعاد وضع كل الامور على بساط البحث – أسس المعرفة ونظام العالم ومفهوم الانسان والحياة – وفتح طرقاً متباعدة؛ فأرسى البعض فلسفتهم على العقل وحده واستكشف البعض الآخر مقتضيات الاختبار العلمي بينما اهتدى بعضهم ، من غير الصوفيين ، الى سر لاهوت أدبي في الفكر القديم . اجل تفاوتت هذه الطرق اخصاباً وفعالية ولكن الانسان التوّاق الى ادراك جوهره ومصيره قد سلكها كلها .

ان أتباع ابن رشد ، باهمالهم العمل العلمي الذي نهض به معاصروهم قد أوصدوا امامهم طريق المستقبل . فقد اضاع « جان دي جاندين » وقته في الدفاع عن « سيجر دي برابان » ، « خليفة ارسطو الممجّد » واكتفى بعلم الطبيعة الذي وضعه « الساجري » . اجل ان كتاب

« المدافع عن السلام » ، الذي اسهم فيه ، يحمل في متنه مبدأ اولوية المصلحة العليا التي سيصبح ميكافلي داعية لها . كما ان سخرية جاندين التي تخلو من الاحترام وانتقادات مارسيل البادواني اللاذعة تكاد لا تحجب الحاداً عميقاً ارغمتهم الاعراف الاجتماعية على اخفائه في بلاط افينيون نفسه حيث كان لهم بعض الاصدقاء . ولكن اللامبالاة الدينية في ايطاليا واسبانيا قد تخطتهم بتسترها وراء العلوم العربية ، مما أتاح للغرب الاهتداء الى نواح جديدة من المعارف القديمة .

اوكهام والنشاط العلمي

التقى جان دي جاندين ومارسيل البادواني ، في بلاط لويس دي بافير ، بغليوم اوكهام الذي كان له ولتلامذته الفضل الاول في انطلاقة التقدم العلمي . فكان لنجاح آرائهم في منتصف القرن الرابع عشر أثره الكبير في نكوص فلسفة القديس توما التي انكفأت عن باريس ووجدت لها في كولونيا مكاناً تلتجيء اليه . ان اوكهام ، الذي أبصر النور حوالي السنة ١٢٨٠ ، تلقى تعاليم دونس سكوت في الارجح ودرّس ، على غراره ، في اوكسفورد وباريس . وقد انسجم فكرياً ، في هذا « المكتب » الاخير ، مع دومينيكاني متحرر من فلسفة القديس توما هو دوران دي سان بورسين ، ومع فرنسيسي مثله هو بيير اوريول . وكان الجدال قد تجدد آنذاك بين مذهب الواقعية ومذهب الاسمية . فكان ان الفكرة ، التي ليست في نظر اوكهام ، وريث الاوكسونيين ، سوى مراس في حقل الاختبار ، او سوى انضاج العقل للتأثيرات التي تتلقاها الحواس او « هوى من أهواء النفس » ، قد لعبت في البرهنة دور تمثيل الأشياء التي تعبر عنها الكلمات . هذا هو سبب نسبية معرفتنا للواقع ؛ وهذا هو ايضاً سبب عجز علم ما وراء المادة واللاهوت العقلي . ويتضح من ثم ان بمكنة اللاهوت الموحى به وحده ان يرمم لنا مفهوم صفات الله ومفهوم الروح اللامادية ومفهوم السنّة الادبية . ولكن فن احكام البرهان ، بالمقابلة ، هو الشرط الواجب لكل نشاط عقلي .

على الرغم من حكم كلية باريس على المذهب الاوكهامي في السنتين ١٣٣٧ و ١٣٥٠ ، فانه قد احتل فيها مركز ممتازاً كان منطلقاً لاشعاعه . فقبل ان يتولى البير دي ساكس ومارسيل دلجن الاشراف على مصائر جامعتي فينا وهيدلبرغ الفتيتين ، تغذيا في باريس بأفكار « البادىء الكريم » الى جانب جان بوريدان و « نقولا اورسم » . وتكونت في اجتماعات الاوكهاميين السرية ، التي أشهرتها الكلية ، تقنية جديدة للمنطق غالباً ما انتهت الى طريق غير نافذة ، حين باتت الاسمية غاية بحد ذاتها ؛ فكانت النتيجة انزلاقاً فكرياً هو السبب الأساسي للأزمة الجامعية . ولكن الاوكهامية قد اتجهت شطر درس الظواهر الحسية ايضاً : اعتمدت الاسمية نهجاً واستندت الى الملاحظة والاختبار ، فغدت بذلك حافزاً مخصباً للتقدم العلمي . فعرفت الرياضيات والهندسة وعلم الآليات ، وعلم طبيعة الكرة الارضية والعلوم الطبيعية الاخرى ، آنذاك ، تعابيرها العصرية الاولى ، بينما أتاحت جهود الاسمية تعبيراً اوضح لمفاهيم أساسية هي مفاهيم العدد والمسافة والوقت : فكانت النتيجة تقدماً في علم الحاسبة والجغرافيا وصناعة الساعات .

ان اوكهام ، بزعزعته اركان مملكة ارسطو ، قد أثار التساؤل حول نظريته في العالم ايضاً . فلم تعد مركزية الارض عقيدة ايمانية ، واستُشِفت امكانية تعدد العوالم الذي سينادي بـه « نقولا دي كو » في الجيل التالي ، واكتشف بوريدان مبدأ سنة الجماد ، وأوضح اورسم سنّة النسبية بين سرعة سقوط الاجسام والوقت ، فكان ذلك مقدمة لأبحاث « نقولا دي كو » النظرية ولاكتشاف كوبرنيك . وانتشرت من جهة ثانية تعاليم ارخميدس بفضل نقـل نصوص ترجمتها العربية المعروفة في القرن الثالث عشر الى اللغة اللاتينية على يد جيرار دي كريمون ، فتأمن بذلك ، وبواسطة ألبرتي و «نقولا دي كو» اتصال تقليدها بـ « ليونار » . وعلى تحقيقات القرن الرابع عشر ايضاً ، لا سيا في نظرية البير دي ساكس حول انتقال مكان مركز الثقـل الارضي بفعل قرض القشرة الارضية وفقدان التوازن بين اليابسة ومياه البحار ، بنيت نظريات ليونار في الجيولوجيا والاحاثة . ودفع الاهتـداء الى بطليموس بالجغرافيا وعلم وضع الخرائط الى الامام ، في جنوى وبالما (في ماجورك) وفالنس ، كما تشهد بذلك مجموعة الخرائط المعروفة بالكاتالونية في « مكتبة » شارل الخامس . كان نقولا اورسم مستشاراً مسموع الكلمة لدى هذا الملك ، وعالماً يشار اليه بالبنان ، وغدا في فرنسا ، الى جانب بيير دايي ، احد واضعي اصول الجغرافيا الاولين : اجل ما زالت الجغرافيا آنذاك علماً اختبارياً ، بانتظار تحسين آلات الرصد الفلكي والخرائط الطوبوغرافية الموروثة عن العصور القديمـة والعرب . الا ان بعض النجاحات التقنية الاخرى تنم عن الرغبة في الدقـة لدى رجال العلم في ذاك العهد ، على الرغم من ان اضطرابات القرن الرابع عشر لم تكن لتشجع على الاكتشاف . فقـد ظهرت الساعات العامة الاولى في كان وبيزا وباريس في الوقت الذي ظهرت فيه ساعة « برج القصر » الشهيرة ، وقد حلقت المانيا في هذا المضار . وعرفت الهندسة المائيـة السدود ذات الابواب في الفلاندر ومستنقعات بواتو وسهل ميلانو منذ اواخر القرن الرابع عشر ، وصنعت مجارف الرمل الاولى في زيلندا بعد مرور ثلاثين سنة تقريباً ، وما لبث اكتشاف المنافخ المائية للأفران ان أعدّ وثبة الصناعة المعدنية الالمانية . وكان اختراع ذراع الدافعة ومقبض ادارة الآلة اخيراً ، في أوائل القرن الخامس عشر ، مقدمة لتحويل او اختراع عدد من الآلات : كدولاب المغزل والمضخة والخرطة .

وجاءت النظرية في الوقت نفسه تدعم تقدم الاختبارية ؛ فمنذ أواخر القرن الرابع عشر تعددت الأبحاث ، التي ترجمت عن المؤلفات القديمة او المعاصرة ، في ايطاليا الشمالية والمانيـا الرينانية والجنوبية ، حاملة أسماء قيصر *Kyeser* وفونتانا وسنّيني وماريانو وألبرتي . وهكذا ‹حضّر عصر ليونار الذي «لم يكن» ، كما كتب عنه بحق ، ذلك الجن الخيف والناقص المتميز عن عصره» . فبعد نقولا دي كو ، دخلت جذور تعاليمـه في قلب القرن الرابع عشر ، وما كان في الارجح ليفتح تلك الآفاق الغريبة امام العلم المعاصر لو لم ينتقل الفكر الغربي ، قبله بزمن طويل ، مـن

محاولة فهم جوهر العالم الى محاولة فهم ظواهره . ولعل ذلك اخصب ما حققته وأسهمت بـه الاوكهامية .

أما مظهرها الاخير ، ولعله الأهم في نظر اهل زمانه – اسلوبه الجدلي – فلم يؤدِّ الا لسفسطة عقيمة . وخيبت الاسمية الاوكهامية الآمال في النهاية، فكان مصير « الطريقة الجديدة » الاهمال في أواخر القرن الرابع عشر . فعاد « القدماء » ، من أتباع توما وسكوت ، الى الهجوم، لا سيا وان العقول والافئدة ، التي لم ترتض بالاسمية الجافة ، قد بحثت ، امام قسارة ذاك العصر ، عن موجب الحياة والامل اما في دراسة الادب القديم واما في الصوفية . وقد اقترن احتقار الواقع المعاصر ، في كلا الحالين ، باحساس مرهف جداً .

دراسة الادب القديم الاولى

كانت دراسة الادب القديم في البدء مجهوداً يستهدف الوصول الى مذهب أسمى من الواقعية الموضوعية المسيطرة آنذاك . اجـل ليس فرنسسكو دي بترار كو – بترارك – من يتقيد بمذهب معـين : اذ ان ابن محرر العقود الفلورنسي هذا قد نفر من الدروس الشرعية . استفاد من رتب كنسية وأكثر من التنقل ، فتجول بين مدينة واخرى مؤمناً معيشته بعطايا نصرائه المتعاقبين ؛ انتقل من توسكانا الى هولندا مروراً بباريس ، ومن اكس-لا-شابيل الى نابولي ، ومن رومـا الى مونبلييه وافينيون ، واختـار فوكلوز خلوة مفضلة . رافق القرن بكامله تقريباً (١٣٠٢ – ١٣٧٤) ، فحركه هوى : الادب اللاتيني ؛ وتسلط على عقله حلم: احياء القيصرية البابوية المسيحية وحطمته خيبة امل : المحبة التي لم تشاركه اياها لور. بيد ان الاكرام الذي كان موضوعه في الكابيتول (١٣٤١) والتملق الذي أحاطه به الجميع لم يسكّنا عذاب نفس شاعر متقلب المزاج . واذا هو تجنب الجدل وسفسطات أتباع ابن رشد، فان التأمل الباطني دون سواه كان له مدرسة حكمة، كما ان الادبار كان له خشبة الخلاص الوحيدة امام التشاؤم: فالفرح والألم لا شيء كلاهما . وقد عبرت مؤلفاته عن قلق رجل شاهد أثر الطاعون الكبير في فلورنسا . وحين لم يجد مؤلف « حياة العزلة » التهدئة المنشودة في عاطفة مسيحية على بعض الغموض ، التجأ الى القدماء . الا انه مقت ارسطو ، معلم اتبـاع ابن رشد؛ ولم يستخلص مثاليته الدينية من فلسفة افلاطون الا من خلال مؤلفات شيشرون او الاباء، وقد أعوزت مثاليته هذه الاسس الفلسفية والعلمية ؛ وقد بحث عن التعزية في العاطفة الـتي يتكلفها شيشرون وسينيكا . وكانت هذه كلها آفاقاً مقفلة بالنسبة لمعاصريه ، كما نرجح ، اذ ان تلاميذه قد شعروا بالقلق نفسه . فان بوكاس ، على الرغم من انـه ندم على كتابة « الايام العشرة » ، لم يتمكن ، في مؤلفاته الاخرى ، وعلى الرغم من ايمانه الكاثوليكي الصادق ، من ان يقدم لمعاصريه سوى علم اخلاقي وثني متحرر من كل مفهوم فائق الطبيعـة . لذلك لم تكن واقعيته مرشداً يفضل العلم الاخـلاقي الموضوعي الذي اقترحه جان دي مونغ على قراء الجزء الثاني من « قصة الوردة » .

على ان فرنسا ، على غرار ايطاليـا ، حظيت بمشاهدة ازدهار الادب الشيشروني الاول في

بلاط شارل السادس ، بفضل لوران دي بريميفكت وجان دي مونترويي وغوتييه كول ونقولا دي كلامنج. وكان مقدراً للجيل التالي، بفضل معرفة القدماء معرفـة افضل، ان يوسعوا الطريق التي شقها بيترارك وان يتوصلوا ، في السنة ١٤٠٠ ، الى تحقيق ما تاقت اليه نفسه تحقيقاً عظيماً. ولكن هذا الاتجاه ، التفاؤلي والواثق من النجاح ، يعبر عن الارتجافات الاولى للنهضة ويختص بايطاليا في الدرجة الاولى .

الصوفية

استمرت الاوغسطينية ، على الرغم من فقدان حظوتها مؤقتاً في الجامعات ، في تغذية تيار صوفي ليس حنين بيترارك اليها سوى انعكاس شاحب له ، بينا تآلف المذهب السكوتي معها تآلفاً تاماً اذ انه اراد ارساء خير ما في النشاط البشري على سعي الارادة، بفعل المحبة ، للامتثال للأوامر الالهيـــة . وتوصل معاصر سكوت ، الكاتالوني رامون لول ، المعروف « بالملفان الملهم » ، عن طريق مذهب عقلي خاص مبني على احد أشكال الادب القديم ومعرفة اللغات الشرقية والبرهان الحسابي ، الى السمو بالتـأمل الفرنسيسي نحو الذرى نفسها . فقليلة جداً هي المؤلفات التقويـــة التي اقبل القراء على مطالعتها اقبالهم على قراءة « الاسطورة الذهبية » للدومينيكاني يعقوب دي فوراجين او قصائد جاكوبوني دي تودي،وعرفت «زهيرات» القديس فرنسيس رواجاً قل نظيره منذ اوائل القرن الرابع عشر . وكان مقدراً للصوفيـــة ان تغذّي تياراً مزدوجاً ، في الجماهير — وهـــذا ما يفسر انحرافات ايمان قليل الاستنارة — وفي الاوساط المثقفة — وهذا ما يفسر غمّ النفوس المتشددة في ممارسة الفضائل الانجيلية .

وعرفت البقـــاء طيلة القرن الرابع عشر فلول شيع القرون السابقة : هرطقة الاطهار في لنغدوك وكورسيكا وبييمون ربوسنيا؛ وعاش الفالديون جماعات منعزلة في كل مكان تقريباً ، ولا سيا في اراغون ودوفينـــه وبييمون وحتى في بوهيميا حيث تم الاتصال بينهم وبين الهوسية ، ولكنهم برهنوا عن تصلب لم ينجح التفتيش ولا الحملات التأديبية في التغلب عليه . وبلغت حركة الروحيين منتهى نشاطها في عهد البابوات الثلاثة الاول في افينيون ؛ فقد ناهضوا الديريين دفاعاً عن مثل الفقر المطلق ، وكلفوا بالآفاق الجليانية الـــتي وسعها مفسرو « يواكيم دي فلورا » ، وتأثروا بتحريضات جمعية « الاخوة الصغار » المنشقة، فتناولوا بالانتقاد السلطة الكنسية والبابا الذي نعتوه « بالمسيح الدجّال » والبلاط الروماني الذي شُبه « ببابل » . وقـد حدث ما هو أسوأ من ذلك، اذ ان الوكيل العام للجمعية الفرنسيسية ، ميشال دي سيزينا ، كاد يجرّ الديريين أنفسهم الى حركة بيير دي كوربارا (١٣٢٨ — ١٣٣٠) الانشقاقية لانـــه عارض البابوية في المشادة حول فقر المسيح . ولكن « القانون » الفرنسيسي ، وهو أشد الزاماً من قانون الديريين مع انه يضارعه في احترام السلطة ، كان آخذاً في تجديد حرارة الاخوة الذي اصبح، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، رسالة برناردين دي سيان وجان دي كابيستران . وقد بلغ من قوة الاندفاع نحو الزهد انه اخذ يزهر في كل الاتجاهات .

كانت ريتانيا وهولندا ، الى جانب المناطق الجنوبية ، اعظم مراكز الصوفية حيوية . فان جاذب الاختلاء والتقشف قد وجّه الدعوات نحو الجمعيات التي حافظت على حرارتها النسكية والتكفيرية او استعادتها . فلم يعرف البندكتيون والمتسولون ، بعد ذلك ، بالنجاح الذي عرفته أشد الجمعيات صرامة أعني بها جمعية الشارتريين : فالى الـ ٣٧ والـ ٣٤ فرعاً التي أسسها هؤلاء في هولندا خلال القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، اضيف في القرنـين التاليين ١١٠ و ٤٥ فرعاً جديداً . ويفسر جاذب الفقر النجاحات التي أحرزها القانون الفرنسيسي ، ونجاح ريمون دي كابو في المحافظة على وحدة الاخوة الوعاظ عن طريق اصلاحهم ، واصلاح جمعية القديسة كلير على يد كوليت دي كوربي في اوائل القرن الخامس عشر . ولم تكن حياة العزلة اقل جاذباً، كما يشهد بذلك تكاثر النساك والمتعزلين عن الناس : فليس من دير او مدينة دون زاهد ناسك يختلي في صومعة قريبة من كنيسة او مقبرة . هكذا عاش في السنة ١٤٢٩ ، في مستودع عظام الابرياء في باريس ، الاخ ريشار الذي لم يظهر الا في الساعات الخطيرة ، حاثاً المؤمنين المشدوهين على التوبة منذ الفجر حتى المساء . وهكذا عاشت ايضـاً السيدة جوليان النورويشية التي اشركت في الحياة الصوفية ، حوالي السنـة ١٤١٣ ، احدى سيدات لنّ ، مارجري كمب ، واضعة اغرب مؤلف انتجه الادب الانكليزي بما تضمنه من تنبؤات ومناجيات صوفية .

افضت الاخوة الدينية الى قيام جمعيات وجماعات كثيرة صعب على الكنيسة ان تلمس فيها دلائل العقيدة القويمـة . هذه كانت حال الرجال المتسولين والنساء العائشات في الاديرة : فقد اتهمت بعض جماعاتهم بالهرطقة الالبية ؛ وقد اطلق ، في عهد لاحق ، لقب « لولار » (كاهن فاجر) على بعض المتجولين من هؤلاء المتسولين ، قبل ان يطلق على اتباع الويلكيفية . الا ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة الذين الزموا، في حياتهم المشتركة، بممارسة الفضائل المسيحية، لم يكونوا متهمين كلهم . فقد كان لزاما على كل امرأة من هؤلاء النسوة ان تقضي سنة ابتداء وتمضي ست سنوات في الحياة المشتركة وتبلغ الثلاثين قبل ان تعيش في احد المساكن الفردية التي تميز هذه الحركة ؛ وكانت تخضع في حياتها الاخيرة هذه لرئيسة عامة هي « السيدة الكبرى » . اضف الى ذلك ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء خضعوا تدريجياً لنظام متشابه ، اعني به نظام العاملين الخاضعين للقانون الرهباني او نظام القديس اوغسطينوس . فيجب من ثم ان نميز بينهم وبين « الجالدين » الذين اتوا غرائب لم يتعرف اليها طقس او قانون او كهنوت .

آوت مناطق بال وستراسبورغ ، على صعيد يختلف كل الاختلاف عما ذكرنا ، ندوات من المثقفين ، « العلمانيين الاتقياء » ، والكهنة والرهبان المتعزلين الذين اجتمعوا طوعاً هادفين الى تحقيق تقدم روحي جماعي . عاش «اصدقاء الرب» هؤلاء، الذين اشتهرت بهم المقاطعات الرينانية، في ظل بعض الرجال البالغين في الطريق الصوفيـة شأوا بعيداً . نذكر بين هؤلاء راهبـاً دومينيكانياً مشهوراً هو المعلم جان اكهارت الذي انهى في السنة ١٣٢٧ ، في «مكتب» كولونيا، العمل الذي بدأه في باريس ؛ توفي قبل ان يرغم على تقديم خضوعه ، المضمون سلفاً ، واقترح

صوفية ميتافيزيقية ، ولكن الاتحاد بالله الذي صبت اليه نفسه اصطبغ بمذهب الوهمية الكون . وبين تلاميذه ، برهن جان ترلو (المتوفى في السنة ١٣٦١) عن انـه غير بعيد ، ولو بمزيد من التحفظ ، عن تفكير معلمه ؛ وارتدت الصوفية ، مع هنري سوز (المتوفى في السنة ١٣٦٦) ، طابع الجيل الشخصي والعاطفي حيث تحتل العذراء ، عنـد اقدام الصليب ، المكان الرئيسي وحيث يشع كمال النفس ، التي توصلت في الالم الى الاتحاد الالهي ، باعمال البر والمحبة .

وقد سعى وراء هذا الاتحاد بالله ، عن طريق الزهد ، اناس كثيرون في هولندا ، ارض التصوف المختارة : جيرار غروت و « دي دفنتر » في غنت ، وجان رويسبروك في بروكسل . بفضل غيرة الاول تأسست جمعية اخوة واخوات الحياة المشتركة التي مارس اعضاؤها ، على الرغم من حياتهم الجماعية ، العمل الرسولي ونشر الكتب التقوية ؛ ويجب ان نعزو لهذه الجمعية النجاح المنقطع النظير الذي عرفه كتاب « الاقتداء بالمسيح » المنسوب الى توما دي كمبن . وحارب رويسبروك من جهته ، وهو مؤلف « الاعراس الروحية » ، نزعة الاكهارتية التجرّدية وعاد الى القول باسهام الروح اسهاماً ناشطاً في تلبيتها دعوة النعمة الالهية .

وتوصل بيير دايي الى رأي آخر ، منبثق عن ريشار دي سان فكتور والقديس برناردوس ، مؤداه ان التأمل وحده قمين بأن يسدّ مسدّ الحدود العقلية في مذهب اوكهام ويطلع النفس على أسرار الوحي . وسلك تلميذه جرسون السبيل الذي يؤدي من « الطريقة العصرية » الى « التقوى العصرية » . كان عميد « سان ـ دوناسيان » في بروج وعرف الصوفيين الفلمنكيين الذي شغلوا منه الفكر في البداية ؛ ولكنه بحث ، بوصفه جامعياً وعالماً بالآداب القديمة وطرفاً في مناقشات زمانه ، عن طريق مشتركة للحياة الروحية يوفق بها بين النظرية والصوفية ويتجنب الاخطار التي ركبها اكهارت والجسارات التي عابها على رويسبروك . فقال بزهد يناوب عن العقل المجرد ويلقن النفس سرّ الوجود الالهي فتستسلم للانخطاف بقوة النعمة . ومن بعده وصف راهبان شارتريان ، هما لودولف ودنيس ، درجات نعمة الصلاة : فتأمن من ثم ، عن طريق القرن الخامس عشر ، الاتصال بكبار متصوفي القرن السادس عشر .

التقوى

آل « الهيام بالصليب » الى السمو بالصوفيين نحو رفعة الكمال قبل القديسة تريزيا والقديس جان دي لاكروا بقرنين كاملين . احتفظ جرسون طيلة حياته باحدى ذكريات طفولته : ابوه يسند ظهره الى الحائط شابكاً يديه بشكل صليب وقائلاً له : « هكذا ، يا بني صلب الاله الذي خلقك وخلّصك » . واشركت كاترين دي سيان بآلام المسيح قربان آلام صحتها المنهارة ؛ وشعرت كوليت دي كوربي يوماً ، في ساعة آلام المسيح ، بآلام جسدية حادة جداً . واحتل آنذاك المركز الاول في الممارسات التقوية التعبد للدم المقدس والجراح المقدسة وكلمات يسوع السبع على الصليب ؛ وكانت « ساعة الآلام » تستهل « درب الصليب » الذي لم يحدّد عدد مراحله بعد . وقـد آثروا آنذاك إحكام التأمل في يسوع مسيحاً متألماً على احكام

التأمل فيه قائماً من بين الاموات ظافراً . ولا ريب في ان التعبد القرباني ، الذي أقرّ في القرن الثالث عشر ، باقامة عيد خاص للقربان المقدس ، قد انتشر انتشاراً مطرداً ؛ ومهما يكن من جهلنا للطقس الديني الذي رافق تناول القربان ، فيبدو ان هذا التناول قد بات اقل ندرة : فقد نصح الى راهبات مسلشفى المخلص في ليل في اواخر القرن الرابع عشر بتناول القربان اربعين مرة بعد ان كان عدد التناولات المفروضة ستة فقط بحكم قانونهن . ولكن عبادة القربان المقدم للمؤمنين في معرض مشع كالشمس قد أعاد الى الكثيرين منهم ذكرى السهرة في بستان الزيتون بالتفضيل على ذكرى التجلي في جبل طابور . وبحركة اجماعية ، اضافت النفوس القلقة ، الى تكريم العذراء الام التي عبّر ممثّالو القرن الرابع عشر عن نضارتها الطاهرة بتأثير عقيدة نشرها دونس سكوت في فرنسا ، الشعور مع عذراء الآلام التي توصلوا الى رفع عددها الى مئة وخمسين قبل ان يحددوه بسبعة . وام الآلام هذه ، التي اوحت موضوع تمثال « التقوى » ، هي الوسيطة الطبيعية للانسان : فانتشر استعمال المسبحة الوردية في القرن الخامس عشر بفضل الدومينيكاني البريطاني الين دي لاروش .

وبرز الموت اخيراً ، وهو ما اقض مضاجع الناس في تلك الايام المضطربة ، بمظهر الفساد الذي يرافقه . فان « التمثال المرتعد » الذي نصب للكردينال « دي لاغرانج » على قبره في كنيسة السيدة في افينيون يمثل الميت « جثة عارية من اللحم ، شعثة الراس ، غائرة العينين ، بارزة الحرقدة » ، وتستخلص منها الكتابة المحفورة على القبر هذا الدرس : « انما نحن هباء وجثة نتنة وغذام وطعام للديدان . وانت سوف تصبح مثلنا هباء » . وتبارى الوعاظ ، رغبة منهم في الحث على التوبة ، في تحليل تفاصيل آلام المسيح ، اذ ان موهبة الدموع ، بمجرد التفكير بالخطيئة ، لم تكن وقفاً على الصوفيين: فقد توجب على هؤلاء ، اذا ما استندنا الى النصائح المعطاة لأخوة الحياة المشتركة او الى دنيس الشارتري ، ان يمارسوا تمارينهم التقوية في الخفاء ، بينما حذر جرسون هواة التأثر والصوم والاماتة بتذكيرهم ان الغلو في التوبة هو فخ من فخاخ ابليس .

لم تكن الحاجة الى ابليس في الواقع اقل منها الى القديسين في الديانة الشعبية ، ولذلك فهو قد احتل في تعبد الجماهير مكاناً متعاظم الاهمية . ولما كان كهنة الخورنيات أنفسهم متميزين في الغالب بجهلهم المطبق ، على الرغم من ارتفاع نسبة خريجي الجامعات بينهم ، ومسؤولين عن عائلات كبيرة ، وكثيرين جداً على كل حال ، فقد برهنوا عن عجزهم عن وضع حد لهذه الغرابات ، هذا حين لم يسهموا فيها بأنفسهم . وتظهر لنا الانظمة المجمعية وسجلات الزيارات ان الوضع المادي في طبقات الكهنوت الدنيا لم يتحسن قط بل سار من سيء الى أسوأ بفعل مصائب العصر ؛ وفي ما كتبه نقولا دي كلامنج عن انهيار الكنيسة الدليل الصادق على ما أثاره فيه هذا الوضع من سخط ووجوم . واذا اتاح تقدم التعليم في الطبقات الوسطى ، حوالي اواخر القرن الرابع عشر ، انتشاراً اعظم اتساعاً للمؤلفات التقوية (كتب الساعات ، وكتب التعليم المسيحي ، وكتب تفسير القداس وكتب الصلاة) ، فان جمهور المؤمنين لم يستفد من هذا الانتشار . ومهما

يكن من الامر ، فان تسلّط فكرة الشيطان هو دونما ريب احدى ميزات ذاك العهد واطولها بقاء لانها ، على الرغم من الاصلاح ، ستستمر حتى القرن السابع عشر نفسه . فقد اعتقد الناس كلهم آنذاك بالسحر وشراب العشق والرقية ومقاسمة الشيطان ، اما رغبة منهم في تعاطيها واما سعياً وراء فضح من يتعاطونها ومطاردتهم ؛ وليس اسهل ، في سبيل النيل من عدو ، من اتهامه بالرقية والسحر .

ليس من عجب ، في مثل هذه الظروف ، اذا ما ضلت الجماعات طريق التقوى الحقيقية . ولنا على ذلك شواهد كثيرة ذات اهمية . فقد ازدادت حدة الحقد على اليهودي مدنس القربان بازدياد عدد « المعجزات القربانية » التي ظهرت اولاها في باريس في السنة ١٢٩٠ ، ثم انتشرت في فرنسا الشمالية وهولندا ، ودامت حتى الثورة التي استهدفت افناء اليهود في بروكسل في السنة ١٣٧٠ . وقد سبق لنا وذكرنا تجاوزات الحركة المعادية للعنصر السامي التي دفع اليها انتشار وباء الطاعون في السنة ١٣٤٨ والتي لم ينج منها اليهود المطاردون بكراهية الا بالالتجاء الى الاراضي البابوية . واجتابت المانيا الغربية والجنوبية في آن واحد زمر « الجسالدين » ، العراة حتى الزنار الذين يؤلفون دائرة ويقومون بحركاتهم الاحتفالية التي تتعاقب فيها ، تعاقباً مطرداً ، السجدات والابتهالات والجلدات المتبادلة بواسطة سيور جلدية مثقلة بالحديد . وكان من شأن التبشير الشعبي ، الذي مارسه حكماء قديسون من امثال « فنسان فريبه » ومصلحون اجتماعيون او كهنة ضالون على السواء ، ان يفضي الى كل حركة مفاجئة : فلنفكر هنا بـ « جون بول » كاهن كنْت المعتوه » الذي اثار ، في السنة ١٣٨١ ، فلاحي انكلترا على اسيادهم ، او بجماهير المناطق الشمالية التي طاردت ، في السنة ١٤٢٨ ، سيدات طبقة الاشراف كيفما ، تلبية لنداء المدعو توما كونكت : « الى الطنطور ! الى الطنطور ! » .

المرطقات الجديدة

ولكن شتان بين هذه الحركات الفوضوية وبين الهرطقات التي انتشرت ، في آن واحد تقريباً ، في انكلترا وبوهيميا والتي كانت في البدء تيارات فكرية جامعية قبل ان تنتهي الى الشعب بصورة مبسطة تتشابك فيها نزعات قومية واجتماعية أحياناً . فالنقد العقلي للعقائد ، سواء في الويكليفية او الهوسية ، قد رافقته الرغبة في تجديد الكنيسة اخلاقياً والعودة الى الصراحة الانجيلية ، وأدى الى رفض السلطات الكنسية وبعض الطقوس – أسرار وعبادات – التي كانت في نظرهم عيب كنيسة غارقة في الزمنيات وطامعة بالخيرات المادية .

دأب جون ويكليف ، في كليات اوكسفورد التي أقصت الاوغسطينية الفرنسيسية عنها الاسمية الاوكهامية ، كما في مجلس الملك الذي استخدمه منذ السنة ١٣٧٤ حتى السنة ١٣٧٨ خبيراً في خلافاته مع البابوية او الاساقفة ، على تحديد السلطة المدنية والكنسية على السواء ؛ ولم يلبث منطقه الحاقد ان قاده الى انتقاد السلطات الكنسية ، والى حدود حرية الارادة نفسها . فنجم عن تساوي السلطتين ، اللتين لا يسمح بممارستها الا لمن هم في حال النعمة ، حق الامراء في ان

ينتزعوا من رجال الدين الممتلكات التي حوّلها فساد الكنيسة عن غاية تخصيصها الاولى . اقيمت عليه دعوى كنسية اوقفت مرتين وانتهت ، غداة الانشقاق الكبير ، بتوبيخ أسقفي بسيط لا بالحكم الذي تمناه غريغوريوس الحادي عشر . ثم أقصي عن اوكسفورد حين دب الخلاف بينه وبين المسؤولين حول سر القربان ، وشجعه مشهد الشقاق فبلغ منه ان قال بكنيسة روحية فحسب ، لا باباً ولا كرادلة ولا أساقفة فيها ، تقتصر سلطة كهنتها ، المتساوين صلاحية وفقراً ، على التبشير والوعظ فقط . وأرسى الحياة الدينية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، وقد طلب ، تمهيداً لذلك ، نقله الى اللغة الانكليزية . فلا فائدة بالتالي من التضرع الى العذراء والقديسين والحج الى الأماكن المقدسة واللجوء الى الغفرانات ، وحتى الى الاعتراف بالخطايا : فوثبات الضمير المستقيم هي التي تحل الخاطىء من خطاياه ، والمسيح يستطيع ، بفضل علم سابق يقارب القضاء السابق منذ الازل ، التعرف الى خاصته . وأنكر تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر القربان ونظر الى الاسرار نظرته الى مجرد رموز .

استؤصلت الهرطقة الويكليفية بسرعة من الاوساط الجامعية ، وحتى قبل موت ويكليف نفسه (١٣٨٤) ، ولكنها انتشرت بظاهر تقوي ، معاد للسلطات الكنسية والطقوس ، في أوساط محدودة من الفلاحين او الصناعيين المدنيين الذين كانوا في بعض الظروف عوناً للأشراف الريفيين على رجال الدين. اجل لقد أتاح تضامن الاساقفة والحكومة الملكية حصر هذا الانتشار . ولكن مجمع كونستانس ، الذي صدّق الحكم على الويكليفية ، قد أمر بإبعاد فلول الهراطقة الى خارج الاراضي المسيحية : فقد علق آباء المجمع الآمال ، بتسوية الشقاق ، على تنظيف حقلين من حقول العالم المسيحي نبت فيهما الزؤان حديثاً .

ساعد الوضع الاجتماعي ، والاحتكاكات العنصرية واللغوية ، وتجاوزات الكنيسة القائمة ، كذلك ، على انتشار الهرطقة في بوهيميا ايضاً. كان تأثير ميلك دي كرومريز ولا سيا توما دي ستيتني قد اوصل تلميذهما جان هوس الى تخوم الايمان القويم ، ولكن سعيه وراء صوفية قادرة على ان تعيض من عبوس الاسمية ، قد أعده لأن يتقبل من اوكسفورد ، قبيل السنة ١٤٠٠ ، وبواسطة جيروم دي براغ ، تعاليم ويكليف الجديدة . لم يكترث المعلم البراغي عندئذ بالاحكام الأسقفية والامبراطورية والبابوية ، بل جاهر بآرائه وانتقاداته . وفي هذه الأثناء اضطر أسقف براغ ، زبينك التشيكي ، الذي ساند هوس ، الى الاستقالة من منصبه ، فزاد بذلك انتشار الهرطقة : ونقل الكتاب المقدس الى اللغة التشيكية ؛ وللدلالة على الاستقلال ، عاد المؤمنون الى تناول جسد الرب تحت اعراض الخبز والخمر معاً ، ودرج هوس على القول انه يستأنف دعواه، على البابا يوحنا الثالث والعشرين[1] الذي حكم عليه، الى رئيس الكنيسة الاوحد، يسوع . حوكم امام المجمع وحكم عليه دونما التفات الى الفسح الامبراطوري ، فأذل وأحرق مع جيروم دي براغ في كونستانس في السنة ١٤١٥ . انه لحكم قاس أدى الى الثورة الهوسية التي

---

(١) اقيل هذا البابا واعتبر غير شرعي . وهذا ما يفسر ورود اسم البابا يوحنا الثالث والعشرين في عصرنا هذا . « هيئة الترجمة »

يصعب مع تشابك بواعثها الاجتماعية والاقتصادية والقومية تحديد خطوطها الدينية البحتة . الا انها افضت ، بما أتاه « الطابوريون » من اعمال بطولة عنيفة انتصروا فيها تكراراً على « الحملات الصليبية » الامبراطورية والبابوية الموجهة ضدهم، الى نظام جمهوري دان بالتساوي بين الفلاحين، الجنود، الخاضعين لسلطة فرسان تشيكيين متحمسين، الذين جمع بينهم كلهم حرص على الصراحة التقوية ينبيء ببعض مظاهر « الصعاليك » في القرن السادس عشر او « الرؤوس المدورة » في القرن السابع عشر .

٥ ـ التصنع في التعبير الادبي والجمالي

قلق الوجود والتوق الى حياة فضلى : ان كافة الارتيابات والمتناقضات التي تميز الفكر الفلسفي والحياة الدينية، تبرز ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في التعبير عن الحياة الاجتماعية وفي مظاهر الفن على السواء . فقد اثير نقاش بين المحسوسات والمعقولات ، وبين البداهة والتصنع ، وبين الفظاظة والشعور الرقيق ، لم تسمح اية نزعة باستشفاف جواب جازم بصدده .

متناقضات الحياة الادبية

ليس عسيراً علينا ان نرسم ، بواسطة المحفوظات القضائية ومؤلفات مهذبي الاخلاق المتزمّتين — في وقت ازدهر فيه لونا «الاحلام» و « المراثي » — لوحة قاتمة السواد لاخلاق المجتمع المسيحي في عهد الطاعون والحرب اللذين طال امرهما في هذه البلاد او تلك . فهل نحن امام مجتمع « مختل التوازن » ، فقد كل رزانة في التظاهر بالرذيلة والبهيمية ، وقارب الجنون في اغلب الاحيان ، وانتقل ، دون تحول ، من الجريمة الوقحه الى دموع التوبة ، وتباهى احياناً بقبائحه واستنشق بلذة رائحة الجثث النتنة ؟ ان خطوطاً كثيرة في هذه الصورة الخيالية المفجعة حينا والبطولية حيناً آخر ، ترد الى الوهم الذي يولده فينا النظر الى الاشياء البعيدة. فان نجاحات الروح العلمانية والطبقة البورجوازية من جهة قد انمت ، كما سبق واشرنا الى ذلك ، الميل الى الهجو الاجتماعي وحرية كبرى في التعبير وواقعية لا تعقدها الاصطلاحات ، واشتدت المضادة من جهة ثانية بين الاخلاق التي لم تزل فظة والتفخم المتزايد لدى الطبقات العليا ، فبرزت من ثم المتناقضات الاخلاقية بمزيد من القوة .

لم يكن الناس في القرن الرابع عشر ليهتموا لمباهجات حياتهم القصيرة وغير المستقرة اجمالا او ليحترموها عند الآخرين. فهل في تدشين اول مستشفى للمجانين في همبورغ، في السنة ١٣٧٥ ، دليل على تفاقم الامراض العقلية يا ترى ؟ مهما يكن من الامر ، فان بلاطاً واحداً لم يخل من مجانينه واقزامه ؛ وليس من عيد شعبي الا وكان لهم فيه الدور الاول ، وقد احصاهم الناس في عداد الوحوش الغريبة . ولم يستطع الملوك والعظماء، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم منذ قرون، الاعتدال في ميولهم الفظة : فان سورات الغضب الشديد عند جان له بون الابي او ادوارد الثالث

البشوس ، وعوارض الهيجان عند فيليب له بون الذي كان يسكّنها بالسير على الحصان حتى النهكة في غابة « سوان »، ونوبات « السويداء » عند « الجسور » ، تتجدّد عند كل من لم تدفعه حياته ، الحربية حينا والمتفخلة حيناً آخر ، الى مراقبة اهوائه . وقد اعترف فرواسار ، على الرغم من اعجابه الاعمى بطبقة الفرسان ، بان « اكابر الامراء واكابر الاسياد . . . ما كانوا ليتميزا عن البهائم لولا وجود الاكليروس » . وان في جاذب علوم السحر والتنجيم التي اسهم في نشرها رجال الدين انفسهم بسبب ميلهم الطبيعي الى التشكي من داء لمسوه في كل مكان ، لدليلاً على ان الناس قد حاولوا في الاوقات العصيبة استمالة كافة القوى الفائقة الطبيعة او الجهنمية اليهم : فهنري دي ترنستامار لم يقدم على عمل شيء دون استشارة ساحره الطليطلي الذي ادعى استحضار الموتى ؛ وروي عن غاستون – فيبوس ، كونت فوا، ان روحاً مؤالفة كانت تشعره بالاحداث ساعة حصولها بالضبط . وان في استصواب رجل متزن كجرسون وضع دراسة لتحويل شقيقاته عن تعاسات الحياة الزوجية لصدىً للتقليد الرهباني القديم الذي استرذل الفعل الجنسي واحتجاجاً على الفجور والضلال اللذين شاهدهما بأم عينه . واستند مهذبو الاخلاق الى هذه الافراطات في اصدار حكم مطلق على العصر بكامله ، ابتداء من القصة الهجائية التي اتهمت كافة المعاصرين بتعضية وقتهم في تمسيح فوفيل – الحمار الاحمر الذي كان يرمز الى مجموع الرذائل كلها – حتى الشاعر اوستاش ديشان الذي لعن

« زمنه الكلي الرجاجسة والبهتان
وعصره المليء بالكذب والغطرسة والحسد »

وقد زادت في تشاؤمهم رؤيتهم للأهواء الجماعية التي كانت الجماهير المدنية سريعة التأثر بها، فتذرف الدموع سخية عند سماع المواعظ وتقبل على تناول الاسرار بحرارة وتطرد بنات الهوى تلبية لدعوة مبشر – وقد تتساهل معهن في اليوم التالي – او تقوم « باهتزازات » دامية تشرك فيها الكائنات السماوية اشراكاً غريباً : ففي أثناء مذابح الحرب الاهلية ، في السنتين ١٤١٣ و ١٤١٨ ، وضع المهيّجون الباريسيون القبعة البورغونية الصغيرة على رأس تماثيل قديسيهم . اضف الى ذلك ان اللهو الشعبي غالباً ما تميّز بفظاظة مثيرة كمشهد تنفيذ الاحكام بالموت الذي كانوا يستطيبون التمادي فيه ، وكالمبارزة التي جرت في باريس نفسها بين عميان تضاربوا بالعصي حتى الموت . وكان لكل مدينة لصوصها الذين يسيطرون على الشوارع المظلمة ليلاً : فقد ألّف هؤلاء اللصوص ، في باريس نفسها ايضا، « مملكة الصعاليك » التي اطلق فيها اسم « الصعاليك الاحرار » على من يرفض منهم الاسهام في تحمل الاعباء المشتركة . ثم جاءت الحرب فأخرجت زمر اللصوص وقطاع الطرق والقتلة هذه من اغواطها ؛ وبلغ من « صعاليك » القرن الخامس عشر ان حملوا شارة حجاج سان – جاك نفسها .

اذا كانت الاهواء عنيفة واذا شجعت مصاعب الحياة القلقة على جمع الثروة بأسرع السبل – كان جباة الضرائب والصيارفة والتجار اول المبادرين الى هذا الجمع وقد اتهموا بالغش وسرقة

أموال الدولة عموماً – فهل يجيز لنا ذلك تجاهل « البورجوازي الشريف » و «الفلاح المسكين» اللذين لا نعلم بوجودهما الا حين يأتيان عملاً يؤاخذان عليه فيلتمسان، بذرف الدموع ، براءات الغفران ؟ هنالك طريقتان امام الانسان للحكم على عصره : اما الحكم عليه حكماً مبرماً كما يفعل مهذبو الاخلاق والمجاوزون ، واما الارتضاء به بسلامة قلب ، دون تجاهل علاته ، واتباع اخلاق منتصفة ترفض كل تجاوز وافراط وتفسح للذة والمنفعة مكانتها . تتمثل الطريقة الاولى ، في انكلترا، بنقد لنغلاند الاجتماعي الذي استوحى المواعظ الشعبية في رؤيا « بيرس بلومن ». وتتمثل الثانية بسخرية شوسر الباسمة في كتابه « قصص من كنتربري » الذي ينم عن ذوق شامل واحترام للأعراف الاجتماعية .

الفروسية وأدب المجاملة

لا ريب في ان مثل الفروسية أرسخ هذه الاعراف تأصلاً في طبقة النبلاء مع ان تجدد العائلة المنتمية اليها أسرع حصولاً منه في السابق. وهو ما زال مرتكزاً الى الفضيلة الرجولية التي تقاس بتمجيد الاقدام والنجاح الشخصيين؛ وليس نصيب الفارس منها ، في سعيه وراء البطولات ، دون نصيب البورجوازي في صراعه لجمع الثروة . وان في ما اطلقت عليه ايطاليا اسم الفضيلة (*Virtù*) محاولة لتعظيم الحزم وطول الاناة والسيطرة على النفس : وانما هي زهد بشري أكثر منه مسيحي فيه تتمادى خشونة القرون الوسطى ، وتتراءى أناقة النهضة ، ويبحث الرجل الشريف والرجل الصالح احدهما عن الآخر دون ان يتلاقيا بعد .

الا ان من واجبنا القول بأن الفروسية والمجاملة ، بفرض الزاماتها فرضاً مطرد الشدة ، قد برهنتا عن عجزهما عن عكس أنظمة المجتمع الجديـدة ؛ فكانتا من ثم مثلاً مصطنعاً اصطبغ بالتكلف الادبي وتخثر في الخيال الوهمي ، حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يرغبوا بتشويه فضائل الفروسية وطالبوا باحترام دستورها .

ما فتئت المرأة ، وفقاً لمثل المجاملة ، تملي التصرفات الشريفة ، ولكن هذه التصرفات قد ارتدت طابعاً آخر . فاذا كانت لور ، بالنسبة لبترارك ، « سيدة روحانيته » ، فان الفارس ينهل وحي بطولاته من « سيدة أفكاره » . فقد قال والد « جاك دي لالين » لابنه : « قليلون هم النبلاء الذين بلغوا فضيلة البطولة السامية دون ان يلهجوا بسيدة او آنسة » . من اجلها تقسم الايمان الصعبة او الغريبة احياناً ؛ فقد أقسم مرافقو ادوارد الثالث من الجنود لسيداتهم ، في السنة ١٣٣٧ ، بأنهم سيحجبون احدى عينيهم بقطعة نسيج سوداء الى ان يأتوا مأثرة كبرى . والفارس التائه انما ينتظر من « سيدته » ، في البلاط نفسه او أثناء الخدمة العسكرية ، مكافأة بطولاته البعيدة الكثيرة ، عند انتهاء مصائبه ومحنه . ولم ينتقد انطوان دي لاسال هذه العادات قط في كتابه « جهان دي سانتري الصغير » الذي ألفه لابن الملك « رنيه » ، بل بقي أميناً « للعصر السالف النبيل » ؛ وعلى غرار جهان ، تذكر « جاك دي لالين » ، الذي كان مثلاً حياً في تشرده البطولي ، دروس « سيدة بنات الاعمام الحسناوات » ؛ فقـد تمكن من استمالة قلوب

الاميرات بهداياه واستطاع في أحـد الايام دخول ميدان المعركة حاملاً في أعلى خوذته خماراً مطرزاً بالجواهر ، وفي معصمه اسواراً ، كانا كلاهما شهادة باعجاب المعجبات بــه . وغدت الالوان والشعائر رموزاً متفقاً عليها للأمانة المثالية ، ما زال يتوخاها ، في خدمة الصليب دون غيرها وفي احترام المرأة، الفرسان الملتفون حول فيليب دي ميزيير وبوسيكو في جمعيتي « آلام المسيح » و « الترس الاخضر المزدان بالسيدة البيضاء » . بيد ان الكثيرين من اعضاء الجمعيات الجديدة – جمعيتـا « النجمة » و « رباط الساق » في القرن الرابع عشر ، وجمعيتا « الجزة الذهبية » و « القديس ميخائيل » في القرن الخامس عشر – قد اضافوا المشاغل العالميـة الى ابتغاءات الفرسان البطولية في الايام السالفة ، لا بل اقاموها مقامها احياناً .

اذا المرأة احتلت مركزاً رئيسياً دون منازع في « بلاطات المحبة » التي ابتكرها الامراء البورغونيون ، فهل بقيت ذاك الموضوع الخالص لحبة حلال؟ ثارت كريستين دي بيزان ، في نقاش حاد ، على الاخـلاق المتراخية في « قصة الوردة » ؛ فبين « جان دي مونغ » وظهور كتاب « مئة قصة جديدة » ، مروراً بـ « الزوج الباريسي » و « أفراح الزواج الخمسة عشر » ، انتشرت اخلاق عالمية أخفت ظواهرُها الجاملة احتقاراً متفاوت الوقاحة للمرأة قوامه ازدراء الرجل لكائن ضعيف ولاداة لذة . وما أسعد المرأة التي تحترم من اجل كثرة اولادها ؛ فقـد كتب مؤلف لاتيني ما يلي : « لا يقاس جمال المرأة ، في نظري ، بطلاوة وملاحة محياها بـل بجسمها العامر المعد لأن ينجب لك بنين حساناً جداً » . وأبنـاء الزنى كثر في كل العائلات ، وليس من يفكر باخفائهم او حرمانهم من الارث ؛ والحبة خارج الزواج تنظم وكأنها منتهى التنعم ، وتتصف ألفاظ الرجال ، من محاربين وغيرهم ، بحرية مفرطة : فاذا لم يجد السيد « دي لاتور لاندري » افضل من أماليح لفراد الحرس لتربية بناته ، فان مجتمع المدن الايطاليـة ، وبلاط بورغونيا من بعده ، قد خصّا السيدات ، بصورة طبيعية جداً ، بكل مجانة مستهجنة يعجبها الذوق اللطيف . ولا يرى احد غضاضة في اشراك الديانة في هـذه المظاهر الاباحيـة : فان لويس دورليان ، الذي أرخى لشهواته العنان ، كان يرتدي المسح ايضاً ؛ وقد مثّل ابنـه شارل ، الشاعر ، تأوهات « عشاق العفاف » بآلام ابناء القديس فرنسيس السرية .

أنى لمثل الفروسية المتأخر هذا ، من جهة ثانية ، تدميث اخلاق الجندي المتعود اعمال القوة والعنف؟ لقد قضت مبادئه بأن تتعادل قوى الخصمين ، في الحرب والمبارزة على السواء ، وبأن يكون النصر حليف أعظمها شجاعة : ولكن ذلك لم يحل ، في ساحة المعركة او أثنـاء الجولة على صهوات الجياد ، دون معاملة المشاة الاوباش وسكان الاكواخ بمنتهى القسوة والفظاظة . « قسوة واستلاب واغتصاب » ، ذاك كان شعار فرسان كثيرين روى فرواسار فظاعاتهم بكل رضى ، لأنها غدت جزءاً لا يتجزأ من الاخلاق العامة وباتت ، في نظره ، هفوات تافهة لا يطالب بهـا رجل شريف ، بينما هي تصبح جرائم اذا صدرت عن القروي او البورجوازي او رجل الدين ، اذ ان القسوة ، المعتبرة فضيلة عسكرية ، كانت وقفاً على النبلاء . « هل تعرف ان تكون قاسياً

ومتغطرساً ؟ » طرح هذا السؤال على البورجوازي « فيليب فان ارتفلد » حين استلم قيادة الثورة في غنت . وكانت المبارزة بين بورجوازيين أمراً مشيناً معاراً ، لأن الارستوقراطية استأثرت بحق سماع « صراخ الدم » والدفاع عن شرف « الروابط الزوجية » . وقد اعتبرت الكمين ، في مثل هذه الحالات ، تصرفاً منكراً ، ولكن صليبيّ « نيكوبوليس » التقي قد أسند الى احدهم مهمة اغتيال ابن عمه في احد الشوارع الباريسية المظلمة . لذلك كان شر عقاب يعاقب به الفارس نعتـه بالقروي الخشن ؛ وحين حكم على السيد « جياك » لاقدامه على قتل زوجته ، اغرق في كيس مخيط كما لو كان حيواناً مضراً : وهذه ميتة لا تليق بالفارس .

البذخ والذوق

لا ريب في ان الاخلاق الفظة ترد الى اعتبارات الشرف ، ولكنها ترد قبل ذلك الى الحرص المفرط على المال ايضاً . ففي وقت انهارت فيه المداخيل السيدية ، بينما زاد انتشار البذخ بين الطبقات الميسورة ، وفرض حب التظاهر سخاوات وقفية كبيرة ، وما زال السخاء فضيلة الرجل الشريف الاساسية ، كانت المحافظة على المستوى الاجتماعي ضرورة ملحة . وكان الحسد والبخل ، على غرار السخاء ، « سيدين وملكين » . وكل خدمة يدفع ثمنها ، ولا سيما الخدمة العسكرية . وقد كتب فرواسار : « الجنود لا يعيشون قط من الغفرانات » . ولما كانوا ، من جهة ثانية ، ينتظرون الغنائم والفدى من الحرب ، فكان طبيعياً ان يصبح الفارس سلاّباً . فاذا توصل اوستاش دوبرشيكو ، الذي اعجب فرواسار بمآثره البطولية ، الى ان يستولي عن طريق الخدعة على احد الحصون اكراماً لسيدته ، فان ثري الحرب كروكار ، قد ارتفع من مرتبة الغلمان الى مرتبة الاسياد .

في طبقة النبلاء هذه ، التي كثر فيها حديثو النعمة ، شغَل الشبان بالهم بالبذخ الذي سخر منه الهجو البورجوازي في « تقليد رينار » :

« المعاشرات السيئة تتسلط على العقل
هذا يلعب بالكعاب وذاك يحيي الحفلات
هذا يجادل وذاك يحارب
كلهم كرماء وذوو مال وفير
ولا يعلمون من أين تأتيهم الاموال » .

وليست غرائب الذوق والرغبة المستجدة في اقتناء الاقمشة الثمينة كالحرائر والفراء وقفاً على طبقة ذات مزايا معينة . فبعيد الطاعون الكبير ، كما قال فيلاني الفلورنسي ، « ارتدت اوضع النسوة الملابس الجميلة التي ارتدتهـا من قبلهن سيدات ارستوقراطيات أدركتهن المنية » . وفي انكلترا ، عبثاً حاولت بعض القوانين تقييد النفقات المفرطة بتدريج البذخ في الملابس بحسب مرتبة الافراد وثروتهم . ويردّ ذلك الى ان الذكور استمدوا ، منذ اوائل القرن الرابع عشر ، الزي « الجزئي » الذي اختلفت ألوان الملابس والاحذية والقبعة فيه بين الجهة اليمنى والجهة

اليسري . واضيف اليه، حوالي السنة ١٣٤٠ ، زي الملابس القصيرة الضيقة ، بينما حافظ الجدّون وحدهم ، أي رجـــال الدين والقضاة والاساتذة والاطباء ، على الثوب التقليدي الطويل . وفي النصف الثاني من القرن، حلت القميص القطنية محل القميص الصوفية الناعمة ، واستعملت الفراء النادرة لصنع القبعات وتزيين الملابس ، المصنوعة من الاجواخ الخفيفة ذات الالوان الزاهيـــة المتنوعة ، القادرة على التعبير عن الفوارق الاصطلاحية بين مختلف العواطف. وزاد الشكل العام غرابة : فاذا أرجعت المرأة شعرها الى الوراء حتى لا يظهر منه شيء على جبهتها ، فانها كست رأسها بالطنطور او بقبعة المتجسّم المقرّنة المزدانة بخمار طويل متسدل ؛ وقد انتقد السيد « دي لاتور ـ لاندري » زي كشف أعلى الصدر والكتفين والذيول السابغة التي يجب رفعها والقاؤها على الاذرع ، والخصر المشدود حتى اضاقة النفس . اما زي الرجال وهو أشد غرابة ايضاً بأكتافه المستعارة المحشّاة وضيق زنار ثوبه المقصر المنحدر الى الركبتين ، فقد اظهر نصف الجسم الاعلى بشكل مربع منحرف يعلو ساقين نحيلتين محشورتين في سروال ضيق ملتصق بهما تنتعلان حذاءين أشبه بطرف مقدم السفينة ـ كأظفار الحيوانات المسيخة ، كما يقول اوستاش ديشان . ويتكامل كل ذلك بقبعات عالية او مستديرة من الجوخ او من الفرو . واختفت اللحية في أواخر القرن بعد ان درج زي ارخائها وتقسيمها الى قرنين « مفناجين » ؛ اما الشعر ، الذي كان في البدء طويلاً ومتموجاً ، فقد قص بعد ذلك بشكل كمة قروية . وهو هذا اللباس الغريب الذي سخر منه « جان دي كونديه » في قصة جاءت تسميتها « القرد » في محلها

سبق لبيترارك وشنتر على هـــذه الأزياء المشينة ، وعبثاً حرّم اورباتوس الخامس وشارل الخامس الاحذية الملسّنة . الا ان القرن الخامس عشر قـــد زاد في الطين بلة فكدس الجواهر والاقمشة الثمينة ، ولا سيما الحرائر والملابس المزينة بالصفائح الذهبيـــة والفضية . فأفضى بذخ الملابس الى ابراز المضادة بين الثروات وبؤس الجماهير ، مع انه استجاب لسعي الناس آنذاك وراء حياة افضل ووراء شكل جمالي معين يمثل الادب والفن ، لا غرائب الأزياء ، مظاهره الحقيقية .

مصائر الفن القوطي

استطاع القرن الرابع عشر ، في كل شكل من اشكال التعبير الجمالي ، ان يطبع بطابعه تنوع محاولاته وحتى جسارتها احياناً . كان لزاماً عليه ان يتحرر من الوصاية الجائرة التي كان الفن القوطي العظيم قد فرضها على كافة انحاء اوروبا، دونما تنكر لمبادئها ؛ ولم يكن باستطاعة الاجيال اللاحقة ، امام إرث القرن الثالث عشر ، اي امام تنسيق النسب الهندسية ، وحقيقة النقاشة الممحّصة بالمثالية ، والميل الى الاضواء والالوان، وتناسق الاصوات المتعددة في الغناء ، واللغة الادبية ـ الفرنسية ـ المسلم بها لغة شاملة ، سوى ان تستنزف صيغه المفرطة الكمال التي ما لبثت ان استقرت استقراراً نهائيـــا ، او ان تحاول الابتعاد عنها بالبحث عن تزيين اعظم اخصابا واقل تبعية ، او عن ضرب من ضروب « فن غريب » ينجيها من الجمود والانحطاط . وكان مقدراً ان تنجم عن هذه الابحاث صيغ جديدة تأتلف فيها التقاليد المقبولة والطرائق الممتحنة مع نزعات جريئة وخصابة . فلسنا بصدد حيال

الكلاسيكية التي شهد القرن الثالث عشر ازدهارها، حتى ولا حيال فن « عظيم » جداً في أكثر الاحيان : اذ ان كل نظرية جمالية يجب ان تدرس مجردة ، أي بمعزل عن القوانــين المدرسية ؛ والنظرية ، او بالاحرى النظريات التي أبصرت النور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لا تستحق الاستخفاف الذي استهدفها بسهولة

اذا ما استثنينا ايطاليا التي اتجهت آنذاك نحو طرق مختلفة ، وأينـــا ان كل دولة من دول اوروبا ، على الرغم من فوارقها القومية او الفردية ، حاولت تجديد طريقة تعبيرها الجمالي بتلدين الصيغ القوطية . وقد ادت النزعة العامة الى الاختبارية والفلسفة الكلامية ، عند بعض هذه الدول، ـ وكان لفرنسا قصب السبق في هذا المضمار ايضاً ـ الى اعطاء المركبات العضوية شكلاً نهائياً يكاد لا يختلف بجموده عن جمود الخطوط الاولى في التصاميم . وجدّت الاختبـــارية في الوقت نفسه في معرفة الخصوصيات وساعدت على تمييز الالوان وانماء مظاهر الذوق المختلفة ، بينما اوجبت الفلسفة الكلامية على العقول وضوح التعبير وكمال الشكل . فنشأت من ثم ، في منتصف القرن الرابع عشر ، مطابقـــة بين النزعات الفكرية والادبيـة والفنية وطرائق التعبير عنها .

الميل الى الوضوح : تلك هي حال الاناقة المجرّدة والمتميزة ببعض الفتور في هندسة العمارة . فان في ارتفاع العقود ، وفي صلابة الركائز التي آلت فيها التيجان ، حين لم تضمحل نهائياً ، الى مجرّد طريدة من اوراق الشجر ، وفي دقة النقوش الناتئـة ، وفي توسيع النوافذ المفرط ، وفي تفضيل الاشكال الهندسية المشعة، لعظمة اشبه بعظمة اللوحة الكبيرة المنجزة. ولكن البناء يتميز بمزيد من التنسيق وتتميز انارته بمزيد من الرَّوْنق والمساواة في التوزيع . وتطورت تقنية زجاج الكنائس ، فقد اعتمد اللون الرمادي بالتفضيـــل على غيره في الخلفيات ؛ وانتشرت الالوان الاخرى المختلفة ، التي اضيف اليها اللون الاصفر الممزوج باللون الفضي ، في صفائح زجاجية مزدوجة عريضة ، ما زالت تلون في داخلها ، ندرت فيها الفواصل الرصاصية . وان مـا دشنه القرن الثالث عشر المشرف على الانتهاء ، في كنيسة القديس اوربانوس في « طروا » قد تفتح في كنيسة سانتوان في روان ، وفي كاتدرائيـــات متز وستراسبورغ ، وفي كركسون ، وفي البي ـ حيث انجز معبد محصن بالقرميد ـ وانتشر في ما وراء الرين وحتى وراء الجبال ايضاً . اما ايطاليا فقد تأخرت عن الركب ، ولن يلفت الانتباه فيهـا ، طوال القرن الرابع عشر ، سوى مثل كاتدرائية اورفياتو . ولكن الامر يختلف كل الاختلاف في شبه الجزيرة الايبيرية حيث تأثرت برشلونة وبالما وجيرونا وبمبلونا وطليطلة بالنمط المشع في فرنسا الجنوبية الذي نشاهده حتى في « بطلها » من اعمال البرتغال . وانتشر هذا النمط المشع الانيق الفاتر دراكاً في المانيا حيث انهى احد الفنانين الفرنسيين ، في السنة ١٣٢٢ ، خورس كاتدرائية كولونيا : والى القرن الرابع عشر تعود ، في اقسامها الهامة ، تحقيقات هولندا البنائية القوطية الكبرى في غنت وبروكسل ولياج . وابتكرت انكلترا اخيراً علماً جمالياً خاصاً : فبعد ان رضيت ، طوال جيل كامل ،

عن التزيين المثقل بالخطوط المنحنية المتقابـــلة والزهيرات اللحيمة والاقسام الناتئة السمجة ، سارعت الى اعتماد الخط المستقيم الجاف ، في اطار مستطيل اقصيت عنه القناطر عملياً، وهوّيت فيه العقود المتقاطعة دونما هدف ، التي انتهت الى رسم مراوح غريبة . فارتفعت الروائع الاولى التي تمثل هذا الفن « العمودي » في بريستول وغلوسستر حوالي السنة ١٣٣٠ ؛ وهو قـــد بلغ ذروته في اواخر القرن في خورس يورك ، وخورس كنتربري الذي انهاه هنري يفيل في السنة ١٤١١ .

اما الفنون التصويرية ، التي لازمت هندسة العمارة حتى ذاك العهد، فقد اتجهت نحو الاستقلال. فادى مثل الاقتداء الجمالي ، الامين لتقليد واقعيـــة القرون الوسطى ، بالنقاشة والتصوير ، الى البحث الدقيق عن صحة الاحكام والكمال التقني ، وقد اعتبرا منفصلين عن بعضهما ولم يكترث للتوفيق بينهما وبين الاطار الذي انزلا فيه . ولم تعـد نقاشة التماثيل في الابنية ، وقد الجئت الى ملاحظة التفاصيل وتمثيل جسم الانسان تمثيلاً صادقاً ، سوى تكملة ضرورية للبناء ؛ كما لم تعـد التماثيل المرتفعة جزءاً لا يتجزأ من البناء ، فبرز كل منهـا تحت مظلة ضخمة ، واخذت مشاهد القباب والاساكف والصفائح الخشبية في اسفل الجدران تفسح المكان للصورة الفردية : ذاك هو زمن انتشار صور العذراء حاملة ابنهـــا التي تتميز ببعض التكلف في تراخي الوركين ، ولكن النقاش قد رسم على ثغرها الابتسامة الحقيقيـــة التي تبتسمها النسوة الشابات . وبرز فن الصورة الفردية عند نقاشي ورسامي المدافن ايضاً ؛ فقد اهملوا النقوش والرسوم المقدسة التي اعتمدت في المدافن الملكية او الاسقفية خلال القرن الثالث عشر وشغفوا بتمثيل الموتى تمثيلاً معبراً مألوفاً . هكذا تظهر لنا « العذارى المرحات » في ارفورت ، وشارل الخامس في اللوفر ، ومدافن سان دني وافينيون . وهذه ايضاً هي النزعة التي اتفقت وتقليد العصور القديمـــة في المنابر التي نقشها نقولا بيزانو ، والتي اشعت ، من خلال مدرسته ، على اسبانيا وايطاليا ايضاً .

وفي فرنسا ايضاً كما في ايطاليا — في سينا وفلورنسا — ارسخ التصوير استقلاله ومميزاتـــه الجديدة . فما هي من جهة ، عنــــد منعطف القرن ، واقعية جيوتو المتصفة — تآلف كما سبق ورأينا ، بين العاطفة القوطية ، والاشكال القديمة — التي يعبر فيها عن محبة الفرنسيين للطبيعة في مشاهد معتادة ، مستعارة من « الاسطورة الذهبية » في صور « بادوا » الجدرانية . وهذه هي من جهة ثانية ، مدرسة دوتشيو ومارتيني في سينا ، التي قـــد تكون دون الاولى روحانية ، ولكنها تتميز بواقعية مؤثرة وجليلة الفائدة ، بما تعرضه من ذكريات الشرق الكثيرة في مشاهـد الحدائق والقنص الزاهية التي ملأت بها جدران قصر البابوات في افينيون . وبسلوك هذه السبل، قطعت شوطاً كبيراً ، في مجالات التقدم ، المدارس الفرنسية ، اي مدرستـا افينيون وباريس ، اللتان بحثتا كلتاهما عن طرائق جديدة للتعبير التصويري ؛ فان الصورة التي لم يبق لها من مكان في كنائس غدت معرضاً للزجاج سوى المثلثات القائمـــة بين اقواس العقود ، والتي اقصيت عن المساكن الخاصة بفعل انتشار التنجيد والفرش ، وكلاهما اوفر دفـاً وافضل تأثيثاً ، قد رسمت

آنذاك على اللوحة الخشبية في الرافدة المركزة وراء المذبح او في صفحة كاملة من مخطوط مزوق. اجل لقد فقدت بذلك طابعها البنائي العظيم ؛ ولكنها استعاضت عن هذا الفقدان بموهبة امثال جيرار دورليان مصور جان لوبون ، والواقعية الشديدة التعبير في « نسيج مذبح ناربونا المهدب » وتزويقات « جان بوسيل » : فهنا قد سيطر الاهتمام بتصوير التفاصيل الدقيقة ، دونما علاقة مباشرة بالنص المقصود تزيينه بالصور ، حتى ان الفنان قد نسي المؤلف العام الذي اعدّ تصاويره له .

الالوان والتعابير الادبية

ان الحركة العلمية السائرة قدماً بفضل الاختبارية ، قد فرضت على النثر العامي ما لم تفرضه مباشرة على هندسة المهارة والفنون التصويرية من ضبط في تأدية الفكر . فكانت ترجمة مؤلفات القدماء ، الى اللغة الفرنسية بنوع خاص ، مدرسة تعلم المرونة والدقة ، فاتاحت خلال القرن الرابع عشر تحسين اداة التعبير عن الفكر تحسيناً مستمراً : تراجم فيجيس وفيتروف ، وترجمة نقولا اورسم لمؤلفات ارسطو . وبدأ انتشار الروح القانونية بانتشار مجموعات المنتخبات والتفسيرات ؛ وبينما كان الايطالي برتولو مستمراً ، في بيزا وبادوا ، في وضع متمارفاته باللغة اللاتينية ، وسع جان ده ماره وجاك دابليج وجان بوتيليه في فرنسا الطريق التي شقها « بومانوار » من قبلهم ، فظهرت حينذاك « عادات » بريطانيا وفرنسا ، و « طراز حصن باريس » ، و « المجموعة الريفية » وكلها روائع عصر من رجال الاختصاص .

وباستطاعتنا ان نذكر التاريخ ايضاً ، مع انه لم يبلغ بعد درجة الفن . فهو بعد جان لو بيل ، قد اشتهر ، بفضل فرواسار ، بالوان لم يتوصل اليها جوانفيل في مذكراته . فان فرواسار الذي تقصى الاخبار برصانة وصدق لم يعترف له بها احياناً ، وكان قادراً على الاحاطة باحداث الغرب كلها ، وشغف بمعرفة مجتمع عصره وحرص على تفسير ما رأى ، قد حدّد مهنته خير تحديد : « لو قلت : حدث كذا وكذا في ذاك العصر ، دون ان اكتشف السرّ او القي الاضواء عليه ، لكنت دونت مذكرات لا تاريخاً » . فالشغل الشاغل الجديد انما هو الوقوف على اسرار البلاطات والقلوب والبحث عن دوافع الاعمال عند عظماء هذا العالم . اجل لم يكن ذلك وقفاً على فرواسار ، ولكن اوروبا لم تعرف له نظيراً ، لا في اسبانيا ولا في انكلترا ، ولا في هولندا نفسها حيث يجب ان نذكر اسمي برابانتش وييستن الشهيرين .

ليس المجال بعيداً بين التاريخ ، وهو سرد بطولي او ازدرائي للاحداث ، وبين الرواية الخيالية والقصة البطولية والخبر والنقد الاخلاقي . فقد تمثلت في كافة انحاء اوروبا جميع هذه الالوان باشكالها التقليدية او الجديدة الجريئة . واستمرت فرنسا في طرق مواضيع الاغاني الايمائية ، اذ ان القصة البطولية والجاملة ، نثراً او شعراً ، قد احتفظت بمكانتها ورواجها ؛ وولع الاجانب بدورهم بالمختارات « على طريقة فرنسا » . فظهرت في ايطاليا « القصص الملكية

الفرنسية » وفي المانيا « كتاب المغامرات » وفي اسبانيا « الفتح المظيم مـا وراء البحر » ، بينما اوحى برسفال ، في انكلترا ، « السيد غوانن والفارس غرين » ، وعرف تريستان ترجمة تشيكية ، واقتبس اوزياس مارش عن اللغة الكاتالونية نغمات شعر المجاملة . ولكن بودوان دي سيبورك ، على الرغم من انه ما زال يتميز بنفحة ملحمية ، قد عرف ، في السنة ١٣٢٥ ، الحيل التي جعلت في القرن نفسه من « تاريخ فارس الآلهة » القصة البطولية الاولى . وفي الواقع ، برز الميل اكثر فاكثر الى القصة ، ففي « قصص من كنتربري » لشوسر ، التي تم عن اعجـاب المؤلف ببوكاس وتقليده له ، والتي تمتاز ببساطة سيكولوجيتها وظرافة نقدها الاجتماعي ، وفي « كونده لوكانور » لجوان مانويل بلغت القصة الذرى ، بينما كان « جان دي كونده » يقفّي في اللغـة الفرنسية حكايات منظومة جميلة . وهكذا كان الهجاء والواقعية على موعد في الادب . فحارب تجاوزاتها الصادرة كلها عن جان دي مونغ ، كل من غليوم دي دينيوفيل وجون بونيان بروح مسيحية . بيد ان « حج الحياة البشرية » و « تقدم الحاج » لم يحولا كلاهما دون دخول النفحة الداعرة الى اسبانيا مع « كتاب المحبة » لجان رويز ، كما لم تمنعا كاهن طروا ، خالع الثوب الرهبـاني ، من تقليد رينار باستهزاء وقحة. ونافسه كثيرون في هـــذا المضمار لا سيما الاسباني « بيرو لوبيز دي ايالا » الذي برهن عن عنف لاذع في « ريمـادودي بالاسيو » ، والفلمنكي «جان فان بوندال» . وكان الادب بالاضافة الى ذلك علمياً ، وقد جمع بين الروح النقدية والثقافـــة واعتمد في التعبير التقنية المدرسية الرائجة آنذاك ، اعني بها الرمزية .

ليس من فن اكثر تصنعاً من علم البيان : وعلم البيان هو الاسم الذي اطلق على الشعر آنذاك. فتجسيمُ المثل المجردة والتعبير عن الافكار بالوان ثابتة (القصيدة الاسطورية ، القصيدة القصيرة ذات الادوار ، النشيد الملكي) كانا مليئين بالاخطـار وعرّضا الابتكار والوحي للجفـــاف . ولكن هذه الاشكال الثابتة كانت مطابقة لهوس الرمزية العام ، القريبة الى الفهم نسبياً في الفنون التمثيلية ، والمباهاة كل التعمية في البحث الادبي . ولولا عبقرية غليوم دي مـاشو لانتهى الامر بالشعر الى هوة التكلف والابتذال . اما فضل هذا الكاهن القانوني الرسميّ الاصل ففي تجميل اشكال فنّه الجامدة — القصيدة القصيرة ذات الادوار ، ولا سيما القصيدة الاسطورية — بتعبـير موسيقي مجدّد: « الفن الجديد » الذي هو مجهود تقني لتنويع اساليب التعبير ووضوحها . واباح تجميل الكتابة الموسيقية بقيم جديدة ، وقد رسمت خطوطه الكبرى منذ القرن الثـاني عشر ، تصور كل الاوزان الممكنة. فبات بمكنة الايقاع ان يصبح اشد تعقيداً وبمكنة الآلات الموسيقية ، ولا سيما الارغن ، ان تبلغ فرديتها . فاطلّ ايقاع الاصوات المتعددة ، بالفعل نفسه ، على الواقعية. وعلى الرغم من افراطات على بعض الجفاف احياناً ، فان خصب التقنية الجديدة يقـاس بمدى انتاج متقن . فالى جانب « البصر يقول » و « يقال عن الحديقة » ، انبأ « نشيد القبرة » بموهبة جانكين الوصفية ، كما ان « قداس السيدة » — المعروف بقداس مسح شارل الخامس — هو اول قداس متعدد الاصوات في التاريخ الكنسي فرضت فيه المدرسة الفرنسية ، بفضـــل ماشو ، مفاهيمها على الغرب .

اما اوستاش ديشان الذي عاصر ماشو دون ان يرتفع الى مستواه ، فقد خلف انتاجـــاً ضخماً – ٨٠٠٠٠ بيت من الشعر تقريباً – نهج فيه نهجا واحداً لم يتـح له بلوغ السهولة الممتنعة والرشاقة . وجعل منه « فن الاملاء » معلم القواعد النظرية الشعرية لاجيال من المربين ، اذ انه وضع القواعد النهائية « لمهنة » ليس الموسيقيون وعلماء البيان بعد سوى عمالها المأجورين . ففي كل مكان ، في المهارات الكلامية او تنضيد القوافي ، في التصنع او العالميـــات ، طفت الرمزية وباتت طريقة التعبير عن فوارق علم الاخلاق وابتغاءات النفوس . فهاهي الوردة مثلا : بسطت في زجاج الكاتدرائيات فمثلت تنسيق الفكر حول حقيقة بديهية عامة ؛ وقدمت للمجلين في احدى المباريات ، فرمزت الى عبق التعبير الرقيق ؛ تنثر في الوردية ، اكراماً للعذراء ، اوراق « الوردة التي صار الكلمة فيها جسداً » كما يقول دانتي . وتفرض فكرة النثر هذه فكرة تقدم تدريجي وتوق الى الجمال والخير ؛ وفي ذلك زهد عالمي وديني بدا في تصرفات العاشق عند جان دي مونغ كما في رؤى فلاح وضيع في « بيرز بلومن » ،وفي مآثر « جهان دي سنتري » الصغير كما في المراحل الصوفية في « الاعراس الروحية » . وهكذا حافظ الاحساس على حقوقه في هـــذا الفن العابس الصنعي الذي كان في الغالب جدلياً وتعليمياً ؛ وهو سيفرضها منـــذ اواخر القرن الرابع عشر .

الفن اللهبي

انه لتطور بطيء ومعقد افزعته ، في كلا مظهري الحنو العالمي الكاذب وتحريك العواطف الصادق ، الاشكال العارية والهندسية . ولكن خشيته هـــذه ليست شبيهة بذاك الدوار المفاجىء الذي يعتري اناساً يفقدون ، عندما تعم الفوضى ، كل معـــاني الاعتدال . واذا حدث لهم ، بردة فعـــل منهم ضد جفاف الاشكال ، ان يخلطوا بين الحشو والتزيين وان ينظروا الى التكلف كما الى الذوق اللطيف ، والى تحريك العواطف كما الى الهوى ، واذا بدا الميل الى الاخراج ميلا شاملاً ، فيجب ان نعترف بان الفن اللهبي انما يملك فيضاً من « الغرابة » ويخفي في الوقت نفسه الثروة الحقيقية .

ان الشارع التجاري القديم الذي يصل في روان ، عاصمة الفن القوطي المشرف على الزوال ، بين « سانتوان » و « سان ماكلو » ،يجمع بين مفهومين للفن والحياة : فهناك الفن المشع في تناسقه المرتفع والمنطقي ؛ اما هنا فالعقد اعظم انخفاضاً ، ولكنه في منتهى المتانة ، تتنضد فيه الخطوط المنحنية والخطوط المنحنية المتقابلة اشكالاً اهليلجية ومثلثات ، الا ان سهم العقد ، على الرغم من تستينه الجميل ، لا يضاهي صفاء عظمة « البرج » المتوج . تنـاول التزيين آنذاك كل اقسام البناء ، بما فيها الهيكل الهندسي نفسه – الاعمدة ودعائم الجدران والزوافر . انـه لعلم جمالي جديد قد يكون اقتبس عن انكلترا بعض الاشكال التزيينية المنحنية الخطوط التي ظهرت في اوكسفورد (كلية مرتون) واكستير (الكاتدرائية) منذ السنة ١٣١٠ والسنة ١٣٢٧ – واهملت بعد ذلك في ما وراء المانش – ولكنه من الانسجام مع تطور الفن الفرنسي بحيث لن

يلبث ان يعم المناطق نفسها التي سيطر عليها الفن المشع . لنترك من ثم ايطاليا جانباً : اذ ان تشييد « الرائعة المزيفة » ، التي هي كاتدرائية ميلانو ، لدليل جديد على ان شبه الجزيرة حرم لا يدخله اي نوع من انواع الفن القوطي ؛ وانكلترا ايضاً التي استثمرت ، على نمط واحد تقريباً ، موارد الطريقة العمودية ، والتي حققت رائعة تلفت الانتباه هي « كليسة الملك » في كمبردج . يبقى امامنا فرنسا التي انتشر فيها الفن الجديد بسرعة ، وهولندا ، والدول الجرمانية ، من كولونيا حتى فيننا ، واسبانيا والبرتغال حيث اقترن نمط الاقواس المتقاطعة الكثيرة بعظمة الفن الاسلامي الشرقي في اسبانيا ، حتى كرس بذخ الفن البرتغالي ، في تومار وبليم ، الجمع بين الرومنطيقية القوطية وعظمة المال الظافرة ، وهو جمع بين العالم القديم والعالم الجديد . وكان مقدراً للفن اللهبي ، وهو اشد اعتدالا في الكنائس القروية ، ان يملأ اريافنا ، حتى ما بعد القرن السادس عشر ، بابنية تمتاز بالمتانة والرشاقة . وقد اعتمد كذلك في هندسة العمارة المدنية وواقق رغبة العظماء في الرفاهية : القصور البندقية ودور البلديات وابراج الاجراس في الشمال ، ومقر جاك كور في بورج ، ومسكن رئيس الرهبنة الكلونية في باريس – وكلها من التشابه بحيث يكاد يستحيل الاعتقاد بان الفارق الزمني بينها هو قرابة قرن كامل – والحصون اخيراً ابتداء من « بييرفون » حتى نانت ، كل هذه الابنية تشهد بما لا يترك مجالا للشك ، بقيام مفهوم للحياة يعرف الانسان بموجبه كيف ينظم ، كما يطيب له التنظيم ، الانفاق على الزخرف .

تحريك العواطف والواقعية

وهي المناطق الفرنسية ايضاً التي عبرت خير تعبير ، في نطاق الفنون التصويرية ، عن الحنو المعقد ، الصوفي والشهواني معاً ، في اواخر عهد الفن القوطي . ولسنا الآن ، كما في السابق ، امام مدارس اقليمية ، بل امام جماعات من الفنانين استمالتهم عطايا احدى اسر الامراء : انجو ، وبري ، وبورغونيا بنوع خاص ، اذ ان ازدهار بورغونيا وهولندا قد جعل من امرائها اوسع زبن الفنون ثروة . وقد جمعت روائعهم بين عاطفة اعظم تهذيباً وواقع شديد التاثير جداً ؛ فالعذراء المرضعة في التزاويق هي امل الحياة البشرية ، ولكن هذه الحياة ترزح تحت الالم في تمثيل « التقوى » في فيلنوف – ليزا – فينيون » ؛ وتتجلى الانسانية كذلك في المسيح منتظراً العذاب » في فنيزي (ايون) ، كما في « الصلب » ، في « غابة بروتات » الشهيرة ؛ كما ان تمثيلات « الانزال الى القبر » التي حققتها المدارس الشمبانية والبورغونية ، لا توحي اضطراب المأساة بقدر ما تفرض السكوت والتأمل . ولم يكن النحاتون والنقاشون والمصورون معتوهين حين جعلوا من الميت الرفيق الدائم للانسان الحي ، وحين اكثروا من «رقصات الاموات» ، وحين رتب كلوس سلوتر وتلاميذه الواقعيون ، حول الميت المضطجع على المدافن البورغونية ، موكب « الباكين » ؛ وفي صفاء الصوفية ، اوحى ظفر المختارين ، الى الاشقاء «فان ايك» ، موضوع « تمجيد الحمل » الرائع ، كما ان رؤيا يوحنا ستقدم ، حتى « دورر » ، مواضيعها للنحاتين والمزوقين ولعمال التطريز والتدبيج في الجيه .

لم يقض تحريك العواطف اذن على واقعية القرن الخامس عشر . فاذا هي ما زالت عابسة ،

في الامبراطورية ، مع كونراد ويتز ، فانها قد تلدنت في المناطق الاخرى تحت التأثير الايطالي وبفضل الالوان الساطعة التي تقدمت تقنياً وجلى فيها مصورو المناطق الشمالية . وحققت ، مع روجيه دي لاپاستور ، عظمة قويّة وهادئة في آن واحد ؛ فنور الاخوة « فان ايك » الساطع ، مثلاً ، يجتاس بدقة مناظر الريف الفياجي تحت اقواس « العذراء » المنسوبة للمستشار رولين ، معيداً الى الذاكرة المزوقين والمشاهد الريفية في « ساعات » شانتيي ومناظر منطقة « تور » التي جلى « فوكيه » في رسمها . ولا عجب اذا ما ضم هذا الفن الفرنسي الالماني ، بالعديد من خطوطه ، تأثيره الى تأثير الفن الايطالي على الفنانين الكاتالونيين (جايم هوغيه) او البرتغاليين (نونيو غونسالفس) .

ففي التصوير اذن ، كما في الصياغة ، وكما في تحقيقات التدبيج والتطريز في اراس وتورنيه وبروكسل ، اقترنت واقعية الملاحظة وكمال التقنية برقة القرن الخامس عشر . اما الفن الادبي الذي طغى عليه تصنع علماء البيان ، فلم يعرف قط هذا التجدد ؛ وليس لمجالس البيان والندوات الادبية من فضل الا في اشاعة الميل الى الشؤون الفكرية وتهذيب اللغة تهذيباً بلغ درجة التكلف. فهل فيه ما يستوقف القارىء يا ترى ؟ هنالك بعض القصائد النضرة القصيرة ذات الادوار من تأليف كريستين دي بيزان وشارل دورليان ، كما ان هنالك بعض القصائد العميقة التي تتميز ، على ما فيها من حشو ، بالقلق والثقة معاً ، في تحريكها الصادق للعواطف ، والتي يجب ان نبحث فيها عن عبقرية « فرنسوا فيّون » . الا ان المحاولات كانت اعظم تجديداً في الموسيقى مع ان التمرنات الصوتية والتلحينات المعقدة في الانغام المتعددة الاصوات قد ابدت كلياً المخاوف التي كانت ابدتها ، على غير جدوى ، حيال هذه التجديدات ، البراءة الحكيمة ، التي اصدرها يوحنا الثاني والعشرون في السنة ١٣٢٢ . وانما انتشر الاتباع آنذاك ، وهو ابتكار فرنسي انكليزي ؛ وواصلت الموسيقى غير الدينية ، في ايطاليا كما في اسبانيا ، اختباراتها ومحاولاتها: فسمت مقاطعة هينو بفن الطباق نحو الكمال بفضل دوفاي واوبرخت و « وجوسكين ده بريه » و « اوكيجم » . آنذاك تتلمذت المانيا وايطاليا نفسها لِ « معلمي الشمال » .

غير ان تمثيلية « السرّ » الدينية ، وهي خير تعبير نموذجي للقرن الخامس عشر ، تخطت الى حد بعيد ، بشمولها وبديهيتها ، كافة اشكال المسرح العالمي المتنوعة من تمثيليات اخلاقية وتمثيليات مضحكة وتمثيليات يتكلف ابطالها الجنون ، على الرغم مما « للمعلم باتلين » من حسنات وفضل . وتوسع المسرح الديني في « المدائح » الايطالية والتمثيليات الكلتية لسير القديسين واللوحات الانكليزية الحية ، فاثبت مرّة اخرى منشأه الشعبي في مواكب العربات الرمزية في اشبيلية وبروج . الا انه لم يبلغ ، في اي مكان ، الرونق الذي بلغه في فرنسا : فان « المعجزات » التي غدت طقساً شعبياً ومثلت او رقصت احياناً في المعبد ، اصبحت تستغرق اياماً عدّة بتمثيل حدث انجيلي متتابع ، وغزت فناء الكنيسة الذي يتسع لمشاهدها الكثيرة ، وجندت اخويات كاملة للقيام بادوار الممثلين . وبات هذا الطقس الشعبي حدثاً اجتماعياً اعيد فيه

باستمرار تمثيل « سرّ السيدة » او « سر الآلام » . واتقن خير اتقان بفضل ارنو غريبان فحرّك عواطف الجماهير واسال دموعها . اجل لم يخل من الابتذال ولا من الخشونة ؛ ولكن الاستاذ المبرقشة والموسيقى والغناء الغريغوري والاغاني الشعبية وتعدّد الاصوات والآلات قد اسرت الحواس كلها ، كما ان اطالة النص لم تترك اي مجال للراحة . ولعل في ذلك خير شاهد على شمول انتشار مفهوم جمالي عميق التأثير .

هكذا تبدو لنا ، معقدة وغنية ، على ما تثيره من حيرة في اغلب الاحيان ، روح الاجيال الاربعة او الخمسة التي عاشت في اوروبا الغربية والجنوبية منذ حوالي السنة ١٣٢٠ حتى السنة ١٤٧٠ تقريباً . وسيتاح لنا ، بعد استفاضة درسنا لمتناقضاتها ، ووقوفنا عن كثب على خطوط ابتغاءاتها ، ادراك ردوّد فعل هذه الاجيال امام الصعوبات المادية التي هاجمتها بقوة والانقلابات السياسية التي كانت هي ابطالها وضحاياها في آن واحد .

الفصل الثاني

متاعب أوروبا المادية

يعود الى أواخر القرون الوسطى ادخال هذه الطلبة الجديدة في صلوات الربيع: « من الجوع والحرب والطاعون، خلصنا يا رب ». الجوع والحرب والطاعون، تلك هي الأخطار التي هددت الانسان في كل برهة ؛ وتلك هي الضربات الثلاث التي ورد ذكرها في الاغنيـة التقوية – لا فرق اذا كانت اصطلاحية او صادقة – التي نظمها الشاعر البريطاني جان مسكينو :

« بئس الحياة حياتنا المحزنة
التي تستبد بها ، ليلاً نهاراً ،
الحرب والموت والجوع والبرد والحر » .

١ ـ الحرب

ان اسم « حرب المئة سنة » الذي ابتكره المؤرخون المعاصرون يتنافى والحقيقة في نواح كثيرة، ولكن له الفضل في انه يعيد الى الذاكرة ديمومة الضربة العظمى. ان هذا النزاع الفرنسي – الانكليزي ، الذي نشأ حوالي السنة ١٣٣٦ عن المعضلة الاكيتينية المزمنة ، لم يتوقف الا في السنة ١٤٧٥ ؛ وقد تتابعت حوادثه المتكاملة طيلة قرن ونيف؛ وجرت في فترات انقطاع أعماله العسكرية منازعات على نطاق أضيق في بريطانيا واسبانيا وهولندا . اضف الى ذلك ، في كل من الممالك المتحاربة ، الصراعات بين الاحزاب التي غالباً ما انتهت الى حروب أهلية ، والثورات ومؤامرات الامراء ومغامرات الاسياد الذين استغلوا الظروف لاشباع رغباتهم ، وثورات الفلاحين والفتن في المدن ، ناهيك عن الغارات الفجائية التي قامت بها ، براً وبحراً ، العصابات المسلحة والقراصنة وقطاع الطرق : وان الكلمة المشهورة التي قالها كاهن كاهور القانوني في أواخر القرن الرابع عشر لا تفقد شيئاً من صحتها لو قالها أبوه وأبناء اخوته ايضاً : « طيلة حياتي لم أرَ سوى الحرب » .

اضف الى ذلك ايضاً ان تكرر النزاعات المسلحة ، ان لم يكن ديمومتها ، واقع يشمل الغرب المسيحي بأجمعه . فلننوه هنا بانقسامات الممالك الايبيرية ، وبحملاتهـا على المسلمين في غرناطة ومراكش حين أتاحت لها خلافاتها متسعاً من الوقت لذلـك ؛ وبالمنافسات بين الممالك في سكندينافيا ؛ وبالمزاحمة ، المسلحة غالباً ، بين مدن الشراكة الهانسية وبين الدانمارك او انكلترا ؛ ولننوه كذلك بأن المنظمة التوتونية قد واصلت ، عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي اللاتيني ، معركتها الكبرى ضد السلافيين وسعت الى سحق انطلاقة بولونيا ، بينما فتحت الغزوة العثمانية ، في الجنوب الشرقي ، جبهة حرب جديدة دائمة . وبصرف النظر عن الامبراطورية ، التي عجزت كل قواها عن وضع حد لسجس الـ « ريتر » — ولنزاعات أعظم اتساعاً بين الامراء احياناً — ، فان ايطاليا كانت مسرحاً لمشادات معقدة وطويلة الامد لم تكن حرب استعادة اراضي الكنيسة على يد الكردينال البورنوز ، بين السنة ١٣٥٣ والسنة ١٣٦٤ ، التي كان ثمنها خسارة فادحة في الارواح ، سوى حادث واحد من حوادثها الكثيرة ؛ فمن الشمال الى الجنوب ، بقيت شبه الجزيرة الايطالية ، حتى الصلح السريع الزوال الذي عقد في لودي في السنة ١٤٥٤ ، لا بل حتى التدخل الفرنسي في السنة ١٤٩٤ ، ميداناً مقفلاً تقابلت فيه ميلانو والبندقية ، سينا وفلورنسا ، فلورنسا وبيزا ، وتنازعت اسرتا انجو واراغون نابولي وصقلية ، ناهيك عن مخاصمات اقل شأناً واضطرابات داخلية وسياسية واجتماعية في كل ناحية .

عجز الدبلوماسية

فما هي القوة التي كانت قادرة على منع اراقة الدماء بين الملوك والامراء ؟ لم يتوفر للدبلوماسية ، التي اخذت تفكر ببعض مبادىء واعراف الحق الدولي ، سوى وسائل غير ثابتـة . اجل كان مندوبو الكرسي الرسولي يجوبون الغرب بصورة متواصلة لتسوية الخلافات بين الامراء المسيحيين . فمنـذ بنديكتوس الثاني عشر حتى اوجانيوس الرابع ، أي منذ السنة ١٣٣٥ حتى مجمع أراس في السنة ١٤٣٥ ، ليس من حبر روماني – باستثناء فاصل الانشقاق المؤسف – الا وبذل جهداً كبيراً لوضع حد للنزاع الفرنسي الانكليزي ، وذلك بفرض هدنات ، و « ايام » بين المتفاوضين ، ومؤتمرات صلح ؛ ولكن جهودهم لم تمط قط سوى نتائج سريعة الزوال جاءت في اعقاب مساومات استغرقت وقتاً طويلاً جداً ، كما خبر ذلـك المندوبون الذين بدأوا مساعيهم في السنة ١٣٧٢ وتوصلوا بعد جهود سنوات ثلاث ، الى عقـد هدنات قصيرة ، ولكنهم اخفقوا اخـيراً في التوصل الى شروط صلح مقبولة ، فاضطروا ، في السنة ١٣٧٧ ، الى التسليم بتجدد الاعمال الحربية .

قضت العادة ، في سبيل تسوية الخلافات ، باضافة التسوية الحبية او التفاوض المباشر بـين الملوك الى التحكيم البابوي او وساطة شخص ثالث . ونشأت عن تقليد « المحاكم المتنقلة » المؤتمرات بين الفريقين المتحاربين التي حاولت ، منذ اجتماع مونتروي في السنة ١٣٠٦ حتى اجتماع شالون – سور – سون في السنة ١٤٤٤ ، تسوية قضايا الاضرار الملحقة بمناطق الحدود والقطع البحرية . الا ان الحاجة مسّت باستمرار الى تجديد الجهود — التي كانت ثمرتها مبادىء قانونية مخصبة على كل

حال – بسبب تجدد اعمال العنف بصورة دائمة . ومع ذلك فقد أكثروا ، في كل هدنـــة ، من الضمانات والتأكيدات ، وأسندوا صلاحية النظر في الخلافات المحتملة الى « محافظي الهدنات » . غير ان الحدود غير الواضحة ومبادهات الضباط والجنود في المعسكرين وتصفية الفدى المتوجبة كانت منطلقاً لمنازعات غالباً ما تشعل نار الحرب . وقد حدث ايضاً ان الامراء الذين هالتهم فكرة النزاع الدامي وتشبثوا تشبثاً صبيانياً بشرف الفروسية ، فكروا جدياً بتسوية نزاعاتهم في معركة فردية : فادوارد الثالث وفيليب السادس في السنة ١٣٤٠ ، ولويس دورليان وهنري دي لنكستر في السنة ١٤٠٢ ، قد فكروا بالاستغناء عن اصطدام الجيوش بمبارزة جميلة .

يضاف الى ذلك ، على الرغم من الحصانة المعترف بها للسفراء ، انهم احترزوا من الممثلين الاجانب ، الذين ما كانوا ليحصلوا على وثائق الامان الا بعد وقت طويل ، والذين يهتك سر مراسلاتهم احياناً : فهم يتهمون « باستكشاف اسرار البلاد » . لذلك فان البابوية والبندقية ، اللتين كانتا اول من لجأ الى الاتصالات الدبلوماسية الكتابية ، قـــد ابتكرتا كذلك لغة المفاتيح والشيفرة ايضاً . واذا اضفنا ان هذه البعثات كانت محدودة الصلاحية ، والاخبار تنقل ببطء ، والاشاعات الكاذبة تنتشر بكثرة ، وان اقل حادث – كمقتل « جان سان بور » على جسر مونترو في السنة ١٤١٩ مثلاً – قد يفضي الى فشل كل المساعي ، اتضح لنا مزال « الانقطاع عن الحرب » .

أدلاء الطرق وفرق المرتزقة

ما لبثت الحرب ان اصبحت مهنة آنذاك بفعل التقاليد الاجتماعية والظروف السياسية والضرورات الاقتصادية والمقتضيات التقنية . اجل ما زالت تحتفظ خلال القرن الرابع عشر بخطوط كثيرة من وجهها في القرون الوسطى . فهناك في الدرجة الاولى أعرافها المستوحاة من آداب الفروسية : كتب التحدي ، طلب المبارزة ، المعارك الفردية ، الهدنات المحلية ؛ ثم تكوين الجيوش المبني على تفوق الفرسان والنبلاء ؛ وذهنية المحارب اخيراً . وقد اجمل جان دي بوي ، في بحثـــه العسكري ، الآراء السائدة بصددها : « الحرب ، في الحقيقة ، دفاع عن الحق » ؛ و « ما أكثر ما أدى التمرن الطويل عليها الى انسكاب الدموع عند التفكير بالذهاب للموت او للعيش مع صديق عزيز » ؛ « السلاح يشرف الانسان أياً كان » ؛ والحرب امتحان شرف ومدرسة صداقة ، و « شيء مفرح » اجمالا . ولكن إعداد ضابط شاب هو ، في المانيا ، دخول احد المغامرين في خدمة عائلة تبتغي ثأراً او في خدمـــة مدينة ؛ وفي فرنسا ، غارة ليلية مفاجئة للاستيلاء على ماعز وأحصنة احدى حاميات الاعداء ، وسرقة ملابسها « المنشورة » .

ثم ان الاندفاع وراء الاخطار والمكاسب والبطولة وارتفاع عدد الولادات بالنسبة لمداخيل العائلات الشريفة المتدنية ، لا سيا في المناطق الآهلة بالسكان ، قد حملا اخوة الابكار على طلب المغامرة . يضاف الى ذلك ان الوحدات الاقطاعية ، المؤقتة ، لم تعـــد لتفي بحاجات الحرب المستمرة ، كما ان نظام قيادتها قد حال دون تأليف وحدات مرنة ومتجانسة . ولذا ، منذ أواخر

القرن الثالث عشر ، في « مستأجَري » فيليب لو بيل »، والاتفاقيات المعقودة بين ملك انكلترا او الفرق الغسكونية ، وحاملي الاقواس الفولاذية العاملين في خدمة فيليب دي فالوا والزمر المسلحة العاملة في خدمة ملوك اراغون وقشتالة دليل على اضطرار الامراء للجوء الى المرتزقة . وقد طبع هؤلاء الجنود المحترفون حروب القرن الرابع عشر بطابعهم الخاص. وقد قصد بعضهم مناطق نائية جداً بحثاً عن المغامرات : « فالفرقة الكاتالونية » قد حاربت في آسيا الصغرى وتوفقت الى احتلال الآتيك في السنة ١٣٠٩ ؛ وبعد ذلك ، تركت « الفرقة النافارية » في موريا ذكرى مرورها في محلة « نافارين » التي حملت اسمها (حوالي ١٣٧٥ — ١٤٠٠). ولكن حروب فرنسا وايطاليا هي التي جعلت من « الفرقة » منظمة دائمة ومن « دليل الطرق » مثالاً اجتماعياً .

لم يتميز دليل الطرق خلال الاعمال الحربية عن مجندي الملك . الا انه اختلف عنهم أثناء فترات المهادنة . فهو حينذاك رجل غريب عن بيئته وعاطل عن العمل يستحيل ارغامه على العيش في مجتمع منظم . وما ان عقد صلح بريتنيي (١٣٦٠)، كما يقول فرواسار، الذي عرف العديد من أمثاله ، « حتى اجتمع رفاق مساكين كثيرون ممن مارسوا مهنة السلاح وتشاوروا فيما بينهم وقر رأيهم على ان عليهم ، وان قرّر الملوك الهدنة ، ان يؤمنوا سبل معيشتهم ». وبعد مرور ثمانين سنة ، كان صلح أراس (١٤٣٥) وهدنة تور (١٤٤٤) فاتحة لطغيان « السلاخين الذين لم يتقاضوا منا أي اجر »، كما ورد في كتاب صفح منحه شارل السابع لأحدهم، فاضطروا بسبب ذلك الى الاعتصام بالارياف وتأمين « معيشتهم على حساب اعدائنا ورعايانا بسلب ونهب ممتلكات كل من يصادفون » .

وفيما يلي موجز لتاريخ « نغل موليون » الذي روى لفرواسار تفاصيل مغامرته : استلم أسلحته كفارس في بواتييه وانضم الى « الفرقة الكبرى » ؛ وهي مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل (كما يقول فرواسار) من الاشراف الفقراء او اولاد الزنى ، المغامرين المنتمين الى بلدان كثيرة ، الجامعين بين الجشع الغسكوني ، والشهوانية الفلمنكية ، والحدة الاسبانية، والتقلب الايطالي، والخشونة البريطانية ، والفظاظة البيكاردية ، والقساوة الالمانية ، وغطرسة الانكليزي « الذي لا يحترم سوى امته » . لكل زمرة كهنتها وصندوقها وشرطتها وعجلاتها وخيولها وخدامها وصناعيوها وبغاياها ؛ وقد رافق هؤلاء المؤمنين ، الذين أرادوا ان يجعلوا منهم صليبيين، مع ان بعضهم ، من امثال جون دي هرلستون ، ما كانوا ليتأخروا عن احياء الاعياد والولائم بثمن كأس مسروقة ، كهنة مرشدون يخدمونهم باقامة القداديس . وعلى الرغم من خضوع هذه الزمر لنظام حديدي وتشاركها دونما دمج ، فانها قد أكملت ، « متأخرة » ، نهب القصور والمدن والقرى في وادي الرون ، واستولت على « جسر الروح القدس » وألزمت البابا بدفع الفدية وجالت وصالت في أنحاء اللنغدوك وايطاليا الشمالية . اسهم النغل معها في هزيمة الجيوش الملكية في برينييه (١٣٦٢) ، ثم حارب في سانسير واوراي بقيادة هوغ كلفرلي الذي رافقه

حتى بلاد قشتالة وانتقل بعد ذلك الى خدمة « بيير الطاغية » والتقى برفاقه القدماء الملتحقين بـ « دوغكلين » . ثم استدعي أدلاء المعسكرين عند تجدد النزاع الفرنسي الانكليزي ، ولكن النغل قد خاض المعارك لمنفعته الخاصة في الدرجة الاولى .

وفي عهد السلاّخين ، لم يكن رودريغ دي فيلندراندو وفرنسوا دي سوريان وبرّينه غرسار وكثيرون غيرهم، ممن استبسلوا في معية جان دارك احياناً، دون ضباط الفرقة الكبرى شجاعة وبأساً . وقد حصل غرسار من شارل السابع على مكافأة كبرى لمحافظته على حصن « شاريته سور لوار » بحؤوله دون استيلاء جان دارك عليه . اما فيلبراندو ، فعلى الرغم من اخلاصه للقضية الملكية ، فقد سيطر على جنوبي فرنسا على رأس زمرة بلغت من التنظيم درجة قل نظيرها . وحين عجز شارل السابع عن القضاء على السلاّخين ، اسند الى ابنه لويس مهمة ايجاد عمل لهم ، دون افنائهم ، في اراضي الامبراطورية وعلى نفقة الامبراطورية .

كان تجنيد الفرق زمن الحرب وتخصيصها بتعويض بطالة عند اعلان الهدنة تدابير ظرفية ؛ الا ان الفرق ، في الواقع، قد حوّلت الوحدة الاقطاعية القديمة الى جيش محترف. كان الانتقال غير محسوس بين صاحب الاخاذة المأجور في أواخر القرن الثالث عشر والضابط الذي يستخدمه الملك وحده محدداً عدد الجندين ومدة الاستخدام وسلّم الاجور ، على غرار ما درجت عليه انكلترا منذ السنة ١٣٥٠ . وجاء الاصلاح الفرنسي في السنة ١٤٤٥ ، الذي شمل المناطق الجنوبية في السنة التالية، يبقي في الخدمة، في ايام الهدنة ، على عشرين فرقة من ١٠٠ حربة، أي ٨٠٠٠ فارس محارب، اذ ان الحربة وحدة ثابتة تضم ستة فرسان: فارس كامل السلاح، نبالان، حاملا خناجر وخادمان . الى هذه الفرق ، المعروفة « بفرق النظام الكبير » ، تضاف ، عند الاقتضاء ، فرق النظام الصغير او الاجر المحدود ، التي كان باستطاعة الملك « كسرها » على هواه . اما الاجر فمنتظم ، وتموله الضريبة الدائمة؛ حصص من اللحم والخضار والعلف؛ تعويض اضاءة ؛ مسكن يؤمنه الاهالي : وهكذا فان الاصلاح قد نظم ، في خدمة الملك ، مهنة المحارب. اما ما حدث في السنة ١٤٤٨ من تعيين ٨٠٠٠ نبال معفين من الضرائب قدمتهم القرى بنسبة « قوتها » بالرجال والثروة ، فلم يكن له من قيمة عسكرية بقدر ما كان له من مغزى : أعني به الدور الذي ترك للمشاة في المعارك . وقد سارت فرنسا ، في هذه التطورات ، على خطى الايطاليين الذين استخدم شارل السابع ثلاث فرق منهم في السنة ١٤٢٤ ، والسويسريين الذين استوحى لويس الحادي عشر نظامهم عندما شكل « زمره » البيكاردية ، اسلاف فيالقنا المعاصرة .

الفرقة الايطالية *Condotta*

منذ قرابة قرن ، داست ايطاليا جماعات من المحاربين المحترفين ، أعني بهم في الدرجة الاولى فرقاً من الطراز المألوف أشبه بالدول العسكرية الراحلة بقيادة بعض الاجانب كالاخ موريالي وهو شريف بروفنسي و داخ

صغير » سايق ، الذي غدا فارساً من فرسان رودوس ثم رئيس زمرة ثم قطع رأسه كالاشقياء في روما ؛ بعد « كولا دي رنيزو » ، والدوق « ورنر دارسلنجن » « عـدو الله والشفقة والرحمة » ؛ والانكليزي « جون هوكوود » و « فرقته المقدسة » ؛ وبريطانيو « سيلفستربود » الذي افتخر بنهب « شيزينا » . ثم سئمت الدول من الاجانب ، فاتجهت بأبصارها الى الايطاليين: فكان ذلك عهد الفرقة الايطالية الذي دام حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر . فالفرقة التي يجند افرادها من منطقة معينـة في شبه الجزيرة تتسم بطابع « قومي » صرف ، تدين بنشأتها الى شخصية رئيسها الذي يعطيها حتى اسمه ؛ ولما كان طامعاً بنبل المنشأ ، فانه يختار رجاله بين زبنه ويكافئهم كمأجورين لا كشركاء . ويحرص على انتاج دائم ، فيؤثر الاستغلال على التدمير ، ويبقي جماعته من ثم في وضع يتيح لهم القيام بالخدمة ويناقش مخدومه عقد الاتفاق الذي يحدد الواجبات المتبادلة ؛ فانما هو ملتزم يبحث عن افضل السبل نفعاً .

تتألف « الحربة » الايضاحية من ثلاثـة رجال فقط – ليس بينهم سوى محارب واحد – ولكن تشكيل الوحدات يخضع لنظام واضح : خمس حربات تؤلف مركزاً ، وعشر حربات علماً ، وخمس وعشرون وحدة تؤلف لواء ؛ عدد المشاة يقارب عدد الفرسان . وقـد بلغ من تدريب هؤلاء واولئك ومن صفات ضباطهم وقادتهم ان شهرة المنتمين الى الفرقة الايطالية ، على الرغم من تلون ضربت به الامثال ، قد طبقت آفاق الغرب ، ابتداء من جيوفاني دلى اوبالديني (القرن الرابع عشر) حتى برتولوميو كوليوني وفرنسسكو سفورزا (القرن الخامس عشر) ، مروراً بـ « مالاتستا » وكرمنيولا وبيكشينينو . فحين عنّ « لشارل الجسور » ، ولعله اعلم امير بين امراء فالوا بالشؤون العسكرية ، ان يعيد تنظيم قواه ، استشار الايطالي « كمبوباسو » واستند الى النظم السائدة في ايطاليا وفرنسا ووضع مبادىء تنظيمه العظيم الذي يعود الى السنة ١٤٧٣ . ولكنه مع ذلك كان متأخراً : اذ ان السويسريين ، الذين أحيوا الكتيبة القديمة باعتماد مربع يجمع ١٦ حربة في كل جهة من جهاته ، قد أنبأوا بذلك انهم سيمسون جنود المستقبل . ومهما يكن من الامر ، فان الجندية لم تعد ارتجالاً ، واذا سلّمنا بأن النسب قد يوفر الاعداد لها ، فانه لا يوفر لها الجدارة اللازمة : فهي مهنة ، ويجب ان تلقن كمهنة .

الفن العسكري

اكتسب الفن العسكري ، بالمقابلة ، مميزات جديدة : ازدياد قوة النـار ، وتعاظم دور فرق المشاة ، والميل الى تحقيق التعاون بـين « الاسلحة » المختلفة ، وتنسيق حركات الجنود ابان الاعمال الحربية . فمنذ ان توصل الغرب ، في القرن الثالث عشر ، الى تمحيص النطرون ومزجه ، بالنسب الملائمة له ، بالكبريت والفحم ، استطاع اسماع صوت البارود . فحققت الفلاندر ذلك منذ السنة ١٣١٤ ، ثم استعيض تدريجياً عن الفخاخ بالقطع النارية الخفيفة وبالمدافع القصيرة الضخمة ذات الفعالية في مهاجمة المراكز المحصنة . اجل لم تسفر القنابل القليلة التي أطلقتها مدافع الانكليز في كريسي في السنة ١٣٤٦ الا عن اثارة دهشة الفرنسيين ، ولكن ميلانو ، في السنة ١٤٤٧ ، استسلمت لفرنسسكو سفورزا بعـد

قصفها بالمدافع ؛ وقد أسهم مصنع ترميم المدافع الذي أحدثه بسونو و « بور » و « جيريبو » في احراز النصر الذي حققه الفرنسيون في « كستيون » (١٤٥٣) ؛ ونظم لويس الحادي عشر وشارل الجسور « زمر » مدفعيتهم، وظهرت في السنة ١٤٦٧، في معركة « مولينا شيلا » مدافع الجبال الخفيفة . الا ان كلفة السلاح الجديد الذي ارتبط انتاجه بتوسع استثمار المناجم، وصعوبة تحريكه ونقله قبل اختراع مسنده في اواخر القرن الخامس عشر ، قد حالتا دون انتشاره . اضف الى ذلك ان رجال الحرب لم يؤمنوا على العموم بمستقبله ، شأنهم في ذلك شأن « جان دي بوي » ولا سيما ماكيافلي الذي اعتبره مضراً أكثر منه مفيداً .

وأهمل هؤلاء الرجال أنفسهم، زمناً طويلاً ، دور فرق المشاة . الا ان ملك انكلترا ادوارد الاول قد برهن عن براعته اذ جعل قوة الرماية ومجالها ثلاثة اضعاف ما كانت عليه باحلاله، محل القوس القديم والقوس الفولاذي ذي المقبض ، « القوس الطويل » « الغالي » البالغ مترين ارتفاعاً، وباللجوء قبل سواه الى خطة انزال الفرسان عن جيادهم . كان الفرسان ، وفاقاً لهذه الخطة ، بمأمن من الضربات أثناء قيام النبالين في بدء المعركة بعملهم الذي يحطم قوة العدو الهجومية ؛ وبعد تحقيق هذه النتيجة يمتطون صهوات جيادهم لتفكيك وحدة جيش الاعداء . ولا تفسر هزائم الفرنسيين ، في كريسي وفرنوي والمعارك الاخرى التي تخللتها ، بفارق الشجاعة او العدد، بل بتفوق النبالين الانكليز من جهة ، ومن جهة الفرنسيين بسوء توزيع الجنود قبل المعركة وباعتماد انزال الفرسان عن خيولهم دون هدف معين . اضف الى ذلك ان المشاة الانكليز ، في فرنوي ، قد تحركوا وهاجموا الفرنسيين جانبياً ، بينما ما زال « جان دي بوي » ومنافسوه يعارضون كل مناورة تصدر عن المشاة . ولكن التجديد لم يتجاوز هذا الحد؛ فقد تأخر الانكليز في استخدام الفرسان لأعمال المشاة ، دون ان يتحلوا بمرونتهم على كل حال ، فذاقوا الامرين، في فورميني ، من جرأة مناورات الكونت الشاب دي كليرمون .

اما سر هذا الفن العسكري الجديد فهو حذاقة القائد وسرعته ومهارته . فان العقلية اللاتينية،التي تحلت بالتعاليم الموروثة عن فيجيس، قد جعلت من الجندي في الفرقة الايطالية رجل حرب كامل الصفات . وان تفسيراً حرفياً لاحدى أهاجي مكيافلي قد يحمل على الاعتقاد بأن التظاهر بغير الحقيقة والمفاجأة والكمين والحيلة والمساومة ليست سوى « مداعبات » ؛ ولكن الواقع هو ان الضباط ، قد حافظوا على الجنود الذين يستثمرون خدماتهم ، وآثروا ارغام العدو على المناورة والجاءه الى وضع يائس على انهاكه وانهاك انفسهم في معارك متعاقبة تكلف ثمناً باهظاً .

احتل المشاة ، وفاقاً لهذا الفن ، وسط الجيش ، وأحاط بهم الخيالة عند الجناحين والفرسان في المؤخرة . ولكن الايطاليين لم يقاتلوا سوى الايطاليين ، دون اتصال بالخارج ، وبسلاح كان قد أكل الدهر عليه وشرب حوالي السنة ١٤٧٠ ، فأتاحوا للسويسريين فرصة الاستفادة من دور المشاة الهام . سُلّح الطابور السويسري بحربة اطول من رمح الخيال وناور بحركة عسكرية

سريعة ابان احتدام المعركة . فزعم جان دي بوي ان ذلك خطأ ونسب اليه هزيمة السويسريين في « سان ـ جاك » في السنة ١٤٤٤ . ولكن غرانسون وموراً سيفندان مزاعم المخطط الحربي التقليدي . وهكذا فقد احتلت كافة مقومات الجيش العصري مكانها قبيل الحروب الايطالية .

الحرب البحرية

اذا صح ان الحرب البرية قد غدت مهنة واتجهت لأن تصبح تقنية قائمة بذاتها ، فان ذلك يصح بأولى حجة عن الحرب البحرية . ومرد ذلك الى ان نوع حياة اهل البحر وذهنيتهم يجعلان منهم وسطاً اجتماعياً خاصاً ، والى ان الفن البحري ، وهو لا يزال اختبارياً جداً ، يقتضي دأباً طويلاً وجولات توجبها المهنة ، والى ان المعركة البحرية ربما تتطلب جرأة وسرعة لا تتطلبها المعركة البرية . ومرد ذلك بصورة خاصة الى ان الملوك ، الذين ما عادوا ليكتفوا بمصادرة مراكب التجارة والصيد في زمن الحرب ، أرادوا ان يقتنوا نواة اسطول حربي على الاقل تكون ملكاً خاصاً بهم . ففي وقت واحد ، وفي كافة المناطق البحرية ، تنظمت ، باسم « امارات البحر » ، قيادات بحرية تمتعت بسلطات قضائية ايضاً : امير قشتالة وامير اراغون وامير البرتغال ؛ وكان لكل من فرنسا وانكلترا اميران : امير بونان في المتوسط وامير فرنسا في المانش ، للاولى ، وامير الشمال وامير الغرب للثانية ، ويفصل بين قيادتيهما مصب التاميز . وكان لدوقية بريطانيا وكونتية الفلاندر ودوقية غويان امراؤها ايضاً .

لم يستطع ملك انكلترا سدّ حاجته بالبواخر التي قدمتها له « المرافىء الخمسة » تقليدياً ، فبنى منها بماله في « سوثمبتون » ؛ وكان للملك فرنسا دار صناعة في روان ، هي « دار السفن » وقاعدتان رئيسيتان هما هارفلور ولاروشيل . اما معدل عدد البواخر ، وهو يختلف باختلاف العهود ، فربما بلغ الخمسين قطعة في كلا البلدين ومعظمها من القوارب الشراعية المسطحة والقوارب الشراعيــة ذات المجاذيف . ودون ان يهمل الخصمان مساعدة حلفائها البحرية ، أي الاسطول القشتالي والجنوي للاول والاسطول البرتغالي والاراغوني للثاني ، فقد درجا على طلب مساعدة مراكب مأجورة ، ايطالية بنوع خاص . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحاجة ماسة ، في كل البلدان ، لمنح قباطنة السفن التجارية اجازة بالتسلح في رحلاتهم وبمهاجمة قطع الاعداء : وهـذا شكل من أشكال مهنة الحرب يماثل ، في البحر ، ما كانت تعتمده فرق المرتزقة في البر . كان القرصان عوناً على الاعداء، ولكنه في زمن السلم يلحق الاذى بالحلفاء ايضاً ، شأنه شأن المحارب المحترف الذي كان يتحول ، بحسب الظروف ، من اجير امين الى قاطع طرق ومن قاطع طرق الى اجير امين . وفي كلا الحالين كانت المكاسب عظيمة .

مكاسب الحرب

الاجر والغنيمة والفدى ، تلك هي مكاسب الحرب « الدسمة » ومرتزق المحترفين الذين يرغبون في ان تطول الحرب . فقد كان جواب « جون هوكورد » لبعض الرهبان الذين تمنوا له السلام : « أتريدون ان يميتني الله جوعاً ؟ فأنا اعيش من الحرب كما تعيشون انتم من الصدقات » . اما معاصره « ايمريغو مارشيه » فقد عبر لفرواسار عن

سفه لانقطاعه باكراً عن « عمل الخير » أي « عن السلب والنهب » . : « آه كم كنا سعداء حين كنا نسير ممتطين خيولنا ونجد في الارياف كاهناً غنياً او على الطرقات تاجراً ثرياً ... كنا اذن نفرض الفدية على هوانا . وكنا كل يوم نكسب مالاً جديـــداً » . وخلص الى القول : « كانت حياتنا شيقة كيفما نظرنا اليها » .

« نظر الجنود الى اجورهم نظرهم الى كسب تجاري » كما تحقق من ذلـك « ايليا سيلفيو » . وسبب ذلك ان الحرب كانت صفقة تجارية يجريها مستثمرون يحملون اسم الادلاء او السلاخين او القراصنة ؛ واسم « *Compagnis* » (فرقة – شركة) مشترك بينهم وبين التجار . والشركاء (الرفاق) انما يعملون معاً ، متكافلين متضامنين في المربح والخسارة . اجل هنالـك مناطق أوفر كسباً من غيرها ؛ ولكن ليس ما يعادل الطرق الكبرى التي يسلكها المسافرون ، وليس من دولة نظير فرنسا « ارضها عذبة ، يطيب العمل فيها ، وتملأها القرى الكبيرة والمناطق الجميلة والمروج الغناء والخمور اللذيذة الضرورية لتغذية الجنود وانعاشهم » . ولذلك فان أفراد الفرقـة الكبرى ما لبثوا ان نفروا من العيش في بورات اراغون .

تأسست جمعيات القراصنة « لتجمع الغنائم ، الواحدة من الاخرى » ونهجت عادات مماثلة لعادات التجار . وان العرف ، الذي كرسته العقود واجتهادات محاكم وحدات الفرسان او امارات البحر ، قد نظم بدقة توزيع الغنيمة . ولم يختلف سوى في نقاط تفصيلية بين البندقيـة وجنوى ومرسيليا وبرشلونة والمرافىء البريطانيـة والنورمندية والانكليزية ومياه بحر الشمال البعيدة . فبالاضافة الى الحصص التي يصيبها ربح نسبي ، كان مجرد الاشتراك الفعلي في العمـــل يعطي حقاً في المكسب يختلف باختلاف مرتبة المشترك . وقد حدث ان طالب بالمكسب بحارة شاهدوا من بعيد عملية استيلاء على احدى السفن ؛ وحدث احياناً ان استصحب كل قرصان ما استولى عليه ، اما ما كان يحدث في الغالب فهو القسمة .

وغالباً ما كانت هذه المكاسب مرتفعة جداً . فليس من يجهل عمليات الجنويين والكاتالونيين الرابحة في المتوسط ؛ ولم يكن المانش طيلة حرب المئة سنة ، وبحر الشمال ابان نزاعات المدن الهانسية ، اقل مورداً للارباح . اما في البر فان رجال « الامير الاسود » العائدين ، في السنة ١٣٥٥ ، من منطقة تولوز ، « وهي من أغنى مناطق العالم ، ولا يزال سكانهـــا يجهلون ما هي الحرب » ، قد نقلوا من الغنائم « ما جعل أحصنتهم لا تقوى على التقدم » . وما كان « الدليل » « سيجين دي باديفول » لينتقل من مكان الى آخر الا مصطحباً عربته ذات العجلات الاربع كي ينقل عليها مغانمه . ودامت الحال معه على هذا المنوال حتى أوعز ملك نافار بسمّه ووضع يده على ثروته . ولكن بئس المصير مصير المدن التي لم تفد نفسها بالمال ، كليون او افينيون مثلاً ، تجنباً للسلب والنهب ، او لم تجند فرقاً تدافع عنها كا كون ومتز ، او لم يمدّ اميرها مسبقاً ، كما أهمل ذلك هنري دي تراستمار في السنة ١٣٦٥ ، عطاءات مرتزقته وتموينهم ؛ اذ ان الذعر نفسه قد أوحاه الجنود النظاميون والادلاء على السواء . ودرجت العادة احياناً ، قبل الهجوم ، على

أجلاء من لا يقوون على المقاومة من نساء واطفال ، « محافظة على شرف الكياسة » : كما حدث لسكان روان او بونتواز حين نزحوا عن مدينتهم والتجأوا الى باريس في السنوات ١٤١٨ - ١٤١٩ . وكان الاستيلاء على مدينة ما يعني اباحة سلبها ونهبها سلباً ونهباً كاملين. فكانت الحرب من ثم غذاء للحرب .

كانت الفدى ما يعوّل عليه في المغانم وما يسعى اليه الساعون وراء المكاسب : فقد خشي هنري الخامس ان يفسد انتصاره في ازنكور اذا ما اتاح لرجاله الوقت الكافي لجمع الاسرى ، فأصدر من ثم امره بتقتيلهم ولم يستثن من هذا التدبير سوى ارفعهم مكانة . وهنالك بعض الفدى المشهورة : فدية الملك جان، وفدى دوغكلين ، وفدية الكونت دي دينيا ، وفدية شارل دورليان . وقد حددت اجتهادات كثيرة مصير أسرى البحر او البر : الاسير ملك آمره ويجب ان يعاد اليه اذا ما فر وقبض عليه شخص ثالث ؛ وتحدد قيمة الفديـة بالمناقشة بين الأسير و « سيده » ، وفاقاً لتسعير متعارف . واذا قضى شرف المالك ومصلحته باحسان معاملة أسيره وبفرض فدية عليه تتلاءم وامكاناته ،فان هذا الاخير يعتبر « مرذولاً وحانثاً اليمين » اذا لم يسع جهده للدفع ؛ وغالباً ما ينعم عليه بحرية مؤقتة كي يجمع القيمة اللازمة . وانما ما أكثر الذين لاذوا بالفرار دون ان يدفعوا فديتهم ! الا ان الاسير كان مادة دين وقد أمكن بهـذه الصفة الاتجار به : ملك جاك كور ، بالاشتراك مع دونوا ، اسيرين انكليزيين عاليي الشأن ، قدم احدهما لجان دي بوي الذي لم يجر عليه ذلك سوى نفقات معيشته . ولم تدر الفدى كلها ما درته فدية الملك جان التي لم يسدد الا نصفها فحسنت مع ذلك وضع الخزينة الانكليزية طيلة سنوات. اما فدية السيد « دي شاتوفيلين » ، التي حددت بـ ٢٠٠٠٠ قطعة ذهبية ، فلم تدر على الدائنين سوى دعويين طال عهدهما وانتهت بعائلة الاسير الى الافلاس . وبلغ من افتقار أسير آخر انـه عجز عن تسديد ديونه واضطر الى التخلي عن قصره لجاك كور . فكانت الحرب من ثم صفقة رابحة شريطة الحصول على مغانم وافرة وعدم الوقوع في الاسر .

٢ ـ البلايا العامة الكبرى

ان الحرب ، وهي عمل الانسان ، قد زادت في قلق حياة هددتها باستمرار ضربات عمياء كالتها طبيعة لم تقهر بعد . اجل لقد كان للمسافر الحامل اجازة مرور قانونيـة بريق امل في تجنب التوقيف والفدية على شواطىء وطرق فرنسا أثنـاء الحرب ، وفي معابر « الجورا » و « الالب » ، وفي مياه المتوسط وبحر الشمال . وحدّت كذلك عادة الثأر وتدابير الانتقام ، بعض الشيء ، من خطر القراصنة ، ومخاوف الوقوع في العبودية في البلاد الاسلامية . ولكن عبثاً انيرت الرؤوس والمرافىء، اذ ان غرق السفن لم يكن شيئاً نادراً : فان سفناً كثيرة كانت تغرق ، عند رأس « الراس »، في كل شهر من أشهر الشتاء ، وكان سكان الشواطىء يستفيدون من حطامها . وكان إخطاء الطريق ، في البحر كما في الجبال ، ايذاناً بقضاء محتوم .

اضف الى ذلك ان اخطار الماء والنار واخطار المرضى والجوع كانت تحدق بالانسان في عقر داره . فان كتاب « يوميات بورجوازي باريسي » عاصر معاهدة طروا واعمـــال جان دارك البطولية ليس سرداً لما اتُفق على تسميته بالاحداث التاريخية، بل ذكريات ابن مدينة اقضت منه المضجع تقلبات الطقس وحالته الصحية وهاجس التموين . واتت الحرائق ، في مـدن انكلترا وفرنسا والمانيا وفي كل مكان ، على احياء كاملة ، وساعدها على ذلك مواد بناء قابـــلة الحريق وتكدس المنازل فوق بعضها وهزال وسائل مكافحة النار . وعرفت تولوز نفسها ثلاثة حرائق في النصف الاول من القرن الخامس عشر مع ان القرميد كان آخذاً في الحلول فيها محـل الخشب والسياع. ولكن الحرائق الكبرى اخذت تندر تدريجياً، حتى في مدينة خشبية كلها، كـ «روان» مثلاً ، بفضل انتشار الاغمية الآجرّية والاردوازية : اثنـان في القرن الرابع عشر وثلاثـة في القرن الخامس عشر مقابل ثلاثة عشر في القرن الثالث عشر . وكلت كل مدينة لبعض ابنائها (شيوخ البلد) امر مكافحة النار ، كما حرص في كل مكان على العناية بعيون الماء والاكثار منها. غير انهم قد اتقوا بصعوبة اضرار الماء ، اي اضـرار المطر الذي يتلف المحاصيل ويفيض الانهار ويغمر بالمياه دورياً الاحياء المنخفضة في تولوز وبوردو وليون وباريس وروان ولندن غنت وانفرس، وينتزع الجسور والطرقات على طول السيول المتوسطية . ولم تكن مياه البحر اقل ضرراً ، فهي قـــد غمرت مناطق « الفنس » الانكليزية الخصبة في السنة ١٣١٤ – ١٣١٥ وخربت ، تسع مرات على الأقل بين السنة ١٤٠٤ والسنة ١٤٥١ ، سدود« الفريز » في الفـــلاندر ، فارجعت بذلك الشاطىء الى الوراء وسببت من الخسائر الفادحة ما ارغم « جان سان بور» على ان يتولى بنفسه ، في السنة ١٤١٠ ، مراقبة اعمال الترميم . وقد غمرت آنذاك بعض القرى غمراً نهائياً .

ولكن شر الضربات ، بامتداده الجغرافي كما بنتائجه ، كان الاوبئة . فقد عجزت التدابـير الصحية واعمال الوقاية وحتى الطب الذي نميل الى الاعتقـــاد بتقدمه ، لا سيما في زمن الحرب والانحطاط الاقتصادي ، عن حصر اضرارها او عن تحرير الجماهير من هاجس « الفناء » . وقـد اخفت هذه الكلمة الاخيرة امراضاً متنوعة جداً ، ولكن الطاعون الذي نقلته السفن الجنوبية من الشرق في السنة ١٣٤٧ قد اجمل كافة الاهوال . لقد تكلمنا في السابق عن اتساع نتائجه التي شملت اوروبا جمعاء والتي نجمت عن انواعه الثلاثة : الجلدي والرئوي والمعوي . وعاش البـاقون على قيد الحياة من الشبان والفتيان في قلق مُقض دائم بسبب ارتدادهم فرقاً من ذكره ، وقـــد كتب احدهم : « اكتب وانا انتظر الموت بين الاموات » . ويعود ذلك الى ان الطاعون الاسود قد نم في الدرجة الاولى عن حالة صحية سيئة قد تزداد سوءاً بين ساعة واخرى، واظهر في الدرجة الثانية عجز وسائل الوقاية .

سبق لاوروبا ان عرفت قبله ، بالاضافة الى العداوى المحلية ، اوبئة اخرى شاملة كالزحار ، وضروباً اخرى من العداوى ، في بلدان الشمال ، بين اسوج واللوار، حوالي السنة ١٣١٥ . وبعد الوباء الكبير الذي انتشر في السنة ١٣٤٨، شاهد الباقون على قيد الحياة تجدد البلية في السنوات

١٣٥٨ – ١٣٦٠، و١٣٧٣ – ١٣٧٥ ، وانتشارها انتشاراً اوسع بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٠٠ ؛ ففي السنة ١٣٩٩ ، كانت عمليات الدفن دائمة في باريس ، وحظر على المنادين اعلان اخبارها . وفي السنة ١٤١٤ والسنة ١٤٢٧ حجب السعال الديكي صوت الوعاظ اثناء القداديس . وفي السنة ١٤٣١ فتك الطاعون نفسه بالوف الضحايا من الشبان ثم عاد وانتشر انتشاراً شاملاً ، مع الجدري ، في السنة ١٤٣٨ . وبعد مرور ثلاثين سنة ، لم يبق من محل لقبر واحد ، اثناء « فناء » آخر ، في مقبرة الابرياء في باريس . وقد توصل بعضهم الى تقدير ضحايا الطاعون وحده ، في انكلترا ، بين السنة ١٣٤٩ والسنة ١٥١٧ ، بثلث مجموع الوفيات . ولما كان الطاعون قد شمل اسبانيا وايطاليا والمانيا والبلدان السكندينافية ، فلا غرابة والحالة هذه اذا ما استمر الانخفاض في كثافة السكان حتى القرن السادس عشر .

بيد ان الحكومات والشعوب قد حاولت كافحة الامراض بوسائلها الهزيلة . كان الاطباء قليلي العدد : ففي السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ما كان « الحلفون المرموقون » الثلاثون في باريس ليرضوا بالاهتمام بالجراحة ، ولو امن لهم ذلك ثروة طائلة ، لا سيما وانهم كانوا يتقاضون « مرتباً كبيراً » يتناسب « ومنصبهم الكبير » ؛ وتخلى الجراحون – الحجامون بدورهم عن عمليات صعبة كاستخراج الحصى وحزّ القروح « لحزازين » ليس ما يعادل جسارتهم سوى جهلهم . وعلى الرغم من التقدم الذي نجم عن اعتماد التشريح في الجامعات ، فقد تدنى مستوى الطب بعمل المتهنين غير القانونيين . وقد لوحق منهم ثلاثة وعشرون دفعة واحدة امام الحاكم في باريس في السنة ١٣٣٢ . وارتفعت الشكوى في القرن الخامس عشر من القوابل اللواتي مارسن مهنتهن دونما تفويض بذلك من القاضي .

على الرغم من علم امثال « غي دي شولياك » طبيب اكليمنضوس السادس ، او « جنتيلي دا فولينيو » ، او علماء كلية الطب الفرنسية ، مرتدي القلانس المربعة ، الذين استشارهم الملك ، في السنة ١٣٤٨ والسنة ١٣٧٣ ، حول الطاعون ، فان حياة السكان – حتى العظماء منهم الذين كانوا يموتون في سن مبكرة على العموم – لم تكن قط في ايد جديرة بالثقة . اكتفى الطب بالتعليم القديم ، الذي شوهه جدل متكلف ، وببعض الاختبار ؛ ولم يجرؤ احد ، الا في اسبانيا وايطاليا ، على الاستعانة صراحة بالتعليم اليهودي والعربي . وقد فسروا ظهور الطاعون ، بتصادم الكواكب وسوء سمعة المريخ . اما المداواة المعتمدة فكانت اما مضرّة ، كتجنب كل تهوية ، وأما غير ذات فعالية ، كالمطهرات العطرية ، واما داخلة في التدابير الصحية العادية البسيطة ، او الوقائية الخفيفة ، او العلاجية العديمة التأثير .

غير ان التدابير الصحية العادية كانت افضل من الطب ، والتدابير الصحية الخاصة افضل من التدابير الصحية العمومية : وكان لزاما ان تكون الحياة منظمة جداً كي تقاوم الطاعون والاطباء . كانت الملابس ، من صوف وفراء ، جيدة وكافية ، ولكن التدفئة ما زالت غير كافية لا سيا في الأرياف . والبيوت اعوزها النور ؛ واستخدم الورق المطلي بالزيت بدلا من

الزجاج الذي ما زال مادة بذخية حتى في المدن . وما كانت المساكن الريفية لتتلقى نور الشمس الا بواسطة الباب في اغلب الاحيان ؛ واضطر الصناعيون اليديون ، في المدن ، الى العمل على مقربة من الشوارع التي تفتقر هي نفسها الى النور بسبب تجهيزات الوقاية من المطر والحرارة فوق المداخل . وكانت الحمامات العامة مؤمنة نسبيا حتى في مدن من المرتبة الثانية ، ولكن المساكن الخشبية آوت الى جانب الآدميين جرذاً هي أخطر ما ينقل الطاعون ، وكثيراً من البراغيث التي يرشد « المقتصد الباريسي » الى طريقة لافنائها يعتبرها واجباً يومياً . وليس من ريب في ان التدابير الصحية العامة قد افادت من دروس الطاعون الكبير : فمنذ السنة ١٣٥٠ حظّر تجول الخنازير في شوارع باريس ؛ وبعد مرور ست سنوات ، نظم فيها القاضي « هوغ اوبريو » اول بلاعة (مجرور) تحت الارض ؛ وانما توجب، حتى القرن السادس عشر ، اصدار اوامر متكررة بارغام السكان على نقل اقذارهم الى المطامير العامة بدلا من الالقاء بها في الشارع او في نهر السين ؛ « ومن العجب العجاب ، كما قال احدهم بسذاجة في السنة ١٤٠٤ ، ان تشرب منه الاجسام البشرية دون ان تتعرض للموت او للامراض المستعصية » .

اما الواقع فهو سوء التغذية ، قبل جوّ المدينة التي اتسعت لمروج وحقول فسيحة ، وقبل وخامة المساكن التي اثبتت بعض الحُسبان كفاية الهواء فيها ، ما سهل انتقال العدوى الوبائية ، لان الارياف نفسها لم تنج منها . عادات غير صحية : فلا ملعقة فردية ولا صحيفة فردية . ونظام غذائي غير معتدل : كثير من المقددات والنشويات والمرقيات والدهنيات والتوابل ؛ وقليل من المآكل الطازجة المغذية . ونقص في الاغذية بنوع خاص ؛ اذ ان انتشار الاوبئة قد صادف ، في الزمن ، المحول والمجاعات .

ان ما نعرفه عن تاريخ المحول يفوق ما نعرفه عن وطأتها وامتدادها . فهي ، سواء كانت محلية او شاملة ، قد نجمت على العموم عن عدم اعتدال الفصول وغالباً ما اشتدت بفعل اضرار الحروب . فلنقصر الكلام هنا على مجاعتي القرن الرابع عشر الكبريتين : هطلت في السنتين ١٣١٤ و ١٣١٥ امطار طوفانية عاقت زرع الارض في فصل الخريف وحالت دون نمو الحبوب ونضجها ، بينا قضى فصل الصيف البارد على الامل بجمع الملح وقطف العنب . فحين نضبت كافة الموارد بين روسيا وجبال البيرنيه ، ارتفعت الاسعار وبلغت معدّلات غير اعتيادية ، وانتشرت المجاعة مسببة اوبئة خطيرة . وبعد مرور ستين سنة ، جاء دور اوروبا الجنوبية : اصابة الكروم بالصرّ في السنتين ١٣٦٥ — ١٣٦٦ ، حصاد سيء في السنة ١٣٦٨ ؛ وفي السنوات ١٣٦٩ و ١٣٧٠ و ١٣٧١ ، جفاف وحصائد سيئة وموتان ؛ وفي السنة ١٣٧٤ ، قضى الجفاف ، و « الامطار والعواصف » من بعده على كل شيء : فظهر الطاعون مرّة اخرى ، وزادت الظروف السياسية والعسكرية في خطورة الفاقة وارتفاع الاسعار ؛ في اللنغدوك صودرت المواد الغذائية لاجل الجيوش ؛ وفي ايطاليا اتخذت الادارة البابوية من تصدير الحبوب الى الدول الاخرى في شبه الجزيرة سلاحاً دبلوماسياً . وفي كل مكان استفاد المضاربون من هذا الوضع السيء ، امام عجز

السلطات العامة ، السيئة التنظيم ، المفسدة بالرشوة والمسؤولة ، فوق كل ذلك ، عن نظام جبائي جائر . اجل لم تخل تدابير ممثلي غريغوريوس الحادي عشر من الجرأة : فهم قد حاولوا منع المضاربة واوجبوا ، تحت طائلة الغرامة ، تقديم تصريح بالمخزونات ، وارادوا ، بعد احصاء الموارد والحاجات ، تنظيم توزيع اسباب العيش واخضاعها لتسعير محدّد . ولكن صرامة طريقتهم قد اخفقت امام عدم ادراك مرؤوسيهم وتصلب الانانيات الاقليمية .

تفاقمت في كل مكان روح الاثرة المحلية،وزاد في حدّتها قلق مقض من نقصان المواد الغذائية . فازداد مثلاً التنافس التقليدي بين باريس وروان في تجارة الحبوب طيلة ايام المحول : خلال زمهرير السنة ١٤٠٨ – ١٤٠٩ الذي جمّد مياه الانهر في كافة انحاء فرنسا الشمالية ،وقد رافقته المجاعة والطاعون ، او حين تجدّدت الحرب الانكليزية فزادت في هشاشة اسعار المواد الغذائية ، او اثناء البؤس الذي طال امره منذ السنة ١٤٣٧ حتى السنة ١٤٣٩ والذي يجدر قراءة وصفه في ما تركه بورجوازي باريس والمؤرخون البورغونيون .

تعرضت الحياة اذن لازمات دورية كبرى تخللتها ، في تعاقب مطرد ، فترات هدوء نسبي ومراحل صعوبات عملية . وكان الانسان تحت رحمة المحاربين والاطباء والمضاربين وبلايا الطبيعة . فاذا لم يكن خبزه مؤمناً ، هل كان باستطاعته شراؤه يا ترى ؟ بهذا السؤال ننتقل الى فقدان التوازن الاقتصادي .

٣ — فقدان التوازن الاقتصادي

انه لاسهل علينا ان نتكلم عن فترات ازدهار اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفترات انحطاطه وانخفاضه ، وتقلباته القصيرة الامد ، من ان نضع خطوط بيانية تبين اتجاهاته العامة .

اتجاهات الاقتصاد

ان انكلترا ، الغنية بوثائقها المالية ، تبسط امام اعيننا حركة صادرات صوفها الخام واجواخها وحركة اموال خزانتها الملكية . وقد حاول بعضهم وضع بيان بالاسعار فيها ، كما حاولوا ذلك في هولندا وممالك راغون وقشتالة ونافار . فنحن نعرف حجم النبيذ الغسكوني المصدّر في بوردو والمستورد في انكلترا . وقدرت – تقديراً خاطئاً احياناً – اهمية انتاج الجوخ في ايبر استناداً الى وزن الرصاص المستخدم لوسم الاجواخ . ويعرف العلماء اسعار الحبوب والاجواخ والعظم في تولوز والقمح في صقلية والجاودار في كونغسبرغ خلال القرن الخامس عشر ، ونصيب تجارة المدن الهانسية في انكلترا وحجم صيد الرنك والتجارة البحرية في « دياب » . ورفعت المصادر الجبائية النقاب ، بصورة غير مباشرة ، وفي فترات يتفاوت مداها ، عن نشاط مرسيليا وجنوى وبرشلونة ولوبك ولا سيا همبورغ . واتاحت سجلات بعض الصيارفة البروجيين وتجار اللنغدوك ورجال الاعمال الايطاليين تتبع

تقلبات فوائدهم بينا اخذت بعض حسابات السيادات العلمانية والكنسية ترفع النقاب ، في كل مكان تقريباً عن ترجرج قيمة موارد الاراضي . فاستخلصت من كافة هذه الارقام، وكلهاجزئي وناقص ، حقيقة انحطاط بعيد المدى باستطاعتنا كشف اعراضه وتشخيص طبيعته . ان هذا الانحطاط الذي نهضت منه ايطاليا بسرعة وتسرب الى انكلترا ببطء،وكان اطول بقاء وربما ابعد عمقاً في فرنسا التي خربتها الحرب ، قد ارتدى مظاهر اقليمية متنوعة جداً ، وتفاوت ايضاً بين شكل وآخر من اشكال النشاط الاقتصادي واصاب الاوساط الاجتماعية المختلفة اصابات مختلفة جداً ايضاً . اما النتيجة الرئيسية للازمات التي تجـددت تكراراً فكانت ، كل مرّة ، بعض الهبوط في الاتجاه الاقتصادي كما يثبت ذلك شمول اتفاق الخطوط البيانية المختلفة ومشابهتها في الرسم الاسنان المنشار واتجاهها العام نحو الانخفاض ، لا سيما في القرن الرابع عشر .

والحقيقة هي ان وحدة عوامل الانحطاط وترابط المجتمعات الغربية ، قبل استئثار الاقاليم باقتصاداتها الخاصة ، قد فرضا تعميم الازمات دون ان يفقداها فوارقها المحلية . افلا يتوجب علينا والحالة هذه البحث عن السبب الاول لانقلاب الوضع في فقدان التوازن ، الذي لاحت بوادره منذ قبل نهاية القرن الثالث عشر ، بين السكان والانتاج الزراعي ؟ فواقع الارتفاع النسبي في كثافة السكان ظاهرة كان ايقاف اصلاح الاراضي ، وجمود التقنية الزراعية العاجزة عن تحسين الانتاج ، وخمود حركة التعمير ، دلائلها ونتيجتها في آن واحد . واذا كان الطاعون الكبير قد ابعد ، بما فتك به من ضحايا ، شبح تكاثف السكان طيلة اربعة قرون كاملة ، فان التوافق بين العرض والطلب ، الذي كان من شأنه - ولعله حقق ذلك في بعض البلدان - ادخال تحسين مؤقت على الوضع الاقتصادي ، لم يلبث ان فقد ، لا بفعل حالة حرب شاملة ودائمة فحسب ، بل خصوصاً بفعل ما طرأ على الاوضاع النقدية من اضطرابات لم يعرف لها نظير من قبل .

لم يحفظ التاريخ من هذه « الانقلابات » سوى ما بلغ منها منتهى الشدة : اعني بها فترات انهيار بعض النقود - في فرنسا بين السنة ١٣٣٦ والسنة ١٣٤٣ ، وبين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٦٠ ، وبين السنة ١٤١٦ و ١٤٣٠ - التي كان لها صداها وراء الحدود في معظم الانظمة النقدية ، والتي عقبتها اصلاحات جزئية افضت الى استقرار الاوضاع ، وقد حاول تفسيرها : بحاجات الحكومات العسكرية ، والسياسية التي كان هبوط النقد لها بمثابة افلاس جزئي مموّه ؛ وبالتسهيلات المقدمة لتجارة التصدير التي يمكن ان تباع موادها الغذائية بسعر اوفق؛ وبضرورة اجتذاب النقود الاجنبية ، الذهبية والفضية منها ، الى مصانع السك والمحافظة على مكاسب الاسياد . ويرد غموض المسألة الى تعقيد الانظمة النقدية التي قام فيها النقد، المعترف به قانوناً في التعامل ، على قطعة الفلس الصغيرة التي خفضت باستمرار واستند الى قيمتها في تسعير النقد الفضي او الذهبي الخالص تقريباً ، الذي كان اداة الصفقات الحقيقية . اما اذا نظرنا من فوق الى التطور النقدي خلال القرنين الاخيرين من القرون الوسطى ، فاننا نرى في الواقع اتجاهاً

مشتركاً الى تخفيف وزن القطع النقدية تخفيفاً تدريجياً يختلف باختلاف البلدان : فان القطعة الكبرى في الفلاندر مثلاً قد فقدت ، بين السنة ١٣٣٠ والسنه ١٣٨٠، ٨٠٪ من قيمتها الاصلية ؛ وفقدت القطعة الفرنسية المعروفة « بتورنوا » ، خلال قرنين لا تدخل فيهما عهود الفوضى النقدية ، ٧٥ ٪ من هذه القيمة ، بينما لم تفقد السترلينة الانكليزية سوى ٤٧ ٪ فقط . ولكن المعدل السنوي لهذا الفقدان ، وهو ضئيل في الواقع ، لم يخفف « المجاعة النقدية » التي كان هذا النقد « الذائب » خير دليل على حقيقتها

حاول بعضهم وجود صلة بين هذا النقص في المخزون النقدي والتبدلات التي طرأت ، في منتصف القرن الرابع عشر ، على العلائق بين الشرق والغرب : اذ يبدو ، حتى السنة ١٣٤٠ تقريباً ، ان الفضة قد صدرت من الغرب لدفع رصيد تجارته مع الامبراطورية المغولية ؛ وان الذهب الشرقي قد تدفق ، عن طريق بيزنطية بنوع خاص ، — حيث لم يبق ، مع ذلك ، في التداول ، سوى قطعة « الهيبربير » الذهبية الخفيفة العيار جداً — على الغرب ، الذي استطاع آنذاك الاكثار من سك النقود الذهبية . ثم ما لبثت قيمة الفضة ان ارتفعت ، لان النفقات العسكرية قد زادت في طلبها لدفع مرتبات الجنود ولان اقفال طرق آسيا الصغرى قد حول تجار الغرب نحو مصر حيث احتلت الفضة مركزاً يفضل مركز الذهب . الا ان هذه الوقائع لا تفسر في الحقيقة سوى فقدان النسبة بين المعدنين والفوارق العظيمة احياناً التي قامت بين سعرهما القانوني وسعرهما التجاري ؛ فهي لا تعطي سوى فكرة غامضة عن الاسباب العميقة « لمجاعة نقدية » كانت حافزاً لبحث مطرد النشاط عن مناجم الفضة في الغرب . وليس مرد هذا البحث الى تزايد حجم الصفقات،بل هو دليل شبع الاسواق الذي يولد الثروات ويفضي الى تقويم المال . وهذا هو سبب الواجب المتناقض الذي واجهته الحكومات وقضى بالمحافظة على استقرار النقد الذي هو شرط لا بد منه لسلامة الصفقات ، كما يقول نقولا اورسم ، وبتخفيض قيمته الذاتية دورياً لمكافحة جمع الثروات والتخفيف من وطأة استقرار يؤول الى ازالة تضخم النقد الورقي .

النقود والاسعار والاجور

يحدد مستوى يسار البشر او بؤسهم بقياس العلاقة بين اعبائهم ومواردهم ، ويعبر عنه بالاسعار . ولكن الاستفادة من هذه الاسعار على الرغم من ضخامة حجم المعطيات الحسابية والتنويهات المتفرقة ، لاتزال في نقطة انطلاقها لذلك فان تفسيرها سينطوي على صعوبات كبرى ؛ فآثرنا من ثم التعبير عنها ، على ما بينها من فروق ، بالنقود الرائجة التي كان لها معناها في نظر المعاصرين على تحويلها ، كما درجت العادة في السابق ، الى غرامات ذهبية : فالذهب والفضة كانا كلاهما سلعاً موضوع مضاربة تجارية ، وهما تشكلان بهذه الصفة عيارين قابلين التبدل .

ان بين الوقائع التي تبدو وكأنها تهيمن على اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر استمرار

هبوط الاسعار الزراعية ، ولا سيا اسعار الحبوب . وهو اتجاه عام يبرز حتى في اسواق البلطيك التوتونية ، وحتى في شبه الجزيرة الايبيرية وان حدث ذلك في عهد متأخر : ففي نافار تضاعفت الاسعار بين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٩٠ ، وربما حدث الشيء نفسه في اراغون ايضاً ؛ وبدأ الهبوط في مملكة فالنس في اوائل القرن الخامس عشر ، وانتقل الى اراغون ثم الى نافار ، الى ان شمل كافة المناطق في السنة ١٤٤٥ . وفي انكلترا طرأ على الاسعار ارتفاع واحد استمر في الصعود منذ السنة ١٣٥٥ حتى السنة ١٣٧٥ ؛ الا ان الخبز قد سقط منذ السنة ١٣٧٧ الى أدنى سعر عرفه منذ ثلاثين سنة . ونجد الارتفاع الذي عقب الطاعون الكبير ، في كافة انحاء الامبراطورية ، كما نجده ، في اثناء مجاعة السنتين ١٣٧٤ و ١٣٧٥ ، في الدول المتوسطية . اما في هولندا ، التي تستهلك كثيراً من الخبز ، فقد ارتفع سعر القمح منذ السنة ١٣٤٠ وبلغ القمة في السنة ١٣٨٠ ثم انخفض بعد ذلك ولم يعد الى الارتفاع الا خلال عشرين سنة فقط (١٤٢٠ — ١٤٤٠) . وقد اهملت في هذه الاسعار التغيرات الموسمية ، وهي ابعد التغيرات اثراً في المعاصرين ، لان اقل تبدّل في الحصائد واقل تقلّب في حجم الطلب يفقدان الاسعار توازنها ، ويخففان كذلك من وطأة الاضطرابات النقدية المفاجئة ؛ وقد امكن ، في بوردو وتولوز ، وجود صلة بين ارتفاع وهبوط اسعار الحبوب ، المتعاقبين تعاقباً مطرداً ، وبين حوادث التقلبات النقدية ؛ وكذلك فان « اشتعال الاسعار » في اعقاب انهيار النقود ، في باريس كما في روان ، قد جعل من السنة ١٤٢٠ — ١٤٢١ « اقسى سنة مرّت على فرنسا ونورمنديا » .

اما ما نعرفه عن الاسعار الزراعية الاخرى ـ نبيذ ، منتوجات تربية المواشي ، صوف ، نباتات صباغية — والاسعار الصناعية — مواد البناء والملابس مثلاً — لمصنوعات تؤلف الاجور في اكلاف تحضيرها حجماً لا يقبل الانقاص ، فينم عن مزيد من الاستقرار : الاسعار تستقيم هنا او تميل احياناً الى الارتفاع . الا ان هذا الارتفاع ، والحق يقال ، لم يثبت بالدليل الا في انكلترا وهولندا : فان تصاعد الاسعار ، في صناعة النسيج الفلمنكية ، قد عُدّل جزئياً ، في القرن الرابع عشر ، بتخفيض اسعار الجملة تخفيضاً منظماً ، ولكن الوضع تغير في القرن الخامس عشر ، حين اعتمد دوقية اسرة فالوا و « فيليب لو بون » بنوع خاص سياسة استقرار تحول دون تضخم النقد الورقي ، لا سيا منذ اصلاح السنة ١٤٣٣ ، فثقلت آنذاك وطأة الاسعار على الاقتصاد ، بينما تناول الارتفاع المنسوجات الانكليزية بدورها حوالي السنة ١٤٤٠ .

لقد تفاوت تأثر المنتج بهذا « الاختلاف » في الاسعار (هبوط في الحبوب ، وارتفاع في المنتوجات الاخرى) . فكانت النتيجة في الارياف انحصاراً في امكانات الكسب لا مخرج منه الا بالاكثار من زراعة الحنطة لعرض مزيد من الحبوب ، باسعار متدنية ، في الاسواق — ولكن ذلك يزيد في الهبوط — او بالاقلاع عن زراعة الحبوب وممارسة نشاطات اوفر كسباً : كزراعة الكرمة وتربية المواشي . اما في المدن فلم يكن من تناسب بين ارتفاع

اسعار المنتوجات الصناعية وبين انحصار الطلب وتخمة الاسواق ، ولا يجد التجـــار من يشتري البضائع الا باسعار متدنية يتحملون وحدهم نتائجها .

وكان اثر هذا الوضع في المداخيل اشد منه في الاجور . وسبب ذلك ان سوق العمل قد افاد ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، من نقص كبير في اليد العاملة ندرك مداه بعيـــد الطاعون الكبير . فكما ان الأرض التي هبطت قيمتها تدريجياً لم تجد سواعد كافية تنهض بـــا تستلزمه من اعمال ، كذلك احتاجت المصانع الى صناعيين . ومنذ السنة ١٣٤٩ تقاضى احـــد فلاحي « تدنفتون » احد عشر فلساً بَدَلَ عمل دفع له اجره ستة فلوس في السنة ١٣٣٦ . وفي السنة ١٣٤٩ ايضاً ، و « نظراً لغلاء المعيشة وسوء حال اليد العاملة » ، استفاد عمـــال صناعة الاجواخ في « سانتومير » من ثلاث زيادات متوالية على الاجور : فقد مكّنتهم الحاجة الى اليد العاملة من التصلب في تطلبهم . فاقرت السلطات العامة في كل مكان ، للحدّ من ارتفاع الاجور تدابير آنية لفتت الانظار كما لفتها هول انتشار الوباء من قبل . وصدر في انكلترا ، منـــذ السنة ١٣٤٩ ، قانون تكامل بعد مرور سنتين « بنظام الفلاحين » ، يحظر ، تحت طائـــلة العقوبات ، على ارباب العمل ، منح اجور تفوق اجور السنة ١٣٤٨ ، وعلى العمال طلب مثل هذا المنح . واصدر ملك فرنسا قانوناً مماثلاً في السنة ١٣٥١ وحدّدت جمعيات اراغون التمثيلية في السنة ١٣٥٠ ، وجمعيات قشتالة في السنة ١٣٥١ ، الحد الاعـــلى للاسعار ، واسندت امر تطبيقها الى البلديات . وكان قد سبق لبلدية برشلونة ان حدّت من المطالبات الرامية الى الحصول على اجور توازي اربعة او خمسة اضعاف الاجور القديمة . كما سبق لفلورنسا ان قررت نقـــل العمال من مصنع الى آخر لسدّ الثلمات ، التي اوجدها ارتفاع نسبة الوفيات ، سداً متساوياً . وعمدت بلديات اخرى ، كبلدية تولوز او متز مثلاً ، الى تسعير الاجور او تنظيم الاستخـــدام وشروط العمل .

الا ان هذا التدخل الشامل من قبل الدولة ، حتى في بلدان كانكلترا أحدثت فيهـا اجهزة قسرية ، لم يحقق استقرار الاجور ولا الحد من ارتفاعها . اجل ، ربما لم يطرأ في النهـاية تطور يذكر على الاجور في فلورنسا والفلاندر — وكانت هذه الاخيرة اقل اصابة بالوباء — وربما بقي وضع عمال حيّ « سان جرمان » في باريس شبيهاً به في العهد السابق ؛ وهو استقرار شبه شامل في فرنسا . ولعله يرد الى تداع ابعد عمقاً في الاقتصاد ، بفعل هبوط الانتاج قبل انخفاض كثافة السكان ، وبفعل استمرار توافر العمل في المصانع . ولكن الاجور قد ارتفعت في كافة البلدان الاخرى : ففي اراغون ونافار اطرد الارتفاع طيلة القرن الخامس عشر ؛ وفي انكلترا ارتفعت قيمة الاجور الشرائية ، في اواخر القرن الخامس عشر ، الى اكثر من ضعفيها في منتصف القرن الرابع عشر .

يجب هنا الا نحاول معرفة اهمية الارباح والاجور وقيمتها الشرائية ، اللتين هما الشرطان الحقيقيان للحياة : فنحن لا نعلم قيمة الارباح الاسمية وصلتهـــا بالاسعار ، ولا حاجات البشر

الحقيقية التي تتغير بتغير العادات والاذواق . لماذا تمثل نقداً تلك العادات التي غالبا ما اعطيت عيناً ، كالاحذية والملابس والغذاء ، وحتى المسكن احيــاناً ؟ اضف الى ذلك ان الاجور قد اختلفت بين مهنة واخرى ، ومدينة واخرى ، وفصل وآخر ؛ وان الصفات المهنية لم تكن اقل تنوعاً ايضاً . فلا ريب مثلاً ، بصورة عامة قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وحتى في السنة ١٣٨٠ ، في غنت وفلورنسة ، في واقع وجود طبقة كادحة عملت في مصــانع النسيج وتقاضت اجوراً متدنية غير كافية . وفي حالات اخرى كثيرة ، استطاع الصناعي ، العامل في خدمــة رب مهنة صغيرة ، ان يؤمن معيشة متوسطة ، كما ان الفلاح ، الذي كان يوصي بممتلكاته لاحـد ابنائه او لتأمين معيشة ارملته ، لم يكن بالضرورة بائساً . وتبدو الفوارق الاجتماعية اوضح تحديداً من المستويات المعيشية : فان الأجر اليومي لعامـــل ليوني ، في اوائل القرن الخامس عشر ، وهو يقدر بفلس « تورنوا » ، كان يساوي ، اذا ما اخذنا ايام العطلة بعين الاعتبار ، ٢٥ فلساً في الشهر و ١٥ ليرة في السنة ؛ وكان ثمن ليرة الخبز درهماً ونصف الدرهم ؛ وتراوح دخل الحريف والبناء والمدقّق بين ٢٥ و ٦٠ ليرة في السنة ، كما تراوح دخل التاجر وصانع الفراء وصانع الجوخ والنجار بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فلس . فيتضح ، مع حفظ النسبة ، ان الارباح لم تكن مرتفعة قط ، وفي ذلك دليل على عسر الايام : ففي اوائل القرن الرابع عشر ، لم تتوصل اوسع الشركات الايطاليــة ثروة ، الا بفضل ادارة دقيقة جداً ، الى تحقيق ارباح تتراوح بــين ٧ و ١٥ ٪ ، بينما حققت في السابق ارباحاً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ ٪ . الا ان المشاريع التجارية والمضاربات الزراعيــة وتأجير العقارات المستأجرة ، بعد تجزئتها ، ربما درّت مزيـــداً من الارباح . ففي تولوز ، قاربت نسبه الارباح ٢٥ ٪ في القرن الخامس عشر واستقر الدخل العقـــاري حوالي ١٠ ٪ ، وبلغت ارباح التجارة البحرية ، في روان ومرسيليا ، حتى ٣٠ ٪ احيــاناً . ولكن هشاشة المشاريع جعلت ارباحها غير اكيدة .

بيد ان الضرر قد ادرك دخول الاخاذات وشتى الدخول العقـــارية بصورة خاصة بسبب استحالة التوفيق بينها وبين مختلف ظروف الاضطراب الاقتصادي . فبات من ثم لزاماً علينا ، في الدرجة الاولى ، ان نحاول تقدير نتائج انحطاط طويل الامد على الارض ومالكيها .

مصير الاراضي ان الطاعون الكبير ، ببلبلته اليد العامـــلة ، قد استعجل انهيار الاراضي التقليدي . فالتطور كان قديماً وشاملاً على الرغم من بعض الفوارق الزمنية . وليس سوى الامبراطورية ، في مناطقها الشرقية — الاراضي المستعمرة وراء الإلب — ما عرف تجدّد الاملاك الواسعة . اما في البلدان الاخرى فقد استرخت روابط التبعية الشخصية نهائيــاً وتفككت عرى التجمع القديم حول هذه الاملاك ، بينما كانت الاراضي آخذة في الانتقـــال من مالك الى آخر . وفي انكلترا ومنطقة تولوز ومنطقة بوردو ونورمنديا وبورغونيا والمانيــا الغربية استطاع الفلاح ان يستفيد من صعوبات مالكي الاراضي . فقد تضافرت نفقات الحروب الدائمة ، والفدى الواجبة الدفـــع ، وتخفيضات اسعار النقد التي اذابت الدخول الثابتة كما يذوب الثلج

بفعل حرارة الشمس ، وواجب المحافظة على مستوى المعيشة ، وانتهت باسياد كثيرين الى ضيق شديد اشبه بحالة اليأس . كما ان الاستمرار في قسمة الارث انصبة متساوية، والافراط في توزيع الاراضي بموجب الوصيات ، قد اسهما كذلك في انقاص مساحات هذه الاراضي انقاصاً عظيما . وهنالك ما هو شر من ذلك : فمنذ الربع الاول من القرن الرابع عشر ، انقص هبوط الاسعار الزراعية دخول الاراضي السيدية الاحتياطية . ثم جاءت أزمة اليد العاملة ، فوق كل ذلك ، تسبب ارتفاعاً في الاجور ، وبالتالي زيادة في اكلاف الاستثمار .

بيد ان فقدان التوازن بين حجم الانتاج ومستوى الاسعار ، وبين ندرة اليد العاملة وانتقاص الطلب ، لم يكن سوى وجه واحد من تقهقر ابعد عمقاً واطول مدى . فلما كانت اسعار الحبوب قد عادت الى الهبوط منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، ولما كانت اكلاف الاستثمار – ولا سيما الاجور – قد حافظت على ارتفاعها، استمر نظام الاراضي الواسعة في التداعي والتخلخل واستحال ايقاف التطور القديم نحو استثمار الارض استثماراً فردياً .

زد على ذلك ان السيد ، الذي اعوزه المال ، قد ارغم على التنازلات كي يبقي في الارض اليد العاملة النادرة ، حرّة كانت ام عبدية . فاسهم اعتاق البعض وتخفيف اعبـــاء البعض الآخر ، اللذان تما كلاهما عن طريق المساومات والمزايدات ، في حل اواصر تعلق الفلاحين باسيادهم . كما ان الفداديين الذين لم يعتقهم القرن الثالث عشر قـــد حصلوا على الحرية بالتراضي او بالفدية او بالتهديد بالفرار . وكان الاعتاق فردياً او جماعياً ، وافادت منه العيلة او القرية احياناً ؛ كما كان كاملا او محدوداً ، مشروطاً بانتفاء ضريبة الاقتطاع ومنع انتقال ارث المعتق : ففي فرنسا مثلا عرفت مقاطعات شمبانيا وايل دي فرانس وبري وغيرها ، وكلها مناطق فدادية شخصية او عينية ، شتى ضروب الاعتاق . واعيد النظر كذلك في الاعباء ، عبدية كانت ام حرة ، عينـا ام خدمات : فحددت هنا ، وخفضت في غير مكان الى ما دون قيمتها السابقة ؛ وامكن التخلص منها احياناً بدفع اقساط دورية ، كما امكن ابدالها ، عندما تكون تسخيراً ، بمبلغ معين ثابت سرعان ما تخف قيمته في ميدان الجابي السيّدي . فمنذ عهد الطاعون ابـــدل حوالي ٥٠ ٪ من التسخيرات بمبالغ نقدية في ٨١ اقطاعة موزعة على ٢١ كونتية ؛ وبعد مرور ثلاثـــين سنة تجاوزت النسبة ٦٠ ٪ .

وغدت المشاركات الزراعية في الاراضي التابعة للاقطاعات اعظم مرونة ، فبرز الميـل الى ابدال عقود المزارعة بعقود التزام تترك للمستثمر ، بفضل استئجارات متوسطة الاجل، الاستفادة من فائض الحصائد . وهكذا فان نسبة حصة كهنة سان – سورين في بوردو ، قد هبطت من ٦٩ ٪ الى ٥٣ ٪ في الثلثين الاولين من القرن الخامس عشر ، بينما حلّت المشاركات القاضية بدفع ضريبة خفيفة ، في اراضي زراعة الحبوب في الفوريز ، محل المشاركات القاضية بتقديم انصبة من الاثمار . وقد اشتهر في انكلترا مثل اسياد بركلي الذين حوّلوا استثمارات اراضيهم التقليـدية الى

استئجارات حرّة ؛ وبصورة عامة ارتفع ، في الاراضي التابعة للاقطاعة ، عدد المستثمرين « الاختياريين » والمتعاقدين ارتفاعاً عظيما طيلة القرن .

اذا لم تسمح كل هذه التضحيات باستثمار كافة الاراضي التابعة للاقطاعة فالاستثمار المباشر ، باولى حجة ، قد اثبت يوماً بعد يوم انه اقل دخلا ، اذ ان العمل المأجور ، وهو انجح من التسخير الذي ولى عهده ، قد اثبت انه باهظ النفقات . وفي المناخات المؤاتية لتربية المواشي ، كمناخ انكلترا مثلا ، حول السيد قسماً من اراضيه الصالحة للزراعة الى مروج ، رغبة منه في ان لا تنتهي الى البوار . وغالباً ما اجر قطعاً هامة بشروط توافق المستأجر : انتفاء الالتزامات المالية ، كراء خفيف ، مدّة تعاقد كافية لحمل المستأجر على تحسين العقار . وفي منطقة تولوز تخلى اصحاب الاقطاعات للمستثمرين عن بعض الاراضي البائرة لمدة طويلة نسبياً دون ان يفرضوا عليهم اية اتاوة . وفي نورمنديا سلم الاسياد الاراضي باجور منخفضة ولكنهم اشترطوا على المستأجرين اصلاح الارض بالسجيل وزرعها بشجر التفاح واحياء قطعان المواشي . اجل ان هذه الجهود اشبه ما تكون بعمل (بنلوب) في تلك الارياف المعرضة لخراب دائم . ولكنها تضحيات تنم عن بصيرة المرتضين بها ، نشاهدها في المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، حافظت على ثروة السيد العقارية كاملة سالمة .

الا ان هذه الثروة تعرضت لمزيد من الخطر حين نضبت موارد الاسياد فاضطروا الى بيع الحقوق والاراضي : اما عن طريق الاستقراض المتفاوت مواربة ، تخلصا من العقوبات الكنسية المفروضة على المراباة ، والمكفول برّهن الاتاوات او الدخول او الاراضي ؛ واما عن طريق البيع « الوفائي » الذي اعتبر موافقاً جداً بفضل ما ينطوي عليه من امكانات تاجيل وتسويف ؛ واما عن طريق تعيين الدخول العقارية بنوع خاص . وقد كُفلت هذه الاخيرة برّهن الضريبة المفروضة على المزارعين او الحصص الزراعية او الاقطاعة بكاملها ، او بمجموع ثروة البائع احياناً . وقضت بالتخلي مؤقتاً عن حق او ملك يحل بموجبها محل « السيد الطبيعي » ، « سيد » او عدة « اسياد » لم يعرفهم الفلاح من ذي قبل . وغالباً ما حدث ، بعد تراكم الدخول المتوجبة على الارض ، ان بيعت الارض بيعاً نهائياً . وما اسعد السيد الذي لم يرهن احتياطي املاكه ولم يضطر ، في النهاية ، الى بيع اقطاعته الى مالك جديد ! زد على ذلك ان الارث الوالدي نفسه ، وهو مجزّأ في جوهره وموزع على اصحاب حقوق معينين ، قد ابتلع بدوره احياناً .

كان المستفيدون من عملية قطع الاسياد صلاتهم المباشرة بالارض والفلاحين وتحولهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية المستثمرين الفلاحين من جهة ، ومن جهة ثانية اولئك الذين توفر لديهم المال فوجدوا في محاصيل الارض فرصة لتوظيفه : اعني بهم البورجوازيين. وان التطور الذي ثقلت وطأته على الاشراف الفرنسيين بنوع خاص ، لم يرفق كذلك بالاشراف الالمان والايطاليين ولا سيا بالاكليروس . وقد شاهد هذا الاخير ، لا سيا في ايطاليا ، ذوبان املاكه الشاسعة بين ايدي موقعي العقود الزراعية المعروفة بـ « المزعومة » ، المؤقتة مبدئياً والدائمة

في الواقع . اما الارستوقراطية الانكليزية، التي تعودت استثمار اراضيها استثماراً سلبياً، فقد تمكنت من الوقوف في وجه التطور ، لا سيا في املاكها الرهبانية التي غالباً مـــا ضرب المثل بحسن ادارتها ، وفي اقطاعات عائلاتها الكبرى . بيد ان آل بركلي اضطروا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، الى التحول بدورهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية ؛ وتـــلاحظ هبطة الاقطاعة كذلك في الشمال كما في الجنوب وفي بلاد الويلز ، في امـــلاك آل « برسي » و « مورتمر » و « كلار » و « بوهن » .

ان عزو هذه الهبطة العامة في الحياة الزراعية الى عجز اقتصاد القرون الوسطى عـن زيادة وسائل الانتاج بتحسين التقنية ، انما هو تفسير عصري لوقائع ما كان المعاصرون ليعوهـــا في الارجح . فهل يسعنا ، قبل الجزم ببؤس مالكي الاراضي نهائياً ، التأكد مـن ان الخسائر التي منوا بها لم يعوّض عنها بموارد اخرى غير زراعية ، « كالارباح الوافرة » في الحروب، وجعالات الـ « الاتباع » الانكليز ، والوظائف الجزيلة الكسب التي اسندت للامراء ورجـال الكنيسة ؟ والواقع هو ان عائلات كثيرة من طبقة الاشراف القديمة قد استطاعت الابقاء او الحصول على وضع اقتصادي دونه وضع جدودها قبل حرب المئة سنة .

بيد ان كل ذلك لم يمنع طبقة متوسطة من الفلاحين الميسورين من الاستفادة من انهيار نظام الاملاك الواسعة ؛ فقد حصل بعض « حديثي النعمة » من اصحاب الاملاك عـلى حقوق وحتى على اراضي الاسياد . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ، توصل ثلاثة مستثمرين في « ويدون بك » الى جمع معظم الاراضي الشاغرة في ايديهم، بينما هبطت نسبة صغار المستثمرين الى ٥٠ ٪ . وهذا ما حدث لمستثمري اراضي الكنيسة في نورمنديا ولفلاحي المانيا الغربية والجنوبية ايضاً، الذين توصلوا ، خلال القرن الخامس عشر ، الى الارتفاع فوق مستوى امثالهم ؛ كما حدث ذلك لفلاحي منطقة « جوزا » الى الجنوب من باريس، حوالي منتصف القرن الخامس عشر، ولـِ ٤٠٠ رب عائلة ميسورين سجل التاريخ اسماءهم في منطقة بوردو بعد السنة ١٤١٤ ، ولآل «برّوت» الذين كونوا لانفسهم ثروة عقارية طائلة في نورمنديا بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٦٠ .

وآثر البورجوازيون توظيف ارباح تجارتهم في الممتلكات والعـــائدات العقارية : اذ ان الاراضي، التي هي اضمن من الاعمال لتوظيف الاموال، دليل تقدم في السلّم الاجتماعي. ويحتل آل « البرتي دل جيوديشي » مركز الصدارة بين عائلات التجار الايطاليين الاثرياء التي جمعت ثروات عقارية طائلة في منتصف القرن الرابع عشر : فحول « بيت السيد » ، الذي تجسـدّد فيه الميل الى « السكينة » الريفية ، امتدت الحقول المستثمرة التي سترسل محاصيلها، بعد اقتطاع مؤونة السيد منها ، الى الاسواق التجارية . وسار على هـــذه الخطة نفسها ، حول المدن ، بورجوازيو اوغزبورغ واولم ونورمبرغ في المانيا الجنوبية وبورجوازيو بورغوس وبرشلونة في اسبانيا . وسيطر « مدنيو » متز على الارياف المجاورة . وفي القرن الرابع عشر كان لتجـــار « بوردو » كرومهم الخـــاصة في « ميدوك » ، كما ان مجهزي السفن في روان استعاضوا عن

مخاطر البحر بمحاصيل الارض . ويجدر التنويه هنا بالاقطاعات الكبرى التي حصل عليها « جاك كور » من الاشراف المفتقرين في مناطق بوربونيه وبري وفوريز ، بينما ارتفع حفدة « كليان باستون » ، الذي لم يملك وراء المانش سوى مطحنة وبعض الاراضي ، الى المصف الاول بين تجار الصوف .

وظف البورجوازي أمواله في أراضيه واعتمد في استثمارها على مهارته في الكسب ، فأدخل الى ايطاليا و « مسين » ومنطقة تولوز عادات الاقراض والدين . أقرض الكرّام ، واشترى المحاصيل قبل جمعها ، وأسس الشركات مع مربي المواشي وضارب في جمع الاعشار وبرهن عن خبرته في معرفة الاراضي الخصبة التي تدر خمسة اضعاف البذار . وفي هولندا ، وفر له انطلاق صناعة النسيج ، عن طريق زراعة الكتان ، تعويضاً عن الصعوبات الزراعية . وذهب تاجر الصوف الانكليزي ، من مرعى ، الى مرعى يختار الجزز ويبتاعها .وتنقل تاجر الحبوب او النبيذ في باريس او روان، بين الحقول والكروم، وزار اهراء الحبوب وسقائف الخمر واشترى المحاصيل التي تغذي تجارته ، قبل جمعها احياناً . فلم تكن الارض في نظره فرصة توظيف مثمر يرفعه الى مرتبة الاسياد فحسب ، بل وفرت له المواد الخام وسلع التجارة .

صناعة النسيج

فهل باستطاعتنا ، انطلاقاً من هذا الاتصال بين المدن والارياف، الاستنتاج ان هبطة موازية في الصناعة والمقايضات قد رافقت بالضرورة الهبطة الزراعية الطويلة الامد ؟ ام ، على نقيض ذلك، ان ارباح السلع التجارية — وهي قطاع اقتصادي اقل جموداً — قد عوضت عن نقص ارباح الارض ؟ يبدو جلياً ان الانحطاط الاقتصادي كان شاملاً حيث كانت الازمة الزراعية ابعد عمقاً؛ ففي انكلترا مثلاً لم تعوض طاقة السوق الداخلية على الاستهلاك وتصدير الاجواخ المتزايد عن النقص في تصدير الصوف ؛ وقابل تقدم صناعة الاجواخ تأخر في تربية المواشي . ولكن اذا كانت بعض اسواق الانتاج والاستهلاك قد تأخرت تأخراً ملحوظاً ، فان أسواقاً اخرى قد برزت وتقدمت ، وانتقل غيرها تدريجياً الى جوانب الطرقات الجديدة؛ ولا ينكر ان صعوبات اشتداد التنافس الاقتصادي كانت حافزاً كبيراً للتقدم التقني والمبادهات الخلاقة . الا ان اللوحة تتميز هنا بكثير من الفوارق .

سنتأكد من كل هذه المتناقضات الظاهرة في درس خامات صناعة النسيج ومنتوجاتها . اجل لقد ولى واقع احتكار الصوف الانكليزي وصناعة الاجواخ الفلمنكية التي لاءمت نسائجها الثقيلة فصول الشتاء الشمالية الطويلة والبرد المسائي القارس في المناطق الجنوبية ؛ وولى كذلك زمن اللقاءات ، في اسواق شمبانيا الدورية ، بين الصناعي الفلمنكي والشاري الايطالي الذي كان يصبغ الجوخ وفاقاً لأذواق الزبن الجنوبيين او الشرقيين. ولكن المقصود ليس ازمة صناعة الجوخ فحسب بل تعدد المنافسات وأسواق الخامات بصورة خاصة .

فهناك منافسة محلية ، في هولندا ، بين صناعة الاجواخ الريفية وبين صناعة الاجواخ المدنية

التي تأخرت في « أراس » ودواي وسانتومر وبروج وغنت وايبر ، بينما استجابت مراكز الصناعة الريفية لرغبة زبن اقل ثروة في اقتناء الاجواخ الخفيفة . وان في انطلاقة قرية هندشوت الفلمنكية لرمزا لتفوق الحرير على الجوخ القديم الثقيل . وهناك منافسة ايضاً بين الفلاندر وبين هينو وبرابان ومنطقة لياج وهولندا التي تعددت مراكز صناعاتها ، لا سيا في الشمال ، على حساب العواصم الاقليمية القديمة : فتقدمت لوفان وبروكسل ومالين و « بوا – له – دوك » ومايسترخت وليدن على سانتومر ودواي اللتيـــن سقطتا نهائياً ، وعلى أراس التي وجدت في الوشي البذخي وسيلة وقتية تؤخر بها سقوطها . فيتضح من ثم على العموم ان صناعة هولندا قـــد حافظت على مركزها او عوّضت عن خسائرها . ولكن المنافسة الاجنبيـــة لم تكن بأقل شدة ، فتأثرت الفلاندر والامارات المجاورة بالحرب الفرنسية الانكليزية التي حالت دون انتظام وصول الصوف من وراء المانش وسبّبت ازمات بطالة ورفعت كلفة المصنوعات الصوفية : وقد سبق ورأينا ان سياسة الاجور المتدنية والتخفيضات النقدية لم تكف للقضاء على المنافسة الاجنبية ولا للحيلولة دون هجرة العاطلين الى الخارج .

اما في اسواق المنسوجات فقـــد تحسن مركز الاجواخ الانكليزية تحسناً مفاجئاً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، فيما انحدر تصدير الصوف الخام ، المحصور في أيدي شركة انكليزية ذات امتياز استقرت نهائياً في كاليه ، من قرابة ٣٥٠٠٠ كيس سنوياً في السنة ١٣٥٠ الى ٥٠٠٠ كيس فقط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فان صناعة الاجواخ الانكليزية ، الـــتي تقدمت بفضل المهاجرين الفلمنكيين هنا وبفضل الصناعيين المحليين في غير مكان ، وكانت الى جانب ذلك أساس ثروة « المغامرين التجار » ، وانتشرت ، انطلاقاً من انكلترا الشرقية ، في المناطق الجنوبية والغربية وحتى في « يوركشاير » ، نحو الشمال ، قد وطدت ، خلال القرن الخامس عشر ، شهرة نسائجها الخفيفة المختلفة توطيداً كان كافياً لأن تعرف نجاحا كبيراً حـــال تصديرها من لنـــدن وسوثمبتون وبريستول : فقد عثر حتى في روسيا على الاشعرة الرصاصية الموضوعة على النسائج المصدرة من لندن بواسطة تجار المدن الهانسية . واحتل الجوخ الانكليزي في تولوز ، منذ السنة ١٤٥٠ ، مركز الصدارة الذي كانت الاجواخ الفلمنكية والبرابانية لا تزال تحتله ، بنسبة ٩٠ ٪ ، في السنة ١٣٩٨ . ولم تتوان « الامة » الانكليزية الناشطـــة ، في انفرس نفسها ، عن مغالبة الانتاج المحلي وخزن نسائجها المعدة لمزاحمـــة اجواخ هولندا في الاسواق الالمانية .

زد على ذلك ان مصانع جديدة قـــد أسست في كل مكان تقريباً وحاولت تموين الاسواق الاقليمية . فان صوف الامبراطورية ، الذي كان يصدر في السابق الى لومبارديا ، قد جمع الآن في فريبورغ التي عاش ثلثا سكانهـــا من صناعته في منتصف القرن الخامس عشر . وتقدمت في فرنسا صناعة الاجواخ الشمبانية والنورمندية والبرية واللنغدوكية . وظهرت في اسبانيا ، حيث أدخل المرينوس حوالي السنة ١٣٤٠ ، الاجواخ الاراغونية والكاتالونية . وفي الفترة المتراوحة

بين السنة ١٣٣٠ والسنة ١٣٤٠ ، كان هنالـــك في فلورنسا ، اذا صدقت رواية فيلاني ، ٢٠٠ حانوت تنتج بين ٧٠ و ٨٠ ألف قطعة سنوياً ؛ وحين تغلبت مصانع « فن الصوف » بعد ذلك على الازمة التي تعرضت لها في أواسط القرن الرابع عشر ، استعانت بالمهاجرين الفلمنكيين على أثر الشغب الذي سببته جماعة « الشيومبي » ؛ وهكذا فان صناعة الاجواخ الفلورنسية ، التي لم تتأثر بنسبة ما قيل عنها، قد حافظت، على الرغم من ارتفاع أسعارها ، وحتى في الشرق نفسه، على زبن لا يرضون عن مصنوعاتها الممتازة بديلاً . وهي قد استوردت الصوف الانكليزي من سوثمبتون حيث ألـّف الايطاليون مستعمرة صغيرة . اما الآن فهو الصوف الاسباني ما استخدم لمصنوعات الاستهلاك الرائج .

انتشر استخدام الصوف الاسباني ، بعد ايطاليا ، في مدينة بروج ، في أواخر القرن الرابع عشر : فقد قام قبالة كاليه ، مركز التجار الانكليز ، احتكار تجار بورغوس للسوق البروجية ، كما ان انطلاقة « الامم » الاسبانية في الفلاندر قد أفادت من رواج صوف المرينوس . فان هذا الاخير ، وان كان أقصر من الصوف الانكليزي ودونــــه جودة ، قد وافق متطلبات السوق الجديدة : اذ انه بات وسيلة بقاء لصناعة هولندا التي غذت به صناعة الاجواخ الجديدة وصدرته بعد ذلك لا الى اسبانيا فحسب – التي عاد اليها صوفها – بل الى المانيا العليا وبروسيا ايضاً ، مما عوّض عن اقفال السوق الفرنسية .

نمت في الوقت نفسه كذلك صناعة النسائج القطنية والكتانيــة والقنبية . فاستقرت صناعة نسيج القطن الجديدة، التي مونتها البندقية بقطن الشرق، في ايطاليا الشمالية اولاً، أي في كريمونا حيث جمع آل افنتادي ثروتهم الطائلة ، ثم اجتازت البرنّر : وان « اندريا بونسنيوري » الذي انتقل الى خدمة « جورج فوجر » ، قد جسّد الشاحن الايطالي العامل لمصلحة الملتزمين في مدن المانيا العليا . وكذلك فان صناعة نسيج الكتان التي حصرت في « هينو » حول « آت » وفي الفلاندر حول « كونتريه » وفي برابان حول نيفيل قد بلغت من التقدم شأواً جعلها تغذي ، في الاسواق الالمانية وحتى الانكليزية ، حركة تصدير زاحمت النسائج اللورينية والشمبانية . اما صناعة نسيج القنب، فقد أنتجت في نورمنديا، بحسب ما نعلمه عن تاريخ النسيج الفرنسي، مقداراً من نسيج الاشرعة الغليظ أتاح بيعــــه للانكليز ، بينما توفقت بريطانيا (فيتريه وبولدافيد ولوكرونان) وبواتو الى تأمين زبن دائمين في اسبانيا والبرتغال .

وحدثت تبدلات مماثلة في توزيع مواد التلوين . فان حجر الشب ، الضروري لتثبيت ألوان النسائج وألوان الجلد على السواء ، قـــــد أمنته ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ، المناجم الجنوية في فوجيا من اعمال آسيا الصغرى . الا ان الصناعيين قد آثروا على الاصباغ الشرقية ، النادرة والباهظـــــة الثمن – القرمز والبقم – اصباغ الفوّة والعظلم والزعفران الغربية المنشأ . فبيع زعفران جنوبي فرنسا والاوفرني ، وهو من الصنف الممتاز المكلف ، حتى في أسواق القسطنطينية ؛ الا انه استبدل اخيراً بزعفران كاتالونيا وخصوصاً بزعفران أكيلا ، في جبـــال

« الابروز »، الذي كان يصدّر الى مراكز صناعة النسيج في المانيا العليا . وتقدمت على بيكارديا ونورمنديا وتوسكانا ، وهي الاسواق التقليدية لأكثر الاصباغ استعمالاً ، أي العظلم ، وكلها قريب من مراكز النسيج الكبرى ، مناطق امتازت بظروفها الطبيعية او الاقتصادية : الأكيتين وسهل البو . فقد وجدت الاولى،حول البي وتولوز ، منذ اواخر القرن الرابع عشر،كاوجدالثاني ، حول الاسكندرية، حتى اواخر القرن الخامس عشر، في صادراتها من العظلم ، مادة لمضاربات مثمرة.

تجارة المواد الغذائية

ان تلبية رغبة الزبون الذي يفضل الجوخ الخفيف على الجوخ الثقيل والكتان على الصوف،واحلال الصوف الاسباني محل الصوف الانكليزي، والاستعاضة عن الدوس البطيء بالاقدام باستخدام المطحنة الريفية السريعة ، واستعمال الشب الايطالي بدلاً من الشب الآسيوي والعظلم اللومباردي او الاكيتيني بدلاً من العظلم البيكاردي ، والتوفق في فلورنسا الى عمل لا يتوفر في غنت ، والتعويض عن فقدان السوق الفرنسية بفتح أسواق شمالية ، كلها أدلة على طاقة التاجر على تخفيف وطأة الانحطاط الاقتصادي . وان في بعض القطاعات الهامة من التجارة الدولية لأدلة لا تقل عنها شأناً ، ولا سيا في قطاع الخمور . فكيف استطاعت التجارة الغسكونية ان تعيش بعد انفصال الاكيتين عن التاج الانكليزي يا ترى ؟ بدا الهبوط ، الذي ظهرت بوادره منذ امد بعيد، وكأنه لا دواء له : ١٠٢٧٢٤ برميلاً في السنة ١٣٠٨ – ١٣٠٩ ، ٧٨٤٢ في السنوات ١٣٧٩ – ١٣٨١ ، ٦٠٠٠ في السنة ١٤٥٠ – ١٤٥١ ، و ٣٠٠٠ اخيراً عشية استعادة فرنسا للاكيتين . اعترف لويس الحادي عشر نفسه بوجوب الحفاظ على ثروة بوردو ومنطقتها ، فاستعادت التجارة نشاطها ولو ببعض الصعوبة . وزاحمت كذلك بعض الخمور في اوروبا الشمالية الجمة التي تزايد صنعها واستهلاكها : خمور « لاروشيل » وبواتو ، وخمور « فرنسا » ، وخمور اوكسير و « بون » ، وقد نقلت كلها بواسطة الانهار والطرقات والبحر نحو هولندا والمانش ، فجمعت أراس «دام» من بيعها وفرض الرسوم على عرضها ، منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، نصيباً كبيراً من عائداتها . ولم تتمكن خمور الرين والموزيل ، التي جنى منها السينيون بعض الارباح ، من مزاحمة هذه الخمور بسهولة ، بينها لم يستورد الشمال ، من الجنوب الذي شكلت فيه تجارة الخمور قطاعاً ناشطاً جداً، سوى بعض الخمور الحلوة ، كخمور « رومينيا » و « ملفوازيا » ، مستخدماً السفن الايطالية لنقلها .

لم تنج هذه البقعة او تلك يوماً من المحول ، فسادت في كل مكان فطرة دفاعية للحفاظ على الحنطة ، ولكن المضاربين تحدوا الرأي العام والحواجز الجمركية . فكانت المعضلة ، في البلدان المتوسطية ، معضلة دائمة ؛ واذا ما صدقت المؤلفات التجارية – « ممارسة التجارة » لبيغولوتي او بحث دا اوزانو – فان السهول الايطالية والنفدوك وافريقيا الشمالية ، ولا سيا صقليا ، قد صدرت فائض حبوبها الى المناطق المفتقرة الى القمح او الرازحة تحت وطأة الجوع . وغدت اسبانيا والبرتغال من كبار أكالي الخبز منذ أواخر القرن الخامس عشر ، فأخذتا تنظران ،

منذ ذاك الحين ، الى السهول المراكشية ، واستوردتا في الوقت نفسه الحنطة الفرنسية وحنطة هولندا التي لم تعد المانيا الشرقية بحاجة اليها بعد ان اقفرت قراها او كادت . فقد ولّى من ثم زمن بلغت فيه مدن الشراكة الهانسية اوج ازدهارها وغذت انكلترا وفرنسا الشمالية (القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر) .

أتى اهل الشمال بالرنك مع الجاودار وعادوا بالملح مع الخمور. فقد غذى «جون بورغنوف» وشأنه في ذلك شأن بريطانيا وسانتونج ، تجارة « أساطيل الملح » السنوية ، وموّن كذلك انكلترا وهولندا التي عجز انتاج ملاحاتها الباهظ الاكلاف عن سد كافة حاجات صيد الرنك ، فيما اخذ السمك يهاجر شواطىء « سكانيا » نحو مياه بحر الشمال .

أسواق التجارة وطرقاتها

ان حاجة التجار الملحّة الى تخفيض نفقاتهم الخارجية قد دفعت بهم الى التشارك وتحوير طرقاتهم واستبدال أماكن لقائهم والبحث عن أسواق جديدة . وهكذا فان فتح « السوند » للسفن الثقيلة الحمولة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد أتاح انقاص اجور المراكب بابطال المرور في المضيق الدانمركي . ولما كانت شراكة المدن الهانسية ردة فعل دفاعية أكثر منها مظهراً من مظاهر قوة تسير في معارج التقدم، فقد ناضلت كي تفرض على الدانمركيين حرية التجول في مياهها وكي تحافظ على أسواقها في لندن وبروج وبرغن ونوفغورود. غير ان الاتحاد لم يوفر على مدن المانيا الشمالية نتائج الهبطة الاقتصادية الشاملة ؛ فان لوبك ، على الرغم من مركزها الممتاز قد تأخرت عن ركب شريكاتها ومنافساتها في بروسيا ؛ كما ان بعض مدن المنطقة الغربية ، ولا سيا كولونيا ، قد صممت على الدفاع عن مصالحها الخاصة؛ زد على ذلك ان هذه المدن كلها قد تضررت بفعل المزاحمة الانكليزية والنيرلندية حتى في البلطيك . فتقهقرت من ثم الشراكة الهانسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، لا سيا حينما سقطت سوق نوفغورود في أيدي « ايفان » الثاني في السنة ١٤٧٨

وعلى غرار أسواق مدن الشراكة الهانسية ، كانت «المؤسسة الالمانية» في البندقية و «الامم» الايطالية والاسبانية والانكليزية في بروج ، ثم في انفرس ، اجهزة دفاعية ايضاً : فان الاسواق التي يديرها ويمثلها لدى السلطات المحلية مجلس وأمين سر ، و «الامم» التي قام على رأسها قنصل، قد أمنت لأعضائها الاقامة في منزل واستخدام مخازن مشتركة واخوّة جمعية دينية ، وضمان المساعدات المتبادلة، والاستفادة من سلطة قضائية خاصة، وفوائد نظام جبائي خاص، وامتيازات تجارية خاصة . وقد بررت شتى ضروب المخاطر نمو مثل هذه التجمعات .

تحولت خطوط المواصلات أكثر من مرة بين قطبي اقتصاد القرون الوسطى ، هولندا وايطاليا : الخطوط البحرية التي سارت عليها منذ السنوات ١٣٢٠ — ١٣٤٠ ، بأعداد متزايدة ، السفن الجنوية والبندقية المسطحة ، نحو بروج ، بينما أدخلت « هياكل سفن » خليج غسكونيا، الى برشلونة وجنوى والبندقية، طرازاً لمركب اسهل قيادة، مجهز بدفة من طراز جديد، وجامع

بين الشراع المربع والشراع اللاتيني . فأدى من ثم انطلاق برشلونة الى مزاحمة المدن الايطالية .
وسارت على طريقي السمبلون والغوتار البريتين معظم وسائل النقل ؛ فأمنت اولاهما المواصلات الى سوق « شالون ــ سور ــ سون » الدورية الحديثة العهد ، واتجهت من ثم ، على طريق اللورين، نحو الشمال ، واستوفي رسم المرور عليها في « جوغ » من أعمال الجورا ؛ أما الثانية فقد انحدرت في وادي الرين عن طريق بال . وعرفت فرنسا الداخلية ، التي لم تمر فيهـــا هاتان الطريقان ، تحولات مماثلة ، على نطاق اضيق ، في خطوط المواصلات التجارية . ولنا في الطرقات الاكيتينية خير مثل على ذلك: فان سائقي العجلات البيارنيين، رغبة منهم في تجنب مخاطر الحرب ومراكز استيفاء رسوم المرور السبعة والعشرين على الغارون، شقوا ، في اواخر القرن الرابع عشر، طريقاً مباشرة تصل تولوز ببايون لأجل نقل الجوخ والعظلم المستوردين من انكلترا او المصدرين اليها . ويتضح من ذلك ان ما أملى على التجار اختيارهم هو تجنب المخاطر قبل تباين أسعار النقل النهري والبري . وخلال حرب المئة سنة تقاسم السين والواز والطريق البرية والبحر المواصلات بـــين باريس وهولندا . وحدث الشيء نفسه بين الانهار الكبرى وطرقات السهول الالمانية والبولونية .

وارتبط مصير أماكن المعاملات التجارية بتحولات الطرقات ايضاً ؛ الا ان هــذا الارتباط في المرافىء البحرية التي حددت الطبيعة مواقعها اقل منه في مراكز الاسواق الدورية الدوليـة الكبرى . فقد لوحظ في هذه الاخيرة اتجاه الى الانتقال شرقاً والاقتراب من الطرقات المارة في المجازات الالبيــــة . فقد خلفت اسواق شمبانيا اسواقُ شالون وجنيف وفرنكفورت ، ثم اسواق ليبزيـغ؛ وفي عهد لاحق، أي بعد السنة ١٤٥٠ حاولت اسواقليون الحلول محل جنيف، بينما دافعت ميلانو من جهة ، وبروج وانفرس و « برغ ــ اوب ــ زوم » من جهة ثانية ، عن أسواقها الخاصة . الا ان عهد الاسواق الذهبي كان في الحقيقة مائلاً الى الهبوط ؛ ومرد ذلك الى ان طابع التواتر فيها ما عاد ليتفق وعادات التجار المقيمين المستقرين وُعرف اجراء الصفقات التجارية والمالية المباشرة في مراكز الاعمال نفسها بواسطة العملاء او بالمراسلة احياناً .

تقنية الاعمال

استمدت عناصر تحسين تقنية الاعمال من خبرة التجار الجنوبيين، اسبانيين او ايطاليين ، ومسّت الحاجة اليـــها امام واجب الدفاع عن النفس في الظروف الصعبة . فقد توجب ، في آن واحد ، استدراك مخاطر المشاريع التجارية وحصرها ، والتعويض جهد المستطاع عن نقص الادوات النقدية ؛ وهــــذا ما أفضى الى مظهري الطرائق التجارية : الشركات ، بالنسبة لنظامها ، والمحاسبة والدين ، بالنسبة لسيرها . وتلقى التـــاجر الايطالي ، بفضل دراسة « الطاولة الحسابية » والتمرين العملي ، ثقافة تفوّق بهـــا على منافسيه الشماليين ، من انكليز وغيرهم ؛ الا ان الصيرفي البروجي ما لبث ان اصبح قادراً ، على غراره ، على تحسين مسك الدفاتر التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر : فغدا السجل اليومي وسجل الصندوق و « ورقة النقد » أشياء عادية . ولما كانت الارقام العربية ، التي ظهرت في ايطاليـا منذ القرن الثالث عشر، لم تنتشر فعلاً الا اعتباراً من القرن الخامس عشر ، فقد درج الناس زمناً

طويلاً على الحساب بواسطة قطع معدنية تمثل قيماً نقدية مختلفة . ولكن طريقة مسك الدفاتر المزدوجة ، التي استعملت في اليونان منذ قبل السنة ١٣٤٠ ، قد انتشرت شيئاً فشيئاً . فنجمت عن معاملات الصيارفة تدريجياً المعاملات المصرفية العصرية : الودائع ، والحسابات الجارية والتحويلات الداخلية والخارجية . اما التحويلات الخطية ، المعروفة « بالبوليصات » ، التي يرتقي اقدم نماذجها ، وقد اكتشف في بيزا ، الى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد اشتق منها « الشك » الحالي . ومن عقد المقايضة ، الذي اتفق عليه في البدء امام مسجل العقود ، للاقرار خطياً بدين يدفع بنقد آخر وفي مكان آخر ، اشتقت السفتجة التي تستلزم ، بموجب تحديدها ، عملية مقايضة دون نقل المال فعلاً ، وعملية دين. ثم تأسست اجهزة عامة اتخذت ، بعد مصارف ساحة ريالتو في البندقية ، شكل المصارف الحكومية في جنوى (دار القديس جرجس ، في السنة ١٤٠٨) ، وبرشلونة (١٤٠١) وفالنس (١٤٠٧) . واتجهت عمليات فتح الاعتمادات الى التمركز في اوساط الاعمال الكبرى وانحصرت في أيدي الايطاليين او كادت: في سينا والبندقية وفلورنسا وجنوى وبروج وافينيون ولندن وبرشلونة ومونبلييه ، خلال القرن الرابع عشر . وبعد استلاب المؤسسات الايطالية على يد البورغونيين في السنة ١٤١٨ ، تخلت باريس عن مركزها لجنيف التي انتقلت منها الاعمال الى ليون حوالي السنة ١٤٦٠ . ونشطت حركة هذه المراكز جميعها بفضل انتشار ممثلي الشركات الكبرى .

لم تتجانس أنظمة الشركات الايطالية : فقد غلبت سيطرة الدولة في البندقية ، والمشاريع العائلية في فلورنسا ، والروح الفردية في جنوى . وسايرت الشراكة الفلورنسية الظروف، فانتقلت في القرن الخامس عشر ، من نظام الشُعب المتعددة الى نظام الفروع . فقد جمعت الاولى ، وهي شركات ذات اسم جماعي ، حتى ٢٥ مساهماً احياناً ، وعدداً كبيراً من العملاء الموزعين على الشُعب : وان في هذا ، لعمري ، حصرية جعلتها سريعة العطب ، كما خبرت ذلك عائلات « فرسكوبلدي » والبرتي و « اتشياولي » و « بروتسي » و « باردي » . اما الثانية ، التي يقدم لنا آل « مديتشي » افضل مثل عنها ، فقد اعتمدت نظاماً حصرياً في ادارتها وأموالها ، دون ان تعتمده في ادارة كل فرع؛ ففي حزمة هذه الجمعيات المتوازية على غير جمع واتصال، لم يكن عجز جمعية عن وفاء الدين ليجر وراءه بالضرورة عجز الجمعيات الاخرى . وقد مارست كافة شركات النظام الاول والنظام الثاني ، في آن واحد ، الصناعة والتجارة والاعمال المصرفية ؛ وحقق بعضها احتكارات افقية وعمودية : كآل زكريا ودرابيرو في جنوى ، وقد اشتهروا في تجارة حجر الشب ، وكالبندقيين « اندريا بربريغو » و « جياكومو بادوير » او اللوكي « رابوندي » الذي كان صيرفي البلاطات الفرنسية ، او « آل داتيني دي براتو » الى جانب الفلورنسيين . فقد تتلمذ على هؤلاء احد تجار رافنسبورغ ، على مقربة من كونستانس ، ويدعى « جوزف هومبيس »، وأسّس ، في اواخر القرن الرابع عشر، «مصرف رافنسبورغ الكبير» الذي كان المثال الاصلي للمشاريع العظمى المماثلة التي أنشأتها المانيا العليا بعد مرور قرن على تأسيسه . وأهم المثل « جاك كور » ايضاً الذي تذكرنا مشاريعه المتنوعة بالمثال المديتشي .

لم تكن فطنة رجال الاعمال الايطاليين شيئاً باطلاً ، لأن الافلاس ، على الرغم من ضآلة عدد القادرين على تقليدهم في طرائقهم ومشاريعهم ، كان بالمرصاد لأعظم ممارسي الاعمال التجارية : فبعد انهيار آل « فرسكو بلدي » في السنة ١٣١٢ ، جاء دور آل « سكالي » في السنة ١٣٢٧ وآل « بوناكورسي » وآل « اوساني » وآل « كورسيني » في السنة ١٣٤١ وآل « انتشاولي » وآل « بيروزي » في السنة ١٣٤٣ ، وآل « باردي » في السنة ١٣٤٦ . ولم يحل التضامن العائلي واتحاد الشركات دون منافسة شديدة تنازعوا بتأثير منها، في ما تنازعوا، الفوائد الادبية والمادية لاستثمار الاموال البابوية : فقد انفصل آل البرتي « الجدد » عن آل البرتي « القدماء » ، وآل « تشركي » « البيض » عن آل تشركي « السود » ، وارغم آل البرتي « القدماء » آل « غواردي » على اعلان الافلاس (١٣٧٠) ، قبل ان يصيروا انفسهم الى الانهيار امام آل « البيزي » وآل « ريتشي » .

يجب ان نفسر هشاشة المشاريع هذه بمرض التعاظم والعجز عن مواجهة طلبات الدائنين بسبب الافتقار الى الاموال النقدية، لا بعجز ادوارد الثالث مثلاً عن وفاء آل باردي وآل بيروزي حقوقهم، او مطاليب « شارل الجسور » من آل « مديشي » . وهكذا فقد انهارت فروع شركة آل مديشي في لندن وبروج وليون في اقل من ثلاثين سنة (١٤٦٦ — ١٤٩٤) . ولعل الدعوى القائمة على جاك كور اوقفت نشاطه في منحدر مماثل ايضاً . وحوالي السنة ١٤٤٠ ، عانت برشلونة الامرين من أزمة الثقة . ونراها، على مستوى دون هذا المستوى، مدينتين لتصفية حسابات صيارفة بروجيين كثيرين ولحجز سجلاتهم ، بكشف النقاب عن طرائقهم .

ليس قدم الاساليب التجارية والمصرفية دون عدد الافلاسات تأييداً لشعور الركود الاقتصادي الذي سيطر حتى الربع الاخير من القرن الخامس عشر . ففي مرسيليا وبرشلونة وفالنس واشبيلية وحتى في ليشبونة حيث كانت رؤوس الاموال الجنوية ترتقب فرصة قريبة لمكاسب جديدة ، ما زالت المشاريع التجارية تعتمد شكل شركة التوصية الذي احتفظ بطابع شخصي وعائلي . اما الشركات المساهمة الكبيرة التي استثمرت مطاحن تولوز منذ القرن الرابع عشر فتبدو وكأنها شذوذ عن القاعدة . واذا ما استثنينا الشركات الايطالية ، لم يُشاهد قط ، قبل السنة ١٤٥٠، عملاء يمثلون أولياءهم تمثيلاً دائماً في المدن الاجنبية . ولم تعرف السفتجة في مرسيليا قبل السنة ١٣٦٠ ، وفي تولوز قبل أواخر القرن ، وفي روان قبل اوائل القرن التالي ، وقد أقصرها التجار الذين استخدموها على اعمال تجارية صرفة لم تتطور تطوراً يذكر . وفي بروج نفسها استلزمت تقنية الدفع التعهدات والاعترافات الخطية بالدين ، وتحديد المواعيد ، وكلها وسائل تقليدية . ويجوز القول نفسه في التأمين البحري الذي اعتمد في بروج منذ السنة ١٤٩٥ وادخل بعد خمسين سنة الى المرافىء الاطلسية ، مع انه قديم العهد في المتوسط .

وجملة القول ، اذا تقدمت تقنية الاعمال بفضل تحول الاسواق والطرقات التجارية ، واذا آلت الى تخفيف وطأة الهبطة الاقتصادية، فانها قد توقفت بفعل هذه الهبطة نفسها كما توقفت بفعل

التبيق المطرد . ولم تكن فوائد الطرائق الجديدة الا في متناول ابعد التجار همة وأوفرهم ثروة. فكان من ثم محتوماً ان ينتقل القلق الناجم عن ظروف طالت مماكستهـا الى النطاق الاجتماعي ايضاً .

٤ ـ الاضطرابات الاجتماعية

التفسخات الاجتماعية

كان مهنيو تورنيه، في السنة ١٣٠٢،يفكرون باليوم «الذي سيتساوى فيه الجميع في الثروة» . وبعد مرور ثمانين سنة أذكى جون بول بدوره، في اغنية شهيرة ، احقاد الفلاحين الانكليز الثائرين على أسيادهم وعلى مأموري الجباية . وكان «الشعب الصغير» يصرخ آنذاك في فلورنسا : «ليحيا الشعب !». والى هـذه الاقوال المعادية للسلطة ، انضمت ، خلال قرن من البؤس، دعوة الروحيين الى تحقيق المساواة . فمنـذ العشرين سنة الاخيرة من القرن الثالث عشر ، كانت مدن هولندا قد دقت ناقوس الخطر وكان لانذارها رجع صدى في الارياف . فعرفت الارياف ، التي لم تتماش أنظمتها تماماً ودرر المـال المتزايد ، والمـدن التي سيطر عليها القابضون الحريصون على اسباب الثروة الجديدة ، تفسخاتها واضطراباتها الاجتماعية معاً . وتجدر الاشارة الى ان هذه الصراعات ، التي سبقت انقلاب الوضع الاقتصادي بزمن بعيد ، قد تفاقمت بفعل الازمة ، لان الذين كانوا ينتجون او يبيعون شيئاً ما ، ويحددون الاجور ، ويستفيدون من حركة العرض والطلب ويتمكنون من ابقـاء أرباحهم في مستوى الاسعار والنقد ، هم وحدهم من استطاعوا الارتقاء والبقاء فوق المستوى العادي العام . وتوصلا الى هذه الغاية،دفع المنطق الاناني بالمستفيدين الى ان يقفلوا وراءهم الابواب التي فتحت امامهم سبل الثروة .

لا يزال الغموض يكتنف عدم السياق الظاهر في تعاقب الاضطرابات الاجتماعيـة في آخر القرون الوسطى . ولكن هـذه الاضطرابات ، على الرغم من ذلك ، تؤلف بما لا يترك مجالاً للشك ، مجموعاً من ردود الفعل المتماثلة ، المتشابهة والآنية احياناً ، لوضع اقتصادي واجتماعي واحد أقله في وسائله الفاعلة العميقة . وينهض المهنيون والفلاحون ، في هـذا المجموع ، بالأدوار الرئيسية ، بينما يمثل الاشراف والاسياد ادوار الضحايا : تباين في الاوضاع حقاً ، وتبـاين في النسب العددية ايضاً .

الاضطرابات في المدن

كان «فيليب دي بومانوار» ، في أواخر القرن الثالث عشر،قد أدرك المعضلة خير ادراك : «نرى مدناً كثيرة لا يسهم البورجوازيون الفقراء والمتوسطون فيها بادارة المدينـة ، التي هي وقف على الأثرياء ، لان المواطنين يخشونهم بسبب ثروتهم او بسبب نسبهم . ويحدث ان يكون بعضهم حكاماً او محلفين او جباة وان ينقلوا في

السنة التالية ، وظيفتهم ... الى الاقارب من أنسبائهم ... يتفق الأثرياء على ابعاد كل رقابة عن حساباتهم ، فيصبح من العبث اتهامهم بالسرقة والغش مهما كانت مستندات الاتهام . لذلك لم يستطع الفقراء احتمالهم ، ولكنهم لم يعرفوا سبيلاً للمطالبة بحقهم افضل من الثورة عليهم » .

تشابهت معطيات المعضلة في كل مكان تقريباً. ارتفع سكان المدن ارتفاعاً مدهشاً خلال القرن الثالث عشر ، ولكن امتيازات البورجوازية بقيت وقفاً على اشراف قليلي العدد . فكم كان عدد « العظماء » بين سكان غنت البالغين ٥٠٠٠٠ نسمة ، وسكان بروج البالغين ٢٥٠٠٠ ، وسكان أراس او سينا البالغين ٢٠٠٠٠ ، وسكان فلورنسا البالغين ٤٥٠٠٠ يا ترى ؟ ربما جزء من ثلاثين او اربعين في غنت ؛ وعشر عائلات تقريباً في ليـل ؛ وأقل من اربعين في لياج ؛ و ٢٥٠٠ « عظيم » تقريباً في فلورنسا . هؤلاء جمعوا كافة الثروات بين أيديهم. كانوا ذوي املاك ريفية ، ولا سيما في ايطاليا ، فراقبوا بهـذه الصفة ، شؤون التموين وحددوا الاسعار . وجمعوا رؤوس الاموال، فتصرفوا، بهذه الصفة ، بمصير الثروات الخاصة والاموال العمومية . وسيطروا بالاضافة الى ذلك على العمل، ابتداء من المادة الخام حتى بيع الانتاج المصنوع، فأشرفوا بهذه الصفة على النقابات في مدن الشمال وعلى الفنون الكبرى في المدن الايطالية . وأمن لهم النظام السائد في كل مكان تقريباً ، والقاضي بأن تنتخب كل جمعية أعضاءها ، الاحتكار العملي للوظائف البلدية : فأنيطت بهم دون غيرهم اعمال الادارة والقضاء والشؤون المالية . لهم القصور ؛ ولهم التعليم . ولما كانت يدا الشريف الفلمنكي غير جاسئتين وأظافره غير « زرقاء » ، فانه « يشرب النبيذ كل يوم » ؛ ويمتطي الحصان ويستسمي نفسه « السيد » ؛ يـدفن في الكنيسة . صناعي غنت يدعوه « عاطلاً » . وخلال فترة طويلة ، اقام تضامن النسب حول الشريف حاجز دفاع اعتبره منيعاً .

ليس مجرد اتفاق من ثم اذا انفجرت النقمة الاجتماعية في اوساط صناعة الجوخ بنوع خاص ، وهي منذ القديم طليعة الحركة الادبية والاجتماعية . وقد سبق لبيير فالدو وفرنسيس الاسيزي والمتواضعين والروحيين ان وجدوا في اوساطهم صدى تقريظهم للفقر والتواضع . ويرد هـذا الواقع الى ان تعدد عمليات صناعة الجوخ والفرق في الاجور قد احـلا الصناعيين ، ولا سيما الحلاجين والقصارين ، في وضع متدن ابرز منه في اية مهنة اخرى . ولكن يجب الا يخدعنا هذا الواقع : اذ ان المهنيين غالباً ما انقسموا وتعادوا في مصالحهم ؛ ولذلك فان الانظمة المقيدة التي توصلوا الى تحقيقها منذ اواخر القرن الثالث عشر قد خدمت تنافسهم ووقوفهم في وجه الاشراف على السواء .

افتقر الشعب الى العلم والتلاحم ، ولم يكن من ثم قادراً الا على القيام باضطرابات لا طائل تحتها ، لو لم يجد قادة يجسدون شواعره ويعربون عن رغائبه . فنقم تارة على الاشراف بسبب الاجور والادارة البلدية ، كما حدث ذلك في هولندا طيلة القرن الرابع عشر، وفي ستراسبورغ في السنة ١٣٣٢، وفي متز في السنة ١٣٤٦، وفي سينّا في السنة ١٣٥٥، وفي فلورنسا في السنة ١٣٧٨، وفي برشلونة في عهد لاحق ؛ وهاجم تارة اخرى رجال المال ، اليهود في المانيا زمن الطاعون

الكبير ، والاجانب في انكلترا : فبين السنة ١٣٦٠ والسنة ١٤٦٠ ، عرفت المملكة الانكليزية سلسلة من الحركات المعادية للاجانب استهدفت ، في لندن وسوثمبتون ، الفلمنكيين اولاً ، ثم تجار المدن الهانسية والايطاليين بنوع خاص . وغالباً ما استهدفت الثورة الشعبية مأموري الجباية والسلطات العامة والسلطة الملكية ايضاً : وهذا ما حدث بمناسبة النقود في باريس (١٣١٣) ؛ وبمناسبة الضرائب في باريس ايضاً (١٣٥٨ و ١٣٨٠) . ولم يخضع مثيرو الشغب لمذهبعقائدي؛ بل لنزعات الى مساواة غير واضحة المعالم ، ما لم يتول امر التمرد احد الطماعين او الفوضويين او العقائديين سعياً وراء بلوغ هدف شخصي او تحقيق نزعات بيئتهم .

اذا ما استثنينا « بيردي كونتك » في الفلاندر (١٣٠١) و « كولادي رينز » في روما و « ميشال دي لاندو » ، العامل الحلاج ، في فلورنسا ، لم ينتم خطيب شعبي قط الى عامة الشعب ، بل الى طبقة الاشراف او الى اسمى المهن مقاماً ، كالجواخين في القرن الرابع عشر والجزارين في القرن الخامس عشر ؛ وكلنا يعلم الـعلائق التي قامت بين سيلفستر دي مديشي ، وميشال دي لاندو . وقد استفاد الييجيون ابداً من عون البورجوازيين الاثرياء على اساقفتهم او على آل « داتين » ، ارباب المصاهر الاولى في البلاد . وهو مارينو فاليارو ، احد عظام الاشراف ايضاً ، من نقل المعركة الاجتماعية الى البندقية حين ركدت الاضطرابات الشعبية ؛ وفي اوساط الاشراف ايضاً بحثت جنوى عن قادة احزابها . وكما في هولندا ، كذلك في بال ومايانس وكولونيا ، تحالف الاشراف الستراسبورغيون مع ارباب المصانع لانتزاع السلطة من النبلاء ، ثم مع النبلاء لانتزاعها من ارباب المصانع . وفي متز ، وفي الاشراف ، المتقسمون على انفسهم ، القادة لعمال المصانع ايضاً . وما كان ارباب المهن ، لولا هذه المحالفات ، ليستطيعوا الاشتراك في الحكومات المدنية .

الاضطرابات الريفية

اتسمت الاضطرابات الريفية بمزيد من العنف ، ولكنها كانت دون الاضطرابات المدنية تلاحماً ونجاحاً . وهي انفجارات بؤس وغضب اكثر منها نتيجة تصميم واضح الاهداف . فان ثورة الفلاندر البحرية قد استهدفت النظام الاجتماعي برمته ؛ وثورة فلاحي « ايل دي فرانس » لم تستهدف بلوغ غاية معينة ؛ وانصار « وات تيلر » ، بعد الاستيلاء على لندن ، قد تفرقوا حالما قطع لهم ريشارد الثاني عهده الاول ؛ ولم يكن لثوار اللنغدوك « التوشين » لا برنامج ولا قيادة ؛ وثورة جاك كاد في مقاطعة « كنت » ، لم تسفر عن اية نتيجة على الرغم من الاستياء الشامل . واذا احرز ثوار كاتالونيا ، في الوقت نفسه ، مزيداً من النجاح ، فمرد ذلك الى ان مثلهم الاعلى في التحرر الزراعي قد وجد وحدته في مساندة البورجوازيين الكاتالونيين .

ان هذا الصراع المزدوج في سبيل تحرر الفلاحين ، ولا سيما في سبيل توصل اهل المهن الى منافع ومسؤوليات الثروة البورجوازية ، قد افضى في النهاية الى فشل مزدوج . ففي مرحلته

الاولى ، اي حتى السنة ١٣٨٠ تقريباً ، عرف الفلاحون واهل المهن ، هنا وهناك ، نجاحات عابرة . وقد حدث لهم ايضاً ، بتأثير من صعوبة الايام ، وبحافز من بؤسهم في الارجح ، ان شعروا بواقع التفسخ الاجتماعي وصمموا على اكمال التحسينات التي حققوها بالنسبة لمصيرهم . وكان اول من نهض بالحركة المدن الفلمنكية ، وهي اعظم تطوراً من المدن الاخرى ، ولياج المشهورة بنضاليتها. اجل كانت الاعترافات بالمهن كمؤسسات قد حدث من دور النسب والدم . وهي هذه الاعترافات نفسها التي ساعدت حينذاك ، على الرغم من مقاومة دائمة – عداء سلطة الكونتية في الفلاندر الذي سانده تاج فرنسا – على تجديد وتثبيت انتصار المهن : في غنت ، في السنة ١٣٦٠ ، بعد منافسة عنيفة دامت ١٥ سنة بين القصارين والحاكة ، وفي لياج حيث كانت الغلبة للمهن في السنة ١٣٨٤ . وحدث الشيء نفسه في العالم الزراعي حيث تحققت ، على الرغم من المثل الذي اعطته الفلاندر مرة اخرى ، النجاحات المحرزة بعيد الطاعون التي جعلت الفلاحين ينظرون بفارغ الصبر الى الانعتاق من تبعية تحرروا منها جزئياً . وان مـا طالبوا به ريشارد الثاني ، في سهل ميل اند ، في السنة ١٣٨١ ، هو زوال ما بقي من الارتفاقات الاقطاعيـة القديمة .

ان الاضطرابات التي انفجرت في آن واحد ، حوالي السنة ١٣٨٠ ، وان على غير ترابط ، في انكلترا وهولندا ومدن فرنسا والمانيا الغربية وفي ارياف اللنغدوك وفي برشلونة وفلورنسة. كانت في الارجح بادرة ازمة بلغت آنذاك ذروتها . اختلفت في اهدافهـا ، كما اختلفت في وسائلها ايضاً : فهنا فتن مدنية ، وهناك ثورات شاملة على نطاق اقليمي ؛ وتحولت في الفلاندر الى حرب اقطاعية ودولية . ولكن معناها الحقيقي اجتماعي في الدرجة الاولى : وهكذا فقد توفقت متز الى تجنب ويلاتها بالتخفيف وقائياً من طابع النبل ، الذي اتسم به النظام البـلدي ، لمصلحة عامة الشعب .

الا ان المهن ، التي توصلت الى السلطة حين اخذت قوة المدن بالتقهقر ، قـد عجزت عن تحسين وضعها الاقتصادي تحسيناً محسوساً . زد على ذلك ان طبقة جديدة من الاشراف قـد قامت على انقاض الطبقة القديمة . ولم يجد احد من دواء للتغلب على الصعوبات المادية المتعاظمة سوى تصلب الانظمة التعاونية واقفال ابواب المهن في وجه طلاب العمل ، وبالاختصـار جمود الاوضاع الاجتماعية . فغدت المنازعات والمناقسات مادة بذخية وجب الاحتياط لها بالالتجـاء الى حام وحكم يكون ملكاً او اميراً. فكانت القوة السياسية وحدها في النهايـة من استفاد من العملية .

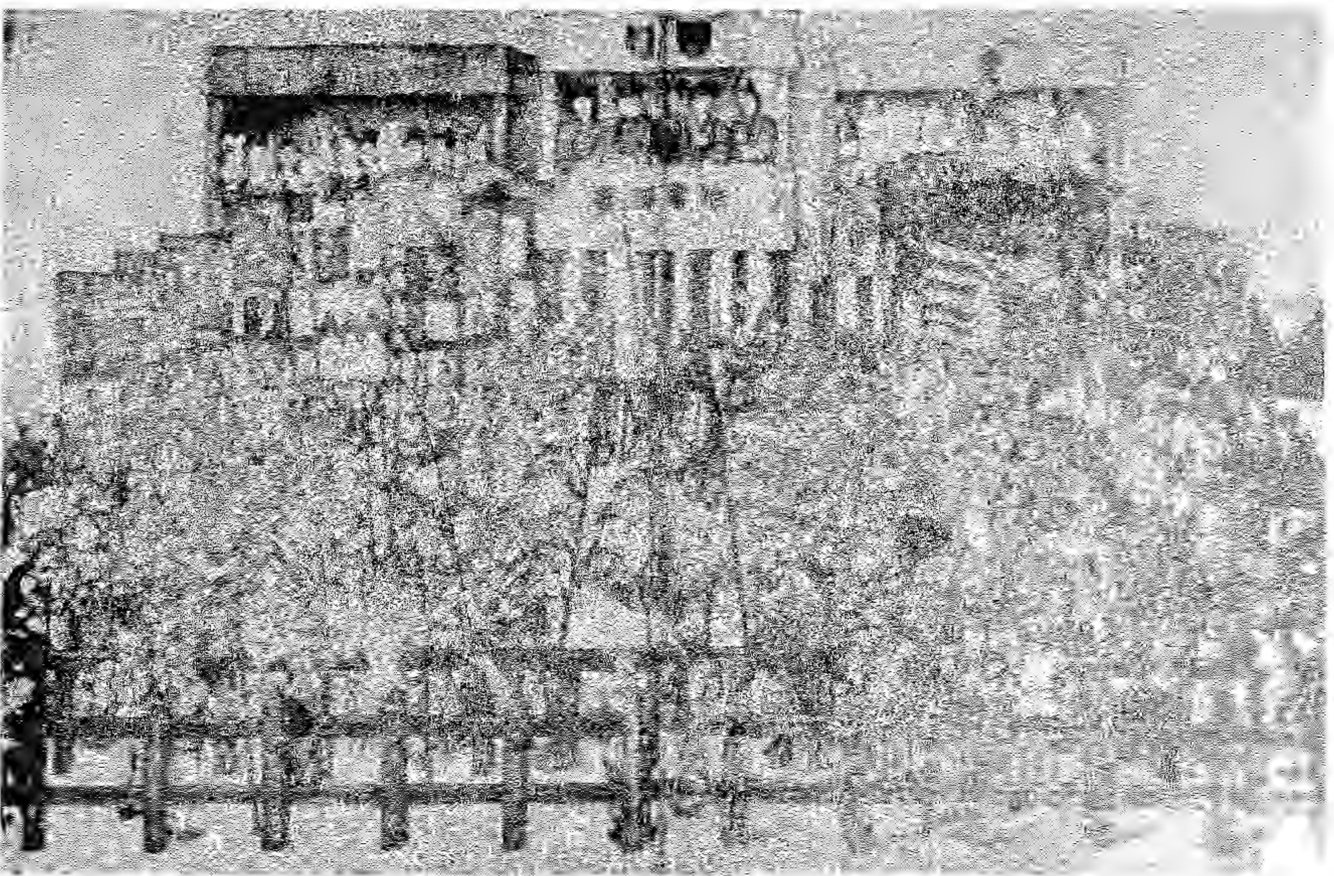

اللوحة ٣٣ - مباراة عسكرية

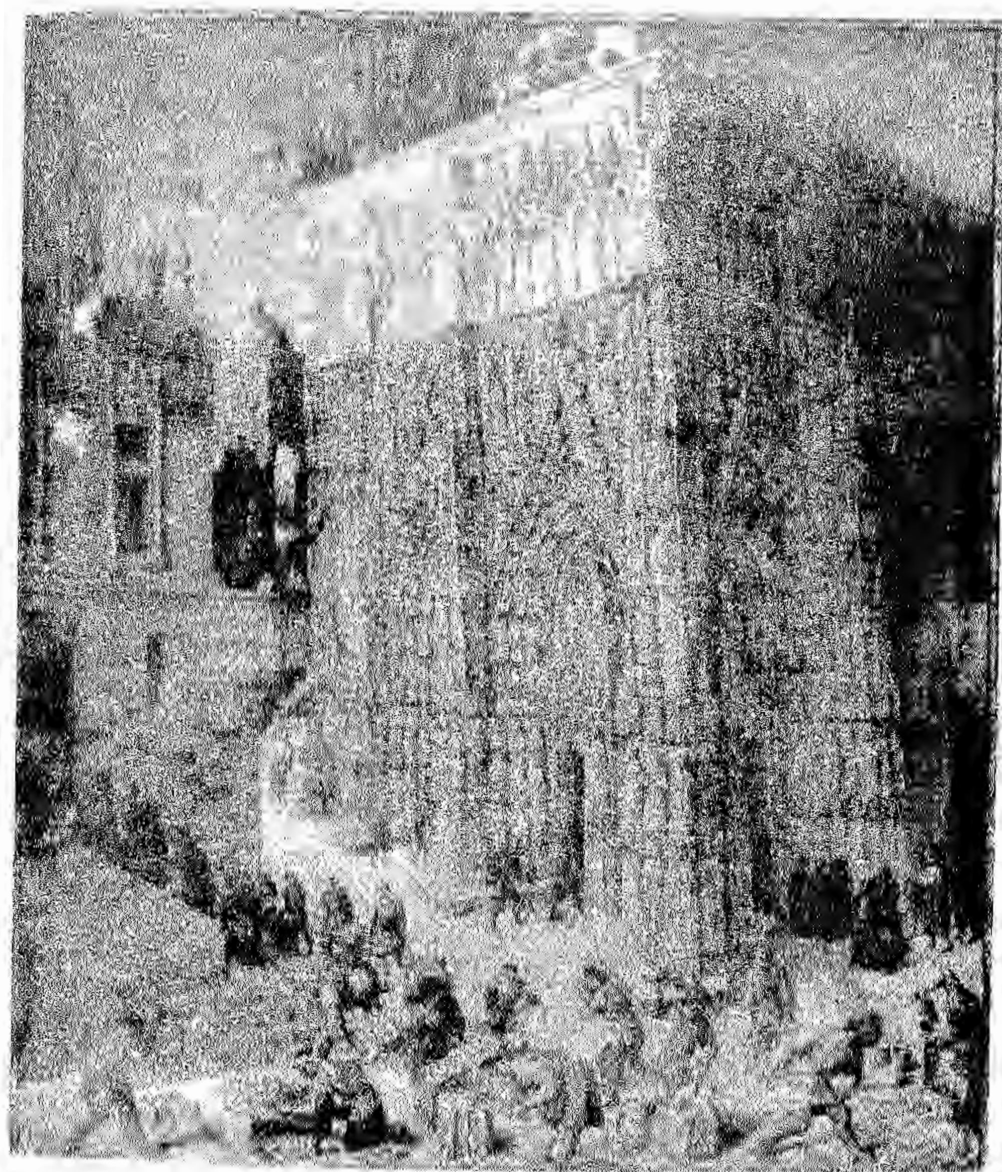

اللوحة ٣٤ - تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بورج) .

اللوحة ٣٥ – سفينة (يونان يبتلعه الحوت) .

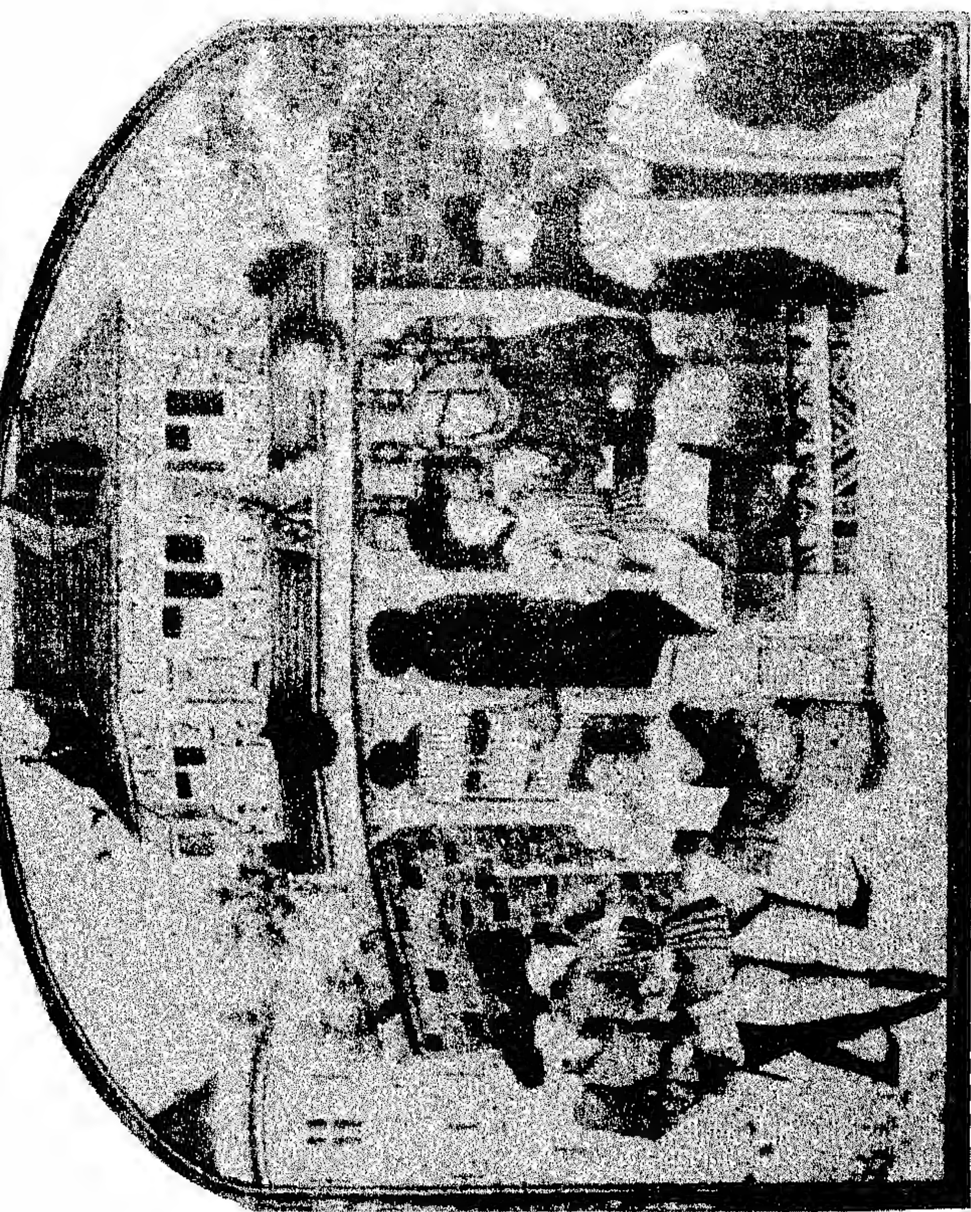

اللوحة ٣٧ ـ دعوى دوق آلانسون

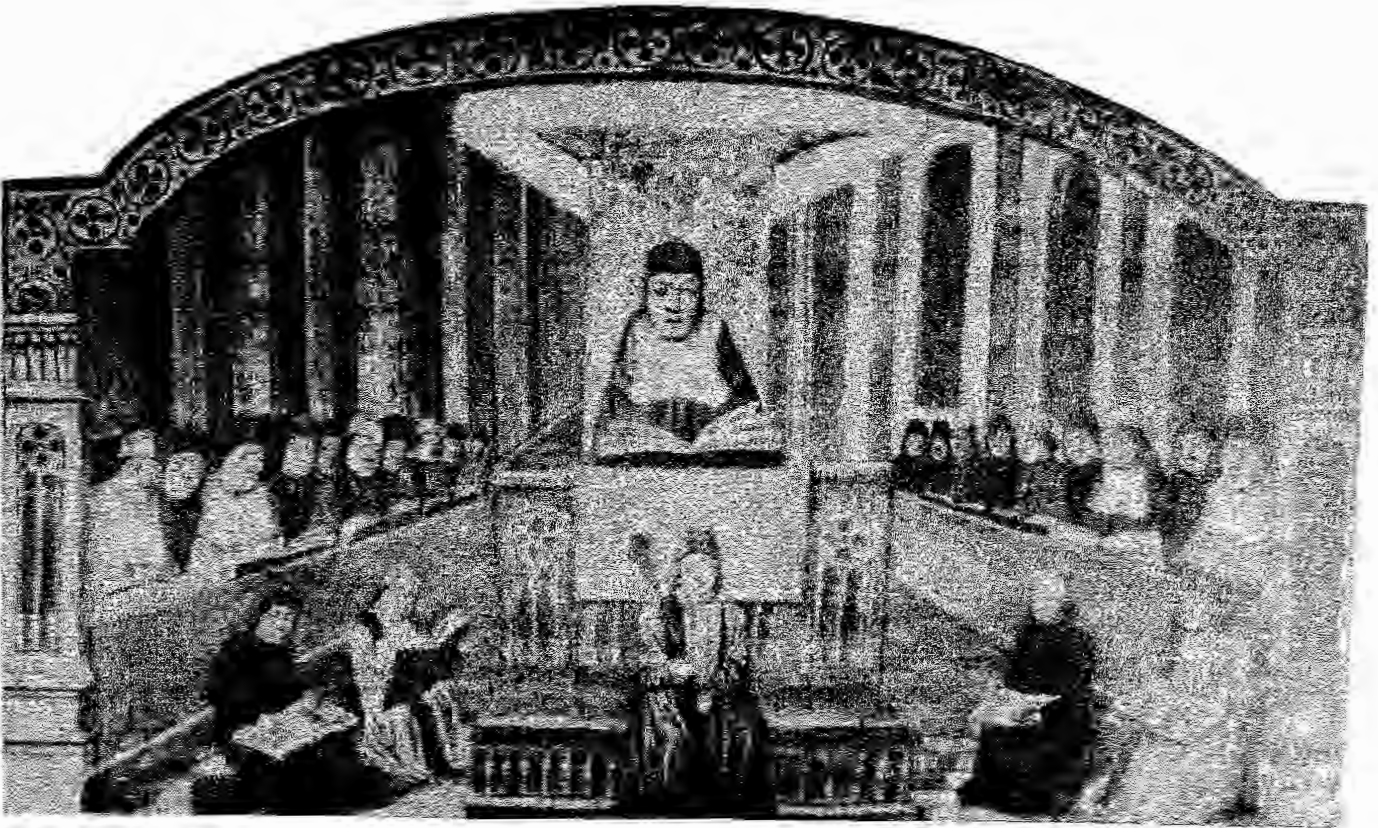

اللوحة ٣٨ – درس لاهوت في السوربون .

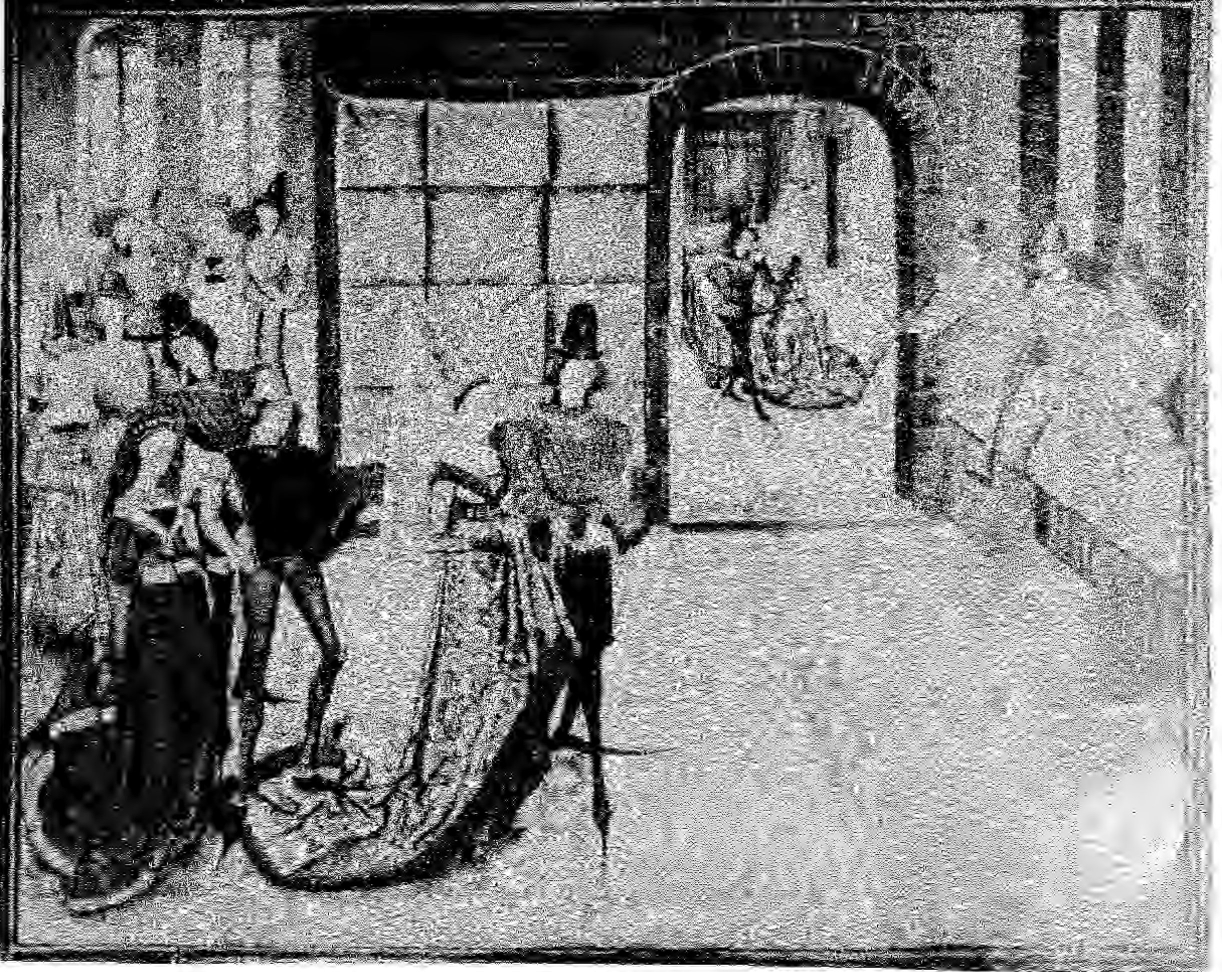

اللوحة ٣٩ – [illegible] من مخطوطة

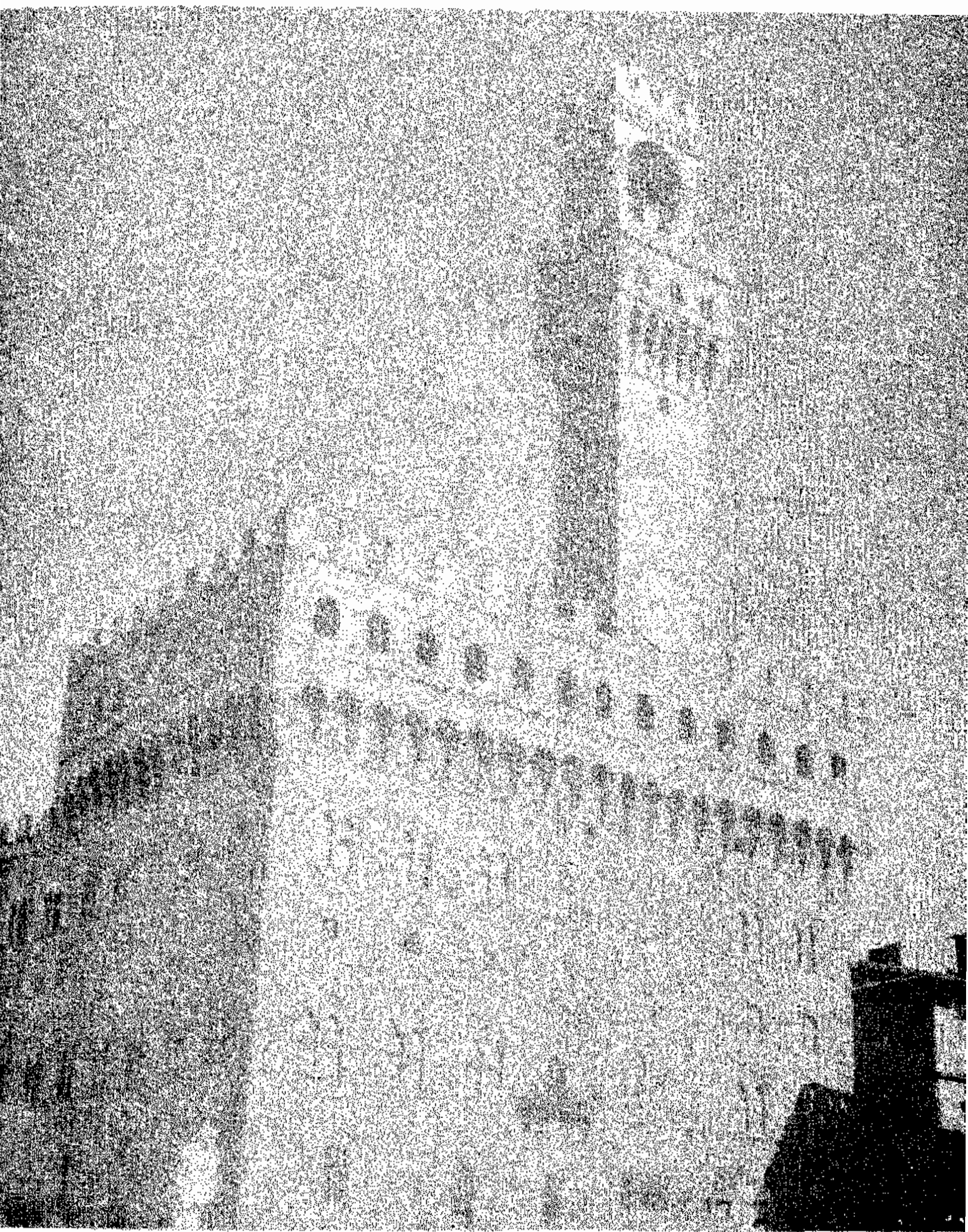

اللوحة ٤٠ – القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر) .

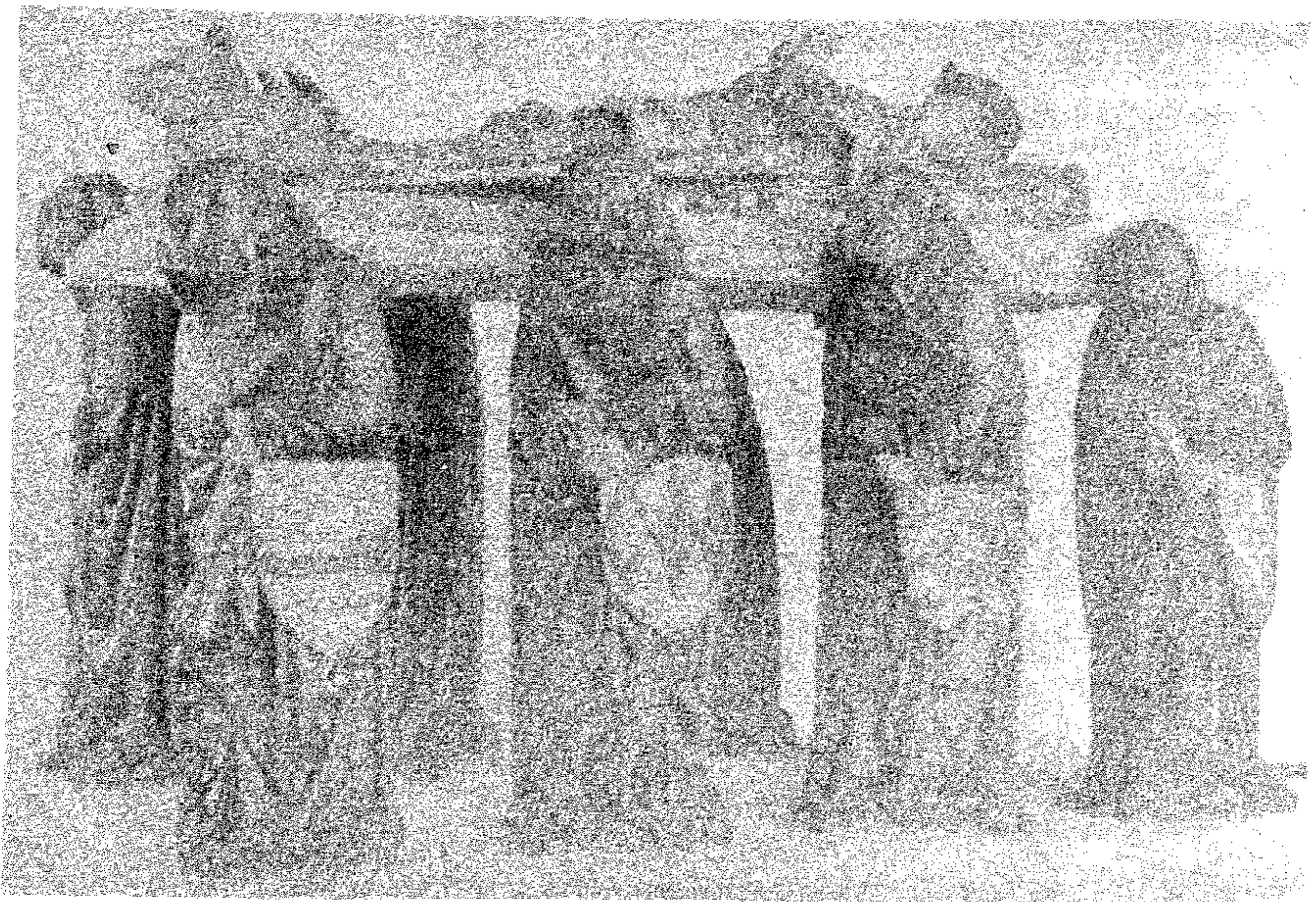

اللوحة ٤١ – ضريح فيليب بوت وزير العدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر) .

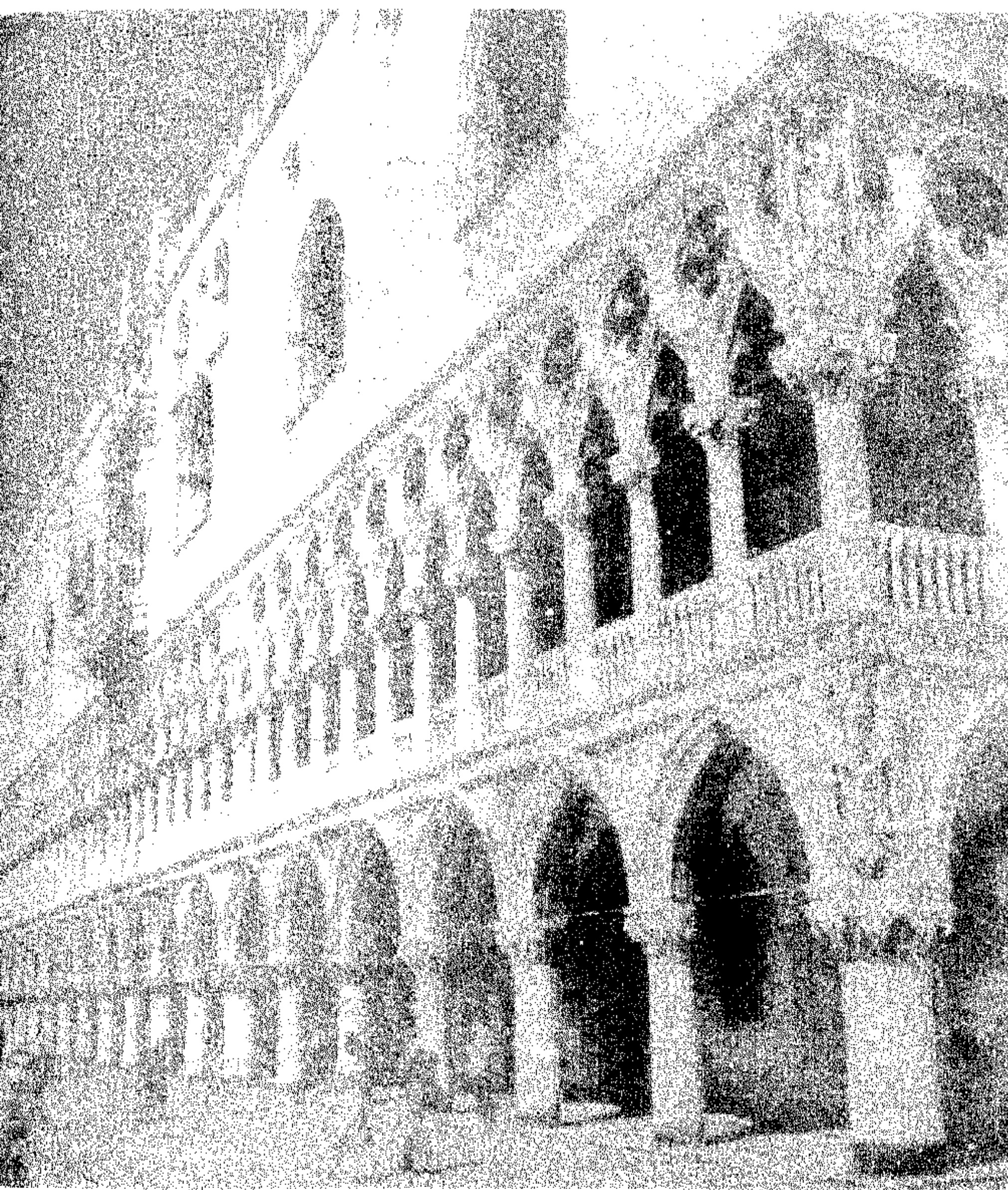

اللوحة ٤٢ — قصر رؤساء الجمهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر) .

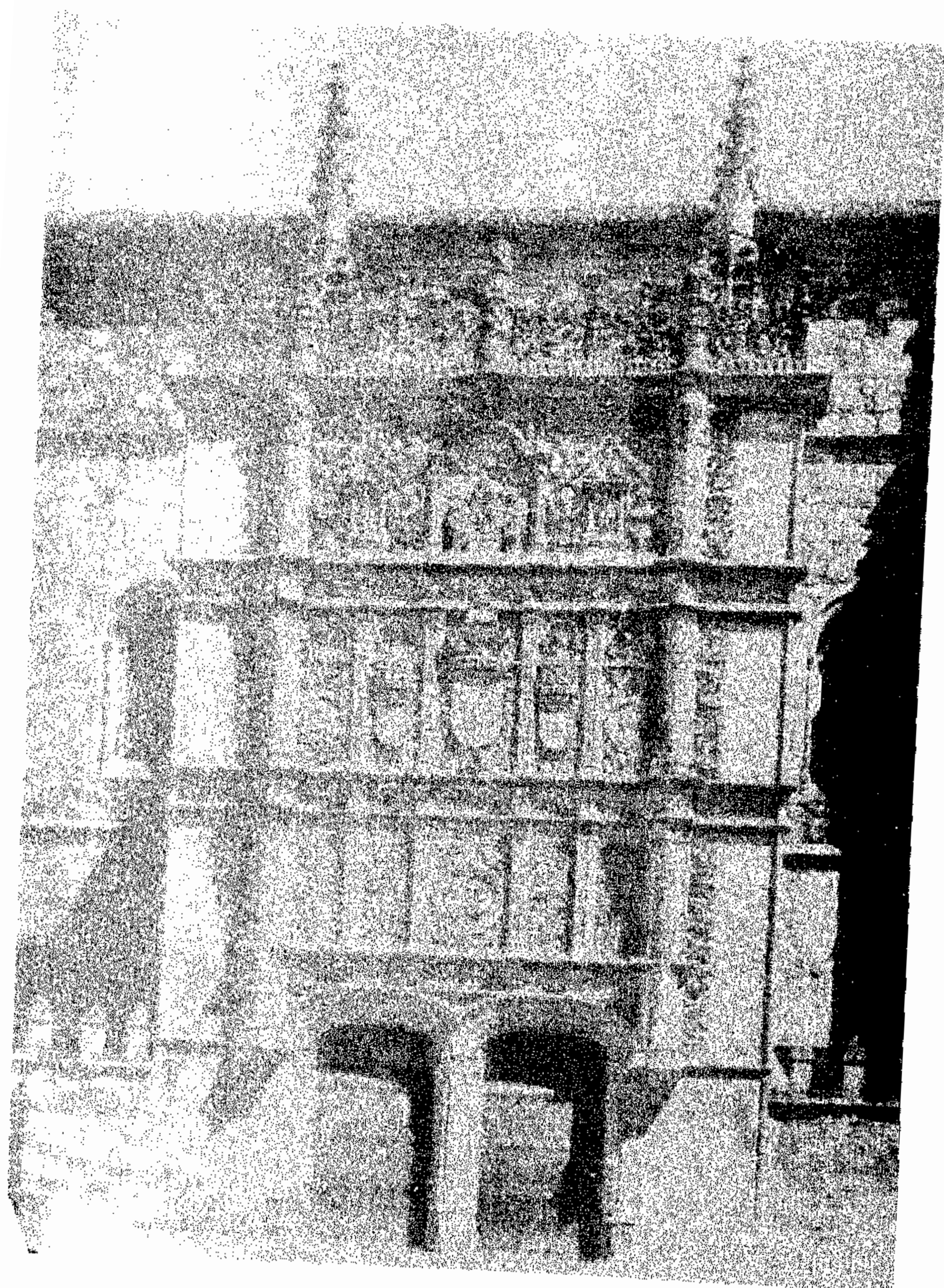

اللوحة ٤٣ – الباب الضخم لجامعة سلمنكا (اسبانيا) ، أوائل القرن السادس عشر .

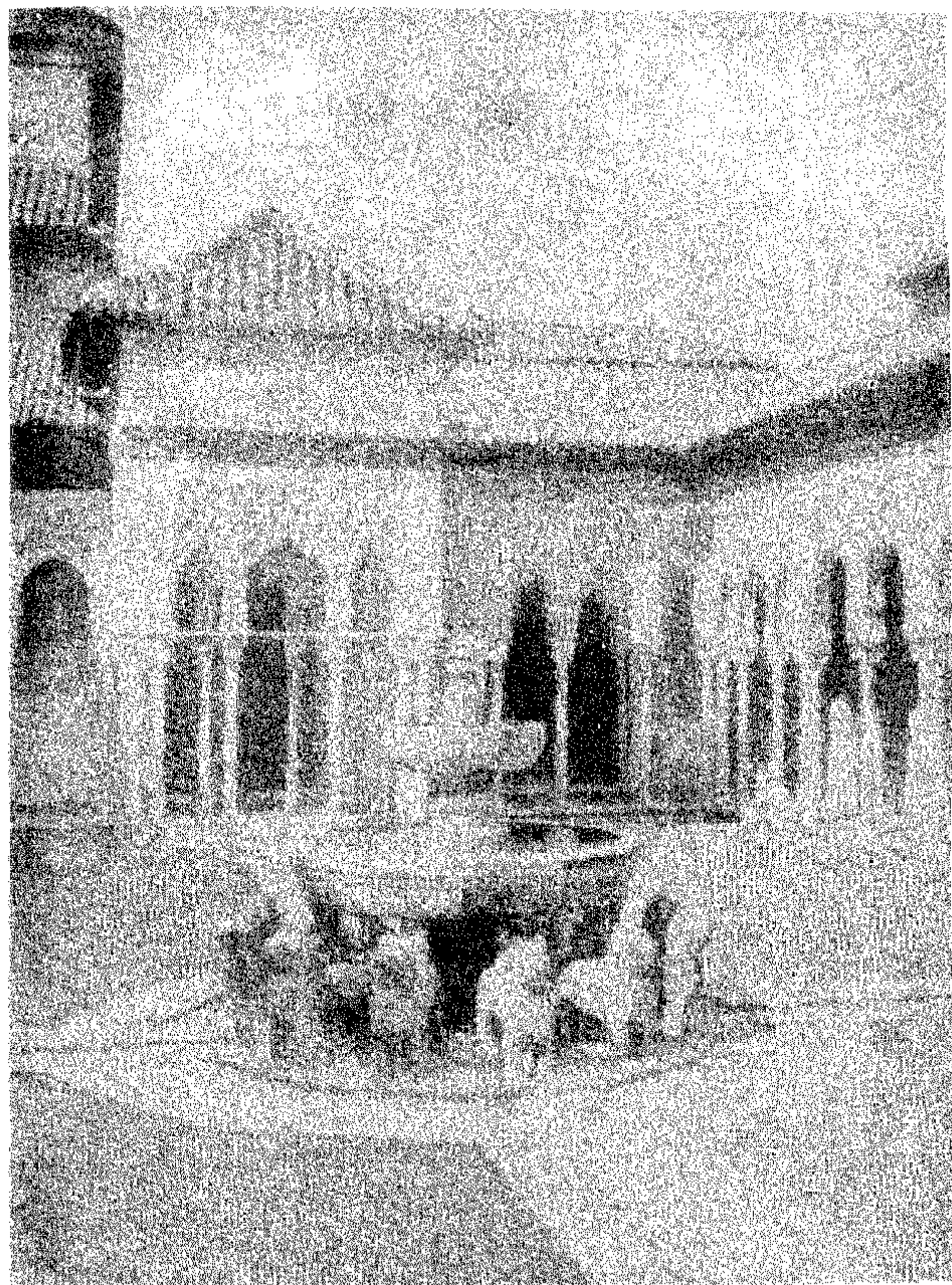

اللوحة ١٤ – الحمراء في غرناطة (اسبانيا)

اللوحة ٤٥ – ابو زيد والحارث يزوران مزرعة

اللوحة ٤٦ – الأمير هماي والأميرة همايون في حدائق امبراطور الصين

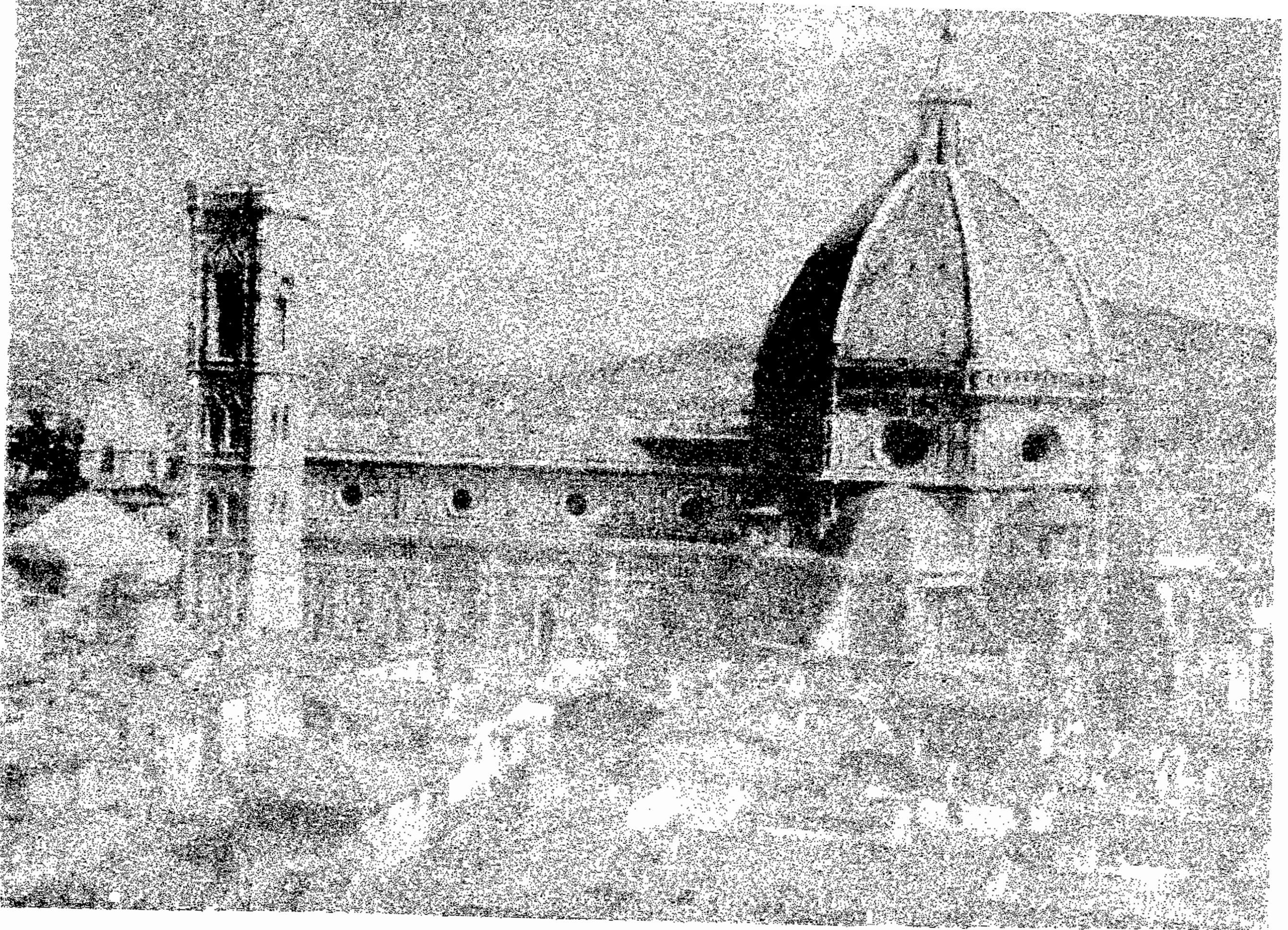

اللوحة ٤٧ – القبة والبرج في فلورنسا .

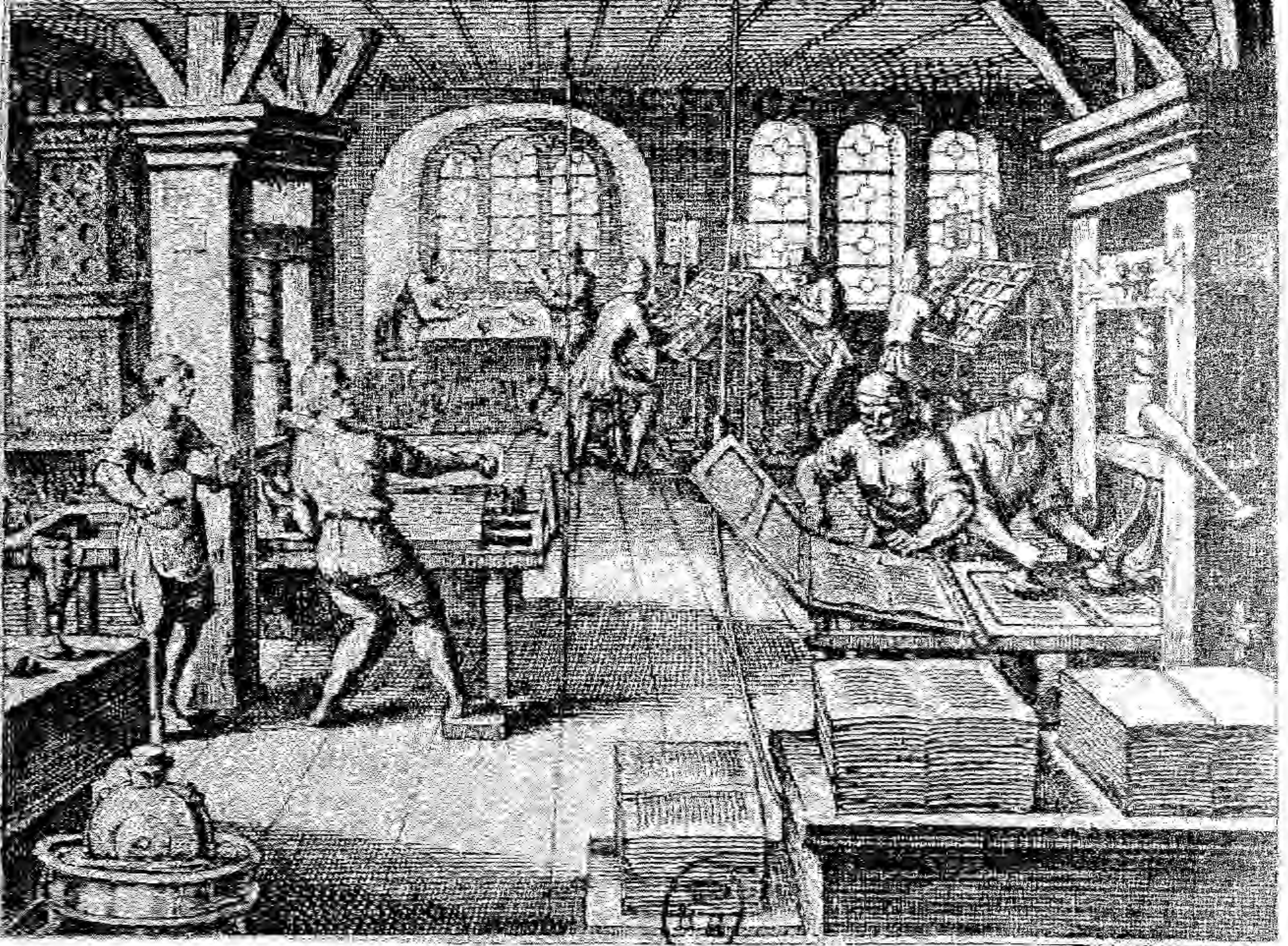

الفصل الثالث

فقدان التوازن السياسي في أوروبا

لقد شدّد التاريخ التقليدي على بعض الخطوط الكبرى للمنازعات السياسية التي أقامت بعض دول الغرب على بعضها الآخر او افقدتهـا توازنها الداخلي : فكأن القرن الرابع عشر ، بحسب هذا التاريخ ، قد شاهد في كل مكان زوال العالم الاقطاعي ، بينما كانت الملكيات تتلمس طريقها مترددة وتتكد في امتحانها العسير لابتداع الانظمة والمؤسسات التي ستفضي الى الدولة العصرية الا ان هذا التبسيط غير مقبول اذا رأينا فيه صراعاً واعياً ودائماً بين مبدأين متناقضين ، احدهما ملك الماضي – الاقطاع – والثاني ملك المستقبل – الملكية . فان تحول الانظمة الاجتماعية كان بطيئاً وناقصاً ولم يشعر به المعاصرون ؛ وقد اكتفي زمناً طويلا بالاطارات القديمة التي لم تطابق مقتضيات الحياة الجديدة كل المطابقة ؛ واذا ما زالت الدولة الناهضة تبحث عن مبادئها ودعائمها ووسائل عملها ، فلم تجد في النهاية مرتكزها وسلطتها الا في عياء الشعوب التائقة الى السلام . ولعل ابرز دليل على فقدان التوازن هذا ، الذي تفاقم بفعل مصاعب الحياة المادية ، هو تعدد الازمات السلالية التي افسح لها التاريخ محلا مختاراً والتي تحدّد مراحل حياة الامم كما تزيد في عنف اهوائها السياسية .

مغزى التفاصل السلالية

علينا مع ذلك تجنب البحث بأي ثمن عن التوافق بين المنازعات السلالية ووقائع النظام الاجتماعي . فاوروبا مختلفة الاجزاء ؛ ومختلفة من ثم اسباب نزاعاتها . بيد اننا نستطيع البحث عن بعض العلائق في ردود الفعل المتعاقبة التي عينت ، في فرنسا ، ثم في انكلترا والممالك الاسبانية ، المراحل الرئيسية لحرب المئة سنة . كان النزاع الفرنسي الانكليزي العظيم سلاليا في ما تذرع به من اسباب وفي مرتكزه القانوني ، ولم يتماد في الزمن الا بعد ثبوت استحالة حل الروابط التي اخضع لها العالم الاقطاعي تعايش امتين وقفت احداهما الآن في وجه الاخرى وانتهت الى مساندة الملكيات بعد ان وعتا شيئاً فشيئاً انهما امتان . وما كانت مبادهة البارونات الفرنسيين ، الذين نزعوا عن البنات ، في السنة ١٣١٦ والسنة ١٣٢٤ ، الحق في وراثة العرش ، ثم آثروا ، في السنة ١٣٢٨ ، فيليب دي فالوا ، الامير « المولود في المملكة » ، على « ادوار الثالث » الشاب ، مع انه كان حفيداً ، لجهة امه ايزابيل ،

الملك « فيليب لوبيل » ، واقرب وريث ذكر للتاج ، لتؤدي وحدهـــا الى نشوب النزاع . وما كانت مغامرات ادوارد الثالث ، على مانعتقد ، لتعرف نجاحاً راهناً ، لو لم تقدم لها ، في داخل مملكة فرنسا ، بعض فئات اقطاعية عيـــل صبرها من سلطة ملكية اساءت التصرف احياناً – بعض النبلاء النورمنديين وبعض ذوي الاخاذات البريطانيين ، و « الحزب النافاري» الذي ساند سلالة افرو ، والنبلاء الغسكونيون النشاط المتقلبون – مساندة اسلحتها ونجدتها : ففي بواتيه مثلا (١٣٥٦) ، تقرر مصير المعركة عسكرياً على يد رؤساء الزمر الغسكونيين. اضف الى ذلك ان اختبار قيام امارة اكيتينية واسعة ، منفصلة تماماً عن مملكة فرنسا وخاضعة مباشرة للتاج الانكليزي ، لم يدم عشر سنوات . فان شارل الخامس قد تذرع ، بدوره ، بمعارضة النبلاء الغسكونيين لنقض الاتفاق واستند اليها لاستعادة سيطرته على الامارة كلها تقريبـــاً . ثم حين تجدّد النزاع بدافع من سلالة لنكستر ، في مستهل القرن الخامس عشر ، وحين ضربت معاهدة « طروا » عرض الحائط بمقررات السنة ١٣٢٨ وجعلت هنري الخامس ، في السنة ١٤٢٠ ، يتوقع صيرورة التاج اليه دونما التفات الى حقوق ولي العهد شارل ، لم يبد هذا الحـــل للنزاع السلالي مقبولاً ممن انضموا اليه الا لان تمادي شغور السلطة الملكية وحدّة الحرب الاهلية قد جعـــلاهم يأملون في اعادة النظام على يد ملك حازم عادل بلغ سن الرشد. ولكن هذه المحاولة قد اخفقت بدورها ايضاً : اذ ان هنري الخامس واخاه « بدفورد » اللذين اضطرا لمواصلة الحرب ضـد ولي العهد ، ونظرا اليه نظرهما الى رئيس حزب ، قد عجزا عن اعادة النظام الى نصابه في بلاد عمها الخراب . وهو ولي العهد ، الذي امسى شارل السابـع ، من استفاد في النهاية من ابتغاءات السلام والوحدة التي عبّرت عن واقع قومي .

اما الثورات الانكليزية التي تصادمت فيها قوى اجتماعية مختلفة بعض الاختـــلاف ، فانها تنطوي مع ذلك على اوجه تشابه اكيدة مع الاضطرابات الفرنسية . فـان الانقلاب الذي خلع به ادوارد الثالث ، في سن الثامنة عشرة ، نير وصاية امه عليه وقتل عشيقها مورتيمر (١٣٣٠) ، قد استند في الارجح الى بارونات معادين لكل عشيق ولتعسف اداري ربمـــا رغبوا في مقاسمته فوائده ؛ ولكنه عكس كذلك ردّ الفعل القومي على التخليات المسلم بها في سكوتلندا وأكيتين وفرنسا ، وكلها املاك واسعة سيوجه الملك الشاب اليها النشاط العسكري الذي تميز به هؤلاء النبلاء الوثابون . وهي هزائم الحرب الاولى ، التي عقبتها مرحلة طويلة الامد من الهدن ، ما سمح لهؤلاء النبلاء انفسهم ، بعد مرور اربعين سنة ، بالانشغال مرّة اخرى بصراع الاحزاب انشغالا جعلهم يسلمون ، في السنة ١٣٩٩ ، باغتصاب هنري دي لنكستر ، وهو ملك دون حق وراثي ولكنه رمز البارونات الثائرين على « استبداد » ريشارد الثاني الذي اخذوا عليه ، بالاضافة الى ذلك ، تسليم برست وشربورغ الى الفرنسيين والسعي لانهاء النزاع الطويل العهـــد والتزوج مرة ثانية من ايزابيل دي فرانس . ولكن السلالة قد فقدت كل نفوذ وسلطة بعد زوال ولاية هنري الخامس القصيرة ، فاتيح للاحزاب ان تتمادى في عنفها وتتمادى في سخطها ، ولا من حافز يحركها سوى

طموح رؤسائها – ريشارد دي يورك وابنه ادوارد – ومن ملاط يجمعها سوى التضـــامن بين العائلات وتكتل الزبن الاتباع . اما حرب الورود ، وقد كانت اضطراباً سطحياً، فقد تذرعت باعذار سلالية : زواج هنري الرابـع من فرنسية ، وتأخر ولادة وريثه ، وبلادة الملك، والخشية من وصول ســلالة « بوفور النغيلة » الى العرش . وسيان عند « صانعي الملوك » آنذاك كان مرشحهم فارساً لامعـــاً او مجنوناً حقيراً . اما الطبقات الاجتماعية الاخرى ، من بورجوازيين ودعاء ، وفلاحين وجلين ، وملاكين ريفيين حكماء ، فما كانت لتنتظر سوى قيام سلطة حقيقية ونهاية الاضطرابات ، على غرار ما انتظرته مثيلاتها في فرنسا قبل زمن قصير .

ان الابناء الثائرين وابناء الزنى المتصبين والاشقياء الاعـــداد ملأوا تاريخ الممالك الايبرية آنذاك باحقادهم واحسادهم وجرائمهم.ومرد ذلك الى الخلافات بين الاحزاب في بعض الحالات ؛ والى انتفاضة قومية ضد سلالة اجنبية ، في حالات اخرى ؛ وفي غالب الاحيان ، كما جرى في بريطانيـــا وفي فرنسا نفسها ، الى تأثير النزاع الفرنسي – الانكليزي الكبير . فان البراز بين « بيير الطاغية » وبين اخيه من ابيه « هنري دي ترنستمار » ، الذي فصل فيه لمصلحة الثاني عن طريق مأساة « مونتيال » (١٣٦٩) ، قد اثبت ان على قشتالة ان تبقى حليفة فرنسا ؛ واذا ساعد بورجوازيو ليشبونا ، تساندهم كافة الطبقات الشعبية وطبقة صغـــار النبلاء ، على تغلب « جان دافيز » ، الامير النغل، على المطالب القشتالي بالعرش (١٣٨٥) ، فقـد بدا هذا النصر لانكلترا وكأنه وسيلة لضمان حليف جديد في شبه الجزيرة . اما اراغون ، فعــلى الرغم من مرورها في مرحلة توسع مزدهرة ، لم تخل من الاضطرابات السلالية ؛ كما ان « نافار » الصغرى قد عرفت مثل هذه الاضطرابات بعد انقراض سلالة « افرو » (١٤٢٥) . وقد ارتدت تسوية « كاسب » (١٤١٢) ، التي اعطت اراغون لفرديناند قشتالة ، ثم زواج ابن هـــذا الاخير ، جان الثاني ، من « بلانش دي نافار » ، طابـع الهشاشة نفسه الذي تتميز به التسويات السلالية . فقد جاء الواقع يناقضها : لان صهر اراغون وقشتالة ونافار في دولة واحـــدة كان سابقاً لاوانه . ولكن ما يلفت الانتباه ، في هذه المآسي ، حدث مميز هو موقف كاتالونيا من جان الثاني ما بين السنة ١٤٦٠ والسنة ١٤٧٢ : فان المطالبين بالعرش الذين استدعتهم ، سواء انتسبوا الى اراغون او انجو او البرتغال ، كانوا انصار صوالح ومشاعر السكان الكاتالونيين الثـــائرين لانتزاع استقلالهم ، قبل ان يكونوا انصار قضية سلالية .

ممالك الشمال والشرق

بين الدانوب والبحار السكندينافية ، لم تخــل مملكة واحدة من الاضطرابات السلالية التي ارتسمت من خلالها احياناً مداخلات شعبية قليلة الاهمية . لقد سيطرت الفوضى الشاملة ، في اوائل القرن الرابع عشر، على البلدان الشمالية . فبينما اخضعت نروج واسوج بوحشية ، في اعقـــاب جريمة قتل مرعب ، لسيادة ملك فرد ، انحدرت الدانمرك ، في عهد خريستوف الثاني وفلدمار الثالث ، الى احط عهود تاريخها : وقد ردّد احد الكهنة الدانمركيين مراراً آنذاك : « ايه داسيا الحزينة » ؛ وقد انتهى ملك فلدمار

الرابع المصلح نفسه (١٣٤٠ – ١٣٧٥) ، بسقوط كوبنهاغن على ايدي جيوش المدن الهانسية وبصلح « ستراالسوند » (١٣٧٠) المذل . وعلى الرغم من ذلك ، فان زواج ابنته الوحيدة « مرغريت » من هاكون النروجي ، وهزيمة مغتصب تاج اسوج المكلمبورغي (١٣٨٩) ، قد افضيا الى اتحاد الممالك الثلاث الذي وطدته جمعية « كلمار » وتتويج اريك (١٣٩٧) . ولكن هذا الاتحاد قد زال ، بعد انقضاء اربعين سنة ، باقالة اريك نفسه . فاتخذت الروح الحزبية في اسوج آنذاك شكلا قومياً وقدمت لها المنازعات السلالية غذاء حسياً .

يصعب علينا ان نكتشف معنى ابعد عمقاً للتسويات التي قام بها ملوك اوروبا الوسطى، ولاسيما « لويس الاكبر » ملك هنغاريا الانجوي الاصل ، الذي افضت محالفاته الزواجية مع آل هبسبورغ وآل لوكسمبورغ « والبياست » الاخير في بولونيا ، عن طريق مجموعة من الوراثات ، الى ايجاد اتحاد مؤقت بين المقاطعات القائمة بين سهل الدانوب والفستول الاسفل . ثم تجددت المحاولة ، وتحققت جزئياً ، في القرن التالي ، على يد سلالة جاجلون البولونية الليتوانية . ولكن زواج وريثة عرش هنغاريا من سيجيسموندي لوكسمبورغ ، في هذه الاثناء ، قد اجاز التفكير باطماع مماثلة لسلالة بوهيميا . فلا ريب ان هذه الاخيرة ، التي كان مؤسسها الحقيقي « شارل الرابع دي لوكسمبورغ » ، قد وعت كل الوعي دورها في اوروبا الوسطى . واذا ما حدث لهذا الملك ان ضحى بمصالح الامبراطورية لبوهيميا واهمل التقاليد الامبراطورية في ايطاليا وجعل من براغ عاصمة ومركزاً لجامعة جرمانية – سلافية ، فربما فعل ما فعل لانه نظر الى ابعد من حدود الامبراطورية : وقد اظهرت قصور خلفائه وثورة بوهيميا الدينية تداعي مشاريع واهية في الارجح .

ايطاليا

وفي نطاق اضيق الى حدّ بعيد ، تتميز ايطاليا بتعقيدات اكثر تشابكاً ايضاً لا يسعنا ان نستخلص منها سوى بعض الخطوط البسيطة . ففي الجنوب لا توجز مآسي جانّ الاولى دي نابولي البيتية اضطرابات مملكة نابولي ، التي سبق وانتزعت منها صقليا ، والتي تتشابك فيها اطماع بلقانية عادمة السياق بجشع جموح نبلاء نصف نابوليين ونصف بروفنسيين . اضف الى ذلك ان التنافس الشديد بين سلالتي انجو واراغون ، وانتصار هذه الاخيرة في السنة ١٤٣٥ ، لم يكونا مجرد منازعات بين الاشخاص او السلالات ؛ فبالنسبة لتاج اراغون ، بصورة خاصة ، كان امتلاك شبه الجزيرة الايطالية تلبية لسيطرة بحرية حقيقية تؤلف التجارة الكاتالونية مرتكزها الاقوى ؛ وان في اقامة جيوش اراغونية في كورسكا الجنوبية ، وسلب مرسيليا (١٤٢٢) اقتصاصاً من هذا المرفأ الكبير لانضمامه الى الانجويين ، لدليلا على وحدة نادرة آنذاك في اوروبا بين الاطماع السياسية والمصالح التجارية .

وكانت ايطاليا الشمالية والوسطى اشد تعقيداً ايضاً ؛ فقد تعاقبت فيها ، على غير ظاهر منطقي ، المنافسات بين العائلات وبين الاحزاب ، والحروب والاغتيالات . بيد اننا ندرك

المصير الجليّ الذي انتهت دفته الجمهورية البندقية ، تلك الدلة الاوليغارشية المركزية التي استعاضت عن خسائرها في رومانيا على ايدي الاتراك بمواقع انكفاءعلى شواطىء الادرياتيكي وعلى اليابسة : فان حرب فراري (١٣٠٨ – ١٣١٣) كانت الدليل الاول على سياسة اقليمية ستتوسع توسعاً مطرداً في الاجيال اللاحقة . الا ان فلورنسا ، في مستهل القرن الخامس عشر ، قد اروت غليل احقادها على بيزا ، وغدت من ثم الدولة الوحيدة الهامة في توسكانا فوطدت ثروتها . وهكذا فان اطماع سياسة الدوجية والسيادة قد جعلت للمدينة التجارية ابعاد دولة اقليمية ، بينما اعدت اطماع المستبدين الجامحة ، في لومبارديا ورومانيا ، حصراً مماثلا للسلطات . فأخذ عهد الامراء شيئا فشيئا يخلف عهد التكتلات البلدية . ولنا عن الأولين مثل كلاسيكي في ميلانو ايام آل فسكونتي ، ولكنه مثل فقط ؛ فقد واصل « جيانغا لياتزو » (١٣٧٨ – ١٤٠٢) عمل « ماتيو » و « برنابو » واستطاع ان يترك لابنائه السيطرة على قرابة نصف ايطاليا الشمالية ، بين الالب والابنين ، بالاضافة الى اللقب الدوقي؛ اما الوسائل التي امنت له ذلك فهي المصاهرات والمشتريات والوراثات التي تركت له او استولى عليها بالحيلة ، والسجن ، والاغتيال ، ودس السم ؛ وبلغ من رسوخ ومتانة هذه التقاليد الميلانية ان آل سفورزا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد ساروا على خطى اسلافهم آل فسكونتي . اما مصير جنوى فكان اشد اضطراباً بفصل شدة ما نالها من ظهور العثمانيين المفاجىء ، في المضائق وبحر ايجه ، وانقسام احزابها وطمع الميلانيين بها . ولكنها اعطت المثـل ، الذي سيقتدى به ، باستنجادها بالاجنبي ، اذ انها وضعت نفسها مرتين تحت كنف ملك فرنسا ، منذ السنة ١٣٩٦ حتى السنة ١٤٠٩ ، ومنذ السنة ١٤٥٨ حتى السنة ١٤٦١ . وهكذا ارتسم خيـال « امير » ماكيافلي بشكل المستبدين ، كما ان اندفاع هؤلاء وراء الفتح والسيطرة قد مال الى تبسيط خريطة ايطاليـا السياسية على غرار ممارسة السلطة . الا ان شبه الجزيرة ما زالت غارقة في الفوضى . ولعل الحياة فيها كانت اسهل من ان تشعر المدن ، على غرار المدن الالمانية او المقاطعات السويسرية ، بالحاجة للجوء الى حسنات رابطة اتحادية .

في ظل اختلاف الاوضاع المحلية المدهش ، تزاحمت الممالك والامارات والمدن في كافة انحاء اوروبا بغية توسيع اراضيها . فوُجدت الدولة من ثم امام اعباء جديدة املاها عليها في الوقت نفسه اصحاب النظريات السياسية ؛ ولا يخلو من المغزى ، في قرن « مارسيل دي بادوا » وغليوم اوكهام ونقولا اورسم ، ان تتمثل سلالة آل فالوا وسلالة آل لوكسمبورغ ، وهما ارفع سلالات اوروبا قدراً ، « بملكين مكتبيين » ، شارل الخامس وشارل الرابع ، اللذين اندرجت ولايتهما بين ولايات اشد الامراء نزعة فروسية وهمية في ذاك العهد من امثال « جان له بون » و « شارل السادس » و « جان الاعمى » وسيجيسموند . ان في ذلك لرمزاً الى مجتمع لمـا يتعود مفاهيم الدولة الجديدة ، ورمزاً ايضاً الى التفاوت بين ضخامة الاعباء الجديدة الملقاة على عاتق الملوك وهزال وسائلهم التقليدية .

نقص موارد الدولة

يرد شمول ديمومة الاضطرابات والحروب ، في الدرجة الاولى ، الى عجز السلطة او حزب من الاحزاب عن احراز الغلبة وفرض السيطرة . فان

ملوك فرنسا وانكلترا انفسهم لم يجدوا آنذاك في موارد المناطق التابعة لهم الادوات اللازمة لتوسيع نشاطهم ، ولا سيما لمشاريعهم العسكرية . لقد سبق وتكلمنا عن ضعف القوى التي استخدمها اعظم الملوك قوة آنذاك ، كما سبق وتكلمنا عن الجهود التي بذلت في انكلترا اولاً ، ثم في فرنسا ، لرفع القوى العسكرية والبحرية الى مستوى المهام المسندة اليها ولتدريبها على فنون الحرب الجديدة . ولكنها جهود غير كفية لانها قامت على تنظيم اجتماعي ولى زمانه . فقد اسندت الخدمة الاقطاعية ، حتى المأجورة منها – وهذا ما تحقق منذ اواخر القرن الثالث عشر – الى تسلسل الاخاذات العقارية ، ولم تسمح من ثم بتجنيد جيوش هامة ولا بالانضباط الضروري في النزاعات الطويلة الامد . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، فقد عند الملوك والامراء في شراء خضوع الاسياد الوراثيين ، والحؤول دون تجزئة الاقطاعات او انتقالها الى البورجوازيين ورجال الدين ، وحتى في فرض الفروسية على كافة المستفيدين من دخل عقاري يتجاوز العشرين ليرة ، كما جرت محاولة ذلك في انكلترا . فالمجتمع العسكري ، في نظرهم ، لا يزال مرتكزاً الى تسلسل السيادة على الاراضي والى روابط التبعية الاقطاعية . ولكنهم ، بعد ان امست الحرب مهنة ، سمحوا بان تقوم حولهم روابط تبعية اخرى مبنية على المال لم يروا بعد بجلاء كل ما تنطوي عليه من محاذير : وهذا ما حدث للبارونات الانكليز الذين اضطروا ، في سبيل تقديم جنود مأجورين سيقودونهم الى اليابسة تلبية لكل مصادرة يطلبها ادوارد الثالث ، الى تعهد « فرقة » مأجورة يجندونها بالتعاقد ، تتقدم مهمتها على الواجبات الاقطاعية او تتعارض معها احياناً . ولكن افراد هذه الفرقة ، الذين يلتحقون بمن يؤمن لهم الاجر الافضل ، ينتقلون من معسكر الى آخر بمثل سهولة انتقال فرق ادلاء الطرق او زمر المرتزقة الايطاليين . ومع ذلك ، لم يكن هناك من وسيلة ، لتفادي تشوش النظام الاجتماعي ، سوى اللجوء الى المرتزقة ، بسبب عدم وجود الجيوش الدائمة ؛ ومن هنا صعوبة الجمع بين الجنود المأجورين وبين الفرق الاقطاعية التي اشتهرت باحتقارها « للمشاة الادنياء » ؛ ومن هنا ، بالتالي ، انعدام تلاحم الجيوش . ومهما كان من الامر ، فقد توجب الانفاق لمكافأة الخدمات ولتجهيز المرتزقة بالاقواس العادية والاقواس الفولاذية ، وتعزيز الحصون ، وبناء السفن وتموينها . ولكن عملية واحدة ، حتى ولو كانت محددة في المكان وخلوا من الكوارث ، وحتى من المعارك ، كحملة ادوارد الثالث على هولندا في السنوات ١٣٣٨ – ١٣٤٠ ، كانت كافية لاستنزاف اموال خزينة . كما ان مجرّد تعهد حامية مؤلفة من ١١٠٠ جندي في « تخوم » كاليه قد ابتلع ، في السنة ١٣٧١ ، خمس الدخول العادية للملكية الانكليزية . فكانت كل حملة ، من ثم ، تجدّد معضلة صارخة كبرى : اذ ان مصير النزاعات كان يتوقف الى حدّ بعيد ، على توفر الاموال او فقدانها .

ان ما نعلمه عن المداخيل العمومية بواسطة ما وصل الينا من محفوظات فرنسا المالية ، وبواسطة المستندات الاسبانية الكثيرة ، وان لم تدرس بعد دراسة كافية ، وبواسطة الحسابات

العائدة لانكلترا والدول البورغونية والمتصلة الوقائع اتصالاً نادراً ، تظهر بوضوح ان مداخيل الاملاك التقليدية قد باتت غير كافية في كل مكان . فقبل حدوث كوارث الحرب الانكليزية الباهظة التكاليف ، تثبت حسابات خزينة « فيليب له بيل » عجز الملك عن « العيش بما لديه » ؛ ولا تحتاج صعوبات « جان له بون » او صعوبات ملك بورج المقحمة الى أدلة حسابية ، مفقودة لسوء الحظ . اما حركة اموال الخزينة الانكليزية ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الحيل الحسابية التي تشوّه واقع التفاوت السنوي بين هبوطها وارتفاعها ، فتظهر ، ابتداء من السنة ١٣٣٦ ، مزيداً من التضخم في الحاجات ارتفعت معه الواردات ، التي لم تتجاوز ٣٠٠٠٠ ليرة حتى ذاك العهد ، فبلغت ٢٥٠٠٠٠ ليرة احياناً ، دون ان تقل قط ، طيلة ما تبقى من القرن ، عن ١٠٠٠٠٠ . ونعلم اخيراً ان الدوقين البورغونيين الاولين من سلالة فالوا قد اعتمدا على خزانة فرنسا لسد عجز دائم ، بينما عرف فيليب له بون ، على الرغم من وضع افضل ، سنوات صعبة جداً ايضاً .

لعله يجدر بنا اظهار فروق الوقائع ونميز ما لم يميزه اهل ذاك العصر الذين تعيشوا كلهم بالكد اليومي بين مصاعب صندوق المال وبين عجز الموازنة . فان الاموال العمومية ، مهما بلغ من سوء ادارتها ، قد بقيت قادرة على تحمل نفقات مشاريع عظيمة : جهود انكلترا في اوروبا التي تجددت طوال خمسة اجيال ؛ توسع أراغون في المتوسط ؛ تمكن ملك فرنسا ، بعد كريسي ، من شراء مقاطعة « دوفينه » ، ودفع فدية الملك جان بعد بواتيه ، واعادة تنظيم الجيوش بعد شارل الخامس ، وبذل مجهود مماثل في ايام شارل السابع ؛ وتمكنه كذلك من سدّ حاجات سلالة بورغونيا ؛ وقيام سلالة لوكسمبورغ اخيراً بعملية اعادة جمع الاملاك على نطاق واسع . ويبدو ان الممالك السكندينافية نفسها ، على الرغم من قلة مواردها البشرية والمالية ، قد استطاعت ، في حروبها الدائمة ، ان تعيش من املاكها مدة اطول من ممالك الغرب . ولكن ما لا ريب فيه هو ان المشاريع الكبرى ، سواء أسفرت عن نتائج دائمة او فشلت فشلاً ذريعاً ، قد ارهقت أبداً اموال القائمين بها . فان الموارد العادية ، حتى ولو احسن استثمارها ، أعجز من ان تفي بحاجاتها .

تألفت املاك الملك ، في بلدان اوروبا المختلفة ، من عناصر مماثلة : أراضي استثمار زراعي ، احراج ، مناجم ، ملاحات ، رسوم مفروضة على اليهود (الذين اقصوا تدريجياً عن ممالك الغرب) ، عائدات الاسواق الدائمة والاسواق الدورية ، رسوم المرور ورسوم الجمارك ، النقود ، غرامات القضاء ، نصيب الملك من واردات الوظائف الكنسية . وكانت مداخيل الارض ذات أهمية رئيسية ، فأديرت من ثم خير ادارة ؛ وكان لها شأن كبير في المانيا وفرنسا حيث الاملاك الملكية اعظم اتساعاً منها في البلدان الاخرى . ثم ان ادارة الاحراج ، التي أعارها ملوك انكلترا انتباههم منذ زمن بعيد ، قد كانت في فرنسا ، خلال القرن الرابع عشر ، موضوع اهتمام متزايد حدّده بدقة ، في السنة ١٣٧٦ ، اول تنظيم على نطاق واسع تناول المياه والاحراج . وكانت مناجم الفضة موارد كسب للعديد من الامراء الالمان ولملك بوهيميا ؛ ووفرت الملاحات لدوقية

بريطانيا وبورغونيا ، وللملوك الاسبان ايضاً ، واردات عظيمة . وأمنت الجمارك في انكلترا مكاسب دائمة تفوق الى حد بعيد مداخيل الاملاك العقارية . وتفسر أهمية مداخيل سك النقود ، وهي عظيمة في فرنسا وهولندا وايطاليا واسبانيا والامبراطورية ، وأقل شأناً في انكلترا حيث عرفت النقود الذهبية والفضية مزيداً من الاستقرار ، تأثير هبوط الحركة الاقتصادية وارتفاعها على السياسة .

لم تخضع طرائق ادارة الاموال ، في تطورها ، لحركة واحدة في كل مكان . الا ان كافة الملوك قد وجدوا أنفسهم امام واجب مشترك قضى عليهم بالحصول على المزيد من المال دونما رقابة . استفادت انكلترا من رصيد تقاليد متأصلة اشتهرت بها في ادارة مالية أثبتت التجارب حسناتها؛ ولكن هذه الادارة تعثرت في نسقها المطرد المتردد ، وحال ضيق الاملاك العقارية وعادة تلزيم مداخيلها ، ببدل ثابت ، لمأموري الاحكام المدنية ، دون استثمار الحقوق الملكية استثماراً مجدياً . فوجب انتظار ولاية سلالة لنكستر ، الذين ملكوا دون ان يحكموا ، حتى تلعب الاملاك الملكية ، وقد اتسعت بأملاكهم الخاصة ، دوراً اولياً مؤقتاً في تقويم اموالهم .

كانت الممالك الاخرى امام مهمة جديدة . فان الملكية القشتالية ، بعد ان بددت قسماً من أملاكها، لم تقم لنفسها ادارة تشبه ادارة اراغون التي كانت أشد حرصاً على ان لا تفقد شيئاً من مداخيلها ؛ وما اعظم التباين بين صلاحيات غامضة اعطيت المشرفين على الاملاك في قشتالة ودور محدد جداً اسند الى المشرفين على الملاحات الاراغونية ، وبين البلبلة التي سادت زمناً طويلاً هنا ، رقابة الاموال ونظارة دار الملك ، وتخصص بعض رجال قصر الملك هناك ، منذ أوائل القرن الرابع عشر ، في ادارة واردات ونفقات الممالك الثلاث التي تؤلف تاجه . اما في فرنسا ، فان القضاة ، يعاونهم الجباة وضباط الاحراج والجمارك ، ويخضعون أنفسهم لرقابة غيرهم ، فقد كانوا رجال الملك حقاً . وقد تقدم عليهم صندوق الخزينة وديوان المحاسبة اللذان حددا تدريجياً مهامهما المركزية . اجل ان ادارة المداخيل العادية ، التي حددتها أنظمة شارل الخامس وال « مرموزيه » ، قد قاست ما قاست ، في عهد لاحق ، مما اقدمت عليه الاحزاب من تبذير. ولكن اموالها ، على اهميتها ، لم تعد ، منذ زمن بعيد ، لتقارن بالواردات « غير الاعتيادية » .

والسبب في ذلك هو ان الامراء ، الذين حاولوا في كل مكان استثمار املاكهم الى أقصى حدود الاستثمار ، قد عملوا ، في كل مكان ايضاً ، في سبيل دثور هذه الاملاك نفسها . فقد انحنوا ، في معالجتهم بعض الحالات المستعجلة ، امام التماسات ذوي الحظوة ومطالب العظماء فتخلوا احياناً عن اجزاء هامة من هذه الثروة العقارية التي ما زالت تعتبر تراثاً خاصاً بهم . وليس المقصود هنا معاشات او اعطيات طارئة ، بل التخلي نهائياً عن مداخيل الارض ان لم يكن عن الارض نفسها احياناً. وبات الرهن آنذاك آفة ثروات الامراء. فبسببه تقطعت اوصال الاملاك القشتالية وصار اشراف الامبراطورية الى الافلاس ؛ وهكذا فلم يبق لأمير براندبورغ ، في السنة ١٣٧٥ ، من حقوق قضائية ، الا في ٣١ قرية من اصل ٤٦٧ اشتملت عليها املاكه الواقعة

بين الالب والاودر . حاول الامبراطور شارل الرابع العصاء على هذه العادات السيئة رغبة منه في جمع ثروة آل لوكسمبورغ مرة اخرى ، ولكن الداء نفسه قد أضعف الممالك السكنديناقية وممالك اوروبا الوسطى ايضاً . وكانت الصراعات الحزبية بين ارمانياك وبورغونيين في فرنسا فرصة لتبدلات خطيرة في امتلاك الاراضي حاول واضعو النظام الكابوشي ايقاف تيارها . ولم تنج املاك سلالة لنكستر من هذه الآفة ايضاً في عهد هنري السادس . اما دوافع هـــذه الآفة المستعصية فجشع الافراد الذي ساعدته المصاعب المالية الدائمة التي تخبطت فيها الحكومات . ولكن المستفيدين كانوا اولئك بالذات الذين وجب اللجوء اليهم لسد عجز الخزينة . وقد بلغ من ضعف مداخيل الاملاك ان الدولة قد اضطرت ، لتأمين موارد جديدة ، الى الاستعطاء والالحاح في التسوّل ، وبلغ من تكرر حاجاتها الاستثنائية ان مواردها غير الاعتيادية اصبحت في النهاية عادية واتجهت نحو الاستمرار ، وتجاوزت الى حد بعيد موارد الاملاك الطبيعية .

الموارد الجديدة

كان من الجدير بنا ان نتوسع في دراسة القروض التي طالما اعتبرت شرّ الحيل المالية ، مع ان امراء ذاك العهد قد اعتمدوها في معيشتهم اليومية بسبب اضطرارهم الى استباق موارد الاملاك او الموارد الجبائية التي لاتجمع الا في موعد متأخر . اما المقصود بهـذه القروض فقروض قصيرة الاجل – ان اقرار الدخول ، مدى حياة أمير او أكثر ، بواسطة المدن او مجالس الدول ، لم يطبق الا في امارات هولندا – ترتفع فوائدهـا بارتفاع ديون الامـير ، اذ ان المقرضين ، حتى المرغمين منهم ، يفرضون آنذاك فوائد باهظة ، ورهونات منقولة ، والتخلي عن بعض المداخيل. وتشكل هذه القروض ديوناً غير ثابتة هامة جداً احياناً ، وهذا هو وجه الخطر فيها ، على ان الادارات المالية تجهل قيمتها الصحيحة . ولكن سواء كان الدائنون رجال اموال ايطاليين استهوتهم هذه المضاربات الرابحة على ما تنطوي عليه من اخطار ، او مائنين لم تدفـع لهم حقوقهم ، او مقرضين مرغمين ، او مدناً ملزمة باقراض أموال يزول دخلها بزوال صاحبها ، او ملتزمي املاك يسلّفون فوائد جباياتهم ، فلم يكن بدّ منهم للملوك كما لم يكن أثقل منهم على ادارة الخزانة ادارة حسنة . فمست الحاجـة الى موارد ثابتة تأمنت في كل البلدان بتنمية المساعدة الاقطاعية : مساعدة واقتطاع في فرنسا ، مدد نقدي في انكلترا ، « خدمة » في قشتالة .

لقد سبق ورأينا كيف ان الملكية الفرنسية حذت حذو الملكية الانكليزية ، في منعطف القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وتوصلت الى ان تفرض على مجموع رعاياها ، في الظروف الهامة ، وخارج نطاق الاملاك او العلائق الاقطاعية ، مساعدات نقدية يستعيضون بها عن الخدمة العسكرية . اما ان يكون كل فرد قد ألزم آنذاك ، حين دعت الحاجـة ، بأن يسهم مالياً في الدفاع عن الدولة ، فهذه قاعدة قانونية جديدة عادت الى القرن الرابع عشر مهمة حمل الرأي العام الحرون على القبول بها . فألفت العقول تدريجياً ، ولو ببعض الصعوبة ، مبدأ شمول الضريبة ان لم يكن مبدأ استمرارها . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر يبدو ان الدانمارك قـــد عرفت

استمرار فدية الخدمة البحرية المطلوبة من غـــير الاشراف . اما الجديد الذي أتت به الاجيال اللاحقة ، فهو جعل « غير الاعتيادي » اعتيادياً، ليس في مبدئه فحسب بل في مطرحه وجبايته ايضاً . وقد استند في فرض الضريبة ، على الرغم من كيفيات مختلفة ، الى الثروة المنقولة بوجه عام : المواشي ، الحبوب ، المزروعات ، الاحتيـــاطي النقدي ، الديون . اما محاولات فرض الضريبة الشخصية التي جبيت ثلاث مرات في انكلترا بين السنة ١٣٧٧ والسنة ١٣٨١ ، فلم تسفر الا عن فشل وخيبة امل . وفي غالب الاحيان ، فرضت الضرائب على العائلات بالاستناد الى مقدار مواردها ، ولكن سرعان ما تحولت ضريبة الكية النسبية الى ضريبة توزيع متساو ؛ وحدث احياناً في انكلترا وفرنسا مثلاً ، ان معدل الضريبة كان في المدن أعلى منه في الارياف ، لان تقدير ثروة سكان المدينة كان اصعب منالاً ؛ واستندت الضريبة في بـــلدان اخرى ، كما في أراغون مثلاً ، الى دلالة ظاهرة من دلائل الثروة كزوج ثيران مثلاً . وفي كل مكان ايضاً ، كان الطرح والجباية من واجب ممثلي المكلفين انفسهم . ولكن الذين سبق لهم وقبلوا بتقديم مدد مالي قد طالبوا احياناً بالجباية والادارة والرقابة : فقد عين البرلمان الانكليزي تكراراً ، لا سيما في أيام هنري الرابع دي لنكستر ، « خزنة حروب » واخضع حساباتهم لرقابته ؛ وقام مجالس الطبقات الفرنسية ، في السنة ١٣٥٥ ، بمحاولة مماثلة ، وسريعة الزوال ايضاً ؛ ولكن محاولة الممثلين القشتاليين، ثم محاولة الامارات الالمانية وامارات البلدان البورغونية ، في القرن الخامس عشر ، كانت اطول بقاء . وهذا ما يفسر قيام ثنوية شبه شاملة في الادارات المـــالية : فرع للاملاك وآخر للمداخيل غير الاعتيادية . وعرفت فرنسا هذه الثنوية ايضاً ؛ فان نظام المختارين و « قادة » المساعدات ، الذي اقرته مجالس الطبقات في السنة ١٣٥٥ ، قد دام حتى العهـــد المعاصر ؛ ولكنها تسمية خاطئة لان المقصود بهؤلاء الموظفين ، منـــذ ولاية شارل الخامس ، ضباط ملكيون تعينهم السلطة ، ليس لمجالس الطبقات اي دور في اختيارهم . واذا كان شارل الخامس نفسه قد تأثر بتشكك ضميره وهو مشرف على الموت فالغى « الاقتطاع » في السنة ١٣٨٠، واذا كان جان سان بور ؛ رغبة منه في استمالة الشعب ، قد الغى المساعدات ، فقد استطاع شارل السادس، بدون استشارة المجالس ، ثم شارل السابع من بعده ، بموافقة هذه المجالس ، اعـــادة « الاقتطاع » والمساعدات ؛ فجمعت الملكية الفرنسية آنذاك ، بصورة منتظمة ، ثلاث فئات من الضرائب « غير الاعتيادية » : الضريبة على الملح التي امست شاملة منذ ولاية « فيليب دي فالوا » ؛ والمساعدات على البضائع ؛ والاقتطاع . ولم يكن ملك انكلترا قد توصل ، في الوقت نفسه ، الا الى توطيد رسوم الجمارك ، بينما بقيت المساعدات النقدية رهن استعداد المجالس .

كان ، بالنسبة للحكومات ، ارتفاقاً حقيقياً ان تدين بوسائلهـــا النقدية لحسن استعداد المكلفين . الا ان ادعاءات هؤلاء لم تكن ثورية على وجه التأكيـــد اذ ان العرف الاقطاعي قد ترك للامير ولاتباعه او رعاياه مهمة الاتفاق فيما بينهم على معدل المساعدة . اما الجدّة فهي الميل الى الخروج من دور المعاونين والمستشارين لاجل مراقبـــة الامير . ولكن متاعب الحكومات

السياسية والمالية لا تفسر وحدها محاولات فرض الوصاية هذه : فان تقلبات دول القرون الوسطى ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ترد الى تطورها الاجتماعي قبـــل اي شيء آخر .

القوى الاجتماعية الجديدة : الامراء

ان السيادة التقليدية ، التي تشوشت رويـــداً رويداً تحت ضغط الاحداث الاقتصادية ، قد امست مرتكزاً غير كاف للنظام الاجتماعي. فطبقة الاشراف المقاربين التي افتقرت وحرمت حق القيادة بفعل تقدم الدولة ، فقدت حتى استقلالها الشخصي. والروابط الاقطاعية التي قامت على امتلاك اقطاعة واقسام اليمين للسيد ، استبدلت تدريجياً بروابط جديدة تعاقدية ، على اساس مالي ، افاد منها العظماء . اجل لقد كان تأسيس منظمات الفرسان ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ردّة فعل دفاعية تلبي الحاجة الى تشديد وفاءات مترددة وتركين اخلاصات تتعرض للفقدان . ولكنها ردة فعل باطلة ؛ فان ظاهرة مركزية سياسية واقتصادية قد حدّت من عدد الاسياد العظماء وجعلتهم اوفر قوة ، اي اشد خطراً . ولدينا امثلة لا تحصى عن ابتلاع السيادات الكبرى للسيادات الصغرى وعن تسلط كبار اصحاب الاخاذات على صغارهم . فان الاقطاعيين الالمان قد خضعوا تدريجياً لسيطرة طبقة عظماء الاشراف ؛ وقد برز هذا التطور في ولاية براندبورغ بصورة خاصة ؛ ولكننا نجد الواقع نفسه في امارتي فرنسا الجنوبية ، « فوا » « وارمانياك » ، حيث انتقل ذاك السيد الغسكوني من سيادة الملك المباشرة عليه الى سيادة الكونت ، ثم اعوزه المال فلم يبق له سوى حق تملك اراضيه ما دام حياً بانتظار فقدان هـــذا الحق نهائياً . وهو المال ، في اطار الخضوع الاقطاعي الذي ابقي عليه هنا ، ما يربط البشر بعضهم ببعض منذ اليوم : فان الشريف ، المدين لامير يتقبل منه الخدمات اللطيفة والاعطيات والمداخيل ، كان اشد تبعية له منه في الانظمة القديمة . وقد شكل مجموع هـــؤلاء الزبن فرق العظماء وازلامهم ، او « محافظيهم » كما كان يقال في انكلترا ، لان الزبون كان ملزماً بـ «المحافظة» على صوالح حاميه .

سار الامراء اخيراً على نهج الملوك بان احدثوا في دولهم مؤسسات ادارية مماثلة لمؤسساتهم اختلفت اشكالها باختلاف الاخلاق القومية ووضع البلاد السياسي ودرجة الكمال التي بلغتها المثل الملكية المستوحاة . فكان هذا الشكل قليل الوضوح في اسبانيا مثلاً حيث لم يجد « الرجال الاغنياء » في قشتالة واراغون ، فوقهم ، مثل الملكيات المركزية . بينما كان اعظم بروزاً في السيادات الالمانية الكثيرة — وقد تجاوز عددها الـ ٣٠٠ آنذاك — التي كان لامرائها ، على نهجهم النهج البطريركي القديم ، الى جانب مجلس الامارة الذي يضم فيه الفرسان آراءهم الى آراء ذوي المناصب التقليدية الكبرى في كل بلاط ، ادارة محلية تضم حكام الحصون والقضاة والجباة . اما انكلترا حيث كان النظام السيدي اقل تجمعاً اقليمياً ، فلم تر تحرر العائلات الكبرى ، الا بعد

احداث اقطاعات القرن الرابع عشر ، ولم تر ازدهارها الا خلال النزاعات الحزبية في القرن الخامس عشر . ولكن لعل مثل دوقية لوكسمبورغ اوضح مثل على الاطلاق : فان هذه الامارة قد جهزت منذ السنة ١٣٦٢ بديوان وبكافة الاجهزة اللازمـــة لادارة دولة ، كما تشهد بذلك محفوظاتها النفيسة جداً .

وربما كانت مملكة فرنسا المملكة التي ذهبت فيها الامارات الى ابعد حد في تقليد المؤسسات الملكية . فمنذ اوائل القرن الرابع عشر كان لكونتية من المرتبة الثانية ، ككونتية فوريز ، ديوانها وديوان محاسبتها ، وكان المجلس الكونتي يعقد جلسات قضائية على غرار « مجلس الملك ». ويمكن القول نفسه تقريباً عن الاقطاعات الكبرى كبريتانيا وبورغونيا وارمانياك وفوا ولا سيا فلاندر التي حرصت اكثر من ايـة مقاطعة اخرى ، بفعل مركزها الجغرافي البعيد عـــن المركز ، على اسناد سياستها الخاصة الى استقلال وسائل عملها والتخلص جهد الامكان من صلاحية البرلمان . وجاء التقليد ، كما هو طبيعي ، اكثر مطابقة وكمالا ايضا في الاقطاعات التي سلخت آنذاك عن الاملاك العامة لمصلحة اشقاء وليّ العهد الملكيين .

بدت اقامة هذه الاقطاعات وكأنها تتنافى واتجاه الدولة نحو المركزية ، وغدت في الواقع خطراً كبيراً على الملكيات ، لا سيا في القرن الخامس عشر . خلـّفها الماضي ، اي المفهوم البطريركي والاقطاعي الذي استندت اليه التيجان في القرن الثالث عشر . وكانت الغاية من العهد بها الى اشقاء اولياء العهد ارساخ نفوذ الاسرة المالكة ، التي كان اقطاع املاكها ممكناً ، على الرغم من انها ممتنعة البيع أو الهبة مبدئياً ؛ وكانوا ينتظرون من هذه الفروع اخلاصاً اعظم ثباتاً مـــن اخلاص ذوي الاقطاعات الكبرى الآخرين لانه قائم على روابط النسب . اما الجدّة في القرن الرابع عشر فهي مدى هذه الانعامات التي كانت المضادة في فرنسا ، مثلا ، كبيرة بينها وبين الاقطاعات الوضيعة التي أمنها القديس لويس وخلفـــاؤه الى اشقائهم : ارتوا ، افرو ، كليرمون ، برش . وفي ذاك العهد ايضا ، تقرر في فرنسا كذلك قانون عودة هذه الاقطاعات الى التاج في حال انقراض نسل الذكور في احد هذه الفروع . اضف الى ذلك ان هذا النظام قد شمل كافة انحاء اوروبا ؛ فمنذ النصف الاول من القرن الرابع عشر انعم لويس دي بافيير على ابنه لويس باقطاعة مزدوجة في « تيرول » و « براندبورغ » . وفي فرنسا انعم جان له بون بنورمنديا على ابنه البكر ، المنعم عليه بمقاطعة الدوفينه من قبل ، ثم على لويس بانجو و « ماين » وعلى جان ببري وبواتو واوفيرنيه ، بينما انعم شارل الخامس على ما عرف به من بصيرة وتحذر ، ببورغونيا على ابنه الثاني . وفي الوقت نفسه جعل ادوارد الثالث من ابنه البكر امير ويلز واكيتين ، ومن ابنه الثاني دوق انكستر ، ومن الثالث دوق كلارنس ، بانتظار ان يجعل من ابنيه الصغيرين دوق يورك ودوق غلوستر . وفي الوقت نفسه تقريباً ، جعل شارل الرابع ايضاً ، بعد ان امن خلافته لابنه البكر فنسلاس ، من ممتلكاته في براندبورغ وسيليزيا اقطاعات لابنائه الثلاثـــة الآخرين . وقد نهجت هذا النهج بولونيا النائية نفسها ، اذ ان لادسلاس الاول جاجلون قد استصوب ،

ارضاء لاتجاه ليتوانيا الخاص ولطموح ابن عمه فيتولد ، اقطاعه هذه البلاد .

ولكن صاحب الاقطاعة ، في هذه الاراضي الشاسعة المسلوخة عن الاملاك العامة ، التي غالباً ما اضيفت اليها وراثات اخرى واقتناءات خاصة – ولنمد بالذاكرة هنا الى توسع سلالة بورغونيا المدهش – كان يحل محل الملك ويشرف وحده على الادارة المحلية ويحدث ، رغبة منه في مراقبتها وفي التملص من الرقابة الملكية ، اجهزة مركزية : مجلس وديوان وديوان محاسبة ، ومحاكم عليا احيانا . ثم جاء تخلي بعض الملوك الضعفاء عما تبقى من حقوق ملكية ، كالنظر في الدعاوي الاستئنافية ، او مداخيل الضرائب ، يكرس استقلال الامراء ويتيح لهم وضع يدهم على موارد التاج : هذا ما توصلت اليه ، في فرنسا ، فروع بورغونيا وبوربون وبري واورليان، وفي انكلترا ، فروع بوفور وغلوسستر ويورك . وسبب ذلك ان اصحاب هذه الاقطاعات ، لا يزالون ، بفعل نسبهم ، قادرين على اعتلاء العرش احتمالا ، وعلى ارشاد الحكومة وتوجيهها في اغلب الاحيان . وقد شهد ذاك العهد، لا سيما في فرنسا وانكلترا ، تعاظم دور ممثلي هذه الفروع في فترات قصور الملوك الشرعي سنا او عقلا . وقد ظهرت الوكالة العامة في فرنسا في عهد الملوك الاخيرين من سلالة « كابيت »، ثم في اثناء اسر الملك جان، وفي السنوات الاخيرة من ولاية شارل السادس ؛ وهو احد امراء العائلة المالكة ، من اصحاب الاقطاعات ، مـــن مارس في أغلب الاحيان وكالة مجدية ومستقلة في مجالس اللنغدوك ؛ وحدث اتفاقاً ان تولى الحكم في آن واحد خلال قصور شارل السادس وريشار الثاني عم كل من هذين الملكين ، فكان ذلك مقدمـــة للخصومات التي قامت بين فيليب الجسور وجان سان بور وبين لويس دورليان في بلاط شارل السادس ، وبين بوفور وغلوسستر في بلاط هنري السادس الذي اضطر ، بعد عشرين سنة ، الى القبول بحماية ريشارد دي يورك . وكان هذا العهد عهداً مباركاً للامراء الذين لم يميزوا بين مصلحة التاج ومصلحتهم الخاصة فتحولوا في آن واحد الى مدافعين عن « الملك العـــام » والى رؤساء احزاب . وهذا ما يفسر ، في فرنسا ، دكتاتورية آل ارمانياك، وفوضى حكم جان سان بور، وثورة سنة ١٤٤٠ التي انضم اليها ولي العهد لويس نفسه ، وقيام حزب « الملك العام » بعد ذلك، و « الحرب الحمقاء » ؛ وفي انكلترا ، تزاحم اعمام هنري السادس وحرب الورود . وهكذا فقد اتفق الامراء ، بلقاء منطقي لم يدر في خلد الملوك المقطعين ، وكبار الاسياد وادعـــوا بفرض وصايتهم على الملوك ، وهكذا آل انهيار النظام الاقطاعي الى قيام احزاب بقيادة النبلاء .

دور البورجوازية السياسي : شكلت البورجوازية قوة اخرى وجب على مستلمي زمام السلطة ان يدخلوها في حسابهم ، لان دورها قـــد تعاظم باطراد في مجتمع لم يتمكن من تقدير نموها واستدراكه . فهي وحدها من امتلك المال بوفرة ، ذلك المال النقدي الذي عز تداوله والذي كانت الحكومات بحاجة ماسة اليه لتحمل الاعباء المتزايـــدة الملقاة على عواتقها . ولكن البورجوازيين قد جمعوا ، اكثر فأكثر ، الى خبرتهم التجارية ، قيمة فكرية اكيدة ؛ فان المدن ، التي كانت مراكز حياة ادبية ومجهزة بمدارس مستقلة ، قد وزعت

المعارف القانونية بوفور . وضم اشراف المدن الذين سبق الكلام عن اتجاهاتهم الاوليغارشية ، احتكار الوظائف البلدية الى احتكار المال والمعرفة . والفت العقول تدريجياً مفهوم النظام التمثيلي في الجمعيات والمجالس التي تناقص عدد اعضائها تناقصاً متزايداً وفي مناصب القضاء التي تملأ بالانتخاب كل سنة من بين الاختصاصيين في أغلب الاحيان ، والتي اخذ تعيين الاعضاء فيها من قبل زملائهم انفسهم يحل تدريجياً محل نظام انتخاب معقد على عدة درجات ؛ وكان من شأن الاشتراك في الجمعيات ، كما كان من شأن ممارسة اعمال القضاء ، ان يعتق نخبة اتقنت ادارة الشؤون العامة والاشراف على الأموال العمومية . وقد حدت موارد البورجوازيين الخاصة واهمية مركزهم المادي الجماعي وخبرتهم الطويلة ، بالامراء ، منذ أمد بعيد ، الى ضمان مساعدتهم والى الدفع بهم أحياناً الى اعلى مراتب مجتمع كانت الحواجز فيه بين الطبقات اشد هشاشة مما يعتقد الناس : فان ميشال دي لابول ، حفيد احد بورجوازيي هلّ ، قد ارتقى الى اعلى درجات السلم الاجتماعي وامسى كونت سوفولك في السنة ١٣٨٦ ؛ كما ان كبريات العائلات البرلمانية في القرن الرابع عشر ، كعائلة « اورجمون » وعائلة « دورمن » ، وقد انتسبت كلها الى البورجوازية ، كانت حلقة اتصال بين طبقة التجار والارستوقراطية التي جمعتها بها روابط الزواج والمصاهرة . لذلك لم يقف الملوك عند حد الاستدانة من البورجوازيين ، بل اسندوا اليهم وظائف مالية وقضائية ، وما كان احد ليدهش من ان يرى هؤلاء الموظفين الكبار في مجلس الملوك .

ألفت البورجوازية ، والحالة هذه ، بيئة ورأياً عاماً كان من الضروري اخذهما بعين الاعتبار ابداً واللجوء اليهما او خشية معارضتهما احياناً . اجل لم يتساو دور المجتمعات المدنية سياسيا في بلدان الغرب المختلفة . فاذا استطاعت مدن ايطاليا تحقيق نظام خليق بدولة حقيقية سياسيا واقليمياً ، واذا تحلت مدن هولندا بذهنية وحيوية اقتصادية استطاعت بواسطتها ، منفردة احياناً ، مقاومة اميرها ، ففي بلدان كثيرة وجدت المدن وسيلة دفاعها في التكتل : تكتل المدن الاسبانية ، وتكتل المدن « السوابية » ، وتكتل المدن التجارية ، مثلا . اما في البلدان الاخرى فقد اسمعت صوتها بفضل اشتراكها في جمعيات الدول .

جمعيات الدول

ان دخول البورجوازيات الحياة السياسية لم يرتد ، والحق يقال ، طابعاً انقلابياً دونه طابع دخول الاشراف ، ومن الخطل في الرأي ان نرى في نمو جمعيات الدول ، الذي يتميز به القرن الرابع عشر ، تجديداً لا سوابق له . فالعرف الاقطاعي قد جعل من « المشورة » خدمة كان من حق السيد ان يطلبها ومن واجب التابع ان يؤديها . وكان من المألوف ، من جهة ثانية ، ان يستطيع الامير دعوة من يتوسم فائدة في استشارته الى مجلسه . كانت جمعيات القرن الرابع عشر اجتماعات تضم البارونات والاحبار اولا ، ولم تقر حضور البورجوازيين الا في عهد لاحق : ولما كان معظم هؤلاء خلائق الملك ، فان دورهم الطبيعي كان استشارياً او قضائياً محصوراً في قضية واحدة او عدة قضايا غالباً ما يكون موضوعها مالياً ؛ وكان الامير يجمعها حين يطيب له ذلك . وهو فقدان السلطة هنا وخطورة

الظروف هناك والاندفاع وراء شخصية فذة احياناً ما جعل بعض الجمعيات تخرج عن احترامها وتزنها الاولين . ويمكننا بصورة عامة ان نميز مرحلة تجديد وتردد ، مسرحيين احياناً ، دامت حتى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ثم فترة أقل نشاطاً ردّ في الارجح الى استقرار السلطة العامة بعض الاستقرار ؛ وكانت الصعوبات المادية والسياسية اخيراً ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، فرصة ثبتت فيه معظم الجمعيات اقدامها ؛ وفي الوقت الذي اخذت فيه النظرية الجمعية تتكون في الكنيسة ، كانت الروح السياسية قد تطورت تطوراً كافياً لان تدرك شكل الدولة التمثيلي .

يلاحظ في الواقع تطور تدريجي في نظام هذه الجمعيات الاجتماعي ونطاق نفوذها الجغرافي ، والدور المسند اليها . ففي مملكة واسعة الاطراف كفرنسا ، لم تعرف سوى جمعيات جزئية مختلفة حتى قيام « مجالس الطبقات » الاولى في السنة ١٤٨٤ ؛ ويمكن القول نفسه في هولندا البورغونية حيث تألفت مجالس الطبقات بارادة الامير ، فارتسمت في مخيلة فيليب له بون وحيّزها شارل الجسور . ولم يجمع ملك اراغون يوماً مجالس تمثل مقاطعاته الاربع. اضف الى ذلك ان اشتراك « العامة » لم يحدث الا تدريجياً في كافة البلدان، وكان في البدء محدوداً ومتقطعاً تمليه الظروف ودور المدن . فان ايطاليا ، حيث بلغت الحياة المدنية نموها الاكمل ، لم تعرف عملياً جمعيات الدولة الا في الامارات ذات التقاليد الملكية : البيمون المتأثرة تأثراً بعيداً بالعادات الفرنسية ؛ ونابولي وسردينيا حيث افضى الوجود الاراغوني الى قيام جمعيات على مثال « الكورتيس ». ويرد هذا التنوع ايضاً الى الترددات التي ادت الى الجمعيات : فلم يخف مستشارو فيليب له بيل ارتباكهم في تنظيم الاستفتاءات القومية الاولى ، ويبدو ان تعيين الجمعيات الرسمية الاولى ، في عهد اولاده ، قد تميز بجو من الفوضى الشاملة ؛ وحتى اواسط القرن الرابع عشر ، ترك ملك انكلترا لمأموري الاحكام المدنية امر تعيين المدن الواجب استدعاؤها الى المجالس . فحدث في فرنسا ، اثناء الاضطرابات ، ان عبر النبلاء ، بعد وفاة « فليب له بيل » ، ثم البورجوازيون ، عشية هزيمة بواتييه ، عن تصميمهم على اسماع صوتهم . وجرت الامور بصورة مماثلة في اسبانيا والامبراطورية وبولونيا والبلدان السكندينافية . وكان قد سبق لانكلترا ان عرفت هذه التخلجات في القرن السابق ؛ ولكن قدم خبرتها التمثيلية قد ساعدها على ان تحدد تدريجياً طبيعة برلمانها ودوره : فجاء مثالاً « لمجلس الملك » يتميز بالعظمة ، ينضم فيه البارونات العلمانيون والكنسيون الى المستشارين الاعتياديين ، ولكن يدعى اليه عادةً ممثلوا اشراف الكونتيات والبورجوازية المدنية ايضاً ؛ فتحدد بذلك قبل آخر القرن الرابع عشر واقع وصلاحية مجلسي اللوردات والعموم . الا ان الجمعيات لم تلتئم في اي بلد التئاماً دورياً ، اذ كان للامير دون غيره حق الحكم في ملاءمة اجتماعها .

ان طبيعة المعاضل التي بررت هذه الاستفتاءات تتيح تبين طابع الاهمية التدريجية الذي ارتدته الجمعيات التمثيلية . فقد قضى تقليد خدمة « المشورة » بان لا ينحصر بحث المسائل

الخطيرة في اطار المجلس الملكي المحدود نسبياً ، والخلافة في الملك من اهمها خطورة . وان اقالة ادوارد الثاني ملك انكلترا في السنة ١٣٢٧ ، الذي اقرّه حزب البارونات الثائرين ، قد اعتبر وكأنه عمل « ارفع البارونات مقاماً ومستشاري المدن الطيبة » : فقد اعلن احد الاساقفة آنذاك ان « صوت الشعب انما هو صوت الله » . وهي جمعية بارونات ايضاً ما وافقت في فرنسا على اعتلاء فيليب الخامس العرش في السنة ١٣١٦ ، وجمعية اخرى ما اعلنت حق فيليب السادس في استلام التاج ؛ وهو برلمان ما وافق في السنة ١٣٩٩ على اقالة ريشار الثاني واغتصاب هنري الرابع؛ وبرلمان آخر ما التف حول ادوارد الرابع في السنة ١٤٦١ . وانما طلب ولي العهد شارل الى جمعية تمثل الاقاليم ، في السنة ١٣٥٩ ، نقض معاهدة لندن التي اقرها والده الاسير ، كا طلب الى الهيئات الكبرى التي تعتبر ممثلة للرأي العام – البرلمان ، الجامعات ، المدن الطيبة – ابرام معاهدة طروا في السنة ١٤٢٠ . وكذلك فان كبار الاسياد الاسبانيين الذين نادوا بالملوك خلال الحروب الاهلية ، لم يقدموا قط على ذلك بمفردهم ؛ فان الممثلين (الكورتيس) الذين درج الملك على دعوة ممثلي المدن الى اجتماعاتهم ، قد اقروا ، نزولا عند رغبة ألفونس العاشر ، سقوط حق اشقاء ولي العهد في الملك في قشتالة . وهم الكورتيس ، في اراغون وكاتالونيا ، من ابرموا ، في السنة ١٤١٢ ، تسوية « كاسب » واستعانوا بعد ذلك على جان الثاني ، في برشلونا ، حيث كانت الكلمة الفصل لكبار التجار ، بمنافسين متعاقبين عديدين . وكان لكل من امارات الامبراطورية الـ ٣٥٠ جمعيتها التي تبدي رأيها اثناء ازمات خلافة الملك . والتأمت كذلك الجمعيات الهنغارية والبولونية حين قرّر زواج بنات لويس دانجو مصير البلاد . ودون ان نشدّد اخيراً على دور الجمعيات الاسوجية الذي كان على جانب كبير من الاهمية في القرن الثالث عشر، هل من حاجة بنا الى التذكير بان وحدة الممالك السكندينافية الثلاث قد تمت بقرار اتخذه في كالمار ، في السنة ١٣٩٧ ، مندوبو المدن والاكليروس والاشراف مجتمعين ؟

وغالباً ايضاً ما سنحت الفرصة للبورجوازيين باسماع صوتهم في معرض المعاضل المالية؛ فهذه كانت المبرر الاساسي لدعوة الجمعيات ولتدخل اعضائها المطرد في الشؤون الادارية والسياسية . ومتماثلة هي الطريقة التي حملت الدول تدريجياً الى اناطة اقرار الضرائب بحق مراقبة توزيعها وجبايتها ووجهة استعمالها ، ثم الى فرض الاصلاحات الادارية ، واحياناً الى مراقبة مجلس الامير ، واخيراً الى سن الشرائع في موضوع تنظيم الدولة نفسه . وقد أثار موقف البرلمانات الانكليزية مشكلة دائمة للبلاط ، حتى في عهد اشد الملوك حزماً : فقد اضطر ادوارد الثالث في السنة ١٣٤٠ والسنة ١٣٧١ ، في سبيل الحصول على مساعدات نقدية ، الى التضحية بوزرائه والرضوخ في السنة ١٣٧٦ لمطالب « البرلمان الطيب » ، الا انه لم يبر بعد ذلك باي وعد من وعوده ، او انه حمل جمعية اسلس انقياداً الى ابطالها كلياً . وحين حصل ريشار الثاني المستبد ، في السنة ١٣٩٧ ، على مساعدات نقدية لمدّة ثلاث سنوات ، لم يفت البعض ان يذكروه بمبدأ القبول بالضريبة وبتخصيصها الحصري للنفقات العسكرية . وصادف هنري الخامس الصعوبات

نفسها في تمويل فتوحاته في فرنسا وآثر الاستغناء عن البرلمان منذ ان استطاع الى ذلك سبيلا، ما بين السنة ١٤١٧ والسنة ١٤٢٠ ؛ وقد حاول هؤلاء الملوك جميعهم ، توصلا الى اطلاق حريتهم في العمل ، الاستحصال على المساعدات بموافقة « مجالس لوردات كبرى » كانت استمالتها اقرب منالا . وهو البرلمان الذي كان الحـكم بين الامراء المنقسمين على انفسهم في فترة قصور هنري السادس الشرعي ، مستقويا في موقفه بحاجاتهم الدائمة الى المال . وحدث الشيء نفسه ، باولى حجة ، في ايام ولاية هنري السادس الشخصية .

اما في فرنسا فهي خطورة الهزائم العسكرية ما نقلت المجالس من الصعيد المالي الى الصعيد السياسي : وان في فشلها الاخير ، من جهة ثانية ، برهاناً ساطعاً على رسوخ التقاليد الملكية . فبعد كريسي خاطبت المجالس ملك فرنسا كما لم يسمح احد لنفسه بمخاطبته من قبل : « بئس المشورة التي افقدتك كل شيء دون ان تكسبك شيئاً ... ان هذه المشورات قد اذلتك » اجل لقد حال الاخلاص للملك دون رفض المساعدة ، ولكن المساعدة خضعت لشروط . ففي السنة ١٣٥٥ ، نظمت المجالس الجباية بنفسها ، فاحدثت جهاز « المختارين » ، وفرضت عقد جلسات منتظمة لتصفية الحسابات . وحدث ما هو اسوأ من ذلك بعد بواتييه ، اذ ان رأس المملكة آنذاك لم يكن سوى ولي عهد شاب في سن الثامنة عشرة لم تمتحن قوته بعد ولم يكن حوله سوى مستشارين عيب عليهم « استهتارهم واضاعتهم للوقت » . وعرفت فرنسا آنذاك ، في الوقت نفسه تقريباً الذي عرفت فيه روما « كولا دي رينزو » ، خطباء سياسيين قادرين على تهييج الجماهير : من امثال « روبير له كوك » اسقف لان ، وشارل «له موفيه» ملك نافار . وان « النظام الكبير » ، الذي اقرّ في اذار من السنة ١٣٥٧ والذي املته مجالس اللنغدوك ، لم يستهدف تقويم التجاوزات الادارية فحسب ، بل فرض مجلس وصاية على ولي العهد وعقـد جلسات دورية على المجالس . اجل ان الحركة التي استندت الى حماس فئة من البورجوازية الباريسية فقط ، فشلت امام ارادة ولي العهد الحازمة ، واسدل الستار عليها بمقتل اتيـان مارسيل . ولكن التجربة ستتكرر عند اول بادرة ضعف تصدر عن السلطة . فاضطر « اسياد زهور الزنبق » الى اراقة الدماء في قمع اضطرابات السنة ١٣٨٢ ، وكانت الحرب الاهلية ، بعد مرور ثلاثين سنة ، حافزاً للحركة « الكابوشية » . انضمت هذه المرّة ، الى نقابة الجزارين الباريسيين القوية ، الجامعة التي لم يقتصر نشاطها الاصلاحي على الكنيسة ، والتي ترقبت الخلاص من تقرب « جان سان بور » الى الشعب . ولكن البرنامج الذي تضمنه التنظيم الكابوشي قد اقتصر على اصلاح الادارة دونما تدخل المجالس في الشؤون السياسية : ويستلزم هـذا الاصلاح احداث هرم من مجالس تنتخب اعضاءها ، وتبسيط وسائل العمل ، وتقويم الوضع المالي ، فتتحقق بذلك ادارة سليمة للمصالح العامة ؛ واعتقد المصلحون بجمهورية من كبار الموظفين تنظم تنظيما منطقيـاً برئاسة الملك . وهذا ما سيتيح للملكية ، في نهاية المطاف ، اصـلاح نفسها بنفسها دون التسليم باية رقابة .

اشتد كذلك ، على نطاق اضيق ، في البلدان الاخرى، دور الجمعيات السياسي . فان الممثلين القشتاليين قد طلبوا من الملك ، في السنة ١٣١٥ ، بياناً بموارده ، دون ان يظهروا له عداءهم ؛ ثم ادعوا ، في السنة ١٣١٧ والسنة ١٣٢٢ ، امام تكرر طلب المساعدات ، بمراقبة جباية « الخدمات » . كما ان الجمعيات ، في اراغون وكاتالونيا وفالنسيا ، وهي اعظم تطوراً منها في قشتالة ، قد درجت على تبيان وتدوين مطالبها الادارية والسياسية الخاصة قبل اي بحث في طلبات المساعدة النقدية ؛ وكان على الامير ، في كاتالونيا ، ان يقسم باحترام التدابير المقررة ؛ ولولا التباين بين نزعات مقاطعات اراغون المختلفة ، لما تبقى للملك اراغون سوى امكانات ضئيلة للمناورة .

لم تكن مطالب جمعيات المقاطعات بينة الاختلاف عن مطالب الصناعيين الذين سبق ورأينا ان هيجانهم قد عكر بين آن وآخر مدن ايطاليا وهولندا . اجل ان الهيجان العمالي ، وهو اجتماعي اكثر منه سياسي ، قد استهدف في الدرجة الاولى القضاء على استئثار الاشراف بادارة الشؤون البلدية . الا ان اتجاهه العميق كان مشتركاً مع اتجاه المجالس : فهو قد استهدف توسيع النظام التمثيلي وخدمة مصلحة الناهضين به . وان في مثل لياج ومثل برابان ، من هذا القبيل ، لدلالة كبرى على ما نقدم ، اذا اننا نرى فيها ، في آن واحد ، الحرف ترغم الاشراف على اشراكها في الشؤون البلدية ، و « البلاد » او الجمعيات تفرض على الامير الحدّ من سلطته ؛ ويتراءى في الحالين حرص ، يتميز به هذا العهد ، على اعطاء الدولة شكلاً محدّداً .

عرفت مدن الامبراطورية وسياداتها تطوراً مماثلاً ، في القرن الخامس عشر . فقد توصلت المجالس هنا ، وهي شبيهة من حيث تكوينها بمجالس فرنسا ، ليس الى ادارة الضرائب التي تقرها فحسب ، بل الى اقامة رقابة على مستشاري المدن والامير والموظفين المحليين . واتضح في الممالك الشرقية كذلك مفهوم تمثيل البلاد كلها . ومن الغريب ان يقال في بولونيا مبدأ ، ولو زمانه في الظاهر ، ولكنه ينطبق اجمالاً على نزعات العهد ، اعني به مبدأ الشخصية القومية بالاضافة الى فكرة التمثيل وفكرة رقابة السلطة : ففي مجمع كونستانس دافع رئيس جامعة كراكوفيا ، « ضد التوتون » ، عن حق الشعوب ، حتى الوثنية منها ، في استقلالها الاقليمي . وهكذا تم اللقاء بين الاراء الجديدة حول نظام الدولة وبين القوميات الناشئة .

الدولة تبحث عن نظام

تزعزعت اركان الدولة بتفكك الاطارات الاجتماعية التقليدية فاخذت تبحث عن قواعد جديدة ؛ وتوجب عليها ان تتنظم بغية توسيع رقعتها والقيام بالاعباء العديدة التي لم تكن هي مهيأة لها . وكانت العقبات كثيرة في طريقها : عقبات تقنية — هزال الوسائل الادارية والعسكرية ونقصان الموارد — ، واجتماعية — المنافسة بين مصالح الاكليروس والمدن والنبلاء والامراء — واقتصادية وعسكرية . ففي سبيل تذليلها ، انبرى رجالات القرن الرابع عشر ، في هذا النطاق كما في نطاقات اخرى كثيرة ، يجزئون كي يتمكنوا من التحديد ، ويحللون الناحية الخاصة كي يتمكنوا من اعداد العدّة للمستقبل .

سار الاتجاه العام نحو جمع الاراضي ومركزية السلطة بخطوات تدريجية متعاقبة ، فحدّ ولا من عدد الاقطاعات التي استبدلت بدول صغيرة اقل عدداً : الامارات الاقطاعية المنشأ في هولندا والمانيا ، واقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا وانكلترا ، وديمومة قيام الممالك الايبيرية والشرقية ، وسيادات الامراء او المدن في ايطاليا ، والمقاطعات السويسرية . ويبدو انهم لم يتصوروا سوى دولة وضيعة الابعاد تتلاءم ووسائل المواصلات والعمل التي كان من شأنها آنذاك تأمين وحدة قيادة قوية . فكانت الدولة القشتالية او البرتغالية ، والامارات النيرلندية على تنوعها ، والدوائر الانتخابية الالمانية تمثل خير وحدة سياسية يسهل حكمها. والى هذا يرد في الارجح ان مملكة اراغون حافظت على هيكلها الرباعي وان ميلانو والبندقية ودول الكنيسة ونابولي قد اعتدلت ، وان قيام اقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا ربما كان اكثر مطابقة لاقتصاد لا يزال اقليمياً . ولكن الاتجاه الى المركزية ، في فرنسا وانكلترا على السواء ، مالبث ان تغلب على هذه الاتجاهات المختلفة ، فيما بحثت الدول الاخرى عن تلاحمها بوسائل قريبة جداً من النظام الاتحادي : كمحاولات الوحدة الشخصية بين ممالك اوروبا الوسطى التي سبقت الاشارة اليها ؛ ووحدة السكندينافيين التي عرفت البقاء ، وتبسيط الامارات الايطالية ، وتكتلات المدن والمقاطعات .

ورافق الميل الى التبسيط ميل الى التحديد : فبينما كان رجال القانون يجمعون العادات والاعراف ، كان رجال السياسة يشترعون القوانين والانظمة ويضعون الدساتير ، ويجيز لنا استمرار عملهم ان نرى فيه واقعاً شاملاً . لم ير القرنان الرابع عشر والخامس عشر اتضاح الاطارات والاعراف الادارية في الملكية البابوية والملكيات الفرنسية والانكليزية والاسبانية وبعض الامارات العظمى كبورغونيا ، فحسب . ولم يحققا فقط عملاً تشريعياً ينطوي على كثير من الاعادات على كل حال : قوانين ملوك فرنسا ونظم ملك انكلترا التي اقرها البرلمان . فان مبادهات جزئية او شاملة منبثقة من مطالب الجمعيات التمثيلية او من حسن استعداد الامراء قد اخذت تجهز الدولة بنصوص نظامية . لقد سبق وتكلمنا عن فشل « النظام الكبير » (١٣٥٧) او النظام الكابوشي (١٤١٣) في فرنسا ، ولكن مؤلف « حلم البستان » قد حاول ان يحدّد ، خدمة لشارل الخامس ، دور الملكية في الدفاع عن « الخير العام » ، بينما تغنت « طريقة انعقاد المجلس » (التي تعود الى اواخر القرن الرابع عشر) ثم « محاسن شرائع انكلترا » و « حكم انكلترا » للسر « جون فورتسكيو » بملكية انكلترا القوية التي تلطفها المؤسسة البرلمانية والحق العام . اما كتاب « الاحزاب السبعة » حيث قدم الفكر السياسي القشتالي برنامجاً استبدادياً ابوياً ، فقد اكمله « البحث في مجالس الكورتيس » حيث وصف « جيم كاليس » ملكية مطلقة تعتمد على جمعية ايضاً . اجل لقد تخطت مجالس كورتيس القرن الخامس عشر الكاتالونية فكر مؤلف القرن الرابع عشر ، وقد بحث المثل «الاتفاقي» ، الذي طلع به الاشراف البرشلونيون ، في اختبار القوة ، عن التوازن بين سلطة الامير وتدخل البورجوازية . ولكن انظمة كازيمير

الكبير (١٣٤٣ – ١٣٧٠) قد حدّدت القواعد الادارية والسياسية لمملكة بولونيا، في الطرف الثاني من اوروبا.

لمثل هذا الانشغال باستقرار السلطة استجاب اعلان «البراءة الذهبية» في السنة ١٣٥٦. لا ريب في انها كرّست عجز الامبراطور، ولكن فضلها يقوم في انها حددت بجلاء القوانين المرعية الاجراء. فقد عرف، انطلاقاً منها، من ينتخب ملك الرومان الذي يمارس وكالة الامبراطور في حال شغور مركزه، واين ومتى وكيف يجري هذا الانتخاب. وعلى الرغم من ان ذلك لم يصبح تقليداً، فقد عينت البراءة ايضاً للمنتخبين واجب تقديم المشورة للامبراطور في جمعية سنوية. اجل لقد كان المجهود محدوداً ولكنه نم عن رغبة واضحة في تحديد الادوار. اما نص البراءة، الذي وضعه امير مسلنين هو شارل الرابع وفقد وضع بالاتفاق مع الجمعية.

ان الدساتير الاولى، الخليقة بهذا الاسم، قد تحققت في الواقع، منذ القرن الرابع عشر، في هولندا، وطن كل مبتدع جديد. وتخفي اسماؤها المختلفة، مع بعض الفوارق، وقائع متشابهة. ويبدو ان هذه البلاد قد نهضت، بمدنها التي تميزت بروح بورجوازية متطورة جداً، وباماراتها الاقطاعية التقليدية، برسالة ايجاد حل لمعضلة توزيع السلطة. كان هذا الحلّ، في جوهره، اعترافاً، يتعهد به الامير عند توليته، بامتيازات جمعيات المقاطعات في الحقلين السياسي والمالي؛ وكان في الدرجة الثانية قبولا برقابة الجمعية على المجلس والادارة. فان «دستور كورتنبرغ» (١٣١٢) و«المدخل البهيج» (١٣٥٦) في برابان، و«اتفاق فكس» (١٣١٦) و«اتفاق المجلور» (١٣٤٣) في لياج، هي اقدم النصوص واوفرها طابعاً مميزاً واطولها بقاء ايضاً، حققها مجتمع متطور، وبرهنت، لا سيا في منطقة لياج، عن وعي قومي بارز جداً. وان هذه النتائج التي احرزت في رقعة جغرافية ضيقة جداً، تقع في مفترق اتجاهات متنوعة جداً، تشرّف الفكر السياسي في ذلك العصر. اجل لقد تمكنت السلطة، في البلدان الكبرى، من التملص من القيود التي حاولوا تقييدها بها. ولكنها قد ارغمت في النتيجة على ان تثبت فيها دورها ووسائلها. انها لمرحلة هامة في تاريخ اوروبا تلك التي بحثت فيها الدولة، في آخر القرون الوسطى، على الرغم من العقبات، وربما بسببها، عن تحديد واقعها مرّة اخرى.

الفصل الرابع

نشأة الدولة العثمانية

كان الغزو المغولي ، والفتح الداوي الساحق الذي ادى اليه ، فجوة في كل من تاريخ الشرق الاسلامي وتاريخ شعوب الروسيا،بدونه لا نستطيع ان نفهم فهماً صحيحاً التطور الذي اخذت به هذه البلدان ، بعد ان ارتفع عنها كابوس الفتح وانحسرت الغمة التي نزلت بها ، إن لم نتبين جلياً الرصيد الكامل لهذه العملية الضخمة . وقد جاء هذا الانقطاع منطقيــاً اتفق مع الحركة التجديدية والنهضة الاصلاحية التي قامت بها اليونان ، اذ ذاك ، تجاه اللاتين ، وازدهـار الدول البلقانية ، في هذه العطفة بالذات من تاريخ اوروبا الجنوبية الشرقية . انهــا لفجوة تضطرنا للعودة ، قليلاً ، الى الوراء ، لان مدنيات الاجيال الوسطى المتماظلة والمتراكبة بعضــاً فوق البعض ، لم تعرف هذا التوافق الذي طبع الاحداث « العالمية » .

١ ــ الاسلام في عهد المغول

الفتح المغولي

رأينا باية سهولة استجاب العالم الاسلامي واليسر الذي استقبل به الغزو المغولي فاستسلم له بكليته . ويمكن ان نجـــد سر هذا ، في الهلع الذي استحوذ على السكان ، والخور الذي وقع فيه واستسلم له اسياد العالم الاسلامي عندما اطلت عليهم جحافـل الغزاة . فما من شيء مشترك بين هذا الفتح والفتح الذي قام به الترك من قبل ، وهم اقوام اعتنقوا الاسلام ، وسبق للعالم الاسلامي ان عرفهم عن كثب ، واستعملهم مرتزقــة في جيوشه . وراح بعض المؤرخين المحدثين ينزلون باللائمة على الشعوب اللاتينية ، لانها لم تحسن الاستفادة من تحالفها مع المغول ان لم يكن لحق الاسلام ، فاقله لتقليم اظافره . وقد جهلوا او تجاهلوا ان المغول انمـا عنوا،في نظر معاصريهم، فناء وإفناء كل حضارة او مدنية وقعت في طريقهم،وانهم في الوقت الذي راحوا فيه يستعملون نصارى الغرب للقضاء على الدول الاسلامية كانوا هم يقومون بمذابح اجماعية

هائلة بين شعوب اوروبا الوسطى . فلندع جانباً هذه الاماني الخرقاء ، ولنحاول جهدنا أن نفهم جيداً ما الذي عناه في الشرق الادنى إقامة النظام الجديد .

كوّنت البلاد الايرانية والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات مسيحية توابع : امثال كيليكيا وجيورجيا ، منذ اواسط القرن الثالث عشر ، تحت إشراف الخان الكبير ، في الصين ، الدولة الايلخانية المغولية التي سيطرت على الربوع الخصبة الواقعة الى الغرب الشمالي من ايران . فالكلال الذي استحوذ على الغزاة بعد الفتح ، والانشقاقات التي شجرت بينهم ، والمد الشاسع الذي بلغته موجة الغزو ، كل هذا وما اليه ، اتاح للجيش الذي انكفأ الى مصر ان يتنفس الصعداء وان يعيد تنظيمه ليسترد الشام . والحدود التي قامت بين العالم الاسلامي والعالم المغولي ، انطلاقاً من كيليكيا الارمنية ، كانت تتقاطع عند منتصفها مع الطرقـات المؤدية الى الهلال الخصيب ، عند اعالي دجلة ونهر الفرات الاوسط . وكان من شدة الصدمة وعنفهـا ان اصيبت جميع بلدان الشرق الادنى الواقعة من كلا طرفي هذه التخوم ، بهزة زعزعت منهـا الاركان وصدعتها . وهكذا طلعت فجوة قامت سداً منيعاً بين العالم الايراني او العالم الواقع تحت النفوذ الايراني (آسيا الصغرى) والعالم العربي . فالعراق العربي الصميم الذي دخـل ضمن الامبراطورية المغولية ، اصبح ، منذ ذلك الحين ، فلاة باعدت بين قطبي العالم الاسلامي اذ ذاك : تبريز والقاهرة . وقد حمل الغزاة الفاتحون معهم الخراب ونشروا الدمار واسالوا انهراً من الدمـاء اينما مرّوا ، بحيث كان « السلام المغولي » اعجز من ان يزيل معالم هـذا الدمار الشامل . كم من الرعاة الرّحل حلوا محل الفلاحين المزارعين . وقد قضى الفتح تماماً على فرقة الحشاشين التي كان نفوذها اخذ يميل الى الزوال ، كما أدّى الى القضاء على الخلافة الاسلامية التي كانت بالرغم ممـا حملته في اردانها الفضفاضة من ابهة وجلال ، ترمز الى الوحدة الاسلامية . فلم ير احد اية اهميـة لتحولها ، ولو صورياً ، الى اسياد مصر، ولم يول احد هذا الامر اي اهتمام او اكتراث . كذلك ادى الى تحطيم قسم كبير من الارستوقراطية العسكرية واضطر القسم الآخر للهرب والنجاة بنفسه . كل هذا جاء حافزاً على تشجيع الاخذ بالنظام الاقطاعي في البلدان الواقعة تحت السيطرة المغولية ، هذا النظام الاجتماعي الذي اخذت بوادره تبرز للعيان في القرون السابقة .

حكم المماليك في مصر

من مفارقات التاريخ العجيبة في هذا العصر ، هو ان مصر التي صـار الامر فيهـا لحكام وسلاطين من انصاف البرابرة يجيء بهم من اسواق النخاسة والرق القائمة في الاقطار المجاورة للبحر الاسود ، اصبحت الآن منـاط الأمل ، والملاذ المرتجى ، والقبلة التي شخصت اليها العيون والابصار ، وقطب الدائرة في العالم العربي . فقـد اقام فيها المماليك حكماً عسكرياً دكتاتورياً ، كثيراً مـا تعرض للتمزق والإحن من جراء المشاحنات الداخلية بين الاحزاب المتطاحنة على السلطة ، تستثمر الى اقصى حـدود الاستثمار سكان البلاد وترهقهم بالابتزاز والاعتصار . وهي دكتاتورية صانت وحدة مصر ووحدة الشام ، وامدت الحكم بادارة حازمة ، وبالقوة والنظام ممـا افتقر الى مثـله او الى بعضه ، الكثير من

البلدان المجاورة . ونقرأ خبر هذا كله بالتفصيل في هذه الموسوعات التي وضعها بعض علماء العصر وكتابه ، معظمهم من موظفي ديوان الانشاء كالقلقشندي الذي اعطانا في كتابه : « صبح الاعشى » وصفاً دقيقاً وصورة صادقة لهذا الوضع . فالجيش يعيش على الإقطاع يجبي رسومه وتجمع اصالح الجيش ، دون ان يقابلها ارض او املاك يستغلها لحسابه الخاص ، ودون ان يتسرب اي ضعف او وهن في اشراف الدولة عليه ، فقد كان الجيش صارماً على نفسه كما كان لا يعرف الشفقة او الرحمة مع الغير ، يسير على نظام دقيق آسر . ففي هذا العراك الذي اخذت مصر بتلابيبه مع الخطر المغولي ، لم تحتمل على ابوابها احداً من هؤلاء المسيحيين الذين تركهم الايوبيون وشأنهم . فقد استأصلت شأفة الفرنجة من البلاد ، منذ القرن الثالث عشر ، وشأن الارمن من كيليكيا ، في القرن الرابع عشر ، ولم يبق صامداً في وجهها غير قبرص ، هذا الحصن البحري المنيع الذي هزىء بهجمات المسلمين عليه والذي كتب له ان يبقى شوكة في جنبهم حتى القرن السادس عشر .

فاذا ما استطاعت دولة المماليك والنظام الذي اقامته في مصر ان تعمر وتعيش اكثر من ثلاثة قرون ، فبفضل الموارد الوفيرة التي امنتها التجارة الدولية للبلاد . ففي الوقت الذي ازدهرت فيه التجارة الايطالية في الشرق الادنى ، عادت مصر تلعب ، بالرغم من الاخطار التي تعرضت لها من جراء الحروب الصليبية ، ومزاحمة الطرق التجارية الواقعة تحت رحمة المغول او اشرافهم عليها ، دوراً هاماً . صحيح انه كان من الصعب عليها جداً المحافظة على المقايضات التجارية مع الغرب . غير ان تحكمها المطلق بالحركة التجارية في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، جعل من التجار المصريين ، سماسرة اثرياء ، أمنوا لدائرة المكوس ارباحاً طائلة ملأت خزينة الدولة بالمال وساعدت على ازدهار اسواق القاهرة ازدهاراً كبيراً وبعثت فيها نشاطاً بقي خبره حيناً في خواطر الناس يتذكرونه ابد الدهر . وليس المماليك بمسؤولين وحدهم عن استنفاذ موارد الذهب لديهم ، وانتقال ذهب السودان الى الايطاليين ، عن طريق المغرب ، فبقي في اسواق مصر ، نقد من النحاس الاحمر راح يفقد قيمته ويخسر من قوته الشرائية ، يوماً بعد يوم . وليس من غلطتهم وحدهم ولا هم وحدهم بمسؤولين عن هذا الخراب والدمار الذي نشره تيمورلنك ، في سوريا ، في منعطف القرن الرابع عشر والخامس عشر ، وهذه الحروب المضنية التي شنوها ضده فارزحت مالية الدولة وافدحتها بحيث راح السلطان برسباي يفرض احتكار الدولة لتجارة البلاد الخارجية ، ثم اضطر في نهاية الامر الى ان يتراجع عن تدابيره التعسفية هذه امام احتجاجات التجار الصارخة . وليس من غلطتهم وحدهم اخيراً ، قيام جسر ، في اواخر القرن الخامس عشر ، للاتصالات المباشرة ، بين البرتغال من جهة ، والهند من جهة اخرى ، كان في اقامته ضربة قاصمة للاقتصاد المصري ، فجعل مصر هدفاً لاطماع الاتراك العثمانيين . ومع ان الفوضى فعلت فيهم فعلتها ، واتسمت ادارتهم بالخلل في نواح كثير ، فنظام المماليك لم يكن اسوأ من غيره من هذه الانظمة او الحكومات التي قامت اذ ذاك . فقد اضمحل وانهار

امام قوى فاقت اضعافاً ماتم له منها . واذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع الدول الاوروبيـــة التي كانت يومئذٍ في ابان تطورها وتكاملها ، وامام القوة العثمانية القاصمة النامية ، فأسقِط في ايدي سلاطينه ولم يعرفوا كا لم يستطيعوا ان يجددوا من احوالهم واوضاعهم .

ومع ذلك ، فقد جعلوا من مصر مباءة للفنون والعلوم ، ومشعلاً عاليـاً للادب . فالاسلام السني في مظهريه الفلسفي والفقهي يسيطر بلا منازع على البلاد، والنظام الذي اعلنه الفقيه الحنبلي ابن تيْمِيَّة والذي واءم فيه بين الجندي وبين « الكاتب » والذي تمثل على اتمه في هذا التطور الذي خضع له الوقف، زاد من تعصب المسلمين ضد الاقباط وغيرهم من الاقليات المسيحية واثار الكراهية والبغض ضد التجار الاجانب ، مع اشتداد حاجتهم اليهم ، الذين كانوا يتصرفون احيانـــاً كالقرصان . وقد عمّ النشاط الفكر في مجالات عديدة اخرى ، وهو نشاط تبلور عـن ظهور مؤلفات موسوعية ، تعليمية ، اكثر منها خلقاً او تجديـداً ، اتجهت ، على الاكثر ، من جمهور القراء العطاش للمعرفة . وانصرف اذ ذاك ، علماء اللغة واصحاب المعاجم الى وضع عـــدد من القواميس العربية الواسعة المستفيضة ، لا تزال المعوّل عليها حتى يومنـا هذا ، بينما نشط العمل في تصنيف المؤلفات التاريخية ، حول التاريخ القديم والمعاصر، من الذهبي (القرن الرابع عشر) ، الى ابن إياس (مطلع القرن السادس عشر) ، الذي يوجد شبه كبير بين عمله هذا واليوميات التي وضعها معاصرون له من اهل البندقية . وبلغ هذا النشاط الذروة مع المقريزي ١٣٦٤ – ١٤٤٢ في كتابه « الخطط » الذي ذكر فيه ما يتعلق من الاخبار بمصر واحوالها المدنية والاجتماعية ، وقد برهن عن علم واسع ونشاط جم ، وحب اطلاع شامل تناول معه الكشف عن آثار البلاد وخطط القاهرة ، ومبانيها ، ووصف النقود المستعملة ، والاوبئة والاقليات الدينية ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن اصحاب الموسوعات ، كالنويري (القرن الرابع عشر) وجـــلال الدين السيوطي (القرن الخامس عشر) واميرحماه المؤرخ والجغرافي ابو الفداء (القرن الرابع عشر) . وفي مصر وُضعت نهائياً في شكلها الحاضر القصص الشعبية المستمدة مادتها من جميع البلدان الاسلامية ولا سيما كتاب الف ليلة وليلة منها ، الذي ترجع منابعه الاولى ، الى بلاد فارس قبل الاسلام ، ثم زيدت عليه اضافات جديدة في بغداد .

ايران المغولية

برهن الاســـلام ، في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى ، عن نشاطات وحيويات متنوعة ، لم تقل قط عما تم له منهـا في دولة المماليك في مصر . فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الاديان ، في بدء امرهم ، اخـــذوا منذ اواخر القرن الثالث عشر ، يعتنقون الاسلام ، بتأثير مزدوج من النسبة العـالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم ، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم ، اولى القبائــل المغولية التي دخلت ايران . فقد برهنوا عن تساهل عظيم امـــام جميع الاديان والمعتقدات ، دون ان يفرقوا عند اعتناقهم الاسلام، بين الشيعة والسنة . ولم يخل هذا الوضع بالذات ، من بعض الاثر

على الاسلام ، اذ فقد شيئاً كان يحمله في اعين الآخرين ، الدين المميز او المفضل . وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور ، بحيث اصبح التشيع ، بعد ذلك بقرنين ، المذهب الرسمي في ايران .

وعلى عكس الغزو التركي ، لم يتسبب غزو المغول عن اي تغيير يذكر في البلاد التي اخضعها لسيطرته ، من الوجهة الاثنوغرافية . فاذا ما حصل شيء من هذا ، فقد جاء من قبيل هذه المفارقات الغريبة لصالح الاتراك انفسهم . فقد دفع المغول امامهم ، عدداً من الاقوام والشعوب التركانية لم يلبث ان ألف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية ، التي غطت بعدها العرم ، آسيا الصغرى وارجاء الروسيا الجنوبيـــة ، فأمدتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصبت فيها دماً جديداً . وبالنظر لنظام العيش الواحد ، استطاع التركمان ، اكثر من اية قومية من هذه القوميات التي وقعت تحت الفتح المغولي ، ان يؤثروا على المغول تأثيراً اكبر من اية تأثير تم لاي عنصر اثنوغرافي آخر ، وراحوا يتصونهم ، ولم يبق على نقاء وصفاء عنصرهم ، بمعزل عن عملية التتريك هذه ، سوى بعض الجوالي المنعزلة . انه وايم الحق ، لمصير غريب تنتهي اليه هذه العملية الجبارة . وقد ُعرف هؤلاء الاقوام ، في جنوبي روسيا ، باسم التتر او التتار ، وهو اسم عنى اذ ذاك وأريد به المغول ، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغة وعرقاً ، ولهجة .

وليس من شك قط ان "تنصُل" ، في مجالات الحكم والادارة ، بعض الخصائص والمميزات التي حملها المغول معهم من مواطنهم الاولى ، بينما تركت غيرها أثرها البارز حتى في مصر احياناً خلال عهد المماليك . علينا ان نتورع قبل أن ننسب او نرد لنظام المغول ، اي فضل في انشاء هذه الاتصالات البريدية ، ومصلحة المباحث والجاسوسية التي انشأوها . لم يكن في وسع هؤلاء الغزاة الضالعين الى ما فوق انوفهم في الهمجية والبربرية ، ان يقيموا مثل هذه المصالح . وهكذا لا نستطيع الى يومنا هذا ، ان نميز جيداً،في النظام الذي وضعته الدولة الايلخانية ، ما هو من اصل ايراني ، وما هو من اصل مغولي او صيني ، وما هو من ابداع أصيل . وجل ما نستطيعه بهذا الشأن هو ان نتبين ، بعض ما استحدثوه ، في النظم القضائية والمالية .

فالادارة العامة بقيت في ايدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الاصليين ، ومن كل المذاهب كرشيد الدين الخطيب ، وهو يهودي اعتنق الاسلام ، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للاخان غازان ، عام ١٣٠٠ .اما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش،وبالقرارات السياسية الملزمة ، مستعيناً في عمـــله ، بارشادات المجلس الاعلى للمغـــل ، وسار على قانون جنكيز خان . وقد لفت انظار الناس الى بعض الاشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمـــان (يارلغ) والانواط المعدنية التي انعم بها على بعض القادة ، والخاتم الذي ُتمهر به اوراق الديوان (الطرّة) والذي يشبه شبهاً كبيراً الطغراء عند السلجوقيين . وبعد ان رُسخ النظام واستقرت أسسه ، كان على الدولة ان تسير وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن . فالغرض الذي رمت اليه في الدرجة الاولى ، كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والارهاب ، حتى اذا ما حلّ الرعب في

قلوب السكان بعد ان اقفرت البلاد وجف منها الضرع وصوّح الزرع ، اخذت الحكومة المغولية بعد الانتهاء من عملية الفتح ، تتبع نهجاً ادارياً اكثر انتظاماً من قبل . وقد وفرت الفتوحات للدولة الايلخانية على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية ، املاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة . فاذا لم تجر الدولة تغييرات جذرية تقلب الاسس التي سارت عليها جباية الضرائب منذ عهد سعيق ، فالاصلاحات التي قامت بها،وكلها مستوحاة من مغول الصين، اي من المناهج الصينية ساعدت على وضع نظام مالي مبسط وفرت لها محصولاً اطيب من الواردات، كل هذا لم يمنع قط الدولة الايلخانية من ان تجد نفسها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، عرضة للمصاعب ذاتها التي تعرضت لها الحكومات السابقة ، بعد ان زادت فداحة الدمار الذي اصاب جانباً كبيراً من البلاد ، وتكالب الحكام والقواد العسكريون ، على ابتزاز السكان واغتصابهم باسوأ الاساليب . فامام تدهور النقد ، والعجز الذي مُنيت به الدولة ، فمنعها عن تأمين مرتبات الجند ، راحوا يروجون في العالم الاسلامي ، العملة الورقية التي نجح استعمالها في الصين ، وهي محاولة كتب لها الفشل ومنيت بالخيبة لقلة دربةِ القوم وعدم خبرتهم وعَدم تهيئة الناس لها بصورة مرضية. وعمد السلطان محمودالغزنوي اذ ذاك الى ضرب عملة سليمة . ولكي يشجع الجند على استثمار الاراضي، قرر ان يُقطع الواحد منهم اراضيَ واسعة . وهكذا عاد العمل بالاقطاع من جديد . ومعذلك لم يستطيعوا ان يحولوا دون تدهور النظام . وقد قام الى جانب الاراضي التي وقعت مباشرة تحت ادارة الدولة ، امارات عدة اعترفت لها بالولاء والتبعية ، ومع ذلك لم تطبق هذه الاصلاحات تطبيقاً كاملاً .

من الفوائد التي ادّت اليها الوحدة المغولية ، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع ارجاء آسيا . والتسامح الديني والسياسي الذي عُرفت به هذه الدولة ، مكن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومنيكيين والفرنسيسكان ان يتوغلوا بعيداًفي اواسط آسيا وان يقيموا لهم مراكز للتبشير وابراشيات ، تناثرت حباتها من شطآن البحر الاسود حتى مشارف بحر الصين ، حتى ان قوافل من التجار الايطاليين ، انضموا ، لاول مرة في التاريخ الى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب اقطار الهند والصين ، وتم تبادل الممثلين السياسين ، بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب . وقد نتج عن هذا ، بنوع خاص اتساع الافق امام الاتصالات البشرية ، كما وضع كثيرون من الرّحالة الغربيين ، اوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها ارجلهم لاول مرة ، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء ، فظهرت لاول مرة في التاريخ كتب وصفية منها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، وهو كتاب أرخ فيه للمغل وملوكهم ، من جنكيز خان الى غازان ، وللفرس والخلفاء وللملوك الصين وملوك الفرنجة .

لا بد من التنويه هنا الى ان هذه التجربة لم تعمر طويلاً . فلم يمر ثلاثة ارباع القرن حتى عادت آسيا الى الانقسام ، وأوصدت ابوابها في وجه الغربيين . ففي عهد الوحدة لم تكن طرقها مأمونة المسالك،اذ ان الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر.

كذلك من الصعب ان يكوّن المرء له فكرة ، ولو تقريبية ، عن الحركة التجارية التي ساهم بها بعض التجار الايطاليين . ومما لا شك فيه ان الدولة الايلخانية شهدت هي نفسها حركة تجارية اقوى على الطرق التجارية القديمة الا انها عجزت عن ان تعيد الى نشاطها السابق ، الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد ان اخذت مصر تسيطر عليها اكثر فاكثر . وقد استقر رأيها يوماً على ان تهاجم الاسطول المصري العامل من قواعده ، في المحيط الهندي ، وهي خطة لم تر النور ، وان كانت استخدمت لها بحّارة إيطاليين من مدينة جنوى . وعادوا الى استعمال الطرق التجارية التقليدية : فالى جانب مرفأ طرابزون ، نشأ الآن على شاطىء البحر المتوسط، مرفأ أياس *ayas* الواقع في ارمينيا الصغرى الخاضعة اذ ذاك للمغول . ومن بين الطرق التي فتحت ابوابها للتجارة جديداً ، مع انها سبق لها واستعملت بين حدود الصين ونهر الفولغا ، هذا الطريق الذي يصل بعد ان يجتاز شمالي بحر قزوين والتركستان ، بين البحر الاسود والصين ، ماراً بالاقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية . وكانت المنافسة بين هذه الطرق على اشدها ، كما كانت على مثل هذا الوضع ، بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها . وهذه المنافسة حالت دون حصول المماليك على ما يرغبون فيه من الرق ، من أسواق القوقاز . ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرةً بالبحر الاسود وما يقع حواليه من الاقطار ، عن طريق المضايق ، بالاتفاق مع بيزنطية ، وعلى اساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الايطالية المقيمة في جزيرة القرم .

فالغزو المغولي لم يُلحق مع ذلك ، اي خطر يذكر بالحركة الادبية . فالشاعر سعدي انهى حياته المديدة في ظل ملوك شيراز الذين كانوا خاضعين للمغول . فاللغة العربية لم تبق اللغة الدارجة او المستعملة للتفاهم ، والمؤلفون، كما في مصر ، كتبوا في كل شيء ، كنصير الدين الطوسي احد علماء الشيعة الاعلام ، في القرن الثالث عشر (١٢٠١ – ١٢٧٤) الذي اسس مرصداً فلكياً في مراغا بامر هولاكو ، وحمد الله المستوفي ، من رجال القرن الرابع عشر . وقد اثر اتساع افق العلوم الجغرافية تأثيراً بالغاً على المؤرخين . فقبل رشيد الدين ، رأينا علاء الدين عطاء الجويني ، وهو مؤرخ ووال من ولاة الفرس من اصحاب الثقافات العالية ، يضع تاريخاً موضوعياً لطائفة الحشاشين ، والمطران السرياني ابن العبري، الذي عرف ان يوفّق في مؤلفاته ، بين التقاليد المسيحية والاسلامية ، وبين العربية والفارسية . وامام نوائب هذا الزمن والمحن التي نزلت في الناس ، نرى الحياة الدينية ، تميل لدى السنة والشيعة ، على السواء ، نحو التصوف ليس على طريقة كبار المفكرين ، بل بالاحرى ، عن طريق تكاثر رجال الله والاولياء الذين راحت التقاليد والاساطير الشعبية ، تنسب اليهم المعجزات والخوارق ، اوعن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا ، باعمالهم وحركاتهم ، ان يتصلوا بالالوهية مباشرة . وقد كان هؤلاء الدراويش على جانب كبير من الجهل فيحاولون ، عن طريق الاستجداء او بوصفهم اعضاء في جمعيات الاولياء ان يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة ، فجمعوا كثيراً من الوقوفات والاعطيات . يجب الا نغفل هنا عن ذكر الجهود التي قام بها الفرس لنشر الاسلام في قلب آسيا ، بعد ان اعتنقه عدد كبير من المغول والصينيين ، ولا تزال ذراريهم على هذه العقيدة ، حتى يومنا هذا .

والتقاليد الفنية التي عُرفت في عهد السلجوقيين ، زادت غنى ، إثر الاقتباسات التي اخذتها عن طريق الاتصال بالماليك والمغول . الا ان هذه الاقتباسات قلما نراها تبرز ، في هذه المباني الهندسية الجميلة التي تم انشاؤهـــا اذ ذاك كمدفن الايلخان اولجيتو في عاصمة سلطنته ، في اذربيجان ، وفي مسجد فيرامين الى الجنوب من طهران ، او مسجد يزد الذي شيدته احدى الامـــارات المحلية ، ورسوم الزينة والزركشة والتحلية التي اكثرت من استعمال الفن المقرنص على شكل تخاريب النحل ، او القاشاني الازرق ، الذي استعمل بلاطاً لفرش الجدران بما عليه من رسوم نباتية ، بعد ان جوّد صنعه عمال مدينة قاشان في ايران الوسطى . اما التجديد ، فقد تناول على الاخص ، فن تزويق المخطوطات ، وذلك بفضل ما تم من اتصال بالفن الصيني . وقد عرف الفنانون الايرانيون ان يتفننوا كثيراً في هذه الصنعة فاكثروا من استعمال المناظر الطبيعية والصور البشرية على تنوع بديع في الألوان وتناسق جميـل ، بحيث بز الايرانيون بهذا الفن مـــا عُرف من مذاهب التزويق ليس في العالم الاسلامي فحسب ، بل ايضاً جميع ما بلغ اليه هذا الفن في الغرب خلال هذه الحقبة بالذات .

وكغيرها من الدول المغولية الاخرى – باستثناء القبيلة الذهبية التي عمّرت وقتاً اطول ، فلم تتجاوز الدولة الايلخانية ، القرن الرابع عشر . فالى جـــانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب هذه الدولة فعطلت كل نشاط فيها وشلت كل حركة ، عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة ، بعد ان قلّ عددها ، فعادت الى حياة البداوة القديمة . ولم يعد داع الفتح يدعوهم للاتحاد مع عناصر السكان الاخرى . وقد حال الرجوع الى حياة البداوة ، في بعض الولايات ، دون الابقاء على ادارة مالية صحيحة تؤمن جبـاية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة ، واكسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به « الجيش النظامي » . فاينما جاء المغول اقل نسبة عددية ، برزت المطـــالب القومية في الولايات ، وقام يغذيها فريق من ذوي الأطماع . وهكذا لم تلبث الدولة الايلخانية ان توزعت الى دويلات وامارات ، صار قسم منها الى ابناء البلاد ، كما صار القسم الآخر الى امراء التركمان او المغول . فقد سيطر التركمان في الولايات الغربية ، واصبح شمالي العراق واذربيجان وارمينيا طوال قرن واكثر ، مسرحاً لمنافسات دامية بين الاتحادين المتخاصمين هما : « الخروف الاسود والخروف الابيض » ، فكان احدهما على المذهب الشيعي ، كما كان الآخر على المـذهب السني – وهي منافسة احتدمت واستطالت ، فأثرت من بعض النواحي ، على تكوين الدولة العثمانية ، وعلى إنشاء ايران الحديثة . اما ما تبقى من ايران ، فقد بقي سائراً وفقاً للتقاليد التي عُمـل بها من قبل ، ولم يخرج عن الصدد الذي رسمته له الدولة الايلخانيـــة الا في التقسيم السياسي الذي اصاب البلاد اذ ذاك .

الدول المغولية الاسلامية الاخرى

كان الاسلام قد سيطر على دول اسلامية اخرى ، تقع الى مـــا وراء تخوم الدولة الايلخانية ، امثـــال دولة جاغاتاي في

التركستان ، ودولة كتشاك او القبيلة الذهبية في روسيا ، ولكن ليس كما هي الحال في ايران تحت تأثير سكان البلاد الاصليين الاكثر عدداً نسبياً ، ولا تحت تأثير الاتصال بالاتراك الرُحّل ، اذ ان قبائل التركمان التي استوطنت هذه المناطق ، كان اعتناقها للاسلام لم يزل جزئياً ، وطري العود . ان انتشار الاسلام بين البدو الرحل في هذه الفلوات ، الذي كان ابتدأ منذ عهد بعيد استمر بعد الغزو المغولي ، واشتد على الاخص بين المغول ، إذ رأوا في هذا التضامن الديني الملاط الذي يؤلف الوحدة العضوية التي اتاحت لهم ان يتحكموا في روسيا ، وباقوام الروس الوطنيين ، الذين كان اعتناقهم للمسيحية سطحياً . ومهما يكن ، فان اعتناق سكان هذه القبائل للاسلام ، سجل في عهد المغول ، خطوات حاسمة لا تزال آثارها بادية لليوم ، في هذه المقاطعات الواقعة ضمن الاتحاد السوفياتي اليوم. فلم يتسبب عن هذا الارتداد ظهور مراكز قومية للثقافة الاسلامية ، ووحدة العقيدة ، لم تفد شيئاً في حفظ الوحدة السياسية . ان مغول القبيلة الذهبية ، الذين اتخذوا عاصمة لهم مدينة سراي الواقعة على نهر الفولغا السفلى ، دانوا ببقائهم الى القرن السادس عشر ، لعدم قيام خصم قوي في وجههم . اما مملكة جاغاتاي ، فقد دُكت معالمها واستحالت رماداً منذ اواسط القرن الرابع عشر .

الهند الاسلامية

ترك الفتح المغولي أبرز آثاره وأعمقها على الاطلاق، ولو بصورة غير مباشرة، في بعض البلدان الواقعة وراء حدوده ، ولا سيما في الهند وآسيا الصغرى . استطاع خلفاء الدولة الغزنوية الذين دوّخوا المقاطعات الواقعة الى الشمال الغربي من الهند ، ان يضيفوا الى هذه الولايات، تباعاً ، منذ أواخر القرن الثاني عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر، حوض نهر الغانج والبنغال والقسم الاكبر من الدكن ، فكادوا يحققون بذلك وحدة الهند التي مزقتها المشاحنات الداخلية وعرضتها للانقسام . وهكذا ففي الوقت الذي توقف فيه الاسلام عن التوغل عمودياً ، راح يتسع افقياً بفتوحات جديدة . رأينا رد الفعل الذي قام به سكان البلاد الوطنيون، امام هذا التوغل الديني البطيء، وكيف انهم انكفأوا على أنفسهم، واستمسكوا بضراوة ، بحضاراتهم القديمة المتحجرة . وقد فرض الاسلام على هذه الجماعات التي كانت أقل تطوراً سياسياً في أوضاعها ، ما كان له من تنظيم أسمى ، ونظامه العسكري القوي ، ومذاهبه الضرائبية التي كان اقتبسها من العالم الاسلامي ، في الغرب . وقد تمكن أتباعه في الهند ، بعد ان استقرت أوضاعهم ، ان ينشئوا مركزاً للاشعاع الحضاري ، لم يبق بدون تأثير على الهنود الذين ما لبثوا مستمسكين ، بحبل دينهم ، كما هو شأن من كان منهم في وادي الغانج او السواد الاعظم من سكان الدكن . فغزو المغول شجع هذه الحركة؛ وبذلك نجت الهند نهائياً من كابوس الفتح وان لم تنج من غزواتهم ، وأصبحت ملاذاً للايرانيين وملجأ لهم . ولذا جاءت الثقافة الاسلامية في الهند ثقافة فارسية الطابع ، ايرانية السمة ، على مذهب السنة ، اذ ان المغول في ايران كانوا حماة الشيعة . وقد طلعت علينا في هذا العهد مؤلفات مهمة ، منها تاريخ الدول الايرانية والاسلامية في الهند ، الذي وضعه الجوزجاني ، في القرن الثالث عشر ، والقصائد التي وصلت الينا من نظم

أمير خسرو . وعلى عكس ذلـــك فالفنانون الوطنيون الذين كانوا في خدمة سلاطين دهلي ، لم يقتبسوا من ايران سوى رسوم تزيينية ثانوية ، والمدافن والمساجد التي أنشأها جاءت كلها على طراز هندي .

آسيا الصغرى

قد كان للفتح المغولي ، تأثير بالغ على آسيا الصغرى ، اذ هيأ لها — ولو مـــن بعيد — الظروف المساعدة لبروز الدولة العثمانية وتطورها. فبعد ان نال المغول من سلجوقيي بلاد الروم ، لم يعمدوا قط للقضاء على حكومتهم وتشكيلاتهم الادارية ، بـــل فرضوا عليهم الولاء والتابعية ، وألزموهم بتحمل القسم الادنى من أوَد جيشهم. وقد ساعد هذا النوع من الحماية التي أقاموها ، على شد أواصر الملاقات ، بين السلجوقيين وبين ايران ، كما ساعد، من جهة ثانية ، على نشر الاشعاع الثقافي الايراني في ديارهم بعد ان اخذت بوادر هـــذا الاشعاع تبدو للعيان في أواخر عهد الدولة السلجوقية . وهكذا استطاع جلال الدين الرومي ، في القصائد الصوفية التي وضعها ، وهي من أروع ما عرف الادب الفارسي من نظم ، ان ينشر عن طريق فرق المولوية ، النزعات الصوفية التي حملها معه من خراسان ، قبـــل ان يحقق المغول فتوحاتهم الداوية . وهكذا افترشت ارض آسيا الصغرى بالكثير من المساجد والمدارس التي شجع عـــلى بنائها وتشيدها الوزير فخر الدين علي ، فازدانت بهـــا معالم كل من قونيه وسيواس واماسيا ، ضاربين صفحاً هنا ، عن ذكر الاضرحة والخانات العديدة . وقد أفادت بلاد الاناضول ، ولا سيا مدينة سيواس التي قامت على مفترق الطرق التجارية ، من هذه الحركة التجارية التي نشطت في المرافىء التي أفضت الى الدولة الايلخانيه .

ومع ذلك ، فالمغول مسؤولون، الى حد بعيد، عن زوال تركيا الاولى ، من مسرح التاريخ. فالانحدار الذي لحق بهم ، والمشاحنات الداخلية التي قامت فيا بينهم ، والذهاب كعادتهم ، الى تبريز، للظهور في بلاط سلاطينها ، كل ذلك بالغ في انهاك السلطنة وايهانها ، فقضى عليها وأزالها من الوجود ، في مستهل القرن الرابع عشر ، دونما ضجة او ضجيج . صحيح ان المغول حكموا البـــلاد حتى عام ١٢٧٧ ، بواسطة سلجوقي ارستوقراطي هو البرفانة الذي حاول ، بجميع الوسائل ، ان يحافظ على التقاليد التي سار عليها الحكم السابق . الا ان مقتضيات الدولـــة الايلخانية ومتطلباتها الضرائبية ، حرمت هذه السلطة من وسائـل العمل ، ولا سيا من جيشها الذي لم تقدّم بديلاً عنه الا عندما كان الامر يتعلق بمصلحتها مباشرة . ولم يلبث البرفانـة فخر الدين علي وغيره ان راحوا يقتسمون الولايات التي تألفت منها المملكة قديماً ، فيا بينهم . ومما أنكى من هـــذا كله وأهم هو ان التفسخ الذي صارت اليه السلطة ، أفادت منه المدن ومنظمات الفتوة التي بلغ من نفوذها في بعض مدن اناضوليا ، في القرن الرابع عشر ، ظهور منظمات ، شابهت من بعض الوجوه ، المنظمات التي قامت في الغرب تحت اسم *Communes* او بلديات ، والذي استفاد بالاكثر من هذا الوضع هم التركمان الذين كان أصبح من الصعب ردعهم وكبح جماحهم في أواخر عهد الدولة السلجوقية . ففي الوقت الذي أمكن فيه السيطرة عليهم والحد مـــن

شكيمتهم في الولايات القلبية او الوسطى ، تمكنوا من التحرر في الولايات الدائرية ، حيث كانوا بمعزل عن كل رقابة في جبالهم الوعرة المسالك والصعبة المنال، او كانوا يلوذون باللجوء الى داخل الاراضي البيزنطية . من بين هذه الامارات الاولى التي طلعت علينا هي امارة كرمان السـتي استمرت قائمة قرنين كاملين في جبال الطوروس . وقد قام التركان بثورة عامة استطاعوا معهـا الاستيلاء على قونية ، اتّـهم البرنامة بتدبيرها فحكم عليه بالموت حالاً فاحدثت ردة فعـل لدى المغول الذين تسلموا الادارة وأدخلوا على البلاد بعض نظمهم الخاصة. الا انهم لم يأخذوا اجراءات جذرية ضد التركان القاطنين في الولايات الدائرية . وقبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، قام عدد من الامارات الاخرى ، بعضها على الحدود البيزنطية، أسس احداها الامير عثمان، المؤسس الحقيقي لدولة الاتراك العثمانيين .

ان تحرر التركان واستقلالهم أدى الى نتائج مهمة جداً ، سواءاً في داخل آسيا الصغرى او في خارجها . فالنزعات الاجتماعية والصوفية التي برزت في الأوساط التركانية ، ساعدت كثيراً على ظهور طرائق دينية لاقت رواجاً اكثر مما لاقته المولوية ، منها مثلاً البكتاشية ، وهي طريقـة لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العثماني. لم يكترث أسياد الاناضوليا الجدد كثيراً للثقافة الايرانية التي لم تكن في نظرهم لتعني شيئاً كبيراً ، مع العلم ان هذه الثقافة الفارسية بقيت ذات تأثير عميق في البلاد مدة عدة اجيال . وهكذا لم تلبث ان اصبحت اللهجة التركية هي اللغة التي استعملت في هذه القصائد الصوفية او في روايات البطولة التي راحت تمجد انتصارات التركان . وهكذا كانت فترة الاحتضار الطويل التي مرّت بها تركيا الاولى ، الفرصة المؤاتية للشعب التركي ليعي فيها نفسه ويستفيق فيه الشعور القومي ، ويتعرف الى ذاته ، ويفقه حقيقته ، وهي يقظة شعورية كانت لها أهمية كبرى .

وفي الوقت ذاته ، بعث تحرر الامارات التركانية ، النشاط في قلب « الغزاة » وحملهم على الوقوف موقفاً خشناً من المسيحية البيزنطية . فأمام التخوم والحدود الخالية من كل دفاع يحميها ويقيها شر الغزوات، راحت هذه الامارات الدائرية تقضم شيئاً فشيئاً من جنبات الامبراطورية البيزنطية ، يشد من ازرها عناصر تخلت عن مراكزها في قلب الاناضول الواقعة تحت سلطان المغول ، وأخذت تتجمع وتتراص، ضامة بين صفوفها أنشط الوحدات التركية وأكثرها حيوية. وعندما انهارت الدولة الايلخانية، لم يكن يوجد،في المنطقة الواقعة بين الخروف الاسود وبين شواطىء بحر ايجيه ، سوى جماعات تركانية ، خشنة ، كانت في سبيل انشاء كيان يختلف كلياً عما كانت عليه الدولة السلجوقية .

الدولة التيمورية

قبل ان تميل شمس القرن الرابع عشر الى المغيب ، تعرض الشرق الاوسط لهزات جديدة عنيفة زعزعت أقطاره وتركتها خراباً يباباً . فمن مملكة جاغاتاي التي فقدت كل سماتها المغولية وأصبحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحليـة في أواسط آسيا، لم يبق سوى معالم دمار متراكم بعضاً فوق بعض. وهذه المدن الايرانية التي كانت،

فيا مضى ، فخر البلاد ومنارها. عانت اذ ذاك، من الاحن والمحن ما لم تتعرض لبعضه من قبل. ومقاطعة خراسان التي بلغت شأواً عالياً من الازدهار، فيا مضى ، اصبحت اليوم قفراً بلقعاً بعد ان خربت فيها شبكات الاقنية الزراعية . والسكان بعد ان حصدهم الفنـــاء بالعشرات لشدة ما تعرضوا له من ضربات وويلات رزحوا تحت نير ثقيل من الاستثمار البشع والاستعمار الجشع ، على يد ارستوقراطية عسكرية تركية انشطرت شطرين متعارضين ، استمسك الاول بأعراف البدواة وتقاليدها ، كما حبّذ الآخر الأخذ بأسباب حياة الحضر . ومن هذه التربة، طلع المغولي التركي تيمورلنك او تيمور الاعرج ، هـذا الغول الختول الاكول ، المتعطش دوماً للدماء والحالم بالحرية والاستقلال ، الخشن الملمس والوحشي الطباع ، الا انــه من أنبغ من أطلعهم التاريخ من رجال الحرب ، والذي عرف ان يجمع بين تقاليد جنكيزخان وفضائـل الاسلام ، فجمع حوله جيشاً لجباً،عرف ان يثير حماسه ويلهب خياله ، وراح على رأس هذا الجيش الجرار يزرع ، في اواخر القرن الرابع عشر ، هذه الرقعة من الارض الممتدة من أواسط الروسيا الى شمال الهند ، ومن أقاصي حدود الصين حتى آسيا الصغرى والشام ، بالخراب والدمار ويسقيها بالدماء الحارة . وقد شعر هذا الفاتح المتبدّي انه لن يتم له انشاء امبراطورية راسخة الاركان وطيدة الاسس والبنيان ، ما لم يقمها على قواعد مدنية متينة ، وما لم يرتفع فيها للعلم والفكر والفن حرمة وقباب عاليات وسلطان ، فعاشت عاصمته سمرقند عهداً من الازدهار والاشعاع الفكري، لم تعرف مثله من قبل ولا من بعد. وراح يدافع عن الدين الحنيف ويرسخ اركانه واتخذ منه مُتكأةً ليتابع فتوحاته ، واعتمد في اعماله الحربية على نظام النقشبندية ، فادهش العـــالم وخبله بصواعق انتصاراته الساحقة وفتوحاته المدوية ، فالذين ترجموا له من الايرانيين ، اشادوا بذكره كما اشادوا بالمآسي العظام والفتوحـــات العراض ، التي درج فيها العـالم كما ذكره بالتفصيل ، ابن خلدون الذي قابله بدمشق ، والكاتب الاسباني المسيحي كلافيخو وهذا الرجل الذي هزم امام انقرة ، مَن لم يُهزَم ، وأرغم في التراب انف السلطان العثماني بيازيد ، كان اعجز من ان يأتي عملاً يصح مقارنته بالعمل الذي قام به جنكيز خان . فقد انهك دولة الاتراك العثمانيين كما انهك دولة المماليك ودولة دهلي في الهند . حتى في ايران نفسهـا حيث استطاع خلفاؤه ان يقيموا لهم دولة ومثلها في التركستان، لم يستطع هو ان يقيم سلطة سياسية جديدة . وقد استعجم التيموريون بعد موته بقليل (١٤٠٥) وعجزوا عن ان يجددوا اياً من المؤسسات التي عُمـل بها في الشرق الاوسط ، من قبل . وقـــد شاءت الصدف في الوقت الذي كادوا فيه يفقدون كل ممتلكاتهم ، ان تساعد احد خلفائهم على ان يؤسس في الهند ، خـــلال القرن السادس عشر ، الامبراطورية الموحدة التي عرفت بالمغول الكبير .

وقد اظهر تيمورلنك وخلفاؤه من بعده ، بذخاً كبيراً ، ، كما رعوا الآداب ، والفنون ، واتاحوا للفن الايراني ان يتطور ويتكامل ، وان يكمل الانجازات التي كان اخذ بها من قبل ، كهذه الابنية التي شيدت في سمرقند تخليـداً لذكرى تيمور ، ولا سيما ضريحه : « غوري مير »

الذي تظله قبة ضخمة زرقاء . وهذه البلاطات الزاهرة ، التي غصت بالفنانين والعلماء يقيمها شاه رخ ، وحسين بيكره في هراة ، وأولغ بك في التركستان . وازدانت مدن ايران الكبرى : كتبريز وشيراز ، بالمساجد والضرائح الضخمة ، ومسجد مشهد ، وهـذه القصور والصروح الفخمة ـ اذا ما اردنا ان نأخذ باقوال الرحالة ـ التي شيّدت في هـذه العواصم التي اصبحت مثوى لحركة تجارية ناشطة . قامت هذه المباني وفقـاً للطراز التقليدي وفرشت باحسن زينة تعلوها القباب ، وهي من مستحدثات العهد . وجدير بالذكر هنا مـا بلغه من زخرفة الكتب وتحليتها بالنقوش والرسوم . وقد اشتهرت مدرسة هراة العنية في القرن الخامس عشر التي اطلعت الفنان بهزاد (١٤٥٠ – ١٥٣٦) الذي عُرف بالرسوم والصور التوضيحية الدقيقة التفاصيـل . ومن المخطوطات التي زينها بريشته : « تيمورنامة » و « البستان » لسعدي . وقـد عاصر عصر البعث الايطالي . وارتفع رسم المناظر والمشاهد والصور الشخصية ، الى الاوج . وقـد ازدهر الادب الفارسي بالروائع التي ظهرت في هذا العهد ، في التاريخ مير خاوند (١٤٤٣ – ١٤٩٨) الذي وضع : « روضة الصفاء » وهو تاريخ عام ، ونور الدين جامي (١٤١٤ – ١٤٩٢) وهو شاعر وفقيه اسلامي . وهذه الجداول والزيج الفلكية التي وضعهـا اولغ بك (او ألغ بك) تشهد عالياً على استمرار روح المعرفة . والجدير بالذكر هنا لدلالته هو ان الادب التركي اخـذ في انطلاقة وثابة في مقاطعة جاغاتاي ، ولا يزال علي شيرنفاي ، يعتبر اليوم شاعراً وطنياً كبيراً ، في نظر تركان التركستان . وهي حيوية مدهشة برهنت دوماً عنها هـذه الدولة الاسلامية التي عرفت ، على مدار التاريخ ، ان تجدد من شبابها ، بعد كل داهية دهماء تلمّ بها ، او تقوم بفتح جديد مظفر . غير ان هذه الظاهرة كانت في التركستان كأنما هي بيضة الديك . فزوال الدولة التيمورية ، في اواخر القرن السادس عشر ، كان نذيراً بتغلب روح البداوة من جديد ، على تلك البلاد ، في الوقت الذي اقفرت فيه طرق التجـارة ومسالكها في هذه المنطقة ، واصبحت لا شأن لها بعد تلك الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي جاءت في اخريات القرن الخامس عشر ، الامر الذي حمل معه نهاية المدن والحضارة التي كانت ازدهرت في هذه البقعة النائية على القارة الآسيوية .

الغرب الاسلامي

وهذا الغرب الاسلامي الذي كادت تنقطع عـلاقاته مع مصر وبلدان الشرق الادنى ، كان يعيش منكفئاً على نفسه ، مستمسكاً بعرى حضارة بقيت مزدهرة ، مشرقة ، في كثير من جنباتها ، بالرغم مما تناوب عليها من المحن والإحن وتراكم عليها من الخراب والدمار فأفل نجمها وخبا ضوؤها ، ولو جزئياً . فمنذ هـذا العهد حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر ، نرى المغرب الاقصى منقسما على نفسه ، الى ثلاث دول اوممالك : هي مملكة تلمسان ، في المغرب الاوسط ، التي صار الامر فيها الى قبائل بدوية رحّل ، ضاربة في منطقـة جبلية ؛ والدولة الحفصية (تونس وقسطنطينة) ، المستعربة ؛ والدولة المرينية (المغرب) قوامها البربر ، التي عرفت استقراراً اثبت وارسخ ، وبنيت لهـا حضارة جمعت بين طباع الريف والمدينة . اما مملكة غرناطة التي عرفت ان تحافظ على كيانها وقوامها حتى اواخر

القرن الخامس عشر (١٤٩٢) ، فقد اقامت لها علائق وطيدة مع دول افريقية اضفت عليها جميعاً ، كثيراً من التشابه والتجانس ، وكلها على المذهب المالكي الذي كان يدرّس في المدارس القائمة في تلك البلدان . وقد ازدهرت في هذه الممالك جميات دينية ، صوفية حظيت بنفوذ عظيم بين السكان ، بعضها من اصل شرقي ، كانت تلتف حول زاويتها .. وقد ازدهرت التجارة في جميع ربوعها ، عمادها القوافل السودانية التي كانت تحمل معها الذهب . كما كانت تعتمد على التجارة البحرية التي كان معظمها بيد الاوروبيين ، فتتعرض من وقت لآخر لقراصنة الجزائريين والكتلونيين لها . وفي مثل هذا الوضع ظهرت بعض هذه الآثار الفنية تشهد عالياً على ما كانت عليه الحضارة الاسلامية في الاندلس .

في الطليعة من هذه الآثار ، يأتي قصر الحمراء ، في غرناطة ، عاصمة الدولة النصرية (القرن الرابع عشر) ، وقد فاق هذا القصر بجمال هندسته وزخرفه ، ما شابهه من المباني الهندسية الاخرى. وهو من هذه الآثار المعارية النادرة التي وصلت الينا كاملة ، محفوظة ، تتمثل فيه ، الى جانب بعض العناصر الفنية المسيحية ، التقاليد الهندسية الاسلامية ، في ازوع ما بلغته من التناغي والتناسق والدقة ، ممثلة على اتمها في بهو الاُسود. ويذكرنا هذا الاثر الجيد بهذه الانشاءات الهندسية المستوحاة من الفن الاسباني ، التي تمت على يد سلاطين الدولة المرينية ، في المغرب ، منها مثلاً المسجد الكبير ومدرسة العطارين ، في فاس. فبالقاشاني ذات اللمعان والبريق المعدني وبهذه المهارة الصناعية المستمدة من الفن الايراني ، وبهذه الاسلحة المشهورة ، ولا سيا سيوف بوعبديل ، وبهذه الجلود ، استطاع الفن الاسباني المغربي ، ان يبرز في هذه الحقبة مع انه اقل لنوعاً من الفن الشرقي، انما من ذوق ارفع وارسخ ، وان يبقى ويخلد بعد استعادة الاسبان لبلادهم . وقد راح فنانون مسلمون يعملون لحساب ملوك اسبانيا ، بينهم هذا الفريق الذي شارك في بناء « القصر » في اشبيلية وهذه الاساليب الفنية الاندلسية التي بقيت مرعية الاستعمال لدى المهندسين المسلمين ، بعد الفتح الاسباني ، عُمل بها حتى نهاية القرن السادس عشر ، واستعملوها جنباً الى جنب مع الفن القوطي او عصر الانبعاث ، وازداد شأنها . فالفن الاندلسي هو من هذه الآثار الخالدة التي طلعت بها العبقرية الانسانية والتي لا تزال اسبانيا تباهي بها لليوم .

بالرغم من ان النشاط الفكري جاء ، نوعاً ما ، اضعف بقليل من النشاط الفني ، فقد عرف الادب ، في القرن الرابع عشر ازدهاراً عظيما ، تمثل في مملكة غرناطة بشخص لسان الدين الخطيب ، احد مشاهير ادباء الاندلس قبل خروج المسلمين منها ، وبابن بطوطة وابن خلدون ، في المغرب . رأى ابن بطوطة النور في مدينة طنجة ، وهو احدث عهداً من ماركو بولو . فقد قام برحلة امتدت اقاصيها من تمبكتو ، في السودان ، الى مدينة كنتون في الصين، وترك لنا وصفاً في تنقلاته هذه لا يقل شأناً ولذة عما نجده عند زميله ورصيفه البندقي . اما ابن خلدون ، فهو من عائلة عربية هاجر اهله من اسبانيا واستقروا في تونس ، وتوفي في القاهرة بعد حياة مديدة. مثل دوراً بارزاً في شتى الممالك الاسلامية ، في المغرب ، وكتابه : تاريخ البربر ، الذي جاء ضمن

موسوعته التاريخية الكبرى، ينم عن دقة متناهية ، وقوة ملاحظة شديدة ، وحصافة في الرأي. الا ان المعلومات الثمينة التي تضمنها هي ادنى منزلة عن « المقدمة » التي وطأ فيهـا لتاريخه المشهور . ولأول مرة في التاريخ ، يطلع علينا مفكر بدراسة عميقـة ، محللة ، ناخلة ، للمجتمع البشري ، وهي دراسة يستأنس بها ، ويعول عليها علماء الاجتماع المحدثون ، اليوم . فجـاءت دراسته هذه بحثاً علمياً موضوعياً لاسس المجتمع ولنواميس تطوره . وقد امـده هذا المجتمع المغربي الذي يعرفه معرفة اليقين ، بنظريات دقيقة حول طبيعة حياة الحضر والمدر او البدو ، كما جاءنا بنظريات صائبة حول العصبية القبلية او القومية التي بدونها لا يمكن ان تقوم قائمـة لدولة تتطلع الى الاستقرار وتنشده . وهذا الاثر الادبي الذي تناسى الناس شأنه بعـد وفاة صاحبه يُعَد اليوم احدى القمم التي بلغها الفكر الانساني في الاجيال الوسطى ، فـاق كثيراً بسموه ، من وجوه عدة ، قوة التفكير التي برهن عنها توما الاكويني .

ازداد المغرب الاسلامي تقهقراً ، خلال القرن الخامس عشر فراحت اسبانيا المسيحية تهاجم بعنف ، مملكة غرناطة محاولة الاستيلاء عليها فتم لها ذلك عام ١٤٩٢ كما راحت من بعد تهاجم شمالي افريقية الذي طالما امدّ بالنجدة واردف بالمعونة ، مسلمي الجزيرة الاندلسية ، واتخذ منه القراصنة المسلمون في المغرب قاعدة لهم وملاذاً ينكفئون اليه لدى الاقتضاء فاحتلت عدداً من مرافئه التي طالما اتخذها هؤلاء القرصنة قواعد لهم ، بينما راح البرتغاليون يحتلون بعض المواقع على ساحل المغرب ، استخدموها مراكز لهم في محاولاتهم الالتفاف حول القارة الافريقية . وامام هذا الخطر الاجنبي الذي لم يكن في مقدور امراء المغرب وسادته دفعه ومنهم من مالأوه وساندوه وتعاونوا معه ، انكفأ الشعب على نفسه وراح يلتف حول بعض الاولياء في زواياهم بانتظار ان تسعف الظروف التي تهيأت في القرن السادس عشر في بروز الامبراطورية الشريفية في المغرب وظهور امارات وطنية في ما تبقى من اجزائه الاخرى ، كانت ملاذاً للقراصنة لم تلبث ان اعترفت بولائها للامبراطورية العثمانية . وهؤلاء المسلمون واليهود الذين اخرجوا من اسبانيا أفادوا المغرب افادة كبيرة بما تم لهم من تجربة وخبرة واسعة كسبوها من خلال مدنية كانت اسمى بكثير من مدنية البلاد التي لجأوا اليها . ففي الوقت الذي كان فيه الاسلام ينكفيء في البلدان الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط كان يعطي برهاناً جديداً على مـا فيه من قوة حيوية دافقة ، في هذا الانتشار والتوسع السريع الذي حققه بين سكان افريقيا السوداء الاقل تطوراً .

وهذه الامبراطورية السوداء - امبراطورية غانا - التي قامت وانتشرت عند اعالي نهر النيجر والتي كان زعماؤها الأُول من البيض ، قضى عليها سلاطين دولة المرابطين في القرن الحادي عشر . ولم يلبث السودان النيجيري ان حقق ، هو الآخر استقلاله السياسي وساعد دخول الاسلام اليه، على يد المرابطين وتوغل في ارجائه بواسطة المبادلات التجارية عبر الصحراء التي دارت على اساس مقايضة الذهب بالملح . كذلك هيّأ الظروف لتشكيل منظمات سياسية ، ساعد الاسلام على تكوينها بقيادة زعمائهم المحليين .وقام بين السكان الملونين حيث بقي جانب منهم على الشرك وعبادة

الاوثان ، امبراطوريات اساسها المقاومة الوطنية ،تولى الامر فيها زعماء من الزنوج المسلمين ،منها في القرن الرابع عشر ، امبراطورية مالي التي امتدت رقعتها من غابات افريقيا البكر الى هذه الواحات الواقعة الى الجنوب من الجزائر جاعلة من تمبكتو ، المركز التجاري الكبير فيها قاعدة للاشعاع ، حيث راح مهندسون اندلسيو الاصل ، ينشئون فناً هندسياً سودانياً بعد ان عرفوا ان يوائموا بين تقاليدهم وبين الاعراف الوطنية . من هذه الامبراطوريات التي قامت في القرن الخامس عشر امبراطورية غوا التي أخذت بعد انجاز محورها نحو الشرق ،تحيي على حسابها امبراطورية مالي ، من الوجهتين الادارية والاقتصادية بمساهمة يهود اسبانيا والدعوة الدينية التي نهض بها مرشدون مغاربة . والاسلام الذي وصل الى هذه المنطقة عن طريق مصر وغوا ، بلغ منطقة بحيرة تشاد ، والتقى في نيجيريا بحضارة زنجية قديمة ، جديرة بكل تقدير واحترام بما حققته من انجازات في حقل الفن ،هذا الفن الذي يمكن رد اصوله الاولى،الى مؤثرات جاءت من بلدن البحر المتوسط ، لم تعتم ان تغلغلت بين القوم هناك ، فاقبلوا عليها يستلهمونها . وبعد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان على اثر العبث الذريع الذي احدثه في تلك الارجاء تجار النخاسة والرق من الاوروبيين ، هذه الحركة التطورية التي بعثها الاسلام في تلك البلاد ، قبل ان تطأها اقدام البرتغاليين ، بزمن طويل .

٢ ــ أفول نجم الدول المسيحية في البلقان

اليونان واللاتين وجهاً لوجه في البلقان

على الحدود الغربية للعالم الاسلامي ، في هذا المركب الغريب من الدول المسيحية المتناثرة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الشرقية وعلى بحر ايجيه والتي يتألف من مجموعها ما يعرف بالبلقان ، توارت عن الانظار بسرعة ، وزالت من الوجود ، هـــذه الامبراطورية اللاتينية ، التي قامت في القسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١) . فالضعف الذي كانت عليه في الداخل ، وهذه اللامبالاة التي بدا عليهـــا كبار الاقطاعيين من امرائها اللاتين واستهانتهم بكل شيء ، واستمرار الوجود اليوناني ممثلاً في دولة اليونان في آسيا الصغرى ، وكره السكان المكبوت لهذه الكنيسة الغربية التي حاولت بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية الوطنية ، وامتداد المد التركي العثماني واستفحال شأنه ، كل هذا ألف عوامل قوية كان باستطاعتها ان تقضي عليها باسرع مما قضت ،لو عرفت ان توقت معاً هجومها على هذه الدولة التي عمرت نحواً من ستين سنة . وهذه المنافسة الشديدة التي مزقت صفوف اللاتين، اتاحت اخيراً للامبرطور ميخائيـــل الثامن ، في نيقية ، والمؤسس الحقيقي للاسرة الامبراطورية بليولوغ ، ان يسترجع القسطنطينية ويعيد اليها كرسي الامبراطورية ، عام ١٢٦١ ولكي يقضي تمامـــاً على سيطرة البندقية واللاتين وليسد اشرافهم على المضايق ، راح يستميل الى جانبه جمهورية جنوى ،منافسة البندقية ومزاحمتها الخطرة على الاسواق التجارية في هـــذا الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، فشدت من ازره ، وساندته في انجاح عمليته هذه ، وتحقيق اهدافه منها .

وهذه « الامبراطـ ـية البيزنطية » الجديدة، لم يكن بينها وبين سابقتها بالفعل ، شيء مشترك وهي الامبراطورية التي تولى الامر فيها سلالة آل كومنان ، فاعطتها ستة اباطرة من افرادها. ولم يكن بين سكانها عناصر غريبة كثيرة باستثناء بعض الجوالي اللاتينية ، ونوازل التجار المقيمين في القسطنطينية . وكانت ابعد من ان تضم تحت جناحيها ، كل المقاطعات اليونانية : فقد خرج من تحت سيطرتها وولائها ، المقاطعات التي كان اقتطعها العرب والبلغار ، بينما تقاسمت امـــارات الفرنج ، شبه جزيرة اليونان وجزر الارخبيل . وقد تم فتح بيزنطية واستعادتها ، بعـد القضاء على المقاومة ، على ايدي القوى المحلية ، بينما بعض المقاطعات الاخرى كأبيروس وتـالونيكي وبعد ذلك المورة التي تم استخلاصها من يد الفرنج ، وطرابزون الواقعة في الزاوية الشرقية من البحر الاسود ، كل هذه الامارات كانت تنعم باستقلالها الاداري ، وتنصرف لمناهضة بعضها البعض. وهذه الفسيفساء من الدويلات اليونانية ، لم يكن لهـــا اي حظ قوي بالعيش الكريم ، وكلهاتواجه اعداءوخصوماًينظرون اليهاشزراًويتمنونالايقاعبها، ويتمثلون علىالاخص بهؤلاءاللاتين والسلافيين ، ولا سيما الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى . غير ان اللاتين والسلافيين لم يكونوا ، هم ايضاً ليقلوا انقساماً ، عنهم في الداخل بحيث اصبح من العسير ، لا بل من المستحيـــل على المؤرخ ، ان يتتبع هذه الاحلاف والمعاهدات التي تعقد من فوق الحدود والتخوم لتنحل باسرع مما تعقد ، فاتحة المجال امام تعديلات وتغييرات في الحدود الفاصـلة لا تنقطع ، وهذه الكيانات السياسية ما كادت تقوم لتتوارى بسرعة ، وفي هذا ما فيه من تعبير صريح ودلالة واضحـــة على هذه الخصومة العنيفة والعداء الازرق الذي باعد بين الشرق اللاتيني والشرق البيزنطي.

والطابع المميز لهذه الدول البحرية ، سواءٌ كانت لاتينية أو يونانية ، ولا سيما لامبراطورية آل بليولوغ ، هو اشتداد قبضة الاجنبي ، سيان جمهورية البندقية ام جمهورية جنوى ، على مرافق التجارة في هذه البلدان ، والتحكم باسواقها . وكان من بعض نتائج الفتح المغولي والعاصفة الهوجاء التي سببها، ان اتاح للايطاليين ان يستخلصوا، من ايدي اليونان البقية الباقية من نشاطهم التجاري في المضايق وبحر ايجيه ، وان يسيطروا كلياً ، على الحركة التجارية والملاحة في البحر الاسود . وبدلاً من ان تتخذ الامبراطورية البيزنطية الجديدة ، يداً من هذه المنافسة الشديدة التي اشتد أوارها ، اذ ذاك ، بين جنوى والبندقية ، فقد رأت نفسها تتورط في اشتباكات خرجت دوماً منها خاسرة : فقد حاولت عبثاً ، ان تسيطر على حي (او حارة) البنادقة القائم على مقربة من القسطنطينية القديمة ، وعلى الشاطيء الآخر للقرن الذهبي ، في المدينة الحديثة، حيث يقوم مرفأ بيرا غـــلاطة ، وهو المعقل الحصين الذي يسيطر عليه تجار جنوى .وكانت كل المكاسب والمغانم التجارية ، تروّج لهذه او لتلك من الدولتين المتنافستين ، دون أن تفيد دار المكس في القسطنطينية منها شيئاً على الاطلاق ، في وقت وظرف كان فيه فقـــدان الامبراطورية لبعض مقاطعاتها ، وتطور النظام الاقطاعي فيها ، يجعل للرسوم والعائدات التجارية ، اهمية متزايدة ، بالنسبة لدخل الدولة من الاراضي . صحيح ان مدينة القسطنطينية بالذات حققت بعض الفوائد

والمنافع من وجود هذه الوكالات التجارية على ارضها . ولكن كبار رجال المال والاعمال ، كانوا في هذه الحقبة بالذات ، كلهم من الاجانب ، كما كان هذا الوضع بالفعل وضع كل الاسكلة البحرية في الشرق الادنى ، بحيث نزلت الارستوقراطية الوطنية الى اسفل الدرك من البؤس والشقاء ، بينما كان على الانتاج الصناعي نفسه ان يراعي ، في الاكثر ، مطالب الزُبُن الاجانب . وهو وضع لم ينفض بعد للآن ، كل نتائجه الكامنة .

وقد رافق هذا التطور ، حركة شديدة من الاخذ بالنظم الاقطاعية والتطبع بطابعها ، لفتّت المجتمع والكيان السياسي نفسه بتلابيبها . وقد ساعد على هذا ، الوضع الاجتماعي الذي كان عليه اللاتين اذ ذاك ، اما بنشرهم لهذا النظام والترسيخ لاعرافه في بلاد اليونان اي في مثل هذا المجتمع المعقد التركيب ، او باستبدالهم الارستوقراطية اليونانية بارستوقراطية إقطاعية ، واما لوجود الدويلات اليونانية نفسها مرغمة على التنازل لعظماء الدولة ولعلية القوم فيها ، عن قسم كبير من املاكها وما تبقى لها من حقوق باقيات ، لتتمكن من الاستمرار في محاربة اللاتين ، مع العلم ان توزيع الاراضي وتجزئتهـا على هذا النحو ، زاد من صعوبة الاحتفاظ بادارة مركزية . وهكذا وجدت البلاد نفسها في حلقة مفرغة ، لم يكن منها مخرج ، اذ ان تناقص الخراج وتدني رسوم الضرائب ، اجبر الدولة على مكافأة الخدمات التي تحصل عليها ، بتوزيع جديد للاراضي التي تملكها فتخسر بذلك ريعها ، وقد تولى الامر في الدولة ، اباطرة لم يكن ليستطيعوا تصور الامور على وجه آخر ليتمكنوا من المحافظة على وحدة سريعة العطب والزوال ، لهذه الاراضي التي لا تزال تسيطر عليها ، عن طريق توزيعها إقطاعات على شاكلة ما كان يجري في ممالك الغرب .

فليس من عجب ان ينجم عن مثل هذا الوضع الذي كانت عليه الدول اليونانية والامارات اللاتينية المجاورة لها ، قوة عسكرية ضعيفة الجانب ، قليلة العدد والعُدد تمثلت في هـذا الجيش الذي أمكن انشاؤه في مثل هذا النظام الاقطاعي ، وهو جيش لم يكن ليوحي جانبه باية ثقة ولا يبعث اية طمأنينة فاضطرت هـذه الدويلات للاستعانة بوحدات من المرتزقة . وقد سبق ونوهنا من قبل ، بالحوادث التي سببتها الفرقة الكتلانية التي أرسلت لمحاربة الاتراك . ولما لم تدفع لافرادها مرتباتهم ، واذ رأت نفسها غير قادرة ان تعيش في مقاطعة جرى نهبها وسلبها من كل شيء ، راحت تعيث فساداً في الولايات البلقانية وتنهبها ، وانتهى بها المطاف نهائياً ، الى اغتصاب دوقية اثينا من امراء الفرنج الذين كانوا يسيطرون عليها . وكثيراً ما رأى اباطرة آل بليولوغ انفسهم محرومين من كل قوة ، فراحوا يخطبون ود بعض الامراء ممن لا تزال انفسهم تنبض لذكرى الامجاد القديمة ، او تتحمس لمصير روما الجديدة ، ويطلبون مؤازرتهم ، امثال الامبراطور حنا الخامس مانويل ، كما راح غيره يستنجد بامراء الغرب ويستعطفهم مؤازرتهم .

كذلك كان من نتائج هذا الوضع ان ادّى التطور الاقطاعي والمولوي في البلدان اليونانية واللاتينية الى القضاء قضاءً تاماً ، على طبقة الفلاحين الاحرار ، ففي الحين الذي سقطت فيه

الطبقات الريفية في الغرب تحررها ، وقعت هـذه الطبقات نفسها ، في الشرق ، ولفترة امتدت بضعة قرون،فريسة وضع لم يختلف كثيراً عن وضع الرق والاستعباد. وقد اصبح في شبه المستحيل ان يؤخذ من هذه الطبقات اية قوة عسكرية للدفاع عن البلاد ، كما لم يبق بينها اي اهتمام بالحفاظ على نظام سياسي ووضع اجتماعي لا يعود عليهم باي نفع قط .

وقد عاد انهيار السلطة المركزية بالتالي وانحلالها ، بالفائدة على الارستوقراطية العقارية وعلى كبار الملاكين ، ومن ثم على المدن . ففي الوقت الذي قضت فيه البيروقراطية البيزنطية على كل استقلال داخلي للبلديات ، اخذنا اليوم نشاهد ظهور ادارات بلدية تنشىء لها حكومة كما فعلت مدينة تسالونيكي ، مثلاً التي يمكن اعتبارها خير نموذج ، على ذلك ، فشابهت الى حد بعيد ، المدن الايطالية في هذه الحقبة التاريخية. فعندما قامت السلطة البلدية ، في المدن الايطالية الآخذ شأنها بالازدياد كانت هذه المدن مرتبطة بسلطة الطبقة البورجوازية التي كان لهـــا نفوذ تجاري بعيد المدى . لم يتم شيء من هذا تقريباً لمدينة تسالونكي ، اذ كانت الحركة التجارية فيهـــا بيد الاجانب ، بينما اصحاب المال والاعمال من ابناء البلاد ، كانوا قلة لا يُعتدّ بها. فالمدينة الحكومة يتولى الامر فيها الارستوقراطية العقارية ، وهي تقيم في المدينة نفسها ، وهو الوضع الذي كانت عليه ايطاليا عند طلوع نظام الـ *Communes*) . فهي التي تستفيد ، قبـــل غيرها ، من النشاط التجاري الذي يقوم على محاصيل الارض ، وغلالها ، والانتـــاج الصناعي المحلي الذي كان في مقدورها وحدها ، ان تنظمه على الوجه المفيد ، وان توجهه الوجهة المطلوبة . وفي وجه هذه الارستوقراطية العقارية تقوم معارضة البروليتاريا ، البائسة ، وهي معارضة تتجلى في هذه الفتن والاضطرابات التي تعمل على تنظيمها ، والتي يتفق حدوثها مع هذه القلاقل يقوم بها العمال الفلمنك او العمال العاملون في مرافق الصناعة في فلورنسا . والنجاح الموقوت ، العابر، الذي حققه هؤلاء العمال ، هم مدينون فيه لمؤازرة بعض العناصر الارستوقراطية لهم ، اذ ان البليولوغ وقفوا الى جانب « الروافض » في تسالونيكي ، ضدالفريق الارستوقراطي الآخر الذي ناصر مزاحمهم على العرش : جان كنتكوزين، حوالي عام ١٣٤٠ ، ومثلهم أبيدوا واندرسوا فزالوا ، عندما اتخذو ضدهم اجراءات جذرية كمصادرة املاكهم ، الامر الذي افضى الى الغاء هذا التحالف العارض .

وهكذا قامت في البلدان البلقانية ، بصورة تتفاوت وضوحاً وشعوراً ، اضطرابات اجتماعية وقومية . صحيح ان الحماسة الشعبية في القسطنطينية قد تكون اتجهت شطر العائلة المالكة التي عرفت ان تسيطر على القلوب بما حققت من امجاد، او قد تكون آزرت، في مقاطعتي الابيروس والمورة ، هذا او ذاك من القادة والزعماء المحليين . ولكن كان من الصعب جداً ، على الجماهير الشعبية ،ان ترى شيئاً « قومياً » في مسلك وتصرف هذه الاسر المالكة التي كانت تحاول عن طريق ألاعيبها السياسية والمصاهرات ، ان تنعم : تارة بمؤازرة اللاتين وطوراً بمناصرة السلافيين ، وآونة بعطف الاتراك انفسهم ، مع ان هذه المواقف السياسية التي طالما وقفوها ، في ذبذبة موصولة، وتأرجح لم يقم على وزن وقسطاس لم تؤد يوماً ، الى اي تحسين في اوضاع رعاياهم . والذي كان اكثر

ما يهتم له هذا الشعب،في الوقت الذي فتحت فيه على مصراعيها قضية الخلافة في الامبراطورية البيزنطية ، هو استمرار هذا النمط من العيش الذي ألفوه واستكانوا اليه ، وبقـــاء هذه القيم الحضارية والثقافية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النمط ،اكثر من اهتمامهم لاستمرار وضع سياسي او كيان سياسي بعينه . ففي الوقت الذي اخذت تطل فيه علينـا – في اليونان – بوادر روح قومية لا يشدها شيء الى بيزنطية البعيدة الشعوبية ، واجه الشعب احتمال سقوط الامبراطورية وزوالها باهتمام كلي ، بعد ان عرف خصومها كيف يستثمرون الى الحـد الاقصى ، الوهن الذي كانت تتسكع فيه ، والضعف الذي تهاوت اليه .

ولا يقل الدور الخلخل ، المحلل للعالم الايجي ، الذي لعبه اللاتين هنا ، عن الدور الذي مثلته الامارات اليونانية في هذا المجال . فالمدن التجارية لم تكن تؤازر سوى الامـــارات التي كانت تشغل في نظرها ، مركزاً هاماً، في المجال الاقتصادي ، او انها تتمتع بمركز ستراتيجي لا تخفى اهميته ، بينما راحت تترك الاخرى وشأنها ، تعـــالج مشاكلها كما ترغب وتشاء او بالتي هي احسن ، وهذا الموقف بالذات ساعد اليونان على انشاء امارة مستقلة لهم في شبه جزيرة المورة . فحيث لم ينعم التجار الايطاليون بالنفوذ السياسي ، فقد كان عندهم سواء ان يكون صـــاحب الشأن او الامر لاتينياً او يونانياً ، سلافياً او تركياً ، اذا كان يضمن لهم ويحافظ على ما ينعمون به من امتيازات ولعفاءات ، او يساعدهم على منافسيهم ومزاحميهم . فالجنويون والبنادقة كانوا يتزاحمون على كسب رضى صاحب السلطان في هذه الدولة التركية الناشئة ، على امل ان لا يقيم العراقيل ، والا يثير الصعاب في وجه تجارتهم ، وهم لا يجهلون قط ان حرباً حامية يعلنونها ضدها تكلفهم غالياً .

والذين افادوا من هذه الاضطرابات هم السلافيون ، في الدرجة الاولى ، ثم الاتراك العثمانيون في الدرجة الثانية . فسقوط بيزنطية ارتبط الى حد بعيد ، بصعود هذه الشعوب وبروزهـا الى المعترك الدولي .

الممالك السلافية في البلقان

اتاحت أزمة الامبراطورية البيزنطية للبلغار ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ،ان يستعيدوا بمناصرة الفلاخ *Valaques* اوالرومانيين – وهم شعب جديد أطل على التاريخ – استقلالهم برئاسة ملوكهم من الاسرة الارسانية ، كما اتاحت لجيرانهم من الصرب، بعد ان بقوا طويلا تحت تابعيتهم ، ان يوسعوا من الرقعة التي يحتلونها تحت الشمس بحيث امتد سلطانهم من الدانوب شمالا حتى سواحل البحر الادرياتيكي جنوباً ، فحققوا بذلك استقلالهم الناجز . وقد ساعد الضعف الذي عانت منه الامبراطورية اللاتينية ، هـــاتين الدولتين على ترسيخ السلطة فيها واقامتها على اصول وطيدة، كما ان البابوية رعت منها الجانب ، املا منها بتحقيق الوحدة الكنسية معها . والدولة البلغارية التي كانت ، في الداخـــل ، مثاراً للفتن ، وتعرضت ، منذ عام ١٢٦١ ، لنقمة البيزنطيين اكثر من تعرضها لهجمات مغول روسيا ،

تحالف على سياستها ، حتى القرن الرابع عشر ، هزات كثيرة بين رفع ودفع وخفض وطلوع ونزول . اما مملكة الصرب التي سارت في تطورها على خطى ابطأ واكثر انتظاماً ، فقد بلغت الأوج ، في منتصف القرن الرابع عشر ، في عهد مليكها اسطفانس دوزان. والعنصر السلافي في كلا الدولتين يؤلف غالبية الشعب ، مع العلم ان دخول اقوام الكومان الى بلغاريا – وهم من العرق التركي جاؤوا من جنوبي روسيا هرباً من الغزو المغولي – ووجود اقوام الفلاخ من كلا جانبي الدانوب الاسفل، عقّد التركيب الاثنوغرافي لهذه البلاد وجعله كثير التخالط والامتزاج. وعلى اثر ضم كلتا الدولتين عندما اشتد منهما الساعد، اراضي جديدة ومقاطعات معظم سكانها من الاغريق ، اتسم تنظيمها ، من جهة اخرى ، بميسم خاص وارتدى طابعاً مختلطاً نصفه سلافي والنصف الثاني بيزنطي .

والملكية ، هذا النظام المتوارث في الحكم الذي عرفه البلغار وساروا عليه طويلا من قبل ، بينما برز لاول مرة لدى الصرب، فقد قامت، في كلا البلدين على اسس متشابهة. فالملك حمل عندهما لقب « قيصر » ، وحذا في سمته وبلاطه ومراسم حياته الخاصة ، حذو الامبراطور في بيزنطية واخذ ، في اوقات سعوده عندما كان يبسم له القدر ، يتشوّف الى خلافته والحلول محله . وقد نقل عن بيزنطية الاساليب الادارية التي سارت عليها ، والتنظيم المالي والضرائبي الذي ارتضته سبيلا ، وقانون الحق العام الذي تمشت عليه ، وسلطة الدولة على رئاسة الكنيسة الوطنية المستقلة ، مع بقائها مرتبطة اشد الارتباط بالبطريركية ، المسكونية في القسطنطينية . وهذا الارتباط ساعد النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية على التغلغل عميقاً الى مكامن الحياة العامة لدى البلغار .

اما الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، فقد تلبس ، على عكس ذلك تماماً ، طابعاً ريفياً ، زراعياً ورعويا . فالمدن التي قامت على سواحل البحر الادرياتيكي كان معظمها بمنأى من سيطرة الصرب ، بينما المدن الوحيدة من بين مدن دوزان والبلغار التي كانت فعلاً خليقة بهذه التسمية ، فكانت تلك المدن اليونانية التي تم ضمها الى جسم البلاد دون ان تندمج فيها دمجاً . صحيح ان فتح مناجم التعدين ، في صربيا على الاخص وفي ترانسلفانيا ، استعين له بمهندسين فنيين من السكسون لادارتها ، ساعد على بعث حركة تجارية ضعيفة ، غير ان تجارة الرق ، ساعدت كثيراً هي الاخرى ، على انشاء سوق تجارية راجت كل الرواج في مقاطعة بوسنه ، حيث جرت العادة على اتخاذ الارقاء من بين افراد القبائل البوغوميل والباتارين والبابون بعد ان تعذر العيش والوصول الى صلح معها . ومع ذلك فقد لبثت الثروة العقارية هي الثروة الحقيقية ، في البلاد . فالملكية التي كانت من قبل بيد الاسر القروية الكبيرة ، اصبحت الآن تابعة للعرش او لطبقة النبلاء ، ذات النفوذ الواسع ، التي حاول الملك ان يخفف من غلوائها بخلق طبقة مماثلة منافسة لها معظمها من كبار رجال الدولة والموظفين ، والاتباع ، تكون من حيث طبيعة تركيبها ، اكثر استسلاماً له ، وامتثالاً لأوامره ونواهيه . وبدون ان يستقر الملك في مقر معين

يتخذ منه داراً له ، كالكارولنجيين ، اعتاد الملك عندهم ان يجمع ، من وقت الى آخر ،وجوه البلاد وعظماء الدولة ، في هيئة عامة تقدم له النصح في كل ما يتصل بادارة البلاد توجيه الحكم فيها. واذ كان الملك يحرص دوماً على تقليم اظافر النبلاء والخفض من شكيمتهم ، والغض من شأنهم فكثيراً ما عمد ، تلطيفاً منه لشرهم وخطرهم ، الى توزيع الامارات والايالات التي تعود اليه بالفتح اقطاعات على المتنفذين بينهم . ويأتي بعد هذه النخبة الصاخبة التي كثيراً ما بعثت السجس وزرعت القلاقل، في البلاد سواد الشعب القروي الذي لم يكن وضعه ليختلف كثيراً عن وضع الارقاء ، او الفلاحين المشدودين الى الارض ، في بيزنطية .

والكنيسة التي تمتعت بسلطة ونفوذ واسعين من جراء ما كانت عليه من ثروة عقارية ضخمة وغنى ، لعبت أديارها الوافرة العدد ، دوراً أساسياً في حياة الريف وتطويره . وبالرغم من الطابع اليوناني الاصيل لثقافتها والتي تمثلت أحسن تمثيل في هذه المؤلفات التي وُضِع معظمها في اديار جبل آثوس ، فقد نقلت الى اللغة القومية ، مؤلفات دينية او تاريخية . وراحت الكنيسة الوطنية تحافظ على طابعها القومي ، وعلى استقلالها الذاتي ، عن طريق تطوير لهجتها السلافونية في طقوسها الليتورجية، وهي اللهجة ذاتها التي استعملت في وضع التواريخ البلغارية وترجمة حياة القديس سافا الصربي ، كما تشددت في معارضتها العنيفة للنفوذ اللاتيني الذي وجد موطئاً له على شواطىء دلماثيا والبانيا ، والذي بقيت له السيطرة في مقاطعة كرواتيا ، منذ ان ُضمّت هذه المقاطعة للمجر . كذلك نجد مجموعات من الاناشيد والاقاصيص الشعبية ، تعود في الصيغة التي وصلتنا بها ، الى العهد التركي ، وهي أناشيد تتغنى وأقاصيص تروي لنا امجاد الابطال الذين ساعدوا ، بالبطولات التي أتوها ، على تكوين صربيا ، كما تتغنى بأمجاد وبطولات مستمدة من هذه الملاحم الموضوعة حتى ذلك العهد ، في الشرق والغرب ، على السواء .

أوسمى من هذا الادب الذي لا يزال ، مع ذلك ، في القمط ، الفن الذي يتغزّى بالعناصر والمؤثرات الاجنبية التي تفاعل بها . ففي هذه المعائر الدينية التي ارتفعت في صربيا ، نرى جنباً الى جنب ، الموحيات البيزنطية ، وهذه المؤثرات الارمنية الكرجية ، وقد انضمت اليها عناصر غربية جاءتها من ايطاليا والمجر . وهذه الرسوم الجدارية التي ُترى في مدينة بوايانا من اعمال بلغاريا ، وفي فيزوكي دتشاني من اعمال صربيا ، عرفت جيداً ان توائم بين الموضوعات التقليدية التي عالجتها الايقونوغرافيا اليونانية ، في تصويرها رسوم الاشخاص التاريخية ، وبين هذه المشاهد الحية ، الواقعية ، تحت تأثير نماذج غربية ، وأخرى وطنية اصيلة .

وهكذا نرى بصورة قاطعة ، في القرن الرابع عشر ، ظهور امة بلغارية واخرى صربية ، بكل ما في كلمة امة من فحوى ومدلول . ولكن بما ان الوحدة التي حققتها هذه الامة لم تتعدّ بعد ، الطور الاقطاعي ، فالوحدة التي حققتها هاتان الدولتان ، تبقى سريعة العطب . « فامبراطورية » دوزان الكبيرة هذه التي لم تعمّر طويلاً بعد مؤسسها ، كانت حلماً حلواً في

الخاطر يدغدغ الخيال أكثر منها حقيقة واقعية متحيزة ، طالما ألهبت خيال القومية الصربية وألهتها ، كما كانت فيا بعد ، بمثابة الملاط الذي شد بنيان الدولة السياسي . ومثل هذا الوضع يصح مقارنته ، ولو بصورة تحكمية ، بالدور الذي مثلتـه التقاليد والاساطير الكارولنجية في اوروبا الاقطاعية . ومهما يكن من الامر ، فالامة الصربية بقيت واقعاً قائماً ، متحيزاً ، حتى بعد انهيارها السياسي ، او الضربات التي انهالت عليها من الاتراك في ساحة الوغى ، ولا سيا في تلك الكارثة القاصمة التي حلت بها في معركة كوسوفو ، عام ١٣٨٩ .

فهذا التاريخ هو بدء يقظة وتفتح على الحياة ، عند الدول التي قامت على مقربـة منها . الالبانيون (الارناؤوط) ، احد . وع الشعب الايلليري التي طمس التاريخ ذكرها واسمها الى لك الحين ، استطاعوا ان يحافظوا على استقلالهم ، وان يصونوا شخصيتهم المميزة بالرغم مـن الاصطدامات التي قامت بين الايطاليين والسلافيين ، او اليونان ، انتصروا فيها للفريق الاول ، بطلبهم المساعدة من الكنيسـة اللاتينية . وهؤلاء السكان الجبليون الذين تدربوا على اعمـال الحرب ، في خدمة البنادقه او الانجفيين (سكان مقاطعة الانجو) والصرب او في خدمة طغـاة الابيروس او تسالونيكي ، سيصبحون ، في القرن الخامس عشر ، أعدى اعـداء العثمانيين ، وأبطشهم . اما الرومانيون الذين جهلهم التاريخ لأكثر مـن عشرة قرون ، وتضاربت الآراء حول اصلهم وفصلهم ونشأتهم ، فراح من ردهم الى ذراري الداسيين الرومانيين الذين وقعوا في لجج أمواج الغزوات التي تألبت عليهم دون ان تقتلعهم او ان تجتثهم ، كما رأى غيرهم فيهم ، اقواماً من قبائل الفلاخ استطاع بعض من تربطهم بهم وشائج الدم والقربى ، ان يحافظوا على كيانهم في وسط الغمر الصقلبي والمحيط السلافي ، فراحوا يشغلون من جديد ويستثمرون السهول المترامية على جانبي مجرى الدانوب الاسفل ، فأطلوا ، من جديد ، في القرن الثالث عشر ، على التاريخ ، باحتلالهم سهول مولدافيا وفلاخيا القليلة السكان ، عندما لبوا نداء بعض الأمراء الذين استنجدوا بهم وطلبوا مساعدتهم ، في وقت لاحق لاحتلالهم مقاطعتي ترانسلفانيا والكربات . وعندما اخذ الناس يشعرون بوجودهم ، نراهم موزعين بين هنغاريا على سفوح ومنحدرات جبال الكربات الغربية ، وأحياناً ، وفقاً للصروف والظروف المتحكمة بمصائر الناس ، بـين بلغاريا وبولونيا وغيرهم من الامراء الذين سيطروا على السهل الروسي ، حتى بـين المستعمرات التي أنشأتها لها جنوى ، على سواحل البحر الاسود الغربية . ولذا ، نرى هذه المنطقة تتجاذبهـا عوامل نفوذ عديدة : هنا اللغة والابجدية السلافية ، بينما استخدمت الكنيسة الوطنية التي كانت على الارثوذكسية ، اللغة السلافونية في طقوسها الليتورجية . والمؤثرات الغربية التي تفاعلت بها وانفعلت ، كانت ترشح اليها عبر الرواق البلغاري السلافي ، فتمازج بالمفاعلات البيزنطية ، كما يبدو ذلك واضحاً من الكنائس الاولى التي ارتفعت هنالك ، حيث ارتدت الافاريز الخارجية حجماً خرج على المألوف . فهذه الاقطار الرومانية لم تنعم الى هذا التاريخ ، يوماً بالوحدة ، ولا عرفت تجانساً عرقياً ، الى الوقت الذي لاحت لهم ناهزة مؤاتية ، تمثلت في حالة الضعف والوهن

التي آلت اليها ، الدول السلافية ، من جراء الزحف العثماني المتتابع ، فقامت فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، امارات واسعة تمتعت ، على اقدار متفاوتة ، باستقلالها الذاتي . واهم هذه الامارات طراً واحدثها جميعاً ، هي الامارة التي قامت في مولدافيا والتي غمرتها ولو بصورة سطحية ، أقله في الشمال ، الموجة العثمانية .

مصير الثقافة البيزنطية

امام هذه الخطوط الكبرى والصوى البارزة لهذا الشتات الذي ابتليت به دول البلقان : ففرق ديارها بدداً وسكانها شيعاً ، هل بامكاننا التحدث هنا ، بعد الذي رأينا ، عن كنيسة واحدة وثقافة بلقانية واحدة ؟ فقد بلغ من شدة حيوية هذه الكنيسة والثقافة المشتركة تجاه هذا الانحلال السياسي الذي صارت اليه هذه البلدان ، ان كدنا نتبين عندهما ، معالم انبعاث ، فعلي ، ادبي وفني على السواء ، وهو انبعاث جاء وفاقاً لما هيأت له ظروف الحياة الجديدة، التي جددت من مصادر الوحي والالهام، وحملت الناس على البحث عن وسائل جديدة للتعبير عن خلجات النفس البشرية . الا ان كتاب العصر ومؤلفيه وفنانيه من اليونان لم يعودوا يعملون او ينتجون ، لأسياد وأرباب بيزنطيين لا غير . فالقسطنطينية لم تكن اذ ذاك ، قطب كل شيء ، ومحور كل شيء . فالمؤثرات اللاتينية كان لها اغراؤها هي الاخرى ، حتى على البلدان اليونانية ، ووضاعة الوسائل المادية التي كانت تحت التصرف خفضت كثيراً من قيمة الانجازات الادبية والفنية .

فالترجمة للاباطرة من اسرة بليولوغ ، في القرن الرابع عشر هي اهم المواضيع التي يحوم حولها مؤرخو العصر ، امثال : باخيمروس ، ونيقوفورس غريغوراس ، بينما راح حنا كنتاكوزين ، هذا المغتصب للعرش الامبراطوري ، يضع اثر انزوائه في الدير وانقطاعه للعزلة، غب تنازله عن العرش ، مذكراته المشهورة . وهذه النظريات الصوفية التي جاء بها هزيكازمس التي حاكت من قريب ، تعاليم متصوفة الاسلام في ايران واناضوليا ، كانت لها قيمة رفيعة عند مؤرخي الاخلاق؛وكذلك هذه المؤلفات في العلوم الفقهية التي كان لها تأثير عميق على علم الحقوق الذي أطل على الدول الصقلبية ، وهذا الشعر الحكمي والعلمي الذي وصل الينا من هذه الحقبة ، كل هذا الانتاج الفكري جاء وفاقاً للتقاليد المتوارثة . والروح الجديد الذي طلعت به علوم البلاغة ، وهذه الرغبة الزاخرة المقرونة بالنظرة الحللة ، الناقدة ، تبدو على أتمّها في دراسة الآثار الكلاسيكية ، نشطت حركة احياء الآداب البيزنطية القديمة ، فراح يتولاها بتدبير : تيوذورس متوكيتيس ، وهي حركة تشبه من بعيد ، حركة احياء الآداب التي كانت اذ ذاك ، في ابان ازدهارها في ايطاليا . فالحركتان تتضافران وتتكافآن وتتلاقحان ، اذ يقدم الى ايطاليا بعض اساتذة اليونان ، بدعوة من هذا الفريق الذي تخرج على ايديهم ، ليلقنوا الايطاليين ، بعض العلوم الهلينية التي يتعطشون جداً الى تلقفها . وهكذا نشاهد الفيلسوف الافلاطوني الكبير : جيمشس بلايثون ، يصل ، بعد ان درّس الفلسفة في مسترا ، الى ايطاليا ،ولم يلبث ان

اصبح فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، من اشهر الداعين الى تجديد الفلسفة الافلاطونية ، ومن ابرز رواد هذا البحث الفلسفي . والجديد ، حقاً ، في هذه الحركة الاحيائية ، وفي هذا التعاون الثقافي العلمي بين اليونان واللاتين ، هو هذه المساهمة الجديدة يقدمهـا الغرب في الدراسات البيزنطية فتجلّت على وجه صحيح ، في هذا الجدل الديني ، وفي مشروع اتحـاد الكنائس ، فاتاحت لكتاب ومؤلفين امثال ديمتريوس سيدونيس ، وبلانود ، الفرصة للتعرف الى الترجمات اليونانية التي وضعت لمؤلفات القديس اوغسطينس وللقديس تومـا الاكويني . فقد ترجم الى اليونانية ، في شبه جزيرة المورة ، تاريخ لاتيني روعي في سرد حوادثـه التتابع الزمني . والقصائد الشعبية اليونانية ، تستوحي بدورها ، ابطال القصص والمسرحيات الدينية الفرنسية في الاجيال الوسطى ، بينما راح المؤرخ اليوناني مكاريوس ، يضع تاريخاً لقبرص ، يطري فيه اللاتين ، والكاتب اللاتيني جورج بسترس يؤلف ، هو الآخر باليونانية ، بينا راح الكاتب اليوناني سترامبا لدي ، يؤلف بدوره بالايطالية . وليس بغريب قط ولا يستبعد ان يكون الانتاج العلمي اليوناني ، في الطب والفلك ، قد تداخـله شيء من علوم العرب ، عن طريق الغرب ، الا ان يكون جاء هذا الاتصال عن طريق طرابزون ، حيث قامت «اكادمية» أمنت للاغريق الشرقيين ، تجلياً علمياً بزّ ما تم من امثاله لزملائهم ورصفائهم في البلقان الذين كانوا يحفلون ، بالاكثر ، بالآداب .

اما الفن البيزنطي ، فقد صمد في وجه المؤثرات الغربية . فباستثناء قبرص حيث قـامت كنائس على الطراز القوطي ، لم يترك الصليبيون لنا ، في هذه المباني الهامة التي اقاموهـا غير القلاع والحصون التي شيدوها . وقد حلا للبعض ان يرى في بعض الافاريز التي قامت في الاقطار اليونانية والسلافية خيوطاً دقيقة من الوشائج تشدها الى هؤلاء « البدائيين » الايطـاليين ، ولكن من يقدر ان يؤكد بان هذا الالتقاء هو من باب الصدفة الطارئة ومهما يكن ، وباستثناء كاريا جامي في القسطنطينية وهو مـن انشاءات ثيوذوروس ميتوكيتس ، لم تلبث الفسيفساء الباهظة التكاليف ، ان استبدلت واستعيض عنها بالرسوم والتصاوير الجدارية ، حيث نرى صور رجال الدنيا بادية الى جانب المشاهد الدينية وفي مظاهر الحياة الواقعية ، حيث يمكن ان نتبين اشياء تذكرنا بمشاهد ومركبات اسكندرانية . فتحلية المخطوطات وتزيينها وزخرفتها وصناعة الحلي من الجوهرات وانسجة الديباج الجميلة تمدنا بالكثير من غرر الفن ودرره ، وبالكثير من الاعلاق الغوالي التي اسعدنا الحظ في الاحتفاظ بالكثير منها ، بينما بخل علينا بالنزر النزير من متقدماتها . ومن المحتمل كثيراً ان يكون فن التلوين اعطى اذ ذاك ، اجمل معطياته ، واحسن انجازاته على الاطلاق ، بعد ان عملت مدارس اقليمية عديدة ، على نشر هذا الفن في البلدان الصقلبية ، وجبـل آثوس ، ومسترا ، وجزيرة كريت وطرابزون . وهذا الانتشار الواسع ، مكن الفن البيزنطي من ان ينقل ، دونمـا انقطاع ، نظرياته ومبادئه وتعاليمه الفنية لمن توارثوها ، سواءاً اكانوا تحت سيطرة الاتراك العثمانيين ام خارجها .

والكنيسة البيزنطية ، ظهرت عليها ، هي الاخرى ، بعض اعراض التطور ، فازدادت مكانة ،

وسمت مرتبة ، في قلب الدولة . ففي هذا الاستقرار الذي نعمت به بينما التيجان من حولها تتدحرج تدحرج الأكر وفي هذا الغنى الذي ترفل فيه وتتنعم ، بينما الملوك من حولها يهوون من عليائهم لينزلوا الى احط دركات الفقر الغم والعوز يستعطفون ويستعطون لم تبلغ هذه الكنيسة يوماً ما بلغته ، اذ ذاك ، من قوة وشأن ، ولم تُظهر يوماً من اللامبالاة ما اظهرت من إعراض عن هذه الأسر الملكية التي تناوبت الحكم وتعاورته تباعاً . فهي متماسكة ، متضامّة ، بالرغم من وجود هذه الكنائس المستقلة داخلياً ، تبسط نفوذهـا على العديد من هذه الممالك اليونانية والدول الصقلبية ، دون ان تدافع عن هذه ضد تلك ، دوماً على اتم استعداد لتقبل النصح من اي جهة جاء : من موسكو او من القسطنطينية . ففي مواجهتها للعظماء من رجال الدنيا وللامراء الدائرين في دوامة المحالفات السياسية ، حشدت حولها كل الشعوب ، وجل رجال الاكليروس ، للوقوف بعنف وكرامة ، بوجه النفوذ الروماني ، مدفوعة الى ذلك بسلك هؤلاء الاباطرة الذين كانوا ، لاغراض دنيوية ، يثيرون باستمرار قضية اتحاد الكنائس ويلوحون بها ، لقاء حصولهم ، من الغرب المسيحي ، على نجدة تنصرهم على الاتراك العثمانيين. وقد ادّت هذه المفاوضات التي اداروها ، الى الفشل التام ، امام إعراض الغرب وعدم مبالاته ، هذا الغرب الذي لم يقطع ، الا ما ندر ، عهداً بالمبادرة للمساعدة المرجوة ، لم يتعهد معـه قاطعوه ، بسوى قوة حربية ضئيلة العدد والعُدد ، بينما كانت جماهير الشعوب اليونانية والسلافية ، تشجب ، بشدة ، الاتفاقات التي يتوصل الاباطرة ، احياناً الى عقدها . فاثر العامل اللاتيني على الآداب اليونانية ، كالتشابك السياسي لهذه الكيانات الدولية ، يجب الا يخدع احداً. فقد قامت ، اذ ذاك ، هوة الانفصال الديني التي لم يشمروا كثيراً بورطاتها ، في بدء الأمر ، الا انها اصبحت عقبة مستعصية الحل . وقلاع الفرنجة وحصونهم ، مهما قالوا فيها ، لم تكن لترحي الثقة ولا لتبعث التفاهم بين الشعوب وهكذا انكفأ الشعور القومي وراء الكنيسة اكثر منه وراء مبادئها . وهذه اللامبالاة تفسر لنا جيداً السهولة واليسر الذي تم فيـه الفتح الاجنبي . اجنبية بالطبع ، في نظر اليونان ، دولة الاتراك وسيادتهم . يجب الا يغرب عن البال قط ، ان اول بطريرك يوناني للاستانة التركية : سكولاريوس جناديوس هو من اشهر رجـال القرن وحملة الثقافة البيزنطية في هذا العصر ، وانه كان في البلاد السلافية عدد كبير من اليونان ، ومثل هذا العدد واكثر ، كانوا تحت الحكم العثماني ، في تركيا قبل ١٤٥٣ سنة سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، وكلهم تابعون لرئاسة الكنيسة الارثوذكسية ويخضعون لها ، ويحفظون لهـا الولاء ويعيشون ايمانهم بسلام وطمأنينة ، بالرغم من بعض التضييقات المفروضة عليهم . فبين الخطر التركي الذي يهدد الجسم دون الروح ، وبين الاستسلام للاتين والخضوع لكنيستهم وما يمثله هذا الخضوع من خطر على النفوس دون الاجسام ، رأوا من الافيد لهم ومن المصلحة عندهم ، ان كان لا بد لهم من الاختيار ، ان يقبلوا بالسيطرة التركية بالرغم مما فيها من خطر وما لها من كره . ففي هذا الوضع ما فيه من تعليل لتفهم المصير الغاشم الذي آلت اليه الامبراطورية بسقوط عاصمتهـا القسطنطينية .

يتناول لقاء خدمته « تياراً ». ويتميز التيمار او الاقطاع الحربي بأن تمنح الدولة او السلطان ، احداً من رعاياها إقطاعاً من الارض يوازي بقيمته خراج قرية لا يدفع عنه ضرائب ، في نظير التزام صاحب التيمار «الاقطاع» بتجنيد نفسه او ابنائه او اتباعه للخدمة في الجيش او البحرية ، اذا ما دخلت الدولة في الحرب . ويكون عدد الجندين مناسباً لدخل التيمار . والكلمة فارسية الاشتقاق والاصل ، وهي ترادف كلمة *Pronoia* البيزنطية ، وتشبه من حيث مدلولها مدلول الاقطاع ، كما عرفه الاسلام ، وكما عُمل به في مصر المماليك . وللدولة ان ترجع عن هذه المنحة اذا مـا عجز صاحب التيمار عن القيام بالالتزامات المفروضة عليه . ولذا قلما انتقل التيمار الى الابناء والورثة . فصاحب التيمار يخضع لمراقبة الحكومة التي يمثلها في المقاطعة والٍ او حاكم عام قابل للعزل والرفت . وكان يتعين على اصحاب التيمارات من كبار ضباط الجيش ، ان يدربوا ، بالاكثر ، ٢٠ فارساً ويدربوهم على استعمال السلاح . وهكذا بدت السلطنة العثمانية اكثر دول الاجيال الوسطى أخذاً بالسلطة المركزية. وهذا الوضع هو بالفعل الوضع الذي سارت عليه الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستنيانوس ، والدول العباسية نفسها في ابان مجدها .

وكغيرها من الدول صاحبة الشأن التي سبقتها ، اعتمدت السلطنة العثمانية في ادارتها على طبقة الموظفين . والسلطان ، كغيره من الملوك الذين سيطروا وسادوا ، بدا وكأنه سوبرمان ، من عجينة فوق البشر ، يعيش منزوياً عن الناس ، الا في ايام الحرب ، في قلب سراياه التي تؤلف لوحدها ، مدينة في قلب المدينة العاصمة ، يبلغ اليها بعد الكثير من المراسم والتشريفات . وقد عرفت الاسرة المالكة في الدولة العثمانية ان تصون العرش وتحـــافظ على التاج من كل عبث الطامحين اليه ، بطريقة مختصرة مبسطة للغاية ، وذلك بالقضاء على اخـــوة الوريث الشرعي ، بطرق ملتوية ، مشبوهة . وكان السلطان يتزوج «في الاساس» من اميرات تركيات او مسيحيات. ومنذ القرن الخامس عشر لم يعد عنده زوجة شرعية ، رما اولاده وبنوه الا ابناء بعض السراري والمحظيات اللواتي لا يحصى لهن عدد ، ممن يهدين الى دار الحريم . ولم تكن البلاد بلغت بعد العهد الذي كان فيه السلطان لا يبارح دار الحريم قط ، ليصبح دمية بيد سراريه . فالفاتح والقائد المظفر الذي كانه محمد الثاني ، لم يعرف عنه مغامرات عاطفية .

وهذه الفظاظة ، وهذا الخداع الماكر ، وغيره مما قذفوا به هؤلاء السلاطين ، في عداد مـا وجهوا اليهم من تهم وتشنيع ، هل اختلف ذلك كله عما عُرف به معاصروهم من امراء ايطاليـا في عهد مكيافلي مثلاً ؟ فهذا العدد العديـد من المسيحيين الذين أتيح لهم الاقتراب من هؤلاء السلاطين ومخالطتهم دونما حسيب او رقيب ، لم يستطيعوا ان يتفادوا قط الوقوع تحت ما لهم من مهابة ووقار . فهم ابناء عصر واحد وزمن واحد . ومما لا بد من التنويه به عالياً ان هؤلاء السلاطين لم يظهروا اي تحرّج او تعصب تجاه المسيحيين ، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشاً وينزل بهم الهلع باعتباره محكمة رسمية ، وقضاءً عالياً من اقضية الدولة ، وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون دونما رحمة او شفقة ، من اسبانيا . فاذا ما رسفت الكنيسة الارثوذكسية ، في آسيا ، والارمن ، وهم اكثر عدداً ، منذ عهد بعيد ، في الذل والمهانة ،

فالبطريرك المسكوني كان اظهر ولاءه دونها مواربة ، للعثمانيين الذين لقي عندهم كل رعاية وحماية ، فصانوه من تعديات اللاتين ومداخلاتهم ، كما ان تقربه من اولي الامر ، زاده نفوذاً اكبر لدى الكنائس السلافية التي كانت فقدت ، اذ ذاك ، الشيء الكثير من الاستقلال الداخلي الذي تمتعت به من قبل. وبالرغم من نظام الداشرما ، واسكان عدد كبير من الجاليات الاسلامية في البلقان ، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الاسلام ، فلم يأت العثمانيون شيئاً مهماً ليمنعوا السواد الاكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم . وعلى نقيض ما حدث عند استفحال الفتح وبلوغ مده الزبى فالفتح السياسي العثماني لم يزدوج بفتح ديني .

معالم المدنية العثمانية

فبعد ان أغلظ الاتراك العثمانيون معاملة الامارات اللاتينية وقلموا اظافرها بالحد من الامتيازات التي تمتعت بها ، تساهلوا كثيراً مع هؤلاء التجار غير المسلمين الذين انصرفوا لاعمالهم التجارية فيما بينهم ، بعد ان اخضعوا نشاطهم لمراقبة شديدة ، وفرضوا عليهم رسوماً وضرائب مقيتة. ولم يلبث رعايا فلورنسا ان استغلوا ما يتمتعون به من امتيازات واعفاءات ، بخلاف البندقية وجنوى اللتين سبق لهما ونهجتا سياسة عدائية ، نحو العثمانيين . وقد استطاع رعايا البندقية فيما بعد ، ان يسترجعوا جانباً مما خسروه في هذا المجال من نفوذ ومكانة وشأن. وهكذا يتضح لنا ان النشاط التجاري لم تخب جذوته في الامبراطورية العثمانية. وبفضل توافد العديد من الجوالي السلافية والاسلامية ، بانتظار وصول اليهود المطرودين من اسبانيا ، والأرمن القادمين من الشرق ، اصبحت العاصمة الاستانة وسراي الدولة ، اكبر زبائن لتجارة الكماليات ، فبزّت ، في هذا المضمار ، ما كانه البلاط البيزنطي في أرج عزه وازدهاره . ويتبين لنا من وصف الرحالة الغربيين والمسافرين ان الاستانة كانت تمور بالحركة وتموج بالنشاط ، بعد ان اخذت النقابات البيزنطية تستحيل ، دونما ضغط او اكراه ، نقابات اسلامية .

وبعد ان تناسى العثمانيون أصلهم البعيد ونشأتهم الخشنة الأولى ، راحوا يطلقون العنان ، لهذه الحضارات التي عرفوها في البلدان التي فتحوها ، فزهت تحت كنفهم وازدهرت . فقد أنس بليثن العيش في القسطنطينية . واذا ما راح فرونتزيس ، ودوقاس ، وشاكوكونديلس يمارسون ويكتبون في المقاطعات التي هاجروا اليها مما يقع تحت سيطرة اللاتين: كجزيرة لسبوس وكورفو وكريت قصة صيرورة الامبراطورية « الرومانية » ، امبراطورية « الروم » ، فلم يتردد المؤرخ كريستوبولس ان يرفع الى السلطان محمد الثاني ، السيرة التي وضعها عن حياته . وقد رأينا فنانين ايطاليين يعملون في خدمة السلطان ، امثال جنتلي بلّيني ، يرسمون لنا صور الكثير من الناس والاشياء في القسطنطينية الجديدة .

فها نحن امام مدنية عثمانية تحاول جهدها ان تُفرغ في حضارة واحدة ، شتى المدنيات التي ازدهرت في امارة الكرمانيين ، اسياد العاصمة القديمة قونية ، في عهد السلجوقيين ، وامارة

قسطموني الى الشمال من انقرة ، وامارة الخروف الابيض. فهذه الحضارات لا تزال تحمل الكثير من معالم الثقافة العربية والايرانية . ففي الوقت الذي راح فيه الفقهاء ورجال الدين يتابعون الكتابة بلغة القرآن ، ورجال التصوف والشعراء والكتاب من كل صنف ولون ، يستعملون كثيراً اللغة الفارسية ، اذ بالاتراك يقتصر معظم ادبائهم ، اذ ذاك، على الترجمة والنقل . ويتناول هذا اللون من الادب مواضيع صوفية او بعض قصص البطولة الموضوعة بالايرانية ، وأحياناً بالعربية ، بحيث اخذ الادباء الذين ينقطعون لهذا الادب يفكرون بالايرانية ، مما يكتبونه بالعربية ، وان جهل السواد الاعظم من مواطنيهم اللغة التي يكتبون . فالادب التركي في هذه الحقبة ، حيران ، متردد ، يحاول شق طريقه ، مقتفياً اثر الآداب القريبة منه التي ازدهرت في آسيا الوسطى. وباستثناء هذه الترجمات والنقول العلمية العالية ، نرى معظم المؤلفات الشعرية ، بالعربية والتركية ، تلاقي ، منذ القرن الخامس عشر ، انتشاراً واسعاً ، وتحت تناول الشعب ، ان شئنا ان نضرب صفحاً عن ذكر الامراء الذين يحسنون التركية اكثر من احسانهم للفارسية . والى جانب الشاعرين الكبيرين: نظيمي واحمدي،اللذين لمعا في القرن الرابع عشر،يجب ان ننوه هنا بما بلغه الاهتمام بالتاريخ التركي ، في القرن الخامس عشر ، وذلك عن طريق هذه الترجمات لتاريخ إيران القديم ، ووضع تاريخ مفصل للعثمانيين بالتركية، وهذه القصص الشعبية الوطنية وهذه الروايات الشعبية التي تشيد بامجاد الأوغوز والتي كان ينشدها الشعراء ويتغنون بها ، منذ عهد بعيد . ولم يلبث مسرح خيال الظل الذي تضافرت على تكوينه عناصر جاءت من بلدان مختلفة بين بلدان الشرق،مسيحية واسلامية على السواء،ان ظهر بين الاتراك وبرز بشخصية كراكوز المثيرة للضحك .

كان الاتراك العثمانيون من كبار بناة المساجد والمدارس ، ومثلوا دوراً بارزاً في مضمار الهندسة ، اذ عملوا على تطوير المذهب الفني الذي ساد عهد السلجوقيين والمغول . فمنذ القرن الخامس عشر ، رفعوا للفن منارة كبرى تمثلت بهذا المسجد المسمى بالمسجد الاخضر في بروسة ، للون القاشاني الاخضر الذي يزينه من الداخل . فالخزف هو من هذه العناصر التي ميزت فنهم الناشىء ، بينما راح كثيرون من رعاياهم ، بين يونانيين وارمن ، واتراك وعجم ، يضعون لهم الطنافس ويحيكون السجاد على انواعه واشكاله ، لا يتعدى اقدم المحفوظ لدينا منها ، القرن الخامس عشر .

وبعد سقوط القسطنطينية ، اخذت الارادات الحسنة ووسائل التنفيذ تلتقي وتقوى ، والمؤثرات الاسيوية راحت تمازج وتختلط بالتقاليد والاساليب الفنية التي اشتهر بها الفنانون من ابناء البلاد . فاليوناني كريستوبولس وضع نفسه بخدمة السلاطين واصبح الرائد الأول الذي اقتفى سنان ، اشهر مهندسي الاتراك في القرن التالي على الاطلاق ، أثره وسار على منواله . بل ايضاً راح السلطان محمد الثاني وخلفاؤه من بعده وكبار الموظفين التابعين لهم ، يتنافسون بحماسة ونشاط ، ليجعلوا من الاستانة ، عاصمة تكسف، بما بلغته من زهو وزينة وجمال ، امجاد

القسطنطينية في أوج عزها البيزنطي . فلم يكفهم ان حولوا كنيسة آجيا صوفيا الى مسجد كبير وغطوا فسيفساءها الجدارية بالملاط، فقد بنوا مساجد اخرى كبيرة، تحاكيها من حيث الاتساع والضخامة ، معطين بذلك الدليل على ان عهد القباب لم يغب بعد عن دنيا الفن ، فتذهب المآذن رافعة رؤوسها نحو السماء ، متحدين برشاقتها وبزخرفها هذه الكنائس المتواضعة المظهر ، القائمة بعد ، في اقطار الشرق . وهكذا فجامع الفاتح يمهد الطريق لهذه الابنية الهندسية الضخمة التي تبدو من هذه الغلالة الندية التي تلف المدينة في الصباح الباكر ، فتبهر بحجمها هؤلاء المسافرين الذين ترسو سفنهم على مقربة من رصيف القرن الذهبي . ان عدم استجابة النفس التركية للفن ، وأخذها بالنظرية الاسلامية التي تتشدد بتحريم التصوير والرسم، وهي تعاليم راجت في بعض الاقطار الاسلامية – مع انها لم تلق رواجـــا في ايران – جعل التصوير في حكم العدم ، في الفن العثماني، كما لم نر العلم يغزو بعد الروح التركية. ومع ذلك ،فالاوروبيون الاوائل الذين تمكنوا في مستهل عصر الانبعاث من الدخول الى السلطنة العثمانية ، لم يشعروا قط انهم وطئوا عالماً يختلف عن العالم الذي قدموا منه .

فالمؤرخون الغربيون الذين ألفت انظارهم رؤية هذا الانحطاط الذي تسكعت فيه الامبراطورية العثمانية ، طويلاً في عهدها الاخير ،فلما قالوا كلمة حق في هذه الانجازات الجيدة التي حققتها الامبراطورية العثمانية ، في عهودها الاولى. فهذا الانحطاط الذي اخذت معالمه تظهر للعيان في جميع الدول الاسلامية منذ القرن السادس عشر، واي نظام ليس بمسؤول عن عوامل الانحطـــاط التي تدب اليه ـ لا يُطلب منا هنا ان نبين منها الاسباب . ومع هذا ، فالامر يتعلق بالاحرى ، بالعجز عن اللحاق بركب التقدم والتطور المدهش الذي قطعه الغرب، اكثر منه بالسير القهقرى الى الوراء. وهذا الركود والجمود، يمكن رده ، من جهة، لتحول طرق المواصلات التجارية ، اثر الاكتشافات الجغرافية العظيمة والعثور على طريق جديد في المحيط الاطلسي ، ومن جهة اخرى ، لهـــذا الخراب يتراكم في هذه القارة الاوروبية التي اخذت المبـــادرة للهجوم ، ولهذا اليأس والقنوط يسببهما هذا الهجوم بالذات ؛ وبعبارة اخرى ، لا شيء مما يحق لنـــا اعتبار العثمانيين مسؤولين عنه في الدرجة الاولى .

٤ ـــ نشأة روسيا المسكوبية

في هذا الشرق الارثوذكسي كله لم تبق ، في اواخر القرن الخامس عشر ، دولة واحدة لم يغمرها المد العثماني، باستثناء روسيا المسكوبية التي رافق ظهور نشأتها سعود من اليمن تبشر بمستقبل زاه مشرق .

وهذه الطامة المغولية الكبرى التي نزلت بروسيا فهزتهـــا بعنف ارتج له كل من على الارض وما فيها ، اعاقت التطور الذي كانت هذه البلاد اخذت باسبابه من قبــــل ، ووجهته وجهة اخرى . فقد جلبت معها نهاية روسيا الاوكرانية وعاصمتها كييف . ففي الوقت الذي راحت فيه المقاطعات الغربية من البلاد ، مثلا بولونيا وليتوانيا ، تدور في فلك الدول الكاثوليكية،

او تدخل المجال التجاري الاقتصادي الذي سيطر عليه الحلف الاقتصادي المعروف بالهانزا،الذي شمل معظم مدن اوروبا الشمالية والوسطى ، اتجهت انظار معظم سكان البلاد الى المقاطعات التي تغشاها الغابات في قلب روسيا ، بعد ان كانت اخذت باحيائها واستعمارها ، وتطلعت بابصارها الى مناطق الفولغا السفلى وآسيا اكثر مما رنت به الى بيزنطية ، التي انقطع معها كل اتصال مباشر .

ومع ان المغول فرضوا الجزية على البلاد ، فلم يكونوا ليتدخلوا بامورها الداخلية الا في حال نشوب ثورات وقيام حركات تمرد وفتن ، بعد ان يتخذ العصاة والثائرون ، ملاذاً لهم ولاعمالهم الغابات الشاسعة ومستنقعاتها الوخيمة التي كانت تختلف اختلافاً بيناً عن مواطنهم . وهكذا نعمت الامارات الروسية بشيء من الاستقلال الداخلي دون ان يتنكر حكامها لماضيهم او يقاطعوا تقاليدهم الغابرة ، بخلاف ما وقع للمقاطعات الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي . وقد شبت بين هذه الامارات المختلفة منافسات حادة ، وشقاق اقامها بعضاً على بعض ، حمل بعضها على التماس النجدة : تارة من المغول ، وطوراً من البولونيين ، والليتوانيين. غير ان المغول ،خروجاً، ولو لمرة واحدة على خطتهم السياسية ، لم يشجعوا قط حركة الانقسام هذه ، فرأوا ، تبسيطاً للامور ، ان يقيموا من بين هذه الامارات واحدة تتولى فيها الصدارة وتمارس عليها السيطرة فتنعم بعطفهم ومؤازرتهم ، ويعهدون اليها بجباية الضرائب والرسوم المفروضة وتحصيل الجزية ، شريطة ان تصدق لهم الولاء ، لقاء الحماية التي يضمنونها لها.وقد أوتي امراء موسكو من اللباقة وحسن التصرف والسياسة والمهارة في السلوك والادارة ، ما اكسبهم عطف المغول فكانوا ممثليهم ، مع ان امارتهم لم تكن اكبر هذه الامارات ، ولا اقواها على الاطلاق ، حتى اذا ما اختل ميزان القوى وأنسوا في نصرائهم بادرة ضعف او مكمن وهن . . سارعوا لمناجزتهم ومحاربتهم بوسائل وموارد هي من بعض عوارفهم وافضالهم ، وهكذا تمت تدريجياً حركة تجمع الاراضي الروسية ، وتكتلها ، وهي حركة شابهت ، الى حد بعيد ، الحركة التي تمت في فرنسا ، خلال عهد الدولة الكابتية ، وهذا مثل جديد يضاف الى العديد من امثاله نرى معه كيف ان السيطرة الاجنبية على الروس حملتهم على خلق وحدتهم السياسية القومية ، هذه الوحدة التي كانوا يفتقرون اليها جداً فتمت لصالح حكومة روسية هي حكومة امراء موسكو .

وراحت روسيا ، كغيرها من بلدان اوروبا الشرقية ، تتطور وتتكامل باتجاه نظام إقطاعي واقتصادي يقوم على رأسه ابناء الطبقة . الارستوقراطية وبدلاً من ان يسير هذا التطور في خط معاكس لتكامل السلطة المركزية ،نراه يأتي ملازماً لها ، عاطفاً عليها ، ولذا كان خليقاً بهذه الحركة ان نتوقف هنيهة حيالها ، ونتبين طبيعتها.

كان المجتمع الريفي قد اخذ منذ عهد بعيد ، بالتفتت والتفسخ عن طريق استملاك الاراضي وطلوع طبقة من كبار الملاكين ، من رجال الدين والدنيا . وقد ساعد إحياء الاراضي الجديدة

وتعميرها للزراعة، وهي عملية لم تكن لتتم على ايدي افراد من الرواد، على تكوين النظام الضرائبي الذي عمل به المغول وتقويته . واخذ الفلاحون ، ببطء كلي انما باستمرار ، يقعون ، بدافع من توصياتهم او من انتقال الملكية ، تارة طوعاً واختياراً ، وطوراً غصباً وقسراً ، تحت سيطرة الاشراف او رؤساء الكنيسة . وراحت املاكهم تشغّل وتستثمر، وفقاً لنظام حياتي لا يختلف كثيراً ، من حيث جوهره ، عن النظام الذي عُمل به في عهد الاسرة الكارولنجية . فالحركة التجارية والحياة في المدن في روسيا القلبية ، كانت متأخرة جداً عما كان عليه مستوى الحياة في اقليم كييف ، اذ كانت الاراضي المملوكة تكادلا تعطي مما يكفي بأود العيش . فتجارة الملح وحدها كانت تثير اهتمام سواد السكان الذين لم يكونوا ليستفيدوا منها شيئاً كبيراً اذ ان الضريبة التي كان المترتب عليهم دفعها للمغول ، وهذه الفراء التي كانوا يبيعونها من التجار الاجانب ، كل هذا كانت فائدته تعود لكبار الملاكين . اما المدن فلم يكن يتألف معظمها الا من بعض اسواق ريفية او من بعض مواقع سياسية وستراتيجية باستثناء مدينة نوفغورود التي كان لها بعض الشأن والتي لم يكن نفوذها التجاري ، في البحر البلطيقي مع مدن حلف الهانز ، ليقل بشيء عن النفوذ الذي كان لمدينة كفا على البحر الاسود. فاذا ما بعثت هذه الحركة التجارية بعض النشاط في الصناعات والحرف المهنية ، ولا سيما في مجال التمدين في منطقة نوفغورود ، واثارت بعض المشاكل الاجتماعية التي ثار مثلها في المدن الاخرى ، في الغرب ، فقد رأينا انفسنا وجهاً لوجه مع مدنية غريبة شاذة ، صار الجانب الاكبر من نشاطها التجاري الى ايدي تجار المدن ، بينما لم نكن نرى لدى سكان البلاد الاصليين ، اي اثر لبورجوازية تجارية . فاذا ما قامت في مدينة نوفغورود حركات تمرد بين الصناع والعمال ، فقد اتجهت هذه الحركات بالاكثر ضد كبار الملاكين اكثر منهم ضد النبلاء . فالروسيا ، كغيرها من البلدان الصقلبية عانت كثيراً من هذا التأخر في تطورها الذي جعل الحركة التجارية في البلاد تقع بين ايدي تجار من الغرب سيطروا عليها سيطرة تامة بينما هنالك بورجوازية من ابناء البلاد ، لا تزال بعد في المهد .

وبالاعتماد على هذا النظام الاقتصادي الذي كان كل قوامه الملكية العقارية ، راحت الملكية الموسكوبية تنشيء حولها مجتمعاً روسياً نعتوه بالاقطاعي . وبفضل الاستملاكات العقارية الضخمة التي حققها النظام، فقد اخذ يخضع لسلطته امارات تمتعت بالامس باستقلالها الاداري . وتشبهاً ، من جهة اخرى ، بالتيار العثماني وهو اقرب الانظمة ، في الزمان والمكان الذي راح الروس يحتذون حذوه، اخذ امير موسكو يوزع على اتباعه وعماله ، حصصاً من املاكه الواسعة ، عُرفت عندهم باسم *Promiestie* أولت مالكها اعفاءات خاصة وحقوقاً ملكية حكومية، وهي اقطاعات يمكن الغاؤها ، ولا يصح نقلها بالوراثة لذويهم ، كما ان حكام المدن الذين يتولون الامر فيها ويتمتعون بصلاحيات واسعة وبسلطات واسعة على السكان ، هم عملاء يبقون دوماً تحت سيطرته واشرافه . فالاتساع الذي بلغته املاكهم ، ومساندة المغول لهم ، أقله في البدء ، وهذا التضامن والتكتل الذي ميز هذه الحروب التي اخذ امراء موسكو يشنونها ضدهم، في القرن الخامس عشر ،

وضد كبار الملاكين في نوفغورود الموالين البولونيين ، ومساندة الشعب لهم ووقوفه الى جانبهم . كل هذا وما اليه ، يفسر لنا كيف ان النظام الملكي في موسكو ، اخذ يشكل ، من الموظفين والعملاء التابعين له ، طبقة ارستوقراطية ، تستطيع بما تم لها من نفوذ ، الحد من نفوذ كبار الملاكين ، بل لم تلبث ان نافستها وتغلبت عليها .

من هذه التغييرات والتعديلات والتطورات التي اخذت بها البلاد ، لم يفد الفلاح الروسي شيئاً يذكر ، اذ لم يكن الإقطاع الذي كان النظام الملكي في موسكو يُقطعه ، ليختلف شيئاً كبيراً عن الاقطاع يُقطعه كبار الملاكين . فامام افتقار البلاد للسكان وقلة عددهم ، كان هم السيد ، ايا كان ، ان يؤمن حاجته من اليد العاملة وتسهيل بقائها حيث هي . وبالرغم من هذه الرابطة ، التي كانت تشد المزارع اكثر فاكثر الى سيد الارض ، فقد احتفظ الفلاح ، مع ذلك ، بوجه قانوني او بصورة عملية ، بامكان انتقاله للعمل في ارض غير ارض سيده الاول . ومنذ ذلك الحين اخذ ارباب الارض يتضامنون فيما بينهم ليحرموا الفلاح من هذا الحق ويمنعوه من الإنتقال للعمل في ارض اخرى . ثم ان اشتداد الروح المركزية وازدياد السلطة الملكية شأناً ورسوخاً ، ساعد كثيراً على شد الفلاح وربطه بالارض . وهذا المصير لم يبلغ تمامه الا في القرن السابع عشر ، مع ان الاجراءات الاولى التي اتخذت بهذا الشأن ، تعود لاواخر القرن الخامس عشر . وهكذا اخذ النظام السيادي او المولوي في روسيا ، يزداد متانة ورسوخاً كما ازداد التاج سلطة ونفوذاً ، فراح يظاهر سيطرة طبقة اجتماعية سهلة الانقياد تعترف له بالولاء . والشبه قوي هنا بما كان يعمل به في النظام العثماني ، مع ان الدولة الروسية لم تكن اذ ذاك ، بلغت من القوة ، ما يساعدها على فرض مثل هذه المراقبة الشديدة . وهكذا فالحقوق التي تمتع بها صاحب اقطاع اميري في روسيا كانت اوسع بكثير من تلك التي اعترف بها لصاحب التيمار في تركيا العثمانية . وقد فرضت بيزنطية ، هي الاخرى ، شيئاً شبيهاً بمثل هذا النظام الـ *Pronoia* ، الا ان الضعف الذي نزل بالدولة ، والوهن الذي حلّ بها ، اساء الى هذا النظام كثيراً وافسده .

وقد وجد الدوق ايفان الثالث ، النشيط والمرهوب الجانب ، بعد الانتصارات التي حققها في اواسط القرن الخامس عشر ، على المغول والليتوانيين ، نفسه على رأس مملكة قوية البأس والشكيمة . فالى جانب الامير الذي يحمل لقب : امير الروس قاطبة ، قام في موسكو ، منذ القرن الرابع عشر ، بطريرك ، لم يعد للقسطنطينية عليه اي سبيل او مشاركة في تعيينه ، والذي حرص كلما سنحت له بارقة او نهزت ناهزة ، ان يبرز « ارثوذكسياً حسن العبادة » ، كلما راحت الكنيسة البيزنطية ، لاسباب سياسية ، تدخل في مفاوضات مع الكنيسة اللاتينية ، ترمي للوحدة . واخذت دوقية موسكو تحاول انشاء علاقات لها مع العالم الخارجي ، بعد ان اناخت عليها سيطرة المغول بكلاكلها الثقيل فارزحتها طويلاً وهوت بها الى البؤس والشقاء ، وحدّت كل رغبة فيها للتجلي والبروز ، باستثناء بعض كتابات دينية وبعض قصص تاريخية او

حماسية ، اقتصر عليها النشاط الفكري في البلاد ، اوحتها الامجاد التي عرفت البلاد ان تحققها ، مما ساعد على توعية الشعور الوطني في الناس وتحسسهم بحب الوطن والتمسك باهدابه . ومنــذ ذلك الحين اخذ رحالة روس يقومون برحلات في اتجاهات مختلفة : نحو الهند (رحلة نيكيتين) ونحو القسطنطينية وايطاليا . فقد رغب ايفان الثالث في ان يجعل عاصمته مدينة خليقة بقوته الناشئة . فاستقدم من ايطاليا الشمالية التي اخذت انجازاتها الفنية تنتشر ويعلو ذكرها في كل من بولونيا والمجر وشبه جزيرة القرم ، عدداً من مهرة المهندسين المعماريين ، وعهد اليهم بالاشراف على بناء ثلاث كنائس ضخمة ، وتشييد بلاطه الملكي الذي حصنه بقلعة الكرملين . وقد اوجب على هؤلاء الفنانين ان يراعوا في اعمالهم ، التقاليد المتوارثة ، محلية كانت ام بيزنطية ، مما لم يزل معمولاً به الى ذلك العهد ومرعي الجانب ،في البلاد ، كما ان الاعراف والتقاليد الوطنية اخذت تزدهر وتبرز على وجههــا الصحيح في فن التصوير ورسم الايقونات المقدسة ، كما برز فن تحلية المخطوطات الكنسية والعلمانية وتزيينها بالنقوش الرائعة . كذلك برز في هذا الوقت بالذات الذي راح فيه فريق من علماء النهضــة الفتية ، من يونان وايطاليين يعنون بنقد النصوص بين بعض رجال الاكليروس ، ميل شديد لاعادة النظر في الترجمات القديمة للكتب المسيحية الى اللغة السلافية ، وتصحيحها . وبالرغم من الضجة التي احدثتها هذه الحركة ، فقد لقيت ، مــع ذلك ، تشجيع الدوق ايفان الثالث ، وكتب لها ان تتم على الوجه الاكمل ، وان تؤتي اكلهــا الرطب ، في القرن السادس عشر .

وقد تبدّى للكردينال بساريون ، اذ ذاك ، الدور المجيد المعظم الذي باستطاعة روسيا ان تلعبه ، بوصفها نصيرة المسيحية والمدافعة عنها ضد السلطنة العثمانية ، عندمــا راح يسعى لعقد قران « امير الروس قاطبة » وزواجه من وريثة اسرة بليولوغ ، اي من بيزنطية التي كان يطمح ايفان الثالث الى تركتها الادبية ويطمع في تراثها الأثيل . فبعد ان سقطت روما الثانية اخذت روما ثالثة تطلع مشرقة وتلتمع ممثلة بموسكو . ولكي لا نـتّهم بمحاولة ابتسار سير التاريخ ،علينا ان نشير هنا انه لا بدّ من مرور قرنين بكاملهما ، قبل ان تصبح روسيا بالفعل ، دولة اوروبية كبرى . الا انها تمكنت منذ عهد ايفان الثالث ، ان تهيء الاسباب والعوامل التي تؤمن لها العظمة والسؤدد اللذين يخبئهما لها المستقبل البسام الطالع .

ففي غرّة ما اصطلح المؤرخون على تسميته « بالتــاريخ الحديث » نرى المسيحية الشرقية ، وقد سمت زمناً طويلا فوق المدنيات الغربية ، تنهار أطرها السياسية وتنحل ، كما نرى شقيقتها الغربية تسبقها وتتقدمها بمراحل في جميع المجالات . ان مولد روسيا ونشأتها التي لا يساعدها تنظيمها الاجتماعي البالي على المضي في هذه النجاحات التي حققتها ، لا يمكن اتخاذه بديــلا او اعتباره عوضاً عن هذا الانهيار تصاب به الكنائس الشرقية . فالعالم الاسلامي يبدو لنا ، اذ ذاك على وضــع كثير التعقيد . فبينما هو يسير القهقرى في الغرب ، نراه يحقق في روسيا الشرقية ،

انتصارات مدوية . وفي الوقت الذي نرى فيه الثقافة تصاب باعراض الوهن والكلال نرى مع ذلك الاسلام يزداد انتشاراً في هذه البلدان التي هي في مستوى حضاري متدن . فقد مضى وانقضى الوقت الذي تقتبس فيه اوروبا العلم عن الاسلام ، ولم تدق الساعة بعد مشيرة الى العهد الذي سيعتمد فيه الاسلام على اوروبا لتجديد شبابه ونشاطه . وهكذا قام بين هذين العالمين شيء من التوازن والتعادل كان من المتوقع له ان يفضي الى علاقات مثمرة وتبادل فكري خيّر بين الطرفين . ولم يطل بنا الامر لندرك على ضوء انوار المستقبل ، ان انقطاع هذا التوازن ، قبل اوانه، أخر لعدة اجيال ، قيام هذه الاتصالات المرجوة .

الفصل الخامس

أوروبا وتشكيلاتها السياسيّة الجديدة

يبدو ان القوم في اوروبا ، في أواخر القرون الوسطى ، وجدوا اخيراً الاجوبة التي طالما بحثوا عنها خلال الازمنة الصعبة التي تمرّسوا بها وتضرسوا بويلاتها. ففي العقود الاخيرة من القرن الخامس عشر ، نرى المدنية على اقوى ما تكون من التضامّ والوحـــدة والتماسك ، فتعين لكل عنصر من عناصرها المقوّمة ، المحل المجدد له ، وتنفذ بثاقب بصرها الى هذه الآفاق الرحبة من الثروة والازدهار اللذين ستبلغ اليها . وهذه الدولة التي ترسخت اصولها ، وتوطدت أركانهـا ، اخذت تمي رسالتها ، والمجتمع البشري جـــدد أطُره السياسية ، والحياة الاقتصادية نشطت وزخرت بعد ان انتظمت مرافقها واستقر الامن في جميع ارجاء البلاد ورَحُبَت آفاق الاسواق التجارية . واختراع الطباعة زود البشر الذين كانوا يبحثون عن وسائل اتصال جديدة، بامكانات وطاقات لا حد لها ولا حصر ، وبوسائل للاعلام لم يكن ليحلموا بها او بمثلها . فبعد حقبـــة مديدة من القلق والاضطراب ، عمرت النفوس كما عمرت المجتمعات في الغرب بالثقة ، وبهذا الايمان القوي الواثق من فعالية الوسائل وأهلية الادوات التي استنبطها العقـــل البشري لتنطلق بمضاء العزيمة ، نحو آفاق جديدة من الجمال والخير والحق .

فمن الطبيعي والمعقول معاً ألا تكون جميع بلدان اوروبا ، شعرت بنسبة واحدة ، وبدرجة سواء ، بهذه الازمنة الصعبة والازمات التي ابتليت بها ، كما ان شمس الحرية لم تبزغ على هـــذه البلدان معاً في وقت واحـــد . فاذا لم يخامرنا أي شك بطلوع عهد الانبعاث الايطالي في وقت مبكر ، فليس من ينكر ، مع ذلك ، النهضة السريعة التي حققتها فرنسا بعد ان تخلصت مـــن عقابيل حرب المائة سنة ونتائجها الوبيلة،يلبمها من قريب،في هذا المضار : انكلترا في عهد الملك ادوارد الرابع ، اول ملك من اسرة تيودور يتولى العرش في بريطانيا، واسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، بينما بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية تصل بتمهل كلي وببطء الى الاستقرار والتوازن ، بعـــد ان وجدت نفسها مهددة بالتوسع العثماني . ففي كل مكان ، تطل المشكلات الواحدة ، والصعوبات ذاتها ، فتتلبس الحضارة في الغرب السمات ذاتها والمظاهر ذاتها . وهـــذه المسيحية المتقادمة العهد تتسرب الى اوروبا الحديثة كلها ، وتغوص في ثناياها. فسواء مطّ البعض

نهاية الاجيال الوسطى الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، او جعل البعض الآخر بـدء العصر الحديث عند الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، يبقى ، مع ذلك شيء واحد ثابتاً هو ان كيانات ومجتمعات عصر الانبعاث وما فيها من نظم ومؤسسات ، كانت قائمة قبل اكتشاف العالم الجديد .

١ ـ ظهور الدولة الحديثة

خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تتميز الدوله الملكية من بـين نظم العالم السيادي ، بالتغلب على الصعوبات الرئاسية الثلاث التي كانت تقعدها فتزحزح بها الى الحضيض وتعيق سيرها الى الامام وتطورها الصاعد نحو الرقي ، ألا وهي : انقطاع او الغاء رابطة التبعية التقليدية ، وانقسام المسيحية وتوزعها شيعاً ، ومواجهة المسؤوليات الجديدة المتعددة بوسائل وأساليب معينة . ففي نطاق تنازع الدول البقاء وتنافسها على التجلي ، تتصرف الدولة لتوسيع وحدتها . فاذا كان عليها ان تجمع في قبضة يدها مقود الادارة واستعمال القوة ، فهي تتصرف بكليتها لتحشد بين يديها او لتستنبط الوسائل والذرائع التي تؤمن لها ملء السلطة وجماعها . فهي تجد ، بعد هـذا ، في الانحلال السياسي والاقتصادي ينزل بالأطر والملاكات الاجتماعية القديمة ، وفي مؤازرة البورجوازيات وطبقة النبلاء الجديدتين ، الوسائل الـتي تساعدها على ترويض اجهزة البنيان الاجتماعي واخضاعها لطاعتها فتجعل منها عوامل تمتثل لأوامرها ولنواهيها .

المركزية الادارية

فهذه النزعة القوية نحو الوحدة التي طالمـا استترت وراء المنافسات السلالية ، أتت اكلها وأعطت أطيب نتائجها عندما هدأت هـذه المنازعات العاصفة وركد ريحها . ومهما كانت الشوائب التي اعتورتهـا ولازمتها ، فقد أمكن الوصول بهذه الوحدة الى ما يشبه هذا الاستقرار الذي رست قواعده على مثل هـذا التوازن الايطالي الذي تم بعقد صلح لودي، عام ١٤٥٤، فأدى الى انشاء الحلف الايطالي *Ligue Italique* الذي قام في السنة التالية ، أي عام ١٤٥٥ ؛ وذلك التوازن الذي تم على حساب ، الامارات الايطاليـة الصغرى ، كان من نتائجه ان وطـد ، من جهة كيان دوقية ميلانو وجمهورية البندقية الكلية الاحترام ، كما وطد ، من جهة اخرى ، مملكة نابولي ، وذلك باقامته نطاقاً حول جمهورية فلورنسا وجمهورية سيانا ودولة الكرسي الرسولي. وقد تألف من هذا كله حلف غير متماسك وغير مستقر ، لا رأس له ولا رئيس ، قام واستمر بقوة الامر الواقع أكثر من قوة ارادة الناس ، أتاح في الداخل ، لكل دولة تركب منها ، ولا سيما للدولتين الاوليين ، السير نحو الاستقلال الذاتي ، والوقوف حيناً وجهاً لوجه ضد الدولة المجـاورة لها ، وحيناً في صفها ومساندتها . من ذلك مثلاً العون المالي الذي قدمته فلورنسا لكتلة آل سفورذا العسكرية. من الشواهد على هذا الوضع، الكتاب الذي وضعه بين ١٤٤٨ — ١٤٥٣، فلافيو بيوندو بعنوان:

« ايطاليا المصورة » الذي يعطينا لأول مرة ، صورة عن الوضـــع الجغرافي في شبه الجزيرة الايطالية بكاملها .

فهذه الوحدة الجغرافية المتماسكة التي افتقرت اليها ايطاليا كل افتقـــار والتي حاول شارل الجسور عبثاً إقامتها وتحييزها بين نهري السوم والرين ، بتوسيـــع دوقيته الى حدود نهر الجلدر وذلك بضم كولونيا والقسم الاعلى من الالزاس ، او محاولته ضم المقاطعات الواقعة « من هذا الجانب » الى المقاطعات الواقعة « من الجانب الآخر » من ولاية اللورين ، مثل هذه الوحدة توصلت الى تحقيقها كل من فرنسا واسبانيا وانكلترا ، وذلك بعد ان تمكنت كل منها من ترسيخ ، دعائم النظام الملكي فيها ، عن طريق اتفاقات شخصية او مصاهرات أمنت لها ضم اقطاعات قديمة الى ممتلكاتهم العائلية ، بحيث اصبحت الاملاك الاميرية والدولة شيئاً واحداً ، او كلمتين مترادفتين . ان زواج ايزابيل ده قشتالة من فردينان داراغون ، اقام رباطاً شخصياً بين المملكتين الرئيسيتين في شبه شبه الجزيرة الايبيرية ، كما ادى ، من جهة اخرى ، الى الاخلال بالتوازن القائم فيها لصـــالح قشتالة . فعندما صارت الاملاك الواسعة التي كانت ملكاً للمنظمات العسكرية في مدن شنتياغو وكالاترافا والقنطرة ، الى العرش الاسباني ، حقق بذلك السيطرة على املاك شاسعة . وعندما عرف هذا العرش ان يستغل حالة الضعف التي آلت اليها مملكة كتلونيا ، تمكن من وضع الاسس الركنية لوحدة مملكة قشتالة التي تمّ تكوينها نهائياً بالاستيلاء على مملكة غرناطة عام ١٤٩٢ .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت بريطانيا وجدت القاعدة التي ركّزت عليها السلطة الملكية . ان وصول هنري تيودور الى كرسي الملك وضع حداً لهذه الانقسامات السياسية ولهذه المشاحنات الداخلية الدامية التي كانت مزّقت البلاد خلال حرب الوردتين (١٤٥٥ – ١٤٨٥) ، وبذلك هيأ حلاً للمشكلة الغاليّة ، كما هيأ الاسباب لقرار الاتحاد الذي صدر عام ١٥٢٥ ، ومهّد السبل لضم المقاطعات المعروفة بالمقاطعات البلاتينية كمقاطعة دور هام مثلاً ، فتمت بذلك القوة للمملكة .

وهذه المقارنة المتوازية تبدو على اتمها في هذا الاتحاد الشخصي الذي وقع بين دوقية بريتانية وصاحب العرش في فرنسا ، وذلك عن طريق زواج الدوقة حنة من الملك شارل الثامن (١٤٩١) ممهداً بذلك السبيل امام قرار الاتحاد الذي اتخذ عام ١٥٣٤ فاذا ما تخلى الملك قبل مباشرته تجريداته العسكرية على ايطاليا ، عن مقاطعات الارتوى ، وفرانش كونتيه والروسيون فلا يضير تنازله هذا بشيء ولم يمنع من ان تكون مملكته ، اذ ذاك ، الدولة الوحيدة الكبرى الخليقة بهذه التسمية ، فبين الاقطاعات التي تنعم بالاستقلال لم يبق سوى الاقطاع الخاص بآل بوربون ، وهو لعمري إقطاع له شأن كبير ، وإقطاعي : اورليان وأنغوليم القريبين جداً من ممتلكات التاج ، بحيث لم تمر عشرون سنة حتى جرت تصفيتها وضما الى املاك العرش .

المركزية السياسية : فعلى درجات تباينت تباين البلدان واختلاف الممالك القائمة ، نرى السلطة الملكية اكثر ثقة بالنفس واكثر وعياً لمسؤولياتها ، فهي تعتمد كل الاعتماد

على نظم اشد تماسكاً وانسجاماً ، وتمارس سلطتها من اعلى الى اسفل ، بواسطة اداة ادة ادارية اكفأ ، تتشعب وتتضخم اكثر مع الوقت استجابة للظروف العارضة . ففي وقوفها بوجه القوى والعوامل التي تحاول ايهانها وتفتيتها وتجريدها من وسائل العمل،رأينا الدولة تنشىءلها الادوات التي تساعدها على العمل الجدي واقعادها على اصول راسخة . وهنا ايضاً نرى فرنسا واسبانيا وانكلترا ترسم الطريق وتمهد السبل. فالاعتقاد الشائع ان سلطة الملكهي من حق الهي ، اضفى على ملوك فرنسا، منذ تكريس الملك شارل السابع وتتويجه ،شيئاً من الوقار والهيبة زادهما ابهة وجلالاًحفلة التكريس التي اضفت بدورهامسحة منالقدسية علىالدولة، بينما اسم روما كان يذكر دوماً بامجاد الامراء من نصراء العلم والادب .ففي كل دولةلعب المجلس الاستشاري للملكدوراً كبيراً ازداد اهمية مع الزمن،اذ ساعدعلىتأمينالسدادوالرشد فياعمالالحكومة وجعلمجال العملواسعاً كلما اخذت الدولة بالامتداد وانشاء المصالح المتخصصة لتتمكن من القيام بالاعباء المترتبة عليها ، على الوجه الامثل . وهذا المجلس الاستشاري الذي كان يضم نحواً من ٥٠ شخصاً ، في فرنسا ، استحال في اواخر القرن الى المجلس الاعلى الوحيد المكلف النظر في هذا العدد العديد من القضايا التي تحال الى محكمة الملك الخاصة . والملك ادوارد السابع ، في انكلترا ، اضطر لأن يضاعف هو الآخر عدد اعضاء مجلسه الاستشاري ، اذ كان بعض اعضائه يرافقون الملك دوماً في حله وترحاله ، بينما يستمر الآخرون في الجلوس للقضاء،في«القاعة ذات الانجم»،من قصر وستمنستر. وعلى هذا النحو كان الامر في اسبانيا ، ولا سيما في قشتالة ، فالمرسوم الملكي الذي صدر عام ١٤٨٠ بعنوان *Ordenamiento Del Consejo Real* يوضح تماماً اختصاص هذا المجلس وصلاحياته ، فحدد عقد جلساته في خمس قاعات خاصة ، وفقاً لطبيعة القضايا التي هي قيد النظر . وديوان الاختام يستحيل محكمة عليا تحمل اسم مجلس الملك ، وهو مجلس قام مثله في مقاطعة فلاندر . والادارة في حكومة بورغونيا تنحو هي الاخرى ، هذا النحو الذي سارت عليه الدول الكبرى ، بارادة سنية من شارل الجسور . ففي كل مكان نرى تصريف شؤون الدولة يسير على الوتيرة ذاتهاويتلبّس السمات ذاتها . فموظفو السر لدى ملك فرنسا، وموظفو ديوان الاختام الملكي في انكلترا ، هم موظفون يجري انتقاؤهم بشكل دقة . وملوك اسبانيا الكاثوليك كانوا يعولون على مثل هؤلاء الموظفين تعويلهم على الوزراء انفسهم .

مر معنا كيف ان موجبات الحرب ومقتضياتها حملت كلاً من شارل السابع وشارل الجسور على انشاء جيش ملكي . ونهج لويس الحادي عشر النهج ذاته معززاً جيشه بفرقة من المدفعية . والجيش الاسباني الذي تم على يده فتح غرناطة ، اقتبس تشكيلاته واستمد تنظيماته من نظام التعبئة في الجيش الفرنسي الى الشمال من جبال البرانيس . وفي الوقت ذاته اخذت الدولة تعتمد، في الملمات الصعبة ،على الوسائل غير العادية ، فذهبت هذه عادةً في القوم . وراحت الدولة تستثمر الى اقصى حد ، امكانات الاملاك الاميرية التابعة لها . فقد اعيد ، مثلاً تنظيم املاك التاج، في انكلترا ، بعد الانتهاء من الحروب الاهلية (حرب الوردتين) . كذلك خضعت املاك

العرش في اسبانيا لاصلاح جذري ارتفع معه الفيء العام من ٨٨٥،٠٠٠ مرافيديس عام ١٤٧٤، الى ١٢،٧١١،٠٠٠ مرافيديس بعد ذلك بثماني سنوات،اي في عام ١٤٨٢. اما في فرنسا حيث كان التاج ينعم باملاك واسعة ، وحيث كان مدراء بيت المال في الولايات والاقضيـة ملزمين بان يقدموا ، في كل سنة ، كشفاً لبيت المال ، بالتقديرات المالية العامة ، وآخر بالواردات المحصلة ، مع العلم ان املاك التاج لم تكن لتعطي سنة ١٤٦١ ،مثلاً سوى ١/٣٦تقريباً من مجموع واردات الدولة . فقد كانت فرنسا اول دولة ملكية أقعدت نظامها الضرائبي على قواعد ثابتة بعد ان اخذت ترعى مواردها المالية بيد قوية . فقد كان ديوان المحاسبة ومجلس ممثلي الشعب يحددان كل سنة ، ميزانية الدولة ، وبالاستناد الى هذا التحديد كان يجري توزيع الضرائب ، وفقاً لابواب الواردات الاربعة فتوزع على الاقضية والنواحي والاحيـــاء والمكلفين . اما ضريبة الملح فقد كانت في الوقت ذاته ضريبة غير مباشرة ، وضريبة نسبية يراعى في تحديدهـا وضع المكلف المالي ، اذ ان سعر البيع تحدده السلطة ، وعلى كل مكلف ان يشتري منه اقـــله الحد الادنى . كذلك هنالك رسوم اخرى تفرض على عمليات البيع وشراء البضائع ونقلها وهي رسوم ُعرفت عندهم عادة باسم « ضرائب *Aides* . ومن هذه كلها كانت تتألف اهم موارد الدولة ، مع العلم ان ضريبة الاعناق كانت تعطي ثلاثة ارباع الموازنة . وكانت هذه الرسوم والضرائب ، على اختلافها ، يجبى ، في كل من فرنسا واسبانيا ، بطريقة التلزيم ، وتخضع لتفتيش دقيق من قبل مراقبين يعينهم الملك.وفي هذا الوقت برزت صلاحيات مجلس الضرائب الذي قام منه هيئة في كل من العاصمـــة باريس ، وروان ومونبلييه، كما برزت صلاحيات مجلس الخزينة ، الذي كان ُيعنى على الاخص ، باملاك الدولة . وكان مدققو الحسابات في ديوان المحاسبة يطلبون من كل الجباة ومديري بيت المال حساباً دقيقـاً .وهكذا فان اختلفت طرق تحديد الضرائب والرسوم والجباية، واذا كان النظام المالي الذي سارت عليه ولاية اللانغـــدوق يختلف عنه في ولاية بروفانس مثلاً ، وهذه عن ولاية الدوفينيه، فالكل كانوا يدفعون كما كان الكل يخضع للتفتيش المالي . وكان الناس ، اينما ُوجدوا،يشعرون بقبضة الدولة الشديدة،ولاسيما في المناطق القريبة من باريس حيث كانت المراقبة المالية في الاقضية والنواحي تخضع لتفتيش أشد من قبل مأموري العرش .

ويد الدولة هي ايضاً يد العدالة . فمداخلات ممثلي الملك تبرز في كل مكان ، واكثر فاكثر، وان لم تؤد الى تغييرات محسوسة . وفي سبيل ايصال العدالة الى المتقاضين ، نرى القضاة يعقدون باستمرار جلساتهم للمحاكمة ، ولكي تبسط الاعمال امامهم ، راحت الدولة توحد من التشريعات المعمول بها والاجراءات الرسمية . فهنري السابع لم يجدد شيئاً في انكلترا ، بل جرب ان ينفض عن النظم المعمول بها ما تراكم عليها من غبار النسيان . اما في فرنسا ، فالقانون الذي صدر عام ١٤٥٤، اي بعد انتهاء حرب المائة سنة، بعام واحد وهو القانون المعروف بـ *Montilz-lès-Tours* والذي يعتبر بحق ، اول اجراء او اول بناء في التنظيم العصري للقضاء ، كان في وقت واحد : قانوناً ادارياً وقانوناً للموجبات . وبعد ذلك اخذوا بتحرير ما يعرف بـ : « عادات واعراف بورغونيا ١٤٥٩ » ثم راحوا يحررون الاعراف المعمول بها محلياً ، وتوسيع نطـــاق الاعراف

التقليدية المتبعة في باريس . وبذلك رسموا ، من بعيد صورة لتوحيد القضاء الذي طالما راود خيال الملك لويس الحادي عشر. وقد انبثق عن مجلس باريس التمثيلي الذي انبثق بدوره عن المجلس الخاص للملك هذه المجالس التمثيلية التي تشكلت من عهد قريب في كل من مدن : تولوز، وغرينوبل وبوردو ، وديجون ، مع استمرار ديوان محاسبة روان وأكس . كل ذلك أكمل النظام المحكم الذي اقامته الدولة للتسييج حول رعاياها . وسلكت الطريق ذاته اسبانيا ، في عهد ملوكها الكاثوليك وذلك بانشائها محكمة فالادوليد واولتها صلاحيات تعلو على صلاحيات القضاة المحليين كما انشأت الدولة محكمة اخرى عليا في المناطق الجنوبية مركزها *Ciudad Read*. وبعد انشاء ديوان التفتيش في البلاد ، بين ١٤٧٨ - ١٤٨٧ اصبح في البلاد شيء من وحدة القضاء ، بحيث اخذت الدولة تعد منذ عام ١٤٨٠ قانوناً موحداً وباشرت باصداره تباعاً .

الدولة والبنيان الاجتماعي

وهكذا استطاعت الدولة فرض سيطرتها وهيبتها على كل طبقات المجتمع وارغامها على قبولها والرضوخ لها. وهذه السيطرة فرضتها، قبل كل شيء ، على طبقة النبلاء الاقطاعيين القديمة ، فسمرت خوفها في قلوب الاشراف بعد ان أخنى عليهم الدهر من جراء العوامل الاقتصادية الجديدة التي طلعت على البلاد. فحرب الوردتين، في انكلترا ، أودت بالنبلاء الى الخراب والاضمحلال . اما في فرنسا ، فالعدالة نزلت دونما رحمة ودون اي اعتبار ما للمرتبة الاجتماعية ، بدوق دالنسون ، عام ١٤٥٥ ، وبكونت أرمنياك، سنة ١٤٦٠ ، وبكونت سان بول ، عام ١٤٧٥ . فبين التنازلات التي اضطر لويس الحادي عشر للتسليم بها ، عام ١٤٦٥ ، بعد اتفاقات وضعها وفقاً للاصول المرعية ، لصالح « عصبة المصلحة العامة » وانفراط ما يعرف بالحروب الجنونية، بعد ذلك بنحو عشرين سنة، سجلت السلطة الملكية تقدماً ظاهراً . اما في اسبانيا ، فقد انصرفت جهود الملوك الكاثوليك فيها بسرعة كلية الى كبح جماح نبلاء اسبانيا المشاغبين ، وارغمتهم على خفض جانبهم واصواتهم ، وذلك عن طريق اسناد بعض الوظائف في القصر، الى فريق منهم . وشعوراً منهم بالسلطة الملكية التي كانوا ينعمون برعايتها ، راح الموظفون الملكيون انفسهم يعملون جاهدين ، على اخضاع النبلاء وترويضهم . فقد عرف ممثلو الملك ان يقفوا بنجاح ، بوجه الامراء المشاغبين الذين كانوا احياناً يلوّحون بانهم : «امراء بنعمة الله » مدللين بذلك ، على حسبهم ونسبهم ومحتدهم المجيد، كما عرفوا كيف يدخلون الى قطاعات هؤلاء الامراء ويقيمون فيها حدود الملك والعرش . ونائب الملك العام الذي امر بوضع الحجز على املاك كبير رجال المال والاعمال ، اذذاك ، جاك كور ومصادرتها فيما بعد ، عرف ان يقف عند الاقتضاء ، في وجه دوق ده بوربون، وفي وجه الملك رينيه ، وهو السيد المطلق في مقاطعة بروفانس . وبعد عهد الملك الفونس الخامس الذي تميز بالاضطراب والقلاقل ، شعرت طبقة النبلاء في البرتغال ، بوطأة الملك يوحنا الثاني، اذ القى القبض على دوق براجانس ونفذ فيه حكم الاعدام، بعد ان احتل جنود الملك قصره وعبثوا به وبمن فيه . وفي اجتماع ممثلي الشعب في ايفورا (١٤٨١) شجع سكان المدن ، الملك على اعادة النظر في شرعية الالقاب التي يحملها النبلاء ، وانزال جنوده في املاك الامراء .

والاكليروس نفسه بعد ان تم إخضاعه وترويضه ، اصبح اداة بيد الملك في ترسيخ سلطته . فالملك يوحنا الثاني تدخل بين البابا واحباره . والملوك الكاثوليك ، لم يقتصروا ، في اسبانيا على جعل ديوان التفتيش الجديد ، اداة سياسية بيدهم ، بل استطاعوا حمل البابا التسليم لهم بحق تعيين الاساقفة وترشيحهم للمراتب الكنيسة . فقد كان سبقهم الى هذا ابن الكنيسة البكر (اي ملك فرنسا) . فمع استمرار اعضاء مجلس باريس التمثيلي (بارلمان) على القول بان المبادىء الغاليكانية التي نصت عليها معاهدة بورج ، هي احد الاسس التي يقوم عليهـا النظام الملكي في فرنسا ، واستمرار الكرسي الرسولي ، من جهة اخرى ، على شجب نصوص هذه المعاهدة والتنكر لها فقد سلم البابا سلتسوس الرابع ، للملك لويس الحادي عشر ، سنة ١٤٧٢ بحق ترشيح بعض رجال الكنيسة ، لبعض المراكز الكنسية العليا . ففي خلال وصاية الملكة حنة ده بوجو ، اثناء انعقاد مجمع سانس ، عام ١٤٨٥ ، اخذ الملك بيده ، قضية القيام باصلاح شامل في كنيسة فرنسا . وفي الوقت ذاته ، تابع مساعيه لتعيين سفير للبابا يكون بالفعل بمثابة ، نائب للبـابا يخضع للسلطة الزمنية . ان رجلاً كالكردينال بالو سولت له النفس ، عام ١٤٨٣ ، ان يكون له من النفوذ في فرنسا ، ما كان للكردينال خيمنس سيسنروس ، في اسبانيا .

لم يكن بامكان السلطة الملكية ان تحقق ما حققت من نجاحات سريعة ، لو لم تعرف كيف تفرض هيبتها على المدن ذات الامتيازات والاعفاءات ولو لم تقم عليها وصايتها بمؤازرة الطبقة البورجوازية فيها . فحركة اضمحلال هـذه الاستقلالات الادارية التي نعمت به بعض المدن ، لم تبلغ يوماً من الظهور ما بلغته في البلاد الواطية التابعة لبورغونيا . فبعد الحوادث الداميـة التي طبعت ، في مدينة لياج ، عهد فيليب الصالح وفيليب الجسور ، قام مكسيمليان عاهل النمسا والوصي على ورثتهم وخليفتهم فيليب الجميل ، يحطم بعنف ، عن طريق صلح كادزنت (١٤٩٢) الحركات الثورية والفتن التي نشبت في مدينتي غانت وبروج ، والاشراف الدقيق على الامور الادارية منها . والملوك الكاثوليك في اسبانيا لم يكونوا أقل غلظة تجاه المدن الاسبانية حتى ما كان منها غيوراً على امتيازاتها ، متحمساً لحرياتها ، حريصاً على حياتها ، والحفاظ عليها ، كمدينة برشلونة مثلاً ، اذ راح ممثلو الملك فيها *Corregidores* يشددون على مراقبة الامور المالية في البلديات ويجرون عليها تفتيشاً صارماً ، كما كانوا يوجهون لها الارشاد والنصح في تعيين القضـاة المحليين . والبورجوازية المحلية ، اذ قدّرت راضية مرضية ، الانعامات التي نالتها مهما غـلا منها الثمن ، والجهود التي بذلتها السلطة الملكية في الحفاظ على النظام ، والسهر على الامن في البـلاد تركت الامور تجري على اعنتها . فمن صفوف هذه البورجوازية ، استمد الملوك اكثر عملائهم ولاءً واوفرهم طاعة وامتثالاً . فقد وجـد الملك ادوار الرابع خير نصرائه بين ما يعرف عندهم بـ *Merchant Adventurers* . والملك فردينـان الكاثوليكي لم يبخس قط مؤازرة البورجوازية الكتلانية حقها وفضلها عليه . وملك فرنسا ، كان بامكانه ان يعتمد الاعتماد كله على خدمات رجال المال والاعمال له ، في المنطقة المفضلة لديه : وادي نهر اللوار ، انطلاقاً من جاك كور ،

وغليوم فاري ومروراً بآل تورانجو وانتهاء في اواخر القرن ، بآل ترستن وبوهيه ، وآل بويث وآل بريسونيه الذين بلغوا الذروة. فمجلس شورى الملك شارل السابع ،عام ١٤٥٥ ، تألف ثلثا اعضائه من رجال الاكليروس ، ومن ممثلي البورجوازية . وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، اي في سنة ١٤٨٤ ، عند التئام اول اجتماع عام لممثلي البلاد في مدينة بلوى، لعب ممثلو المدن وتوابعها الى الاجتماع المذكور ، دوراً بارزاً .

وعلى اساس من هذا الاتفاق العام الذي شد النظم الملكية الى البورجوازية ، قام التوازن بين السلطة وبين المنظمات الاجتماعية التي ظهرت حديثاً . فقــد امكن لانكلترا ، كما يزعم فورتسكيو ، احد رجال الفقه والقانون اذ ذاك ، في كتابه الموسوم : « حكومة انكلترا » ان الاتحاد بين السلطة والحرية ،تحقق تماماً عن طريق ضم السلطة السياسية الى السلطة الملكية ، هذه السلطة التي راحت، كما لاح له ان تشيل وتستبد في فرنسا. ان سلطة ملك فرنسا اذ ذاك كانت ولا شك اكثر السلطات سيطرة وسيادة واكثرها فعالية ونفوذاً ، وتمتعت بحرية تصرف اكثر مما تم للسلطة الملكية في انكلترا . ومع هذا كله ، فقد كانت تحتاج للكثير، لتصبح، في فرنسا كما في اسبانيا ، مستبدة ، مطلقة . فقد كانت سلطة الملك ، في القارة ، تبرز للعيان بما له من هيبة ووقار ، وباعتراف الجميع لسلطانه وسيادته اكثر ممـــا كانت تبرز عن طريق الاكراه والقسر والضغط . والاصوات التي كانت ترتفع اثناء اجتماع ممثلي الامة في تور منادية بمبادىء شبيهة بتلك التي نادى بها ميرابو عالياً ، فيما بعد ، حول السيادة، سبقت بقليل الاماديح والتقاريظ التي رفعت الى الملك لويس الثاني عشر جاعلة منه : «ابا الشعب » و «ابا الملكية الفرنسية الكبرى ». ومن جهة اخرى ، فالملك فرديناند داراغون الذي احترم التقليد المشروع الذي خلفه يوحنــا الثاني ، لم يظهر : لا في مدينة سرغسطة ولا في مدينة فالنس او برشلونة ، الملك المطلق الذي يحلو لبعضهم احياناً ان يصفوه به . اما في ايطاليا ، « فالطاغية » هو الذي كان الشعب ، على طريقة القدامى ، يعيشه ويحييه وينادي به عالياً ، بعد ان يكون عرف كيف يحقق مطالب هذا الشعب ويلبي امانيه .فالحكم المطلق الحديث لم تكن الاحداث نقشت بعد ، اسمه على الشفاه، وكان على « الامير » ان يراوغ ويخاتل ويناور ، قبل ان يأتي مكيافيلي ويرسم لنا الصورة التي رسمها عنه .

٢ ـــ انعكاس الاوضاع وانقلاب الاحوال

اذ كان من الخطل بمكان ان نطلق على عهد يفتقر الافتقار كله ، الى المصادر الاحصــائية الخاصة ، الالفاظ التي يجري اليوم استعمالها على لسان علماء الاقتصاد المحدثين ، فلا بد من التسليم مع ذلك ، من ان اوروبا دخلت بمجموعها ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عهداً من التطور الديموغرافي والنمو الاقتصادي والتحول الاجتماعي ، يختلف كل الاختلاف ويتميز كلياً عن الركود او الجمود الذي طبع الاجيال الماضية .

وعلى نسبة ما نستطيع ان نتبين الاشياء ، ونبدي فيها رأياً معللاً ، نرى عدد السكان آخذاً بالازدياد والنمو باستمرار ، اذ ان نتائج هذا التكاثر لم تصبح ملموسة والتحقق منها ممكناً الا في اواخر القرن المذكور . ويؤكد كلود سايسل في عهد الملك لويس الثاني عشر ان : « منذ نحو ٣٠ سنة تقريباً «هنالك مقاطعات فرنسية عديدة ، كانت من قبل بوراً واراضيها مواتاً اصبحت « الآن عامرة ، مزروعة تقوم عليها الدساكر والمنازل » وان المدن تفتقر للامـــاكن التي تصلح للبناء ، « وان عدد السكان قد ازداد على العموم بفضل السلام الطويل الذي ينعم الجميع بظله ». هذا الكلام لعمري فيه الكثير ولا شك من الزلفى والتدليس ، الا انه لا يخلو من بعض الحقيقة . ان الاتساع الذي بلغه توزيع التركات عن طريق الارث ، يشير هو الآخر ، الى ازدياد عـــدد المواليد ، وهذه الموجات الجديدة من النازحين عن مقـــاطعات بريتانية وبيكارديا،ومن ايطاليا تحاول سد الفراغ في كل من مقاطعات نورمانديا والاكيتان وبروفانس ، هذا الفراغ الذي سببته الازمنة الصعبة . فقد كانت فرنسا ، في اواخر ذلك القرن ، تعتبر اكثر دول اوروبا الغربيـــة سكاناً .

وهل من المعقول بشيء ان تستطيع كل من اسبانيـا والبرتغال الاستمرار في حركة التوسع والتمدد والانتشار التي استمرت فيها اكثر من قرن ، والتي لم نر لها مثيلاً ولا شبيهاً من قبل،لو لم ينعها اصلاً بمثل هذا النمو والازدياد الديموغرافي؟ ومهما يكن ، فما هي ايطاليا الشمالية والوسطى تشهد في القرن الخامس عشر ، مثل هذا النمو ، بين سكان الريف الذين نراهم ينتقلون الى القرى الجديدة التي تطلع في ارجائها . والذي نعرفه من اطراد النمو الديموغرافي ، في كل من سويسرا والمقاطعات الالمانية يجعلنا نشعر جيداً بهذا التوسع الديموغرافي فيها ، والتي تميز باقبال ظاهر من المراهقين على الزواج وبتطور محسوس في المدن .

اما الاراضي الواطية ، فالوضع اختلف فيها بعض الشيء : فسكان الريف يزداد عددهم ببطء ان لم يتناقص لصالح مدن الشمال ، كمدينة امستردام مثلاً . اما في الجنوب فالمدن الصناعية القديمة الواقعة في الداخل كانت تعاني اعراض الشيخوخة ، اذا ما قارناها بهذه المراكز الجديدة امثال هندشوت ، والمراكز المتوسطة امثال كورتريه التي اخذت تتقهقر امـام الموانىء الجديدة التي تطلع كمدينة بروج مثلاً وهي ستبرز بعد عام ١٤٨٠. اما في انكلترا ، فالتطور الديموغرافي بدأ ببطء كلي خلال الاضطرابات التي عمت البلاد ثم اخذت الحركة تنشط وتشتد بعد ان وضعت الحرب (حرب الوردتين) أوزارها ، وانقطع بالتالي دابر الاضطرابات ، ليزداد بسرعة عندما خيم السلام على البلاد . وهكذا نرى ازدياداً مطرداً بين العمال والمستهلكين على السواء .

ومع ازدياد عدد السكان ، «ازدادت ، كما يؤكد كلود سايس،مقتنياتهم وامتعتهم كما ازدادوا دخلاً وغنى وثروة » . وبين الخصائص التي ميزت الوضع الاقتصادي ، في القرن السادس عشر، ازدياد الانتاج ، واتساع حركة المقايضات ، وهذه النزعة الجديدة نحو الاقتصاد القومي ، التي يشوبها ـ وهو شيء من غريب المفارقات ـ ميل للتوسع في الاسواق الخارجية . فاذا ما اعاق عدم كفاء

النقد والقدرة على التسليف ، سير التطور ، فالاقتصاد الذي التزم حتى ذلك التـاريخ الحدود الاقليمية والمكانية الخاصة ، اخذ نطاقه بالاتساع والانفراج تدريجياً، والضغط المزرح الذي تمثل في هذه الاحداث السياسية العارضة ، اخذ يطبع انشاء الوحدة الاوروبية بعد ان سيطرت عليه وتحكمت به العوامل الاقتصادية .

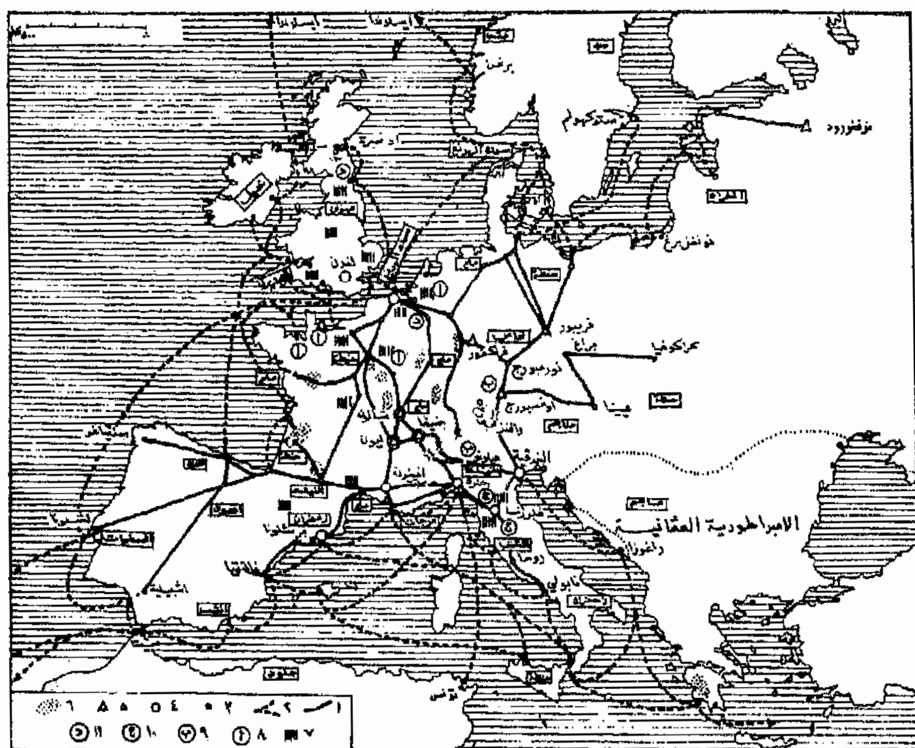

(الشكل ١٨) الاقتصاد الاوروبي ، في اواخر القرن الخامس عشر

١ الطرق البرية ٢ - الطرق البحرية - ٣ مراكز التجارة ٤ - المراكز المالية٥ - مراكز الاسواق الموسمية ٦ - زراعة الكرمة ٧ ــ صناعة الاجواخ ٨ ــ صناعة الاقمشة ٩ ــ صناعة النسيج ١٠ ــ صناعة الحرائر ١١ ــ مناجم الفحم

فان لم نستطع الاخذ بتأكيدات سايس حرفياً ، عندمـا يقول ان ثلث مساحة الارض في فرنسا تم احياؤها واخذوا بتشغيلها واستثمارها ، في الربـع الاخـير من القرن الخامس عشر ، فلا بدمن ان نلاحظ مع ذلك الشوط الذي قطعته عملية احياء الارض وعزقها، وتجديد عقود فرق بينها اكتراء الاراضي الزراعية، مع زيادة رسوم الايجارات وارتفاع اسعار الارض الزراعية ورجحان

الطلب على العرض والتحسين الذي طرأ على مردود الارض ، وازدياد محصول الضرائب والزيادة في الانتاج يرافقها عادة زيادة في جودة الصنع والصنف ،فاستبدلت زراعة الجادور بزراعة القمح في الاراضي الكلسية التربة التي تألفت منها سهول مقاطعة البري ومرد ذلك الى ان كثيراً ما كان اصحاب الاراضي ومالكوها من اغنياء التجار ، فقد همهم جداً ان يحسنوا من وضع اراضيهم ويزيدوا من غلالها ومدخولهـــا ، فراحوا يشرفون على استثمارها بكل دراية وعناية . فهؤلاء البورجوازيون في كل من باريس وروان ، وتور وليون وتولوز، ليسوا بالوحيدين الذي يحسنون الافادة من املاكهم الى الحد الاقصى. ويجري الامر على هذاالشكل ايضاًفي سهول لومبارديا واميليا وتوسكانا ، بينما تجار الاصواف يشجعون تربية الاغنام ويفضلونها على زراعة الحبوب . كل هـذا يتم دون تسجيل اي تطور محسوس في الاساليب التقنية ، باستثناء وسائـــل وادوات استثمار الارض لدى اكثرهم تطوراً من السكان في ضاحية باريس ، بفضل ازدهار صناعة الحديد،وبفضل استعمال المحاريث « المتخذة كلها من الحديد » .

والرغبة في البيع والتنفيق في الاسواق ، نشّط التقدم التقني مما ادى بالتـــالي الى تطوير الانتاج الصناعي بشكل ابرع ، كما ان اقبال الناس على الانسجة الناعمة ، السهلة الصنع والقليلة الكلفة ،ضمن النجاح لمعامل انشئت في الاوساط الريفية، تقع في السهل الفلامنكي ، وكانت عاملا ادى الى ازدهار مصانع الانسجة والحياكة في المانيا ، وبذلك تهيأ السبيل امام تكديس البضائع وتوفير رؤوس الاموال ، عماد الحركة التجارية الكبرى التي ستنشط عبر المحيط الاطلسي .

والطريف المدهش ، بعد هذا كله ، هو الازدهار غير المتوقع الذي عرفته صناعة التعدين ، منذ عام ١٤٦٠ ، ولا سيا في اوروبا الوسطى . فقد بلغ التقدم التقني ، درجة العلم بفن واصول، كما ان اكتشاف احسن السبل وامثل الاساليب الصناعية لحفر الارض وتصريف المياه ، وتأمين وسائل التهوية، كل ذلك ساعد على استثمار المناجم الغنية في كل من سكسونيا وبوهيميا وهنغاريا والنزول الى عمق ٦٠٠ قدم في بطن الارض. والتمويل اكثر فاكثر ، على القوى المائية المحركة زاد في طاقة المنتج كما اعطى المطارق قدرات اكبر بحيث امكن نقل معـــامل صهر الحديد وتحويلها من المناطق الجبلية نحو المنخفضات. ان انشاء مصاهر للحديد بعلو عشرة اقدام ضاعف ثلاث مرات القدرة على الطاقة الانتاجية في معامل صهرها . وليس من المستبعد قط ان يكون انتاج المعادن قد بلغ في اوروبا الوسطى، بين الفترة الواقعة بين ١٤٦٠ – ١٥٣٠ ، خمسة اضعاف ما كان عليه من قبل . واكثر ما سعوا الى توفيره وتأمين المزيد منه ، معدن الفضة الذي كان المعوّل الاول عليه لدى الحكومات كما كان عماد الاقتصاد وقوامه اذ ذاك ، وهو معدن حاول جاك كور ، ان يكتشف بعض عروقه في مقاطعة ليون . وكان يخالط معدن الفضة، الزئبق ، الا انهم كانوا توصلوا في مقاطعة السكس، حوالي عام ١٤٥٠ الى اكتشاف طريقة لفصل الواحد عن الآخر . واخذت انلكترا تنشّط استخراج الفحم الحجري، من هذه المنطقة الواقعـــة على مقربة من نيوكاسل وتصدر منه مقادير مهمة الى القارة . واشتد في كل مكان الطلب على

الحديد بعد ان كثرت وجوه استعماله ولا سيا في اعداد اعتدة الجيش ومهامه الحربية . فلا عجب من ان تصبح مقاطعة ستيريا في النمسا ومقاطعة كنتبريا ، في اسبانيا من المناطق التي اشتدت فيها ونشطت صناعة التعدين .

والى القطاع الاقتصادي يجب ان نضيف استثمار معادن الشب الغنية في مدينة تولفا الواقعة في ممتلكات الكرسي الرسولي ، فجاء اكتشافها في الوقت المناسب ، عندما فقد الجنويون سيطرتهم على مناجم الشب التي كانوا يستثمرونها ، في آسيا الصغرى ، فوقعت تحت سيطرة الاتراك العثمانيين . وقد حاول الكرسي الرسولي ان يقيم «مناصفة مع آل مديتشي» نظام احتكار» لتجارة الشب المستخرج من ممتلكاته ، في اوروبا كلها . وهذا الحادث بعينه يبرز لنا المحاولة المتزايدة» يشترك بها كل من الدولة ورأس المال للسيطرة على استثمار هذا المرفق الجديد من مرافق الاقتصاد في اوروبا . ففي كل دولة يحاول الملك اثبات حقوقه الملكية على المناجم فيصدر بشأنها التشريعات التي تؤيد هذه الحقوق ، كما حدث ذلك بالفعل في الامارات الالمانية ، وفي مناجم القصدير ، في انكلترا ، وفي دولة الكرسي الرسولي ، وفي فرنسا حيث نشر لويس الحادي عشر اول مرسوم يتعلق باستثمار المعادن ، عام ١٤٧١ . فان لم ترتسم ، حتى ذاك العهد ، للدولة ، سياسة واضحة في المجال الاقتصادي ، فقد اخذت آثاره تشعر بوضوح ، بما يمثله العامل الاقتصادي في البلاد من قوة وما يوفره لها من غنى . وخير مثل على ذلك ، امارة فلورنسا الضيقة الرقعة ، في عهد آل مديتشي ، وعلى نطاق اكبر ، مملكة انكلترا التي عولت في معايشها ، الى حد بعيد ، على الرسوم التي اخذت تستوفيها دوائر المكس عن هذه المادة . ولويس الحادي عشر الذي تتلمذ ، ولو من بعيد على نيقولا اورسم بين ١٣٣٠ - ١٣٨٢ (اسقف ليزيو ورئيس كلية نافار ، واحد كبار العلماء في الاجيال الوسطى المتأخرة) . والرائد الذي اخذ عنه بدوره كولبير ، اصدر عدداً من القوانين والتشريعات التي حاول فيها تنظيم صناعة نسيج الاصواف واستثمار المعادن ، فجعل من هذا كله اداة طيعة لبسط سيطرته . ويبدو انه حلول في المدرجة الاولى ، تحرير المملكة من الروابط الاقتصادية والتجارية التي شدتها الى الخارج ، ولا سيما عندما ادخل صناعة الحرير الى البلاد . وقد كان المبدأ الذي عمل به اذ ذاك ، هو ان غنى دولة ما يقاس بنسبة ما لها من نقد. وبعبارة اخرى فاي مجتمع يفتقر للذهب ترى الحكومة نفسها عرضة معه للتنافس المالي وتحت وطأة المنظمات المالية .

وسياسة الاصلاح المالي التي دشنها في فرنسا الملك شارل السابع بلغ منها الذروة عندما اصدر الملك لويس الحادي عشر ، عملة ذهبية قوية ، تتمثل بالريال الذهب ذي الشمس المشرقة (١٤٧٥) الذي يمكن مقارنته بالعملات القوية الانكليزية. ففي الوقت الذي حافظت فيه العملات الذهبية في ايطاليا ، على سعرها العالي، راح الملوك الكاثوليك ، في اسبانيا، يوجهون دولهم عن طريق سلسلة من التدابير التمهيدية لوحدة النقد، فسكوا عام ١٤٩٧ ، النقد المعروف باسم *Excelente de Granada* .
وبعد حقبة طويلة من التضخم المالي مرت بها اوروبا خلال الازمة الاقتصادية التي عرفتها، وقبيل

اكتشافها المعادن الثمينة في اميركا صحبت الازدهار الاقتصادي بالتخفيف من مسؤولية النقد في التداول ، مما جعل الحاجة اشد الى اعمال التسليف .

وهكذا اخذ رأس المال يغزو الانتاج الزراعي ، عن طريق المضاربات بالمحاصيل الزراعية التي يمكن الاتجار بها على نطاق واسع ، كالحبوب على اختلافها والخمور ، ومواد الرسم والتلوين والصوف والزعفران . وقد برزت هذه الحركة على اشدها في الصناعات النسيجية ، ولا سيما في صناعة الحرير والخامات الاولى الضرورية لها كالشب ، واخيراً في صناعة التعدين . ان كلفة العتاد الميكانيكي ، واهمية الاعداد والتوضيبات اللازمة ، وتخصص اليد العاملة ، واكتساب المهارات ، كل ذلك كان يقتضي له رؤوس اموال جسيمة ، لا يستطيع مواجهتها والمجازفة بتوفيرها وتقديمها سوى كبار الاثرياء من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة او الشركات الكبرى ذات المشاريع الجبارة الجريئة التي قام بها جاك كور ، في فرنسا ، وهذه الشركة الضخمة التي جرى انشاؤها وتنظيمها تحت رعاية فرنسيسكو درابيرو من سكان جنوى،لتتولى استثمار مناجم الشب في فوجيا وتصريفه ، والمحافظة على مستوى اسعاره ، والمساعي التي قام بها آل مديشي فأدت بالتالي الى تأسيس وكالة تولفا الاستشارية التي تحكمت بالاسعار وحددتها كما تريد مخلّفة وراءها مستثمري مناجم ايشيا التي كانت دون الاولى اهمية بكثير .

ومؤسسة آل مديشي التجارية التي بلغت القدح المعلى ، حوالي عام ١٤٦٠ يمكن اعتبارها مثالاً لا نظير له ولا كفاء ، لهذه الرأسمالية المتحكمة الطاغية السابقة لاوانها . وقد نوهنا ، فيما مضى الى تنظيمها وتكوينها، وكيف انها تألفت اصلاً، من شركات مستقلة ادارياً، يملك آل مديشي في كل منها ٥١ ٪ من اسهمها. فكانت بذلك سابقة احتذتها وسارت على منوالها الشركة المعروفة بـ *Holding Company* ، اذ كانت تتعاطى اعمال الصرافة ، وصناعة الحرير والاجواخ والاصناف العامة التي لا بد فيها من استعمال الشب . وقامت لها فروع شبيهة بفروع شركاتنا الحديثة اليوم ، في كل من ميلانو ، وروما والبندقية وأفنيون وجنوى ، ثم ليون ، واخيراً بروج ولندن . وقد استمر البنادقة يسلكون الطرقات الألبية التي كانت تفضي بهم عبر مرتفعات المانيا ، الى اسواق فرانكفورت ، بينما راح الجنويون يستثمرون ويشغلون الكثير من اموالهم في اعمال ومتاجر لهم في لشبونة واشبيلية .

وهذه المضاربات المالية والتجارية الدولية التي اضطلع الايطاليون القيام بها منذ عهد بعيد ، عرفت ان تجتذب اليها عدداً متزايداً من رجال المال والاعمال في البلدان الاخرى. فمن قطر الى قطر ، ومن محيط آخر ارتبطت المصالح الخاصة بالمصالح الوطنية او باواصر الدم والقربى واخذت تقنية الاعمال تفرض طرائقها الفنية وتنشر مناهجها ، وتنشىء لها جماعة خاصة تشبه الى حد بعيد ، الجماعة التي تشكلت على صعيد الفكر والثقافة ، فشدت علماء النهضة بعضاً الى بعض، اذ كثيراً ما كان هؤلاء واولئك من اسرة واحدة. وبفضل هذا التقدم التقني الذي عرفته السفانة اوهندسة السفن، والتطور الذي طرأ على شكل السفن وحجومها، وزيادة حجم الشحن والوسق، والتغيير

الذي طرأ على صواري السفن وانتشار القلوع الكبيرة ، اخذت السفن تمخر عباب اليم ، متنقلة من مرافيء البحر المتوسط الى مرافيء بروج ولندن في شمال الاطلسي ، في رحلات موسمية . وما كادت شمس القرن الخامس عشر تميل نحو المغيب ، حتى رأينا الانكليز والاسبانيين ، يصبحون سادة البحار . ومنذ ذلك الحين ، اخذت الخطوط البحرية تتسع وتتمدد وترحب ، فراح رجال البحر العاملون في المحيط الاطلسي يجسرون على تجاوز ومضايق الدانمارك ومعابر البحر البلطيقي ، او يعبرون مضيق جبل طارق نحو اسكلة الشرق الادنى ، هازئين بما كان ينتظرهم او يتوقعون من تعديات قرصان الاتراك . وهكذا دخل المحيط الاطلسي في سباق مع البحر الابيض المتوسط محاولاً انتزاع الاولية في التجارة البحرية الدولية ، هذه الاولية التي لم تعرف بحراً استطاع حتى الآن ان ينازع البحر الابيض المتوسط عليها .

وعلى هذه الطرقات القارّية او البرية التي حرصت الدول أشد الحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، اخذت تتسابق الآن قوافل لا تنتهي من عربات النقل ، تابعة لجنسيات وقوميات وبلدان مختلفة ، وهي تنافس بسرعتها بريد الملوك والتجار . فالخبر الطاريء الجديد اصبح له في المجال التجاري كما له في المجال السياسي ، من يهتم له ويشعر اكثر فاكثر باهميته ونتائجه وصداه . وعلى هذه الطرقات نفسها ، انتقلت بين مدينة واخرى ، ومن سوق مالية الى اخرى اوراق اعتماد ؛ وسفاتج واستحقاقات واسهم مالية تقيم دنيا الاعمال وتقعدها . فاذا بمعاملات التجيير تبرز للوجود قبل عام ١٥١٩ . فالتعامل بالعقود الكتابية والصكوك المكتوبة اخذ يحل محل سيولة النقد بين الناس . كذلك اخذ التأمين البحري يعم المرافيء والموانيء الواقعة على شواطيء البحر المتوسط لينتقل سريعاً الى الغرب ويصل الى مدينة بروج حيث يعمل ممثلون ووكلاء للدول المتوسطية بعد ان تبين لهم اهمية مثل هذا التدبير . واخذت ادارة الأعمال التجارية تنتظم وتنتسق وتتوحد دون ان تصدم مع ذلك ، بعنف ، العادات الجاري العمل بها من قبل كما اخذت تنتظم الشعور بالتضامن والمسؤولية في هذه المقاطعات والمعاملات التجارية والمصالح المشتركة . وما عتم ان قام في الغرب اقتصاد اوروبي واحد تعالى فوق الروح الاقتصادية القومية وارتفع الى ما فوق الحدود السياسية الضيقة ، كما اخذ هذا الغرب يتحسس عميقاً طلوع مدنية جديدة .

٣ ــ بين الرغائب والاماني

في شرحه لسفر التكوين والتعليق عليه ، يضع بيك دو لاميراندول ، في خاتمة بحثه المكدود حول قهر المرء نفسه ، هذه العبارة على لسان الله سبحانه وتعالى يخاطب بها آدم : « أقمتك عند محور الارض لترى بعينيك ما يقع عليها . فانت لست بالهي ولا بأرضي ، كما لست بمائت ولا بخالد ، بحيث تستطيع ، على شاكلة الله الذي برأك وابدعك ، ان تكوّن نفسك كما تشاء . باستطاعتك ان

تهوي الى ادنى دركات البهيمية، وان تسمو الى مصاف الالهيين حسبما تفق في الامر انت بنفسك».
وهل ابلغ من هذا الكلام للتعبير عن هذه الحقيقة الخالدة ، وهي ان الانسان هو المعيار الصحيح والمقياس الاساسي للحضارة البشرية ، لانه وجد في مطلبه المثلث الامثل : الجمال والخير والحق، ما فيه قناعته وسر عطائه .

بهجة العين وحلية العيش : الهندسة

وهذه التطورات السيكولوجية التي يُعبر عنها جزئياً هذا التجديد المادي في مباهج الحياة : السعي الموصول وراء السكن الرفيه ، وتذوق ما فيه قوام الحلية والزينة ، والبنيان الحضاري او التمدين تم كلها عن التمتع بلذة العيش . ففي ايطاليا، تظهر قبل غيرها من بلاد الناس ، لذة الاستمتاع بالفراغ . فمنذ القرن الخامس عشر ، عرف اسلاف ليون باتستا البرتي (١٤٧٢) ان يستمتعوا بمباهج صروحهم المنيعة تحيط بها الرياض التوسكانية ، بينما يروح حفيدهم فيصف لنا في كتابه : « الاسرة » المنزل الافضل والامثل في المدينة . فالقصر الفلورنسي تخلص نهائياً ، من هذه الابراج الشامخة الكثيفة الظل ، التي كانت تعلو مشمخرة ، قصر تريشنتو بعد ان عرف ان يحافظ على مظهره الارستوقراطي والريفي معاً، ويجعل منه طوداً لا اثر فيه لاي نشاط مهني ، يخفي عن أعين الناس ، وراء جدرانـه العاتية وشعريات الطابق السفلي ، هذا الهدوء المخيم على غرفه الرحبة في الداخل . اما هناك وراء الجبال الشاهقة في فرنسا ، بعد ان هدأ منها الروع، وفي هذه المدن الثرية من المانيا الجبلية والبلاد الواطية فقد اخذ المنزل العائلي في المدينة ، ينعم بالمزيد من الرفاه ، كما راح الصرح في الريف يتخفف تدريجياً من مناظره الحربية التي طالما سمرت الخوف في سويداء القلوب .

وارتفعت في فلورنسا صروح وقصور لآل مديشي وألبرتي، ورتشلاي وبيتي وستروزي. وفي البندقية قصر *Ca D'Oro* ، وفي روما ، الى جانب قصر البندقية قصور دوريا وكبرانيكا تنطق عاليـاً بالجديد المستطرف والمستظرف من المساكن والمنازل البديعة التي اطلت علينا في القرن الخامس عشر . وينطق قصر آل سفورزا ، في ميلانو عالياً باستعلاء القوة العسكرية في المدينة واستبطارها . وتزدان نورمبرج واوغسبورج بهذه المنازل الثرية يملكها جماعة من سراة القوم وتجارهم الاغنياء. اما في مدن : غنت وبروج وبروكسيل ولوفان. وانفرس ، فالمنازل والمساكن ازدادت ترفاً وطرافة بينما امتدت من مدينة ميهون سور يافر حتى مدينة نانت، سلسلة متصلة الحلقات من هذه القصور الملكية او الاميرية وقد افترت نوافذ جدرانها عن بسمة رضى وارتياح انعكست على هذه الصالات والابهاء والقاعات الرحاب تضفي عليها غلالات من الظلال الوارفة ، وقد استحال بعضها شرفات ضاحكة يفيض بشراً وحبوراً ، وتطل على حدائق غناء وقد تحلق في زواياها زُمَر تطفو على شفاهم بسمة العيش الرضي ، بينما راح الناس في كل مدن باريس وروان ، وتور وليون و طروى يستبدلون منازلهم الخشبية باخرى من الحجر المقصوب او القرميد الاحمر، وقد اكثروا، في الداخل من قاعات الاستقبال ، حلوها بالكريم من النقوش والزخارف . وهكذا ، اخذ يستبد بالناس طراز جديد من العيش الهادي الرخي ، الناعم .

وهذا الحلم من العيش الرفيه ، لم يراود بعد جمهرة الشعب الذي لم يزل مستمسكاً بعاداته الشعبية قانعاً بأزقته الضيقة وبساحاته المعزولة. والأخذ بتجميل المدن *Urbanisme* ، سياسة لاتزال بعد في القمط حتى في روما نفسها ، حيث اخذ البابا نيقولا الخامس وسيكتس الرابع يشرفان على مشاريع تجميل المدينة الخالدة ، وضعها رواد في التجديد الهندسي ، استهدفت تجديد الكنائس الكبرى فيها ، وإصلاح الفاتيكان وتوسيعه بانشاء الكنيسة السكستينية ، وديوان الاختام وقصر الامناء. وقد استلهموا في هذه الترميمات والاصلاحات المبادىء الهندسية الجديدة التي قال بها فيتروف ، وراح ألبرتي في كتابه: « فن البناء » الذي جاء في عشرة اجزاء ، يكشف لنا عن اسرار التاريخ القديم في هذا المجال. وكان لا بد من الانتظار والتريث زهاء نصف قرن ، وتعديل الخطط القديمة ، ليأخذوا ببناء كنيسة القديس بطرس على مثل هذه الضخامة والفخامة التي نراها عليها اليوم. فالنفوس في الاجيال الوسطى ، في تطلعها الى حياة افضل ، قبعت راضية مرضية بما استقر في خلدها من صور خيالية لهذه المباني التي تاقت الى تحييزها كما قنعت بهذه المرئيات الصورية التي استبدت بأذهان القوم حتى ذلك العهد. صحيح ان التصميم الجريء الذي وضعه فيليب برونسلي (١٣٧٧–١٤٤٦) ، لبناء قبة كنيسة سنتا ماريا دايي فيوري ، التي تم عن تمخض هندسي جديد ، يبشر بطلوع التصاميم الهندسية الفخمة في المستقبل القريب. الا انه كان يترتب على المهندس ، قبل كل شيء آخر ان يحل مشكلة فنية عارضة ، ولم يكن هنالك ما يشير من قريب او بعيد الى ان الحل الذي وقفوا عنده كان من شأنه ان يجر تطورات لم تخطر قط على بال المهندس ، ولا على بال من يأتي بعده. فقد قيل بهذا الصدد ان المهندسين ساروا هنا على ما سار عليه الرسامون الذين عرفوا كيف يحيزون خصائص المدينة المثلى.

فن التصوير الايطالي

فبينما كان المهندس برونلّشي يحاول صادقاً ان يضفي ، اكثر فأكثر ، على حياة الانسان اليومية إطاراً وفقاً لمقاييسه هو ، فقد انجز بعد اقامته قبة فلورنسا ، كنيسة بازّي. وفي الوقت ذاته راح مهندسو الفن الغوطي المطفطف ينزلون فن البناء الى مقاييس اكثر انسانية ، كما عرف المصورون والرسامون ان يمازجوا بنجاح بين الصورة الذهنية والواقع المحيز ويعطوها مقاييس الانسان ذاته. ان مراعاة نسبة الابعاد والمسافات ، والتقيد بالمذهب الطبيعي في الفن ، واكتشاف وسائل تقنية جديدة في التلوين روعي فيها القدرة القصوى على التعبير والافصاح ، كل هذا وما اليه ، هو من هذه الخصائص التي تحدد ، على احسن وجه ، الانسانية الفنية في الحركة الاحيائية العلمية في ايطاليا.

والرسام فرا انجليكو الذي توفي عام ١٤٥٥ ، بعد ان نقل الى منتصف القرن الخامس عشر التقاليد الرمزية التي تميز النهضة الايطالية ، نراه يهتم ، اكثر فأكثر ، بالواقع المتحيز ، كما يبدو لنا ذلك من صورته المشهورة « انزال جسد السيد المسيح عن الصليب » المحفوظة في متحف القديس مرقس ، في البندقية ، وفي الصورة الاخرى التي وضعها عن حياة القديس اسطفانس

وحياة القديس لورنتيوس الموجودتين » في الفاتيكان ، اللتين تتميزان بما فيهما من حيوية عارمة ، وبطبيعية الوقفة والمنظر . فقد كتب للمدرسة الفلورنسية ان تجدد ، بعد ان تنوسيت الاساليب الفنية التي كان عليها المعوّل في عهد الرسام جيوتو . وقد توصل مازاتشيو ، بعد حياة قصيرة انما خصبة ، وذلك في الصورة التي وضعها : « ضريبة مار بطرس » الى تحييز الحجوم ، وجعل المواقف اكثر طبعية ، واتقان التعبير عن مظاهر الحياة ، فمهد بذلك السبيل امام قوة الملاحظة وفن توزيع الاحجام والرغبة في جعل موضوع الصورة محور الفن ، بعد درس المبادىء التي يقوم عليها علم المناظر والاصح الرئاية ، والحركة ، كل ذلك جعل المعارك التي رسمها لنا باولو اوتشللو (١٣٩٧ – ١٤٧٥) روائع فنية ، تمور بالعلم والفن والحياة . وعندما توفي غيبرتي في السنة نفسها التي قضى فيها فرا انجليكو (+١٤٥٥) كان انجز وانتهى من النقوش التي تزدان بها صورة « باب الفردوس » في جرن العماد ، في فلورنسا كاشفاً لنا عن عجيج الحياة في الرسم الوهمي للفضاء . وبعد ذلك ، تمكن النقاش دوناتلو من الكشف عما اوتي من علم ومعرفة لطبيعة الجسم البشري الذي استطاع لأول مرة في تاريخ الفن ، ان يصوّره عارياً في الصورة التي وضعها لداود الملك . وفن التصوير كفن النقش ، اتجه هو الآخر ، نحو رسم الاشخاص . فالنقاش لوقا دلاّ روبيا (١٤٠٠ – ١٤٨٢) قدّ من المرمر ، صورة الاسقف فيدريجي كما رسم صورة اولاده في رسمه المعروف كونتوريا ، والفنان فيروكيو الذي جمع بين الرسم والنقش ، جعل في التمثال الذي وضعه للقائد برتو لوميو كوليونيه ، ممتطياً صهوة جواده ، تبرز على اتمها ، شخصية هذا الزعيم ، كما انه برهن عن علم ومعرفة كاملين لنواميس الحركة ، كما يبدو ذلك في الصورة التي وضعها لجيرلانداخو والمواقف الصحيحة والتعبير الصادق عن القيم الادبية أضفت على الافاريز التي نقشها في كنيسة سنتا ماريا الجديدة كأنها ستائر من اللون الذي يبرز في صورة « الشيخ والولد » الموجودة في متحف اللوفر ، حيث استطاع ان يصور لنا الدمامة مع بساطة القلب . وهكذا نرى كيف ان الفنان اخذ يهتم بالانسان بصفته انساناً .

فاذا كانت مقدرة القصّاص التي تمت لبنزّو غزّولي سارت باتجاه التكنيك الذي ترّسمه فن التزويق ، في الاجيال الوسطى ، فقد استطاعت المدرسة الأومبرية ان تجدد شبابها بعد ان جرى تلقيحها بالعلم والنشاط ودقة التعبير وغير ذلك من الصفات التي ميزت بييرو دلاّ فرنسيسكا ، استاذ علم المناظر كما كان استاذ الاضواء والظلال بعد ان عرف كيف يتلاعب بها فيكيفها كيفما شاء في صورته : « حلم قسطنطين » وذلك بمقدرة تكاد تداني فن ليونارد دي فنشي في الـ *Sfumato* فبعد ان تم تبسيط فلسفة علم المناظر والابعاد على ضوء الواقع ، اكتسب فن التصوير الايطالي بالفعل في النصف الثاني من عصر الانبعاث القدرة على التلاعب بالالوان . واخذ الفن من ذلك الحين يتلبس صفات الفردية بعد ان رسخت اصول رسم الصور الشخصية ، فقد راحوا يعولون على القماش في التصوير ، وسعوا وراء الاطار المستدير ، والاساليب التقنية لفن الرسم الزيتي مما ساعد على تأثير فعل اللون .

هذا الفن الذي ازدهر فوق شبه الجزيرة الايطالية والذي اخذوا في الخارج ينشدونه ويحتذون حذوة استوحى ما في الانسانية من مثل ، نعم برعاية نصراء الادب من الاغنياء. فاذا استطاعت الوثنية القديمة ان تجدد منه الرموز ، فقد هدف هو ، الى تمجيد نصيره وراعي حماه او الشخص المسك بيده . فالواهب الجواد ، بعد ان تخلى عن الموقف المحتشم الخاشع الذي وقفه ، كما يبدو من خلال الرسوم التي خلفتها لنا الاجيال الوسطى ، نراه اليوم يبرز بمجاله الفاخرة ، ويحتل في هـــذه الرسوم محل اولياء الله وقديسيه . فقد صرف بنوزّو غُزّولي همـه وفنه في تمجيد آل مديشي ، وراح بنتو رتشيو يشيد بمآثر شخصية اينيا سلفيو اكثر من شخصيـــة البابا بيوس الثـــاني الذي حمل هذا الاسم قبل ان ارتقى الى السدة الرسولية ، وذلك في رسومـــه الجدرانية الموجودة في مدينة سينّـا ، وصورة « المسيح المائت » وهي بريشة مونتانيا تبعث في النفس هزة وشموواً يتمطى الضلوع امام ما نتبينه فيها من تناسب وتناغم بين اعضاء الجسم البشري . ومع أنطونلو المسيني ، وصورة جنتيلي بليني وهذه الروائع الغوالي التي هي من ريشتـــه في البندقية ، يحتل الانسان فيها محور الفكرة ، والنقطة من الدائرة ، في زهو الالوان وما لها من مدلول تعبيري . والى فلورنســـا يجب ان نعود بالفكر لنجد أشهر الفنانـين لمعت اسماؤهم وبعدت شهرتهم في اواخر الاجيال الوسطى . فقد عرف بوتيشلي بما حقق من تناغم الالوان وانسجام الخطوط ان يعبر في رسومه عن العزم وتناسق قسمات الشكل في ادق معانيـــه . أوليست صورة بريما فيرا التي رسمها ، رمزاً لهذا الانبعاث الفني الايطالي ؟ ونابغة الفن ليوناردو ده فنشي ذو النبوغ الخلاق والمواهب الموسوعية ، تتم للفنان والعالم والمهندس الكبير الذي كانـه في وقت واحد ، فجمع في شخصيته الفذة : الثقافة الحضارية لعصره ، فكان في تجواله وتنقلاته واقامته في فرنسا صورة صحيحة لهذا الاشعاع الايطالي . لقد كانت الصورة عنده ، تعبيراً صادقاً عن دواخـــل النفس البشرية ، ولذا كانت ظلاله وانواره غلالات تمور بالرمزية .

الفن الفرنسي الفلمنكي

فاذا ما استطاعت ايطاليا ، بفضل ما لها من مزاج خاص ، ومن تراث قديم مهيب ، ورعاية نصراء العلم فيها للفن والفنانين ، ان تعبر عن هذا الجمال الصوري بمثل هذه اللباقة والمقدرة والكفاءة ، وتحمل الى الشعوب المجاورة لها اسرار هذا الفن ، فقد عرف هؤلاء بدورهم ان يقابلوا النعمة باختها ، ويعيدوا الفضل الى ذويه ، وان يُغنوا المؤثرات التي تفاعلوا بها ، بما في تقاليدهم القومية الخاصة من تراث فني ، عندما دب في جنباتهم رسيس الرغشة الفنية الايطالية . فقد كانت العلاقات ابداً على اوثق ما يمكن ان تكون بـين ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطئة ، بفضل عطف نصراء العلم وحدبهم على الفن ورعايتهم لرجـاله والعمـــل على ترسيخ اسبابه ونشرها بين الملأ . صحيح ان الهندســـة المعمارية لم تتأثر كثيراً قبل القرن السادس عشر في شعائرها الزخرفية ، بنفوذ شبه الجزيرة الايطاليـة ، بينما كانت ، قبلة رجال الرسم والنقش ومثوام الافضل ومحط رحالهم . فقد عرف جان فوكيه ايطاليـــا

عن كثب . والفنانون الذين اشتهروا بفن الحفر والنقش، في وادي اللوار ،والذين ورثوا المدرسة الواقعية عن الاجيال الوسطى ، عرفوا ان يضيفوا ، في اواخر القرن ، مـع ميشال كولمب ، عنصر الحركة التي كانت استبدت ، منذ عهد بعيد ، بالمدوسة المعروفة بالمدرسة البورغونيـة ، هذه المدرسة التي خلفها وراءه كلوس سلوتر (١٤٠٥). اما الفلمنكيون الذين كانوا على علاقة متصلة مع الايطاليين بعد ان ألِف اغنياؤهم وسراتهم زيارتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فقـد رأيناهم يتنقلون ويجوبون أرجاء شبه الجزيرة الايطالية بكل سهولة ، دون ان يفقدوا شيئاً من شخصيتهم . على يـد من يا ترى ، وكيف تم استعمال الزيت في التصوير ؟ نسب بعضهم هذا الفن للاخوة فان أيك . والذي يبدو لنا ان هؤلاء الاخوة توصلوا للكشف عـن اسرار مزج الازرق السمنجوني بزيت النفط المستورد من الشرق . ومهما يكن ، فقد اتجهت كل المـدارس الفنية الاتجاه ذاته دون ان تتجاوز او تتخالط . وما مثل جوست ده غنت الذي تليتن وتطبع بطباع الايطاليين في خدمة دوق اوربين تحت تأثير بييرو دلا فرنسيسكو و ملوزو ده فورلي. وكان لا بد من انتظار الجيل التالي وامثال :عملنغ وجيرارد دافيد، وكونتن متزي، لنرى كيف تغلغل الاثر الايطالي في تلك البلاد . ومع ذلك ، فعلم المناظر والابعاد ، والواقعيـة في تصوير الطبيعة ، وفن مزج الألوان وخلطها والمكانة التي احتلها الفرد في التصوير والرسم كل هـذه العناصر المتميزة تتوفر على اتمها في رسوم فان أيك ، بينما التعبير الديني يبدو على واقعيته ، تحت ريشة روجيه ده لا بستور .

طلع هذا الرسام من مقاطعة الهينو ، وهو مواطن لهـذا الفريق من الموسيقيين الذي سبق لنا ونوهنا بفضلهم ، والذين استمروا في عملهم الفني في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى المتعددة الانغام الايطالية آخذة بالهبوط بحيث لم نعد نرى سوى موسيقيين هولنديين في كل كنائس اوروبا . كذلك خليق بنا ان نلاحظ هنا،بالمقابل،اي حد بلغته عملية وتنقية الموسيقى المتعددة الانغام من الزيادة التي لحقتها على يد الهولنديين ، بعد ان تأثرت بالموسيقى الايطالية . وها نحن نرى تبرز عند جوسكين دو بريه نزعـة قوية ، لتأمين التناغم والانسجـام بين النوطة والكلمات،والعواطف والمشاعر،بحيث تطل علينا الحقيقة، كما هي ، وكغيرها من الفنون الاخرى ، نرى الموسيقى تستوحي رؤى اكثر حساسية واوفر انسانية ، من ذي قبل .

الاحياء الثقافي الايطالي

في نظر رجال عصر الاحياء في ايطاليا ، كان الجمال الامثل يتجلى في هذا الانسجام في التعبير عن الحساسية والحقيقة،فقياس سطوالجمال ليس فقط ما يستطيع الانسان تحسسه ، بل ايضاً مـا يستطيع تفهمه . فشعور الانسان وفهمه هما الحدان اللذان يقف عندهما مسلك الانسان . وبهذا المفهوم وجدت تصرفات الانسان السوابق والمبررات التي اعتمدهـا في التاريخ القديم ، والتي اليها اتجهت الانظار والابصار . فقد راحت منذ الآن فصاعداً تفسح مجالاً اكبر فاكبر ، للعقل والنقد .

فبعد ان تجاوز القرن الخامس عشر بمراحل ، المفهوم الادبي للحركة الاحيائية هذه وتعدى

هواية الغرر الفنية التي ميزت الأجيال السابقة ، اتجه للنقد الذاتي والخارجي للنصوص ، مظهراً الاهتمام ذاته بتحول نظريات القدامى وتعاليمهم وحاولا التعبير عنها تعبيراً جيلاً . فعسى ان يتمكن من اجراء التأليف والتوفيق بين الفكر القديم والفكر المسيحي . ولذا راح نيقولا ده كوس (١٤٠١ — ١٤٦٤) ، اشهر رجال الحركة الاحيائية والنهضة الفكرية في المانيا يلاحظ قائلاً : « اينما تطلعنا وجدنا اذهان الناس وخواطرهم تنصرف أكثر فاكثر ، لدراسة الفنون الجميلة ، وتتجه بشيء من التوق لا بل من النهم، نحو التاريخ الكلاسيكي القديم الذي فيه الشبع كل الشبع ، فكأننا على ابواب انقلاب عارم قريب » .

وقد عرفت ايطاليا ان تحافظ ، في هذا المجـــال ايضاً على سبق الآخرين والسير منهم في الطليعة ، دون ان تأخذ ، مع ذلك ، جامعاتها المبادرة بهذا الحقل . فاذا مـا خرجت جـامعة بادوا ده كوس، واذا ما خضعت جامعة الحكمة (*Sapiens*) في روما ، وهي التي كانت تدرّس اليونانية وآدابها منذ عام ١٤٠٦ ، لاصلاح شامل في عهد البابا يوجين الرابع ، عـــام ١٤٣١ ، عرفت جامعة بولونيا بدورها ، عهداً من الانحطاط لازمها الى ان قام بساريون باصلاح جذري فيها ، عام ١٤٥٠ . وعلى مثل هذا الوضع كانت جامعتا بيزا وفلورنسا . فمواطن هذه النهضة الاحيائية ومشاعلها الكبرى ، كانت بالاحرى في جوار حماة العلم ونصراء الفن ، وفي الندوات الادبية . حري بنا ان نلاحظ هنا ظهور الاكاديمية الرومانية في وقت واحد تقريباً ، اي بين ١٤٦٣ — ١٤٦٤ ، وفيها قام بمبونيو ليتو الذي لقب بكبير الاحبار يحيي ، بشيء من الغرور والادعاء الفارغ، المناهج والاساليب الوثنية والاكاديمية الافلاطونية ، التي قامت في دارة كاريجي التي كان يملكها لورنتيوس المظيم ، والذي لم يستخفّ قط بالاسهام بنشاطاتها ، وتأسيس المكتبة الفاتيكانية على يد البابا نيقولا الخامس وجعلها في متناول العامة ، في عهد البابا سيكستوس الرابع ؛ واخيراً هذه الاتصالات التي تمت بين بعض كبار حملة الثقافة من رجال الكنيسة اليونانية ، بفضل الاتحاد الذي تم في فلورنسا ، والهجرة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية بين ايدي الاتراك العثمانيين، وكان من جراء ذلك ان اصبح بساريون كردينال الكنيسة الرومانية فأسس في مدينة البندقية المكتبة المرقسية .

ان بعث الادب القديم من سباته، وانحطاط التربية السكولستيكية ساعدا كثيراً على رواج اساليب النقد . فقد كان لورنتوس فالاّ رائداً في هذا المجال بزّ فيه جميع معاصريه امثال فيلالفو وبوجيو . فلم يُرضه قط ان يقضى قضاءاً مبرماً على الدعوة القائلة بـ« هبة قسطنطين » او وقفيته التي تقول بان املاك الكرسي الرسولي قامت أصلا على هبة أقطعها البابا املاكاً اصبحت فيما بعد نواة للمملكة البابوية وهو ادعاء باطل. فقد كان المؤسس الأول لعلم الفيلولوجيا الحديث كما كان الواضع الاول لعلم التفسير الاحيائي او الانساني ، ولعلم النقد التاريخي . فكتابه : الأجرومية ، وكتابه الآخر في الإنشاء العالي بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » اصبح المرشد لفن الانشاء ودليل الكتابة العالية في عهد ايراسموس . فدرس دراسة شارح مدقق النصوص الاولى المتعلقة

بنشأة المسيحية ، وراح بعد ان هام بعملية التأليف ينتقد مجرّحاً كل المذاهب محاولا استبدالها بمذهبه الخاص . وهكذا حمل ابناء عصره على اعادة النظر بما كانوا عليه من مواقف معينة . ومذهبه التشككي هذا يتصل اتصالا وثيقاً بالروح النقدية ، الذي امتاز به اوكهام الا انه فوق اوكهام دقة علمية،واكثر منه سخرية لاذعة وتهكماً . ومع انه عمل سكرتيراً للإدارة الرومانية فقد عُرف بروحه الماجنة وبدعوته للتحلل الخلقي في كثير من كتبه ومؤلفاته الجريئة ، ودعى للاستمتاع بمباهج الحياة ولذائذها واطايبها ، وراح يستعرض في بعضها : « الحياة الرهبانية » ، وفي كتابه الآخر « حول اللذة » امكانية التوصل الى التوفيق بين المسيحية والرواقية .

وعملت الاكاديمية الرومانية في الاتجاه الذي اختطه لها فالاّ ، حتى ان احدهم هو بمبونازي اشتط كثيراً وذهب بعيداً عن التقاليد المعمول بها في كتابه الموسوم : « حول خلود النفس » حيث وقع في مقالة العقليين ومذهبهم . وراح بعض المفكرين في فلورنسا المدينشية يحاول الوصول الى شيء من التأليف . فها هو مارسل فتشين ، يحاول،بالرغم من الاحترام العميق الذي كنه للعقيدة المسيحية ، ان يضع مذهباً خاصاًقوامهالفلسفةاليونانية وتعاليمالحكمة ،ويوحي بديانة طبيعية متحررة من كابوس الخطيئة ، تولي النفس الطمأنينة وتجعل محلا ضيقاً لعملية الفداء . ثم نرى نابغة العصر وصناجته : بيك ده لا ميراندول ،يندفع بكل ما أوتي من عزم الشباب وزخم العزيمة وثقافة موسوعية باحثاً عن امكانية التوفيق بين المسيحية والمذاهب الدينية الاخرى ، بين يهودية ووثنية ، مما ظهر قبل النصرانية . انها لمغامرات جريئة ، متناقضة ، حملت البابا اينوشنتيوس الثاني على القول : « هذا شاب يتوق لنهاية شريرة . فهو يرغب بان يصير امره يوماً الى الحريق » . فبعد ان بلغ الذروة في حياة داخلية شخصية ، سوّل له الغرور ان باستطاعته ان يشيد عليها ديانة فردية . ولم يلبث ان تراوى مبكراً عن المسرح واستسلم لحياة نسكية تقشفية . انها لمحاولة حرية بكل اعجاب ، هذه التي رمت الى تمجيد الشخصية الانسانية والارتفاع بها الى السمت ، فجاءت تعبيراً صحيحاً عن هذه النزعات الروحية التي اضطرمت بها نفوس ذلك العصر ، ادت بتجربته التأليفية هذه الى الفشل الذريع .

علماء عصر الانبعاث من فرنسيين والمان

وفكرة التأليف الديني هذه التي طلع بها رجال القرن الخامس عشر لم يقتصر رواجهاعلى ايطاليا وحدها،فالمحاولات الهادفة لتحقيق الطمأنينة للنفوس ، التي قام بها ليوناردو ده فنشي والتي كانت تبشر النتائج التي ستفضي اليها معظم العلوم في المستقبل ، جاءت خاتمة حسنة لعصر جاش ابناؤه بروح موسوعية ونفوس طلّعة ظمأى للمعرفة . لا بد هنا من التنويه عاليا باسم ليون باتيستا ألبرتي ، (١٤٧٢) وبهذا النابغة الجبار الذي كان من اكبر رجال هذا العصر عقلا وثقافة وعلماً ، نقولا ده كوس (١٤٠١ — ١٤٦٤) ، والذي بفضله امكن ، الى حد ما ، تحقيق هذه المحاولات الايطالية للتأليف . فقد عاصر البابا بيوس الثاني ، وشدته اليه وشائج من الود الخالص (عاشا معاً الى عام ١٤٦٤) ، فلم يفته شيء من علوم العصر . لا من العلوم الكتابية ، ولا من تاريخ الاقدمين ، او من تاريخ آباء

الكنيسة الاولين ، ولا من متصوفة الاجيال الوسطى ومذاهبهم، حتى ولا من محاولة الاتصال بالارواح والدخول في مخاطبتها . وقد زين له عله المستبحر ان باستطاعته إفراغ جميع العقائد وصبها معاً في بوتقة واحدة في انسجام وتناغم كلي ، وتوحيد الجهود التي بذلت في هذا الامر ، خلال القرن الرابع عشر . فقد رذل القول بان الارض محور الكون ، ونقطة الثقل فيه ، وبنى نظره على التجربة والاختبار، وعلى معطيات علم الهيئة الحديث ، هذا العلم الذي ينهض به الى الأوج: تلميذه وخدينه ريجيومونتانوس .

ومع ان مواقفه العدائية من توما الاكويني معروفة فقد وقف في وجه اوكهام وعارض بشدة مذهبه وتعـــاليمه . ومع ذلك فلم يستطع ان يتفادى الدوار الذي يصيب رأس من ينظر في هذه المهاوي السحيقة ، ولا سيما من يتعرض لمذهبي اللأدرية والحلولية . الا انه بنى على العلوم الرياضية نظاماً للكون توفرت له الوحدة وتوصــــل الى معرفة الله معرفة صوفية ، راسماً بالقياس العلمي الطريق الذي يفضي من اللامتناهي الرياضي الى اللامتناهي الميتــــافيزيقي ، فالى اشراق النعمة وتجليها .

وعلى هذه الخطى والصوى سارت حركة الاحياء الالمانية التي تميزت اكثر من غيرهــــا من حركات الانبعاث هذه ، بالطابع العلمي . فقد عرفت المدن الجنوبية في المانيا كمدينة اوغسبورغ ونورمبرغ ان تجتذب اليها رهطاً جليلاً من العلماء ، وذلك بفضل هذا الفريق من رجال الاعمال والتجارة ممن اخذوا بنصرة العلم والادب ، كما كانت الثانية من هــذه المدن ، قد اصبحت ، مع ريجيو مونتانوس ومارتين بهايم ، مركزاً علمياً ازدهر فيه علم الهيئة الذي مثــله احسن تمثيل بوتنجر ، كما ازدهر فيه علم الجغرافيا . ولا بد من التنويه هنا بفضل اللغويين : جان ده تريتنهايم وجان روتشلن ، ورودولف هوسمان احد تلاميذ ده كوس الذي تأثر ، الى حد بعيد بتعاليم فالا ونظرياته ، والمدرسة الهولندية ، وبتعاليم «اخوة الحيــاة المشتركة » الذين تخرّج عليهم ايراسموس بين سنة ١٤٧٥ — ١٤٨٥ .

وحركة الاحياء العلمية في فرنسا ، كان لهــــا جذور اعمق واقدم ، طالما رأينا بترارك (١٣٠٧ ـ ١٣٧٤) يقف في وجه المطالب الفرنسية التي رغبت في نقل مركز العلم الى افنيون بعد ان انتقل اليها ، في عهده ، مركز البابوية . وفي اواسط القرن الخامس عشر تمركزت هــذه الحركة في كلية الآداب اكثر منها في كلية اللاهوت او في جامعة السوربون القديمة . وقد وجدت هذه الحركة خير من يمثلها ، بين اوساط الجامعيين المتخرجين من كلية نافار وكلية الكردينــال لوموان ، بينهم غليوم فيشه ، وروبرت غاكن . وكلما اقتربنا من نهـاية القرن ، اشتدت الحركة وتفاقم امرها . والبلاط الملكي الذي وجهه لويس الحادي عشر وجهة امور الفكر والمعرفة، انشأ له مكتبات على السواء في كل من بلوى وفي فونتنبلو . ورحلات الفرنسيين الى ايطاليــــا كانت تجري باستمرار ؛ فقد سافر اليها فيشه ، عام ١٤٧٠ ، والتقى فيها بالكردينال بساريون .

كذلك تواترت رحلات الايطاليين الى فرنسا ، منهم بيروالدو ، عام ١٤٧٥ ، وبالبي عام ١٤٩١ ، كما قام بين الفترتين ، اي في عام ١٤٨٥ – ١٤٨٦ ، بيك ده لاميراندول ، برحلة الى باريس ، وراح بعض من قصد منهم الى انكلترا يزرع حب الدراسات الكلاسيكية في جامعات انكلترا القديمة ؛ وعن طريق هذه الرحلات حقق الفرنسيون بعض الكشوف ، وان لم تكن بالفعل جديدة . فقد كان لبترارك ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، نفوذ عظيم في فرنسا ، وخيل للبعض انهم سيجدون عنده جواباً لبعض المشكلات التي لم يكن من الممكن ان يجد هو لها حلاً . وبسبب ما وضع له بترارك في مقدمات الترجمات الفرنسية ، لكتابه الموسوم : « حول الحياة النسكية » التي تمت اولاها عام ١٤٧٨ ، والثانية عام ١٥٠٣ ، فنعتوه : « بالكاتب النحرير العَلَم » في الترجمة الاولى ، و « بالشاعر المفلق اللبق » في الترجمة الثانية ، يمكن ان نستخلص ان النظرة اليه اختلفت جداً في الفترة الواقعة بين تاريخ الترجمتين ، كما انتقل تقدير الناس له من المؤلف الاخلاقي الذي كانه الى الاديب الذي استقر عليه رأيهم . ومهما يكن بالفعل تقدير القوم للمسيحي الحقيقي الذي كانه بترارك ، وللاثر والنفوذ البعيدين اللذين امتدا حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فالاذهان والخواطر كانت تبحث عن مطالب اخرى . فالوقوف على الآداب اليونانية والفلسفة الافلاطونية كان آخذاً بالانتشار في الوقت الذي كان فيه لوفيفر ديتابل يتلقى تحصيله في كلية لوموان . ولما كانت كتب النصوص المستعملة اذ ذاك ، والبرامج المعتمدة لا تسمح كثيراً بتقدير المؤلفين الكلاسيكيين التقدير الكافي ، ولا تمكن لهذا الامر أيضاً المؤلفات التي وضعها المؤلفون الايطاليون المحدثون ، فلم تتوفر للدارسين الاصول اللازمة والادوات المطلوبة لدراسة النصوص القديمة ، وفقاً لمتطلبات النقد الصحيح . ولذا فقد كان هم فيشه ان يوفر للجامعيين في باريس وان تؤمن لهم المطابع العدد الكافي من النسخ للكتاب الذي كان سبق لفالا وضعه بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » . وهكذا بعد ان كانت الحركة الاحيائية في ايطاليا مشجعاً لمثل هذه الحركة في فرنسا ، اذ بها تمد الحركة الادبية الفرنسية بمنهجية جديدة في الفيلولوجيا وفن الانشاء العالي . ومنذ ذلك الحين تابع الفرنسيون سيرهم دون اي مساعدة من الجانب الايطالي ، عملاً بتقاليدهم في القرون الوسطى ، دون ان يسلوا الى متعتهم الادبية ، وذلك في مجالات التفسير الكتابي والدراسات اللاهوتية .

الدين والتصوف

لا يمكن ان تستقيم فينا صورة صحيحة ، دقيقة لهذه الحركة الاحيائية التي قامت في كل من ايطاليا وفرنسا والمانيا ما لم نعطف هنا بكلمة عابرة حول ما كان الناس يشعرون به من هواجس ووساوس ، وهموم وقلق في امور الدين . فبعد ان طووا اجيالاً من القلق والاضطراب النفسي يتأكل جوارح النفس راحوا يبحثون عن الدوافع التي سببت بمثل هذه التغييرات الجذرية في جسم العالم ، كما تاق الجميع ورغبوا بشوق شديد لو ان يتم اخيراً هذا الاصلاح الذي طالما لوّحوا به والذي كان يتأجل وقوعه ويسوّفون به باستمرار . وسواء اجاء هذا الشوق للاصلاح استجابة فيهم لمطلب الحقيقة التي يبحثون عنها او للخير الذي يطمعون فيه ،

فيجل ما همهم من هذا كله رجوع النظام الى الكنيسة وسيطرته على الافكار والمجتمع .

وهذا البطء المميت الذي استوجبه القضاء على الانفصال الذي طال امده وذلك بفضل مجمع كونستانس عام ١٤١٧ ، وزوال الانفصال الآخر الذي نجم عن مجمع بال ، وذلك باستقالة البابا الدخيل فليكس الخامس ، عام ١٤٤٩ ، لا يختلف كثيراً عن هذه الرغبة الشديدة في اصلاح الكنيسة ، في رأسها وأعضائها وهي رغبة جاشت في صدور الناس في كل مكان. اما البطء فمرده كما هو معروف ؛ الى هذا الوهن الذي دب الى سلطة الكنيسة التعليمية ، هذه السلطة التي نازعها اياها وانكرها عليها القائلون بسلطة المجمع المسكوني الذي له وحده في نظرهم الحق بالتشريع وبادارة الكنيسة ، كما يعود الى مداخلات الدولة ومطالبها الملحة بعد ان مكنت اصولها ورسخت اركانها بحيث اضطرت السلطة الدينية للمصانعة والدخول معها في مفاوضات ، والوصول الى اتفاقات عن طريق عهود ومواثيق توصّل الى عقدها بين الطرفين ، للبت بامور الامتيازات والاعفاءات والرسوم التي كانت الكنيسة تتمتع بها وتجبيها ، كذلك هذه الظروف السيكولوجية العامة التي ادت اليها الحركة الاحيائية ، وهي ظروف عملت على الحد من كل الجهود المبذولة في هذا السبيل ، حتى ومن المساعي التي قام بها البابوات الذين جندوا انفسهم لهذه الحركة امثال نيقولا الخامس وبيوس الثاني وسيكتس الرابع . صحيح ان وجود بابا على شاكلة اسكندر السادس بورجيا على رأس الكنيسة في اواخر القرن الخامس عشر لم يكن من شأنه ان يشجع الاخذ بهذا الاصلاح . وهكذا ، فالرغبة التي جاشت بها النفوس والالحاف الذي رافق المطالبة بالاخذ بهذا الاصلاح ، هي احدى النزعات العميقة التي استبدت بالنفوس في هذا القرن ، وهي رغبة ليس انها لم تتعارض مع روح الحركة الاحيائية العامة فحسب بل توافقت معها وانسجمت بها الى أقصى حد ، فتعددت وجوه المطالبة بها بتعدد الاتجاهات الدينية في العصور الغابرة .

فمن قبيل مثل واحد نضربه هنا هو ان الحاجة الى التأليف والتوفيق التي شعر بها نيقولا ده كوس ، اتفقت مع الرغبة في اعادة الوحدة التي ذهب بها النقد المخلخل الذي قام به اوكهام . فقد اضاف الى اهتماماته كقاصد رسولي عهد اليه الكرسي الرسولي القيام في كل من المانيا والبلاد الواطية بما قام به من عمل اصلاحي ، في فرنسا ، الكردينال دستونفيل وفي اوروبا الوسطى ، جان دي كابستران (١٣٨٥ - ١٤٦٥) ، وفي ايطاليا علم من اعلام هذه الحركة الشاملة ، هو الكردينال بساريون . والى هذا عندما راح ده كوس والبابا بيوس الثاني ، الذي لا يزال يذكر عنه انه كان عمل بوصفه إينيا سلفيو ، سكرتيراً للامبراطور ، يعملان معاً على اتحاد الملوك المسيحيين ، وبذلك جمعا بين الحلم المعسول الذي تبدى لدانتي ، والوحدة التقليدية التي عرفتها الكنيسة المسيحية ، في الاجيال الوسطى ، الى المثل العليا التي وضعتها الحركة الاحيائية نصب اعينها . واخيراً لما افضى ده كوس وبعده بكثير ، بيك ده لاميراندول ، بشكل آخر بابحاثهم النظرية وتجريداتهم اللاهوتية ، الى ما افضوا اليه من المطالب الصوفية : فقد عبرا عن الرغائب التي جاش

بها كثيرون من ابناء عصرهم . والقلق الذي استحوز على بيك،بعد ان أخذ بمواعظ سافونا رولا اللاهبة ، شعر به بوتيشلي نفسه .

ففي هذه النزعة الصوفية القوية التي تملكت النفوس ، يجب ان نبحث عـــن المحرك الاول والمؤثر الاكبر والدافع الاقوى للاصلاح الديني في القرن الخامس عشر ، كما انه يجب الا نهمل ، من جهة اخرى ، الجهود التي بذلها الاكليروس العلماني ولا المحاولات التي قامت بها السلطات المدنية ، في كل من فرنسا ، في عهد شارلمان الثاني ، وفي اسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، والمشروع الاصلاحي الذي وضع خطوطه الكبرى المجلس العام لممثلي الشعب ، سنة ١٤٨٤ ، ومجمع سانس عام ١٤٨٥ ، واللجنة الكنسية التي التأمت ، في تور ، عام ١٤٩٨ ، وكلها خطوات ومساع مهدت السبيل امام العمل الذي تولى ادارته رسمياً ممثل البابا الكردينال جورج دامبواز . وقد قامت الرهبانيات باكبر جهد ونصيب في هذا المضمار ، ولا سيما تلك التي تنقطع منها للتأمل والتجريد ، والرهبانيات المستعطية، والرهبانيات والاديار البندكتية كدير برسفيلد الواقع ضمن الامبراطورية ، ودير القديسة جوستين ، في ايطاليا ، ودير كلوني برئاسة الاب ده بوربون ، ودير شيزال ــ بنوا برئاسة الاب دوماس ، والرهبانيات الحبيس او المنعزلة : كدير فونتفرولت . كل هذه الرهبانيات والاديار كانت مراكز مثالية للانضباط الرهباني والتقيد بالفرائض الرهبانية. ونرى مثل هذه الحركة تقوم ايضاً في اديار الكرمل التي راح رئيسها العام الاب جان سوريت النورمندي الاصل ، يؤسس فرعاً نسائياً لهذه الرهبنة هو دير الكرمليات، وهي اديار اجتذبت اليها النفوس الكبيرة العطشى الى طمأنينة النفس والتأمل . فاذا ما تخلى الكرسي الرسولي عن مشروعه الرامي لتوحيد مختلف فروع الرهبانيات التي تنتسب للقديس فرنسيس الاسيزي ، فقد عرف هؤلاء ، مع ذلك ان يؤمنوا، بنجاح اكبر وحظ اوفر،الانسجام في عملهم الاجتماعي وان يلائموا ، اكثر فاكثر ، بين المبادىء التي اوصى بها كتاب « التقوى العصرية » الذي لاقت تعاليمه نجاحاً كبيراً كما كانت معيناً لا ينضب من الخشوع.وفي تلك الحقبة اسس فرنسيس دي بول رهبنة « المينيم » او المنسحقين (١٤٦٠) وقد عادت الرهبنة الدومنيكية بعد طول جهد وجهاد الى ما عُرفت به من التمسك بالقانون والتقيد بالفرائض الرهبانية، لا سيما في البلاد الواطئة الجنوبية ، حيث اسس جان فان ويتنهوف ، عام ١٤٦٤ ، الرهبنة الهولندية ، التي انشأت لها فروعاً في بريطانيا ومقاطعة سافوى .

هذه الارض « المختارة » ، وهو النعت الذي اطلق على البلاد الواطئة ، عرفت دوماً ان تشع وترسل بانوارها بعيداً . فمن تربتها الخيرة طلع ستاندوك ، هذا الرئيس المتشدد في زهده ، الذي تولى رئاسة كلية مونتايغو ، في باريس ، فكان له فضل عميم في نشر هذه الصوفية التي عمل على ترويجها والدعوة لها واسعاً بين الناس : « اخوة الحياة المشتركة » ، وسعوا لنشرها على الاخص بين الاوساط العلمية والادبية التي اخذت بحركة الاحياء ، والتي بلغ من شدة مغالاتها

ما فضح هذا التراخي الذي عم الجميع ، فاثارت تهكم وسخرية مواطنه : إيراسموس . ان التقاء هذين الاسمين بازاء المفارقات التي ميزت فلورنسا في عهد سافونا رولا يثير هذا التنوع وهذا التباين في عصر عُرف بالروحانيات كما فاض باعمال الفكر . هل نحن امام نوعين من الناس قام الواحد تجاه الآخر ؟ هل يمثل ستاندوك الماضي وايراسموس المستقبل الطالع ؟ وهذا الانسان الحديث هل يختلف الى مثل هذا الحد عن الانسان القديم ؟ ففي هذا القلق الداخلي الذي اعترى الناس في الازمنة الصعبة ، لم يُقِم الاول منهما على تواضع النفس وحده وعلى تطلعه نحو المسيح المتألم والعذراء مريم ام الاوجاع والآلام . وباستثناء هؤلاء المتصوفة المخلصين، فقد بنى لذته على الاسترسال في إنعام النظر في ما انتابه من قلق . وهذه الذاتية المركزية كانت بالفعل صورة من صور هذه الحركة الاحيائية . وهكذا اخذ يتجه نحو الانسانية الاخرى الحقة ، انسانية الانسان الفرد ، هذا البطل الذي خرج منتصراً على الازمة بمجرد ارادته . فسواءٌ اكان مستبحراً في العلم او عالماً عادياً او زعيم حزب او اميراً او تاجراً ، او متمولا او لاهوتياً ، فالرجل الحديث يعتقد من الصميم انه عن طريق ابراز شخصيته وتجليها يستطيع الوصول الى ما يرغب فيه . « فالمجاهدة تغلب الحظ » هذه العبارة التي جاءت على لسان البرتي فذهبت مثلاً واصبحت منهجاً سارت عليه الاجيال الطالعة التي اخذت تشعر انها تستطيع بعزم صادق ان تحقق كل رغائبها وتفوز بالمنى . فقـــد تفتحت امكانات جديدة وتفتقت طاقات جديدة لنشر الفكر والعمل الاجتماعي امام الرسل والعلماء ورجال السياسة والمغامرين ، ورجال المال والاعمال ؛ فآفاق جديدة أطلت عليهم لا حد لها ولا حصر ، وانفرجت امامهم مجالات رحاب للمغامرات والفتح والكسب .

٤ ـ انتشار الفكر والمعرفة في العالم

جاء اختراع الطباعة كغيره من هذه الكشوف التقنية التي حققها الانسان تنفيساً عن حاجة ملحة للمدنية ، وتحقيقاً لرغائب وآمال طالما نمت بين ضلوع الانسان ، ونهاية مطاف مكدود جهيد .

اختراع الطباعة

فازدياد عدد الجامعات ، ونزعة الانسان للكتاب وجمعه وخزنه وحرصه الشديد على الاحتفاظ به ، ومطلب النقد العلمي عند الانسانيين كل هذا وما اليه زاد كثيراً ، في منتصف القرن الخامس من شدة إقبال الانسان على الكتاب وطلبه له اينما وجد او توفر . والثابت ان الكتاب المخطوط يكلف غالياً بالنظر لمادته الاولى ، والبطء الذي تتم معه كتابة الكتب او استنساخها على شيء من الزينة والتحلية ، وامتلاكه ترف ولو بعدد ضئيل . ان ثمن بضعة عشرين كتاباً تألفت من مجموعها مكتبة احد اطباء مدينة بافي ، في اواخر القرن الرابع عشر ، كان يكفي لأود عيش رجل من عامة الشعب . اباستطاعة الطلاب

الحصول على ما يحتاجون اليه منها او يرغبون فيه وهم على ماهم عليه من ظروف معايشية وضيعة. اما الاغنياء ولا سيما رجال الاعمال منهم، فجمعهم للكتاب المخطوط كان، اذ ذاك ضرباً من ضروب الاستثمار والاستغلال، بينه وبين الحرص على جميع الجوهرات والحلى والصحاف الكريمة اكثر من شبه. فلا عجب لو رأينا كثيراً من المخطوطات تذكر في قوائم البيع والجرد.

وبدا للمعنيين بهذا الامر، حوالي ١٤٤٠، ان يستعملوا في تضعيف الكتب وتكثيرها، طريقة نقش امهات الحروف على الحجر، بعد ان كانت ظهرت، من عهد قريب، الطباعة الخشبية *Xilographie*. فقد تبدى لبعضهم، منذ اواخر القرن الخامس عشر، ان ينقشوا حروفاً بارزة في مكعبات من الخشب والحصول منها بعد تحبيرها والكبس عليها، على عدد من النسخ. وقد جاء هذا الاختراع تقريباً في الوقت الذي اكتشف فيه ورق اللعب، بعد انقضاء نحو قرن على استعمال ورق النقد الصيني في الغرب.

وهذا الكشف الذي تم في الغرب، لم تبد قيمته للعين الا في اليوم الذي استطاع معه الانسان ان يزيل بطء العمل وان يتلافى المطل السريع الذي يلحق بادوات الطباعة لسرعة عطبها. وقد جاء التوفيق يوطد النجاح ويقضي على الامرين معاً: اذ توصل الانسان الى اختراع احرف معدنية متداخلة وصحائف نقالة هي الاخرى تتيح طبع الصفحة على الوجهين معاً. فبعد ان استعملوا في بادىء الامر، حروفاً بارزة، توصلوا الى حفرها في امهات يصبون عليها مركباً من الرصاص والاثمد. وهكذا جاء اختراع الطباعة حلقة في سلسلة تطوير الاختراعات المدنية.

لا يهمنا كثيراً هنا، ان نعرف من هو صاحب الفضل الاول في هذا الاختراع العجيب، بعد ان تضاربت الآراء حول الموضوع وذهب المؤرخون فيه مذاهب شتى. ويكفي ان نعرف هنا ان اسم لوران كوستر من مدينة هارلم يأتي في طليعة من يعزى اليهم هذا الفضل في اختراع الحروف النقالة، كما يعزونه ايضاً الى يوحنا غوتنبرغ الذي مع مساعده ومعاونه بيير شيفر، تلقى علومه في مدينة ستراسبورغ، واستطاع ان يطبع في مدينة ماينس، اول كتاب كامل اخرجته المطابع، سنة ١٤٥٥، كان من اليمن وحسن الطالع ان يكون التوراة، الصفحة منه بحجم قطع ورقة كاملة *In - folio* وهي التوراة المعروفة بذات الـ ٤٢ سطراً للصفحة الواحدة، او التوراة المازرينية وذلك لامتلاك الكردينال مازرين نسخة منها.

وقد جاء انتشار الاختراع التقني الجديد يشبع الى حد بعيد، حاجات المجتمع، بحيث انه ما كاد يمضي ١٥ سنة على ظهور اول كتاب مطبوع حتى راح احد سكان روما يصرح عالياً: « ان الكتاب الذي كان ثمنه من قبل ١٠٠ دوكا او ١٠٠ ريال، تستطيع شراءه اليوم بعشرين وبذلك اصبح في مقدور ادنى الناس وضعاً اجتماعياً ومالياً ان يكون له مكتبة. فثمن الكتاب اليوم هو اقل من كلفة تجليده من قبل ٢٠ سنة، وبالفعل، فبأقل من ٣٠ سنة، انتشر فن الطباعة الناشىء حديثاً الى كل ارجاء اوروبا. فامتد من ماينس الى ستراسبورغ، ومنها انتقل فن الطباعة الى مدينة بال في سويسرا، والى نورمبرغ في المانيا ليبلغ ايطاليا ويدخل مدينة سوبياكو عام ١٤٦٤

وروما عام ١٤٧٠ ، ثم فلورنسا والبندقية،وتمت لباريس مطابعها عام ١٤٧٠ ، ثم راحت مدينة ليون في فرنسا تبرز في الطليعة بنشاطها الطباعي،ثم جاءت روان وتولوز،ومعظم المدن الجامعية في فرنسا . وكانت مدينـــة فالنس وسرغسطة اولى المدن الاسبانية التي دخلها فن الطباعة . وتم للندن مطابعها قبل نهاية القرن .

استعمل غوتنبرغ ، اول من استعمل في الطبـاعة ، الحرف القـوطي، الجاري استعماله في المخطوطات الليتورجية . وفي عام ١٤٦١ ، حــاول بفيستر ان يقلد المخطوطات المنمنمة ، باستبدال التزاويق ، في عملية طباعية قام بهـا في بامبرج ، برسوم منقوشة على الخشب . وبهــذا التقليد تحرر الكتاب اذ اتخذ في الطباعة حرفاً خاصاً هو الحرف « الرومــاني » المطبوع الذي عُرف بالحرف القديم *Littera Antiqua* الذي ظهر في سوبياكو ، عام ١٤٦٤ ، ثم أضيف الى هذه الطريقة ، عام ١٥٠١ ، في البندقية نوع من الحرف الايطالي *Italique* . وكان العاملون في الطباعة قد توصلوا ، اذ ذاك ، الى افراغ قوالب للابجدية اليونانية ، استعملت في مدينة ماينس عام ١٤٦٥ ، واستعملت عام ١٤٧٦ في طبع كتاب يوناني بكامله. واذ كانت فلورنسا مركز الحركة الاحيائية الهلينية ، فقد احتلت ، قبل البندقية وليون، الاولوية في الطباعة اليونانية . وهكذا صاغت الطباعة ادواتها وعدتها الخاصة وتفننت باستنباطهـــا الاشكال التعبيرية ، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التعبير بالذات تتحرر من القيود المعيقة لها . واقبل الانسانيون *Humanistes* يستعملون الحرف الطباعي المعروف بالحرف الكارلوني *Caroline* للآداب القديمة وهو الحرف الذي تطور فيما بعد الى الحرف «الروماني» المعروف اليوم، بينما راحت اشكال الحروف الاخرى تتطور الى ما عرف بالحرف الدارج *Courantes* ، مؤيدة فردية المرء وحريته .

وقد رحّبت الكنيسة ترحيباً حاراً باختراع الطباعة واعتبرته عربوناً للتحرر الفكري . فاسمع ما كتبه بهذا الصدد ، اسقف اوغـسبورغ ، اذ يقول ، عام ١٤٨٧ ، « كانت الطبـــاعة نوراً لهذا العصر . فالكنيسة مدينة لها الى اقصى حد ، اذ امدتها بعدد من الكتب تفيض بالعلم الالهي » . وينطق عالياً بهذه المنة السابغة ما نرى من انتشار الكتاب المقدس بعدد كبير من اللغات اما بنصه الكامل المعروف او بالشكل المسمى : توراة الفقراء *La Bible des Pauvres* وانتشار كتب العبادة او الكتب التقوية العديدة التي عنوا بطبعها ونشرها اكثر مما عنوا بنشر النصوص القديمة ، وذيوع قصص الابطال الفرسان التي بقي اهتمام الناس بها والاقبال عليها على اشده، ولا سيما نشر كتاب « الاقتداء بالمسيح » وكتاب « *Ars Moriendi* » . الا ان مساوىء هذا الفن المديدة لم تلبث ان ظهرت للناس . ومنذ سنة ١٤٨٧ ، اهتم البابا اينوشنتيوس الثاني بمراقبة ثمار الطباعة . وفي ١٥٠١ ، قرر البابا اسكندر السادس وجوب اخضـــاع كل كتاب يتعرض لامور الدين بمراقبته فيعطى اذناً بطبعه *Imprimatur* ان لم يأتِ فيه مـــا يعارض التعاليم الدينية . وقد رأى احد الالمان من رجال هذا العصر في الطباعة « سلاحاً ذا حدين

يسير على قدر واحد في ركاب الحقيقة والكذب » . وهكذا أطلّ على الناس سلاح حاد طالما استعمله رجال الاصلاح الديني وخصومهم على السواء .

الاكتشافات الجغرافية

ساعدت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي توفرت اسبابها ، اذ ذاك ، على ترحيب وتوسيع آفاق المعلومات الجغرافية لدى الانسان . فقد شعر العالم الغربي بحاجة ملحة للتوسع والامتداد ، وعرف ان يهيء لهذا الامر ، في الوقت المناسب ، الاسباب ويعد له العدة الكفيلة بتحقيقه بعد ان صقلت منه الاذواق واستهواه الوقوف على مكنونات الكون وعجائب المخلوقات ، وشغف بالدقة العلمية والكشف التجريبي بالمشاهدة العينية وتحرك فيه الفضول العلمي وجاش فيه حب المغامرة. وهذه الروح الجديدة التي استأثرت بمشكلات العصر واخذت تحاول الوصول الى حلها ، ليس ما يمثلها خير تمثيل غير الأمير هنري ده بورتغال الذي لقب جزافاً واعتباطاً : بالملاح او البحري ، اذ لم يعرف عنه انه ركب البحر في سبيل الكشف الجغرافي.

وهذه الاسفار البحرية في المحيط الاطلسي التي غامروا بها ، في مطلع القرن الرابع عشر ، باءت كلها بالفشل التام لأنها لم تقترن بالوسائل التي تؤمن لها النجاح . فبعد السفينتين التابعتين للاخوة فيفالدي ، والتي استأجرها جاكوبو دوريا ، احد رجال الاعمال من سكان جنوى راح بحارون يقومون بمغامرات بحرية محاولين الايغال ، اكثر فأكثر ، باتجاه الغرب ، عبر مضيق جبل طارق ، وذلك بين ١٣١٠ – ١٣٣٠ ، واستطاع احد البحارة الجنويين هو : لانزرتو مالوشالو من الوصول الى الجزر الخالدات . وفي سنة ١٣٣١ عادت بعثة جديدة الى لشبونة بعد ان بلغت بعمارتها جزيرة ماديرا والجزر الخالدات . وبعد ذلك بخمس سنوات ، راح جيمي فرارا يتوغل بحراً بعد ان غادر مرفأ برشلونة ، بحثاً عن « نهرا الذهب » ويحاول الوصول اليه . ثم انقطعت اخبار هذه المغامرات البحرية وخيم الصمت على كل نشاط من هذا القبيل ، اذ لا يستطيع المرء ان يأخذ بهذه الاقاويل التي حملت البحارة النورمنديين الى مشارق الفينيه حوالي عام ١٣٧٠ ؛ كذلك لا يمكن الاخذ ، لضعفها ، بالرواية التي تقول بوصول المغامر التولوزي إيسلغيه ، الى السودان ، في اواخر القرن المذكور . ومع ذلك نعرف معرفة اليقين ان قبل هذا التاريخ ، وصل احد الرواد المغامرين من جنوى الى مدينة سجلماسة الواقعة الى الجنوب من الغرب الاقصى ، عند اطراف الصحراء ، وان الرحالة ابن بطوطة المغربي الاصل قام بين ١٣٥٣ – ١٣٥٤ برحلة استكشاف بلغ فيها بعض مجاهل نهر النيجر ان بقي خبر ذلك مجهولاً تماماً في الغرب . وكان في نية هؤلاء الرواد ومعظمهم من الجنويين، الوصول الى ذهب السودان . وهكذا برزت الحاجة القوية للمعادن الثمينة التي شعرت بها اوروبا المسيحية ، ورغبة المدن الايطالية الكشف عن اسواق جديدة لها في افريقيا ، بعد ان سدت في وجهها طرق آسيا الوسطى التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر . ومع ان هذه المغامرات لم تستمر ، فقد

ساعدت مع ذلك على تطوير فن رسم الخرائط الجغرافية لا سيا في مركزين عرفا بهذا الفن هما مدينة جنوى وبوركا في جزر البليار. فالخريطة البحرية *Portulan* التي وضعت عام ١٣٥١ ، احتفظت بها المكتبة اللورنتية . وقد جاء الاطلس « الكتلاني » المعروف باطلس شارل الخامس (١٣٧٥) دليلاً ساطعاً على التقدم والتطور الذي طرأ على العلوم الجغرافية ، والعلوم الكونية بحيث فاقت كثيراً وتجاوزت بعيداً ما عُرف منها في الاجيال السابقة .

واول رحلة بحرية طلعت علينا اعتباطاً في مطلع القرن الخامس عشر جاءت في اعقاب هذه الاسفار التي لا يزال شيء من خبرها يتردد في الخاطر. ففي سنة ١٤٠٢ قام النورمندي جان ده بتنكور الذي قام بصحبة غاديفر ده لاسال من مقاطعة سانتونج ، يحاول استثمار الجزر الخالدات وهي محاولة غريبة جاءت نذيراً بما سيقوم به ، بعد ذلك بقرنين ، معمرون نورمنديون في اصقاع كندا حيث حملوا اليها النظم والعادات والادوات الزراعية التي كانت قيد الاستعمال في الوطن الام ، وقد انتهت محاولاتهم هذه بالفشل التام : فتخلى بتنكور عن حقوق استثماره لملك قشتالة . وهكذا اصبح من حق ملوك شبه الجزيرة الايبيرية ان يأخذوا تحت رعايتهم الاشراف على هذه الرحلات البحرية الكبيرة عندما امكن توفير اسباب التطور التقني وتفهم أصح لهذه المشكلات المعقدة التي تواجهها الملاحة في المحيط الاطلسي .

فالازدهار الذي نعمت به الموانيء البحرية الواقعة على ساحل المحيط الاطلسي لم يكن قط وليد الصدفة والارتجال . فقد عرفت هذه الموانيء الواناً من النشاطات البحرية طيلة بضعة اجيال كانت بمثابة اعداد نفساني اسكان المرافيء الواقعة على خليج بسكاي وغيبوزكو الواقع بين البرتغال والاندلس هيأهم للقيام والاسهام بهذه الرحلات البحرية البعيدة المدى. وكانت سواحل كنتبريا مجالاً لنشاط عارم تجلى باعمال الصيد والمبادلات التجارية ، التي اخذت تزداد ، اكثر فاكثر ، مع سكان اوروبا الشمالية الغربية . اما اسبانيا التي كانت قليلة السكان نسبياً بينهم عدد من المسلمين ، فلم تتمخض ، قبل القرن السادس عشر ، باية حاجة لاختزان الحبوب بقصد التموين . اما في البرتغال ، فالوضع كان على عكس ذلك تماماً اذ لم يكن يتوفر للسكان هنالك اي اختيار بين امكانيات عارضة متنوعة ، فوجدوا انفسهم خاضعين لاجتذاب البحر وسحره . وامام حاجة الاهلين للقمح ، راحوا يتلمسون الحصول عليه في المغرب وجزر مديرا ، كما ان حاجة سكان لشبونه للسكر اضطرتهم للعناية بزراعة قصب السكر في مقاطعة الغارف احدى المقاطعات الجنوبية في البرتغال ، كما حاولوا ادخال زراعته ، خلال هذا القرن في بعض ارخبيلات الاطلسي . ثم ان حراجة الوضع النقدي ارغمت البعض ، ولا سيا الاشراف ، على اقتناء عقارات واملاك لهم في اجواء اخرى ، كما ارغمت فريقاً اخر معظمهم من التجار على تأمين موارد اوفر واوسع من مادة الذهب . ويجب الا نغفل هنا عن ذكر اسباب اخرى اعتادوا الاتيان على ذكرها ، اثرت كثيراً على عقلية سكان لشبونة . ان انتشار البرتغاليين عبر البحار وضربهم في آفاقها البعيدة كان يعوض عليهم ما كانت عليه بلادهم من ضعف المساحة

وارضهم من خسة الرزق وضنانة العطاء ، اذا ما قيست بمملكة قشتالة ؛ والفتح عندهم كان مقروناً بفكرة صليبية ، ولذاراودت اذهان هؤلاء القوم دوماً احلام بالفتوحـــات . فلكي يقوموا بحركة التفاف حول الدولة المغربية، وتأميناً لاتصالهم بمملكة الراهب يوحنا الاسطورية اخذوا بتحقيق الرحلة حول افريقيا . وبالاضافة الى هذا كله ، شجع ، ان لم نقل نظم امراء اسرة افيز المالكة ،امثال الامير هنري الملاح واخيه بيير ، الوصي على العرش ، البرتغاليين على القيام بهذه الاسفار. والبرتغال الذي اخذ منذ عام ١٤١٨ بحركة الاكتشافات الجغرافية هو ابداً مدين لهذين الأخين ، بهذا النشاط العارم الذي تجلى على اتمه منذ عام ١٤٣٢ .

وبدون خطة واضحة سابقة راحوا يهيئون ، على شيء من التنظيم ، الاجهزة اللازمـــة ويتبينون الخطى والصوى التي كان عليهم ان يسيروا عليها . ان احتلال البرتغاليين لمدينة سبتا المقابلة لجبل طارق على الشاطىء الافريقي ،عام ١٤١٥ حملهم على السكنى في مجمل المدن الساحلية الواقعة على ساحل الاوقيانوس الاطلسي . وفي الوقت ذاته اخذوا يترددون على الجزر الخالدات في الحين الذي كان يختلف اليها القشتـــاليون ، ثم استقرّوا في بورتوسانتو وفي جزيرة مديرا ، حوالي عام ١٤٢٠ ،واستكشفوا جزر الازور ، عام ١٤٢٧ وتقدموا من بحر سَرّغاس ، وتابعوا استكشافهم للساحل الاطلسي فوصـــلوا الى بوغادور عام ١٤٣٤ ، والى الرأس الاخضر ، عام ١٢٤٤ ، واستقر البرتغاليون في نهاية الامر في جون أرغين ، عام ١٤٤٣ حيث كانت تنتهـــي مرحلة القوافل التي تصل الى تمبكتو في اربعة او ستة اسابيع .

وقد كان لهذا الحادث وقع كبير كما ظهر بعد ذلك بقليل .فقد كانت مدينة تمبكتو آنذاك مركزاً هاماً للحركة التجارية في افريقية ، اذ كانت سوقاً لمقايضة ملح الصحراء مع العبيد وذهب السودان ، الذي كان يصل منذ عدة اجيال عن طريق القوافل التجـــارية الى مرافىء الغرب ، ومنها ينتشر في كل مرافىء البحر المتوسط . وقد راح البرتغاليون يحاولون تحويل هذا التيـــار التجاري نحو بلادهم . والجنويون الذين كانوا يموّلون مشـــاريع البرتغاليين واسفارهم البحرية ، لم يهملوا قط الاهتمام بالطرق التقليدية للتجارة في افريقية . وهكذا سافر احـــدهم هو انطونيو مالفانته ، من سجلماسة ، عام ١٤٤٧ واتجه نحو مقاطعة التوات ، متتبعاً مسالك الصحراء ، وتمكن من جمع معلومات وفوائد دقيقة عنها شبيهة بتلك التي جمعها عنها ابن بطوطة ، قبل ذلك بنحو قرن من الزمن ، وهي معلومات تتعلق بالدول الاسلامية القائمة بين بحيرة تشاد وبين المحيط الاطلسي . وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة ، اي في عام ١٤٧٠ ، ادعـــى احدهم هو بنديتو داي الفلورنتي يعمل في خدمة اسرة بورتيناري انه بلغ مدينة تمبكتو بواسطة الطرقات البرية. ومهما يكن ، فقد عرف البرتغاليون ان يفيدوا كثيراً من هذا السبق الذي حققوه . فبعد ان بلغوا مشارف نهر غمبيا وجزر الرأس الاخضر ، حوالي عام ١٤٥٥ ، كما يشهد على ذلك قصة رحالة من البندقية، اسمه سادا موستو ، عرفوا ان ينالوا بواسطة مرسوم بابوي ، ليس الاراضي الواقعة في عرض البحر من سواحل افريقية التي سبق واعترف بحقهم عليها البابا يوجين الرابع

فحسب ، بل ايضاً الأراضي التي سيكتشفونها في طريقهم الى الهند .وبعد ذلك بخمس سنوات، ترام على شواطىء خليج الغينه ، في هـــذا الموضع بالذات الذي انشأوا لهم فيه ، عام ١٤٨٢ ، وكالة تجارية وحصنهم المعروف بحصن سان جورج ده مينا .

وهذا التوسع الجغرافي لم يستطيعوا تحقيقه الا بفضل التطورات العلمية والتقـدم التقني الذي ساعد على النهوض به وتحقيقه على مثل هذا الوجه ، عوامل فكرية وظروف اقتصادية مؤاتية للغاية . فالاثر الحاسم الذي تركه ، في هذا المجال الامير هنري لم يكن قط اثر بحاثة عالم بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . فالنشاط العلمي البرتغالي الذي كان بالاحرى نشاطاً ذا طابع عمـلي ، تجريبي ، بقي بعض الشيء معزولاً او غريباً لا يتصل بسبب متين ، بنشاط مدرسة نورمبرج التي اتسمت بالكثير من صفات العلم وامتازت بالنظريات العلمية الدقيقة . فقبل وفاة الامير هنري بكثير ، كان تم وضع خرائط جغرافية دقيقة على الطريقة المتبعة في مـايوركا ، كما كانوا حسنوا كثيراً من فعالية دائرة الارياح *Rose des Vents* . وكل شيء يدل على انهم استفادوا كثيراً من الاسطرلاب ومن ربع محيط الدائرة ، لتحقيق هذه الاسفار الجغرافيـة البحرية التي ادت الى اكتشاف جزر مديرا ، كما ان الارصاد الفلكية تمت بدقة اكبر ، اذ ان البرتغـاليين ، تبينوا ، بشهادة سادا موستو، برج صليب الجنوب ، في حزيران ١٤٥٥ ، عند مضب نهر الغمبي ، وعنـد الدرجة ١٣ من خط العرض الشمالي . ولا تقل اهمية عن هذا الحادث ، التطورات التي طرأت على الوسائل العلمية في هذه الرحلات التي تجاوزت رأس بوغادور بحيث استطاعوا بناء سفينة جديدة باسم الكرافيل كانت اكثر مرونة واسرع سيراً ولها قلوع اكبر واكثر فعالية .

وهذه الاختبارات والتجارب الفعلية الجديدة لعبت الدور الاكبر في هـــذه التطورات المستمرة التي ساعدت ، من رحلة الى اخرى ، على معرفة مهـاب الارياح والتعرف الى مسالك المحيط الاطلسي . وهكذا لم يلبثوا ان تبينوا ان السفر البحري باتجاه الجنوب كان ايسر بكثير من السير بحراً على مقربة من السـواحل الافريقية او بازائها ، اذ كان المسافر يتعرض وهو في طريق عودته ، للارياح المضادة وللتيارات المعاكسة . ولذا توجب عليهم الابتعاد عن القارة السـوداء حتى جزر الازور لمصادفة ارياح مؤاتية .

واذ ذاك فقط امكن الجمع بين الخبرة القائمة على التجربة والعلم التجريدي او النظري . ففي عام ١٤٥٩ جرت ، على ما يقال ، بين السفير البرتغالي وتوسكانلي مقابلة اثناء مؤتمر منتوا ، تخلله حديث طويل . وكان على هذا الاخير ان يرسل ، عام ١٤٧٥ ، الى كاهن برتغالي رسالة مهمة يحدثه فيها عن طريق يؤدي نحو الغرب ، قد يمكن للمؤرخ ان يحسب لهذا الحديث حساباً في ظهور هذه الفكرة عند كولمبوس وتجليها له بوضوح. فاذا كان الملك الفونس الخامس لزم جانب التحفظ تجاه هذه الفكرة لعدم توفر المال لديه ، فقد عرف خلفه الملك يوحنـا الثاني المشهور ،

كما يؤكد الرحالة جيروم موتزر ، بطلبه للعلم وحرصه على جمعه له ، كما عُرف بقدرته على البحث وامعان النظر في امور الرصد الجوي ساعات بطوالها فجمع حوله مجلساً من العلماء ودعا اليه مارتين بيهايم الذي حمل معه من مدينة نورمبرغ المعلومات العلمية المتوفرة لديها ، ولا سيما الازياج التي وضعها ريجيومونتانوس لسير السفن . وبواسطة عمليات حسابية سهلة الاخذ نسبياً تساعد على تحديد ارتفاع الشمس في السمت عند الظهيرة ، جعلت من الامور الميسورة ، التجول في البحار الجنوبية . واذ ذاك فقط ، امكن اجتياز المراحل الحاسمة . وبعد ان تجاوزوا نقطة الخطر عام ١٤٧١ كما يرجحون ، قام هذا الفريق من البحارة : جان ده سنتاريم وبيير اسكوبار ودياغوكام يذرعون معاً سواحل القارة الافريقية ، تاركين اينما مروا معالم ظاهرة تشير الى تقدم البرتغاليين التدريجي في هذه الارجاء القصية . وفي سنة ١٤٨٥ حمل كام معه من خط العرض ٢٢ الى الجنوب، بعض ابناء البلاد الاصليين الذين بعد ان يتم تنصيرهم وتعليمهم امور الديانة المسيحية كانوا سيرسلون مبشرين في بلادهم الاصلية . ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى استطاع برتلمي دياز ، بعد ان عرف كيف يستفيد من المعلومات والفوائد العلمية السابقة ، ان يجتاز رأس « العواصف » ممهداً السبيل امامه نحو الهند . فمنذ نحو ٣٠ سنة والغربيون يبحثون عن طريق لهم تفضي بهم الى بلاد الافاويه وبالتالي تمكن من الاستدارة حول القارة الافريقية . وحوالي ١٤٩٠ راح بيير ده كوفلهام يتجه على بركة الرحمن نحو الدروب المؤدية الى الحبشة التي بقيت صورتها دوماً تراود خيال البرتغاليين ، فبرهن لخير ملكهم ومنفعته ان الطريق التي اتبعها دياز انما كانت بالفعل خير هذه الطرق واسلمها وآمنها . فليس من عجب بعد هذا ، ان يصموا في لشبونة الآذان لعروض وخطط يتعهد بتحقيقها بحار جنوي ، لا خبرة شخصية له ، ولا تجربة بحرية او مغامرة له في المحيط الاطلسي،بالبحث عن طريق غربي لم يعد احد يشعر الآن ، بحاجة اليه بعد ان تم اكتشاف الطريق الشرقي الى الهند. وبعد صدمة الخيبة التي لقيها في البرتغال وجد هذا المغامر ترحيباً حاراً لدى بلاط اشبيلية التي لم تكن مشاريعها وخططها للكشف البحري بلغت بعد التوسع الذي تم للبرتغال . فقد حمل معه المعلومات التي جمعها من البحارة البرتغاليين . والذهب الجنوي الذي كان يلعب دوراً بارزاً في المرافىء الاسبانية والذي كان متيقظاً يبحث دوماً عن ظروف مؤاتية للمغامرات البحرية ، تدخل فجأة في الامر وساعد على انجاح الخطة المعروضة . والسفن الثلاث التي اقلعت كاملة العدة والتجهيز ، من مرفأ بالوس في ٣٠ آب ١٤٩٢ بقيادة خريستوف كولمبوس،كانت خاتمة المطاف في سلسلة هذه المغامرات التي ادت اليها مجموعة من التجارب العملية كانت بالفعل نتيجة هذه اليقظة وهذا التفتح على الكون تخطى جيلاً كاملاً من هذه البشرية المتطلعة الى الانتشار والتوسع كما كان الاطار الذي راح فيه النشاط الاوروبي يندفع بزخم . فمع كولمبوس شمرت المدنية الغربية عن ساعديها لفتح العالم وبسط سيادتها وسيطرتها عليه .

المـَـراجع

ان المراجع التي نشير اليهـا فيما يلي لا تعطي سوى فكرة موجزة عن الانتاج الادبي الضخم الذي تناول موضوع حضارات القرون الوسطى . وقد اخترناها بالتفضيل بين المؤلفات الموضوعة باللغة الفرنسية (المراجع العربية من اعداد هيئة الترجمة) .

١ ـ المؤلفات العامة

J. CALMETTE, **Le monde féodal,** t. IV de la collection «Clio» (Paris, P.U.F. 1951).

J. CALMETTE, **L'élaboration du monde moderne,** t. V. de la collection «Clio» (Paris, P.U.F., 1949, 3ᵉ éd.).

Collection « **Peuples et Civilisations, Histoire générale**», fondée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC (Paris, P.U.F.)

- t. V, L. HALPHEN, **Les barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIᵉ siècle** (5ᵉ éd., 1948).
- t. VI, L. HALPHEN, **L'essor de l'Europe, XIᵉ-XIIIᵉ siècle** (3ᵉ éd., 1948).
- t. VII, H. PIRENNE, A. RENAUDET, E. PERROY, M. HANDELSMAN et L. HALPHEN, **La fin du Moyen Age** (2 vol. 1931).

Collection « **Histoire Générale** », fondée par G. GLOTZ, dont **l'Histoire du Moyen Age** en 10 tomes (Paris, P.U.F.) demeure inachevée :

- t. I, F. LOT, CHR. PFISTER et F.L. GANSHOF, Les **destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888** (2 vol., 2ᵉ éd., 1941).
- t. II, A. FLICHE, **L'Europe Occidentale de 888 à 1125** (1930).
- t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, **Le monde oriental de 396 à 1081** (1936).
- t. IV, 1, E. JORDAN, **L'Allemagne et l'Italie aux XIIᵉ et XIIIᵉ siècles** (1939).
- t. IV, 2, CH. PETIT-DUTAILLIS ET P. GUINARD, **l'Essor des Etats d'Occident : France, Angleterre et Péninsule Ibérique** (1937).
- t. VI, R. FAWTIER et A. COVILLE, **l'Europe Occidentale de 1270 à 1380** (2 vol. 1940-1941).
- t. VII, J. CALMETTE et E. DÉPREZ, **L'Europe Occidentale de la fin du XIVᵉ siècle aux guerres d'Italie** (2 vol. 1937-1939).
- t. VIII, H. PIRENNE, G. COHEN et H. FOCILLON, **La civilisation occidentale au Moyen Age du XIᵉ au milieu du XVᵉ siècle** (1933).
- t. IX, 1, CH. DIEHL, L. ŒCONOMOS, R. GUILLAND et R. GROUSSET, **L'Europe Orientale de 1081 à 1453** (1945).
- t. X, 1, R. GROUSSET, J. AUBOYER et J. BUHOT, **L'Asie Orientale des origines au XVᵉ siècle : les Empires** (1941).

Histoire de l'Eglise depuis les origines jusqu'à nos jours, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay), encore incomplète pour le Moyen Age.

— t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY, L. BRÉHIER et G. DE PLINVAL, **De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand** (1937).
— t. V, L. BRÉHIER et R. ALGRAIN, **Grégoire le Grand, les Etats barbares et la conquête arabe (590-757)** (1937).
— t. VI, E. AMANN, **L'époque carolingienne** (1937).
— t. VII, E. AMANN et A. DUMAS, **L'Eglise au pouvoir des laïques (888-1057)** (1940).
— t. IX, A. FLICHE, **La réforme grégorienne et la conquête chrétienne (1057-1125)** (1940).
— t. IX, A. FLICHE, R. FOREVILLE et J. ROUSSET, **Du premier concile de Latran à l'avènement d'Innocent III** (2 vol., 1944-1945).
— t. X, A. FLICHE, **La chrétienté romaine, 1198-1274** (1950).
— t. XIII, A. FOREST, F. VANSTEBERGEN et M. de GANDILLAC, **Le mouvement doctrinal du XI[e] au XIV[e] siècle** (1951).
— t. XV, R. AUBENAS et R. RICARD, **L'Eglise et la Renaissance (1449-1517)** (1951).
Histoire des relations internationales, publiée sous la direction de P. RENOUVIN (Paris, Hachette).
— t. I, F. L. GANSHOF, **Le Moyen Age** (1953).
H. HEATON, **Histoire économique de l'Europe,** trad. franç. t., I. (Paris, Colin, 1951).
The Cambridge Economic History of Europe, fondée par J. CLAPHAM et E. POWER (Cambridge, University Press).
— t. I, **The Agrarian Life of the Middle Ages** (2[e] éd., 1953).
— t. II, **Trade and Industry in the Middle Ages** (1952).

٢ ـ الغرب

L. GENICOT, **Les lignes de faîte du Moyen Age** (Tournai et Paris, Casterman, 1951).
F. VAN DER MEER, **Atlas de la civilisation occidentale** (Bruxelles et Amsterdam, Elsevier, 1952).
P. ZUNTHOR, **Histoire littéraire de la France médiévale, VI[e] - XIV[e] siècles** (Paris, P.U.F. 1954).
J. CHAILLEY, **Histoire musicale du Moyen Age** (Paris, P.U.F., 1950).
R. GRAND et R. DELATOUCHE, **L'Agriculture au Moyen Age de la fin de l'Empire romain au XVI[e] siècle** (Paris, E. de Boccard, 1950).
L. HALPHEN et R. DOUCET, **Histoire de la société française,** t. I (Paris, Nathan, 1953).
CHR. DAWSON, **Les origines de l'Europe et de la civilisation européenne,** trad. franç. (Paris, Rieder, 1934).
F. LOT, **La fin du monde antique et le début du Moyen-Age** (Paris, A. Michel, 1949).
H. PIRENNE, **Mahomet et Charlemagne** (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouv. Soc. d'Editions, 1937).
R. LATOUCHE, **Les grandes invasions et la crise de l'Occident au V[e] siècle** (Paris, Aubier, 1947).
P. COURCELLE, **Histoire littéraire des grandes invasions** (Paris, Hachette, 1948).
E. SALIN, **La civilisation mérovingienne,** t. I et II seuls parus (Paris, Picard, 1950-1952).
CHR. COURTOIS, **Les Vandales et l'Afrique** (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1955).
F. M. STENTON, **Anglo-Saxon England** (Oxford, Clarendon Press, 1943).
J. DHONDT, **Etude sur la naissance des principautés territoriales en France (IX[e]**

X° **siècle** (Bruges, de Tempel, 1948).

J. HUBERT, **L'art préroman en France du V° au X° siècle** (Paris, Editions d'art et d'histoire, 2° éd., 1939).

R. LANTIER et J. HUBERT, **Les origines de l'art français des temps préhistoriques à l'époque carolingienne** (Paris, G. Le Prat, 1947).

M. BLOCH, **Les caractères originaux de l'histoire rurale française** (Paris, Colin, 2° éd., 1952).

M. BLOCH, **La société féodale** (Paris, A. Michel, 2 vol., 1939-1940).

F.L. GANSHOF, **Qu'est-ce que la féodalité?** (Bruxelles, Office de Publicité, et Neuchâtel, La Baconnière, 2° éd., 1947).

L. VERRIEST, **Institution médiévales**, t. I seul paru (Mons et Frameries, Union des Imprimeries, 1947).

D. M. STENTON, **English Society in the Early Middle Ages, 1066-1307** (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).

A. DÉLÉAGE, **La vie rurale en Bourgogne jusqu'au début du XI° siècle** (Mâcon, Protat, 2 vol., 1941).

CH.-E. PERRIN, **Recherches sur la seigneurie rurale en Lorraine d'après les plus anciens censiers, IX° - XII° siècles** (Paris, Les Belles-Lettres, 1935).

G. DUBY, **La société aux XI° et XII° siècles dans la région mâconnaise** (Paris, Colin, 1953).

R. DOEHAERD, **L'expansion économique rurales en Bavière depuis la fin de l'époque carolingienne jusqu'au milieu du XIII° siècle** (Paris, Les Belles-Lettres, 1949).

H. PIRENNE, **Les villes et les institutions urbaines** (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouvelle Société d'Editions, 2 vol., 1939).

F. L. GANSHOF, **Etude sur le développement des villes entre Loire et Rhin au Moyen Age** (Paris, P.U.F., et Bruxelles, Librairie encyclopédique, 1943).

R. DOECHAERD, **L'expansion économique belge au Moyen Age** (Bruxelles, Renaissance du Livre, 1946).

Y. RENOUARD, **Les hommes d'affaires italiens au Moyen Age** (Paris, Colin, 1949).

Y. LESTOCQUOY, **Les villes de Flandre et d'Italie sous le gouvernement des patriciens (XI° - XV° siècles)** (Paris, P.U.F., 1952).

Recueils de la Société JEAN BODIN (Bruxelles, Librairie encyclopédique).

— t. II, **Le servage** (1937).
— t. III **La tenure** (1938).
— t. IV, **Le domaine** (1949).
— t. V, **La foire** (1953).
— t. VI, 1, **Les Villes** (1954)

CH. PETIT-DUTAILLIS, **La monarchie féodale en France et en Angleterre, X° - XIII° siècles** (Paris, A. Michel, 1933).

CH. PETIT-DUTAILLIS, **Les communes françaises, caractère et évolution des origines au XVIII° siècle** (Paris, A. Michel, 1947).

R. FOLZ, **L'idée d'Empire en Occident du V° au XIV° siècle** (Paris, Aubier, 1953).

J. E. A. JOLLIFFE, **Angevin Kingship** (Londres, A. et Ch. Black, 1955).

R. FAWTIER, **Les Capétiens et la France, leur rôle dans sa construction** (Paris, P.U.F., 1942).

F. OLIVIER-MARTIN, **Précis d'histoire du droit français** (Paris, Dalloz, 4° éd., 1945)

A. FLICHE, **La querelle des investitures** (Paris, Aubier, 1946).

E. GILSON, **La philosophie du Moyen Age** (Paris, Payot, 1945).

G. PARÉ, A. BRUNET et P. TREMBLAY, **La Renaissance du XII° siècle. Les écoles et l'enseignement.** (Paris, Vrin, 1933).

J. DUPONT et C. GNUDI, **La peinture gotyen Age** (Paris, P.U.E., 1950).

G. DE LAGARDE, **La naissance de l'esprit laïque au déclin du Moyen Age** (Saint-Paul — Trois — Châteaux, Editions Béatrice, et Paris, E. Droz, 6 vol., 1933-1946).

R. REY, **L'Art roman et ses origines. Archéologie préromane et romane** (Toulouse, Privat, et Paris, Didier, 1945).

É. MALE, **L'art religieux du XII° siècle en France. Etude sur l'origine de l'iconographie du Moyen Age** (Paris, Colin, 5° éd., 1947).

É. MALE, **L'art religieux du XIII° siècle en France. Etude sur l'iconographie du Moyen Age et ses sources d'inspiration** (Paris, Colin, 3° éd., 1910).

E. BERTHAT (E. LAMBERT), **Le style gothique** (Paris, Larousse, 1943).

P. DESCHAMPS et M. THIBOUT, **La peinture murale en France. Le haut Moyen Age et l'époque romane** (Paris, Plon, 1951).

M. AUBERT, **La sculpture française au Moyen Age** (Paris, Flammarion, 1946).

L. RÉAU, **L'art religieux du Moyen Age. La sculpture** (Paris, Nathan, 1946).

J. DUPONT et C. ANNDI, **La peinture gothique** (Paris, Skira, 1954).

T. S. R. BOASE, **English Art, 1100-1216** (Oxford, Clarendon Press, 1953).

E. PERROY, **La guerre de Cent ans** (Paris, Gallinard, 1945).

A. R. MYERS, **England in the Late Middle Ages** (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).

H. PIRENNE, **Histoire de Belgique** (Bruxelles, Lamertin), les t. I (5° éd., 1932) et II (3° éd., 1932).

P. BONENFANT, **Philippe le Bon** (Bruxelles, Renaissance du Livre, 2° éd., 1955).

J. BARTIER, **Charles le Téméraire** (Bruxelles, Dessart, 1944).

P. CHAMPION, LOUIS XI, t. II, **Le roi** (Paris, E. Champion, 2 vol., 1927).

H. HEIMPEL, **Deutschland in spateren Mittelalter** (Potsdam, 1940).

L. MUSSET, **Les peuples scandinaves au Moyen Age** (Paris, P.U.E., 1951).

F. SOLDEVILLA, **Historia de Espana**, t. I et II (Barcelone, Ed. Ariel, 1953).

H. DA GAMA - BARROS, **Historia de administraçao publica em Portugal** (Lisbonne, Sâ da Costa, 2° éd., 1945).

N. VALERI, **L'Italia nell'età dei principati dal 1343 al 1516** (Vérone, Mondalori, 1949).

E. G. LEONARD, **Les Angecins de Naples** (Paris, P.U.F., 1954).

G. MOLLAT, **Les papes d'Avignon** (Paris, Letouzey, 9° éd., 1949).

V. MARTIN, **Les origines du gallicanisme** (Paris, Bloud et Gay, 2 vol. 1939).

N. VALOIS, **La France et le grand schisme d'Occiden** (Paris, A. Picard, 4 vol., 1896-1902).

E. PERROY, **L'Angleterre et le grand schisme d'Occident** (Paris, J. Monnier, 1933).

K. B. Mc FARLANE, **John Wicliffe and the beginnings of English Nonconformity** (Londres, English Universities Press, 1952).

N. VALOIS, **La crise religieuse du XV° siècle. Le Pape et le concile, 1418-1450** (Paris, A. Picard, 2 vol., 1909).

P. IMBART DE LA TOUR, **Les origines de la Réforme** (Paris, Librairies d'Argences), les t. I et II (2° éd., 1946-1948).

A. RENAUDET, **Préréforme et humanisme à Paris pendant les premières guerres d'Italie, 1494-1507** (Paris, Libr. d'Argences, 2° éd., 1953).

J. HUIZINGA, **Le déclin du Moyen Age**, trad. franç. (Paris, Payot, 2° éd. 1948).

M. DEFOURNEAUX, **La vie quotidienne en France au temps de Jeanne d'Arc** (Paris, Hachette, 1953).

A. TENNENTI, **La vie et la mort à travers l'art du XV° siècle** (Paris, Colin, 1952).

R. DION, **Les frontières de la France** (Paris, Hachette, 1947).

J. LEJEUNE, **Liège et son pays. Naissance d'une patrie** (Liège, Faculté de Philosophie et Lettres, 1948).

C. CIPOLLA, J. DHONDT, M. M. POSTAN et PH. WOLF, **Démographie, Moyen**

Age, dans IX[e] Congrès international des Sciences historiques. Rapports (Paris, Colin, 1950).

J. C. RUSSELL, **British Medieval Population** (Albuquerque, University of New Mexico Press, 1948).

R. BOUTRUCHE, **La crise d'une société. Seigneurs et paysans du Bordelais à la fin de la guerre de Cent ans** (Paris,, Les Belles Lettres, 1947).

E. POWER, **The Wool-Trade in English Medieval History** (Oxford, University Press, 1941).

E. CARUS-WILSON, **Medieval Merchant Venturers** (Londres, Methuen, 1955).

J. SCHNEIDER, **La ville de Metz aux XIII[e] et XIV[e] siècles** (Nancy, Impr. Georges Thomas, 1950).

H. VAN WERVEKE, **Bruges et Anvers, huit siècles de commerce flamand** (Bruxelles, Librairie encyclopédique 1944).

M. MOLLAT, **Le commerce maritime normand à la fin du Moyen AZe** (Paris, Plon, 1952).

PH. WOLF(**Commerces et marchand de Toulouse, vers 1350 — vers 1450** (Paris, Plon, 1954).

E. BARATIER et F. REYNAUD, t. II de « **Histoire du commerce de Marseille** », de 1291 à 1480 (Paris, Plon, 1951).

S. L. THRUPP, **The Merchant Class of Medieval London, 1300-1500** (Chicago, University Press, 1948).

R. PAGEL, **Die Hanse** (Oldenburg, 1942).

CH. DIEHL, **Une république patricienne, Venise** (Paris, Flammarion, 4[e] éd. 1938).

A. SAPORI, **Le marchand italien au Moyen Age, conférences et bibliographie** (Paris, Colin, 1952).

Y. RENOUARD, **Les relations des papes d'Avignon et les compagnies commerciales et bancaires de 1316 à 1378**(Paris, E. de Boccard, 1941).

R. DE ROOVER, **Money Banking and Credit in Medieval Bruges. Italian Merchant-Bankers, Lombards and Money-Changers, a study in the Origins of Banking** (Cambridge, Mass., The Medieval Academy of America, 1948).

R. DE ROOVER, **The Medici Bank, its organisation, management, operations and decline** (New-York, Business History-Series, 1948).

R. DE ROOVER, **L'évolution de la lettre de change, XIV[e] - XVIII[e] siècles** (Paris Colin, 1953).

S. d'IRSAY, **Histoire des Universités françaises et étrangères, t. I, Moyen Age et Renaissance** (Paris, A. Picard, 1933).

L. FEBVRE et collaborateurs, **Leonard de Vinci et l'expérience scientifique au XVI[e] siècle** (Paris, P.U.F., 1953).

Commandant LEFEBVRE DES NOETTES, **De la marine antique à la marine moderne. La révolution du gouvernail** (Paris, Masson, 1935).

J. SOTTAS, **Les messageries maritimes à Venise aux XIV[e] et XV[e] siècles** (Paris, Société d'Editions géographiques, 1938).

F. LOT, **L'art militaire et les armées au Moyen Age** (Paris, Payot, 2 vol., 1946).

P. PIÉRI, **Il Rinascimento et la crisi militare italiana** (Turin, Einaudi, 1952).

J. ALAZARD, **L'art italien**, t. II, **le Quattrocento** (Paris, Laurens, 1951).

F. ANTAL, **Florentine Painting and its social Background. The Bourgeois Republic before Cosimo de Medici's advent to power, XIV and early XV centuries** (Londres, Kegan Paul, 1948).

G. PAPARELLI, **Enea Silvio Piccolomini (Pio II)** (Bari, Laterza, 1950).

PH. MONNIER, **Le Quattrocento, essai sur l'histoire littéraire du XV[e] siècle italien** (Paris, Perrin, 2 vol., 1901).

E. GARIN, **Il Rinascimento, Significato e limiti** (Florence, 1953).

A. CHASTEL, **L'art florentin et l'humanisme platonicien** (Paris, E. Droz, 1954)

A. RENAUDET, **Laurent le Magnifique,** dans **Hommes d'Etat,** t. II (Paris, Desclée de Brouwer, 1936).

P. FIERENS, **Histoire de la peinture flamande** (Paris, Van Oest, 3 vol., 1927-1930).

O. CARTELLIERI, **La cour des ducs de Bourgogne, trad. franç.** (Paris, Payot, 1946).

C. R. BEAZLEY, **The Dawn of Modern Geography. A History of Exploration and Geographical Science** (New York, Murray, 2e éd., 3 vol., 1949).

L.R. NOUGIER, J. BEAUJEU et M. MOLLAT, **Histoire universelle des explorations,** t. I, **De la préhistoire à la fin du Moyen Age** (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1955).

CH. DE LA RONCIERE, **La découverte de l'Afrique au Moyen Age. Cartographes et explorateurs** (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol. 1925-1927).

٣ ـ الشرق الادنى

Histoire Générale des religions, publiée sous la direction de M. GORCE et R. MORTIER (Paris, Quillet, 5 vol., 1944-1951).

Histoire générale des arts (Paris, Quillet, 2 vol., 1950).

A. R. LEWIS, **Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100** (Oxford, University Press, 1951).

R. GHIRSHMAN, **L'Iran des origines à l'Islam** (Paris, Payot, 1951).

A. CHRISTENSEN, **L'Iran sous les Sassânides** (Paris, Geuthner, 2e éd., 1944).

E. STEIN, **Histoire du Bas-Empire,** t. II, **De la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien,** trad. franç. (Paris, et Bruxelles, Desclée de Brouwer, 1940).

L. BRÉHIER, **Le monde byzantin** (Paris, A. Michel, 3 vol., 1947-1950).

G. OSTROGORSKY, **Geschichte des byzantinischen Staates** (Munich, Beck, 2e ed. 1952).

A. A. VASILIEV, **Histoire de l'Empire byzantin,** trad. franç. (Paris, A. Picard, 2 vol., 1932).

G. BRATIANU, **Etudes byzantines d'histoire économique et sociale** (Paris, Geuthner, 1938).

G. OSTROGORSKY, **Pour l'histoire de la féodalité byzantine,** trad. franç. (Bruxelles, Institut de Philologie et d'histoire orientales et slaves, 1954).

G. ROUILLARD, **La vie rurale dans l'Empire byzantin** (Paris, A. Maisonneuve, 1953).

S. RUNCIMAN, **La civilisation byzantine, 330-1453,** trad. franç. (Paris Payot, 1934).

S. RUNCIMAN, **Le manichéisme médiéval,** trad. franç. (Paris, Payot, 1949).

CH. DIEHL, **Manuel d'art byzantin** (Paris, A. Picard, 2e éd., 1925). **L'Histoire de l'art byzantin,** publiée sous la direction de CH. DIEHL :

— t. I, CH. DIEHL, **La peinture byzantine** (Paris, Edition d'art et d'histoire, 1933).

— t. II, CH. EBERSOLT, **Monuments d'architecture byzantine** (1943).

— t. III, L. BRÉHIER, **La sculpture et les arts mineurs byzantins** (1936).

P. LEMERLE, **Le style byzantin** (Paris, Larousse, 1943).

A. GRABAR, **La peinture byzantine. Etude historique et critique** (Genève Skira, 1953).

A. BON, **Le Péloponèse byzantins jusqu'en 1204** (Paris, P.U.F., 1951).

O. TAFRALI, **Thessalonique au XIVe siècle** (Paris, Geuthner, 1913).

R. GROUSSET, **Histoire de l'Arménie jusqu'en 1071** (Paris, Payot, 1947)

H. PASDERMADJIAN, **Histoire de l'Arménie depuis les origines jusqu'au traité de Lausanne** (Paris, H. Samuelian, 1949).

S. DER NERCESSIAN. **Armenia and the Byzantine Empire, A brief study of Armenian art and civilisation** (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1947).
J. BALTRUSAITIS. **Etudes sur l'art médiéval en Géorgie et en Arménie** (Paris, E. Leroux, 1929).
A. MANVALISHVILI, **Histoire de Géorgie** (Paris, Toison d'Or, 1951).
J. LASSUS, **Sanctuaires chrétiens de Syrie. Essai sur la genèse, la forme et l'usage liturgique des édifices du culte chrétien en Syrie du III^e siècle à la conquête musulmane** (Paris Geuthner, 1944).
A. KAMMERER, **La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Essai d'histoire et de géographie historique** (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol., 1935).
J. M. COUBLEAUX, **Histoire politique et religieuse de l'Abyssinie depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'avènement de Ménélik II** (Paris, Geuthner, 1929).
C. ROTH, **Histoire du peuple juif,** trad. franç. (Paris Payot, 1948).
G. VAJDA, **Introduction à la pensée juive du Moyen Age** (Paris, Vrins, 1947).
G. G. SCHOLEM, **Les grands courants de la mystique juive : la Merkeba, la Gnose, la Kabbale, le Zohar, le Sabbatianisme, le Hassidisme,** trad. franç. (Paris, Payot, 1950).
L. NIEDERLÉ, **Manuel de l'Antiquité Slave** (Paris, Champion, 2 vol., 1923-1926).
F. DVORNICK, **Les Slaves, Byzance et Rome au IX^e siècle** (Paris, Champion, 1926).
J. JIRICECK, **La civilisation serbe au Moyen Age,** trad. franç., (Paris Bossard, 1920).
S. RUNCIMAN, **A History of the first Bulgarian Empire** (Londres, Bell, 1930).
A. GRABAR, **Recherches sur les influences orientales dans l'art balkanique** (Paris, Les Belles-Lettres, 1928).
R. GROUSSET, **Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem** (Paris, Plon, 3 vol., 1934-1936).
S. RUNCIMAN, **A History of the Crusades** (Cambridge, University Press, 3 vol., 1951-1954).
J. RICHARD, **Le royaume latin de Jérusalem** (Paris, P.U.F., 1953).
J. LONGNON, **L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée** (Paris, Payot, 1949).
P. MILIOUKOV, CH. SEIGNOBOS et L. EISENMANN, **Histoire de Russie,** t. I (Paris, É. Leroux, 1935).
C. STAHLIN, **La Russie des origines à la naissance de Pierre le Grand,** trad. franç. (Paris, Payot, 1946).
G. VERNADSKY et M. KARPOVICH, **A History of Russia**(3 vol. parus (Oxford, University Press, 1946-1953).
P. L. LYASCHENKO. **History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution** (New York, Macmillan, 1949).
A. ECK, **Le Moyen Age russe** (Paris, Maison du Livre étranger, 1933).
L. RÉAU, **L'art russe,** t. I. **Des origines à Pierre le Grand** (Paris, Laurens, 1921).
G. HARDY, **Vue générale de l'histoire d'Afrique** (Paris, Colin, 5^e éd., 1948).
L. FROBENIUS, **Histoire de la civilisation africaine,** trad. franç., (Paris, Gallimard, 1952).

٤ ـ الاسلام

J. SAUVAGET, **Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, éléments de bibliographie** (Paris, Maisonneuve, 2^e éd., 1946).
M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES et S. PLATONOV, **Le monde musulman et by-**

zantin jusqu'aux Croisades (Paris, É. de Boccard, 1931).

C. BROCKELMANN, **Histoire des peuples et des Etats islamiques depuis les origines jusqu'à nos jours**, trad. franç. (Paris, Payot, 1949).

PH. K. HITTI, **History of the Arabs** (Londres, Macmillan, 4e éd., 1949).

Encyclopédie de l'Islam (Leyde, Brill, et Paris, Picard, 4 vol. et 1 supplément, 1913-1935 ; 2e éd., 4 fasc. parus (lettre A), 1954-1955).

G. RYCKMANS, **Les religions arabes préislamiques** (Louvain, Publications Universitaires, 1951).

H. LAMMENS, **L'Arabie occidentale avant l'Hégire**, t. I seul paru (Rome, Institut biblique, 1914).

TOR ANDRAE, **Mahomet, sa vie et sa doctrine**, trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).

É. DERMINGEM, **La vie de Mahomet** (Paris, Plon, 6e éd., 1950).

R. BLACHÈRE, **Le problème de Mahomet** (Paris, P.U.F., 1952).

A. WIET, **L'Egypte arabe. De la conquête arabe à la conquête ottomane, 642-1517 de l'ère chrétienne,** formant, le t. IV de **l'Histoire de la nation égyptienne** dirigée par G. HANOTAUX (Paris, Plon, 1937).

H. LAMMENS, **La Syrie, précis historique** (Beyrouth, Imprimerie Catholique, 2 vol., 1921).

PH. K. HITTI, **History of Syria, including Lebanon and Palestine** (Londres, Macmillan, 1951).

M. CANARD, **Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazirâ et de Syrie,** t. I seul paru (Alger, la Typo-Litho, 1951).

G. MARÇAIS, **La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age** (Paris, Aubier, 1946).

CH.-A. JULIEN, **Histoire de l'Afrique du Nord,** t. II, 2e éd. revue par R. LE TOURNEAU (Paris, Payot, 1951).

H. TERRASSE, **Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français** (Casablanca, Editions Atlantides, 2 vol., 1949-1950).

R. BRUNSCHVIG, **La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle** (Paris, Maisonneuve, 2 vol., 1940-1947).

E. LÉVI-PROVENÇAL, **Histoire de l'Espagne musulmane** (Paris, Maisonneuve, 3 vol. parus, 1944-1953).

A. GONZALEZ -PALENCIA, **Historia de la Espana musulmana** (Barcelone, éd. Labor, 3e éd., 1932).

B. SPULER, **Iran in früh — islamischer Zeit. Politik, Kultur, Verwaltung, und offentliches Leben zwischen der arabischen und der seldschukischen Eroberung** (Wisebaden, Steiner, 1952).

Du même, **Die Mongolen in Iran** (Leipzig, Heinrichs, 1939).

W. BARTHOLD, **Turkestan down to the Mongol Invasion,** trad. anglaise (Oxford, University Press, 2e éd., 1928).

Du même, **Histoire des Turcs d'Asie centrale,** trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).

L. BOUVAT, **L'Empire mongol, 2e phase,** formant le t. VIII, 3, de **l'Histoire du monde** dirigée par E. CAVAIGNAC (Paris, A. de Boccard, 1927).

F. KOPRULU, **Les origines de l'Empire Ottoman,** vol. 3 des **Etudes orientales** publ. par l'Institut français d'archéologie de Stamboul (Paris, É. de Boccard, 1935).

F. BABINGER, **Mahomet II le Conquérant** et **son temps,** trad franç. (Paris, Payot, 1954).

A. MEZ, **Die Renaissance der Islam** (Heidelberg, 1922).

M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, **Les institutions musulmanes** (Paris, Flammarion, 5e éd., 1950).

J. SCHACHT, **Esquisse d'une histoire du droit musuman** (Paris, 1952).

L. GARDET, **La cité musulmane, vie sociale et politique** (Paris, Vrin, 1954).

ALI MAHAZERI, **La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age** (Paris, Hachette, 1950).

J. SAUVAGET, **Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX° siècle** (Paris, Geuthner, 1941).

R. LE TOURNEAU, **Fès avant le protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman** (Rabat, Institut des Hautes Etudes marocaines, 1949).

E. S. TRITTON, **The Caliphs and their non-muslim subjects** (Oxford, University Press, 1930).

MOHSEN AZIZI, **La domination arabe et l'épanouissement du sentiment national en Iran** (Paris, Presses modernes, 1938).

A. LAMBTON, **Landlord and Peasant in Persia, a study of land tenure and land revenue administration** (Oxford University Press, 1953).

H. MASSÉ, **L'Islam** (Paris, Colin, 2° éd., 1948).

L. GOLDZIHER, **Le dogme et la loi de l'Islam,** trad. franç. (Paris, 1921).

Du même, **Etudes sur la tradition islamique,** trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1952).

L. GARDET et ANAWATI, **Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparée** (Paris, Vrin, 1948).

A. J. ARBERRY, **Le soufisme, introduction à la mystique musulmane** (Paris, Cahiers du Sud, 1952).

T. W. ARNOLD, **The Preaching of Islam** (Oxford, University Press, 1951).

A. MIELI, **La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale** (Leyde, E. J. Brill, 1938).

DE LACY O'HEARY, **How Greek Science passed to the Arabs** (Oxford, University Press, 1951).

G. QUADRI, **La philosophie arabe dans l'Europe médiévale des origines à Averroès,** trad. franç. (Paris, Payot, 1947).

R. BLACHÈRE, **Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV° siècle,** t. I seul paru (Paris, Maisonneuve, 1952).

C. NALLINO, **La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie Umayyade** (Paris, Maisonneuve, 1950).

J. M. ABD EL-JALIL, **Brève histoire de la littérature arabe** (Paris, Maisonneuve, 1943)

H. PERES, **La poésie andalouse en arabe classique au XI° siècle, ses aspects généraux et sa valeur documentaire** (Paris, Maisonneuve, 2° éd., 1953).

G. MARÇAIS, **L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile** (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1954).

CRESWELL, **Early Muslim Architecture** (Oxford, University Press, 2 vol., 1932-1940).

Du même, **Muslim Architecture of Egypt** (Oxford, University Press, 1952).

L. HAUTECŒUR et G. WIET, **Les mosquées du Caire** (Paris, Leroux, 2 vol. 1932).

H. TERRASSE, **L'art hispano-mauresque des origines au XIII° siècle** (Paris, Van Oest, 1932).

A. U. POPE, **A Survey of Persian Art from préhistoric times to the present** (Oxford, University Press, 7 vol. 1938-1939).

A. GABRIEL, **Monuments turcs d'Anatolie** (Paris, 2 vol., 1931-1934).

٥ ـ آسيا الشرقية

G. FERRAND, **Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks** (Paris, Leroux, 1913).

R. GROUSSET, **Sur les traces de Bouddha** (Paris, Plon, 1929).

WATTERS, **On Yuan-Chwang's Travels in India,** 2 vol. (Londres, 1904-1905).

Y. TAKAKUSU, **A Record of the Buddhist Religion as practised in India and Malay** Archipelgo by I-tsing (Oxford 1896).

I - TSING, **Mémoire composé à l'époque de la grande dynastie des T'ang sur les religieux éminents qui allèrent chercher la loi dans les pays d'Occident,** trad. ED. CHAVANNES (Paris, Leroux, 1894).

L. RENDU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, **L'Inde classique,** t. I. (Paris, Payot, 1947-49).

L. RENDU et Y. FILLIOZAT, **L'Inde classique,** t. II (Paris-Hanoi, 1953).

L. De LA VALLÉE-POUSSIN, **Dynasties ethistoire de l'Inde depuis Kanushka jusqu'aux invasions musulmanes,** t. VI, 2, **de l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1935).

R. MOOKERJI, **Harsha** (Calcutta-Oxford, 1925-1926).

J. PRASAD, **L'Inde du VII° au XVI° siècle,** t. VIII **de l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1930).

L. RENDU, **La civilisation de l'Inde ancienne** (Paris, Flammarion, 1950).

J. CHANDRA JAIN, **Life in Ancient India as depicted in the Jain Canons** (Bombay, 1947).

B. S. UPADHYAYA, **India in Kâlidâsa** (Allahabad, 1947).

P. SENGUPTA, **Everyday Life in Ancient India** (Oxford, Univ. Press, 1950).

P. MASSON-OURSEL, **Esquisse d'une histoire de la philosophie indienne** (Paris, Geuthner, 1932).

R. GROUSSET, **Les philosophies indiennes, Les systèmes,** 2 vol., (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).

VASUBANDHU, **Abhidharma,** trad. L. DE LA VALLÉE-POUSSIN (Paris, Geuthner, 1931).

L. DE LA VALLÉE-POUSSIN, **Vasubandhu et Yaçomitra** (Londres, 1914-1918).

S. LÉVI, **Le théâtre indien** (Paris, É. Bouillon, 1890).

S. HARI CHAND, **Kâlidâsa et l'art poétique de l'Inde** (Paris, Champion, 1917).

A. COOMARASWAMY, **A History of Indian and Indonesian Art,** 2° éd., (Londres 1950).

J. AUBOYER, **Arts et Styles de l'Inde** (Paris, Larousse, 1951).

S. KRAMRISCH, **The Hindu Temple,** 2 vol. (Univ. de Calcutta, 1946).

R. D. BAUERJI, **Eastern Indian School of Mediaeval Sculpture** (Delhi, 1933).

H. MASPERO, **Etudes historiques** (Paris S.A.E.P., 1950).

R. WILHELM, **Histoire de la civilisation chinoise** (Paris, Payot, 1931).

W. BINGHAM, **The Founding of the T'ang Dynasty** (Baltimore, 1942).

C. P. FITZGERALD, **Li Che-min** (Paris, Payot, 1935).

R. DES ROTOURS, **Traité des Examens** (Nouvelle histoire des T'ang) Paris, Leroux, 1932).

Du même, **Traité des fonctionnaires et Traité de l'armée** (Nouvelle histoire des T'ang) (Leyde, Brill, 1947-48).

TCHÉOU HOAN, **Le prêt sur récolte et Wang Ngan-che** (Paris, 1930).

H. MASPERO, **Les religions chinoises** (Paris, S.A.E.P., 1950).

Du même, **Le Taoïsme** (Paris, S.A.E.P., 1950).

MARGOULIES, **Le Kou-win** (Paris, Geuthner, 1926).

Du même, **Anthologie raisonnée de la littérature chinoise** (Paris, Payot, 1948).

R. GROUSSET, **La Chine et son art** (Paris, Plon, 1951).

M. PAUL-DAVID, **Arts et styles de la Chine** (Paris, Larousse, 1951).

P. PELLIOT, **La Haute Asie** (s.l.n.d., 1931).

A. FOUCHER, **La vieille route de l'Inde : De Bactres à Taxila,** 2 vol. (Paris, Ed. d'Art et d'Hist. 1942-47).

A. GODARD, Y. GODARD et J. HACKIN, **Les antiquités bouddhiques de Bâmiyân** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1925).
MURDOCH, **History of Japan,** 3 vol. (Londres 1925-26)
J. HACKIN et J. CARL, **Nouvelle recherches archéologiques à Bamyân** (Paris, Van Oest, 1933).
MURDOCH, **History of Japan** 3 vol. (Londres, 1925-26).
G. B. SANSOM, **Le Japon** (Paris, Payot, 1938).
R. K. REISCHAUER, **Early Japanese History (ca B.C. 40 — A.D. 1167),** (Princeton, Univ. Press, 1937).
R. TSUNADA et L. CARRINGTON GOODRICH, **Japan in the Chinese Dynastic Histories** (South Pasadena, 1951).
W. G. ASTON, **Littérature Japonaise,** trad. H.-D. DAVRAY (Paris, Colin, 1902).
J. BUHOT, **Histoire des arts du Japon,** t. I (Paris, Van Oest, 1949).
A. ECKARDT, **A History of Korean Art** (Londres-Leipzig, 1929).
G. GOEDES, **Les Etats hindonisés d'Indochine et d'Indonésie,** t. VIII, 2 de **l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard).
G. GROSLIER, **Recherches sur les Cambodgiens** (Paris, 1921).
G. COEDES, **Pour mieux comprendre Angkor** (Paris, Maisonneuve 1947).
G. DE CORAL REMUSAT, **L'art Khmer, Les grandes étapes de son évolution** (Paris, Ed. d'Art et d'Hist., 1940).
G. MASPERO, **Le royaume de Champa** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
PH. STERN, **L'art du Champa et son évolution** (Toulouse, Douladoure, 1942).
R. S. LE MAY, **Buddhist in Siam** (Cambridge Univ. Press, 1938).
R. GROUSSET, **L'Empire des steppes** (Paris, Payot, 1939).
Du même, **L'Empire mongol (Première phase),** t. VIII. 3. de **l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1941).
W. BARTHOLD, **Turkestan down to the Mongol Invasion** (Oxford University Press, 1928).
B. VLADIMIRTSOV, **Le régime social des Mongols,** trad. M. CARSOW. (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
L. HAMBIS, **Les fiefs attribués aux membres de la famille impériale...** (Leyde, Brill, 1954).
F. GRENARD, **Gengis-Khan** (Paris, 1935).
B. VLADIMIRTSOV, **Gengis Khan,** trad. M. CARSOW (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
Recueil de voyages et mémoires de la Société de Géographie de Paris, éd. d'Avezac (1838-39).
SIR HENRY YULE et H. CORDIER, **Cathay and the Way thither,** 4 vol. (Londres, 1915-16).
Des mêmes, **Description of the World,** 2 vol. (Londres, 1938).
L. HAMBIS, **Marco Polo, La description du monde, texte intégral,** (Paris, Klincksieck 1955).
W. W. ROCKHILL, **The Journey of William of Rubruch** (Londres, 1900).
Les voyages en Asie au XIV° siècle du Bienheureux Frère Odoric de Pordenone, éd. H. CORDIER (Paris, Leroux, 1891).
A. C. MOULE, **Christians in China before the Year 1550** (Londres, 1930).

مراجع عربية

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية ، وتتمة للبحث ، رأت « دار منشورات عويدات » في بيروت ، هنا أيضاً ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالبيليوغرافيا الشرقية من عربية واسلامية ، واحد المترجين لهذه الموسوعة التاريخية اعداد قائمة بيليوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ القرون الوسطى . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا ونزل عند رغبتنا فاعد هذه القائمة ، خدمة منه للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللباحثين في عالم الضاد من يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الذي يمتد من أواخر القرن الرابع للميلاد ، في نظر البعض ، او من عام ٤٧٦ : تاريخ سقوط روما في يد ادواسر ، ملك الهيرول، في نظر البعض الآخر ، الى عام ١٤٥٣ تاريخ سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين في رأي بعض المؤرخين ، او الى عام ١٤٩٢ تاريخ اكتشاف العالم الجديد وسقوط غرناطة بيد الاسبان ، في رأي فريق آخر . فعسى ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتفتيش .

الشرق الاوسط

اولاً ـ الروم

اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، جزآن ـ بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٥ – ١٩٥٦ .

حبيب الزيات : الروم الملكيون في الاسلام ـ حريصا ، لبنان ، المطبعة البولسية ١٩٥٣ جزء ١

محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ص ١١٤ .

عمر فروخ : العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ـ بيروت ، المكتب التجاري ١٩٥٩ ص ٢٠٦ .

ثانياً ـ الدولة الساسانية

ارثر كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ صفحة ١ ـ ط + ٥٩١ .

استارجيان ، ل : تاريخ الامة الارمنية . وقائع من الشرقين الادنى والاوسط في ادوار الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والفارسية والعربية والعثمانية والروسية ، من القرن السابع قبل الميلاد الى نهاية الربع الاول من القرن العشرين من الميلاد ـ الموصل ، مطبعة الاتحاد الجديد ، ١٩٥١ ص ٤٠٤ .

الهند ـ المغول

احمد محمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم . جزآن . القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٩ .

رشيد الدين فضل الله الهمذاني : جامع التواريخ . المجلد الثاني . الجزء الاول ـ تاريخ المغول الايلخانيين، تاريخ هولاكو، مع مقدمة رشيد الدين . ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ـ القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ — س + ٣٨٣ .

فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ : من جنكيز خان الى هولاكو خان ـ القاهرة، دار القلم ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ — س + ٢٧٩ .

عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ـ القاهرة ، مكتبة دار العروبة ١٩٦٠ ، صفحة ١ — ل + ٤٨١ .

الرمزي ، م . م : تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ـ الطبعة الاولى ، اورنبورغ ، المطبعة الكريمية ١٩٠٨ ، جزآن .

محمد سعيد اسماعيل : بلاد الامام البخاري (تركستان) ماضيها وحاضرها ـ القاهرة، دار الزيني للطباعة والنشر ١٩٥٨ ص ١١٢ .

العصور الوسطى

كوبلاند ، ج. و وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غربي اوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، طبعة ٣ ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ١ — ع + ١٤٠ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح : اوروبا العصور الوسطى، ج ١ التاريخ السياسي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١ ح ٦٩٩ ؛ و ج ٢ النظم والحضارة ، ١٩٥٨ ص ٣١٦ .

ديفيز ، هـ. و: اوروبا في العصور الوسطى، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود ـ الاسكندرية، منشأة المعارف ، ١٩٥٨ ص ٢٨٤ .

فيشر ، هـ. ا. ل : تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، جزآن، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني وابرهيم احمد العدوي ، طبعة ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٤ و ٢٦٧ — ٥٠٦ .

طرخان ـ ابرهيم علي : دولة القوط الغربيين ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨، ص ١ — هـ ١٨٩ ، خرائط .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح ومحمد انيس: النهضات الاوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ ص ٢٩٢ ، طبعة ٢ ، ١٩٦٠ ص ٤٠٤ .

شكري ، محمد فؤاد : الصراع بين البورجوازية والاقطاع ، جزآن ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ .
خدوري ، مجيد : الصلات الديبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان ـ بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ، ١٩٣٩ ، ص ٦١ .
محمود خليفة : اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلمان ـ بولاق ، ١٢٦ ، ٣ أجزاء .

الجزيرة العربية

الدباغ ، مصطفى : جزيرة العرب ، موطن العرب ومهد الاسلام ـ بيروت ، دار الطليعة ١٩٦٣ ج ٢ .
عزام ، عبد الوهاب : مهد العرب ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ص ١٣٧ .
العقيلي ، محمد بن احمد : المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التاريخ ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ـ صور وخرائط .
وهبه ، حافظ : خمسون عاماً في جزيرة العرب ـ القاهرة ، البابي ١٩٦٠ ص ٣٠٧ .
حمزة ، فؤاد : قلب جزيرة العرب ـ القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٩٣٣ ص ٤٦٣ .
الريحاني ، امين : ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية اقسام مزينة بالخرائط والرسوم ـ طبعة ثانية ـ بيروت المطبعة العلمية ١٩٢٩ جزآن .
كحالة ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب ـ دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٤٥ ص ٥٩٧ .
الهمداني ابو محمد الحسن : صفة جزيرة العرب ـ ليدن ، بريل ١٨٨٤ ـ ١٨٩١ جزآن في ١ .

العرب قبل الاسلام

الالوسي ، السيد محمود : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٣ أجزاء ، شرح محمد بهجة الاثري ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ١٩٥٩ .
صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ، طبعة ٢ ـ القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٦ ص ١٤٨ .
نيلسن ، دتليف وفرتزهومل وغيرهما : التاريخ العربي القديم ، ترجمه واستكمله فؤاد حسنين علي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩ .
تقي الدين ، محمد بن احمد بن علي الحافظ : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ـ القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثة ١٩٥٧ .
محمد عبد الغني حسن : صراع العرب خلال العصور ـ القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٧ .

رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدوافلي – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ص ١٦٠ .
جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس – القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٨ ص ٢٨٦ .
جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١ – ح ٤١٥ .
علي مظهر : العصبية عند العرب في الجاهليــة والاسلام حتى زوال دولة بني امية من المشرق القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٣ ص ٨٣ .
الجميل ، مكي: البداوة والبدو في البلاد العربية . دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطينهم – سرس الليان ، مركز تنمية المجتمع ، ١٩٦١ ص ٨٣ .

تاريخ الحضارة الاسلامية

هنري ماسيه : الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان – منشورات عويدات بيروت ١٩٦٠ ص ٢٨٨ .
الفرد جيوم : الاسلام ، ترجمة محمد مصطفى هدارة وشوقي اليماني السكري – القاهرة مكتبـــة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١ ١٩٥ .
حامد عبد القادر : الاسلام : ظهوره وانتشاره في العالم – القاهرة ، مكتبة نهضـــة مصر ، ١٩٥٦ ص ٣٢٢ .
جمال الدين الرمادي : الاسلام في المشارق والمغارب – القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٦٠ ص١٢٠
محمد عبد الغني حسن : ابو مسلم الخراساني – القاهرة، دار المعارف ١٩٥٨ ص ٨٥ .
محمد احمد حسونة : اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود : الاخبار الطوال ، تحقيق عبـد المنعم عامر – القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ ، ص ١ – ذ ٤٦٧ .
الدينوري : الامامة والسياسة – القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٧ ، ص ١ ك ٢٢٠ و ٢٩٠.
س. ا. ف. حسيني : الادارة العربية ، ترجمة ابرهيم احمد العدوي – القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٩ ، ص ١ – غ ٤٧٥ .
حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربيـــة في افريقية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ – هـ ٤٨٩ .
محمد خلف احمد : الاسلام والحضارة – القاهرة ، وزارة الارشاد القومي ، ١٩٥٦ ص ١٤٩ .
فتحي عثمان : اضواء على التاريخ الاسلامي – القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٥٦ صفحة ٢٠٣ .

حسن ابرهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربيها ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ ، ص ١٧٩ .
حسن ابرهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
ج ١ – الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والاندلس ـ القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٥٩ ص ١ – ل ٥٨١
ج ٢ – العصر العباسي الاول في الشرق ومصر والمغرب والاندلس – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ١ – ي ٤٩١ .
ج – ٣ العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والاندلس – طبعة ٤ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ١ – ع ٤٩٧ .
احمد شلبي – التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، جزآن – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ – ل ٢٧٦ و ٢٧٢ (عن الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها) .
جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ – ٥ ، مراجعة حسين مؤنس – القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ .
ف . بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، طبعة ٣ – القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨ ص ١٥٨ .
يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية – ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ . صفحة ١ – ط ٥٩٦ .
عبد المنعم ماجد – التاريخ السياسي للدولة العربية : عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٧٢ .
محمد لطفي جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص١٠٧٠
غوستاف جرونبوم : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة مكتبة مصر ١٩٥٦ ، ص ٥٠٩ .
غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ـ عيسى البابي الحلبي طبعة ٣ ، ٩٥٧ ص ٦٥٦ .
ي . جل : الحضارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوي – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ . صفحة ١ – ل ٣ ١٥٧ .
عبد الحميد ابراهيم هندي : حكومة عمر المثالية – القاهرة ، مكتبة العالم العربي ١٩٥٨ ١ ص١٤٢
محمد جمال الدين سرور – الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة – القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٠ ، ص ٣٧٠ .

محمد ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلاميـــة حتى منتصف القرن الثالث الهجري او « التاريخ المالي للدولة الاسلامية » مع مقدمة عن دولتي الروم والفرس — القــاهرة مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠٨ .
محمد شيت خطاب : قادة فتح العراق والجزيرة — القاهرة ، دار العلم ، ١٩٦٤ ص ٥٠٠
يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام، ترجمة عبد الرحمن بدوي — القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، صفحة ١ ل ٢٧٨ .
توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام . بحث في تاريخ نشر العقيـــدة الاسلامية ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي — القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ص ٥١٥ .
احمد عطية الله : طارق بن زياد ـ القاهرة ، مكتبة دار التأليف ، ١٩٦٠ ص ٣١ .
عبد الخبير الخولي : طارق بن زياد — القاهرة ، دار التأليف ، ١٩٥٦ ص ٥٦ .
احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ — ٣ — القــاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ (الجزء الثالث يبحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج) .
ظهر الاسلام ٤ اجزاء — القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الجزء الثالث يبحث في الحياة العقلية في الاندلس من فتح العرب لها الى خروجهم منها ويتكلم في الحركات الدينيـــة ، واللغوية والنحوية والادبية والفلسفية والتاريخية ، والفنية — القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ١ — د ٣٣٥ .
فجر الاسلام : القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، عدة طبعات ، صفحة ١ — ع ٣٣٢ .
يوم الاسلام : القاهرة ، مؤسسة الخانجي ، ١٩٥٨ ص ٢٤٦ .
احسان عباس : العرب في صقلية : دراسة في التاريخ والادب — القـــاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ ص ٣٣١ .
رو ، جون بول : الاسلام في الغرب . ترجمة نجدة هـــاجر وسعيد الغز — بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٦٠ ص ٣٢١ .
طه حسين : علي وبنوه — القــاهرة ، دار المعارف ١٩٥٦ ، ص ٣٠٢ .
طه حسين : الفتنة الكبرى ، ج ١ ـ عثمان ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ٢٢٩ .
طه حسين : مرآة الاسلام ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ص ٣١١ .
احمد عز الدين عبد الله خلف الله : غزوة أحد ـ طنطا ، المكتبة التجارية الاسلامية ، ١٩٥٩ صفحة ٢٢٢ .
محمد حميد الله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي و الخلافة الراشدة، طبعة ٢ ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ ، صفحة ٥٤٩ .
محمد احمد برانق : محمد واليهود ـ القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٢ .

السيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
محمد عبد الغني حسن : موسى بن نصير ، فاتح الاندلس ـ القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٧ ص ٨٤.
محمد عبد الغني حسن وعلى ابرهيم حسن : النظم الاسلامية ، طبعة ٢ ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص أ ـ ن ٢٩٤ .
البيهقي ، ابو الفضل : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، صفحة ٨١٢ .
عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٤ صفحة ٧٥ .
علي محمد راضي : عصر الاسلام الذهبي : المأمون العباسي ـ القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤ صفحة ١٥٤ .
محمد حلمي محمود : ابو بكر والوحدة ـ القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤ صفحة ٩٤ .
محمد طه محمود : دروس في التاريخ الاسلامي ومجمل شؤون الدولة العربية ـ القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .

ج ١ ـ سيرة الرسول ، صفحة ٩٦ .
ج ٢ ـ تاريخ الخلفاء الراشدين ، صفحة ١٢٢ .
ج ٣ ـ تاريخ دولة بني امية ، صفحة ١٢٨ .
ج ٤ ـ تاريخ العباسيين صفحة ٢٠٨ .

الخلفاء

ابن الطقطقي ، محمد بن علي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ القاهرة ، مكتبة العرب ١٣٣٩ صفحة ٢٥١ .
ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد : جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الاسد ـ القاهرة ، دار المعارف ٤٧٢ صفحة .
ابن دحية ، ابو الخطاب : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، صححه وعلق عليه عباس العزاوي ، بغداد ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ١٩٤٦ صفحة ج ـ ت ٣٠٥ .
الخضري ، محمد : اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ـ طبعة ٧ ـ القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٠ صفحة ٣٦٢ .
الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد : دول الاسلام ـ حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٣٧ ، جزآن .

الروحي ، ابو الحسن : بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ـ القاهرة ، صالح شكري ١٩٠٩ صفحة ٨٦ .
السيوطي ، جلال الدين : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الامة من عهد ابي بكر الصديق الى عهد المؤلف سنة ٩١١ ـ القاهرة ، ١٣٥١ صفحة ٣٥١ .
السيد ، احمد : مفتاح الذهب ، تاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب ـ القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩١٠ صفحة ج ـ ح ١٣٥ .
الفيضي ، ابو البركات احمد فخر الدين : ارشاد العباد الى الغزو والجهاد ـ القاهرة ، المطبعة العامرة ١٣٣٦ صفحة ٢٥٠ .
الكلاعي ، ابو الربيع سليمان : الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء ، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه ـ الجزائر ، كربونل ١٩٣١ .
النبهاني ، تقي الدين : الخلافة ، ابحاث من كتاب الشخصية الاسلامية لحزب التحرير . لا . ت . صفحة ١٧٢ .

١ ـ الخلفاء الراشدون

ابن العربي ، ابو بكر محمد : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ... حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ـ القاهرة ، لجنة الشباب المسلم ١٣٧١ ص ٢٩٥ .
ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة ـ القاهرة مكتبة التجارية الكبرى ، جزآن في مجلد واحد .
بخيت ، عبد الحميد : عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ ص ٣٢٤.
بخيت ، عبد الحميد : عصر الراشدين ـ القسم الاول ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ، ص ٣٣٥ .
الصعيدي ، عبد المتعال : السياسة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٦٢ ص ٣٧٤ .
العظم ، رفيق : اشهر مشاهير الاسلام في الحروب السياسية ـ طبعة ٢ ـ القاهرة ، مطبعة هندية ١٩٠٥ جزآن .
النجار ، عبد الوهاب : الخلفاء الراشدون ـ القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٤٨ ص ٥٠٤ .
الاربلي ، عبد الرحمن سنبط : خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك ـ طبعة اولى ـ بيروت ، مطبعة القديس جوارجيوس ١٨٨٥ ص ٢٣٨ ـ طبعة ثانية ، بغداد ، مكتبة المثنى ١٩٦٤ صفحة ٣٢٣ .

الأمويون

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم : الامامة والسياسة ـ القاهرة ، مطبعة الفتوح الادبية . ١٣٣١ هـ جزآن في مجلد واحد .

ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة ـ القاهرة ، المكتبة التجارية ، جزآن في مجلد واحد .

ابو النصر ، عمر : الايام الاخيرة للدولة الاموية ـ بيروت المكتبة الاهلية ١٩٦٢ .

جعفر ، نوري : الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام ـ بغداد ، مطبعة الزهراء ، ١٩٥٦ صفحة ١٦٣ .

الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، السياسى ، الاجتماعي ، الاقتصادي ـ القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٩ صفحة ٤٤٩ .

المقريزي، ابو العباس احمد: النزاع والتخاصم فيما بين امية وهاشم ـ ليدن ، بريل ١٨٨٨ص٧٢.

المهايني ، رفيق ـ تاريخ الخلافة الاموية والعباسية والدول الاسلامية والعصور الوسطى في أوروبا ـ دمشق ، دار اليقظة العربية ، ١٩٤٦ صفحة ٣٥١ – خرائط .

النصولي ، انيس زكريا : الدولة الاموية في الشام – بغداد ، مطبعة دار السلام ١٩٢٧ ص ٣٦٠ .

صايغ ، انيس : الاسطول الاموي في البحر الابيض المتوسط – بيروت ، ١٩٥٦ ص ١٤٦ .

العدوي ، ابراهيم احمد: الامويون والبيزنطيون،البحر الابيض المتوسط بحيرة اسلامية – القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٣ صفحة ٢٨٤ – خرائط .

عبد السلام رستم : نظرات في التاريخ الاموي – القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٤ ص ٩٠ .

العباسيون

اسحق ، رفائل بابو : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية – بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٠ صفحة ٢٨٣ .

الجومرد ، عبد الجبار : داهية العرب ابو جعفر المنصور ، مؤسس دولة بني العباس – بيروت دار الطليعة ١٩٦٣ صفحة ٤٦٢ .

الدوري ، عبد العزيز : دراسات في العصور العباسية المتأخرة – بغداد، شركة الرابطة ، ١٩٤٥ ص ٣٠٦ .

الدوري ، عبد العزيز : العصر العباسي الاول . دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ١٩٤٥ ص ٣٠٤ .

الشبيبي ، محمد رضا : مؤرخ العراق ابن الفوطي. بحث في ادوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي الى أواخر العصر المغولي – بغداد ، مطبعة التفيض ١٩٥٠ – ١٩٥٨ (١٣٧٠ –

١٣٧٨) جزآن .
الصولي ، ابو بكر محمد : اخبـــار الراضي المتقي بالله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ – ٣٣٣ من كتاب الاوراق . عني بنشرة هيورث دن – القاهرة ، مطبعة الصاوي ١٩٣٥ ص ٣٠٨ .
مصطفى ، شاكر : في التاريخ العباسي – دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ ج ١ .
الجومرد ، عبد الجبار : الاصمعي – حياته وآثاره – بيروت ، دار الكشاف ١٩٥٥ ص ٣٥٢ .
الجومرد ، عبد الجبار : عزة العرب من شيبان بن يزيد بن مزيد القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦١ ص ٣٤٦ – خريطة .
الجومرد ، عبد الجبار : هارون الرشيد – دراسة تاريخية اجتماعيـة سياسية – بيروت المكتبة العمومية ١٩٥٦ ، جزآن ٦٢٨ ص .
الرفاعي احمد فريد : عصر المأمون ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ، ٣ أجزاء .

الدولة الفاطمية

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ٢ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ – ص ٧٤١ .
محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية – القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعة ٢ ، ١٩٥٩ ص ٤٢٢ .
حسن سليمان محمود الجهمي : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن – القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٠٢ .
جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة) القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٨ ، صفحة ٤٩٢
محمد جمـــال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ١ – م ٢٥١ .
يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ١٢ جزء – القاهرة ، دار الكتب المصرية .
محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة – القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٧ ص ١٦٠ .
علي ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي ، قائـــد المعز لدين الله الفاطمي ، طبعة ٢ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ ص ١٥٢ .

الاندلس

ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في اخبار غرناطة ، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان –

القاهرة دار المعارف (١٩٥٥ – ذخائر العرب ١٤) .
ابن الخطيب ، لسان الدين : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، صححه ووضع فهارسه ناشره محب الدين الخطيب – القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٧ ص ١٥٢ – مع صور وخريطة مطوية .
ابن الخطيب ، لسان الدين : تاريخ اسبانيا الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال – الطبعة الثانية – بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ص ١ – ل – ٣٧٠ .
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس – مصر ، مطبعة التوفيق .
ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب – نشر وتحقيق ج. س كولان وليفي – بروفنسال ، ليدن ، بريل ١٩٤٨ – ١٩٥١ ، ٣ أجزاء .
ارسلان ، الامير شكيب : الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية – طبعة اولى – المطبعة الرحمانية ١٩٣٦ ، جزآن .
البرقوقي : حضارة العرب في الاندلس – القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٣ ص ٢٠٠ .
حمودة علي محمد : تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي – القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٩٥٧ ص ٣٢٢ .
دوزي ، راينهارت : ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني – القاهرة ، البابي ، ١٩٣٣ ص ٤٤٦ .
العبادي ، عبد الحميد : المجمل في تاريخ الاندلس – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢١٦ .
عبد البديع ، لطفي : الاسلام في اسبانيا – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٣٠٧ .
عنان ، محمد عبد الله : دولة الاسلام في الاندلس – القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ – ١٩٦٠ ، ٤ اجزاء في ٥ مجلدات .
كرد علي ، محمد : غابر الاندلس وحاضرها – مصر ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ ص ١٩٠
لين بول ، ستانلي : قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي جارم – القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها ١٩٤٤ ص ٢٢٣ .
ماك كيب ، جوزيف : مدنية العرب في الاندلس ، ترجمة تقي الدين الهلالي – بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٠ ص ٨٢ ، مع صور .
المراكشي ، ابو محمد عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى آخر عصر الموحدين ، مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من اخبار الشعراء ، صححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العالمي – القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٩ ص ٤٢٠ .
مؤنس ، حسين : فجر الاندلس . دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية (٧١١ – ٧٥٦ هـ) القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ ص ٧٣٦ .
النصولي ، انيس : الدولة الاموية في قرطبة – بغداد ، المطبعة العصرية ١٩٢٦ ج ١ .
ادهم ، علي : صقر قريش . دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل ، مؤسس الدولة

الاموية بالاندلس – القاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣٨ ص ١٣٠ .
اشباخ ، يوسف : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان – القاهرة الخانجي ١٩٥٨ ص ٥٢٢
ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط – بيروت ، دار مكتبة الحياة ، لا. ت. ١٤٥ ص .
ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس . ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ .
ليفي بروفنسال : الشرق الاسلامي والحضارة العربية في الاندلس – تطوان ، دار الطباعة المغربية ١٩٥١ ص ٣٩ .
ابراهيم انيس: المنصور الاندلسي – صفحات مجيدة من تاريخ اجدادنا العرب الامجاد – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٩ .
العدوي، ابرهيم احمد: الاسلام في غرب البحر المتوسط – القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٠ ص٣١١.

الشيعة

آل ابراهيم ، حبيب : الحقائق في الجوامع والفوارق. كتاب يؤلف بين الشيعة والسنة على اساس التفاهم وضوء الدليل – صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٨/٩٣٩ جزآن في واحد .
آل كاشف الغطاء ، محمد الحسني : اصل الشيعة واصولها ، الطبعة الثامنة – النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٥ ص ١٥١ .
الآملي ، السيد حيدر بن علي : الكشكول فيما جرى على آل الرسول – النجف ، المطبعة الحيدرية ١٣٧٢ ص ٢٠٢ .
احمد امين : المهدي والمهدية – مصر ، دار المعارف ١٩٥١ صفحة ١٢٦ (سلسلة اقرأ) .
الحر ، محمد بن الحسن : وسائل الشيعة ومستدركاتها ، وهو الجامع لكتاب وسائل الشيعة في احكام الشريعة – القاهرة ، مطبعة النجاح ١٩٥٧/٩٦١ ، ٥ اجزاء .
حسن ، سعد محمد ، المهدية في الاسلام منذ اقدم العصور حتى اليوم : دراسة وافية لتاريخها العقائدي والسياسي والادبي – القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ صفحة ٣٠٤ .
الحسني ، عبد الرزاق : تعريف الشيعة – صيدا ، مطبعة العرفان ، ١٩٣٣ صفحة ٨٠ .
الحسني، هاشم معروف: المبادىء العامة للفقه الجعفري – بيروت، دار النشر الجامعيين ص٤٢١.
الحسيني ، هبة الدين : نهضة الحسين – النجف ، مطبعة النعمان ١٩٥٨ ص ١٤٣ .
الحلي ، ابو القاسم جعفر : شرائع الاسلام في الفقه الجعفري، تحقيق محمد جواد مغنية، بيروت، دار مكتبة الحياة . لا. ت. جزء واحد .
حميد ، عبد الحسيب طه : ادب الشيعة الى نهاية القرن الثاني الهجري – القاهرة ، مطبعة

السعادة ، ١٩٥٦ صفحة ٣٦٨ .
الخنيزي ، ابو الحسن علي : الدعوة الاسلامية الى وحدة اهل السنة والامامية ـ بيروت ، دار الفكر ١٩٥٦ .
دو نلدسن ، دوايت : عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الاسلام في ايران والعراق تعريب ع. م ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٤٦ ص ٣٩٨
السبيتي ، عبد الله : تحت راية الحق . في الرد على الجزء الاول من فجر الاسلام ـ طهران ١٩٤٥ ص ١٦٦ .
شبر ، عبد الله : حق اليقين في معرفة اصول الدين ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٦ جزآن .
شرف الدين ، عبد الحسين : الى المجمع العلمي العربي بدمشق ـ صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٥٠ ص ١٢٨ .
شرف الدين ، عبد الحسين : الفصول المهمة في تأليف الامة . ويليها الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء ـ طبعة ٣ النجف ، مكتبة النجاح ١٣٧٥ ص ٢٥٤ .
شرف الدين ، عبد الحسين : المراجعات ـ بغداد ، مكتبة الجامعة ١٩٤٦ ص ٣٧٣ .
الشيبي ، كامل مصطفى : الصلة بين التصوف والتشيع (رسالة جامعية) ـ بغداد مطبعة الزهراء ١٩٦٣/١٩٦٤ ، جزآن ص ٢٤١ و ٢٦٥ .
الطبري ، ابو جعفر محمد : بشارة المصطفى لشيعة المرتضى ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٣٦٩ هـ ص ٣٦٩ .
الطوسي ، ابو جعفر محمد : امالي شيخ الطائفة ورئيس الفرقة الناجية ـ محمد بن الحسن الطويل جزآن في واحد .
الطويل ، محمد امين : تاريخ العلويين ـ اللاذقية ، مطبعة الترقي ١٩٢٤ ص ٤٧٨ .
عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين واثرهم في الحياة الاجتماعية والادبية لمدن العراق ابان العصر العباسي الاول ـ القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٤ ص ٣٧١ .
فلهاوزن ، يوليوس : احزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاسلام : الخوارج والشيعة . ترجمه عن الالمانية عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢٧٦ .
فلوتن ، غيرلوف ، فان : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم ـ القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٣٤ ص ١٦٧ .
المظفر ، محمد الحسين : تاريخ الشيعة ـ النجف ، مطبعة الزهراء ١٣٥٢ ص ٢٧٩ .
المظفر ، محمد الحسين : الشيعة والامامة ـ الطبعة ٢ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥١ ص ٧١ .
المظفر ، محمد الحسين : عقائد الشيعة ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٤ ص ١١٩ .
مغنية ، محمد جواد : اهل البيت : منزلتهم ومبادؤهم ـ بيروت ، مكتبة الاندلس ١٩٥٦ ص ١٧٥ .
مغنية ، محمد جواد : الشيعة والحاكمون ـ بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦١ ص ٢٢٣ .

مغنية ، محمد جواد : فضائل الامام علي : علمه ، جوده ، شجاعته ، صلاته ، بلاغته ، حروبه وغير ذلك ـ بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٢ ص ٢٥٥ .
مغنية ، محمد جواد : مع بطلة كربلاء ـ بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦٢ ص ١٥٠ .
مهدي ، محمود احمد : ما الفوارق بين السنة والشيعة ـ بيروت ، حمد ١٩٦٣ ص ٢٨٦ .
نعمة ، عبد الله : فلاسفة الشيعة : حياتهم ، آراؤهم ـ بيروت ، دار مكتبة الحيـــاة ، لا . ت ص ٦٣١ .
محفوظ ، حسين علي : تاريخ الشيعة ـ بغداد ، النجاح ١٩٥٨ ص ٩٢ .

الخوارج

ابو النصر ، عمر : الخوارج في الاسلام ـ بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٤٦ ص ١٢٦ .
سليم ، محمد شريف : ملخص تاريخ الخوارج منذ ظهورهم الى ان شتت المهلب شملهم ـ القاهرة ، دار التقدم ١٩٢٤ ص ٢٧٩ .
عباس ، حسن رشيد : شعر الخوارج ـ بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٢ ص ٢١٨ .
القلماوي ، سهير : ادب الخوارج في الشعر الاموي ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمـة والنشر ١٩٤٥ صفحة ١٥٢ .
تامر ، عارف : القرامطة : اصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ـ بيروت ، دار الكاتب العربي صفحة ٢٩٢ .
الهاشمي ، الخطيب علي بن الحسين : وقعـــة النهروان والخوارج ـ طهران ، مطبعة الحيدري ١٣٧٢ صفحة ٢٠٦ .
ابن ابي الفضائل ، محمد : كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة . تقديم محمد زاهـــد الكوثري . نشره عزت البيطار ـ القاهرة ، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ١٩٣٩ ص ٤٤ .

الحروب الصليبية

دار الكتب المصرية : نشرة بمراجع عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ومعركة المنصورة ـ دار الكتب القاهرة ، ١٩٦٠ صفحة ١٥ ١٧ .
حسن حبشي ، مترجم : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ صفحة ١٣٣ .
حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، طبعة ٢ ـ دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، صفحة ٢٣٠ .
باركر ، ارنست : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ صفحة ٩ ـ ي ٢٨٠ .

ادوين جون نيفيز : فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، ترجمة زكي شنودة ـ القاهرة ، حلمي مراد ١٩٥٧ ص ٦٢ .
يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ – ١٢٥٤ قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦ ص ٤١٢ .
شميس، عبد المنعم : معركة المنصورة (٦٤٧ – ٦٤٨ هـ – ١٢٤٩ – ١٢٥٠ م) ـ القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ ص ٤٠ .
عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية، مطبعة رويال ١٩٥٨ ص ١ ذ ٢٢١.
يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠ ص ١٢٧ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ج ١ – ٢ ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٥٩٢ و ٨٣٠ .
السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ـ القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ١٠٤٨ .

الحمدانيون

كيالي ، سامي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ حلب ، المطبعة الحديثة ١٩٣٩ ص ٢٣٥ .
الجندي، درويش: الشعر في ظل سيف الدولة ـ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص٣٣٦.
الشكعة ، مصطفى محمد : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ٥٦٢ .

الطولونية ، الدولة

حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية : العصر الطولوني ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ – و ٢٧٦ .
سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، ص ٢٦١ .

الاخشيديون

كاشف ، سيدة اسماعيل : مصر في عصر الاخشيديين ـ القاهرة ، جامعة فؤاد الاول ، كلية الآداب ١٩٥٠ ص ٤١٨ .

كاشف ، سيدة اسماعيل : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ٣٠٦ .

السلجوقية

ابن البيبي ، ناصر الدين يحيى : تواريخ آل سلجوق ـ ليدن ١٩٠٢ صفحة ٣٥٨ .
ابن النظام ، محمد بن محمد : العراضة في الحكاية السلجوقية ـ ليدن ، بريل ١٩٠٩ صفحة ١٧٨ (بالفارسية) .
حسنين ، عبد النعيم محمد : سلاجقة ايران والعراق ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ صفحة ٢١٦ .

الدولة الايوبية

نظير حسان سعداوي : جيش مصر في ايام صلاح الدين ـ القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ صفحة ١٢١ .
ابو الشامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين : الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمي احمد ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ صفحة ٣٢٦ .
السيد الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ـ القاهرة ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠ ، ص ١ — ج ٢٩٥ .
محمد سامي الدهان : الناصر صلاح الدين الايوبي ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ ص ١٥١ .
محمد عبد العزيز مرزوق : العصر اليوناني والروماني والعصر الاسلامي ، ج ٨ ، مج ٢ : الحياة الفنية في مصر الاسلامية بن الفتح العربي الى الفتح التركي ـ القاهرة ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ صفحة ٨٠ .
محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الاسلامي في العصر الايوبي ـ القاهرة ، دار القلم .

دولة المماليك

ابن اياس ، محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق وتقدمة وفهرسة محمد مصطفى ـ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٠ صفحة ١٢ + ٤٩٢ .
فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ـ القاهرة ، الدار المصرية للكتب ١٩٥٨ ، صفحة ٣٧٠ .

محمد رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ٣ اجزاء في ٥ مجلدات ـ القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٦ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ٢٤٧ .
ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ – ١٥١٧) ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ صفحة ١ – ع ٣٧٥ .

الاتراك

عبد المنعم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ صفحة ٢١٦
بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة السعيد سليمان ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ صفحة ٢٦٤ .
سالم الرشيدي ، محمد الفاتح : القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٦ صفحة ٣٠٧ .
محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ – ١٩١٤ ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ صفحة ٢٠٤ .

جدول زمني مقارن

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
		٣٧٩ — ٣٨٥
		٣٨٦
		٣٩٦ — ٣٩٨
حول الضيافة	مرسوم هونوريوس واركاديوس	٣٩٨
		٣٩٩
		٤٠٤ — ٤٢٤
		٤٠٥
	الفندال والسويف يجتازون الرين	٤٠٦
	الحاميات الرومانية تجلو عن بريتانيا	٤٠٧ ؟
	سقوط روما في أيدي « الاريك »	٤١٠
	القديس اوغسطينوس يؤلف « مدينة الله » .	٤١٢ — ٤٢٦
		٤١٤
		٤٢٠
		٤٢٤ — ٤٥٣
	الفندال ينتقلون الى افريقيا الشمالية	٤٢٩
		٤٣١
		٤٣٤
	تبشير ايرلندا بالانجيل	حوالي ٤٣٥
قانون ثيودوسيوس		٤٣٩
		٤٤٥
		٤٤٥ — ٥١٠
		٤٤٦

آسيا الشرقية	التواريخ
الهند : ولاية شاندراكوبتا الثاني . انطلاقة الادب (قاليداسا) . فتوحات اقليمية: كوجورات، كاتياوار	٣٧٩ — ٣٨٥
اليابان : فتح كوريا الجنوبية.	٣٨٦
الصين الشمالية : الاتراك الطابغاتش او طو ـ با يؤسسون مملكة « وي »	٣٩٦ — ٣٩٨
	٣٩٨
سفر الحاج البوذي « فا ـ هيان » الى الهند	٣٩٩
رحلة الحاج « لشي ـ مونغ » .	٤٠٤ — ٤٢٤
اليابان : كاتب كوري يعلم الاحرف الصينية في البلاط	٤٠٥
	٤٠٦
الصين الشمالية : وفاة « فو ـ كيان »	٤٠٧ ؟
الصين : « التسن » يحققون فتوحات سريعة الزوال في منغوليا	٤١٠
	٤١٢ — ٤٢٦
الصين : عودة الحاج فا ـ هيان . تأسيس المعابد البوذية الاول في يون ـ قانغ . ـ الهند : ولاية قوماراً كوبتا الاول	٤١٤
الصين : تأسيس مملكة السونغ الاولين . بوذابهادرا ينقل الى الصينية نصوصاً هندية .	٤٢٠
رحلة الحاج « طا ـ يو » .	٤٢٤ — ٤٥٣
	٤٢٩
نهب « جنان » على ايدي « الشام »	٤٣١
فو ـ نان : ولاية قونديليا الاول	٤٣٤
	حوالي ٤٣٥
	٤٣٩
الطو ـ با يستولون على لوب ـ نور	٤٤٥
دكن : الملوك فاقاتاكا يجهزون المغاور في اجانتا	٤٤٥ — ٥١٠
نهب عاصمة « الشام » على أيدي الصينيين .	٤٤٦

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
حوالي ٤٥٠		
٤٥١	غارة الهون على غاليا	مجمع خلقيدونيا يصدر حكمه على القائلين بالطبيعة الواحدة
٤٥٣	موت « أتيلا »	
٤٥٥		
٤٥٥ — ٤٨٤		الهون الهفتاليون في مرو وهيرات
٤٦٧ — ٤٦٩		
٤٧٠		
٤٧٥ — ٥٠٠		
٤٧٦	نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية	
٤٧٨		
٤٧٩		
٤٨٠		
٤٨٤		
٤٨٦	كلوفيس يهزم سياغريوس ويقتله في سواسون	
حوالي ٤٩٠		
٤٩٣	تيودوريك ، ملك الاوستروقوط ، سيد ايطاليا	
٤٩٤		
٤٩٥ — ٥٠٦	تنصر كلوفيس	
حوالي ٥٠٠		حركة مزدية في ايران
٥٠٢ — ٥٣٠		
٥٠٦	نشر مجموعة قوانين الاريك	
٥٠٧	كلوفيس يسحق الفيزيقوط في « فوية »	

التواريخ	آسيا الشرقية
حوالي ٤٥٠	اليابان : اعتماد أبجدية مستوحاة من الصين، يقظة فكرية ـ اليو ـ تشي في كابول وبختيار وبشاور. امبراطور الطو ـ با يحمي البوذية ويعتنقها . اجل مغاور يون ـ قانغ .
٤٥١	
٤٥٣	
٤٥٥	الهند : ولاية سكندا كوبتا الذي يصد الهون الهفتاليين .
٤٥٥ — ٤٨٤	
٤٦٧ — ٤٦٩	الهند : تأسيس مدينة نالندا السلالية والجامعية . ولاية تومارا كوبتا الثاني .
٤٧٠	الهند : تجزئة الامبراطورية الكوبتية .
٤٧٥ — ٥٠٠	طوراماتا الهوني، المقيم في غندهارا ، يضطهد البوذية ـ الفيداريون ينكفئون نحو بامير (جلجيت)
٤٧٦	
٤٧٨	فونان : الملك فونديتيا (جايا فرمان) يدفع الجزية للصين ـ « تهنيد » البلاد
٤٧٩	الصين الجنوبية : سقوط السونغ الاولين ؛ ولاية التسي .
٤٨٠	لن ـ يي : سيطرة العبادة الشيفارية . فو ـ نان : الراهب ناغاسينا يصل الى البلاط .
٤٨٤	فو ـ نان : جايا فرمان يستقبل ناغاسينا ويوفده الى كانتون .
٤٨٦	
حوالي ٤٩٠	الهند : تأسيس مملكة فالابهي (قاتيافار وسوراشترا)
٤٩٣	
٤٩٤	الصين : امبراطور الطو ـ با يؤسس (?) لونغ ـ من .
٤٩٥ — ٥٠٦	
حوالي ٥٠٠	الهون الهفتاليون في افغانستان والهند ؛ هدم الاديرة والابنية . ـ الهند : الشاتوكيا
٥٠٢ — ٥٣٠	شامبا : وفود الى الصين . ـ الهند : الهوني الهفتالي ميهيراكولا يتقدم حتى حوض الغانج . ـ الصين : سلالة ليانغ ؛ ولاية ليانغ وو تي .
٥٠٦	فو ـ نان : ليانغ وو ـ تي يستدعي الراهب سنغابالا لترجمة الكتب المقدسة البوذية
٥٠٧	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٥١٠		
٥١١	مجمع اورليان ـ وفاة كلوفيس	
٥١٤		
٥١٥ — ٥٢٨		
٥١٦		
٥١٨ — ٥٢٢		
٥٢٣		
٥٢٤	تيودوريك يعدم « بويس »	
حوالي ٥٢٥	تأسيس الجمعية البندكتية في جبل كسينو	
٥٢٦	وفاة تيودوريك ـ تشييد كنيسة القديس فيتال في رافنا (حتى ٥٤٦)	
٥٢٧		ولاية جوستينيانوس
٥٢٩ — ٥٣٣		جمع قانون جوستينيانوس والمجموعة
٥٣٠		
٥٣٠ — ٥٣٧	الفرنجة يستولون على بروفنسا والتورنج والمملكة البورغندية	
٥٣٢		تمرد نيكا في القسطنطينية
٥٣٣		جيوش جوستينيانوس تستعيد افريقيا
٥٣٤		
٥٣٥		البيزنطيون يباشرون استعادة ايطاليا
٥٤٠		
٥٤٧	وفاة القديس بندكتوس	
٥٤٨		
٥٥٠		
٥٥٢		

آسيا الشرقية	التواريخ
الهند : تشييد معابد وأديرة في باداني ، اجانتا ، الخ . تأييد « الساتي » في « أران »	٥١٠
	٥١١
فو - نان : وفاة جايافرمان . ولاية رودرا فرمان	٥١٤
الصين الشمالية : الامبراطورة « هو » تحمي البوذية وتزين لونغ - من	٥١٥ — ٥٢٨
اليابان تهاجم كوريا دون جدوى	٥١٦
الامبراطورة « هو » توفد الحاج سونغ ين » الى الهند	٥١٨ — ٥٢٢
الصين : تشييد معبد « سونغ - يو - سو » في هو - نان	٥٢٣
	٥٢٤
	حوالي ٥٢٥
	٥٢٦
	٥٢٧
	٥٢٩ — ٥٣٣
شامبا : الملك يتقبل التولية من الصين	٥٣٠
	٥٣٠ — ٥٣٧
	٥٣٢
	٥٣٣
الصين الشمالية : انقسام الـ « فاي » . - الهند : ميهيراكولا ينسحب الى كشمير بعد أن هزمه ملك « مالفا »	٥٣٤
الصين الشمالية : تجهيز المغارة الوسطى في لونغ - من	٥٣٥
كوريا تهزم اليابان مرة ثانية	٥٤٠
	٥٤٧
الراهب الهندي بارمارتا يأتي الى نانكين لترجمة نصوص هندية	٤٤٨
الصين الشمالية : سقوط « الفاي » في هو - نان (باي - تسي) . - الـ « تو - كيو » يصدرون الجوان - جوان ويغزون تركستان الهفتاليين	٥٥٠
بعثة كورية تنقل تمثالاً لبوذا الى اليابان	٥٥٢

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٥٥٦		
٥٥٨		
٥٦٥		وفاة جوستينيانوس
٥٦٨ — ٥٧٢	اقامة اللمبارديين في ايطاليا	
حوالي ٥٧٠		اقامة « الآفار » في بانونيا
٥٧٣ — ٥٩٣	غريغوريوس اسقف تور	
٥٧٤		
٥٨١		
حوالي ٥٨٥		
٥٨٩	ملك الفيزيقوط ، ريكارد يترك الاريوسية	
٥٩٠	ولاية غريغوريوس الكبير . ـ ظهور الرهبان الايرلنديين في غاليا	
٥٩٣		
٥٩٦	مهمة اوغسطينوس في بريطانيا العظمى	
٥٩٨		
آخر القرن السادس		
حوالي ٦٠٠		
٦٠٠ — ٦٥٠		اقامة البلغار والسلاف في البلقان
٦٠٥ — ٦١٨		
٦٠٦		
٦٠٧		
٦٠٩		
٦١٠	القديس كولمبانوس يؤسس دير « لوكسوي »	ولاية هيراكليوس
٦١٤		الساسانيون يستولون على اورشليم

التواريخ	آسيا الشرقية
٥٥٦	الصين الجنوبية : سقوط الليانغ وولاية التشن
٥٥٨	الصين الشمالية : سقوط التاي في شن - سي (باي تشيو)
٥٦٥	
٥٦٨ – ٥٧٢	
حوالي ٥٧٠	
٥٧٣ – ٥٩٣	
٥٧٤	الصين : اضطهاد البوذية
٥٨١	الصين : يانغ كيان يؤسس سلالة السوي في سي - نغان - فو
حوالي ٥٨٥	الهند : وفاة آخر كوبتا . - الفاردهانا يدافعون عن الحدود ضد الهون
٥٨٩	
٥٩٠	الصين : السوي يعيدون الوحدة السياسية . نهاية عهد السلالات
٥٩٣	اليابان : ولاية الامبراطورة سويكو ؛ عظمة السوغا ؛ حكومة شوتوكو - تايشي
٥٩٦	
٥٩٨	فو - نان وتشن - لا تتحدان تحت سلطة الملك بهافافرمان
آخر القرن السادس	الهند : تجهيز مغارة القنتا
حوالي ٦٠٠	الهند : سلالة فاردهانا في تانشفار تحارب الهون
٦٠٠ – ٦٥٠	
٦٠٥ – ٦١٨	الصين : ولاية يانغ - تي (سوي) . - رحلة الحاج واي - تسي . - تجميل لو - يانغ . - انشاء القناة الكبرى بين يانغ - تشيو ولو - يانغ
٦٠٦	الهند : ولاية هارشا . توسع مملكة البالافا في الجنوب ؛ تشييد مافاليبورام
٦٠٧	اليابان : تأسيس دير هوروجي . انطلاق العلوم والفنون الصينية
٦٠٩	دكن : ولاية بولاكشين الثاني ، مؤسس الامبراطورية الشالوكيا
٦١٠	الصين : جره انجاز الكتب المقدسة
٦١٤	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٦١٦		
٦١٨		
٦٢٢		
٦٢٦		الهجرة
٦٢٧	تنصر « ادوين » ملك نورثمبريا	
٦٢٩	ولاية داغوبير	
٦٣٠		
٦٣٠ — ٦٨٢		
٦٣٢		وفاة محمد
٦٣٤ — ٦٥٠		استيلاء العرب على سوريا ومصر وما بين النهرين وايران
٦٣٥		
٦٣٦	وفاة ايزيدوروس الاشبيلي	
٦٤٣		
٦٤٧		غزوات العرب الاولى في افريقيا الشمالية
٦٥٠		
٦٥٣	تنصر اللباردبين	
٦٦٠		بداية الخلافة الاموية
٦٦٥		
٦٦٨		
٦٦٩	ثيودوروس ، اسقف كنتربري	
٦٧٥ — ٦٨٥		
٦٧٧ — ٦٨١		
٦٨٠	ببين دي هرستال يصبح وزيراً في اوستراسيا	
٦٨٠ — ٧٠٠		العرب يحتلون بلاد البربر
٦٨٤		
٦٩٠ — ٧٣٤	ويليبرورد يبشر بلاد الفريز بالانجيل	
٧٠٧ — ٧٨١		
٧١١ — ٧١٣		العرب والبربر يحتلون اسبانيا
٧١٢		
٧١٣	لويتبراند ، ملك اللباردبين	

آسيا الشرقية	التواريخ
تشن - لا : وفد الى الصين	٦١٦
الصين : ولاية التانغ . ضم الممالك الهندو - اوروبية في آسيا الوسطى	٦١٨
	٦٢٢
الصين : ولاية تاي - تسونغ . توسع اقليمي	٦٢٦
تشن - لا : ولاية ايشانا فرمان	٦٢٧
	٦٢٩
ضم منغوليا الى صين التانغ . بدء رحلة الحاج هيوان - تسانغ	٦٣٠
الصين تطرد الاتراك الى منغوليا وتخضعهم	٦٣٠ — ٦٨٢
	٦٣٢
	٦٣٤ — ٦٥٠
كاهن نسطوري ايراني يشيد كنيسة في تشانغ - نغان . الاتراك الشاميون المقيمون في قابيشا وغندهارا يجمرن البوذية	٦٣٥
	٦٣٦
تاي - تسونغ يرسل وفداً الى هارشا	٦٤٣
	٦٤٧
التيبت : ولاية « سرونغ - بتسان - سغام - بو » وهو زوج اميرةملكية صينية واميرة نيبالية. الصين : تجهيز مغاور عديدة في لونغ - من	٦٥٠
	٦٥٣
	٦٦٠
صراع الصين ضد التيبت واتراك آسيا	٦٦٥
الصين تحتل كوريا	٦٦٨
	٦٦٩
رحلة يي - تسنغ	٦٧٥ — ٦٨٥
توحيد كوريا تحت ادارة مملكة سيلا	٦٧٧ — ٦٨١
	٦٨٠
	٦٨٠ — ٧٠٠
الصين : تجهيز مغاور عديدة في تيان لونغ - شان	٦٨٤
	٦٩٠ — ٧٣٤
اليابان : عهد نارا . انطلاقة الآداب والفنون	٧٠٧ — ٧٨١
	٧١١ — ٧١٣
الصين : ولاية هيوان - تسونغ . عصر الآداب الذهبي : انطلاقة تشانغ - نغان	٧١٢
	٧١٣

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٧١٤ – ٧١٩	شارل مارتل يستولي على السلطة في شمالي غاليا	
٧١٧ – ٧١٨		العرب يحاصرون القسطنطينية مرة اخرى
٧١٩	بونيفاسيوس يبشر منطقتي هيس وتورنج بالانجيل	
٧٢٠		المسلمون يجتاحون الهند
٧٢١		
٧٢٢	بونيفاسيوس اسقف جرمانيا	
٧٢٤	تأسيس دير ريشنان	
٧٢٦		بروز مشادة الايقونات
٧٢٩		
٧٣٠		
٧٣٢	شارل مارتل يصد غارة اسلامية في بواتو	
٧٣٣		
٧٣٥	وفاة « بيد » المحترم	
٧٣٧		
٧٤١	وفاة شارل مارتل	
٧٤٢	بونيفاسيوس يتولى اصلاح الكنيسة الفرنسية	
٧٤٤		
٧٤٦		
٧٤٧	« بيبين له بريف » وزير اوحد	
٧٥٠		ولاية العباسيين
٧٥١	« بيبين له بريف » ملك الفرنجة في سواسون	رافنا تسقط في ايدي اللمبارديين
٧٥٤	بيبين ، الذي كرسه اسطفانوس الثاني ، يقود حملة على اللمبارديين في ايطاليا وفاة القديس بونيفاسيوس	
٧٥٧	ولاية « اوفا » ملك مرسيا (توفي ٧٩٦)	
٧٦٠		
٧٦٢		تأسيس بغداد
٧٦٤ – ٧٧٠		
حوالي ٧٦٥ – ٧٧٠		
٧٦٨	وفاة « بيبين له بريف »	
٧٧٠		
٧٧١	شارلمان ملك الفرنجة	

آسيا الشرقية	التواريخ
	٧١٤ — ٨١٩
	٧١٧ — ٧١٨
	٧١٩
تولية ملوك كشمير وكابيشا تأتيهم من الصين	٧٢٠
الصين تعقد الصلح مع الاتراك وتفرض حمايتها على آسيا الوسطى	٧٢١
	٧٢٢
	٧٢٤
	٧٢٦
الصينيون يصطدمون بالعرب في بخارى وسمرقند	٧٢٩
الهند : آل « برتيهارا » يعيدون انشاء امبراطورية « قانوج »	٧٣٠
	٧٣٢
الصين تنتصر لكشمير على العرب	٧٣٣
	٧٣٥
الصين : الانتصار الاول على التيبت	٧٣٧
	٧٤١
	٧٤٢
تأسيس امبراطورية الديكور (اتراك) في آسيا العليا	٧٤٤
الصين : الانتصار الثاني على التيبت	٧٤٦
	٧٤٧
الصين : بداية انحطاط التانغ. الهند : امبراطورية راشتراكوتا. تشييد « كلاسا الورا » في عهد كريشنا الاول (٧٥٨ - ٧٧٢؟). طرد التيبتيين من بامير . جاوا الوسطى : تشييد بارابودور	٧٥٠
العرب ، حلفاء التيبتيين يسحقون الصينيين ؛ آسيا الوسطى كلها في قبضة المسلمين. آل « لو - لو » في نان - تشاو يسحقون الصينيين	٧٥١
	٧٥٤
	٧٥٧
جاوا الوسطى : ثبوت عبادة ال « لنغا » الملكية . الصين : انتصارات على البرابرة	٧٦٠
الصين : اعادة سلطة التانغ . التخلي عن التوسع الاقليمي . وفاة الشاعر « لى تاي - بو »	٧٦٢
اليابان : طبع النصوص البوذية	٧٦٤ — ٧٧٠
الهند : ولاية آل « بالا » . البنغال تغدو ملجأ البوذية	حوالي ٧٦٥ — ٧٧٠
	٧٦٨
الصين : وفاة الشاعر « توفو »	٧٧٠
	٧٧١

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
		٧٧٣ — ٨١٩
	شارلمان ملك اللمبارديين	٧٧٤
العرب يستولون على كابيشا		٧٧٥ — ٨٠٩
	هزيمة رونسفو	٧٧٨
		٧٨١
	الكوينوس في غاليا	٧٨٢
	شارلمان يفتح الساكس	٧٨٣ — ٧٨٥
	الغارات السكنديناڤية الاولى على انكلترا	٧٩٣
	الحكم على هرطقة التبني في مجمع فرنكفورت	٧٩٤
	شارلمان يخضع الافار	٧٩٦
	تشييد كنيسة اكس	٧٩٦ — ٨٠٥
تنظيم الامارة الاغلبية في افريقيا ادريس الثاني يؤسس فاس	شارلمان يتوج امبراطوراً في روما	٨٠٠
	الفرنجة يستولون على برشلونا	٨٠١
		٨٠٢
غارة الاسماعيليين على كورسكا		٨٠٦
		٨٠٨
وفاة هارون الرشيد		٨٠٩
		حوالي ٨١٢
انتصار البلغار على بيزنطية		٨١٣
	وفاة شارلمان	٨١٤
وفاة الشافعي	الغارات النورماندية على غاليا	حوالي ٨٢٠
	اجنهارد يضع « حياة شارل »	حوالي ٨٢١
		٨٢٢
العرب يستولون على بلرمو		٨٣٠ — ٨٣١
	اقالة « لويس التقي »	٨٣٣
		٨٣٦ — ٨٤٠
العرب يستولون « على « باري »	وفاة « لويس التقي »	٨٤٠
العودة نهائياً الى تكريم الأيقونات في بيزنطة	مقاسمات فردان	٨٤٣
	هنكمار اسقف « رمس »	٨٤٥
هجوم اسماعيلي مفاجيء على روما		٨٤٦

آسيا الشرقية	التواريخ
الصين : الكاتب ليو تسانغ ـ يوان	٨١٩ — ٧٧٣
	٧٧٤
	٨٠٩ — ٧٧٥
جاوا الوسطى : تكريس الشندي « كالاسان »	٧٧٨
اليابان : عهد الـ « هلان » الاول (حتى ٩٦٧) . نفوذ الـ « فوجيوارا » ، تقدم فكري وفني في كيوتو	٧٨١
	٧٨٢
	٧٨٥ — ٧٨٣
	٧٩٣
	٧٩٤
	٧٩٦
	٨٠٥ — ٧٩٦
	٨٠٠
	٨٠١
كمبوديا : جايا فرمان يؤسس الامبراطورية الخيرية وعبادة الاله الملك . تشييد معبد «كولن »	٨٠٢
	٨٠٦
الصين : استيلاء الاتراك الـ « شا ـ تو » على الشمال الغربي	٨٠٨
	٨٠٩
الهند : سقوط الـ « بلافا »	حوالي ٨١٢
	٨١٣
	٨١٤
	حوالي ٨٢٠
	حوالي ٨٢١
الصين تعقد الصلح مع التيبت	٨٢٢
	٨٣١ — ٨٣٠
	٨٣٣
الصين : نصوص الكلاسيكيين الكونفوشيوسيين تحفر على الحجر	٨٤٠ — ٨٣٦
آسيا العليا : الاتراك الـ «كرغيز» يستولون على عاصمة الويكور قربلغاسون ويلكوم في منغوليا	٨٤٠
	٨٤٣
الصين : اضطهاد البوذية والنسطورية	٨٤٥
	٨٤٦

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
حوالي ٨٥٠		ذروة حركة المعتزلة ـ تأسيس امارة كييف
٨٥٨	ولاية نقولا الاول	
		بدء كرازة كيرلس ومتوديوس في مورافيا
٨٦٤		تنصر البلغار
٨٦٧	السكندينافيون يستقرون في يورك	انشقاق فوتيوس ـ اوائل السلالة المقدونية
٨٦٨		وفاة الجاحظ. اوائل عهد الطولونيين في مصر
٨٧١	انكلترا : ولاية الفرد الكبير	
حوالي ٨٧٤		ايران : اوائل عهد السامانيين
٨٧٥		
٨٧٧		العراق : اندلاع ثورة الزنج
٨٧٨	تنصر ملوك الدانمرك	
٨٨٠		
٨٨٢		
٨٨٤		
٨٨٥	النورمنديون يحاصرون باريس . الفرد يحرر لندن	جيورجيا : اعلان الملكية البقراطية
٨٨٧	اقالة « شارل البدين »	
٨٨٨ — ٨٩٠		
٨٩٠		اندلاع ثورة القرامطة
٨٩٣		ولاية القيصر البلغاري سمعان
٩٠٠	غارات هنغارية على بافاريا	استيطان الهنغاريين في باوفيا. الاسماعيليون يستقرون في بروفنسا
٩٠٢ — ٩٦٥		
٩٠٧		
٩٠٨		عهد الامراء في بغداد
٩٠٩		الفاطميون يكتسحون افريقيا الشمالية
٩١٠	تأسيس دير كلوني	
٩١١	معاهدة سان سير (على نهر الابت) تعترف بتوطن النورمنديين في حوض السين الاسفل	
حوالي ٩٢٠		
٩٢٢		وفاة الطبري . اعدام الحلاج
٩٢٩		اعلان خلافة قرطبة

التواريخ	آسيا الشرقية
حوالي ٨٥٠	
٨٥٨	
٨٦٤	
٨٦٧	
٨٦٨	الصين : طبع مؤلف بوذي
٨٧١	
حوالي ٨٧٤	
٨٧٥	الصين : ثورة فلاحي هوانغ تشاو
٨٧٧	
٨٧٨	
٨٨٠	الصين : هوانغ تشاو يستولي على لو ـ يانغ
٨٨٢	الصينيون يستنجدن بالاتراك
٨٨٤	الصين : انتحار هوانغ تشاو
٨٨٥	
٨٨٧	
٨٨٨ — ٨٩٠	الهند : الشولا يجهزون على البلافا. الامبراطورية الخميرية : ولاية ياشوفرمان. تأسيس مدينة انغكور
٨٩٠	
٨٩٣	
٩٠٠	
٩٠٢ — ٩٦٥	تجزئة الصين : السلالات الخمس
٩٠٧	الصين : زوال سلالة التانغ . الهند : ولاية سلالة راجبوت في مالفا . الشولا يهزمون البانديا
٩٠٨	
٩٠٩	
٩١٠	
٩١١	
حوالي ٩٢٠	الصين : الكيتان المغوليون يحلون محل الكرغيز الاتراك في الشمال
٩٢٢	
٩٢٩	

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
		٩٣٢
وفاة الاشعري		٩٣٥
	ولاية اوتون الكبير	٩٣٦
	غارات هنغارية على « بري » وروما	٩٣٧
اقامة النظام البويهي في بغداد		٩٤٥
		٩٤٧
	همبورغ « عاصمة » البلدان السكندينافية	٩٤٨
	اوتون الكبير ينتصر على الهنغاريين في بافاريا	٩٥٥
		٩٦٠
	اوتون الكبير يتوج امبراطوراً . احداث مركز اساقفة في مغدنبورغ	٩٦٢
		٩٦٧
فتح الفاطميين لمصر . تأسيس القاهرة		٩٦٩
طرد الاسماعليين من برولنا	اوائل تعلم جوربير في « رمس » . تأسيس اسقفية براغ	٩٧٢
	ازدهار مدرسة لياج الاسقفية في عهد الاسقف نوتجر	٩٧٢ — ١٠٠٨
	وفاة اوتون الكبير	٩٧٣
		٩٧٤
اندلاع الحروب الكبرى الاولى بين البيزنطيين والحمدانيين	تزيين كنيسة اثاولد في وستمنستر	حوالي ٩٧٥
ولاية باسيليوس الثاني		٩٧٦
		٩٧٩
	تنصير اسطفانوس ملك هنغاريا	٩٨٥
	انتخاب هوغ كابت ملكاً على فرنسا	٩٨٧
اهتداء فلاديمير ، امير كييف ، الى المسيحية	اوائل حركة سلم الرب في الاكيتين	٩٨٩
	غزوة الداغركيين الكبرى لانكلترا	٩٩١
	انتخاب جربر حبر اعظم (سيلفستروس الثاني) . اوتون الثالث يختار روما عاصمة له	٩٩٩
اسبانيا : وفاة ابن ابي عامر المنصور		١٠٠٢
		١٠٠٥
	تشييد نارتكس كنيسة سان فيليبير في تورنوس	١٠٠٦ — ١٠١٩
		١٠٠٨ — ١٠٢١
	بدء نشاط المغامرين النورمنديين في ايطاليا الجنوبية	١٠٠٩

آسيا الشرقية	التواريخ
الصين : طبع المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشيوسية	٩٣٢
	٩٣٥
الكيتنات يستولون على بكين	٩٣٦
	٩٣٧
	٩٤٥
الصين : تجزئة اقليميـــة	٩٤٧
	٩٤٨
	٩٥٥
الصين : ولاية السونغ . استعادة الاراضي السليبة . انطلاقة الفنون والآداب . توسع الطباعة	٩٦٠
	٩٦٢
اليابان : عهد هيلان الثاني (حتى ١١٦٧) . افول شمس ال « فوجيوارا »	٩٦٧
	٩٦٩
	٩٧٢
	١٠٠٨ — ٩٧٢
الهند : آل « شالوكيا » (كاليانى) يحلون محل آل « راشتراكوتا » في مهاراشترا	٩٧٣
الهند : ولاية آل « سولانكي » (سلالة هندية) في قاتياوار	٩٧٤
الهند : تجزئة امبراطورية كاوج	حوالي ٩٧٥
	٩٧٦
الصين : امبراطورية السونغ (باستثناء بكين) تبلغ الذروة	٩٧٩
الهند : الامبراطورية الشولية تبلغ الذروة	٩٨٥
	٩٨٧
	٩٨٩
الهند : سقوط بشاور في ايدي الاتراك الغزنويين	٩٩١
	٩٩٩
الامبراطورية الخميرية : سوريافرمان الاول . توسع اقليمي في « سيام »	١٠٠٢
تحالف امبراطورية كريفيجايا (سوماطرا وجاوا) والهند الجنوبية	١٠٠٥
	١٠١٩ — ١٠٠٦
الهند : فتوحات محمود الغزنوي في الشمال	١٠٢١ — ١٠٠٨
	١٠٠٩

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٠١٠		ايران : الفردوسي ينجز الشاهنامة
١٠١٢ — ١٠١٧		
١٠١٤ — ١٠١٨		باسيليوس الثاني يفتح بلغاريا
١٠١٥ — ١٠٣٥	امبراطورية كنوت الكبير الدانمركية	
١٠١٨ — ١٠٣٢	تشييد دير ريبولي	
١٠٢١		
قبل ١٠٢٥		بيزنطية تضم ارمينيا اليها
١٠٢٥ — ١٠٣٠		
١٠٢٧ — ١٠٢٨		
١٠٣٠	البوادر الاولى لحركة التكتل القروي في ايطاليا	
١٠٣٣	تكريس كنيسة سان ميشال في هيلدشيم	
حوالي ١٠٣٣ — ١٠٤٢		
١٠٣٦ — ١٠٦٨		
١٠٣٧		موت ابن سينا
١٠٤٠		انتصار السلجوقيين في دندخان
حوالي ١٠٤٢		
١٠٤٤		
١٠٤٤ — ١٠٧٧		
١٠٥١		غزوة هلالية في افريقيا الشمالية
١٠٥٤		انشقاق ميخائيل كيرولاريوس
١٠٥٥		دخول طغرل بك الى بغداد
١٠٥٩	اقرار حرية انتخاب البابا برسوم	
١٠٦٠	روبير جيسكار يبدأ فتح صقليا	
١٠٦٢ — ١٠٦٦	تشييد دير السيدات في كان	
١٠٦٣	حملة عسكرية مسيحية الى وادي الايبر	
١٠٦٤ — ١٠٦٥	غارات فردينان الاول على كوامبر وفالنس	
حوالي ١٠٦٥ — ١١٠٠	« انشودة رولان »	
١٠٦٦	غليوم النورمندي يفتح انكلترا	
١٠٦٨		

التواريخ	آسيا الشرقية
١٠١٠	
١٠١٢ — ١٠١٧	الهند : امبراطور شولا ، راجندرا ، يحتل سيلان ويهزم آل « كايلندرا » (جاقا) في مضيق مالاكا وفي سومطرا
١٠١٤ — ١٠١٨	
١٠١٥ — ١٠٣٥	
١٠١٨ — ١٠٣٢	
١٠٢١	الصين : صراع التالفين
قبل ١٠٢٥	
١٠٢٥ — ١٠٣٠	جاوا : خوض الحرب ضد الشولا
١٠٢٧ — ١٠٢٨	اليابان : وفاة فوجيوارا ميشيناغا ، حامي البوذية . نشوب الصراع بين آل « ميناموتو » وآل « فوجيوارا
١٠٣٠	شمبا : تحالف والامبراطورية الخميرية
١٠٣٣	امبراطور الشولا يرسل وفداً الى بلاد الصين
حوالي ١٠٣٣ — ١٠٤٢	جاوا : ولاية لنغا « البالي » الاصل . توحيد جاوا الشرقية . نمو البراهمانية
١٠٣٦ — ١٠٦٨	اليابان : صدور الاوامر تكراراً بمنع احداث « شوون جديدة »
١٠٣٧	
١٠٤٠	
حوالي ١٠٤٢	جاوا : تقسيم جاوا الشرقية بين قاديري وسورابايا
١٠٤٤	آل « داي كرفيات » تبيح فيجايا ، عاصمة « الشاميين » ، السلب
١٠٤٤ — ١٠٧٧	بورما : ملك اناروذا في باغان . اصلاحات سياسية ودينية . انشاء معابد كثيرة . فتوحات اقليمية
١٠٥١	اليابان : بدء حرب « السنوات التسع » بين ميناموتو وفوجيوارا
١٠٥٤	
١٠٥٥	
١٠٥٩	
١٠٦٠	
١٠٦٢ — ١٠٦٦	
١٠٦٣	
١٠٦٤ — ١٠٦٥	
حوالي ١٠٦٥ — ١١٠٠	
١٠٦٦	
١٠٦٨	

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
	لانفرانك رئيس اساقفة كنتربري : اصلاح الكنيسة الانكليزية . البوادر الاولى للتكتل القروي في شمالي الكوار (له مان)	١٠٧٠
سحق الجيش البيزنطي في «منازيكرت»		١٠٧١
	غريغوريوس السابع يعتلي السدة البابوية	١٠٧٣
	براءة الحكم على التولية العلمانية	١٠٧٥
	مقابلة غريغوريوس السابع والامبراطور هنري الرابع في كانوسا	١٠٧٧
	القديس انسلموس رئيس دير بك	١٠٧٨
تنظيم شيعة الحشاشين		حوالي ١٠٨٠
ولاية الكسيوس كومنينوس		١٠٨١
الكسيوس كومنينوس يمنح البندقيين امتيازاً		١٠٨٢
	تأسيس دير « الشارتروز الكبرى »	١٠٨٤
	الفونس السادس ملك قشتالة يستولي على طليطلة . وفاة غريغوريوس السابع	١٠٨٥
انتصار المرابطين على مسيحيي اسبانيا		١٠٨٦
		١٠٨٧
	بدء تعليم ارنيريوس في بولونيا . القديس هوغ يشرع في تشييد دير كلوني الكبير	١٠٨٨
موت ملك شاه		١٠٩٢
	تشييد كنيسة القديس مرقس في البندقية	١٠٩٤
	اوربانوس الثاني يدعو في كليرمون الى الحملة الصليبية الاولى	١٠٩٥
	نشاط ادبي يبديه غليوم دوق أكيتين	١٠٩٥ — ١١٢٧
	تأسيس دير سيتو	١٠٩٨
استيلاء الصليبيين على اورشليم		١٠٩٩
		١١٠٠
	تأسيس دير النساء في مونتفرو	١١٠١
	غليوم دي شامبو ، مدير مدرسة باريس الاسقفية	١١٠٣
	رينيه دي هوي يصب جرن العماد في كنيسة سان برتلمي في لياج	١١٠٨
وفاة الغزالي		١١١٢
	القديس برنردوس رئيس دير كليرفو	١١١٥

آسيا الشرقية	التواريخ
الصين : البدو التيبتيون « سي ـ هيا » يخضعون الشمال الغربي	١٠٧٠
	١٠٧١
	١٠٧٣
	١٠٧٥
الصين : وفاة الفيلسوف شاو يونغ	١٠٧٧
	١٠٧٨
	حوالي ١٠٨٠
	١٠٨١
	١٠٨٢
	١٠٨٤
	١٠٨٥
شمبا تعقد صلحاً مع الصين .. بورما: المغتصب كينزيتا يتولى الحكم. انطلاقة جديدةفي الفن البورقي	١٠٨٦
اليابان : تجدد الاعمال العدائية بين فوجيوارا وميناموتو	١٠٨٧
	١٠٨٨
	١٠٩٢
	١٠٩٤
	١٠٩٥
	١٠٩٥—١١٢٧
	١٠٩٨
	١٠٩٩
الهند : مملكة الا « هويـالا » تتحرر من سيطرة الا « شالوكيا » ـ الصين : ولاية هواي‌تسونغ. انطلاقة الادب والفن (هانغ ـ تشيو) . عقد تحالف مع الجورتشات ضد الكيتات .	١١٠٠
	١١٠١
	١١٠٣
	١١٠٨
الامبراطورية الخميرية : ولاية سورياقرمان الثاني باني انغكور فات . امتداد النفوذ الخميري الى سلام الوسطى وشمبا وانام .	١١١٢
	١١١٥

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١١١٥ — ١١٢٠	تزيين بوابة مواساك بالنقوش	
١١١٨	حملة روجيه الثاني ملك صقليا على تونس	
١١٢١		سقوط تفليس في ايدي الجيورجيين
١١٢٢	اتفاقية وورمس بين البابا و الامبراطور . نهاية صراع التوليات.	
١١٢٥ — ١١٢٦		
١١٢٧	المدن الفلمنكية تحصل على بعض الاعفاءات.	زنكي في الموصل
١١٢٨	اقرار نظام فرسان المعبد .	
١١٣٠		وفاة المهدي الموحد ابن طومرت
حوالي ١١٣٥ — ١١٤٤	الاب الرئيس سوجر يعيد بناء القسم الامامي والخورس في كنيسة سان دنيس .	
حوالي ١١٤٠	براءة غراثيانوس	
١١٤٠	مجمع سنس يصدر حكمه على ابيلار	
١١٤١	القراخيطاط يحتلون ما وراء النهر	
١١٤٣	تأسيس لوبك	
١١٤٤		استيلاء زنكي على الرها
حوالي ١١٤٥	مدخل شارتر الملكي	نور الدين يتولى الحكم في حلب
١١٤٦		
١١٤٧	القديس برناردوس يدعو للحملة الصليبية الثانية	
١١٤٨		اخفاق الحملة الصليبية الثانية امام دمشق
حوالي ١١٥٠		
١١٥٢	ولاية فردريك بربروس	غزو الاوغوز لخراسان
١١٥٣	وفاة القديس برناردوس	
١١٥٤	جمعية رونكاليا ، فردريك بربروس يبغي استعادة الحقوق الملكية في ايطاليا الشمالية – ولاية هنري بلانتاجنه الثاني ملك انكلترا .	
١١٦٠		
١١٦٢ — ١١٨٢	نشاط « كريتيان دي طروا » الادبي	
١١٦٣ — ١١٩٦	تشييد كنيسة السيدة (نوتردام) في باريس .	
١١٦٧		
١١٧٠	اغتيال توماس بكيت	

التواريخ	آسيا الشرقية
١١١٥ — ١١٢٠	
١١١٨	الهند : الاتراك الغزنويون في البنجاب
١١٢١	
١١٢٢	
١١٢٥ — ١١٢٦	الصين : الكيتات يهزمون السونغ
١١٢٧	الصين : السونغ يتخلون عن الشمال ويلكون في نانكين
١١٢٨	
١١٣٠	الصين : الفيلسوف تشوهي . تأليف الكونفوشيوسية الحديثة . انقسام المثقفين .
حوالي ١١٣٥ — ١٤٤	
حوالي ١١٤٠	
١١٤٠	
١١٤١	
١١٤٣	
١١٤٤	
حوالي ١١٤٥	
١١٤٦	
١١٤٧	منغوليا : « الملك » المغولي الاول ينتصر على الكين (الصين الشمالية الشرقية) .
١١٤٨	
حوالي ١١٥٠	الصين : تجزئة سياسية
١١٥٢	
١١٥٣	
١١٥٤	
١١٦٠	اليابان : اضطرابات سياسية حتى السنة ١١٨١
١١٦٢ — ١١٨٢	
١١٦٣ — ١١٩٦	
١١٦٧	منغوليا : مولد تاموجين (جنكيز خان)
١١٧٠	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١١٧١		صلاح الدين يلغي الخلافة الفاطمية ـ تقتيل الفاطميين في القسطنطينية .
١١٧٦	نشأة الشيعة الفالدية في ليون	انهزام البيزنطيين امام الاتراك في ميرسكيفالون
١١٨٠	ولاية فيليب اوغست ملك فرنسا	وفاة مانويل كومنينوس .
١١٨١		
١١٨٥		
١١٨٦		
١١٨٧		سقوط القدس في ايدي صلاح الدين
١١٩٠	وفاة فردريك بربروس	الحملة الصليبية الثالثة ؛ الصليبيون يحتلون قبرص
١١٩٢	اصدار نقد الجملة في البندقية	انتصار الخوارزميين في ايران
١١٩٣		
١١٩٦		
١١٩٧		لاون الال،ملك ارمينيا ـ كيليكيا
١١٩٨	ولاية انوشنتيوس الثالث.(توفي في السنة ١٢١٦)	وفاة ابن رشد
١٢٠٢	بلاط ملك فرنسا يقر مصادرة اقطاعات «جان‌سان‌تير»	
١٢٠٤	استيلاء اللاتين على القسطنطينية	«فتوة»الخليفة الناصر ـ وفاة الميمون.
١٢٠٦	اسطفان لنغتون رئيس اساقفة كنتربري . ـ القديس دومنيك يدعو في تولوز الى مناهضة هرطقة الاطهار.	
١٢٠٧		
١٢٠٨	بدء الحملة الصليبية على الالبيين	
١٢٠٩	تأسيس الاخوية الفرنسيسكانية الاولى.	
١٢١٠	حظر شرح فلسفة ارسطو الطبيعية في المدارس الباريسية	
١٢١٢	مباشرة تشييد كاتدرائية « رمس »	معركة لاس نافاس دي لا تولوزا
١٢١٤	معركة بوفين	
١٢١٥	انجلترا : الاتفاقية الكبرى . ـ فردريك الثاني يفرض نفسه في المانيا . ـ مجمع لاتران الرابع . ـ انظمة جامعة باريس .	
١٢١٨		
١٢٢٠	فردريك الثاني يضع اول تشريع ضد الهراطقة .	
١٢٢١		

آسيا الشرقية	التواريخ
	١١٧١
	١١٧٦
	١١٨٠
الامبراطورية الخيرية : ولاية جايافرمان السابع تشييد « البايون » و « انفكور توم »	١١٨١
اليابان : اصلاح الميناموتوالسياسي. تأسيس كاماكورا. ادخال«الشوغون». دخول زراعةالشاي	١١٨٥
محمد الغوري يضم البنجاب اليه	١١٨٦
	١١٨٧
الهند : تقسيم ماهارا شيرا	١١٩٠
	١١٩٢
الهند : محمد الغوري يضم سلطنة دلهي	١١٩٣
منغوليا : تاموجين يحمل اسم شنكيزخان	١١٩٦
الهند : سقوط « البالا » في البنغال . ولاية « السينا » .	١١٩٧
	١١٩٨
الهند : انهيار السينا ، السلاطين البوذيين الأخيرين ، في البنغال ، انتصار الجيوش الاسلامية	١٢٠٢
منغوليا : جنكيزخان يخضع النيان ويستخدم كاتبا تركياً يتكلم الويكور ويكتبها .	١٢٠٤
الهند : وفاة محمد الغوري . سلطنة دلهي تنتقل الى المماليك الاتراك .	١٢٠٦
منغوليا : جنكيزخان يوحد قبائل الاويرات والماركيت والكركيز	١٢٠٧
	١٢٠٨
الصين : جنكيزخان يهاجم الـ « سي - هيا »	١٢٠٩
	١٢١٠
	١٢١٢
	١٢١٤
	١٢١٥
جنكيزخان يهاجم القراخيطاي	١٢١٨
جنكيزخان يهاجم خوارزم	١٢٢٠
جنكيزخان يهزم الكيشاك	١٢٢١

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٢٢٢		
١٢٢٤ – ١٢٣٥	روبير غروستات مستشار جامعة اوكسفورد	
١٢٢٦	ولاية القديس لويس	
١٢٢٧		
١٢٢٩		عقد معاهدة بين فردريك الثاني والكامل الايوبي
١٢٣١	شرائع ملفي لعيد تنظيم ادارة مملكة صقليا	وفاة شاه خوارزم جلال الدين
١٢٣٢		
حوالي ١٢٣٦	الجزء الاول من « قصة الوردة » لغليوم دي لوريس	
١٢٣٦ – ١٢٤٢		المغول يغزون روسيا وهنغاريا
١٢٤١		
١٢٤٣	الشروع ببناء « السانت شابيل »	المغول يسحقون سلاجقة آسيا الصغرى
١٢٤٤		معركة غزة
١٢٤٥	مجمع ليون . اقالة فردريك الثاني	
١٢٤٥ – ١٢٤٨	البير الكبير يلقي الدروس في باريس	
١٢٤٦		
١٢٤٨		حملة القديس لويس على مصر
١٢٤٨ – ١٢٥٥	القديس بونا فنتورا يلقي الدروس في باريس	
١٢٤٩		ولاية المماليك في مصر
١٢٥٠	وفاة فردريك الثاني . بدء « فترة خلو كرسي الملك »	
١٢٥١		
١٢٥٢	اصدار الفلورين الذهبي في فلورنسا	
١٢٥٢ – ١٢٥٧	الاساتذة العلمانيون يحاولون الحد من مراكز «المتسولين» في جامعة باريس	
١٢٥٣		
١٢٥٦	تزاويق كتاب المزامير للقديس لويس	المغول يقضون على الحشاشين
١٢٥٨	انكلترا : استيلاء البارونات على السلطة	المغول يقضون على الخلافة في بغداد
١٢٥٩	معاهدة باريس بين لويس وهنري الثالث ملك انكلترا .	
١٢٦٠	نيقولا بيزانو يزين جرن العماد في بيزا ـ باب العذراء في كنيسة السيدة في باريس	هزيمة المغول في عين جالوت في سوريا . ـ ولاية بيبرس في مصر .

آسيا الشرقية	التواريخ
جنكيزخان يستدعي الراهب الطاوي كسيو تشانغ . تشيو ـ اليابان : مولد الفيلسوف نيشيرن	١٢٢٢
	١٢٢٤ — ١٢٣٥
جنكيزخان ينتصر على السي ـ هيا . ـ الهند : تشييد قطب المنار في دلهي	١٢٢٦
وفاة جنكيزخان .	١٢٢٧
ولاية اوغوداي . يي ـ ليو تشو تساي ينظم الامبراطورية المغولية على الطريقة الصينية . تأسيس قراكورم . انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا	١٢٢٩
انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا .	١٢٣١
الهند : سقوط الـ « سولانكي » في قاتيارار .	١٢٣٢
	حوالي ١٢٣٦
الصين : اوغوداي يصدر للمرة الاولى النقد الورقي .	١٢٣٦ — ١٢٤٢
منغوليا : ولاية غويوك	١٢٤١
	١٢٤٣
	١٢٤٤
	١٢٤٥
	١٢٤٥ — ١٢٤٨
الفرنسيسكان « جان دي بيان كربينو » في البلاط المغولي	١٢٤٦
وفاة غويوك	١٢٤٨
	١٢٤٨ — ١٢٥٥
	١٢٤٩
القديس لويس يوفد ثلاثة اخوة متسولين الى البلاط المغولي	١٢٥٠
منغوليا : ولاية مونكا	١٢٥١
	١٢٥٢
	١٢٥٢ — ١٢٥٧
الفرنسيسكاني غليوم دي روبروك في البلاط المغولي	١٢٥٣
ولاية هولاكو . مجمع بوذي في قراكورم	١٢٥٦
	١٢٥٨
	١٢٥٩
	١٢٦٠

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٢٦١		ميشال باليولوغ يستعيد القسطنطينية من اللاتين
١٢٦٣		
١٢٦٥	القديس توما يشرع في وضع « الخلاصة اللاهوتية »	
١٢٦٦	روجيه بيكون يحرر « العمل الاكبر ». ـ شارل دانجو يتولى فتح صقليا	
١٢٦٧	نظام مارلبرو يعين حدود السلطة الملكية في انكلترا	
١٢٧٠	صدور الحكم الاول عن تعاليم سيجر دي برابان	وفاة القديس لويس اثناء الحملة الصليبية على تونس
١٢٧١		
١٢٧٢	ولاية ادوارد الاول ملك انكلترا	
١٢٧٣		
١٢٧٤	مجمع ليون ؛ وحدة سريعة الزوال بين الكنيستين الشرقية والغربية	
١٢٧٥	الجزء الثاني من « قصة الوردة » لجان دي مونغ	
١٢٧٦ — ١٢٧٩		
١٢٧٨ — ١٢٧٩		وصول الراهبين النسطوريين الشرقيين الى بلاد ما بين النهرين
١٢٨١		
١٢٨٢	مجزرة الفيرسبين في صقليا	
١٢٨٤	معركة ميلوريا . خراب بيزا على يد جنوى .	
١٢٨٥	ولاية فيليب له بيل	
١٢٨٨		
١٢٨٩		
١٢٩٠		
١٢٩١	اتحاد طوائف سويسرا الوسطى	سقوط عكا ـ وفاة السعدي
١٢٩٣		
١٢٩٤	الحرب الفرنسية الانكليزية لاجل غويان . ـ ولاية بونيفاسيوس الثامن	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٢٦١	
١٢٦٣	النسطوري السوري ، عيسى ، يعين مديراً لمكتب الاحوال الفلكية لدى كوبيلاي .
١٢٦٥	وفاة هولاكو
١٢٦٦	اقامة الـ « بولو » الاولى في بكين
١٢٦٧	
١٢٧٠	
١٢٧١	الـ « بولو » يسافرون مرة ثانية من البندقية الى الصين
١٢٧٢	
١٢٧٣	الصين : المغول يستولون على سيانغ ـ يانغ بعد حصار دام خمس سنوات
١٢٧٤	
١٢٧٥	احداث مركز رئاسة اساقفة نسطورية في بكين . الـ « بولو » في الصين
١٢٧٩ – ١٢٧٦	سقوط السونغ . كوبيلاي يؤسس سلالة يوان
١٢٧٩ – ١٢٧٨	الصين : منع الدعاوة الاسلامية . ـ الهند : الكتابات الشولية الاخيرة
١٢٨١	كوبيلاي يخفق في مهاجمة اليابان
١٢٨٢	
١٢٨٤	
١٢٨٥	
١٢٨٨	ماركو بولو في البلدان الجنوبية الشرقية
١٢٨٩	كوبيلاي يحدث مكتباً يسند اليه شؤون العبادة المسيحية
١٢٩٠	الهند : انتقال سلطة دلهي الى الاتراك (فيروز)
١٢٩١	ماركو بولو يعود الى اوروبا
١٢٩٣	كوبيلاي يخفق في مهاجمة جاوا . ـ جاوا الشرقية : تأسيس امبراطورية ماجا باهيت
١٢٩٤	الصين : اهتداء النسطوري الارنغوت الامير جورج ، على يد جان دي مونتيكورفينو ، الى المعتقد الكاثوليكي الروماني . ـ ولاية تيمور . ـ الهند : المسلمون يسيطرون على الماراثيرا . انهيار السلالات الاقليمية في الميزور

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
		١٢٩٦
		١٢٩٧
		١٢٩٨
تكون الامارات التركانية في آسيا الصغرى		قبل ١٣٠٠
		١٣٠١ — ١٣٠٢
	فيليب له بيل يستشير ممثلي المملكة في باريس . ـ هزيمة الفرسان الفرنسيين في كورتريه	١٣٠٢
الكاتالونيون في الشرق	اعتداء أنانيي . ـ وفاة بونيفاسيوس الثامن	١٣٠٣
	دونس سكوت يلقي الدروس في باريس	١٣٠٤ — ١٣٠٨
	رسوم « الارينا دي بادوا » الجدرانية لجيوتو	بعد ١٣٠٦
	بروز قضية فرسان المعبد . ـ وفاة ادوارد الاول	١٣٠٧
	اتفاق كورتنبرغ في برابان	١٣١٢
	دانتي يكتب « جهنم »	١٣١٢ — ١٣١٤
	الساعة العامة الاولى في فرنسا ، في كن . ـ وفاة فيليب له بيل واكليمنضوس الخامس	١٣١٤
	بدء ازمة حبوب وأوبئة في كافة أنحاء اوروبا . ـ احلاف اقطاعية في فرنسا . ـ دوتشيو يرسم لوحة « الجلال » في سينا .	١٣١٥
	صلح فكس في لياج ـ الشروع ببناء قصر البابوات في افنيون	١٣١٦
	كتاب « الملكية » لدانتي	١٣١٧
	غليوم اوكهام يلقي الدروس في اركسفورد	١٣١٨ — ١٣٢٤
	براءة يوحنا الثاني والعشرين حول « الفن الجديد » . ـ ثورة الفلاحين في فلاندر البحرية	١٣٢٢
		١٣٢٣
	« حامي السلام » لمارسيل البادواني	١٣٢٤
	جامعة باوولس تعود عن حكمها على تعليم توما الاكويني	١٣٢٥
	اقالة ادوارد الثاني ؛ ولاية ادوارد الثالث	١٣٢٧
	ولاية فيليب السادس دي فالوا . ـ تتوج لويس دي بافيير في روما	١٣٢٨

آسيا الشرقية	التواريخ
تشيو تا ـ كوان في البلدان الجنوبية الشرقية	١٢٩٦
الهند : سلطان دلهي يضم اليه قاتياوار	١٢٩٧
معاملة الصينيين كالمغول سياسياً	١٢٩٨
	قبل ١٣٠٠
الصين : اعادة النظر في القوانين لمصلحة البلدين	١٣٠١ — ١٣٠٢
	١٣٠٢
	١٣٠٣
	١٣٠٤ — ١٣٠٨
	بعد ١٣٠٦
وفاة تيمور . ـ جان دي مونتيكوركينو يعين رئيس اساقفة بكين	١٣٠٧
	١٣١٢
	١٣١٢ — ١٣١٤
الفرنسيسكاني اودوريك دي بوردينون يبدأ رحلة الى آسيا الشرقية	١٣١٤
	١٣١٥
	١٣١٦
وفاة الارنكوت مرقص ، بطريرك بغداد النسطوري	١٣١٧
	١٣١٨ — ١٣٢٤
	١٣٢٢
الصين : ولاية يسون	١٣٢٣
	١٣٢٤
	١٣٢٥
	١٣٢٧
	١٣٢٨

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٣٣٠	« الاعراس الروحية » لجان ري وربسبروك . ـ « ريناز المقلد »	
١٣٣٣		
١٣٣٥		زوال الامبراطورية المغولية في بلاد فارس
١٣٣٧	وفاة جيوتو . ـ القطيعة بين فيليب السادس وادوارد الثالث	
١٣٣٨		
١٣٤١	بترارك يكلل بالغار في الكابيتول	ولاية يوحنا كنتاكوزين
١٣٤٦	الفلاس آل باردي . ـ معركة كريسي	
١٣٤٧	تأسيس جامعة براغ . ـ دكتاتورية كولادي ريتزو في روما . ـ بوادر الطاعون الاسود . ـ استيلاء ادوارد الثالث على كاليه	
١٣٤٨	جان بوريدان على رأس جامعة باريس للمرة الثانية . ـ اكليمنضوس السادس يبتاع افينيون من الملكة « جان دي نابولي »	
١٣٤٩	وفاة غليوم اوكهام . ـ حركة الجلادين	
١٣٥٠	ولاية جان له بون	
١٣٥١	كتاب المعلومات البحرية في المكتبة اللورنسية . ـ انكلترا : انظمة « الفلاحين » و « الوكلاء »	
١٣٥٢	ولاية الوشنتيوس السادس	
١٣٥٣	« الايام العشرة » لبوكاس	
١٣٥٤	« حياة العزلة » لبترارك	العثمانيون في غاليبولي
١٣٥٥		وفاة القيصر الصربي اسطفان دوسان
١٣٥٦	معركة بواتيه . ـ الامبراطور شارل الرابع يذيع البراءة الذهبية	
١٣٥٧	الولايات الجنوبية تفرض « النظام الاكبر » على ولي العهد شارل	
١٣٥٨	اشفاق ثورة اتيان مرسيل في باريس . ـ ثورة الفلاحين . ـ ايفاد الكردينال البورنوز مرة اخرى الى ايطاليا	
١٣٦٠	مقدمات بريليتيي ومعاهدة كاليه . ـ فرق الادلاء في فرنسا	
١٣٦٢	النزاع بين الهانس والدانمرك	السلطان مراد يستولي على اندرينوبولس

آسيا الشرقية	التواريخ
	١٣٣٠
الصين : كنيسة كان ـ تشيو النسطورية تؤدي عبادة لوالدة كوبيلاي	١٣٣٣
	١٣٣٥
	١٣٣٧
الجنوي اندالودي سافيليانو يعين سفيراً للصين في اوروبا . ـ بعض الألين من الحرس الامبراطوري في الصين يعتنقون الدين الكاثوليكي الروماني .	١٣٣٨
	١٣٤١
	١٣٤٦
	١٣٤٧
	١٣٤٨
	١٣٤٩
	١٣٥٠
	١٣٥١
الصين : ثورة الجنوب على اليوان	١٣٥٢
	١٣٥٣
	١٣٥٤
	١٣٥٥
	١٣٥٦
	١٣٥٧
	١٣٥٨
	١٣٦٠
	١٣٦٢

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
	تأسيس جامعة كراكوفيا. ـ فرنسا : ولاية شارل الخامس	١٣٦٤
الحملة القبرصية على الاسكندرية	تأسيس جامعة فينا	١٣٦٥
	عودة اوربانوس الخامس الى روما . ـ معركة ناجيرا	١٣٦٧
	تأسيس الفرنسيسكان المحافظين	١٣٦٨
	زواج فيليب الجسور من وريثة الفلاندر . ـ تجدد الحرب الفرنسية الانكليزية . ـ هنري دي تراستمار يغتـال بيير القاسي في مونتيال	١٣٦٩
	صلح سترالسوند بين الهانس والدانمرك	١٣٧٠
	الكتاب الاول من « يوميات » فرواسار	١٣٧٣
انهيار مملكة كيليكيا الارمنية	وفاة بترارك	١٣٧٤
	انكلترا : البرلمان الجيد . « السيادة المدنية » لويكليف	١٣٧٦
	عودة غريغوريوس الحادي عشر الى روما . ـ « حـلم الروضة » . ـ وفاة ادوارد الثالث	١٣٧٧

الغرب	التواريخ
انتخاب اوربانوس السادس واكليمنضوس السابع وبدء الانشقاق الكبير. ـ ثورة « الشيومبي » في فلورنسا . ـ وفاة الامبراطور شارل الرابع .	١٣٧٨
تشييد مبنى بلدية بروج وصحن كاتدرائية كنتربري . ـ انتفاضات ثورية في بعض مدن الفلاندر	١٣٧٩
وفاة القديسة « كاترين دي سيان » ودوغسكلين وشارل الخامس	١٣٨٠
انكلترا : ثورة الفلاحين ؛ اولى وثائق الملاحة	١٣٨١
وفاة نقولا اورسم والملكة « جان دي نابولي » . ـ ولاية لادسلاس جاجلون في برلونيا . ثورات في بعض مدن فرنسا . ـ معركة روسبك	١٣٨٢
وفاة ويكليف ـ جيرار دي كروت مؤسس اخوة الحياة المشتركة. فيليب الجسور، كونت الفلاندر	١٣٨٤
انتصار البرتغاليين على القشتاليين في (الجوباروتا)	١٣٨٥
تأسيس جامعة هيدلبرغ . ـ انكلترا : البارونات يفرضون الوصاية على ريشار الثاني	١٣٨٦
(قصص كنتربري) لشوسر	١٣٨٧
	١٣٨٩
جنون شارل السادس وسقوط حكومة (المرموزيه)	١٣٩٢
كلوس سلوتر يشرع في تأليف (بئر موسى)	١٣٩٥
اجتماع ريشار الثاني وشارل السادس في آردر . ـ جنوى تنضم الى فرنسا تلقائياً .	١٣٩٦

آسيا الشرقية	التواريخ
	١٣٦٤
	١٣٦٥
	١٣٦٧
الصين : تشيو يوان ـ تشانغ يستولي على بكين ويؤسس سلالة المنغ	١٣٦٨
	١٣٦٩
البابا يعين رئيس اساقفة في بكين	١٣٧٠
	١٣٧٣
	١٣٧٤
	١٣٧٦
	١٣٧٧

الشرق الادنى	التواريخ
	١٣٧٨
	١٣٧٩
انتصار ديمتري دونسكوي ، دوق موسكو ، على المغول	١٣٨٠
	١٣٨١
	١٣٨٢
	١٣٨٤
	١٣٨٥
	١٣٨٦
	١٣٨٧
انتصار بايزيد الاول على الصرب في كوسوفو	١٣٨٩
	١٣٩٢
	١٣٩٥
كارثة هزيمة الصليبيين امام العثمانيين في نيكوبوليس	١٣٩٦

الغرب	التواريخ
وحدة « كلمار » بين الممالك السكندينافية . ـ « استبداد » ريشار الثاني	١٣٩٧
فرنسا : رفض الخضوع لبابا افينيون ؛ بدء الغاليكانية	١٣٩٨
انكلترا : هنري الرابع دي لنكستر يقيل ريشار الثاني	١٣٩٩
جان هوس عميد جامعة براغ . ـ « بحث في خراب الكنيسة » لنقولا دي كلامانج . ـ استعمار جزر « الكناري» على يد جان دي بيتنكور	١٤٠٢
غيبرتي يبدأ نحت نقوش جرن العماد في فلورنسا	١٤٠٣
	١٤٠٥
ادخال الاستغراق الى جامعة « المعرفة » . ـ بيزا تقع تحت سيادة فلورنسا	١٤٠٦
اغتيال « لويس دورليان » بإيعاز من « جان سان بور »	١٤٠٧
«ساعات الدوق دي بري المثمرة جداً» لبول دي لمبورغ . ـ تأسيس «بيت القديس جورج» في جنوى	١٤٠٨
مجمع بيزا ؛ الانشقاق المثلث الرؤوس	١٤٠٩
البولونيون يسحقون الفرسان في تاننبرغ	١٤١٠
النظام الكابوشي . ـ ولاية هنري الخامس دي لنكستر	١٤١٣
افتتاح مجمع كونستانس	١٤١٤
معركة ازنكور . ـ تعذيب جان هوس	١٤١٥
« القديس جورج » لدوناتلو . ـ ولاية الفونس الخامس المعظم في اراغون	١٤١٦
دخول البورغونيين الى باريس . ـ هنري الخامس يحتل نورمنديا .	١٤١٨
احداث اسواق ليون الدورية . ـ وفاة القديس فانسان فيريه . ـ اغتيال جان سان بور	١٤١٩
كتاب « الاقتداء بيسوع المسيح » . ـ معاهدة طروا تجعل هنري الخامس يترقب تاج فرنسا . ـ ذروة الازمة النقدية في فرنسا	١٤٢٠
برونسكي يشرع في تنفيذ قبة فلورنسا	١٤٢١
وفاة هنري الخامس وشارل السادس . وصاية بدفورد في فرنسا	١٤٢٢
هزيمة جيوش شارل السابع في فرنوي	١٤٢٤
تأسيس جامعة لوفان . ـ لوحة « الحمل السري » لجان فان ايك . ـ « رقص الاموات » في مقبرة الابرياء في باريس	١٤٢٥
غليوم دوفاي عضو في « الحاشية » البابوية	١٤٢٨
مسيرة جان دارك وتكريس شارل السابع . ـ وفاة جان جرسون	١٤٢٩
تعذيب جان دارك . افتتاح مجمع بال . ـ البرتغاليون في جزر الأسود	١٤٣١
كوزمادي مديشي يستلم السلطة في فلورنسا . ـ البرتغاليون يدورون حول رأس بوجادور . ـ سحق الطابوريين في بوهيميا	١٤٣٤
معاهدة أراس بين شارل السابع وفيليب له بون	١٤٣٥

الشرق الادنى	التواريخ
	١٣٩٧
	١٣٩٨
مانويل باليولوغ يبحث عن المساعدات في الغرب	١٣٩٩
تيمورلنك يسحق بايزيد الاول في انكرا	١٤٠٢
	١٤٠٣
وفاة تيمورلنك	١٤٠٥
وفاة ابن خلدون	١٤٠٦
	١٤٠٧
	١٤٠٨
	١٤٠٩
	١٤١٠
	١٤١٣
	١٤١٤
البرتغاليون يحتلون سبته	١٤١٥
	١٤١٦
	١٤١٨
	١٤١٩
	١٤٢٠
	١٤٢١
	١٤٢٢
	١٤٢٤
	١٤٢٥
	١٤٢٨
	١٤٢٩
	١٤٣١
	١٤٣٤
	١٤٣٥

التواريخ	الغرب
١٤٣٧	الشروع ببناء كنيسة « سان ماكلو » في روان . ـ « العائلة » لألبرتي
١٤٣٨	قرار الملك والمجلس في بورج
١٤٤٠	برونلسكي يشرع في بناء قصر بيق ، وميشالوني في بناء قصر مديشي في فلورنسا
١٤٤٤	«اللغة اللاتينية الانيقة» لوران فالا . ـ البرتغاليون في الرأس الاخضر . هدنة تور بين الانكليز والفرنسيين
١٤٤٥	شارل السابع يحدث فرق النظام
١٤٤٧	وفاة ارجانيوس الرابع ؛ انتخاب نقولا الخامس
١٤٤٨	اتفاقية فينا مع البابا حول البلدان الالمانية
١٤٤٩	نهاية انشقاق بال . ـ شارل السابع يبدأ حرب استعادة نورمنديا
١٤٥٠	تنظيم دار الكتب الفاتيكانية . ـ « سر الآلام » لارنولد غريبان . ـ كتاب ساعات اتيان شفالييه لجان فوكيه . معركة فورمينيي
١٤٥٢	البير يتولى اعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما . ـ مولد ليوناردو دي فنشي . ـ اصلاح جامعة باريس على يد الكردينال دستوتفيل . ـ آخر تكريس لامبراطور (فردريك الثالث) على يد البابا
١٤٥٣	معركة كستيلون . ـ الحكم على جاك كور
١٤٥٤	معاهدة لوذي تعيد السلام الى الامارات الايطالية
١٤٥٥	غوتنبرغ يطبع « التوراة المازارينية » . ـ روسلينو يشيد قصر البندقية في روما . ـ وفاة الاخ انجليكو بيزانلو رغيبرتي ونقولا الخامس
١٤٥٦	« الانظمة الافلاطونية » لمارسيل فيسين . ـ « الوصية الصغرى » لفيون
١٤٥٨	اينيا سيلفيو ينتخب حبراً اعظم (بيوس الثاني)
١٤٥٩	وفاة بوجيو والقديس انطونيوس الباديراني . ـ مؤتمر مانتو . حرب اهلية في انكلترا
١٤٦٠	اوائل عهد بورصة انفرس . ثورة كاتالونيا على يوحنا الثاني
١٤٦١	فرنسا : ولاية لويس الحادي عشر . ـ انكلترا : ولاية ادوارد الرابع دي يورك
١٤٦٢	
١٤٦٣	تأسيس الاكاديميا الرومانية
١٤٦٤	تأسيس الاكاديميا الافلاطونية . ـ وفاة روجيه دي لاباستور ونقولا دي كوز وبيوس الثاني
١٤٦٥	طبع « فن الموت » في كولونيا . ـ جان اركجهم رئيس خورس لدى لويس الحادي عشر . ـ حلف الصالح العام
١٤٦٦	تدريس اللغة اليونانية في جامعة باريس ، ـ مولد ايراسم
١٤٦٧	« تتويج العذراء » لفيليبوليبي . ـ لقاء لويس الحادي عشر وشارل الجسور في بيرون . ـ ثورة لياج
١٤٦٨	رسوم « كمبوسانتو » في بيزا بريشة بنوزو جوزولي
١٤٦٩	«اللاهوت الافلاطوني» لمارسيل فيسين . ـ ولاية لوران وجوليان دي مديشي . ـ زواج فردينان الاراغوني من ايزابيل القشتالية . ـ ماتياس كورفين ملك هنغاريا

الشرق الادنى	التواريخ
	١٤٣٧
اتحاد الكنائس في مجمع فراري	١٤٣٨
	١٤٤٠
هزيمة الهنغاريين والبولونيين في فارنا	١٤٤٤
	١٤٤٥
رحلة انطونيو ملفنتي الجنوي الى طوات	١٤٤٧
	١٤٤٨
	١٤٤٩
	١٤٥٠
	١٤٥٢
محمد الثاني يستولي على القسطنطينية	١٤٥٣
	١٤٥٤
	١٤٥٥
	١٤٥٦
	١٤٥٨
	١٤٥٩
	١٤٦٠
	١٤٦١
سقوط ترابزون	١٤٦٢
	١٤٦٣
	١٤٦٤
	١٤٦٥
	١٤٦٦
	١٤٦٧
وفاة اسكندر بك ونهاية المقاومة الالبانية في وجه العثمانيين	١٤٦٨
	١٤٦٩

التواريخ	الغرب
١٤٧٠	غليوم فيشيه يقيم مطبعة في جامعة باريس . ـ جبهة « سانتا ماريا نوفلا » في فلورنسا (البرتي)
١٤٧١	البرتغاليون يتخطون خط الاستواء
١٤٧٢	وفاة الكردينال بساريون . ـ توقيع اتفاقية بين سكستوس الرابع ولويس الحادي عشر .
١٤٧٣	لقاءات تريف بين شارل الجسور وفردريك الثالث دي هابسبورغ
١٤٧٤	« يوميات » رجيومونتانوس
١٤٧٥	فتح دار الكتب الفاتيكانية للعموم . ـ مولد ميكال انجلو . ـ (داود) للفروكيو . ـ معاهدة بيكينيي بين لويس الحادي عشر وادوارد الرابع . ـ لويس الحادي عشر يصدر (الدينار الشمسي)
١٤٧٦	انتصارات السويسريين على شارل الجسور في غرانسون ومورا
١٤٧٧	طبع اول كتاب باللغة الفرنسية . ـ تأسيس جامعة اوبسال . ـ مؤامرة (البازي) في فلورنسا . ـ وفاة شارل الجسور على مقربة من نانسي
١٤٧٩	« زواج القديسة كاترين السري » لمملنغ
١٤٨٠	وفاة الملك رينه دانجو
١٤٨١	وفاة جان فوكيه . ـ ولاية جان الثاني البرتغالي
١٤٨٢	دياجو كام يكتشف مصب الكونغو . ـ معاهدة أراس بين لويس الحادي عشر ومكسيميليان النمساوي
١٤٨٣	مولد لوثر ورافائيل وغيشاردين . ـ وفاة لويس الحادي عشر وادوارد الرابع
١٤٨٤	اجتماع ممثلي الطبقات في تور . ـ انتخاب اينوشنتيوس الثامن
١٤٨٥	بيك دي لاميرندول في باريس . ـ الحرب الجنونية في فرنسا . ـ ولاية هنري السابع تودور
١٤٨٨	برتلمي دياز يدور حول رأس العواصف (الرجاء الصالح) . ـ مكسيميليان ينقل الى انفرس امتيازات التجار الاجانب في بروج . ـ « مذخرة القديسة اورسولا » لمملنغ
١٤٨٩	كومين يشرع في وضع مذكراته
١٤٩٠	تشييد بافالها . ـ « المدخل الى فلسفة ارسطو الميتافيزيقية » للفيفر ديتابل . ـ سافوناريول رئيس دير القديس مرقص في فلورنسا .
١٤٩١	(الزيارة) لغيرلنداجو . ـ مولد اغناطيوس دي لويولا . ـ زواج شارل الثامن من آنا البريطانية
١٤٩٢	وفاة لوران العظيم . ـ انتخاب الكسندروس السادس بورجيا . ـ كريستوف كولومبوس يكتشف العالم الجديد

الشرق الادنى	التواريخ
	١٤٧٠
ايفان الثالث يضم نوفغورورد	١٤٧١
ايفان الثالث يتزوج من زويي باليولوغ	١٤٧٢
	١٤٧٣
ايفان الثالث يكل الى بعض الايطاليين تشييد الكرملين	١٤٧٤
سقوط كافا في ايدي العثمانيين	١٤٧٥
	١٤٧٦
	١٤٧٧
	١٤٧٩
	١٤٨٠
وفاة محمد الثاني	١٤٨١
	١٤٨٢
	١٤٨٣
	١٤٨٤
	١٤٨٥
	١٤٨٨
	١٤٨٩
بيير دي كوفيلهام في الحبشة	١٤٩٠
	١٤٩١
الملوك الكاثوليك يستولون على غرناطة	١٤٩٢

جدول الأعلام

— أ —

ث

ج

ح

خ

ذ

ر

ز

س

ش

ف

ق

و

ي

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصور

٢٣ ـ فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً
٢٤ ـ الاحصنة في المشرب .
٢٥ ـ اعمال الحقول
٢٦ ـ سوق لنديث .تزويق يزين كتاب الطقوس في سنس (فرنسا ، اواخر القرن الرابع عشر)
٢٧ ـ قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر
٢٨ ـ مدينة ايطالية في القرون الوسطى
٢٩ ـ مدينة كركسون . منظر الاسوار
٣٠ ـ كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)
٣١ ـ ملاك بواسي . نقش على حجر مصدره كنيسة دير بواسي (حوالي ١٣٠٠)
٣٢ ـ فارس شاكي السلاح
٣٣ ـ مباراة عسكرية
٣٤ ـ تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بورج)
٣٥ ـ سفينة (يونان يبتلعه الحوت)
٣٦ ـ تجار وزين .
٣٧ ـ دعوى دوق ألانسون
٣٨ ـ درس لاهوت في السربون
٣٩ ـ مشهد عرس
٤٠ ـ القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر)
٤١ ـ ضريح فيليب بوق وزير العدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر)
٤٢ ـ قصر رؤساء الجمهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر)
٤٣ ـ الباب الضخم لجامعة سلمنكا (اسبانيا) ، اوائل القرن السادس عشر
٤٤ ـ الحمراء في غرناطة (اسبانيا) . بهو الاسود (القرن الرابع عشر)
٤٥ ـ ابو زيد والحارث يزوران مزرعة
٤٦ ـ الامير هماي و الاميرة همايون في حدائق امبراطور الصين
٤٧ ـ القبة والبرج في فلورنسا
٤٨ ـ مطبعة .

فهرست عام

القسم الأول

القسم الثاني

عصور اوروبا الاقطاعية
والاسلام التركي وآسيا المغولية

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

القسم الثالث

الايام العصيبة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

انتهى المجلد الثالث ، ويليه المجلد الرابع
القرنان السادس عشر والسابع عشر

منشورات عويدات ٩٢٠ / ١٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS
publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME III

LE MOYEN AGE

L'EXPANSION DE L'ORIENT ET LA NAISSANCE DE LA CIVILISATION OCCIDENTALE

TROISIÈME ÉDITION

par

Édouard PERROY
Professeur à la Sorbonne

avec la collaboration de

Jeannine AUBOYER — *Conservateur au Musée Guimet*
Claude CAHEN — *Professeur à la Sorbonne*
Georges DUBY — *Professeur à la Faculté des Lettres d'Aix*
Michel MOLLAT — *Professeur à la Sorbonne*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٣

القرون الوسطى

تأليف

إدوار بروي

أستاذ في السوربون

مؤلّف هذا الجزء ، ومعاونوه، يحاولون أن يرسموا ، توازياً، وفي تسلسل زمني مبسط، تاريخ جميع الحضارات التي نمت في القرون الوسطى ، من الأطلنطيك الى الباسيفيك، مروراً بالدائرة القطبية للصحراء الكبرى.

وصولاً الى ذلك، قسموا هذا الجزء ثلاثة:

القسم الأول: تفوّق الحضارة الشرقية بين القرن الخامس والقرن العاشر . وذلك بعد انهيار العالم الروماني والإمبراطوريات الرومانية الشرقية، ومرحلة الجسر بين البدو والحضر في آسيا، ثم فجر الإسلام ووجود أوروبا في عزلة وانزواء، ازاء ازدهار الشرق الأدنى، رغم أزماته ، واخيراً أوج الحضارات الآسيوية بين القرنين السابع والثاني عشر.

القسم الثاني: عصور أوروبا الإقطاعية والإسلام التركي وآسيا المغولية. وذلك عبر تحوّل أوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، إزاء انكفاءات الإسلام وبيزنطية وصراعاتهما، ووضع آسيا المغولية (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر) الى تفتّح أوروبا الإقطاعية بين ١١٥٠و١٣٢٠.

القسم الثالث: الأيام العصيبة، انطلاقاً من وعي أوروبا مصاعبها ومتاعبها المادية وفقدان التوازن السياسي فيها حتى نشأة الدولة العثمانية وما ترتّب عنها من تشكيلات سياسية جديدة في أوروبا.

وهذه المادة الدسمة، في هذا المجلد، تساندها مجموعة من ٤٨ خريطة ورسماً، و٤٨ صورة فوتوغرافية تزيّن النص بوثائق تاريخية، الى جانب ١٨ خريطة وتصميم وجدول زمني مقارن وجدول أعلام وأماكن .

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

القرنان السادس عشر والسابع عشر

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيميه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيميه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنييه
أستاذ في السوربون

و

إرنست لابروس
أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الرابع

التحوّل الفكري العظيم الذي طرأ على البشريّة

طلوع الحركة العلمية الحديثة

سيطرة أوروبا

تاريخ الحضارات العام

القرنان السادس عشر والسابع عشر

تأليف

رولان موسنيه

أستاذ في السوربون

نقله الى العربية .

يوسف أسعد داغر فريد م . داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

مـــدخل

لو قيض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيريوس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألآً ، نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في اواخر القرن الخامس عشر ، لأخذته الحيرة واضطرب لبه لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها مما قام من امثالها . فالمجتمعات الاميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لعمري مجتمعات لم يعرف عنها العالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من اوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجماعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشفي غليلاً ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيما لو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف الواحدة عن الاخرى ، اذا مـــا عرفت ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ما تم من منهجية آسرة ومعلومات موسوعية في الصميم .

فقد تكشفت اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في نواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من عل على اطراف كرتنا الارضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المعرّض للأمطـــار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عـــارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً لذرائع ووسائل عرفتها اوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكدن الحصان في رقبته ، والثور بعـــد ان استعيض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضغطاً متزايداً من جراء نماء الناس وتزايدهم ، بعد ان ارتفع عددهم الى اربعة اضعاف مـــا كانوا عليه في السنة الألف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتماد الدفة المحورية العالقة بمفصلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استعمال الأبرة المغنطيسية بعد ان اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منـــذ اواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفتجة اساساً

والاعتماد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به ايطاليا أول من اخذت وجرت على اعتماده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد الكبرى وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية مما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكلترا والمانيا الجنوبية والمانيا الرينانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفتجة وارتكز عليها . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وئيداً في إيطاليا الشمالية والمانيا الرينانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائع تقنية ، المنافخ المائية في الافران الصناعية ، وذراع الداقمة في مقبض المحرك الآلي والتوصل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بناء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر المحيطات هي الكرافيل ، والتحويل ، اكثر فاكثر ، على الاسطرلاب ، المعروف الاستعمال من قبل ، وعلى ربع محيط الدائرة والعمليات الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهاجرة للوصول الى تحديد نقطة المرض ، وغير ذلك من التحسينات الآلية التي ادخلت تباعاً على المحراث والتقنية التي اعتمد عليها اكثر فاكثر في تصنيع الريف والصناعة اليدوية.

وقد تفرد الاوروبيون دون سواهم بالقدرة على عبور المحيطات واجتيازها في اواخر القرن الخامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقٍ وتصادم وتفاعل وانفعال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا. وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان أطاح بالمدنيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية على الحضارات الافريقية ، وعاد بالرفاه والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يقظة ووعياً كما ادى ، من جهة اخرى ، الى بعث النشاط في الحضارات الآسيوية ، اقله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا اصبح في الوسع ان نتكلم ، عن « العوالم » التي اقامها الانسان وعن هذه المجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، « عوالم » اعجز من ان تستوعب العالم ، « عالم » البحر المتوسط ، و « عالم » الصين . فمنذ الآن ، ومع انه لا يزال يوجد فى العالم ، مناطق منعزلة كجزر المحيط الهادي والمناطق القطبية ، والاصقاع الواقعة في قلب افريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جعل من المحيط الاطلسي محوراً له فضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عبر المحيط الهادي ، ارخبيل الفيلبين ، ليبلغ مشارف اليابان والصين وماليزيا ، ثم قام العالم البرتغالي الذي اتخذ محوراً له افريقيا والهند ، وتحكم بمداخل بحر الهند ومخارجه ، وسيطر على جزر الافاويه والطيب . وهكذا اصبح في مقدورنا ان نعتبر العالم الارضي ، واقعاً إنسانياً متميزاً ، وان

تاريخ اوروبا وتاريخ الكرة الارضيـــة كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب اوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقـــع الحادث الفصل في تاريخ الاجيال الطالعة ، الا وهو نشأة العلم الحديث ، علم اوروبا بالذات ، عند ماتم لغاليليو ، عام ١٦٠٤ ، اكتشاف قاموس الجاذبية ، اول قانون الحركة ، باب العلم الحديث ومحرابه ، كما وضع ، في الوقت ذاته ، اسس الفيزياء الرياضي ومبـــادءه الاساسية . وبذلك اثبت ان افلاطون كان على حق عندما راح يؤكد ، بعكس ارسطو ، ان الواقع المتحيز في الزمان والمكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وان تحت الظواهر الحسيه يكمن نظام خفي يخضع للفكر الرياضي ، وان كل شيء يتكشّف عن معادلات هندسية وعن حركات في غائية الانضباط والدقة ، وان كل شيء هو موضوع قابل للقياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها الى ما لا حد له . ان هذا التحول يطرأ على الذهن البشري ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطعيـــة من فيزياء المناقبيـــة الى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية الى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، الى الدقـــة والتام ، كل هذا ومـــا اليه يكوّن في تاريخ الانسانية ، حدثاً له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي او يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن امام اعظم تحول فكري عرفته الانسانية عبر تاريخها المديد . فكل شيء تغير واصبح غير ما هو ، فيما بعد . فمن هـــذا التحول خرج مروراً بمؤسسي الميكانيكا وروادها الكبار امثال : ديـكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الانوار كأوغست كونت وداروين وكارل ماركس وكوري وانشتاين العالم الحديث ، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد ان تهيأت اسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منـــذ عهد بعيد بعد ان ارتدت مظاهر شتى ومرت بمراحل عديدة . فآثار هـــذه الذهنية الكمية والاهتمام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، ان نضفي على المادة ، ماليس من صفاتها ولا من خصائصها ، والرفض باعتباره واقعياً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما اليه مما نصت عليه مخلفات القرن السادس عشر الفكرية فكان اساساً لهذ الجدل العنيف الذي أثارته هـــذه الاهاجي البروتستانتية التي قذفوا بها العقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السيد المسيح تحت اعراض الخبز والخمر بعد استحالتهما ، هذه الاهاجي التي هيأت ومهدت السبيل امام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجذور ابعد من ذلك بكثير . هل يجوز ان نرد التحول الفكري الى هـــذا الازدهار الذي عرفته التقنية التي تفترض ، لتعمل ذهناً ايجابيـــاً وعقلانياً خاضعاً لمبدأ السببية الذاتية ، هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتماد المالي والسفتجة ، هذا النظام الذي كان يفترض دوماً العد والحساب وتحويل كل شيء الى معـــادلات حسابية ، باستثناء تلك الذرائع التقنية التي تتعلق بالبناء والصناعة مما لا بد منه لتأمين نجاح اعمالهـا على اساس من الاعمال الحسابية والهندسية ؟ ايه لعمري ، الى حد ما ، أقله كعامل إثارة واغراء الفضول العقلي . وها هو غاليليو نفسه يدعونا الى ذلك ، في مباحثه التي ظهرت عـام ١٦٣٨ ،

اذ نراه يؤكد لنا بانه 'دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعد الذي طالعه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الرافعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه الخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسمية والرجحان الوقتي الذي حققه الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع وليم او كهام عندما استقر في خلدهم ان المعاني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهيم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر . وهذا انما يعني ان المفاهيم العامة إنما هي اسماء او مسميات لا اكثر ولا أقل . فمعلوماتنا ، والحالة هذه ، انما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق الفهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار . ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة باريس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للابحاث التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفة حاسمة من عطفاته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بعصر جديد وحياة جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتنمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطيعة او تباعداً من قبل رجل او بضعة رجال ، لهذه الاعراف التي سار عليها الناس او لعادات ومراسم اعتمدوها او اعتمدها مجتمع قائم بذاته ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمعها . صحيح ان الانسان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسع عشر . فهو لايزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط القبلية والمهنية والمجتمعية . ولكن ما عسى ان تكون هذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسان ، في الهند ، مثلاً ، في هذا النظام الطبقي الذي أرزح المجتمع ، أو في الصين حيث يرى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يرزح تحت ضاغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المعيقة بازاء استحالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخانقة والمراسم الضيقة مما رسمه الجدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينعم بها اهل هذا العصر ؟ فاذا ما توفرت للبعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد او التأمل ، لحتم عليهم الانصهار مع المطلق والإعراض عن العالم الخارجي ومغرياته هذا العالم ذي المظاهر الخداعة الزائلة . وعلى عكس ذلك فالفردية الاوروبية ازدادت رسوخاً تحت تأثير عامل المسيحية . فالثنائية، هذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصميم الفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

السمو والكمال الكامل ، خليقته التي برأ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في غبطة موصولة بمشاهدة كمالات الله . فهي روح الفازت بالفردية يتوجب خلاصها وتفادي ذهابها الى جهنم والدخول بها الى الفردوس ، حيث تنعم ، وجهاً لوجه بمشاهدة الله . فالمسيح بذل دمه وقاسى عذاب الصليب فداء لجميع البشر ولسان حاله يردد : « هذه النقطة من دمي بذلتها وجدتُ بها لاجلك ». فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ، وهي صراع مستمر بينه وبين أركون الظلام . فالحقبة القائمة تنضح بالدين والتقوى ، وفيها بلغت مراسم الإبتهال الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع لمشيئته ، والاتصال به ، تمامها الاكمل وكمالها الأتم ، مع العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مثل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصهروا فيها بعد ان تطهروا من ادران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبعثت من العلماء الروحانيين ، اصحاب « التقية الحديثة » في القرن الرابع عشر امثال : رويزبروك وطولر ، واخوة الحياة المشاركة والكهنة القانونين في وندشايم ، جاءت تماماً ، وفاقاً لمراسم العبادة التي قال بها وعلم فريق من أولياء الله ، أمثال القديس اغناطيوس ده لوايولا والقديسة تريزيا دافيلا والقديس يوحنا ده لاصكروا والقديس فرنسيس السالزي وبابيرول *Bérule* والرهبان السلبوسيين والمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر. ففي مثل هذا المحيط من الزُهاد الهجع والمتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد الهادف الى نجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبلر وديكارت . كبلر هذا الذي خيل اليه يوماً انه توصل بنعمة الله الى الكشف عن مقاصد الله في خلقه والاسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نواميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه ان يرسي الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ، ويخزي ، الى الابد ، الكفار والملاحدة والمعطلين . وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع، كالفارس المجاهد في حملة صليبية ، المناضل في سبيل ربه مرضاة لوجهه الكريم ، فاسكو ده غاما وفرناند كوريس . فقبل ان يقلع فاسكو بحراً في رحلة طويلة ، نراه يقضي ليله الطويل ضارعاً الى الله ، متوسلاً اليه في كنيسة السيدة ، في بلدة بيت لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتهلاً اليه تسديد خطاه . وكنتيجة للاعتقاد باله قيوم ، متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من العدم ، وعلى ضوء علاقة النفس بربها وقد اناطت به كل املها ، والفارس المسيحي بسيده ، ومحاولة الفرد يهفو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة او الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هذه الامور وما اليها ، نماذج واضحة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ، والتطور .

هكذا تولت اوروبا مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحية وتمدين العالم وايلاءه طابعاً اوروبياً . فجاءت النتائج على غير استواء. فاذا ما ضربنا صفحاً عن القارة السوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود ،محدودة الاثر واستعملوها كمعين لم لا ينضب لمدهم بما يحتاجون اليه من الارقاء لاستثماراتهم الطائلة في اميركا ، فقد حققوا بعض النجاح في هذه المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولاً وحكومات نأت عن الحضارة الاوروبية لتكون بمنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم، مع ذلك ، لتقبس منها ما ترغب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الاوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبائل يتعاطى اقوامها جني الاثمار ويحترفون الصيد والقنص والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فتّ في عضد تلك السيادات المحلية . اما في آسيا وافريقيا حيث وجد الاوروبيون حضارات تعود للعصر الحديدي ، تختلف كلياً عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الاسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلاً ، عرفت نظُم الملكية واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف عما تم لأوروبا منه ، او كانت على مستوى حضاري لم تشعر معه بتفوق الاوروبيين الظاهر، فقد جاء انتشار المسيحية فيها وتغلغل الحضارة الاوروبية بين ارجائها ، سطحياً. فلم تُدخل هذه الحضارات تغيراً جذرياً على اوضاعها القائمة. فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشعر على الخصوص ، بوطأة الطبيعة المرزحة ، ويئن من جشع بعض المجتمعات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يهمها الا المطلق ، وتستنكف بازدراء وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حد لمظاهر غرّارة متغيرة دوماً ، فكان اخذها باسباب التطور والتحول ، دون ما كان عليه في اوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن ان القدرة على التطور والاستعداد للأخذ باسبابه ومسبباته لم تكن لتنقصهم قط : فقد ارتفع بعضهم وسما فريق منهم الى افكار ونظريات ، سجل الوصول اليها تحرراً للفرد كما تم لطبقة السيخ في الهند بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحق المتجلية باعمال البر والتقى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرزحة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالصيني وانغ – يانغ – منغ رأى ان كل انسان عالماً كان ام جاهلاً ، ثرياً كان او فقيراً ، ذكياً او متبلد الذهن ، يملك في ذاته ، وتكتنفه سريرته ، مبدأ الخير والشر ومبدأ التكمل النفسي ، وفيه القدرة على ابداء رأيه في قيمة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وهكذا يجد نفسه في النهاية متحرراً من التقاليد والاعراف العائلية ، ومن تعاليم قدامى الكتاب ووصاياهم ، ومن ضواغط العادات المستبدة ، كذلك هؤلاء اليابانيون من اتباع بوذية "زن" فهم يتوقعون كل شيء من التفكير الشخصي في العالم وفي المجتمع ، بعد ان ينطلقوا من ترهات هذه الدنيا وامورها ليصلوا بانفسهم الى معرفة المطلق ، مدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر ، مهما كانت إفرادية ومحدودة تثبت بوضوح وجلاء بالرغم من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك ثانوية ، هذه الفوارق التي تقوم على العرف والمناخ وحدثان التاريخ ومجرياته ، وحدة الجنس البشري. غير ان آسيا باعراضها الموقت عن المسيحية وضربها كشحاً عن المدنية الغربية وعما يكتنانه في واقعها المتميز من شمول وقيم صالحة ابداً للناس اجمع ، في كل زمان ومكان، تكون قد تخلت لاوروبا عن مهمة قيادة البشرية كما تكون تخلت لها ايضاً ، عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ، وفتحت امامها على مصراعيها ، ابواب السيطرة والسؤدد على العالم ، والتحكم بالتالي ، بمقدراته ومصائره .

القسم الأول

أوروبا الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر

(١٤٩٢ - ١٥٩٨)

المؤسسات الجديدة

الفصل الأول

المباني الفكرية الجديدة

النهضة الكبرى

مشكلة النهضة وعقدتها

تتناول هذه الحقبة، وفقاً لتقليد متعارف مكرور، منذ عهد بعيد، هذه الفترة الزمنية الواقعة بين العقد ١٤٩٠/١٥٠٠ والعقد ١٥٥٠/١٥٦٠ التي بلغت فيها النهضة الفكرية الاوجّ من الازدهار، والذُرْوَة من الانتشار. ولا يتمالك المؤرخ اليوم، عن الشعور بشيء من الوَجل والقلق عندما يدعى للتحدث عن «النهضة». فمنذ خمسة قرون، حمّل المؤرخون هذه اللفظة مدلولاً عنى عالماً من الوقائع وبحراً من الافكار والمذاهب، وقع عليها اختيارهم. ليس لانها فرضت ذاتها عليهم فرضاً، بل لانه كان لهذه الوقائع وما اليها من حدثان وماجريات، ولهذه الافكار والمذاهب حد القدرة على تركيز نظريات فلسفية ارتضاها الناس وعلقت بها خواطرهم. فلا عجب، والحالة هذه، ان يقوم حول مفهوم النهضة عقدة، وان ترتفع بصددها مشكلة لم تلبث ان استحالت الى شيء هو اقرب الى الفوضى.

يتبنى المؤرخون اليوم صورة لعصر النهضة والانبعاث رسم خطوطها الكبرى المؤرخ الفرنسي ميشليه، سنة ١٨٥٥ وبوركهاردت السويسري سنة ١٨٦٩. فقد جعل هذا وذاك عصر النهضة، حقبة من حقب التاريخ البشري لها خصائصها المميزة، انطلقت عند ميشليه الذي كان يضع نصب عينيه تاريخ فرنسا، من عهد الملك فرنسيس الاول، بينما رأى بوركهاردت الذي اتخذ من إيطاليا قاعدة لحكمه ان النهضة امتدت سحابتها، في نظره، من سنة ١٢٥٠ الى ١٥٠٠ تقريباً. وباستثناء هذا الفارق الزمني لم يختلف المؤرخان المذكوران كثيراً في الرأي عندما راحا يحددان الخصائص المميزة لهذا العصر بالذات. فالعصر يختلف في نظرهما، اختلافاً كلياً عن عصور الاجيال الوسطى، اذ كان يحتضن، ولو بصورة كامنة، الخصائص التي تفرد

العالم الحديث وتميزه . ففي نظر بوركهارت الذي بدا أكثر منهجية من زميله الفرنسي ، ان هذا العصر جاء حصيلة للوضع الفكري الذي كان عليه الشعب الايطالي بعد ان استفاق ووعى ذاته» فهو اذاً ، عصر النهضة الذي جاء حصيلة تبدل جذري في الذهنية ومناحي التفكير . فلقد تميزت النهضة بطابع الطغيان ، سمة الدولة اذ ذاك ، هذه الدولة التي قامت، كما تقتضي الشكليات على القوة ، بجلي الفرد وبجلي استعلائه ، وبجلي فردية الانسان ، هذا الفرد الواحد ، ومن ثم استفحال مذهب الفردية التي تقوم على شهوة المجد والتطلع الى العظمة . اما المثالية الجديدة التي أطلت على العصر فتحقيقها موقوف على تحييز هذه المعطيات من الحقائق الوضعية التي تجمعت خلال الاجيال القديمة او التاريخ القديم والتي بواسطتها فقط يستطاع الوصول الى ما هو قائم حقاً الى العالم الخارجي والى الانسان ، هذه المعطيات المفترى عليها والمزدراة من قبل كتاب الاجيال الوسطى ، هذه الاجيال التي غامت بين النصوص والآيات المقدسة ، وبين ألغاز المصطلحات ومعمياتها . ومن هذا العصر أطلت علينا الرغبة في العلم واحترام الشخصية البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل عملها في تكوين المجتمع .

فالذي يرفع من قيمة الانسان ويجعل له شأناً ، ويقيم له وزناً بعد نبوغه وقوة الابداع فيه ، وما يتحلى به من ثقافة وما حققه له من يُسر وغنى : نشاطه الخلاق ، وليس كرم الاصل الموروث وشرف المحتد وامجاد الحروب . فالطبقة المسيطرة نصفها من النبلاء والنصف الثاني من البورجوازية ، كما ان طبقة الاشراف هي التي تتألف من كبار رجال المال والاعمال ، اما هذا النمط من الحياة الذي يحياه هؤلاء الاشراف الذين يحترفون مهنة الحرب والخدمة العسكرية فهو مضغة في الالسن وموضوع ازدراء الجميع . والطبقة المتحكمة التي تملي على الطبقات الدنيا ، الصورة التي ترسمها عن العالم وتلقنها سر اذواقها في الثقافة والفنون واخلاقيتها في التصرف والسلوك المتحرر. اذ ان الفرد هو ولي امره يسن لنفسه ما يلائم مزاجه ويغذي فيه التشككية الدينية ، اذ كثيراً ما يجعل المرء عملياً من نفسه محور العالم ، ويقف ، بوصفه واحداً من هؤلاء الآلهة الصغار ، موقفاً معادياً لرجال الدين ويصبح ملحداً . هذه الذهنية الايطالية لم تلبث ان سيطرت هي نفسها على اوروبا وانتشرت في جميع ارجائها .

يبدو هذا الوصف صحيحاً واقعياً في القسم الاكبر منه باستثناء ما جاء منه خاصاً بالدين . فالامور النظرية هي وحدها موضوع تحفظ وجدل . ولذا راح مؤرخون محدثون يؤكدون اليوم ان عصر الانبعاث هذا لم يكن ليتعارض في الصميم مع الاجيال الوسطى ، اذ ان الخصائص المميزة التي تطبعه هي ، بالفعل ، من بعض مخلفات الاجيال الوسطى بالذات ، وانه اذا كان لا مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الثاني عشر ، في هذا الجزء بالذات الواقع الى ما وراء جبال الألب ، ولاسيما في فرنسا محور الدائرة وقطب الحضارة

الاوروبية . ولكن ، ماذا من الفردية ، ومن هذا الاهتمام البالغ بالروابط التي تنتظم القوة والخيرات المادية وشهوة الغنى والبذخ ؟ كل هذه تغمر اوروبا وتعشعش في كل زاوية منها ، منذ نهاية الحروب الصليبية وحركة الحرية البلدية حتى ان الراهبة هيلويز معشوقة ابيلار الاسبق ، البائسة ، التي تعيش كال الفضيلة الايطالية كما تمثلتها هي ، يمكن اعتبارها من شخصيات عصر النهضة ولو عاشت في القرن الثاني عشر . وماذا من التاريخ القديم اليوناني واللاتيني ؟ ولكن معرفة فرنسا لمكنونات هذا التاريخ ولمقوماته لم تكن لتقل قط عن معرفة ايطاليا لها . فلقد كان لهذا التاريخ ، في فرنسا ، من رفعة الشأن والاكبار ما تم لايطاليا منه في القرن السادس عشر . فالمدارس الفرنسية التي قامت الى جانب كاتدرائيات باريس وريمس ، وشارتر واورليان ، كانت ، في القرن الثاني عشر ، منائر عالية للثقافة العامة ، كما ان مدرسة شارتر كانت المحور الرئيسي للدراسات اللاتينية في اوروبا جمعاء . وممثلو الادب الكلاسيكي من شعراء وخطباء ومؤرخين ، أحيطوا فيها بكل مظاهر الاكبار والتقدير اذ نظر اليهم الناس نظرتهم الى جبابرة الفكر في التاريخ القديم لا بد من دراستهم دراسة تدبر ، لكل من تشرئب نفسه الى الرفعة والتجلي في حياة متجددة مشرقة . فالفرنسيون مطلعون كل الاطلاع ، على الآثار الفكرية/والمخلفات الادبية التي عرفها فيما بعد ، عصر النهضة في ايطاليا . فاعلام الكتاب من فرجيل الى أوفيد ، الى شيشرون ، الى كونتليانوس ، الى سنيكا فبليني القديم ،وغيرهم كثيرون ، هم موضوع عبادة الجميع يحيطونهم بكل اكرام واجلال . فاللاتينية فيها ولا اصفى ولا انقى ، كما سيصبح امرها في ايطاليا ، خلال القرن السادس عشر ، والآداب الشعبية والرومانسية في هذه المنطقة انبثقت كلها عن اللاتينية . فالاهتمام بمحاورات افلاطون ومباحث ارسطو ، على اشده ، وقد ترجمت هذه الآثار من اليونانية الى اللاتينية ترجمة دقيقة ، امينة ، بحيث لم يبق لعلماء النهضة في ايطاليا من مهمة سوى تجديد او تصويب بعض التراكيب فيها . وليس بغريب البتة ان تطالعك ، حتى في مثل هذا الوقت ، بعض الافكار « العصرية » ، كفكرة الطبيعة الخيرة المعطاء والفلسفة الطبيعية التي تؤكد ذاتية الطبيعة والعقل المنفصل . فالكل متمل من الاقتناع بان الطبيعة هي عمل الله على الارض ومجلى ارادته ، جميلة ، عظيمة ، خيرة في ذاتها ، افسدتها الخطيئة الاصلية ، ومع ذلك تبقى اداة للنعمة ومساعدة الخالق وخادمته المطواع في كل ما يؤول الى تجديد العالم . فنعمة الله رفيقة بالطبيعة ، بارة بها ، كما ان الطبيعة هي الاخرى رفيقة ، بارة بالنعمة . ففي الاجيال الوسطى كما نرى ، مذهب فلسفي طبيعي جعل من الطبيعة محور اهتمامه اكثر بكثير مما تصوره بوركهاردت ، وبلغ اليه ظنه .

وبعكس ذلك تماماً هنالك مؤرخون يشددون على كل ما اقتبسته النهضة الايطالية من الاجيال الوسطى وعرفت ان تنقله الينا وتصونه سالماً . ففي الرياضيات نرى الايطاليين ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، يعولون كثيراً على جامعات باريس واكسفورد وتعاليمها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما نراهم مدينين كثيراً لهذا النابغة الباريسي المغام

نيقولا أوريسم الذي تم له ان يكشف ، قبل ديكارت نفسه ، عن اصول الهندسة التحليلية ، كما انه توصل الكشف عن نظرية الاستمرار ونظريات : اللانهاية بالقوة واللانهاية بالفعل ، ونظرية المتسلسلة المتناهية الصغر ، ونظرية الأسس الكبرى والتغاير الوظائفي . وعن باريس صدرت دورة الشمس النهارية ونظرية تعدد العوالم ، وكلها نظريات علمية جرى بحثها والنظر فيها منذ القرن الثالث عشر . وما هو ليناردو ده فنشي ذاته ، يتملى ويتشبع من كتابات ومباحث كبار الفيزيائيين الذين علموا في جامعة باريس ، امثال البرت ده ساكس وتيمون اليهودي ، وجان بوريدان ، بعد ان طبعت هذه الآثار وأعيد طبعها مراراً في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . وعلى هذا قس باقي الامور .

بعد هذا ، ما عسى ان يبقى من صفة التفرد التي يقصرونها على عصر النهضة ويصفونه بها ؟ بالطبع تتبخر وتتطاير هباءً . فعصر النهضة ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التيار الجارف المتمثل في الحضارة الاوروبية ، نبعث من « اجيال الوسطى » المؤرخين ، وبلغت أشدهـا في « عصورهم الحديثة » ، هذا التيار المتدافع باستمرار ، والمتواثب بلا انقطاع . فالمؤرخون امثال بوركهاردت راحوا فريسة الروح الوطنية الايطالية وفلسفتهم العرقية بعد ان ارمدّت عيونهم من تفوق « الغاليين » وسبقهم لهم ، فحزموا امرهم على تجاهـل هذا التفوق وتناسي امره ، وضربوا صفحاً عن كل ما اقتبسوه منهم ، كارهين ان يعترفوا بأي فضل او قيمة ، الا ما لم يكن بد من الاعتراف به ، بعد ان عجزوا عن تجاهله واهمـاله ، ثم راحوا ينسبون لأنفسهم سبق التجلي وحق الصدارة والتقدم . فحركة النهضة عندهم انطلقت من بترارك ، في القرن الرابع عشر ، ومن نقطة الانطلاق هذه إستمد بوركهاردت الاسس الأولى لنظريته ، نظرية النهضة الشعبية الايطالية . فقد إزدرى بترارك الباريسيين . بل كل الفرنسيين ، ونظر اليهم نظره الى برابرة ، اجلاف. فالمتمدن في نظره، هو من تكلم الايطالية باصفى صيغها وانقى قوالبها ، وهو من تجمل باللاتينية مصدر القيم وينبوع الفضائل كلها . ولكن هذه اللاتينية او بالاحرى الحضارة اللاتينية توارت من العالم وزالت عام ٥٢٤ مع بوييتيوس ، وهو التاريخ الذي انتهى فيه العـالم اللاتيني وبرز فيه عالم البرابرة. فالفرنسيون ، سلالة الغاليين وحفدتهم لن يستطيعوا، يوماً امتلاك اللاتينية وتجويدها . فالايطاليون وحدهم هم الذين يجري في عروقهم الدم اللاتيني، وهم وحدهم يستطيعون بعث اللاتينية من جديد ، مرضعة العلوم والفنون والآداب . فقسمة تاريخ البشرية الى ثلاثة ادوار ، اوسطها لغشاء الظلمات والبربرية ، ثم إنبعاث اسامه الاداب الايطالية ، ثم الاجيال القديمة ، فالتفوق الايطالي في مجـالات الفكر هو العنصر الجلي. هـذه هي لعمري ، العناصر المقومة الثلاثة لفكرة النهضة . هذا هو التقدم الذي فرض فرضـاً على اوروبا وعلى المؤرخين الذين ذهبوا فريسة اسطورة من هذا العيار الضخم .

العالم الجديد

لما كنا نتناول بالبحث عهداً تداخل قسم منه ، على زعم بعض المؤرخين ، في عصر النهضة ، كان لا بـد لنا من ان نشير ولو بإيجاز ، الى اهم النظريات

التاريخية حول هذه النقطة مما لا يزال يحتج به دون ان نتعرض بالتفصيل لهذا الجدل . والذي يهمنا هنا هو ان نعرف ما إذا كان جد من جديد في مطلع القرن السادس عشر .

نلاحظ ، بادىء ذي بدء ، ان فكرة النهضة بالذات تراود ، بحق او بباطل، وسواء اكان لها ما يسوغها ام لا ، كل الخواطر والضمائر اذ ذاك . ولعل اول من اطلق هذه اللفظة تعبيراً عن قيام مثل هذا الوضع الحضاري الذي يختلف كلياً عن وضع الاجيال الوسطى ، هو على ما نعتقد الناقـــد الفني جورج فاساري ، في كتابه : « سير مشاهير المهندسين والرسامين والنقاشين الايطاليين منذ سيابوالى يومنا هذا» في طبعته الاولى التي صدرت في مدينة فلورنسا،عام ١٥٥٠، وللمؤلف من العمر اذ ذاك ، ٣٩ سنة . وقد لخص لنا في مجال حديـــثه عن الفنون خواطر بترارك بهذا الشأن ولا سيما ما جاء منها بالادوار الثلاثة التي مرت تباعاً على الانسانية ، ويصور لنا جلياً ان إعراض الاذواق عن الفنون وضعف اهتمام الناس بها مرتبط الى حد بعيد ، بعوامل شتى ، تتصل في الصميم ، بالقوانين والشرائع المدنية المعمول بها ، والاعراف الاجتماعية المتحكمة بالاذواق ،وما للاخلاق عند الناس من قيم ، والمستوى الحضاري المتحيز على الاجيال ، فراح على هذا الاساس يقسم عصر النهضة الى ثلاثة اقسام وهو تقسيم لا يزال مرعي الجانب تتناقله كتب النصوص ، وهي : من منتصف القرن الثالث عشر الى اواخر القرن الرابع عشر حيث اخـــذ الفنانون ينهجون نهج جيوتو ويسيرون على منواله ويستنكفون بالتالي ، من الاساليب الغوطية والبيزنطية ويحاربونها ، ويتناول الثاني القسم الاكبر من سحابة القرن الخامس عشر حيث اخذ عدد الفنانين يكبر ويتضخم بعد ان اخذوا يتقيدون ، اكثر فاكثر ، بالواقعية ، وان على شيء من الجفاف والفجاجة في الاسلوب الفني . واخيراً هذه الفترة التي وضعت فيها صورة « العذراء على الصخور » ، من سنة ١٤٨٣ الى سنة ١٥٥٠ ، اي الى مطلع العصر الحديث في مقدمة القسم الثالث ، اي عصر الكمال والتمام . وهكذا رسم فاساري صورة موجزة لهـــذه التيارات الفكرية التي طلعت مع بترارك وترعرعت معه وبعده ، والتي عاشها فاساري نفسه وشب بينها الا وهي افكار اليقظة والبعث والتجـــدد والانتقال من الظلمة الى النور ، وهي افكار دخلت الآداب والفنون والعلوم وتغلغلت عميقاً بين رجال السيف والقلم ، فكرة الانبعاث او النهضة .

من ايطاليا إنتقلت هذه الفكرة الى اوروبا على السنة واقلام اعلام الفكر والثقافة امثال العالم الهولاندي ايراسموس والالماني روشلين ، باعث الدراسات العبرية في المعاهد الاوروبيـة . اما الفرنسيون فيكفي ، تنويهاً بالشعور الذي ساورهم ، ان نردد هنـــا ، انشودة غرغنتويا الجبار الحماسية ، عندما يكتب ، كما يقول رابليه (١٥٣٢) الى ابنه بنتغرويل قائلاً : «مرت حداثتي في عصر غشاه الظلام وفاحت منه رياح البؤس واختلج بالكبائر التي اتاها القوط الذين لم يتورعوا عن دك معالم اطرف واطيب وامثل ماخلفته الآداب والفنون ، ولكن الله في تحننـــه ورحمته اعاد الكرامة والنور الى الاداب ، في عهدي . والآن بعد ان عاد الاعتبار الى العلوم ،

والفات حلت محلها اللائق من التقدير كاليونانية التي لا يمكن للمرء ان يعتبر عالماً بدونها ، والعبرية والكلدانية واللاتينية . وتجلى ذلك كله في هذه الطبعات المؤنقة التي رفلت فيها المؤلفات والآثار الفكرية التي رأت النور بوحي إلهي » .

كذلك لا يمكن ان نتجاهل واقعاً تاريخياً له اهميته وهو اعتقاد رجال العصر بأنهم يعيشون بالفعل نهضة جديدة . فان لم يكن ثمة ما يبرر تماماً مثل هذا الاعتقاد ويزكيه فمجرد شعور المرء انه انسان من نوع آخر وانه سليل مدنية تقع في مرحلة زمنية دعيت بالاجيال الوسطى (وهي تسمية اطلقها اول من اطلقها ابناء هذه النهضة ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر رغم استعمالها في القرن السادس عشر) ، ادى ولا شك ، الى سلسلة من الاعمال وتسبب في ظهور اساليب من التصرف والسلوك والتفكير ، وساعد في ظهور نمط من التفكير وعقلية جديدة تختلف تماماً عما تم من مثل هذا للعهد الماضي المقيت . الا ان هذا الشعور له ما يبرره ولو بصورة جزئية . فبين العقد ١٤٨٠ / ١٤٩٠ والعقد ١٥٣٠/١٥٤٠ ، طلعت علينا تغييرات جذرية ، واطلت نظم ومؤسسات لم يقم مثلها من قبل ، كما يتضح ذلك جلياً من الامثلة الثلاثة التي نوردها لك . منها تحقيق المثالية الافلاطونية الحديثة وتحييزها في روما ، سنة ١٦٠٠ ، في صوغ انسان مثالي ، تشاهد على رسم قسماته كل من ميكالو انجلو ورفائيل وكستيغليوني وبرامنت ، فبرز في خطوطه الجديدة نصف اله ؛ بما تم له من نظر ثاقب يلتقط بلمحة عين أرجاء الفضاء والاشكال في صور وصيغ فرضت نفسها على الحضارة الاوروبية مدة استطالت ثلاثمائة سنة ؛ من ذلك ايضاً كشف كون جديد على يد كوبرنيكوس ، عام ١٥٠٦ ، وهي السنة التي انجز فيها وضع كتابه الفصل المعنون : « حول دوران الافلاك السماوية » ، وخلالها طرح في التداول كتيباً بعنوان : « تعليقات » بسط فيه بايجاز الخطوط الكبرى للنظرية الجديدة التي قال بها وعلم ، والتي لم يبلغ البلاط البابوي خبرها الا في عام ١٥٣٢ ؛ واخيراً وليس آخر ، هذه الاكتشافات الجغرافية التي تمت عام ١٤٩٢ فحطمت حدود العالم المتوسطي ونقلتها بعيداً لتجعل منها حدوداً لكوكبنا الارضي ، وهي كشوف تمت على يد مردة مغامرين امثال كولمبوس وفاسكو ده غاما ، وألبوكرك ، وكورتيس ، فرسموا بذلك مسبقاً اول صورة للاقتصاد العالمي ولتساقط المعادن الثمينة والسلع التجارية على اوروبا . فان سمّوا هذه الحركة نهضة او انبعاثاً او شيئاً آخر ، فالامر عندنا سيان ، ويبقى بعد هذا شيء واحد هو انه تم في بضعة عقود من السنين تحييز لعالم جديد وتركيز له .

الانسان والكون حسب الافلاطونية الحديثة

بعد ان وضع ميكالو انجلو اثره الخالد : « الأم الحزينة *Piela* في روما بعد ان استغرق انجازه من سنة ١٤٧٩ الى ١٥٠١ ، ووضع برامنت تحفته : المعبد الصغير *Tempiello* بعد

ان قضى في عمله سنتين من ١٥٠٠ - ١٥٠٢، تحقق الحيز الامثل واطل عالم الاشكال والصيغ وظهرت الصورة المثالية فتم بذلك حلم الافلاطونية الحديثة ، الذي رآه مارسل فتشينو هـذا الراهب الفلورنتي ،رئيس كهنة كاندرائية فلورنسا، واحد اصدقاء لورنتيوس العظيم الاوفياء - روح اكاديمية كاريجي الفلورنتيـة وراحها - هـذا الراهب الذي عاد يجتر من جديد ويفكر عميقاً، فكرة او سطية عاشها طويلاً وطالما راودته، تهدف الى التجديد المسيحي وبعث المسيحية لتعود الى نقائها الاول فتهتم ، مـن قريب بدخيلة النفس وذلك في سبيل إصـلاح الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه : وقد خيل اليه وهو الفيلسوف انه أنيطت به رسالة الهية ، الا وهي تحقيق هذا الانبعاث الديني وذلك عن طريق احياء الافكار التي قالت بها الافلاطونية الحديثة بحيث تتم عملية مزج او افراغ الفكرة الدينية : الوثنية والمسيحية في قالب واحد فيتم لقـاء زرادشت وهرمس وتريسمجيست ، وفيثاغوراس مع الديانات الاخرى ذات الاسرار ، مـن أفلوطين الى اوريجـانس ، الى لكتانسيوس ، الى اوصابيوس ، الى اوغسطينيوس ، الى توما الاكويني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثله افلاطون ، والخروج من ذلك كله بدورة او معلمة تغري الناس اجمع ، بشكل لا يُدفع ، على اعتناق المسيحية .

فقد بدا فتشينيو ، وهو الذي تتلمذ على افلاطون وتخرج في مدرسته متوهمـاً ان الله خالق الكائنـات هو الذي اوحي ، منذ الارل بالافكار فتأتي قوالب مثالية وصيغاً في غايـة الكمال والاتقان والجمال ، بعد ان رتب الله هذه الافكار والصور والاشياء وناسب بينهـا في نظام آسر يأخذ بمجامع القلب والعقل ، فنسّق بينهـا على احسن ما يكون التنسيق والتبويب والتسلسل فتكتسب الخلائق معه قيمة فنية في غاية التسامي . « فالكون اجمع ، في جزئياته وكلياته ، ينطلق في لحـن من التناغي والإيقاع كاللحن المنطلـق من اوتار القيثارة الشاكية ترتقص في لمس ناعم كمر النسيم ، بالرغم مما يطرق السمع احياناً من نشوز او شذوذ . فالخليقـة جاءت على شاكلة الكائن حيث لا نوافـل ، وفاقاً لعمل فني كل ما فيه يتناغى جمـالاً مع توافق الهدف النهائي ... وهكذا فكل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسمات الكون وجمالاته بحيث لا يستطيع الانسان ان يطرح بعيداً او يزيد عليه اي شيء » .

وهكذا يبدو لنا الله اسمى الفنانين واكملهم طراً ، بل هو الفنان الاوحـد . « فالعالم ، بما له من فائدة وبما فيه من نظام بديع وحسن انتظام ، وبما يبدو عليه من حلية وجمال ، يشهـد عالياً لهذا الفنـان الالهي الذي ابدعـه وبرأه . ففيه الدليـل القاطع على ان الله هو مهندس الكون الاكبر . فعمله صورة عنه . « فالخالق قدر وعرف واستطاع ان يجعل عمله يشبهـه الى اقصى حد . والله نفسه يملأ هذا العالم الذي ابدع لانه دائرة روحية ،قلبها في كل مكان ولا محيط لها البتة » فالكون كله ينطبق بمجد الله ويشهد له عالياً في ما تم له من نظام دائري وبما فيه من موحيات ومُلشهيات . فهو يتغلغل في هذا الكون باعتباره قوته المحركة فيفيض عليه الحركـة

والحياة كالبنيان الهندسي بالنسبة للشكل العام، وكينبوع الخير اللامتناهي الذي يغمر الكائنات والاشياء وكمركز للجمال : صورة الخير وبلورته ، يشع على الكائنات والاشياء ويملؤها وسامة وملاحة كالشمس تملأ البلور بانوارها .

وهذا الانسان القلق الذي لا يرى في المخلوقات كلها ما يُشبع نهمه ويشفي غليله ، لا يجد سعادته الاكملَ المثلى الا في ذات الله مجتمع الكمالات والفضائل . وباستطاعة هذا الانسان ان يبلغ الى الله بذرائع ثلاث لا رابع لها . بالعقل اولاً ، هذا العقل الذي يريه ما تمثله الكائنات والاشياء من افكار ، وما في عوالم الافكار من فِكَر الله ومقاصده ، وفي مقدور الله اذا ما شاء ان يجود عليه برؤيته بمشاهدته، بنفحة واحدة من انواره البهية وبمعزل عن كل فكر وعن المخلوقات اجمع . واذ ذاك فقط ، تتحد النفس بذات الله لتنصهر فيه وتصبح الها ، فتستحيل بالتالي : غبطة وسعادة ، فتشعر وهي في حالة انخطاف روحي بلذة هي الغبطة الابدية . ويستطيع الانسان ، من جهة اخرى ، ان يتقرب من الله بالمحبة . ان جمال الكائنات هو تجلي للجمال الالهي . فكل حب او تعلق بالجمال يفيض على المحب جمالاً، اذا ما ادركنا جيداً وايقنا ان ما نحبه في المحبوب هو ، بالفعل ، الجمال المطلق ، الشامل ، اي الله . « فالنفس البشرية تضطرم بالنور الالهي والسناء الالهي ، فتتلألأ صورته تلألؤ المرآة بالكائن الجميل ، فيجتذبه الله اليه بطريقة سرية كما يجتذب الشص السمكة العالقة بحيث يصبح الهاً ، يستطيع الانسان ، بعد هذه كله ان يزداد شبهاً بالله اولا ، ثم ينسكب في ذات الله اذا ما اراد الله ان يكرمه بهذه النعمة . وذلك عن طريق الخلق . فالانسان ، كالله نفسه ، فنان شامل ... « فقد أوتي هذه الانسان ادراك ما في السماوات من نظام وما في العوالم من حركات ، وما هي عليه هذه العوالم من مراتب وما بينها من أبعاد وتفاعل وتجاذب . فمن يستطيع والحالة هذه ، ان يُنكر ان للانسان من القدرة ما يشبه الخالق ، وان في مكنته ان يبسط السماوات وينشر العوالم اذا ما تمت له مستلزمات البسط والنشر والمادة الفلكية اللازمة ؟ » . فالانسان هو « إله » هو رب الكائنات المادية ، يجري فيها ، كيفما يشاء ، تبديلا وتحويلا وتغييراً » . ففي الحين الذي يجري فيها تحويلاً عن طريق خلق الاثر الفني وابداعه بالصورة التي ارادها ، ملتقياً بذلك مع التصميم الالهي في الصميم ، مشاركاً في تحقيق هذا التصميم وتحبيزه ، يدخل ، اذ ذاك ، اكثر فاكثر في فكرة الله ويتحد بالله اكثر فاكثر . فالمعرفة العلمية والفلسفية تتحقق بالخلق الفني . فالمهندس والرسام والحفار والشاعر، يجدون انفسهم عندما ينزل عليهم الوحي والالهام وكأنهم على اتصال سري مع الله . فالله يعبر عن ذاته بواسطتهم وهؤلاء الناس الالهيون هم رسل الله وموفدوه . فالفن ولا سيما الشعر هو الطريق الحق للمعرفة والاكتناه ، وهو اسمى واعلى من اي فن آخر . فما الفنون الا حالات خاصة وصور من الصلاة والتنبؤ والاتحاد الرمزي بالله .

روما والافلاطونية الحديثة

في عهد لورنتيوس العظيم ، اعطى فتشينو اهم آثاره الفكرية ، مع ان الكتب الاخرى التي صدرت له فيما بعد تتفق تماماً مع ترتيبنا

الزمني (١) . فقد تخلت عنه فلورنسا وخانته في نقطة حساسة ، اذ عجز الفنانون الفلورنسيون عن ان يعبروا، بانجازاتهم الفنية ، عن تعاليم الفيلسوف ونظرياته وان يتمثلوها . ويتبين من رسائله العديدة انه كان على اتصال واسع مع الكثيرين من رواد النهضة في روما والبندقية والمانيا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وهنغاريا . فالحديقة التي اقامها في كاريجي كانت ملتقى الادباء الانسانيين ، يفدون اليها من جميع انحاء اوروبا . فروما عاصمة المسيحية شهدت وحدها تحقيق فكرته ، بعد ان كان توارى هو عن هذا العالم ، وذلك في اشكال وصيغ اصبحت ، لاجيال عديدة ، موضوع الهام للكثيرين في جميع انحاء اوروبا .

فبعد موت لورنتيوس العظيم ، عام ١٤٩٢ ، والثورة التي اندلعت نيرانها في فلورنسا ، بعد ذلك بسنتين ، اي في عام ١٤٩٤ ، وقيام الحكم الثيوقراطي على يد سافوناورلا ، والجمهورية الفلورنسية ، فيما بعد ، وعلى اثر قدوم عدد غفير من رجال الفن نزحوا من فلورنسا الى روما ، اصبحت هذه ، المركز الاول للافكار والنظريات الافلاطونية الحديثة التي تشبع بها الفنانون والادباء وشاعت بين الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة الذين وجدوا في تلاقي مشاربهم وتوافق ميولهم مع مثالية البابوات ، وسيلة لتحقيق الاحلام التي راودت خواطرهم . فمنذ عهد البابا نيقولا الخامس، على الاقل ، في منتصف القرن الخامس عشر، والبابوات يحلمون بتشييد الكنائس والمعابد والقصور الفخمة وغير ذلك من الانجازات الفنيه الجميلة ، في روما ، ليجعلوا منها بحق خليقة بنائب السيد المسيح وخليفته على الارض ، لا تنقص شيئاً مما كانت عليه في عهد القياصرة بحيث يستشعر المسيحيون في روما ، والحجاج الذين يفدون اليها من جميع اطراف الارض ، العظمة والضخامة والقوة والغنى المتمثلة بهذه المباني فيحمدوا الله على هذا كله وعلى ما تم لروما من عظمة وفخامة وابهة ، وهكذا تصبح روما انشودة تحدث عالياً بمجد السيد المسيح ، كما انها ستذيع عالياً ، بوصفها عاصمة البابا الملك ، ما للبابوات من شأن عظيم . فقد صرح البابا سكستوس الرابع ، في رقيم له صدر عام ١٤٧٢ قائلاً : « اذا كان ثمة من مدينة في العالم تشع نظافة ، وجمالاً ، فيجب ان تكون بالطبع ، المدينة المعروفة بكونها عاصمة العالم ، ولها شرف احتواء كرسي بطرس الرسول ، مما يجعلها ولا شك ، في الصف الاول بين مدن الارض » . وعندما راح البابا جول الثاني يبرر تشييد كنيسة القديس بطرس خاطب الكرادلة بقوله : « كما ان الطوباوي بطرس هو هامة الرسل والمتقدم بينهم ، وجب ان تبز الكنيسة التي تحمل اسمه ، كنائس روما والعالم اجمع . وبما ان الخراب يتهددها اذ انها تتداعى للسقوط ، كان من المترتب علينا توسيعها باعادة بنائها لنسلمها الى الخلف عروساً تدلّ بجمالها على جميع كنائس الارض » .

---

(١) منها : الرسائل (١٤٩٥) - شروح افلاطون وتعليقات عليه (١٤٥٦) ؛ قضى نحبه في ١٤٩٩/١٠/١ قبل ان يفرغ من تفسير لرسالة بولس الرسول الى اهل رومة .

فقد كان تحت تصرف البابوات موارد ماليــة طائلة : كالضرائب التي كان الكرسي الرسولي يفرضها ويجبيها بكل دقة ؛ واحتكارات الملح والشب المستخرج من مناجم 'طلفا ' ، هذا الشب الذي لم يكن لاوروبا قط غنى عنه لاستعماله قاصراً في صبغ الانسجة ودباغة الجلود ؛ وما تدره الرسوم المجباة في اوروبا جمعاء « كرسوم روحية » ؛ وبيع وظائف الدولة ومناصبها الرئيسية وتجاح القروض الداخلية . والى جانب الموارد الطائلة الخاصة بالبابوات لتغطية تكاليف الابنية والانشاءات الفنية التي يوصون عليها ، يجب ان نشير هنا ، الى الثروات الاسطورية والموارد الواسعة الموضوعة تحت تصرف الكرادلة اذ كانوا يقيمون لهم بطانات واسعة الى جانب البلاط البابوي ؛ والموارد التي ينعم بها اشراف الرومان ونبلاؤهم ، واصحــــاب المصارف الكبرى الموجودة في روما . وقد كانت الافكار والاقتراحات المقدمة او المقترحة ابعد من ان تأتلف واحلام البابوات ، هذه الاحلام التي لم تتحقق الا في مطلع القرن السادس عشر ، عندمــــا قام فنانون تشبعوا بافكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتها يحاولون تمييزها بانشاء مبان وعمائر جاءت على نسبة المباني الرومانية القديمة عظمة وفخامة ، تمييزاً منهم لاذواق يبرهـــا بهرج القوة والعظمة ، هذه المباني التي اخذت تنتشر في انحاء المدينـــة ، في نهاية بابوية اسكندر السادس بورجيـــا (١٤٩٢ – ١٥٠٣) ولاسيا حبرية البابا جول الثاني (١٥٠٣ – ١٥١٣) وليون العاشر ، البابا الفلورنتيني الاصل والمديتشي المحتد (١٥١٣ – ١٥٢١) .

فبدلاً من ان نتلهى بوصف امور مجردة وفي عد ما لا حد له من المباني والفنـــانين الذين اشرفوا على تصميمها او انجازها ، رأينا من الانسب ان نقــوم بنظرة تحليلية لبعض هـــذه الانجازات الفنية وامثلها .

المباني الحديثة

ثلاثة من بين هؤلاء الفنانين اللامعين هم : برامنت وميكالو انجلو ورفائيل عملوا في روما لحساب البابا جول الثاني وتوصلوا ، بعد ان كشفوا عن خرائب روما الامبريالية ، الى تحديد شكل ونوع المباني والانشاءات الهندسية التي تعبر أتم تعبير عن مُثل الافلاطونية الحديثة التي يمكن ان تفوز برضى البابا المخيف .

كنيسة القديس بطرس في روما

عندما رغب البابا جول الثاني عـــام ١٥٠٥ في ان يستبدل كنيـــة القديس بطرس القديمة التي يعـــود بناؤها الى عهد قسطنطين بكنيسة جديدة تتوفر فيها عناصر العظمة والفخامة ، رضي كل الرضى عن التصاميم الهندسية التي وضعها برامنت وعهد اليه بتحقيقها وتنفيذها . جاء برامنت روما متأخراً ، عام ١٤٩٩ ، وله من العمر اذ ذاك ، ٥٥ سنة تتقدمه شهرة واسعة كمهندس معماري ممتـــاز ، إثر الانجازات الهندسية العظيمة التي حققها في فلورنسا . فبعد ان وقع ، في رومـــا ، تحت تأثير الجمال الروماني الافلاطوني الحديث ، وبعد ان تحول تحولاً كلياً عن النهج الميلاني الذي وجهه

وحذا حذوه وانتهج نهجاً فنياً جديداً . تولى تشييد مبنى المعبد الصغير *Tempietto* . فقد رغب برامنت ان يشيد على اسم القديس بطرس وشرفه المبنى الذي سبق لمارسل فتشينو ان رسم تصميمه وفقاً لنظرية الافلاطونية الحديثة ، إعلاء منه لمجد إله المسيحيين . فقد وضع ، اول ما وضع تصميماً لبناء ضخم مساحته ٢٥٢٠٠ متر مربع بدلاً من ١٤٥٠٠ متر مربع السمت لها كنيسة القديس بطرس القائمة اذ ذاك . وحرص على ان يوحي كل شيء في المبنى الجديد ، العلاقة القائمة بين الله ومخلوقاته ، مبنى لا يمكن الاستغناء قط عن اي جزء منه الا ويشعر المرء بفراغه ونقصه ، كما لا يمكن اضافة اي شيء اليه الا وتمتعض العين لهذه الزيادة . ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويعود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد شكلاً هندسياً عاماً للمبنى شكل الصليب اليوناني . فيرى الناظر ، من الخارج صليباً ضخماً يذهب عالياً في الجو يرمز الى اتحاد الهيكل مع الالوهية . وترتفع تحت هذا الصليب قبة ضخمة ترتفع فوق ركائز من الاعمدة ترمز الى الكنيسة . وفي الاسفل ، تنبسط اذرعة الصليب الاربعة المتناسقة ، في طرف كل منها قباب صغيرة نسبياً مع انها كبيرة تنتصب فوق اعمدة قائمة امام صحن الكنيسة تجاه الخورُص تماماً .

وكما ان المسيحي يتدرج من الخلائق الى ربه محمولاً على اجنحة الجمال ليصل الى الافكار التي تفضي به الى الالوهية ، هكذا يمر الزائر بهذه السطور من الاعمدة ضمن الكنيسة الرامزة الى المخلوقات ليبلغ في مسيرته الى النور الشفاف الهابط من القباب الصغرى . وهذا النور الخافت من شأنه ان يحمل النفس على الخشوع بعد ان تكون انثنت على ذاتها واعتكفت لتنعم بمشاهدة الافكار . والمسيحي الذي يبلغ قبر هامة الرسل بعد ان يكون اجتاز الاعمدة التي ترتفع عليها القبة الكبرى ، في غمرة النور التي تغشاه وخشعة النفس ، يسير قدماً نحو عالم زاد نقاء ليبلغ النور السماوي الذي يجلبب الافكار وبعد ان يصل على مقربة من القبر الذي يفيض نوراً تبرز له القبة الجبارة التي ترتفع فوق رأسه رامزة الى الحضور الالهي والاتحاد بالالوهية .

وُضع هذا التصميم الفخم ، تعبيراً عن الوحدة في أقدس معانيها . كل شيء ارتبط بالفكرة الرئيسية وفاقاً لنظرية الافلاطونية الحديثة ، هذه النظرية التي ستتحكم ، بعد قليل ، بالفن الكلاسيكي . فقد جاء هذا التصميم معبراً عن مشاعر المعاصرين واحاسيسهم فراحوا يتحدثون عنه باعجاب تجاوز كل حد ، كما راح الشعراء الذين يتغنون به ويعتبرونه اعجوبة الدنيا التاسعة . وقد ارسى البابا الحجر الاساسي نهار الاحد الجديد ، وهو الاحد الأول بعد عيد الفصح ، الواقع في ١٨ نيسان ١٥٠٦ ، ولما مات كان العمل انتهى من نصب الاعمدة القائمة اليوم في كنيسة القديس بطرس ، والتي ترتكز عليها القبة والعقود التي تحملها . وقد اضطروا فيما بعد للتخلي عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقد هندسة الكنيسة كثيراً من عناصر الفخامة .

غرفة التوقيعات

كان البابا جول الثاني تخلى عن السكنى في الجناح المعروف بجناح بورجيا ليقيم في جناح آخر من اجنحة الفاتيكان يقع في عدد من الغرف والصالات اشتهر فيما بعد باسم « *stanze* » ، وراح منذ تشرين الاول ١٥٠٨ عدد من الرسامين يعمل في تحلية هذه الشقة وتزيينها . غير ان رفائيل لم يلبث ان اصبح الاول بين هذا الفريق فاختص بهذا العمل وبزركشة هذه الغرف التي رغب البابا جول الثاني ان يجعل منهـا بالفعل « مرآة » عقائدية . فقد حرص رفائيل على ان يجعل من غرفة التوقيعات معبداً ينطق عالياً بالافلاطونية الحديثة ، فرسم على الجدران اربعة رسوم ضخمة تمور بالماجريات والوقائع اليومية ، تبدو بينها من خلال غلالة ، الافكار الافلاطونية التي قصد الفنان التعبير عنها الا وهي : العفة والفلسفة والبرناس وخناقة القربان الأقدس . ويأخذ الانسان بالانتقال تدريجياً من هذه الجسمات المادية ليبلغ الافكار فتطالعك ، قبل كل شيء العقود القائمة فوق كل صورة من هذه الصور . ولدى كل غلق من أغلاق هذه العقود يطالعك طفل صغير على ظهره جناحان في كل واحد منها رمز يتألف من وعاء وحمامة وكرة ، اذ ان كل طفل هـو عنصر من هذه العناصر الاربعة التي يتكون منها العالم . فالماء فوق مدرسة اثينا ، والنار فوق خناقة القربان الأقدس ، والهواء فوق البرناس ، والارض فوق الفقه . وهكذا عن طريق رد العالم الى عناصره الاربعة المكونة ، نأخذ بالارتقاء نحو الافكار . الا انه بالامكان ان نرتفع ونعلو اكثر فأكثر ، عن طريق المشاهد المرسومة في وسط الدوائر القائمة في زوايا العقود . فكل مشهد من هذه المشاهد يحيلنا الى صورة العقد الذي يليه ، وهي تتويج ابولو ، واقتصاص مرسياس من الشعر ، والخطيئة الاولى للاهوت ، وقضاء سليمان الحكيم للعدل ، وعلم الفلك يربط الفلسفة بالنجوم . وهكذا في كل عقد تطالعنا الحركة الدائرية حركة الكون الازلية ، احد الاسس التي قامت عليها نظريات فتشينو ، واخيراً نبلغ الافكار المجردة في عليين التي يُرمَز اليها في العقد بالشعر فوق البرناس ، والفلسفة فوق مدرسة اثينا ، والعدل فوق الفقه واللاهوت فوق خناقة القربان الاقدس . ويُرمز الى آلهة الشعر وفقاً لافكار فتشينو كما يلي : باكاليل الغار واجنحة قوية وحولها منطقة مزركشة بالنجوم وقد التمعت عيناها حماسة وحيوية . وعلى مقربة منهن جميعاً طفلان بجنحان يحملان إطاراً كتبت عليه كلمتان مستعارتان من فرجيل [١] هما : « *Numine afflatur* » اي نفحة الهيه تحركه . فالالوهية يجري اعلانها على لسان الشاعر ، ولذا نرى صورة الشعر في العقد ، تعدل كل العلوم النقلية : العدالة وهي معرفة الحق والنَّصَفَة ، الفلسفة وهي معرفة الطبيعة واللاهوت وهو معرفة العالم الالهي . وهكذا نرى ان كل الاجزاء المقومة لهذه الصورة هي من وحي الافلاطونية الحديثة وفيها الضمانة بايصال المسيحي ، في هذا العالم ، الى الافكار ، والافكار توصل الى الله .

١ الانياد ، الكتاب السادس .

ولكي ييسر للمتفرس في الصورة الوصول الى الفكرة المعلن عنها ضمناً ، ادخل رفائيل ، بضربة معلم ، فراغاً جديداً لا يلبث ان يصبح ، فيما بعد ، الفضاء المفضل في القرون الثلاثة التالية ، وهو المعروف بفضاء القرون الثلاثة في التاريخ « الحديث » ، أو فضاء المؤرخين الفرنسيين . صحيح ان الفلورنسيين اكتشفوا ، منذ عهد بعيد ، رسم المناظر وعرفوا ان يستفيدوا منه في هذه الالواح التي رسموها خطوطاً متتابعة بحيث تتجه جميعها الى نقطة تقع تماماً في الوسط بحيث تبدو اللوحة ، في مجملها ، كتلة هندسية . الا انهم لم يتوفقوا الى الكشف عن احسن طريقة للانتفاع ، على الوجه الاكمل ، من الشكل المنظوري . فقد فاتهم استخدامه لابراز الموضوع الاساسي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص ثانويين او على تفاصيل لا طائل تحتها . وعلى عكس ذلك تماماً ، فقد كشف رفائيل عن خير طريقة للانتفاع من رسم المناظر والحجم الهندسي ، بعد ان عرف كيف يوزع ، بفن واصول ، الاشكال التي اختارها على الرسم الذي تلتقي فيه نقطة الانسراب مع الفكرة الاساسية التي يجب ابرازها .

فلننظر ملياً هنا في رسم خناقة القربان الاقدس ، وهو رسم معروف ومشهور لكثرة ما اخذ عنه من نسخ . نجد في الاعلى الكنيسة الظافرة ، وفي الاسفل الكنيسة المجاهدة ، ويفصل بين الاثنتين فراغ كبير يمثل السماء . ففي القسم العلوي يبرز الله الاب ، ثم يأتي بعده السيد المسيح ، وعلى يمينه العذراء مريم ومن اليسار يوحنا المعمداني ، ومن هنا وهناك من كلا الجانبين المختارون او المصطفون بشكل سحابة نصف دائرية ، يتخللها رؤوس ملائكة تفصل بين العالم المنظور والعالم غير المنظور . وعند قدمي السيد المسيح نرى روح القدس بالشكل التقليدي المعروف ، اي بهيئة حمامة تشع منها اشعة من ذهب ، رمز النعمة . وهي اشعة تمتد الى الاسفل ، نحو الافخارستيا . وفي الاسفل ، يبرز من السماء للعيان ، شعاع القربان الاقدس وقد وُضع على هيكل بسيط للغاية ، بينما نجد من كلا جانبي الهيكل ، الكنيسة المجاهدة اي : البابوات والكرادلة والاحبار والاساقفة والشعراء ورجال الفن والعلماء . وهكذا نرى انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة الله التي تجمع او توحد ما بين الارض والسماء ، في ما يحاكي بناء مثالياً ظاهراً على الارض ، لا يرى في السماء ، وان كان قائماً فيها بالفعل .

في هذه الصورة الجدرانية ، كل شيء يتوقف على الاشعاع النوراني المنبثق من القربان الاقدس القائم على الهيكل والذي يبرز للعيان بواسطة تلاقي الابصار . ففي الاسفل تظهر خطوط التبليط ، ودرجات الهيكل وطبقات الكنيسة الجاهدة بينما تظهر ، في العلو ، السحابة نصف الدائرية والاشعة الذهبية المنطلقة من الروح القدس . والى هذا كله يطالعك ، في هذه الصورة الجدارية ، الجبارة شعاع القربان الاقدس الذي اشير اليه بنقطة تكاد العين لا تلتقطها ، ومع ذلك فالانظار تتجه اليه ، الى هذا القربان الاقدس الذي يضفي على اللوحة كلها ، كل ما فيها

من معنى ومدلول . فالفراغ ، والحالة هذه ، يساعد ليس فقط على تحريك الفهم واثارة القوة اللاحظة ، بل ان رسم الابعاد يمتزج بالمرموز اليه ، وينشأ من ذلك كله رمزية تشير رأساً الى العالم الروحاني ، وهكذا يصبح الفراغ عنصراً من العناصر المساعدة كثيراً على الفهم .

ومن جهة اخرى ، في هذا الفضاء وتحت تأثير الحرص في التركيز على ما هو اساسي ، يجب ان تتوفر الواحدة عن طريق التعرية والاطراح جانباً كل ما لا يؤول الى الفهم او لا يترك بعده أثراً ، اي كل هذه التفاصيل وكل هذه المستملحات والطرائف والنكات الغريبة عن الموضوع ، مهما كانت طريفة مغرية ، والتي من شأنها ان تشتت الانتباه ، وهي هذه الامور نفسها التي وجدت فيها نهضة فلورنسا الفنية مسرتها . اما هنا فكل شيء يتجه الى سر القربان الاقدس المنعكس على الفرد الذي تختلف حركاته وسكناته عن حركات وسكنات الآخرين والتي لم تعد تُعبر الا عن ردة الفعل التي يحدثها الاقنوم الثاني من اقانيم الثالوث الاقدس في كل من هذه الشخصيات ، وهو تأثير وحيد مُوحد في الصميم .

أطلّ فراغ جديد كما أطل ايضاً نموذج جديد للانسانية يختلف اختلافاً بيّناً عن هذه الاجسام النحيلة والاعضاء الدقيقة والمرافق البارزة عظامها ، والحركات الطارئة الضيقة ، والمشية الخفيفة الحركة النطناطة ، والاشكال الفنية التي اثارتها النهضة الفلورنتية ، بحيث لا يستطيع المرء ان يتمالك عن التساؤل ما اذا كان جنس بشري زال وتوارى عن الوجود لجنس آخر جديد . وسر ذلك هو ان الافلاطونية الحديثة عادت من جهة الى فكرة المسيحية للانسان هذا الانسان الذي هو خير ما صنع الله وبرأ ، كما حاولت ، من جهة اخرى ، ان تبرز ظهور الانسان الجديد ، هذا النموذج الامثل الذي جاء جميع الافراد على شاكلته ومثاله ، هذا الانسان الذي يمثل ، في ذاته الجمال الامثل والاكمل . هذا الانسان ابن الله ، والذي تجسد الله فيه ، لا يمكن الا ويكون عظيماً قديراً ، جليلاً ، وقوراً . ولهذا نرى السيد المسيح ، في لوحة رفائيل ، وقد تعرّى جسمه الى نصفه وبرزت يداه وجنبه بأوضح ما يكون ، يبدو جسم رجل رياضي جميل ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة . وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المختارين وسواعدهم ومناكبهمْ ، قوية عامرة ، ملآنة . اما وقفتهم ، فتنمّ عن الهدوء والسكينة ، بعيدة عن كل اصطناع ، ليس فيها اي توتر او تشنج ، وقد ارتسمت على وجوههم وقسماتهم امارات النبل والرضى .

وهذه الرغبة في التركيز عن طريق التجريد والتعرية ، والاستفادة الى اقصى حد ، من الفراغ لتحقيق غرض واحد وهدف واحد الا وهو التكثيف عن طريق التشديد على بعض الخطوط الاساسية ، سنصادفها في هذا التعارض المنهجي الذي نراه قائماً بين الانجازات الفنية للنهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولكن أ اين التركيز ، اين الحياة الداخلية بواسطة التجربة؟

لنضرب مثلاً على ذلك ، هذا الحفر البارز في صورة لأنطونيو روسّلينو ، ولنعارضه برسم آخر لميكالو انجلو يختلف عنه اختلافاً كلياً ، هو صورة العذراء مع الطفل . نرى ان روسلينو يبرز في إطاره ، عالماً آخر وطبيعة اخرى وشعباً آخر . نرى عند حاشية النقش صفاً من الرؤوس يحيط بها أجنحة مرفرفة وفي الصف الاول العذراء مريم جاثية تضرع الى يسوع الطفل المتمدد امامها . ويأتي وراء العذراء مريم القديس يوسف غارقاً في التفكير ويده تعبث بلحيته ، ووراء القديس يوسف يأتي الاسطبل وفيه الثور والحمار . والى يمين العذراء مريم والطفل ، خط يقسم الصورة قسمين متميزين : رعاة قادمون يحملون الهدايا ، وقليلاً الى فوق بعض الاشجار ، ثم اعلى قليلاً ، السماء وما فيها من غيوم . اما في لوحة انجلو ، فلا نجد تقريباً شيئاً من هذا كله ، بل العذراء مريم جالسة وعلى ركبتيها كتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متكيء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، ثم الى الوراء ، خلف كتف العذراء من على اليمين تقع العين على صورة غير واضحة . هذا هو المنظر كله .

في رسم روسلينو كل شيء صغير . فنه تراكم اشياء صغيرة . فالعذراء التي تبرز ، الى الامام لا تشغل اكثر من خمس اللوحة . اما الطفل يسوع ، فصغير . فالعين في حيرة من لواحظها تتجاذبها أرضية الصورة والمنظر . اما عند ميكالو انجلو فالعذراء مريم تحتل ثلاثة ارباع اللوحة حتى ان هندام شعرها يطفطف على الحاشية ، فلا تقع عين الرائي الا على العذراء وبالكاد تقع العين على الطفل . اما الشخص الثالث ، الشبح ، فيجب ان نحملق جيداً لنلحظه . فالنظر يتجه بشكل لا يقاوم ، الى العذراء التي اصبحت ، بلا مراء ، محور الصورة ومركز الثقل فيها .

ففي لوحة روسلينو كل شيء رُسِمَ بالتفصيل وعلى قياس صغير ، فبدا نحيفاً ، دقيقاً ، منمنماً ، فتبدو اصابع اليد واضحة الواحد جنب الآخر وقد صفف الشعر ، خصلة خصلة ، واللباس على اتمه ، لا ينقصه زر ولا شريط . هنا الحياة اليومية بكل تفاصيلها ، الحياة العائلية : فالطفل يسوع يضع سبابته على فمه .

اما عند ميكالو انجلو ، فالأشياء تتم وتوضع جملة . فبدا العذراء بدتا كتلة تكاد لا تتميز عن المادة ، ورداؤها بغاية البساطة تثني والتف ، وشعرها رتب على مألوف العادة : في الوسط فرّق الشعر قسمين على جانبي الوجه ، والطفل يسوع يبدو وكأنه قطعة واحدة ، على انحناء خفيف لطيف ، ملامحه الرئيسية بارزة ، توحي وتلهم .

عند روسلينو ، كل ما في لوحته الحركة : فاجنحة رؤوس الملائكة ترفرف ، والرعيان في سيرهم جادون ، والقديس يوسف يلعب بلحيته وقد بدا على وجهه التفكير وحواجبه مقطبة والثور والحمار يميلان برأسيهما متناولين علفهما ، ومنخارا العذراء يختلجان وقد ارتسم على شفتيها

بسمة الرضى والتسليم بينما ترتفع يداها . اما الطفل يسوع فتكاد الاذن تلتقط تغريـده بينما هو يمتص طرف إصبعه محركاً رجليه الصغيرتين . اما في لوحة ميكالو انجلو فالحياة تبدو وكأنها واقفة . فالاشخاص يكادون لا يتنفسون، والعذراء جالسة بوقار عيناها مسمرتان في البعيد كأنها تحاول قراءة المستقبل المخيف واكتناه سره ، والطفل يسوع يتناول شيئاً وهو يتكىء الى امه . فالمنظر يبدو وكأنه يتحدى الزمن ، وكأن ميكالو انجلو يهتم ليس بما يجري بـل بما هو باق ، مستقر الى الابد . فهو يضفي الخلود على اللمحة الهاربة .

هذا التجريد ، هذا التركيز على بعض نقاط اساسية لفتاً للانتباه وإمعاناً في التشديد ، نجده في كل مكان. فهو في صورة ميلاد يوحنا المعمدان بريشة غيرلانداخو حيث نرى الوصيفة تدخل وعلى رأسها أضمومة من الزهر . قارن هذه اللوحة بلوحة اخرى بريشة رفائيل ، في صورة الساقية او حاملة الماء . فغيرلانداخو لا يهمل شيئاً ، مهما كان طفيفاً، عندما يرسم لنا ذراع الوصيفة اما رفائيل ، فماذا تراه يعمل ؟ فهو يشدد كثيراً على العضل الدالي والعضل ذي الرأسين بحيث يتكوز الكتف ويتكوز الساعد ملتفاً فيرسمه بشطحة ريشة ويضفي على هذا الذراع: قوة باع ، وشدة ساعد ، اين منه فن غيرلانداخو .

وهذا الفراغ الجديد ، فراغ المفهومية ، اين هو ؟ لنقارن في هـذا ، المجال ، بين صورة العذراء مع الملائكة والقديسين الستة ، بريشة بوتيتشلي ، وصورة العذراء مع القديسين الثانية بريشة أندريا دل سارتو. يفهم بوتيتشلي ، حق الفهم ما لرسم المناظر من قيمة وشأن. ومع ذلك فهو يضع جميع شخوصه على خطين . ففي الصف الاول ، نرى على سطر واحد ، ثلاثة قديسين الى اليمين وثلاثـة غيرهم الى اليسار ، بينما تقع العين ، في وسط الصف الثاني على العذراء مريم والطفل على شيء ما يشبه المسطبة يحيط بها ملاكان يملق احدهما ستائر بينما يقدم الثـاني الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينهما . أما لوحة اندريا دل سارتو ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فهي تنفسح على الابعاد وتوغل في التعميق ، فالفراغ ينفرج وينبسط : يطالعك قبل كل شيء درج وفي الأسفل ملاكا ينظران الى العلاء حيث تطالعك شرفة عليها ، من كل جـانب ، ثلاثة قديسين ، اولها راكع والاخران واقفان ليس على صراط واحد بل الواحد خلف الآخر . والى الوراء، تجد على قاعدة ، العذراء مريم والطفل يسوع على ركبتيها . فكل خطوط اللوحة تتجه من العذراء وابنها .

ففي لوحة بوتيتشلي ، يبدو الشخص وكأنـه مسمر ويقوم باشارات وحركات تبقى في نطاق السطح المتوازي لنظر المشاهد . اما عند اندريا دل سارتو ، فالاشارات والحركات تجري في اعماق الفراغ . وسواء أكان القديسون في موقف المتحدث أو الكاتب ، فحركاتهم تقـع دوماً على خط المشاهد ، بالنسبة للعذراء ؟

وهكذا ، فالفراغ عند بوتيتشلي يبقى لا شأن له ، بينا هو ، عند اندريا دل سارتو ، ليس

مجرد مجال يقع فيه المشهد فحسب ، بل ان الجمال ينطق عالياً ويصرخ كيف اننا بواسطة القديسين ، صورة السيد المسيح ومثاله ، نصل الى العذراء مريم طاقة السيد المسيح النقية وبشفاعتها الى السيد المسيح .

وهذا النموذج الجديد للانسان ، هذا البطل ، ماذا من امره ؟ لنتمل النظر ملياً ، قبل كل شيء ، في صورة « معمودية السيد » بريشة فيروكيو *Verrochio* . فالمسيح فيها يبدو على شاكلة شاب نحيل الجسم ، نحيف البنية ، نتأت عظام وجهه ونفرت عضلات جيده كالحبال ، وبرزت تُرقوته محدثة تجويفاً في الجلد . اما ساعداه فأكثر نحولاً مما هو عليه جسمه ، وقد جفت عضلاتهما ، فظهرت تحت أديم الجلد عُقد ، والمرفقان نفرت عظامهما واحدودبت أطرافهما ، وانجرد قفاه وجفت ساقاه ، وقد تغضن وجهه وبرزت اخاديده وهو مع ذلك يشع رقة وخشعة ، عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد انحنى وانثنى قليلاً ، الى الامام ، لتلقي العماد ، يداه مضمومتان الى بعض . اما يوحنا المعمدان ، فيظهر شاحب اللون ليبادر بهيكله العظمي الى سكب الماء على رأس السيد المسيح ، متمماً بذلك ، الرسالة التي أعد لها وعهد الله بها اليه .

فلننظر الآن ، كيف ان الحفار اندريا سنسوفينو عالج الموضوع ذاته ولكن باسلوب فني آخر . فليس في المسيح ولا في يوحنا المعمدان شيء بعد من مظاهر قنوت الزهاد المتعبين ولا شيء من هذه الحركة العصبية التي تدفعهما للعمل بشيء من القلق تنفيذاً لرغبة الله تعالى . فللمسيح في هذه اللوحة جسم رياضي جميل ، مفتول العضلات ، مستدير الاكتاف ملآن ، مرن الحركات ، تكاد خطوط الجسم وتقاطيعه تستبين للرائي على نعومة ورقة . واعضاؤه مشبعة ، ملآنة تأخذ في الضمور عند الاطراف . كل ذلك وفاقاً للجمال المثالي في الرجل . وعلى هذا قس ايضاً طمأنينة النفس . فالوجه بيضاوي الشكل ، قسماته في غاية الاستواء ، ينم عن هدوء كامل ، والمسيح ، في طمأنينة هادئة ، ينتظر دونما تسرع او عصبية ، بانحناء قليل الى الامام ، في وقفة تشف عن ملاحة وقسامة وانسجام . ويوحنا المعمدان نفسه يبدو على نحول وضمور جسم اكثر مما هو عليه السيد المسيح . ومع ذلك فله جسم رياضي ، ملآن مشبع هادىء ، يسكب الماء رئيداً بينما هو في اللوحة الاخرى لوحة فيروكيو كأنه يسترق السانحة الهاربة . هنالك يهوديان تبدو عليهما امارات القلق والاضطراب بعد الذي خبراه من خشونة الجيش الروماني وفظاظته ، يفيضان رجاء بالمسيح المنتظر . اما سنسوفينو ، فيرسم لنا صورة شخصين مثاليين تنزها عن المادة ، اذ ان ما يرمي الى ابرازه هو هذه العملية المتجددة الى الابد ، التي لها قيمة ذاتية دائمة ، اذ ان عماد السيد المسيح له قيمة خالدة خلود الدهر ، لتعم جميع المسيحيين الذين سيتتابعون على هذه الفانية ، حتى انقضاء العالم .

بعد هذا ، هل من موجب لمعارضة لوحة ميلاد يوحنا المعمدان من بريشة غيرلانداخيو ،

بلوحة ميلاد العذراء مريم بريشة اندريا دل سارتو . فالنساء في لوحة غيرلامداخو تبـدين خفيفات الحركة ، يسرن وكأنهن يرقصـن ، يقمن بحركات متاججة . لباسهن مشدود قصير ، لهن جيد نحيف نحيل ، ونهودهن صغيرة واعضاؤهن نحيلة ، بينما تبدو النساء ، لدى اندريا دل سارتو ، سيدات تمشين الهوينا ، متزنة الخطى ، غير مباليـات ، حركاتهـن مطمئنـة ينثنـين بلطف ورقة . اما ارديتهن فكثيرة الشبـه بالتوغا الروماني ، وقد تثنت تحت معاطف فضفاضة ، وفساتين تكنس الارض باذيالها المطفطفة ، فتوحي قدودهن القوة والضخامـة . اما رقابهن ، فقصيرة ، قوية ، وبرزت نهودهن ، كما انفتلت منهن السواعد القوية وبرزت جحورهن . فليس من الصعب على القارىء بعد هذا ، ان يجد امثلة اخرى يرجع اليها .

رجل البلاط

رجل البلاط هو هذ النموذج الاتم ، الأمثل الذي يرغب ابن العصر في تحقيقه وتحييزه ، على خير ما يبدو من قوة الجسم واستدارة في الاعضاء وامتلاء ، عندما يبلغ المرء ذروة النضج والرجولة ، الى شيء من الكبر والعظمة ، على اعتدال في التعبير عن المشاعر والاحاسيس ، ورباطة الجـأش والرواء وضبط النفس ، على شيء من « الوقار المطمئن » ، باقل قدر من الحركات ، على نبل في الحركة والرصانـة ، وانسجام في الاوضـاع والمواقف ، ونفس نقية ، متطهرة ، سيدة ذاتها . كل هذه المناقبية والاوصاف تطالعـك اينما سرت وانما اتجهت ، ولن تلبث ان تصبح الصفـات المثلى التي يجب ان تتوفر لابن العصر ، وهي هذه الاوصاف التي يلهج بذكرها ويحنو على جمعها واستكمالها في النفس ، الانسان المثقف ، المتمدين ، ورجل البلاط . ويضع رفائيل امامنا وتحت انظارنا رجلاً من هذا الطراز وعلى هذه الشاكلة في اللوحة الجميلة التي رسمها للكونت بلطازار كستغليوني احد نبلاء دوقيـة أوربـين (*Urbin*) الذي تشبع بالافلاطونية الحديثة ، والذي كثيراً ما اختـلف الى البلاط البابوي اثناء تردده على روما ، بين ١٥١٥ ـ ١٥١٨ ، وهي الفترة التي وضع خلالها كتابه المعروف بكتاب «رجل البلاط» هذا الكتاب الذي صدر مطبوعاً بعد ذلك بكثير ، اي عام ١٥٢٣ فقد ربطتـه برفائيل صداقة متينة ، بعد ان تشبع هذا الاخير هو ايضاً ، بتعاليم الافلاطونية الحديثـة التي قال بها صديقه وخدينه ، فوضع له ، عام ١٥١٦ ، لوحة فنية . فهو يرينـاه ما كان عليـه من ظرف وكياسة واناقة ، هذه الصفات التي تحتم على كل افلاطوني حديث ، ان يتحلى بهـا ، انما اناقة معتدلة على وقار . تشهد لصاحبها بالاتزان والاعتدال وقهر النفس . ثيابه غامقة اللون . رداؤه اطلس الملمس وسرواله مخرجة بالابيض النقي ، وعلى رأسه قبعة خاصة هي شعار النبلاء وكبار الحكام . ويشدد رفائيل على الافلاطوني الحديث المثالي وهو الذي تمت له الثقـافة الانسانية بمصاحبة كبار الكتاب وملازمتهم ، ويثق الثقة كلها بالطبيعة البشرية ، الطيبـة الخيرة في الصميم ، اذ انها من صنع يد الله وتدبيره وعمله ، حر في الاساس لانه صورة الله ، هذا الرجل المثالي الذي اشتهر بدقة الظرف وعُرف بالكياسة ولين العريكـة وحسن التصرف مع الغير ، وتوفرت فيه : الطيبة وحب الخير ، وصنع الجميل ومكارم الاخلاق واخـيراً التقى .

ولهذا حرص رفائيل الحرص كله فأضفى على لوحة كستغليوني نواظر تطفح بالذكاء والفهم وسرعة الخاطر كأنها بذلك تعكس نوراً علوياً .

كان رفائيل يعبر بريشة الفنان عن الأوصاف التي رسمها وأتى على تبيانها «رجل البلاط». والكتاب المذكور هو سلسلة من الحوار والاحاديث تجاذب اطرافها فريق من الاصحاب على شاكلة افلاطون علماً، اجتمعوا في بلاط دوقية أوربين، وتحت رئاسة الدوقة نفسها واشرافها. يصف لنا كستغليوني في كتابه هذا، المعارف والآداب التي يجب ان يتحلى بها رجل البلاط، كالآداب اللاتينية واليونانية، قبل كل شيء، اذ يترتب عليه ان يكون حسن الاطلاع، كثير الالمام بآثار الشعراء والخطباء والمؤرخين، يحسن الكتابة والتعبير جيداً عن مكنونات النفس ومرائرها، شعراً ونثراً، ملماً باصول الموسيقي، يجيد الانشاء والترتيل واستعمال آلات الطرب على الوانها، والرسم وكل صنوف الرياضة ولا سيما الفروسية؛ وان يقوم بذلك كله على احسن وجه. ويمضي كستغليوني في تعداد ووصف ما يجب ان يتحلى به رجل البلاط من صفات خلقية: عليه بضبط النفس ورباطة الجأش وان يتئد في مشيته فيسير متزن الخطى، تنم قسمات وجهه عن الرضى والطمأنينة، لا يظهر على محياه شيء من امارات الانفعال والتأثر يتفادى كل ما يشتم منه الغلظة والفظاظة والكلام القذع والالفاظ النابية التي تحمر النساء لاستماعها خجلاً، وان يتحلى بالظرف ولين الجانب والاستعداد الدائم لخدمة الغير، ويحسن استعمال النكتة الفكهة ويروي الحكايات التي تدخل البهجة على النفس دون ان يتعدى حدود الحشمة. وينتقل بنا، بعد هذا الى تبيان المناقب والصفات الحميدة التي يجب ان تتم لسيدة البلاط وما يجب ان تكون عليه من وقفة هادئة، محتشمة، والاتزان في حركاتها وسكناتها، والايناس واللطف، واخيراً استعداد طبيعي للدعة والرقة تبدو معه على مستوى واحد من الفطنة والخفر والحشمة والكياسة والرصانة. طبيعي جداً ان تكون متضلعة من الآداب، تجيد الموسيقى والرسم، وتحسن الرقص والمحاصرة وتتحدث بايناس. كل هذا ليس سوى إعداد او المدخل للكتاب. امّا لب الكتاب وسره، فيأتي في الاخير، في الخطاب الذي يضعه على لسان الانساني بيترو بمبو *P. Bembo* كاتم سر البابا الخامس الذي اصبح، فيما بعد، كردينالاً: فكل ما يفعله رجل البلاط والسيدة المثلى ليس سوى تطهير وتنقية وسلوك وفقاً للافلاطونية الحديثة، لبلوغ الله والوصول اليه. فلرجل البلاط وسيدته المتكاملة الصفات ان يفعلا كل ما من شأنه ان يقع موقعاً حسناً في اعين الآخرين وان يتحابا اذ ان الحب ليس سوى الرغبة الشديدة للاستمتاع بالجمال الذي يتألف من نسبة مقدورة من تناغي العلاقات وانسجامها وفقاً لطبيعة الأشياء. وعلى المتحابين ان يعرفا كيف يتجنب الواحد الاغضاء بالآخر وان يتبينا ما في شخص المحبوب من الجمال، اي من هذا الشعاع الالهي المصفى، ليهيم بالجمال المجرد الشامل الذي يقود الانسان الى هذا الجمال الملائكي والالهي، الى محبة الله.

فالانسان اذاً هو كائن الهي، بطل تنتظره كل الامجاد.

فرجل البلاط هذا ، البطل المجد ، يهوى في الادب وفي الفنون ، العنصر الجمالي كما تفهمه الافلاطونية الحديثة . وقد جاء في الكتاب الذي وضعه عبو ، عام ١٥١٣ ، بعنوان : « حول الاقتداء » ما يلي : « وكما يوجد في ذات الله ، شكل الهي للعدل والاعتدال وغير ذلك من الفضائل ، يوجد ايضاً شكل الهي للنموذج الكامل ، نموذج من الكمال المطلق» فعلينا ان نحاول الاقتراب ، ما استطعنا ، من هذه الصورة المثلى والاكمل للجمال . ولذا كان علينا ان نقتدي بشيشرون الذي حقق على الوجه الاكمل النموذج المنهجي ، بجلى الله وشماعه .

قصر فارنيز ومصلى تشيجي

يبدو رجل البلاط ، هذا البطل المتسربل بالمجد في الصورة التي تمثلها القدامى للعالم ، اشبه ما يكون بالملهم للصورة التي رسمتها المسيحية له ،وهما في الاساس واحد . فآلهة التاريخ القديم هم « الأبالسة » الذين يضبطون حركة الكواكب في افلاكها ويشرفون بذلك على مقدرات الناس ومصائرهم . ان اخذ الناس بالنجامة وتعويلهم عليها في معرفة طوالعهم ، عبر عنه رفائيل ، لمن كان في آن واحد ، من أخص زبائنه ومن اوفى اوفياء اصدقائه ، الصراف اوغستينو تشيجي ، الذي اخذ على نطاق واسع ،بنظريات الافلاطونية الحديثة وتحمس لها . نرى اول ما نرى ، في قصر تشيجي او قصر فارنيز ، في هذه الصالة البديعة المشهورة بصالة غلاطية ، احدى الحوريات المشهورة في الميثولوجيا اليونانية بمغامراتها العاطفية الصاخبة .فسقف القبة تغشاه رسوم بديعة لمعظم الآلهة تحت اسماء الكواكب السيارة : المريخ ، والزهرة والمشتري ، السخ . فالمواقع التي لهم في القبة الزرقاء ، تتوافق وتتلاءم مع جدول يشير الى مواقع هذه الكواكب السيارة وابراجها بتاريخ اول كانون الأول ١٤٦٠ وهو اليوم الذي رأى فيه اوغستينو تشيجي بالذات النور،وتفتحت فيه عيناه على الحياة فجاءت بنيته ومزاجه وصحابة حياته وفقــاً للطوالع التي تعطيها مواقــع هذه الكواكب والابراج في الفلك ، من فأل ومصير . وما كان تشيجي يفتح عينيه كل صباح حتى يقرأ في سقف القبة الموقع الذي كان لعطارد في اليوم الذي ولد فيه ، في الدور الأول من برج القوس مما يعني تاجراً مرحاً موفقاً ، بينما كانت الزهرة في مثل هذا اليوم ، في الدور الأول من برج الدلو ممـا يرمز الى تاجر واقعي يفهم الامور التجارية ويقدرها . ونرى في هــذا السقف دوائر (*Tondi*) ترسم فيها حوريات الهواء كما نرى اخرى ترسم حوريات الماء . واذ ذلك ، تظهر غلاطية واقفة في مركبها يجرها دلفيلان جميلان تحيط بها آلهة البحر وقد جاشت فيهم الشهوة فراحوا يتخاطفون حوريات ملؤها السحر والفتنة .أما غلاطية النقية ، فهي في حالة من الذهول والانخطاف بالحب الالهي تحملق بعينيها الدعج بسماء الافكار .

عاش تشيجي وفقاً لطالعه ورغب في ان يقع اجله المحتوم تحت تأثير النجوم التي سيرت حياته بينما هي تتحرك وفقاً لمشيئة الله،تستمد منه ما لها من حركات وما فيها من انضباط.وهذه الرغبة يبديها له صديقه الحميم،اصبحت محور التصميم الفني الذي وضعه رفائيل لكنيسة تشيجي المعروفة بكنيسة العذراء مريم الشعبية ، التي باشر ببنائها ، عام ١٥١٥ . فعلى القبة نرى رسوم

آلهة الكواكب التي لها مثل هذا التأثير البالغ على مصـــائر الكائنات والمخلوقات ، فيلطّف الملائكة من تأثيرها ، وفي القمة ، الله الذي يضفي على الكواكب ، في الاسفل ، وهو باسط ذراعيه ، القوة التي تحركها والنظام الذي يضبط سيرها فتنتظم في حركاتها وسكناتها، كما يرتب للخليقة ادوارها واطوارها، ويرعى قبر تشيجي القائم تجاه مدخل الكنيسة تماماً .

الكنيسة السكستينية

كل هـــذه الجهود والمحاولات ليست سوى توطئة لمسيحية مصفّاة ، منتقاة . من يمعن النظر في التيارات الفنيّـــة ير كيف ان العقود الاولى من القرن السادس عشر تفادت الموضوعات التي استوحتها الايقونوغرافيا في الدور الاول مـــن عصر الانبعاث الذي يرينا الديانة اكثر اتصالاً بالحياة اليومية ، واكثر واقعية تسير مع الأرضيات وتعايش الزمنيات . فقد اعاد القرن السادس عشر الى الدين والموضوعات الدينية ، الحرمات التي يجب ان تكون لها والوقار ، وارتفع بها دفعة واحدة ، الى العلو ، الى الاسمى الذي يضفيه ما فوق الطبيعة . فلنتمل النظر طويلاً في هذه الانجازات التي حققها رفائيل عـــام ١٥١٦ في الكنيسة السكستينية التابعة للرهبان البندكتيين في مدينة بايزانس . ونهوضاً منه بالعاطفة الدينية التي جاشت بها نفسه بوصفـــه من اتباع الافلاطونية الحديثة ، فقد ادى به المطاف الفني الى مريم ام الله ، وعروس الله ، والى يسوع المسيح الفادي . والذي حاول رفائيل ابرازه عندمـــا رسم صورة العذراء السكستينية هو المعنى الذي تزخر به الترتيلة المعروفة : « السلام عليـك يا سلطانة *Salve Regina* » انت يا شفيعتنا حولي الينا انظارك التي تفيض رحمة وحناناً وأطلي علينا بعد هذه الغربة مع يسوع ثمرة احشائك المباركة » . فنلاحظ في الرسم قبل كل شيء ، ستاراً مزدوجاً انثنت اطرافه من كلا الجانبين ، ليكشف لنا ، من هنا وهنالك ، شيئاً من تلك الدار ، دار البقاء . وفي اسفل «اللوحة» ، من جهة هذا العالم السفلي ، جاثياً مكشوف الرأس بجنب تابوت البابا سكتس الرابع ، القديس سكتس شفيع الاسرة البابوية ، اسرة دلا روفير واسرة البابا جول الثاني ، يبرز العذراء مريم ، للمحتضرين والاموات على هذه الأرض . ونرى امامـــه ، القديسة تقلا ، شفيعة ساعة الموت الاخيرة ، جاثية ، هي الاخرى . وفي العالم الباقي نرى العذراء مريم تسير فوق كرتنا الارضية تظللها سحابة تمد الطفل يسوع نحو المحتضرين والاموات ، أسيفة النظر ، قلقة المظهر اذ انها تخشى قضاء الله العادل . ويبدو الطفل يسوع نفسه في وضع جد رصين حتى حدود الجفوة والقسوة كأن به يرى بنظره الثاقب ، كل آلام البشر ماثلة امامه . هؤلاء الناس الذين لاجلهم تجرع العذابات الواناً وفي سبيلهم بذل حياتـــه حتى الموت ، وكأنه يخشى ، هو الآخر ، قضاء الله الذي لا يُرد ، والحكم الذي يصدره بوصفه الديان الأخير .

في هذه الصورة ، لا أثر البتة لمجريات يومية ، او لأي شيء ارضي آخر . كل ما فيها تسام لنبلغ العالم الآخر . وهكذا حققت الافلاطونية الحديثة تصاعدها المتسامي طالما انها وصلت الى السيد المسيح .

فهذه الافكار الرومانية ، والصورة الجديدة التي تبدّت لهذا الكون ، وهذا الفراغ الذي يتحرك فيه الانسان وينشط، كل هذا وما اليه، لم يلبث ان عم ايطاليا كلها ومنها اتصل باوروبا فانتشر في معظم ربوعها .

العقلانية البدوانية - بمبونازي

في هذا الوقت بالذات ، أطلت علينا صورة جديدة للعالم كان لهـا شأن عظيم في اوروبا تجلت في مدينة بادوا التي قامت فيهـا جامعة البندقية وفي غيرها من الجامعات الاخرى الواقعـة تحت تأثيرها او المرتبطة بها بنهج واحد ، حيث كان يتولى التعليم والتدريس ، هنا وهنالك ، نفس الاساتذة ، في مدينة بولونيا والبندقية وحيث اخذت تسيطر روح عملية يشتم منها الاتجار والتكسب والاثرة ، وروح واقعية قوامها الوطنية تردد مثل هذه الأقوال : « انا اولاً من ابناء البندقية ، ثم انا مسيحي » ، وهي شعارات تتلاءم تماماً مع الذهنية السائدة اذ ذاك .

وكان لا يزال قائماً في مدينة بادوا اتباع لابن رشد مفسر ارسطو وشارحه . فقد قالوا ان النفس البشرية تتألف من عنصرين : العقـل السلبي الذي تصله ، عن طريق الحواس ، صورة الاشياء المرئية فينقلها بدوره الى الفهم ، هذا العقل الايجابي الذي يعالج هذه الصور ويجعلهـا قابلة للادراك . اما العقل السلبي فهو بحاجة للحواس ولذا تراه مشدوداً الى جسم الانسان ويختفي باختفائه . ولذا ليس ثمة خلود شخصي او جثماني بين الناس .

يخضع الكون عندهم لحتميـة آسرة ، ويوجد في كل جرم سماوي عقـل في مكنته الخروج على نواميس الطبيعة ولذلك تجري احداث غير متوقعة البتة . فالمعجزة ، اذاً، حادث مستمر يجب رده لتفاعل القوى الطبيعية ، ولهذا السبب فمعجزات الكتاب المقدس لم تعـد بالدليل القاطع على الوحي الالهي .

قام بين البدوانيين فريق لا ينهج نهج تعاليم ابن رشد نفسه بل يتبع مذهب احد شارحيه المشهورين ، ظهر في القرن الثالث للميلاد ، هو اسكندر الافروديسي الذي رأى في النفس حصيلة من حصائل الجسم البشري ، وهو تعليم يستتبع القول ، بفناء الجسم البشري . فما عسى ان يكون بعد هذا ، امر الجحيم والسماء والحشر والنشر والمعاد ، في مثل هذا الاحتمال ؟ وبقي لكل من فلسفة ابن رشد واسكندر الافروديسي اتباع في اوروبا حتى في القرن السادس عشر . ولعل اهم من هذه النظريات التي ألمنا اليها ، النظريات الجديدة التي قال بها وعلم بمبونازي « آخر الفلاسفة المدرسيين وأول علماء عصر الانوار » كما يلقبونه . فبعد ان تسلح بمبونازي بوصفه من علماء النهضة ، بنصوص دقيقة ، موثقة لمؤلفات ارسطو اخرجتهـا مطابع الناشر المشهور آلد مانوس *Alde Manuce* في البندقية، ضرب بعرض الحائط الشروح والتعليقات التي وضعها توما الاكويني وابن رشد نفسه . ففي كتابه المعنون : « حول خلود النفس » المطبوع عام ١٥١٦ ، وفي كتابه الآخر « حول اسباب ومسببات كل ما يجري في الطبيعة والسحر »

الذي وضعه عام ١٥٢٠ ، راح يدرس هــذه المشكلات ، بمعزل عن الوحي والمعجزات ضمن حدود الطبيعة ، مستعيناً بالعقل وحده الذي جعــل منه ، في الاساس ، الحكم الوحيد . فهو من العقليين .

والحال ، فالعقل تكتشف عن طاقة يستحيل عليها العمل بمعزل عن الجسم . ولكي يعمل العقل ويتحرك وينشط فهو بحاجــة ماسة للحواس ، لا يستطيع تمييز العام (المطلق) الا عن طريق الفرد وهي عملية تتم عن طريق الحواس . اذن ، فالنفس تبتدىء مع الجسم وتنتهي بانتهائه فلا مجال ، والحالة هذه ، للظن بخلود النفس او القول به . ومضى بمبونازي في تهــــديم فكرة البطولة والفكرة المميزة التي طلعت بها الافلاطونية الحديثة عن الانسان ، المدعـــو ابن الله . فالانسان ، في نظر بمبونازي ، ليس كائناً متميزاً من كائنات الطبيعة . فهو لا يخرج عن كونه حلقة بسيطة فيها ، احد الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احيـــاناً ، دون الحيوانات المتقدمة في تطورها . هنالك اناس اقل خبرة ودراية من القندوس الذي اشتهر بمهارته ومنهم من لا اخلاق مدنية لهم كما نجد عند النحل مثلا ، ومنهم من تجردوا من كل اخلاق ادبية مما توفر بعضه للكلب مثلا ، اذ نراه يأتي ليموت على قبر سيده . هنالك قلة من الناس تمت لها ملكة العقل احدى مميزات الانسان . فالانسان والحالة هذه ، ليس على صورة الله ولا هو ، بعد ، بالبطل الخليق بكل مجد وفخر . ولئن كانوا يردون عليه متهمينه بقتـــل الاخلاق واستباحة الآداب بعد ان انكر الايمان وابطل عقيدة المثوبة والجزاء في الحيـــاة الاخرى ، كان يجيب ان مكافأة الفضيلة هي الفضيلة ذاتها .

فقد هدم ، في الوقت ذاته ، اسس الايمان والادلة المؤيدة له في الكتاب المقدس الناطقة بالوحي . فالمعجزة ، في نظر بمبونازي ، ليست سوى احدى النتائج المدهشة لبعض المسببات الطبيعية التي نجهل اسرارها تمام الجهل . فالاسباب الطبيعية تكفي وحدها لتفسير هذه الظاهرة ... من المضحك وايم الحق ، ومن الغرابة بمكان ، ان يضرب الانسان عرض الحـــائط بما يقع تحت الحس وبما يقوم العقل الطبيعي بالدليل عليه فيلجأ الى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل ... ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على العجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد الكنيسة بصحتها والتي سلم بمبونازي بالقول والايمان بها تجاوزاً لاحكام العقل ، وكمجرد فعل ايمان ليس ما يؤيده .

من الطبيعي ان ترذل الكنيسة مثل هذه التعاليم الكفرية الضالة ، المضلة التي راجت حوالي عام ١٥١٢ ، اي عند التئام مجمع لاتران ، اذ ان الكثلكة تعلّم انه لا بد من اسباب قوية تدعو للايمان وان العقل هو من الاسس التي ينهض عليها الايمان وان كان بحاجة ماسة لمساعدة الوحي وتأييده .

ومع ذلك فقد تمتع بمبونازي بنفوذ قوي وكان له تأثير بالغ في النفوس ، اذ أمّ الوف من

الاوروبيين مدينة بادوا ليتلقوا تحصيلهم العالي في جامعتها . . وهذا ما ساعد بالفعل على نشر تعاليم بمبونازي والترويج لها في جميع انحاء اوروبا . فمن تلاميذه النبهاء : رابليه ، واتيان دوليه ، وجان بودين ومونتاني وغيرهم من احرار الفكر في القرن السابع عشر ومن اليهم من « فلاسفة » عصر الانوار .

وهكذا نرى ان الافلاطونية الحديثة والفلسفة الطبيعية يتعارضان في الاساس ويقوم الواحد ضد الآخر . ومع ذلك فهما يتمازجان ويجتمعان بالفعل لدى الكثيرين . وعلى كل ان معظم العقليين البدوانيين قالوا بالفراغ والصور والصيغ والمواقف البشرية التي قال بها اصحاب الافلاطونية الحديثة .

العلم ونظرته الجديدة على العالم فتشينو وكوبرنيكوس

مهما يكن من هذه المفارقات ، فقد التقى فتشينو وبمبونازي والبدوانيون واصحاب الافلاطونية الحديثة على صعيد واحد وجمعهم معدود مشترك واحد ، الا وهو الهدف الذي وضعه الانسان نصب عينيه الا وهو السيطرة على العالم والتحكم به ؛ وذلك بما تم له من مهارة وصنعة. وقد راح فتشينو يستشهد بمثل ارخميدس الذي في سبيل تفهمه لاسرار الطبيعة ، وإفهامه تلاميذه كيف يسير الكون ، عمد الى صنع كرات من البرونز تمثل الاجرام السماوية . فمند ما اعاد على هذا الشكل العملي تركيب الكون استطاع ان ينفذ الى اسراره ويدرك مقاييسه وبذلك اصبح وكأنه مبدع السماوات ، وبعبارات اخرى ، شبيهاً بالله . وفي رأي فتشينو ، فالانسان ، بعد ان يجري في الكائنات من تعديلات بما يدخل عليها من تحسينات ، وباستكماله لعمل الطبيعة ، بالآلة التي يصطنعها له ، وبالانشاءات والمصانع والمسالك ومعامل الزجاج التي ينشئها ، يحدث في العالم تغييراً تاماً كالتغيير الذي يتناوله هو فيتحول معه ويتكامل. فبمعرفته لاسرار الكون وباحداثه عالماً لنفسه ، يلتقي مع تصميم الله ويصبح ، بالتالي ، شبيهاً به ، هو كله حرية والحرية البشرية هي تغيير متصل وتطور موصول. وهكذا ففكرة التقدم بواسطة العلم ، وبواسطة التقنية ، اخذت تتغلغل في صلب الحضارة الاوروبية .

وهذا الشعور بقوة الانسان العظيمة التي لا حد لها ، يبدو على اتمه في هذا التبدل والتطور الذي طرأ على الرمز الذي رمزوا به تباعاً الى الحظ. فقد سبق الانسان ورمز اليه قديماً بمعجل او دولاب يدور بسرعة يرفع الناس الى عليين طوراً ، وطوراً يهبط بهم الى أسفل السافلين ، وقد أسقط بيدهم امام هذه القوة العمياء التي لا يدركون من امرها شيئاً بل انها تهزأ بهم احياناً ، وحيناً تسحقهم تحت وطأتها .. اما في زماننا ، فطريقة الرمز ، الى الحظ قد تغيرت تماماً . فالحظ اليوم كمن يشبه راكب سفينة يمسك بالقلاع وينفخ فيها بينما يكون الانسان ممسكاً بالدفة يوجهها ويستعمل في تسييرها ما لديه من قوة وظروف مساعدة وغير ذلك من المسعفات. وليس من باب الصدفة والتوافق قط ان نرى بين الآثار الفكرية التي وصلت الينا ، نعوتاً

واوصافاً مثل : « بطولي » « بطل » ، « الهي »، « نصف الهي » وغير ذلك من نعوت التعظيم والتفخيم ، وما شاكل من الفاظ ، كمظيم وفخم وفوق البشر .

في الصورة التي اثبتها ترتغليا « *Tartaglia* » في صدر كتابـــه الموسوم « *Nuova scienza* » المنشور عام ١٥٣٧ ، تنويه وايحاء بصوران الطريقة التي تخيلها معاصرو ذلك العهــــد للنفاذ الى اسرار الطبيعة والتحكم بها . فهي تمثل ساحة تقع ضمن جدران عالية من الصعب جداً ان لم نقل من المستحيل عبورها وتخطيها . وفي آخر الساحة او الفسحة معبد تبعث فيه الفلسفة ، اذاً ؟ السبيل هو المرور من باب ضيق عبوره او اجتيازه بيد اقليدس ، امير الهندسة وربها . فيقضي الجاز بالباحث الى الساحة ليستقبله فيها عدد من العلماء يتجهون به الى باب الهيكل حيث يقف ارسطو ويسهّل له الولوج ، ليجد ، في الداخل ، افلاطون واقفاً امام الفلسفة ، فيقدمه لها ويتم بذلك التعارف بينهما . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي. فالرياضيات هي مفتاح المعرفة اوالمدخل اليها ، والرياضي افلاطون يمارض العالم الاحيائي والاجتماعي ارسطو ، عندمـــا راح يؤكد ان ما هو واقعي يخضع حتماً للعمليات الرياضية ، وان المعرفة الحقة هي بالفعل بناء رياضي خفي . فارسطو وما يمثل من العلوم الطبيعية والاجتماعية المعتمدة على الحواس ، يستطيع القيام بعمليــة جرد للظواهر الطبيعية وتصنيفها ، والقيام بعملية تقييم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم الرياضيات ، هم الذين سيكشفون عن اسرار المركبات وعن الحركات الفعلية التي تخفي عنا الحقيقة .

هذه الصورة الرياضية ، الكمية ، للعالَم التي اخذت تحل تدريجياً محل الصورة النوعية التي رسمها ارسطو وتهز فيزياءه النوعية ونظامه العالمي الذي يجعل من الارض محور الكائنات ، قد تم إعدادها منذ عهد بعيد . ان تغلب الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية جعل عقول النـــاس تسلم بثلاث معطيات اساسية : العلم التجريبي ، واقصاء ارسطو وتنحيته جانباً ، وفكرة الوظيفة الرياضية . كل من فكر قليلاً لا بد من ان يجد نفسه بالفعل امام المشكلة التالية : ان معرفتي للعالم الخارجي ، والتفسير الذي ارتضيته يتوقفان ، الى حد بعيد ، على تفهمي لما هو واقعي ، قائم ، وللاحكام التي أتوصل اليها والاستـدلالات التي اقوم بها . وهذه الاعمـــال الفكرية او العقلية التي اقوم بها ، هل استطيع ان اثق بهـــا واعول عليها ؟ نعم ، كان جواب اتبـــاع الفلسفة الواقعية ، وفي مقدمتهم القديس توما الاكويني . فبامكاننا ، والحق يقال ، ان نتفهم ، بصورة معقولة ، العالم . نعم ، في مقدورنا ان نتوصل بعلم ومعرفة ، الى الحقيقة بان الله موجود هو . هنالك واقع قائم متحيز ، ممكن تفهمه حق الفهم . من رؤية الاشياء الفردية نستطيع ان نتوصل بصورة معقولة ومقبولة ، في كل فئة من هذه الفئات ، الى صورة عامة هي بالفعـل ، جوهر هذه الاشياء وقوامها . وهذا ما كان افلاطون يسميه الفكر ، النمط ، النموذج المثالي . من ذلك مثلاً ان رؤية ومعرفة الناس تمكننا من ان نكوّن لانفسنا ، فكرة مقبولة عن الجنس البشري ، عن الانسان قائماً بذاته ، عن الانسانية التي تكوّن حقيقة واقعية خارجة عنا هي جوهر الانسان ، وفي نظر افلاطون : فكرة الانسان .

فكيف يعمل العقل هنا ، وما هو سبيله الى ذلك ؟ لنأخذ مثلا ، النـــاس الذين نعرفهم جيداً . فمن كل واحد منهم نرسم او نصوغ صورة ذهنية تخطر او تسبح في الهواء ، وهذا ما يعرف بـ « الانواع الفكرية » وهي صورة اخذت تتخفف كثيراً من مقوماتها المادية المحسوسة . ثم تدخل هذه الصورة الى حواسنا الخارجية لتخفف ، اكثر فأكثر مما لا يزال عالقـــاً بها من مادية بحيث تستطيع ولوج اجهزتنا وقوانا الداخـــلية فتكتسب شيئاً من اللطافة تصبح معها قادرة على دخول جهاز المخيلة ، مع الاحتفـاظ ، حتى في هـذا الدور ، بشيء من ماديتهـا . وعندئذ يستطيع العقل الفاعل ، احدى القوى العاقلة التي تملك بصورة فطرية ، المبادىء الاولى التي تقوي فينا ملكة المحاكمة العقلية والتي نستطيع معها ان نحول هذه المعلومات (تخيلات) الى انواع قابلة للادراك ، خالصة من كل مادية . وبهذا الاتصال تجد النفس الفكرة العامـــة للانسانية ، والممثلة في ذات كل انسان . وهذه الصورة هي صورة كائن تتمثل ، بـذات الوقت في صورة ذهنية عـــامة في النفس وفي صورة فرد ، في كل شخص . ولكل صورة ذهنية عامة مصطلح او كلمة تعبر عنها . وكان افلاطون يقول ان لكل فكرة ، صورة ذهنية عامـــة او فكر وهذه السورة توجد بكيفية مستقلة ، في ذات الله .

فالانسان هو جوهر في ذاته . فالجوهر هو الذي يعطي المادة صورتها اي قوامها وكيانهـا وهو الذي يوليها ما لها من صفات محسوسة كالشكل والحرارةوالممر واللون وغير ذلك . وهذه الصفات الخفية التي لا تقع مباشرة تحت الحواس ، هي التي تولي المادة بعض اعراضها المحسوسة كالثقل والخفة ،والقوة المغنطيسية وغير ذلك . فالجوهر مع المادة يكون بشراً يختلف الواحد منهم عن الآخر ، عرَضاً او خاصة ، انما هم متماثلون ، متشابهون من حيث الجوهر .

ويرى ارسطو في هذه الصفات أعراضاً يمكن ان تقوم بالفعل في ذات الجوهر ، كالليونة في اعضاء الجسم ، او ان تقوم فيها بالقوة كالشعرة البيضاء في الشيوخ . هنالك حالة ثالثة هـــي الحركة كالشعر الذي وخطه الشيب . فالحركة لا تقتصر على تبـــدل في المكان ، بل هي تحتمل الاستحالة والتغير . غير ان الحركة تحدث تغيـــيراً في الأعراض وليس في الجوهر . فسواء أشاخ الانسان او اقتطع منه عضو من اعضائه فهو يبقى انساناً، فإن كان ابيض او اسود او اصفر فهو يبقى دوماً رجلاً ، لان له جوهر الرجل . فهو من نوع الرجل ، سواء اكان من العرق الابيض او الاسود او الاصفر . فهو واحد من هذه الانسانية الواحدة .

والتعليل العلمي للاشياء يقوم ، والحالة هذه ، في المرحلة الاولى ، بالتساؤل عـــن النوع او الجنس الذي تنتمي اليه المخلوقات ، وهي معرفة تتم بعد درس ما لها من صفات محسوسة وما يقوم بينها من روابط وعلائق ، وبطائفة من الاسئلة تعاون على توجيههـــا سقراط وافلاطون واكملها ارسطو في كتابه الموسوم « *Organon* » ، هذه الاسئلة التي تكون الطريقة الشاملة اللازمة للعقل البشري ، التي من شأنهـــا ان تساعد على : التثبت من ان الشيء موجود بالفعل ،

وان لم يكن من يقع تحت الحواس ومعرفة ما اذا كان ممكن الوجود او ممتنع الوجود ، وما فيه من جوهر وعارض او دائم وزائل ، سبب ونتيجة ، والغاية منه اي الغرض من وجوده على هذه الارض ، وما هو جوهره ، اي مادته المقومة . وما هو عليه بالفعل او بالقوة او بالصيرورة وغير ذلك . وعندما تتم لنا معرفة هذه الاشياء نكون توصلنا الى معرفة النموذج الخالد لهذا الكائن ، نكون توصلنا الى معرفة سره او وجوده . خذ مثلاً الحديد او المغنطيس . فعندما يكون الحديد امام المغنطيس ، يتلبس جوهره صفة خفية هي الصفة المغنطيسية التي من خصائصها المميزة ان يجتذب المغنطيس الحديد اليه . فالقوة المغنطيسية هي السبب الحقيقي او الاخير للظاهرة التي تجلت لنا . اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الى تعليل كامل ، جذري ، للكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المرئيات او المرتسمات الذهنية عن طريق المصطلحات ، والكلمات التي تعبر عنها خير تعبير . وهكذا ينشأ عندنا علم كامل تام ، نصل به الى ذات الكائن وحقيقته الاولى .

وهذا النظام المنطقي يرتكز ، بدءاً ، على فكرة : الزائل المنتهي ، العالم المنتهي في القضاء حيث الانواع تبقى هي هي بالرغم من التغيرات التي تطرأ على الفرد ، وحيث عدد الانواع محدود ، هذه الانواع التي تتألف من اجناس وفوارق محدودة العدد ، وعالم مطبق ، موحد ، محدود .

وجدت الفلسفة الواقعية خصمها اللدود في الفلسفة الاسمية ممثلة خير تمثيل بشخص وليم اوكهام ، هذا الراهب الفرنسيسكاني ، استاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد ثم في جامعة باريس ، والذي عاش من ١٢٨٠ الى ١٣٤٠ ، فكان الرائد الجليل (*Venerabilis inceptor*) الذي مهد لطلوع العصر الجديد .

أنكر اوكهام ان يكون للصور الذهنية العامة وجود في الكائنات الفردية او الخاصة . فاذا كان العام قائماً او موجوداً بذاته وجب ان يكوّن من الوجهة العددية وحدة . فان كان وحدة ، ألّف والحالة هذه ، فرداً . فكيف يستطيع الكائن الفرد ان يكون معاً وفي عدد كبير من الكائنات البشرية في البشر ؟ فلو كانت البشرية شيئاً يختلف عن الافراد ، اما كانت استوجبت ان يحكم عليها في آن واحد بشخص يهوذا الاسخريوطي وان تخلص في المسيح ؟ ان مثل هذا القول مضاد للعقل والمنطق وهو امر مستحيل . فالفكرة العامة اذاً لا وجود لها البتة .

فالافكار ليست سوى اشارات او علامات تدل على وجود كائنات في الخارج دون ان تمثلها على الاطلاق . فالنية التي بها اسمع الناس ليست سوى اشارة طبيعية تعني الانسان ، لها كل ما للطبيعة من صفة ، كالآهة التي تنم عن المرض او الألم . فالتنهد هو علامة او اشارة تدل على المرض ، انما لا تفيدنا شيئاً قط عن طبيعة هذا المرض ، ولا عن نوعه ، ولا تدعو للقيام بأي عملية تشخيص او حدس او تطبيب . فلكل فرد من هؤلاء الناس الذين تقع عليهم العين ، علامة او دالة ذهنية في ادراكنا تقوم مقام الفرد نفسه وتمثله في الحاكمات والتصديقات العقلية

التي نقوم بها . فاذا ما استعرضنا ذهنياً هذه الاشارات وعارضناها بعضاً ببعض ، خرجنا من هذه العملية بفكرة او صورة تعبر عن هذه الاشارات او العلامات مجتمعة ، تمثل رجلاً قائماً بذاته . فالجنس البشري ، هذه الصورة العامة ، صغناها بطريقة التجريد ، من الافراد انفسهم . ولذا فهي ليست شيئاً خارجاً ، بل كائناً عقلياً لا وجود له الا في الذهـــن ، ليس الا . اما الكلمات والمصطلحات فهي الاشارات التي تعبر عن هذه الصور الذهنية . فهي لا قيمة لها البتة بذاتها .

وعلى هذا ، فنحن لا نعرف اية حقيقة او شيء واقعي . فنحن لا نعرف الا ظواهر الاشياء ومدلولاتها . اما الكائن ، فلا سبيل لنا الى معرفته . غير انه اذا كنا نشاهد علامات متتابعة مستمرة تقع دوماً حسب الترتيب ذاته ، امكننا ان نستنتج ، بالتالي ، انه لو وجدنا علامة واحدة من هذه العلامات ، كان ذلك داعياً لظهور باقي العلامات . فهنالك إذاً امكانيـة علم تجريبي يتيح لنا ان نتصرف ونعمل . فلن نتوصل ابداً الى معرفة حقيقة الاشياء الا ما اراد الله ان يعلنه لنا . فامامنا إمكانيات لا تُعد للعمل والتصرف .

حملت هذه الفلسفة الاسمية التي قال بها اوكهام وعلم ، بعض تلاميـــذه على الوقوف موقف المراقب المستقل وكأنهم يرددون : لا لزوم بعد لننهج نهج ارسطو ، ولا الأخذ بترابط الكلمات وتداعيها قبل مراقبة الظواهر والبحث عن التراكيب المستمرة . كان هذا موقف بعض اساتذة جامعة باريس ، في القرن الرابع عشر امثال البير ده ساكس وتيمون اليهودي وجان بوريدان في ما يتعلق بناموس الحركة . كل حركة ، تستوجب في نظر ارسطو ، فعل محرك دائم يتميز تماماً ، عن الشيء المتحرك ، كالسهم الذي انطلق من القوس مثلاً ، والذي يستمر سائراً مع انه انفصل عن محركه . فوتر القوس ، في نظر ارسطو ، سبّب اضطراباً في كتلة الهواء المحيطـــة بالسهم ، نقلت بدورها الاضطراب او الحركة الى كتلة اخرى ملاحقة بها ، وهكذا راح السهم يطير سابحاً بفضل حركة الهواء المحيط به . اما عند الفلاسفة الباريسيين ، ولا سيما عند بوريدان الذي كان يعلـّم الفلسفة في باريس بين ١٢٢٧ – ١٢٥٨ ، فلواقع يماكس تمامــاً ، نظرية ارسطو . لنأخذ مثلاً على ذلك سفينة يجرها البحارة في ترعـة او قناة ثم يتركها البحارة فجأة فتسير هي لوحدها بضع خطوات بقوة الدفع . ففي نظر ارسطو هي تسير بفعل الهواء المتحرك المحيط بها ، فتسوقها حركته الى الامام بضع خطوات . فاذا ما غطّينا قعر السفينة بغطاء من جلد او نسيج ونزعنا فجأة هذا الغطاء في ذات الوقت الذي يتوقف البحارة عن جر السفينة ، نكون عزلنا طبقة الهواء التي تتصل مباشرة بالسفينة المتحركة . فالسفينة تمضي ، مع ذلك ، في سيرها الى الامام ، ولو لبضعة امتار . فليس الهواء ، والحالة هذه ، هو الذي يسبب لها الحركة . فالتعليل الوحيد ، المقنع هو ان البحارة (المحرّك) أولوا السفينة (الشيء المتحرك) قوة ما تحركها ، وهذه القوة هي ما نسميه الدفع *Impetus* . وراح بوريدان يضع لنا ، في هذا المضمار ، قواعد ومبادىء لا تزال ، لليوم ، اساساً لبعض اقسام الميكانيكا ، منها ان قوة الدفع توازي سرعة المحرك

ومنها ان الدفع معادل للحجم او للثقل النوعي . وقد ذهب في تعليلاته الى ابعد من هذا واعمق اذ قال ان الدفع يولي الأجرام السماوية حركة دائمة ، فرسم لنا بذلك اوليات حركة الفلك على اساس مبدأ القصور الذاتي (*Inertie*) هذه المبادىء بالذات التي كشف عن نواحيها ، فيما بعد غاليليو وكبلر .

واخيراً اوجد علماء الرياضيات من الباريسيين ، ولا سيما اوريسم بينهم واضع علم الهندسة التحليلية ، بعد ان ادخلوا تحسينات ملحوظة على فكرة الدالة الرياضية ، تطوراً كبيراً على العلم التجريبي كأداة للبحث العلمي ، وبها امكن استنطاق الطبيعة وتسجيل الكثير من المعلومات التي جادت بها . وعلى شاكلة الفلورنتيين الذين عجزوا عن الانتفاع بالشكل المنظوري ، استخداماً صحيحاً ، هكذا عجز الباريسيون عن ان يكونوا لهم فكرة صحيحة عن الدور الذي يمكن ان تلعبه الرياضيات . فالفيزياء عندهم ، بقيت نوعيـة او كيفية لا رموز او صيغة لها تقريباً ، وانزلوا ، بالتالي ، الدفع منزلة النوع . « من المحتمل جداً ، يقول بوريدان ، ان يكون هذا الدفع صفة من طبيعتها تحريك الجسم الذي تم دفعه » . والظاهر ان من جاء بعده من علماء الرياضيات ، قنع بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس نشاطها الخلاق ، خلال حرب المائة سنة وراحت فريسة جدل بيزنطي معطل .

بقي اذاً ، شيء لا بد من تحقيقه الا وهو اعتبار الطبيعة باجلها ، قائمة على تركيب رياضي خفي ، والاهتمام ، قبل كل شيء ، بالكم او الحركة . هذا التبدل في الذهنية والتفكير ، لم يتم على ايدي البدوانيين ، لانهم آثروا البقاء الى جانب ارسطو ، ارسطو التاريخي بعد ان اعتنقوا مقالته وارتضوها سنّة لهم ، ارسطو هذا الذي اكتشفه إنسانيو النهضة ، واخذوا بالتالي يهزؤون من الباريسيين ومن لاتينيتهم العرجاء . فلو عرف الباريسيون ارسطو معرفة صحيحة لاقتنعوا بتعاليمه ، ولما كان البدوانيون من تلاميذ ارسطو الاحيائي ، راحوا ، فوق ذلك ، يعلمون انه من الافضل بكثير ، التعويل على الحواس منه على القياس ، وراحوا ينتقدون الباريسيين للتحاليل الدقيقة الصحيحة التي قاموا بها . فلا عجب قط الا يجري البدوانيون ، في هذا المجال ، اي تغيير او تبديل في الذهنية المسيطرة . ولعل ما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس ، الفكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليهم الاعتقـاد بالعجائب والمعجزات ، باعتبار ان في الطبيعة قوى كثيرة نجهل كل شيء عنها . فليس ما يدعو للعجب او للدهش ، والحالة هذه ، ان تذرف التماثيل دمعاً ، او ان تنضح بالعرق او ان تنتقل ، من تلقاء نفسها وبقوتها الذاتية ، من محل الى آخر ، كما يبدو ان هذه الفكرة بالذات زادت في انتشار وباء عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطاق ، والاستسلام لمخاطبة الارواح الموهومة ، وتعاطي السحر واعمال التعزيم ، وغير ذلك .

فبمبونازي ومن وقعوا تحت تأثيره المباشر ، امثال باراسلوس وفانيني وبرونو وكمبانيلا ،

ساهموا على اقدار متفاوتة ، في الترويج لشروح ارسطو تفسيره تفسيراً ابطانياً *Immanentiste* . فبدلاً من «الله» المتعالي، المتسامي، المتميز كلياً عن هذا العالم الذي برأه من العدم، قالوا باله إبطاني *Immanent* متمازج مع العالم متغلغل بروحه فيه . فالطبيعة التي رأى فيها ارسطو تسلسلاً آسراً الاسباب ومسبباتها ، ومجموعاً ساكناً من الظواهر المعروفة ، تصورها اشبه ما تكون بكائن حي يغمره الله بروحه ويفيض عليه من ذاته . وهكذا تبدت لنا ، هذه الطبيعة ، في كل لحظة، قوة خفية مجهولة لا يمكن حصرها او كبتها كما لا يمكن التنبؤ بها . هنالك قوة متوزعة تحرك الاشياء . فالطبيعة ملأى بقوى خفية ، واصبحت مجالاً للسحر والسحرة يسرحون فيه ويمرحون .

المعجزات

جماعة ذلك العصر يؤمنون كلهم بالمعجزة ويميشون ، بالاحرى ، معجزة دائمة ، قائمة باستمرار . أفلا تتنبأ الحيوانات ؟ ، والتماثيل الا تنضح عرقاً منذرة بالأحداث الجسام ؟ والعذراء مريم ام النعم ، ألم تفتح عينيها وتطبقهما، في مدينة بريشيا ، يوم عيد المنصرة بالذات عام ١٥١٤ ؟ أو لم ير الناس ، في كنيسة القديس مكسيمينس ، في مقاطعة بروفانس ، خاصة الاخوة الواعظين ، حجارة صغيرة تتلطخ بدم السيد ، بعد ان تلقفته مريم المجدلية وهي جاثية عند الصليب ؟ كان الناس يعتقدون ، وطيداً ، ان هذا الدم كان ينفصل عن هذه الحجارة، نهار الجمعة الحزينة ، وذلك بين الساعة ١٢ الى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ويأخذ بالغليان والفوران . وفي مدينة نابولي بالذات ، اما كان دم القديس جانفيه يفور ويسيل ثلاث مرات في السنة : اما اذا سال في غير هذه الاوقات ، فلا يتم ذلك ابداً في درجة حرارة تقل عن ١٩ درجة مئوية . وكثيراً ما استعملوا درجة الحرارة التي يسيل فيها الدم لاغراض سياسية .

النجامة

أدى بعث الفلسفة القديمة الى بعث النجامة والتنجيم . فبينما اجزاء العالم في تعاطف شامل يربط فيما بينها ، فمن الله يصدر روح يتصل عن طريق النجوم بالكائنات الحية . فكل جزء من اجزاء الجسم البشري ، وكل حالة من حالات النفس البشرية يرتبط ويتعاطف مع الاوضاع السائدة في الفلك . فالمريخ يؤثر على الكبد ، وزحل على الرئة ، والشمس لها تأثيرها العميق على المعدة . وكل مزاج من الامزجة الاربعة الصفراوي والدموي والبلغمي والسوداوي مرتبط، هو الآخر، ارتباطاً وثيقاً ، باحد الاجرام السماوية . وعندما يقع القمر في قران برج الاسد او برج القوس يُستحب القيام بعملية فصد صاحب المزاج الصفراوي . فالنجامة الطبيعية جعلت من الانسان نقطة الدائرة ومركز الثقل في العالم . وهو قول اخذت به الكنيسة ورعته واحترمته .

هنالك ضرب من النجامة يُعرف بقراءة الطالع البشري ، شجبته الكنيسة وحرمته عام

١٥٨٥ . فالكوكب السيار الذي سيطر في السماء يضفي على الانسان الذي يولد تحته ، سمة لا تمحى . فهو يعطي المولود الجديد مزاجه الخاص ويحدد منه المصير المحتوم بشكل لا يتبدل . فليس من عجب والحالة هذه ان يقوموا بكشف الطالع يوم مولد الطفل . وفي هذا السبيل ، قسموا القبة الزرقاء مثلثات ومستطيلات حددت فيها المواقع التي تحتلها النجوم ومواقع البروج كما حددت فيها المواقع التي يجري فيها الكوكب تأثيره عندما يتفق وقوعه في المحل المعين له . وبذلك كانوا يستطلعون من خلال بعض العلامات والاشارات ، الصفات المرتقبة للشخص وما عسى ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر، وتاريخ الرحلات والأسفار المتوقع له ان يقوم بها ، وعدد البنين الذين سيرزق ، وغير ذلك من طوارىء الحياة المنتظرة .

مخاطبة الارواح

كثيرون اخذوا يتعاطون مخاطبة الأرواح، هذه العادة التي وصلت اليهم من التقاليد اليهودية ، وهي تقاليد تغلغلت ، الى حد بعيد بين اوساط عصر النهضة ومجتمعاتها . فالرموز التي تضفي على الأشياء مدلولها ، وتمين لها المراتب والمواقع ، تتكون من اشارات وقدرات . فالاسماء الواردة في التوراة كتاب الله ، وما تتألف كتابتها من احرف تتلبس قدرة خاصة . وبواسطة هذه الدلائل يظهر الله قدرته وهي دلائل يمكن لنا ضبط بعضها . فالارقام يشار اليها بالاحرف ، ولذا قامت علاقة تعاطف او تداعٍ بين بعض الحروف وبين بعض الارقام . فاذا ما جمعنا الاعداد التي تنجم عن الحروف التي يتألف منها اسم معين ، نصل الى مثل هذا العدد الذي يخرج من جمع حروف اسم آخر ، اذ يوجد تماثل بين هذين الاسمين وبالتالي بين ما لهما من مدلول . وبواسطة الاسماء يمكن ان تؤثر الاشخاص والاشياء التي لها مدلولات خاصة بعضها ببعض .

السحر والمجوسية

كل الناس مؤمنون بالسحر ويستخدمون السَحَرَة والعرّافين ، فنشأت من هذه الأعمال والمراسم التي كانوا يقومون بها الدعاوي امام المحاكم التي راحت تضبط الكثير من اعترافاتهم وتسجل بكل اسهاب ، التفاصيل التي تصف اعرافهم واعمالهم . وكان ينظر في دعاوي السحر والسحرة ، قضاة متخصصون . فالسحَرة على حسب اعتقاد الناس هم سبب كل الامراض الخفية او المستعصية كالتدرن ، وذبول الصحة ، والعته والخباط الصرعي ، والاضطرابات التشنجية والهستيريا. فيصفون للعشاق والمتحابين شراباً يلهب فيهم الشوق والغلمة ، وينفثون في الجو ريحاً خبيثاً ساحراً ، موبوءاً ينشر بين الناس الحميات والعمه والشلل والجنون ، ويستمطرون المطر في غير اوانه والبرَد ويثيرون الضباب الناشف المؤذي فيسبب الجفاف والنمى ويفتك بالناس كما يــذرّون رشوشاً مؤذية . ويتلبس السحرة ، في نظرهم اشكالاً متنوعة فيظهرون تارة بشكل بهائم مخيفة ، أو عناكب وذباب وأفاع وثعـابين وجراد ، وديكة وهررة وذئاب متلبسة بهيئة بشر . فمع بقاء اجسامهم في مكان معين ، ينفثون رياحاً وطيوفاً تخترق الابواب الموصدة وتنفذ من خلال الجدران ، وتتصدى للنيـام في أسرتهم ،

ويدخلون كما زعموا ، في اجسام ضحاياهم شياطين يجعلون منها مسكناً لهم ، ويجتمعون ليلاً في نواد خاصة بالسحرة حيث يظهر لهم الشيطان بهيئة تيس اسود يأخـــذ في التحدث اليهم ، ثم يحترق ويستحيل امامهم رماداً فيأخذ منه الحضور ما يساعدهم على الفتك بجيرانهم .

وكان الناس يردون هذه الظواهر كلها الى المذهب الروحاني (*Animisme*) هذا المذهب القديم الذي قال بوجود ارواح في كل الاجسام ، وعليه قامت المجوسية التعاطفية والنجامـــة ومخاطبة الأرواح . وعملاً بقانون المشاكلة (الشبه يولد الشبه) يتساقط المطر اذ ما رحت تقـــلد صوت المطر المتساقط بضربك اديم الماء بقرطة فيتساقط المطر ، واذا ما نخست بابرة شخصاً من الشمع يمثـــل ضحية واطلقت عليه اسم الضحية ، اصيبت نفسها بالنخس في المكان الموافق للمكان الذي تم فيه نخس تمثـال الشمع . وبموجب قانون سريان القوة او استمرار الاثر ، يبقى شخصان او شيئان يؤثر احدهما على الآخر ، بعد انفصالهما طالما كانا على اتصال ببعضها ، من قبل . فاذا ما سقيت فتاة عصت الحب وتمردت على شريعته ، شراباً فيه شيء من اثر الحبيب ، لن تلبث هذه الفتاة ان تلتهب عاطفة نحوه وتشتعل غراماً به بعد برودتها الاولى .

وكان المعاصرون ، اذ ذاك ، يعتقدون بتأثير هذه القوة الخفية التي تدعى عنـــدهم *Mana* ، وهي عبارة عن اثر غازي او روحي ينبعث من اجسام السحرة .

اما علماء اللاهوت ، فكانوا يسقطون من حسابهم هذه التعليلات الخرقاء ويعزونها بدورهم بالاحرى ، الى عمـــل ابليس الذي كان يتلاعب كما يشاء بارادة السحرة الشريرة . وقد عكس بعض هؤلاء السحرة من بعض خفاف العقول ، المراسم الدينية المعمول بها في طقوس العبادة . ساعدهم على هذا ما يقوم من شبه بين بعض طقوس الاسرار الكنسية وعادات السحرة واعرافهم من حركات وسكنات واشكال رمزية اناطوا بها قدرة على إتيان النتائج المتوخاة من هذه المراسم . فابتلاع رشوش الابالسة ، عادة عكست تناول القربان المقدس . والمناولة الشيطانية التي يحاول معها الساحر ان يحمل اعداءه او خصومه على تناول جسد الشيطان ، من شأنها ان تسبب المرض او الموت ، تشبهاً او محاكاة لتناول جسد المسيح ودمه ، فيسكب في المرء حياة النعمة غزيرة ويحفظ النفس نقية جديرة بالحياة الابدية .

كل الناس اعتقدوا بقوة السحرة وتأثيرهم البعيد بعد الذي استقر في اذهانهم من صفاتية هذه الطبيعة الساحرة المسحورة ، وراحوا يفسرون مظاهرها تفسيراً مغلوطاً . فحبات الفول تسود بعد انقضاض الصاعقة ، والهواء المؤيّن يكتسب رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، مما يبعث على الاعتقاد ، وبالتالي على القول ، بان شحنة الصاعقة كانت مسحورة ، مؤذية او ان صديقي خالداً الذي كان متخفياً في الشجرة عند سقوط الصاعقة ، كان السبب الحقيقي ، مثلاً ، لهذا الحادث المؤسف . والكلب الذي كان محمولاً على عربة تراه اختفى ، بلمحة طرف ، وهو بلون اسود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جارتي ، مثلاً تصاب بالقرح ، فقد راحت ولا شك فريسة ساحر .

وكان السحرة، هم على مثل ما وصفنا من عقيدة واعتقاد، اناساً فسدت ضمائرهم - ترمد العين من رؤيتهم للاذى الذي ينضحون به . وكثيراً ما كانوا مرضى لسبب من الاسباب، تعود عليهم مسؤوليته . ومن الحالات التي تلبسها السحرة حالة من راحوا فريسة الهستيريا . وكثيراً ما راحوا بتأثير من الايحاء والقضاة الذي ينظرون في الدعاوي المقامة عليهم، والمذابات التي يسيمونهم اياها، يروون، وقد اخذ العياء والضعف منهم كل مأخذ، الغرائب والعجائب المدهشة عن تصرفاتهم، وهي تصرفات كثيراً ما كانت بالفعل اقل بكثير مما أتوا وفعلوا . وهنالك حالات كان فيها المتهمون بالسحر بالفعل ابرياء، فيضطرون، تفادياً منهم لما يستهدفون له في حالة اعتصامهم بالصمت والامتناع عن الاعتراف، من عذابات يخضعون لها لحلهم على الاقرار، لاختراع اشياء لم يقترفوها قط، او لسرد وقائع يستنبطها الخيال، تجنباً منهم لهذه الاشراك ينصبها لهم اعداء بيتوا لهم الشر، فكانوا يعترفون، وبذلك يحملون المشتكين عليهم على ملاحقة آخرين بتهمة السحر، كان عليهم هم ايضاً ان يعترفوا بها والا استهدفوا لعذاب أليم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر يغذي في الناس استمرار الاخذ بعادة السحرة . فالسحر ومخاطبة الارواح، والنجامة والاعتقاد بالمذاهب الروحانية كل هذه وما شاكلها، حالات مرضية تقرب من الجنون، تبدو على الاجسام الضعيفة البنية او الضعيفة العقل .

الروح الرياضية

لا شك ان القائلين بالافلاطونية الحديثة واتباعها هم الذين هيأوا الظهور هذه الذهنية، الجديدة . قد يكون مثل هذا الوضع نشأ عن تلاقي الافكار التي قال بها افلاطون، مع تكاثر الابحاث التقنية، التي تجلى الاخذ بها على أتمه، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، هذه الفترة بالذات التي انكمشت فيها الحركة الاقتصادية ولا سيا اسعار المواد وقامت فيها صعوبات عديدة في وجه المشروعات التجارية، والصناعية . فليوناردو ده فنشي الذي اخذ بمبادىء الافلاطونية الحديثة، تدرب في مشغل او مرسم اندره فيروكيو، هذا المرسم الذي كان كغيره من مراسم الرسامين الفلورنتيين، في ذلك العصر، ضرباً من معهد للصنائع والفنون، تدرس فيه الرياضيات وعلم المناظر، ونحت الحجارة وتقصيبها وصب البرونز وافراغه، وفن التخطيط الهندسي، وتحصين المدن وبناء الطرقات، وحفر الترع والاقنية، تلتقي فيها الوان من طوائف الفنانين . عاش ليوناردو ده فنشي ردحاً من الزمن، في مدينة ميلانو حيث احتشد الى جانب لودوفيك لو مور، عدد من المهندسين يتعاطون تشييد الحصون وبناء الترع . وقد رسم بيده عدداً كبيراً من هذه الآلات التي اقتضاها القيام بهذه الاعمال . وقد كون هذا الفريق من رجال الفن، على اختلاف مناصبهم، صورة عن الكون، تختلف كلياً عن الصورة التي وضعها له الكلاسيكيون او البدوانيون . فالواقع المتحيز القائم، هو حقيقة رياضية . « ليتنكب عن قراءة مبادئي هذه من لم يؤت روحاً رياضية » .

« فليس في العالم من معرفة موثوقة لعلم من العلوم الطبيعية، ولا لهذه العلوم التي لا تعول

على الرياضيات» و « ليس من بحث علمي يستحق ان يدعى علماً ان لم يقم على تجوبة رياضية » . فالنسبة لا توجد فقط بين الاعداد والمقاييس ، بل ايضاً بين الاصوات والاوزان ، والاوقات والمواقع ، بشكل ما او على قدر ما ... فالعالم كله ، والحالة هذه ، يقوم على الحساب ، ومبدؤه القياس والوزن ويمكن تمليله وشرحه برده الى سلسلة من النسب الرياضية .

حاول ليوناردو ده فنشي تحطيم العالم الارسطاطاليسي فقد رفض رفضاً باتاً التسليم بالقول ان الارض هي محور الكون « ... فالارض ليست نقطة الدائرة في نظامنا الشمسي كما انها ليست في منتصف الكون . انها هي تقع بين هذه الاحجام المحيطة بها والمتحدة معها » . فقد قال بمجانسة الاجرام السماوية مؤكداً ان القمر مشابه للارض وليس فرقداً الغرض منه انارة الأرض . وذهب الى اكثر من ذلك قائلاً : « لو قام في القمر من نظر الى الارض لوجد ان الأرض تلعب الدور الذي يلعبه القمر بالنسبة لها ، فهي بدورها تضيئه وتنيره » . وقد يكون قال بان الشمس هي محور الكون ، بعد ان شهد : « ان الشمس ثابتة » .

كذلك هدم ده فنشي نظرية الجوهر والنوع . فاسلوبه في التفكير ، اسلوب العلماء الذين جاؤوا بعده ، امثال غاليليو ، في كل ما يتصل بالزمان والفراغ والكتلة والطاقة . فالثقل ، في رأيه ، ليس جوهراً بل هو نتيجة الحركة . كذلك رأى انه ليس من عناصر ثقيلة او خفيفة بذاتها . فالوزن او الثقل والخفة ليسا جوهراً ، ولا من صفات داخلة في صميم الجوهر ، بل مجرد قوى عارضة ، سببها التجاذب او دفع العناصر بعضها لبعض . فهي نتيجة ترابط وعلاقات . هذا هو بعينه نظر العلم الحديث اليوم .

ففي الوقت الذي كان فيه ليوناردو ده فنشي يدون خواطره العلمية هذه ، كان طالب من اصل بولوني او الماني يدعى نيقولا كوبرنيكوس يسجل اسمه ، عام ١٤٩٧ ، في جامعة بولونيا. لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فرّاره (١٥٠٣) فالى بادوا ، (١٥٠٤ — ١٥٠٦) وقد عُرف عنه تبحره بعلم الهيئة بحيث تعين مساعداً تقنياً لدومنيكو ماريا ده نوفارا استاذ القانون اذ ذاك ، والطب وعلم الفلك . وقد درس كوبرنيكوس تحت ادارته وتوجيهاته افلاطون وتضلع ، على الاخص ، من كتابه : طيماوس *Timée* حيث يتناول بالدرس الطبيعة في مظاهرها المتنوعة . ففي الحوار الذي تدور عليه مادة الكتاب،نرى افلاطون كما رأى الفلاسفة الفيثاغوريون من قبل ، ان العلم هو عبارة عن اعداد ، كما ان الرياضيات في نظرهم ، ليست سوى صِيَغ هندسية. فالحساب، وهذه المعادلات النسبية التي نعبر عنها اليوم بطريقة جبرية، تمثلها الاغريق ، من قبل ، اشكالاً هندسية . وهكذا فقد رأوا في علم الفلك ، فرعاً من فروع الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ .ومن هنا أطلت الفكرة الفيثاغورية والافلاطونية التي قالت وعلمت ان العالم باسره يتركب من اعداد ومعادلات وهكذا توصلوا الى النزعة الذرية الهندسية .

نجم من هذا كله امور في غاية الاهمية . ان احسن برهان لاثبات صحة قضية ما ، في نظر

المهندس ، هو ما كان في غاية البساطة اي ما يمكن التعبير عنه باصغر عدد من المقدمات ، وباقل عدد من الكلمات . ان ابسط هذه الادلة هو اجملها على الاطـلاق . والحال ، فالمدى الهندسي هو ، في نظر الفيثاغوريين والافلاطونيين ، المدى الحقيقي وليس المدى المثالي او الذهني . وعلاوة على ذلك ، ان الاجسام تسقط على خط مستقيم كما ان الاشعة الضوئيـــة ، تنتشر هي الاخرى ، بخط مستقيم . ولذا راح الفيثاغوريون والافلاطونيون يعتقدون ان الطبيعة اساسهـا مبدأ البساطة . كذلك نجد عند هؤلاء المفكرين جميعاً الاوليات التالية : « الطبيعة تتبع دوماً اقصر الطرق» ، « الطبيعة لا تأتي شيئاً عبثاً » . « الطبيعة لا حشو فيها ولا نافل ، ولا هي بحاجة الى ما هو ضروري لها » . كل هذه الحقائق اثبتها بحرفيتها الفلاسفة والعلماء الطبيعيون في مــــا علموا وكتبوا ، كما نجدها عند اتباع الفيثاغورية الحديثة والافلاطونية الحديثة . فقد يكون نوفارا على علم بها ، كما ان كوبرنيكوس تشبّع منها ، ولا شك في ذلك .

قـد يكون نوفارا لقّن كوبرنيكوس نظرية الكون الفلكي الذي يسوده ويتحكم به تناسق رياضي وانسجام كلي ، اذ ان تركيب العالم انما هو تركيب رياضي ، وبين تركيبين رياضيين اصحها هو اجملها . وعن طريق نوفارا ، وصـــل الى كوبرنيكوس تأثير نيقولا ده كوس الذي كان كردينال مدينة بركسن كما تأثر به ايضــاً ليوناردو ده فنشي . ويرى نقولا ده كوس ان نظرية الاعداد هي العنصر الاساسي لفلسفة افلاطون . فالكون كله انسجام متنـــاغ لا نهاية له ، للكائنات فيه نسبها الرياضية . « فالمعرفــة هي ابداً مقاييس ، والعدد هو ، في خلد الخالق ، الصورة الاولى للكائنات » .

قد يكون كوبرنيكوس وضع خطوط نظريته العلمية ، منذ عام ١٥٠٦ ، كما يستدل على ذلك من مقدمة كتابه المعنون *De Revolutionibus* اي حول دوران الفلك ، وهي رسالة وجهها الى البابا بولس الثالث ، وقد تعهدها بالتعديل والتطوير بينما كان يعمل رئيس كهنة فرونبُورغ . فرغ كوبرنيكوس من وضع كتابه « حول دوران الفلك » عام ١٥٠٣ ، وخـــلال هذه الفترة كان كوبرنيكوس قد وضع في التداول ، بين ايدي بعض الخاصة من اصدقائـــه ، كراساً صغيراً بعنوان « *Commentariolus* » بسط فيه الخطوط الكبرى لنظريته العلمية . وقد بلغ خبر هذا الكراس ، مسامع البابا ، منذ عام ١٥٣٢ ، بينما كتابه *De Revolutionibus orbium Cœ Les tium* « حول دوران الافلاك السماوية » ، لم يظهر مطبوعاً الا سنة ١٥٤٣ .

ويروي لنا كوبرنيكوس بالحرف الواحد ، قائلاً : « اخذت اشعر بشيء من الانزعاج كيف ان الفلاسفة درسوا ، حتى درجة الاتقان ، كل ما يتصل بادق مخلوقات ارضنـا ، بينما نراهم لا يعرفون شيئاً يذكر عن الحركات التي يقوم بها جهاز هذا الكون الذي ابدعه اقدر المهندسين وامثلهم طراً » . والحال « ان اجل الامور واجدرها بمعرفتنا « أليست حقاً ، هذه العلوم التي تتعلق بحركات هذا الكون الالهي ، وبحركات النجوم السابحة في القبة الزرقاء وما لهـا من مقاييس وابعاد وشروق وغروب ، والاسباب الخفية التي تقوم وراء الظواهر السماوية الاخرى

فترسم لنا عنها صورة كاملة . وهل اجمل من هذه السماء التي تحتوي اجمل ما في الكون ؟ وهذا ما تعلنه عالياً اسماء السماء والأرض ، اذ تعني هذه ، النقاء والزينة ، وتلك كمال الصورة . فعلم الفلك ، هو ، والحالة هذه طليعة فنون الفكر ، وهو اخلق العلوم طراً بالرجل الحر » . فهو يكاد يكون موضوع كل انواع الرياضيات : كالحساب والهندسة والبصريات وعلم هيئة الارض ومساحتها ، والميكانيكا . وكما انه من خصائص العلوم النافعة ان تؤدي بالعقل البشري الى ما هو احسن وافضل وان تجنبه الشر والرذيلة ، كذلك باستطاعة علم الهيئة ان يحقق اكثر من سواه ، كل هذا ، بالاضافة الى المتعة التي يوفرها للعقل من من الناس لعمري ، اذا ما نظر بالفكر الى هذه الامور التي جاءت على خير نظام واحسن ترتيب ، وفقاً لما رسمته العناية الالهية ودبرته ، لا يرى نفسه ، بعد مراقبتها مراقبة مستمرة ، محمولاً الى الخير ، وبعد الاتصال الطويل بها ، لا يسبّح بحمد الله ، مصدر كل خير وكل سعادة ؟

ومع هذا فبطليموس الاسكندري ، صاحب النظرية الفلسفية المشهور ، لم يستطع التحليق الى هذا العلو ، والارتفاع بفكره الى هذا النظام الالهي . فبالرغم من هذه التعقيدات الغريبة التي تفضي اليها هذه الدوائر الثمانين التي يرسمها الكوكب الدائر على نفسه بينما محور الدائرة يبقى دائراً حول الارض قطب العالم الثابت ، فهنالك حركات ودوران كشف عنها العلم منذ وفاته ، لا تتفق والنظام الذي وضعه . ففي الوقت الذي ثبت فيه ان العالم مستدير كهذه الاجرام السماوية التي تتحرك فيه ، وان هذا الشكل هو اكمل الاشكال طراً ، اذ انه حجم لا يحتاج الى وصلة « وبما ان الارض ، هي ولا شك في ذلك ، على هذا الشكل ، كما يظهر من وضع السفينة الآخذة بالابتعاد عن الارض ، فيرى الناظر اليها كيف انها تتوارى شيئاً فشيئاً الى ان تختفي تماماً ، كأنها غابت في اليم » ، بينما « حركة الاجرام السماوية هي حركة دائرية محورية » اذ ان من خاصية الحركة التي ترسمها الكواكب المستديرة هي ان تدور على نفسها ». و « بهذه الحركة بالذات ، وبينما هي تتحرك على نفسها بشكل سوي ، ترسم الشكل الذي لها ، شكل ابسط الاجسام ، حيث لا بداية ولا نهاية » مع ان هنالك على ما يبدو ، حركات تخالف ظاهراً هذه الحقائق ، لم يتوصل العلم بعد الى تعليلها وتفسيرها كما يجب . « وبالفعل ، فالشمس والقمر يبدو عليهما انهما يدوران تارة ببطء اكبر ، وطوراً بسرعة اكبر . اما الكواكب السيارة الخمسة الاخرى ، فيبدو لنا منها في حركتها وكأنها تعود القهقرى ، وتمر بفترة توقف بين دورتين » ، هل هنالك ، لعمري اي زيغ او عدم انتظام من اي شكل في قدرتها على الحركة ، اواي تغيير ما في الكوكب المتحرك على نفسه ؟ « فالعقل يتراجع مرتعداً امام هول هذين الفرضين » لانه « ليس من اللائق قط ان نذهب بالظن الى شيء من هذا في هذه الاجرام السماوية التي جاء تكوينها على احسن ما يكون من نظام وترتيب » .

« ولذا كان لا بد ان نفترض » بان حركاتها المتساوية تبدو لنا وكأنها غير متساوية » لان « الارض ليست محور هذه الدوائر التي ترسمها الكواكب في دورانها » . « وهكذا ، فالكواكب

تبدو لنا احياناً على مسافة قريبة من الارض، وطوراً على مسافة بعيدة ، وتظهر لنا حركاتها هذه على هذا الشكل عندما تكون قريبة جداً منا اكثر منها بعيدة . فالحركات المتعادلة التي ترسمها هذه الاجرام السماوية ، تظهر اذا ما نظرنا اليها من ابعاد مختلفة ، وكأنها حركات غير متساوية في اوقاتها » .

ليس ما يؤكد قط ، بعد هذا ، ان الارض هي ثابتة في وسط هذا الكون، وذلك « لأن كل حركة محلية ظاهرة تنجم اما عن حركة الجسم ، موضوع الرؤية ، واما عن الحركة التي يخضع لها الرائي او المشاهد او عن حركة متفاوتة لدى الطرفين » .

و « الحال ، ان هذه الحركة المحورية او الدائرية تبدو لنا رؤيتها وتتمثل على احسن وجه ، اذا ما نُظر اليها من الارض؛ فاذا كان للارض شيء من هذه ، بدت الحركة في الاجرام الواقعة خارج الارض فتسير هي وراءها بالسرعة ذاتها ، انما باتجاه معاكس ؛ وهذه هي في الدرجـــة الاولى حركة الارض اليومية . وهذه الحركة تبدو وكأنها تجر معهـا الدنيا بكاملها ، باستثناء الارض والاجرام الواقعة على مقربة منها . والحال فلو سلمنا جدلاً ان الفلك ليس على شيء من هذه الحركة على الاطلاق، وان حركة الارض تتم من الغرب الى الشرق، واذا ما دققنا النظر ملياً في ما ينتج عن ذلك بالنسبة لما يبدو لنا من شروق الشمس ومغيبها، والقمر والكواكب الاخر ، نجد ان الامور هي على مثل هذا الوضع » . وهذا هو بالذات ما ذهب اليه بالفعل ، من قبل ، الفيثاغوريون ، امثال : هيراقليذيس وأكفانتوس ونيكاتوس السيراقوزي .

كذلك، « اذا ما راح احدهم ينفي ان تكون الارض تحتل مركز الدائرة في هذا الكون ... وراح يعتقد، من جهة اخرى، ان حركات الكواكب تبدو وكأنها غير سوية، مع انها منتظمة غاية الانتظام بالنسبة الى محور آخر غير محور الأرض، امكنه ، والحالة هذه ، ان يأتينا بتفسير لما يرى من عدم انتظام وعدم استواء هذه الحركة، لا يكون غير معقول » . هذا هو رأي الفيلسوف الفيثاغوري فيلولوس الذي قال بان للارض حركة رحوية لانها تدور على نفسها ، وهي بالتالي كوكب من هذه الكواكب

والحال ، فكل هذه الشواذات التي تبدو لنا في حركات النجوم يمكن تعليلهـــا وتفسيرها بشكل اقرب الى الطبيعة تبدو معها الاشياء اكثر وضوحاً وانتظاماً وانسجاماً، اذا ما سلمنا بان الشمس هي الثابتة في وسط هذا الكون الشاسع الذي يحده ، مع ذلك ، انما على ابعاد لا تقاس ، حجوم نجوم ثابتة تتسع لكل شيء كما تتسع لنفسها، « وان ابتداء من هذه الكرة الارضية هنالك اجرام تدور حول الشمس هي الكواكب السيارة، فترسم الاولى من هذه السيارات ، وهي زحل، دورة حول الشمس تتم في ٣٠ سنة ويليه المشتري الذي يتم دورته في ١٢ سنة ، ثم المريخ في سنتين، وتأتي في المرتبة الرابعة من هذه السلسلة ، الدورة السنوية التي تقع ضمنها الارض والشمس . وتأتي في المرتبة الخامسة

الزهرة التي تكمل دورتها في ٩ اشهر . والمرتبة السادسة هي لعطارد الذي يتم دورته في ٨٠ يوماً . وفي وسط كل هذه الكواكب تقوم الشمس . وبالفعل ، في هذا الهيكل البديع ، من يمكن ان يقيم او ان يركز هذا الفرقد في محـــل آخر اجمل من هذا الموضع الذي يمكن ان يشع بانواره الى كل مكان ويستضيء الجميع بنوره ؟ وهذه الشمس ، وكأنها ترتكز الى العرش الملوكي ، هي التي تتحكم بهذه الاسرة من الكواكب المحيطة بها ... ونجد في هذا النظام البديع ، هذا الانسجام الذي تبيناه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة ، وحجم الكوكب ، وهي نسبة لا يمكن ان نجدها على مثل هذا النحو ، في مكان آخر... فليس اكمل واتم لعمري ، من هذا العمل الالهي الذي خرج من يد المهندس الاكبر ، احذق المهندسين طراً ، وابرعهم » .

بهذه الصورة الجمالية التي رسمها كوبرنيكوس بعد ان قال بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، وجد نفسه مخالفاً للشعور العام ، ومتعارضاً مع حرفية التوراة ومـــع النظرية الجامعية التي احتضنتها الكنيسة . فبنيانه هذا يرسم صورة علمية جديدة للعالم ، ويستبدل ، اينما استطاع ذلك ، صورة الجوهر بالصورة الهندسية . فالصورة الجوهر هو المبدأ او الاصل الذي يجعل من الماء ماءً ، والماء الصافي سلسبيلاً ، وليس بمجرد التقاء ذرتين من الهيدروجين مع ذرة مـــن الاوكسجين . فقد علّم ارسطو ان لكل كائن « صورة جوهر » ، مبدءاً ، حيث توجد روح . فالماء له شكل جوهري يعطيه سمته المفرّدة. كذلك لكل من الكواكب صورته الجوهر ، هذا المبدأ الروحي الذي يجعل من الكائن ، ماهو عليه ، ويعطي كل فرد الحركة التي تحركه . والحال ، نرى كوبرنيكوس يحدثنا ، في كل لحظة ، عن « صورة » ، ولكن ، حيث كان تلاميذ ارسطو واتباعه يقصدون « الصورة الجوهر » كان هو يقصد دوماً ، بهذا التعبير ، « الصورة الهندسية » . فلم تعد عنده ، طبيعة الكواكب النوعية ، ولا ما لها من مادة وهيولى ، هي التي تجعلها موضوعاً قابلاً للحركة وتوليها هذا الشكل الكروي . فالكواكب هي كرات ، وهذه الصيغة او الشكل هي اكمل الاشكال واتمها ، وهي التي تجعل الكواكب قابلة لتقبّل الحركة ، اي الحركة الدائرية او المحورية . ففي الصورة التي وضعها كوبرنيكوس لنواميس الكون العامة ، نرى الكواكب تتحرك وتدور على نفسها بكل بساطة ، بفضل مالها من شكل هندسي ، وليس بفضل ما هي عليه طبيعتها . فالاجرام السماوية هي على مثل هذا الوضع : فهي تدور وتتحرك فقط لانها كروية الشكل . كل شيء يتحرك من نفسه بسبب ما له من شكل هندسي . فتفهُّم العالم اساسه القياس والعدد .

ولكن اذا كانت الامور كما وصفنا وقدمنـــا ، فلا حاجة بعد هذا ، « للمحرك الثابت » ، الذي يفرض ارسطو وجوده ، وبالتالي لله الذي يولي « الدفع » الاساسي ، هذا الدفع الذي ظن به فلاسفة جامعة باريس . فلا لزوم ، بعد هذا « لعقول الاجرام السماوية » ، وبذلك تفقد الارض الى الابد ، ما ميزها به عقل الانسان مجاناً ، من خصائص ، ولم يَعُد لها ، بعد هذا ، من كيان ذاتي ، مستقل ، ينتصب في وجه الاجرام السماوية ، كعالم قائم لذاته ، فلها ما للكواكب الاخرى من حركة رحوية ، وتخضع مثلها للقوانين ذاتها ، فهي تؤالف مع الكون كلا متجانساً . فالارض لم

لعد محور الكون ونقطة الثقل فيه ، وهذا الكون لم يعد يتحرك لها ومن اجلها . وهكذا حطم كوبرنيكوس هذا الكون الارسطاطاليسي الذي كان يوماً ما السر المقلق كما تبدّى من خلال التوراة . فبهذه الصورة الرياضية التي رسمها للكون وطلع بها على العالم ، قلب بها ظهر المجن ، لهذه التراكيب الكوسموغرافية القديمة وضرب بها عرض الحائط ، وبذلك مهد السبيل لظهور كبار علماء الفلك في العصر الحديث ، امثال : كبلر وغاليليو ونيوتن ولا بلاس ، فاطل علينا المفهوم الجديد للرياضيات . فالكون لم يعد سوى مجال هندسي فسيح الارجاء والرياضيات مفتاحه . والشيء الوحيد الذي بقي على الانسان الكشف عنه والظفر به هو ان يتوصل الى ما « للوظيفة » من مفهوم ، فيصل منها الى نواميس الحركة .

السياسة ومفهومها الجديد: مكيافلي

اخضع الفلاسفة المدرسيون السياسة ، لاحكام الدين ، فسعوا جاهدين ، للوصول الى نظام سياسي حر عن طريق عالم مسيحي ، واشتراع خير القوانين الزمنية لتأمين رقي الفرد وضمان تقدمه الروحي في مدينة الله هذه ، خاضعة لناموس الانجيل ولمقتضيات اخلاقياته . اما الفلاسفة « الانسانيون » في ايطاليا ، خلال القرن الخامس عشر ، فقد جعلوا السياسة في خدمة اخلاقية تعمل لخير الانسان وتنهض بالمثل التي يتشوق اليها . فقد راحوا يبحثون عن خير الوسائل التي تمكنهم من اقامة مدينة مثالية كما تمثلها فلاسفة ذلك العصر ، قوامها العدل والمساواة ، واحترام القيم الانسانية ؛ لتفتح امام الفرد مجال الارتقاء والتطور . وراح مكيافلي « هذا الفيزيائي الضال الذي طلع به التاريخ » يشيد السياسة على تقييم الروابط التي تشد ، بعضاً الى بعض ، القوى المادية والادبية ، والقدرة على التحكم بهذه القوى وتوجيهها ، وصولاً للسيطرة وبسط النفوذ . وهكذا اصبحت السياسة علماً ايجابياً يقوم على المادية التاريخية غير الاقتصادية .

وهذا التطور يطرأ على التفكير ، نحن مدينون به لرجل أوتي القدرة على «الجمع والتوفيق بين حاضر عامر بالتجربة الحية وبين ما تم له من ثقافة معرفة من خلال مطالعاته وقراءاته المتصلة» . لقد عمل مدة طويلة سكرتيراً لدائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية الفلورنتينية التي من اختصاصها الاشراف على الشؤون الادارية للموظفين والحكام المتمرسين بالوظائف العامة ، في هذه المدن الخاضعة للجمهورية منذ عام ١٥٠٨ ، كما تولى ، في هذه السنة بالذات ، سكرتيرية لجنة « حراس الحرية والسلام العشرة » المعنية بتنظيم شؤون الدفاع عن الحرية والاشراف على سفرائها وممثليها . كذلك عمل في الوقت ذاته ، منذ عام ١٥٠٠ ، سكرتيراً « للجنة الميليشيا التي تتألف من تسعة اعضاء » كما كان، منذ عام ١٥٠٢ ، المستشار الخاص للحاكم الاول *Gonfalonnier* الذي كان يتولى سلطات رئاسة الجمهورية . جمع مكيافلي في شخصه هذه الوظائف المهمة حتى سقوط الجمهورية ، عام ١٥١٢ ، ورجوع آل مديتشي الى حكم المدينة من جديد .

فبعد ان جرت تنحيته عن هذه الوظائف الرئيسية التي كان يضطلع بها ، وفرضت عليه

الاقامة الجبرية في قرية صغيرة تدعى سان كسيانو ، انصرف للدرس والتأمل والمطالعة . فقرأ تاريخ تيت ليف وآثار شيشرون التي تبحث في السياسة ، وكتاب السياسة لارسطو ، وكتاب التاريخ لبوليب . وفي عزلته هذه اخذ يهيء لكتابه المشهور : « الامير » الذي انتهى من وضعه عام ١٥١٣ كما انتهى من وضع بحث آخر بعنوان : « خطبة حول المرحلة الاولى من مراحل حياة تيت ليف» . وهدف بوصفه من كبار النافحين في الروح الوطنية في ايطاليا ، الى إنشاء دولة تمثل الشعب الايطالي برمته وتتكلم باسمه وتتولى عنه شؤون الدفاع ومعالجة الشقاء الذي يتسكع فيه .

وأخذ يطيل النظر ملياً في التاريخ كما وصل الينا عبر المؤرخين . « فاذا ما راح الناس يسيرون مع التيار عندما تتعلق الامور بادارة الدول ونظام الحكم فيها ، او عندما ينظر في امر تعبئة الجيوش وقضايا الدفاع ، فذلك لانهم لا يفقهون للتاريخ معنى ولا معرفة لهم باصوله كما يجهلون تماماً اتخاذ العبر منه وتذوق طعم ما يقدم لهم من عظات بالغة (خطبة – جزء ١ ، المقدمة) . ويأخذ مكيافلي باستعراض الاسس التي تبنى عليها الدول والدساتير التي تنهض عليها الممالك وتتطور وتبلغ اشدها الى ان يعتريها الهرم والوهن فتحاول التخلص من الضعف الذي ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن فأخذ يعارض ، بعضاً ببعض ، النظم السياسية التي توالت عبر التاريخ على مر السنين وكر الدهور ، كالجمهورية الرومانية والجمهوريات الاغريقية ، والمدن – الدول الايطالية التي قامت في عهده وغيرها من الدول الكبرى التي تقع منه في مأتى العين . وفي هذا السبيل استخدم اسلوب الاستقراء التجريبي ، فعارض النتائج التي يقدمها له التاريخ القديم بالعبر التي يتخذها من العصور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة جل اهتمامه ، هذه السياسة التي تتحكم بكل شيء وتهيمن على كل شيء . ويطرح جانباً ، كل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية والاجتماعية . ولما كان جمهورياً في الصميم ، فقد مر مرور الكرام بتجربة الامبراطورية الرومانية وبامبريالة البندقية الاستعمارية .

ولما كان قد وقع تحت تأثير جامعة بادوا واستلهم الكثير من نظرياتها التقدمية ، فقد رأى المجتمعات البشرية تخضع في الصميم ، لناموس التاريخ يعيد نفسه . فالمجتمعات البشرية تتبع خطاً سوياً في تطورها الصاعد وتكاملها المطرد . فالناس يعيشون في اول امرهم ، متفرقين ، في عزلة بعضهم عن بعض . ثم يأخذون دفاعاً عن انفسهم ضد الاعداء الذين يتربصون لهم الشر ، ودرءاً منهم للمخاطر والاوبئة التي تتهددهم الطبيعة بها ، وهي كثر ، يلمون شعثهم كتلاً متراصة ، ويجمعون شملهم صفاً واحداً . واذ ذاك ، تطل عليهم مشكلة القيادة ، فيختارون من بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيههم : اناساً اشداء عُرفوا بالشجاعة والاقدام . وبعد ان يطلع عليهم مجتمع متكون ، يراود الاذهان منهم والخواطر قضايا العدل والظلم ، وما يتصل بهذه الاشياء من اخلاقيات وادبيات ؛ فيصدرون شرائعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحياتية . وفي سبيل العمل

بهذه القوانين وتطبيقها بعدل، يختارون لهم جماعة النصف اصحابها بحصافة الرأي والحجى وحسن التدبير . وبدلاً من رجال حرب ، يختارون لهم ملكاً يشرع لهم نظاماً ملكياً ، شورى. وما تكاد تمر بضع عقود حتى يشتط الملك فتأخذه الرغبة باستدامة الحكم في ذريته ، فيخرج على الشورى ويحيل نظام الملك نظاماً وراثياً يعمل بدء ذي بدء ، في سبيل خير الجموع . وبعد لأي من الزمن يتوالى على الحكم فيه بضعة اجيال يأخذ الملك بالتفكير بمصالحه الخاصة ويمضي في استغلال الرعية على ابشع وجه ، ويصبح فيها طاغية جباراً يسيمها الواناً من الضغط البغيض في سبيل ابتزاز اموال الناس . واذ ذاك يشمر زعماء الاسر الكبيرة في البلاد عن ساعد الجد وقد التف الشعب حولهم ، فيعلنون الثورة ويعتنقون معها النظام الديمقراطي ، فيسير هذا النظام في بدء امره ، ونصب عينيه المصلحة العامة ، الا انه لا يلبث حتى يدب اليه الفساد باسرع مما دب في النظم السياسية الاخرى التي تعاقبت على الدولة ، من قبل ، فيستحيل الى نظام ديماغوجي بغيض يضرب بحقوق الخاصة عرض الحائط . ويسخر الحكام في سبيل اشباع شهوته في الحكم، ويُعرِضُ عن المصلحة العامة مؤثراً عليها مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية المباشرة لا يبالي بالمستقبل ولا يلوي على مصير . واذ ذاك ، تطل على الحكم شعوب الدم الحار ينبض قوياً في عروقها ، فلا تلبث ان تستأثر بالامر ، بعد ان تكون طهرت الارض بقوة السلاح ، من هذه الاشباح المخيفة التي روعت الشعب واقلقت راحته . ولعل الوسيلة الوحيدة لايقاف الانحدار فالانهيار المحتوم او أقله لتأخير ساعته ، هي في قيام رجل له من العبقرية الادارية والمقدرة ما يستطيع معه وضع حد للانزلاق القتال وذلك بانشائه، في البلاد، نظاماً يشترك فيه دعاة الملكية وممثلو الارستوقراطية ونواب عن الشعب . والسبيل الوحيد لرد المقدور والحؤول دون غزو اجنبي للبلاد يأكل فيها الاخضر واليابس ، هو قيام رجل مبدع، خلاق ، يعيد نظام الملكية الى البلاد ، من جديد . وهكذا دواليك .

في هذه الدورة لنظم الحكم في الدول يستعرض لها مكيافلي، لا بد من الوقوف لدى وضعين متميزين ، مختلفين هما : حكومة شرعية ، وحكومة قائمة فعلاً بقوة السلاح . فالحكومة الشرعية ، هي التي تقوم على تراضٍ او تعاقد ضمني بين الحكام والمحكومين . يترتب على هذا النوع من نظم الحكم ، كما هي الحال في النظام الملكي الفرنسي ، ان يترك للملك ، حق استخدام القوة ، العسكرية والاعتماد على بيت المال في توطيد اسباب الأمن في البلاد. ويجب ان تُسَنَّ كما هي الحال في فرنسا ، مثلاً ، قوانين تجعل الملكية الشخصية والحرية الفردية بحمى القانون . كذلك يجب ان تقوم هيئة تشريعية ، كمجلس ممثلي البلاد في باريس ، يسهر على احترام تطبيق مضمون هذا العقد بروحه . ويترتب على دين الدولة الرسمي ان يَكِلَ الى من يعهد اليهم القيام بالخدمة الروحية من الكهنة وخدام الهيكل ، العمل لدى المواطنين لحملهم على القيام بواجباتهم المدنية خير قيام حتى ولو طُلب اليهم بذل دمائهم في سبيل الوطن . وهذه الحقوق السياسية المعترف بها لبعض الهيئات المنتخبة ، يجب ان تكون من نصيب فريق من الرياء البورجوازية

ولا سيما التجار بينهم ، بحيث ، يحال دون الاثراء غير المشروع من قبل البعض فيصبحون بما لهم نفوذ ، خطراً على النظام . كذلك يتوجب ان تقوم هيئة تتمتع بصلاحيات خاصة يُعهد اليها النظر في الجرائم التي تهدف للمس من الدستور . فاذا ما استهدفت الدولة خطر الوقوع في قبضة احزاب يهمها حمل احد انصارها الى الحكم ، كان لا بد لها اذ ذاك من قيام دكتاتور يضطلع بمهمة اصلاح الدولة وفقاً لروح دستور البلاد والقوانين المعمول بها ، فيحدد بصورة واضحة ، طبيعة الدولة ، ويهيء لها الظروف المؤاتية للعيش السليم الكريم . اما اذا اشتدت المنازعات وتعاظم شأن الفوضى واضطرب حبل الامن في الداخل ، ترتب على الهيئات المنتخبة ان تعيد الى البلاد نظام الملكية ، القادر وحده ان يفرض احترام الحريات العامة ويصون حرمة القانون.

اما انظمة الحكم التي قامت على اغتصاب السلطة قسراً وعنوة ، فعلى الملك الا يتورع قط من رد الامور الى نصابها ، مهما كلفه الامر من تضحيات عزيزة ، ومهما اقتضاه من ثمن غالٍ ، والا اضطر فيما بعد لمواجهة ما هو ادهى من ذلك . عليه مع هذا ان يحترم حقوق الملكية الفردية وان يحافظ على ما للمرأة من حرمة بين المواطنين . « فالناس يهون عليهم تناسي موت آبائهم واعزائهم ولا يتناسون ضياع املاكهم الموروثة » . من الضروري اصطناع الفضيلة والاعتصام بالمكر . ثم ، بعد هذا كله ، هل من غضاضة قط ان يعتصم المرء ، عند الاقتضاء ، بالكذب والافتراء والخداع والحنث بالقسم المغلظة ، والتجاوز عن الوعد المقطوع ؟ فالغاية وحدها تبرر الواسطة ، ومنفعة الدولة يجب ان تأتي فوق كل شيء وقبل كل شيء . ومن هنا اخذ الفلاسفة النظريون الذين فلسفوا وضع المجتمع ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فكرة مصلحة الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الامير ان يعمل بما فيه خير المصلحة العامة ، والا كان طاغية وُجب التخلص منه ولو بالقتل والاغتيال. وهنا اخذ مكيافلي يفصل قضية الاغتيال السياسي ويزكيها .

فالعلاقات بين الدول ، سواء أكانت شرعية او حكومات بالقوة وعلى العنف ، سداها المنافسة ولحمتها الحرب . فالحرب وضع طبيعي في المجتمع ، جد نافعة ، اذ تقضي في النهاية ، الى اختيار الافضل بين الدول ، تلك الدولة التي تقوم فيها خير النظم السياسية ، فتعمر طويلاً ، وتكتسب لها الغلبة والسيطرة . فالغرض من المجتمعات البشرية هو تأمين ما يُفضي بها الى تحقيق القوة ، اداة الفتح المثلى ، والوسيلة الكبرى للتوسع ، وهي هذه الاهداف بالذات التي يترتب على السياسي ان يضعها دوماً نصب عينيه . فعلى الدولة ان تتصرف بسرعة في حروبها مع الخارج ، وان تعتمد سياسة الهجوم الرادع ، وان تتنكب عن الحياد . يجب ان تتوفر لها مجموعة من القوانين الرشيدة ، اذ ان السلام ، في الداخل ، هو شرط لا بد منه لاعداد وتأمين جيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية . فعلى رئيس الدولة ان يكون ، دوماً القائد الاعلى للجيش . على الدولة التي تخوض الحرب ان تتنكر لكل عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء

على قوى العدو ، بكل الوسائل الممكنة لديها . ان توازن القوى منصوص عنه في العهود والمواثيق المعقودة . وعلى رؤساء الدول الا يتورعوا قط ، والا يترددوا ابداً ، بتجاهل الوعد المقطوع ، وان يلحسوا تواقيعهم اذا ما اقتضتهم مصلحة دولهم ذلك .

وهذه السياسة التي جعل منها مكيافلي علماً باصول ، تعرضت للنقد والتجريح ، ولو عمل بها وتبنى الاخذ بها كثيرون وعملوا بمقتضياتها . فالاسماء والحوادث لا تفوت احداً لكثرتها ووفرتها .وقد جاءت هذه السياسة الجديدة تكمل الذهنية او العقلية الجديدة ، وهذه التيارات الفكرية التي جالت في خواطر الناس ، وهذه الصورة الجديدة التي برزت لهم عن هذا الكون ،وتبلورت ، على أتمها في مظاهر العقل البشري على اختلاف مناحيها ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لتنتقل ، في خطوطها الكبرى ، الى اوروبا فتنتشر في جميع ارجائها وتسيطر عليها فترة لا تقل عن ثلاثة قرون . وقد تم وضع هذه النظم في القوالب التي استقرت عليها ، على يد الايطاليين ، قبل غيرهم ، بعد ان عوّلوا على التليد من تراث التاريخ القديم . فليس من الحماقة ،وليس من الجهالة بشيء ،بعد هذا، ان نسمي هذا كلهالنهضة او عصر الانبعاث.

الاوضاع الاجتماعية والمجاري الفكرية الجديدة

نرى أنفسنا مسوقين بصورة لا تقاوم ، للخوض بحثاً في الاسباب التي ادت الى ظهور مثل هذه التيارات الفكرية الجديدة . ليس بالمقصود هنا النظر في الحوافز ولا التحري عن الاسباب والدوافع التي أدت الى خلق مثل هذه الاوضاع .ما من ظاهرة تستطيع ان تكون سبباً لظاهرة اخرى الا اذا سبقتها وتمت قبلها ، وكان لها من التغيير والتبديل ما يتفق تماماً وطبيعة التطور الذي احدثته الظاهرة الثانية ، فجاء تأثيرهما واحداً وتم في الخط ذاته . قلما عثرنا خلال دراستنا للمجتمعات البشرية على حدوث مثل هذا الامر بحيث نستطيع التحدث بمعرفة وتفهم عن اسبابه. فالبحث المزعوم عن الاسباب في التاريخ ليس ، في الغالب ، سوى عملية ابدال الاحكام والتصديقات الفلسفية ، كالحكم المثالي الذي يقول بان كل التبدلات انما تصدر عن العقل الانساني الذي يتبدل ويتلون فجأةمعالوقت ، وكالحكم المادي الذي يقرر ، بعكس الاول ، ان وسائل الانتاج والصراع الطبقي كان عبر التاريخ المحرك الاول ، والدافع الاكبر. يبقى ان كل هذه الآراء هي احكام عقلية ليس الا .

ولكي نحدد المؤثرات في ايطاليا النهضة ، يجب ان نطبق على الاقتصاد والمجتمعات البشرية والنظم السياسية ،شيئاً شبيهاً بما تم في بعض حقب القرنين الرابع عشر والخامس عشر في الفنون والفلسفة والعلوم ، هذه المقارنة المنهجية ذاتها ، بشأن هذه الانشاءات والموضوعات التي وقعت خلال العقود ١٤٨٠ — ١٤٩٠ — ١٥٣٠ —١٥٤٠ . وقد قادتنا هذه العملية الى التأكيد بان عالماً جديداً ظهر في دنيا الافكار والحساسية . وهل يمكن التأكيد ايضاً بانه أطل كذلك عالم جديد في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ؟ نرى معظم المؤرخين الايطاليين لا يسلمون فعلاً بهذا القول . فالذين ركزوا منهم اهتمامهم على الجانب الاقتصادي ينكرون ظهور اي طابع أصيل او اي

تجدد من هذا القبيل ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، اذ نراهم يعلنون انهم لم يعثروا خلال التقصيات التي قاموا بها ، على اي طابع او اسلوب جديد . فها هو النظام الاقتصادي نفسه يستمر على وتيرة واحدة ، مع بعض فوارق كمية لا يؤبه بها . وعلى هذا يجب ان نقيس ايضاً السياسة . فالمؤرخون الايطاليون يشملون في فترة واحدة كل هذه الامارات (*signorie*) التي طلعت بين ١٣١٣ او ١٣٤٣ الى ١٥١٦ وحتى الى ١٥٥٩ . وبما انهم تبينوا صفات جديدة واضحة بدت على الفن والعلم ، والصورة الجديدة التي رسموها للعالم ، وجب ان نستنتج ان هنالك فراغاً شاغراً بين هذه النشاطات على اختلاف الوانها والنشاطات الاخرى التي المعنا اليها. هذا شيء له اهميته الخاصة ، اذ ان المؤرخين يعملون على اساس شيء مُسَلَّم به وهو ان النشاطات البشرية المختلفة تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل معاً بحيث تؤثر الواحدة بالاخرى . فنحن مع كل هذا امام حدس اولي مسلم به ، تؤيده بعض الوقائع كما تدحضه وتنفيه وقائع اخرى ، من جهة ثانية . قد يكون وقع شيء من الانقطاع وعدم الاستمرار بين المجتمعات البشرية ، الا انه يتعذر ، مع ذلك ، اصدار حكم نهائي حتى في ما يتعلق بايطاليا نفسها ، في مطلع القرن السادس عشر ، اذ ان عملية المقارنة المنهجية هذه بين الاقتصاديات والمجتمع ، والنظم السياسية التي سادت آنذاك ، وبين ما تم منها في الماضي وما طلع منها في العصور التالية ، لم تستكمل عمليتها كل اطرافها .

فكل ما يمكن عمله الآن هو ان نكتفي بتسجيل الوقائع التي يصح اعتبارها ، بصورة معقولة ، ظاهرات رافقت هذا التبدل الحاصل في العقلية واساليب التفكير ، وان نتبين فيما اذا كانت هذه المفارقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشاهدها بين الممالك والامارات الايطالية ، لا تنم عن تباين وفوارق في مناحي التفكير ، تنبىء بوجودها ، هذه الانجازات التي تمت وظهرت في مجالات الفن والادب والعلم .

ففي مطلع القرن السادس عشر ، نرى روما تحل محل فلورنسا وتأخذ منها مركز الصدارة في حركة النهضة ، فتصبح محور البعث الفني والذوقي في البلاد . فالفن الروماني والانسان الروماني اصبحا النماذج التي يحتذي حذوها في ايطاليا باسرها ، كما ان ايطاليا اصبحت بدورها القرار الذي سارت عليه اوروبا . ومنذ ذلك الحين تصبح روما قبلة الفنانين ، وملتقى الادباء الايطاليين فيفد عليها رفائيل من مدينة اوربين ، وبمبو من البندقية ، وكستغليوني من اوربين ايضاً ، وميكالو انجلو من فلورنسا ، بحيث نكاد لا نرى بينهم فنانين وادباء طلعوا من اوروبا نفسها . فما هو سبب توافدهم على مثل هـذا النحو يا ترى ؟ لا شك ان الثورات المتكررة التي تضرست بها فلورنسا أدت الى اضعافها وايهانها . اما السبب الاول ، فهو ولا مراء بذلك ، التطور العظيم الذي شهدته الدولة البابوية في عهد آل بورجيا ، مع البابا جول الثاني . من هذه الدولة الحضرية ومن عاصمتها روما ، التي احاط بها من كل صوب ، امراء مشاغبون وبلديات تسودها الفوضى ، اراد البابوات ، ولاسيا البابا جول الثاني منهم ، ان ينشئوا منها دولة اقليمية

موحدة ، مطلقة الحكم ، عصرية الطابع . وفي هذا السبيل، قضى البابا جول الثاني صدراً كبيراً من حبريته يؤدب ، داعياً اياهم للطاعة والولاء ، البارونات الرومانيين ، كما سعى لاستعادة ما انتزعه من الممتلكات الخاضعة للدولة البابوية ، سكان البندقية وميلانو وغيرهم من الامراء المحليين . وفي هذا السبيل ، بذل البابا جول الثاني نشاطاً جماً لجعل ايطاليا برمتها وحدة متراصة ضد الاجنبي المحتل المغتصب لخيراتها . وليجمع الايطاليين صفاً واحداً ويوجههم متحدين ضد البرابرة . فشل مسعاه بالطبع ولم ينجح الا باخراج الفرنسيين وتوطيد نفوذ الاسبان ، على كره منه . وهذه الجهود الكبيرة والمحاولة الجريئة يبذلها جول الثاني لاعطاء البابوية دوراً وطنياً شاملاً وامبريالياً ، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مُضنٍ ، يبذلها البابا جول رغبة منه في ان يُظهر مظهر السوبرمان ، او بطلاً وطنياً . جاشت نفسه بالعظمة فراح يسعى ما وسعته الحيلة لتحقيق الفكرة التي راودت خياله بجعل البابوية الرومانية تبز روما القديمة ، روما القياصرة ، بما تم لها من عظمة وسؤدد ومهابة يضفيها عليها السيد المسيح ونائبه على الارض . فهذا الجهد ، وهذا البذل، وهذا التعطش للعظمة البشرية، هو من بعض ما جاشت به الافلاطونية الحديثة ، التي ميزت هذه النهضة الانسانية الشاملة .

ضرب جول الثاني بتصرفه هذا تقليداً ذهب بعيداً في التقاليد الايطالية . انتقل الى مَهوِيّ الآداب والفنون البابا ليون العاشر الذي عرف ، بالمعاهدة التي عقدها عام ١٥١٦ ، ان يبعث نشاط الملكية البابوية في الكنيسة ، كما نزعت نفسه الى إقامة الحكم الالهي او حكومة ظل الله .

وفي هذا السبيل ، استطاع البابا ان يستخدم كل ما في الدولة البابوية من طاقات وقدرات ، هذه الدولة التي تألفت قبل كل شيء من البلاط الذي يضم نحواً من ٧٠٠ شخص ، يؤمنون تحت سلطة البابا الشخصية ، المطلقة ، الخدمات العامة ومسؤوليات الحكم ، بما لها من منظمات وهيئات . فالى جانب اولاد اشقائه واعضاء اسرته ، وكتبة سره والموظفين ، هنالك طغمة من رجال الدين ، والاشراف والفنانين والصناع ، دوماً على استعداد كلي لتنفيذ ما يعهد اليهم من مهمات وخدمات وتعليمات . أوليست روما جنة غناء تفيض نعمى وثراء، يقصدها العديد من الاغراب النوابغ ، طلباً للعيش الرغيد والثراء السريع ، يتحرقون شوقاً لشرف العمل في البلاط البابوي ، او تَصَيُّداً لامتيازات واعفاءات كنسية في اي صقع من اصقاع الارض ؟ والعيش في هذا البلاط عيد دائم . والى هذا ، فلكل كردينال من كرادلة الكنيسة هو الآخر بطانته وحاشيته التي تتألف من عدد كبير من النبلاء والاخصاء والادباء والفنانين . فقد تألفت بطانة الكردينال فارنيز ، حوالي عام ١٥٢٦ – ١٥٢٧ من ٣٠٥ اشخاص ، وحاشية الكردينال سيزاريني من ٢٧٥ شخصاً ، والكردينال اورسيني من ٢٠٠ شخص . كذلك لكل من هؤلاء البارونات والاشراف الذين يرأسون مصالح الدولة ودوائرها حاشياتهم المريضة وان لم تكن على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والخدم التي توفرت للكرادلة . ومع هذا ، فحاشية دومنيكو مسيمى لم تكن لتقل عن ١٧٠ شخصاً ، بقطع النظر عن الضيوف الطارئين .

والبابا الذي يحكم روما بواسطة الكردينال نائبه ، والذي يؤمن لها الحياة بواسطة بلاطه ، يجد في الرومانيين خير عضد لسياسة العظمة والابهة التي ينهجها . « فالشعب الروماني » هذه الفئة الصغيرة من النبلاء المسجلة اسماؤهم في سجل المجلس العام ، بعد استثناء هؤلاء الاشراف الاقطاعيين القدامى منهم ، يعتبر نفسه الوريث الشرعي لروما القديمة ، ولذا حمل كل عضو من اعضاء مجلسها البلدي « لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هـــذه الحروف الرمزية : S. P. Q. R. التي تختصر العبارة *Senatus Populusque Romanus* اي مجلس الشعب الروماني كما ان الشعب اعتبر دوماً روما « المدينة » *URBS* . فكأن بالشعب اجمع يهفو للعـــلى والعظائم . والعالم المسيحي نفسه يغذي هذا الشعور العارم ويزيده تأججاً واضطراماً. فالحجاج والسياح وكل من جاشت نفسه من الفنانين بالطموح ، يتوافدون على روما التي تعيش عـــلى استغلال الوافدين واعتصارهم ، مدينة تحفل بالنبلاء واصحاب الوظائف الكنسية والخـــدم والحشم ، تكاد العين لا تقع على اي ممثل للبورجوازية بينهم .

والآثار القديمة تمثل جانباً هاماً من الدور الذي تلعبه روما . فهي مـــن اغنى بقاع الله بالآثار والعاديات، ومن اوقعها اثراً في النفوس طراً . وقد ازداد الاهتمام البالغ بالتنقيب عن هذه الآثار منذ حبرية البابا اسكندر السادس حيث عثر المنقبون في رابية البلاتين ، على « المهرجين» *Grotesques* . وفي عهد البابا جول الثاني قامت حفريات علمية ، منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال « لاوكون *Laocoon* » و « زهرة » الفاتيكان ، وتمثال كليوبطرا . ومنـــذ ذلك الحين ، اخـــذ الامراء الكرادلة يحرصون جهدهم ، على تكوين مجموعات أثرية لهم بلغت شهرتها ارجاء اوروبا جمعاء . وفي سنة ١٥٥٥ ، بلغ عدد هذه المجاميع الفنية ٩٥ مجموعة في رومـــا وحدهـــا ، توافد الفنانون من جميع الاطراف ليمتعوا الانظار برؤيتها والتفرج عليها واستلهام نماذجها .

وفي سبيل تقوية سلطانه كملك لدولة اقليمية بدلاً من دولة ـ مدينة ، راح البـــابا ينمي موارده المالية ، ويزيد من دخله . « فالرسوم الروحية » التي كان يفرضها على العالم المسيحي خفت مداخيلها جداً منـــذ الانفصال الكبير (١٣٧٨ – ١٤٢٩) والواردات الرئيسية التي امكن للبابا التعويل عليها ، لم تعد التبرعات التي تجود بها المسيحية جمعاء ، بل واردات الدولة البابوية . ولذا كانت الضرائب المباشرة وغير المباشرة منها تتضاعف باستمرار . واخذ البابوات يعوّلون ، اكثر فأكثر ، على الرسوم التي كانوا يستوفونها من بيع وظائف الدولة ومـــن نظام التحويل النقدي العام . فبيع المناصب الكنسية والاعتماد عـــلى اصحاب المصـــارف ، ثم انشاء نظام *Monti* او القروض العامة موزعة الى حصص او أسهم مالية صغيرة يتحملها رجال المال واصحاب المصارف ، تلك كانت اهم الموارد التي كانت تغذي صندوق الدولة البـــابوية ، الى جـــانب بعض الاحتكارات الرسمية كاحتكار الملح ، مثلاً والشب المستخرج من مناجم تولفا *Tolfa* الغنية ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع كقاصر في صناعات النسيج ، في اوروبا .

الا ان الاعباء الباهظة التي اقتضاها تشييد الابنية الضخمة التي ارتفعت في روما إذذاك، ونصرة الادب وحَمَلته ، والفن واصحابه ، والدفاع عن المسيحية ضد تهجمات الاتراك وتعدياتهم ، والحد من تمرد اللوثريين وعصيانهم الديني ، كل هذه الامور فرضت على الدولة البابوية اعباء مالية باهظة ارزحتها .

لعبت البندقية ، بعد روما ، الدور الاكبر ، في رعاية الفنون والعلوم والحركة الفكرية ، في جميع ارجاء ايطاليا. فدولة البندقية هي عبارة عن مدينة ـ دولة ، الدولة المسيطرة قوامها اصلاً ٢٠٠٠ من سراة القوم واشرافهم ، المولودين من زيجات شرعية ، كلهم اعضاء في المجلس الاعلى *Grand Conseil* الذين من بينهم ينتقى معظم الحكام وكبار الموظفين. وهؤلاء الاشراف هم من رجال الاعمال ، تجار ، في الاصل، نظروا الى الصنائع والمهن الحرة نظرة انتقاص ، ملؤها الهزء والسخرية ، فانزلهم الناس في اوروبا ، منزلة النبل والحسب والنسب . فالامراء وعظماء الارض في اوروبا جمعاء ، سعوا دوماً ليكونوا اعضاء شرف بين طبقة النبلاء في البندقيـــة . وبالفعل فقد اقتصرت هذه الدولة على عدد اصغر من الرعايا الذين تألفوا من بضع مئات من كبار الاغنياء وأثرياء القوم ، سيطروا على الوظائف الكبرى واحتكروها في صلبهم ، بعد ان أمنوا لها منافع مادية سنية لمن كان دونهم مرتبة في مصاف النبل. ففي نظر هؤلاء النبلاء ، عز دولتهم جمهورية البندقية ، ان تكون في الذروة من العظمة والفخامة والسلطان، بحيث تفرض احترامها على الطبقة البورجوازية وعلى هذا اللمم من سواد الشعب في الداخل ، كما تفرضه على اعداء وخصوم « صاحبة الشوكة » *Sérénissime* في الخارج . من هنا هذه الحفاوة ، وهـــنا الاهتمام البالغ الذي احاطت به مجالي الحياة الفكرية والعقلية . فجامعة بادوا اصبحت فعلاً ، جامعة الدولة ، بين اساتذتها اشهر وألمع اسماء الارستوقراطية في البندقية . ولكن رجـــال الاعمال ، هؤلاء التجار ذوو التفكير الواقعي ، الشغوفون بالامور العملية ، المهتمون ، قبل كل شيء آخر ، بالقوة والامور المالية ، المعروفون بفتورهم الديني ، المتحرزون من الكنيسة ورجالها، الآخذون بالشك والتشكيك، كانوا اقل اهتماماً بالافلاطونية الحديثة منهم بتعاليم ابن رشد وفلسفة بمبوناتزي . اما الفن، فقد نظروا اليه نظرتهم الى مصلحة عامة، الى مرفق من مرافق الدولة يجب ان يذيع عالياً امجاد « صاحبة الشوكة » ، وقوتها التي لا تقاوم . ومع ان العاملين عندها في حقل الفن جاؤوها من اوروبا ، فقد سيطر عليها ، مع ذلك طابع فني خاص ، هو طراز البندقية ، فن الوطن البندقي ، فن يشعشع بالانوار والالوان ، في مدينة البطائح والغيـــاض والرياض . فالرسامون منهم يقتصرون ، في بدء الامر ، على مدينة البندقية ، فيضعون رسوماً متنوعـــة للدوغا ، ولمظاهر الحياة العامة في الاسواق ، والجازات والمعابر ولسفن البندقية وأرصفتها . اما في قصر الدوغا ، الجلي العقائدي لسياسة البندقية ، فكنت ترى الدوغا يحاول التوفيق بين البابا والامبراطور بربروسا ، وهو مشهد ، ان دل على شيء ، فعلى دخول البندقية سياسة اوروبا العليا ، هذه السياسة التي اتسمت دوماً بالحفاظ على التوازن بين البابا والامبراطور .

ففي السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، في هذه الآثار الفنية التي وضعها جيوفاني بليني ، عام ١٥١٦ ، اي في اواخر حياته ، وفي صورة « العاصفة » بريشة جيورجيوني ، وفي صورة « زهرة درسدن » تطل علينا نماذج جديدة ، للانسان المدى الجديد ، الصورة الجديدة ، « صورة المسيح » بريشة لوتيتيان في مدينة بريشيا ، وفي صورة « القيامة » التي وضعها عام ١٥٢٢ ، يطلع علينا رياضي اولمبي كأنه جوبتير طائراً . فالرساموں يعملون على الاخص للخارج ، لفريق من الامراء ، يسكنون على مقربة من البندقية ، امراء آل أستيه ، وامراء آل غونزاغا . ولعل من احرج الازمنة التي مرت بها البندقية ، هذه الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ — ١٥٣٠ ، هذه الفترة التي تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق الافاويه والتوابل ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند . ولكن بعد سنة ١٥٣٠ ، نرى الفن يعود الى التجلي والازدهار من جديد في البندقية ، مع جاكوبو سنسوفينو الذي شيد المكتبة المرقصية ، والهيكل الذي اقامه في مدرسة القديس مرقص وقصر كورنر ، ومع الحقبة التي أشع فيها لوتيتيان . فقد عرفت البندقية بالطبع ان تستغل قدوم الفنانين الرومانيين اليها ، وقد توافدوا عليها هرباً من الحصار الذي تعرضت له روما عام ١٥٢٧ ، فجاءها جاكوبو سنسوفينو ، عام ١٥٣٠ ، كما جاءها ، لمدة وجيزة ، ميكالو انجلو ، اثر الحلع الذي نزل بمدينة فلورنسا ، فزود بارشاداته وتعليماته الفنية فريقاً من الفنانين البنادقة . فقد تم للبندقية ان تتغلب على الازمة الاقتصادية التي ألمت بها ، فعرفت كيف تفيد من التوسع الذي طرأ على الاسواق الاوروبية ، فباعت اوروبا من الافاويه ، بقدر ما كانت تبيعها من هذه التوابل قبل ان يكتشف فاسكو ده غاما المسالك التجارية الجديدة الى الهند والشرق الاقصى ، بحراً ، بحيث بلغت صادراتها منها مدينتي روان وأنفرس . كذلك انشأت لها صناعات جديدة . فهي بعد أزمة ١٥٣٠ ، اغنى واوفر قوة ، وامنع جانباً ، وأشد بأساً ، واطول باعاً ، منها في اواخر القرن الخامس عشر ، وان كان لحق بنفوذها بعض الغضاضة بعد ان برزت في اوروبا دول لها شأنها . ومما لا شك فيه قط ان البندقية اصبحت بعد السطو الذي تعرضت له روما ، وعلى اثر احتلال ميلانو على يد جيش شارل الخامس ، وفرض الاسبان حمايتهم على فلورنسا ، الدولة الحرة الوحيدة في كل انحاء ايطاليا ، توافد اليها كل من نجوا بانفسهم من الطغيان الاسباني الذي عانت منه المدن الايطالية الأمرّين . ويروي لنا شاهد عيان من ذلك العصر : « ان البندقية برزت ، اذ ذاك ، صورة عن الجمهورية الرومانية .. ففي هذا العصر القاتم الذي يكتنفه الظلام ، بقيت البندقية وحدها مشعلاً مشعاً في كل ايطاليا ، والشاعرة الايطالية فكتوريا كولونا تصرح عالياً وتعلن للملأ في في احدى منظوماتها الشعرية : «أن أسد القديس مرقص وحده يحافظ ، في كل ايطاليا على الحرية العريقة ، والامبراطورية العادلة » . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يعتري سكان المدينة عاطفة من الزهو وشعور بالمباهاة والفخر ، وان تجيش في صدورهم هزة شعورية لما تم لمدينتهم من قوة ومنعة وعظمة ، تجلت في هذه الانجازات الفخمة التي تنبض بالعظمة الرومانية .

بعد روما والبندقية ، نرى دوقية فرّاره تلعب ابرز دور ، بين المدن والامارات الايطالية في مجال الآداب والفنون والعلوم . فدولة فراره هي الامارة التي آلت مقاليـــد الحكم فيها الى اسرة أستيه Este . فهي عبارة عن مقاطعة صغيرة "قـتـُطِعَتْ" من ممتلكات الدولة البابوية ، ووقعت ضمن الممتلكات التابعة لمدينة البندقية ، على اليابسة ، فكانت ملتقى الطرقات التي تجتاز سهل بادوا ، هذا السهل الذي اتخذت منه الجيوش الضاربة ممراً لها . فطلوع الدول وبقاؤهـــا مرتبط بالطبع ، الى حد بعيد ، بلعبة سياسية لبقة ، لحمتها سلسلة من المصاهرات ، وسداها توازن القوى بين مملكة البابا والبندقيـــة وميلانو ومنتـُوا وحلفائهم في الخارج: كفرنسا واسبانيا والامبراطور . ولكن هذه اللعبة تبقى ابداً دونما اثر وتذهب هباء" منثوراً ، اذا لم تعضدهـــا قوة عاضدة ، تمثلت على خير وجه وعلى امثل صورة ، في هذه التقنيات الحربية التي عرف امراء أستيه ان يحققوها ، فجعلوا منها عدة حربية هي خير ما طلع من امثالها في هذه الحقبة . فقد تم للدون الفونسو الاول (١٥٠٥ – ١٥٣٤) اقوى وادق مدفعية في كل ايطاليا ، حاول الجميع ان يستمينوا بها ويفيدوا من فعاليتها . فليس من عجب والحالة هذه ، ان تكون حرفة السلاح في فراره ، خير الحرف وامثل الفنون واجداها . اما الفريق الاجتماعي الذي تحكم بهذه الامارة فقد كان طبقة من النبلاء احترفوا الحرب ، عرف امراء أستيه ان يؤلبوهم حولهم ، كما عرفوا ان يستدنوا منهم ، العشرات من الأسر والعوائـــل النبيلة المحتد ، ذات التقاليد العسكرية ، يجلو اعضاؤها عن الريف ليعملوا في بلاط هؤلاء الامراء. وبالاضافة الى هذا كله ، وفد الى فرّاره من من جميع اطراف ايطاليا ومن غيرها من الدول الاوروبية ، عـدد كبير من فتيان النبلاء يتخرجون في بلاط آل أستيه على مراسم البلاط وشؤون الحرب ، وقد زاد هذا البلاط ألقـاً عندما تعين أحد ابناء هذه الامارة ، هو هيبوليت أستيه ، عام ١٤٩٣ ، كردينالاً وله من العمر ١٢ سنة ، فأخذ يؤلب حواليه مجموعة طيبة من الاحبار بين رؤساء أساقفـــة واساقفة ، فاذا ببلاط الأمير يضم ، عام ١٥١٦ ، اكثر من مائة نبيل يعملون كلهم في خدمته وسبيل مرضاته . وهؤلاء النبلاء المقيمون في البلاط ، هم سمرا ، الامير ، ملازمون له يعملون في خدمته والنهوض بشؤون الامارة فيجري عليهم الارزاق إقطاعات كنسية وامتيازات. فاذا ما عرفوا ان يلقوا حظوة" لديه ، نالوا وظائف عالية في الدوقية ، فيرقى بعضهم الى مرتبة قائد في قلعة او حاكم ولاية ، ولن يلبثوا ان يثروا اثناء تضلعهم بمهام الوظيفة ، فيشترون العقارات ويبتاعون الاراضي ويسهمون في مشروعات تجارية او مالية مع فريق من اصحاب المصارف ورجال المال والاعمال ويشاركون مع اليهود باعمال الربا ، وهم على اتصال مباشر بالطبقة البورجوازية هذه الطبقة التي كثيراً ما رأوا فيها النور وطلعوا من بين صفوفها .

وجامعة فرّاره هي الاداة المثلى بيد امراء أستيه والنبلاء . يتولى تعيين الاساتذة فيها لجنـة خاصة تتألف من اثني عشر مستشاراً كلهم من النبلاء ، وتحدد لهم المرتبـــات والاجور . ازدهرت هذه الجامعة وارتفع لكلية الحقوق فيها اسم وشهرة ، معظم طلابها من ابناء النبلاء كما

اشتهرت مدرسة الفنون فيها . وعلى عكس البندقية راجت فيها التعاليم والمثل الفيثاغورية والافلاطونية . اما رجال البلاط فكانوا يستجيبون بالاحرى ، لشعارات الافلاطونية الحديثة فيما يتعلق بالانسان . كل شيء ، يتغنى بأمجاد بلاط فرّاره . وفي فراره يزدهر على الاخص، الشعر الفروسي ، كما نرى ذلك جيداً في ملحمة : « رولان العاشق » التي وضعها بوياردو ، احد رجال البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ — ١٤٩٤ ، ولا سيما في المنظومة الشعرية العصماء التي وضعها اريوست بعنوان : « رولان الثائر » *Roland furieux* التي ظهرت في نصفها الاول ، في ٢٢ نيسان ١٥١٦ . اما الشاعر ، فكان احد النبلاء التحق ببطانة هيبوليت أستيه، منذ عام ١٥٠٣ ، كما عمل في بطانة الدوق الفونسو من سنة ١٥١٨ — ١٥٣٣ يتغنى أريوست بمثل البطولة ، كما يتغنى بامجاد بطل القصيدة . يبلغ البطل الذروة من البطولة عندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، بمذبحة مريعة لفرقة المشاة الحقيرة التي تتألف من هؤلاء الصماليك ، هو هذا البطل الذي لا بد منه في كل جيش ، هو الذي يكفيه أن يمد اليد لينتزع الظفر ، والذي يخترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لرفاقه مجال العبور من الثغرة التي شقها بين صفوفهم . فجاءت هذه القصيدة الغراء ، كاداة من ادوات الدعاية ، تتويجاً لهذه السلسلة من اعمال النزال والمصاولة التي كثيراً ما انتهت بانتصار امراء آل أستيه ونبلائهم .

أثر بلاط فراره تأثيراً بالغاً على فن الرسم بنوع خاص ، من خلال هذه الطلبات والتواصي التي عهد بصنعها ، الى الرسامين في البندقية ، بحيث امكن تحقيق ما طالما حلم به هؤلاء الامراء ورجال بطانتهم ، وما راود خيالهم ، الا وهو تمثيل حياة آلهة الاولمب الخالدين ، وهذه الجمالية الدائمة ، هذا الشباب الباقي ، القدرة الكلية ، اللذة التي لا انقطاع لها ولا انفصام ، هذه الحياة المادية المثلى ، الوثنية . وجل ما تمناه هؤلاء الامراء والنبلاء على المصورين رسمه لهم، هي صورة الفونسو أستيه في ريعان شبابه الغض، صورة لوكريس بورجيا ، وصور كل من زوجته ومعشوقته لورا ديانتي . وبعد هذا كله ، هذه المشاهد الوثنية التي تمثل لنا آلهة اليونان القدامى وآلهاتهم وهكذا طُلب الى الرسام جيوفاني بليني ، في كهولته ، ان يرسم ، عام ١٥١٤ ، لالفونسو أستيه، صورة حفلة من هذه الحفلات التي كانت تقام على شرف الاله باخوس يوم الاحتفال بذكراه. وكثيراً ما تمنّى على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرة تتحرق شهوة ، تحـاكي صورة « زهرة درسدن » الشهيرة او صورة « باخوس » و « اريان » و «ديانا» وصورة «ديانا واكتيون» وغير ذلك . وعلى درجة اقل نجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غونزاغا ، وفي نطاق دوقية اوربين ايضاً ، طلبات على هذا الشكل ، هي ايضاً .

اما فلورنسا ، فقد فقدت ، دونما رجعة ، حق الصدارة ، في هذه الثورة اللاهبة التي نشبت فيها عام ١٤٩٤ ، فاذا بها تصبح صورة باهتة تعكس روما من بعيـــد . فالآثار الوحيدة التي امتازت بشيء من الاصالة مما ظهر عندها في تلك الحقبة ، هي هذه البحوث السياسيـــة التي

وضعها مكيافلي وغيشاردين . وهذا الوضع الذي صارت اليه وتردّت فيه ، يجب رده بالاحرى الى هذه الاضطرابات التي قامت فيها باستمرار ، والى هذه الازمة الاقتصادية التي اخذت بخناق المدينة في إثر حركة الشعب التي كان المحرض الاكبر عليها سافوناورولا ، والنظام الجمهوري الذي عاشت في ظله حتى سنة ١٥١٢ . وقد جاشت الجمهورية من جهة ثانية بروح لم نجد في كل ايطاليا الآخذة بأسباب الافلاطونية الحديثة ، من يستطيع التعبير عنها تعبيراً صحيحاً . وعندما راح حاكم المدينة ورئيس جمهوريتها بيرو سوديريني يعهد الى ميكالو انجلو برسم صورة الملك داوود ، كما حلا للجمهوريين في فلورنسا تخيله ، فالراعي الذي برز من بين يديه ، رمزاً لفلورنسا المستضعفة والمهيضة الجناح التي لم يفارقها الامل بالاستظهار يوماً على اعدائها بفضل ما رجت من عون إلهي . فقد رأوا شبهاً بالفعل ، بين هذه الصورة والصورة الاخرى بريشة فيروكيو . فالعهد ولى وزال ، وراح ميكالو انجلو يضع رسماً لداوود الملك ، بعكس المقصود ، ظهر معه داوود سوبرمان ، اي جاء وفقاً لذهنية العصر .

ويطل آل مديتشي من جديد مع اعادة الامارة اليهم ، فيشدون من امر هذه الدولة التي تحاول الانتقال من وضع مدينة ـ دولة الى وضع دولة اقليمية ، موحدة ، ذات نظام مطلق . ولم تلبث فلورنسا ان شعرت بتثاقل قبضة الاسبان عليها ، لتقع ، بعد حين ، تحت النفوذ الروماني ، ففارقها كل نشاط فني ، لمدة طويلة ، الى ان اعاد اليها بابوات آل مديتشي ، شيئاً من النشاط ، بفضل ما ارسلوا اليها من مال وفنانين تشبعوا بالمثل الرومانية . ويبدو ان الفلورنتيين فقدوا كل قدرة لهم على الخلق والابداع ، بعد ان فقدوا نعمة الاستقلال التي رتعوا فيها .

والظاهر ان ميلانو كانت تحاول ، هي الاخرى في اواخر القرن الخامس عشر السير في النهج الذي جلّت فيه روما . ففي عام ١٤٩٠ ، شرع ليوناردو ده فنشي ، في نحت الجواد الخاص بفرنسوا سفورزا . وفي سنة ١٤٩٦ ، اخذ برسم صورة « العشاء السري » فجاء عمله هذا تجديداً ومحاولة جريئة كتب لها ان تعرف الازدهار في روما .

من الغريب جداً ان تقع هذه المحاولة في الوقت الذي اصبح فيه لودوفيك لو مور ، بعد ان اقطعه الامبراطور الولاية على هذه الدوقية ، اميراً تابعاً ، من الوجهة الاقطاعية ، للامبراطور ، يعمل بمعزل عن كل تدخل من قبل الشعب في شؤون الادارة ، اميراً مطلق السلطة له حرية التصرف ، حاكماً له كل حقوق الولاية من الآن فصاعداً في هذه الفترة التي بلغت فيها سلطته القمة من القدرة والبطش ، اذ كان يحلو له ان يتبجح قائلاً : بان الامبراطور قائده ، وان البابا كاهنه الخاص يؤمن خدمته الروحية ، وملك فرنسا ساعي بريده ، والبندقية حاجبه . في هذا الوقت بالذات ، ظهرت في بلاط لودوفيك لو مور ، اولى المحاولات لهذا الفن الجديد ، فن الرجل السوبرمان ، الفن البطولي .

ومنذ ايلول ١٤٩٩ ، اصبحت ميلانو خاضعة للنفوذ الاجنبي يتوالى على حكمها تباعاً

الفرنسيون والسويسريون والاسبان. ويتلقى ليوناردوده فنشي طلبات فنية من قبل الفرنسيين. واخذ الفن الجديد يطل رويداً ويَتمكَّن. ولكن منذ عام ١٥٢٥ ، اخذ النفوذ الاسباني يسيطر. غير ان الاسبان كانوا دوماً في عسر مالي ، فرزحت الدوقية تحت وطأة الرسوم والضرائب التي فرضت عليها ، والحروب التي تضرّست بها والازمة الاقتصادية التي اخذت بتلابيبها ، فأخذ النبلاء يتجهون بانظارهم وجهة الوظائف العامة . فالدراسات الفقهية ، وحدها ، يبدو عليها طابع الخلق والاصالة ، كما يظهر لنا ذلك من الانجازات الفنية التي وضعها ألسيات (١٤٩٢ — ١٥٦٠) .

بعد الحروب الدامية الطويلة التي وقعت بين اسرة أنجو واسرة أراغون (١٣٤٣ — ١٤٤٢)، استتب الأمر ، في مملكة نابولي، لنظام حكومي قوامه فريق من البارونات اصحاب الاقطان الواسعة في الريف ، واصحاب الامـــلاك السيادية الذين كادوا يتمتعون باستقلالهم ومعظمهم يتصرف بسلطات ملكية ، ومن كبار المغامرين من رجال الحرب المعادين للملك وفي عصيان موصول ضده . فالحياة الفكرة اسم بلا مسمى ، لا ظل لها قط . والاراغونيون الذين جاء منهم ملك نابولي منذ سنة ١٤٤٢ ، كانوا قد حاولوا ان يحكموا بالاشتراك مع نبلاء مدينة نابولي ، هذه الطبقة الارستوقراطية التي استأثرت بوظائف الدولة فجعلت منها احتكارات تصرفت بها على هواها. وطبقة النبلاء هذه، كانت تشعر في داخلها انها قريبة جداً من البارونات فاولتهم ثقتها وولاءها. ولهذه الاسباب راح فرديناند داراغون يبذل جهداً كبيراً ليخلق بورجوازية من رجال الاعـــال والصناعة، وراح الفونس داراغون الذي خرج ، عام ١٤٤٢ ، من هذه الحرب ظافراً ، يُدخل على مدينة نابولي الحياة الفكرية ، ويفرضها عليها فرضاً. وهكذا بدت طلائع النهضة الفكرية، في البلاط ، وأخذت تتطور بسرعة لا سيما بين الطبقة الارستوقراطية والادارية ، فاصبحت عنصراً قوياً في هذا التيار الجديد ، راحت تنفتح للآداب لما رأت فيها من منافع وفوائد جمة . من ابرز رجال النهضة في اواخر القرن الخامس عشر ، في مملكة نابولي : بونتانوس وجينارو وكاريتايو فكانوا خير من تمثلت فيهم طبقة النبلاء من اصحاب الوظائف الادارية العليا . اما لون الأدب الذي سيطر على البلاط ، اذ ذاك ، فقد كان الشعر ولا سيا الشعر الغرامي. كذلك أطل الفن التشكيلي بعدد وافر من الآثار معظمها من الدرجـــة الثانية .

ومنذ ١٤٩٤ نرى مملكة نابولي يتجاذبها الفرنسيون والاسبان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بها سنة ١٥٠٣ ، واصبحت بين ١٥١٦ — ١٥١٩ ، جزءاً من امبراطورية آل هبسبورج بشخص شارل كانت أوشارل الخامس، الذي كان يحلم بان يجعل منها اداة طيعة بين يديه، في ايطاليا. ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكة نابولي خاضعة ، مبدئياً ، لامبراطور يحكم حكماً مطلقاً . وغُلِبَت طبقة البارونات على امرها وراحت تتخذ لها ، اكثر فأكثر ، موقفاً سياسياً ، تعد شرفاً لهـــا ان تخلص معه الولاء للامبراطور وان تقوم بخدمة السلاح في جيوشه ، نازعة ، من وراء ذلك ، لتصبح طبقة تجمع بين يديها كبار قادة الجيش وضباطه الاعلين . ونزع البارونات من جهـــة

ثانية ، للانصهار في طبقة نبلاء مدينة نابولي . فلم يكتفوا بأن قدموا الى المدينة وسكنوا فيها ، بل راحوا يبتنون لهم فيها صروحاً وقصوراً شاهقة ، واخذوا يسجلون نفوسهم بين *Sedili* سكان نابولي باعتبارهم من نبلاء المدينة وشرفائها . وعلى عكس ذلك تماماً ، رأت الطبقة الارستوقراطية في المدينة ان شرفها يحتم عليها التخلي عن الوظائف الادارية والعيش ، اسوة بطبقة البارونات في البطانة لا يأتون عملاً ما . أما الامبراطور فأخذ يشدد على طبع مملكة نابولي بطابع بلاد مستعمرة ، اذ فكر بان يجعل منها سوقاً لتنفيق المنتوجات الصناعية التي كان ينتجها هذا المضلّع الرباعي الذي تكون من جنوى وميلانو وفلورنسا والبندقية ، الذي كان يمد مقاطعات ايطاليا الجنوبية بحاجاتها من المحاصيل الزراعيـة والحبوب والزيوت ، والخامات ، وغزول الحرير والصوف الخام . ووضع البلاد تحت تصرف ارباب الاعمال والمال الاغراب من المارن وجنويين ، بعد عام ١٥٢٦ ، وهدر هدراً الصناعات القائمة في مملكة نابولي فخيم عليها الفقر بسرادقه .أبسبب اخضاع هذه المملكة للاسبان وللامبراطور ، وزوال ملك كان ينعم ، بالامس الغابر ، باستقلاله الناجز ويعيش كريماً مكرماً في بلاطه وبين بطانته وحاشيته ، وهذا التفتت والانسياح ينزل بطبقة النبلاء من كبار الموظفين ، اخذت الفنون ، في نابولي بالتأخر والقهقرى ، واصيب سكانها بالعقم الفكري ، فيفقدون كل طاقة لهم على الخلق والابداع ، سوى بقية باقية من الشعر الركيك باللاتينية ، والايطالية ، فخيم السكون على نابولي ؟

وهكذا وفي مثل هذه الظروف والاوضاع المؤاتية لطلوع آثار فكرية جديدة ، نجد دولاً مستقلة ، سيدة امرها ، تنزع للحكم المطلق وللسيطرة الامبريالية ، دولاً – مدينة ، تطمح في ان تصبح دولاً اقليمية ، وامراء ذوي نزعة ظاهرة للحكم المطلق لهم بطانات يتـألف بعضها من نبلاء بيدهم الادارة يؤلفون طبقة وسطى بين طبقة النبلاء الاقطاعيين وبين الطبقة البورجوازية ، دولا بمقدورها ان تؤمن لذاتها موارد مهمة بالامكان إنماءها وتضعيفها باقامة علاقات لها مع الخارج ، واستدراج النقد عن طريق المصارف والاعمال التجارية الضخمـة وتسهيل معاملات الترانزيت ، والسياحة والمغامرات الحربية وتحريك الكفاءات وتشجيعها ، دولا تقوم الفئات الحاكمة فيها بمختلف النشاطات السياسية ، والاجتماعية ، تنطلق كلها من الاعمال الفكريـة والروحية .

وبهذه الصورة التقريبية التي نرسمها نستطيع ان نتبين الخطوط الكبرى لهذا النهج الواجب انتهاجه في تحديد الوظائف والخدمات المنوطة بهذه المنظمات الفكرية التي أطلت علينا ، وهو لعمري نهج عُمل به باستمرار ، نهج يتصل اتصالا صميماً بالعقل البشري ، هو اسلوب المقارنة للكشف عن النظم الجديدة . وفي هذا السبيل نستعين كذلك بالاحصاء والمقايسة ، اذ لا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة ما لم نقم بعمليات احصاء وقياسات ؛ ولا يمكن ان نطمع بالعلم ونطمع بالحصول عليه الا اذا توصلنا للكشف عن المعادلات الرياضية . فالتقنيات والعلوم

الاساسية توفر لنا ، وايم الحق عدداً متزايداً من الاجهزة والاعتدة الحاسبة والكاشفة وبينها ما يصلح تماماً للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته الباقية .

هذه الرؤى الجديدة التي تبيناها للكون والفضاء والانسان بدت على الوان واشكال . فالصورة الافلاطونية الحديثة الكلاسيكية تركت كثيراً لجهد الانسان الحر في سيره نحو الله . إن ما تعرضت له روما عام ١٥٢٧ من اعمال النهب والاستباحة ، وبسط اسبانيا سيطرتها على ايطاليا مع الامبراطور شارل الخامس ، والدفع الذي انطلق من هذه الدول الرئيسية النازعة للوحدة والحكم المطلق مع ما تخبئه من ارهاق وارهاص للفرد ، كل ذلك وما إليه ، ساعد كثيراً على تبيّن الحدود التي تحد من هذه المثالية وعلى لفت النظر ، اكثر فاكثر ، الى ما يرسف به الانسان ، بعد ، من ضعف وعبودية ، هذا الانسان الصعلوك المتصيّد الذي افتداه السيد المسيح باذلا حياته لاجله حتى عذاب الصلب . وميكالو انجلو ، هذا الافلاطوني الحديث الأتم ، كما تبدّى لنا من خلال هذه الزخارف والنقوش الجدارية التي حلّى بها الكنيسة السكستينية ، والذي سيبقى دوماً هذا الافلاطوني الذي كان ، عرف ان يتجاوز بعيداً مُثل الافلاطونية الحديثة ويتعداها ، اذ شدد ، اكثر فأكثر ، على السيد المسيح ، وعلى سر فداء المسيح الذي به تبرر الأنسان . ان صورة الدينونة الاخيرة (١٥٣٣ – ١٥٤١) ، ترينا منجرفة مع دوامة الحركة الكوبرنيكية ، دائرة حول يسوع وقد ظهر بمظهر جوبتير الصاعق ، هذه البشرية الصاخبة اللاهبة الجبارة ، المتكونة من صيادين برّح بهم القلق كل مبرّح ، يقفون متوسلين ، مع الرسل والقديسين ، وربما العذراء مريم نفسها . والرسام لوتيتيان ، يدع جانباً المسيح الهادي الظافر ، ليضع تحت انظارنا التحفة الرائعة : « هوذا الرجل » التي وضعها عام ١٦٤٢ ، وقد استعان بالحركة العاصفة تلف هذه الجماهير المهتاجة ، الجياشة بالحقد والبغضاء ، تتألب على السيد المسيح ، الاله المتجسد ، الذي يرزح تحت ضغط الامبراطورية العاتية وتحت هيجان الجماهير المزمجرة ، يكفر عن خطايا البشر . وفي قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما التي اعتيضَ بها عن تلك التي خطط لها برامنت ، نرى ميكالو انجلو يحتفظ بالصيغ والاشكال ذاتها التي ظهرت في الدور الاول من النهضة الا انه يُعطّ في القبة باضافة التضليع ، بعد ان ركب ، في الاسفل ، مصباحاً شفافاً . وهكذا يربطنا ، من فوق الاجيال ، بالطراز الفني القوطي الذي يرمز الى اندفاع المسيحي المتحمس ، وقد شمر بضعفه متجهاً نحو الله مخلصه . فقبة ميكالوانجلو ، لم تعد تظهر كأنها تاج ، بل هي تسبح و « تطير » . فهذه الجماهير ، وهذه التجاوزات المغالية ، وهذه الاندفاعية والمفارقات والمتناقضات ، كل هذا انما يدل على ان الناس ينزعون الى نقطة من نقطتي التوازن التي سيحوم حولها الفكر البشري ، لمدة قرون ، متأرجحاً بين هذه الانظمة الاساسية : الاتباعية الكلاسيكية ، وبين الغريب الشاذ .

الفصل الثاني

المجتمعات الدينية الجديدة

محاولات الاصلاح

حفاف الشعور الديني

الناس في هذا العصر يعيشون عرفاً وقانوناً في عالم مسيحي تنقضي ايامهم وفقاً لتقويم وتوقيت ومراسم دينية واعراف معينة . فمحاكم القضاء لا تستأنف جلساتها في الثالث عشر من تشرين الثاني بل في اليوم التالي لعيد السيد القديس مرتينوس، وايام العمل القصيرة، لا تبتدىء ، عند اصحاب الحرف في التاسع من تشرين الاول ، بـــل في اليوم الذي يقع فيه عيد القديس ريمي . ونقابات اصحاب الحرف تعطل ٦٠ يوماً في السنة ، ما عدا ايام الآحاد . ويطرح من ايام العمل يوم السبت وبرامون الاعيـــاد الكبرى لتستعمل في الاستعداد للاحتفالات الدينية التي تقام في اليوم التالي . والجامعات تجري الامتحانات، في صحن الكنيسة على انغام الارغن ، في هذه الفترة بالذات التي تقع بين القداس وفعل الشكر . وكتب التعليم والنصوص المدرسية ، تبتدىء دوماً بالعبـــارة التالية : « لمجد الله الخالق ومسرته » . والوصايا الارثية تحمل الترويسة : « باسم الثالوث الاقدس غـــير المنفصل » . وكوز شراب التفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في محل بارز منه الجمـــلة التالية : « فكر بالموت ايها المسكين الغبي » . وفي اخريات القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، يفترش الارض ، وقد تكاثر عدد السكان ، العديد من الكنائس والمعابد والمزارات الدينية القائمة منفردة عند بعض عطفات الطرقات . كذلك يطل علينا فيض من الكتب التقوية : ككتاب القـــداس والفرض وكتب عجائب العذراء والقديسين وكتاب الصلوات ، وكلمـــات يسوع الخالدة ، وكتب السواعيات ، وافراح السيد المسيح بعدد لا يحصى من النسخ .

غير ان هذه الروح الدينية المتأصلة في النفوس المخلصة الصادقة تبقى مظهراً جامداً من هذه المظاهر التي ارتدتها او تكشفت عنها طقوس العبادة والاحتفـالات الدينية . فالنفوس لم تكن

لتعيش هذه الطقوس في صميم حياتها الداخلية، ولا أثر لها في اعمال الناس وتصرفاتهم وسكناتهم وحركاتهم ، اذ الكل غافل ، لاه عما له طابع مكرس او مقدس . فيتجاهلون هذا كله ولا ولا تتزّى ماجريات الحياة اليومية بشيء من العاطفة الدينية . قد يكون سبب هذا الوضع الحاجة الشديدة الى رجال الدين وخدام الكنائس الغيورين . كم من الكهنة والعاملين في خدمة الدين والنفوس ، زرعوا الشك والتشكك في النفوس لعدم امتثالهم للطاعة المتوجبة عليهم نحو الكنيسة ولرؤسائهم ،ولفظاظة تصرفاتهم المقيتة .فكهنة كاتدرائية نوتردام القانونيون ، في باريس يتبجحون انهم معفون من الخضوع للسلطة القانونية التي يتبعون لها . اي لرئيس اساقفة سانس ، المطران تريستان ده سالازار . وبتاريخ الثاني من شباط ١٤٩٢ ، بعد ان فرغ رئيس الاساقفة من الاحتفال بالقداس بحضور الملك شارل الثامن ، وبينما هو يهم في الانصراف وهو يبارك الشعب يتقدمه الصليب ، اذ بكاهنين قانونيين ، ينقضّان على حامل الصليب وعلى شماسة المطران يشبعانهم لكماً وضرباً ، زاعمين ان الاسقف خفض من جانبيها وحط من قدرهما وانتقص من كرامتها اثناء قيامه بالطقوس الدينية ، ثم يأخذان بشعر احد خدام المطران ، وعندما هم الاسقف بالتدخل في الامر . لكمه احدهما في بطنه ، بينما نزع الثاني قبعته الاسقفية وطرحها ارضاً . ولم يكن من النادر قط وقوع حوادث من هذا النوع .

وهذا الفتور الديني كان الطابع الذي ميز ، على الاجمال ، رجال الدين ، اذ كان همهم ، في الدرجة الاولى ، السهر على مصالحم المادية. وجماعة الكهنة القانونيين في كنيسة نوتردام ، كانت تنتخب اعضاءها من بين الطبقة العليا في البورجوازية ، وبين طبقة الاشراف . كما كانت تنتقيهم من بين مشاهير رجال اللاهوت والحق القانوني . وكان يهمها ان يشعر الناس بانها مهتمة بادارة املاك الكنيسة ، وانها تحرص على الدفاع عن حقوقها وامتيازاتها . فلا عجب ان يحذو حذوها كهنة الرعايا في باريس . وعلى هذا قس رجال الاكليروس في المدن الواقعة في الاوساط الريفية الذين كان يهمهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين مصالحهم المادية ، واستيفاء الرسوم العائدة لهم وتحصيل النذور .

اما الكهنة المكلفون بخدمة الرعويات في الارياف ، وهم على الغالب من ابناء القرويين الطيبين ، فكانوا يقومون بالخدمة الروحية . فقد كانت مرتباتهم ضئيلة للغاية تكاد لا تقوم بأوَدهم لو لم يكن يردهم من عوائد الخدمة الروحية شيء زهيد . ولذا وجدوا انفسهم في جدال مستمر واختلاف مزمن مع ملتزم الوقف لعلهم ينالون منه بعض دريهمات ، بما كانوا يدخلون مع رعاياهم في مجادلات لا تنتهي حول حقوقهم المكتسبة بقمر من الحصيد او اجرة قداس ، او الرسوم المستحقة لهم من عقود الزواج والقيام بمراسم العماد والجنائز . فلا عجب ، ان تراهم يديرون ، احياناً ، بمساعدة احد اعضاء الاسرة ، دكاناً او نزلا صغيراً ، او يقبلون بوظيفة « خولي » عند احد نبلاء المقاطعة او كبار الاقطاعيين فيها ، يؤمنون له جباية الرسوم المتوجبة على المزارعين والمرابعين وهم ، في ذلك كله ، حريصون على الاخذ بالاعراف والعادات

المرعية ، يحافظون عليها ويستمسكون بها بشدة ، فيتلهون احياناً باللعب والنرد كما اعتادوا معاقرة الخمرة ، و كثيراً ما استعملوا سواعدهم ، وكالوا اللكم والضرب واحياناً استعمال الدبوس والنبوت ، كما كانوا يجيدون ترغيب ربات البيوت بالرقص ايام الاعياد .

من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية ، اذ ذاك ، تعتريه الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة . فالسكر والعربدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات. وضرب السكين والخنجر لم يكن نادراً قط . وكم من الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات او شابات مشكوك بفضائلهن ! أفلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعة لبلدية باريس بالسرقة ؟

والرهبان لم يكن وضعهم باحسن حال من وضع الكهنة العلمانيين اذ كثيراً ماتراهم يتركون الحياة والمعيشة المشتركة ،ويتحللون تماماً من عادة تناول الطعام او النوم في قاعات مشتركة ، المترتبة عليهم ، فاصبح لكل منهم حجرة خاصة يستقبل فيها الراهب، دونما حسيب او رقيب. اصدقاءه واقاربه . ونذر الفقر ، والاحوال المشتركة ، كل هذا وما اليه ، اصبح اثراً بعد عين . لكل راهب كيسه الخاص ومدخراته الخاصة وحاجياته المنزلية الخاصة .وحياة العزلة والانفراد. في الدير ، لم يبق من يكترث لها . هنالك رهبان يقطعون اوقات فراغهم يتمخطرون في الازقة والشوارع ، او الساحات العامة ، او يتلهون بالتفرج على اعمال المخرقين ، او البصبصة عن بنات الهوى . والراهبات كم اثرن من الشكوك حولهن بما أتين من فظاظات وموبقات ؟

هذا الوصف لا يقتصر على ناحية أو منطقة خاصة فهو يطبق على جميع انحاء اوروبا المسيحية .

الوضع العام ـ الفلسفة والدين

هذا الوضع الذي تسكع فيه الاكليروس وبعض رجال الدين ، يجب رده ، في كثير من مظاهره ، لأسباب سياسية ، فقد احتفظ ، البابا ، في اماكن وحالات كثيرة ، بحق اختيار المطارنة وتعيين الاساقفة واصحاب الوظائف الكنسية . وكثيراً ما وقع اختياره لملء هذه المراكز والوظائف على ايطاليين او اناس غرباء قد يكونون احياناً ، خليقين بكل تقدير واحترام ، كما كانت هذه الوظائف والمراتب تذهب لمن يتقدم من الادارة الرومانية ، بأحسن الاسعار، أو لمن يتنازل بعضهم لهم عما ينعمون به من اعفاءات وامتيازات لقاء مبالغ طائلة . وكثيراً ما كان اصحاب هذه الوظائف لا يستقرون في مراكز وظائفهم ، فتبقى هذه المراكز من اسقفيات واديار ، بلا رئيس أو مدبّر ، ولا ادارة ، فتذهب امورها وارداتها فريسة للفوضى ، يستغلها من أوتي الحذق والشطارة . وكان من حق الملوك وبعض الامراء ان يعينوا ، هم أيضاً ، اساقفة ورؤساء اديار ، كما انهم كثيراً ما تدخلوا في عملية انتخاب المرشحين لملء هذه الوظائف ، لمصلحة المرشحين من

رجالهم وازلامهم وخاصتهم ، أو ممن لقوا حظوة عندهم ، وهم في غالب الاحيان من رجال بطانتهم أو من عمال الملك أو الامير ممن عُهد اليهم تدبير الامور المتعلقة بادارتهم أو مصالحهم ، فاذا بهذا الفريق من أصحاب الحظوظ ، من كبار رجال الدين دون أن يأنسوا بأي ميل أو نزعة داخلية ، لهذه الخدمة ، أو ان يُهيأوا لها بشكل من الاشكال . وهكذا أخذنا نرى أساقفة ورؤساء أديار يحسنون امور الدنيا ، ينهجون في عيشهم نهج الامراء فينصرفون لاعمال الصيد والقنص ، ويستسلمون للهو والقصف ولصيد الغواني، أو يكونون من نصراء العلم والفنون فيؤلبون حولهم الادباء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إيالتهم من مطرانيات واسقفيات وديارات ، فنظرتهم الى اقطاعات ومسوارد رزق يجب ان تدرّ عليهم الاعطيات والمداخيل الطيبة والثراء الوافر ، لا يهمهم قط ان يمكثوا فيها او أن يقيموا بين ظهرانيها أو ان يقوموا بما تقتضيهم الواجبات الدينية التي يضطلعون بها من وعظ وارشاد ، وتعلم الدين المسيحي ، واعداد كهنة لائقين وخَدَمة للهيكل عازمين ، والحفاظ على الآداب والأخلاق الكنسية .

لهذا الفتور في الدين ، ولهذا النشوز في الاخلاق في من يجب ان يكونوا حفاظاً عليها ومثالاً يحتذى بها ، يمكن ان نجد اسباباً اعمق وابعد تكمن في سيطرة الفلسفة الاسمية وتحكمها اذ ذاك ، بعد او كهام ، في العقول والاذهان . فاذا ما اخذنا باقوال الفلسفة الواقعية ، اصبحت العقائد المسيحية ، لا اقول ، اوضح واظهر ، اذ انها سلسلة من الاسرار المغلقة ، الغامضة ، متصلة الحلقات ، أوحى بها الله تعالى ، وكشف عنها هو نفسه ، بل امست هذه العقائد أكثر قابلية للتفهم والافهام ، اقله من الوجهة المجازية او الرمزية . فقد اصبح لله مفهوماً او مدلولاً يستطيع الفهم البشري محاولة تفهمه ، ولو بصورة مجتزأة ، غير كاملة انما اكيدة ، ثابتة . وبما ان نفس الانسان ، لا مادية هي ، وتستطيع ان تتفهم « الكليات » بثقة ، اصبح في مقدورها ، اذ ذاك ، ان تستخلص مما في هذه الكليات من حقائق اولية عدداً من المفاهيم والمدلولات المسلسلة ، المترابطة ، منها مثلاً : مفهوم اللامتناهي ، ومفهوم العلم الكلي ، ومفهوم الجوهر او الذات الكلي ، وغير ذلك . فاذا ما استعانت افهامنا بالمجاز ، استطاعت ان تصل الى مفهوم لله : الكائن الخالد ، الازلي ، السرمدي ، اللامتناهي ، المالىء الكل ، الكلي القدرة الكلي العلم ، الكامل .

كذلك في مقدورنا الآن ان نعرف معرفة مرضية ، لماذا كل الناس يولدون ملطخين بالخطيئة الاصلية ، خطيئة ابيهم آدم ، لان ما لطخه آدم في ذاته ، هو المفهوم العام للانسان ، هو الجنس البشري ، الانسانية جمعاء ، هذه الانسانية التي احتواها كاملة كما يحتويها كل انسان ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كل الناس يحملون في ذواتهم هذه اللطخة او اللوثة،لانهم يحملون في ذواتهم المفهوم العام للانسان .

وعلى هذه ، قس ايضاً ، الاستحالة . فعلى المسيحي ان يؤمن انه عندما يلفظ الكاهن ، على

الخبز والخمر ، الكلمات ذاتها التي قالها السيد المسيح في عشائه السري الأخير : «هذا هو جسدي ، هذا هو دمي» . فالمسيح يحل فعلاً وحقيقة في القربان ويوجد فيه تحت الاعراض الحسية . وهنالك ما هو اكثر من ذلك . فتحت هذه الاعراض ، تحت ظواهر الخبز والخمر ، يوجد بالفعل جوهر جسد المسيح ودمه ، مع بقاء الاعراض الحسية على ما هي من مظهر ملموس . والى هذا ، فالمسيح يجلس ، بمجد ، على عرشه السماوي بعد قيامته وصعوده ، عن يمين الله الآب . نحن امام سبحة من الاسرار المطبقة ، وهي ، مع ذلك ، اسرار ممكن تفهمها اذا تصورنا ان ما هو موجود في الوقت ذاته في السماء وفي هذه البرشانات التي لا حد لها ، منتشرة بين اطراف العالم اجمع ، ليس جسداً او جسماً خاصاً ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم في عدد لا يحصى من الافراد ، يمكن ان يوجد تحت اعراض مشتركة مع جواهر اخرى .

كل هذا ليس بالواضح قط ، ولا بالجلي . فمن غير المعقول والمقبول ان ما يخص الله الخالق ، القادر على كل شيء ، يستطيع الانسان ان يفهمه او يدركه ، هذا الانسان المخلوق ، العاجز المستضعف ، يبدو على الاقل ، ان هنالك تعليلاً او تفسيراً ، مع العلم ان الايمان ، اذا لم يكن تحت الفهم ، فهو لا يصدمه .

وعلى عكس ذلك ، فاذا ماتجاهلنا الفلسفة الاسمية ، واذا ما انكرنا وجود فكرة الكلي ، واذا لم يبق لنا سوى رموز مادية تخفي وراءها حقيقة صعبة المنال ، عدمنا كل وسيلة تساعدنا على تقريب الدين من أفهامنا . فكيف نستطيع ان نفهم او ندرك سر استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم السيد المسيح ؟ هذا شيء محال . فالامر يعني في نظر اصحاب الفلسفة الاسمية ، ان جسد المسيح مع ما له من محسوسية وتحيز ، يحل محل الخبز المحسوس المتحيز ، دون ان تتغير منه الاعراض . هذا شيء مضاد للعقل ، منافٍ للمنطق فكيف لنا ان نفهم الخطيئة الأصلية ؟ هذا شيء غير ممكن . فاذا لم يكن سوى افراد نسميهم بهذه العلاقة او الاسم : الانسان ، فاي مسؤولية علينا من خطيئة فرد ، هذا الفرد المسمى آدم ؟ ، أوليس من الحيف والظلم ان نُؤخذ بجريرته هو ؟ فكيف نفهم الله ؟ . هذا شيء محال . نحن ندرك الاشياء بواسطة هذه الاحكام العقلية التي نجريها على معطيات الحواس · وهذه العمليات الفكرية لا تفضي بنا الا لتجريدات سهلة ، ليست بالفعل سوى علامات مادية تشير الى شيء لا يرى ، خفي ، لا يمكن ادراكه او تفهمه ، فكيف نستطيع ، مع ذلك ، الصعود او الارتفاع من الاشياء المحسوسة الى الله ؟ فكل حقائق الايمان تستحيل احاجي والغازاً لا تدرك ولا لها حل بالنظر للفلسفة الاسمية .

فكان على اتباع هذه الفلسفة وعلى الآخذين بمقالتها ان يفصلوا او يقطعوا بين العقل والدين ، وبين التصريح بوجوب الايمان والاعتقاد بناءً لتعاليم الكنيسة وشهادتها ، القيّمة على الكتب المقدسة والمفسّرة لها ، وتبنّي الاقوال والاعمال التي تفرض الكتب المقدسة والكنيسة معاً ، تردادها والقول بها دون اي امل قط بان نفهم يوماً ، او نصل الى الله ، الله المحتجب عن كل حقيقة اخرى واكثر من اي حقيقة اخرى ، وراء حجب لا يمكن شقها والنفاذ منها . ولكن

ماذا يبقى من الدين ، بعد هذا ، في نظر الكثيرين من الكهنة والمؤمنين ؟ سلسلة من الطقوس الآلية والصلوات الشفهية ومزامير ، واصطلاحات وعبارات نرددها آلياً ، ميكانيكياً ، ونحن موقنون . عن طيب نية وحسن قصد ، ان لهذه الرموز قيمة في ذاتها ، دون اي اكتراث او اهتمام بوجود اله لا يُدرك ، ودون ان نحيي او نعيش هذه الحقائق الايمانية في نفوسنا ، ودون ان تحمل معها شيئاً الى القلب ، ودون ان تحرك منا النفس او ان تصبح حافزاً لنا على العيش والحياة عيشاً وحياة مسيحية حقة . فالديانة اصبحت جافة ، يابسة ، جامدة ، كما اصبحت النفوس شبه ميتة .

روح الاصلاح

كان هنالك جماعة استحال عليها قبول هذا الوضع او تعذر عليهم النقاش معه ، قوم تحسسوا في دواخلهم ، الحاجة الى حياة اسمى تتمثل في الحب الروحاني ، هفت نفوسهم توقاً الى هذه العذوبة السماوية التي تلف النفس لفاً والى هذا الفيض من الحب الروحي الجياش . وراح هذا الفريق من المتصوفة والانسانيين يحاولون الوصول الى الله بالرغم من هذه الصعاب التي اثارتها امامهم الفلسفة الاسمية . وهذا الجهد الجاهد ، وهذا الشوق المبرّح تمثل على احسن ما يكون ، في هذه المحاولات التي تمت للقيام باصلاح ديني ، جذري ، كان المطلب الاكبر والقصد الاعظم الذي جاشت به نفوس الجميع ، اذ ذاك . وقد بدت للجميع الأخطار التي تتهدد الكنيسة بشر مستطير . وكان الناس يرددون ما يسمعون من حكاية ظهور علامات وامرات لايمكن ان تخدع احداً لما علقوا عليها من دلالة . أفلم يشاهد الناس يوماً ، عام ١٤٩٩ ، ثلاث شموس ظهرت معاً وفي وقت واحد ، كما شاهدوا في احدى الليالي ، ثلاثة اقمار معاً ؟ أفلم تمطر السماء دماً ؟ وفي بلاد الاغريق ، ألم يشاهد الناس ، سيوفاً نارية تتلألأ في القبة الزرقاء ؟ وفي ٢٩ حزيران ، ألم تسقط الصاعقة ، نار السماء ، على الفاتيكان نفسه ؟ والبابا اسكندر السادس ألم يقع ويشج رأسه . كل هذه الغرائب علائم تنذر بشر مستطير ، كما يحلو لجان اوتون ان يعلق عليها شارحاً ، متيقظاً في كتابه : « تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر » . « هكذا بدا حال الراعي الصالح وعلى هذا الشكل كان وضعه ؛ افلا يكون ذلك نذيراً بتشتت الغنم او بما سيستهدف له القطيع من مآسي واضطهادات ؟ » ومن جهة ثانية فقد تطورت قوة الانسان المادية تطوراً مخيفاً . فقد استطاع الملك شارل الثامن ان يدكّ ، بما تم له من مدفعية ، قوية ، القلاع والحصون الايطالية . وهذه القوة الهدامة هل يجوز للانسان استخدامها للشر والخراب ؟ كذلك ، ان الفتور الديني الذي سيطر على الانسان ، واندفاع الناس وراء البذخ واشباع شهواتهم ، وهذه الهرطقات التي طلعت على الناس فمزقتهم كل ممزق ، كفلسفة ابن رشد ، تملأ القلب خوفاً وهلعاً . والى هذا ، راح الناس يتحدثون عن بلاد اصحابها كفرة ، تقع ما وراء المحيطات ، يجب حمل بشارة الانجيل اليها .

لوثيفر ديتابل

ففي هذه الظروف بالذات ، وفي مثل هذا الجو العابق بمثل هذه الهواجس والاضغاث ، وفي مثل هذه الذهنيات التي عشعشت فيها مثل هذه الترهات ،

طلعت علينا ، في غرة القرن السادس عشر ، المثُل التي جاش بها الفارس المسيحي – جندي المسيح *Miles Christi* ، المستعد دوماً للجهاد الروحي . عِدّته المثلى ، الصلاة وهذه الانسانية التي صقلتها ثقافة العصر ، وكل العلوم التي خلفتها لنا العصور الخوالي ، بعد ان نُفِض عنها غبار النسيان وارتكضت في جنباتها الحياة ناشطة زاخرة ، وفوق هذا كله روح الله الحقة . ولكي يتوفر لهذا الفارس المسيحي ما يلزم من عدة وعتاد في ما اخذ به النفس من مجاهدة ، قام الفرنسي لوفيفر ديتابل ، المولود عام ١٥٤٠ ، وأحد اساتذة كلية الكردينال لوموان ، يبحث ويتحرّى عن هذه الفكر والافكار القديمة التي جاء بها كل من ارسطو وافلاطون والمتصوفون . فقد حاول الافلات او التملص من هذا الطوق ، من هذه البراهين والاقيسة الدقيقة ، التي طلعت بها الفلسفة الاسمية . فقد جاء في المقدمة التي وَطّأ بها لكتابة « المدخل الى المنطق » المنشور عام ١٤٩٦ ، بالحرف الواحد : « تيَقّن قبل كل شيء ان الحدسيات ، وهذه الاستقراءات والحصريات ، والاستثناءات والمجازات والالغاز ، التي لا حل لها ، كلها امور لا طائل تحتها ، ولا خير منها ولا فائدة لها ، تكاد لا يؤبه لها ، وان الاحكام التي تبنى عليها لا تمت بصلة قط للمنطق الحقيقي او الفلسفة الحقة » . يجب ان نكف عن اقتطاع بعض نتف من ارسطو والاجتزاء ببعض مختارات او مقتطفات من آثاره لنتخذ منها دون النص الكامل ، اساساً لنظام او مذهب فلسفي . علينا ان نطالع هذه الآثار مطالعة كاملة وان نقرأها قراءة تدبر وتفهم ، بنصها وفصها ، وان نستخلص منها المعنى الحرفي ، قبل كل شيء . ان مؤلفات ارسطو وافلاطون هي خير الوسائل التي تفضي بنا عن طريق تفهم الاشياء الواهية والزائلة في هذا العالم الحسي ، الى الامور الالهية . فالله عز وعلا ، اقام من هؤلاء الفلاسفة ، كهنة له وجعل منهم انبياء وجعل منهم مشاعل تهدينا الصراط القويم . لا شك بان الله الذي ينير كل انسان وارد الى هذا العالم ، لم يكن بعد ، أعلن ذاته للبشر ، انما أطلّ عليهم من علياته لانه النور الساطع الذي لا حد لاشعاعه ولا نهاية ، والذي تضيء انواره الاجيال كلها » . فاذا ما اخذنا نُنعِم النظر في هذا كله وجدنا ان ارسطو ، بما وضع من نظريات كلية وبما فلسف مكنونات الاشياء وجوهر الكائنات ، واكثر منه افلاطون الذي رأى في الكليات وما لها من مفهوم عام صورة او نموذجاً او المثال الاعلى الذي يتحيز ، ليس فقط في الكائنات الفردية ، بل على حدة ، مستقلاً في الله ، فقلل بذلك من الصعوبات التي نلاقيها في شرح العقيدة المسيحية وتفسيرها . بعد هذا كم يخف الغموض الذي يحفّ بعقيدة الخطيئة الاصلية ، اذ ان ما لطّخه آدم في ذاته هو فكرة الانسان نفسه . هذا المثالي النموذجي ، الخالد الذي مر في خلد الله وخاطره ، والذي على شاكلته ومثاله جاء البشر اجمع . الا ان المعرفة الحقة العميقة الغور ، البعيدة الجذر ، تتعدى بكثير ، قدرتنا على تفهم الامور ، كما تجاوز كثيراً طاقة العقل البشري . فالمعرفة تحصل باكتناه الشعراء ، باكتناه الله في هذه الشطحات الصوفية وانخطافهم الروحي . وفي هذا السبيل هبط لوفيفر ديتابل ايطاليا عام ١٤٩١ و ١٤٩٢ حيث تم له الاتصال بمارسل فشينو وابيمولا

بربارو الذي كان أخذ على نفسه ان يكشف عن حقيقة تعاليم ارسطو ، عندما راح يهاجم اتباع فلسفة ابن رشد . وتردد لوفيفر ديتابل ، بين ١٤٩٩ و ١٥٠١ ، على الصحــاف المشهور ألد مانوس ، في البندقية وصاحب اكبر دار نشر فيها ، واشهر هذه الدور طراً ، في جميع انحاء اوروبا بمطبوعاتها . وقصد عام ١٥١٠ ، المانيا الرينانية ،جاء مدينة كولوني ، موطن المتصوفة ومعقلهم الاكبر ، ونزل ضيفاً على جمعية اخوة الحياة المشتركة ،فزودوه بكتب وابحاث تبحث في التصوف والمتصوفين . نشر بين ١٤٩٤ — ١٥١٥ شارحاً ومعلقاً ، مؤلفات نقولا دو كوس ، والمؤلفات الرمزية التي وضعها تريسمجيست *Trismégiste* ودنيس الاريوباجـــي ، والقديسة اليصـــابات . كذلك نشر عام ١٥٠٩ ، الطبعة التي اعدها لسفر المزامير كما نشر عام ١٥١٢ كتابه : «افراح رويسبروك الروحية » والطبعة التي اعدها لرسائل القديس بولس مع شرحها وهكذا اسهم فعلاً في إيقاظ روح التقوى ، في النفوس .

ايراسموس

وقد جاءت اعمق اثراً وابعد مدى ، الآثار الفكرية التي وضعهـــا الفيلسوف والكاتب الهولوندي ايراسموس ، هذا الراهب والكاهن الذي ولد عام ١٤٦٦ والذي تخرج من جامعة باريس حيث اقام من سنة ١٤٩٥ — ١٥٠٠ . فقد كان من رواد النهضة الانسانية . ومن اضلع رجال العصر معرفة باللغة اللاتينية ، بحيث كان يخدش اذنه ما يسمعه ويشاهده من هذه اللاتينية المكسرة التي وردت على اقلام الكتاب السكولاستيكيين . جاء انكلترا عام ١٥٠٠ ،واقام في جامعة اكسفورد حيث لقي جون كوليت، اثر رجوعه من إيطاليا وهو على اشد ما يكون اعجابــاً بشيشرون وافلاطون ، والذي التحق ، عام ١٤٩٦ بكلية الجدلية ، فكان اول من طبق ، في دراسة رسائل القديس بولس، منـــاهج النقد الحديث التي طبقها العلماء الايطاليون ، في درس مخلفات قدامى الاغريق الفكرية ، هذا النهج الذي كان لوفيفر ديتابـــل بالذات شرع بتطبيقه في دراسة ارسطو . وراح كوليت، يشرح رسائل بولس ويفسرها كما يفسر ويشرح اي رسائل وجهها كاتب ما لاصدقائه ، محاولاً ان يلتقط في بساطتها الاولى الكلام الذي تفوه به القديس بولس ، دون ان يبالي قط بمذاهب الفلاسفـــة الأسميين وتجريداتهم.فأفاض كوليت من انواره على ايراسموس الذي كان وقع تحت تأثير جان فيتربيه ، رئيس دير الاخوة المرشدين في سانت اومير ، بفرنسا . فقد حفظ هذا الاخير عن ظهر قلبه ، رسائل بولس الرسول وخرج منها بصورة جلية واضحة ، متحررة تماماً بالروح والحق ، ضارباً بعرض الحائط ، هذه الاحتفالات وهذه المراسم والطقوس النافلة التي لا طائل تحتها .

نشر ايراسموس ، عام ١٥٠٠ كتابه : « الامثال » وهي حكم وأمثال انتقاها من الكتّاب القدامى ومأثور كلامهم وشوارد الحكمة التي تساعدنا على تفهم المقاصد الالهية . كذلك نشر كتاب شيشرون: « حول الوظائف » . فالمثال البشري الذي رسمه الاقدمون يساعد على توجيه الانسانية نحو أهدافها السامية ، غير ان يسوع وحده هو الذي يحقق فينا المثال الاسمى والاكمل

وراح ايراسموس ينشر عام ١٥٠٣ ، كتابه المشهور المعنون : « رفيق المناضل المسيحي – *Enchiridion militis christiani* وهو كتاب صغير الحجم كتب بلغة لاتينية ناصعة ، جزلة ، اراده صاحبه سلاحاً للروح ، شبيهاً بالخنجر سلاح الجسد .

واخذ ايراسموس يقنع قارئه بأنه مسيحي كاذب لأنه لا يتصرف كالمسيحي الحقيقي . « ترى قريبك تتحالف عليه الآلام والاوصاب فلا تهتم لامره ولا تكاترث لوضعه ؛ كل ما يهمك انت ، ان يسلم رأسك ، لا تأخذك فيه شفقة ولا رأفة ، فالامر لديك سيان . هل تستطيع ان تقول لي لماذا لا تشعر نفسك نحوه باي عاطفة ؟ الجواب بسيط للغاية ، يا اخي،فانت لا تشعر بشيء نحوه لأن نفسك ميتة فيك – نعم ميتة هي – لانها لا تنعم بالحياة الحقيقية التي هي الله ، اذ حيث يكون الله تكون المحبة ، لأن الله محبة هو » .

ولكن تتجدد فيك الحياة المسيحية ، حياة النعمة ، لا تذهب للرهبان،اذ انهم قوم إستسلموا للخرافات ، فهم قوم ظلاّم ، قساة ، خطفة حقودون ، نمّامون ، نفّاثون ، همهم الشجار والنكايات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق ، يتباهون بما تم لهم من خير ، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور ، يخيل اليهم انهم على صلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون ، فهم مراؤون،ومسيحيون زائفون اذلا يهمهم الا ان يلمعوا،او ان يبزّوا سواهم في مجادلاتهم الدينية .

اما العون الذي انت بحاجة اليه ، فسيأتيك من المسيح نفسه ، اذ يعلمنا بولس الرسول ان المسيحيين يؤلفون مع السيد المسيح جسداً واحداً ، المسيحيون الاعضاء والمسيح منه الرأس . فالجسد يحييه المسيح ، في كل لحظة بدمه الذي بذله على الصليب وبنعمة الروح القدس . نحن بذاتنا ضعفاء،ولكن بوصفنا اعضاء في جسد السيد المسيح السري ، نستطيع ان نعمل كل شيء . وبصفتنا اعضاء في جسد المسيح ، هو يحررنا من الخطيئة ويعطينا الحرية الحقيقية ، ويسكب علينا الاطمئنان والرجاء والفرح ، على شرط ان نخصه بحبنا ونقف هذا الحب عليه وحده . كل شيء حسن : المعرفة والصحة والقوة حتى والمال ، إذا ما ساعدنا على الازدياد حباً وتعلقاً بالسيد المسيح . والذي يبعدنا عنه هو الشر والاثم . فاذا كنت تتصرف بالمال تصرف الخازن أو امين الصندوق ، فيمر بين يديه برّاقاً في طريقه نحو الفقراء والمساكين ، فتصرفك حسن هو ، ويمكنك في مثل هذه الحدود ان تعمل على كسبه وتسعى الى تحصيله . اما اذا كنت تختزن المال لذاته ، فالاوفق ان تطرح به الى البحر اذ يبعدك عن السيد المسيح ويسبب هلاكك . كل مناسك العبادة ومراسم الطقوس الدينية ، هي حسنة بحد ذاتها ، اذا كانت تعبر فعلاً عن المحبة ، وإلا فشر هي ووبال . انت تصوم لتكون الى جنب السيد المسيح على الصليب ولتتألم معه بعض الشيء . هذا شيء حسن جداً . اما ان تصوم لان غيرك يصوم ، فعمل يعمله المراؤون ، وعليك وحدك وزره . تتوجه بصلاتك نحو القديس خريستوف او القديس روكس أو القديسة بربارة. فاذا كنت تقصد بعملك هذا تكريم صورة السيد المسيح التي يحملونها في نفوسهم والحصول بشفاعتهم على نعمة التشبه بهم والسير على نهجهم لتصل الى محبة يسوع ، عدّ عملك هذا براً وصلاحاً ، اما ان كنت تستشفعهم ليحرسوك من كل ضير واذى

او ليردوا عنك المخاطر أو لينصروك عـلى اعدائك او ليردوا عنك الموت ، فانت فريسة خرافات خرقاء جوفاء . فالصلاة الحقيقية هي ان تطلب الاتحاد بالله والاقتداء بالسيد المسيح .

ان الله يحب ان نعبده بالروح والحق ، والقلب الطاهر والاستقامة . أما ما يبغضه الله فهو هذه الحركات والتصرفات التي لا تتم قط عن شعور حقيقي ولا تفيد شيئاً مما هو لله . ما معنى السجود والركوع في الكنيسة ، والقلب يعج بالحقد ويغلي ضغينة . ومـا نفع انشاد المزامير والتسابيح ، والفكر تائه مشتت . المهم هو تنقية القلب وتطهيره من كل رجس . المطلوب تحقيقه هو ما جاء في خطاب السيد المسيح على الجبل ، اي ان تحول خدك الايسر لمن ضربك على خدك الايمن ، اذ ردة الفعل المثلى في المسيحي هي ان تحمل الشرير على رمي سلاحه وطرحه بعيداً لشدة ما يرى من كرم نفسك وطول اناتك » .

ولكي نساعد السيد المسيح ليبني فينا الحياة الداخلية علينا ان نعتصم بالتأمل ، صلاة القلب الحقيقية . « خمس كلمات تتفجر من اعماق القلب خير من عشرة آلاف كلمة تكرج على طرف اللسان وتذهب في الهواء هباء ، « الشوق الشديد الذي تجيش به اعماق النفس هو الذي يحمل الله يصيخ باذنه الينا » اتخذ بمثل موسى النبي : فهو لا ينبت ببنت شفة وهو في حضرة الله العلي ؛ اما قلبه فيلهج صارخاً : لماذا دعوتني يارب؟

اما الوسيلة الثانية فهي معرفة شريعة الله ، « غذائنا الروحي » . ثق يا اخي الحبيب ، أنه ليس من تجربة ، مهما اشتدت وطأتها ومهما خطر شأنها الا وتستطيع ان تتغلب عليها بقراءتك الكتاب المقدس قراءة تدبر وتفهم . علينا ان نفتش عن الروح تحت الحرف ، عند هؤلاء المعلمين الرمزيين الكبار ، امثـال : بولس الرسول ودنيس الاريوباجي ، والقديس اوغسطينس واوريجينيس ، وان نستعد لفهم هذه الامور بالاستعانة بمؤلفـات دنوية كتلك التي وضعها افلاطون . علينا ان نربي فينا قوة التمييز ، وان ننمي في ذواتنا ملكة المحاكمة العقلية ، وان نحكم على الاشياء بانفسنا ، اذ يتحتم علينـا الا نحدد مبادىء سلوكنا على المألوف من أعراف الناس وعاداتهم حتى ولو لقيت استحسان البابا وحازت على موافقة الملوك ، بل علينا ان نزن هذه الاعراف ونقيسها وفقاً لتعاليم السيد المسيح . وهل من ضر علينا اذا ما كان قليلاً عديدنا او كنا فئة صغيرة ؟ ويكفي ان تنال قضية ما أو ان تحوز رضى العدد الاكبر حتى تصبح موضوع ظنه وارتياب . كانوا ابداً قلة وسيكونون دوماً فئة صغيرة ، هؤلاء الذين سيحافظون على نقاء القلب والضمير ، ويتحلون بالسذاجة والفقر الروحي والتجرد ، ونكران الذات ، ويتمسكون بالحقيقة التي علمنا السيد المسيح . وهكذا نرى كيف ان الامر ينتهي عند ايراسموس الى حرية الفكر ، والى فردية المرء التي اكثر ما تليق بالحركة الانسانية ، وبالاحرى ، حركة « الانسانية الانجيلية » .

فلا تسل ، بعد هذا عن الدوي الذي احدثه كتابه « رفيق المناضـل » الذي اتبعه ، عام

١٥١١ ، بكتاب آخر عنوانه : « تقريظ الجنون الذي جاء صورة عن الاول ، انما باسلوب تهكمي ، لاذع . فاشتهر بذلك اسم ايراسموس وامتد صيته في كل من ايطاليا واسبانيا ، والبلاد الواطئة ، وراح يعلم في جامعة كمبريدج ، في انكلترا ، في كلية كريستي ، حيث اخذ يعد طبعة جديدة للعهد الجديد ، باليونانية نشرها في مدينة بال ، عام ١٥١٦ ، في دار النشر المعروفة بدار فروبن *Froben* . وقدم لهذه الطبعة بخطبة حث فيها الناس على درس الفلسفة ، المسيحية ، عنوانها « *Paraclésis ad philosophiae christianae studium* » « دعوة الى دراسة الفلسفة المسيحية » . يجب الا يجهل احد بعد « فلسفة المسيح » « المعلم الوحيد المرسل من السماء » هذه الفلسفة التي هي في متناول الجميع ، لان في مقدور اي كان ان يَرِدَ وِرْدَ هذا المعين الصافي ، في بضعة كتب سهلة المأخذ : كانجيل القديس يوحنا وبعض رسائل القديس بولس الرسول ونبوءة اشعيا النبي ، اذ باستطاعة اي كان ان يتفهم جيداً « لأن العقول تقتبس والنفس تستسيغ بيسر ما يتلاءم مع الطبيعة » . والحال ان فلسفة السيد المسيح ، هذه الفلسفة التي يسميها هو نفسه الميلاد الثاني ، هي تجدد الطبيعة البشرية التي خلقت طيبة . وسيصادف القارىء ، باسرع ما يمكن ، معلماً ومرشداً هو الروح القدس الذي يحل بكل مسرة ، في النفوس الساذجة . « فالشمس التي تشرق علينا ليست باكثر التصاقاً بالناس ولا ايسر تناولاً من تعاليم السيد المسيح ... واني لاتمنى من الصميم ان تتمكن أوضع السيدات من قراءة الانجيل ، ومن قراءة رسائل القديس بولس . وعسى ان تجود السماء بمن يقوم بترجمة الكتب المقدسة الى جميع لغات الارض بحيث تصبح في متناول الجميع وتيسر مطالعتها ليس فقط لسكان اسكتلندا ، وايرلندا ، بل ايضاً للعجم والعرب . صحيح ان البعض سيمدون لها طرف اللسان هازئين ولكن لا بد من ان يقع البعض تحت اسرها . وعسى ان يقيم الله من بين الزراعين والفلاحين من يردد آيات الكتاب المقدس ويلهج بها ، ويده على المحراث ، وان يطلع من بين الحاكة والنساجين من يتغنى ببعض نصوص الكتاب المقدس بينما تتعاور يداه الوشيعة ذهاباً وإياباً ، وان يجد المسافر في عزلته ما فيه سلواه وتعزيته في سيره الرتيب ، بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع احاديثهم وحديث سمرهم » . وهكذا نرى المسيحية تغذي جميع نشاطات الانسان وتسيطر على كل علاقاته الاجتماعية ، وتملأ كل حياته « فاللاهوتي الحق ، ليس هذا الذي يمضي في استخلاص البراهين والادلة ويسوقها حججاً متصلة الحلقات ، آسره في بلاغتها دامغة في مدلولها ، بل اللاهوتي الحق هو هذا الذي يعلم ويرشد بكل ما فيه من اقتناع وايمان حي ، وحسن سلوك ، وحياة مثالية ، ويحتقر الماديات ويعرض عنها .. هو الذي امتلأ من روح المسيح ، ويعلم تعاليمه وينشر مبادئه .. هو هذا الذي يحرص على غرس هذه التعاليم في قريبه ويحرضه على العمل بها ، ويأخذ بيده الى مرابض الايمان . هذا هو اللاهوتي الحق ، سواء اكانت يده على المحراث أو وراء منسجه » .

كل هذا يتفق كل الاتفاق وتعاليم الكنيسة . فايراسموس هو هنا ، في صميم الصراط القويم ، في صميم الارثوذكسية المستقيمة الرأي . فالقول بالطبيعة البشرية ، التي لطختها الخطيئة الاصلية

ودنستها دون ان تفسدها كلياً ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابه « *paraclesis* » مليء بالمواد السريعة الانفجار . فاذا ما راح قارىء يمضي ، مثلاً في استخلاص النتائج المترتبة على القول ان الروح القدس هو المعلم ، ومضى في استنتاجه هذا الى الحد الأقصى، انتهى حتماً الى وضع، اضطر معه امام المنطق الآسر ان يسلم بان أقلّ ربّة منزل واية مسكينة، تطالع الكتاب المقدس ، مستضيئة بانوار الروح القدس ، قد تطلع برأي او تفسير ، يناقض تماماً جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة . واذا مضى القارىء على مثل هذا النحو ، وبيده مثل هذا القياس ، انتهى الى التسليم بان اللاهوتي الحق هو هذا الفلاح ، أو هذا الحائك الذي يمثل في سيرته وسريرته ، قول السيد المسيح : أفلا ينتهي به المطاف الى استنتاج آخر ، الى نكران كل صفة كهنوتية في الكاهن ، فيضرب بعرض الحائط ، السلطة في تسلسلها المترابط، وينكر بالتالي الكنيسة ؟

بعد نشر كتابه الاخير الذي اشرنا اليه أعلاه ، اصبح ايراسموس زعيم الانسانيين الانجيليين، في جميع انحاء اوروبا . فنشر ، بالاتفاق مع الراهب الدومنيكي جان فابر ، في خريف عام ١٥٢٠ ، رسالة طالب فيها بوجوب عقد مجمع مسكوني . ومما يلفت النظر في هذا الامر ويدعو الى شيء من الغرابة والدهش ، هو اشتراك هذا الراهب الدومنيكي باعداد هذه الرسالة ونشرها بالتعاون مع ايراسموس ، في الوقت الذي سبق للبابا فيه واصدر بتاريخ ١٥ حزيران السابق براءته المشهورة *Exsurge* الذي حرم فيها الراهب المتمرد لوثير وقطعه من عضوية الكنيسة وشراكتها ، حتى ان اللوثريين الالمان استهولوا الامر ، وراحوا يقترحون بوضع انفسهم تحت تصرف ايراسموس ، حتى ان لوثير نفسه عرض عليه ، عام ١٥١٩ ، رأس الحركة الانتفاضية التي قام بها ، فرفض . وقد خيّل للجميع . بين ١٥١٦ — ١٥٢١ ، ان الكنيسة ستقوم ، هي نفسها باصلاح نفسها ، وذلك باتفاق على نصوص معينة يتفق عليها الاطراف المعنيون ، يُقره مجمع مسكوني يُعقد لهذا الغرض ، اسامه مسيحية تتمتع بحرية واسعة بعد تحديد القضايا الايمانية الاساسية ، وفاقاً للمنهج الذي فصّله ايراسموس في رسالة له الى بول فولز ، رئيس دير هوغشوفن ، مؤرخة ١٤ آب ١٥١٨ ، هذه الرسالة التي جاءت مقدمة للطبعة الثانية لكتابه : « رفيق الفارس المسيحي » التي ضمنها الامور التالية : صرف النظر عن أي جدل او مناقشة مع اتباع الفلسفة الاسمية ، الاقتداء بالسيد المسيح ، تحديد بعض قضايا الايمان والآداب بكلمات مقتضبة ، الكمال المسيحي حسبما يستطيع المسيحي تحقيقه في حياته الخاصة ، لان « الكمال المسيحي يتمثل ، قبل كل شيء في ما يختلج في النفس من احاسيس ومشاعر وليس في نهج الحياة » ; إذاً الغاء طغمة الرهبان بالتالي ، ونسخ الفرائض التي الزموا الناس الاخذ بها .

لوثير

ما كادت هذه الانتفاضة الدينية على الكنيسة ان طلعت حتى ظهرت اختلافات ومفارقات اساسية بين المؤازرين لها والناهضين بها ، لم يكن من السهل قط حلها

او كبتها ، فأدت بالتالي الى التباعد بين لوثير وايراسموس والانفصال عنه ولا سيا عندما اثيرت قضية التوفيق بين قدرة الله الكلية وبين الحرية التي يتمتع بها الانسان في ارادته . فبينما كان لوثير يسعى بكل قواه ، ولكن دونما جدوى ، ان يكيف نفسه ، وهو بعد راهب تابع للرهبنة الاوغسطينية ، ليسير حسب مشيئة الله وان يتصرف بما فيه مسرته تعالى ، ظهر له ، والالم يحز في نفسه ، ان الانسان اعجز من ان يتمم وصايا الله واعجز من ان ينال ، بالتالي ، مثوبة عنده . فقد شعر ، في الصميم ، هذه الشهوة التي تلازم طبيعة الانسان وتتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملاً الى الشر ، الى الاثم والرذيلة ، الى الشره ، الى السيطرة على الآخرين ، بحيث يصبح الانسان غارقاً في خضم الخطيئة . فقد عاش لوثير بنفسه ، هذه الحالات التي خُيّل اليه فيها ان الانسان يتملكه فجأة ، شعور عارم لا يقاوم يطيح امامه كالسيل الجارف ، بمقاصده ونواياه ، ويغرق ضميره ، ويسير به الى دوامة تجره الى الشر . كثيراً ما فكر بهذا الاشمئزاز يحسه نحو الاعمال الحسنة ، هذه الاعمال التي ، مهما تجاهل الانسان الخطيئة وتعامى عنها ، تخالطها ، في احسن الحالات التي يكون فيها الانسان صادق العزم والارادة ، افكار دنيئة ، واهية ، رجسة ، تنزى بالأثرة والمنفعة الخاصة ، وحب الظهور والجد الباطل ، بحيث يشعر المرء ان كل ما يأتيه او يصدر عنه او يفعله ، لا يمكن ان يكون صالحاً ، او حسناً او خيراً . فقد خبر هو هذه الحالات النادرة جداً ، التي يشعر الانسان فيها وكأن قوة تهبط عليه فجأة من فوق ، من العلو ، فيرى نفسه محمولاً الى الامام ، نحو العمل الخير ، البار ، فتنبض نفسه ، بصورة غامضة ، لا يرتقي اليها الشك ، بشعور نقي طاهر . ومن هذه التجربة الشخصية التي عاشها نشأ عنده الاقتناع التام بعجز الارادة البشرية ، الجذري ، الذي لا حيلة فيه ، وبقوة النعمة الالهية التي لا تقاوم . وعلى هذا اليقين الذي رسخ فيه ، نهض تفسيره للكتاب المقدس وشرحه له .

وقد توضحت افكاره وتبلورت خواطره بهذا الشأن منذ ان وضع شروحه على رسائل بولس الى اهل روما ، عام ١٥١٥ – ١٥١٦ ، ووضع مبادئه العامة في وتنبرغ ؛ ونقده للاهوت السكولستيكيين وتفنيده له ، عام ١٥١٧ . « فالطبيعة البشرية ، بحكم جوهرها ، فاسدة هي وعاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد . » فحرية الارادة فسدت من جراء خطيئة آدم . وبواسطة الخطيئة الاصلية ، يرى الانسان نفسه مسوقاً الى الشر بصورة لا معدّى له عنها . فلا يمكن للانسان ان يريد او يرغب غير الاثم والشر ، ولا يمكنه ان يصنع الا الاثم . غير ان الله القادر على كل شيء ، والذي يعرف منذ الازل ، بما له من سابق علم ، من هم الخالصون ومن هم الهالكون ، يرسل بعطف الهي منه ، نعمته وأيده السماوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى هؤلاء المعدّين ، منذ الازل ، الذين افتداهم السيد المسيح بدمه وبذل لاجلهم آخر نقطة مسمراً على الصليب . فالله يعطي هؤلاء ، مجاناً ، دونما اي استحقاق منهم ، الايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي به وحده يتم الخلاص ، كما ويزرع فيهم ويسكب عليهم حب يسوع ، والخضوع لارادة الله . والنعمة الالهية هي التي تجعل الانسان يرغب في الخير ويسعى اليه ، بعد ان كان زهد فيه واعرض عنه وتنكر

له ، فتحمله حملاً وتقسره قسراً على النزوع اليه . فالانسان هو ألعوبة بيد الله . « نحن لسنا اسياد عملنا ، انما نحن عبيد من المهد الى اللحد ، من البداية الى النهاية » . و « نحن لا نتبرر قط ، مهما كان سلوكنا باراً ، واذا كنا نعمل اعمالاً بارة ، فلأننا تزكينا بنعمة الله »[1]. فالنعمة ، والحالة هذه ، لا تشفي الخاطىء، فهي تدعه دنساً ، رجساً ، غير طاهر ، غير ان الله ، بنعمة منه مجانية ، ينجيه من هذا الفساد ويخلصه من هذا النتن الذي يملأ كيانه ، وذلك بفضل استحقاقات السيد المسيح التي يجريها على الخاطىء بالايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي تفيضه النعمة عليه . ولذا كانت اعمالنا وتصرفاتنا لا شأن لها ولا قيمة البتة لعمل الخلاص . فالايمان وحده ، اولى النعم ، هو الذي يُخلّص . فالاعمال البارة ليست سوى الدليل على النعمة . فاذا كانت النعمة تلأ، اوحى الله لنا بهذا ، بواسطة الروح القدس الذي يأتي الينا ويطمئننا بان خطايانا قد غفرت لنا ، مهما كانت اعمالنا وتصرفاتنا . وترجو رجاء وطيداً انها تسر الله ، مع انك تدرك جيداً بانك لا شيء امام الله، باعمالك هذه ، حتى ولو كانت مرضية بارة ، حتى ولو عملتها بروح الطاعة ؛ اذ لست انت الذي تعمل الاعمال الشريرة » . فالله هو الذي يعمل كل شيء بدون ان يسهم الانسان بشيء . وهكذا نرى ان حرية الارادة وهم هي وخيال .

من هو الذي أدخل في روعنا واقنعنا ان باستطاعة ارادتنا ان تعمل شيئاً ، وان في مكنتنا ان نكسب أجراً ومثوبة امام الله ؟ هم الفلاسفة القدامى الذين بواسطتهم استطاع اصحاب الفلسفة المدرسية ان يفسدوا الكتب المقدسة . فما الذي يعلمه لاهوتيو الفلسفة الكلامية ؟ انهم يرون في من لا يحسن المنطق من رجال اللاهوت هرطوقياً خطيراً ، هذه العبارة التي ينعتها لوثير بكونها هرطوقية مخيفة. وما الذي يعلمه اللاهوتيون من اصحاب الفلسفة الكلامية ؟ هم يرون انه بدون معرفة ارسطو لا يمكن لانسان ما ان يصبح لاهوتياً. أما لوثير ، فيؤكد عكس ذلك تماماً ، فهو يَعلّم ان الانسان لا يصبح لاهوتياً الا اذا ابتعد عن هوميروس وتجاهله تماماً ، « وان نسبة ارسطو للاهوت هي نسبة الظلام الى النور » . « كل ما جاء به ارسطو عن الاخلاق هو عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً، مناقضاً لهم كل التناقض ، كما انه يبعد كل البعد عن الانسانية الانجيلية .

التصادم بين الانسانية الانجيلية والاصلاح

وقع هذا الاصطدام عندما راح ايراسموس ينشر عام ١٥٢٤ ، كتابه : « حول حرية الارادة » . فحرية الارادة ، في نظر ايراسموس ، هي ملكة من ملكات الحرية البشرية ، وصفة من صفاتها الملازمة ، بها يستطيع الانسان ان يأتي كل ما يفضي به الى الخلاص او الى الهلاك الابدي . وفي هذا السبيل، ونهوضاً منه بهذا الدور، راح ايراسموس يجمع النصوص الكتابية التي تشير او تلمح الى حرية الانسان باختيار الخير أو الشر على هواه . فتولى بالتدقيق والتمحيص بعض النصوص التي يبدو عليها انها تعني عكس ذلك ،

---

(١) من كتابه : مناقشة لاهوت السكولستيكيين – القضية ٣٩ ، ٤٠ ، و ٤١ .

وأخذ يدلل انها ضرب من المجاز ألحقَ بعض الغموض وأدخــــل شيئاً من اللبْس على المعنى الحقيقي لهذه النصوص التي تعني حقيقة ، حرية الارادة في الانسان . وهكذا ، فالنفس البشرية لها القدرة على ان تحكم وتقضي وتقرر ، كما لها القدرة على الاختيار . صحيح ان الخطيئة الاصلية ألحقت بعض الغموض بهذه كما سببت بعض الضعف في تلك ، انما لم تقض عليهما البتة . ولما كانت الخطيئة قد رُفعت عن الانسان بنعمة الله وتحننه، فقد عادت الى هذه القوى حريتهـــا بسلوك الصراط المستقيم والمضي في غراره، بمؤازرة النعمة الالهية ومساعدتها .

حتى بدون النعمة ، بقيت حرية الارادة فينا ، قائمة ، ولو ان الخطيئة اضعفتها . بدون النعمة الالهية ، كان باستطاعتنا ان نتجه من الخير والصـــلاح ، وان نأتي ، اعمالاً صالحة بارة نستحق بها نعمة الله المبررة . فاذا لم يكن للانسان حريته ، لأنتفت عنه بالتالي كل مسؤولية . فما الفائدة ، والحالة هذه من عدل الله ورحمته ؟ ان الواقع فعلاً هو ان نعمة الله وارادة الانسان تعملان معاً بالتعاون : فالنعمة تطهر حرية الارادة وتنقيها مما علق بها من شوائب ، كما ان حرية الارادة تعمل هي الاخرى من جهتها .

جاشت حفيظة لوثير لهذه التعاليم ، وراح يرد على ايراسموس بكتابه « *De Servo arbitrio* – حول عبودية الارادة » الذي نشره عام ١٥٢٥ ، والذي جمع فيه زبدة تعاليمه بهذا الشأن ، كما راح يقذف ايراسموس باقذع الكلام ، ويدعوه : « خنزيراً » و « نفاثاً للسموم » كما رأى في كتابــه الاخير : « قمامة اوساخ » ومطـرح « الاوحال والقاذورات » . واذ ذاك ، أخذ لوثير يهاجمه بهذا القياس ذي الحدين : اما ان تكون لحرية الارادة القدرة على السير بنـــا الى الخلاص ، فتصبح النعمة ، اذ ذاك ، لا طائل تحتها البتة ، ويصبح من التجديف على الله نكران القدرة الالهيــة ، واما ان لا تكون لحرية الارادة اي قوة او فعالية ، فلا تستطيع بالتالي ان تأتي اي عمل او ان تنتج شيئاً ، واذ ذاك تصبح كلاماً مكروراً باطلاً وهباء منثوراً . والحال فانت تقرر وتعترف بأن حرية الارادة كثيراً ما تحتاج للنعمة ، في كل تصرفاتها وسكناتها ، وبذلك تعترف ضمنـاً انها لا شيء قط . وراح لوثير ، بوصفه تلميذاً للفيلسوف الاسمي بييل ، يفكر ويعلم ان جـل ما يمكن لنا ان نتوقعه من مصير هو ان نبقى ، الى الابد ، مغمورين ، نكرة ، ليس فينا مــا يستحق الذكر او يلفت النظر . فحيث لا توجد ظواهر تنم عن شيء ما ، فليس هنالك شيء قط . ما عساك ان تقول لو اني استخدمت اقوالك وتأكيداتك بوجود حرية الارادة ، فاثبت لك منها ان لا وجود لهذه الحرية البتة ؟ فأنت تعترف لحرية الارادة ، بقوة هزيلة ، وان هــذه القوة تبقى عاجزة ، لا تأتي شيئاً بدون نعمة الله . والحال ، فاذا ما غابت نعمة الله عن هــذه القوة التي لا أثر لها ولا حول ، أو اذا لم تبلغها نعمة الله وتتصل بها ، فما يمكنها ان تفعل؟ ستقول ، ولا شك ، انها لا تعمل شيئاً صالحاً اذ لا تأثير لها . اذاً هي لا تفعل ما يريده الله او نعمته ان تفعل... وما لا يتم بنعمة الله ، وما لا تعمله نعمة الله ، لا خير فيه . ومن هنا يستنتج ان الارادة لا حرية لها البتة بدون نعمة الله ، بل انها تبقى ، ابد الدهر ، اسيرة للشر وعبدة له ، اذ تبقى

عاجزة عن الاتجاه وحدها نحو الخير .. وما عسى ان تكون هذه القوة التي لا تأثير لها سوى انها قوة لا وجود لها ؟ ولهذا ، فالقول ان حرية الارادة موجودة ، وان لها قوة ، انما هي قوة لا تأثير لهـــا ولا فعالية ، اشبه بالقول ان حرية الارادة موجودة لانها لا توجد بالفعل ، وكأنك بذلك تقول : « النار البرد » . فالارادة البشرية تقع ، والحالة هذه ، بين الله والشيطان، وهي كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يوجهها ، اتجهت هي الاتجاه الذي يريده لها ، وحسبما يريده لها . واذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هذه الارادة حيث يريد لها الشيطان ، وسارت كيفما يريد . والحال ، فالارادة البشرية ، في هذا كله ، ليست حرة قط ، باختيار سيد لها . فهي ستتبع من من الفارسين المتصارعين ، او من من القوتين المتصادمتين ، يتغلب على الثاني » . وهنا نرى ان لوثير اشتط كثيراً وذهب بعيداً ، اذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع مبدأي الخير والشر اللذين كانا يتنازعان السيطرة على العالم . اي انه لامس هرطقة المانوية باعتناقه مقالتهم فلا عجب ان يتهمه ايراسموس رسميـــاً بالهرطقة ، بين ١٥٢٦ — ١٥٢٧ .

هذا الجدل الفلسفي بين لوثير وايراسموس كان الفاصل بينهما والقطيعة بين الاصلاح والانسانية الانجيلية بل كان ابعد من ذلك، اذ اصبح القطيعة بين الاصلاح البروتستانتي وعصر النهضة . ففي « الحوار » الذي نشره سنة ١٥٢٤ ، تصور ايراسموس ، شيشرون كأنه شخص ملهم من الله ، فراح احد الذين شاركوا في هذا الحوار وشهدوه يصرح قائلاً : تغلبت على نفسي بكل صعوبة لأمنعها من ان تنطلق بالصراخ : « يا قديس سقراط ، صلّ لاجلنا » . اما لوثير فانه حكم بالهلاك الابدي لسقراط كما انه سفـّه كل كبار العقول الذين لمعوا في عهد الوثنية ، بعد ان رأى في فضائلهم سفاهات ، وفي اعمالهم الخيـّرة الصالحة خطايا ، لانهم عطلوا الله ، في نظره ، من القدرة على ان يؤمّن لوحده خلاصنا . « فقد انحدروا الى ادنى دركات الحقارة وانحطـّوا الى اقصى درجات البغضاء ، في بلوغ فضائلهم الذروة من التسامي » ، لأنهم نزعوا ، على ابشع صورة من السرقة والاختلاس ، مجد الله ليتباهوا هم به » .

وهذه الخصومة العنيفه بين المذهبين الدينيين الجديدين ، برزت على أشدها ، هي ايضاً ، بين النظم الكنسية الاخرى . آثر ايراسموس ان يبقى ضمن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد تحررها واصلاحها . ففي الحين الذي اشتد فيه الجدل وحمي وطيس النقاش ، برزت للوجود كنائس لوثيرية اخرى. فعمد لوثير ، بين ١٥٢٠ — ١٥٢٨ ، الى تنظيم كنيســة ساكس البروتستانتية ، فجاء تنظيمها نموذجاً نسجت على منواله الكنائس الانجيلية الاخرى التي قامت في مقاطعات : هس وبروسيا وأسوج والدانمارك . فقد رأى لوثير ، معتمداً في ذلك على بولس الرسول ، في رسالته الى الرومانيين (إصحاح ١٣ العدد الاول) وعلى رسالة بطرس الثانية (اصحاح ١٣) ان السلطة هي رسالة الهيبـــة « تقوم على خدمة الله » ، وعلى المسيحي ان يخضع لهذه السلطة . فالأمير أو الملك ، بقطع النظر عما له من سلطة مدنية مطلقة ، يراقب ، بما له من حـــق الهي

معطى له ، الكنيسة ويتولى ادارتها . فالاملاك والوقوفات الكنسية التي جاءت هبات من جماعة المسيحيين ، تخضع للسلطة التي عهد الله اليها بتدبير امورهـــا ، للامراء والحكام . فالامراء اللوثريون ، هم مدعوون ، والحالة هذه ، لان يخلفوا البابا في ما له من سلطة أدبيـة ، وبذلك يزيدون ، بواسطة مصادرة الاوقاف الكنسية ، ما تم لهم من ثروة وسلطان. فصاحب السلطة هو الذي يختار الوعاظ وشيوخ الكنيسة ويعين المراقبين الماليين الذين يتولون مراقبة الكنائس ويحرصون على بقاء نقاء مراسم العبادة والطقوس . باستطاعة رعاة الكنائس ان يتزوجوا . الله وحده قدوس هو ، فلا موجب بعد ولا داع ، لعبادة مريم العـذراء ولتكريم القديسين وتكريم صورهم المرسومة باليد او المنقوشة في الخشب او الحجر . اما الاسرار فلم يبق منها الا السران اللذان رسمها السيد المسيح صراحة ، وهما : سر العماد وسر الافخارستيا . ولكن تعاليم لوثير عن المسيح طلعت علينا بالكثير من الاسرار . فقد راح ، رغبة منه في تعظيم السيد المسيح ، يشدد ليس على وحدة الابن فحسب ، بل ايضاً على طبيعة المسيح الالهية بحيث أوشك ان يلامس الهرطقة القديمة التي قالت بطبيعة واحدة في السيد المسيح. فقد رأى ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح أضفت على الطبيعة البشرية فيه شيئاً من خصائصها وملكاتها الجوهرية ، ولا سيا ، خاصية الوجود في كل مكان او خاصية كلية الحضور . فالمسيح الله هو في كل مكان ، والمسيح الله يمكن ان يوجد في كل مكان . فالمسيح يوجد بالفعـل في الخبز والخمر بعـد ان يتم تقديسهما ، اذا ما توفرت لمتناولها ، الشروط اللازمة . فقد رفض لوثير الاعتراف او الايمان بالاستحالة الجوهرية التي يستحيل فهمها من وجهة نظر الفلسفة الاسمية ، غير انه يؤمن بالحضور الجوهري . فالعبادة على هذا النحو من المفهوم يمكن تبسيطها ، اذ تقتصر ، في ايام الاسبوع العادية ، على التعليم والوعظ وترتيل المزامير . أما يوم الأحـد فيُحتفل فيه بالقـداس . فالمذبـح والشموع والالبسة الكهنوتية ، يمكن ان يحتفظ بها . فالكاهن يقرأ ، بالألمانية ، الرسائل والانجيـل ، وجمهور المؤمنين يتلو بالألمانية أيضاً ، قانون الايمان ، كما ان الكاهن يشرح موضوع انجيل النهار ويفسره ، ويتلو بالألمانية كلام التقديس ، ويوزع القربان تحت اعراض الخبز والخمر. اما الاعتراف فليس بضروري ولا ما يوجب له . وفي ظل كنيسة الدولة الرسمية يَبْطل كل جدل ديني ، ويُقطَع من شراكتها المخالفون لها بالرأي ، كما ان للكنيسة الحـق بالحد مـن حرية الفكر ، وتفرض على الجميع. الطاعة السلبية . فبين هذه الصورة والصورة الاخرى التي تمثلها ايراسموس للكنيسة ، طرفا النقيض .

ففي الوقت الذي كان فيه لوثير يقطع كل علاقة له مع الانسانية الانجيلية ، كان البعض من أتباعه يقطعون معه كل علاقة .

لم يلبث القول بحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد وبالفردية ان اعطى كل نتائجه المنطقيـة . فالراهب السويسري زونكلي الذي كان يخـدم منذ عام ١٥١٨ ، الكنيسة الكبرى في مدينة زوريخ والذي عُرف عنه اولاً ميله الظاهر الى ايراسموس والتعاطف معه ، ثم أخذ يقع ، اكثر

فاكثر ، تحت تأثير لوثير ، لم يلبث ان تعداه سنة ١٥٢٢ ، وتجاوز بعيداً تعاليمه ، فرذل حتى فكرة الاسرار التي حافظ لوثير على بعضها. فالعماد والعشاء ، السري ليسا سوى رمز . فالمناولة لم تعد سوى رمز لرابطة روحية مع روح المسيح ، ليس الا . والعبـادة اقتصرت على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشتراك . فالشعب او جمهور المؤمنين هـو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها ، كما انه هو الذي يحكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة ، من هذا التفسير ، اما الكنيسة فليست سوى ديموقراطيـة تذوب في الدولة الديموقراطيـة . وفي سنة ١٥٣٤ ، تبنى المجلس البلدي في زوريخ ، رسميـاً ، هـذه الحركة الاصلاحية التي لم تلبث ان امتدت منها الى مدينة بال ، ثم الى مدينة برن . وقد شعر الكثيرون ان الله بعيـد كل البعد عنهم ، في نطاق المفهوم الذي أعطاه للاسرار الكنسية .

اللامعمدانيون

كذلك راح احد تلاميذ لوثير واتباعه هو مونزر يؤسس ، عام ١٥٢١ ، في بلدة زويكان ، من اعمال ساكس ، حركة ، دينيـة اصلاحية ، جديدة ، عُرفت بحركة منكري المعمودية او المطالبين باعادة المعمودية . انطلق في حركته هذه من المبدأ الذي قال به لوثير وعلم ان ما يجعل للسر قيمة هو الايمان الذي ينتقل الى المُعَمَّد عند اقتبـاله سر العماد . اذاً فمعمودية الاطفال لا تحدث فيهم اي تبرير قط ، ولذا كان من المتوجب إعادة عماد هؤلاء الاشخاص عندما يبلغون سن المراهقة ، اذ يصبح في مقدورهم ، اذ ذاك ، ان يقوموا بعمل الايمان المطلوب . كـذلك علـم مونزر ان كل انسان يتـلقى الالهام من الروح القدس مباشرة اذا ما تمنى ذلك ، هو نفسه ، كما يتلقى منه معرفة اية حقيقة حتى انه يتلقى منه اوامر ونواهي خاصة . بعد هذا ، لا لزوم بالطبع ، للكنيسـة ولا لطقوس العبادة ، ولا للقوانـين والشرائع ، ولا لاي سلطة مهما كان شكلها . فالروح القدس يخلق عند كل من نزل عليهم الالهام مساواة كاملة : « فالكل هم ملوك وكهنة » . فلا حاجة بعد لاي نظام اجتماعي ولا لاي منظمة او هيئة من هذا النوع ، اذ كان من الواجب العودة بالحياة الى ما كانت جماعة المؤمنـين الاولى ، في مطلع الكنيسة ، من بساطة ، حيث كان كل شيء مشتركاً بين المؤمنين . وهكـذا نرى ان التعليم الجديد كان من شأنه ان يفضي حتماً الى الشيوعية . وانتشر دعاة هذا المذهب الديني الجديد في جميع ارجاء المانيا الجنوبية ، ومورافيا وبولونيا ، ولم يعتموا ان انشقوا على انفسهم طائفتين ، متباينتين : طائفة المسالمين منهم ، وطائفة المنادين منهم بالعنف والشدة التي انضم اليها مونزر. فقامت بينهما حروب شديدة دامية ،طاحنة عرفت بحروب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦)

الاصلاح الكاثوليكي - البابا

الحلم الذي راود ليلاً ، خيال ايراسموس بطلوع كنيسة جمعـاء تُجدَّد من شبابها وتُصلِح من شأنها على يـد مجمع مسكوني ، هذا الحلم الذي حاول الامبراطور شارل الخامس طيلة حكمه ، تحقيقه والخروج به الى حيز الواقع ، تبخر وراح هباءً منثوراً . وشرعت الكنيسة الكاثوليكية تعمل من جهتها على تمتين تنظيمها

وتقوية كل ما من شأنه ان يباعد بين الكثلكة وجماعة الانسانيين الانجيليين ، والاصلاح البروتستانتي . وقد بوشر بالاصلاح الكاثوليكي في الوقت الذي تتتابع فيه مساعي الانجيليين والاصلاحيين للقيام بعمل مزدوج ، مشترك تساهم فيه السلطة الشرعية : البابا والكنيسة من جهة ، ومن جهة ثانية ، النفوس المشبعة بروح الدين الحق ، السلطة الكنسية التي راحت تتقصى الهراطقة ، وتلاحقهم ، وتحدد قضايا الايمان ، والرهبان ورجال الاكليروس والعلمانيين الذين يقومون بمناسك العبادة ، ويحيون في نفوسهم حقيقة ايمانهم .

فالبابا قد تخلص نهائياً من النتائج والمقررات الاخيرة التي افضى اليها مجمع كونستانس وبال . فعقد البابا ليون العاشر اتفاق الكونكورداتو مع الملك فرنسوا الاول ، أقرّه ووافق عليه مجمع لاتران ، عام ١٥١٦ . فقد أهملت هذه المعاهدة في نصها النهائي ، الفصلين الاولين من الاتفاقية الدينية التي عقدها الملك شارل السابع ، عام ١٤٣٩ ، مع الكنيسة والتي تعرف بـ : *La Pragmatique Sanction de Bourge* ، هذه الاتفاقية التي ضمت بين ما تضمنته من نصوص ، قرارات مجمع كونستانس التي نصت على وجوب انقضاء فترة عشر سنوات ، بين عقد مجمع مسكوني وآخر ، كما نصت على ان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا . ومن جهة ثانية ، فابرام البابا لهذه المعاهدة الدينية جاء دليلاً على سلطته العليا ، كما انه باصداره البراءة « الراعي الابدي *Pastor æternis* » عام ١٥١٦ ، ألغى ، من تلقاء نفسه ، معاهدة بورج الدينية معللاً عمله هذا : « بانه من الضروري جداً للخلاص ان يخضع جميع المسيحيين لرئيس الاحبار الروماني » ، كما جدد دستور الكنيسة حسبما وضعه البابا بونيفاسيو الثامن في براءته : « *Unam Sanctam* » . فالكنيسة لها رئيس واحد هو السيد المسيح ، ويمثل المسيح على الارض ، خليفة القديس بطرس . فالكنيسة تجمع في يدها السيفين : الروحي والزمني . فالبابا يحتفظ بالسيف الروحي (السلطة) ويعهد بالسيف الزمني الى الملوك الذين لا يجوز لهم استعماله الا وفاقاً لارادة البابا ، الذي يقرر سلوكهم لما فيه خير الكنيسة . وهكذا فالجدل الذي وقع لاستبدال رئاسة مار بطرس برئاسة مجلس استشاري ، فشل تماماً ومات بتراجع ملك فرنسا ، كما ان البابا جعل من الكنيسة نظاماً ملكياً ينزع الى الحكم المطلق .

علماء اللاهوت

اصدر البابا ، عام ١٥٢١ ، حرماً ضد لوثير وحمل الامبراطور ، في مؤتمر وورمس على اصدار امره بالقاء الحجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت تعاليم ابراسموس نالت بعض الحظوة في البلاط البابوي ، فقد وجد علماء اللاهوت الكاثوليكي ان دفاع ابراسموس عن حرية الارادة وتعاليمه حول هذا الموضوع ، ليس واهياً ولا يفي بالغرض ، فحسب ، بل ايضاً فيه الكثير من الشوائب التي تعتوره والمغالط التي تشوه وجه الحقيقة . فراحوا يجرحونه وينقدونه في سلسلة من الرسائل والردود المفحمة ، منها الرسالة التي وضعها الاسباني سبولفيدا ، عام ١٥٢٦ ، بهذا العنوان *De fato et libero arbitrio adversus Lutherum* « حول القدر وحرية الارادة رداً على لوثير » . فقد أخذ علماء اللاهوت ، على

ايراسموس الغاية الاولى التي وضعها نصب عينيه ، الا وهي معطيات الوحي ، اي الكتاب المقدس ، وهي النقطة التي انطلق منها اللاهوتيون ، بالذات . فقد رغب ايراسموس ، وفي هذا قناعته واقتناعه ، ان يشدد ، من الوجهة التاريخية ، على ما في معطيات الوحي ، من القيَم الروحية والادبية في الكتاب المقدس ، بما لفت نظره ووقف عنده ، ليجعل منها محور الحياة الروحية الداخلية . كان من الممكن ان تتم ،لو أخذ برأيه ، تجربة دينية شخصية ليس من ينكر قيمتها ، وهي تجربة لم يكن لتجيز التغاضي او التنكر لطريقة اخرى ، كرستها الاجيال للوصول الى المعرفة ، هي علم اللاهوت ، كانت تبز الاولى سمواً وتفوقها تعالياً الى حد بعيد ، فعلم اللاهوت ، لم يكن ليرضى فعلاً ، بالتوقف عند هذا الحد ، بل اراد ان ينطلق من معطيات الوحي ، من الكتاب المقدس ، ليصل عن طريق العقل والاستعانة به ، الى تفهم اكبر لهذه المعطيات . وللقيام بهذه العملية ، رأى علماء اللاهوت ان لهم كل الحق ان يأخذوا من كل فلسفة او نظام فلسفي ، ما تضمّنه من تعاليم شاملة ، كلية ، يصح تطبيقها في كل زمان ومكان و ويمكن الاخذ بها في كل أين وآن ، وان يتبنّوها وان يحلّلوها ويمحّصوها ، على اضواء الايمان ، في مجهود تعاوني مشترك يتصف بالواقعية والعلم ، يسمو بكثير ويتعالى ، دونما قياس ، فوق كل تجربة ذاتية ، فردية ، داخلية ، ولا يدع مجالاً ، بشكل من الاشكال ، لاتهام الكنيسة المسيحية ، بالانزلاق نحو الفكر الوثني او التعويل عليه بنقل شيء منه . وهذا القول يصح بالطبع ، ضد لوثير نفسه .

ومما أخذه علماء اللاهوت على ايراسموس انزلاقه هو وانحداره الى نصف الهرطقة البيلاجيانية ، فاتهموه انه اقترب كثيراً ، ان لم يكن شارك ، من مقالة بيلاج الذي علّم انه عندما تسقط الخطيئة عن الانسان ، بنعمة الله ، ويصبح حراً بالتالي ، فهو لا يعود بحاجة الى نعمة جديدة ، فيستطيع ان يؤمّن خلاصه بما فيه من قوى كامنة ضمن ارادته الحرة. فايراسموس يلوم بتنازلات كثيرة للحرية البشرية وللارادة البشرية . فقد كانت زلة ايراسموس وغلطته الكبرى ان يضع ،على مستوى واحد ، ارادة الانسان وارادة الله ، كأنهما شخصان يجرّان معاً سفينة في وقت واحد . ففي وضع كهذا ، اذا ما شدّ احدهما اكثر من الآخر قليلاً ، جذب السفينة اليه اكثر من الثاني . فاذا ما تصور المرء نشاط الله ونشاط الانسان وفعالية كل منهما على مثل هذا النحو اوالشكل،كان التسليم لواحددون الآخر،اكثر من اللازم،فيه انتقاص من على الثاني . فيجب الا يغرب عن البال قط ان الله تعالى هو العلة الاولى ، وان ارادة الانسان هي في مرتبة الاسباب الثانوية او المساعدة. فالاسباب الثانوية تؤثر ولها مسبباتها بفضل العلة الاولى او السبب الاول الذي يحركها اويمدها بالحركة . فالله هو الذي يحرك الارادة في الانسان،ولكن دون ان ينتزع شيئاً من حريته ، اذاً ،ما الذي خلقه الله ؟هو بالذات ارادة حرة ، ارادة شاءها حرة وعندما يوليها بنعمته ،حركة او دفعاً،فهي تصبح اكثر حرية لانه هويعطي الحركة الدافعة لهذه الحرية . وهكذا شجب علماء ، اللاهوت تعاليم ايراسموس ورذلوا مقالته ، لانه اعطى

الانسان اكثر مما يجب ، بينما جرّده لوثير، من كل شيء .

أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس ايضاً عدم تفهمه الحياة الرهبانية ، هذه الحياة التي ترمي الى مشاركة الله عن طريق التشبه به . أفليست النذور التي يقطعها الراهب على نفسه ، بالدليل القاطع على اختصاصه بالله وحده والعمل في سبيل مرضاته . فالتقيد باحكام هذه النذور وشروطها اعلان عنها وعن فوائدها امام الناس . فالنذور ومظاهر التقيد بها هي اصدق الوسائل وأمثلها لمن ينقطع كلياً الى الله ، عند من أنس ميلاً لهذه الدعوة واستجاب لها . فقد تجاهل ايراسموس الدعوة الكهنوتية واسقط من حسابه النعمة التي ترسخها في نفس من استجاب لها.

المجامع

سبق لكلية اللاهوت ، في باريس ، وهي أكبر سلطة دينية في العالم المسيحي بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعاليم لوثير وحكمت عليها بالزيغ والفساد . والمجمع المعروف بمجمع « سانس » التأم في باريس، عام ١٥٢٨ « بقصد شجب تعاليم اللوثريين الهرطوقية ولاصلاح الكنيسة » . فقد كان هذا المجمع بالفعل ، مجمعاً اقليمياً ترأسه الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا وجرمانيا ، كما تضمنت القرارات التي اتخذها واعلنها فيما بعد ، المجمع التريدنتي ، كحقائق ايمانية تتعلق بالكنيسة جمعاء . فالمجمع قام يناضل في المجال ذاته الذي ناضل فيه ، الانسانيون الانجيليون وجماعة الاصلاح ، اي الكتاب المقدس نفسه . وضد ادعياء المصلحين هؤلاء الذين يزعمون انهم يعتمدون نصوص الكتاب لا غير ويرفضون التقليد الكنسي باعتباره من وضع بشري ، قرر المجمع وجوب الاعتقاد بقضية ما من قضايا الايمان بمجرد ما تؤكد ذلك الكنيسة الكاثوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقدسة . وعندما راح يؤكد ان اشياء كثيرة لم تدوّن في الكتاب المقدس ، انما وصلت الينا بالتقليد المتواتر عبر الاجيال ، كان المجمع يعتمد في موقفه هذا على ما جاء في خاتمة القديس يوحنا وفي رسالة القديس بولس الى أهل تسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يَقُل السيد المسيح ان الروح القدس سيأتي فيما بعد ليتمّ استنارة الرسل ويكمل اعلان الوحي الالهي؟ . والروح القدس يكمل الوحي على مر الاجيال.

وقد اعلن المجمع حرية الارادة . اما عمل النعمة فيتم على مرحلتين . فالارادة البشرية ، اذ تكون تحركت براحم الله ، تحاول تنفيذ ارادة الله ، واذ ذاك ، يعطيها الله نعمته الفاعلة ، فاذا ما استجاب الانسان ، كما يجب ، لهذه البادرة وقام بالاعمال الصالحة التي يترتب عليه القيام بها ، استحق بعمله هذا ، ما يؤهله للحياة الابدية . والنعمة هي ضرورية ، وهي لا تلحق اي اذى او اي ضعف بحرية الارادة . فهي ليست ملزمة او قاسرة (لوقا ، اصحاح ١٣، عدد ٣٤ — ومتى اصحاح ٢٧ ، عدد ٣٧) . « فالله » ، كما يصرح المجمع ، « يقف امام الباب ويقرع ، فاذا ما فتحوا له الباب دخل على صاحب الدار وتناول معه الطعام » .

سبق للوثير ولزونكلي واعلنا « ان بالايمان وحده يخلص الانسان » يؤكد المجمع « ولكن » حذار من إلحاق اي تعسّف بنصوص الكتاب المقدس. فنحن نخلص بالرجاء والمحبة. فاسمع ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثس (اصحاح ١٣ ، عدد ٢) : « اذا كان لي كل الايمان الذي ينقل الجبال ولم تكن لي المحبة ، فأنا لست شيئاً » . وقد غُفر كثيراً لمريم المجدلية لانها احبت كثيراً ، فالاب والابن يأتيان لدى الانسان ويقيمان عنده ، اذا ما احب السيد المسيح (يوحنا ، اصحاح ١٥ ، عدد ٢٣) . من هنا نستنتج ضرورة الاعمال لان الحب والصلاح لا يظهران الا بالاعمال (انجيل يوحنا ، اصحاح ١٤ ، عدد ٢١ – وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١)، هي الاعمال التي تحسب على الانسان والله يجازي كلاً بحسب اعماله. سَنُدان على اعمال الخير التي عملناها ، وعلى الطريقة التي نكون اسرعنا معها لاطعام الجياع وإرواء العطاش ، وبذل الكساء لمن كان عرياناً (متى ، أصحاح ٢٥ ، عدد ٣١ – ٤٦) .

وعلى هذا المنوال ، اتخذ المجمع ، موقفاً مضاداً للوثير ولزونكلي، وفي حالات كثيرة ، ضد ايراسموس نفسه ، في ما علم حول اسرار الكنيسة ، وذبيحة القداس ، والمطهر ، وتكريم القديسين ، وعدم زواج الكهنة ، والصوم الذي تفرضه الكنيسة ، وغير ذلك من القضايا .

الصلاة الباطنية – القديس اغناطيوس ده لويولا

كان لابد من هذه التحديدات وابرازها للعيان وللاذهان . الا انه كان يُخشى ان تبقى حرفاً ميتاً لو اقتُصر عليها فقط . فلكي ينتقل المؤمن الى العمل ، وجب أن تتحرك نفسه بعواطف قوية ، كمحبة الله ، وكره الخطيئة. يجب ان نحب يسوع المسيح . « والمقياس الوحيد لمحبة الله هو ان نحبه فوق كل قياس» ، ولكي نحرك فينا هذا الحب اللامتناهي بعد الذي قاساه وعانى من جفاف الفلسفة الاسمية ، راح اخوة الحياة المشتركة ، منذ القرن الرابع عشر ، في البلاد الواطية ورهبان دير وندشايم ، يحاولون صرف حياتهم ، في اقتداء السيد المسيح ، في عشرة موصولة مع الله ، وذلك باعتمادهم النهج ذاته الذي سار عليه المتصوفة ، امثال رويزبروك وطولر ، وادخال تحسينات على وسائل التأمل والصلاة الداخلية .

سنة ١٤٩٤ ، نشر جان مُمبرت كتابه الموسوم :

« *Rosetum de exercitiorum spiritualum et sacrarum meditatione* – روضة التمارين والتأملات الروحية » الذي، اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعة من التمارين المعمول بها لدى اخوة الحياة المشتركة وكهنة دير وندشايم القانونيين لترويض النفس على التأمل والتجريد لكل يوم من ايام الاسبوع . وراح غارسيا ده سيسنروس يستوحي الكثير مما جاء في هذه المجموعة عندما وضع كتابه : « تمارين الحياة الروحية » الذي نشره مطبوعاًعام ١٥٠٠ ، متخذاً منه اداة لاصلاح رهبان مونتسرّات. وعلى هذا الكتاب عول اغناطيوس ده لويولا عندما وضع كتابه : « الرياضة الروحية » ، الذي ابتدأ بكتابته عندما اقام في بلدة منريز من اعمال اسبانيا،

عام ١٥٢٢ . وهكذا نرى ترابطاً متسلسلاً بين رمزيي الاجيال الوسطى حتى القديس اغناطيوس ده لويولا ، وهو ترابط يشابه ، الى حد بعيد ، هذا التفاعل الذي قام بين الفنانين الفلورنتيين ، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر وبين فنـــاني القرن السادس ، مشابهاً في الكثير من خطوطه ، للترابط الذي قام بين علماء الطبيعة الباريسيين في القرن الرابع عشر ، والعلمـــاء الايطاليين في مطلع القرن السادس عشر . فالانجازات التي تحققت في السنوات الثلاثين الاولى من هذا القرن أوفت على التمام ، بحيث اصبح في مقدورنا التأكيد بان شيئاً جديداً ، وان نظاماً جديداً ، قد أطل علينا . فكل المحاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من بعيد ، كتابه « الرياضة الروحية » . ويرى مؤرخو الرهبنة اليسوعية ان هذا الكتاب انمـــا هو من عمل الروح القدس اذ ان اغناطيوس باشر بوضعه ، وهو في بلدة منريز ، قبل اي عمـــل ادبي آخر صدر له . فجاءت هذه الرياضة وما فيها من تمارين روحية ، إشراقة للنبوغ الخلاق .

فبعد وصول ده لويولا الى باريس بقليل ، عام ١٥٢٨ ليتابع فيهـــا دراسته ، تولى تدريس الفنون ، عام ١٥٣٤ ثم ادخل على تمارينه الروحية ، اللمسات الاخيرة ، واخذ يوجه بنجاح عظيم اساتذة العلوم ودكاترة جامعة باريس . ان الرياضة الروحية تؤلف ، بحد ذاتها ، كتابـــاً صغيراً جافاً ، بشكل قانون عسكري ، يحبب الى التائب المنقطع عن العـــالم ، ترويض نفسه ترويضاً روحياً ويحمله على اعتماده مرشداً له طوال الشهر الذي ينقطع فيه للارتياض الروحي . فالتأملات موزعة فيه على أربعة اسابيع . تدور تمارين الاسبوع الاول على التأملات الاساسية : الله هو الذي خلقنا ، وخلقنا لنخدمه ونعبده – وخلق العالم لخدمتنا . ولذا وجب علينا ان نكرس حياتنا لله وان نستعين بالعالم لما يؤول لمجد الله الاعلى . ثم على المفروض ان يتأمـــل في الخطيئة ، وفي جهنم ليثير في نفسه الندامة والاسف واستنكار الماضي من حياته ، والسخط على هذا العالم ، عالم الخطيئة . هذا هو الطريق « المطهـِّر » او المنقـّي . اما في الاسبوع الثاني، فعلى التائب المنسحق القلب ان يسلك الطريق « الاشراقي » . عليه ان يتأمل بحياة السيد المسيح في تأنسه ، وتقديمه الى الهيكل ، وغير ذلك من وقائع حياة السيد المسيح . اما في اليوم الرابع ، فعليه ان يقوم بالتأمل الاساسي الثاني ، هذا التأمل الخاص باللوائين . في هذا التأمـــل يُطلب اليه ان يختار فيه بين زعيمين أو رئيسين : المسيح والشيطان . اما الاسبوع الثالث ، فهو اسبوع الطريق الاتحادي ، اي اتحاد النفس بالله ، طريق آلام السيد المسيح . واخيراً الاسبوع الرابع ، المخصص للتأمل ، في قيامة المسيح من القبر ، وفي محبة الله .

ففي كل يوم . على التائب ان يقوم بخمسة تأملات ، مدة الواحدة ساعة على الاقل ، مبتدئاً تأمله الاول عند منتصف الليل . ففي الاسبوع الاول ، يجري تأمل واحد ، حول الخطيئة الاولى والثانية والثالثة ، هذه الخطايا الموجهة ضد الله رأساً ، أي الوصايا الثلاث الاولى من وصـــايا الله العشر ، ثم تأمل آخر حول الخطايا السبع الاخرى ، هذه الخطايا الخاصة الموجهة ضد الذات ، والتأمل الثالث هو تكرار للاول والثاني . اما التأمل الرابع فهو بمثابة اعادة للثالث . اما الخامس

هو التأمل الخاص بجهنم فيجب ان يتم قبل مغيب الشمس .

يختلف اسلوب التأمل عند اغناطيوس ده لويولا ، عنه مما لدى غيره من الاساليب الاخرى ويتميز بخمس مميزات . تقوم الاولى منها في تركيز الانتباه وحصره في نقطة واحدة معينة ، بعد ان ايقن ده لويولا انه يترتب على التائب ان يحصر انتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة المتوخاة . ولذا كان على التائب ان يقوم برياضته الروحية لمدة شهر كامل ينقطع معه عن كل مشاغله ويعرض عن كل مصالحه بحيث يحصر انتباهه بهذه القضية : « قضية علاقاتي مع الله ». ثم يترتب عليه ان يهتم بنقطة واحدة في كل تأمل ، ولا يترك موضوع تأمله هذا الا بعد ان يكون انتج واثمر ما يرجى منه ، اي عندما ما يكون ايقظ فيه العاطفة المطلوبة والشعور المرتجى بحيث تصبح هذه العاطفة لا تُقاوم ولا تُغلب . فلكي يصل الى الله عليه اولاً بالتوبة ، وان يشعر في صميم نفسه بالاسف والحزن العميقين ، ويشعر بتأنيب ضميره لما بدر منه في حياته السالفة من المعاصي . ولذا كان عليه ان يتأمل لمدة اسبوع ، والنوافذ مغلقة ، في عزلة تامة ، تكتنفه الظلمة ، بحيث يدور تأمله على الخطيئة وجهنم . ونلحظ هنا اختلافاً بيناً بينه وبين سيستروس الذي يوصي بان يكون لكل يوم موضوع خاص يختلف عن الآخر ، بحيث يكون التأمل لمدة شهر ، في الصباح ، الموت والدينونة الاخيرة ، وغير ذلك ، وفي المساء ، صنيع الله نحونا ، بحيث تغمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينما نشعر في المساء بالبهجة والفرح يملأ قلوبنا ، فتتقاسم نفوسنا في النهار عواطف تختلف تماماً .

اما الميزة الثانية ، لتأملات اغناطيوس ده لويولا فتقوم في البحث عن النور الفكري او الذهني ، اي ان نعي وعياً تاماً كل قضية من قضايا الدين والايمان بحيث نجري على كل قضية من هذه القضايا ، تباعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ما اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، مثلاً ، علينا ان نستعرض في خواطرنا ، كيف ان الله تعالى خلقهم على صورته ومثاله ، في حالتي البرارة والسعادة ، وجعلهم خداماً له يكونون على مقربة منه ، وكيف فضلوا ، على خدمة الله وطاعته ، التمرد والعصيان على اوامره ، ثم كيف زج بهم من عليين في اسافل الجحيم . فاذا ما فكرنا ملياً بهذه الامور ادركنا على نور العقل ، بصورة جلية واضحة ، نحور هذه المخلوقات التي خصها الله بهذه الامتيازات الخارقة ، والمصير الذي آل امرهم اليه ، وهو مصير لا حول فيه ولا حيلة ، اذ انه حكم عليهم بالهلاك الابدي ، لمجرد اقترافهم خطيئة واحدة ؛ واخيراً الاخطار المحيقة بنا من كل جانب وتهددنا باستمرار ، وتحنن الله علينا ورحمته لنا ، اذ بالرغم مما اقترفنا في حقه من الوف الذنوب والخطايا ، نراه يهيء لنا دوماً الوسائل التي تساعدنا على الخلاص . واذ ذاك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وبشاعتها ، وثارت فينا عاطفة الشكر لله ومحبته نعزم ، بقصد ثابت ، الانصياع لاوامره والامتثال لمشيئته تعالى . ولكي نصل الى ما نرجو من وضوح وجلاء ، يترتب علينا ان ننهي كل تأمل بربع ساعة ، نفحص فيها ضميرنا حول الطريقة التي اتبعناها في تأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد نكون

اقترفناها خلال التأمل . وهذا الجهد تبذله الضمير ، كان من شأنه ان يفوز برضى الانجيليين من اتباع ايراسموس .

والميزة الثالثة التي تميز كتاب « الرياضة الروحية » هي ان مؤلفه القديس اغناطيوس ده لويولا ، يستنجد بكل ما في الانسان من شعور كريم واحساس نبيل . هو يرغب في تحريك اعماق النفس البشرية ليصل الى نزعات الكائن الصميمة . كل الحواس يجب ان تعمل للوصول بنا الى هذه النتيجة : فكل تأمل يبتدىء بمقدمة او استهلال يستعرض التائب خلالها ، في ذهنه : المكان ، والاشخاص في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ويجب ان نخصص تأملاً واحداً كل يوم على الاقل ، لتوجيه الحواس : النظر والسمع ، واللمس والحس وفقاً لموضوع التأمل ، الى يسوع والعذراء مريم ، والرسل . وعندما يتأمل التائب في جهنم ، عليه ان يرى النفوس تتضور ألماً وتتلظى لهيباً في النار المتأججة ، وان يشم رائحة الكبريت المتصاعدة ورائحة اللحم الذي يحترق ، ويشعر في نفسه بألم الحريق ، ويلمس قضم دودة الضمير بحيث يستحيل الخوف هلعاً يفضل المتروض معه كل شيء على النار .

والميزة الرابعة لهذه التأملات هي الاهتمام بارادة الانسان ولا سيما ما يعود منهـا إلى حرية الارادة . فالتمهيد الثاني في التأمل يرمي الى تساؤل المتروض : « ما الذي أريد الحصول عليه من الله » ، وبعبارة اخرى ، ما هو الشيء الذي يريده هو *Id quo volo* . كل تأمل يجب ان يفضي الى مقاصد معينة يتحتم تنفيذها في اليوم ذاته . وتنتهي الرياضة باختيار نهج معين أو مسلك معين للحياة . فما من قصد من هذه المقاصد المنبثقة عن هذه العواطف والمشاعر التي اثيرت خلال الرياضة يجوز ان يذهب جزافاً ، بل يجب ان يتحول كل شيء الى قرارات واضحة تنتظم حياة المتروض اليومية والتي يترتب عليه العمل بموجبها .

والصفة الخامسة لهذه التأملات هي التشديد على الاخذ بكل العادات ومراسم الطقوس والاعراف التي تقوم بها الكنيسة من : تكريم القديسين ، والحياة الروحية ، والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة والحج اليها ، وذخائر القديسين ، والنذور ، وغير ذلك .

فكيف يحافظ المؤمنون على الاخذ بالرياضات الروحية بعد انقضاء الثلاثين يوماً ؟ قبل كل شيء بالصلاة المستمرة طيلة النهار . فالمؤمن يرى الله الاب ويسوع المسيح متمثلين في كل المخلوقات وفي هذه الكائنات المحيطة به ، والأشياء الواقعة على مقربة منه ، بحيث ان كل ما تقع عليه العين يذكره بالله ، أو انه يشاهد الله فيه .

ثم بالصلاة الصباحية ، اليومية ، المنظمة . فقد كان القديس اغناطيوس يصرف ساعتين كل يوم في الصلاة ، بلا انقطاع . كما كان تلاميذه يصرفون ساعة في الصلاة على الاقل .

ثم عن طريق فحص الضمير فحصاً عاماً وفحصاً خاصاً ؛ ثلاثة فحوصات خاصة للضمير ، كل

يوم ، حول الخطيئة الرئيسية التي يرغب المؤمن في استئصال شأفتها من نفسه ، احدهما صباحاً فيجدد المؤمن مقاصده ونياته الحسنة ويستعرض الظروف التي قد يتعرض فيها للسقوط في الخطيئة ، بحيث يتمكن من تفاديها ، وآخر عند الظهر محاسباً نفسه عما فعلت في الصباح ، والآخر في المساء يستعرض معه حوادث بعد الظهر ، مع الحرص على ان يدون في مفكرته الخطايا التي اقترفها . وعندما ينصرف للنوم مساء ، يقوم بفحص عام للضمير يستعرض فيه اعمال النهار وتصرفاته بالنسبة لوصايا الله والخطايا الاخرى .

واخيراً يمكن للانسان ان يصلي طوال النهار . وهنا يقترح اغناطيوس ان يتلو المرء الصلاة الربانية « ابانا الذي » بتمهل فينظر ملياً عند كل كلمة من كلماتها ليتشبع جيداً من معناها ومدلولها ، او انه يصلي كما يصلي المسلم : كلمة بعد كل تنفس بحيث يعي تماماً مدلول الصلاة ، فينفض من كلمات « ابانا » كل ما لها من معنى . وهكذا يصرف اسابيع في التأمل بمعاني الصلاة الربانية ، او « السلام المريمي » او قانون القداس ، والمزامير واستخلاص ما فيها من عذوبة المعنى .

وهذه الطريقة المثلى في استجلاء الامور ، وتحديد المعاني واشاعة الافكار النافعة ، والخواطر المفيدة في الضمير وتحريك العواطف الكريمة في القلب ، وتوجيه كل نشاط فينا للعمل المثمر ، جاءت باطيب واشهى النتائج ، اذ انها ساعدت كثيراً على اعادة عدد كبير من المسيحيين الى حضن الكثلكة .

وهكذا تبخر هباء هذا الامل المعسول الذي راود ، حوالي عام ١٥٣٠ ، خيال الانسانية الانجيلية . والذي بدا تحقيقه وشيك الوقوع لاصحاب هذا الرأي ، بين ١٥١٦ – ١٥٢١ . كان لا بد من الاختيار بين الانسانية الانجلية والاصلاح البروتستانتي والكثلكة المتجددة . فقد عاد عدد كبير من الانسانيين الانجيليين الى الكثلكة او انحازوا الى الدعوة التي نهض بها زونكلي مفضلين هذا على الدعوه التي قام بها لوثير . وانتهى كل شيء مع لوفيفر ديتابل ومع ابراسموس ، حوالي عام ١٥٣٦ ، بعد ما اقترب الاول كثيراً من تعاليم زونكلي بينما بقي ايراسموس اميناً لنظرياته وارائه ، وقد تخلى عنه مريدوه والمعجبون به واصبح لا شأن له . وهكذا فحوالي العقد الرابع من القرن السادس عشر اي من سنة ١٩٣٠ – ١٥٤٠ ، كانت طلعت علينا اهم النظم والمذاهب الدينية الجديدة التي كان من شأنها ان تتقاسم العالم الحديث في الغرب . هنا في امور الدين ، وهنالك في عالم العلم وفي عالم الفنون ، هذه المجالات التي برز فيها الامل البشري ولمحت لنا صوراً جديدة للانسان والكون – فقد طلعت علينا السنوات الثلاثون الاولى من القرن السادس عشر بعالم جديد .

كلفين

على مثل هذه الصورة التي رسمنا كانت الاوضاع قد برزت واتضحت وتبلورت . غير ان التيار الاصلاحي ، هذه الحركة التي اصبح في مقدورنا الان ، منذ عام ١٥٢٩ بان نسميها الحركة البروتستانتية لم تتوقف عن التطور والتحول . ففي سنة ١٥٣٣ ،

اصدر الملك هنري الثامن ، ملك انكلترا : « قانون السلطة العليا » فوضع بذلك الاسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية ، في انكلترا ، هي الكنيسة الانكليكانية . فالملك هو الرئيس الاعلى الاوحد لهذه الكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية . وقد بدا لهؤلاء القوم الذين رأوا انهم يستطيعون الاستمرار في الكثلكة ان لوثير وزونكلي لم يعودا بكافيين : كذلك بدا لبعضهم ، ان لوثير انتقص ، بشكل من الاشكال ، من سلطة الله المطلقة ، عندما راح يُسَلِّم بانه يبدو وكأن علم الله الكلي حتم عليه إعداد مختاريه منذ الازل، وهكذا أحدّت فيه سبحانه وتعالى ، حريته وسيادته . كذلك سلّم لوثير ان الطبيعة الالهية ، في السيد المسيح ، أضفت على الطبيعة البشرية فيه مما له من كلية الحضور والوجود ، محافظة منه على حضوره في القربان . فاذا ما تم شيء من هذا التفاعل او التواصل بين هاتين الطبيعتين ، أفليس بإمكان الطبيعة البشرية ان تؤثر ، بشكل ما، على الطبيعة الالهية ، فتنتقص بالتالي منها؟ وهكذا لامس لوثير الهرطقة المونوفيزية ، هذه الهرطقة التي قالت بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح ، وهو قول لا يمكن لاحد ان يطيقه او يقبل به .

أما زونكلي ، فقد عرف ان يتفادى المشكلة بنكرانه الحضور الحقيقي في القربان المقدس ، فالسر عنده ، هو مجرد رمز لا غير أو احياء ذكرى « هو صورة مجازية جوفاء ، خواء» .ولكن الا يقضي هذا القول والتسليم به الى ديانة باردة جافة ؟ اذ ان مجرد تناول خبز التقدمة وشرب خمر الكأس فيه تعبير عن ايمان المرء وعقيدته ، ولكن دون ان يتم بينه وبين الله اي اتصال أو تماس . والله يبقى نائياً ، بعيداً ، ضائعاً في سمائه . هذا ، لعمري ، كلام مؤلم ، موجع ، يحز في النفس ، ويصعب سماعه على القلب والاذن . وبالاضافة الى ذلك ، راح زونكلي يُنزل الخطيئة الاصلية منزلة مرض موروث وبذلك هوّن كثيراً من تَبِعة الخاطىء ومسؤولياته ، هذه المسؤوليات التي ارادها الغيُر المتشددون ، كاملة غير منقوصة إظهاراً منه لفعل النعمة. واخيراً راح زونكلي يعزو ما قد يكون لدى الوثنيين من الفضائل ، الى موهبة خاصة من الله . ففضائلهم ، في نظره ، فضائل حقيقية ، وهو قول يُشتم منه مقالة الانسانيين الانجيليين .

ومن جهة اخرى ، شعر بعض البروتستانت ، بشيء من القلق من جراء المحاولات الايرينية *Irénisme* التي بذلت بكثرة بين ١٥٣٣ – ١٥٣٥ ،للتقريب بين الكاثوليك واللوثريين بالرغم من كل الفوارق التي تباعد بينهم ، بشأن القداس ، هذه المحاولات التي بدت للمتشددين المغالين منهم ، لا تحتمل ولا تطاق . وكان البروتستانت يتبرمون جداً ويستشيطون غيظاً ضد من ينزلهم منزلة اللامعمدانيين الذين نظروا اليهم نظرهم الى فوضويين اجتماعيين . ولكي يقطعوا الطريق على كل التباس ويحددوا اقصى ما يمكن ان تصل اليه تنازلاتهم بهذا الشأن،وضعوا بشكل نهائي ، وثيقتين بروتستانتيتين هما : « الاهاجي *Les Placards* » التي ظهرت عام ١٥٣٤،و « المؤسسة المسيحية » التي هي من وضع كلفين نفسه ١٥٣٦ .

اما « الاهاجي » التي أعدها فريق من الفرنسيين البروتستانت لجأوا الى مدينة نيوشاتل ،

في سويسرا ، فهي تلتزي بتعاليم زونكلي ونظرياته . فقد رموا دوماً ، الى ما يثير الشكوك ويزيد من القطيعة ، وذلك بمهاجمتهم قطب العبادة لدى الكاثوليك : القداس الالهي . « بذل يسوع المسيح جسده وروحه وحياته ودمه لاجل تقديسنا في ذبيحة كاملة ، نهائية ، لا يمكن ان تعاد او تتمثل بذبيحة حية اخرى»... فالزعم بتجديد ذبيحة السيد المسيح كل يوم ، كما يدعي الكاثوليك ، هو التجديف بعينه على السيد المسيح، وهو زعم لا يختلف بشيء عن القول بوجوب اضافة شيء ما على ذبيحته. والزعم الكاثوليكي بالقول ان يسوع المسيح موجود فعلاً ، حقيقة ، ذاتياً وشخصياً ، بجسده ودمه ، تحت اعراض الخبز والخمر ، هو كفر فاضح وخديعة علنية ، ومخالفة نكراء للكتاب المقدس ، لأن السيد المسيح بعد قيامته من بين الاموات ، صعد الى السماء وجلس عن يمين الله الآب . و « يستنتج من هذا القول انه اذا كان المسيح موجوداً بجسده في السماء ، فلا يمكن له ان يكون ، في الوقت ذاته ، على الارض ؛ واذا كان موجوداً على الارض ، فلا يكون موجوداً في السماء ، اذ انه من الثابت ان جسداً حقيقياً لا يحتل الا حيزاً واحداً ، ولمرة واحدة » . وعلى هذا قس كلامهم حول الاستحالة الجوهرية ، وحول رجال الاكليروس ، وغير ذلك من القضايا . وهذه « الاهاجي » تمثل نصاً اساسياً فظاً ، املته روح القطيعة البغيض ، مما اثار بالفعل شكوكاً هائلة . ولعل اروع وانكى من هذا كله ، هو هذه الروح العقلانية التي جاشت فيها. والثابت ان كل البروتستانت ، في هذه الحقبة كانوا يتنكرون لهذه العقلانية ، لأن العقل ، بعد ان افسدته الخطيئة الاصلية ، اصبح عاجزاً عن الوصول الى اية حقيقة . ومما يلفت النظر بالاكثر ويحدث مثل هذا الدهش، هو ان نلاحظ كيف ان الذين قاموا بوضع هذا النصوص ، رفضوا القول بالحضور الحقيقي ، لمناقضته ، في رأيهم ، مبدأ الذاتية ، كما يناقض الظواهر الحسية الملموسة القابلة للقياس ، اذ يخلط خلط عشواء ، بين ما هو للروح وبين ما هو للمادة . نص كل ما فيه يتنزى بالروح الديكارتية ، روح هذا العصر .

اما كلفين الذي كان في صغره ، سادناً لاحدى الكنائس وله من العمر اذ ذاك ١٢ سنة ، والذي سيم كاهناً وهو ابن ١٨ سنة ، فقد اثار من جديد ، ومن الاساس ، مطالب الاصلاح البروتستانتي، مزيداً عليها ما رغب في اضافته من نظريات جديدة ، بعد ان عرف كيف يتجافى على الاخص ، المساوىء التي وقع فيها كل من لوثير وزونكلي . كان همه الاول والاخير الحفاظ على سلطان الله وسيادته . وراح بوصفه من اتباع الفلسفة الاسمية ، يؤكد ان الله تتعذر معرفته ، كما انه يستحيل على العقل البشري تفهمه وادراكه، حتى ولو بالمجاز . فالصورة التي نقيمها له وننحتها عنه في ضمائرنا ، حماقة هي، لا اكثر ولا اقل، فالكتاب المقدس وحده ، يوحي لنا ، على قدر ما نستطيع ان نفهم ونستوعب ، بما يتوجب علينا معرفته ، وما فيه الكفاية ليثير فينا الخوف والمحبة . وبواسطة الكتاب المقدس وحده ، نتعرف الى الله ، عن طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح ، مرآة الله ، ولكن أنى لنا ان نعرف الله نفسه معرفة حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر

بذواتنا بشهادة الروح القدس الحي فينا ، يرسل هذا الروح الحياة في الكتاب المقدس ويجعله مفهوماً ، سهل التناول ، ويشهد فينا عالياً بصحتها ، دون ان يحذف من الكتاب المقدس أو يزيد عليه حرفاً واحداً . وهكذا نرى كلفين ينكر التقليد الكنسي . من الأساس .

لا بد من ألوهيّة الابن اساساً للايمان به . ولذا كان لا بدّ من التسليم بالقول ان الخليقة هي من عمل الثالوث الأقدس كله ، اي هي على السواء من فعل الابن ، كلمة الله الذي يطبق عليه كل ما جاء عن الله في العهد القديم . فالثالوث الأقدس يخلق العالم في كل ثانية ويتدخل بخلقه ، في كل لحظة . هذه هي العناية الربانية التي هي علة او سبب اختيار الله لمن اصطفاهم ، منذ الازل . « فالله هو الذي يدبر المؤمنين ، يعيش فيهم ويملك عليهم بواسطة الروح القدس » . فكل ما يأتيه المؤمنون يأتيه الله هو نفسه فيهم . فالله هو الذي يتصرف في الانسان ، وهو الذي يفكر في الانسان ، وهو الذي يتكلم بلسان الانسان، هذا الانسان الذي لا يفعل شيئاً بحصر المعنى ، من نفسه . ففي قضائه الحر الذي اتخذته ارادة حرة موجودة منذ الأزل ، يتصرف الله في مختاريه ، كيفما يشاء ليؤمّن لهم الخلاص الابدي . فبقضاء حر أصدره منذ الأزل ، أعدّ الله مَصير كل انسان . وهكذا فسلطانه كامل ، مطلق هو .

فآدم الذي يمثل البشرية جمعاء في شخصه ، قد لطخ بخطيئته كل البشر . فالخطيئة الأصلية ، عطلت الى الأبد ، كل ما في الانسان من مواهب فائقة الطبيعة بالايمان ، ومحبة الله والقريب ، والتوق إلى القداسة . والمواهب الطبيعية نفسها اصيبت هي الاخرى ، في الصميم ، بحيث لا يستطيع الانسان الا ان يُريد الشر . فاذا ما اراد الشر ورغب فيه ، فهو يتحمل كل مسؤولية ارادته ، ولذا استوجب القصاص المترتب على معصيته . ومع ذلك ، فتحنناً من الله وعطفاً منه عليه ، أعطاه الله الناموس ، هذا المربي ، المرشد الذي يقود الانسان الى الله . وعطفاً من الله وبمجرد نعمته الالهية ، تذلل الله وتجسّد وصار انساناً وأخذ جسد آدم . وبوصفه انساناً تاماً ، كفّر عن خطيئة آدم كما كفّر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ، فقد قدّم مرضاة وكفّارة خليقة بالله العلي ، كل هذا والله يبقى نقياً ، منزهاً عن كل عيب ، في عظمته الالهية . والطبيعتان تلبثان متميزتين الواحدة عن الاخرى ، ليس في الطبيعة البشرية ما يلطخ او ما يحط من كرامة الله . والحال فاذا لم تستطع الطبيعة البشرية ان تتلبس صفة الوجود الكلي التي للطبيعة الالهية ، فجسد السيد المسيح لا يمكن ، والحالة هذه ، ان يوجد في الافخارستيا ، وبالتالي ليس من حضور ذاتي في القربان المقدس .

باستحقاقات السيد المسيح، تأمّن الخلاص لبني البشر واصبح هذا الخلاص في متناول كل واحد منا بواسطة « المناولة الروحية » رمز الاتحاد مع المسيح بالايمان ، بواسطة الروح القدس ، الذي ارسله المسيح وأعطاه مجاناً ، للمختارين . « بالايمان جرى تطعيمنا بجسد المسيح ».وهكذا تم لنا الايمان الحقيقي ، والرجاء والثقة ، بارادة الله الخيّرة ، تجاه كل واحد منا . فالمسيح يأتي ويسكن في قلب من اختارهم الله ، وفيه يعمل الروح القدس . والمسيح يتجدد في قلب كل من

٧ ـ القرآن ١٦ و ١٧

اختارهم ، كما انه يُجدِّد في قلب كل مختاريه ، صورة الله التي افسدتها الخطيئة الاصلية وشوهتها؛ فيحل فينا الانسان الجديد ويأخذ في محاربة الانسان القديم القائم في قلب كل واحد منا، انسان آدم الذي افسدته الخطيئة ، ويخرجه خارجاً ، ويحل محله ، هذه الحرب التي ستطول فينا وتستمر في داخلنا ما امتد فينا أمد الحياة . هذا التجدد الذي لن يتم باكمله الا في السماء بعد الموت . اما علامة او دليل الاصطفاء هذه ، فهي الحرب الداخلية ، هذه القوة التي تحملنا على احترام وصايا الله ، والامتثال لها بالرغم من جميع الاوصاب والآلام التي سنتغلب عليها في نهاية الامر ، بالرغم من تكرار عثراتنا وسقطاتنا في الخطيئة . هذه هي العلامة التي تشير الى عمل الروح القدس في كل واحد من مختاريه .

فالاعمال التي يفعلها المختار تأتي مطابقة لناموس الله ، ولكن هذا الناموس لا يولي المختار اي استحقاق قط ، لان هذه الاعمال لسنا نحن الذين نعملها ونأتيها ، انما الله هو الذي يعملها فينا .

وفي الوقت ذاته يغفر الله للمختار خطاياه ويُسربله بسربال بر المسيح الذي يؤلف معه شخصاً واحداً . فالمختار ليس باراً ولكن الله يراه باراً ، لان المسيح دخل الى قلبه بواسطة الايمان به .

وقد اعطى الله ، في تحننه للبشر ، الكنيسة . فالكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر . فهي شراكة كل الذين يعمل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته ، هي شراكة المعدّين منذ الأزل ، و لاننا لا نستطيع النفاذ الى دخائل الناس للتعرف الى حقيقة ضمائرهم،ولن نعرف ابداً ، ونحن على هذه الارض،من هم الذين يعمل فيهم الروح القدس عمله الخلاصي .

اما الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين ، هؤلاء الذين يؤلفون رغبة واحدة تحت ادارة القس او الواعظ . وتضم الكنيسة المنظورة ، في الحين ذاته ، المختارين والمعدّين منذ الازل ، مجتمعين ، بعضاً الى بعض في التقاء الحنطة والزؤان . فالكنيسة تقوم ، في كل مكان ، بكرازة كلام الله ، وتصيخ اليه في كل مكان تُعطى فيه الاسرار وتوزّعُ فيه وفقاً لما رسمه يسوع المسيح .

والكنيسة يفرض وجودها وقيامها نظاماًمعيناً ،فتحول بذلك دون عمل المراطقة والمنفصلين عنها وتأثيرهم على المؤمنين ، وتمنع انتشار الاخلاق الرديئة . فهي تقوم باربع وظائف أو خدمات رئيسية ، منها اعمال المحبة . اما الوعظ وخدمة الاسرار ، فيناط امرها بالقسيس ؛ اما التعليم ، فامره متروك لمعلمي الايمان ، والمحافظة على النظام يقوم به الشيوخ ، والقيام باعمال المحبة يؤمنه الشمامسة. كل هؤلاء يجري تقديمهم بواسطة القسس والقضاة الذين يقومون بالوظائف الموكولة اليهم ، ويتم انتخابهم من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة ، فتعيين الجميع انما يجري من قِبَل الروح القدس وفقاً للمواهب التي أعطيت لهم .

على الكنيسة ان تتقيّد ، حرفياً ، بالكتاب المقدس الذي هو وحده معصوم عن الغلط . يجب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، يكفي الكنيسة عملاً ، تفسير كلام الله وشرحه للقضاة ، وعلى هؤلاء ان يحرصوا على تطبيقه وفقاً للشرائع والقوانين المدنية . اما القاضي فواجبه يقوم بالدفاع عن الكنيسة وتأمين حرية الكرازة بالانجيل .

فالله هو المعطي الكنيسة الاسرار . أما السر فهو « علامة أو طابع خاص يَسِم الله به نفوسنا ، اشارةً منه للنعم والمواهب التي جادت بها علينا مراحمه » . وخلافاً لتعاليم زونكلي ، حافظ كلفين على الاسرار بعد ان رأى فيها ليس مجرد ذكرى او تذكار ، بل شهادة حق على نعمة الله . وعلى عكس الكاثوليك ، هو يرفض التسليم بالقول ان السر يعمل من ذاته ، اي بدون تدخل مباشر من قِبَل الله ، كما ان السر يضيف شيئاً جديداً على عمل الله . فالله له كل سلطان وسيادة . فهو يستخدم الاسرار كأية اداة اخرى ، دون ان يوليها شيئاً من قدرته .

اما الافخارستيا أو العشاء السري ، فكلفين يرفض التسليم هنا أيضاً ، بالحضور الحقيقي في القربان المقدس ، كما يرفض التسليم بالطبع ، باستحالة الجوهر ... وخلافاً لزونكلي ، فهو يقر ويعترف ان جسد المسيح ودمه يوزعان تحت اعراض الخبز والخمر ، وكل الاشياء تجري عندما نتناول الخبز والخمر كأن المسيح حاضر فعلاً انما بشكل سري ، لا يُرى ، وكأن المسيح يضم جسده ودمه الى جسدنا ودمنا ، ويسكب علينا روحه ونعمه السماوية . وهكذا نرى كلفين يقرّب المؤمن من الله يسوع الذي يفيض محبة للانسان القريب منه ، يسمع ويُشْعَر به ، ويذاق ويوزع على المؤمنين ، مع بقائه متميزاً عنه ، متميزاً تماماً متسامياً فوقه بكثير ، حسبما توجبه طبيعته الالهية . ومما يشهد على هذا النجاح يصيبه كلفين هو ان القرار الذي اصدره برلمان باريس ، بتاريخ ١ تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل على بث ونشر المذاهب والتعاليم الدينية الجديدة ، ان الكتاب الوحيد بين هذه المطبوعات الذي جيء على ذكر اسمه وعنوانه هو كتاب : « المؤسسة المسيحية » الذي وضعه جان كلفين .

وفي سنة ١٥٣٩ ، اعيد طبع كتاب « المؤسسة المسيحية » باللاتينية . اما اول طبعة فرنسية له ، فقد ظهرت عام ١٥٤١ ومنذ هذا التاريخ توالت طبعات الكتاب ، مزيدة ، ومنقحة ، طبعة بعد طبعة ، بالفرنسية ، وباللاتينية . وقد جعل كلفين من مدينة جنيف ، منذ عام ١٥٤١ ، « روما الكلفينية » ، وانتشرت كتب كلفين بين القرى ، متنقلة من قرية الى اخرى بواسطة الباعة المتجولين . وقد عُرِفَ المرسلون الذين ارسلهم للتبشير بدعوته ، بالنشاط الجم ، اذ استطاعوا ان يتسللوا الى كل مكان ، حاملين معهم علماً وثقافة ونشاطاً ، واستعداداً ليجودوا بدمائهم شهداء ايمانهم . وكانت رسائله تحمل التشجيع والنصح لكل الكنائس الجديدة التي تنشأ في البلاد . وهكذا دخلت الكلفينية اسكتلاندا وبوهيميا وهنغاريا وبولونيا والبلاد الواطية وفرنسا .

ديوان التفتيش والرهبنة اليسوعية

في هذا الوقت بالذات توفر للبابا كتيبة دينيـــة جديدة ، هي الرهبنة اليسوعية . نشأت هذه الرهبنة في ١٥ آب ١٥٣٤ ، على مقربة من باريس في هضبة مونمارتر ، في كنيسة القديس دنيس ، شفيع ملوك فرنسا ، على يد اغناطيوس ده لويولا ورفاقه الستة . وفي خلال صوم ١٥٣٩ ، وضع مؤسس هذه الرهبنة نظامها النهائي : رئيس منتخب مدى الحياة ، يتمتع بسلطات لا حد لها ، يقطع اعضاؤها من الرهبان نذراً خاصاً هو الطاعة التامة لاوامر البابا؛ وينتظم هذه الرهبنة نظام عسكري مسلسل السلطة ، وتنعم بروح انضباطية مجربة . فاليسوعي يطيع الاوامر الصادرة اليه ولو في الامتثال لها هلاكه وموته ، كما يمتاز اعضاؤها بثقافة شاملة ، معرقة . وفي ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اقر البابا بولس الثالث بالبراءة البابوية التي اصدرها بعنوان *Regimini militantis* ، « الفرقة المحاربة » نظام هذه الرهبنة وقانونها الاساسي . وفي سنة ١٥٤١ ، تم انتخاب اغناطيوس ده لويولا رئيساً عاماً للرهبنة اليسوعية ، واقسم يمين الولاء بين يدي البابا . ومنذ ذلك الحين ، باشر اليسوعيون حربهم المتصلة وجهادهم المرير ضد جماعة الاصلاح ، في كل من ايطاليا واسبانيا ، وفرنسا والمانيا . وكان البابا ، في الوقت ذاته ، بعث من جديد ، الى الوجود ، ديوان التفتيش ، باسم جديد ، هو « الديوان المقدس » ، وذلك بموجب البراءة التي أصدرها بتاريخ ٢١ تموز ١٥٤٢ ، بعنوان *Licet ab initio* ، ارتبطت ادارته رأساً بالأب الاقدس . وبعد ان أعدّ عدّته على هذا الشكل وأوتر قوسه على هذا النحو، امر البابا ، بتاريخ ٢٢ أيار ١٥٤٢ ، بالتئام المجمع المسكوني الذي اجتمع في مدينة تريدانتي ، وانتهت اعماله عام ١٥٦٣ ، بذات الروح التي تجلت ، عام ١٥٢٨ ، في مجمع سانس .

مراطقــة وملحدون

خاض الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض حروباً شديدة رأوا انفسهم معها مضطرين ليخوضوا بحماس لا يقل شدةً ، حروباً ضدجلة من الهرطقات والحركات المضادة للمسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطات في هذه الفترة بالذات ، الواقعة بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ . وقد جاء ظهور هذه الحركات الدينية بمثابـــة ردة فعل طبيعية ضـــد رسوخ موقف الكاثوليك والبروتستانت . ويجب ان نرى في قيام هذه الحركات ، بالاحرى ، نتيجة طبيعية ، لحرية الضمـــير والفكر ولهذه العقلانية الكامنة ، في حركة الجماعات التي سارت مع تيار الاصلاح والتي ساعد على نشرهـــا والترويج لها ، هذه المجادلات الدينية ، التي شجرت اذ ذاك وتصادمت فيا بينها . فبعد ان رأى هؤلاء الناس كيف عبثوا بالتقاليد وهزئوا من قضايا الايمان المتوارثة جيلاً بعد جيـــل ، وسخروا من الطقوس الدينية ومراسم العبادة ، راحوا يقيسون كل شيء ويحكمون على كل شيء بمقاييسهم الخاصـــة ومداركهم ، متوهمين ان لهم مـــن الفهم والعقل ما يمكنهم من الحكم على كل شيء . وقد رأينا تطل علينا في رأد الضحى حركة هـؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في الناس ، اذ دعاهم « الدعّار » او خالعي العـذار . فمنذ سنة ١٥٤٢ ، دخلت اللغات اللاتينية ،

واليونانية والفرنسية ، مصطلحات جديـــدة امثال : « ملحد » *Athée* و « ناكر المسيح » *Achriste* ، كما ان خريجي جامعة بادوا القدامى (ومعظمهم حكام ومن رجال الدين) الـتفوا فيما بينهم جمعية ، اشبه ما تكون بجمعية البنائين الاحرار (الماسون) لا قانون اساسي لها،تعمل على نشر الـرُّشدية (فلسفة ابن رشد) التي جرى توطين تدريسها ، في جامعة باريس ، بين المحاضرين الملكيين الذين تألـّف منهم ، فيما بعد المعهد المسمى ، كوليج ده فرانس ، امثال الايطالي فيكومير كاتو ، الذي نشر بحثه الاول عام ١٥٤٣ . وقد أطل من جديد فجور ذهني إنبَجَس من تعاليم فرنسوا سكـُوت أريجين أحد مفكري القرن التاسع للميلاد ، او من الالماني أ ـ كارْت في القرن الثالث عشر . كان البعض من هذا الفريق حلوليين ، على المكشوف ، فعلموا ان الله الكائن الاوحد ، لا شخصية له ، ولا وجودية له في ذاته بل هو مختلط بالعالم ممتزج به ، وان روح الانسان ليست سوى فيض خالد من الله لا تنفصم عنه . فالحياة الدينية عنـــدهم ليست سوى عملية تأمل وتجريد ، القصد منها التعرف الى ذات النفس الفردية ، مـع الكل الاعظم . اذ ذاك تلغى الشخصانية البشرية تماماً ، اذ يذوب الانسان وتنصهر ذاته في الله . اما الباقون من هؤلاء الدعـّار ، فقد سلموا بوجود الثالوث الاقدس ، انما كانوا يقولون بوجود مسيحين : مسيح حسب الجسد ، يمثل الانســان على الارض ونموذجه الاكمل ، هذا المسيح التاريخـــي الذي عاش مع الرسل وعاشرهم ، والمسيح الحقيقي ، مخلـّص الانسان الذي لم يكن غير الروح القدس نفسه . اما الروح القدس فكان يحل في شخص المتأمل ، بروح الايمان ويؤلهه . وقد اعترف الحلوليون ومن لف لفهم ، للانسان ، بالذات الالهية ، وجعلوه بمعزل عن كل اثم ، وبمنأى عن كل خطيئة. فهو لا يزل ولا يغلط . فكل ما يشعر به في ذاته من غرائز وشهوات ورغائب ، هو مظهر من مظاهر الله . ولذا كانت كل نوازع الانسان خـيرة ، جيدة حتى ما ادّى منهــا الى الفسق والرذيلة . وبما ان للانسان وحدة الذات مع الله ، فهو حر تماماً من كل نـــير او عبودية . والروحيون كانوا يوصون بالاتحاد الحر وبالشيوعية المطلقة . وقد انتشرت تعاليمهم منـــذ عام ١٥٣٠ ، ولا سيما بين الطبقات الاجتماعية الدنيا ، في مقاطعـــة الفلاندر ومدينة لياج والمانيا السفلى . وفي سنة ١٥٣٤ ، قام احد الطبيعيين من مقاطعة هينو ، يدعى كوانتين ، بادخالها الى فرنسا حيث تكاثر عدد اتباعه ، في مقاطعة نورمنديا . وفي سنة ١٥٤٧ ، راح احدهم ممن خلعوا الثوب الرهباني يكرز بهـذه التعاليم في مدينة روان . اما كوانتين فقد حُكم عليه بالموت في مدينة تورنيه ، عام ١٥٤٦ ، لانه حرض بعض المحصنات على خلع العذار والاستسلام للرذيلة .

كان عدد من الانسانيين قد تأثروا بالكـُتـّاب القدامى . فالكاتب اليوناني لوقيـــانوس لم يفتر يوماً عن الهزء بالدين والتهكم على رجاله . ويرى الابيقوري لوكريس في كتابه : « حول طبيعة الاشياء والعرافة » *De natura rerum et de divinatione* ان النفس البشرية تتـــألف اصلاً، من ذرّات تتفتت في وقت ما وتتناثر، لتختفي من الوجود لانها مائتة كالجسد.اما شيشرون فيضع على لسان شخوصه ، في « محاوراته » ، وفي كتابه : « طبيعة الآلهة والعرافة » اقوالاً

وخواطر زعموا فيها ان الله ، اذا صح وجوده ، تتعذر معرفته كما يستحيل ادراكه ، وان الخلق فكرة خواء ، باطلة ، لا ترتكز على شيء ، اذ لو كان الله موجوداً وخالداً ، فلماذا نراه فجأه يشعر بالحاجة الى الخلق والابداع . ويرى آخرون ان الآلهة ليسوا سوى رجال عظام ، أَلّههم الناس لمآتيهم وصنائعهم :فالدين هو من صنع السياسيين جاؤوا به ذريعة تمكنهم من التحكم بالناس كما يرغبون » . ويذهب آخرون الى نكران العجائب والمعجزات ، وهذه الاعمال التي تثير الدهش والاستغراب مما ينسبون فعله الى القدرة الالهية التي يجهلونها : « كل ما يحدث هو مسبب عن علة طبيعية ، والذي يبدو عليه انه وراء النواميس العادية ، لا يمكن له ان يتم او ان يقع بعيداً عن الطبيعة » (العرافة ، كتاب ٢ : ٢٢) وفي كتاب « التاريخ الطبيعي » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر مؤلفه ، نرى صاحبه يخلط خلط عشواء والعالم المادي . فالله هو « العالم الواسع ، الشاسع ، الخالد ، الذي لا بداية له ولا نهاية » . فهو ينكر العناية الربانية : من غير اللائق قط ان نتصور الله مَعْنِيّاً بنا ، مهتماً بشؤوننا البشرية الحقيرة . ليس في الانسان نفس خالدة : « كل الناس سيان هم . فهم سواء في يومهم الأخير وقبل يومهم الاول . بعد الموت : لا شعور ولا احساس ، لا في الجسد ولا في الروح ، تماماً كما كان وضعهم قبل ان يولدوا » (كتاب ٧ : ٥٦) .

كل من الادباء المثقفين اطلع على الردود البليغة التي وضعها اوريجينس والقديس كيرلس ، وهي ردود طبعت مراراً وتكراراً ، وقفوا منها على اقوال وتعاليم بعض مشاهير الكتاب القدامى من خصوم الكنيسة واعدائها ، امثال سلس [1] ويوليانوس الجاحد ، فاسمع ما يقوله سلس بهذا الصدد : اي شيء عمله يسوع المسيح هذا ؟ - فقد ضلل بعض المساكين البائسين وشفى بعض المرضى . ولكن ،أسكولاب والسحرة المصريون عملوا اكثر من ذلك - تجسدُه ؟ - هذه فكرة شعراء الاغريق . أفلم يُرسل جو بتير ، عطارد الى الاثينيين ، والى اللقذمونيين (السبرطيين) ؟ - قيامته ؟ أفلم يبلغكم ان عشرين يونانياً اقاموا الموتى قبله ، على اساس من الصحة يقل او ينقص ، لا يتوفر له ؟ - موته ، ولكن أبكتيتس ، ولكن اناكسارخوس، قاسا اكثر منه واحسن منه ، العذابات المبرحة . فقد رُضّ اناكسارخوس رضاً في جرن ، ومع ذلك سمعوه يردد لجلاديه :«حطّموا ، كسّروا غِمْد اناكسارخوس» فستبقون عاجزين عن ان تمسوه بأذى، او ان تنالوا منه شيئاً » . هذه عظمة خليقة بالآلهة ، بينما نرى هذا المسكين يسوع ينتحب قائلاً : « ايلي ا ايلي ، لمَ تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « انا عطشان » ، ثم يتنهد من الاعماق متمتماً : « كل شيء قد تم » . وهكذا انتهى نهاية اقل الناس قدراً وشاناً . والذي كان من العسير جداً على سلس ان يدركه وان يفقه سره هذا الفرق بين رجل يجود بحياته مؤدياً واجبه بكل بساطة ، وبين مهرج مخرق . الا انه كان على استعداد كلي ليأخذ

(١) فيلسوف افلاطوني المذهب عاش في روما في عهد الاسرة الانطونية ، في القرن الاول للميلاد . عرف بخصومته المسيحية ومهاجمته لها .

بهذه الترهات التي طالما رددها اعداء المسيح من اليهود ، بان يسوع هو ابن طبيعي لجندي جلف هو بنثيروس ، الذي قضى حياته في شظف الجندية ، وانه ابن بغي طردها زوجها ، ذهب الى مصر حيث أتيح له ان يطلع على فن صنع الخرقات ثم استعان بما تم له من هذا الفنون ومن هذه الصنعة، ليصنع ، فيما بعد العجائب ، وليتزعم فيما بعد وهو في الجليل واليهودية ، عصابة لصوص من فجاج الآفاق ، عددهم ١٢ ، خانه احدهم وسلمه تسليم اليد الى اعدائه .

حملت هذه التيارات الدينية في عبابها الصاخب ، هرطقات وتعاليم مغـايرة كما حملت في ثناياها نفياً للمسيحية ونكراناً لها . فالصحّاف والناشر الانساني الذائع الصيت اتيـان دوليه ، قاده الجرى الفكري ، اذ ذاك ، الى مذهب الطبيعيين،الا انه احتفظ بعقيدة خلود النفس . غير ان معاصريه نظروا اليه نظرهم الى ملحد معطل كافر ، ولذا صدر الامر باحراقــه حياً في ميدان موبرت — في باريس . وبونافنتورا ده بريه ردد في كتابه«صنوج العالم» الذي صدر له ، عام ١٥٣٧ أو ١٥٣٨ ، بطريقة فكهة ، هذه الاهاجي والطعون التي وجهها َسلْس ضد ألوهيّة السيد المسيح وضد الوحي الالهي للانجيــل . والاسباني ميشال سرفيه هاجم عقيدة الثالوث الأقدس سنة ١٥٣١ ، وذلك في كتابه الموسوم : « مغالط الثالوث » ولا سيا في كتابـه الآخر الضخم : « العودة بالمسيحية الى جذورها الاولى » الذي وضعه عام ١٥٤١ ونشره مطبوعاً عام ١٥٥٣ . فقد رأى في الاقانيم الثلاثة : الاب والابن والروح والقدس : ثلاثـــة مظاهر مختلفة للنشاط الالهي . وليس ثلاثة اقانيم متميز الواحد منها عن الآخر . فيسوع ، صاحب الانجيل ، ليس سوى انسان ، هو ابن الله حقاً ، مولود من الاب بالروح القدس ، وممسوح من الله . ولكن يسوع هذا ليس بالكلمة الابدي ، الخالد ، الاقنوم الثـــاني ، من الثالوث الاقدس. وإلا وجب التسليم، انصح القول، ان يكون الاب ولد له ولدان، وهو ظن أو قول منـاقض للكتاب الذي يذكر : ابن الله الوحيد ، ثم ان السيد المسيح نفسه يقول عن نفسه انه ابن الانسان ، وليس الله بالذات. وهكذا نفث سرفيه نفوثه في مختطات الهرطقات القديمة المضادة للثالوث الأقدس ، فبعثها حية ، ولو الى حين ، كالاريوسية . وقد لاقى اتباعاً له بيـن الكاثوليك ، واكثر منهم بين البروتستانت . ولذا لاحقه كلفين امام القضاء الكاثوليكي الفرنسي ، ففر سرفيه وقدم لاجئـاً الى جنيف حيث جرى توقيفه بامر من كلفين ، وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت حرقـــاً ، عام ١٥٥٣ .

وفي الاتجاه الذي سار فيه سرفيه ، سارا ايضاً فقيه سيني ، هو لاليوس سوسـين ، المولود عام ١٥٢٥ . فقد علّم هو ايضاً ان الله واحد هو،وان الكلمة والروح القدس ليسا سوى مظهرين من مظاهر نشاطات الله ، وان السيد المسيح هو انسان لا غير ، ابن الله ، انما لا طبيعية المية له، وان المسيح افتدانا بكرازته وتعاليمه بوصفه حاملاً لكلام الله ، وان لا اسرار في الكنيسة قط، وان العشاء السري ليس سوى تذكار يذكرنا بموت السيد المسيح ، وان لا فائدة من النعمة وليس لها اي جدوى،وان الانسان يتمتع تمامـــاً بحريته واستقلاله، يملك في ذاته الدوافع التي تحفزه

للامتثال لارادة الله . وقام لاليوس سوسين ينشر تعاليمه هو نفسه منذ عام ١٥٤٧ ، في زوريخ وجنيف ، وحملها الى بولونيا ، بعد عام ١٥٥٦ ، ثم صارت رسالته الى ابن اخيه ، كما صارت اليه مخطوطات الكتب التي كان وضعها ، ومذكراته ومفكراته ، كما انتقل اليه نشاط عمه الداعية . وتكاثر عدد السوسينيين في بولونيا ومنها أشعّوا في اتجاهات عدة .

فالهرطقات وما هو انكى منها وأشق : نكران خلود النفس وربما نكران الله نفسه ، كل هذه التعاليم المتطرفة وما اليها تغلغلت عميقاً بين الاوساط الشعبية . وحدث يوماً ان قامت سيدة من نيوشاتل ، من طبقة الشعب ، تلكر بين ١٥٣٨ – ١٥٤٢ ، قيامة السيد المسيح، وبالتالي ، قيامة الموتى ، مدعية : « ان نفس الانسان تموت بموت الجسد ، وانه لا يعود من فرق قط بين روح حيوان ونفس انسان » . وقد بلغ من شدة قلق القوم واضطرابهم لهذه التعاليم ان قام القس بحملة شعواء يدافعون، بألسنتهم واقلامهم ، عن عقيدة خلود النفس وقيامة الموتى. وقد ظن لوسيان فيفر ان في القرن السادس عشر ، عصر الايمان الحي ، لا يمكن ان يظهر فيه ملحدون حقيقيون . واخذ يسرد النصوص التي لا تعني فيها كلمة « ملحد » – *Athée* ما يفهم منه : « لا اله » بل « لا دين » ، او « من لا يعرف الاله الحقيقي » . فبعد ان عوّل في هذا الموضوع على كشف ضم بيان المصطلحات والتعابير التي شاعت على ألسنة رجال القرن السادس عشر ، راح يلاحظ ان هؤلاء الناس لم تتوفر لهم ، اذ ذاك ، مصطلحات واوضاع علمية تتيح لهم الاخذ بالحتمية العلمية ، وبالمادية ، وهي كلمات دخلت المعجمية في القرن الثامن عشر ، من خلال كتاب امثال فولتير وكنت. أماهنري بوتسون ، فقد رجح ظهور ملحدين في القرن السادس عشر ، وبروزهم هو ظاهرة اجتماعية تجلت في كل العصور . واتخذا برهاناً على ذلك ، رهبان الاجيال الوسطى الذين ، بالرغم مما عُرف من تقواهم وخشوعهم ، انكروا فجأة ، الايمان بوجود الله ، فوجدوا بذلك ، انفسهم في فراغ مُطْبَق وصمت مطلق ، وجهاً لوجه مع عالم ميت عديم القدرة على الايمان بالله . فالكفر أو الجحود بالايمان عِلة أو داء نحمله في اجسادنا كما نحمل تماماً ، التدرن الرئوي . « فهو في حالة كمون في معظم الناس » . وقد توصل الناس فعلاً ، في القرن السادس عشر الى اشكال أو صِيَغ متعددة من الفكر المادي ، والحتمية ، والعقلانية ، والرُشدية (فلسفة ابن رشد) ، ونظرية بمبونازي لم تكوّن ، بالفعل ، فلسفة مادية وحتمية ، لأن الصيغتين الاخيرتين كانتا تفتقران كلياً ، وفي الصميم ، الى إقامة الحد بين الروح والمادة ، كما افتقرتا ، في الاساس ، الى صورة ذهنية لعالم ، يتألف اصلاً ، من مادة جامدة متحركة . فاذ كان التمييز قائماً ، بصورة غافية ، في تعاليم الزونكلية والكلفينية المتعلقة بالحضور الذاتي ، فالفكرة لم تتضح وتبرز بجلاء ، الا مع ظهور ديكارت . ومنذ ديكارت توفر للعالم المعاصر صورة تامة ، مترابطة ، للحتمية وللمادية ولكن ، كل فلسفة مادية غير مترابطة، أليست لعمري ، بعد هذا ، يا ترى ، فلسفة مادية ؟ فاي شيء كانت فكرة سيدة نيوشاتل لعمري ؟ من المحتمل جداً ان تكون فكرة نكرانها خلود النفس ، ارتبطت في ذهنها ، بفكرة نكران الله ،

مع ان الفرق واضح بين الفكرتين ، ولكن ، أنى لنا ان نعرف تماماً ، ماذا عنت ، وماذا ارادت . وهكذا سيبقى الجدل والبحث حول الموضوع قائماً ، لما فيه فرحة المؤرخين ومسرتهم مع انه من المحتمل جداً ان يكون ظهر ، في القرن السادس عشر ، ملحدون حقيقيون . ومهما يكن من الامر ، فالظواهر الرئيسية الاخرى التي طلعت علينا في القرون المعاصرة ، للعقلانية وللامسيحية ، والهرطقة ، بنوع عام ، كان سبق لها وتبلورت من قبل ، وبرزت واضحة للعيان .

الاوضاع الاجتماعية التي احاطت بالنظم الدينية الجديدة

قام مؤرخون عديدون يتساءلون ، بحق ، عما اذا كانت هذه التيارات الفكرية والمجاري الدينية التي استعرضناها هنا ، لم تجد دافعاً لها ، ومحافزاً عليها ، في هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحكمت بالتطور الحضاري ، في ذلك العصر . وقد طلعت علينا بهذا الصدد ثلاث نظريات متباينة النزعة . فقد تخيل لبعضهم ان الحركة البروتستانتية لم تكن ، في الصميم ، سوى ثورة قام بها الامراء وطبقة النبلاء ضد سلطة البابا والامبراطور والملوك . وهذه النظرية اخذ بها في عهدنا المؤرخ الفرنسي ميشليه . وقد خطر لبعض هؤلاء الذين فلسفوا التاريخ ، ان يروا فيها محاولة قام بها ابناء الطبقة الدنيا ومعلمو النقابات المهنية ، ونظار الورش ، والفلاحون وكل من عانى من اضطهاد الامراء وضغط رجال المال والاعمال . وهي نظرية راجت في عهود هوسر وقد ظن لوسيان فيفر يوماً ان حركة الاصلاح الديني جاءت تعبيراً عن الحاجات التي جاشت بها البورجوزاية الرأسمالية . ففي التاريخ وقائع تؤيد كلاً من هذه الحدسيات . كل الناس يذكرون اليوم ، موقف الامراء اللوثريين ، في المانيا ، حكام مقاطعات : هس وساكس ، والرئيس الاعلى لفرقة التيوتونيين : البرت ده براند بورج ، وغيرهم كثيرين ، ومصادراتهم الاوقاف وعبثهم بالاملاك الكنسية ، وخصومتهم مع شارل الخامس ، كما يتذكرون قصة الملك هنري الثامن في انكلترا ، والدور الذي لعبه ، في فرنسا امراء من الاسرة الملكية ، وبعض كبار الامراء ، في الاقبال على الحركات الجديدة وتبني الآراء والتعاليم الجديدة ، ونصرتهم لها والدفاع عنها ، والاستقبال الحار الذي لقيه لدى شقيقة الملك بالذات مارغريت ، دنغوليم التي اصبحت ، فيما بعد ، ملكة نافار في نيراك ، مفكرون امثال لوفيفر ديتابل ، عام ١٥٢٩ ، والانجيلي الجديد العهد جيرار روسيل الذي رسمته اسقفاً لمدينة أولرون ، والدور الذي لعبه فرنسوا ده كوليني في مقاطعة بريتانيا ، وفي ايطاليا بالذات ، الدور الذي مثلته رينه ده فرانس التي اصبحت فيما بعد ، دوقة ، فراره ، التي ساندت مساندة ظاهرة حركة الاصلاح ، كما يذكر الكل تواطؤ بعض المطارنة ، من ذوي الحسب والنسب ، وغضهم الطرف عن التعاليم الجديدة ، وتسامحهم عنها . أما المؤيدون للنظرية الثانية ، فهم يشددون على ثورة الفلاحين الالمان في مقاطعة الغابة السوداء ، وفي النمسا ، عام ١٥٢٤ — ١٥٢٥ ، كما يشددون على ظهور جمهورية اللامعمدانيين الشيوعية التي أعلنت في مونستر ، كما يلحظون ، بانتباه كلي ، هذا العدد الضخم من اهل الحرف والندافين ، والنساجين ، والقصارين

والاسكافين والزجاجين والجلدين وغيرهم كثيرين ممن ترددت اسماؤهم وجيء على ذكرهم في هذه الدعاوى المقامة على الهراطقة الذين صدرت بحقهم احكام قضائية، في فرنسا ، ولا سيا في مدينة مو،بين ١٥٤٥ – ١٥٤٦ ، وفي باريس ، سنة ١٥٥٧ . والنظرية الثالثة يؤيدها ما نرى وما نلمس من الاقبال على حركة الاصلاح ، هذا العدد العديد من التجار ورجال الاعمال في كل من : انفرس وبروج وروان ، وليون وفي غيرها من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، لما لاقوه من التشجيع الادبي في اللوثيرية والكلفينية ، في مشروعاتهم الاستثارية .

كل هذه الحوادث وقائع حية ، عاشها الناس ، اذ ذاك وتصلح كل واحدة منها ، بالرغم مما بينها من مفارقات، حجة لكل من هذه النظريات ، ودليلاً لها . فلننظر الى ما هو ابعد من ذلك واعمق لنرى ماذا من حقيقة الامر .

لعله من المفيد ، ان نقيم ، بادىء ذي بدء ، الحد بين ظهور او نشأة الاصلاح البروتستانتي وبين الترويج لمبادئه ، والدعاية لها والعمل على نشرها . انطلقت الحركة كقضية دينية من هذه القضايا الكنسية . فقد ودّ رينودو الا يكون انطلق الاصلاح البروتستانتي من حادث اختلاف بين الرهبان . وماذا يضير الامر ؟ أفلا نرى الرهبان ورجال الدين عند منطلق هذه الحركة وانفجارها ؟ ألم يكن ابراسموس ولوثير رهباناً وكهنة ، كما كان لوفيفر ديتابل وكلفين هما ايضاً من رجال الدين ؟ فما هي لعمري الدوافع الدفينة لهذه الحركة التي قاموا بها ؟ بالطبع حوافز دينية بحتة . علينا ان نقبل وان نسلم بان هنالك أناساً يرون ان علاقتنا بالله هي قضية رئيسية ، مصيرية او بالاحرى هي القضية الكبرى في هذه الحياة .

وفي الترويج لمبادىء هذا الاصلاح والعمل على نشرها بين الملأ ، من أخذ المبادرة وقام بالجهد الاكبر ؟ الرهبان اولاً ورعاة الكنائس ، فيما بعد ، ورؤساء المعاهد والمنظمات التربوية (وكلهم رهبان ، اذ ذاك)، ومعلمو المدارس . كل هؤلاء لعبوا الدور الاكبر في نشر هذه النظريات الدينية الجديدة. ثم،من هم الذين حملوهم على اعتناق مقالتهم ؟ — رجالاً ونساء من كل لون وجنس وطبقة من طبقات المجتمع الانساني : اشراف ، ومحامون ، وقضاة ، وموظفون في خدمة الملك، ومن رجال المال والاعمال في التجارة والصرافة ، ومعلمو الحرَف واصحاب المهن الحرة، وسكان الريف ، من مختلف المستويات . هنالك من يعترض ان السواد الاكبر من أتباع الاصلاح البروتستانتي كانوا من السوقة . صحيح هذا ، والاصح منه ان السوقة ألفوا السواد الاعظم من المجتمع . والمهم اثباته هنا هو ان نعرف بشيء من الدقة ، ما اذا كان عددهم يؤلف ، نسبياً ، العدد الاوفى من هذه الطبقات التي تألف منها المجتمع ، اذ ذاك . الا اننا نرى ، مع الاسف الشديد ان دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يمكن اعتمادها حجة ودليلاً . وقد لا تأتي نتائجها — لو صح الركون اليها — قاطعة ، جازمة ، باتة . علينا ان نحسب حساب المجتمعات القومية الجانب ، والافراد الذين يتمتعون بنفوذ قوي ، الذين يفرضون على الغير مُثلهم ووجهة نظرهم في الحياة . ففي الوضع الاجتماعي القائم ، اذ ذاك ، يستحيل علينا

ان نرد كل محاولة اصلاح ، أو حركة اصلاحية ، الى طبقة اجتماعية معينة ، أو الى فئة اجتماعية خاصة ، مهما كان لها من حول وطول . ولما كان الدين يغمر الفرد باكمله في معايشه ، فليس من يعتقد ان المشاعر الدينية التي حملها القوم ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لم تتأثر بما جاشت به نفوس الناس من عواطف ولواعج ، وخواطر ، ومصالح شخصية ، ومادية . ولكل وضع من هذه الاوضاع والحالات دوافع ونوازع خاصة ، ومسببات تشدها بعضا الى بعض . فالاصلاح هو قبل كل شيء – كان قصة دين وحكاية ديانة .

الاصلاح والرأسماليون

عنّ لبعضهم ان يرى في الاصلاح سبباً من الاسباب التي هيأت لطلوع الرأسمالية . ان الكنيسة شجبت بالفعل وتشجب باستمرار ، الربا على اشكاله والوانه . فمجمع اللاتران الذي انعقد عام ١٥١٥ ، وكلية اللاهوت في باريس ، جددا ، نزولاً عند اقتراح ابداه عام ١٥٣٢ ، تجار اسبانيون في انفرس ، الحرم الذي صدر من قبل بحق الربا . ففي نظر اللاهوتيين المدرسيين : « سعادة الانسان الاتم لا تتم الا بمشاهدة الذات الالهية» فمقتنيات هذه الارض ليست سوى ذرائع أو ادوات يجب ان تساعدنا على العيش بحيث نحيا حياة روحية تؤهلنا بدورها للحياة الابدية . فالسعي وراء هذه الخيرات الارضية والعمل على توفيرها ، يجب ان يتم باعتدال كلي . فالملكية شرّ لا بد منه ، والشيوعية قد تكون افضل الحلول . والسعي الدؤوب ، المتكالب على ادّخار المال وجمع الثروة خطيئةهو . فالعمل في هذا السبيل يجب ان يستهدف ، قبل كل شيء ، تلبية حاجاتنا الضرورية . فالانتاج ضروري ، وهو محمود الغاية . والتجارة أمر لازم ، وان كانت لا تخلو من خطر . فالنقد قد يمسي مفسدة للاخلاق والآداب ، ومحط من شأن الانسان . فمن اشترى للتصنيع والبيع عمل جيداً . ومن يشتري ليبيع ما اشتراه في سبيل تأمين بعض الربح يسيء التصرف . يجب ان يتم البيع بثمن عدل يساعد على تأمين حاجات المنتج . الدّين يجب ان يكون بلا بدل ، بدون فائدة . على مثل هذه المبادىء قامت النظرية التي تتلاءم مع نظام زراعي يتفق مع صناعة ضعيفة في مجتمع يتألف من فلاحين ومزارعين ومعلمي حرَف . والمعروف ان النظام الرأسمالي نشأ قبل الاصلاح بزمن طويل ، فهو نظام عمل به منذ القرن الثالث عشر ، في ايطاليا والبلاد الواطية، وفي مدن فلورنسا والبندقية، وبروج ولياج وغنت. فاصحاب البيوتات المالية الكبرى، في ذلك العصر من ايطاليين والمان ، كانوا يقومون بمضاربات مالية قبل ان ينشر لوثير تعاليمه . والمعروف ان كبار اصحاب هذه البيوتات المالية امثال [illegible]جر وولزر وهوشستتر ، كانوا من ألدّ خصوم لوثير والاصلاح الديني الذي قام به . فال[illegible]كاثوليكية نفسها كانت تبرر تشغيل رؤوس الاموال عندما يكون الدائن نفسه مساهماً في [illegible]رة المشروعات، هذا إن لم يكن يتحمل هو وحده نتائج كل خطر ينجم عن هذه المشروعات ، كما انها كانت تجيز قيام شركات مساهمة للمضاربات المالية . كذلك أجازت تسليف مبلغ من المال لقاء ربح دائم بفائدة صغيرة . والفلاسفة انفسهم من اتباع مدرسة توما الاكويني استجابوا ، بشيء من التعاطف، لمقتضيات النظام الرأسمالي .

فالمال هو من هذه الوسائل المشروعة في خدمة الله .

اما لوثير ، فقد ناصب رأس المال العداء العنيف لانه من عمل ابليس . فاسمعه يقول :

« اكبر مصيبة نزلت بالامة الالمانية ، هي ، لا شك بذلك ، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدهما هذه الاعمال التي جرت على العالم ويلات لا يمكن حصرها ولا تصورها . فالاتجار مع الخارج في سبيل استيراد الحاصيل من كالكيوت ومن الهند واماكن نائية اخرى ، تسبب أذى للبلاد بتسرب نقدها الى الخارج. ومثل هذه التجارة لم يكن من الجائز السماح بها . عندي الكثير عن هذه الشركات التجارية حيث لا تقع العين الا على الجشع وعلى امور مخالفة لابسط قواعد العدالة » .

وهاهو كلفين يتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر ، هذا الشرط الاساسي لكل حياة مسيحية حقة : « يكفينا ان تتوفر لنا وسائل العيش واللبس .. »

فاذا كان لوثير و كلفين لم يكونا وراء ظهور نظام الرأسمالية ، فقد ساعدا ، من حيث لا يدريان ، على الترويج له والتمكين لاصوله .

شجب لوثير الرأسمالية ، ونظام المضاربات المالية . وقد نصح بالدَّين المجاني ، بل أوصى به ، والبيع بسعر منخفض يؤمن مع ذلك اسباب العيش للبائع . الا انه امتنع عن سن اي قانون أو تشريع ، رغبة منه في اطلاق الحرية الكاملة أمام الناس ، في هذا المجال .

فعلى التاجر ان يرجع ، في ذلك ، الى ما جاء في الانجيل والى صوت ضميره ، على اننا نرى اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسيين . فاللوثيرية ، ادت ، بالرغم من لوثير ، الى انتشار الرأسمالية ، تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد .

اما كلفين الذي كان اصغر سناً من لوثير ، فقد نشر تعاليمه في اوساط تتعامل كثيراً بالنقد بعد ان جعل مقره الدائم في مدينة جنيف التي اصبحت، اثر انهيار مدينة ليون الاقتصادي في اعقاب الحروب الاهلية الدينية ، مركزاً مالياً كبيراً ، وذلك بوصفه زعيماً لحركة مدنية ساعد على نشرها عمال مهاجرون وتجار . فهو اكثر تحرراً من لوثير في ما يتعلق بالربا . ومن جهة اخرى ، لم يتقاعس قط بوصفه رجلاً فقيهاً مشترعاً ، عن فرض نظام شديد بعد ان اقتنع في الصميم ، بضرورة ضبط الامور لاستتباب الامر .

فهو يرى : « ان الله هيأ الاشياء لتأتي وفاقاً لما حددته ارادته الالهية » . فالرأس المال ، اذاً والاعتماد المالي ، والمصرف ، وحركة الاعمال التجارية ، والنقد كل ذلك ومـا اليه ، هو من ترتيبات الله ، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها ، واحترامها احترامنا لحق العامل باجره ، ودفع ايجار عقار مستثمر »، ودفع فائدة عن مبلغ جرى تسليفه يكون متناسباً مع المبلغ المدفوع عن قطعة ارض تستغل بالحصة . فالله أعدّ كل واحد منا لدعوة خاصة يؤول الاضطلاع بها الى تمجيده تعالى . فالتاجر الذي يسعى لتأمين ربح له يقتضيه نجاح مشروعه ومتجره على قدر ما يأتيه من جهد وقناعة واقتصاد ونظام ، يتفق تماماً مع مقاصد الله ،

ويساعد على تقديس العالم بالجهد المبذول ، فيتصف عمله هذا بالقداسة . « فالعامل هو اكثر ما يكون شبهاً بالله » . « فالرجل الذي يرفض ان يعمل يجب ألا يأكل » . قد يكون فقر المرء ناتجاً عن الكسل وهذا يعتبر اهانة موجهة ضد الله تعالى. أما الصدقات فيجب ان تعطى بتحفظ كلي ، بعد روية ونظر .

نرى مما تقدم ، ان كلفين وقف الى جانب الاعراف والتقاليد البورجوازية يؤيدها ويشد من ازرها ، وهذا ما يفسر النجاح الذي صادفته دعوته لدى هــذه الطبقة التي كان ابناؤها ينصرفون عادة لاعمال التجارة والصناعة ، في أنفرس ولندن وامستردام، وهم واثقون انهم انما يعملون وفقاً للترتيب الالهي ويسيرون على النهج الذي رسمه الله لهم، ولذا قست قلوب ابناء هذه الطبقة قسوة الحديد لا تعرف الشفقة الى قلوبهم سبيلاً .

الاصلاح والدولة

سايرت حركة الاصلاح النزعات القومية وماشتها، فالعقيدة الدينية من شأنها ان توحد الشعوب وان تلهب مثُلها القومية المشتركة ، وترص صفوفها لتقف كالبنيان المرصوص ضد الاجنبي ، فتنتصب في وجه مليك لا يشاطرها ايمانها . فهل من عجب ان تصبح اللوثيرية ، في السويد مثلاً ، رمزاً للقومية السويدية تحمل السويديين على امتشاق الحسام واعلان الثورة في وجه المستعمر الدانمــاركي (١٥٢٣ — ١٥٢٩) . اما في الامبراطورية ، فالانضمام الى اللوثيرية بدا مظهراً من مظاهر صراع الامارات الصغيرة للحد من اطماع الامبراطور ومنعه من التحول الى نظام ملكي مستبد، مطلق التصرف ، وبذلك يصونون الحريات التي كانوا يتمتعون بها ويحققون الاستقلال التام الذي طالما راود خواطرهم . امــا الكلفينية ، فقد ساعدت من جهتها على تكوين دولة جديدة هي الولايات المتحدة التي اصبحت الخير الذي خمّر عجين الامة الاسكتلاندية .

الاصلاح والتسامح

بالنظر لتعذر اجبار رجـال الاصلاح والمعتنقين لحركته على الارتداد أو استئصال شأفتهم من الارض بقوة السلاح ، فقد رأى من بيدهم الامر ان يعتصموا بالتسامح وحل الامور بالتي هي احسن، عن طريق عقد اتفاقات او معاهدات دينية ، تكاثر عددها في هذه الحقبة بالذات . ومن ابرز هذه المعاهدات وأيسرهــا ذكراً ، معاهدة او اعتراف اوغسبورج، التي أبرمت عام ١٥٥٥ .وفرمان نانت، الذي اصدره الملك هنري الرابع في فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورج ، اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف رسمياً باللوثيرية، كما اعترف للامراء الذين اعتنقوا الاصلاح وثاروا عليه ان يختاروا الايمان او الديانة التي يرغبون في اتباعها ، مع الحق باجبار رعاياهم على اعتناق دين الامير عمــلاً بالقول المأثور : الناس على دين ملوكهم *Cujus regioejus rèligio* . كذلك سلم الامبراطور بالاعتراف بشرعية مصادرات الاوقاف والاملاك الكنسية التي سبقت عام ١٥٥٢ ، شريطة ان يلزم كل من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضمام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي

يكون صادرها ، الى الكنيسة . وعلى هذا الاساس استتب السلام . فالاتفاقات المعقودة في اوغسبورج عنت اللوثيريين وحدهم دون الكلفينيين ، كما ان هذه الاتفاقات سرى مفعولها على الامراء وليس على الافراد . اما هنري الرابع ، فقد ذهب الى ابعد من ذلك بكثير ، كما نص عليه منطوق فرمان نانت ، اذ عرف ان يتخذ من التدابير والوسائل ما سهل التعايش السلمي ، في قلب الدولة الواحدة ، لرعايا اختلفوا عقيدة وتباينوا ايماناً ، وربما كانوا على مستويات حضارية متفاوتة ايضاً . فالديانة الكاثوليكية كانت الديانة الرسمية . اما الكلفينيون ، فقد نعموا ، هم ايضاً بحريتهم الدينية وبحرية العبادة ، مقتصرة على المقاطعة التي يوجد فيها بروتستانت وعلى عدد من المدن والقرى . وتمتع اتباع الاصلاح بحريات عريضة ، فكان لهم محاكم مختلطة ومدن ملاجيء محصنة يقيمون فيها حاميات لهم . وتمن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار البروتستانتية بالحد من حرية العبادة . وخلافاً لصلح اوغسبورج ، اعترف فرمان نانت رسمياً ، ولاول مرة في التاريخ ، بوجود ديانتين وبتساوي الحقوق تقريباً بين اتباعهما رعايا الدولة الواحدة تحت حكم ملك واحد ادارة واحدة .

الفصل الثالث

النظم الاقتصادية الجديدة

قد تكون دنيا الاقتصاد المجال الاكبر الذي تصارعت فيه النظم الجديدة التي طلعت علينا في عصر النهضة . فالرأسمالية التجارية التي قامت على اساس الاعتماد المالي والسفتجة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر ، في فلورنسا والبندقية وجنوى ، وان الاساليب او النظم التجارية على اختلاف انواعها : كالمضاربات المالية وتحويل المدفوعات وكتب الاعتماد ، وهو المحور الذي استقطب حوله بالاكثر المعاملات التجارية والتبادل الدولي،ليس ما يدل انها تطورت كثيراً خلال القرن السادس عشر . علينا ان نلاحظ هنا، قبل كل شيء ، ان أي تقدم يطرأ في المجال التقني، يحمل بين طياته نتائج لا تقدر ، وان لم ترد الوثائق التاريخية التي وصلتنا من ذلك العصر ، أي صدى بارز لها . مثال ذلك ، فرنسا ، مثلاً ، حيث نجد ان الايراد أو الدخل لم يكن ليعتبر فيها من وسائل الاعتماد المالي . فالريع الناشيء عن مبلغ من المال ، يصلح بيعه من دائن لقاء مبلغ يقرضه او يسلفه ، على ان يستوفي دينه تباعاً من ايجار عقار معين ، بموجب عقد يعتبر المعاملة بيعاً نهائياً بحيث لا يعود من المتوجب على المدين ان يدفع . ففي الريع الدائم لا يستطيع الدائن ، ان يسترجع عيناً المال الذي دفعه نقداً وعداً . وقد حاول بعض الخاصة ان يُنزلوا ، بصفة عفوية وبالرغم من معارضة القضاء ، الايراد الدائم او الريع ، منزلة الدين بفائدة . فمنذ أواخر القرن الخامس عشر حاول المتعاقدون ، في باريس ، ان يدخلوا على العقود شرطاً إضافياً يُخضع بموجبه كل املاك المدين ومقتنياته . كما ادخلوا بين ١٥٢٠ — ١٥٤٠ ، شرطاً اضافياً آخر يحدد بصورة واضحة حق الدائن باستيفاء جميع حقوقه ، من جميع املاك المدين ، ان لم يسدد هذا الاخير ما تبقى عليه من حساب ، غير مكتف بريع العقار المرتهن لديه والذي كان يستوفي ريعه . وهكذا فالريع اصبح الزاماً شخصياً مع رهن ، وهي معاملة تقرب جداً من التسليف بفائدة ويمكن ان تكوّن اداة طيعة في التحويل المالي . اما معرفة ما اذا كان هذا النظام قد أدى عمله بالفعل ، فأمر آخر . فهل نعد هذا ، نحن مقتنعون

باننا كشفنا النقاب عن كل التغييرات التي عرفتها المعاملات المصرفية والتجارية ؟

ومهما يكن من الامر ، فاتساع مجال الحركة التجارية وانقشاع مداهـــا ، وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقها ، كل ذلك يعتبر بحق تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي. فبامتداد الحركة التجارية الى العالم الاسباني ، في العالم الجديد والى المحيط الهندي البرتغالي ، ادخل عـــلى الحركة الاقتصادية تغييرات جذرية. فالفترة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، تتفق مع ما يسميه فرنسوا سمياند بطور « B » اي نهاية الحقبة التي قلّت فيها المعادن الثمينة وندرت للغـــاية وهبطت فيها الاسعار هبوطاً عظيماً ، وانكمشت فيها المبادلات التجارية كما ضؤلت فيها حركة الانتاج . فالصعوبات التي اصطدمت بها الحركة الاقتصادية العالمية شجعت الناس على البحث للخروج من الازمة وراح جيل جديد من التقنيين ورجال الاعمال المغامرين يحاول ابتداع شيء جديد . فالدقة التي حققوها في بناء سفينة الكرافيل هذا النوع من السفن الذي عوّل عليه المستكشفون الجغرافيون والتي يمكن بحركة بسيطة في قلوعها ان تصبح بمستوى الدرجة ٥٦ من خط السير لتسير مع تيار الريح الذي يهب من جهة اليمين ، ثم الاتجاه في طريق بحري يرسم زاوية معينة ، مع الابرة المغنطيسية ، وتحديد الموقع الجغرافي للسفينة ، بالاعتماد على زيج الزوايا ، للرجوع الى الخط والاتجاه السوي ، اذ ما حادت عنه السفينة ، ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الصدد المطلوب ، كل هذه التحسينات الفنية ادت الى تطور عظيم في وسائل النقل البحري . فالثورة التي تمت في المجال الجغرافي ، وتسهيل ايصال التوابل والافاويه الى الاسواق الانكليزية والفرنسية والفلمنكية والالمانية ، وتحويل سبائك الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية باتجاه البندقية ومنها الى انفرس ولشبونة ، ووصول المواد الصباغية ، من الهند وخليج كمباي ومقاطعة بيغو ، او من البرازيل ، كالبقم والقرمز والنيلة ، والانقلاب المفاجيء في صناعة النسيج من جراء ورود القطن مـــن السوس ومن جزر الرأس الاخضر ، والبرازيل والهند ، وتطور صناعة السكر في كل من جزر ماديرا والازور والجزر الخالدات ، على أثر اختراع مطاحن السكر ، وبروز صناعـــة صيد الاسماك على شواطىء جزيرة الارض الجديدة ، واشتداد الطلب ، بالمقابل ، عـــلى مقاطعات البلطيق واوروبا الغربية ، لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية واجواخ وغير ذلك مـــن مصنوعات الحديد والنحاس ، والزئبق ، والمدافع ، وانسجة القلوع ، والبـــارود ، وتصدير هذه المواد نحو لشبونة وأشبيلية ، كل هذه المجاري التجارية ، وهذه الاسواق الجديدة ، ساعدت على طلوع عالم رأسمالي ، وتسببت في ارتفاع مستمر في الاسعار ، وفي ازدياد الانتـــاج والمبادلات التجارية . هذا الوضع كله حلّ في مرتبه « A » من نظام سيمياند .

فالحركة التجارية التي نشطت وازدهرت بين أشبيلية ومرافىء اميركا الاسبانيـــة ، فكانت المحور الرئيسي لهذه الحركة الاقتصـــادية التي جاءت بها اوروبا ، اذ ذاك ، ملأ نشاطها الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ و١٦٠٨/١٦١٠ . وقـــد ارتفعت حركة النقل البحري ذهاباً واياباً ،

بين الطرفين ، من ١٥٦٨٠ برميلا ، سعة البرميل الواحد ٢،٨ متر مكعب ، في فترة السنوات الخمس ١٥٠٦ — ١٥١٠ ، الى ٢٣٧٥٣٠ برميـــلا في فترة السنوات الخمس ١٦٠٦ — ١٦١٠. وهكذا نرى ان معدل الزيادة في حركة النقل ارتفعت من ١ — ٢٠ .وقد مرت حركـة النقل خلال هذه الحقبة الممتدة بين الحدود المذكورة بتقلبات عديدة تناوحت بين صعود وهبوط ، وتقدم وتأخر ، تتفق ، الى حد بعيد ، مع هذه الدورات الزمنيـــة التي عرفتها الحركـــة الاقتصادية ، ومر بها الرأسمال الدولي ، في القرنين التـــاسع عشر والعشرين ،والتي راح يحدد مميزات كل منها والخصائص التي تلبستها ، كبار علماء الاقتصاد وخبرائـــه .وهذه الدورات الزمنية يختلف مداها بحسب آراء ، هؤلاء الخـبراء : فهي تدوم من ٥٠ — ٦٠ سنـــة في نظر كوندراتييف ، او من ٧ — ١١ سنة في نظر جوكلر ، او من ٣ — ٤ سنوات في نظر كتشين . أليست دورة كونـــدراتييف ، توازي تـلك الدورة التي ابتدأت في اواخر القرن الخامس عشر فتميزت بهذا النشاط العارم تزخر به حركة الاعمال التجارية والنقـل اثر الاكتشافات الجغرافية وطرق المواصلات المحيطية الجديدة ، وانتهت بهذه الازمة التي اشتدت بين ١٥٥٠ — ١٥٥٩ بعد ان ظهرت بوادرها عام ١٥٤٧ / ١٥٤٨ ، والتي عاد اليها رسيس مـن النشاط ، حوالي عام ١٥٦٢—١٥٦٣ ؟ فاذا ما حسبنا معدل سعـة البرميـــل ٢،٨ متر مكعب ، واذا ما أخذنا اساساً لتقديراتنا ، فترة خمس سنوات ، في هذه الازمة المالية الكبرى ، يبلـغ وزن البضاعة التي تم نقلها من اشبيلية الى اميركا ، في نصف العقد من السنين ١٥٤١ — ١٥٤٦ ، ما قيمته ٦٥٦٢٥ برميلاً . ارتفع هذا المعدل في الفترة ١٥٤٥ —١٥٥٠ ، الى ٩٥،٤٠٠ ثم هبط الى ٦٧،٧٢٥ برميلاً خلال الفترة ١٥٥٦ — ١٥٦٠ .

وقد حدث في الفترة الواقعة بين ١٥٤٧ — ١٥٦٠ هزة مالية شديدة تأثرت من جرائهـــا اشهر البيوتات التجارية التي عرفت في النصف الاول من هـــذا القرن ، لدى الفلورنتيين ولدى اسرة فوجر « *Fugger* » . فقد ارغمت الحروب التي وقعت اذ ذاك ، الملوك على استلاف مبالغ طائلة وجدوا انفسهم عاجزين ، فيما بعد ، عن ايفائها ، كما استعملت مبالغ ضخمة في مشروعات غير مجدية ، كان مع ذلك ، لا بد من القيام بها ، هي هذه المبالغ الخاصـة بالحروب وتكاليف حياة البذخ في بلاطات الملوك . ونشأ من جراء ذلك أزمة مالية حادة هزّت اوروبا بين ١٥٥٧ — ١٥٥٩ ، ووقعت اسرة هبسبورج نفسها في عجز مالي يتراوح بين ١٣ — ٢٠ مليون دوقا مما اضطرها لاعلان افلاسها ،وفي سنة ١٥٥٧ توقفوا عن الدفع وحظّروا اخراج الذهب من البلاد، ولا سيا مبلغ ٥٧٠،٠٠٠ تعود لمحـلات فوجر في انفرس ، وحولوا ما لديهم مـن *juros* بسعر يتراوح بين ٥٠ — ٤٠ من قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ٥٪ لم تلبث ان فقدت قيمتها الاسمية ، في البورصة . ولما كانت لمحلات فوجر استحقاقات على اسبانيـــا بقيمة مليون دوقا ، اي ما يوازي ضعف رأسمالهم التجاري ، فقد اشتروا ، عام ١٥٦٣ ، اسهماً لم تلبث ان هبطت ٥٠ — ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية .وملك فرنسا نفسه بعد انكساره في موقعـة سان ـ

كنتين في ١٠ آب ١٥٥٧ ، لم يستطع ان يدفع سوى قسم ضئيل من أصل الفوائد المستحقة عليه المبالغ التي سبق واقترضها ، وعندما توفي عام ١٥٤٧ ، خلّف وراءه ديناً يتراوح بين ٣٦-٤٤ مليون ليرة في الوقت الذي خسرت عملة الدوقا التي اصدرها ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وهكذا نرى ان كل البيوتات المالية التي كانت تتولى الاعمال المصرفية ، والتمويل ، وجدت نفسها مهتزة . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتكاثر الافلاسات في انفرس والمانيا الجنوبية . وانهارت مؤسسة فوجر نفسها بعد ان فاقت الديون المستحقة عليها ، موجوداتها ، وذلك اثر فقدانها حرية الاتجار بالمضاربات التجارية ، الامر الذي اضطر معه بعض اعضاء الاسرة ، للانسحاب من الشركة .

وقد ظن بعضهم ان هذه الازمة التي استحكمت حلقاتها في منتصف القرن السادس عشر ، مهّدت السبيل لازمة مالية اخرى ألمّت بالرأسمال وضعضعته طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فمنذ سنة ١٥٦٢/١٥٦٣ التي عقدت فيها معاهدة كاتو ـ كمبرسيس فاعادت السلام الى اوروبا ، راحت الحركة التجارية تسجل نشاطاً جديداً ، فارتفع معدل الرحلات التجارية بين اشبيلية واميركا ، وارتفعت نسبة المشحونات التي صُدّرت ، في الفترة ١٥٦٦ - ١٥٧٠ الى ١٠٤،٤٢٥ برميلاً . ومدينة لاروشيل التي لم يسجل مرفؤها سوى ١٨ سفينة عام ١٥٦٣ ، و٥ سفن عام ١٥٥٨ غادرت ميناءها ، اذ بها تسجل ٦١ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٩١ سفينة سنة ١٥٦٤ . ومدينة فَنْتَرِيه من اعمال فرنسا، صدّرت وحدها ، بالرغم من الحروب الدينية التي خلخلت حركة الاعمال والاشغال ، ٧٣٢،٦٦٢ ذراعاً من المنسوجات كمعدل سنوي للتصدير ، كما سجلت حركة التصدير فيها ١،١٥٢،٨٩٠ ذراعاً كمعدل وسط السنوات ١٥٧٠ - ١٥٧٥ ، و ٤٠٠ ، ٣٤٥ ، ١ ذراعاً ،عام ١٥٧٥ - ١٥٨٠ . فاذا ما تدهورت بيوتات تجارية ومصرفية كبيرة كمحلات فوجر وغيرها ، فقد حلت محلها بيوتات مالية ضخمة ، في جنوى ، نتيجة للحرب التي وقعت بين الملك فيليب الثاني وبين البلاد الواطية وانكلترا ،والاضطرابات التي وقعت في فرنسا وانقطاع المواصلات المحيطية ، وطرق المواصلات الفرنسية ، كما يعود ذلك للموقع الممتاز الذي تحتله جنوى اذ انها واسطة العقد وعقدة المواصلات الكبرى التي تمر بها المعادن الثمينة في طريقها من اسبانيا الى البلاد الواطية عبر ممرات جبال الألب ومجازاتها . فاذا ما سببت حركة ارتفاع الاسعار تأخر بيوتات مالية خاصة ، فقد نشأت مصارف وطنية تباعاً في كل من باليرمو وجنوى (١٥٨٦)وفي البندقية (١٥٨٧)وميلانو وروما (١٥٩٣)وتولت هذه المصارف القيام بعمليات تسليف على المكشوف دون ايداع سندات تغطية موازية لها ، وتستعمل عملات ورق فتضمن للمودع دفع دراهمه بالعملة ذاتها التي دفعها كما تكفل المبالغ المودعة فيها ضد اي هبوط يطرأ على النقد . وهكذا نرى ان المبالغ الضخمة التي استخدمت في القرن السادس عشر جاءت دليلاً يشهد عالياً على ما كان لرأس المال ، اذ ذاك ، من تأثير بيّن .

هنالك عنصر هام نهض بهذه الحركة التجارية يتمثل على أتمه في هذه المعادن الثمينة .

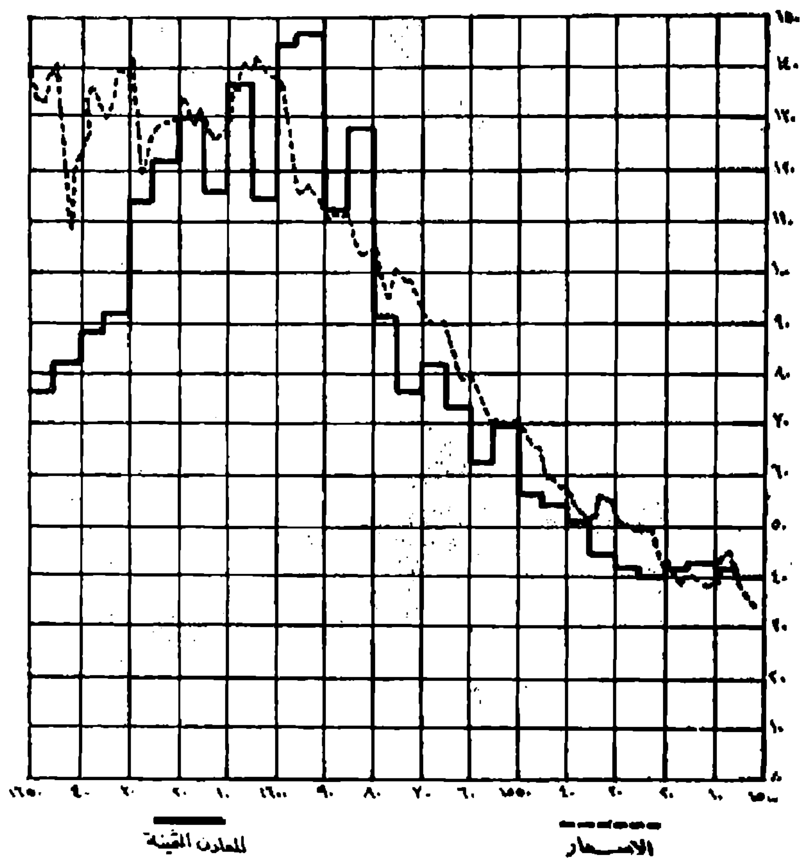

شكل ١ ـ الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٥٠٠ ـ ١٦٥٠

(عن هاملتون)

المعادن الثمينة وارتفاع الاسعار

اشتدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر حاجة اوروبا الى المعادن الثمينة . فالنقد المتداول ، لم يكن بالقدر الوافي بحيث يشجع الاقدام على المقايضات التجارية ،كما ان ندرة النقد ، من جهة اخرى ، وقفت حائلاً دون الانتاج وتطوره . والرغبة في توفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت من هذه الحوافز الشديدة التي ادت الى تحقيق الكشوف الجغرافية في المحيطات الكبرى .

وقد امكن توفير بعض هذه المعادن الكريمة عن طريق استثمار مناجم الفضة في اوروبا بعد ان تمّ تجهيز المعدّنين بالمعدات الفنية والعتاد اللازم فادخل على الاستثمار تحسينات ملموسة . وقد كانت هذه الناحية موضوع اهتمام اصحاب المصارف بنوع خاص لما كان لهذا المعدن من قوة شرائية عالية جعلت من عملية استثمار مناجم الفضة عملية رابحة . فقد سدّت الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية بين ١٤٧٠-١٥٤٠ حاجة اوروبا منه. ودخل هذا المعدن الكريم الى البلدان المجاورة للبحر الابيض المتوسط يحل فيها تدريجياً محل الذهب المستورد من السودان لصعوبة الحصول عليه . وبلغ استثمار مناجم الفضة في المانيا الذروة ، بين ١٥٢٦ – ١٥٣٥ .

ومنذ ان احتلت اسبانيا جزر الانتيل ، اخذ الذهب الاميركي يجري كالنهر ، نحو اسبانيا ويليه معدن الفضة . وازدادت الكميات المستوردة من هذه المعادن الثمينة بعد ان تم فتح المكسيك ، على يد فرناندو كورتيس (١٥١٩ – ١٥٢٢) والبيرو على يد الفاتح بيزارو (١٥٣٢ – ١٥٣٥) ، واخيراً بعد ان اكتشفت ، عام ١٥٤٥ ، مناجم الفضة الغنية في بوتوزي ، في جبال البيرو،على أثر استعمالهم ، بين ١٥٥٢ – ١٥٥٤ ، الزئبق في استخراج الفضة من مناجمه . واذ ذاك ، اخذ هذا المعدن الثمين يجري كالنهر ، نحو اسبانيا [١] .

فهذه القناطير المقنطرة من المعادن الثمينة ، ما لبثت ان خرجت من اسبانيا بسرعة ، ثمناً لما استوردته من الحبوب والخمور والمعادن والبارود والمدافع ، من فرنسا وايطاليا والبلاد الواطية والمانيا وانكلترا،والمضاربات التي قام بها رجال المال واصحاب المصارف من الالمان والايطاليين فيها ، والعديد من الصناع المهرة الذين توافدوا عليها للعمل فيها ، من فرنسيين والمان وايطاليين، فنشروا هذه المعادن الثمينة ووزعوها في جميع انحاء اوروبا .

فهذه المعادن الثمينة ، سواء منها ما استخرج من مناجم اوروبا الوسطى او ما جاء من اميركا ، تسببت في ارتفاع باهظ للاسعار . ومع ذلك فلم تكن بالسبب الوحيد . فبلاطات

---

(١) الانتاج العالمي من الفضة والذهب بالكيلو

الفترة	ذهب	فضة
١٤٩٣ – ١٥٢٠	٥٨٠٠	٤٧٠٠٠٠
١٥٢١ – ١٥٤٤	٧٦٦٠	٩٠٠٠٠٠
١٥٤٥ – ١١٥٦	٨٥١٠	٣١١٦٠٠

واردات المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا بالبيزوس من عيار ٤٥٠ مارافادس

منذ ١٥٠٣ –	٣٣٧٦١٠٤٠
« ١٥٢١ – ١٥٤٤ –	١١٠٦٦٠٧٣٥
« ١٥٤٥ – ١٥٦٠ —	٢٣٣٦٨٢٤٠

عن هاملتون

الملوك ، ونفقات الجيوش ، وارتفاع مستوى العيش ، وازدياد عدد السكان ، كل هذه المرافق زادت من الطلب . فاحتكارات التجار ، والحروب التي انفجرت تباعاً في كل من ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية والمانيا ، والحرب ضد الاتراك ، خففت احياناً من المرض . فالتمويل المتزايد على نظام الاعتماد المالي ، مع انه ضاعف من وسائل الدفع ويسر لها ، لم يبق ، مع ذلك بدون تأثير على حركة ارتفاع الاسعار . الا ان ازدياد كمية المعادن الثمينة في الاسواق بقي السبب الاقوى لهذا الارتفاع . واخذت حركة ارتفاع الاسعار تمتد الى جميع انحاء اوروبا منذ اواخر القرن الخامس عشر . وانطلقت حركة الارتفاع من مقاطعة الاندلس حيث كانت تصل الى اشبيلية الشحنات المتتابعة من اميركا ، ومن الاندلس امتدت الى باقي بلدان اوروبا على نسبة ما تتصل باسبانيا .

لم يدرك المعاصرون سر حركة ارتفاع الاسعار هذه ، فراح اعضاء الكورتيس ، في اسبانيا ، يتهمون عام ١٥٢٥ هدر الثروة ، مثلا بكمية العجول التي ذبحت ، والرسوم الباهظة التي فرضت عام ١٥٣٧ ، على حق استعمال المراعي وعلى تصدير البضائع الى اميركا ، كما نعوا ، عام ١٥٥١ ، المضاربات التي يقوم بها الاجانب في الاراضي الاسبانية . وتخفيفاً من حدة الارتفاع ، اخذت الحكومات والبلديات تفرض الرسوم ، وتحظر التلاعب بالاسعار ، وتصادر البضائع : زجراً للتجار وتأديباً لهم انما بدون نتيجة محسوسة . والظاهر ان الفرنسي جان بودين أدرك وحده الاسباب الكامنة وراء ارتفاع الاسعار ، وراح يشرح الاسباب الدافعة الى ذلك ، كل هذا لم يأت بنتيجة حتى اواخر القرن . فقد فاته ان يذكر سبباً آخر لهذا الارتفاع تبينه جيداً بعض موظفي غرفة التجارة ، في باريس ، اذ ذاك ، ولا سيما السيد مالسترو من بينهم . وكان ارتفاع الاسعار يشتد اكثر فاكثر ، بالنسبة لقيمة النقد الفعلية ، التي كان الجمهور يضفيها على العملات المعدة للتحويل . وقد سبب هذا الامر المضاربات على العملات وفقاً لاوزانها وعياراتها في مختلف البلدان وبنسبة الفرق الرسمي بين الذهب والفضة . فقد حمل تجار اجانب معهم الى البلدان التي دخلوها ، عملات اجنبية قيمتها ، وزناً وعياراً ، دون قيمة النقد القوي في البلاد . وكانوا يتقدمون لشراء هذه العملات القوية ويدفعون فيها اسعاراً تزيد على سعرها الرسمي بالتحويل ، ثم يعمدون الى تحويل هذه العملات الى سبائك من الذهب ، اذ كان سعرها اعلى بكثير مما دفعوا ثمناً للعملة الذهبية بالنقد الاجنبي الذي حملوه معهم . وهكذا كانوا يسعّرون العملات المعين اعلى من العملات الورق المعدة للتداول والتي كان سعرها الاسمي في نزول مستمر بينما اسعار الحاجيات في ارتفاع دائم . وهنالك طرق ووسائل اخرى يتبعونها لتخفيض اسعار النقد المعد للتحويل ، انما النتيجة النهائية كانت دوماً واحدة هي ارتفاع مستمر بالاسعار نتيجة محتومة لازدياد كميات المعادن الثمينة في الاسواق .

وهذا الارتفاع سبب ارتباكا للمعاصرين بسبب المشاكل والصعوبات التي أثارها في الدول ، وبسبب هذه الاضطرابات الاجتماعية التي حركها فيها . فقد رأوا فيه شراً لم يكونوا مطمئنين اليه . ومن جهة ثانية ، كان لا بد من ارتفاع وازدياد كمية النقد المتداول لتأمين التبادل التجاري ،

بالتالي للتشجيع الانتاج وتقويته . الا ان الاسعار ارتفعت ، بين ١٥٠١ - ١٦٠١ ، اربعة ضعاف . وقد كتب للقرن العشرين ان يرى ويشهد ما هو أدهى وأشد من هذا بكثير . وقد رتفعت الاسعار ، في اسبانيا ، بين ١٥٠١ - ١٥٢٥ ، خمسين بالمائة ، وبلغ معدل هذا الارتفاع ، بين ١٥٢٥ - ١٥٥٠ حوالي ، ٣٧٪ ، وهي زيادة لم تحصل لعمري ، بسرعة كبيرة جداً حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار ، اقل امكانية عرضت في ذلك العصر لمضاعفة الانتاج . واخيراً وليس آخراً ليس ما يشير قط الى ان هذا الارتفاع بدا مترجرجاً أو متارجحاً ، وقد كان على الاجمال ، حافزاً اكبر على زيادة الانتاج منه سبباً للاضطراب الاقتصادي ، وذلك طمعاً او استهواء الربح متزايد.

أدى النشاط المتزايد في الاعمال التجارية وحركة المبادلات الى بعث النشاط الاقتصادي في جميع انحاء اوروبا ، كما يظهر من الارقام التي نضعها هنا تحت الانظار . فشحونات الخمور من مرفأ نانت فقط باتجاه مقاطعة بريتانيا وشمالي المملكة الفرنسية ، وانكلترا وايكوسيا ، والولايات المتحدة ، والبلاد الواطية ، ومناطق البلطيق ، واسبانيا والبرتغال احياناً ، بلغ معدلها ١٣٤٧ برميلاً بين ١٤٤٧ - ١٤٤٨ ، وارتفع هذا المعدل الى ١٠٬٧٧٨ برميلاً ، بين ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ، اي ابان الازمة المالية التي استحكمت حلقاتها اذ ذاك . وقد حافظت حركة التصدير على هذا المعدل لمدة ثلاثة قرون ، مع العلم ان حركة الشحن بلغت الذروة في القرن الثامن عشر اذ ان الكمية التي صدرت عنها اذ ذاك ، بلغت ١٣٥٬٤٤٠ برميلاً . وقد استعار هوسر كلمة « البعث الاقتصادي » للتعبير عن النشاط الاقتصادي الذي ميز السنوات الاربعين الاولى من القرن السادس عشر . بعد هذا حان لنا ان نتكلم عن العالم الجديد .

ان اشتداد الطلب ، في كل من اسبانيا والبرتغال على الانتاج الصناعي وعلى المواد الغذائية ، من كل اوروبا ، تلبية منها للطلبات الملحة الواردة من اصقاع ما وراء المحيط ، ساعد كثيراً على تطوير وسائل الانتاج واساليبه ، والتركيز التجاري الصناعي عمت حركته مناطق واسعة . وهنالك بوادر تنم بوضوح على ظهور رأسمالية صناعية حتى في صناعات النسيج ، حيث كانوا يعتمدون بالاكثر على الصناع اليدويين ، فيجدون لهم فيها مورد رزق اكثر مما كان يتوفر لهم لو عملوا في المناجم والمطابع ودور النشر . فاذا كنا نجد دوماً في مراكز صناعة النسيج : حلاجين وندافين ، وحاكة وقصارين ، ومعلمي كار ، واصحاب ورش لهم عتادهم الفني واعتدتهم يعملون لحسابهم الخاص ، وعدداً اكبر منه بكثير يعملون لحساب كبار التجار ويؤمنون لهم كل وسائل العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يعملون على تنفيق الانتاج ، نرى ، من جهة ثانية ، ترتفع في طول البلاد وعرضها ، اكثر فاكثر ، معامل ومصانع لنسج الاصواف والاجواخ ، يلشؤونها في منازلهم وبيوت سكناهم بعد ان يجهزوا بكل ما تحتاج اليه صناعة النسيج من أدوات ، ويُستخدم فيها ٨ او ١٠ ، او ١٨ حتى و ١٩ نولاً لكل نول فريقه الخاص من العمال ، حتى انهم كانوا يستأجرون ، تأميناً للعمل ليل نهار ، عمالاً ، اضافيين . وبعض اصحاب هؤلاء المصانع ، حولوا منازلهم الى معامل « تموج بالناس وتعج بالحركة » كما جاء في احدى الوثائق البلدية ، اذ كنا نرى الندافين والحلاجين يمشطون الصوف في

غرف المنزل وحجراته ، ويركب النساجون مغازلهم وانوالهم في مستودعـات المونة ، ونرى الحاكة والغازلات في كل الغرف ، يعملون على مقربة من غرفة نوم ربة المنزل ، الى جانب العمال يقضون لياليهم في المنزل . حركة موصولة من عمال يغدون ويروحون ، صبحاً وأصيـلا ، من قصّارين ودباغين وصباغين،أنهوا أو في سبيل الانتهاء من اعمال أو اشغال عُهد بها اليهم في بيوتهم أو يعيدون ما انتهوا من انجازه ليستلموا غيره من الاعمال .

والمدن تتضخم وتكبر وتتسع اكثر فاكثر ، وتلحف في طلب المواد الغذائية والخامات التي تحتاج اليها من الريف ، مما سبب انقلاباً في نشاط الفلاحين والمزارعين وسكان الريف ، حتى في هذه المناطق المعزولة حيث تخف الحركة وتتعثر المواصلات ان لم تمتنع . وحري بالملاحظة هنا ما نشاهده مثلاً ، في بعض انحاء ولاية براتو من تربة كتيم تكثر فيها الغياض والمستنقعات . فقد كانت الارض القابلة للزراعة ، في اواخر القرن الخامس عشر ، موزعة الى قطع صغيرة ، يمزقها الفلاحون بايديهم ، أو يكثريها مرابعون ، نالوا حق استثمار الارض والانتفاع بثمارها ، بينما تبقى ملكية الارض لصاحبها الذي يبقى له عليها حق فرض الرسوم واستيفاء بعض المداخيل والغلال وتأمين بعض الخدمات الاخرى ، وهو وضع ، لم يكن بالطبع ، ليؤمن لسيد الارض ، مردوداً يذكر. ولذا راح اسياد الارض يحاولون شراء هذه القطع الصغيرة الملاصقة أو المجاورة لاراضيهم فيجعلون منها وحدات ضخمة تصلح للاستثمار على نطاق اوسع، تؤلف في مجموعها مزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٤٥ – ٥٠ هكتاراً ، لم تعُد تعزق أو تحرق تربتها باليد ، كما كانت من قبل ، بل بالمحراث وافدنة من البقر . وقد جهزت كل مزرعة من هذه المزارع باربعـة أو خمسة فدادين كما جهزت باربعة الى ستة محاريث، وكان بوسع صاحب المزرعة ان يعنى بتربيـة الابقار الحلوب والغنم ، وبذلك تتوفر للمزرعة، اكثر فاكثر ، امكانات اكبر للاستثمار، وتسميد الارض ، وانتاج اوفر ، ولم يعد بحاجة الى اكثر من ٨ – ١٠ اشخاص لتأمين الاعمال ، يؤلفون عادة ، اسرة المزارع ، بينما كان يعمل في هذه القطع قبل توحيدهـا من ٧ – ١٠ اسر يتراوح عدد افرادها بين ٣٠ – ٣٥ شخصاً . وهكذا استطاعت الارض ان تعطي غـلة اوفر ، بلغ معدلها احياناً ٩ قناطير من الحبوب في الهكتار الواحد ، وصار في امكان المزارع ان يبيع في السنة ، زوجاً من البقر المسمنة وزوجاً من الثيران الصغيرة وزوجاً من العجول ودزينة مـن رؤوس الغنم . كذلك صار باستطاعته ان يورد الى القرى والمدن المجاورة محصول مزرعته من الصوف الضروري في حياكة الاصواف والاجواخ التي تصدّر للخارج . وهكذا رأينا ان حياة المزرعة ونشاطها يتوقفان ، الى حد بعيد ، على الطلبات التي تنهال عليها من القرى والمدن التي تحرص الحرص كله على تلبية العروض المغرية التي تردها من الخارج وتلبي بالتالي، مطلب التجارة الدولية . وهكذا نرى ان تطور طرق استثمار الارض ، وتغيير مظهر الريف ، بتوفير المراعي الخضراء للماشية ، واقامة مـا تحتاج اليه الماشية من صِيَر وسياجات وزرائب ومغروسات وحدائق وغير ذلك مما يضفي على الارض حلة سندسية، كل هذا اقتضى بالطبع رأسمالاً كبيراً

لتأمين نفقاته والنهوض به . وقد تمت هذه التغييرات على يد اسياد الارض ، والاشراف والبورجوازيين والتجار بفضل حركة تسليف زراعي ناشطة ، استندت الى رأس مال كبير اقتضاه القيام باعمال واشغال متنوعة : من توسيع المزارع وتجهيزها ، وصيانة المباني الموضوعة تحت تصرف الشركاء والمرابعين العاملين في استثمار الارض ، والمخازن ، ونقب الارض وعزقها واحيائها وتقديم البزار ، واحياناً توفير نصف ثمن حيوانات الجر . وهكذا تمكن المزارع من تأمين غلة اوفر ، من هذه الاستثمارات التي اخذ يقوم بها بفنية وتقنية اكبر . فبين العقد الاخير من القرن الخامس عشر (١٤٩٠ — ١٥٠٠) وبين العقد الرابع من القرن السادس عشر (١٥٣٠ — ١٥٤٠) أطلت علينا في خطوطها الكبرى ، هذه المساحات الشاسعة الواقعة وراء المحيط ، في العالم الجديد ، التي اصبحت مجالاً واسعاً لحركة تجارية عارمة ، واسواقاً تجارية جديدة لتصريف منتوجات جديدة ، وبقيت هذه الاوضاع التي اطلت علينا ، هي هي تقريباً ، في خطوطها الرئيسية ، حتى منتصف القرن الثامن عشر . كذلك اطل علينا ؛ في المجال الاقتصادي ، في اقل من ٥٠ سنة ، ولا سيما في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، عالم جديد احتل محله البارز في النشاط البشري .

فلننظر الآن ما عسى ان تكون عليه الخصائص المميزة لهذا الوضع العام .

ازدهار حركة الاعمال التجارية الضخمة

سجل النظام الرأسمالي تطوراً عظيماً اثر بروز التجارة البعيدة المدى . ان انشاء البلاطات الملكية وما كان لها من أثر بالغ في اشاعة البذخ والترف في مختلف طبقات المجتمع ، وقيام هذه الجيوش الضخمة من المرتزقة ، ونمو المدن الكبرى السريع ، وازدياد السكان ، وتوفر الغنى والثروة في جميع انحاء اوروبا ، وكلها عوامل انفعلت وتفاعلت بعضها ببعض بحيث اصبحت معاً ، اسباباً ومسببات ، كل هذا وما اليه ، زاد كثيراً ليس من معدل استهلاك المواد النادرة الغالية الثمن فحسب ، بل ايضاً المواد العادية اللازمة للاستهلاك اليومي . وقد دخل في التداول التجاري الدولي عدد كبير من المحاصيل والمنتوجات كما اصبحت هذه الغلال والمحاصيل مجالاً جديداً لتشغيل واستثمار مبالغ طائلة من الاموال الدولية ، منها مثلاً : الحرير والمصنوعات الفنية الايطالية الصنع ، واصواف البلدان الواطية ، وفرنسا وانكلترا ، والمصنوعات المعدنية واعمال التعدين في المانيا ، وصنوف الخمور والكحول في فرنسا ، والحبوب والكتان والقنب ، وخشب البناء ، والماشية في البلدان المحيطة بالبحر البلطيقي ، وروسيا وهنغاريا . واصبحت هذه المواد المجال الاكبر والحقل الاوسع الذي تجلت فيه التجارة بالجملة منذ ان انفتحت أمامها طرق المواصلات المحيطية الكبرى التي تفضي بسالكيها الى آسيا واميركا .

ورأت اوروبا نفسها بحاجة الى عدد كبير من المحاصيل الآسيوية منها ، في الدرجة الاولى ، التوابل والافاويه التي دخلت انواع كثيرة منها ، في صناعة الاقراباذين وتركيب العلاجات ،

أو كانت تستهلك، بمقادير طائلة في المطبخ ، وفي وقت وظروف كانت فيهـــا النباتات العلفية والمراعي الاصطناعية ، تضطر الاهلين ، في اواخر فصل الخريف ، الى ذبـــح جانب كبير من الماشية يحفظون لحومها ، لفصل الشتاء البارد ، بين سافين من الملح ، كما كان يقتضي حفظهـــا واستهلاكها مقادير طائلة من التوابل ، في وقت لم تكن توفرت له بعد ، مثل هذه القائمة الطويلة من الخمور والمشروبات المشهّية التي يحفل بها عصرنا اليوم ، فتطلعت فيه الاذواق الى مُقبّلات ومشهيات جديدة . فالفلفل الاسود الذي تغلّه سواحـــل الملابار في الهند وجزيرة سرنديب (فيُستخدَم تابلاً او لبخة ً أو لصوقاً أو لعوقاً) ، وزنجبيلي الهند او الجزيرة العربية ، وجوز الطيب من جزر موليسك (الصنع المرق المقبّل وتطبيب اوجاع وامراض المعدة) ، والقرفة من الصين او من جزيرة سرنديب (علاج مقوّ ،او مقبل أو قابض) ، وكبش القرنفل (لتعطير الاطعمة وتطرية المشروبات الروحية) كل هذه المواد ، اشتد الطلب عليها بعد ان سعى اليها القوم باحثين عنها . ونزلت منزلة التوابل ، هذه الملطّفات والمسهلات التي طالما جيء على ذكرها ووصفها في طريقة معالجة جالينوس الطبية : أهليلج الهند ، وراوند الصين او الهند ، وسقمونيا او المحمودة من سوريا ، وطارد الديدان المستورد من بلاد اليهودية او من بلاد فارس ، واصناف كثيرة مـــن الاعاشيب والحشائش ذات مفاعيل وخصائص مختلفة ، كالكافور من صومطرة والصين (يستعمل منشطاً او ضد التشنج) وجوز العفص من الصين ، (قابض) ، وشلش غالنغا المستورد مـــن الصين (ضد حفر الاسنان) والافيون من وادي النطرون ، وصمغ الكثيراء لسد الحبوب ، وتوتياء الهند والصين (للاثمد والكحل ، والقطرة) ، وسكر سوريا أو مصر او الهنـد ، والى قائمة التوابل ، يجب ان نضيف الاصباغ الضرورية لصباغ الانسجة والملبوسات: كالأحمر القـاني والقرمز من أرمينيا ، والفوّة من جزيرة العرب ، والخشب من البرازيل او من الهنـــد ، والازرق والنيل من بغداد او من البنغال ، والاصفر كالعصفران من الشرق الادنى أو من الهند ، والحنّاء من الجزيرة العربية ، والعطور والطيوب ، كالمسك من التيبت او من الصين ، والعنبر الاسمر من عُمّان ، والناردين من الهند ، والنباتات النسيجية ذات الالياف ، كالقطن من مصر ، والحرير من العجم والعراق وسوريا ، والاقمشة والمصنوعات الزجاجيـة ، والاسلحة السورية ، والياقوت الاحمر من الخليج الفارسي ، والماس من الهند ، (النوع المعروف اذ ذاك من انواع الماس) والياقوت والجذع من سرنديب ، وغير ذلك .

كانت هذا الاصناف والمواد تصل الى اوروبا عن طريق بلدان البحر الابيض المتوسط . الا ان الفتوحات العثمانية لم تعد تترك للتجار الغربيين القادمين من البندقية ، او من جنوى او مـن مقاطعتي البروفانس واللانغدوق ان يتسوقوا هذه المواد الا من مرفـأي بيروت والاسكندرية حيث كانت تصل الافاويه قادمة من الخليج الفارسي والبحر الاحمر . اما المواد والاصناف التي كانت تصل من الموانىء الواقعة الى الشمال من البحر الابيض المتوسط ، قادمة من آسيا ، فكانت تنقل براً لتبلغ مدينة ليون والبلاد الواطية ، او تمر عبر جبال الالب لينتهي بهـا المطاف الى

المدن الالمانية ، الجنوبية ، مثل : اوغسبورج ونورمبرغ اللتان ازدهرتا بفضل هذه التجارة ، ومنها تصل الى البلاد الواطية ومدينة بروج حتى مدن الهانس ولا سيما ستاتين ولوبيك، وكانت سفن البندقية تحمل جانباً من هذه المواد الى المدن الشمالية ولا سيما الى مدينة بروج . ومن هذه المراكز التجارية واسواقها كانت توزع فتبلغ جميع انحاء اوروبا . وبالمقابل ، كان التجار الالمان وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ينقلون معهم كميات كبيرة من النقود والعملات والمعادن والمصنوعات ، كالاجواخ الخفيفة المصنوعة في انكلترا ، والاصواف والسجاد واقمشة بلاد الفلاندر ، والنحاس والفضة من اوروبا الوسطى .

احدثت الاكتشافات الجغرافية الكبرى انقلاباً عظيماً . فقد استطاع البحّار البرتغالي فاسكوده غاما ، بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقيا،عام ١٤٩٨،ان يصل الى مدينة كلكوت في الهند . واستطاع البرتغاليون ان يسيطروا تماماً على تجارة التوابل في المحيط الهندي وان يضربوا حول التعامل بها ونقلها الى اوروبا شبه احتكار ، لا ينازعهم فيه منازع . وفي سنة ١٥٠٤ ، اضطرت سفن البندقية ان تعود خاوية الوفاض من مرافىء بيروت والاسكندرية . وقد اصبحت لشبونة ، السوق الاكبر والأهم لتجارة الافاويه . وفي سنة ١٤٩٢ تم لخريستوف كولمبوس بلوغ جزر البحر الكرايبي والنزول في هذه الجزيرة التي سماها « اسبانيولا » ، وراح الاسبانيون ، من بعده ، يستكملون عمليات الاستكشاف والفتح ،فعثروا على قناطير من الذهب والفضة ، واضطروا الى تموين مستعمراتهم الجديدة بما يحتاج اليه الاهلون فيها من وسائل الغذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشبيلية المرفأ الاساسي لتمتين الصلات وشد اواصر الاتصالات بين اسبانيا والعالم الجديد . وهكذا انفتح امام التجارة العالمية مجال جديد وحلبة جديدة ، هما مجال وحلبة المحيط ، الذي حل محل البحر الابيض المتوسط ، بعد ان بقي الوفاً من السنين ، المحور الاساسي للتجارة العالمية في التاريخ القديم .

الا انه لم يكن للبرتغاليين من وسائل النقل ما يسمح لهم بنشر التوابل في اوروبا ، ولا كانت لهم القدرة او الطاقة لتجهيز عمارات السفن اللازمة للنهوض بهذا النشاط ، ولا لتأمين حاجة البلدان الاسيوية من البضائع التي كانوا يرغبون فيها ولا التعويض على السودان لقاء مسحوق الذهب ، كانوا ينقلونه الى بلدان آسيا .

اما الاسبان ، فقد توفرت لهم ، بعكس البرتغاليين ، صناعات ناهضة من الاجواخ والحرائر والاسلحة ، ولكن لم تكن من الوفرة وسعة الانتاج بحيث تفي بحاجة البلدان الجديدة التي يشرفون عليها . ولذا توافد عدد من التجار قدموا من البلاد الواطية والمانيا وفرنسا لشراء محاصيل آسيا واميركا من اسواق اشبيلية ولشبونة التي زخرت بها، وذلك لقاء مايحملونه معهم من انسجة القلوع ومصنوعات النحاس ، والقنابل والمدافع والخرضاوات ، والقمح والسمك والخور والنحاس ، وغير ذلك من المواد الضرورية . وقد تحولت مدينتا اوغسبورج ونورمبرغ عن البندقية ووجهتا نشاطهما التجاري شطر المحيط الاطلسي مما زادهما ثراء وازدهاراً . الا ان

المركز الرئيسي للتجارة الاوروبية تمثل في مدينة أنفرس على مصب نهر الاسكو، وهي النقطة التي انتهت اليها مجاري نهري الرين والموز، مستشرفة بحار الشمال الضيقة، والتي اغدق عليها الامبراطور مكسيمليان، عام ١٤٨٨، لاسباب سياسية لا محل لذكرها هنا، الامتيازات والاعفاءات الملكية، التي تمتعت بها مدينة بروج، من قبل. ولم يلبث ان نقل البرتغاليون والاسبانيون والالمان والايطاليون والانكليز وكالاتهم التجارية الى انفرس التي اصبحت، بالفعل، بندر اوروبا الاكبر، كما اصبحت مع منافستها مدينة ليون في الجنوب، اكبر مركز مالي في اوروبا جمعاء.

وهكذا رأت القواعد الايطالية للتجارة ومحاورها الكبرى نفسها من يبزها نشاطاً ويتجاوزها حركة، دون ان يلمّ بها بالفعل اي وهن او ان تسجل اي هبوط. فقد عرفت حركة الانتاج والمبادلات التجارية في المدن الايطالية الكبرى ان تحافظ على مستواها من حيث الكم والنوع أو من حيث الحجم والقيمة، وذلك بعد ان ضربت نوعاً من الاحتكار على التوابل الموجودة في اسواق لشبونة لتبقى اسعارها مرتفعة. واستطاعت البندقية ان تبعث النشاط من جديد في حركة الاعمال والتجارة، اذ تمكنت من استيراد الافاويه عن الطرق القديمة المألوفة، وبأرباح منشّطة، بالرغم من الوسطاء العديدين الذين عولت عليهم واعتمدتهم في عمليات الشراء والتنفيق والترويج، مما ادّى الى رفع الرسوم والتكاليف، فالفلفل الذي استوردته رأساً لم يكن له من الجودة ما للجنس الممتاز الذي توفر في اسواق البرتغاليين، ومع ذلك فقد راجت تجارته في الاسواق. ومن جهة ثانية، عرَف البنادقة والفلورنتيون والجنويون والميلانيون ان يفيدوا كثيراً مما تم لهم من قبل، من خبرة وتجربة عريضتين من تقاليدهم المرعية. ومن سبقهم التقني والفني، فاتجهوا بالاكثر، الى الاعمال المصرفية وصناعة ادوات الترفيه، والبذخ، ولا سيما صناعة الحرائر منها التي لم يكن بد منها لمن ينخرط في حياة البلاط او يعيش بصحبة الملوك وبرفقة الامراء، كما تاقت نفوسهم وشرهت الى صنائع المرمر واللوحات الفنية والرسوم الجميلة بأقلام كبار رجال الفن والنقوش الجدارية التي تحلي قصورهم وصروحهم. فعرفت ايطاليا، بذلك ان تحافظ على ازدهارها وان قام في الغرب من بزّها وتقدمها في مجالي رأس المال والتجارة الدولية.

وهذه الحركة التجارية التي استشرت على نطاق واسع بعد ان قامت اركانها على نظام رأسمالي ضخم، عرفت ان تتغلغل عن طريق عدد كبير من التجار المغامرين، فسرت سريان النار في الهشيم حتى بلغت هذه المجتمعات الريفية التي تعمل في الزراعة، وراح الفلاح الثري يرتدي، ايام الآحاد والاعياد، الثياب الفنية التي يرتديها ابناء المدينة، فنشطت الحركة الانتاجية وحركة الاشغال والاعمال. الا ان الاقتصاد بقي على طابعه الخاص المدني الاقليمي. واخذت مدن كبيرة بأسباب النمو والتطور والتوسع على حساب مدن اقل شأناً منها، تقع في جوارها. هنالك العديد من المدن كالبندقية، وفلورنسا، وانفرس وباريس، وليون

ولندن، ونورمبرج واوغسبورج، ولوبيك، زاد عدد سكانها فتراوح بين ٤٠ — ٥٠ الفاً حتى بلغ في بعضها مائة الف. وقد كانت هذه المدن محوراً لصناعات عديدة كما كانت مراكز هامة للاستهلاك المحلي والمواصلات والتوزيع، اقتضاها الكثير من الحركة كما احتاجت لمقادير هائلة من المواد الغذائية والخامات عرفت ان تؤمنها في المنطقة او الاقليم نفسه. وهنالك بعض الاصناف اللازمة لمن يعيشون حياة الترف والبذخ، وغيرها من المواد الضرورية، كالشب مثلا الذي لا بد منه لصباغ الاجواخ ولدباغة الجلود، ولابراز الالوان الزاهية، وغير ذلك من هذه المواد التي تشتد اليها الحاجة بصورة استثنائية، كما لو حدثت مجاعة مثلاً او وقع جفاف في الامطار اهلك الزرع والضرع، وكلها مواد وخامات كان يعوّل في استيرادها، على الاسواق الدولية او الاسواق الاقليمية. وأخذت هذه الدول الكبرى التي برزت حتى الآن واستكملت فيها عناصر السيادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكلترا، تنزع في الصميم، الى تكوين ممالك، لها أطرُها الاقتصادية الثابتة. ولكننا امام نزعة لا غير. أما الوحدة الاقتصادية المستكملة العدة المتينة الاركان، فهي المدينة الكبرى: حواضر البلاد الرئيسية وقواعدها المحورية. فالمملكة ليست بعد بسوى عدد من الولايات والمدن المتواضعة، تحلم بان يتمّ لها يوماً استقلال اقتصادي محكم الحلقات، متراصّ المرافق.

الرأسمالية والملكية المطلقة لا بد من التنويه عالياً هنا بأهمية العرى الوثيقة التي شدّت ما بين كبار رجال المال، اذ ذاك، والملكيات المطلقة ذات الحكم المستبد. ان تأمين أَوَد الجيوش المرتزقة ومقتضيات العيش الكريم الرفيه في البلاطات الملكية والأميرية ولكبار القادة والموظفين، حمل الملوك على فرض ضرائب ورسوم جديدة لتأمين ما يلزمهم من الموظفين الاكفاء. ومن جهة ثانية فالمشاريع والانشاءات الدولية، كثيراً ما اقتضى تحقيقها المفاجىء، مبالغ طائلة لم يكن بمقدور الضرائب تغطيتها أو مواجهتها الا ببطء كلي. ولذا راح الملوك يعتمدون، لتوفير ما هم بحاجة ماسة لتوفيره من نقد، على كبار رجال المال الذين يقومون بالاعمال المصرفية وعمليات التسليف على نطاق واسع، فيُلزّمونهم جباية الضرائب، ويعقدون معهم قروضاً ويدفعون لهم بالمقابل فوائد باهظة، متنازلين لهم عن حق استثمار الاملاك الملكية الخاصة، ولا سيما المناجم، ويحمونهم من القوانين الكنسية ومن انتفاضات الرأي العام الذي كان يأبى التسليم او القبول بمبدأ الدّين بفائدة، مهما كانت طفيفة، او الانخراط في المضاربات المالية.

ولعل الدور الكبير في هذا المجال هو الدور الذي لعبه كبار رجال المال من الايطاليين، في فلورنسا وجنوى، ومن الالمان في مدينتي اوغسبورج ونورمبرغ. ومن هؤلاء المتمولين الكبار، اعضاء اسرة فوجر، في اوغسبورج، الذين صار اسمهم مرادفاً للربا الفاحش، ولذا نحت الناس كلمة « Fuggerei » يعبّرون فيها عن المرابين، وكان يضرب بهم المثل في جميع انحاء اوروبا. فبعد ان أثروا من الاتجار بالحرير والتوابل والاصواف عن طريق البندقية،

ربطوا مصيرهم بعجلة اسرة هبسبورج الامبراطورية وبمصيرها . وبفضل السلفات المالية التي قدموها للامبراطور مكسميليان ، للنهوض بحروب ايطاليا ، بين ١٥٠٨ - ١٥١٧ ، ومصاهرة الاسرة المالكة في هنغاريا ، عام ١٥١٥ ، وبفضل نفوذهم العريض ، أمّنوا انتخاب شارل الخامس امبراطوراً ، عام ١٥١٩ ، ضد خصمه فرنسوا الاول ، وتحملوا نفقات الحرب التي خاضها ضد فرنسا ، وحرب سمالكالد ضد البروتستانت ، سنة ١٥٤٦ ، ومحاصرة مدينة متز ، عام ١٥٥٢ ، كذلك عضدت اسرة فوجر ، الكرسي الرسولي مالياً ، فسلّفته مبالغ طائلة ، فعهد بالمقابل ، الى اعضائها ، بجباية الرسوم البابوية ، في كل من هنغاريا،وبولونيا ، والمانيا والبلاد الواطية . كذلك عهد اليهم ببيع « الغفرانات » في ألمانيا .

مقابل خدماتهم المالية المتنوعة هذه ، عهد اليهم الامبراطور مكسميليان باستثمار مناجم الفضة والنحاس التابعة له ، كما انهم استثمروا ، باسمه ، ملاحات التيرول . كذلك ، امّن لهم شارل الخامس مرافق مهمة في املاك التاج في نابولي والبلاد الواطية وعهد اليهم ، بجباية ريع املاك التاج ، في اسبانيا ، وعهد اليهم باستثمار معادن الزئبق في مدينة « المادن » ، ومناجم الفضة في وادي القنال . وخوّلهم حق انشاء اتحادات تجارية من متمولين : المان وايطاليين ، وان يحتكروا باسمهم تجارة البهارات والنحاس والفضة في انفرس ، وان يبيعوا من الملوك والامراء ، باثمان مرتفعة جداً ، ما كانوا بحاجة اليه من المعادن الضرورية لسك عملاتهم ولتجهيزاتهم الحربية .

وقد سلمهم الامبراطوران المذكوران « فرمانات ملكية » ، ترفع عنهم كل مسؤولية عندما يعقدون،بصورة غير شرعية او غير قانونية،العقود التي تخوّلهم حق اقامة الاحتكارات. وكان في مقدورهم ان يبطلوا مفعول الملاحقات القضائية التي يستهدفون لها ، ويقترحون هم انفسهم اصدار القوانين التي يرغبون فيها كالقانون الذي صدر عام ١٥٢٥ (في مدريد وتوليدو) مثلاً ، هذا القانون الذي يترك بالفعل ، لهؤلاء المتمولين الكبار ، كل حرية في المضاربات التي يقومون بها .

فهل من عجب ، بعد هذا،ان يتمتع ، آل فوجر بنفوذ سياسي عظيم ؟ فهم يطلعون اطلاعاً وثيقاً على الوضع السياسي في اوروبا عامة ، بفضل ما كان لهم من عيون وارصاد مبثوثة ، ورسل ومفوضون ومعتمدون واصدقاء ومحاسيب ، بين طبقة النبلاء ، يغرقونهم بالهدايا والأعطيات من كل نوع ولون : من خواتم ذهب ، وحلى ومجوهرات،وعقود ، والاقمشة المزركشة الفاخرة كالديباج . فهم وراء كل المغامرات التي قام بها آل هبسبورج .

اما ملوك فرنسا ، فكنا نرى الى جانبهم ، جملة من كبار رجال المال الايطاليين يقيمون في ليون ، ولهم وكالات وفروع في باريس وممثلون معتمدون لدى البلاط الملكي في فرنسا ، امثال : سافيلي ، وغوادالي ، وألبيزي وسلفياتي ، وسواهم من كبار المتمولين الالمان في

نورمبرغ ، امثال هانز كليبرجر الذي طالما عمل وسيطاً بين الرأس المال الالماني في نورمبرغ ، وبين الملك فرنسوا الاول ، فلعبوا جميعاً الدور ذاته الذي لعبه آل فوجـر ، لدى الاباطرة الالمان .

وهذا النشاط يجيش في صدر ارباب المال ممن ذكرنا ، وكان من شأنه ان يدرّ عليهم بالطبع ، ارباحاً طائلة ، تقصر عن تأمين مثلها او بعضها ، الاعمال والنشاطات التجارية البحتة . ابتدأ آل فوجر ، عام ١٥٢٧ ، برأس مال قدره ٩٩١ ، ١٩٦ فلورين ، فاستطاعوا في مدة ١٧ سنة ان يجعلوا رأس مالهم ٤١١ ، ٨٢٤ فلورين ، اي انه زاد بنسبة ٥٤،٥ ٪ في السنة الواحدة ، بينما لم يستطع منافسوهم من آل فيلزر الذي انصرفوا ، هم ، بالاحرى للتجارة وامتنعوا عن القيام بعمليات التسليف ، ان يؤمنوا ربحاً غير ٩،٥ ٪ في السنة .

وهكذا نرى ان الملكية المطلقة ورأس المال هما عون للواحد مع الآخر . فالملكية المطلقة ، بما لها من ممتلكات طائلة خاصة ، وبما تفرضه من رسوم على الزراعة وبما تقيمه من احتكارات تجارية واسعة ، أصبحت وكأنها ورشة رأسمالية ، الفنيون فيها والمساهمون والمتعهدون هم رجال المال أنفسهم .

الدفع الديموغرافي او السكاني

هنالك عنصر هام أو عامل كبير كان له ، ولا شك ، تأثير ظاهر على النظام الرأسمالي واستفحل شأنه ، هو ازدياد عدد السكان في اوروبا ، وهو نمو كان من بعض نتائجه العميقة توفير اليد العاملة اللازمة للنهوض بالمشروعات الجديدة والعمل في ما يؤمن أود عدد اكبر من المستهلكين . وهذا النمو في عدد السكان كان من نتائجه ايضاً تضخيم الاسواق وتنشيط الاعمال التجارية ، كما نشهد ذلك واضحاً في البلدان المحيقة بالبحر الابيض المتوسط في اواخر القرن ، اذ أدى توالي سوء المواسم الزراعية ونمو السكان في المدن ، الى توافد قوافل من تجار الانكليز والهولنديين ، حاملين معهم قمح البلطيق ، والاستعداد لتقوية الروابط التجارية مع الاصقاع الشمالية .

اما النتيجة العكسية التي تنط للعين فهي عجز المواد الغذائية عن الوفاء بحاجة السكان فينشأ عن هذا التقصير مجاعات دورية تروح ضحيتها مناطق برمتها بمن فيها من سكان وبما فيها من زرع وضرع . فالمجاعة التي نشبت عام ١٥٢١ ، زرعت الرعب والهول بين سكان المدن والارياف ، في قشتيلية والبرتغال . فالجفاف ثم القحط المخيف الذي وقع عام ١٥٢٥ ، سمّر الهلع في قلوب الناس في كل أرجاء الاندلس ، والمجاعة التي نزلت بايطاليا ، عام ١٥٨٣ ، حصد فيها منجل الموت الناس حصداً .

وهذه المجاعات الغاشمة ، كثيراً ما حملت في طياتها الاوبئة على انواعها ، وجرّت وراءها وافدة الطاعون الذي يجرف الناس جرفاً بالعشرات والمئات ، فيذهب بربع سكان المدينة أو

بتلثهم احياناً . لقد فقدت مدينة راغوز ، في سنة واحدة ٢٠،٠٠٠ نسمة ، وفقدت البندقية ما بين ١٥٧٥ - ١٥٧٧ ، اكثر من خمسين الفاً .

وهذه الشوارع والممرات التي افترشها موات الناس في المدن ، وهـذه الجثث الملقاة على جوانب الطرقات باعداد لا تحصى وبكميات هائلة ، كان دفنها وموارتها الثرى يكوّن مشكلة حادّة ، وهذه العربات تتكدس فوقها رمم الموتى يفحّ منها النتن والفساد ، زرعت في القلوب الهلع والفزع ، فاضطربت الخواطر وقلقت القلوب . ألم يبلغ مسامع الجميع ان ثمانية اعشار سكان مدينة روما ونابولي حصدهم منجل الموت حصداً ، عام ١٥٢٥ وان مدينة مرسيليا لم تعدُ تعدُ ، عام ١٥٨١ ، سوى خمسة الآف نسمة لا غير ؟ وهل بعد هذا وجـه للاستغراب ، اذا ما راح الجار يقتل جاره ، انتزاعاً منه لرغيف يلتهمه ، يسد هو به رمق الحياة ؟

في كل مكان وزمان ، كان فجّاج الآفاق يجوبون البلاد يسرحون ويمرحون حائمـين ، منهم من ينقطع للعبث والعيث والصخب ، بينهم : المستعطي والفشال ، وساري الليل ، والمتصيد والمغامر ، وقاطع الطريق ، والهائم على وجهه لا يلوي الا على مهابط الرذيلة ، فيزرعون الهول في قلب المدينة التي كانت تقوم عبثاً ، من حين الى آخر ، بعملية تنظيف وتطهير ، تجتثّ منهـا بالطرد والنفي ، والاجلاء والابعاد والسجن ، هـذه الهوام البشرية التي لن تعتم فتعود الى ما شبت عليه ورسخت عليه من غل الطباع وفاسده . اما الاماكن المعزولة في الجبـال ، أو في مناطق الحدود ، فكانت مسرحاً لعصابات من شذاذ الآفاق واهل الخطف والسطو ، فتنهب ما طاب لها من اطيب الغلال ونتاج الارض ، وتقطع الطريق على السابلة ، وتقتل المسافرين الذين قدر لهم حظهم العاثر ، ان يقعوا بين ايديهم ، أو انهم ينتهكون حرمة المعـابد والكنائس فيدنسوها بموبقاتهم ، او يهاجمون القصور والصروح ، ويغزون القرى الآمنة والدساكر الهادئة والمدن المغرية ، يشجعهم احياناً في ايطاليا واسبانيا ، نصراء لهم من علية القوم وبعض السراة .

ولعله من حسن الطالع واليُمن معاً ان نشهد تجديداً مستمراً بين السكان وحركة تبادل لا تنقطع بين قوم قابعين مستقرين واقوام قادمين .

شركات ودور البورصة

لم يكن رأس المال اذ ذاك ، يتخصص بمشاريع معينة ، محددة . فهـذا المتمول يتعاطى هو نفسه التجارة او اي شكل او لون من اشكال الحركة التجارية والصناعية واعمال الصرافة . فالتاجر الحق هو من قام بشيء من النشاط في هذا كله .

نجد قبل كل شيء شركات عائلية ، اي قائمة ضمن افراد الاسرة الواحدة ، اذ ينهض احـد افرادها المعروف بنشاطه ، كالاب او العم مثلا ، ويؤلف رأس مال يشارك جميع افراد الاسرة بتقديمه . ويتولى ادارة الشركة ويفتح لها فروعـاً ووكالات في اماكن عدة ، في اوروبا يعهد بنشاطاتها للابناء او لافراد الاسرة كممثلين وعملاء ، على مثل هـذا النهج سارت الشركات

الالمانية ، من آل فوجر وآل ولزر ، والشركات الايطالية ، من آل أفيتاتي وغويتشيارديني ، والشركات الاسبانية من آل بيريس وآل لوبيز . ولما كان يعقوب فوجر لم يعقب فقد أشرك معه أولاد اخوته : ايرونميوس واولريخ وريمون وانطون ، وعملت الشركة بالعنوان التجاري : « يعقوب فوجر وابناء اخوته » (١٤٧٣ - ١٥٢٥) . وعندما جاءت منيته أوصى بأن يخلفه في ادارة الشركة ، اصغر ابناء اخيه انطون . وقد اشرك انطون تباعاً معه ابناء اخوته واشقائه :موس ويعقوب،وجورج ،وخريستوف وريمون. الى ان وافاه الأجل المحتوم عام١٥٦٠ .

وتكاثرت الشركات من نوع شركة توصية *Commandite* وهي شركة تجارية برئاسة تاجر يستودعها بعض الافراد قسماً من رأسمالهم شريطة انيتقاسموا الارباح فيابينهم كل بحسب سهمه .

وهنالك شركات مساهمة : *Compagnie* تحمل اسم تاجر معين ، مضاف اليه : « وشركاه » . وهي عبارة عن جمعية او شركة من التجار ، ترمي الى الحصول على احتكار صنف معين كالشركة التي تألفت من البيوتات التجارية الكبرى ، في اوغسبورج عام ١٤٩٨ ، بحيث تحتكر الاتجار بالنحاس (في البندقية) او كالشركة التي تشكلت من ايطاليين والمان ، في لشبونة لاحتكار تجارة التوابل ، او شركة من هذة الشركات التي تتجر بمادة دقيقة،خطرة، منها مثلا الشركة الانكليزية ،المعروفة بـ « التجار المغامرون » او « الشركة الشرقية » (١٥٧٩) او « الشركة التركية » (١٥٨١) ، او « التجار المسكوب » . وهذا النوع الاخير من الشركات عرف انتشاراً كبيراً بعد عام ١٥٦٠ .

ونجد في آخر المطاف ، احتكارات ملكية برتغالية واسبانية . من هذه الاحتكارات مثلا ، ان ملك البرتغال احتكر لنفسه تجارة الافاويه والتوابل . فكان وكيله او ممثله في أنفرس يفاوض باسمه ، نقابة رجال المال التي تألفت من ممثلين عن شركات ولزر وأفيتاتي وغوالتييروتي الذين يشترون ، في سواق واحد ، او صفقة واحدة ، كل ما لديه من شحنات التوابل ويخزونها لقاء ٥٠٠ او ٦٠٠ قنطار من معدن النحاس والزئبق والزنجفر، وكلها مواد لازمة لسفن البرتغال التي تتجر مع الهند فكان ملك البرتغال يدفع قيمة الفواتير المسحوبة عليه ، كميات من التوابل ، كما كان يقترح مثلا ، ان يدفع بهذه العملة ما يوازي ثمنه بائتة شقيلته . وبالاضافة الى هذا ، فقد كانت لشبونة المركز الام ، او السوق الاوحد لكل البضائع والاصناف المستوردة من الهند،حيث كنت ترى مثلا : وكالة الهند *Casa India* ووكالة الغينيه *Casa da Guinée* يشرف عليها ويتولى تصريف ما فيها من بضائع مراقبون ملكيون ، بعد ان يستوفوا ما يترتب على البضاعة من رسوم ومكوس وضرائب ملكية ، وبعد ان يحددوا ، منها الاسعار . كذلك كان لملك اسبانيا ، هو الآخر في مدينة اشبيلية ، مركز خاص او دائرة خاصة باعماله التجارية ، هي « مصلحة العقود التجارية » . وهذه المصلحة تستوفي ما يعود للعرش الاسباني ، من رسوم وعوائد على المصارف الثمينة ، المستوردة من اميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، كما ان الامبراطور شارل الخامس فرض رسماً

جديداً سماه : رسم البضائع المستوردة من الهند ، كانت الرسوم الجباة عليها تستخـــدم في تسليح الاساطيل ومراقبة حركة التصدير والاستيراد .

وفي سبيل تشجيع المقايضات والحركة التجـــارية على جميع نشاطاتها قامت دوماً معارض واسواق لهذه الغاية بالذات.فقد اقيمت اسواق خاصة للبضائع والاسهم عرفت باسم « مصفق » او « بورصة » ، لم تلبث هذه الاسواق ان لعبت دوراً هاماً في المضاربات المالية والتجارية .

ولعل اهم هذه المصافق او الاسواق الماليـة هي مصفق أنفرس الذي انشيء عام ١٤٠٠ ، واعيد تجديد هذه السوق سنة ١٥٣١ . فقد كان عبارة عن مبنى فخم مستطيل قائم الزوايا ، تقوم من الداخل أروقة مرتفعة على اعمدة عالية ، تطل على فناء او ساحة فسيحة الارجـاء حيث كانت تجري المفاوضات والمداولات التمهيدية لعقد الصفقات التجارية ابتداء من الساعة ١١ صباحاً . وكان محظوراً القيام بالالعاب او السماح لتجار المباذل والمفروشات العتيقـــة ، الدخول الى المصفق ، كما حظر الدخول اليه ايضاً على باعة الكتب المتجولين ،ومنعت الجماهير من الاحتشاد او التجمهر في الاسواق والاحيـــاء المجاورة . وبالرغم من هذه الاحتياطات كلها ، كثيراً ما شجرت المشاحنات وقامت المناقات بين الانكليز والاسبان ، يتضاربون ويقتتـلون بعضهم مع بعض .وكثيراً ما كان المتخاصمون يهاجون بعضهم بعضاً بالسيوف الطويلة ويتبادلون الطعن بالخناجر ، او يتربصون لبعضهم البعض في المنعطفات ، وكم حدث من المعارك استعان بها كلا الفريقين ، بما عندهم من خدم وحشم وأتباع . وكان الدم الذي يغلي في العروق كثيراً ما تحدر في هؤلاء التجار من دم اشراف او قدامى الجنود او المبارزين .

بين السندات والاعتمادات المالية

من المتبع ومألوف العادة عند القوم ، ان تعقـــد الصفقات التجـــارية امام كاتب العدل ، بعد ان يمهّد لها سماسرة وعملاء.من المعروف ايضاًان الكنيسة كانت تحظر الدّين بفائدة.فمن وجد نفسه بحاجة الى مبلغ ما ، عمد الى شراء المبلغ الذي هو بحاجة اليه بعد تقديم ضمانة او كفالة تتألف من ريع دائم ، على شاكلة ما كان يجري مثلا عند شراء عقار بضمان دخل دائم ، وهو ترتيب تعارف عليه الناس ونهجوا على منواله . وهذا النوع من الدين بفائدة كان تدبيراً عملياً عنـدما يكون الامر متعلقاً بمبالغ صغيرة يستعملها المزارع او الصناعي مثلا ، لشراء ما هو بحاجة اليه من بزار وتقاوى وعتاد وخامات ومواد غذائية له ولمزرعته او مصنعه .ولكن الصعوبة كل الصعوبة عندما كان الدائن يريد استيفاء رأس مال وضعه تحت تصرف الغير الى امد طويل،لقاء شروط وضوابط معينة الامر الذي جعل المعاملات في غاية التعقيد ، ولذا لجأ التاجر الى المعاملات التي تؤخـذ بصدد شركة توصية ، فيما لو كان احد الدائنين سلّفه مبلغاً من المال لتشغيله في عمليـة تجارية معينة على مسؤوليته ، اي انه يتحمل ما في العملية من مخـــاطر واحتمالات . الا ان الذين لم يكونوا يرضون الاستهداف، لاي خطر محتمل ، راحوا يدورون حول القانون ويداورون

بانتهاج طريقة عرفت عندهم بـ *trinus contractus* ، وهي طريقة لقيت رواجاً عظيماً في المانيا الجنوبية ، والتي شجعتها الكنيسة بالبراءة الرسولية : « *Detestabilis* » التي اصدرها البابا سنة ١٥٨٦ . والطريقة المذكورة تقوم بان يقرض دائن تاجراً مبلغاً من المال على شرط ان يقاسمه جزءاً من الارباح قد يبلغ احياناً ١٥ ٪ من المبلغ الذي سلّفه اياه ؛ ثم يعقد مع التاجر المذكور عقد ضمان ينص على ان يتخلى له الدائن عن ثلث المبلغ العائد له من الارباح المرتقبة اذا ما رضي التاجر ان يعيد المبلغ الذي اقترضه كاملاً ، حتى في حال خسارة رأس مال الشركة ، ثم يعقد معه اتفاقاً ثالثاً يبيع بموجبه من التاجر ربحه المرجّح لقاء فائدة ٥ ٪ من المال المقروض او المسلّف ، وهي فائدة مضمونة ملازمة مهما كان مصير العملة التجارية . فشركة التوصية استحالت ، في مثل هذا الوضع ، ديناً بفائدة بسيطة ، بمعدل ٥ ٪ تصبح بالطريقة التي أقرّت بها ، بمأمن من تدخل القانون . ثم كان هنالك عدد كبير من الدائنين يسلّفون بفائدة ، بحرّية تامة ، دونما وَجَل او خجل ، بالرغم مما يستهدفون له من ملاحقات قانونية امام المحاكم ، اذا ما رأى المدين ان يرفع ظلامته امام القضاء . مثال ذلك ، ان المتمول الالماني امبروسيوس هوشستتر من مدينة اوغسبورج ، رغب يوماً في احتكار الخشب والخور والحبوب والنحاس والزئبق ، فعمد حوالي سنة ١٥٢٦ الى الدين بفائدة ٥ ٪ يستلف بهذا المعدل من الامراء والنبلاء والكونتية واصحاب الطبقة البورجوازية والخدّام والخادمات . وبينما هو في وهمه غارق يعتقد انه يتصرف لوحده بصنف الزئبق ، اذ بمناجم الزئبق التي ظهرت في مدينة المادن الاسبانية ، التي دخلت تحت احتكار آل فوجر ، تسبب له الافلاس ، وهي هزة دوّت بعيداً في كل ارجاء اوروبا . وهذا الافلاس الداوي كان يجب ان يلقى فيه كل مضارب درساً له وعظة ، ولكن انى من يرعوي ويتّعظ .

وراحت الدول تعتمد في معاملاتها التجارية نظام الاعتماد المالي أو السند ، اعتماداً كلياً ، مما عاد على هذه الطريقة بالازدهار فانتظمت اسسه واستقرت على وجه دقيق نظيم . فقد اصدر الامبراطور شارل الخامس ، سندات أو اسهماً على الخزينة بقيمة اسمية تتراوح بين ٧ — ١٠ بالمائة . وفي سنة ١٥٢٢ ، باع الملك فرنسوا الاول مدينة باريس ريعاً له قدره ٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهب ، يعود عليه من رأس مال ، تبلغ قيمته ٢٠٠٠٠٠ ليرة . وراحت بلدية مدينة باريس تستدين هذا المبلغ من احد البورجوازيين ، ثم راحت توزع على سكان المحلة التي يوجد فيها هذا الريع ، سندات بالقيمة المذكورة . وهكذا ظهرت السندات الدائمة المترتبة على المجلس البلدي في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديهم من اواني موائد الطعام الفضية لوفاء قيمة هذه السندات . وكانت مدينة ليون المركز الرئيسي ، مع مدينة انفرس ، للاتجار بالفضة . وفي سنة ١٥٤٢ — ١٥٤٣ ، راح الكردينال ده تورنون ، حاكم المدينة اذ ذاك ، يستعمل الطرق والاساليب ذاتها التي ركن اليها هوشستتر ، وألف ، بالاتفاق مع صيارفة ايطاليين ، اتحاداً من كبار المتموليين تولى ادارته هانز كليبرجر ، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحياناً ١٦٪ من فرنسا

والمانيا وايطاليا ، ومن الارامل واولياء اليتامى،حتى ان ملك اسبانيا كان يتعذر عليه وجود من يقرضه أو يسلفه ما هو بحاجة اليه. وفي سنة ١٥٥٥ ، اعاد ده تورنون الكرة باسم « حزب ليون الكبير » هذه المرة ، وراح الخدم يقدمون له المبالغ الصغيرة التي وفروها ، حتى ان النساء بعن حليهن ومجوهراتهن وسرت العدوى وشاعت بين الناس ، وراح السويسريون والالمان والباشوات والتجار الاتراك يدينون بفائدة .

المضاربات

تلبست الحركة التجارية في المراكز التجارية الكبرى ، امثال انفرس وليون وجنوى ، الواناً واشكالاً من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والعاب الحظ . فقد كانت البضائع مجالاً تعقد حولها اتفاقات وعقود محددة الآجال . مثال ذلك ان يشتري تاجر ما ، كمية من التوابل يستلمها بعد ثلاثة اشهر من تاريخ العقد بسعر البضاعة يوم الاستلام . فاذا ما كان سعر البضاعة يوم الاستلام اعلى من سعرها يوم البيع، يكون حقق ربحاً. اما اذا ما قصر السعر يوم الاستلام عن سعر البضاعة يوم الشراء يكون البائع هو الرابح. وهكذا تبدو المعاملة اشبه ما تكون رهاناً ، على شيء من التأمين او الضمان . ويسلم البائعُ او المشتري، عقداً موقعاً منه ، يتعهد له فيه بتسليمه كمية معينة من صنف معين من التوابل بمواصفاته ، في مدة يجري تحديدها بين الطرفين المتعاقدين . وللمشتري ، مثلاً ، ملء الحق ببيع هذا الصك أو السند ، من شخص آخر ، وهذا من شخص ثالث ، وهكذا دواليك ، الى ان يحين الاستحقاق وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتبنوه في الصفقات التي عقدوها ، اذ يجنبهم متاعب ومضايقات كانوا بغنى عنها كالاهتمام بالبضاعة مثلاً ، ويخفف عنهم أعباء الانشغال بها .

ومنذ ذلك الحين جرى التعامل بهذا الصك "سنة" بين الناس لقيمته المالية وسهولة تداوله . هب ان تاجراً من تجار ليون يترتب عليه دفع مبلغ يستحق عليه لعميل له في انفرس ، ولم يكن له على احد من تجار انفرس او رجال المال فيها ، اي تحويل أو سند . فقد كان من السهل عنده ان يشتري تحويلاً مالياً لتاجر من تجار ليون على تاجر من تجار انفرس بدلاً من ان يرسل لعميله في هذه المدينة المال عيناً . وعلى هذا قس ايضاً تاجراً من تجار انفرس يرغب في تحويل دراهم لعميل له في مدينة ليون ، فيشتري محلياً من تاجر انفرس تحويلاً يرسله لدائنه في ليون وفاء" لدينه بدلاً من ان يرسل له المبلغ عيناً . وقد انتشرت عادة استعمال هذه السندات او الصكوك الورقية بعد ان اصبحت نوعاً من العملات لها قيمتها المعينة ، وهي قيمة تتأرجح صعوداً أو هبوطاً وفقاً لناموس العرض والطلب في سوق المضاربات او المصفق (البورصة) . وكثيراً ما كانت هذه السندات موضوع صفقات مالية لاجل معين أو نوعاً من الرهان على قيمتها الفعلية ، في المستقبل ، وهي سندات كثيراً ما تكاثرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا ما دخلت الجيوش الفرنسية ، مثلاً ، ايطاليا الشمالية،انخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات

الصادرة عن البيوتات المالية في المنطقة . اما اذا لم تقم الجيوش الفرنسية ، كما حدث معها قبل معركة بافي ، باعمال السلب والنهب ، كانت قيمة السندات وسعرها يرتفع . وقد راحت الشوائع والاخبار المصطنعة او الملفقة تفعل فعلها للتأثير على قيمة سندات معينة لاجبارها على الهبوط والنزول ، فيقبل الناس على بيعها أو شرائها ، حسبما تكون الاوضاع ، حتى اذا ما بان بطلان الخبر وانكشف التلفيق ارتفعت اسعارها ، فيربح الناس .

وبناء لقانون الطلب والعرض ، كانت هذه السندات ، حتى العملة النقدية نفسها ، تختلف قيمتها باختلاف الأمكنة وتبدل الظروف . هب مثلاً ان الذهب قلّ وجوده في انفرس ، بينما توفرت منه في ليون كميات كبيرة ، فيرى المضاربون ، في مثل هذا الظرف بالذات فرصة أمامهم للقيام بالمضاربات ، اذ يسارعون لشراء الذهب المتوفر في اسواق ليون ليبيعوه في اسواق انفرس بارباح طيبة . ومضاربات من هذا النوع يمكن ان تتناول سندات الـ *Juros* التي اصدرها الامبراطور شارل الخامس ، في اسبانيا ، كما تتناول اي نوع آخر من السندات المالية . وكم من مرة عمدوا احياناً الى خلق ازمة نقدية في مكان ما ، وذلك عن طريق جمع او لمّ كل السندات والاستحقاقات والتقدم فجأة بطلب استيفاء المستحق منها . وقد اختصت مدينة انفرس بهذا النوع من التلاعب بالاسهم والمضاربات ، في الفترة الواقعة بين ١٥٤٢ – ١٥٥١ . وهذه المضاربات تفرد بالقيام بها عميل البلاط المالي غسبار دوتشي ، من هؤلاء المتمولين الدوليين الذي لم يكن يتورع من تسليف الملك فرنسوا الاول حاجته من المال ، وهو يَعرف انه الخصم الازرق والعدو اللدود لسيده ورئيسه المباشر شارل الخامس .

والاقبال على المراهنات ساعد كثيراً على التأمين ضد أخطار البحر والملاحة ، هذه الاخطار التي تهدد مشحونات البضائع ، او التي تقوم في تعرض القرصان في عرض البحر ، للسفن ، او تكمن في احتمال مصادرة السفينة ، من قبل الملوك والامراء ، والسرقة والغرق وغير ذلك من المخاطر التي تستهدف لها الاسفار البحرية ، اذ ذاك . وقد راح بعضهم يؤمن على سفنهم ، عدة مرات او عند شركات مختلفة ، ثم يفتعلون الحوادث بحيث يقبضون مبالغ طائلة تعويضاً لسفنهم عما ألمّ بها من معاطب واضرار وعوار .

وراحوا يؤمنون على الحياة ضد الحوادث والاخطار ، فكنت ترى شيوخاً يؤمنون عليهم بدون علمهم ، ثم يجري اختطافهم من حيث لا يدرون ويسومونهم الواناً من العذابات حتى اذا ما فقدوا الحياة قبض المؤمنون عليهم قيمة التأمين . كذلك راح الناس يراهنون على وقوع الحرب ومصير المعارك القائمة كما يراهنون على جنس الولد المنتظر ، وينظمون اعمال يانصيب ، والكل اقبل على اللعب واعمال الرهان .

وكان التجار يستعملون مسك الدفاتر واعمال المحاسبة المركّبة ، وهي طريقة قديمة استنبطها لوقا فلشيولي ونقلت طريقته هذه الى الفلمنكية ، ثم الى الفرنسية عام ١٥٤٣ ، فالى الانكليزية ، عام

٢٥١٧ ، وإلى الالمانية عام ١٥٥٠ ، عمادها الجردة ودفاتر اليومية ، والجورنال والدفتر الكبير .

المواصلات

ادى التطور العظيم الذي أدخل على تداول النقد بفضل مؤازرة الملوك ، الى ازدهار التجارة الدولية . فقد توطدت اسباب الأمن واستتب النظام في البلاد ، بنوع الاجمال ، ومع ذلك فقد اوجب بعد النظر وحسن الفطن الا يسافر التجار عزلاً من السلاح ، ومن الاسلم لهم ولما يحملون من نقود ان يسافروا بصحبة فريق من الناس . وقد نظم التجار ، تسهيلاً لايصال الاخبار والرسائل ، نوعاً من البريد الخاص الذي كان يقطع المسافة بين بروكسل وباريس ، عام ١٥١٦ في ٣٦ ساعة صيفاً و ٤٠ ساعة شتاء ، كما استغرقت الرحلة بين بروكسل وليون ، ثلاثة ايام ونصف او اربعة ايام ، ومن بروكسل الى روما ، عشرة ايام ونصف أو اثني عشر يوماً . وكان في مقدورهم ان يستعينوا ، في فرنسا ، بالبريد الملكي وفي ممتلكات الامبراطور ببريد اسرة تاكسيس الملكية الذي اصبح بريداً حكومياً ، منذ سنة ١٥٠٥ . وهذا البريد كان يقطع المسافة ، بين ايطاليا وبروكسل ، مروراً بالتيرول وإيفل بخمسة ايام ونصف ، بمعدل سير ١٣٥ كيلومتراً في اليوم . أما المسافة بين بروكسل ومدريد ، مروراً بفرنسا ، فيقتضي لها ١٥ يوماً .

كانت البضائع والمشحونات ، تنقل ، براً بعربات تقطع من ٣٠ – ٤٠ كلم . في اليوم ، تسير بالاحرى مع مجاري الانهر . وقد قامت البلديات ، في هذا المجال ، ببعض الاشغال لتحسين المسالك والمعابر الصعبة المرتقى بالتعاون مع الشركات التجارية او بمساعدة الملوك والقضاء الملكي . واعيد بناء الجسور والطرقات ، كما ادخلت تحسينات على بعض المسالك النهرية ، وبذلك تفادت التجارة دفع رسوم معينة ، والقيام باجراءات وترتيبات فرضها من قبل اسياد المقاطعات دون اي مبرر لها سوى ابتزاز المال ، فالغيت .

اما في البحر ، فقد كانت سفن مدينة البندقية حتى عام ١٥٢٥ ، تصل الى انفرس ، الا ان الجذافين كانوا يتقاضون اجوراً عالية ، كما ان الشحن كان عرضة لمخاطر عديدة على سفن من نوع الـ *galère*، ظهرها مع سطح الماء تقريباً . اما في المحيطات ، ولا سيا في البحر الابيض المتوسط ، فقد استعيض اكثر فاكثر ، عن السفن العاملة بالمجاذيف ، بسفن تعمل على القلوع والشراع ، كسفينة الكرافيل التي لها عدة صوار كما ان حافتها تعلو جداً فوق سطح البحر ، وسعتها كبيرة تتسع لـ ٢٠٠ – ٥٠٠ برميل ، وهي سفن سريعة السير انما سريعة العطب ، كان عليها ان تقضي فصل الشتاء في الموانىء التي ترسو فيها . ومن انواع السفن المستعملة اذ ذاك سفينة *hulques* وهي سفينة مفلطحة ، فطساء ، ثقيلة ، بطيئة ، الا إنها اقوى من الاولى، لها عدة قلوع ، صالحة لركوب البحر في كل الفصول ، تحمل من ٤٥ – ١٠ اطنان ويأتي بعد هذا النوع ، نوع آخر من السفن يدعى *galions* ، وهي سفن ضخمة ، ملومة ، تحمل في مؤخرها برجاً كبيراً ، قليلة السرعة ، تستطيع ان تحمل عدداً اكبر من الركاب ووسقاً كبيراً ، كثيراً ما استعملها

الاسبان في شحنهم المعادن الثمينة من ممتلكاتهم في اميركا عبر الاطلسي . وبقيت المواصلات بطيئة ، تحف بها المخاطر لقلة الخرائط الجغرافية الدقيقة الرسم ، ولافتقار الملاحة البحرية للمعلومات التقنية الدقيقة وللربابنة ذوي الخبرات الواسعة . وكانت سرعة سير السفينة في انفرس بمعدل ميل واحد في الساعة ، وكان المسافر يقطع المسافة من انفرس الى لشبونة ، في احسن الحالات ، بخمسة عشر يوماً . اما في البحر الابيض المتوسط ، فالاستثناءات ، وعدم الاطراد ، كان القاعدة ، في الغالب ، اذ ان المسافة بين البندقية والقسطنطينية كانت تستغرق من ٢٩ يوماً الى ٧٢ يوماً ومن البندقية الى يافا ، من ٤٠ — ٥٠ يوماً ، ومن تونس الى ليفورنو ، من ٦ — ٢٠ يوماً . فالبحر المتوسط كان له من الاتساع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، ما لدنيا الاقتصاد منه اليوم . والعالم كان اوسع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، منه في القرن العشرين . وهذا ما يفسر لنا تفوق الاقتصاد المدني او بالاحرى المديني .

النظام الرأسمالي والصناعة

كثيراً ما يجد التاجر الذي يهبط بلداً نائياً ، زبائن عديدين هم على استعداد كلي لابتياع ما يحمله من محاصيل ومنتوجات ، يتوقون لرفع مستوى حياتهم ، كما كانوا على اتم استعداد ايضاً لشراء محاصيل من اصناف ادنى على ان تكون حسنة المظهر وارخص سعراً . والحال ، فقد كانت قوانين نقابات الحرف وجمعياتها في المدن القديمة امثال : بروج وغنت وبروكسل وروان، تحظر على معلمي المهن تجهيز مصنوعاتهم بمقادير كافية ومن النوع المحدد . ولذا امّ التجار القرى والمدن الصغيرة في الارياف يشترون منها الخامات التي يرغبون في الحصول عليها والادوات الصناعية اللازمة لهم والنماذج او العينات التي تروقهم ، كما كانوا يقبلون على شراء المحاصيل وانتاج الصناعة ويعملون على تنفيقها . وهكذا ادخلوا على المهنة عدة ادوات صناعية واصناف جديدة رفضت النقابات قبولها والتسليم بها ، كالمكابس لضغط الاجواخ بدلاً من ضغطها بالقدم ، وهي طريقة كانت تخفض الكلفة وتضاعف الانتاج ، وان جاء الصنف اقل جودة اذ كانت عملية ضغط ثوب جوخ واحد تقتضي من ٤ — ٥ ايام بينما يضغط المكبس في المدة ذاتها من ٩ — ١٠ قطع ، والمغزل الذي يدور بحركة الرجل بينما تبقى اليدان حرتين تعمل في الغزل ، والآلة الناسخة التي اخترعها ، عام ١٥٨٩ ، الراهب وليم لي والتي لم تلبث ان عم استعمالها في جميع انحاء انكلترا ، فزادت سرعة النسيج من ١٠ — ١٥ ضعفاً من ناسخة باليد، ويمكن لولد عمره ١٢ سنة ، ان يديرها بسهولة . واذا لم يعد الصناعي مالكاً لأدوات الانتاج واجهزته ، فقد تحول تدريجياً من معلم حرفة الى عامل . وهكذا رأينا مراكز صغيرة للصناعة تقوم وتنتشر في انحاء عدة من البلاد الا انها كانت تتركز تجارياً وادارياً بيد بعض الممولين الذين يتعهدون الاشغال . وكان الوضع على مثل هذا الشكل في مقاطعة الفلاندر . مثلاً حيث راح بعض رجال المال الذين يرغبون في الصمود في وجه الاجواخ الانكليزية الخفيفة ، المعدة للاستهلاك اليومي وباسعار معتدلة ، ينشئون لهم معامل نسيج ، من هذا النوع ، في مدن إيبر وبيّول ، في ضواحي بروكسل وليل، وفي بلدة هُندشوت وأرمَنْديار، وعلى الأثر

وافد على هذه المعامل الجديدة المحتاجون للعمل والعاطلون الذين لا عمل معين لهم ، ولم تلبث هذه القرى ان اصبحت مدناً ، وراجت بها المنسوجات الخفيفة التي تخرجها فبارکها وتتغلب على الاجواخ الانكليزية الصنع . وقد عرفت مناطق اخرى مثل هذا التطور السريع ، منها مثلاً : منطقة روان واللانفدوق، وبورج وبيري، ومدن وادي نهر اللوار ، ولانكشير وغيرها . وهكذا اضطرت النقابات المهنية القديمة ان تؤمن تموين المدن والارض الواقعة في نطاقها . ورغبة منها في الاحتفاظ بزبائنها ، رأت نفسها مضطرة لتعديل قوانينها الدقيقة بحيث تستطيع الصمود في وجه المنافسة التي تقوم بين معلمي الحرف ، وهي رتبة لا يستحقها الا من توفرت لانجازاته الفنية بعض المواصفات والشروط الدقيقة : كانجاز اشغال عالية الكلفة تعد روائع صناعية بما تقتضيه من فن ومهارة ، وبين عدد قليل من المهنيين الناشئين ، وتخصص أضيق ، واساليب فنية ، اساسها نماذج محددة اوصافها بكل دقة ، وقام العمال حيث لا تقوم مثل هذه النقابات المهنية ، يسعون لانشائها فيلتمسون من الملك الترخيص لهم بذلك ، تسييجاً لهم حول مصلحتهم من المنافسة الشديدة التي يتعرضون لها من قبل عمال طارئين او دخلاء او من قبل زملاء قدامى لهم راحوا يعملون احراراً لحسابهم الخاص . ولعل ما هو اهم من هذه التدابير بكثير، فساعد على بقاء هذه النقابات ، هو هذا النمو السريع الذي طرأ على المدن فأدى الى تطورها تطوراً عظيماً ، وهي ظاهرة جاءت نتيجة للنظام الرأسمالي الذي وفر للعمال زبائن اخذ عددهم يزداد شأناً يوماً بعد يوم .

قام التجار بتجميع او تركيز صناعي في الانشاءات والمشاريع الصناعية الكبرى اذ ان ازدياد الطلبات ، واحياناً طبيعة هذه الطلبات بالذات قضت من نفسها الاخذ باسباب التصنيع: كالطباعة وتوضيب المعادن وصناعة التعدين ، وصناعة المدافع ، وغير ذلك . وقد تمت رغبتهم هذه بالتعاون التام لانسجامها مع رغبة الملوك والامراء الذين تنازلوا لهم عن احتكاراتهم . وقد اصطدموا احياناً بمناقسة الرؤساء العلمانيين او رجال الاكليروس الذين شغلوا اموالهم في بعض المشاريع الانشائية . وهذا امر اصبح عادة مرعية في جميع انحاء المانيا والبلاد الواطية ، منذ عام ١٥٤٠ ، وثورة الاديان وفي انكلترا، حيث بلغت الحركة حدود ثورة صناعية . فبدلاً من الاكتفاء بالنزول الى عمق بضعة امتار في المناجم ، اقتضى الاتجاه الجديد النزول الى ٢٥ واحياناً الى ٥٠ متراً ، مما اضطروا معه الى فتح خنادق ودهاليز وسراديب تحت الارض . وهي اعمال استغرقت وتستغرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احياناً عشرات الالوف من الليرات ، كما تستنفد دخل بارونية فرنسية لمدة بضع سنوات . وقد تعرضت هذه الانشاءات احياناً الى فيضانات اغرقت المنجم أو سببت انفجاراً للغاز ، كما اقتضى مضاعفة العتاد والاجهزة ومعظمها من الخشب ، وتدعيمها بوصلات حديد او تركيب محاور او مصاريع أو صفائح من المعدن عندما تحتك هذه القطع بعضها ببعض ، وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من القوى الطبيعية ، وتركيب اجهزة لنضح الماء المتسرب الى الداخل ، وسلاسل لا تنتهي من

النواميس ، وبراغٍ من نوع براغي ارخميدس ، ومضخات جاذبة ذات كبّاس . وأخذوا ، منذ عام ١٥٤٦ ، يشلون في المناجم العميقة سلسلة عمودية من المضخات الجاذبة ، والاحواض المتراكبة الواحد منها فوق الآخر ، وهي مضخات تحركها عجلات ضخمة يسير عليها رجال أو يتساقط عليها شلال الماء من حوض ، واجهزة التهوية كهذه المفاتيح الضخمة ، وهذه البراميل المجهزة بفتحات ملتوية في الوسط يخترقها الهواء ، وتنتهي باسورة او انبوب لتفريغ الهواء ، ومراوح كبيرة يدخل منها الهواء بشدة في انبوب التهوية وكبت في طرفه شفرات ضخمة يحركها جناح مطحنة هواء ، فركبوا ، لجهلهم ناموس القوة المبعدة عن المركز ، الانبوب عند طرف الطبلة بدلاً من ان يكون قريباً من المركز ، وبكرات ضخمة لرفع الاثقال الكبيرة تأتيها الحركة من محرك يدور على عجلة ، على وجهي الارض ، بواسطة اسطوانة شاقولية الوضع ، طويلة ومسننة من الخشب ، وكسارات ضخمة مجهزة بمطرقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن ، ومصاهر ضخمة للحديد تعمل على فحم الحطب ، تم اختراعها في المانيا ، ثم دخل استعمالها مقاطعة سوسكس ، في انكلترا ، في اواخر القرن ، ومنها شع استعمالها في كل مكان حوالي ١٥٥٠ . وقبل اختراع هذه المصاهر ، كانوا يحصلون على الحديد المشغول من الفلزات عينها بواسطة كور حدادة صغير . وكان زهاء ١٢ ملتزماً أو متعهداً يخرجون نحواً من ٢٥ طناً في السنة . ومنذ سنة ١٥٤٠ ، انشئت مصاهر للحديد علو الواحد منها ٣٠ قدماً ، بعرض ٢٠ قدماً مربعاً من تحت ، مع منافخ من الجلد ، علو الواحد منها ٢٠ قدماً يحركها دولاب يعمل بالماء يأتيه من سد قريب بواسطة انابيب من الخشب ، ينتج في السنة كلها من ١٠٠ — ٥٠٠ طن من الصب . وكانوا يستعملون في تطريق الحديد والنحاس والقصدير مطارق ضخمة تتحرك على عجلات ركزوها في بنايات كبيرة يعمل فيها عشرات من العمال . ولتوفير ما يلزم من الملح ، لجأوا ، في انكلترا ، الى تبخير ماء البحر ، وهكذا استغنوا عن فريق من العمال كانوا يستخدمون من ٦ — ١٢ دستاً صغيراً ، بينما ركب بعض المتمولين ، في ابنية كبيرة وعلى وجاقات ضخمة ، خلاقين سعة الواحدة ٢٠ قدماً مربعاً وعمقها نحواً من ٦ أقدام .. ونرى في سنة ١٥٨٠ ، احد رجال المال يستعمل نحواً من ٣٠٠ عامل ، وينفق في هذا السبيل اكثر من ٦٠٠٠ ليرة انكليزية ذهب ، في تجهيز ورشة له . فاشتد من جراء ذلك الطلب على معلمي الحرف والصناع المهرة يفدون من الفلاندر لصنع الاجواخ ، كما كانوا يستقدمون ، من المانيا ، معدّنين للعمل في استخراج فلزات الحديد وشغل الحديد .

النظام الرأسمالي والحياة في الريف

تغلغل النظام الرأسمالي في حياة الريف على اثر ظهور الاسواق الدولية ، وطلوع عصر الصناعة في اوروبا ، وتزايد عدد السكان في المدن ، واخذهم اكثر فاكثر ، باسباب الحضارة ، فوُجد في هذا كله مرافق للاستهلاك والانفاق . ففي اواسط انكلترا ، راح اصحاب الاقطاع يستخلصون اراضيهم من مستأجريها ومكاريها ويدمجون بها الاراضي الصالحة للفلاحة من المشاعات البلدية ، وتحويلها

الى مراع خضراء تنتجعها قطعان الغنم طمعاً بصوفها الذي يذهب لمصانع النسيج الانكليزية ، كما ان قسماً منه كان يُصدّر للخارج . وفي هذه المدة بالذات أخذت تظهر طلائع حركة اقامة السياجات حول الاراضي والمزارع، هذه الحركة التي استحالت انقلاباً وارتدت شكل ثورة عارمة في القرن الثامن عشر . وانتقل استثمار الارض من مرابعين الى أيدي مزارعين تحت تصرفهم ما يلزم من المال الكافي لاستغلالها بروح بورجوازية يفيدون من نتاجها وغلالها في مقايضاتهم التجارية .

اما في فرنسا ، فقد كان جانب كبير من الاراضي الزراعية بيد مرابعين ومزارعين توارثوا استثمارها اباً عن جد ، كان من الصعب جداً على مالك الارض الاصيل انتزاع هذا الحق منهم ، وكانت حصته من الغلال التي حددت قيمتها ، لمرة واحدة ، بمبلغ من المال يضؤل على مر السنين لارتفاع الاسعار المستمر ، ولكن منذ ان وضعت حرب المائة سنة اوزارها بعد ان افقرت الارض ، واجدبتها وحرمتها من اليد العاملة ، راح بعض المتمولين من البورجوازيين ، في المدن المجاورة ، يتعهدون الاراضي الزراعية بعد توسيعها فيؤجرون ، من ضمنهم ، لفلاح او مزارع او ومرابع ، شقة منها ، يدفع ما يترتب عليها من عوائد ورسوم ، نقداً وعداً ، وفقاً لعقود ايجار قابلة للتعديل في انتهاء الاجل المضروب ، او يتناول قسماً من غلة الارض ، وما تبقى يكون حصة المزارع ، يتصرف به وفقاً للاسعار الدارجة ، اذ ذاك . اما البورجوازيون ، فكان بعضهم يؤجر اراضيه الحرة لسيد الارض او يعمدون الى شراء الاراضي ، اذا ما توفرت لهم اسباب الثراء ، ممن لهم عليها حق السيادة ، ثم يؤجرون القسم الاوفى من هذه الاراضي لمرابعين يستغلونها وفقاً لشروط محددة . وسار على نهج البورجوازيين عدد كبير من اصحاب الاملاك ، فكان الواحد منهم يعمل على استثمار اراضيه ويراقب بنفسه اعمال مزرعته باذلا أقصى جهده لتحسين ريعها . وقد برز في هذه الحقبة هذا النموذج من الفلاحين الذين عرفوا قيمة التعاون مع الغير ، فيتولى ، هو بنفسه ، بيع بقرة ، ويشرف على بناء ما تحتاجه ارضه من اسوار وسياجات ، ويراقب عملية قطع الحشيش وقطاف العنب ، وهو ، في الغالب ، من ذراري أحد البورجوازيين . وكثيراً ما كان أسياد الارض يشترون من الفلاح ، بعد ان يكون هذا الاخير ، ارهقه الدين ، او بوار المواسم او لتغيبه عنها للخدمة العسكرية ، أو لعجزه عن ايفاء ما تبقى عليه من متأخر دَينه ، أو مطالبته فجأةً بالمتأخر المتراكم من عدة سنين ، بعد ان يكون تناسى امرها . وكثيراً ما يكون عرف هؤلاء البورجوازيون الذين حرصوا على شراء الاملاك السيادية ، او هؤلاء الملاكون الذين تطبعوا بطباع البورجوازيين ، ان يراقبوا ، بعين يقظة ، وضع الاسواق التجارية ، وان يحتفظوا ، في منازلهم، ببعض المحاصيل المدخرة ، بانتظار الفرصة المناسبة ، ليبيعوا ما احتفظوا به من غلال ، باسعار مرتفعة . وقد اعتنوا ، على الاخص بالاصناف الصالحة للاعمال او المضاربات التجارية ، كالقمح والخمر ، وفي مقاطعة بروفانس كشجرة الزيتون واللوز ، وفي مقاطعة اللانغدوق بنبات العَظْلم المستعمل في الصباغة ، وشجرة

الزيتون وشجرة التوت وهكذا نرى ان حياة الريف تغيرت كثيراً وتطورت مظاهر الحياة فيها : فاتسعت القرى ونمت ، واكتظت بالسكان والعمال والصناع ، وباليد العاملة من دباغين وبيطريين ، وزجاجين ، وصانعي القرميد والبلاط ، والحبالين ، والعاملين في صب الحديد ، وغيرهم . ويأخذ السيد ببناء مكبس هوائي لضغط الجوخ وكبسه ، ومدقة آلية تتحرك بواسطة دولاب لجرش فلزات المعادن ، دون ان يشعر المرء دائماً ما اذا كان المعمل يعمل لحبر المنطقة او انه يعمل لتاجر يقوم بنشاط صناعي .

وقد وقع مثل هذا التطور في بلدان اخرى : في الفلاندر والمانيا الغربية والجنوبية ، وفي ايطاليا .

اما في البلدان الواقعة الى ما وراء نهر الايلب كألمانيا الشرقية وبولونيا ، فقد حمل اشتداد الطلب على القمح ، من قبل التجار التابعين لاتحاد الهانز ، والبلاد الواطية لشحنه الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، اصحاب الاراضي ومالكيها ، على استخلاصها بالقوة من ايدي المرابعين او المستثمرين لها ، فيكوّنون منها مزارع استثمار ، ويجبرون الفلاحين على تأمين الخدمات اللازمة مجاناً ، دون مقابل ، وهكذا يصبح هو نفسه منتجاً للقمح ومتجراً بـه . ان الاتساع المتزايد لهذه المزارع واعطائها كمية صغيرة نسبياً من الحبوب اللازمة للتجارة ، ساعد كثيراً على دمج نظام الاسترقاق في النظام الرأسمالي ، في هذه المناطق الواقعة على أطراف الحضارة الاوروبية .

فالتقنيات الزراعية فيها لم تتغير ، ولم تتبدل كثيراً . وعلينا ان ننتظر نهاية القرن ، لنشهد في البلاد الواطية ، دفعاً جديداً نحو الزراعة ، على نطاق واسع .

النتائج الاجتماعية للنظام الرأسمالي

ان ازدهار النظام الرأسمالي وارتفاع الاسعار ، ساعدا كثيراً على التقريب بين الطبقة البورجوازية والطبقة المتملكة للارض ، وابراز الفوارق بين هاتين الطبقتين وبين الطبقات الشعبية وتفتيتها الى طبقات فرعية ثانوية .

اضطر عدد من الاسياد ، عُرفوا باهمالهم وعدم درايتهم ، او افقرتهم حياة البذخ التي عاشوها ، وارتفاع الاسعار المتتابع ، ان يبيعوا اراضيهم وممتلكاتهم ، فآل امرها الى فريق يعمل في التجارة ، فشيدوا لهم فيها نزولا ومساكن جميلة ، واقاموا لهم صلات مع الانسانيين ، فنهجوا نهج السراة . وبفضل النمط الجديد لحياتهم هذه ، ولتمرسهم بالوظائف العامة التي عرفوا ان يستأثروا بها ، تحولت أسرهم تدريجياً ، الى طبقة النبلاء وأصبحت بدورها ارومة لطبقة جديدة من الاشراف ، لمع ابناؤها من رجال الدين والدنيا ، عملوا في الجيش او موظفين كباراً في خدمة البلاط . الا ان أهل الحسب والنسب لم ينزلوهم منهم منزلة العرق الاصيل .

ويليهم منزلة ومرتبة ، هذا الجانب من البورجوازيين يتمثل برؤساء الحرف والمهن الذين كانوا يعدّون ، من قبل ، زهرة هذه الطبقة ، فاذا بهم ، انحدروا اليوم ، الى المرتبة الثانية ان

لم تقل الى ما هو ادنى . اما رؤساء نقـابات الحرف ، ذات الشأن كالجواخين . والجزازين والعطارين ، والبزازين والبقالين ، فقد عرفوا ان يحافظوا على ما حققوا مـن مستوى محترم ، بفضل ازدهار حياة المدن ، وعمرانها وازدياد عدد السكان فيها . واستطاع فريق منهم ان يوجهوا أبناءهم شطر المهن الحرة أو الوظائف العليا . الا ان مخيلة هذه الطبقة او بالاحرى . هذه الفئة ، ما زال يعتلج بالحقد ويتنزى بالبغضاء ضد طبقة التجار.

ويلي هذه الفئة درجة ، معلمو الحرف الدنيا : كالاسكافي وتاجر الاسمال والثياب العتيقة وغيرهم ممن يشغلون بعض الصنائع العادية او يديرون دكان بقالة .

وجاء في الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي ، طبقة البروليتاريا وهي طبقة اعتاد افرادهـا ان يعيشوا من عمل يدوي ، مأجورين يوماً فيوماً ، او عمالاً احراراً يعملون عندما يحلو لهم العمل او يعملون في ورش يشرف عليها احد رجال المال ، او ينتمون الى حرف منتظمـة نقابات ، مشدودين ابداً الى اوضاعهم ، الا ما ندَر ، في بعض الحـالات ، اذ ان رؤساء الحرف كانوا يحتفظون بوظائفهم لاولادهم او لاصهرتهم ، وكانت اجورهم الاسمية لاترتفع او لاتزداد الا ببطء ، وذلك بالنظر لما يلاقونه من مقاومة لدى ممثلي الطبقة البرجوازية ، الاقوياء الجانب لاعتمادهم على مؤازرة الامراء ونصرتهم . اما اجورهم الفعلية فكانت تهبط باستمرار ، وفي هذا ما فيـه من بوادر الصراع الطبقي. وابناء المهنة الواحدة يؤلفون جمعيات خاصة بهم تؤلف فيما بينها اتحادات عامة ، لها رئيسها الاعلى، وصندوق مشترك ، يتسلحون بالسيوف والخناجر ويقومون باضرابات وحركات تمرد ، كما حدث مثلاً في مدينة أرفُورت ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينـة ، أولم وكولوني ، عام ١٥١٣ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٢٩ ، و ١٥٣٩ .

اما في الريف ، فاذا ما ألـَّف المزارعون فيه طبقة على شيء من اليسر المادي وعقليـة بورجوازية ارفع من عقلية المرابعين ، فهنالك ، مع ذلك ، فئة من الفلاحين والـكادحين في الارض لامال عند اصحابها يُحسِّنون بـه من احوالهم واوضاعهم ، رضخوا يائسين للعيش على ما يحفُّ بهم من وضع زري، عجزوا او جهلوا ان يبيعوا ، في الفرصة السانحة، محصولهم ، وهم يرون اوضاعهم تسوء وتتدهور امام ارتفاع الاسعار المستمر . فقـام بين الفلاحين ثورة لم تكن دوماً من عمل الصعاليك بينهم، اذ كثيراً ما نفخ في نارها فلاحون ومزارعون ميسورون، هالهم استمرار ارتفاع ثمن المواد والبضائع المستوردة ، كما هالهم ، من جهة ثانية . توسع الملكيـة الرأسمالية واستبطار الحقوق الاقطاعية .

وهكذا شهدنا المزيد من الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض وتباعد بينها ، مما ادّى الى صراع طبقي عنيف كان له نتائج دينية وسياسية خطيرة .

البورجوازي الرأسمالي

جاءت الثورة الرأسمالية نتيجة منطقية لمسلك جيل او فريق من الناس ضلع بسهم كبير بالنهضة الانسانية يتمثل ، خير تمثيل، بهذا البورجوازي

الرأسمالي الذي عرف ان يعبر عما طُبِعَ عليه من فردية مميزة ، وما جاش في نفسه من رغبة السيطرة وتوق الى السلطان ، وما نزعت اليه نفسه من تفتّح وإشراقة ، سواء في العمل او في الخلق والابداع ، والتطلع الى حياة متفتحة ، رغيدة ، باذخة ، والضلوع بهـذه المشاريع وانشاءات الاقتصادية من نوع معين .

حاول البورجوازي المتمول ان يطفىء ما في قرارة نفسه وسويداء قلبه من شهوة صاخبة للربح والكسب جعلته يتهافت بل يتكالب على جمع المال ، مستعيناً على ذلك بما رُكـز فيه من إدراك واقعي ، عقلاني ، لاصول المغامرات المالية والمجازفات الاقتصادية .

فقد أوتي ، قبل كل شيء ، حب المغامرة ، وتـذوّق الجرأة في المخاطرة واشرأبت نفسه الى الفتح والخلق . فهو رجل اداري يعرف من اين تؤتى الامور ، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس ادرك بما فيه من زكانة ، ما هم عليه من خُلـُق واستعداد معين لتدبير امر معين ، فيعهد الى كل واحد منهم بالعمل الذي هيء له ، فينسق ويناسب بين اعمالهم وتصرفاتهم بحيث يحصل على اكبر قدر من الفعالية والطاقة . فهو مفاوض لبق ، ساحر الحركات والنظرات والايماءة ، يعرف اصول البحث ويجيد المناقشة ويأتي الامور من ابوابها ليفضي منها الى مخارجها الطبيعة ، أعطيَ موهبة عظيمة على الايحاء والاقناع وحمل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية . كل هذه الصفات تحلى بها البورجوازي الثري تركت في نفسه شيئاً من الانطباع واليقين ان شيئاً من الاشراف انتهى اليه ، وان نُسَيمات من هؤلاء العسكريين او رجال الحرب الذين تمرسوا باعمال الحرب وما اليها من صنوف السلب وألوان النهب ، ممن تركنوا اعمال القرصنة ، استقر في نفسه ، واستشرى في عروقه في وقت كانت روح الفروسية بعد هي المثال الافضل للمجتمع الامثل . وهل نعجب ، بعد ، كيف ان بعض الانكليز والايطاليين ممن نبضت في نفوسهم روح الفروسية قاموا ، في صميم القرن السادس عشر يمارسون بالفعل اعمال القرصنة ، فيكل اليهم كثيرون من اثرياء القوم ، بجانب من اموالهم المدخرة لاستثمارها في هذه المغامرات التي يحلو لهم القيام بها ؟ أَلَمْ تتضاعف اولى الاسفار الطويلة عبر المحيطـات وأولى الشركات التجارية ، الكبرى التي قامت ، بمغامرات مسلحة من الكر والفر كان لهم الحظ فيها نصيرا ؟

وقد يبدو على هذا البورجوازي الرأسمالي ، بما امتاز به من روح التنظيم وروح والاقتصاد انه قُدّ على شاكلة معلمي الحرف والمهن القدامى . وهذا بالفعل ما لفت الانظار الى هذه الروح التي نبضت فيه ، وهي روح منافسة ، في الصميم ، لهذا الشريف . فبينا نراه يرغب صادقاً ان يصير هو الى مثله ، نراه يوضح ، نفسه كما يستدل من المدوّنات وسجلات التجارة ، اذ ذاك ما يباعد بينه وبين هذا الشريف الذي لا يهمه من الحياة الا الظهور بمظهر الحر الباذخ : وان اقتصدت غنيت ، فمن انفق قليلاً لن يلبث ان يصبح غنياً ، فالاقتصاد هو اولى الفضائل واولى المقدسات » . وهي ملكة يجب ان تعم وتنتشر لتملأ القدرات والاوقات والأزمنـة ، على ان يستعملها الانسان بشكل منطقي ، معقول بما فيه نفعه وربحه . علينا ان نهرب من البطالة وان نحسن توزيع

اوقاتنا على الوجه الاكمل ، كما يترتب علينا ان نتفادى الاعياء ، ونبتعد ، ما امكن ، عن الملاهي ، والصيد والقنص والقصف والولائم ومضيعة الوقت بالاستقبالات الفارغة وان نحاسب انفسنا في المساء حساباً عسيراً على وجوه استعمال ساعات النهار. علينا ان ننظم حياتنا تنظيماً منطقياً لتأمين المنافع التي تؤمنها لنا التجارة . ولهذا البورجوازي ناموسه او قانونه الاخلاقي الا وهو المحافظة ، قبل كل شيء ، على العهود المقطوعة والاتفاقات التي ابرمها بملء حريته ، كما عليه ان يحافظ على المظاهر الخارجية ، وان يراعي ما يعود عليه بطيب الاحدوثة وان يعيش عيشاً نظيماً ، بعيداً عن الخمر والميسر والتسري ، كما عليه بحضور القداس بانتظام والاستماع الى الوعظ والارشاد ، وان يحتفظ بوقاره ومشيته المتزنة .

للبورجوازي الرأسمالي عقلانية نموذجية ، منهجية . كل شيء عنده يجري او يجب ان يجري بدقة الحساب . وكل ما يأتيه هو تعبير بالارقام لهذا النشاط البشري الذي يجيش فيه ، هذه الارقام التي تضبط كل حساباته من مدخول ومصروف . فالقلم دوماً بيده ليضع على الورقة ويدون تفاصيل مفاوضاته ومعاملاته ، وكل ما يتوصل الى عقده من ارتباكات واتفاقات ، وما يأتيه من شاردة وواردة . فالرأسمالية اسوة بالفيثاغورية الحديثة،تحمل الكثير من طبيعة الذهنية الكمية .

وهذا البورجوازي الرأسمالي وقع تحت تأثير الانسانيين فهو ينتقي من الحكم ، ويختار من الكلم المأثور مما جاء في كتب الاقدمين من أقوال الفلاسفة الكلبيين وفينوفون وكاتون وكولوميل ، ما يبدي قسمات الصورة المثالية التي هام بها. فقد ربط نفسه بعجلة الانسانيين امثال : بوتنجر، أحد رجال الفكر في مدينة اوغسبورج ، الذين يدافعون بقلمهم ولسانهم ، عن شرعية وجدوى المشروعات التي تضطلع بها الرأسمالية ، وعن شرعية الدَّين بفائدة .

فكبار المفكرين ، في هذا العصر ، لا يختلف تفكيرهم بشيء عن تفكير روكفلر وكارنجي وكروب وثيسّن،في زماننا هذا . فقد هاموا بالتطور وراحوا يترسمونه ويحاولون تحييزه ، الى اقصى حد ، في هذه القصور والصروح ومعارض الوحوش التي انشاؤها ، وهذه المجاميع الفنية التي لا تثمن من الانسجة والاقمشة والديباج ، والسجاجيد والطنافس والجوهرات ، والحلي والآثار القديمة ، التي وفق الى جمعها، وهذه التواصي الفنية التي اوصى عليها لدى مشاهير الرسامين وكبار الفنانين ، في رعايته للادباء ونصرته للانسانيين صانعي الرأي العام . كل هذه الوسائل والذرائع ادوات بين يديه حققت له الكثيرين من الاصدقاء والزبائن. الا ان معظم رجال المال وذوي الثراء نظروا دوماً الى الفن نظرهم الى وسيلة تساعد على العيش الكريم الرغيد والرفه في الحياة ، فكانوا يلطفون من حدة نشاطهم بالاستمتاع بالراحة والاستجمام . وكان عدد كبير منهم انضوى تحت لواء الانسانية والمخرط بين اتباع الابيقورية جزلوا للفاكهة والمباسطة ، والعبث . ولذا كانوا ينسحبون باكراً من العمل لينصرفوا لاملاكهم ومقتنياتهم يرعونها ناعمين بما تم لهم من ثروة عريضة وغنىً بعيد .

الفصل الرابع

الدولة ونظمها الاقتصادية

بين دول كبيرة و صغيرة

اوروبا حضارة هي وليست وحدة سياسية . فالصورة التي راودت خيال الناس ، في الاجيال الوسطى ، والحلم الذي جال في خاطرهم بان يروا جمهورية مسيحية يتولى زمنياتها الامبراطور والروحانيات فيها البابا ، في تعاون بينهما ، نزيه ، متبادل ، بقيت ترقص في الاذهان، وان أعوزتها القوة وخلت من قوام وكيان . فالبابا يتجاهل سلطته الكثير من الناس وبعضهم يهاجمها، حتى في الدول الكاثوليكية بالذات، وينكر عليها حق الاهتمام بما للدين وضوابطه .أما الامبراطور فسلطته مقصورة على الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، لا وجود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه الرئيس الاعلى أو العاهل . وهذه الفردية ، التي طبعت عصر النهضة تتجلى، في المجال السياسي ، بهذه الدول أو الدويلات التي انتظمت سلك اوروبا ، فجاء ظهورها تعبيراً عن هذه القوميات المختلفة التي جاشت بها القارة على شيء من التوازن . وفكرة المساواة في الحقوق التي اعتلجت بها هذه الدول والافراد الاحرار ، فيما يتعلق بالاخلاق والمثل الواحدة المتشابهة ، حلت محل مبدأ السلطة المسلسلة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لها قاسماً مشتركاً ، بالرغم مما باعد بين هذه الدول من انقسامات حادة ومنافسات وخصومات .

والنزعة التي جاشت في الضمائر بانشاء دول كبرى، تبنت حركة ترمي الى اعادة تشكيل اوروبا وفقاً لهذه الصورة التي تبلورت في الاجيال الوسطى والتي أوشكت ان تتحقق وتتحيز بالفعل على اساس من التوازن النسبي . واستطاعت بعض الدول كفرنسا مثلاً ان تفرض سلطة الملك وحده ، على هذه الامارات المرتبطة بالتاج بالولاء له ، والتي حاولت ان تنشيء من ذاتها قوميات مستقلة، كدوقية بورغونيا ودوقية بريتانيا، فاعلنت اولاهما اندماجها بالتاج عام ١٤٩٣، والثانية عام ١٥٣٢ . وهنالك بجوار فرنسا ، دول كاسبانيا مثلاً أنجزت وحدتها القومية بضم ممالكها بعضاً الى بعض ، كمملكة اراغون وقشتيليه ، اثر زواج فردينان وايزابيل عام ١٤٦٩، ومن بعدهما في عهد شارل الكبير الذي سيعرف ، في المستقبل ، باسم شارل الخامس ، عام

١٥١٦ ، وفي الجزر البريطانية حيث انضمت امارة ويلز الى انكلترا فخضعتا معاً ، منذ عام ١٥٣٦ ، لحكم واحد وادارة واحدة . اما في الامبراطورية المقدسة فقد حوّل الامراء فيها اماراتهم الى دول فعلية . بينما بقيت ايطاليا منقسمة على ذاتها ، الى دويلات قوية الدعائم . متحررة من كل تبعية أو من كل رابطة ولاء الواحدة نحو الاخرى ، على اساس من توازن القوى فيما بينها ، قبل ان تجرفها من الوجود الضرورة القاضية بانشاء دولة كبرى فيها ، اسوة بغيرها من البلدان المجاورة .

الجغرافية السياسية وزوال المدينة ـ الدولة

هذه الدول الكبرى وهي في الغالب اصغر مساحة منها اليوم [1] تبدو ، بالفعل ، اكبر ايضاً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، بطء المواصلات وضعف كثافة السكان . وتبدو شاسعة جداً ، اذ تتألف من مدن ومنطقتها المجاورة ،او من مدن منعزلة تنعم بضاحية ، خصبة ، مكتظة بالسكان ،تفصل بينها مسافات شبه صحراوية ، وغابات واراضي براح . وضمن الولايات وهذه الدول نرى حدوداً وتخوماً منتصبة مميزة ، امثال فرانش كونتيه وسويسرا ، وغابات الصنوبر الكبيرة المؤبدة وهؤلاء المعمّرون في مقاطعة فرانش كونتية ، قدموا من الشمال ، متدثرين بجلود الحيوانات يحرثون الارض بأيديهم ليخلقوا منها اراضي مزروعة بالقمح ، المتموج مع النسيم . ويأخذ سكان مقاطعة فو بقطع الاحراش لتوسيع المناطق الزراعية باتجاه جيرانهم ، يقيمون فيها المزارع والدساكر ، الى ان يقع التصادم بين الفريقين . وهو صدام عنيف استعمل فيه الطرفان الغزو والنهب والسلب ونصب الشباك والاحابيل ، امعاناً في الوقيعة ، كما استعانوا بالخناجر يعنون طعناً عجزت عن ان تضع حداً له ، هذه الاتفاقات المعقودة ، ولا تحديد التخوم وتعيين المدى الحيوي بين الفريقين .

وهذه الجغرافية السياسية التي جاءت صورة حتمية لهذا التاريخ البشري ، بدت على دويلاتها مع ذلك ، نزعة تتفاوت قدراً ونسبة ، نحو الاندماج والانصهار ، وان بدت غامضة ، غائمة . فالولايات التي انصهرت حديثاً مع املاك التاج في فرنسا ، اعترفت بمبدأ الولاء والتبعية للملك ، وفقاً لعهود نصت من جهة ثانية ، على احترام اعرافها وعاداتها وتقاليدها المرعية ، وعلى حقها بان يتولى الادارة فيها موظفون مختارون من سكانها وتربتها . وفي اسبانيا ، احتفظت مملكة اراغون بمؤسساتها ونُظُمها وبما لها من شخصية مفردة . وهذه الدول الكبرى ، تستطيع ، وحدها ، بما تم لها من اتساع الرقعة وانبساط المدى ، ان تتحمل اي صدمة حربية تتعرض لها دون ان تحسب حساباً لاي احتمال تصدع او تفكك ، بعد ان امنت ما هي بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تفي بأود الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن السادس عشر ، زوال هذه الدول او الكيانات الدولية المتوسطة التي نستطيع ان نسميها

---

(١) كانت مساحة فرنسا عام ١٤٩٢ نحوا من ٤٨٠٠٠٠ كلم٢ . بينما هي اليوم (١٩٥٠) ٥٦٠٠٠٠ كلم٢

بالنسبة للدول الاخرى ، دولاً اقليمية او محلية ،منها مثلاً : الفرانش كونتية ، او هذه الدول التي كانت نواتهـــا الاولى او قام محورها الاساسي ، على مدن تجارية ، كالبندقية ، مثلا التي تصح تسميتها بالدول – المدن،وهي هذه الدول التي تكون فيها المدينة ، هي الحاكمة والمضطلعة بالادارة عن طريق ابنائها . وهذه الدويلات صار امرها الى كيانات لا شأن لها ، او انها راحت فريسة فتح اجنبي فاندمجت مع دولة كبيرة ، كما حدث للقسطنطينية عام ١٤٥٣ وكما حـــدث لنوفغورود الكبرى عام ١٤٧٨ ، ولغرناطة ، عام ١٤٩٢ . ومن الطبيعي جداً الا ترضى بمثـــل هذا المصير المشؤوم وان تتنكر له في هذه الثورات والانتفاضات التي قـامت بها . ولم ينجُ من هذا المصير سوى البندقية التي لاتزال تلعب بعد ، دوراً بارزاً في الحروب الايطاليـة ، ولا سيا في الحروب ضد الاتراك العثمانيين ، مع انها سجلت هبوطاً نسبياً في الميزان الدولي ، اذ ذاك .

١ – تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

معظم هذه الدول تتجه في تطورها و في تطلعها الى التكامل ، نحو الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي . ويكون النظام الملكي مطلقاً او مستبداً ، عندما يجسّم الملك ، في شخصه ، المُثُل الوطنية ويتمتع ، قانوناً وفعلا ، بكل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها : كحق التشريع وسن القوانين ، وحق اقامة العدل واشاعته بين الناس ، وفرض الضرائب وجبايتها ، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية ، وتعيين الموظفين ، وانزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المصلحة العامة ، ولا سيا من يتعرض منهم للسلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع بـــه من ولاية وصلاحية ، صادرتين عن سلطانه كقاهر اعلى . وقد جاءت فكرة الملكية المطلقـة تُرفد دون ان تمسها او تنتقص منها بشيء ، مفهوم المواثيق والاعراف التي تحدد الروابط التي شدت اصحاب الاقطاعات ورعاياهم الى الملك .

حب الوطـــن

وهذه الدول الكبرى تجيش بحب الوطن الذي يبعث فيها الحيوية والنشاط ويحملها على تحقيق وحدتها . وهذا الحب مصدره التعلق بالاقليم او المنطقة ، والولاء للملك صاحب السلطة الاولى في البلاد . ويشحذ الروح الوطنية في النفس الجهـــاد ضد الاجنبي الغازي ، المستبيح ، فيعمـــل على ايقاظ النفوس ، وعلى الاهتمام بالمصالح العامة المشتركة ، وذلك بفضل ما للموظفين الملكيين من تأثير وتوحيد في هذا المجـال ، والروابط الاقتصادية المشتركة التي تشد الاهلـــين بعضاً الى بعض ، ولا سيا بفضل تأثير الانسانيين على رجال البلاط والحاشية الملكية ،وعلى كبار ممثلي الطبقة البورجوازية الذين يشار اليهم بالبنان او يسير الناس في خطاهم . فالحرية تبعث في الانسان هذا الشعور الذي يصدر عن اعماق النفس ، كما انها وجه من تجاوب الانسان مع محيطه ، وكلها عوامل وحوافز اضافية تزيد هذا الشعور جلاء ووضوحاً ، ودقة ، وتوليه بالتالي مزيداً من القوة والدفع يشعر معه غليوم بوديه *G.Budé* في

قرارة نفسه بان روحاً مشاركةً واحدة ، كأنما تجيش في صدر فرنسا وتضفي عليها شخصية واحدة. ولهذا السبب بعينه راح يقدّم كتابه : *De Asse* الى « شيطان فرنسا » اي الى النبوغ الفرنسي .. والانسانيون الفرنسيون يعلنون عالياً ، وعلى الملأ الاكبر ، أولوية فرنسا . وهاهو *Gaguin* غاغن يدافع عن الوطن ، هذا الام الحنون ، فيعدد لنا الفضائل والمناقب التي يتحلى بها هذا الوطن : شجاعة الفرسان، حب العمل والاستمساك بروح الاقتصاد وهناء العيش الرغيد، وهذه الانسانية في الاخلاق السامية. ويحلو لـ *Valerun de Valerannes* ان يرى ، في فرنسا ، الدولة الرائدة ، الزعيمة . ألم يفتتح الغاليون اليونان ومقاطعة إيونيا ، ومقدونيا ؟ أو لم يستولوا على روما ، ويحملوا الحضارة الى ما وراء الالب ؟ أوَ لم يفتتح َحفدتهم جرمانيا ، وينقذوا الكرسي الرسولي ، ويستخلصوا الشرق من قبضة المسلمين ؟ وفي هذه الفتوحات العريضة التي قامت بها فرنسا ناشرة معها الافكار الجديدة ، ألم تبق أمينة لما اتسم به نبوغها الخلاق من تجرد ومثالية ؟ (١٥٠٨) ويتغنى دانفلـتير بالانتصار الباهر يحققه شارل ده مارتل على العرب والمسلمين ، هذا النصر المبين الذي جاء خير هدية من فرنسا لاوروبا جمعاء ، اذا أمّن لها الحرية ، هذه الحرية التي لا تقدر بثمن . ويتشبع الفرنسيون من هذه المآتي والانجازات التي جاء التاريخ يجلوها على مثل هذا النحو من سطوع الصورة وسناها ، في هذه المشاعر العميقة التي تمور في اعماق النفس ، حيث تستحيل حباً للوطن ، على مثال الاقدمين ، هذه المثالية التي وضعها الفارس المسيحي نصب عينيه . وعندما راح الملك فرانسوا الاول يحمل الى قائده العام غاليو ده جنويّاك . نبأ مقتل ابنه واستشهاده في معركة سريزول ،صرخ غاليو هاتفاً بكل بساطة : « شكراً لك يا الهي،هذا الولد الذي جُدتَ به علي في تحنانك الالهي ، قد راق في عينيك ان تأخذه اليك » ، ثم التفت الى الملك وقال : « اني لسعيد ، مولاي ان يكن لي ولد على هذا الشكل يجود بنفسه ويبذل دماءه فداءً للملك وللوطن » . وهل من عجب ، بعدُ ، اذا ما عرفنا ان غاليو أولع بالثقافة القديمة ، وانه كان عيّن لابنه ، مهذباً انسانياً من بين ابناء النهضة ؟ ولم يكن سكان قشتيلية والانكليز والفلمنك ليُقلّوا عن الفرنسيين تعلقاً باوطانهم وهياماً بحبها . ففي ايطاليا المنقسمة على نفسها دويلات وجمهوريات تتناحر فيما بينها ، كانت دويلاتها ممثلة بالبندقية وفلورنسا ونابولي ، وبفريق الانسانيين فيها مِن فيهم مكيافلي يتمنون ، بالسنتهم واقلامهم ، ان يروا ايطاليا ، تنعم بوحدتها واستقلالها الناجز التام . وهذه الامم والشعوب التي جاشت في قلب الامبراطورية المقدسة ، وكل فريق الانسانيين فيها ، امثال ويمفلنغ من سكان ستراسبورج ، كانت صدورهم تلهج بالوحدة الالمانية . وهذه الروح الوطنية لم تكن لتقل بشيء عن الروح القومية .

عبادة البطل

وهذ التطور خضعت له الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي لم يكن الفضل فيه اساساً،لهذه الرغبة الطبيعية التي جاشت في صدور الملوك بحيث

يزدادون سلطانا وسؤددا . فالحق الروماني هو الذي طلع علينا ، في القرن الثالث عشر ، بفكرة الملك المستبد الذي يجمع في شخصه كل السلطات ، هذا الملك الذي كانت مشيئته هي القانون . ان اقبال القرن السادس عشر على احياء التاريخ القديم ، اضفى على الحق الروماني قوة جديدة بالنظرة الجديدة التي نظر بها الى الملك « البطل » ، هذا النصف الاله المسيطر الخيّر . فليس الأمر مجرد صورة ذهنية او فكرية تستبد بالفرد او تعبث به وتحفز به الى العمل والتصرف. فالحق الروماني مدين بالنجاح الذي لقيه ، لهذه الاصطلاحات والتعابير السهلة التي عبرت عن خلجات الناس ونزعاتهم الدينية واحاسيسهم الدفينة في هذا العصر الذي وُضع فيه . فالبطل هو النموذج الذي ترغب الشعوب باحتذائه ، والنسج على منواله . فنظرية الحكم المطلق او المستبد تعبر تماماً عن هذه النزعات الفيّاضة التي تجيش بها هذه المجتمعات فكانت تعبيراً صادقاً عن رغبات المجتمع البشري .

صراع الامم

فالحاجة الى سلطان قوي ، هي من هذه المتطلبات التي يقتضيها صراع الامم. فمن بروز الدول الكبرى التي لها من القوة والبطش ما يجعل ملوكها يسيطرون على المنازعات الداخلية ويحزمون امرهم لبسط سيطرتهم في الخارج ، ومن هذه النجاحات التي سجلتها الدول المذكورة في سبيل تحقيق وحدتها الاقتصادية ، انطلقت هذه الحروب العظيمة ، الطويلة الأمد التي خاضتها في سبيل توطيد تفوقها الاقتصادي والسياسي . فالحرب تستدعي حتماً تقوية السلطة وتعزيزها ، وتتطلب حكومة قوية تأخذ بمنتهى السرعة قرارات يسهر على تنفيذها الجميع ، انى واينما كانوا .

النزعات الاقليمية

قيام سلطة قوية في الدولة هو من مقتضيات الامم ومتطلبات كيانها . فالامم هي عبارة عن مجتمعات جغرافية قائمة جنباً الى جنب ، كهذه الولايات والمقاطعات والبلديات والهيئات والمؤسسات البلدية والقروية ، والمنظمات المعترف بها الممثلة بهذه الطبقات الثلاث الاكليروس ، والنبلاء والشعب ، وهيأة موظفي الدولة ، والجامعات والنقابات المهنية . وقد قام بين هذه الممالك وبين هذه المجتمعات ، على اختلاف مسمياتها ، عقود وعهود ، اعترفت رسمياً لكل منها بما لها من ممتلكات ورئاسات وممثلين بحيث تتألف من هذا المجموع ، وحدة تتمتع بقوة وسلطان . وقد انتصبت هذه الهيئات والمنظمات في وجه بعضها البعض ، لتضارب المصالح وتباين المشارب والاهداف . ولذا كان لا بد من ان يكون جانب الملك قوياً ليقضي في اختلافاتها ، على السواء ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، بحيث يؤمن الانسجام التام بين اعمالها وتصرفاتها ، لما فيه الخير العام . وكثيراً ما رأى من مصلحة التاج ان يفيد من هذه الانقسامات بما فيه خير البلاد والامة جمعاء .

المنافسات السيادية

على هذا ، قس ايضاً المنافسات التي شجرت بين ممثلي البيوتات الكبيرة من آل ابولي ، وألب ، في اسبانيا ، وآل شالون ، وآل فرجيز ، وآل هورن ، وآل اغمونت ، في البلاد الواطية ، وفي الفرانش كونتيه ، وآل شالون ، وآل بوربون ،

وآل مونمورنسي وآل ده غيز ، وآل كونديه ، في فرنسا ، وغيرهم كثيرين . وفي هذه المنافسات ما فيها من مخاطر لانها تجيش باعراف الاجيال الوسطى وعاداتها . وقد شدها بعضاً الى بعض : وشائج الدم ، واواصر التبعية ، وروابط المصاهرات والتزاوج ومن التف لفهم من الخدم والحشم ، والازلام والاتباع ، والفدائيين والمتعيشين ، من يبذل دمه ويستعد لارتكاب المظالم لاجلهم . وقد بلغ من حدة المنافسة بين هذه العوائل ومتانة الروابط التي جمعت بينها انه لو اتفق لاحدهم واقترن بنسيبة سيد من هؤلاء الاسياد السند ، مهما كانت القرابة بعيدة بينهما ، فيكون الصهر الجديد قد أمن لنفسه حماية هذا السيد الكبير وتمتع بعطفه وحمايته ، بينما يقطع الصهر الجديد على نفسه عهداً بالذود عنه والتجند لخدمته ، ولو ضد الملك بالذات . وكثيراً ما كان الملك يجد في بطانة هؤلاء الامراء وفي سميتهم ، اتباعاً له وانصاراً ومريدين هم على اتم استعداد لشد ازره اذا ما حدثت احدهم النفس الامارة بالسوء ، بالعصيان والتمرد ، كما كان واثقاً من جهة اخرى ، من ولاء خصوم هؤلاء الامراء له .

الصراع الطبقي

ساعد على تمتين الحكم الاستبدادي والترسيخ له في القلوب والنفوس ، هذا الصراع الطبقي الذي تجلى على اتمه بين الطبقات ، ولا سيا بين البورجوازية منها والنبلاء . فالملك الذي كان يشعر عميقاً بحاجته للطبقة البورجوازية التي كانت بالفعل ، عماد الدولة بما فيها من اموال طائلة ، وبما تقدمه للادارة الملكية من موظفين وعمال ، وبموقفها المعارض ضد الاقطاعيين ، كان من السهل عليه جداً تأمين ولائها ومساندتها لقضايا التاج. فالسلطة الملكية ساعدت كثيراً على تيسير الاثراء وانماء الثروة لدى التجار البورجوازيين بما استلفته منهم من قروض وبما رهنته لديهم من ممتلكات لقاء سلفات ، وبما عهدت اليهم من تكليف جباية الرسوم والعوائد الملكية ، وبما اولتهم من حقوق فرض الاحتكارات، وبحمايتها لهم من مفعول القوانين الكنسية ضد الربا ، وبوقوفهم الى جانبها ضد العراقيل والمصاعب التي كثيراً ما اثارها الامراء في وجه الملك ، وضد موقفهم المتنكر للنقابات العمالية . كذلك ، اتخذت السلطة الملكية رؤساء الحرف وسيجت حولهم باعترافها بها وباقرارها للانظمة والقوانين الاساسية التي سنتها لنفسها، وبما امنته لها من حماية قانونية تمدتهم بالتالي الى زبائنهم، كما صانت ارباحهم من جشع المتمولين وكبار الاغنياء . وقد عطفت السلطة الملكية على البورجوازيين العاملين في القطاع التجاري او في المهن والحرف وحتهم ضد تعديات البروليتاريا الجديدة . وبذلك هيأت لهم الظروف التي تساعدهم على الاثراء، وان يحققوا ما حلموا به من ان يكونوا، يوماً من اصحاب اليسار. فالملك وحده يستطيع ان يحقق لهم هذه الاحلام التي راودتهم وهذا الرقي الاجتماعي، وذلك بايلائهم الوظائف العامة التي في توليها شرف لهم، وبايلائهم إقطاعات لا تعطى الا للنبلاء. وهكذا ارتفع كثيرون من بين البورجوازيين الى طبقة النبلاء. الا ان هؤلاء البورجوازيين المتأنلين عرفوا ان يحافظوا، مع ذلك، على الكثير من أعرافهم وعاداتهم، وعلى ما عرفوا به من روح الفطنة والاعتدال والتروي . فالسيد برنو ، كونت ده غراتفيل ، اسقف اراس ، ومستشار

الامبراطورية، يرسل بتعليماته ونصائحه ، حتى في احلك الظروف وأقسى الحالات التي مرت بها سياستها ، لما فيه خير الامبراطور ومنفعته الخاصة . وتراه يعلق على ما يرده ، في البريد ، من تقارير يبعث بها اليه مفتشوه ، بشأن موسم القمح وحالة الاسواق ، ويقرر بنفسه الظروف الملائمة للبيع باحسن الاسعار وأطيبها ، ويخطط للامور باحسن ما يفعل العاملون على خدمته ، ويرسل بتعاربر ورسائل من اربع صفحات يحشوها بالنصح والارشادات يحث فيها عملاءه على ان يتخلوا لاحد ، عن أي رهن ، مهما كان طفيفاً ، ويوجبهم بان يرفعوا اليه التقارير المفصّلة عن قرائه ، ويشكر الله على انها خالية من كل ما يعبث بها ويعيث فيها ، ويشدد عليهم بألا يفرّطوا باي كمية من الزبدة بدون اذن خاص منه . وهكذا نرى كيف ان الارستقراطية تطبّعت بطبائع البورجوازية . ومع ذلك ، فاذا ما أخذ بعض النبلاء من أصحاب الحسب والنسب والمحتد الرفيع بهذه الطباع ، واذا ما تسربت بعض هذه الاعراف الى أسر نبيلة عن طريق زوجاتهم ونسائهم من الطبقة البرجوازية ، فما زلنا نجد ، مع ذلك ، نوعين او صنفين من النبلاء : نبلاء النسب القدامى ، المزهوين بشموخ وترفع ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ارتقوا الى هذه المرتبة ، بعد جهد وجهود مريرة ، وبعد ان احترف عدد كبير من اعضاء الاسرة ، مهنة السلاح والحرب ، فعدّوا « جديرين » بهذا الشرف الاثيل .

ولم يكن في وسع طبقة النبلاء ان تتحامى من استعلاء الطبقة البورجوازية ، الا اذا لقيت حظوةً في عين الملك . ولما كانت ترى ، في نهاية الامر ان ليس من مهنة ارفع واسمى واشرف من مهنة السلاح ، فقد اهملت العناية بممتلكاتها ، وبحقوقها الاقطاعية . ومن جهة أخرى ، فان هبوط قيمة النقد الشرائية ، احدث هبوطاً ذريعاً في قيمة عائداتها النقدية . فبإمكانها ان تعيش عيشاً كريماً على ممتلكاتها مكتفية بوارداتها ومداخيلها العينية وبالخدمات التي يؤمنها لها ما عندها من خَدَم وحشم . إلا انّ مُغريات العيش في البلاط الملكي والدلّ بالقابها واوسمتها في الابهاء والمجتمعات ، والاستقبالات في المدن ، والاشتراك في التجريدات الحربية البعيدة ، كل هذا يجتذبها ويستغويها . ولذا نراها تمعن في انهاك نفسها وتتهالك ، اكثر فأكثر ، على هذا كله . فحياة البذخ هي من مستلزمات حياة النبل والشرف . فالجود والكرم والسخاء هدف بعض اخلاقية النبيل ، لا يمكن اغفالها او التخلي عنها ، بينما الرقي البورجوازي يقتضي له ، اكثر فأكثر ، وفقاً للشعور النيتشي ، ان يعكسوا الى فضائل ، عورات الاشراف ومساوئهم ، تمييزاً لهم عن البورجوازيين . فقصور النبلاء تمور بجيش من الخدم والحشم ، والاعياد والحفلات الرائعة التي تقام بمناسبة الاعراس تفتح المجال واسعاً للمراقص واعمال الفروسية ، والمسارح ، ومراسم الجنائز تقتضي المئات من القداديس ، ومن الشموع المضاءة ، ومن ارتال الفقراء والارامل مرتدين ثياب الحداد ، حاملين الشموع ، ومبالغ طائلة تُوزّع صَدَقات وحسنات ، كل هذا يستهلك مدخول اسرة بورجوازية محترمة لمدة سنة . ففي حفلة رقص ومخاصرة يقيمها البلاط ، مثلاً ، يرتدي النبيل الذي يحضرها – ولا بد له من حضورها – بزة ، يتمثل فوق

كواهله، ثمن قطيع كامل. وهكذا يرى هذا النبيل نفسه مضطراً ليضع ذاته بخدمة الملك، وان يلتمس منه، وفقاً لمرتبته في سلم النبل والشرف، وظيفة حاكم في ولاية أو مقاطعة أو ناحية، أو وظيفة قائد موقع في قلعة حصينة، أو رتبة زعيم في الجيش، او عريفاً بسيطاً في فرقة صغيرة أو في الحرس الملكي، او ريعاً ثابتاً أو بائنة لابنه المتزوج، او رئاسة دير، او درجة اسقف أو حبر لابنائه الآخرين. وهو لا يستطيع ان يقف بوجه البورجوازي ويحافظ على مركزه في المجتمع، الا بوضع نفسه تحت جناح الملك. فقد خف والحق يقال، كثيراً شأن هذه الاقطاعات التي قامت الى الغرب من نهر الايلب وجبال الألب الدينارية، كما نجد أكثر فأكثر، من جهة ثانية، النبلاء، وعدداً اقل من الاسياد، يستخدمون ما لهم من سلطة وسلطان في اقطاعاتهم، مع ولائهم للرئيس الاعلى، كما نرى، اكثر فأكثر، هيئات ومنظمات اجتماعية، يضفي عليها رئيس الدولة، بصفة وراثية، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها، في الحرب أو في الادارة، مرتبة أعلى، وألقاباً مسلسلة مثل: دوق، ومار كيز، وكونت، وبارون، وغير ذلك من الالقاب العريضة كما يوليها: أوسمة وشارات تشرّفية، ويغدق عليها من مقومات العيش الكريم، وغير ذلك من النعم، وهو مرتبط بالدولة وحدها وما هو متوقف على ادارة ملكها العليا.

ولعل هذا الصراع الطبقي هو اهم عامل يساعد على تطوير الملكيات المستبدة.

حدود السلطة المطلقة

ومع ذلك فقد كانت القوة الفعلية لهذه الملكية المستبدة اقل تأثيراً على سير الحياة اليومية لرعاياها مما تمّ منها للحكومات الديموقراطية التي طلعت في القرن التاسع عشر. فالشريعة الالهية المسيحية، والقوانين الاساسية التي قام عليها النظام الملكي والتي حددت الاوضاع السياسية لكيان الملكية ووجودها، وقانون الحق العام الذي نص على حق التملك، ووضع حدوداً لحريات الفرد والجماعات وبيّن ما لها من حقوق وواجبات والتزامات، وأعراف وعادات، كل هذه العوامل وما اليها، جاءت تحد من سلطة الملك وسلطانه. كذلك يحد من طاقة هذه السلطة، هذا العدد الضئيل من الموظفين وصعوبة المواصلات وندرة وسائلها. فاذا إقتصَرنا على الموظفين المدنيين وحدهم في فرنسا، وفيها اذ ذاك أكبر هيئة للموظفين في اية دولة من دول اوروبا، جمعاء، نرى ان عددهم لم يكن ليتجاوز، حوالي عام ١٥٠٥، بضعة عشر الف موظف في دولة تضم زهاء ١٥ مليون نسمة، وبلغت مساحتها نحواً من ٤٨٠٠٠٠ كلم²، اي بمعدل ١ لكل ٢٥٠ نسمة، وبنسبة او بمعدل موظف واحد لكل ٤٠ كلم² (ففي سنة ١٩٣٤ وفي مجتمع اكثر تعقيداً وتداخلاً في تركيبه وتنظيمه، كانت النسبة بمعدل موظف واحد لكل ٧٠ شخصاً، و ٥٦ موظفاً لكل ٤٠ كلم²) اما نفوذ الادارة المركزية وتأثيرها، فكان، بالطبع، اقل بروزاً واستمراراً وفعالية منه اليوم. فالامراء، والهيئات المنتظمة والمؤسسات كانت تقوم كلها، تحت اشراف الملك ورعايته، بمهام كثيرة هي اليوم من اختصاص الدولة وصلاحياتها الاساسية.

أتاح مبدأ السلطة المطلقة بالفعل ، لهذه الهيئات والمنظمات التي تشكلت من فرقاء متباينين، أصلاً وفصلاً وأوضاعاً ، ان تعمل معاً في هذه المنطقة من التاريخ ، يتوقف عليها مسألة موتها او حياتها . فقد اتاح هذا المبدأ ، عملا بداعي الترابط والاعراف ، ان يحقق، بعد ان عرف كيف يتفادى التطرف والمغالاة التي تجنح اليها نظام تيوذوسيوس ويوستنيانوس ، هذا التوازن الذي تراه ، بالرغم مما أحاق به من عوامل قومية ومؤثرات مختلفة ساعدت على التشتيت والانقسام ، وان يحافظ في وسط هذا المصطرع ، على بقاء هذه الملكيات ، ويؤمن عوامل رقيها وتطورها الصاعد نحو دولة نموذجية ، اكثر مركزية وأكثر وحدة ، لا بد منها لتأمين الازدهار والنجاح .

٢ - الملكية الفرنسية اكثر هذه النماذج تطورا

حققت فرنسا اكثر من أي ملكية اخرى في اوروبا ، شروط الملكية المطلقة ، ولذا كان شارل الثامن عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨) ولويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) وفرنسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) وهنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) من هؤلاء الملوك الذين قبضوا بيد من حديد ، على السلطة في البلاد . فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملك فرنسا ، اعتُرِف له بها قانونا. فهي هبة من حق إلهي . ولذا كان الملك مسؤولاً امام الله وحده ، ويتمتع بالتالي،وحده بكل السلطات العليا والصلاحيات ، كحق اعلان الحرب ، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام الى البلاد، ويفرض ارادته على رعاياه . فهو وحده يملك سلطة التشريع واصدار القوانين لانه هو وحده القانون الحي ؛ وهو وحده الذي يقضي ، لانه وحده القاضي الاعلى ، والحكم الذي يصدره لا يقبل اية مراجعة او نظر من اي مرجع آخر . عليه ، مع ذلك ، ان يحترم المواثيق ويراعي الاعراف والعادات المرعية الاجراء ، وقوانين البلاد الاساسية التي ينص اولها على ان يتوارث الملك احد افراد اسرة هوغ كابت ، ماجداً عن ماجد ممثل بالابن البكر في الاسرة ، دون ان يكون للملك اي حق بان يوصي بخلاف ذلك او ان يقرر ما يتعارض مع العرف والتقليد المتبع ، كما يترتب عليه ان يحترم القسم الذي اداه يوم تكريسه ، هذا القسم الذي يلقي عليه مسؤولية الدفاع عن الكنيسة ضد الهرطقة .

وسائل العمل المتوفرة للملك

لمنذ الفشل الذي آل اليه عام ١٤٨٤ ، اجتماع البرلمان (ممثلي الطبقات)، ليس من حريات عامة او خاصة هناك في وسعها الوقوف بوجه الملك او الحد من سلطته . فهو السيد المطلق في البلاد ، المتصرف بالضرائب على هواه ، حتى في هذه الولايات التي تحدد فيها المجالس العامة (البرلمان) هذه الضرائب كولاية بورغونيا ، ونورمنديا وبروفانس . فتحديدها لها ليس بحق تتمتع به ، بل مجرد هبة او انعام او تسامح من صاحب الجلالة ، يمكن له الغاؤه عندما يريد . وهذا الانعام ، لا تتعدى حدوده ، حرية المناقشة لقيمة الضريبة ومبلغها النهائي .

فالملك هو رأس القضاء الاعلى . فالمجالس التمثيلية ، البرلمان ، التي كان فيها ممثلو الطبقات الثلاث يحقّون بمثل الملك عملاً بالاعراف المتبعة ، حل محلها المجلس القضائي الذي يترأسه قاضٍ اعلى او ناظر العدلية او من ينوب عنهما ، مع عدد من المستشارين الملكيين . وقد جرى إلغاء هذه البرلمانات او المجالس العامة ، بعد فرنسوا الاول . وللملك جيش دائم ، مُحترف ، مجند ، يرتفع عدده الى ٨٠٠٠٠ كما حصل سنة ١٥١٣ ، تُدفع مرتبات افراده وضباطه من خزينة الملك . كما تدفع لهؤلاء الضباط والقادة المشرفين على امن البلاد . وتوزع وحدات الجيش على ٣٠٠ مركز او قلعة حصينة : بين مدينة او حصن . وللملك موظفوه ، يزداد عددهم ويرتفع ، سنة بعد سنة ، وفقاً لحاجة الادارة . فكل خدمة عامة هي وظيفة ، وكل وظيفة هي هبة من لدُن الملك . فكل المأمورين العاملين في الخدمة العامة يعملون بوصفهم ممثلين للملك . اما عددهم فيتراوح بين ١٠-١٢ الف موظف يؤلفون اكبر هيئة ادارية تمّت للملك في اوروبا ، يسهرون على تنفيذ رغبات الملك وارادته السنية . ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين ضم بين اعضائه بعض الخاصة المجربين ، يبذلون له النصح المملل ويساعدونه بآرائهم ، على اتخاذ القرارات السياسية ، كما يوجد مجلس أوسع يضم فيمن يضمهم ، مستشار التاج ، وصاحب الالتماسات للنظر في ما خص امور القضاء والادارة . وهنالك مجلس اعلى للعدل ينظر ، باسم الملك ، في مراجعة القضايا ، والقضايا « المحفوظة » للملك . ويقوم في باريس ، وفي هذه الولايات التي جرى دمجها حديثاً مع املاك التاج يقوم برلمان او مجلس ممثلين يتألف من قضاة يعملون في اعداد القوانين ووضعها وتهيئة القرارات التي يجب اتخاذها ، كما انه يقضي في الناس ويتولى النظر في الامور الادارية . وعلى رأس الولايات حكام عامون يتمتعون بصلاحيات وسلطات واسعة . وكان الملك يتحسّب كثيراً لتصرف هؤلاء الحكام الذين كثيراً ما وقفوا الى جانب مجلس التمثيل ، وهذا ما حمله في سنة ١٥٤٥ على اصدار رسوم بالغاء وظيفة حاكم الولاية ، الا في هذه الولايات الواقعة على الحدود . ويلي المجلس التمثيلي او البرلمان شأناً ، القاضي او ناظر العدل *Senéchal* او من اليهم في المجلس ، لهم صلاحيات القضاة والنظر في امور الناس . اما امور المملكة المالية ، فكانت من اختصاص مجلس مستشاري الملك ويتولى امر مراقبتها مجلس المحاسبة الذي ادخل عليه الملك فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٣ ، تعديلات جديدة حسنت كثيراً من فعاليته ، وذلك بانشائه صندوق التوفير ، وهو صندوق يمثل الادارة المركزية ويشرف على واردات الدولة ومصروفاتها . ويشرف المفتشون الماليون على صناديق بيت المال في الولايات . وفي سنة ١٥٤٣ ، انشىء في البلاد ١٦ مركزاً عاماً للمحاسبة المالية في طول البلاد وعرضها . وهكذا كان يتسع نطاق العمل وتتشعب الادارة الملكية في كل مرفق من مرافق البلاد الرئيسية .

الحكم المطلق والكنيسة

استطاعت الملكية ، بفضل ما تمّ لها من وسائل العمل والتصرف ، ان تسيطر بالفعل على الكنيسة . فالاساقفة ورؤساء الاديار ملزمون بالولاء للملك والطاعة له وبالدفاع عنه . فالملك هو الرئيس الزمني

الكنيسة ، وهو الذي يقرر ما تصدره الكنيسة من قوانين وتتخذ من اجراءات . وللملك وحده الحق بدعوة الجامع المسكونية للانعقاد، وعليه تقع مهمة المحافظة على الوقف واملاك الكنيسة. وهذه المعاهدة الكنسية التي عقدها ملك فرنسا عام ١٥١٦ ، تعترف له بحق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سيامتهم ، من قبل البابا ، وفقاً للمراسم المتبعة ، فجاء هذا الحق ذريعة بين يديه ، لاجتذاب ولاء الاسر النبيلة ، طمعاً منها بالاحتفاظ للصغار من ابنائها، بالمناصب الكنسية الغنية الموارد . وباستطاعة الملك ان يرغم الكنيسة ورجال الدين على المساهمة ، كلا ضمن طاقته ، بالضرائب التي يفرضها . وبموجب الحق الملكي الذي كان يدعيه لنفسه ، كان الملك يتقاضى ريع الاسقفيات والاديار الشاغرة ، لعدم وجود رئيس شرعي لها . وكان مجلس الملك يشرف على ادارة الكنيسة كما ان مجالس الممثلين الملكيين كانوا يخضعون رجال الاكليروس لاختصاص المحاكم الملكية ، كما كان من حقهم ان يجردوا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكون ، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الامن ويتعهد النظام في الكنيسة

الحكم المطلق ونظام الاقطاع

الملك هو السيد السند لجميع اصحاب الاقطاعات . ففي المملكة ليس سوى اتباع للملك . فكل الامارات هي إقطاعات ترتبط بالملك ، كما ان كل سيد او آمر ، مرجعه الاول والاخير هو الملك . فلا يستطيع الامير ان يقيم مجالس العدل او ان يشيد له قصراً في الامارة او الولاية او ان يبدل او يغير من اسمه بدون ان يعرض نفسه للملاحقات القانونية او للمصادرة. فالاقطاعيون ليسوا سوى رعايا الملك الذي يفرض ارادته على الامارة . كذلك يفرض الرسوم ويعين الضرائب المترتبة على اتباع الامير او السيد ، ويخولهم حق استيفاء رسوم خاصة بهم . لكل رعايا الدولة الحق بان يميزوا الاحكام الصادرة عليهم من محاكم الامارة الى قضاء الملك . وهناك عدد كبير من القضايا يحتفظ النظر فيها ، لمحاكم الملك وحدها . ولدى اي شبهة ، يحق للقاضي الملكي ان يطلب الاطلاع على سير اي دعوى او قضية تجري امام محاكم الامارة ، لاشتباهه في امر ما ، او سوء ظن ، او لارتياب بعدم اختصاص المحكمة للنظر في القضية . وقد عرف الملك ان يضع حداً للحروب الاقطاعية ، وآخر حرب من هذا النوع هي الحرب، التي خاضها امراء آل فوا *Foix* (١٤٨٤ – ١٥١٢) . ويرفع الامراء اختلافاتهم ومشاجراتهم للتحكيم امام قضاة الملك . وهكذا انتهت ، دونما رجعة ، السيادة الاقطاعية . وفي سنة ١٥٢٥ ، ضم فرنسوا الاول ، الى املاكه، دوقية بوربون واملاكها السيادية بعد ان تم التشهير بصاحبها ونودي به خائناً، متمرداً على الملك . وفي سنة ١٥٣٢ ، تم عقد اتفاق ، ضمت بموجبه مقاطعة بريتانيا الى التاج ، هي الاخرى . وهكذا لم يبق في الجنوب يتمتع بشيء من السيادة الا امارة آل ألبريه .

الحكم المطلق والمجتمعات المحلية

فالملك هو السيد في الولايات والامارات المؤتلفة، وهي هذه المجتمعات القديمة التي تتألف من البلديات والمدن القنصلية ،

له الحق ان يعيد النظر في هذه الاتفاقات التي ربطت الولاية بالتاج ، وذلك بما فيه خير المصلحة العامة كما له الحق ان يحوّل مجلس القضاء فيها الى برلمان ، ورئيس الادارة فيها الى حاكم عام ، وان يعهد بالوظائف الكبرى الى موظفين من خارج الولاية ، وان يعهد برئاسة المجلس والهيئات القائمة فيها الى موظفين يعينهم مباشرة . كذلك يضع تحت مراقبته عمليات الانتخابات البلدية ، ويراقب اعمال المجلس والهيئات المنتخبة ، ويوزع ما لها من صلاحيات قضائية ومالية حسبما يراه مناسباً . كذلك يضع انظمة ومراتب مسلسلة للنقابات ويشكل للصناع ولممثلي الطبقات السفلى في المدن ، هيئات مسلسلة السلطة ، تحت ادارة موظفين ملكيين يأخذون على عهدتهم تنظيم المهن الحرة .

الحكم المطلق والحياة الاقتصادية

يحاول الملك ، من جهة، ان يوجه حياة البلاد الاقتصادية ناهجاً في المجال الاقتصادي سياسة قومية او مصلحية تعود بالخير العميم على الجميع ، وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد وتوفير المعدن الثمين ، عصب الشعب وقوته ، كما يحلو للمستشار دوبرات (١٥١٧)ان يعلنه، وذلك عن طريق قوانين تحدّ من الإسراف في الانفاق ، كما تقيّد حركة اخراج العملة الى الخارج ، بدلاً من فرض رسوم على الاستيراد لا تتوفر للملك الوسائل الثمينة بجبايتها على الوجه الاكمل .

وهكذا تنعم كل طبقات الشعب بموارف الملك يوزعها بسخاء على رعاياه كل بحسب استحقاقه ، ولا سيما تلك التي تضفي على حامليها الاحترام ، تؤمن لهم النفع : كالتعويضات والأعطيات، والإنعامات والاعفاءات او الاوسمة الفخرية وألقاب الشرف والنبل، او غير ذلك. والبلاط ، هذه الهيئة الجديدة او الجهاز الجديد الذي خلقه الحكم المطلق على صورته ومثاله ، اصبح الآن مسلكاً او منهجاً مسلسلاً يحمل الكثير من عوامل الاغراء والجذب .

وهكذا فطبقات الشعب الثلاث ، تعمل جميعها على توطيد نظام الحكم المستبد ، بالرغم مما يميز الواحدة عن الاخرى من الامتيازات ،وما تنعم به من إعفاءات واستثناءات وغير ذلك من الروابط التي تشدها الى الملك باوثق اواصر الولاء ، اذ في منافساتها الواحدة للاخرى ما يكبح من جماحها .

حدود الملكية المطلقة في فرنسا

وهذه السلطة الواسعة التي يتمتع بها الملك لها بالفعل ، ما يحدّ منها ويقيدها . فاذا كانت مشيئة الملك ورغبته هي التي تفوز في نهاية الامر وتنتصر ، فقلة عدد الموظفين نسبياً ، وبطء المواصلات لا يسمحان لها بالتدخل دوماً وفي كل مكان ، بالشكل المرتجى .فالسلطات المحلية لا تزال تتمتع بعد ،بشيء من المبادرة ، في حياة الولاية ونشاطها . ومن جهة اخرى ، فهذا الاضطراب او القلق الفكري الذي ران على الوضع القائم ، اذ ذاك ، جعل المؤسسات العامة تبدو وكأنها بالفعل ، اوضاع وحالات متباينة كثيراً بعضها عن بعض،تلفها حركة متصلة من التبدل والتحول والتغير .

فالوظائف ليست بالحقيقة سوى اوضاع او حالات يعمل فيها فرد او عدة افراد لا تخصص لهم ولا مهارات عندهم ، يتمتعون بحقوق وصلاحيات ويقومون بنشاطات تختلف نوعاً وتتوزع بدداً بين العديد من السيادات والبلديات والمصالح والمؤسسات الكنسية ، من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، تحديد نطاق اختصاصاتها .

بيع الوظائف العامة والاتجار بها

ساعد مسلك الموظفين انفسهم وتصرفاتهم ، اذ ذاك ، على التخفيف او التحلل من ربقة سلطة الملك . فقد جرى العرف ، منذ عهد بعيد ، ان يقدم طلاب الوظائف ، مكافآت مالية لمن من موظفي المعية ومستشاري الملك وغيرهم من ذوي الربط والحل ، يساعدهم على الحصول على وظيفة ، وقد راح الملوك انفسهم يستثمرون هذا العرف ، فيبيعون ، لقاء دين لا يستوفى ابداً ، بعض الوظائف التابعة للادارة المالية ، او للقضاء . وقد استطاع الملك فرنسوا الاول ، منذ عام ١٥٢٥ ، ان يؤمن له ريعاً او دخلاً خاصاً من بيع وظائف طارئة غير ملحوظة . « فكان بعمله هذا كمن يفتح دكاناً لتصريف مثل هذه البضائع» . كذلك اخذ بعض الملوك يسمح لبعض الموظفين ان يبيعوا ، لقاء مبلغ معين ، الوظائف التي لهم ، لشخص آخر او يحتفظون بها ، ضمن شروط ورسوم معينة ، لاولادهم وبنيهم . وقد اتسعت هذه الاعراف وانتظم العمل بها على مر السنين. بحيث أصبحت تقليداً مكرساً وامراً معترفاً به . فقد كان من بعض نتائج هذه العادة ان رحبت من نطاق ملاك الوظائف العامة ، وان تخلق ، ضمن الادارة ، هيئة خاصة من الموظفين ، بهتت مسؤولياتهم وغامت صلاحياتهم ، فاستماتوا مع ذلك في الدفاع عنها والتسييج حولها ، لما كانت تمثله لاصحابها ولذويهم ، من مورد رزق لا ينضب معينه . وقد اصبح هؤلاء الموظفون اصحاب حق في الوظائف التي يضطلعون بمهامها ، لا يستطيع الملك انتزاعها منهم الا في حالات خاصة ، او اذا دفع لاصحابها تعويضاً لائقاً عنها او بعد مراجعات قضائية طويلة . وهكذا اصبح الموظفون « طبقة رابعة » في الدولة ، تتراخى عراها اكثر فاكثر ، مع الملك : ولهذا رأى العاهل نفسه مضطراً ، لا سيا بعد عام ١٥٥٠ ، للجوء الى تعيين مفوضين او ممثلين له ، يعزلهم عندما يريد ، يعهد اليهم السهر على تنفيذ قراراته ووضعها موضع العمل بها .

الحروب الدينية

ان وفاة هنري الثاني المبكرة على اثر اصابته بطعنة قاتلة في الالعاب الرياضية. ترك مصير فرنسا بيد ملوك قاصرين هم : فرنسوا الثاني وشارل التاسع اللذين ملكا تحت وصاية امها كاترين ده مديتشي . وراح بعض زعماء الارستوقراطية من آل ده غيز وآل ده بوربون ، يتنافسون على الاستئثار بالنفوذ و يعتمد الفريق الاول على الكاثوليك كما يعتمد الفريق الثاني على البروتستانت . انطلقت شرارة الحرب الدينية من مذبحة البروتستانت على يد الكاثوليك ، يوم عيد القديس برتلماوس (٢٤ آب ١٥٧٢) فحملت في ثناياها خطراً كبيراً على الملكية في فرنسا . وراح جميع المغالين والمتطرفين ، من اي لون

كانوا « يهاجون الملك . وفي عهد الملك هنري الثالث حاولت العصبة الكاثوليكية ان تعيد ، عام ١٥٧٦ ، الى اصحاب الامارات والاقطاعات الكبيرة ، السلطة التي كانو يتمتعون بها من قبل ، كما حاولوا الرجوع الى التقسيمات الادارية المعمول بها قبلاً . وقد سرى بين اعضاء هذه العصبة ، عام ١٥٨٥ ، نزعات ديموقراطية ، اذ بدا لبعض المفكرين من البروتستانت ان يحدّوا من سلطة الملك بواسطة مجالس وهيئات انتخابية اعضاؤها من ممثلي الشعب أخذاً بالتقاليد والاعراف المرعية. (هوتمان في كتابه: « فرنسا الفاليّة ») وعملا منهم بمنطوق العقد الاجتماعي *Vindiciae contra Tyrannos* كما ان مجالس ممثلي الطبقات (برلمان) دعيت مراراً للاجتماع . وقد كان لاستحكام الفوضى في البلاد ، والسياسة الاسبانية النزعة التي انتهجها اعضاء العصبة الكاثوليكية ، المضادة تماماً لمصالح القومية الفرنسية العليا ، ان جاءت بنتائج تخدم مصلحة هنري الرابع الذي اعتلى العرش، اثر مقتل هنري الثالث على يد راهب متعصب يدعى رافياك (١٥٨٩) وبعد ان جحد البروتستانتية (٢٥ شباط ١٥٩٤) واعاد السلام والهدوء الى البلاد ، بوضع حد نهائي لهذه الحروب الدينية والاجنبية التي زرعت البلاد خراباً ودماراً ، وذلك باصداره « فرمان نانت » (١٥٩٥) وعقده معاهدة فيرفين (١٥٩٨) .

وهذه الحروب الطويلة ، الدامية ، أدّت بالطبع الى تعزيز الحكم المطلق في البلاد . وعلى عكس ما تم في انكلترا ، فقد حدّ من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية كما حدّ من تطور الحركة البورجوازية فيها . فقد هاجر من البلاد ، عدد كبير من اصحاب الصنائع والحرف والفنون ، الى انكلترا ، حاملين معهم اسرار صناعات كثيرة . كذلك حدّ من تطور البلاد الاقتصادي بعد ان عمّها الخراب وجف فيها الزرع والضرع. واستطاعت الحكومة ، مع ذلك ، ان تمضي قدماً في توجيه الحياة الصناعية في البلاد ، عن طريق الموظفين الذين استمروا في تطبيق القوانين ، في المناطق التي انكمش فيها ظل الملك ، محاولين بذلك ، مضاعفة نفوذهم فالمراسيم التي صدرت عام ١٥٨١ ، و ١٥٧٩ ، بصدد النقابات العمالية والانظمة الخاصة التي وضعت في هذه الحقبة بالذات، حدّت كثيراً من عدد العمال المتدربين ، كما حددت بالتالي مدة التدريب وأعاقت ، الى درجة كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التي فرضها الملك من جهة ، والثوار من جهة ثانية ، في المناطق والاقاليم التي سيطروا عليها ، حالت دون تكوين رؤوس اموال ضخمة في البلاد . والتطور الذي سجلته الطبقة البورجوازية العليا جاء ادنى بكثير من امثاله في كل من انكلترا والولايات المتحدة ، بينما لم تقطع طبقة الاشراف ، في هذا المجال ، الشوط الذي قطعته البورجوازية ، في هذه الحقبة . فلم تستبدل اوضاع الحكم المطلق فيها باوضاع الملكية المعتدلة او الجمهورية البورجوازية .

الملكيات الاوروبية على شاكلة الملكية الفرنسية

هنالك في اوروبا ، دول عديدة ، جاء الحكم فيها والظروف المحيطة به ، شبيهاً من جميع الوجوه ، ان لم نقل مماثلا

لما توافر من ظروف الحكم واوضاعه في فرنسا . من هذه الدول ، مثلاً ، اسبانيا التي ُنظر اليها كدولة اخذت ، اذ ذاك ، بالتقهقر الاقتصادي . كان الحكم فيها استبدادياً في عهد ملوكها : شارل الخامس (١٥١٦ – ١٥٥٥) وعهد ابنه فيليب الثاني (١٥٥٥ – ١٥٩٨) ، وبعض الدول الايطالية ، كنابولي التي وقعت ضمن الممتلكات الاسبانيـة ، ودولة سافوى ، بيامونت ، وبعض الدويلات الالمانية القائمة في قلب الامبراطورية المقدسة ، التي استحالت ملكيات مستبدة ، مطلقة ، ومستقلة بالفعل ، بفضل ما تم لها من تنظيم عسكري وجيوش جديدة ، وبفضل تأثير الحق الروماني الذي أخذ به وُعمل بمنطوقه من جديد ، وذلك بالرغم من الجهود والمحاولات التي بذلها شارل الخامس لتوحيد الامبراطورية وجعلها اكثر مركزية .

٣ – الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

هنالك ، مع ذلك، دول يختلف نظام الحكم فيها ويتباين تبايناً كبيراً . فقد برز في البلدان التي اشتدّ فيها ساعد الرأسمالية والبورجوازية اكثر مما اشتد في فرنسا ، ملكيـة معتدلة او جمهورية بورجوازية جاءت على نسبة تطور البورجوازية فيها . اما في البلدان الاخرى التي لم يتم للبورجوازية فيها مثل هذا الشأن ولم تبلغ مثل هذا الشأو في تطورها ، فقد قامت نظُم ملكية على اساس إقطاعي ذات طابع ارستوقراطي. فاختصاراً للوقت، نضرب في ما يلي بعض الامثلة على ذلك .

انكلترا

حققت انكلترا ، بالفعل ، خلال القرن السادس عشر ، نظام الحكم المطلق ، وهو نظام بعث في البلاد تطوراً اجتماعيـاً سريعاً ، اذ ما كادت تأذن شمس القرن للمغيب ، حتى كان هذا النظام قد فات ومضى قبل ان يسجل قيامه رسمياً .

مبادىء الدستور الانكليزي

ففي الحقبة الاولى من عهد هنري الثامن (١٤٨٥ – ١٥٠٩) نجد بالفعل عدداً من المبادىء فرضها النبلاء على الملكية والزموها الاخذ بها والعمل بموجبها ، خلال فترة طويلة سابقة من التطور يحلو للفقهاء تسميها بدقة . وقد خلقت هذه المبادىء صورة ذهنية ، جماعية تبلورت واستقرت نهائياً وتم الاخذ بها في الظروف القائمة اذ ذاك . فقد علم الفقهاء بأن القانون الاساسي او الدستور هو اول ما يرثه الملك ، لانه لم يصبح ملكاً الا بفضل هذا القانون ، وباسمه ، ولولا وجود هذا القانون لما صار اليـه الملك صاغراً . فالقانون هو اذاً، فوق الملك. وهنالك قوانين اخرى تعيش في اذهان الناس وخواطرهم وان لم تكتب او يجر تطبيقها باستمرار . فليس باستطاعة الملك ان يفرض على البلاد ، وان يحمّل العباد ، من رعاياه ضرائب جديدة ،كما انه ليس باستطاعته ان يسن قانوناً جديداً او ان يضع تشريعاً جديداً دون موافقة البرلمان وهـو مجلس يتألف من ممثلين عن الاكليروس والنبلاء فيؤلفون معاً مجلس اللوردات، ومن ممثلين لاصحاب الاراضـي الاحرار ، والبورجوازيين الذين يؤلفون مجلس العموم . لايمكن سجن اي كان بدون مذكرة

توقيف تبين نوع المخالفة التي استوجبت توقيفه ، وبدون ان تجري محاكمته بالسرعة المطلوبة . فجريرة المظنون عليه او براءته يقررها حكم صادر عن هيئة محكمين تضم ١٢ عضواً . يمكن ملاحقة الموظفين قضائياً امام المحاكم لمخالفات أتوها اثناء الوظيفة ، كذلك يمكن ملاحقة وزراء الملك من قبل مجلس العموم .

لدى الملك عدد ضئيل نسبياً من الموظفين ، فالجانب الاكبر من القضاء والادارة ، كان يؤمنه ، باسم الملك ، عدد من الاعيان يعهد اليهم بهذه المهمات . اما انكلترا فقد قسمت ادارياً ، الى مقاطعات (كونتات) يمثل الملك فيها لورد نائب يعيّن من بين نبلاء المقاطعة ويتولى قيادة المليشيا ، يساعده مأمور أمن (شريف) وقضاة صلح ، يجري انتقاؤهم من بين طبقة الاشراف الوسطى (*Squires*) او من بين النبلاء اصحاب العقارات ، او من بين ملاكين اغنياء (*Gentry*) يتولون امور القضاء واصدار احكام العدل . فليس للملك عليهم السلطة التي له على الموظفين المحترفين ، الغرباء عن مقاطعاتهم الاصلية . اما في هذا القسم الجبلي الواقع الى الشمال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا سلطتهم كاملة . وهذا التقسيم لم يعمل به في بلاد الغال حتى عام ١٥٣٦ . كل هذا التنظيم كان من شأنه ان يؤمن للطبقة الارستوقراطية ولبعض المدن الانكليزية التقدم المطرد وحق الصدارة .

الحكم المطلق القائم بالفعل

ومع هذا وذاك ، فالملك هنري السابع تصرف تصرف ملك مطلق ، مستبد ، وعلى خطاه سار خلفه هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) واكثر ، ادوارد السادس (١٥٤٧ — ١٥٥٣) وماري تيودور . وفي آخر المطاف بلغ الحكم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٥٩ — ١٦٠٣) . عندما اعتلى هنري السابع العرش ، وجد المملكة فريسة حرب أهلية ضروس ، تاقت من ملء جوارحها ، الى الهدوء والسلام وقيام سلطة تثبت وتجودها في البلاد . فقد ذهبت حرب الوردتين بزهرة النبلاء وخيرة الاشراف في البلاد . فالواصلون حديثاً منهم لهذه المرتبة ، دانوا للملك وحده ، بهذا الفضل والشرف يوليه اياهم . اما البرلمان ، فقد كان طوع بنان الملك . والشعور القوي الذي بعثته في النفوس حرب المائة سنة ، والحقد الذي جاشت به صدور الانكليز ضد فرنسا ، والخوف الذي صعرته في قلوبهم ، كل ذلك جاء ظهيراً للملك معززاً للسلطة الملكية المستبدة . كذلك عرف العرش البريطاني ان يفيد كثيراً ، من الافكار التقدمية الجديدة والمرئيات الذهنية التي طلعت بها النهضة الاوروبية الثقافية ، والفنية والتي تغلغلت في جميع انحاء اوروبا باكراً وانتشرت فيها ايما انتشار . ولم يلبث الانكليز ان غرقوا الى ما فوق انوفهم في القضايا الدينية وما اثارته في البلاد من جدل ومناقشات ومشاحنات، فزهدوا معها بالامور السياسية وتركوا امر الحكم للملك يتدبر شؤونه كما يريده . وقد حملتهم الروح القومية التي استعرت في نفوسهم اذ ذاك ، على الوقوف موقفاً ، معادياً للبابا ، كما حملت على الوقوف مثل هذا الموقف الصلب

الخشن من البابا ، كلاً من الملك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليصابات ، لمزادهم شعبية في البلاد كما حمل الشعب على التعلق بهم . ثم جاء الازدهار الاقتصادي الذي لعبت الملكية في تحقيقه ، دوراً حاسماً ، فساعد من جانبه على تقوية الطبقة البورجوازية التي شعرت بحاجة ماسة لسلطة الملك ورعايته .

الازدهار الرأسمالي في المجتمع البريطاني يشدد حقوق الحكم المطلق

تألف قوام الشعب البريطاني ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، في الدرجة الاولى ، من مزارعين ورعاة . وقد كان الانكليز قد أخذوا بتحويل الصوف الذي تنتجه بلادهم الى منسوجات واقمشة خفيفة ، ارخص سعراً بكثير من الاجواخ التي كانت تنتجها مقاطعة الفلاندر ، فراحوا ينافسونها في أسواق القارة حتى وفي بلدان الشرق الادنى . وقد عرف الملك هنري السابع ان يحمي الصناعة في البلاد بفرضه رسوماً على الصوف الخام المصدّر للخارج مما زاد في اسعار هذا الصوف وبالتالي ، في أسعار الاجواخ التي يحيكها سكان الفلاندر من الصوف الانكليزي . ونفخ هنري الثامن بدوره الحماس وأدخل النشاط على الاقتصاد الانكليزي ، عندما راح يطرح في التداول ، بين ١٥٣٦ – ١٥٣٩ ، ممتلكات الاديار والاوقاف . وحدث في البلاد ، بفضل هذا الدفع الجديد للرأس المال ، ثورة اقتصادية حقيقية تمطّت في جميع جنبات انكلترا اذ انه ما كاد يطل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى اصبحت انكلترا مركزاً كبيراً للتجارة البحرية وللصناعة الضخمة المتمركزة كان لا بد من حمايتها . وراحت طبقة بورجوازية ثرية تقبل على شراء الاراضي كما أخذت طبقة النبلاء القديمة تتهافت على الوظائف المحلية ، فظهرت بين الفئة والاخرى بوادر صراع طبقي في البلاد ، الا انه صراع اقل عنفاً مما نرى من امثاله في الممالك التي قامت الى الجنوب الشرقي من انكلترا حيث كان صغار النبلاء يعملون في الزراعة المرتكزة على رأس المال ، أو في الاعمال التجارية الكبرى ، وهو صراع عرف شيئاً من الشدة والحدة في بعض المناطق الانكليزية بحيث ان بعض كبار ممثلي الاقطاعية امثال كونت نورثمبرلاند وكونت وستمورلاند قاموا ، عام ١٥٦٩ ، بثورة مسلحة ضد الملكة اليصابات ، رمت من جهة ، للحد من حركة الوصوليين الجدد ، ومن جهة اخرى ، للدفاع عن الكثلكة في شخص ممثلتها ماري ستيوارت . انتصرت الملكة في نهاية الامر وجاء فوزها هذا ، انتصاراً للطبقة الاجتماعية الرأسمالية الجديدة .

على عكس ذلك تماماً ، اضطرت الملكية ان تكبح من جماح البروليتاريا الجديدة التي ثارت عام ١٥٤٩ ، وهي طبقة تألفت من مزارعين يستثمرون الاراضي التي استأجروها او اكتروها من مالكيها ، فراح هؤلاء ينتزعونها منهم بالقوة والعنف ويحولونها الى مراع خضراء ترتادها قطعان الغنم طمعاً بأصوافها . وهكذا نرى كيف ان احتياجات رجال المال وصراع الطبقات بعضها مع بعض ساعد كثيراً على تقوية جانب الملكية وبالتالي على ترسيخ الحكم المطلق في البلاد .

تمكن هنري الثامن وخلفاؤه من تأمين موارد لهم بفرض قروض الزامية على السكان وحملهم على التبرع لخزينة الدولة ، او بفرض رسوم جمركية جديدة وذلك باصدارهم قرارات جديدة اصبحت ملزمة بمجرد اعلانها ، وهي طريقة حازت قبول البرلمان فاقرها واعترف بقانونيتها الدستورية ، بين ١٥٣٩ — ١٥٤٩ ، وفرضت بمراسيم المحدث في مجلس الملك . وارغم الفرع القضائي التابع لهذا المجلس ، والمعروف بالمجلس المرصع بالنجوم ، الذي اعيد تنظيمه عام ١٤١٧ ثم المستشار وولسي بعده ، عام ١٥١٧ ، كل من تجرأ على الانتقاص من الامتيازات الملكية ، كمديري الأمن وقضاة الصلح واي انجليزي آخر على الخضوع للملك وعلى الامتثال لارادته السنية . وقد ساعد مجلس الملك الخاص ، بعد ان تم تركيزه نهائياً عام ١٥٤٠ ، على تركيز الوحدة الوطنية ، باشرافه على المجالس والهيئات الخاصة الاخرى وتوجيهها . والبرلمانات التي قلما دعيت للاجتماع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك يعيّن ، هو نفسه ، اسماء المرشحين لانتخابات مجلس العموم ، اما مجلس الاعيان او اللوردات ، فقد حل محل رؤساء الاديار الذين كانوا اعضاء فيه ، الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قبل الملك .

بلغ الحكم الاستبدادي ذروته في انكلترا ، في عهد الملكة اليصابات التي احسنت الى اقصى حد ، هذه الاساليب بالذات التي أتينا على وصفها . فقد راحت محكمة العدل العليا (١٥٨٣) تحكم وتصدر احكامها دون اللجوء الى محكمين ، على كل من يحاول الانتقاص من سلطة الملكة السامية او من حق ولايتها (قانون ١٥٥٩) . ونظار الدولة اصبحوا بالفعل وزراء . منهم مثلاً وليم سسل الذي عين عام ١٥٧١ ، لورد بورلاي ، وقام اذ ذاك بدور فعال . وراحت الحكومة الملكية تنهج سياسة تجارية فتتدخل باستمرار بحياة البلاد الاقتصادية ، تشجيعاً منها للنشاطات الفردية . ولما كانت الدولة تعيش تحت كابوس الغزو الاسباني المدام ، فقد اخذت الحكومة تنمي ، الى اقصى حد ، مواردها العامة ووسائل دفاعها ، كالبحرية والصناعات الحربية التي يقتضيها النهوض بآلة الحرب . فالجوائز التشجيعية التي خصصت لبناة السفن الجديدة ، والقوانين التي ألزمت الناس التعويل ، في معيشتهم ، على استهلاك السمك ، وقانون الملاحة الذي صدر عام ١٥٥٩ ، والرسوم الجمركية الجديدة التي اصابت البضائع المستوردة على سفن اجنبية ، وانشاء شركات تجارية ذات طابع احتكاري ، والمنافسة الشديدة ضد الهانزا ، كل هذه التدابير والاجراءات ، كان من شأنها ان تؤمن للبلاد حاجتها من السفن والبحارة والتجارة . فقد أدى المرسوم الذي صدر عام ١٥٦٣ بصدد العمل والعمال ، الى تأمين الاستقرار في اليد العاملة ، وساعد كثيراً على توسيع التدريب المهني والمسلكي للبحارة ووضع الحدود التي تميز بين معلمي الحرف والرأسماليين . ان انشاء الاحتكارات والشركات التجارية الجديدة ، والعمل على توطين جاليات اجنبية دخلت البلاد هرباً من الضغط الديني الذي تعرضت في القارة ، بعد ان اغدقت عليها الاعفاءات والانعامات المشجعة ، كل ذلك ساعد كثيراً على انشاء صناعات جديده ، بينها ، في الدرجة الاولى ، تلك التي تؤمن للبلاد حاجاتها الملحة من

المدافع والبارود ، والحديد والقصدير ، والرصاص والكبريت ، وملح البارود ، ثم في الدرجة الثانية ، صناعة الحياكة والنسيج كالاقمشة الصوفية الخفيفة ، والقطن المستورد الى منشستر ومن انفرس ، وغير ذلك من الخامات . ومنذ عام ١٥٧١ ، جرى تطبيق النظام الذي وُضع عام ١٥٤٥ ، هذا النظام الذي اجاز الدَّين بفائدة . والاصلاح النقدي الذي تم في البلاد واعطى انكلترا اقوى نقد في اوروبا على الاطلاق ، واثبته ، واخيراً وليس آخراً ، السماح بتصدير القمح بشروط وابقاء اسعاره في الداخل معتدلة ، كل هذا ادى الى ازدهار الزراعة في البلاد .

معارضة الحكم المطلق

وهذا النمو الاقتصادي الذي جاء نتيجة للحكم المطلق أفضى الى قيام معارضة للحد من طغيان هذا الحكم . فمنذ حوالي عام ١٥٧٥ ، ازداد عدد كبار التجار زيادة كبيرة كما ازداد عدد الصناعيين واصحاب الصناعة الضخمة المتمركزة . فقد اخذ هذا الفريق من الناس يعون ما تم لهم من قوة وطاقة كما شعروا بالحاجة للمزيد من حرية التصرف في اعمالهم التجارية . ولذا راحوا يقابلون بعداء كل تدبير يراد به الحد من حرية التصرف . ويبدو انهم اخذوا يشعرون بشيء من الحفيظة نحو السلطة الاستبدادية التي تصدر عنها هذه القوانين . وفي الوقت ذاته تكاثر عدد فرقة « المطهرون » *Puritains* من البروتستانت كما ازداد عداؤهم نحو الكنيسة الانكليكانية التي فرضتها الملكة فرضاً ، فراحوا يطالبون اما بنظام كنيسة مشيخية تقوم على تنظيم فوري لجماعة المؤمنين اساسه انتخاب القسس والوعّاظ ، واما الاستقلال التام والاستغناء بالكلية عن كل ما اسمه كنيسة .

مع ذلك ، لم يسبق قط للمبادىء والاعراف التي قامت عليها الحريات الانكليزية ان سقطت وغابت عن الانظار وتنوسي امرها لمرور الزمن . فكثيراً ما ابدى هنري الثامن نفسه احترامه لها . وعندما كان البرلمان يرضخ للامر ويسلم بقبول قضية يُطلب اليه اقرارها والتصديق عليها ، كان يحرص مع الامتثال ، على التنويه بحقوقه المبدئية ، واي محاولة تبديل او تغيير في الشعور العام والرأي السائد في المجتمع كان يكفي لجعل الحكم الاستبدادي بغيضاً ، وبالتالي لا يمكن الاطمئنان له . فقد ساعد خطر الغزو الاسباني على كبت عواطف المعارضين . غير ان الموقف تغير والوضع تبدل ، عام ١٦٠٣ ، عندما راح البرلمان يجبر الملكة اليصابات على التعهد بالرجوع عن الاحتكارات التي فرضتها . وهكذا شجر الخلاف وانطلق الصراع بين الحكم الاستبدادي والحريات البورجوازية .

البلاد الواطية ، النهضة البورجوازية والحكم المطلق الفعلي

البلاد الواطية مجموعة من الولايات ، يحتفظ حكامها ، على درجات متفاوتة ، بولائهم لأمير واحد ، من بينهم دوق برابانت وكونت ده فلاندر وغيرهما . فقد حاول الامبراطور مكسمليان وابنه فيليب الجميل ان يكوّنا من هذه المقاطعات والولايات وحدة متماسكة تخضع لحكمهما الاستبدادي ، فاصطدما بما قام فيها من نزعات محلية او اقليمية ، وبما جاش في صدور

حكامها ومدنها من رغبة شديدة وتوق ظاهر للاستقلال الناجز . وبفضل حماية أولي الامر فيها للتجار من عداء النقابات المهنية ومعلمي الحرف ، انتصر فيها النظام الرأسمالي واستعلى. فتفوقت أنفرس على مدينة بروج وتمكنت من إنشاء شبه وحدة اقتصادية من البلاد الواطية بعد ان عرفت كيف تجعل من سكان هذه المقاطعات ، في الوقت نفسه متعهديها وزبائن لها . فقامت فيها بورجوازية رأسمالية شغفت بحرية التجارة ونبضت بروح الفردية الاقتصادية . وبالتالي اعتنقت مبدأ المركزية الملكية ضد هذه النزعات والمطالب المحلية ، فتغلبت بذلك ، على بورجوازية النقابات في المدن. وقامت في وجه هؤلاء البورجوازيين ذوي التأثير البعيد الذين يحيون حياة الرفاه والبذخ ، طبقة النبلاء التي ، رغبة منها في التميز عنهم ، وحرصاً منها على الاحتفاظ بتساميها الاجتماعي ، راحت تحتفظ لنفسها بالوظائف العامة وبهذه الشارات المميزة والاوسمة الشرفية التي يغدقها الامير . ومن جهة اخرى ، فالازدهار الذي عرفته النهضة الانسانية والفنية في هذه البلاد بعد الازدهار الاقتصادي الذي تجلى فيها وعم جميع المرافق ، شجع كثيراً الروح الفردية والرغبة في التحكم بهذه الفئات المحلية والنزعات المتضاربة التي تجيش فيها ، وهي مطالب ونزعات لا يمكن تحقيقها الا على يد امير قوي الجانب ، شديد الشكيمة . ان اقتباسهم لمبادىء الحق الروماني وتقديسهم لها جعل نفوساً كثيرة تتشبع بمبادىء الحكم المطلق . فراح شارل ده غنت ، اذ ذاك ، الذي عرف فيما بعد باسم شارل الخامس والذي كان حاكماً عاماً على البلاد عام ١٥١٦ ، يحاول التمكين للعناصر والعوامل التي من شأنها ان تساعد على ترسيخ اسباب الحكم المطلق في البلاد . فقد عين في كل ولاية ممثلين مباشرين للملك ، منهم حاكم عام لا صلاحيات محددة له ، ومجلس للقضاء او مجلس عدل ، وفي بعض الاحيان ، مجلس محاسبة ، كما عين في المدن والبلديات ، قضاة كثيراً ما حاولوا إدخال اصلاحات على المجالس البلدية وملأ الوظائف البلدية بموظفين اخذهم من بين كبار البورجوازيين ، لهم من تربيتهم ومن مصالحهم الشخصية ما يجعلهم متجانسين مع حاكم الولاية . واخذ الامير شارل ، اذ ذاك ، يحاول ربط الولاية بالحكومة المركزية. لتولي الحكم في البلاد ، وصية على العرش، يساعدها في الادارة مجلس لم يلبث ان تشعب وانقسم كما حدث في فرنسا ، الى ثلاث شعب كل شعبة تخصصت بناحية : مجلس شورى الدولة للنظر في الامور السياسية ، اعضاؤه من النبلاء ، المجلس الخاص او مجلس المعية ، والمجلس المالي، اعضاؤه من رجال الفقه والقانون يؤتى بهم من الطبقة البورجوازية او من بين صغار النبلاء ، يتولون اعمال القضاء والادارة (١٥٣١) ثم الزم الامير شارل الولايات بارسال ممثلين عنها للمجالس العامة . واخيراً شكل عام ١٥٤٧ ، جيشاً دائماً ، ملاكه من النبلاء ، يتعهد مرتباتهم ويعترفون له بالولاء . ويتدخل موظفوه في كل مظاهر الحياة الاجتماعية، فينظمون اعمال المضاربات المالية والبورصة ، والمستودعات الملكية والاسعاف العام ، ويسجلون الاعراف والعادات والتقاليد المرعية ، ويجرون العدل وفقاً لاحكام القانون الروماني . وهكذا جعلت هذه التشريعات المشتركة، من هذه الولايات السبع عشرة ، وحدة متماسكة لم تلبث ان جاشت فيها الروح القومية .

ولكن هنالك حكماً استبدادياً قائم بالفعل، ولكن لا وجود قانوني له . فلم يتمكن شارل من فرض رسوم وضرائب مستقرة كما يشاء ويرغب ، يستعمل ريعها بعد جبايتها ، كما يحلو له . غير ان المجالس التمثيلية تحرص دوماً على اثبات حقها باقرارها ، مع العلم ان فرض الضرائب هو مفتاح النظام السياسي . ولم يمض طويل وقت حتى جعلت البورجوازية ، بعد الازدهار الذي عرفته، الحكم الاستبدادي لا يحتمل . ففترة الحكم المطلق التي وقعت بين عهد الاقطاع وعهد البورجوازية ، جاءت هنا ، قصيرة للغاية . فنظـام الحكم المطلق لم يستطع ان يمتن جـذوره قانوناً .

الامة ضـد الملك

حزم الملك فيليب الثاني (١٥٥٥–١٥٩٨) ابن شارل الخامس وخليفته على عرش اسبانيا ، امره على ان يجعل من البلاد الواطية مملكـة اساس الادارة فيها ، الحكم المطلق شرعاً ، تتيح له بما تتمتع به من موقع جغرافي ممتـاز وما لها من موارد طبيعية غنية ان يسيطر منها على اوروبا جمعاء. فباءت محاولتـه هذه بالفشل . فقد آذت الحكومة الاسبانية هذه البلاد ، والحقت بها الضرر ، عندما راحت تحـاول تنظيم مرافقها الاقتصادية لما فيه مصلحتها الخاصة ، ويخدم امنها في الدرجة الاولى . وفي هذا السبيل اصدرت فيما اصدرت من قرارات امراً بمضاعفة البحّارة في السفن ، مما ادّى الى ارتفاع كلفة البضائع . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام ١٥٥٧ ، فتضرّس منه الجميع على السـواء . فمن الطبيعي جداً ان تـسمم ازمة اقتصادية على هذا النطاق ، الخواطر ضد الحكومة ، وتحمل الجميع على ان يتبينـوا بالحسوس مساوىء الحكم وان يحصوا على الادارة اسباب الشكوى التي يتذمرون منها .

فقد أثار فيليب الثاني ذاته المعارضة ، وأهاجها عندما عبث بالتوازن القائم بيـن طبقـة النبلاء والطبقة البورجوازية لحساب الاخيرة . فقد عين ، قبل مغادرته البلاد الى اسبانيا ، الى جانب الوصية على العرش مارغريت ده بارمْ ، لجنة تتألف من ثلاثة بورجوازييـن بينهم غرانفيل من مقاطعة فرانش كونتيه . فما كان من هذه اللجنة شبه الرسمية إلاّ ، ان قامت تحتكر كل الاشغال والمشروعات المهمة بعد ان ألغت مجلس شورى الدولة ، مما انتقص كثيراً من شأن النبلاء ، وحط من قدرهم بعد الذي قاسوه من عقابيل الازمة الاقتصادية ، ونتائجها الوخيمـة عندما راحوا يستغلون املاكهم على الطريقة التي انتهجها الرأسماليون ويقومون بمضاربات مالية في البورصة ويتطبعون بطباع البورجوازية ، بالرغم من الاحتقار الذي يحملونه في صدورهم لهذه البورجوازية ، وقد رفضوا ان يجلسوا في مجلس شورى الدولة ، مع غرانفيـــل الذي كان عضواً فيه معهم . فانطلقت الثورة وعلى رأسهم كبار النبلاء .

فلم يعتنق البورجوازيون قضية الملك فيليب بل تخلوا عنه بالاجماع . فالملك لم يعد يمثل ، في نظرهم ، المثل الوطنية ولا المطالب القومية . وبالرغم من انه اسباني ، فقد بدا ، في اعينهم ،

غريباً عنهم وعن بلادهم ، يستخدم الرسوم التي يجبيها من اهل البلاد لاغراض لا تمت لاهلها ولمصالح البلاد بسبب . فالحاميات الإسانية ، وهذه الحكومة الارهابية التي حكمت البلاد بالسوط ، بين ١٥٦٧ – ١٥٧٣ ، برئاسة دوق ألبا ، زادت الاهلين نفوراً من شموخ الاسبان بانوفهم وبعجرفتهم وقسوتهم وفظاظتهم ، ومن مظاهر هذه التقوى المصطنعة وفساد اخلاقهم . ثم ان السياسة الدينية التي سار عليها الملك وجعلته يخضع كل شيء لمصلحة الدين ، اقلقت خواطر الكاثوليك في هذه البلاد ، بالرغم مما كانوا عليه وما عرفوا به من فتور ديني ، وتسامح واغضاء وتجاوز ، في بلاد تعيش في سعة ويجيش اهلها بمُثل النهضة ، كان من مصلحتهم الاولى ان يحسنوا وفادة الوافدين عليهم ، مهما كان لونهم او دينهم . ومن جهة اخرى ، فقد حلم الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتية ، ويبرهنوا ، بالمحسوس ، على انهم ثوريون ، وانهم اعداء ألدّاء للملك الكاثوليكي . وقد راح دوق ألبا يسدد للبلاد ضربته الاخيرة عندما حاول تطبيق الحكم المطلق الاكمل بفرضه ضرائب ثابتة على كل المعاملات التجارية (١٥٧١) كما اوقع الشلل في حركة الاعمال وأربكها . فاشتد البؤس في البلاد ، وقامت فيها حرب اهلية سارت فيها الثورة سيرها الطبيعي ، للانتقال بالبلاد من حكم مطلق ، مستبد ، مرهق ، الى نظام بورجوازي . فبعد ثورة النبلاء ، قامت ثورة البورجوازيين ، ثم تلتها الثورة الديموقراطية التي اعقبتها ردّة فعل بورجوازية .

الدولة البورجوازية الدستورية والاتحادية المتحررة

خلقت الثورة ، في البلاد الواطية ، في اول الامر ، دولة بورجوازية ، دستورية ، اتحادية ، متحررة . فمنذ ١٥٧٢ ، شكّل الكلفينيون فيها دولة كلفينية ، تعزلها من الشمال دلتا هولندا وزيلاندا ، وانتخبت رئيساً لها الامير غليوم دورانج . واضفى الكلفينيون الفرنسيون الذين التجأوا الى جوار الامير عليها صبغة خاصة كما انهم مهروها بطابع سياسي خاص ، اذ راحوا يعلّمون ان السلطة يعطيها الله الشعب الذي يعهد بدوره بهذه السلطة الى ملك ، يحتفظ بالملك ان هو احسن السياسة وامتثل لاحكام الشريعة الوضعية والطبيعية على السواء ، والا جرّده الشعب من هذه الكرامة التي أعطيت له ، ونزع عنه ما أوتيه من سلطة وسلطان ، ان لم يكن بطريقة مباشرة فبواسطة حكامه وقضاته وقد اتقنوا ، في البلاد الواطية ، تحريك مجالس التمثيل ، ودفعوها للعمل ، ان هذه البلاد لم تعد مجرد ولايات متراصفة الواحدة منها مع الاخرى ، بل دولة واحدة موحدة . وهكذا حلّت نظرية الحقوق الطبيعية العقلانية ، محل التقاليد والاعراف والحقوق التاريخية المكتسبة والانعامات والاعفاءات التي أقسم الملك على نفسه باحترامها ، والتي كانت تعبيراً او تبريراً لهذه النتائج التي أفضى اليها التطور الذي بعثته في البلاد كل من الرأسمالية والملكية المستبدة . فبورجوازية المستنيرين التي تعالت من الموظفين والحامين لقيت قبولاً في الاذهان . وفي ١٩ تشرين الاول ١٥٧٦ ، تشكل في البلاد ، مجلس الممثلين واتخذ لهُ صفة الملك ، واعلن بقرار اتخذه ، يعرف بقرار التهدئة ، صدر في مدينة غنت ، ظهور دولة جديدة

تقوم على هذه المبادىء والاسس .

الدكتاتورية الشعبية الكلفينية

الا ان المحاولات والاتصالات التي تمت للوصول الى تفاهم ، بين الكاثوليك والملك فيليب ، اقلقت بال الامير غليوم دورانج وخواطر الكلفينيين معاً ، فراحوا يستغلون البؤس الذي تسكع فيه العمال ورجال الصناعات اليدوية في بلد دهكتها الحروب وجرّت عليها الخراب والدمار . فراحوا ينشرون على الناس نشرات تثير حفائظ الشعب وتذكي حقده ضد كل سلطة ، ولا سيا ضد سلطة الكنيسة بعد ان رمتها بكل َفرِيّة ،وما اخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى ،وضد سياسة الملك الكاثوليكي التي شجبتها . وبما ان الله هو الذي يستودع الشعب السلطة ، فقد عرف هذا الاخير ان يستغل ما في هذا المبدأ من نتائج . وفي آب ١٥٧٧ ، تألفت لجنة الثمانية عشر عضواً ، في بروكسل وقررت انشاء حكومة ديموقراطية استبدادية ، فرضت دكتاتورية الشعب على المجلس التمثيلي . وهكذا تلبّس الشعب حلة دكتاتور في شخص امير دورانج الذي أطلّ على الناس وهم رُكّع ، مُمجِّد ، يشهقون فرحاً وغبطة كأن « الله نفسه يجتاز شوارع المدينة » . واخذ هذا النظام الديموقراطي يسري بين الناس ويمتد من مدينة الى اخرى ، في الوسط من البلاد الواطية وجنوبيها .

وكان من فظاظة التعديات على الملكية ان أثارت الرعب والهلع في قلوب البورجوازيين والنبلاء ، على السواء ، فتمنوا ، ان يقوم في البلاد ، سلطة قوية ، بعد الذي رأوا ما رأوه من سلب الكنائس وانتهاب الاديار والتعديات السافرة على الكهنة والرهبان مما أثار الحفائظ وايقظ المشاعر الدينية في النفوس ، وفُتح الباب واسعاً امام اليسوعيين للقيام بحملة وعظ وارشاد وتوعية وايقاظ ، واحتل الاهتمام بالكثلكة ومصيرها المحل الاول من اهتمام الناس ، بعد ان عم الخراب البلاد من جراء الحروب ومن نهب مدينة أنفرس بالذات (١٥٧٦) والحصار البحري الذي فرضه الثوار في الشمال ، على مصب نهر الاسكو ، ومنافسة كل من هولندا وزيلاندا، ومعظم سكانها من التجار الكلفينيين الذين فرّوا من الجنوب،واخذ النشاط التجاري في هاتين المقاطعتين ، يحل تدريجياً محل انفرس .

القطيعة بين الشمال والجنوب

انشقت البلاد الواطية على نفسها دولتين . وفجأة اخذ النبلاء والبورجوازيون ، في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من الديموقراطيين ، فألفوا ، عام ١٥٧٩ « اتحاد أرّاس » بينا ألف الكلفينيون ، في الشمال : « اتحاد اوتريخت » . واستطاع الحاكم العام فارنيز ان يوفق بين اتحاد اراس وملك اسبانيا الذي تخلّى ، ولو بصورة موقتة ،عن سياسته الاستبدادية ، وهكذا تمكن من ان يسترجع ، تدريجياً الولايات العشر الواقعة في الجنوب والتي يتألف القسم الوسط منها من سهول رسوبية ، فكانت مجازاً او ممراً ممتازاً للجيوش المتحاربة في مناوراتها وما تقوم به من حركات الكر والفر . اما

في الشمال ، فقد ألفت الولايات الواقعة عند الدلتا كياناً مستقلاً بعد ان اطمأنت الى ما يؤمن مصيرها من جهة الجنوب ، في هذه الترع والخلجان والقنوات النهرية التي تعزلها عن الجنوب وما اليها من غياض وبطائح ومستنقعات تؤلف شبكة صعبة الاجتياز ، وامكانية اغراق البلاد عند اول خطر مداهم يطل في الافق ، وسيطرتها على البحر . فالاختلاف في الدين ، والدمار الذي انزلته بالبلاد الجيوش المتحاربة ، والمنافسة الاقتصادية ، كل ذلك ، زاد في شقة الخلاف بين القوميتين وباعد بينهما .

حاول فيليب الثاني، عام ١٥٩٨ ، ان يعيد الوحدة الى البلاد ويؤلف بين الشطرين المنقسمين. وفي هذا السبيل ، منح البلاد الواطية ولو ظاهرياً ، استقلالاً ادارياً ، تحت ادارة الارشيدوق البرت وايزابيل اللذين استقبلها الجنوب واحسن وفادتهما واعترف بسلطتهما . اما الشمال ، فاتجه الوجهة التي يقتضيها مصير الدولة البورجوازية الانجيلية ، الاتحادية، المتحررة التي قامت فيه . ولم يعتم الجنوب ان استحال قطراً يخضع للاستبداد .

٤ – ملكيات القرون الوسطى

خلافاً لهذه البلدان التي استعرضنا لها ، بقيت الممالك التي لم تبرز منها طبقة بورجوازية قوية الجانب ، في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي تم للملكيات المستبدة .

بولونيا

اعلنت بولونيا نفسها جمهورية ارستوقراطية برئاسة ملك ، في عهد آخر ملوك دولة يايلون ، جان البير الاول (١٤٩٢ – ١٥٠١) واسكندر الاول (١٥٠١ – ١٥٠٦) وسجسموند الاول (١٥٠٦ – ١٥٤٨) وسجسموند الثاني اوغسطس (١٥٤٨ – ١٥٧٢) ثم في عهد هنري ده فالوا الذي سيصبح ، فيا بعد ، ملكاً على فرنسا ، باسم هنري الثالث (ايار ١٥٧٣ – حزيران ١٥٧٤) ، ثم اسطفان باتوري (١٥٧٦ – ١٥٨٦) وسجسموند الثالث فاسا .

وهن الحكومة وعجزها

بولونيا دولة تباينت فيها العناصر والعروق والاجناس التي تشكلت منها، وهي عناصر يمكن ردّها الى أربعة رئيسية : المملكة وهي منها النواة المستقطبة ، وليتوانيا ، وبروسيا الملكية وبروسيا الدوقية ، وهي عناصر تألفت منها وحدة هشّة تحت سلطة ملك مشترك . كان هذا الملك يُنتخب انتخابا ، كثيراً ما ادت عملية انتخابه الى حروب ومناوشات ، كما حدث ، مثلاً ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان باتوري . فالمجالس التمثيلية (الدييت) التي لم تكن غير طبقة النبلاء ممثلة فيها ، كانت الهيئة القانونية التي تقر القوانين الجديدة ، وتحدد الضرائب ، التي لا بد منها لتغطية نفقات الجيش ، ومثل هذه القرارات يجب ان تؤخذ بالاجماع . فليس تحت تصرف الملك جيش ولا بيت مال ولا عنده اية هيأة ادارية . فهو يعيش من ريع املاكه السيادية ويدفع من وارداتها نفقات الدولة . فخير ما يقال فيه انه الاول بين الاسياد . فهذا

النظام الملكي الموسوم بطابع الاجيال الوسطى ، لم يكتب له ان يرتقي ويتطور الى نظام ملكي مطلق ، مستبد .

تسلط الارستوقراطية

وسر ذلك ان البورجوازية لم تظهر في بولونيا ، باستثناء بعض الالمان الذين كانوا يقيمون في عدد من مدنها الرئيسية . والنشاط التجاري الحري بالملاحظة في هذه البلاد الواقعة على اطراف اوروبا الرأسمالية ، قام على تصدير القمح . فطلب الحبوب من الغرب ، لم يكن في مقدور احد ان يلبيه ، سوى كبار الارستوقراطيين لما لهم من الاطيان والاملاك الواسعة . فبدلاً من رؤوس الاموال التي افتقروا اليها ، راحوا يسخرون اليد العاملة ، وليزيدوا من غلالهم ومحاصيلهم الزراعية ، اخذوا يعولون ، اكثر فأكثر ، على الفلاحين العاملين عندهم . وامعاناً منهم في تسخير هؤلاء الفلاحين ، ورغبة منهم في انماء المحاصيل راحوا يحدون من سلطة الملك ومن صلاحياته كما ضحوا بالطبقات الاجتماعية الاخرى . فانتخاب الملك الذي كان يفرض على المرشحين التزامات وقيودا ، وعجز الملوك على مجابهة كبار الارستوقراطية لهؤلاء النبلاء الفقراء الذين لم يكن لهم ما للبورجوازية ، في الغرب ، من شكيمة وطول باع ، كل ذلك ساعد على توطيد المشاريع والخطط التي يضعها كبار الاشراف في البلاد .

فمنذ ان اعتلى جان الاول البير العرش ، صدرت قوانين عام ١٤٩٣ – ١٤٩٦ ، تحد جداً من حرية المزارعين والفلاحين على التنقل، وأعطي للسيد الحق بالاحتفاظ بهم في املاكه واراضيه واجبارهم على العمل فيها . فهو يمثلهم في القضاء وهو مرجعهم الاول في اقضيتهم ، ولذا كان يحول بينهم وبين القضاء الملكي الذي لم يكن يطالهم بشيء . فهو سيد هؤلاء الناس ورئيسهم المطلق . وفي سنة ١٥٢٠ – ١٥٢١ ، قرر مجلس الديبيت ، ربط الفلاحين بالارض واجبارهم على الشغل فيها وحرثها ، كما خول الاسياد حق استملاك الهيئات الريفية . والبلديات فقدت ما كانت تتمتع به من استقلال اداري وقضائي ، فأُخضِعَت لقضاء الاشراف والنبلاء الذي اصبحوا أسياداً لهم مطلق السلطة على اراضيهم ومن عليها .

وفي سنة ١٤٩٣ ، و ١٤٩٦ ، تقرر اعفاء النبلاء من الرسوم الجمركية ومن الفوائد الخاصة ببيت المال . وتحظر على البورجوازيين دخول الوظائف العسكرية ، كما سدت في وجوههم ابواب المراكز الدينية العليا التي اصبحت وقفاً على النبلاء وحدهم . وفي عهد الملك سجسموند اوغسطس ، ولكي يتمكن النبلاء من الحصول ، بارخص الاسعار ، على ادوات البذخ المصنوعة في الخارج ، اعلنوا ، بعد عام ١٥٦٤ ، مبدأ حرية التبادل التجاري المطلق . ولم تقوَ الصناعة الوطنية على الوقوف بثبات في وجه المنافسة التي تتعرض لها من الخارج، فذبلت وماتت . وأرغم التجار على التقيد بالسعر الاعلى ، وحُظّر عليهم الانتقال للخارج للاستبضاع والامتيار ، اذ فضّل النبلاء الحصول على ما يرغبون فيه، من متعهدين أجانب يفدون على البلاد لشراء الحنطة

وغير ذلك من محاصيل الارض . ان احتلال الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، عــام ١٤٥٣ ، والتتار للمقاطعات المطلة على البحر الاسود ، قطع على البولونيين الطرق التجـــارية المؤدية الى الجنوب ، وسدت في وجوههم ، من هذه الناحية أبواب الرزق . وهكذا قامت العراقيــل في وجه التجارة البولونية من كل صوب . فلا عجب ، بعد هذا الا تستطيع البورجوازية ان تنمو وتترعرع بعد ان ضيق عليها النبلاء الانفاس على مثل هذا النحو .

وفي السنوات ١٤٩٣ و ١٤٩٦ ، نال النبلاء حق تشكيل مجالس اقليمية (*diétines*) لتحديد الضرائب التي يجب جبايتها في حال قيام الحرب . فاصدرت هذه المجالس تعليماتهـــا المشددة لممثليها في مجلس الدييت للوقوف الموقف الذي تمليه عليهم مصلحة المقاطعة . فتبقى هي حرة في رفض او قبول القرارات التي تصدر عنها . وهكذا رجحت المصلحة المحلية والمنفعة الآنية على المصلحة العامة . والانعام الذي اصدرَه ميالنيك (١٥٠١) زاد كثيراً مــن سلطة مجلس الشيوخ او مجلس الملك الذي تألف من اساقفة ومن كبار الموظفين الاشراف . وقـــد كان على الملك ان يترسّم ارشاداتهم وان يتقيد بتوجيهاتهم وان يقضي في العدل كما يشاؤون والا رأوا انفسهم في حل من قسم الولاء الذي أقسموا . فمجلس الشيوخ يحتفظ بالتاج وبالشارات الملكية ويصدر الى الحكام التعليمات . والقانون الاساسي الذي صدر عام ١٥٠٥ ، بعنوان : « ليس من جديد *Nihil novi* حظّر على الملك اتخاذ أي قرار او تدبير جديد دون موافقة مجلس الشيوخ وممثلي الملحقات . ففي عهد الملك سجسموند الاول نص الدستور *Laesae Majestatis* » التعدي على ذات الجلالة » على وجوب احترام حرمة اعضاء مجلس الشيوخ ونواب الامة في الدييت . فمجلس الشيوخ يمارس سلطات الملك . فالملك هو بالفعل معتزل الحكم ، وفي سنة ١٥٧٣ ، صـــدر القانون *Pacta Conventa* الذي حظر على الملك هنري ده فالوا ، اعلان الحرب أو عقد السلام بدون موافقة مجلس الشيوخ او اصدار أمر بحشد الجيش وفرض التعبئة بدون موافقة مجلس الدييت ، وأن يستعين ، في الادارة والحكم ، بمجلس من ١٦ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ ، وان يدعو مجلس الدييت للاجتماع كل سنتين . فاذا ما خالف هذه الشروط كان رعاياه في حلّ من كل طاعة وولاء . وفي سنة ١٥٩٢ ، اخضعت لجنـــة تحقيق خاصة ، شخص الملك بالذات والقرارات التي يصدرها ، لتحقيق دقيق .

اضعاف الامة

وفي الوقت ذاته ضعف الشعور بالخطر الخـــارجي فرفض مجلس الدييت ، مراراً ، سنة ١٥١٢ ، و ١٥١٤ ، و ١٥٢٧ ، فرض ضرائب في سبيل انشاء جيش دائم ، مكتفياً من ذلك بحشد عام للنبلاء . وترك الملك الحرية التامة لالبرت براندبورغ الرئيس الاعلى للفرسان التيوتون ان يتعلّمنَ ويتخلى عن الحياة الرهبـــانية ، ويعتنق البروتستانتية ويعلن نفسه أميراً وراثياً لبروسيا خاضعاً للتبعية البولونية (١٥٢٩). وهكذا أطلت بروسيا على الحياة واحتلت موضعها تحت الشمس . وفي ١٥٢٦ ، وضعت النمسا يدهـا على هنغاريا وعلى بوهيميا كما راحت دوقية موسكو توسّع من نطاقها وتتحصن ، فلم يعد الملك

بولونيا ، في هذه المنطقة محل من الاعراب ، وفقد كل شأن بين المسيحيين . وبالرغم من إرسال بروسيا الملكية من يمثلها في مجلس الدييت البولوني ، وبالرغم من ان ليتوانيا حذت حذوها مع احتفاظها بموظفيها وماليتها وجيشها المستقل ، ومع ان بروسيا الدوقية كانت تجدد من ولائها وتستمر على تبعيتها لها ، فقد امست بولونيا دولة ضعيفة الجانب ، لا حصون لها ولا قلاع ، ولا جيش لها تقريباً يتولى الدفاع عنها ، فقد اختنقت وماتت من فرط الحرية .

موسكوفيا

ولعل من يقوم ويحتج على هذا القول ، بموقف روسيا . هذه الدولة النصف الآسيوية التي لها من العرق المسيطر فيها ، ومن الديانة الارثوذكسية التي عليها سواد الشعب الاعظم ، والعداء الازرق الذي تجيش به ضد الكفرة ما جعلها احدى دول اوروبا . فقد اصارها التطور الذي مرت به في القرن السادس عشر ، مملكة مستبدة الحكم ، مطلقة السلطان ، مع ان البورجوازية فيها كانت مستضعفة الجانب ، عاجزة تماماً عن الوقوف بوجه طبقة النبلاء دون ان تبالي للامر قيد شعرة .

فاذا ما قام هنا من شذّ عن القاعدة التي اتخذناها قاسماً مشتركاً للظروف التي أحاقت بظهور المملكة المستبدة والحكم المطلق افلا يكون ذلك دليلاً على بطلان القضية وعدم صحتها فتسقط من نفسها ؟ .

روسيا بلد ريفي منعزل

في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢–١٥٠٥) برزت روسيا دولة معزولة ، لا تطل مباشرة على اي بحر من بحار اوروبا ، باستثناء البحار الشمالية المتجمدة ، حشرت رقعتها حشراً بين اعدائها التتار من جهة ، وبين جيران اوروبيين من الغرب ، عرفوا هم ايضاً بعدائهم لها ، من جهة ثانية . فبولونيا وليتوانيا ومدن اتحاد الهانزا (ريفيل وريغا) كلها تقف سداً لتعرقل حركة دخول البضائع والفنيين الاوروبيين اليها ، فحالوا عمداً ، دون اقتباس الروس ، الذين أنزلوا منزلة اعداء تقليديين لكل الدول الحرة ، لوسائل التسلح المعروفة في الغرب او تسهيل نقل افانينهم الحربية اليها .

روسيا بلاد زراعية في الصميم ، ينصرف فيها الفلاحون ، وعددهم فيها نادر قليل ، ومعظمهم يقيمون جماعات في قرى ودساكر من ١٠ – ٤٠ منزلاً ويستلمون لزراعة الحبوب على نطاق ضيق يتفق ووسائلهم البدائية . فقد ساروا في فلاحتهم وزراعتهم على نظام التحويل الثلاثي بحيث تستريح الارض سنتين قبل ان تزرع في الثالثة ، او انهم اعتمدون نظام الغابات المحروقة فيتاح لهم استثمار الارض التي انكشفت تربتها بعد احتراق شجرها . فالمحاصيل الزراعية والغلال فيها ضعيفة . اما المدن وعددها لم يكن ليتجاوز الستين ، سنة ١٤٩٧ ، فهي عبارة عن مجتمعات مسوّرة ، واسواق تجارية ريفية الطابع ، في وسطها مراع خضراء ومروج . اما التجارة فضيقة ، تقوم اساساً على المقايضة بمحاصيل نادرة وغالية الثمن بكميات

محدودة ، كالاحجار الثمينة ، واسلاك الذهب والابريز وعقاقير طبية وتوابل يؤتى بها من الشرق ، وفراء ، وعسل وشمع في طريقها الى الغرب ، واجواخ ثمينة وقصدير من انفرس ، ودانتيلا والاسلحة على انواعها ، في طريقها نحو الشرق . والمراكز القلبية فيها هي مدن مستقلة امثال نوفغورود الكبرى ، احدى المدن الداخلة في اتحاد الهانزا التجاري ، ومدينة بسكوف . اما التجارة ، فنشاطها محصور ضمن دكاكين صغيرة ، ومعظم الصناعيين يعملون فرادى والبورجوازيون فيها قلة هم ، فقراء ، لا حول لهم ولا طول ولا قوة .

هذه المدن والقرى تقوم ، على الغالب ، في وسط املاك كبار الملاكين ، علمانيين كانوا أم اكليريكيين من رجال الكنيسة ، تتناثرت حباتها كالسلك النظيم ، على مجاري الانهر او على معالم الطرق . فتعلق الانسان بها واستقراره فيها ، واه ، بعد ان كان لصاحب الارض السلطة المطلقة على ارضه وعلى من اوى ما قام فيها او عليها . ومعظم هذه الاملاك تنعم باعفاءات واسعة ، وهي بمأمن من تدخل موظفي الامارة ، لا ضرائب ترهقها ولا خدمات تؤديها للأمير . وهكذا حل كبار الملاكين محل موظفي الامير وهم قلة صغيرة . ففي حالة عدم توفر الناس والموارد اللازمة للدولة ، كان كبار الملاكين يمارسون قسماً من صلاحيات الامير لقاء إسقاط ما يستحق له عليهم من فوائد ورسوم .

وكل امارة تتألف من املاك الامير ، ومن اسياد الارض واراض ذات «تربة سوداء» اختصها الامير لنفسه ، ومهد لها وسائل الاتصال بها والنقل ، اقامت فيها جماعات حرة تساهم بامور الدفاع بما تقدمه للأمير من عوائد وخدمات . ويقوم بتمثيل الامير ، خارج املاكه ، في المدن ، ممثلون يعرفون بـ *Namestniki* ، وفي المقاطعات الريفية عرفوا بـ *Volosteli* . وكلا الفريقين يجري انتقاؤهم من بين اتباع الملك ، وهم رجال حرب ، اعترفوا بولائهم له بالجثو امامه . كان معظمهم اشراف من اصحاب الاراضي او سراة ضعاف الجانب ، او من طبقات دنيا مالوا لمهنة الحرب . وهؤلاء الاتباع لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما قام منها على امثالهم ، في الغرب . وهم يتطوعون بحرية اكبر على خدمة السيد الذي اختارهم لخدمته والعمل في ارضه .

النجاح الذي اصابه امير موسكو

الامير الاول في روسيا هو بالطبع ، كبير الامراء في موسكو هذه المدينة الواقعة في منأى من الطرقات التي يتبعها الغزاة ، تحميها وتخفيها عن العيون غابات ظليلة تعزلها عن الانظار ، وتقع عند مفترق الطرق . وهي ملتقى المزارعين ورفاق السلاح يؤمونها منذ عهد بعيد . فهي عاصمة البلاد الدينية منذ سنة ١٣٢٧ ، ويتمتع كبير امراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة المعطاة له من خان القبيلة الذهبية *Horde d'or* الذي كان سيد روسيا الاسمي ، بلقب صاحب السلطة القضائية . فهو يرفل بالغنى وله نفوذ عريض .

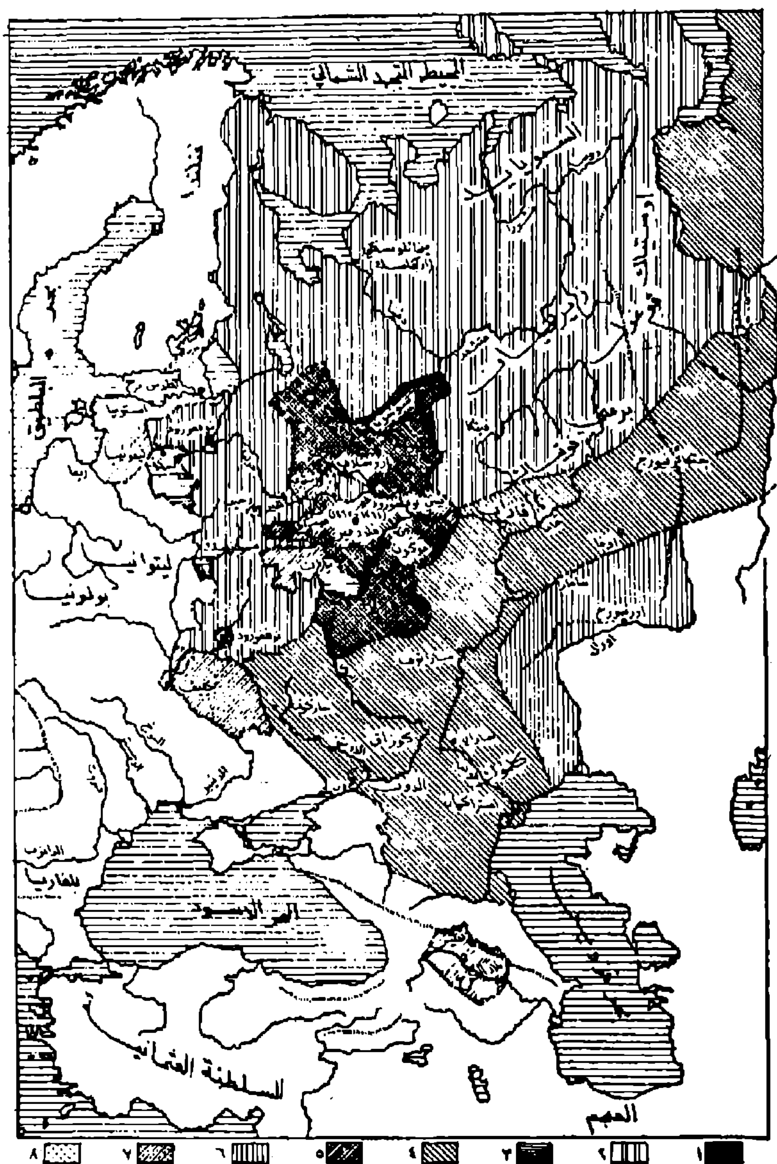

شكل ٣ ـ تطور الامبراطورية الروسية

١ ـ الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش
٢ ـ فتوحات ايفان الثالث
٣ ـ فتوحات باسيل الثالث
٤ ـ فتوحات ايفان الرابع المرعب
٥ ـ فتوحات بيدور وبوريس غودونوف
٦ ـ فتوحات ميخائيل روماتوف
٧ ـ فتوحات ألكسي ميخائيلوفتش
٨ ـ فتوحات بطرس الاكبر

ويتطور ايفان الثالث من امير متجول ، الى رئيس دولة . وبما انه اقوى الامراء وأشدهم بأساً على الاطلاق ، نرى الفلاحين العاملين في خدمة الامراء في الريف يفدون عليه بالجملة ليدخلوا في خدمته ويعملوا تحت رعايته ، الامر الذي يجر الضعف على هؤلاء الامراء فيضطرون للتخلي عما يتمتعون به من استقلال . ولم يبق في البلاد ، بالطبع سوى عدد قليل من الامارات التي تنعم بشيء من الاستقلال الذاتي . فلم تلبث ان حققت البلاد وحدتها . وبسلسلة من الحروب شنها امير موسكو ، عام ١٤٩٢ ، و ١٥٠٠ - ١٥٠٣ ضد امير ليتوانيا ، اضطر هذا الاخير للتنازل له عن هذه المقاطعات الشاسعة الواقعة ما وراء نهري الدنيبر والدونا ، كما اعترف له بلقب : « حاكم روسيا جماء » . واذ أنس إيفان الانحلال يدب في جسم دولة القبيلة الذهبية ، رفض ان يدفع للتتار اية جزية بعد الآن ، محتفظاً بها لنفسه ؛ ثم ينادي بنفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً عن كل ملك اجنبي . فهو يجسد في نظر الروس اجمع المقاومة المسيحية والوطنية ضد المحتل الاجنبي الذي يعبث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانيته وسيفه المصلت على روسيا .

الايديولوجيا الامبريالية البيزنطية ورسالة روسيا

هيأت النجاحات الداوية التي حققها ، والايمان المستقيم الرأي الذي كان عليه ايفان ، زواجه من الاميرة صوفيا باليولوغ ابنة شقيق آخر امبراطور في بيزنطية . وقد رأى المعاصرون في عقد هذا الزواج رمزاً سياسياً وحملوه معنىً خاصاً . فالكنيسة تصوغ الافكار التي تفرض ذاتها على عقول الناس وقلوبهم (الخطاب الفصحي الجديد للمتروبوليت سوزيم ، رسالة الراهب فيلوثي لباسيل الثالث ، نظرية جوزيف الدينية حول اخضاع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، ودير فولوك) . فروسيا التي اعتنقت وحدها الايمان المستقيم هي بلاد مقدسة (روسيا المقدسة) والشعب الروسي « اسرائيل الجديد » هو الشعب الذي اختاره الله ليتولى رئاسة جميع الشعوب المسيحية ، وليؤمن الفوز النهائي لمملكة المسيح . فالدولة المسكوبية ستبقى الى منتهى الدهور ، وستسيطر على جميع شعوب العالم وموسكو هي « روما الثالثة » هي العاصمة الوحيدة والاخيرة للعالم المسيحي . وقد ورث ملك روسيا الصفة الالهية التي كانت للاباطرة البيزنطيين ، وبصفته مسيح الله فهو لا يؤدي حساباً عن اعماله الا لله . فالوقوف في وجهه او ضد ارادته ، خطيئة . فالكل ملزمون له بالطاعة العمياء والولاء الاعلى ، حتى الكنيسة ورئيسها ، فليس للفرد اية حرية تصرف بذاته . وقد عم الاقتناع سواد الناس واستقر في يقينهم لدرجة الايمان ان على الملك ان يؤمن الخلاص لكل فرد بالزامه الجميع على احترام الطقوس الكنسية ومناسك العبادة ، والتسليم بان كل كلمة من الكتاب المقدس هي موحى بها من الله . وشجب كل فكرة متحررة ، تفضي الى الهرطقة .

ومنذ ذلك الحين ، تبنى ايفان الثالث الشارات الجديدة ، التي ترمز الى سلطته المطلقة المسلمة اليه من الله ، وهي النسر ذو الرأسين ، والصولجان والكرة والعرش . كذلك تخلى تماماً عن النهج الذي كان انتهجه حتى الآن بوصفه من اصحاب الاملاك الواسعة ، ليعتصم برسم البلاط

البيزنطي ، في عزلة من شعبه ، بوصفه كائناً فوق البشر ليس باستطاعة الناس الاقتراب منه الا مُطأطئي الرأس .

الدولة العسكرية الروسية المطلقة

وايفان الثالث هو القائد الاعلى ، المطلق ، يرأس حملة صليبية ضد التتار وضد الغربيين الهراطقة . عليه ان يصد بهذا العدد الضئيل من السكان ، هجمات التتار التي تنهش بصورة لا تنقطع ، حدود الدوقية التي لا نهاية لها . وقد انشأ بمساعدة مدربين استقدمهم من الغرب ، اولى مفرزاته الحربية من جيش المرتزقة سلّحها بالبنادق والمدافع ودربها على الاساليب الحربية المتبعة في الغرب . كذلك كان عليه ان يواجه هذه المشكلات الحادة التي أثارتها في وجهه صعوبات مالية . فلم يكن بمستغرب قط ان يطلع ايفان الثالث بفكرة دولة موسكوبية منظمة على شاكلة معسكر حربي خضع لنظام حديدي ، ليس للحرية الفردية فيه ظل او شبه ظل .

وهذا السيد المطلق يفتقر جذرياً ، الى وسائل التنفيذ . فطبقة النبلاء التي تعمل في خدمته ليست سهلة الانقياد . وهؤلاء الامراء الذين قدموا خضوعهم له أُرغِمُوا على ذلك بقوة السلاح ، فحملوا معهم ما كان تحت تصرفهم ، من قبل ، من كتائب وطوابير ، يستخدمونها عند ما تدعو الحاجة ، يقومون بالمهمات التي يُعهَد بها اليهم ، ويجلسون الى جانب نبلاء الروس في الهيئات والمجالس الرسمية ، بعد ان احتفظوا باستقلالهم الداخلي في اماراتهم المتوارثة . وتطلع على روسيا ، الفينة بعد الفينة ، محالفات ارستوقراطية ، فالنبلاء الحق ، دوماً ، باختيار الامير الذي يرغبون بالانضواء تحت لوائه . وهذا الامير قد يكون مثلا رئيس امراء ليتوانيا ، او ملك بولونيا .

وقد راح ايفان الثالث يحارب هؤلاء الارستوقراطيين بسلاح الطبقات . فاستخدم ، في هذا السبيل ارستوقراطية متوسطة الحال ، لها ماض وضيع ، تألفت في معظمها من كتبة وسكرتيرية ، كما استعان بطبقة عسكرية دنيا قوامها جماعة من المسلحين ، عملوا في البلاطات الاميرية قبل ان تجري تصفيتها ، ومن صغار الملاكين الذين تحرروا بعد ان استخلصت منهم أراضيهم ، ومن لمم من الفلاحين وجوابي الآفاق . فقد تطوعوا في خدمته كرجال خدمة لمدى الحياة ، فاقطعهم مكافأة لهم واجتذاباً لولائهم ، قطعة ارض *Pomestia* ومنها جاءت كلمة *Pomietchiks* التي اطلقت على هؤلاء الملاكين الصماليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبلاء بخدمة ، هم مدينون له بكل شيء ، لم تلبث ان فُتِحَت امامهم عضوية المجلس ، فكانوا له عوناً على تطويع وترويض طبقة النبلاء القديمة وإجبارهم على الخضوع والامتثال له . وهكذا حال دون مروق اي تابع من توابعه حدثته نفسه الامارة بالسوء اللجوء الى امير آخر ، وبذلك اصبحوا من رعاياه وأجبروا على الخدمة العسكرية دفاعاً عن البلاد .

وراح ايفان الثالث ، من ناحية ثانية ، يضع وجهاً لوجه الفلاحين وطبقة النبلاء ، ومنع تسرب المعدن الثمين وتهريبه الى الخارج لئلا يقع بين يدي أعدائه التتار ، مما أدّى الى تقوية

العملة النقدية في البلاد ونهوض الاقتصاد . وهذه العوائد التي كانت تدفع له عيناً ما لبثت ان ان حل محلها عوائد تُدفع عداً ونقداً . والضرائب الاميرية اشتدت وطأتهـا مع تكاثر الحروب ، فاضطر الفلاح الى بيع غلته بسرعة مما عاد بالربح على التجار ، ليتمكن من تسديد دينه بعد ان كان يستلف من سيده ، بفائدة عالية لاقل حادث طارىء يتعرض له . ولما كان ، كثيراً ما ، عاجزاً عن تسديد دينه ، فقد رأى نفسه مضطراً للعمل في خدمة سيده، على حساب حريته . وقد رأى نفسه مشدوداً شداً الى الارض لقاء الدين الذي لسيده في عنقه . وهكـذا اصبح المزارع المديون ، شبه المشدود الى ملك سيده ، يذهب مع الارض سلعة مربوطة بها اذا ما باع سيد الارض ارضه . ولذا حاول عدد كبير من المزارعين الهرب والنجاة بأنفسهم الى حيث تشتد الحاجة لليد العاملة ، وكثيراً ما كانت تسنح له مناسبة الهرب . وهكذا أسقط بيد اسياد الارض وبهؤلاء المرابعين، اذ لم يعد في مقدورهم ان يفوا بتعهداتهم تجاه الملك . ولذا وقف الملك الى جانبهم ضد الفلاحين المارقين فشرع يحظر على هؤلاء الفلاحين ، مغادرة املاك السيد ، وان يعهد الى بعض هؤلاء الفلاحين ، ممن كانوا أحراراً من قبل ، بقطع من الارض ، تربتها سوداء، شمروا معها انهم اصبحوا مشدودين الى الارض ومضطرين بالتالي ، للخضوع الى اسيادهم.

وهكذا أمّن الصراع الطبقي لايفان الثالث طبقة من النبلاء سهلة الخضوع والانقياد .

وازدراءٌ منه لنظام الخلافة المتوارثة – وهو امر لم يكن احد من ملوك فرنسا الذين عرفوا باستبدادهم يجرؤ على اتيانه – فقد جرّد من حق الخلافة بالارث ، الذكـور الابكار الذين يلدون من اول زواج . ثم عيّن له شريكاً في الحكم والسلطان باسيل ، ابنه مـن صوفيا ، الوريثة الشرعية للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية

سار باسيل الثالث (١٥٠٣ – ١٥٣٣)، على خطى ابيه وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها ايفان الثالث . اما الانجازات العظيمة، فقد تمت على يد حفيده إيفان الرابع-الخيف او المرعب (١٥٣٣ – ١٥٨٤) . ففي سنة ١٥٤٧ ، جرى تتويجه وله من العمر ، اذ ذاك ، ١٦ سنة . وأخذ لاول مرة ، في تاريخ روسيا ، لقب قيصر ، وبذلك اعلن نفسه خليفة القياصرة ووارثهم بعد ان تبنى كلياً المبادىء الاساسية التي قالت بها اليوسفية (١) .

أصلى التتار سلسلة من الحروب كانت بمثابة صليبية روسية ، ووجهها وجهة من كان يرغب صادقاً في تأمين السيطرة الكلية ، على طرق المواصلات التجارية . ففتح ، عام ١٥٥٢ ، خانة قازان ، ثم احتلت جيوشه مدينة استراكخان ، وبذلك اصبح مجرى نهر الفولغا تحت اشرافه وسيطرته . وهكذا اصبحت استراكخان ، بين اوروبا وآسيا ، نقطة التلاقي للتجار القادمين

---

(١) نسبة الى الامبراطور جوزيف، او يوسف احد اباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية، الذي حاول اخضاع الكنيسة وسلطتها الدينية ، للسلطة الزمنية ، في كل شيء . الناشر

من القوقاز والتركستان والعجم . وبانتصاره على خانة سيبيريا ، عام ١٥٨٢ ، نشر السيطرة الروسية حتى مشارف نهر اليانسّبي وجبال الالتاي ، فأطلّ على « كاليفورنيا الفراء » . ثم اتجه ايفان الرابع شطر البحر البلطيقي ، موجهاً ضرباته ضد هراطقة الغرب الذين كانوا يحاولون عزل روسيا . ففتح ، بين ١٥٥٨ — ١٥٦٠ ، مقاطعة ليفونيا ، مما حمل السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا على التدخل فاستطالت الحرب ، بين كر وفر ، حتى عام ١٥٨٢ ، فاضطر في نهاية الامر صرف النظر من هذه المقاطعة .

ان ثلاثين سنة من الحروب الدامية والجهاد المستميت قلبت المجتمع المسكوبي وما اليه من نظم ومؤسسات ظهراً لبطن ورأساً على عقب . ارتفعت خلالها ، نفقات الدولة ارتفاعاً عظيماً واضطر ايفان الى تقوية فرقة الرماة *Strélitz* وتسليحهم بالبنادق ، كما قوّى كثيراً من فرقة المدفعية ، وفرقة الهندسة وجيش المرتزقة ، ووسع فرقة الخيالة في الجيش ، كما انشأ على طول الحدود الآخذة دوماً بالامتداد والمط والاتساع ، سلسلة من المدن الجديدة المحصنة ، والقلاع والحصون ولذا كان لا بد من اخذ الناس بنظام حديدي آسر ، وفرض الضرائب وجبايتها بشدة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها صناعة الحرب .

تطور الاقتصاد النقدي

اما التجارة فقد عرفت نشاطاً متزايداً فسّهل اسبابها ووسّع من حريتها التحالف مع خان القرم الذي سهل الاتصال مع اوروبا الغربية عن طريق البحر الاسود ، فتوافد على البلاد ، مواكب التجار ومعلمو المهن والحرف والصنائع ، من المانيا وايطاليا وهنغاريا ، فدخلوها عن طريق القرم . ومنذ الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي تشانسلر عام ١٥٥٣ الذي استكشف معها البحر الابيض الواقع الى الشمال من البلاد ، راح الانكليز يتغلغلون في مجاهل روسيا وآسيا ، سالكين الطرق الملتوية التي تنطلق من الرأس الشمالي والبحر الابيض والمحيط المتجمد الشمالي . ونالت الشركة الانكليزية المسكوبية ، منذ عام ١٥٦٧ ، الترخيص لها بالاتجار في جميع انحاء روسيا وغشيان اسواق قازان واستراكخان ، والعبور منها الى بلاد فارس والى جزيرة ياغري الواقعة عند مصب نهر الدفينا في الشمال ، وانشاء مستودعات ومعامل لها في معظم المدن الروسية . وجاء بعد الانكليز الهولنديون وتجار انفرس وبروكسل ، كما قدم اليها ، بعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون عام ١٥٨٦ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٥٥٨ — ١٥٨١ ، وقع مرفأ نارفا تحت تصرفهم ، فقد أمّه ٧٠ سفينة انكليزية سنة ١٥٦٧ الا ان السويديين تمكنوا ، من استرجاع هذا المرفأ ، عام ١٥٨١ ، واذ ذاك ، قام ايفان بتأسيس مرفأ أركنْجلسك سنة ١٥٨٤ .

واستطاع التجار الانكليز والهولنديون من التغلغل داخل الولايات الروسية النائية ، والتعامل رأساً مع التجار المحليين ، يتبادلون معهم ويتقايضون السلع ، فبعثوا النشاط في الحركة التجارية في الداخل ، فزاد النقد في التداول . والى جانب الاتجار بادوات البذخ والزينة راجت تجارة المحاصيل

والغلال الزراعية ، كالقمح والكتان والقنب ، اللحم والجلود والقار والزفت والسمك . وقد عرفت مدن كثيرة كموسكو وقازان وبسكوف تجاراً كباراً، بلغ عدد مخازن الواحد منهم عشرة مخازن واكثر ، ومع ذلك بقيت نسبة البورجوازية في البلاد ضئيلة لاسباب عديدة ، منها منافسة المؤسسات الكنسية والتجار الاجانب ، وكلا الفريقين ينعم باعفاءات وامتيازات عديدة ، لا سيما الضرائب والرسوم الجمركية والاحتكارات القيصرية للمشروبات الروحية ، او التبغ والكافيار ، وعدد الاسواق التجارية المحدود بحيث يتاح لمأموري الجمارك والمكوس القليلي المذد ، ان يراقبوا الاعمال والصفقات المالية والتجارية ، واخيراً الضرائب الثقيلة التي رزح تحتها الشعب .

ازمة المجتمع الروسي

عرف القيصر ان يفيد الى اكثر حد من ازدياد النقد المتداول بحيث أمّن دفع مرتبات افراد فرقة المرتزقة العاملة في خدمته . واستطاع ان يعهد الى الاغنياء من التجار بمهام ومشروعات قبلوا القيام بها على مسؤولياتهم الخاصة ، لقاء بعض انعامات جاد بها عليهم كالسماح لهم بفرض بعض الرسوم على التجار ، واستثمار بعض الاحتكارات الحكومية . كذلك ، عرف ان يستغل الى اقصى حد ، الأزمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد من جراء الحروب الدامية المرهقة التي اقتضتها الفتوحات الواسعة التي قام بها . فالاراضي كانت تستصرخ من يهبّ للعمل فيها . وقد اقطعت الحكومة الكنيسة وبعض الاسر الروسية ، من اصحاب الاعمال ، كآل ستروغانوف ، اراضي واسعة ، تقع في حوض نهر الفولغا الوسط والاسفل ، وفي نهر الكاما ، يسهل منها الاتصال بمقاطعة الاورال ، هذه المقاطعة التي كانت مضرب الامثال بغنى مواردها الطبيعية . واشتد الطلب على الفلاحين ، وارتفعت ، فوق الارض ، كالفطر ، مدن جديدة واديار كثيرة ، منها اوفا وسمارا (١٥٨٦) وسارانوف (١٥٠٩) ، واسس بعض جوابي الآفاق ، الى الجنوب من أوكا ، في قلب السهل الفسيح ، شركات حرة من القوزاق ، والرجال المحترفين القنص والصيد ، ومن شذاذ الآفاق . وجاء في اثرهم مزارعون استقروا في تلك السهول وراحوا يتعهدونها بالحرث والزرع ، ومن ورائهم مدن جديدة تشد ازرهم ، امثال يانسك (١٥١٠) واوريل (١٥٦٤) وفورنيخ ولفني ، (١٥٨٦) وغيرها كثير .

واشتدت الحاجة الى اليد العاملة . بعد ان اقفرت السهول الواقعة في وسط البلاد ، واخذ الفلاحون المرهقون بالديون او الرازحون تحت وطأة الضرائب والرسوم ، يهربون ، بحيث ان ٧٦ — ٩٠ ٪ من الاراضي الواقعة في منطقة موسكو ، امست بوراً ، كما ان القرى هجرها أهلها، فتعذر على المزارعين النهوض بالاعمال الزراعية المترتبة عليهم ، كما اصبح من المستحيل على اسياد البلاد ان يؤدوا ما عليهم من عوائد ورسوم للخزينة . وهكذا فقدت الدولة كل اشراف على دافعي الضرائب ونضب بيت المال . واخذ كبار الملاكين والمزارعون يتزاحمون على

الفلاحين والمرابعين في حركة من التجاذب والتراشق لا نهاية لها ما لم تتدخل السلطة المركزية لتضع حلاً للامر

الانتقال من الادارة السيادية الى الادارة الحكومية

لم يرَ ايفان الرابع ، اذ ذاك ، بدأ من ردف الادارة السيادية القديمة بادارة حكومية . فقــد قام تحت القيصر ومجلسه الخاص، ممثل او وكيل عام له يدعى *Buzrjad* اصبح الوسيط بين القيصر والادارات الحكومية الاخرى : كبيت المال الخــاص بالدولة ، وبيت المال الخاص بالقيصر ، ودائرة الاختــام (*Prikas*) ودائرة الالتماسات ، ودائرة البوليس ومصلحــة المدفعية ، والجند المرتزقة ، و « قصر قازان » الذي انشىء عام ١٥٥٨ ، وهو اشبه ما يكون اذ ذاك بوزارة المستعمرات ، للنظر في امر الاراضي والمقاطعات التي ضُمّت بعد الفتح ،ومصلحة العلاقات الخارجية (١٥٤٩) ومصلحة التمثيل الذيبلوماسي او مصلحة السفراء (١٥٦٤) .

وقد نظم المرسوم القيصري الذي صدر عام ١٥٢٦ المصلحة الخاصة بال *Pomicetchicks* او اصحاب الاملاك الذين لم يكن عددهم ليتجاوز ٢٠٠٠٠ ، ففرض عليهم ان يجهزوا خيّالا (فارساً) بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، عن كل ٥٠ هكتاراً من الاراضي التي يملكها . وقد كان الواحد منهم يملك من ١٤٠ – ٢٣٠ هكتاراً . وقد كان بينهم من ملك ٣٠٠ او ١٠٠٠ ، او ١٣٠٠ هكتار . وقد جرى تثبيتهم في ملكيتهم لهذه الاملاك مدى الحياة واعــترف لهم القانون بحق توريثها ، الا انه حظّر عليهم ان يخرجوا من خدمة القيصر او من دائرة ولائه ليعملوا ، توابع ، لأمير آخر او ليعملوا في خدمته . وكانت غلال الارض ضعيفــة جداً . فقد أرهق تسليح الفرسان ، هؤلاء الملاكين ، فراحوا بدورهم يرهقون الفلاحين العاملين في اراضيهم ويبتزونهم بابشع الطرق ، مما حملهم على الهرب .

اصبحت الخدمة العسكرية ملزمة لكل اصحاب الاملاك ، لهم الحق ان يدفعوا بديلاً عــن الخدمة في الجيش مبلغاً محدداً . وقد استثني عن الجنديين الذين كان يترتب على الاتباع تقديمهم كما تم توحيد الجيش وانظمته . وفي سبيل تأمين أود هذا الجيش، كان القيصر يفرض ،على هواه، رسوماً خاصة تصيب مثلاً ملح البارود ورسوم حملة البنادق ، وغير ذلك ، ومنــذ عام ١٥٥٤ لم تصدر في روسيا أية براءة اعفاء او استثناء حتى ان الاعفاءات القديمة ، جرى تخفيضها كثيراً كما الغي عام ١٥٨٠ ، اعفاء الاكليروس ورجال الدين من الرسوم .

الدولة البوليسيــة

ليس بمستغرب قط ان تلاقي هذه الاصلاحات معارضة لدى طبقة النبلاء القديمة . ففي سنة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفــان الرابع فرقــة *Opritchnina* وهي فرقة الحرس القيصري ، معظم رجالها من الفدائيين ، عهد اليهم بالسهر على أمن القيصر ، وتصفية كل من تحدثه نفسه بالخيانة والغدر ، دخلها بعض افراد طبقة النبلاء القدامى ممن حط بهم الدهر . وقد أقطع كل واحد من اعضاء هذه الفرقة فدانة من الارض في

قلب روسيا . شهدت البلاد ، اذ ذاك ، حركة واسعة في انتقال ملكية الارض . فالامراء الاقطاعيون اضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم السيادية المتوارثة لقاء التعويض عليهم بعقارات تقع على اطراف البلاد او على حدود هذه المقاطعات *Zemtchina* التي تم فتحها منذ عهد قريب . وهكذا انفصمت هذه العرى التي كانت تشدهم الى سكان البلاد حيث كانت تقع ممتلكاتهم ، فوجدوا انفسهم بين اقوام لا يعرفون عنهم شيئاً كبيراً ، كثيراً ما تعرضوا للعصيان من قبل هذه الجماعات ، كما تعرضوا كثيراً للهجوم من وراء الحدود ، لا يرد عنهم غائلة الموت الا مبادرة القيصر لنجدتهم . وقد عهد القيصر الى اعضاء فرقة حرسه بمراقبة هؤلاء الامراء المبعدين بعد ان حامت حولهم الظنون وارتاب القيصر بهم متهماً اياهم بالتخلي عن الولاء نحوه . وقد جرت تصفية عدد كبير من زعماء هذه الاسر حتى ان اسراً كثيرة ابيدت برمتها . ففي سنة ١٥٧٠ ، جرى نهب مدينة نوفغورود الكبرى . وقد فاضت مياه النهر من كثرة ما ألقوا فيه من جثث الموتى .

ومساعدة منهم لهؤلاء *Opritchniks, Pomietchiks* ، راح القيصر يهتم بتوفير ما هم بحاجة اليه من الفلاحين والمرابعين الذين استحالوا ، فيما بعد ، عبيداً مشدودين الى الارض . فقد نصّ القانون الصادر عام ١٥٥٠ ، على ان المدين العاجز عن ايفاء دينه يجري تسليمه للدائن الذي يفرض عليه العمل في ارضه حتى وفاء الدين المترتب عليه . وفي سنة ١٥٧٤ ، فرض القيصر على كل فلاح ، يعمل في التربة السوداء ، ان يزرع لحساب الدولة ، اربعة هكتارات في السنة ، وذلك على سبيل التخفيف من حدة الطلب على اليد العاملة بعد فرار المزارعين وهربهم . وفي سنة ١٥٨٠ حظّر القيصر على المزارع جحود سيده وألزم الفلاح على الا يتغيب عن ارضه الا باذن خاص من سيده . اما الفلاحون الهاربون فكانوا يستهدفون لعقوبات زاجرة .

بين الملكية المسكوبية ، والملكيات الغربية

وهكذا قامت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ملكية مطلقة مستبدة في روسيا . فالقيصر يتمتع ، قانوناً وبالفعل ، بكل صلاحيات السيادة وخصائصها المميزة : سلطة تشريعية ، وسلطة تنفيذية ، وسلطة قضائية ، وله كل سلطان لفرض الضرائب وتعبئة جيش قائم باستمرار ، وموظفون يتولى هو نفسه تعيينهم . ويختلف النظام الملكي المسكوبي المطلق عن مثيله في الغرب باتساع الحقوق الملكية المسكوبية وباتساع صلاحياتها . فليس ما يدل قط على انه قام في البلاد قانون اساسي حد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتعلق مثلاً بحقوق خلافة العرش، او وجود اي حق للفرد ، او للمؤسسات والهيئات القائمة ضمن الدولة كحق التملك . وعلى عكس هذا،هنالك ما يشير الى او يدل على وجود حدود لهذا السلطان ، من مثل الظروف والاحوال المسيطرة ، وهذه الاعفاءات القائمة،وعدم وجود بورجوازية رأسمالية باستطاعتها ان تجابه الطبقات الاخرى او أن تصد من طغيانها ، فالملكية المسكوبية المطلقة، شكلت نوعاً في جنس الملكية المطلقة ، فهي اقرب لعمري من نوع الملكيات الآسيوية المطلقة التي جاءت وليدة مجتمعات خاصة

تميزت بضعف الروح الرأسمالية فيها . ولهذه الملكية ذات المميزات الاساسية التي اتصفت بهـا الملكية المطلقة في اوروبا الغربية في القرن السادس عشر : مثالية قومية جاءت نتيجـة بعث ايديولوجيا قديمة جرى تكييفها وفقاً للحاجات الجديدة ، وايمان شعب بكامله يعتقد يقيناً انـه مدعو لرسالة خاصة ، وطموح فردي جاشت به امة مسيطرة ، غلاّبة تقمصه مَلِكٌ هو صورة الله على الارض ، بطل قومي مظفر ، عهد اليه القيام بحرب مستمرة ضـد الاجنبي دارت على حدود اعتبرت دوماً في خطر ، واقتصاد تقدي آخذ بالتطور . الى هذه المثالية القومية صراع طبقي يختلف في بعض وجوهه ، عما قام من امثاله في الغرب. فنحن هنا لسنا امام صراع بين بورجوازية وطبقة نبلاء ، بل صراع قام بين طبقتين متجانستين ، بين طبقتين مـن النبلاء متشابهتين تقريباً ، صراع بين ما هو رئاسة سيادية ممثلة في طبقة نبلاء من هذا النوع او ذاك ، وبين فلاح او مزارع امضى سلاحاً ، هنا في روسيا ، منه في الغرب ، لما يتوفر له من امـداء ومسافات تنبسط امامه ، وامكانية الهرب والتماص ، والمساومة او المفاضلة بـين سيدين او اميرين يتجاذبانه . والصراع الطبقي اعطى دوماً بوصفه صراعاً، النتائج ذاتها والمعطيات ذاتها: الدولة فيه هي الحَـكَم وهي السيد . ولذا راحت هذه الدولة ، هنـا في روسيا كما في الغرب ، تشحذ من حدة هذا الصراع الطبقي وتنفخ في أواره . فالظروف الاساسية واحدة هي ، فقيام الملكية المطلقة له ما يبرره وما يزكّيه .

الفصل الخامس

النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

ليس من جديد في هذه النظم الا ما طلع منها خارج ايطاليا . فالجديد فيها هو نقل طبيعة هذه العلاقات التي ربطت الدول الايطالية كما كرّسها صلح لودي، المعقود عام ١٤٥٤ ، الى جميع دول اوروبا، إثر الحملة التي قام بها شارل الثامن على ايطاليا بقصد فتحها وضمها . فقد وعَت الدول الايطالية ان هـــذه العلاقات التي شدّتها بعضاً الى بعض لم تكن تتوقف على هذه الروابط العديدة التي جمعت فيا بينها ، ولا جاءت نتيجة لتجاورها او تلاصقها فحسب ، بل ايضاً نتيجة لهذا الشعور المشترك والتحسس العميق بأن القوى والعوامل التي تتأثر بهـــا جميعاً أولتها الحق المتبادل في التدخل والاهتمام جدياً بهذه الاحداث التي تقع بعيداً عنها، ولو لم تكن لتعنيها في الظاهر كثيراً، وذلك لما تحدثه هذه الشؤون والاحداث من تأثير على توازن القوى، اذ ان اي خلل او اختلال يلحق بهذا التوازن، كان لا يخلو من خطر على دولة أو على مجموعة من هذه الدول . وهكذا نرى ان الايطاليين ، ارتقى بهم التفكير بحيث راحوا يعملون على قيام شبكة من الدول كل واحدة منها معنية بالمحافظة على هذا التوازن . ولتحقيق هـــذه الفلسفة والعمل بمبادئها ، كان لا بد من قيام علاقات مستمرة بين هذه الدول ترتكز على قوانين وانظمة تشكل ما يعرّف اليوم بالقانون او الحق الدولي . ولكي لا تتجرأ دولة ما ان تحاول الاخلال بهذا التوازن لمصلحتها الخاصة ، اعترفت بمبدأ حق التدخل وجعلت منه مبـدأ سياسياً سارت عليه . فلكل دولة الحق بالتدخل لدى دولة اخرى مبررة تدخلها بحجج مختلفة ومتذرعة بعلل شتى ، منها الديني ، مثلاً ، كأن تدعي حماية ابناء دينها الرسمي ، ومنها السياسي كصيـــانة الحرية والمحافظة عليها . وهذا التوازن لم يكن سوى وسيلة للحؤول دون اي دولة تحدثها نفسها بزيادة قوتها وبسط سيطرتها وسلطانها على حساب دولة اخرى . فهو لا يقوم على تفاهم ضمني يرمي لتحقيق عمل مشترك . فهو مجرد فكرة سلبية ، او مكبح يجمح من الشهوة ، ويحد منها . ففي ٣١ اذار ١٤٩٥ ، بدا اول مظهر لهذه السياسة الجديدة ، سياسة التوازن بين دول اوروبا،

وذلك في حلف البندقية ، الذي تألف للوقوف بوجه فرنسا معارضة لتدخلها في ايطاليا . وقد تشكل هذا الحلف من البندقية ، وملك أسبانيا ودوق ميلانو ، والبابا . واللغة الديبلوماسية الاوروبية استعملت في هذا السبيل عبارات واصطلاحات مستمدة من الحياة السياسية في ايطاليا، منها : « توازن الدول » و « القوى المتقابلة » وغير ذلك من الالفاظ والاصطلاحات . امـــا التعابير والمجازات التي عمل بها من قبل ، أمثال : « الكتلة المسيحية » و « الجمهورية المسيحية » فقد بطل استعمالها . واخذت المصطلحات : التوازن الاوروبي ، والديبلوماسية المعمول بهـا ، والقانون الدولي ، وحق التدخل ، تطبع السياسة الاوروبية ، حتى حلول معاهـدة فيينـــا (١٨١٥) وما بعد .

١ – الظروف العـــامة

الديبلوماسية الثابتة

كان لا بدّ ، والحالة هذه ، من وسائل عمل تفي بالغرض . فقد تبنت دول اوروبا ، على شاكلة الدول الايطالية في القرن الخامس عشر، نهجاً جديداً هو الديبلوماسية الثابتة . فقد كانت اقتصرت هذه الدول حتى اواخر القرن الخامس عشر ، عـــلى سفارات او وفادات احتفالية احيطت بكل مظاهر الأبهة ، برئاسة امراء او كرادلة او وزراء أحيطوا بكل مظاهر التجلة كلفوا معالجة قضية ما حتى اذا تمت تسويتها ، رجعوا من حيث أتوا . وقد استمر العمل بهذا الاسلوب خلال القرن السادس عشر ، في كل ما يتعلق بامور المواليد والزواج والمآتم الرسمية وحفلات تنصيب الملوك العرش ، او لاقـرار المعاهدات والمواثيـــق المعقودة ، وهي مهمات محدودة ، كما نرى، قلما أروت ظمأ الطرف الثاني للتزود من المعلومات التي يرغب في الاطلاع عليها او التي منّى النفس بالوصول اليها .

فمنذ ١٤٩٥ ، وهو تاريخ الحلف الكبير الذي قام للحد من اطماع شارل الثامن وتفشيل حملته على إيطاليا ، اقتضت الضرورة القيام باتصالات مستمرة ، ثابتة بين الحلفاء او بـــين من هم على الحياد او بين من قد يصبحون خصوم الغد ، كان لا بد لانجاحها، من وجود ممثلين يبقون بصورة مستمرة في عاصمة الدولة . وقد حذا الجميع حذو البندقية ، في هـذا المجال . وفي هذا السبيل حرصت أسر كثيرة ، على الاحتفاظ ، اباً عن جد ، بهذه المناصب التمثيلية ، بعد ان تمرس اعضاؤها بهذا العمل وتدربوا على اساليبه طويلاً . فقد راح ممثلون او وكلاء سفراء ، من رجال القانون او من صغار النبلاء ، او من رجال الاكليروس ، يساعدهم احياناً موظفون إضافيون من كبار الاشراف كان وجودهم مجرد مظاهر خارجية على الغالب ، يفاوضون عملياً ويهيئون شروط الاتفاقات التي يرغبون في الوصول اليها ، او نصوص المواثيق التي همهم عقدها، كما كان همهم الاكبر ان يزوّدوا حكوماتهم بكل ما تحتاج اليه من معلومات وما ترغب في الاطلاع عليه من اوضاع معينة وظروف قائمة . ولذا حققوا التفرس في الناس والنظر الى الاشياء بتبصر ، كـــما اتقنوا

الاصفـــاء والتحري عن كل شيء ، وتفننوا في تزويد رؤوسائهم بكل مـا وقعت عليه ايديهم من كل فن وخبر او ما وقفوا عليه من روايات واقاويل مع اي ريح وصلتهم ، او من اي مصدر استقوا او من اي ورْدٍ وَرَدوا. فالسفير الدائم ليس بالفعل سوى جاسوس يتمتع ببعض الامتيازات ، تحت تصرفه شبكة ممتازة من وسائل الاعلام والرصد والتسجيل . وبصفته ممثلاً ديبلوماسياً لبلاده ، فهو يتّصل ، ولا حرجَ عليه ، بكل من يمكن ان يستفيد منه بدأً ، مهما كان لبوسه : خائناً او مارقاً او متصيداً فيوزع بلباقة وفطنة ، الأعطيات والمرتبات والجعالات ويتصل دونما تورع ، بمستشاري الدولة ، وبالخطباء الكنسيين والمرشدين والوعّـــاظ ، وبوجوه المجتمع والشخصيات البارزة والمنظمات والهيئات القائمة في الدولة . فقد مثل الملك فرنسوا الاول في البندقية ، السفير بليسييه الذي امتد نفوذه حتى الشرق الادنى . وقد برهن بعض الاسبان، في عهد ملكهم فيليب الثاني ، عن مقدرة خارقة في هذا المضمار ، ولا يزال التاريخ يحفظ لنا ، اليوم ، اسماء لها شهرتها في عالم التجسس، امثال دوق ألبا، في فرنسا، بعد معاهدة كاتو - كمبريس. ومثل هذه المهمة نهض بها الى الأوج ، توماس برّنو ده شانتوناي، شقيق الكردينال ده غرانفيل الذي عمل سفيراً لبلاده، من آب ١٥٥٩ الى شباط ١٥٦٤، والسفير الاسباني الفارو ده لاكوادرا مطران أكيلا الذي احسن حبك شبكة من التجسس في انكلترا ، في هذه الفترة بالذات .غير ان مهنة السفير كانت مهنة شاقة لم تكن لتدر كثيراً على صاحبها ، كما ان الحصانة الهشة التي يتمتع بها السفير ، اذ ذاك ، لم تكن لتجعله دوماً بمنأى من المفاجآت غير السارة ، ناهيك عن ان بطء المواصلات وصعوبتها كان يحمل مغامراته لا تخلو قط من خطر عليه .

وقد استعمل الملوك من فرنسوا الاول ، الى شارل الخامس ، الى الملك فيليب الثاني ،باستثناء السفراء ، عدداً من العملاء السريين والمغامرين من فرسان واطباء ، ممن أنسوا فيهم المقدرة على الاضطلاع ، بتفوق ، بمفاوضات سرّية ، كما أنهم استعملوا بعض الوسطاء الضعاف الذين لم يكونوا يتورعون من اللجوء الى علاقات ملتوية او مشبوهة ، مايكاد ينفضح امرها حتى يبادر الملك الى شجبها والتبرؤ منها .

تنهج الديبلوماسية طُرقاً واساليب واقعية .ومهماً يكن، فالنتيجة وحدها هي التي يُعتَدّ بها. فالاعتبارات والمبادىء الخلقية ، تأتي بعيدة بمراحل ، في عملية الوزن والتقييم ، بعـــد حساب القوى . أليست الديبلوماسية حرباً من نوع آخر غير التراشق بالقنـــابل والمدافع ، سلاحهـــا المعروف : الكذب ، والمخاتلة ، والغش والخداع . فعلى السفير ان يكون على إلمام كبير واطلاع واسع باحداث التاريخ وما فيها من عظات ودروس ، هذا التاريخ معلم الكذب والغش والخداع والحنث بالمواثيق ، كما يقول كومّين . عليه ان يتظاهر بانه رجل برّ وصلاح، صريح مخلص حر الفكر ، بحيث يكسب ثقة محدثيه حتى يتمكن بالتالي من بلفهم عندما تحين الفرصة السانحة (مكيافلي) ، عليه ان يوحي جيداً بأنه يرغب صادقاً أمراً ما ، بينما هو يقصد بالفعـل شيئاً آخر بعكسه تماماً . هـــذه الطرق والاساليب ، لم تلبث ان اصبحت اموراً مقررة ، متعارفة ، ولم تعتّم ان تصبح مهنة او نهجاً بعلم واصول وقواعد . ولكي يُطمئن حليفة

لمقابلة او مفاوضة لم يكن مقرراً ان تشترك بها بلاده ،يأخذ السفير بالتأكيد بان حكومته لا ناقة لها ولاجمل في الامر ، وان المقابلة او أمر التفاوض دعت اليه ، الجهة المعارضة حباً بالسلام ، وفي سبيل ترسيخ اسبابه لا غير .ولكي يثير الغيرة والحماسة في نفس محدثه يروح يُزَيِّن له بان النية او الافكار تتجه الى صرف النظر عنه ، وتفضيل فريق آخر عليه ، وان مليكه لعلى استعداد كلي لتوقيع مشروع اتفاق معروض عليه ، ولكي يُحدِث في نفس محدثه التأثير الذي يرغب فيه ويحمله على التسليم بوجهة نظره ،يتظاهر السفير برغبته بقطع المفاوضات ويُخرِج مرافقيه من البلاد كمن يَوَدّ الانسحاب والتراجع ، وغير ذلك من وجوه التناور .

ففي المفاوضات الرسمية ،يتولى الكلام باسم الوفد المفاوض شخص واحد ،وباللغة اللاتينية ، وعندما يفرغ من عرض القضية ويبسط وجهة نظره ،ينسحب الفريق المتفاوض الثاني للمذاكرة وتبادل الرأي ، قبل ان يعهدوا الى واحد منهم بالرد على المقترحات المعروضة .

يتبادل السفراء مراسلاتهم مع اجهزة خاصة في الدولة كالملك او مجلس الملك الخاص ، وتباعاً مع امناء السر . وكان على سفراء البندقية ان يرفعوا ، الى رؤسائهم ، تقريراً عن وفادتهم ، لدى رجوعهم الى البلاد ،عن المهمة التي انتُدبوا لها . ويتلى التقرير علانية على اعضاء مجلس الشيوخ ، بحضور التوغا ، ثم يُحفظ في قسم السفراء ، المحفوظات السرية . وتؤلف مجموعة تقارير السفراء في حكومة البندقية ، معيناً لا ينضب ، من المعلومات التاريخية .

العمارة التجارية : بين الثلاثية والمركب الشراعي

في القرن السادس عشر انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية ، من البحر الابيض المتوسط ،الى المحيط اوالاقيانوس.فبعد ان اقتصر نشاط الحضارة،في اوروبا،من قبل،على البحر الابيض المتوسط والبحار الشمالية (البلطيق والبحر الشمالي وخليج المانش) ، اذ بهذاالنشاط يصطبغ ، اكثر فاكثر ، بعد النصف الثاني من القرن السادس عشر بطابع أسيوي بارز .وقامت على الاثر منافسة قوية بين السفينة الثلاثية الصفوف من الجاذيف التي كانت ،اداة النشاط البحري في المتوسط وبين السفينة الشراعية ،او المركب ، وهو الاسم العام المشترك الذي يمكن اطلاقه على الكرافيل وغيرها من انواع السفن الشراعية التي اتخذت عدة للاسفار البحرية في المحيطات .ولم يلبث ان كبر شأن السفينة في كل ما يتصل بالحرب والمعارك البحرية ، وما ان مالت شمس القرن للمغيب حتى كانت أفضليتها تبز الثلاثية بكثير .

الثلاثية ، المركب ، الريح والبحر

كانت الثلاثية ، تفضل السفينة الشراعية عندما يكون الطقس هادئاً ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما اذا ما هاج البحر واضطرب اديمه فالافضلية ، تعود للسفينة الشراعية او المركب . فالثلاثية ، ظهرها واطئ يكاد يلامس سطح الماء ، فهي ، في الصميم ، قارب مكشوف الظهر ، يعلوها درابزون يطقطف من كلا الجانبين ، يفصل بين صف وصف آخر من الجذفين ، ممر ضيق ،

ويعلو ظهرها أرضية من الواح الخشب ، تستدير اطرافه لمر ضيق يسلكه الجند . وكنا نرى سفناً شراعية كبيرة كالتي تستعملها البندقية لتأمين علاقاتها التجارية مع مقاطعة الفلاندر (طولها ٤١ متراً ، بعرض ٣،٤٦ متراً في الاسفل و٦،٠٦ متراً على الظهر ، و ٢،٧ م ، في القلب من الداخل) ، اما صفاتها ومميزاتها فهي هي لم تتغير. فاذا ما اهتاج البحر وازبد تعرضت السفينة الثلاثية للغرق . اما المركب ، فيؤلف هيكله بناية عائمة . فالظهر يعلو علو رجلين او ثلاثة رجال ، عن سطح الماء . ويقوم فوقه ، من الامام ومن الوراء على السواء ، برجان او قلعتان ، فترى المياه تتساقط من على جانبيه بينا يبقى الظهر ناشفاً جافاً . فمقدم السفينة المدبب ، يشق أديم الماء شقاً عندما يكون البحرهادئاً ، احسن بكثير من المقدم الافطس في المركب، وتسير بسرعة اكبر منه اماعندما يكون البحر هائجاً او تتأرجح السفينة، بين المقدمة والمؤخرة ، يغوص مقدم السفينة في اليم ، بحيث يمر الموج فوق ظهرها عندما يشق العباب . اما المقدم الافطس في المركب ، فلا يغوص عميقاً بخلاف مقدم الثلاثية ، ويعلو فوق الموج ، وتزيد سرعته على سرعة الثلاثية . وتزود الثلاثية بمجاذيف طول الواحد منها ١٢ متراً، يعالج الجذاف الواحد خمسة مُجَذِّفين ، كلهم من الارقاء او من المحكوم عليهم بحبس اللومان ، عند انطلاقة الصفير ، يلهب السوط اجسامهم عند اقل تمهل او تأخر في الحركة ، فيولون السفينة دفعاً الى الامام ، عندما يكون البحر ساكناً ، اما عندما يأخذ الريح بالهبوب ، تعود الى المركب أفضليته . وللثلاثية صار واحد او صاريان ، وعدد من الاشرعة تبلغ مساحتها مجتمعة ٥٠٠ متر مربع . اما المركب فعدد الصواري فيه يتراوح بين ٢و٤ صوار وتزيد مساحة اشرعته اربعة او خمسة اضعاف مساحة اشرعة الثلاثية . كذلك تجهز المراكب باشرعة مربعة عليا ، تساعدها على السير الى الوراء عندما ينفخ الهواء بعكس السير . فالمركب يجهز باربعة او خمسة انواع من الاشرعة ، من مقاييس مختلفة ، بينا لا يحمل الصاري سوى شراع واحد مجهز بدقل ضخم ، بينا عارضة الصاري مستديرة وتتحرك بصعوبة كلية ، اما المركب فاشرعته اكثر توزعاً بحيث تزيد او تخفض من مساحة الشراع المعرضة للهواء . ولكل من الصواري الرئيسية اشرعتها ، مع أدقال مربعة .

الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية — والسفينة الثلاثية معدّة للعمل في الاقاليم الهادئة نسبياً ، وللقيام برحلات قصيرة . فعندما ترسو سفينة يمكن نصب خيمة وايقاد المشاعل . فالجذّفون ومساجين اللوماق المحكوم عليهم بالعمل في التجذيف ، يلتحفون القبة الزرقاء ، فهم يلبسون قميصاً وسروالاً من النسيج الاسمر الخشن ، حفاة ، لا شيء في ارجلهم ، صيفاً شتاءً ، والبستهم دائماً مبللة ، فالتسيل عملية تغطيس البدلة من فوق حافة السفينة . فهم مشدودون دوماً الى مقاعدهم ليلاً . ولم تتخذ السفينة اي تدبير ولو بدائي للتخلص من الاوساخ ، وقد حشا الضباط انوفهم تبغاً قوي الريحة . فلا تسل ، والحالة هذه ، عن تكاثر الهوام كالقمل والبراغيث . فاذا ما امتدت الاسفار وطال

امدها ، تفشت الامراض بين الجماعة وهددتهم بالفناء . اما ربان السفينة فيرتدي ثياباً حسنة ويقتات جيداً ويستطيع ان يستسلم للراحة في اماكن خاصة معزولة ، جافة ومدفـــأة . اما المركب فباستطاعته ان يعمل في كل الاحوال المناخية . فهو يضطر للسير مع الشاطىء ، تأميناً لبعض الراحة ووسائل التدفئة والتغذية ، وتأمين أود العيش من المرافىء القريبة اذ يتعذر على السفينة الشراعية ان تتموّن من هذا كله لأمد طويل . ولذا نرى الدول البحرية تنشىء لها ، على طول شواطىء البحر المتوسط ، سلسلة متماسكة الاطراف من المرافىء الحربية . فالمركب الذي في مكنته ان يتزود بكميـات اكبر من المواد الغذائيـة ، يرى امامه مجـالاً اوسع للعمـل وارحب .

السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب

وظيفة السفينة الثلاثيـة هي جـلب الجنود للهجوم وتسهيل وسائل الاشتباك لهم بالايدي . فهي لا مهماز لها ولا يمكن ان تجهز بشيء من هذا . فهي متماسكة الاطراف ، مـــن الوسط وان كانت تفتقر المتانة والصلابة في طولها ، فتقدمها الطويل ، الغرض منه التلطيف من حدة الصدمة والدفع عند الرسو ، والمدفعية التي تحملها فوق متنها ، صغيرة هي . ففي المقدمة مدفع كبير ، تركز في المحور ، واربع قطع خفيفة لتسديد الضربة على مدى قريب ، ممهدة الطريق لفرقة الهجوم . فالمعركة بين الثلاثيات هي معركة بين المشاة او الرجالة ،يتحول الاشتباك فيها الى صراع فردي بين افراد الجند من كل الفريقين فيعمدون الى الخنجر او امتشاق الحسام ، فيهب امراء البحر انفسهم يطلب الواحد مناجزة الآخر للمبارزة ، فالاساطيل المتلاحمة تقوم بسبـــاق الزوارق بحيث ينفسح امامها مجال العمل والمزيد من النور والشمس ، ثم يطبق الجانبان بعضها على بعض، ويتدخل كل العوامل الحاسمة ، كالاندفاع الحماسي والشجاعة والمهارة الشخصية . والضبـــاط العاملون في هذه السفن هم من ذراري الاسر الارستوقراطية الكبرى ينظرون بشموخ وترفع الى غيرهم من الضباط العاملين تحت امرتهم . فاذا ما استهدف المركب لعملية اصطدام كان مصيره الهلاك ، وقد يكون له من القوة احيانا ما يستطيع ان يتحمل الصدمـــة ويحطم بدوره ، بمقدمه اية ثلاثيـــة تكون لخفتها ورشاقتها اكثر استعداداً للعطب السريع ، بينما يتمـــيز المركب بالصلابة . وقد جرت عادة تقوية جوانبه بشبكة متعارضة من عوارض الخشب بعد تدعيمها عمودياً . فالامواج ترتطم بهذا الحاجز الخارجي وتتكسر عليه فتتطاير رذاذاً في الهواء لا يلبث ان يتساقط كالمطر باستمرار فوق ظهر السفينة . وللمركب من المتانـــة ما يتيح له استعمال الخطّـاف او المهماز في المعركة فهو يشكل بطارية مدفعية عائمة مكلفة بتحطيم السفينـة الشراعية عن بعـــد . ويقوم على الخط الدائري ، على مستوى سطح الماء ، عدة بطاريات ، كما يقوم من النوع الخفيف منها عدد فوق الظهر . وقد رُكـّبت فوق حصون المركب مـــدافع سددت فوهاتها نحو السفن العدوة ، ويـتراوح تسليح مركب من الحجم الوسط ، بين ٣٨ — ٤٠ قطعة مدفع .

تطور الثلاثية والمركب

يبدو ان الثلاثيات وما اليها من هذه الانواع لم يطرأ عليهـــا اي تحسين يذكر ، في القرن السادس عشر ، بعد ان بلغ هذا التطور حده من قبل . اما المركب فقد خضع هو باستمرار للتطور والتحسن ، فالنصف الاول مـن القرن السادس عشر كان بمثابة حقبة تجارب واختبار وتحسس الاساليب التقنية . فقد امر فرنسوا الاول ببناء سفينة الفرنسواز الكبرى ، في مدينة الهافر ، وهي سفينة استغرق بناؤها من ١٥٢١–١٥٢٣ ، جهزت بخمســة صوار ، واتسعت لـ ١٥٠٠ راكب، انشئت فيهـا كنيسة وملعب للتنس ، وكور للحدادة، وفرن ومطحنة هوائية. الا ان هذه المدينة العائمة لم تنزل قط الى البحر . ونقل جان لاسكاريس الى شارل الخامس ،سر بناء سفينة تجارية تعمل على عجلات لها قواديس ، جرى تصميمها في ايطاليا . وجرت محاولة بناء هذه السفينــة ، في مرفأ برشلونة بنجاح تام . وقد جهل الناس كيف كانت تتحرك ، ربما بواسطة جهاز يدعى *Eolypile* من اختراع العالم اليوناني الاسكندري هيرون . وفي سنة ١٥٧٥ ، صمم الهولنديون سفينة جبارة تسير بعجلات تتحرك بدفع المجاذيف ، وقد اتسعت فيها مساحة الاشرعة وتوزعت. فالصواري القائمة في الاطراف تزداد ضخامة وتفرش بالقلوع ويسهل بالتالي تدويرها من جهة الى اخرى . فالطوابق العليا في البرج القائم عند مؤخرة السفينة لم تعد تصل الى طرف الصاري ، وتناقص طولها كلما خف علوها بما يزيد في قوة الاستمرار ، اما المؤخرة ، فقد اصبحت مربعة بعد ان كانت مقعرة . وفي اواخر هذا القرن ظهرت السفن مـن نوع *Vaisseau* . وقد تبين البحـارة ببطء كلي الامكانات الطائلة الكامنة في المركب . وقد بقيت فكرة مهاجمة السفينـــة تتحكم بالافكار والخواطر . وعندما حاول الملك فرنسوا الاول القيام بحملة نزول في انكلترا وغزوها بحراً ، عام ١٥٤٥ ، اردف اسطوله بخمس وعشرين سفينة شراعية كانت تعمل في مياه البحر المتوسط . اما الفشل المريع الذي اصيب به اسطول الارمادا الذي لا يقهر بعد ان اعـــده فيليب الثاني لغزو انكلترا عام ١٥٨٨ ، فقد فتح عيون الناس على ما في هذا الاسلوب من نواقص وسيئات . فاضطرت سفن فيليب الشراعية ان تبقى على مقربة من شواطىء اسبانيا الشماليـة بالنظر لهيجان البحر . اما المراكب الاخرى التي تألف منها اسطول الغزو ، فقد عرف الانكليز ان ينقلبوا عليها بسهولة كلية بعد ان عرفوا كيف يتفادوا خطر المجابهـة ، وبعد ان راحت تقذف الجنـد الاسبان من بعيد ، بقنابل المدافع وفتكت بهم وشردتهم كل مشرد . والانتصار البحري العظيم الذي حققه اسطول الدول المسيحية ، على الاسطول العثماني في معركة ليبانت ، عام ١٥٧١ ، استحال في النهاية الى اشتباك او عراك بالايدي ، بعد ان امنت فرقـــة الرماة البحرية ، الافضليـــة للمسيحيين وفي سنة ١٥٧٢ ، عرف المسيحيون ان يمبئوا سفنهم ضد اسطول اولغ علي ، وذلك بوضع مراكبهم في الطليعـــة . وهكذا بدت خطوطهم الامامية لا تقهر على ايدي الثلاثيات . وفي سنة ١٥٩٠ ، التقى اسطول صقلية المؤلف من ثلاثيـــات شراعية ، باربعة مراكب انكليزية وحاول ايقافها ، فما كان من المهارة الانكليزية الا ان افنت

على قلتها ، اسطول صقلية . وهكذا زال الى الابد عصر الثلاثيات من السفن واطلت علينا سفينة خط النار الاول .

الجيش : جيش شارل الثامن

ولعل خير مثال لتعبئة الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، هي التعبئة التي تمت للجيش الفرنسي في عهد شارل الثامن ، عام ١٤٩٤ . تألف جيشه ، اذ ذاك ، من كتائب تشكلت وحداتها من افراد مجهزين باسلحة الرماية ، القصد منها التهيئة للهجوم بزحزحة صفوف العدو ، والتأثير على معنوياتها وإضعافها . وقد جهز كل فرد من افراد الجيش باسلحة يدوية ، وأحسن تدريبه بحيث يتمكن من خرق خطوط العدو من اول هجوم او يقوى على كسر حدة هجوم العدو بواسطة فرقة القنفذ ، وهي فرقة خاصة من المغاوير ، والفرق المسلحة تسليحاً خفيفاً للقيام بعمليات الاستطلاع والاستكشاف او للقيام بحروب المناوشات ومطاردة العدو ، لاستغلال النصر الى اقصى حد ، وفرق من الضابطية والياوران لابسي زَرَد الحديد مزودة افرادها برماح كبيرة ، الى جانبهم حملة الخناجر ورماة النبال ، وفرقة المشاة ، اكثر من نصف وحداتها يحملون رماحاً طويلة بينما جرى تسليح الآخرين بالحراب ، وعُشر فرقة المشاة يحملون البنادق الكبيرة وقد ركزت على مرماة ، وهي عبارة عن مدفع صغير يُحمَل باليد ، ورماة النبال على خيولهم أو مشاة . امـا المدفعية فكانت تتألف من ١٤٠ مدفعاً من البرونز تجري تعبئتها من الفم .

جيش المرتزقة

فرقة تألفت من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلكاً ، فخضعوا لتدريب عسكري شديد ، ولتمارين وحركات ومناورات ثقفتهم تحت ادارة واشراف اخصائيين فاصبحوا وكأنهم آلات ميكانيكية تتحرك بالايماء والاشارة ، ضمن أطُر وملاكات من الضباط ، جرى اختيارهم من بين الاشراف يتحدر بعضهم احياناً من امجد واعرق الاسر الارستوقراطية ، يدفع الملك مرتباتهم ، فيخلصون له الولاء والطاعة . ويؤلف جيش المرتزقة فرقة منتقاة ، مختارة ، لها دفع لا يقاوم ، وتكوّن عنصر القـوة الاساسية في الجيش . فالقسم الاكبر من فرقة المشاة يتألف من السويسريين جيء بهم من سفوح جبـال سويسرا او من المقاطعات الالمانية ، او من صغار البورجوازيين او الفلاحين الميسورين ، يتسلحون على حسابهم الخاص تحت إشراف حَمَلَة البنادق ، كتّبوا كتائب تحت ادارة واشراف ضباط عملوا مُتعهدين حربيين ، نالوا من الامبراطور ، او مـن الملك ، او الامير ، براءة تشهد بكفاءتهم في فن الحشد والتعبئة . وقد ألّف بمجوعهم فرقة قوية ، تقوى على الصمود ، انما لا تنبض باية فكرة او اقدام . وتتألف فرقة المشاة الخفيفة من فرنسيين جيء بهم من شمالي فرنسا ومن بين سكان غسكونيا الذين عُرفوا بنشاطهم وشجاعتهم ، ومرونة اجسامهم وبما يجيش فيهم من روح الاقدام ، انما كانوا اقل صلابة من السويسريين ، وحملة البنادق .

كان من الطبيعي جداً ان تكلف تعبئة الجيوش غالياً . وهي نفقات لم يكن يتحملها الا

الدول القوية والملوك الذين باستطاعتهم ان يتصرفوا بموارد الممالك والمقاطعات الواسعة الغنية التابعة لهم .

فن الحرب

قد تمتد الحرب طويلا لان المعركة لا تبتديء الا برضى الفريقين المتحاربين . والجيش لا يمكن ان يخوض معركة حربية قبل ان تجري تعبئته فتحتشد كتائبه في ساحة الحرب حسب نوع اسلحتها لتحتل مواقعها في الميمنة والميسرة ، والقلب والمؤخرة والطليعة . ولم تكن الوسائل قد توفرت بعد للتحول بالسرعة اللازمة من طابور في طريقه الى الحرب لطابور مهيأ لخوض المعركة . ولذا كان لا بد من التوقف بعيداً عن نطاق العدو ، وتعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم الى الامام،ببطء واحتراز كلي ، محافظة على النظام من جهة ، وتحسباً لكل طاريء مفاجيء بحيث تصبح فرق الجيش ادنى من قاب قوسين من العدو فيبدأ بالهجوم . وفي هذه المدة يكون امام العدو الوقت الكافي ليأخذ عدته للامر : فيستأنف سيره او يتخذ مواقفه المقررة . ولا سبيل لاجبار العدو على التوقف وقبول المعركة لان الاسلحة النارية هي بطيئة للغاية ولا فعالية كافية لها . ولذا كان لا بد من اللجوء الى ستراتيجية الوسائل الثانوية او الاضافية ، كالاستيلاء على مدن العدو الكبرى الواحدة بعد الاخرى ، وعلى مراكز تموينه ، واستباحة الريف وغزوه وسلب القرى والمزارع لارغام العدو على القاء سلاحه لقلة الميرة لديه . فاذا ما رضي العدو خوض المعركة ليتفادى نهب مدنه ، كان عليه ان يعول ، في الدرجة الاولى ، على فرقة الخيالة وهي الفرقة التي كانت تقرر مصير المعركة بهجوم جانبي مفاجيء .

تأثير الحروب الايطالية على تطوير الاسلحة

ادت الحروب الايطالية الى تطورات عظيمة،اذ كان باستطاعة المدفعية الفرنسية ان "تطلق" في ساعة واحدة ، من طلقات المدافع ، اكثر مما تستطيعه المدفعية الايطالية ، في يوم بكامله . ولذا لم تستطع اية مدينة محصنة في ايطاليا ان تصمد اكثر من ٣٦ ساعة ، وكانت المدفعية تدك المعاقل دكاً فتتهاوى جدرانها وتتساقط الى الارض . ولذا كان لا بد من « تسوير » المدن وتشييد اكوام من التراب عندالاسوار وفي مؤخرتها بحيث اذا تساقطت قنابل المدافع واخترقتها لا تحدث في السور اي خلخلة في الجدران ولا تصدع . ولذا اصبح الدفاع عن المدينة اسهل من قبل . فكان لا بد ان يقوم المحاصرون باعمال واتخاذ وسائل اخرى تسهل لهم الاقتراب من الحصون . عن طريق اقامة خنادق ودهاليز وممرات سرية والاستعانة بأكياس الرمل .

والمدفعية هذا السلاح الذي احتفظوا بفعاليته حتى الآن لحصار المدن والقلاع ، راحوا يستعملونه ، اكثر فأكثر ، في ساحات الحرب ، بالاشتراك مع انواع اخرى من السلاح . فقد ارغمت المدفعية الفرنسية ، في معركتي أغناديل (١٥٠٩) ورافينا (١٥١٠) العدو على ان يتخلى عن تحصيناته والخنادق التي كان يعتصم داخلها ، الى اراض مكشوفة كانت تصلح للقيام

المشاة الفرنسيين بهجومهم على الوجه الاكمل . ففي معركة مارينيان (١٥١٥) راحت المدفعية الفرنسية بعد ان امنت الاسلحة الاخرى حمايتها ، تحصد صفوف العدو ووحداته حصداً، بحيث كانت « اجسام الجنود السويسريين تتطاير في الجو مع البارود » . وهكذ كسبت المعركـــة . فمعركة مارينيان هي اولى المعارك الكبرى في التاريخ الحديث ، تم تحقيقها بفضل هذا التناسق المظم الذي تم بين الاسلحة الكبرى الثلاث : المدفعية والخيالة والمشاة .

وقد راح المتحاربون يقلدون نظم التعبئة الاصلح جدوى وفعالية : فيكتّبون كتـــائب المشاة ويعبئون المدفعية على الطريقة الفرنسية ، والمشاة على الطريقة الالمانية في القرن الخـامس عشر ، والخيّالة الخفيفة على الطريقة الالبانية ، وكلها اساليب ومناهج تعبئة اصبحت وسائل شائعة ومعروفة لدى الجميع . والبندقية التي استعملها الالمان سلاحاً رهيباً بعد ان ادخلوا عليها ما ادخلوا من تحسينات فنية ، جاءت ثمرة مهارتهم في شغل الحديد ، عم استعمالها وانتشر على نطاق واسع ، بعد ان اصبحت اسهل استعمالاً واهون اخذاً وتناولا مـــن القوس والنشاب ، وبرهنت عن فعالية حاسمة في تهيئة الهجوم والقيـــام به . ولم يلبث القوس والنشاب ان خف استعمالها تدريجياً حتى انتسخ العمل بهما بالكلية .

الاصلاح الحربي الذي قام بهغونزالفو القرطبي

أتاح مزج هذه الاساليب الحربية وافراغها لغونزالفـــو القرطبي ، من فلاسفة الستراتيجية الحديثة ورجال الحرب في ايطاليا ، ان يدخل على الجيش الاسباني تحسينات جديدة على مناهج التهيئة واساليب الحرب افضت بها الى طلوع فرقة الـ *Tercio* ، هذه الفرقة الاجنبية التي انشئت في الجيش الاسباني عام ١٩٢٠ . واول اصلاح ادخله غونزالفـــو ، تم سنة ١٥٠٣ وادى الى انشاء الفرقة ذات الجناحين ، كل واحد منهما يتألف من ٦٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الشرطة ، و ٨٠٠ من فرسان الخيالة الخفيفة و ٢٢ مدفعاً . وهكذا نجد تحت تصرف القائد او اللواء كل العناصر اللازمة لتوجيه المعركة نحو النصر الاخير ، فقد شدد كثيراً ، عـــلى الدور المنوط بفرقة المشاة ، هذه الفرقة التي تستطيـــع ان تنـــاور وان تقوم بالحركات العسكرية في في كل المجالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد حَمَلة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم خمس سلاح المشاة . وقد جهز كل جنديين من اصل خمسة من المشاة بسيف قصير ومزراق ، بحيث يستطيعون التغلغل بين افواج السويسريين وجندهم ويأخذون بطعنهم في بطونهم ، وقـد عبأهم ثلاثة صفوف متراصة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي للقيام بمناورات وحركات اذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، بعد تعبئة الافواج سرّيات تأتي الواحدة منها بمستوى السرية التي تسبقها من جهة اليمين لتشكل الطليعة ، وقد يسهل نظام التعبئة هذا ، على الطابور السائر في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طابور محارب ، ويُدرّب هؤلاء الجنود عـــلى النظام والتقيد بالانتظام ، ويشبّوا على احترام الذات والشعور بالكرامة والعزة الوطنيـــة والتحمس

بالشعور الديني الحي . وبذلك جعل من المشاة الاسبان سلاحاً مخيفاً ، مما جعل الالمان ، بعد ان خبروا بأس هذه الفرقة وجربوها ، يصرحون قائلين : « انهم لم يحاربوا بشراً بل ابالسة » .

اما الاسبان ، فالكابوس الجاثم على صدورهم ، كان الجندي الفرنسي، وليس من النادر قط ان تقع عين الباحث في الوثائق التاريخية التي تعود للاعمال الحربية التي قام بها الاسبان في اميركا وكتبها على الغالب ، كتّاب من قدامى رجال الحروب في اوروبا ، على عبارات كهذه : « فقد رفعنا في وجه العدو حاجزاً بلغ من متانته ما لا قِبَل للفرنسيين ان يأتوا معه شيئاً » .

من البندقية الى الطبنجة

هذا الصراع الدامي ، الطويل المدى ، الذي قام بين ملوك فرنسا وملوك النمسا ، اتاح ادخال تحسينات جديدة على صناعة الحرب وادواتها . ادخل الاسبان ، حوالي عام ١٥٢٠ ، تحسيناً على البندقية ، فقد ثقبت حلقة الاشعال الى جهة اليمين من مدفع البندقية بحيث يصل الثقب بعلبة البارود، بعد ان وضعوا لها غطاءً يمنع تسرب الماء والهواء والمطر والاهتزاز اليها ، بحيث يستطيع الجندي ان يسير والبندقية معبأة ومحشوة ، فيتم اطلاق العيار الناري بواسطة الكبس على انبوب يتصل بالزناد فيسقط الفتيل ويتصل بالبارود . فباستطاعة الجندي ان يشد على البندقية بكلتا يديه مما يزيد كثيراً في دقة التسديد . وهكذا امكن التخفيف من ثقل البندقية ، وراح الجندي يطلق النار والبندقية مسندة الى مِشجَب . وارتفعت نسبة حَمَلة هذا السلاح في فرقة المشاة بعد ان راحوا يدعونها تارة *Arquebuse* وطوراً *Mousquet* بحيث بلغ عددهم الثلث واحياناً النصف في فرقة المشاة . وقد بلغ من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح قائلاً : « ان مصير الحرب والمعارك التي خطت غمارها ، انما توقف ، الى حد بعيد ، على فتيلة بنادق الاسبان » .

وحوالي ١٥٢٥ ، اخترع الماني البندقية ذات الدولاب، ربط به حجر صوان يتحرك بواسطة نابض (زنبرك) يستعمل كزناد ، يقدح شرراً عندما يتحرك فيشعل البارود . فالاستغناء عن الفتيل جعل فرسان الخيالة يعولون ، اكثر فاكثر على هذا السلاح . ولكي يسهلوا لهم استعماله صنعوا بنادق خفيفة يمكن استعمالها بيد واحدة ، هي الطبنجة . وفي اواسط القرن السادس عشر، اخذ فرسان الخيالة الالمان يطلقون اثناء هجومهم العيارات النارية من طبنجاتهم مما اضطر معه قسم الخيالة ، في الجيوش الاخرى على احتذاء حذوهم واعتماد هذا السلاح الجديد ، حتى الشرطة منهم، مع ان تأثيرهم كان قد تضاءل جداً .

كان الجندي السويسري يكلف غالياً بينما جندي المشاة الالماني في حالة سكر دائم . ولم تلبث فرقة المشاة ان اصبحت سلاحاً وطنياً وراح الفرنسيون يجندون طوابير من المشاة اكثر افرادها من الفرنسيين وفي عام ١٥٣٥ ، راح فرنسوا الاول يؤسس كتائب اقليمية يؤخذ افرادها من ابناء الولاية او المقاطعة .

المدفعيـة

ادخلت تحسينات اساسية على سلاح المدفعية ، أهمهـا تبسيط الحركات والاكتفاء ببعض انواع رجحت فعاليتها بعد ان تكاثرت انواع المدافع التي كانت قيد الاستعمال ، مما وقف حائلاً دون تجهيز الفرقة بحاجتها من العتاد والعـدد ، وبذلك وضعوا حداً لهذه الفوضى . فمنذ عام ١٥٤٤ ، اقتصرت المدفعية ، في جيش شارل الخامس ، على بعض المدافع من عيار مجرب . وحذا حذوه ، سلاح المدفعيـة عند الفرنسيين بعد ان توقفت نتائج المعارك على هذا النوع من السلاح ، ففي الحصار مثلاً ، عوّلوا بالاكثر ، على مدافع الهاون التي لم تمتم ان اصبحت غير صالحة للاستعمال ، بعد اطلاق ٥-٦ طلقـات ، لسبب ما يحدثه المدفع من ردة الى الوراء . ولذا اخذوا يستعملـون رفّاصات تُلطّف من حدة الارتجاج . وتمكن الالمان من اختراع الصاروخ ، للقنابل المدّة للانفجار واشعـال الحرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنيخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا قنابل يدوية (رمّانات) تبقى مشتعـلة في الماء ، كما استعملوا اسهماً ملتهبة تطلق من البنادق ومنفّطات صنعت من المشاقة والكبريت ، لامطار المحاربين باللهب النارية . كذلك اخترعوا نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق صُفت جنباً الى جنب ، عُمل بها حتـى عـام ١٥٧٠ .

التحصينات الحربيـة

كثـيراً ما ذهبت الرطوبة بطلاء الاسوار ، فافقدتها ما عليها من الاتربة المختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار قليلة السماكـة بحيث تخترقها القنابل بسهولة دون ان تحدث فيها تصدعاً يذكر او خلخلة وتدخل في التراب حيث تفقد قوتها . وعند الزوايا التي تتألف من حائط منحرف يصل بين جدارين ،اخذوا،حوالي عام ١٥٦٠ ، يبنون ، بدلاً من الابراج ، شُرُفات حصنوها بالتراب والاغصان ينصبون على جوانبها ، من هـنا وهنالك ، المدافع . ولكي يحولوا دون نسف الجدران بالالغام الناسفة ، حرصوا على اقامة خندق أجروا فيه قناة من الماء ، بعد ان دعموا جانبيه من جهة الارض ، بحائط قوي ، وبعد ان اقاموا ، في القمة ، ممراً خفياً يسهّل المرور لمن يريد الخروج .

الانحطاط والتقهقر يطبع نهايـة القرن

احدثت الحروب الدينية تأخراً ظـاهراً في فرنسا . فقد اشتدت فيها اعمال الكمـين وعولوا على اعمال التبييت والترصد اكثر من تعويلهم على العمليات الحربية الكبرى . كذلك اعتمـدوا ، اكثر فاكثر ، على المتفجرات والمفرقعات لنسف ابواب المدن (كاهور ، عام ١٥٨٠) وراحوا في البلاد الواطية يعتمـدون اكثر فاكثر في دفاعهم عن البلاد ، على ما يقوم فيها من شبكات المياه والغدران والمستنقعات والبطائح لتقوية اعمال الدفاع . ومنذ موقعة ، غيرترويدنبرج (١٥٩٣) تبنّى موريس ده ناسّو ، اساليب التعبئة التي جاء بها غونزالفو ، عندما استعمل الجند كروّاد او طلائع في الجيش . ولما كان جيشه جيش حصار وليس جيش هجوم ، فقـد

تدرج على ان يقيم حول مخيمـــه اسواراً من الاوتاد يحيط به خندق ماء ، وقد تفنن كثيراً في توفير اسباب الاقتراب من المدن المحاصرة ، بواسطة قفف محشوة ترابـــاً ، في ارض يكفي ان يحفر الجندي قليلا في تربتها ليعثر على الماء . كذلك تفنن في حركات الكر والفر ، بحيث ان جيشه هــــذا اصبح مدرسة انتشرت مبادؤها في جميع انحاء اوروبا .

ومع ذلك نشهد تناقص عدد الجيوش ، بعد عام ١٥٧٠ ، كما ان هــــذه الجيوش اصبحت اقل تجهيزاً وعتاداً حربياً . فالازمة التي نزلت بالرأسمالية ، وارتفاع الاسعار ، والعراقيل التي حدّت من الانتاج بسبب كثرة الحروب الاهلية ، وانقسام اوروبا ، اكثر فاكثر ، الى دول واحزاب واحلاف، كل ذلك اضعف كثيراً من طاقات الجميع . فقد انتهى القرن وغربت شمسه في شبه تأخرّ عام .

الحروب الاقتصادية والمالية

والحروب ليست كلها اقتتال وتراشق بالنار والقنابل ، فهي حرب مال واقتصاد . ان طرح رؤوس الاموال المجمـــدة في التداول وتحويل الاعتمادات المخصصة لمقاطعات اخرى ، للنهوض بالحرب وتأجيج ضرامها ، كل هذا وما اليه، أتاح للملوك تجهيز جيوش جرّارة بعد ان توفرت للدولة واردات طائلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة . ولذا كان من الاهمية بمكان ان يحاول الخصم تعسير تموين العدو ، وقطع اسباب الميرة عنه لاحراجه مالياً واقتصادياً بتضييق الخناق عليه . فالابتكارات التي وضعها الكردينال ده تورنون ، حاكم مدينة ليون ، كتشكيل اتحاد المصارف الذي رمى منه الى تجميد الاموال المعدة للاستثمار ، واجتذاب رؤوس الاموال الى فرنسا من اي جهة كان ، واختزانهـا بقصد حبسها عن العدو والحؤول دونه للاستفادة منها ، ولا سيما التدابـــير والاجراءات التي اتخذت، في هذا السبيل، عام ١٥٤٢/١٥٤٣ و١٥٥٣/١٥٥٤ ، وتأليف «اتحاد ليون الكبير» الذي جرى تشكيله عام ١٥٥٥ ، كل هذه التدابير كان القصد منها ضرب حصار مالي ضد اسبانيـا وتوفير الاعتمادات المالية اللازمة لفرنسوا الاول وهنري الثاني ، فاعطت النتائج المرجوة .

والحروب كذلك لها وجهها الاقتصادي . ولذا فكثيراً ما راح الملوك يشـيعون بين رعاياهم الروح القومية الاقتصادية ، هذه السياسة الوطنية التي عبروا عنها بكلمة *Mercantilisme* وهو تعبير يبدو لنا اليوم ضيّق المدلول ، غائم المفهوم . اما الغرض من هذه السياسة فهـــو ان تؤمن الدولة نوعاً من الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد ، اي ان تكتفي نفسها بنفسها على اكبر قدر ممكن ، ولا سيما من المواد الاولية والخامات الضرورية للنهوض بالحرب وتأمين ما يلزم لها من عـدة وعتاد وعَدَدٍ وعُدَد ، وغير ذلك من المعادن وملح البارود والكبريت ، وتوفير كل هذه المواد محلياً . كذلك رمت هذه السياسة ، من ناحية اخرى ، الى اجتذاب النقـد النادر او الثمين من الذهب والفضة واختزانه في البلاد والاحتفاظ به لليوم العصيب ، مما لا بد منه لحيـاة البلاد الاقتصادية ولدفع مرتبات الجند وتأمين نفقات الجيوش الطائلة ، وما تحتاج اليه من ذخـــيرة

وميزة ، ولا سيا لدعم سياستها العليا . فالدول قلما تعتمد ، في هذا المجال ، على الحماية الجمركية مع العلم ان الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج ، او على المواد الاوليـــة التي تصدرها البلاد ، جرى تطبيقهـــا والعمل بها ، في بعض الاحيان . فلم يكن ليتوفر لدى الدول ما يلزم مـــن الموظفين الاكفّاء ولا من العمال الاكفياء ما يلزم لاقامة مراكز تفتيش وجباية على طول الحدود ، لاستيفاء المتوجب من العوائـــد والرسوم ، كما ان الدولة لم تكن تمتّ لها بعد الخبرة الكاملة لفرض نظام من الحماية الجمركية ، او الاخذ بنظام اقتصادي موجه . وراحوا يحظـّرون استيراد مصنوعات اجنبية ، ويمنعون خروج بعض المواد مـــن البلاد ، كما راحوا يصدرون ما يلزم من القوانين ويتخذون ما يجب من التدابير التي تمنع تهريب النقد للخارج ، او تحد من ارتفاع اسعار الحاجيات ، ويعمدون الى اقامـــة الاحتكارات . وكان رعاياهم ، ولا سيا التجار منهم في المدن يفضلون بالاكثر ، ان تعتمد حكوماتهم سياسة التجـــارة الحرة . وكان لا بد مع ذلك من ظهور ازمات مالية حادة : ازمة هبوط او ازمـة ارتفاع ، وظهور اخطار في الخارج تجعـــل الناس يرضخون او يطالبون بهذه الروح القومية في حياة البلاد الاقتصادية ، إسوة بما حدث في عهد الملكة اليصابات ، قبل عام ١٥٨٨ ، اذ كان يجثم على صدر البلاد كابوس الارمادا التي لا تقهر ، وكما حدث في فرنسا بالذات ، عندما اجتمع ممثلو الامـــة ، عام ١٥٧٦ . فالقومية الاقتصادية ، هي ، قبل كل شيء ، سلاح بيد الحكومات ، في ما تعاني من اصطراع سياسي مع الخارج .

٢ ـ امبراطوريات وقيصريات

سبق للسيد المسيح ان تمنى على الله : « ان يكونوا واحداً كما نحن واحد » وهـــو طلب تمنى معه ان تؤلف جميع الامم والشعوب حكومة واحدة تحت سلطة واحدة وقانون واحد. وبقيت هذه الأمنية حية تنبض في قلوب الناس حتى القرن السادس عشر ، يتبلور صداهـــا على الاخص في شخص رئيسين نزع كل من جهته ، الى اقامة سلطان اعلى وسلطـة اسمى ، هما البابا والامبراطور .

البـــابا

ادّعى البابا لنفسه سلطة شاملة مسكونية ، كما ادعى الحق بحـــل رعايا الملوك اجمع من قسم الولاء والطاعة الذي يقيدهم ، وحق اسقاط الملوك ، وتكريس الامبراطور ومسحه ، وتوجيه الملوك وارشادهم . غير ان نفوذه لم يكن بالفعل مما يُعتد بـه او يؤبه له . فها هو يدعو عبثاً ، لحملة صليبية جديدة فتذهب صرخته في وادٍ ، وعبثـــاً يقضي في الاختـــلافات بين الملوك حَكَماً ، اذا ما رأى هؤلاء مصلحة لهم في العبث باحكامه والغض من اقضيته . وعندما راحت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان ، عام ١٤٩٤ ، في بـــلدة توردسيلاس ، الاراضي الجديدة التي صارت اليهم في العالم الجديد ، لم يتورعا قط من ان يجريا تعديلا في أحكام البراءة البـــابوية *Inter Caeteras* ضاربتين بعرض الحائط ، ادعاء البابا ، ملء

السلطان ، بعد ان اعلنتا على الملأ ان ليس في مقدوره قط ، ان يرفع ، من تلقاء نفسه وبمجرد مشيئته، المسؤوليات المترتبة عليها. وفي سنة ١٥٤٠ ، اعترف الملك فرنسوا الاول واقر ان للبابوات سلطة روحية ، ولكن لا حق لهم البتة بان يتصرفوا بالارض فيوزعوها على هواهم . ثم ان علمنة السياسة وحركة الاصلاح الديني أقصرا كثيراً من نفوذ البابا الزمني ، وخفضا مما تبقى له من سلطة وسلطان حتى على الدولة البابوية بوصفه زعيماً سياسياً .

الامبراطور

من مزاعمه المتوارثة انـــه الوريث الشرعي للاباطرة الرومانيين ، تلقى سلطته من الله نفسه ، وانه بالتـالي ، الرئيس الاعلى والقاضي ، والوسيط والحكم النهائي والاخير ، في الامور الزمنية ، وان له السيادة والتقدم على أصحاب العروش والتيجان ، وان الملوك والامراء كلهم تبع له ، مقيدون تجاهه بالروابط التي تفرضهـــا النظم الاقطاعية وله وحده الحق بان يلقب صاحب الجلالة ، وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان يقيم جميع الملوك نواباً امبراطوريين ، وانه أعطي وحده الحق بتدبير شؤون المسيحية جمعاء ، ولا سيا السلطان لتأديب الكفرة والمارقين ، والهراطقة والجاحدين . فهو القائـــد الاعلى لكل صليبية .

اوروبا والقيصريات

القول بسلطة عليا في العالم ، نظرية تجاوبت اصداؤها في النفوس وارتكضت بها المشاعر الحية التي تنبض في كل الشعوب ، ولم يكن أحد ليجرؤ للتعرض لها على المكشوف . وقد أخذت هذه الافكار والمشاعر تتطور بالفعل دون ان يلحظ المسؤولون شيئاً من هذا ، او ان يتنبهوا الى ما هو جار . ففكرة الامبراطورية او السلطة الشاملة اخذت بالرغم من احترامها للقوميات المختلفة ، باعتبارها اداة اتحـــاد بين الشعوب الاشقاء ، تتغير وتتحول خفية لتحل محلها فكرة القيصرية ، او تسلط امة فاتحة غلابة ، تمتص دونما انقطاع او توقف ، المالك والشعوب مرغمة الآخرين ممن ليسوا من توابعها ، على احترام ارادتها .

القيصرية الالمانية

هنالك بالفعل ، قيصرية ألمانيـــة . فالامبراطورية لم تكن ، من حيث اشتقاق اللفظ ، من حق اي شعب من شعوب الارض . فهي فوق الشعوب والمنطق يقضي بانتقالها من ملك الى ملك ومن شعب الى شعب . اما الالمان ، فقد اعتبروا انها من حقهم وحدهم دون سواهم . أفليس ملكهم الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة؟ وهي امبراطورية تشمل كل الاراضي الجرمانية . فهي تدعى حتى في اواخر القرن الخامس عشر : الامبراطورية المقدسة تقتصر على القومية الالمانية . وعندما تقدم الملك فرنسوا الاول وشارل الخامس يرشحان نفسيهما ، عام ١٥١٨ ، لانتخاب الامبراطور ، قام ومفلنغ يعيد نشر بحث قديم ينص على وجوب انتقال منصب الامبراطورية الى الالمان ، وبالا تؤول لا الى فرنسي او بورغوني ، بل الى الماني ، من العرق الالماني . فالامبراطورية ، هي ، في نظر الالمان ، سمة التفوق

والتسامي واداة سيطرة الشعب الالماني على باقي الشعوب فهي أداتهم المثلى لاقامة قيصريتهم . الا ان تطور الممالك والامارات الالمانية ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ونزعات رؤسائها وملوكها للاستقلال بالانفصال عن الامبراطورية ، والاصلاح الديني الذي غذّى هذه النزعات وابرزها ، كل ذلك جزّأ ألمانيا ، وحال دون بروز هذه القيصرية .

القيصرية الفرنسية

هنالك ايضاً – وماذا يمنع ؟ – قيصرية فرنسية ، فقد سبق الفرنسيين واعلنوها عالياً ، مراراً وتكراراً ، انه ليس ما يربطهم بالامبراطورية قط . « فالملك هو الامبراطور في مملكته » . وها هو شارل الثامن يهبط ايطاليا ، ويتوغل بعيداً نحو الشرق ، مترئساً صليبية ، ويتزوّد بما يؤيد خلافته لامبراطور القسطنطينية . فها هو يدخل نابولي حاملاً على هامته تاجاً من الذهب ، ممسكاً بيده الصولجان الامبراطوري والكرة الارضية ، والشعب يهتف له بملء جوارحه . « ليعش الامبراطور صاحب الجلالة » . فاذا بالهلع يدب في قلوب الألمان ، وراحوا يفسرون مخاوفهم انه انما يسعى وراء لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذه القيصرية الفرنسية التي تبلورت في رغبة الفرنسيين السيطرة على ايطاليا بترشيح الملك فرنسوا الاول نفسه لانتخابات الامبراطور عام ١٥١٩ ، حل محلها ، بعد فوز شارل الخامس بها ، سياسة دفاعية تجاه آل هبسبورج .

القيصرية البورغونية

قيصرية آل هبسبورج تجلببت لبوسين مختلفين : شارل الخامس ، هو وريث العائلة الملكية في النمسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكهم الطائلة ، كما هو صاحب تاج أراغون وقشتالة ، الذي اصبح ، عام ١٥١٩ ، امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . هو اولاً ، وقبل اي شيء آخر ، شارل العظيم ، شارل الكبير ، البورغوني الاصل والمحتد ، يحمل في نفسه نزعة بورغونية قوية الى القيصرية تسيطر عليه وتتملكه . فمطلبه الاغر وهدفه الاول هو استرجاع تركة شارل الجسور ، من ملوك فرنسا ولا سيما استخلاص دوقية بورغونيا وعاصمتها ديجون ، وديْر رهبان شارتر في شانمول ، حيث يرقد بالرب ، اباؤه واجداده ، ثم انشاء دولة بورغونية ، مهيبة الجانب ، تهيمن على الغرب وتقود منه الخطى . هذا هو حلمه الاكبر ، وفي سبيل هذا الحلم المعسول ، يحلو له ان يسخر الممالك والدوقيات والكونتات والامبراطورية نفسها . فقد صارت خطته هذه الى فشل ذريع اذ ان معاهدة كمبريه التي عقدها مع فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٩ ، كرست نهائياً ، اقتسام تركة شارل الجسور .

القيصرية القشتالية

وهذه القيصرية التي جاش بها آل هبسبورج ، نراها تتقمص من جديد في شخص شارل الخامس لتبرز قيصرية اسبانية ، قشتالية . اخـذ شارل الخامس يتطبع ، شيئاً بطباع آل قشتالة . أليست قشتالة هي خير من تفهّم احلامه وتبناها ،

وخير من امتثل له وخير من أمدّه بالاصفر الرنان والجيوش الجرارة ؟ فهو يلزعم اسبانيا ويقودها للسيطرة على ايطاليا . فصقلية تمد اسبانيا بالقمح الذي لا يتوفر لها بالقدر الكافي . وتأميناً للاعتمادات التي تؤمنها له المصارف الالمانية ، رهن املاك التاج في نابولي . ودوقية ميلانو هي المرحلة الاولى والقلعة التي تُفضي اليها مجازات جبال الالب .

والانتصارات التي يحققها في ايطاليا تضع تحت تصرفه خزائن رجال المال في جنوى وفلورنسا ، الى ان يتم له ، بعد لأي قصير ، طرد الفرنسيين من ايطاليا .

وها هو يقود اسبانيا للسيطرة على الامبراطورية . فالجيش الاسباني يؤمن له النصر في موهلبرغ (١٥٤٧) وينتصر على البروتستانت الالمان وعلى حلف سمالكلاند . والحاميات الاسبانية تتحكم بكل ألمانيا . فشارل الخامس يرغب من كل قواه ويتوق في الصميم ، الى تتويج ابنه فيليب ملكاً رومانياً ، بالرغم من جنسيته الاسبانية ، ويجعل منه الامبراطور العتيد . فظنون الالمان وهواجسهم لها ما يبررها : فهم امام محاولة لبسط سيطرة اسبانيا عليهم . « فاذا كان لا حق لاي وَلشْ ان يتحكم بنا ، فكم بالاحرى ، لاي اسباني » . فراح السواد الاعظم من الالمان يعطفون على شقيقه فردينان وعلى ابنه مكسيليان . فمنذ عام ١٥٢٢ ، تخلى شارل الخامس لاخيه ، عن ممتلكات آل هبسبورج في النمسا وفي المانيا . كما اختاره ليكون نائبه العام في هذه الاخيرة . فمنذ عام ١٥٣١ ، اصبح فردينان ملك الرومان . والمقاومة التي اظهرها هو وابنه ، لاخيه شارل الخامس ، حملت هذا الاخير على التراجع ، وفي سنة ١٥٥١ ، اضطر الى ان يسحب من جميع انحاء المانيا ، الحاميات والكتائب الاسبانية المرابطة فيها ، بعد الذي شاهده من اهتياج الالمان وبغضهم لها . ولذا لم يكن بدّ من التسليم بانسحاب الاسبان ومن اقتسام تركة آل هبسبورج . وفي سنة ١٥٥٨ ، تنازل شارل الخامس عن لقب امبراطور المانيا الذي كان يحمله منذ عام ١٥١٩ ، وعلى الاثر ، تم انتخاب فردينان امبراطوراً وصارت اليه جميع املاك آل هبسبورج المتوارثة ، كما صارت اليه المسالك المؤدية الى مجازات الالب والمداخل الموصلة الى قلب اوروبا . الا ان الانقسامات التي قامت في ايطاليا ، والخطر التركي الجاثم بالقرب منها ، جعلت هذه القيصرية لا توحي باي خطر .

احتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية فاقتصرت القيصرية التي جاش بها على غربي اوروبا . فكما ان والده سخر فكرة بسط سيطرته في خدمة القيصرية المتابعة ، سخّر فيليب الثاني ، عن حسن نية منه ، الفكرة الدينية التي مثلها ، في خدمة القيصرية الاسبانية : فقد بَرَزَ المدافع الاول عن الكثلكة ضد الهرطقة . حاول ان يخضع لسيطرته ، البلاد الواطئة ليجعل منها قاعدته الكبرى لتوجيه ضرباته اينما شاء . فقد حاول ان يسيطر على انكلترا وان يبسط سلطانه على البحار الضيقة بزواجه من اليصابات ثم محاولته غزو انكلترا ، عام ١٥٨٨ ، بواسطة اسطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد ان مني بالفشل ، وجّه جهوده نحو فرنسا ولا سيا ضد هنري ده نافار الهرطوقي المطالب بالعرش ، وهيأ جميع الاسباب ليرشح نفسه للعرش فرنسا ،

ثم رشح له ابنته ايزابيل. فشلت خططه تلك ، فاضطر معها الى عقد معاهدة فرفين (١٥٩٨) التي جاء عقدها تكريساً لهذا الفشل . فقد اصطدمت القيصرية الاسبانية ، اينما ظهرت ، بالروح القومية ، والشعور الوطني . فالقيصرة التي جاءت أصلاً ، ربيبة الروح القوميـة ، وجـدت في القوميات المهدّدة ، حداً لآمالها ، وصداً لامانيها .

القيصريات البحرية

هل يجوز بعد هذا ، التحدث عن قيصرية انكليزية ؟ فالسياسة الانكليزية استهدفت دوماً التوازن الدولي . وقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا دوماً بمدينتي بولوني وكاليه ، وبذلك يؤمنون السيطرة على المسالك والمرور من بحر المانش الى البحر الشمالي ، وعلى ملتقى المحيط الاطلسي بالبحار الشماليـة ، ومنـافذ البحر الابيض المتوسط الى البلدان المحيطة بالبحر البلطيقي . وقد بقيت السيطرة ، على هذه المواقع ، في نهايـة الامر ، بيد الفرنسيين .

مثلت الاجيال الوسطى الحقبة التي كانت فيها حرية البحار مطلوقة للجميع . ولكن مـا كادت بعض الدول تطل على العصر الحديث حتى نزعت نفسها للسيطرة على بحر او عدة بحار ، فالبندقية هدفت ، منذ القرن الثالث عشر ، للسيطرة على البحر الادرياتيكي ، كما هدفت ، جنوى من جهتها ، منذ القرن الرابع عشر ، للسيطرة عـلى البحر الليغوري ، والدانمارك عـلى البلطيق ، والنرويج على المحيط الاطلسي حتى مشارف إسلندا وغرينلاند . والدولة الاستعمارية كثيراً ما رغبت في اقامـة نوع مـن الاحتكارات والى فرض الرسوم وجبايتها ، لقـاء حرية الصيادين والتجار ولتأمين سلامة السفن التي ترفع علمها .

قيصرية البحر المتوسط

كثيراً ماجاءت القيصرية البرية نتيجـة للسيطرة على البحار . فالقيصرية الاسبانية لا يمكن تصورها الا بعد تأمين سلامـة وامن الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط حيث قامت اهم الممتلكات الاسبانية . فالحرب البحرية رمت دومـاً للسيطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديـدة والارياح المزمجرة ، وصغر السفن وسرعة عطبها، اجبرت الملاحة على السير بالقرب من السواحل البحرية ، واوجبت عليها إقامة شبكة ، من المرافىء تؤمن لها حاجتها من المؤن والذخائر ، فقد كان من السهل احتلال بعض هذه الموانىء ، وقطع المواصلات البحرية ، بعد ان أِلفـ الاتراك كل سنـة تقريباً ارسال عمارة من سفنهم ، للقيام باعمال القرصنة في البحر وسلب المناطق المحيطة بـه . وكم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم ، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بحاجة اليها (طولون سنة ١٥٤٤). ولحسن حظ الاسبان ، انه لم يخطر يوماً للاتراك في البال — وجـل همهم من القرصنة النهب والسلب والاستباحة — ان يذهبوا بعيداً في قرصنتهم ، او ان تحدثهم النفس ، باغلاق البوابة القائمة بين نابولي ومسينا . فبعد وفاة هنري الثاني ، اختفت من ميـاه البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزف الاتراك عـن

مغامراتهم الحربية في هذه المناطق، بعد ان سُدت في وجههم القواعد الفرنسية ،اذ ان حروبهم مع الفرس والامبراطور اضطرتهم للتوقف عن هذه الاعمال العدوانية ، كما كان لهم من مشاغلهم الداخلية كأمور الخلافة ، والقضايا الاقتصادية ما أثار في وجههم العراقيل والمصاعب . فقد تم للحلف المسيحي المقدس النصر على الاتراك العثمانيين ، في معركة ليبانت ، (١٥٧١) . وهكذا تم طرد الاتراك من حوض البحر المتوسط الغربي . ثم ان الاتراك والاسبان اتجهوا ، بانظارهم نحو المحيطات واصبح البحر المتوسط ، بمنأى من الطرقات البحرية الكبرى ، واصبح بالتالي في المرتبة الثانية من النشاط والحركة التجارية ، بعد ان كان ، من قبل ، قطب الحركة ومحورها الرئيسي . وهكذا اخذ مجال السيطرة يتجه الى المحيطات .

القيصريات المحيطية

وهكذا لم تلبث القيصرية القارّية مرتبطة ، الى حد بعيد ، بالسيطرة الاوروبية على المحيطات . فلم يكتف البرتغاليون والاسبانيون بتأسيس امبراطوريات واسعة لهم ، بل راحو يعتقدون يقيناً ان الله اختصهم دون سواهم بتملك الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف في المستقبل . وظهرت براءات بابوية عديدة تؤيد وتقر المواثيق التي توصل الطرفان الى عقدها ، بهذا الصدد ، وتحدد مناطق نفوذ كل دولة منهما محاولتين ان تقصي عنها او ان تحرم منها ، الدول الاخرى . واهم المواثيق التي عقدت بين الاسبان والبرتغاليين ، في هذا المجال هي معاهدة تورد سيلاس (١٤٩٤) التي أقامت الحدود الفاصلة بين ممتلكات الطرفين عبر المحيط الاطلسي ، عند خط يمتد ١٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر الرأس الاخضر، كما حددت معاهدة سَرغسْطة (١٥٢٩) الخط الفاصل بين املاك الطرفين في المحيط الهادي ، على بعد ١٧٢ درجة الى الشرق من جزر المولوسك .

فالاسبان والبرتغاليون تشبعوا من فكرة قدسية هذه النصوص التي كرست احتكاراتهم لهذه الكشوف الارضية ولملكيتهم لهذه البلدان التي ظهرت لهم . فالمناهضون لها او المتجرئون على مخالفتها يستهدفون للحرم . فقد نظروا الى كل حملة او تجريدة تجارية ، او الى اية محاولة استعمارية يقوم بها الغير ، نظرهم الى عمل قرصنة موجه ضدهم ، ولذا استهدف كل من تحدثه نفسه باتيان شيء من هذا ، للقتل والعذاب والتشهير ، مصير كل خائن مارق .

والحال ، فقد اصبحت هذه الامبراطوريات الاستعمارية ، عاملا هاماً في السياسة الاوروبية بما امنته لدول اوروبا ولامرائها من المعادن الثمينة ، وصلتها ، في بدء الامر ، بمقادير ضئيلة محدودة ، لم تلبث ان ارتقت اهمية كبرى ، لدى شارل الخامس، بعد ان تم له فتح المكسيك على يد ممثله كورتيس (١٥٢٠-١٥٢٢)، وفتح البيرو ، على يد بيزارو (١٥٣١-١٥٣٦) ، واخيراً بعد إن تم اكتشاف مناجم الفضة الغنية ، الواقعة في مدينة بولوزي ، عام ١٥٤٥ . فالامبراطورية البرتغالية مثلت ، مدة طويلة ، دوراً كبيراً ، في المجال الاقتصادي ، اذا ما قيس بالدور السياسي الضئيل الذي لعبته في المجال السياسي ، بالنظر لصغر حجم البلد الأم .

الا ان فيليب الثاني ، تمكن ، عام ١٥٨٠ ، من فتح البرتغال ، والاستيلاء على البلاد ، وحمل البرتغاليين ، عام ١٥٨٢ ، على الاعتراف بسلطانه وسلطته ، فاضاف بهذا الفتح ، الى ممتلكاته الواسعة ، ما كان من امثالها للبرتغاليين من مستعمرات شاسعة الارجاء ، وصرف كل همه اذ ذاك ، لرعاية هذه الامبراطورية العالمية الشاملة . وهذه الحروب التي خاضها في السنوات الاخيرة من عهده ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، لم تكن لترمي ، في نظره ، الا لتأمين سيطرته على المواصلات في المحيط الاطلسي . فالحرب ضد الاتراك جعلته ينصرف عن البحر المتوسط ويهمل امره فيه ليولي كل همه الى المحيط الهندي ، تأميناً منه السيطرة على مناجم الذهب في صوفالا .

من ينظر الى خارطة العالم ، اذ ذاك ، يخيل اليه انه اذا كان شارل الخامس وابنــه فيليب الثاني ، قد غلبا على امرهما في اوروبا ، فقد حققا ، في اماكن اخرى ، نجاحات عظيمة ، وان اهم ممتلكاتهما هي المحيط الاطلسي وامبراطوريتهما ترامت من حدود هذه الامبراطورية ، في اوروبا ، الى اميركا ، في الغرب . كل هذا وهم في وهم . فواردات اميركا لم تكن لتمثل سنــة ١٥٥٤ ، سوى ١١٪ من مالية الدولة ، ثم ارتفعت الى ٢٥٪ عام ١٥٨٥ ، فقوة شارل الخــامس وفيليب الثاني تبقى في اسبانيا وفي ايطاليا . فامبراطوريتهما هي قارية ، قبل كل شيء ، مع فروع لها بالطبع ، عبر الاوقيانوسات .

التوازن الدولي

هذه القيصريات التي استعرضنا لاهمها في بحثنا هذا ، حلت على التصــدي لها ، والوقوف بوجههــا والصمود امامها ، هذه الدول الاخرى التي تمثل نزعات ومصالح القوميات التي تألفت منها . فقــد حاولت مجتمعة ، منع اقواها واشدها ، اذ ذاك ، من تحقيق اهدافها ، وراحت تتحالف لاقامة توزان بين الدول ، اي اقامــة ميزان او قسطاس لهذه القوى . وهذه النظريــة لم تلبث ان اصبحت القاعدة التي سار عليها مبــدأ التوازن بين الدول الاوروبية ، والفكرة التي سلمت بها الاجيال الوسطى بوجود تدرج مسلسل بين الممالك حلت محلها نظرية : دول حرة متساوية . وفكرة التوازن الدولي هذه عرفتهــا ايطاليا من قبل ، وطبقتها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وما حلف البندقية ، (مارس ١٤٩٥) الذي ألب ضد شارل الثامن : البابا والبندقية ، وميلانو وآل هبسبورج وآراغنون وقشتالة ، الا ايذاناً بانتقال مبدأ التوازن الدولي ، من ايطاليا الى اوروبا والعمل بموجبــه كقاعدة اساسية للسياسة الاوروبية . وقد اصبحت انكلترا روح هذه السياسة وباحتها ، مع انها اشتطت مراراً في تطبيقها وجارت ، بدافع الحقد التقليدي الذي تحمله ضد فرنسا. ومبــدأ التوازن هذا ، ادّى الى عقد عدة احلاف ، منها مثلاً : الحلف المقدس الذي عُقد عام ١٥١١ ، وحلف كونياك المعقود عام ١٥٢٦ ، وغيرهما ، بعد ان ضربنا صفحاً عن عدد كبير من المواثيق المتذبذبــة .

اما المحيطات فلم يتحقق بشأنها اي توازن ، انما طلعت علينا نظرية حرية البحار ، ونظرية الاحتلال الفعلي او الواقعي . ففي سنة ١٥٣٣ ، نال فرنسوا الاول ، من البابا اقليمس السابع ،

تفسيراً لهذه البراءات البابوية التي صدرت عام ١٤٩٣ والتي استثنت نصوصها القارات المعروفة قبل عام ١٤٩٣ ، وليس الاراضي الجديدة التي يمكن اكتشافها فيما بعد، على يد الدول الاخرى. وذهب فرنسوا الاول الى ابعد من ذلك ، عام ١٥٤٠ ، فاسمعه يقول : « ان الشمس تشرق له كما تشرق لغيره ، ويتوق كثيراً لو يستطيع الاطلاع على الوصية التي تركها ابونا آدم وقسّم الارض بموجبها بين ذريته » .

وصرح بأن احتلال الارض وحده يولي حق التملك ، وبان اكتحال العين برأى الارض التي تلوح للناظر من بعيد ، او بمجرد عبورها ، لا يعطي قط حجة بتملكها ولا يقيم سند تملك ، وبانه يعتبر مملوكة : « الاماكن المأهولة والتي جرى تحصينها » . فنحن هنا امام الاسس التي قام عليها الاستعمار الحديث .

السياسة الايجابية

تنهض السياسة ، قبل كل شيء على وزن القوى القائمة وتقييم العناصر التي تتألف منها بالنسبة بعضها لبعض . فالقانون او العامل الاخير هو المصلحة المتفهمة حق الفهم ، والقاعدة الوحيدة هي الفعالية او النجاح . وكثيراً ما اقسموا بالله واستشهدوا بالاخلاق الادبية ، وهي امور لم يعد احد ليهتم بها او ليكترث لها . فبابوات تلك الحقبة ، هم انفسهم أعطوا المثل على احتقار الكلام المقطوع . فاذا كان لهم حق الربط والحل ، فقد كان بوسعهم ، طبعاً ، ان يحلّوا انفسهم : فلم يشعروا يوماً ، بأي التزام يقيدهم ، لانهم ذيّلوا او وقعوا وثيقة او صكاً حرروه . فقد نسفوا من الاساس الاخلاقية الشريفة التي كانت توصي باحترام الكلام المقطوع ، واواصر الشرف ، وهذه المثُل النبيلة التي كانت الباعث او الدافع لمكارم الاخلاق . وعلى هذا دشّن البابوات عهداً جديداً وسياسة جديدة ، في العلائق الدولية .

مسيحيون وخوارج

غامت فكرة الصليبية في الاذهان مع انه لا يزال هنالك من يثير هذا الموضوع ويلهج به . فقامت ، في هذا السبيل ، عدة محادثات ضد الاتراك (١٥٠٨ و ١٥١٨) كانت مظاهر ومناورات اكثر منها وقائع جدية . فالبابا جول الثاني نفسه اعطى المثل على طبسها . فقد اقتطع قدراً من المبالغ المجموعة لاغراض الصليبية لاستكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس . والبابا اينوشنتيوس الثامن تقاضى من السلطان بايزيد جعالة دسمة لقاء احتجازه ، في روما ، شقيق السلطان ، المدعو دجم سلطان الذي كان منافساً لاخيه على عرش السلطنة . كذلك ، استقبل البابا استقبالا مهيباً سفير السلطان بايزيد بحضور مجلس الكرادلة وممثلي الدول المسيحية في روما . وفرنسوا الاول ، عقد حلفاً مع الاتراك لانهم يستطيعون ان يهاجموا الامبراطور من الوراء ، في اوروبا الوسطى فيقطعون ، على شارل الخامس ، خطوط مواصلاته في البحر المتوسط ، وهي اعمال تتفق تماماً وسياسته الوطنية . ومنذ عام ١٥٢٤ ، عقد على المكشوف معاهدة مع المسلمين ، كما وقع ، عام ١٥٣٦ ، اول معاهدة تكرس سيطرة فرنسا التجارية في بلدان الشرق الادنى . وشارل الخامس نفسه توصل في نهاية الامر ، الى عقد اتفاق مع

المسلمين في تلمسان وفي تونس ، كما ان اخاه فردينان دخل في مفاوضات مع الاتراك ، ودفع لهم الجزية .

رأي عام ودعاوة

شجب الرأي العام المفاوضات التي اجراها الملوك المسيحيون مع المسلمين. وكان واضحاً ان هؤلاء الملوك لا يستطيعون الاضطلاع باعباء الحكم الا اذا عرفوا ان يؤمنوا عطف الرأي العام ، خوفاً من قيام معارضة في وجههم . ولذا قاموا ينظمون الدعاوة . ففي عام ١٥٣٦ ، فرض شارل الخامس على البابا ان يلقي في مجلس الكرادلة ، خطبة طويلة ، يشهر فيها بالملك فرنسوا الاول ، ويفضح جرائمه ويحمله المسؤول الاول عن الحرب « هذا التركي » مضطهد اللوثريين . وقد تمت ترجمة هذه الخطبة الى كل اللغات وجرى توزيع نسخ منها في كل البلدان ، بواسطة مطابع أنفرس . وقد راح حزب الامبراطور يلقب فرنسوا الاول بـ « تركي » . أما فرنسوا الاول فقد عهد الى الاخوة *Du Belay* ان ينظموا له اشبه ما يكون بمكتب صحفي يكون فيه من الكتّاب والسكرتيرية من يحسنون الفرنسية واللاتينية والالمانية ، مع مراسلين له في جميع انحاء اوروبا ، من أبرزهم جان سليدان ، في ستراسبورغ ، فاغرقوا البلاد بطائفة من المنشورات والاهاجي ضد شارل الخامس الظالم الظلوم .

كان فرنسوا الاول هو اول من حرّك او أطلق النظرية التي تقول بوجوب موافقة الرعايا بحرية، على اي قرار يتعلق بمصيرهم . فكل حوادث دمج ولايات البروفانس وبورغونيا وبريتانيا، الى املاك العرش التي وقعت منذ اواخر القرن الخامس عشر ، انما تمت بناءً على اتفاق نصّ صراحة على حق تصرف الشعوب بنفسها بحرية. الا ان تنازل فرنسوا الاول عن مقاطعة بورغونيا لشارل الخامس ، بموجب معاهدة مدريد ، عام ١٥٢٦ ، بعد انهزامه في معركة بافيا ، لم يتحقق ولم يحصل، لان عقد هذه المعاهدة جاء مخالفاً لهذا الحق . ففي عام ١٥٢٦ ، اعلن سكان دوقية بورغونيا بانهم يرغبون « في البقاء على ولائهم لعرش فرنسا وليس للامبراطور » ، متمسكين بالمبدأ القائل بانه لا يجوز نقل شعب ، من سلطة الى سلطة اخرى ، بدون رضا هذا الشعب وموافقته .

وكما ان اللغة راحت تفرض نفسها في كل انحاء المملكة ، فقد ألحقت الرقعة التي سيطرت عليها لغة ما ، وطناً او جنسية . ففي سنة ١٥٥١ ،قدم الامراء الالمان للملك هنري الثاني الوكالة على مدن الامبراطورية التي تتكلم اللغة الفرنسية . وهذا التصرف حمل الملك هنري الرابع على ان يصرح فيما بعد : « أرغب في الصميم ان تذهب المقاطعات التي تتكلم الالمانية الى المانيا ، كما افهم جيداً ان تكون لي كل المقاطعات التي تتكلم الفرنسية » .

الاصلاح والامم

غلّب الاصلاح احياناً ، الشعور الديني على الشعور الوطني او القومي ، كما يشهد على ذلك بوضوح،تاريخ اوروبا بين ١٥٦٠ — ١٥٩٠.فقد راح اتباع الدين الواحد يظاهرون بعضهم بعضاً ، أيّاً كان البلد الذي ينتمون اليه ويحملون السلاح الى جانب ابناء ملتهم ولو كان موجهاً ضد مواطنيهم . غير ان الاصلاح راح يشجع ، على الاجمال

ظهور القوميات . فاسبانيا وحدها بين الدول الكبرى في الغرب ، قضت على الهرطقة الجديدة بسرعة ، وراح الاسبان يعتقدون ، في قرارة انفسهم ، انهم شعب السيد المسيح الخاص وجند الله. فالقيصرية الاسبانية ، في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني اعتبرت نفسها صليبية اسبانية ، فالشعور الديني هنا وطد كثيراً الشعور القومي وقوّاه .

اما في انكلترا ، فحرب المائة سنة غذّت في البلاد شعوراً وطنياً صحيحاً ، انما كان شعوراً فاتراً لان البلاد لم تكتو بنار هذه الحرب ولم تتضرس بويلاتها ، وبقيت الاراضي والممتلكات سالمة لم تتعرض لاعمال السلب والنهب والاستبزاز ، كما ان الاهلين بقوا بعيدين عن ويلاتها . فقد جاء الاصلاح الديني فيها يلهب الشعور القومي في النفوس ويؤججها حقداً وموجدةً على البابا والدول الكاثوليكية . ولم تلبث انكلترا ان اصبحت حامية الاصلاح والمناضلة دونه ضد فيليب الثاني بعد ان تفجرت فيها الروح القومية .

اما في المانيا ، فقد تحسست البلاد بشعور عام ضد العرش وايطاليا ، فقد شطرها الاصلاح شطرين اضعفا من شأنها كدولة ذات بأس ونفوذ . وبعثت حركة الاصلاح فيها الى الوجود ، قوميات جديدة ، تركّزت وتراصّت دينياً حول اميرها او مليكها . وعلى هذا قس الاصلاح في البلاد الواطية ، اذ فرض على هذه البقية الباقية من القومية البورغونية فخلّف فيها قوميتين متباينتين .

ففي اواخر القرن نرى الشعور القومي يتغلب ويسيطر في كل مكان ، ففي عام ١٥٩٨ ، يشكو بوسفين من ان الرهبان اليسوعيين الفرنسيين لم يقبلوا برئاسة رئيس ايطالي عام عليهم ، وراح الرهبان اليسوعيون يستبدلون الكتب الاجنبية الموجودة في التداول بينهم بكتب من وضعهم هم . وهكذا فالحركة الانسانية نفسها تأممت ، والفردية القومية فازت بالنهاية وتغلبت على الروح الشعوبية والدينية .

٣ – قيادة الحرب والسير بها

بين الحرب الطويلة والحرب القصيرة

كانت الحرب تُشهَر رسمياً يُعلنها نذير الجيش او رائده ، اشتهر منهم غويين في فرنسا ، وكلارانس في انكلترا ، وبورغونيا ، لدى شارل الخامس ، فيقوم احد الفريقين المتحاربين بمهاجمة الآخر . وقد يحدث احياناً ان ينهض منافس لأحد الفريقين فيحاول التوفيق بين اعداء خصمه ويضرم فيهم الحماسة ويضع تحت تصرفهم ما يلزم من المال . وكثيراً ما عمد فرنسوا الاول ، حتى في اوقات السلم ، الى تغذية الحقد والضغينة في خصوم الامبراطور شارل ، كما فعل بعد معاهدة كمبريه ، ويؤلب عليه الامراء الالمان الذين يؤلفون حلف سمالكلاند ، والهنغاريين والعثمانيين ، وغيرهم .

التخوم الآسيوية

تجري الحروب في القارة الاوروبية ، يفصلها عن الآسيويين من اتراك وتتار ، منطقة حصينة تجعلها في منأى عنهم . فقد قامت على جنبات البحر المتوسط سلسلة من الحصون والقلاع ، كهذه الحاميات تقيمها البندقية على سواحل إستيريا ودلماتيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي جزيرة كريت وقبرص ، وهو خط امعن الاتراك في مهاجمته وإيهانه فضعف وتفلت . وهنالك خط آخر من الحصون قام على جبهة نابولي وصقلية يؤلف مضيق مسينا منه الباب ، والرتاج . وقام خط آخر من الحصون الاسبانية على طول سواحل افريقيا الشمالية . وقام في البر الاوروبي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطعات كرواتيا والساف الاوسط ونهر الدراف الاوسط ومنطقة فيينا ، والسور الروسي على نهر الاوكا محاذياً الغابات الظليلة . ومنطقة المدن الحصينة التي اخذت شبكتها بالاتساع والامتداد نحو الجنوب والشرق ، وكلها قلاع وحصون ركزت فيها المدافع لدرء خطر الفرسان ينقضّون عليها من آسيا . وكانت المسافات والابعاد نفسها سلاحاً يلعب لمصلحة المسيحيين . الا ان الصعوبة ، كانت تقوم في تموين هذه الحاميات وتوفير ما يلزم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجر التي لم يكن بد منها . كل هذه العوائق والصعوبات ، سببت الشلل في هذه الهجمات التي اعتاد الاتراك شنها واوهنتها اذ كانت حدتها تتكسر على هذه الحصون وكثيراً ماانتهت الى غير نتيجة .

العمليات الحربية ليس من جبهة لها معينة

لم تكن للحروب من جبهة معينة بالمعنى الحصري : فالجيوش لم تكن عديدة ، اذ لم يكن المقصود تغطية الحدود التي لم تكن لتقف عند نقطة معينة . وقد وضعت على مر الاجيال ، شيئاً فشيئاً ، خطوط من الحدود ، في مناطق معينة،فصمّر واضعو الخرائط وراسموها على تحديدها، كالحدود التي قامت على نهرالسوم ، اثر الاعمال الحربية .

ستراتيجية التوابع

قلما كانت الحملات العسكرية حاسمة ، اذ لم يكن القصد منها ابادة جيش العدو كما حدث في معركة مرينيان ، مثلاً عام ١٥١٥ ، وفي معركة بافيا عام ١٥٢٥، ومعركة سان كنتان ، عام ١٥٥٧ . ومن النادر جداً ان يحمل ضياع معركة،العدو على طلب الصلح . ولذا كان من المستحيل محاولة استثمار النصر واستغلال الظرف . فالمسافات الشاسعة وصعوبة تموين الجيوش عن طريق فرق التجهيزات الحربية ، وتأمين أود الجيوش،الحاربة في ارض العدو المستباحة ، كل ذلك كثيراً ما اضطر الجيش معه الى الانكفاء او التوقف . ولهذا قلما خطط قادة الحرب لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش قلب البلاد والمراكز الحساسة فيها . فالحروب هي ، بالاحرى ، حرب حصار ، وضعت ستراتيجيتها على اساس إنهاك المراكز التوابع بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التموين ومخازن الميرة الواحد تلو الآخر ، والانتظار ريثما يضطر العدو لطلب الصلح ، بعد ان تقل لديه الميرة والتجهيزات وتشتد لديه الحاجة للنقد . فالحروب هي حصيلة آخر ليرة في خزينة الدولة .

الثغور

ولذا تحتم على المحاربين السعي والعمل لاحتلال ثغور العدو ، وهي بمثابة الابواب والنوافذ التي تفضي الى قلب البلاد ، والمسالك الطبيعية التي تؤدي اليها : كمقاطعة السافوى – بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين، ومقاطعة ميلانو ، والسوم الاعلى (سان – كنتان – برون) مزيير ،والثغور المؤدية الى نهري الموزيل والموز (مدن : متز وتول وفردون).

الطرقات

قطع « المواصلات الحربية الكبرى » اي هذه الطرق التي تسلكها الجيوش ، وقطع موارد النقد على العدو وغير ذلك من الوسائل ، هي من بعض نقاط الخطة الحربية التي عرضت احيانا للمعنيين بامور الستراتيجية ، وان لم تتضح لهم يوماً بجلاء . وقد جرت محاولات جريئة ، خلال القرن ، ضد سلسلة المواصلات الطويلة التي ربطت امبراطورية آل هبسبورج ، في العالم الجديد ، بالبلاد الواطية ، عبر المحيط الاطلسي . فالقرصان الفرنسيون الذين اتخذوا من رأس سان فنسان في جزر الازور والجزر الخالدات (جزر كناري) كانوا ينقضون فجأة على قوافل السفن البرتغالية والاسبانية ويستولون عليها . وفي سنة ١٥٢٢ ، تمكن جان فلوري ،من سكان مدينة هونفلور ، من الاستيلاء على ثلاث سفن من سفن الكرافيل التي كانت تنقل الكنوز التي جمعها كورتيس في مكسيكو . وفي اواسط القرن ، اضطر شارل الخامس ان ينظم عبور السفن في المحيط الاطلسي ، بواسطة قوافل محروسة فاصبحت هذه الطريقة القاعدة التي عمل بها باستمرار . ثم ظهر القراصنة الانكليز ، امثال درايك وهوكنز وفروبيشر وراحوا يتعرضون السفن الاسبانية في خليج برزخ بناما الذي كان صلة الوصل بين الممتلكات الاسبانية في العالم الجديد على سواحل كل من المحيطين الاطلسي والهادي ، الا ان السفن الاسبانية استطاعت ، مع ذلك التملص بحمولتها وتفادي الوقوع بين ايدي القراصنة الانكليز ،فبقيت المواصلات بين هذه المستعمرات مؤمنة ، على الاجمال . وقد قطع الانكليز والهولنديون خط المواصلات بين بلباو وأنفرس، منذ عام ١٥٦٨ ، وبقيت الطريق الرئيسية الطريق التي تمر بالبحر المتوسط من اسبانيا الى ايطاليا لتأخذ الطرقات التي تمتد من ايطاليا الى مقاطعات الرين ومنها الى البلاد الواطية ، مارة بمجازات الألب ومقاطعة الكونتية ، واللورين ، او عبر الالزاس والبلاتينا . وفي سبيل تأمين سلامة هذه الطريق ، راح شارل الخامس يحاصر عام ١٥٢٤ ، مرسيليا ، كما انه هاجم ، عام ١٥٣٦ ، مقاطعتي البروفانس واللانغدوق . ولكي يتمكن من قطع هذه الطريق ، عند عقدتها الاساسية راح لوتريك ، عام ١٥٢٧ ، وغيز عام ١٥٥٧ ، يهاجمان نابولي . فبعد عام ١٥٥٩ ، وهبوط شأن فرنسا، استطاع الاسبان ، ان يستعملوا خط برشلونة – جنوى مباشرة.

الاتصال بين ساحات العمليات الحربية

كثيراً ما وقفت الموارد الاقتصادية حائلاً دون نهوض شارل الخامس بالحروب التي شنّها على عدة جبهات . فبعد الانتصار الساحق الذي ناله في بافيا ، عجز عن متابعة هجومه حتى حدود فرنسا ، حاسباً حساب الخطر التركي والاضطرابات القائمة في المانيا ، والمداورة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجته

الملحمة المال ، كل ذلك فت في عضده .فبعد انتصاره في معركة سريزول (١٥٤٤) احدى قرى مقاطعة البيامونت، اضطر فرنسوا الاول ، الى سحب بعض فرقه من هذه المقاطعة درأً للخطر الذي يهدد مقاطعة الشمبانيا . والجهد الضخم الذي بذله فيليب الثاني لتأمين النصر على الاتراك في معركة ليبانت (١٥٧١) اضطره هو الآخر للاسترخاء في موقفه من البلاد الواطية . ان تعدد ساحات القتال والاعمال الحربية ، وبطء المواصلات ، والصعوبة التي كانت تعترض جلب الامدادات ، وتأمين الاعتدادات اللازمة للنهوض بالحرب ، في الوقت المناسب ، وتأمين التنسيق والتعاون فيما بين هذه العناصر ، كل هـــذا يفسّر لنا الفشل النسبي الذي لحق بمشاريع شارل الخامس وفيليب الثاني .

اعمال المبارزة

لا تزال تقاليد الفروسية ، مرعية الجانب محترمة . فها هو شارل الخامس يلصق بفرنسوا الاول تهمة عدم الوثوق به ويدعوه للمبارزة ، فيرد عليه ملك فرنسا بان الامبراطور يكذب . وهو يقبل التحدي . كثيراً ما نرى زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتبارزون علانية بمرأى من الجيوش ، ايام الهدنة بين الطرفين ، حتى اننا نرى دوق ده غيز يجيز عام ١٥٥٢ ، والحصار قائم حول مدينة متز ، لبعضهم القيام باعمال مبارزة .

الاسرى

كان المتحاربون يحرصون جهدهم ، على اخذ اكبر عدد من أسرى الحرب ، طمعاً منهم بفدية الافتكاك ، مما ادى الى قيام صفقات ومساومات رابحة . ففــي سان ــ كنتان ، اشترى ضابط اسباني من احد الجنود ، نائب قائد الجيش الاعلى في فرنسا . وكانوا يأخذون بحد السيف كل من وجدوه في قلعة حصار فضّل المقاومــة على الاستسلام للعدو . تكون الحرب جد « موقّتة » اذا ما تم الاتفــاق بين المتحاربين ، على احــترام اسرى الحرب ، وتعيين المبالغ المترتبة عليهم ، وفقاً لمراتبهم . وقد ادخل الاسبان عادة الافراج عــن الاسرى ، اذا ما تعهد هؤلاء او أقسموا الا يعودوا لحمل السلاح من جديد ضد محرريهم .

الخراب واعمال التخريب

كثيراً ما حوّل القواد البلاد قفراً يباباً ليحولوا دون تقدم الجيوش العدوة وتغلغلها في البلاد (مقاطعة بروفانس ، عام ١٥٣٦، مقاطعة ايسن عام ١٥٥٦) . وكم احلــوا للجند ان يقوموا ، تشفياً وانتقاماً ، باعمال السلب والنهب والتمثيل والتعذيب والحريق ؟ فقد كان الالمان اساتذة في هذا المجال . ففي كل فوج او كتيبة من كتائبهم وأفواجهم ، تولى ضابط تنظيم هذه الاعمال وتنفيذها وفقاً لخطة يضعها ويشرف على الأخذ بها بكل دقة ، فلا يستثني من القرى والدساكر الا ما دفع منها فدية تفادياً لاعمال التعسف والابتزاز والاعتصار، اذا ما تلكأ الاهلون عن دفع ما يترتب عليهم او ترددوا في ذلك. ومن هنا نشأت عادة الوصول الى شيء من التفاهم بين سكان القرى ورجال الحرب. فاذا ما ساهم المدنيون بدفع مساعدات مالية او عينية، اصبحت قراهم بمنأى من النهب والسلب وغير ذلك من أعمال العنف.

الحياد

كان من عادة الدول المحايدة ان تسمح للمحاربين المرور باراضيها ، نتيجة لهذا التفتت الجغرافي الذي اصاب اوروبا اذ ذاك . وكان الجانب المتحارب يتعهد خطياً باحترام حياد البلد وعدم مس الاهلين باي اذى ، وذلك عملاً بالقاعدة المرعية *Transitus Innoxius* . أما المقاطعات السويسرية ، فكانت ترفض حق المرور للمحاربين . فمنذ سنة ١٥٢٢ اعلنت مقاطعة فرانش كونتيه محايدة لا يجوز اجتياحها ، وفقاً لنصوص المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والبلاد الواطية .

التدخل الاجنبي

من العادات المألوفة ان تتدخل عناصر وقوى أجنبية في الحروب الاهلية الداخلية : فتدخل الفرنسيون في ألمانيا ، والانكليز والبروتستانت الالمان في فرنسا ، والاسبان الى جانب أعضاء العصبة (*Ligue*) الفرنسية . وتعترف الملكة اليصابات، عام ١٥٨٠ ، بهذا المبدأ اذ تقول : من الواجب كذلك المبادرة للوقوف الى جانب ابناء المذهب الواحد الواقعين تحت الاضطهاد .

الدعوة للسلام

اطلقت الحروب وما تجر وراءها من الويلات والمحن والاحن ، الالسنة والاقلام للمطالبة ان لم يكن بوقفها والغائها ، فاقله بالتخفيف من شرورها فقد جاء في كتاب ايراسموس : « شكوى السلام » (١٥١٧) دعوة الى إقامة سلام عام . فالحرب تحط من قيمة الانسان العاقل وتنتقص من شأن المسيحي . كل واحد يدعي ان مطلبه هو حق . ولذا كان لا بد من اجراء تحكيم في الامر . فمهما يكن رأي الحكم ، فالقاعدة الذهبية هي ان سلاماً لا يتسم بالعدل خير من حرب عادلة » .

الحق الدولي

أجاز معظم الفلاسفة والمفكرين قيام حرب عادلة ، وكلهم أمل بان يتم إلغاء الحروب وذلك عن طريق إيقاظ الضمير الدولي ، وعن طريق الحق الدولي . ولعل اشهر هؤلاء جميعاً هو الاستاذ الكاثوليكي فيتوريو ، احد اساتذة جامعة سلنكا الذي تمثل حلمه في هذا السلام الباسط رواقه على العالم ، هدف الانسانية الاعلى ، كما رأى في الحرب ، الشر الاكبر . ومع ذلك ، فهو يسلم بالحرب اذا كانت ترمي لتجنيب الانسانية شراً اكبر ، او كانت في سبيل الدفاع عن النفس ، أو رمت الى ارجاع الحق إلى نصابه اذا ما رفض المعتدي التعويض عن الاضرار التي سببها ، أو لانقاذ الشعوب المسيحية ، الواقعة تحت اضطهاد المسلمين . فالحرب ليست بعادلة إذا ما أريد منها نشر الديانة المسيحية بالقوة لان الله لم يكلف أحداً من الناس ليثأر باسمه من المظالم التي تقع ، اذ ان الحرب التي يندلع لهيبها تسبب من البلايا والشرور أكثر من تلك التي ترمي الى اجتثاث هذه البلايا . فالدول الاوروبية متساوية ، وكل واحدة منها هي كفء للاخرى ، ومتكافلة الواحدة منها مع الاخرى ، وعليها ان تتعاون لازالة الحيف النازل بها والضرر الذي يصيب الجميع على السواء . « فالبشرية جمعاء تذهب فريسة المظالم أياً كان الفاعل ،

فعلى الدول ان تؤمن حرية التجول والانتقال ، ولا تمانع في إقامة الاجانب بين ظهرانيها ، شرط الا يلحقوا اي أذى أو ضر بأهل البلاد الاصليين . عليهم ان يؤلفوا جميعاً ، مجتمعاً بشرياً واحداً وبشرية واحدة .

وهكذا نرى كيف ان هذا الجيل حاول ان يلطف من اشتداد الروح الفردية بين الناس ، وذلك باشاعة المساواة في الحقوق والتضامن وبث الاخوة الانسانية بينهم .

١- الحفلة الموسيقية

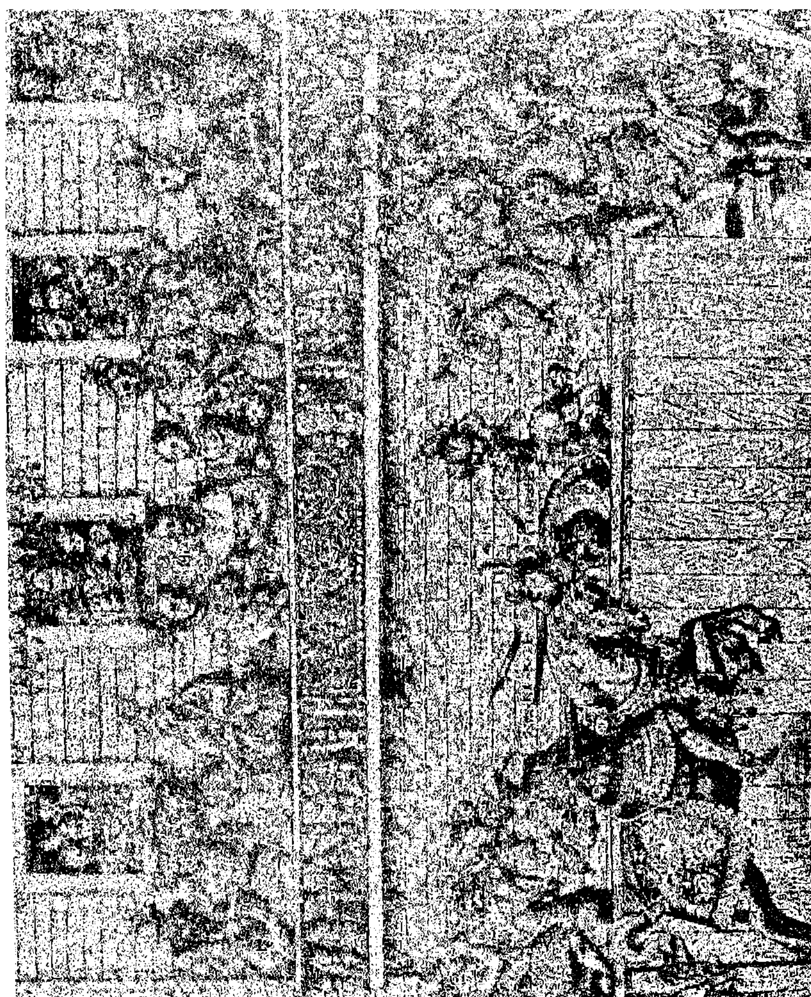

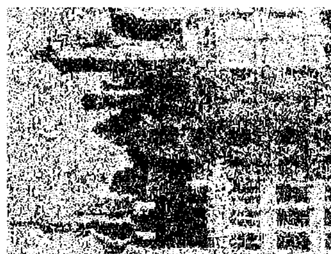

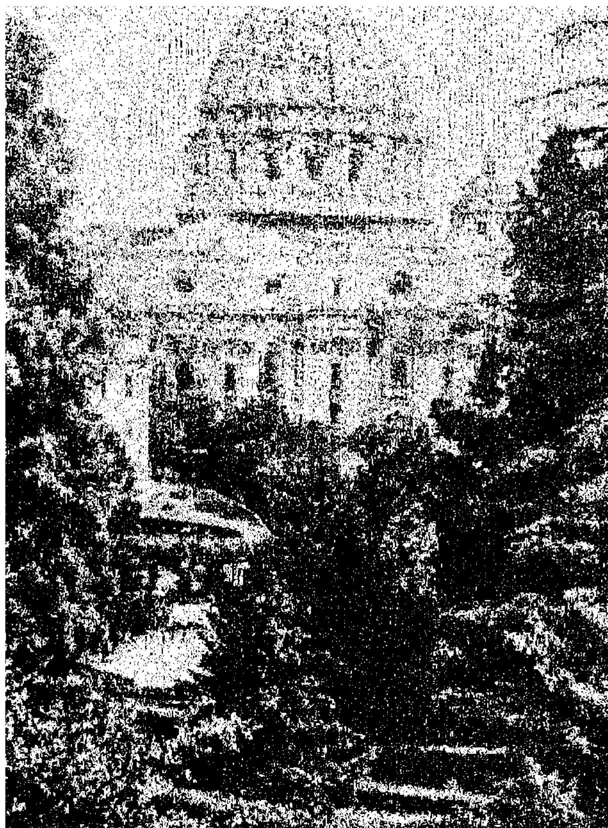

٦ـ قبة كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تشاهد من حدائق الفاتيكان

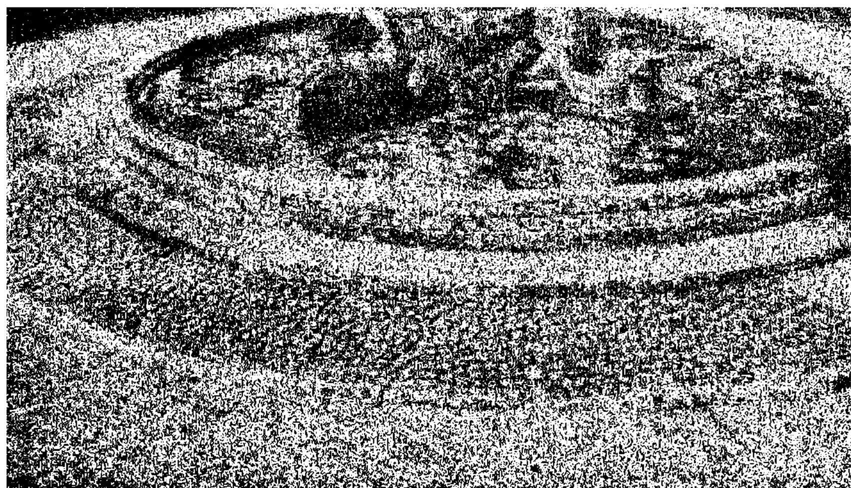

٧ - مقصف آل مدیسی في روما

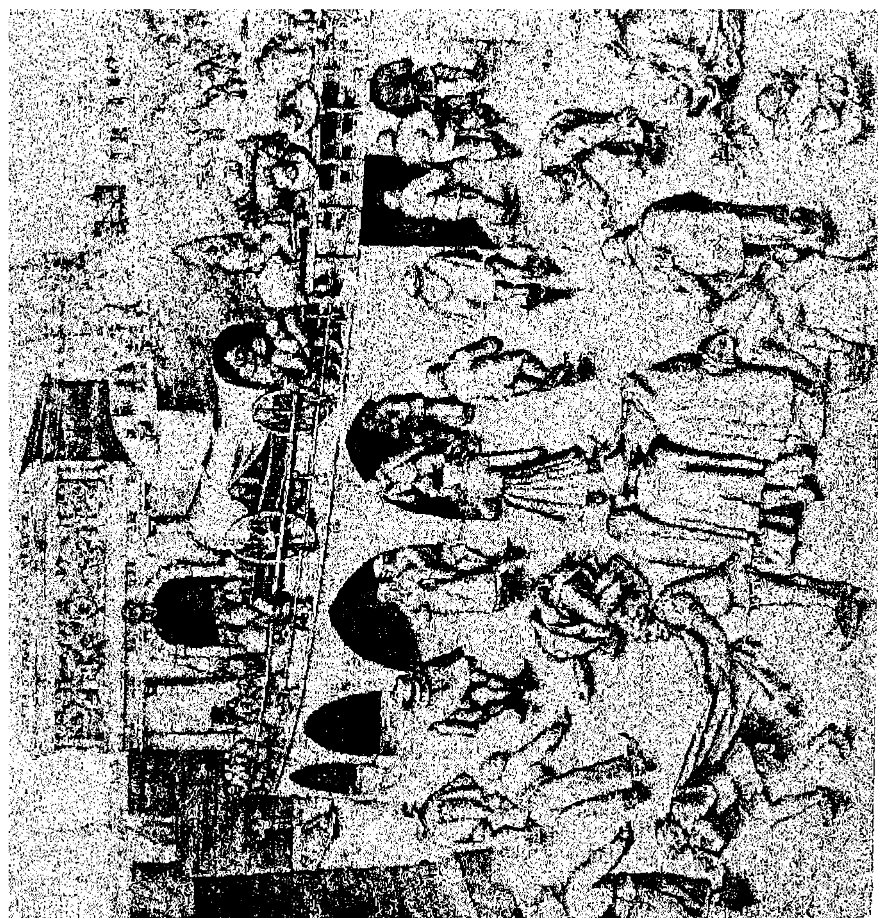

٩ - منجم في أواسط القرن السادس عشر

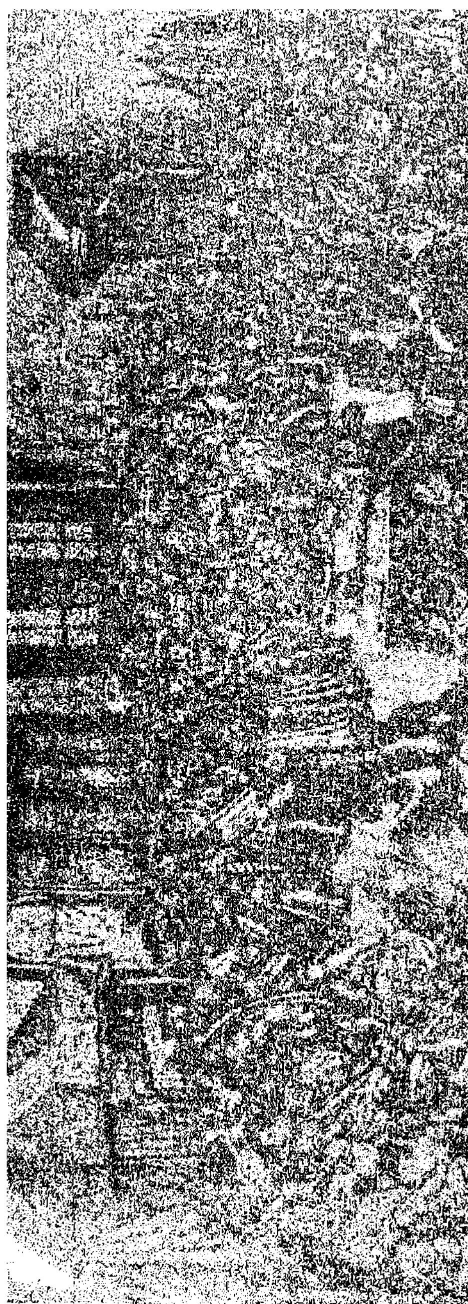

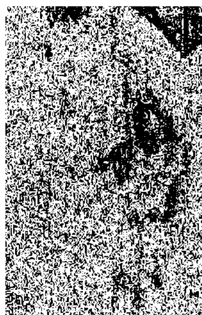

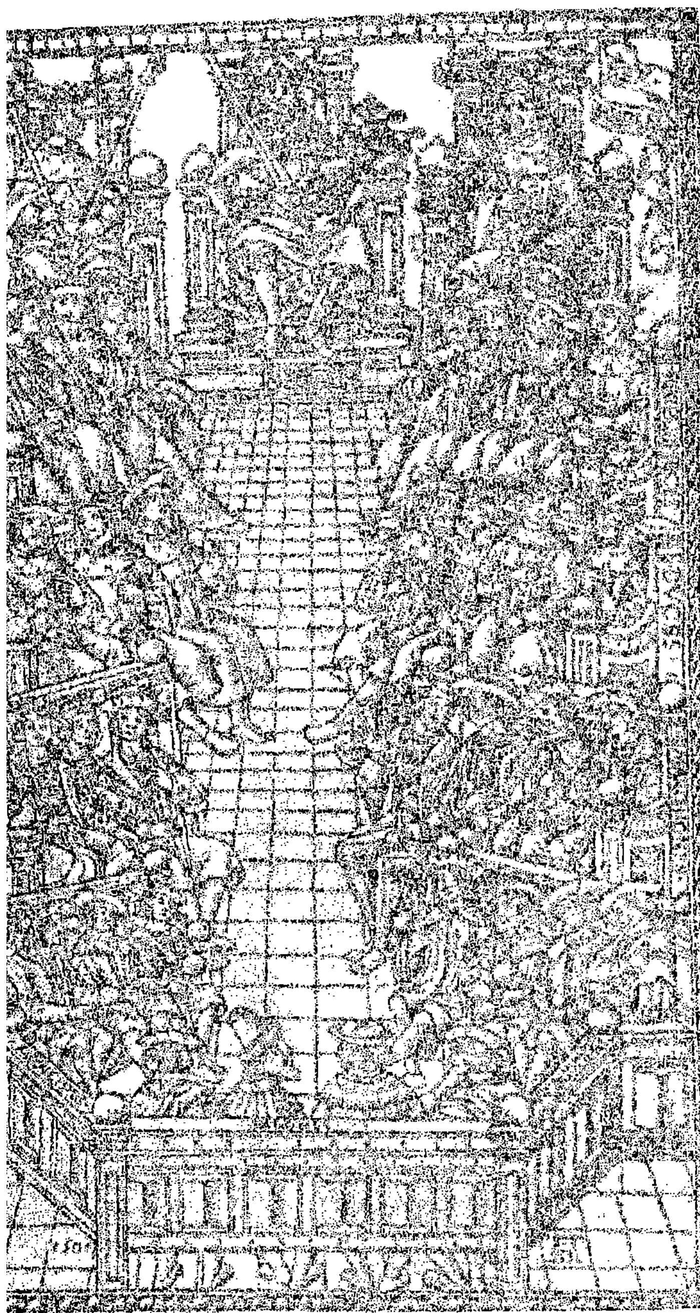

١٥ - جمعية ملوك الاوروبيين برئاسة الأمبراطور وملك فرنسا وملك أسبانيا

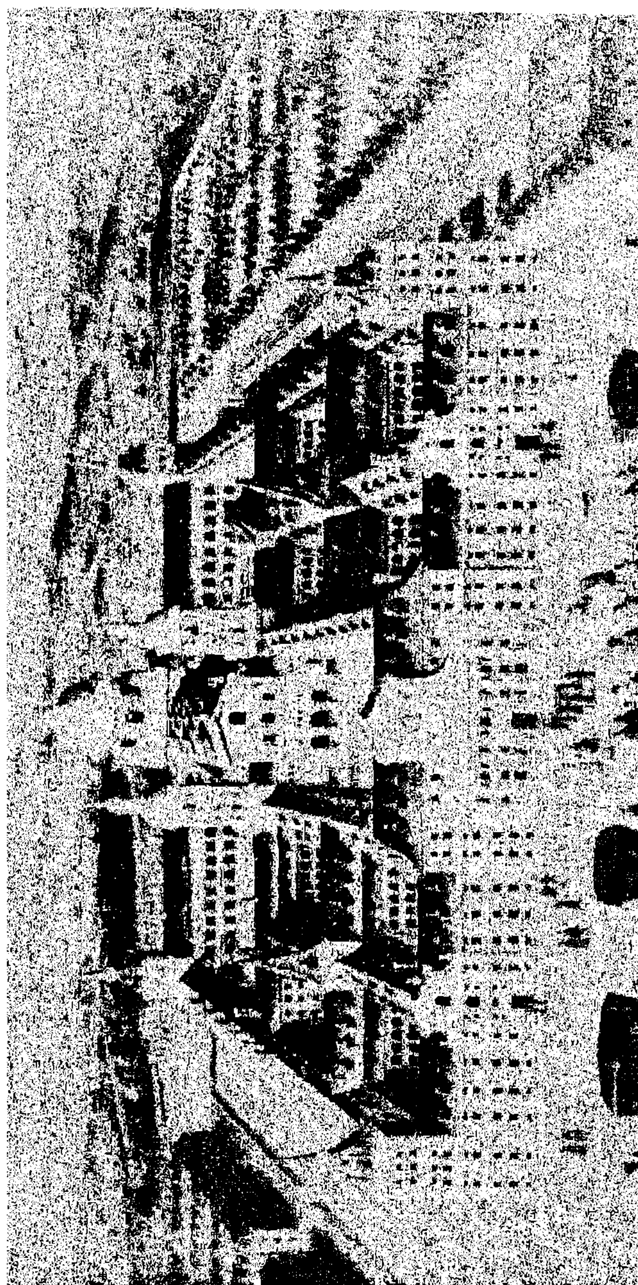

الكتاب الثاني

القرن السابع عشر

(١٥٩٨ - ١٧١٥)

القرن السابع عشر هو مهد ازمة نزلت بالانسان في كافة نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية والفنية ، وفي كل كيانه ،أي في أعمق أعماق قوته الحيوية وحسه وارادته . وكانت أزمة مستمرة ، اذا صح التعبير ، تتميز بثورات عنيفة احياناً . فان نزعات متناقضة « قد تجانبت طويلاً وتشابكت معاً وانصهرت حيناً وتصارعت حيناً آخر ، دون ان يكون في معتركها تحول او تاريخ حاسم يسهل تحديدهما » . وهي لم تتجانب في اوروبا في عهد واحد فحسب ، بل في الدولة الواحدة والطبقة الاجتماعية الواحدة والانسان الواحد ايضاً ، الذين خيم عليهم التناقض والانشقاق . فالدولة والطبقة الاجتماعية والانسان يناضلون لاستعادة النظام والوحدة الى بيئتهم والى ذاتهم. انها لمعركة ضارية مستمرة ، في سبيل توازن زائل ابداً، تقدم فيها اوروبا على تحول حاسم ، وعلى تعديل النوع كما يقول بعضهم ، وعلى هذه الطريق التي يستهوينا تخيلها والتي قد تنتهي الى السمو وتخطو خطوة كبرى الى الامـام في الدم والدموع والآلام النفسية المبرحة ، وفي الامل والثقة والبهجة .

الفصل الأول

أزمة القرن

١ ـ الازمة الاقتصادية

ان ما خلّفته النهضة الاقتصادية،والتطور الجديد في الاسعار،قد ابرزا بقوة المساوىء الدائمة التي ينطوي عليها نظام تناسل وزراعة لم يتبدل قط في خطوطه الكبرى ، منذ القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر . باستثناء نقاط محدودة (هولندا والاقاليم المتحدة ، انكلترا الوسطى ، ألزاس ، الخ.) .

السكان ومواد التغذية

فالاقتصاد ما زال زراعياً ، وعدد السكان يميل أبداً الى تجاوز امكانات التغذية ، والمجاعة تنتشر محلياً مع ما تتصف به من شمول مفاجىء يستوقف الانتباه بين حين وآخر. ولا غرو فالسكان لم يحددوا الولادات . وليس نادراً ان تضم عيلة واحدة ٢٠ او ٢٢ ولداً ، وكان من الممكن جداً ان يتضاعف عدد السكان في اقل من خمس وعشرين سنة لولا الارتفاع الرهيب في نسبة الوفيات . ومرد ذلك الى ان التقنية الزراعية لم تسمح بعد بانتاج يسد الحاجة .

التقنية الزراعية

لما كانت الضرورة تقضي بتغذية عدد كبير نسبياً من البشر،كانت الزراعة [١] الاساسية زراعة «البلاد» أي الحبوب، الحنطة والجاودار والشعير والقرطمان والذرة البيضاء والحنطة السوداء والذرة الصفراء ، اذ ان الحبوب هي الانتاج الزراعي الذي يوفر اكبر كمية من الوحدات الحرارية في وحدة مساحية معينة. والفلاحون يزرعون في الدرجة الاولى الحبوب التي ندعوها اليوم بالثانوية ، الجاودار ، القرطمان ، الخ .. لان محصولها في وحدة مساحية معينة يفوق محصول الحنطة الى حد بعيد،لا سيا في الاراضي الجدبة ،

---

(١) ففي انكلترا المتقدمة صناعياً على سواها ، قدر ان اربعة ملايين ونصفاً من اصل خمسة ملايين ، اعتمدوا الزراعة سبيلا للعيش ، حوالي سنة ١٦٨٨ .

وتقوم التغذية بنوع خاص على الحساء والخبز . وفي سنوات الاقبال يستهلك الناس مزيجاً من الحنطة وحبوب اخرى . خبز الحنطة مادة بذخية ؛ اما خبز الجاودار فوقف على ذوي اليسار من المستهلكين . ولكن الحبوب تستنزف قوى اخصاب التربة بسرعة . لذلك فقد عمد الفلاحون الى اراحة الارض ، سنة بعد سنة في الجنوب ، وسنة بعد سنتين في الشمال ، على ان استراحة الارض قد تستمر سنوات أحياناً . وكان المحصول متوسطاً ، أربعة أو خمسة للواحد أحياناً ، واثنين او ثلاثة غالباً . ولا عجب في ذلك فالاسمدة غير متوفرة والزبلة نادرة . وكانت الماشية قليلة العدد ، لان الاراضي يحرث جلها ولان المروج والمراعي ضيقة رقعتهـا . ولم يفكروا بالاستفادة من الارض المراحة بزراعتها بحشائش تغذية المواشي ، الا في هولندا ، ومـا كانوا ليستطيعوا الى ذلك سبيلا ، على كل حال ، لان عرف المراعي العمومية الذي اجاز لكل فرد ان يرعى ماشيته في الاراضي البائرة ، كان يحول دون ذلك. وكان فراش الماشية من الموص على غير كثافة : فقد استخدم الموص للاغمية ، واللبن والحصير والكراسي، وحتى كوقود للافران. اضف الى هذا ان العمل لم يكن متوفراً . وكانت الحيوانات هزيلة لا تقوى على العمل الطويل . واستخدم الفلاحون محاريث غير مجهزة بالعجلات تخدش الارض خدشاً بدلا من ان تفلحهـا ، او محاريث غير معدة للارض التي يطلب منهم زراعتها . فبحث الزارع عن التعويض عن نقص الاسمدة وعن التقنية بالاكثار من البذار . فخسر بذلك الحب وخسر الموسم لان مصير الجذوع النابتة كان الضعف والذبول بفعل تراصها . ولم يعمد الى تنظيف الحبوب وغسلها بالكلس للحؤول دون نخرها . وعند الحصاد اعوزته اليد العاملة . اما الحصاد فالمنجل اداته الاولى واستخدامه عمل طويل وشاق . وكان حـق التقاط السنابل وراء الحصادين يستهوي العديد من الناس لأن نتيجته لم تكن دون العمل نفسه مما زاد في ندرة وجود العمال . وخارج فصل الحصـاد لم يكن العمل متوفراً للجميع . فلم يكن السكان من ثم مشدودين بعلاقـة متينة الى الارض ، فتشرد العديد منهم هائمين على وجههم .

توزيـع السكان

يتضح بالتالي ان سوء التغذية قد آل، عند سواد السكان، الى ضعف الصحة والموت في سن مبكرة . فقد تراوح معدل الاعمار بين ٢٠ و ٢٥ سنة . وكان نصف الاطفال يموتون قبل ان يبلغوا السنة من عمرهم . اما الباقون فغالباً ما كانوا يموتون بين الثلاثين والاربعين سنة . ولم يتجاوز الملوك انفسهم والاسياد العظام وكبـار البورجوازيين ، على الرغم من تغذيتهم الجيدة ، حدود الـ ٦٥ سنة . بيد ان هذا الجيل لم يكن بالجيل الفتي لان شيخوخته سريعة الخطى . فالرجل يصبح كهلا في الاربعين . وفي المنـاطق الفقيرة قد تكون الفلاحات ، في سن الثلاثين ، متغضنة ومتمكنة كالعجائز . ويحافظ عـدد السكان على مستوى غير مرتفع ، لانه ما ان يرتفع حتى تتدنى كمية الغذاء للشخص الواحـد وتزداد نسبة الوفيات . لم يتجاوز سكان انكلترا الملايين الخمسة ، وبلـغ سكان فرنسا ٢٠ مليونـاً كحد اقصى اي بكثافة ٤٠ في الكيلومتر المربع . يضاف الى ذلك ان هذه الاعداد

عرضة لتبديلات كبيرة جداً .

نسبة الوفيات

اذا كان الحصاد سيئاً، ارتفع ثمن الحبوب ، وتحول مستهلكو الحنطة الى الجاودار ومستهلكو الجاودار الى الحبوب الاخرى . لذلك فان اسعار الحبوب الدنيا ترتفع اكثر من الحبوب النبيلة والطبقات الشعبية هي التي تتأثر اكثر من غيرها . قد لا ترتفع نسبة الوفيات في السنة الاولى لان تأمين أود المعيشة يدفع الفلاح الفقير الى بيع بقرته والصناعي الى بيع ادواته واولئك الذين خزنوا بعض المواد الى استهلاكها وبيع بعضها . اما اذا عقب الحصاد السيء الاول حصاد سيء آخر فتنتشر المجاعة مع ما يرافقها من اوبئة ، « الطواعين » الجدري ، والتيفوس ، والكولرا ، والطاعون بمعناه الحصري ، وكلها امراض تبدو وكأنها امراض الاقاليم الحارة بصورة خاصة مع انها امراض واقع حضاري قبل اي شيء آخر . يتدنى عدد الولادات ، ويرتفع عدد الوفيات وقد يبلغ ٣٠٪ من السكان في سنة واحدة ، ويصيب الموت الارياف اكثر من المدن : اذ ان البلديات تستطيع تخزين المواد وشراءها في المناطق النائية والبورجوازيين يملكون الاراضي وبالتالي المؤن الشخصية. ثم ان الموت يصيب الفلاحين والصناعيين اكثر من النبلاء والضباط واعضاء المهن الحرة والتجار . وقد يشمل المحول احياناً دولاً كاملة او مناطق شاسعة من اوروبا . تلك هي المجاعات الكبرى التي اثرت في مخيلة المؤرخين : في فرنسا مجاعات السنوات ١٦٢٩ – ١٦٣٠ ، و ١٦٤٨ – ١٦٥١ ، و ١٦٦٠ – ١٦٦١ ، و ١٦٩٣ – ١٦٩٤ . بيد ان سنة واحدة لا تمر دون ان تحدث مجاعة في بعض المناطق . ومن العسير جداً التغلب عليها بمعالجة او مداواة ، وربما كان من العبث والخطر توزيع مداخيل الاغنياء على الفقراء . فهذه المداخيل كانت كمية مهملة اذا ما قيست بحاجات مجموع السكان . وكان ذلك بمثابة اضعاف جميع الاهالي للتساوي في البؤس ، في حال ان موت الاغنياء والميسورين قد يؤدي الى تقويض الاطارات الاجتماعية ، وبالتالي الى المزيد من الويلات والفوضى والى تدنٍّ جديد في مستوى حياة المجموع، وتقهقر في الحضارة . اجل لقد لجأ الناس الى الشراء من المناطق الغنية ولا سيا من « البلدان الجديدة » ، بولونيا وليتوانيا . ولكن صعوبة النقل البري وارتفاع اكلافه لم يسمحا قط باستحضار المواد المبتاعة الا الى الاماكن القائمة على مقربة من طريق مائية وكانت هذه المواد تصل متأخرة وبكميات محدودة وباسعار باهظة . الا انها قد حالت دون وفيات كثيرة بفعل عظمة مقاومة الانسان. زد على ذلك ان تنمية الصناعات اليدوية والصناعات الريفية المنزلية الصغرى كانت تفي زيادة في كمية النقود التي تدخل البلاد وفي قدرة الطبقات الدنيا على الشراء . ولكن السكان ، في السنوات الخيرة ، كانوا يزدادون بازدياد المواليد وتدني الوفيات ، فيصبحون اشد تأثيراً بالسنوات الماحلة . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم يؤد تقدم الصناعات ، وهو نتيجة النمو الرأسمالي للنهضة الاقتصادية ، الى طبع وضع هذه المجتمعات بمزيد من التقلب وعدم الاستقرار . وهكذا فان عدد السكان كان يتأرجح بسرعة نسبية بين حدود ثابتة . ولا يبدو ان سكان فرنسا الذين لم يتجاوزوا قط العشرين مليون نسمة قد هبطوا

يوماً الى ما دون ١٢ – ١٤ مليوناً .

الجاعة والازمة الاقتصادية

النتيجة الطبيعية للمحول هي الازمة الاقتصادية : فهي تشوّش الحياة الزراعية وتقتل العملة وتقضي على اعمـــال فصل الصيف وتؤدي الى اهمال الاراضي وتكوين طبقة كادحة بائسة لا قدرة لها على الشراء . وبفعل ارتفاع الاسعار الزراعية يقلـــل النبلاء والبورجوازيون من نفقاتهم . وتنتشر البطالة في المـــدن وتشل حركة البيع لدى اصحـــاب الانوال والحوانيت ولدى التجار احياناً . يزول الكسب ويستحيـــل توظيف الاموال ، ويزيد المحول الدوري من التقلب الاقتصادي العام ويجمد حركة الاقتصاد .

حركة الاسعار

ان التقلب الدائم هذا ، الذي يرد الى النظام السائد ، قـــد ازداد خطورة في القرن السابع عشر بازمات ظرفية مردّها الى حركات الاسعار . فقـد عقب الارتفاع السريع والمستمر في القرن السادس عشر فترة من الارتفاع البطيء ثم من الانخفـــاض ولا سيا من التقلب البارز في الاسعار .

النقص المتزايد في المعدن الثمـــين

في الواقع تأخر انتاج المعادن الثمينة في العالم كله . ويعتقـــد « سوتبير » بان هذا الانتاج اخذ بالانخفاض منذ السنة ١٦٢٠ . ولكن ما يلفت الانتباه بصورة خاصة هو ان المعدن الملقى في التداول، اذا ما قيس بالمعدن الذي سبق انتاجه ، يمثل نسبة مطردة الانخفاض . فبينما يتضاعف مخزون المعدن الثمين عشر مرات في الارجح خلال القرن السادس عشر ، لم يتضاعف سوى مرتين في القرن السابع عشر ، فبرزت بمزيد من السرعة الحاجات الى النقد للمبادلات التجارية . ويرى « هاملتون » ان استيراد المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا ، وهو المصدر الرئيسي لتموين اوروبا عن طريق الاتجار مع اسبانيا، قد بلغ الذروة ما بين السنة ١٥٩١ والسنة ١٦٠٠ (فضة : ٢٧٠٧٦٢٦ كيلو) ثم اخذ بالهبوط . وزادت سرعة هذا الهبوط بعد السنة ١٦٣٠ (١٦٣١ – ١٦٤٠ ، فضة : ١٣٩٦٧٥٩ كيلو) . امـا بعد السنة ١٦٥٠ ، فقد انهار الاستيراد انهياراً (١٦٥١ – ١٦٦٠ ، فضـة : ٤٤٣٢٥٦ كيلو) . واذا كانت الفضة المستوردة الى اسبانيا منذ السنة ١٥٥١ حتى السنة ١٥٦٠ تمثل ٢٠٪ مما استورد منها منذ السنة ١٥٢١ حتى الفترة المذكورة ، فان الفضة المستوردة منـذ السنة ١٦٢١ حتى السنة ١٦٣٠ لا تمثل في الظروف نفسها سوى ١٨،٧٪ ، والفضة المستوردة ما بين ١٦٥١ و١٦٦٠ ٢،٨٪ فقط. يضاف الى ذلك ان قسما من هذا المعدن كان يجمع ويكتنز ، وقسما آخر يجمد في اعمال الصياغة وقسما آخيراً يصدر الى آسيا تسديداً للمشتريات الاوروبية .

الارتفاع البطيء ثم الانخفاض في الاسعـــار

انما نشاهده اذن في اوروبا هو ، على العموم ، ارتفـاع بطيء جداً حتى حوالي ١٦٢٥–١٦٦٠ . اما المستوى الادنى الذي تبلغه

الاسعار فيمكن تحديد فترته ما بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ .يلي ذلك ارتفاع لا يذكر بين السنتين ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ثم انخفاض بسيط جديد بين السنتين ١٧٠٠ و ١٧١٥ .ولكن الانخفاض اعظم شأناً مما يبدو في عدد من البلدان اذا نحن لم ننظر الى الاسعار الاسمية المعبر عنها بالنقد المتداول فقط ، بل نحسبها على اساس وزن المعدن الثمين المقابل .وفي الواقع فاننا نرى تضخماً نقدياً في بلدان كثيرة ، المانيا واسبانيا منذ الثلث الاول من القرن ، وفي فرنسا في القسم الاخير منه . فالمبلغ نفسه من نقد التعامل غدا يقابل، في القطع النقدية ، معدناً ثميناً اقل وزناً . وكثيراً ما يحدث ، والحالة هذه ، ان يكون الارتفاع الاسمي انخفاضاً في الواقع .

وهكذا فان الارتفاع الاسمي حدث في مونيخ في السنة ١٦٢٢ ، وهو الذروة التي بلغتها الاسعار ، هو في الواقع هبوط سقطت خلاله الاسعار بالمعدن الثمين الى ما كانت عليه بين السنتين ١٥٥٠ و ١٥٦٠ . فحوالي ١٦٦٠–١٦٧٠ كانت الاسعار في الواقع ، في هذه المدينة ، ادنى منها حوالى السنة ١٥١٠ .وخضعت بعض البلدان، كانكلترا وألزاس ،الى حركة عامة على بعض الاختلاف ، ففي انكلترا لا يزال الارتفاع سريع الخطى حتى حوالي ١٦٤٠ –١٦٥٠ . ويلي ذلك على العموم فترة من الاستقرار النسبي . بيد ان الارتفاع الذي صدق في النصف الاول من القرن قد توقفت حدته توقفاً يلفت الانتباه . فهناك ١٦٥ نقطة زيادة بين السنتين ١٥٥٠ و ١٦٠٠ ، بينما ليس هناك سوى نقطة فقط بين السنتين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ . واذا نظرنا الى حركة تجارة اشبيلية مع اميركا الاسبانية ، وهي ما يقاس به جزئياً مدى نشاط اوروبا الاقتصادي بالثمن والاسواق ، اتضح لنا ان حجمها ينكمش بانخفاض الاسعار . ففي نصف العقد ١٦٠٦ – ١٦١٠ بلغت الواردات ٢٧٣٥٦٠ برميلا بينما هي لم تبلغ سوى ١٢١٣٠٥ براميل فقط في نصف العقد ١٦٤٦ – ١٦٥٠ . وتوقفت حركة التجارة عن التقدم حوالي ١٦٠٨–١٦١١ ثم اخذت تخف بوضوح خلال السنوات ١٦١٩–١٦٢٢ وتدهورت اخيراً في السنة ١٦٣١ . وفي منتصف القرن ، بلغ النقص ٥٠ ./. . ويبدو بعد السنة ١٦٤٠ ان الانخفاض في القيم كان اسرع منه في الاحجام . وسلكت الاسعار الطريقة نفسها . فهنالك تبدل متواز قد لا يسمح لنا بالكلام عن سببية حقيقية ، ولكن ذلك يحتمل اذ ان عنصراً اساسياً من تجارة اميركا الاسبانية نحو اوروبا كان المعادن الثمينة ، التي تقلصت كمياتها .

بطء الانطلاقة الرأسمالية . لقد نتج عن ذلك ، في معظم انحاء اوروبا ، بطء في الانطلاقة الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الرأسمالية . فان ارتفاع الاسعار يؤدي الى نقص في حجم الكسب . وتفقد آفاق المستقبل بعض جمالها في نظر الرأسمالي الذي يبيت اقل اقداماً . ويتدنى عدد المشاريع الجديدة وتتضاءل حركة تقدم المشاريع الراهنة ، ويتقلص حجم الانتاج . اما حين تتدنى الاسعار فيقل الكسب وقد يزول بالكلية . فيسيطر التردد على متعهد المشروع الذي يحاول تحديد نفقاته ويسرّح العمال . وينقص الانتاج وتنتشر البطالة . ويتضخم عدد المتشردين . وتضطر المشاريع الصغرى او المشاريع التي لا تزال في طور

التأسيس الى اقفال ابوابها . ولا تصمد سوى المشاريع المجهزة تجهيزاً حسناً . ولكن الصعوبات عظيمة . ويجب البحث عن التحسينات التقنية التي تؤدي الى تخفيض سعر الكلفة . فيمكننا القول ، اذا استعنا بتعبير « سيمياند » ، ان المرحلة A في القرن السادس عشر قد عقبتها مرحلة A على بعض البطء ، ثم مرحلة B .

تقلب الاسعار واسبابه

ولكن القرن السابع عشر نفسه قد عرف ايضاً تقلباً مخيفاً في الاسعار وفي تأرجح الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما حدث في القرن السادس عشر . وفي العدد الاكبر من البلدان برزت هذه التأرجحات الموسمية والدورية (عشر الى عشرين سنة) الضخمة منذ اوائل القرن . فهنالك في كل مكان تقريباً ، حوالي ١٥٩٥–١٦٠٠ ، انفلات وانخفاض عظيم حتى حوالي ١٦١٠–١٦١٥ ، ثم تدوم التأرجحات القصوى بعد ذلك طيلة القرن. ولا يسعنا القول ان الارتفاع الذي طرأ في القرن السادس عشر يتمادى طيلة الثلث الاول من القرن السابع عشر الا في انكلترا وبعض الاقاليم الاوروبية الضيقة . فنحن في المناطق الاخرى امام ارتفاع من نوع آخر . لا بل ان انكلترا نفسها ، بعد ١٦٤٠–١٦٥٠ ، عرفت شأن غيرها نظام التأرجح في اقصى ابعاده .

ليس باستطاعتنا بعد ان نحلل هذه الظاهرة تحليلاً وافياً . فجل ما نستطيعه توفير بعض عناصر التفسير فقط . ليست الحروب اسباب هذه التقلبات اذ ان مرور الجيوش وحده كاف لان يؤثر في الاسعار اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان المقايضات دون مقايضات اليوم شأناً الى حد بعيد وان الاسعار تختلف كل الاختلاف في وقت واحد بين منطقة واخرى ، ولا يطرأ ارتفاع عظيم على الاسعار الا اذا اصطدمت الجيوش في الاقليم نفسه . ولكن يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الظروف الجوية السيئة طيلة سنوات عدة ، ونتائج الحصائد الماحلة التي تدفع بالاسعار الى الارتفاع حتى عودة الطقس الجيد والجنيات الوفيرة . ويجب كذلك ان نأخذ بعين الاعتبار ازدياد عدد السكان الذي يضاعف الافواه الواجب تغذيتها ولا سيا وان المنطقة تجمع العديد من العمال والصناعيين ، ويسبب ارتفاعاً في الاسعار الى ان تصبح حصة الشخص الواحد غير كافية والى ان « تحد » الوفيات من الطلب وتؤدي بذلك الى انخفاض الاسعار . وقد ثبت بالدليل ، فيما خص المانيا الجنوبية ، ومدن مونيخ واوكسبورغ ونورمبرغ بنوع خاص ان الاسعار كانت ترتفع فيها بازدياد عدد السكان ، وان انطلاق الزيادة كان يسبق ارتفاع الاسعار . وهكذا فان جهود الدول في سبيل تنمية صناعتها كانت سبباً في زيادة السكان وعاملاً من عوامل تقلب الاسعار احياناً . ويجب اخيراً ان نأخذ بعين الاعتبار الاعمال في الحقل النقدي . فلم تعد الدول الكبرى لتجد الموارد الضرورية لنقود المعادن الثمينة التي تستوجبها سياستها ، فلجأت بصورة طبيعية الى التضخم . واصدرت الحكومات الاوامر باعادة النقود الى دور ادارة المالية ، واعادت شكلها بالقيمة الاسمية نفسها دون كمية المعدن الثمين عينها ، او اعطتها قيمة اسمية عليا دون ان تنقص فيها نسبة المعدن الثمين . واصدر بعضها كميات

كبرى من المسكوكات النحاسية واعطتها قيمة اسمية تحكمية ومرتفعة جداً بالنسبة لقيمة النحاس المستعمل (اسبانيا) . وهكذا سددت الحكومات بسهولة ما توجب عليها للدائنين وتجار الاموال والموظفين والجنود والممتارين ، ولكنها غدت بدورها ضحايا هذا التدبير عند جباية الضرائب . وجر التضخم الى ارتفاع الاسعار . وزاد من هذا الارتفاع ان النقد السيء يطرد النقد الجيد . فالقطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية النحاسية . كما ان الافراد لا يضعون في التداول سوى النقد السيء وحده . وهم يفرضون سعراً مرتفعاً اذا حوسبوا بالنقد السيء فارغمت الحكومة بسبب حدة ارتفاع الاسعار ، على تخفيف التضخم . فخفضت قيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة ١٦٢٦ في اسبانيا عقبه تخفيف السنة ١٦٢٨ ، وتضخم السنة ١٦٤١ تخفيف السنة ١٦٤٢ .

أثره المشؤوم في الاقتصاد

يستدل من ذلك ان القرن السابع عشر ليس مرحلة B حقيقية . في هذه المرحلة تتدنى الاسعار بانتظام مع تأرجحات متضائلة . وهذا يعني انها مرحلة شاقة دون ان تتسم بطابع الكارثة . فباستطاعة المشاريع ان تبذل الجهود لتحقيق انتاج افضل ، وتقدم تقني يغدو مصدر رفاهية عند عودة البحبوحة النقدية . وباستطاعة الاجور ان تصمد في وجه تخفيف التضخم ، كما باستطاعة بعض الطبقات الناشطة ، ان تنجو من البؤس والمفاجآت . وهذا ما حدث ، على ما يبدو ، في اقليم فالنس الايبيرية . ولكن القرن السابع عشر ، في معظم انحاء اوروبا ، يبدو واقفاً على شفير الكارثة . فان ارتفاع الاسعار بسرعة قصوى قد حد من الاستهلاك وتسبب في ازمات الصفقات الخاسرة وادى الى البؤس والالم ، وقد لا يتمكن اغنى المتعهدين من الاستفادة دائماً من هذا الوضع بالاستعاضة عن تدني المبيعات بمضاعفة المكاسب وبتجميع رؤوس الاموال لمتابعة توظيفها في المشاريع . فمرحلة ارتفاع الاسعار قصيرة الاجل ، يعقبها الهبوط ، فيزول الكسب ، ويسرح المتعهد عماله، ويتأخر عن تسديد الدائنين اموالهم . اضف الى ذلك ان تأرجحات الاسعار لا تترك مجالا لاي تقدير . فيسيطر اليأس على المتعهدين ويقرون بعجزهم . ويستحيل تحسين المشاريع ، لا بل ان الكثير منها ينتهي الى الزوال .

فالقرن السابع عشر هو من ثم ، بين مرحلة ارتفاع الاسعار في القرن السادس عشر والمرحلة المماثلة في القرن الثامن عشر (بعد ١٧٣٠) ، مرحلة ازمة مستمرة مختلفة الحدة .

٢ ـ الازمة الاجتماعية

ان المنازعات الاجتماعية ، التي تنميها النهضة الاقتصادية ، لا تتبدل طبيعة ، بل تشتد حدة . فهنالك فئات بورجوازية تسير قدماً في تقوية شأنها بالنسبة للطبقات الاخرى ، بسرعة اخف منها في القرن السابق ، ولكن بصورة ثابتة اكيدة .

المثال الفرنسي

تحويل رؤوس الاموال الى العمليات المالية الرسمية

وارتقاء رجال المال والضباط

غير انه يبدو ، في فرنسا والدول المماثلة لها ، وبسبب عدم الاستقرار الاقتصادي ، ان ذلك قد تم خصوصاً باستغلال حاجات الدولة المتعاظمة التي يتوجب عليها تأمين موارد دخول جديدة والحصول على سلفات لمواجهة نفقات الحرب بسرعة . ويبدو ان العمليات التجارية والصناعيـة ، وهي اقل فائدة وضمانة ، قد لعبت دوراً قليل الاهمية نسبياً . فهم رجال المـــال وموظفو الدوائر المالية من جهة ، وموظفو القضاء والشرطة من جهة ثانية ، من برزت اهميتهم الاجتماعيـــة بصورة خاصة .

ان موظفي المالية ، ولا سيما خزنة فرنسا العظماء ، هم كبار دائني الملك . فهم يؤمنون له المال بفائدة باهظة بانتظار جباية الضرائب . ولا يتورعون عن التعلل بتأخير جمع الضرائب حتى يقرضوا الملك ماله الخاص . ويشركون في عملياتهم بعض اعيان الاقليم فيستجمعون بذلك رؤوس الاموال المجمدة ، اما رجال الاموال الذين يعقدون اتفاقات مع الملك فيلتزمون جمع الضرائب غير المباشرة وادارة الاحتكارات واستثمار أملاك الملك وبيع الوظائف العامـــة والمناصب . ويسهم في عملياتهم ، من طرف خفي ، بعض النبلاء والقضاة والتجار . وقد انصرف رجال المال انصرافاً مطرداً عن التجارة والصناعة . وحين اعوزت هنري الرابع رؤوس الاموال للمصانع الملكية اضطر الى ارغام « زامت » و « دي مواسه » و « بوله » الى تقديم مبالغ غير ذات اهمية نسبياً .

بيعت الوظائف العامة على تفاوت في النسبة ، في كل مكان تقريباً . الا ان بيع المناصب في فرنسا قد بات نظاماً وبلغ الذروة . فالملك يحدث ويبيع مناصب عديدة ، وهو انما يصدر بذلك صكا بدخل تدفعه الدولة : فالضابط مثلا يستوفي فائدة رأسماله رواتب وتوابل وحقوقاً ومواد مسعرة . ويفرض الملك دورياً على الضباط ، لقاء دفعة من المال ، زيادات على الرواتب ليست في الواقع سوى قروض اجبارية . فلما كانت المبالغ الواجب دفعها باهظة جداً ، يضطر الضباط الى البحث عن الدائنين فيمسي مجموع الضباط وكأنهم آلة ضخمة مهمتها تعبئة رؤوس الامـوال المجمدة لخدمـــة الخزانة الملكية . ولكن الملك ، مقابل ذلك يتيح للضباط في النهاية جعل مناصبهم وراثية . وقد اضيف الى حق الاستقالة وتعيين الخلف نظام هو اشبه ما يكون بالتأمين على الحياة ، يضمن الوظيفة للعائلة اذا كان للضابط ولد في سن الخدمة ، او رأس المال الذي يمثله المنصب اذا لم يكن للضابط اولاد . فجلي من ثم ان طبقة الضباط باجمعها قـــد توطدت وتمكنت .

ارتقاء التجار الصناعيين

ولكن طبقة التجار — الصناعيين استمرت في الارتقاء . ففي باريس غدا ارباب الهيئات — الست (صانعي الاجواخ ، والعطارين — الصيادلة ، والمقادين ، وصانعي القلنسوات ، والفرائين ، والصاغة) من كبار التجار . كما ان « سنكتو »

و « نقولا له كامو » الذي جمع ثروة تقدر بتسعة ملايين واستولى دفعة واحدة على ٢٠٠٠٠٠ دينار من الفضة في سوق فرنكفورت الدورية ، وصانع الاجواخ « كلود بارفكت » ، وتاجر الانسجة ، الخفيفة ادوار كولبير عم الوزير العتيد ، وكثيرين غيرهم في كافة المدن الكبرى ، اسسوا مصانع لانتاج المدافع والاسلحة وملح البارود والفروش والحرائر والاجواخ والادوات المعدنية . واقتنوا الاراضي ودفعوا بعائلاتهم الى وظائف الدولة والمدينة والكنيسة . فمين اخو « شارل بارفكت » خازن فرنسا ثم رئيساً بديوان النقود وتولى افراد عائلته وظائف هامة في ادارة مدينة باريس . وهكذا انضمت عائلات الصناعيين والتجار الى عائلة الضباط في ممارسة الوظائف العامة واشتركت كلها مع عائلات النبلاء في امتلاك الاقطاعات .

النبلاء ضد البورجوازيين

ان ما نشده جميع هؤلاء البورجوازيين هو النبالة وشرف النسب . فهم يعيشون ، في الدرجة الاولى ، « عيشة الاشراف » دون اي نشاط مأجور ويمارسون الجندية : الجد تاجر والاب ضابط والابن جندي . كثيرون من قضاة المحاكم العليا اشراف ، الرؤساء فرسان والمستشارون حاملو سلاح . ويتوفق بورجوازيون كثيرون الى الحصول على براءات شرف . ولكن نبلاء الجندية القدامى يمقتون هؤلاء الحانوتيين البلهاء الذين لم يحسنوا التخلص من دناءة نسبهم . وقد اوصدت ابواب المناصب في وجه نبلاء الجندية لانها غدت وقفاً على ذوي الثروات . لا بل ان الملك اخذ يعين المزيد من البورجوازيين حتى في الوظائف التي لا تباع بيعاً . فبورجوازيون هم باغلبيتهم منذ هنري الرابع أعضاء المجلس الملكي السياسي الذين كانوا اشراف جندية في الدرجة الاولى في عهد هنري الثالث . وبورجوازيون هم امناء سر الدولة اولاً والوزراء تدريجياً امثال « كولبير » و «لوفوا» . ولكن البورجوازيين ، اسياداً اشراف اصبحوا أو بارونات ، لا يزالون يحتفظون بذهنية وعادات واخلاق لا يقرها اشراف الجندية . ولا يعترف لهم هؤلاء النبلاء بـ « الصفة » ولا ينظرون اليهم الا نظرتهم الى « بورجوازية حقيرة » ويتظاهرون حيالهم بمزيد من الرفعة والازدراء . وقد حدث في اجتماع مجلس وكلاء المملكة الفرنسية في السنة ١٦١٤ ، حين قال النائب المدني « هنري دي مسم » « ان الطبقات الثلاث هي اخوات ثلاث امهن واحدة هي فرنسا » ، ان نهض بعض الاشراف واعلنوا « انهم لا يرضون بان يدعوهم ابناء السكافين والخرازين بالاخوة وان الفرق الذي يميزنا عنهم هو نفسه الفرق الذي يميز السيد عن الاجير » .

الاسياد ضد الفلاحين

تعاظمت المضادة بين كافة الاسياد ، الاشراف والضباط والتجار ورجال المال ، وكلهم يمتلكون الاقطاعات ، من جهة ، وبين الفلاحين من جهة اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد يعيشون من عمل الفلاحين بالدخول عيناً ونقداً وبالاتاوات المختلفة التي يجمعونها من ضرائب يدفع جلّها الفلاحون . ولكن الدخل الزراعي سريع التأثر بحركة الاسعار . وقد تغدو الفرائض والحقوق الاميرية واجبات عسيرة جداً اذا ما اتسعت هوة اللامساواة بين الافراد . ويجب التمييز

بين حالة الضرائب والكراءات والدخول والفرائض الاقطاعية المسددة نقداً وبين حالة الدخول والفرائض الاقطاعية المسدّدة عينا بالنسبة الى الحصائـــد ، وبين حالة الاسياد ، والمزارعين ، والشركاء وصغار الملاكين .

ان السيد والمزارع الكبير يحققان المكاسب عندما ترتفع الاسعار بسبب ندرة المواد الغذائية لانهما يحتفظان على الاجمال بفائض الحصائد او بمخزونات يتمكنوا من بيعها باسعار عليا . ولكن الشريك والملاك الصغير يريان ان حصادهما يكفيها للبذار والخبز فيستحيل عليهما والحالة هـذه ان يدفعا الضرائب والفرائض . والضريبة توزع على الرؤوس ، لا بنسبة الانتاج . ولا تتبـــع الدخل الذي قد تتعداه . والفريضة او الضريبة الكنسية تقرران بالنسبة للانتاج قبل اسقاط النفقات ؛ ولكن النفقات المهنية (بذار ، الخ .) لا تتغير قط وقد لا يبقى من الانتاج، بعـــد اسقاطها ، ما يغطي الفريضة .

اما اذا كان مرد ارتفاع الاسعار الى اسباب اخرى ، فالجميع يحققون المكاسب ، ولكن السيد والمزارع الكبير اللذين يستطيعان ارتقاب الوقت المناسب للبيع يفيدون، بصورة طبيعية، من هذا الارتفاع ، اكثر من الملاك الصغير والشريك . ويربح السيد بالنتيجة فوق ربح المزارع الكبير لان بمكنته ، كلما جدّد عقد الضمان ان يرفع قيمة الضمان بحيث يصادر كسب المزارع .

واذا انخفضت الاسعار ، فالمزارع المرتبط بعقد ضمان ينكب بضمان وافق عليـــه حاسبا حساب الاسعار العالية . اما الملاك الصغير والشريك فيدفعان دونما صعوبة الدخول والفرائض العينية اذا نجم الانخفاض عن حصاد وفير ، وبصعوبة كلية اذا اضطرهم الانخفاض الى بيع المزيد من حصادهم للحصول على النقد ؛ ولكن الضريبة والدخول والفرائض النقدية قد تتجاوز الدخل مجدداً ، لاسيما وان الملاك الصغير والشريك يرغمان ، امام الحاح الحاجة ، على البيع بعد الحصاد مباشرة ، حين تكون الاسعار في ادنى انخفاضها . ويصاب العمال الزراعيون اسوأ اصابة . فبالنظر الى ركود التقنية الزراعية يعذر تخفيض سعر الكلفة الا بتحديد اليــــد العاملة . اجل ان الاجور لا تتدنى ، ولكن هنالك مزيداً من العاطلين والمتشردين والهائمين على وجههم .

وهكذا فان التفاوت والمضادة بين الطبقات يتعاظمان باطراد . يضاف الى ذلك ان الدخول والفرائض والضرائب قد تتعدى وسائل المستثمر الصغير في حالتين ظرفيتين غير نادرتين في ظل هذا النظام الاقتصادي : ثورات الفلاحين والحروب بين الفلاحين .

الكبار ضد ارباب المهن والعمال

يقف الاشراف ورجال المال والضباط موقفا متزايد العـــداء من صغار ارباب المهن ، اسياد المهن « الصغيرة » ، ومن عمال المدن ، بمقدار خضوع هؤلاء للضرائب لان باريس معفاة من ضريبة الاقتطاع ، ومدنا اخرى معفـــاة ايضاً او مشتركة . وقد اعتمدت هيئات الضباط الملكيين والمجالس التمثيليـــة والمحاكم ووزراء الدول ، من جهة ثانية ، سياسة عاطفة حيال اوليغارشية كبار التجار الصنـــاعيين ومضرة

بصوالح صغار ارباب المهن، الخبازين والقصابين والقشاشين ، وصوالح العمال والصناعيين المستقلين الذين باتوا اشد انفعالا وحقدا . واحتفظت الدولة للتجار الصناعيين بالوظائف البلدية وبالسلطة في المدن. وناصرت الدولة كافة ارباب المهن على العمال في مجهودهم الرامي الى ازالة التنافس وتخفيض لاجور وبلوغ الحد الاقصى من الانتاج . وامست التعاونيات في النهاية آلة في ايدي ارباب المهن التضييق الخناق على العمال . واوقف ارباب المهن الانخراط في جمعيتهم . فاقفلوا ابوابها في وجه غير ابنائهم واصهارهم بفرض شروط تحدد السن والاقامة وانقاص عدد المتمرنين واطالة مرحلة التمرين للرفاق وتعقيد التحفة الفنية وغلائها والتحيز والاختلاسات وافساد ضمائر لجان الامتحان ورسوم الانضمام الباهظة وضخامة نفقات ولائم الدخول . واتفق ارباب المهن على اعطاء ادنى الاجور الممكنة ، حتى يدفعوا عليها رسوماً خفيفة للتعاونيات والسلطة العامة . وارغموا العمال على ان يشتغلوا ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة في اليوم . وطلبوا من الدولة تخفيض عدد ايام العطلة وتحريم التسرر العمالي ومنع العمال من الاختلاف الى الحانات ، حتى يتاح لهؤلاء الاكتفاء بالاجور المتدنية . وحظرت التكتلات والاضرابات على العمال . فاسس هؤلاء نقابات سرية : ابناء سليمان (الذئاب) ، ورفاق الواجب (المفترسون) ، وابناء السيد جاك (الذئاب المتنكرون) ، وابناء السيد سوبيز (السكارى) . وكان لهم رؤساؤهم ، وجمعياتهم المنظمة ، وصناديق مال تغذيها اكتتابات اجبارية ، والاسلحة ، والحراب ، والبنادق القصيرة . ولم ينظر الرأي العام اليهم بعين راضية لانهم اتهموا بالتسبب في ارتفاع الاسعار بفعل متطلباتهم . ولكنهم ازدادوا قوة بازدياد عددهم . ففي السنة ١٦٣٧ ، بلغ عددهم في باريس ٤٥٠٠٠ عامل ومتمرن . والفوا في ليون ثلثي سكانها المائة الف وتراوح عدد العاطلين منهم بين عشرة آلاف واثني عشر الفاً ، فحين تتوقف جماهير المتسولين والمتشردين من الارياف الجائعة نحو المدن وتنضم الى جماهير العاطلين المتضورين جوعاً وذوي الاجور المتدنية ، حينذاك تبدأ الفتن والثورات .

تفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية

وتتفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية . فعلى الرغم من البراءة المعروفة ببراءة « نانت » ، وعلى الرغم من التقارب بين الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك الذي انتهى الى قبول الزواج المختلط فيما بينهم استمرت الخصومة على حدتها اقله في الاقليات المتشددة . الاكليروس يوجه الى البروتستانت التهديد تلو التهديد . ويقدم بعض الكاثوليك على تعكير احتفالات ترتيل المزامير واحراق مساكن البروتستانت المنفردين . وتثير « جمعية قربان المذبح » القضاة على المنشقين .

مقابل ذلك يتصرف بعض البروتستانت المتهوسين تصرفا غير لائق عند مرور القربان المقدس ويسيئون معاملة المرسلين في القرى. ويمتنع البروتستانت في « ميلو » عن تسليم الصكوك للكاثوليك وفي « نيم » ، لا يجد الصناعيون الكاثوليك لا مسكناً ولا عملاً . وقد اقدم بعض الاسياد البروتستانت ، بفضل ما يتمتعون به من سلطة ، على ارغام ابناء قراهم على تغيير معتقدهم بالقوة احياناً. وفي مقاطعة « سانتونج» عطف ملاكو المراكب البروتستانت بالتفضيل

على البحارة من ابناء دينهم . وعاش كاثوليك الجنوب تحت كابوس الخوف الدائم من الاقصاء . فغدا الصراع الديني شيئاً فشيئاً صراعاً طبقياً . وكان البروتستانت في « تور » و « روان » وعدد كبير من المدن الصناعية تجاراً – صناعيين اثرياء يرتبط بهم الوف العمال الكاثوليك في نطاق تأمين معيشتهم .

الثورة الصناعية الاولى في انكلترا

سارت انكلترا قدماً في حقل التنمية الرأسمالية المرتكزة الى التجارة البحرية الكبرى . فزادت تجارتها الخارجية عشرة اضعاف ما بين السنة ١٦١٠ والسنة ١٦٤٠ ، فبدّل الاقتصاد التجاري الاقتصاد الزراعي تبديلا اعمق منه في فرنسا الى حد بعيد . واستمرت الثورة الصناعية الاولى التي انطلقت في القرن السادس عشر . وقد باتت الصناعة الكبرى ، قبل الحروب الاهلية ، شيئاً مألوفاً في مناجم استخراج المعادن . ويغلب على الظن ان الصناعة الكبرى ، حوالي ، السنة ١٦٤٠ كانت اوسع انتشاراً في انكلترا منها في اي مكان آخر من اليابسة . فبرزت مؤسسات تتطلب رؤوس اموال ضخمة . وفي عهد جاك الاول استخدمت مصانع الشب على مقربة من « هوتبي » في مقاطعة « يوركشاير » ، هياكل خشبية كبرى ومصاهر قرميدية وصهاريج وافران معدنية يشتغل في كل منها ستون عاملا ويستهلك كل سنة فحماً حجرياً وخشباً وشبا بمبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني . وضم مصنع الورق في « دارتفورد » (كنت) ستماية عامل ، ومصنع المدافع في « برندلي » (كنت) مايتي عامل ، الخ . وقد بات ضرورياً ، لزيادة انتاج مناجم الفحم والنحاس والحديد والرصاص القصدير السير قدماً في الحفر والحؤول دون غزو المياه وانفجارات الغاز . ولكن رواقاً عميقاً يكلف الوف الجنيهات ، ومضخة تسيّرها الاحصنة تكلف الفي جنيه سنوياً . كما بات لزاماً استخدام مئات المعدنيين لان مناجم الفحم اصبحت تنتج بين عشرة وخمسة وعشرين الف طن حوالي السنة ١٦٤٠ ، بعد ان كان الانتاج السنوي في منجم الفحم لا يتعدى بضع مئات من الاطنان الا نادراً في السنة ١٥٥٠ . وكانت المصاهر الكبرى والمطارق المائية الضخمة لصناعة الحديد شيئاً مألوفاً قبل الحروب الاهلية . ثم تكاملت بعض الصناعات : فعادت معامل الحديد مثلا لارباب المصاهر الكبرى . وتعاظم شأن رؤوس الاموال المتجمعة . ففي عهد جاك الاول ، بلغ رأس مال احد مصانع الجعة اللندنية عشرة آلاف جنيه بينما لم يتطلب سير مصنع الجعة الكبير ، قبل السنة ١٥٤٠ ، اكثر من ٢٥ جنيهاً . وسيطرت الرأسمالية الصناعية على الصناعة المنزلية التي ما زالت قاعدة عامة . ووفرت صناعة المعادن الكبرى المتعاظمة المادة الخام للصناعيين اليدويين الذين ينتجون المراسي والاجوات وقطع التبديل للآلات والفؤوس والمهاميز والمواس والمسامير والاقفال ورؤوس المحاريث ومغالي الماء والآنية المعدنية والمقالي . وبرز تعاظم الصناعة التجاري في النسيج اذ استخدم بعض « الاسياد » ٥٠٠ وحتى ١٠٠٠ عامل في منازلهم . وفي مقاطعة « لنكاشاير » ، وفر التجار – الصناعيون القطن لالوف الغزالين والحاكة المتشتتين هنا وهناك . وفي صناعة القطنيات ، كما

في صناعة الاجواخ ، نهضت بعض المعامل بالاعمال التكميلية : الصباغة والتلبيد والصقـل ، ولكن هذه الانطلاقة لم تخل من الازمات . فالبطالة غير نادرة في صناعة الاجواخ خلال القرن السابع عشر . وقد حدث في تجارة الاقمشة ، قبل السنة ١٦٢٠ ، هبوط استمر سنوات عدة . وطورت الرأسمالية التجارية الزراعة تطويراً بطيئاً . وفي سبيل توفير الصوف للصناعة واللحوم للمدن ، تابع الملاكون ، ولو على نطاق اضيق ، تحويل اراضيهم الى مراع بتسييجها ومنع الدخول اليها ؛ واتسعت رقعة المروج الصنعية ؛ واستحسن الكرنب الساقي ، الذي انحصرت زراعته من قبل في البساتين ، لتغذية المواشي في بعض الدورات الزراعية .

الرأسماليون والسيطرة على المجتمع الانكليزي

لقد حدث انقلاب في توزيع الثروات والعلائق بين الطبقات . الا ان الصراع بين الطبقات اختلف عنه في فرنسا ، بسبب نمو الرأسمالية السريع ولان طبقة الاشراف لم تنظر الى مزاولة التجارة والصناعة والزراعة التجارية نظرتها الى عمل مشين . فقد استهوت هذه النشاطات عدداً كبيراً من الارستوقراطيين : ولا غرو فان شطراً من طبقة الاشراف الانكليز لا يختلفون بعاداتهم وذهنيتهم عن البورجوازيين ، ولكن سواد الاشراف لا يزالون يعيشون عيشة الاسياد في اراضيهم بين شركائهم المزارعين ، وقد حسد اشراف الطراز القديم هذا اولئك الذين جمعوا الثروات بفضل النشاطات الجديـدة وتقدموا عليهم ؛ ومقتوا الرجال الجدد ، من تجار وتجار - صناعيين ، الذين يتوفقون الى اقتناء املاك واسعة ، ويتوصلون ، بفضل عقاراتهم ، الى شغل مناصب قضاة الصلح ، ويسهمون في ادارة البلاد ويتعاظم شأنهم في انتخابات المجالس التمثيلية ، ويطالبون ، لغير الابكار من ابنائهم ، بوظائف الكنيسة والجيش والدولة وينافسون الاشراف القدامى في كافة المجالات . وقد اتهم اشراف « الطراز القديم » الرأسماليين بالمراباة وطالبوا بان تتدخل الحكومة لتضع حداً لتصرفاتهم .

وكان الرأسماليون المستقلون على خلاف مع رجال بطانة الملك . فقد استفاد بعض هؤلاء من نفوذهم لحمل الملك على ان يعهد اليهم ببعض الاحتكارات . ولدينا مثل اللورد « شفيلد » ، رئيس مجلس الشمال ، الذي حصل من جاك الاول على احتكار صناعة الشب لمصلحة نقابة من الاعيان المتعهدين الذين كان يمثلهم في البلاط . ولدينا ايضاً مثل الاميرال السر « روبرت مانسل » الذي استعاد بالشراء ، في السنة ١٦١٥ ، احتكار الزجاج الممنوح لتسعة متعهـدين ، الخ . فطالب الرأسماليون ، يساندهم صغار ارباب المهن وتجار المدن والمناطق الصناعية ، بالغاء كافة هذه الاحتكارات وباطلاق حرية العمل .

ودفع نمو صناعة الاجواخ وتصدير الحنطة بالرأسماليين الى اقتناء املاك واسعة امنوا بعـد ذلك ديمومتها بتخصيص ابكارهم بها عند زواجهم . وقد دب الخلاف بين هؤلاء الملاكين ومزارعيهم وفي سبيل استعادة ما ينفقون حولوا المزارعات الدائمة الى مزارعات مؤقتة ورفعـوا نسبة

الفرائض والاجور متجاهلين كل حق وقانون . واستمروا بتسييج اراضيهم مستندين الى القانون الصادر في السنة ١٥٩٧ ، الذي اجاز تحويل الارض الى مرعى لاراحتها ، وسرحوا الفلاحين المناكيد واكتفوا مكانهم ببعض الرعاة . وتضاعفت قيمة الضمانات بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٥٠ ولكن عدد المستفيدين منها قد تدنى . اما الذين حرموا حقوقهم فقد انضموا الى صفوف المتشردين الذين يختار من بينهم عمال الصناعة الكبرى . وقد تقدم المزارعون بالعريضة تلو العريضة الى المجلس الخاص مطالبين هؤلاء الملاكين الرأسماليين بحقوق مهضومة .

ودب الخلاف بين العمال وارباب الصناعات على قضايا الاجور والبطالة واستخدام العمال غير المؤهلين . وكان نظام الصناعيين اليدويين الصادر في السنة ١٥٦٣ قد قضى بان لا يستخدم اي عامل ما لم يخضع للتمرين القانوني ، ولكن نمو الصناعة السريع قد حمل ارباب المصانع على استخدام يد عاملة اقل كلفة من بين الفقراء والعاطلين الذين لم يتمرنوا في يوم من الايام . وفي سبيل التوصل الى تسريح هؤلاء غير النظاميين ، تحالف الرفاق والمتمرنون ولجأوا الى اعلان الاضرابات كما حدث في « نورويش » (١٦١٠) .

اصطدام المفاهيم الاجتماعية

ادى كل ذلك الى ايجاد التنازع بين فئتين. فمن جهة ، الرأسماليون والمستفيدون من نشاطهم : الارستوقراطيون والاشراف الريفيون وصغار ارباب مهن الحياكة والمزارعون المستقلون في المقاطعات الصناعية « نورفولك » و « سوفولك » و « اسكس » ولندن ، ومدن صناعة الاجواخ في « لنكاشاير » « برادفورد » و « ليدس » و « لفاكس » ، ومدينتي « برمنغهام » و « ونيستر » في « مدلاندس » ، ومدن « غلوسستر » و « توفتول » و « اكستر » في الغرب . ومن جهة ثانية اسياد الطراز القديم ومزارعهم وطبقات الشعب الفقيرة .

قالت هذه الفئة الثانية بمفهوم المجتمع القديم : الجسم الاجتماعي مركب من اعضاء متكافلة يتوجب عليها تبادل الخدمة والمساعدة ؛ وليس ما يملكه كل فرد الا لخدمة القريب . وقالت كذلك بتنظيم القرية القديم : حقول مستطيلة غير مسيّجة ، زراعة مشتركة ، دورة زراعية كل ثلاث سنوات ، اراحة اراض ، مراع عامة ، اي كل تلك الحياة الجماعية التي تحد من سلطة الغني وتأخذ بنصرة الفقير . وقالت اخيراً بمبدأ الفلسفة المدرسية : الاعمال على انواعها خدمة عامة ؛ فلا يجوز من ثم مزاولة تجارة قد تؤدي الى افقار الغير ؛ بل يجب البيع بالسعر القانوني ، والامتناع عن البيع بأعلى الاسعار ، والتنبيه الى انخفاض الاسعار المحتمل ، والاقلاع عن تخزين المواد بانتظار ارتفاع الاسعار ، وعدم استيفاء الفائدة الا اذا شارك الدائن المخاطر التي قد يتعرض لها المدين ، وعدم استيفائها كذلك من الفقير والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط المفروضة على المزارع ، وابقاء الاراضي دون سياج ، ورفض كل كسب على حساب القريب .

أما المستفيدون من الرأسمالية ولا سيا الملاكون الجدد المنحدرون منها ، فقد تبنوا ، على

نقيض ذلك ، مفهوم الملكية البورجوازي : كل فرد سيد مطلق على ما يملك ، وله ملء الحق في استثماره لخدمة فوائده المادية ، دون أي موجب يضطره الى تقديم مصلحة القريب على كسبه الشخصي ، فالملكية حق راهن غير مشروط ودائم كانت هنالك واجبات ام لم تكن وقام بها المالك ام لم يقم . وجلي ان هذا المفهوم الفردي للملكية يزيل كافة الواجبات الاجتماعية : فيجب من ثم ان تتحرر المصلحة الاقتصادية من كل قيد ، اذ ان غاية كل نشاط ، بالنتيجة ، هو ارضاء للشهوات . وان هذا المذهب ، كما نرى ، يقود الى مادية لاواعية .

وقد وجد المفهوم البورجوازي عضداً له في مذهب القائلين باتباع قوانين صارمة في الدين . أجل لقد تمسك بعض الكلفينيين المتشددين بآراء « كلفين » الشبيهة كل الشبه بآراء الفلاسفة المدرسيين . ولكن الدين المسيحي غدا ، عند عدد كبير من القائلين باتباع القوانين الصارمة ، مجرد فردية مصلحية . فجوهر عقيدة هؤلاء هو وحي الله لروح الفرد . والدين ليس سوى معاملة شخصية بين الانسان وخالقه دونما وساطة بشرية . كل انسان حر على مسؤوليته الخاصة . غير ان نظام الكون العقلي ، من جهة ثانية ، هو عمل الله ، والمخطط الالهي يفرض ان يعمل الفرد لارضاء الله . الايمان وحده يخلص ،ولكن الايمان يتحيز بالاعمال. كل فرد مرغم على القيام بأعمال رسالته . وهو مدعو للنهوض بعمل خاص في سبيل مجد الله والخير المشترك . وعلى اولئك الذين تكون رسالتهم مزاولة الاعمال ان يعتبروها صلاة لله . ويترتب عليهم معالجتها خير معالجة وينظروا اليها نظرتهم الى نظام زهدي والى نضال روحي طويل الأمد . والكسب هو دليل النجاح والبرهان على ان الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير. والواجب من ثم هو الكسب. والنجاح في الاعمال هو دليل النعمة الروحية . والله قد بارك كل من يستجيب استجابة حسنة لرسالته . والفقر والبؤس هما عقوبة الخطايا . والمرعى العمومي والقانون على الفقراء يشجعان البطالة والخطيئة . يجب الا يساعد الفقير ، بل ان تصلح سجيته حتى يتخلص من الخطيئة ، وبالتالي من البؤس . وهكذا فان الفردية المتطرفة قد آلت الى الانانية والقساوة .

صراع الطبقات في الاقاليم المتحدة

افضت تجارة العمولة ، الى اثراء طبقة بورجوازية كبرى من التجار . فنجم ، عن ذلك تضاد واختلاف بين الطبقات في اطار الاقليم الواحد وتضاد واختلاف بين اقليم واقليم . وكانت هولندا وزيلندا المستفيدين الاكبرين من استثمار التجارة البحرية الكبرى ومن انهيار الموانىء البلجيكية . فاصبح لدى هولندا ، منذ السنة ١٦١٤ ، بحارة يفوقون عدداً بحارة انكلترا واسكتلندا واسبانيا وفرنسا معاً . كما اصبح لديها شركات بحرية قوية ، كشركة الهند الشرقية مثلاً (١٦٠٢) . وقد توفر لها المال الذي أتاح لها اجتياز الازمات بفضل مصرف امستردام (١٦٠٩) . وقد اتاحت لها الهدنة مع اسبانيا (١٦٠٩) دخول العالم الاستعماري واستثماره استثماراً منظماً . فازدهرت فيها الصناعات ، من بناء سفن ، وصناعة حرير ومخمل وكتان وجوخ ، وقيشاني . وارتفع عدد سكانها . وبات لزاماً

توسيع زراعة البقول في السباخ واعتماد الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات دون اراحة الارض فتوطد نفوذ البورجوازية في المدن : « امستردام »،«روتردام»، «هارلم»،مدلبورغ، «الكرن» . وتمكنت اوليغارشية بورجوازية من الاستئثار بالسلطة كلها . وكان هؤلاء البورجوازيون كلفينيين معتدلين ، متساهلين بالضرورة لاجتذاب التجار الاجانب ، وقد ساروا على آراء الراعي ارمينيوس الذي لم يكن متشدداً في موضوع القضاء السابق بالنسبة لمصير الانسان . ولم يبق في هولندا وزيلندا اشراف قط : سبعة في هولندا وواحد في زيلندا . أما الفلاحون ، وهم بنسبة واحد لاثنين من أهل المدن ، فلم يتمتعوا باي حق سياسي . وتكونت في المدن طبقة كادحة من البحارة والعمال والمتمرنين ، المحرومين كل حق ، استغلت ايما استغلال ، وسارت على مبادىء الراعي « غومار » المتصلب وقاومت بعنف الاوليغارشية البورجوازية . وقد دفعت هولندا ٥٥٪ من ضرائب الاتحاد ولكن نيرها كان ثقيلاً على الاشراف الفقراء في « غلدر » و « اوفر – ايسل » وزبائنهم شبه الاقطاعيين من الفلاحين ، وعلى ديموقراطيي اقليم «فريز» . وهكذا فان الصراع الطبقي قد تفاقم أمره في كل مكان .

٣ – ازمة الدولة

كانت الثورة كامنة في كل مكان لا بل انها اعلنت اكثر من مرة . لذلك فان الحرب الاهلية كانت شبه مستمرة ، خامدة احياناً ومستعرة اخرى .

المثل الفرنسي
ثورات الفلاحين والعمال

في فرنسا خاض الملك صراعاً دائماً لاجل الاستقلال ضد محاولات آل هبسبورغ المتكررة لبسط هيمنتهم فاوقعه ذلك في العجز المالي . فالامكانات التي وفرها له الانتاج محدودة جداً ، والضريبة غير كافية ابداً ، والعجز مزمن وزيادة الضريبة ثقيلة الوطأة وبعيدة الاثر . لذلك ما عتمت الحقوق الاميرية ان غدت سبباً أو مبرراً او حجة لاندلاع الثورات .

ألفت ثورات الفلاحين سلسلة متصلة الحلقات . فلا تمر سنة الا وتندلع ثورة في احدى الولايات . ولكنها تزداد خطورة ويتسع ميدانها في بعض الاحيان . وبين السنة ١٦٣٦ والسنة ١٦٣٩ ، حين افضت الحرب المعلنة التي نهض بها ريشليو الى اثقال وطأة الحقوق الاميرية ، انفجرت هنا وهنالك حروب فلاحية حقيقية . وروي عن الفلاحين في بعض المناطق انهم كانوا يرعون الاعشاب ويتنقلون عراة وينتحرون ، وشكل « الرعاع » منهم في اقاليم « ميموسين » و « بواتو » و « انجوموا » زمراً من سبعة أو ثمانية آلاف رجل تنقض على جباة الضرائب وتمزق مأمور المساعدات اربا . وفي السنة ١٦٣٧ ، شقوا عصا الطاعة في غسكونيا و « بيريغور » ، فتوجب تجنيد جيش لتأديبهم . ولكن ألفاً ومايتي رجل من بينهم آثروا الموت وراء المتاريس . وفي السنة ١٦٣٨ ، أدى فرض الضريبة على الملح ، في نورمانديا السفلى ،

الى اندلاع ثورة « الحفاة » . فقتل هؤلاء الفلاحون جباة اثقل الضرائب المباشرة وطأة ، اعني بها ضريبة الاقتطاع . وارادوا منع جمع كافة الضرائب التي فرضت بعد وفاة هنري الرابع .

وثار عمال المدن بدورهم ايضاً كلما ارتفع سعر الخبز وانتشرت البطالة وزيدت الضرائب . وتعددت الفتن بعد السنة ١٥٩٨ ، ثم تحولت ثورات في ليون في السنوات ١٦٢٣ و ١٦٢٩ و ١٦٣٣ و ١٦٤٢ ، وفي باريس في السنة ١٦٣٣ ، وفي روان في السنة ١٦٣٤ ، اذ قاد أحد الخرازين العمال الحبالين والوراقين وهجم معهم على « مكتب المزارع » وفي السنة ١٦٣٩ ، اذ هاجم عمال صناعة الاجواخ ، وعمال الصباغة ، بقيادة احد الساعتيين ، مأمور الرقابة على صباغة الأجواخ . فنقب الشعب المأمور بالمسامير وأرغم العجلات على ان تمر فوق جسمه ، ثم خربوا مكتب وزراء مال فرنسا ودخلوا عنوة مسكن « نقولا له تلييه » رئيس جباة ضريبة الملح .

وجملة القول ان الفتن بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٥٩ ، خلال حرب الثلاثين سنة حتى السنة ١٦٤٨ ، ثم خلال الحرب مع أسبانيا ، أكثر من ان تعد وتحصى .

وليست هذه الثورات حرباً يعلنها الفقراء على الاثرياء . فالاعتداء يتناول جباة الضرائب ، ولكنه قلما يستهدف القصور والدور البلدية ، واذا ما حدث ذلك ، فغالباً ما يكون المقصودون بعض حديثي النعمة من ضباط ورجال مال . ان ما استهدفته الثورات هو الادارة الاميرية . وما كانت لتصبح خطراً حقيقياً على الحكومة الا اذا اشتركت فيها الطبقات الاجتماعية الاخرى . وقد استطاع الملك على العموم اعادة النظام الى نصابه بسهولة بمقدار قيام قضاة المجالس التمثيلية وقضاة المحاكم ورؤساء دوائر العدل وغيرهم من المسؤولين بواجباتهم ، ووقوف قوى الامن بوجه الشعب وعزوف طبقة الاشراف عن الانضمام الى الفلاحين . ولكن جماهير من كل الطبقات اشتركت احياناً في اعمال العنف فاحدق الخطر اذ ذاك بالدولة .

ثورات الكبار
اهمية الروابط الاقطاعية

طالب « السيد » اخو الملك والامراء الملكيون ، ورثة التاج من بعده ، بان يشتركوا في الحكومة ويلعبوا الدور الاول في مجلس الملك ويتولوا السلطة في الولايات كحكام وراثيين وبالا يكون الملك سوى الاول او الرئيس بينهم ، وغالباً ما ثاروا على سلطة الملك المطلقة . ولكن ثوراتهم كانت تجر شيئاً فشيئاً الى اندلاع ثورات جماهير كثيرة من الفلاحين أحياناً . في هذا المجتمع ما زالت المشاعر الاقطاعية على حيويتها والروابط الشخصية بين انسان وانسان وروابط السيد بالفداوي على قوتها . وكان للامراء الملكيين والكبار زبائن كثر من الاشراف وعامة الشعب انتسبوا لهم ونذروا لهم امانة كلية واخلاصاً مطلقاً ونابوا عنهم في المبارزات والمنازعات والمعارك والكلام والكتابة والدسيسة ، وتبعوهم في الضراء وسجنوا وقتلوا من اجلهم . وبالمقابلة ، وفر لهم السيد الغذاء واللباس احياناً ووضع فيهم ثقته وساعدهم ابداً على التقدم في المجتمع واوجد

لهم مراكز العمل وزوجهم ووضعهم تحت حمايته واخرجهم من السجون وضمّن المعاهدات التي عقدها مع الملك لانهاء الثورات شروطاً تحفظ لهم حقوقهم . وقد تقدمت هـذه الواجبات المتبادلة على كل واجب آخر ، حتى واجب الطاعة للملك وخدمة الدولة . ولم يكن باستطاعة الملك نفسه ان يفرض سلطته الا بواسطة أمثال هؤلاء « المتفانين » وامثال هؤلاء « الطفيليين » من رجاله .

تمكن الامراء الملكيون والكبار من جمع الزبائن من حولهم بفضل الخدمات الجمة التي كانت في متناول يدهم : « السيد »، والملكة ، والامراء والاميرات، في بيوتهم واقطاعاتهم ، والامراء الملكيون والكبار كضباط كبار في بلاط الملك الذي تكاد تنحصر وظائفه الكبرى بالعائلات نفسها ، مما جعل بعضهم يخشون من ان لا يحيط الكبار الملك الا بالسلابين والقتلة . اضف الى ذلك ان الامراء والكبار كانوا حكام الولايات نفسها طيلة اجيال . فعاد اليهم حق تعيين حكام المدن وضباط الحصون وضباط الفرق والافواج وضباط عدليين وماليين كثيرين . وقد قامت في عدد من الولايات ، كنورمنديا فيما خص آل « لونجفيل » ولنغدوك فيما خص آل « مونمورنسي» روابط مصلحة وتفان بين الكبار والوف العائلات على اختلاف نسبها . وكانت الوف العائلات، اباً عن جد « مرتهنة » للكبار ، و « ملزمة » ، و « متفانية » ، تخدمهم قبل الملك نفسه .

وغالباً ما يحتل هؤلاء الاوفياء انفسهم منصب متعهدي الاملاك الملكية الذي فازوا به مع حق شغل الوظائف الملكية وتعيين الاسياد الذين يقضون بالعدل والضباط السيديين . فكسبوا بذلك نفوذاً على صغار الاشراف وبورجوازيي المدن الصغرى والفلاحين الذين يسمون وراء هذه الخدمات المختلفة الكثيرة حتى في قلب الارياف .

اتفاق الطبقات الاجتماعية على الدولة

كان لهؤلاء الاسياد اخيراً تأثير عظيم على فلاحيهم . فالروابط الاقطاعية تجمعهم ، وغالباً ما يشعر الفلاح شعور « الوفاء » و « التفاني » نحو سيده. ولا ينمو الحقد وروح العنف في قلب الفلاح الا اذا كان سيده رديئاً حقاً ، يضاف الى ذلك ان السيد يستطيع ، بواسطة ضباطه الذين ينظمون كل نشاط ، ان يجعل حياة فلاحيه مرضية أو ثقيلة لا تطاق . وللسيد والفلاح من جهة ثانية مصالح مشتركة ضد الملك والادارة الاميرية . فالضريبة الملكية ترغم على حفظ الاجور دون مستواها في حال زوال الضريبة ؛ والضريبة الملكية تعرض للخطر ، في سنوات المحول ، جمع الدخول والفرائض واموال المزارعة . فكم من مرة اقدم الاشراف انفسهم على دعوة الفلاحين للثورة ضد جباة الضرائب ؟ والاسياد ، كما نعلم يحمون فلاحيهم ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويوزعون عليهم الاسلحة ابان الحروب الاهلية ، ويفرضون بمساعدتهم احترام المواشي والحصائد . ويندر ان يكون من مصلحة الفلاح مقاومة سيده في حين ان الجيوش الملكية ، كغيرها لا تعف عن الاستلاب والنهب وان الفلاح ، دون حماية ، متأكد من انه سيكون الضحية . لذلك تبع الفلاحون أسيادهم في اغلب الاحيان .

زد على ذلك من جهة ثانية ان كل ثورة كانت تمتد بسهولة بالنظر الى ان الحد لم يكن فاصلا بين الطبقات الاجتماعية . فليس نادراً ان نرى في العائلة الواحدة افراداً قضاة وافراداً جنوداً ، وافراداً صاهروا التجار وافراداً صاهروا اعضاء المجالس التمثيلية ، وافراداً ارتقوا الى طبقة الاشراف وافراداً ما زالوا في طبقة عامة الشعب ، وقد ارتبط بعض التجار من علية الاشراف بروابط متعددة متشابكة متينة ، في عهد تميز بتنظيم عائلي قوي جعل عرف العلائق بين الحامي والحمي ، بالاضافة الى ذلك ، من رابطة النسب ، دماً أو مصاهرة تعهداً بالخدمة من جهة اخرى مهما بلغ من بعد درجة النسب .

دور الضباط المجالس العليا والدستور

لم يطمئن الملك الى ضباطه انفسهم ، وقد اعتبر اعضاء المجالس العليا ولا سيا اعضاء المجالس التمثيلية انهم جد مغبونين باحداث الوظائف التي تقلل من قيمة مهامهم وشأنها وزيادات الضمانات التي الجأتهم الى قروض باهظة الفوائد . فهم قد ارهقوا برفع الضرائب كأصحاب دخول سنوية من الارض وبالضرائب غير المباشرة كمكلفين. فرفضوا من ثم توقيع البراءات الاميرية وشلوا عمل الملكية حتى اثناء الحروب ، وادعى مجلس باريس التمثيلي بانه وريث مجلس الملك السابق. واراد الاشتغال بصورة بديهية بالامور السياسية، ودعوة الامراء الملكيين والدوقة والامراء وضباط التاج للتداول في شؤون الدولة ، كما حاول ذلك ، دون جدوى ، في السنة ١٦١٥ والسنة ١٦٤٨ . وكان ادعاؤهم هذا بمثابة اعادة تشكيل مجلس الملك السابق وجمعية الاقطاعيين ؛ كما ان القول مبدئيـاً بحقهم في الاجتماع بمطلق ارادتهم واتخاذ المقررات الشرعية ، كان بمثابة اقامة ملكية تقيدها الارستوقراطية ، في حال ان الملك قد أراد لنفسه ان يكون مطلق الصلاحية وشعبياً .

وادعى مجلس القضـــاء لنفسه ، في السياسة والتشريع ، بالتمتع بسلطة مستقلة عن الملك وبالعمل تلقائياً بمبادرته الخاصة والتشاور بمعزل عن اي رأي آخر وفرض مقرراته . وقد أراد جمع ضباط الملك الآخرين للوقوف على شؤون الدولة المختلفة (قرار الاتحاد، في ١٣ نوار ١٦٤٨). وحاول هذا المجلس اعادة النظر ، وحـــده ، في البراءات المقرة في حضرة الملك ، وذلك في الاجتماعات القضائية التي أعادت مجلس الملك السابق ، وقد حور أو الغى بقراراته براءات أو بنوداً من براءات اقرت في هذه الاجتماعات . ولم يسلم بالاجتماع القضائي في حضرة الملك الا اذا كان حضور الملك بمثابة زيارة يقوم بها لاستطلاع آراء المجلس في موضوع سياسي عام . وقـــد اعلن ان في حضور الملك انتهاكاً لحرية التصويت ، وادعى لنفسه حق التشاور واقرار البراءات والاوامر بمعزل عن الملك .

الدعوة التلقائية لممثلي المملكة ، والاطلاع على كافة الشؤون ، والشرائع المسنونة بمعزل عن الملك ، كل ذلك كان بمثابة اقامة جمعية منفصلة عن الملك تتمتع بالسلطة التشريعية وبحق رقابة السلطة التنفيذية ، وبمثابة محاولة اولى للفصل بين السلطات المختلفة . فسار المجلس ، بذلك الى

ملكية مقيدة ، لا بل مهد الطريق أمام الجمهورية . وجاء عمله متنافياً وكيان الملكية بالذات التي الف الملك والمملكة في نظرها كلاً لا يتجزأ . فحضور الملك لم يكن انتهاكاً لرأي اعضاء المجلس الملكي ، لأن المجلس ، الذي يمثل المملكة ، لم يكن ليوجد بـدون الملك . وكان الملك يستجمع الآراء بواسطة مستشاره ولكنه يستخلص بنفسه بعد ذلك حقيقة رغبة المجلس ويتبناها كما لو كانت صـادرة عنه . وكان ممكناً ان تختلف هذه الرغبة عن الرغبات المعلنـة ، فيبقى للملك الحق آنذاك في اتخاذ قرار نهائي يعارض اغلبية الآراء . فكان موقف المجلس التمثيلي من ثم موقفاً ثورياً . وكان انقلابياً ، وفصلاً مصمماً بين عنصرين متحدين في الواقع يتكاملان ولا يتجزآن ، الملك والمملكة ، الملك والامة . وكان بالتالي رفضاً للملكيـة .

المجالس العليا وثورتها الرجعية

ولكن هذه الثورة السياسية وسيلة دوام اجتماعي . ولم يستهدف عمل المجلس التمثيلي سوى المحافظة على اوضاع أعضائه الراهنة وأوضاع أنسبائهم وحلفائهم ، وأوضاع امثاله ، وأوضاع متولي الوظـائف والاقطاعات ، في وجه ثورة اخرى مركزية تقول بالمساواة الى حد مـا ، هي ثورة الملكية المطلقة . فالمجلس التمثيلي انما قاوم محاولة احلال المفوض محل الضابط ومجلس الملك محل المجالس العليا والوكيـل محل مختلف الهيئات القضائية والمالية . وانكر على مجلس الملك وحده ، في غياب الملك ، حق التصرف وكأنه كتيبة المملكة الاولى ، وحق ابطال كل قرار يصدر عـن المجالس التمثيلية ويتعارض مع السلطة الملكية والمنفعة العامة . وطالب بالغاء وظائف الوكلاء الذين لم يكتفـوا بالنظر في الشؤون الطارئة قبل احالتها الى القضاة العاديين بـل بتوا بالامور الجوهرية بانفسهم بتفويض من مجلس الملك واقصوا كثيرين عـن وظائفهم ، اولئك الوكلاء الذين زاولوا وظائف ضباط المال وخزنة فرنسا و « المختارين » وغيرهم . وطالب المجلس التمثيلي بان يعود الضباط الى ممارسة مهامهم وان لا يحرموا وظائفهم بناء على مجرد أمر ملكي بل بموجب حكم قضائي كما تقضي بذلك الانظمة . فكان الموضوع من ثم معرفة من سيتولى ادارة المملكة : موظفون ملكيون يعينون ويعزلون عند الحاجة ويعملون باسم السلامة العامة وسياسة الدولة العليـا في سبيل خدمة مصلحة الملك التي لا تختلف عن مصالح الدولة العامة ، ام هيئات من الضباط تعود لهم ملكية وظائفهم ، لا ينقادون من ثم بسهولة ولا يعزلون عملياً ، يهتمون للمصالح التي يمثلونها فوق اهتمامهم للمنفعة العامة ، ويملكون وظائفهم واقطاعاتهم بالوراثة ويتمتعون بكافة سلطات السيد ، ويرتبطون باواصر النسب او المحالفات باشراف الجندية ، ويغدون قـوى اقليمية أو محلية ، ويمثلون الاقاليم والمصالح الخاصة في وجه الملك فوق تمثيلهم الملك امام المصالح الخاصة والاقاليم .

وقد توفرت للمجلس التمثيلي وسيلة ممتازة للعمل : الاعتراض على الضرائب واقناع الفرنسيين بانهم يدفعون رسوماً باهظة غير عادلة لمجرد مجد الملك ومجرد بذخ البلاط ، بينما تعرض مطامع آل هبسبورغ في السيطرة الشاملة للخطر وجود الدولة بالذات وبينما يفتقر البلاط البائس الى

المال الضروري لتأمين غذائه . وكان من شأن ذلك حمل الجماهير على التعلق العاطفي بالمجالس التمثيلية وعلى احترامها واجلالها . ويصح الكلام نفسه عن بورجوازيي المدن المثقلين بالرسوم والقروض الالزامية والاحتكارات التجارية واستيراد المصنوعات الاجنبية . يضاف الى ذلك ان أعضاء هذه المجالس كانوا ضباطاً لفرق الميليشيا البورجوازية وأسياداً يتمعون بملء السلطة على الفلاحين في أملاكهم . فقد حدث في باريس ، ابان « ثورة المرجام » ان استدعى الاسياد من البورجوازيين الباريسيين فلاحي « سانتوان » وقرى اخرى فلبوا الدعوة وحاربوا في صفوف بورجوازيي العاصمة .

الدور الثوري للحزب البروتستانتي .

ان التنظيم السياسي للحزب قد اعطى اسياده وبلدياته قوة نادرة . منحت براءة « نانت » البروتستانت مراكز سلامة وحاميات عسكرية . ولكن البروتستانت لم يكتفوا بما منحتهم اياه البراءة فأسسوا ، بالاضافة الى ذلك ، جمعيات اقليمية وجمعية عامة . وكانوا قد قسموا فرنسا ثمانية قطاعات عسكرية ، كما كان على رأسهم قائد عام ، ومثلهم سفير في البلاط الملكي . فألفوا من ثم دولة داخل الدولة وجعلوا من فرنسا اتحاداً مؤلفاً من دولة كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وشعبين مختلفين لا يجمع بينهما سوى الخضوع لملك واحد ، وثنوية سياسية . الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية « الاقطاعية » ايضاً ، لم يكن ليتفق وحاجات الدولة . فاستفاد الاسياد البروتستانت منه للانضمام الى كل حركة ينهض بها « الكبار » وثاروا كلما كان الملك بحاجة الى السلم الداخلي ابان صراعه مع الاجنبي .

الثورات العامة

وقام في بعض الفترات اتحاد يستهدف مقاومة الملك و « أوفيائه » ضم الاشراف والضباط وجماهير المدن والفلاحين . فكان كافياً ان يعطي أحد الامراء الملكيين الاشارة المتفق عليها حتى تندلع الثورة وتشعل نيرانها تدريجياً ولايات كاملة . فيدعو الاشراف آنذاك الفلاحين لحمل السلاح وتعطي المجالس التمثيلية المثل فتفتح الاهراء التي يجمع فيها الوكلاء الحنطة للجيش « دوفينه » ، ١٦٣٠) وخزائن الملك ليستولوا منها بانفسهم على مرتباتهم المحجوزة للحاجات العسكرية (تولوز ، ١٦٣٠) وتشجع اعمال الفوضى وتتقاعس عن الوشاية بالثائرين وتقاوم التدابير المتخذة بحقهم وتتغاضى عن اعمال الجماهير اذا لم تتعرض الا الضباط الملكيين وممتلكاتهم لا لاملاك رعايا الملك الآخرين .

أما هذه الفترات فهي فترات القصور الشرعي في الدرجة الاولى، قصور لويس الثالث عشر، وقصور لويس الرابع عشر. وتبدو الروابط السياسية وكأنها تتحطم تحطيماً خلال هذه المراحل فيشق العديد من الرعايا عصا الطاعة ويتحصن العديد من الاشراف وعامة الشعب في مساكنهم ويؤلفون الزمر ويهاجون ويستلبون ، كما لو كانت تعهداتهم محصورة في شخص الملك الراحل وكما لو كانوا غير ملزمين باي واجب نحو خلفه القاصر ، وكما لو لم يعد هناك لا دولة ولا قانون بعد

وفاة الملك . فتسنح الفرصة المؤاتية لمطالبات الامراء الملكيين . ثم ان هذه الفترات هي سنوات المحول والمجاعات ايضاً أو فترات الحروب ، حين تغدو الادارة الاميرية ثقيلة الوطأة وحين لا ينقطع حبل الدسائس الاجنبية لاستمالة الامراء الملكيين . ويبدو حينـذاك ان الروح الوطنية تفسد ويفسد مفهومها . فعملاً بالرأي القديم القائل بان لصاحب الاخـاذة حق انتخاب سيده ، نرى « غاستون دورليان » و « وسنك مارس » و « كونده » يتفقون وملك اسبانيا . ويلفت النظر ان المجلس التمثيلي والضباط الآخرين والبورجوازيين والشعب باجمعه ينسون العـدو الخارجي . وتتسابق الولايات والمدن على اعلان الثورة . فيبدو الملك وكأنه لم يعد سوى سيد لا يقوى على المقاومة الا بفضل بعض المخلصين ، وبعض العسكريين الاوفياء الذين يحتفظون له ببعض الكتائب ، وانشقاقات الامراء الثائرين . وتعلق مصير المملكة مراراً عدة بمصـادفات المعارك . فقد احرز النصر في معركة « لنس » (١٦٤٨) على اسبانيا مثلاً ولكن لا يستطيع أحد التكهن ، في ثورة المرجام الناشئة هذه ، بالاحداث الممكنة لو تحولت هـذه المعركة الى هزيمة . فان ما نرجحه نحن هو تجزئة المملكة وزوال فرنسا .

المثال الانكليزي
الدولة على الفردية البورجوازية

أما في انكلترا ، ففي عهد جاك الاول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) ، وعهد شارل الأول حتى الحروب الاهلية ، وعهد جاك الثاني بين السنة ١٦٨٥ والسنة ١٦٨٨ ، نرى كل المتضررين بنظام تسييج الاراضي يثورون دونما انقطاع على نتائج الرأسمالية . والصورة النموذجية لهذه الاضطرابات هي ثورة السنة ١٦٠٧ في « مدلاندس » فقد أقدم الالوف من الرجـال والنساء والأولاد والعمال الزراعيين وصغار الفلاحين الذين أفقرهم زوال طرائق الزراعـة التقليدية والصناعيين اليدويين والقصابين والحدادين والنجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، على مهاجمة جدران صيانة المراعي وتقطيع الأسيجـة الشائكة وسدّ الخنادق . وقد قدم لهم السكان الأغذية الضرورية . ولكن هذه الحركات التي تستهدف الاشراف الريفيين الذين يسيجون أملاكهم لا تشكل خطراً على الملك الا لانها تحرج موقفه امام الرأسماليين . فالملك يميـل بالتفضيل الى الثائرين . والدليل على ذلك ان التحقيقات الملكية في الحوادث الثورية لا تنتهي غالباً الى نتيجة والمحاكم الملكية تدين المالكين الذين يغالون في التسييج او في رفع الضرائب . وقـد حافظ الملكان الاولان من سلالة « ستوارت » دون اي تغيير ، على مفهوم المجتمـع : جسم منظم متسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالمقابلة نمطاً حياتيـاً يتناسب ومرتبتها . تلك موجبات روحية يفرضها الله . ويتوجب على الدولة ، التي هي تعبير زمني لهذه الموجبات الروحية ، ارغام المجموع على احترام ارادة الله والحرص على ان يؤمن لكل فرد مـا يحتاج اليه في معيشته فقط . وجليّ ان هذا الدور السامي الذي تلعبه الدولة يؤدي الى السلطة الملكية المطلقة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطـة التشريعية

والصلاحيات القضائية الخاصة وحق جميع الضرائب دون موافقـــة الرعايا وجيش دائم يخلص لهم الوفاء .

تقدم الفردية البورجوازية

الا انهم اصطدموا بالمتشددين البوريتانيين من البروتستانت . فقاومهم التجار المتشددون الذين منوا بخسائر مالية بفصل الاحتكارات الممنوحة لرجال البطانة الملكية ، والدائنون المتشددون ، من رجـــال كنيسة أو أسياد الذين تعاقبهم المحكمة الكنسية العليا بسبب مراباتهم والذين يسخرون من تدخل الاساقفة في الشؤون الزمنية ، والجواخون المتشددون الذين يشكون من ايفاد المفوضين الملكيين لمراقبة الصناعة والاسعار ، والاشراف الريفيون المتشددون الذين تبرمهم اللجان بسبب نزوح السكان عن الارياف ، ولكنهم ناقمون على قرارات الندوة المكوكبة والدائرة القضائية في المجلس .

فقد ولى الزمان الذي كان الملك فيه يجسد المثـــل القومي ، وبات باستطاعة الطبقات المتنافسة ان تتألب عليه . والمجتمع الذي يحيط به بات مجتمعاً بورجوازي العادات والميـول . فتجار الشركات التجارية البحرية الكبرى يستخدمون اشقاء الاشراف الريفيين وابناء الاثرياء البورجوازيين على السواء . ويزاول بعض النبلاء التجارة الكبرى . وينتج كبـــار الملاكين الارستوقراطيين وصغار الأشراف للتصدير المباشر وللصناعة على السواء . وغالباً ما يكون العمال المتمرنون في لندن ابناء اسياد عقاريين . فتتحقق بذلك الوحدة بين المدن والارياف . في مدرسة القرية وفي مدرسة المدينة التجارية القريبة ، يجلس ابناء العائلات المسيطرة في المقاطعة على مقاعد واحدة الى جانب ابناء المزارعين والتجار والصناعيين اليدويين . وليس نادراً ان يتزوج ابناء الاسياد العقاريين الذين لم يخدمهم الحظ من بنات الاسياد العقاريين الاثرياء . ويقبل في طبقة صغار الاشراف اولاد ابناء التجار وابناء كبـار الملاكين الذين يتزوجون من بنات الاسياد العقاريين . اضف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرهـــا ذاك الشعور الداخلي بان المسيح يحبني وبانني احب المسيح ، تملأ قلوب افراد ينتمون الى كافـــة الطبقات وتجمع بين طبقات مختلفة في احترام تطيري للشخص البشري الذي يسيره عمل الله ، وفي الوقوف موقفاً حذراً من السلطات والنظم التي تستطيـع الحد من حريته ، وفي مقت السلطة المطلقة .

الاختلاف الدستوري

ان وجود هيئة تمثل الانكليز الميسورين ، ونعني بها المجلس ، قد أتاحت لهذه المناجم ان تتصادم في صراع كان في البـــداية دستوريا . اختلف المجلس مع الملك ومعاونيه . فاعاد أصول « المنع ». فاشتكى مجلس العموم الى مجلس اللوردات واستصدر حكماً على المستفيدين من الاحتكارات الملكية اولا ثم عـــلى مستشاري الملك ، اللورد – المستشار « بيكون » (١٦٢١) واللورد – الخازن « سترافورد » (١٦٢٤) و « لود » (١٦٤٠) . واعلن المجلس مرة اخرى حق الانكليز في الامتناع عن دفع ضرائب لا يسلم بها

ممثلوهم وكافة الحقوق التي كان معترفاً لهم بها عند بدء ولاية هنري السابع (عريضة المطالبة بالحقوق ، ١٦٢٨) وحاول تأمين دوريته (١٦٤١) ، وتوسيع حقوق الانكليز بحيث تشمل الضرائب الغير مباشرة نفسها، والغي الندوة المكوكبية والمحكمة الكنسية العليا (١٦٤١) وحرر المالك الرأسمالي . ويتضح من ذلك ان الانكليز حاولوا من ثم ان يحلوا محل ملكية مطلقة تسعى الى تحقيق التوازن بين الطبقات الاجتماعية ملكية يقيدها ممثلو النزعات الرأسمالية المزودون بالسلطة التشريعية وبحق الرقابة على السلطة التنفيذية والادارة المحلية ، ودولة تسند اليها مصالح الطبقات البورجوازية ومن ينتسب اليها . وقد بلغ من بعد وجهات النظر بين الملك والمجلس التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٢ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورتين (١٦٤٠ - ١٦٦٠ ، ١٦٨٥ - ١٦٨٨) .

المثال الهولندي

في الاقاليم المتحدة، بقيت السلطة المركزية متميزة بضعفها. والاقاليم المتحدة اتحاد مؤلف من سبع ولايات حافظت على حقوقها في السيادة . اجهزتها المشتركة العامة هي مجالس الطبقات ومجلس الدولة الذي يشارك فيه مندوبو الولايات بصفة سفراء حقيقيين حافظت كل ولاية على ضرائبها وجيشها واسطولها وقائدها العسكري المسؤول عن النظام ومجلس الطبقات ومجلسها الخاص . ولا بد من اجماع رأي الولايات . وفي سبيل ذلك يراجع مندوبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبيهم . فنحن هنا امام استفتاء دائم يتطلب اقناع كل مدينة في كل ولاية ؛ وفي كل مدينة الحكام المسؤولين عنها . ويجب الحصول على موافقة ١٢٠٠ شخص تقريباً قبل التوصل الى اتخاذ قرار . وهذا لعمري وضع يقارب الشلل .

أما الذهنية فتتميز بالاثرة . فالبورجوازيون يسيطرون في مجالس هولندا وزيلندا و « اوترخت » و « فريز » و « غرونتغ » وبين المندوبين الى مجلس الطبقات. أما طبقة الاشراف فلا تسيطر الا في « غلدر » و « اوترايسل » . ولكن هؤلاء البورجوازيين حديثو النعمة تسلتزم ذهنية المدينة الصغرى والانانية التجارية الضيقة . فاستحال تفاهمهم واتفاقهم حتى في زمن الحرب . وقد رغب الهولنديون في العمل على الانهر ، على مصب نهر اسكو ، بغية افقار « انفرس » ، ورغبت « غلدر » في العمل على الرين لاقفال ابواب الاتحاد في وجه الاعداء . أما امستردام فقد باعت الذخائر والبارود والقنابل لاعداء الاقاليم المتحدة ، للاسبانيين اولاً ، ثم للويس الرابع عشر في عهد متأخر .

ان واجب العيش قد اغنى قوتين وحدويتين متعارضتين . فقد قدمت عائلة « اورانج » للاتحاد قادته العسكريين الذين جعلتهم حاجات الحرب يميلون الى حكومة ملكية . كما ان الخدمات التي اداها امير اورانج قد فرضته قائداً عسكرياً مسؤولاً عن النظام في خمس أو ست ولايات . ووقع الاختيار في ولايات اخرى على احد افراد العائلة . وقد مثل امير اورانج

الدفاع القومي ، ومن ثم فكرة الوحدة . واستند الى طبقة الأشراف في غلدر و « اوفرايسل » التي كانت اقل تعلقاً من البورجوازيين بالمصالح المادية والشؤون المحلية ، ولكنه استمال كذلك جميع اعداء البورجوازية الرأسمالية ، اي الفلاحين والعمال والبحارة والجيش .

أما البورجوازية الهولندية المجسدة برئيس سلطتها التنفيذية ، والقديمة بتجارتها العالمية والنافذة بجامعتها في ليدن ، فقد سارت على برنامج اوليفارشي يحتقر الفقراء ، والاشراف في عدادهم ، وبرنامجاً جمهورياً صممته ضد الملكية التي اعتبرتها غير منطقية وبدائية ومتسمة بطابع الاستبداد العسكري ، وفي كلا البرنامجين انتقام تقدم عليه طبقة لم تعد لتحظى بمركز مرموق في الاقتصاد وفي المجتمع . وقد أراد البورجوازيون الهولنديون تحقيق وحدة الوطن المشترك بهيمنة ولاية هولندا التي كانت أوسع الولايات ثروة واعظمها نشاطاً واشدها حزماً واعمقها ثقافة . وعلى رئيس السلطة التنفيذية في هولندا ان يلعب ما يشبه دور رئيس الجمهورية الاتحادية للاقاليم المتحدة .

ادى هذا الوضع الى قيام نزاع دائم بين رئيس السلطة التنفيذية والقائد العسكري المسؤول عن النظام رافقته ازمات حادة تقابل فيها « اولدنبرنفلت » و « موريس دي ناسو » ، و « جان دي فيت » و « غليوم دورانج » . فكانت الغلبة للقائد العسكري في فترات الحرب ولرئيس السلطة التنفيذية في فترات السلام ؛ للاول حين تتأزم العلائق الخارجية وحين يكون النزاع المسلح أمراً مرغوباً فيه ؛ وللثاني حين يرغم العياء على طلب التهدئة . وقد اتخذ النزاع طابعاً دينياً بين البورجوازية الارمينية وبين الاشراف وافراد الشعب الغوماريين .

ان هذه الدولة المتمزقة تبدو للمراقبين الاجانب وكأنها مسخ غريب الخلقة .

وهكذا تبدو الدولة في كل مكان ناقصة غير مكتملة .

٤ ـ الازمة السياسية الدولية

تخلت اوروبا شيئاً فشيئاً عن حلم الجمهورية المسيحية والوحدة الدينية الكاثوليكية والوحدة السياسية للامبراطورية - المقدسة الرومانية كما ان دولاً « عصرية » مستقلة وسيدة ومستقرة وخاضعة لنظام اقليمي وانظمة سياسية ثابتة اتجهت فيها الوحدة والمركزية ، بصرف النظر عن كل اعتبار ، الى التغلب على الاثرة المحلية الخاصة والتجزئة والبلبلة ، قد سارت قدماً في اثبات كيانها ووجودها . وقد صممت كلها كذلك على اثبات قوتها ، فتصادمت في محاولاتها التوسعية والتسلطية .

خطر آل هبسبورغ

وكانت اخطر هذه المحاولات محاولة سلالة هبسبورغ ، هبسبورغ اسبانيا وهبسبورغ النمسا . اما الفرع النمساوي ، وقد أسسه فردينان ، شقيق

« شارل الخامس » الثاني ، فقد سيطر على ممتلكات اقليمية واسعة الاطراف : النمسا العليا والسفلى التي تسيطر على مجرى الدانوب الاوسط قبل « فيينا » وبعدها ، وامارات « ستيريا » و « كارنتيا » و « كرنيول » و « تيرول » ، ومملكة « بوهيميا » ومملكة « هنغاريا » التي الفت قوة ضخمة داخل الامبراطورية وسوراً حصيناً لها في وجه الاتراك . وكان الجالس على العرش في فيينا من هذه الاسرة الحامي الطبيعي للمسيحية في وجه غير المؤمنين ، تلتف حوله المانيا كلها التفافاً تلقائياً حين يلوح الخطر التركي في الافق الشرقي .

الفوضى في الامبراطورية المقدسة

في الواقع ، اختير الامبراطور ابداً من سلالة هبسبورغ . ولكن الامبراطورية « شكل دولة غير منظمة اشبه ما تكون بالمسخ » . فالبلدان التي تحمل كلها اسم المانيا موزعة الى « امم » ناشطة مختلفة اللسان . وهي مقسمة الى « امارات ودول الامبراطورية – المقدسة » التي تفوق « الامم » عدداً والتي لا تقوم فيها اية رابطة بين « الامم » والكيانات السياسية . فهذه الكيانات المتداخلة تداخلاً غريباً مختلفة كل الاختلاف من حيث المساحة والشأن وشكل الحكومة : الدوقيات وولايات الحدود والكونتيات ورئاسات الاسقفيات والاسقفيات والاديرة والمدن الحرة والاملاك الصغرى الخاضعة لفرسان الامبراطورية . وللبلدان المانيا مجلس تمثيلي هو مجرد اجتماع سفراء . وينقسم المجلس التمثيلي الى ثلاث هيئات : هيئة المنتخبين وهيئة الامراء وهيئة المدن . وهو مصاب بالشلل عملياً . فالامبراطور هو وحده من يستطيع دعوته للاجتماع ، ولكن « لمنتخب مايئس » الرئيس » حق معارضة الدعوة ومنع ادخال المسائل التي يعرضها الامبراطور في جدول الاعمال . وباستطاعة الامبراطور من جهة اخرى التمنع عن نشر قانون اقره المجلس . ولكنه لا يستطيع حمله على اعادة النظر فيه . ويسود الرأي كذلك بان العضو الامبراطوري ليس ملزماً بالخضوع لقرار مشترك اذا لم يوافق هو عليه . ويمكن اخيراً ، في المواضيع الدينية ، ان ينحل المجلس التمثيلي دون ان يتوصل بعضه الى فرض قرار على البعض الآخر . وهذا الخواء العاجز هو ما أراد ابن سلالة هبسبورغ ان يجعل منه دولة .

محاولات الامبراطور التسلطية حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٦٤٨)

استفاد الامبراطور فردينان الثاني ، المنتخب في السنة ١٦١٩ ، من ثورة التشيك في بوهيميا الذين كانوا قد انتخبوا فردريك الخامس ، المنتخب البالاتيني ، لسحق التشيك في « الجبل الابيض » (١٦٢٠) . فغدت بوهيميا ملكا وراثيا لسلالة هبسبورغ واعادها اليسوعيون الى الكثلكة ثم فرضت عليها الحضارة الالمانية . وفي شهر كانون الثاني من السنة ١٦٢١ ، رسم فردينان بإقصاء المنتخب البالاتيني عن الامبراطورية ، وهو تدبير يجر الى حجز ممتلكاته وسقوط حقه في الانتخاب . فتصرف الامبراطور بذلك تصرف السيد . وبالاضافة الى هذا نقل حق الانتخاب ، والبالاتينا العليا الى « مكسيمليان دي بافيير » الذي كان قد قدم له

جيشاً . فتصدعت من ثم المساواة في الاتحاد الانتخابي ، اذ اصبح الممثلون البروتستانت اثنين فقط (ساكس وبرندبورغ) مقابل اربعة من الممثلين الكاثوليك . وعبر الامبراطور ، وهو تلميذ اليسوعيين ، عن استعداده للقضاء على البروتستانتية في الامبراطورية . واخذ في تفسير « صلح اوغسبورغ » بوجهة النظر الكاثوليكية . واعتبر البند الذي حظر كل علمنة جديدة منذ السنة ١٥٥٢ بنداً مقبولاً شرعاً، بينما اعتبره البروتستانت لاغياً وباطلاً . وشرع الامبراطور في اعادة اراض معلمنة كثيرة للكنيسة الكاثوليكية . ورسم بحل الاتحاد البرتستانتي او الانجيلي . ونظم في أوائل السنة ١٦٢٥ جيشاً خاصاً به هو جيش القائد المأجور « والنستين » . وفي السنة ١٦٢٨ انتزع من دوقية مكلمبورغ املاكهم واراد ان ينشىء قوة بحرية . وفي السنة ١٦٢٩ ، فرض على الالمان براءة « الاعادة » التي قضت باعادة كل ما عُلمن منذ السنة ١٥٥٥ ووضعت هذه الممتلكات عملياً بتصرف الامبراطور ، فاحدثت حركة واسعة جداً في انتقال املاك البرتستانت الى الامراء الكاثوليك من ابناء الامبراطور او انسبائه او حلفائه واختلالاً كبيراً جداً في ميزان القوى الراهنة . اضف الى ذلك ان شكل الوثيقة القانوني قد كان ثورة بحد ذاته . فلم تقترن اية وثيقة فيما سبق بقوة القانون الا بعد قرار يتخذه المجلس التمثيلي ويبرمه الامبراطور . ولم يسبق للامبراطور ان اتخذ اي قرار يتناول الامبراطورية بأجمعها الا بعد اتفاق مسبق مع مجموع المقترعين . وها نحن نرى الامبراطور ، بعد ان تجاوز حد السلطة في السنة ١٦٢١ ، يقدم مرة اخرى ، بوثيقة شخصية ، اقرار تبديل عميق في وضع ملكية الاراضي الامبراطورية ، فبات له « التحفظ الكنسي » قوة القانون . وبدا الامبراطور وكأنه مصمم على الاستغناء عن المجلس التمثيلي والاتحاد الانتخابي معاً . وسنراه ينفذ مقرراته بواسطة جيشه الخاص ، جيش « والنستين » . فغدت السلطة الامبراطورية سلطة ملكية مطلقة ، وغدا الامبراطور خطراً اشد تهديداً لاوروبا .

هبسبورغ النمسا وهبسبورغ اسبانيا : السيطرة على الطرق العسكرية والبحرية

وزاد في شدة الخطر ان عمل الامبراطور وعمل هبسبورغ اسبانيا كانا مرتبطين ، وان التسلطين تبادلا مد يد المساعدة. وبقي فرعا السلالتين متحالفين بالمصاهرات . ودرج اشقاء الابكار في العائلات النمساوية على البحث عن الثروة في بلاط اسبانيا . ومنذ السنة ١٦١٧ ، عقد اتفاق وضعت بموجبه الاسس لتحالف وثيق ، كانت اسبانيا آنذاك في حالة حرب مع جمهورية الاقاليم – المتحدة المؤلفة من رعاياها السابقين الثائرين . توقفت الاعمال الحربية في السنة ١٦٠٩ بهدنة الاثنتي عشرة سنة ، ثم تجددت في السنة ١٦٢١ . فكان من الضرورة بمكان لاسبانيا ، التي لم تكن سيدة البحار ، ان تؤمن نقل جيوشها من منطقة ميلانو الى لوكسمبورغ . فاجاز ملك اسبانيا للقائد « سبينولا » ان ينتزع حصون البالاتينا الرينانية عنوة من فردريك الخامس . ومكن المال الاسباني من احراز النصر في الجبل – الابيض . أما السفير الاسباني فقد دفع فرديناند الى اتخاذ هذه التدابير بحق البالاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيعها . وفي السنة

١٦٢٠ ، استفاد حاكم ميلانو من ثورة كاثوليك « فالتلين » ، رعايا « الاحلاف الغبراء» ليحتل الوادي والممرات الالبية ، بينما قام فرد آخر من آل هبسبورغ ، هو ارشيدوق « انسبروك » بالاستيلاء على « انغادين » على المنحدر الآخر من جبال الالب . فاتيح اذ ذاك للجيوش الاسبانية في مقاطعة ميلانو ، والجيوش النمساوية في مقاطعة تيرول ، القيام باعمال عسكرية مشتركة عن طريق « مالويا » و « انغادين » و « ستلفيو » . وفي السنة ١٦٢٧ ، أرسل فرديناند جيوشاً الى ايطاليا العليا ، وفي السنة ١٦٢١ ، قرر فيليب الرابع و « اوليفاريس » المقرب اليه العودة إلى سياسة فيليب الثاني ، وهي سياسة كاثوليكية تهدف الى تحقيق الهيمنة الاسبانية واجهت في الدرجة الاولى واجب سحق مقاومة « الاقاليم – المتحدة » . وكان اوليفاريس بحاجـة ، في سبيل ذلك ، لأن تطول الحرب في المانيـا . فالحرب تتيح له اقامة حاميات اسبانية في البالاتينا ؛ وهو كان مصمماً على احتلال بعض المواقع في الزاس وتأمين مرور الجيوش الاسبانية بين « فرانش – كونتيه » وهولندا عن طريق « سندغو » و « بريزاخ » وضفـة الرين اليمني و « فيليبسبورغ » و « سبير » و « ماينس » واقليم « تريف » ولوكسمبورغ ، او بين ميلانو وهولندا عن طريق « فالتلين » وبحيرة « كنستانس » والمدن « الحرجيـة » (« والدشوت » و « ساكنجن» و « رينفلدن ») وفريبورغ (في بريسغو) وضفـة الرين اليمنى. ثم أدرك اوليفاريس ، بعد السنة ١٦٢٥، ان ما يؤمن سلامة الأقاليم – المتحدة هو اسطول هولندا الحربي والسيطرة على البحار الشمالية . فكان لا بد من ثم ، لطرد المراكب الهولندية من هذه البحار من ان تتمكن الاساطيل الاسبانيةمن دخول مرافىء الشواطىء الالمانية لتؤمن التمون والاحتماء فيها . وكان لا بد كذلك من ان يحتل الامبراطور دائرتي وستفاليا وساكس – السفلى . والى هذا ترد عمليات والنستين العسكرية في السنة ١٦٢٧ ، والانعام عليه بلقبي « قائد البحـار الاوقيانوسية والبلطيكية و « دوق مكلمبورغ » في السنة ١٦٢٨ .

المعضلة البلطيكية

جاءت هذه المطامع تعاكس مطامع ملوك آخرين وتهدد بالخطر استقلال ممالكهم . ويأتي بين هؤلاء ، في الدرجـة الاولى ، ملك الدانمرك « كريستيان » الرابع ، دوق « هولستين » ، وبالتالي احد امراء الامبراطورية ، الذي كان يجلس ويقترع في المجلس التمثيلي ، وهو احد أعظم الأمراء شأنـاً في دائرة « ساكس – السفلى » . وكان ابنه الثاني قيماً على اسقفيتي « فردن » و « هالبرستات » بين مجرى « الفيزر » الاسفل ومجرى الالب ، وخلفا مقرراً لاسقفي « بريمن » و « اوسنابروك » . وقد راقب ملك الدانمارك ، بفضل الرسوم الباهظة التي استوفاها ممثلوه في جمارك « السنور » ، تجارة البلطيك من خروج الحبوب والاخشاب من بولونيا وبروسيا ودخول المواد الغذائية و « المصنوعـات » التي تستوردها المانيا الشمالية والشرقية من اوروبا الغربية . وكان مصمماً كذلك على ان يراقب بواسطة « بريمن » و « فردن » ، تجارة كل من الألب والفيزر وتموين الشطر الاكبر من السهل الالماني ايضاً ، فتوصل ، باستغلاله تجارة الآخرين عن طريق الجمارك ، الى مضاعفة مداخيـله ،

ومضاعفة قوته بالفعل نفسه . وكان عمله هذا نوعاً من التسلط الجمركي . ولكن وسائله العسكرية كانت محدودة جداً . لذلك فقد افل نجمه منذ السنة ١٦٢٩ (صلح « لوبك ») .

ومنذ السنة ١٦١١ ، حارب ملك اسوج « غوستاف - ادولف » قيصر « موسكوفيا » وملك بولونيا ، فاعطاه صلح السنة ١٦١٧ « كاريليا » و « انغريا » واستونيا الى الجنوب من فنلندا الاسوجية . وكان في نيته أن يبسط سيطرته الشخصية على الشواطىء الالمانية على بحر البلطيك ويضمن فوز البروتستانتية بجمع كافة الأمراء البروتستانت الالمان . وقد طمع هو ايضاً في نقاط الجمارك المثمرة في مرافىء البلطيك الالمانية . اضف الى ذلك أنه اعتبر اقامة ملوك آل هبسبورغ على الشاطىء البلطيكي خطراً يهدد اسوج .

المعضلة اللوتارنجية

امتدت الى الغرب والجنوب ، بين الدول الكبرى في اوروبا الغربية ، وبين الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنازع دائم . فالاقاليم المستقلة كانت قانوناً تحت سيادة ملك اسبانيا وعضواً من اعضاء الامبراطورية المقدسة في دائرة بورغونيا في آن واحد . ولكن نصوص هدنة الاثني عشرة سنة اقرت في السنة ١٦٠٩ باستقلالها المؤقت . ولم يكن الامر بالنسبة لبورجوازيي هذه الاقاليم قضية حرية فحسب ، بل قضية حياة أو موت أيضاً . فقد تحقق لهم الازدهار بالحصار المطبق على مرفأ انفرس . وبات لزاماً من ثم ان يبقى مرفأ انفرس مقفلاً اقفالاً نهائياً .

وما زالت الاقضية السويسرية مع حلفائها ورعاياها ، تابعة قانوناً للامبراطورية المقدسة . أما في الواقع فقد أمنت استقلالها عن النمسا . ولكن وضعها كان مكتنفاً بالصعوبات . فاذا هي عرفت كيف تفتح او تقفل الجازات الالبية وفاقا للظروف ومقابل مكاسب مضمونة ، فقد تعرضت لان تصبح هدف المعارك ولأن تحتل الجيوش الاسبانية او النمساوية أو الفرنسية الطرق المؤدية اليها . لذلك فان استقلالها كان رهناً بتوازن المنافسات الاجنبية حول الجازات .

وخضعت ايطاليا لسيطرة ملوك اسبانيا من آل هبسبورغ الذين امتلكوا فيها « صقليا » و « نابولي » ، وهما مصدر تموين شبه الجزيرة الايبيرية بالحنطة ، وراقبوا ، بواسطة « سردينيا » جزيرة « البابا » والحصون التوسكانية (« اوربتيلو و « بيومبينو » و بورتو - اركولي ») وطريق نقل الجيوش بحراً بمحاذاة شواطىء ايطاليا الوسطى ، وسيطروا ، بواسطة دوقية ميلانو ، على سهل البو ومنافذ الطرق الالبية الرئيسية ، واستخدموا جمهورية جنوى لانزال الجيوش المرسلة الى مقاطعة ميلانو .

الخطر يهدد فرنسا

بات النزاع ، في هذه المنطقة الوسطى ، امراً محتوماً بين فرنسا وآل هبسبورغ . فقد احاطت بفرنسا ممتلكات ملك اسبانيا . وكان باستطاعة الجيوش الاسبانية المنتقلة ، على مقربة من حدودها ، من منطقة ميلانو الى فرانش - كونتيه ، ومن فرانش - كونتيه الى هولندا ، عن طريق الالزاس والبالاتينا ، ان تحتشد وتهاجم « ابواب »

فرنسا . كما كان يمكنه ملك اسبانيا، بعد احراز النصر على الاقاليم المتحدة ، ان يرتد على فرنسا. فغدا ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا الى ايطاليا الشمالية ، الى فالتلين ، الى الزاس ، ضرورة ملحة وحيوية . ولكن فرنسا ، اذا ما اقدمت على هذا الضرب ، تدخل في نزاع مسلح مع هبسبورغ النمسا .

القوميات

وضع الملوك نصب أعينهم أهدافاً موضوعية ، ولكنهم اضطروا في سياستهم ان يحسبوا حساباً لمشاعر الطبقات المثقفة . فقد طالب الالمان بكل البلدان الالمانية اللسان ، « جرمانيا العظمى » ، وحتى بغيرها . وهي دليل على وجود حركة قومية نادت بالوحدة الجرمانية الشاملة . فان « فيليب كلافييه » ، البروتستانتي الدانتزيغي، واستاذ الجغرافية السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجغرافية العامة » الذي طبع اكثر من ست وعشرين مرة . وقد تطرق هذا الالماني بايجاز الى موضوع فرنسا . ولكنه استشهد بـ « بلين » و « قيصر » و « تاسيت » ليطالب ، بعد تأويلات شتى ، بالمانيا العظمى : الزاس ، لورين ، برابان ، غلدر ، هولندا ، منطقة دانتزيغ ، بروسيا ، بوهيميا ، « ليتونيا » ، سكندينافيا .

ولم يكن الفرنسيون دونه الحاحاً بالمطالبة . فان « جغرافياتهم » المنشورة بين السنتين ١٦٣١ و ١٦٤٦ قد شدّدت الكلام عن فرنسا الغالية وغذت الشعور بان حدود فرنسا يجب ان تكون حدود غاليا القديمة .

حين تشرب باريس من مياه الرين تكون غاليا كلها قد بلغت حدودها القصوى وضم « مسرح المناطق الغالية » ، المنشور في السنة ١٦٤٢ ، خريطة لاوروبا الفرنسية تمثل التوسع السلامي للكابيتين خلال القرون السابقة . وقد ورد تحت « لوحة للمناطق الغالية » : وصف جديد « للامبراطورية الفرنسية » تحت سيطرة الامبراطور لويس الثالث عشر العادل » .

القيصريات البحرية

وامتدت مطامع القيصريين الى البحار ايضاً . فطالب الهولنديون ، وهم السباقون في الملاحة والتجارة ، بحرية البحار . وفي السنة ١٦٠٩ ، نشر « غروتيوس » كتابه « البحر الحر » الذي انطوى على ان لكل امة الحق في الاتصال الحر بكل الامم الاخرى والاتجار معها بحرية. أما الانكليز الذين دخلوا تدريجياً ميدان التنافس الاقتصادي ثم دخلوا في نزاع مسلح مع الهولنديين ، فقد عارضوا هذا المبدأ . وفي السنة ١٦٣٥ ، نشر « جون سلدن » كتابه « البحر المقفل » . ففي الوقت الذي اعلن فيه شارل الاول السيادة الملكية على البحار الاربعة المحيطة بالارخبيل البريطاني ، اعلن « سلدن » ان مبدأ حرية البحار لا ينطبق على البحار البريطانية حيث للملك الانكليزي حقوق سابقة لحقوق الامم الاخرى .

الجيوش والحرب الزمنية

تحولت الحرب الالمانية اذن الى حرب عامة طويلة الامد . فالجيوش الالمانية لم تستطع التوصل الى نتائج حاسمة . يضاف الى ذلك ان تأليف

الجيش كان بحد ذاته مضاربة مالية . فالقائد كان يعقد مع الملك ، الذي يسند اليه القيادة، اتفاقاً يدعى امتيازاً ، ويستلم منه شهادة بذلك ، ثم يعقد الاتفاقات مع الزعماء العسكريين الذين يتفقون بدورهم مع الضباط . فيؤلف مجموع الضباط من ثم ما يشبه نقابة من الشركاء الذين يتقاسمون الخسائر والارباح . واذا كان للقائد ممتلكاته ، شأن « والنستين » ، فانه يغترف منها الحبوب والاعلاف للجيش ، كما أن انواله تصنع له اجواخ الملابس العسكرية .

كانت اجور الجنود ضئيلة تدفع بغير انتظام ، وكان الهرب من الجندية أمراً غير نادر . فكانت عملية التجنيد من ثم عملية دائمة ترافقها الاضطرابات واعمال العنف . وتوجب السماح للجنود بتأمين غذائهم على حساب الاهالي ، أو فرض المساهمة في نفقاتهم على البلاد . وما كان الجنود ليتراجعوا عن الاستلاب والاغتصاب والتعذيب واشعال الحرائق ونشر الرعب . وقد جرّت اعمال التخريب والتغييرات الدائمة التي تدخل على عدد الجنود الى فترات توقف طويلة الامد في سير العمليات العسكرية . وحدث احياناً ان ارغمت المجاعة الجيوش الظافرة على الجلاء عن المناطق المغزوة . ثم ان صغار الامراء الذين كانوا يعيشون من الحرب، من امثال الكونت « دي منسفلد » والدوق « كريستيان دي برونسويك » ، قد باتوا عاجزين ، منذ السنة ١٦٢٢ عن احراز النصر بقوة السلاح ، فلم يبق أمامهم سوى اقتراف الاجرام الفظيعة . وكان هؤلاء يعبئون الجنود حين يستطيعون الى ذلك سبيلا ، ويقومون بحملاتهم العسكرية حين يتجمع لديهم بضعة آلاف من الرجال المسلحين ، ولكن جيشهم هذا كان يزداد ويتعاظم اذا ما احرزوا نجاحاً أو انتصاراً . الا ان هذا الجيش كان عبئاً ثقيلاً على البلاد . فالجنود يستلبون المواشي ويقتلعون سنابل القمح ويتلفون ما لا ينقلونه معهم ويقطعون الاشجار وجفون الكرمة ويحطمون الابواب والنوافذ والمواقد وينهالون ضرباً على السكان . ولم تنج من استلابهم ممتلكات الامبراطور نفسها . فلا يبقى أمام الفلاحين الا ان يتغذوا بالأعشاب وقشور الأشجار والأثمار البرية وان يختبئوا في الاحراج . وقد تعرض المسافرون للنهب على الطرقات العامة الرئيسية . وعندما يدخل فصل الامطار ، يتشتت المرتزقة المأجورون اذا لم يكن باستطاعة قائدهم توفير معسكرات جيدة لهم . ولم تكن الجيوش في المعسكرات أقل خطراً على الاهالي من الجيوش المشتركة في الحملات العسكرية . وكان لزاماً على القادة تأمين معسكرات شتوية جيدة دونما اعتبار للاصدقاء والاعداء ، فيجر ذلك إلى توسيع نطاق الحرب واطالتها . ولم يكن الهدف من ذلك خططاً ستراتيجية بل الحؤول دون تشتت الجيوش .

ان حروب الابادة لم تحصل الا نادراً . وكان من الصعب احراز نتائج حاسمة حتى بواسطة الجيوش الدائمة القومية الطابع كجيوش « مكسيمليان دي بافير » بقيادة « تيلي » . ونشبت المعارك أبداً بمواقعة متبادلة . وكانت الصفوف المتعاقبة عميقة جداً ، وربما بلغت السبعين كما فعل « والنستين » في ليبزيغ . وأعوزت الجيوش سرعة الحركة . فالمناورات التي من شأنها ان تجر الى تصدع جيش العدو والمطاردة التي من شأنها الاجهاز على تنظيمه وابادته ما زالت

بطيئة وغير ذات فعالية . فكانت الحروب أبداً ، وقبل أي شيء آخر ، حروب حصـــار طويلة الاجل .

أما على البحر فقد ظهرت للمرة الاولى البارجة الحربية ، المدفعية العائمة . ولكن القادة البحريين لم يتوفقوا بعد الى استخدامها الافضل . فغالباً ما أطلقت مدافعها المرعبة من مسافات بعيدة دون ان تصيب المرمى ، « فلا يفقد البحر شيئاً من ملحه » .

اجتاحت اوروبا الوسطى اذن حروب لا نهاية لها وانهكت الدول المجاورة التي اشتركت فيهـــا .

٥ ـ ازمة الحس الفني

مصادر الفن المستهجن

شاهد القرن السابع عشر ذروة ازمـــة الحس التي برزت بوادرها في حقل الفن . وقد أطلق عليها اسم « الفن المستهجن » الذي يمكن اطلاقه على كافة مظاهر الفن . وقد ظهرت دلائل الحس المستهجن ، دونما شك ، في ايطاليا بعد نهب مدينة روما (١٥٢٧) واتضحت مميزاتها في الثلث الاخير من القرن السادس عشر بصورة خاصة . وكان مركزها مدينة روما حيث شيد « جـاك فينيول » ، في السنة ١٥٦٨ ، كنيسة يسوع ، وهي الكنيسة ـ الام لجمعية اليسوعيين ، التي كان لها اكبر اثر في اوروبا . ويعتبر هذا الفن، فن الحركة الاصلاحية المضادة، ومعبراً عن فكرة المجمع التريدنتيني. انطلق من رومـــا وأشع ، عن طريق الكرادلة والاساقفة ورؤساء الجمعيات الرهبانية والسفراء وحاشياتهم ، في البلدان الاوروبية التالية : ايطاليا ، اسبانيا ، فرنسا ، فلاندر ، المانيـا الجنوبية ، النمـا ، بولونيا ، أي كافة البلدان الكاثوليكية . أما البلدان الاخرى فقد اغلقت ابوابهـــا في وجهه . ولكن فن الحركة الاصلاحية المضادة ليس سوى مظهر مـــن مظاهر الحس الفني المستهجن . استخدمت الكنيسة نزعات كان مقدراً لها ان تفرض سيطرتها ؛ ولم تتناف هذه النزعات وعمل المجمع التريدنتيني ، ولكن حالها في ذلك حال نزعات اخرى ايضاً . اضف الى ذلك ان الحس الفني المستهجن قد ظهر بعد ذلك في بلدان غير كاثوليكية ايضاً . وقد تأثر بالازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحدثتها أشكال النهضة المختلفة والتي اتسع نطاقها في القرن السابع عشر . وكان بالنسبة لهذه الازمات ، علة تارة ومعلولا اخرى .

الفن المستهجن

الفن المستهجن هو مظهر من مظاهر الحس ، وبالتـــالي مظهر من مظاهر السجية ، نشاهده في عهود مختلفة . وهو يقابل ، في الشخصية البشرية ، فترات انحطاط القوى التي فيها تضعف وحدة الشخص ، فتحل فيه محل « انا » الواحد اشكال مختلفة من الـ « انا » . فتصعد حينذاك تدريجيـــاً ، الى مستوى الوعي ، مكنونات اللاوعي

الشكل ٤ - السعر الاسمي للحنطة في اوروبا الغربية والوسطى
(نقلا عن السر و . بفوريدج)

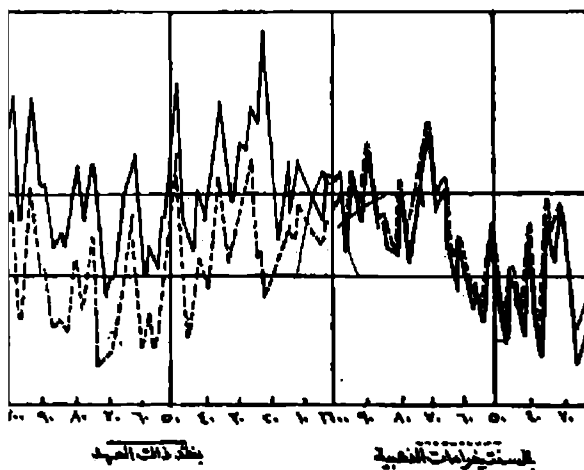

الشكل ٥ - سعر الجاودار في مونيخ بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٧١٥
(نقلا عن إلساس)

الكثيرة والغامضة ، ومجموع الدوافع التي يكتنفها الابهام والدفعة المتعددة الاشكال لكافة القوى الحيوية . فالفن المستهجن اذن يستهوي الحرية ويحتقر الانظمة والاعتدال واللياقات . وهو لا يخضع المنطق بل يجمع المتناقضات. ليس يدري ما يريد ولكنه يريد الاجمال والخلاف في آن واحد . ينطوي في ذاته على المضادات ويعبر عن الكثير من النوايا . فاذا ما نظرنا الى تمثال ملاك من انتاج هذا الفن يتوج حاجزاً حديدياً في احد معابد سلامنكا ، نرى الساعد يرتفع كما لو كان ذلك لرفع شيء ما ، ونرى اليد تنخفض كما لو كان ذلك لوضعه في مكانه : هنالك اتجاهان متضادان في العضد الواحد ، وازدواجية في النوايا . وهذا ما نشاهده كثيراً عند « غريكو » الذي يمثل اتجاهين مختلفين في ساق واحد من ساقي تمثال المسيح . فالعقل عنده في حالة انفصام داخلي ، يزدري بموجبات مبدأ التناقض . أما الاعمدة فغالباً ما يصنعها ملتوية أو مفتتلة.

يستهوي الفن المستهجن كذلك الغموض وما فوق الطبيعة والتأثر والعواطف ومفاتن الطبيعة والفولكلور . ويبحث عن الاتحاد بقوى الكون الخفية ، ويستسلم أمام هذه القوة ويحترمها . فهو كوني يقول بالوهية الكون ؛ ويبحث عن اندفاع الطبيعة الحيوي ، فيغدو متقلباً ، صاخباً، أشوه ، منتفخاً ، ويغدو في الوقت نفسه زاخراً ومكثاراً ، يضحي بالدقة على مذبح الحماسة ، وبالخلود على مذبح المغالاة . أما قوته فيتركها تتبعثر .

مثال الفن المستهجن : روبنس

ان روبنس ، ولعله الرسام الذي يمثل الفن المستهجن خير تمثيل ، يملك في الدرجة الاولى قوة الحيوية ، والاجزال في العطاء ، وفورة الحياة . « فهو يسلي اخصابه بخلق العوالم ، على غرار إله هندي في أوقات فراغه » . يعالج أوسع المواضيع تشعبا ، تاريخ ملك ، مثلاً قديماً ، العهد القديم ، حياة المسيح ، الدينونة الاخيرة . كل شيء يكبر ويتسع في روحه العظيمة . يخلق الواقع خلقاً جديداً . صور لوحاته تتعدى حدود الواقع . وصور نسائه مستوحاة من الفلمنكيات، ولكنهن فلمنكيات كونيات . ليس من وجود للاجسام الجميلة التي تولدها عبقريته الا في مخيلته . ان التمثيل الصحيح نادر في انتاجه . فمسيح لوحة « ضربة الحربة » في متحف انفرس ، المسيطر في النور الذي يغمره ، ليس مسيحاً معذباً، بل مسيحاً هزم الالم والموت . وعالم روبنس الخيالي هو عالم العواطف في ذروة حدتها . ففي لوحة « القنص » نرى سورة الغضب ضارية تتأهب للتمزيق . وفي لوحة « معارك النسوة المترجلات » ، نشاهد اصطفاق غريزة الابادة. وليست لوحة « السوق الخيرية » في متحف اللوفر على شيء من الابتهاجات الشعبية : فاحتساء الخمرة فيها ابتلاع،واستلام الراقصة خطف، والقبلة تلاصق او افتراس متبادل ؛ ان اندفاعاً جنونياً الى الشر يزعزع هذه البشرية التي تحرقها روح روبنس. يهمل الالوان الطبيعية سعياً وراء قوة التعبير :فاجسامه غبراء واشجاره برتقالية. يكثر من المضادات المفاجئة والالوان الجارحة والاضواء الساطعة .

ان موافقات سرية تجمع بين الاشياء والكائنات . والأشكال تفقد حدود هيئاتها الواضحة

فيتم نوع من الانصهار بين الاجسام وجوّها . ويسري النور سريان الاجسام السائلة أو سريان تيار الحياة الكونية بالذات . والاولاد السامنون الممثلون في اكليل من الاثمار هم انفسهم أطيب اثمار الطبيعة المغذية . لحم حورياته مادة سائلة ، حارة ، مختلجة ، مشمة ، متجددة باستمرار ، بل هو ذوبان نبيذ الكرمة . فالدم الذي يملأ الشرايين ويحيي العضلات ويجعل النظر متوقداً ، في « قنص الجالنطا » و « الحوريات » ، مماثل للنسغ الحيي الذي ينبجس من الارض متموجاً وعصابا ويجول في الاغراس والنباتات .

وعلى نقيض التناسق والتوازن في فن النهضة نرى ان انشاءه حركة كله واندفاع وارتقاء . يصعّد سيل اشخاصه في اتجاه منحرف . ولا فرق عنده في تحديد مركز صوره الرئيسية من اللوحة ، فقد يضعها في الخلفة او المقدمة ، الى اليمين أو الى اليسار ، أو في الوسط . وعوضاً عن ان يقابل مجموعاً بمجموع ، وصورة بصورة ، نراه لا يتردد في مقابلة الصور المنفردة بالمجموعات. أما التلاحم الذي نلمسه في مجموع متشوش فمصدره النسق العام الذي يستولي على المشاهد ويخلق وحدة الانطباع . ففي لوحة « الصعود الى الجلجلة » المعروضة في المتاحف الملكية في بروكسل ، نرى ان ما يعطي المشهد مغزاه ، مع ان المسيح قليل الظهور فيه ، هو صعود الموكب الحزين منذ الزاوية السفلى الى اليمين حتى الزاوية العليا الى اليسار . وفي لوحة « سقوط الملكى » المعروضة في مونيخ ، نرى بشرية نتنة تذوب وتتساقط شلالات من اللحم الذي لن يلبث ان يختلط ، في النار الجهنمية المتأججة ، بالبوارق الصهباء والادخنة الكبريتية .

ان فنه يعبر عن كون تختمر فيه اختماراً مستمراً قوى تتجدد ابدا ، وعالم يتحول تحولا دائماً وتلاشي أشكاله السائحة بعضها بعضاً وتتجدد في فضاء لا نهاية له وفي ديمومة لا حدود لها ، وفاقاً لحركة الحياة الازلية .

الفن المستهجن عند معارضيه

ان روبنس هو رسام الحركة الاصلاحية المعاكسة ، مصوّر النهضة الادبية الورعة التي أصلحها المجمع التريدنتيني . ولكن حس الفن المستهجن يبرز حتى في البلدان التي اعتبرت مراكز مقاومة هذا الفن .

الفن المستهجن عند رمبراندت

ان رمبراندت الذي نقصر الكلام عليه هنا يتميز ، في الاقاليم المتحدة ، بفن مستهجن قد يبز به الايطاليين والاسبانيين وحتى روبنس نفسه . فالمنتسبون الى هذا الفن من الجنوبيين يحطمون الخطوط بالحركة ويزعزعون السطوح المستوية والاجسام ويجعلون الاقمشة وأجسام الملائكة تخفق وكأن ريحا زعزعا تعصف بها . اما رمبراندت فيجعل الحركة تتغلغل الى دقائق مجموع اللوحة باحكام توزيع الاضواء والظلال . ان « تنتوريه » و « غريكو » يحطمان الخطوط ، ولكنهما يبقيان على ابعاد عريضة من الخطوط الساكنة . اما رمبراندت فيمزق الخطوط بالارتجافات . يتميز الجنوبيون بتعدد النوايا التي تتعاقب بسرعة . اما رمبراندت فيتميز ، في كل برهة ، بنوايا متناقضة تتجانب في

آن واحد . يستحلب النور في الظل حيث يبقى حائراً دون ذوبان ينتشر انتشاراً سريعاً ويصطفق اصطفاقاً فجويا في داخل الظل . ان رمبراندت يذهب بمميزات الفن المستهجن الى حدود الافراط .

الفن المستهجن الفرنسي

انتشر حس الفن المستهجن في هندسة العمارة الفرنسية ، في ولايتي هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، انتشاراً مماثلا له في هندسة العمارة الايطالية أو الاسبانية في العهد نفسه ، ولا سيما في عهد شوربنفرا ، (١٦٥٠ ، ١٧٢٣) ولكن دونه افراطاً في الاستهجان . فقد نشر روبنس ، بعد عودته من ايطاليا ، « قصور جنوى » وشيد لنفسه في أنفرس بيتاً مستوحى من الفن المستهجن . وادخلت النقاشة بعد ذلك الاشكال المستهجنة الى فرنسا حيث اعتمدت فوراً وعلى نطاق واسع نسبياً بسبب حاجة عميقة اليها .

حطم الفن المستهجن المثلثات في أعلى الابنية ونضدها وأضفى الحياة على الخطوط ولوى الاعمدة ولف النقوش الحلزونية واعجب بالنمط الكورنثي المتفخل، وثنى الاقسام الناتئة كما تثنى السيور ونفخها الى ان غدت محدبة وابرز المصائب وقعّر النحور وضخم القواعد وصعّر الصور الغريبة التي تغدو أفواهها أنسجة قطنية وآذانها أبواقاً ترمز الى الوفرة وجناتها وأذقانها نباتات مختلفة .

وزخر هذا الفن بالقوة الطبيعية . فأكثر من أوراق النباتات القوية الملتفة ، التي التصقت بكل المساحات وتقوست سموفاً وتساقطت شلالات وتعلقت أكاليل وتفلكت تيجانا . واكثر من التماسيح والقلق والأضب والدلافين والأرانب البرية والنسور . وزعزع شعباً من التماثيل . فالملائكة والقديسون والآلهة يقترنون فوق الافاريز والمذابح والمثلثات في أعلى الابنية ، ويأوون الى المشاكي أو يحرسون حول القبة والصحون. اما تماثيل الجدران النصفية المغلفة باوراق النبات فتتحول الى قواعد ، والرؤوس تزين الأغلاق وتسم الافاريز وتستخدم تيجان أعمدة . فكأن الحجر يسمو ويجيش بنوع من الحياة المسيخة .

ولكن هذا الحس لا يختلف عن ذوق الكتّاب . فان تكلف «فواتور» ، وفخفخة « بلزاك » وبطولة « كورناي» وغزارة « اونوريه دورفيه » وتحذلق «سكودري» ، كل ذلك يبرز في الاطارات المزينة والمثلثات المطولة والتماثيل العاضلة . كما ان تعابير النقاشين هي نفسها التعابير التي نجدها في لغة « رينييه » المبرقشة . اضف الى ذلك ان الجميع شغفون بالمسرح الذي كلف به البلاط والمدينة . ولكن ضوابط المسرح غالباً ما يغمرها النسيان ، فلا وحدة زمان ولا وحدة مكان ولا وحدة لهجة . كما أن احاديث السكارى والاغتيالات ، ومشاهد الهول والمشاهد الخلاعية تتعاقب تعاقباً مطرداً . والاهواء البشرية تنتقل الى الطبيعة باسرها . ففي نهاية تمثيلية « بيرام وتيسبيه » يتوجه كل من الحبيبين بصلوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور. وتتدخل القوى الفائقة الطبيعة ، وثنية حيناً ، كفينوس وديانا وكوبيدون وإلهات الجحيم ، أو مسيحية

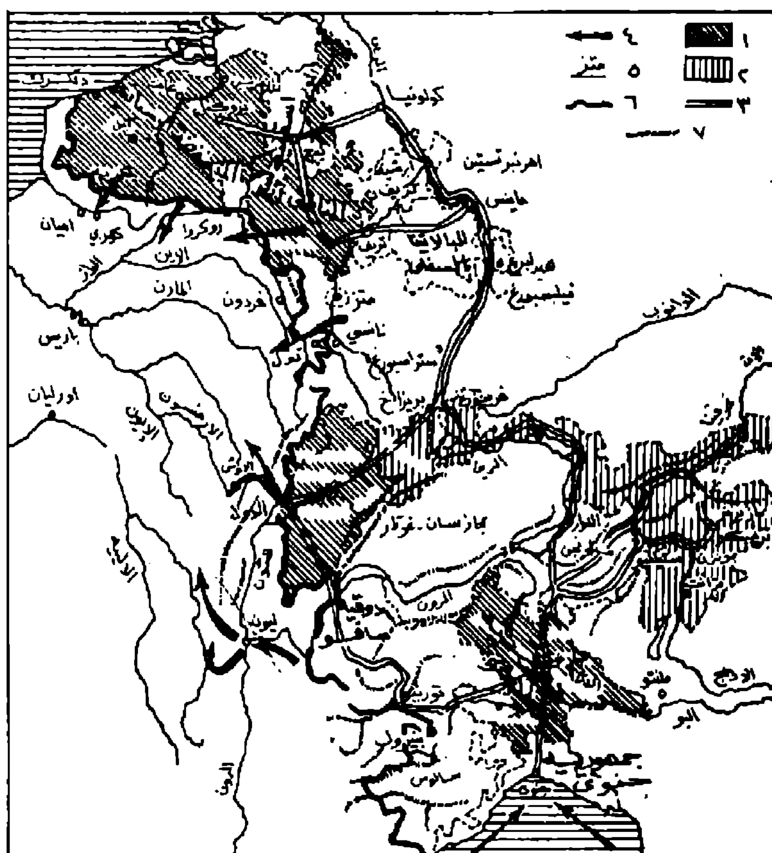

الشكل ٩ - الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢ ، والطرق العسكرية الاسبانية
١ - ممتلكات سلالة هبسبورغ اسبانيا ٢ - ممتلكات سلالة هبسبورغ النمسا ٣ - الطرق العسكرية الاسبانية ٤ - نقاط الضعف في الحدود الفرنسية ٥ - مدينة استولت عليها فرنسا ٦ الحدود الفرنسية ٧ - خطوط المرتفعات الرئيسية

حيناً آخر ، كالملاك وابليس والشيطان . وينتصر السحر انتصاراً باهراً : الاشربة ، والجواهر المسحورة ، والمرايا العجيبة ، والاموات المبعوثون احياء . وتكثر الاحلام واجوبة هاتفي الغيب وظهورات الظلال والارواح . وتلعب المصادفة دوراً غريباً : احداث طارئة ، فراقات ولقاءات تسببها العواصف أو القراصنة ، حوادث غرق تنتهي بنجاة الغرقى ، جروح سريعة الشفاء ، مسدسات لا يلبي زنادها ، خطف السور للاطفال .

يطالب المشاهدون بالتأثرات القوية . لذلك نرى الممثلين يتضاربون ويتقاتلون على المسرح ، ونرى الجثث والرؤوس المقطوعة والقلوب . ويلعب الممثلون ادوار مضطربي الحواس وأدوار المجانين اليائسين الثائرين . وتعرض على المسرح المدافن والاسفنج المليء بالدم والاجواخ السوداء الملطخة بالدموع البيضاء . وتنتهي المأساة احياناً بانتحار علني يقدم عليه كافة الممثلين .

ويسعى المؤلفون وراء تصوير السجايا الغريبة والاهواء في ذروة حدتها : انتقامات هائلة ، كانتقام « ميداي » وانتقام « تياست » ؛ ورغبات شديدة كتبادل القبلة بملء الفم والاغتصاب على المسرح؛ الزنى والاغواء ، وهما امران عاديان ؛ الزنى بين الأقارب : كاغتصاب الشقيقة وتسرر الاب وابنته .

وتزيد المحبة من عزم العاشق . واليك مثلاً عن ذلك في مثل هذا الادعاء بالبسالة :

... وكان بمكنتي ، في سبيل امتلاكك ، أن أقدم على ما هو اسوأ من ذلك .

ففي سبيل الفوز بهذا الكنز العظيم والثمين .

حاربت الملوك ، وما كنت لأتردد في محاربة الآلهة .

كما ان العزم يبحث عن اشد العقبات هولاً والمواقف الحرجة التي من شأنها اقنـاط النفوس العادية ؛ فبطل المأساة رجل عزم من الطراز الاول . ولكن المشاهد يرغب في ان يرى ، الى جانب العزم ، ما يقابل العزم بعنف من اشخاص يثيرون ضحك الاستخفاف والسخرية أو يدعون بالبسالة ، وكهول متيمين ، ومدعي علم ، ومجانين .

بالفن المستهجن يتصل التصنع أو الكلفة . والتصنع هو على غرار الفن المستهجن ، نمط حياتي ، ومطالبة فردية بالاستقلال ، ويظهر بين وقت وآخر في عالم بلاطات الحب وردهات الاستقبال . وقد دفع به الى الامام ، في القرن السابع عشر ، ظهور قصة من وضع « اونوريه دورفيه » « استريه » ، التي أضافت اليه اثر الافلاطونية الادبية والعالمية في النهضة . يبذل المتصنعون جهدهم للانفصال عن العامة كي يصبحوا ندرة ويثيروا الدهشة في كل شيء . فهم في المحبة كهان الحب العذري ، الحب الطاهر ، المرفوع الى مستوى الدين ، البعيد عن المخالطات الجسدية والملذات والزواج . وبسبب رغبتهم في التميز الارستوقراطي ، انتهى الأمر بالمتصنعين في اسلوبهم الكلامي ، الى الطمطمانية ، الى طريقة تعبير خاصة بفئتهم . فكل ما هو شعبي ،

وكل مفردات المهن ، وكل ما يشتم منه المماحكة والتظاهر بالعلم قد اقصي عن هذا الاسلوب ، وبلغ من هذا الاقتصاد ان « انجليك دانجين » قد اغمي عليها اكثر من مرة عندما كانت تسمع كلمة غير مقبولة في بيئتها . والكلمات المقبولة ، على نقيض ذلك ، هي تلك التي تعبر تعبيراً قوياً يبلغ حد الافراط : فالمتصنعون يحبون «بحرارة» ؛ ويحتقرون ما هو من شيم « آخر » بورجوازي الخ .. أما في الأدب فهم يتلهون . يبحثون عن كال المبنى وعما يثير الدهشة . ولكنهم يلازمون أما الألوان الصغرى ، كالرسالة وقصيدة الهجاء والقصيدة الغزلية وما شاكل ذلك ، واما القصة الراعوية وقصة المغامرة . وكتبت الآنسة « دي سكودري » قصصاً شهيرة عرف اثرها البقاء ؛ « كورش العظيم » (١٦٤٥) ، « كليلي » (١٦٥٤) . وهدف التصنع في هــذه القصص الى التميز باللباقة والمهارة : النكات ، والتقابل ، والاستعارة ، والصور الرمزية ، وكل ما هو بديع وغير مرتقب ومفرط . وفي اللون الرمزي ، عرفت الجغرافية العاطفية ، التي تتمثل « بخريطة الحنان » ، في الكتاب الأول من الجزء الاول من قصة « كليلي » ، شهرة عظيمة مـا بين السنة ١٦٥٤ ، والسنة ١٦٦٤ . ومن حيث ان التصنع يسعى وراء الصعوبة والغرابة ، فهو قـد استهوى التحاليل النفسية الدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فمهد الطريق ، من حيث لا يدري أمام الكلاسيكية ، بحرصه على الاتقان والوضوح .

الفن المستهجن اليومي

لقد سعى الناس ، في المسرح ، وراء فتنة التزيين ، والاعمدة الفخمة ، والحدائق السحرية . ولكن الاغنياء بحثوا في حياتهم اليومية ايضاً ، عن المفروشات المتعددة الألوان والخزائن المزدانة بالمينا والخزفيات الصينية والأواني البلورية والصناديق المشجرة والمدبجات والتذهيب ومرايا البندقية والمخمليات والحرائر والاقمشة المطرزة بالذهب والفضة والغريبات الفاخرة والطنافس التركية والصينية والـعقوق الخشبية المصورة . وفي القصور بهرت الاروقة العيون بنفائسها المتقلبة الألوان وأدهشت العقول بكل براعة تخدع العيون . وجملة القول ان الغرابة والقوة وشدة التأثير تسيطر على الحياة اليومية .

الفن المستهجن

أو ليست مصادر هذا الاضطراب الداخلي ، وهذا الجري وراء الحياة التي تبدو وكأنها هاربة ، وهذه الحاجة الى التأثرات القوية والعواطف العنيفة والاستفادة من الحياة الى آخر حدود الاستفادة ، هي البؤس والحروب والمجاعات والاوبئة وكافة اسباب الابادة التي تهدد كل شخص في كل وقت ؟ أو ليست مصادرها الصراعات الطبقية والحزبية والمشادات الدينية والسياسية التي ترغم الانسان على الوقوف في وجه مواطنيه وأعضاء عائلته واصدقائه ونفسه بالذات؟ أو ليست اعترافاً بالقلق ووسيلة للتخلص منه في آن واحد؟ أو ليس من شأنها ان تصبح بدورها سبب اضطراب فكري واضطراب اجتماعي وسياسي ؟

٦ - الازمة الاخلاقية والدينية

البطـــل

ساعد الفن المستهجن ، في الارجح، على بعث أزمة عقلية عامة برزت في الاخلاق في الدرجة الاولى . ففي هذا المجتمع، حيث توجب على الفرد ، المهدد باستمرار، ان يثبت انه عدو خطر ، وفي هذا المجتمع الذي ما زال ارستوقراطياً ، وحيث المثل الاعلى هو الانسان النبيل ، الجندي الممتاز ، الفارس ، وحيث ساعد فقدان التوازن بشتى انواعه عـــلى اضطراب الـ « أنا » ، وبالتالي على الاندفاع في الكبرياء ، نرى ان الانسان الفاضل هو المـاهر الماهر والبطل البطل ، اي القدرة والمجد . أما الواجب ففي اشباع الحاجة إلى المجـــد . ويقوم المجد بالتقيد بقوانين الشرف الاجتماعي الذي هو الشرف الاقطاعي ، أي النبيل . ويقـــود إلى التضحية بالاهواء التي تتعارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية « السيد » تضحي بمحبتها على مذبح واجبها نحو نسبها ومرتبتها اللذين يحرمان عليها الزواج من شريف ريفي عادي . فيصبح المجد من ثم موجباً باطنياً ، شريعة داخلية . والواجب يقضي بالانتصار لا على العقبات الخارجية فحسب ، بل على الاهواء والخوف والخجل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، والحالة هذه ، هي السخاء ، أي السعي بشغف وراء المجد ، واخضاع الاهواء للمجد . والبطـل هو ذاك الذي أقسم أمام نفسه بان لا تعوزه الشجاعة البتة في السعي وراء المجد ، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه لأجله .

ولكن هذه التضحية هي تضحية الاهواء الاخرى على مذبح الهوى الأعظم ، أعني بـــه الكبرياء . هذه الفضيلة هي إثبات كيان الفرد ، كما يتضح من صرخة « ميداي » : « ماذا تبقى لك في هذه الداهية الدهياء ؟ — أنا . » ان عقل البطل وقوته المعنوية وإرادته وعزمـه الفـظ وبسالته ، كل ذلك ينبـع من شعوره ، في الحقد والانتقام والطموح والحمية والوطنية والحب والاهواء « الرجولية » « النبيلة » « المسيطرة » ، وهي تعبر عـن القوة الحيويـة التي تجيش في الفرد وتدفعه إلى اثبات قوته والسيطرة على الآخرين والامتياز والتفوق على البشر الآخرين الذين سينتهي بهم الامر إلى إحاطته بهالة اعجابهم أو بنوع آخر من التكريم هو البغضاء والدسائس الدائمة والافتراءات المقيتة ، التي يعكف بها المتوسطون حول البطل .

ان البطل يبحث عما هو جميل وجليل وغريب ، وعما « لا مثيل له » ، وقد يجده في الجريمة نفسها . فـ « رودوغون » تطلب إلى أخويها قتل امهما . وكليوباترا تصرخ قائلة : « أخرجي من قلبي أيتها الطبيعة ... » ان البطل ينطلق وراء العظمة وتجاوز الحدود . أجل ان أخـلاق البطل دالة مجتمع أرستوقراطي ، ولكن يبدو انها تتفوق عـلى مثل الفروسيـة الأعلى ومثل النهضة الأعلى ، وان سعيها وراء تفتح الانسان في كافة نشاطاته ، ووراء نجاحـه في كافة أشكال الجمال ، أقل منه وراء ارضـاء الكبرياء بالقـوة ، وانها على مزيد من العصبية والتوتر والقلق المترجرج ، أي انها في حقيقة واقعها مظهر من مظاهر الاستهجان .

النهضة الادبية الورعة

كان الجمع التريدنتيني ، في الحقيقة ، قد كرس ، في وجه الاصلاح ، التفسير المسيحي للنهضة الأدبية . ومنذ الثلث الاخير من القرن السادس عشر ، نشر علماء الآداب القديمة الورعون مئات « المداخل الى الحياة التقوية » و « الابحاث في محبة الله » . ان الانسان انعكاس للشبه الالهي ، والطبيعة البشرية هي من ثم آية الخلق . ويغلب ان جرح آدم القديم لم يفسد كل كياننا . فان اهواءنا ثمرة طبيعتنا ، وخليقة حكمة الله ، جيدة بحد ذاتها . وواجباتنا الاولى هي نحو انفسنا . فعلينا ان نسمو الى اعلى ذرى السمو بجمال الطبيعة التي منحنا اياها الله ، وهو عقلنا ، انعكاس العقل الآلهي ، ما سيعين لنا مبادىء سلوكنا .

العالم جيد . وقد خلق ليقودنا الى الله ، « والجمالات الدنيا » هي بمثابة درجات يجب ان تتسلقها محبة الانسان درجة درجة الى ان تصل الى الاستمتاع بالجمال المطلق . « صنع الله الخلائق في جودته لنستمتع بها » . فيتوجب على الانسان ان يكون « انساناً شريفاً» ويحب جمال الطبيعة وجمالات الفنون والتماثيل والموسيقى والعطور والأعياد والأفراح ، ولا سيما الجمال النسائي ، لأن المحبة الزوجية اشعاع من المحبة الالهية وتقدم تدريجي نحوها : « لماذا الخفر من المحبة ؟ .. فهل من خجل في التعلق بصورة الله ، وخليقة عاقلة وشخص شريف حسن التربية يتباهى بالشرف والفضيلة ؟ » (كامو ، اسقف بلي . وقد درج روبنس على تحديد فنه : « تمجيد قوى الانسان وابتغاءاته » .

ويقدم الله ابداً لهذا « الانسان الشريف » نعمة الفداء . يترك الانسان حراً في الاجابة بالقبول أو بالرفض . ومن حيث هو محبة كله ، لا يستنكف البتة من موقف الانسان. والانسان يستجيب لهذه الجودة الحنون بالمحبة . أو لم تعوده النهضة الأدبية العيش في بهجة ربيع حنان شامل ؟ ان هذا المذهب الافلاطوني قد حطم قيود الحسن الفني المستهجن . فان العديد من اليسوعيين وكهنة الرعايا قد نشروا الموسوعات، « عجائب الطبيعة » . كما ان العديد من الكهنة والعلمانيين قد تأثروا الى حد بعيد بالشعراء الدنيويين . فان المئات من الرهبان والقضاة ورجال القانون وعظام الاسياد ، قد نقلوا شعراً ، في نشوة كلامية ، المزامير والتأملات والصلوات :

« ايتها النجوم المضيئة ، ايتها الصفائح الذهبية
التي يزدان بها الليل
وينثرها ماساً في اشرعته ،
ايا زهور الحدائق اللازوردية ... »

باركي الرب ، كما انشد الكبوشي « مارسيال دي بريف » . وان هذه المحبة الشاملة تقود الى محبة الله :

لا تغيروا مزاجكم بل غيروا أهدافكم ؛
أحبوا ، ولكن أحبوا الله الذي يبادلكم محبة ثابتة (الرئيس فافر) .

وباستطاعة الانسان ، اذا ما تخلص بالمحبة الطبيعية من تسلط الانانية والدناءة وتعود نسيان نفسه والتواري في الاشياء المحيطة به والاستسلام حتى التضحية بشخص عزيز ، ان يحب الله محبة حقيقية تنسى نفسها ولا تحرص الا على ارضاء الله ، دونما خوف أو أمل ، وتذعن الى كل ما يريده الله « حتى اذا كان ما يريده لنا عذاب جهنم » . وباستطاعته آنذاك ان يحب الله « محبة خالصة » . وكانت مريم الجدلية ، من هذا القبيل ، بطلة القرن السابع عشر المفضلة . وهكذا فان النهضة الادبية الورعة قد عززت التيار الصوفي .

الصوفية

ان الصوفية ، وهي الحياة مع الله وفي الله ، هي جوهر النهضة الكاثوليكية والحركة الاصلاحية المضادة . فان جماهير تنتمي الى كافة الطبقات ، عامة الشعب ، والرعاة ، والراعيات ، والبقارين ، وفقراء المدن ، والقضاة ، والاشراف الريفيين ، عاشت منذ السنة ١٥٧٠ تقريباً عيشة تأملية ، تحت نظر الله ، وبتوقه ، متحدة به ، ضحايا الانخطافات والرؤى التي هي في غالب الاحيان فدية ضعف الجسم البشري ، ولكنها شاهدت الله بفعل نور باطني سرّي . وبثت حركة اوروبية تعاليم الصوفيين الرينانيين من أمثال هارفيوس وتولر ، والصوفيين الاسبانيين والايطاليين ، وكلاسيكيي الحياة الروحية في القرون الوسطى ، من امثال كاسيان والقديس برناردوس، الذين نشرت مؤلفاتهم واعيد نشرها تكراراً باللغة اللاتينية واللغة الشعبية ، بفضل علماء الآداب القديمة . ونظمت شعراً غنائياً وَضع أسمى صوفية في متناول النساء الفقيرات الجاهلات انفسهن ، واشيعت بفضل المرشدين الكرتوزيين من أمثال « دون بوكوزين » او الكبوشيين من أمثال « بنوا دي كنفلد » . ونجمت عن هذه الصوفيات مدارس قداسة حقيقية اقلقت بال الوزراء والملوك انفسهم الذين عاملوها معاملة القوى الكبرى . فان « ماري دي فالنس » الامية قد تولت تهذيب الاشراف الريفيين ورجال الكنيسة ، وحتى الاب « كوتون » اليسوعي مرشد هنري الرابع ، واستقبلت ريشيلو الذي زارها متريبا . وتفوقت مدام « اكاري » (١٥٦٦ – ١٦١٨) ، وهي ابنة محاسب وزوجة محاسب ، في الارشاد الروحي ، وبلغ من تفوقها ان اليسوعيين ورهبان القديس فيلبس النيري وكهنة الرعايا كانوا يتوجهون اليها بغية معالجة الحالات الصعبة . وقد التف حولها « كنفلد » ، « بوكوزين » ، « فرنسوا دي سال » ، « بيرول » مؤسس جمعية « ماريلاك » الرهبانية، دوفال، الدكتور في جامعة السوربون . وحرص هنري الرابع على ان لا يفقد حظوته لديها . وقد جمعت في منزلها فتيات كن نواة الراهبات الاورسوليات والراهبات الكرمليات في فرنسا.وهي من اسهمت في ادخال هاتين الجمعيتين الى فرنسا ؛ فبدأ بذلك اصلاح اديرة الراهبات . ويعود الفضل في استكمال «فرنسوا دي سال » تربيته الصوفية الى مراقبة الصوفيات الكرمليات في ديجون ومراقبة راهبات الزيارة من بعدهن (بعد السنة ١٦١٠) ، وليس « البحث في محبة الله) سوى وصف اختباره للفتيات المتدينات .

ولما كان التأمل يتيح تجديد احوال يسوع المسيح الباطنية في نفس الصوفيين ويحيي المسيح

فيهم ، فانه قد جر قسراً الى اصلاح الاديرة . فبات من ثم مستحيلا على الراهبات اللواتي سكن يعشن فقر المسيح وآلامه ومحبته ان يرتدين ملابس بيضاء صوفية ناعمة او كتانية مفضضة وان يتنافسن في اقتناء اجمل لباس واحسن مسبحة واكبر عدد من الجواهر الكريمة ؛ وبات مستحيلاً عليهن كذلك ان يعشن كل على حدة ويأكلن على هواهن في حصنهن مع صديقاتهن ، ويستقبلن الزائرين ويتقبلن الهدايا والمماشات ؛ وبات مستحيلا عليهن اخيراً ان يستقبلن الاشراف الريفيين الآتين لملاطفتهن ، وان يخرجن متنكرات بملابس الراعيات بنية حضور اعراس القرية او الاجتماعات الريفية ، كما بات مستحيلا على الرئيسات في هذه الاديرة ، وهي ممتلكات عائلية تنتقل من عمة الى ابنة شقيقتها ، ان يستقبلن انسباءهن بين راهباتهن المخضبات والممسكات والكاشفات عنقهن وكتفيهن واعلى صدرهن ، ويرفهن عنهم بالموسيقى والنزهة والولائم. وبفضل الاثر الذي تركته السيدة « اكاري » باشرت « ماري دي بوفيليه » ، رئيسة دير « مونمارتر » ، اصلاح ديرها الذي غدا مدرسة للرئيسات الاخريات . كما ان رئيسات الاديرة البندكتية ، وكلهن فتيات نبيلات يحسنّ ممارسة السلطة ويتميزن بحزم تزول معه فكرة المقاومة عند المرؤوسات ، قد اقدمن بمشورة جماعة السيدة « اكاري » والكرتوزيين والكبوشيين والبندكتيين واليسوعيين على فرض التأمل الالزامي ، في ساعات معينة صباحاً ومساء ، وفحص الضمير والرياضة الروحية السنوية والحياة مع الله وما تستوجبه من احترام القانون والتحصن المشدد ، واضفن الى كل ذلك منع الزيارات العالمية ، والغسيل المشترك ، والمائدة المشتركة ، واللباس الاسود ، والصلوات الليلية ، والصيام ، والقطاعة ، والبرد ، والاماتات على انواعها . وحدث الاصلاح نفسه في الرهبان من كرمليين وكبوشيين وغيرهم ، ثم انتقلت حياة التأمل من الاديرة الى العلمانيين بفضل المرشدين وواضعي المؤلفات الروحية . فقد نشر القديس « فرنسوا دي سال » ، « المدخل الى الحياة التقوية » في السنة ١٦١٠ و « البحث في محبة الله » في السنة ١٦١٦ .

النهضة الادبية الورعة تتعرض للخطر بفصل الايمان عن الحياة

ولكن هؤلاء الصوفيين ، الواعين الضعف البشري ، والمنتظرين كل شيء من نعمة الله بفضل استحقاقات الفادي ، والموحدين حياتهم بادخال الانجيل كله اليها ، قد اشتبهوا آنذاك بما قد تنطوي عليه النهضة الادبية الورعة من تعلم مذهب الطبيعيين . او لم تفض ثقتها بالعقل البشري الى الفصل في اغلب الاحيان ، عند علماء الادب الورعين ، بين الحياة والدين ؟ او لم يشاهدهم الناس ، على الرغم من تصلبهم في موضوع العقيدة ومواظبتهم على الاحتفالات الدينية ، يسترشدون حكماء العصور القديمة ، ويقتدون بهم ، ويستنجدون امام الموت بالوثنيين من امثال افلاطون وسنيكا ، كما لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، وكما لو كان حكم الانسان قانون الحياة الاوحد ؟ اضف الى ذلك التناقضات الغريبة التي نجمت عن هذه المواقف . فقد تغلبت المصلحة على الله في قلب القاضي الورع « بوشار دي شامبيني » ، كبير اخوته الرهبان الكبوشيين والكرتوزيين ، فقاوم دعوة ابنته الى الحياة الرهبانية وارغمها على زواج يحسن وضع ابيها

الاجتماعي ؛ واوجب القائد « دي غوندي » على ابنه ، « رتس » الشهير ، وهو ابعد الناس عن التدين والعبادة ، ارتداء ثوب الكهنوت ، بغية الاحتفاظ لعائلته بمركز رئاسة اساقفة باريس. فكانت نتيجة مثل هذه التصرفات افساد الكنيسة عن طريق الدولة ، وتعيين اساقفة سياسيين وعلمانيين ، ورتبا كنسية تسند الى العلمانيين ، وحتى الكلفينيين منهم ، واساقفة في سن الطفولة ، وكهنة اميين يعجزون عن توزيع الاسرار ، ولا يعظون ولا يبشرون ، ويتركون المؤمنين في الارياف جاهلين وجود الله ويفسدونهم ويقنعونهم ، كما حدث في ابرشية « كوتانس » بانه خير للفتيات ، في اية حال من احوالهن ، ان ينجبن الاولاد من ان لا ينجبنهم.

النهضة الادبية الورعة تعرض للخطر بفعل تطرفاتها

ودفع الحس الفني المستهجن ببعض علماء الادب الورعين ، ممن لا مأخذ عليهم ، الى تطرفات احرجت مراكزهم. فالصور القديمة ، في نظرهم ، تحمل ، في ما خلفت ، حقائق الوحي الاولي وتبشر بالحقائق المسيحية. وما الامثال القديمة سوى رموز. فميترفا هي الكلمة وكوبيدون هو صورة المحبة الالهية. وقد غنى الناس :

يا قديسة احراجنا ، ديانا
يا سيدة نفسي الوحيدة ،
ايتها العذراء والام ، اسمعي صوتي.

وقد رأوا في افروديت ترفض الحورية المرطقة التي ترفض الكنيسة. الا ان جميع هذه الرموز كانت مثقلة ، لسوء الحظ ، بشهوانية محمومة من شأنها اثارة الاضطراب في الضمائر.

فهل كان احتراماً حقاً ان يرى الناس في الله ، على غرار الكثيرين من علماء الأدب الورعين ، الصديق والاخ في الدرجة الاولى ؟ وهل كان موافقاً للسيادة الالهية ان تبدو وكأنها تعتبر الانسان مطلق الحرية ، وان يكون الله مرغماً ، نوعاً ما ، على منح نعمته اذا كان الانسان قد اختار طوعاً ان يعمل الخير (مولينا) أو مرغماً على العفو بحجة انه قد يحطم صورته بالذات اذا ما حطم الانسان ، وقد يتلاشى اذا ما لاشى الخاطىء (كامو) ؟

وهل كان من اللائق نظم وصايا الله والصلاة الربية والاسرار ابيات شعر مقتضبة وغناؤها الحاناً رائجة ، والاكثار من النكت والتصنع في اللطف والاضحاك والتكلف وكل لون ادبي مستهجن ، والطلوع بمثل هذه الكتابة : « ان هذا القديس المبارك قد غذى محبة قلبي » ، أو اقدام اسقف ، من امثال « كامو » ، على تأليف قصص غرامية حتى ولو كان القصد منها دفاعاً عن العقيدة ، أو تمضية الوقت كله في احكام التأمل بالطبيعة ودرس العلوم الدنيوية لأن العالم عمل الله ؟

الجنسنية

قامت في وجه النهضة الادبية الورعة ردة فعل استهدفت اتمام عمل المجمع التريدنتيني باستيحاء روح القديس اوغسطينوس. ولكن تأويل الاوغسطينية أوقع البعض آنذاك في تطرف آخر هو الهرطقة الجنسينية. وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة

لـ « جنسن » اسقف « ايبر » الذي نشر في السنة ١٦٤٠ كتابه العقائدي الهام « اوغسطينوس » الذي وسع وكمل نظريات لاهوتي كاثوليكي آخر « بايوس » ، المحكوم عليه في السنة ١٥٦٧ . وغدت الجنسينية حركة اوروبية تميزت قوتها في فرنسا منذ ان نشر « أرنو » (١٦٤٣) كتاب « تناول القربان المتواتر » . وكان مركز الجنسينية دير الراهبات في « بور رويال » وجماعة « السادة » الذين كانوا يأتون ويمارسون حياة العزلة في جوار الدير . ولكن الجنسينية جمعت حولها انصاراً وأصدقاء في اوساط الاكليروس كلها ولدى العديد من المؤمنين . أما المؤلف الذي يعتبر اليوم اشهر مؤلف جنسيني النزعة فهو « الخطرات » التي جمعها باسكال بين السنة ١٦٥٨ والسنة ١٦٦٢ ونشرت جزئياً في السنة ١٦٧٠ وكان لها اثرها العظيم في القرن التاسع عشر .

يمثل الجنسينيون نزعة دائمة للفكر البشري هي تأويل الدين المسيحي تأويلاً تشاؤمياً . وهي نزعة لوثر بالذات . فان المتشائمين الذين يكونون اسمى فكرة عن عظمة الله وقدرته الكلية ويتأثرون بالغ التأثر بضعف الانسانية وبؤسها ، قد كوّنوا لنفسهم فكرة اله رهيب يعجز العقل البشري عن ادراك مقاصده واحكامه . بدونه لا يستطيع الانسان شيئاً. يذهب الى حيث يجد لذته ، وهو لا يجد لذة ، منذ الخطيئة الاصلية ، الا في الشر . ذهنه يدور في حلقة مفرغة ولا يستطيع التوصل الى اية حقيقة (نتيجة مذهب الاسمية)، عقله المتناقض والمتقلب سخرية ؛ وارادته عجز . الانسان لعبة . القوى الخارجية الساحقة ، واتفاق الظروف ، والعادات تقوده وتلعب به كما تلعب الريح بدوارة الهواء . الانانية وحب الذات والقابلية الفردية هي وحدها ما يحركه .

« ان هوج رياح الشهوانية
تجعل لحمه يصطفق اصطفاق علم قديم » .

لا حول للانسان . ولكن الله الكلي القدرة يحمل الانسان ، بفعل نعمته ، يجد لذته في التقيد بالوصايا . وهو يمنح هذه النعمة اناساً اختارهم منذ الازل للمجد السماوي . وقد مات المسيح لاجل هؤلاء دون غيرهم وفداهم وحدهم فقط . وعديد هؤلاء قليل جداً . وليس بمكنتهم التهرب من هذه النعمة لانها تفرض نفسها عليهم . الانسان ليس حراً ، بل هو عبد الله ويقتضي من ثم على الانسان ، في حريته الوهمية ، ان لا يصنع شيئاً . دون ان يشعر « بتحريك خاص من الله » ، « بدعوة من الله » . ويقتضي ان يستقبل هذه الدعوة للتقدم نحو الاسرار ، كما يجب ان يخاف ويرتجف من التقدم نحوها بدون الدعوة . ولا يجوز ان يصبح كاهناً ويتدخل في عمل رهيب هو تقديس جسد المسيح ودمه الا اذا كان « مدعوا من الله بصوت يكاد يكون مرئياً ومحسوساً ولا يرقى اليه ارتياب » . لا كاهن بدون « رسالة باطنية » من قبل الله . فكيف يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محكمة التوبة الا اذا شعر من لدن الله

بحركة صادقة للذهاب اليها وبتوبة حقيقية وأسف تام على الخطايا لاجل محبته ، والا فالحل من الخطايا يكون باطلا . ويقتضي فوق ذلك الشعور بميل وبهجة لتناول القربان المقدس ، ويحسن احياناً الامتناع عن تناوله تواضعاً على ان يكون سبب الامتناع تواضعاً حقيقياً، لا تكاسلا . فكيف يصح الاقدام على الاقتراب من الله ؟

يجب العمل وفاقاً لصوت الله . ويقتضي ، لسماعه ، الصمت والانفصال والتجرد والكفر بالعالم والموت بالنسبة له. يجب على المسيحي ان يوجد الفراغ في داخله بتعرية باطنية . « يجب ان يكون امام الله ، حين يصلّي ، كإناء مفتوح حتى يكرر الله نعمته فيه ، شيئاً فشيئاً، وبحسب ارادته » . لن يفرط المسيحي يوماً في الاتضاع والانحناء امام كمال الله وقداسته . ولن يحترز البتة احترازاً كافياً من دوافعه الداخلية ، لأن الفضائل ليست في الغالب سوى قناع حب الذات ، ولأن العاطفة الوحيدة التي لها قيمتها هي العاطفة الخالصة الطهارة ، والعمل الوحيد الذي له اعتباره هو ما توحي به محبة الله وحدها . هذا هو الدافع الى الخوف من حب الذات وحمى فحص الضمير ، والقلق الدائم . ولن يعرف الجنسيني في النهاية فترة هدوء الا حين يجد ، لاعماله ، مبرراً انسانيا ، انانيا ، قد لا يكون له من وجوده البتة . فيدفعه رأيه الوهمي التشاؤمي الى حرمان الانسانية من خير ما لديها .

أراد بعضهم اعتبار الجنسينية حركة بورجوازية موجهة ضد الاشراف وتعبيراً عن صراع بين الطبقات . والواقع هو ان السيكولوجية الجنسينية تقضي على مثال « البطل » . وان من يقتنع بحقيقة هذه السيكولوجية لا يستطيع بعد ذلك ان يؤمن بهذه الصورة المثالية المتفوقة للانسانية التي حلم بها علماء الأدب القديم والارستوقراطيون . ولكن هنالك ارستقوقراطيين كثيرين بين الجنسينين والعاطفين عليهم : الدوق « دي ليانكور » ، الدوق « لاروشفوكو » ، المركيزة « دي سابليه » ، الخ .. فالمحاولة ، كما نرى ، لا تأخذ وجودهم بعين الاعتبار .

أما ما هو ممكن ، فالتساؤل عما اذا لم ينبع التطرف الجنسيني من الحس الفني المستهجن ، وعما اذا لم يكن الجنسينيون من هواة الاستهجان . ففي رأيهم ، « لا شيء فاضل اذا لم يكن بطوليا ، ولا شيء مسيحي اذا لم يكن عجائبياً ؛ ولا شيء مطاق اذا لم يكن منقطع النظير .. كل ما يمكن تحسينه هو في نظرهم سيء الصنع ؛ كما ان الاعتدال في نظرهم نقيصة ؛ وكل ما ليس لجاجاً هو اخفاق ؛ وكل ما ليس فريداً من نوعه هو مبتذل . وهم لا يستكبرون الا ما هو عظيم الجسامة . ولا يحترمون الا ما هو اخاذ مدهش .. ويزدرون بمصنوعات كل فن تكون دون المثل الاعلى .. كل كلمة من كلماتهم مبالغة واغراق ؛ وكل حكمة مغالطة ، وكل تعابيرهم جسارة ؛ وكل آرائهم متطرفة ، وكل وعودهم جزيلة ؛ فهم جبابرة الشيع » . (الاب « فرنسوا بونال » ؛ ١٦٥٥) .

كان من نتائج الجنسينية إثارة جدالات حادة بين الكاثوليك حول النعمة،اهمات محبة القريب

وادت ، على الرغم من فضلها على الادب ، لاننا مدينون لها بـ « اقليميات » باسكال ، الى بلبلة الضمائر والاضرار بالدين .

وكان من نتائجها كذلك تشجيع تيار الالحاد . فقد ادعى الملحدون ايضا بان مـا يحرك الانسان هو اللذة وحدها : فوجدوا تبريراً وتشجيعاً لهم في السيكولوجيـة الجنسينية ، وكانوا بعد مرتاحين للقول بالاختيار السابق للملكوت السماوي :

« لقد اختل عقل رجال البلاط والعالميين بعد هذه التأويلات حول النعمة ، لانهم يقولون في كل حين : ما همنا مهما فعلنا لاننا سنخلص اذا كانت النعمة فينـــا وسنهلك اذا لم تكن . ثم ينتهون الى القول : ليس كل ذلك سوى ترهات .. فقبل بحث هذه القضايا ، كانوا ، اذا قرب عيد الفصح يصابون بدهشة صاهري الاجراس لا يعلمون اين يختبئون وتتشكك ضمائرهم ؛ أما اليوم فانهم يمرحون ولا يفكرون بالاعتراف ويقولون : ان ما كتب كتب . هذا مـــا فعله الجنسينيون حيال العالميين » (السيدة « دي شوازي ») .

٧ – ازمـــة العلم

الفن المستهجن والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء

ما زالت السيطرة ، في اوائل القرن السابع عشر ، وعلى الرغم من جهود النهضة ، للارسطاطاليسية القريبة كل القرب من الاختبار اليومي وللطبيعة التي كانت تحمل على الايمان بالمعجزات والطيرة والرقية والتنجيم والسحر ومناجاة الارواح . فقد بلـغ هنري الرابـع ملك فرنسا ، في احد الايام ، خبر اكتشاف مؤامرة حاك خيوطها مرشده الاب كوتون . في البدء هدأ روع الملك بعض الشيء في أعقاب تكذيب صريح ، ولكنه ما لبث ان عاوده الخوف حينما ظهرت في الافق ، بصورة مفاجئة ، غمامة قاتمة السواد مضرّجة ببقع حمراء : انها مقاصد الاب كوتون المظلمة الدموية تعكر الطبيعة التي تشي به . الا ان اليسوعي قد دافع عن نفسه . وجاء في الوقت نفسه من يفيد بان الغمامة قد اختفت . فكان ذلك انتصاراً للبراءة .

وسار استكشاف العالم قدماً تشجعه ذهنية الاستهجان على تحقيق اوسع الفتوحات ، تلك الذهنية التي حملت « بيكون » على ان يرسم على غلاف كتابه : «*Novum Organon*» (١٦٢٠) صورة سفينة منشورة الاشرعة تحاول اجتياز مضيق جبل طارق ، الحد الاقصى للعالم القديم .

كانت الاكتشافات ثمرة اعمال الفلكيين والاطبـــاء . وغالباً ما انتسب المكتشفون الى البورجوازيين ، كـ « كبلر » ، ابن احد موظفي الدوق « دي ورتمبرغ » . الا ان « غاليليو » و « نابير » مكتشف علم انساب الاعداد ، كانا ينتسبان الى الاشراف الريفيين . فخرجوا مـــن الجامعات وغالباً ما مارسوا فيها عمل التعلم : فان الطبيب غاليليو قـــد درّس الرياضيات والطبيعيات في جامعة « بيزا » ثم في جامعة « بادوا » ، وكان « هارفي » استاذاً في كلية لندن

الملكية الطب ، الخ . ولكنهم يصطدمون بالجامعات وغالباً ما يضطرون الى مغادرتهـــا . فـ « الفلسفة » أمّة اللاهوت ، والجامعة امة الكنيسة ، وقد بدت الاكتشافات خطراً يهـدد الايمان؛ اضف الى ذلك أخيراً ان عادات الآخرين من أساتذة الجامعات قد تبلبلت وان أنانيتهم قد جرحت في الصميم امام بوادر عبقرية المكتشفين . الا ان حسن طالع العلماء جعلهم يدخلون في خدمة الامراء كمنجمين وأطباء. فغدا كبلر رياضياً امبراطورياً ، وهارفي طبيباً لجاك الاول، و « جلبرت » طبيباً للملكة « اليزابت » ، وغاليلو في كنف دوق « توسكانا » .

ستن كبلر

كانت المهمة الاولى متابعة عمل « كوبرنيك » . فتولاها الالماني « جان كبلر » من « شتوتغارت » (١٥٧١ – ١٦٣٠). بعد ان أصبح معاوناً لـ «تيخوبراهي »، ترك له هذا الاخير ، وهو على سرير الموت ، ما دونه من ملاحظات وطلب اليـه وضع تقاويم حركات الكواكب السيارة وبناء نظرية فلكية تتفق وتعاليم كوبرنيك . وكان كبلر يشاطر كوبرنيك آراءه البيثاغورية والافلاطونية .وقد استوحى منذ البداية اعتقاده بان الله انما خلق العالم وفاقاً لنظام سابق يجب ان نكتشف ظواهره في عدد مدارات السيارات وابعادها وفي حركات السيارات . وقد استطاع استعمال المرقب الذي اخترعه في السنة ١٦٠٨ ، كما نرجح ، طبيب عيون هولندي من « مدلبـورغ » ، هـو « هانس ليبرشغ » . فوضـــع اولاً نظام المساحات المحدودة . وأثبت ، بعد ان درس مدار الارض، ان الارض تجتاز اقسام قوس مدارها في أوقات متناسبة لطول الاشعة بين هذه الاقسام والشمس . وانتقل بعد ذلك الى درس حركة المريخ فلم تسمح له ملاحظاته برسمها مستديرة وفاقاً للآراء السائدة. فتوصل بعد تردد ومحاولات كثيرة الى القطع الاهليلجي، الذي طابق ملاحظات « تيخو براهي» ونظام المساحات المحدودة، واتاح لكبلر تحديد النظامين الاولين لحركة المريخ اللذين نشرا في السنة ١٦٠٩ في كتاب « علم الفلك الجديد » .

١ – يسير الكوكب السيار في مدار اهليلجي تحتل الشمس احد محترقيه .

٢ – ان سرعة الكوكب السيار الزاوية، في كل نقطة من مداره، متناسبة عكساً لمربع المسافة بينه وبين الشمس ؛ تزداد السرعة كلما اقترب الكوكب من مركز حركته وتنخفض كلما ابتعدت عنه [١] .

وفي السنة ١٦١٨ ، طبق النظامين ، في كتابه « موجز علـم الفلك الكوبرنيكي » ، على السيارات الاخرى وعلى القمر ، باعتبار ان الشمس تحتل محترقا مشتركاً بمداراتهـا الاهليجية . واخيراً ظهر النظام الثالث في كتاب « انظمة الكون » :

---

١ – صيغة هندسية اخرى مماثلة : ان الشعاع الموجه بين الشمس والكوكب السيار يغطي ، في اوقات متساوية مساحات محدودة متساوية .

٣ – ان مربعات الاوقات التي تستغرقها دورات السيارات المختلفة متناسبة لمكعبات معدلات مسافاتها الخاصة الى الشمس .

واستند الى مكتشفاته في وضع « التقاويم الرودولفية » ، التي لم يُستغن عنها ، طيلة قرن كامل ، للانباء بمواقع السيارات . وتضمنت التقاويم ، بالاضافة الى ذلك ، جدولا بالنجوم من وضع « تيخوبراهي » ، وجداول من وضعه هو بانحرافات الاشعة ، وجدولاً بانساب الاعداد التي كان قد اكتشفها مؤخراً نابير في سكوتلندا (١٦١٤) و « بورجي » في سويسرا ، فسهلت عليه عمله بتحويلها عمليات الضرب والقسمة الى عمليات جمع وطرح ؛ وعملية استخراج الجذور الى مجرد قسمة بسيطة .

ان كبلر ، بعمله هذا ، قد قوّم ما توصل اليه كوبرنيك وكرس مركزية الشمس بتحديده الشمس « مركزاً » لحركة السيارات ، لا مركز حركات الارض كما ساد الرأي . واكمل كذلك وصف الحركات الحقيقية المختبئة وراء الظواهر ، فتوصل الى نظام هذه الحركات .

وحدة الكون : غاليليو وشاينر

صنع غاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢) في السنة ١٦٠٩ ، بفضل توسع معرفته لانظمة علم البصريات ، مرقبا بفضل مرقب الهولنديين الى حد بعيد . وفي السنة ١٦١٠ اكتشف الاقمار الاربعة التابعة للمشتري ، ثم اقنعته مراقبة هذا الكوكب مع اقماره ، عن طريق المماثلة ، بحقيقة مركزية الشمس . واكتشف في اواخر السنة ١٩١٠ ان للزهرة ، كما للقمر ، اوجهها ايضاً . وتحقق له ان القمر شبيه بالارض . ورأى فيه الاودية والجبال وقدر ارتفاع هذه الاخيرة . واحصى اربعين نجماً ثابتاً في برج الثريا ، حيث ما كانت العين المجردة لترى سوى ستة فقط ، واستدل بذلك على بعدها السحيق . واعتبر المجرة والنجوم الضعيفة الضوء مركبة من نجوم كثيرة . واخيراً اكتشف بقع الشمس في شهر تشرين الاول من السنة ١٦١٠ . واكتشف هذه البقع ايضاً ، بفضل المرقب ، اليسوعي « شاينر » استاذ الرياضيات في « انغولستات » . وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في غرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقعها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر من ٢٠٠٠ مراقبة واستدل بها ، في السنة ١٦٢٦ ، على دوران الشمس والنجوم كلها على محاورها الخاصة .

مولد علم الآليات : غاليليو وعلم القوى

ولكن مذهب كوبرنيك بدا متنافياً وملاحظة ما يجري عادة امام اعيننا على سطح الارض ، ولا سيا في تساقط الاجسام الثقيلة . فيما كان مسلماً به دون منازع انذاك ان كرة يلقى بها من أعلى الصاري في مركب متحرك لا تسقط عند قدم الصاري ، بل على بعض المسافة الى الوراء . وقد استدلوا بذلك على ان ما يلقى به عمودياً لا يمكن ان يعود ، في حال دوران الارض ، الى المكان الذي القي به منه ، بل يجب ان يسقط ابعد الى الغرب لان الارض ، أثناء وجوده في الهواء ، تكون قد

دارت نحو الشرق . فواجهت مركزية الشمس من ثم ، مسألة الحركة قبل كل شيء .

استرشد غاليليو، على غرار كوبرنيك وكبلر من قبله، بوحي فكرة سابقة البحث والتحقيق : هنالك نظام خفي تحت تنوع الطبيعة ، وهو نظام رياضي ؛ وسنن الطبيعة هي سنن رياضية ، والواقع هو تمييز الرياضي تمييزا ماديا ؛ فالطبيعة تجيب من ثم على المسائل المطروحة في اللغة الرياضية . واستوحى غاليليو ارخميدس الذي لم يكتب اسمه مرة واحدة دون ثناء وتقريظ . وقد اعترض الارسطاطاليسيون على تعاليم كوبرنيك باسم الحركة . فتابع غاليليو درس الحركة للاجابة على اعتراضاتهم .

كان كبلر قد توصل ، بعملية تجريد ساعدته عليها ملاحظات لا يحصى لها عد، الى استشفاف سنة الجماد : كل حركة هي مستقيمة ومتساوية السرعة بقوة الطبيعة وحدها ؛ كل جسم يخضع لتأثير قوة واحدة ، تعمل فيه فجأة ، يتحرك تحركا مستقيما ثابتاً وبسرعة متساوية لا تتبدل . فقد تأكد لكبلر ان الجسم لا ينحرف عن الخط المستقيم الا اذا عملت فيه قوة ما ، وان سرعته لا تتدنى الا اذا اعاقت تقدمه قوة ما . واستدل من ذلك على ان الحركة تحافظ ، الى مـا لا نهاية له ، على استقامتها وسرعتها المتساوية ، اذا ما ازيلت القوى المضادة .

اكتشف غاليليو منذ السنة ١٦٠٤ ، الحركة المستقيمة الاطرادية السرعة وسنة المسافات . « ان النسبة بين المسافات التي يجتازها الجرم المتحرك الهابط ، في أوقات متساوية ، هي نفسها النسبة الكائنة بين الأعداد الوترية المتعاقبة انطلاقاً من الوحدة » ، ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، الخ . وفي الواقع ، ان جسماً يهبط ٥ أمتار في الثانية الاولى ، يهبط ١٥ متراً في الثانية الثانية ، و ٢٥ متراً في الثانية الثالثة . فكانت الصيغة التي توصل اليها غاليليو معادلة لسنة المسافة التي تخضع لها الحركات الاطرادية السرعة : المسافات المقطوعة متناسبة لمربع الاوقات ، وفيما يلي بيان ذلك: اذا قطعت خمسة امتار في الثانية الاولى ، تكون المسافة المقطوعة في آخر الثانية الثانية ٥×٢^٢ أي ٢٠ مترا (٥+١٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة ٥×٣^٢ = ٤٥ مترا (٥+١٥+٢٥) . وقد استخدم غاليليو سطحاً منحدراً احدث فيه فرضة مستقيمة. فكان يترك كرة تتزحلق في الفرضة ويحصي الوقت الذي يستغرقه تزحلقها من اعلى الفرضة الى أسفلهـا ، ثم يحصي الوقت الذي يستغرقه اجتياز الكرة لربع المسافة : كان الوقت الثاني نصف الوقت الاول ؛ فخلص من ذلك سنن المسافات . وقد استخدم ، لاحصاء الوقت ، ساعـة مائية ، وزن السائل المتجمع في الاحواض اثناء الاختبارات المختلفة .

اقضت مضجعه مسألة الحركة ، فأكب على درس رقاص الساعة الذي لفت انتباهه اليه ، على ما يروى ، ذبذبة احد المصابيح في كاتدرائية بيزا . وتوصل الى تحديد السنن الاساسية :

١ — ان مدة الذبذبة لا تتعلق بسعتها. فان ذبذبة رقاص يبلغ متراًواحداً طولا تستغرق المدة نفسها سواء كان انحرافه عن الخط العمودي ، عند الانطلاق ، ١٠ او ٢٠ او ٣٠ او ٤٠ سنتيمترا .

٢ – ان مدّة الذبذبة لا تتعلق بمادة الرقاص ولا بحجمه . فان رقاصين متساويين طولاً مختلفين ابعاداً مثقلين في طرفيهما المتحركين،الاول بقطعة فلينية والثاني بقطعة رصاصية يستغرقان مدة الذبذبة نفسها .

٣ – ان مدة الذبذبة تتعلق بطول الرقاص ، وهي هي لكل الرقاصات المتساوية الطول . فكر غاليليو منذ ذاك الحين بساعة يتحرك فيها دولاب مسنن بفعل حركة الرقاص المزدوجة ؛ ولكنه لم يحل مسألة دوام حركة الرقاص . الا ان المهم في الامر لم يقم في هذا التقدم التقني ، بل في ملاحظة تشابه عظيم بين حركة الرقاص وحركة كرة تتزحلق على سطح منحدرة . فاذا كانت السطوح مختلفة الانحدار ، وتزحلقت الكرة من ارتفاع واحد ، كانت السرعة النهائية متساوية ، لان السرعة النهائية تختلف باختلاف ارتفاع نقطة الانطلاق ، لا باختلاف انحدار السطح. وهذا ما حمل على القول ان ذبذبة الرقاص الواحد تستغرق المدة نفسها في سمات مختلفة لانه في الواقع يهبط هبوطاً متساوي السرعة على كل السطوح المنحدرة المتعاقبة ، المختلفة الانحدار ، ب١[١]،ب١[٢]،ب١[٣] ، التي تؤلف ذبذبته . فاهتدى غاليليو في الرقاص الى حركة الكرة على السطح المنحدر .

ولكن اذا كانت قطعتا الرصاص والفلين تهبطـــان هبوطا متساوي السرعة على السطوح المنحدرة المتعاقبة المساوية لخط سيرهما ١١[١]،١١[٢] ، فيصبح باستطاعة غاليليو ان يستدل بذلك على ان سقوطهما يستغرق وقتاً واحداً فيما لو كان هبوطهما طليقا وعموديا . فوجـــد نفسه مرة اخرى أمام اختباره في برج بيزا في السنة ١٥٩٢ . وقد تأيد بذلك ان سرعة الثقل هي واحدة لكل الاجرام .

٤ – ووجد غاليليو اخيراً ان مدة الذبذبة تختلف باختلاف الجـذر المربع لطول الرقاص . فاذا كانت اطوال رقاصات عدة متناسبة لـ ١ ، ٤ ، ٩ ، كانت مـدات الذبذبة ، فيما بينها ، متناسبة لـ ١ ، ٢ ، ٣ . ان ذبذبة رقاص طوله ٢٥ سم تستغرق ثانيـــة ، وذبذبة اخر طوله متر تستغرق ثانيتين ، وذبذبـة ثالث طوله ٢٫٢٥ م تستغرق ثلاث ثوان . ولكن هذه النتيجة هي بالذات ما توصل غاليليو اليه مع الكرة المتدحرجة على السطح المنحدر . فخط سير الرقاص ، وهو يتلقى حركة مطردة السرعـــة من قوة هي الثقل . وهكذا تمثلت ذبذبة الرقاص بحركة الاجرام الهابطة .

حاول غاليليو حينذاك تمثيل حركة القذائف ايضـاً بحركة الاجسام الهابطة . فاستهدفت ابحاثه ضمنا مبدأ ثبوت الاجرام والمبدأ القائل بان كل قوة تعمل في جرم ما تعطي نتيجتها بشكل مستقل عن غيرها من القوى الفاعلة . وقـــد استخدم المسطح المستطيل السرعات واكتشف بواسطته مبدأ المسطح المستطيل للقوى . افترض جرمـاً متنقلاً على سطح افقي ا ب . الجرم سيتحرك في اتجاه واحد وبسرعة متساوية طالما لا تعمل فيه اية قوة اخرى . فاذا انتهى المسطح

فجأة في ب ، فان الثقل سيفعل فعله حينذاك ويدخل حركة جديدة هي الهبوط العمودي ب ل. ولكن الحركة الافقية المتساوية السرعة لم تبطل . لذلك فان الحركتين تتحدان والجرم ينتقل على المسيرة المنحنية الاضلاع ب ط و ح حيث د و = ٤ ج ط لأن ب د = ٢ ب ج ولأن المسافة التي التي يقطعها جسم هابط تختلف باختلاف مربع الاوقات . ويمكننا الاستناد الى البرهان نفسه في المعادلة : ه ح = ٩ ج ط . فحركة القذائف تخضع من ثم للسنن نفسها التي تخضع لها الاجسام الهابطة . وقد اوحى ذلك بان حركة الاجرام السماوية تطابق الشروط نفسها .

اتاحت هذه الاكتشافات دحض حجج الارسطاطاليسيين على سنن كبلر . فقد نجم عنها ، لعمري ، مبدأ استقلال القوى أو وجودها معاً : كل حركة مشتركة بالتساوي بين كل الاجرام المختلفة فيما بينها ، اذ ان هذه الحركات تستمر في الحدوث كما لو كان بمجموع النظام عارم الحركة. وبات جلياً من ثم ان الكرة التي يلقى بها عمودياً من اعلى صاري سفينة متحركة لا يمكن ان تهبط الا عند اسفل الساري لأن الكرة تخضع للحركة الافقية نفسها التي تخضع لها السفينة . والسفينة تشركها من ثم في قوة الدفع نفسها التي تتلقاها هي. وبات جلياً كذلك وهن الاعتراض على حركة الارض ، لأن الجرم الهابط في الهواء يدور مع الارض .

أما هذه النتائج ، ونتائج كثيرة اخرى ، وسنة الجماد التي حددها ديكارت بوضوح ، فقد نشرها غاليليو في السنة ١٦٣٨ في كتابه « احاديث حول علمين جديدين » . وقد استلزمت اعماله منذ البدء سنة الجماد . وكان « بيكن » ، صديق ديكارت ، على علم بسنة دوام الحركة منذ السنة ١٦١٣ . « ان ما يخضع للحركة مرة يبقى متحركاً الى ما لا نهاية له » . ولكن ديكارت هو من عبر بوضوح وجلاء عن سنة الجماد: الجسم الساكن يبقى ساكناً اذا لم تعمل فيه اية قوة،واذا تحرك فانه لا يتوقف من ذاته،ان لم تنفذ حركته اية قوة،كما افترض الارسطاطاليسيون، ولكنه يستمر في حركته بالسرعة نفسها وفي الاتجاه نفسه ، فحركته مستقيمة ومتساوية السرعة ؛ واذا ما اخضع هذا الجسم لعمل قوة ثابتة ، فتحدث اذ ذاك نتيجة جمعية لأن القوة تعمل في الجسم بشكل واحد سواء كان ساكنا او متحركا ، يحتفظ في كل هنيهة بالحركة التي خضع لها في الهنيهة السابقة،والقوة تدخل عليه سرعة جديدة،فتصبح حركته متساوية السرعة .

ولكن الطبيعة كلها بدت وكأنها خاضعة لسنن الحركة . ففي السنة ١٦٤٤ ، اثبت توريشلي ، تلميذ غاليليو ان فوارة ماء تخرج من ثقب في جانب سفينة ملأى بالماء تتبع مسيرة عدسية الشكل شبيهة بمسيرة القذيفة ، وان حركة الماء هي نفسها حركة الاجسام الهابطة الاخرى .

هارفي والدورة الدموية

كان الانكليزي هارفي (١٥٧٨ — ١٦٥٧) قد نشر منذ السنة ١٦٢٨ كتابه « حركة القلب » حول حركات القلب والدم ، الذي عرض فيه اكتشافه للدورة الدموية الكبرى . كان الارسطاطاليسيون من قبله يعتبرون الدم وكأنه راكد في حالة توازن، والارواح الحيوانية كأنها تتملل في مستنقع الدم هذا . وكان

هارفي قد واظب في بادوا على دروس « فابريش داكوابندنتي » الذي كان قد ميز صمامات الاوردة ، وهي الشرط الضروري لاكتشاف هارفي . راقب هذا الأخير ، في البدء ، حركات القلب بفضل تشريحات أجراها على حيوانات مختلفة : كلاب ، خنازير ، ضفادع ، افاع ، علاجيم ، رخويات ، سراطين ، اسماك . فتمكن بذلك اولاً من ان يرى التشابه بين حركات القلب والتقلصات العضلية وان يرى بعد ذلك عند كل الحيوانات وصول الدم بواسطة الأوردة وخروجه بواسطة الشرايين . عند ذلك تأمل ملياً في كبر وتناسب بطينات القلب وكبر وتناسب الأقنية التي تخرج منه وكمية الدم التي تمر في القلب وسرعة مرورها . وكان جلياً ان الأوردة تنتهي بسرعة الى الفراغ والشرايين تنفجر بفعل تدفق الدم اذا لم يستطع هذا الأخير العودة من الشرايين الى الاوردة وبالتالي بلوغ البطين الأيمن في القلب . حينذاك افترض هارفي وجود حركة دموية دائرية ، وتأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط مجاري الدم في اعلى العضو ربطاً غير مشدد يسمح بتدفق الدم بواسطة الشرايين ولكنه يمنع عودته بواسطة الأوردة ؛ أما اذا كان الربط مشدداً ، فهو يوقف كل دورة دموية ، فيتخدر العضو وينتابه الألم ويختفي النبض ويبرد العضو ولا يلبث ان يتقرع ؛ وضغط على الاوردة باصابعه فأظهر الدورة في طريق العودة وجزم بان الصمامات تقاوم عودة الدم نحو اقسام الجسم الدائرية .

واكتشف الطبيب الفرنسي « جان بكيّه » (١٦٢٢ – ١٦٩٤) ، في السنة ١٦٤٨ ، دورة الكيلوس اثناء قيامه بتشريح احد الكلاب . فاعترضوا عليه ان هذه الدورة لم تكتشف في جسم الانسان . ولكن الطبيب الجراح « جارغان » اكتشف الاقنية الكيلوسية وحوض « بكيّه » في جسم جندي لاقى حتفه في اعقاب اقتتال اشترك فيه .

وهكذا امست الحركة عنصراً اساسياً في الطبيعة كلها وفي الكون . وكانت هذه الحركة خاضعة لسنن معينة ، وكانت هذه السنن رياضية .

اصطدام الكوبرنيكيين بالارسطاطاليسيين

كانت هذه الاكتشافات كلها بمثابة ثورة حقيقية . فقد وجهت اشد الضربات لنظام ارسطو الذي ما زال مسيطراً . تصور الارسطاطاليسيون عالماً منظماً ، محدوداً ، محصور الابعاد ، الارض ساكنة في وسط العالم ، وكافة الاجرام السماوية متممة حول الارض ، خلال اربع وعشرين ساعة ، حركات دائرية اعتبروها طبيعية لانها اكمل الحركات طراً ، وكل الكواكب مصنوعة لاجل الانسان ، من مادة خالصة لا تفنى ، وقد جعلوا فيها مقراً للكمال غير القابل للتغير والفساد ، فاذا بكوبرنيك وكبلر وغاليليو يقضون على مفهوم مركزية الانسان هذا وعلى كل هذا الكون المنظم خير تنظيم . فكان الكوبرنيكيون على خلاف مع الارسطاطاليسيين في كل النقاط . احلوا الحركة الاهليلجية محل الحركة الدائرية. وقضت سنة كبلر الثانية على الاعتقاد

السائد بان الحركات السماوية متماثلة . واظهر الكوبرنيكيون السماوات خاضعة لسنة لا محيد عنها هي سنة الولادة والشيخوخة والموت . وبرزت نجوم جديدة ، وتبين ان القمر شبيه بالأرض من حيث تكوينه ، واثبتت بقع الشمس ان الشمس قابلة للفساد. وحين اراد الارسطاطاليسيون وضع نجم جديد اكتشفه كبلر في دائرة القمر لأن كل تغيير مستحيل بعد القمر ، اوضح الكوبرنيكيون ان النجوم ابعد من الشمس عن الارض بعشرة آلاف مرة ، وان دورانها حول القمر في اربع وعشرين ساعة يتطلب سرعة فائقة في حال حصوله ، وان خللا جسيماً يطرأ اذ ذاك على الطبيعة لأن مدة دورة السيارات تزداد بازدياد المسافة : القمر ينجز دورته في ثمانية وعشرين يوماً ، والمريخ في سنتين ، والمشتري في اثنتي عشر سنة ، وزحل في ثلاثين سنة ، فكيف يصح ان تنجز النجوم دورتها في يوم واحد وهي ابعد من هذه السيارات الى حد بعيد جداً ؟ وذهب غاليليو الى ابعد من ذلك . فهاجم عقيدة الاستقرار وعدم التغير ورأى فيها دلالة على النقص والعيب . واظهر ان في التغير والانسال مزيداً من النبل والروعة ، وان التبدل واقع شامل حتى في السماوات ، ولكنه يحدث في كل مكان وفاقاً للسنن الطبيعية نفسها ، وان النوع الواحد من الاحداث الطبيعية يحصل من انحاء الكون ، وان مادة السماوات مماثلة لمادة الارض ، لا تفنى ، وانما يتحول شكلها تحولا مستمراً . وحطم الكوبرنيكيون العالم الارسطاطاليسي القديم ، واحلوا محل العالم ، وهو وحدة مقفلة منظمة تنظيماً تسلسليا ، الكون وهو مجموعة غير مقفلة ولا حدود لها مرتبطة بوحدة سننها ، ففتحوا بذلك ابواب اللانهاية أمام الانسان . فمنذ الان وصاعداً ، سيسترشد الفكر البشري مثال اللانهاية ، وهو فتح حققته الازمنة المعاصرة . فانهار من ثم انهياراً نهائياً منطق الكليّات (المثل العامة) القديم ، ومنطق ارسطو ونظريته في علم الطبيعيات ، ومنطق المفاهيم المرتبط بعدد ثابت من الانواع المكونة من أجناس وفروق محدودة العدد ، وبعالم متناه في الفضاء مكوّن بحيث تبقى الانواع ثابتة على الرغم من تغير الافراد . اما في نظر الكوبرنيكين ، فكل مفهوم لا يتناول اللانهاية مفهوم مجرد وناقص : وليس من واقع الا ما يدرك كله .

الكنيسة تقاوم المجددين

عارضت هذه الاكتشافات حرف سفر التكوين واعتماد الكنيسة ، منذ زمن قصي ، نظام ارسطو الذي اعتبر ، دونما سبب ، وكأنه احد اعمدة الشريعة . وحين اعترف الاب شاينر لرئيسه الاقليمي باكتشافه بقع الشمس لم يرد هذا الاخير تصديق شيء من ذلك . ويروى انه قال له اذ ذاك : « لقد قرأت مؤلفات أرسطو تكراراً وباستطاعتي ان اؤكد لك انني لم أجد فيها شيئاً من ذلك . فاذهب يا بني واطمئن بالا وتأكد ان ما اعتبرته بقعاً في الشمس ليس سوى عيوب في عدساتك او في عيونك » . ولم يؤذن للاب شاينر ، في البدء ، الا باطلاع صديقه « فلسر » ، العالم في الادب القديم ، على اكتشافه ، في ثلاث رسائل حول « البقع الشمسية » لم يلبث فلسر ان نشرها . فعلا حينذاك صراخ الارسطاطاليسيين ، وهم الكثرة الساحقة ، لأن السماء قد استقذفت بهذا القول ، وصرخوا بان

الفلسفة قد « امينت اهانة محقرة » . « كانت (البقع) لخداع نظر وأوهاماً مصدرها العدسات » لانهم لم يستطيعوا تصور « رأي أبعد غواية من ذاك الذي يضع قذارة في عين العالم التي أوجدها الله لتكون مشعل الكون » .

كان الكرسي الرسولي قد نشر في السنة ١٦١٦ ما يلي : « ان القول بان الشمس ساكنة في وسط الكون قول جنوني ، باطل فلسفياً وهرطوقي ، لانه لا يتفق والكتاب المقدس . كما ان الرأي القائل بان الارض ليست في وسط الكون وأنها بالاضافة الى ذلك تخضع لحركة محورية يومية قول باطل فلسفياً واعتقاد أقل ما يقال فيه انه ضلالة » . لذلك فان غاليليو ، حين نشر في السنة ١٦٣٢ « الحوار حول نظامي العالم الهامين، النظام البطليموسي والنظام الكوبرنيكي » ، الذي هاجم فيه المذهب الارسطاطاليسي ، استدعي الى روما بطلب من ديوان التفتيش. فذهب اليها واوقف في شهر شباط من السنة ١٦٣٣ واخضع للفحص في شهر حزيران . وحين هُدِّد بالتعذيب ، رجع عن قوله ، وحكم عليه بالسجن وبتلاوة مزامير التوبة السبعة كل اسبوع طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصرّح عن كل ما قد يبدو له مريباً في نطاق العقيدة . اما « حواره » فقد ادرج في فهرس الكتب المحرمة .

التحول الفكري

كانت الارسطاطاليسية ، في هذه الاثناء ، آخذة في التصدع شيئاً فشيئاً . وكانت العلوم الطبيعية الجديدة تكيل لها ضربات لا تقل شدة عن ضربات علم الفلك . في نظر ارسطو كانت الحركة الرئيسية تبدلاً ، وكان مثال التبدل الولادة ، اي تكون كائن غير موجود من قبل . فعللت كل ظاهرة طبيعية بسبب مماثل أبداً لذاك الذي يجعل الحيوانات تتناسل وتتكاثر . وكان للكائنات الطبيعية في ذاتها مبدأ حركتها. وهذا المبدأ الداخلي الذي يسبب الحركة في كل كائن حي هو الروح . فالروح من ثم هي المثال الاصلي للطبيعة ، المثال الاصلي للشيء الخاص الذي يدرسه العالم في الطبيعيات . وفي المواد الطبيعية ، المركبة شأن كل كائن ، من مادة وصورة ، تكون الصورة المبدأ الجوهري المولّد. وطبيعة شيء ما هي صورة هذا الشيء . والصورة هي المبدأ الداخلي للحركة ، وهو مبدأ شبيه بالروح . فكانت هذه الصورة الجوهرية، من ثم ، مفاهيم غامضة يتراوح ما تشمله بين الفكر الداخلي والمادة . كان الثقل صفة داخلية تجذب الجرم نحو وسط الارض ، فهو قد عرف من ثم وسط الارض او أحس به ، وكان بالتالي روحاً سوية . وكان الثقل صفة من صفات جوهر الجرم ، مستقلاً عن المساحة أو الحجم ، شبيهاً بمفهوم المادة غير الهيولية ، اي انه كان روحاً ، لانه كان موجوداً في آن واحد في كل جزء من اجزاء الجرم وفاعلاً فعله فيه ، بصورة خاصة ، بواسطة جزء واحد من أجزائه ، كالجزء الذي يلتصق بالحبل من وزن معين يستند الى هذا الحبل . وكان هذا احد الاسباب التي حملت ارسطو على القول باستحالة اخضاع الصفة والواقع للعلوم الرياضية : فالكائنات الرياضية لا تتحرك : انها أزلية وغير محدودة بزمان . ولم يتوصل ارخميدس نفسه الا الى علم توازن الاجسام : اي انه اخضع الكون للعلوم الرياضية . ثم ان الاشكال الهندسية ،

من جهة ثانية ، لا تعطي صورة كاملة عن المادة الارضية. فليس في عالم الواقع خطوط مستقيمة ولا سطوح ولا مثلثات ولا اجسام كروية . ليس لاجسام العالم الهيولي من أشكال هندسية منتظمة . ولذلك يستحيل تطبيق السنن الهندسية على موجوداته .

الا ان ما توصل اليه غاليليو في علم الطبيعيات قد أظهر ان الحركة تخضع لسنن رياضية . وبدا ان الزمان والمسافة مرتبطان بسنة العدد . واعلن غاليليو ان عالم الواقع وعالم الهندسة ليسا عالمين مختلفين . وان الطبيعة تحقق الشكل الهندسي . وان للحجر غير المهندم شكلا هندسيا ليس دون شكل الكرة احكاماً وضبطاً . وان الاشكال الهندسية مجانسة للمادة . وان السنن الهندسية تنفذ الى الواقع وتسيطر على العلوم الطبيعية . وان الطبيعة انما تتكلم لغة رياضية ، فيجب ان توجه اليها الاسئلة بهذه اللغة . وان النظرية الرياضية تتقدم الاختبار . وان سنن الطبيعة سنن رياضية . وان النظرية تعبر عن جوهر الظواهر .

استغنى الغاليليون عن الصور الجوهرية ولم يأخذوا بعين الاعتبار سوى الحركة والمسافة . واظهر غاليليو ان الجسم الجامد لا يطفو بالنسبة لشكله ، بل بالنسبة لثقله النوعي ، وانه يطفو في السائل اذا كان ثقله النوعي ادنى من ثقل السائل النوعي . استند الارسطاطاليسيون الى ظاهرة مألوفة هي طفو الصفائح المعدنية الرقيقة على سطح الماء . اما غاليليو فقد اثبت انهما انما تطفو في الواقع على الهواء وانها تنزل حتماً الى القعر اذا ما غطست في الماء . لا شأن للشكل ، فالأهمية للثقل والحركات التي يسببها وسنن هذه الحركات . الحركة والسكون يستلزمان قوة خارجية وغريبة عن الجرم . ويبدو لنا هذا المفهوم جلياً وطبيعياً . وهذا الجلاء يرقى الى ثلاثة قرون ونيّف . واعتبر الارسطاطاليسيون كذلك انالاجسام الثقيلة والخفيفة تتحرك بفعل الخفة والثقل الكامنين فيها اللذين هما كائنات نصف هيولية ونصف روحية . أما في نظر الغاليليين ، فان ثقل الجسم هو قوة الدفع التي تتلقاها حركة الجسم الوازن الى اسفل في المنبهة الاولى ، وهو من ثم القوة التي تتحملها المساحة القائمة مباشرة تحت الجسم الوازن . فليس وارداً من بعد سوى تنقلات المادة . والغاليلي يبحث عن جوهر الحركة ، عن نسبة رياضية .

ان ما يجب عمله ، في رأي غاليليو ومدرسته ، هو استخلاص الحركة ثم التأكد من الاستخلاصات الهندسية بالتحقق من الحركة . فالهندسة والحواس هي أدوات الاكتشاف . ولكن زملاء غاليليو رفضوا النظر في مرقبه ، ومعارضي هارفي رفعوا الاكتاف تهكماً حين اعلن هارفي انه لم ير الارواح قط في الدم . اعتبر الارسطاطاليسيون ان « كل كلمة تقابل مثالاً ، وكل مثال كائن . فعلم الصرف والنحو من ثم هو المنطق ، والمنطق هو العلم . لماذا درس الطبيعة والملاحظة والاستقصاء ؟ يجب ان ننظر الى العالم في فكرنا .. فنرى الحقيقة والواقع . كل تركيب كلمات تركيب اشياء ووقائع . وتنسيق الكلمات هو المعرفة .. » . أما الغاليليون فقد قاموا بتحويل فكري .

استمرار الارسطاطاليسية لفقدان نظام كوني آلي

بيد ان الارسطاطاليسيين لم يهزموا بعد . فالمجددون لم يتوصلوا بعد الى ايجاد نظام يسير الكون كله بوجبه . اجل تخلخل البناء الارسطاطاليسي وتهدمت بعض اجزائه ، ولكنه ما زال قائماً ولم يستبدل بسواه . أما الكوبرنيكيون فقد آلوا الى مذهب الطبيعية . فان كبلر ما زال يفترض وجود روح محركة مكانها في الشمس ترسل أشعة قوة ، هي نوع من التفريغ المغناطيسي ، أشبه باشعة الدولاب . وان الشمس تدور حول محورها . وان هذه الاشعة تتناول بقوتها كل السيارات فتنقلها حول الشمس . وان السيارات ترسم مداراً اهليلجياً لأن قطبي كل منها يتعاقبان تعاقباً مطرداً أمام الشمس التي تجتذب احدهما وتدفع الآخر . وان الجاذبية « تواد بين جرمين متجاورين يميلان الى الاتحاد أو الاتصال ، شبيه في طبيعته بالمغناطيسية » . وسلم غاليلو ، اقله قبل السنة ١٦٣٠ ، بان علة الحركة التي كان يبحث عن جوهرها لها تفسيرها في ذلك . وقد تأثرا كلاهما بطبيب اليزابت ، « جلبرت دي كولشستر » (١٥٤٠ - ١٦٠٣) وبمؤلفه حول المغناطيس (« الفن المغناطيسي » ، ١٦٠٠) . فان اختبارات جلبرت على الحجر المغناطيسي قد قادته الى اعتبار الارض ، بالمماثلة ، كمغناطيس ضخم . واعتقد بالمماثلة ان الشمس والقمر وكافة الاجرام السماوية اجسام مغناطيسية تنشر قوة مغناطيسية في الفضاء الذي يكتنفها . وان هذه القوة المغناطيسية تولّد حركاتها . وانها روح . وان للاجرام حياتها . وان الاجسام المغناطيسية حية ويتحرك احدها نحو الآخر تحركاً تلقائياً .

فلم تزل الحاجة ماسة ، من ثم ، الى تعميم سنة الجماد وتفسير الكون كله بالمسافة والحركة . ولم تزل الحاجة ماسة كذلك الى اخضاع الواقع للعلوم الرياضية . ولم يزل ممكناً الاخذ على غاليليو ان الاختبارات التي فسرت استخلاصاته الهندسية كانت باطلة . فهو لم يأخذ بعين الاعتبار مقاومة الهواء وقوة الثقل والاحتكاك . وبعمل تجريدي ، ابعد العوارض وتخيل سطحاً مسطحاً تسطيحاً مطلقاً وكرة كلية الكروية ، كلاهما كلي الصلابة ، جسمان مجردان ، موضوعان لا في الفضاء الحقيقي ، بل في الفضاء المجرد الاوقليدي ، حيث لا تتأثر الاجسام بحالة السكون أو الحركة ، وحيث لا شأن إلا لسنة الجماد فقط . واستند الى مفاهيم لم تستخلص من الاختبار بل فرضت عليه فرضاً . وكان بالامكان ان يعاب عليه عند اللزوم أنه يبعد كل البعد عن الواقع . فما زال هنالك شك . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية تعبر عن الواقع وانها حقيقة الواقع بالذات .

تقصير بيكون

أجل كانت هنالك طريقة الانكليزي بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذي كان قد فكر بوضع بحث في العلم الجديد واجزائه وطريقة كل منهما وشروطها . فجمع بعض النبذ واهمها اثنتان : « النظام الجديد » (١٦٢٠) و « تقدم العلوم » (١٦٢٣) . وقد هاجم بيكون ارسطو ، « ابا السفسطائيين » ، وافلاطون ، « ذاك المازح » . واوصى بالتوجه مباشرة الى الطبيعة بالاختبار للتوصل الى التسلط عليها باطاعتها اي بمعرفة سننها .

فأحدث بذلك صدمة عنيفة وأثار شعوراً قوياً واسهم في اعطاء الابحاث العلمية اندفاعاً شديداً . ولكن كتبه كانت مجرد كتب منهجية ، فلم تتضمن نظرة شاملة على العالم كان من الضروري احلالها محل نظرة الارسطاطاليسية . اضف الى ذلك انها كانت مشوشة ككتب منهجية . فان بيكون لم يسائل نفسه قط عن شروط الملاحظة بحد ذاتها وعن الاحتياطات الانتقادية الواجب احترامها . ووقف موقفاً حذراً من العلوم الرياضية . فأول ما فكر به هو تنويع الاختبارات وتوزيعها على ثلاث فئات : فئة الوجود ، فئة الفقدان ، فئة الدرجات. اما الصورة ، او الجوهر التي تولد طبيعة الظاهرة النوعية فتوجد ، كما هو طبيعي ، في الدردي . فلنأخذ الحرارة مثلا : تحدث في ٢٧ حالة ؛ ولا تحدث في ٣٥ حالة ؛ وتتنوع في ٤١ حالة ؛ والدردي هو حركة الارتجاج التي نرى نتيجتها في الماء الغالي . الحركة هي صورة الحرارة ، وهي عنصر محسوس نلاحظه ولا نستنتجه استنتاجاً . زد على ذلك ان الدردى عند بيكون هو ابداً استعداد آلي ثابت في الطبيعة . وان جوهر كل شيء في الطبيعة هو تركيب هندسي دائم . يبحث بيكون عن التراكيب والحركات الخفية ولكنه يعتبر كل تركيب مطلقاً لا يقبل التفسير . فهو اختباري لا يستطيع ان يصنع العلم . والاختبارية لا تقود الى شيء . الاختبار يفرض النظرية ويفرض الكلام لانه سؤال يطرح على الطبيعة . الا ان بيكون قد افتقر الى هذا الكلام الذي هو العلوم الرياضية . فاخفق . ومنذ السنة ١٦٢٥ اخذ عليه الاب « مرسين » انه ساذج وانه يقترح انظمة لا يجهلها العلماء واختبارات اجري مجملها من قبله وتعابير جديدة لم تأت بأي جديد حقاً . فان بيكون ، وشأنه في ذلك شأن الارسطاطاليسيين ، قد وضع الارواح في كل مكان . وقال ان الاجرام ترغب في ان تتلامس خوفاً من ان يحدث فراغ ومن ان تتجزأ الطبيعة ؛ وانها ترغب في العودة الى حالتها الاولى ، حالة العظامة والصورة ، التي كانت حالتها حين اعتدي عليها وابعدت عن استعدادتها الطبيعية ، وفي ان تتحد مع اجرام الكون واجزائه المختلفة التي هي من طبيعتها ، الخ . فلم يكن باستطاعة هذا المجدد المزيف ان يعطي الحلول الضرورية .

ازمة العقل

كانت الاكتشافات ، التي فتحت ابواب اللانهاية ، ووضعت الحركة في كل مكان اعتبرت فيه من قبل سكوناً ، وكانت الحركة التي انزلت منزلة الكمال ، تبريراً عقلياً للفن المستهجن . فقد قامت هنالك مماثلة ، دونما مشابهة ، بين مهندسي العمارة الذين يضعون الحركة في الابنية باعتماد « الاشكال التي تطير » ، وبين العلماء الذين يضعون الحركة في كافة اجزاء الكون ، وبين الرسامين روبنس ورمبراندت من جهة وبين الرياضين كبلر وغاليليو من جهة ثانية .

وكانت اختلاطاً وتشوشاً ايضاً . فان في التناقض بين نظام قائم للعالم وبين الاكتشافات الجديدة ، والنظريات العقلية والمساعي الفكرية الكثيرة التي بدت وكأنها الجلاء نفسه والعقل عينه ، والتي أمست بين ليلة وضحاها نظريات ومساعي هرمة وباطلة ، والصدمات والتناقضات

الكثلكة ، ما بدا تبريراً لمذهب التشكك في الكل ، واعترافاً بسقم العقل المعضل وتشريع باب امام الارتيابيين والملحدين .

٨ - الملحدون

اتسمت بعض الجماعات ، التي جمع بينها اسم واحد هو اسم « الملحدين » ، بطابع مشترك هو التنكر للمسيحية ، نظرياً وعملياً ، واعتماد الحياة الوثنية أو مفهوم الحياة الوثني . وسارت من ثم على خطى نقاد النهضة العقليين ، من امثال « بومبونازي » و « ماكيافلي » ، وأمير الارتيابيين « مونتاني [١] » . واستندت ، على غرارهم ، على القدماء . ونقلت تعاليم القدماء بحذافيرها الى برامج التدريس . فوجد الطالب الفتى عند المؤلفين اللاتين واليونانيين كل ما هو ضروري للحياة : وكوّن لنفسه ، بذلك ، روحاً قديمة معادية للدين المسيحي .

ظروف الالحاد السياسية

أما ما أبعد هذه الجماعات عن الدين المسيحي فهو ، في الدرجة الأولى ، الاخلاق السيئة التي تميز بها الاكليروس ، المعين من قبل الدول لغايات سياسية : كهنة جهلة نسوا حتى صيغة الحل من الخطايا ، راهبات كثيرات الاهتمام باجسادهن ، رئيسات اديرة عالميات ، احبار لم يسلكوا سلوكاً يقتدى به ، رؤساء أديرة في سن الطفولة ، كهنة قانونيون على مقاعد الدراسة ، وخدمة رعايا سكيرون ، « لافردين » اسقف « له مان » المتظارف ، « لاريفيير » ، الذي انتقل مباشرة من « مجلس خلاعة » شقيق الملك (السيد) ، الى اسقفية « لانغر » . وقد قال احد المصلحين : « ان اسوأ ما يُفعل ... يفعل في أوساط الكنسيين » . ومما زاد في الاشمئزاز وتقزز النفوس المشادات الدينية ومجادلات اللاهوتيين ، كاثوليك وجنسينيين ، وغوماريين وارمينيين ، وقد جرت على مرأى الجماهير ومسمعها وخلت من مبادىء المحبة الاولية . اضف الى ذلك ان الحروب الدينية قد اذلت الدين وافقدته اعتباره . فباسم الانجيل تشاتم اطراف النقيض وتحاسدوا ونشروا القذارة في مقالات حاقدة عنيفة مشينة وخانوا وقتلوا . وانتهى الامر بالناس الى الارتياب من وجود حقيقة دينية والتفكير شيئاً فشيئاً بان الدين قد يكون مشؤوماً . وجاءت الحروب الاهلية والخارجية اخيراً تحل عنف الغرائز من عقاله وتقضي على البقية الباقية من احترام الدين فخلال الحملات العسكرية، لم يتورع الجنود عن تحطيم ابواب الكنائس وسرقة الحلل الكهنوتية وتخريب بيوت جسد الرب واستلاب حقق القربان وتدنيس القربان المقدس . وشجعت الحياة في المعسكرات اشباع رغائب الحواس والاستسلام لابتغاءات الجسد والسلب والنهب والاغتصاب ومغازلة النساء والانصراف الى المسكر ، وابعدت عن دين طهارة يحاول توجيه كل قوى الفرد الى محبة الله الخالصة والقداسة الكاملة التي لا يشوبها عيب .

---

١ - مونتاني : حياته ، فلسفته ، منتخبات ، صدر عن منشورات عويدات . (الناشر)

الحاد الفكر
ارتيابية الملحدين

اسهمت الحركة الارتيابية في ابعـاد الناس عن الدين المسيحي الذي يرتكز الى البراهين . فقد ادعى الدين المسيحي ، من جهـة ، بأن وجود الله يمكن اثباته عقلياً بالارتقاء من المخلوقات الى الخالق ، ومن جهة اخرى بأن الوقائع التاريخيـة التي نستطيع بواسطتها الاستدلال على ألوهة المسيح قد اثبتها نقد تاريخي عقـلي . ولكن الملحدين كانوا كلهم على مذهب الشك بالكل . ففي السنة ١٦٣٠ قال « لاموت له فاييـه » في حوار « اوراسيوس توبرو » .

« ليست حياتنا كلها ، اذا ما فحصناها من كل وجوهها ، سوى اسطورة ؛ وليست معرفتنا سوى غباوة ؛ ويقيننا سوى خرافة ؛ وبمجمل القول ليس هذا العـالم سوى تمثيلية مضحكة ومهزلة دائمة » .

تأثر هؤلاء الاشخاص بالحس الفني المستهجن ، فتوسعوا في تعليم عظماء النهضـة الايطاليين وتعليم « مونتاني » . شرع « غاسندي » في السنة ١٦٣٤ باحياء المذهب الابيقوري في كتابه « دفاعاً عن ابيقور » . فرأى غاسنديَ ، مخالفاً بذلك ابيقور ، ان الذرات ليست أزليـة ولكنه رأى ، كما رأى ابيقور ، ان الكون مركب من ذرات دائمة الحركة تتساقط في الفضاء وتكون عوالم شبيهة بعالمنا لا يحصى لها عد . وان كل الاشياء وكل الاجسام مركبة من ذرات متحركة . وان جسمنا مركب من ذرات ايضاً ، وان روحنا اقرب ما تكون الى النفحة ، او اللهيب ، وهي مجموع ذرات صغيرة جداً منتشرة في كافة أجزاء جسمنا . فالنفس تتـأثر من ثم بكل ادواء الجسم . تتحرك ذرات الجسم بفعل الخيـلة تنطلق باستمرار من ذرات الاجسام الاخرى ، وتتحرك الروح بفعل حركة الجسم ، فيتولد الشعور . شواعرنا صحيحة ابـداً ولكن احكامنا عليها قد تكون مخطئة ، فالمخيلة تقرّب معطيات الحواس وتنظمها وتقارن بينها وتنقصها وتوسعها ثم تستخلص منها الاحكام . لذلك كانت اسباب الخطأ متعددة في هـذه العمليات . ان ما فوق الطبيعة حكم سيء على معطيات الحواس بل انتاج من انتاجات المخيلة . يجب اعادة العمليات ومقابلة الاحكام وامتحانها باستمرار ، فيما بينها وبالنسبة لحـواسنا . فغاسندي ، وشأنه في ذلك شأن الارتيابيين الآخرين ، كوبرنيكي وغاليلي لا غش فيه . وحين ينحل جسمنا المركب من الذرات ، تنحاب النفس وتضمحل . فلا يبقى حينذاك شعور ولا عاطفة ، ويموت الفرد بكليته .

افضت هذه المادية الى نتائج عدة . وفي مقدمتها استحالة ادراك كنه الاشياء . لا نبلغ بواسطة حواسنا سوى حقيقة نسبية كافية عملياً . أمـا طبيعة الاشياء الحقيقية فلا ندركها . فما هي من ثمة قيمة الآراء النظرية حول طبيعة الكائن ، حول طبيعة الله ؟ وما هي قيمة البراهين على وجود الله ؟ وما قيمة هذا البرهان على وجود الله في تسليم الشعوب كلهـا بذلك ، على انها تفعل ذلك انقياداً لرأي مطبوع ؟ لا وجود لرأي مطبوع بل كل شيء يصـل الينا عبر الحواس ، والمخيلة تركب معطيات الحواس تركيبات مختلفة جداً بحيث لا تتكون عند اناس كثيرين اية فكرة عن الله كما اعترف بذلك بعض الملحدين . وقد رأى غاسندي ان

فكرة الله هذه ، مع ما تنطوي عليه من مفاهيم اللانهاية والازل والكمال والقدرة الكلية والصلاح الكلي، ليست سوى توسيع وتعظيم كمالات الجنس البشري ، اذ ان افكارنا العامة تأتينا من الحواس . فالاله هو الانسان متحلياً بمنتهى كمالاته .

وافضت كذلك الى الوقوف موقف الحذر من الشهادة التاريخية . فكيف تصح الثقة بشهود تكون آراؤهم تكوناً يترك مجالاً لبقاء مثل امكانات الخطأ هذه ؟ قام « نوديه » ، امين كتب الرئيس « دي مسم » ، وخريج جامعة بادوا ، بتهذيب النقد التاريخي . فتوصل منذ السنة ١٦٢٥ ، في كتابه « دفاعاً عن عظام الرجال المتهمين بالشعوذة » ، الى وضع سلسلة المراجع والعودة الى المصادر ودرس قيمة الشهادات . فبحث عن المستند الاول ، والزمان الذي كتب فيه ، ووضعه ، واتجاهه ؛ ومحّص قيمة تأكيداته وفسرها بحسب النزعة المادية للفلسفة الابيقورية . فأعيد كل شيء الى روابط طبيعية بين علة ومعلولات ، واعيدت كل دوافع الانسان الى مصلحته المادية . تظاهر « نوما بومبيليوس » بالتحدث الى الحورية « ايجيريا » بغية توطيد سلطة انظمته . كما ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي الآلهة ، بغية ارساخ سلطتهم . واختلق نساك صحراء طيبة روايات باطلة عن معارك مزعومة ضد الشيطان للتوصل الى الشهرة والاحتيال على اموال السذج . وليس تنصر كلوفيس ودعوة جان دارك والوحي المنزل على محمد وموسى سوى حيل سياسية . ولكن ماذا يكون اذ ذاك من امر الدين المسيحي والشهادات الانجيلية ؟

الشعوب الغريبة والديانة الطبيعية

ووفرت الاكتشافات الجغرافية اسلحة جديدة . فقد سبق ان اتاح برابرة اميركا لمونتاني ان يستهزىء بالعقل والاخلاق والديانة عند الشعوب المسيحية . ووفرت الصين وسائل العمل نفسه لملحدي القرن السابع عشر . ففي السنة ١٦٤٢ ، قال « لاموت له فايه » ، في بحثه حول « فضيلة الاوثان » ، ان التسليم واجب ، ما دامت الكنيسة لا تستبعد امكانية خلاص الفلاسفة الاوثان الذين عاشوا عيشة صالحة بحسب السنة الطبيعية قبل شريعة موسى ، بان حكماء الامم ، التي لم يبشر الرسل فيها بالدين المسيحي ، قد يكونون خلصوا ايضاً . فالمسيح لم يبشر به في الصين . ولكن الديانة الصينية انقى من ديانة الاغريق أو الرومان أو المصريين لانها لا تستشهد بالمعجزات ولأن الصينيين منذ القدم ، آمنوا بإله واحد . فان كونفوشيوس ، سقراط الصين ، قد آمن بوجود الله واحد واتخذ مبدأً مبدأ السنة الطبيعية بالذات ، اي الامتناع عن معاملة السوى بغير ما نريد ان يعاملنا به . ومن ثم فان كونفوشيوس والصينيين قد يخلصون أيضاً . أما الفكرة المركزية في كل ذلك فكانت رفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة الفداء بواسطة المسيح وضرورة النعمة ، اي بأسس المعتقد المسيحي .

وانتشر الاعتقاد كذلك بان شعوب اميركا وآسيا والمناطق الجنوبية لم تنحدر من آدم وان التوراة لا تسرد من ثم تاريخ الانسانية وعلاقتها بالله ، بل تاريخ شعب واحد فقط هو الشعب

اليهودي . فليس للتوراة ، والحالة هذه ، تلك القيمة السامية التي تعزوها الكنيسة اليها .

أما رجال الكنيسة من امثال غاسندي ، استاذ اللاهوت في « دينيه » ، وذوو الفطنة من من امثال « نوديه » أو « له فايه » ، أمين سر ريشليو ، فقد تخلصوا من الورطة باعتماد تعاليم بومبونازي حوّل اولوية الايمان على العقل ، وفصل العقل عن الايمان .

الاقدمون يحلون محل الديانة المسيحية الابيقوريون والرواقيون

ولعل ما كان ابعد خطورة من كل هذه الحملات ان الاقدمين وفروا وسيلة الاستغناء عن الديانة المسيحية ، فهل نحن نتوخى ادارة بيت وتربية اولاد ؟ هوذا « كسينوفون » . أم نتوخى الحكم ؟ هوذا ارسطو وافلاطون وتاسيت ، ام نقوض معركة سنن الكون ؟ هوذا بلين ولوكريس . أم الاستدلال على حدود الطبيعة والمعجزة ؟ هوذا كتاب « معرفة الغيب » لشيشرون . أم التفكير بخلود النفس ؟ هوذا « فيدون » و « حلم شيبيون » . وتوفرت عند الاقدمين ، بصورة خاصة ، تعاليم تتيحٌ للانسان ان يكفي نفسه بنفسه لمواجهة صعوبات الحياة وآلامها وقلقها الشديد ، تعاليم يملي فيها العقل ما تنفذه ارادة حرة . ورأى ابيقور ان قوام السعادة شرطان : « جسم بدون الم » وروح بدون اضطراب » . وان هاتين الحالتين هما التنعم ، غاية طبيعتنا الاولى وخير الانسان الأول . وان العقل السليم يملي علينا الاشياء والآراء التي يتوجب علينا تجنبها أو السعي وراءها بغية بلوغ هاتين الحالتين . وانه سيحدو بنا الى رفض ملذات كبرى . اذا ما تبين لنا ان آلاما اكبر ستعقبها ، ومعانقة آلام كبرى وطويلة اذا ما ثبت ان ملذات اكبر ستعقبها . وانه سيظهر لنا ان القناعة والنزاهة والعدل تضعنا في الحالات التي يصدر عنها التنعم ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . فغدا من ثم دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب « الحكمة » لبيير شارون (١٦٠١) الذي ادرج في فهرس الكتب المحرمة في السنة ١٦٠٦ وسار سواد الملحدين بهدي هؤلاء المرشدين .

وآثر غيرهم الرواقيين ، ابيكتيت ، سينيكا الذي حملت رواقيته طابع الابيقورية . هنالك أشياء يناط امرها بنا ، كالرأي والارادة والرغبة والكراهية ، وبصورة عامة ، احكامنا وتصوراتنا . نحن نسيطر عليها . نحن احرار . عقلنا يولينا القدرة على تصور الاشياء ، ورؤية صلاحها وسوئها ، وابتغائها أو النفور منها ، والسعي وراءها أو الانصراف عنها . القدرة على الحكم والارادة لا تخضع لاي قيد .

وهنالك اشياء لا يناط امرها بنا ، الجسم ، الممتلكات ، الصيت ، الكرامة . انها غريبة عنا وأمرها منوط بالآخرين .

اذا ابتغينا ما هو منوط بنا فقط ، اي احسان الحكم والتوفيق بين ارادتنا وحكمنا ، فسوف نكون سعداء لأن السعادة هي في الحصول على ما نبتغي .

ولم يكن الرواقيون ندرة بين القضاة والاشراف الريفيين . لا بل ان احد الرهبان قد طلب ان يدفن والى جانبه كتاب لسينيكا لم يفارقه في يوم من الايام . ولكن الابيقوريين كانوا اكثر عدداً ، وباتت الابيقورية ، بسهولة ، نفعية وقمت موقع الرضى من الذهنية البورجوازية . فاعتنق هذه التعاليم رجال قضاء اشراف من امثال « دي فير » و « دي تو » و « دي مسم » و « موغور » و « سيفيه » و « هارلي » ؛ وبورجوازيون ، ابناء تجار واطباء وضباط ملكيين ؛ وكنسيون ومهذبون ووكلاء خزائن كتب وامناء سر وزراء ومستشارون وسفراء واحبار وأمراء ملكيون ، من امثال غاسندي ، ابن المزارع واستاذ اللاهوت في دينييه ، ونودبه وكيل خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، و « لا موت له فايه » امين سر ريشليو (١٦٣١ — ١٦٤٢) ومهذب لويس الرابع عشر (١٦٥١ — ١٦٥٨) ، اجتمعوا نوادي ثقافية حول قضاة ناصروا الادب ، كـ « بيرسك » في « اكس » وقد كان على صلة بجميع انحاء اوروبا والرئيس « دي مسم » في باريس والرئيس « دي تو » في قصره حيث عمل وكيل خزائن الكتب ، « بيير » و « جاك دي بوي » (١٦١٧ — ١٦٥٦) .

الفجور

ولكن الانسياق وراء الطبيعة ، اي البحث عن التنعم ، قد عنى في نظر الكثيرين بتأثير فن الحس الفني المستهجن ، انفلات غرائز ، وحميا ارادة دون رقابة ، وتخطيا لكل الحدود . فكانت فترات القصور الشرعي وفترات الاصابة وعهد « ماري دي ميديسيس » وعهد « آن دوتريش » عهود مغازلات خطرة وقحم جنونية انصرف خلالها بعض الاشراف الريفيين ، من امثال الكونت « دي بلغارد » والدوقية « دي غيز » والمارشال « دي رو كلور » المقربين الى هنري الرابع والمدربين على المكامن والسلب والاغتصاب والاحراق بدافع من اهواء فظة ، الى العيش في اجواء الفجور الجنوني والمقاتلة والمبارزة والسكر والتجديف ، وتلهوا وانكروا الله وعاشوا عيشة من لا يؤمن . وبات مألوفا في بيئة بعض الشبان اعتبار الدين مخاتلة وخداعاً . وقد حدث ، اثناء حصار « لاروشيل » ، ان ضباطاً تمادوا في سخريتهم من رفيق لهم تكلم عن الله الى ان ارغموه على طلب تسريحه . ولم تختلف الحال ابان ثورة « المقلاع » (*La Fronde*) . ولفت الالحاد الانتباه بين النبلاء من حاشية « غاستون دورليان » و « كونديه » . فما هو عددهم يا ترى ؟ اجاب « مرسين » على هذا السؤال منبهراً بقوله : « ان باريس وحدها مبتلاة باكثر من ٥٠٠٠٠ ملحد » . وحوالي السنة ١٦٣٠ ، ذرف « بوشيه » الدمع أسفا على « مليون عقل مفقود » . ولكن كلا القولين صرخة الم لا قيمة احصائية لها . وبين السنة ١٦٢٣ والسنة ١٦٢٥ حدثت ازمة حقيقية . فقد صدرت خلال سنتين المؤلفات التالية : « قصة فرانسيون » ، « عروس الشعر المعوب » ، « حجرة الهجاء اللاذع » ، « ديوان شعراء الهجاء اللاذع » ، « صفوة الهجاء اللاذع » . وتناولت هذه الكتب مواضيع معادلة التقوى والرثاء وحق اللذة في التغلب على القانون . فكانت النتيجة موجة من الرعب . واعتقد المتدينون بوجود مؤامرة مبيتة . وبات « الالحاد » واقعاً معترفاً به وقوة يجب محاربتها .

٩ – اثر الحركات الفكرية والعاطفية في السياسة

أثرت كل هذه الحركات العاطفية والفكرية في الازمة السياسية والاجتماعية فجعلتها تتفاقم وتزداد خطورة . قال ريشليو : « ان نظام الدولة يفرض بعض التساوي في السلوك » . الا ان الاستهجان والالحاد والجلسينية ومركزية الشمس قد ابرزت ووسعت الاختلاف والتفاوت والفوضى . ووفرت وسائل المعارضة السياسية . وليس مصادفة أن يكون قادة الملحدين بين الأشراف الريفيين ، من امثال كونديه وغاستون دورليان ، قادة في الوقت نفسه لحركة مقاومة الملكية المطلقة . وليس مصادفة كذلك ان يكون الكثيرون من أدباء الاستهجان ، وهم الاعداء الالداء لكل نظام وسلطة وقسر ، في عداد « خدم » العظماء و « المتفانين » في سبيلهم ، مستعدين لخدمتهم بالتعليم كما يخدمهم غيرهم بالسيف . أو لم تغد الوان الفن نفسها مظاهر مقاومة؟ فها هو علم الاخلاق الارستوقراطية قد حث على الثورة بدافع من الحس الفني المستهجن، والأدب قد بات وسيلة دعاوة . وها هو كورناي في « نيكوميد » و « رودوغون » ، و« روترو » في « الامانة البريئة » و « بليزير » و « لاروشفوكو » و « رتز » في « مذكراتها » ، قد مجدوا هوى العظمة ، ورفض الخدمة ، والطباع الفظة التي تتكسر ولا تنحني ، والنفوس الكبيرة التي تستهوي المغامرات البطولية . لا بأس في ان تكون المغامرة اجرامية إذا هي انطوت على احتقار الموت وافضت الى السلطة . ان ما يفقد المرء اعتباره هو تحذره ، وتوسطه ، وبخله بالمه وبحياته، وعيشته مغموراً في الخفاء . كما ان الخطر الكبير هو السبيل الى المجد الكبير . أمـا الخير الاسمى فهو في ان نرغم الغير على عبادتنا ومحبتنا ومهابتنا ومقتنا .

المقصد المجيد شرعي ابداً
واذا اعتبر شراً ، فمرد ذلك الى تقدير ضعيف
صادر عن نفس موعوكة
القلب الكبير لا يدهش البتة أمام المخاطر الكبيرة
ومن لا يقدم على جريمة تتوج بالغار
يتقيد على حسابه بفضيلة فاشلة

(الامانة البريئة)

كل الجرائم جميلة اذا كان لها العرش ثمناً

(الامانة البريئة)

ان القلب الكبير يشتري الاعتبار الكبير بأي ثمن
وكل جريمة حلال حين تفضي الى أكبارنا

(بليزير)

أما الملحدون فقد تظاهروا باحتقار الجماهير الجاهلة الميقانة ، اي عامة الناس . ولكنهم من جهة ثانية حطموا البطل ، وهو احد المثل الاساسية في الملكية المطلقة . فقد توسع « رينييه »

« وتيوفيل دي فيو » ، بشكل شعري ، وبمزيد من العنف والتشاؤم ، في تعليم « مونتاني » ، وجزموا بأن الانسان ليس ملك الكون، بل نتاج قوى عمياء ، وامتزاج هواء ووحل ، خاضعاً لضغط الضرورة ، متحركاً بأهوائه ، العوبة المحبة والضعف والخطأ . فاني لمثل هذا الانسان التوق الى السلطة المطلقة ودور المخلص ؟ العقل الكوني خرافة . فعلى كل فرد ان ينقاد لطبيعته ويخضع لسنته الباطنية فقط . ليس للرذيلة من علة سوى الجهد الذي نبذله بغية السلوك بمقتضى الظروف ، ومن ثم بغية خيانة ذاتنا. واذا كان هنالك طماعون وجشعون ومراؤون، فمرد ذلك الى ان الانسان لا يريد ان يجد في ذاته غاية اعماله . يجب ان نتعلم « التمتع بذاتنا » . فغدت الحكومة والمجتمع من ثم السببين المسؤولين عن ضعف الافراد وكان معنى ذلك ان كل نظام وكل ايمان قويم وكل قانون اجتماعي وكل تضحية وكل مجهود بات موضوع سخرية وقضي عليه ، وان اسس المجتمع نفسها قد تخلخلت وتزعزت .

واقضت الجنسينية ايضاً الى تحطيم البطل . فهي قد صورت الانسان العوبة شعوره والصادة والمصادفة ؛ وصورت ابتغاء المجد غريزة تملك والسعي وراء الخير الاسمى حركة نفعية لاواعية وعمى قلب . فليس باستطاعة الملوك وقادة الحرب والوزراء ، من بعد ، ان يكونوا انصاف آلهة . وقابل الجلسينيون السلطة الخارجية بوصايا الضمير ، المستقل ، لأن الله نفسه يحركه . وانتزعوا من السلطة الحكم المانع في المسائل التي تقع تحت الحواس أو ترتبط بقوة العقل . ونظروا الى الرأي القائل اننا لا نخطىء حين نطيع ، نظرتهم الى شرك تنصبه محبة الذات ، معلنين خطأ السير ، والعيون مغمضة ، ووجوب التوجه الى الله مباشرة فوق السلطات القائمة ، الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقد برهنوا في كل شيء عن تقلقل ومعارضة . وحلم واضعو نظرياتهم البورجوازيون ، في سبيل مقاومة السلطة البابوية المطلقة ، بارستوقراطية اساقفة تختارهم مجالس الكهنة القانونيين ولا يتلقون الوحي من البلاط أو من القاصد الرسولي ؛ وفي سبيل مقاومة السلطة الملكية المطلقة ، وبطبقة شريفة من علية البورجوازيين تكون لها السيطرة في نظام دستوري .

وهكذا كان باستطاعة كل فرد ، في نضاله ضد غيره من البشر أو ضد الحكومة ، التوصل الى مبررات فكرية . فلم يكن القرن ، والحالة هذه ، سوى اضطراب وبلبلة وتشوش . وبدت المجتمعات الاوروبية وكأنها صائرة الى الفوضى والانحلال والزوال .

الفصل الثاني

مقاومة الأزمة

كان رد الجسم الاجتماعي ، على فوضى الحس المستهجن التي كادت تقضي عليه قضاء تاماً ، بذل الجهود بغية استعادة الوحدة العضوية ، الوحدة الكلاسيكية ، وهي شرط لا بد منه لحياته. كان الرد تلقائياً في البداية ، فنبع من نوع من التوازن بين النزعات البورجوازية ونزعات اشراف الجندية . وصدر بصورة خاصة عن اناس منحدرين من الاوساط البورجوازية ، كأعضاء المهن الحرة ، ورجال القانون ، والقضاة ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ما زالوا قريبين من البورجوازية ، وقد تعودوا كلهم ممارسة النظام والاقتصاد والسيطرة على الاهواء الخاصة بالبورجوازي . وما زالوا يحرصون على بقاء العائلة والملكية ويتعشقون الشرعية ويحترمون تسلسل السلطات والرئاسات القائمة ، ويتحلون بروح كلاسيكية بفضل تربيتهم الادبية . ولكن هذه الطبقة الصاعدة لم تتوصل بعد الى وعي ذاتها وعياً كاملاً . فان هؤلاء الناس ، الذين كانوا خدام الملك ، الشريف الاول في المملكة ، و « اجراء » العظماء ، واسياداً حديثي العهد ، ورغبوا في ان يعتبروا نبلاء وحجموا باعينهم الى المثل الارستوقراطي ، قد حاولوا ان يعيشوا حياة البطل الابي الذي يبذل نفسه في سبيل اله وسيده وسيدته والدولة والفكرة ، بسخاء كريم ، هو هوى نبيل يرتفع على ما غيره من أهواء ، وينظمها ، ويوحد الوعي . من اوساط هؤلاء بصورة خاصة ، ومن الندوات وقاعات الاستقبال التي يتم فيها الاتصال باشراف الجندية ، انبثقت نظرية مركزية الاله الاوغسطينية ، والكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية ، والكرتزيانية (الديكارتية) ، والحكم المطلق ، والروح التجارية والاهتمام للاستقلال القومي والعظمة القومية . ولكن العمل التوحيدي الكلاسيكي لم يتمكن من تحقيق النتائج الا بفضل الدولة الملكية المطلقة التي تبنت هذه النزعات وشجعتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى غير قصد أو وعي منها احياناً ، وأتاحت لها التفتح وأمنت لها نجاحاً عرف بعض الديمومة .

١ ـ المدرسة الفرنسية ،
ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية

بيرول

انتهى الاصلاح الكاثوليكي الى الاكتمال في نظرية بيرول (١٥٧٥ – ١٦٢٩) حول مركزية الاله بحسب التعليم الاوغسطيني . كان بيرول ابنا لأحد المستشارين في مجلس باريس التمثيلي وابن اخت لاربعة مستشارين آخرين في هذا المجلس وابن عم لمستشار فرنسا ، « سيغييه » . واصبح مرشداً لـ « هنريت دي فرانس » ملكة انكلترا (١٦٢٥) ، ثم كردينالاً (١٦٢٧) ، ثم رئيساً لمجلس الملكة الام « ماري دي مديسيس » (١٦٢٩) . وكان روحانياً ، من فئة مدام « اكاري » يمارس الحياة الداخلية والحياة التأملية .

الاوغسطينية

رجع بيرول الى القديس اوغسطينوس . وعن طريقه الى افلاطون والمثل المطبوعة ، بغية التمكن من مقاومة الالحاد والهرطقة والفتور . فاذا كانت طريقة المعرفة الاكوينية قد غدت حجة للابتعاد عن الله ، فلنرجع الى ذاتنا ولنخلق جوا من السكون الداخلي ، فتظهر امامنا المفاهيم الاولية ويظهر الله . فكما حدث في كل عهود الصوفية ، وفي عهد « برمنيد » ، توجب على الانسان ، في مقاومته التشتت والتعدد ، ان يبتعد عن العالم المحسوس ويحاول ان يشاهد ، في ذاته الكائن ، الواحد ، ويلامسه ، اذا صح التعبير ، ملامسة المادة للمادة . وهكذا شاهد القرن السابع عشر كله حركة اوغسطينية كبرى اسهم بيرول فيها .

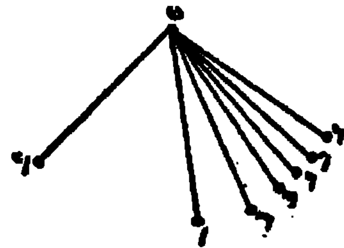

الشكل ٧ ـ رقاص غاليليو
(انظر صفحة ٢٦٠)

مركزية الله

ان بيرول ، الذي تقيد من جهة ثانية بالتعليم الكاثوليكي حيال الحرية ، اقتبس عن القديس اوغسطينوس شعوره بعظمة الله اللامتناهية وفناء الانسان . فاستخلص نتائج ذلك في « خطبة حول معالي يسوع » (١٦٢٣) . واراد ان يقوم بثورة كوبرنيكية ، تقول بمركزية الله . واراد عقل نيّر من عقول هذا القرن ، نقولاوس كوبرليكوس الدفاع عن ان الشمس هي مركز العالم ، لا الارض ، وانها ثابتة وان الارض ... تتحرك امام الشمس ... ان هذا الرأي ، الذي لم يعمل به كثيراً في علم الكواكب ، لا يخلو من الفائدة ويجب ان يعمل به في علم الخلاص » .

كان بيرول تلميذ اليسوعيين وتشبـع ، عن طريق القديس اوغسطينوس، من التأمل الاسامي حيث يقول القديس اغناطيوس: « يجب ان ننظر الى الله اولاً لا الى ذاتنا. وان لا نتصرف بوحي نظرنا الى ذاتنا والبحث عن ذاتنا بل بوحي النظر الخالص الى الله». فبيرول يريد ان يرد كل شيء «لا الى استفادتنا ومنفعتنا الروحية» بل الى تمجيد الله فقط ، دونما اعتبار لمصلحتنا او لقضاء حاجتنا الخاصة » . وان يحملنا الى الله « بعبادة عظمته وقداسته عبادة عميقة » فقط ، لان « اله المسيحيين عظيم » . فلا يليق من ثم ان نعتبره كصديق واب فقط . يجب ان نعامله باحترام نادر ، دون ان ننسى يوماً المسافة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الانسان . بذلك احيا بيرول الفضيلة الاولى ، اي فضيلة العبادة .

يقود بيرول الانسان الى هذا الاله المثلث الاقانيم بالتعبد للاقنوم الثاني ، الكلمة المتجسدة ، يسوع المسيح . فبالتجسد تألهت ، في شخص المسيح ، كافة الحالات البشرية التي افسدت واذلت في شخص الانسان الاول . ولم يبتغ بيرول من ثم سوى يسوع المسيح ولم يفكر الا بيسوع المسيح متأملا ومشاهداً اياه في اقل ظروف حياته شأناً: « لنذهب الى بيت لحم، لنذهب الى الاسطبل. لنشاهد يسوع طفلا ، لنشاهد مريم امه ، ويوسف معاونا الام والطفل . لنشاهد الاسطبل والثور والحمار . ولكن لنشاهد بصورة خاصة حالاته الداخلية في كل دقيقة من دقائق وجوده على الارض . فحياة المسيح ليست تتابع احداث تاريخية فحسب . ان اسرار يسوع المسيح سوف تستمر وتحيا في الارض حتى آخر الدهور . انها من عالم الماضي من حيث وضعها. ولكنها من عالم الحاضر من حيث قوتها » . العيش مسيحياً هو ان نعيش الاسرار ونتقفى حالات المسيح ونتمثل بالمسيح . يجب الا نسعى وراء الفضيلة لانها جميلة بذاتها ، متفقة مع العقل ، ضرورية لكمال الانسان ، كما يجب ان لا نبحث عنها للتميز عن الغير ، لاشباع رغبة شخصية ، لانتزاع الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والهراطقة والكاثوليك المزيفون هم الذين يسعون وراء كل ذلك . ان ما يجب عمله هو تمجيد يسوع ، وفي سبيل ذلك ، « الاستمرار في ممارسة الفضائل التي مارسها على الارض ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . . . السير على خطى المسيح . . اتمام فضائل يسوع المسيح » . يجب ان نموت لذاتنا كي نتيح ليسوع ان يوجد ويحيا فينا .

الصلاة البيرولية

بذلك يبطل اعتبار الصلاة مجرد فحص ضمير ، وتعبيراً عن رغائبنا وطلباً لاجلنا . فهي تصبح نظرة وضيعة للاعراب عن الخضوع والاعتزاز والمحبة الهيابة ، واتضاعاً ونكران ذات، وانخطافاً في الاعجاب ، في البهجة ، في عرفان الجميل الاسمى، ونشيد اعجاب وثناء . ولا تنطوي الصلاة من بعد على اسلوب لبلوغ الكمال أو للانتصار على الذات ، فهي ليست اذ ذاك سوى اقرار بخضوعنا لله ، وهبة ذاتنا لروح يسوع ، وعرض نفسنا أمام قدرة يسوع المسيح الذي يطبع بذاته ، في النفس ، آلامه ، وفضائله ، الالهية ، الفاعلة ، بايجاد ما يشبهها فينا . فضائل المسيح : « لننظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولننتظر من الله

بصمت ما هو مفيد لخلاصنا الابدي ؛ لنطلب بعض التأثر والاشتراك في فضائل يسوع المدهشة والالهية هذه ... ولنتوسل اليه ان يمد ساعد قدرته الكلية كي يطبعها فينـــا .. » ، ولنرتض ارتضاء كلياً بالعمل الالهي . لنقلع عن فحوص الضمير الخاصة ولا نتوقفن عند الفحص العـام . يجب الا ننظر طويلاً الى نقائصنا وخطايانا ، لاننا بذلك قـــد ننسى المسيح : « لا تنظروا الا الى ما هو جميل ... وما القصد من جمال يسوع الفائق الا اختطاف حياتنا في سبيل اسعادنا » . لنكرم في العذراء مريم « السعة الطاهرة » ليسوع ، وفي القديسين حالات يسوع التي احيوها في ذاتهم.هكذا سوف يُطعّم الانسان في يسوع الحي، ويثمر في يسوع الحي ، كالجفن في الكرمة . ويجب كذلك الا ينتهي الى مذهب التجرد لأن الفضائل لا يبرهن عنها الا بالاعمال ، والعمل هو غاية الحياة ، والنعم كلها تسبغ علينا حتى نحقق هذه الغاية . وكما ان حركة الآب الالهيـة التي تكون ابنه هي مصدر سر التجسد ، الذي يهب فيه ابنه الطبيعة البشرية، كذلك نحن سنذهب، بواسطة يسوع ، الى الثالوث الذي هو مصدر ومبدأ كياننا وكمال وغاية كياننا .

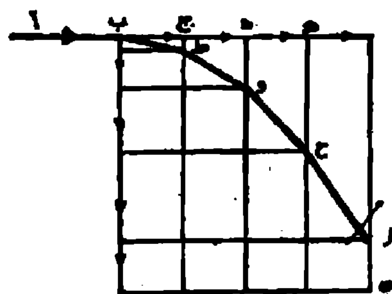

الشكل ٨ – نظرية غاليلير في القذائف
(انظر صفحة ٢٦١)

ان بيرول قـــد سار في ذلك على لاهوت القديس بولس والقديس يوحنا ، وتعليم القديس بولس حول الجسم السري . الذي لم يؤثر تأثيراً عظيماً في القديس اغناطيوس والقديس « فرنسوا دي سال » . اي انه شرح رسالة القديس بولس الى الرومانيين . وبعد ان هدم اساس مجـادلة الملحدين بافلاطونيته الاوغسطينية ، لم يترك للبروتستانت اي موضوع شكوى بتعبده الداخلي في الروح والحق ، الذي رد فيه كل شيء ليسوع ، وبيسـوع للاله الواحد المثلث الاقانيم ، والذي دعا ، لتقفي آثار المسيح ، كل البشر ، العلمانيين منهم والرّهبان على السـواء .

اذا ما اردنا التعبير عن فكرتنا تعبيراً بشرياً ، أمكننا القول انه تخلى عـن تدريب الارادة بحسب طرائق القـــديس اغناطيوس و « رودريغيز » ، التي كانت متشابهة كل التشابه بطرائق علماء الاخلاق العلمانيين ، بغية الاستعاضة عنها بطريقة مرتكزة الى الايحاء لأنها اعظم فاعلية في الارجح . فان وعي الحالة الداخلية والدوافـع والاسباب ، والضوء الملقى على الطبيعة ونتائج شتى المقررات الممكنة ، والاختيار الحر الصادر عن عقـــل نير ، وكل ما كان متعلقاً بارادة انسان سيد نفسه ، قد ابدل بتوفيق لاواع بين الكائن بكليته وبين مثـــال أنعم النظر فيه ، بتنفيذ هذا المثال وتهذيبه للاوعي أو للوعي الغامض . وهكذا فان تحويل جوهر الفرد قـــد خلف مقاومة الاعراض والظواهر .

رهبانية المعبد

جاءت مركزية الله البيرولية تتمة للنهضة الكاثوليكية. وقد عرفت الانتشار بفضل رهبانية المعبد التي أسسها بيرول في السنة ١٦١١ وضمت كهنة عالمين فرض عليهم احياء حالات يسوع المسيح الكهنوتية، وهو « الكاهن الاسمى »، في انفسهم، واعطاء المثل عن كهنوت كامل مقدس. وضع كهنة المعبد انفسهم تحت تصرف الاساقفة فقاموا بما انتظره منهم مؤسسهم. ونشر تلامذة بيرول روحه بمؤلفاتهم ايضاً (« ب. بورغوان »، « حقائق يسوع المسيح ومعاليه »، ١٦٣٦؛ « املوت »، « حياة الاب شارل دي كوندرن » ١٦٤٣؛ « ج. ج. اوليه» «كتاب التعليم المسيحي للحياة الداخلية» ١٦٥٥) وبتحقيقاتهم. فان جان جاك اوليه، الذي كان ابناً لاحد كبار المباشرين في فرنسا، وحفيداً لأحد التجار الجواخين، ومنتسبا لعائلة ضمت العديد من رجال الشرع وارتقت الى طبقة النبلاء منذ خمسين سنة، قد أسس، في السنة ١٦٤١، اكليريكية سان - سولبيس. منذ السنة ١٦٥٠، غدت خورنية سان - سولبيس في باريس، وهي خورنية بيرولية كلها قدوة لخورنيات اخرى كثيرة. ونافست كليات جمعية المعبد كليات الآباء اليسوعيين. وانتسب الى البيرولية فترة من الزمن كل من القديس « فنسان دي بول » و « بوسويه » و « سان - سيران » نفسه. وكان هنالك يسوعيون بيروليون ايضاً. ولكن العداء ما لبث ان قام بين البيروليين واليسوعيين، لأن البيروليين، الذين ساروا على خطى القديس أوغسطينيوس، قد ناهضوا المولينيين وعطفوا على الجنسنيين مع انهم استرذلوا هرطقات الجنسنية.

اثر البيرولية الشامل

ان هذه الحركة التي انبثقت من رزانة البورجوازيين ومنطقهم وصدق نزاهتهم، وتحولت الى الله بفضل عاطفة بيرول الحارة، قد محّصت الورع واوجدت في الكثيرين، لا سيا في فرنسا، احترام الله ومحبته المنزهة عن الغرض، والتفاني في سبيل القريب، ووسمت تقواهم وحياتهم بطابع من الوقار والحشمة وحققت فيهم وحدة الايمان والعواطف والاعمال، وجعلت منهم مسيحيين حقيقيين. فتأثر القرن كله بالبيرولية. وكان لبيرول، على ما يبدو، تأثير كبير على ديكارت. وأدت البيرولية الى تعزيز الكلاسيكية. فان مشاهدة اعظم الاسرار سمواً قد اعطت البيروليين معنى العظمة الحقة والطهارة، ونفرتهم من الفلاظة والتجبر، فاسهموا في انتصار العقل والعفة والبساطة والطبعية. وقد لوحظت اوجه التشابه بين ادب البيروليين الفائق الطبيعة نحو الله وأدب المتكلمين في العالم، بين تعابير بيرول وتعابير التكلف، بين مركزية الله البيرولية ومركزية المرأة، اي عبادة المتكلفين للمرأة. ويصعب التمييز هنا بين ما اذا كان هنالك تأثير متبادل او بادرة لجهود واحد سعياً وراء وحدة منظمة في نشاطات مختلفة. ومن هو الذي يستطيع ايضاح النتيجة الممكنة التي كانت لمركزية الله على الخضوع للملك، صورة الله على الارض، ولأثر فضيلة العبادة على توسع السلطة المطلقة؟ لا ريب في ان أثر اليسوعيين كان كبيراً عن طريق كلياتهم ومرشديهم، ولكن ربما كان أثر مركزية الله البيرولية اعظم شأناً وابعد عمقاً.

الغومارية

ان الحركة المماثلة للحركة البيرولية ، في اوساط بروتستانت الاقاليم المتحدة هي الحركة الغومارية . فالسينودس الدولي الذي انعقد في « دوردرخت » (١٦١٩) وهو اشبه بمجمع كلفيني عـــام ، جاء ردا على المجمع التريدنتيني ، قد اقر واشهر علنا مبادىء الراعي « غومار » . فاذا بها ابعد نظريات الكلفينية عبوسة : عجز الانسان عجزاً كليا بدون نعمة الله ؛ الفدية باستحقاقات يسوع المسيح وحدها ؛ القول بالاختيار للمجد السماوي منذ الازل بقرار لا يدرك غوره يصدره الله الكلي القدرة . واضيف الى ذلك مثل ثيوقراطيـــة تمارس بواسطة كنيسة ديموقراطية ، وادانة الرأسمالية ، الخ ..

٢ ـ الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية

اليسوعيون والكلاسيكية

اكملت مركزية الله ، عند بعضهم ، التربية التي وضع اليسوعيون اسسها . ومن جهة ثانية ، وجدت النزعات الكلاسيكية ، في التربية اليسوعية ، الوسائل التي تعززها . هذبت الكليات اليسوعية عقول وقلوب العدد الاكبر مـن الاشراف الريفيين والاثرياء البورجوازيين في البلدان الكاثوليكية . فديـــكارت وكورناي « وبوردالو » وكولبير و « اود » واوليبه كانوا من تلامذتها . وسعى اليسوعيون وراء انتصار هوى معين في الفرد ، هو محبة الله . ولكن هذه المحبة يجب ان تنتصر بالارادة . ارادة الانسان حرّة . اجل لقد فقد الانسان حرية التصرف بالخطيئة الاصلية : ولم تعد ارادته محررة مـن كل مقاومة تبديها الاهواء . ولكنه احتفظ بحرية الارادة : فباستطاعة ارادته ان ترفض او تقبل ما تعرضه الاهواء عليها . يتمتع الانسان بالعقل ، وهو القدرة التامة على تقدير قيمة افـكاره على ضوء المعرفة الطبيعية . وفي أثناء مذاكرة داخلية ، يقترح العقل على الارادة ، بشكل مفاهيم مجردة وشاملة ، حلولاً تقبلها او ترفضها . وهكذا يستطيع الانسان، حتى بدون النعمة ، تجنب الخطيئة وتحقيق كماله .

اعد كل شيء في التعليم والتربية بحيث تحقق ارادة التلميذ انتصار ارادة الله في ذاته ، وبحيث يموت الانسان الصغير لنفسه ويتحول الى انسان جديد . ودُرب الولد والفتى على الركون الى الهدوء ، وتجنب التأثرات العنيفة ، كالحزن والجزع ، التي تشوش العقل وتضعفه ، واعتبـــار الاحداث المقمة وكأنها مرسلة من السماء لخيرنا الاعظم، والانصراف ابدا الى التأمل والاستجمام. وكانت فحوص الضمير ، الخاصة والعامة ، كثيرة جداً . فكان من الواجب الخـــلو بالنفس ، واستبطان الحياة الداخلية، واستجلاء الرذائل والنقائص الاخلاقية والشهوات والافكار الاثيمة والميول السيئة ، والقاء نور ساطع على منبـع الشر ، وما كان الحل من الخطايا ليعطي الابناء على تعهد المعترف تعهداً صريحاً بالعمل على تقويم اخلاقه .

نظمت كل الحياة المدرسية بغية خلق عادة اخضاع كافة النشاطات لاوامر الضمير . ففرض

النظام الشديد ، في المكان والزمان ، كتهذيب يعود بالخير على العقل . واعتبرت الدقة في التقيد بالمواعد كتمرين للارادة يكبح جماح الهوى الفردي وجماح المخيلة ويروض الشهوانية . وتوجب التدرب على عمل ما يجب عمله ، لا عمل ما يرغب فيه الانسان.فرنة الجرس المؤذنة بالنهوض من النوم انما هي صوت الله الذي ينادي ، والتقيد بالنظام ، انما هو واجب التلميذ الاول .

وحوفظ على التهذيب كما على النظام . فحظرت الصيحات والقهقهات والاحتدادات لأنهـا اعتبرت تخلياً عابراً عن السيطرة على النفس . واعتبر التهذيب زهر المحبة : ان المسيحي يفضـّل الملك لأنه ابن الله . وكان من الواجب ملاطفة الآخرين واظهـار المحبة بمبادرات المجاملة ، وبالابتسامة .

لم تكن كل هذه الانظمة اذن كبحاً لجماح قوى داخلية ، بل توجيها . والمنافسة كانت مذهباً وطريقة . فقد استـُنهض الشرف والعزة والطموح الى المجد،ولكن هـذه المفاهيم حولت نحو تحصيل مجد القديسين ومجد القادة الظافرين في خدمة وطنهم والتضحية بالذات على مذبح الدولة. وهكذا فقد علـّمت الآداب الكلاسيكية بعد تكييفها وفاقاً للذوق العصري ، وازيـل الفاسد من مؤلفات المؤلفين الدنيويين ثم فسرت تفسيراً مسيحياً . وحصر الانتباه في فضائل الانسان الاساسية : العدل ، الوفاء ، احترام الوعود ، الشجاعة . وفي الاعياد المدرسية ، دارت مواضيع التمثيليات والخطب حول التاريخ القومي : جان دارك ، استيلاء الصليبيين عـلى اورشليم ، استيلاء بودوين على القسطنطينية ، سجايا ملوك فرنسا ، الخ . وهكذا فان المسيحية لم تُدن غرائز الطبيعة العميقة ، وهي من صنع الله ، بل نظمتها ووفقت بينها .

ان هذه المميزات جميعها : توجيه الاهواء القوية واستخدامها بعد تنميتهـا تنمية مطردة ، الاهتمام الشديد بالحياة الداخلية ، تشغّل البال بما هو شامل وواضح ومتميز ، سيطرة العقـل والارادة ، انما هي مميزات كلاسيكية . وقد اسهمت هذه التربية الدينية اليسوعية الطراز في انطلاقة الكلاسيكية .

الكلاسيكية الادبية : القواعد والكلاسيكية

ان القواعد ليست الكلاسيكية ، مع ان اللبس بينهما سهل الحصول. افتخر الكلاسيكيون باحترام القواعـد واستخدموها . ولكن الكتاب الذين استعبدوا لها كانوا ضحاياها ، وربما خالفها كبـار الكلاسيكيين اكثر مما احترموها ، الا انها قد اسهمت في اضفـاء بعض طباعهم على المؤلفات الكلاسيكية .وهي اسهام في مقاومة الازمة نهض به اناس كلفوا بالنظام الاجتماعي كلفهم بالادب، ولكنهم افتقروا الى القوة الخلاّقة ، وهي ليست سوى مظهر خارجي وثانوي مـن مظاهر الكلاسيكية .

أما منشأها فيعود الى تبني ارسطاطاليـية اصحاب النظريات الفنيـة من الايطاليين المولعين بالفن الشعري، من قبل الجيل الذي رأى النور حوالي السنة ١٦٠٠ واقتضت مضجعه الحاجة الى

الوحدة . ويعود الفضل الاكبر فيها ، في فرنسا ، الى شابلين (١٥٩٥ — ١٦٧٤) . فعمل بهذه القواعد بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، ثم اهملت بعض الاهمال ابان اضطرابات منتصف القرن الى ان عمل بها مجدداً بين السنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠.

على العقل ان يراقب الفن ويبرر القواعد ويمنع الخرافات المخيلة ، القوة الدنيا المشتركة بين الانسان والحيوان . العقل ثابت وشامل ومسلم به في كل زمان ومكان . والذوق السليم هو العقل في وظيفته النقدية . العقل يملي على الفن غايته . وغايته تهذيبية : تنقية الاهواء وتوفير الامثلة الصالحة والحكم الغراء . والعقل يملي قواعد من شأنها اتاحة خلق الجمال وايقاظ التأثيرات والعواطف المتوخاة . قاعدة استخدام الطبيعة : ولكن الواجب يقضي بالنسج على منوال طبيعة مثالية وانتقاء المميزات الواجبة الحفظ في الطبيعة الخام ، وابرازها وتنظيمها ، وبالنسج بصورة خاصة على منوال الطبيعة البشرية ، أجمل الطبائع طراً. قاعدة تقفّي القدماء، لانهم يصلون في مؤلفاتهم الطبيعة المثالية دونما نقص والتباس . ومن الصواب على كل حال ان لا ننقل عن القدماء الا ما يمكن تطبيقه على الزمن الذي نحن فيه . قاعدة الاحتمال العقلي ، وقياسها الرأي المشترك ، تنتهي الى ما يجري اعتياديا . قاعدة اللياقة : الامتناع عن الجمع بين الجد والمزاح ، وتحلية الاشخاص باخلاق لا تتناسب وصفتهم ، والاخلال بالحشمة وآداب المجاملة ، وعرض الاختلاق البربرية والمستهجنة ، والقدعة. يجب الاعتدال في عرض ما هو مدهش وعجيب واقصاء الاعمال السحرية والمعجزات المسيحية . ويجب التقيد بوحدة الموضوع ، اي وصف موضوع تام واحد لا يمكن انقاص اي من أجزائه دون تفكيك الاجزاء الاخرى . ويجب التقيد تقيداً صارماً بوحدة الزمان والمكان . فلا يجوز ان تمثل المسرحية احداثاً تستغرق اكثر من دورة شمسية ، وقصة تمتد الى اكثر من سنة وقصة راعوية غنائية تدوم اكثر من ساعة . ولا يجوز اخيرا ان تتشابك الالوان ، المأساة والتمثيلية المحزنة المضحكة والمهزلة ، والقصيدة الجدية — الهزلية ، والقصة ، والشعر الراعوي والشعر الغنائي والشعر الهجائي : ان لكل من هذه الالوان نمطاً مثالياً يجب التقيد به .

حاول الفنانون الكلاسيكيون العمل بمقتضى هذه القواعد لانها سارت وساهم نحو الوحدة في اتجاه واحد . ولكنهم خالفوها مراراً كثيرة فتناولهم النقد العنيف. ولعلها ادّت لهم خدمات جلى كصعوبة اضافية وجب التغلب عليها . فالفنان الحقيقي انما يبحث عن المادة الصلدة التي ترغمه على تركيز قواه . ولكن القواعد ليست الكلاسيكية . فالكلاسيكية حياة هي

الكلاسيكية انتجت الكلاسيكية خير ما انتجت في فرنسا . وقد حددها « ماليرب » وديكارت في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الى الوجود بفضل المجهود الخلاق الذي حققه كورناي وبلزاك وباسكال وراسين وموليير وبوالو .

ان الكلاسيكية هي في الدرجة الاولى قوة داخلية ، وثبة حيوية ، ثورة أهواء ، حاجة

الى توفير القوة ، والى الانتاج والخلق . اذا كان الكلاسيكي اقل قوة ، فقد يغدو مستهجناً بسهولة كما يشاهد ذلك في مؤلفات ماليرب و كورناي وبوستويه في مراحل فتورهم وتكاسلهم . فحين يتثاقل ذهن ماليرب نراه ينفخ الواقع ويشوهه ويفخمه ويضخمه كما فعل روبنس واذا كانت رحلة ماري دي مديسيس«و الصيرفية الكبرى » ، من توسكانا الى مرسيليا ، رحلة طويلة وشاقة فمرد ذلك الى ان نبتون (اله البحر) الذي اصيب بسهم الحب قد اراد الاحتفاظ بها في امبراطوريته . وحين تعود « شارلوت دي مونمورنسي » الى البلاط ، يقول بلسان هنري الرابع :

« لقد عادت هذه الكواكب المعبودة

التي يستمد اوقيانسي مدّه وجزره منها »

ولكن قوى الكلاسيكية الداخلية ، اكبر من ان تبقى في اجواء الجلبة . فان قدرتها تتيح لها ان تجعل من الهدى حمة متلظية عن طريق المشاهدة في السكون الداخلي والتمعل الذي يربط بهذا الهوى شتى انواع البواعث . الهوى المسيطر يتغذى بغيره من الاهواء وينظمها . هذا هو مصدر المميزات الاساسية للمؤلف الكلاسيكي . فهو في الدرجة الاولى تركيز قوى . الكلاسيكي لا يضعف قدرته الداخلية بل يوجهها . يغني بعض الاهواء خوراً ويضعف بعضها الآخر بغية تحويل قوتها الى الهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يجعل من الاهواء الثانوية خدمــاً للهوى الرئيسي . الكلاسيكية هي القوة بحدودها القصوى .

من هنا تنبع الوسائل التي تستطيع تحقيق تركيز القوى ومن ثم مضاعفة الحياة.الكلاسيكية علم سنن جمال الوحدة . والمؤلف الكلاسيكي ، كما كتب ديكارت الى بلزاك في « الرسالة اللاتينية» (١٦٢٧) ، هو جهاز عضوي ، كلّ نابض بالحياة ، ترتبط جزئياته بالمجموع ويتوجب على كل قسم من أقسامه وكل عنصر من عناصره التعاضد في سبيل بلوغ الغاية المنشودة ، اعني بها التأثير الواجب خلقه والحقيقة الواجب اثباتها . هكذا يتم وضع المؤلف . وهو ينطوي على منطق داخلي ليس رقة كلام مدرسية بل اكتشافا لنظام عميق وطبيعي في الاشياء وفي تركيبها الداخلي وعلائقها الشاملة والضرورية يعبر عنه بفكرة عامة تتفرع عنها الفكر الثانوية ، فيحظر من ثم الخروج عن الموضوع وغمر الجوهر بتفاصيل لا طائل تحتها . يجب التوسع في ما هو جاف جداً ؛ وتخفيف ما يكون كثيفا وملتفا . ويجب ان يبرز المؤلف تقدماً تدريجيا منتظماً يظهر في الانتقال من برهان الى آخر ، ومن فترة ازمة الى اخرى يجب ان يكون الفكر منسقاً والتسلسل خالياً من كل عيب . يجب اقصاء ما هو تقريبي ، وما هو غير متلاحم ، والبرهان الرهل ، والوقائع التي ترتبط ارتباطاً سيئا بالمجموع ، والاستدلالات التي ليست نتائج طبيعية للوقائع . ويجب ان تكون اللغة مهذبة وجلية وصحيحة .

الكلاسيكية حقيقة سامية . القوي يريد مــا هو كائن . نيتشه احب القرن السابع عشر . الكلاسيكي يريد في الدرجة الاولى ، وفي كل شيء ، ما هو حقيقي ، لا واقع الظواهر ، بــل

الحقيقة العميقة ، حقيقة مصادر الاهواء ، حقيقة علل الكون. هذا ما يفسر حرصه على النظام الذي هو التعبير عن النظام العميق في الاشياء . وهـذا ما يفسر الحرص على التحليل الداخلي والهمة في استبطان ادق انواع العواطف والاهواء والارتقاء الى اسبابها الخفية . وهذا ما يفسّر السعي وراء ما هو شامل وازلي ، اي اعمق ما هو حقيقي ، الذي يستحيل التعبير عنـه اذا لم نبلغ التناسق والنبل والعظمة والاتقان والانجاز والكمال. وهذا ما يفسر تجنب الفلاظة المضحكة والواقعية الفظة أو الشعبية التي تمت بصلة الى الاستهجان و تتعمد الفظاظة السهلة . وهذا مـا يفسر النفور من المجازات الشعرية . ففي « رسالتـه الاولى الى الملك » اظهر « رينييه » فرنسا توجه من أعلى الطبقات الهوائية ، خطبة الى الثائرين ، فسأل ماليرب عن زمن حدوث ذلك : فهو قد بقي في فرنسا منذ خمسين سنة ولم يلاحظ قط انها ارتفعت من مكانها . وهذا مـا يفسر الحشمة في التعبير . فالكلاسيكي يبحث عن الكلمة التي تنطبق انطباقاً كلياً على الواقع دون ان تشوهه أو تضيف شيئاً اليه . لا بل يفضل البقاء دون الواقـع والاشارة اليه اشارة فقط خوفاً من ان يجسمه . لذلك يجب البحث ابداً عن الكلاسيكي وراء تعبيره . وهذا مـا يفسر اخيراً الحاجة الى الوضوح ، لأن الابهام لا يسمح بمعرفة ما اذا كنا على صواب أو على ضـلال . المبهم قد يكون حقيقياً مثل الواضح، ولكننـا لا نستطيع التثبت من ذلك . الكلاسيكي يبذل ما بوسعه حتى يأتي فكره قريب المنال مباشرة ودون جهد . لذلك يتجنب اللبس والاضمـار والتحريف والمفردات النادرة أو الغامضة والكلمات المماتة والتعابير الفنية . فان مـا أراده « ماليرب » ، حين طالب بحمالي « بور اوفوان » لاسياده ، لم يكن سوى رفض التعابير الصعبة، لان اسياده كانوا في قاعات استقبال البرلمانيين ، في قصر « رامبويه » وفي البلاط . الكلاسيكي يريد لغة جلية ، كلمة واحدة لفكرة واحدة، ومعنى واحداً لكلمة واحدة. انه يبسّط ويوحد ويحدد معنى الكلمات وتراكيب الجمل .

ان الكلاسيكية والحالة هذه حياة عميقة القرار . ولا عجب من ثم اذا ما ازدرى الفنانون بالقواعد الضيقة والمفصلة التي لا تستجيب لغاية المؤلف الكلاسيكي . فهم لا يسلمون الا ببعض القواعد الكبرى العامة التي تفرضها طبيعة الأشياء ويقبل بها العقل البشري . وهم محدثون دونمـا وجل . يرفضون سلطة الاقدمين ويعجبون بهم ويتذوقونهم في آن واحد ، ولكنهم لا يريدون منهم سوى الروح الحيـة ، لا الصيـغ ، وجوهر مؤلفاتهم، لا طرائقهم . الكلاسيكيون يبتغون الحرية ، ويهتمون في الدرجة الاولى للارضاء ، لان المطلوب هو ارضاء عالم محـدود من الهواة في البلاط والمدينة الذين يعيشون الكلاسيكية ؛ فيغدو الاركان حينذاك الى ذوقهم وحكمهم، والى روحهم الرقيقة بالتفضيل على روح النقادين الهندسية ، اكبر ضمانة لهم. « القاعدة الكبرى بين كل القواعد هي الارضاء » ، حين نكون أمام جمهور كلاسيكي . لا بل ان الكلاسيكيين يخلقون اشخاصاً احياء خلقاً ثانيـاً . كما ان هوامم المركز يحيي في ذاتهم صور وعواطف اولئك الذين يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون

ككل فرد منهم مداورة . اضف الى ذلك ان مبدأهم في الوحدة هو نفسه مبدأ الحياة . وليس من حياة دون مبدأ تنظم الكائن الحي . فان اوغسطوس واغنيس و « هرباغون » و « فيدر » يحيون حياة ازلية وشاملة .

الكلاسيكية في الفن

ان هذه المميزات الاساسية توجد في الفن ايضاً. فلننظر الى بوسين (١٥٩٤ — ١٦٦٥) مثلاً . انه يجسد الفن الكلاسيكي في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ، حلل الجمع الملكي للتصوير لوحاته في اجتماعات خاصة عقدت لهذه الغاية كما يفعل اللاهوتيون في تحليل نص مقدس . كان زبنه من بين الاشراف والبورجوازيين : الملك لويس الثالث عشر الذي كان بوسين رسامه الاول (١٦٤١ — ١٦٤٢) ، الدوق دي ريشليو ، الدوق « دي كريكي » ، رئيس المحاسبة « باشار » ؛ ناظر المالية « موروا » ، الصيرفي الباريسي ، بوانتيل ، التاجران الليونيان « سيريزيه » و « رينو » . ولكن زبن هذا الفرنسي ، الذي قام في روما منذ السنة ١٦٢٤ كانوا من غير الفرنسيين ايضاً : البابا اوربانوس الثامن ، آل بربريني ، صاحب المقام الرفيع « كاسيانو دل بوزو » ، الكردينال مسّيمي . وأما لوحاته المعدة للدور الخاصة فوسيلة ثقافة العقل .

كان شهوانياً تميز بالرغائب العنيفة ، المتنوعة ، المتناقضة . استهواه العري اللحم الجميل . جسد حورياته وآلهاته يعبق لذة وتنعماً . احب الطبيعة . ففي لوحاته ، التي باتت قاتمة جداً ، يرى النظر تأجج الافق عند مغيب الشمس تأججاً بطيئاً يتميز بانواره المنعكسة الصهباء . ولو استسلم الى ميوله ، لانتهى حتماً الى الاستهجان .

ولكنه يركز قواه . فهو ينشد الحقيقة اولاً . ويعرف ان طريق الوصول اليها هي الانطلاق من الظواهر . يجمع معلوماته بضبط كلي . في السنة ١٦٣٨ ، اكتشفت فسيفساء « بالسترينا » التي تمثل الاحتفالات المصرية . فعمد اذ ذاك ، وهي المرة الاولى والاخيرة في حياته ، الى احتذاء مثالها . صوّر كل تفاصيلها ثم استنسخ هذا أو ذاك منها في لوحاته استنساخاً لا يتميز عن الأصل وكأنه عالم آثار ينشر مكتشفاته . قاس ابعاد تمثال « انتينووس » وتماثيل يونانية شهيرة اخرى ليستوحي نسبها الصحيحة . استضاء بنور التاريخ ، فوجد في مؤلفات « بلوتارك » التاريخ الصحيح لوفاة « فوسيون » ، أي ١٩ مونيخيون . وعلق بذاكرته ان الفرسان نظموا يومذاك تطوافاً اكراماً لـ « زفس » . فأدخل من ثم ، في « مأتم فوسيون » ، موكب نزهة الفرسان بين الاشجار البعيدة تحت اسوار اثينا . وهو ، على غرار الكلاسيكيين ، لا يقبل بالكذب ، « هؤلاء الشعراء يتقيدون بنظام اشبه بنظام العلماء » .

بيد ان بوسين ، وشأنه في ذلك شأن الاوغسطينيين وديكارت وكافة الكلاسيكيين ، يتخطى الظواهر ويجد في أثر المنطق الداخلي والمطابقات العميقة والنسب الضرورية وسنن الكون ، الى ان يصل من بعدها الى مبدئها المشترك . « ان الفتيات الحسناوات اللواتي يمررن في شوارع «نيم»

لسن دون جمال اعمدة «البيت المربع » بهجة العقل لان الاعمدة ليست سوى صور قديمة للفتيات » . فهو لا يستنسخ لحب ، بل يلاحظ . ينظر الى الاشياء بقوة ويكثر من الملاحظات حول الابعاد والاشكال والالوان . ثم يترك الحس يتحول الى تمثيل ، والصور تتبسط وتتوحد ، والعنصر الاساسي ينبثق وينبعث . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يستلهم الصورة الداخلية ويرسم رسوماً اعدادية يبحث فيها لا عن مجرد التشابه بل عن النسبة العميقة . اضف الى ذلك انه يهتم في الدرجة الأولى للانسان الداخلي ويبرز العواطف بحلمات الاجسام ويعبر عن التحاليل السيكولوجية بالاشارات . ويؤنس المناظر الريفية حيث ترتدي الاشجار طابع الاعمدة .

يركز ويوحد ، شأن كل كلاسيكي . ان التصوير ، في رأيه ، هو قبل كل شيء اثبات وجود ارادة انسانية . « لا يجوز ان ترسم يد الانسان خطا واحداً لم يتكون في عقله من قبل » . فوسين يتجنب كل ذكرى وكل تقليد وحتى تقليد نفسه : يجب ان نخلق لا ان نعيد . ينضج موضوعه على مهل في ذهنه . يبحث اولاً عن « فكرة » اللوحة ، عن معنى ما يصور . ثم يترك جلبة الصور الداخلية تهدأ وتسكن الى ان تتراءى له كل النسب ونتائج الفكرة التي ينطلق منها . ينظم موضوعه بحسب المنطق الداخلي الذي يقتضيه اخضاع الاجزاء للفكرة العامة والتفاصيل للمجموع . ثم يقذف بما حققه في الداخل الى الخارج كما يفعل ديكارت في حقل العلم[1]. وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط الاجزاء كل ما من شأنه خلق التأثير المنشود والتعبير عن الحقيقة السيكولوجية ويقصي كل ما يبددها ويعاكسها ويضعفها . كل شيء عنده مصدر اختيار معلل بغية بلوغ الخلوص والصفاء . فلوحته « الطوفان » هي تصوير الصلاة المرفوضة ويأس الانسانية المهملة : الذراعان المرفوعان في حركة المصلي يعبران عن الصلاة ، ولكن السماء الوحيدة اللون ، المثقلة ، العمياء ، وتساقط الرماد الاربد العابس ، بدلاً من تساقط المطر الطبيعي بالوانه اللامعة ، واخدود الوميض الشاحب كل ذلك دليل غياب ورفض اجابة : ما عاد الله ليعرف الانسان .

يتميز بكل ما يتميز به الكلاسيكي . فهو مليء بالحياة ، يهتم ابداً للارضاء ، ولا يسهى عن باله البتة ان غاية التصوير هي « الاستمتاع » ، التنعم بالضوء والاشكال . خبأ في لوحاته كنوزاً سيكولوجية صحيحة . تحلى بحشمة التعبير . قد تبدو لوحاته ، في الوهلة الاولى ، جامدة ومعتمة : ولكن لننعم النظر ؛ كل ما فيها يحيا ويشتعل ويهتز كما لو كان التصوير يحتوي على « المطلق » الحي .

الاخلاق الكلاسيكية

الكلاسيكية حياة . فهي لا تستلزم من ثم مفهوم جمال واسلوبا للبحث عن الحقيقة فحسب ، بل فكرة عن الخير ووسائل صنعه ايضاً . ولذلك فان علم الجمال يشمل منطقا وعلم اخلاق ايضاً .

ان منطلق الاخلاق الكلاسيكية هو في ابتغاء القوة ، التي يريدها الكلاسيكي قوة كلية .

فالكلاسيكي يريد ان يكون حراً ، اي ذا قلب لا تجد تعديات الغير وسهام القدر والاخفاقات والخوف من الموت الى قلبه سبيلاً . يريد ان يكون متفوقا . لا يريد ان يخضع الا لقراره الخاص ولحكه على قيمة الاشياء . فالكلاسيكي من ثم ينكمش على نفسه ويركز انتباهه الى اهوائه والافعال التي تلازحها على ارادته ، ويصدر احكاماً حازمة ومحددة على هذه وتلك وعلى قيمتها بالنسبة لارادته . ويقابل في حوار داخلي بين الدوافع والمبررات والنتائج . ويقرر الاختيار بحكم يعين ما هو صالح ومرغوب فيه . ويصوغ حكمه مبادىء واضحة رزينة معدة لان توجه كل الاهواء نحو ما حكم هو بصلاحه . قد يسيء الكلاسيكي الاختيار وقد يخطىء في حكمه ، فيندفع اذ ذاك نحو الجريمة . ولكن مبدأ الاخلاق هو في التقيد بالحكم . ومرد ذلك ، في حال اتضاح بطلان الحكم ، الى ان الموضوع ينقلب او يتحول ، كما حدث لاوغسطس « وسنّا » و « اميليا » . وفي تصميمه هذا على فعل كل الاشياء الفضلى ، يجد الكلاسيكي سعادته القصوى :

ايها الحظ ، مهما تكن الشرور التي يوجهها جفاؤك الي
فلقد اهتديت الى وسيلة لاستخلاص البهجة منها .

(هوراس)

ان هذا التصميم الحازم الثابت على العمل بوحي حرية الارادة ، هو الفضيلة السامية ، النجابة المنبثقة من تفوق قوة البطل ، النجيب . القوة الداخلية تدفع بالنجيب لان يخرج من ذاته ويهب نفسه ويحب .ويحب النجيب في الآخرين ويريد في الآخرين ،قبل اي شيء آخر ، خير ما عندهم ، اي نجابتهم الخاصة ، وحرية ارادتهم الخاصة، ويسمو بمحبته شيئاً فشيئا نحو «الكائن» الواحد المطلق الحرية ، المطلق النجابة ، اعني به الله . وتنتهي الاخلاق الكلاسيكية الى اخلاق محبة وانعتاق ، كما نرى ذلك في التدرج الجميل الذي يقود من الا « سيد » ، عن طريق « هوراس » و « سنّا » ، الى «بوليكت» . الواجب يقود السيد الى قتل والد خطيبته ، ويقود هذه الاخيرة الى المطالبة بموت من تحب ، وكل ذلك بوحي نخوة بطولية ترفض الضعف وتضن بكرامة العائلة : الفضيلة هنا هي هبة الذات حتى الموت في سبيل ما يعتبر خيراً . ثم يحقق هوراس تقدماً الى الامام . ينقطع بكليته لدولته ، لاستقلالها ، لسلامتها ، لعظمتها ، ومن ثم لحرية مواطنيه الجماعية .وهو لا يحيا الا في سبيل الدولة ، ولكنه يقدم فرحاً ، بوحي ذلك ، على قتل ثلاثة اشخاص يحبهم . ثم يحقق اوغسطس تقدماً آخر ايضاً . يريد ان يسيطر في نفسه ، نهائياً ، على الخوف والانتقام . لا يريد الانتصار الا بفعل حرية ومحبة متفوقتين ، يريد ان يوقظ ، في سنّا وفي اميليا ، محبة الخير الحقيقي والمنافسة ، اي الرغبة في ان يصبحا نظيريه . ويسلم « بوليكت » اخيراً بملء ارادته الى الله ، الكائن الكامل ، الذي يوفر للانسان النجيب ، اكثر من المرأة والوطن والانسانية ، موجبات الخدمة والتفوق على النفس وتناسي الذات . المحبة الالهية تحوّل نفسه . بولين تخضع

لسلطتها ، فتتخلى عن محبة « ساريروس » وتندفع في محبة بوليكت لانه يجسد المثل الاعلى الذي كانت تهواه وتبحث عنه ، ولانهـا تراه كما تتوخى هي ان تكون . « بوليكتي ... » : فبوليكت هو هي لانه كما تتوخى ان تكون. «صوّر كورناي البشر كما يستطيعون ان يكونوا، كما يكونون ، عندما يصممون بشجاعة على ان يكونوا بشراً» .

انطلق الكلاسيكي من الاخلاق الارستوقراطية والبطولية، ولكنه تعمق فيها واندفع نحو الحقيقة السامية بفعل القوة الداخلية . فتوصل الى اخلاق كافة البشر مهما كانت طبقتهم وجنسهم وزمانهم وبلادهم ، الى الاخلاق المطلقة الحقيقية ، النابعة من اعمق ما في الانسان الذي تتمتع حرية ارادته بقوة لا حدود لها ، الى الاخلاق الانسانية .

٣ - الكرتزيانية (الديكارتية)

ثقافة ديكارت

ابتكر ديكارت المذهب الاجمالي والعلم الشامل الضروريين لاجهاز هزيمة الارسطاطاليسية بالحلول محلها . ولد في فرنسا وانتسب لعائلة بورجوازية كانت في طريقها الصاعدة نحو طبقة الاشراف. كان اجداده من جهة ابيه اطباء وابوه مستشاراً في برلمان بريتانيا ، ووالد جده من جهة امه وكيلا عاماً لمحكمة بداية « بواتييه » . طمعوا كلهم بان يصبحوا فرسانا وغالبا ما اعلن ديكارت انه احد اشراف بواتو الريفيين. تلقى تهذيب طبقة الاشراف في كلية « لافليش » للآباء اليسوعيين . وبعـد ان تلقى بعض الدروس القانونية ، عاش عيشة اشراف الجندية وخدم في جيش « موريس دي ناسو » في السنة ١٦١٨ ، وفي جيش « موريس دي بافيير » في السنة ١٦١٩ .

منذ هذا العهد ، وعلى غرار غاليليو ، أخذ يعالج العلوم الطبيعية بالرياضيات ، وفي تشرين الثاني من السنة ١٦١٨ ابعد صورة الثقل الجوهرية ورد الثقل الى الحركة . ومنـذ سنة ١٦١٩ — ١٦٢٠ كان قد وضع أسس علومه الطبيعية في منهجه وفي ذهنه ردها المادة ضمناً الى المساحة فقط . ولكنه، شأن كل معاصريه، لم يتوصل بذلك الا الى مزيد من الشك والارتياب والتشويش. الا انه كان انساناً متديناً جداً ، فبدا له ان هذا الوضع اثقل من ان يطاق . فانصرف الى التأمل ، في أحد المعسكرات الشتوية ، في جوار « اولم » ، بعـد تتويج الامبراطور . ورأى هنالك ، في العاشر من تشرين الثاني ١٦١٩ ثلاث رؤى في منامه . سمع ازيز الصاعقة فأفاق من نومـه ورأى شرارات نارية منتشرة في الغرفة . ففسرها بانها روح الحقيقة النازلة عليه لتتسلط عليه . ثم رأى « مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معاً لان حمية الشاعر هي فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظهرها العقل للفيلسوف . في بحران الصوفية هذا ، تجلت له حقيقة رسالته : البحث في ذاته عن مبادىء العلم لانها فينا مثلاً مطبوعة ؛ خلق العلم الشامل بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي للكون . في اليوم

التالي توسل الى الله كي ينيره ويرشده في البحث عن الحقيقة ، ونذر على نفسه للعذراء القديسة ان يزور « لوريت » سيراً على الأقدام .

في السنوات التالية ، وضع أسس منطقه وعلومـه الطبيعية الرياضية . ولكن توجب عليه تبرير هذا العلم الجديد ، وفي الوقت نفسه ، وضع أسس اليقين والايمان بالله . يروى انه قصد القاصد الرسولي في باريس في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٢٧ ، وطلع أمام بيرول بآراء لفتت انتباه هذا الاخير ، وان بيرول انذره بتنفيذ مشروعه وجعل له من هذا التنفيذ واجباً ضميرياً . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان ديكارت كان منتمياً الى الحركة الاوغسطينية . وكان بيرول ، وتلميذه « جيبيوف » و « سيلون » ، في ما كتب بين السنة ١٦٢٦ والسنة ١٦٣٤ ، ومرسين ، اخلص اصدقاء ديكارت منذ صدور « مسائل حول التكوين » في السنة ١٦٢٣ ، قد تبنوا رأي افلاطون في المثل المطبوعة لانه اضمن وسيلة لاثبات وجود الله . فانضم ديكارت اذن الى جماعة لن يلبث ان يستلم قيادتها . انطوت الكرتزيانية على حركة صوفية كما حدث للحركة البيثاغورية من قبل . السبيل الى وضع اسس علم جديد شامل هو محبة المطلق وروح المغامرة والشغف والحرارة في البحث ، والقلق ، والتعطش الى الجدة ، وهي مميزات كبار الصوفيين فالصوفية التي تقول بمركزية الله والكرتزيانية حركتان متوازيتان يجمع بينهما المصدر نفسه والارتباطات والمميزات عينها .

في السنة ١٦٢٥ ألف ديكارت لمنفعته الخاصة كتاب «قواعد توجيه العقل » ثم لجأ الى هولندا حيث أقام من قبل ، ليتمكن من انجاز عمله الكبير . وجد في هذه البلاد الرأسمالية الحريات التي تؤمنها بورجوازية تدين بها « في وسط جماهير شعب كبير قوي نشيط يهتم لشؤونه الخاصة فوق اهتمامه لشؤون الغير » استطاع « العيش في عزلة واختلاء لا يتوفران الا في الصحاري النائية » . ومنذ السنة ١٦٢٩ ، حرر فيها « التأملات » التي تتضمن أسس تعليمه حول ما وراء الطبيعة .

هدف ديكارت احداث علم سام

لم يبق ديكارت ، شأن « مونتاني » والملحدين ، في حالة رخية من الارتياب . فكما كان يشتبه بسوء مقاصد الملاحين الذين ينقلونه ويستل سيفه ويواجه الخطر الذي يكشفه ويخضعهم لارادته ، نرى هذا الجندي الذي لا يتنازل عن نبله الريفي يواجه اكبر المسؤوليات الفكرية والاخلاقية وينقض على الصعوبة . يستخدم الشك محكا ويذهب به الى اقصى حدوده حتى يرى ما اذا كان كل ما بناه سينهار أو سيبقى منه بعض اليقين الذي يتيح الحياة . فانما هدفه العمل ، اي « المعرفة الواضحة الثابتة لكل ما هو نافع للحياة » . وهو يريد ذلك للجميع كما لنفسه . ولما كان نجيباً ، فهو يعمل لكل الناس حيث نرى الملحدين الارتيابيين المزدرين بالجماهير والمهتمين لانفسهم فقط يثنون كفهم على الحقائق التي يعتقدون بانهم اكتشفوها لانهم اعتبروا انفسهم المؤهلين الوحيدين للتمتع بها . وقد كرس ديكارت

كل حياته في سعيه وراء الحقيقة زاهداً في الثروة والمراتب الرفيعة وكل شيء ، مجابهاً العقبات والمحاولات الظاهرة والعداوات . فقضى حياته كلها في هذه المطاردة : فاما الاهتداء الى اليقين والله ، واما كارثة الظلمة والعدم ، اما كل شيء واما لا شيء . ان هذا الانسان لعظيم بعقله بين العظماء ، ولعله اعظم بقلبه ايضاً . وقد احرز نجاحاً رائعاً بتوصيله الى ان يسمو مثل الشريف الريفي الاعلى ، حتى البطولة ، بالميل البورجوازي الى المعرفة العملية وبالعناد البورجوازي في السعي وراء النجاح .

مؤلفات ديكارت

في الخامس من حزيران ١٦٣٧ ، صدر عن مطـابع « جان مير » في « ليدن » ، كتابه « خطاب حول اسلوب توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يضاف اليه بحث انكسار النور ، والنيازك ، والهندسة ، التي هي اختبارات لهـذا الاسلوب » ، الذي يقع في ٥٢٧ صفحة . أما الخطاب فمقدمة بشكل اعترافات على طريقـة القديس اوغسطينس . وقد دان للمحاولات العلمية الثلاث بشهرته الواسعة وبأثره ، لأن ديكارت على نقيض « بيكون » قد قدم العلم الذي بشر به واسلوبه قد اوجز استخدامـه ، والتطبيق الحسي قد أتاح ادراك المعنى الحقيقي والعميق للقواعد التي صاغها صياغـة على بعض الابتذال . وانه لمشين حقاً ان يعاد طبع الخطاب ، في ايامنا ، دون الاختبارات . فالخطاب ، مـع الاختبارات ، يتضمن جوهر آراء ديكارت . وهو قد اوضحها واكملها في كيان « تأملات حول ما وراء الطبيعة[1] » (١٦٤١) وكتاب « المبادىء » المعـد لطلاب المدارس وكتاب « اهواء النفس » اخيراً ، تضاف اليها رسائل وافرة تلفت الانتباه من بينها تلك الموجهة الى « اليزابت دي بوهيم » .

العلم الشامل

ان ديكارت مصمم على انجاز العمل الذي تراجع أمامه غاليليو : الارتقاء إلى المبادىء الاولى للعلم الجديد ، العلوم الطبيعية الرياضيـة ، واستخلاص علم شامل منها: الفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها علم ما وراء الطبيعة ، وجذعها العلوم الطبيعية ، واغصانها المتفرعة من هذا الجذع كافة العلوم الاخرى التي ترد الى ثلاثة علوم رئيسية : الطب ، وعلم الآليات ، وعلم الاخلاق .

الاسلوب

اسلوبه هو جوهر التفكير الرياضي . على الذهن ان يدرك الحقيقة بالحدس الذي هو ادراك ذهن صريح ويقظ ، لا يحققه سوى نور العقل ، ولا يبقى معـه اي ارتياب لأنه ادراك يتصف بالمزيد من السهولة والتميز والجلاء . أما نموذج هذه الآراء الواضحة فهو الآراء الرياضية من هذا الحدس يستخلص الذهن النتائج بالضرورة ، وعن طريق الاستدلال ، في حركة تفكير متواصلة مرتقياً ، بحسب العقل الرياضي ، من ابسط الأشياء الى اكثر التركيبات تعقيداً . ولا يلجأ الى التعداد أو الاستقراء ، اي البحث عن كل ما يتعلق بمسألة معينة ، الا اذا

---

(١) تأملات ميتافيزيقية، تأليف رنيه ديكارت. صدرت في منشورات عويدات بالنصين الفرنسي والعربي. (الناشر)

استعمال رد معرفة ما الى الحدس . فالقضايا المستدل بعضها مباشرة من البعض الآخر ترد ، عند كل خطوة ، الى استقراء حقيقي اذا كان الاستخلاص جلياً . أما اذا كان الاستخلاص انطلاقاً من عدد كبير من القضايا المنفصلة ، فلا يعود الادراك كافياً للاحاطة بها بحدس واحد . ويصبح التعداد ، آنذاك ، امراً واجباً . ثم ينشيء الذهن ، بين الاشياء الخاصة ، علائق ذات نسب واضحة ، ويقارن هذه العلائق احداها بالاخرى ، وينظمها فنان بحسب ترتيب انشائها ، بحيث ترتبط كل منها بسابقتها وتعين لاحقتها .

الشك المنهجي

ديكارت يبحث عن يقين . فيرى نفسه محاصراً بالشكوك . كان طفلا قبل ان يصبح رجلا . مهذبوه حشوا منه الرأس بالمفاهيم الغامضة . وتراكمت لديه مفاهيم اخرى عن طريق الحواس . ولكنه اختبر ان حواسه تخدعه أحياناً ، فلا يستطيع من ثم ان يركن اليها . فيلجأ مرغماً حينذاك الى عملية يتوجب على كل انسان اجراؤها مرّة في حياته : الشك في كل شيء الى ان يصادف شيئاً لا يرقى اليه الشك . وهكذا يستند ، عند الانطلاق ، الى تأكيد تفاؤلي : قيمة العقل البشري كمحك لما هو حقيقي . لانه لو توصل جدلاً الى ان كل الأشياء مشكوك فيها ، لما كان توصل الى ذلك الا بالنسبة لشيء غير مشكوك فيه ، ولما كان علم بان كل شيء مشكوك فيه ، الا لأن كل شيء لا ينطوي على مميزات ما هو حقيقي . لذلك فانه يقر ، كمبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تلميذ اليسوعيين هذا يثق بالانسان كما يثقون .

ديكارت يشك في كل شيء . فغرفته وطاولته ومصباحه : حلم ؛ ويداه وذراعاه وجسمه : اوهام . لا وجود لشيء. وليست كل الأشياء سوى طيف يبتكره جنّ خدّاع . ولكنه اذا شك ، وانكر وجود كل شيء ، وأصدر حكماً ، وكونت قوة ادراكه فكراً وانكرت ارادته وجود هذا الفكر كشيء خارج عن ذاته ، فمن الضروري الطبيعي ان يكون هو ، وهو من يفكر ويتصور ويؤكد وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس ، موجوداً . « افكر ، اذن انا موجود » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً توفر كبراه ، اي « كل ما يفكر موجود » ، جردة الكائنات المفكرة؛ وصغراه ، أي « انا افكر »،تحقق للفكر في الفرد ديكارت ؛ ونتيجة اي « انا موجود » اثبات وجود الفرد ديكارت . بل هي الادراك المباشر في ذاته بفضل المعرفة الطبيعية ، هي توقع (حدس) وجود ارتباط لا يرقى اليه الشك ، بين هذين الواقعين : افكر ، وانا موجود . بالفعل نفسه ، وفي الوقت الذي يتوصل فيه الى حقيقة يستحيل الشك فيها ، يمكنه هذا الحدس من قاعدة اسلوبه الاولى: كل الافكار التي يدركها العقل في ذاته دفعة واحدة بكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء ووضوح ، مختصاً بشيء ما، يختص في الواقع بهذا الشيء : افكر ، اذن انا موجود ؛ ٢+٣=٥؛ الكل اكبر من الجزء ، الخ . فيجب من ثم ان ينطلق من الداخل الى الخارج ، من الذهن الى الاشياء .

الافكار المطبوعة
الله
ضمانة العلم

اذن يجد ديكارت في ذاته افكاراً . قد يصدر بعضها عن حكمه الخاص الذي تؤلف الارادة بواسطته بين توقعات قوة الادراك . ولكن هنالك افكاراً اخرى، كفكرة المساحة والحركة والديمومة ، هي شرط لا بد منه لغيرها، ولا يمكن تخيلها الا افكاراً اولية ، او وحيا داخلياً ، او أفكاراً مطبوعة . وهنالك أفكار، كفكرة اللانهاية التي لا يمكن ان تصدر صدوراً اكيدا عن الانسان ديكارت ، الكائن الناقص المتناهي، ولكن يجب ان تنطوي العلة على القدر ذاته الذي ينطوي عليه المعلول. لذلك فان افكار اللانهاية والكمال لا يمكن ان يضعها فيه سوى كائن هو نفسه لامتناه وكامل اي الله . الانسان يعرف اللانهاية والكمال قبل اي شيء آخر ، ولا يعرف ما هو متناه الا بعد ذلك . ان هذه الافكار تثبت وجود الله . ان مجرد فكرة الله تثبت وجود الله . لان الله يتحلى بكل الكمالات ، فهو من ثم يتحلى بكمال الوجود . الوجود يدخل في جوهر الله . فمن جوهر المثلث الزوايا ان تساوي زواياه الثلاث زاويتين مستقيمتين ، لا ان يوجد خارج فكري الذي يدرك هذا الجوهر . اما الله فيستحيل علي ان افكر به جوهراً دون ان افكر به موجوداً ، ولكن الله كامل ، وليس من ثم بخداع . اذن كل ما ادرك وجوده بجلاء ووضوح موجود حقاً . اذن العالم الخارجي موجود. التركيب الرياضي للعالم حقيقي . وجود الله هو في الاساس من حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية .

ديكارت يعرف نفسه كفكر، كشيء يدرك ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس، وهو موقن من وجود هذا الشيء دون حاجة منه لأن يعلم ما اذا كان هذا الشيء مرتبطاً بجسد. فيستخلص من ذلك ان هذا الشيء مادة لا أبعاد لها ، أي النفس ، التي تستطيع ان تبقى دون الجسم ، والتي لا يدركها فساد الاشياء التي تحددها الأبعاد ، وانه من ثم دائم البقاء . ولكنه موقن من ان له جسماً ومن ان هناك أشياء خارجية ، لانه يشعر ، حين يتخيل ادراكه هذه الاشياء بما هو صلب ورخي وبارد وساخن ولذيذ ومؤلم ولا يتعلق بارادته ان يشعر به او لا يشعر ، لانه يفرض نفسه عليه فرضاً . أضف الى ذلك،من جهة ثانية،ان الله ليس خداعاً.فوجود الله هو من ثم في الاساس من واقع العالم الخارجي .

الفكر والأبعاد

ما هي معلومات ديكارت الثابتة عن هذه الأجسام ؟ لنأخذ قطعة من الشمع . انها جسم جامد ذو شكل معين ولون معين ورائحة معينة . انها صلبة . تحدث صوتاً معيناً اذا قذف بها الى الطاولة . لندنها من الحرارة . فترتخي وتذوب وتصبح سائلاً ويتغير لونها وتفقد رائحتها ولا تعود تسمع صوتاً وتحتل مساحة اكبر. لنخضعها لمزيد من الحرارة. فلن تلبث ان تتحول بخاراً . على اننا نستمر في القول انها شمع على الرغم من تبدل كل ما يقع تحت حواسنا . ونحن نعلم بأنها شمع لا بالنظر ولا باللمس ولا بالشم ولا بشيء آخر غير الفحص الذهني . ان ما يعرفه ذهننا معرفة اليقين في الاجسام هو مادة تتسع طولاً وعرضاً وعمقاً. وتقوم طبيعة المادة بهذا الاتساع طولاً وعرضاً وعمقاً . كل ما هو فكر يوجد في الله وفي النفس غير متسع ، غير متجزىء ، غير هيولي ، غير قابل الفساد ، دائم البقاء . وكل ما هو جزء متسع

طولاً وعرضاً وعمقا وقابل التجزؤ الى ما لا نهاية له . فيتوجب من ثم ، عند درس الاجسام ، اقصاء كل ما قد يشبه الروح ، وحتى كل ما هو صفة الصلب والرخي والحار والبارد الخ . لأن كل ذلك ليس سوى تأويل في حواسنا للواقع الذي هو غير ذلك . ان حواسنا لا تعلمنا الا بما هو مفيد ان نعلمه عن الاشياء لا بما هي عليه في الواقع . واقعها هو الاتساع والحركة اللذان يقبلان القياس . لا بل ان الطريقة الصحيحة لمعرفتها هي قياسها . وهكذا فان المعرفة الصحيحة للطبيعة هي رياضية . ولكن في الهندسة بعض النوعية ايضا . فيجب اقصاؤها ورد كل شيء الى الكمية . الاتساع المرسوم هو موضوع المخيلة . اما موضوع الادراك فهو الكمية الخالصة . ديكارت يعبر عن الخطوط والمنحنيات بالارقام ، وعن النسبة القائمة بينها بالمعادلات . يدخل فكرة الحركة التي اعوزت الهندسة اليونانية . يحدد مكان النقطة في المسطح بابعادها عن محوريه الثابتين . تختلف هذه الابعاد باختلاف مكان النقطة . تنسق فكرة التمثيل الهندسية مع فكرة المتحوّلين الجبرية في معادلة تقبل عدداً غير محدود من القيم في آن واحد. فيصل بذلك الى مفهوم الدالة ويبتكر احدى ادوات العلوم الطبيعية العصرية ، اعني بها الهندسة التحليلية . الرياضيات هي جوهر الواقع . فهي تلفت الانظار الى النظام العميق الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله. وهكذا تأيدت تعاليم غاليليو،وأمّن ديكارت في الوقت نفسه ثأر افلاطون من ارسطو .

علم الآليات الشامل

كل جسم يحتل جزءاً من الفضاء . وباستطاعته ان يحتل مكانا آخر . ولكن الفضاء الذي غادره لا يبقى فارغاً بمعنى هذا التعبير المألوف. الفضاء الموصوف بأنه فارغ لا يمكن تصوره الا بابعاد الطول والعرض والعمق : فهو من ثم شيء متسع . وهكذا يجب ان ينظر الى الكون كله كما الى شيء ملآن . الاتساع الكوني يقبل التجزئة الى ما لا نهاية له دون ان نستطيع التوصل يوماً الى تصور ذرة لا تقبل التجزئة . فالذرة من ثم غير موجودة . اما ما يوجد فصغريات اجزاء الاتساع المتباينة الابعاد والمتنوعة الاشكال والمليئة بالمسام . في هذه الأجزاء وفي ما بينها توجد مادة رقيقة جداً ومائعة جدًّا تمتد دونما انقطاع في كل الكون . الله يعطيها الحركة التي تنتقل في هنيهة واحدة الى كل مكان . الله لا يقبل التغير ، وكمية الحركة ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهية تنجم سنن الحركة، سنة الجماد ، لا يستطيع اي جسم ان يبدّل من ذاته حالة حركته او سكونه ؛ سنن الحركة المستقيمة المتساوية السرعة ، وسبع سنن لتصام الاجسام بعضها بالبعض الآخر .

من هذه الحركات ينجم تنوع الاشياء في الكون. الكون حقل آليات واسع الارجاء. فالنور مثلا ليس سوى حركة في الاجسام المضيئة ، تنتقل بسرعة كلية وبلمعان كلي الى اعيننا . النور يرسل اشعته في برهة واحدة من الشمس الينا ، كما يحدث للاعمى الذي يسترشد عصاه ، اذا عملت الاشياء المحيطة به في طرف عصاه ، ينتقل عملها حالا الى طرف العصا الآخر . وهكذا فلا فائدة في تفسير الرؤية من اللجوء الى الصور الصغيرة المرفرفة في الهواء ، أو الانواع العمدية ، كما يدعوها الفلاسفة . ان هذه الاشعة الضوئية تكون مستقيمة كل الاستقامة حين لا تمر الا في جسم

شفاف واحد . أما اذا صادفت اجساماً اخرى فتنحرف عنها ، كما تنحرف حركة الكرة أو الحجر . هذه المقارنة بحركة الكرة وجرأة ديكارت في تحليل القوى قد ساعدتاه على ان يوضح كيف ان عمل النور يخضع لسنن الحركة نفسها ، وان عمود المرآة ، في الانعكاس ، هو منصّف الزاوية المتكونة بالشعاع الملتقي بالمرآة والشعاع المنعكس ، وان الشعاع الملتقي بكاسرة الاشعة والعمود والشعاع المنكسر تكون في سطح واحد وان جيب زاوية الالتقاء ، حين يمر الشعاع من الهواء الى الماء، يبلغ ٤/٣ جيب زاوية الانكسار . وهكذا فقد ردت سلسلة من الظواهر الطبيعية الى حركات مادية وجدت صيغة سننها .

الحركة الآلية شاملة . الماء والارض والهواء والاجسام كلها مركبة من عدة اجزاء صغيرة متباينة الاشكال والاحجام تفصلها مسافات مليئة بمادة رقيقة ؛ الاجزاء الصغيرة المستطيلة الملساء الزلجة تكون الماء . الاجزاء غير المهندمة والمعقربة تكون الاجسام الصلبة ، كالارض والخشب الخ .. المادة الرقيقة تتحرك باشعة الشمس فتحرك بدورها الاجزاء الصغيرة التي تهزهز دقائق اعصابنا وتجعلنا نشعر بالحرارة .

ان المادة الرقيقة الموجودة في مسام الاجسام الارضية ، التي تحركها اشعة الشمس بقوة ، تحرك بدورها الاجزاء الصغرى في هذه الاجسام ، التي لا تجد حينذاك مكاناً يتسع لحركاتها ، فترتفع في الهواء كما يحدث في السهل للغبار الذي تثيره اقدام المارة . هذه الاجزاء الصغيرة تكون الابخرة والنفحات المتصاعدة، والغمائم المختلفة على انواعها . اذا انخفضت هذه الغمائم فجأة تسبب في حدوث زوبعة ، واذا هبطت غمامة على اخرى ، نجم عن هبوطها الرعد والبروق والزوابع والصاعقة .

الزوابع

المادة الرقيقة تملأ الفضاء الكوني . وتتحرك حركاً تحركاً دائرياً : ان جسماً يغادر جزءاً من الفضاء ليحتل آخر يطرد جسماً آخر من جزء الفضاء الذي يبلغه ، لان الكون ملآن ، والجسم الآخر يطرد جسماً ثالثاً ، وهكذا دواليك الى ان يحتل جسم اخير جزء الفضاء الذي تركه الجسم الاول المتنقل فارغاً . فالحركة من ثم دائرية حكماً . لذلك فان الكون مليء بزوابع المادة الرقيقة التي تحمل النباتات حول الشمس . هذه الزوابع تفسر كل الحركات التي وصفها كوبرنيك وكبلر وغاليليو وهارفي .

كل شيء آلي اذن في العالم ، وليس في علم الآليات سوى عناصر هندسية أو شبه هندسية .

الحيوان - الآلة
والانسان-الآلة

ان جسم الحيوانات وجسم الانسان آلتان باستطاعتهما التحرك دونما نفس . الحيوانات آلات محضة . للانسان وحده نفس ولكنها متحدة بآلة . يوجد في الانسان انسان - آلة يقابل الحيوان - الآلة . ليست النفس ما يعطي الجسم الحرارة والحركة ، والموت لا ينجم عن انفصال النفس عن الجسم ، بل عن فساد احد اجزاء الجسم الهامة . حرارة الجسم تقلل كثافة الدم انشط الاجزاء حياة تصعد الى تجاويف الدماغ ، حيث تنفصل ادق الاجزاء رقة وتكوّن التآمير الحيوانية . هذه التآمير تمر ،

كالنسيم البالغ الرقة ، في انابيب صغيرة ، الاعصاب ، وتتوزع لتحريك العضلات . الاشياء الخارجية تحرك الاعصاب التي تحرك الدماغ ، وهكذا تتجه التأمير الى بعض العضلات بالتفضيل على سواها . وهكذا تدور الآلة دونما حاجة الى نفس .

الاهواء والارادة

ليس في النفس سوى افكارنا .. ان حركات الدماغ التي تسببها الاشياء الخارجية أو حركة اتفاقية للتأمير الحيوانية تستطيع ايضاً ان تُري النفس عواطف مختلفة هي أهواؤها . أما اعمال النفس فهي ابتغاءاتها . النفس متحدة بالجسم كله دون ان تحتل منه جزءاً معيناً . بيد انها تعمل بصورة خاصة في الدماغ بواسطة الغدة الصنوبرية . فهي تستخدم هذه الغدة لتدفع بالتأمير الحيوانية ، عن طريق مسام الدماغ ، نحو العضلات التي تريد هي تحريكها . وكذلك تحرك التأمير الحيوانية التي تفعل في النفس وتولد فيها الاحساسات ثم تولد ، بمناسبتها ، الاهواء : الاعجاب ، الحبة ، البغض ، الشهوة ، الفرح ، الحزن ، الجرأة ، الخوف . الاهواء تحدو بالنفس الى ابتغاء الاشياء التي تعد لها الجسم : فالخوف مثلاً يحث على الهرب.. وهي كلها صالحة في طبيعتها .

الا ان ارادة الانسان حرة . ولا يمكن البتة ان تحمل على شيء اكراهاً . تستطيع استخدام اهوائها بـ « احكام حازمة وجازمة حيال معرفة الخير والشر » . تستطيع اثارة هوى أو اقصاء آخر بتمثلها « الاشياء التي ترتبط عادة بالاهواء التي نرغب فيها والتي تناقض ما نرغب في رفضه » . فلاثارة الجرأة في ذاتنا واقصاء الخوف « يجب الاجتهاد في تبصر الاسباب أو الاشياء أو الامثلة التي تقنعنا بان الخطر ليس عظيماً ؛ وان الضمانة في الدفاع اكبر منها في الهرب ، وان في احراز النصر عزة وبهجة وان عاقبة الهرب ندامة وخزي ، وما الى ذلك » . وهكذا فان فكرة الخطر ، بدلا من ان تكون مرتبطة بمكان الغدة الصنوبرية التي تمهد الطريق أمام التأمير الحيوانية بحيث تعد العضلات للهرب ، تنتهي الى الارتباط ، بفضل العادة ، بمكان الغدة التي تعد العضلات للمعركة . فيكون الانسان قد بات شجاعاً . وباستطاعة كل فرد على بعض المهارة ان يغير حركات الدماغ ويحقق السيطرة المطلقة على كافة الاهواء وبلوغ السعادة .

حرية الارادة التجابة

سبيل السعادة الوحيد الينا هو الفضيلة . وتقدم الفضيلة في التوق الى الاشياء التي تتعلق بنا ، اي بحرية ارادتنا . لقد ارادت العناية الالهية ، بقرار ثابت منزه عن الضلال ، ان تتعلق بعض الاشياء بحرية ارادتنا وان يحدث لنا بعضها بضرورة حتمية . فيجب علينا من ثم ان ندرك مقصدها ونحصر اهتمامنا باستخدام حرية ارادتنا ونبتهج بهذا الاستخدام مهما كان من أمر النتيجة . اذا كانت لنا حرية الاختيار بين طريقين اثبت الاختبار ان احداهما اضمن من الثانية ، يجب ان يحدو بنا عقلنا الى اختيار الاولى حتى اذا كان من مقاصد العناية الالهية ان نتعرض فيها للسرقة ، ونعتبر انفسنا سعداء ، بعد

السرقة ، لاننا سلكنا بوحي عقلنا . على الانسان ان لا يهتم الا الى تتميم كل الاشياء التي حكم عليها بانها الفضلى « فيسر بذلك سروراً يبلغ من عظمته في اسعاده ان اعنف جهود الاهواء تعجز ابداً عن تعكير طمأنينة نفسه» . فالانسان لا يستطيع ان يعتبر ذاته الا بسبب استخدام حرية ارادته التي تجعله شبيهاً بالله من زاوية معينة . ويكون الانسان نجيباً حين يدرك انه لا يملك سوى هذا التصرف الحر بابتغاءاته وانه لا يستحق المديح أو اللوم الا اذا احسن أو أساء استخدام حرية ارادته وان عليه « ان يعزم عزماً حازماً وثابتاً على ان ... لا تعوزه الارادة في مباشرة وتنفيذ الاشياء التي سيحكم بانها الفضلى » ، وهذا يعني الاهتداء بالفضيلة اهتداء كلياً . ومن المستطاع التوصل الى النجابة بالتأمل في فوائد العزم الحازم على حسن التصرف بحرية الارادة وفي بطلان الهموم التي ينشغل بها الطامعون . هكذا يتمكن المرء من ان يثير في ذاته هوى النجابة التي تاق اليها الكلاسيكيون .

انتصار ديكارت

ان المذهب الكرتزياني ، ولا سيا فكر ديكارت ، قد احرزا انتصاراً . فان بوسويه و « سبينوزا » و « مالبرانش » وليبنيز ، وكافة العلماء ، لا بل كل من تحلى بذرة تفكير ، كانوا تلاميذه او تأثروا بنفوذه . اضف الى ذلك ان الندوات الاجتماعية نفسها قد اولعت بالكرتزيانية لا سيا بعد السنة ١٦٦٠ . فغدا ديكارت « ذاك الآدمي المائت الذي لو عاش في ايام الاقدمين لجعلوا منه الهاً » (لافونتين) . وان رينري الذي لقن مذهبه في « دفنتر » و « ليدن » قد دعاه « نوري وشمسي والهي » ، ووصفه « هيربورد » بانه « اعظم الفلاسفة وحارس الحقيقة والفلسفة وحرية الفكر ، ومنقذها والمنتقم لها » (١٦٤٧) . وقد تلاكم الطلاب من اجل آرائه . ودرج هويجنس العالم الهولندي الكبير على القول : « لم يولد مثيل له في يوم من الايام » مقدماً بعض البراهين على نجاحه الشامل :

« ان ما نال كل الرضى ... حين اخذت هذه الفلسفة بالظهور ، هو ان الناس كانوا يفهمون ما يقوله ديكارت ، بينما كان الفلاسفة الآخرون يستعملون كلمات لا يفهم منها شيء البتة ، كتعابير الصور الجوهرية ، والانواع العمدية الخ ، ولكن ما فرض فلسفته قبل كل شيء هو انه لم يستمر في اثارة الاشمئزاز من الفلسفة القديمة ، بل اقدم على سد مسد الماضي بعلل يمكن ادراكها انطلاقاً من كل ما هو موجود في الطبيعة » .

وفعل ديكارت اعظم من ذلك. اعاد الى الانسان مبررات الحياة والنضال والخلق. اهتدى الى اليقين واعاد الثقة بارادة الانسان وعقله ، وبقيمة العلم ، ووطد الايمان بالله والامل بحياة ازلية سعيدة ، واحيا الوحدة في الانسان الذي بات لديه تفسير عام للكون، بسيط في مبدئه ، ومثل اعلى لحياة داخلية منظمة في هدوء حرية الارادة المطلقة . وجاز الاعتقاد بانه اعاد اسس الديانة المسيحية ، كما ارتأى بوسويه فترة من الزمن . كما جاز الاعتقاد بانه برر مفهوم البطل ، المرتكز السيكولوجي للملكية المطلقة ، وانه حين شدد على تفوق المؤلفات الموضوعة من قبل شخص

واحد وعلى ترتيبها وتناسقها وكمالها ، وحين هاجم معارضيه وشرع بمفرده في اعادة بناء صرح الفلسفة والعلم ، انطلاقاً من مبدأ مسلم به ، انما كان متنفقاً وروح السلطة المطلقة .

٤ - الملكيـــة المطلقة

المثال الفرنسي : المفهوم الملكي للسلطة المطلقة

كانت السلطة المطلقة امنية الجماهير التي رأت خلاصها في جمع السلطة في يدي انسان يجسد المملكة ويكون رمزاً حياً للنظام والوحدة المنشودين . وأراد الناس كلهم ان يروا في الملك صورة الله : « انت اله على الارض.. » وقد انضم الى هذا المفهوم ، لدى اناس كثيرين حلم علماء الادب القديم : يجب ان يكون الملك بطلاً يتعشق المجد ، على الطريقة القديمة ، يحمي الآداب كاوغسطس ويحمي الكنيسة كقسطنطين ويسن القوانين كجوستينيانوس ، على ان يمتاز « بحب تلقضيلي للاسلحة » لأن « صفة الفاتح تعتبر أنبل واسمي الالقاب » برأي كل المعاصرين .

ومن حيث ان الملك وكيل الله ، فهو سلطة سامية . « الامير السامي يسن القانون ، فهو من ثم لا يقع تحت سلطة القانون » . يتصرف كما يطيب له التصرف . وينتج عن ذلك ان للملوك « حقاً طبيعياً في التصرف تصرفاً مطلقاً بجميع الممتلكات ، سواء عادت للعلمانيين أم الكنسيين، بغية الاستفادة منها كما يفعل الحكام المقتصدون ، اي بحسب حاجيات الدولة » . السلامة العامة تتقدم حق الملكية ، وينتج عن ذلك ايضاً ان الكنيسة تخضع للملك ويتوجب عليها ان تدفع له الاتاوات على املاكها التي اعطيت لها « لخير المملكة العام » . وينتج عن ذلك اخيراً :

« ان عظمة الضباط هي لمعان عظمة الامير المطلقة ، كما ان عظمة الامير السامية هي شعاع عظمة الله المطلقة ولمعانها » .

فغدت المقارنة بالشمس امراً طبيعياً ، وليس ما فعله لويس الرابع عشر سوى اصرار على رمز ملكي قديم .

ولكن الملك ، صورة الله ، يجب ان يكون « عناية الهيـــة » على الارض . عليه ان ينشر العدل « تلك الامانة الثمينة التي أودعها الله ايدي الملوك كاسهام منهم في حكمتـــه وقوته » . عليه ان يسمو الى الكمال بكل من المهن التي تكون المجتمع ، لأن « لكل منهـــا وظائفها التي يصعب جداً على المهن الاخرى ان تستغني عنها . . لذلك يتوجب علينا لا ان نحتقر احـــدى هذه الحالات أو رفع احداها على حساب غيرها ، بل الحرص على ان نسمو بها كلهـــا ، اذا امكن ذلك ، الى الكمال اللائق بها » ، وهذا هو المثل الاعلى لمجتمع يوجّه فيه العمل الاجتماعي وتنظم المهن بحسب حاجات الانسان . وعلى الملك اخيراً ان يحمي الضعفاء و « يبدي للشعوب الخاضعة لنا مظاهر العطف الابوي نفسها التي يبديها الله لنـــا كل يوم » ، و « لا يهتم بشيء فوق اهتمامه بوقاية الضعفاء من ظلم من هم اقوى منهم ، وبتأمين العزاء للمحتاجين في بؤسهم » .

سلك لويس الرابع عشر بمقتضى هذه الآراء ، ولكن هنري الرابع ولويس الثالث عشر لم يكونا اقل منه تصميماً على ان يكونا البطل والسيد المطلق و « العناية الالهية » .

اسلوب الحكم الوزاري واسلوب الحكم الذاتي

مارس الملك سلطته ممارستين مختلفتين بحسب العهود . فحين يكون قليل القدرة ، كلويس الثالث عشر ، او حديث السن جداً ، كلويس الرابع عشر بين السنة ١٦٤٣ والسنة ١٦٦١ ، يقوم حكم وزاري ، حيث رئيس الوزراء ، كالكردينال دي ريشليو والكردينال مازارين ، في فرنسا ، والكونت — الدوق اوليفاريس ، في اسبانيا ، الخ ، يحكم باسم الملك ، ويؤدي له حساباً . وحين كان هذا الملك لويس الثالث عشر ، لم يكن هذا الاسلوب قاعدة :

« ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لاسهل علي من السيطرة على مكتب الملك» .

ولكن الوزير ، في أيام الاقطاعية والتبعية هذه ، يسلك سلوك وزير الملوك في اواخر عهد الميروفنجيين . يحيط الملك برجاله ويعين اتباعه الخلص في المناصب الهامة ويؤسس سلالة ويجعل من انسبائه مشيري فرنسا وقادة بوارج ودوقية وامراء ، ويزوج بنات أشقائه وشقيقاته الى الامراء الملكيين ، ويملك ، كريشليو مثلا ، مراكز محصنة ، كـ « برواج » و « له هافر » ، يوصي بها لورثته . ويتصرف ببعض الجيوش ، فرقة مشاة وفرقة اشراف ريفيين . فيرى الملك ضباطه يتخلون عنه شيئاً فشيئاً ويدخلون في خدمة الوزير ، كما يرى مستقبلا قريبا يمسي فيه وحيداً وعاجزاً امام وزيره الذي يدين له الجنود بولائهم ولا يستطيع فرض سلطته على المملكة الا بواسطة الوزير ورجاله . لذلك كانت وفاة الوزير فرجة للملك .

وهكذا ، فان لويس الرابع عشر ، الذي بنى مذهباً مما مال اليه هنري الرابع بالفطرة ، عزم على ان يكون هو بالذات رئيس وزرائه ويلم وحده بكافة الشؤون ويكون الشخص الضروري الوحيد : فانتهى به ذلك شيئاً فشيئاً الى حياة بيروقراطية منتظمة ومنظمة في سبيل خير انتاج . « كان بالامكان ، بواسطة التقويم والساعة ، معرفة ما يفعله ، على مسافة ٣٠٠ عقدة منه » . كما انتهى به الى الانفراد ، في « فرساي » ، في قصر ومدينة لم يكن تشييدها لاجل عمل الملك اقل منه لاجل دعاوته وملذته . أراد البعض ان يروا في هذه الحياة البيروقراطية تقليداً لاسبانيا ، بينما هي ظهرت ، في الواقع حيثما اتسعت السلطة المطلقة . فمردها من ثم الى الضرورة .

تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحكم الذاتي

في عهد الحكم الوزاري ، ترتبت الانظمة . ولكن توسع الانظمة كرس حقوقاً لبعض اناس خطرين ، العظام ورئيس الوزراء . فدبر لويس الرابع عشر حركة ارتداد الى الوراء مستخلي الجو للارادة الملكية . ما زالت الحكومة ، في عهد الحكم الوزاري ، اختصاص عائلة ونسب والقاب ووظائف . يدخل المجلس الاعلى اعضاء الاسرة المالكة والامراء الملكيون

والدوقية والامراء والمستشار وناظر المالية . الوزراء يتسلمون وظيفة تسند اليهم بشهـادات رسمية يمنحها الملك « تقيمهم » فيها وتجعلها « ملكا » لهم . فأحدث لويس الرابـع عشر ثورة حقيقية . اقصى عن المجلس الاعلى كل من قد تحدثه نفسه بسلطة سياسية بالاستناد الى نسبه او لقبه او وظيفته . تناول تدبيره ، في الدرجة الاولى ، امه وأخاه والامراء الملكيين : فزالت عن الحكومة صفتها العائلية وامست ذاتية حقاً . ثم تناول مستشار فرنسا والاحبار وكبـار الاسياد . وتناول أخيراً كبار الموظفين . فأمناء السر لم يعينوا كلهم وزراء . ولم يعـد مركز الوزير حالة دائمة . وليس من بعد لا رسائل ولا شهادات ملكية باسناد وظائف الوزراء. يصبح المرء وزيرا حين يدعوه الملك الى مجلس الوزراء بواسطة أحد حجابه ، ويفقد منصبه حين يكف الحاجب عن دعوته . وفي بعض الساعات يتداول الملك في شؤونه مع من يناسبه من الرعية . ليس لاحد غير الملك حق مكتسب في الحكم . كل شيء مركز في شخص الملك .

٧

بذلت في عهد الحكم الوزاري جهود كبرى لتنمية آلة السلطة الملكية، اي المجلس . فاحدثت فيه اقسام جديدة ، مجلس البرقيات الداخل ، ومجلس الوعي . أما القسم السياسي ، اي مجلس الشؤون أو المجلس الاعلى ، والاقسام الادارية ، اي مجلس المالية ، ومجلس الشورى والمالية ، والمجلس الخاص ، فقد سبق وحددت اختصاصاتها وادخل على وظائفها توزيع اجدّ واجدى . بيد ان لويس الرابع عشر ، بالمقابلة ، قد وقف موقفاً حذراً من المجالس . وحين اتضح له انه لا يستغني عنها ، حاول اقصار اعمالها على ما هو شنشنة ونسق مطرد . واخذ يعمل وحده مع كل من امناء سر الدولة ومراقب المالية العام على التوالي . كما اخذ يبت في كافة الشؤون الهامة التي لم تعد لتمر أمام المجالس الا مروراً شكلياً، أو لا تمر البتة . وصدرت الوف القرارات المجلسية حاملة ، « بأمر المجلس » ، توقيع احد امناء سر الدولة والمستشار، دون ان يعلم بها المجلس الاعلى أو مجلس البرقيات أو مجلس المالية الملكي .

ووقف الملك موقفاً حذراً من وزرائه وأمناء سر دولته ايضاً . فاعـاد النظر في تقسيم العمل وحاول اثقال اعباء العمل حيث تتشابك الامور بحيث لا يستطيع اي اختصاصي اقامة العقبات في طريق ارادته . واوجد الخلاف بين معاونيه واوغر صدورهم غيظاً بعضهم على بعض ورمى الفتنة فيما بينهم و « اشعل نار احسادهم المتبادلة » ، ورأى في كولبير و « لو تليه » ضمانة لسلطته .

ان المعضلة التي واجهها الملك في العهدين لم تكن الفوز بطاعة رعـاياه فحسب ، بل باخضاع ضباطه انفسهم لارادته ايضاً ، لا سيما وقد غدوا مستقلين بفضل بيع الوظائف ، وبممارسة ملء السلطات التشريعية والقضائية و « البوليسية » أو الادارية .

الاوامر الملكية بالسجن ومفوضو الشرطة السياسية

لجأ الملك، في سبيل بلوغ هذا الهدف الى الاوامر الملكية بالسجن التي يعلن بها مباشرة عن ارادته للافراد أو الهيئات . فبموجب هذه الاوامر ، يوقف الملك من يشاء أو يسجنه أو ينفيه؛ ويعاقب الابن أو الزوج على سوء سلوكهما بناء على عريضة تتقدم بها العائلات ؛ ويستدرك المقاومات ، ويقاص مثيري الفتن والمتآمرين مع العدو دونما محاكمة . واذا تكلم الملك نفسه ، فما على الرعية سوى الانحناء أمام سلطته ، مصدر العدالة الشرعي .

ولجأ الملك لجوءاً مطرداً الى مفوضين يعينهم ويعزلهم على هواه ، وما مستشارو الدولة في المجالس الادارية سوى مفوضين على كل حال. وفي عهد الحكم الوزاري ، منح الملك هذه المجالس صفة « الفرقة الاولى » في المملكة واولاها سلطة على المحاكم المعروفة بالمحاكم العليا ، حتى في حال غياب الملك . كان باستطاعة المجالس ، منذ السنة ١٦٣٢ ، ابطال كل قرار ، حتى ولو كان صادراً عن المجالس التمثيلية ، اذا ثبت ان صدوره يتنافى والانظمة أو السلطة الملكية أو المنفعة العامة أو حقوق التاج . كما كان من حقهم طلب المعاملات والبت بها وحرمان المحاكم العليا من وظائفها . أما في عهد لويس الرابع عشر ، فقد ابقي على سلطة هذه المجالس ، اقله كإسم وهمي مفيد ، لان قرارات المجلس غالباً ما تنبثق في الواقع عن الملك ومعاونيه المباشرين ، أي امناء سر الدولة ومراقب المالية .

خلال العهدين ، توطدت سلطة الملك على المحاكم العليا ، على الرغم من انحصار عملها في مجلسه مبدئياً ، في السنة ١٦٤١ ، احتفظ لنفسه شرعاً بحق الاطلاع على شؤون الدولة ، وانزل عدد الاعتراضات الى اثنين قبل التوقيع في المعاملات المالية ورفضها بعد التوقيع في شؤون الدولة . واحتفظ لويس الرابع عشر لنفسه ، مرة اخرى ، بشؤون الدولة ، وفرض على المحاكم العليا ، في السنة ١٦٧٣ ، توقيع المراسيم حالاً كما ترد عليها ؛ ولا تقبل الاعتراضات الا مرة واحدة وبعد التوقيع فقط . فآثرت المحاكم ابداء رأيها . وهكذا وجدت المحاكم العليا نفسها مقصاة عن السياسة العامة وعن المسائل الدستورية . فتعززت بالفعل نفسه سلطة الملك في الحقل السياسي وسلطته التشريعية المطلقة ، ومن ثم قدرته على فرض الضرائب على هواه والتصرف بالاموال المجموعة دون تأدية حساب . واتيح للملك ان يطلب الى لجان تشكل من بين اخصائه وضع قوانين (النظام المدني في السنة ١٦٦٧ ، والنظام الجزائي في السنة ١٦٧٠ ، والنظام التجاري في السنة ١٦٧٣) اعطاها الملك وحده قوتها التشريعية دونما تسجيل ، ودونما استشارة احد من الموظفين المسؤولين ، ودونما اسهام من قبل الهيئات الخاصة ، وانطوت على نزعة واضحة الى الوحدة والمساواة وجاءت عملاً ثورياً حقيقياً .

عين الملك لجاناً من المجلس للحكم في قضية والتأكد من تنفيذ مرسوم ، كغرفة الـ « ارسنال » في السنة ١٦٣١ ، واللجنة التي حاكمت حكام « لاشابيل » والـ « شاتليه » بعد معاهدة الصلح

في « كوربي » ، الخ . ولم تكن هذه اللجان مجرد اجهزة تحضيرية ؛ بل أصدرت في الواقع احكاماً مبرمة .

واستخدم الملك وكلاء جيش ووكلاء قضاء وشرطة ومالية . كان هؤلاء ، في الدرجة الاولى مفتشين كلفوا مراقبة الضباط ورعايا الملك وتأدية حساب عن ذلك للمجلس . وكان باستطاعة المجلس حينذاك ، اما الفصل في القضية بموجب حكم ، واما اعطاء الوكلاء السلطات الضرورية للفصل والحكم والتشريع . وكان من ثم باستطاعة الوكيل حضور مجلس الحاكم وابداء رأيه ، وترؤس المحاكم القضائية ، واصلاح القضاء من حيث الأنظمة ، والتثبت من ان الضباط ينفذون مهام وظائفهم ، وكف أيديهم في حالة السلب ، وتلقي شكاوى رعايا الملك ، وإحقاق حقهم بواسطة القضاة . وترأس الوكيل جمعية المدن وراقب الانتخابات واستثبت ديون الجمعيات وسهر على تطبيق الأوامر والأنظمة : فكان ذلك مقدمة للوصاية الادارية . وراقب الوكيل جباية الضرائب ، وتصدر مكاتب المالية ، وسهر على تطبيق الانظمة والقوانين، ولكنه لم يتمتع بسلطة عامة مطلقة ويحق اصدار احكام من الدرجة الاخيرة الا في حالتين : اختلاسات ضباط المالية ؛ الجمعيات الممنوعة ، العصيان ، الفتنة ، تجنيد الفرق .

وكان الوكيل اداة طيعة جداً . وكان باستطاعة المجلس ، في أيام الحرب أو الأزمات الداخلية ، اعطاؤه صلاحيات واسعة جداً تجعله يقوم بكافة مهام الضباط ولا يترك لهم سوى الاسم فقط . في هذه الساعات العصيبة يقيم الوكلاء ، بمساعدة مرؤوسيهم ، ادارة مفوضين في وجه ادارة الضباط . ولكن الحكومة الملكية ، وريشليو وكولبير ، يعتبرون هذه الفترات فترات استثنائية وضرورات مؤسفة . ويحاول الملك في زمن السلم الاحتفاظ بالوكيل ويميل أبداً الى توسيع صلاحياته في دوره التفتيشي . يحظر عليه الحلول محل الضباط ، ويرغب اليه في مراقبتهم فقط ، ويوجب عليه ، اذا ما قصروا في واجباتهم ، اطلاع المجلس على ذلك وانتظار الحصول على الصلاحية اللازمة لمعالجة أوضاعهم .

ولجأ الملك الى عمل بوليسي سياسي ، مارسه الوكلاء والجواسيس والعملاء المنتشرون في كل مكان ، في باريس حيث عينهم حاكم الباستيل ، الوكيل المجرم ، ثم وكيل الشرطة العام « لارنيي » ، منذ السنة ١٦٦٧ . وكان يكفي ان يساء تفسير كلمة واحدة حتى يمسي المرء في الباستيل ، دوقاً كان ام خادماً . وقد استند الوكلاء والمجلس الى دلائل واهية حتى يوجهوا التهم بالجناية على الملك ، وكان الحكم يصدر بالاستناد الى مجرد ظنون لان ريشليو ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر قد جاهروا بأن الحصول على براهين حسابية في موضوع التآمر يكاد يكون مستحيلاً وبان انتظار الحدث يؤدي الى ضياع كل شيء . لا بل لقد لجأ الملك الى السجن الوقائي ، غير المحدود بزمن ، بمجرد كتاب ممهور بخاتمه .

وامن لتنفيذ الاوامر الملكية جيش من المرتزقة تدفع لهم اجورهم بانتظام ويخضعون لنظام صارم .

لويس الرابع عشر سيد أوحد.

ما عاد لويس الرابع عشر ليقبل ، في كل الوظائف العامة ، كوظائف الوزراء وامناء سر الدولة والمراقب العام ، الخ .. سوى « بالمخلصين » الذين يقومون بخدمات منزلية بالاضافة الى وظائفهم العامة وينقلون على غرار كولبير مثلاً ، رسائل الملك الى عشيقاته أو يستلمون منهن ، عند الولادة ، أولاد الملك غير الشرعيين. وقد لجأ الى الشواعر الاقطاعية، ولكنه اراد ان يكون هو مرادها وغايتها. وأراد تحقيق السلطة المطلقة بربط كافة الفرنسيين بالملك ربطاً مباشراً ، بواسطة رباط ذاتي ، كما ارتبط الفداديون بسيدهم . وأراد أن يكون السيد الأوحد المطلق أو الحامي المطلق « كل العيون شاخصة اليه وحده ؛ واليه وحده ترفع كل الاماني ؛ هو وحده يتقبل كل احترام واعتبار ؛ وهو وحده محط كل الآمال ؛ وبدونه لا يطلب ولا يسمع ولا يعمل شيء. ينظر الناس الى نعمه كما الى المصدر الوحيد لكل الخيرات ؛ ولا يؤمنون بالارتقاء الا بمقدار تقربهم من شخصه واعتباره ؛ وكل ما عدا ذلك جدب ومحول » . روابط العواطف والمصالح كلها تتوجه الى الملك الذي يجسد من ثم اماني رعاياه وآمالهم وبذلك ، كما بممارسته السلطة الذاتية ، يركز الدولة في ذاته ويحقق في ذاته وحدة الدولة ، كما يمد رعاياه ، باستغلال مشاعر قديمة جداً ، للانتقال الى مفهوم الدولة المجردة . وهكذا فان لويس الرابع عشر قد أعد الدولة العصرية بواسطة رواسب القرون الوسطى .

الاستفادة من البورجوازية .

اعد الملوك الدولة العصرية باعداء طبقة اجتماعية على اخرى وبرفع البورجوازية في السلّم الاجتماعي . فخلال القرن ، اختار الملك وزراءه ومستشاريه ووكلاءه ، اكثر فأكثر ، من بين رجال القانون البورجوازيين . خلائقه هذه « تنحدر من عامة الشعب » ولكنها « تعظم فوق كل عظمة ». رفع الملك الى طبقة النبلاء « لو تلييه » وكولبير وجعل منهما مركيزين اي سيدين يسميان باسم اراضيهما ، على غرار « لوفوا » و « بربزيو » و « كرواسّي » و « تورسي » وخلق سلالات تنتمي الى الوزراء من الانسباء والانسال « البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجه الانسباء والانسال النبلاء . في السنة ١٦٩٥ ، احلّت قائمة الضريبة الشخصية وزراء الدولة في الطبقة الأولى وساوت المستشار ومراقب المالية العام بالامراء الملكيين . وارتفعت في الأقسام الادارية التابعة لمجلس شورى الدولة نسبة رجال القانون . فقد حدد نظام السنة ١٦٧٣ عدد المستشارين الأصيلين بـ ٢٤ مستشاراً من رجال القانون و ٣ من رجال الكنيسة و ٣ من اشراف الجندية . ويجدر لفت الانتباه هنا ، بصدد هؤلاء الاخيرين ، الى ان شرط العدد المعين من درجات النبل لم يعد وارداً : فقد بات باستطاعة ابن أحد رجال القانون من النبلاء أن يتولى هذا المنصب . وفقد الدوقية والأمراء ، شيئاً فشيئاً، مراكزهم بين المستشارين الذين كان لهم الحق ، قانوناً ، بعضوية المجلس الخاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهمل ذكرهم اهمالا تاماً . وحصل مستشارو

الدولة على حق الارتقاء الى طبقة الاشراف الذي جاز انتقاله الى انسباء الدرجة الاولى . وكانوا بعد ذلك يقدمون الى الملك مع نسائهم ويسمح لهم بالتزلف اليه ، وتملكوا الاقطاعات فغدوا اسياداً . وغالباً ما اختار ابناؤهم عمل الجندية وخدموا في فرق الملك ، اقله لفترة معينة ، قبل ان يدخلوا عالم الوظيفة . وهكذا فان الملك قد رفع رجال القانون المكرسين لخدمته رفعاً مطرداً وجعل منهم اشرافاً . فغدت خدمة الملك ، الذي يجسد الدولة ، رويداً رويداً ، مقياس تصنيف طبقات المجتمع .

ترويض النبلاء

تذمر الاشراف من تصرف الملك هذا ، فهم يحتقرون هؤلاء «البورجوازيين» وقد دمدم « سان - سيمون » قائلاً : « كان هذا الملك ملك بورجوازية حقيرة » . وتألموا من تسوية بين الطبقات اقدمت عليها دولة حصدت المقاومات حصداً . فالسجون ملأى بالسجناء المرموقين : الكونت « دي كرامين » ، والمرشال « دي باسومبيير » و « باراداس » احد المقربين الى لويس الثالث عشر . لذلك حاول الملوك ان يوفروا لطبقة النبلاء المراتب الرفيعة وسبل العيش. فاحتفظوا لهم بمناصب الحكام وبعدد وفير من رتب الجيش ولاشقائهم بمعظم الوظائف الكنسية ، وادخلوهم في خدمتهم ، وارسخوا في ذهنهم روح النظام والطاعة ودربوهم شيئاً فشيئاً على حياة الوظيفة . واتم لويس الرابع عشر تنظيم البلاط . فجمع حوله في «سان جرمين» و«فونتينبلو» و«فرساي» كافة ذوي الشأن من النبلاء . واجهز على ثروتهم بتعاقب خدمتهم الباهظة الاكلاف في المعسكرات وبحياتهم البذخية في البلاط . ولم يتورع عن خوض غمار الحروب كي يوجد لهم عملاً وظروف مجد وشهرة . واسترقهم بما خصهم به من معاشات وأمهار وخيرات كنسية . « قد يحدث اثناء التزلف الى الملك ان يجد المرء نفسه تحت ما يلقبه » كما قالت مدام « دي سيفينييه » بوصفها كلباً أميناً . ووفر لهم تعويضاً سيكولوجياً . ففي سلسلة من الاعياد المدهشة الفاتنة كان الملك يظهر بثياب إله الاولمب وافراد حاشيته بثياب الآلهة الثانويين أو الابطال . واستطاعوا بذلك نقل سراب حلمهم بالقوة والعظمة الى تقليد حياة الخالدين هذا مرتفعين فوق الانسانية العادية وخاضعين ، اذا وجب الخضوع ، لـ « الرب جوبتير » ، الملك الاله . وعلمتهم آداب البلاط ان يروا في الملك كائناً يفوق قدرة البشر . ودرج الرجال على رفع قبعاتهم أمام سرير الملك ، والنسوة على الركوع كما يفعلن أمام المذبح في الكنيسة . وتباهى الامراء الملكيون بالامساك بكم قميصه عند نهوضه من النوم . واحيط نهوضه ونومه ووجباته وحياته كلها براسم حافلة بمظاهر الاحترام والتكريم . وقد عبر احد رجال البلاط عن كل شيء اذ قال ، حين وفاة لويس الرابع عشر : « بعد وفاة الملك ، جاز تصديق كل شيء » .

وتجدر الاشارة هنا ، من جهة ثانية ، الى ان آداب البلاط ، والبلاط نفسه ، لم تكن تمثلاً بما شوهد آنذاك في اسبانيا بل فرضها الوضع الاجتماعي وطبيعة الاشياء .

وهكذا فان الملك ، بفضل تقسيم الوظائف بين الطبقتين ، والاحتفاظ باهمها للطبقة الدنيا ، اي البورجوازية ، وبفضل رفع هذه الاخيرة رفعاً مطرداً وايقافها في وجه الطبقة الاخرى ، الاعظم قوة ، قد اعاد الصراع الطبقي الى نقطة توازن بين الطبقات أمنت سلطته الشخصية وأمنت الوحدة والنظام في الحكومة والدولة ، اضف الى ذلك انه اعتمد التسوية والمساواة ، اكثر فأكثر، في خدمة الدولة والخضوع التام والطاعة العمياء ؛ ولعله اضطر الى ذلك اضطراراً بفعل الازمة والحرب دون ان يستهدف تغيير نظام المملكة اجتماعياً . فغدت سلطته ، مع لويس الرابع عشر ، مطلقة وثورية .

المثال الانكليزي

حاول ملوك سلالة ستيوارت في انكلترا تحقيق السلطة المطلقة، واستطاعوا الى ذلك سبيلاً خلال فترات طويلة . فقد حكم جاك الاول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) حكم الملك المطلق الصلاحيات الى حد بعيد . وكرر شارل الاول محاولته من بعده (الاستبداد ، ١٦٢٩ — ١٦٤٠) . ويمكن ان يعتبر شارل الثاني ، منذ السنة ١٦٧٩ ، اي بعد الثورة (١٦٤٠ — ١٦٦٠) والاصلاح ملكاً مطلق الصلاحيات عملياً . وقام جاك الثاني (١٦٨٥ — ١٦٨٨) بالمحاولة الاخيرة . وقد سعوا كلهم ، باستثناء شارل الثاني ، ليس وراء السلطة المطلقة عملياً فحسب ، بل وراء جعل السلطة المطلقة نهائية بتحويلها الى وضع قانوني .

ملوك سلالة ستيوارت والدولة

اراد ملوك سلالة ستيوارت عن طريق السلطة المطلقة ان يوجهوا التطور نحو الرأسمالية ويبقوا على التوازن بين الاسياد المحافظين ، والمزارعين والفقراء ، وبين الطبقات الرأسمالية أو الطبقات المرتبطة في حياتها بالرأسمالية . وفي رأي ملوك سلالة ستيوارت ومستشاريهم من امثال « لود » رئيس اساقفة كنتربري ، وعضد الاستبداد ، ان الدولة انما هي تعبير زمني عن الموجبات الروحية . « الله والملك لم يهبانا القرز اليسير الذي نملك الا لاجل استعماله في خدمة قريبنا » . وما هدف الحكومة الاخير سوى المحافظة على التعاون الوثيق بين مختلف اجزاء جهاز المجتمع . لكل من هذه الاجزاء ، اي لكل طبقة ، وظيفة محددة يتوجب عليها القيام بها ، على ان يؤمن لها بالمقابلة مستوى حياتياً يتناسب ومرتبتها في السلم الاجتماعي . فيتضح من ثم ان ملوك سلالة ستيوارت كانوا معادين للاحزاب السياسية : « الاحزاب تستهدف ابداً غايات خاصة » . وكانوا معادين للافراد الذين تعرقل مصالحهم الشخصية تحقيق الخير العام ، ومعادين للفردية الاقتصادية المقوتة وللفردية الدينية ، التي تفوقها فظاعة ، لان الدين يجب ان يكون اداة في يد الدولة لتنفيذ مهمتها . وهذا ما يفسر عطف ملوك سلالة ستيوارت على الكنيسة الكاثوليكية التي نظرت نظرات مماثلة الى المجتمع والتي كان باستطاعتها وضع امكانات تنظيمها تحت تصرف الملك .

المجلس الخاص

كانت اداة الملك مجلسه الخاص المؤلف من مستشارين يعينون ويعزلون كما يطيب للامير ويلزمون باطاعته اطاعة كلية . بلغ اعضاؤه ، حوالي السنة ١٦٣٠ ، ٣٨ عضواً يدخل في عدادهم رئيس اساقفة كنتربري، المستشار، وزير المال، بعض عظام

الاسياد ، رجال قانون ، امينا سر الدولة . لا يعرض الملك عليهم الا ما يطيب له عرضه ، ويصغي الى آرائهم ثم يضع صيغة قراره بنفسه . يتشاور المجلس الخاص وينفذ بواسطة الاعلانات والاوامر التي تقر في الاجتماع . وتدخل في صلاحياته السياسة العامة والتشريع والقضاء والمالية والحرب وشؤون الاسطول ، ودعوة المجلس التمثيلي للاجتماع وتعيين مأموري الاحكام المدنية والتعليمات الى القضاة والضباط المحليين والبت بالرسائل والعرائض. ويحضّر عمل المجلس وغالباً ما تتخذ القرارات مسبقاً ، في الديوان ، للشؤون السياسية ، وفي لجان المجلس للشؤون الجارية والادارة . أما الديوان الذي ليس معترفاً به رسمياً فيضم بعض مستشاري الملك السريين . ونرى في كل ذلك اوجه التشابه مع فرنسا على الرغم من ان تطور الانظمة هنا لم يبلغ ما بلغه في فرنسا .

فهي الاسس نفسها التي اقتضى تأمينها في هذه البلاد التي كان ملكها دون ملك فرنسا سلطة مطلقة .

سلطة الملك التشريعية

حاول ملوك انكلترا الاحتفاظ لانفسهم بالسلطة التشريعية . وسن جاك الاول القوانين بالاعلان والمناداة . وفي السنة ١٦٠٧ ، كتب « كوِل » ، استاذ القانون في جامعة كمبردج ، ما يلي : الملك « فوق القوانين بسلطته المطلقة . . يستطيع تعديل أو تعليق كل قانون يبدو له مضراً بالخير العام » . فاضطر جاك الاول لأن يتبرأ من الكتاب ولكنه استمر في سياسته . وصرح شارل الأول دون مواربة بان لاعلاناته قوة القانون . واخذ جاك الثاني يحمل القضاء على الاعتراف بحقه اي اعفاء الفرد من التقيد بهذا القانون أو ذاك (قضية ادوارد هيلز) ، ثم افرط في الاعفاء من القوانين ، ثم اصدر في السنة ١٦٨٧ بياناً حول حرية المعتقد جاء فيه ان « ارادته الملكية وهواه . . . قررا ، منذ الآن ، تعليق كافة القوانين الجزائية في الدعاوى الكنسية » . وكان باستطاعته ان يفعل الشيء نفسه بصدد كافة القوانين وان يرغم المجلس التمثيلي على ان لا يقر سوى القوانين التي يوحي بها الملك .

السلطات القضائية الخاصة

وحاول ملوك سلالة ستيوارت تأمين تنفيذ ارادتهم بسلطات قضائية خاصة . فان جاك الاول وشارل الاول اكرها الشعب على اطاعة اعلاناتها بواسطة « الغرفة المكوكبة » والمحكمة العليا . أما الغرفة المكوكبة ، وهي الدائرة العدلية في المجلس الخاص برئاسة المستشار ، فقد حاكمت المتهمين الذين سبق للمجلس واوقفهم واستجوبهم وأحالهم عليها . وقد دخل في صلاحياتها كل حوادث الاخلال بالنظام العام والاخلال بالاوامر الملكية . وشملت الفئة الاولى الفتن والمنازعات ، لا سيا بمناسبة تصوين المراعي ، والحروب الخاصة بين الاشراف الريفيين ، والمؤامرات والاعتداءات على القضاة والاهاجي والشتائم . وهكذا استطاع « ونتوورث » اثناء عهد الاستبداد ، ملاحقة منتقدي

مساعيه في ايرلندا بغية خلق جيش دائم في خدمة شارل الاول . وشملت الفئة الثانية مخالفات الاعلانات الملكية ، كتلك التي حظرت زيادة عدد البيوت والمساكن في لندن، مركز الرأسمالية الكبير ؛ وتلك التي اوجبت على الاشراف الريفيين ، مالكي الاراضي في الارياف ، العيش فيها وعدم مغادرتها الى المدينة ، وقد حكم على احـــدهم ، « بالمر » ، في السنة ١٦٣٤ ، بالسجن وبـ / ١٠٠٠ / ليرة جزاء نقدياً ، لهذا السبب ؛ وتلك التي حظرت تخزين المواد الغذائية ورفع الاسعار ، وقد حكم على ١٥ شخصاً من اصحاب المصابن ، في السنة ١٦٣٤ ، بالجزاء النقـدي والسجن واقفال المصانع لاستخدامهم زيت السمك بدلا من زيت الزيتون ولاتفـاقهم على سعر ادنى معين لا يجوز تخفيضه . وكان عمل الغرفة المكوكبة مباشراً على المواطنين وعرّضا عـــلى القضاة الذين يخشون آنذاك مغبة الامر ويتشددون في تطبيق الاعلانات . وحين برزت مقاومـة « مال الاسطول » في السنة ١٦٤٠، استدعى مأمور الاحكام المدنية في سبع كونتيات لاهمالهم في شؤون التحصيل وصدرت بحقهم احكام مختلفة . فغدت هذه المحاكم تجسيداً للسلطة المطلقة .

وأعاد جاك الثاني المحكمة العليا . كانت برئاسة المستشار وشملت صلاحيتها كافة رجـــال الكنيسة وكل كلية ومدرسة تلقن دروس الصرف والنحو . وكان من حقها اصدار احكام مبرمة في دعاوى المعتقد الديني ، كالالغاء والعزل والحرم ، التي كانت بمثابة الحرمان من الحقوق المدنية والسجن مدى الحياة .

وتهرب ملوك سلالة ستيوارت من مبدأ « المثول أمام المحكمة » . فلا يوقف رعـايا الملك الا بسبب دين مدني أو بتهمة جرمية . وباستطاعة كل انسان حر سجين ان يلتمس من محكمة الملك « امراً بالمثول امام المحكمة » يوجب على السجان احضار السجين والادلاء بسبب سجنـه حتى تتمكن المحكمة من اعادة السجين الى السجن أو اخلاء سبيله بكفالة أو تبرئته . ولكن ملوك سلالة ستيورات اوجبوا على السجانين انتظار امر ثان وثالث ثم نقل السجين الى سجن آخر حيث تتجدد المهزلة . ودرج القضاة الملكيون على تحديد الكفالة بمبالغ باهظة جداً يعجز السجين ابداً عن دفعها . وادعى الملك اخيراً بان « امره الخاص » كاف لتبرير السجن ، واستند الى هـــذه الحجة حتى السنة ١٦٧٩ ، في عهـــد شارل الثاني . فكان ذلك مماثلا للأمر الملكي بالسجن في فرنسا .

سلطة إحداث الضرائب

كانت المسألة الهامة تأمين موارد مالية دون تدخل المجلس التمثيلي ، فباع جاك الاول وظائف امناء الصناديق والقضاة والمدعين العموميين وامناء سر الدولة ، الخ . وحذا حذوه شارل الاول ، ثم شارل الثاني ولكن على نطاق اضيق . غير ان الاهم كان ان يتمتع التاج بحق فرض الضرائب من تلقاء نفسه مباشرة . فأمر جـاك الاول ، في السنة ١٦٠٦ ، بفرض رسم جمركي جديد . رفض « جون بيتس » ، احـــد تجار شركة الشيرق ، ان يدفع هذا الرسم لانه غير شرعي . فأدانته المحكمة المالية : « سلطة الملك مزدوجة ، عادية ومطلقة . أما سلطته العادية فللمنفعة الافراد ... ولا يمكن ان يدخـــل عليها

أي تعديل بدون المجلس التمثيلي . واما سلطة الملك المطلقة ...فلخير الشعوب العام ... وتعرف بالسلطة البوليسية ... تتنوع ، بحسب حكمة الملك ، للخير العام . القضية موضوع البحث قضية دولة ويجب أن تعالجها سلطة الملك الفائقـــة بحسب الانظمة البوليسية . كل الرسوم الجمركية ناجمة عن التجارة الخارجية؛ ولكن التجارة والشؤون الأخرى مع الأجانب من اختصاص سلطة الملك المطلقة ... » فأمر الملك من ثم بوضع « كتاب الرسوم » (١٦٠٨) الذي فرض موجبات مالية باهظة .

بعد السنة ١٦٢٦ ، فرض شارل الاول الضرائب تلقائياً وفرض على كل رعاياه قرضاً يعادل ما دفعه كل فرد من الضريبة الاخيرة. فكان عمله خطوة اولى نحو الضريبة المباشرة التي تجبى بارادة الملك . ولكن المقاومة برزت عنيفة . فأعلن الملك الاحكام العرفية ، وارسل الفرق للاقامة في بيوت السكان وسجن بعض النبلاء وكبار البورجوازيين ، واكثر من عامـــة الشعب في القوى البحرية . وخلال الاستبداد اعاد من تلقاء ارادته الاحتكارات التي الغاهـــا المجلس التمثيلي في السنة ١٦٢٤؛وامر باحترام الحدود القديمة للاحراج الملكية واستصدر أحكاما بغرامات نقدية على الملاكين المعتدين . وفي السنة ١٦٣٤ ، أعاد « مال الاسطول » الذي يوجب على قضاة المرافىء تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويعطيهم حق فرض الضرائب على السكان. تمنع « هامبدن » ، فادين في السنة ١٦٣٧ . واستند القضاة الى سلطة الملك المطلقة والى عجز المجلس التمثيلي عن حصر امتيازات التاج العليا . « الملك هو القانون » . و « للملك الحـق في فرض الضرائب على رعاياه في سبيل الخير العام ... وللملك الحق في تجاوز كل قانون اذا اقتضت الضرورة ذلك » .

وبدأ جاك الثاني ، في الاتجاه نفسه ، باعلان أوجب فيه ، من تلقاء نفسه ، الاستمرار في تأدية الرسوم التي أعفي بعضهم منها في حياة الملك المتوفى (١٦٨٥) فقط .

الجيش الدائم

اقتضى لفرض ارادة الملك وجود جيش دائم يأتمر بامره وحده . وكانت هذه على الدوام اكثر النقاط ضعفاً . فقد نبا طبع الانكليز عن ذلك ، وبالنظر إلى ان البحار تحمي انكلترا لم يحظ الملك ، شأن ملوك اليابسة ، بمساعدة إلحاح ضرورات الدفاع عن الحدود . وغالبا ما قنع الملك بحرس خاص قليل العدد وببعض الحاميات الضعيفة . فلجأ شارل الاول الى « الاكثار » من المتطوعين بينما كان « ونتوورث » يحاول تأليف جيش دائم له في ايرلندا . وفي أواخر عهد شارل الثاني ، استدعيت حامية طنجة الى انكلترا فارتفع الجيش النظامي الى سبعة آلاف من المشاة والف وسبعماية من الفرسان . ورفع جاك الثاني عدد المجندين الى ٣٠٠٠٠ رجل وأقام معسكرا في « هونسلو » للسيطرة على لندن .

وهكذا توصل ملوك سلالة ستيوارت ، على مراحل ، الى تركيز اهم مستلزمات السيـــادة المطلقة في شخصهم ، وتوفقوا ، بمراقبة دائمة استهدفت الرأسماليين والاشراف الريفيين المتجهين

الى الزراعة التجارية، الى الابقاء بعض الوقت على التوازن بين المجتمعين القديم والجديد قبل السنة ١٦٤٠ ، وحاولوا مراقبة التطور نحو رأسمالية حرة بعد الاصلاح .

مثال الاقاليم المتحدة

أتاح الصراع الطبقي لرئيس سلالة « اورانج » استلام ادارة الحكومة ، وجعلت منه الحروب ملكا مطلقا ، وان لم يحمل هذا الاسم .

سلطة امراء اورانج المطلقة

منذ السنة ١٦١٩ ، وقف امير اورانج ، « موريس دي ناسو » ، قائد الجيش ، الى جانب الغوماريين المتحزبين للمجتمع القديم ، والى جانب الاشراف والفلاحين والصناعيين اليدويين والملاحين ، اي الى جانب اعداء البورجوازية والرأسمالية . فاستحال بتصرفه هذا قمع الفتن الشعبية التي أخذت تندلع في كل مكان تقريباً . ولجأ الى حملة مقالات انتقادية عنيفة مغرضة جعلت الناس يعتقدون بخيانة رئيس الحكومة « اولدنبرنفلت » الذي اتهم ، في هذه المقالات ، ببيع بلاده من فرنسا واسبانيا. فاعلن رئيس الحكومة مجرماً واعدم في ١٢ — ١٣ ايار من السنة ١٦١٩ ، وأقصى مجمع « دوردرخت » كل تفسير حر للتعاليم البروتستانتية وأدان الارمينيين بالهرطقة . فنزح عدد كبير من الرعاة الارمينيين عن البلاد . وخسر الجمهوريون الاكثرية في كل مكان ، في مجالس المدن والجمعيات الاقليمية والجمعيات العامة . وتكون في الرأي العام تيار فكري لمصلحة الامير ، الذي اعتبر منقذاً ، كان من نتيجته احلال الاورانجيين في كافة المراكز المرموقة . ولم يلبث تجدد الحرب ، والخطر المحدق بالحدود ، والحاجة الملحة الى تركيز السلطة ، بغية تعهد الجيوش وادارة العمليات العسكرية والدبلوماسية ،ان رفعت سلطة امير اورانج الى منتهاها، فمارس « موريس دي ناسو» حتى السنة ١٦٢٥ ، ثم فردريك — هنري من بعده ، سلطة ذاتية مستندة الى الجيش والطبقات الشعبية المطمئنة والاكليروس العادي للرأسمالية . وبات امير اورانج متمتعاً بسلطة مطلقة اتاحت له ادارة كل السياسة الخارجية بمعاونة مجلس يضم بعض الانجبة . لا بل ان ممثلي المجالس العامة قد سمحوا لامين سرهم في السنة ١٦٣٤ بحضور اجتماع هذا المجلس واعترفوا بشرعية مقرراته .

الجمهورية البورجوازية العاجزة

انتهى الصلح المعقود في السنة ١٦٤٥ والتنصب الذي عقبه بسلالة اورانج الى الضعف والوهن . فلجأ غليوم الثاني الى قلب نظام الحكم ، ولكنه توفي في السنة ١٦٥٠ ، ولم تضع له امرأته ابناً الا بعد وفاته بعدة أشهر . غدت سلالة اورانج دون زعيم آنذاك ؛ فانهار الحزب الاورانجي . تأسست الجمهورية البورجوازية مرة اخرى تحت سلطة اقليم هولندا ورئيس سلطتها التنفيذية « جان دي فيت » الرئيس الحقيقي لجمهورية الاقاليم المتحدة . ففقدت سلالة اورانج كل سلطة . والغيت مهام القائد العام في اقليم هولندا ، في السنة ١٦٦٧ ، اذ جاء في البراءة الدائمة ان مهام الضابط العام والاميرال العام تتنافى ومهام القائد العام . الا ان الجمهورية البورجوازية برهنت عن ضعفها وعجزها عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحربين اللتين اندلعتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا

في السنة ١٦٥٤ بتقهقر تجارة الهولنديين الذين اضطروا للقبول بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة، وبفقدان المستعمرات الهولندية الاخيرة في اميركا الشمالية في السنة ١٦٦٧. وأخيراً اجتاح لويس الرابع عشر الاقاليم المتحدة في شهر حزيران من السنة ١٦٧٢. ومرد كل ذلك الى ان البورجوازيين الجمهوريين لم يعملوا بتحذيرات « جان دي فيت »، بل انشغلوا، قبل أي شيء آخر، بالتجارة والكسب السريع، وحرصوا على ان لا يتجاوزوا حداً أدنى في دفع الضرائب، فرفضوا الاعتمادات المطلوبة للجيش وقاوموا احداث الضرائب المباشرة وأهملوا صيانة التحصينات التي تداعت وتهدمت وباعوا الذخائر من فرنسا. وكانوا قد قضوا على نظام الجيش لغايات سياسية. فاضطر الضباط المدربون، وجلهم من النبلاء والاورانجيين، الى تقديم استقالتهم، واستبدلوا بأبناء البورجوازيين الذين أعوزتهم الخبرة والروح العسكرية.

سلطة غليوم الثالث امير اورانج المطلقة

تصاعد شعور الجماهير القومي ضد الجمهوريين. وانفصل عنهم بعض البورجوازيين ممن تضررت مصالحهم بفقدان المستعمرات الاميركية. الا ان ذكريات الماضي المجيد واقصاء سلالة اورانج عن كافة الوظائف المدنية والعسكرية في اقليم هولندا، الذي فرضه الانكليز في السنة ١٦٥٤ كخير ضمانة للحؤول دون عمل ثأري، قد عينا أمير أورانج الشاب، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، لان يكون المنقذ. فتسلم تحت ضغط الرأي العام الشعبي، منذ الرابع والعشرين من شهر شباط من السنة ١٦٧٢ وظيفة الضابط العام والاميرال العام في الاتحاد. واعادت المدن كلها، ثم الاقاليم، ثم المجالس العامة، وظيفة القائد العام، والغت البراءة الدائمة وعينت غليوم اورانج ضابطاً عاماً وأميرالاً عاماً مدى الحياة، كما كانت الحال قبل السنة ١٦٥٠. وتجددت الحملة المغرضة، التي استهدفت « أولدنبرنفلت » فيما سبق، على « جان دي فيت » وأخيه « كورناي »، فمزقتهما الجماهير تمزيقاً. ومنحت المجالس غليوم الثالث كافة السلطات التي طلبها وغدا تابعه « فاجيل » رئيس السلطة التنفيذية.

تمتع غليوم الثالث بسلطة لا ينازعها منازع حتى صلح «نيماج». إلا ان المنصب العام والوضع السلمي قد زادا مرة اخرى من شأن البورجوازية الجمهورية الكبرى الداعية للسلام والراغبة في التعاون مع فرنسا. فتجدد الصراع الطبقي، كما بين السنة ١٦٠٩ والسنة ١٦١٨، على الصعيد الديني.

بيد ان سياسة ضم الاقاليم الى فرنسا التي انتهجها لويس الرابع عشر، ثم ابطال براءة « نانت »، الذي أوغر صدور كافة هؤلاء البروتستانت غيظاً، قد أزالا نفوذ البورجوازيين أصدقاء فرنسا. وفي السنة ١٦٨٨، جعلت الثورة الانكليزية من غليوم الثالث ملكاً على انكلترا. فأكسبه ذلك نفوذاً واسعاً، اذ انه بدا وكأنه المدافع عن الحريات في جميع أنحاء اوروبا وحامي الدين البروتستانتي. ولم تلبث حرب تكتل أوغزبورغ ان اندلعت. فغدا غليوم

الثالث مرة اخرى ، في الاقاليم المتحدة ، اميراً سيداً حقيقياً كما كان موريس دي ناسو وفردريك - هنري من قبل . ولجأ إلى الضغط بغية تأمين انتخاب أنصاره قضاة في المـــدن ، فامسى الاورانجيون اكثرية في المجالس الاقليمية والمجالس العامة . وحل محل « فاجيل » ، الذي توفي في السنة ١٦٨٨ ، على رأس السلطة التنفيذية ، هنسيوس المتفاني في خدمة الاورانجيين. فمارس غليوم الثالث حتى وفاته (١٩ اذار ١٧٠٢) سلطة تـكاد تكون مطلقة .

ان الأقاليم المتحدة تقدم لنا ، من ثم ، على مراحل ، مَثل نظام نرى فيه الصراع الطبقي والخطر الخارجي والضغط الشعبي تجعل السلطة تتركز في أيدي قائد حرب يتمتع ، بفضـــل نسبه ، بما يشبه حقاً تفضيلياً ، ومثل نظام اشبه بنظام مطلق مستند الى الرأي العام ، دون ان تحدث تبديلات ذات شأن في النظم الجمهورية البورجوازية. وهكذا فان هذا النظام يتوسط الملكية والدكتاتورية ويتقرب من دكتاتورية « كرومول » حامي انكلترا بمدفوضى الجمهورية الانكليزية. وعلى الانظمة الجمهورية البورجوازية ، أمام الازمات الداخلية والخطر الخارجي، ان تفسح المجال للانظمة التسلطية .

٥ - الروح التجارية

فكرة عامة عن الروح التجارية

ان الهدف الاول هو رفع قوة الدولة ، وبالتالي مواردهـــا ، الى الذروة ، والتزود بالاسلحة والذخائر والسفن تزوداً مستقلا عـــن الخارج . ولكن وسيلة المقايضة الاولى هـــي النقد المعدني الثمـــين . فهو ما يتيح ، قبل اي شيء آخر ، الشراء والبيع ، ومن ثم انهـاض همة المنتج ، وتنمية الاقتصاد ، والحد من خطورة المجاعـــات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي تنجم عنهـــا ، وزيادة قدرة المكلف على الدفع ، وتمكين الدولة من دفع مخصصـــات جيوشها ، ومرتبات موظفيها ، والمحافظة على النظام الداخلي والسلامة الخارجية ، وانهاض همة المنتجين مرة اخرى بتسديد بمتاريها . النقد المعدني الثمين هو « دم الاقتصاد » ، لا بل دم الدولة بالذات . ولكن حجمه محدود جداً . فقد توصل بعضهم الى تقدير المعدن الثمين المتداول في اوروبا ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بخمسين ملياراً مـــن الفرنكات (سعر ١٩٢٨) . وهذ يعني ان الدول الاوروبية تصرفت كلها ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بحجم من الذهب والفضة المسكوكة يعادل النقود المعدنية في مصرف فرنسا وحده في اواخر السنة ١٩٢٩ .

اما نتيجة ذلك فقومية اقتصادية وشبه حرب مالية دائمة بين الدول . كل دولة تحـــاول ايجاد تجارة يكون ميزانها مؤاتياً لاجتذاب المعدن الثمين والاحتفاظ به فيجب من ثم ان تمنع الاستيرادات البذخية ، وان يحد من استيراد المصنوعات جهد المستطاع . لا سيما وانها تنقص حجم حمل المواطنين . يجب ان تنتج المصنوعات في البلاد حتى ولو كلف انتاجها اضعـــاف الاسعار الخارجية . يجب ان تشرع ابواب البلاد لدخول الخامات ، وانما يجب جهـد الامكان

ان تنتج في البلاد المصنوعات الضرورية للدفاع الوطني ، كالصواري ، وخشب البناء ، والقار والقنب ، والقطران ، الخ . في هـذا العهد ، وفرت الزراعة معظم المواد الاولية الضرورية للصناعة . فوجب من ثم ، بدون تردد ، ان يعتمد ، عند الاقتضاء ، نظام جمركي قاس حيال مزارعي البلاد وفرض رسوم ضئيلة على المنتوجات الزراعية المنافسة او اعفاؤها من كل رسم وتحظير تصدير المنتوجات الزراعية الوطنية او إثقالها بالرسوم ، بغية الحصول على محاصيل زراعية وفيرة باسعار متدنية تضمن انخفاض سعر كلفة المصنوعات المعدة للتصدير .

فالمهم انما هو زيادة حجم التصدير ما امكنت الزيادة ، وبالتفضيل ، تصدير المصنوعات لان العمل قد رفع قيمتها . ويجب من ثم توفير اكبر عدد ممكن من المنتجين واعتماد سياسة تشجيع زيادة النسل . الا ان التغلب على المنافسة يستوجب بيع النوع الافضل بالسعر الادنى . فيجب من ثم ان تكون نسبة الفائدة متدنية حتى يتوفق المتعهد الى رؤوس اموال لا تجر عليه نفقات باهظة . كما يجب ان يدفع للعامل اجر زهيد وان يبقى مستوى حياته متدنياً . ولكنه اذا لم يسلم بهذا الواقع واستسلم للبطالة في بلاد تغمرها المصنوعات الاجنبية اولاً ، والاقتصاد الراكد ثانياً ، ينتهي حتماً الى البؤس ، كما ان الدولة التي تفتقر الى القوة ، تتعرض لشر الاخطار اي الغزو والسيطرة الخارجية . اما المتعهد الرأسمالي فيجب على نقيض ذلك إنهاض همته بمكاسب وفيرة .

يجب ان يكون هنالك مستعمرات تقدم للوطن الام المواد الاولية ومنتجات الاستهلاك التي تفتقر اليها ، على ان تستغرق بالمبادلة منتوجات الوطن الام للمحافظة على الميزان التجاري . ويجب ان توفر مواد غذائية ، خامات او مصنوعات ، بسعر متدن ، حتى يتاح اعادة تصديرها . اما المستعمرات المفرية فهي مستعمرات المناطق الاستوائية لان منتوجاتها تختلف عن منتوجات اوروبا . وتعتبر المستعمرة قبل كل شيء مؤسسة تجارية توفر لتجارة الوطن الام المحاصيل التي تفتقر اليها البلاد المنافسة او محاصيل تكون اقل كلفة من محاصيل البلدان المنافسة . هـذا كان اساس مذهب الحصرية . تحتفظ الدولة بكافة العلائق مع مستعمراتها . فهي تضمن بذلك اسواق المستعمرات لتصريف محاصيلها الخاصة التي يمكن بيعها باسعار مرتفعة ، وتشتري فائض محاصيل هذه المستعمرات باسعار متدنية ، وتعيد تصديرها وتستجمع اموال الدول المتعاملة معها ، ولا تعطي المستعمرات سوى قسم من هذه الاموال . وقد نظرت الدول الى المستعمرات ، في الدرجة الاولى ، كما الى وكالات تجارية على السواحل او الجزر ، او « حقول مزروعات » يتعهدها المهاجرون في مناطق اعظم اتساعاً . وليس سوى رجال الدولة الاسبانيين والفرنسيين ، وبين هؤلاء ريشليو وكولبير ، من رأوا ان سكان المستعمرات يجب ان يتمثلوا ويتحولوا الى اسبانيين او فرنسيين وان المستعمرات يجب ان تؤلف ولايات الوطن الام في ما وراء البحار .

ان التجارة بمفهومها هذا تدويل اقتصادي او اقتصاد موجه . فبمقدور الدولة وحدها

تنظيم الاقتصاد والدفع به الى الامام كما هو لائق . وهي تفعل ذلك ، في مرحلة اولى ، في سبيل بلوغ هدف سياسي ، هو قوتها . وهي لا تسعى وراء الازدهار بحد ذاته ، وليس رفع مستوى الحياة غايتها الاولى . فالازدهار وسيلة ورفع مستوى الحياة نتيجة مباركة ثانوية . الجوهر هو قوة الدولة . السياسة تتقدم الاقتصاد . وتغدو الدولة، في مرحلة ثانية ، تعبيراً عن البورجوازية التجارية والصناعية الثرية التي هي انمتها وانجحتها ، فيصبح إثراء هذه البورجوازية غاية وقوة ، وقوة الدولة نتيجة . الاقتصاد يتقدم السياسة . الاقاليم المتحدة مثال المرحلة الثانية ، وفرنسا مثال المرحلة الاولى . اما انكلترا فلا تزال بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٨٨ ، مثال المرحلتين معاً .

مثال الاقاليم المتحدة : جوالة البحار

ان اقتصاد الاقاليم المتحدة اقرب الاقتصادات الى الاقتصاد الحر . فليس للبلاد من ميزة سوى مركزها الجغرافي على البحار الضيقة عند مصب طريق الرين النهرية الكبرى بين بلدان البلطيك وبلدان المتوسط ، وسهولة بلوغ المحيطات . وحين اتاح الانتصار السياسي على اسبانيا ، واقفال مصاب الـ « اسكو » ، وتقهقر أنفرس ، ان يستفيد شعب نشيط من ذلك ، جعل الهولنديون والزيلنديون والفريزون من انفسهم وسطاء تجارة العالم . انصرفوا الى تجارة تخزين البضائع ، وجمعوا لديهم منتوجات العالم اجمع لمقايضة بعضها بالبعض الآخر بواسطة النقد ولاعادة تصديرها . فامسوا جوالة البحار . واعتمدوا مبدأ الحرية الضروري لتجارتهم . فخالفوا الانكليز بقولهم بحرية البحر . وكانوا في بلادهم ، اقله في المدن الكبرى ، متساهلين نسبياً حتى حيال غير المؤمنين . ومنحت المعاهدة المعقودة مع ملك فارس في سنة ١٦٣١ جميع الفارسيين اجازة عامة بالاتجار مع الاقاليم المتحدة ومستعمراتها في المحيط الهندي ، كما منحت الحصانة الدولية لملك فارس ، والسكنى على نفقة الجمهورية للتجار الفارسيين والاعفاء من الضرائب غير المباشرة ، على ان يأتوا باعداد كبيرة ويستحضروا مالاً وفيراً للشراء وإذناً بممارسة العبادة الاسلامية سراً . هكذا لجأ الهولنديون الى وسائل مختلفة وتوسطوا بين المنتج المحلي والشاري الاجنبي .

الشركات التجارية والدولة

ولكن اقتصادهم ليس بالاقتصاد الحر الصرف . فالتجارة البحرية تخضع في الاساس لقوانين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات والدولة . ولا عجب في ذلك اذ ان تجارة الافراد الحرة وخيمة العاقبة في عهد يتميز بندرة المعادن الثمينة . فان الافراد ، الذين يسعون كلهم وراء الكسب ، يلقون في اسواق اوروبا وآسيا كميات ضخمة من المنتوجات بالنسبة لكمية النقد المتوفرة . فتنخفض الاسعار ويفلس الافراد وتنحصر التجارة . وفي فترات الحروب الاوروبية ، والمنازعات التجارية في المحيطات ، والصعوبات التي يثيرها الامراء المحليون ، والازمة الاقتصادية ، يكون الافراد عاجزين وتشل التجارة . وليس لدى الدولة من جهتها ، بسبب افتقارها الى الموارد المالية ،

الموظفون والسفن والجيوش والوسائل اللازمة لتنظيم تجارة ما وراء البحار . وبات من ثم لزاماً على التجار ان يتجمعوا ويوسعوا الشركات . فتجمعت ست غرف من التجـار في السنة ١٦٠٢ وأسست شركة الهند الشرقية . وقد ضمت ٧٣ مديراً من مدراء الشركات التجارية . اسندت ادارة الشؤون المشتركة الى هيئة من سبعة عشر شخصاً تعينهم الغرف ، على ان تعين غرفـة امستردام ثمانية منهم لانها تتحمل وحدهـا نصف النفقات المشتركة . وعاد لكل غرفة امر البت في تجارة اعضائها والصفقات الواجب اجراؤها في الهند والمبالغ الذهبية الواجب ارسالها وبيع البضائع المستلمة . وعاد لهيئة السبعة عشر امر البت ، باكـثرية الاصوات ، بتنظيم الاساطيل وتحديد خط سيرها وتعرفة البضائع . واستفادت من احتكار الاتجار مع الهنـد . واعتمدت في المستعمرات مبدأ البحر المقفل وادعت بتحريم دخول الهند على الانكليـز والبرتغاليين والفرنسيين . ومارست حقوقاً ملكية ، كالحرب والسلم والمعاهـدات مع الاوثان وتعيين حكام ومجالس يكون له سلطة القضـاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية التابعة للشركة . وتجمع لديها اخيراً في الهند ، جيش بري مؤلف من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل وجيش بحري وضعت تحت تصرفه بين اربعين وستين سفينة ، وباتت ترسل سنوياً الى اوروبا بضائع تتراوح قيمتها بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى ٣٠ ٪ ، فارتفعت اسهمهـا من ٣٠٠٠ فلورين الى ١٨٠٠٠ فلورين حوالي السنة ١٦٧٠ .

ولكن صلة وثيقة قامت بين الشركة والدولة . فقد عين حكام المدن المدراء الجدد مدى الحياة . وكان كل المدراء اعضاء في مجـالس المدن والمجالس الاقليمية والمجـالس العامة . وسيطرت غرفة امستردام في هيئة السبعة عشر كما سيطر اقليم هولندا في المجالس العامة . وكان مصرف امستردام ، الذي يعود تأسيسه الى السنة ١٦٠٩ ،مصرفاً بلدياً . واختير مدراء المصرف من بين الاوصياء على المدينة (الحكام ورؤساء البلدية) ، الذين كانوا في الوقت نفسه مـدراء شركة الهند الشرقية . فكان هنالك ، الى حد ما ، تشوش والتباس بيـن الدولة والشركـة والمصرف ، وغالباً ما خطت كلها الخطوات نفسها . ان السياسة والحرب هما اداتا التجارة التي تديرها مؤالفة من الرأسماليين .

اما شركة الهند الغربية ، التي تأسست في السنة ١٦٢١ ، فقـد خضعت لتنظيم مماثل ، ولكنه ابعد حرية . يقدم المساهمون الفرنسيون ، كل سنتـين الى الحكام ، مرشحيهم لتولي مهام المدراء . ويعين المساهمون لجان مراقبة ترغم المدراء على عرض كافة المسائل الهامـة على جمعيات المساهمين. اما مجلس التسعة عشر فيكاد أن يكون عاجزاً. وتقوم الاحزاب في الجمعيات. لذلك كانت سياسة الشركة مترددة وحائرة وكان أفول نجمها سريعـاً . اضف الى ذلك ان البرازيل فُقدت في السنة ١٦٦١ وامستردام الجديدة (نيويورك) في السنه ١٦٦٧ . فاقتضى تصفية حسابات الشركة في السنة ١٦٧٤ .

تجارة المعادن الثمينة ومصرف استردام

افضت التجارة البحرية الكبرى الى تكديس المعادن الثمينـــة في الاقاليم المتعـــددة ، ولا سيما في امستردام . فقد نقل الهولنديون بضائعهم الى غينيا وعادوا منها بالذهب . وموّنوا اسبانيا ، حتى اثناء الحرب ، اذ ان نصف منتوج مناجم الفضة الاميركية كان يصل سنوياً الى امستردام . وكانت للهولنديين السيطرة على تجارة قادش . وبسبب نظام الحصرية اضطروا الى ان يودعوا البضائع لدى الاسبانيين الذين كانوا يبيعونها في الهند الغربية ويعودون باثمانها . ومارسوا التجارة الممنوعة ايضاً انطلاقاً من جزيرة « كوراساو » المجاورة لقرطجنة . فكانت المراكب الهولندية تتخذ مــن « كوراساو » قاعدة لها وترسو على مقربة من الشواطىء الاسبانية ، فيقصدها السكان في زوارقهم ويبتـــاعون ما يحتاجون اليه . بفضل هــــذا المعدن كله ، كان الهولنديون من الوسطاء بين الهند واوروبا لان الشرقيين نادراً ما ارتضوا من الاوروبيين بغير المعادن الثمينة .

وصدر الهولنديون النقد المعدني ايضاً . فان دور النقد عندهم قد ضربت نقوداً تجارية شرعية الوزن والعيار وثق الناس بها وتهافتوا على طلبها ، كالدنانير التي تحمل رسم الأسد ، في مرافىء الشرق الادنى وفي آسيا الصغرى ، والركسدالات الفضية في البلدان البلطيكية ، و « الدوقيات » الذهبية في روسيا ، و « الدوقيات » الفضيـة الصغرى ، في الهند والصين . وكان على التجار الاوروبين الراغبين في الاتجار مع هذه البلدان أن يحصلوا على القطع النقدية الهولندية ويأتوا الى امستردام ، لهذه الغاية ، ببضائعهم او سبائكهم المعدنية المستطيلة أو بقطعهم النقدية الخاصة .

وكان مصرف أمستردام ، الذي تأسس في السنة ١٦٠٩ بناء على طلب تجار امستردام ، يزيد من امكانيـــة الاستفادة من كمية المعادن الثمينة هذه بوسائل الدفع التي يوفرها للتجار . فكان مصرف تخزين تودع فيه النقود والسبائك الذهبية والفضية المستطيلة . وكان من شأن الثقة التي أوحاها ان تدفقت الودائع عليه حتى من الخارج . وكان مصرف صرافة أيضاً يوفر للتجار نقد أية بلاد من البلدان ، ويتيح بذلك شراء البضائع من كل منشأ ، ويجتذب من ثم التجار الاجانب. وكان مصرف دفع يجري دون مقابل ، بتحويل حساب لآخر ، ودونما نقل المعدن الذي يستغرق وقتاً طويلاً ويستلزم نفقات باهظة ، كافة عمليات الدفع التي يحتاج اليها التجار ، ضمن حدود ودائعهم . وقد استخدم المصرف ، في عملياته ، نقداً حسابيا هو الفلورين « بنكو » ، ثابت القيمة ، يعتبر بمثابة كفالة التجار . ثم أصبح مصرف امستردام ، شيئاً فشيئاً مصرف دين اخيراً . فبدأ باعطاء السلفات لمدينة امستردام في حالة الحرب ، ولشركة الهند الشرقية بغية تجهيز أساطيلها. وانتهى ، بعد السنة ١٦٨٣ ، إلى إعطاء السلفات للافراد أنفسهم .

واستمرت ، إلى جانب المصرف العام ، المصارف الخاصة ، التي كانت تسلّف التجار المبالغ الضرورية لاكمال شحناتهم ، وتحسم السفتجات التي تدفقت عليها مـــن كل مكان وأضيفت الى رؤوس الاموال المتكدسة في أيدي الهولنديين .

كانت نتيجة هذه العناصر كلها وفرة في وسائل الدفع الممتازة التي جعلت البائع يفضل الشاري الهولندي على كل شار سواه ، وأتاحت للهولنديين، في أي وقت، اجراء صفقات كبرى ، وعرض شتى أصناف البضائع بكميات كبرى وباسعار دنيا . وجرت هذه الوفرة إلى انخفاض نسبة الفائدة . وكان باستطاعة الهولنديين البيع بسعر أدنى وتجميد أموالهم مدة طولى ، كأن يسبقوا التجار الانكليز والفرنسيين إلى تخزين بضائعهم في قادش ، ويتفاوضوا في موضوع الصفقات قبل منافسيهم ، ويحددوا آجالاً بعيدة للدفع . وكان باستطاعة الصيارفة الهولنديين أخيراً اقراض ملوك فرنسا وانكلترا وأمراء ألمانيا . وقد أتاحت سلفات المصرف لمدينة امستردام وشركة الهند الشرقية تجهيز الاساطيل والجيوش في الظروف العسيرة . وقد سهلت كميات النقود الكبرى القروض والضرائب وتجنيد الجيوش البرية والبحرية والتحالف مع الدول. وجعلت وفرة رؤوس الأموال من هذه البلاد الصغرى قوة سياسية كبرى .

المثال الانكليزي ترتدي الروح التجارية الانكليزية طابعاً مشتركاً . لقد دهش الانكليز من نهوض فرنسا السريع في عهد هنري الرابع . فبرزت فكرة التنظيم، الموروثة عن عهد اليزابت ، بروزاً شديداً ولفتت انطلاقة التجارة الهولندية الانتباه إلى فوائد حرية التجارة النسبية وفوائد الشركات صاحبة الامتياز . وبدا نمو التجارة ، الذي كان أقل منه في الاقاليم المتحدة ، أشد حاجة إلى تدخل الدولة ، ولكن انطلاقة الرأسمالية التجارية والصناعية الهامة قد أوحى لبعض التجار ، منذ ذاك الحين ، بالحقد على الانظمة والاحتكارات ، وبالميل الى الحرية ، وبأن التجارة يجب ألا تخضع الا لتشريع عام وبأن هذا التشريع هو من شؤون المجلس التمثيلي .

وثائق الملاحة بذل الملكان جاك الاول وشارل الاول جهوداً كبرى في سبيل التدخل في الحياة الاقتصادية . فقد انصرف إلى هذا العمل المجلس الخاص تعاونه « لجنة تجارة » منذ السنة ١٦٢٦ وتسانده الفرقة المكوكبة . وبقيت التجارة البحرية حرة في المناطق القريبة من انكلترا وأسبانيا وفرنسا، وقد استطاع صغار مجهزي المراكب ممارستها دونما صعوبة. أما التجارة البحرية في البلدان النائية أو في البلدان التي لبس بلوغها بالأمر اليسير ، فقد نظمت في البدء بسلسلة من وثائق الملاحة التي لا تختلف وثيقة كرومزل الشهيرة (١٦٥١) عنها اختلافاً جوهرياً . لقد احتفظت بتجارة انكلترا مع ممتلكاتها في آسيا وافريقيا وأميركا لسفن الانكليز والايرلنديين أو للسفن المبنية في المستعمرات التي يملكها المهاجرون . وأوجبت ان يكون القبطان وثلاثة أرباع الملاحين انكليزاً او رعايا ملك انكلترا . وانقصت عدد السفن التي كانت رهن الطلب ، فرفعت بالفعل ذاته أجور نقل البضائع ووجهت رؤوس الاموال نحو بناء السفن وأفضت شيئاً فشيئاً إلى زيادة عددها وعدد البحارة .

الشركات التجارية

فتأسست بعض الشركات التجارية . وكانت على نوعين : الشركة « المنظمة » والشركة المساهمة . استفادت الشركة المنظمة من احتكار تجاري اقصى عنها المنافسين . كل عضو من أعضائها يتجر بأمواله الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . الا ان كل عضو مقيد ببعض الانظمة : البيع بسعر أدنى معين، وعرض أصناف ممتازة . لذلك كانت المنافسة بين الاعضاء محصورة وكانت الشركة شبيهة بجمعية الصناعيين التي تستهدف اتقاء الكساد أو فرط الانتاج . انتمى إلى هذا النوع تجار لندن المغامرون وتجار شرقي انكلترا وتجار « نيوكسل » المغامرون ، والشركة التركية . واستفادت الشركة المساهمة كذلك من احتكار محصول معين أو منطقة تجارية معينة، ولكن رؤوس الاموال تجمع كلها فتضاعف قوة المشروع. وقد تأسست في البدء لرحلة واحدة او لمدة محدودة. ثم غدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠، فاستطاعت الشركات الاقدام على مشاريع طويلة الاجل . انتمت الى هذا النوع الشركة المسكوبية والشركة الافريقية وشركة الهند الشرقية الشهيرة التي تأسست في السنة ١٦٠٠ واستفادت من احتكار التجارة الانكليزية بين رأس الرجاء الصالح ومضيق « ماجلان » ، في المياه الشرقية ، وتمتعت بحقوق ملكية . وقد درج الملك على منح مساحات كبرى في المستعمرات للافراد أو للشركات التي توطن فيها المزارعين او المكترين .

الرقابة الاقتصادية

وحاول جاك الاول وشارل الاول تنمية الصناعة عن طريق شركات احتكارية وانظمة جديدة ومنع الاستيراد . واسند الى عدد غفير من الضباط امر مراقبة النوعية . ولعل التنظيم في عهد الاستبداد لم يكن دونه شأناً في عهد كولبير . فقد صب السر « جون كولبير » في المجلس التمثيلي جام غضبه بقوله : « ها... ان سيلا من الطفيليات قد غزا كل البلاد. اعني بذلك المحتكرين ... على غرار الضفادع المصرية، احتلوا بيوتنا ولم يبقوا لنا غرفة واحدة ليسوا فيها ؛ يشربون في طاسنا ويغترفون من صحيفتنا؛ يجلسون قرب نارنا ، ونجدهم في طستنا ... وسمونا وختمونا من رأسنا حتى أخمص قدمينا » .

ثم استقرت الحرية مع الثورة . فانهار المجلس الخاص وزالت المكوكبة وتلاشى التنظيم والرقابة . ولكن نوعية المنتوجات انهارت ايضاً . الغت الجمهورية عملياً كافة امتيازات الشركات . ولكن التجار ، الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً كبيراً ، ملأوا الاسواق بالبضائع . وعجزت الدولة عن تأمين سلامة السفن . فافضت حرية التجارة الى نتائج سيئة .

فرجع شارل الثاني في عهد الاصلاح الى نظام تدخلي معتدل لأن الطبقات الرأسمالية خرجت ظافرة من الثورة ، مع ان هذا الظفر لم يكن حاسماً . تدخلت الدولة ، بصورة خاصة ، بتدابير عامة ، كالتشريع والجمارك والمعاهدات . واستعان الملك بمجلس تجارة مؤلف من بعض اعضاء المجلس الخاص وبعض اعضاء الشركات التجارية . قدم هذا المجلس تقاريره للملك الذي اصدر قراراته النهائية . وتدخل شارل الثاني باعتماد سياسة معاهدات تجارية مع البرتغال واسبانيا

والاقاليم المتحدة وفرنسا والدانمرك (١٦٦٧ – ١٦٦٨) . ونظم التجارة البحرية بوثيقة السنة ١٦٦٠ حول الملاحة ، التي استوحاها من وثيقة السنة ١٦٦٣ التي توسع فيها . فحصر ... كل تجارة بين المستعمرات واوروبا. غدت انكلترا مستودعاً ضخماً للسكر والتبغ والقطن والنيلج والزنجبيل واخشاب الصباغة الخ. التي تشترى باسعار منخفضة في المستعمرات وتباع باسعار مرتفعة للخارج. وغدت المستعمرات سوقاً لا تباع فيها سوى المصنوعات والمواد الغذائية البريطانية . وتواصلت سياسة الشركات صاحبة الامتيازات . وخصت شركة الهند الشرقية، بصورة خاصة ، بامتيازات جديدة في السنة ١٦٦١ شملت احتكاراً جديداً وسلطات ملكية .

أما في الداخل فقد انخفض عدد الشركات الصناعية الاحتكارية ، التي كانت مدينة بامتيازها لصك صادر عن المجلس التمثيلي لا لشهادات رسمية صادرة عن التاج . واهملت قوانين تنظيم الحياة الاقتصادية . فلم يعد هنالك من تحقيق ولا من رقابة نوعية المنتوجات ورقابة الاسعار والاجور . فباتت الحرية الاقتصادية شبه تامة ، وسارت الاعمال التجارية على هذا المبدأ : الكسب هو وحده ما يوجه عمل التاجر . فبقيت نوعية المنتوجات متدنية .

دانت انكلترا لتدابير التوجيه الاقتصادي بالازدهار الذي بقي دونه في الاقاليم المتحدة على كل حال . وبقيت تجارة شركة الهند الشرقية ادنى الى حد بعيد من تجارة منافستها الهولندية ولم تشكل سوى جزء ضئيل جداً من تجارة الهند البحرية . فهي قد بلغت، حوالي السنة ١٦٤٤، ٥٠٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً ، كما بلغ عدد السفن العائدة كل سنة من « سورات » الى لندن ٢٠ الى ٢٧ سفينة معدل حمولة كل منها ٥٠٠ طن .

المثال الفرنسي: الكولبيرية الدائمة

ان النظام الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا قد جعل الحاجة الى تدخل الدولة اشد الحاحاً . فالمذهب الذي طلع به « برتلمي دي لافماس » في عهد هنري الرابع، و « مونكريتيان » (الاقتصاد السياسي، ١٦١٥)، وريشليو، وكولبير ، هو هو لم يتغير ، كما لم تتغير اساليب الحكم في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . ولم يأت كولبير بجديد سوى التوسع في تطبيق نظام كان ملكاً مشتركاً وتقليداً بسبب تعاظم سلطة لويس الرابع عشر المطلقة وبسبب حاجات سياسته ، وانخفاض الاسعار المضر بالانتاج ، والازمة الاقتصادية التي كانت نتيجة طبيعية لارتفاع نسبة الوفيات في السنتين ١٦٦١ و ١٦٦٢ . فقد احدث عدة مئات من المصانع الملكية بينما لم يكن في فرنسا قبله سوى عدة عشرات منها فقط . ولكن « الكولبيرية » تشمل القرن بكامله ، وتنشط كلما توطدت السلطة المطلقة ، في عهد هنري الرابع بعد السنة ١٥٩٦ ، وفي اثناء وزارة ريشليو ، اقله قبل « الاختيار العظيم » الذي آثر الحرب (١٦٣١) ، وفي عهد لويس الرابع عشر بعد السنة ١٦٦١ .

الهدف سياسي قبل اي شيء آخر . يجب الحؤول دون خروج « هذا الذهب وهذه الفضة

من خزائن فرنسا ليثري بها اعداء الدولة » ، ومحاربة الاعداء الخارجيين الذين لن يكون « المكوك » واداة صناعيينا « اقل وبالاً عليهم من السيف » (لافماس).

« الشركات التجارية هي جيوش الملك ومصانع فرنسا هي رديفه » (كولبير) .

الادارة الاقتصادية

ان باستطاعة الدولة وحدها التغلب على « الصعوبات التي لا يحاول التجا التغلب عليها بنشاطهم الخاص » . لذلك تنظمت ادارة اقتصادية رسمية كاملة . وكان جهازها الرئيسي مجلس الملك الذي عاونه مراقب التجارة العام ، « لافماس » منذ السنة ١٦٠٢ حتى السنة ١٦١٢ ، ولجنة التجارة منذ السنة ١٦٠١ حتى السنة ١٦١٦ وريشليو ، ناظر الملاحة والتجارة ورئيسها وسيدها الاعلى . ولكن السلطة المركزية ما زالت متشلتة . فقد احتفظت المجالس التمثيلية وغرف المحاسبات ، الخ .. بصلاحياتها الاقتصادية وليس بعد من اجهزة ادارية جديدة ذات اختصاص في الولايات . أما بعد السنة ١٦٦١ فقد انتقلت معظم الصلاحيات الاقتصادية تدريجياً الى مراقب المالية العام، كولبير . الا ان المستشار وأمين سر الدولة في بعض الولايات ولو تليبه ولوفوا في مصالح الجيش الصناعية ، قد احتفظو ببعض المهام الاقتصادية . وقد عاونهم مجلس ملكي للتجارة ، واسندت امور التحقيق الى الوكلاء ومفتشي المصانع العامين .

نظمت الدولة الاستهلاك بقوانين تقيد النفقات المفرطة ، والتجارة بتحظير المعادن الثمينة والنقود المعدنية ، ومنع الاحتكار، وصفقات العينات ، وشركات المشترين وتحديد عدد الوسطاء بالابقاء على المنافسة بفضل ايجاب البيع للاسواق في ايام ومواعيد معينة . ونظمت الدولة الصناعة بقواعد عامة تحدد الطول والعرض والوزن والنوعية والصقل . وقام المفتشون العامون وكتبة المصانع بزيارات متكررة الى المصانع والمساكن . أما العقوبات التي تعرض لها المخالفون فغرامات نقدية وحجز وهدم ، واخيراً (١٦٧٠) نصيبة وغل .

الدولة محدثة الصناعات

كان الهدف الأول ، بحسب التسلسل المنطقي ، منع اخراج الأموال . لذلك بات من واجب الدولة احداث صناعات جديدة حتى لا تضطر الى الشراء من الخارج . وانما قد يحدث ان لا تكون لهذه الصناعات سوق داخلية فتصبح الدولة اذ ذاك زبونها الوحيد . والفلاحون لا يبتاعون مصنوعات حديدية كثيرة كما ان أدوات زراعية كثيرة ، كالمساحي والمقالب ، تصنع من الخشب . وغالباً ما تصنع البواسن نفسها من الخشب الصلب . فالدولة تكاد تكون السوق الوحيدة لصناعة الحديد ، لاجل سفنها واسلحتها ومعداتها وقصورها حيث يعالج المهندسون الحجر بالحديد . وكانت الدولة، منذ السنة ١٦٦٥ حتى السنة ١٧٢٦ ، الزبون الوحيد لصناعة التنك في « بومون » . وخلاصة الكلام ان النقطة الاولى ، في التسلسل المنطقي ، هي ان يدوّر المال في داخل المملكة ، وهي الدولة من ينظم حركته الدائرية الضرورية للحياة : ضرائب ، صفقات الدولة، تسديد حساب المبارة ،

اجور العمال ، ضرائب ، وهي حركة تفضي الى توفير المصنوعات والمواد الغذائية في كل مكان. أما النقطة الثانية فهي منطقياً زيادة هذا الحجم من المال بمضاعفة البيع الى الخارج . فيتضح من ثم ان الصناعة هي أهم عناصر المثال الفرنسي .

الدولة تستحث انشاء المشاريع . عملاء الملك يبحثون عن التجـــار الراغبين في انشائها . الملك يرفع من مرتبة النشاط الصناعي في السّلم الاجتماعي بترقية اصحاب المشاريع الى طبقـــة النبلاء ، وباعلانه ان صناعة الزجاج وصهر الحديد والتجارة الكبرى لا تحط من مقام النبلاء ، وبزياراته الى المصانع مـع حاشيته ، سواء دعي هنري الرابع أم لويس الثالث عشر ام لويس الرابع عشر ، وباطلاق اسم الصناعة الملكية على بعض المشاريع والسماح لها باستخـدام شعار التيجان المزدانة بالزنابق .

والدولة تؤمن حياة المشاريع الجديدة بتوفير الوسائل الضرورية لها الى ان يصبح المشروع قادراً على الحياة بوسائله الخاصة . فعملاء الملك يحثون علية النبلاء وكبار الاكليروس والمجالس الاقليمية والمدن على تقديم رؤوس الأموال . والملك يرغم كذلك ، على هذا العطاء ، رجال المال الممولين جل اهتمامهم الى التزام الضرائب والقروض الملكية ووسائل تخزين الأموال ، فيكسف وجههم ولكنهم يمتثلون بكل حقارة . كما ان الملك يخفض نسبة الفائدة القانونية ، الى ٦ ، ٢٦ ٪ في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٣٤ ، والى ٥ ./. في السنة ١٦٦٨ . ويحـــارل تخفيف الدخول الملكية والضرائب المباشرة ووفاء ديون المدن والجمعيات . ويمنح المشاريع ذات الامتياز اعفاءات اميرية ومساكن وابنية وتعويضات ادوات ومساعدات للانفاق على التأسيس أو لتغذية رأس المـال ، وتعيينات لاسكان العمال والعمال المتدربين وتغذيتهم .

ويوفر الملك اليد العاملة اللازمة للمشاريع . فكولبير يعتمد سياسة تشجيع النسل ، ويعفي من الضرائب ، الى حين ، المتزوجين في سن العشرين والعائلات المؤلفة من عشرة أولاد فما فوق . والملك يمنع هجرة العمال لأن عملهم حق من حقوقه. والملك يجمع المتسولين في مستشفيات حيث يكرهون على تعلم مهنة من المهن . وكولبير يلزم المتعطلين والعوانس وسكان الاديرة بالعمـــل للمصانع ، والآباء والامهات في مختلف الطبقات بارسال أولادهم الى التدريب . والملك يستحضر الاختصاصيين من البندقية و « فلاندر » واسوج والمانيا ويجنسهم ويزوجهم ، ويغمرهم بآلائـه ولكنه يشترط عليهم تدريب العمال الفرنسيين والبوح باسرارهم .

وتضمن الدولة ، للمشاريع ذات الامتياز ، حرية العمل ضد نقابات أهل الحرف الواحدة : حق استخدام ما يلزمها من عمال وعمال متدربين ، وحق انشاء المصانع والمستودعات التي تحتاج اليها . ويحررها من الانظمة النقابية ويؤمن لها سلطات قضائية خاصـــة ، كطلب حكم قصر العدل أو مجلس الملك .

وتؤمن الدولة تموين المشاريع بالخامات بحرية نقلها وأعفائها من الرسوم الجمركية والاجازة

بالتزود بها من الاحراج الملكية .

وتؤمن الدلة التعليم التقني . فالمتدربون يتمرنون في مصـــانع « اللوفر » و « التويلري » و « غوبلين » والمصانع الملكية ، ومصانع المستشفيات ، ومدارس بناء السفن وعـلم المياه السطحية في المرافيء . وبايعاز من كولبير تولت اكاديمية العلوم اصدار كتـاب « وصف الفنون والمهن » (١٦٧٥) وكتاب « مجموعـة الآلات » (الجزء الاول ، ١٦٧٧) . وظهرت كتب تقنية : « التاجر الكامل » « لجاك سافاري » (١٦٦٩) ، و «الحسابات المضبوطة» «لباريم» وتولت « صحيفة العلماء » اطلاع القراء على الطرائق الصناعية الجديدة. وانصرفت الاكاديمية الى محاولات الاختراعات الآلية : آلآت رفع البضائع وتنسيقها ؛ آلات البـــذر والحصاد والتقنية والطحن ؛ شتى انواع المناويل . فلـقد رفعت احدى الآلات المثلث القائم في اعلى اللوفر الذي يزن ١٠٠٠٠٠ كيلو غرام . فاعتقد « بَرّو » ان عهد الآليات سيبدأ قريباً .

وتؤمن الدولة الاسواق للمشاريع ذات الامتياز : طلبات ، احتـــكار البيع لفترة معينة ، حماية المنتوجات في السوق الداخلية بالتعرفات الجمركية المرتفعة ، منع البضائع الاجنبية .

أمثلة المشاريع صاحبة الامتيازات

هنالك امثلة مختلفة عـــن المشاريع صاحبة الامتيازات . فالدولة تحمي « المصانع اليدوية الملكية » ، وهي مجموع مصانع لصناعة معينة في مـــكان معين . ومـــا صناعة القلانس والجوارب في « طروا » سوى مجموع ارباب المهن الذين يعملون في هذه الصناعة في طروا .

وتحمي الدولة شركات التوصية ، ثم الشركات المساهمة بعد السنة ١٦٧٣ . يشترك الموصّون باعداد محدودة مع تجار صناعيين : اربعة شركاء في مصنع « فان روبيه » في « ابفيل » . أما في المناجم وصناعة التعدين الكبرى وصناعة الاصواف ، فالشركات شركات حقيقية تضم تسعة مساهمين واثني عشر وسبعة عشر مساهماً، كشركة « داليان دي لاتور » ، جابي الاموال العام في مقاطعة « دوفينه » ، التي تخصصت في صناعة المدافع والمراسي والاسلحة والمصاهر .

وفي بعض الاحيان تكون الدولة تاجراً ــ صناعياً في مصانع الدولة . ففي مصنع«غوبلين» وهو مصنع مفروشات التاج ومديحاته ، اثنان وعشرون رئيس مصنع . الدولة تفاوضهم قطباً . تقدم لهم المناويل وتبيع منهم الخامات وتفرض عليهم الرسوم الايجازية والرسوم النهائيـــة . ويفاوض رؤساء المصانع العمال ويقدمون لهم سلفات مالية .

وهنالك اخيراً ادارات ملكية . فالدولة تحقق احياناً تأميمات حقيقة كما حدث في بعض الصناعات الحربية مثلاً ابان الحرب الهولندية . صودرت المصاهر في مقاطعة « نيفرنيه » . وتولى ادارة الانتاج مهندسون وعمال تابعون للبحرية . وفرض على كل مصهر تسليم وزن معين من المصنوعات . وحددت بكل دقة ارباح اصحاب المصانع والاجور واثمان الخامـــات . وكانت هنالك ادارات اخرى ايضاً .

طرائق الانتاج والكسب

هنالك ثلاث طرائق مختلفة للانتاج . الانتاج في المصانـع الفردية الصغرى اولاً . ثم انتاج المصانع الصغرى التي تشتغل لمعمل يجري فيه تركيب القطع والصقل والتحويل . وكانت هذه الطريقة اكثر الطرائق رواجاً لانها تتيح النقل المجزأ . هكذا استخدمت دار الصناعة البحرية في « روشفور » المعدن الذي تنتجه مصاهر « انفوموا » و « ليموسين » و « بريغور » ومنطقة « اللوار » واصبحت سوقـاً له . وهكذا تخصص كل مصهر في مقاطعة نيفرنيه في جزء من اجزاء المرساة التي تجمعها مصانع التركيب في « امفي » و « كوسن » . وفي صناعة الاصواف انجز الغزل والنسج في مصانـع عائلية صغرى والصقل والصباغة في المعمل . فازداد عدد الصناعيين اليدويين المستقلين لان صـاحب المشروع الرأسمالي يبحث في الارياف عن يد عاملة اقتصادية وطيعة تمارس في المنزل عملا عائلياً غالباً مـا يكون موسمياً . وفي بيكارديا انشيء في الارياف ١٩٠٠٠ منوال من اصل ٢٥٠٠٠ . رأفضت المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجـار صناعيين في « اميان » يؤمنون الحياة لـ ١٠٠٠٠٠ شخص يجمعون بين عمل المناويل ليلاً وعمل الحقول نهاراً . وهنالك اخيراً معامل حقيقية تضم عدداً كبيراً من العمال . ففي عهد هنري الرابع ضم مصنع انسجة « فولف » الكتانية الناعمة في « سان – سفر » في « روان » ٣٥٠ منوالاً و ٥٠٠ الى ٦٠٠ عامل مجموعين في ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابـع عشر ضم مستشفى « سلبتريير » العام ١٨ مصنعا عمل في بعضها أكثر من ٢٠٠ عامل (حتى ٢٩٢) .

وكان الملتزمون من النبلاء أو من كبار ذوي المراتب في الكنيسة أحيانا . وقد يحدث ذلك في المناجم والمصاهر ومصانع الزجاج ايضاً . اما أصحاب المشاريـع ، من أمثال الدوق « دي لورين » والدوق « دي مركور » والدوق « دي مونبنسييه » والكردينال «دي غيز» والكردينال « دي ريشليو » ، واعضاء المجالس التمثيلية ، فقد استثمروا مشاريعهم استثماراً مباشراً احياناً . الا انهم لزموها تلزيماً في اغلب الاحيان. يقدمون الابنية والادوات. اما الملتزمون فبورجوازيون ابناء تجار يستعينون بخدمات مدراء تقنيين . فهناك من ثم ثلاث فئات : اصحاب المشاريع ، الملتزمون الرأسماليون ، والتقنيون .

وقد بولغ في تقسيم العمل . فهناك ، في مصانع النسيج مثـلا الغزالات ، والغسالات ، وطارقوا الصوف ، والمنفشون والحاكة والجزازون والصباغون والحلاجون والقصارون .

نحن نفتقر إلى الارقام حول الانتاج. ففي ليون كان «فورتييه » يصنع اربعه أزواج جوارب مقابل ثلاثة يصنعها اصحاب المناويل المختلفين . ولكن الانتاج قد بلغ شأواً بعيداً على كل حال . ففي اميان ، انتج « فان روبيه » ، في عهد كولبير ١٢٠٠ قطعة من الجوخ الناعم سنوياً . وفي بيكارديا انتج ١٠٠٠٠٠ عامل ١٨٠٠٠٠ قطعة من الاقمشة. ولعل انتاج المملكة كلها، في جميع انواع المشاريع ، بلغ مليون قطعة من الجوخ سنوياً .

الدولة والنقابات

لم يكن المشروع ، في نظر الحكومة ، سوى تدبير مؤقت ، اذ كان من المفروض ان تتخذ الصناعة ، بعد تأسيسها واستقرارها ، الشكل النقابي. فقد حاولت الدولة تعميم النقابة التي رأت فيها ، بانظمتها ووكلائها وحراسها الحلفين وجمعياتها وانتظامها ، مساعداً للسلطة . فصدرت في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٧٣ ، براءات تجعل العمل النقابي الزاميا ، فاخفقت . الا ان عدد المهن النقابية ، وان بقي متدنيا ، قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وشمل اعظم المهن شأناً .

فرضت الدولة الوصاية على النقابات. فقد احتفظت لنفسها بحق الموافقة على الانظمة الاساسية ، واخضعت المهن لسلطتها المطلقة . وراقب عملاؤها الانتخابات . كما ان الدولة توصلت الى تقسيم ارباب المهن . وأعادت الى ما لا نهاية له انتخاب قلة من أثرياء ارباب المهن للوظائف النقابية . ولم تقبل في الهيئات البلدية سوى اغنى اغنياء ارباب المهن النقابية العامة وجعلت منهم ارستوقراطية تستدعى الى جمعيات الاعيان والمجالس الاقليمية ويسمح لها بارسال وفود لمقابلة الملك . واجازت لارباب المهن تخفيض عددهم بالمبالغة في الموجبات المفروضة على من يرغب في ان يصبح رب مهنة . وزاد الملك من خطورة التفاوت الاجتماعي . وحاول ان يحصر الفوائد في عدد ضئيل من ارباب المهن وان يميز بينهم اقلية من الاغنياء المتفانين في خدمة الحكومة . وهذا ما عناه التطور الاقتصادي على كل حال . ففي ليون جعل ارباب التجارة من الملتزمين رفاقاً عاديين . اما الانتاج لاسواق اعظم اتساعا فقد افضى الى سيطرة الوسطاء .

الدولة والتضحية بالعمال لاجل الانتاج

وزاد الملك من خطورة التباعد بين ارباب المهن والعمال . فقد ضحى العمال ماديا لمصلحة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج . وكان العمال جنوداً في جيش صناعي اسندت اليه مهمة تأمين عظمة الدولة وقوتها . فبات لزاماً ، بسبب تقلبهم وتشردهم وتبلدهم، ان يدربوا على عمل متصل ونسق سريع ومستمر ونوعية فضلى . فخضعوا من ثم لنظام حديدي اشبه بنظام الحياة الرهبانية .

أضف الى ذلك ان الدين ، الذي يوجب كمال القيام بالواجبات اليومية ، قد كان عوناً للانتاج . ففي المعامل المركزية للمشاريع ذات الامتياز ، وفي المستشفيات العامة ، يحضر العمال القداس يومياً ويباشرون العمل برسم اشارة الصليب وتلاوة صلاة معينة. الاعتراف والمناولة الزاميان في الأعياد الكبرى . وترافق وجبات الطعام قراءات تقوية . الثرثرة ممنوعة في المصنع ، الا ان باستطاعة العمال ترتيل الاناشيد باصوات خافتة .

يتمتع المدير بملء السلطة في مؤسسته . العمال يشتغلون تحت رقابته ورقابة معاونيه. يعملون بالقبالة ، مما يضاعف الانتاج. يعاقبون بالغرامات المالية والجلدة والغل والالقاء من اعلى الصواري والتعليق على أعواد المشانق ، على تأخرهم وتبلدهم وكلامهم البذيء وتجديفهم وغشهم وعصيانهم وسكرهم وترددهم على البيوت المشبوهة والحانات والخمارات ووقاحتهم في الكنائس وتسررهم وكل

ما قد يكون سبباً مباشراً او غير مباشر لانخفاض الانتاج او ارتفاع النفقات الذي قد يحملهم على المطالبة بزيادة الاجور .

الاجور ضئيلة . يوم العمل يستغرق ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة ، ولا يتوقف العمل الا اثناء الوجبات التي يخصص لها ثلاثون أو خمس وأربعون دقيقة . العامل يُستغل بواسطة اجره : الشركة تدفع له حقه مواداً غذائية او مصنوعات تخمن اثمانها كما يطيب لها التخمين . والدولة تشل امكانات العامل الدفاعية . تحظر عليهم الجمعيات والدسائس . ففي « روشفور » طالب « دي ترّون » بسجن صاهري المراسي الذين اشتكوا من انخفاض اجورهم . وقد اوجب على ضباط القضاء تقديم المساعدة للملتزمين كلما طلبت منهم ان كسب ربّ العمل ، وهو مصدر نشاطه ، يتقدم بالضرورة على كل شيء آخر .

أما عمال المشاريع ذات الامتياز فيعفون من الضرائب والترصد والحراسة والخدمة العسكرية ، وتقدم لهم المساكن مع حديقة صغيرة في الاغلب ويتقاضون منحاً عند الزواج وعند ولادة ابكارهم ويستفيدون من الاسعافات الطبية . وباستطاعتهم ان يصبحوا اربابي مهن دون ان يستلزم ذلك منهم طرفة رائمة أو نفقات خاصة .

ويخضع ضباط القضاء رفاق النقابات والعمال المستقلين لنظام عائلي باستثناء الامتيازات . التدريب يستغرق مدة طويلة (خمس سنوات) . التكتلات والاضرابات ممنوعة . على العامل ان يتقدم خطياً بطلب صرفه من الخدمة كلما تبدل رب مهنته ، وهذا ما يعادل بطاقة العمل النابوليونية . في السنة ١٦٦٦ الغي عشرون عيداً من أعياد البطالة ، فأنزل عددها الى ٩٢ . النظام العام هو هو لا تبدل فيه .

الدولة والزراعة

وجدت الزراعة تشجيعاً لها في انطلاقة الصناعة وتزايد الطلب عليها . استورد كولبير الاكباش من انكلترا واسبانيا بغية تحسين الاجناس الوطنية . ونشطت الدولة الزراعات الصناعية ، المغلم والفوة والكتان والقنب والتوت ودودة القز . وقدم الملك البذار والماشية للفلاحين وأعفاهم من الضرائب في سنوات القحط وطلب منهم الحنطة والمشروبات الروحية والخمور والقددات، لاجل الجيش والمشاريع العامة . فتواصلت من ثم اعمال اصلاح الاراضي تتولاها جمعيات الفلاحين أو البورجوازيون الميسورون كالاطباء والتجار وضباط القضاء السيدي الذين يقومون باستثمار الاراضي الجديدة . وانشأ بعض الاسياد استثمارات جديدة فأحيوا الارض وخططوها وأعادوا تجهيز المزارعين بحيوانات القرن وضموا الاستثمارات لمضاعفة الانتاج واستولوا على بعض الاراضي المشاعية بالاختيار ووضع اليد فالغت الحكومة تملكهم حيناً (١٦٠٠ ، ١٦٢٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٨٣) وابقت عليه حيناً آخر (١٦٦٧ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٧ ، ١٧٠٢) بحسب ميلها الى حماية الفلاح الصغير أو الى زيادة الانتاج .

الدولة والتجارة الخارجية

نظمت التجارة الخارجية ، كما في انكلترا والاقاليم المتحدة ، بوثائق ملاحة (قانون « ميشو » ، ١٦٢٩ ، التعرفة الجمركية ، ١٦٦٤) وشركات تجارية ، وحماية جمركية (تعرفة ١٦٦٤ وتعرفة ١٦٦٧) لم يتوصل الملك الى فرضها في مناطق حدود المملكة ولم تشمل الولايات كلها . وازداد حجمها بفضل المستعمرات . وقد حلم ريشليو وكولبير بجعل مستعمرات المناطق المعتدلة ، كنـــدا واكاديا مثلاً ، ارضاً فرنسية جديدة .

جاء النجاح عظيماً . فاكتسبت المنتوجات الفرنسية شهرة النوعية الجيدة . وحوالي السنة ١٦٧٠ صدرت الاجواخ الفرنسية مثلاً الى ايطاليا ، واسبانيـــا ، والمانيا ، ومؤانيء الشرق الادنى ، والهند .

٦ – الدعاوة الملكية

لقد سعى الملوك وراء استعادة وحدة المشاعر المؤاتية للملكية المطلقة . فالآداب والفنون والدين يجب ان تقترب باستمرار من الخدمة العامة . والقوانين يجب ان تخلق في رعايا الملك ميلا إلى النظام وتسلسل السلطة وتعيد اليهم توازنهم الداخلي وقسمهم في توحيد نزعـــاتهم . فاضطر الملوك إلى تشجيـــع الكلاسيكية التي تعتبز علم سنن جمال الوحدة . ويكفي هنا ان نقدم مثل فرنـــا . ففي لفترتين مختلفتين ، اي بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، والسنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ ، رافقت غلبة الكلاسيكيين على منافسيهم سيطرة السلطة المطلقة في هذه البلاد بفضل الحمـــاية الملكية . وقد حاولت الحكومة شيئاً فشيئاً ، ايقاف اتباع الملك في وجه أتبـــاع الأسياد من الفنانين وأهل الأدب ، ثم حل التبعيات الثانية بحيث لم يبق من نصير للآداب والفنون ، في عهد لويس الرابـع عشر ، سوى الملك .

الدعاوة الادبيـــة

الدولة تراقب المطبعة والمكتبة . وتحاول تحديد عـــدد اصحاب المطابـع لمراقبتهم مراقبة اجدى . مستشار فرنسا ، ثم الملك منـــذ السنة ١٦٦٦ ، يستقبلان اصحاب المطابع الجديدة . ولكنهما لا يستقبلان منهم سوى عـــدد ضئيل . فمنذ السنة ١٦٦٧ حتى السنة ١٦٧٦ هبط عدد المطبعيين المكتبيين ، في باريس ، مـن ٨٤ الى ٣٦ . وقد جمعوا في المدن الكبرى وفي احياء خاصة ، تحت رقابة ضباط القضاء . وحظر على الاديرة والكليات والافراد اقتناء المطابـع .

مستشار فرنسا هو وحده من يرخص بالطبـع . اسندت مراقبة المطبوعات الى كلية اللاهوت في باريس اولاً ، ثم مارسها ، منذ السنة ١٦١٢ ، مراقبون ملكيون . منعت كل المنشورات التي تعالج شؤون الدولة وكل المؤلفات التي تهاجم الجلالة الملكية والأخلاق والدين . وراقب الضباط

الملكيون البيع وبيع التجول والمستودعات وطاردوا مؤلفي الاعلانات الشتمية والاغـاني والاهاجي والكتب الممنوعة وعاقبوهم بالغرامة المالية والسجن والنفي والاشغال الشاقة . أما المؤلفات التي تشكل خطراً كبيراً فيحرقها الجلاد بيده .

الدولة تراقب الصحافة وتوجهها . فهي من اوحت بـ « المركور الفرنسي » منذ السنة ١٦١١ . كما ان الاب « جوزيف » ، صاحب النيافة الرمـادية ، قد اسهم في الادارة . وكان لريشليو صحافيون رهن اشارته،« فنكان » ، «بليتيه» ، «فرييه» ،« صوفي » ، « رينودو » .وحين اسس « رينودو » « جريدة فرنسا » ، في السنة ١٦٣١ ، اعد له ريشليو ولويس الثالث عشر مقالات غير رسمية .

الدولة تراقب تمثيل المسرحيات . فعلى الممثلين ان يعرضوا المسرحيـات والادوار على وكلاء الملك في المحاكم العدلية . ويسهر الضباط الملكيون على الامن اثناء التمثيل .

كان لهنري الرابع شعراؤه الخاصون ، « شعراء اللوفر » ، « برتو » ، « فوكلين ديزيفتو » ، « دي برون » ، « مالرب » . وقد نظموا الشعر بناء على طلب الملك ولخدمته ، والفوا الاناشيد والقصائد القصيرة وقصائد المناسبات ، ولادات العائلة الملكية وأمراضها ووفياتها وانتصاراتها . ولكن الملك قد ترك شعراء عديدين يدخلون في خدمة العظماء .

الاكاديمية الفرنسية

حاول ريشليو ، على نقيض هنري الرابع ، جمع اهل القلم ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، في خدمة الملك . وجد بين المالربيين اعظم مساعدي الملكية تفانيا ، وبين الملحدين ايضاً ، لأن هؤلاء يطمحون الى ارستوقراطية الفكر ويزدرون بالجماهير والارتيابيين ، فساروا بسهولة وراء السلطة المطلقة الظافرة . علم ريشليو ، عـن طريق « بواروبير » المقرب اليه ، ان اشخاصاً عدة يجتمعون ، منذ السنة ١٦٢٩ ، عند احد امنـاء سر الملك ، « فالنتين كونرار » ، للتداول في شؤون الادب. ففرض ريشليو عليهم ، في الاشهر الاولى من السنة ١٦٣٤ ، ان يؤلفوا جمعية صاحبة امتيـاز ، الاكاديمية الفرنسية ، استأثر هو بلقب ودور حاميها ، وعززها بثلاثة من مستشاري الدولة وبحافظ اختام الملك . وقد وقعت الشهادات الملكية بذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٥ .

عينت للاكاديميين مرتبات شهرية وخصصوا بانعامات . فتوجب عليهم من ثم التغني بمجـد الملك ووزيره . في السنة ١٦٣٥ نشروا « البارناس الملكي » تمجيداً « لمآتي الملك المسيحي جداً والفاضل جداً لويس الثالث عشر » و « قربان عرائس الشعر » تقريظاً جماعياً « للكردينال العظيم ريشليو » . واليهم ينتسب بعض من وقفوا في وجـه الصحفيين الاسبانيين والفلمنكيين : « هاي دي شاتليه » ، « جان سيلون » ، مستشار الدولة ، و « جـان سيرمون » ، ابن شقيق مرشد الملك .

اراد ريشليو ان تجعل الاكاديمية من اللغة الفرنسية والادب الفرنسي اللغـة والادب الاولين .

في اوروبا ، « هذه اللغة التي نتكلمها والتي قد يتكلمها كافة مجاورينا قريباً اذا استمرت فتوحاتنا كما بدأت » . وقرر الاكاديميون « وضع القواعد لمفرداتها وجعلها بقاموس مستفيض واجرومية واضحة جداً ، ثم العمل على «وضع علم بيان وعلم قريض يكونان دستوراً لمن يرغب في الكتابة شعراً أو نثراً » ، واخيراً تقديم نماذج النثر الفرنسي المنمق بخطبة اسبوعية . وفي السنة ١٦٣٧ تقدمت الاكاديمية بملاحظاتها حول « السيد » .

ان حماية ريشليو جعلت أهل القلم يشعرون بكرامتهم ودفعت بهم الى الانتاج . فسياسته وحروبه جعلت الناس يعيشون في جو من التوتر الادبي والتصميم على النصر والعزة القومية ولا « يفتخرون بالانتساب الى شعب عظيم والاسهام في عمل سيسجله التاريخ » . ففجرت الانطلاقة القومية المؤلفات الادبية .

ما زالت الاكاديمية الفرنسية جمعية خاصة تحميها الدولة . وحين توفي المستشار « سيغيه » في السنة ١٦٧٢ ، امم كولبير الجمعية ، ووضعها تحت حماية الملك ، وقدم لها اللوفر منتدى ، وخصصها باعتمادات مالية لكتبتها وقرطاسيتها وتدفئتها وانارتها ، وبمكافآت الحضور لاستعجال العمل . فاعتبرت الاكاديمية انها « خادمة » جلالته . واستمرت على جعل الفرنسيين اكثر قدرة على العمل لاجل مجد الملك بمعرفتهم اللغة معرفة فضلى » .

« كل مفردات اللغة وكل مقاطعها تبدو لنا ثمينة لاننا ننظر اليها كما الى ادوات يجب ان تستخدم لاعلاء مجد حامينا العظيم » (راسين) .

مجد الملك بشتى انواع التقاريظ . وقد وضع شابلين لائحة بالمؤرخين والشعراء الواجب منحهم الانعامات ، ضمت عدداً كبيراً من الاجانب ، الفلورنسيين والهولنديين والالمان . فتلقوا سفتجات واشارة الى « السلوك الواجب عليهم سلوكه للاعراب عن امتنانهم » .

دافعت الاكاديمية عن مذهب « النظاميين » . فاذعن له الكتاب الفرنسيون كي يصبحوا اكاديميين . هكذا قضت « الحكمة » . ويتضح من كل ذلك ان الدولة عززت موقف المجتمع من الحس المستهجن .

الدعارة الفنية : هنري الرابع والتجميل الملكي

لم يكن من وسيلة لانطباع عظمة الملكية في النفوس خير من البناء وتزيينه اللذين كانا سبيلاً « للتأثير على عامة الشعب واستمالتها » ايضاً . أراد هنري الرابع ان يدخل على المدينة نظام الدولة بالذات . يجب ان يسيطر العقل على المدن سيطرته على الفكر . والعقل يعبر عنه بالهندسة . لذلك فان الملك يريد تحقيق انشاءات كبرى متناسقة الاجزاء وساحات عامة هندسية الشكل وشوارع ومجموعات بنائية متقابلة ومتناسبة . ولكن كما ان الملك في الدولة يرئس الامة ، وكما يجب ان تخضع الافكار الثانوية العارضة للفكر الرئيسي ، كذلك يجب في المدن ان تنظم المجموعات

البنائية حول بناء مركزي ملكي حتى يحترم التسلسل في المدن كما في الدولة .

لاجل توفير الهواء لاحياء باريس التي يرتفع عدد سكانها بسرعة كلية والتي تنبعث منها روائح كريهة جداً ، قرر هنري الرابع فتح ساحات عامة وشوارع كبرى ومتنزهات . فأمر في شهر حزيران من السنة ١٦٠٥ بانشاء الساحة الملكية . وقد انجز بناء الملك وبناء الملكة في السنة ١٦٠٧ ؛ وبيعت لبعض الاسياد العظام والبرلمانيين والضباط اراض تتسع لاربعة وثلاثين بناء . الساحة الملكية هي نموذج ساحات النهضة وساحات الملكية المطلقة . ان الانسان، بحسب روح النهضة ، يسيطر على هذه المساحة المقفلة، المحدودة ، المتميزة ببيوت غير مرتفعة . وبحسب روح المجتمع المنظم والمتسلسل السلطات، تحيط الزنانير الحجرية الافقية وشبكات الزوايا الحديدية بالجدران القرميدية وتتقابل الاشكال وتتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنتظم البيوت المماثلة انتظاماً متناسقاً بالنسبة لبناءي الملك والملكة ؛ الساحة العامة عارية تتجه الشوارع الى وسطها حيث سينصب في المستقبل تمثال الملك وحده ، مركز كل شيء ، المشرف على كل شيء ، المؤله ، الاله على الأرض . واحدثت ساحات عامة اخرى مماثلة .

في هذه الاثناء ، اظهر الرساموں للفرنسيين كيف يجب عليهم ان ينظروا الى الملك . ففي اللوفر ورواق الملوك ، روت الصور التي تزين السقوف قصصاً مستعارة من الميثولوجيا والعهد القديم ، ومثلت ابطالها بصورة هنري الرابع ، تأليف كلا المصرين القديمين ، الانسان الكامل ، المستنير والمسير بروح الله .

وقد احب هنري الرابع ، على غرار لويس الرابع عشر من بعده ، ان يري ابنيته بنفسه للاجانب ويدهشهم ويرهبهم بجلاله . ولكن كبار اعيان المملكة نسجوا على منوال الملك ، كالدوق « ديبرون » في قصر كاديلاك . فكان لزاماً على الملك ان يبزهم . الا ان ريشليو ، حيال هذه النقطة ، لم يفلح في اقناع لويس الثالث عشر ، الملك المقتصد ، فاضطر الى الاكتفاء بقصر اميري ومدينة جديدة احدثت لتكون له اطاراً ، في ريشليو .

لويس الرابع عشر وتأميم الفنون : الاكاديميات

طبق لويس الرابع عشر سياسة هنري الرابع ولكن على نطاق اوسع . فاشرف بنفسه على اعمال البناء ، يعاونه كولبير ناظر الابنية العام (١٦٦٤) ، و « لو برون » ، الخبير في حقل التزيين ، والاكاديميات التي تهيء المواضيع وتدرس المشاريع وتوزع العمل وتراقب التنفيذ وتفرض النمط . في السنة ١٦٦٣ ، امم كولبير اكاديمية التصوير والنقاشة . في السنة ١٦٧١ ، تأسست اكاديمية هندسة العمارة ؛ وفي السنة ١٦٧٢ ، اكاديمية الموسيقى . وتحولت جمعيات خاصة في الولايات الى فروع لاكاديميات باريس الكبرى . واخيراً انشئت في السنة ١٦٦٨ اكاديمية روما ووضعت منذ السنة ١٦٧٦ تحت سلطة الاكاديمية الملكية للتصوير والنقاشة . فأمسى الفنانون منذ ذاك التاريخ في مركز يحسدون عليه . كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكمال تخصصه

ويعود ليدخل في خدمة الملك ويستلم من « لو برن » المواضيع المطلوب التوسع فيها وفاقاً لقواعد تفرضها الاكاديمية . منذ السنة ١٦٦٤ حتى السنة ١٦٧٤ درجت اكاديمية التصوير والنقاشة على عقد مؤتمر شهري ، يدرس فيه المجتمعون تمثالا أو لوحة ويتناقشون وينهون نقاشهم بقاعدة تدون في سجل خاص . فتوطد في الفن رأي مشارك فرض نفسه .

التجميل في عهد السلطة المطلقة

اوحى الملك بتشييد اقواس النصر تمجيداً لانتصاراته (باب سان دنيس ١٦٧٣ ؛ باب سان – مارتين، ١٦٧٤) . وابرزت ساحات ملكية عامة معدة لأن تحيط بتمثاله . وشق الدوق « دي لا فوياد» باريس ونصب في ساحة الانتصارات تمثال لويس الرابع عشر لـ « ده جاردين » : الملك ساحق « سربروس » المثلث الرؤوس . وعند التدشين ، سار الدوق في مقدمة فرقة الحرس التي يقودها ودار ثلاث مرات حول التمثال و « قام بكل ما كان يقوم به الوثنيون أمام تماثيل اباطرتهم » . وفي زوايا الساحة اتقدت باستمرار منائر مقامة فوق الاعمدة في قوانيس من البرونز المذهب تذكر بالمصابيح المقدسة أمام الايقونات . وأمر الملك بتشييد قصور واسعة الارجاء اذهلت سكان الولايات والاجانب بعظمتها وتناسقها الكامل ايضاً الذي ينم عن نظام حديدي . ان صف الاعمدة الكبير الذي صممه « شارل برّو » (١٦٦٧ – ١٦٧٤) واشرف على تنفيذه في اللوفر يتميز بتناسبه الكلاسيكي : فعلى كلا جانبي المحور الوسطي تتوازن اجزاء البناء بقناطر وتتقابل . وعلى كلا جانبي الجزء الوسطي ، من البناء الذي تعلوه جبهة مثلثة الزوايا ، ينبسط جناحان كبيران للسقفها الاعمدة الكورنثية الكبرى التي تتعاقب مثنى وتنتهي الى اجزاء زاوية تزينها ركائز ضخمة . كما ان الاساس وسطوح الاعمدة والافاريز تبرز الخطوط الافقية، فتترك في النفس انطباع عظمة ثقيلة . الا ان فقدان السقوف ، والدرابزونات الايطالية النمط ، وتفاهة وجه البناء الابيض ، تستجيب لمجتمع تهدده الدولة التي تبتلعه ، وتذكر بالتزيين المسرحي الذي استهوى لويس الرابع عشر في شبابه ، عند « مازارين » ، والذي اضطر مهندسو العمارة لاضافته الى الكلاسيكية الفرنسية .ويذكّر بالتزيين المسرحي ايضاً وجه قصر فرساي المطل على الحديقة . ففي فرساي انشأ الملك ، على مراحل ، المدينة الملكية ذات الطرق المؤدية الى القصر الملكي ، الذي يستدبر المدينة ويطل بوجهه على حديقة « له نوتر » ، ويمتدل على « رقاص مهيب » هو الغرفة الكبرى ، حيث نسقت الطبيعة ، التي يسيطر عليها الانسان السيد، تنسيقاً يتناسب مع شتى ابنيته ، ونظمت لاجل حياته المجتمعية . أما في مقر « مارلي » الملكي(١٦٧٩ – ١٦٨٦) فقد صمم كل شيء للتذكير بان الملك هو مركز العالم وكوكب الكون الساطع . ففي مشهد مسرحي ، وحول مسكن جوبتير ، انشىء ١٢ بناء اهديت لبعض الرموز المجردة أو لبعض الآلهة : الشهرة ، القزارة ، أبولون،منيرفا، الخ ، التي تواكب سير الالهة.وشيدت الكنيسة على احد الجوانب قبالة البناء المعد للحرس، كما لو كان الرب الاله،هو ايضاً،أحد ضباط السيد الملك .

تصوير عهد السلطة المطلقة

ان في تزيين كل هـذه القصور لسياسة مستخلصة من كتاب « التحولات » لاوفيد . فرواق المرايا يروي قصة الملك . وقد رسم « لو برون » صور السقف الرمزية تمجيداً للملك . وتلقي « تعليقات » « فيليبيان » على غرفة الملك في قصر « تويلري » ضوءاً على فن التصوير في الابنية الملكية : « ان كل هذه الصور المستوحاة من تاريخ ابولون توافق الشمس وترمز ، علاوة على ذلك ، الى مآتي الملك ومآثره . فهو صاحب الجلالة من يجب ان نراه في اللوحة الوسطى بصورة ابولون ؛ وهو من نراه محاطـاً بهالة من المجد ؛ وهو من يبدو متسامياً فوق كل شيء ومن ينشر انواره عـلى الارض ويثير الاعجاب في كافة انحاء العالم بفضل وقاره وخصاله الرفيعة » . ومـا عقوبة مارسياس ، الذي سُلخ حيًّا لتجاسره على مجاراة ابولون ، سوى « صورة القصاص الذي يستحقه اولئك الغلاظ المعجبون بأنفسهم حين يتجاسرون على مساواة انفسهم بأميرنا في فن قيادة الشعوب » .

آلت الطريقة المعتمدة في كل مكان الى تصوّر امثلة عامة والى رد « كل شيء الى المثـل المطلق » ، قالت بها الفلسفة المدرسية الاكوينية ، ونادت بها الفلسفة الكرتزيانية التي تتميز بالتجريد واقصاء الفردية والسعي وراء المطلق . اساءت الكنيسة الظن في ديكارت ، وفي السنة ١٦٧١ حكمت السوربون على مؤلفاته وأمرت بان لا تدرس سوى تعاليم ارسطو . كان الملك مقيـداً بقسم التكريس ، فحظر تعليم الكرتزيانية ، ولكنه لم يمنع انتشار هذا المذهب بواسطة الكتاب والندوات الاجتماعية لأن روحه لم تكن بعيدة عن تلك التي تحرك الوزراء والفنانين .

الدعاوة الدينية ؛ تأخر الروح البروتستانتية

لقد رأى الملك ابداً ان في الوحدة الدينية تكميل السلطة المطلقة . اضف الى هذا ان قسم التكريس ألزمه بالقضاء على الهرطقـة . واعتقد كل رعاياه ، الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، « بان الخلاف في الدين يشوه وجه الدولة » : « ايمان واحد ، شريعة واحدة ، ملك واحد » . اضف الى هذا ايضاً ان فتوراً في الايمان ورغبة في الاتحاد مع الكاثوليك قد برزا شيئاً فشيئا ، خـلال القرن ، في الاوساط البروتستانتية . وقد مال الكلفينيون ، امام تعدد الشيع والكنائس وامام الفوضى البروتستانتية ، لان يروا في الدين مستودعاً موضوعياً لحقائق راهنة جاهزة يتوجب على سلطة منظورة ان تستخلصها من الكتاب المقدس وتفرضها فرضا . وكانت المجالس الادارية للرعاة البروتستانت تضع انظمة قاسية جداً . فباتت الكلفينية سلسلة اوامر ونواهٍ بعد ان كانت عبادة روحية . فانفصل بعض البروتستانت عن تعليم كلفين واصبحوا ارمينيين ونقلوا بعض عبادتهم الى شخص الملك ورأوا بان للملك حقاً مطلقا على الاشياء الخارجية ، ومن ثم على العبادة . وامسى معظم البرتستانت لامبالين بالعقيدة قد يكتفون ببعض التنازلات حيال النقـاط التي تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهـال الى القديسين ، مناولة المرضين السريين ، الصلوات باللغة العامية . ورأى غيرهم ، ممن كانوا اشد تصلبا ، بان مذهب بيرول يقرب وجهـات النظر الكاثوليكية والبروتستانتية ويسهل الارتدادات والاتفاقات .

ارتد بعض العظماء الى العقيدة الكاثوليكية منذ عهد لويس الثالث عشر : ابن « سوللي » ، الدوق « دي ليديغير » ، الدوق « دي لا تريموي » ، وكان ارتداد هـــذا الاخير ابان حصار « لاروشل » . وقد اسهم الميل الى النظام في حدوث الارتدادات . وفي عهـد لويس الرابـع عشر ، لم يميز « تورين » ، تلميذ تيلينوس الارميني بين المذهب البروتستانتي المشيخي والجمهورية ، واعتبر هذه الاخيرة مفسدة لكل نظام بشري والهي. وان استقلال الرعاة يتنافى وكل نظام. وفي السنة ١٦٦٨ ، كفر بعقيدته .

تعاظم شأن البورجوازيين تعاظماً مطرداً في اوساط البروتستانتية . الا انهم كانوا يخافون ، في حال اندلاع الثورة ، عامة الشعب من جهة ، ودكتاتورية احد الاشراف ، كـ « روهان » مثلا ، من جهة ثانية . وكانوا حريصين على الاحتفاظ بمركزهم لانهم تولوا وظائف مالية كبرى في البلاط ، ووظائف قضائية هامة ، ومحاكم بدائية كاملة في الجنوب ، ولانهم كانوا بالاضافة الى ذلك تجاراً وصناعيين . فاكتسبوا كلهم روح الحكمة ومحبة النظام والفوارق الاجتماعية. ولم يكن للدين في حياتهم شأن كبير .

انتهى البروتستانت ، الذين تباهوا من جهة ثانية بانتسابهم الى ملك عظيم ، الى النظـــر الى لويس الرابع عشر كما الى ابن الله ، عطاء الله ، والاعتقاد بان عقم الاثنين وعشرين شهراً الذي سبق الحبل به دليل على تدخل الاله في هذا الحبل . احلوه الى جانب الله . وفي السنة ١٦٥٧ ، قال له مندوبو كنائس الاصلاح : « رأينا في السياسة لا يختلف عنه في الدين . نحن نعتقد بان الرعية غير قادرة على استحقاق اي شيء من سيدها وانها ، حتى ولو ادت له كل الخدمات الممكنة ، لن تستطيـع ابتغاء أي انعام من انعاماته الا اذا ابتغته ابتغاءها للنعمة » .

الدولـة واخضاع البروتستانتية

توصل الملك من ثم الى اخضاع البروتستانتية تدريجيـا . فقـــد اتفق اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت ، بصدد الوسائل ، عـــلى اعتماد تعاليم القديس اوغسطينوس. على الدولة حماية النفوس الضعيفة من جور العقول القوية حين تسقط هذه العقول في الهرطقة . عليها استرجاع الهراطقـــة بتدابير قسرية تكون لها قيمة علاجية .الحقيقة هي شمس الروح .ولكن يجب ان تتوجه اليها البصيرة الداخلية ، العادة وتأثير البيئة وسلطة السيد تمنعها من ذلك . لذلك يجب ازالة هذه العقبات بالتهديـد ، والحرمان من الانعامات ، والقسر والعنف .

قضى الملك في الدرجـة الاولى على الحزب السياسي البروتستانتي . أتاحت انقسامـات البروتستانت للويس الثالث عشر وريشليو احتـلال « لاروشل » (١٦٢٨) ثم إلحاق الهزيمة بثوار الجنوب . رفض الملك التفاوض في الصلح على قدم المساواة بين سلطتين . في ٢٣ حزيران ١٦٢٩ ، منح العفو المعروف بعفو « آليه » . اعفي عن الثورة واعيد العمل ببـراءة نانت ، ولكن بالبراءة وحدها : يجب ان تهدم كافة تحصينات المدن وتحل المنظمة السياسية والعسكرية

البروتستانتية. فلم يعد من وجود للجمهورية البروتستانتية. وسلك البروتستانت منذ ذاك التاريخ سلوك الرعايا الأوفيـــاء . فكان جزاء اخلاصهم اثناء ثورة المقــلاع اثبات براءة نانت في السنة ١٦٥٢ .

حاول الملك بعد ذلك تحقيق وحدة الكنائس . فكر ريشليو برد البروتستانت عن طريق مفاوضة دينية على صعيد قومي . ويقال انه توصل الى اقناع ٨٠ راعياً . عاد لويس الرابع عشر الى المفاوضات منذ السنة ١٦٦٢ . حوالي السنة ١٦٦٥ ترأسها مجلس غير رسمي ضم بين اعضائه تورين وبوسويه. نشر بوسويه كتابه « عرض الايمان الكاثوليكي » (١٦٧١) وهو «روعة الاصلاح المضاد » . اقترح تورين استمالة ٥٠ راعياً وافتتاح مؤتمرات يدعون اليها والتماس الايضاحات من البابا وابطال براءة نانت التي باتت غير ذات موضوع . الا ان الحروب التي حولت انتباه الملك ومقاومات الكلفينيين المتصلبين ادت الى فشل كل المساعي . استخدمت الرشوة منذ اوائل ولاية لويس الرابع عشر ، فاغدقت الاموال والانعامات على البروتستانت . ومنذ السنة ١٦٧٤ ، ادار مؤرخ الملك « بليسّون» ، البروتستانتي المرتد ، « صندوق الارتدادات » الذي وزع المكافآت المالية ، « فاعد القلوب لعمـــل النعمة » . واستخدم الملك ارساليات الكبوشيين ودور نشر الايمان ، فحصلت ارتدادات محصورة العدد .

ولكن الملك ، في الوقت نفسه حرم متصلبي الرأي من انعاماته واخذ يفسر البراءة تفسيراً مشدداً ملزماً. بدأ العمل بهذا الاسلوب بعيد عفو « آليه » ثم بولغ في استخدامـــه . واخذت جمعية القربان المقدس تستحث القضاة . وطالبت جمعيات الاكليروس « بحدود ضيقة » . وقد مهد الطريق أمام هذا الاسلوب كتاب « جان فيليو » ، المحامي في محكمة بواتييه البدائية الذي جمع ، بين السنة ١٦٤٥ والسنة ١٦٦٨ ، كافـــة القرارات التفسيرية لبراءة نانت ، وكتاب « برنار » ، المستشار في محكمة بيزيه البدائية (« شرح براءة نانت » ، ١٦٦٦) . ليس ما يمنع اسناد وظائف الدولة الى البروتستانت ، ولكن « هذه المادة مـــن براءة نانت تحصر الاهلية لتولي الوظائف العامة برعايا جمهورية لاروشل البروتستانتية ، دون ان يكون هنـــالك موجب لان يتولوها » . وهكذا خلت البراءة شيئاً فشيئاً من مضمونها واضطهد البروتستانت . واخيراً لجأ الملك الى العنف . منذ السنة ١٦٨١ ، استحصل الوكيل « دي ماريلاك » في « بواتو » ، على اذن باسكان الفرسان في منازل السكان : فحققت اعمـــال العنف بعض الارتدادات في السنة ١٦٨٥ ، اعتمد هذا الاسلوب في كل المناطق . فكانت نتيجة مآثر الجيوش افلاس الضيوف بفعـــل متطلبات الجنود ، وشتمهم وضربهم اذا لم يسمعوا أقوال الكبوشيين ، ونساء يحررن بشعرهن ، وتعذيباً باحراق الارجل بالنار ، وحرماناً من النوم، واغتصاباً . ارتد البروتستانت آنذاك باعداد غفيرة. فبدت براءة نانت منذ ذاك التاريخ وكأنها غير ذات موضوع والغيت في ١٨ تشرين الاول من السنة ١٦٨٥ ببراءة « فونتينبلو » .

الدولة والجنسينية

اعلن الملك على الجنسينية حربا لا هوادة فيها . اعطى صفة القانون ، في السنة ١٦٥٣ والسنة ١٦٥٥ ، لمراسيم البابا اينوشنتيوس العاشر بالحكم على الهرطقة . في السنة ١٦٦٠ اصدر الامر بان تحرق « اقليميات » باسكال بيد الجلاد . ثم اوجب على رجال الكنيسة توقيع قانون ايمـــان قويم . وأدّب دير « بور رويال » ، مركز الشيعة ، بطرد الداخليين والمبتدئين (١٦٦١) وسجن الراهبات (١٦٦٥) . واخيراً توصل الدبلوماسي « دي ليون » ، بمهارته ومراوغته ، الى تظاهر الجنسينيين بالخضوع ، و « سلام الكنيسة » .

الكنيسة الغليكانية

كان الملك مصمماً على قيادة كنيسة فرنسا وتركيز كل سلطة في شخصه وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفـــاء بسلطة روحية وهمية . وكان قد شرع عملياً بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واعطاء أو رفض صفة القانون لمقررات المجامع : اي ان الكنيسة قد امست تحت حمايته . وساند الملك في موقفه هذا المجلس التمثيلي ، والبورجوازية والسوربون وصغار رجـال الاكليروس ، بدافع عـداء قومي غريزي للبابا ، وطالبوا « باحترام حريات الكنيسة الغليكانية وحقوقها وامتيازاتها » . فالملك في نظرهم يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله ، كما يستمد البابا سلطاتـه الروحية . وليست سلطة الملك من ثم دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لهـــا ومستقلة عنها . الملك حامي الكنيسة وحارس زمنياتها ، فهو يتمتع من ثم بكل سلطة على نظـــام كنيسة فرنسا وزمنياتها . لا يحق للبابا ان يحرمه أو يحل رعاياه من قسم الوفـاء أو يبت في نظام اكليروس فرنسا وزمنياته . للمجلس التمثيلي ولمجلس الملك الحق في ابطال انظمة السلطة الكنسية التي يثبت تنافيها وقوانين المملكة واعرافها ، والانظمة المتخذة في فرنسا التي تنفرض الارادة الملكية .

الا ان الغليكانية قد انطوت على طابع لا يخلو من الخطر . قال « ريشيه » ، الغليكاني الهمام ونقيب كلية اللاهوت ، انبرى يؤكد (١٦١١) ان المسيح لم يعط سلطته للقديس بطرس وحده بل لجميع الاساقفة الذين يخلفون الرسل الاثني عشر ، والذين يتمتعون من ثم بحق الهي عـلى غرار البابا ، ويجب ان يكونوا مستقلين عنه . والكهنة كذلك يخلفون الاثنين وسبعين تلميذاً . فليست الكنيسة من ثم ملكية شاملة بل ارستوقراطية قومية . الا ان ريشليو قاوم تعليم ريشيه : ان من يرغب في ادخال الارستوقراطية الى الكنيسة لا يمكن ان يقاومهـــا في الدولة . فارغم ريشليو ريشيه على الرجوع عن تعليمه (١٦٢٩) . ولكن ضرورات السياسة الملكية ارغمت الكردينال بدوره ، على الرغم من ميوله البابوية ، على الابقاء على التوازن بين الغليكانيين والبابا . لا بل يبدو انه طمع بلقب بطريرك « غاليا » الذي كان من شأنه منحه السلطة الروحية عـلى كنيسة فرنسا . ولكن البابا تظاهر بالصمم على ما يبدو .

ان الضرورات السياسية حملت لويس الرابع عشر عـلى محاولة تنظيم كنيسة غليكانية تكون بمثابة الند للكنيسة الانغليكانية . انطلق في محاولته من حق التعيين في الرتب الكنسية

المرتبطة بعدد من الاسقفيات وجمع دخولها اثناء شغور المراكز الى ان يقسم الاساقفة الاصيلون بين الاخلاص . أراد لويس الرابع عشر ، لاعتبارات مالية ، ان يشمل حقه هذا كل الاسقفيات الخاضعة له . فاصطدم بالبابا انوشنتيوس الحادي عشر . وضعت الجمعية العامة لكنيسة فرنسا « بيان البنود الاربعة » في السنة ١٦٨٢ . ذكر البيان بنظرية السلطة المزدوجة ورفع رقابة الكنيسة وحكمها عن السلطة المدنية ، واكد تفوق المجامع العامة على سلطة البابا ، واعلن ان سلطة البابا مقيدة بالمجامع والاعراف القومية ، ورفض عصمة البابا في مسائل الايمان واخضع صحة مقرراته لحكم الكنيسة . جعل لويس الرابع عشر من هذا البيان قانوناً واضافه الى قوانين الدولة . فاصبح تدريس تعاليمه الزامياً في كافة انحاء المملكة . تمتع الملك من ثم بسلطة زمنية مطلقة على الكنيسة وبات قادراً في الحقل الروحي على رفض رسوم البابا العقائدية التي لم تقترن بعد بموافقة مجمع مسكوني ، فغدا رئيساً لكنيسة قومية تخضع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولا يربطها بالبابا سوى رابطة الاحترام .

التومارية

ان لهذه الرقابة على الحياة الفكرية والفنية والدينية ما يماثلها في كل البلدان التي تدين بالسلطة المطلقة او تلك التي تحاول تحقيق هذه السلطة . فلم تخل منها الاقاليم المتحدة ، مع انها كانت متساهلة نسبياً . ففي العهود التومارية التي توافق في الزمن عهود توسع سلطات امير اورانج، سنت قوانين صارمة قيدت المسرح وفرضت حفظ يوم الرب واتخذت التدابير ، حتى في الاقاليم التجارية والبورجوازية ، كهولندا وزيلندا ، ضد الكاثوليك الذين لم يسمح لهم الا بالعبادة الفردية : منع التجمع لحضور الذبيحة الالهية أو اي احتفال ديني آخر ؛ منع الكهنة من دخول البلاد ؛ السماح لكل مواطن « بتشويش الممارسات البابوية » ليلاً ونهاراً ؛ مكافآت للواشين ؛ عقوبات غرامة مالية وجلد ومصادرة الممتلكات .

٧ – التوازن الاوروبي
والتسلسل في تنظيم اوروبا

الاحلاف ضد سلطة آل هبسبورغ

اهتدت فرنسا الى الهدف : انقاذ الحريات الاوروبية من مدّعيات آل هبسبورغ بالسيطرة الشاملة ، والوسيلة : اتحاد الشعوب الاوروبية باخضاع خلافاتها الدينية ومطامعها الفردية للهدف المشترك . اتجهت السياسة نحو نوع من الوحدة الكلاسيكية . باتت فرنسا مركز المقاومة وشحذت العزائم ونظمتها . حتى السنة ١٦٣٥ ، قامت بحرب « صامتة » ، مصلحة ذات البين بين خصوم العدو المشترك ومقدمة لهم المال وواضعة يدها على النقاط الستراتيجية . في السنة ١٦٣٥ ، دخلت في حرب معلنة ضد اسبانيا ، وبالتالي ضد الامبراطور .

توصل ريشليو منذ السنة ١٦٢٩ الى حمل اسوج وبولونيا على عقد هدنة بينهما، وحذا مازارين حذوه في السنة ١٦٤٥ بحمل اسوج والدانمرك على عقد الصلح فيما بينهما في «برومسبرو». في السنة ١٦٣٦، استطاع ملك اسوج، غوستاف - ادولف، بعد ان اخلي سبيله، النزول الى اليابسة في «ستتين». ولكنه كان مفتقراً الى المال. حينذاك عقد الكردينال ريشليو الكاثوليكي جداً، مع غوستاف - ادولف اللوثري جداً، معاهدة مساعدات مالية (بارووالد، ٢٣ كانون الثاني ١٦٣١) لتأمين الانفاق على الجيش الاسوجي الذي كان مقدماً على غزو المانيا ومحاربة ملك سلالة هبسبورغ الكاثوليكي جداً. دام التحالف الاسوجي الفرنسي حتى السنة ١٦٦٧؛ وجدد ريشليو محالفات فرنسا مع كلفينيي الاقاليم المتحدة (١٦٣٠). ثم جددت هذه الاتفاقات تكراراً قبل السنة ١٦٤٨. وتوصل ريشليو، ثم ما زارين من بعده، الى الاتفاق مع ترنسيلفانيا، الامارة المنغارية الخاضعة لسيادة الاتراك، فقام راكوكزي، امير هذه المقاطعة التابع الخاضع للكفرة، بغزو النمسا. ووجد ريشليو، ثم مازارين من بعده، اعضاداً لهما في المانيا على الامبراطور، لاسيما عضد «مكسيميليان دي بافيير» الذي كان متخوفاً من مطامع امير هبسبورغ اسبانيا في البالاتينا، ونظما تكراراً، بين البروتستانت والامبراطور، ما يشبه فريقاً ثالثاً كاثوليكياً المانيا. وجلي ان هذه الاتفاقات لم تخل من الصعوبات والصدمات. فان غوستاف - ادولف، الذي احرز النصر في «بريتنفلد»، قد شرع في غزو المنطقة الرينانية، متجهاً بابصاره نحو الالزاس ومهدداً بتقدمه بفصل فرنسا عن حلفائها ومحاولاً ان يجمع حوله امراء المانيا الشمالية من البروتستانت ليجعل منهم امبراطورية بروتستانتية ليست دون الامبراطورية الكاثوليكية خطراً. الا ان وفاته ابان المعركة في «لوتزن»، حيث انتصر ولاقى حتفه، كانت خشبة خلاص لريشليو على الرغم من ان ضعف اسوج وهزيمة الاسوجيين في «نورد لنجن» (١٦٣٤) قد ارغما فرنسا، في عهد لاحق، على دخول حرب معلنة.

سواء كانت الحرب صامتة أو معلنة، فهي تعتمد على تشجيع الثورات والمؤامرات عند العدو. فالاسبانيون تحالفوا مع العظماء الثائرين على ملك فرنسا، الدوق «دورليان»، والدوق «دي بويون»، «مونمورنسي»؛ وتعهدوا بارسال ١٨٠٠٠ رجل الى «سنك مارس» لدعم ثورته، مقابل استرجاع الاراضي التي يحتلها الفرنسيون، وفاوضوا «كونديه والمقلاعيين وقدموا لهم فرقا عسكرت في باريس مع اعلامها الحمراء الحاملة صليب القديس اندراوس واستقبلوا اللاجئين والامير «دي كونديه» والدوق «دي يورك» والملكيين الانكليز الذين حاربوا في معركة الـ «دون» في صفوف الاسبانيين (١٦٥٨). ولكن ريشليو من جهته قد ساعد الكتالونيين الثائرين على فيليب الرابع الذين نادوا بلويس الثالث عشر «كونت برشلونا» (١٦٤٠) وتحالف في السنة ١٦٤١ مع البرتغاليين الثائرين على اسبانيا وارسل لهم مالا وعتاداً. وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السيطرة الاسبانية (١٦٤٧).

ما زال لـ« ستراتيجية اللواحق » دورها الاول في العمليات الحربية. النتيجة الحاسمة ليست سهلة المنال . يقتضي يوم كامل لتوزيع صف من الجنـــود مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل على خطوط الجبهة في وجه العدو . اذا رغب العدو عن المعركـة ، فان لديه متسعا من الوقت لينسحب انسحاباً منظماً . ويقتضي لمطاردته ان يعيد الجيش صفه ، ولكن الجيش لا يستطيع دخول المعركة حينذاك. لا تدور المعركة الا اذا وافق عليها القائدان وصرفا الوقت اللازم في تنظيم جيشيهما ويجها لوجه . يجب إرغام العدو على دخول المعركـــة بانتزاع مستودعاته ونقاط مروره . وهذا يصح على الاخص في الرقعة الفلنكية التي تتشابك فيها الانهار والاقنية . ولا حيلة ، امام الحصون القائمة عند ملتقى الانهر ، الا في احتـــلال كل مربـع على حدة بالاستيلاء على الحصون والجسور والمستودعات . ويصح القول نفسه عن مناطق النواتىء او الجبال . كالمنطقة الهرسيلية في اوروبا الوسطى ، والالب والبيرينيــه حيث يجب الاستيلاء تدريجياً على حصون المجازات وتقاطع الاودية . ولكن الحصون كثيرة في كل مكان . فكل تموّن يصبح مستحيلا على مسيرة خمسة ايام من المستودع ، ويضاف الى ذلك ان جنـــود الحملات العسكرية لا يجهزون باسلحة تمكنهم من الدفاع طويلاً عن أحد الجسور او أحد المواقع. فيقتضي من ثم انشاء موقع محصن في كل منها . وبالتالي فان الحرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً.

ستراتيجية اللواحق

كان هم المحاربين الاكبر الاستئثار الى «ابواب» الممالك التي يستطاع بواسطتها صد الغزو وشل العدو بخشيته من الهجوم ، ثم الاستئثار الى خطـــوط المواصلات الاوروبية . وقد عمل الفرنسيون قبل سواهم بهذه الستراتيجية والسياسة التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع . لذلك استولى ريشليو على « بينيرول » ، « باب » ايطاليا ، التي يستطيع الفرنســـيون انطلاقا منها تهديد ميلانو، مركز التسلح الاسباني ، وقطع الطريق العسكرية ، المارة في ايطاليا، من أسبانيا الى الاقاليم المتحدة. وقد تصلبت فرنسا حتى ١٦٩٧ في رفضها الجلاء عن هذا الموقع . وأنقذ ريشليو « لافلتلين » ووضعها تحت سلطة أسيادها القدماء ، الـ « غريزون » « البروتستانت » وأمن لفرنسا استخدام الممرات استخداماً مانعا مطلقا (١٦٢٤ و ١٦٣٥) ، لان « لافلتلين » « مهمة جداً للاسبانيين لوصل دول ايطاليا بدول المانيا » ، وأزلق ريشليو الفرنسيين نحو الرين حيث تتشابك الجيوش الامبراطورية والاسوجية والاسبانية واللورينية ، وحيث يتنازع المتحاربون رقبات الجسور . ومنذ السنة ١٦٣٢ ، أمر ريشليو تدريجياً بالاستيلاء على مواقع اللورين المحصنة واستحصل على حق مرور الجيوش الفرنسية في اللوقيـــة . ووضع « منتخب تريف » تحت حماية فرنسا واستولى لمصلحته على « فيليبسبورغ » و « اهرنبرتستين » ، وحمى اسقفية بال وكونتيـــة مونبليار لمصلحة دوق « ورتنبرغ » ، واقفل بذلك باب بورغونيـا . في كانون الاول ١٦٣٣ ، ادخل الكونت « دي هانو » الفرنسيين الى ثلاثة من مدنـــه في ألزاس السفلى ، « بشولر » و « انغولر » و « نورلر » . وفي كانون الثاني ١٦٣٤ ، طلب الكونت « دي سالم » ، محافـظ

السياسة وستراتيجية الابواب

مقاطعة « هاغنو » ، حماية فرنسا لهاغنو و « سافرن » . وفي ٩ تشرين الاول ١٦٣٤ تفاوض « هنري موغ » وكيل اتحاد « كولمار » ، في ستراسبورغ مع ملك فرنسا ، باسم كافة مدن ألزاس العليا : لقد قبل بدخول حامية فرنسية على ان تحتفظ هذه المدن بحكوماتها وامتيازاتها الدينية . وأمر ريشليو في السنة ١٦٣٨ بالاستيلاء على بريزاخ ورقبة جسرها الهامة . وطلب مازارين الى تورين وكونديه احتلال « فريبورغ » (بريسغو) حارسة المجازات الجنوبية الى « الحرج الاسود » ، و « سبير » و « ورمس » ، و « مايئس » ، (١٦٤٤) . وارسل مازارين جيشا لمهاجمة الحصون الاسبانية في توسكانا بغية قطع طريق ناقلات الجيوش الاسبانية بين نابولي ومنطقة ميلانو (١٦٤٦) .

لم تسلك فرنسا هذا السلوك الا بوحي الاسباب الستراتيجية . فلا ريشليو ولا مازارين نهجا سياسة حدود طبيعية . كثيرون من الفرنسيين فكروا في ذلك. فان نقائص الخرائط الجغرافية التي تمثلت الانهار فيها بخطوط ثخينة والجبال بخط من التلال الصغيرة التي تذكر بجدور متواصل، قد اشاعت الرأي بان الحدود الثابتة يجب ان تكونها امات طبيعية كالانهار والجبال،وقد عينت « تأويلات » قيصر ، حدوداً لفرنسا ، جبال الالب وجبال البيرينيه ونهر الرين . ولكن نظرات رجال الدولة الفرنسيين.كانت واقعية .

حرب تقويض الجيوش

ان حرب تقويض الجيوش العدوة والاندفاع حتى عاصمة العدو لم تعد من المستحيلات . فالجيوش زادت قدرتها على القتال والحركة . واستفاد غوستاف – ادولف من دروس اللاجئين الفرنسيين البروتستانت ، من أمثال «بونتوس دي لا غاردي » ، فأحكم أدوات الحرب واستطاع بذلك اعتماد فن حربي جديد . خفف وزن البندقية ، فبات بمكنة حاملها اطلاق النار بدون اسنادها الى شيء . واستخدم الخرطوش المصنوع من الورق المقوى لحشوة البارود . وتجهزت عدة فرق من فرقه بالبندقية ذات الدولاب. فباتت سرعة اطلاق النار عند الاسوجيين بالنسبة لها عند الامبراطوريين،تعادل نسبة ٥ الى ١ . وبات حامل البندقية يحشوها في الوقت الذي يستغرقه ثلاث أو أربع طلقات . وبات من ثم باستطاعة غوستاف – ادولف الاكتفاء بستة جنود عمقا من حاملي البندقيات ، وبثلاثة احياناً . يرقب الجنود صفوفاً الواحد على مسافة خطوات من الآخر بسبب اخطار الانفجارات المفاجئة التي تحدثها الفتائل المشتعلة ، وعلى مسافة خطوات بين الصف والآخر ، للسبب نفسه وحتى يتمكن مطلق النار من الاندساس بين الصفين والوقوف وراء صفه يحشو بندقيته بينما يطلق رفيقه النار ، بحيث يستمر الاطلاق دونما انقطاع . وبات باستطاعة غوستاف – ادولف تقسيم المشاة كتائب صغرى مستقلة اقل كثافة وأسرع حركة . واصبحت نيران الاسلحة الحربية اكثر فعالية ضد فرق الخيالة ، فبات بمكنته زيادة عدد حاملي البنادق ورفعه الى ضعف عدد حاملي الحراب. واستخدم حشوة البارود الجاهزة بغية الاسراع في اطلاق نيران المدفعية ، وزاد عدد المدافع ، وزود المشاة بمدافع صغيرة من عيار ٤ سم يمكن دفعها بالايدي بغية مواكبة الفرق اثناء الهجوم

ومساندتها بنيران المدافع حتى هجمة الالتحام الاخير . أما مشاته ، وهم ضعفا خيالته ، فقد حطموا ، بأسلحتهم النارية وحرابهم على السواء ، هجمات خيالة العدو ، وانهكوا بنيرانهم مشاة العدو وقضوا على معنوياتهم ومهدوا الطريق للغارة على خيالتهم . ما زالت فرق الخيالة سلاح النتيجة الحاسمة . توزع على الجناحين لحماية الشاكلتين ، اللتين هما نقطة الضعف عند فرق المشاة ، وتحاول اخلاء ميدان المعركة من فرسان العدو لمهاجمة مشاته جانبياً . تهاجم بنيران الاسلحة ، يساندها حاملو البنادق الموزعون بين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير خبباً وتكر على العدو بالسلاح الابيض . وقد تبنى روح اصلاحات غوستاف – ادولف اشهر قادة اوروبا العسكريين ، الفرنسيان تورين وكونديه ، وقائدان في خدمة الامبراطور ، « مرسي » والايطالي مونتيكوكلي . وقد رفع هؤلاء نسبة حاملي البنادق الى اربعة وخمسة اضعاف حاملي الحراب .

فاصبح من ثم تدمير جيش العدو اكثر سهولة . واخذ كبار القادة العسكريين ينظرون كلهم الى الحرب كما نظر اليها نابوليون : حصارات قليلة ومعارك كثيرة ، لأن المواقع العسكرية ستستسلم بعد احراز الانتصارات في الأرض المكشوفة ؛ الهدف الرئيسي : العدو اينما وجد. وقد عبر عن الوحدة الكلاسيكية في الفن العسكري بارتباط الاسلحة المختلفة التي تعمل كلها لمصلحة السلاح الاول ، اي الفرسان ، وباخضاع كل الحركات لغاية واحدة : ضرب العدو في الصميم بعد القضاء على جيوشه . ان في هذه النظرة لمجرد نزعة نحو مثل اعلى . فهناك جيوش كثيرة دمرت في ميدان المعركة ، كالجيش الاسباني الذي قضى عليه فرنسيو كونديه في « روكروا » ولنس (١٦٤٣ – ١٦٤٨) والجيش الامبراطوري الذي قضى عليه تورستنسون» في ليبزيغ (١٦٤٢). ولكن دون استثمار النصر خرط قتاد . فان الحاجة الى المؤن والمال ما زالت ترغم المنتصر على التوقف في اغلب الاحيان ، وهذا ما حدث للاسبانيين المندفعين نحو باريس بعد استيلائهم على « كوربي » ، (١٦٣٥) ولتورستنسون الذي وصل الى مسافة ٢٥ ميلاً من فيينا (١٦٤٢) ، ولكونديه المتعطش الى الاندفاع نحو عاصمة النمسا بعد معركة « نورد لنجن » (١٦٤٥) . ولكن ريشليو ومازارين واصلا اعادة تنظيم الجيش بمساعدة بعض المدنيين . فشرع امينا سر الدولة للشؤون الحربية « سوبليه دي نوييه » و « لو تلييه » من بعده (منذ ١٦٤٣) في معالجة المسألة من جميع نواحيها . حرص وكلاء الجيش على ضبط دفع الاجور وتوزيع المواد الغذائية في اوقاتها ، ونظروا في الجرائم التي اقترفها الجنود، وارغموا مواني الجيش على انشاء المستودعات المقررة وعلى تسليم المؤن الجيدة . وحين اتفق الاسوجيون والفرنسيون اخيراً على توحيدجهادهم والقيام بعملية هجومية مشتركة ، احرز النجاح تاماً . فقد كان تورين و « رانجل » زاحفين على فيينا ، بعد انتصارهما على البافاريين في « زوسمار سهوزن » (ايار ١٦٤٨) ، حين علما بتوقيع معاهدات وستفاليا .

المؤتمرات الاوروبية

كان من المفروض ، بحسب فكرة روجها البابا منذ السنة ١٦٣٥ ، ان ينعقد مؤتمران في وستفاليا ، احدهما في «مونستر» للدول الكاثوليكية والثاني في «اوسنابروك» للدول البروتستانتية . ومع ان موعدهما قد حدد في ٢٣ اذار ١٦٤٢، فانهما لم يفتتحا رسمياً الا في ٤ كانون الأول ١٦٤٤ . فكان على فرنسا وحلفائها ، في مونستر ، وعلى الامراء البروتستانت والدول البروتستانتية ، في اوسنابروك ، ان يجروا مفاوضات مع الامبراطور وحلفائه . أما في الواقع فقد كان المؤتمر اوروبياً لأن كل الدول تمثلت فيه باستثناء القيصر والسلطان وملك انكلترا. احتلت المدينتين الصغيرتين جماهير غفيرة بعد ان اعلن حيادهما اثناء المفاوضات . وتبارت وفود الدول الكبرى فيها ابهة في عرباتها الفاخرة وملابسها الرسمية وكرماً فائقاً في استقبالاتها .

استغرقت المفاوضات وقتاً طويلاً . كانت المسائل المطروحة معقدة . وكان على المؤتمرين ان يتبادلا استطلاع الرأي في كل شيء وان لا يفصلا في شيء الا بالاتفاق بينهما . ولجأ الدبلوماسيون بصورة خاصة الى التسويف والمماطلة املاً منهم بنجاح عسكري يحسن موقفهم. عقد صلح منفرد بين اسبانيا والاقاليم المتحدة في ١٥ ايار ١٦٤٨. ومرد ذلك الى ان مازارين قد انفرد في اقتراحه على فيليب الرابع مقايضة كتالونيا، التي كان الفرنسيون سائرين في احتلالها ، بالاقاليم المنخفضة الاسبانية ، رغبة منه في ان يجعل من باريس « حصناً منيعاً لا يرام » . وقد سبق للهولنديين ، حين كانوا يخشون جانب اسبانيا ، ان اقترحوا على ريشليو تقاسم الاقاليم المنخفضة بغية الحصول على ايد فرنسا . ولكن ريشليو رفض الاقتراح لانه آثر تيسير استقلال المنطقة التي اصبحت بلجيكا فيما بعد. أما الآن وقد امسى ملك اسبانيا مستضعفاً والفرنسيون اقوياء، فرغب الهولنديون عن مجاورة الفرنسيين لهم . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٦٤٨ وقعت في آن واحد معاهدتا اوسنابروك ومونستر ، اي « صلح وستفاليا » ، أو « دستور » اوروبا الجديدة .

«الدستور» الاوروبي

كرست المعاهدتان في الدرجة الاولى انقسام الامبراطورية والمانيا وعجزهما. وقد اعتبرت هذه النصوص قانوناً امبراطورياً ونظر اليها رجال القانون كما الى دستور الدولة الالمانية . غدا ملك فرنسا وملك اسوج كفيلين « للحريات الجرمانية » . تمتع الامراء الالمان باستقلال يكاد يكون تاجزاً. استفادوا من «الرئاسة الاقليمية »، الشبيهة بالسيادة، وحق لهم التفاوض مع الدول الاجنبية وفيما بينهم لضمان سلامتهم. يضاف الى ذلك ان الامبراطور لم يعد عملياً ليستطيع شيئاً بدون المجلس التمثيلي للاقاليم الذي سيطر عليه العجز بدوره بفعل الحاجة الى اجماع الاصوات في كل المسائل الهامة .

تأمن توازن القوى في الامبراطورية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين كانوا حلفاء اسوج وفرنسا على كل حال . أقر في البدء نوع من التساهل الديني بين الدول . وشمل صلح اوغسبورغ الامراء الكلفينيين ، واعترف بشرعية الكلفينية اسوة باللوثرية ، واستفاد الامراء من هذا

لمبدأ : « الامير يختار مذهبه ويلزم به رعاياه » . ثم تنازل الامبراطور عـــن براءة الاستردا
.صلح براغ . ابقي على العلمنات السابقة لسنة ١٦٢٤ . استعاد ابن المنتخب البـــالاتيني لقب
لمنتخب والبالاتينا السفلى. احتفظ مكسيمليان دي بافيير بالبالاتينا العليا وحصل على منتخب

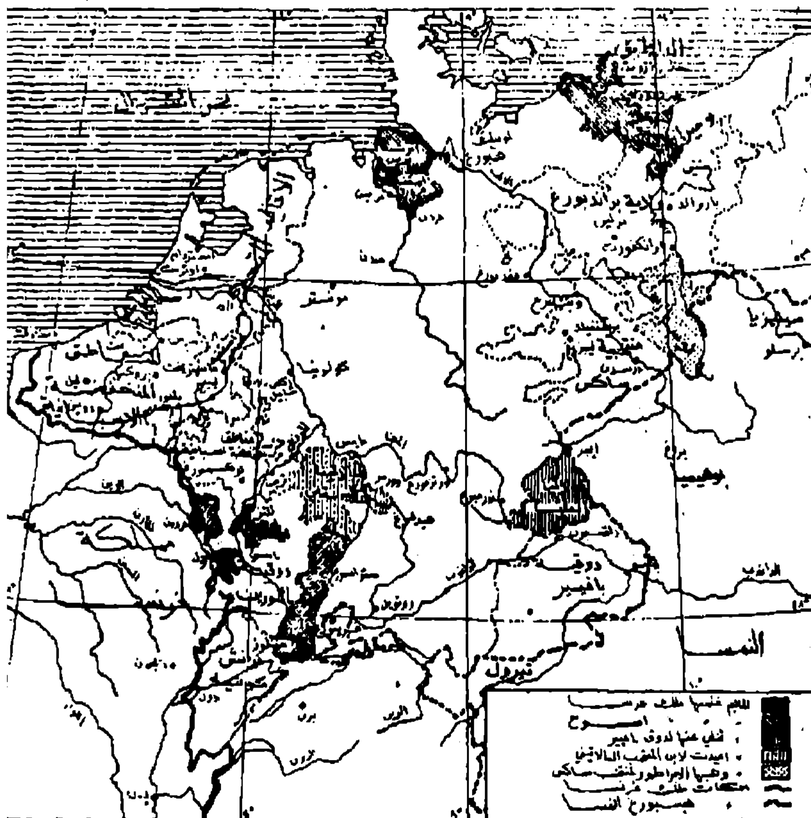

الشكل ٩ - اوروبا بعد معاهدتي وستفاليا

حدثت لمصلحته. ففدت الهيئة الانتخابية ، بصرف النظر عن الامبراطور ، تضم اربعــة من
لكاثوليك وثلاثة من البروتستانت ولكن المساواة العددية استعيدت فيا بعد باعطاء صوت
متناوبة ، لكل من المنتخبين البروتستانت .

تلهقرت جرمانية آل هبسبورغ في كل مكان . سبق لاسبانيا ان اعترفت باستقلال الاقاليم
لمتحدة وأقصتها من ثم عن دائرة بورغونيا ، وبالتالي عن الامبراطورية. واعلن استقلال الاقضية

السويسرية الناجز . وحصلت اسوج ، تعويضا لها عن نفقات الحرب ، على اقاليم تتيح لها تأمين سلامة « البحيرة الاسوجية » ، بمراقبتها مصاب الانهر الالمانية وطرق التجارة المؤدية الى السهول الالمانية : بومرانيا الغربية مع مصاب الاودر ومرفأ ستتين ، واسقفيتا بريمن وفردن المعلمتان، اللتان تشرفان على مصب الفيزر غربا ومصب الإيلب شرقاً . وحصل ملك فرنسا على « ابواب » تقوم على الطرق العسكرية الكبرى .وظفر بالسيادة على اسقفيات « متز » و « تول »و«فردون» المحتلة منذ هنري الثاني . كما ظفر في الالزاس بكل ما امتلكه الامبراطور فيها باعتباره رئيس سلالة النمسا وبكل الحقوق التي تمتع بها باعتباره امبراطوراً . في هـذا العجاج من الجمهوريات والمدن الحرة والامارات الكنسية والسيادات ، في هذا الاختلاط الالسني والديني والثقافي ، حيث تكلم ألزاسيو وديان «الفوج» العليا اللغة الفرنسية ، وغيرهم الالمانيـة ، وسوادهم لهجات مختلفة ،وحيث كان ثلث السكان لوثريين والثلثان كاثوليكيين،وحيث سيطرت الحضارة الجرمانية على الرغم من الآثار العميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة امارة الالزاس العليا ، ومنطقة صلاحية محكمة هاغنو الكبرى ، واراضي امبراطورية ضمها بعض الاقطاعيين الى اقطاعاتهم ، كاراضي آل « ريبوبيير » حول « ريبوفيليه » . وقد صيغ تسليم هذه الاراضي بكلمات غامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان : فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان الاقوى سيفسرها لصلحته في المستقبل .

معاهدة البيرينيه وخلافة ملك اسبانيا

كان مقدراً لآل هبسبورغ ان يتخلوا مرغمين عن السيطرة الشاملة .ولكن امير هبسبورغ اسبانيا رفض التسليم بالهزيمة . بعد ان عقد الصلح مع هولندا ، استدعى مفوضيه المطلقي الصلاحية . ولما كان دوق اللورين حليفاً لاسبانيا ومستقلاً عن الامبراطورية منذ السنة ١٥٤٢ ، استمر الاحتلال الفرنسي لهذه الدوقية وتواصل النزاع بشكل حرب فرنسية اسبانية . ولكن التشوش النقدي والاقتصادي في اسبانيا ، وثورة المقلاع في فرنسا ، جعلاها تطول زمناً طويلاً . واخيراً اتفق مازارين مع « كرومول » الذي لم يستطع الحصول من ملك اسبانيا ، فيليب الرابع ، على فتح اسواق الهند الغربية للتجارة الانكليزية . وقع الطرفان معاهـدة تحالف صريح في ٢٣ اذار ١٦٥٧ . تمكن تورين ، بمساندة الاسطول الانكليزي وقوة انزال مؤلفة من ٦٠٠٠ انكليزي ، من احراز النصر في معركة « الدون » (١٤ حزيران ١٦٥٨) . لم يبق لملك اسبانيا لا جيش ولا مال . وفقد الأمل بتلقي العون من النمسا . فقد توفق مازارين الى حمل مجلس المنتخبين على الزام الامبراطور ليوبولد بان لا يتدخل في حروب ايطاليا ودائرة بورغونيا . ولضمان تنفيذ هذا التعهد ، ألف منتخبو « تريف » و «ماينس» وكولونيا الكنسيون، وامراء نويبورغ و « هس - برونسويك » خط حياد كفلته اسوج وفرنسا ، فاضطر ملك اسبانيا الى الانحناء .

نوقشت شروط الصلح على نهر « بيداسوا » ، في جزيرة المؤتمر ، منذ شهر نيسان ١٦٥٩ حتى حزيران ١٦٦٠ . وقعت معاهدة البيرينيه في ٤ حزيران ١٦٦٠ اقفلت بموجبها حدود

نسا في وجه الغزو . واستعادت فرنسا او غنمت منـــاطق « ارتوا » و « روسيّون
« سردانيه» التي كان ريشليو قد استولى عليها ، ومواقع هامة على الطرق المؤدية اليهـ
نرافلين » ، « لندرسي » ، « لو كينوا » ، « افين » ، فيليبفيل » ، « مـــاريتبورغ

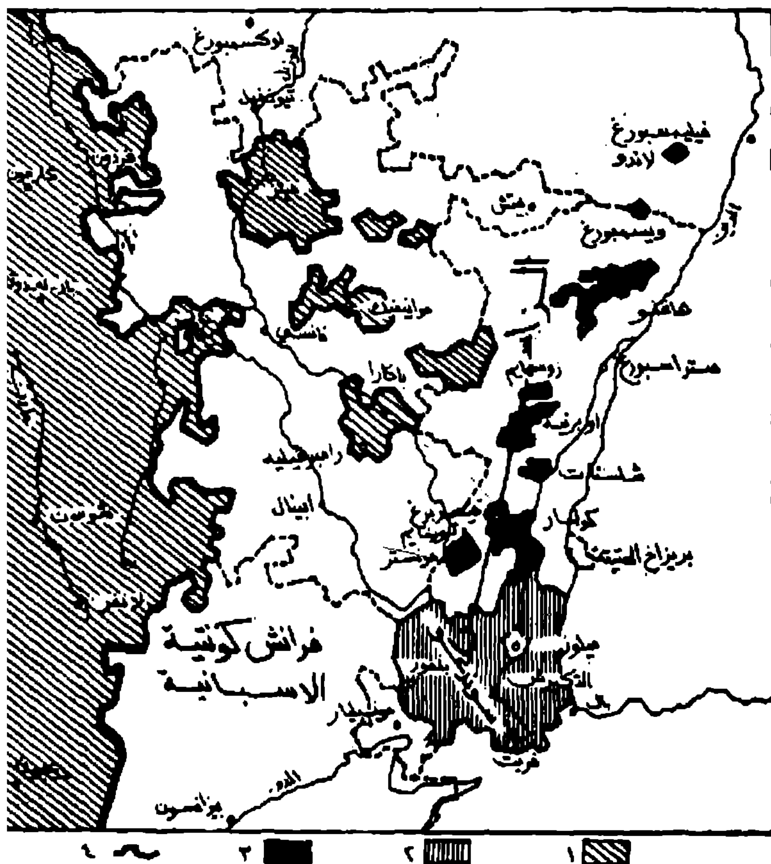

الشكل ١٠ ـ الممتلكات الفرنسية ، الزاس في السنة ١٦٤٨
١ ـ مملكة فرنسا ٢ ـ اقاليم نمساوية غنمتها فرنسا ٣ ـ المدن الامبراطورية العشر ٤ ـ حدود فرنسا

مونميدي » . واستعاد دوق اللورين دوقيتـــه ، ولكن فرنسا احتفظت « بالارغون
ترموبيلنا » ، والطريق الحرة لجيوشها .

زد على ذلك ان الاتفاق الفرنسي الاسباني قد اعطى فرنسا امكانيـــة منع امير هبسـ
مسا من ان يضم الى ممتلكاته وراثة عرش اسبانيا ويعيد امبراطورية شارل الخامس. فاقـ

اتخاذ بعض الاحتياطات بالنظر الى حقوق الامبراطور في خلافة فيليب الرابع . تزوج لويس الرابع عشر من ابنة ملك اسبانيا البكر ، ماري – تريز ، حتى لا يتزوج منها امير هبسبورغ النمسا ، الامبراطور . فرض فيليب الرابع ان تتنازل عن ارث ابيها . ولكن الدبلوماسي الفرنسي « دي ليون » ادخل هذا التنازل في عقد الزواج « مقابل » ٥٠٠٠٠٠ دينار ذهباً ، عالماً ان الخزينة الاسبانية اعجز من ان تدفع هذا المبلغ . احتفظت من ثم ابنة ملك اسبانيا بحقوقها التي انتقلت الى لويس الرابع عشر ، زوجها . يضاف الى ذلك ان التنازل كان باطلاً على كل حال : ان حقوق ماري تريز المتصلة اليها بفعل نسبها لا يمكن ان تكون موضوع تنازل ، ولذلك استقبح الاسبانيون انفسهم عمل ملكهم ولم يأخذوه بعين الاعتبار . فكان من ثم باستطاعة لويس الرابع عشر المطالبة بنصيبه من الارث واحباط مطامع الامبراطور عند الاقتضاء .

التحكيم الفرنسي في اوروبا

ان انتهاء الاعمال الحربية أتاح لفرنسا فرض وساطتها في اوروبا . كانت اسوج في حالة حرب مع كافة دول السواحل البلطيكية ، روسيا ، بولونيا ، براندبورغ ، الدانمرك ، ومع هولندا . فخشي مازارين الامكانات التي توفرها لامير هبسبورغ النمسا خلافات البروتستانت الشماليين . توفق الى عقد الصلح بين اسوج والدانمرك في كوبنهاغن ، وبين اسوج وبولونيا وبراندبورغ في « اوليفا » (ايار – حزيران ١٦٦٠) . وقد استمر لويس الرابع عشر في لعب دور الوسيط هذا في مستهل حكمه الشخصي .

ليبنيز ومخطط الاتحاد الاوروبي

وهكذا عاد السلم والاتفاق في اوروبا الى سابق عهدهما . اما اسسها فكانت : تساهلاً دينياً نسبياً ؛ توازن القوى بين دول كبرى تفصل بينها دول صغرى كانت لها بمثابة القطيلة ، كالاقاليم المنخفضة الاسبانية بين فرنسا والاقاليم المتحدة ، او كحلف الرين ، الذي تشرف عليه فرنسا ، وبافيير ، بين فرنسا والنمسا ؛ واخيراً التحكيم بين الدول الاوروبية تجريه دولة راجحة السلطة والنفوذ ، فرنسا ، وبالتالي تكريس المراقب بين دول اوروبا . وحين اقدم لويس الرابع عشر على خوض حرب نقل الحقوق (١٦٦٧) واعتبرت سياسته محاولة جديدة للهيمنة وبسط السيطرة ، بدا وضع اوروبا وكأنه خطوة اولى نحو مثل اعلى ، فاستوحاه الفيلسوف الالماني ، ليبنيز ، ووضع في السنة ١٦٧٠ مخطط اتحاد لاوروبا . اعتبر التوازن مختلاً والمانيا ضعيفة لا تقوى على احباط مطامع جيرانها ، فاقترح تقويتها بتحويلها الى اتحاد دول متحالفة تتمثل في جمعية واحدة يكون لكل دولة المانية فيها حق الجلوس والاقتراع . بهذا تمنع الاعتداءات المحتمة الوقوع ويصان سلم اوروبا . ولكن اوروبا تتميز بحرارتها الخلاقة والفاتحة . يقتضي صمام امان لهذه القوة . قد تحول الى استعمار القارات الاخرى . يكون لكل دولة اوروبية نطاق عمل وفتح في هذه المستعمرات تجنباً للمنافسات والاصطدامات : اسوج في سيبيريا ، انكلترا والدانمرك في اميركا

الشمالية ، اسبانيا في اميركا الجنوبية ، هولندا في الهند الشرقية ، فرنسا في افريقيا ومصر. فلن يحاول لويس الرابع عشر حينذاك تحقيق الملكية الشاملة ، والسيطرة بقوة السلاح ، بل يكتفي بممارسة التحكيم الشامل . وتابع ليبنيز في الوقت نفسه محاولة سلامية كبرى ، هي تحقيق وحدة الكنائس ، بالاتفاق مع بوسويه الذي كان منصرفاً الى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في فرنسا ؛ وقد نشر بوسويه آنذاك « شرح العقيدة الكاثوليكية في المواضيع المختلف عليها » الذي كان له أثر عم اوروبا (١٦٧١) ، واتصل بـ « بوفندورف » ، مهذب ولي عهد اسوج حيث كان الاجتماع مرغوباً فيه ، ولول في « سان جرمين » هداية دوق « اوسنابروك » زوج حفيدة المنتخب البالاتيني ، وأعد مشروعاً للمناولة تحت الرضين السريين ارضاء للبروتستانت . وفي الامبراطورية بذل الفرنسسكاني « سبينولا » جهوداً كبرى منذ السنة ١٦٧٥ لتحقيق المصالحة بموافقة الامبراطور والبابا « اينو شنتيوس » الحادي عشر . وفي السنة ١٦٧٩ ، وافق البابا على « شرح » بوسويه . فأمكن لليبنيز تأمل تنفيذ مخططه ، وهو تحقيق مثالية العمل المنجز في معاهدات وستفاليا والبيرينيه .

الفصل الثالث

المظاهر الجديدة للأزمة

لم تتكشف وسائل مقاومة الأزمة الا عن كفافها الضروري لموازنتها ، دون ان تمكن من التغلب عليها . فكان لا مناص مثلا من تقنيات زراعية اخرى ، اي من نماذج اخرى للملكية العقارية ، وبالتالي من انظمة اجتماعية وسياسية غير تلك المعمول بها في البر الاوروبي ، حتى تزول الأزمة المزمنة في المواد الغذائية . يضاف الى ذلك ان استعمال العلاجات نفسه قد خلق اسبابا اخرى للازمة .

١ – النزاعات الاوروبية

النزعات التسلطية القارية

يجب ان يُبحث عن أحد الاسباب الكبرى للازمة ، وهو ابرزها ان لم يكن اهمها ، في الحروب التسلطية ، الاوروبية والاوقيانوسية ، في عهد حكم لويس الرابع عشر الشخصي . فالنزعات التسلطية لم تلق السلاح قط . اوقف تسلط آل هبسبورغ ، ولكنه لم يهزم . وانصرّ آل هبسبورغ النمسا على مدعياتهم . فان الامبراطور ليوبولد الاول ، سور اوروبا المنيع في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الظافرة امام فيينا (١٦٨٣) ، ومنتزع هنغاريا وترنسلفانيا من الكفرة (صلح كارلوفيتز ، ١٦٩٩) ، الذي توفق خلال سنوات معدودة الى الاستيلاء على منـاطق الدانوب والساف والدراف الواسعة الارجاء حتى قمم جبـال الكاربات وحتى بلغراد ، بينما لم يستول لويس الرابع عشر الا على بعض المواقع المحصنة في الاقاليم المنخفضة ، وعلى منطقـة « فرانش – كونتيه » الصغرى الفرنسية لغة وروحاً ، ان هذا الامبراطور ، الذي اوشك تكراراً ان يؤدي للمسيحية خدمة توحيد الكنائس ، التي لا تقدر بثمن ، وان يضع حداً نهائياً لانشقاق الكاثوليك والبروتستانت ، والذي سطع نفوذه العظيم ، وطالب باسبانيا والهند ، قد صان اوروبا كما يصان المنض الخاص .

كما ان الحكومة الفرنسية ، التي دافعت عن الحريات حتى ١٦٦٠، قد نزعت هي ايضاً الى التسلط بعد احرازها النصر وتوطيد التفوق الفرنسي ؛ فقد حاول لويس الرابع عشر فرض هيمنته وادعى بالتاج الامبراطوري نفسه . . فادى ذلك الى تصادم آل هبسبورغ وآل بوربون. وادى الصراع السياسي ضد الازمة الى ازمة سياسية جديدة .

النزعات التسلطية البحرية

ان الروح التجارية عززت النزعات التسلطية البحرية وارغمت النزعات التسلطية القارية على الاتجاه بانظارها ، في الوقت نفسه ، شطر البحر . ففي عهد الجمهورية وعهد حماية « كرومول » اولاً ، زاحمت انكلترا الاقاليم المتحدة، منذ السنة ١٦٥٠ ، على التفوق التجاري والبحري واحتكار تجارة الهند واميركا وتركة الاسبانيين البرتغاليين الذين أفل نجمهم . واكرهت الحرب الانكليزية الهولندية (١٦٥٢ — ١٦٥٤) الاقاليم المتحدة على الارتضاء بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة (معاهدة وستمنستر ، ١٦٥٤) ومن ثم بالحد من دورهم كجوالة البحار حداً ملموساً . وفي السنة ١٦٦١ ، تزوج شارل الثاني من الاميرة البرتغالية « كاترين دي براغانس » التي امهرت بومباي وطنجة . فاتاحت قاعدتا العمليات هذه للانكليز الادعاء بالوساطة بين الاقاليم المتحدة والبرتغال: كان البرازيل البرتغالي ثائراً على السيادة الهولندية ؛ فاضطرت الاقاليم المتحدة الى التخلي عن هذه الارض الاستعمارية (١٦٦١) .واخيراً ارغمت الحرب الانكليزية الثانية (١٦٦٤ — ١٦٦٦) الهولنديين على التخلي عن هولندا — الجديدة وعن امستردام الجديدة (التي اصبحت نيويورك) (معاهدة بريدا ، ١٦٦٧) . وهكذا خسر الهولنديون تجارة الهند الغربية واكرهوا على الانكفاء نحو الهند الشرقية . وكانت النزاعات الانكليزية الهولندية هذه فاتحة الحروب الكبرى لاجل السيطرة على البحار والتجارة العالمية . ثم نهجت فرنسا النهج نفسه . كان كولبير طامعاً في السيطرة الاقتصادية وهي شرط السيطرة السياسية . فأقدم ، بتعرفة السنة ١٦٦٧ ، على تلك الحرب الجمركية التي كانت سبباً من اسباب الحرب الهولندية (١٦٧٢ — ١٦٧٨) . بعد الهجوم الصاعق على هولندا، استُطلع رأي كولبير، في شهر حزيران ١٦٧٢ ، في شروط معاهدة الصلح القريبة، فاقترح ضم الاقاليم المتحدة ، وبالتالي تجارتها ، واكراه الهولنديين ، الفرنسيين الجدد ، على التخلي عن جزء من تجارتهم للفرنسيين القدماء . وقد جاءت هذه المشاريع ، التي لم يعلم بها الهولنديون ، تتمة لمخطط التجزئة الاقليمية والانهيار الاقتصادي والاذلال الذي عرضه «لوفوا» على الاقاليم المتحدة في حزيران ١٦٧٢ . الا ان هذا المخطط وحده كان كافياً : انتفض الهولنديون سخطاً وصمموا على القتال حتى النهاية . وهكذا فان الروح التجارية ، المعدة ، فيما خصها ، لمعالجة الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تعرضت لها الدولة ، قد أدت بهذه الاخيرة الى حروب كان مقدراً لها ان تثقل وطأة الازمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

خلافة عرش اسبانيا

استمرت كل النزاعات بفعل خلافة عرش اسبانيا التي سيطرت على السياسة الاوروبية منذ السنة ١٦٦٠ حتى السنة ١٧١٣ . لم يرزق فيليب الرابع ، ملك اسبانيا ، حتى السنة ١٦٦٠ ، سوى ابنتين ، احداهما تلك التي تزوج منها

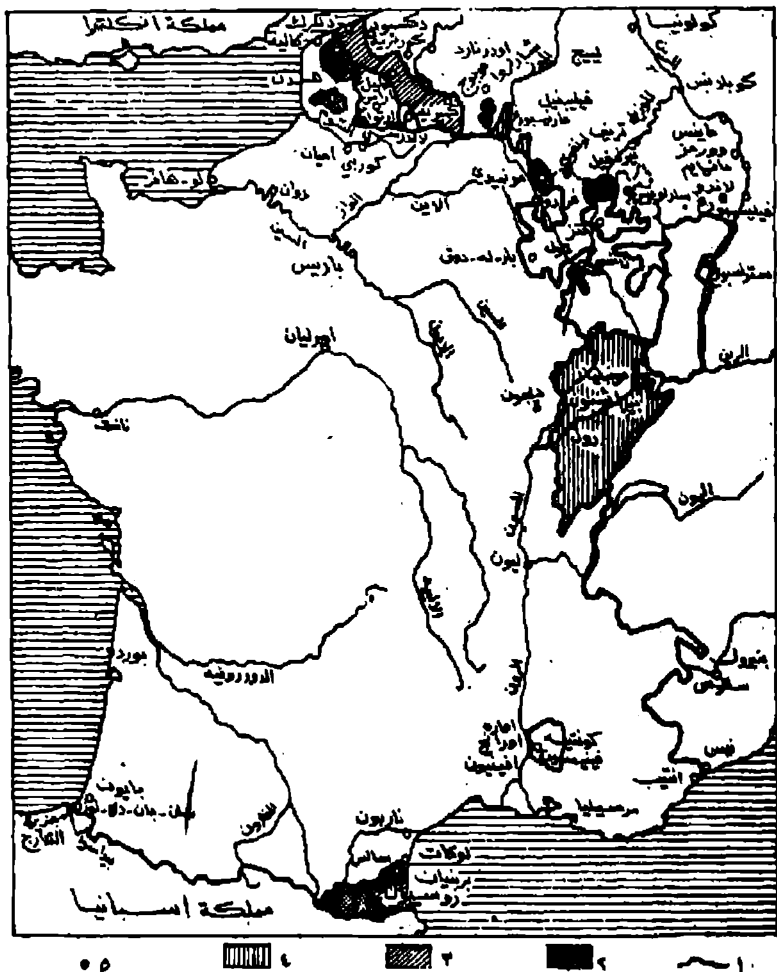

الشكل ١١ ـ الفتح الفرنسي منذ معاهدتي وستفاليا حتى معاهدة اوترخت

١ ـ الحدود ٢ ـ معاهدة البيرينيه ١٦٥٩ ٣ ـ اكس لا شابيل ، ١٦٦٨ ٤ ـ نيميغ ، ١٦٧٨ ،
٥ ـ اقاليم ربطتها بفرنسا غرف الاجتماع

لويس الرابع عشر ، والثانية تلك التي لن يلبث الامبراطور ليوبولد الاول ان يختطبها . ورزق

بعد ذلك ابناً هو شارل الثاني الذي غدا ملك اسبانيا ، ولكن ضعف بنيته البالغ قد حمل الجميع على الاعتقاد بانه لن يرزق اولاداً وبانه سيموت قريباً . فالى من تؤول خلافة العرش يا ترى ؟ اجل ان ماري تيريز، عقيلة لويس الرابع عشر، قد تنازلت عن هذه الخلافة في معاهدة البيرينيه. ولكن التنازل ، بصرف النظر عن ان الامير لا يستطيع ان يتنازل تنازلاً صحيحاً عن حقوق تتصل اليه بالنسب ، قد سُلم به « مقابـــل » ۰۰۰ ۵۰۰ دينار لم تدفع قط : اذن فهو باطل . لذلك فلويس الرابع عشر، وهو ابن وزوج اميرتين ملكيتين بكرين ، يحتفظ بكافة حقوقه التي تفوق حقوق ليوبولد ، وهو ابن وزوج اميرتين اصغر سناً . واذا ورث ليوبولد خلافة العرش ، فهذا يعني اعادة امبراطورية شارل الخامس ، وتهديد فرنسا بالزوال واوروبا بالاستعباد ،وضياع نتيجة جهود وتضحيات استغرقت قرناً ونصف القرن . واذا ورثها لويس الرابع عشر ، فهذا يعني صيرورة السيطرة التجارية والبحرية الى فرنسا مـــع الوسائل الموصلة الى الامبراطورية الشاملة . فالمقصود انما كان استثمار الامبراطورية الاسبانية في اميركا واستغلال المفترقات التجارية ذات الاهمية الحيوية : بحر الشمال الذي تقوم الاقاليم المتحدة على سواحله ، والبحر المتوسط الذي تتيح السيطرة عليه صقليا ومملكة نابولي ، وكلاهما ممتلكات اسبانية . وغني عـــن البيان ان الدولتين البحريتين ، انكلترا وهولندا ، ما كانتا لتقبـــلا برؤية فرنسا تعيد فتح مصاب نهر انسكو ، وتبعث انفرس التي قد تصبح المنافسة البحرية لامستردام ولندن اذا ما رفعت عنهـــا قيود معاهدة مونستر وضمنت مساندة دولة واسعة الاطراف تقوم وراءهـــا ؛ وبترك الفرنسيين يسيطرون سيطرة نهائية في افريقيا الشمالية ومرافىء الشرق الاوسط ؛ أو بتركهم يحصلون على احتكار في المستعمرات الاسبانية في اميركا ، ويزودونها « وحـــدهم » « بالمصنوعات » والزنوج ، ويقصون منافسيهم عن التيار التجاري الجديد نحو « شيلي » و « بيرو » و « كاليفورنيا » السفلى عن طريق مضيق « ماجلان » . لذلك راقب الانكليز والهولنديون عن كثب خلافـــة عرش اسبانيا حتى يكون لهم نصيبهم منها .. قام الخلاف حول الخلافة بين سلالتين ملكيتين ولكنه أثار في وجه كل دولة مسألة خطيرة ذات اهمية قومية لأن الممالك انما تتجسد بملوكها. وكان شعور الشعوب بذلك كافياً لاخفاق وسائل الدبلوماسية العادية . اشترى لويس الرابع عشر محالفة ملك انكلترا شارل الثاني بجعالة شهرية ، وبامدادات مالية ، وسرية هي « لويز دي كيروال » الحسناء التي اصبحت دوقة « بورتسموث » .واشترى الوزراء وحتى زعماء المعارضة في المجلس التمثيلي . ولكن ضغط رجال المال ومجهزي البواخر والتجار وحقد الشعب الانكليزي على فرنسا البابوية والمنافسة ، اكرها شارل الثاني على التخلي عـــن حليفته فرنسا ، بينما كانت حرب هولندا على اشدها (١٦٧٤) ، وعلى تزويج ابنة شقيقه ، ماري ، الى « غليوم دورانج » ، ثم التحالف مع هولندا على فرنسا (١٦٧٨) .

فكر الخصمان اكثر من مرة بتقسيم مسبق بغية افتتاح التركة . فبموجب تقسيم السنة ١٦٦٨ بين لويس الرابع عشر والامبراطور ، تقرر اعطـــاء لويس الرابع عشر المناطق المنخفضة ،

والرانش – كونتيه ، ونافار ، ومملكة نابولي ، وصقليا ، وحصون مراكش ، واخيراً الفليبين ، على ان يعطى الامبراطور ما سوى ذلك . أما بعد اتفاق السنة ١٦٩٨ ، بين لويس الرابع عشر والدول البحرية ، فان اتفاق السنة ١٧٠٠ بين لويس الرابع عشر وهولندا وانكلترا قد اعطى ارشدوق اسبانيا ، شارل ، الهند والمناطق المنخفضة ؛ وولي العهد ، نابولي وصقليا ومواقع توسكانا . وفكر لويس الرابع عشر باستبدال صقليا بنيس وسافوا ، ونابولي باللورين فيشكل بذلك ارض مملكة فرنسا . ولكن هذه المحاولات اصطدمت تارة بتصميم الاسبانيين الصريح على الابقاء على كامل امبراطوريتهم ، واخرى برفض الامبراطور . فتوالت الحروب .

النزعة الى التسلط الدستوري

ثم لم يلبث الاختلاف حول الآراء الدستورية الذي نجم عن اختلاف مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي بلغتها كل دولة من الدول ان اصبح بدوره سبباً للنزاع . فبعد الثورة الانكليزية (١٦٨٨) مثلاً ، رفض لويس الرابع عشر الاعتراف بشرعية « غليوم دورانج » الذي اختاره الشعب الانكليزي ملكاً عليه ، وساند اولئك الذين يعينهم نسبهم لهذه الولاية ، اي جاك الثاني ثم جاك الثالث ، من آل ستيوارت . فكان ذلك تصادماً بين مبدأ الملكية الوراثية المبنية على حق الهي ومبدأ الملكية المبنية على التعاقد الحر .

المعيلات الفرنسية والملسع الاوروبي

بدا التسلط الفرنسي أرهب من كل تسلط آخر ، واتهم لويس الرابع عشر بأنه انما يريد استعباد اوروبا . اما الحقيقة فهي ان سياسته حتى السنة ١٦٧٨ تعتبر دفاعيــة ، ومكملة لسياسة ريشليو . ان لويس الرابع عشر واصل سياسة « الابواب » و « الطرق العسكرية » القديمة» دونما نظر الى الحدود الطبيعية . وهذا كان مقصده من الاستيلاء على اللورين ومن استرجاع دنكرك من شارل الثاني بالشراء . لا بل يمكن اعتبار حرب نقل الحقوق نفسها (١٦٦٧ – ١٦٦٨) حرباً دفاعية لان فيليب الرابع قد اوصى ، وهو على فراش الموت ، بان خلافة العرش تعود ، بعد شارل ، الى حفدة ابنته الثانية ، مرغريت – تريز ، خطيبة الامبراطور ليوبولد : فبات لزاماً ، والحالة هذه ، الاستيلاء على بعض بقاع المناطق المنخفضة بغية اقفال حدود فرنسا . ويجوز اعتبار الحرب الهولندية عملاً دفاعيا ضد التسلط التجاري الهولندي وضد السياسة الهولندية التي كان من شأنها إتاحة استيلاء الامبراطور على المناطق المنخفضة بعدما من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك إن اسبانيا التي حالفت الهولنديين على فرنسا قد خسرت ، بالاضافة الى شطر من الفلاندر ، منطقة فرانش – كونتيه التي قال لويس الرابع عشر عنها : « انها شقت لي طريقاً جديدة الى المانيا ، ويمكنني في الوقت نفسه اقفالها في وجه اعدائي » . فما زال الفرنسيون يعملون بوحي فكرة ابعاد الغزوات عن فرنسا بالاستيلاء على الطرق المؤدية اليها التي تنتزع من العدو وتتيح عملاً عسكريا هجوميا إذا ما احدق بها خطر هذا العدو .

الا ان دخول الفرنسيين الى المناطق المنخفضة ، في السنة ١٦٦٧ ، بينما كانت اسبانيا منهكة بفعل حكمها السيء والتشوش النقدي ، وبينما لم يحرز الامبراطور انتصاره على الاتراك امام الـ « راب » الا بفضل التجريدة الفرنسية (١٦٦٣) ، وبينما كان لويس الرابع عشر يمارس حماية حقيقية على الامراء الرينانيين ، باستثناء المنتخب البالاتيني ، قد نشر الذعر في اوروبا . في هذه السنة بالذات ، نشر الفرنسي « اوبري » « مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية » . وقد دافع في هذا الكتاب عن حق لويس الرابع عشر في استعادة القسم الاكبر من ، ألمانيا « ارث الامراء الفرنسيين القديم ، والتي امتلكها شارلمان بوصفه ملك فرنسا » ، وفي استعادة المنصب الامبراطوري الذي انتزعته ألمانيا من فرنسا . وزعم ان كل ما هنالك يؤمّل ولي العهد بالسيادة على البحر والبر على السواء وبالملكية الشاملة . وما دور روما اوغسطوس سوى اعداد لدور فرنسا لويس الرابع عشر التي ستؤول اليها السيادة المطلقة على الكون .

كان السخط والذعر شاملين . فان السفير الامبراطوري ، « ليزولا » ، قد اشتكى ، في كتابه « ترس الدولة والعدالة » ، من ان عدة لويس الرابع عشر الحربية لا مبرر لها سوى تصميمه على فتح كافة انحاء اوروبا . العالم المسيحي مهدّد بالخطر . يجب ان تتسلّح اوروبا وتتحد ، لو ان تقبل باستعباد الفرنسيين لها . وكان للكتاب صدى عظيم جداً . وقد روي خطأ في حينه ، ان صورة ولي العهد بلباس الامبراطور تملأ كل مكان في فرنسا ، حتى الحانات . ومثل احد النقوش فرنسا مدرّعة ، تغطي رأسها ثعابين هائجة ، تتقدم ، وهي تنفخ النار في بوق ، نحو اوروبا مستباحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطعنون الاطفال طعنات نجلاء برماحهم ويجهزون على الجرحى بالمساعير ويسحقون المدنيين تحت سنابك جيادهم ، بينما تنهار الجدران المشتعلة وتتصاعد دخان الحرائق نحو السماء . ولعل لويس الرابع عشر ، الذي امر بسجن « اوبري » ، لم يكن مضمرا تصميما واضحاً على الضغط والطغيان ، ولكن الرأي العام الاوروبي نظر اليه نهائيا كما الى مجنون او كما الى « هائج ثائر » .

الملك - الشمس وفرنسا - الشمس

بعد معاهدتي نيميغ (١٦٧٨ - ١٦٧٩) ، لم يبق مجال للارتياب . فان ضبط الحدود الشمالية ، وضم فرانش - كونتيه ، والاحتفاظ باللورين ، واكتساب فريبورغ (في بريسغو) ، باب الهضبة الدانوبية ، وانقاذ الحلفاء الاسوجيين من الدانمرك وبراندبورغ المنتصرتين عليهم ، ودور الحكم في اوروبا ، والاقدام في ايام السلم ، بحسب عرف اوروبي قديم على كل حال ، على ضم اقاليم خاضعة لاقاليم اخرى اعطيت لها بموجب المعاهدات ، كل ذلك جعل فرنسا تزهو خيلاء وكبرياء . منحت باريس الملك ، في السنة ١٦٨٠ ، لقب « لويس الكبير » . ومن هم يا ترى ، في نظر الفرنسيين آنذاك ، حكيم الرواقيين ، وهمام ارسطو والانسان الالهي عند اللاكديمونيين ، اذا ما قورنوا بلويس ؟ مجرد ظلال او رموز . « ما كنا لنؤمن بهذا القدر من المعجزات (التي اتاها) لو لم نشاهدها بام العين : فلماذا البحث اذن في الاسطورة عن اعمال « هركول » ، وفي التاريخ عن اعمال الاسكندر ،

ما دام لويس الكبير يعطينا المثل عن كل الفضائل ؟ ان هـذا البطل ، بمفهوم البطولة القديم ، يريد السيطرة الشاملة واثباتها الرسمي ، الامبراطورية . ولكن الفرنسيين متفقون في الرأي ويتغنون مع لويس الكبير بفرنسا الكبرى . افلم يكن لفرنسا ، في ما يزعمون، عظمة وامتياز لا نظير لهما ؟ أو لم يكن الفرنسيون اساتذة في كل الفنون ؟ أو لم تكن لغتهم لغة اوروبا ؟ ففي نيميغ حرر سفراء الدانمرك برقياتهم باللغة الفرنسية. لا بل أن سفير اسبانيا المتعجرفة كان يجيب باللغة الفرنسية على ترحيب زملائه به . ولم ير الفرنسيون في ذلك ما يثير الدهشة،فليس هنالك سوى لغة واحدة كاملة وحكم واحد كامل ومثل ادبي اعلى واحد ، تتوفر كلها في فرنسا ! اللغة الفرنسية شبيهة بخلق الامة التي تتكلمها: حلوة ، عذبة ، صافية ، نقية ، نبيلة ، عظيمة . ليس لاية بلاد وضع شبيه بوضع فرنسا ، ولا تتوفر لاية بلاد كما لفرنسا الاشياء الضرورية للحياة . الفرنسيون اغنياء بجميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضيرها اذا حالفهم النصر فانهم يبتهجون بعدالة وعظمة ، كما ان مهزومي فرنسا يستفيدون من هزائمهم فوق ما تستفيد فرنسا الظافرة من ظفرها . أو ليس عدلاً ، في زعمهم ، ان تسيطر مثل هـذه الامة على العالم ؟ كانت فرنسا لهم ، بالنسبة للكون ، كما هي الشمس بالنسبة للسيارات في نظام كوبرنيك . وكانت فرنسا – الشمس خليقة بالملك – الشمس .

ومن سخرية القدر ان ضم ستراسبورغ ، الذي تم في ايام السلم والذي كان له ما يبرره ، قد احدث اسوأ اثر . سبق لستراسبورغ، المدينة الامبراطورية الحرة ، وباب الالزاس ، ان سمحت ثلاثاً لجيوش الامبراطور بعبور جسر الرين ، على الرغم من حيادها . فاستولى لويس الرابع عشر على المدينة (١٦٨١) لسد هذه الثغرة المفتوحة في جهازه الدفاعي . ولكن هذا العمل فسر بانه تصميم على فتح لا يقف عند حـد ، فالقى الذعر في اوروبا . اضف الى ذلك ان لويس الرابع عشر ، رغبة منه في دعم مدعياته بالامبراطورية ، قد رغب في ان يؤدي خدمة جلى للعالم المسيحي بجمع المسيحيين المنفصلين الى الكثلكة ، وفي ان يؤديها وحده بمعزل عن اي شخص آخر . فكانت رغبته مدعاة لخشية البابا وفشل انضمام بروتستانت المانيا الذي اعده سبينولا والامبراطور ، والذي كان الامراء ، بتأثير من ليبنيز، مهيئين للقبول به : الاعتراف بالبابا رئيساً والقبول بالمجمع التريدنتيني . أما لويس الرابع عشر ، فكان بمقدوره ، بواسطة فرسانه إبطال براءة نانت في فرنسا . وعزيت اليه رغبته في ارسال فرسانه لمساعدة جاك الثاني على اعادة انكلترا الى احضان الكثلكة . فاعتقدت اوروبا كلها بان لويس الرابع عشر انما يريد الاحتلال لتحقيق الارتداد . فارتجف الاوروبيون قلقاً . لا بل ان اصدقاء لويس الرابع عشر القدماء انفسهم ، بورجوازيي امستردام المعادين لرئيس السلطة التنفيذية ، والامراء الالمان ، قد تخلوا عنه « لضمان رصيدهم » . وثار الانكليز وطردوا جاك الثاني (١٦٨٨) . واتحدت اوروبا ضد فرنسا .

المحالفات ضد فرنسا

جاء رد فعل اوروبا ، امام الخطر ، محالفات بقيادة الدول البحرية . كانت الاحلاف محصورة ، قبل السنة ١٦٨٥ : حلف السنة ١٦٦٨ الثلاثي ، بين انكلترا وهولندا واسوج، الذي ارغم لويس الرابع عشر على ايقاف فتوحاته في « فلاندر » وعلى توقيع معاهدة صلح « اكس - لا - شابيل » (١٦٦٨) ، وحلف « لاهاي » الكبير (١٦٧٣) بين الاقاليم المتحدة والامبراطور واسبانيا ودوق اللورين الذين انضم اليهم الجمع الجرماني (١٦٧٤) ، ثم الدانمرك ، وقد انقذ الاقاليم المتحدة والمناطق المنخفضة . ولكنها غدت شبه شاملة ودائمة بعد السنة ١٦٨٥ . فان البروتستانت الفرنسيين المهاجرين حرضوا اوروبا على لويس الرابع عشر وعملوا على توحيد الامراء ضد فرنسا . وكان قلب الاحلاف النابض غليوم دورانج ، رئيس السلطة التنفيذية في الاقاليم المتحدة ، الذي اصبح ملكاً على انكلترا في السنة ١٦٨٩ ، واشتهر بعصبيته البروتستانتية وعنف عدائه للفرنسيين . تحالفت انكلترا والاقاليم المتحدة مع تكتل « اوغزبورغ » الذي تألف في السنة ١٦٨٦ من الامبراطور وملك اسبانيا وملك اسوج لضمان العمل بمعاهدتي وستفاليا ونيميغ ، وما ان ارتضى لويس الرابع عشر ، في السنة ١٧٠٠ ، بوصية شارل الثاني ملك اسبانيا لمصلحة دوق انجو ، الذي اصبح ملكاً على اسبانيا باسم فيليب الخامس ، كي لا يترك الخلافة لامير نمساوي ، حتى تألف الحلف مرة اخرى من انكلترا والاقاليم المتحدة والامبراطور ومعظم الامراء الالمان والدانمرك . وقد رفعت معنويات المتحالفين فكرة الحرب الصليبية ضد لويس الرابع عشر . ساعدت الدول البحرية بمالها كل امراء البر الاوروبي المعوزين الذين ما كانوا ليصمدوا طويلا لولا هذه المساعدة . فبدأت بين الفرنسيين والانكليز حرب مائة سنة جديدة لن تضع أوزارها الا في السنة ١٨١٥ . وكان على فرنسا ، للمرة الاولى ، ان تخوض الحرب وحدها ضد اوروبا كلها ، حتى بعد السنة ١٧٠٠ ، لان أسبانيا كانت مستضعفة ، فالقي عبء الصراع كله على كاهل فرنسا التي واجهت اعداءها على طول حدودها البرية ، من دنكرك حتى طولون ومن برنيان حتى بايون ، وفي اسبانيا ، وعلى الجبهة البحرية ايضا ، في البحر المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، وفي المستعمرات حتى في اميركا والهند . فباتت فرنسا ، كما سيحدث لها بعد مرور قرن كامل في عهد مجلس الميثاق « ولجنة الانقاذ العام » ، موقعاً كبيراً محاصراً .

ديمومة الحرب وعجز الجيوش

طالت الحروب اكثر فاكثر . فبعد حرب « نقل الحقوق » (١٦٦٧ — ١٦٦٨) والحرب الهولندية (١٦٧٢ — ١٦٧٨)، دامت حرب حلف إوغزبورغ منذ السنة ١٦٨٨ حتى معاهدة ريسويك في السنة ١٦٩٧ ، وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠٢ حتى السنة ١٧١٤ ، ومنذ السنة ١٦٨٨ حتى ١٧١٥ ، اي طيلة ثمان وعشرين سنة ، استغرقت الحروب منها احدى وعشرين سنة تقريباً . ويرد ذلك الى ان الحلفاء ، الذين استفادوا من تفوقهم العددي والمالي ومن عضد البروتستانت في فرنسا ، قد تضاربت مصالحهم فانقسموا وطالت المسافات التي تفصلهم عن فرنسا فصعب تنسيق

حركات جيوشهم ، بينما استفاد الفرنسيون من توسطهم اعداءهم ووحدة قيادتهم وقوّة مركزية ادارتهم . كما يرد الى ان الجيوش الفرنسية بعد تألب اوروبا باجمعها على فرنسا ، قد فقدت تدريجياً قدرتها على المناورة وعلى احراز الانتصارات الحاسمة .

الاساطيل والصف

قام الفن الحربي البحري اولا ، ما بين السنة ١٦٥٠ والسنة ١٦٨٠ ، بالبحث عن العدو العالم قبل كل شيء آخر والسعي الى تدميره بمعركة حامية الوطيس ؛ والمناورة لعزل قسم من الاسطول واضناكه ؛ ومطاردة الفلول بدون هوادة . في سبيل تحقيق هذا الهدف عمد امراء البحر ، الانكليز منهم ، كـ « مُنك » ، والهولنديون ، كـ « رويتر » و « ترومب » ، والفرنسيون ، كـ « دوكين » و « تورفيل » ، الى خطة « اقتصاد القوى » . حتى ولو لم يكن اسطولهم ، في مجموعه ، دون اسطول العدو عدداً ، فانهم كانوا يناورون بحيث يحشدون معظم قوامهم ضد الجزء الذي يريدون تدميره من اسطول العدو ويحققون التفوق العددي في هذه النقطة . لذلك قادوا الى المعركة عدداً من الفرق المتضامنة هدفا ، المستقلة حركة . واحتفظ قادة الفرق ببعض المبادهة . فكان باستطاعة الفرقة ان تغادر مكانها لتطوق العدو او لتستفيد من ثلمة في صفه . كان الهجوم سيداً .

ولكن صفوف مدافع السفن قامت في جوانبها . فلا مجال اذن للحصول على اقصى فاعلية نيرانها الا اذا صف الاسطول كله ، سفينة بعد الاخرى ، ترفع كل منها صاريها الكبير في المؤخرة وتوجه جانبها نحو العدو . منذ السنة ١٦٥٣ ، امر دوق يورك ، الذي سيصبح جاك الثاني ، باعتماد هذه التشكيلة . الا ان تطبيقها تطبيقاً صارماً يشل الاساطيل التي تعجز اذ ذاك عن المناورة وينحصر عملها في اطلاق نيران مدافعها . ولكن امراء البحر والقباطنة انتهوا شيئاً فشيئاً الى التغلب على كل اعتبار واعتماد الصف المحدود . بعد انتصاره في « بيتشي هد » ، طارد تورفيل العدو باسطوله كما كان مصفوفاً للمعركة ، فلم يتمكن من تطويق وتدمير اجزاء اسطول العدو المتشتتة ، وكان ذلك سبباً هاماً من اسباب اخفاق عملية انزال الجيوش في انكلترا . في السنة ١٦٩٦ ، نشر الاب « هوث » ، مرشده واستاذ الرياضيات ، « فن الجيوش البحرية او بحث حركات الاساطيل » ، حيث احل الصف في المرتبة الاولى . تشبع الضباط الفرنسيون من هذه المعلومات ، وفي السنة ١٧٠٤ ، طبق الانكليزي « روك » ، وخصمه الكونت « دي تولوز » ، هذه النظرية تطبيقاً صارماً في معركة « فيليز – ملكه » . لم يستفد تولوز من ثلمة احدثها ليحاول عزل مقدمة القوة الانكليزية . كما لم تحاول هذه الاخيرة تطويق مقدمة القوة الفرنسية . لم تتحرك القوتان المتقابلتان . فاطلقت نيران المدافع دون جدوى طيلة سبع ساعات .

بيد ان عدم فاعلية العدد في المعارك البحرية ، وجولة تورفيل الذي توفق في السنة ١٦٩١ الى ركوب البحر طيلة خمسين يوماً تجنب خلالها عدواً يفوقه عدداً ، والى تدمير قافلة انكليزية هولندية محملة بكل غال ثمين ، ونهكة الخزينة الفرنسية في اعقاب ارتفاع نسبة الوفيات في

١٦٩٣ - ١٦٩٤ وخلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، اوحت كلها للفرنسيين بفكرة الاستعاضة عن حرب الاساطيل بحرب القرصنة . ففعل القراصنة البحريون « جان بار » و « دوغي‌تروين» وغيرهما ، ما يقضي العجب واستولوا على الوف السفن العدوة . ولكن العدو قاوم بطراداته . وكانت الحاجة ماسة الى الاساطيل وخوض المعركة البحرية لتنظيف البحار من هذه الطرادات، ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا بعد السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧٠٤ . فاطلقت يد العدو ضد القراصنة ، ولم تفلح حرب القرصنة في شل تجارته على الرغم مما الحقت به من خسائر فادحة .

اما في البر ، فقد بلغت الجيوش اقصى فعاليتها بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . فقد ازدادت قدرتها على اطلاق النيران باستخدام البندقية استخداماً متعاظماً وباستعمال القذائف اليدوية لضرب النقاط الساكنة واكتشاف مخابىء العدو ، وبتنظيم فرق خاصة من ملقي القنابل ومطلقي نيران المدافع . وأتاح اطلاق القذائف بحيث ترتد الى الارض او الى اي حاجز آخر ، بفضل الحناء المدافع انحناء خاصا ، نشر الفوضى والذعر في صفوف الاعداء وبلوغ هدف خفي بصورة غير مباشرة . وشكلت فرق من المشاة مجهزة خير تجهيز وسريعة الحركة جداً ، هي فرق « الدراغون » . وسمحت البزة ، وهي مختلفة باختلاف الاسلحة والفرق ، للقائد بتمييز شتى فرقه في ساحة المعركة، وسهلت عليه القيادة . واتاحت المشية العسكرية قيادة فرق المشاة بكل تنظيم ، وحفظ المسافات والابعاد الملائمة لمعركة بالاسلحة النارية . كما ان تنظيم « لوفوا » لقوافل العربات الصغيرة والكبيرة ، والمخازن على مقربة من الحدود ، ومستودعات الاعلاف ، أتاح للفرنسيين دخول المعركة قبل غيرهم واخذ اعدائهم على حين غرة منذ انتهاء فصل الامطار. ولمهاجمة المواقع المحصنة ، احكم « فوبان » جهاز الخنادق « الموازية » لتحصينات العدو ، بغية ايواء مدافع النقب ، وجهاز الحفر المعوجة بغية التقدم تدريجياً . اما للدفاع فقد أخفى الجدران في خنادق عميقة لا تبرز منها فوق الارض سوى متاريس ترابية تتغرز فيها القذائف دون ان تخلخل شيئاً ويسهل اعادتها الى ما كانت عليه . وشبك نيران ابراج الحصون . « المدينة التي يحاصرها « فوبان » ساقطة حتما ؛ والمدينة التي يدافع عنها فوبان ممتنعة الفتح » . فاستطاع قادة نخبة ، كـ«تورين» و «كونديه» ، اكثر من أي يوم مضى، السعي وراء معركة التدمير ، «وحجب » المواقع كـ«ما يسترخت » في السنة ١٦٧٢ ، والانقضاض خطا مستقيما على قلب بلاد الاعداء ، كما في هولندا . وكانت الستراتيجية الفرنسية ستراتيجية الحرب الصاعقة . وهي لم تصادف الفشل في هولندا الا بفعل غمر البلاد بالمياه .

بعد السنة ١٦٨٠ اخذت الجيوش ، رويداً رويداً ، تفقد فعاليتها وقدرتها على المناورة . وكان ذلك نتيجة استخدام البندقية التي كملها فوبان باضافة الحربة اليها في السنة ١٦٨٧ ، والتي عم استعمالها في كافة الجيوش الاجنبية منذ حرب حلف اوغزبورغ ، وفي الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٠٣ . والبندقية ، في جوهرها ، قطعة فولاذية تطرقها صوانة حين يطلق الزنبرك .

بزند الطرق شرارات تشعل النار في بارود الخزنة الذي ينقل النار بدوره الى البارود الموجود في مدفع السلاح ، بواسطة ثقب صغير يعرف بثقب اشعال البارود . ثم اطلق اسم البندقية على السلاح الناري بكامله . جاء هذا السلاح اسهل استعمالا واقل خطراً من البندقية القديمة ذات الفتيل . فما عاد الجندي ليشغل باله بالحوادث التي قد يسببها الفتيل المشتعل اثناء حشوه البندقية ؛ وما عاد ليتقيد بطول معين للفتيل حتى يصادف سقوطه على بارود الخزنة ؛ فقد اصبح باستطاعته ان يحرك سلاحه على هواه بالقرب من رفيقه او في وسط الدوالي والاشجار ، وان يحشوه ويطلق النار بسرعة . منذ ذلك الحين ، غـدت نيران المشاة وسيلة المعركة الاولى ، وشكلت فرق المشاة ، وهي ملكة المعارك ، حتى خمسة اسداس مجموع الجيوش . ولكن ما لفت انتباه القادة هو سرعة اطلاق النار في البندقية ، طلقة في الدقيقة ، والاطلاقات الكابية الكثيرة (التي أخرت اعتمادها في الجيش الفرنسي) . لذلك كان عنوان الكمال في نظر القادة اطلاق نيران الاسلحة في آن واحد ، وغايتهم المنشودة التوصل الى اطلاقها باستمرار ، ومدّ سماط من الرصاص امام جبهة الجيوش ، وانشاء جدار من نار في سبيل بلوغ هذه الغاية . رتبوا الجيوش صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . ولكن القادة استمروا في اعتماد الصفوف الخمسة عمقـاً والخطوات الاربع او الخمس مسافة وبعداً ، في حال ان الاطمئنان الى السلاح الجديد كان يسمح باعتماد الخطوة الواحدة مسافة وبعداً بين الجنود ، وسرعة الاطلاق باعتماد الصفوف الثلاثة عمقاً فقط . وبسبب عدم توفر الوسائل للانتقال من الصف المتلاحق الى الصف المتلاصق ومن الصف المتلاصق الى الصف المتلاحق ، توجب ، كما في الماضي ، مجابهة العدو على بعض المسافة والهجوم عليه ببطء ، وتوزيع الجنود هنا وهناك في الحقول . يضاف الى ذلك زوال فرق مطلقي النار بتواتر ، خلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، باستثناء خمسين رجلا في كل فوج . ومرد ذلك الى ان استعمال البندقية قد أمن السلاح الضروري لصد العدو بنيران محكمة التصويب ، بنيران قاتلة ، فلم يعد من مبرر حقيقي لاستخدامهم . الا ان القـادة الفرنسيين ، الدوق « دي لوكسمبورغ » ، « لورج » ، « بوفلر » ، « كاتينا » ، « واندادم » ، « لويس دي باد » ، منتخب بافيير و غليوم دورانج ، ابان حرب حلف اوغزبورغ ، و « فندوم » ، و « فيليب » و « برويك » من جهة ، والامير « اوجين » و « تشرشل » والدوق « دي مارلبورو » من جهة ثانية ، ابان حرب خلافة عرش أسبانيا ، لم يتخلوا يوماً عن فكرة معركة التدمير التي ستنتهي حتما بسقوط المواقع المحصنة . ولكن الصف جعل جيوش حرب خلافة عرش أسبانيا اقل قدرة على المناورة والحركة مـن جيوش تورين وكونديه . وقد حافظ لويس الرابع عشر على رباطة جأشه في أسوأ ساعات الحرب لانه كان مقتنعاً ، كما قال مراراً ، باستحالة انهزام هذه الجيوش الجرارة انهزاماً كاملاً .

بسبب نقائص جيوش البر والبحر هذه ، فشلت كل محاولات الحرب الصاعقة والاندفاع حتى المراكز الحيوية . فشلت في السنوات ١٦٨٩ – ١٦٩١ محاولات انزال الجيوش الفرنسيـة في انكلترا ، بينما التزم الفرنسيون حربا دفاعية على الحدود البرية ، وفشل في السنة ١٧٠٢ الهجوم

المركز على فيينا الذي رسمه لويس الرابع عشر ؛ وفشل الحلفاء في التوصل الى غير فتح الولايات ، « بافيير » بعد « بلنهايم » (١٧٠٤) ، و « براباان » و « فلاندر » بعد « رامبي » (١٧٠٦) . اضف الى ذلك ان بعض طرائق الدفاع قد أخرت تقدم الجيوش . فالفرنسيون قد اجتاحوا البالاتينا تكراراً لحماية الرين . وفي السنة ١٦٨٩ ، احرقوا هيدلبرغ ، ونسفوا قصرها العائد الى عهد النهضة . ودمروا مانهايم وسبير و « وورمز » و « بنجن » . وبعد اودنارد ، عجز الحلفاء عن الانقضاض على باريس لان جيشاً فرنسياً مؤلفاً من ٨٠٠٠٠ رجل ،هزم دون ان يقضى عليه ، ما زال يهددهم من الوراء ، ولانهم اصطدموا بـ « الحدود الحديدية » المعروفة باسم فوبان ، وهي جهاز دفاعي بناه فوبان ووضع تصميمه لويس الرابع عشر . تألف هذا الجهاز من سلسلة مواقع محصنة تتصل فيما بينها بمواقع محصنة ثانوية ، ويقوم وراءها وبموازاتها خط دفاعي ثان . وكان الهدف منه اقفال طريق الغزو : مجازات الواز و « سيدان » و « فروار » و « بلفور » وسافوا العليا . وهو ما ساعد فرنسا على الصمود .

التوازن الاوروبي

وهكذا تحولت الحروب الى حروب انهاك وافناء . استخدم المحاربون كل وسيلة تساعدهم على احراز النصر . استخدم الحلفاء البروتستانت الفرنسيين . فقام هؤلاء في كل مكان بالدعاوة ضد الفرنسيين وتجسسوا وتآمروا لمصلحة الاجانب . وقد نظم «جوريو» ما بين السنة ١٦٩٢ والسنة ١٧٠٥ ، وباموال الوزراء الانكليز ، شبكة جاسوسية كاملة الحلقات . وحرض « بروسّون » و « فيفان » بروتستانت منطقة الـ « سيفين » و « فالدبي » اقليم « دوفينيه » على التمرد والثورة . وقد هدفا من وراء هذه الثورات الى تسهيل دخول الجيوش الاجنبية ، ووزعا ذهب العدو بوفرة . فساعدت ثورة « كاميزار » « السيفين » ، في السنة ١٧١٠ ، على انزال الجيوش الانكليزية في « سيت » و « آغد » . وقد حسب البروتستانت على الرغم من تحذيرات « بايل » ، ان الحلفاء المنتصرين سيشترطون على لويس الرابع عشر عودتهم الى فرنسا . ولكن الحلفاء لم يأتوا على ذكرهم اثناء المفاوضات . واخيرا وضع العياء والنهكة حداً للنزاعات المسلحة . فاضطر المحاربون الى التسليم بتقاسم الاراضي والسلطة والنفوذ. قبل الحلفاء مكرهين ، في معاهدة ريسويك (١٦٩٧) بالتخلي عن فكرة اعادة فرنسا الى حدود السنة ١٦٤٨ والسنة ١٦٥٩ ، وقبل لويس الرابع عشر مكرها ايضا بالتخلي عن اللورين وعن حصون ضفة الرين اليمنى . وفي معاهدتي اوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) ، قبل لويس الرابع عشر والامبراطور مرغمين بتقاسم خلافة اسبانيا . فاحتفظ فيليب الخامس باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وامبراطور النمسا شارل السادس بالمناطق المنخفضة ومنطقة ميلانو والحصون التوسكانية ونابولي وسردينيا ؛ اما لويس الرابع عشر فكان نصيبه انه حال دون تجدد امبراطورية شارل الخامس واحلّ احد افراد سلالة بوربون على العرش الاسباني . وهكذا لم تتوفق اية قوّة برية الى السلطة الشاملة .

الحـدود ـ الخطوط والدول ـ القطائـل

انتظمت الحدود بين الدول تدريجياً بموجب معاهدة نيميغ والمعاهدات التي تلتها . تخلت فرنسا شيئاً فشيئاً عن مواقعها المحصنة في اراضي الاعـداء ، وكانت لها بمثابة « ابواب » لهجوم مستقبل : سالوس وبينيرول في ايطاليا ، فريبورغ وبريزاخ وكهل وفيلبسبورغ على ضفـة الرين اليمنى ، « شارلروا » و « اودنارد » ، « وآت » و « منين » و « ايبر » و « دكسمود » وتورنيه الخ ، في المناطق المنخفضة الاسبانية . وازالت فرنسا شيئاً فشيئاً الجيوب الاجنبية في داخل المملكة . فلم يبق في السنة ١٧١٣ سوى ثلمة واحدة هامة هي اللورين . فقد جرى الانتقال اذن ، في هذا العهد ، من الحدود – المناطق القديمة الى الحدود – الخطوط في مفهوم الدول المعاصرة ، التي تعينها الامات الدفاعية ، كقمم

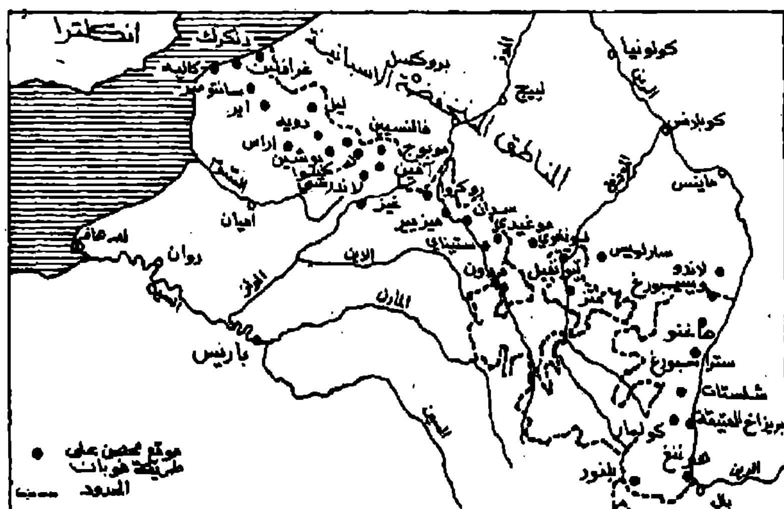

الشكل ١٢ ـ حدود فوبان الحديدية

سلاسل الجبال ، والانهار الحاطة بخنادق محفورة في الارض ، كما في الفلاندر ، والحـدود المجهزة بالحصون ؛ فقد قابلت « الحدود الحديدية » مثلا حصون « الحاجز » الهولندية . وفكر الساسة ، على الرغم من حكمتهم العملية ، بجعل الحدود فاصلا بين اللغات والحضارات . فجاءت هـذه الحدود دليلا على ان الدول اقتربت من الحد الاقصى لتوسعها وانها ستتصادم تصادماً مباشراً ، واوضح الدبلوماسيون مفهوم الدولة – القطيلة ، كسافوا ، بييمون ، وبالاتينـا ، ومنتخبية كولونيا ، التي القي على عاتقها عبء الفصل بين الدول الكبيرة وابطاء هجمات الجيوش والحدّ منها . ولكن هذا الدور المرهق قد أخضعها لسنّة الاقوى ، اي للانكليزي .

الحق العام الجديد

توصلت الدولتان البحريتان ، انكلترا وهولندا ، في معـاهدتي ريسويك واوترخت ، الى اقرار حق عام جديد مبني على مبادىء العقد . وقد إعترف لويس الرابع عشر واوروبا ، على مرتين ، بشرعية ملوك تولوا سلطاتهم ، بعد ثورة السنة ١٦٨٨ ،

بموجب عقد مع الشعب الانكليزي لا بموجب حق إلهي يكسبهم اياه نسبهم ، غليوم دورا، وماري، ثم الملكة «آن » . لا بل ان الانكليز والهولنديين قد ادخلوا هذا الحق العام الجديد الى حد ما ، عند جيرانهم في البر الاوروبي . ففي ريسويك واوترخت طالب الهولنديون بالحا بتسجيل المعاهدتين في مجلس باريس التمثيلي ، كما لو كان هذا التسجيل يضيف الى توقيع المل ضمانة اخرى . وفي اوترخت ، فرض الانكليز تنازل فيليب الخامس عن عرش فرنسا ، وتناز الدوق « دي برّي » والدوق « دورليان » عن عرش أسبانيا ، وهي تنازلات باطلة بموجب مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس فاضعفوا بذلك اعداءهم ، لا بمنع فرنسا من ضم عرش اسبانيا فحسب ، بل بتعزيز مدعيات مجلس باريس التمثيلي ، المؤلف من قضاة يملكون وظائفهم ويتميزون بنزعاتهم الارستوقراط والاقطاعية ، وبمعارضتهم لتعاظم سلطة الدولة . وبتوسع نطاق حقهم العام ، الملائم لبلاد مرتف النسبة البورجوازية ، والمتنافي والوضع الاجتماعي في فرنسا ، حيث ما كان ليخدم الا مصال الارستوقراطيات الرجعية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامـ الطبيعي واضعفوا الدولة .

انقسامات اوروبا ورجحان النفوذ الانكليزي

أخيراً ، توصل الانكليز الى بسط نفوذهم السياسي والبحري والتجاري . فقد أتاحت انقسامات الاوروبيين التي توقفت معاهدتا اوترخت الى تغذيتها وسعها ، سيطرة الانكليز على الطرق البحرية الرئيسية والاسواق التجارية الهامة . قسمت شواطىء بحر الشمال المحفوفـ بالاخطار بين ملكين متعادبين هما لويس الرابع عشر وشارل السادس . فبقيت أنفرس مقفلة وسطع نجم لندن . ووفر النزاع بين الاسوجيين من جهة وبين الدانمركيين والبروسيين والروس من جهة اخرى ، امكانات المناورة لاحراز المكاسب في بحر البلطيك والمضائق الدانمركية .

قسمت مجازات البحر المتوسط بين عدوين عنيدين هما شارل السادس وفيليب الخامس اما الانكليز ، مالكو مضيق جبل طارق وجزيرة مينورك ، فقد راقبوا مدخل البحر المتوسط الى الاوقيانوس ، وحوض المتوسط الغربي الى الحوض الشرقي ، واحرزت شركتهم التركية بعض المكاسب في ايطاليا وفي موانىء الشرق الاوسط على الفرنسيين .

منذ السنة ١٧٠٣ ، اعطت معاهدة « ميتوين » الانكليز احتكار الاسواق البرتغاليـ والبرازيلية وانتزعت معاهدتا اوترخت الامبراطورية الاسبانية من الفرنسين وفتحت امـا الانكليز اسواق اسبانيا بتخفيض الرسوم على اقمشتهم الصوفية وباعطائهم الافضلية على غيرهم واسواق اميركا باعطائهم احتكار توريد العبيد الزنوج وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات كل سنة الى بعض موانىء اميركا الاسبانية . وفي الاتجاه الاخرى من أميركا ، انتزع الانكليز من الفرنسيين

جون « هدسون » مع رجحان النفوذ في تجارة الفراء، واكاديا والارض الجديدة مع رجحان النفوذ في صيد الاسماك ، وسان كريستوف مع منتوجها من السكر .

وهكذا توصل الانكليز الى ارساء أولويتهم تحت ستار الدفاع عن الحريات الاوروبية وعن حقوق الانسان ضد لويس الرابع عشر . وبفضل التوازن الاوروبي الذي تحقق في البر بين الدول الكبرى ، وخشية فرنسا ، والارتيابات والمنافسات المتبادلة ، استطاع الانكليز ، أسياد البحار ولجارة العالم ، المحافظة عليها . فللمرة الاولى منذ القرون الوسطى بسطت دولة بحرية نفوذها على البر الاوروبي ، وللمرة الاولى رافقت النفوذ ظروف جعلته يبدو وكأنه تحرير وانقاذ .

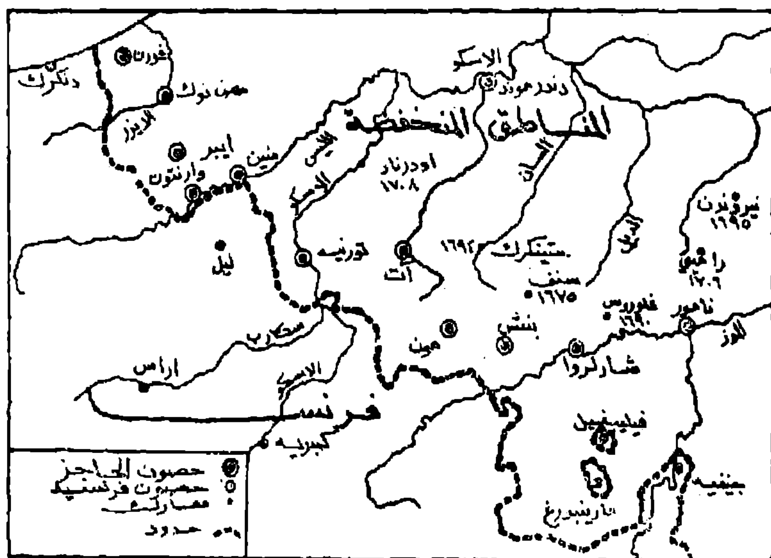

الشكل ١٣ ـ حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اوترخت ، ١٧١٥)

القوميات

كان من شأن هذه الحروب انها حركت التشامخ القومي . فقد اعترف لاوروبا في مجموعها بعبقرية خاصة ؛ وانتشرت الكلاسيكية واللغة الفرنسية في كل مكان ؛ ولكن ذلك لم يمنع كل دولة من ان تعتبر نفسها متفوقة على ما سواها ، او بالاحرى جامعة وحدها المجد من أطرافه . وجاء في مؤلف ادّيسون، «سبكتاتور»، ان الازهار هي رمز الامم : فرائحة أزهار ايطاليا ذا قوة تنفّر من يشمها ؛ ورائحة ازهار فرنسا الزاهية والفاتنة ضعيفة وعابرة ؛ أما أزهار المانيا فلا رائحة لها عموماً ؛ واذا انتشرت منها رائحة ما فرائحة كريهة . وتخيل الفرنسي « لو ساج » انكليزا قساة يقدمون الفليون والجعة لسيدة أفكارهم ، والمان

فلاظاً ، مفكوكي الازرار ، سكارى ، غارقين في قذارة التبغ ، متمرغين حول طاولة تغمرها فضلات افراطهم في الاكل والشرب . وأكد « بوفندورف » و « ليبنيز » ان الحق الجرماني سابق لكل ما سواه من حقوق ومتفوق عليها ، وان اللغة الالمانية ، التي ليست دون اللغة اللاتينية قدماً وجمالاً ، ترتقي الى اصول العالم ، وان الشعر الالماني لا يعلو عليه شعر آخر . ولعل الاوروبيين لم يعوا ما يوحدهم وعيهم للاختلافات والمنافسات القائمة بينهم .

اضف الى ذلك ان الطباع الفردية جبارة . فالانكليز يقبلون بنتائج الاختبار في العلوم ، ولو لم تسمح بتكوين افكار واضحة كل الوضوح؛ اما الفرنسيون فيتمسكون بهذه الاخيرة ويميلون الى بناء البراهين المتسلسلة المستخلصة خير استخلاص ؛ وأما الالمان فيصعب عليهم القول بالآلية البحتة ويسلّمون ابداً بالقوى الخفية ، وبالارواح تقريباً.

٢ – الحرب وأزمة الدولة

ما زالت طريقة الانتاج ، وحركة تداول المعادن الثمينة ، والنقد ، والاسعار ، اسبابا هامة من اسباب الازمة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في مستهل هذه الدراسة حول القرن السابع عشر . وتفاقمت كافة اسباب الازمة بفعل الحروب الطويلة وما رافقها من قتل وخراب ، وهدر القوى والوقت في انتاج ما هو عقيم وزائل (كالبارود والقذائف والاسلحة) ، وتحويل المال عن وظائفه الاقتصادية العادية لاجل حاجات الدولة ، وتحوير توزيع الدخول لمنفعة رجال المال ومواني الجنود . فبرزت مظاهر جديدة للازمة . ولكن الحروب احدثت نتائج مختلفة باختلاف نظام الدولة المعنية ، على انها استعجلت في كل مكان تطوراً ما زال في مرحلته الاولى ، فلم يكن الجديد جديداً بصورة كلية ومطلقة ، وغدت الدول والمجتمعات اشد اختلافاً بعضها عن بعضها الآخر .

انكلترا التصلب الرأسمالي

ما زالت الرأسمالية التجارية سائرة في طريق النمو ، يرافقها تصلب الفردية النفعية المعادية للمذهب القائل بان الملكية وظيفة عامة . وقد نُظر اكثر فأكثر الى مهن التجار والمزارعين والبحارة كما الى رسالات ، او كما الى استجابات لدعوة الله . فظهرت كتب تقرأ من عناوينها : « المعنى الروحي لعمل الحقول » (١٦٦٩) ، « المعنى الروحي للملاحة » (١٦٨٢) ، « رسالة التاجر » (ريتشارد ستيل ، ١٦٨٤) . المسيحي يخلص بالايمان ، ولكن الايمان الحقيقي هو ذاك الذي يولد الاعمال ، والانسان سيحاكم على اعماله . ان التاجر ، كالراعي ، مدعو لعمل خاص لاجل الخير العام . فواجبه كمسيحي يفرض عليه من ثم الانصراف بكل قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان امينا لرسالته ، وان الله قد بارك تجارته ، هو النجاح والكسب . احراز النجاح واجب ؛ واستخدام الفوائد التي

تضعها عناية الله بين يدي المسيحي فريضة الزامية . المسيحي يظفر بالثروة والحياة الابدية في آن واحد ، ويرضي ، على خلاف ما جاء في الانجيل ، ربين في آن واحد : المال والله . الاندفاع وراء الكسب يصبح فضيلة ، والتقدم الاقتصادي غاية ، والانتاج المتزايد ابداً عبادة . فمكس الدين المسيحي ومهد السبيل أمام جشع الغني وتسلط الامة التجاري .

نجاحات الفردية النفعية

كان من نتيجة ثورات انكلترا انهـا انجحت تدريجياً ، بواسطة النظم السياسية الجديدة ، الفردية الاقتصادية والاجتماعية . ففي السنة ١٦٤١ ، ادى الغاء الغرفة المكوكبة والمحكمة العليا الى تحرير المالك والمتعهد الرأسمالي . انتقلت اراض كثيرة ، بفعل المصادرات ، الى ايدي تجار المدينة . وساعدت الحرب الاهلية على نجاح المتطرفين . وطالب « المهدون » بحق التصويت للجميع وهدم الاسيجة والعودة الى الزراعة الجماعية . وطالب « الكادحون » بتوزيع الاراضي وتحريرهم « من السلطة الملكية التي كانت في قبضة الاسياد » . ولكن المالكين والتجار اعتبروا الملكية حقاً سابقاً للدولة التي وجدت لحمايته . وقد ارتأى « ايرتون » وكرومول ان الملاكين دون غيرهم هم الذين يؤلفون الهيئة السياسية وان بمقدورهم استعمال ممتلكاتهم كما يطيب لهم دونما خضوع لرقابة رئيس أو لادعاءات الفقراء الذين ليس بوسعهم سوى قصاص لخطاياهم . رد المجلس التمثيلي العرائض المقدمة احتجاجاً على الاسيجة . ولكن الجمهورية (١٦٤٩ - ١٦٥٣) لم تبد قادرة على حماية الملكية ، وهذا هو احد اسباب دكتاتورية كرومول « الحامي » (١٦٥٣ - ١٦٥٨) . وتغلب الرأي القائل « بان كل فرد سيعمل ما يؤمن له الدخل الاوفر ، على ضوء الطبيعة والعقل ... وان فائدة الفرد ستكون فائدة للمجموع » (١٦٥٦ ، « ج . لي » ، «تبرير تنظيم حق التسييج») . فخدم الجميع «اجل سيدات العالم » ، اي إلهة الاعمال ، وليس وعي ذلك ما اعوز الهولنديين .

بعد اعادة الملكية ، في عهد شارل الثاني ، لم يطرأ اي تغيير على عدة نقاط سبق اقرارها : المجلس الخاص لا يتدخل بين المالكين والمتعهدين من جهة ، وبين الشركاء والاجراء من جهة ثانية ؛ الاشراف الريفيون يسيجون حقولهم بحرية بغية زيادة انتاج الصوف والحنطة المعدين للبيع ؛ بطل العمل ، أو كاد ، بقانون الفقراء ، فاستطاعت الرأسمالية الزراعية ان تتصرف تصرفاً طليقاً ، وكبار الملاكين ان يحولوا المشاركات الطويلة الاجل الى مشاركات اختيارية يسهل زيادة دخلها ، وان يرفعوا عدد المزارعين ويسيجوا الاملاك العامة في القرى . فغدت انكلترا من أهم مصدري الحنطة والصوف واللحوم الى البر الاوروبي ؛ كما ان نقل البضائع في السفن حدا بالمجهزين الى التسلح ؛ وغدت تجارة المستعمرات احدى اهم تجارات العالم ، وقد عززها فتح المستعمرات البرتغالية بعد زواج شارل الثاني من « كاترين دي براغانس » ، والتشدد في العمل بوثيقة الملاحة ، واحداث مجلس التجارة والمستعمرات .

ثورة السنة ١٦٨٨ وانتصار البورجوازية الرأسمالية

ولكن هذه الانطلاقة جرّت الى نزاع تجاري طويل الامد مع هولندا وفرنسا . رضي الرأسماليون الانكليز عن سياسة شارل الثاني ضد هولندا ، ولكنهم لم يرضوا عن موقفه ، ولا سيا عن موقف جاك الثاني ، من فرنسا التي غدت اخطر منافسة في التجارة والمستعمرات . واذا أقدم جاك الثاني من جهة ثانية على اعادة الكثلكة الى انكلترا بمساندة لويس الرابع عشر ، فيكون معنى ذلك اعادة مذهب « الملكية وظيفة عامة » ورقابة الدولة في آن واحد . فأدى الصراع الاقتصادي ضد فرنسا ، والصراع لاجل افضل دين يتفق والذهنية الرأسمالية ، الى ثورة السنة ١٦٨٨ .

تمثل ثورة السنة ١٦٨٨ انتصار البورجوازية الرأسمالية وتجار مدينة لندن والاشراف الريفيين المتخلقين باخلاق البورجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية . وقد مثلت عملياً انتصار نظرية الاتفاق المعقود بين الملك والامة . فان اللوردات والعموم قد اعلنوا غليوم دورانج وزوجته ماري ، ابنة جاك الثاني ، ملكا وملكة على انكلترا ، لانهما يضمنان احترام « بيان الحقوق » (١٦٨٩) ، وقد منعهما هذا البيان عن كافة الاعمال التي حاول آل ستيوارت بواسطتها الاحتفاظ بصلاحيات السيادة وبلوغ السلطة المطلقة : فلا قدرة لهما على الادعاء بالسلطة التشريعية ، لان ايقاف مفعول القوانين او الاعفاء من تنفيذها اعتبرا تصرفا غير شرعي ؛ ولا قدرة لهما على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لايقرها المجلس التمثيلي ؛ ولا قدرة لهما على المطالبة بصلاحيات استثنائية او بمحكمة من المفوضين للقضايا الكنسية ، ولا على تنظيم الحياة المدنية ومن ثم حياة رعاياهما اليومية بقرارات ينفردان باصدارها . واخيرا بات من حق كافة البروتستانت اقتناء الاسلحة وتشكيل ما يشبه حرساً قومياً بورجوازي النزعة .

لم يبق سوى الاعراب بالافعال عن رجحان نفوذ المجلس التمثيلي المعبر عنه ضمناً في هذا النص ، فجاءت الحرب ضد فرنسا بسبب الثورة تتيح ذلك . فكر المجلس التمثيلي ، في البداية ، بمنح غليوم وماري دخلاً مدى الحياة مقابل ادارة البلاد العادية الطبيعية : اي الادارة المدنية والعسكرية والبحرية في ايام السلم . فيكون للملك من ثم بعض الاستقلال . ولكن المجلس التمثيلي ، في ظروف الحرب ، كان يقر سنويا النفقات العسكرية والبحرية الاستثنائية . فتوصل من ذلك شيئاً فشيئاً الى اقرار نفقات الجيش والبحرية العادية التي خرجت نهائياً في السنة ١٦٩٥ من اختصاص الملك . ولم يقرر المجلس التمثيلي كذلك مرتب الملك الى لمدة اربع او خمس سنوات ، وكان من تقتيره في تقريره ذلك ان المرتب لم يكن ، حوالي السنة ١٧١٣ ، سوى دخل شخصي صرف للملك ، دون ان يكون باستطاعة الملكة آن تسديد نفقات الحكم . فجرد الملك ، بكل ما للتعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابعاً كلياً للسلطة التشريعية . أما المجلس التمثيلي ، الذي غدا مسؤولاً في حال العجز المالي ، فأخذ يراقب الحسابات والخدمات

والجهاز التنفيذي الملكي .

بيد ان المجلس الخاص الذي اندلعت الثورات تكراراً عليه قد استمر لتصريف الاعمال الجارية والادارة ، ولكنه حرم كل سلطة ، فانحصر دوره في اثبات القرارات المتخذة شرعاً. رسمت السياسة في الديوان ، وهو اجتماع يضم بعض الوزراء حول الملك . تألف الديوان في عهد شارل الثاني من بعض المقربين الى الملك ، ولكنه لم يضم في عهد الملكة آن سوى بعض رؤساء مصالح يحتل اللورد ـ الخازن بينهم مركز الصدارة . فبحسب تطور بدأ منذ السنة ١٦٦٧ ، أخذ الخازن شيئاً فشيئاً يتمتع بمزيد من النفوذ والقوة . وتألف الديوان ، الى جانب الخزانة، من بعض المفوضين . الى هؤلاء عاد ، اثناء الحرب وفي الضائقة المالية ، امر تنظيم الشؤون التي تتوقف عليها السياسة كلها . فمن جهة كان اعضاء الديوان يجتمعون فيه بحضور الملك او غيابه ، بحسب العهود ، ولكن المقررات السياسية الهامة ما كانت لتتخذ بدون رأي الخازن . ومن جهة ثانية كان الخازن يتقدم بالمقترحات من المجلس التمثيلي الذي يجتمع اعضاؤه في اللجان البرلمانية . فبدون ان يكون هنالك موازنة ، جرت العادة ، منذ السنة ١٦٩١ ، على تدوين القوانين المالية الصادرة عن البرلمان في مخطط الخزانة العام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم نشاط الحكومة والمصالح باقراره قيمة الاعتمادات وتوزيعها. وقد أمنت الخزانة ارتباط الحكومة بالمجلس التمثيلي بحيث يصعب التمييز بين الموّجه والموجَّه .

أثر الخزانة ومصرف انكلترا والمدينة

كان على الخزانة ان تأخذ بعين الاعتبار ما يبديه حاكم مصرف انكلترا ومدراؤه من آراء . احدث هذا المصرف في السنة ١٦٩٤ ، بغية تسليف وزارة المال المبالغ التي تحتاج اليها . فكر اللوردات ـ الخزنة ، أثناء الضائقة المالية التي أدت اليها الحرب ضد فرنسا ، بتوزيع النفقات على سنوات عدة بتحويلها الى دين قومي ، بحيث لا يتوجب عليهم سوى دفع الفوائد كل سنة . فتقدم بعض المكتتبين الى وزارة المال سلفة اولى بلغت قيمتها ٢٠٠ ٠٠٠ ١ جنيه وتألفت منهم هيئة باسم « حاكم وشركة مصرف انكلترا » . اعطي المصرف الحق في تبديل السفتجات وشراء السبائك وبيعها وتقديم سلفات للافراد واصدار نقد ورقي . وكان المصرف على اتصال يومي بالخزانة. وهم عملاؤه في أنفرس وامستردام وهمبورغ ولشبونا ومدريد والبندقية من أتاحوا للحكومة تمويل الحرب . وبواسطته كان للرأسماليين الانكليز ازلامهم حتى في مجلس الوزراء .

واخيراً ، ساعدت مدينة لندن المجلس التمثيلي والمصرف على فرض وجهات نظرهما على الملك . ضمت لندن ٨٠٠ ٠٠٠ نفس ، اي ضعف سكان باريس ، واحتكرت ٩/١٠ النشاط الانكليزي ، ولعبت دور الوسيط التجاري والمالي بالنسبة للقسم الاكبر من انكلترا. وشعر كل سكانها متضامنين بقسطهم من المسؤولية في ازدهار التجارة الانكليزية، وكان مركز الحكومة قريباً من المدينة . فكان خطر الثورة قوة رأسمالية اضافية .

قاعـدة الميزان السياسي

لم تتلاش سلطة الملك نهائياً. فالوزراء مسؤولون امامه أولاً. ولا يزال في جعبته وسيلة قوية للتأثير على رجال السياسة : هي الوظائف العامة ، المتزايدة تزايداً مطرداً في أيام الحروب ، التي يسندها الى من يشاء في الجيش والبحرية والادارة المدنية . ولكن سلطته محدودة .

المشاريع التجارية الحرة وانشراح البورجوازي

استطاع الرأسماليون العقاريون والتجار ، من ثم ، ادارة الحياة الاقتصادية . المجلس يوجهها وفاقاً لآرائهم بقوانين عامة ، والحرص على استقرار النقد ، وتعزيز وثيقة الملاحة ، وحركة الرسوم الجمركية والضرائب غير المباشرة . فالدولة توفر بذلك الظروف المؤاتية لحرية نشاط اصحاب المشاريع ، ولكنها تمتنع عن اثبات وجودها بقرارات ادارية يومية . لا تدخل بعد السنة ١٦٨٨ من قبل الحكومة في شؤون الادارة المحلية . فزمام هذه الاخيرة في ايدي الاعيان ، اسياد الرعايا ، وحرية تأسيس المشاريع تامة مطلقة . لذلك انطلقت الرأسمالية انطلاقة كبرى . « تجارتنا اعظم تجارة في العالم » . وتوسعت طبقة المتمولين والتجار . ولكن الرأسماليين العقاريين اتهموهم باستغلال الحروب لمصلحتهم ، وثار ثائرهم عندما رأوهم يشترون الاراضي ويصبحون قضاة ومدراء كونتيات ينافسونهم في مناصب الكنيسة والدولة . الا ان التضاد بينهم ليس عميق الجذور ، فكثير من مصالحهم مشتركة ، ولم يغرب ذلك الا عن بال القلة النادرة منهم . فليس في انكلترا جمارك داخلية . انها تؤلف سوقاً قومية تتسع في السنة ١٧٠٧ باتحادها مع سكتلندا تحت اسم المملكة المتحدة . التاجر يتوجه حيث يريد لشراء الحنطة التي يبيعها في المناطق النائية ويفتح في كل مكان اسواقاً لتصريف بضائع المنتجين . الصناعة متشتتة جداً : ففي كل مكان مناجم ومشاريع مختلفة تشكل اسواقاً للمواد الغذائية . الرأسماليون العقاريون يضاربون في مصفق لندن ويسهمون في اقراض الدولة وفي عمليات رجال المال . اشقاؤهم الاصغر منهم سناً يصبحون متمولين وتجاراً . لذلك بات البورجوازي في انكلترا ، يمثل الانسانية الاعلى . منذ السنة ١٧٠٩ ، سخر اديسون وستيل في مطبوعتيهما الدوريتين ، « سبكتاتور » و « تاتلر » ، من الالقاب التي يمنحها النسب واخلاق طبقة الاشراف والمبارزة والمقامرة ، ومن فئة المنصرفين الى شؤون الفكر ايضاً ، المنشغلين ابداً بالفنون الجميلة والآداب . النفع الاجتماعي هو الجوهر . يجب الانصراف الى التجارة والفنون الآلية والتوفير . فصديق الجنس البشري ، من ثم ، هو التاجر الذي يشرك كل البلدان في اليسار الشامل .

« أما نحن التجار فأشبه بطبقة من النبلاء تكونت في العالم خلال القرن السالف ... ان التاجر التاجر خير من في البلاد من اشراف » .

التاجر هو « الاديب » (*Gentleman*) . الفقر في نظره دليل العيب . الفقراء كسالى ومتكبرون . فالاحسان ، فردياً كان أو تطبيقاً لقانون الفقراء ، ليس محبة حقيقية . المحبة

الحقيقية هي اصلاح الطبع بغية اغناء الفقير عن تلقي المساعدة . الاسعار المرتفعة بركة من الله لانها ترغم على مضاعفة العمل ؛ أما الاجور المرتفعة فكارثة ، لأنها تشجع على الفجور الاسبوعي (ديفو ، ١٧٠٤) .

لذلك كانت الحياة الفكرية الانكليزية معقولة وعملية ونفعية قبل اي شيء آخر . ولذلك نجح العلم الاختباري والفلسفة الاختبارية . نشر « نيوتون » في السنة ١٦٨٧ « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » . وطبق « وليم بتي » و « غريغوري كنغ » و « دافننت » روح الجهاز الآلي على دراسة المجتمعات واسسوا « الحساب السياسي » . ورسم « لوك » المثل الفلسفي والانساني الاعلى لهذا المجتمع البورجوازي في « محاولات » ثلاث : « الحكومة المدنية » ، « العقل البشري » ، « تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقليين بعضهم الى الدين الطبيعي وانكار الوحي : « جون تولند » (١٦٩٦) و « كولنز » والملحدين . وعرفت الصحافة الدورية نجاحاً كبيراً . ففي عهد اتساع النشاطات القومية هذا ، استلمت انكلترا زمام الحركة الفكرية الاوروبية .

الانكليز فخورون جداً بنظمهم ، وهم يعتبرون انهم مدينون لها بانتصارهم وباثبات تفوقهم على الملكية المطلقة ، وانها المثل الاعلى للحكومة الفضلى . ولكنهم ينسون انهم مدينون بالنصر الى حلف لعبت فيه الملكية النمساوية المطلقة دوراً اولياً . انتصر الانكليز باثارة ملكية مطلقة على ملكية مطلقة ، ولم يأت النصر حاسماً على كل حال .

سبّب التطبع باطباع البورجوازية انهيار الاخلاق الرفيعة ، فبرهنت الطبقات العليا عن تعطش لا يروى للمال وعن اخلاق فاسدة وداعرة ، وتميز الشعب بالفظاظة والاهواء العنيفة . وهوت الامة في مادية فظيعة . فانفجرت في كل مكان ، حوالي السنة ١٧١٥ ، الشكاوى والفتن والثورات ضد سيطرة التجار ورجال المال . فاضطر المجلس التمثيلي الى اعلان الحكم العرفي في بلاد الحرية هذه .

الاقاليم المتحدة

فرضت الحرب دكتاتورية غليوم دورانج . ولكنه توفي عقيماً في السنة ١٧٠٢ ، ولم يكن في سلالة اورانج من هو جدير بخلافته ، فاستغني عن منصب رئاسة السلطة التنفيذية . سار الاورانجيون وراء رئيس السلطة التنفيذية هينسيوس ، خليفة غليوم دورانج ، الذي واصل سياسته بالعناد العبوس نفسه . وبسبب الحرب انضم الحزب الجمهوري والبورجوازي الى شخصه . فاحتفظت الحكومة حتى معاهدة الصلح بقوة كفية . ولكن الغلبة تأمنت بعد ذلك للاوليغارشية البورجوازية .

كانت الحرب ثقيلة الوطأة جداً على الاقاليم المتحدة . بلغ الدين ٢٥٠ مليون فلورين يقابلها دخل سنوي يقدر بـ ١٣ مليوناً . فأدى ابتلاع هذه الاموال والمنافسة الانكليزية التي اقفلت الاسواق التجارية الى انهيار البحرية والتجارة وصيد الاسماك . ولم تتوصل الاقاليم الى حفظ

حد ادنى من التوازن الا بفضل المصرف والقروض من الخارج . فغدت بلد المضاربين وذوي الدخول بعد ان كانت بلد اصحاب المشاريع ومجهزي السفن والتجار والصناعيين . « لم يعرف التاريخ يهوديا أبعد يهودية من بعضهم » (مونتسكيو) . ورافق هذا النوع المتدني من النشاط ، الذي عقب مجهوداً عسكريا تجاوز قوة البلاد المادية والادبية ، انهيار العزائم وزوال القـوة الخلاقة الذي زال معه كل مثل اعلى . وسعى البورجوازيون وراء المتعة . فبنـوا لانفسهم بيوتا وفرت فيها القروش والمديجات ، والطنافس المفرصة بالذهب ، والمداخن المرتفعة ذات الاعمدة المرمرية ، واللوحات الثمينة ، والاواني الذهبية والفضية . وكانت روح التضامن العام سائرة في طريق الانهيار الكامل ، فليس بعد من يهتم للمصلحة العامة . وغدت المحسوبية والرشوة قاعدة تمشي عليها هؤلاء البورجوازيون الذين احتكروا الوظائف العامة . كما غدت هـدايا ملتزمي الدخول العامة للقضاة أمراً مألوفاً . ولن يلبث أحد المؤرخين ان يسخر من البحارة الذين آثروا اثناء حرب الاستقلال ، نسف العدو لسفنهم على اخفاض البيرق استسلاماً . امـا الميل الى الآداب والفنون فقد افسح المجال للميل الى المعارف المفيدة كالقانون والعلوم الاختبارية . وفترت الروح الدينية ، فارتفع عـدد العقليين القائلين بالدين الطبيعي . وتدهور الحس الفني القومي : فشيد فندقا « قيصر غراخت » و « وهيرغراخت » الكبيران على الطراز الذي يحمـل اسم لويس الرابـع عشر ؛ واعاد الرسامون النماذج الايطالية كما لو كانوا مجرد تماثيـل متحركة » . وانحط الشعب بفعل بؤسه المتزايد فغدا متسولا وقحاً . واصيبت الامة بالهزال .

فرنسا دكتاتورية الحكم

تفجرت في فرنسا ازمة حادة بفعل ندرة النقد وانخفاض الاسعار العـام والعواقب الاقتصادية الوخيمة لـ « فناءي » ١٦٩٣ – ١٦٩٤ و ١٧٠٩ – ١٧١٠ ، ولا سيما المجهود الحربي الذي زاد في الطين بلة . الملك يحكم حكمـاً مباشراً مطرداً ، بمعاونة مفوضيه ، فتبرز الصبغة التعسفية والدكتاتورية للملكيـة المطلقة . فهو الملك وحده من يدرس الامور مع احد الوزراء ويتخذ القرارات ويجري الاصلاحات ويفرضها على مجالسه التي تناقصت جلساتها تناقصاً مطرداً والتي لا تستشار الا شكلاً . ويبرز انفراد الملك هذا في الدبلوماسية وتنسيق العمليات العسكرية واحداث الضرائب كالضريبة الشخصية والعشر . ويلعب الدور الاول بين الوزراء مراقب المالية العام ، « بونشارترين » ، « شاميار » ، « ده ماريه » (١٧٠٨ – ١٧١٥) ، الذي يطيب للملك العمل معه بالتفضيل على غيره . يشترك في اعمـال المجلس الاعلى الذي يوجه السياسة العامة ، ولرأيه فيه حول الاساليب والوسائل ، تأثير حاسم .

المكاتب

اضطر امناء سر الدولة الى زيادة عدد كتبتهم بسبب كثرة وأهمية الشؤون المتزايدة والحاجة الى الاسراع في العمل والضرب بقوة . في فرساي ، احتلت المكاتب وحدها بناءين طويلين على جانبي الدار الامامية ، أو دار الوزراء . وكان للوكلاء ، الذين أسند اليهم المزيد من الاعمال ، مكاتبهم ايضاً ، رئيسا كتبة أو ثلاثة ، وعدد من الكتبة ،

تولوا توجيه مراسلات ادارية منتظمة ، لا سيما الى المراقب العام ، وتكونت لديهم محفوظات كبيرة الحجم . ودرج الملك اكثر فأكثر على ابقائهم مدة اطول في مراكز عملهم : « دوغيه دي بالبول » ، ٢٤ سنة في ليل ؛ و « لاموانيون دي بافيل » ، ٣٠ سنة في اللنغدوك . فاصطبغوا بصبغة المدراء الدائمين . اختاروا لهم مندوبين ثانويين بين ضباط محاكم الارياف والمدن ليقيموهم في وجه ضباط المحاكم العليا . وعمت فرنسا شبكة من المفوضين الملكيين يعاونهم وكلاء الشرطة الذين عينوا في السنة ١٦٩٩ في كافة المدن الكبرى والمتوسطة ، بعد نجاح هذه المؤسسة في باريس ، وقد استخدم هؤلاء المفوضون ، لجمع الضرائب وتنفيذ سياسة التموين ، احصاءات اكثر وفرة وافضل اتقاناً : احصاءات السكان ، تسجيل العادات ، الزواجات والوفيات ، جداول الاسعار ، بيانات حركة الاسعار .

النظام الاداري

في هذه المرحلة بالذات ، وبسبب الحاجة الماسة الى جمع الضرائب واستخدامها لمشتريات الجيش ، وبسبب الحاجة الماسة الى العمل في الاقتصاد ، مصدر مطارح الضرائب ، لم تكتف ادارة الوكلاء بمنافسة ادارة الضباط فحسب ، بل حلت محلها احياناً . عمل الوكلاء مع ضباط المالية وراقبوهم في كل ما له صلة بالضرائب القديمة . ووقع عليهم وحدهم تقريباً عبء الضرائب الجديدة و « الشؤون الاستثنائية الطارئة » . وكان لهم ، في الحقل القضائي ، صلاحية اصدار الاحكام في مادتي الامن السياسي والتمرد وكل ما يجر اليه . وقد اعطتهم قرارات عديدة بتجديد مهامهم حق الحكم في كل القضايا التي يبدو من المفيد سحبها من القضاة العاديين . اشرف الوكلاء على « الامن » بمعناه الواسع ، أي على الادارة ، واعتمدوا طريقة العمل المباشر ، واصدروا القرارات والانظمة ، فعالجوا الحاجات العامة بنصوص ترتدي طابع الاكراه . نفذ هؤلاء المفوضون مقاصدهم دون ان يطلبوا اي اذن أو إجازة من القضاة ، الضباط العاديين . ولم يكن باستطاعة القضاة التدخل في اعمالهم أو طلب ملاحقتهم بمادة المسؤولية الشخصية ، خشية من أن تكف يد هؤلاء القضاة لمصلحة مجلس شورى الدولة ، جهاز القضاء الخاص ، الذي يحكم ابداً ، في هذه الحالة ، لمصلحة مفوضي الملك . وهكذا تعاظم النظام الاداري شيئاً فشيئاً ، بسبب الحرب ، على حساب النظام القضائي ، ووفر سلطة كبرى للحكومة المركزية وتأثيرها حتى في اعمال حياة رعاياها اليومية . أما في انكلترا فقد خضع الضباط والمفوضون للقاضي العادي . وحق للسلطة القضائية التدخل في الاعمال الادارية وتلقي الشكاوى المرفوعة على الضباط والمفوضين وتقدير الاخطاء المرتكبة وحتى دستورية القوانين . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الادارة كلها يمارسها أهل اليسار ، كما أن الاعيان وشتى الهيئات المحلية تمارس الادارة بحرية ، على انها تكون مسؤولة عن اعمالها أمام المحاكم . الحرية مؤمنة في الجزيرة ، أقله حرية أهل اليسار . أما في فرنسا ، ذات الحدود البرية الطويلة المهددة بالاخطار ، فكل شيء يخضع لفعالية الدفاع ، والملك ، القائد الحربي ، سيد مع مفوضيه . نظام انكلترا بلوتقراطي ذو نزعات الى الحرية المدنية والدينية . حكومة فرنسا دكتاتورية الطابع تسلطية

النزعة . الحرب ابرزت الخلافات بواسطة عصبها ، المال ، لأن المجلس التمثيلي امسى في النهاية سيد الضريبة في انكلترا ، وهم أهل اليسار أنفسهم من يجبونها ، بينما يقرهـا الملك وحده في فرنسا ويراقب جبايتها بواسطة مفوضيه . ملك انكلترا لا يحصل بنفسه على عصب الحرب ودم الاقتصاد العام ؛ أما ملك فرنسا فعلى نقيض ذلك .

البيروقراطية

الا ان ارتفاع عدد المعاملات غالباً ما حال ، اقله بالنسبة للامور الجارية ، دون تمكن الملك ، وامين سر الدولة ، والوكلاء في الولايات ، من اتخاذ القرارات اللازمة بصددها . فهي المكاتب التي تعد القرارات ، استناداً الى السوابق المماثلة ، وترسل المعاملات جاهزة للتوقيع . وهكذا حدث السلطة الشخصية من ذاتها ، على غير قصد منها ، بالادارة التي انشأتها والتي تسير على غرار جهاز ضخم يعيش حياته الخاصة ويتمتع بقوته الخاصة . فكان هذا مولد البيروقراطية .

الحقوق الاميرية اثناء الحرب

سيطرت الحقوق الاميرية اثناء الحرب على حياة المملكة في هذه المرحلة . اضطر الملك لأن يحذو حذو انكلترا وهولندا والنمسا وبروسيا ، ولأن يطلع بكل جديد مريب . فبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٦٩٨ جبى ضريبة شخصية وبذل جهداً كبيراً لجعلها متناسبة ودخل الاشخاص الفعلي فوق تناسبها ووضعهم القانوني ، ثم جددها ابتداء من السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٥ . واحدث منذ السنة ١٧١٠ ضريبة العشر ، المستوحاة من الرسوم المحدثة في انكلترا وهولندا وفلاندر ، التي فرضت بالتساوي على جميع انواع الدخول . فكان ذلك تقدماً تدريجياً نحو المساواة أمام الضريبة التي تنطوي على مبدأ المساواة في خدمة الدولة والمجتمع . قوبلت هذه الضرائب بمقاومات ضارية . الا ان الضريبة ما لبثت ان تحولت الى ضريبة تقسط اجزاء من المئة تضاف الى الاقتطاع ، أو الى مجرد وسيلة لتسهيل القروض بشكل اشتراك في الضريبة . ووسع الملك الضرائب غير المباشرة ورسوم الجمارك والورق الموسوم ، مستهدفاً من ورائها اسهام ذوي الامتيازات ايضاً في النفقات العامة . ولكن كل ذلك لم يكف لسد الحاجة . فبات لزاماً اللجوء الى دين قومي . ولكن الملك لم يتوفق ، كما حدث في انكلترا ، الى انشاء مصرف دولة . فالصيارفة لم يوافقوا على تأسيسه بسبب نقص النقد ، ولا سيما بسبب اعتقادهم باستحالة قيام مثل هذا الجهاز في ملكية مطلقة : أراد الصيارفة أن يبقوا اسياد استخدام مالهم ؛ كما ان انشاء مصرف الدولة يستلزم استبدال النظم السياسية . لذلك أكره الملك على اللجوء الى حيل باهظة الاكلاف كالتحويلات النقدية واحداث الوظائف وتعيين الدخول وتجربة النقد الورقي (١٧٠١ — ١٧١٢) وابتكار شتى انواع السندات الملكية ، والقروض الالزامية ، دون ان يتوصل في الوقت نفسه الى استهلاكها استهلاكاً منتظماً . فلا عجب من ثم اذا ما بلغ الدين ، في السنة (١٧١٣) ، ٢٣٢٨ مليون ليرة ملكية تورية (نسبةً الى مدينة تور) ، يقابلها ٣٤٤ مليونا في انكلترا . فان فرنسا التي

لم تتجمع فيها رؤوس أموال ضخمة ، قد انهكت تحت وطأة مجهود الحرب .

الاقتصاد اثناء الحرب

اذا افضت اموال مجهود الحرب الى نتيجة مفيدة، هي ايلاف الفرنسيين النقد الورقي ، فأنها قد انضمت الى « الفنائين » لزيادة الازمة الاقتصادية والاجتماعية سوءاً . فالحروب رفعت نسبة نقص النقد الذي شكت منه فرنسا ، وشأنها في ذلك شأن اوروبا ، في اعقاب تدني انتاج المناجم الاميركية ، والذي آل طبعاً الى تخفيض الاسعار تخفيضاً مكدراً . وقد صدّرت فرنسا النقد بانتظام لتأمين حاجات جيوشها في الخارج . ومنذ السنة ١٦٨٦ ، اشهر « ده ماريه » نتيجة هذا الضرر الوخيمة على الاسعار والتجارة والاقتصاد. وغالباً ما أبعد النقد المتبقي عن وظيفته الاقتصادية بنقله الى دور النقد للتحويلات النقدية . واذا ما استثنينا ارتفاع الاسعار في سنوات المحول ، جاز لنا القول ان الاسعار بقيت متدنية والارباح محدودة والانتاج منخفضاً ، لا سيما وان التبدلات الدائمة الطارئة على قيمة النقد تحول دون كل حدس أو تقدير وتخمد نشاط التجار والصناعيين اليدويين والتجار الصناعيين . وجر الركود الاقتصادي الى تعزيز التنظيم المعروف باسم كولبير . ووضعت بالاضافة الى ذلك انظمة لا يحصى لها عد . ولكن الوظائف المحدثة آنذاك عدد وافر من وظائف المفتشين والمراقبين والكيالين والوسطاء والحراس ، الخ .. الذين يتقاضون كلهم رسوماً مختلفة مقابل كل عمل من اعمال وظيفتهم . فارتفعت الاسعار عند الاستهلاك بينما هي تدنت عند الانتاج . ابتاع الصناعي اليدوي بالغلاء نبيذه وخشبه وشمعه ؛ وابتاع الفلاح بالغلاء ، من سوق البلدة ، ادواته أو احذيته ، بينما لم تطرأ اية زيادة على سعر الحنطة . خفت نسبة الاستهلاك ، ثم نسبة الانتاج بدورها ايضاً . وتضررت التجارة والصناعة . زد على ذلك ان مراقبة المحاصيل الزراعية والجهود المبذولة للابقاء على تدني الاسعار قد جرّت الى الاجداب وزادت من سمة تبدلات الاسعار . وقد بين ذلك « ده كازودي هاليه » لمجلس التجارة في السنة ١٧٠١ ، و « بواغلّبير » للمراقب العام « شاميار » في السنة ١٧٠٤ . اذا عين للحنطة سعر منخفض ومنع بيعها خارج نطاق الولاية ، اكتفى فلاح مناطق زراعة القمح بزراعة ما يكفيه لسد حاجته . واذا ما امحل المحصول ، عمت الفاقة والعوز . يضاف الى ذلك ان نظام السنة ١٦٩٩ مثلاً ، رغبة في منع المضاربة ، قد حظر على التجار شراء الحبوب قبل الحصاد . اي ان القانون حظر الصفقات البعيدة الاجل التي تحد من الارتفاعات والانخفاضات . لذلك كان التاجر مضطراً ، بعد الحصاد الماحل، الى الشراء والبيع باسعار مرتفعة جداً؛ أما اذا كان الحصاد وفيراً، فيمكنه الشراء من الفلاح باسعار متدنية جداً. وأدى انهيار الاسعار ، بين السنة ١٧٠٣ والسنة ١٧٠٨ مثلاً، واستحالة البيع الى ضيق ذات يد الملاكين والفلاحين وعجزهم عن دفع الضريبة . لذلك طالب العالمون بأصول الاقتصاد ، من امثال « كازو » و « بواغلبير » ، والوكلاء ، بحرية التجارة وتخفيف الحقوق الاميرية ورفع سعر الحبوب الذي سيتيح للفلاحين والملاكين الشراء ، ومن ثم توفير العمل والازدهار للعمال والتجار . فطلعت بعض الآراء القائلة بالحرية الاقتصادية وباعتبار الزراعة

مصدر الثروة الوحيد (*Physiocratie*) . ولكن الرقابة العامة ما لبثت ان اجابت بواغليير بما معناه : لا بد من مرور سنوات عدة قبل ان تفضي حرية التجارة وحرية الاسعار وتخفيض الضرائب الى انطلاق الزراعة والاثراء العام وزيادة مطارح الضريبة ، بينما نحن بحاجة ملحة الى توفير النظام في المدن بتخفيض اسعار الخبز ، ووسائل الدفاع عن المملكة بجباية الضرائب . فتوجب الاكتفاء باجازات تصدير دوريه .

تفاقم الصراع الطبقي

تفاقم الصراع الطبقي في مجتمع شكا من نقص مواد الاستهلاك فبورجوازية التجار والصيارفة الذين يسهمون في التجارة البحرية والامتيازات الحربية والعمليات المالية الرسمية قد حافظت على مستوى معين من الازدهار والنفوذ. شيد أعضاؤها الفنادق الفخمة وغدوا خير زبن الفنانين واشتروا الاراضي من الارستوقراطية العقارية وجاروها وزاحموها . واكرم الملك نفسه في قصر مارلي مثوى الصيرفي «صموئيل برنار» واستماله للافادة مما له من وجاهة ومكانة وما يتمتع به من ثقة . وأخذ المثل البورجوازي يزاحم في الادب مثل الرجل النزيه ومثل البطل .

أما صغار الاشراف الريفيين فقد عضهم الزمان بنابه ، فتزوجت كريماتهم من الفلاحين . وأوصى بعض كبار النبلاء بأن يتعلم ابناؤهم مهنة لا تليق بمقامهم . ومال الدهر بعدم كذلك على صغار المستثمرين الزراعيين وصغار أرباب المهن والعمال .

لذلك بات حقد شتى درجات الارستوقراطية على البورجوازيين حقداً جافياً وضارياً . ولكن ثورات العمال والفلاحين على البورجوازيين كانت شبه مستمرة أيضاً . وقد استهدفت في أغلب الاحيان الجباة بائعي الوظائف ومندوبي ملتزمي الضريبة . وقد لعبت الشائعات دوراً كبيراً في اندلاع هذه الثورات ، لان الجماهير صدقتها دوماً ترده في غمرة الحقوق الاميرية . ففي آلنسون ثارت نساء الشعب لانهن اقتنعن بان عليهن دفع «ستة فلوس عن كل قميص بيضاء وعشر نحاسات عن ولادة الذكر وخمس نحاسات عن ولادة الانثى» . وقد حدثت في الارياف ظواهر مماثلة لظواهر «الذعر العظيم» .

معارضة السلطة المطلقة والثورة الفكرية

ارتد هذا الاستياء كله على السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩، سار بعض الباريسيين على قصر فرساي نفسه : فاوقفهم الجيش عند جسر «سيفر» . عادت المجالس التمثيلية الى معارضتها، ولكن بخشية وحياء . وحاولت المجالس التمثيلية الاقليمية استثبات البراءات واللجوء الى التحذيرات . وآثر مجلس باريس التمثيلي استمالة الرأي العام بتشيعه للغليكانية. فساند الجنسينيين ضد تدخل البابا في شؤون فرنسا (١٧٠٥ و ١٧١٣) . ومن جهة ثانية اعاد البروتستانتي «انطوان كور» تأسيس كنيسة كلفينية في الخفاء (مجمع الصحراء الاول ، ٢١ آب ١٧١٥) .

لم يعد الملك سيد بلاطه كلياً . فان مشهد الضباط الاشراف الذين يعودون يومياً من الجيش فاقدين ساقا او ذراعاً ، والجداول الطويلة باسماء الاشراف الذين لاقوا حتفهم في المعارك ، وحسرات كبريات السيدات ، امهاتهم ، قد دفعت الى الاستفادة من الحياة بالمزيد من الاستمتاع والتلذذ . فكانت النتيجة ذلة الشباب وانحطاطه .

« يتكلمون عن بقعة يتميز شيوخها بالظرف والتهذيب والادب ؛ أما شبانها فأفظاظ وقساة قلوب ، دونما اخلاق ولا تهذيب ، ينصرفون عن التولع بالنساء في سن الانصراف اليه في البقاع الاخرى ، ويؤثرون عليهن الاطعمة واللحوم والاهواء المضحكة » (لابروبير) .

ظهرت بوادر ثورة فكرية حقيقية على أنظمة الفكر التي بدت مرتبطة بالسلطة المطلقة . الا ان الحكومة المفتقرة الى وسائل عمل دول القرن العشرين ، قد انقذت ظواهر السلطة . يضاف الى ذلك ان بعض كبار الموظفين قد استميلوا : كالمستشار « بونشارترين » الذي رفض الموافقة على التدابير القاسية التي طالب بها « بوسويه » . فبرز مذهب جمع بين الكرتزيانيــة والغسندية والمذهب الذري ، وتحول الى ذهنية عقلية ونفعية ، وشغف بالعلوم ، وكلاسيكية كاذبة في علم سنن الجمال ، ودين طبيعي ، وتهذيب اخلاق . وكان « فونتنليل » و « بيل » من كبار دعاة هذه التعاليم . وانتشرت نظريات « لوك » السياسية والاجتماعيــة في أوساط البورجوازيين ، بينما حدد الاقطاعيون الغاضبون مثلهم السياسي الاعلى كارستوقراطيين معادين للملكية المطلقة في معية دوق بورغونيا . فتكونت من ثم معظم آراء « عصر الانوار » .

نجاحات السلطة المطلقة في اوروبا

في كافة انحاء اوروبا ، باستثناء بولونيا واسوج ، ادت الحروب الى تقــدم السلطة المطلقة وتوحيد ومركزية الدولة التي سارت شوطاً الى الامام في ارغام كافة طبقات المجتمع على خدمتها . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان هجرة البروتستانت الفرنسيين ، ونفوذ بلاط لويس الرابع عشر وفرنسا واقتفاء التقنيات والممارسات المفيدة لزيادة القوة أو للدعاوة ، ادت الى انتشار الآراء نفسها من اقصى اوروبا الى أقصاهــا . ولكن هذه الظواهر اختلفت باختلاف نظام الدول الاقتصادي والاجتماعي ووفاقاً لتحــول الحروب الى انتصار أو هزيمة .

اسبانيا

جدد لويس الرابع عشر اسبانيا . فهو من أسدى النصح والمشورة الى حفيــده وقدم له المديرين المدبرين. تحققت مركزية المملكة ، وألغيت امتيازات كتالونيا وأراغون . واخضعت الحكومة على شاكلة الحكومة الفرنسية : اربعة أمناء سر دولة ، وكيل مالية عام ، مجلس مؤلف من غرف ذات اختصاص ، وكلاء أقاليم ، خزانة مركزية ، ملتزمون عامون ، ولايات تعامل معاملة مالية واحدة. زد على ذلك ان دخول الدولة قد ازدادت بسرعة بفضل النقد الذي ادخلته الجيوش الاجنبية والذي أنعش الاقتصاد الاسباني ، فاستطاع فيليب الخامس ، في السنة ١٧١٤ ، تجهيز ٢١ سفينة وتجنيد ١٣٢ فوجا من المشاة ، و ١٣٠ كوكبة من

الحيالة . وعلى الرغم من محاكم التفتيش واليسوعيين ، انفتحت أسبانيا للتأثيرات الاجنبية : فقد نقلت مسرحية « سنا » لكورناي الى الاسبانية في السنة ١٧١٣ ، و « عظات زمان المجيء » « لبوردالو » في السنة ١٧١٤ . وأسس الملك أكاديمية ، وكان للموسيقى الايطالية حظوة كبرى عند الاسبانيين . فعادت أسبانيا الميتة الى الحياة .

الملكية النمساوية

استغل الامبراطور ، في ممتلكاته « النمساوية » النفوذ الذي اولته اياه انتصاراته الداوية على الاتراك وصراعه ضد لويس الرابع عشر . فقد حاول خلق شعور هبسبورغي مشترك في هذه الملكية المتعددة الدول المتشتتة في انحاء اوروبا ، واصدر في السنة ١٧١٣ ، امراً يعلن الوحدة الممتنعة الانحلال لمختلف بلدان الملكية . ولكن البلدان التي غنمها في السنة ١٧١٣ ، اي لومبارديا والمناطق المنخفضة ، وهي اغناها وانشطها اطلاقاً ، قد عاشت في الواقع حياة انفراد . واضطرت هنغاريا المحتلة ، تحت الضغط ، لان تقترع في السنة ١٦٨٧ لحق الذكور من انسال سلالة هبسبورغ في وراثة التاج ،وقضي على ثورة « راكوكزي » . الا ان جوزف الاول اضطر في السنة ١٧١١ الى التعهد باحترام الكلفينية وضمان امتيازات « الدول » الهنغارية حيث يسيطر كبار الملاكين المقاريين . أما في النمسا وبوهيميا وفي « الدول الوراثية » القديمة ، وهي بلدان زراعية بحتة مدنها كثيرة وبورجوازيتها فقيرة ، فقد عزز الامير سلطته ولكن بواسطة تقاسم الارباح مع كبار الارستوقراطيين المقاريين . وقد خدم هؤلاء الامير ، وغدوا ، من أوجه كثيرة ، طبقة اشراف خدمة . وفي الجمعيات فرضوا الارادة الملكية على طبقة الاشراف الوسطى وعلى البورجوازية . ولكن الامير احتفظ لهم بالوظائف الهامة في الجيش والادارة وأمّن لهم كل سلطة على الفلاحين المزارعين المرهقين باعمال التسخير والاتاوات . ولما كانت الدولة تسلسلية السلطات وكل طبقة مسجونة داخل امتيازاتها ، باتت الحياة الفكرية والاخلاقية والدينية مقتصرة على أبسط مظاهرها . فتلقت النمسا سلبيا التأثيرات الخارجية : كاثوليكية المجمع التريدنتيني ، اليسوعيين ، الاستهجان الايطالي ، والتأثيرات الفرنسية اخيراً . ولكن الغلبة ما زالت للتأثيرات الايطالية . ففي الحضارة كما في السياسة ، ولت النمسا الجرمانية وجهها تولية مطردة شطر ايطاليا والشرق .

ايطاليا

ما زالت ايطاليا مقسمة وخاضعة للسيطرة الاجنبية : فقد حلت النمسا فيها محل أسبانيا في السنة ١٧١٣ . ولكن الكلاسيكية الفرنسية والعلم والفلسفة الفرنسيين ، قد تركت أثراً عميقاً فيها. فقد درست تعاليم غسّندي في بيزا وبادوا ونابولي وروما. وكان لديكارت حظوة في نابولي ، وتهافت الناس اكثر فأكثر على قراءة مؤلفاته في كافة أنحاء ايطاليا .ومثلت مسرحيات كورناي وراسين. وكانت مؤلفات«مابيون» و «مونفوكون»الواسعي الاطلاع موضوع اعجاب عام . فاستعادت نخبة ايطالية قوتها الخلاقة ، لا سيا منذ السنة ١٦٩٠ . ونهضت العلوم الاختبارية من سباتها بفضل « ريدي » و « فاليسنييري » . وطمح « ماقيي » الى

مجاراة الفرنسيين في حقل المآسي . واسس « موراتوري » وذوو العلم الواسع من الايطاليين مدرسة كبرى للنقد والتاريخ . وفرضت الموسيقى الايطالية نفسها في النمسا وألمانيا بفضل « كورلي » و « فيفالدي » . وامتزج القالب الايطالي بالقالب الفرنسي في المؤلفات الالمانية .

دول آل هوهنزلرن

تألفت دول سلالة براندبورغ ، في أواسط القرن ، من ست مجموعات من الاقاليم منتشرة بين نهر « نيمن » ونهر « الموز » : دوقية بروسيا ، بومرانيا الشرقية ، براندبورغ ، امارة هالبرستات ، امارة « مندن » ، كونتية « رافنسبورغ » كونتية « مارك » ، دوقية « كليف » . فالدولة اذن مجموعة دول والامير مجموعة امراء يتمتعون بسلطات مختلفة تقيدها ابداً جمعيات محلية هي المجالس الاقليمية . وليس من رابطة سوى شخص الامير ومجلسه السري. الامير يعيش من دخول املاك لم يحسن استثمارها واحتكارات ورسوم جمركية ، على غرار السيد في القرون الوسطى . لا يحصل بسهولة ، اثناء الحرب ، على مساهمات الدول التي تعتبر ان الحرب لا تعنيها اذا توالت فصولها في دولة اخرى من الملكية . وليس لديه ، في أيام السلم ، سوى بضعة الوف من الجنود الموزعين هنا وهنالك .

استفاد المنتخب « فردريك – غليوم » (١٦٤٠ – ١٦٨٠) ، المنتخب الاكبر ، من اشتراكه في الحروب الاوروبية الكبرى كي يحقق انتقال امارة القرون الوسطى الى الدولة العصرية . فحد من صلاحيات الجمعيات المحلية التي عارضت الضرائب الضرورية للحرب وغدا سيد الضريبة وتوصل في السنة ١٦٨٦ ، بعد صراع طويل ، الى وضع الخزانات الاقليمية ، التي ادارها حتى ذاك التاريخ ممثلو المجالس الاقليمية ، تحت سلطة موظفيه المباشرة . واحدث ضرائب غير مباشرة ، كالضريبة على مواد الاستهلاك ، التي كانت ضريبة دائمة وتناولت النبلاء انفسهم . واذا ما احتفظت بعض الدول بحق الموافقة على الضريبة ، فان موافقتها لم تكن سوى اجراء شكلي .

مكن المنتخب نظم الحكومة المركزية اي المجلس السري ، وديوان المستشار للشؤون الخارجية ومجلس الدعاوى للقضاء ، وغرفة المال ، ومفوضية الحرب العامة ، فجاءت آلة كبرى تسير كل شيء . وفي الولايات عزز صلاحية الحكام ، ومجلس الوصاية الذي عاون كلا منهم ، وموظفي الدائرة الخاضعين لهم ، وأكثر في كل مكان من المفوضين والمستشارين الاقليميين ومفوضي الرسوم . أما الضباط ، قضاة كانوا أم رتباء عسكريين ، الذين كانوا مرتبطين بالمجالس الاقليمية ومتميزين بروحهم النفعية ، فقد قلمت اظافرهم . وهكذا اوجد المنتخب طبقة من الموظفين البورجواريين ، الملزمين بتحمل اعباء الخدمة العامة الثقيلة مقابل اجر هزيل ، والمقسورين على حياة وضيعة ومتقشفة ، والمتحلين بالتهذيب والوقار ، والمستمدين عزة مفيدة من شعورهم بدورهم الاجتماعي . وقد امن تنفيذ الاوامر جيش دائم من المرتزقة يبلغ عددهم ٣٠٠٠٠ رجل ويخضعون لنظام صارم .

وفي سبيل تأمين الاموال اللازمة للنفقات ، انصرف المنتخب الى تحقيق مجموعة رعاياه وزيادة عددهم بانتهاج سياسة تجارية صارمة. فأمر باصلاح الاراضي وجعل من براندبورغ ملجأ لكل من هاجروا بلادهم بسبب الاضطهاد الديني ، وقدم لهم الاراضي ومواد البناء ، واعفاهم مؤقتاً من الضرائب . وانمى التجارة والصناعة باعتماد انظمة كولبيرية صارمة . فارتفع عدد السكان الى مليون ونصف المليون تقريباً . وأحرز تصدير الاخشاب والجلود والآدمة والحبوب تقدماً سريعـاً .

وقد أكمل عمله خليفته فردريك (١٦٨٨ – ١٧١٣) . استفاد من الخدمات التي أداها للامبراطور خلال الحرب ليحصل منه على اجازة بحمل لقب ملك بروسيا . توّج في ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ . فبات سيداً ، وسما بنفوذه فوق نفوذ كافة الامراء الالمان وعزز سلطته فتعززت قوة دوله ووحدتها . وكان يعد نفسه بمقام الامبراطور . فنشطت مقاومة سلالة براندبورغ لسلالة النمسا ، وتكهن بعضهم بان الملك الجديد لن يلبث ان يقف في وجه النمسا لانه هرطوقي وملك أرض انتزعها الفرسان التوتونيون من السلافيين ، أي ملك ولاية ألمانية تنبسط عند الحدود ، فيحق له من ثم ان يجعل من نفسه ممثل الجرمانية ضد النمسا الكاثوليكية التي ترتبط بالبابا وتميل عن المانيا نحو البلدان الدانوبية والبلقانية .

روسيا

روسيا وأوروبا

بعد الحرب الاهلية في « عهد الاضطرابات » واستتباب الامن والنظام في عهد القياصرة ، ميشال فيدوروفتش (١٦١٣ – ١٦٤٥) « وألكسي ميخالوفتش » (١٦٤٥ – ١٦٧٦) و « فيدور ألكسفتش » (١٦٧٦ – ١٦٨٢) ، اضطرت الحكومة ، بسبب حروبها الدائمة ضد اسوج وبولونيا والاتراك ، الى اقتباس التقنية العسكرية عن الغرب . فدخلت كتائب من الانكليز والالمان في خدمة القياصرة وتولى بعض الضباط الاجانب تدريب الجيوش الروسيـة . واحدثت الحقوق الاميرية خلال الحرب تطوراً نحو السلطة المطلقة والمركزية . واحظى القياصرة طبقة نبلاء خدمة على حساب الطبقات الاخرى . وقصد البلاط والعاصمة بعض التجار الاجانب . فانفتحت البلاد لبعض التأثيرات الاجنبية ، التأثير الالماني في ايام ميشال وألكسي ، والتأثير البولوني في ايام « فيدور » الذي كان اول من تلقى تربية اوروبية . وتسربت اليها بعض الكتب اللاتينية والبولونية . وقد تابع السير في هذه الطريق بطرس الاكبر الذي جلس على عرش القياصرة منذ السنة ١٦٨٢ حتى السنة ١٧٢٥ . امسى سيد روسيا الاوحد في السنة ١٦٨٩ بفضل الضباط الاجانب ، السكتلنديين منهم والسويسريين والالمان ، وحنكته رحلته الى الغرب (١٦٩٧ – ١٦٩٨) ، فكان مديناً لحرب خلافة عرش اسبانيا ، بعد انتزاعه آزوف من الاتراك ، بالاشتراك في السياسة الاوروبية الكبرى . فأرغم دول جنوبي البلطيك الداخلة في صراع ضد اسوج ، التي بسطت سيطرتها على شاطئي هذا البحر ، على قبول التحالف مع روسيا . ووقع كل من « اوغست دي ساكس » ، ملك بولونيا ، وملك الدانمرك ، معاهدة مع بطرس (١٦٩٩) ، ثم تحالفت الدانمرك

مع براندبورغ (١٧٠٠) . فلس الهانوفريون والهولنديون والامبراطـور ان توازن القوى في البلطيك لن يلبث ان يختـل وان هنالك خطراً كبيراً من ان تبسط روسيا سيادتها على البلطيك والمضائق الدانمركية اذا قدر لاسوج ان تمنى بالهزيمة . ولكنهم كانوا منهمكين بمحاربة حليف اسوج ، لويس الرابع عشر . وبينما كان ملك اسوج ، شارل الثاني ، سائراً قدمـاً في الاستيلاء على بولونيا ، كان بطرس منصرفاً الى احتلال سواحل خليج فنلندا وبلاد ليفونيـا وتأسيس « مدينة القديس بطرس » (سان - بطرسبورغ) (١٧٠٣) . وبعد ان محق القيصر جيوش شارل الثاني عشر في بولتافا (١٧٠٩) ، استولى على « ريغا » وفتح استونيـا وزوج ابنة شقيقه من دوق « كورلند » واستولى على بومرانيا (١٧١٢) وفنلندا الجنوبيـة وجزر « آلند » (١٧١٤) ، بينما انتزع الحلفاء ما تبقى من فتوحات « غوستاف ادولف » . فانهارت السيادة الاسوجية على البلطيك وتوجب النظر في خلافة اسوج .

اصلاحات بطرس الاكـبر الاول

خلال هذه الحروب ، ولأجل هذه الحروب ، طبع بطرس روسيا بالطابع الاوروبي . وقد تم ذلك باصلاحات كثيرة غير مدروسة اجريت بحسب الظروف او الدوافع الظرفية . فبعد عودته من اوروبا اصـدر الاوامر بسبد اللحى وتقضيب الاكمية والاكمام وفرض اللباس الهنغاري او الالماني (١٧٠٠) واصلح الرزنامة واوجب احصاء السنين لا ابتداء من خلق العالم بل ابتداء من اصلاح الرزنامة . واصبح الجيش جيشاً دائماً بقيادة ضباط من فرقتي الحرس اللتين غدتا مدرسة للاشراف وخلقتا طبقة عسكرية . وبسبب تعدد الغزوات وتكرر غيابه ، حذا القيصر حـذو اسوج وانشأ تدريجياً ، منذ السنة ١٧٠٧ ، مجلس الشيوخ المؤلف من بعض اختصاصي بطانته الذين يحلون محله في الادارة ويوجهون الاوامر الى الحكام . واحدثت شيئاً فشيئاً ثماني حكومات يرئسهـا قائد منتدب يتمتع بكافة الصلاحيات العسكرية والمالية والقضائية . وقسمت الحكومة ولايات والولايات اقضية والاقضية مديريات . وتولى ادارة الولاية مفوض اقليمي يعينـه القيصر . وهكذا كان مجلس الشيوخ والحاكم ومفوضو الولايات كلهم مفوضي القيصر يتمتعون بصلاحيات القيصر نفسها . اختيروا من طبقة الاشراف اما مفوضو الاقضية فقد انتخبهم الاشراف المحليون وكانت مهمتهم الاولى جباية الضرائب . واما في المديريات ، فقد انتخب الفلاحون مجلس قضاء اضطلع في الوقت نفسه بجباية الضرائب . وحق للمدن ان تحدد الضرائب وتسند توزيعهـا وجبايتها الى هيئات منتخبة . فكـان مفهوم الادارة في جوهره افراداً او هيئات تنتخبها فئات السكان المختلفة المتجمعة طوائف وتراقبها شبكة محكمة الحلقات من مفوضي القيصر . ولكن مجلس الشيوخ تكشف عن عدم الوفاء بالحاجة . فقد تبين ان هنالك حلقة مفقودة بينه وبين الحكومات . وظن بطرس بأنه اهتدى اليها في نظام الهيئات الاسوجي (القضاء، الشؤون الخارجية ، امارة البحر ، الحربية ، المالية ، التجارة) ، وبدأ منذ السنة ١٧١٢ بانشاء هيئـة التجارة .

لجأ بطرس، في كافة الوظائف العامة وقيادة الجيش، الى الاشراف الملتزمين بخدمة الدولة. وبالمقابلة لم يعد القيصر ليتدخل بينهم وبين الفلاحين. وبعد ان فشل في تعليمهم مهنتهم بممارستهم لها، اوجب بطرس على الاشراف الاختلاف الى المدارس المهنية، مدرسة العلوم الرياضية (١٧٠٥)، الاكاديمية البحرية، مدرسة المهندسين، مدرسة المدفعية (١٧١٢).

ولكن كل ذلك ما زال في طور البداية. اما الحقوق الأميرية فليست سوى فيض من الحيل المرتجلة، كما ان السياسة الاقتصادية ما زالت مرتكزة الى نظريات وتعاليم غير واضحة. ولن يستطيع القيصر الشروع في وضع تنظيم جديد شامل منسّق الا ابتداء من السنة ١٧١٥.

تسببت هذه الاصلاحات في ازمة داخلية خطيرة. ولعلها ايقظت الفتنة اكثر من الخسارة الرهيبة في الارواح ومن ثقل الضرائب، لأنها شكلت قطيعة مع نهج حياة وحضارة. فالقديسون يلتحون وليس من سابدي اللحى سوى الهلكى. ودخان التبغ دنس لان الانجيل قال ان ما يخرج من الفم يدنس الانسان. افليس هذا القيصر العاري الذقن، الذي يدخن ويمتطي البحر ويسترق السنوات من الله، هو نفسه المسيح الدجال يا ترى؟

هزائم السلطة الاسوجية المطلقة وانهيارها

استفاد ملوك اسوج من حروبهم الظافرة لتجديد ممتلكات كبار الاشراف، واقصائهم عن الحكومة والادارة، واقامة نظام مطلق مركزي وبيروقراطي أتاح حسن ادارته لهذه البلاد الصغيرة الانطلاقة الاقتصادية ولعب دور هام في السياسة الاوروبية. اسوج بلاد غنية انتجت الحبوب في سكانيا وقامت فيها صناعات تعدينية متقدمة بفضل مناجمها الحديدية والنحاسية واحراجها الكثيفة، ومارست تجارة بحرية ناشطة على هذا البلطيك الذي هو «بحيرة أسوجية». فنمت بورجوازيتها وشاع الميل الى فنون الغرب وعلومه الاختبارية في هذه الطبقة الصاعدة وفي الارستوقراطية.

الا ان هزائم شارل الثاني عشر افقدت السلطة المطلقة حظوتها. فقد خسرت اسوج الاقاليم الغنية التي أمنت لها، الى جانب الموارد الكبرى، السيطرة التجارية في البلطيك. وشكت البلاد من التجنيد العسكري المتكرر، والضرائب، وتوقف التجارة، والسلطة الملكية. وما عادت الوصاية لتتمكن من اسماع كلمتها اثناء غياب شارل الثاني عشر. وتصرف قادة الولايات وحكامها وكأنهم مستقلون عن السلطة المركزية. واستعدت الارستوقراطية لمعارضة السلطة الملكية المطلقة والقيام بثورتها بعد وفاة شارل الثاني عشر (١٧١٨).

يتضح من ثم، خلال حروب أواخر القرن الكبرى، ان كافة الدول الاوروبية كانت سائرة في طريق تبدل الانظمة، وتطور توازن الطبقات، وازمة الحس والفكر. وسلسهم هذه الظواهر، في اهم الدول الغربية، انكلترا، والاقاليم المتحدة، وفرنسا، وفي ايطاليا والمانيا الغربية الى حد ما، في انقلاب العلوم والفلسفة والدين وعلم سنن الجمال والمفاهيم السياسية والاجتماعية وفي بث بعض الآراء الجديدة في انحاء اوروبا الاخرى.

٣ - ازمة الفكر والحس

العلم الكرتزياني والنيوتوني

ان العلم العصري ، والحروب ، و « الفناء » ، والازمــة الاقتصادية ، واستبداد لويس الرابع عشر الشامل ، والتهديد الدائم الذي ناء به على اوروبا ، قد أسهمت كلها في معارضة المذاهب التي بدت وكأنهـــا ادوية ناجعة للازمة ، مركزية الله الصوفية ، الكلاسيكية ، الكرتزيانية ، السلطة المطلقـــة ، الروح التجارية على الطريقة الكولبيرية ، فبرزت الازمة مرة اخرى . ويرجع ان كفة الازمــة كانت صائرة الى الرجحان حتى بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لان المذاهب قد حملت في ذاتها بذور تناقض او اتجاهات جديدة . ولكن الظروف ساعدت مساعدة كبرى على طلوع أو تجدد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ، مادي وادبي معا . ومال عدد متعاظم من الناس الى البحث عن اللذة والرفاهية . ورجحت كفة فقدان التوازن والوحدة . فكانت الاولوية للعقل والمنطق في الظاهر . أما في الواقع، فان معظم الناس قد استخلصوا النتائج منطقياً من مقدمات يفرضها الحس . وفي معظم الحالات تحول هذا الحس الى البحث عن حياة ارضية فضلى ؛ فسادت الذهنية النفعية .

جمهورية الآداب

تؤلف اوروبا جمهورية كبرى من العقول المثقفة . أما مركز الحياة الفكرية الذي قام في ايطاليا خلال القرن السادس عشر وفي فرنسا خـــلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن السابع عشر ، فما زال ينتقل باتجاه الشمال . فهم الانكليز من يلعبون الآن اكبر دور خلاق بفضل انطلاقتهم الاقتصادية والسياسية العارمة وذهنيتهم البورجوازية المسيطرة . فان « مبادىء » « نيوتون » تعود الى السنة ١٦٨٧ و « مجـــادلات » « لوك » الى السنة ١٦٩٠ . منذ السنة ١٧٠٢ ، كانت الآداب الانكليزية في رائعـــة نهضتها ، وفي السنة ١٧١٢ تفوق الانتاج الانكليزي على الانتاج الفرنسي كمية ونوعاً . وكانت السنة ١٧١٣ ، وهي سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجائبية بلغ فيها « بركـــلي » و « بوب » و « سويفت » و « اربوثنوت » و « اديسون » و « ستيل » ذروة عبقريتهم .

حافظت فرنسا على مركز عظيم جداً بفضل اللغة التي ابتدعها كلاسيكيوها والتي طابقت حاجات اوروبا . حلت اللغة الفرنسية محـــل اللغة اللاتينية . « الناس كلهم يرغبون في تكلم الفرنسية ؛ وهم يرون في ذلك دليلا على التربية الجيدة . . . هنالك مدينة توجد فيها اثنتا عشرة مدرسة فرنسية مقابل مدرسة لاتينية واحدة ؛ مؤلفات الاقدمين تترجم في كل مكان ، وقد اخـــذ العلماء يخشون من ان تقصي اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (« اخبار جمهوريـــة الآداب » ، ١٦٨٤) . وقد لعب دور الوسيط الاكبر البرتستانت الفرنسيون المهاجرون الى « ملاجئهم » المختلفة في انكلترا و « براندبورغ - بروسيا » و « هس - كاسل » وسويسرا ونروج واسوج

والدانمرك والمستعمرات الانكليزية، بوسطن ونيويورك، وحتى في موسكو. وكان اهمها اطلاقا ملجأ هولندا .

منذ ذاك الحين ، تلاقى في الاقاليم المتحدة، مفترق الامم ، رجال آتون من كافة البلدان . فقد قصدها الانكليز والسكتلنديون والدانمركيون والاسوجيون والبولونيون والهنغاريون والالمان لتلقي الدروس في ليدن وغرونتنغ واوترخت . وتعاظم بمجيء البروتستانت الفرنسيين دور هولندا الدولي الكبير . وأسس البروتستانت الفرنسيون صحفاً اوروبية كبرى : « اخبار جمهورية الآداب » لبيير بيل ، (اذار ١٦٨٣) و « المكتبة الشاملة والتاريخية » لجان لو كلير (كانون الثاني ١٦٨٦) ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » لِـ « باسناج دي بوفال» (ايلول ١٦٨٧) . فأثروا في الانكليز اللاجئين الذين كانوا يعدون الثورة الانكليزية . وكان « جان لو كلير » وباسناج و « دي بوسك » وجوريو عوناً للوك على انضاج الآراء الدينية والسياسية التي بررت الثورة والتي كان لها تأثيرها الشامل فيما بعد . وبعد الثورة قام اللاجئون البروتستانت الى انكلترا، « ابيل رويه » و «ده ميزو» و « كوست » بترجمة المؤلفات الانكليزية وادخلوا عليها ما افتقرت اليه من وضوح وتلاحم واحتشام ورصانة فاستطاعت بحلتها الجديدة ان تنتشر في كافة انحاء اوروبا . وان بيير كوست الذي اصبح عضواً في جمعية لندن الملكية وناشر مؤلفات « لابروبير » و « لافونتين » و « مونتاني » في انكلترا ، قد ترجم « المحاولة الفلسفية » للوك (١٧٠٠) و « محاولة في علم البصريات» لنيوتون (١٧٠٤) و«محاولة في السخرية » لشافتسبري. وهكذا فقد تبودلت الآراء وامتزجت وتلقحت بفضل الجمهورية البروتستانتية الفرنسية الكبرى .

انتشار الكرتزيانية

انتشرت الكرتزيانية في كل مكان . في السنة ١٦٥٧ ، درّس مذهب ديكارت علانية في جامعات هولندا . بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ ، نشر « كليرسليه » ، المحامي في مجلس باريس التمثيلي ، ثلاثة مجلدات من آثار ديكارت اللاتينية غير المنشورة ، مع ترجمتها الفرنسية ، ولا سيماً من الرسائل التي هي اسهل منالاً من الابحاث العقائدية . استطاعت الكرتزيانية من ثم تثبيت أقدامها في كافة البلدان وكافة الاوساط الراقية . في فرنسا ، رحّب بها كبار النبلاء ، وكبار البورجوازيين في المحاكم العليا والمهن الحرة ، والجمعيات الدينية الكبرى . تألفت اكاديميات كرتزيانية حقيقية ، والقيت اسبوعياً محاضرات علمية كرتزيانية في قصر الدوق « دي لوين » ، ودارة الامير « دي كونديه » ، ومنزل مقدم العرائض « هابير دي مونمور » ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، وفي اجمل قصور باريس . فدان بالمذهب الكرتزياني المركيزة « دي سابليه » ومدام « دي سيفينيه » وابنتها مدام « دي غرينيان » ومدام « دي لا فاييت » و « لاروشفوكو » و « آرنو» . ودرّست الكرتزيانية عند رهبان القديس فيليبس النيري ، والبندكتيين، والاوغسطينيين. ويعود الفضل لاحد الفرنسيسكان في انتقال الكرتزيانية الى انكلترا ودخولها دخول الفاتحين الى جامعتي كمبردج واوكسفورد .

وانتشرت الكرتزيانية في جنيف واستولت على عقول كثيرة في ايطاليا والمانيا . وقد بلغ المذهب ذروته بكتاب « احاديث حول تعدد العوالم » لفونتنيل (١٦٨٦) .

الكنيسة ضد الكرتزيانية

على الرغم من كل ذلك ، لم تتوقف مقاومة الكنيسة لديكارت . كان مقصده انقاذ الدين ، ولكن تعليمه ما لبث ان اصبح خطراً عليه . رد المادة الى الاتساع ، ولكن ما هي الطريقة ، والحالة هذه ، لفهم استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ؟ كيف يمكن لجسد المسيح ، الذي هو جزء من الاتساع ، ان يكون في خبز الذبيحة ، بينما لا يزال الخبز ، الذي هو جزء من الاتساع ايضاً ، يحتل مكاناً معيناً ؟ ان ما كان حوشياً في مذهب الماهيات الواقعي ، قد بات مستغلقاً كلياً ، لا بل مستحيلاً، في مذهب الاتساع الكرتزياني . كان اله ديكارت مهندساً عبوساً ، وميكانيكياً فظاً ، لا يستشف فيه الاله الحي الذي عبده اسحق وابراهيم ويعقوب . ولم يكن في مذهب ديكارت مكان لشخص المسيح. وكان من شأن ديكارت ان يوصل الى الدين الطبيعي الذي قد لا يكون اقل مناقضة للمسيحية من الالحاد ، والذي ربما ادرك فيه « الفيلسوف المقدم » شيخوخته مجروراً بمنطق تعليمه ، كذلك الشريف الريفي ، الذي جرفه مذهبه في الرشد والادراك ، وربما غدا ديموقراطياً .

لذلك وقفت الكنيسة موقفاً صريحاً مناهضاً للكرتزيانية . في فرنسا طالبت السوربون ، في السنة ١٦٧١، بتدريس ارسطو دون غيره ، فكان من الملك ، المقيد بقسم التتويج ، ان منع تدريس مذهب ديكارت (١٦٧١ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٨) . فخضع رهبان القديس فيلبس النيري وبندكتيو « سان – مور » وكهنة « سانت جنفييف » القانونيون . وفي السنة ١٦٨٠، منعت محاضرات « ريجيس » الكرتزيانية . وفي السنتين ١٦٩١ و ١٧٠٤، ألزم الملك اساتذة الفلسفة في كليات جامعة باريس بالتعهد خطياً بان لا يدرسوا المبادىء الكرتزيانية . وادرجت مؤلفات الاب « مالبرانش » في فهرست الكتب المحرمة (١٧٠٩) . ولكن الملك لم يتخذ اي اجراء ضد المدنيين الكرتزيانيين ، لا بل اقدم المستشار ، في السنة ١٦٩٢ ، على تأنيب مؤلف «مركور الظريف » لانه نشر « شيئاً ما » تعرض فيه لسمعة ديكارت.

تشويهات الكرتزيانية

ولكن الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جهة ثانية ، مذهب المعلم الصحيح الذي كان ارفع واعز من ان يستطيع الكثيرون ان يدركوه ويحبوه في مجموعه. ان ما احرز النجاح كان كرتزيانية مشوّهة تلطفها التسندية والمذهب الذري . يتضح ذلك في « الاسس الطبيعية » لـ « ريجيوس » (١٦٤٦) و « التمييز بين الجسد والروح » لـ « كوردموا» الذي عين قارئاً لولي العهد بوساطة بوسويه ، و « بحث في الطبيعيات » الشهير لـ « روهو » (١٦٧١) الذين اعيد نشره تكراراً ، « والجملة الفلسفية » لريجيس (١٦٩٠) . فان هؤلاء الفلاسفة ، الذين تعودوا التفسيرات الآلية ، ولم يروا بعد ضرورة لاثبات قيمة العلوم الطبيعية الرياضية ، وكانوا اقل تحمساً للحقيقة من ديكارت ، وحملتهم فطنتهم ، من

جهة ثانية ، على عرض آرائهم مجزأة وكأنها نظريات او ترجيحات ، قد فصلوا العلم عن علم المعقولات ونادوا باستقلالها الواحد عن الآخر ولم يعودوا يبحثون عن استخلاص كل شيء من مبدأ واحد ، بل يقدمون مجموع تفسيرات آلية لظواهر منفردة . وتملقوا بالاختبارات تدفعهم اليها رسائل ديكارت التي يتجلى هذا العقائدي فيها مختبرا دان له الكل بالكثير خلال القرن السابع عشر . وفي نظرهم ان مطابقة الاختبار للنظرية تعطي احتمالا عقليا يكتفون به . وهم يبدون عاجزين عن التفريق بين الفكر والصورة ، بين الفكر والحس . سبق لديكارت ان لفت الانتباه الى اننا قد نكوّن فكرة واضحة وجلية عن شكل له الف ضلع يستحيل علينا تصوره. أما في رأي ريجيوس وريجيس ، « فالفكرة » لا تمثل لنا هذا الشكل تمثيلا اوضح من شكل آخر يختلف عنه بعدد اضلاعه . فلا عجب من ثم اذا ما انزلقوا نحو مذهب الحاسّيين : كل افكارنا تأتينا من الاختبار والحواس . اما الافكار الازلية ، كفكرة الله ، فنتكون بالتجريد والافتراضات الاختيارية . والنفس لا تعمل الا بفعل ارتباطها بالجسد ، ثم تفنى بعد الموت . وانزلقوا نحو المذهب الذري ايضاً لأن جزئيات المواد ، كما يقول « كوردموا » تصير حتماً الى الانسحاق لولا وجود الذرات . ونظرت « صحيفة العلماء » الى الكرتزياني ريجيس ، الذي لم يعرف لا نيوتون ولا لوك ، نظرتها الى احد الفسنديين .

تقدم العلوم ضد الكرتزيانية

يضاف الى ذلك اخيراً ان اكتشافات علماء الطبيعة قد خطّأت الآليـون وانتقـد ديكـارت ديكارت في العديد من النقاط ايضاً . يرد ذلك الى ان ديكارت يبدي بعض اللامبلاة حيال الوقائع . انه يستخلص ، وفي رأيه ان الاختبار هو موافقة بين آن من اوان الاستخلاص وبين التحقق من ظاهرة ما . فسّر بعض الوقائع المعروفة تفسيراً آلياً دون ان يستثبتها دائماً . انتقد التفسيرات السابقة ولكنه نادراً ما انتقد الوقائع . يسلّم بأن الصاعقة تتحول حجراً ، وبأن النيازك والمذنبات ليست سوى مجرد ابخرة ملتهبة . يشاطر ارسطو رأيه في ان القلب مركز حرارة قوية يضعها الله فيه . هذه الحرارة تغلي الدم الذي تتخثر ابخرته في الرئة . الغليان يسبب حركات القلب . ويدافع ديكـارت عن الدورة الدموية، ويشهر « هارفي » بايراد اسمه في « الخطبة » ، ولكنه لا يسلّم بتفسيرة لحركات القلب. اما هارفي فيبين ان حركات القلب دقات مفاجئة وحركات سريعة لا قدرة للغليان على احداثها. ديكارت يتمسك بنظريته لانها تبرر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة .ويتمسك بها كذلك لانها تتيح له الحفاظ على تسلسل استخلاصاته ، وينبذ الملاحظة الثانية التي لا تندمج فيهـا . ويكتب لـ « مرسين » : اذا كان تفسيري خاطئاً ، فكل فلسفتي خاطئة ايضـاً » . ولكن الملاحظين اضطروا لان يقولوا قول هارفي : القلب عضل ينقبض .

رومر وسرعة النور

وانجر ديكارت كذلك ، بفعل مفهومه للاتساع ، الى اعتبار انتشار النور انتشاراً فوانياً . الاتساع هو جوهر المادة ، فالجرم من ثم جزء محدود من الاتساع ، وهو بالتالي مغلق وعادم الحركة . وليس لحركته او لتوقفه سوى سبب واحد هو الصدمة . عمل الصدمة فواني ، لذلك فان عمل النور ينتقل من الاجرام

المنيرة الى العين على طريقة انتقال حركة الدفع من طرف عصا صلبة الى طرفها الآخر . ويعلن ديكارت ان فلسفته ستنهار كلياً اذا اثبت الاختبار الحسي وجود تأخر ما ، لان مذهبه متماسك الحلقات . ولكن الدانمركي « رومر » لاحظ في السنة ١٦٧٦ ظهور القمر التابع الاول حين خروجه من ظل جوبتير ، بالنسبة لاوضاع الارض المختلفة على مدارها ، فتحقق له ان النور يتأخر ستة عشر دقيقة عن بلوغ الارض حين يتوجب على القمر اجتياز مدار الارض . وكانت نتيجة العملية الحسابية التي اجراها ان سرعة النور تبلغ ٣٠٨٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وتقدر هذه السرعة اليوم في الثانية بحوالي ٢٩٩٧٧٨ كم في الهواء وبـ ٢٩٩٧٩٦ كم. في الفضاء .

لبينيز والحركة

وانتهى ديكارت اخيراً الى الكف عن البحث عن الصيغة الرياضية لسنن الطبيعة .ولا غرو فآليته آلية الصدمة . ولما كان سبب كل حركة حركة ، لا يمكن ان يجري التبادل الا بالصدمة التي تفسر الصدم والضغط والثقل . العلة الاولى للصدمة هي ذاك الثبات الالهي الذي يستلزمه عقلياً دوام الحركة . من هذه العلة الاولى نستخلص عللاً ثانوية ، مبدأ ثبوت الجماد ، المبدأ العام لتصادم الاجرام الذي تؤلف ملاحقه السنن السبع لتصادم الاجرام ، واخيراً مبدأ الجماد . وقد اعطى ديكارت مبدأ تصادم الاجرام العام الصيغة التالية : « اذا كان الجرم المتحرك الذي يصطدم بجرم آخر اقل قوة لمواصلة الحركة المستقيمة من هذا الجرم الآخر لمقاومته ، فانه يفقد بعض الشيء من مقصده دون ان يفقد شيئاً من حركته ؛ و ... اذا كان اعظم قوة ، فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر ويفقد من حركته بقدر ما يعطي منها » .

بيد ان لبينيز قد أثبت ، بعد ان أكتشف حساب الكمية الصغرى في السنة ١٦٧٦ ، خطأ سنة دوام الحركة التي توصل اليها ديكارت . يفرض ديكارت خطأ ان الحركة مقياس القوة ، التي هي حاصل ضرب الحجم بالسرعة ، اي ح × س ، لان لبرة تهبط اربع اقدام تحقق طبعاً قوة اربع لبرات تهبط قدماً واحدة . ولكن نسبة حركة اللبرة لحركة اللبرات الاربع ، كما يقول لبينيز ، هي نسبة ٢ لـ ٣ بحسب سنن غاليليو ، وان المطابقة في الوزنين هي حاصل ضرب الحجم بربع السرعة اي ح × س^2 ، وهذه القوة هي الثابتة الحقيقية التي يبحث عنها ديكارت .

وفي رأي لبينيز ان سنن التصادم التي توصل اليها ديكارت تناقض مبدأ الديمومة الذي هو ملحق مبدأ اللانهاية . يعبرمبدأ الديمومة عن خاصية مشتركة بين كافة التنوعات الحقيقية هي التالية : الطبيعة لا تقفز قفزاً ، ولا يمكن لشيء ان ينتقل من حالة الى اخرى الا بوسائط متعاقبة لا يحصى لها عد . « ان ما يمكن مشاهدته استمرار مركب من اجزاء لا يمكن مشاهدتها ؛ لا شيء يحدث فجأة ، لا الفكر ولا الحركة » . الواقع ديمومة قد نعجز عن استقصاء اجزائها . وقد اعتقد ديكارت ، بسبب انكفافه عن مواصلة التعمق في فكرة

اللانهـــاية ، وافتقاره الى مبدأ الاستمرار والى الاداة الرياضية الضرورية ، اي تحليل الكمية الصغرى ، والى الاختبارات الكافية ، بأن الجرم ، كلما استوقفه عائق متمطط ، يطفر ويعود الى الوراء بسرعة مساوية عددياً لسرعته الاولى ، لان حركته تستمر ومقصــده ينعكس . ولكن هذه الظاهرة لا تحدث الا في بعض الحالات . ولو ان ديكارت فكـر بالحالات التي يكون فيها للجسم الصادم قوة تفوق مقاومة الجسم المصدوم بقدر غـاية في الصغر ، لأدرك ان الصدمة ليست ظاهرة بسيطة بل معقدة جداً تنطوي على تعاقب تحول حركات طفيفة جداً : خمود ، تبادل تشوه الاجرام ، توقف ، استعادة الشكل ، استعادة الحركات . كل هـذا الذي يدوم ، على الرغم من انه يبدو فواتياً ، اعتبره ديكارت بسيطاً . فتوصل من ثم الى آلية حركيّة لا يستطيـع ان يحسب فيهـــا شيئاً . واضطر بسبب ذلك لان يتخيل ، لتفسير نوع من الظواهر ، آلية تصورها على غرار الحيل البشرية . ولكن نتيجة واحدة قد تحقق بعدّة اليات مختلفة كل الاختلاف بعضها عن البعض الآخر . لذلك فان مكتشف الهندسة التحليلية ، والعالم بعلم الكائنات الذي جعـل من الرياضيات جوهر الواقع ، ومنقذ علم الطبيعيـــات الرياضي ، قد انتهى الى مذهب في العالم لم يعد فيه مكان للرياضيات .

باسكال ونظرية رجحان الافتراض

كل هـذا اثبت ان الطريقة الكرتزيانية تنطوي على خطأ اساسي . لمنذ نشر الخطاب ، راح علمـــاء كثيرون من المقربين الى مرسين وروبرفال وغسندي وباسكال وهويس يبتسمون تهكماً من مماثلة الاتساع للمادة ويحكمون على تولد الظواهر من تقلبات المـــادة اللطيفة والزوابـع حكمهم على مجرد اسطورة . « ان اسفاط البوري ... وماء البحر والخشب العفن تنطوي ، في هذا القــدر القليل من النور الذي تولده « على بدائع تفوق كل ما نستطيـع معرفته » . واستمروا في التحزب للفراغ ضد الملء الكرتزياني، وكان اشهرهم «بليز باسكال[1] »، ابن احد القضاة في محكمة المساعدات في « كلرمون – فران » . نظر الى المادة اللطيفة التي قال بها ديكارت كما الى صـــورة جوهرية ونظر الى ديكارت كما الى فيلسوف مـدرسي . ازدرى بنظرية الافتراض الكرتزيانية وباعتقادية ديكارت المبنية على مبدأ عقلي اكيد لا يحتاج تحقيقه الى اختبار . في رأي ديكارت ان نظرية النور تستخلص من السنن التي طبـع الله مثل مفاهيمها في نفوسنا والتي لا يمكننا ، بعد امعان التفكير بها ، ان نشك في انها تطبق بكل دقة في كل ما هو موجود او حادث في العالم . الله أوجـــد المطابقة بين نفوسنا ، حيث اودعت بذور الحقيقة ، وبين العالم الواقعي الذي يخضع لسنن الله . فالاستخلاص ، من ثم ، سيتيح لنا ادراك الواقع . ولكن باسكال يكتب بخلاف ذلك : « ليس كافياً ، لكي يكون الافتراض جلي الوضوح ، ان تنتج عنه كل الظواهر ... لان كل اشياء هذه الطبيعة ، التي لا يبرز وجودها لاية حاسة من حواسنا، يصعب الايمان بوجودها بقدر ما يسهل اكتشافها» . ليس للافتراض من قيمة الا اذا امكن استثباته بالحواس . ويكون محتملا حين يتفق والحواس كلها . ولكنه قد لا يكون صحيحاً ، فاذا نتج عنه ما يناقض ظاهرة واحـــدة من

١ – باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات – صدر عن منشورات عويدات (الناشر)

الظواهر مثلا ، فيكون ذلك كافياً للجزم في بهتانه » . قابل باسكال اعتقادية ديكارت ومبدأه العقلي الاكيد بنظرية اختبارية الافتراض ورجحانه . وقد توصل بالفعل الى نتائج جلية . فقد فسر بثقل الهواء صعود الماء في الانابيب الذي عزي حتى ذاك التاريخ الى نفور الطبيعة من الفراغ. وفي السنة ١٦٤٨ ، اثبت ، باختبار « بوي دي دوم » ، افتراض توريشلي ، الذي قال بان الهواء وازن . وفي كتابه « بحث في توازن السوائل وثقل الهواء » ، رد كل الظواهر الى حركات المادة ووضع مبدأ الضغط المائي ، وابتكر ميزان الجو ، ووفر امكانية حساب صعود الماء في الانابيب في كل مكان من العالم وحسب وزن كل الهواء الذي يحيط بالارض . ومنذ السنة ١٦٥٧ ، وضع اسس حساب الاتفاق . فجاءت النتائج تبرر مفهومه للافتراض .

منهج الآليين

ولكن ذلك أفضى بالنتيجة الى ان مبادىء المهندسين غير لازمة الحدوث وانها مجرد معطيات حقيقية واختبارية تدرك بالحدس ، او بالقلب ، كما يقول باسكال. فعلم الطبيعيات ليس من ثم علماً اثباتياً ، استنتاجيا ، مرتبطا بعلم المعقولات . وفي هذه الحالة ليس علم المعقولات ، وهو علم صوري على غرار الرياضيات والجدل والمنطق ، تحليلا للواقع . فليس من ثم اي اعتراض اذا لجأ باسكال الى القلب لاثبات الدين . رفض العلماء المبادىء العقلية الاكيدة ومبادىء علم المعقولات وبراهين اثبات السنن . لم يقبلوا بهذه الاعتقادية الجديدة . واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاء العقل في كل شيء ، واعتبار الجلاء مقياساً للحقيقة ، والفصل أبداً بين المبهم والواضح ، والاختبار لاجل المراقبة ، لان لا سبيل لنا الا الى الكائن العلمي ، لا الى الواقع ، ولا سبيل لنا الا الى الكمية التي ليست سوى احد مرائي الظواهر . ليست سنننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . فلنقل : « كل شيء يحدث كما لو ان ... » ولكن الجميع يؤمنون بالسنن الطبيعية ، ومن ثم بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمة تقصي سنة الجماد عنها مع قاعدة ديمومة العمل ، التي هي القاعدة الذهبية في علم الطبيعيات الجديد ، كلّ سحر ، وتجعل من العلم معرفة شتى أنواع الحركات المنظمة .وهكذا تخلخل مذهب ديكارت بدوره بفعل هذه الآلية العملية . بيد ان التأليف لا يهدم الا بتأليف آخر توصل اليه نيوتون .

تأليف نيوتون

ان نيوتون (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ، استاذ الرياضيات في جامعة كمبردج (ترنتي كولدج) منذ السنة ١٦٦٧ ، وعضو الجمعية الملكية للعلوم منذ السنة ١٦٧٢ ، وموظف دار النقود في لندن منذ السنة ١٦٩٥ ، قد قام في وقت واحد ، منذ ١٦٦٥ - ١٦٦٦ ، بابحاثه الرياضية والآلية والبصرية . في تموز ١٦٨٧ ، نشر « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » التي طبعها طبعة ثانية في السنة ١٧١٣ . وظهر كتابه ، « بحث في البصريات » ، في السنة ١٧٠٤ . ولكنه ، منذ السنة ١٦٦٦ ، أطلع اصدقاءه على اسلوبه في حساب المدود وابحاثه الاولى حول الجاذبية الكونية . ومنذ السنة ١٦٧٢ نوقشت في جمعية لندن

الملكية طريقته في تحليل الضوء الى ألوانه الاولية بواسطة الموشور، كما نوقش، منذ السنة ١٦٧٥، مفهومه للهواء الاصفى المعد لتفسير الجاذبية الكونية .

منهج نيوتون

منهجه هو منهج باسكال والآليين الاقحاح . ولا يبدو انه استوحى «بيكون» . ففي رأي العالم الانكليزي ، « دافيد بروستر » ، ان نيوتون ليس مديناً بشيء لبيكون ، وحتى لو لم يكتب بيكون شيئاً ، لما حال ذلك دون اكتشافاته ، لا سيما وانه من المستحيل ان يكتشف شيئاً بمناهج بيكون .

نيوتون يسير في طريق التحليل . يرفض « الافتراضات » ، اي كل القضايا التي لا تستنتج من الظواهر . وهو لا يعني بذلك رفض كل افتراض يستهدف البحث ، وهذا أمر مستحيل ، بل كل قضية لا يمكن استثباتها باختبار تقع نتائجه تحت الحواس. على الفيلسوف ان يجري ملاحظات واختبارات ويخلص منها بالاستنتاج الى نتائج عامة واعتبار هذه القضايا صحيحة الى ان تثبتها بعض الظواهر اثباتاً كلياً أو تظهر انها قابلة للاستثناءات . لا يستطيع اي « افتراض » اضعاف البراهين المبنية على استنتاج مستخلص من الاختبار . يجب على الفيلسوف ان لا يسلم الا بالعلل التي هي كلية الضرورة لتفسير الظواهر ، لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً دون جدوى ولانها لا تلجأ في عللها الا الى حد ادنى من العلل البسيطة جداً . يجب الا يبحث الا عن العلل الموجودة حقاً ، لا « عن السنن التي كان باستطاعة الكلي القدرة ان يوجد بواسطتها النظام المدهش الذي يسود الكون ، لو رأى من الموافق استخدامها ، بل تلك التي وضعها بعمل حر صادر عن ارادته . فبمكنتنا ان نعتقد بالصواب بأن المعلول الواحد قد ينتج عن عدة علل مختلفة ؛ ولكن العلة الحقيقية ، في نظر الفيلسوف، هي تلك التي تحدث حالياً المعلول موضوع البحث : ولا تعترف الفلسفة الصحيحة بغيرها » . ومن البديهي ان الفيلسوف يستخدم الرياضيات ، ولكن بحسب رأي غاليليو وباسكال ، بغية حساب وارتقاب عدد كبير من الظواهر، لا بغية اسدال الستار على جوهر خفي ما ، كالقوة الجاذبة الحقيقية مثلاً . هذه البراهين لا توصل، على وجه مقنع، الى نتائج عامة، ولكن يغدو ممكناً، بفضل هذا التحليل، الانتقال من المركبات الى البسائط، ومن الحركات الى القوى التي تسببها، ومن المعلولات الى العلل، ومن العلل الخاصة الى علل اعم. ثم يتبع التأليف الانطلاق من هذه العلل المعروفة والممتحنة وعرض نظام وترتيب الظواهر المرتبطة بها .

حساب الكمية الصغرى

ابتكر نيوتون الاداة الرياضية الضرورية للابحاث الجديدة . منذ السنه ١٦٦٥ ١٦٦٦ صمم طريقة المدود التي اطلع الجمهور على مبادئها الاساسية في كتاب « المبادىء » ، وعلى علاماتها الخاصة في المجلد الثاني من كتاب جبر « ووليس » الذي نشره هو . لقد سبق لكبلر منذ السنة ١٦٣٥ ان استوحى مفهوم اللانهاية الجديد وطلع بفكرة الكميات الكبرى والكميات الصغرى التي نبذتها الهندسة اليونانية . تخيل الدائرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من مثلثات تجتمع رؤوسها في نقطة الدائرة وتتوزع

قواعدها على محيط الدائرة ؛ والكرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من الاهرام . وسبق لديكارت ان ادخل على الرياضيات فكرة الحركة التي افتقرت اليها الهندسة اليونانية . وسبق لووليس (١٦١٦ – ١٧٠٣) ، في كتابه « حساب اللانهاية » ، ان استخدم سنة الاستمرار التي تفرق بين الهندسة العصرية والهندسة القديمة . درس نيوتون كبلر وديكارت وفييت ووولیس. فرض ان المحور الافقي يزداد ازدياداً متساوياً بدلالة الزمان ، فاعتبر مساحة المنحني كمية ناشئة تزداد بنسبة طول المحور العمودي . توصل الى جملة المد واوضحها في حدود متوالية متناهية او لامتناهية . أما منهجه فطريقة حساب الكمية الصغرى الشبيه بطريقة ليبنيز . فقد توصل ليبنيز ، خلال احدى اقاماته في باريس، حيث حوّل هويغنس شغفه نحو الرياضيات ، الى ان يبتكر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادىء الاول في السنة ١٦٨٤ ومبادىء الثاني في السنة ١٦٨٦ ، مع العلامات التي ما تزال مستخدمة في ايامنا هذه . ولكنه اعتقد بأنه اكتشف جوهراً خفياً حين اهتدى الى ح × س٢ ، ولم يتمكن من استخدام اكتشافه في حساب سنن الطبيعة . ومنذ السنة ١٦٩٩ ، وخلال جدال حاد ، اتهم نيوتون بانتحال ليبنيز وليبنيز بانتحال نيوتون .

مسألة الجاذبية

استطاع نيوتون ، بعد هذا الاكتشاف، مجابهة مسألة لم يتوفق كبلر وغاليليو الى حلها . القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية السرعة . فما هي والحالة هذه القوة التي تحيد الكواكب عن الخط المستقيم في الفضاء وتجعلها ترسم خطوطاً منحنية يا ترى ؟ منذ السنة ١٦٦٦ فكر نيوتون بحركة القمر حول الارض فتساءل عما اذا لم تكن الجاذبية ، التي يُستثبت تأثيرها حتى في اعلى قمم الجبال ، تمتد الى القمر وتؤثر في هذا الجرم وتبقيه على مداره ، وعما اذا لم تكن الجاذبية هي القوة الجاذبة الى المركز . استند في براهينه ، بالمماثلة ، الى حركة القذائف . فاذا زادت السرعة ، قاومت القوة الجاذبة الى المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فبمكنتنا من ثم تصور قذيفة تسير بسرعة فائقة بحيث انها لا تسقط بل تعود الى قمة الجبل العالي الذي يفترض انها أطلقت منها . واذا كانت سنة كبلر الثالثة صحيحة ، فكما ان المساحات التي يرسمها شعاعها الى مركز الارض تكون نسبية للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبل مساوية لها عند الانطلاق ، فتستأنف دورتها كما تفعل السيارات بالضبط على مدارها . وقد بلور افكار نيوتون في المسائل المطلوب حلها هبوط تفاحة سقطت على الأرض .

فأخذ نيوتون من ثم يحاول معرفة السنة التي بموجبها تتدنى قوة الجاذبية كلما ابتعد الجرم عن الأرض .

ان قذيفة تترك وشأنها في النقطة ق تهبط وفقاً للخط العمودي ق ا . ولكنها تطلق وفقاً للخط الافقي ق س بسرعة تقاوم الجاذبية . كان من الواجب بعد مرور ثانية ان تكون في

النقطة ر ، ولكنها تكون في النقطة ر١ على محيط دائرة شعاعها ن ق . فقد سقطت اذن من ر الى ر١ اي خمسة امتار .

بموجب هذه السنة حسب نيوتون آنذاك مقدار الاسراع الذي تحدثه قوة الجاذبية في جرم يبلغ بعده بعد القمر . ارتأى ، بالاستناد الى سنن كبلر ، انه ، في الارجح، نسبي نسبة عكسية لمربع الأبعاد . فاذا كان الامر كذلك ، ولما كان هذا الجرم ، الموجود على مقربة من سطح الارض ، وتفصله عن مركز الارض مسافة توازي الشعاع الارضي ، اي ٠٠٠ ٤٠٠ ٦ متر ، يهبط ٥ امتار أو ٥٠٠٠ مم في الثانية، فانه حين يكون على مسافة توازي مسافة القمر، أي على بعد ٦٠ شعاعاً ارضياً، أو ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٨٤ متر، يهبط في الارجح ٥٠٠٠ مم : ٦٠² اي ١،٣٩مم.

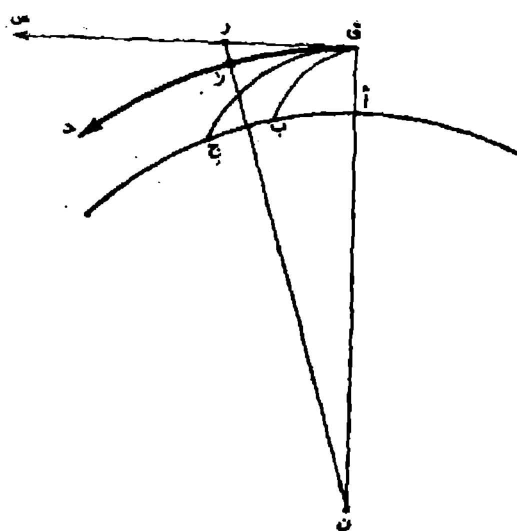

الشكل ١٤ - السقوط ر ر١ الذي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة بسرعة كافية لأن لا تهبط في ب او ج بل لأن تدور حول الارض وفاقاً لدائرة شعاعها ن ق .

تبقى على نيوتون معرفة ما اذا كان هذا المقدار هو مقدار اسراع انجذاب القمر نحو المركز . يرسم القمر محيط دائرة في ٢٨ يوماً ، أو ٢٠٠ ٤١٩ ٢ ثانية . شعاع هذه الدائرة يوازي شعاع الأرض ٦٠ ضعفاً أي ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٨٤ متر ومحيطها ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠٠ ٢ متر . فسرعة القمر من ثم هي دون ١٠٠٠ متر بقليل . فيتضح بعد حساب وتر الزاوية القائمة ن ل في المثلث القائم الزاوية ن ق ل ان القمر يهبط، بعد مرور ثانية ، من ل الى ل١ اي ١،٣٩ مم . فاهتدى نيوتون تقريباً الى المقدار نفسه الذي اهتدى اليه في حسابه الاول . واتضح من ثم ان الجاذبية الارضية تتحول كعكس مربع المسافة .

أما الهولندي « هويغنس » (١٦٢٩ - ١٦٩٥) الذي كان والده صديقاً لديكارت فقد حاول بدوره ، بعد ان اكتشف حلقة زحل في السنة ١٦٥٦ ، تركيب ساعة ذات رقاص ، ودرس هبوط الاجرام الوازنة ، ودرس قوة السيارات المبعدة عن المركز ، وغدا على قاب قوسين من سنة الجاذبية . ولكنه اعتمد الهندسة القديمة بصورة خاصة ، فلم يهتد اليها (« ذبذبة الساعة » ، ١٦٧٣) . فاستفاد نيوتون ، بعد ذلك ، من نظريته في القوة المبعدة عن المركز ،

أو الحركة الدائرية ، ليثبت ان قوة الجاذبية الشمسية تتحول ، هي ايضاً ، كعكس مربع المسافة ، وليرتفع الى سنة الجاذبية العامة .

بيد انه لم ينشر استنتاجاته لانه لم يعرف ما اذا كان يقتضي حساب المسافة بين الكواكب وسطح الارض أو بين الكواكب ومركز الارض . وليس صحيحاً انه اضطر الى انتظار نشر قياس خط الطول الذي اجراه الاب بيكار في السنة ١٦٦٩ – ١٦٧٠ ، لمعرفه الشعاع الارضي وحساب المسافة بين الارض والقمر . فقد كان لديه عدة تقديرات كافية لطول الشعاع الارضي نخص بالذكر منها تقدير « غونتر » . ولكنه حل ، في السنة ١٦٨٠ ، مسألة معرفة مسيرة جزء صغير يتحرك في جوار قوة جاذبه تتحول بحسب سنة المربع المعكوس. فاظهر ان هذه المسيرة قطع اهليلجي يحتل الجرم الجاذب أحد محترقيه . وأثبت في السنة ١٦٨٥ أن جرماً كرويا ذا ثقل نوعي متساو في كافة نقاطه المتساوية البعد عن مركزه يجذب جزءاً صغيراً خارجيا كما لو كان كل ثقل الجرم مجموعا في مركزه . فبات من ثم باستطاعته اعتبار كافة أجزاء النظام الشمسي كما لو كانت اجزاء صغرى ثقيلة . وقرر اذ ذاك نشر « المبادىء » .

نظرية نيوتون

درس فيها ، أول ما درس ، الحركات الطليقة للاجزاء الصغرى والاجرام الخاضعة لبعض سنن قوى معلومة . فاقر مبادىء أساسية مسلماً بها بدون برهان ، هي وجود زمان « مطلق وحقيقي ورياضي » يجري جريانا متساويا دونما اعتبار لاي شيء خارجي ، ووجود فضاء مطلق «يبقى هو هو دون تغير » ، ووجود « حركة مطلقة » هي « انتقال جرم من مكان الى آخر » ، وقد غدت هذه المبادىء مبادىء علم الطبيعيات حتى « انشتين » . وأقر أخيراً ، كمبدأ أساسي ، ثبات سنن الطبيعة .

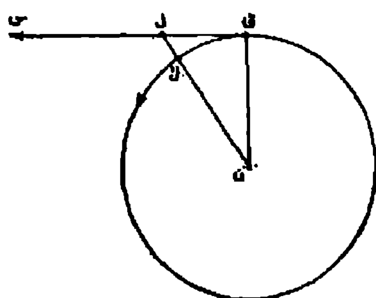

الشكل ١٥ ـ السقوط لل‌ا الذي يسقطه القمر في ثانية

وصاغ سنن الحركة :

١ – كل جرم يستمر في سكونه أو في حركته المتساوية السرعة وفاقا لخط مستقيم ، ما لم تتبدل حاله بفعل بعض القوى . وهذه سنة سبق لديكارت ان صاغها .

٢ – ان تبدل الحركة نسبي للقوة ويجري في اتجاه انطلاق القوة . ويستخلص ذلك من استنتاجات غاليليو .

٣ – يقابل كلَّ فعل ردة فعل موازية ، أو الافعال المتبادلة بين جسم وآخر متساوية ومتقابلة

ابداً . ويعود الفضل في صياغة هذه السنة الى نيوتون وحده .

قادته حساباته الى تأمل الاجزاء الصغرى الثقيلة . كما ان تجمد السوائل، واحتفاظ الاشعة الضوئية بخصائص مختلفة في جهاتها المختلفة، الذي جعله يعتقد بان الاشعة المضيئة اجسام جامدة، وثبات طبيعة الماء ذاتها وطبيعة الارض عينها واجزائها الصغرى منذ قرون ، الذي يبعد فكرة الدروس التي قال بها ديكارت ، قد حملته على اعتبار كل الاجسام مركبة من اجزاء صغرى متسمة ، صلبة ، ثابتة ، مستقلة ، لا تقسم ، متحركة وذات قوة ثبوت ، اي مركبة من ذرات .

مهاجمة نيوتون للزوابع الكرتزيانية

ان هذه الاجزاء الصغرى تتحرك في الفراغ أو اقله في وسط قليل الكثافة جداً . وهاجم نيوتن ، في المجلد الثاني من « المبادىء » ، زوابع ديكارت ونظرية الملء . استخلص بالحساب نتائج المبادىء الآلية الكرتزيانية واظهر ان علم الطبيعيات الزوبعي يفضي الى نتائج تتنافى وسنن كبلر . فاذا دارت كرة صلبة مثلاً في سائل جليس خاضع لحركة دائرية متساوية السرعة، فان الوقت الدوري لاجزاء هذه الزوبعة الكرتزيانية يكون نسبياً لمربعات المسافة الى مركز الكرة . ولكن الاوقات الدورية للاقمار التي تدور حول جوبيتر هي بلنسبة واحد ونصف لمسافاتها الى مركز هذه السيارة ، والقاعدة نفسها ترعى السيارات التي تدور حول الشمس . فلو كانت هذه السيارات تنتقل بفعل الزوابع ، لخضعت هذه الزوابع للسنة نفسها التي تخضع لها السيارات . ولكن لا شيء من ذلك ، اذن ليس من زوابع .

وبحسب الآلية الكرتزيانية كذلك ، تتحرك الاجرام ، التي تنقلها الزوابع ، وفاقاً للسنة نفسها التي تسير اجزاء الزوابع ، من حيث السرعة والاتجاه . ولكن ، لو كان هنالك زوبعة لكانت مادة الزوبعة ، بتأثير ضغط مادة الزوابع المجاورة ، اشد انحصاراً ، في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس ، منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولكانت مادة الزوبعة المنحصرة اسرع حركة في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولغاصت السيارة في الزوبعة ايضاً . ولكن السيارة ، بحسب سنة كبلر الاولى ، اسرع حركة في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . فليس ثمة من زوابع .

لو كانت الكواكب تنتقل بفعل الزوابع لصعب التوفيق بينها وبين وفرة الزوابع ، وبينها وبين حركة الزوبعة الشمسية وحركات زوابع السيارات ، ولصعبت معرفة كيف ان المذنبات، التي تنقلها الزوابع ، تستطيع ان تجتاز بسرعة فائقة وبسهولة فائقة مدارات السيارات من خلال زوابع هذه الاخيرة .

واخيراً ، لو كانت الفضاءات السماوية ملأى بالمادة ، دون ان يتخللها اي فراغ ، وبالتالي

كثيفة جداً ، مهما كان من رقة وسائلية هذه المادة ، لكانت مقاومتها اكبر من مقاومة الزئبق ، ولفقدت الكرة الصلبة ، في مثل هذا الوسط ، اكثر من نصف حركتها في اجتيازهـا ثلاثة اضعاف محورها . « لذلك يقتضي ان تكون هذه الفضاءات السماوية ، التي تتحرك فيها السيارات والمذنبات في كل اتجاه ، حركة طليقة مستمرة ، دون اي نقص محسوس في حركاتها ، خالية من كل سائل مادي .

بيد ان ميزان الحرارة الذي يوضع في الفراغ يشير الى الحرارة نفسها التي يشير اليها ميزان آخر يوضع في الهواء ، وفي الوقت نفسه تقريباً . فيمكننا التسليم اذن بان الحرارة تنتقل في الفراغ بفعل اهتزازات وسط أرق من الهواء الى حد بعيد يبقى في الفراغ بعد اقصاء الهواء عنه بواسطة المضخة الماصة . ويمكننا ان نسلم كذلك بان هـذا الوسط هو نفسه ما يكسر النور ويعكسه ، ويدفىء النور الاجسام بفعل اهتزازاته . ويمكننا اخيراً ان نسلم بان هذا الوسط ، اي الاثير ، يملأ السماوات كلها ويتسرب الى الاجسام كلها .

آلية الفراغ الذرية

وهكذا تمكن نيوتون ، بتطبيق براهينه حيال الكواكب ، بالمماثلة ، على اجزاء الاجسام الصغرى ، من بناء آلية ذرية مرتكزة الى الفراغ والجاذبية الكونية . في الفراغ تتحرك كائنات مادية هي عبارة عن نقطة ذات ثقل ثابت . كل من هذه الذرات يخضع لقوة جاذبة تنبثق عن نقطة اخرى ويعمل بدوره في هذه الاخيرة عملا موازياً يقابل جاذبيتها مباشرة. يتجه هذا العمل المتبادل بين الذرتين وفاقاً للخط المستقيم الذي يصل بينهما . وهو نسبي لثقلهما ويتحـول بنسبة عكسية لتربيع المسافة بينهما . اذا كانت هذه المسافة ملموسة ، اصبح هذا العمل جاذبية الثقل التي تفسر سقوط الاشياء على سطح الارض ، وسير القمر ، والسيارات ، والاقمار والمذنبات ، ومـد البحر وجزره ، وتسطح الارض عند القطب الذي اثبتـه اكتشاف « ريشيه » في « كايين » في السنة ١٦٧٢ ؛ يجب تقصير رقاص الساعة عند خط الاستواء ؛ اذن فهو يميل الى حركة ابطأ ، اذن الجاذبية أقل في خط الاستواء ، اذن الرقاص فيه كما على جبـل عال ، اذن الارض سميكة في المنطقة الاستوائية ، اذن القوة الجاذبة الى المركز في هذه المنطقة متدنية . اما اذا كانت المسافة قصيرة جداً ، فان هذا العمل يفسر تلاحم الاجسام عند ما تكون الذرات متجانسة تفسيراً افضل من السكون الذي فسر به ديكارت كيفية تلاصق اجزاء الجوامد الصغرى. وفي نظر نيوتون ان هذا السكون صفة خفية او مجرد لا شيء . التلاحم يفسر خصائص الجوامد والسوائل والغازات . واذا كانت الذرات مختلفة كيماويا، فان هذا العمل يفسر التقارب الذي يسهم مع التلاحم في تحديد وتنظيم التركب والتحلل الكيماويين .

الأثير

على الرغم من نفوره من « الافتراضات » ، حاول نيوتون تفسير الجاذبية الكونية . وقد اعتقد ان الاثير يجب ان يكون في الشمس والسيارات والمذنبات والنجوم اندر منه في الفضاءات السماوية. فيجوز الاعتقاد من ثم بان كثافة الاثير تزداد كلما ابتعدنا في الفضاء.

الاجرام السيارة تبذل جهداً في انتقالها من مناطق كثافة الاثير الى مناطق ندرته ، وهذا ما يسبب الجاذبية المتبادلة بين هذه الاجرام والجاذبية بين اجزائها وبينها بالذات . والخلاصة هي ان الجاذبية ضايقته ، فعاد ، على غرار ديكارت ، الى تصور انتقال الحركة بالتماس ، بالدفع . يضاف الى ذلك انه لاحظ من جهة ثانية ان كل الاجسام البالغة درجة معينة من الحرارة تنشر نوراً مصدره حركة اجزائها ، كمياه البحر في الطقس العاصف ، أو كالخشب واللحم والسمك حين يتسرب اليها الفساد ، فتساءل عما اذا لم يكن ممكنـاً ، بعكس الامر ، ان تتلقى الاجسام نشاطها من اجزاء ضوئية صغرى مصدرها اشعة ماكثة في الاجسام تحرك اجزاء هذه الاجسام .

النور

فقد سبق له منذ السنة ١٦٦٦ ان حلل نور الشمس ، بواسطة الموشور ، ووجد ان الطول في صورة الشمس ، عند خروجها من الموشور ، يبلغ خمسة اضعاف العرض ، وان ألوان الموشور تتعاقب وفاقاً لنظام محدد على الحاجز العاكس : الاحمر في الاعلى والبنفسجي في الاسفل . فالاشعة المختلفة تتكسر من ثم انكساراً غير متساو ؛ ويقابل كل درجة من درجات قابلية الانكسار لون معين . ولكن نيوتون اعتقد ، على نقيض « هويغنس » الذي تصور اللون في « بحث حول النور » كموجات سائل ، أو اثير مختلف عن اثير نيوتون ، يحركه خفقان الاجسام المنيرة ، بان الاشعة الضوئية جسيمات صغرى ، أو ذرات تطلقها الاجسام المنيرة . فمن شأن السائل ان يحول دون ارتجاجات اجزاء الاجسام الصغرى وان يحول كذلك دون حركة الكواكب . وتخضع هذه الذرات بدورها لسنة الجاذبية الكونية وتحدث ارتجاجات في الوسط الذي تعمل فيه .

« الساعاتي الازلي »

ولكنه لم يتوقف عند هذه العلل الثانوية ، بل ارتفع الى العلة الاولى « التي ليست آلية » ، وذهل منها . فتدبير الفاعل المفكر يبدو ظاهرا في نظام الاشياء . ولا يعقل ان تتحرك كل السيارات في اتجاه واحد وفي مدارت مشتركة المركز بفعل قدر اعمى او سنن الطبيعة البسيطة . « يجب ان ينظر الى مثل هذا التناسق المدهش في نظام السيارات كما الى نتيجة اختيار . ويصح القول نفسه في التناسق البادي في جسم الحيوانات . . . لا يمكن ان تكون هذه الصناعة سوى نتيجة حكمة وتفكير فاعل قدير حي ابدا يستطيع بفعل وجوده في كل مكان ، ان يحرك الاجسام على هواه في مركز حواسه الثابت اللامتناهي ، وان يكوّن اجزاء الكون ويعيد تكوينها بهذه الوسيلة . . . بيد ان ذلك لا يجيز لنا النظر الى العالم كما الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كما الى اجزاء مختلفة من الله . . . » ، الله هو الله الذاتي ، « سيّد الاشياء » ، الكائن اللامتناهي ، الازلي ، الكلّي الكمال ، و الكلّي القدرة والعالم بكل شيء » . العلم يثبت وجود الله لان القول بلازمة الحركة للمادة يتنافى وسنة ثبوت الجماد ، ولو ان الله لا يخلق في كل آن كمية جديدة من الحركة ، لفسد العالم وسقم وفني شيئاً

فشيئاً بفعل تلف طاقته . فقاد العلم من ثم الى دين طبيعي يجب ان يكمله الدين الموحى به . وكما كتب البروتستانتي الفرنسي ، كوست ، الذي ترجم مؤلفاته في السنة ۱۷۱۳ : « بمكنتنا الآن ان نعبد ونخدم ، بمزيد من الحرارة ، سيد وخالق الاشياء كلها ، وهذا هو اكبر خير نستطيع جنيه من الفلسفة . . . ان هذا المؤلف الكبير لنيوتون سيكون من ثم سوراً ركيناً لن يقوى الملحدون والزنادقة على تقويضه البتة ، وفيه يجب البحث عن الاسلحة اذا اردنا الدخول في حرب ظافرة » .

استقبل مذهب نيوتون استقبالا حماسيا في انكلترا . « كانت الطبيعة وسنن الطبيعة متواريتين في الظلمة . قال الرب : ليكن نيوتون . فكان النور » (بوب) .

مقاومة الكرتزيانيين

بيد ان الكرتزيانيين الانكليز قد ابدوا بعض المقاومة ، وفي البر الاوروبي قابل كبار العلماء نيوتون بعنف . فان هويغنس ، وليبنيز ، واكاديمية العلوم في باريس ، وكافة الكرتزيانيين ، فونتنيل ، « كسيني » ، « ريومور » ، الايطالي « بوليني » ، قد وقفوا في وجهه . نعت هويغنس مبدأ الجاذبية بالمحال ، ولم يختلف ليبنيز عنه في الرأي .

كلهم نبذوا الجاذبية باعتبارها صفة خفية . « اذا نحن استشرنا افكارنا في موضوع سبب الحركة الطبيعي ، فهي لن تقدم لنا شيئاً جلياً واضحاً سوى الصدمة او الدفع ... فلا نتخلين قط عن مبادىء آلية واضحة ؛ اذا نحن تخلينا عنها ، ينطفىء كل النور الذي نستطيع الحصول عليه منها ، ونغرق نحن مرة اخرى في ظلمات فلسفة ارسطو القديمة ، حفظنا الله منها » (سورين ، في اكاديمية العلوم في باريس ، ۱۷۰۹) . وعبثاً اجاب النيوتونيون بانه لا يجوز ان ننعت بالخفية صفات أثبت الاختبار وجودها ، حتى ولو استحال علينا تكوين فكرة واضحة وجلية عنها .

تسرب الشك الى اذهان بعض المؤمنين . ففي نظر ليبنيز ان الله هو العقل الشامل ، بينما يرى نيوتون ان الله يختار الاشياء والسنن الطبيعية بفعل ارادة اختيارية ، كفنان اختار ان يتعهد عمل الكون ويحافظ عليه . فرأى ليبنيز في ذلك إهانة للحكمة الالهية ، لان الاعتقاد على غرار نيوتون بان الله قد بنى عالما لا يستطيع السير بمفرده ، بدون معجزة تدخل الله الدائم لتعهد الحركة ، هو استهانة للقدرة الالهية والكمال الالهي . وتمسك ليبنيز اخيراً بالملء الكرتزياني ضد الفراغ ، لان ازدياد حجم المادة يتيح لله مزيداً من الظروف لممارسة حكمته وقدرته .

بذل الكرتزيانيون اذن جهوداً بائسة للمحافظة على الزوابع . فان الاب « فيلتمو » قد وفق في السنة ۱۷۰۷ بين حركة الزوابع وسنن كبلر مهملاً ما ارتآه ديكارت بأن السيارات هي كالسفن التي تسير ابداً سيراً ابطأ من النهر الذي يجرها : السيارات والزوابع تخضع لحركة واحدة . وفي السنة ۱۷۰۹ رد سورين على هويغنس ، الذي اكد بأن سرعة الزوبعة يجب ان تكون ۱۷ ضعف سرعة الارض ، وبأن الاشياء كلها ستتطاير عن سطح الارض ، اذا كانت الارض متحركة بفعل الزوبعة ، بأن كلما ازدادت سرعة السائل كلما تدنت كثافته . فلا يستطيع

من ثم ان ينتزع او يقتلع شيئاً . اما المذنبات فكانت ملبّكة . كان « هالي » قد حدّد عناصر مدارات ٣٤ مذنباً ظهرت بين السنة ١٣٣٧ والسنة ١٦٩٨ . لاحظ التشابه البادي في عناصر مدارات مذنبات ١٥٣١ و ١٦٠٧ و ١٦٨٢ ، فعزاها الى مذنب واحد انبأ بظهوره مرّة اخرى في السنة ١٧٥٨ . ولاحظ « لاهير » في السنة ١٧٠٢ ان ظهور واختفاء المذنبات لا يُريان تدريجياً ، بل دفعة واحدة : اذن فهي نيران عابرة تشتعل اشتعالاً فجائياً . ولكن كسّيني اثبت انها تزداد حجماً وسرعة ظاهرين. فارتأى فيتّلو حينذاك وضعها فوق سماء زحل بغية تجنيبها مصادفة زوبعة السيارات . ولكن لوحظ ان ارتفاع مذنب ١٧٠٢ كان خمسة اضعاف ارتفاع القمر فقط. عزا ديكارت مد البحر وجزره الى ضغط القمر على المادة الرقيقة التي قال بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب هذه النتيجة . فاجاب فيلتّمو على الاعتراض في السنة ١٧١٠ : « هي زوبعة القمر ما يسبب الضغط » . ولكن تأثير الشمس لوحظ بعد ذلك ايضاً ؛ فتوجب اذ ذاك اللجوء الى زوبعة الشمس . وفي سبيل الاتفاق مع الملاحظات والحسابات، مست الحاجة الى تعقيد التفسير الكرتزياني تعقيداً مطرداً ، في حال ان التفسير النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهى البساطة . ولكن الكرتزيانيين كانوا ابعد من ان يقتنعوا ، حوالي السنة ١٧١٣ — ١٧١٤ ؛ واستمر الصراع ضارياً بينهم وبين النيوتونيين . لتخبط العالم العلمي في ازمة حادة .

الكرتزيانية والنيوتونية والكيمياء

أدخل الكيمياويون الآليـة الى علمهم . ففي باريس فسر « نقولا ّلمّري » الظواهر بمبادىء الفلاسفة العصريين ، اي ديكارت ، وذلك خلال دروسه في مختبره (شارع غالند) ، « المغارة السحرية المضاءة باكفهرار الافران» ،وفي « كتاب الكيمياء المدرسي » الذي نشره في السنة ١٦٧٥ . عمل ماء تحليل الذهب في الذهب مصدره « حدود » هذا الماء،ومذاق الحوامض الحازر ، والشكل المقرّن الذي تتخذه عند التبلور مصدرهما اجزاؤها الصغرى المقرّنة . القلويات تفور اذا ما امتزجت بالحوامض، اذن اجزاؤها الصغرى مسامية وباستطاعة حدود الحوامض ان تتسرب الى الداخل . الزئبق سائل ابداً لان اجزاءه الصغرى مستديرة . ولاحظ « نقولا له فيفر » ، مدرس الكيمياء في حديقة النباتات ، في كتابه ، « الكيمياء القياسية » ، ارتفاع وزن الاجسام التي تتأكسد ، وكـوّن فكرة غامضة عن « روح شاملة » عرف خصائصها هي الاكسجين . تنبثق هذه الروح الشاملة من الكواكب بشكل نور و « تتجسّد » في الهواء وتسبب معظم النتائج الملموسة في المعادن والنباتات والحيوانات . وتعمل الروح الشاملة في النباتات ، وترقق وتبخر كل ما في الدم من سوائل زائدة . وادخل الانكليزي « روبرت بويل » (١٦٢٧ — ١٦٩٧) في الكيمياء مفاهيم ديكارت ونيوتون، فحدد الجسم البسيط جسماً لا يمكن تحليله بأية وسيلة من وسائلنا . كل ما يحدث في الطبيعة يجب ان يفسر آلياً ، ولا يمكن ان تتعلق الفوارق بين الاجسام المختلفة الا بحجم الاجزاء الصغرى وشكلها وحركتها . الهواء ضروري لاحداث اللهيب وتغذيته . وهو

يلعب الدور نفسه في الاحتراق والتنفس ، ويشبه « بويل » ديمومة حياة الحيوان بديمومة لهيب الكحول في اناء مقفل . وعرّض بويل الصلصال والرصاص والقصدير للهيب . فتغير منظر هذه الاجسام بعد العملية وزاد وزنها . اذن دخلت اجزاء النور الصغرى الموجودة في اللهيب الى الرصاص والقصدير والصلصال وامتزجت بذرات هذه المواد واعطت، بالاتحاد بها، اجساماً جامدة.
وميز الالماني « بكر » بين نوعين من الاجسام: الاجسام المركبة والاجسام غير القابلة التحليل . فكان بالامكان صنع مركبات بغية تحليلها واظهار عناصر تركيبها مع صفاتها . وقال مواطنه « ستاهل » (١٦٦٠ – ١٧٣٤) ان الذرات مختلفة بعضها عن البعض الآخر وان لها صفات خاصة اصلية مطلقة ، وان في التجاذب الكيمياوي بين الاجسام بعض ما في الاجسام الحية : الذرات المتجانسة تطلب بعضها بعضاً بفعل طبيعتها . وكان اول من اكتشف ان تكليس المعدن ظاهرة مماثلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني هو رماد معدن محروق ؛ اذا اضيف بعض الزيت او الشحم او الدهن الى هذا الرماد ، فانه يصبح معدناً مرّة اخرى . اذن فان الجزء القابل الاحتراق في الجسم الدهني ينتقل الى الكلس المعدني ويحل محل ما فقده المعدن بالتكليس . ومن ثم فان هذا الجزء القابل الاحتراق مادة تنتشر في الهواء اثناء الاحتراق دون ان تصير الى الزوال . وان هذه المادة سائل كوني هو « السائل اللهبي » .

الكرتزيانية والآلية والعلوم الطبيعية علم الوظائف الحيوانيــة ، الحيوان – الآلة

وتسربت الكرتزيانية والآلية والطريقة الاختبارية تسرباً عميقاً الى علوم الطبيعة ايضاً . ولكن الحيوان – الآلة الذي تكلم عنه ديكارت قد افضى بعلماء كثيرين الى سلوك طريق مضلة . فنقل بعضهم علم الآليات ، بلا شرط ولا استثناء ، الى نطاق وقائع مختلفة . في كتابه « حركة الحيوانات » (١٦٨٠) فسر « بورّلي » ، الرياضي والفلكي والعالم بالطبيعيات ، حركة الكائنات الحية من زاوية آلية بحتة . واعجب الطبيبان « بغليفي » (١٦٦٩ – ١٧٠٨) و « بورهاف » بتطبيق « المبادىء الرياضية ومبادىء الهندسة المائية ومبادىء علم السكون ومبادىء الجاذبية » على بنية الكائنات الحية . « فهل هذه الآلات المسلّحة بالاسنان شيء آخر غير الكمّاشات يا ترى ؟ » المعدة قرعة زجاجية ؛ الاوردة والشرايين وجهاز العروق انابيب مائية ؛ القلب زنبرك ؛ الاحشاء مناخل ومصاف ؛ الرئة منفاخ ؛ زاوية العين بكرة؛ العضلات حبال . فعلق من ثم على الالياف اهمية دونها اهمية الاخلاط . يجب ان تكون الالياف قوية ، والا فالمرض والموت . لذلك اعتمدا المعالجة بالمهيجات والمقويات : الكيّ والدلك والمحجم والحراقة ولصوق الخردل والكينا ، دون ان يتخليا ، من جهة ثانية ، عن المعالجة بكبريت الرصاص . اغتاظ « ستاهل » من اهمال العلماء الحياة . الا انه رجع القهقرى الى تعليم عصر النهضة . النفس هي مبدأ الحياة . النفس تشرف على سير الاعضاء خير اشراف . فيقتضي من ثم احترام ردود الفعل الطبيعية ، والانصراف عن معالجة الحمى مثلاً لانها مجهود تبذله النفس

للتخلص من المواد التي تعسّفها .

احرز التقدم في حقل التشريح بصورة خاصة بفضل بعض المراقبين . استخدموا المجهر ، الذي كمله « روبرت هوك » ، وتقنيات جديدة تقضي بحقن العروق بسوائل ملونة . وهذا ما فعله « اوستاش » و « مالبيغي » و « ريولن » و « غليسّون » و « غرال » و « سوامردام » . وكان لدى « رويش » ، في امستردام ، مجموعة من الاجزاء التشريحية تظهر فيها العروق الدموية واللمفاوية. وقد قال فونتنيل ان جميع هؤلاء الموتى « الخالين من الجفاف الظاهر ومن الغضون ، والمتميزين بزهرة الوجه ولدانة الاغشية ، اشبه بالقائمين من بين الاموات » . فاستطاع مالبيغي اكتشاف الفليقات الكبدية وجسيمات الكلى وجسيمات حاسة الذوق واظهار اتصالها بالشرايين الكلوية الصغرى .وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف الهولندي « لوينهوك » (١٦٣٢ – ١٧٢٣) في السنة ١٦٧٧ حيوانات الرجل المنوية ، والكرويات الحمراء البالغة الصغر « بحيث لا توازي مئات الالوف منها حجم الرملة الواحدة » ، والعروق الشعرية ، ورأى الكرويات الحمراء تتخذ شكلاً مستطيلاً لاجتياز العروق الشعرية الدقيقة جداً . فأكمل بذلك اكتشاف « هارفي » .

ولكن « مالبيغي » و « لوينهوك » لم يتوصلا الى اقناع الارسطاطاليسيين وانصار المعالجة بكبريت الرصاص الذين قابلوهما بالصيغ الفلسفية والاستشهادات بالنصوص الكتابية والكلاسيكية .

علم الوظائف النباتية

تقدم علم الوظائف النباتية بفضل ابحاث « ماريوت » و « مالبيغي » . أظهر ماريوت ، في كتابه « بحث في نمو النبات » ، ان النباتات لا تمتص من التربة غذاء جاهزا يوافق مادتها الخاصة موافقة مباشرة ، بل تحول كلها عناصر مشتركة : « اذا أبرنا شجرة اجاص برية بمئبر من شجرة اجاص زراعية ، فان النسغ نفسه الذي كان من شأنه ان ينتج في الشجرة الاولى اثمارا صغيرة الحجم رديئة الطعم ، ينتقل الى الغصون التي تتفرع عن المئبر وينتج فيها اجاصاً كبير الحجم لذيذ الطعم ... فهو النسغ نفسه ، الذي كان في جذع الشجرة ، ما عُين له نتيجتان مختلفتان ، اما بقوة خفية ، يدعوها البعض نوعية ، وتكون في كل مئبر ، اما بتركيب خاص في الالياف والمسام يجعل النسغ يتخذ أشكالاً وأوضاعاً شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واوضاع. ورأى لمالبيغي دور الاوراق في التغذية الذي انكره ارسطو . فقد طمر بالتراب فليقي نبتة قرع ذارّة ورأى ان النبتة ما لبثت ان ذبلت . ولاحظ من جهة ثانية ان أوراقها تتساقط حال تكون الاوراق الجديدة . فخلص من ذلك الى ان الفليقات تقوم بعمل المرضعة وان « الطبيعة أوجدت الاوراق بغية هضم النسغ المنتقل الى قريباتها بواسطة الالياف الخشبية » .

اصاغر الاجسام

افتتح المراقبون عالم أصاغر الاجسام كما افتتح الفلكيون عالم اكابرها ، ورفعوا القناع عن تشابهات تقلق البال بين الجهاز العضوي لكل من الانسان والحيوانات وطرحوا مسائل التوالد والنوع . في السنة ١٦٧٥ ، اكتشف لوينهوك النقاعيات ؛ وفي السنة ١٦٧٧ ، وصف حيوانات الانسان المنوية ، كما وصف بعد ذلك بقليل الحيوانات المنوية في الارنب والكلب والضفادع والاسماك والحلزون والحمار ، واظهر الاخيطـة الدموية في قلب ذكر البط وعضلات الضفدعة . وفي السنة ١٦٨٨ ، اهتدى الى كرويات الدم الحمراء في الحيوانات، ولاحظ ان كرويات الاسماك والطيور بيضوية الشكل . وبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٧٠٠ استثبت التناسل الذاتي عند الارق . واورد « مالبيغي » في كتابه حول دودة الحرير (١٦٦٩) تاريخ هذه الدودة الذي غدا مستنداً لمعرفة تنظيم الحشرات . واكتشف أنابيب التنفس في دودة الحرير والزيز وقرن الايل والجرادة والنحلة ، ورجم بانها تلعب عند الحشرات دور الرئتين . واورد الطبيب الهولندي « سوامردام » في كتابه « ملاحظات حول التحولات » (١٦٦٩) ، تاريخ القمل والصرصور والجرادة والبعوضة والخنفساء والفراشة والنملة والنحلة . ووصف « ريدي » (١٦٢٦ – ١٦٩٧) ، طبيب غراندوق توسكانا ، ديدانا معوية كثيرة ، واكتشف الغدتين اللتين تفرزان سم الثعابين . ولكن ما توصل اليه ، انكره « شاراس » (١٦٧٨) الذي زعم بان « السائل الاصفر » الذي تكلم عنه « ريدي » ، قد وضع في الجروح و « لم يتسبب في اي حادث » . وقد عزا « شاراس » نتائج النهش الى تأمير الثعبان الذي يغضب « فتصعد التأمير الى رأسه وتدخل بسرعة الى الجروح التي أحدثتها الاسنان » .

مسألة التوالد

أسفرت هذه الملاحظات عن تجدد مسألة التوالد. اعتقد معظم العلماء بالتوالدات الذاتية . بين « ريدي » في « ابحاث في توالد الحشرات » (١٦٦٨) ان الديدان لا تولد تلقائيا من تعفن الجيف . فاذا حوفظ على قطعة لحم من الذباب بشق مقفل اقفالا محكماً ، لن تتولد ديدان البتة . لا تتولد هذه الاخيرة الا من البيوض التي يتركها الذباب . الكائنات الحية لا تتولد الا من الجراثيم . ولكن ما توصل اليه « ريدي » لم يبد عظيم الاهمية ، ودفعت الآلية ماريوت الى الاعتقاد بان النباتات قد تتولد من الحمأ الجفف بفعل تجمع بعض الاجزاء الصغرى .

دب الخلاف بين أنصار البيوض وانصار الحيوانات الجهرية . اعتقد لوينهوك بان الجنين يتكوّن بالحيوان المنوي ، وبان لا حاجة من ثم الى بيوض بل الى محل موافق . ولكنه واجه اذ ذاك الحالات الوراثية حيث يشابه النسل الابوين معاً . أما أنصار البيوض فقد اعتبروا الجنين سابق التكوين واقصروا دور الحيوان المنوي على دور التحريك فقط . والواقع هو ان هؤلاء واولئك قد قالوا بالتكوين السابق . سبق لمالبيغي ان لاحظ في السنة ١٦٦٩ « ان رسم خطوط الدجاجة الاولية موجودة مسبقاً في البيضة ، وان اصل هذا الرسم سابق للولادة » . قادت نظرية التكون السابق الى نظرية تداخل الجراثيم . فان الجنين السابق التكوين في البيضة

مبايضه المصغرة التي تحتوي على جنين سابق التكوين له مبايضه ، الخ . كل الكائنات اللاحقة ، بعد الكائن الأول سابقة التكوين وتتداخل جراثيمها بعضها في البعض الآخر . « كانت البشرية كلها موجودة في أصلاب آدم وحواء » (١٦٩٢) . وقد حسب « هارتسوكر » في السنة ١٦٩٤، ان أول جرثومة تكونت ستصبح « بالنسبة لآخر جرثومة تظهر في السنة الاخيرة من القرن الستين كما هي الوحدة التي يليها ٣٠٠٠٠ صفر بالنسبة للوحدة » ، وخاص من ذلك الى استحالة النظرية . ولكن « مالبرانش » اعلن ان « الفكرة لا يمكن ان تبدو ماجنة وغريبة الا لاولئك الذين يقيسون معجزات قدرة الله اللامتناهية بمقياس وحي حواسهم ومخيلتهم » .

مسألة النوع

وطرحت المماثلات مسألة تحديد النوع . لم يتحقق التقدم في علم الحيوان بل في علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، اذ ان لبنية بادبات اللواقح مخططا عاما واحداً . ففي السنة ١٦٨٦ ، اعطى « جون كاي » ، في « تاريخ النباتات » ، تحديداً واضحا للنوع واقترح تصنيفاً مستنداً الى تركيب الطلع والاوراق الاولى، وادخل التمييز الاساسي بين ذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة . وميز « تورنفور » ، الاستاذ في « حديقة الملك » ، في كتابه « السبيل الى معرفة النباتات » (١٦٩٤) بين الاشجار والشجيرات والشجيرات الصغرى والاعشاب ، وعين التقسيمات في كل فئة وفاقاً لميزات النورة . فصادف نجاحاً عظيماً لدى العلماء الفرنسيين والايطاليين والالمان والانكليز بفضل ايجازه ووضوحه . ولكن ست طوائف فقط ، من اصل ٢٢ ، طابقت فئات طبيعية . وفي السنة ١٦٨٩ ، ادخل « مانيول » الاستاذ في « مونبلييه » مفهوم « الفصائل » المميزة لا بحسب جزء معين من النبات ، بل بحسب مجموع مميزات كل نبات يدخل في الفصيلة .

العلوم الاجتماعية
الحساب السياسي
الاحصائيات

ان الكرتزيانية والآلية اوحينا بفكرة العلم الاجتماعي ، وانضمتا في البلدان التي تميزت بانطلاقة رأسمالية كبرى ، الى الحاجات المتولدة من توافر الرقّبيات ومن نجاح التأمينات على الحياة ، للتسبب في ولادة علم احصاء الجماعات البشرية . فنظم « غرونت » ، في السنة ١٦٦٢ ، بيانات بالوفيات، مع حساب ترجيحات بقاء الاحياء ، بالاستناد الى لوائح الموتى في لندن ، ونظم الهولندي « دي فيت » ، في السنة ١٦٧١ ، بيانات مماثلة . واصلح هالي اخطاء غرونت في السنة ١٦٩٣ بالاستناد الى جداول برسلو . بفضل هذه البيانات توصل غرونت و « وليم بتي » ، وماتيو هايلز ، في « اصول الانسانية الاولى » (١٦٧٧) ، الى وضع سنة نمو السكان وفاقا لمتوالية هندسية ، وحدد هايلز فترة المضاعفة بخمس وعشرين سنة . فلم يتبق أمام « مالتوس » سوى ان يقارن هذه السنّة بسنة الايراد غير المتناسب . بذلك انتقل علم احصاء الجماعات البشرية من مرحلة الوصف التاريخية الى مرحلة وضع السنن العلمية . وانضمت الكرتزيانية والآلية الى الرأسمالية التي أوجدت عادة التعبير بالارقام عن كل شيء والى حاجات الدول المتحاربة ، عسكرياً ومالياً

فنشأ عنها كلها علم جديد .

ففي سبيل حساب نسبة القوى بين انكلترا وفرنسا المتنازعتين ، اوجد وليم بتي ، تحت تأثير الكرتزيانية والآلية ، علماً جديداً هو الدرس العددي للاحداث الاجتماعية ، « الحساب السياسي » (١٦٨٢ – ١٦٩١) ، وهو لمحات في مقارنة ثروات انكلترا وفرنسا . استهدف من وراء ذلك «ايضاح افكاره بمفردات العدد والوزن والقياس، والاقتصار على البراهين المحسوسة والاسباب المرتكزة الى اسس ظاهرة في الطبيعة ، تاركا لسواه أمر الاهتمام بما يتعلق منها بذهن البشر وآرائهم وأهوائهم ورغائبهم المتقلبة » . حلل الظروف الطبيعية بالدقة التي اتاحتها له معطياته العددية المحدودة ، وحسب القوى والجهود ، وحاول رد القوى المركبة الى عملية القوى البسيطة ، الثابتة والقابلة القياس . ونحا نحوه مواطناه «دافننت» و « غريغوري كنغ » ، فاصبح بمكنة السر « ددلى نورث » ان يكتب في السنة ١٦٩١ ، في مستهل « خطبته في التجارة » ، « امست المعرفة آلية الى حد بعيد » .

واعطت حاجات الدول العسكرية والمالية علم الاحصاء اهمية جديدة . ففي فرنسا فرضت بعض التدابير التشريعية (١٦٦٧ ، ١٦٧٣) على خدام الرعايا تنظيم سجلات الحالة المدنية . ونشرت مستندات الحالة المدنية في باريس ، بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٦٨٤ ، واستؤنف نشرها بعد السنة ١٧٠٩ ، وتكرر احصاء عدد السكان : استقصاء السنة ١٦٦٣ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٣ في سبيل سياسة تموينية ، والاستقصاء الكبير الذي قام به الوكلاء منذ السنة ١٦٩٧ حتى السنة ١٧٠٠ ، بناء على طلب دوق بورغونيا ، والذي استخلص منه « فوبان » و « بوغرين » تقديراتها لعدد سكان فرنسا . نظمت هذه الاحصاءات على اساس «العائلة» ، لا على أساس الشخص في تاريخ معين فجاءت من ثم ناقصة جداً ، ولكن فوبان ، المهندس والمتعهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . فقد اقترح في « العشر الملكي » الذي حرره في السنة ١٦٩٩ ونشره في السنة ١٧٠٧ ، احصاء عدد السكان كل سنة على اساس مراتبهم ومهنهم ؛ ووزع جداول الاحصاء على أساس الرعية : الرجال ، النساء ، الفتيان (فوق ١٤ سنة) ، الفتيات (فوق ١٢ سنة) ، الصبيان ، الصبايا ، الخدام ، الخادمات ، عدد البيوت من الفئات المختلفة ، والحيوانات الاليفة من كل نوع ، والاراضي المزروعة والبائرة ، والكروم المزروعة والمهملة ، والغابات على انواعها ، والمطاحن والخازات .

التقنية ، الآلات

ما زال العلماء مسيرين قبل كل شيء ، في ابحاثهم ، اما بالحاجة الى حل المسائل الفلسفية والدينية وتوطيد قواعد المعتقدات اللازمة لحياتهم ، واما بالتعطش الى الفهم الذي هو شكل من اشكال روح النهضة وشهوة القوة وروح السيطرة والاستمتاع . ولكنهم انشغلوا اكثر فاكثر بتطبيق تحقيقاتهم على الحياة المادية . وجاءت الانطلاقة الاقتصادية والاجتماعية تعزز في الاذهان تقليد ديكارت . ففي رأي ديكارت ان

غاية الفلسفة هي فائدة الجنس البشري ، الفائدة الكلية . ولذلك فقد سعى وراء تخفيف آلام البشر وتعزيز قدرتهم على الطبيعة . منذ السنة ١٦٣٧ ، كتب لوالد « هويغنس » بحثا موجزاً في الآلات البسيطة . وتخيل آلات متحركة لتنفيذ الاعمال الشاقة هي اسلاف اجهزتنا الآلية المسيرة بالكهرباء والمغناطيس. وبعد ان رأى مدارس الفنون والمهن في هولندا ، اشار بان تلقى على الصناعيين اليدويين دروس في الرياضيات والطبيعيات والآليات في قاعات تزود بكافة الادوات الضرورية . واتجهت الأفكار نحو اختراع الآلات . اضف الى ذلك ان اعمال البناء والاشغال العامة في الدول المطلقة ، والآلات المستعملة لرفع الاثقال قد أثارت الاعجاب وحملت على الاعتقاد بان البشرية دخلت في عهد الآلية . وتوصل الفرنسي باسكال في السنة ١٦٤٢ ، والانكليزي « صموئيل مورلند » في ١٦٦٦ ، والالماني ليبنيز بين السنة ١٦٧١ والسنة ١٦٩٤ ، الى ابتكار آلات حاسبة ، وانهمك هويغنس في اكتشاف ساعة ذات رقاص بغية حل مسألة خطوط الطول ، واخترع « ادوارد سومرست » ، مركيز « وورسستر » ، في السنة ١٦٥٥ ، آلة بخارية رفعت الماء حتى علو ٤٠ قدماً في « فوكس — هول » . وتوصل الفرنسي « دنيس بابين » الى ابتداع صمام الامان في السنة ١٦٨١ ، وأول آلة بخارية مزودة بمكبس يتحرك داخل اسطوانة . قوة البخار المتمططة تدفع المكبس الى الاعلى . يتخثر البخار اذ ذاك فيحدث الفراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية تحت تأثير الضغط الجوي . في السنة ١٧٠٧ استخدم بابين آلته في تحريك سفينة : الآلة البخارية ترفع الماء الذي يهبط على دولاب ويحركه ، وتنتقل الحركة الى المنفات . واستحصل المهندس العسكري الانكليزي « توماس سافري » (١٦٥٠ — ١٧١٦) ، في السنة ١٦٩٣ ، على شهادة حكومية حفظت له حقوق استثمار آلة بخارية معدة لضخ مياه المناجم نحو الخارج . فكانت هذه الآلة الاولى التي طبقت عملياً . استخدمت لتموين المدن والمنازل الخاصة بالمياه ، ولانزاح بعض المناجم ، الا ان رفع المياه حتى علو كاف في المناجم يتطلب ضغطاً يبلغ عدة اجواء . ولكن تجاوز ضغط ثلاثة اجواء كان عملية خطرة لا سيما وان « سافري » لم يستخدم صمام الامان . فكانت الآلة من ثم خطرة ، واستلزمت من جهة ثانية محروقات كثيرة ، فلم تفلح في التغلب على منافسة الآلات التي تدار بالاحصنة .

تقدمت الابحاث في كل الاتجاهات . ويتكلم اليسوعي « كسبار شوت » في احد مؤلفاته اللاتينية عن غواصة (؟) جرت تجربتها في السنة ١٦٥٣ ، على حد قوله ، في نهر الرون .

فكرة التقدم والثقة العمياء في العلم

جاء في احدى فقرات مدخل وضعه باسكال لبحث في الفراغ راج مخطوطاً في القرن السابع عشر ما يلي : « يجب ان ننظر الى جميع البشر الذين تعاقبوا على مر القرون الطويلة كما الى انسان واحد يدوم ابداً ويتعلم دائماً » . معارفنا تفوق معارف الاقدمين ، وهذا يعني ان معارف من سيأتون بعدنا ستفوق معارفنا . وفي السنة ١٦٨٨ ، توسع فونتنيل في الفكرة نفسها خلال المشادة التي قامت

بين الاقدمين والمعاصرين ؛ فتبين ان العلم يمهد السبيل لتقدم غير محدود . وانطوت مقدمته لكتاب « تاريخ تجدد الاكاديمية الملكية للعلوم » (١٧٠٢) على نشيد تهليل للعلم . الى العالم يعود امر توجيه البشر . العالم متفوق على الامراء والفاتحين . وهو سيبرع في السياسة لانه متمرن على الحسابات الدقيقة والتركيبات الصعبة . معارفنا ستتوسع ابداً . سننتهي الى معرفة كافة اجزاء الآلة المدهشة . معارفنا ستعطينا القدرة لا على التفكير تفكيراً صحيحاً وجلياً فحسب ، بل على « اكتشاف الآلات الجديدة والسريعة التي تختصر وتسهل عملنا، والتبصر في تدبير اعتماد عدة عوامل أو مواد تؤمن لنا منتوجات جديدة ومفيدة يكون باستطاعتنا استخدامها ومن ثم زيادة مجموع ثرواتنا ، اي الاشياء المفيدة لرفاهيتنا » . سيأتي يوم يطير فيه الانسان و « يصل في يوم آخر الى القمر » . الموت سيتقهقر والارض ستغدو فردوساً .

امسى العلم معبوداً واسطورة . فلم يفرق بينه وبين السعادة ، كما لم يفرق بين التقدم المادي وبين التقدم الاخلاقي . واتجه العلم الى الحلول محل الفلسفة والدين . « يسمو علم الطبيعيات الحقيقي حتى يصبح نوعاً من اللاهوت » (فونتنيل) .

٤ – ازمة الفكر والحس

جماليات المعاصرين ، جفاف الادب

نشأت نظرة جديدة الى الجمال ، وقد نشأت عن العلم في الدرجة الاولى . وفسر فونتنيل ذلك بقوله : « لا ترتبط الروح الهندسية بالهندسة ارتباطاً يحول دون نقلها من الهندسة الى معارف اخرى . ان المؤلف السياسي ، والاخلاقي ، او الانتقادي ، أو حتى البياني، سيكتسب مزيداً من الجمال ، مع حفظ النسب ، اذا ما دبجته يد المهندس. ولعل مصدر الترتيب والوضوح والدقة والضبط ، التي تسود الكتب منذ بعض الوقت ، تلك الروح الهندسية التي انتشرت انتشاراً لم تعرفه في أي وقت مضى » . ان الروح النفعية ، التي قوّاها نمو العلم ، والازمة الاقتصادية والاجتماعية ، وارتقاء البورجوازية ، قد اوجدت الرغبة في المؤلفات المفيدة ، اي المؤلفات الواضحة الدقيقة . وجاءت الروح الهندسية والروح النفعية تعززان عصرية ردهات الاستقبال حيث كان الناس سعداء باكتشاف هذا العون لمهاجمة العلماء والاساتذة وأدعياء المعرفة، اي كل اولئك المبرمين الذين يفرضون بذل الجهود . فقد ولى زمان أثارت فيه سمة الاطلاع ، والعصور القديمة ، حماس الهواة المستنيرين ، وحمت فيه رغبة المعرفة الجماهير . ان عهد الشغف بمعرفة كل شيء ، بأي ثمن ، قد عقبه عهد نفرّته الانظمة الاجتماعية خلال الحروب الطويلة فأراد التوصل الى بعض الوضوح في كل شيء ، باقل جهد ممكن ، اي الى « صباغ معرفة في أحب المسائل التي تثار في المجتمعات المحترمة » . الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتحلي بخلق جميل ولهجة ظريفة ، فيُعف حينذاك عن المعرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المترفون

يزدرون باللافنة . بات التمكن من معرفة المؤلفين الاقدمين وقفا على اقلية ضئيلة . « ليس هناك سوى اللافنة تقريباً من يتقنون اللاتينية » ؛ اما الآخرون فامامهم الترجمات ، « الخائنات الحسناوات » حيث الحذف والتخفيف والتجميل ، التي تموه مؤلفات الاقدمين وتشوهها خدمة للعالمين . هؤلاء فقدوا كلياً معنى الجمال الكلاسيكي . وفي المشادة بين الاقدمين والمعاصرين ، وقفوا الى جانب المعاصرين ، اي الى جانب «شارل برّو» (« قصيدة في عصر لويس الكبير» ، ١٦٨٧ ؛ « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨ - ١٦٩٦) ، وفونتنيل(« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) وكل من يثبتون تفوق « عصر لويس » على عصري بريكليس واوغسطوس وتفوق الكمال « العصري » على كال الاقدمين . وكان للمشادة صداها في كافة انحاء اوروبا . ففي كل مكان ، في « لاهاي » ، و « امستردام » ، وانكلترا ، والمانيا ، صادفت النظرة « العصرية » الى الجمال انصاراً كثيرين .

النظرة الجمالية الجديدة هي انتقال بروح العلم الكرتزياني الى الادب . ان هدف المؤلف الأول هو الإفهام ونقل الحقائق المفيدة . فالصفات الجوهرية من ثم هي « الجمالات الشاملة » ، العقل ، والرأي الرشيد ، وقابلية الملاحظة والفهم ، والتدقيق ، والترتيب ، والوضوح ، والمنطق . في سبيل بلوغ الحقيقة ، يجب اعتماد النهج المتبع في علم الطبيعيات حيث يحكم على الاجسام بحسب اتساعها وحركتها ، بصرف النظر عن الصفات الحسية : يجب ان نحكم على الشعر والبيان بصرف النظر عن الاذن والفؤاد . لنقف موقفاً حذراً من الاحساس والتأثر والهوى والحيا الجميلة والحرارة المقدسة والحماس والتمثل الشعري . كل ذلك حرارة دم وخيال ووهم وجنون . الخلق الشعري العصري عملية حصافة وبرهنة لا تنطوي على اي غرض او ميل . واذا كان « المعاصر » يناقض بذلك كل من سبقه ، فهو المحق والمصيب : فكما ان هنالك تقدماً في العلوم ، فهنالك تقدم في الفنون ايضاً ، واذا اختلف الكمال المعاصر عن كمالات العصور الاخرى ، فانه متفوق عليها جميعها . لذلك لم يتردد « هودار دي لاموت » في تكميل هوميروس وتنقيته من « النوافل » ، النعوت ، الصور ، المقارنات ، السذاجات ، الدنايا ، العوارض التاريخية ، الطابع المحلي ، وكل ما يعيد الى الذاكرة حضارة بربرية . وأقصر المؤلف المركب المتناسق الملون المليء بالحياة الذي وضعه الشاعر اليوناني على الوقائع والعناصر البينة الشاملة . « ديكارت نحر الشعر في عنقه » (بوالو) . « الشلل ادرك القلب » (دارجنسون) . « لقد ذهب الآلهة . وباستطاعتي القول انني رأيت الآداب تزهر وتموت وانني عمرت فوق ما عمّرت (هويه) . افضل كتاب هو « السجايا » (١٦٨٨ — ١٦٩٤) للابروييو ، المراقب الاجتماعي المعارض . فكانت الغلبة للكلاسيكية الكاذبة المرتكزة في جوهرها الى القواعد والطرائق ، الحذرة من العبقرية ، العاطفة على متوسطي المواهب .

ملاجىء الشعر
الرسم والتزيين
الاوبرا ، النظام الخيالي

« بمكنة الانسان ان يعيش ثلاثة ايام بدون خبز ؛ اما بدون شعر فلا » . ان الشعر ، الذي أقصي عن الادب ، قد التجأ الى الرسم والتزيين . وفي المشادة التي قامت في فرنسا بين انصار « روبنس» وانصار « بوسين » حوالي ١٦٦٨ ، رجحت كفة الاولين رجحاناً ظاهراً : حوالي السنة ١٧٠٠ ، بحث المصورون والجمهور عن اللذّة في الضوء واللون . جدّد الفنان في اثر ما يتميز بحميا الاهواء وقوّة التعبير والحياة العارمة والسجايا الفردية . فان « كوابل » ، في كنيسة فرساي ، و « لافوس » ، في « الانفاليد » ، قد اعادا الشباب الى العقود بالوان اوفر صفاء وبهجة وبرسوم ارسخ بروزاً ومتانة . ووصل « فاتو » (١٦٨٤ - ١٧٢١) من « فالنسين » الى باريس في السنة ١٧٠٢ وتتلمذ لِ « كلود جيلو » و« كلود اودران» . ورسم لوحاته العسكرية الخالية من التصنع ، « ظهر الحرب » ، وعرض لوحاته المعدة للمهازل والاعياد الانيقة . وتحوّل التزيين بعد ١٦٨٥ - ١٦٩٠ ، فأحيا « بيرين » تصوير الاوراق المتشابكة واضفى عليه الخفة والرقة ، واطلق الفنان مخيلته ، فابتدع مواضيعه الجديدة : حنايا الاوراق النباتية ، والرسوم الحلزونية الانيقة ، وقوائم الدرابزونات التي ستند اليها صور الانسان التيس وابي الهول والعنقاء ، وبعض اشخاص المهزلة الايطالية والاوبرا ، كالموسيقيين العازفين على القيثار والبوق ، الحازّين الدفوف بايديهم ، الماشين على ايديهم ، او كالصينيين والاتراك الذين ابتدعهم خياله . وفي « مودون » ، ملأ « كلود اودران » الثالث السقوف بصور آلهة الحب والقرود والهنود والدلافين . فغزت الجدران رسوم القرود او رسوم المواضيع الصينية كتلك التي حققها « فاتو » في قصر « لا مويت » . وبرزت مرة اخرى الحركة والخيال وتأثيرات المخيلة والحس .

اما الاوبرا ، وهي عيد الالحان والالوان والاوزان ، وتأثر شهواني عذب ، فقد استقبلت استقبالاً حاراً في نابولي وروما وفلورنسا والبندقية وفيينا و « درسد » وليبزيغ وباريس ولندن .

واخيراً وجد الشعر له ملجأ غير منتظر في احلام عصور ذهبية اورد ذكرها على لسان « البربري الصالح » و « الصيني الحكيم » في الف نظام اجتماعي خيالي نسقت تنسيقاً منطقياً بالاستناد الى معطيات استوقفت الحواس .

الخطاط تعلم الآداب القديمة

هبط مستوى الدروس في الكليات بسبب سيطرة الشواغل النفعية على التلاميذ وآبائهم . فالحياة قد قست على الكثيرين . اما الاولاد ، المتزايدون تزايداً مطرداً ، والمتحدرون من البورجوازية التجارية ، فيأتون من اوساط تقف موقفاً حذراً من الآداب القديمة : « اعتبرت الدروس اليونانية غير ذات فائدة فضعفت وانحطت . وخلت صنوف الفلسفة : ما هي الفائدة من كل هذه الاشياء الباطلة ؟ » واذا كان للغة اللاتينية بعض الحظوة « فبوصفها اجراءاً ضرورياً للوصول الى مهن مختلفة او

دلالة على المركز الاجتماعي المحترم » . وطلب حديثو النعمة ، في الدرجة الاولى ، من المدرسة، تزويد اولادهم بتلك « المعارف الجميلة » ، بتلك « الصباغات » من كل شيء ، بتلك « الآداب اللطيفة » ، التي تتيح كلها البروز في المجتمع . فارضاهم الاساتذة بفيض من التمارين العامة ، في التاريخ والجغرافيا ، والمرافعات باللغة الفرنسية ، والرقصات الرمزية ، وكلها ترضي حب التظاهر العائلي ولكنها تضر بعلم الآداب القديمة اضراراً كبيراً .

٥ – ازمة الفكر والحس

ازمة الدين

تراجع الصوفيين

ان الصوفيين الذين انقذوا الكاثوليكية بالصلاة باتوا وكأنهم في عالم آخر لأن ليس من يفهمهم . فان « نيقول » (« مدعو الوحي » ١٦٦٥ – ١٦٦٦ ؛ « بحث في الصلاة » ، ١٦٢٩ ؛ « دحض اخطاء مذهب التجرد الرئيسية » ، ١٦٩٥) ، ومالبرانش ، وبوسويه ، وبوردالو ، كانوا غرباء عن الصوفية او معادين لها . الاوغسطينية سيطرت وسيطر معها الاقتناع بأن التنعم واللذة هما محرك الانسان الوحيد وبأن الارادة لا تميل الا الى ما يقع منها موقع الرضى . وذهب الجنسينيون بهذا المذهب الى حد الافراط: كل ميولنا وكل عواطفنا تعود في جوهرها الى حب الذات. ولكن الصوفيين ادعوا بأنهم لا يبحثون في محبتهم لله عن التعزيات الحسية . وقالوا ان هذه المحبة هي ميل الى الله، قد يبعثه الله دون ان يرفقه باللذة ، في وسط يبوسة هي تطهير داخلي . واكدوا انهم يشعرون بالسعادة ، دونما لذة ، في وسط الآلام . فكانوا من ثم مغررين انفسهم في نظر نيقول والآخرين . وكل ما يعزونه الى النعمة ليس سوى وهم انانيتهم وصنع مخيلتهم .

كان خصوم الصوفية كرتزيانيين وآليين ، فاعتقدوا بامكانية معرفة الله العقلية فقط ، عن طريق الافكار الواضحة والبرهنة . أما الصوفيون فقد تكلموا عن مشاهدة مبهمة ، عن حوار مع الله دونما صوت كلام أو تلامس مادي ، دونما شيء يمكن ان يقع تحت الحواس أو يكون بمعنى الكلمة المادي . كانت معرفتهم لله معرفة سرية ، خالية من المثل ، غامضة ومبهمة . وابى خصوم الصوفية التسليم بما لا يشعرون به ، اي بتمييز فكرة الله ومعانقة الله . وفي رأيهم ان الصوفيين لم يدركوا ما يقولون ، وانهم ضربوا بالرشد عرض الحائط ، وأنهم معتوهون ومجانين .

احب الصوفيون الله ، وكانت المحبة حياة لهم. أما خصومهم فقد أرادوا ديناً مفيداً ، عملياً، يستهدف اكتساب الفضائل مباشرة . ورفضوا مناجاة النفس لله ، واتحاد النفس بالله ، وعبادة الله الحاضر حضوراً ذاتيا مباشراً . واقصروا الصلاة على التأمل استعدادا للقيام بواجب ، أو للتسلح ضد التجارب ، أو لتنظيم المشاغل والاعمال، على فحوص الضمير المتعددة. باطلة كل فكرة عن الله « لا تتضمن اية فكرة عن أمر أو قاعدة يجب التقيد بها ، أو عن رذيلة يجب تجنبها » .

فاقتصر الدين من ثم على مساعدة الاخلاق وبات علماً اخلاقياً نفعياً ، وأنزل الله الى مرتبة معاون للانسان . وكان ذلك انحداراً جديداً من نظرية مركزية الله الى نظرية مركزية الانسان .

مذهب التجرد

انفجر الموقف هذا في قضية مذهب التجرد . ان النظرية التجردية التي طلع بها الاب « جان فالكوني » من جمعيـــة سيدة الشكر ، انتشرت في فرنسا مرة اخرى بواسطة « مالافال » (« الطريقة السهلة للسمو بالنفس الى التأمل » ، ١٦٠٠) ، وفي اسبانيا بواسطة « مولينوس » ، أحـــد كهنة ابرشية « ساراغوس » (« الزمام الروحي » ، ١٦٧٥). في رأي التجرديين ان من واجب النفس الاستسلام لله في راحة كاملة استسلاماً نهائياً. حينذاك يفعل الله بالنفس ما يطيب له ان يفعل . في هذه الحالة ، التي تكون دائمة ، لا تستطيع النفس ان تخطىء مهما صدر عنهـا . فيتضح من ذلك ان هذا التعليم انطوى على نتائج خطيرة : فقد رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، واشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان كل ذلك يمنعهم من الاتحاد بالله . اعتبروا كل أفكارهم ايحاءات من الله وحسبوا ان كل ما يمر في خاطرهم جائز ومحلل لهم . سجن مولينوس وادين بناء على طلب محكمة التفتيش الرومـــانية . وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرهاً تحت ضغط لويس الرابع عشر . فان رقيمه ، في الواقع ، قد خـطّأ مذهب التجرد وخطأ معه ممـارسات مشتركة بين التجرديين والصوفيين تتفق كل الاتفاق والمعتقد القويم ، كصلاة التجرد أو صلاة الايمان التي هي نظرة محبة مباشرة من النفس الى الله ، دونما صور باطنية وتأمل وبرهنة وتفكير .

أما في فرنسا فقد سبق لاحدى المتصوفات ، السيدة « غويّون » ان نشرت « الطريقـــة الموجزة والسهلة جداً للصلاة» ، ولن تلبث ان تؤلف « السيول الروحية » . وجمعت من حولها بعض الاشخاص الروحيين الذين كان لهـــا عليهم سطوة كبرى . وكان من بينهم الاب « دي فينيلون » مهذب درق « بورغونيا » . وكانت السيدة «غويون» صديقة للسيدة «دي منتنون» ، فشغفت بآرائها معلمات وآنسات « سان - سير ». الا ان صوفيتها ما لبثت ان اصبحت موضوع ارتياب لا سيما وان من شأن بعض تعابيرها المفرطة أو الخرقاء ان لا يفرق السامع بينهـــا وبين التجرديين . حكم على « الطريقة الموجزة » في رومـــا في السنة ١٦٨٩ . ونبهت السيدة « دي منتنون » الى الخطر في السنة ١٦٩٤ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافـــع فيها كلاهما عن آرائهما ، بوسويه في « درس في حالات الصلاة »، وفينيلون في « تفسير مبادىء القديسين حول الحياة الباطنية » في السنة ١٦٩٧ . وتدخل اخيراً لويس الرابع عشر ، فاعفي فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٥ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفـــة « كمبريه » ، ثم حكم البابا على كتابه في السنة ١٦٩٩ .

بيد ان ما يلفت النظر هو ان « التفسير » قد اثبت بان فينيلون ، المدافـع عن الصوفيين ، لم يكن اطول باعاً في فهم الصوفية من خصومه. فقد شدد على طابع التجرد في المحبة الصوفية،

بحيث ان الصوفي يحب الله مـــن كل نفسه حتى ولو حدث ، بفرض مستحيل ، ان الله يجهل محبته ويريد له نيران جهنم الازلية . واستشهد فينيلون بالقديس برناردوس وغـــيره . ولكن القديس برناردوس قد تبرأ منه مسبقاً . فهو قد سبق له وابان ، ضد « ابيلار » الذي قال قول فينيلون ، ان محبة الله لا يمكن ان تكون مجردة تماماً . فمحبة الله ، من جهة ، تستهدف الكائن الاعظم ، اي الخير الاسمى والسعادة السميا . أما محبة الخليقة ، من جهة ثانية ، فقد لا تقابلها مكافأة ، وتصبح مجردة في حال تماديها . ولكن محبة الله مكافأة ابداً لأن الله احبنا قبل ان نحبه ولا يطلب منا سوى محبتنا كي يسبغ علينا نعماً جديدة . يضاف الى ذلك اخيراً ان النفس لا تحب الله من اجل ذاته ما دامت قادرة على فرض المستحيلات ، فان النفس ، حين تحب الله من اجل ذاته ، تنقطع عن الفرض والتفكير وتنصهر في الله . وقد اتضح من كل ذلك ان فينيلون لم يختبر الصوفية وانه ، هو ايضاً ، قد تكلم عنها كما يتكلم الاعمى عن الالوان .

ولكن النتيجة التي آلت اليها كل هذه المشادات هي تكريه قراءة المؤلفات الصوفية وانتقاص عـــدد النفوس الداخلية حتى في الاديرة ، بينما كان الدين يتعرض لهجمات العقليين والمؤرخين .

التاريخ ضد الدين

استخدم العلم الواسع في التاريخ لغايات سياسية ودينية ، فمـارض في نموه التاريخ الخطابي على طريقة « تيت – ليف » مع ما ينطوي عليه من خطب وحكم وتحاليل ومقارنات . ولم يزل هنالك ، على كل حـــال ، مؤرخون من هذا الطراز ، كـ « فرتو » مثلاً الذي ارشد الى مستندات حول حصار مـــالطة بعد الانتهاء من تحرير نصه ، فأجاب بان المستندات جاءت متأخرة وان الحصار قد تم ، أو كالاب « دانيـــال » الذي ذهب للاطلاع على مجلدات مكتبة الملك ، فامضى هناك ساعة واعتبر نفسه مسروراً جداً . وعارض التاريخ كذلك ، في اتساع اتجاهه ، بعض الكرتزيانيين المولعين بالحقائق الشاملة دون غيرهـــا . فقد درج « مالبرانش » على القول ان آدم امتلك المعرفة الكاملة دون ان يعرف التاريخ ؛ وقد اكتفى ، في حقل التاريخ ، بما عرفه آدم . واعجب الكثيرون بهذا الموقف لأن « الجيل الطالع كان راغباً في الرخاء والطيش ومنصرفاً عن كل ما لم يبد له سهلاً » .

البندكتيون

ولكن جمعية بندكتيي « سان ــ مور » كانت قد نذرت نفسها للعلم التاريخي الواسع لاجل مجد الله . وكانت مصممة على نشر مؤلفات الآباء وعـــلى وضع تاريخ جمعية القديس بندكتوس . وقد نظم العمل المشترك ، في دير الرئاسة ، « سان – جرمين ده بريه » ، ما بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٤٨ ، «لوقا داشري» الذي خلف غريغوريس تاريس. حوالي السنة ١٦٦٤ ، كانت تجتمع في قليته ، أيام الاحاد، ندوة من العلماء الواسعي الاطلاع في التاريخ ، « دي كانج » ، « بالوز » ، « فيون ديروفال »، رئيس « هارلي » . ثم جـــاء تلميذه « مابيون » (١٦٣٢ – ١٧٠٧) فأسس علم « الدبلوماتيقية » الذي يعين درجة صحة وثائق القرون الوسطى ، الصكوك ، المعاهدات ، العقود ، السجلات (« الدبلوماتيقية » ، ١٦٨١) .

واسهم بفخر في أعمال البندكتيين الذين نشروا ، حتى السنة ١٧٩٢ ، ٧١٠ مؤلفات يضم كل منها عدة مجلدات كبرى : « غاليا المسيحية » ، « مؤرخون من فرنسا » ، « مؤرخو الحروب الصليبية » ، « فن استثبات التواريخ » ، طبعات مؤلفات الآباء اللاتين واليونانين ، مجموعة الوثائق .

ومن جهة ثانية ، استهدف روح السلطة هجوم عام زعزع الايمان في وحي الكتب المقدسة والامتياز الديني للشعب اليهودي . وكان مصدر هذا الهجوم ، في الدرجة الاولى ، تطبيق العقلية الكرتزيانية على العلم التاريخي الواسع .

البحث اللاهوتي السياسي ا « سبينوزا »

أعلن سبينوزا في كتابه « البحث اللاهوتي السياسي » ان العقل يثبت عجز الدين وضرورة نبذ كافة المعتقدات التقليدية . الدين غير ناجع : اذ يستحيل التمييز بين مسيحي ويهودي ، أو تركي أو وثني . لماذا يا ترى ؟ لان الدين لم يعد فعلا داخلياً، مدروساً ، مقتنعاً به ،بل عبادة خارجية ، وممارسات آلية ، وطاعة سلبية لاوامر الكهنة . ولكن هؤلاء الكهنة طماع استولوا على الكهنوت بدافع الجشع . يجب التخلص منهم ، والاعتماد على النفس ، واستخدام العقل ، شرف الانسان .

الطاعة مفروضة باسم الكتاب ، في حال ان الكتاب ، كما ثبت ذلك ، ليس عمل الله ملقناً أنبياءه : فهو محشو بالمتناقضات والاخطاء . كتب الكتاب القديم ليست اكيدة الصحة . فهي متألفة من وثائق مختلفة المصادر ومتفاوتة القيمة . الوثائق الاصلية افسدت بفعل خرق المستنسخين وأسيء سبكها . الكتب التاريخية البحتة (الاسفار الخمسة ، يشوع ، القضاة ، الملوك) معدة لتقديم تاريخ شعب اسرائيل من زاوية موافقة لمدرسة معينة من اللاهوتيين . وهي لا تعود ، في شكلها الحالي ، الى ما قبل عزرا . ولا ريب في ان الشعب اليهودي لم يختر للمحافظة على الشريعة الالهية لانه شعب ولى وانقرض . الدين العبراني والمسيحي ظاهرة تاريخية ذات صبغة عابرة ، لها تفسيرها في زمانها وظروفها .

ريشار سيمون

ان « ريشار سيمون » (١٦٣٨ – ١٧١٢) ، أحد كهنة جمعية القديس فيلبس النيري ، الذي سبق له ان قال بالكرتزيانية ، قد تأثر تأثراً عميقاً بـ « البحث اللاهوتي السياسي » وبمحاجات المؤرخين الذين لم يتوصلوا الى التوفيق بين معطيات التوراة العددية والمعطيات العددية لدى الشعوب الاخرى . فسار بطريقة سبينوزا الى ذروة كمالها . ووفاقاً للروح الهندسية الكرتزيانية لم ينظر الا الى جزء من الواقع . فتكون لديه مبدأ اساسي مسلّم به دون برهان : اقصى اعتبارات الجمال والاخلاق ؛ وجعل من شرح المتن علما قائماً بذاته مستقلا عن اللاهوت وعلم المقولات.لم يكترث، في تحديد درجة الصحة ، الا للمعطيات المادية ، المخطوطات ، حبرها ، كتابتها ، احرفها ، فواصلها ، نقاطها ، حركاتها . فان تفسير

التوراة عملية تحليل لغوي ، واتباع نهج نحوي جيد ونقد تاريخي سليم ، واتقان اللغة العبرانية ولغات الشرق ، والاقتصار على المعنى الحرفي ، ووضع الكتب المقدسة في إطارها ، ومعرفة حياة الانبياء ودروسهم ودورهم ، وزمان وظرف تأليفهم كتبهم ، والشخص الذي وضعوها من أجله ، واللغة التي وضعت بها ، ونصيب كل كتاب ، وكيفية جمعه ، والايدي التي انتهى اليها ، الخ .

استطاع حينذاك الاجابة على السؤال التالي : هل يجوز النظر الى التوراة كا الى كلام الله ، الموحى به مباشرة ، المدون خطاً ، المنتقل الينا في حالته الاصلية ؟ وقد أجاب بالنفي ، لان الاسفار الخمسة مثلا ليست من تأليف موسى ، كما هو ثابت . انها تتضمن استشهادات وامثالا وأشعاراً تنم عن لغة وانشاء لاحقين لعهد موسى ، « فهل يعقل ان ينسب الى موسى الفصل الاخير من سفر «تثنية الاشتراع» حيث دون وصف موته ودفنه ؟» كما انها تتضمن اقوالاً مكررة لا يحصى لها عد . فهي من ثم مؤلف غير متلاحم الأجزاء وضعته أقلام خرقاء في عهود مختلفة ، ونُقح برفل تكراراً ، بحيث يستحيل اليوم معرفة واضعه الاول الحقيقي .

هل يجوز اعتبار العقيدة الكاثوليكية والممارسات الكاثوليكية مستخلصة مباشرة من التوراة ومسوّغة بها ؟ كلاّ . فقد درس العهد الجديد ووجد ان هذا المقطع من القديس يوحنا : « لي ثلاثة شهود في السماء » ، الذي يؤلف احد مرتكزات عقيدة الثالوث ، لا أثر له في المخطوطات الصحيحة . ولا يمكن ان يعزى الى مريم نذر بتولية دائمة ، اذا ما استندنا الى لوقا ، ١ ، و ٣٤ . يضاف الى ذلك ان تفسير « ريشار سيمون » للكتاب المقدس كان تفسيراً عقلياً . فهو ، مثلا ، يضعف النصوص التي تثبت مجانية انعامات الله . وقد ترجم هذا المقطع : « اعززت يعقوب ، ولكنني غضبت على عيسو » بـ « احببت يعقوب اكثر من عيسو » . وفي حادثة امرأة لوط ، ترجم هذا المقطع : « حولت الى تمثال من الملح » بـ « غدت كتمثال من الملح » ، اي جامدة » . الا ان بوسويه توصل الى إدانة ريشار سيمون واتلاف طبعة الكتاب . وشن البروتستانتيون « فوسيوس » و « سبانهايم » و « باسناج دي بوفال » و « جوريو » و « لو كلير » هجمات عنيفة على سيمون . وكان في رأي بوسويه ان المهم في الامر هو فائدة القارىء الاخلاقية والدينية ، التي ترتبط بسلطة الكنيسة المؤتمنة على التقليد . ان التقليد ، اي ما آمنت به الكنيسة منذ البداية ، يتقدم على النص ، كما ان هذا المعنى او ذاك حقيقي لان الرسل والآباء والمجامع والملافنة قد اجمعوا الرأي على ذلك بالهام من الروح القدس ، وعلى علم قواعد اللغة ان ينحني امام اللاهوت . ولكن سيمون لم يرتدع ولم يتراجع . وحين نشر في السنة ١٧٠٢ ترجمة العهد الجديد ، المعروفة بترجمة « تريفو » ، لم يتوفق بوسويه ، هذه المرة ، الى حمل المستشار على إلغاء الكتاب ، لان الايام كانت قد تبدلت .

بوسويه
والعلل الثانوية

ان بوسويه ، الذي تأثر بالكرتزيانية ، قد خلخل ، على غير قصد منه ، الدين الذي كان راغبا في الذود عن حياضه . في كتابه « خطبة في التاريخ العام » (١٦٨١) ، اراد ان يثبت ان الله قد رتّب كل تاريخ العالم الوثني استعداداً لمجيء يسوع المسيح . ولكنه لم يلجأ الى الله تفسيرا الا مرة واحدة ، مكتفيا في ما عدا ذلك بالعلل الثانوية ، او العلل البشرية ، لتفسير الاحداث الانسانيـــة . هاجم البروتستانت ، الذين جاهروا ، شأن الكاثوليك ، بان « الدوام دليل حقيقـة ، والتحول دليل ضلال » ، فنشر في السنة ١٦٨٨ ، « تاريخ تحولات الكنائس البروتستانتية » المستقى من المصادر . ادى هذا التاريخ الى بعض الارتدادات ، كما انه ادى عند البروتستانت ، كجوريو ، منذ « الراعويتين » السادسة والسابعة ، و « باسناج » ، و « بورنيه » ، الى ردة فعل شاملة : سلم كلهم بضرورة التحول ، دليل الحياة الداخلية وعمل الروح القدس . ولكن من شأن هذه الحركة ، اذا بولغ يومــاً في تسلسلها المنطقي ، ان تفضي الى حرية دينية لا حدود لها. فأوحى بوسويه بذلك الى البروتستانت بنزعة خفية ، او استعداد غير ظاهر في البروتستانتية ، هو مبدأ الحرية لا بل مبدأ الاباحية الذي تنطوي عليه . ومن سخرية القدر ان بوسويه « قد عمل بصورة غير مباشرة على استعجال نشوء تلك المسيحية المبسطة ، المقتصرة على رمزية ملاطفة ومرتخية ومبهمة » ، التي أمست في القرن التاسع عشر « الدين السري للعديد من الزنادقة الاتقياء » .

« بيل »
وآراؤه في المذنب

نشر « بيير بيل » ، البروتستانتي الفرنسي اللاجيء الى هولندا ، عـدة « رسائل وآراء في المذنب » ظهرت في السنة ١٦٨٢ والسنـــة ١٦٨٣ والسنة ١٦٩٤ . ساد الرأي بان المذنّبات دلالات طبيعية يرسلهـا الله للانباء بقصاص صارم استحقه البشر . ودرج الناس على التأكيد بان حوادث مشؤومة تعقبها ابداً : اغتيال ملوك ، زلازل ، مجاعات ، حروب ، طواعين . فأثبت « بيل » ان هذا الرأي لا يستند الى اساس متين. ولو فرضنا جدلا ان المذنبات ترافقها مصائب عدّة ، فلا يعني ذلك انها الدليل عليها او المسبب لها . فلا يحق مثلا للمرأة التي تنظر من نافذتهـا ، في شارع « سانت ـ اونوريه » ، فترى كل مرّة عربات تمر امامها ، ان تتصور انها سبب مرورها ، كما ان ظهور هذه العربات ليس ، بالنسبة للجيران ، دلالة طبيعية على ان عربات اخرى لن تلبث ان تمر من بعدها . وفي الواقع ليست المصائب في سنوات المذنّبات اكثر منها في السنوات الاخرى . فيجب من ثم ان نفرق بين مصادفة وجود شيئين معا وبين علاقة العلة بالمعلول .

لذلك كان من واجب الانسان السليم التفكير ان لا يعتقد بقدرة المذنبات حتى ولو اجمعت الآراء على ذلك وشهدت الشعوب كلها بذلك . ولكن اجماع الآراء يعطي برهانا على وجود الله ، كما ان التقليد يعتبر محافظة مستمرة على حقائق الايمان : فاجماع الرأي ، كما قيل عن المذنب ، لا يبرهن شيئا .

زد على ذلك ان القول بان المذنبات دلالات طبيعية خرافة وثنية قديمة حوفظ عليها في المسيحية . فلو كانت المذنبات دلالات طبيعية ، لاتى الله بالمعجزات ليحفظ الوثليين في عبادة اصنامهم . وفي الواقع ليس المسيحيون الذين يؤمنون بقيمة المذنبات كدلالات طبيعية سوى عبدة اصنام . إالمعجزة لا تليق بكرامة الله ، لانها تخلف شرائع الله ، وتخالفها لاجل خلائق بشرية حقيرة . الايمان بالمعجزات والعناية الالهية ، انما هو نتيجة الكبرياء . اذن فعبادة الاصنام تتاكل المسيحيين الحاليين . ولذلك فانهم يقعون في كل الرذائل ، بينما هناك ملحدون صالحون يعملون بوحي قواعد الشرف . يجوز ان نتصور مجتمعا من الملحدين قد يوازي مجتمعا مسيحيا او يتفوق عليه . الم يكن للالحاد ابطاله وشهداؤه ؟ وفي « قاموسه » ، الذي جاء روعة الالحاد الواسع الاطلاع ، استأنف الارتيابي « بيل » هجماته على الكتب المقدسة ، والعقائد الروحانية ، فتهافت الشبان على ابواب المكتبات لاجل قراءة هذا الكتاب « الذي لم يتخلله سطر واحد انطوى على تجديف صريح » والذي لم يكن من شأنه ، مع ذلك ، « ان يقود الى الالحاد » . في فرنسا كانت المشاعر مهيأة بفعل فضيحة المناولات الالزامية . فبعد إبطال براءة نانت ، ارغم الوكلاء البروتستانت بالقوة على المناولة . فكان ذلك خرقاً للقدسيات لان هؤلاء المنكودي الحظ لم يكونوا مهيئين لتقبل جسد الرب بما يليق من عواطف الاحترام والمحبة . استنتج البروتستانت من ذلك ان الكهنة دجالون لا يؤمنون بالوجود الحقيقي . لا بل ان بعض الكاثوليك ، ممن عاش بينهم البروتستانت ، قد تزعزعوا حينذاك في ايمانهم . فكان ان بعض البروتستانت ، الذين جحدوا معتقدهم وتناولوا تحت سطوة الخوف ، اعترفوا في قرارة انفسهم بوثنيتهم وباقتراف الخطيئة ضد الروح القدس ، وهي الوحيدة التي لا تغتفر ، فبحثوا عن النجاة من قلقهم المقض بتبني آراء الملحدين ونشروا العدوى في اوساط الكاثوليك .

وقد أثارت اليابان والصين آنذاك شر المصاعب .

الملحدون

شقت الطريق أمام الملحدين الانكليز ؛ فان « تولند » (١٦٧٠ — ١٧٢٢) عدو الكهنة الذين يبتكرون بعض العقائد ، كخلود النفس ، لضمان سلطتهم ، قد قال بعالم ازلي يسير بحركة تلقائية ، وبماديه تجعل من الفكر حركة من حركات الدماغ ، وباخلاق مبنية على العقل . أما « كولنز » (١٦٧٦ — ١٧٢٩) فقد احتج في « خطابه حول حرية الفكر » على غرابات التوراة وعلى عجائبها التي ليست سوى خداع وغش . وجاء في كتابه « محاولة في طبيعة النفس البشرية ومصيرها » : « لما كان الفكر نتيجة عمل المادة في حواسنا ، جاز لنا الاستنتاج بانه خاصية من خاصيات المادة أو ظاهرة من ظواهر المادة يسببها عمل « المادة » .

عبثاً حسب نيوتون انه اثبت وجود الله . وعبثاً قاوم الراعي « ايلي بنوا » عقلية العلماء الواسعي الاطلاع ، في السنة ١٧١٢ . فبحسب طريقة « بيل » ، كما قال ، وهي طريقة كرتزيانية

تفرض الوضوح المطلق وتنكر الشهادات ، يمكننا تقديم الدليل على ان « بيل » ليس مؤلف « قاموسه » . انه يؤكد ذلك : ولكن ما هو الدليل على صدقه ؟ انه يقسم على ذلك : ولكن هناك ايماناً كاذبة . قد يستشهد باصدقائه : ولكن يجب اثبات صدق الاصدقاء . قد يتعلل بالكتبي والصفاف والمصحح : ولكن هؤلاء شهود يجب استثبات صدقهم اولاً . في واقع الحياة ، يجب الاكتفاء بالبراهين التي توفر يقيناً أدبياً : « ان البراهين الصحيحة من الندرة والصعوبة بحيث تصبح غير ذات جدوى في الامور التي تفرض فيها الحياة ضرورة العمل ، وبحيث يجب التخلي عن كافة وظائف الحياة ، اذا ما طولب ، في سبيل الاختيار ، بوجوب توفر البراهين التي لا تنال منها الاعتراضات التي قد يتقدم بها فيلسوف حذق. وليس من مرتكز للفنون والعلوم والمجتمعات والشرائع والتجارة سوى مثل هذه البراهين ... » ان المادة غير المخلوقة ، التي تتحرك وفاقاً لنظام معين ، سر مستغلق على العقل استغلاق اعظم اسرار الدين . الانسان حيوان متدين يميل بالسليقة الى المحبة والتفوق والانصهار في اللانهاية . وحين لا يعبد الله ، فانه يعبد العلم ، أو الوطن ، أو الملك ، لأن العبادة وبذل الذات فرض واجب عليه .

ولكن السد كان اضعف من ان يقاوم قوة السيل الجارف .

٦ – أزمة الآراء السياسية والاجتماعية

البورجوازيون: «لوك »

كانت ثورة السنة ١٦٨٨ ، لـ « جون لوك » (١٦٣٢ – ١٧٠٤) ، مناسبة لمراجعة ونشر الفلسفة العملية ، لا بل النفعية ، التي وافقت انطلاقة العلوم وكانت معدة لتبرير ثورة الاعيان الظافرين وايضاح نزعاتهم العميقة . ولد « لوك » على مقربة من « بريستول » ، والمحدر من عائلة تجار ورجال قانون ، وتلقى الدراسة في اوكسفورد ثم غدا فيلسوفاً ولاهوتياً وطبيباً ، وارتبط منذ السنة ١٦٦٦ ، كطبيب، باللورد « اشلي » الذي اصبح الكونت « دي شافتسبري » في عهد لاحق . حين عين هذا الاخير وزيراً ، اصبح لوك امين سر « دائرة التجارة » (١٦٧٢ – ١٦٧٥) . بعد زوال حظوة الكونت ، سافر لوك الى فرنسا (١٦٧٥ – ١٦٧٩) . عندما اخفق شافتسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، لحق به لوك اليها في السنة ١٦٨٤ . حرره بيكون وديكارت وغسندي ، في هذه الاثناء ، من الارسطاليسية التي تدرس في اوكسفورد. في هولندا ، وضح لوك آراءه بمخالطته البروتستانت الفرنسيين اللاجئين . عاد الى انكلترا في السنة ١٦٨٨ . منذ السنة ١٦٧١ ، امتلك آراءه الرئيسية ، ولكنه لم ينشر أهم مؤلفاته الا بعد الثورة الانكليزية ولاجلها : « رسالة اولى في التساهل » ، وقد كتبت في السنة ١٦٨٥ – ١٦٨٦ ونشرت في السنة ١٦٨٩ ؛ « محاولة في الحكومة المدنية » ، و « محاولة في العقل البشري » (١٦٩٠) .

في رأي لوك ان البشر ، في حالة الطبيعة ، احرار ومتساوون فيما بينهم . يهتدون بهدي

العقل الذي يرشدهم الى حقوق الانسان الطبيعية : الحياة ، الحرية ، الملكية اي حق كل فرد في التصرف بثمار عمله بنسبة حاجاته ، العائلة ، السلطة الابوية . كل هذه الحقوق مقدسة . الله وهبها الانسان . وهي سابقة في الزمان لكل مجتمع .

الا ان البشر ، بعد تعرضهم للكوارث الطبيعية وهجمات اعدائهم ، اضطروا لأن يؤلفوا مجتمعاً حتى يستطيعوا التمتع بحقوقهم الطبيعية . هدف المجتمع هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية . البشر يؤلفون المجتمع بموجب عقد اجتماعي . كل منهم يتخلى للمجتمع عن حقه في تنفيذ القانون الطبيعي . « لا يمكن ان تتخطى سلطة المجتمع حدود الخير العام » . المقررات تتخذ بالاكثرية . القوانين متساوية للجميع . لا يستطيع اي قانون ان يحرم انساناً من ممتلكاته؛ اذن الضرائب مقبولة . كل انسان يبلغ سن الرشد حر في ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان يعقد أولا يعقد اتفاقاً مع الآخرين ، ولكنه ، اذا ما انتمى الى المجتمع ، لا يستطيع ان يتركه بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن .

يمكن ان تمارس سلطة المجموع مباشرة ، وهذه هي الديموقراطية . ولكن باستطاعة المجموع كذلك ان يفوض سلطته الى جماعة أو الى فرد ، ويؤسس أمـــا اوليغارشية وأما ملكية . المجموع يعقد اتفاقاً مع مفوضه ، هيئة كان أم فرداً . المفوض مقيد ببنود العقد . لا يستطيع التصرف بممتلكات رعاياه تصرفاً تعسفياً . يطبق القوانين التي تسنها جمعية غير دائمة ، لأنه من الافضل الفصل بين سن القوانين وتنفيذها . بمكنة المجتمع استعادة السلطة من مفوضه اذا خالف العقد . الرعايا لايقاسمون المفوض كمفوض، بل كمنفذ لارادة المجتمع . اذا لم ينفذ هذه الارادة، فالرعايا في حل من يمينهم . بمقدورهم ان يثوروا ويستخدموا الاسلحة . جرائم جاك الثاني تبرر الثورة . ليس غليوم الثالث مغتصباً لأن سلطته الملكية تستند الى رضى الشعب . فاطمأن بذلك الضمير الانكليزي .

يجب فصل الكنيسة عن الدولة . الدولة مجتمع معد لأن يضمن للمواطنـــين التمتع بحقوقهم الطبيعـية . الكنيسة مجتمع معد لأن يتيح لهم كسب خلاصهم الابدي ؛ « مجتمع » طوعي مؤلف من افراد يجتمعون بملء اختيارهم بغية عبادة الله علناً ، بالشكل الذي يرون فيـــه ارضاء له وخلاصاً لنفوسهم . فليس الدين ، بالتالي ، من اختصاص القاضي . الكنائس اشبه بتعاونيـــات الصناعيين اليدويين أو الجمعيات العلمية . تقر انظمتها وتفرض عقوبات روحية . ليس باستطاعتها التعرض لشخص المؤمنين أو لممتلكاتهم . حرية الضمير وحرية العبادة كليتان . لا حدود لهاتين الحريتين سوى التعديات على الحقوق الطبيعية والآراء المتعارضـــة ووجود المجتمع الانساني أو القواعد الاخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني . فلا يجوز من ثم الاغضاء على الكاثوليك لانهم يربطون السلطة الزمنية بنعمة الهية هم مؤتمنون عليها ولأن كهنتهم تحدوهم رغبة جشعة في السيطرة . ولا يمكن الاطراف على الملحدين لأن العهود المقطوعة لا تخضع ، بالنسبة لهم ، لاية

عقوبة ، ولأن الحقوق الطبيعية لم تعد في نظرهم ثابتة وممتنعة الابطال . « ان إلغـاء الله ، ولو بالفكر فقط ، معناه ملاشاة كل شيء » .

في سبيل ضمان التساهل والسلام الاجتماعي ، يطرح لوك جانباً كل المثل التي لا يمكن تبريرها بالاختبار أو التوصل اليها بالتركيب ، اي مثل اللانهاية الحالية ، المادة ، الجوهر الحقيقي ، حرية الارادة ، الخ . لا نبحثن الا عن معرفة ما يمكن ان يفيد في الحيـاة . قوانا ضعيفة وفظة : لا نسعين وراء معرفة كاملة ومطلقة تعجز عنها الكائنات المتناهية . ولنهملن الافتراضـات الميتافيزيقية حول طبيعة النفس وجوهرها وعمل النفس في الجسد وعمـل الجسد في النفس . لا نهتمن الا لما هو مفيد . ولندرسن عقل الانسان فقط وكيفية تكوّن الافكار وتركبها ، فهذه هي المعرفة الحقيقية التي يمكن تطبيقها عملياً .

النظرية الكرتزيانية في الافكار المطبوعة تنطلق من معرفة مباشرة وباطنية مزعومـة . فهي تفسح من ثم مجالا لكل الافكار الفردية السابقة التكوين . وان كل الآراء التي يجب ان توفر الطمأنينة للعقول ، كبراهين وجود الله مثلا ، تتعلق من ثم بالافكار السابقـة التكوين لدى كل فرد ، في حال ان تأمين توافق اعضاء الجسم الاجتماعي يوجب ايصالها الى « مفهـوم صحيح للاشياء ... وايصال العقل الى طبيعتها المتصلبة وعلائقها الثابتة ، لا السعي وراء ايصال الاشياء الى آرائنا السابقة التكوين » . ليس لدينا ، لحسن الطالع ، مفاهيم مطبوعـة ، كمفهوم الله ، واللانهاية ، والأزل . فالطفل لا علم له بها ، ونادرون هم الاشخاص الذين يعرفون المبادىء النظرية كمبدأ المماثلة والتناقض ، والتعاليم العملية كـ « عامل الغير كما تريد ان يعاملك » . والعقل من ثم لوحة ملساء تنتظر ان تطبـع الحروف عليها ، او غرفة مظلمة تنتظر وصـول اشعة الشمس اليها . هو الحس ما يوقظ العقل ويولد الافكار ، الافكار البسيطة الخارجية ، كالحار ، والجامد والصقيل ، والصلب ، والمر ، والافكار البسيطة الداخليـة ، الانتباه ، الذاكرة ، الارادة ، الديمومة . يلجأ العقل الى المقاربة والتركيب ، ويجعل من هـذه الافكار موضوع استدلالاته الخاصة ، فتصبح على مزيد من التعقيد والتجريد . اليقين هو ادراك الموافقة بين فكرين بواسطة افكار وسيطة .

بعض الافكار البسيطة ، كالاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد ، « صفات اولية » تمثل الاشياء على علاتها ؛ والبعض الآخر ، كالالوان ، والاصوات ، والطعوم ، « صفات ثانوية » يحدثها فينا ما تطبعه في حواسنا حركات الاجسام المختلفة الصغيـرة . ولكن الصفات الاولية نفسها ليست العناصر الحقيقية للاشياء لأنه يتعذر علينا تصور هذه الافكار البسيطة موجودة بذاتها دون مادة تتحد بها لا نعرفها . ونحن ، في الواقـع ، نطلق اسماً واحـداً على مجموعة من الافكار البسيطة . فان افكاراً بسيطة يرينا اياها الاختبار مجتمعة ابداً ، كالاصفر ، وقابل الذوبان ، والمطيل ، والكثيف جداً ، الخ ، نطلق عليهـا

اسماً هو الذهب في ما يعنينا هنا . هذه الافكار مترابطة فعلاً وتكوّن كلاً واحداً ، وليس من ريب في تركيب الذهب الخاص ، في جوهر الذهب . الا اننا لا ندرك الجوهر وليس لدينا عنه اية فكرة ؛ لا نستطيع ان نضيف اليه شيئاً فوق ما يوفره لنا الحس والتفكير . فالبحث الممكن الوحيد هو من ثم البحث الاختباري عن الصفات المجتمعة معاً . وهكذا وضع لوك الاسس الركينة للعلم الاختباري واقصى اعتراض مبدأ الجاذبية النيوتونية ، وازال حظوة النظريات الميتافيزيقية ، المضرة بالنظم الاجتماعية ، التي ترتكز اليها الكاثوليكية مثلاً .

اوضحت دراسته قيمة العقل وحدوده في آن واحد . الانسان لا يستطيع ان يبلغ من الحقائق الا ما يتيحه له عقله . فواجبه يفرض عليه من ثم ان لا يقول بحقيقة قضية ، لا يقبل بها عقله ، اي انه يفرض عليه رفض المحال . وعليه بالتالي ان ينبذ النظرية الكاثوليكية المتصلة حول الحق الالهي . ولكن العقل ، الذي لا يستطيع بلوغ العناصر الحقيقية للاشياء ، اي الجواهر ، لا يلبث ان يلمس عجزه . لذلك يكتفي الانسان بالحقيقة المرجحة ، ثم يتذكر صعوبة بلوغ الحقيقة ، فلا يرفض ما لا يمكن ادراكه ، ويصبح غاية في التواضع والمحبة . ويتذكر كذلك ان لكل هيئة اجتماعية الحق في اقامة الحكومة التي تبدو لها مفضلة على سواها ، وان ما من شكل حكومة افضل اطلاقاً من سواه ، وان الظروف والمصالح العابرة وتبدل الاشياء الدائم يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار .

ولكن الافكار البسيطة الداخلية أتاحت له اثبات وجود الله ، قاعدة مذهبه السياسي والاجتماعي .تعطي هذه الافكار البسيطة عن الذات فكرة مركبة لكائن غير لازم الحدوث. ان وجود مثل هذا الكائن تفرض وجود كائن ازلي ، كلّي القدرة ، كلّي الادراك ، خلق فيّ خاصية المعرفة ، وخلق المادة ايضاً لأنه "خلق" روحي التي يصعب خلقها اكثر من المادة .

يتضح من ثم ان نظرية لوك كانت عقلية ،اختبارية ، بورجوازية .لم يكن لوك ديموقراطياً . في رأيه ان البشر الاحرار هم النبلاء والاكليروس وكبار الملاكين الريفيين والبورجوازية العقارية او التجارية . فهؤلاء هم الذين يضعون فيما بينهم العقد الاجتماعي . وتتفق الملاحظات المدونة في مفكرته في السنة ١٦٧٩ وتقريره المرفوع للجنة التجارة في السنة ١٦٩٩. فالمشردون الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٥٠ سنة ، والذين يقبض عليهم بسبب تسولهم ، يجب ان يحكم عليهم بخدمة ثلاث سنوات في الاسطول اذا كانوا من الكونتيات البحرية ، او بالعمل ثلاث سنوات في « بيت العمل » اذا كانوا من الكونتيات الاخرى . اما المتسوّلون الذين لم يبلغوا سن الرابعة عشرة فيجب ان يجلدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخاصة . مذهب لوك هو مذهب بورجوازي كبير مستنير . لذلك غدا هذا المذهب انجيل المجلس التمثيلي الانكليزي والبروتستانت الهولنديين ،كما غدا في وقت لاحق انجيل فولتير وكبار البورجوازيين الفرنسيين .

مبتدعو الانظمة الخيالية الارستوقراطيون الرجعيون فينلون

ان عدداً كبيراً من النبـلاء المتضررين ، الذين اذلتهم سياسة لويس الرابع عشر البورجوازية وانتفاخ رجال المال ورجال الدولة المتحدرين من اصل بورجوازي ، اقاموا مثلاً اعلى لهم كل نقيض لما يفعله الملك العظيم وانتصبوا خصوماً للملكية المطلقة التي حاول بوسويه الدفاع عنها في « السياسة المستمدة من الكتاب المقدس » (١٧٠٩) . بعد وفاة الملك ، زجر الدوق « دي سان سيمون » قائلاً : « كان ملكه ملك بورجوازية صغيرة » . منذ السنة ١٦٨٩ ، اجتمع حول دوق بورغونيا ، الابن البكر لولي العهد ، اشراف ريفيون تواقون الى ردة فعل ارستوقراطية ، هم الدوق « دي بوقيليه » مربيه ، والدوق « دي شفروز » ، والدوق « دي سان سيمون » ، والاب « دي فينيلون » ، مهذب دوق بورغونيا ومرشد الدوق « دي شفروز » . وحين نفي فينيلون رئيساً لأساقفة كمبريه ، لم ينقطع عن مراسلة اصدقائه وعن الايحاء الى دوق بورغونيا ببعض الآراء . اصبح هذا الاخير و في السنة ١٧١١ ، الوارث المعين قبل وفاة والده ، ولكنه توفي هو نفسه في السنة التالية ، كما توفي فينيلون ايضاً قبل الملك العظيم .

عبّر فينيلون عن آراء هذا الفريق في عدة مؤلفات نخص بالذكر منها « مغامرات « تليماك» (١٦٩٩) ، و « مخططات حكم وضعت بالاتفاق مع الدوق « دي شفروز » بغية عرضها على دوق بورغونيا » و « جداول شون » (تشرين الثاني ١٧١١) . انها احلام اشراف ريفيين ساخطين يستمدّون مثلاً اعلى من طراز مجتمع كان تحقيقه ممكناً قبل ٣٠٠ سنة . فان « جداول شون » تعد لمجتمع فرنسي ارستوقراطي متسلسل السلطات مستقر حيث ستكون السيطرة لطبقة مقفلة من النبلاء في مجلس الطبقات وفي الوظائف القضائية والادارية ، وحيث يحد من سلطة الملك مجلس طبقات يضم بعض كبار البورجوازيين واكثرية من النبلاء . سيجتمع هذا المجلس مرة كل ثلاث سنوات ولا ترفع جلساته الا بعد انهاء المناقشات . سيصوت على الضريبة ويراقب جبايتها ويكون باستطاعته مراقبة كافة شؤون الدولة ويشرف على السياسة الملكية . سيكون نظام الدولة اتحادياً . سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على غرار توزيع اعضاء مجلس الطبقات ويتمتعون بسلطات مماثلة .

لن يحكم الملك وحده ، مع كل من امناء سر الدولة ، بل بحسب مبدأ المملكة القديم ، اي في مجلس عام يعاونه مجلس شورى يشترك في كافة اعماله ، وستة مجالس اخرى لكافة شؤون المملكة . هذه هي نظرية تعدد المجالس . سيلغى بيع الوظائف . وسيستغنى عن خدمات الوكلاء ومقدمي المعاريض ، ادوات الحكم المطلق الاولى . سيعاد الى الضباط القدماء شأنهم ووظائفهم التي حد منها وجود الوكلاء . سيمارس القاضي الادارة بأحكامه وبقراراته التنظيمية ، وبفضل هذا التداخل بين الوظائف القضائية والادارية ، سيقدم القانون على ارادة الامير .

ستعاد الى النبلاء اولويتهم . سينظم في كل ولاية سجل بالاشراف وفي باريس سجل عام .

كل ولد نبيل سيدون اسمه في السجل . سيمنع الزواج من غير النظير . سيحظر الارتقاء الى طبقة الاشراف الا على اولئك الذين يؤدون للدولة خدمات جلى . سيحظر كذلك على مشتري اراضي النبلاء انتحال اسمائها . ستكون طبقة النبلاء قوية بثروتها . وسيعتمد في كل بيت ، على غرار اسبانيا ، نظام المقار المتعلق بلقب الشرف ، الذي يرثه مع اللقب بكر الابناء ، تجنبا لتجزئة الثروات بقسمة الارث . سيحق للنبلاء تعاطي تجارة الجملة دون ان يحط ذلك من مقامهم . ستكون الوظائف المدنية والعسكرية في حاشية الملك وقفاً عليهم . سيلغى بيع الوظائف العسكرية وتكون الافضلية للنبلاء في تولي المناصب . لن يحق للنبلاء دخول القضاء فحسب ، بل سيفضلون على ادناء النسب المساوين لهم اهلية في مناصب الرئيس والمستشار في مجالس القضاء العليا ومناصب النائب العام والنائب الجنائي في المحاكم . ستمارس هذه الوظائف مدى الحياة ، وسيخلف الابناء الاكفاء آباءهم . فستتكون من ثم ، في وقت قريب نسبياً ، هيئة من « القضاة العسكريين » ، اي قضاء وادارة من النبلاء . وبما ان ضباط الفرق سيختارون ، بجهد المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان الاسياد سيكونون قادرين على تسليح فلاحيهم ، وبما ان مستشاري الدولة ، « الموفدين السيديين » الى الولايات لاصلاح التجاوزات، سيختارون من بين القضاة، فسيفضي كل ذلك الى حكومة وادارة ارستوقراطيتين غير مركزيتين عملياً .

على هذا المجتمع ، حيث لا يثير الطموح نظام ينزع الى نظام الطبقات المقفلة ، ان يعيش في الفقر . سيؤمن الملك حاجاته بدخل املاكه ، على غرار ملوك القرون الوسطى . سيعطي مثل البساطة ويفرض على الجميع التقيد به . ستسن قوانين تقيد النفقات المفرطة : « البذخ يفقر النبلاء ويفسد الامة ويثري التجار » . سينظم مجلس الشورى كل التجارة . وسيعين رقباء لمعرفة وسائل اثراء كل فرد . سيوضع بيان بثروات العائلات . ستلغى اعمال رجال المال . سيحول مجلس الطبقات دون كل مضاربة وكل اتجار بالاموال وكل مراباة . وسيحرص على ان لا تبور قطعة ارض واحدة . ستكون تجارة المحاصيل الزراعية طليقة من كل قيد . ستثري فرنسا ببيعها الحنطة والزيوت والخمور والانسجة الخ ، باسعار مرتفعة ، لأن ما ستبتاعه من الانكليز والهولنديين ينحصر في « الافاويه والتحف » التي لا تداني البتة قيمة مبيعات فرنسا .

ان ما طلعت به « جداول شون » هو من ثم مخطط اشتراكية دولة ، زراعية ، تفرضها ارستوقراطية مسيحية برئاسة الملك .

وكان مقدراً لذهنية المقربين الى دوق بورغونيا ان توحي بفكرة « تعدد المجالس » في عهد الوصاية ، وبنظريات « بولنفيليه » و « منتسكيو » ، وبمعارضة محاكم فرنسا العليا للملك ، وان تلهم كل رجعيي القرن الثامن عشر .

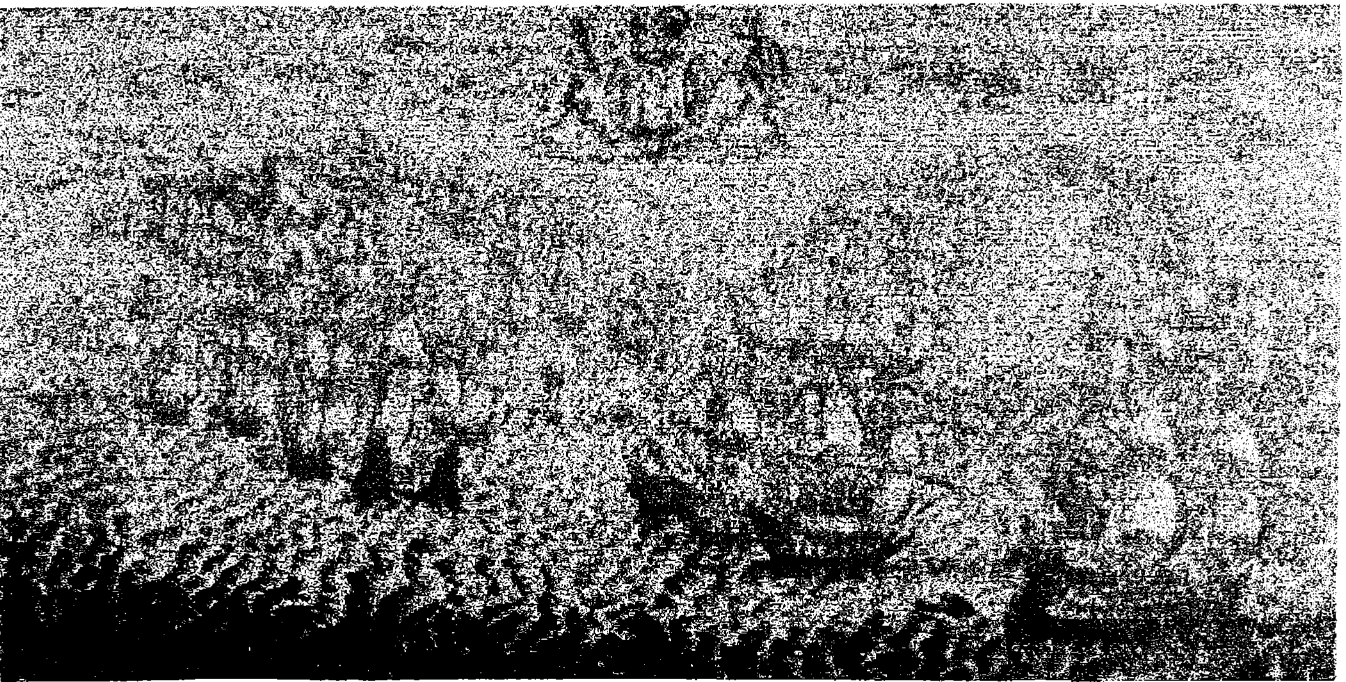

١٨- هجوم الأسطول الانكليزي على الأرمادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨

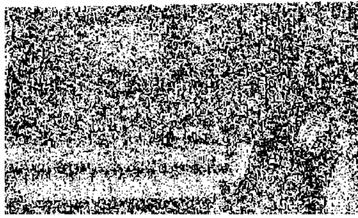

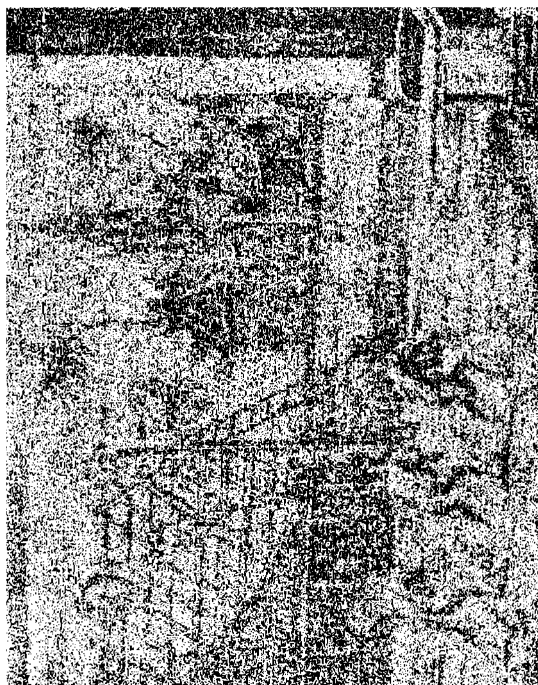

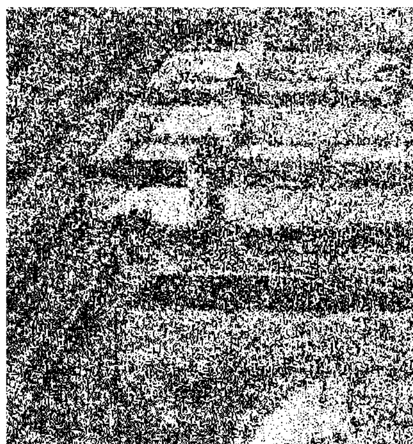

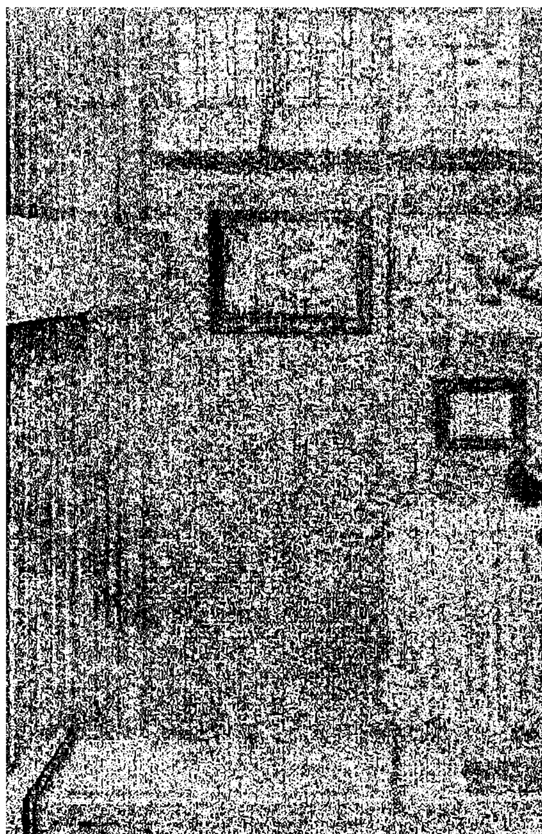

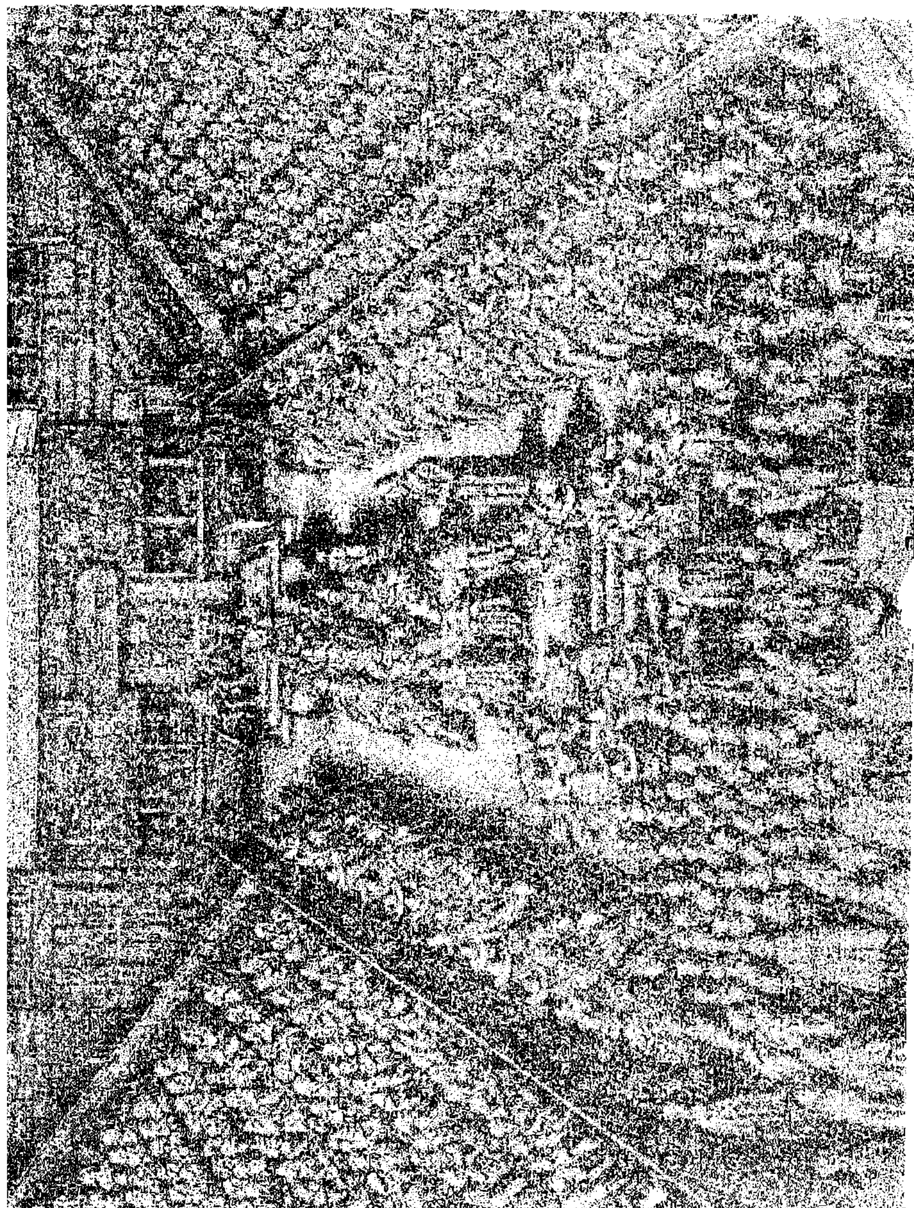

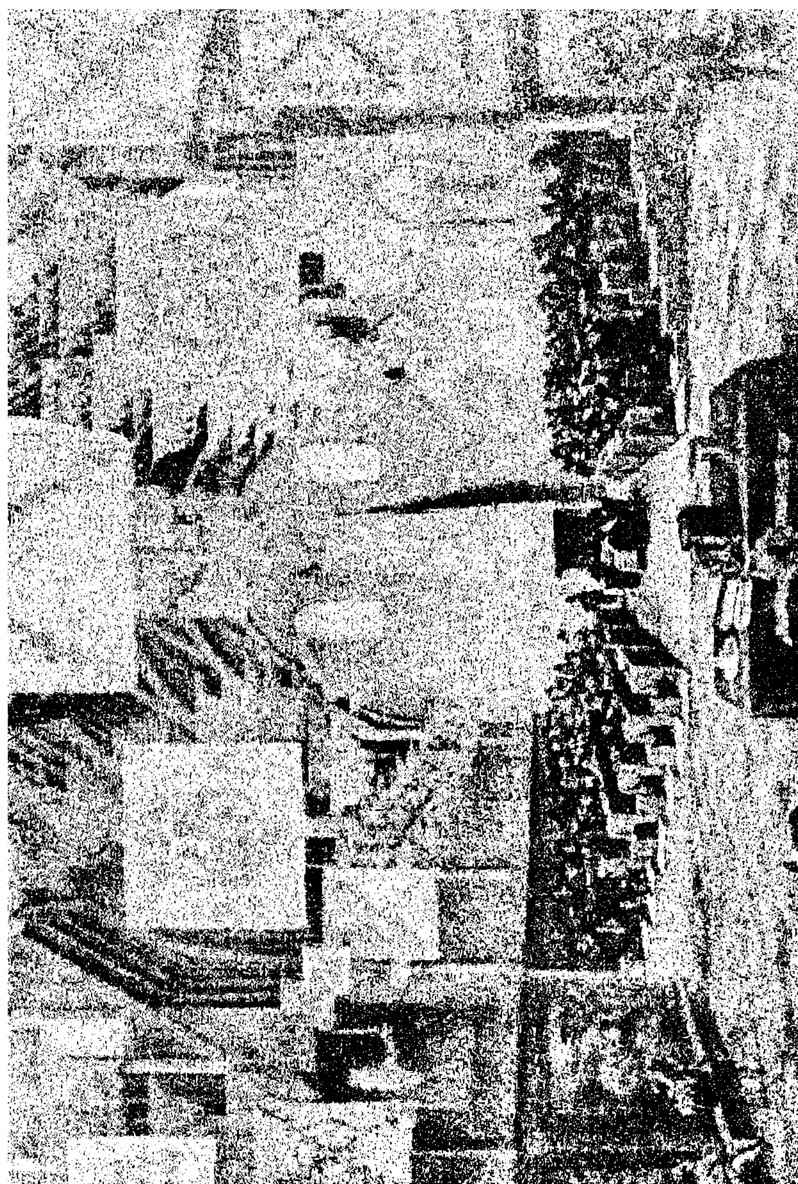

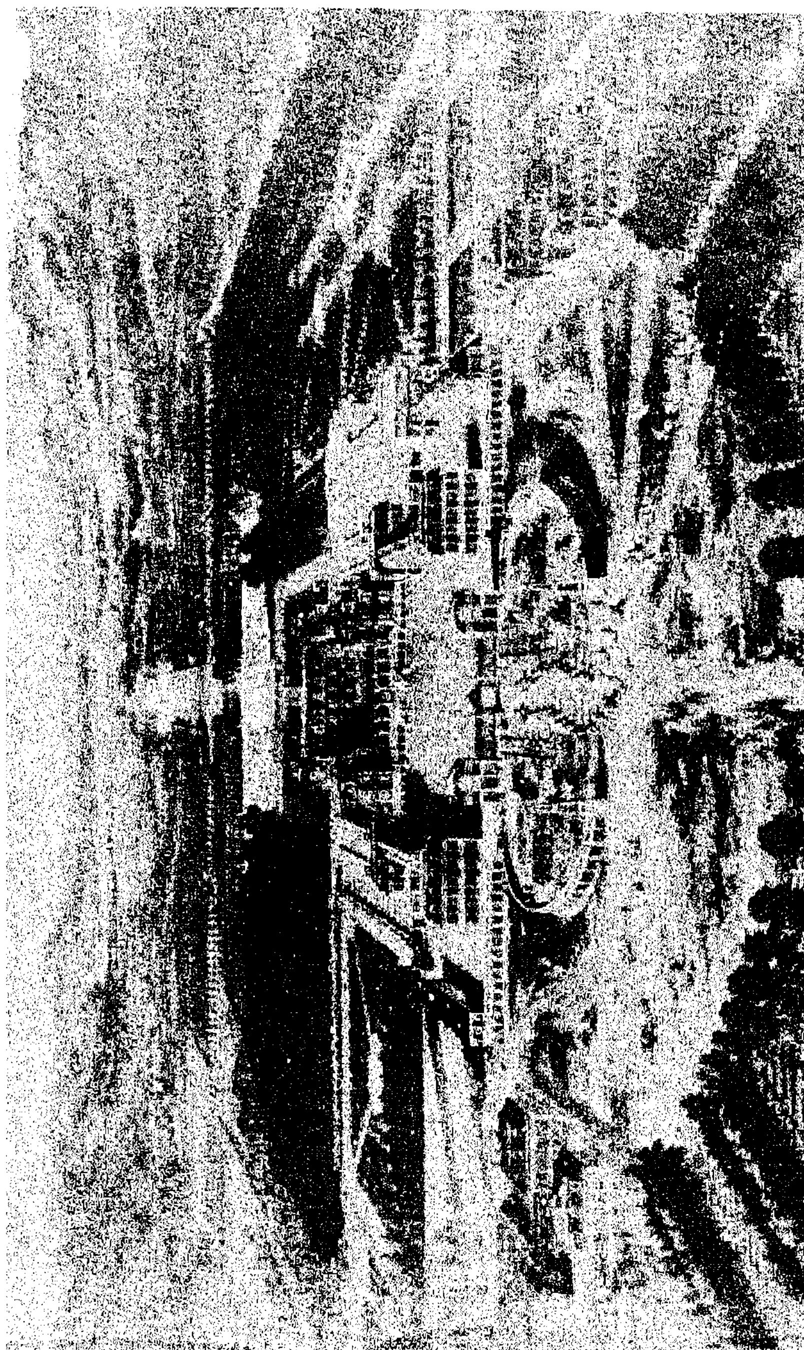

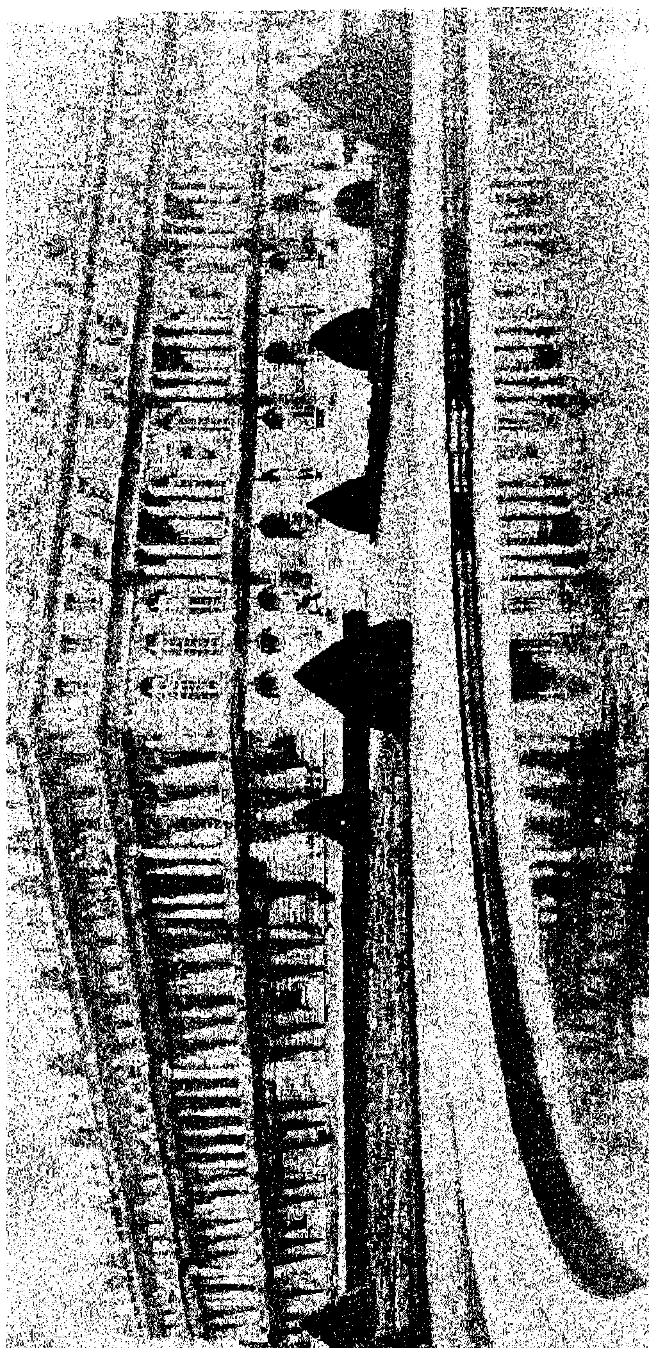

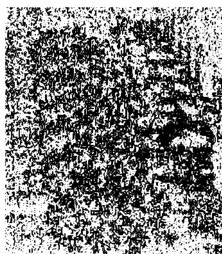

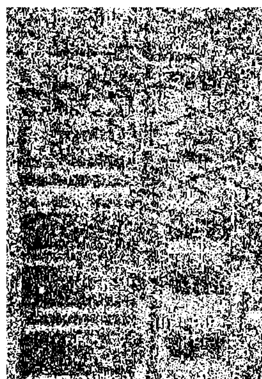

مبتدعو الانظمة الخيالية الرومنطيقيـــة السياسية الديموقراطيون والاشتراكيون

وضعت مخططات تجديد اجتماعي على ايـدي اناس تأملوا مـن المجتمع واستخلصوا النتائج ، بصرامة كرتزيانية ، انطلاقاً مـن معطيات اختارها حسهم .

في « البحث اللاهوتي ، السياسي » ، زعزع سبينوزا اركان سلطة الكتاب المقدس لان هذه السلطة يستغلها الملوك . ولكن ما يدعوه الملوكُ ديناً هو الخوف الذي يريدونه مسيطراً على الشعوب المستعبدة . النظام الملكي هو فن مخاتلة الشعوب . ان ما تدعوه الرعية واجب الطاعة هو مصلحة الملك ، وهي تعتقد انها تجاهد من أجل خلاصها بينما هيَ تضمن عبوديتها . تقوي بدمها سلطة رجل واحد يعاملها معاملة الوسائل ، ويحرمهـا مبرر حياتها بحرمانها من الحرية . اما العلاج فهو روح الامتحان التي تظهر ان السلطة تفويض تقبل به الرعية ، وان الديموقراطية هي أقرب شكل حكم الى الحق الطبيعي ، وان هدف النظم السياسية هو ان تضمن للفرد حرية المعتقد وحرية الكلام وحرية العمل .

واشاد البارون « دي لاهونتان » بالدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والشيوعية الاصلية . البربري هو الجميل والنبيل والسعيد؛ انه ضليع ومشاء وصياد ماهر يقاوم التعب والحرمان وينقذه جهله من ويلات عديدة . المتحضرون هم البرابرة الحقيقيون . ليمش البربري الصالح (١٧٠٣) !

وولدت العلائق بالبلدان النائية كذلك الف نظام خيالي اوردت في روايات الرحـلات الخيالية . فوصف ونظم الف مجتمع مقبل بالصرامة الهندسية التي تتميز بها روح المساواة . يجب ان توزع المساكن بمجموعات وان تضم المجموعة ١٦ حيا ، والحي ٢٥ بيتاً ، والبيت ٤ غرف ، وان يقيم في الغرفة ٤ اشخاص ؛ الشوارع تكون منظمة والبيوت مربعة وذات نمط واحد . يجب ان ترتب الاشجار في حدائق مربعة الشكل بحسب اثمارها المفيدة او اللذيذة الطعم . فتوالى حلم التنسيق انتقاماً لاغترار الكبرياء وشهوة التسلط .

من لا يهتم بامور الدولة وامور الدين ؟ من لا يصلح هذا او تلك ؟ من لا يلقي درساً على الوزير والاسقف ، وعلى البابا والملك ؟ وقد حدث ذلك بمزيد من السهولة لان الكرتزيانية قد ازدادت انتشاراً في المجتمعات الاوروبية وحملت معها الى كل مكان روح الارتياب والاستقصـاء الحر . أوليس الرشد خير ما يشترك فيه الجميع اشتراكاً متساوياً في العالم ؟ الا يحمل كل شخص ، في ذاته ، العقل الشامل ؟ اوليس الانسان اكثر استعداداً لبلوغ الحقيقة بنور الطبيعة كلما قـل درسه وقلت معرفته وقل من ثم « انشغاله » وقلت آراؤه السابقة التكوين ؟ ان حـالة ثورة فكرية دائمة كانت في طور التمخض .

الخلاصة

هكذا انتهى القرن السابع عشر بعاصفة هوجاء من الآراء المختلفة . ان قرنا شاهد البورجوازي يثبت وجوده في وجه البطل والبطانة ورجل الفضيلة ، والرأسمالية التجارية تتفتح وتزدهر ، والرأسمالية الصناعية تنمو وتتسع ، والروح التجارية

والملكية المطلقة تبلغان كمالهـا الخاص ، واشتراكية الدولة ترتسم ، والنظام التمثيلي يرى النور ، ان قرنا شاهد ذروة الاستهجان والكلاسيكية ، شكسبير وراسين ، روبنس وبوسين ، واعطى غاليليو وديكارت ونيوتون ، وعقلية الكمية والآلية ، ان قرنا قاطع العقل البشري فيه ارسطو نهائيا وأدرك الكون بالرياضيات والاختبار ، وفتح العلماء والفلاسفة ورجال الدين فيه اللانهاية امام الانسان ووضعوا امام اعينه تقدماً لا حدود له ، ان قرنا انتزع فيه مسيحيون من كل مذهب ، بيرول وباسكال ، وارمينيوس وغومار ، قلبهم الخافق المختلج كي يمدّوه نحو لانهاية العظمة والقدرة والقدامة والكمال والمحبة ، ان قرنا ربما حقق ابدال النوع البشري، ان مثل هذا القرن الجدير عن حق وحقيق ان يدعى : « القرن العظيم » .

انتهى بازمة متجددة . ولكنه مدين باخصابه ، الى حد بعيد ، لازماته بالذات . فـــان الانسان ، في بحثه عن الدواء وصراعه ضد قوى التفكيك والتهديم ، قد حقق المزيـــد من الاكتشافات في كل الحقول .

افضى هذا الجهد المبذول الى انماء الفردية . فقد ابرزت الامم والافراد ، بفضل المجابهـــة والمنافسة ، المميزات والابتكارات الخاصة ، وتبادلتها واستفاقت بالمقارنة الى ابتكارات جديدة انطلقت منها لتحقيق ابتكارات اخرى . لا ريب في ان الفرد اشد ارتباطاً بالهيئات والجمعيـات والعائلة واكثر خضوعاً لسلطتها وتقاليدها وانظمتها من انسان مجتمعات القرن التـــاسع عشر المتحررة . ولكنه اكثر استقلالا واقوى شخصية الى حد بعيد من اي انسان في اي مجتمـع من مجتمعات القارات الاخرى . ان هذه الفردية ، هذه الحرية النسبية فكراً وعملاً ، هــي ما صنعت اخصاب اوروبا وعظمتها وما تتسم بسمة خاصة هي « البحث دوماً كلل » .

القسم الثاني

أوروبا والعالم

مــــدخل

اتصال أوروبا بالعالم

ان الاوروبيين ، الذين انعزلوا حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في شبه جزيرتهم الصغيرة والبحار الضيقة المحيطة بها والجزر المتناثرة في هذه البحار ، قد شقوا آنذاك عباب الاوقيانوسات الشاسعة واتصلوا بالعالم . فاقبلت الانسانية على وعي ذاتها .

لماذا اقتحم الاوروبيون الاوقيانوسات

بدأت « الاكتشافات الكبرى » على ايدي البرتغاليين والاسبانيين الذين ما لبث الفرنسيون والانكليز والهولنديون ان حذوا حذوهم . كان البرتغاليون السابقين في هذا المضمار لاسباب سياسية ودينية . اراد الامير « هنري البحار » (١٣٩٤ ، ١٤٦٠) استكشاف شواطىء افريقيا الى الجنوب من مراكش بغية الاهتداء الى مملكة مسيحية اسطورية ، هي مملكة الخوري يوحنا ، ومهاجمة مسلمي مراكش من الوراء . أي ان عمله كان امتداداً للحروب الصليبية . اسس هنري في «ساغر» على مقربة من رأس « سان — فنسان » ، مدرسة حقيقية للملاحة اجتذب اليها بحارة جنوبيين وفلورنسيين وفلكيين المانيين. منذ السنة ١٤٠٦ ، تقدم البرتغاليون على طول الشاطىء الافريقي وبلغوا « الرأس الاخضر » في السنة ١٤٤٥ ، وخط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، ورأس الرجاء الصالح في السنة ١٤٨٨ . ولم تكن فكرة مهاجمة الاسلام من الوراء غريبة كذلك عن نزول الاسبانيين الى الحلبة .فان هؤلاء، بعد سقوط غرناطة، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، قد اخذوا تحت حمايتهم المشروع الذي اعده كريستوف كولومبوس للبحث في الغرب عن طريق تؤدي الى آسيا . وقد حركتهم كلهم اخيراً حرارة الرسالة والرغبة في اهداء كافة الشعوب النائية المجهولة الى « الدين الحقيقي » .

وكان لاندفاع الاوروبيين اسباب اقتصادية ايضاً لم تلبث ان احتلت مركز الصدارة بين الاسباب الاخرى . افتقرت اوروبا للقرن الخامس عشر الى المعدن الثمين. ولم تكن النقود كافية

قط المكيات والتجارة تتقدم تقدماً كلياً. ذهب الاوروبيون بعيداً في استثمار منــاجم اوروبا الوسطى دون ان يتوصلوا الى إرواء تعطشهم الى الفضة والذهب. تكلمت روايات اسطورية عن كنوز خيالية موجودة في افريقيا وآسيا التي اصبح الاتصال بها اشد صعوبــة، بفعل الفتــح التركي، بينما اصبح هذا الاتصال امراً منشوداً. رغب الاوروبيون في ان يذهبــوا بانفسهم للبحث عن الذهب. فكانت اولى نجاحات البرتغاليين الذين قايضوا، اقله منذ السنة ١٤٤٦، النحاس والنبيذ والحنطة والجياد والمنسوجات والاسلحة بذهب السودان والعاج والعبيد والفلفل، بمثابة تحريك جديد للاطماع.

لقد ذهب بعضهم الى ان السبب الاول للاكتشافات الكبرى هو تقدم الاتراك في آسيا الصغرى وحوض المتوسط الشرقي، وقطعهم طرق التجارة القديمة بين الهند والغرب، فأرغمت صعوبة الحصول على الافاويه على البحث عن طريق جديدة مباشرة. لا شك في ان حروب الاتراك قد شوشت التجارة احياناً، ولكن الاتراك انفسهم لم يقفوا موقفاً عدائياً من التجارة مع الغربيين. فقد جددوا تكراراً وبعلوه رضاهم المعاهدات التجارية مع البندقيين والجنويين وتقيدوا بما كانت تنص عليه. وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج الفارسي والبحر الاحمر. وما ان افتتح سليم الاول مصر في السنة ١٥١٤ حتى بادر الى تجديد المعاهدات التي كانت المماليك، اسياد مصر السابقون، قد عقدوها مع البندقية. و في السنة ١٥٢٨، وقع خليفته سليمان معاهدة مع فرنسوا الاول، فجاءت السفن الفرنسية تنافس البندقيين في الاسكندرية. لا بل ان الاتراك خفضوا الرسوم التي فرضها المماليك على الافاويه: فحددوها بـ ٥ ٪ ثم بـ ٣ ٪ بدلا من ١٠ ٪. كلا، ليس للاتراك اي ضلع في ازمة الافاويه التي نجمت عن ظروف اخرى. فهناك اولا حروب الخلافة التي نشرت الخراب والدمار في امبراطورية المماليك بعد السابع من شهر آب من السنة ١٤٩٦، والتي استفاد منها البدو لقطع طرق القوافل. منذ السنة ١٤٩٧، إقفلت اسواق القاهرة لان بضائع الشرق قد قطعت عنها. وفي الوقت نفسه انتشرت في ايطاليا ازمة اقتصادية: فانهارت المصارف الواحد بعد الآخر في روما والبندقية. ولعل احد أسباب هذه الازمة الاموال الطائلة التي استقرضتها الدولة البندقية لتأمين نفقات الحرب ضد الاتراك والفرنسيين. وقد يكون هنالك سبب آخر هو الحاجة المتزايدة الى النقد. فان البرتغاليين اخذوا يجمعون ذهب السودان عن طريق شاطىء افريقيا الاطلسي، فلم يعد يصــل بانتظام الى المتوسط كما في السابق. اضف الى ذلك ان الاضطرابات في مصر قد انقصت حجم الافاويه المستوردة، وان التجار الالمان انقصوا حجم الفضة التي كانوا يأتون بها من مناجم اوروبا الوسطى الى البندقية. الى هــذا ترد افلاسات المصارف. ولكن الاكتشافات الكبرى كانت قد ابتدأت حين برزت هذه الازمات. زد على ذلك ان البرتغاليين لم يتقدموا على طول الشاطىء الافريقي بحثاً عن الافاويه في الدرجة الاولى. فبالاضافة الى الذهب، كانوا بحاجة الى اليد العاملة، الى عبيد، والى الملونات لمنسوجاتهــم،

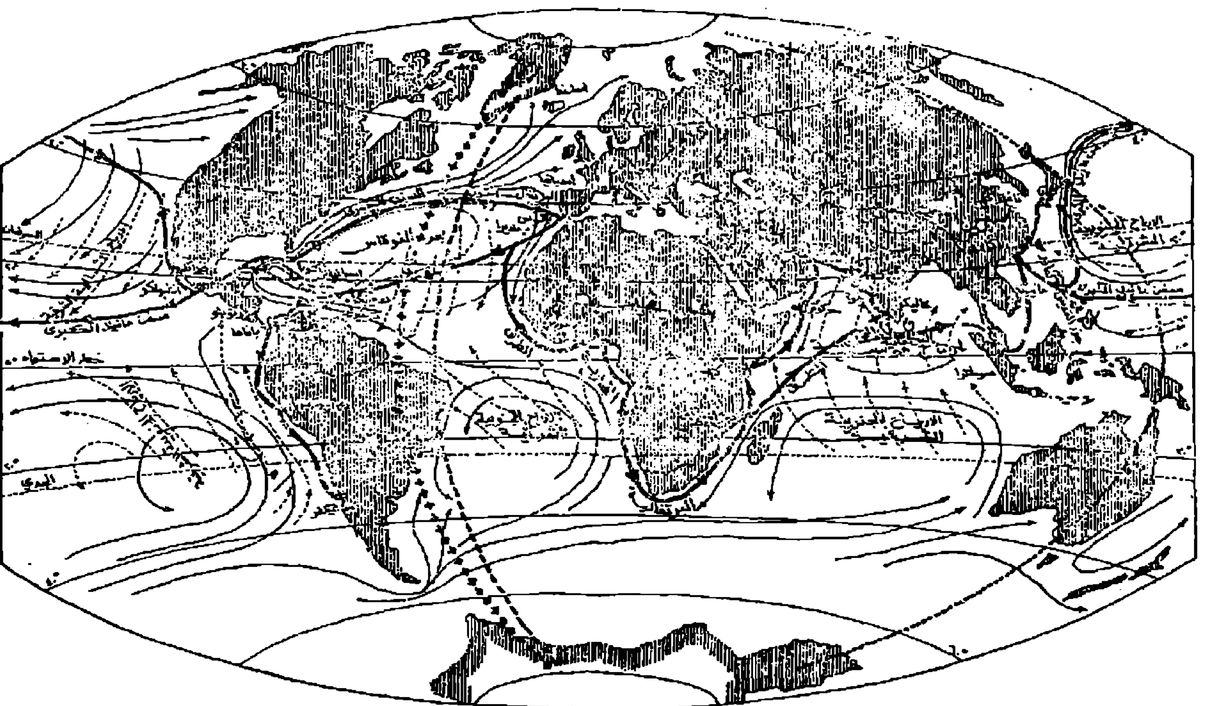

١ - طرق بحرية   ٢ - ارياح   ٣ - تيارات   ٤ - الخط الفاصل بموجب الترقيم من بين الاشياء الاخرى   ٥ - معاهدة توردسيلاس   ٦ - معاهدة ساراغوسا الخطوط الفاصلة بين الاسبانيين والبرتغاليين

الشكل ١٦ - اهم الطرق البحرية في القرن السادس عشر

النيلج ، العظلم ، « دم التنين » ، والى المواد الغذائية التي كانوا بحاجــة دائمة اليها ، القمح ، السكر ، السمك . ولكن نجاحات الاتراك ربما لعبت دوراً سيكولوجياً . فيبدو ان هجـوم الاسلام الكبير الواسع قد ولّد في كافة العالم المسيحي قلقاً مقضاً جماعيـاً وزاد في تصميمه على ضرب المسلمين من الوراء .

بدأت مغامرة ما وراء الاوقيانوسات على ايدي البرتغاليين والاسبانيين . وقد دفع هـــؤلاء واولئك اليها ثلاثة بواعث : الانجيل والمجد والذهب . وهؤلاء واولئك كانوا صليبيين في الدرجة الاولى بعد صراع ضد المغاربة استغرق ثمانية قرون . الاستعمار هو الطريق الاوقيانوسية للحرب الصليبية . يستعد له بالصلاة ، على غرار خدمة الفروسية . وتُحقق الفتوحات « كي يحـارب الاسبانيون ابداً ضد غير المؤمنين واعداء ايمان المسيح المقدس » (غومارا) . فان « دياغـــو فيلاسكيز » ، حاكم كوبا ، حين زود فرناندو كورتيز بتعليماته ، عين له هـدفاً اولاً من فتح المكسيك خدمة الله ونشر الايمان المسيحي . يجب ان لا يضاع اي ظرف يتيح التبشير بايمـان كنيسة الله الحقيقي . هذه هي وصية فيلاسكيز الوحيدة التي لم يخلّ بها كورتيز قط . حمـل البيرق هذه الكلمات باللغة اللاتينية : « ايها الاصدقاء ، فلنتبع الصليب ، اذا كنـا مؤمنين ، فبهذه العلامة سننتصر حقاً » . وان هذا الدبلوماسي الماهر قد عرّض عمله اكثر من مرة للخطـر بتسرعه في تحطيم اصنام الوثنيين وارغام هؤلاء على اعتناق الدين المسيحي . ولكن الحرب الصليبية كانت قد عودت المسيحيين تصور نشر الدين المسيحي بشكل الحرب وافناء غير المؤمنين او اخضاعهم .

غالباً ما كان البرتغاليون والاسبانيون اشرافا ريفيين واشقاء ابكار العائلات النبيلة في المناطق الفقيرة . وكان جلهم من الجنود المتهنين . كما ان العديد من جنود جيوش الفتح الاسباني اصبحوا احراراً في اعقاب الاستيلاء على غرناطة . مثالهم هو « خوان موغولون » ، الفـــارس ، ابن الفارس ، المولود في « كاسيرس » في مقاطعة « استرامادورا » ، الذي خدم في الجيوش الملكية على التوالي في ايطاليا والمغرب حيث اشترك في الحملات العسكرية واعمال الحاميـــات في جربا والجزائر وأسهم في فتوحات فلوريدا وفنزويلا والبيرو ووصل اخيرا الى المكسيـك بعد خدمة احدى وثلاثين سنة في الجندية قضى منها اثنتين وعشرين في الهند . ولم يكن الكثيرون ايضـا سوى رعاة فقراء ويتامى واولاد عائلات فقيرة رافقوا الجنود ثم غدوا جنوداً بـــدورهم . ولكنهم كلهم ادعوا وطالبوا بحمل لقب « هيدالغو » ، اي اشراف ريفيـــين ، وسعوا وراء تحقيق مثل الفروسية . كلهم غادروا بلادهم تحركهم رغبة في تحقيق عظائم الامور . واتهـــم البرتغاليون بانهم اعتقدوا بان العالم انما خلق لاجلهم وبانهم يريـــدون بسط سيطرة شاملة . اما الاسبانيون ، فقد كتب عنهم مواطنهم « ميشال سرفيه » : « ان روح الاسبانيين قلقة وتسعى وراء المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه ورفاقه كانوا يحلمون بالتفوق على الرومان انفسهم ، بومبيوس وقيصر ، وعلى هـانيبعل نفسه ،

اعظم قائد عرفته العصور القديمة . ولكن ما أسهم في احياء مثل الفروسية ، في عهد الاستعمار، هو روايات الفروسية قبل دراسة الآداب القديمة . ففي اواخر القرن الخامس عشر قام بعض الكتبة من جهة بصهر الموضوعين القصصيين الكبيرين : موضوع شارلمان ورولان وموضوع روايات الطاولة المستديرة ، ومن جهة ثانية ، نشرت الطباعة هذه الروايات . فان اول كتاب مطبوع عن الفروسية ، في اسبانيا ، طبع في فالنس في السنة ١٤٩٠ ، وهو كتاب « تيران الابيض » الذي كان موضوعاً باللغة الكاتالونية . وترجمت عدة روايات فرنسية الى اللغة الاسبانية وطبعت في الفترة نفسها . واخيرا احرزت قصة « اماديس غاليا » للاسباني « مونتالفو » ، في السنة ١٥٠٨ ، نجاحاً قلما عرفته قصة اخرى في عصر من العصور . واتبعه المؤلف بلحق في السنة ١٥١٠ ، هو « مآثر اسبلنديان » . ونشر اكثر من خمسين رواية فروسية حتى السنة ١٥٥٠ عرضت كلها على القارىء وكأنها قصص حقيقية ، دارت حوادثها ابداً في بلدان نائية ، في جزر مسحورة ، ملأى بالوحوش الغريبة والكنوز الاسطورية . وكان بطلها ابداً فتى شجاعاً ذكياً جميلا ينتصر وحده في النهاية على كافة الاعداء ويتغلب على كافة الصعوبات ويجمع الثروات ويتزوج من اميرة جميلة كالفجر ويصبح ملكاً . فعرفت نجاحاً منقطع النظير . ان السفراء والقادة ورجال الدولة والامبراطور شارل الخامس نفسه كانوا ينقلون ابداً روايات فروسية بين امتعتهم . قرئت بصوت عال في الخمارات ، وفي المزارع للحصادين ، وفي المعسكرات للجنود . فكم رواية تظهر لنا محاربين بلغوا البطولة بفضل امثلة قصص الفروسية ! كان « الفاتحون » متشربين بها . وقد جاء في تقرير « برنال دياز دل كستيلو » ، حين رأى هو ورفاق كورتيز بحيرة مكسيكو ، الملأى بالجزر ، للمرة الاولى ، ما يلي : « ما ان رأينا كل هذه المدن الآهلة بالسكان ، في المياه ، وسكان آخرين كثيرين في اليابسة ، وتلك الطريق المستقيمة الممهدة التي تؤدي الى مكسيكو حتى بلغت منا الدهشة كل مبلغ . فقلنا ان ذلك اشبه بالاشياء السحرية التي يرويها كتاب « اماديس » بسبب الابراج الكبرى والابنية المنتصبة في المياه » . وفي « مآثر إسبلنديان » ، عاد مونتالفو الى اسطورة « الامازون » ، تقودهن الملكة « كالافيا » ، كما يقول ، ويعشن في جزيرة تدعى كاليفورنيا . هذه الجزيرة شهيرة بوفرة ذهبها وفضتها . تقع « الى يمين الهند » من جهة الفردوس الارضي » . وتعني « الى يمين الهند » الشمال الغربي بالنسبة لاناس آتين من اوروبا . وقد جاء في تعليمات « دون دياغو فيلاسكيز » حاكم كوبا الى فرناندو كورتيز ، بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٥١٨ . في البند ٢٦ ، ما يلي : « عليكم معرفة مكان وجود الامازون اللواتي يقول عنهن مرافقوكم من الهنود انهن لسن ببعيدات عنهم » . واثناء الحملة على « غريجالفا » في « يوكاتان » ، دون احد الكهنة ، في شهر ايار ١٥١٨ ، ما يلي : « سرنا والشاطىء حيث صادفنا برجا جميلا جداً مشيداً على أحد الرؤوس . يقال انه مأهول بنساء يعشن دون رجال . يعتقد بأنهن جنس الامازون » . وكتب كورتيز في رسالته الرابعة الى الامبراطور ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٥٢٤ ، ما يلي : « يؤكد اسياد ولاية « سيغواتان » انهم رأوا جزيرة مأهولة كلها بنساء ليس بينهن رجل واحد ، وان هذه الجزيرة تقع على مسيرة عشرة أيام من ولايتهم ، وان الكثيرين منهم ذهبوا

اليها ورأوها . ويقولون كذلك انها غنية جداً باللآلىء والذهب . سأسعى جهدي لمعرفة الحقيقة وارفع بها تقريراً مسهباً لجلالتكم » . واستهدفت عدة حملات بعد ذلك بلاد الامازون . وفي اسبانيا اصبح الاشتراك في البحث عن الامازون يعطي الحق بحمل الوسام . وبموجب مرسوم صادر في حزيران ١٥٣٠، انعم الملك على الفاتح « جيرونيمو لوبيز » بترس اعترافاً منه ببسالته. وقد جاء في تعداد الخدمات التي اوردها تبريراً لهذا الامتياز « ثم ذهبتم نحو الشمال بحثاً عن الامازون » . ان اسعار المخيلات بروايات الفروسية كان من ثم احد الظروف الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس امبراطوريات شاسعة جداً، بالنسبة لتقنيات ذاك العهد، وسمت توسيعاً مطرداً « بالسيف والبركار اكثر فأكثر واكثر فأكثر» (شعار الضابط « برناردو دي فارغاس ماشوكا ») .

اما الذهب فكان الحصول عليه شغل الاوربيين الشاغل. فقد كتب برنال دياز دل كستيلو: « جئنا الى هنا كي نخدم الله والملك ، ولكننا جئنا كي نصبح أغنياء ايضاً . واطفأ التكالب على الذهب عند بعضهم كل عاطفة اخرى . فقد أجاب « فرنسوا بيزار » راهباً اخذ عليه سرقة الهنود واهمال تبشيرهم بالله ، بقوله : « لم آت لمثل هذه الاسباب ، انما اتيت لاستولي على ذهبهم » .

جابه البرتغاليون والاسبانيون صعوبات الاستعمار في ما وراء الاوقيانوسات وتغلبوا عليها بفضل النظم الاجتماعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وبفضل سلسلتين من الاختبارات الاستعمارية : اختبارات استرداد اسبانيا واختبارات الاستعمار الاوروبي في المتوسط والبحر الاسود خلال القرون الوسطى . كان الفتح مشروع توصية نهض به « الاقارب » و « الانساب » من جهة ، و « المتفانون » او « الموالون » ، اي « الخلائق » من جهة ثانية . ورافق الضباط الاسبانيين الذين ذهبوا الى الانتيل ، ثم الى المكسيك والبيرو ، عدد كبير من افراد عائلاتهم ممن عاشوا في مساكنهم وعلى موائدهم، خدموهم وشاركوهم مكاسب الفتح . فقد احاط بـ «الونسو بيرايرا » ستة عشر شخصاً من اخوته واعمامه وابناء اعمامه اشتركوا كلهم في الاستيلاء على مكسيكو . واحاط كذلك بكل هؤلاء الضباط « خلائق » وفية يتعهدونها وتخدمهم بتفان مطلق . في البدء احيط بها القائد العام . فكورتيز كان « معال » « دياغو فيلاسكيز » اولا . ولكن « الخلائق » بدورها تعهدت « معاليها » . فان « الفارو دي براغامونتي » قد آوى باستمرار بين عشرة وخمسة عشرة رجلا وفر لهم سبل العيش والاسلحة والمطايا مقابل خدماتهم المنزلية والعسكرية . فتكونت من ثم فئات تسلسلية الدرجات قوية جداً من الاوفياء الخلص . توجب على كل فرد ان يسهم بما يستطيع الاسهام به . القائد يقدم رؤوس الأموال والسفن والمدافع . الآخرون يقدمون ما تسمح لهم به امكاناتهم . أما الفقراء فيقدمون سيوفهم والمؤن التي يحتاجون اليها في الطريق . وبعد الفتح ، يكون نصيب الفرد نسبياً لاسهامه . استمرت هذه الفئات الاجتماعية في المستعمرات طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان نواب

الملك خلائق احد اعضاء مجلس الهند . يصلون الى مراكز ولايتهم محاطين بالانسباء حتى الدرجة الخامسة . يعينونهم حكاماً ومستنطقين وقضاة . وكان لهؤلاء بدورهم خلائقهم التي يسندون اليها الوظائف . وكان لديهم بالاضافة الى ذلك اناس يؤمنون لهم القوت والسكنى مقابل مواكبتهم لهم في حلهم وترحالهم . وكانت الحاشية الكبيرة سبيلا للظهور واثبات الوجود . فيتضح من كل ذلك ان مجتمع العوالم الجديدة قد اقتبس اعرافاً اوروبية قديمة جداً .

جرى تقاسم الغنائم واستغلال المهزومين وفاقا لطرائق اقتبست عن حروب الاسترداد. فبعد انتزاع اقليم من ايدي المسلمين ، كان المنتصرون يتقاسمون الاراضي والحقوق . والمقصود بالحقوق هو حق المنتصر في فرض الجزية واعمال التسخير على المغلوبين في ارض معينة ، شريطة تعهد المستفيد من هذا الحق بالخدمة العسكرية ونشر العبادة المسيحية . وحصل المنتصرون كذلك على املاك واسعة وارقاء كثيرين، ارقاء مغاربة ، وارقاء برتغاليين واسبانيين من معتنقي الدين الاسلامي ، وارقاء زنوج يبتاعونهم بواسطة المسلمين . لذلك كانت الاملاك الواسعة الملأى بالعبيد مألوفة لدى البرتغاليين والاسبانيين قبل فتوحات ما وراء الاوقيانوسات بزمن طويل . اضف الى ذلك ان عدد الارقاء قد بقي مرتفعاً في اوروبا القرون الوسطى، في ايطاليا، وفرنسا الجنوبية ، واسبانيا والبرتغال . وكانوا يستوردون من المستعمرات الايطالية في البحر الاسود خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومن شواطىء افريقيا منذ « هنري البحار ». وكان الاوروبيون قد الفوا استخدام اليد العاملة العبدية في مؤسساتهم الاستعمارية في ازمير وآسيا الصغرى وفلسطين و « كريت » و « كيتو » وحتى في شبه الجزيرة الايطالية وشبه الجزيرة الايبيرية . فنقلت كل هذه الاعراف والانظمة الاجتماعية الى ما وراء الاوقيانوسات .

واخيرا اقتبس البرتغاليون والاسبانيون الاختبار الاستعماري عن الايطاليين ولا سيما الجنويين في اساكل الشرق الادنى وفي البحر الاسود . لقد انشأ الجنويون الشركات الاستعمارية منذ السنة ١٣٤٦ واتقنوا دقائق تقنيتها كما اتقنوا تقنية احتلال الارض في البلاد المحتلة . وصادف ان جنوى فقدت مستعمراتها في اساكل الشرق الادنى في الوقت نفسه الذي بدأت فيه الحملات الاسبانية والبرتغالية . فانضم الى هذه الاخيرة عدد من الجنويين . وكان للجنويين من جهة ثانية مؤسسات هامة في لشبونة واشبيلية .فأخذ البرتغاليون منذ السنة ١٤٥٤ يطبقون اساليب الاستعمار المتوسطي على العالم الاوقيانوسي ، فأنشأوا امبراطورية استعمارية هي امبراطورية الشمال الغربي الافريقي والجزر التابعة له : مناطق مراكش الغربية ، والساحل الصحراوي ، والشواطىء السودانية ، وجزر « ماديرا » و « والآسور » و « الكناري » و « الرأس الاخضر » . فتوصلوا بفضل قواعدهم البحرية في « أسفي » وازمور وارزلا والقصر الصغير الى فصل الامبراطورية الشريفية عن البحر . وفتحوا الطريق الى « اوقيانوسات الحبوب » المراكشية والى « سومة » التي يصل اليها الارقاء الزنوج من « النيجر » ، والى التبر السوداني وسكر سومة وماديرا . وضمنوا بذلك سلامتهم . كما اشترك الفلمنكيون والانكليز والنيرلنديون والفرنسيون

كمساهمين في مشاريعهم ، وكانوا على اتصال دائم بها . فيتضح من ذلك ان اوروبا اختبرت الاستعمار منذ امد طويل في العالم القديم فنقلت خبرتها الى العوالم الجديدة .

ان اقصى جنوبي غربي شبه الجزيرة الاسبانية،اي الشاطىء الممتد من لشبونة الى جبل طارق هو ما لعب في البدء ، ولمدة طويلة ، الدور الاستعماري الاول . فهنا تتوفر بالتعاقب الريح اللازمة لبلوغ السفن عرض البحر ، حتى موعد هبوب الرياح بين دائرتي الانقلاب ، عند انقلاب الشمس الصيفي ، والريح اللازمة للعودة الى اسبانيا في فصل الخريف . وهنا يوجد الملاحون المدربون على تسيير السفن نحو الجزر البرتغالية ، وملاحو « الغارف » البرتغاليون وملاحو موانىء « نيابلا » و « بالوس » و « مغير » وبحارة « الوادي الكبير » واشبيلية و « سان لوكار كادز » . وقد استفادت هذه الموانىء الاخيرة من محور مواصلات الاندلس ومن ثروة السهل الزراعية فانتهت الى احتلال المركز الاول من الجهة الاسبانية، كلشبونة على مصب نهرها الواسع من الجهة البرتغالية . فتأسس احتكار محلي اثبته القانون . ،

سار البرتغاليون والشاطىء الافريقي وفي نيتهم تغيير سيرهم نحو الشرق حالما يستطيعون الى ذلك سبيلا والاتجاه بعد ذلك شطر آسيا . اما كريستوف كولومبوس،فقد سار في السنة ١٤٩٢ باتجاه الغرب بغية بلوغ آسيا بعد دورة حول الارض . كان التعمق في درس مؤلفات العصور القديمة قد ادى بالفعل الى حدوث نهضة في الرياضيات وعلم الفلك منذ اواسط القرن الخامس عشر . ففي « بادوا » و « فراري » والبندقية ، عند الفلورنسي توسكانلي ، وفي فيينا ، مع بورباخ (١٤٢٣ — ١٤٦١) ، وفي نورمبرغ ، مع تلميذه « ريجيو مونتانوس » (١٤٣٦ — ١٥١١) ، وفي « ساغر » ، بين اعضاء المجلس الذي الفه جان الثاني ملك البرتغال (١٤٨١ — ١٤٩٥) والذي عمل فيه « مارتن بيهايم » من نورمبرغ ، رسخت آراء الاقدمين حول كروية الارض . وقد ساد الاعتقاد من جهة ثانية بان آسيا غير بعيدة من جهة الغرب بسبب خطأ ارتكبه بطليموس في تحديد المتوسط بالاتجاه الشرقي الغربي وتقدير طوله بستين درجة . فحسب الناس ان آسيا توجد حيث تقع اميركا . وقد انتشرت هذه الآراء وعمت . فاستطاع كولومبوس الاتفاق مع بعض البحارة ، الاخوة (بنزون) ، الذين كانوا قد فكروا بدورهم بمشروع بلوغ آسيا من جهة الغرب .

منذ هذا التاريخ ، وحتى القرن التاسع عشر ، اعتمدت اوروبا على البحر في الدرجة الاولى للاتصال حتى ببلدان العالم القديم . ولا غرو فان القوة اللازمة لنقل الوزن نفسه هي بنسبة ١ في البحر لـ ٣٥ في البر . فالبحر حر وخال من جميع العوائق ، كالاحراج والمستنقعات والصحاري والجبال العالية واعتداءات السكان ، التي تزيد كلها من مشقة وخطر الاستكشافات والاسفار البرية .

تفوق السفينة الاوروبية

م الاوروبيون وحدهم من حلّوا مشاكل الملاحة عبر الاوقيانوسات. وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافات البحرية الطويلة في ثلاثة مراكز : مركز الزورق المصنوع من جذع شجر مجوف والمزود برقاص (بين جزيرة مدغشقر وجزيرة الفصح) ، ومركز السفينة الشراعية المستوية القعر (في بحار الشرق الاقصى) ومركز السفينة ذات الحيزوم (في بحار اوروبا) . ولكن منطقة الزورق ذي الرقاص قد افتقرت الى الخامات والحركة التجارية فحال ذلك دون تقدمها . زد على ذلك من جهة ثانية ان الزورق ذا الرقاص لم يكن قادراً على السير يمنة ويسرة لمقاومة الريح. واذا ما استثنينا المساحلة بين جزيرة واخرى ، التي قد تغطي مسافات طويلة على كل حال،فان فائدة هذا الزورق تنحصر في الهرب على غير هدى امام خطر كبير ، دون امل بالعودة .

كانت السفينة الشراعية المستوية القعر قادرة على قطع المسافات الطويلة . فقبل وصول الاوروبيين بحراً ، بلغت اساطيل الدولة الصينية ، بين السنة ١٤٠٣ والسنة ١٤٣١ ، الجزيرة العربية ومضيق اورموز . ولكن طاقة حضارات الشرق الاقصى على التوسع والانتشار كانت محدودة وضئيلة لاسباب اجتماعية ودينية . في اواخر القرن الخامس عشر ، طرأ على التجارة الصينية تقهقر ملموس . اما السفينة الشراعية نفسها فلم تخل من مساوىء كبرى . فقبل وصول (فاسكو دي غاما) (١٤٩٨) و « البوكرك » (١٤٠٣) ، كان الصينيون لا يزالون يستعملون دفة اشبة بالجذاف . لذلك لم تتمكن من المياه ، وكانت ادارتها عملا شاقاً ، فقدر للسفينة ان تبقى صغيرة وان لا تسير بالاشرعة الا اذا دفعتها الرياح من الوراء . فاقتصر عملها على المساحلة وعلى الرحلات المباشرة ، بفضل الرياح الموسمية الشتوية ، بين الصين وجزر « السوند » ، وبفضل الرياح الموسمية الصيفية بين «السوند» والشواطىء الصينية . وحين شاهدالصينيون الدفه المحورية الاوروبية ذات المفصلة المعدنية ، حاولو النسج على منوالها . ولكن تأخر صناعتهم المعدنية لم يتح لهم استعمال المفصلة . فارغموا على الاكتفاء بدفة محورية ذات مدار خشبي هي دون الدفة ذات المفصلة بسبب احتكاك الخشب بالخشب وهشاشتها النسبية . الا ان حجم السفينة الشراعية قد تضخم. فبلغ محمول السفن التجارية ١٢٠٠ طنة مع أربعة الى ستة صوار و ١٠٠ الى ٢٢٥ بحاراً و ٢٠٠ الى ٤٠٠ مسافر . وتمكن الصينيون ، اكثر من السابق ، من الاستفادة من سهولات قيادتها ؛ فان قعرها المستوي يتيح لها الدوران كالخذروف ، ودخولها المحدود في الماء مناسب جداً على مقربة من مصاب أنهر الشرق الاقصى،واشرعتها الحصيرية المركبة على عوارض خيزرانية افقية متعاقبة سهلة التحريك على غرار مصاريع النوافذ المتحركة؛ ومن السهل كذلك تضييق وتوسيع مساحتها برفع او خفض الدوقل العلوي فقط لان العوارض يستقر بعضها على البعض الآخر على التوالي اذا خفض الدوقل فلا تدفع الريح اذ ذاك سوى القسم العلوي من الشراع ؛ يضاف الى ذلك اخيراً ان هذا الشراع المشدود الملتصق بالصاري يتجه من ذاته حين تبدل السفينة اتجاهها وانه يسمح بحصر الريح اكثر من الشراع اللاتيني . ولكن هذه السفينة

الشراعية ، بسبب اشكالها المسطحة التي جملتها تزيغ عن طريقها ، وبسبب صعوبة استعمال دفتها التي كان يقتضي لتحريكها بين ستة وثمانية ملاحين ، وبسبب ضعفها من جراء تكرر انقطاع زدنها ، قد بقيت في الدرجه الاولى سفينة تسير بالريح الهابة على اشرعتها من الوراء ، كما بقي استخدامها محصوراً في مناطق الرياح الموسمية ولا سيما في الشرق الاقصى .

هي السفينة الاوروبية وحدها ما توجهت الى كل مكان . فقد كان للدفة المحورية ذات المفصّلة ، التي ابتكرت في القرن الثالث عشر ، اثرها العظيم في الماء بفضل مساحتها العريضة . كما ان ذراع الرافعة من جهة مدير الدفة قد ضاعف قوة الرجل ، وقد عرف الاوروبيون ، خلال القرن السابع عشر ، كيف يركبون الملفاف على الدفة التي زودت منذئذ بدولاب سهل الادارة . غدت قياسات الدفة غير محدودة فازدادت قياسات السفن والاشرعة حين توفر الخشب لذلك . وابتكر البرتغاليون ، في القرن الخامس عشر في الارجح ، السفينة المزودة بعدّة مزدوجة : اشرعة مربعة للريح الهابة من الوراء ، واشرعة لاتينية لمقاومة الريح المعاكسة ، وهي عدة اتاحت اجتياز الرياح الهابة بين دائرتي الانقلاب من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . اضف الى ذلك ان حيزوم السفن واشكالها الدقيقة قد اتاحت لها مقاومة التهور والحيدان عن الطريق ، والسير بالتالي يمنة ويسرى في اقرب اتجاه الى اتجاه الريح المعاكسة . سار كولومبوس باتجاه يؤلف مع اتجاه الريح ٦٧،٥ درجة . فكان بمقدوره ، اذا ما سار على التوالي يمنة ويسرى ان يجتاز الريح المعاكسة . وقد تمتعت هذه السفينة ، حيال الريح ، باستقلال يوازي استقلال السفن الشراعية الكبرى في القرن التاسع عشر . وكان طبيعياً ان تدور بصعوبة ولكنها كانت تسدور بأمان وبسهولة . فتطورت السفينة الشراعية الاوروبية وفاقاً لهذه المميزات . واعتمدت في النهاية الاشرعة المربعة لان الدفة واشكال السفينة قد اتاحت السير في اقرب اتجاه الى اتجاه الريح المعاكسة ، ودونما صعوبة تذكر . حمل كل من الصاري الامامي والصاري الكبير من اسفل الى اعلى ، شراعاً منخفضاً ، وسطحاً مستديراً ، وشراعاً مربعاً . واحتفظ صاري مؤخر المركب بشراع لاتيني تسهيلا للحركة . وحمل الصاري الكبير المائل على مقدم السفينة شراعين . وكان هذان الاخيران مع شراع صاري المؤخر يساعدان على تدوير السفينة كما لو كان ذلك بحركة رافعة . اما الكوثل ، الذي كان مربعاً في اوائل القرن السادس عشر ، فقد استدار اسفله منذ السنة ١٦٣٥ في انكلترا ، ومنذ السنة ١٦٧٣ في فرنسا ، ومنذ السنة ١٧٢٠ في البلدان الشمالية ، لان كل انقاص غير مدروس يطرأ على القطع يحدث الدراديرِ ويزيد من مقاومة المياه . فسيطرت السفينة الاوربية على البحار ، وفي القرن السابع عشر بات المركب المثلث الصواري ملك الاوقيانوسات .

مسألة تحديد المكان

ان الاوروبيين وحدهم عرفوا كيف يحددون ، بضبط كاف ، نقطة الانطلاق والاتجاه الذي يسيرون فيه ونقطة وجودهم في وقت معين في عرض البحر ، ونقطة الوصول ، وكيف يعطون هذه المعارف قيمة شاملة بنقلها من جيل

الى جيل بأساليب كانت في متناول عقل كل انسان . لم يستخدم الصينيون البوصلة بل استرشدوا النجوم . وهكذا فعل البولينيزيون الذين تميزوا ، بالاضافة الى ذلك ، بتلك الفطرة البدائية الغريبة الغامضة التي استطاعوا بفضلها ، في بحارهم ، ان يسيروا في الاتجاه المقصود دون ان يروا اي شاطىء . ولكن الاساليب بقيت اختبارية ، ذات قيمة عملية فقط ، غير محددة وصعبة النقل الى الاجيال اللاحقة .

ووجهت مسائل الملاحة أول ما ووجهت حين تخطّي خط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، فتعذرت الاستفادة من النجم القطبي لتعيين العرض ، اي المسافة بالنسبة الى خط الاستواء ، ثم حين بلغ « برتلمي دياز » ، في السنة ١٤٨٦ ، خط العرض الجنوبي ٢٦ ، اثناء سيره بمحاذاة الشاطىء الافريقي ، فحاد عنه لتجنب الارياح والتيارات المعاكسة ، وامتطى عرض البحر عدة ايام فنبهته حالة البحر والجو الخاصة الى انه لم يعد في حمى افريقيا ، فصعد نحو الشمال بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح دون ان يراه ، واعطى بذلك اول مثل اكيد لامتطاء عرض البحر في التاريخ المعاصر .

الاساليب في اواخر القرن الخامس عشر

اعتمد الربابنة ، في ملاحتهم ، « على التقدير » في الدرجة الاولى ، لمعرفة الطريق التي قطعوها والنقطة التي بلغوها . وقد قدروا سرعة السفينة بالمراقبة ، اي بالنظر الى مرور المياه امام جانب المركب . وتوجهوا بواسطة ابرة ممغنطة مركزة على عوّامة في حوض مليء بالماء . ولمعرفة مكان وجودهم ، جمعوا بين الدلالات السابقة . ورسموا على الخرائط « طرقاً وابعاداً » تتيح لهم معرفة العرض والطول . ولكن الدلالات كانت تقريبية ، بسبب الانحراف الممكن عن الاتجاه المعين ، فكان الاسلوب غير ذي جدوى للرحلات الطويلة . فرسم الربابنة في هذه الحالة على الخرائط « طرقاً وارتفاعات » وخطوط عرض وحسبوا كل يوم نقطة وجود المركب على خطوط العرض . كان هذا الاسلوب معروفاً منذ العصور القديمة في نصف الكرة الشمالي . والمفروض هو ان يكون النجم القطبي في سمت الرأس (٩٠ درجة) بالنسبة لمراقب يشاهده من القطب ، وبمستوى الافق بالنسبة لمراقب يشاهده من خط الاستواء . فيكفي من ثم تحديد الزاوية التي يؤلفها مع الأفق الخط الذي يصل عين المراقب بالنجم القطبي لمعرفة العرض . واستخدم الربابنة « الاسطرلاب » وهو دائرة مقسمة الى ٣٦٠ درجة ومزودة بمضادة متحركة ينتقل احد طرفيها فوق التداريج ، وبصفيحتين عموديتين مثبتتين في كل من طرفي المضادة فتحت فيها خلتة لتصويب النظر . اما « الربع البحري » الذي استخدم منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر فكان جهازاً يمثل ربع الاسطرلاب . ولكن نسبة الخطأ في هذه الاجهزة بلغت بين ٤ و ٥ درجات . لذلك استخدم « القوس » الذي ابتكر في القرن الرابع عشر ، وهو سهم خشبي مدرّج يتزحلق عليه عدد من المطارق ويصوب النظر بواسطته الى النجم القطبي . فتراوحت نسبة الخطأ بفضله بين ١٢ و ١٥ دقيقة فقط . الا ان الربابنة ، بالاضافة الى اخطاء

التصويب بسبب حركات المركب ، قد اهملوا اصلاح انحراف الاشعة .

ما أن تجاوز البحارة خط الاستواء حتى تلبكوا ووقعوا في حـــيرة . اختفى النجم القطبي عن الانظار . فعين ملك البرتغال ، جان الثاني ، مجلساً ضم اليه فلكياً من نورمبرغ هو مارتن بيهايم (١٤٥٠ - ١٥٠٧) . سافر هذا الاخير حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٤٠ من العرض الجنوبي . اتقن المجلس طريقة تعيين العرض بالارتفاع الزاوي للشمس فوق خط الاستواء السماوي في اعلى منحناه الظاهر عند نصف النهار . ولكن هذا الارتفاع يختلف باختلاف الفصول في كل نقطة من مساحة الارض خارج خط الاستواء . فتوجب من ثم تزويد البحارة بجداول انحراف حسب عليها مسبقاً ارتفـاع الشمس الزاوي ، في كل عرض ، وفي كل يوم من ايام السنة . وضع المجلس هذه الجداول فبات ممكناً استئناف السير قدماً .

وبفضل معرفة العرض والاتجاه والمسافة المقطوعة المقدرة على اساس السرعـــة ، استطاع الربابنة استدلال الطول . ولكن نسبة الخطأ كانت كبيرة جداً . لذلك بحثوا عن تقدير الطول تقديراً مباشراً . فقد كانوا ملمين بمبدأ الفروق بين الساعات . ان فرق الطول بين مكانـين يساوي ١٥ درجة في الساعة و١٥ دقيقة من القوس في الدقيقة و١٥ ثانية من القوس في الثانية . ولكنهم افتقروا الى وسيلة عملية لحساب فرق الساعة بين مكان وجودهم ونقطة انطلاقهم . « يخامرنا الشك في ان يتوصل شيطان الى صناعة ساعة تفي بالحاجة » . استخدموا الساعات الرملية المقدرة لـ ٢٤ ساعة التي كانوا يقلبونها رأساً على عقب طيلة الرحلة رغبـــة في المحافظة على ساعة الانطلاق . ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تساقط الرمل في جهاز غير دقيق . وكان سهلاً ، في رحلة طويلة ، ان يحصل خطأ في احصاء تقلبات الساعة المتعاقبة . ولكن جهل الربابنة الذي اثار كريستوف كولومبوس وامريكو فسبوشـــي ، لم يوصلهم الى حلول اخرى . فبلغ خطأهم ٢٠ درجة تقريباً بحسب تقـدير كولومبوس ، اي ما يناهز ٤٠٠ عقدة

حاول دياز وكولومبس وفسبوشي استخدام الطرائق القمرية وطرائق مقارنة السيارات . في ١٣ كانون الثاني ١٤٩٣ ، بحث كولومبوس في هايتي عن ميناء امين يراقب منه مقارنة الشمس والقمر . فاذا عرفت في زمان ومكان معينين ساعة اخفاء القمر لنجم معين ، يكفي مراقبة الاخفاء في مكان آخر يبلغه البحار وتعيين ساعة حدوثه ، فيكون الفرق بـــين ساعتي المراقبة على الارض لظاهرة فلكية واحدة هو الفرق بين خطي الطول . واستخدمت بالشكل نفسه الكسوفات والخسوفات وكافة المقارنات او اللقاءات الظاهرة بين النجوم . في ٢٣ آب ١٤٩٩ ، راقب فسبوشي لقاء القمر الظاهر بالمريخ الذي انبأ « ريجيومونتيانوس » بحدوثه في نصف الليل بالضبط في نورمبرغ . فوجد القمر على بعد ٥،٥ درجات الى الشرق من المريخ عند نصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستنتج من ذلك انه على خط الطول الغربي ٨٢،٥ . واستخدم دياز وكولومبوس وفسبوشي « تقويم »

« ريجيوموتنتانوس » بين السنة ١٤٧٥ والسنة ١٥٠٦ ، « وروزنامة الكسوفات والخسوفات» بين السنة ١٤٨٣ والسنة ١٥٣٠ ، وكانا واسعي الانتشار في الأوساط الاسبانية والبرتغالية . ولكن الاخطاء لم تكن نادرة في تقدير بداية الظواهر ونهايتها ، الكسوفات والخسوفات ، اللقاءات ، الاخفاءات ، وفي تحديد مكان النجوم الصحيح بالاستناد الى ميلها وعمودها المستقيم . وقد بلغت هذه الاخطاء ٢٤ دقيقة احياناً ، مع العلم ان خطأ عشر دقائق في محل القمر يؤدي الى خطأ ٥ درجات في الطول او ١٠٠ عقدة .

النجاحات المحققة

يتضح مما تقدم ان جهوداً كبرى بذلت للتوصل الى تعيينات اكثر دقة . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق عليه اسم « لوك » ، وصف للمرة الاولى في السنة ١٥٧٧ ، واضيف بعد السنة ١٦٢٠ الى كافة المؤلفات التي تبحث في الملاحة . واللوك حبل مجهّز بعقد متساوية المسافات ومنته بلوحة سنديانية مثقلة بالرصاص ومزودة بعوامة . تلقى اللوحة في البحر ، فتستقر في مكانها تقريباً ، وينحل الحبل وتمر العقد بين اصابع الربان . اما المسافة بين عقدتين فتوازي جزءاً من ١٢٠ من الميل البحري. فالعقد التي تمر بين اصابع الربان في ٣٠ ثانية ، يقابلها عدد موازٍ من الاميال البحرية في الساعة . ولكن كان يقتضي معرفة طول الدقيقة في دائرة الارض الكبرى لتحديد الميل وتحويل المسافة المقطوعة الى احداثيات هندسية . منذ السنة ١٦٣٣ ، وجد « مور وود » للميل قياساً يوازي ١٨٦٦،٦٦ م واقترح ان يكون طول العقدة ٥١ قدماً . ولكن البحارة تمسكوا بعقدة الـ ٤٢ قدماً ، اي ١٥٤٠ متراً لكل دقيقة من دائرة العرض الكبرى لتأمين سلامة النزول الى اليابسة : اذ ان البقاء على مسافة ٢٠ عقدة من المكان الذي يعتقد الملاح انه بلغه ، افضل من الوصول الى مرمى المدفع من بعده .

وفي سبيل التوصل الى معرفة الاتجاه ، استبدلت الابرة المغنطة ، المترجرجة ابداً بفعل حركات السفينة ، ببيركار الطريق ، وهو ابرة بشكل معين على كثير من الاطالة مركبة على جذع فولاذي هو لها بمثابة المدار ، تدور فوق دائرة ارياح عينت عليها مساحات محدودة للارياح تتخللها الاشارة الى الاتجاهات . وسبق لكولومبوس ان اكتشف في ١٣ ايلول ١٤٩٢ انحراف الابرة المغنطة . فان هذا الانحراف قد اتجه نحو الشمال الشرقي بعد ان اتجه نحو الشمال الغربي . وهنالك خط انعدم فيه الانحراف يقع على مئة عقدة الى الغرب من جزر الأسور . ولكن سواد الملاحين انكروا واقع هذا الانحراف حتى في القرن السابع عشر .

حُسب العرض بسهولة كبرى بفضل قوس « دايفز » ، وهو جزء من الربع البحري ، الذي وصف شكله الاول في السنة ١٥٩٤ والذي استعمل بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر . ولكن حساب الطول قد بقي شغل البحارة الشاغل ، مع ان كسوفات الاقمار التابعة لجوبتير قد أتاحت التوصل الى مزيد من الدقة . فان مراقبة تواريها في ظل النجم السيار وخروجها من هذا الظل ، اذا ما قورنت بمعطيات جدول الانباء ، تعطي مباشرة فرق الساعة المطلوب .

استخدم بصورة خاصة بعد نشر تقويم «كسيني» (١٦٦٨). الا ان الحل الحقيقي الذي لم يتوصل احد اليه كان في اكتشاف مقياس الزمان. منذ السنة ١٥٣٠ وصف «غاما الفريزي» الساعات التي يسهل نقلها واشار «راي» بساعات ذات زنبرك محرك ومنفذ يزود بدولاب التقاء. وكان «بارنتز» اول بحار استخدمها في رحلته الى زيلندا الجديدة (١٥٩٦). ولكن هذه الساعات كانت سريعة التعطل. في السنة ١٦٦٤ سلم «هويغنس» ساعتين الى الماجور «هولمس» الذي توفق الى تقديرات محدودة الاخطاء على الشاطىء الافريقي. وحذا حذو هذا الاخير الاسطول الفرنسي المرسل الى «كنديا» في السنة ١٦٦٩. ولكن النتائج كانت هدفاً للاعتراض والانكار. فبقيت المسألة بدون حل طيلة القرن السابع عشر.

ازدرى الربابنة باعمال الفلكيين وتابعوا الملاحة «على التقدير». فان النتائج المشكوك فيها التي حققتها الاساليب العلمية قد ساعدت على استمرار الثقة في الطول المقدّر الذي اعتبر وكأنه الطول فحسب. فقد كتب الاب فورنييه، مؤلف كتاب شهير في علم المياه السطحية (١٦٤٣)، ما يلي: «في السنة ١٦٣٥ بالذات، وصل الى «دييب» مركب كان قد ارسل الى جزيرة «موريس» التي تبعد اكثر من ١٣٠٠ عقدة والتي بلغها الربان دون ان يضل الطريق، مع انه لم يذهب اليها قط من قبل. واني اشك كثيرا في ان يقدم اولئك الذين يثقون بعملياتهم الفلكية على مثل هذه الرحلات، مع ما لديهم من ادوات». اجل لقد بلغ الربانية اهدافهم، ولكنهم بلغوها بعد جهد وتلمس وتردد. كانت الخرائط الموضوعة ملأى بالاخطاء. وبلغ الخطأ في خريطة العالم التي وضعها «اورتليوس» في السنة ١٥٨٧، سبعة عشر درجة في الفرق بين طول لندن وشنغاي. وجاءت الشواطىء في خريطة فرنسا التي وضعها «سانسون» في السنة ١٦٧٩ مئة كيلومتر ابعد الى الغرب. وحتى في السنوات ١٧١٢ - ١٧١٤، ارسل «فريزيه»، مهندس الملك، الى «شيلي»، فحدد الطول الغربي لمضيق «لومير» بـ ٦١,٣٥ درجة بدلا من ٦٧,٣٠ درجة، وعين المسافة بين هذا المضيق ورأس «هورن» بخمسين عقدة بدلاً من ٣٠. وكانت نتيجة هذه الاخطاء ان عينت امكنة عدة على العرض الواحد للجزر الصغيرة المنعزلة. توجب اتخاذ الاحتياطات لبلوغ الشاطىء، ايقاف المراكب بواسطة القلوع، وقياس عمق البحر، واطلاق نيران المدافع في الضباب لتقدير المسافة بالاستناد الى الصدى. فهدر وقت كثير، ولم يحل كل ذلك دون حوادث غرق السفن. في السنة ١٦٨٦، غرقت عند الشواطىء الافريقية السفينة البرتغالية المقلة الوفد السياحي الى البرتغال، بينما اعتبر القبطان انه تجاوز رأس الرجاء الصالح وبات بعيداً في عرض البحر. وكان من بعد مسافة المكان الذي حصل فيه الحادث على الشاطىء الشرقي الى الرأس ان توجب على الناجين من الفرق السير غربا مدة ٣١ يوماً على طول الشاطىء قبل ان يبلغوه.

الكرات والخرائط

حلت مسائل الملاحة هندسيا على كرة، كتلك الكرة الشهيرة التي جاء بها «مارتن بيهايم» الى نورمبرغ (١٤٩١)، وهي نسخة عما وضعه بطليموس اضيفت اليها معلومات ماركو بولو حول آسيا ومعلومات البرتغاليين حول افريقيا، او ككرة

مركاتور (١٥٤١) . ولكن المليمتر الواحدة في كرة شعاعها ٦٠ سنتيمترا ، يعادل ١١٫٥ ميلا في الواقع . فبات لزاما رسم خرائط ، هي ادوات حساب ، لايجاد الحل البياني لمسائل التقدير . فاستخدمت حتى القرن الثامن عشر ، خرائط موضوعة على مسطحات رسمت عليها خطوط عرض وخطوط طول مستقيمة متساوية البعد . وكانت فائدتها ان مسيرة المراكب المنحنية كانت ممثلة بخط مستقيم . اما مساوئها فان كل خط عرض كان له مقياسه الخاص وان الخريطة لم تحتفظ لا بالمسافات ولا بالزوايا . فكلما اجتاز قوس الدائرة الكبرى التي ترسمها طريق المركب خط طول جديد ، ألتف زاوية مختلفة . فكان لزاما حساب هذه الزوايا المختلفة مسبقا للتمكن من توجيه السفينة وفاقا لقوس الدائرة الواصل بين نقطة الانطلاق والنقطة المقصودة ، واذا انحرفت السفينة عن طريقها مست الحاجة الى حسابات جديدة . فكان لا بد من خريطة تحتفظ بالزوايا .

مسقط مركاتور

نشر مركاتور في السنة ١٥٦٩ خريطته الاولى التي رسمها بعد بحث وتردد على الكرة . ازدادت المسافات بين خطوط العرض ازدياداً مطرداً نحو الشمال ، ولكن مركاتور جهل قاعدة تدريج خط الطول وتوسيع خطوط العرض في كل نقطة من خط الطول . تأمل «ادوارد رايت» في خريطة سابقة وعرض في السنة ١٥٩٩ نظرية المسقط المعروفة باسم مركاتور . ترسم كرة داخل اسطوانة ، وتوسع الكرة الى ان تلتصق كل نقطة من هذه الاخيرة بكل نقطة من الاسطوانة . فتكون خطوط الطول الخطوط المستقيمة المتوازية العمودية بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط العرض الخطوط المستقيمة الموازية لخط الاستواء . ولما كان خط العرض يصبح دائرة كبرى ، وجب ان يوسع خط الطول في عرض معين بنسبة الدائرة الكبرى للطول الاصلي لخط العرض هذا . وازدادت المسافة باطراد بين خطوط العرض وفاقا لقاعدة معروفة . ففي كل نقطة يكبر الطول والعرض والمعينات بنسبة واحدة وتحتفظ الخريطة من ثم بالزوايا وبالوضع الخاص لكل مكان بالنسبة لغيره . والمسيرات خطوط مستقيمة تقطع كل خطوط الطول مكونة معها زاوية واحدة لان نسبة خط الطول لخط العرض في كل نقطة هي النسبة نفسها بينهما على الارض . ووضع «رايت» ، بالاضافة الى ذلك ، لكل معين ، جداول تبين عرض نقاط تقاطع المعين وخطوط الطول المتوالية . الا ان الربابنة لم يعيروا هذه التحسينات اهتماما كبيرا .

تقدم الجغرافيا

لم يحرز رسم اليابسة سوى تقدم بطيء . فالمنشورات حول الاسفار قد افتقرت الى الدقة والوضوح ، وقد حدث احياناً ان ظهرت بعد تحريرها بزمن طويل فلم تلفت الانتباه دائماً . ان رواية رحلة كولمبوس الاولى (شباط ١٤٩٣) التي ترجمت الى اللاتينية وطبعت في روما ، وبال (١٤٩٤) ، وستراسبورغ (١٤٩٧) ، ودخلت فرنسا والمناطق المنخفضة ، قد بقيت شبه مجهولة تقريباً ، في حال ان احدى رسائل «امريكو فسبوشي» حول رحلته الثالثة (١٣ ايار ١٥٠١ حتى ٧ ايلول ١٥٠٢) ، التي نشرت في باريس

ثم في ستراسبورغ في السنة ١٥٠٥ ، عرفت اوسع انتشار بين روايات الاسفار . في السنة ١٥٠٧، اوعز « وولد سيمولر » ، في أعقاب ظهور كتابه « علم الفلك » ، بطبع روايات اسفار امريكو فسبوشي الاربع وباعتماد اسم امريكا للاراضي الجديدة .

الا ان سلطة بطليموس قد اخرت التقدم . فعلى الرغم من ان البحارة قد أثبتوا ان خط الاستواء يمر في البحر جنوبي غينيا ، عند وولد سيمولر و « شونر » وغيرهما في احلال غينيا جنوبي خط الاستواء لأن بطليموس ، الذي جهل خليج غينيا ، قد أحل خط الاستواء في البر . وكان هنالك شبه قطيعة بين البحارة المتهنين والعلماء . ولم يسلم هؤلاء الا تدريجياً بقيمة ما شاهده البحارة بأم عينهم .

وأعاقت سلطة الدولة بدورها انتشار المعارف . فقد رغب الامراء في حفظ سر الاكتشافات . وقد حظر في البرتغال ، تحت طائلة الاعدام ، كشف النقاب عن الخرائط التي وضعها رواد العوالم الجديدة . وحتى في البر الاوروبي ، عارض منتخب ساكس ، « جان فردريك » ، نشر خريطة للساكس . وكان من الضروري ، لمصلحة الدفاع ، ان يبقى علم وضع الخرائط سلاحاً سريا في ايدي الامراء . ولكن الحكومات العدوة قد لجأت الى الرشوة واستحصلت على الخرائط بمبالغ طائلة ، وكان البحارة الايطاليون الذين ينتقلون من خدمة دولة الى خدمة اخرى ، ينقلون خرائطهم معهم .

يضاف الى ذلك أخيرا ان التعليم الذي اعتمد في جوهره على تفسير مؤلف مكرس مقرر كـ « بحث في الكرة » لـ « ساكرو بوسكو » ، الذي حرر في القرن الثاني عشر ، او « النظريات الجديدة في السيارات » لـ « بورباخ » (١٤٦٠) ، قد تسبب في نوع من الشلل .

بيد ان الاكتشافات قد ذاع خبرها . ففي السنة ١٥١٣ ، انكر « ستوفلر » في محاضراته التدريسية التي القاها في « توبنجن » ، وجود منطقة حارة يستحيل اجتيازها . واكد استدارة الارض وواقع التقابل بين جهات الارض ، باسم اختبار البحارة . وبعد الرحلة الدائرية التي قام بها « ماجلان » و « سيبستيان دل كانو » مرورا بمضيق ماجلان ، والفيليبين ، حيث قتل ماجلان، ورأس الرجاء الصالح (١٥١٩ — ١٥٢٢) ، اظهرت الكرات التي صنعها شونر في السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٣٣ ، قارة اميركية مغلوطا في رسمها ، ولكنها متميزة عن آسيا .

اخطار الاسفار البحرية

تحلى الرجال الذين القوا بانفسهم في البحار ببسالة نادرة جداً . فقد شاعت روايات مرعبة كثيرة : عند خط الاستواء توجد منطقة مياه غالية ، وحجارة مغناطيسية تجتذب السفن الى قعر البحار ، وحيوانات مخيفة غريبة تترصد السفن والبحارة . أجل لقد خفت وطأة الذعر مع الاختبار ، ولكن الاخطار الحقيقية قد بقيت : العواصف ، والامواج العاتية التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع مسكن مؤلف من ست طبقات في رأس الرجاء الصالح وتهدد بابتلاع السفن الخشبية الصغيرة ، واخطار المجاعات في اسفار بحرية غير

التغلغل بعيداً في افريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغـابات في الغينيه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضخمة على الوثنيـة ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والافاويه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحمل دعـاة الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقـة ، ان تعرضت مصالحهم التجارية للاذى والخسارة ، للحؤول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الامامي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكمبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم ، يزاحمون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام ١٦٤٢ ، الى حمل رهاما ديبـاني ، ملك كمبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبـا ، على اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخـذ عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخـامس عشر كان الدرويش علي اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا بـه من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفـات الامـبراطور على انه اعتنق الاسلام سراً الا انه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبـيرة من رعايا الشعوب التي غلبت على امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً محترماً من الاوروبيـين نزحوا ليقيموا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ – ١٦٤٨ اسلاميـة بكامل سكانهـا ، في مقاطعة رودرب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبيه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيـا وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كانوا يقبـلون على الاسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كانوا يعتنقون الاسلام ويتصرفون للعيش بين المسلمين . فالحاميات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقليـة وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تغص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كانوا مرشحين لاعتنـاق

الكتاب الأول

أوروبا والعالم القديم

الفصل الأول

الحضارات البلدية عند قدوم الأوروبيين

تحقق الفتح الاوروبي على ايدي اعداد قليلة من الرجال . ويرد ذلك الى ان الاوروبيين قد وجدوا امامهم شعوبا ما زالت في مختلف مراحل العصر النيوليتي وعصر النحاس واوائل عصر الشبه وافتقرت افتقاراً يكاد يكون كليا الى الحيوانات الاليفة ، ولا سيما الى حيوانات الركوب والجر ونقل الاحمال ، وافتقاراً كليا الى العجلة والحديد . انتسبت هذه الشعوب كلها الى الجنس المعروف بالجنس المغولي والمتميز ببشرة متفاوتة الصفرة ووجنات ناتئة وشعر اسود واملس . ويغلب على الظن ان هذه الشعوب متأصلة من العالمين الماليزي والبولينيزي في آسيا ، وقد انتقلت منها الى اميركا ، كما نرجح ، عن طريق مضيق « بهرينغ » ، والجزر الاليوسية ، واوستراليا والقطب الجنوبي ، في عهد غير معروف ، قبل العهد الميلادي . وكانت قلة عند قدوم الاوروبيين لا يتجاوز عددها الخمسين مليونا في كل القارة الامركية ، وقد توزعت على غير تساو في مناطق القارة المختلفة . وكانت قد بلغت مستويات حضارية على كثير من التفاوت . ففي الوسط ، اي في المكسيك والمضيق الاميركي والبيرو ، وجدت دول حقيقية كثيفة السكان . وقد تعلق هؤلاء بالارض وعاشوا من الزراعة واسسوا المدن . اما الى الشرق من جبال « اندس » والى الشمال من نهر « ريو لرما » في المكسيك ، فقد عاشت قبائل من القناصين والقطافين والصيادين عيشة بدوية او شبه بدوية ومارست احيانا زراعية بدائية متناثرة جدا : ولعل سكان اميركا كلها ، الى الشمال من نهر « ريو غرانده دل نورته » ، لم يتجاوزوا خمسمائة الف نسمة . وجلي ان النتائج

جاءت مختلفة جداً . ففي الوسط وفي جبال « اندس » ، حل الاسبانيون محل الطبقة الحاكمة ونشأت حضارة مختلطة سيطر عليها الطابع الاوروبي ، وفي الشمال رفض البلديون مبدأ الانصهار واعلنوا على الاوروبيين حربا شعواء لا هوادة فيها ، في جزر الانتيل والى الشرق من جبال اندس ، تعرضوا خلالها للتقتيل والافناء فلجأوا الى الغابات العميقة النائية . الحضارات الاميركية عديدة جداً وتاريخها متطاول في الزمان . ولكننا لن نتكلم هنا ، وبايجاز ، الا عن اهم هذه الحضارات عند حدوث الفتح .

١ – حضارات العهد النيوليتي

في البدء وجد الاسبانيون في جزر الانتيل منذ السنة ١٤٩٢ ، ثم في اليابسة بين نهر « دارين » ومصب الاورينوك منذ السنة ١٤٩٩ ، والبرتغاليون في البرازيل منذ السنة ١٥٠٣ ، والفرنسيون في كندا منذ السنة ١٥٣٣ ، والانكليز ، امام شعوب مستوياتها التقنية متدنية جداً تقابل مراحل تخطاها الاوروبيون منذ زمن بعيد ؛ لا نستطيع تعدادها كلها والتعمق في درسها . بل نكتفي بتقديم بعض الامثلة فقط .

الالغونكينيون

في اسفل مستويات سلم التقنيات ، نجد شعوباً لا تتعاطى سوى القنص والصيد ، كالالغونكيفيين ، او الشعوب التي تتكلم الالغونكيلية . تقسمت هذه الشعوب الى فروع عدة . ففي اكاديا ، وفي ما يعرف اليوم بـ « برونسويك الجديدة » ، انتشر الـ « والاباكي » : « ميكماك » ، « ايناكي » ، « ماليسيت » ، « باساكوامودي » ، « بينوبسكوت » ، « فوفنوك » ؛ وفي لابرادور : « مونتانييه » ، « وناسكابي » ؛ وبين نهر « سان لوران » والبحيرات الكبرى : « الالغونكيليون » بحصر الاسم ؛ في شمال البحيرة العليا : « اوجيبوا » ؛ في جنوبي خليج هدسون : « كريبه » . وحين دخل « جاك كارتيه » في السنة ١٥٣٤ الى خليج « ميراميشي » ، احاط بسفينته على الفور عدد غفير من زوارق الميكماك . ونحن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل تجار الفراء ومراسلات الضباط الملكيين الادارية .

باستطاعتنا ان نقدم الميكماك مثلاً عن الالغونكيليين . استقروا في اكاديا حتى رأس « غاسبيزيا » وفي الارض الجديدة ، ولا سيما في المنطقة المحيطة بـ « خليج الفرنسيين » (خليج « فوندي ») . اوصلتهم رحلات القنص والصيد والتجارة الى « تادوساك » على نهر « سان لوران » . وقد وجدوا في جزيرة « انتيكوستي » ايضاً ، وغالباً ما صعدوا في حملاتهم على طول شواطىء لابرادور . تراوح عددهم بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ في الارجح . اقاموا في منطقة بحيرات وخلجان تحيط بها احراج السنديان والدردار والجميز والصنوبر واشجار القضبان . وفرة قنيص : الايل ، الدب ، الدلدل ، السنجاب ، الارنب ، القندس ، البط ، الاوز . ووفرة اسماك . كان الميكماك

اصحاء البنيـــة ، اقوياء ، اصغر شكلا من الاوروبيين ؛ وتميزوا بعيونهم السود وشعرهم الاسمر ولحيتهم الفثة . عولوا في معيشتهم على القنص والصيد وانتقلوا انتقالا موسمياً من منطقـــة الى اخرى . ففي الربيع والصيف وأوائل الخريف يقيمون على مقربة من الانهر وعلى شاطىء البحر. وفي اواخر الخريف وفي الشتاء ينكفئون الى الغابات ، وفي كانون الثاني يقصدون صيد الفقمة . وفي شباط وآذار يقتنصون القندس والدب والوعل . وفي منتصف آذار يصطادون الاسماك في النهر لانها اذ ذاك تملأ مياهه . وفي اواخر نيسان يكثر الرنك والحفش والحوت والبط الكبير . وبين ايار وايلول تغزو الاسماك مياه الشواطىء . وفي اواسط ايلول يصعد الميكماك الانهر مع السلور . وفي تشرين الاول وتشرين الثاني يقتنصون الوعل والقندس مرة اخرى . وفي كانون الاول يبحثون تحت الجليد عن اسماك « بوتامو » ويجدون عدداً وافراً من الرقوق الصغيرة .

استخدم هؤلاء الهنود السكاكين والفؤوس والحماك المصنوعة من المرو والصوان. واستخدموا كذلك خطاطيف خشبية ذات رأسين وصنانير عظمية واشباكاً من اغصان محبوكة قد تبلغ ٦٠ متراً طولا . وصنعت اقواسهم من اغصان الجرمشق . كما صنعت اوتارها من اطناب الحيوانات . وزودت سهامهم برأس عظمي . عرفوا اضراء الكلاب بالصيـد . ونصبوا الاشراك حتى للدب والايل . وعرفوا تعطين الجلود بتجفيفها تحت اشعة الشمس ، وصقلها بكبد الطير ، وبدلكها الى ان تصبح لينة كالاقمشة الصوفية . وصنعوا منها الاحذية والملابس والاكيـــاس . اتسعت زوارقهم المصنوعة من قشور الاشجار لـ ٥ او ٦ اشخاص بالاضافة الى الكلاب والاكياس ، وقد تراوح طولها بين ثماني وعشر اقدام . اقام الميكماك في الـ « ويغوام » ، وهـــو كوخ مخروطي الشكل مركب من مجموع قطع خشبية ، يبلغ عددها ١٦ او ١٨ ، ينحني بعضها نحـــو البعض الآخر ، وتغطى بصفائح من قشور الشجر . كان باستطاعة النساء ان يبنين الويغوام في اقل من ساعتين . كما كان باستطاعتهن نقضه ولفه وحمله على ظهورهن في اقل من هذا الوقت . عرف هؤلاء الهنود تدخين الاسماك واللحوم . جوفوا جذوع الشجر بالجمر والمناحت العظميـة وصنعوا منها القدور . صنعوا الاقداح بثني قشور الشجر وتخييطها بإبر عظمية وخيوط مستخرجـة من الجذور . غزلت النساء وبر الوعل بمغزل من خشب الجرمشق وحكن منه الجوارب وزخـارف الملابس والزنانير والاساور والعقود ، وصبغنه صباغاً احمر او اصفر او اسود او ابيض . ونقش الرجال في العظم والخشب ، « لجرد التسلية » ، الحيوانات ، والطيور ، والاشكال البشرية .

الفئة الاجتماعية الاساسية هي الزمرة المؤلفة من عدة عائلات تنتقل مجتمعة من مـكان الى آخر . يسود العائلة مبدأ تعدد الزوجات . للقادة زوجات كثيرات يؤمن لهم اليد العاملة وينجبن المحاربين . المحاربون العاديون يكتفون بامرأتين او ثلاث . اعتبر الزواج شأناً عائلياً . ولكن الفتاة لا تكره على الزواج . الخطيب يعيض الوالد من خسارته بان يعمل في خدمته سنـة او سنتين . يتمتع الزوج بسلطة كبرى . وغالباً ما تتعرض النساء للضرب ، وتسند اليهن الاعمال دائماً : بناء الزوارق ، دباغة الجلود ، صنع الالبسة ، اقامة الويغوام ، نقل الاحمال ، تزويـد

المحاربين بالسهام اثناء المعارك ، ولكنهن يتصرفن بحرية في منازلهن ويأكلن كل ما يشتهين . نظام الويفوام صارم جداً . لكل فرد مكانه الذي يحدده التقليد . تفصل النار بين الفتيان والفتيات ويحظر عليهم تبادل اطراف الحديث . اضف الى ذلك ان هذا التبادل محظر على كافة فتيان وفتيات الزمرة .

لكل زمرة رئيسها ، « ساغامو » ، او « الرجل القوي » . ينتخب مدى الحياة ، تارة من بين المحاربين الاكفاء ، واخرى من بين ابناء الرئيس الراحل ، ابتداء بالبكر . تخضع لكل رئيس عائلتان على الاقل وخمسة عشر عائلة على الاكثر . يحدد لكل منها دورياً مكان للصيد . يفصل في الخلافات ولكنه يحكم في الجرائم العامة بالاشتراك مع الجموع . الاغتيال والاغتصاب يُصنّفان بالثأر والانتقام . الرئيس يشرف على صنع الزوارق وترويض الكلاب على الصيد وتخزين المواد الغذائية . يجمع حوله شباناً ورجالا لاعائلة لهم ويغذيهم ويؤلف منهم حرسه الخاص ، وقوته الضاربة .

الحروب كثيرة وتعلن انتقاماً للشرف . خير الصفات الشجاعة . مطمع المحاربين هو اثبات بسالتهم وفرض هيبتهم . يقرر اعلان الحرب بعد خطب طويلة ويعلل بحجج مختلفة اكثرها وروداً اهانة القبيلة او مسبة احد الاجداد . تبتدىء برقصات حربية ، وممارسات سحرية : الحرب سلسلة من المفاجآت والمكامن والغارات الليلية . يحمل الظافر رؤوس المهزومين او يقطعها حتى يعود باشعرة الغلبة . يشد الاسرى الذكور الى جذوع الاشجار وترقص نساء المنتصرين من حولهم موجهة اليهم الشتائم ، ثم يقطعون اربا اربا . اما مصير نساء المغلوبين واولادهم فالعبودية . في سبيل ضمان الوحدة ضد الـ « ايروكوا » ، تألف اتحاد من قبائل الـ « واناباكي » كان يعقد مؤتمرات منظمة تتخللها الاحتفالات الرمزية .

ان الطبيعة ، في نظر الميكماك ، نسخة عن الحياة الاجتماعية ، او مجتمع كبير من الارواح الخفية ، الممثلة لروح البشر . يعبدون الشمس وزوجها ، القمر . ترفع القبيلة صلواتها الى الشمس كل صباح ومساء ، وتشكر لها انعامها بالوجود على الرجال وتوفيرها الغذاء لهم ، وتمجد عظمتها وجمالها ، وتلتمس منها منحهم قنيصاً وفيراً والتغلب على الاعداء ، واخصاب نسائهم . لكل رجل نفس هي كالصورة عن ذاته . تسبقه في الوجود ، وتستطيع على مرور الزمن ان تكون عدة اشخاص على التوالي . كل نفس تعيش بعض الوقت ، بعد الممات ، حول ويغوام العائلة وتقتنص ارواح الحيوانات بارواح الاقواس والسهام . لذلك يوارى الميت التراب مع اسلحته وادواته . الروح تأكل ارواح الاطعمة . لذلك يحتفظ بحصتها من كل الوجبات . في يوم غير معروف تنتقل الى بلاد الارواح ، نحو الغرب ، وتستطيع ان تبلغ ، بعد محن كثيرة ، ارضا سعيدة تعيش فيها حياة هانئة وتأكل ما يطيب لها اكله وتقتنص لمجرد التسلية .

لكل ما في الطبيعة روح اشبه بطيف يستطيع ، الى ما حد له ، اعطاء صورة الى مواد

جديدة . تخيل الهنود الانواع الحيوانية على صورة القبائل البشرية ، وتخيلوا لكل منها لغته الخاصة . الحيوانات المرمة لا تموت بل تتحول الى انواع اخرى . الوعل المرم يصبح حوتاً والعكس بالعكس، وهذا ما يفسر تشابه لحوم الوعل ولحوم الحوت . القندس يصبح ارنباً أسود لان هذا وذاك هما الحيوانان الوحيدان اللذان يشعران بالصياد من مسافة بعيدة ويهربان قبل ان يقرب منهما . السنجاب يتحول الى ثعبان لان الثعابين تكثر حين ينـدر السناجب والعكس بالعكس . ولما كانت للحيوانات ارواحها ، باتت الحيطة امراً ضرورياً ، لان هـذه الارواح سريعة الانفعال على غرار الهنود ، ولذلك يجب الا يلقى بعظام الوعل الى الكلاب ، اذ ان روح الوعل الميت تذهب وتخبر الوعول الحية التي لا يمكنها ان تغتفر الاهانة ، فيصبح القنص عملية غير مثمرة باعتبار ان القنص هدية القبيلة الحيوانية للقبيلة البشرية .

ان هذا العالم غير المنظور لاعظم شأناً الى حد بعيد من العالم المادي المنظور. فما هو السبيل الى الاتصال بهذه النفوس او الارواح يا ترى ؟ ان هذا الاتصال يتم بواسطة الانسان الذي ندعوه « شامان » ، اقتباساً من تعبير نقله قوزاق بطرس الاكبر عن الـ « تونغوز » في سيبيريا. لقد توصل الشامان ، بفضل الايمان والصلوات الطويلة والاخلاق الطاهرة ، لان يضمن لنفسه حماية احدى الانفس التي بفضلها يعرف كل ما يجري في عالم الارواح ويستطيع التأثير عليها . وهكذا فانه يعرف المستقبل ويبدي رأيه في قيمة مخطط حربي ويستمطر الغيوم للحيلولة دون وصول العدو او يحدث الجفاف تمهيداً لهجوم قبيلته . يعرف اين يتوفر القنيص . يرئس في بـدء كل سنة احتفالات انبعاث التجديد التي بدونها قد تتوقف اعمال الطبيعة . يحـول دون مجيء انفس الاموات لتعذيب الاحياء . يؤمن لكل هندي روحاً حامية . يشفي المرضى باستحضار روحه الحامية التي تطرد الارواح الشريرة ، اذا كان الناس كلهم مؤمنين . يحول جلد حيوان يبسطه امامه الى حيوان حي يتقدم ويطلب الاكل . يطفىء مشعلا من مسافة بعيدة ويجعل المـاء يغلي بمجرد النظر اليه ، ويخلص نفسه دفعة واحدة من القيود التي يكون موثقاً بها . انه نبي يجترح المعجزات .

ولعل هؤلاء الهنود آمنوا بقوة كبرى محبة للانسان، كلية الوجود في الطبيعة، هي الـ «مانيتو» ولعل هذا الايمان وصل اليهم عن طريق المسيحيين .

الـ « توبي ـ غواراني »

وفي مستوى اعلى ، اي في درجة الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة، وجد ، في جزر الانتيل واميركا الجنوبيـة ، الـ « اراواك » الودعاء الهادئون الذين صادفهم كولومبوس ، والـ « توبي ــ غواراني ». توزعت قبائل هؤلاء بين فنزويلا و « ريو ده لا بلاتا » . وان من نعرف اخبارهم هم الـ « توبينمبا » الذين استوطنوا ، في القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ، الشاطىء الشرقي من القارة الاميركيـة بين مصب الامازون ومصب « ريو ده لابلاتا » . وقد وصلت الينا اخبارهم بواسطة مؤلفات « ترفيـه »

الذي قام برحلتين الى البرازيل (١٥٥٠ – ١٥٥٤) ، ومؤلفات البروتستانتي «ليري» ، رفيق «فيلو غينيون» ، وكتاب المرسل البرتغالي «كاردين» الذي تكلم عن الطقوس والعادات ، وكتب المرسلين الفرنسيين «كلود دابفيل» (١٦١٤) و «ايف ديفرو» (١٦١٣ – ١٦١٤) ورسوم الهولندي «اكهوت» التي صورها في البرازيل في السنة ١٦٤٣ ، ومستندات كثيرة اخيراً حول خصوصيات هذه الشعوب .

كان التوبي – غواراني في مرحلة نيوليتية متخلفة عن المرحلة التي بلغها الـ «مايا» . جهلوا المعدن باستثناء الذهب الذي روجته التجارة . استعملوا فؤوساً من حجر ازرق – اسود ، ذات حد نصف مستدير ، تصنع ليلا كل شهر في اليوم الاول من الهلال . نساؤهم وبناتهم يرقصن ويغنين اثناء العمل امام القمر . وقد اعتقدوا انهم بتصرفهم هذا لن يمنوا بهزيمة . وصنعوا سكاكين حجرية . واستخدموا اسنان بعض القواضم للقص والثقب . كما استخدموا محارة الحلزون الكبير للنحت والصقل . وصنعوا الصنانير من الاشواك المعقوفة . ولم يكن لديهم من ادوات زراعية سوى الحربة المصلبة بالنار .

كان القوس سلاحهم المفضل . واستعملوا كذلك اقواسا كبيرة ذات اوتار قطنية ونبالا قصبية طويلة مزودة برأس من العظم او سن الكوسج او ذنب الشفنين البحري . وعرفوا الـ «بولاس» ، وهي كرتان تزود بهما سيور جلدية وتقذفان بحيث تلفان السيور حول حوامل الحيوان او الانسان المطارد . واستخدموا للدفاع عن انفسهم تروسا مستديرة مصنوعة من جلد التابير او الخشب الخفيف او قشور الشجر . ولم يجهلوا النار التي كانوا يشعلونها بتدوير مثقب صلب في خشب طري . وجوفوا جذوع الشجر او لجأوا الى قشورها لصنع الزوارق التي تتسع لثلاثين او ستين شخصاً والتي كانوا يجذفون فيها وقوفاً . وقد كانوا بحارة مهرة . ولم يكن لديهم حيوانات للركوب والجر او للتغذية الكبرى .

وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية . مارسوا الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة . زرعوا المنيهوت والذرة الصفراء والقلقاس الهندي والفاصوليا والفول السوداني والقشطة والفلفل والتبغ والموز وقصب السكر . كما زرعوا الاشجار المثمرة ، البلاذر والعنباء ودبّاء الهند والقرع . واضافوا الى ذلك حصيلة القنص والصيد .

كانوا يسمنون نساءهم ويجزرونهن في الوقت اللازم ، ويلتهمون العدو الذي يهوي ارضاً ، ويسمنون الاسرى للمآدب الكبرى ، ويسكرون بعصير القشطة والمنيهوت المختمر . واستعملوا المخدرات : لفافات التبغ الطويلة ، وغبار الـ «باريكا» ومعجون الـ «غوارانا» .

أقاموا في قرى محاطة بسياج من اوتاد تتخللها المنافذ وتنصب امامها الافخاخ . وضمت القرية بين ٥٠٠ و ٦٠٠ شخص موزعين على بيوت يتراوح عددها بين ٤ و ٧ وتختلف قياساتها بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولا و ١٥ و ١٦ م عرضا ، هيكلها خشبي وعقدها بشكل نصف دائرة ،

يغطيها سعف النخيل او قشور الشجر . كان البيت الواحد يؤاوي بين ٥٠ و ٢٠٠ شخص ، وهو اشبه بـ « جينوس » اغريق هوميروس وبـ « جنس » الرومان الاولين . وكان هنالك نادٍ للرجال . وكانت القرية تنقل من مكانها مرة كل خمس او ست سنوات بسبب المزروعات . ضمت مفروشات البيت الاسرة المعلقة والمناصب الخشبية والخزفيات والزنابيل والمناخل ومباشر ومعاصر المنيهوت والهواون المحفورة في جذوع الشجر ، والعلب المصنوعة من بيوت السلاحف . ولم يعتبر الفتيان يافعين الا بعد مرحلة تدريب تشمل درس الدين وتقاليد التكتل التاريخية . وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة يُفصلون عن بنات حواء ويتلقنون الدروس في نادي الرجال ، وهذا ما ساعد على انتشار السحاق واللاوطة . وكان تعدد الزوجات شيئاً مألوفاً وقد درج عليه الرؤساء بصورة خاصة . ولكن الازواج من الجنسين غالباً ما كانوا يستبدلون ازواجهم .

سار التوبي – غواراني حفاة في اغلب الاحيان . ولكن النساء عرفن غزل الحبال والاسرّة المعلقة والمخدمات وتعلمن من الارّواك بعض مبادىء الحياكة . وصنعن الوشائح والوزرات .

تزين التوبي بالارياش الملصقة بالجسم بواسطة الراتينج او العسل . واعتمر الرجال قبعات من الارياش الخضراء والحمراء والصفراء والزرقاء وحملوا تيجاناً وعقوداً واساور ومخدمات من ريش واطاراً كبيراً من أرياش النعام على الاليتين . وحصر في الرجال تزيين الشفتين وتعليق المعلقات بالانف . وحلت النساء الاقراط وأساور كبيرة من العظم الابيض أو الاصداف .

درج كلا الجنسين على تنتيف الشعر حتى الاهداب والحواجب. وسبد الرجال شعرهم بشكل نصف قمر في القسم الامامي من الرأس . ودرج كلا الجنسين كذلك على تزيين الجسم والوجه بخطوط مستقيمة وخطوط حلزونية وخطوط مموجة زرقاء وصفراء وسوداء وحمراء ، اي انهما درجا على التوشم .

ديانة الدتوبينمباء

فسر التوبينمبا كافة الظواهر الطبيعية واصل الاشياء ومصير الانسان بروايات خرافية تتدخل فيها كائنات مماثلة للانسان اعظم قوة منه رأوا في عواطفها وأهوائها وآرائها تأويلا لكل شيء . اعتقدوا بوجود الروح في كافة الاجسام الحية ، ولكنهم كانوا آخذين في التطور نحو القول بتعدد الآلهة .

ان « مونان » ، الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له ، قد خلق السماء والارض والبشر. عاش بين الناس ولكن الناس ازدروا به. عند ذاك انزل مونان عليهم نار السماء. خلص رجلا واحداً، هو « ايرين – مايه » ، واعطاه امرأة كي يعمر الارض مرة اخرى . من « ايرين – مايه » انحدر كافة البشر ونبي او « كرايبب » ، هو « ميرمونان » ، المقرب الى مونان العظيم ، الذي علم البشر سير القمر والشمس ، وخلود النفس ، والزراعة ، وتنتيف الشعر ، الخ . ولكنه حوّل الاشرار الى بهائم . وحين نفروا منه أحرقوه على كومة من حطب ، فانشق رأسه

محدثاً صوتاً فظيعاً، وكان ذلك مصدر البروق والرعد. ترك « مير–مونان » ابنا هو «سوماي». رزق هذا الاخير توأمين ، « تامندوار » ، الفلاح ، و « اريكونت »، المحارب. اهان اريكونت تامندوار الذي اغتاظ وضرب الارض ضربة قوية جعلت الماء ينبجس منها . فكان الطوفان . غرق كافة البشر باستثناء الاخوين وامرأتيهما .

من تامندوار انحدر التوبينمبا ومن اريكونت الـ « تومينو » ، الذين يتحاربون تحاربا دائما.

آمن التوبينمبا بالحياة الثانية وبتجسد الاجداد مرة ثانية في الولد وبرحلة طويلة وسلسلة من الامتحانات قبل بلوغ منطقة ستجد النفس فيها سعادتها الابدية . اما نفوس اولئك الذين انتقموا الانتقام الحسن واكثروا الاكل من لحوم أعدائهم فستذهب الى ما وراء جبال مرتفعة، الى متنزه تكسوه الاحراج ، قرب مونان ، حيث يرقصون ويبتهجون ابتهاجاً دائماً .

خشي التوبينمبا الجن والشياطين والارواح ونفوس الموتى التي تسبب الزوابع والعواصف والامراض والجفاف والهزيمة في الحرب والحوادث الطارئة والخدورات . درجوا على تطييب خاطرها بتقادم زهور وأرياش . وحموا أنفسهم منها بمشاعل أو نار تحت السرير المعلق تخاف الارواح منها خوفاً كبيراً . وكلما تعرضت صوالح القبيلة للخطر ، احتسوا المشروبات المخمرة ثلاثة او اربعة ايام متتالية . فتحركهم اذ ذاك حمية وحشية يعتقدون تحت تأثيرها انهم يتصلون بالقوى غير المنظورة . ويحدث خلال هذه الايام انفلات جنسي لا يعرف حداً .

وكان لدى التوبينمبا سحرة محترمون جداً .

وكانت الحروب دائمة بين القبائل . الاسرى يؤكلون . وتقوم هذه الشعوب بنزوحات كبرى دافعين بالمهزومين امامهم . وكان التوبينمبا قد توصلوا في اواخر القرن الخامس عشر الى طرد الـ « توبينا » الى داخل البلاد والحلول محلهم على شاطىء البحر بين مصب «سان – فرنسسكو» و « كماميا » .

التطورات حين وصول الاوروبيين

عند وصول الاوروبيين ، كان التوبينمبا في طريق التطور نحو الوثنية وعبادة الاصنام . ينصبون في مداخل القرى اوتاداً مزدانة باوتاد صغيرة رسم عليها رجال عراة . وينحتون في القرع شكل اوجه بشرية ويعتقدون ان الارواح تقيم في هذه الاشكال . ويصنعون اصناماً من الشمع او من الخشب . ويحرصون على ان تكون لكل عائلة قرعتها ، « ماراكا » ، الملأى بالحبوب او الحصا . ويتخيلون ان صوت الحصا والحبوب هو صوت احد الارواح . ويسأل التوبينمبا الماراكا عما تريد . وتقرر الماراكا الحرب او السلم، وتشكر لها الانتصارات بالاناشيد والرقصات .

انتشر الايمان « بالارض التي لا موت فيها » . وتنبأ الرقاة والسحرة بنهاية العالم . فاقتضى من ثم البحث عن ارض امينة تنمو فيها المزروعات وتقلب المجارف الارض تلقائياً وتجدد

النساء المسنات صباهن . ادى وصول البرتغاليين والحروب والمذابح الى تعزيز هـذه الاعتقادات وتسببت في تزوحات جديدة اهمها تزوح السنة ١٥٤٠ . اتجهت احدى قبائـل التوبينمبا نحو المغرب ، بقيادة ساحر ، بحثاً عن « ارض الخلود والراحة الابـدية » . كانت افرادها عشرة آلاف، فوصل منهم ٣٠٠ الى البيرو في السنة ١٥٤٩ حيث اسرهم سكان « شاشابوياس » . وتكلم الهنود عن بلاد خرافية ، هي مملكة الـ « اوماغا » ، حيث كل شيء حجارة كريمة وذهب . وهكذا تعززت اسطورة الـ « ألدورادو » .

لم تكن الحضارات البلدية هنا ادنى من حضارات الاوروبيين فحسب ، بـل كانت في تقهقر وهبوط ايضاً ربما بسبب الحروب الدائمة بين القبائـل ، وربما بسبب تطور طبيعي في المفاهيم الدينية . فان التأثر الذي بعثه وصول الاوروبيين ، اولئك المسوخ الغريبة ، قد عزز على الفور الايمان بانقلاب العالم ونهاية الازمنة وحياة جديدة ، كما عزز نوعاً من الايمان بمهدي آت ، ولعله تسبب في انحلال اخلاقي واجتماعي .

الايروكيـون

وبلغ ايروكيو اميركا الشمالية درجة اعلى من درجـات الحضـارة النيوليثية . ونقصد بالايروكيين هنا الشعوب التي تكلمت اللغة الايروكية « ايروكوا » ، « هورون » ،« نوترال » ، « توباكو » .احتل الايروكوا جنوبي بحيرة« اريه » وبحيرة « اونتاريو » واعالي نهر « سان لوران » حتى مسيرة يومين الى الجنوب من « مونريال » وحتى النهر هودسن » . والايروكوا اقوام من قدامى القناصين والصيادين اتوا من كولومبيا في الارجح عن طريق وادي نهر « ميسيسبي» حيث يعتقد انهم تعلموا الزراعة . واستقرت بعض فروعهم ابعد الى الجنوب ، الـ « شيروكي» في جنوب جبال « الـَّغاني » ، والـ « كونستاغا » والـ « سوسكهنا » ، في وادي سوسكهنا ، والـ « تو سكارورا » في كارولينا الشمالية .

بقي الشطر الاكبر من الايروكوا قناصين وقطافين ، ولكن زراعةالذرة الصفراء ، بالاضافة الى زراعة الفاصوليا والجلبان والفول والبطيخ الاصفر ، قد لعبت دوراً متزايد الاهمية واخذت تحتل المركز الاول في اواخر القرن السادس عشر . فقد امتدت حـول قرى الـ « اونونداغا » على ثلاثة او اربعة كيلومـترات ، حقول واسعة مزروعة بالذرة الصفراء . اتاحت الذرة الصفراء للهورون احتياطياً غذائياً يكفي لثلاث او اربع سنوات وفائضـاً معداً للبيع اشتروا باثمانه الفراء والزوارق من الالغونكينيين ، والاصداف الصغيرة المستخدمة نقوداً من قبائل الشاطيء .

الادوات شبيهة بأدوات التوبي – غواراني ولكن طريقة الزراعة طريقة فضـلى . فنحن هنا امام زراعة متناوبة غير متنقلة ٠ الايروكوا يبقون بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة في المكان الواحد ، ما دامت التربة قادرة على الانتاج . زد على ذلك انهم يعرفون طريقة اراحـة الارض ويلمون بعض الشيء بزراعتها ، دورياً ، ذرة صفراء وفاصوليا وفولا . مرتكز التغذية

الـ « ساغاميتيه » وهو حساء من الذرة الصفراء واللحم والسمك المجفف والفول والجلبان ؛ اما طعام المآدب الفاخر فالساغاميتيه المطهية بلحم الدب والقلقاس الرومي وزيت الجوز .

الاعمال كلها تنجز وفاقاً لثنوية جنسية . فالايروكوا يقسمون فئات يوزع العمل في كل منها على فريقين ، فريق النساء للزراعة ، وفريق الرجال للقنص والصيد . الجنسان يتبادلان المساعـــدة ، ولكن الادارة للنساء في العمل الزراعي والسلطة للرجال في القنص والصيد . ينجز العمل كله جماعياً في نطاق الفئة . توزع الفئة الاراضي للزراعة على كل عائلة . ولكن عندما يحين زمان الزرع ، تجتمع النساء وينتخبن احداهن رئيسة عمل عليهن ، ويذهبن ليزرعن تلم ذرة صفراء في حقول احدى العائلات ثم تلم ذرة صفراء في حقل عائلة اخرى وهكذا دواليك الى ان تزرع كل الحقول . ويجري الشيء نفسه في ايام الحصاد . والقنص شأن من شؤون الفئة ايضاً .

سيطرت على آراء الايروكوا في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عنـــد الضرعيات . فقد تقسمت كل الطبيعة الى ذكر وانثى . الرجل ذكر ويتمتع بالقوة . وذكور كذلك هي الشجرة والسماء والنسر والقندس والشمس الشارقة واللون الاحمر والشمال الذي يأتي منه الجليـــد ، والزرقة ، لون الجليد ، والصلابة . اما الانثى فصغيرة نسبياً وضعيفة ووديعة ، وتبكي . اذن فالمطر انثى ، والقمر الشاحب جداً بالنسبة للشمس ، والارض التي تولد كالأم ، والغرب الذي تأتي منه الامطار ، والسواد ، لون الغمام الممطر ، والاخصاب ، والجنوب ، والبياض ، اناث ايضاً .

ويمكن توزيع كل ذلك بشكل صليب يعين اربع مناطق من الكون

الحرب

الزرقة

الذكر

الشمال

الاخصاب – السواد – الانثى – الغرب + الشرق – الذكر – الحمرة – القـــوة

الجنوب

الانثى

البياض

السلم

ويتجمع الآلهة ، حيث يسيطر الآلهة الزراعيون ، وفاقاً لهذه المبادىء . فهم ليسوا من بعد كيانات مستقلة على بعض الابهام ، بل آلهة ذاتيين يؤلفون زوناً متسلسل السلطات . الاله الرئيسي هو « كارونياڤاغون » ، اله السماء ، الذي ينظم الفصول ، ويسيطر على الارياح ويعلن عن رغائبه للبشر في الاحلام ، ويصيب الذرة الصفراء بالضرّ اذا كان غاضباً ، انه اشبه بجوبتير

ايروكوا . قرينتـــه هي « اياتا هانتسيك » ، إلهة الارض والمرض والموت . حفيدهـــا هو « جوسكيرا » اله التجدد والنمو في الحياة النباتية والحيوانية . فهو الذي خلق كل ما يقوم على الارض من بحيرات وانهار واسماك واحراج وقنيص وحقول وحصيد . وهو الذي يرسل المطر والحرارة ، والذي علم البشر فن النار . انه اله القيامة . يشيخ ويميل الى الزوال ، ولكنـه ما ان يبلغ الهرم حتى يعود شاباً ، فتبدأ اذ ذاك دورة جديدة . نظيره هو توأمه ، « تاويسكارا » ، اله القوة التخريبية والصر والجليد ، الخ .

اما « اغرسكوي » ، الاله الشمسي ، فشفيع القناصين والمحاربين الذين يقـدمون له حتى لحوم الاسرى وفاقاً لطقوس مماثلة لطقوس الـ « ازتيك » .

تتألف العبادة من ثمانية اعياد قانونية تشير الى تعاقب مراحل الحياة الزراعية . اعظمهـا اهمية عيد المزروعات وعيد الذرة الصفراء النامية وعيد الحصاد . تستلزم مراسم وطقوساً يحتفل بها كهنة معينون ، « حراس الايمان » الثمانية ، اربعة رجال واربع نساء .

يرتكز المجتمع الى الثنوية نفسها . وهو ذو نظام امومي تمطي الام فيه اسمهـا لأولادها . ألاولاد هم اولاد الزوجة ويربون في عشيرة الام على يدي خالهم . الاب والام لا يعيشان معـاً تحت سقف واحد ، وانما تشارك الزوجة الزوج سريره مساء الى ان تصبح حامـلاً . وعلى الرغم من ذلك فان الرجل ملزم طبعاً بتقديم الغذاء والكساء لزوجته واولاده . كما ان الامرأة ملزمة بتحضير الطعام ولوازم الصيد لزوجها . اما اذا تزوج رجـل ينتمي الى عشيرة الذئب من امرأة تنتمي الى عشيرة الدب ، فيكون الاولاد من عشيرة الدب ويعيشون معها . ومن المسلّم به ، اذا هوجمت عشيرة الدب ، ان يبادر الزوج المنتمي الى عشيرة الذئب الى مساعدتها مع كل عشيرته ، بسبب التضامن الذي يسود العشيرة .

يشرف على ادارة العشيرة مجلس مؤلف من ثلاث نساء يخترن ابداً من العائلة نفسهـــا ، ويعيّن لا بالانتخاب بل « بالاتفاق » في اعقاب مفاوضات طويلة . تنتخب هذه النساء الثلاث رئيس العشيرة ، او « ساشم » ، الذي يجب ان يكون ذكراً ، وابن شقيقة الرئيس المتوفي في اغلب الاحيان . يستشير الساشم مجلس النساء في الشؤون العامة ، ومجلسا من المحاربـــين في شؤون الصيد والحرب . وتعرض مقررات كل عشيرة على مجلس القبيلة ؛ وتضم كل قبيلة ثماني عشائر على الاقل ، ويتألف مجلس القبيلة من مستشارات كل عشيرة وساشمهـــا . وتعرض مقررات مجلس القبيلة على مجلس الشيوخ المذكور الذي يتمتع بحق نقض مطلق .

ان قبائل الايروكوا الاربع ، منذ السنة ١٤٥٠ تقريباً ، وقبيلة الـ « موهوك » منذ السنـــة ١٥٧٠ ، قد الفت اتحاداً . فتألف مجلس الاتحاد من كافة مجالس العشائر وساشم كل عشيرة . اما في الشؤون الخطيرة ، كالحرب مثلا ، فيجتمع شعب الايروكوا كـله . تتفاوض النساء اولاً ويتخذن المقررات ثم يليهن الرجال . ثم يجتمع الرؤساء ويقترعون في كل قبيلـــة . واخيراً

تقترع كل قبيلة في الاتحاد ، حيث يجب الاجماع . وجلي ان هذه الانظمة اعطت الايروكوا تفوقاً كبيراً على هباء القبائل المنثور حولهم .

كان كافة هؤلاء الهنود في الدرجة الدنيا من سلم الفكر البشري. فكان العالم في نظرهم سحراً اكبر يستطيع كل شيء فيه مبدئياً ان يؤثر على كل شيء بتشابهات وتلامسات سرية . وقد اعتقدوا باتحاد كافة الاشياء بقوى خفية متوزعة في الكون لا تقع تحت الحواس مع ان وجودها لا شك فيه ، ولم يميزوا تمييزاً كبيراً بين الكائنات الحية والكائنات الجامدة . فكان في رأيهم ان الاشياء المصنوعة تحيا على غرار النباتات او الحيوانات التي تتخدر طيلة الشتاء، او البشر النيام، وان لها وظائفها بحسب اشكالها ، وان صور الكائنات وتماثيلها ليست اقل واقعاً من هذه الكائنات . فان قطعة مادية صغيرة تلامس شيئاً ، او رسماً او رمزاً او كلمة ذات دلالة ، تنقل الى الشيء الفعل الذي يأتيه الانسان . كان الـ « سيو » ، قبل الصيد ، يرقصون « رقصة الدب » ، فيقلد الراقصون الدب بدقة ويتوجهون بأناشيدهم الى روح الدب لاستمالته واستعطافه. وكان الصيادون يصومون قبل السفر ، ويمتنعون عن العلائق الجنسية ، ويتطهرون ، ويتجملون برسوم خاصة ، ويبتهلون الى ارواح الحيوانات التي قتلوها في رحلات الصيد السابقة . واعتقدوا انهم انما يقيمون بذلك رابطة صوفية بينهم وبين ارواح الدببة ، وان الحيوانات ستقترب منهم وتعرض نفسها لضرباتهم . واعتبر الهنود غذاءهم بمثابة هبة طوعية من ارواح الحيوانات والنباتات . وفي حالات اخرى ، مثل الراقصون بالايماء موت الحيوان المطارد . يرتدي الراقص جلد الحيوان وقناعه ، وحين يصاب بالعياء ، يضرب بسهم لا حدّ له فيهوي على الارض مقلداً الحيوان بسقوطه ثم يخرج من وسط الدائرة ، فيمثل صياد آخر بالايماء تقطيعه وتجزئته ، ثم يليه صياد ثالث . ذلك كان الصيد الذي ينتظر الحيوان لان الصورة بعض الاصل . وقد اعتبرت هذه الممارسات اعظم اهمية من المطاردة الفعلية . اما بعد الصيد ، ففرضت بعض الطقوس المعدة للحيلولة دون انتقام الحيوان وروح النوع الذي ينتمي اليه . فتتلى صيغ مهدئة ، وتكرم الحيوانات المقتنصة ، وترفع الابتهالات حتى لا تنفر الحيوانات الاخرى وتقام صلوات الشكر .

يردّ كل ذلك الى ان نشاط هؤلاء الهنود العقلي لم يتطور تطوراً يستحق الذكر . فلم يتكون لديهم بعد افكار او صور عن الاشياء مستقلة عن العواطف والتأثرات والاهواء التي كانوا يشعرون بها . كان فكرهم حدساً اجمالياً يدرك فطرياً مجموعاً من الصفات . وسيطرت على كل ما يعرفون حالات غامضة لا تتيح التحليل والنقد .حكموا احكاماً على جانب من الاهمية، متناقضة منطقياً ، الا انها مقبولة شرط ان تكون من طبيعة المضمون التأثري نفسه . فلم يكن هنا ، والحالة هذه ، من مكان او عمل لمبدأ التناقض . اذا ما عوى كلب مثلاً ، او اسمعت بومة صماء صوتها على مقربة من احد الاكواخ ، فكان ذلك في نظر الهنود موجباً لقتل مالك الكوخ. ان الصوت المحزن ، والقشعريرة التي يحدثها ، وفكرة المصائب التي يوحيانها ، والتمثيل العقلي لسيد الكوخ ، كانت تؤلف ، في وجدان السامعين ، كلا واحداً ، وتوجب من ثم ازالة سيد

الكوخ . لذلك لم يتقن الهنود الحساب الذي كان في نظرهم عملية شاقة . كانوا يدركون من نظرة واحدة ان كومة من الجلود اكبر من كومة اخرى ، وان قطيعاً من البقر الوحشي يفوق عدداً قطيعاً آخر مر قبله ، وما كانوا من جهة ثانية ليخطئوا في العدد في نطاق حدود معينة ، ولكن ما كانوا يدركونه اجمالياً هو مجموعة نوعية فقط . لم يحسبوا ولم يحللوا بتمييز العناصر المجردة بفكرهم وبرؤية كمية الزيادة في احدى الجهتين .

يتضح من ذلك ان حضارتهم لم تكن متدنية فحسب ، بل متوقفة وراقدة ايضاً . اذا كانت للاشياء وظائفها بحسب اشكالها ، واذا كان لحركات الصياد والفلاح اثرها الرمزي ، فان لأدنى جزئيات الشكل او حركات الاحتفالات الدينية اهمية رئيسية ، اذ ان كل جديد فيها يخلق وظائف جديدة ، وباستطاعته اثارة قوى خفية وايجاد الف خطر وخطر . لذلك كانت كراهية هؤلاء الهنود لكل تغيير شديدة جداً . فكانوا يرتاعون مثلا من الاطباء الاوروبيين ومعالجتهم ومن المفاعيل المشؤومة لخصائص الاشخاص والادوية الخفية . لم ينقلوا عن الاوروبيين سوى استخدام الحصان وبعض الاسلحة وبعض الادوات . اضف الى ذلك ان كل تقدم مشروط بتكوّن المفاهيم المجردة ، العامة ، تحت ظل مبادىء الذاتية والتناقض والسببية ، وبمراقبة هذه المفاهيم بواسطة الاختبار . فان تحديد المفهوم « حجر » لا يجيز التصور بأن يكون للحجر حياة الكائن الحي الخفية وبأن يزعزع اركان عالم البدائيين . ولكن هذا الانتقال من المنطق البدائي الى منطق المفاهيم ، الذي هو الشرط الاول للاستساغة ، عملية طويلة وصعبة جداً .

« المايا »

في الدرجة العليا من الحضارة النيوليتية ، نجد ، في اميركا الوسطى ، قبيلة المايا .

احتل المايا على « المتوسط الاميركي » منطقة حارة توافق في المكان المكسيك الحالية ، وشرقي مضيق « تهوانتيك » وشبه جزيرة يوكاتان ، وغواتيمالا باستثناء الشاطىء الباسيفيكي ، وغربي هونودراس وهندوراس البريطانية . لقد احرق الكهنة الاسبانيون معظم مخطوطات المايا الهيروغليفية اعتباراً منهم بأنها تتضمن اكاذيب الشيطان . الا ان ثلاثة ابحاث قد وصلت الينا : في علم الفلك وعلم التنجيم والطقوس الدينية . ووصلت الينا كذلك مؤلفات بلغة المايا والابجدية الاسبانية وضعها بعض البلديين بعد الفتح تؤلف موجزاً لاخبار تاريخ المايا . ولدينا ايضاً التقرير المفصّل الفريد الذي وضعه الاسقف لاندا (١٥٦٦) . ولدينا اخيراً اطلال ١١٦ مدينة من مدن المايا اظهرت واكتشف بعض ابنيتها وكتاباتها بعد استئصال نباتات المناطق الحارة منها ، والمايا الحاليون الذين اثبتت مقارنتهم بالاثار والرسوم التي وصلت الينا انهم احتفظوا بالشيء الكثير من اجدادهم وان باستطاعتنا سد بعض فراغ المستندات بالمراقبة المباشرة . اجريت بعض اختبارات زراعة الذرة الصفراء بحسب طرائق المايا تحت رعاية مؤسسة كارنجي في واشنطن . فيبدو ان حضارة المايا حضارة بلدية اصيلة نمت محلياً ، بمجرد علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية

ربما منذ ثلاثة الاف سنة قبل يسوع المسيح . ارتكزت هذه الحضارة الى أدوات من عهد الحجر المصقول ، والكتابة الهيروغليفية ، وزراعة الذرة الصفراء . وقد بدت ، عند وصول الاوروبيين ، وكأنها بلغت منتهى النمو الفكري الممكن بلوغه في هذا المجموع ، واستقرت منذ خمسة عشر قرناً ، فلم تحرز بعد ذلك اي تقدم .

المميزات الطبيعية والاخلاقية

المايا متوسطو القامة ، عراض الكتفين ، متقعرو الصدر ، طوال الساعدين ، كبار الرأس ، نحاسيو اللون ، شعرهم اسود مستقيم . الرجل امرد اللحية والشاربين على العموم .

مقاييس الجمال في نظرهم انخفاض في الجبهة وحول في العين يكتسبان بشد خشبة الى الجبهة وبتعليق كرة صغيرة من الراتينج بين العينين منذ الولادة . يتحلون بالقوّة وصحة البنية والنشاط والعزم والجلادة على العمل ولا يصابون بالمرض الا نادراً . انهم اشبه شيء بالصينيين : يحبون المرح والثرثرة والحياة الاجتماعية والضحك والمزاح ، يميلون بالفطرة الى الكرم والثقة بالغير وملاطفة الغرباء ومصادقتهم ، ويدركون كل الادراك معنى العدالة والشرف والنزاهة ويتحلون بروح الملاحظة والتخيل ويحسون بالجمال .عواطفهم العائلية قوية جداً . الوالد يتمتع بسلطة كبرى . يكنون الاحترام للاشخاص المتقدمين في السن . البنون مرغوب فيهم جداً ، والزيجات تعقد في سن مبكرة ، ١٢ سنة للفتيات و ١٤ للفتيان ،ونسبة الولادات مرتفعة تبلغ بين ٥٠ و ٦٠٪ وبين ٧ و ٩ اولاد بالعائلة يبقى منهم في قيد الحياة بين ٣ و ٤ . وعلى الرغم من ذلك فان الاخلاق اباحية ، والطلاقات غير نادرة من كلا الجانبين . يتزوجون بين ١٠ مرات و ١٢ مرة متتالية ، وللنساء عشاقهن ، وللفتيات عشاقهن ايضاً وقد ينجبن الاولاد قبل الزواج ولكنهن يتزوجن بدون صعوبة على الرغم من كل ذلك .

يحمل الرجال طريدة قطنية تلتف حول القد وتمر بين الساقين يتدلى احد طرفيها من الامام والطرف الآخر من الوراء ، ومربعاً من القماش يبكل عند الكتفين بمثابة معطف . شعر الرأس يقص في مقدم الرأس وتتدلى منه ذؤابة طويلة على الظهر . يدهن الجسم والوجه باللون الاسود حتى الزواج وباللون الاحمر بعد ذلك . اجسام المحاربين تدهن باللونين الاسود والاحمر ،والكهنة باللون الازرق ، والاسرى بخطوط افقية بيضاء وسوداء . يتوشمون ويتعطرون . النبلاء والكهنة يتألقون : ارياش ، وزين يشب واقراط صدف وجلود فهد واسنان تماسيح وعقود واساور وقبعات مزدانة بالريش ، وارياش فاخرة خضراء وزرقاء تتلون بالوان قوس قزح للقادة والرؤساء .

اما النساء فيرتدين الغلالة القطنية المطرزة بالزهور والطيور والحشرات ، ويحملن معطفاً طويلا ويغطين رأسهن بقطعة من القماش . يرسلن شعرهن ويتوشمن ويتطيبن .

الادوات المـاديـة

عرف المايا استعمال النار . واستخدموا مواد عهد الحجر المصقول من مطارق وفؤوس ومناحت نسيفية وصوانية، ومطارق خشبية مصلبة، وعصي خشبية بواسطة النار . لم يستخدموا المعدن . اما النحاس والذهب فلم يستعملوهمـا الا للزينة وقد استوردا من بلدان اخرى . جهلوا المسامير واستعاضوا عنها بالرُبط النباتية . توصلوا الى ادجان الديكة الهندية والنحل ، ولكنهم لم يقتنوا حيواناً واحداً لحمل الاثقـال ولم يعرفوا العجلة .نقلوا الاثقال كلها على رؤوس الرجال .

يتبين من ثم ان وسائل عملهم في الطبيعة كانت محدودة جداً . ولكنهم استطـاعوا بلوغ مستوى فكري وسياسي رفيع بفضل الذرة الصفراء . يبدو ان الذرة الصفراء متأصلة مـن مرتفعات غربي غواتمالا حيث يوجد اليوم النباتان البلديان الوحيدان اللذان ينموان مع الذرة الصفراء واللذان هما ، بالتالي ، من النوع نفسه . ويغلب على الظن ان المايا هم الذين جعلوا منها نباتاً زراعياً واعطوا بذلك نبات الخلاص كافة قبائل الفلاحين في اميركا . زرع المـايا الذرة الصفراء وفاقاً لطريقة الـ « مِلبا » (جمع الاعشاب واحراقها وذرّ رمادها) . ففي اذار ونيسان يحرقون الاعشاب اليابسة ؛ بعد امطار ايار الاولى ، يحدثون في الارض المخصبة بالرماد ، بواسطة قضيب مقرن ، ثقوباً يودعونها الحبوب . يزرعون تباعاً ثلاثـــة انواع من الذرة الصفراء : نوعاً ينضج بعد شهرين ونصف الشهر ، وآخر بعد اربعة اشهر ، وثالثاً بعد ستة اشهر . وبعد نزع الاعشاب تكراراً وجني السنبلة في ايلول او تشرين الاول لمنع تسرب المياه اليها ونمـــدي الطيور على حبوبها ، يجمعون الحصاد بـــين كانون الثاني ونيسان . يقتضي ١٤ هكتاراً ونصف الهكتار تقريباً لتغذية عائلة طيلة سنة كاملة ، وبالاستطاعة انتاج الكفاف خلال ثمانية واربعين يوماً . فيتبقى من ثم فائض طاقة معد لتعهد الاختصاصيين والكهنة والمحاربين المعفيـــن من الاعمال اليدوية ولتجهيز الادوات العلمية والدينية : المعابد ، المراصد ، الاهرام ، القصور ، وساحات الرقصات الطقسية . وهكذا تمكن المايا من بلوغ المستوى الفكري الذي بلغه اقوام استخدموا ادوات فضلى واستعملوا الشبه والحديد والعجلة :الكلدانيون والبابليون والاشوريون والمصريون والاغريق والصينيون .

التجهـيز الفكري

بيد ان مستواهم الديني والعلمي والفني قدفاق مستواهم التقني الى حد بعيد .بلغ المايا الدرجة الثانية من درجات الفكر البشري التي وصفها « ابيل راي » ، اي الدرجة التي نعتها « ر. برتلو » بالـ « استرو بيولوجية » .والاستروبيولوجيا مرحلة من مراحل القول بتعدد الالهة حيث يعتبر كل شيء ، حتى السماء والكواكب ، كائناً حياً على غرار الحيوانات والبشر ، وحيث يخضع كل شيء ، على غرار الكواكب ، لسنـن دورية ، اي سنن الضرورة وسنن التوافق وسنن الاستقرار معـــاً ، التي توحيها الحركات الدورية في القبة الزرقاء ، وتعاقب الفصول المنتظم ، وتجدد الحياة النباتية كل سنة ، وحيث يعتبر كل شيء ، الاحداث والاعمال ، مرتبطاً بمواقع الاجرام السماوية وحركاتها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية

ان زراعة الذرة الصفراء الفضلى تستلزم تقدم علم الفلك الذي يفرض استخدام كتابة وهندسة عمارة ، ومن ثم تنظيماً اجتماعياً وسياسياً كاملا .

تكلم المايا لغة بسيطة متقدمة اقل تصريفاً اسمياً وفعلياً من اللغة الاسبانية واسهل تعلماً على الانكليزي من اللغة الاسبانية ايضاً . استخدموا كتابة هيروغليفية تعبر عن الافكار تمثيلياً على غرار الكتابة الصينية ، فكانوا من ثم في مرحلة تطور تتقدم مرحلة الكتابتين المصرية والمسمارية السومرية اللتين تتضمنان عدة عناصر صوتية مقطعية . اما ما خلفوه من كتابات فيبحث في التاريخ والفلك والدين ، لا في الفتوحات وامجاد الامير .

انهم اول من ابتكر في العالم ، منذ ثلاثة او اربعة الاف سنة قبل يسوع المسيح في الارجح ، العد استناداً للمرتبة واستخدام الصفر ، وهذا يفرض قدرة كبرى على التجريد الفكري . ارقامهم اكبر من الأرقام الرومانية ! استخدموا رمزين عوضاً عن ثلاثة وربطوهما بواسطة الجمع والطرح . واليك هذه الارقام .

١ • طريقتهم عشرينية : ٢٠ وحدة من المرتبة الاولى او « كن » ، تؤلف وحدة
٢ •• من المرتبة الثانية ، اي جزءاً من عشرين او « فينال » ؛ ٢٠ فينالا تؤلف
٣ ••• . وحدة من المرتبة الثالثة ، او « تون »، الذي يساوي ٤٠٠ كن ؛ ٢٠
٥ — تونا تؤلف وحدة من المرتبة الرابعة ، او « كاتون »، الذي يساوي ٤٠٠ فينال
٧ •• و ٨٠٠٠ كن ، الخ . القيم تزداد عشرين عشرين ، من أسفل الى أعلى ، بدلا
٩ •••• من عشرة عشرة ، من اليمين الى اليسار كما في طريقتنا .
١٠ ═ لنرتب اذن من اسفل الى اعلى ، ارقام المايا التي تقابل ٢٨٠٠٠ وحدة .
١٤ ••••

ثلاثة « كاتون » ••• ثلاث وحدات من الرتبة الرابعة
عشرة « تون » ═ عشر وحدات من المرتبة الثالثة
صفر « فينال » صفر وحدة من المرتبة الثانية
صفر « كن » صفر وحدة من المرتبة الاولى

تساوي ٢٨٠٠٠ كن .

وكانوا أول من طلع بفكرة قاعدة ثابتة للتاريخ بدلا من التاريخ وفاقاً لسني ولاية الرئيس . انطلقوا من حدث فرضي بحيث ان نقطة الانطلاق (الصفر) قد سبقت اول تواريخهم المعاصرة للاحداث بـ ٣٤٣٣ سنة . كان لهم سنتان ، سنة مقدسة تبلغ ٢٦٠ يوماً ، وسنة شمسية موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر من ٥ ايام . تأخرت سنتهم الشمسية يوماً كل اربع سنوات وعرفوا كيف يصححون هذا التأخير . كان حسابهم للتاريخ دقيقاً جداً على غرار ملاحظاتهم .

حددوا مدة السنة بـ ٣٦٥,٢٤٢٠ يوماً ، ويبلغ النقص فيها ٢,١٠٠٠٠ ، في حال ان سنتنا الغريغورية محددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوما وتبلغ الزيادة فيها ٣,١٠٠٠٠. وعرفوا مدة الشهر القمري ، ٢٩,٥٣٠٥٩ يوماً ، وادرجوا اشهراً من ثلاثين يوما بمهارة كلية جعلت الفوارق بين الرزنامة والهلال لا تتعدى يوما كل اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أرباع السنة ، وفي ذلك ما فيه من الدقة . وعرفوا النجم القطبي والثريا والجوزاء ، ولعلهم قسموا مجرى الشمس الظاهر الى بروج أيضا . كانت مدنهم مراصد تنظم كل الحياة . أقاموا اهراماً بسيطة وأهراماً ذات سطوح في الاتجاهات التي يشاهد منها شروق الشمس في مواعيد انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهار . كان الكهنة يراقبون شروق الشمس من هذه الاهرام بالنظر اليه بين عصي متقاطعة ويحددون التاريخ بالزاوية التي يؤلفها خط الموقع المتكون بفعل هذه المراقبة مع خطوط انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهار ويعينون موعد تنفيذ اعمال الحقول . وغني عن البيان ان عودة الكواكب دوريا الى مواقعها التي ترتبط بها تقلبات أمطار المناطق الحارة ، وموعد نمو النباتات ، والنشاطات البشرية ، قد أوحت ببنيان واسع الاطراف من السنن المتناسقة .

ديانة المايا

اعتقد المايا ان العالم يؤلف وحدة حية . نسبوا صفات البشر الى كافة قوى الطبيعة . حافظوا على رواسب كثيرة من المذهب القائل بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . ولكن الكهنة تمخضوا في عقلهم بزون متسلسل الساطات . في القمة يجلس على العرش « هوناب » الخالق الذي لم يسمح سموه باللجوء اليه في الحياة اليومية . ويليه ابنه «اتزاما» سيد السماوات ، الاله الشمسي ، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزنامة وعلم التاريخ وكان الها كثير الاحسان وصديق الانسان ابداً . ويليهما « شاك » ، الاله الواحد في أربعة اقانيم تقابل الجهات الاربع ، الذي كان إله المطر والرعد والبرق والاخصاب والزراعة . أما إله الذرة الصفراء فكان إلها شابا يعنى بالازدهار والوفرة . وكان هنالك إله الموت ، وإله الحرب ، وإلهة القمر ، وإلهة الانتحار ، وآلهة الاعداد ، وجمهرة من صغار آلهة المطر والحقول والاشجار، الخ.

فسرت الكون ومصير الانسان روايات اسطورية . « هوناب » خلق العالم الذي سبقته عدة عوالم خرب الطوفان كلا منها بدوره ؛ وهذا هو المصير الذي ينتظر هذا العالم . يشمل هذا العالم ١٣ سماء ، آخرها الارض ، و ١٣ دائرة جهنمية . وهو مركز الصراع بين الخير والشر ، بين آلهة الخير الذين يوفرون النور والرعد والمطر والذرة الصفراء والوفرة ، وبين آلهة الشر الذين يتسببون في الحرب والاعاصير والمجاعة والشقاء . وخلق « هوناب » انسان الذرة الصفراء . يحاول الانسان استعطاف الآلهة بالصوم والزهد والقرابين والصلوات والرقصات الطقسية والرش بالدم البشري ، والذبائح البشرية . اذا كانت الضحية جنديا باسلا مقداما يقطع جسمه ويأكله المشاهدون . النفس خالدة وستذهب اما الى الفردوس واما الى جهنم . المنتحرون شنقا ، والمحاربون الذين يقتلون في المعركة ، وضحايا الذبائح ، والحوامل اللواتي يمتن أثناء الوضع ، والكهنة ، يذهبون تواً الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة المآكل والمشرب . أما في

جهنم فيعذب الشياطين الهلكى عذابا ابديا بالجوع والبرد والعياء والحزن .

التنظيم السياسي والاجتماعي

تجمع المايا مدنا ، في مساحة قابلة للاصلاح الزراعي ، حول مركز فلكي وديني مشترك . الفت المدن أحيانا اتحادات تقرر في اجتماع الرؤساء في نقطة متفق عليها ، ولكنها استمرت في العيش منعزلة ، ولم تستطع قط تأليف دولة اقليمية . ويرد ذلك الى ان المايا لم يكونوا مجهزين تجهيزاً حسنا للتغلب على المسافة . أجل لقد توفرت لديهم طرقات مرصوفة بالحجارة ومغطاة بطين كلسي ، ولكن هذه الطرقات لا تحتل سوى المرتبة الثالثة اذا ما قورنت بطرقات الـ « إنكا » .

كان مركز المدينة مدينة قائمة بحد ذاتها تنتصب فيها ، حول الساحات العامة ، المعابد والاهرام ، والاديرة ، والقصور . ويلي ذلك مساكن الاغنياء . وتقوم أخيراً بيوت مشتتة في ضواح طويلة . ليس هنالك من شوارع ، لذلك كان منظر هذه المدن ريفيا جداً . ويغلب على الظن ان الكثافة لم تتجاوز ٣٠٠ نفس في الكيلومتر المربع . ربما بلغ سكان المدن الكبرى ٢٠٠٠٠٠ نفس والمدن الثانوية ٥٠٠٠٠ . وربما بلغ عدد سكان بلاد المايا كلها ١٥ مليون نفس (مقابل مليونين في أيامنا) .

بقيت مدينة المايا مدينة ملكية من الطراز الاغريقي . بعد ان عرف المايا نظاما مماثلا للـ « جينوس » يحكمها الـ « هالاك فينيك » بالوراثة في عائلة واحدة من كل مدينة بحسب تسلسل البكورية الذكرية . يجمع في شخصه كل السلطات الدينية والعسكرية والمدنية . يختار من بين أفراد ارستوقراطية وراثية الـ « باتاب » أي رؤساء القرى التابعة للمدينة . الباتاب يقود الجنود ويرأس المجلس المحلي ويفصل في الدعاوى ويسهر على ان تدفع الضريبة للهالاك فينيك وان تحرق الحقول وتزرع في المواعيد التي يحددها الكهنة . النبلاء يحافظون بكل عناية على تواريخهم العائلية وانسابهم وذكرياتهم . الكهنوت وراثي أيضاً ، وانما يحق لاشقاء ابكار النبلاء ان يصبحوا كهنة . رؤساء الكهنة ينحدرون وراثيا من عائلة واحدة . الكهنة رياضيون وفلكيون واداريون وعرّافون ومقربو ذبائح ، بحكم كهنوتهم . يمارسون العرافة والنبوءة ، وينجمون ، ويعزمون من مسهم الشيطان وينبئون بالكسوفات والخسوفات ويفيدون عن المطر والجفاف . الجميع يهابونهم ويحترمونهم . أما افراد عامة الشعب فيمارسون ، ابا عن جد ، زراعة الذرة الصفراء واعمال البناء والخدمة العسكرية ، ويدفعون الضرائب ويقدمون الهدايا لاسيادهم والقرابين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحرب والايتام والسارقون المحكومون يدا عاملة اضافية .

أما بصدد نظام التملك فنحن نفتقر الى المعلومات .

لا تثبت المدن في مكان واحد . فليس نادراً ان يهاجر السكان مدينتهم ليذهبوا ويبنوا مدينة اخرى في ارض جديدة من أراضيها . ويرد ذلك الى ان الزراعة في الارض المحرقة تستلزم

الاحراج والسباسب . فيستحيل من ثم متابعتها أكثر من خمس سنوات في المكان الواحد ، لا سيما وان العشب يغزو الحقول بعد هذه المدة ويخنق الذرة الصفراء النامية . لذلك يقتضي استبدال الحقل قبل استنفاد طاقته الانتاجية . فعندما تصبح أراضي المدينة غير صالحة للزراعة، يتوجب نقل المدينة الى مكان آخر زد على ذلك ان الموتى يدفنون في البيوت ، والمايا يخشون الموتى ، ويغادرون بيوتهم بعد وقت معين .

انحطاط المايا

كان المايا في دور انحطاط عند قدوم الاسبانيين . فبعد عهد متطاول سبق المايا ربما منذ ٣٠٠٠ سنة قبل يسوع المسيح حتى السنة ٣٥٣ قبل يسوع المسيح ، وبعد عهد اعداد منذ السنة ٣٥٣ قبل المسيح حتى السنة ٣١٧ بعد المسيح، اكتملت فيه حضارتهم ، عرف المايا العهد المدعو بالامبراطورية القديمة (٣١٧ بعد المسيح حتى ٩٣٧ بعد المسيح) . وقد بلغت حضارة هذا العهد ذروتهـا في الشمال الشرقي مـن « بيتن سنترال » في « تيـكال » « واواكزاكتوم » بين السنة ٦٣٣ والسنة ٧٣١ ، وذروتها الجمالية بين السنة ٦٩٢ و ٧٩٥ . ثم بدأ الانحطاط وهجرت المدن الواحدة تلو الاخرى . وحين اجتاز « كورتيس » منطقة « بيتن » من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢٤ — ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الاولون « ياكشيلان » و « تيكال » الا في السنة ١٦٩٦ . ولعل عدد السكان قد أصبح مرتفعاً جداً بالنسبة لامكانات نظام المايا الزراعي ، فجر ذلك الى ارتفاع الاسعار والاضطرابات الاجتماعية وزوال الانتظام الحكومي والاضطرار الى الهجرة . فاستوطن المايا يوكاتان تدريجياً .

تلا ذلك النهضة والعهد المدعو بالامبراطورية الحديثة (٩٨٧ — ١٦٩٧). ففي القرن العاشر تسربت من الجنوب الشرقي بعض قبائل المايا ، « ال « اتزا » ، التي اسست « شيشن اتزا » (٩٨٦ — ٩٩٨). واقامت بعض القبائل المكسيكية المتأثرة بحضارة المايا والخاضعة لعائلة « كوكوم » في « مايابان » ، والبعض الآخر في « اوكسمال » بقيادة ال « كسيو » (٩٨٧ — ١٠٠٧) . اتحدت هذه القبائل في تحالف « مايابان » فعرفت البلاد عهد ازدهار : نهضة المايا . ولكن حرباً اهلية اندلعت في السنة ١١٩٤ انتهت بانتصار الكوكوم بفضل المرتزقة المكسيكيين . ففرضوا على جميع نبلاء المايا الاقامة في « مايابان » كرهائن . وفي السنة ١٤٤١ ، ثار رؤساء المايا، بقيادة الكسيو في اوكسمال، وقتلوا الكوكوم الا واحداً وقوضوا مايابان وولوا هاربين.

بدأ حينذاك عهد تفكك وانحلال . اخليت كافة المراكز الكبرى . وهاجر الاتزا وشيشن اتزا ، واقاموا على ضفاف بحيرة « بيتن » في « تايازال » . اما الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عائلة كوكوم فقد اسس مدينة تيبولون مع شتات قبيلته . ولم يرجع الكسيو انفسهم الى اوكسمال بل اسسوا مدينة جديدة ، « ماني » . وتجددت بين الكسيو والكوكوم حرب لا هوادة فيها . وتجزأت يوكاتان ولايات صغرى متعادية . زد على ذلك ان بلاد المايا التي خربتها

الحرب قد دمرتهـا الاعاصير في السنـة ١٤٦٤ وقتك بسكانها الطاعون في ١٤٨٠ ، والجفاف ووباء الجدري الذي نقل الاوروبيون جرثومته منذ السنة ١٥١١ ، في السنة ١٥١٥ والسنة ١٥١٦ . وقد افضى كل ذلك الى اضعاف المايا معنوياً . فقد انحطت ديانتهم . واشركهم المكسيكيون في ميلهم الى المجازر البشرية ضحية للآلهة . ولم يعد فؤادهم ليسمو حتى عبـادة الخالق والآلهة العظام المحسنين ، بل غدا كل شيء موضوعاً لعبادتهم بسبب جبنهم وحرصهم على استرضاء كل القوى . وفقدوا اخيراً الايمان بحضارتهم . ثقلت عليهم المصائب فاقتنعوا بأن الازمنة قد انتهت . وما ان وصل الاوروبيون حتى تنبأ الكهنة بأن المايا سيتخلون عـن آلهتهم . ولكن متى يكون ذلك ؟ لاحظوا ان احـداثاً محزنة تجري في تاريخ المايا في فترة العشرين سنة التي تنتهي بيوم ٨ « آهو » : اخلاء « شيشن اتزا » الاول (١٦٧٢) ، المؤامرات ، الحروب ، هزيمة الكوكوم ، هزيمة مايابان ، الخ . ولما كان مثل هذه الفترة سيتجدد بين السنة ١٦٩٧ والسنة ١٧١٧ ، فقد نظروا الى العشرين سنة هذه كما الى الوقت الذي حددته الآلهة . فان آخر مركز من مراكز مقاومة المايا ، « تايازال » ، قد سقط في ١٣ اذار من السنة ١٦٩٧ ، دون حدوث معركة تقريباً ، لان الوقت الذي يفصلهم عن بدء الفترة المشؤومة هو ١٣٦ يوماً : فلا فائدة من مواصلة المقاومة . ان حضارتهم ارتكزت الى ملاحظة تكرر الارتباطات نفسها لا الى التحليل ودرس الحدث الطبيعي درساً عقلياً منطقياً . وليس ما يـدل على انهم تخيلوا نظاماً شمسياً بغية تفسير الظواهر . فكانوا من ثم عاجزين عن التمييز بـين العلل الحقيقيـة ومجرد المصادفات ، وحين تعرضوا للنكبة ، انهارت اعصابهم واستسلموا لليأس لانهم لم يعيروا اهتمامهم الا الاتفاقات المشؤومة . لذلك وجد الاسبانيون امامهم مجتمعاً في طريق الانحلال الكامل .

٢ ـ حضارة الهضر المكسيكي

حضارة الازتيك

لم يتصل الاسبانيون اتصالاً جدّياً بهنود بلغوا مستوى حضارياً ارفع الا بعد اتصال دام ٢٧ سنة بحضـارات نيوليتيـة وبعد ان تكونت آراء كثـيرة حول الهنود وتحـددت مواقف كثيرة . في السنة ١٥١٩ شرع كورتيس في فتح المكسيك ، وما لبث ان حارب الازتيك.

سكان المكسيك — لقد عقب الفتح في المكسيك ، كما عند المايا ، وكما في كل مكان ، تدمـير منظم للكتابات البلدية . ولكن ما نجا منها هنا يفوق ما نجا في بلاد المايا ، اي حوالي الثلاثين معظمها سابق للفتح . ولدينا بالاضافة الى ذلك مؤلفات الاسبانيين التي نخص بالذكر منها رسائل كورتيس ومذكرات رفيقه « برنال دياز دل كستلو » ومؤلفـات « غومارا » و « موتولينيا » و « اوليس » و « كلافيجرّو » والمنتخبات الكثيرة التي جمعها الاب « دي ساهاغون » . يضاف الى كل ذلك المستندات الاثرية العديدة التي توفرت للبحاثين .

عند قدوم الاسبانيين كانت بعض القبائل البربرية التي جمعها الاسبانيون تحت اسم «شيشيميك» تعيش الى الشمال من نهر « ريو لرما » وبحيرة « شابالا » ، في البورات الغنية بالصبـــاريات في النجد الاوسط . هؤلاء هم بدو المكسيك . يتنقلون عراة . يتقنـون رمي السهام ويعيشون من حصيلة قنصهم التي يكملونها بجني الثمار ولا سيا ثمر الصبار . ليست لهم معابد ولا اصنام . يعبدون الشمس . يهوون الاستقلال بشراسة ويبرهنون عن عدائهم لكل حياة اخرى .

على الشواطىء عاشت قبائل من البلديين البدائيين نسبياً ، القناصين ، القطافين ، أكـلة لحم البشر عند الحاجة . ولكن هؤلاء البلديين كانوا اهل حضر وعرفوا بعض مبادىء زراعة الذرة الصفراء . وكانوا كذلك شديدي التمسك بالاستقلال ويشق عليهم ان تفرض عليهم ضريبة ما.

اما في المنـاطق المروية من لجـــد « انا هواك » ، وفي وديان واحواض « ميشوكان » و « اوكساكا » ، التي تكثر فيها النباتات العشبية ، فقد عاشت قبائل مختلفة تجمع بينها عناصر حضارة مشتركة ، هي حضارة الـ « تولتيك » ، المتأثرة بحضارة المايا . وقد برز بينها الحـــاد الازتيك ، « مكسيكو » ، و « تزكوكو » ، و « تلاكوبان » ، الذي غدا اهمها سياسياً وامتدت امبراطوريته في اواخر القرن الخامس عشر من المحيط الى المحيط ومن البـدو الى المايا . الا ان بعض الشعوب قد حافظت على استقلالها في هذه الامبراطورية مؤلفة الجيوب التالية : دولة « تلاكسكالا » ، دولة « مترتيتلان » ، دولة الـ « يوبيس » ، دولة الـ « مكستيك » في « توتوتيبك » دولة الـ « تاراسك » في « ميشواكان » . وحافظت على استقلالها الداخلي ، بدفع الضريبـة للازتيك ، « شوهيلا » ، و « هواجوتزوتنغا » و « تهواكان » ، وجزء من منطقة الـ « مكستيك » وبلاد الـ « زابوتيك » ، وجزء من منطقة الـ « هواستيك » ، و « شياباس » و « سوكونوسكو » .

اوجه التشابه بين الازتيك والمايا

لم تكن حضارة الازتيك حضارة بلدية اصيلة على غرار حضارة المايا . فقد جاء الازتيك الفاتحون من الشمال في عهد غـير بعيد ، ربما في القرن الثـاني عشر . كان موقف البلديين منهم موقفاً عدائياً ، فتشردوا زمناً طويلاً ثم اقاموا في جزر المستنقعات الوحلية ودخلوا في حرب دائمة ضد جيرانهم بغية تأميـن مياه الشفة والارض الصالحة للزراعة . لذلك تطور نظامهم في سبيل الحرب ، فانتقل من نظام العشائر الى نظـام المدينـة . في القرن الرابع عشر ، وفي السنـــة ١٣٥٢ بالضبط ، انتخب « اكامابيتشلي » رئيساً ، او « تلاكاتيكوهتلي » في مكسيكو . ومنذ هـذا التاريخ انتخب الـ « تلاكاتيكوهتلي » ابداً من عائلته ، فنقـلت هذه السلالة ما لم يكن سوى مدينة حقـيرة في المستنقعات الى رأس امبراطورية عظيمة . منذ السنة ١٤٢٥ ، شرع الـ « تلاكاتيكوهتلي » « ازاكواتل » في فتح شواطىء المستنقع واسس اتحاد الازتيك ، مرتكز الامبراطوريـة . في منتصف القرن الخامس عشر بلغت جيوش الاتحاد خليج المكسيك في ولاية « فيراكروز » الحالية . وفي اواخر القرن بلغت مضيق « تهوانتيبك » وحدود « ميشواكان » . وحوالي السنـــة ١٥٠٠ وصل

الازتيك الى « ريو بانوكو » في الشمال و « شيابا » وغواتيمالا في الجنوب الشرقي .

على غرار المايا ، جهلوا العجلة والعقد ، ولم يقتنوا حيوانات جر ولا حيوانات ركوب . الا انهم سمنوا الكلاب الصغيرة والديكة الهندية والتدارج . وعلى غرار المايا استخدموا بصورة خاصة ادوات نيوليتية : اوار محجنة لرسم الاقلام ، مقالب من الخشب الصلب ، سكاكين ، دبابيس ، رؤوس نبال ، حدود فؤوس من حجر اسود ؛ اقواس ، سهام ، مقاليع ، دافعات لقذف العنزات ، رمح من خشب قاس مجهز بصوانة حادة . صنعوا الخزفيات دونما دولاب . وحاكو اقمشة قطنية ، واقمشة ناعمة من خيوط الباهرة ، واقمشة اخرى من الياف النخيل ومن وبر الارنب الذي سدّ مسدّ الحرير . ولونوا هذه الاقمشة بالوان جميلة ، النيلي ، الاخضر الزاهر ، البرتقالي ، الاحمر . ارتدى الرجال وزرة ودثاراً ، والنساء قميصاً طويلة وثوباً داخلياً . وروعيت في صناعة الدثر المرتبة الاجتماعية . وروعيت المرتبة الاجتماعية كذلك في تزين الرجال بالحلي الذهبية والاقراط واهلة الانف والقيمات الريشية الكبرى . وعلى غرار حضارة المايا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا حبوبها على صفيحة حجرية بواسطة اسطوانة حجرية واستهلكوها اقراصاً يسطحون عليها عجيناً من الفاصوليا والفلافل المسحوقة ، وأكلوا بالاضافة الى ذلك الشوكولاتة واليقطين والبطاطا الحلوة ، والبطاطا الصينية والذبّان وبيوض الذبّان وشربوا المشروبات المخمرة ولا سيما روح عصير الباهرة وشربوا الدخان لفافة او بواسطة الغليون .

وعلى غرار المايا ، بلغوا مرحلة نسبة صفات البشر الى قوى الطبيعة ولكنهم بدأوا يتخطونها . ففي القمة يوجد اله مجهول خالق كل شيء ، لا اسم له ولا اسطورة ولا وجه ، يتحلى ببعض ميزات « الازلي » في الفصول الاولى من التوراة . شيدوا له معبداً وعبدوه . ولكن الالهين الرئيسيين كانا عملياً « هويتزيلوبوشلي » المشترك مع « تتزكاتليبوكا » . هويتزيلوبوشلي هو شمس الربيع الفتية ، اله الحرب . وتتزكاتليبوكا هو شمس الصيف ، منضج الحصائد ، اله الموسيقى والرقص ، شفيع المراهقين . وكان لهم زون متسلسل السلطات يتميز جميع آلهته بطابع شمسي او نجمي . مثّل آلهتهم قوى الطبيعة المشبهة بالنجوم ووزعوا وفاقاً لجهات الفضاء الثلاثة عشر وبحسب مستويات ثلاثة ، مستوى الارض ، ومستوى سمت الرأس ، ومستوى سمت القدم ، التي لكل منها اربعة اتجاهات ، يضاف اليها المركز . وان آثار المذهب القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذ ان عدداً كبيراً من صغار الآلهة والشياطين وعفاريت ما خارج الارض وداخلها تملأ الطبيعة كلها . وكانت معابدهم اشبه براصد المايا . وفسّر الازتيك العالم بالخرافات . فالآلهة خلقوا على التوالي اربعة عوالم تضيئها اربع شموس مختلفة . اضاءت العالم الاول شمس من الحجارة الكريمة ولكن الامطار اغرقت كل شيء ؛ تحول بعض البشر الى اسماك انحدرت منها الاسماك الحالية . واضاءت العالم الثاني شمس من نار . ولكن امطاراً من نار استعجلت نهايته وتحول البشر الى دجاج وفراش وكلاب . وعقب هذين

العالمين عالم شمس الظلمة . تغذى البشر فيه بالقار والراتينج . محقتهم الزلازل او افترستهم الحيوانات الضارية . ثم جاء دور العالم الرابع ، عالم شمس الريح . اقتات البشر بالاثمار . محقتهم العواصف الهوجاء وتحولوا الى قردة . واخيراً خلق العالم الحالي « تنزكاتليبوكا » ، شمس الصيف ، منضج الحصائد . وسيدمر هذا العالم بدوره ايضاً .

آمن الازتيك باستمرار الحياة بعد الموت . فان عامة الموتى يذهبون الى « مكتلنتيكوهتلي» وزوجته « مكتلنسيهواتل » اللذين يتسلطان على انهار تسعة تجري تحت الارض وعلى أرواح الموتى . ويذهب المحاربون الذين يسقطون في ساحة الوغى أو تهرق دماؤهم على حجر الذبائح ، والنساء اللواتي يقضين في الوضع ، الى السماء وسمت الراس حيث يقيمون في قاعات منزل الشمس. ويذهب الغرقى والمجذومون ومرضى الداء الزهري الى جحيم من الدرجة الثانية .ولكن الازتيك جهلوا مفهوم المسؤولية الشخصية ، وبالتالي احترام القانون الاخلاقي ، والثواب ، والعقاب : فالمهم في نظرهم هو الظروف التي اكتنفت موت الانسان . واذا هم تحلوا بالطاعة واللطف والبساطة والصبر ، فانهم قد مالوا بالفطرة الى السرقة والمداهنة والكسل وشرب المسكرات . « وكان من المسلم به ان يكون للرجال ، خارج الزواج ، علائق جنسية بنساء اخرى غير متزوجات ؛ فكان البغاء من ثم معترفا به ؛ ولم يكن نادراً ان يقدم عامة الشعب بناتهم سراري للنبلاء » . وقد استسلموا الى أكثر الاهواء اخزاء وكان التلوط منتشراً جداً .

يذكرنا تجهيز الازتيك الفكري بتجهيز المايا في كافة نواحي فكرهم : الطريقة العددية العشرينية نفسها ، عد المركز نفسه باستثناء الصفر الذي لا وجود له ؛ السنة المقدسة نفسها (٢٦٠ يوما) والسنة الشمسية نفسها (٣٦٥ يوماً موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر واحد من خمسة أيام) ،ولكن دون التصحيح الضروري لاعادة التطابق بين السنة المدنية والسنة الشمسية ؛ وكتب الازتيك على طرائد كبرى من رق الايل أو لبد الباهرة ، مغطاة بطلاء كلسي ، تلف كما يلف الحاجز الواقي من الهواء. رسموا الاشكال بشوك الباهرة وملأوا الاقسام الدائرية بالالوان. وكانت احرفهم رموزاً هيروغليفية تمثل اشياء مبسطة في كتابة تصويرية . ولكنهم استخدموا علامات اشتقاقية توحي الأفكار. وخطوا خطوة نحو الصوتية : فلتمثيل بعض المقاطع استخدموا صوراً او أشياء يكون اسمها أو صوتها متشابها دون اعارة معنى الرمز المختار اية قيمة. فكانت كتابتهم من ثم لغزا ينطوي على استعارات.

كل هذا يقرب من تجهيز المايا الفكري ومفاهيمهم ، مع فارق تدني قدرتهم على التجريد وقلة اهتمامهم لامكانات الموافقة المنطقية أو مبدأ الذاتية ، والموانع الحقيقية أو مبدأ التناقض . ونحن نرجح ان جوهر حضارة الازتيك وجيرانهم مقتبس عن المايا .

خصائص الازتيك البلاد والديمقراطية التسلطية

الا ان لحضارة الازتيك ميزات تبدو مجهولة من المايا . فقد عرف الازتيك النحاس ، ولعل مرد ذلك الى ان مناطق المناجم لم تغمرها الاشجار الكثيفة . واستعملوا رؤوس نبال نحاسية ومناجل نحاسية وادوات نحاسية لمعالجة الحجارة الصلبة .

وحافظ الازتيك على قواعد تنظيم قوي في الديموقراطية التسلطية الشيوعية . ولعل البيئة الجغرافية هي ما دفعهم الى ذلك . فان البلاد ، « التي شكت من بعض العقم الارستوقراطي » ، تتساقط عليها أمطار صيفية قليلة وغير منتظمة ، قد تكون غير كافية طيلة سنوات عدة. وجلي ان هذا الوضع غير مؤات للمستثمر الفردي الصغير الذي يتعرض لان يغرق في ديونه . فيقتضي والحالة هذه القيام بأعمال ري باهظة الأكلاف لا يمكن ان يقوم بها سوى الاثرياء أو الجمعيات المنظمة تنظيما جيداً . لذلك كانت الموارد محدودة وغير مضمونة . فتوجب الاستحصال على المواد الغذائية والخامات النباتية المكملة من المناطق النائية . ولكن المكسيك بلاد واسعة الاطراف تتخللها مساحات خالية لا حدود لها، وجبال وعرة واودية بعيدة القعر تسبب الدوار . يجب حمل مؤن لاسابيع عدة والاتجاه على طريقة البحارة في المحيط ، بالاستناد الى الشمس والنجوم، في مسيرات لا نهاية لها . ولعل خطر العوز الدائم وصعوبة المواصلات غير غريبين عن واقع كون التجارة حملة عسكرية وواقع تحول هذه الحملة بسرعة الى عملية غزو، وواقع اعدادها لحرب الفتح ، وواقع حياة الدولة من النهب والضرائب ، وواقع كون الحروب غاية هذا المجتمع وصناعته الرئيسية اذا صح التعبير .

مكسيكو تنوشتتلان

ان الاعمال الكبرى والحروب قد فرضت نظاما تسلطيا في الارجح. الحضارة مدنية بالضرورة الدينية والعسكرية ، وقلب الوحدة السياسية هو المدينة . عدد سكان « تنوشتتلان – مكسيكو » يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ الف نسمة . وقد وصفها لنا كورتيس كما يلي : « ان مدينة مكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين اي من أطرافها وقلب المدينة فرسخين (أو ثمانية كيلومترات) . لها أربعة مداخل تؤدي اليها سدود صنعية يبلغ عرضها طول رمحين من رماح الفرسان . مساحتها تعادل مساحة اشبيلية وقرطبة معاً . شوارعها مستقيمة وعريضة جدا. وقد قسم بعضها بحيث يكون نصفها طريقاً والنصف الآخر قناة تجتازها الزوارق ذهابا وايابا. وقد حفرت بين مسافة واخرى خنادق تصل اقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض . وانشئت فوق هذه الخنادق ، الواسعة جداً أحيانا ، جسور مبنية بعوارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع . ويتسع بعض هذه الجسور لعشرة فرسان يسيرون معاً جنباً الى جنب » . وقد وسعت أرض المدينة الضيقة بالحدائق العائمة المشهورة المكونة من إطار من حصير وضعت في داخله ، فوق طوف من الاعشاب والخيزران، طبقة ترابية لزراعة النباتات. وقامت في الشوارع الضيقة الكثيرة ساحات عامة تظللها الاشجار، تقام فيها الاسواق . استوحي تصميم المدينة العام من الشمس والجهات الاربع . اجتاز المدينة شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعهما في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المعبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حجر أحيانا ومن قصب غالباً . لم تشتمل البيوت الا على قاعة واحدة مع طبقة تحت السقف .

وكانت المعابد كثيرة جداً وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع. وكانت اهراماً ذات سطوح، مع خنادق وسدود.

من الديموقراطية الشيوعية الى الملكية الارستوقراطية

يبدو انه باستطاعتنا ان نميز، في تطور الازتيك، ثلاث مراحل تركت الاوليان منها آثاراً عميقة في الاخيرة. كان الازتيك في البدء قبيلة من البدو القناصين والقطافين الذين ينتقلون نحو الجنوب حاملين معهم إلههم الشمس «ويتزيلو بوشتلي». ثم تعلموا الزراعة النصف البدوية، وذلك حين بلغوا هضبة المكسيك الوسطى حوالي القرن الثاني عشر في الارجح. ولما كانوا فلاحين وجنوداً في آن واحد، كانوا يتوقفون أحياناً عدة سنوات في منطقة خصبة ثم يستأنفون رحيلهم. ويبدو اذ ذاك ان الخلية الاساسية في القبيلة كانت العشيرة، «كلبولي»، التي خضعت لتنظيم ديموقراطي يدين بالمساواة. يجتمع رؤساء العائلات ويتخذون المقررات العامة وينتخبون رئيس العشيرة، «كلبول». تعود الاراضي للكلبولي جماعيا، وتعين جمعية العشيرة قطعة لكل رجل متزوج يستثمرها ويلزم بزراعتها. واننا نميل الى الاعتقاد بان جمعية رؤساء العشيرة تتخذ المقررات باسم القبيلة. ولكن كهنة «ويتزيلو بوشتلي» يمارسون القيادة العسكرية ويتمتعون بسلطة عامة على العشائر كلها.

بعد اقامتهم في المستنقع، فرضت الحروب ضد المدن المجاورة المعادية، والاشغال العامة الضرورية لاعداد الجزر وكوم الرمل والوحل، الانتقال تدريجيا الى نظام المدينة الملكية. بقي المجتمع شيوعيا وعسكريا. الرجال مكرسون كلهم للحرب ويتوجب عليهم تقديم الاسرى للذبائح البشرية الضروية للحيلولة دون فناء هذا العالم على غرار العوالم السابقة. بعد ان يتوفق المحارب الى اسر أربعة محاربين اعداء، ينتقل الى طبقة عليا، هي طبقة الـ «تكيفا»، ويستطيع حينذاك ان يصبح موظفا، «تكوهتلي»، أو سيداً. الوظائف انتخابية كلها. وقسمت المدينة الى عشرين حيا تخصص بكل منها عشيرة. لكل عشيرة أراضيها، ومسكنها المشترك، وآلهتها الخاصة، وأعيادها، ورقصاتها، واحتفالاتها الدينية وادارتها الخاصة. يقوم على رأسها مجلس شيوخ يفصل في كل شيء ويعين الاراضي للاشخاص ويحكم في القضايا الخطيرة وينتخب الموظفين مدى الحياة. أهم الموظفين هو الـ «كلبوليك» الذي يختار أبداً من عائلة واحدة ويراقب توزيع الاراضي ووضع اهراء العشيرة. ويسهر على زراعة الحقول، لا سيما ما يعد منها لتأدية الضريبة، ويسلم حصيلة الضريبة الى موظفي الادارة المالية، ويقود الفرق العسكرية ويوزع العدل ويدافع عن عشيرته امام السلطة العليا. الاعتداء على قوة العشيرة وتضامنها يعاقب بصرامة. يحكم بالموت على القتلة والرجال الذين يرتدون ثياب النساء ويتخلقون باخلاقهن، والنساء اللواتي يرتدين ثياب الرجال ويتخلقن باخلاقهم، والزناة، ومحوري حدود الحقول، ومدنسي القدسيات، والخونة. الموظف السكير يخلع من منصبه. السارق ذو السوابق يصبح عبداً لمسروقه. سارق الذهب والفضة، وهما معدنان إلهيا المصدر، يحكم عليه

بالموت . تتحد العشائر خمساً خمساً وتؤلف اخوّة . فكان هنالك أربع اخوّات لكل منهـا قائدها العسكري ، وهو أحد الاكابر الاربعة المحيطـين بالملك ، وكاهنها ، وآلهتها . وفي خارج « مكسيكو – تنو شتتلان » ، ينتخب اهالي القرى والمدن موظفيه ، « تكوهتـلي » ، الذين تمتعوا بسلطات كبار الموظفين ، « كلبوليك » ، نفسها . تعين العشائر مجلساً قبليـا وتنتخب الرئيس الاعلى ، « تلاكاتكوهتلي » ، الذي يختار ابداً من عائلة « اكاما بيشتلي » ، ويتمتع بسلطات ملكية . يكافأ الموظفون ، « تكوهتلي » ، عن طريق اراض يستثمرها المواطنون لهم ، وأقمشة وألبسة ومواد غذائية يهبهم اياها الرئيس الاعلى من الضريبة المفروضة على المواطنين والاتاوات المفروضة على المدن المهزومة .

لاشك في ان الدولة والمجتمع قد تطورا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واوائـل القرن السادس عشر في اعقاب الفتوحات وقيام امبراطورية حقيقية . لا تزال مدينـة الازتيك مبدئيا ديموقراطية شيوعية . ولكنها تتخذ صفات الملكية الارستوقراطية بسبب توسع رقعتها، وتعقد شؤونها ، واتراتها الذي تدين به لسيطرتها على المغلوبين . فليست جمعية الشعب ، بعـد اليوم ، ما ينتخب الـ « تلاكاتكوهتلي » ، بل هيئة انتخابيـة من المستشارين وكبار الموظفين والكهنة يعين هو قسما منهم وتعين هي القسم الآخر . اما الكلبوليك والتكوهتلي الآخرون فلا يزالون ينتخبون انتخاباً ، ولكن انتخابهم ليس سوى تقديمهم للوظيفة ، اذ انهم يستمدون سلطاتهم من تعيين التلاكاتكوهتلي لهم . ويحدث احيانا ان يفرض هذا الاخير بما له من سلطة ، اشخاصـاً لم ينتخبوا . فالسلطة تأتي من اعلى لا من اسفل . كل مواطن يستطيـع مبدئياً شغل اعلى الوظائف . ولكن ابناء التكوهتلي يستفيدون عملياً من ثقافة عليا يحصلونها في احد الاديرة ، « كلمكاك » ، بدلا من الدخول الى مدرسة الكلبولي . فبينهم يختار التلاكاتكوهتلي بالتفضيل السفراء والقضاة وحكام المدن وموظفي الادارة المالية ورؤساء الكهنة . امـا بين اكابر الموظفين ، فنـائب التلاكاتكوهتلي ، او « سيواكواتل » ، يكون ابداً احد حفـدة « تلاكالالتزين » ، شقيق « ماتكوهزوما » الاول . ويختار اهم موظفين بعده من بين افراد عائلة التلاكاتكوهتلي : يورث التكوهتلي ابناءهم الاراضي التي اقتطعتهم اياها الحكومة للاستثمار بمثابة مرتب سنوي . فتتكون بذلك املاك خاصة على حساب الاملاك العامة ، وتزرع هذه الاملاك الكبرى على ايدي فدادين فلاحين مجهولي المنشأ يعقد التكوهتلي معهم مشاركات زراعيـة لقاء أتاوات واعـمال تسخير . يتسلم التكوهتلي النصيب الاكبر من الضريبة المفروضة على المواطنين والجزية المفروضة على المدن المغلوبة الداخلة في الاتحاد . فتضاف بذلك ثروة منقولة الى الثروة العقارية . وهكذا تبرز شيئاً فشيئاً بين جمهور المواطنين ارستوقراطية متسلسلة السلطات . امـا التلاكاتكوهتلي ، « والد ووالدة » المكسيكيين ، فتتسع سلطاته . فقد رأى الاسبانيون ، في « موكتزومـا » الثاني ، التلاكاتكوهتلي منذ السنة ١٥٠٣ ، امبراطوراً محاطاً بطبقة من النبلاء الوراثيين .

في هذا المجتمع العسكري والديني ، تكوّن مجتمع غريب عن مبادئه لا يطلب سوى الربح

التجاري . فقد تنظمت في مكسيكو في السنة ١٥٠٤ على غرار ما حدث في « تلاتلالكو » التي فتحت في السنة ١٤٧٣، في الارجح، تعاونيات تجار استحصلت على احتكار التجارة الخارجية: تصدير مصنوعات الخامات المستوفاة جزية من المغلوبين، واستيراد المصنوعات البذخية. وقد الف التجار مجتمعا مقفلا. فالتاجر تاجر أبا عن جد ولا يصبح تكوهتلي. التجار وضعاء يغضون الطرف في تنقلاتهم ويرتدون معطفا ملونا ويخفون ثروتهم. ولكن ثروتهم ترفـــع طبقتهم في المجتمع. وبمجاز قانوني يعتبرون جنوداً من انسباء الامبراطور؛ ابناؤهم يربون في الكلمكاك؛ يحق لهم تقديم الذبيحة « لهويتزيلوبوشتلي »، وستلحق روحهم بالشمس على غرار روح المحاربين؛ وقد أخذ بعض كبار الاسياد يتخذون من بناتهم زوجات ثانوية. وهكذا برزت، بالاضافة الى طبقة النبلاء، طبقة من « البورجوازيين الرأسماليين ».

تذلل الديانة تكاثر الذبائح البشرية

ان شمس الربيع الفتية، « هويتزيلو بوشتلي »، التي ولدت من عذراء، هي اله الحرب وهي ما اصبح الاول بين الآلهة. لهـــا كرس الهرم الرئيسي في « تنوشتتلان »، ولأجلها تكاثرت الذبائح البشرية. ولا غرو فبالذبائح البشرية ترتبط كل حياة هذا العالم. لكي تتابــع الشمس والنجوم طريقها، ولكي تكمل دورات الحياة النباتية، يجب اراقة الدم البشري. الحرب، التي توفر الضحايا، مقدسة. المحارب والكاهن يصارعان العدم بدون توقف. اقيم برج في طرف السطح الاخير الذي يعلو هرم تنوشتتلان الكبير. وفي احدى القاعات الكبرى المظلمة اقيم مذبحـــان تغطيها اخشاب منقوشة. كان بالامكان، حين تألف الاعين الظلمة، رؤية خلقتين جسيمتين ربيلتين، تتزكاتليبوكا، شمس الصيف، منضج الحصائد، روح العالم، محفورا في حجر الاوبسيديين الاسود، تلتف حول جسمه شياطين صغيرة اذنابها اشبه بأذناب الثعابين، ووجهه أشبه بخطم الدب، وعيناه براقتان، وهويتزيلوبوشتلي، المحارب، الانجل، الذي تلتف حول بطنه ثعابين كبرى من ذهب.

امامها ضحى الكهنة بأسرى الحرب او بالاطفال، يلقونهم ارضاً ويلوون جسمهم الى الوراء حتى يحدب الصدر. يفلع الصدر حينذاك بضربة سكين صوانيـــة. وينتزع القلب ويلقى في مجمرة يحرق فيها البخور ويحمل امام تماثيل الآلهة التي ترش بدم الضحايا. ويقطع الجثمان ويقدم في الولائم الطقسية. يسود الغرفة جو فساد ونتانة. الجدران والارض ترشح دما يتحول، حين يجف، الى طلاء لزج سوداوي اللون. التجيف يقزز النفس. اما الكهنة، المرتـــدون ثوبا قطنيا قاتما يتقطر الدم منـــه، فيبدون كمن اختطف بالروح، شعورهم الطويلة ملطخة بالدم، وايديهم ملوثة بالدم الحديث الاراقة، واصابعهم مرتعدة ومرتعشة، ويعرضون تشويهـــات جسمية فظيعة، لا سيا آذانا مزقها معظمهم لرش وجه الآلهة بدمائها. ولا غرو فان دماء بعض الآلهة قد بذلت في سبيل خلق الشمس وحركتها.

عندما يخرج المرء من القاعة، يشاهد معبد « كتزاكواتلكس »، اله الريح ومبتكر كافة

الفنون الذي تشوى فيه لحوم الضحايا . صنع مدخله بشكل شدق مفتوح تبرز منه الاسنان ، على غرار مدخل جهنم في « اسرار » القرون الوسطى .

رافقت الذبائح في الاعياد الكبرى السنوية الاربعة عشر اناشيد الشعب تكريما للآلهة . الناس كلهم يثملون لان الثمل اعتبر مقدساً في هذه الظروف ؛ الشرائع المدنية كلها تعلق ، ويرافق وليمة اللحم البشري الطقسية حرية جنسية مطلقة . ويقدر عدد الذبائح البشرية بعشرين الف ضحية سنويا .

لعل هذا الشعب الذي نظر اليه الاسبانيون عند قدومهم وكأنه الشياطين بالذات ، كان في مرحلة انحطاط . فقد دلت بعض الاطلال والحطام على انه توصل في بعض النقاط الى معارف هندسية وزراعية وصناعية دونها معارفه في اواخر القرن الخامس عشر . ومهما يكن من الامر فان امبراطوريته ، الحديثة العهد والمنشأة في وقت قصير ، لم تكن راسخة الاركان . وما كان المغلوبون ليترقبوا سوى سانحة للثورة والمنافسون سوى سانحة للهجوم .

٣ – حضارات عصر الشبه
حضارة الـ « انكا »

جاءت مواجهة الاسبانيين لارفع حضارة في آخر المطاف . وصلت المعلومات الاولى الى باناما في السنة ١٥٢٢ . ولكن « فرنسوابيزار » لم يشرع في الفتح الا بعد انقضاء عشر سنوات .

يتوفر للمؤرخين ، بالاضافة الى عدة أثرية ضخمة ، مؤلفات رصينة مبنيـــة على الملاحظات الشخصية اثناء الفتح ، او على استقصاءات اجريت مع الهنود الباقين على قيد الحياة بعد الفتـح . واهم مؤلفات الاختصاصيين هي « تاريخ العالم الجديد » لليسوعي « برنابا كوبو » ؛ « تاريـــخ حوادث البيرو » لـ « بدرو دي شييزا » ، و « ليون » ، احد جنود بيزار ، الذي اجتـــاز امبراطورية الانكا من الشمال الى الجنوب ووضع يوميات استفاد منها في كتابـــه : « حصيلـة وتفاصيل » سيرة « خوان بيتانزوس » ، الذي كان قد تزوج من ابنة « اتاهوالبا » آخر اباطرة الانكا، وتكلم لغة الكيشوا وشاهد انهيار الامبراطورية ؛ مؤلفات «خوان بالو دي اوندغاردو» حاكم كوزكو ، الذي اجرى في السنة ١٥٥٠ تحقيقا حول شكل حكم الانكا ودياناتهم؛ واخيراً التحقيقات حول تاريخ الانكا وعاداتهم التي اجريت بين السنة ١٥٦٩ والسنة ١٥٨٢ ، بامر من نائب ملك البيرو ، « فرنسيسكو دي توليدو » . اما معظم المعلومات التي يوردها « غارسيلازو دي لافيغا » والتي كانت موضوع ثقة لفترة طويلة من الزمن ، لانه كان ابنا لجندي اسباني واميرة من أميرات الانكا ، فلا يعيرها الاختصاصيون اليوم اية اهمية .

كانت امبراطورية الانكا حديثة العهد عند قدوم الاسبانيين . فقد ارتسمت في الثلث الاول

من القرن الخامس عشر . وكان الانكا حتى ذاك التاريخ محصورين في مدينة كوزكو تقريبا . وكانت الشعوب ، حتى مداخل المدينة ، شبه مستقلة . دخل الانكا حروبا كثيرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالسلب وفرض الجزية ، اذا ما تغلبوا على سكان احدى المدن ، ويعودون الى مواقعهم .

بذل المحاولات الاولى، في سبيل تنظيم الفتوحات ، امبراطور الانكا الثامن ، وفيراكوشا . ولكن الامبراطورية ما زالت صغيرة الرقعة . وفي شيخوخة فيراكوشا ، هاجم كوزكو هنود من الشمال ، هم الـ « شانكا » ، اول شعب محارب في ذاك العهد . تولى الدفاع ابن فيراكوشا ، يوبانكي ، وصد الهجوم . ثم قاد جيش الانكا وهزم الشانكا تكراراً في اراض منبسطة . فبسط الانكا نفوذهم على البير و دفعة واحدة .

توج يوبانكي في السنة ١٤٣٨ ، بعد وفاة أبيه ، وحمل اسم « باشاكوتي » . فوسع سيطرة الانكا جنوبا حتى بحيرة تيتيكاكا التي بلغها في السنة ١٤٦٣ والتي وجد الـ « ايمارا » بالقرب منها، وشمالا حتى « كيتو » . وهو انما وضع القواعد الاولى لنظام الانكا الاداري .

جلس ابنه « توبا » على عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٧١ حتى السنة ١٤٩٣ . واصل فتوحات أبيه وهزم سكان « كيتو » ، الـ « كارا » ، واستولى على ما يؤلف اليوم بوليفيا وشيلي حتى مدينة « كونستيتوسيون » الحالية . واحتل ، في ما أصبح الارجنتين ، الانجاد الشمالية الغربية ومنطقة « توكومان » . وهو الذي أعطى تنظيم الانكا الاداري ميزاته النهائية ، في الارجح .

خلفه « هوينا كاباك » . اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٩٣ حتى السنة ١٥٢٧ وواصل الفتح . فبلغ ، الى الشمال من كيتو ، الحدود الحالية بين الاكوادور وكولومبيا . قمع ثورات عديدة وسار قدماً في تنظيم الامبراطورية . عند وفاته ، افاد الراصدون في « تومبز » بأن « مسوخاً غريبة الحيانية تقيم في بيوت كبيرة عائمة » تطوف في البحر . لم تكن هذه المسوخ سوى الاسبانيين بالذات .

لسنا ندرك تماماً المبررات الاقتصادية لحروب الانكا . فكانت معظم البلدان المحتلة من الفقر بحيث اضطر الانكا لأن يمدوها بالمواد الغذائية . اضف الى ذلك ان امطار منطقة الاندس غير منتظمة واراضيها الزراعية ضيقة ومحصورة في تخوم المناطق البركانية . فكان الجوع من ثم خطراً دائماً مداهماً . لذلك فان الفتوحات قد انجزت في سبيل المجد اولاً ، وفي سبيل ايجاد عمل بعيد عن المدينة للقادة ومنعهم بذلك عن الاقدام على الثورة . وقد نظر اباطرة الانكا الى الحرب اخيراً كما الى حملة عسكرية مقدسة تستهدف نشر ديانة الانكا .

سبقت العمليات العسكرية مساع دبلوماسية . أوفد المندوبون الى القبائل للتشديد على قوة الانكا ومحاذير المقاومة ، ولعرض الوراثة على الرؤساء مع امتيازات اخرى كثيرة . وقد

فاوض المندوبون ، على العموم ، اناساً لا يتمتعون بسلطة ثابتة يمثل نظام الانكا في نظرهم تقدماً كبيراً . لذلك غالباً ما جر خضوع الرؤساء الى خضوع القبائل .

وان لم يحدث ذلك ، فلا مناص من الحرب . الانكا كلهم ملزمون بالخدمة العسكرية . الجيش مجهّز تجهيزاً حسناً بسيوف من الشبه وفؤوس من الحجر ومقاليع وتروس ودروع من زرد . ينتقل الجيش صفوفاً منظمة ، ولكنه لا يعرف ، على ما يبدو ، خوض المعركة او المناورة ، كلا منظماً . فلا تلبث المعركة ان تتحول الى مجموع معارك بين افراد .

ينظم الجيش حركاته وفاقاً لتنبؤات العرافين والعائفين . تقدم الذبائح قبل المعركة ويعزى النصر للآلهة .

استولى الانكا على بعض الممالك احياناً ، كمملكة الـ « شيمو » ، بين ليما وكيتو ، التي عرفت طبقة من الاشراف الوراثيين . الا انهم اخضعوا في اغلب الاحيان عدداً كبيراً من القبائل لا تخضع لأي تنظيم سياسي ، وشتاتاً من الـ « أيلو » . اما الايلو فوحدة انتاجية ، او رهط من الانسباء المجتمعين للقيام بعمل مشترك في مساحة معينة ، اشبه بالزمرة الالغونكينية .

ما إن يستولِ الانكا على اقليم من الاقاليم حتى يرسموا له مصغراً نافراً من الفرين تبرز فيه الجبال والاودية والانهار والقرى والحقول المزروعة ، الخ . يحصون السكان ويدونون النتائج بواسطة حبال قصيرة مزودة بعقد « كيبو » كانت لهم بمثابة اختزال . بعد الفتح الاسباني ، املى بعض اليسوعيين مبادىء دينية على عدد من البلديين المتقدمين في السن . دونها هؤلاء بعناية بواسطة عدد من العقد . ثم رددوا بواسطة عقد الكيبو اللاهوت الذي علمه اليسوعيون . وكان لدى الانكا دور كيبو ، اشبه بدور الكتب ، تتضمن شتى الاحصاءات عن الامبراطورية .

ترسل الكيبو والمصغرات الى الامبراطور الذي يدرسها ويأمر باعادة توزيع القرى والسكان . وانما كان لا بد من مجهود جماعي كبير لتوسيع الاراضي الزراعية باحداث الارصفة الترابية ، وللري بواسطة الاقنية ولتجويد التربة بسماد الـ « غوانو » . وكان قد سبق للايارا ان سلكوا هذه الطريق بداعي الحاجة . وكانت القرى ، قبل الفتح ، قائمة على مرتفعات بعيدة عن الحقول . فأسكن الانكا المغلوبين في قرى جديدة قريبة من حقولهم بغية مضاعفة انتاج العامل . واعادوا تكوين الايلو المحدود باضافة عدة عائلات مختلفة اليه . وجمعوا عدداً من الايلو في قبيلة واحدة عدداً وجمعوا في قبيلة كبرى واحدة عدداً من القبائل الصغرى . واذا لم يبرهن السكان عن طواعيتهم ، اقصوا العصاة واستبدلوهم بمستعمرات عسكرية من الكيشوا

يرسلون ابناء الرؤساء الى كوزكو للتخلق بأخلاق الانكا . يتابع هؤلاء الابناء طيلة سنوات اربع دروساً عملية . في السنة الاولى : لغة الكيشوا ؛ في الثانية : لاهوت وطقوس ؛ في الثالثة : تدرب على الكيبو ؛ في الرابعة : تاريخ الانكا وتقاليدهم السياسية . الامبراطور يعين الرؤساء المحليين موظفين . يبادر الانكا الى بناء مخازن للمواد الغذائية في البلاد المحتلة

حيث يكون مستوى الحياة منخفضاً جداً على العموم . ويتعهدون تغذية السكان . وينظمون العمل . ويفرضون الكيشوا لغة ادارية .

تم التوحيد بسرعة فائقة . زالت مئات اللغات السابقـــة للفتح . لم يبق سوى الكيشوا والايمارا وربما لغتان حضاريتان اخريان . استمرت لغة الكيشوا في العهد الاسباني . نسي البلديون مؤسساتهم ، والتنظيم الوحيد الذي بقيت له قوته بعد الفتح الاسباني هـــو تنظيم الانكا . اعتقـــد بعضهم ان اركان امبراطورية الانكا تزعزعت ، قبيل قدوم الاسبانيين ، بثورات المغلوبين من شيمو وكارا انتصروا لأحد ابناء الامبراطور المتوفى في الارجح . ولكن بعض المؤرخين لا يعترفون بواقع هذه الثورات ويردون الاضطرابات الى مجرد منازعة حول الخلافة . لم يكن هنالك من نظام خلافي . كان الامبراطور يعين بين ابنائه ، المولودين من خمسين او ستين امرأة من نساء حرمه ، الابن الذي يريده خلفا له . ولكن « هوينا – كاباك » توفي متأثراً بعرواء دون ان يستطيع اجراء هذا التعيين . فكان ان هواسكار ، بكر ابنائه من امرأته الرئيسية ، اعلن نفسه امبراطوراً . ولكن اخاه من امرأة اخرى ، اتاهوالبا ، الذي كان في كيتو ، على رأس الجيش الكبير المحشود لمحاربة سكان كولومبيا الحالية ، اكد حينذاك ان « هوينا – كاباك » قد قسم امبراطوريته ، وهو على فراش الموت ، الى شطرين متساويين احدهما لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر حليف اتاهوالبا قائد الجيش المتحرك . ولكنه لم يفكر بعد ذلك بتقسيم الامبراطورية التي يراها بعض المؤرخين طويلة جداً : لم يكن من ضرورة لذلك .

توفرت لامبراطورية الانكا وسائل انتاج تفوق وسائل امبرطورية الازتيك . فقد استعمل الانكا المحراث الرِّجلي ، وهو اشبه بعصا تبلغ ١٫٨٠ م طولاً ، مزوّدة برأس شبهي صـــلب وبركاب يتيح غرزها في الارض بواسطة الرجـــل التي ينوء عليها الفلاح بثقل جسمه . لذلك كانت حراثتهم ابعد عمقاً ، وامكن القيام بها في اوعر تربة . وكانت مساحيهم مزودة بشفرة شبهية عريضة جداً تمكن من تهشيم اشد المدر قساوة . وكان هاونهم المعد لسحق الذرة الصفراء افضل الى حد بعيد من هاون المكسيكيين . فقد استعمل هؤلاء اسطوانـــة يجب التثقيل عليها بقوّة . اما هاون الانكا فكان مؤلفاً من قاعدة مربعة الزوايا توضع عليها الحبوب ثم يوضع فوقها حجر آخر ثقيل جداً ، وحينذاك يصبح بامكان فتاة في العاشرة او الثانيـــة عشرة من سنها تحريك الحجر الأعلى الذي يسحق الحبوب بمجرد حركته . فكان تحضـــير الطحين من ثم اسرع منه بواسطة الاسطوانة المكسيكية ، ولم يستلزم تجميد شخص كبير . وللحياكة كان المكسيكيون يغرزون وتداً في الارض ويثبتون فيه قضيبين خشبيـــين فتجثو الحائكة على احدهما وتركب خيوط السدى بين القضيبين . وترفع بعد ذلك الخيوط بتعاقب مطرد بواسطة عصا وتدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة . اما الانكا فقد ارتأوا ربط القضيب الثاني بجسم الحائك الذي يستطيع بذلك شد النول اليه

دون اللجوء الى ركبتيه او يديه ، بمجرد الحناءة منه الى الوراء ، بسهولة ودون عناء يذكر ، فتبقى بداه طليقتين ، وتزداد سرعة العمل ازدياداً كبيراً . واتاحت لهم الحقول الشبهية نقل حجارة اكبر ؛ كما اتاحت لهم المطارق والسكاكين البرونزية معالجة الحجر معالجة سريعة . فيتضح من ثم ان طاقتهم الانتاجية كانت فوق طاقة المكسيكيين الى حد بعيد .

وتفوقوا عليهم بوسائل النقل ايضاً . فقد ربى الانكا حيواناً داجناً هو الجمل الاميركي الذي يستطيع ان ينقل بين ٢٠ و ٤٠ كيلوغراماً ويقطع بين ١٥ و ٢٠ كيلومتراً في اليوم. يضاف الى ذلك استفادة الانكا من لحم هذا الجمل وصوفه . وشق الانكا شبكة طرقات ؛ طريقين من الشمال الى الجنوب ؛ تحاذي احداهما الشاطىء ابتداء من « تومبيس » حتى « اروكويبا ». يتراوح عرضها بين اربعة وخمسة امتار في الاودية المروية ، وتحيط بها جدران واشجار مثمرة وقناة ماء ، ولا تتعدى مسلكا بسيطاً في الصحاري حيث ترسم بالاوتاد ؛ وتمر الثانية في الجبال المرتفعة ابتداء من حدود كولومبيا والاكوادور حتى توكومـــان ، مروراً بكيتو وكوزكو وبحيرة تيتيكاكا ؛ وهي اضيق من الاولى ، اذ انها غالباً ما لا تتجاوز المتر عرضاً ؛ ولكنها جهزت بالسلالم في اوعر المنحدرات ؛ ورصفت احياناً بحجارة مسطحة ؛ وطرقـاً معترضة تصل المدن بالشاطىء والمدن ببعضها ايضاً. واقيمت هنا وهناك وهنالك ، على شبكة الطرقات ، مخازن مواد غذائية لتموين المسافرين ؛ ومراكز عدّائين تتيح نقل خبر بـــين ليما وكوزكو ، اللتين تفصلها مسافة ٢٤٠ كيلومتراً تقريباً ، في ثلاثة ايام ، بينما اقتضى للبريد الاسبـاني ١٣ يوماً على ظهور الاحصنة ، في السنة ١٦٥٠ . وانشئت فوق الانهـار والاودية، جسور كبرى ، معلقة ، قوامها خمسة حبال ضخمة متوازيـة قطر الواحد منها ٤٠ سنتمتراً ، وحبـال اخرى معترضة ، تعلوها كلها اغصان الأشجار . وهكذا استطاع الانكا ، في بلاد توزعت مناطقهـا الزراعية بين شواطىء البحر وقمم الجبال ، ان يستفيدوا ، للتموين ،من محاصيل المناطق الحارة والمناطق المعتدلة والمناطق الباردة .

كل الحقول الزراعية ملك الانكا . بعضها يخصص للحكومـة ، وبعضها لتعهد المعابـد ، وبعضها يوزع للاستثمار على الافراد . ولكن العمل مشترك في كل الحقول ، ينفـذ تحت اشراف مدير وتنشد خلاله الاناشيد الدينية . كل المنتجات موحّدة . الخزفيات تصنع بالجملة ولا تتعدى نماذج محدودة ذات طابع عملي .

الديانة هنا ايضاً تنسب صفات البشر الى قوى الطبيعة ،وتنطوي على زون متسلسل السلطات . ولكن الانكا توصلوا الى مفهوم اوضح من مفهوم الازتيك ،والى اجلى مفهوم لكائن اسمى لا اسم له ولا بداية ولا نهاية ، خالق كل الكائنات وسيدها المطلق ، عائش في السماوات ،ويأتي بين حين وآخر الى الارض ، ويمثل بصورة انسان . ان مذهب التشبيه هذا ينطوي على تقدم في الارجح . وهو يعني بصورة اكيدة ان الانكا تصوروا الاله شخصاً متميزاً عن الكون ، والديانـــة شأناً خاصاً ، وحديثاً بين الانسان والاله .

وتفوق الانكا في تعاليمهم الاخلاقية ايضاً . فالذهاب الى الفردوس او الى جهنم ، عند الازتيك ، ليس مشروطاً بنوعية الاعمال بل بظروف الموت . اما عند الانكا فالميت يذهب الى الفردوس ، الى السماء ، ليعيش مع الشمس ، اذا كان قد قضى حياة صالحة . ويذهب الى جهنم ليقاسي الجوع والبرد في جوف الارض ، اذا كان قد ارتكب اعمالاً تسترذلها التعاليم الاخلاقية . كانت الغاية من الاعتراف بالخطايا عند الازتيك تجنب عقاب القضاء المدني ، اما عند الانكا ، فالهدف من الاعتراف بالخطايا هو الحصول على حل من اهانة الإله ، والخطايا هي : القتل ، السرقة ، الزنى ، افساد الاخلاق ، عصيان الامبراطور ، الاهمال في عبادة الآلهة . اما الكفارات فهي الصوم والاغتسال المطهّر ، ولا سيما الصلوات .

الا ان الديانة ابقت على ذبائح الاولاد ، بالمئات ، حين يعتلي الامبراطور العرش او يصاب بمرض ، وفي حالات المجاعة والهزيمة والطاعون .

مرتكز المجتمع العائلة الكبرى ذات النسب الواحد لجهة الاب . الزواج محصور في نطاق العائلة . تجتمع العائلة حول المومياءات لعبادة الاجداد . لذلك تتألف المدن من عدد من الحظارات يقابل عدد العائلات الكبرى ويضم كل منها خمسة او ستة بيوت . وتتوزع العائلات الكبرى الى وحدات عمل ، « أيلو » ، حول جدّ اسطوري . يخصص الزوجان سنوياً بقطعة ارض يستثمرانها وتكفي لاعالتهما ، « توبو » . ويضاف اليها نصف « توبو » كلما رزقا ولداً .

عمم « باشاكوتي » نظام الأيلو على كل ادارة الامبراطورية . كل امبراطور ، ابن الشمس ، يتمتع بسلطة مطلقة ولكنه ملزم باحترام العرف وتوفير الاود لرعاياه . ولكل امبراطور حريمه وابناء كثيرون . الاعقاب الذكور المنتسبون الى امبراطور واحد يؤلفون « ايلو ملكياً » مسؤولاً عن عبادة الجد . كان عدد الاباطرة قد بلغ ١١ في السنة ١٥٣٢ ، فكان في كوزوكو ١١ ايلو ملكياً . وقد ضم ايلو امبراطور الانكا الاول ، « مانكو - كاباك » ، خمسماية عقب . وارتفع هذا العدد الى ٥٦٧ في السنة ١٦٠٣ . الامبراطور يختار من هذه « الأيلوات » الملكية كافة كبار موظفي الادارة .

اعضاء هذه « الايلوات » الملكية هم الانكا بالنسب . ولكن الانكا انشأوا طبقة نبيلة من الانكا بالامتياز ، تضم الرؤساء المحليين الذين يتكلمون الكيشوا وانسالهم الذين يربون في كوزكو . واخيراً نظموا طبقة نبيلة ثالثة وراثية دنيا تضم موظفي الادارة الذين لا يتكلمون الكيشوا ، أي « كوراكا » . كل هؤلاء النبلاء موظفون معفون من الرسوم واعمال التسخير ، يتعاشون من محاصيل حقول الحكومة ويتقبلون الهدايا من الامبراطور ، الزوجات ، الاقمشة ، الرياش ، الاواني ، الجمال الاميركية ، اراضي الاستثمار ، الخ . فنجم عن ذلك تميز بالثروات ، الا ان واحداً لم يملك وسائل الانتاج .

منذ السنة ١٤٦٠ قسمت الامبراطورية الى اربع حكومات ، وقسمت كل حكومة الى

ولايات تضم مقاطعات ، وضمت كل مقاطعة عدة « ايلوات » . يتولى ادارة الحكومة « آبو » يختار من عائلة الامبراطور . رؤساء الحكومات الاربعة يؤلفون مجلس الدولة . ويتولى السلطة في كل ولاية حاكم انكا يميل طبعاً الى جعل منصبه وراثيا ويجمع في شخصه الصلاحيات القضائية والادارية . ويتوزع الوظائف الاخرى ، وراثيـا وبالتسلسل ، « رؤساء الـ ١٠٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ٥٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ١٠٠٠ » ، الخ ، حتى « رؤساء الـ ١٠ » .

الامبراطورية لا تعرف نقداً ولا ضريبة . ولكن الجميع يخضعون للعمل القسري. المواطنون موزعون طبقات بحسب سنهم وطاقتهم على العمل . لا يطلب منهم سوى القيام باعمال صغيرة بعد بلوغهم الخمسين . الجميع ملزمون بالعمل في حقول الحكومة وحقول الكهنة وحقول الجماعة وحقول الجيران . ولهم قدوة في ذلك بالامبراطور ورجال البلاط والرؤساء . ولكن مدة العمل تختلف باختلاف مراتب المجتمع . كل ما لا يترك لاستهلاك الافراد يخزن في مخازن الدولة حيث يجمع كل ما هو ضروري لاعالة الجيش والنبلاء والموظفين والارامل والشيوخ والمقعدين والصناعيين وعائلات الجنود المحاربين ، وموظفي البريد وعمال المناجم ، والشعب كله اذا اجدب الحصاد .

كل مواطن ملزم بالـ « ميتا » ، بالاضافة الى العمل في الحقول . فالحكومة تصادر سنويا هنديا من اصل عشرة . الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٢٠ سنة يستخدمون كعدائين لنقل البريد ؛ والرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة يستخدمون في المناجم او المشاريع العامة الكبرى او فرق المشاة . ويصبح غيرهم خدماً او موظفي ادارة .

يعفى من الميتا والعمل في الحقول الـ « ياناكونا » ، او اعضاء الفئات التالية من الصناعيين : النجادة ، الحدادون ، الخزافون ، الصاغة ، صانعو الاسلحة ، نجاروا الابنوس ، الذين تعيلهم الحكومة . لا يعملون الا في المخازن الامبراطورية ، ويوزع الامبراطور انتاجهم على موظفي الادارة بحسب الخدمات المؤداة .

ولما كان الانتاج يتجاوز الحاجات بصورة عامة ، تعاطى الامبراطور لتجارة رسمية كبرى ، وجاز لكل رئيس عائلة مقايضة فائض انتاجه بفائض انتاج سواه . فنجم عن ذلك تفاوت في الثروات . ولكن هذا التفاوت لم يكن ليتيح الانتقال من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية اخرى او تملك وسائل الانتاج .

راقب الانتاج والاستهلاك جيش من المفتشين . وكانت العقوبات قاسية جداً ؛ فيلقى مثلا بالموظف الذي يخالف واجبات منصبه الى الثعابين السامة ؛ ويضرب المواطن الكسول بحجر ثقيل على سلسلته الفقرية .

لم يعتبر الهنود انهم اجروا صفقة رابحة بانتقالهم من حكم الانكا الى الحكم الاسباني . لا ريب في ان حكم الانكا كان استبداديا ، ولكنه حاول ان يكون عادلا وان يوفر لكل فرد ما يحتاج

اليه في حياته . الا ان الهنود اعتبروا الحكم الاسباني استبداد فاتحين ، ظالماً ، يتذرع بالحرية والملكية والمنافسة ولا يكترث عملياً لرفاهية الفرد ولا لحياته نفسها . ويبدو ان الهنود ، حتى المغلوبين وابناء المغلوبين منهم ، تحسروا على حكم الانكا .

يتبين من كل ما سبق ان الاوروبيين وجدوا امامهم ، في كل مكان ، شعوبا منقسمة بعضها على بعض ، وسائل عملها دون وسائل عملهم ، اضطرت الى الاستسلام عاجلا ام آجلا . والشعوب التي تغلب الاسبانيون عليها بسرعة وحققوا في مناطقها حضارة مختلطة يغلب فيها الطابع الاوروبي ، هي بالضبط ابعد الشعوب رقياً وتقدماً ، اي شعوب المكسيك والبيرو التي الفت التنظيم السياسي والخضوع لسلطة حل محلها الاسبانيون ، والتي كانت قبائلها اقل القبائل بعداً عن الاوروبيين عقلية وتفكيراً . اما في المناطق الاخرى فقد برهن الهنود عن عناد في العداء ونفور من كل اندماج . وغالباً ما ادى استيطان الاوروبيين الى افناء مثل هؤلاء الهنود او الى اقصائهم عن مناطقهم .

الفصل الثاني

الأوروبيون والأعراق الملونة في أميركا

١ - الاوروبيون في اميركا

الفضاء الاوروبي الجديد

اكتشافات عقبة : قارة اميركا الجديدة

كان الهدف من رحلة كولومبوس البحث عن الهند ، وحين بلغ اليابسة اطلق على البلديين الاول الذين رآهم اسم الهنود الذي احتفظنا به على الرغم من عدم انطباقه على الواقع. وصل كولومبوس في رحلته الاولى الى هايتي التي اسماها « اسبانيولا» وترك فيها المستعمرة الاوروبية الاولى وعاد الى اوروبا في شهر كانون الثاني من السنة ١٤٩٣ مقتنعاً بانه انما بلغ اراضي « سيبنغو » الامامية ، اي اليابان . فلم يبق من مسألة ، في نظره ونظر معاصريه ، سوى بلوغ القارة نفسها وبلاط امبراطور الصين . وغني عن البيان ان رحلات عديدة لاحقة لم تسفر عن اية نتيجة . في السنة ١٥٠٠ بلغ البرتغالي« كابرال » بدوره شواطىء البرازيل في منطقة رأس « سان – روك » . كان الهدف من رحلة كابرال الدوران حول افريقيا . تقيد بالتعليمات الملاحية البرتغالية ، فابتعد منذ « الرأس الاخضر » عن الشاطىء الافريقي وتوغل غرباً رغبة منه في ان يبلغ اضيق منطقة هدوء استوائية ، وفي ان يتجنب كذلك الرياح والتيار المعاكس في محاذاة الشاطىء الغربي لافريقيا الجنوبية . فكان من حسن تصرفه ان التيار الاستوائي الجنوبي حمله الى البرازيل ، ثم اتاح له تيار « الغويان » ان يبلغ جزر الانتيل الصغرى . وقد أخذ الملاحون والجغرافيون يفكرون جديا بانهم ليسوا امام آسيا بل امام قارة جديدة . وقدم « بالبوا » البرهان على ذلك في السنة ١٥١٣ . انطلق من « داريان » مع ٢٠٠ اوروبي و ١٠٠٠ هندي واجتاز مضيق باناما ، فشاهد امامه ، على مد النظر، تلألؤ امواج محيط جديد ، المحيط الباسيفيكي . فازدوجت الهند، وأصبح هنالك الهند الشرقية ، القديمة ، الحقيقية ، والهند الغربية ، بديلة الهند ، اميركا .

كان رصيد المغامرة نحو الغرب ، في نظر الاوروبيين ، فشلا ذريعاً وانهيار آمال زاد من خطورته ان البرتغاليين اكتشفوا طريقاً الى الهند من الشرق ، وانه يقتضي التغلب على هذا المنافس. فغدت المسألة الكبرى منذ ذاك الحين ايجاد ممر الى الغرب من خلال الحاجز الاميركي. فجاءت رحلة « ماجلان » في السنة ١٥١٥ مأثرة رياضية لا تنطوي على اهميه تجارية تذكر. لذلك لم يكن البحث عن الممر الشمالي الشرقي وعن الطريق الى الصين اقل منه عن الامازون . فوجه الاسبانيون عدة بعثات الى جنوبي الولايات المتحدة الحالية . وكان البرتغاليون السباقين الى بلوغ شواطىء « اكاديا » و « الارض الجديدة » . وقام الفرنسيون بمحاولات جدية . فقد ارسل فرنسوا الاول في السنة ١٥٢٣ ، الى شمالي المستعمرات الاسبانية ، « فرّازنو » الذي خيل له انه رأى، وراء مضيق يبلغ ميلا عرضاً ، البحور التي تقوم على شواطئها الهند والصين و « كاتاي » ،في حين لم يكن ما رآه سوى بحيرة صغيرة ، « بمبليكو سونـد » . ولكن « بحر فرازانو » الذي أبعد تدريجيا نحو الغرب قد ورد ذكره على الخرائط حتى القرن الثامن عشر . وبين السنة ١٥٣١ والسنة ١٥٤١ حمل فرنسوا الاول « جاك كارتيه » على القيام بثلاث رحلات. دخل جاك كارتيه مجرى « سان — لوران » وصعد فيه حتى جزيرة « مونريال » ووضع يده على تلك البقاع باسم ملك فرنسا . وظن بانه غدا على قاب قوسين من البحر الطلق وبحر الصين . واكثر الانكليز من محاولاتهم ايضاً . فمنذ السنة ١٤٩٧ قام « جيوفاني كابوتو » ، بمساندة تجـار « بريستول » ولندن ، برحلة انتهى بها الى «لابرادور» وجزيرة « الرأس البريطاني » . وفي عهد « اليزابت » واصل « فروبشر » و « هدسون » و « بافن » الجهود لمنفعة الشركات التجارية وعلى نفقتها ، بينما حاول السر « همفرى جلبرت » و « وولتر رالاي » في « فرجينيا » مشاهدة « بحر فرازانو » .

الفضاء العالمي الاوروبي الجديد

لم يتوفق الاوروبيون الى اكتشاف طريق آسيا من الغرب . ولكنهم بخروجهم من بحار اوروبا الضيقة ، فتحوا خلال عقود معدودة ، بين السنوات ١٤٩٠ — ١٥٠٠ والسنوات ١٥٣٠ — ١٥٤٠ ، فضاء اوروبيا جديداً ، وأوجدوا اول اقتصاد على مستوى العالم . فبعد « سان — دومنغ » ، استولى الاسبانيون بين السنتين ١٥٠٨ و ١٥١٦ ، على « كوبا » و « بورتوريكو » . وبعد ان استقروا في البر ، عند شاطىء « اللآلىء » ، ثبتوا أقدامهم في مضيق داريان وبلغوا المحيط الباسيفيي في ٢٤ أيلول من السنة ١٥١٣، وأسسوا «باناما» في السنة ١٥١٩ ، في « قشتالة الذهبية » .ومنذ السنة ١٥١٩ شرعوا في فتح المكسيك، ثم جاء دور البيرو في السنة ١٥٣٢ . وفي الجنوب أقام بعض التجار البرتغاليين والفرنسيين في شواطىء « باراهيبا » و « برنمبوك »و«ريو — ريال»ورأس « فريو » وجون «ريو دي جانيرو» . انفجر الخلاف منذ السنة ١٥٢٧ بين البرتغاليين والفرنسيين . في السنة ١٥٣٤ اخذ التـاج البرتغالي ينشىء القبطانيات . حوالي السنة ١٥٤٠ رسمت الخطوط الكبرى للاطلسي الاوروبي،

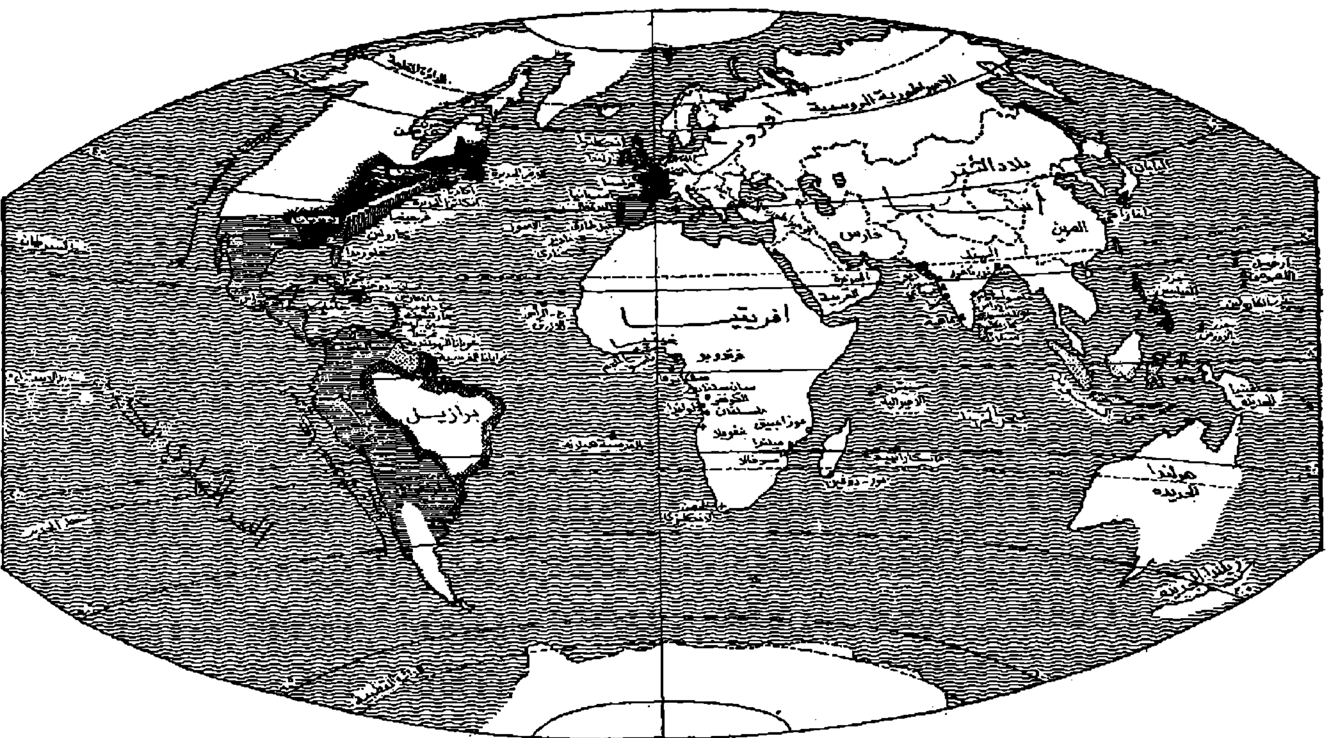

الشكل ١٧ ـ العالم الاستعماري في اواخر القرن السابع عشر

الذي سيتسع تدريجيا حتى القرن الثامن عشر دون ان يتبدل جوهر طبيعته. انتقلت المساحة التي أشرف عليها الاسبانيون في اميركا من الصفر في السنة ١٤٩٢ الى قرابة ٣ ملايين كيلومتر مربع حوالي السنة ١٥٤٠. ولم يشاهد قط بعد ذلك مثل هذا التوسع السريع. ففي اقل من نصف قرن تأسس عالم اوروبي جديد، وتبدل وجه العالم.

تحددت دفعة واحدة، منذ كولومبوس، طرق اجتياز الاطلسي الاوروبي والوقت الذي تستغرقه. تنطلق الاساطيل من اشبيلية باتجاه الجنوب – الجنوبي – الشرقي حتى تبلغ تيار جزر «الكناري»، فتسير فيه وترسو في هذه الجزر. ثم تجتاز القوس الكبير الذي تكونه الرياح الشمالية الشرقية بين دائرتي الانقلاب ابتداء من الدرجة ٢٨ حتى نقطة تقع بين الدرجتين ١٣ و ١٤ من العرض الشمالي في جزر الانتيل الصغرى، بين «ماري – غالانت» و«الدومينيك». وللعودة يجب البحث، صيفا، الى الشمال الشرقي من جزر باهاما، عن الرياح الجنوبية – الغربية – الشمالية – الشرقية، والمرور شمالي جزر «برمودا»، ثم السير شرقاً باتجاه مستقيم، والرسو في جزر «اسور». تصرف القوافل ١٢ يوما تقريباً من قادس الى جزر كاناري. ومن جزر كاناري الى جزر الانتيل الصغرى ٣٠ يوماً. ومن جزر الانتيل الصغرى الى «فيرا – كروز»، او الى «نومبره دي ديوس»، في مضيق باناما، ٣٠ يوماً. وفي طريق العودة من «فيرا – كروز» او «نومبره دي ديوس» الى «هافانا» بين ٦٠ و ٧٠ يوماً، ومن «هافانا» الى قادس، ٧٠ يوماً. فالذهاب يعني اجتياز الاطلسي بحصر المعنى، وهو اقصر مراحل الرحلة، باتجاه اميركا الجنوبية، ويحاذي شطر كبير من المسيرة الشواطىء الافريقية ويمر بجزر ماديرا وكاناري والرأس الاخضر و «سان – بول» و «فرناندو نورونها». ولا تخلو المسيرة من الجزر الا على مسافة ٩٥٠ كيلومتراً بخط مستقيم بين رأس «سان – فنسان» و «بورتو – سانتو»، وعلى مسافة ١٧٠٠ كيلومتر بين اقصى جزر «الرأس الاخضر» وجزيرة «سان – بول». وقد استفادت الاساطيل من الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية بين دائرتي الانقلاب بدونها منها جهد المستطاع تجنباً الرياح المعاكسة. وكان باستطاعة السفن قطع المسافة بين لشبونة وريو دي جانيرو في مدة ٦٠ يوماً. ولكن غالباً ما استغرقت الرحلة بين شهرين وثلاثة اشهر.

سفينة مانيلا الكبرى

اتسع الفضاء الاوروبي بسرعة قصوى. فخطر للاسبانيين في عهد مبكر جداً ان يحملوا من الشاطىء الغربي في اميركا الوسطى منطلقاً نحو آسيا. ومنذ السنة ١٥٢٧ اندفع الاسبانيون نحو بلدان الافاويه. الا انهم واجهوا صعوبة تحديد الطريق الواجب سلوكها. فارسلت في خلال خمسين سنة عشر بعثات توقفت الى اكتشافات هامة في الباسيفيكي، دون ان تفلح في تحقيق المطلب المنشود. الا ان «فيلالوبوس» ادرك في السنة ١٥٤٢ ضرورة الانطلاق من «اسبانيا الجديدة»، وبلوغ دفع الرياح بين دائرتي الانقلاب على ارتفاع الدرجة العاشرة من العرض الشمالي، والاستفادة منها في السير حتى جزر

« ماريان » ، وهي رحلة سهلة تستغرق بين ثمانية وعشرة اسابيع . ولكن مـا ان وصل الاسبانيون الى الفيليبّين حتى وجدوا انفسهم شبه محاصرين ،فقد اصطدموا بالبرتغاليين غرباً وبجدار الرياح ما بين دائرتي الانقلاب شرقاً . وفي هذه الاثناء مست الحاجة اكثر فاكثر الى الفلفل الذي ارتفع سعره في لشبونة اكثر من كل المواد الاخرى . فقام « لغازبي » في السنــة ١٥٦٨ برحلة اسند القيادة البحرية فيها الى العـالم الفلكي الاوغسطيني « اوردانيتا » . ولعل هـذا الاخير هو من اكتشف ، بعد تردد كثير ، طريق العودة ، اعني بها دفـع الرياح الذي ينقل الهـواء من الغرب الى الشرق في مناطق العرض المتوسطة . فعند مغادرة الفيليبين يجب الاتجـاه شمالاً والسير ضد الريح يمنة ويسرة في منطقة الاعاصير الخطرة ؛ وغالباً ما تستغرق مسافة الـ ٥٠٠ كيلومتر بين خليج مانيلا ورأس « بوجادور » شهرين كاملين يجب خلالها اللجوء تكراراً الى عمليـة خطرة هي اطلاق مدافع السفن في آن واحد . فيجدر والحالة هـذة الانطـلاق بين منتصف حزيران ومنتصف تموز بغية تجنب الاعاصير جهد المستطاع ، واستخدام سفن سريعة ومتينة . ثم يجب الصعود حتى الدرجة ٤٠ او ٤٣ من العرض الشمالي والسير ضد الريح يمنة ويسرة باتجـاه فورموزا و « ساكي – شيا » و « ريو – كيو » و « كيو – شيو » و « سيكوك » و « هوندو » وبلوغ خط عرض الرأس « بريمو » في « هوكايدو » تقريباً . ثم تدفع الرياح السفن حتى الشاطىء الاميركي عند الدرجة ٣٥ تقريباً ، ومنها تحاذي السفن شاطىء كاليفورنيا حتى « اكابولكو » . الا ان هذه الرحلة محفوفة بالاخطار وتستغرق بين اربعة وسبعة اشهر ، تبلغ نسبـة الخسائر في الارواح خلالها بين ٣٠ و ٤٠ ٪ ، وكثيراً ما ترتفع حتى ٦٠ و ٧٥ ٪ . واذا استغرقت الرحلة اكثر من سبعة اشهر فينظر الى السفن الكبرى وكأنها اشباح سفن تجري التحقيق مع ملاحيها سفن اكابولكو الحربية التي ترسل للبحث عنها . وانما قد تحقق بذلك الاتصال بين اوروبا وآسيا عن طريق الغرب ، عن طريق العالم الجديد ، بواسطة « سفينـة مانيلا الكبرى » او بالاحرى بواسطة السفينتين الكبيرتين اللتين تسافران معاً كل سنة . اجل انه اتصال هزيل ، ولكنه جعل من الفيليبين ملتقى العوالم وحصن المسيحية في وجه المسلمين والاوثان .

بينما كان الاسبانيون مستمرين في التقدم خلال القرن السابـع عشر ، أسهم الفرنسيون والانكليز بدورهم في توسيع الفضاء الاوروبي . فقد واصل الفرنسيون السير في الاتجـاه الذي رسمه جاك كارتييه ، يدفعهم الى ذلك الازمة وسياسة الكسب التجاري . اكتشفوا شبكـة مدهشة من المواصلات الداخلية ، نهر « سان – لوران » ، البحيرات الكبرى ، نهر « ميسيسيبي » واستطاعوا سبق الانكليز في كل مكان وتأسيس « كيبيك » (١٦٠٨) وبسط سيطرتهـم على البحيرات الكبرى والـ « الينوا » (١٦٧١) . واخيراً نزل « كافلييه دي لا سال » في السنـة ١٦٨٢ نهر الميسيسيبي وبلغ مصابه واستولى باسم لويس الرابع عشر على كل البلاد التي اطلق عليها اسم لويزيانا . وانهمر سيل من المستعمرين الانكليز على الشاطىء الاميركي بين الممتلكات الفرنسية والممتلكات الاسبانية . اما عناصر تفسير هذا العدد الكبير من المهاجرين ففي انطلاقة

الرأسمالية التجارية والصناعية ، وازمة المشاريع المتوسطة ، وازمـة تصوين الاملاك التي دعت الى الاعتقاد بضيق انكلترا بسكانها ، واقفال الاسواق الاوروبيـة بسبب حرب الثلاثين سنة ، والمنازعات الدينية في انكلترا واضطهاد المنشقين ، وثورة انكلترا ، والسير منـذ السنة ١٦٦٢ على نهج نفي محكومي الحق العـام الى المستعمرات حيث يصبحون مواطنين صالحين ، بعد انقضاء مدة احكامهم ، لانهم انما كانوا يحاكمون بسبب مخالفات صغرى .

زد على ذلك ان الاستعمار الانكليزي ، بسبب تقدم الراسمالية في انكلترا ، قد تولتـه شركات تجارية او جمعيات ملاكين نهضت به في سبيـل الكسب : الكسب التجاري والدخول العقارية . لم تتدخل الدولة في البداية الا بمنح الاحتكارات بشكل رسائل تحمل توقيع الملك بغية اجتذاب رؤوس الاموال وبانظمة تستهدف ضمان اولوية الصالح العام وسياسة الكسب التجاري. وحاول الملاكون اجتـذاب المزارعين . فوزعوا البيانات ونشروا روايات المسافرين ورسائـل المهاجرين واسـوا وكالات الهجرة مطنبين في وفرة الاراضي وخصبها وتدني سعرها وارتفـاع الاجور وانخفاض كلفة المعيشة وامكان العثور على المعادن الثمينة .

تجمع بعض المستعمرين كتلا كثيفة نسبيا على طول الشاطىء .

وتمكن الفرنسيون والانكليز من الاقامة في جزر الانتيل الصغرى الخصبة جدا على انهـا خالية من المعادن الثمينة وآهلة باقوام من اكلة لحوم البشر : « كرايبب » . كانت هـذه الجزر داخلة في قطاع النفوذ الاسباني. ولكن الاسبانيين اهملوها بسبب افتقارهم الى الرجال. فاستطاع الفرنسيون ، منـذ السنة ١٦٣٥ ، الاستيلاء على « سان - كريستوف » وال « مارتينيك » و « غـوادلوب » والـ « دومينيك » و « غرنادا » و « سانت - لوسي » و « سان - برتلمي » و « سان - مـارتين » و « سانت - كروا » . واستقر الانكليز في « بارباد » و « نفيس » و « مونسرا » و « انتيغوا » و « انغويلا » . واحتلوا جزر برمودا وباهاما وجامايكا .

اسباب توزع الاوروبيين
الادعاءات الاسبانية - البرتغالية بالاحتكار

أما اسباب توزع الاوروبيين فهي التالية : كان الاسبانيون والبرتغاليون سباقين في السفر الى اميركا، فاحتفظوا لانفسهم باحتكار الاراضي الجديدة . وحصلوا من البابا على تثبيت حقوقهم ، لان البابوية كانت تطالب بسيادة دولية شاملة . ففي رسالة مؤرخـة في ١٢ تشرين الثاني ١١٩٩ ، اوضح انوشنتيوس الثالث لبطريرك القسطنطينية بان بطرس، حين سار على البحر ليذهب الى يسوع ، « قد عبّر بهذا السلوك عن امتياز الحبرية الوحيدة الذي يوليها حق حـكم الكون كله » ، أي كافة الامم الوثنية منها واليهودية على السواء . واثبت بعض رجال القانون حق البابوات في تفويض احتلال الاراضي الحديثة الاكتشاف الى سواهم . يضاف الى ذلك ان البابا ، من حيث هو اب روحي لكافة الشعوب ، قد احتفظ لنفسه بحق تنظيم العلائق بـين المسيحيين وغير المؤمنين . وبموجب الرقيم « من بين الاشياء الاخرى » ، الصادر بتاريخ ٤ ايار

من السنة ١٤٩٣ ، وهب البابا الكسندروس السادس « الملك الكاثوليكي » كافة القارات والجزر التي اكتشفت او ستكتشف في المستقبل ، في ما وراء خط رسم على مسافة ١٠٠ فرسخ الى الغرب من جزر الأسور وجزر الرأس الاخضر . وبموجب الاتفاق المعقود في السنة ١٤٧٩ ، الذي صادق عليه البابا في السنة ١٤٨١ ، احتفظ للبرتغاليين بتجارة غينيا وأراضيها . الا ان الملك جان الثاني رفض القبول بالرقيم لان السفن البرتغالية التي تدور حول رأس الرجاء الصالح كانت بحاجة الى الابتعاد مسافة كبرى عن الشاطىء الافريقي . فعقد الاسبانيون والبرتغاليون معاهدة « توردِسِلاس » (٧ حزيران ١٤٩٤) : ابعد الخط الفاصل الى مسافة ٣٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر « الرأس الأخضر » . ولوحظ في وقت لاحق ان البرازيل و « الارض الجديدة » بقيتا في المنطقة البرتغالية . فأصدر البابا « جول » الثاني رقيما آخر أبرم الاتفاق (٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦) . وبعد رحلة ماجلان ومحاولات الاسبانيين الاولى في الفيلبين ، بات لزاماً تحديد المناطق في الباسيفيكي . كان البرتغاليون راغبين في الاحتفاظ بتجارة الافاويه ، فاستفادوا من متاعب شارل الخامس المالية . فوافق الامبراطور في معاهدة « ساراغوسا » (٢٢ نيسان ١٥٢٩) ، لقاء ٣٥٠٠٠٠ دوقية ، على ان يكون الخط الفاصل دائرة الطول التي تمر في الدرجة ١٧ شرقي جزر الـ « مولوك » ، وهي الجزر الغنية بالافاويه . بقيت الفيلبين في المنطقة البرتغالية ، دون ان يمنع ذلك من استقرار الاسبانيين فيها ؛ فحدثت بين هؤلاء والبرتغاليين نزاعات مسلحة عديدة .

كانت كافة الامم الاخرى مقصاة عن الاراضي الجديدة . وكان البرتغاليون والاسبانيون مقتنعين بالطابع المقدس الذي يتميز به احتكارهم ، فعاملوا التجار والرواد الاجانب معاملة القراصنة .

الاستعمار الفرنسي

في القرن السادس عشر كرس بحارة وتجار الشاطىء الاطلسي الفرنسيون جهوداً تلقائية للاراضي الجديدة . ازدرى تجارهم وقراصنتهم بالحروم والاثارات ، فتوجهوا شطر البرازيل وأنزلوا فيها عملاء « خالطوا » الهنديات وانجبوا العديد من الخلاسيين ذوي الشعر الاشقر والوجه الابيض الانمش واهملوا المسيحية وتعاليمها ، وحظوا بسلطة كبرى على البلديين بروح مبادرتهم وحسن تدبيرهم وقاموا بعمل الوسطاء بينهم وبين التجار . وقد استمال هؤلاء البلديين اليهم بتواضعهم وصدقهم في المعاملة اللذين ابرزا عجرفة البرتغاليين وخداعهم .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تساند هذه الجهود مساندة تذكر ، فكان عليها ارضاء اكثرية السكان في امة تحصر اهتمامها في الاراضي والزراعة ولا تعير اهتمامها ، في ما عدا ذلك ، الا الاتراك وآسيا . وقد تضايق ملوك فرنسا ، بوصفهم بكور ابناء الكنيسة ، من المراسيم البابوية التي تمنح الاحتكار للاسبانيين والبرتغاليين . ورغبوا كذلك في ارضاء رعاياهم في اللنغدوك وبروفنسا وكرّسوا جزءاً من قواهم للمتوسط وموانىء الشرق الادنى .

وصرفتهم كذلك عن مساندة جهود المستعمرين مستلزمات الصراع ضد آل هبسبورغ وواجباتهم في الحلف التركي . اضف الى ذلك ان صفوف البحارة والتجار المستعمرين قد ضمت كثيراً من البروتستانت . وقام الاميرال « كسبار دي كولينيي » ، بين السنة ١٥٥٥ والسنة ١٥٧٢ ، في « ريو دي جانيرو » وفي فلوريدا ، بمحاولات عدة لتأسيس امبراطورية فرنسية كان مقدراً لها ، في نظر فرنسيي ذاك العهد ، ان تكون بروتستانتية قبل ان تكون فرنسية . لهذه الاسباب جميعها ، ساند الملوك المستعمرين حيناً واحجموا عن مساندتهم حيناً آخر ، وفقاً لحاجات التهويل الدبلوماسي على الحكومات الاسبانية والبرتغالية . وفي معاهدة « كاتو – كمبريزيس » ، قبل « هنري الثاني » ، المشغول بتوحيد القوى الكاثوليكية ضد الهرطقة ، بأن يحتجز على السفن الفرنسية كسفن قراصنة ، بدون جدال ، في ما وراء خط طول يمر على بعض المسافة من الشواطىء الاوروبية والافريقية وفي الجنوب من دائرة انقلاب السرطان . فتخلت فرنسا عن كل محاولة في اميركا الجنوبية ولكنها احتفظت بملء حريتها في اميركا الشمالية .

٢ – الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليتية

الاسبانيون وهنود الحضارة النيوليتية

ان الفكرة التي كوّنها ملوك اسبانيا للاستعمار كانت عظيمة وجميلة. فقد تمخض الاستعمار في ذهن ملوك اسبانيا ، الملوك الكاثوليك ، لا سيا شارل الخامس وفيليب الثاني ، بشكل تمثيل او دمج . كان على الاسبانيين ان يؤلفوا شعباً واحداً مع الهنود . وكان مفروضاً ان تصبح اميركا ولاية من ولايات اسبانيا . فكان من ثم من واجب الاسبانيين تلقين الهنود كافة طرائقهم في الحياة : تبشيرهم بالانجيل اولاً ؛ ثم تعليمهم اللغة القشتالية مع كل ما تنطوي عليه من صيغ فكر واشكال حس ؛ واخيراً طبعهم بأخلاق الاسبانيين : الزي ، السلوك ، الطقوس ، النظم الاجتماعية والسياسية . وكان على الهنود ان يصبحوا قشتاليين . لذلك اوصت الملكة « ايزابيل » بالزواجات المختلطة. وقد اوضح قانون السنة ١٥٠٣ ان الهنود احرار ، ولا يتوجب عليهم سوى الضريبة والخدمات بأشكالها المختلفة ، على غرار الاسبانيين انفسهم .

الا ان حسن نوايا الحكومة قد عاكسه الفرق البعيد في الحضارة بين « الفاتحين » والهنود. فقد اعتبر كافة الاسبانيين انفسهم « أسياداً » او تاقوا الى ذلك . ولم ينظروا الى علائقهم مع الهنود الا كما الى علائق السيد بفدادييه . زد على ذلك انهم كانوا اقلية ضئيلة . فتكونت عندهم ، بتأثير ردة فعل دفاعية ، رغبة ملحة في اقناع الهنود بتفوقهم . ورغبوا اخيراً في الاثراء . ولكن الذهب ، في اسبانيولا ، يجب البحث عنه في رمال الانهر ، وقد رفض الهنود العمل . فأرغم « الفاتحون » الاراواك ، الودعاء الهادئين على البحث عن الذهب . ومنح

كولومبوس الامتيازات الاولى ، فأثار بعمله حفيظة الملكة ايزابيل التي عادت وسلمت بها في السنه ١٥٠٢ ؛ فكان ذلك كارثة حلت بالهنود . كان الهنود كثيري العدد عند قدوم الاسبانيين ، دون ان يستطيع احد تحديد هذا العدد على اي حال . ولكن لم يبق منهم سوى ٤٦٠٠٠ تقريباً في السنة ١٥١٠ ، و ١٦٠٠٠ حوالي السنة ١٥٢٠ ، و ١٠٠٠٠ تقريباً حوالي السنة ١٥٣٠ . وكان الهنود الـ « تاينوس » ضعفاء البنية ، يشكون من نقص في التغذية ويكرهون كل مجهود متواصل لأنه يتنافى وتقاليدهم الموروثة . ولم تكن علاقتهم بأصحاب الامتيازات انفسهم في اغلب الاحيان بل برؤساء ووكلاء يلزمونهم بالعمل منذ الصباح حتى المساء . وكان هؤلاء الكادحون بحاجة الى المزيد من التغذية . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب خفض انتاج المواد الغذائية ، ففعل سوء التغذية فعله . زد على ذلك ان المواشي الاوروبية قد تكاثرت بسرعة واتلفت مزروعات الهنود . ولم يبد هؤلاء اية مقاومة امام الامراض الجرثومية التي استوردها الاوروبيون معهم . ففتكت بهم الحصبة والجدري ، لا سيما وانهم لم يعالجوها الا بالغطس في المياه الباردة . ولم تكف الولادات لتعوض عن الخسائر بالارواح . وبسبب افتقار الهنديات الى ما يحل محل حليب الام ، اخّرن الفطام ما استطعن الى ذلك سبيلا ، فأرضعن اولادهن حتى اربع سنوات . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب استنزف حليب الامهات وارغم على الفطام باكراً جداً : فأدى ذلك الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال ارتفاعاً مخيفاً . وزاد في الطين بلة النتائج العاطفية لسيطرة الاجنبي ، وعزلة الافراد الموزعين بين اصحاب الامتيازات ، وفصل الازواج عن نسائهم ، والاتجار بالهنود ، والقضاء على القبائل والعشائر . فنجم عن كل ذلك حالة يأس جعلت الهنود يؤثرون الانتحار او الاستسلام للموت . اما الاسبانيون ، الذين افتقروا الى اليد العاملة ، فقد غزوا الهنود في جزر باهاما و « لوكاي » ولم يلبثوا ان افنوهم افناء تاماً . منذ السنة ١٥٠١ اخذ الاسبانيون يستوردون الزنوج . ولكن اثمان هؤلاء كانت مرتفعة جداً . وهو النقص في اليد العاملة الضرورية لحقول التنقيب عن الذهب ما ادى الى موجات الفتوحات المتعاقبة ، في كوبا وبورتوريكو اولاً ، وفي المضيق ثانياً . فجاءت النتائج متماثلة في جزر الانتيل الكبرى ومناطق المضيق حيث كان البلديون في مستوى حضاري واحد .

ان هذه الوقائع وضعت الاسبانيين امام المسألة القانونية . هل يحق لهم احتلال الهند الغربية ؟ وهل يحق لهم استعباد الهنود ؟ وقد نتج عن ذلك سيل من الرسائل والمذكرات والكتب لان ملوك اسبانيا قد استطلعوا رأي تبعتهم من اصحاب الاختصاصات في كل ما يتعلق بالهند . فأكد المقربون الى ملوك اسبانيا ان للملك حق تملك البلاد وان له من ثم حق الفتح . واقعدوا هذا الرأي على الرقيم « وبين الاشياء الاخرى » الذي اعطاه البابا الكسندروس السادس بورجيا في ٣ ايار من السنة ١٤٩٣ . قال البابا الذي بلغه « ان هذه الشعوب نفسها ، التي تعيش في الجزر المذكورة وشتى مناطق البر الجديد ، تؤمن باله واحد ، الخالق في السماء ، وتبدو مستعدة

استعداداً كافياً لاعتناق الايمان الكاثوليكي وتلقي مبادىء اخلاقية قويمة » ، قد عين فردينان وايزابيل « سيدي الاراضي التي اكتشفت والتي ستكتشف » ، مع ما يستلزم ذلك من صلاحية وسلطة كاملة وحرة ومطلقة » . ومن لقب السيادة هذا استنتج ملوك اسبانيا انهم مالكو العالم الجديد . ولهذا السبب اصدر شارل الخامس في السنة ١٥١٩ امراً بضم العالم الجديد بكليته الى اقاليم تاج قشتالة الملكي . ولهذا السبب ايضاً اعتبروا ان لهم الحق ، في ارضهم ، في اخضاع الهنود .

ولكن هل تحق لهم استعبادهم يا ترى ؟ لم يخامر الشك المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك . وكان « اوفييدو » ابعد هؤلاء تأثيراً . اوضح نظرياته منذ السنة ١٥١٩ ضد « لاس كازاس » ، وعاد اليها في كتابه « موجز في طبيعة الهند » ، ثم في كتابه « تاريخ الهند العام » ، الذي يعكس روح المستعمرين . يستصوب اوفييدو نظرية ارسطو : هنالك اعراق يعدها تخلفها للعبودية بموجب الحق الطبيعي . وانما الهنود من هذه الفئة . فهم كسالى وفاسدون وسوداويون وجبناء وكذبة وبهائم . زواجهم مجموعة من الطقوس المدنسة للقدسيات . انهم عبدة اوثان وشهوانيون ولواطيون . لا يفكرون الا بالمأكل والمشرب وعبادة الاصنام الوثنية وارتكاب القذائع البهيمية . اذا ما ابيدوا ، فلأن الله يعاقبهم ، على غرار سدوم وعمورة ، بسبب خطاياهم الجنسية . تحضيرهم امر مستحيل . يجب استعبادهم بالقوة الى الابد .

واثبت آخرون ، ضد اوفييدو وانصاره ، ان الهنود كائنات عاقلة يجب معاملتها كالاسبانيين ، ولكن بتحفظ ومداراة ، لأنهم متأخرون حضارياً ، كما هو واضح . كان هذا جوهر نظرية الدومينيكانيين ولا سيما نظرية عالم النظريات السياسية الشهير في جامعة « سلمنكا » ، « فرنسيسكو دي فيتوريا » ، الذي توفي في السنة ١٥٤٩ . ففيتوريا يجاهر بأن هنالك ، خارج الحقائق الموحى بها ، نظاماً زمنياً ، او حقاً بشرياً ، يمكن ادراكه على ضوء العقل وحده . ان هذا الحق الطبيعي هو مرتكز « النظام والاتفاق » ، اساس كافة المجتمعات . وان هذا « النظام والاتفاق » واحد لكافة الكائنات العاقلة ، من مسيحيين او غير مسيحيين . ولكن الهنود كائنات عاقلة ، من حيث انهم بشر . لذلك فان الحق الطبيعي يشملهم كما يشمل الاسبانيين . ولذلك كانت لهم كافة حقوق الاسبانيين الطبيعية ، الحرية ، التملك ، القدرة على حكم انفسهم .

ان الآراء التي جعل منها « فيتوريا » علماً سياسياً ، قد اطلقها ، للمرة الاولى ، « مونتسينوس » في عظته في اسبانيولا يوم الاحد الواقع قبل عيد الميلاد في السنة ١٥١١ . وفيما يلي خلاصة ما قاله مونتسينوس : الهنود كائنات عاقلة ؛ فلهم الحق من ثم في ان يعاملوا معاملة الاسبانيين ؛ ويجب بالتالي تلقينهم حقائق الديانة لتخليص نفوسهم ؛ كما يجب الابقاء على حريتهم ، وعدم اضناكهم بالعمل ، واعطاؤهم كفافهم من المأكل ؛ والاعتناء بهم في امراضهم ، ومخالصتهم الود . ان الاسبانيين القساة والمستبدين الذين لا يتقيدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في

حالة الخطيئة المميتة . الا ان رئيس الدومينيكانيين في اسبانيا قد حظر على رهبانه في اسبانيولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين ، بناء على شكوى المستعمرين وعلى امر صادر عن الملك .

ولكن « برتلمايو دي لاس كازاس » قد اناب عن مونتسينوس بعد ذلك في موقفه من الهنود. كان كاهناً ، وصاحب امتياز ، في اسبانيولا منذ السنة ١٥٠٢ ، ثم في كوبا منذ السنة ١٥١٢ ، ووقف موقفاً عدائياً من الهنود ، فحلّت عليه النعمة بينما كان يعد احدى المواعظ في السنة ١٥١٤ . اقتنع بأن معاملة الهنود كانت ظالمة واستبدادية ، فتخلى عن ممتلكاته واعتق هنوده وغدا نصيرهم الذائد عن حياضهم منذ مذكرته الاولى (١٥١٦) الى ملك اسبانيا . يرى لاس كازاس ان سلطة الملك على الهنود سلطة لا شرعية لان كافة البشر احرار ، بموجب حق طبيعي ، اذ انهم مخلوقون على صورة الله احراراً ومسؤولين . كل ما استطاع البابا ان يفعله هو اسناد ادارة الى ملوك اسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين او قتلهم . ولكن ليس لأحد حق في تخطي هذا الحد ، او في تنصير الهنود بالقوة . اما استعبادهم فلا شرعي ايضاً لان الهنود بشر كغيرهم . الاغريق الاقدمون ، التتر ، الهنود ، الاسبانيون ، افراد جنس بشري واحد ، انطلقوا من مستوى همجي واحد ، وتوصلوا الى مستويات تقدم مختلفة بفعل ظروف مختلفة . « يتضح من هذه الامثلة القديمة والمعاصرة ان ليس من شعب في العالم ، مهما بلغ من قساوته وغمارته وبربريته وخشونته ووحشيته وبهيميته ، يستحيل اقناعه واستمالته واعادته الى النظام وترويضه وجعله وديعاً وسهل المراس ، اذا اعتمدنا الارابة واللياقة وسلكنا هذه الطريق الطبيعية الخاصة بالانسان بدافع من المحبة والحلم والوداعة والبهجة ، واذا كنا لا ننشد سوى هذه الغاية » (« التاريخ الدفاعي ») . فبالامكان من ثم ترقية كافة الشعوب اذا ما نظرنا اليها كما الى اخوة نفرغ جهودنا في سبيلهم دونما سعي وراء فوائد شخصية او قومية . ويجب بالتالي هديهم الى الدين القويم بالملاطفة ، « باقناع العقل » ، ثم « بتحريك الارادة برفق » . (« الوسيلة الوحيدة لاستمالة كافة الشعوب الى الديانة الحقيقية » ، ١٥٣٧) . زد على ذلك ان الاسبانيين هم الهمجيون . ففي مؤلفه « بيان موجز في تدمير الهند » (١٥٤٢) المرفوع الى الامبراطور شارل الخامس ، يظهر لاس كازاس الهنود ، عند قدوم الاسبانيين ، مطيعين أوفياء لرؤسائهم ، ضعفاء ، متبصرين ، هادئين ، ودعاء ، صادقين ، طيبي القلب ، سليمي السريرة ، فقراء ، مجردين عن الغايات ، متحلين بذكاء حاد وجديرين بتقبل الايمان الكاثوليكي المقدس . دخل الاسبانيون ديار هؤلاء المتوحشين الطيبين وكأنهم ذئاب وانمر واسود تتضور جوعاً . فاقتصروا عليهم على تقتيل الهنود واسخان اعينهم وتعذيبهم وافنائهم بوحشية نادرة . لا بل منعوا الرهبان من التبشير بالانجيل . وقد دفعهم الى كل ذلك تكالبهم على الذهب . الى هذا الكتاب ، الذي انتشر في كل مكان ، يعود تاريخ « الاسطورة السوداء » حول الغول الاسباني ، سبب ارتداد الامم .

اقرت قوانين « بورغوس » مبدأ اللجوء الى منح الامتيازات . وبناء على مطالبة

الدومينيكانيين ، اعلن تفسير ڤوانسين بورغوس في السنة ١٥١٣ ان باستطاعة بعض الهنود ، المثقفين بمعاشرة الاسبانيين ، ان يستحصلوا من القضاة على اعلان حريتهم . ولكن المستعمرين ولاس كازاس اعترضوا على ذلك لاسباب مختلفة .

امام تضارب الآراء ، قرر الكردينال « كسيميليس دي سيسنروس» اجراء تحقيق بواسطة لجنة تعين لهذه الغاية . فأرسل ثلاثة اخوة ايرونيميين مع « لاس كازاس » الذي اطلق عليه اسم « حامي الهنود » . طرح المحققون على كل شاهد سبعة اسئلة صيغ ثالثها على الشكل التالي : « هل يعلم الشاهد او يعتقد ، او هل سمع او لاحظ ان هؤلاء الهنود ، ولا سيا هنود اسبانيولا ، رجالاً ونساء على السواء ، يتحلون بمعرفة وكفاءة تتيحان اعطاءهم حرية كاملة ؟ هل هم قادرون على ممارسة حياة سياسية على غرار الاسبانيين ؟ هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بجهودهم الخاصة ، كأن يستخرج كل هندي الذهب من المناجم او يحرث الارض او يؤمن معيشته بعمل يومي آخر ؟ هل يعرفون كيف يستفيدون مما قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجات حياتهم فقط كما يفعل العامل القشتالي ؟ » اجاب المستعمرون كلهم بالنفي، وكان احدهم متزوجاً من هندية منذ ١٤ سنة . واستندوا في ذلك الى اختبار الحاكم « اوفندو » . اعطى هذا الاخير ، في السنة ١٥٠٨، الحرية لرئيسين هنديين متنصّرين تعلما الكتابة والقراءة واتقنا الاسبانية وكانا متزوجين وابوي عائلة . جعلهم اوفندو صاحبي امتيازات . ولكن هذين الهنديين قضيا ست سنوات اسراراً دون ان يحرثا الارض، او يتمكنا من إعالة أنفسهما وتأمين ملبسهما بعملهما . فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر الايرونيميين الذين جمعوا الهنود في قرى تحت سلطة محافظين اسبانيين وتسببوا بعملهم هذا في انتشار وباء الجدري الفتاك .

اعترض « لاس كازاس » واستحصل من شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه في السنة ١٥١٩ والسنة ١٥٢٠ ، في اسبانيولا، «رودريغو دي فيغوروا». اختار هذا الاخير عددا من الهنود ممن رأى فيهم الكفاءة وقدم لهم سلف اغذية وملابس وأدوات وعين لهم مناجم ذهب ترك لهم امر استثمارها وترك لهم الحرية في العمل على هواهم . فجاءت النتيجة فشلا ذريعاً .

في السنة ١٥٢٦ ، استطاع المستعمر القديم « باريونويفو » ، الذي كان في المستعمرة منذ ٢٤ سنة ، الاستشهاد بمثل هنديات كثيرات تزوجن من اسبانيين أو دخلن الاديرة مكرسات انفسهن لخدمة الجمعيات الرهبانية. فما ان يصبحن أرامل أو يخرجن من الدير حتى يتخلقن حالا بالاخلاق الهندية ، بما فيها العري والحرية الجنسية ، كما لو انهن لم يعشن طيلة سنوات عيشة اوروبية. واكد « باريونويفو » بان لا أمل يرتجى من الهنود عموماً بسبب ضعف تفكيرهم وذاكرتهم. فهم ينسون صلاة « السلام عليك يا مريم » اذا مر يوم واحد دون ان يتلوها .

اجريت اختبارات اخرى في كوبا ، وفنزويلا ، وغواتمالا، وفي المكسيك عند الشيشيميك. فجاءت النتيجة اخفاقاً في كل مكان . حاول الاسبانيون بين السنة ١٦٣٥ والسنة ١٦٧٦ انشاء

مستعمرات ثابتة ، يضم بعضها الاسبانيين والبعض الآخر الـ « اوتوميس » ، في الجبال التي لجأ اليها الشيشيميك ، ثم جمع الشيشيميك في قرى منفصلة خاصة يتعودون فيها ، على غرار جيرانهم المزارعين ، حياة القرار والزراعة . فلم يفلحوا في هذه المحاولة ايضاً اذ ان الشيشيميك رفضوا الاقامة في القرى ولم يأتوا اليها الا لبعض الاحتفالات الدينية . وكانوا يقدمون على الانتحار اذا ما ارغموا على حضور القداس بانتظام ، ويفرون الى اقصى القفار اذا ما طلب اليهم حضور دروس التعليم المسيحي بانتظام ايضاً . فكان في النهاية ان اباد الاسبانيون الشيشيميك في القرن الثامن عشر . ويتضح من ثم ان الاسبانيين قد اخفقوا في محاولاتهم استمالة اقوام القناصين والصيادين والمزارعين الوقتيين .

الا ان المسيحيين لم يعترفوا بالاخفاق . فان البابا بولس الثالث قد اعلن في رقيمه « الحقيقة نفسها » المؤرخ في ٢ تموز ١٥٣٧ ، ان الهنود بشر حقيقيون وان لهم نفساً جديرة بالحياة الابدية، وان معاملتهم يجب ان تستوحي هذه الحقائق . بيد ان مجمع « ليما » الثالث الذي انعقد في السنة ١٥٨٣ قد اخذ نتائج الاختبار بعين الاعتبار واعترف بان الهنود ، مع كونهم بشراً سويا ، قد بقوا في حالة طفولة وان الواجب يقضي بان تضمن لهم كما للقصر حماية دائمة .فتولى اليسوعيون اجراء اختبار شيوعية ابوية ، في « بارغواي » ، كمرحلة اولى بغية الانتقال بالهنود الى الحياة الشخصية. وكان هؤلاء من قبيلة التوبي غواراني الذين اخفقت في تبشيرهم بعض الارساليات المتنقلة . في السنة ١٦٠٧ اسند ملك اسبانيا ادارة البلاد الى اليسوعيين بغية تحضير الهنود في قرى اطلق عليها اسم « المُعادات » لانها انشئت « لاعادة الهنود الى الحياة المدنية والكنيسة» . وُضع الآباء تحت سلطة الملك ومجلس الهند ونائب الملك في البيرو، وسلطة مجالس « شاركاس » و « شونكيسا كا» و « بوينوس ايرس » القضائية ، ورقابة حاكمي باراغواي و « ريو دي لابلاتا » اللذين زارا « المعادات » زيارات منتظمة . وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة اسقفي « اسومبسيون » وبوينوس ايرس اللذين كانا يتفقدان « المعادات » .

لم يلحق هنود القرى المسيحية قط « بالامتيازات » التي كان اسمها مثار هول ورعب لهم . ولم يمر وقت طويل حتى توارد بين الناس ان « المعادات » مواطن حرية . فتهافت عليها الرؤساء والامراء مع قبائلهم . تأسس اول « معاد » ، وهو معاد « سان اينياسيو غوازو » ، في ٢٣ ك١ من السنة ١٦٠٩ ، على مسافة ١٢٠ كيلومترا الى الشرق من « اسومبسيون » . ثم تأسس حوالي ثلاثين معاداً آخر. الا ان هذه المعادات قاست الامرين من هجمات تجار الرق في ولاية «القديس بولس » البرتغالية ، بمساعدة قبائل التوبي – غواراني الباقية على وثنيتها، الذين كانوا يقبضون على الاسرى ويبيعونهم من البولسيين مقابل ملقطات وسكاكين وصنانير . ولم تعرف المعادات الهدوء والسكينة الا بعد أن استحصل اليسوعيون من ملك اسبانيا على اذن بتسليح الهنود بأسلحة نارية والحقوا بالبولسيين هزيمة نكراء في السنة ١٦٤١ .

شيدت المعادات على مرتفعات ، لاسباب تتعلق بالسلامة ، على بعض المسافة من نهر يستخدم

لنقل المحاصيل . يتوسطها ساحة عامة كبرى تحيط بها الكنيسة والمدرسة وبيت الارامل ومستشفى الشيوخ ودار البلدية ومركزاقامة الآباء وتحيط بها كذلك شوارع كثيرة تكون بتقاطعها مربعات تتوزع فيها المساكن . وحين يخرج الانسان منها يشاهد منطقة حدائق تتخللها معامل الآجر والقرميد ، والمسابك ، والمحاجر ؛ ومنطقة حقول زراعية : الذرة الصفراء ، الحنطة ، الفاصوليا ، الحمص ، التي تستبدل سنة بعد اخرى في تعاقب مطرد بالشاي والقطن وقصب السكر ؛ ومنطقة املاك عامة مشتركة ، مروج ومراع تسرح فيها قطعان المواشي الكثيرة .

اخضع الهنود للنظام الاجتماعي الاوروبي .تتألف من الامراء واقاربهم طبقة اشراف وراثية جعلت في نظر القانون على مستوى طبقة الاشراف الاسبانيين . لكل امير سلطة على ٣٠ او ٤٠ هنديا يقومون نحوه بواجب الطاعة والعمل . يتمتع الهنود بالاستقلال الذاتي في نطاق المعادات . لكل معاد بلديته الهندية ،يعين الحاكم فيها قاضيا أولا مدى الحياة بناء على انهاء الآباء .

اما القضاة البلديون الآخرون فينتخبون انتخاباً ويوافق الحاكم على انتخابهم . لكل معاد كاهن رعية ، يسوعي يعينه الاسقف بموافقة الحاكم . ولما كان الفوارانيي يعتبرون كل ما يقوله ككلام الله بالذات ، فهو الذي يمارس السلطة الاولى . الخدمة العسكرية الزامية . الفوارانيي جنود اكفاء يجمعون فرقاً بقيادة الامراء ،يدينون الملك بالخدمة العسكرية ويشيدون الكنائس والمساكن والحصون . تفرض على الفوارانيي ضريبة ينعم عليهم بدفعها نقداً لا عينا .

ينشأ المعاد في مكان منعزل حفاظاً على الهنود من معايب الاسبانيين ، ولا يسمح بدخوله لا لاسباني ولا لزنجي ولا لخلاسي . وعليه من ثم ان يستقل اقتصاديا . كل الاراضي ملك الجماعة وفاقا لعادات الهنود الاقدمين . وعلى كافة الرجال ان يعملوا يومين اسبوعيا في حقول الجماعة التي تقدم البذار والادوات والمحاريث وحيوانات الجر . تجمع محاصيل الارض المشتركة في مخازن خاصة . يباع قسم منها لتسديد الضريبة وابتياع الملح والحديد . ويستخدم الباقي لاعالة الشيوخ والارامل والايتام . يقسم ما يتبقى من اراضي الجماعة قطعا صغرى توزع للاستثمار مدى الحياة على رؤساء العائلات الذين يتبقى لهم اربعة ايام لزراعتها وتكون حصائدها ملكاً خاصاً .

يضم « المعاد » عدداً من المصانع البلدية التي يمارس فيها الفوارانيي كل الحرف باتقان كامل وتنصرف الهنديات الى الغزل في بيوتهن . اما المصنوعات فتجمع في مخازن مشتركة وتوزع ملكا شخصياً صرفاً بحسب الحاجة .

يتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساء بغية افساح المجال لشؤون العبادة . ايام الاعياد مائة وثمانون ، ينقطع الهنود فيها عن كل عمل ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية ، وترافقها ضروب اللهو المختلفة : الموسيقى ،الرقص ، اطلاق النار على المرمى ، العاب الكرة ، التمثيليات .

وغني عن البيان ان الحياة الدينية تسيطر على الحياة اليومية : صلوات وتعليم مسيحي صباح مساء ، اناشيد دينية قبل العمل وبعده ، الخ .

وخلاصة القول ان هذه الشيوعية استهدفت الانتقال بصيادين لا يزالون في حضارة العهد النيوليتي الى مستوى اخوانهم من متحضري عصري النحاس والشبه. ولكن العمل ، في نظر اليسوعيين ، ما كان ليتوقف عند هذا الحد . فقد بذلوا جهداً كبيراً بغية بعث روح المبادرة الشخصية . استحثوا رؤساء العائلات على زراعة شاي الباراغواي والتبغ وقصب السكر والاتجار بها . وتمنوا لو يصبح هؤلاء الرؤساء اصحاب مشاريع صغرى ويكفون انفسهم بأنفسهم ويجمعون الثروات اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وهذا يستلزم ، كما لا يخفى ، روح التمييز والتبصر في العواقب والثبات والمبادرة والاقدام ، كما يعني ، في حال توفر هذه الروح ، ان الغواراني قد اصبحوا قادرين حقاً على سياسة انفسهم وغدوا اشخاصا مسؤولين حقا واحراراً .

الا ان الغواراني بقوا شعباً طفلا ، غافلا ، متقلباً ، جامحاً . يأكلون البذور التي يستلمونها لزراعة اراضيهم . يهملون زراعة اراضيهم الخاصة فلا يكفيهم انتاجها اكثر من شهرين او ثلاثة. يعتمدون لما يتبقى من اشهر السنة على محصول الحقول المشتركة . يتركون مواشيهم تتيه او تموت جوعاً اذا ما ارتفعت الرقابة عنهم . اذا ما اشتغلوا ، فانهم ينجزون في ستة اشهر ما ينجزه العامل الاوروبي في اربعة اسابيع. لم يتوفق اليسوعيون يوماً الى حملهم على بذل مجهود شخصي . تزوج خلاسي من هندية فسمح له اليسوعيون بالاقامة في المعاد . باع هذا الخلاسي في بوينوس ايرس انتاج حقوله ومواشيه وعاش حياة يسر ورفاهية . انذهل الغواراني واعجبوا به ولكن واحداً منهم لم يحذ حذوه . زد على ذلك ان واحداً منهم لم يتوصل الى ادراك كيفية معاملة حيوان أليف . برهنوا في اعمال الحرف عن مهارة فائقة في تقليد المصنوعات الاوروبية ولكنهم لم يبتكروا قط شيئاً جديداً .

اما مشاعرهم فلم تتقدم خطوة واحدة حتى بعد اربعة او خمسة اجيال . فعواطفهم العائلية لم تتطور قط ، وكذلك ديانتهم الشخصية . وحافظوا في الناحية الفكرية على مستوى ابناء محدتهم من سكان الغابات .

ان المعادات اليسوعية في الباراغواي لخير مثل عن سلسلة مؤسسات مماثلة انشأها اليسوعيون في كافة انحاء اميركا على طول حدود الاستعمار الاوروبي وأعطت النتائج نفسها تقريباً .

البرتغاليون وهنود الحضارة النيوليتية

وصل البرتغاليون الى شواطىء البرازيل واتصلوا بقبائل التوبي – غواراني منذ السنة ١٥٠١ ؛ اما الفرنسيون فمنذ السنة ١٥٠٤ . أتوا في البدء تجاراً يؤسسون المصانع تلقائياً. اما في جنوبي البرازيل حيث تأسست « سانتو – باولو » فيما بعد ، فقد اقام محكومون برتغاليون ومنفيون وبحارة . وثبت الفرنسيون اقدامهم في رأس « فريو » وجون « غواناغارا » حيث قامت ريو دي جانيرو بعد ذلك .

وقد اجتذب الاوروبيين خشب الصباغ الاحمر ، « البرازيل » ، والقطن ، والهجرس ،

والببغاء والفلفل . وافتتن الهنود بالمصنوعات الحديدية . فان مجرد اقتنائهم سكيناً او فأساً او اسافين يوليهم التفوق في العمل او الحرب على سواهم . فقطعوا الاشجار بملء ارادتهم ونقلوها وقدموا « البرازيل » بغية الحصول على « الحديديات » . فتمكن البرتغاليون والفرنسيون على السواء من ابقاء العملاء بين ظهراني الهنود لتعلم لغتهم . « خالط » هؤلاء العملاء الهنديات، لا بل قصد بعضهم القبائل للعيش فيها ، « على طريقة البرابرة » ، وامسوا وثنيين من أكلة لحوم البشر وأنسلوا ذرية من الخلاسيين الذين سهلوا العلائق بين الاوروبيين والهنود .

قدم الهنود ، في الدرجة الاولى ، للبرتغاليين والفرنسيين ، المحاربين الذين افتقروا اليهم للتقاتل في حرب استعمارية لا هوادة فيها . استولى القراصنة الفرنسيون على عدد كبير من السفن البرتغالية على طول الطريق البحرية . وأفلحوا في استمالة البلديين بلطفهم وصدق معاملتهم وتساهلهم وحسن التفاتتهم : فحين تأكدت لهم رغبة الـ «بوتيغوارا» في اكل لحوم البشر ، نظموا خدمة منتظمة تنقل زنوجاً من غينيا يقدمونهم لهم مأكلا . ويؤيد نجاح الفرنسيين عدد الخلاسيين ذوي الشعر الاشقر والبشرة الوردية ، وواقع النجاة من اكلة لحوم البشر بمجرد الادعاء بالجنسية الفرنسية .

خشي البرتغاليون مغبة الامر . زد على ذلك ان استعمارهم تبدل شكله منذ السنة ١٥٣٠ واصبح استعمار مزارع ومشاجر . استفادوا من اختبارهم في « ماديرا » «وكناري» «واسور» ، فزرعوا قصب السكر . وطلب بعض كبار الملاكين عون التاج على الفرنسيين ، فانشأ ملك البرتغال بين السنة ١٥٣٤ والسنة ١٥٣٩ اثنتي عشرة ضابطية في البرازيل . اسند كل منها الى سيد او الى ملاك كبير في اغلب الاحيان . برهن الاسياد عن استبدادهم او عن عجزهم . في السنة ١٥٤٩ استلم الملك نفسه زمام ادارة المستعمرة ، واسس الحاكم العام الاول ، « توميه دي سوزا » ، مدينة « سان - سلفادور دي باهيا » .

سارت الحكومة البرتغالية في الحرب بقوة وحزم بينما لم تقم الحكومة الفرنسية الا بجهود متفرقة بسبب انشغالها بمحاربة آل هبسبورغ . فان الاميرال كوليليي ، الذي حلم بامبراطورية فرنسية وبروتستانية ، ارسل « فيليغانيون » الذي اسس مستعمرة عسكرية في جون « ريو دي جانيرو » في « جزيرة الفرنسيين » . ولكن الحاكم البرتغالي اصطحب اليسوعيين ، الذين كان لهم نفوذ « كبار السحرة » : فابعدوا عن الفرنسيين حلفاءهم من الهنود الواحد تلو الآخر . واحتل البرتغاليون « جزيرة الفرنسيين » في السنة ١٥٦٠ ، ثم استولوا تدريجياً على كافة المستعمرات الفرنسية . وحتى في السنة ١٥٩٧ ، توجهت الى منطقة « ريوغرانده دل نورته » ٢٠ سفينة فرنسية . ولكن المدفعية البرتغالية انتصرت في السنة ١٦٠٣ على حلفاء فرنسا الاخيرين ، البوتيغوارا . وهكذا لم يستطع الاوروبيون تسوية منازعاتهم الا بفضل المحاربين الهنود .

كان الاستعمار البرتغالي ، الا في منطقة سانتو - باولو ، استعمار الاملاك الكبرى ، الخاضعة

للنظام السيدي او الابوي ، والمرتكزة الى زراعة قصب السكر الوحيدة ، ومن ثم الى الرق . ففدت عملية جمع الرقيق شغل البرتغاليين الشاغل ، لا بل غدت صناعة قائمة بحد ذاتها لسكان ولاية القديس بولس ولا سيا لفئة « المماليك » ، الخلاسيين المتوحشين .

أتاح العبد في منطقة سانتو – باولو ، حيث استقر صناعيون برتغاليون معوزون ، قيام استعمار الاملاك الصغرى . « اذا الى شخص الى هـــذه البلاد وتوفق الى امتلاك اثنين منهم (الهنود) ، توفرت له وسائل تمهد عائلته بشرف ، حتى ولو لم يمتلك اي شيء آخر ، لان احدهما يؤمن له القنيص والثاني الاسماك ، والآخرين يزرعون في مغارسه ويجمعون الحصائد . وليس عليه ، بهذه الطريقة ، ان ينفق على تأمين المواد الغذائية لهم ولعائلته ولنفسه » (الاب دي نوبرغا) . الا ان هؤلاء الهنود الاقوياء قد خيبوا الآمال في الاملاك الكبرى. فقد مارسوا القنص والصيد في مواعيد معينة تتخللها فترات بطالة طويلة ، ولم يستطيعوا قط تعـــود عمل المشاجر والمغارس المنتظم الممل ، ففتك الموت باعداد كبيرة منهم . وبات لزامـــاً منذ السنة ١٥٣٠ استحضار الزنوج من افريقيا . ولكن كل مشجر او مغرس احتفظ بعدة عشرات او عدة مئات من المحاربين الهنود لحماية المزروعات ومطاردة العبيد وجمعهم .

الا ان الاستعمار ما كان ليتحقق لولا الامرأة الهندية ، زوجة كانت ام سرية . فهي من حالت دون موت الاوروبيين جوعاً بتعليمهم فن صناعة طحين المنيهوت واستخدامـــه الذي ما زال مرتكز الطهاية البرازيلية . وهي من وفرت لهم شتى الوصفات الصحية والمنزلية . وبفضلهـا خطيت الخطوة الاولى الصعبة للاستعمار . واستخدمت لانجاب جماهير غفيرة من العبيد .

كانت نتيجة الاستعباد الاولى على الهنود نقصاً في التغذية . فان اصحاب المشاجر والمغارس لم يكترثوا لزراعة المواد التي تدخل في تحضير الاطعمة ، ولم يتمكن الهنـــود من الحصول على المنيهوت، في يوم من الايام ، الا بكميات محدودة . كما ان المشاجر والمغارس اقصت الماشية ولاسيا ماشية « سرتاوو » التي غدت اشبه بهيا كل عظمية . وبات القنيص والسمك اكثر ندرة كلما ارتفع عدد المستعمرين الاوروبيين . ولم يتناول العديد من الهنود العاملين في المشاجر والمغارس سوى وجبة طعام يومية واحدة قوامها معجون المنيهوت مع بعض الارز .

تأثر الهنود تأثراً شديداً بالجدري ، وفتك بهم الـــداء الزهري ، لان جميع العاملين في المشاجر والمغارس قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم . وكان كل من لا تظهر فيه علائم الداء موضوع تهكم وسخرية . ونقلت اليهم الالبسة امراضـــاً جلدية وساعدت بتعويلها وظائف الجلد على انتشار الامراض الرئوية . فتناقص عدد الهنود تناقصاً مستمراً .

حاولت الدولة البرتغالية هدي الهنود اي الانتقال بهم من المذهب القائل بوجود الروح في كافة الاجسام الحية الى مذهب التوحيد ، من منطق المشاركة الى منطق الادراك ، من التفكير السحري الى كفاية العقل النوعية . جعل الرقيم « ومن بين الاشياء الاخرى » الصادر عـــن

الكسندروس السادس بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، من ملك البرتغال ، « نائب المسيح في الاراضي المكتشفة حديثاً » . فكان ملك البرتغال مسؤولاً شخصيا عن التبشير بالانجيل . وقد ادرك جان الثالث (١٥٢١ – ١٥٥٧) مسؤولياته ، فأوعز بارسال الآباء اليسوعيين الستة الاولين في السنة ١٥٤٩ وتعهد بالانفاق على معيشتهم . وحذا حذوه خلفاؤه من بعده . اما الحاكم الذي بعث الحركة الحاسمة فهو « مم دي سا » الذي تولى مهامه منذ السنة ١٥٥٧ حتى السنة ١٥٦٨ والذي كرس الايام الثمانية الاولى من ولايته للقيام بالتمارين الروحية باشراف الاب « نوبرغا » . وعين اسقف على البرازيل في السنة ١٥٥١ . فانصرف الاساقفة الى تبشير الهنود بالانجيل ، واشتهر منهم في هذا المجال الاسقف الثاني « بدرو ليتاوو » .

الا ان تقدم التبشير كان بطيئاً . فان كهنة الرعايا المرسلين من البرتغال غالبا ما برهنوا عن جشع وفظاظة وسوء سلوك ، بينما كان اليسوعيون قلة ولم يتجاوز عددهم الـ ١٤٢ في السنة ١٥٨٤ بينهم ٧٠ كاهنا فقط . وكان الهنود متوزعين قبائل صغيرة متنقلة : تشاهد الواحدة منها في الصباح وتختفي بعد الظهر في الـ « سرتاوو » . تكلم الهنود لغة عامية مشتركة هي لغة التوبي التي لم يتقنها المرسلون قط واضطروا بسبب ذلك الى سماع الاعترافات بواسطة التراجمة . ولكن هنالك استثناءات ، كالأب « انكيتا » مثلاالذي وصل في السنة ١٥٥٣ الى سانتو – باولو والف اجرومية وقاموساً وكتابا في التعليم المسيحي وموجزا لسامعي الاعترافات واناشيد ومسرحيات دينية ، وجعل من التوبي لغة حضارة . وانما افتقرت لغة التوبي الى مفردات تعبر تعبيراً صادقاً عن المعتقد المسيحي . فقد اختار المرسلون للتعبير عن مفهوم « الله » كلمة « توبان » التي تشير الى قصف الرعد والتي اعتقدوا بانها تعني « الشيء الالهي » ، اي الكائن الجدير بصفات الاله المسيحي . ولكن « توبان » انما تشير الى شيطان الرعد ، فجر استعمالها الى شتى ضروب اللبس والتشويش . وقد حدث مثل هذا اللبس والتشويش في تعابير دينية كثيرة بسبب فقر اللغة . وتوصل « السحرة اليسوعيون » بسهولة اخيرا الى اقناع هؤلاء الهنود السريعي التأثر . الا ان هؤلاء كانوا يعودون الى وثنيتهم بمثل السهولة نفسها بسبب تقلبهم وتغافلهم . لذلك توجب وجود الكاهن بصورة دائمة .

افلح اليسوعيون من ثم في حمل الحكام على الزام الهنود بالتجمع والعيش في قرى . تأسست القرى الاولى في السنة ١٥٥٧ في منطقة « باهيا » . ومنذ السنة ١٥٦٢ كانت هنالك عشر كنائس تجمع حولها بين ٣٠ و ٤٠ الف هندي متحضر . وعاون الآباء في مهمتهم الاميرنهوس « الامراء » الذين تعينهم السلطات المدنية قضاة بناء على اقتراح اليسوعيين .

فرض اليسوعيون بعض السلطة على الهنود بتعاطيهم الطب والجراحة والحدادة والبناء والنجارة . فقد اتى الهنود الى التعليم المسيحي وطلبوا الى الآباء تربية اولادهم ، بغية الحصول على الادوات الحديدية . يبدأ النهار في القرية وينتهي بالتعليم المسيحي وتتخلله الصلوات في أوقات معينة على الطريقة الرهبانية تقريبا . استهدفت الجهود الاولاد بصورة خاصة ، ومنذ السنة ١٥٥٠

استحضر الآباء بعض الايتام من البرتغال وادخلوهم مدارسهم الى جانب اولاد الغواراني ليجعلوا من العرقين شعبا واحدا يعبد الله . اسندت الى هؤلاء الاولاد مهمة التنبيه الى الولادات والامراض ، كي يتاح للآباء توزيع سري العماد والمسحة الاخيرة ، ومهمة الوشاية بالسحرة وتعليم الاولاد الآخرين ، وحتى الفتيان ، مبادىء الدين المسيحي . زد على ذلك ان هؤلاء الاولاد اثروا في الهنود بتطوافاتهم واناشيدهم .

استند التبشير بالانجيل الى دعوة نفعية .فقد بشر اليسوعيون الغواراني بانهم اذا ما اهتدوا سيحصلون ، بفضل الله ، على غذاء وفير ، وسيتمتعون بصحة جيدة وسيحرزون النصر على اعدائهم.ارتعب الهنود من جهنم ،تشدد اليسوعيون الكلام عن العقوبات الابدية.وبغية التأثير في الهنود تعجبا واحتراما ، وبغية صرفهم عن « اعياد المسكر » والرقص ،اكثروا من الاحتفالات الزاهية مع ما تستلزمه من موسيقى واناشيد شغف بها الهنود ، ونظموا تطوافات عديدة رفعت فيها الرايات الكنسية الزاهرة الالوان والشموع والمشاعل وتخللتها الرقصات ولا سيا الرمزية منها .وقد تجلت الرقصات الرمزية في المسرحيات الطقسية والايمانية التي برهن الهنود عن اهلية كبرى لتمثيلها .

علم اليسوعيون الهنود مبادىء الدين مليا وبطول اناة . فرضوا عليهم مرحلة اعدادية طويلة . طلبوا اليهم ان يختاروا بين نسائهم العديدات واحدة يصرح الهنود بانهم يريدونها زوجة فريدة لهم مدى الحياة . وبعد زواجهم على هذا الشكل ، « بحسب سنة الطبيعة » ، كان باستطاعة اليسوعيين تنصيرهم بالعماد وتزويجهم بعد ذلك « بحسب سنة النعمة » . ثم بسمع اعترافهم بعد فحص ضميري تمهيدي . لم يفرض اليسوعيون عليهم سوى كفارات خفيفة ، وكفارات ادبية بصورة خاصة . وبكل احتراس قدموا الهنود الى تناول سر القربان محور الحياة المسيحية . وفي السنة ١٥٧٣ سمح للهنود بالتناول مرة واحدة في السنة . ولكنهم كانوا قدوة في تقبل هذا السر فأجيز لهم في السنة ١٥٧٤ بتناول جسد الرب في الاعياد الاربعة الكبرى : الميلاد ، الفصح ، العنصرة ، انتقال السيدة .

برز بين الهنود مسيحيون صالحون كانوا ينابيع حقيقية حية للرب . الا ان اليسوعيين لم يرفعوا احدا منهم الى درجة الكهنوت. لانهم اعتبروهم عاجزين عن حمل نير البتولية وغير مهيئين للدروس اللاهوتية المعول فيها على المنطق الصوري والفلسفة الكلامية . ولكن النتائج جاءت غير مرضية في اغلب الاحيان . « ان هؤلاء الاوثان من الهمجية بحيث لا يعيش شخص واحد منهم حياة مسيحية اذا انقطع اتصالهم بالآباء ثمانية ايام متوالية » («غبريال دي سوزا» ، ١٥٨٧) . وغالباً ما يحدث ان القبائل التي تبدو وكأنها تسير في السبيل القويم تستعيد اولادها وتتوارى عن الانظار . وقد القى احد اليسوعيين في الدهش يوم عيد الثمانين من السنة ١٥٦٠ : نظم هنود قرية « سان جوانو »في منطقة « باهيا » تطوافاً فخماً تجلت فيه اروع مظاهر التقوى وفجأة انسحبوا الى السرتاوو » . فكيف تفسّر مثل هذه التقلبات يا ترى ؟ هنالك تقلقل الهنود .وهناك العمل الذي يطلبه اليسوعيون منهم. وهناك ايضاً مقاومة السحرة الذين يحرضون

الهنود سراً . واخطر ما هنالك السحرة المعروفون بال « قديسين » الذين يحتفظون من المسيحية بما يرضي الهنود ، وينبذون ما هو شاق كوحدة الزواج والاعتراف .

وهنالك اخيراً المثل السيء الذي اعطاه بعض المستعمرين البرتغاليين بزواجهم سفاحاً من عشرين عبدة معاً احياناً ، وعلى الاخص الغزو الذي استهدف مطاردة العبيد وجمعهم . تواصل هذا الغزو على الرغم من قانون السنة ١٥٧٤ الذي منح الحرية هنود القرى ، فأدى الى فرار هنود الجماعات المسيحية بحيث لم يبق من الكنائس العشر وال ٤٠٠٠٠ هندي حول باهيا سوى اربع كنائس و ٣٥٠٠ هندي في السنة ١٥٩٠ . اما الهنود العبيد فقد بذل اسيادهم جهد مستطاعهم لمنع اليسوعيين من تبشيرهم بالانجيل . ومرد ذلك الى ان العبد المسيحي يحتمي بشريعة الله من بطش المستعمر ورذائله . لهذه الاسباب كلها تكررت الاصطدامات بين اليسوعيين والمستعمرين . وجاءت المنافسة التجارية تزيد في الطين بلة . فقد استخدم اليسوعيون الهنود في جني العقاقير والمفردات ، وزراعة قصب السكر والقطن والتبغ واللوز الهندي والافاويه ، والعمل في مصانع تقطير الكحول والمطاحن . فاستعمالت مزاحمة اليسوعيين في النوعية وانخفاض الاسعار . لذلك قامت بين اليسوعين والمستعمرين حرب اهلية دائمة . وقاوم كبار الملاكين شيئاً فشيئاً المسيحية واليسوعيين . وبلغ هذا النزاع ذروته في القرن الثامن عشر فكان سبباً رئيسياً من اسباب إقصاء جمعية اليسوعيين .

كان هؤلاء الغواراني الساكين منطلقاً لبعض الم النظريات التي هاجت اوروبا . فان المعلومات التي اعطاها التراجمة ، وهم من تخلقوا بالاخلاق البلدية واضفوا عليها مسحة جمالية ، قد عرفت الانتشار بواسطة البحارة والتجار وكتب المسافرين . افتتن علماء الادب القديم باسطورة العصر الذهبي ورغبوا في ارشاد مواطنيهم ممن لا يعيشون حياة مسيحية حقيقية ، فاستخلصوا من هذه الروايات ، ومن مؤلفات « لاس كازاس » وابنائه الروحيين ، ومن الاحاديث التي جرت بينهم وبين الهنود الذين جيء بهم الى اوروبا بواسطة تراجمة حوّروا اجوبة الهنود ، اسطورة « الهمجي الصالح » . اشهر هؤلاء المؤلفين هو « مونتانيه » في « محاولاته » . تحدث في السنة ١٥٦٢ ، في روان ، الى ثلاثة من التوبي ـ غواراني بواسطة احد التراجمة . فأعلن في فصل « العربات » وفصل « اكلة لحوم البشر » ان المجتمع الهندي انقى مجتمع لانه اقرب المجتمعات الى السنن الطبيعية . وقد ارتأى ان الهمجيين يجب ان يكونوا قدوة لنا في سلوكنا ، لأننا نحن البرابرة حقاً . وكان مقدراً ل « الهمجي الصالح » ، ذاك الشخص الاسطوري الذي يعيش حراً ، بحسب طبيعته ، بوحي ارادته ، متعطلاً ، متغافلاً ، بريئاً ، دون ايذاء ، دون قلق ، دون حكومة ، فرحاً ، سعيداً ، ان يعرف شهرة مدهشة نادرة . فهو من سيشق الطريق امام الملحدين ، « بيير شارون » ، و « لاموت له فاييه » ، ويسهم في بلبلة الافكار وفي ازمة القرن السابع عشر ، ويلهم بعد ذلك « الفلاسفة » واعداء الاستعمار في القرن الثامن عشر ، ويحقق الغلبة مع « جان جاك روسو » . وهو « البربري الصالح » من برّر

الإيمان بطيبة الانسان الأصلية ، فوفر بذلك احد المبادىء الاساسية للمذاهب الاشتراكية . لا بل ان قسماً هاماً من حضارتنا المعاصرة يعود ، بصورة غير مباشرة ، الى آراء بعض الاوروبيين في هنود لا يزالون في مستوى الحضارة النيوليتية .

الفرنسيون وهنود الحضارة النيوليتية

منذ السنة ١٥٠٤ ، ازدحم النورمنديون والبريتانيون الفرنسيون في « الارض الجديدة » و « اكاديا » وحول مصب نهر « سان - لوران » . وقد اجتذبهم الى تلك المناطق صيد الاسماك للايام الصائمة الكثيرة التي تفرضها الكنيسة اولا ، والفراء النفيسة ثانياً . منذ هذا التاريخ تكررت اتصالاتهم بال « بيوتوك » في الارض الجديدة وال « واناباكي » وال « مونتانيه » . وحين وصل « جاك كارتييه » في السنة ١٥٣٤ الى « جون الفيوظ » لوّح الميكماك بالفراء في اعلى العصي لاجتذاب رفاقه اليهم . وفي ذلك دليل على انهم عرفوا اثر جاذب الفراء في الملاحين الفرنسيين . وبعد السنة ١٥٧٥ انتشر في اوروبا زي القبعات المصنوعة من وبر القندس ، فازداد طلب القندس ازدياداً مطرداً .

ادت هذه التجارة الى تطوير الحياة الهندية تطويراً كلياً . ابدى الهنود رغبة كبرى في اقتناء الأدوات الحديدية من سكاكين وفؤوس ، وفي الاسلحة النارية ايضاً . وبلغ من استعمالهم لهذه الادوات انهم نسوا ، خلال قرن ، تقنياتهم الخاصة في صناعة الادوات الحجرية والعظمية والخشبية . فغدوا مضطرين لان يبتاعوا من الاوروبيين كافة المعدات الضرورية لحياتهم وبات لزاماً عليهم تنظيم نشاطهم للاتجار مع الاوروبيين .

وجد جاك كارتييه ، في البقعة التي تقوم عليها « مونريال » ، « الانهر الثلاثة » ، « كيبيك » ، وال « هورون » ، وفي السنة ١٦٠٣ ، وجد « شامبلين » الالغونكينيين الذين اقصوا الهورون والايروكوا وقاموا بعد ذلك بهجمات دائمة على اراضيهم . الا ان الهورون ، المتفوقين في الزراعة ، اسسوا امبراطورية تجارية واخضعوا لسيطرتهم الاقتصادية كافة الشعوب الالغونكينية وبعض الشعوب الايروكية ، كال « توباكو » وال « نوترال » . واخذوا يبتاعون من هؤلاء الآخرين كميات كبرى من الذرة الصفراء ويبيعونها من القبائل الشمالية . كما اخذوا يجمعون فراء المونتانيه وال « كريبه » وال « ناسكابي » مباشرة ، وفراء قبائل « البحيرة العليا » وقبائل شعوب « المروج » وقبائل الالينويز سكان وادي الميسيسبي الاعلى ، بواسطة ال « اوتاوا » . وهكذا فإن الاقتصاد الهوروني الذي كان زراعياً في الدرجة الاولى ، قد غدا تجارياً قبل اي شيء آخر . وكانت كثافة الهورون حوالي السنة ١٦٣٠ مساوية لكثافة الاوروبيين في المنطقة نفسها في السنة ١٩٠٦ . وقد بلغها الهورون بلعب دور الوسطاء بين القبائل وبتوجيه نشاطها التجاري . كانوا يقضون فصل الامطار في جمع الذرة الصفراء الضرورية ؛ وفي الربيع يصعدون عن طريق الضفة اليمنى للبحيرة العليا والبحيرات الكندية باتجاه اعالي « ساغناي » ويقايضون الذرة الصفراء بالفراء ، ثم ينزلون « ساغناي » ويبلغون الفرنسيين عن طريق « تادوساك » ويقايضونهم الفراء . وعلى هذا المنوال وصل كل سنة الى كيبيك ٢٥٠ هيرونيا في حوالي

٨٠ زورقاً محملة بالجلود .

اما الايروكوا ، فبعد ان هزموا الـ « موهيكان » ، أصبحوا حوالي السنة ١٦٢٦ – ١٦٢٧ المتاجرين الرئيسيين لشركة الهند الغربية الهولندية ، واقاموا في امستردام الجديدة ، اي نيويورك الحالية . ولكن الايروكوا كانوا قد أبادوا القندس عملياً في منطقتهم حوالي السنة ١٦٤٠ . فطلبوا حينذاك الفراء من الفرنسيين . الا ان الفرنسيين لم يروا اية فائدة من تمزيق الحلقة الهورونية ، فرفضوا عروض الايروكوا . عند ذلك اخذ هؤلاء يشنون الغارات في السنة ١٦٤٣ ، وفي السنة ١٦٤٩ انقض اكثر من الف ايروكي فجأة على الهورون ، الذين ما كانوا ليحرسوا قراهم ، فابيد هذا الشعب . لجأ بعضهم الى كيبيك ، وقصد البعض الآخر العيش الى الجنوب من بحيرة « ايرييه » . أراد الايروكوا حينذاك الحلول محل الهورون كوسطاء لتجارة الفراء. هاجموا على التوالي كافة طرق المواصلات وتوصلوا في النهاية الى ان يقطعوا جزئياً طرق الاتجار بالفراء. استمرت الحرب ضد الفرنسيين حتى السنة ١٧٠١ . ويفسر تفوق الايروكوا العسكري هذا بانهم كانوا يستعيضون عن قتلاهم بتبني اسرى الحرب وتجنيدهم ، وقد ضم جيش محاربي الايروكوا عدداً كبيراً من الفرنسيين والانكليز والهولنديين. وهكذا فان الرغبة في الحصول على المصنوعات الاوروبية قد تمخضت عند هنود الحضارة النيوليتية الزراعية عن الحرب الاقتصادية .

تقدم الفرنسيون بعيداً جداً باتجاه الغرب. وشق المرسلون الطريق امام « عدائي الغابات » . اكتشف اليسوعيون منذ السنة ١٦٤١ اهمية اتصال البحيرة العليا وبحيرة ميشيغان وبحيرة هورون. وأسسوا ارساليات « سولت سانت – ماري » التي أقاموا فيها منذ السنة ١٦٦٩ حتى السنة ١٦٨٣ و « سانت – اينياس » التي أقاموها ، في السنة ١٦٧١ ، في جزيرة « ميشيليما كيناك » وفي الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة التي تقابلها . ارتفع عدد « عدائي الغابات » في هذه الارساليات ، بين الالفونكينيين والهورون ، لانها كانت مركز امتيار الذرة الصفراء قبل الغزوات . الا انهم حاولوا بدورهم الاستغناء عن الوسطاء فتوجهوا الى أعالي الميسيسبي وبحيرة « المطر » وجون « هدسون » بغية امتيار الفراء مباشرة من القناصين . بلغ العدو ذروته في ايام الوكيل « تالون » . أدرك هذا الاخير ان « عدائي الغابات » كانوا خير أعوان لسياسته الاستعمارية . فشجعهم وقدم لهم المساعدات ، الى أن اصبح العدو ، الذي لم يكن سوى تكملة للزراعة الكندية ، صناعة مستقلة كرس لها بعض الفرنسيين كل نشاطهم . وقد حمت « عدائي الغابات » بعض الحاميات العسكرية . في السنة ١٦٩٠ وجد في « ميشيليما كيناك » ١٤٣ رجلا من فرقة « كارينيان » رأوا ان اجورهم غير كافية ، فآثروا الانخراط في صفوف العدائين ونتج عن ذلك انتشار الحضارة الاوروبية في المناطق البعيدة .

اقتبس الهنود عن الاوروبيين الادوات من سكاكين وفؤوس وصنانير خبروا فعاليتها وديمومتها . واستعاضت النساء عن الخزفيات بالاناء المعدني وعن الابرة العظمية بالابرة الفولاذية

التي تؤمن عملاً سريعاً . تعلموا من الفرنسيين قرن الكلاب لجر المزالج التي كانوا يجرونها بأنفسهم، فسار العمل بسرعة . وبواسطة الفؤوس الحديدية تمكن الاوروبيون والهنود على السواء من ان يبنوا في سبعة ايام كوخاً كان بناؤه يستغرق شهوراً عدة بواسطة فؤوس حجرية تكاد لا تفعل في الجرمشق والبتولة . وتوفرت للهنود البنادق التي اصبح استعمالها عاماً . « كانوا يقتلون اوزة برية واحدة بواسطة السهم؛ اما بواسطة الطلق الناري فيقتلون خمساً او ستاً. وكان القنص بالسهم يوجب الاقتراب من الحيوان ؛ اما بواسطة البندقية فيقتلون الحيوان من مسافة بعيدة » . ولكنهم تمادوا في القتل حتى ندر القنيص .

الف الهنود خبز الفرنسيين وطلمهم ولوباءهم وجلبانهم . حين تصل السفن الفرنسية صيفاً يكفون عن القنص ويتشبعون من المواد الغذائية الفرنسية . الا ان الالغونكينيين ، الصيادين ، لم يستطيعوا تعود الاعمال الزراعية ، فغدوا من ثم مرتبطين ارتباطاً كلياً بالاوروبيين وبتجارتهم .

تولع الهنود بالمسكر ، فباتوا سكيرين . واذا ما ثملوا ، اغتاظوا وتضاربوا وتقاتلوا واحرقوا الويغوام وأتوا كل قذع فاحش . في سبيل الحصول على المسكر ، استسلمت الهنديات لرغائب الاوروبيين . فحرم اسقف « لافال » في السنة ١٦٦٠ كل من يبيع مسكراً من الهنود . وحظرت الحكومة الملكية احياناً بيع المسكر ، ولكن السلطات الاستعمارية كانت مقتنعة بأن منع المسكر معناه القضاء على تجارة الفراء والنفوذ الفرنسي . ففتك داء الغول بالقبائل الهندية .

اما الهنود الذين بقوا على وثنيتهم ، فقد تكون فيهم شعور جزع وقلق ولوع من اليأس بمخالطة الفرنسيين . لم يفقهوا شيئاً من العدالة الفرنسية والمسؤولية الشخصية والملكية الفردية والنعمة والغفران . اعتبروا انفسهم متفوقين على الفرنسيين ، كما اعتبروا خضوعهم لأقوام يستحيل عليهم احترامهم جوراً وعسفاً لا يقرهما حق وعدل . وكان الفرنسيون كلهم في نظرهم سراقاً ولصوصاً اذ ان التجار يقايضونهم كميات ضخمة من الجلود ببنادق لا تنفجر او او بارود لا يحترق . وكان الفرنسيون جبناء ايضاً في نظرهم، اذ ان السفن الفرنسية التي يشتمونها او يسرقون بعض ما تنقله ، تبحر ثانية دون ان تنتقم منهم . سلموا بأن الفؤوس والسكاكين الحديدية تنطوي على شيء من الـ « مانتيو » . ولكنهم اعتبروا انهم احذق وادهى من الفرنسيين اذ ان هؤلاء قد اعجبوا بادواتهم الحجرية والعظمية واعترفوا من ثم بانهم دونهم ذكاء . يضاف الى ذلك ان في بحث الفرنسيين عن جلود القندس دليلاً على انهم افقر من الهنود . وقد اعلن احد الرؤساء الهنود يوماً في احدى نزوات سخائه انه يريد اهداء لويس الثالث عشر مائتي جلد قندس ليجعله اوسع ثروة من كافة اسلافه . فما هو من ثم مبرر هذه السيطرة الاجنبية التي لم يروا لها نهاية .

كانت النتيجة ارتفاعاً في نسبة الوفيات وتدنياً في نسبة الولادات ونقصاً في عدد السكان .

يتشبع الهنود في الخريف من طحين الحنطة والجلبان والفاصوليا ، فتفتك بهم التسممات المعوية. اما النساء اللواتي يصبن بداء الغول فيجهضن او يقتلن المواليد . وقد سبب المسكر اضراراً هائلة . فقد جاء في تقرير يعود الى السنة ١٦٩٣ ان الاوروبيين كثيراً ما يعثرون على طول الانهر في الغابات على جثث هنود تجاورها ابداً أواني المسكر . وفتك بهم كذلك التدرن الرئوي والجدري والداء الزهري . فكثيراً ما اباد وباء الجدري ثلاثة ارباع سكان القرية الهندية وترك الباقين على قيد الحياة في هزال يكاد يقعدهم عن القنص : ومات غيرهم جوعاً بدورهم . اما الحروب الهندية فقد تحولت الى ملاحم ومجازر ، فأبيدت بعض القبائل عن بكرة ابيها .

كان مستوى سكان كندا الفرنسيين عالياً يضم اشرافاً ريفيين وبورجوازيين مثقفين وصناعيين وفلاحين موزعين سيادات وفاقاً للنظام الفرنسي الشرعي الراهن : أسياد واصحاب اقطاعات . ولكن ذلك لم يحل دون تأثرهم بعادات الهنود ، وعقليتهم ، ولم يؤلفوا قط سوى طرائد ضيقة على طول شواطىء « اكاديا » او على طول ضفتي نهر سان - لوران . ويرد ذلك الى صعوبة احياء الاراضي الحرجية في بلاد يدوم شتاؤها خمسة اشهر ونصف الشهر ، والى ان انتاج الاراضي لا يوازي نصف انتاج الحقول الفرنسية . لذلك لم يلبث الكنديون ان اعتمدوا اقتصاداً مختلطاً يرتكز الى القنص والصيد تارة ، والى الزراعة طوراً ، في تعاقب مطرد . ولكن سرعان ما احتل القنص والصيد المركز الاول ، وانصرف بعضهم الى العدو في الغابات . الفوا الجهد غير المنتظم واقتبسوا عن الهندي تفاؤله وتقلبه . عاشوا في عزلة كما يطيب لهم العيش فغدوا متعجرفين وعصاة وسريعي الاغتياظ من رؤسائهم ، على غرار الهنود . ومارسوا الحرب على الطريقة الهندية : كمناء وغارات فجائية .

وجملة الكلام انهم اكتسبوا شيئاً فشيئاً عقلية هندية كان من شأنها ان تشجع التقارب بين الشعوب . وهذا ما تمنته الحكومة الفرنسية وريشليو وكولبير ، الذين رغبوا في ان تصبح كندا فرنسا - الجديدة ، وان يتفرنس البلديون ، وان تعقد زواجات مختلطة كثيرة ، وان تصبح المستعمرة ولاية فرنسية ، اذ انهم انتهجوا سياسة هي سياسة الدمج .

ولكن هذه السياسة آلت الى الفشل . فلم تعقد سوى زواجات قانونية قليلة جداً بين الهنديات والاوروبيين ، اذ ان الهنديات لم يرغبن في دخول العائلات الاوروبية بسبب الفروق الكبيرة التي تباعد بين العادات . وكان الخلاسيون : ابناء التسرر الدائم او التسرر الوقتي ، يؤثرون العيش في قبيلة والدتهم . الا ان « عدائي الغابات » في جوار مراكز العدو او الحاميات العسكرية ، وهم ابناء اشراف ريفيين وقضاة وجنود مسرّحين وصناعيين بدويين ومشردين ، لم يستطيعوا الاستغناء عن الهنديات اللواتي يعرفن وحدهن تحضير الحساء وصناعة الاحذية والمياجير واعداد الجلود للبيع . فابتاعوا من ثم الهنديات لزواج وقتي . وتزوج بعضهم من اكثر من امرأة وتعهدوا « مرابض صبايا » . واعتنق بعضهم الوثنية وكرموا ارواح الصخر وارواح النهر وارواحاً اخرى كثيرة . ففي ميشيليما كناك وفي « سولت سانت - ماري » تجانبت

قرية اوروبية وقرية هندية كان اطفالها الخلاسيون يتنقلون بحرية بين قرية واخرى . ولولا الضباط والكهنة لألفت القريتان قرية واحدة ، ولانتهى الاستعمار الى « الهند – الجديدة » لا الى « فرنسا – الجديدة » . وانما الوقائع التي نسردها ليست سوى وقائع متفرقة على كل حال ، ولكن على الرغم من مقاصد الحكومة الملكية ، بقي المجتمعان منفصلين يترك احدهما في الوقت نفسه اثراً بعيداً في الآخر .

كان النشاط التبشيري في فرنسا – الجديدة كبيراً على غراره في المستعمرات الاسبانية . فان « جاك كارتييه » قد بيّن لفرنسوا الاول ، بعد رحلته الاولى ، في « روايته القصيرة وقصته الموجزة » ، ان ملك اسبانيا قد نشر لواء الانجيل في اميركا الاسبانية وان ملك فرنسا لا يجوز ان يتأخر عنه في هذا المضمار . وفي السنة ١٥٤٠ ، حين فوض فرنسوا الاول الى جاك كارتييه القيام برحلة ثانية ، اعلن عن رغبته في انشاء مستعمرة دائمة من الفرنسيين في فرنسا – الجديدة « لتسهيل حمل الشعوب الاخرى في هذه الارض على اعتناق ايماننا المقدس ، ولعمل شيء ما يرضي الله خالقنا وفادينا ويسهم في تعظيم اسمه الاقدس وامنا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي ندعى نحن باسم ابنها البكر » . واقتفى اثره هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ، لان الخضوع للملك هو في نظرهم وسيلة تبشير وهداية ولأن التبشير والهداية شرط ديمومة سلطة ملك فرنسا ؛ الهداية تلازم التحضير اي انها تستلزم حمل الهنود على تبني اخلاق الفرنسيين ولغتهم وعقليتهم . فيتضح من ثم ان الملوك اخضعوا التبشير للسيطرة الاجنبية ولتقبل شكل حضاري معين ، في حين ان الايمان بالمسيح مستقل كل الاستقلال عن كل شكل سياسي وكل شكل حضاري .

ان تبشير فرنسا – الجديدة لاحدى ظواهر النهضة الكاثوليكية الفرنسية في القرن السابع عشر . فان المركيزة « دي غرشفيل » ، والدوق « دي ليفي – فنتادور » البورجوازي ، و « ماري غوينار » ، ارملة احد الحريريين ، التي اصبحت « ماري التجسد » وذهبت الى كيبيك بالراهبات الاورسوليات في السنة ١٦٣٩ ، قد اسهموا مع يسوع المسيح في بث الكلمة الالهية ، بحسب تعاليم « بيرول » و « كوندرن » و « جان – جاك اوليه » .

منذ السنة ١٦١١ ذهب اليسوعيون الاول الى بلاد الميكماك . وفي السنة ١٦١٥ استدعى شاملين الى كيبيك رهبان القديس فرنسيس الذين كانوا يبشرون الالفونكينيين . وفي السنة ١٦٤٢ اسس خادم رعية « سان – سولبيس » ، جان – جاك اوليه ، بناء على طلب رهبانية القربان – المقدس ، جمعية سيدة « مونريال » ، واقام فيها السولبيسيين .

الا ان اليسوعيين هم من ادّوا القسط الاكبر للتبشير . فقد حاولوا هدي المونتانيه والنسكابي والكريه والابناكي والهورون وحتى الايروكوا . ولم يختلف نهجهم في جوهره عن نهج اليسوعيين الاسبانيين والبرتغاليين ، فلا حاجة من ثم ان ندخل هنا في التفاصيل . وقد

توفقوا الى نتائج حسنة احياناً . فان الابناكي قد اصبحوا كاثوليكيين متأصلين في ايمانهم وغدوا بالفعل نفسه حلفاء فرنسا الاوفياء على الانكليز البروتستانت . وقد اجابوا الانكليزي الذي جاء يطلب اليهم البقاء على الحياد ، خلال حرب حلف اوغسبورغ : « ايها الضابط العظيم ، انت تطلب الينا الا ننضم الى الفرنسي اذا ما اعلنت عليه الحرب . فأعلم ان الفرنسي شقيقي . صلاته وصلاتي واحدة . نعيش في كوخ واحد حول نارين ، ناره وناري . محبتي لأخي اقوى من ان اتقاعس عن الدفاع عنه » . ولم يكف الابناكي عن شن الغارات على المنطقة الانكليزية .

وكان من محافظة الميكماك على كاثوليكيتهم في قلب المنطقة البروتستانتية حتى القرن التاسع عشر ، ان احد المرسلين البروتستانت قد اقام فيما بينهم ولم يفلح في حمل شخص واحد منهم على التخلي عن عقيدته . وبرهن الكثيرون من هؤلاء المهتدين عن ايمان حار واخلاق طاهرة وضمير حي . اما المونتانييه والناسكابي فلم يبرهنوا عن انقيادهم الا في حضور الآباء . واذا ما ذهب الآباء ، عادوا هم الى وثنيتهم . وجدير بالذكر ان معظم البلديين لم يهتدوا . ففي السنة ١٦٤٠ لم يبلغ عدد المهتدين من الهورون سوى ١٠٠٠ شخص تقريباً من اصل ١٢٠٠٠ تناولهم التبشير والوعظ . وقدّر الاب « انطوان سيلفي » ، حوالي السنة ١٧٠٠ ، ان رسالة الهدي قد تستغرق عدة قرون . وتفانى اليسوعيون في تأدية رسالتهم حتى الاستشهاد . ولدينا خير مثل في ما حدث للاب « دي بريبوف » في السنة ١٦٤٩ . اسره الايروكوا مع الاب « لالمان » في غارة شنوها على الهورون . الا ان النصر لا يكون تاماً في نظر الهنود الا اذا استسلمت ارادته ايضاً ، اي اذا صاح من الالم وطلب الرحمة . امرّوا الابوين بين صفين من الايروكوا المزودين بالدبابيس الذين انهالوا عليهما ضرباً ، كل بدوره ، فلم يبق في جسميهما جزء واحد سالم من الضرب . وضعوا عصياً ملتهبة تحت ساقي الاب « دي بريبوف » وابطيه . فلم يجب الاب الا بالصلاة من أجلهم . مزقوه حينذاك بالسكاكين ورؤوس النبال ، وعلقوا له في عنقه عقداً من الفؤوس الحماة . ولكن الاب قال لهم ان حروق جهنم ستكون اشد ايذاء اذا لم يهتدوا . عندئذ البسه الايروكوا نطاقاً وحمائل من قشور صمغية واشعلوا فيها النار . ولكن الاب استمر في التوجع لحالهم وفي استنزال رحمة الله عليهم . فاستشاط الايروكوا غيظاً من انهم يعاملون معاملة النساء وعمدوه بالماء الغالي . عندما رأوا ان الاب يواصل الابتهال الى الرب من اجلهم قطعوا لسانه وشفتيه وانفه واقتلعوا عينيه . ثم جروه الى سطح احد البيوت ليقدموه ذبيحة لإلههم « اغرسكوي » . وبينما لم يزل حياً ، انتزع احد الرؤساء قلبه وشواه واكله رغبة منه في ان تتجسد فيه بسالته . ثم قطعه الهنود الآخرون ارباً ارباً والتهموه . وقد بدأ تعذيبه ظهراً وانتهى بعيد الساعة الثالثة زوالية ، في السادس عشر من آذار من السنة ١٦٤٩ .

الانكليز وهنود الحضارة النيزلية

لم يبذل الانكليز جهوداً تذكر في سبيل هداية الهنود . نقل « جون اليوت » التوراة الى اللغات الهندية فأتاح بذلك اهتداء بعض الاقوام ، ٤٠٠٠ بلدي تقريباً « دجنوا » ، كما قال الانكليز دجوناً مميزاً .

وقامت بعض العلائق التجارية . فقايض الهنود الفراء بعرق السكر والمصنوعات الحديدية . واستغلهم التجار . ولكن الهنود من جهتهم قد زاولوا السرقـــة لأنهم لم يفقهوا معنى الملك الخاص . فاشترى المستعمرون اراضي الهنود الذين لم يدركوا معنى العملية واعتقدوا بانهم انما يشاركون البيض استثمار الارض فقط . وحين طفت موجة المهاجرين والمزروعات ، ففرت من امامها الطرائد ، اراد البلديون الدفاع عن اراضيهم المخصصة للقنص . فأقدم بعض البلديين من قبيلة الـ « بيكو » على قتل بعض التجار ، فقـام طابور من متطوعي « ماساشوستس » باحراق قراهم في السنة ١٦٣٦ . عند ذلك احاط المحاربون البيكو بقرى كونكتكت وقتـلوا البيض الذين صادفوهم . في السنة ١٦٣٧ ، احاط جيش كونكتكت (٩٠ رجلا) ليلا بأهم قرية من قرى البيكو واشعلوا فيها النار ، فمات ٥٠٠ هندي بين رجل وامرأة وطفل . ثم طورد فلول القبيلة ، فقتل معظم الذكور واستعبدت النساء مع صغـارهن . فقد كتب احـد الرعاة البروتستانت الى حاكم ماساشوستس يقول له : « سيدي ، نحييك في الرب يسوع انا والسيـد « اندكوت » . أما بعد فقد بلغنا ان قسمة نسـاء واطفال تجري في الجون . فنرغب في الحصول على نصيبنا ، اي على فتاة او امرأة شابة وغلام اذا ما رأيتم ذلك موافقاً . . . » . احدث الجشع في طلب الاراضي غضباً وحقداً شديدين على الهنود . فاستهدفت الجهود الكبرى ابادة هؤلاء « الاوثان » . غدت الارض « احد آلهة انكلترا الجديدة » . ولأدنى حجة اقتيد الـ « ساشم » عنوة الى « بوسطن » و « بليموث » وارغموا ، تحت طائلة النحر ، على تسليم اسلحتهم والتخلي عن بعض اراضيهم . في السنة ١٧٦٥ ، اعلن « الملك فيليب » الثورة . فدكّت القرى وقتـل ٦٠٠ من البيض عند حدود ماساشوستس وبليموث وكونكتكت . ولكن الهنود لم يكونوا متحدين ، فتمكنت قوى المستعمرات من قمع الثورة بمساعدة القبائل الوفيـة . هزم الهنود شر هزيمة وبيـع الاسرى عبيداً وأعدم المسؤولون المجرمون . واستمر المستعمرون في كل مكان في تقتيل الهنود .

وهكذا فان الاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم ، قد اخفقوا في كل مكان في محاولاتهم الرامية الى دمج هنود الحضارة النيوليتية . ويرد ذلك الى التفاوت الكبير بين الحضارات . اما الهنود الذين حافظوا على علاقاتهم بالاوروبيين فقد اضمحلوا تدريجياً . الا ان بعضهم ، كالميكماك مثلا ، قد عرفوا البقاء لانهم انما « تكيّـفوا » الحضارة الاوروبية . ولم يعرف البقـاء حقاً الا عامة شعب المايا بعد ان ازال الاسياد والكهنة الاسبانيون اشراف وكهنة المايا وحلوا محلّهم . ولكن المايا كانوا قد بلغوا ، لاعتبارات خاصة ، مرحلة عقلية عليا . فتمكنوا من ان يصبحوا مساعدين وضماء للاوروبين ويتقبلوا الحضارة الاوروبية ، بعد خسائر فادحة في الارواح . ولكنهم احتفظوا عملياً تحت اسماء مسيحية ، بآلهتهم الزراعيين ، وتحت ظواهر مسيحيـة ، بعادات حياتهم اليومية ، اي انهم تمكنوا من البقاء .

اما الهنود الآخرون فلم يتمكنوا من تغيير عاداتهم . والدليل على ذلك اختبـار حاسم

اجري في القرن التاسع عشر . تبنى زوجان من الميكماك طفلا ابيض صغيراً سلخ سني حداثته في هذه القبيلة ، ثم تزوج من كندية فرنسية وغادر نطاق القبيلة . يقول لنا ابنه ما يلي : حوالي السنة ١٨٩٠ ، « حين تقدم والدا ابي بالتبني في السن وضعفت قواهما الجسدية ، اتى بهما الى بيته كي يقضيا شيخوختهما فيه . ولكنهما لم يتمكنا من تعود طرائق حياتنا . فلم يريدا الجلوس حول المائدة لتناول الطعام ، بل عندا في قعود الاربعاء والاستعاضة عن الخوان بقطعة من جلد تمد امامهما . قدمنا لهما سريراً ، ولكنهما نزعا الشراشف والدثر وناما ارضاً . لم يحبا طعامنا ، حتى ولا خبزنا ، الا اذا خبز على الفحم . تاقا ابداً الى لحم الطرائد ، وحين بلغ توقهما الذروة ، بلغا هما من الانهيار والوهن ما حمل من لا يعرفهما على الاعتقاد بانهما مريضان. كلما اقتنصت لهما ارنباً او سنجاباً او دلدلا ، غمرتهما البهجة ... والحتا ابداً على ان يشوى لحم الطرائد فوق النار في الهواء الطلق » . ان حالة انهيار الهندي المحروم من طعامه المألوف تنطوي لعمري على مغزى كبير .

•

فهل ان صعوبة الانتقال هذه من حالة حضارية الى حالة حضارية اخرى هي ما يميز بعض الاعراق ياترى ؟ ان هذا الافتراض ، كما يبدو ، ليس متفقاً والواقع . فان هنود الحضارة النيوليتية ، حتى البدائيين منهم ، قد برهنوا عن قابلية كبرى للتكيّف اذا ما فصلوا عن بيئتهم في حداثة سنهم. والدليل على ذلك ان اولاد المونتانييه الذين عاشوا في كيبيك في السنة ١٦٣٦ قد الفوا بسهولة كلية المآكل والملابس الاوروبية ونبذوا مآكل البرابرة وملابسهم . وقد ذكر « جلبرتو فرير » في كتاب شهير ان زوجين من البيض تبنيا في ايامه احدى فتيات الغواراني ، فصلاها عن قبيلتها وربياها كما لو كانت ابنتهما بالذات . ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى لمعت في دروسها ، تسلك سلوك الفتاة البيضاء ولا تتميز بشيء عن رفيقاتها في المدرسة . وكذلك فان ابن الملك « اروسكا » ، التوبي – غواراني « اسونريك » ، قد جاء الى فرنسا واقام في نورمنديا وورث اسم اشبينه « بينو بولميه دي غونّفيل » والقابه وبعض ممتلكاته . واقام هنود آخرون كثيرون في فرنسا واندمجوا في الحضارة المسيحية بالعماد وفي المجتمع بالزواج . ان هذه الوقائع تثبت قابلية هندي الحضارة النيوليتية لاستساغة الحضارة الاوروبية ، وتقدم دليلا اضافياً على وحدة الجنس البشري . اما فشل اوروبيي القرنين السادس عشر والسابع عشر فليس قضية عرق بل قضية حالة إجتماعية . افلم يتوقف تشبه هندي الحضارة النيوليتية على العموم آنذاك بالاوروبيين على هذين الشرطين : اخذه طفلا وفصله كلياً عن بيئته الهندية وعائلته وقبيلته ؟ ولكن هب ان المسيحيين لم يأنفوا من ذلك ، فهل ان الوسائل اللازمة توفرت لهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟

٢ – الاوروبيون وهنود حضارة عصر النحاس

المكسيك

كان وصول القشتاليين حثيثاً نسبياً . فقد بلغ عددهم ، حوالي السنة ١٥٥٠ ، بين ١٧٠٠٠ و ١٨٠٠٠ ، وضم حوالي ٣٠٠٠ مشرد . ومرت المستعمرات الجديدة، حتى السنة ١٥٣١ – ١٥٣٢ في المكسيك ، وحتى حوالي السنة ١٥٤٠ في البيرو ، في مرحـلة لامركزية حقيقية . تولى الفاتحون الوظائف العامة الرئيسية وحصلوا على«امتيازات» واقطاعات وعلى القاب الاشراف احياناً . وسبق لكورتيس ان عين ضابطاً – عاماً وحاكما بموجب مرسوم «فالادوليد»المؤرخ في ١٥ تشرين الاول من السنة ١٥٢٢ . فتسلم اقطاعة تضم ٢٨ مدينة وقرية. وفي ٦ تموز من السنة ١٥٢٩ منح لقب مركيز « فاليه دي اواجاكا » وفارس « سانتياغو » .

وطّد الفاتحون الاستقلال الذي اعطاه اياهم بعدُهم عن الحكومة بالتجمع في نقاط استراتيجية وبتأسيس مدن وتعيين بلديات تمارس فيها سلطات المديريات الاسبانية القديمة دونما اكتراث لرجال القانون الذين ارسلهم الامبراطور كموظفين . ومارس الفاتحون حيال الهنـود السلطات السيدية بحلولهم محل الارستوقراطيات البلدية . اهملوا سياسة الحكومة القائلة بالدمج ونصبوا انفسهم عرقا متفوقاً ، بحركة انعكاسية دفاعية ، وحاولوا اشعار البلديين بدونيتهم. تزوجوا من بنات الامراء واختاروا سراري لهم من عامة الشعب ، ولكن هـؤلاء النساء والاولاد الذين رزقنهم منهم لم يحظوا باعتبار كبير . فخير ما حصل عليه انسال بنات الامراء هو صفة مواطنين إسبانيين مـن منطقة ، ثانية بينما حصل سواهم على اقل من ذلك بكثير . اما رؤساء البلديين فقـد ثبتوا في وظائفهم ، ولكن ارستوقراطيتهم بقيت خاصعة للارستوقراطية الاسبانية البيضاء .

انتهز اعيان الهنود ظرف زوال امبراطورية الازتيك ليستولوا على الاراضي التي امتلكها اما الامبراطور واما الدولة واما المعابد واما « الكلبول ». حوّلوا الهنود الاحرار الى مزارعين دائمين يقدمون لهم ٥٠٪ من محاصيل الارض وخدمات اليد العاملة . فرفض بعض الهنود تحمل هذا النظام . ولجأت عشائر كاملة الى الجبال ، وهامت على وجهها جماعات وافراداً ، فعم التشرد وهكذا انحل المجتمع الهندي .

منذ السنة ١٥٠٢ حتى السنة ١٥٢٦ ، اعيد بناء مكسيكو التي توجب تدميرها للاستيلاء عليها وشيدت فيهـا كاتدرائية القديس فرنسيس حيث كان ينتصب المعبد الكبير . وشيدت كذلك ثلاثون كنيسة اخرى وبعض القصور . وبرز فن استعماري مستهجن . واخـذ كبار اصحاب الامتيازات يستثمرون اراضيهم، فاعطى كورتيس المثل في املاكه . شيد في « كوارنافاكا» قصراً فخماً وانشأ حدائق عظيمة . وانشأ كذلك مزارع قصب السكر والتوت والقنب وحاول تربية دودة القز والاغنام الاسبانية واسس مصانع النسيج واعار اهتمامه مناجم الفضة . ولا غرو فان محاصيل الاملاك والمطلوب من الهنود ذرة صفراء وقطناً ولوزا هنديا لم تكن سهلة التصريف .

فليس هنالك اسواق لمثل هذه المحاصيل ، والمسافات شاسعة ومليئة بالاخطار . ولكن الحاجة ملحة الى استحضار الاسلحة والملابس والزيت والنبيذ من اوروبا . فمست الحاجة الى معادن ثمينة غالية الثمن وصغيرة الحجم تستسهل في سبيلها مواجهة اخطار النقل ونفقاته . فبحث الجميع عن المناجم بجشع .

نضبت حقول الذهب بسرعة . فتوجب التوغل في البلاد بعيـــدا . زد على ذلك ان هؤلاء الجنود القدامى لم يثبتوا في مكان ، فهام السكان على وجوههم « كالسدادة الفلينية على سطح الماء » . وباع صغار اصحاب الامتيازات امتيازاتهم وهاموا على وجوههم ايضا واقتحموا الأخطار . ونظم كبارهم حملات جديدة ، كحملة كورتيس مثلا في السنة ١٥٣٦ الى خليج كاليفورنيا . ودفعت الحاجة الى اليد العاملة باصحاب الامتيازات الى مضاعفة اعمال التسخير التي افضت الى انهـــاك الهنود او استعبادهم . كان المستعمر يوجه انذاراً الى القبيلة بوجوب الاهتداء الى الدين المسيحي ، فترفض القبيلة وتعامل آنذاك معاملة القبيلة الثائرة ويستعبد من يقع من أفرادها في الأسر .

لم تكن هذه الظروف مؤاتية للتبشير ، ولكن التبشير تقدم تقدما حثيثاً على الرغم من ذلك . قال كورتيس والفاتحون ، القساة المتسرعون ، بالاكراه ، اي بهدم المعابد وتحطيم التماثيل وتقتيل الكهنة والعبادات الالزامية بالجملة . وطبقوا ما قالوا به بدون اعتدال . ولكن كاهن كورتيس الخاص ، الاخ « برتولوميو دي اولميدو » ، والمرسلين الذين استحضرهم كورتيس ، الفرنسيين (١٥٢٤) والدومينيكيين (١٥٢٦) والاوغسطينيين (١٥٣٣) قد اعتبروا الهداية بالقوة عمـلا جائراً . اعتناق المسيحية يجب ان يكون هبة ذاتية طوعية . فنصحوا بان يترك الهنود وشأنهم ويبشروا بالدين المسيحي بحلم وتؤدة . واستغل « اولميدو » فضول البلديين . فكان الفاتحون يحضرون قداساً في الهواء الطلق ويصلون بالسبحة ركوعا ويتلون صلاة « الملاك » امـام الصليب كل يوم عندما يسمعون صوت الناقوس . وكان الهنود ينظرون اليهم بدهشة . وكثيراً ما سأل بعضهم عن سبب اتضاع الاسبانيين امام هذه القطع الخشبية . فكان اولميدو يشرح حينذاك العقيدة المسيحية ويفسر لهم كيف ان يسوع ، الاله والانسان ، مات على الصليب محبة باخوته وكفارة عن خطايا البشر ورغبة منه في ايصالهم الى الحياة الابدية . ولم يفرض اولميدو في البدء ممن طلبوا التنصر سوى هذين التخليين : الامتناع عن اللواط والامتناع عـن الذبائح البشرية . وحين مات في السنة ١٥٢٤ ، خلف وراءه تقليداً .

عهد المركزية الملكية المؤسسات السياسية

في هذه الاثناء ، واصل الملوك الاسبانيون جهودهم الكبرى ليخضعوا العالم الجديد لسلطتهم المطلقة والمركزية الملكية . التـــاج نفسه يملك الهند وقشتاليا : لذلك يجب ان تتشابه القوانين ونظام الحكم مـــا امكن التشابه . انشيء في الهند تدريجياً جهاز كامل من المؤسسات . تألف مجلس الهند الى جانب المجالس الملكيـة الاخرى . ورد ذكره رسميا في السنة ١٥٠٩ ، ثم غدا مؤسسة دائمة ابتداء من السنة ١٥٢٤ . وكما كان يفعل مجلس قشتاليا حيال القشتاليين ، حرر

مجلس الهند لاميركا القوانين التي اوحى بها الملك ، وراقب تنفيذها بالمراسلة او بارسال المفتشين ، ووضع اسس التنظيم الاداري واقترح المرشحين للوظائف ، وحمى الهنود ولعب دور محكمة الاستئناف . منذ السنة ١٥٠٣ ، تأسست في اشبيليه غرفة تجارة الهند التي اشرفت على كل تجارة الهند وسهرت بصورة خاصة على جمع النصيب الملكي ، الذي حدد بعشرين بالمئة من قيمة المعادن الثمينة . وسلمت القباطنة ايصالات بهذه الضريبة . وتعهدت مكتبا لقيادة السفن ومدرسة ملاحة كانت موضوع اعجاب عام، وعالما فلكيا لوضع الخرائط . وصدر تحت اشرافها كتاب « فن الملاحة » الذي الفه « بدرو دي مدينا » ووافق عليه « الربان الاكبر » « دي لا كازا » ، ونقل الى الايطالية والفرنسية والفلمنكية والانكليزية وبات كتاباً مدرسيا طيلة ١٠٠ سنة . ومنذ السنة ١٥٣٥ عينت قاضيا يمثلها في قادس، بسبب حاجز « سان – لوكار » الصخري الذي حال دون وصول السفن الكبرى الى اشبيليه ، ولكن اشبيليه احتفظت لنفسها بالرقابة .

وانشأ الملوك في اميركا مجالس شبيهة بمجالس أسبانيا ، اي انها تلعب في آن واحد دور مجالس السلطة التنفيذية ، نائب الملك أو الضابط العام ، ودور الاجهزة الادارية على غرار المجالس (البرلمانات) الفرنسية . تألفت على العموم من رئيس واربعة موظفين (مستمعين) يعدون القرارات . انشىء المجلس الاول في اسبانيولا في السنة ١٥١١ ؛ وانشىء مجلس ثان في مكسيكو في السنة ١٥٢٧ ؛ وثالث في باناما في السنة ١٥٣٦ ؛ ورابع في ليما في السنة ١٥٤٤ ، الخ . وعين الى جانب المجلس ضابط عام يتولى قيادة الجيوش ويؤمن الدفاع ويسهر على تنفيذ القوانين والمقررات القضائية والادارية . وقسم نطاق صلاحية المجلس او الضابطية العامة الى حكومات يتولى السلطة فيها الحكام ، وقسمت الحكومات الى محاكم يتولى السلطة فيها القضاة ؛ وقسمت المحاكم الى محاكم بلدية يرأسها « قضاة عظام ». وفرض على ذوي الامتيازات اقسام اليمين واعتبروا ، هم ايضا ، موظفين ملكيين .

وعين في قمة هذا الهرم نواب ملك يعززون السلطة التنفيذية ويلقون الاهابة والخوف في الفاتحين النازعين الى مزيد من الاستقلال . كان اول نائب للملك « انطونيو دي مندوزا » ، مركيز « موندخار » ، الذي عين في السنة ١٥٢٩ ووصل إلى مكسيكو في السنة ١٥٣٥ . ثم عين نائب ملك آخر في ليما في السنة ١٥٤٢ .

خضع نواب الملك وكافة الضباط الملكيين لرقابة المجلس ورقابة مفتشين او «زائرين». وكانوا عرضة ، عند انتهاء ولايتهم ، لمحاكمات اقامة تسمع فيها شكاوى رعاياهم ويتوجب عليهم تبرئة نفسهم منها .

توطدت السلطة الملكية شيئاً فشيئاً . في السنة ١٥٢٦ ، اضطر كورتيس لان يخضع عنقه لتحقيق قضاة الاقامة . وحوالي السنة ١٥٣٠ ، أخذ قضاة المحاكم يستلمون مهامهم . وحوالي السنة ١٥٣٠ – ١٥٣١ ، اقصي كورتيس عن الحكم وتاسس مجلس مكسيكو الثاني . فبدأت

منذ هذا التاريخ المركزية النسبية في المكسيك ؛ ثم بدأت في البيرو ما بين السنة ١٥٤٤ والسنة ١٥٤٧ ، وكان مقدراً لها أن تدوم بعد شارل الخامس حتى السنة ١٥٧٣ تقريباً في عهد فيليب الثاني .

اقتصاد علائق المسافات الكبرى المبني على المعادن الثمينة

اسهم جهود الحكومة في تنمية اقتصاد علائق مسافات كبرى بين مناطق المكسيك المختلفة وبين اوروبا ، افضى بالنتيجة الى تمكين السلطة النسبية . استمر مستعمرو البيرو في التوغل بعيداً في البلاد بحثا عن المناجم ، فاكتشفوا في السنة ١٥٤٥ مناجم « بوتوسي » في « بوليفيا » الحالية ، التي تفجر منها سيل من الفضة ؛ واكتشف مستعمرو المكسيك في السنة ١٥٤٦ عروق « زاكاتيكاس » على مسافة ٧٠٠ كيلومتر مكسيكو ، وفي السنة ١٥٦٧ بلغوا « يندِه » و « سانتا – بربارا » في قلب بلاد البدو على مسافة ١٥٠٠ كيلومتر ونيف عن مكسيكو . منذ السنة ١٥٤٨ قامت في زاكاتيكاس بين ليلة وضحاها مدينة ضمت خمس كنائس وحوالي خمسين « مطحنة معادن » . فتميز الاستعمار الاسباني منذئذ بسرعة التوسع واسترخاء الاحتلال . اعتمدت في البدء الطريقة الهندية : يسحق المعدن الخام بين حجرين قاسيين ويوضع فوق النار في افران ذات ثقوب للتحليل ، فتنحل الفضة في الرصاص اثناء الذوبان . ثم يبعد الرصاص باكسدته بالهواء . الا ان نفقات المحروقات كانت باهظة ، والحصول على المعدن الثمين استغرق وقتا طويلا؛ فبات لزاما معالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها مرتفعة. في السنة ١٥٥٤ ادخل «برتولوميو دي مدينا» الى المكسيك طريقة الملغم او المزيج التي اقتبسها عن أحد الالمان . يسحق المعدن الخام ويرش بالماء ويخلط بالملح والنحاس المزوج بكبريتور الحديد والزئبق . الزئبق يستولي على الفضة لانها قابلة الذوبان فيه . ثم يصعّد الزئبق بخاراً وتجمع الفضة. فاتاحت هذه الطريقة وفراً كبيراً في الوقت والمحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية. وفي السنة ١٥٦٣ ادخلت هذه الطريقة الى البيرو بعد اكتشاف مناجم الزئبق في «غوانكافليكا».

معضلة المواصلات والمؤن

ان عمل المناجم أوجد حركة بضائع كبرى . فكان على المناجم نقل انتاجها من المعدن الثمين . وحوالي السنة ١٦٠٠ بلغ تصدير الفضة الى اوروبا وآسيا ذروته ، ومثلت الفضة ثلثي أو ثلاثة أرباع قيمة المشحونات . وكان على المناجم الحصول على الزئبق الذي استورد الى المكسيك من اوروبا ، وعلى الجلد الضروري لتجفيف الدهاليز ونقل الفضة ، وعلى المواد الغذائية . فتوجب من ثم تأمين حماية الطرقات من البدو وتعزيز الانتاج الزراعي وتربية المواشي . فان الشيشيميك ، في المكسيك ، وقد أصبحوا فرساناً مهرة في وقت قصير ، أخذوا يحرقون تجهيزات المناجم الصغرى المنعزلة ، ويحقون الاستثمارات « فلا يبقون فيها على كلب أو هر في قيد الحياة » ، ويهاجمون المسافرين ويقتلونهم ويحرقون البضائع . فتوجب التنقل مواكب كبرى مسلحة تضم حتى ٨٠ عربة مصنوعة من الخشب السميك المتين كانت اشبه بحصون متحركة ، وأحداث نقاط عسكرية يواكب جنودها

المسافرين . الا ان الحل الحقيقي كان اعمار البلاد على جوانب طرقات المدن باقامة جماعات من المزاعين ومربي المواشي فيها . فأكثر نواب الملك والبلديات ، تحقيقاً لهـذا الهدف ، توزيع امتيازات استثمار الاراضي والمراعي لقطعان الماشية .

فتح حيوانات اوروبا الداجنة للعالم الجديد

سبق للاسبانيين ان استحضروا حيوانات اوروبا الداجنة للتغذية والاعمال ، الخنزير ، الثور ، الخروف ، الحصان ، الحمـار ، واستخدموا البغل الذي ما كان الاستعمار ليصبح ممكنا بدونـه .

ازدهرت تربية المواشي . فالمساحات واسعة جدا . ويكفي عـدة حراس لالوف الحيوانات . ولم تكن الحراسة على ظهر الحصان عملا خدميا بل عملا جديراً بعرق متفوق . خلال عقـدين اجتاحت العالم الجديد موجات متعاقبة من المواشي . المراعي غنية بالكلأ لان حوافر الحيوانات لما تطأها . الابقار تضع صغارها قبل ان تبلغ السنتين من عمرها . تتضاعف القطعان خلال ١٥ شهرا . اصحاب القطعـان يتلكون ١٠ ٠٠٠ و ٢٠ ٠٠٠ وحتى ١٠٠ ٠٠٠ حيوان. سعر اللحوم ينخفض الى ثمنه في الاندلس فينجم عن ذلك خدمـة جلى للاستعمار ، ولاخوف على الابيض من ان لايجد ما يؤمن غذاءه . اما الجلد الذي مست الحاجة اليه للمناجم وللجيوش الاسبانيـة في اوروبا فقد غدا انتاجا تصديرياً رابحاً . ولكن تربية المواشي لم تجـد سوى ملاكي القطعان الكبرى ، وكان مقدراً لها ان تفضي الى الاملاك العقارية الكبرى .

حافظ الاسبانيون على مبدام القشتيلي : العشب هبة الطبيعـة ، فيجب ان تكون المراعي مشتركة ، وقد اعترف بالمرعى العمومي حقاً وقانوناً بعد الحصاد . القطعان تتنقل بحرية ، وقـد توطدت من جهة ثانية عادة نقل المواشي من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضـة والعكس بالعكس . انما يقتضي لمربي المواشي نقطة ثابتة لاقامة زرائب البهائم واكواخه . فاخـذت الجماعات تعترف للمربين بنطاق وراثي قابل التخلية ، اي بنقطة ثابتة لايحق لاي مرب ان يقيم حولها ضمن دائرة يبلغ شعاعها اربعة كيلومترات على الاقل . الا ان هذه الهبة لم تول حق تملك بل مجرد حق استعمال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الحرية لم تفد سوى الاسبانيين اذ ان الهنود لايتلكون قطعانا والمواشي تجتاح مزروعات الهنود فتفر جماعات كاملة الى الجبال . حمى نواب الملك الهنود بتحديد نطاق حماية حول القرى ، وبانقاص المدة المسموح خلالها الاستفـادة سنويا من المراعي العمومية ، وبمحاولة رسم طرق تسلكها المواشي المنطلقة من منطقة الى اخرى. وحاولوا اخيراً تحويل سيل القطعان نحو البورات الشمالية بمنع النقاط الثابتة مع نطاقاتها في قلب مناطق البدو . فكان نصيب بعض كبار الموظفين والمستعمرين النافذين بين سبع نقاط واحدى عشرة نقطة ثابتة ، فاشتروا امتيازات غيرهم من المستعمرين الثانويين وكونوا لهم املاكا كبرى. والى جانب الثور ، وفرت الاحوم الشهية قطعان كبرى من الاغنام نسجت اصوافها وحيكت في النقاط الثابتة عينها وبيعت الاقمشة في كافة انحاء العالم الجديد .

استعمل الاسبانيون من البلديات او من نواب الملك على املاك تقارب مساحتها ٤٣ هكتاراً من الاراضي الزراعية ، رغبة منهم في انتاج اثمار وحبوب بلادهم . زرعوا القمح بصورة خاصة على جانبي الطريق بين « فيراكروز » ومكسيكو ، واشجار البرتقال والليمون والتوت في منطقة « بوابلا » ، وربوا دودة القز في بوابلا وال « مكستيك » . صدّر الحرير خاماً الى اسبانيا او غزل وحيك في البلاد . وبيع القمح بسهولة لتموين الاساطيل الاسبانية والمناجم . اما اليد العاملة فقد وفرها الهنود باجور زهيدة بلغ من تدنيها ان العمل اليدوي حظر على البيض . شجع نواب الملك زراعة الحنطة ولكنهم تقيدوا بتعليمات سرية ووقفوا عثرة في سبيل زراعة الكرمة وشجرة الزيتون اللتين تتوفران بكثرة في اسبانيا . وهنا ايضاً توصل بعضهم ، بالتخلية المباشرة او بالشراء ، الى امتلاك مساحات كبرى ، مع ان الاملاك المتوسطة المساحة لم تكن نادرة .

ازدهرت في الوديان العميقة والسهول الساحلية والمنحدرات المطلة على البحر زراعة قصب السكر ، وشجرة اللوز الهندي والعظلم في مغارس ومشاجر صغرى منعزلة تتوزع على مئات الكيلو مترات . في البدء استخدم اللوز الهندي نقداً ، وفي اواخر القرن السادس عشر اصبح الشوكولاتا المشروب المفضل في المكسيك واسبانيا،ومسحوق اللوز الهندي مادة تجارة وتصدير كبيرين ، ونمت زراعة قصب السكر نمواً سريعاً بسبب تزايد استهلاك « الحلويات » الذي جعل من السكر مادة ضرورية جداً . ونمت كذلك زراعة العظلم بفضل الاحتكار الذي استحصل عليه ، في السنة ١٥٦١ والسنة ١٥٧٢ ، « بدرو دي لدّسما » ، « مكتشفه » ، والمركيز « دل فاليه » احد حفدة فرنندو كورتيس . كانت كل هذه المغارس والمشاجر املاكاً كبرى او مشاريع رأسمالية . فتوجب استخدام عدة مئات من العمال وعدة مئات من الحيوانات في كل منها لحراثتها حراثة عميقة وريها والعناية بها . سحق قصب السكر بواسطة محادل من الخشب الصلب تحركها مطاحن تسير على الماء او البغال ، ومست الحاجة الى قدور معدنية كبرى وقدور معدنية صغرى . كما مست الحاجة ، لمعالجة العظلم ، الى مضخة ماء ، وقدور معدنية للانضاج ، وعجلات ذات لوحات تحركها البغال لمزج المعجون ، واحواض للتصفيق ، واحواض للتجفيف . فلم يتمكن من تأمين الاموال اللازمة لكل ذلك سوى كبار الملاكين .

اعتمد نائب الملك « مندوزا » وخلفه « فيلاسكو القديم » (١٥٥٠ — ١٥٦٣) النظريات الدومينيكية وحاولا حماية الهنود وممتلكاتهم . فعين حماة للهنود في الولايات منذ السنة ١٥٤٢ . وانشئت في مجلس مكسيكو محكمة للشؤون البلدية منذ السنة ١٥٧٤. الا ان الهنود بقوا احراراً في بيع ممتلكاتهم . فباعوا الكثير منها في اواخر القرن السادس عشر ، مع انهم كانوا مسؤولين عن الجزية المفروضة على جماعاتهم. ثم انتشرت الاوبئة ما بين السنة ١٥٧٦ والسنة ١٥٧٩ وقضت على نصف السكان الهنود . ولكن مقدار الجزية لم يتبدل . فاضطر زعماء الهنود للبيع لاجل دفع الجزية . بيد ان بعضهم إحتفظوا باملاك واسعة جداً .

لم تستثمر الجماعات الهندية سوى مساحات صغرى من اراضي المكسيك . فاتيح للاسبانيين من ثم الاستيطان وتملك اراض شاسعة دون التعرض مباشرة للجماعات . ولكن الاراضي الخصيبة في منطقة « اناهواك » مالبثت ان امتدت واحاطت تدريجياً بالقرى الهندية . فاغتصب الاسبانيون الاراضي ، وانتهى الهنود احيانا الى الفاقة . وحدث في اماكن اخرى ان خرّبت قطعان الاسبانيين المزروعات الهندية . انما يبدو بصورة عامة ان اراضي الجماعات كادت تكون كاملة سليمة في اواخر القرن السادس عشر . ففي اواسط القرن السابع عشر ، وامام ابواب مكسيكو بالذات ، ما زالت بعض الجماعات الهندية تمتلك اراضي غنية جداً . وحين اجاز قانون السنة ١٨٥٦ بيع الاملاك العامة ، كان حجم المبيعات كبيراً جداً ، مما يثبت ان الجماعات الهندية احتفظت بمساحات كبرى حتى القرن التاسع عشر .

المركزية والعمل التبشيري
الرعاية الملكية

وجدت المركزية عونا لها في العمل التبشيري . توغل المرسلون في البلاد وراء المستعمرين من اصحاب المناجم والمشاريع الزراعية . التمسوا ايد الملك وغدوا بالمقابلة عونا قويا للسلطة الملكية . نظر ملوك اسبانيا الى التبشير كما الى واجبهم الاول . ومنذ السنة ١٥٠٨ خط الملوك الكاثوليكيون بحق رعاية كنيسة الهند كما مارسوه في اسبانيا : يقترح الملوك احداث الاسقفيات والخورنيات وينفذ البابا مقترحاتهم ، ويقدم الملوك للبابا مرشحيهم للاسقفيات ورئاسة الاديرة ، وللاساقفة مرشحيهم للمناصب الكنسية الاخرى . منذ السنة ١٥١٢ – ١٥١٣ انشئت ثلاث اسقفيات في الجزر . وفي السنة ١٥٢٨ احدثت اسقفية مكسيكو مع ٢٣ اسقفية اخرى . وفي السنة ١٥٤٦ جعلت كل من ليما ومكسكو مركزاً لرئيس اساقفة . وفي السنة ١٥٥٥ انعقد اول مجمع اقليمي في مكسيكو ، كما انعقد في السنة ١٥٦٧ اول مجمع اقليمي في البيرو . وتأسست جامعات في مكسيكو ، وليما ، و « سانتا – فيه » وكوردوبا وشاركاس .

فوض شارل الخامس شؤون كنيسة المكسيك الى جمعيات الرهبان المتسولين لانه لم يطمئن الى الكهنة العلمانيين . وفي ٩ ايار من السنة ١٥٢٢ ، وجه البابا اوربانوس السادس رقيماً الى شارل الخامس حوّل بموجبه سلطته الرسولية للرهبان لهداية الهنود في كل مكان يبعد اكثر من مسيرة يومين عن الاساقفة . وكان اسقف مكسيكو الاول فرنسيسياً هو الاخ « خوان دي زوماراغا » (١٥٢٨ – ١٥٤٨) . وسيم بعد ذلك اساقفة من بين الكهنة العلمانيين ، ولكن المسافات وتأثير الرهبان على البلديين شلت سلطتهم .

الاديرة

قامت الاديرة في كل مكان ، متقاربة في المناطق المكتظة بالسكان الغربيين ومتعاقبة على جوانب طرق المواصلات في المناطق الاخرى . في السنة ١٥٥٩ ، كان للفرنسيسيين ٨٠ ديرا و ٣٨٠ راهبا، وللدومينيكيين ٤٠ ديرا و ٢١٠ رهبان، وللاوغسطيليين ٤٠ ديراً و ٢١٢ راهباً . احتلت الاديرة مواقع ستراتيجية ، على مرتفعات داخل القرى او في

جوارها ، وقامت في اغلب الاحيان على انقاض معابد بلدية قديمة . وصممت بشكل كتلة شرفاء تتألف من دور واحد فتحت نوافذه في اعلى الجدران وتدعمها من الخارج ركائز كبيرة مربعة الشكل وتقوم امامها مصطبة المدفعية وفناء واسع يحيط به سور اشرف . وشكلت حصوناً لضبط الهنود في نطاق الطاعة وملاجىء للسكان الاوروبيين في حال اندلاع الثورات . وغالباً ما كانت الاديرة ضخمة وكنائسها زاهية فاخرة لان الهنود كانوا شديدي التأثر بالابهة والفخامة وشديدي الولع برؤية ديرجيل بفعل غطرستهم المحلية . ولكن اديرة كثيرة كانت ابنية عادية .

تجنب المرسلون جهد المستطاع ، خشية من الهرطقة ، الاستفادة من التشابـــه بين الديانات البلدية والديانات المسيحية ، وذلك على الرغم من نظريات الفرنسيسي « برناردو دي ساحاغون » وبحثه المستفيض حول البلديين . ولكنهم استفادوا من عادات الهنود ونزعاتهم . فقــد استمر الشيوخ كما في السابق في مرافقة تلامذة الصفوف الابتدائيــة الى المدرسة ، ولكن لتعلم مبادىء الدين المسيحي . وكما في السابق ، تلقى ابناء الارستوقراطية الهندية دروساً خاصــة ، ولكنهم كانوا داخليين في الاديرة . واشبع ميل الجماهير الهندية الى الموسيقى والرقص والتمثيل وعظمة الاحتفالات .

حاول المرسلون ، بالاتفاق مع نواب الملك ، اعادة تجميع الهنود الذين ارغموا على الانتزاح عن قراهم وتحسين سكنى الجماعات التي لم تغادر قراها .فأحدثت «قرى التجميع»التي أطلق عليها اسم « المعادات » منذ السنة ١٥٩٥ . تبنى المرسلون آراء رئيس أساقفة مكسيكو « زوماراغا» واعتقدوا بأن الهنود لن يلبثوا أن يتخلقوا بالاخلاق القشتيلية اذا ما عاشواعلىالطريقة الاسبانية في قرى مماثلة لقرى إسبانيا . وفي سبيل هذه الغاية ، تعاقبت الاوامر الملكية بـين السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٧٠ .وأفاد الرهبان مما له طابع جماعي في النظم البلدية الاسبانية بغية تسهيل الانتقال من نظم الازتيك الجماعية . فبنوا من ثم قرى ضمت ساحة عامة وكنيسة وداراً بلدية ومستشفى وسجناً ، وشيدوا حول هذه الابنية احياء هندية ، على غرار الكلبولي القديمة ، اشتملت منازلها على أكثر من غرفة . وأحدث المرسلون بلديات هندية وانشأوا صناديق قروية . وكان عـــلى الهنود ان يديروا شؤونهم بأنفسهم . فوفق بين الملكية الجماعيــة والملكية الفردية . امتلك كل هندي بيتاً وأرضاً . وأعطي رؤساء العائلات أراضي أخرى يستثمرونها مدى الحياة على أن يزرعوها ولا يبيعوها . واستثمرت بعض الاراضي المشاعية بجهود مشتركة لتغطيـة النفقات البلدية.واستزرع الرهبان أشجار التوت لتربية دودة القز وأشجار الصبار ذات الدودة القرمزية والاشجار المثمرة . وبنيت الاقنية والجزات والاعين واعتمد أكثر فأكثر على الري . وتسلمت البلديات الهندية مراعي ممتنعة البيـع لتربية الضأن والماعز وقضى الرهبان بـين الناس واعتنوا بالارامل والايتام . وتوجب على المسافرين الاسبانيين ان يغادروا القرى في اليوم الثالث كحد أقصى . ولم يحق لاي اوروبي او زنجي او خلاسي ان يستقر في القرية .ولكن الهنود لم يتجمعوا تجمعاً كافياً . وكان عدد الرهبان ضئيلاً جداً لا يتجاوز الاثنين مقابل ١٠٠٠٠٠ هندي أحياناً.

وغالباً ما سعى الهنود وراء العيش في العزلة والانفراد، بدافع من روحهم الاستقلالية حيناً، وعجزهم عن تعود حياة جديدة حيناً آخر، ورغبتهم في الاستسلام لرذائلهم في أكثر الاحيان.

التربية الدينية

استخدم المرسلون، في تعليم البلديين العاجزين تقريباً عن التجديد العقلي، طرائق معدة للتأثير في الحواس وربط الافكار بالجسم كله والحس كله. كانت الأبجدية صعبة الادراك بالنسبة للهنود، وكان من شأن استخدامها ان يستتبع ثورة فكرية. فوجب من ثم ربط تمثيل الاحرف بتمثيل الاشياء التي كانت في متناول يد التلميذ: فمثلت A بالبركار و B بالقيثارة و C بنعل الفرس، الخ. وأعطى المرسلون المثل في تفانيهم الكلي في سبيل القريب لارساخ تعليمهم في العقول. ورفضوا أبداً استيفاء العشر من الهنود. وارتدوا الحنيف أو نسيجاً صوفياً خشناً، وتنقلوا حفاة، وافترشوا الألواح الخشبية، وتغذوا بالجذور وامتنعوا عن اللحوم والخبز والنبيذ، وتمثلوا بالهنود. واذا ما سئل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين، أجابوا: «لانهم فقراء وحفاة مثلنا، ويأكلون ما نأكل، ويقيمون فيما بيننا ويعيشون فيما بيننا مسالمين». عاشوا معهم وماتوا من أجلهم. وقد بلغ من عناء الرهبان وحرمانهم ان نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً. وحين كان الأخ «انطونيو دي روا» يتكلم عن الجحيم، كان يلقي بنفسه الى النار ويلفت نظر الهنود الى انه اذا لم يستطع تحمل مثل هذا الالم، فماذا سيكون من النار الابدية! وكلما صادف أو نصب صليباً طلب أن يجلد ويسفع ويهان ويبصق في وجهه، لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عن خطايا البشر. فكان يرسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود. واستعان الرهبان بلوحات تشكل تعليماً مسيحياً مصوراً، كما استعانوا بالمسرح وتمثيل الاسرار أو انتصارات المسيحيين على المغاربة. وحملوا الهنود على أن يعيشوا التعليم الروحي بالزامهم على أن يتناوبوا الخدمة أسبوعاً في المستشفى. وحولوا تلاوة فعل الايمان كل صباح ومساء، والصلاة، وترتيل صلاة السحر ركوعاً، الى ممارسات لا تلبث أن تصبح حسية بخدمة القريب. وعامل الرهبان الهنود بحلم ومسامحة واكتفوا منهم بتقدم بطيء.

عوائق التبشير

الا ان عملهم التبشيري قامت في طريقه عقبات كثيرة. فكانت هنالك مقاومات البلديين: قبائل متوحشة تحرق الكنائس والصلبان وتشعل النار في الأديرة وتقتل الاخوة؛ وكهنة وثنيون وسحرة يدعون الى الثورة في السنوات ١٥٤١ و ١٥٤٧، و١٥٥٠؛ وملحدون ينضمون الى الثائرين؛ وفي غير مكان هنود يفرون أمام المرسلين ويختبئون ويستمرون في التسرر والملاوطة. وغالبا ما اصطدم الرهبان بالمقاومة السلبية: فقد تظاهر الهنود بالاهتداء ومارسوا عبادة الاوثان سراً في الليل. وروى لهم كهنتهم ان الرهبان أموات وملابسهم أكفان، يختفون ليلا للالتحاق بنسائهم في الجحيم ولا يتركون على الأرض سوى عظامهم وثيابهم. أما مصدر هذه الاوهام فهو عدم ادراك الهنود لمعنى الاماتة والبتولية وصلاة السحر. ولكن بعض الرهبان لم يستطيعوا التغلب على التجارب. فان بعض فرنسيسيي المكسيك او البيرو

قد جمعوا الثروات وخلعوا الثوب الرهباني وعادوا إلى إسبانيا ليعيشوا فيها حياة يسار. حوالي السنة ١٥٦٢ شوهد الاخ « أنطونيو دي سان – ايزيدورو » ، رئيس دير مكسيكو ، يساكن سرية ويرزق منها ابنة ، ويبرهن عن مهارة كلية في أعمال تجارية مثمرة. ودفعت روح التضامن بالجمعيات الرهبانية إلى التشاجر والتخاصم ورفض طاعة الاساقفة. وحدث أحيانا ان جمع الرهبان هنودهم وسلحوهم وحملوهم على سلب ونهب وإحراق كنائس جمعية اخرى وطرد الزائرين الاسقفيين براشقتهم بالحجارة. وبديهي ان مثل هذه الزلات تصدر عن الكهنة قد أبعدت الهنود عن المسيح.

وأخيراً ، غالباً ما قاوم العلمانيون رجال الدين. ففي سبيل تشغيل الهنود ، حتى أيام الآحاد والأعياد ، أقدم بعض الملاكين على تشجيع ممارسة عبادة الاوثان والاشتراك في الاحتفالات الوثنية ومهاجمة المرسلين وطردهم.

حماية الهنود

ولا عجب في هذا السلوك يسلكه الملاكون لأن المرسلين قد حموا الهنود وحاربوا أعمال التسخير لأنها تتنافى والحق الطبيعي. وبلجاجتهم استحصلوا من شارل الخامس على قوانين السنة ١٥٤٢ الشهيرة: « تحظير « استعباد » الهنود ؛ تحظير منح امتيازات جديدة ؛ ابطال وراثية الامتيازات الممنوحة. فكادت تحدث حركة انفصالية في المكسيك ؛ واندلعت ثورة في البيرو ؛ لان المستعمرين افتقروا إلى اليد العاملة ، والهنود الاحرار أنفوا من العمل المأجور. فاضطر الملك إلى الرجوع عن هذه القوانين منذ السنة ١٥٤٥. ولكن التاج استعاد شيئاً فشيئاً امتيازات كثيرة من الاحبار وكبار الموظفين ؛ وفي السنة ١٥٤٩ فصلت أعمال التسخير عن الامتياز الذي آل إلى مجرد دخل ؛ ووزعت أعمال التسخير منذ ذاك التاريخ على المشاريع التي اعتبرت مفيدة ، أي على مشاريع زراعة الحنطة في الدرجة الاولى. ثم أخذت هذه التوزيعات تتلاشى عدداً وتواتراً الى أن الغيت نهائياً في السنة ١٦٣٣. وانما فرض على المتعطلين القيام بما يطلب منهم من أعمال مأجورة. وبينما كان لا يزال هنالك ٤٨٠ صاحب امتياز في المكسيك في السنة ١٥٦٠ ، هبط هذا العدد إلى ١٤٠ فقط في السنة ١٦٠٢.

وهن السلطة المركزية زمن اللامركزية

لم تكن المركزية قوية في يوم من الأيام. فالضباط الملكيون لم يلبثوا أن أصبحوا من بين كبار الملاكين ، لأن مرتب الموظف في بلاد تفتقر إلى رؤوس الأموال يعطي امكانات كبرى. فان « تيخادا » ، المجاز في الحقوق ، وعضو مجلس مكسيكو ، وصل في السنة ١٧٣٧ ، وبنى بيتاً في مكسيكو للتأجير واستحصل على أراض ، ورواها ، وجنى منها ١٠٠٠٠ مد من الحنطة ، وزرع التوت والكرمة والخضار ، واقتنى قطعان المواشي ، وخفض سعر الفواكه في أسواق مكسيكو. وغدا من ثم قوة حقيقية. أضف إلى ذلك أن نظام التبعيات والأنساب قد زاد من قوة واستقلال الضباط والملاكين. فانقضاة مجلس الحدود على مقربة من غواتمالا كانوا كلهم في السنة ١٥٦٢ أصحاب

أحماء أو أصهرة أو أختان الضباط المحليين وأصحاب الامتيازات وأصحاب المشاجر والمغارس .

أفسحت المركزية المكان ، منذ السنة ١٥٧٣ ، للامركزية تدريجية . أما السبب الأول في ذلك فافتقار الملكية الاسبانيـــة إلى الأموال : فمال الملك طبعاً إلى تحويل نفقات الاستعمار إلى عاتق الأعيان بتخليه لهم مقابل ذلك عن بعض سلطته . منـــذ السنـة ١٥٧١ ، حق لكل من يؤسس مدينة جديدة ضد البدو ان يحتفظ بحصون وراثية ويمتلك ربع الأراضي ويستعبد أسرى الحرب ويحصل على امتيازات . ومنذ السنة ١٥٩١ انتقلت الأمـلاك والمراعي العامة ، وأملاك الجمعيات الرهبانية ، التي لم يسمح بها نظريا ، إلى الأعيان مقابـــل « تسوية » مالية . فحل محل الحقوق المرفية القديمـــة تملك حقيقي للارض . وزاد من اتساع الاملاك اقدام الأعيان على اغتصاب حقول الجماعات الهندية وفوزهم بموافقة المسؤولين عـــلى اغتصابهم . وبلغت الحركة ذروتها ما بين السنة ١٦٤٢ والسنة ١٦٤٨ . وتصرف الملاكون في هذه الاملاك الكبرى تصرف الاسياد وادعوا لانفسهم بعدة حقوق ملكية . أما الملك ، الذي لا مال لديه والذي لم يوفد بعد ذلك سوى نواب الملك من أسبانيا ، فقد تغاضى عمـــا جرى مكتفياً بتأمين النظام والدفاع .

اقتصـــاد الاملاك العـــامة

اتجه الاقتصاد المكسيكي في الوقت نفسه الى الاقتراب مـن اقتصاد أملاك كبرى ، اقتصاد الاملاك العامة. سبق مثل هذا الاتجاه، في القرن السادس عشر ، اتجاه ملاكي المناجم الى انشاء أملاك كبرى تكتفي نفسها بنفسها. الا ان الانتاج والنقد المتداول قد تدنيا منذ السنة ١٦٠٠ ، فأدى تدنيهما بعـد السنة ١٦٣٠ إلى كارثة حقيقية نرجح ان احـد أسبابها ارتفاع سعر الزئبق الذي يحتكره الملك . وانخفضت في الوقت نفسه ، بفعل « التسويات » ، نسبة النقد المتداول . فتدنت الاسعار ، لان المال « عصب » الاقتصاد المكسيكي ، وانتقصت التيارات التجاريـة ، وانخفض الانتـــاج ، وانعزلت المناطق .

لم يُعض عن ذلك دور الوسيط الذي لعبته المكسيك بين الصين واوروبا في انتقـال حرير الصين الى اوروبا عن طرق ماكاوو ومانيلا واكابولكو ومكسيكو وفيراكروز واشبيليـة بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٤٢ . لا بل ان حرير الصين قد افقر منتجي الحرير المكسيكيـــين واسهم في انكماش مناطق انتاج الحرير على نفسها .

زد على ذلك ان تقييد الحكومة للعلائق بين المستعمرات ، وانخفاض حجم تصدير الاقمشة الصوفية من المكسيك الى البيرو ، وحرب القرصنة بين الفرنسيين والانكليز والهولنديـــن ، والقضاء في السنة ١٦٢٨ على اسطول كامل للمرة الاولى في التاريخ ، ورفع رسم الضمان الالزامي لتغطية نفقات « الاساطيل » او قوافل السفن الى اوروبا ، واقدام حكومة في حالة اليأس على رفع الرسوم والضرائب ، واحتكار تجار اشبيلية ، قد انقصت تدريجياً التصـــديرات وحول

الاساطيل الى اوروبا . فمنذ السنة ١٥٧٠ ، توقف نمو قطعان المواشي ، واستنزفت ارض المراعي وتدنت نوعية العشب ، وما عادت الابقار لتضع حملها الا كل ثلاث او اربع سنوات . فانحط نوع المواشي . وتوجب العدول عن زراعة التخصص لان الحاجة مست لان تنتج الارض من كل شيء . لهذه الاسباب جميعها تدنت التجارة الداخلية وتوزعت المكسيك الى املاك كبرى تسد كل الحاجات ، تتوفر فيها المزروعات والقطعان والمصانع والآلات ، ويتولى « السيد » فيها النظام وتوزيع العدل والامن العام الداخلي والحرب ضد البدو .

صلاحيات « السيد » وتقنت العالم الجديد على طريقة القرون الوسطى

للسيد عبيده الزنوج او الهنود الذين يحملون في وجوههم سمة « المركيز دل فالسيه » او « الدونا ايزابيل دي فيلينيفا » . يمارس عملياً سلطة لا حدود لها على العمال الهنود الذين اطلق عليهم اسم « المشاة » الازدرائي . العمال احرار مبدئياً ، ولكن الملاكين لم يعدموا وسيلة استدراك زوال اعمال التسخير التدريجي . يرغمون الهنود على تسلم قرض : مال ، او بالتفضيل ، ملابس ، او جوارب ، او احذية ، وكلها فتنة لهؤلاء المساكين الذين يرون انفسهم مرتدين ملابس مماثلة لملابس اسيادهم . فيرتبطون من ثم بالارض ، واذا ما باع السيد الارض فانه يبيع الهنود معها . وقد ارغم اغتصاب اراضي الجماعات عدداً متزايداً من الهنود المحرومين وسائل العيش على العمل في ملك مجاور حيث لا يلبثون ان يصبحوا فداديين بسبب ديونهم . السيد يقضي بين عبيده ، ولديه سجن واصفاد وغلول يتعرض لها « مشاته » ايضاً . وغالباً ما يتمتع بحصانة حقيقية ، اذ انه يستحصل من نائب الملك على امر بمنع الضباط العدليين من دخول املاكه . والسيد في الوقت نفسه « ضابط » او « قائد » الجيوش الملكية . وهو يقود من جهة ثانية جيشه الخاص الذي يجنده من بين « مشاته » ويعين ضباطه من بين « مماليه » ، بموجب اجازة ملكية يحصل عليها لقاء تعهد بخدمة الملك على نفقته الخاصة . وهو في الوقت نفسه قاض ايضاً في المدينة وفي الولاية . وغالباً ما تكون هذه الوظيفة الملكية او البلدية ملكه الخاص لان ملوك اسبانيا قد شملوا العالم الجديد ايضاً بنظام بيع الوظائف . وغالباً ما تؤلف املاكه عقار شرف ممتنع البيع والتجزئة فيمنحه الملك لقب « كونت » او « مركيز » . لا بل ان الملك قد باع هذه الالقاب بيعاً في اواخر القرن السابع عشر . وينشىء السيد كنيسة لمستخدمي املاكه ، وديراً ، ومدرسة ، ويضع فيها رسومه واشعرته الشرفية ويمارس فيها حق التسمية لرواتب دينية ، فيعين خوري الرعية ورئيس الدير اللذين غالباً ما يكونان من انسبائه او « مماليه » . وتربط السيد روابط تبعية ونسب بالاسياد المجاورين ، وهم ارستوقراطيون يحملون ألقاباً شريفة وضباط مدنيون وعسكريون واسياد يتمتعون بالحصانة ويتولون السلطة العامة المحلية ، وغالباً ما يكون حليف كبار موظفي المجالس في ليما ومكسيكو .

تشتمل « السيادة » على قرية حقيقية او ضيعة تتألف من مساكن « المشاة » . مركز

« السيادة » ساحة عامة كبرى مربعة الشكل . يقوم على احد جوانبها مسكن السيد ، وهو بناء حجري كبير يتميز باسوار ضخمة شرقاء وبأبراج لمقاومة قطاع الطرق والثوار البلديين . يشتمل على فناء كبير ذي احجبة يدخل منه الى القاعات والغرف التي يسكنها السيد وترى فيها الاسرة ذات المظال وصناديق الملابس والجوهرات والآنية والصحون من قطعة واحدة والسنور في الجدران ، وعلى فناء ثان تحيط به الاصطبلات لخيول هؤلاء الفرسان الذين يسلخون معظم حياتهم على ظهور الجياد ، وللوازم من سروج خشبية وجلدية ثقيلة تزدان بالفضة ، وجلول فاخرة ، وملابس جلدية ، ومهاميز كبرى . وغدت الاديرة مراكز سيادات ايضا ، وغالبا ما مارس رؤساؤها عمليا كافة سلطات السيد. اما اكليروس السيادات العلمانية ، وهو خليقة السيد ، فكان يتحول تدريجيا الى اكليروس ارستوقراطي .وعنصري .

والجزث الفدادية تفكيك القبائل وتقويضها . فقد عاش معاً في الاملاك الكبرى فداديون مدينون انتسبوا الى شتى القبائل ، تصاهروا وصاهروا الاسبانيين ، وتعلموا اللغة الاسبانية او حشوا لهجاتهم بالتعابير الاسبانية ، ونقلوا عن الاسبانيين كثيراً من عاداتهم، والفوا من ثم ، بالانصهار ، فئات اجتماعية جديدة ستتألف منها الامة المكسيكية .

فيتضح من ثم ، خلافا لما ذكرنا عن شعوب الحضارة النيوليتية ، ان هنود العصر النحاسي ، المزارعين المتحضرين ، قد تيسر تمثيلهم ، بل ضمهم الى الحضارة الاوروبية اما بشكل فئات ، الجماعات والقرى الهندية ، المتميزة عن الاوروبيين مع اشتراكها في النظام الاوروبي ، واما بشكل طبقة دنيا من العمال ، المشاة . ففي الواقع استطاع المزارعون المتحضرون ، الـ « اوتومي » ، و الـ « مكسيكا » ، والـ « تلاكسكالتيك » ، الخ ،الاندماج في النظام الاقتصادي الاوروبي ، لانهم استطاعوا التحول الى موان مواد غذائية يحتاج اليها الاوروبيون في حياتهم اليومية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المزارعين المتحضرين قد استطاعوا تعود العمل في المزارع والمناجم بفضل تعودهم عمل الفلاحين المنتظم الثابت . فهم هنود الحضارة النيوليتية من المنام عمل المناجم . في حال ان الـ « اوتومي » الذين لم يمارسوا عملاً زراعيا دائما قد تمكنوا من الصمود . ولكن التلاكسكالتيك ، الفلاحين الحقيقيين ، قد تحملوا عمل المناجم وبرهنوا عن انهم عمال اكفاء . وهم ايضا من انتقلوا مع بعض هنود منطقة مكسيكو الى مزارع الشمال والفوا اكثرية « المشاة » .

وتحمل هؤلاء الهنود كذلك التجمع في قرى اسبانية ، لانهم عرفوا في القرى الهندية ، قبل الفتح ، حياة شبيهة بحياة الاسبانيين من حيث قوة التنظيم العائلي والبلدي والحضارة الزراعية المبنية على الزراعة وتربية المواشي ، وان كانت الزراعة ابعد تقدماً عند الاسبانيين .

يضاف الى ذلك ان هؤلاء الهنود قد بلغوا عقليا مرحلة نسبة الحياة للاجرام السماوية . وتوصلوا الى طريقة عدّية ، وعرفوا الحساب واستخدموه حتى في حياتهم العادية اذ انهم كانوا

يحصون خطاياهم حين يتقدمون من سر الاعتراف ، في حال ان التعداد كان عملية لا تطاق في نظر هنود الحضارة النيوليثية . وقامت بين ديانتهم والديانة المسيحية بعض نقاط التشابه . فقد توصلوا الى مثل اله اسمي . واعتقدوا بان هويتزيلوبوشلي ولد من عذراء . ومارسوا معمودية تطرد « الشيء المؤذي » ؛ واعترفوا بخطاياهم وآمنوا بالحياة ؛ وتناولوا بأكلهم قلب الضحية الذي مثلوه بذات الله ؛ وآمنوا بخلود النفس وبالفردوس وجهنم والطوفان ، وتوصلوا الى فكرة ذبيحة الآلهة . لا ريب في ان العقيدتين اختلفتا كل الاختلاف من حيث الجوهر ولكن اوجه التشابه السطحية هذه قد سهلت التعامل ومهدت سبل التحول .

وعرفت هذه الشعوب واجب الطاعة لملك اعلى بواسطة الموظفين . وتعودت الخضوع لارستوقراطية سيدية . لا بل لم تجهل التجارة الكبرى . ولم تكن الدولة المنظمة شيئاً جديداً كل الجدة بالنسبة لها .

فليس من الصعب ، والحالة هذه ، ان ندرك كيف ان هذه الشعوب استطاعت ، بفضل التخليط ، وبعد تكيف استغرق ثلاثة قرون وكلف الكثير من الضحايا ، ان تؤلف الشعب المكسيكي والامة المكسيكية .

٤ – الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الشبه

كانت مقاومة الـ « انكا » اطول ديمومة من مقاومة الازتيك . ففي ولاية « فيلكا بميا » لم تتم التهدئة الا في السنة ١٥٧٢ . وقد استمر حتى هذا التاريخ نظام الانكا السياسي في هذه الولاية ، ولكن بواسطة الاسلحة الاوروبية والخيول التي حصلوا عليها بالغزو او بمقايضة التبغ والكوكة والمعادن الثمينة . بيد ان الانكا المقاومين قد تسامحوا في دخول المرسلين الى مناطقهم لانهم لم يقاوموا الديانة بل نظام الاسبانيين السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

قضى الاسبانيون على سيطرة الانكا وحلوا محلهم طبقة حاكمة . الا انهم احتفظوا لمصلحتهم بالايلو والكوراكا والاياناكونا . وحصل الاسبانيون في كل مكان على الامتياز . ولكن صاحب الامتياز ، قد اصبح عملياً ، على الرغم من القوانين ، سيداً اغتصب السلطات العامة الرئيسية : القضاء ، جباية الضرائب ، نشر الايمان . فصاحب الامتياز يعين كاهن رعية يصبح عملياً رئيس خدامه وداعيته وقاضيه في الشؤون المدنية ؛ الامتناع عن دفع الجزية لصاحب الامتياز والتقاعس عن التفاني في خدمته يصبحان خطيئتين ضد الله . ويعين صاحب الامتياز « كوراكا » لامتيازه وآخرين لكل « ايلو » يسند اليهم ادارة العمل وجباية الجزية . ولكن الكوراكا الذين لا رقابة عليهم والذين يدفعون الجزية كغيرهم ولا يتقاضون اجراً ، ينصبون انفسهم طبقة في خدمة الفاتح ويستغلون اخوتهم في العرق ، المهزومين . يمتلك الكوراكا مساكن جميلة ومزارع وقطعانا ويرتدون الحرير ويحتسون النبيذ الاسباني ويمتطون الجياد .

ويحيطون انفسهم بوسين زنوج او خلاسيين اشد حزماً واسبق مبادرة واعظم وفاءً ، بحيث اصبح عدد الموظفين ، لمئة هندي ، يوازي عددهم لالف هندي قبل الفتح .

كان هنالك ، في السنة ١٥٩١ ، ٧٧٥ امتيازاً و ٨٠ « كورجيمينتو » . والكورجيمينتو هو امتياز ملكي يشرف عليه قاض يعينه الملك . ولكن الملكية الاسبانيـــة لم تعرف قط كيف تكافىء موظفيها مكافأة لائقـــة . لذلك فان القاضي نفسه ، « كورجيدور » ، يجمع الثروات باغتصاب اموال الهنود ويحيط نفسه بجيش من المستخدمين الزنوج والخلاسيين .

وهكـــذا استمرت سلطة امبراطور الانكا المطلقة موزعة على مئات الاشخـــاص الذين مارسوها كاملة ، ولكن على فئات محدودة .

الاياناكونا هم بعد الفتح هنود هجروا الـ « ايلو » ، ليعيشوا بين الاسبانيين خداماً وصناعيين . يعتبرون اعضاء في الجماعة المسيحية ويعفون من الجزية والـ « ميتا » . يحق لهم اقتنـاء الممتلكات الخاصة وممارسة الصناعة اليدوية او التجارة بحرية . وهم يشكلون في الواقع طبقـــة كادحة في خدمة الاسبانيين . وقد احاط هؤلاء انفسهم بالعديد من الاياناكونا رغبة منهم في اثبات نفوذهم . وحين اثار « مانكو انكا » الـ « كيشوا » على الاسبانيين في السنة ١٥٣٦ والسنـة ١٥٣٧ ، لم ينج هؤلاء الا بفضل مساعدة الاياناكونا . الا ان نائب الملك في « طليطـلة » اوقف تفكك الـ « ايلو » في السنة ١٥٧١ . فحظر احداث « اياناكونا » جدد ، وارغم كافـــة المشردين على الالتحاق باسياد . وامر بان لا يترك احد عمله او يسرّح منه الا باذن رسمي . فبات الاياناكونا من ثم اشبه بالفداديين المنزليين .

الـ « هاتونرونا » هم اعضاء الايلو . يلزمون بدفع الجزية لا لتأمين اقتصاد تغذية في مجتمع قائم على تعاون متسلسل فحسب ، بل لتوفير مواد التصدير الى اوروبا ايضاً التي يجب ان تؤمن اثمان المستوردات الاوروبية وتوفر كسباً في اقتصاد تنافس ورأسماليـة تجارية . فاضطروا من ثم الى تبديل انتاجهم . لم يتغير غذاؤهم قط : ذرة صفراء ، بطاطا ، لحوم جمل اميركا المجففة . وانمـا اضافوا الى ذلك السكر والاجبان والـ « شركي » او لحوم العجول المجففة . ولكنهم اعتمـــدوا زراعة النباتات الاوروبية ، لا سيا لتقديم مايتوجب عليهم . فزرعوا قصب السكر في المناطق التي لا تعلو ٢٣٠٠ متر . وربوا المواشي في المناطق التي تعلو ٤٠٠٠ متر . وفي المناطق الواقعـة بين هذين الارتفاعين ، زرعوا الحنطة والشعير والبطاطا . غير انهم فشلوا نسبيا في زراعة الخضـار والكرمة التي لم تناسب عاداتهم الجماعية . تعودوا تربية المواشي : الثور الذي استخدمـوه لنقل الاحمال ووفر لهم اللحم والشحم والجلد ، والضأن والماعز ، في كل مكان ؛ والخنازير والدجـاج والبيض لتلبية طلبات الاسبانيين . بيد ان قطعان اصحـــاب الامتيازات ، وقد تراوحت بين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ رأس ، قد حالت احياناً دون تربية الهنود للمواشي ، واتلفت المزروعـات واكرهت الهنود على الاحتماء في المناطق الجبلية الصخرية .

توجب على الهاتوترونا تأدية الـ « ميتا » . ففي اواخر القرن السادس عشر كان هنالك في الولايات السبعة عشر المحيطة بمناجم « بوتوسي » ٨٠٠٠٠ مكلف تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة . كان سبع هذا العدد يقضي ١٨ اسبوعاً في المناجم كل سنة . ولكن عدد السكان تدنى ، واستخدم الكوراكا عمالاً مأجورين من بين الاياناكونا زاد عددهم على ٤٠٠٠٠ في بوتوسي ، في السنة ١٦٠١ . وكان الهنود الـ « ميتايو » (ميتا) يأتون الى بوتوسي مع عائلاتهم ويصطحب كل منهم ثمانية او عشرة جمال على الاقل. اما الاغنياء فكانوا ينتقلون مصطحبين ٤٠ جملا يحملونها الذرة الصفراء والبطاطا ويعتبرونها لحوماً احتياطية . وبالاضافة الى الخدمة في المناجم ، كان الميتايو يقومون طيلة شهرين بالخدمة المنزلية في بوتوسي . ولم يعد الكثيرون منهم الى مناطقهم ، فيبقى بعضهم في بوتوسي كاياناكونا ويهرب غيرهم شرقاً باتجاه الاحراج والاودية الجبلية.

واتخذت الميتا ايضاً شكل عمل في مصانع الجماعات الهندية للاسهام في الجزية المتوجبة . انتجت هذه المصانع المنسوجات في الدرجة الاولى ، ولكنها انتجت كذلك الخزفيات والزجاجيات والفضيات والمصنوعات الخشبية . ولذلك ادعى الحكام ، « كورجيدور » ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، باحتكار التجارة مع الهنود . فارغموهم على شراء كافة المصنوعات التي لا يحتاج اليها اوروبيو اوروبا . وترتبت من ثم على الهنود ديون وفوائد جعلتهم فداديين مدينين حقيقيين .

شكا الهنود من المساعي التي بذلها الاسبانيون بغية ارغامهم على التسليم بالملكية الخاصة الفردية والمطلقة . وابدوا مقاومة سلبية في وجه المحاولات الرامية الى الزامهم بوضع وصية خطية لمصلحة وريث وحيد ، اذ ان الارث في عرفهم يبقى شائعاً بين كافة الورثة ويديره ممثل الايلو. ولم يستطيعوا قط تعود العمل الجاف على الطريقة الاوروبية الذي لا يستهدف سوى الانتاج فقط ، اذ ان العمل في نظر الانكا كان طقساً دينياً . وتألم الهاتونرونا في شعورهم . ويبدو ان عددهم قد تدنى تدنياً ملحوظاً ربما بلغت نسبته ٥٠ ٪ ما بين السنة ١٥٦١ والسنة ١٦٥٤ . ولكن قد يرد ذلك الى انتقالهم نحو الشرق ، نحو الاحراج والاودية المنخفضة ، والولايات القائمة الى الغرب من بوينوس ايرس ، بعيداً عن الاسبانيين .

كان موقف الهنود من التبشير موقفاً اشد تصلباً من موقف هنود المكسيك . استؤصلت شأفة الديانة الهندية كما استؤصلت شأفة المجتمع الهندي . لم يبق ذكر الكائن الاسمى والآلهة العظماء . ولكن بقي الـ « هواكا » اي الارواح المقيمة في الاشياء . فهواكا هي الشمس والجبال والآكام والجداول والبحيرات والمناجم ومدينة بوتوسي والجثث المحنطة . اما المصنوعات الاوروبية من زجاج وحرير وشمع فقد اصبحت تعاويذ وطلاسم . ومزج بعض السحرة بين مفاهيم المسيحية والانكا : فبات يسوع والشيطان اخوين توأمين ، كما بات القديسون المسيحيون « هواكا » تدير العالم الطبيعي .

لم يصبح عدد الكهنة كافياً للقيام بجهود تبشيرمنتظمة الا منذ اوائل القرن السابع عشر فقط . حاربوا الخطايا الرئيسية ، الملاوطة ، والبهيمية ، والسكر ، وزواج الاختبار ، وعبادة الهواكا . وأوعزوا بالقاء القبض على الكهنة البلديين والسحرة وتدمير بيوت العبادة وتحطيم الاصنام . بين السنة ١٦٠٧ والسنة ١٦١٥ احرق في ساحة ليما العامة اكثر من ٦٠٠ صنم هندي ما زالت موضوع عبادة . وخلال السنتين ١٦١٧ و ١٦١٨ اكتشف ٦٧٩ ساحراً في ولاية « شانكاي » وحدها . حوالي السنة ١٦٧٧ ، كان ايمانهم بطبيعة الهواكا الالهية قد تلاشى نهائياً ، فلم يكونوا من بعد عبدة اصنام بل كاثوليكا غير كاملين لان الثالوث لم يكن في رأيهم طبيعة واحدة في ثلاثة اقانيم بل ثلاثة أقانيم متميزة ، والاب أكبر سنا من الابن ، ولم يميز بعضهم بين الله وملك إسبانيا . وكان الكهنة قد أسسوا « أخويات » أو جمعيات من المؤمنين تخصص مواردها لتمهد المذابح والكنائس وتنظيم التطوافات والاحتفال بالاعياد وتبادل المساعدة في ظروف الوفاة أو المرض . انتخب الهنود أنفسهم رؤساء هذه الاخويات وادارو أنفسهم بأنفسهم ، وأدت هذه الجمعيات خدمة جلى في محافظتها على الطوائف الهندية .

وهكذا نجح هنود حضارة عصر الشبه في البيرو أكثر من هنود حضارة عصر النحاس في المكسيك في الامتزاج بالنظام الاوروبي والاحتفاظ مع ذلك بفرديتهم . واستساغ هنود البيرو تقنيات أوروبية كثيرة لم يستسغها هنود المكسيك . وفضلوا الاوتومي والمكسيكا في الجمع بين الزراعة وتربية المواشي . ويبدو انهم تمكنوا من تلبية طلبات الاوروبيين بمزيد من السهولة . ولكنهم فضلوهم بصورة خاصة في الاحتفاظ بشخصيتهم ، وكان من نجاحهم في هذا المضمار ان الجماعات الهندية والايلو القديمة قد لعبت دوراً رئيسياً في ثورات البيرو ولا تزال حتى اليوم أحد مرتكزات الامة البيروية .

٥ ـ الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الحديد

تعايش اوروبا ـ افريقيا السوداء ـ اميركا

الاوروبيون وافريقيا السوداء

حين عجز الاوروبيون عن تعويد هنود الحضارة النيولتية عمل المناجر والمغارس والمناجم،استوردوا عبيداً زنوجاً الى المناطق الاميركية الحارة. وقد وصلت قوافلهم الاولى الى اسبانيولا منذ السنة ١٥٠١ .

لم يتعرض الاوروبيون تقريباً لافريقيا السوداء الى الجنوب من العالم الاسلامي الذي حصروا همهم في الدوران حوله لبلوغ آسيا . فاكتفوا بأن أقاموا على شواطئها القواعد البحرية ، والاسواق التجارية للذهب والعبيد والعاج ، وقاموا ببعض محاولات التبشير دون ان يتعرفوا جدياً الى حضارة مختلفة معادية . ولعل لامبالاة الاوروبيين بافريقيا ونفور المجتمعات البلدية من الحضارة الاوروبية يفسران عدم التوغل نسبيا في افريقيا اكثر من الاسباب الجغرافية : اتساع

القارة الافريقية ، المرتفعات الدائرية ، الشلالات المتعاقبة على الانهر ، الشمس المحرقة القاتلة ، العواصف الرملية في الصحاري أو كفن الحمى في الرطوبة الاستوائيـــة ، الاحراج الشاسعة ، الحشرات والجراثيم القتالة.

كان البرتغاليون السباقين الى الاقامة على الشواطىء الافريقية . أنشأوا أسواقـــاً وموانىء لتموين السفن في جزر الرأس الاخضر ، وجزر « بيساغوس » ، وشاطىء العبيد ، و « بنين » (١٤٧٢) ، وجزيرة القديس توما . في السنة ١٤٨٢ اكتشف « ديغوكاور » مصب الكونغو وعلم بوجود دولتين كبريين احداهما الى الشمال من النهر ، « لوانغو » ، والثانية الى الجنوب ، « كونغو » ، التي كانت تمتد حتى نهر « كوانغو » ونهر « كوانزا » . استولى ديغـو كاور على البلاد واتصل بالملك « ماني – كونغو » . أرسل هذا الامير الى لشبونة بعض رعـاياه الذين أوعز الملك بتعليمهم ليجعل منهم تراجمة ووسطاء . في السنة ١٤٩١ ، بلغ البرتغاليون العاصمة «مبالي» وكانت قرية كبرى قائمة على هضبة مكشوفة . شيد البرتغاليون فيها كاتدرائية وكنائس وبيوتاً حجرية وأطلقوا على المدينة الجديدة اسم « سان سلفادور » . الا انهم سيضطرون في آخر الفترة التي تعنينا الى الاقامة في « سان – بول دي لواندا » على شاطىء الاطلسي . وبعد اكتشاف « فاسكو دي غاما » ، أعوزتهم الموانىء لتموين السفن على الشاطىء الشرقي ، وانتظار الارياح المؤاتية أو تعاطي التجارة أحياناً . احتلوا « سوفـالا » ، و « كيلِيمانه » ، و « موزامبيك » ، محطتهم الرئيسية ، و « مومباسا » ، وماغادوكسو . وقعوا معاهدات مع الممالك البلدية الكبرى ولا سيما مملكة « مونوموتابا » عند منعطف نهر « زامبيز » . انـزل البرتغاليون الـ « بومبيرو » الخلاسيين وحاولوا انشاء املاك كبرى .

جاء بعدهم الهولنديون والانكليز والفرنسيون . أنشأ الهولنديون اسواقاً في المناطق القائمـة بين شاطىء الذهب وبلاد الكفرة وكادوا يحتكرون في القرن السابـع عشر الذهب والعاج والجلد والصمغ ولا سيما العبيد. اعوزهم ميناء لتموين السفن على طريق امبراطوريتهم في المحيط الهندي. كانت الرحلة من «تكسل» الى « الرأس » تستغرق بين ثلاثة اشهر ونصف وستة أشهر . ولكنها استغرقت وقتاً أطول حين نشبت الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسيين واكرهت القباطنة على مساحلة النروج والدوران حول جزر « شتلند » والمرور بين جزر « فاير – اوير » وجزيرة «اسلندا» للنجاة من القراصنة . وكانت السفن ، حين تصل الى جنوب افريقيا، مستشفيات ملأى بالمرضى المصابين بداء الحفر . لذلك أرسلت شركة الهند الشرقية ، في السنة ١٦٥٢ ، «جوهان فان ريبيك » وكلفته انشاء محطة تستطيع السفن فيها « بلوغ اليابسة بامان والتمون باللحوم والخضار والماء » . في ٦ نيسان من السنة ١٦٥٢ ، دخل فان ريبيك « جون الطاولة » وأسس مدينة « الرأس » . وفي ٢٠ شباط من السنة ١٦٥٧ أقطـــع المستعمرون الاول الاحرار املاكاً واسعة . وفي أواخر القرن السابع عشر بلغ الاستعمار سلسلة الجبـــال الاولى . وأنشأ الانكليز اسواقاً في غينيه والشاطىء الذهبي وبلاد « اشانتي » وبنين . اما الفرنسيون فقـــد استقروا في

السنغال وجزيرة « غوريه » وسان – لويس وفي عدة نقاط من الشاطىء الغيني .

فشل التبشير

لم يهتم الهولنديون لتبشير البلديين . اما البرتغاليون والفرنسيون فكان التبشير شغلهم الشاغل . فبموجب المراسيم البابوية منح البرتغاليون امتياز التبشير ورعاية المؤسسات الدينية ، والخورنيات والابرشيات التي تحدث في المستقبل . طلب بعض الملوك الزنوج مرسلين من ملك البرتغال ، كملك « بنين » في السنة ١٤٨٦ والسنة ١٥١٥ ، وملك «اردر» في السنة ١٤٨٦ . وطلب المرسلين كذلك ، من فيليب الرابع ملك اسبانيا ، «توكسونو» ملك اردر ، في السنة ١٦٥٨ . تحققت بعض النجاحات الجزئية . ففي الكونغو ، تنصر الملك جان في السنة ١٤٩٢ . وأمر حفيده ، الملك الفونس (١٥٠٧ – ١٥٤٠) ، بتحطيم الاصنام وراسل روما ولشبونة بانتظام باللغة البرتغالية واللغة اللاتينية . اما ابنه هنري ، الذي استقبله البابا في السنة ١٥١٣ ، فقد أصبح أسقف سان – سلفادور في السنة ١٥٢٠ وكان اول اسقف اسود . ولكن النجاحات كانت محدودة وصار التبشير في النهاية الى الفشل . اما اسباب هذا الفشل فيجب البحث عنها عند السود من جهة وعند البيض من جهة أخرى .

ان الملوك السود الذين طلبوا المرسلين، لم يطلبوهم في اغلب الاحيان الا بداعي المصلحة العليا. فان ما كانوا يصبون اليه هو تسهيل العلائق التجارية ، وتأمين نجاح المفاوضات للحصول من الاوروبيين على بنادق ومدافع ، واستمالة قوى خفية مجهولة . فهم لم يدركوا الدين المسيحي ولم يروا فيه سوى رقية جديدة وفي الكهنة سوى سحرة مهرة من الافضل ان يكونوا لهم لا عليهم . واذا ما تعمقوا في الدين ، كما فعل توكسونو ملك اردر في السنة ١٦٦٠ ، هالتهم مستلزمات المسيحية ، كواجب الاكتفاء بامرأة واحدة والزهد في كل شيء ما عدا الله . زد على ذلك ان الخوف من استعداء كافة ارواح البلاد والخشية من الخروج من المجتمع الزنجي ، قد قاوما في النفوس الخوف من الموت وامل الحصول على الحياة الابدية بالسير على خطى المسيح .

ولم يحسن البيض ايقاظ محبة يسوع المسيح للتغلب على هذا النفور وهذا الخوف . برهن الاكليروس ، عند البرتغاليين ، عن تصلّب واستبداد . فبادر الى ادخال التفتيش، وزاد من خوف الهنود وكراهيتهم . وكان من شأن النخاسة وحدها ، وهي منبع وحشية وقساوة ورذائل ، ان تحرج موقف البيض وتعرض كل عملهم للخطر . ففي شيخوخته ، لم يخف ملك الكونغو ، الفونس ، في مراسلاته مع لشبونة ، اشمئزازه وخمود همته . وبعد وفاته ، اغتاظ خليفته دييغو من تصرف البيض فطرد اكليروسهم من ولايته . فتخلى اليسوعيون عن عملهم التبشيري مكرهين بعد ان نصروا ٥٠٠٠ زنجي . ولم يبق سوى اسقف وبعض الكهنة البلديين في سان – سلفادور .

نظر الاوروبيون الى أفريقيا السوداء ، في الدرجة الاولى ، نظرتهم الى مخزن عبيد . وقد انتمى العبيد المنقولون الى اميركا ، بصورة خاصة ، الى اربع مجموعات من الشعوب . فقد توزع

الـ « بانتو » ، ولا سيا بانتو « انغولا » ، في كافة انحاء اميركا المزودة بالزنوج . وتكاثر عدد الداهوميين في كافة انحاء البرازيل وغويانا وغوادلوب والمرتينيك وسان - دومنغ . ونقل الـ « فانتي - اشانتي » باعداد كبيرة الى كل مكان ولا سيا الى مناطق غويان المختلفة . أما « يارويا » « بنين » حيث حققوا حضارة جميلة جداً اشتهرت ببرونزياتها ومنقوشاتها العاجية والخشبية ومصنوعاتها الخزفية وبلغت ذروتها بين السنة ١٥٧٥ و ١٦٤٨ ، فقد أرسلوا بصورة خاصة الى كوبا والبرازيل في المنطقة المحيطة بباهيا . وجاء مسلمو شمالي وشرقي افريقيا ايضا يجمعون العبيد لاحرامهم وثكناتهم ومشاغلهم في افريقيا وآسيا الصغرى ، والهند وجزر السوند . فغدت افريقيا سوقاً كبرى صدرت منها المواشي البشرية الى كل ناحية وصوب . لسنا ندري لعمري من أبعد منهم العدد الاكبر . ولكن الاضطرابات التي نجمت عن الاستعباد قد اسهمت اسهاماً أكيداً في ركود السود ثم في نكوصهم .

حضارات افريقيا السوداء المثال الداهومي

يمكننا ان نتخذ مثالاً لهؤلاء السود ، الداهوميين الذين كانوا موضوع دراسات كثيرة لا تخلو من بعض الترددات . فكان لا بد ، من ثم ، من التفريق بين درجات الشك . الا اننا لا نستطيع ، من جهة ثانية ، معرفة هذه الشعوب الا في القرن السابع عشر . ففي هذه المرحلة نرى ان قوام مملكة « داهومي » هو منطقة « ابومي » . وتنفصل المملكة عن الشاطىء مملكتا « أويده » و « آردر » . وكانت أويده المرفأ الرئيسي لتصدير العبيد ، وتنافسها في هذا الدور « اردرا الصغرى » او « جودا » . اسس السلالة الداهومية ، سلالة « الاواكونو » ، الملك « داكو » الذي تربع على العرش منذ السنة ١٦٢٠ او ١٦٢٥ حتى السنة ١٦٤٠ او ١٦٥٠ . ومن خلفائه « اكابا » الذي ملك منذ السنة ١٦٧٩ حتى السنة ١٧٠٨ ، و « اغادجا » الذي ملك منذ السنة ١٧٠٨ حتى السنة ١٧٢٩ .

يبدو الداهوميون شعباً تاجراً طامعاً في الكسب . فعلى الرجل المعتبر ، بموجب مثلهم الاعلى ، ان يورث خلفاءه فوق ما ورثه من ممتلكات ويعمل بوحي الشرف في الانفاق من أجل النفوذ على الزواج والدفن وعبادة الجدود . وعليه من ثم ان ينتج ويبيع . يسهل التجارة النقد الصدفي المعروف باسم « كوري » . الجميع يتعاطون التجارة ، والملك يتعاطاها قبل سواه . يبيع محصول نخيله وملحه وعاجه من مسلمي الشمال وممالك الشرق والغرب . ويبيع العبيد بصورة خاصة . وليست الحروب السنوية سوى غزوات لجمع العبيد . الجندي الذي يقبض على اسير يبيعه من الملك بخمسة « كوري » فيبيعه الملك بـ ١٤٠٠٠ « كوري » من تجار العبيد . فيصبح بمكنة الملك حينئذ ان يبتاع من الأوروبيين أسلحة نارية ، وحديداً من الصنف الممتاز جمعه مستخرجي المعادن السود ينصرفون عن صهر المعدن الافريقي ، وقطائف وأنسجة حريرية مذهبة ومفضضة لتقديم القرابين للآلهة . الحروب حروب اقتصادية . ولم يستول الداهوميون على ممالك الساحل في السنة ١٧٢٤ والسنة ١٧٢٦ الا للتخلص من الوسطاء بينهم وبين الاوروبيين .

يبدو ان حمى الانتاج والتجارة قد وجدت لها عونا في الملكية الخاصة . الملك ، مبدئيا ، صاحب كافة الممتلكات . ولكنه عمليا لا يمارس هذا الحق . له أملاكه الخاصة ، وللقبائل التي يقارب عددها الأربعين أملاك جماعية محدودة جداً : أماكن العبادة ، والهياكل المصنوعة من جذوع النخيل . فالملكية الخاصة هي السائدة على ما يبـــدو . وهي تشمل وسائل الانتاج ، الأراضي والأدوات ، كما تشمل الملابس والبيوت والاثاث .

تتوزع المحاصيل يومياً في الأسواق . كبار المزارعين يبيعون في أسواق جملة مـــن بائعات ثانويات يقصدن أسواق البيع بالتفصيل في « ابومي » و « اويده » . يتفق المزارعون فيما بينهم على تحديد السعر ولا يتزاحمون . زد على ذلك من جهة ثانية ان الانتاج لا يتعدى على العموم امكانات السوق .

للمزارعين والصناعيين اليدويين المستقلين عبيدهم وفداديوهم . العبيــد كثيرون في مشاجر الملك والزعماء والنبلاء وكبار المزارعين ومغارسهم . يملك هؤلاء الاخيرون مزارع تبلـغ ٣٠ كيلومترا طولا وعدة كيلومترات عرضا يشغّلون فيها العبيد بالشروط نفسها التي يفرضهـــا الاوروبيون على عبيدهم في مشاجر ومغارس العالم الجديد . في المساكن يستخدم عبيد منزليون . أبناء العبيد المولودون في داهومي ليسوا عبيداً بل فداديين يستقرون في الاملاك ويعطون نصف المحاصيل .

يعول الداهوميون ، بالاضافة الى ذلك ، على العمل المشترك . فان كافة رجال القرية أو كافة أعضاء حرفة واحدة يؤلفون وحـــدة عمل ، او « دوكبويه » . الدوكبويه تحرث أراضي كل فرد من أفرادها دورياً وتنشد الاناشيد أثناء العمل . اذا ما طلب من الحداد مسحاة ساعدته الدوكبويه التي ينتمي اليها على تطريق المسحاة التي تصبح ملكه الخاص ، فيبيعها لحسابه الخاص ويحتفظ بمكسبها . ولكن اذا ما طلبت هذه الاداة او غيرها من حداد آخر ، فان الحـــداد الأول يبادر بدوره الى مساعدته مع الدوكبويه .

في كل قرية نفر من القناصين يتولون تموين القرية باللحوم لان الماشية مفقودة . ولكن هـؤلاء القناصين قد احتفظوا ، بالاضافة الى نوع عمل الالفونكيتيين ، بمفهوم هؤلاء الطبيعة وبمعتقداتهم القائلة بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . القناصون يؤلفون في وسط الشعب الداهومي ، وفي حضارة من عصر الحديد ، فئة اجتماعية تحتفظ بطريقة انتاج قناصي الحضارة النيوليتيـة وذهنيتهم . يؤلفون مجتمعاً قديما جداً عرف الديمومة في مجتمع أكثر تقدماً لانهم يستطيعون ان يوفروا له نتاجاً ضرورياً . وفي ذلك دليل على تداخل المجتمعات .

يحتكر بعض النقابات الوراثية حرفا معينة ، الحاكة وهم ينسجون القطن والرافيـــة اللذين يغزلان في العائلات ، والخياطين ، والنحاسين ، ونقاشي التماثيل ، والحـــدادين ، ونقابات الخزّافات .

الزراعة متقدمة . الرجال ينظفون الحقول بالنار . ثم يحرثون الارض جماعـات بمساح حديدية عريضة الشفرة قصيرة المقبض . الشفرة منحرفة بالنسبة للمقبض ويستعملهـا الشخص بشدها اليه . توفر مزيداً من القوة والضبط وتتيح شق أثلام حقيقية . ولعلهـا تفوق محراث الكيشوا الرجلي انتاجاً. يذر الداهوميون الذرة الصفراء ؛ واللوبياء بين جذوع الذرة الصفراء؛ وأنواع القرعيات على طول الأثلام. وعرفوا مبادىء الزراعات الدورية ، ذرة صفراء - لوبياء - حمص . وزرعوا كذلك الذرة البيضاء والجاورس والقطن . وعـاد الى الملك تنظيم الزراعات وفرض نسبها وفاقاً لحاجات التغذية والتجارة . وقد فعل الشيء نفسه في حقل الصناعة اليدوية بتحديده عدد المشاريع وتوفيقه بين الانتاج والاستهلاك .

الملك يحكم هضبة آبومي وهضبة كانا حكماً مباشراً. اما في المناطق البعيدة فيمين «كابيسيريس» يسند اليهم احقاق الحق ، وجباية الضرائب ، وتعبئة الجنود من الرجال الاحرار ، والاشراف على الامن ، ورقابة الزراعة ، وتنظيم العمل الجماعي . فكان هؤلاء الموظفون ، كما نرجح ، اشبه بقضاة الكابيتلين .

الملك يتمتع بسلطة مطلقة مبدئياً . مركزه يستلزم عدداً من المراسم . زائروه يخرون امامه سجداً ويقبلون الارض وينثرون الغبار على رؤوسهم . الملك يختار خليفته بين ابنائه الكثيرين، كما يختار زوجاته ومراريه العديدات . فينجم عن ذلك دسائس بلاط كثيرة ودموية . الملك يعيش مع افراد عشيرته ، « ابناء الفهد » . الا أنه شديد الفطنة لا يسند اية وظيفة الى الامراء والاميرات الذين تولد بطالتهم انفلاتاً اخلاقياً مفرطاً. اما الوزراء والموظفون والضباط فيختارهم الملك من بين الطبقات المتوسطة خصوصاً . يفرض مراقبتهم الى زوجاته وبناته من زوجاتـه اللواتي لسن من عشيرته . ستة عشرة زوجة « كبوسي » يراقبن الزوجات الغريبات او « ناية ». والناية يراقبن كافة الموظفين . يعاون الملك في الحكم جدوده الملكيون . كلما احتـاج الى مشورة او مساعدة ، يقتل عبيداً و محاربين وموظفين وافراداً من عائلته وفاقـاً لخطورة الظرف ، فيذهب هؤلاء الى العالم الثاني وينبهون ارواح جدوده الملكيين ويستحثونهـا . ويحمي الملك وينصحه ايضاً الآلهة الملكيون العظماء ، « ماور » ، القمر ، « وليزا » ، الشمس ، اللذان ينعكس نفوذهما على الملك . الا أنه يقصي عن « ابومي » عبادة « سغباتا » اله الارض ، الذي قد يصبح ، بهذه الصفة ، هو وكهنته ، منافسين للملك .

الملك يفرض رسوما جمركية على كافة البضائع المنقولة والاسواق التجارية . ويجبي ضرائب مباشرة بفضل احصاء الاناير والمصنوعات الذي يجريه ، في هـذه البلاد التي لا تعرف الخط ، بواسطة الحصى في الارجح .

بالاضافة الى الكابيسيريس ، يعين الملك في كل قرية رئيساً قابل العزل يختار من بين حفدة ملك القرية قبل الفتح . ينفذ هذا الرئيس الاوامر الملكية ، ولكن عليه ان يأخذ بعين الاعتبار

رأي رؤساء العائلات الكبرى التي تتألف منها القرية من جهة ، ورأي رؤساء العشائر من جهة اخرى . كل قرية تضم عدة عائلات كبرى تنتسب الى طبقات مختلفة . العشائر موزعة على كافة انحاء « داهومي » ، وتمثلها عائلات كبرى في العديد من القرى . ولكنها تحتفظ بالوحدة والقوة بقيام اكبر الذكور سناً على رأسها يعاونه مجلس رجال ونساء من الجيل نفسه يتخذون المقررات باسم العشيرة .

تعاون الارواح كل داهومي في حياته اليومية . قبل زراعة الحقل يفحص احد السحرة اذا كانت روح الحقل متلاطفة . في الايجاب ، تقدم لها القرابين . اذا انتج الحقل عدة حصائد متوالية ، تحصل الروح على ترقية . يشيد لها معبد صغير عند اقدام شجرة نخيل ، وترفع الى منزلة اله القرية .

يحمي كل داهومي جدوده الذين يؤدي لهم واجبات العبادة . لكل انسان ثلاث نفوس يمنحها « ماوو » : اولا ، « سيميكوكاتو » ، القرين الذي يؤلف جسم الانسان ؛ ثانيا ، « سيميدو » ، الروح الشخصية التي تعطي القرين شكل الانسان ؛ اخيراً ، « سيليدو » ، و « ماوو » الذي يقيم في جسم كل انسان » ، وهو انبثاق الهي ، وصوت داخلي ينبه الانسان الى ما يجب عمله في فترات معينة . عند وفاة الفرد تعود السيميكوكاتو الى القوى الاحيائية الكبرى . وتعود السيليدو الى « ماوو » . اما السيميدو فتبقى وتدوم . ان مفهوم النفس هذا قريب جداً من مفهوم الاوروبيين المثقفين الذي راج في القرن السادس عشر . السيميدو تجتاز الانهر بعد ان تدفع الاجور المتوجبة لصاحب المطاحن . تبلغ الفردوس ، وتدخله اذا اقام الاحياء من عائلتها بالاحتفال المناسب ، ثم تلحق بالجدود ، وتؤله حين يحيي رئيس العائلة العائش على الارض احتفالات التأليه ، وتدخل الزون العائلي . وان النفوس المتملصة من الجسد ، التي تغدو اعظم قوة منها حين تكون في قيد الحياة ، تصبح حاميات العائلة الكبرى ، وتؤدى لها واجبات العبادة .

ويحمي كافة الداهوميين اخيراً كبار آلهة الزون السماوي او الارضي . يوجد كبار الآلهة هؤلاء في كل مكان من الفضاء ولكنهم يأتون في فترات معينة الى اماكن خاصة حيث يستطيع الانسان الاتصال بهم والتماس تدخلهم . وهو هذا الاعتقاد ما افضى الى عبادة « فودو » التي اشار اليها الكبوشيون منذ السنة ١٦٠٦ في مملكة اردر ، والتي وصفها غيرهم في داهومي . الـ « فودو » إله يستمر وجوده في الفضاء ولكنه مع ذلك اختار له مائتين او ثلاث مائة مكان مختلف ، تحت الجرار ، حيث يستطيع الانسان مناداته وتوجيه الاوامر اليه وارغامه على العمل . والاله نفسه يعين المكان الذي يريد الاقامة فيه . اذا ما نما احد فروخ النبات في بيت من البيوت ، استدعي عراف على الفور ، لتعيين الاله الذي يريد معبدا . فيشيد المعبد في مكان قريب . ويعين الملك احد افراد العائلة كاهنا يكون كهنوته وراثيا .

وقد درجوا ، في تحديد مكان الفودو ، على رش الماء وبذر الذرة الصفراء في ثلاث نقاط من

مساحة مثلثة الزوايا بغية استئذان الارض . في كل من هذه النقاط يوضع اناء يحتوي على حصى واوراق خاصة ، ويحتوي الاناء الاول على بعض ماء البحر ، والثاني على بعض زيت النخيل ، والثالث على بعض الكحول . في وسط المثلث يوضع رأس حيوان غريب . فتتلى حينذاك صيغة تكريسية وتحدد بالضبط كافة المهام المطلوب من الاله ان يقوم بها . ثم تغطى الآنية الثلاثة ورأس الحيوان بجرة كبرى . وكانوا يحتفظون بكل عناية بالسائل الذي استخدم لغسل رأس الحيوان . فاذا ما احتاجوا الى مساعدة ، رشوا الجرة بقليل من هذا السائل مستحضرين الاله . فيأتي حالا الى الجرة ، ويطلبون منه ما يريدون ، فيلبي الطلب في اليوم نفسه ، حتى ولو كان الطلب قتل احدهم .

اقتضى درس اوليات عبادة الفودو . وكان هـذا الدرس يستغرق ستـة او سبعـة اشهر ينعزل خلالها الطالب في مدرسة خاصة . وكانت مرحلة الدرس مرحلة خطرة لان الاله قد لا يقبل الموعوظ ويميته . يتعلم المرشح لغة العبادة ، والاناشيد ، والرقصات الطقسية التي تتيح الاتحاد بالله ، والمحرمات الغذائية ، ويحافظ خلال فترات الدرس على طهـارة تامة . حينـذاك يدخل الفودو الى رأس الطالب الذي يموت روحيا ، ثم يحيا حيـاة جديدة بواسطة الاحتفـالات التي تنهي مرحلة الدرس . وبعد اتحاده بالاله يشارك فودو قوتـه مشاركة دائمـة . وما ان تقرع طبلة الرقصات حتى يأتي الاله ويسكن في من وقف على مبادىء عبادته . فيركض هـذا الاخير ركضاً جنونياً ويرقص ويصيح صيحات حادة ويشعر باتحاده بالاله . ولكن الفودو ، على نقيض ذلك ، يكون تحت تصرفه اذا رش الجرة بالماء وتلفظ بالكلمات المناسبة . فنحن اذن هنا امام اتحاد صوفي حقيقي ، وبالتالي امام ديانة ارفع من ديانة هنود اميركا .

الزنوج في اميركا

ادخل الزنوج الى البرازيل منذ السنوات الاولى من القرن السادس عشر لمساعدة الهنود على قطع الاشجار وجرّها . وما ان ظهرت مغـارس قصب السكر حتى استوردوا باعداد كبيرة . في السنة ١٥٣٢ ، انشأ الحاكم « مارتين افونسو » اولى مطاحن السكر في جزيرة « سانتو - فيسنته » امام مدينة « سانتوس » الحالية . ثم حذا حـذوه الحكام الآخرون والاسياد .

احتل السكر بسرعة مركزاً متزايد الاهمية في الاقتصاد الاوروبي . ففـي اواخر القرن الخامس عشر ، كان عقاراً يباع بأسعار مرتفعة . وفي اواخر القرن السادس عشر غدا استهلاكه يوميا في البرتغال ، عند النبلاء والبورجوازيين ، بشكل حلاوى مختلفة ، وتجارته شاملة .

ان اكبر كمية من السكر وفرتها في البدء جزر شرقي المحيط الاطلسي : اسور ، مادير ، جزر الرأس الاخضر ، وجزر خليج غينيا ، جزيرة الامير ، وجزر القديس توما . اما البرازيل فكان دورها ثانويا . ولكن البرازيل لعبت ، منذ السنة ١٥٨٠ تقريباً ، دوراً متزايد الاهمية ، وما لبث انتاج الجزر ، بسبب منافستها ، ان انخفضت قيمته المطلقة . ويفسر نجاح البرازيل

بتدني سعر كلفة السكر . فليس من حاجة هنا للري ، وتسميد الاراضي الواطئة التي تنتج قصب السكر كل سنة اشهر طيلة ثلاثين سنة ونيف . وتنتجه الاراضي المرتفعة اربع او خمس دورات متوالية دون تسميد . وتيسر للبرازيليين ان يزرعوا قصب السكر في حقول واسعة كانت اكلافها العامة اقل ارتفاعاً نسبيا من اكلاف الحقول الصغرى في الجزر . اضف الى ذلك اخيراً ان الديدان التي غالبا ما اتلفت قصب السكر في الجزر لم تصل الى البرازيل .

كان في البرازيل ، على ما يقال ، ٦٠ مطحنة للسكر في السنة ١٥٧٠ . وحوالي ١٥٨٣ — ١٥٨٥ ، تراوح عددها بين ١١٥ و ١٣٠ ، كما جاء في كتب المؤلفين . ولعله بلغ ٢٣٥ و ٣٤٦ بين السنة ١٦٢٨ والسنة ١٦٣٩ . وربما كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٧١٠ ، بعد النقصان الذي يرد الى الحرب الهولندية، ٥٢٨ مطحنة سكر تقريبا .

ولكن لا مغارس ولا مطاحن سكر بدون الزنوج . وفي تزايد عدد هذه المغارس والمطاحن يكمن السبب الاكبر لنقل زنوج افريقيا الى اميركا . منذ « السنوات الخمسين » في القرن السادس عشر ، غدا نقل السود الافريقيين في اتجاه البرازيل تصديرا بالجملة . وبين السنة ١٦٢٥ والسنة ١٦٥٠ ، وبعد استيلاء الهولنديين على باهيا في السنة ١٦٢٥ وبرنمبوك في السنة ١٦٣٠ ، وازدياد حركة القرصنة الهولندية في الاطلسي ، واحتلال الهولنديين لـ «انغولا» في السنة ١٦٤٠ ، انتشرت في البرازيل « مجاعة السود » . ولكن التصدير باعداد كبيرة ما لبث ان تجدد بسرعة . اصدر البابا اوربانوس الثامن ، في ٢٢ نيسان من السنة ١٦٣٩ ، رقيما بتحظير الرق بجميع اشكاله . ولكن الرقيم لم يسفر عن اية نتيجة .

كانت النخاسة بين افريقيا والبرازيل وقفا على البرتغاليين . فقد توجب على البرتغاليين تأدية رسوم معينة للتاج يجبيها العملاء الملكيون احيانا ، وتلزم غالبا بالتعاقد مع ملتزم يحتكر النخاسة . فيعطى هذا الملتزم اجازات للنخاسين الذين يدفعون له الرسوم .

النخاسون ينقلون « قطع » العبيد . اما « القطعة » فزنجي تتراوح سنه بين ١٥ و٢٥ سنة ، ويبلغ ١٫٨٠ م طولا ، ويتمتع بصحة جيدة . بين الثامنة والخامسة عشرة ، وبين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين ، يقتضي ثلاثة زنوج للحلول محل القطعة . اما دون الثامنة وفوق الخامسة والثلاثين ، فيقتضي اربعة زنوج . وقد استحصل النخاسون على العبيد عن طريق مفاوضة الزعماء الافريقيين الذين يبيعون اسرى الحرب . لذلك عمد النخاسون الى الدبلوماسية بشتى اساليبها ، فشجعوا النزاعات واضرموا نيران الخلافات حول وراثة العرش . ولكن الزنوج المنقولين لم ينتموا الى الطبقات الدنيا في المجتمع الاسود فحسب . فان شحنة الزنوج اشبه بمملكة زنجية مصغرة تضم مهزومي حرب وراثة عرش من الامراء وكبار الموظفين ، ورجال الحاشية ، والمحاربين والمزارعين . فوصل من ثم الى البرازيل زنوج متطورون فكريا ، ضليعون في امور الادارة والقيادة والتنظيم ، جنود وعمال اكفاء، اي شعوب مصغرة بلغت مستوى حضاريا رفيعاً .

استخدم النخاسون في افريقيا وسطاء زنوجاً (تانغوسمو) يقومون بالمقايضة في الداخل ويلجأون عند الاقتضاء الى الحيلة والعنف . واستخدم اصحاب المزارع في انغولا بعض عبيدهم، البومبيرو الزنوج او الخلاسيين ، القساة والمفسدين . وكان التانغوسمو والبومبيرو يفاوضون عملاء الامراء الافريقيين (لنسادو) ، وهم خلاسيون مسيحيون يعتبرون انفسهم بيضاً ويقيمون في بلاط الامراء ويبيعون عبيد هؤلاء . اما الثمن فبارود او اسلحة من البرتغـال ، او ادوات حديدية ولعب من البرتغال او الهند الشرقية ، او « زمبو » او اصداف اخرى تستخدم نقداً ، او « بانو » (اقمشة) تصنع خصيصا لهذه الغاية ، ترسم عليها اشمرة وتكون لها قدرة تحريرية . وكانت قيمة البانو ١٠٠ ريال ، اي ان عبدا ثمنه ١٢٠٠٠ ريال يشارى بـ ١٢٠ بانو .

في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ،صدر مرفأ لواندا سنوياً بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ عبد ينقلون في سفن ذات اربعة صوار تتراوح حمولتها بين ٨٦ و ١٣٠ برميلا ، يكدس فيها ٥٠٠ عبد تقريباً . وكان الملاحون يستفيدون من الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب بين دائرتي الانقلاب من الشرق الى الغرب، ، ثم من التيار الاستوائي الجنوبي ، فتستغرق الرحلة ٣٥ يوما تقريبا من انغولا الى برنمبوك ، و ٤٠ يوما الى باهيا، و ٥٠ يوما الى ريو دي جانيرو . ولكن نسبة الوفيات اثناء الرحلة كانت مرتفعة جداً . فقد حدث احيانا ان نصف الزنوج لم يبلغوا اميركا . ولم يرسل الباقون على قيد الحياة الى البرازيل وحدها . فبين السنة ١٥٢٤ والسنة ١٥٢٦ ، نقل احد النخاسين ١٧٧٠٣ قطع ، ارسل منها ٧٤٥٤ قطعة الى البرازيل ، و ١١٨٤ الى جزيرة القديس توما و ٩٠٧٠ الى الهند القشتالية في المنطقة الاسبانية . واعيد تصدير زنوج البرازيل بالمئات سنويا الى منطقة « ريو دي لا بلاتا » الاسبانيـة . زد على ذلك اخيرا ان الاسبانيين والفرنسيين والانكليز كانوا يتعاطون التهريب ويزاولون المقايضة في المنطقة البرتغالية نفسها .

كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٦٠٠ ، بين ١٣٠٠٠ و ١٥٠٠٠ زنجي و ٢٥٠٠٠ ابيض و ١٨٠٠٠ هندي « متمدن » اي متنصر . ولكن عدد العبيد الذين دخلوا البرازيل بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٧٠ يقدر بـ ٤٠٠٠٠٠ ، اي بمعدل ٤٠٠٠ في السنة .الا ان معدل حياة الزنجي في البرازيل لم يتجاوز السنوات السبع .

وفر الزنوج القسم الاكبر من اليد العاملة في مغارس ومطاحن السكر . فقد عمل فيها ٧٠ ٪ منهم . وقد استخدم فيها ، بصورة خاصة ، زنوج انغولا من البانتو وهم قصيرو القامة ، وزاهرو البشرة ، وذوو ذلف ، واقل نتوءاً في الفكين ، ومتناسبو الاعضاء ، ومزارعون ممتازون لا حدّ لقدرتهم على تحمل التعب . اما الزنوج الباقون فقد استخدموا خداما وطهاة وحوذيين وحمّالين ، الخ ، وكانوا داهوميين بصورة خاصة ، اكبر قامة ، واجمل جسماً ، يتميزون بجسمهم وشدّة حميتهم .

في مطحنة السكر، كان مدير الانتاج ، والنجار ، والعمال الاختصاصيون ، والمرشد وامين السر ، ورؤساء العمال ، والوكيل ، من البيض . الزنوج يزرعون قصب السكر ويجمعونه

وينقلونه ويسحقونه في ارحاء المطحنة ويقطعون الاخشاب للافران وينقـلون عصير القصب الى القدور لتصفيته في ثماني مراحل متعاقبة ، ويضعونه بعد ذلك في آنية خزفية مجففة تعطي قالب السكر شكله المميز ، ويجمعون السكر غير الصافي ، ونفل القصب الذي يستخدم للتغذية والازباد التي يستعمل بعضها لتغذية المواشي والبعض الآخر لصنع الاشربة الكحولية ، « غارابا» و « كلاروس » .

استخدمت مطحنة السكر في كلية سانت – انطوان ٨٠ زنجيا في السنــة ١٦٣٥ . وكان رأسمالها آنذاك ٥٠٠٠٠ كروزادو . الاجهزة تمثل ٢٠ ٪ ؛ والثيران والعربات والزوارق ٤٠ ٪ ؛ ورأس المال الاساسي ٢٠ ٪ ؛ والزنوج ١٦ ٪ . ويتضح ان الزنوج لا يمثلون الا نسبة ضئيلة من رأس المال ، في حال انهم الشطر الاهم فيه . فلولا مهـارتهم التقنية وقوة سواعـدهم لما امكن تحقيق شيء البتة .

معـدل الانتاج السنوي ٧٠٠٠ كيس مـن السكر الابيض و ٣٥٠٠ كيس من السكر غير الصافي . نصف هذه الكمية يعود للمزارعين . اما النصف الآخر فيوفر « لسيد المطحنة » مجموع دخل يقدر بـ ٣٨٧٤٠٠٠ ريال . اجور اركان الارادة تبتلع منه ٢٤ ٪ ، والمحروقـات ٢١ ٪ ، والاواني النحاسية ١١ ٪ ، والزوارق ١٠ ٪ ، والاعمال ٨ ٪ ، والنفقـــات المختلفة ١٤ ٪ ، ورديف الموتى من الزنوج وغذاء الاحياء (لحوم واسماك) ١٠ ٪ .

الكسب الصافي يبلغ ٥٦٨٣٦٧ ريالا ، اي ٣ ٪ من رأس المال الاساسي و١٣ ٪ من المجموع . وجلي انه كسب محدود جداً . ولو اضطر « سيد المطحنة » الى تشغيل يد عاملة مأجورة ، لما استطاع المشروع الى العيش سبيلا . فالمشروع مدين بوجوده لليد العاملة العبدية .

أتاح عمل العبيد من ثم ، في البرازيل ، انماء رأسماليـة صناعية في صناعة غذائية ثقيلـة تسيطر على الاقتصاد البرازيلي . وليس التجار من يموّلون هذه الصناعة . السكر هـو محصول البرازيل الاول . انتاجه وتصديره يوفران القدرة على الشراء .

لعبت البرازيل دور المنطقة الاقتصادية المسيطرة بالنسبة لانغولا وغينيه . فاذا تزايد طلب السكر البرازيلي في اوروبا ، طلب البرازيليون عبيداً وعاجاً وجلوداً من غينيه وانغولا . واذا هبطت نسبة تصدير السكر البرازيلي ، انهارت تجارة انغولا وغينيه . ولكن البرازيل من جهتها تلعب دور المنطقة الاقتصادية المسيطر عليها بالنسبة لاوروبا ، المنطقة الاقتصـادية المسيطرة . فان انتاج البرازيل من السكر مرتبط كل الارتباط بالاستهلاك الاوروبي وبقـدرة لشبونة على بيع السكر من امستردام التي يوزع منها على كافة انحاء اوروبا حتى بولونيا وبوهيميا وهنغاريا . اذا حدث اوروبا من استهلاكها ، دخل الاقتصاد البرازيلي في ازمة . البرازيل هي الرابحـة . فالصناعة الثقيلة البرازيلية تنتج لمصلحة الرأسمالية التي يشرف عليها « المسيحيون الحـديثون » من اصل اسرائيلي . واوروبا هي الرابحة ايضاً . ففائدتها من البرازيل تفوق الى حد بعيد فائدة

البرازيل التي لا تحصل مقابل سكرها على عناصر الانتاج الضرورية ، اي الرجال ورؤوس الاموال ، التي قد تحتاج اليها . اما كبار المستفيدين من الصناعة البرازيلية الثقيلة فهم تجار السكر البرتغاليون والهولنديون الذين يبيعون المصنوعات في افريقيا والعبيد في البرازيل ويحتكرون في النهاية هذه التجارة المثلثة الزوايا . فالرق الزنجي في البرازيل هو من ثم شرط نظام اقتصادي كامل ، وقاعدة حضارة .

ان زنوج حضارة عصر الحديد ، بنقلهم الى البرازيل تقنياتهم في الزراعة وتربية المواشي وصناعة الحديد والعمل المنزلي ، وبتعودهم تطبيق التقنيات الاوروبية ، قد اتاحوا نمو حضارة عقارية قبلية . فان سيد المطحنة يعيش في البطالة متكلا على العبيد الزنوج يحممونه ويلبسونه ثيابه ويفلونه ويبعدون عنه الذباب . « سيد المطحنة » لا يستخدم يديه الا لتلاوة سبحته واللعب بالورق واخذ قبصات السعوط واستعمال السيف والخنجر . وغالبا ما يجهل القراءة والكتابة ، ويستخدم امين سر. دوره هو الادارة والقيادة . منذ سن العاشرة يتزيا بزي الرجال ويحمل خنجراً كبيراً على جنبه ويفرض ارادته على صغار الزنوج وينظم الالعاب ويضرب ويعذب ويؤلم . وحين يبلغ اشده ، يصبح ضابطا ممتازا يبرهن عن بسالة في الحروب ضد الهنود والفرنسيين والهولنديين . يقود الى المعركة فرقا من العبيد الزنوج تحارب بشجاعة واخلاص . اما الفتيات فيربين مع الزنجيات الصغيرات ، ومع الـ « موكاما » ، القينة السوداء . ويتعودن توزيع الاوامر بصوت عال ويصبحن قاسيات وشرسات ، وظالمات احيانا . يتزوجن في سن مبكرة ، في الثانية عشرة او الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، لان الشغل الشاغل هو تركيز الاراضي ومطاحن السكر . ولكنهن أعجز من ان يلعبن دورهن كزوجات وامهات ، فيحتجن الى الزنجيات لارضاع الاولاد وتربيتهم وتحضير الطعام وتدبير المنزل .

لما كانت الارباح محدودة ، كانت الحياة ، في المنازل السيدية الكبرى ، حياة فقيرة نسبياً . فالاسياد يرتدون في منازلهم قميصاً وصدرة ذات كمين ، والعبيد اسمالا . الغذاء زهيد والاثاث محدود ولكن التفخل شيء مالوف في الاحتفالات الكبرى

لم يبد الزنوج اي انزعاج من حياتهم في اقليم البرازيل الاستوائي . فقد الفوها بسهولة . كانوا جذلين وثرثارين وحسيي المعاشرة وسريعي البداهة وضحوكين ومنفتحين ، فبرز التضاد بين سلوكهم وسلوك الهنود العابسين الحزانى المنكمشين على انفسهم . برهنوا عن قيمة عقلية حقيقية ومزيد من المبادهة الشخصية واهلية التنظيم وقوة ابتداعية ومهارة . اذا ما أرسلوا الى المدرسة ، سبقوا التلاميذ البيض في التحصيل .

لم يقطعوا اتصالهم بافريقيا ، بل استمروا في استحضار مصنوعات دينية وكثيراً من الحاجيات الشخصية : جوز الكولا ، والكوري ، والزيوت ، والاقمشة ، فانتقلت من افريقيا الى البرازيل تقاليد وافكار وممارسات دينية . ان الزنوج « افرقوا » الساحل البرازيلي .

ان الرق أذل الزنوج . فقد قضى البيض وقتهم في فض بكارات العذارى من السود ومضاجعة الزنجيات ، العبدات اللواتي لم يجرؤن على المقاومة ، هذا بصرف النظر عن اولئك اللواتي كن يمهدن لهم السبيل لذلك . وقضت مصلحة الابيض من جهة ثانية بانجاب العبيد وتأمين اليد العاملة . ولكن الزنجيات غالبا ما فقن البيضاوات جمالا واستملن البيض بجاذبهن . فلم يكن عسيرا على السودانيات والداهوميات ، المتميزات بقد مياس وهيئة ملكية وثديين ناتئين تحت القميص واسنان لماعة ووجه متفغم ، ان يتغلبن على البيضاوات المحبوسات في منازلهن ، الامهات في سن مبكرة ، الذاويات في الثامنة عشرة ، المعروفات ببشرتهن الصفراوية واسنانهن المتلفة وحركاتهن المتلبكة ، وبدانتهن المبكرة وذقنهن المزدوج .

يستدعي الابيض الى منزله اولاده من سراريه السودوات ويجلسهم على مائدته الى جانب اولاده من زوجته البيضاء . وتقضي السراري والمرضعات حياتهن في منزل السيد . يعتبرن واولادهن من افراد العائلة ، ويخصصون بنصيب في الوصيات ويعتقن على العموم بعد وفاة السيد . بالاضافة الى الخدام الزنوج ، عاش هكذا حول السيد بين ستين وسبعين شخصاً من غير البيض . لم يكن الدين الكاثوليكي مستنيراً ولكن الايمان كان حارا ، لان هذه الاخلاق قد بدت طبيعية جداً . لا بل ان اعضاء الاكليروس ، باستثناء اليسوعيين ، قد سلكوا سلوك اسياد المطاحن وكان لهم سراريهم الدائمة والمؤقتة . كان العلمانيون من البيض والزنوج اتقياء جداً . كان كل العبيد منصرين ، وكان على السيد ان يقدمهم الى الخورنية بعد تعليمهم الصلوات .

وقد رغب العبيد في ان يكونوا مسيحيين لان غير المسيحيين قد اعتبروا وكأنهم بهائم . واصبح بعض العبيد مسيحيين مثاليين ، وقضى بعضهم حياتهم في الصلوات . ومنهم من اعلنت قداستهم ، كالقديس « بنديتو » .

بيد ان بعض العبادات الافريقية قد عرفت البقاء متداخلة مع المعتقد الكاثوليكي او متنكرة به . فان عبادة الفودو مثلاً قد بقيت مزدهرة . وانتشرت في الاملاك الكبرى جمعيات من عبدة الاوثان . وبشر بعض الزنوج بالاسلام واحرزوا بعض النجاح في اكواخ العبيد باظهارهم الاسلام دينا يعارض دين الاسياد . وجملة القول ان العبيد المستوردين باستمرار قد حافظوا على المعتقدات والعبادات الافريقية .

ادخل الطهاة الزنوج على اطعمة البيض مواد جديدة ، زيت النخيل ، والفلفل ، وتوابل اخرى مختلفة . وادخلوا اصناف مأكولات جديدة . ولطفت المرضعات السوداوات اللغة البرتغالية التي استغنى فيها عن بعض الاحرف المضاعفة وحورت بعض مفرداتها . وادخل الزنوج بعض التعابير الجديدة وبعض الصيغ الصرفية الجديدة ، وجلوا الفكر البرتغالي بروايات واساطير وخرافات افريقية .

اضف الى ذلك ان الا « كويلومبو » ، او الزنوج الفارّين ، قد علموا الجنود العادات

الاوروبية . التجأوا الى مناطق البرازيل الوسطى التي لم يبلغها المرسلون قط ، فعلّموا الهنود اللغة البرتغالية ومبادىء الدين الكاثوليكي والتقنيات الزراعية وطرق تربية الطيور الداجنة وزراعة القطن وصناعة الاقمشة . وفي « ماتّو – غروسّو » ادخلوا فن الحدادة وتربية المواشي فكانوا بذلك عوامل حضارة نشيطة .

في المستعمرات الاسبانية والفرنسية والانكليزية ادى دخول السود الى نتائج ، لا متماثلة ، بل متشابهة ، وآل الى نشؤ حضارات من نوع واحد . فلا داعي من ثم الى الكلام عن هذه النتائج وهذه الحضارات في مثل هذا الكتاب .

وهكذا فان الاوروبيين قد اوجدوا ، مع سود حضارة العصر الحديدي ، حضارة جديدة . وانما حقق الاوروبيون خير نجاح مع شعوب حضارة عصر الحديد . فان حضارة السكر هذه نجاح حققه البيض والسود على السواء ، الاوروبيون والافريقيون . وكان الافريقيون عوامل نشر حضارة اوروبية افريقية ، اوروبية الطابع ، في داخل القارة الاميركية . فكانت القارة الاميركية من ثم ، خلال هذين القرنين ، حقلاً فريداً لملتقى العروق والحضارات ومكاناً نادراً للاختبارات الاجتماعية . فان حضارة اطلسية متعددة المميزات الخاصة تصل بين شاطئي المحيط .

الكتاب الثاني

أوروبا والعالم الجديد

كان هدف اوروبا ، خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا . فالوصول الى الهند والصين واليابان ، واستثمار ما فيها من موارد طائلة ، حمل سكانها على اعتناق المسيحية ، والقيام بحركة التفات على الاسلام ، من الوراء ، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الارض سوى ايمان واحد وحضارة واحدة ، تلك كانت الغاية الاولى والاخيرة ، والحلم الاسمى البعيد الذي راود خواطر الاوروبيين بكثير من الاغراء .

فقد حلمت اوروبا بتحقيق تبدل كامل يأخذ بتلابيب آسيا . ففي الوقت الذي تم لها التغلب على الصعاب ونجحت محاولتها في الكشف عن العالم الجديد واستصفاء خيراته ورفع لواء المسيحية في ارجائه وطبعه بطابع اوروبا ، بقيت آسيا الهدف الاكبر ، شبه مغلقة ، يصعب النفاذ اليها . كل شعوب اوروبا : من البرتغاليين اول من اسسوا في القرن السادس عشر اول امبراطورية اوروبية شملت بحار الهند والصين ، الى منافسيهم ومزاحميهم الاسبان ومن جاء بعدهم او خلفهم في هذه الرسالة من هولنديين وانكليز وفرنسيين ، في القرن السابع عشر ، واخيراً الروس الذين أطلوا ، من سيبيريا على مشارف الصين الشمالية ، بعد عام ١٦٤٠ ، كل هؤلاء واولئك اضطروا ان يقنعوا ببعض غرسات شتلوا بها سواحل القارة الآسيوية ، ممثلة بهذه الوكالات التجارية، وهذه الحصون والمعاقل، وهذه الارساليات الدينية، فقنعوا من مسعاهم وحلمهم العريض، بالاتجار مع سكان البلاد ، إن هم استجابوا لهذا المطلب ورضوا بالتعامل ، كما اقتنعوا باعتناق قلة ضئيلة من سكان البلاد ، المسيحية . آسيا هذه التي تحرّقت قلوبهم بامتلاكها كفاهم ان يمتصوا خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من قُيض له التجول في ارجائها ويضرب في مجاهلها ، فلم يبدلوا منها الا القليل ، في القليل من بعض مظاهرها . وبقي ماصابهم من فشل وخسف ، سراً مطبقاً يحاول المؤرخ ان يكشف ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، عن اسبابه الخفية .

الفصل الأول

أوروبا والاسلام

١ ـ الاسلام

قيام الاسلام وحضوره في كل مكان

جاب البرتغاليون والاسبانيون البحار ، مشرّقين ومغرّبين ، تفادياً منهم للاسلام الذي كانوا يجدونه اينما اتجهوا وفي اي مكان وطأته اقدامهم . وقد حالفهم النجاح. ففي دورانهم حول جنوبي افريقيا، وايغالهم بعيداً الى الغرب ، انما رموا الى الالتفاف حول المسلمين واخذهم من الوراء ، اذ انهم اينما اتجهوا، وأنى حلوا ، انتصب المسلمون امامهم . وقد اتضح للاوروبيين ان الاسلام يؤلف قوة اضخم مما ظنوا ، وهي قوة آخذة دوماً بالانتشار والامتداد والتوسع . فمن المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، ومن شطآن المغرب الاقصى الى هذه الجزر التي تفيض بالتوابل حتى في بكين نفسها وفي هذه الفيافي والسباسب التي تحيط بالعالم القديم إحاطة السوار بالمعصم : من الصحراء الكبرى والمغرب والجزيرة العربية وآسيا الصغرى وفارس وافغانستان والتركستان، ومن الشمال الغربي من الصين ومن مقاطعة كنصو حيث يؤلفون جماعات كبيرة ، ومن سو – تشيز مروراً بالجماعات التي يزخر بها التركستان الصيني الى ما وراء لان – تشاو وننغ – هبا حتى مشارف سي – نفان، وفي آسيا الموسمية ، والمحيط الهندي ، في بنتسام وفي جنوبي الصين ، في يونان وكوانغ – سي ، وفي كوانغ – تونغ حيث كان عددهم يتناوح بين ٢ – ٣ ملايين نسمة ، وفي مرافىء الصين ، وفي الحواضر التجارية الكبرى في الصين حيث اقبلت قوافل التجار المسلمين وأسست لها مجتمعات تنعم بالكثير من الامتيازات والانعامات والنفوذ ، اينما اتجه البرتغاليون والاسبانيون ، وجدوا امامهم قائمة ، راسخة ، دولاً وامارات اسلامية ، ومرسلين مسلمين ، وتجاراً مسلمين من جميع العروق والاجناس يعدون بالملايين . ففي بلاط امبراطور الصين نفسه ، وجد المرسلون

اليسوعيون الذين جاؤوا يحاولون حمل الامبراطور على اعتناق المسيحية ، انفسهم وجهاً لوجه مع المنجمين وعلماء الفلك المسلمين الذين واجهوا العالم الاوروبي بالعالم العربي ، كما جابهوا المسيحية ، بالديانة الاسلامية . وهكذا بدا لهم الاسلام كليّ الحضور حتى ان الاب لاشيز ، مرشد لويس الرابع عشر أيقن بان كل آسيا انما هي اسلامية.

حيوية الاسلام وانتشاره

سبق للاسلام وانتشر ، كالشهاب الخاطف ، في آسيا وافريقيا ، في هذه الحقبة التاريخية التي سبقت عهدنا هذا . وهذا المد لم يكن ليتوقف . وطاقة الاسلام على الانتشار والتغلغل لم تكن لتنضب . فقد استمر الاسلام في مده الصاعد ، جارفاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، متدفقاً نحو الجنوب بين قبائل السودان . كثيراً ما تم هذا التغلغل بالفتح تقوم به شعوب وقبائل إسلامية ، او زعماء وملوك وطنيون ، ما كانوا يعتنقون الاسلام حتى يفرضوه فرضاً على جميع رعاياهم ، وقد قيل : الناس على دين ملوكهم . ففي مدن مقاطعة هاووساس ، في النيجر ، التي دخلها الاسلام في القرن السادس عشر ، وزازوون ، وغوبيس وكسّينا وبيرام ، استمر الاسلام في انتشاره في الوقت الذي كان فيه سكان الريف يستمسكون بعقائدهم الدينية . ففي مملكة أوادات ، يبدو ان أسرة تونجور الملكية الاسلامية تمكنت ، في مطلع القرن السادس عشر من ان تحل محل الامراء المحليين في اقاليم كثيرة ، وبذلك فتحت ، في مطلع القرن السابع عشر ، الباب على مصراعيه ، امام رعاياهم ، لاعتناق الاسلام . واستطاع احد علماء المسلمين يدعى عبد الكريم ، ان يتغلب ، بين ١٦١٠ و ١٦٥٣ على سلطان تونجور . وفي دارفور ، تمكن السلطان سلّوم سلمان ، في القرن السادس عشر من انتزاع السلطة من احدى الأسر المالكة من قبائل تونجور التي كانت على الوثنية . وهكذا تمت السيطرة على مقاطعة كردفان التي كان سكانها على الوثنية ، لقبائل الفونيا المسلمة ، الى الشرق من تشاد. وبين ١٥٠٠ و١٥٦١ ، تم إنشاء سلطنة بكيرمي على يد غزاة فاتحين . وفي عهد الملك عبدالله (١٥٦١ – ١٢٠٢) راح الامراء البكيرميون يعتنقون الاسلام . وفي القرن السابع عشر ، قام اقوام رعاة من قبائل *Peuls* ، في مقاطعة فوتا جالون ، يهاجرون ، بحركة واسعة ، من مقاطعتي السنغال وماسينا ، ليستقروا في بلاد ماندينغ ، حيث تخلى لهم الاهلون عن اراضي واسعة تصلح لرعي الماشية . وقد تسلل معهم الى المقاطعة المذكورة ، مسلمون من فرقة القدرية من مدينة تمبكتو وشداهيا حملوا الكثيرين ممن حلّوا بين ظهرانيهم ، على اعتناق الدين الاسلامي . وهكذا لم تلبث ان عُرفت قبائل « البول » في فوتا جالون ، بعصبيتها الدينية الشديدة ، وراح زعماؤها ينظمون رجالهم للجهاد ، فاستطاعوا ، عام ١٧٢٥ ، ان يؤلفوا دولة اتحادية ، من هذه الولايات السبع تحت ادارة حاكم مستقل ليحملوا الوثنيين على اعتناق الاسلام . ثم اختاروا لهم زعيماً نصّبوه رئيساً للاتحاد . وقد جرت ، على نطاق اضيق ، إرتدادات في مقاطعة فوتا تورن الواقعة عند نهر النيجر الاوسط ، وبين سكان ماسينا . وهكذا تمكن الاسلام من

التغلغل بعيداً في افريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغابات في الغيتنه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضخمة على الوثنية ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والافاويه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحمل دعاة الاسلام ، سكان جزيرة منداناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، ان تعرضت مصالحهم التجارية للاذى والخسارة ، للحؤول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الامامي الحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكمبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم ، يزاحمون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام ١٦٤٢ ، الى حمل رهاما دبيــالي ، ملك كمبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبــا ، على اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخــذ عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخــامس عشر كان الدرويش علي اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا بــه من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفــات الامــبراطور على انه اعتنق الاسلام سراً الا انه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبــيرة من رعايا الشعوب التي غلبت على امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً هاماً من الاوروبيــين نزحوا ليقيموا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ — ١٦٤٨ اسلاميــة بكامل سكانهــا ، في مقاطعة رودوب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبيه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيــا وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كانوا يقبــلون على الاسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كانوا يعتنقون الاسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحاميات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقليــة وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تغص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كانوا مرشحين لاعتنــاق

الاسلام . ويؤكد احد المؤرخين : « ان اضبارات الذين جحدوا دينهم تؤلف اكداساً من الوثائق التاريخية » . فاينما مررت في أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وقعت انظارك على جاحدين او مارقين لدينهم ، من كل درجات السلم الاجتماعي والسياسي. فالجنوي جيرونيمو كمبودي مغليو ، الذي وقع اسيراً في مدينة الجزائر ، كان عمره عام ١٥٩٨ ، خمسين سنة . وعندما توفي سيده الذي كان تاجراً من تجار تلك المدينة ، تخلى له عن دكانه وقد شوهد يسير في الشارع مرتدياً الزي التركي ، ويؤكد عارفوه انه متزوج من مسلمة ، « وفي اعتقادي انه خرج عن دينه المسيحي ولا يفكر قط بالرجوع الى اهله » . وترى في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٢) ان من اصل عشرة تولوا مركز الصدر الاعظم ، ثمانية منهم كانوا جاحدين لدينهم ، حتى ان نائب السلطان في الجزائر أولج علي ، انما هو واحد من هؤلاء المارقين .

ولم يكن الاسلام اقل اجتذاباً للاوروبيين ، من المسيحيين القاطنين الشرق . وعندما قام المغول الاكبر أكبر ، يفتح مملكة احد تجار ، المسلمة ، اغرى المدافعين عن قلعة أسيرغار ، على الاستسلام ، عام ١٦٦١ . وكان بين ضباط الحامية سبعة ضباط برتغاليين ، وعدد كبير من المدنيين البرتغاليين ، من كلا الجنسين ، كلهم على الاسلام .

الاسلام ومغرياته

كل شيء كان يغذي النفرة في قلب الاوروبي . فالمسلم يتمثل عنده ، اول ما يتمثل ، في هذا التركي ، الذي اصبح مفزعة الغرب . « أليس الاتراك شراً من الذئاب في كل ما يصنعون ؟ (١٥٩٦) . وهل من عجب قط اذا ما اتخذ الله من الاتراك سوطاً لتأديب المسيحيين ، اسوة بما فعل باليهود عندما أهملوا شريعة المهم ... فالاتراك بالنسبة للمسيحيين ، هم بمثابة الاشوريين والبابليين لاسرائيل : مقرعة الله وسوطه اللاهب » (من اقوال فيريه ، عام ١٥٦٠) . ثم أو ليس المسلم هو هذا الشرقي الذي يقف مع الاوروبي ، على طرفي نقيض ؟ هذا المسلم الذي تميز بالختان ، ولا يأكل نجساً كلحم الخنزير او لحم اي حيوان آخر لم يذبح بيد مسلم ، وفقاً لاحكام القرآن ، هذا الشرقي الذي يمضي في كتابته من اليمين الى اليسار ، والذي يضع مقدمة كتابه والفصل الاول منه حيث نهاية الكتاب عند الاوروبي .

هذا الانسان الذي يبول مقرفصاً كالنساء والذي يجلس القرفصاء والذي لا يشعر باي حياء فيرسم عندما يجثو ، حركة يشمئز منها الاوروبي لانها تنم على العبودية ، والذي يخلع حذاءه عندما يدخل المنزل ، والذي يزهو بثوبه الفضفاض ، والذي يولد مقدساً بالوراثة ويسمح لنفسه ان يعمل كل شيء ، اذا انحدر من ولي او من شريف . فالمسلم هو نقيض الاوروبي والاسلام نقيض أوروبا ، فالمسلم هو من خرج على المسيحيه وسبب للمسيحي الهلاك الابدي .

الاسلام تتمة المسيحية

من العناصر الاساسية التي ميزت الاسلام ومن ابرزها وابعدها اثراً على الانسان الابيض في اوروبا وعلى الاسود والاصفر معاً ، قوة الجذب التي تتجلى في الديانة الاسلامية ، مما جعل للمدنية الاسلامية ، هذا الاثر البعيد ، فقد رأى

الشكل ١٨ – العالم الاسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الابيض الاوروبي في الاسلام تتمة للمسيحة . بعد هـذه السلسلة الطويلة من الانبياء : من آدم ونوح وابراهيم ويسوع الذي يعرف عند الاوروبيين بالمسيح ، جاء خـاتمتهم الرسول العربي ، محمد آخر النبيين واعظمهم. فقد رأى المسيحي في الاسلام ، عناصر كثيرة مألوفة لديه : الوحي المتوارث بين الناس على ألسنة انبياء أوحى الله اليهم به ، وكتاب موحى به هو القرآن الذي كان في نظر النبي تتمة للتوراة والانجيل، وتفسير لنشوء الكون فيه قصة الخلق والخطيئة والسقوط وملائكة متشفعين وأبالسة ونفس خالدة ، ويوم الحساب ، وجنة ، وجحيم . كل هذه العناصر ألفت لدى المسيحي المتفرس في الاسلام ، جواً ليس بغريب عليـــه قط ، فهو لا يجد نفسه غريباً في محيط كهذا المحيط ، ولذا فالصدمة ، ان كان ثمة صدمة ، تأتي ضعيفة الوقع ، خفيفة ، بينما كل هذا قد يصدم بعنف الاسود الذي آمن بفعل الارواح . فكل ما يقدمه له الاسلام مـن تفسير لخلق العالم ولمصير الانسان ، بشكل قصة او اسطورة ، يتفق تمامـاً ، في جوهره ، بما ألفه من قول وسمعه من تعاليم ، في هذا الشأن .

وحدانية الله

فقد ظهر الاسلام للمسيحي وللزنجي والآسيوي بسمو تعاليمه ولاسيما بنظرته الى الله . فقد كان ثم للزنجي فكرة غامضة ، مشوشة عن الكائن الاعلى . اما انسان آسيا فقد توصل بالادراك العقلي الى وحدانية الله ، مع ان الفلسفات الاساسية التي طلعت عليه لم تحسن خدمته اذ لم تستطع ان تخلصه من هذه الرموز والشبهات التي عاش في جوها ، فتلبست لبوساً حلولياً ، تارة ، وطوراً مشركاً ووثنياً . فالمسيح قال بالثالوث الاقدس ، وهو يقول بوحدانية الله وبوحدة الجوهر في ذات الله في ثلاثة اقاليم ، يتميز الواحد منها عن الآخر ، هم الاب والابن والروح القدس ، وهي عقيدة يبقى العقل حيالها حائراً ، لا يستطيع النفـــاذ اليها وهو امام امر لا يتصوره الخاطر، وهي عقيدة وقفت دوماً حجر عثرة لدى العقول وحالت كثيراً دون اعتناق الناس لها او دون استمرار من اخذ بها ، على القول بها . وعلى عكس ذلك جاءت العقيدة الاساسية في الاسلام. فهي تنطلق عفوية من الارض الى العلاء ، الى السماء، كما ترتفع المأذنة البيضاء نحو القبة الزرقاء : هي وحدانية الله : « لا اله الا الله » . فالله هو الكائن الحي الاحد ، الابدي ، الازلي السرمدي الكلي القدرة ، والكلي المعرفة ، والعلم المطلق . فيـه كل شي وهو يتميز عن كل شيء . وكبيرة الكبائر هي من يقول بان لله شريكاً ، وهذه هي خطيئة المسيحي الكبرى في نظر الاسلام . وهذا الشعور بوحدانية الله تغلغـــل في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن ولا سيما على فن البناء والرسم . فالمسجد نفسه مشبع بهذه الفكرة : فهندسته صلاة وموعظة ، فالمسجد هو نسخة عن كنيسة يوستنيانوس ، غير ان الاسلام نشر على كل شيء ، لونه وضياءه الخاص بحيث ان مجموع هذه الاشكال المعروفـــة جعلتنا نتصور اننا امام بناء جديد او بالاحرى امام طراز هندسي جديد ، منه ينفلت النظر الى آفاق عالم غير منظور حيث تهب نفحة الهية جديدة . وتقع العين في داخـــل المسجد على صحن فسيح ، رحب تشعر حيال بساطته بالمهابة والعظمة ، دائم البياض ، ينفـذ النور الى باحته

الداخلية من هذه النوفذ التي تطل من الخارج فتفيض على الداخل ضوءاً ناعماً حيث تقع العين على كل شيء وترتاح مع الفكر الفاني ، في ظل هذا السكون العميق الذي يشبه سكون الوادي اكتسى جلباباً من هفاف الثلج ينعكس عليه سماء ابيض . ليس في الجامع ما يشتت الفكر : من خلال هذا الفراغ ، وعلى ضوء هذا السناء ، تجد النفس ذاتها امام موضوع عبادتها ... فهي ترى نفسها مكتنفة بفكرة نيرة واضحة ، جلية ، وضاءة تملأ الروح رهبة وخشمة ، فكرة الله مالىء هذه الوحدة ، ومالىء هذه الفراغ الصارم المهيب الذي يسيطر على هذه الصحارى التي يغمرها النور . فهذا النور ، وهذا التجرد العاري للايمان برب أوحد احد ، كلي القدرة ،هذا ما حمله الاسلام للانسان المشدوه المتطلع نحو الكمال الاسمى .

علاقة الانسان بالله ـ الصلاة الاسلامية

وهذا الكمال الاسمى له ، في الدين الاسلامي ، من الوسائل ما يمكن الانسان من الاتجاه اليه والاتصال بـه . كم هو عظيم وبالغ تأثير الاسلام على الزنجي ، مثلاً ، عندما يتبين بوضوح ، طريقة الأخذ بهذا كـله ، وعندما يتبين ويفهم مقدار اهتمام الخالق بالخليقة التي برأ من العدم . فالمسلم في نظر الزنجي هو من يصلي الى الله ويبتهل اليه ، فلا تسل عن عظم تأثير الاسلام على الزنجي ، فهو لا يصدق نفسه ، ان باستطاعته ان يخاطب الله عزّ وعلا . فالدين الاسلامي يسهل للجميع، اكثر من اي دين آخر ، اتجاه الفرد بنفسه الى الله الأحد . كل مسلم يكهن لربه . فهو يقدّس نهاره باقامته الصلاة ، خمساً في النهار : في السحر ، وعند الظهر ، وفي الأصيل ، وعند المغيب وفي العشية . فالصلاة فردية هي ، وان تمت مع الجمهور فهي فعل ايمان يتجلى بالبساطة والتجريد الكلي . وهذه الصلاة يمكن للانسان ان يقوم بها اينما كان .ففي صلاته لا يطلب المسلم شيئاً لنفسه .والشيء الذي يطلبه هو ان تشمله نعمة الله ، فالصلاة عند المسلم هي اعتراف علني بربوبة الله . فهـي شكر له وعمل عبادة الله ، الشمس المضيئة للنفوس .

فالشهادة ، في الاسلام هي فعل ايمان ابسط بكثير واخصر من فعل الايمان عند المسيحيين: « اشهد ان لا إله الا الله ، وان محمداً رسول الله » ، كما نتبين ذلك في سورة الفاتحة :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ،الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، آمين » .

ومع هذه الصلاة السامية ، على المسلم ان يصوم رمضان المبارك وان يدفع ما عليه من زكاة ليطهر قلبه وامواله ، وان يقوم بفريضة الحج الى مكة ، لمن يستطيعه ، وان يتصف بالعـدل والنصفة والامانة والصدق والمحبة .

رجاء المسلم والتسليم لمشيئة الله

الايمان بالله مالىء الكون، هي العقيدة التي تملأ حياة المسلم. فالشعور القوي بقدرة الله الكليـــة، بقداسته وبحضوره الكلي الشامل، يحمل معه الايمان بالقضاء والقدر والتسليم الى مشيئة الله وإرادته. « هذا شيء مقدّر »، لتكن إرادة الله، « فالله قدر كل شيء في حكمته الازلية »، بمنأى عن الزمن، وقضى بــه الى الابد وسيجازي كلا باعماله ويثيب المسكين العادل. فكل مشاغل الحياة، مهما كانت مُقِضّة، لا تلبث ان تفقد حدتها وان تزول. ماذا يفيد الانسان ان يهتم، اكثر مما يجب، وان يشغل باله بما هو ظل زائل. فقراءة القرآن وتصفحه أبقى وأجدى، ولنتمق في حفظ شريعـــة الله وناموسه. فارادة الله هي الباقية وما قُدر هو الذي سيكون.

فقد يسرت الشريعة الاسلامية حياة الدنيا في كثير من القضايا كما بعثت في المؤمن الرجاء بحياة أفضل وأبقى. فقد أباح الاسلام تعدد الزوجات: إنكحوا لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، هذا ان عدَلتم. باستطاعة المسلم ان يطلق زوجته لاخلاقها الرديئة. واذا تعـذر على بعضهم، لفقرهم، الاحتفاظ بعدة زوجات معاً، فباستطاعة المؤمن ان يطبق الآية بحيث تتم له عدة نساء باستمرار. فالفردوس الذي اعده الله للمؤمن يتألف من ثماني سموات، تكون وفقاً لاستحقاق المؤمن، تجري من تحتها الانهار، كما فيها انهار من اللبن والعسل، وما تطمع فيه النفس من الحلى والجوهرات والمأكل والمشرب وحوريات لهن عيون دعج. فكم هو شاسع الفرق بين هــذا النعيم يعده الله للمسلم وبين الفردوس الموعود للمسيحيين حيث ينعمون بمشاهدة الله الى الابــد. فعلى ضوء هذه العقيدة الاسلامية وتحت تأثيرها، يستهين الانسان أوروبا: ابيض كان، او زنجياً أو آسيوياً او مسيحياً، باهوال الموت، وبالعذابات التي قد يتعرض لها، اذا ما كان من القائلين مثلاً بتناسخ الارواح وتقمصها، امام ما ينتظره من سعادة واقعية، محسوسة، ملموسة. وهذه السعادة الابدية، يمكن للمؤمن ان يؤمنها دفعة واحدة، اذا ما استشهد في سبيل الله ولبى نداء الجهاد المقدس. ففي سبيل هذه السعادة التي لا نهاية لها تطيب كل تضحية ويعذب كل بذل.

التصوف الاسلامي

أعد الاسلام لهذه النفوس ذات الشعور الرقيق والحس الناعم الاعتكاف الى العبادة، والإعراض عن بهرج هذه الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق والتعبد له في نجوى ومسارّة بعيداً عن الناس للانقطاع للتصوف. فالله، هذا الكائن الحي المحب يسره ان يهيم الناس بحبه وان يتفانوا في الشوق اليه. ولذا راحت هـــذه النفوس الثملى بالحب الالهي تحاول الاتصال بالله، وهي بعد في هذه الحياة. الا انها لن تلبث ان تقوم في وجههـا المصاعب. فالله لايمكن ادراكه عن طريق الحواس لانه غير محدود بزمـان او مكان. كذلك لا يمكن ادراكه بطريق العقل لان العقل عاجز عن ذلك. وانمـا يُدرَك بطريق القلب والروح. ولذا حاول المتصوفة ان يتخلصوا من ذواتهم، من « الانا »، ليذوبوا في الوجود الالهي. وقد إشتط بعضهم السعي فوقعوا في وحدة الوجود مع الله. كما ان بعضهم ذاب في محبـــة الله. فاصبحوا أولياء، شيئاً من الفيض الالهي، لهم قدرة روحية « بركة » خاصـــة. وقامت

للصوفية تكيّات خاصة ، ارتدى المنتظمون اليها مسوحاً من الصوف ، ومن هذا الزي جاءت الكلمة « صوفي » ، ونظموا انفسهم طرقاً ومذاهب خاصة ، لكل منها زعيمها او شيخها ، له على اصحابها سلطة انتقلت اليه بالبركة من مؤسس الطريقة ، وهي قوة كان شيوخ الطريقة يتوارثونها خلفاً عن سلف . وقد اشتهر بعض هؤلاء المتصوفة بمسلكهم في هذا المجال مما يذكرنا بالنهج الذي سار عليه كل من القديسة تريزيا دافيلا ويوحنا ده لاكروا ، مما حمل البعض على التساؤل ما اذا كان التصوف الاسباني في القرن السادس عشر ، لم يتأثر بالطرق الصوفية الاسلامية ، وعهد المسلمين بالاندلس ، قريب لم يندرس ذكره ولم تنسخ أعرافه وعوائده . وقد أجاب البعض بالنفي على هذا السؤال ، وذلك لان الاعتقاد بالله القيّوم قد ولّد ، في اماكن مختلفة ، متباعدة ، حالات متشابهة . وعلى كل ، فالمشكلة المطروحة على بساط البحث هي ان مسيحياً من أبناء القرن السادس عشر او السابع عشر ، لم يكن من المستهجن لديه قط ان يرى في الاسلام ، كثيراً من تعاليم المسيحية وعقائدها الاساسية ، انما على نقاء اكثر ، واسهل تناولاً . كما يستطيع ان يجد شخص آخر ، في الاسلام من الوسائل ما يمكنه بلوغ الذروة من حياة كلها سمو وتمال .

انتشار الاسلام والتجار المسلمون

ساعد التجار المسلمون على نشر الاسلام في كل ربوع الشرق . فعندما بلغ البرتغاليون المحيط الهندي ، وجدوا امامهم التجار المسلمين من عرب وايرانيين يسيطرون على الحركة التجارية في هذه الاصقاع المترامية بين مضيق الموزنبيق ومضيق مالقا . فقد وجدوا في اهم المرافىء الواقعة على سيف المحيط الهندي جوالي ومستعمرات اسلامية نالت مجتمعاتها من سلطات البلاد ، امتيازاً بحكم انفسهم بانفسهم ، تحت إدارة زعيم او رئيس ينتخبونه ، يقضي فيما بينهم ، وفقاً للشرع الاسلامي . وكثيراً ما تغلغل هؤلاء التجار بعيداً في قلب البلاد وأسسوا لهم مراكز او وكالات خاصة لاعمالهم . فقد قامت في بلدة فيجينا غار ، الواقعة الى الجنوب من الهند ، جالية اسلامية محترمة . وكثيراً ما حدث ان تزوج ممثلو او وكلاء شركات تجارية اسلامية اقاموا في الهند باستمرار ، من احدى نساء البلاد بعد ان يلقنوها اصول الديانة الاسلامية . وقد دخل الهند من نحو خمسمائة او ستمائة سنة ، عدد غفير من المسلمين جاؤوها من الشمال الغربي ، استقر كثيرون منهم فيها بصورة نهائية ، وقد استمرت هذه الهجرة على نشاطها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد اضطر البرتغاليون للاخذ بواقع الحال ومراعاته وأقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين ، دون ان يحاولوا مسهم بأذى او ان يحرموا إخراجهم من البلاد . وعلى العكس ، فقد استمر هؤلاء التجار في اعمالهم ، في كل ارجاء المحيط الهندي ، بعد ان رخّص لهم البرتغاليون بذلك ، فحافظوا على الانشاءات والمؤسسات التي كانوا اقاموها من قبل ، كما اسسوا لهم مراكز جديدة في الممتلكات البرتغالية . وقد مثل سكان الملايو الذين عرفوا بمقدرتهم على الاعمال التجارية ، دوراً هاماً في كل ارجاء الهند الصينية . فقد استطاعوا ان يسيطروا تقريباً على كل الانشاءات الرسمية ولا سيا

ما تعلق منها ببلاط مملكة سيام ، كما سيطروا على الاحتكارات الرسمية ، وعُهـد اليهم بتنظيم استقبال السفراء الاجانب . فعادت عليهم هذه الاعمال المتنوعـة بارباح طائلة ، كما عادت عليهم بنفوذ كبير . واستمر مسلمو الانسولاند بالاتجار مع الصين حتى بعد وصول الاوروبيين اليها .

دعاة الاسلام

كثيراً مارافق قوافل التجار ، دعـاة عملوا على نشر الاسلام ، من قبل طوائف اسلامية او من قبل بعض المساجد الكبرى في السلطنة العثمانيـة ، باذن خاص من سلطات البلاد وبمؤازرتها احياناً . فاذا ما حالفهم التوفيق ، عمدوا الى إنشاء جامع ليبدأ نشاطه متواضعاً ثم لن يلبث ان ينمو ويتطور بحيث يصبح ، كما هي الحال في العـالم الاسلامي ، دائرة قطب وسط مجموعة من الابنية فيها كل ما يؤمن الإشعاع للجماعـة : بيت للصلاة حيث تجري مناسك العبادة والصلاة إشباعاً لحاجة النفس الطبيعية، وملجأ لتخفيف الآلام عن النفوس المعذبة ، ومدرسة تلقن الناس تعليم القرآن وتمهـد للنفس الطريق المؤدية الى الله كما تلقنهم تعليم سُنـة الله ورسوله ، فتطلعهم على أحاديث الرسول واعماله واقواله ومـا وضع المفسرون لها من تفسير وتعليق من شأنها ان تساعد على ضبط الاخلاق والآداب . ولم تلبث ان ظهرت الاوقاف التي جاءت تردف الصدقات والزكاة ، مساعدة للطلاب على طلب العلم ودرس العلوم العقلية والنقلية ، كالصرف والنحو والمنطق وعلم ماوراء الطبيعة ، واللغة والخطابـة والهندسة وعلم الهيئة حتى اذا ما تم لطلاب العلم ، القدر الكافي من التحصيل ، أصبحوا بدورهم من علماء الملة ، يقومون للعلم في المعاهد الشرعية الكبرى ، او عملوا في خدمة الدولة أو خدمـة الدين بوصفهم من العلماء .

كثيراً ما تميز هؤلاء الدعاة بصفات عالية . فبعـد ان قارن الاسقف سلازار اسقف مانيلا الدومنيكي بين الاساليب التي اعتمدهـا هؤلاء الدعاة في نشر الاسلام والاساليب الإخرى التي عول عليها المرسلون البرتغاليون والاسبان ، كتب ، عـام ١٥٩٠ ما يلي : « ان يقوم المبشر او الكارز بالدين بالدعوة للانجيل وحملة البنادق الى جنبه ، ليس قط بالطريقة التي يرضى عنهـا الله في نشر الايمان والدعوة الى الإسلام . من سوء حظنا جداً ومن دواعي خجلنا ان تكون تعاليم النبي العربي محمد قد توغلت في هذه الجزر وان يُقبل السكان على اعتناقها ، لما تبينوا في دعـاة الدين الجديد من دعوة صادقة للسلام ، ومن رحمة للعباد وتحنان ، نرجو ان يتم شيء منها للدعاة بالانجيل ... فقد حمل دعاة الاسلام تعاليم الاسلام وهم أشبه مـا يكونون عراة ، حفـاة ، لا يعولون قط على نفوذ البشر » .

الممالك الاسلامية

السلطنة العثمانية

عمل في خدمة الاسلام والدعوة له ونشر تعاليمه ، الممالك الاسلامية الكبرى التي قامت اذ ذاك . فالقوة التي تمت لها ، والنفوذ الواسع الذي نعمت به ، وحاجتها الملحـة الى أخصائيين

وتقنيين ، والامكانات الطائلة للعمل في ممتلكاتها الواسعة ، كل ذلك جعل منها مراكز استقطاب وقطب جذب ، في الوقت الذي مهدت الفتوحات العريضة التي تمت لها السبيل لانتشار الاسلام فوق اقطار واصقاع جديدة لم يعرفها من قبل . ولعل اقوى هذه الدول قاطبة ، وابعدها اسماً وشهرة وصيتاً بلغ مشارف الصين ، واوقعها طرأ في قلوب الاوروبيين ، هي السلطنة العثمانية .

فقد احتفظت السلطنة العثمانية من الصفات التي احاطت بنشأتها الاولى بصفة جيش نصب سرادقه فوق بلاد فتحها بحد السيف . وهذه الميزة او الصفة شاركت بها ، الى حد بعيد ، امبراطورية المغول في الهند ، كما شاركت بها كذلك ، على قدر واسع ، امبراطورية المغل او المغول في منشوريا . يعود الاتراك العثمانيون ، باصلهم الى هذه القبائل الرحّل التي كانت تدق ، من حين الى آخر ، مداخل آسيا وتقرع بشدة ابوابها . فاذا ما اردنا تصوير الامور تصويراً قريباً أمكننا ان نميز نوعين من آسيا : آسيا الخصبة ، الخيّرة التي تتمثل في هذه الوديان الظليلة وهذه الدلتات الخصبة ، وهذه السهول الساحلية الفيحاء التي تقع في الصين والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر ، حيث نجد اقواماً نعمت لديهم جوانب الحياة ، واهاجهم الحر الشديد على رطوبة ، وانهكتهم الحميّات التي تآلفت عليهم ، وخملوا باسترسالهم للراحة وهطول الامطار الموسمية وتخنث أغنياؤها لما رفلوا به من صنوف البذخ والقصف والتسري . اما آسيا الاخرى ، فهي آسيا الموحشة التي تتمثل في هذه الصحارى المترامية ، وهذه الجبال الشاهقة وما بينهما من مقاطعات وارجاء : كمنغوليا والتركستان والجزيرة العربية وافغانستان ، وكردستان والقوقاس حيث تمور قبائل وأقوام على البداوة تظعن ابداً في طلب الكلأ والماء . برّح بها الجوع والعطش، وأثار شهوتها ما هم عليه سكان السهول من خصب وبحبوحة وما هي عليه الوديان من غنى وظلال وارفة ، فيفدون عليها مع مواشيهم او يأتونها قوافل للإتجار والمقايضة ، فيقتبسون شيئاً مما يقعون عليه فيها من الافكار الدينية والسياسية ، ويتبينون مكامن الضعف لدى سكان المنخفضات ، ويتألبون حول زعيم من زعمائهم العديدين يرون فيه القدرة على التنظيم وفرض هيبته ، فلا يمتنعون ان ينقضوا على هؤلاء الحضر ، يفرضون عليهم سيطرتهم ويستثمرونهم شر استثمار . ويتمكن هؤلاء الزعماء من المحافظة ، بضعة اجيال على ما تم لهم من شأن وسلطان ، ويأخذون عن مواليهم ما لديهم من اخلاق وعادات ، يحرصون على الدفاع عنهم ويردون عنهم ما يستهدفون له من غزوات تقوم بها قبائل وأقوام تطمع بهم ، كما يحاولون توسيع نفوذهم ونشره بحيث يخضعون لهم مقاطعات حضرية اخرى . ولن يلبثوا ان يجدّوا سعياً وراء مفاتن الحياة ولذائذها ، فيدب فيهم الضعف وتهن شوكتهم وتسترخي عضلاتهم بعد ان ينغمسوا في ملذات الاكل والشرب والقصف والتسري ، والفلفنة ، فتميل ، شمس دولتهم نحو الغروب لتنهار فجأة تحت ردّة وطنية او تحت غزوة اجنبية .

الدولة متمدية الجيش

اقتبست ذراري القبائل الرّحل التي قامت بالفتح ، الكثير من حضارة الشعوب التي غلبوها على امرها ، اذ كانت اسمى بكثير مما تم لهم منها ، فصح بهذا القول ، بانهم هم ايضاً غُلبوا بدورهم على امرهم ، الا انهم لم يذوبوا مع الاهلين الذين جرى اخضاعهم ، بل ألفوا طبقة ممتازة هي طبقة العسكريين التي سيطرت على البلاد واستغلت أبشع استغلال الرعايا المغلوبين . ولم يشذ العثمانيون عن القاعدة . فقد ألفوا مادة الجيش وكانوا عماده ومادته ، فاذا بالجيش هو الدولة ، واذا بالسلطان زعيم حرب وقتال يجري انتخابه من قبل الجيش من بين اعضاء الاسرة الحاكمة ، بالنظر لما لها من نفوذ ومنزلة رفيعة في قلوب السكان ، لانحدار هذه الاسرة من السلطان عثمان جد العائلة ومؤسس الدولة الاول . وللسلطان سلطة مطلقة هي أكبر سلطة تمت لحاكم منذ التاريخ القديم . فهو « أمير المؤمنين » ، هذا اللقب الذي حمله منذ ان فتح السلطان سليم الاول ، مصر ، عام ١٥١٧ ، بعد ان حمل آخر خليفة عباسي ، هو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء العباسيين في مصر ، على التنازل له عن هذا اللقب وبذلك أصبح السلطان خليفة الرسول العربي بعد ان انتقلت الخلافة من العرب الى الاتراك ، فولي أمر المسلمين ، وأصبح « خادم الحرمين » فجمع في قبضته : السلطة الزمنية باعتباره قائد الجيش الاعلى ، والسلطة الروحية ، باعتباره خليفة الرسول ، وبذلك شكلت السلطنة العثمانية دولة ثيوقراطية . فقد حمل بوصفه القائد المظفر ، ألقاب وسلطات الملوك الذين اخضعهم لسلطانه ، فهو البادشاه او باديشاه او الامبراطور ، منذ ان تم له فتح القسطنطينية (١٤٥٣) ، وهو أمير البرين والبحرين ، وهو قيصر الروم وخليفة اوغوسطس قيصر وقسطنطين ، وهو الفاسيلفس في نظر رعاياه من اليونان وريث الامبراطورية البيزنطية . وعلى هذا الاساس راح ينظم بلاطه وحكومته . فالقانون لا يطاله لانه فوق القانون . له وحده الحق ملء الحق بفتوى من كبار العلماء ، ان يصفي بالصورة التي يراها ، اخوته واولاد اخوته ليؤمن للدولة الهدوء والسلام والاستقرار . ومع ذلك ، وبالرغم مما يتمتع به من حقوق وسلطات واسعة فهو يبقى جديراً بحمل هذا اللقب طالما يوجه جيوشه المظفرة ، من نصر الى نصر ، ويسهل لهم الغزو واسبابه وما يوفره الغزو من سلب ونهب واستباحة ، ويقضي بضربة سيف ، على من يجرؤ برفع صوته محتجاً او مطالباً ، طالما له هالة القائد المظفر وطالما تتهيبه النفوس ، ويتفادى الناس ضربته القاضية التي لا طبّ لها ولا منها شفاء .

فهو يتولى قيادة جيش يتألف أساساً من كتائب يشكل الامراء الذين له عليهم حق التبعية والولاء ، ومن فرق حديثة معظمها من المرتزقة ، فيعمل اصحاب الاقطاعات على توفير ما يلزم له من خيل لفرق الخيالة ومن مشاة . وتتألف فرقة الخيالة من اصحاب التيمادات ورؤساء المقاطعات . فعلى صاحب التيمار ان يقدم فارساً مع خادمين او ثلاثة خدام ، بينما يترتب على الزعيم ان يقدم حوالي ٢٥ فارساً .

المنزلة الاولى في الجيش لفرقة الإنكشارية ، التي بلغ عدد افرادها ، في عهد السلطان سليمان

القانوني ١٢٠٠٠ من المشاة ، كما ضمت بعض الكتائب من فرسان الخيالة

كانت البلاد تخضع لسلطات مسلسلة على شاكلة نظام الجيش نفسه ، يعاون السلطان كبير الوزراء او الصدر الاعظم يساعده اربعة وزراء ووزير للشؤون الخارجية يُعرف برئيس افندي . وكان يحف به عدد الآغاوات او ضباط بعض الفرق ، امثال آغا الانكشارية ، وآغا المشاة . ويرأس قيادة الاسطول الحربي موظف كبير يلقب قبطان باشا تمتد سلطته فوق الجزر ويشرف على علاقات الدولة مع المسيحيين . ويأتي في الدرجة الثانية ،بعد هؤلاء ، عدد من كبار الموظفين، بينهم : النسجنجي او امين سر الدولة ، والدفتردار او وزير المالية ، وقاضي عسكر او قاضي الجيش . اما شيخ الاسلام ، فكان رئيس فرقة العلماء والفقهاء ورجال الدين ، ومن بين رجال هذه الطغمة ، كان السلطان يختار القضاة والفقهاء وقاضي العسكر ، وغيرهم من رجال الدين الذين كانوا يقومون بوظائف رسمية في الدولة العثمانية .

اما علاقات الدولة او الادارة بالولايات والسناجق ، فكان يؤمنها موظفون كبار يحملون لقب بيلر بك ، يتولون مهام الادارة العليا في الاناضول والروملي ، ويليهم مرتبة ، الباشوات الذين امتدت سلطتهم الى عدة سناجق : ويقوم على ادارة السنجق « بك » الذي كان يشرف على اعمال وتصرفات اصحاب التيمارات والزعماء . وكثيراً ما كان البكوات يلتزمون اعمال الادارة ، شرط ان يتعهدوا بضبط العدل واقامة حدوده بين الناس ، والمحافظة على الامن ، وتأمين جباية الضرائب والرسوم وحملها الى خزينة السلطان وتقديم ما يترتب عليهم من الرجال للعمل في الجيش . وكان اصحاب التيمارات والزعماء يتوارثون أباً عن جد ، إقطاعاتهم فينقلوها الى الذكور من ولدهم ، وكانوا يخضعون لنظام دقيق من الترقية والترقيع ، بحيث يرقى احدهم من تيمار الى زعيم ، الى حاكم سنجق .

وتحت العسكريين ومن في خدمتهم من العلماء والكتاب ، كان يأتي رعايا الدولة معظمهم من الفلاحين والمزارعين وسكان المدن والريف ، بين مسلمين ومسيحيين يستغلونهم أبشع استغلال .

كان السلطان ، ولا شك في ذلك ، اغنى ملوك اوروبا قاطبة ، يتناول من رعاياه المسلمين العُشر ومن المسيحيين ممن يخضعون لسلطته ، رسم الخراج . وهنالك رسوم تُفرض على الاملاك والعقارات ، سواءاً اكان اصحابها مسلمين او نصارى . كذلك كانت تصل الى خزينة الدولة ، واردات المكوس ، ورسوم الجزاوات ، والمصادرات وحصائل الفدية المفروضة على المغلوبين ، وأسلاب الحروب ، وغير ذلك . وكان القسم الاكبر من هذه الواردات يلزّم للمتعهدين الذين يقومون على مسؤوليتهم باعمال الجباية وضبط الرسوم . فلا عجب ان تبلغ واردات السلطان من الاموال ، ضعفي ما كان يدخل خزانة الامبراطور شارل الخامس .

الفرة التركية رهن باصحاب التقنيات من الاوروبيين

كان الاتراك العثمانيون ، قليلي العدد ، نسبياً ، كما انهم انحدروا من حضارة قليلة الشأن والشأو . ومع ذلك ، فقد استطاعوا ان يصونوا امبراطوريتهم طويلاً وأن ينمّوهـا ، بعد أن عرف السلاطين أن يُدخلوا في خدمتهم ، افضل الموظفين ، ويستفيدوا ، على احسن وجه ، مما تم لهم من تقنيات ومهارات فنية . فقد جيء بجانب كبير من افراد الجيش التركي ورؤسائه وصنّاعه من بين المغلوبين على امرهم من المسيحيين والارقاء وأسرى الحروب، واسرى فريسة الغزو ، او من بين الذين جحدوا ايمانهم . ولعل خير كبار رجال الادارة ، وخير ضباط الجيش كانوا من بين رجال هذه الطبقات التي أشرنا اليها . فقـد تولى ادارة الدولة واشرف على تطورها ونموها ، وقام بأمر الدفاع عنها فريق طلع من بين الارقاء ، او من بين الذين جحدوا دينهم من المسيحيين .

وفرقة الانكشارية نفسها التي كانت خير فرق الجيش التركي ، تألف معظم افرادهـا من احداث مسيحيين وقعوا في الاسر . وكان الاتراك يتقاضون كل خمس سنوات ضريبة الدم ، اذ كانوا يتوغلون بعيداً ، في غزواتهم ، داخل بلاد النصارى ، فيأخذون ٢٠ ٪ من احـداثهم ينتقونهم من احسنهم ملاحة وأقوامهم بنية وقوة واعفاهم صحة ، ويخضعونهم لتربية اسلاميـة ويخرجونهم بتعاليم القرآن ، ثم يدخلونهم في الجيش ويجعلون منهم جنوداً محترفين يحظر عليهم الزواج ، وتعاطي التجارة او اية مهنة أخرى ، فتألفت منهم فرقة ذات قيمة حربية عاليـة ، أخلص الكثيرون منهم الخدمة للاسلام والسلطنة ، وتميزوا بعصبيتهم المغالية للاسلام . احتفظ بعضهم ، وهم قلة ، في سرائرهم ، بذكريات من العقائد الدينية التي شبوا عليهـا في حداثتهم الاولى ، كما غرق بعضهم في بحر من التشكك . الا انهم استمسكوا كلهم بروح النظام ، وتعشقوا الخدمة العسكرية واخلصوا لها ، وكانوا يتباهون بانتمائهم الى فرقة مختارة ، كثيراً ما رفعت الى العرش او دحرجت الى الحضيض ، السلاطين ، على قدر ما اخلصت لهم او تنكرت لهم .

كذلك ، هنالك عدد كبير من الذين تولوا مراكز الصدارة والوزارة والقيادة كانوا غرباء الاصل ، بين أرقاء وأسرى وجاحدين لدينهم المسيحي . فمن بين ٤٨ صدراً أعظم ، ١٢ لا غير ولدوا من أب مسلم . ومجلس الوزراء ، لم يكن في الغالب الا من الارقاء . ثم ، السلطان نفسه . من هو ؟ فقد اعتاد سكان القسطنطينية ان يلقبوه بـ « ابن العبدة » . والسلطانـة الوالدة ، ام السلطان ، كثيراً ما كانت : روسية او شركسية ، او يونانية او ايطالية . فالسلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤) كان بأمه ، نصف روسي ، والسلطان محمود الثالث (١٥٩٥ – ١٦٠٣) كان ، بأمه ، نصف ايطالي ، وعثمان الثاني (١٦١٣ – ١٦٢١) ومراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) وابراهيم الاول (١٦٤٠ – ١٦٤٨) ، ومصطفى الثاني (١٦٩٥ – ١٧٠٣) كانوا ، بامهاتهم ، نصف يونان .

برهن الاتراك العثمانيون عن مقدرة وكفاية بالغتين ، في اقتباسهم للاختراعات والاكتشافات

الحربية التي حققها الاوروبيون ، مما آمن لهم التفوق العسكري والحربي . فقـــد كانوا أول من استعمل ، على نطاق واسع ، الاسلحة النارية والمدفعية وقد حافظوا بدقة على اساليب التعبئة الحربية عندهم . فالميمنة ، تألفت على الاجمال ، من فرسان الخيالة ، يؤتى بافرادها من الاناضول وبلاد الكرمان ، بينما تألفت وحدات الميسرة من عناصر اوروبية . وقام في القلب فرقـــة الانكشارية ، سلاحها المفضل البندقية يحميها سور من المركبات والجمال ، ثم المدفعية القائمة من كلا الجانبين . وكانت النار تطلق بغزارة من المدفعيـــة ورماة البنادق ، فتحصد صفوف العدو حصداً قبل ان تنقض عليه فرقة الانكشارية لتمزقه شر ممزق . وعنـــدما استولى السلطان سليمان عام ١٥٢٣ ، على جزيرة رودس ، اخذ الاتراك بتنظيم حملات بحرية واسعة وانشأوا لهم عمارات واساطيل قوية جابت ارجاء حوض البحر المتوسط ، وجعلت المواصلات فيـــه بخطر دائم وتمكنت من قطعها احيانا بين الجزر العديدة . وما خسروا معركة ليبانت البحرية ، عام ١٥٧١ ، الا لتفوق سلاح المسيحيـــين على سلاحهم . ولذا راحوا يعملون بنصيحة أولغ علي ، حاكم مدينة الجزائر ، وهو من اصل مسيحي ومن مواليد نابولي ، جحد إيمانـــه ، فجهزوا سفنهم برمـــــاة مسلحين بالبنادق وبالمدفعية ، وبذلك أفسدوا على المسيحيـــين استئثار فوزهم العسكري السابق .

وهذه التجهيزات الحربية الفنيـــة ، عهد الاتراك بها الى فنيـــين من المسيحيين . فالتركي عسكري بدمه ، ولم يكن عنده اي إلمام بالتقنيـــات ، اذ كان الاسلام يحول دون اعدادهم رجالاً فنيين . ألم يكن القرآن مصدر كل العلوم النافعة . اما العلم الاوروبي ، فقد تبين فيه المسلم عمل الشيطان وصنيعه . فالاسلام لم يكن ليكترث بالعالم الخارجي . فخير الاعمال لدى المسلم هو الانقطاع لدرس القرآن والاسترسال في تفهمه . اما مهمته الثانية فهي تحقيق ما كان يحلم به المسلم : الجهاد المقدس ، وهي مهمة لم تكن لتنتهي قط . ولذا كان على السلطان ان يستقدم من اوروبا التي تميزت بتفوقها الفني والتقني ، ما كان بحاجة اليه من المدافع والمعادن والبـــارود . وكان يسعى جهده ليجد خارج السلطنة العثمانية الاخصائيين الذين كان بحاجة اليهم : كعمال النسيج وبنائي السفن ، والبحارة ، والعاملين في صب المدافع ، وفي اعمال الحديد وشغـــله على انواعها ، والعاملين في صناعة الاسلحة ، وراسمي الخرائط . وكان اول ما يهم الاتراك فعله بعد فوزهم في المعركـــة وضع ايديهم على الفنيين بين الاسرى . وعندما احتل السلطان سليم مدينة تبريز ، عام ١٥١٤ ، عاصمة الفرس آنذاك ، قبل ان يفتح القاهرة ، عام ١٥١٧ ، امر بنقـــل مهرة الصناع الى القسطنطينية . ومع ذلك فاوروبا وحدها تستطيع ان تقدم للسلطان اكبر عدد ممن يحتاج اليهم من مهرة العمال . واستدناءً لهم كان يغريهم بمرتبـــات ضخمة ، وبذلك أغرى الكثيرين على جحد دينهم المسيحي واعتناق الاسلام . وقد نشطت حركـــة التهريب على شواطىء البحر الابيض المتوسط ، في الشمال والجنوب . فحملت هذه الحركة الألوف مـــن الاوروبيين الى نكران دينهم واعتناق الاسلام . ولما كانت هذه الحركة لم تكن لتفي بحاجة

السلطان ومطلبه ، فقد عمد الى الغزو وتجنيد الحملات العسكرية . وما تكاد المعركة تنتهي حتى كان يصدر اوامره بنقل المدافع التي وقعت في ايديهم في جملة ما وقع من مسلوبات الحرب، الى القسطنطينية . كما كان يجري انتخاباً دقيقاً بين الاسرى ليختار من كان فنياً منهم وينتفع بمهارته . كانت اعمال القراصنة توفر له العدد الكافي من الاسرى . فالحرب وحدها هي التي تساعد على مد السفن بحاجتها من الجذفين ، ومن الاسلحة الحديثة ، ولذا كانت الحرب الناجحة او المظفرة من ضرورات هذا الجيش الذي كانت السلطنة العثمانية عماده الاكبر .

الخطر التركي

ألفت السلطنة العثمانية خطراً مستمراً على اوروبا وشوكة حادة تنخس على اوروبا ومسلمو اسبانيا في جنباتها ، وقد بلغ هذا الخطر أشدّه في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) . وعندما تم له الاستيلاء على جزيرة رودس عام ١٥٢٣ ، هذه الجزيرة التي كانت تمثل نقطة الدائرة في اعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة المسيحيون في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، اذ كانت سفنهم تقف سداً منيعاً يحول دون الاتصال بالمرافىء والاسلكة الواقعة على سواحل سوريا او في مصر او تتناثر على سواحل افريقيا الشمالية حتى اسبانيا ، اذ كانت هذه الاعمال تقطع اتصالاتها مع صقلية ومقاطعات بُوْيْل ونابولي المشهورة بانتاجها ، فتهدد اسبانيا بالمجاعة ، كما كان من شأنها ان تشوش عليها امر تتفيق وارداتها من العالم الجديد ، كما كانت تقطع عليها الاموال والعوائد الجباة من المقاطعات الايطالية كما كان من شأنها ان تهدد املاكها السيادية في ايطاليا ، هذه الاموال التي كانت اساس المعاملات المصرفية مع متمولي المانيا وجنوى، والتي كانت تمد شارل الخامس وابنه فيليب ،بجانب كبير من الاموال اللازمة للنهوض بالحروب التي خاضاها . ثم ان اسبانيا كانت تحسب حساب قيام ثورة مسلحة في اراضيها نفسها كما كانت تخشى ان يقوم الاتراك انفسهم بعملية انزال جيوشهم في بلادها اذ كان لا يزال فيها عدد كبير من ذراري المسلمين بعد سقوط مملكة غرناطة في ايدي الاسبان ، واعداد غفيرة منهم في مقاطعة قشتالة اقام في مملكة بلنسية عدد كبير من العرب من ذراري الفتح يؤلفون جانباً كبيراً من البروليتارية يعملون تحت اشراف رؤساء مسيحيين . اما في اراغون ، فقد كان عدد العرب كبيراً ايضاً تتألف من بينهم جماعة الصنّاع ويؤلفون مجتمعات تعمل في الزراعة وتربية الماشية . وكان يوجد بعض جماعات منهم في مقاطعات استوريا وبسكاي ونافار يعملون في الصناعة او في التجارة متنقلين . وألف العرب المسلمون في مملكة غرناطة مجتمعاً حسن التنظيم كان معظمهم من البورجوازيين اغنياء ، ينتشرون في هذه الربوع التي تمتد من مدينة الديسني الى غرناطة او كانوا يقومون باعمال البستنة ، واستمروا يباشرون بحرية تامة واجباتهم الدينية . ونزولاً عند رغبات المسيحيين ، قام الملوك الكاثوليك ، عام ١٤٩٩ ، بمحاولات كبيرة واسعة لتمثيل هذه العناصر وامتصاصها . وصدرت الاوامر الى عرب غرناطة بوجوب اعتناق المسيحية او النزوح عن البلاد ، خلافاً لمنطوق الاتفاق الذي وقع بين الطرفين ، عام ١٤٩٢ ، هذا الاتفاق الذي ضمن لهم الحرية الدينية وحرية ممارسة طقوس الاسلام . وجرى

تطبيق هذا القانون في جميع انحاء قشتالة . كذلك طلب تطبيقه بالعنف والقوة نصارى مقاطعات اراغون وكتالونيا وبلنسية اثر هذه الحركات الانتفاضية التي قام بها المسلمون ، سنة ١٥٢٠ – ١٥٢١ واستمر العرب في ممارسة شعائرهم الدينية سراً في منازلهم بعد ان احتاطوا لامرهم ، كما انهم اتخذوا لهم علامات مميزة كاللباس الشرقي واستعمال الحمامات الشرقية والاحتفاظ باللغة العربية . وقد زاد شعور العداء نحوهم بعدما أطل على البلاد الخطر التركي . وقد غذّت متاعب الحياة ومصاعبها الحسد في نفوس الاسبان بعد الذي رأوه من قناعة القوم وحذقهم ومهارتهم في الصنائع والفنون التي كانوا يتعاطونها،والاعمال التجارية التي كانوا ينصرفون اليها بنجاح . وراح الاسبان ، ومعظمهم موظفون في خدمة الدولة او كهنة في خدمة الكنيسة يتفننون باعمال العنف والتشفي ، لحملهم على الثورة بغطرستهم واعمالهم المثيرة ، ويبتزون اموالهم ومقتنياتهم ، ويسلبونهم نساءهم وبناتهم . وقد عرف عرب الاندلس كيف يحافظون على علاقاتهم الوطيدة مع البلدان والممالك الاسلامية الاخرى وان ينموها ويزيدوها نشاطاً على نشاط . وكانت سفن المسلمين تجوب البحر ذهاباً واياباً بين المرافيء الاسبانية ، والموانيء الاسلامية الواقعة الى الشمال من افريقيا . وراح المسيحيون يتهمونهم بجمع الاسلحة بقصد الثورة واعلان العصيان . فتذرعت الحكومة الاسبانية بهذه الاسباب للقضاء على هذه الفردية ، فاصدرت عام ١٥٦٦ ، امراً يحظر على المسلمين ارتداء اللباس الشرقي ، وإيصاد ابواب منازلهم ليلاً واستعمال الحمامات العامة والانقطاع عن استعمال العربية لغة للتخاطب فيما بينهم . فثارت غرناطة ، عام ١٥٦٥ ، وبعد ان اخمدت الحكومة الثورة ، عمدت الى تهجير العرب القاطنين في سهول غرناطة الذين كانوا يغذّون ، بمساعدتهم المالية والعينية ، بعض مراكز المقاومة . اما في قشتالة والاندلس والمناطق الريفية الاخرى المحيطة بمدينتي اشبيلية وطليطلة ، فقد استمر العرب في اعمالهم ومصالحهم التجارية والصناعية ، يعيشون على هامش الحياة في اسبانيا ، همهم الاثراء واكتناز الثروات ، رافضين بعناد كلي الذوبان في صفوف الاسبان . وفي سنة ١٦٠٩ ، قررت الحكومة الاسبانية ، التخلص منهم بابعادهم نهائياً واجلائهم عن البلاد .

تقدم الاتراك في البلقان

تابع الاتراك تقدمهم في ارجاء البلقان . فاحتل السلطان سليمان القانوني بلغراد عام ١٥٢١ ورفع حدود السلطنة ، من نهر الساف الى الدانوب ونهر الدراف ثم تجاوز بها نهر الدانوب ، ولم يلبث ان هاجم المجر . فبعد ان تمكنت كتائب خيالة المجر ،في معركة موهاكس، من اختراق صفوف عدة فرق تركية ، راحت المدفعية التركية ورماة الانكشارية تحصدهم حصداً ، وقتل الملك لويس في المعركة عام ١٥٢٥ ،ودخل السلطان مدينة بودا عاصمة المجر ، وبذلك انفتحت الطريق امامه لمهاجمة المانيا والنمسا . وجاء السلطان عام ١٥٢٩ ، ينصب الحصار حول مدينه فيينا ، حتى ان طلائع الخيالة بلغت في اندفاعها مدينة راتسبون ، الا انه اضطر ان يرفع الحصار . وبقيت حملات الاتراك وغزواتهم الدورية كل سنة ، سيفاً مصلتاً فوق رأس النمسا والمسيحية في اوروبا ، الى الحصار الذي تعرضت له

فيينا ، عام ١٦٨٣ . وقد يسر اعمال الفتح في البلقان والتوغل الى الشمال ، هـذه الانقسامات التي نشبت بين المسيحيين على اختلاف مللهم ومذاهبهم . فقد خضع الشعب في البلقان لنظـام سيادي بغيض وسيطرة شديـدة الاسر ، يجعل الفلاحين يعمـدون كثيراً الى الثورة ضد اسيادهم . ولم يلبث ان حل محل هؤلاء الاسياد ، اصحاب التيمارات الذين اخـذوا يشددون في جباية الرسوم العينية بدلاً من اعمال السخرة التي أجْبرَ الفلاحون على القيام بها ، من قبـل . ولم يلبث هؤلاء الفلاحون ان شعروا بالارتياح الكلي للنظـام الجديد الذي أخضعوا له والذي حمل لهم في ثناياه بالرغم من بعض الاعمال التعسفية والابتزازات التي تعرضوا لهـا ، من وقت الى آخر ، الهدوء والطمأنينة بعد الذي خبروا وعاشوا من الحروب الدائمة بين الامراء المسيحيين ، فاستتب الأمن ، وقطع دابر القرصنة والتعديات ووضع حد لاعمال قطاع الطرق الذين اعتادوا ان يعيثوا فساداً ، فابرهن النظام الجديد عن روح تسامح ديني ، اذ تركهم يتمتعون بمؤسساتهم وعاداتهم . ثم ان عدداً كبيراً من الدويلات التي وقعت فريسة الفتح التركي ، احتفظت بامرائها وحكامها ، بعد ان تعهدت للدولة الفاتحة بتأمين الخراج والاعتراف لها بالولاء والتبعية ، من بينها جزيرة نكـسوس ومقاطعة مولدافيا وفلاخيا وترنسلفانيا ، وبقي سكان الجبـال على استقلالهم بالفعل معتصمين بمعاقلهم الحصينـة . بينما سيطر الاتراك سيطرة تامة على السهول وثغور البلاد ومعابرها الرئيسية لتأمين سلامة شبكة مواصلاتهم . بينما فضّل المغلوبون على امرهم النظام الجديد على حكومة الاسبتارية في رودس ، وادارة عمال البندقيـة في كريت والموريه ، وعلى سلطة الامراء المحليين في صربيا ورومانيا وهنغاريا . وهكذا برز السلطان سليمان الكبير ، سيد اوروبا غير المنازع ، له فيها الكلمة الفصل ، فاعاد توازن القوى بين فرنسوا الاول وشارل الخامس . فلولا وجود الاتراك والدور البالغ الاثر الذي لعبوه ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر لكان عاهل آل هبسبورغ تمكن من تحقيـق الحلم المعسول الذي كثـيراً ما دغـدغ منـه الخاطر .

الاسباب الكامنة وراء فشل محاولات الاتراك العثمانيين ضد المسيحية

عجز الاتراك عن فرض سيطرتهم على المسيحية كما فشلوا في القضاء على ما اعترض سبيلهم وحدّ من زخم اندفاعهم من روح المقاومة . فقد كانت المسافات الشاسعة العائق الاكبر والحائل الاول الذي شل حركتهم وفتّ في عَضدِهم . ففي عام ١٥٦٦ ، قضى سليمان القانوني ثمانين يوماً ليبلغ شواطىء الدانوب . وقد كان بحاجة الى قوافل لا تنتهي ، لتأمين تموين جيوشه ، تعد من ٢٠ — ٤٠ الف جمـل او بعير . وهكذا أصبح تأمين عتاد الجيش امراً صعباً للغاية ، بعد ان ابتعد كثـيراً عن قواعـده ، ليعمل في بلاد درستهـا الحرب وافقرتها وكدست فيهـا الخراب والدمار . وبذلك فرضت المسافات والابعاد على السلطنة حدودها المعقولة .

ومن جهة اخرى ، لم يساند الاتراك جدياً ، في البحر المتوسط ، الحركات التي قام بهـا الفرنسيون والمسلمون في شمالي افريقيا . فاقتنعوا من حركاتهم باعمال الغزو والسطو الطارىء ،

أخذاً منهم بعاداتهم المألوفة وتردد الملك الحسن العبادة (لقب ملك فرنسا). فلو عرف الاتراك عام ١٥٤٣ ، إثر نزولهم في مدينة نيس ، واقامتهم في فرنسا بعد احتلالهم لمدينة طولون ان يشنوا هجوماً مركزاً ضد مسينا ونابولي، وعرفوا ان يحتلوا هذين المركزين ، لكانوا قطعوا تماماً مواصلات امبراطورية آل هبسبورغ ، وقطعوا بالتالي سبل القوافل المحملة قمحاً الى اسبانيا ، كما كانوا وقفوا حاجزاً في وجه العمارات الاسبانية التي كانت تنقل الامدادات الحربية والعسكرية الى المدن الايطالية ، ولكانوا سدّوا في وجهها منافذ وصول النقد اليها وبذلك هددوا الامبراطورية بأسوأ مصير وتسببوا بانهيارها .

الحرب ضد الفرس

اضطر الاتراك مراراً لخوض الحرب على جبهتين ، وان يواجهوا في وقت واحد ، حروباً قامت في جبهات اخرى . ولحسن حظ اوروبا والمسيحية معاً ، فقد ابتلي العالم الاسلامي بالشقاق والانقسام على نفسه . فقد قام السلطان سليم الاول ، بين ١٥١٦ – ١٥١٨ ، بحروبه ضد المماليك في سوريا ومصر ، وقد فتحت له الانتصارات الساحقة التي حققها بفضل المدفعية ، على فرسان المماليك ، ابواب سوريا وفلسطين فدخل دمشق والقاهرة ظافراً ، كما احتل بعد قليل اليمن . كذلك اضطر الاتراك للقيام ، دورياً بحملات تأديبية ضد الفرس ، يستهدفون منها تأمين سيطرتهم على أرمينيا والعراق ، ليبلغوا عبرها ، المقاطعات الفارسية ، التي كثيراً ما شرهوا الى امتلاكها كأذربيجان والكردستان ومقاطعات بحيرة وان وتبريز . وقد تلبست حروبهم ضد الفرس طابع حروب دينية ، اذ ان الفرس كانوا في غالبيتهم الساحقة ، من الشيعة الامامية ، بينما كان الاتراك على السنة . وكان الفرس يقومون بدعوة ناشطة لنشر مذهبهم . وحاول الشاه اسماعيل ، في مطلع القرن السادس عشر ، نشر التشيع بنشر تعاليم الامامية بين سكان الولايات التركية الواقعة الى الشرق من امبراطوريتهم .

بين الشيعة والسنة عداوة زرقاء وعداء مستحكم ، اضطر معه السلطان ان يتوقف عن متابعة الحرب في اوروبا ليرتد بجيوشه ضد ممالك فارس . وكانت اولى ردة فعل من قبل السلطان سليم على جهود الشاه اسماعيل ومحاولته الدعوة للشيعة في الولايات التركية ، ان قام بمذابح دامية بينهم زهقت فيها ارواح كثيرة أربى عددها على ٤٠،٠٠٠ شيعي (١٥١٣) ، كما انه ابلغ الشاه ان علماء الاسلام اصدروا فتوى اعلنوا فيها خروجه على الاسلام واستباحوا دمه بوصفه من الخوارج ، معلناً ضدّه الجهاد المقدس ، وارسل ضده جيشاً مؤلفاً من ١٤٠٠٠٠ محارب . وتابع سليمان القانوني الذي اتقد غيرة على السُنّة ، هذه السياسة ، وقام ضد الفرس بعدة حملات عسكرية ، سنة ١٥٣٥ و١٥٤٨ ، و ١٥٥٤ . وقام خلفاؤه من بعده بعدة تجريدات دارت فيها الحرب سجالاً ، انتهت بمعاهدة اعادة السلام موقتاً بين الطرفين ، ابرمت عام ١٥٩٠ ، نال معها مراد الثالث تبريز وشيروان وبعض المرافىء الواقعة على بحر قزوين ،

وبلاد الكرج واللورستان . وقام السلاطين الاتراك ، بين ١٦٠٢ – ١٦٢٧ ، بعدة حملات عسكرية ضد الشاه عباس الكبير ، كما قام السلطان مراد ، عام ١٦٣٠ ، و ١٦٣٨ بتجريدتين عسكريتين ضد الشاه صافي .

كان من بعض نتائج هذه الحروب المتعاقبة بين الفرس والاتراك ، ان رفعت الخطر التركي عن الغرب . كثيراً ما تغلب الاتراك بمدفعيتهم الثقيلة على فرق المشاة الفرس التي كانت فرقة الخيالة بينها تستعمل الدبوس والنبوت الحديدي والقوس والنشاب ، الا ان الاتراك عجزوا ، هنا ايضاً ، عن تحقيق نتائج نهائية وتسجيل انتصارات حاسمة لسبب بسيط جداً هو بعد المسافات التي كان على جيوشهم ان تقطعها . وكثيراً ما كان الامراء المحليون الذين قامت اماراتهم في قلب هذه المناطق الجبلية الوعرة المسالك ، يميلون بولائهم لهذا الجانب او لذاك ، وفقاً لظروف الحروب . اذ كثيراً ما اضطر الاتراك لحمل النجدات الى بعض النقاط والمراكز ، في جبهتهم الطويلة في اوروبا ، لتعرضها لهجوم مفاجىء . وقد استطاع الفرس ان يجهزوا جيشهم في عهد الشاه عباس الكبير ، بالمدفعية ، مما جعل كفة الحرب تميل اليهم .

الاصطدام مع البرتغاليين والازمات الاقتصادية

كثيراً ما اضطر الاتراك للانثناء من حروبهم في اوروبا والانكفاء ليواجهوا منافسة البرتغاليين بعد ان اشتدت مزاحمتهم لهم في الاسواق التجارية ، او ليعالجوا الازمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتها حولهم على اثر الجفاف والقحط الذي كان ينزل ببعض ولايات السلطنة العثمانية ، وهي أزمات كثيراً ما تضاعفت ورافقها ازمات اجتماعية واضطرابات سياسية ، على غرار ما كان يصيب اوروبا منها . وقد زادت هذه الازمات عنفاً واحتداماً في السلطنة العثمانية وفي اقطار افريقيا الشمالية من جراء سيطرة البرتغاليين على سواحل القارة الافريقية . والظاهر ان البرتغاليين استطاعوا ان يستصفوا لحسابهم ، الذهب الافريقي وغير ذلك من محاصيل القارة السوداء ، مما ادى الى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع اقطار المغرب وطرابلس الغرب ومصر نفسها . كما انخفضت حركة التجارة البحرية بين المرافىء الافريقية القائمة على الساحل الشرقي وجزيرة العرب ، كما نتج ، عن ذلك كله ، تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الاسلامي المتوسطي . ولهذا رأى الاتراك انفسهم مسوقين لمحاربة البرتغاليين . فقد اصبح الاتراك ، بعد الفتوحات التي تمت لهم ، على سواحل البحر الاحمر وفي العراق كما اصبحوا بعد احتلالهم للسويس والبصرة ، احدى الدول المطلة على المحيط الهندي . ولذا كثيراً ما استنفرهم مسلمو الهند وجزر السوند وطلبوا تدخلهم لحمايتهم من تعديات البرتغاليين . فقد وردت على السلطان ، في القسطنطينية ، عام ١٥٣٨ ، بعثة ديبلوماسية من بهادور ، امير غوجيرات ، يشكو اليه عدوان البرتغاليين على بلاده واستيلائهم على مدينة ديو . وفي سنة ١٥٤٧ ، ارسل الامير علاء الدين ، احد امراء الهند ، يستنجد بالسلطان. وفي سنة ١٥٦٣ ، وفد على السلطان وفد ملك أتشي يطلب منه تزويده بالمدافع ليرد عنه عادية البرتغاليين ، وهكذا توالى وصول الوفود والبعثات من الهند ومن جزر السند ، حاملين

معهم الهدايا السنية كالبيغان والتوابل والطيوب والبلسم والعبيد والخصيان ، يستنجدون بالسلطان ويستنفرون غيرته شعوراً منه ومنهم بالتضامن الاسلامي ، ودفاعاً عن حوزة الدين ومحافظة على هيبة السلطنة ، وحماية للحجاج المسلمين القادمين من الهند للحج الى بيت الله الحرام الذين كثيراً ما تعرضوا لاعمال القرصان البرتغاليين فيُصادرون منهم المواد الثمينة التي كان يحملها هؤلاء الحجاج ومعهم التوابل والخزفيات الصينية وغير ذلك ، ورغبة باستخلاص ذهب افريقيا من الذهاب الى ايدي البرتغاليين ، وتأميناً للخشب اللازم لبناء السفن ، هذا الخشب الذي كانت افريقيا وحدها تستطيع تقديمه للاتراك ، بعد ان انزلوا اسطولهم الى البحر الاحمر والخليج الفارسي ، كل هذه الاسباب مجتمعة ، حملت الاتراك على التدخل. ففي سنة ١٥٣٨ احتل الاتراك عدن ، وبذلك سيطروا تماماً على البحر الاحمر الذي اصبح بالفعل بحيرة تركية . وقد قام الاتراك ، بهجمات متتالية ضد مدينة ديو ، مفتاح الهند الشمالية الغربية ، وذلك عام ١٥٣٨ ، و ١٥٤٦ ، و ١٥٥٢ ، تمكن البرتغاليون من إحباطها وتفشيلها بنجاح ، كذلك اضطر البرتغاليون ان يبذلوا جهوداً مريرة ، حفاظاً منهم على الحبشة المسيحية ، وحاول الاتراك ، مرتين : عام ١٥٥١ و١٥٥٣ ، ان يسيطروا على الخليج الفارسي ، باحتلالهم لمدينة ارموز فارتدت سفنهم خاسئة بعد ان منيت بالفشل الذريع . ومنذ عام ١٥٧٥ ، حملت الازمة النقدية ، وضم البرتغال الى اسبانيا على يد الملك فيليب الثاني ، الاتراك العثمانيين على تحويل جهودهم الحربية الى البحر المتوسط حيث عهدوا الى اسطولهم بمراقبة حركات الدول المسيحية فيه ، وانصرفوا الى محاربة البرتغاليين في المحيط الهندي لكي يؤمنوا لهم ما يلزمهم من الذهب ، فاستطاع الاسطول التركي ، عام ١٥٨٥ – ١٥٨٦ ، ان يفرض فجأة سيطرته على الثغور والحاميات القائمة على ساحل البحر الاحمر ، كما احتل الاسطول التركي مدينة صوفالا التي كان ينتهي اليها الذهب المستخرج من مناجم مونوموتابا . وقام امير مونباسا يعلن ولاءه للسلطان وتابعيته له . لم يطل أمد هذا الفشل اذ استطاع الاسطول البرتغالي بقيادة توما ده صوزا ان يحطم الاسطول التركي في نهر مونباسا ثم تحولت المنافسة بين الجانبين الى المحيط فاصبح مجالاً لمنافسة حادة بين الطرفين . وهكذا بواسطة هذه الحروب العارضة تحول الخطر التركي عن اوروبا المسيحية .

بين تأخر الاتراك والنظام العائلي في الاسرة المالكة

بعد موت السلطان سليمان القانوني بقليل أخذت تبدو على الاتراك اعراض التأخر والقهقرى ، وهي اعراض ازدادت حدة منذ اواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر . ولعلنا نستطيع ان نرد سبب هذا التأخر الى التنظيم الذي كانت عليه الاسرة المسلمة من وجهة تعدد الزوجات . فقد غام حق الوراثة بين اولاد الاب الواحد من عدة نساء مختلفات . ومن هنا طلعت علينا دسائس زوجات السلطان بغية تأمين الحكم لابنائهن ولابقاء هذا الابن الذي اصبح سلطاناً تحت نفوذ

امه باخضاعه لتربية رخوه ، هشة ، متخنثة باشباع جميع شهواتـه ، حتى اذا ما صار اليه امر السلطنة لن يلبث ان يصبح ألعوبة بيد نسائه والخصيان والوزراء واخوته الذين لا يقلون عنـه حقاً في الخلافة فيسلموا بسهولة بمثل هذا التدبير الجائر الذي حرمهم حقهم المكتسب. فكثيراً ما حملوا السلاح وقاموا بثورات وحروب اهلية في سبيل تحقيق مطامعهم ، كهـذه الحروب التي نهض بها وخرج منها منتصراً السلطان سليم الثاني، بعد موت ابيه سليمان القانوني الكبير. وكثيراً ما لجأ السلطان الى القتل للتخلص من اخوته وبذلك يتفـادى مطالبتهم بحقوقهم في الحكم. فالسلطان مراد الثالث الذي اشتهر بتقواه امر بخنق اخوته الخمسة ، كما ان السلطان محمد الثالث امر بقتل ١٩ من اخوته .

عدم كفاءة السلاطين

فالسلطان سليم الثاني « السكير » (١٥٦٦ – ١٥٧٤) قـد اعتلى العرش بعد ان اقصى عنه اخوته ، مع انهم كانوا اكثر اهلية منـه واكثر لباقة ، وذلك بفضل دسائس زوجته الروسية الاصل روكسلان ، وكان يقضي ايامـــه قابعاً في خبايا سراياه، بين الحريم، تاركاً امر تدبير شؤون السلطنة للموظفين الذين وكل اليهم ابوه امر الادارة. وقد تولى الحكم بعده ، عدة سلاطين احداث بينهم السلطان احمد الاول (١٦٠٤ – ١٦١٧) وعثمان الثاني (١٦١٨ – ١٦٢١) ، ولهما من العمر ١٤ سنة ، ومراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) وعمره ١٢ سنة ، ومحمود الرابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧) ، وعمره ٧ سنوات . حكم هـؤلاء تحت أوصياء لعبت النسـاء في عهدهم دوراً رئيسياً .

وقد استسلم السلاطين الاتراك للنساء بعد ان افسدتهم التربية المترفة ، المهفهفة التي خضعوا لها منذ نعومة اظافرهم ، تقضت ايامهم بين الكأس والطاس والقصف ، لا يلوون على شيء من امر السلطنة ، ولا يبالون بشيء البتة ، فاصبحوا عاجزين عن اتخاذ اي قرار او النهوض باية مهمة او القطع باي امر . فالسلطان مراد الثالث ، مثلاً راحت امه تشجعه على العبث والتسري نكاية بزوجته ، فانجب مائة ولد وانتهى امره مصاباً بداء الخُباط . وقد جـن ابراهيم الاول بعشق النساء ، فتيمه الفسق وتعتعه السكر ، فلم ير رجال البلاط بداً من التخلص منه خنقاً .

كان هؤلاء السلاطين عاجزين ، فقبعوا في زوايا قصورهم بعيـدين عن رعاياهم وتركوا شؤون الدولة وامورها جانباً ، وانقطعوا عن ترؤس مجلس الوزراء ، وابتعـدوا عنهم المتظلمـين ولم يجلسوا للقضاء . فلم يُخضعوا الوزراء والحكام لاية مراقبة وقعدوا عن الحرب . ثلاثة مـن بينهم لا غير قادوا جيوشهم ، اثنان منهم لمدة وجيزة ، هما محمود الثالث في حملتـه على كارازتس ، وعثمان الثاني في حملته على خوتين ، واخيراً مراد الرابع الذي كان بالفعل ، رجـل حرب وجهاد . وفقد السلاطـين النفوذ والهيبة التي كانت تحف بالسلطان من قبل كقائد مظفر ، ولم تعد فرقة الانكشارية ، لترعى لهم حرمة . ولما ساءهم ما كان عليـه السلطان سليم الثاني من ماض قذر لا يشرّف صاحبه ، استصدروا ، عام ١٦٢١ ، من شيخ الاسلام ، فتوى

بخلعه : أمن الجائز شرعاً قتل الذين يحملون السلطان على التزام الناس الأخذ بالتجدد ويعملون في الوقت ذاته على تبديد مال المسلمين ؟ ولما جاءت الفتوى بالايجاب راح الجند يقتلون السلطان ويعينون مكانه ، شخصاً بسيطاً مسكيناً هو السلطان مصطفى العاثر الحظ ، وهكذا نرى لاول مرة ، رعايا السلطان يقومون بقتله وما كان جند الانكشارية ليثوروا من قبل الا تلبية لمطلب احد الطامعين بالخلافة من افراد الاسرة المالكية . فان دل هذا القتل والظروف التي تم فيها على شيء ما ، فعلى ما وصل اليه الجنود والعلماء من اهمال واعراض وعدم مبالاة لدم عثمان الاول .

تنظيم الاسرة في الدولة : الفوضى

جر ضعف السلاطين العثمانيين على الدولة من العواقب الوخيمة ما لم يجره سوء سلوك ملك ، في الغرب ، من المحاذير والعواقب على مملكته . فالسلطنة العثمانية لم تؤلف دولة ، بالمعنى الحصري . فلم تقم فيها نظم ولا منظمات رسمية ، ولا مؤسسات اجتماعية ، لها حياتها الخاصة ، ولا قامت فيها جمعيات استوت على نظام . فالدولة كانت عبارة عن اسرة ، او بالاحرى ، احد اعضاء اسرة السلطان عثمان يختاره الجيش ويعينه رئيساً له وحاكماً عاماً . فالاسرة ، في الشرق الاسلامي لا تؤلف كائناً او وجوداً له كيان شخصي، مستمر ، كما هو معروف عن وضع الاسرة، في الغرب. فهي لا تحمل اسماً تُعرف به وتتميز بحمله. فالافراد يحملون اسمهم الشخصي متبوعاً باسم الوالد او الاب ، فالمؤقت صفتها الملازمة . فهي تقوم مقام الاب اذا وُجد . اما اذا مات وتوارى ، تشتت الاسرة بدداً وتبعثر افرادها . فاذا ما مات السلطان زال معه كل شيء . فاذا ما انكشف ضعف السلطان ، اخذ كل شيء بالتفتت والانحلال . وهكذا اخذت السلطنة العثمانية بالتفسخ تدريجياً .

كثيراً ما تولى الصدارة العظمى اشخاص لا قيمة كبيرة لهم ، اذ جرى تعيينهم بتوجيه من الخصيان او من نساء السلطان ، وراحوا فريسة الدسائس ، وبقي واقع الحكم والادارة بيد الخصيان والعبيد والزنوج ، وراحت اموال الدولة نهباً بين من عرفوا من اين تؤكل الكتف فيمعنون عبثاً وعيثاً . فتثاقلت الضرائب على الاهلين وأنّ الناس وتململوا . وقد كتب احد المؤرخين قائلا : « فبدلا من ٤٠ او ٥٠ « اسبر » توجب على كل منزل دفعها ، اصبح المنزل يدفع اليوم ٣٠٠ اسبر ، وبدلا من نصف درهم يجب دفعه عن كل رأس غنم ، صار المرء يدفع ٧ – ٨ أسبر . ولم تكن الضرائب لتفي بالغرض ، مما اضطر اولو الامر معه الى تخفيض قيمة النقد ، وبيع املاك الدولة وكل ما كان يرتبط بالإدارة العامة . واخذت الحكومة تبيع المناصب لمن يدفع احسن الاسعار ، وبيعت مراتب الانكشارية ، وبطلت عادة انتقائهم من بين المسيحيين . كذلك ابطلوا الاخذ بضريبة الاعناق وكثيراً ما رأينا اصحاب المهن والصنائع، واصحاب الدكاكين يشترون وظائف الانكشارية . وارتفع عدد افراد فرقة الانكشارية من

١٢٠٠٠ الى ٤٦٠٠٠ . وقد جرت الحرب على معظم هؤلاء المدنيين المرتـدين بزة الانكشارية ، الشؤم . اذ كان معظمهم يخلي المعركة ويهرب فاراً من امام العدو . وهكذا اصبحت هذه الفرقة لمياً يتخبط افرادها بالفوضى والدسائس » .

كذلك بيعت بيع السلع بالمزاد ، الشهادات العلمية .والمراتب الحكوميـــة ، ولكي يوفروا ظروف الانتفاع وامكانات استغلالها ، كان القضاة والعلماء والأئمة والاساتذة يعينون في وظائفهم لمدة معينة ، ثم يعزلون منهـا ، ليفتحوا المجال لصفقات جديدة . وهكــذا ضعفت بين الناس الرغبة في العلم ، كما ضعف الضمير المسلكي بين الناس .

ومنذ عام ١٥٨٢ ، أخذت التيارات ومراتب الزعماء تباع علناً لمن يقدم أحسن الاسعار ، أو توزع بـدلاً من النقـد على الخصيان والاقزام ، والمعتوهين ، وعلى النساء . وراح الحكام والوزراء يبتاعون منهـا ما تيسـر ، وان تعذر عليهم ذلك ، عمدوا الى الاختلاس والمصادرة . وهكذا ألفوا عقارات سيادية واسعة عُرفت باسم جفتلك ، ولكي يجعلوهـا بأمن من كل مصادرة من قبل الحكومة ، أعلنوها أوقافـاً ذرية يستثمرون ايرادهـا ، كما كان وكلاء الاديار يستثمرون ، في الأجيال الوسطى ما لهم من عقارات واسعـة . وهكذا طلعت في البلاد أنواع جديدة من الاقطاع عُرفت بعدم انتظامها ، كما ان عدد أفراد الجيش هبط كثيراً . فقد كانت مقاطعة الروملي ، تعطي من قبل ، من ٧٠ – ٨٠ ألف خيال ، والبانيا ٣٠ الف خيال ، وديار بكر وكردستان ٢٠ الف ، وارضروم ٢٠ الف . أما اليوم (١٦٨٢) فقد هبط هذا العدد جداً ولم يعد يتعدى ٧ – ٨ آلاف فارس لكل من هذه المقاطعات ، بينهم عدد كبير من الارقـــاء والعبيد والمرتزقة .

وهكذا تفشت الفوضى في السلطنة ، وأصبحت القسطنطينيـة مسرحـاً لتنافس افراد الإنكشارية والصباحيين والعزب.وأعضاء نقابات المهن الحرة والعلمـاء عندمـا يكون السلطان تحت الوصاية . وكثيراً ما قام الجند باعمال النهب والسلب والقتل والحريق ، ثم بأخذ بالتحزب مع هذه أو تلك من أمهات السلاطين ، وزوجاتهم ، وأصبحت العاصمة سوقـاً نشطت فيـه الدسائس وحيكت الاحابيل وفسدت الضمائر بعـد ان باعت نفسهـا بالمزاد لمن يدفع احسن الاسعار .

وكثيراً ما قام الحكام ، على المكشوف بثورة ضد السلطان ، او ضربوا عرض الحائـط بالاوامر الصادرة اليهم . فقـد كانوا يشرفون على املاك طائلة ويتولون ادارة ولايات واسعـة فيفرضون على الاهلين ضرائب ورسوماً لم ينزل الله بها من سلطان.وقامو باعمال لصوصية في نفس الادارة . وانتشرت اعمال اللصوصية بعد ان الغى الاتراك عادة إنتقاء افراد فرقـة الانكشارية من بين اقوى الفتيان المسيحيين من الاسرى واشدهم بأساً ، واضطرت السلطة لان تتخلى للمدن والقرى الجبلية عن امر الدفاع عن نفسها بتشكيل قوة محلية تكون قيادتها لا حـد المسيحيين ،

كما شهدوا في بعض الجزر اليونانية وشبه جزيرة الموريه قيام بلديات ومجالس ادارية لتدبير شؤون الجماعة .

كان يتبوأ عرش السلطنة من وقت لآخر ، سلطان شديد الشكيمة ، مهيب الجانب مثل السلطان مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠) وصدر أعظم يتصف بالمقدرة والنزاهة امثال الكوبريلي من أصل أرناؤوطي (كوبريلي الاول ١٥٦٦ - ١٥٦٨) ، واحمد كوبريلي الثاني (١٦٦١ - ١٦٧٦) وكوبريلي الثالث مصطفى زاده (١٦٨٩ - ١٦٩١) وكوبريلي حسن امود جه زاده (١٦٩٧ - ١٧٠٢) ، فكان يدحرج رؤوس الوزراء والدفتردار وحكام الولايات والقضاة وافراد الانكشارية الذين يخرجون عن جادة الصراط القويم ، ويرغم على الطاعة وتقديم الولاء الولايات الثائرة ، ويشطب من سجلات المالية اسماء الانكشارية والصباحيين ، ويعيد النظر في جدول اصحاب الاقطاع ويصححها ويتشدد ضد استثمار القضاة لوظائفهم ، وتلاعب المحاسبين . ويحدد قيمة واردات الدولة ومرتبات الجند ويؤمن انتصارات الجيش او يحدد نتائج الانكسارات التي يمنى بها :

تقهقر العثمانيين

وهذه الاسباب أخذ الاتراك بالتباطؤ ليتوقفوا عن السير تماماً . فقد قضوا عشرين سنة ، في فتح جزيرة كندي او كريت (١٦٦٩) ولا يزالون مفزعة أوروبا ، ولكن قام بينهم وبين اوروبا المسيحية شيء من توازن القوى ، ولو بصعوبة ، في القرن السابع عشر . وهذا الركود يصاب به الاتراك تقنياً ، ادى الى تأخرهم فلم يعد تحت تصرفهم ما كان تم لهم من صناع مهرة وهذه المدفعية الشديدة الفعالية ، وهذا العدد العديد من الاسرى وأسلاب الحروب التي كانت تحبب اليهم الحرب وتحقيق الظفر . باستطاعتهم ، وايم الحق ، ان يحصلوا ، على اوروبا من تقنيين ، الا انهم بقوا عاجزين عن تمثّل ما يقتبسون من جديد الفنون والاختراعات واستثماره على الوجه الأفضل ووضعه موضع التنفيذ . وبقيت الحضارتان الاسلامية والمسيحية قائمتين وجهاً لوجه دون ان يتمازجا او ان تتصبّ الواحدة في الاخرى .

ولم يلبث ان ظهر تأخر الأتراك للعيان ، بعد حصارهم لمدينة فيينا، عام ١٦٨٣ ، اذ استطاع الامبراطور ان يلحق بهم هزائم نكراء وان يرغمهم على عقد معاهدة كارلوتز،عام ١٦٩٩ ، وان يتنازلوا له ، بموجب هذه المعاهدة ، عن هنغاريا وسلافونيا وترنسلفانيا . وبعد صد الاسلام واجباره على التقهقر في الغرب ، ممثلا بطرد العرب من اسبانيا ، بدت عليه عوارض قوية على تقهقره في الشرق .

المغرب والمد القبلي

يبدو ان المغرب اصبح في القرنين السادس عشر والسابع عشر مسرحاً لتدفق البدو واستشاطتهم دفاعاً عن الاسلام . فالانتصارات التي حققها المسيحيون اثارت ردةً عنيفة في اسلام المغرب . فقد شعرت القبائل بتناقص الحركة التجارية بعد

ان عرف البرتغاليون وخلفاؤهم في هذا المجال ، من الهولنديين والانكليز والفرنسيين ان يحولوا ، شطر سواحل افريقيا الشرقية ، حركة انتقال الذهب والاتجار بالرق الى هذه المنطقة . كذلك أخذ البدو يشعرون بوطأة الغزوات التي أخذوا يتعرضون لها من قبل الحاميات الاوروبية التي ركزت أقدامها ورسخت سيطرتها على سواحل المغرب الشمالية ووسعت من نشاطها الزراعي ولاسيما زراعة الحنطة بقصد تصديرها الى اوروبا . والشر كل الشر في نظرهم كان مبعثه ومصدره هؤلاء الروم الذين يحملون لهم في القلوب كرهاً شديداً . ولذا انفجرت قلوب هذه القبائل البدوية بالحقد على هؤلاء الطارئين . وقد تجلى الحقد الديني على الاخص في هذه المراكز الدينية القائمة في قلب الواحات الواقعة الى الجنوب بمنأى عن مساعدة الألوف من العرب المسلمين الذين تم إجلاؤهم عن اسبانيا ، فراحوا يفرغون جام غضبهم على سكان المدن الساحليـــة ، وعلى السلاطين وعلى القراصنة الذين ينعمون بما ينعمون به من رغد وبحبوحة بينما ترسب القبائل البدوية في فقر مدقع ، فراحوا يوجهون لهم التهم بالتعامل مع الكفار ، اذ يرضون منهم بافتكاك اسراهم لقـــاء بعض التربيهات ، او بالاتجار معهم وباستخدامهم والاستفادة من معلوماتهم التقنية والفنيـــة . ففي الجزائر وفي تونس ، اخفق البدو اخفاقاً ذريعاً بعد أن تصدت لهم المدفعية التركيـة وحصدتهم حصداً . اعتدنا أن نرى في الغرب سلالات ملوكيـــة تطلع من الجنوب وتستولي على الحكم ، وتأخذ بأسباب العمار والتحضر ، ثم ترى نفسهـا ، في نهاية المطاف ، تتعامل مع المسيحيين ، الى ان يعتريها الانحلال والفساد عن طريق الانحراف الى لذائذهـا ، لتفسح المجال ، من جديـد ، لسلالة جديدة تسير على النهج ذاته .

المتلكات التركية في الجزائر وتونس

في أواخر القرن الخامس عشر ، يقع المغرب للاسباب ذاتها التي ادت الى انحلال السلطنة العثمانية ، في حالة مؤسفة من التضعضع والتفسخ . فالدولة الحفصية اقتصرت سلطتها على تونس وضواحيها ، كما ان مملكة ابي الوديد سيطرت على تلمسن وحدها . وقـد انساحت الجزائر وتونس الى عـدد من الامارات المستقلة والى احلاف قبلية ومدن حرّة . وألفت هذه المدن الحرة جمهوريات جرى تنظيمهـا على أساس من التنافس أهمها تونس وبنزرت وبوجي ، والجزائر ووهران ، وكان القرصـان يقومون باعمال الجهاد المقدس ويهاجمون المسيحيين ويغزون السواحل ، وينقضون على السفن ويقومـون بجلب الميرة والذخيرة لعرب اسبانيا . وقد أوجس الاسبان في احتمال قيام حلف يضم السودان وأمراء المغرب فيبادر اعضاؤه الى مساعدة العرب في اسبانيا ، بعد ان قامت غرناطـة بثورة عام ١٥٠١ .

ولكي يقضي الاسبان على كل خطر يتهـدد طرق مواصلاتهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط وكل محاولة انزال جيوش عربية جديدة في اسبانيا ، وتأميناً لهم بعض القواعد الاساسية

على سواحل افريقيا يتخذها القرصان المسيحيون تكأة لهم وملجأ خلال اسفارهم التجارية ، قاموا بحملة صليبية ، فاحتلوا تباعاً المرسى الكبير ، عام ١٥٠٥ ، ووهران (عام ١٥٠٩) ، وبوجي وطرابلس الغرب (١٥١٠) ، والبنون (الجزائر) واضطروا امراء هذه المدن على دفع جزية لهم . الا ان امور اسبانيا وقضاياها جعلتهم يقصرون احتلالهم على هذه المدن دون التوغل في داخل البلاد ، الامر الذي اثار كثيراً من المصاعب في وجوههم ، كما سبب لهم مشاكل عدة مع سكان البلاد ، اذ ان عدم انتظام وصول الامدادات بالدقة اللازمة ، حمل هذه الحاميات على القيام ببعض اعمال الغزو في الداخل .

واخذ المسلمون يلتمسون مساعدة بعض القرصان الذين اتخذوا من بلدة جيلجلي قاعدة لهم بقيادة اربعة اخوة هم الاخوة باربروسة . وفي سنة ١٥١٦ أصبح اوروج باربروسه سيد الجزائر وباشر عمله باخضاع داخل البلاد لسلطته ، وبعد وفاته ، عام ١٥١٨ ، قام بالأمر اخوه خير الدين الذي أسس نيابة السلطان في الجزائر . ولكي يتخلص من الاسبان والمسلمين المغلوبين على امرهم الذين كانوا يرغبون في افتكاكهم قدّم ولاءه للسلطان سليم الذي جاد عليه بلقب باشا بيركلي وبقوة مسلحة قوامها ٣٠٠ جندي ومعهم مدفعية يردفهم اربعة آلاف من الانكشارية .

واستطاع عام ١٥٢٢ ، ان يتغلب على حلف تألف من سكان الجزائر وبعض القبائل ، ثم استولى على مدينة كولوبون (١٥٢٣) وله بينون ، وانشأ في مدينة الجزائر ، مرفأ يلجأ اليه القرصان المسلمون فيجعلون سفنهم بمأمن من كل خطر ، بعد ان كانوا يسحبونها من قبل على الرمل . من هذا المرفأ الذي اصبح القاعدة للقرصان المسلمين ، استطاعوا ان يتحكموا بالمواصلات الحربية بين جبل طارق وحوض البحر المتوسط الشرقي ، وهددوا خطوط المواصلات مع ايطاليا وصقلية .

كان على رأس دولة الجزائر حاكم يلقب بيلربك او امير الامراء ، يعينه السلطان ، يكون رئيساً لباشوات تونس وطرابلس الغرب . ومنذ سنة ١٥٨٧ ، استبدل اللقب بلقب باشا ، وامتدت سلطته الى المدن الثلاث: الجزائر وتونس وطرابلس الغرب التي تألفت منها نيابة ملكية. ومع ان البيلربك لم يكن ملزماً للعمل بموجب نصائح مستشاريه ، فقد كان يترتب عليه ، كما يترتب على الباشا بعده ، ان يراعي الى اقصى حد ، وجهة نظر قيادة فرقة الانكشارية ورئيس فرقة القراصنة الذين كانوا ينتدبون بعض اعضائهم للعمل في ديوان الباشا . وقد قام مندوبو فرقة الانكشارية ، وفرقة القراصنة ، بعد عام ١٥٨٧ ، بمهام الحكم ، فعلاً . وعندما دب الفساد الى جسم الدولة العثمانية ، دب الانقسام بين هؤلاء الحكام ، وقامت المنافسة بينهم الى ان تمت الغلبة للانكشارية ، سنة ١٦٥٩ . وفي سنة ١٦٧١ ، عهد القراصنة بهذه الحاكمية الى واحد من رؤسائهم يلقب داي . وفي سنة ١٧١١ ، رفض الداي الثاني ، علي شاووش ان يقوم باستقبال باشا واقنع السلطان في القسطنطينية ان ينعم عليه بهذا المركز . ومنذ ذلك

الحين اصبحت الجزائر ولاية من ضمن الولايات التابعة للسلطنة العثمانية . وفي سنة ١٥٩٠ ، قام ضباط الجيش ، يختارون حاكماً لتونس يحمل لقب باي ، يحل محل الباشا . وبعد سلسلة من المنافسة الطويلة بين الداي والباي ، وقادة الفرق التي كان ينـاط بها جباية اموال الميرة والضرائب المرسومة وقيادة القبائل ، نودي بالآغا حسين بن علي قائد فرقة السباهيين . بك ، فالغي لقب داي (١٧٠٥) واسس دولة وراثية بقيت في دست الحكم حتى القرن العشرين . وكان عدد كبير من افراد فرقة الانكشارية والقراصنة والسباهيين المارقين عن دينهم المسيحي ، ينتمون في اصلهم الى سكان هذه الولايات الواقعة حول حوض البحر المتوسط ، او كانوا يرسفون ، من قبل ، في الأسر . واسوة بالسلطنة العثمانية نفسها ، وقعت هذه الولايات البعيدة عن المغرب فريسة عصابات من العسكريين ، كانوا من قبل ، اسرى او من الجاحدين لدينهم ، وراحوا يستغلون سكان البلاد ابشع استغلال . وقد فتح الاتراك الجزائر بالفعل ، ووضعوا حاميات قوية في المراكز الستراتيجية الحساسة ، واسـوا ، منذ عام ١٥٦٣ ، قبائل المخزن تولت مع بعض الفرق العسكرية ، جباية الضرائب والرسوم . وقد أبعد عن الوظائف العامة وعن الخدمة العسكرية ، عرب الاندلس من سكان المدن ، واحتفظ بها للاتراك الصميمين او للمسلكيين من الجند . وكثيراً ما استعانوا بالقبائل المغلوبة على امرها او باصحاب الرُبُط والارفاض المغالين في عصبيتهم الدينية .

واخذت مدينة الجزائر تتطور . فقد بلغ عدد سكانها ، في منتصف القرن السادس عشر نحواً من ٦٠٠٠٠ ، ومعظمهم من المارقين عن دينهم ، بينهم اكثر من ٢٥,٠٠٠ اسير مسيحي وزاد عدد سكان هذه المدينة ، عام ١٦٥٠ ، على ١٠٠،٠٠٠ ، تراوح عدد الاسرى بينهم من ٢٥،٠٠٠ - ٣٠،٠٠٠ اسير . فقد كان القرن السابع عشر العصر الذهبي الذي بلغته القرصنة ، بعد ان ادخل القراصنة تحسينات عامة على سفنهم ، اذ رفعوا حافتها عالياً . ويقدر عدد الاسرى الذين وقعوا بين ايديهم ، عام ١٦١٥ - ١٦١٦ ، بين مليونين وثلاثة ملايين أسير ، بحيث ألف الاسرى اربح تجارة على الاطلاق ، وازداد الطلب على الفتيان من الشبان والشابات « اذ كان مصيرهم معروفاً من قبل » ، كما كانوا يهتمون بالاختصاصيين بين الاسرى ببناء السفن والذين يحسنون الاعمال المرفئية ، والطوبجية . فليس بعجيب قط ان تكثر اعمال الارتدادات بين هؤلاء الاسرى من المسيحيين ، ويجحدون دينهم بالرغم من عمل المرسلين وعمل بعض الرهبان كالرهبان الثالوثيين واللعازريين ورهبان سيدة الرحمة ، مع ان الحرية الدينية كانت متروكة ، في اكثر الاحيان لهؤلاء الاسرى ، كما تركت الحرية لهؤلاء الكهنة ليقدموا لهم الخدمات الدينية ، مع العلم ان اعتناق الاسرى للاسلام لم تكن ، في نظر القراصنة ، عملية ناجحة ، لانها كانت تفوّت عليهم عملية الافادة من الفدية . وكنا نرى بين هذه المدن تجاراً اوروبيين يقيمون فيها بعد ان ينالوا ، لقاء دفع رسم عال ، ترخيصاً خاصاً من نائب السلطنة للعمل فيها ، كما كانوا يدفعون بالاضافة الى ذلك ، رسماً على الخروج . وقد برز في هذه الحركة

اليهود وسكان مدينة مرسيليا . الا انهم واجهوا ، بعـد عام ١٦٨٥ ، منافسة قوية من قبل بروتستانت اللانفدوق اللاجئين . وكان الاوروبيون يتعاطون تصدير الجلود والشمع والصوف والتمر وريش النعام والمرجان والحبوب ، وغير ذلك من الاصناف ، كما كانوا يصدرون ، من مدينة تونس ، الاسفنج ، وكانوا يستوردرن الاسلحة على انواعها والخمور ، والاقمشة . وكثيراً ما عمد الحكام ، في حال هبوط معدل الاسرى ، الى فرض ضرائب جديدة ، وفي هـذا ما فيه من ازعاجات ومضايقات . ولذا لم يكن سكان الجزائر يتعاملون الا مع الدول ، بينما كانوا يعاملون الآخرين بدون رحمة . وقد أحدث الصلح المعقود مع الهولنديين ، عام ١٦٦٣ ، ردة فعل قوية لدى القراصنة ، فزادوا من نشاطهم ضد الفرنسيين ، ثم تم الصلح مع الفرنسيين عام ١٦٧٠ في عهد لويس الرابع عشر ، واستئنفت الحركة بعنف ضد الانكليز والهولنديين . ولذا كانت هذه الدول ترسل ، الفينة بعد الفينة ، اساطيلها الحربية ، تمطر مدينة الجزائر ، وابـلا من المدافع ، يضطر معها الجزائريون للدخول بمفاوضات جديدة ، مع العلم ان الفرنسيين كانوا يتمتعون ، على الغالب ، بوضع افضل من سائر الدول الاخرى .

المغرب المستقل : من البحر المتوسط الى السودان

قام المغرب الأقصى في اطراف العالم الاسلامي الغربي، تعزله عن باقي العالم الاسلامي ، سلسلة جبال الاطلس الشاهقة العلو ، فيتضرّس هو ايضاً ، على اقدار ، بحوادث العـالم الاسلامي في البحر الابيض المتوسط . وقد تعرض المغرب على الاخص لهذه التدابير والاجراءات التي اتخذها المسيحيون في هذه البلاد والتقدم الذي حققوه فيها .

فمنذ ان عمل البربر ، بين القرنين الثالث والثامن، على تأهيل الجمل في اقطار افريقيا الشمالية واقاموا ، عبر الصحراء ، علاقات تجارية لهم ، ربطت ما بـين المغرب والسودان ، اصبح سعر الذهب الافريقي ، في المغرب ، رخيصاً بينما سعر الفضة فيه كان مرتفعـاً ، بحيث اصبحت النسبة بمعـدل ٩ - ١ ، واصبح بالتالي التبادل به ميسوراً بمعدن الفضة الاوروبي الذي كان يستخرج بكثرة من مناجمه الغنيـة في القسم الجنوبي الشرقي من المانيا وبوهيميا وهنغاريا والتيرول ، حيث كان سعر الفضة رخيصاً وسعر الذهب مرتفعاً بنسبة ١١ - ١ واكثر . وكان الذهب يصل من جبال الغينيه ومن بامبوك وغنغران وفوتا جالون ومن مقاطعات سيراليون وآشنتي وموسّي . ومن القرن الحادي عشر الى الثالث عشر ، تركزت حركة الاتجار بالذهب، في قلب الامبراطورية السهلية والسنغالية التي كانت عاصمتها غانا ، وهي مدينة اسلامية كبيرة قام فيها ١٢ مسجداً وزخرت بعدد طيب من الائمة والفقهاء والادباء ، وكان يؤمها عـدد كبير من التجار العرب والبربر . انهارت امبراطورية غانا في مطلع القرن الثالث عشر ، وحلت محلها امبراطورية زنجية ، قوامها قبائل الماندنغ، ازدهرت في القرن الخامس عشر . كانت عاصمتها مدينـة مالي . كان ملوك مالي او منديغانا مسلمين . ومن مالي كانت القوافل تخرج محملة بالذهب باتجاه تمبوكتو ، وكوكبا والقاهرة ، او باتجاه تمبوكتـو واودان المغرب ، ووهران وتونس . وكان المغرب الاقصى الحد الابعد الذي تنتهي عنده الطرق الصحراوية . ومنـذ

القرن الثالث عشر كان التجار من جنوى والبندقية يأتون الى لاراش وأرزلا وصافي بحثاً عن ذهب السودان . وقد دفعت اسباب كثيرة البرتغاليين للسيطرة على مرافىء المغرب الاقصى الواقعة على الساحل الغربي ، منها الرغبة في السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس او مزاحم لهم عليها . وفي سبيل السيطرة على ذهب السودان والتصرف به بحرية ، اقام البرتغاليون لهم حاميات قوية في الريو ده أورو ، عام ١٤٤٢ ، واحتلوا جزر أرغوين ، عام ١٤٤٤ . ومنذ سنة ١٤٥٠ حتى اواخر القرن السادس عشر راحت عمارات من سفن الكرافيل البرتغالية يتراوح حجم الواحدة منها بين ٥٠ – ٦٠ برميلاً تتغلغل داخل الانهر الساحلية ، في الغينيه يقايضون مع سكان البلاد ، الملح وسبائك النحاس الاصفر وطوت الحلاقين والدسوت النحاسية والاقمشة الناعمة والحرائر مقابل مسحوق الذهب . واكبر مراكز لحركة المقايضات التجارية هذه ، قامت في اسواق كنتور على نهر الغمبي ، على بعد ٧٠٠ كلم من البحر ، فنشطت الحركة فيه من سنة ١٤٥٦ الى ١٥٨٦ ، وفي مدينة جورج ده لامينا ، منذ سنة ١٤٧١ الى ان استولى عليها الهولنديون ، عام ١٦٣٧ وقد ألف ذهب المينا احتكاراً خاصاً بملك البرتغاليين . وفي كل شهر ، كانت سفينة تغادر مدينة سان جورج هذه الى لشبونة . وبلغت كمية الذهب التي خرجت من مدينة ، لامينا ، بين ١٥٠٠ – ١٥٢١ نحواً من ٤١٠٠ كيلوغرام في السنة الواحدة . وبلغت تجارة البرتغاليين بالذهب أوجها بين ١٥٣٩ – ١٥٤٩ . وحاول البرتغاليون ، في راس ده غيه ، حصر السكر الوارد من مقاطعة السوس ، منعاً لكل مزاحم للسكر الذي كانت تنتجه الجزر الخالدات وجزر الاسور ، كما احتكروا القطن والنيلة الذي يستورد من بلاد السوس ومنعوا وصول الذهب الى مملكة مراكش التي اخذت تعاني شديداً من أزمة اقتصادية . وهكذا حالت الكرافيل دون الجمل في نقل الذهب .

وقد ضعفت تجارة البرتغاليين بالذهب خلال الازمة التي اشتدت بين ١٥٤٥ – ١٥٥٢ لاسباب عديدة ، منها : اشتداد القرصنة وحركة التهريب التي قام بها الاوروبيون على سواحل افريقيا الغربية ، وفي خليج الغينيه ، ومعظمهم من الاسبان منذ سنة ١٥٤٧ ثم الانكليز منذ ١٥٥٥ ، ثم الفرنسيين والهولنديين الذين كان لهم عام ١٦٠٥ ، عشرون سفينة تعمل في خليج الغينيه وحده . ومنذ سنة ١٥٥٠ ، كان استثمار ذهب لالمينا عملية خاسرة .

من اهم الاسباب التي ادت الى تفشيل العملية ، ردة الفعل الاسلامية . فقد انتقل مركز الاتجار بالذهب شمالا نحو السهل ، بعد ان سقط اتحاد مالي نهائياً بعد حماية سنراي في غاو ، في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حلت تمبوكتو وجنة محل مالي كمستودع وكسوق يلتقي فيه التجار القادمون من المغرب الاقصى ، وممن يفدون من بلاد الذهب . وقد سيطرت امبراطورية أسكيا الاسلامية الواسعة الاطراف التي قامت في غاو ، على مناطق الذهب والملح ، كما منها مقاطعة هاوسا وغابير ، مع ملاحات توتيك ومناجم النحاس في تاكدا ، كما

وقعت تحت اشرافها الطرق التي تربط الصحراء الكبرى بالسودان. وهكذا ارتد ذهب السودان من شواطىء الاطلسي نحو بلدان البحر الابيض المتوسط . ان ظهور هذه الامبراطورية وازدهارها لم يكن غريباً عن استئناف سك العملة الذهبية ، في مصر بعد عام ١٥١٦ ، وبعد وصول الدولة السعدية ، الى الحكم في المغرب . وهكذا ثار الجمل لنفسه من الكرافيل التي زاحمته من قبل .

شعر الناس عميقاً بالتأخر الذي لحق الاسلام في المغرب الذي كان ينبض بشعور ديني قوي للغاية . وقامت في طول البلاد وعرضها زوايا كانت ، في الوقت ذاته تكايا ومدارس وملاجىء ينصرف فيها المتصوفة وشيوخهم ، الشطحات الروحية ، كما كان فيها عدد من الاولياء المرابطين ، تحدر بعضهم من الشرفاء اي من سلالة الرسول العربي ، يتمتعون بمحبة الناس وتقديرهم بما فيهم من بركة . وقد شعر هذا الفريق من الناس اكثر من غيره بهذا التأخر يمنى بها الاسلام في المغرب وكان نفوذهم كبيراً على جمهور المؤمنين ، كما كان شيوخ الزوايا يعطون كلمة السر الى اتباعهم .

وهذا الحقد يجيش في صدور المتصوفة ضد المسيحيين لم يلبث ان تحوّل ضد دولة الوطاسين التي عجزت عن وضع حد لتعديات المسيحيين على البلاد كما عجزت عن تهدئة خواطر الشعب ، واعادة الثقة الى نفسه عن طريق فريق العلماء ورجال الدين . وقام الشيوخ يساندون كل الحركات الانتفاضية والمحاولات الثورية التي قام بها الشعب ضد هذه الحكومة كما ان هذه الدعوة لقيت تأييد قبائل البربر في المقاطعات الجبلية .

لعب الجنوب الدور الرئيسي في هذه اليقظة الدينية اذ انطلقت القبائل منه تعلن الحرب والجهاد المقدس ، بقيادة بني سعد في السوس ، الذين كانوا يدعون انهم من سلالة النبي العربي ، وراحوا يحاربون البرتغاليين . واستطاعوا بواسطة الذهب الذي تلقوه من السودان ، منذ سنة ١٥٠٩ ان يجهزوا انفسهم بما يحتاجون اليه من المدافع والبنادق والعتاد الحربي . فاعلنت منطقة سوس استقلالها ، منذ سنة ١٥٠٩ وتمكنت عام ١٥٣٧ ، من الاستيلاء على مدينة طفيلا التي كانت المركز الذي يمر منه الذهب القادم من تمبوكتو . ثم اخذ بنو سعد يستولون على المراكز الحربية التي كانت بيد البرتغاليين ، على سيف المحيط الاطلسي ، الواحد بعد الآخر . فاحتلوا رأس غيه ، عام ١٥٤١ ، وصافي وازمور ، عام ١٥٤٢ ، والقصر الصغير وأرزلا ، عام ١٥٤٩ — ١٥٥٠ . وعجز البرتغاليون اذ ذاك عن رد هجمات قراصنة لاراش وصالح وصدهم والحد من تعدياتهم . ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة لا تنتهي من انكسارات تصيب البرتغاليين فخسروا كل قواعدهم على « محيطات الجنوب » . وهكذا لم تلبث الحكومة الشريفية ان اصبحت دولة بحرية وخطراً دائماً ومنافساً قوياً . وهكذا اخذ ذهب السودان وسكر السوس يشحن رأساً من المغرب الى انكلترا وفرنسا . وفي سنة ١٥٥٣ ، انتهى امر الدولة الوطاسية تاركة المجال للدولة السعدية .

بلغت هذه الدولة الأوج من العزة والسؤدد في عهد السلطان احمد المنصور عند ما تمكن من دحر البرتغاليين شر اندحار في معركة القصر الكبير الدامية ، عام ١٥٧٨ . واخذ في الحال ينظم البلاد تنظيماً بقي معمولا بـــه حتى القرن العشرين . وتمكـــن من السيطرة على حلف تألف من القبائل الكبرى ، بواسطة جهاز جديد هو « المخزن » الذي كان يضم بلاط السلطان والوزراء وكبار الموظفين ، والحكام الاداريين ، كما انضم الى هذا الحلف القبائل الحربية بعـد ان أمّن ولاءها عن طريق اعفائها من الضرائب واقطاعها الاراضي الكثيرة وغير ذلك من الامتيازات والمنافع ، بينما كانت الضرائب تجبى من القبائل المتحالفة الضاربة في بلاد المخزن . اما هذا القسم من المغرب الذي لم يخضع لهم فقد عرف : « ببلاد السيبة » .

نمى المنصور علاقاته مع الاوروبيين . فاستقدم للعمل في البلاط الشريفي صناعاً اوروبيـــين ومتمولين يهوداً وتجاراً مسيحيين وأدخل في جيشه عدداً كبيراً من الاسبان المارقين عن دينهم وقد ادخلت الدول الاوروبية في حسابها ما للدولة الشريفية من قوة وشأن واقامت معها تمثيلاً ديبلوماسياً . ووضع السلطان ، بالاتفاق مع الانكليز ، مشروعاً لاحتلال اسبانيا .

ونقل السلطان عاصمة ملكه الى مدينة مراكش ، في الجنوب . بحيث يستطيع مراقبـــة البدو والحركات التي يقومون بها في حلهم وترحـــالهم . وحدثته نفسه باحتـــلال السودان « بـلاد الذهب » وتأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء تجمع بين اطرافها المترامية ، المسالك والمجازات والمعابر التي كانت تخترق الصحراء الكبرى والتي كانت تسلكهـا القوافل حاملـة ذهب السودان ، كما كانت تهيمن على ملاّحـات الصحراء . وفي سنـة ١٥٧٠ ، غادرت فرقة عسكرية مراكش ، قوامها ٤٠٠٠ جندي معظمهم من الاسبـان مرقوا عن دينهم ولغتهم الرسمية الاسبانية ، برآسة الباشا جودير الذي كان هو الآخر ممن تنكروا لدينهم المسيحي . وبعد ان اجتازت الفرقـــة ، الصحراء ، تمكنت بواسطة طابور حملة البنادق من ان تهزم جيش سنهراي ، في مدينة تونديتي ، بتاريخ اول اذار ١٥٩١ ، وفي ٢٥ نيسان ، تمكن الجيش المراكشي من الاستيلاء على تمبوكتو ، فوضع بذلك حداً للامبراطورية سنهراي . ومنذ سنة ١٦١٢ ، انقطع السلطان عن تعيين الباشوات حكام تمبوكتو . وقد ألفت فرقة الجيش من بين قادتها وضباطها نوعاً من الارستوقراطية العسكرية وراح الاسبان يتزوجون زنجيات . وورث الخلاسيون من آبائهم الاسبان حدة الذكاء وحب التسلط والروح الحربية التي عرف بها الاسبان . وعمدوا فيما بعد الى انتخاب الباشا حاكماً عليهم . وقامت منافسة شديدة بين هـــذه الفرق التي رغبت كل واحدة منها في ان يكون الباشا منها ، فاندلعت بينهم حرب اهلية حاميـــة الوطيس ، كما ان المنافسات والمنازعات الداميـــة ، التي نشبت ، أدّت الى خراب التجـــارة السودانية والقضـــاء على فريق العلماء والادباء في البلاد ، والضرائب الفادحة التي فرضت على الاهلين ، والمجاعات التي فتكت بالناس وتأخر السودان امام ردة فعل زنجية ، كل ذلك جاء نذيراً بمواجهة الاسلام أزمة تقهقر في أرجاء البحر المتوسط .

واضطر المنصور ان يواجه طيلة حكمه الطويل مقاومة عنيفــة من رجال الزوايا الذين كانوا ينتقدونه على اقامة علاقات له مع الاوروبيين . وعرفت البلاد ، بعد وفاتــه ، عام ١٦٠٣ ، منافسات عائلية عنيفة نجم عنها أزمة بلغ من حدتها وشدتها ما حمل المفراني على وصفها بانهــا « تشيب الرضّع لهولها » . وقــد عاد الامر بالفائده للزوايا ولقبائل البربر . وبعد سنة ١٦٢٧ ، اصبح زمام الامر في البلاد بيد شيوخ الزوايا ورجال الرُبُط . وقامت في مدينــة صالح ، عام ١٦١٠ ، جمهورية تألفت من قراصنة عرب الاسبان وقراصنة الانكليز ، ولم تلبث هذه الجمهورية ان أعلنت استقلالها التام عن السلطان ، عام ١٦٢٧ . وقامت بالجهاد ضد المسيحيين ، وسيطرت على مضيق جبل طارق وتحكمت بطرق المواصلات مع اميركا الجنوبية والهند الشرقية ، وعجلت في انهيار الامبراطورية البرتغالية كما أثارت المصاعب في وجه الاسبان . الا أن اضطرارهــا للافراج عن الاسرى ، وحاجتها الماسة للاسلحة ارغمتها على ابرام معاهدات مــع الدول الكبرى المسيحية . وانتهت حرب الجهاد هذه باعمال قرصنة عادية . وهكذا اصبحت مدينة صالح لمدة قرن تقريباً ، اهم مركز للنشاط التجاري في المغرب .

زالت الدولة الشريفية السعوية من الوجود عام ١٦٥٤ بعد ان مات قتلاً ثمانية من سلاطينها من اصل ١١ ، وراحت القبائل الرحل وقبائــل القوافل ورجال الزوايا في الجنوب الذين أصبحوا أكثر تطلباً ، يتنازعون السلطه ويتقاسمون اطراف البلاد . واستطاع شرفاء الطفيلا ان يتغلبوا على شرفاء الســوس ، وهكذا اطلت على البلاد دولة جديدة هي الدولة العلوية . وفي سنة ١٦٧٢، تولى زمام الحكم في البلاد السلطان مولاي اسماعيل الذي عرف بنشاطه وغليان الدم في عروقه ، فقطرت يداه دماً من هذه الدماء الحيــة ، لكثرة ما سكب من الدمــاء ، والذي انجب ٧٠٠ ولد . وجعل قوام سلطنته تنمية العلاقات مع الســودان وتشجيــع التجارة مع الصحراء بعــد ان نفخ فيها روحاً جديداً . فمن الســودان ، ومن تمبوكتو ، ومن قبائل الصحراء جمع جيشاً لجبــاً تألف من ١٥٠،٠٠٠ ، فرض سيطرته على البلاد . وقــــد عين في المراكز الحساسة تسمين من الباشوات . ومن السودان وصلت الى طفيلا مساحيق الذهب والنيلة ، والعاج وريش النعــام والتمور التي كانت مواداً صالحة للمقايضات التجارية مع المنتوجات الاوروبية . ولما كان السلطان مطبوعاً على التقوى ، فقد امر بمتابعة الجهاد المقدس بكل همة ونشاط .

فانتزع من بين يدي الاسبان : المــامورا ، (١٦٦١) ، ولاراش (١٦٨٩) ، وارزلا (١٦٩١) ، ولم يبق بين ايدي الاوروبيين ، على المحيط الاطلسي سوى مركز مازغان احتفظ به البرتغاليون ، ومراكز مليلا وسبتا ، بيد الاسبان ، على ساحل البحر المتوسط . وقــد ادرك السلطان بدوره ضرورة المحافظة على الحركة التجارية ، ولا سيما على حرية المقايضات والمبادلات مع المسيحيين، وقد نفر سكان مدينة صالح وفريق القراصنة فيها لاستيلائه على المراكز الاوروبية . وترك لليهود وللمسيحيين احتكار الاعمـــال التجارية في صالح وتطوان ، وضافي واغادير . وتمكنت فرنســا من احتلال اول مركز لها في المغرب ، عام ١٦٨١ ، وسولت له النفس عقــد

معاهدة تجارية مع فرنسا ضد اسبانيا . واقترح ان يتزوج من الاميرة كونتي ابنة الملك لويس الرابع عشر . الا ان الاتحاد الذي تم بين فرنسا واسبانيا ، ورفض السلطان اعتناق المسيحية ، ادى الى فشل المفاوضات ، وشجع اللاجئون من بروتستانت ، مقاطعة اللانفدوق على الاتجار مع الانكليز والهولنديين ، وفي اواخر عهد الملك لويس الرابع عشر ، تمكن الانكليز من احتلال المرتبة الاولى في التجارة مع الدولة الشريفية .

وهكذا تمكن المغرب الاقصى من المحافظة على الوضع العام الذي كان عليه الاسلام تجاه الحضارة المسيحية ، في هذه النقطة بالذات الواقعة الى الشمال الغربي من القارة الافريقية . واذ كانت هذه الناحية في شبه عزلة عن العالم عائشة على مشاعرها الدينية ، فقد كانت اكثر من الجزائر وتونس ، بمنأى عن السلطنة العثمانية . ان عجز الاتراك العثمانيين عن الوصول بالاسلام الى وحدة متماسكة ضد اوروبا المسيحية ، ساعد كثيراً على انقاذ المسيحية وصيانتها .

امبراطورية الفرس

اذا ما كان لبلاد فارس منزلة مرموقة في الشرق الاسلامي ، فقد كانت للمذهب الديني الخاص الذي ارتضته وسارت عليه ، سبباً من الضعف الذي رسف فيه الاسلام . قوام هذه البلاد الشاسعة صعيد مرتفع تقاسمته السباسب والصحارى ، فقد شطرت العالم الاسلامي الى شطرين متميزين ، كما ان وقوع بلاد فارس بين بحر قزوين في الشمال والخليج الفارسي في الجنوب جعل منها معبراً تجتازه الطرقات التي ربطت بين اوروبا غرباً وبين الشرق الاقصى والهند شرقاً . ان لمضيق "مرو" في هراة من الشهرة والاهمية ، ما لمضيق الدردنيل بين اوروبا وآسيا ، وكانت تجتاز ايران بطولها طريق تمر على محاذات مدينة مشهد وطهران عبر تبريز وديار بكر وحلب ، ثم تنثني قليلاً الى الشمال لتمر في ارضروم وطرابزوند ، فكانت بذلك من هذه الشرايين الهامة التي سلكها الانسان عبر الاجيال والمدنيات ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن الخليج الفارسي .

المذهب الشيعي

ألف الفرس ، في قلب العالم الاسلامي ، كتلة ، تباينت من حيث مذهبها الديني الخاص ، عن مجموعة الشعوب الاسلامية ، اذ كان أهلها على مذهب الامامية بينما أخذ العالم الاسلامي بالسنة . فقد كان الشيعة من اتباع علي بن ابي طالب ، ابن عمي النبي ، وصهره على ابنته فاطمة الزهراء ، يطالبون بحقه الاول في الخلافة ، بعد ان أقصي عنها ظلماً وعدواناً . فهم يقولون ان النبي اوصى بخلافته له ، ولذا اعتبروا علياً والائمة الاثني عشر من ذريته الورثة الحقيقيين للخلافة من بعده ، ولمتابعة رسالته بتوصية خاصة منه ، وفقاً لتدبير الهي منذ آدم عبر الانبياء . وقد قام بعد علي اثنا عشر اماماً تولوا الامر بعده ، لم يمت

آخرهم انما اختفى عن الانظار ليعود للظهور من جديد على رأس امتــه ، فيملأ الارض عدلاً وسلاماً .

ليس من يجهل النتائج الخطيرة التي ترتبت على هذا التباين في العقيدة بين السنة والشيعة والذين حصروا كل شيء في عترة الرسول واهل بيتـــه وابوا التسليم بان تذهب الخلافة الى فريق من صحابة النبي فيستأثروا بها من دون اصحاب الحق ، فيؤلفون في القرن الثامن خلافة هي الخلافة الاموية وجعلوا من دمشق عاصمة لها . فابوا التسليم بمبدأ انتخاب الخليفة على اساس من الشورى اذ ان الخلافة ، في نظرهم ، هي فيض الهي ينتقل بالوراثة الى الامام . والائمة ، في نظر الشيعة ، معصومون عن الخطأ وعن كل زلل . وهكذا صح لنا القول ان فرقة الشيعة اساسها السلطة ، بينما السنة الشورى والاجماع . العقل ، في نظر الشيعة ، عاجز في كل ما يتعلق بقضايا الايمان . فالملهم في الامر هو الوحي النازل على الائمة . فالامام غير المنظور يتكلم بلسان علماء الملة ، فعلى كل شيعي ان يسلم بهذا الكلام الموحى به على لسان الامام . وقد قامت بينهم فرقة عُرفت بغلاتهـــا وترفضها بحيث ان اعضاءها تجنبوا لمس الكفار والاختلاط بهم .

الدعوة الفارسية

عُرف الفرس بروحهم الوطنية فزعموا ان ملك الملوك وهـو لقب ملكهم ، له السلطة على كل الشعوب . يحفظون منـــذ صباهم « كتاب الملوك » او الشاهنامة ، للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له من الشأن لدى الفرس ، مـا للالياذة والاوذيسة عند اليونان ، حتى ان الاميين بينهم راحوا يعتقدون ان شعبهم هو اقدم شعوب العالم وانـــه فوق شعوب الارض طراً ، واسماها على الاطلاق. وهم شديدو التعلق بآدابهم واعرافهم التقليدية . فالشاعر الفارسي حافظ الذي لمع اسمه في القرن الرابـع عشر ، والشاعر سعدي الذي كان معاصراً للملك القديس لويس التاسع في فرنسا ، سارت اشعارهمـــا على لسان الادباء والرواة ، وحادي العيس وساري السبل في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت لدولة الفرس شخصية مفرّدة . واللغة الفارسية كانت لغـــة الشعر والأدب في كل العالم الاسلامي ، كما كانت التركية لغة رجال الحرب والادارة ، والعربية لغة الدين والعلوم . فالفارسية هي اللغة المستعملة في بلاط السلطان وبلاط المغل ، وفي عدد من الدول الاسلامية الاخرى في الهنـــد . وكانت الآثار الشعرية الفارسية تنقل الى اللغات الاخرى وتشرح وتفسر ويحتذي الناس حذوهـا . كل هذه الامور ومـا اليها من شؤون ومفارقات جعلت الاتراك العثمانيين يتحولون بانظارهم عن متابعة الجهاد ضد الكفار في الغرب . وقام بين الشيعة والسنة حروب دينية داميـــة ، اذ شره الاتراك للتحكم بالطرق التجارية التي تمر ببلاد فارس ، كما ان الشعور القومي المتأجج في صـدور الشيعة حتم ان يكون الشاه رجل حرب كبير يشمر عن ساعديه للغزو والفتح .

الدولة الصفوية والبدو في الحكم

شهـد القرنان السادس عشر والسابع عشر طلوع الدولة الصفوية وامجادها كما سجلا زوالها . نرى من خلال تاريخ بلاد فارس ان الاسرة الملكية التي تقوم بالامر لا تستمر في الحكم أكثر من قرنين . أسس هـــذه الدولة الشاه

اسماعيل (١٤٩٩ - ١٥٢٤) . فقد كان تركياً بابيه ويونانياً بامه ، ينحدر من اسرة تنتسب الى الامام السابع وهي اسرة كُرِّمت بالقداسة والشهادة . فقد كان ، في الاساس شيخاً لاحدى القبائل البدوية الرحل المتنقلة على حدود العراق . فجمع يوماً حوله عصبة من رجاله استولى بهم على مدينة باكو وشماخا ، ولم يلبث ان انضم اليه كثيرون ، واستطاع ان يهزم بسهولة آخر ملوك الدولة التيمورية ، وتم له من الانتصارات الباهرة ما جعله يوحد بين القبائل ، فنودي به شاه ، وقاد رجاله من غزو الى آخر وانقض من الجبال على سهول العراق الغنية ، وفتح بغداد واستولى على الموصل وديار بكر .

كان هذا المسلك النهج التقليدي الذي نهجه الحكم في العجم ، اذ ما يكاد الفساد يدب في الاسرة الملكية وينغمس افرادها في الموبقات حتى يقوم زعيم قبيلة من القبائل البدوية الضاربة بين هذه المقاطعات الجبلية التي تتقاطعها الوديان الظليلة على حدود البلاد ، ويجمع من بين هؤلاء الأقوام العاملين في رعاية السائمة ، كتائب من الشبان المفتولي العضلات ، يفيضون صحة ورفاء ، تعودوا شظف العيش واخشوشنت اجسامهم ، وتردفه القبائل المتجاورة التي كان قومه يتجرون معها ، بالنصح والمؤازرة والعتاد . وما ان يأنس من نفسه القوة حتى يهاجم ، لاسباب واهية واعذار شتى ، كالتعدي على المياه ، او نهب بعض الماشية ، او الحاق بعض الاضرار البسيطة ، القبيلة المجاورة له التي يتولى امرها شيخ مسن او فتى غر تحت الوصاية ، ويخضعها لسلطانه ، ثم يعمل على كسب الانصار له بين رجالها بما يغدق عليهم من عوارفه وما يوزع فيهم من هدايا وأعطيات ويرحب بقدوم متطوعين من قبائل اخرى رغبوا العمل تحت ادارته ، حتى اذا ما اشتد منه الساعد عمل في اخضاع القبائل الواحدة تلو الاخرى . فاذا ما اعترض سيره الصاعد وقام في طريقه حلف ما لجأ للحرب فيصطف الخصمان وجهاً لوجه ويأخذ الفريقان بالمباهلة يستعرضون قواهم دون سكب الدماء ، حتى اذا ما انطلق فجأة عيار ناري دب الذعر في الصفوف واخذ العدو في الفرار . وقد يحدث ان يفر الخصمان كل من جهته . بعد ان يدب فيهما الخوف ، حتى اذا ما عاد فريق منهم واستملك روعه وعادت اليه رباطة جأشه ، مسك بزمام الامر ، قبل الآخر وفاز بالنصر . ففي عاصمة كل ما فيها يتداعى للخراب ، لا جند فيها ولا حاميات تدفع عنها عوادي الزمن ، وفي بلاط يغص بالخصيان والنساء ويفيض غنى وثراء ، تقع العين فيه على شيخ كليل او على ولد منهوك القوى ، ينتزع عنه التاج ويستأثر دونه بالسلطة .

ويرسخ ملكه بالمزيد من الانصار والازلام عن طريق المصاهرة والزواج من بنات او شقيقات شيوخ القبائل التي غلبت على امرها ، وبالشبان الشجعان الانخراط في جيشه ، من بين القبائل التي قدمت له خضوعها . اما اساس قوته ومحور سلطانه فيرتكز بالدرجة الاولى على رجال قبيلته والقبائل التي ارتبطت معها بوشائج القربى والنسب . ومن بين افراد هذه القبائل يختار مساعديه في الادارة ، والمدبرين لأملاكه وافراد حرسه ، ويجري فيهم العطاء بسخاء استدناء لهم ، ويعهد اليهم بتربية ابنه الذي يقضي طفولته الاولى وحداثته بين البدو . وكانت

قبائل قزلباخ التركية السبع تنظر الى الشاه اسماعيل وخلفائه نظرها الى احد اولياء الله .

ويبقى الشاه في حياته البدوية على طباع البدو وعوائدهم يظعن كلما ظعنوا ، فيصرف فصل الشتاء في سهول دجلة ، والصيف بين غابات مقاطعات بحر قزوين . اما فصلا الربيع والخريف فيصرفها في الوديان الخضراء الظليلة الواقعة بين الجبال . وعندما يظعن الشاه وينتقل من مكان الى آخر ، ينقل معه مضاربه وما عنده من فرش ورياش واثاث ، وما يملكه من الطنافس والسجاجيد وما عنده من آنية ذهبية وذخائر ، والمواسير وطوت الرصاص الكبيرة اللازمة لرسم حدائقه كل مساء . ويعمل في نقل هذه الامتعة اكثر من سبعة آلاف جمل فيسير في يومه مرحلة من ٨ — ١٢ كيلومتراً . وكانت الخيم والمضارب تنصب كل مساء لتؤلف مدينة يقوم في القلب منها خيمة الشاه او سرادقه ،وهي خيمة طولها ٢٠ متراً بعرض ١٢ متراً وعلو ١٠ امتار ، تعتمد على خمسة ركائز كبيرة تتقاطعها الستائر والسجد الفنية الموشاة بالذهب والفضة ، يتدلى من على جوانبها الديباج . ويستعمل في تركيز الطنافس في اماكنها رزات من الذهب الخالص . وكانوا يحرصون على تحويل مجرى الينابيع والترع بحيث تمر امام خيمة الشاه ، تحف بها الزهور والرياحين على انواعها . وعلى مسافة قليلة منها ، كانت تقوم مضارب الحريم والديوان والحرس ورجال البلاط ، والحامات .

وقد حرص الشاه على أن ينشىء على مسافات معينة ، محددة بعضها من بعض ، اماكن للنزهة والتسري مع الحدائق الغناء . وكثيراً ما تبنى على طريق القوافل عاصمة جديدة له مع قصر منيف وقلعة حصينة ، مع خانات واسواق ، يمد لها الحدائق الغناء توفر له متعة حياة البداوة ، بحيث يسمر ليلاً مفترشاً خمائل الحدائق السندسية مع سمّاره وندمائه .

الدولة مزرعة الظافر يستغل فيها المغلوبين على امرهم

فالحكم والادارة ، في نظر الشاه واتباعه ، كما هو في الشرق عامة ، وسيلة لتأمين المنافع الخاصة ، وليس فقط خدمة عامة في سبيل المجتمع . على من يتقدم ، من الشاه او من رجال الحكم والادارة لديه ، بطلب ما ، ان يرفق طلبه بما يشفع به ويضمن الاستجابة له باسرع ما يمكن . فالدولة إقطاع للشاه يستغله على هواه . فهي متاعه او ملكه منذ أن آتاه الله نصراً مبيناً .

ولكي ينمّي الشاه موارده من المكس ورسوم الدخولية ويؤمن لنفسه موارد طيبة ، يدخر منها لليوم العصيب ، رأى ان يشجع التجارة والوقوف الى جانب التجار . ولذا سهر على تأمين المواصلات ويسر السير عليها بتوفير الماء للسابلة والقوافل الضاربة في طول البلاد وعرضها ، وذلك بالإكثار من الينابيع والآبار ، والسبل وأماكن الراحة والاستجمام ، وان يبني الجسور والمعابر والجازات . كذلك كان عليه ان يؤمن البريد وان يحول دون تعديات البدو ، ويطهر الاسواق من الطفيليين والخطفة الذين يغشونها ، ويغري التجار الاجانب للقدوم الى البلاد . وكان يلزم جباية رسوم المكس لعماله بينما أقطع معظم رسوم الدخولية شيوخ القبائل الذين كانوا

يسهرون على أمن المارة وراحتهم. فهو دوماً بحاجـة للمال من التجار بابخس الاسعار ، ويكافىء رعاياه على امانتهم . فقد اوجب القرآن الكريم على المسلم ان يعشّر ماله . والمعروف عن سكان المدن انهم لم يكونوا ليرضوا ان يعشّروا الا عن ايراداتهم من الملحقات او على الرسوم التي يجبونها من القرى ، وهي رسوم يفوض الشاه اليهم جبايتها عندما يكون بحاجة ماسة للمال . اما البدو فلم يكونوا ليدفعوا رسماً عن مراعيهم . فكل الضرائب وكل النفقات الخاصة بحياة البلاط وأود الجيش كانت تقع على كواهل اهل الحضر او على الفلاحين الذين كان يترتب عليهم ان يقوموا بأود جيش لجب من الموظفين وما اليهم من الاتباع . الا ان الشاه لم يكن ليرضى باعتصار الفلاح اكثر من طاقته . فالبلاد لم تكن لتفتقر للاراضي الزراعية ، بل لليد العاملة اذ ان الاراضي الجيدة كانت تتوفر تقريباً في كل مكان ، وكانت تدوّر كل اربع سنوات . وتشييد بيت لم يكن ليتطلب اكثر من ٨ – ١٠ عوارض قوية من خشب الحور ولا لاكثر من ٨ ايام بناء . وتألف اثاث المنزل على الاجمال ، من سجادتين او ثلاث سجادات ، ومن اربعة الى خمسة صناديق وبعض الآنية الخزفية والجرار . فاذا ما برهن متعهد جباية الضرائب والاعشار عن جشع ، وابى ابن المدينة ان يدفع ما يتوجب على الارض المقطوعة له من ضرائب ورسوم ، فما كان اسهل على المزارع ، الذي ما زال يذكر انه كان للأمس العابر من اهل البدو ، الا ان يضع في عبه ما اقتصده من مال ، ويحمل حمارته وزوجته ما خف حمله وغلا ثمنه ، وسار على بركة الرحمن لا يلوي على شيء ، وهو واثق بأن ارض الله واسعة ترحب به انمى حل واينما نزل . وهكذا فمغادرة الفلاحين لقراهم كانت تخفف عنهم جباية الرسوم وتجنبهم ما يتعرضون له من ابتزاز واعتصار بغيض ، تقوم به هذه الطبقة او هذه الفئة المقيمة غير المنتجعة على نطاق واسع .

ولكي يرضى اتباعه ويقوم بما يتوجب عليه كولي وكمدافع عن الدين ورجاله وكزعيم يوزع عوارفه بسخاء ، كان على الشاه ان ينهض للحرب . وهذا ما تفرغ له تماماً الشاه اسماعيل وابنه الشاه تامسب (١٥٢٤ – ١٥٧٦) ، وقد اضطروا ان ينهضوا بالحرب على ثلاث جبهات : ضد الاتراك العثمانيين من جهة الغرب ، وضد اوزبك التركستان ، في الشرق ، وضد البرتغاليين في الجنوب ، مع العلم ان الاتراك والبرتغاليين كانوا يتميزون بما لديهم من مدفعية وحملة البنادق . فاذا ما تمكن من استرجاع مقاطعة خراسان من حوزة الاوزبك في الشرق (١٥١٠) والتقدم باتجاه بخارى ، فانه لم يستطع البقاء في اواسط آسيا كما ان خليفته على العرش امتنع عليه وضع حد لتعديات الاوزبك على خراسان المتعددة . اما في الغرب فاستمرت غزوات الترك سجالاً . وفي الجنوب استطاع البرتغالي البوكرك ان يستولي على جزيرة ارموز الصغيرة في مداخل الخليج الفارسي ، وشيد عليها قلعة حصينة (١٥١٥) فتمكن بذلك من السيطرة على الحركة التجارية في الخليج المذكور .

الاسرة الصفوية في الاوج . الشاه عباس الكبير وفتوحاته المظفرة

بعد حقبة من الحروب الاهلية بين قبائل كزالباك حيث اخذ كل فريق يؤازر المطالب بالعرش ، استطاع حفيد الشاه تامسب ، الشاه عباس الاول الكبير ، ان يستأثر بالحكم وان ينهض به الى الأوج (١٥٨٧ – ١٦٢٩) . شب الشاه عباس بين قبائل كزالباك فتشرب روح البداوة وتخلق بالشجاعة والنشاط ، لا يبالي بالتعب . فقد كان شاباً مفتول العضل ، كثيف الشوارب ينم نظره الحاد عن عقل ثاقب وفكر صاقب ، ان دل على شيء فعلى الحزم والعزم وصدق القصد في كل ما يقرر . تغلب على الاوزبك في هراة (١٥٩٧) وبذلك وضع حداً نهائياً لغزواتهم السنوية ولاستباحتهم دورياً لخراسان . ولكي يضع حدود هذه المقاطعة في امان اجلى الوف الاكراد عن بلادهم في كردستان مع ما لهم من الذراري والقطعان ، واسكنهم القسم الشمالي من خراسان حيث عهد اليهم بحراسة الحدود . وقاد ، بين ١٦٠٢ – ١٦٢٧ ، عدة حملات موفقة ضد الاتراك العثمانيين ، فانتزع من بين ايديهم تبريز وأروان وشروان وقرص ، وفتح أذربيجان وخوزستان ، ودخل بغداد والموصل وديار بكر وخفض الجزية التي كان عليه دفعها للسلطان الى ١٠٠ حمل من الحرير .

ولعل الشاه عباس الاول الكبير هو اول من ادرك ، بالخصوص ، انه يستحيل عليه النهوض بالحرب على عدة جبهات. فقد قبل ان يعقد ، عام ١٥٩٠ ، مع الاتراك صلحاً خاسراً بحيث يستطيع ان يتفرغ لحرب الاوزبك . وبعد ان كسرهم شر كسرة ارتد لمحاربة الاتراك .

نظرية للروح الاستبدادية

عرف ان يفيد الى اقصى حد ، من الانظمة والقوانين المعمول بها في البلاد ، ليقوي من سلطته ، وليزيد من واردات الخزينة وليضاعف من منعة الجيش . كانت الملكية الفارسية ملكية مطلقة . فالشاه هو سيد البلاد المطلق ، في الزمنيات والروحيات ، المتصرف بحياة الناس وباموال رعاياه ، كما يشاء . كل ما يأمر به يجب تنفيذه في الحال حتى ولو كان ثملاً ، فاقداً لوعيه . فهو فوق القوانين الطبيعية والوضعية . فاذا ما اصدر امره لابن ، كان على الابن ان يمتثل للامر الصادر ، حتى ولو امره بقتل ابيه . فعلى الفرس ان يطيعوه في كل شيء الا فيما يخالف احكام الشريعة او امر بشرب المسكر . كذلك يعتقد الفرس ان من طبيعة الملوك ان يتصفوا بالعنف والظلم . من اقوالهم المأثورة : «كن ملكاً» وهم يعنون : كن ظالماً ، ولا بأس من ان تحكم بخلاف العدل . كان احدهم اذا ما اشتكى امام القضاة من ظلم وقع عليه ، قال : « جرى معي ما يجريه الملوك » .

وهذا الطغيان المستبد انما ينبع من مصدرين رئيسيين ، فبلاد فارس فاز بها غلاباً اي اخذها بالفتح ، ولذا كانت حكومته حكومة عسكرية ، مستبدة ، (تافرنييه) ومن جهة ثانية فالشاه هو نائب النبي المرئي وخليفته ، له فضائل خارقة الطبيعة ، والقدرة على شفاء المرضى . وهو بذلك سيد العالم وملك الملوك . وقد استطاع الشاه عباس الكبير ان يشدد على هذه الصفة

بكونه حامي الدين وحامي ذمار الشيعة . ولذا شيد في مدينة مشهد ، في خراسان ، مسجداً كبيراً احتفظ فيه بذخيرة من ذخائر المسلمين ، هي قَدَم الناقة التي كانت تحمل النبي . وكان في كل سنة يتجه للتبرك بزيارة مشهد مع رجال حاشيته حيث كانت تجري خوارق مدهشة . وقد اعتاد الفرس ان يحجوا الى مشهد بدلاً من الحج الى مكة المكرمة . وكان للشيعة حجهم الذي يختلف عن حج السنة . وقد هدف من وراء هذا الحج الى امر اقتصادي هام هو الحؤول دون خروج الذهب من البلاد . وقد اعتاد ان يحج الى النجف وان يقوم بتنظيف وغسل قبر جسده الامام علي .

جهوده في سبيل تقوية الاسرة الملكية من الوجهة القومية

عُرف الشاه عباس بحذره الشديد تجاه قبائل كزالباك عماد اسرته المالكة والتي كانت تتخذ من الاقليات وسيلة لتقوية نفوذها ، بعد ان نالت من الامتيازات ما شجع قبائل غيرها على العصيان والتمرد . فراح يحرر العرش والاسرة من تعويله على هذه القبائل وحمايتها باصطناعه قبيلة جديدة باسم انصار الشاه ، ضمت بضعة آلاف من الرجال انتقاهم من بين كل القبائل ، تطوعوا للعمل في الجيش وعملوا في خدمة العرش بكل ولاء ، وعرفت هذه القبيلة ان تقيم لها علاقات ودية مع القبائل الفارسية الاخرى ، وهكذا اكتسبت الاسرة دعامة اكبر فازدادت قومية في اعين رعاياها .

كذلك اخذ يخفض من افراد قبائل الكزالباك في الجيش ، فانزل عددهم من ٦٠ ألفاً الى ٣٠ ألفاً. واستعاض عن الفرق التي رفضت الخدمة في الجيش، الا تحت قيادة خاناتها المعروفين بولائهم لسلطان الاتراك ، بكتائب من المرتزقة ، بينها ١٠٫٠٠٠ فارس ، و ١٢٫٠٠٠ من المشاة ، كان هو يعيّن ، ضباطهم ويصرفهم من الخدمة عندما يشاء . وكانت نواة الجيش فرقة الغلمان ، وهي فرقة تألفت من الارقاء وابناء الارقاء . يؤتى بهم من كل القبائل ولا سيا من سكان الكرج . ومن بين رجال هذه الفرقة اتخذ الشاه معظم حكام الولايات وموظفي البلاط . وهكذا نرى هنا كما في السلطنة العثمانية كيف أن الدولة هي الجيش .

جهوده في سبيل تقوية الروح المركزية

تلبست الحكومة مظهر حكومة منزلية فكبار الموظفين في البلاط او العاملين في خدمة الشاه الخاصة هم اعضاء في مجلس الملك الخاص. يأتي في المقام الاول ، عظمة الدولة وهو بمثابة رئيس الوزراء . ويليه مرتبة « الصدر » ، وهو المرجع الاكبر ، فهو بمثابة الوزير الاول لشؤون الدين ، وبامكانه ان يصبح رئيس الوزراء او « عظمة الدولة » ، وهو مرجع القضاة ، ويدير الاوقاف والمساجد لما فيه كفالة رجال الدين وطلاب العلم . ثم يأتي « الناظر » الذي يتولى النظر في كل ما يتصل باسطبلات الشاه والثياب والاواني المنزلية ؛ ثم رئيس الخدم ، وهو ابداً من الخصيان البيض ، يبقى على مقربة من سيده ويقوم بكتابة سره الخاص . وهنالك موظف يعمل كأمين سر

الدولة ، فيطلع الشاه على ما يرد على الديوان من اوراق وظلامات . وهنالك ناظر المالية او محاسب بيت المال يشرف على مالية الشاه ويضبط اعمال الجباية ، كما ان ناظر العدل يشرف على القضاء الديني والزمني على السواء ، ويقضي في امور خانات القبائل وكبار رجال الدولة . وكان العمل في مجلس الملك يقتضي له عدد كبير من الكتبة ، ولذا ترتب على الشاه ان يؤمن أود ما بين ٤٠٠ – ٥٠٠ من الارقاء الفتيان ، كان يجري تدريبهم على الكتابة والقراءة . فاذا ما اقترف احدهم ذنباً او هفا هفوة ادّبه الشاه وارسله للعمل في احد دواوينه الكثيرة في الولايات.

تقسم الدولة الى ولايات ، يتولى الحكم واعمال الادارة فيها حاكم يتعهد حاجات أود البلاط اسبوعاً كاملا ، ويلزم جباية الضرائب ورسوم المكس ، ويرسل الاموال المحصلة ، كل سنة مع الهدايا السنية ، الى الشاه ، مرفقاً بما يفرض عليه تقديمه من الجندين ، بين خيالة ومشاة يجري انتقاؤهم بكل دقة ،وبذلك يقوم على الوجه الاكمل بما عهد به اليه الشاه من سلطات، يساعده في تدبير امور الولايات موظفون من مختلف المراتب والدرجات ، وتقسم كل ولاية الى عدد من الاقضية ، يقوم على ادارة كل قضاء ، مأمور يرجع في الامور الدقيقة الى الوالي ، رئيسه المباشر يجري تعيينه او رفته من قبل الشاه . اما في الريف فكانت تقوم اقطاعات خاصة برجال البلاط وضباطه المعروفين بولائهم للشاه ، وهي اقطاعات يتمتع اصحابها بريعها مدى الحياة ، كما كان يوجد اقطاعات معينة يتخلى الشاه عن ايرادها ، بما فيه ضريبة الخراج ، كلياً او جزئياً ، لصاحب الاقطاع .

ويقوم في كل مدينة قاضيان يجري تعينهما وعزلهما من قبل الشاه تعود امورهما للمفتي ، يتولى احدهما النظر في الامور الجزائية ، كما ينظر في جنح السرقات والمشاجرات وجرائم القتل والامور المخلة بالآداب ، يساعده في اعماله هذه ضابط شرطة وبعض النبالين . وهنالك قاض خاص كانت مهمته الدفاع عن مصالح الشعب والنظر في تعديات الحكام وتجاوزاتهم صلاحياتهم بابتزاز اموال الرعية . وهنالك محتسب مهمته تحديد الاسعار للمواد الغذائية . فمن من التجار تجاوز هذه الاسعار ، تعرض للجزاء وللجلد معاً . وكان يقوم على الطرقات ، ولا سيما عند مركز الماء ، مأمور حراسة للنظر في هويات الناس وجوازات المسافرين . اما السرقة فكان عقابها شديداً اذ كان السارق يربط الى ذيل الحصان او الجمل ويجر على قارعة الطريق ، عاري البطن ، بحيث يموت جوعاً ، او انه يعرض مصلوباً على خشبة فوق ظهر حصان ، بعد ان تغرس قضبان الشمع في اطرافه . واذا لم يتم القبض على السارق ، كان على الحاكم ان يعوض على التاجر الخسارة التي لحقت به . اما القتلة ، فكثيراً ما كانوا يستهدفون القتل ، عملاً بشريعة السن بالسن والعين بالعين . فقد اتفق ان قتل احد غلمان الحاكم ، فتى من نبلاء الفرس ، فما كان من الشاه الا ان اسلم القاتل الى اسرة المغدور به ، بحيث راحت ارملته وامه وشقيقته يقمن كل واحدة منهن بطعنة في قلبه ، يشربن دمه ، ليشفين غليلهن منه .

وهنالك عدد كبير من الائمة والشيوخ ينصرف للعلم والدرس ،بحيث كان طلاب العلم يتلقون

دروسهم على حساب الاوقاف . وكانت اسعار الكتب على الاجمال ، عالية . ومع ذلك لمعظم الصناع والعمال كانوا لا يحجمون عن شرائها لشدة اقبالهم على العلم وحباً في المطالعة ولتهذيب اولادهم وتثقيفهم . وكان يقوم في الحي الواحد بضعة مدارس ابتدائية ، مع ان العدد الكبير من طلاب العلم كان يؤلف عالة لانهم كانوا يمتصون خيرات البلاد .

اقتباس الفنون الاوروبية ، ونشاط الحركة التجارية

دان الشاه عباس بانتصاراته الحربية لهذه العلاقات الوطيدة التي اقامها مع الاوروبيين . ولما كان البرتغاليون قد قطعوا طريق أرموز ، في الخليج الفارسي ، منذ عام ١٥٦١ ، استطاعت الشركة الانكليزية ، في موسكو ، ان توفد احد ممثليها المدعو جنكنسن لينشيء لها علاقات مع بلاد فارس عبر روسيا ، التي كانت بسطت سيطرتها على حوض نهر الفولغا . وقد نجح جنكنسن في محاولته هذه ، ودخل الانكليز الى بلاد فارس عن طريق مدينة استراكهان وبحر قزوين وباكو وشيروان . الا ان الفوضى المستحكمة حلقاتها في البلاد ، والاخطار التي كان يتعرض لها عملاء الشركة الانكليزية ، من قبل القراصنة ، في بحر قزوين ، ارغمتها على قطع علاقاتها ، عام ١٥٨١ ، بعد ست رحلات قامت بها ، في ذلك الحين .

وفي عهد الشاه عباس ، دخل نبيلان انكليزيان مغامران بلاد فارس ، هما انطوني وروبرت تشرلي ، ويصحبتهما ٢٦ مرافقاً ، بينهم ماهر بصب المدافع ، وعملوا جميعاً في خدمة الشاه ، سنة ١٥٩٨ . وقد لقنوا الفرس شيئاً من اصول النظام واسبابه والاعتصام بالانضباط كما لقنوهم بعض الفنون الاوروبية ، واسسوا بعض الفرق المدفعية وبعض الطوابير ، وجهزوا الجيش بـ ٥٠٠ مدفع . وسلحوا بالبنادق ٦٠،٠٠٠ جندي . وقد اشتهر روبرت تشرلي خلال الحملة التي قام بها الشاه ضد الاتراك . وبفضل هؤلاء الاوروبيين ، والعتاد الحربي الذي جهز الجيش به ، استطاع الشاه ان يلحق هزيمة نكراء بالاتراك السنيين .

ورغبة منه في مضاعفة وارداته ، راح الشاه يحتكر تجارة الحرير ، ورغب في انماء صادراته عن طريق الخليج الفارسي ، تفادياً منه للرسوم الباهظة التي فرضها الاتراك على مرور السلع في بلادهم . ولذا اضطر الشاه لمحاربة البرتغاليين . فاوفد الى اوروبا ، السير روبرت تشرلي الذي مر ببولونيا والمانيا وروما وانكلترا واسبانيا دون ان يتمكن من الحصول على شيء رسمي . الا ان الانكليز المقيمين في صورات (الهند) كانوا يجدون صعوبة في تصريف اجواخهم في السلطنة العثمانية . وقد وصل الى مسامع الوكيل الانكليزي العام بان بضاعته ستلاقي رواجاً في ايران ، حيث يشتد البرد والصقيع طيلة خمسة اشهر في السنة ، وبان في امكانه شراء الحرير من البلاد ، ٥٠٪ ارخص من سعره في حلب . ولذا راح يفاوض روبرت تشرلي في الامر . وبواسطة هذا الاخير اصدر الشاه ، عام ١٦٠٤ ، امرا للحاكم ان يبذل للسفن البريطانية ، كل مساعدة ممكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨

كانون الاول ، حاول البرتغاليون ، اعتراض الاسطول الانكليزي في صورات . فما كان من السفن الانكليزية ، الاربع الا ان حطمت السفن البرتغالية المساوية لها بالعدد . وبواسطة هذا التعاون الوثيق الذي تم بين الجيش الفارسي والاسطول الانكليزي ، سقطت قاعدة أرموز بيد الفرس عام ١٦٢٢ ، وعلى الاثر ، أسس الانكليز ومن بعدهم الهولنديون ، معامل لهم في ارموز ، وراح الشاه عباس يغدق انعاماته بسخاء على التجار المسيحيين ، وأمن لهم ممارسة واجباتهم الدينية ، وعمل على تحسين طرق المواصلات ، وبنى الكبـاري والجسور والخانات ، واقام في غيلان ومازندران خمائل من المروج السندسية الخضراء ، كما انشأ طريقاً عريضة اجتازت الولايات المحيطة ببحر قزوين من الشرق الى الغرب ، واقام في ضواحي زلفا وَاصفهان بعض الجاليات الارمنية ، وعهد اليها القيام بتجارة الحرير الذي اخذوا بتصديره الى اوروبا . وبالمثل راحت الاجواخ تفد على العجم من هولندا وانكلترا وغيرهما من الديباج وبلور البندقية والساعات .

نهضة الفن الوطني : اصفهان واوروبا

راح الشاه عباس ، كغيره من ملوك العجم ، يبني له عاصمة في اصفهان الواقعة على طريق القوافل الضاربة بين الخليج الفارسي وطهران، والتي كانت تتقاطع مع الطرق السلطاني الذي يصل الصين باوروبا مع بحر قزوين . وشيد له فيها قصراً منيفاً جميلا كما زينها بالقصور والمساجد والحدائق . وقد غطى جدران المسجد بالفسيفساء والمينا والنقوش البديعة ، بحيث كانت قبة المسجد وجدرانه تتلألأ بالانوار الساطعة عندما تنعكس عليها اشعة الشمس . فيخيل للرائي ، كأنه في بحر من اللازورد المتموج . وقام الى جانب قصر الشاه ، سوق ضخمة غصت بالصناع والصاغة وباعة الحلي والجوهرات بحيث اخذ يقصدها كبار التجار من الهند والصين واوروبا ، كما احتشد على مقربة منها في الضواحي الوف من رجال القبائل يسكنون الاكواخ من التراب والقش .

ولم تمض ان اصبحت اصفهان قلب الحركة الفنية في البلاد . واشتهرت على الاخص بصناعة القاشاني الشبيه بالقاشاني الصيني . وعمل الهولنديون على تنفيقه وبيعه في اقطار اوروبا كأنه الخزف الصيني الاصل . كذلك نشطت فيها صناعة السجاد على انواعه واشكاله ، بعضها نم عن ذوق الشيعة ، يشيع البهجة في قلب الرائي لما تقع عليه العين من الرسوم الجميلة ، وصور الحيوانات والنباتات والاشجار والمشجرات ، بينما نرى ، من جهة اخرى نوعاً من السجاد العاري من كل حلي ، تبدو فيه رسوم هندسية وبعض الالوان الزاهية . كذلك اخذوا ينسجون انواعاً جميلة جداً من الديباج الموشى بالقصب واسلاك الحرير الذهبية والمخمل ، كما فرشت الجدران بالرسوم الجميلة من صنائع الفنانين الاوروبيين ، الذين جيء بهم من ميلانو والبندقية ومقاطعات الفلاندر والمانيا ، او جاءت تقليداً حرفياً لهذه الصور والرسوم التي اهداها للشاه عباس ، ملوك اوروبا وامراؤها ، وبرزت عليها صور فرسان اوروبيين بسراويلهم وقبعاتهم وعمائمهم وجزماتهم ، كما برزت فيها نساء اوروبيات ، متخففات بأرديتهن الناعمة

المكشوفة ، بينهم لويس الثالث عشر ، الى جانبه ايرانيون ، واجناس من الكرج ، وجنويون وصينيون وصينيات ، بحيث كنا نرى مظـــاهر كل الفنون تتفاعل بعضها مع بعض . وعرف الايرانيون ان يخرجوا من كل هذا بمزيج خاص ، واطلعوا منه فناً قومياً تميز بهذه الدقـــة في الصناعة وهذه التعابير الدقيقة التي تنسجم ببساطتها مع الروح السمحاء في المجموع . كل ذلك في تشابك وتلاحم وانسجام وتناغ من الوحـــدة والهدوء . فاذا بنا امام فن آسيوي بمقاييسه ومزدوجاته ، واوروبي بدقته وتناسقه وتناسب خطوطه ، هو قبل كل شيء ، فن ايراني صميم .

انحطاط الدولة الصفويـــة

ما كاد الشاه يتوارى عن الانظار والاذهان ، حتى اخذ الانحلال طريقه الى قلب الاسرة الصفوية المالكة . فقد كان من شـــدة غلوه في الحذر والتعصب ان أمر بان تسمل عيون ابنائه الاربعة ، كما اصدر اوامره بان يبقى امراء الاسرة المالكة قابعين في قصورهم مع الخصيان في عشرة موصولة مع النساء ، بدلا من ان يتدربوا على اعمال الحرب والمقارعة . وكان هؤلاء الامراء يقضون لياليهم في السمر يعاقرون الخمرة حتى يتعتعهم السكر . وكانوا في صحبة النساء وعشرتهم ، منذ حداثتهم حتى يغشاهم الغثيان فيسعون وراء الغلمان يستلمون للذائذهم . وهكذا توالى على العرش اقزام من الملوك هم الشاه صافي (١٦٢٩ – ١٦٤٢) ، وعباس الثـــاني (١٦٤٢ – ١٦٦٧) وسليمان ١٦٦٧ – ١٦٩٤) ، والشاه سلطان حسين . واصبحت الوظائف العامة تشرى وتباع كالمتاع ، يتوارثها الابن عن ابيه . وساءت مرتبات الضباط ، بعد ان تولى امور بيت المال مجلس المحاسبة ، اذ راح يوزع مرتباتهم أنجماً او اقساطا يفرضها على القرى بحيث كان الضابط يرى نفسه مضطراً لان يرشو اعضاء المجلس المذكور ليتاح له قبض مرتبه من صندوق واحد معين ، والا باع حوالته بخسارة كبيرة لبعض التجار . وراح الحكام ومتعهدو جباية الضرائب يختلسون معظم ما يجبون من ضرائب ورسوم ، بحيث لم يكن ليصل الى بيت المال ، اكثر مـن ثلث المبلغ العائد له . وهكذا تخلخلت وحدة الجيش واصيبت أطـُـرُه بالانحلال ، وراح الاتراك ، بقيادة السلطان مراد الرابع يحتلون ، من جديد ، بغداد ، والعراق (١٦٣٨) ، كما اخذت قبـــائل الاوزبك تغزو ، من جديد ، خراسان ، الا انهم كانوا ، هم ايضاً ، في طريق التفسخ والانحلال . واستطاع إمام عمان ان ينتزع مسقط من ايدي البرتغاليين (١٦٥١) ، وراح يكثر من غزواته لمرافىء ايران . على الخليج الفارسي .

كان الاوروبيون يتنافسون ، فيما بينهم ، على الاتجار مـــع بلاد فارس . فالى الاسباب العديدة التي كانت تدعو الشاه لمعاملتهم بالحسنى والترحيب بهم ، هنالك سبب هام جداً في نظره ، وهو الحصول على المدافع الاوروبية ، ليصد الطامعين في خيرات البـلاد ، واذا كان الانكليز منصرفين لحروبهم الداخلية ، منذ عام ١٦٤٥ ، استطاع الهولنـــديون ان يفرضوا سيطرتهم على الحركة التجارية مع بلاد فارس ، بعد ان نالوا امتيازاً من الشاه ، بشراء الحرير من كل مكان وتصديره للخارج بدون رسم عليه . وعندما شرع لويس الرابـــع عشر يطبق

سياسته التجارية ، اصبحت المنافسة الفرنسية تكون مزاحماً يحسب له الف حساب في هذا المضمار . وفي سنة ١٦٦٤ ، اوفدت الشركة الفرنسية للهند ، موفدين من قبلها الى اصفهان ، ومعها نبيلان هما : قائد ملك اوروبا العظيم وسفيره . وقد توصل السفير الى ان يحصل لحساب الشركة الفرنسية على فرمان يعفيها من رسوم المكس ، مقابل مبلغ ٣٠،٠٠٠ ليرة يتبرع بها الملك لويس للشاه ، كما نال الملك تصريحاً من الشاه يجعله حامياً للمسيحيين الارمن والكلدان والسريان (١٦٨٣) ، وتمنى الشاه قدوم عمارة فرنسية للحد من إمام مسقط ، وقدّم مقابل ذلك حصنين من حصون مسقط ، ومرفأ يقع على مقربة من بندر عباس ، والاعفاءات من رسوم المكس (١٦٨٩) . الا ان الحروب التي نشبت بمناسبة خلافة اسبانيا وضعت حداً لكل هذه العلائق المشجعة . وفي سنة ١٧٠٨ ، عقد ملك فرنسا وشاه ايران معاهدة تجارية حالت الحرب دون تنفيذها . ووصل مدينة مرسيليا ، عام ١٧١٥ ، محمد بك السفير الفارسي الذي وقع معاهدة تجارية جديدة وميثاق صداقة ، في ١٣ /١٧١٥/٨ مع سمو امبراطور فرنسا الممتاز لويس الرابع عشر، الملك السيد المطلق، لفرنسا وللممالك والمقاطعات ومدن « باريس ونورمنديا وبريتانيا، والاكويتين وغسكونيا والبواتو وسانتونج، وغير ذلك، من المدن والممالك ».

وفي هذا الوقت بالذات كانت تتهيأ امور واحداث هامة تستهدف بلاد فارس بالذات . ففي الوقت الذي راح فيه الشاه سلطان حسين المشهور بورعه يكل الى الخصيان ورجال الدين المراكز المهمة في الدولة ، هذه المراكز التي يجب ان يحتلها رجال السيف اذ بسفيرين روسيين يفدان على اصفهان ، عام ١٧٠٨ ، و ١٧١٥ ، وراح الروس يتهيأون للهجوم والانقضاض على البلاد ، كما راح الافغانيون من جهتهم يعلنون الثورة ، وهم سنيون صادقون لعقيدتهم ، الذين لم يصدقوا يوماً ولاءهم ، في هذه الجبال الوعرة المسالك التي كانوا ينزلون بينها . وكان هذا من شأنه ان يحمل الفوضى والاضطراب الى بلاد فارس .

بين رفض الاسلام لاوروبا وعدم استغنائه عنها

هنالك بلدان اسلامية اخرى تتبع قارات اخرى سيجري درسها بالدقة والتفصيل اللازمين، عندما يحين درس هذه الاقطار. غير ان السلطنة العثمانية والدولة الفارسية يؤلفان مثلين على ما لهاتين الدولتين من اشعاع على الاسلام وما يخفيانه ، في الداخل ، من ضعف يحد من طاقتها على الاشعاع والتوسع . فالانقسامات الدينية ، وتنظيم الاسرة المسلمة والدولة الاسلامية ، والنقص الفاضح في العلوم التي لا تنبع من صميم القرآن ، والقول بالقدرية ، تركت مع ذلك للاسلام ما يكفي من القوة للوقوف بوجه اوروبا وللانسياح منها والاستبطان في بعض نواحيها الى حد ما . انما شكا في داخله من اعراض اوهنته فاقعدته ، وحالت بالتالي دون استباحته العالم المسيحي . وكأن القدر الذي قسم للمدنية الاسلامية ، التي بقيت في طورها اللاهوتي ، قد قدّر لها أن تعرض عن المدنية الاوروبية ، مدنية الكفار الهالكين في النار ، هؤلاء الكفار الذين يشركون مع الله شريكا ، كما اسقط في يده لعمل شيء ضد هذه المدنية البغيضة ، بواسطة هذه الذرائع والادوات ذاتها التي استنبطها العقل الاوروبي « الواقعي » .

الفصل الثاني

العالم الهندي، الاسلام وأوروبا

الدول الاسلامية

كان المسلمون في اواخر القرن الخامس عشر، باعتبارهم جيشاً فاتحاً مرابطاً في الاقطار المفتوحة، يسيمون عالم الهند الخسف والمهانة ويستثمرونه أبشع استثمار، وكانت الهند، اذ ذاك منقسمة الى عدة ممالك يتولى الامر فيها زعماء مسلمون تدعمهم جيوش قوية. وقد قام في «سهول الهند الفانجية» بضعة منهـا، اهمها مملكة الفغانستان، في لاهور، ومملكة البنغال. وقام في قلب البلاد، على صعيد الدكن المرتفع، بضعة ممالك بينهما مملكة الخندش، زاحمد نجّار وغولكوند وبدجابور وبيدار. وقام الى الجنوب، امبراطورية هندية هي مملكة فيجانيفار التي كانت ترسف في الفوضى، والتي اعتراها الانحلال بعد عام ١٥٦٥، وانقسمت على نفسها الى عدة امارات يتولى الامر فيها حكام هم النایاك، تحت سلطة الامبراطور الاسمية. وهذه الدول الاسلامية، انما كانت بالاساس جيوشاً غريبة استوطنت البلاد، من اصل بدوي او نصف بدوي، هبطت، اساساً من جبال افغانستان او من فيافي التركستان وتثاقلت وطأتها على الهنود المسلمين الذين تراوح عددهم في هذه المنطقة الشمالية الغربية بين بضعة ملايين، وهو عدد لاينقص بشيء عن عدد الهنود التابعين للديانة الهندوكية.

المسلمون الفاتحون ونظام الطبقات

كان الفاتحون بالنسبة للهنود بنسبة الورقة الى البحر. فالمدنية الهندية لم يدخل عليها من جراء وجودهم اي تطور، لما من هذه الكتلة الضخمة من السكان الذين تجاوز عددهم مائة مليون، منهم تقريبـاً ٣٠ مليون في الدكن وامبراطورية فيجاينغار، و ٦٠ مليوناً تقريباً في الشمال، ما يصونها ويحافظ عليهـا. وكان لهذه الكتلة البشرية، من عقيدتها الدينية، ومن النظام الطبقي الذي سارت عليه منذ اجيال، ما يحول دون الحاق اي تأثير عليها. تشتق كلمـة «طبقة *Caste*» من كلمة برتغالية «*Casta*» التي تعني عرقاً او سلالة. واول استعمال لهـذه الكلمـة بالمعنى الهندي الضيق، يعود لسنة ١٥٦٣. فلقد كتب غارسيا ده اورتا قائلا: «ما من احد يعمل في مهنة تختلف عن مهنة ابيـه

وكل من هم من « طبقة » الاسكافيين يعملون في الاسكافة » . وقد اعلن مجمع غوا المقدس ، عام ١٥٦٧ ، ان اقوام الهند ينقسمون الى « طبقات » ، متميزة الواحدة عن الاخرى ، وتتباين فيا بينها منزلة وكرامة وتنظر جميعهـا الى المسيحيين كمن هم في أحط دركات المجتمع البشري ، ينظرون اليهم نظرة ملؤها الاستهجان ويعزون اليهم الخرافات والاساطير (بالنظر الى عاداتهم المميزة) بحيث يأبى اي شخص من الطبقات العليا الاخرى ان يجالسهم او ان يقاسمهم المأكل والمشرب . وهكذا ألفت الطبقة فئة من فئات المجتمع ، مُطبقة على نفسها ، معزولة عن غيرها من الطبقات ، تعيش على اعرافها وعاداتها الموروثة ، لها انظمتها الخاصة ومجالها الاجتماعي الخاص ، ومهنتها وعصبيتها . وهذه الفئات البشرية والمجتمعات التي تؤلفهـا تختلف اصلاً وفصلاً. ويلاحظ احد المؤرخين ان جدول الطبقات الخاص باحصاء ولاية مدراس ، عام ١٩١١ ، يعطي فكرة عن تقسيم الانكليز انفسهم ، الى أسر نورماندية الاصل والى كهنـة ونبلاء ، ووضعيين وتجار حديد ، وبقوليين وشيوعيين واسكتلانديين ، وهذه الطبقات كانت الواحدة منها معزولة تماماً عن الاخرى ، كما كانت جميعها تعزل نفسهـا عن الفاتحين والغزاة المسلمين ، وتتفـادى الاختلاط بهم ، وذلك سيراً منها مع تقاليدها الموروثة ، وتجنبـاً للتدنس او التنجس ، اذ كان يترتب على المزارع ، وهو من طبقة البولايان *Pouloyan* او طبقة المنبوذين ، ان يقف من محدثه البراهمان ، على بعد ٩٦ خطوة ، لا يخاطبه الا عن مثل هذه المسافـة او هذا البعد ، خشيـة ان يلحق به الدنس اذ وقف منه على ٩٥ خطوة . واضطر الغزاة لمراعاة هذه الاعراف والعوائد اذ ان مسها او تعديلها من شأنه ان يسبب هيجاناً عاماً ، وربما ثورة عارمـة بين الهنود الذين كانوا يتبرمون باحتلال الغريب لبلادهم ، وتَطرّق الاجنبي لها ، شريطة ان تكون حياتهم الخاصة ، وهي الحياة التي لها قيمتها في نظرهم تبقى مصونة محترمة . ونظام الطبقات هذا أتاح لحضارات كثيرة ان تعيش جنباً لجنب مع غيرها من الحضارات الغريبة التي سيطرت في الهند ، وانقـذ المدنية الهندية وحفظها سليمة مصونة بالرغم من توالي الفاتحين وتعاقب احتلال الاوروبيين .

١ – السلالة المغولية الاولى

بابـر

قامت في الهند ، في مطلع القرن السادس عشر ، دولة مغوليـة جديدة ، سارت في تطورها الصاعد على النهج الذي اتبعته الدولة الصفوية ، مدفوعـة الى هذا المسلك ، بالاسباب ذاتها . تحدر بابر (١٤٨٣ – ١٥٣٠) من عائلة تيمورلنك ، لجهـة ابيه ، ومن اسرة جنكيزخان لجهة امه ، وولي الحكم خلفاً لابيه سلطان علي ، على فرغانة ، في التركستان ، عام ١٤٩٤ . فبعد ان خلعه الاوزبك ، عمل على جمع فريق من المغامرين وشذاذ الآفاق حوله واحتل بهم مدينـة كابول ، وحاول بعد ان عقـد حلفاً مع بلاد فارس ان يفتح فرغانة من جديد . وقد جر عليه تحالفه مع الشيعة نقمـة المتعصبين من السنة ، ثم لم يلبث ان انثنى عن فكرته هذه ، بعد ان دخل مدينة سمرقند واضطر لمغادرتها مرتين ثم اتجه نحو الهند

منجذباً اليها بعد الذي سمعه من اخبار الذهب والفضة وتوافر الصناع الماهرين . ولذا اخـذ بمهاجمة مملكة دلهي الافغانية ، ثم لاهور ، وكسر الافغان شر كسرة في معركة بانيبوت(١٥٢٦) فاستولى معها على دلهي واكرا ونودي به امبراطوراً على هندستان ، في مسجد دلهي ، وذلك يوم ٢٧ نيسان ١٥٢٦ .

الا ان بابر كان اعجز من ان يحقق حلمه هذا . فلم يقم من يقف بوجه المغول مع ان جيشه لم يكن ليتجاوز عدده ال ٢٥،٠٠٠ جندي ، تجاه ١٠٠،٠٠٠ . الا ان نظام التعبئة الذي سار عليه ، والمدفعية الشديدة الاثر التي استعملها ، وكلاهما من اصل تركي ، امنـا له الفوز على الفرسان الافغان والراجبوت . فجعل في مقدمة جيشه وطليعته مئات من المركبات والعربات شدها بعضاً الى بعض ، ونصب بينها مدفعيته التي أوكل امرها الى طوبجية اتراك ، فحصدت العدو حصدا ، بعد ان أسقط في يده امام هذه الجبهة المتراصة على هذا الشكل . ونصب فرقة الخيالة ، الى جناحي جيشه ، فاخذت تمطر العدو سحابة من النشاب ، ليقوم بعـد ذلك بهجوم جانبي يضع حداً لكل مقاومة .

حل هذا الامبراطور احتقاراً عميقاً للهند . فقد جاء الهند لعدم وجود شيء آخر احسن منه ، الى حيث لا مقاومة ولا من يقف بوجهه . الا ان مزاجه البدوي كان يحمله دوماً نحو الجبال والتفكير بارضها العاصية . فقد وجد الهنود لا كفاءة لهم ، ولا اساليب ولا طرق لهم معينة ، ولا خيول عندهم ولا كلاب أصيلة ، ولا بطيخ مُعَطر ، ولا عنب ولا خبز طيب ، ولا ماء قراح ، ولا ماء جار في حدائقهم ورياضهم . فلم يكن في الهند على الاجمال ولا لدى الهنود شيء طيب يذكر . فقد ازدراهم من حيث هو مسلم واخضعهم لضرائب خاصة كالجزية كما فرض رسوماً على مزاراتهم واماكن الحج عندهم . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يحمل له الهنود كل حقد واحتقار ، اذ قيل : وكما تراني يا جميل اراك . فلا عجب ان يتفادى الهنود المغول ، ويتجنبوهم ، وان يجلوا الفلاحون عن قراهم ، وسكان المدن عـن مدنهم . فاهملت الارض وبارت الغلال بعد ان اجدبت المزارع ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها عصـابات تقطع الطرق وتتعرض السابلة . ولذا كان عليه ان يجعل من امبراطوريته امبراطورية بالفعل لا بالكـلام .

مشكلة تكييف المغول مع الهند : السلطان اكبر

هذه المهمة كانت من حظ السلطان اكبر ان ينهض بهـا وان يحققها على الوجه الاكمـل . (١٥٤٢ – ١٦٠٥) . صار اليه الامر بعد ان توفي ابوه السلطان هومايون ، ابن السلطان بابر ، الذي عرف بالشجاعة والاقدام . تولى اكبر الحكم عام ١٥٥٦ ، بعد ان بدا العوبة بيد امه ومرضعه ووزرائه . الا انه لم يبدأ بالحكم الفعلي الا سنة ١٥٦٢ ، عندما صرع بضربة من جماع يده رئيس وزرائه . فقد صرف حداثته يلهو بالقنص والصيد . أوتي من القوة البدنية وقوة

الاحتمال ، ومن النشاط والشجاعة الشيء الكثير بحيث اصبح مفزعة الشرق كله » . فقد شابه الاسكندر المقدوني من وجوه عدة . فقد كان يروض ، وهو ابن ١٤ سنة ، اشد الفيلة شراسة ، تمردت احدى القرى ضده فاسرع يهاجمها على ظهر فيله ، ولم يبال بالنبال المنهالة عليه وتتكسر على درعه ، ثم اندفع بفيله فوق الحواجز ، ودخل البلدة وامر رجاله باحراقها . هاجم مرة وهو في الجبال نمرة وصرعها بضربة نجلاء من سيفه البتار . فقد وجدت الهند في هذا الشاب فتاها وسيدها .

كان ربعة ، عريض المنكبين ، أعقف الساقين ، تقدح عيناه اللوزيتان النار والشرر ، له شاربان خفيفان وصوت جهوري ، حنطي اللون ، وكان من المهابة والوقار بحيث تدرك من اول الحظة انك امام ملك . فقد كان وقوراً رصيناً . اتصف بالطيبة واللطف . على الاجمال ، يمتلك زمام امره ويخفي سريرته . اما اذا ما استشاط غيظاً وحمي غضبه انزل الرعب في القلوب. وبالرغم مما اوتي من قوة بدنية ، فقد كان دائماً قلق البال ، لا يرتاح ولا يسلو اضطراب الخاطر الا اذا اخذ بعض المسكرات او اخذ شمة من الأفيون .

كان امياً يجهل الكتابة والقراءة ، مع الملاحظة ان زعماء الهنود كانوا دائماً يرددون بان الكتابة ليست بامر خليق بالفاتحين . فقد استمع الى قصص وحكايات كثيرة ، وأوتي ذاكرة هائلة . يحفظ جيداً اسماء شعراء الاسلام ومؤرخيهم ، كما كان واقفاً على تعاليم الانجيل والعقائد الرئيسية في الديانة المسيحية ، ومبادىء الهندوكية والبانية والزرادشتية . وكان يناقش ويجادل بمعرفة ، في هذا كله ، بدقة واستبانة . عرف بذكاء فطري واسع وبمنطقه السليم . نظر الى الامور من فوق ، من عل ، كما عرف الكثير من الاشياء بتفاصيلها . ملك من الجيل الثالث . ومع ذلك لا تزال تجيش فيه روح البداوة . فقد ادرك جيداً ما فات بابر وابنه هومايون تفهمه . تمت له نظرة شاملة وفكرة عالية عن السياسة والدولة . فقد ادرك على الوجه الصحيح الظروف التي تمت فيها الغلبة للمغول وساعدت على ترسيخ دولتهم .

همه جداً ان يكون جيشه دوماً على احسن ما يكون تدريباً وعدة ، وكفاية وفعالية لينهض على الوجه الاتم بالحروب التي تحتم عليه مواجهتها . وقد أدرك جيداً فلسفة التكتيك الحربي القائلة : اذا لم تبادر للهجوم ، استهدفت له وتعرضت له باسرع مما تظن . حارب طوال حياته المديدة مستجيباً لداعي الجهاد المقدس ، من اقصى الهند الى اقصاها ، فدوخ غوجرات (١٥٧٢) ، وصورات (١٥٧٣) ومملكة الافغان في البنغال (١٥٧٤) ومملكة اوريستا (١٥٩٢) ، وغزا سلطنة احمد نجار ثم انكفأ على اعقابه ليخمد ثورة الراجبوت وثورة البنغال وبيهار (١٥٨٠) والثورة التي قام بها التيموريون ، كما رد التهجمات والتعديات التي تعرضت لها من قبل الاوزبك ، واعاد فتح كابول (١٥٨٥) وضم الى ممتلكاته كشمير التي اصبحت روضته الغناء (١٥٨٦) فقد تم له اكليل الفاتحين ومجد الغزاة المظفرين ، واشتهر بتوزيع اسلاب الحرب بين جنوده .

الدولة هي معتمدية الجيش المغولي . استغلال المنتجين

اختار اكبر من بين ضباط جيشه عماله على الايالات والموظفين الذين كان بحاجة اليهم لشؤون الادارة ، معظمهم اغراب عن الهند اجانب من العرق الابيض . فقد كان يزدري اولاد هؤلاء البيض الذين يسمون وراء تغيير لون بشرتهم ، او تتبلد طبائعهم فيسترسلون للبطالة كالهندوس . ولكي تنفتح امام الموظف الابواب على مصراعيها للنجاح والترقي ، كان يستحسن فيه ان ينحدر اصله من جبال افغانستان او من سباسب ايران ، او من بقاع التركستان او من مغوليا . ان ٧٠ ٪ من عماله وموظفي الادارة هم من هذه الأسر التي جاءت الهند في عهد ابيه السلطان هومايون او اثر تبوئه هو نفسه العرش وآلت اليه مقاليد السلطة . فقد كان بينهم ١٥ ٪ من مسلمي الهند ، و ١٥ ٪ من الهنود غير المسلمين ، لا يصل بينهم للمراتب العليا سوى النزر النزير .

فبالنظر لوضع البلاد الاقتصادي ، كان المسلك الوظيفي هو الذي له قيمته ، ولا سيما الوظيفة في البلاط الملكي او في الادارة العامة التي هي تعبير عن الجيش ، هذا الجيش الذي هو عماد الدولة وفيه قيامها . وقد مثل الجيش بهذه المقادير التي كان يستهلكها من غلال الارض وانتاج البلاد ، العنصر الاكبر في مرافق الدولة الاقتصادية ، كما ان الطبقات المقيمة كانت تستهلك جانباً كبيراً من محاصيل البلاد ، في الوقت الذي لم تكن لتعوض على المنتج بأي شيء . وهؤلاء الطفيليون كانوا من الكثرة بحيث كان يتعذر حصرهم وعدهم . ضم الجيش في مختلف قطعاته وألويته ، في جميع انحاء الهند اكثر من مليون جندي . فقد ألفت قطعاته حلقات متسلسلة بينهم امراء الدم من الاسرة المالكة الذين كانوا على رأس وحدات تتألف من ١٠،٠٠٠ خيال او فارس . ويليهم مرتبة على التتابع ، رؤساء الوحدات من ٥٠٠٠ ، و ٣٠٠٠ ، و ٢٥٠٠ ، و ١٠٠٠ ، و ٥٠٠ ، و ٤٠٠ ، و ٥٠ ، و ١٠ وكان من المتوجب على هؤلاء الضباط ان يجندوا الجنود ويحضروا لهم الخيل ويجهزوهم بما يلزم من عدة وعتاد ، مقابل مرتبات تدفع لهم . ومن بين هؤلاء الضباط كان السلطان اكبر يختار عماله والموظفين الكفاة للمراكز الادارية البارزة فاذا ما عين مباشرة موظفين مدنيين كان عليه ان يعين مرتباتهم وان يوليهم مسؤوليات المستبدار .

كان السلطان اكبر يتولى الحكم بنفسه دون مساعدة رئيس وزراء ، يعاونه اربعة وزراء وبعض الضباط العاملين في البلاط ، وقيّم البلاط ورئيس الطهاة . ومن مجموع هؤلاء كان يتألف مجلس الملك الخاص ، الذي كان يقدم النصح والمشورة للملك الذي يحتفظ لنفسه باتخاذ القرار اللازم في نهاية الامر ، وليس من يحد من ارادته او يقف بوجهه ، لا قانون ولا دستور ، يقضي في يومه بالامور العارضة له ، ويستقبل في ديوانه الملكي في جلسات عامة كل ملتمس او مطالب بحق مهضوم ، او متظلم من ظلامة واقعة عليه ، فيجزم السلطان نفسه بالقضايا المختلف عليها . وكان كتبة السر يحرصون على قراراته هذه . اما الادارة فكانت متشعبة للغاية بحيث يجري

تسجيل كل قضية بما يلزم من الايضاحات والبيانات اللازمة . كل هذه المعاملات كان يقتضي لها جيش لجب من الموظفين والكتبة ليس لهم محل او ذكر بين مراتب الجيش وصفوفه. ولضبط غلال الارض والحاصيل ، كان لا بد من عدد محترم من الحاسبين والكتبة ، ومثل هذا العدد واكثر ، لجباية الرسوم ، ومثلهم لتولي شؤون المال والتحصيلدارات ، وغيرهم من المحاسبين والمفتشين لضبط القيود والاشراف على عمليات الجرد ، وكان الوف من الكتبة يسجلون كل يوم بيومه مجموع واردات الدولة ومداخيل الضرائب ومصروفات الملك كما يسجلون البارز من حوادث البلاد وماجرياتها اليومية ، ويضبطون اسماء الاجانب الذين يدخلون البلاد ، مع بيان باسماء البلدان التي قدموا منها والغرض من زيارتهم .

كان السلطان اطباؤه وفنانوه وشعراؤه ، وكان يعيل في حرمه اكثر من ٥٠٠٠ امرأة لكل واحدة منهن شقتها الخاصة وخادمتها ، يقوم على حراسة هذه الجحافل من النساء حراس نساء وخصيان وعدد لا يحصى من العبيد الارقاء .

وكان السلطان يستهلك كل يوم مقادير هائلة من انتاج رعاياه ، يؤتى له بماء نهر الغانج اينما حل ، وكان العداءون يحملون الثلج اللازم للتبريد ، من الجبال كما يحملون الفاكهة والثمار الشهية من كشمير وكابول وسمرقند . وكان في خدمة كل فيل من فيلته من ٤ – ٧ اشخاص . وقد اخذ السلطان على نفقته الخاصة اعالة الألوف من المسايفين والمصارعين والصيادين المعنيين بامور البيزرة . وقد حلا له ان يشيد الصروح والقصور والاضاريح الكبيرة والمساجد الجميلة ، والمدن كمدينة فاتبور سيكاي التي شيدها بين ١٥٧٠ – ١٥٨٠ ، بمناسبة مولد ابيه وولي عهده . وكان يعين في كل ولاية او صوبا حاكما او منسبدار . وتقسم الولاية نفسها الى عدد من الاقضية او سركامن على رأس كل قضاء منسبداران احدهما قائد للجيش والآخر ناظر لبيت المال . وقامت في المدن والمرافىء البحرية ، ادارات مستقلة يعهد بها الى محتسب او كاتوال يكلف بالسهر على امور الأمن ، ومعاقبة المجرمين وتحديد الاسعار ، ومراقبة المكاييل والموازين وملاحقة الكسالى والزامهم على العمل ، والسهر على تنفيذ التعليمات الصادرة عن السلطان . وكان يساعد الموظف القائم على شؤون الادارة ، مئات الكتبة والخدمة ، فحملة المشاعل ، وحملة الأسرّة ، واهل الطرب والموسيقيين ، والارقاء والخدم من كل نوع ولون. وكان الموظفون الملكيون يمارسون كل السلطات التي يعهد بها اليهم ، فكانوا يتقاضون رواتبهم عن وظائفهم من عوائد « جاجير » وهو عبارة عن قرية او عدة قرى ، يتولى ادارتها ويستغلها كملك خاص ومن ريعها يؤمن مرتبه . وكان في كل ولاية محاسب عام يؤمن النفقات الادارية العامة ويرسل بالفائض من واردات الضرائب والرسوم للامبراطور . اما الجمارك او ادارة المكس فكانت تخضع لنظام خاص من التلزيم .

واخيراً قام في كل مكان زامندارات نبلاء يتولون ادارة اراض واسعة ويمارسون فيها كل انواع السلطة لقاء عوائد معينة ، يدفعونها للامبراطور ، الذي كان بوسعه ان يسترد هذه

الاراضي المقتطعة . وكثيراً ما كان يترك هذه الاراضي لاصحابها يستغلونها كما يشاؤون لتنتقل منهم الى ذريتهم .

استهلاك الانتاج واستحالة الادخار

وهكذا نجد أنى وقعت منا العين ، عدداً كبيراً من الناس لا يقومون باي نشاط منتج، وان نشطوا فلا يعطي نشاطهم اي انتاج . فالنبلاء ، موظفو الادارة والزمندار ، كل هؤلاء ومن لف لفهم ، عاشوا في بذخ اسطوري ، التفت حولهم حاشية طويلة من الطفيليين ولم يكونوا ليعطوا البلاد شيئاً يذكر ، لا من باب المنافع العامة كالطرقات والجسور والقناطر المائية ، وسبل المياه والاقنية الخاصة بالري ، ولا ما يؤول الى تنشيط الحركة التجارية او يضمن سلامتها . فقد كان من المستحيل ، في مثل هذه الاوضاع جمع رؤوس اموال ، كما كان من المستحيل على اصحاب الثروات ، ان وجدوا ، ان يستثمروا اموالهم . فلم يكن احد من النبلاء ليجرؤ على التظاهر انه يدخر او يقتصد من مرتبه او يجمع ثروة ، والا تعرض للمصادرة . وعند وفاة احد النبلاء ، كان الامبراطور يصادر مخلفاته ، وبذلك تضطر كل اسرة ان تعاود سيرتها من جديد . وعلى مثل هذا قس ايضاً التجار الاغنياء . وكان كل تاجر من طغمة التجار عرضة للبلص والاعتصار عن طريق سلفات اجبارية لا تسدد ابداً لصاحبها ، كما كان يفرض عليه رسم معين اذا ما اشتبهوا بتوفيره مبلغاً من العملة السائلة . اما الفنانون فكان النبلاء يرغمونهم بالقوة ، واحيانا تحت طائلة الجلد ، للعمل في خدمتهم بالمجان ، وان دفعوا فنصف المبلغ المتفق عليه . ولذا كان من المحال عليهم ان يقتصدوا بشيء من دخلهم او ان يجمعوا رأس مال يستثمرونه بالتي هي احسن ، بشراء امتعة او بعض الخامات وكثيراً ما بلغ من شدة فقرهم ما اضطروا معه للاستدانة لشراء الغزل الذي لا بد منه في صناعة الحياكة والنسيج ، او النول اللازم لغزله . وهكذا فقد امتنع كل صاحب صنعة او معمل عن ان يقتصد بشيء . فكل ثروة او رأس مال هي من حق النبلاء او من حق كبار التجار . وبذلك امتنع كل تقدم او تطور واصبح امره من المحال .

فالموظفون لم يكن لهم من هم سوى جباية الرسوم المفروضة على الفلاحين ، والمفروضة على المئات من اصحاب الحرف والمهن ، والرسوم المتوجبة على اجتياز الانهر والترع وغير ذلك من رسوم المرور على الطرقات ، او الرسوم المفروضة على المبيعات او على المواليد . كل شيء كان عرضة لدفع رسم عنه . وكثيراً ما كانوا يجبون من الرسوم تأميناً لصالحهم الخاصة ، اربعة اضعاف ما يرسمه او يعينه الامبراطور ، بعد ان تعذر القيام باية مراقبة او تفتيش . فاذا ما رغب التجار والصناع ان يعاملوا بالعدل والنصفة ، ترتب عليهم ان يجزلوا الهدايا الثمينة .

ولذا رأت التجارة نفسها مقيدة من كل جانب ، كما انها كانت دوما مهددة لفقدان السلام والطمأنينة . ولذا أجبر التجار على السفر قوافل تتألف القافلة الواحدة من ٥٠٠ شخص واكثر تحت حماية قوية من الجند المدججين بالسلاح .

وكانت نفقات السفر تزيد من اسعار الحاجيات ، بحيث ان ثمن صنف من هذه الاصناف يصبح في غير متناول العادي من الناس ، بعد ان كانت هذه المواد تقطع في تنقلها من ٢٠٠ – ٢٥٠ كيلو متر ، وهذه المسافة هي المجال التجاري لمدينة لها بعض الشأن . والتجارة البعيدة المدى لم تكن ممكنة الا لهذه الاصناف او المواد التي تتحمل طبيعتها ، مجالاً اوسع من الارباح ، وهي مواد قليلة ، غالية الاثمان ، نادرة ، لا تنقل الا بمقادير قليلة .

اما الصناعة فكانت يدوية ، يعمل اصحاب المهن والحرف ، بناء على طلب او توصية ببطء كلي ، وبكسل ، على اجهزة وادوات فقيرة ، فلم يكن ليتوفر لهم من الخامات بحيث ينتجون او يصنعون مسبقاً هذه الاصناف الموصى عليها ، مع العلم انهم لم يكونوا يتناولون من الغذاء في اكثر الاحيان ، ما فيه الكفاية ، يعملون بتمهل كلي وبلادة ، وينقطعون عن العمل حالما يتوفر لهم ما يسد رمقهم .

اما الاقتصاد فكان يعول على الزراعة التي هدفت قبل كل شيء لتلبية حاجات المحيط المحلي.

الفلاح : وسائل الانتاج عنده ومستوى العيش لديه

كتب على الفلاح الهندي ان يؤمن أود الطفيليين ، في الجيش والدولة . فكان يحرث ارضه بمحراث من الخشب يجره جاموس ضامر خاوي البطن . يكدن من صدره ويتعرض للاختناق وهو يجر المحراث : وكثيراً ما استعمل في عداد ما اتخذ من عدة وعتاد : المعول والمجرفة والربش ، وكلها متخذة من الخشب ، اذ ان ثمن نصف كيلو من الحديد كان يساوي ثمن ١٠ ليبرات من القمح (ما يعادل ثلاث ليبرات عام ١٩١٤) ولم يكن لدى المزارع سوى القليل من وسائل تسميد الارض ، كما ان نظام السقاية كان سيئاً في الشمال الغربي من البلاد ، ناهيك عن انه لم يكن مطمئناً الى بقائه في استثمار ارضه ، اذ كثيراً ما كان الموظف ينزعها منه لينقله الى مزرعة اخرى او يستبدله بمزارع آخر يكون اوسع حيلة واقوى طاقة على استرضائه ، او انه ينتزع منه الارض ليستغلها هو بنفسه وليس ما يحفزه قط للتوسع في اعماله الزراعية ، او ليستمر في صيانة ما لديه من احواض الماء والبرك ، كما ان الضرائب المفروضة عليه كان معدلها يزيد على ما كان مترتباً عليه منها عام ١٩١٤ ، وتتجاوز قيمتها ثمن نصف غلته . اما تغذيته فكانت سيئة اذ لم يكن ليتناول سوى وجبة واحدة في المساء تتألف من بعض الارز وبعض البقول مع قليل من الزبدة ويقضي نهاره في مضغ بعض الحبوب المجففة إلهاء للمعدة . واقتصر لبسه على مئزر من القطن يستر عورته ، ويسكن زريبة من الطين لا مدخنة لها ولا نافذة ، سقفها من القش . واقتصرت امتعته المنزلية على بعض مراطبين الفخار وبعض الشراشف القطنية ، وليرد عنه لسع البرد القارس ليلاً كان يستعمل رجيع البقر المجفف وقوداً امام باب داره . فاذا ما أجدبت الارض جاء ذلك نذيراً له بالموت جوعاً . فاينما مررت في الحقول او على مفارق الطرق ، وقعت منك العين على جثث الموتى تفترش عرض الطرقات ، او اناساً هائمين على وجوههم وقد غارت عيونهم في مآقيها ، وشحبت

شفاههم وعلاها الزبد . وكادت تراقيء عظامهم تشق أديم جلده ، وقد ترهل بطنه كالجيب الفارغ ، وهو يعوي من الجوع ، والنساء يبعن اولادهن او يبعن انفسهن ليرسفن في الرق الى الابد . وكانت أسر بكاملها تضع حداً لبؤسها بالسم لتستريح مما تعاني من سغب وتضور ، كما لم يكن من النادر قط ان تأكل نساء اولادهن . وكثيراً ما وقعت الانظار على قوم جالسين على مقربة من نار مشبوبة يستصلون حتى شواط ايديهم وارجلهم ، كما بيع اللحم البشري في الاسواق .

السلطان اكبر واصلاح ضريبة الاملاك

حاول السلطان اكبر ان يزيد من وارداته المالية بادخال بعض التحسينات على هذا الوضع المؤسف . وقد استبدل ، عندما توفرت له الامكانات ، المزارع والجاجير ، بمبلغ من المال ، كما استبدل المزارع والتابع بموظف فقد ادخل نظاماً جديداً من الضرائب على السكان القاطنين السهول الشمالية ، الممتدة من مالقان الى بيهار ، او في اجزاء عديدة من مقاطعة راجبوتانا وماكوا وغوميرات فلم يستبق ، مبدئياً ، سوى ضريبة الارض ، كما عمد الى تحديد مساحة الارض المزروعة . كذلك عمل على تخمين معدل الغلة التي تعطيها قطعة ارض معينة من الذرة والقمح والنيلة والقطن . وفرض على المزارع دفع ضريبة كل سنة حدد قيمتها ،يتفق معدلها مع مساحة أرضه .وهكذا راحت الدولة والمزارعون يعتمدون مبدأ التخمين . اتخذ السلطان اكبر معدلاً له غلة سنة متوسطة ، وفرض على المزارع تقديم ثلث الغلة . وراحوا يقدرون النفقات المترتب على المزارع تحملها او تخفيضها ، كالبزار والغذاء ، بمعدل نصف الغلة او المحصول . وقد ابقى سدس الغلة لادخال تحسينات على نظام حياة الفلاح كضمان له اذا لم يأت حساب البيدر على حساب الحقل . ولم يخطر السلطان اكبر ان يدخل اي تغيير او تبديل على الوضع السياسي والاجتماعي ، هذا الوضع المرتبط الى حد بعيد ، بالوضع الاقتصادي في البلاد . فبعد ان كان يصغي الى المظالم التي ترفع اليه وينظر فيها ، كان يتخذ اقصى العقوبات ضد العابثين بمسؤولياتهم من هؤلاء الموظفين . ولم ينتج من مراقبته الشديدة سوى عملائه العاملين في إطراف الامبراطورية البعيدة .

وجود الفلاح ووصفه امر لم يكن ليفهم على الوجه الصحيح لولا الدين ، ولولا هذا الادب الرمزي المكتوب باللغة العامية ، هذا الادب الذي كان يحلو للفلاح ان يردد منه ، بشيء من التأثر والشعور العميق ، مقاطع تفعل فيه فعل الراح في النفس .

السلطان أكبر يعمل على ايقاظ الهندوكية وبعثها

ادرك اكبر ضرورة التقرب من الهندوس ، وضرورة نفخ روح قومية في الدولة . فقد تزوج ، عام ١٥٦٢ ، من اميرة هندية هي ابنة الراجا عمبر ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة بان يكون بادیشاه المسلمين والهندوس على السواء. وامر عام ١٥٦٣ ،بإلغاء كل الرسوم المفروضة على اماكن الحج الهندوكية ، كما ألغى ، عام ١٥٦٤ ، الجزية ، هذه الضريبة التي تعم من نصيبه من الهندوس

بوصمة التأخر الديني ، كما ترك للهندوس ملء الحرية الدينية ، وشجع إحيـــاء عادات الهندوس واعرافهم ، كما سعى الى احياء أساليب تفكيرهم . حاول كذلك ان يوسع من نطاق معلوماتـه حـــول آداب الهند القديمة ، فأمر بنقل الآداب السنسكريتية الى الفارسية . ولما كان الفكر الهندي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالامور الدينية ، لقد شهدت الهند نهضة جديدة في آدابها القومية . فاخذ الكاتب والاديب البراهماني الكبير تولو داس ، يعيد من جديد بـين ١٥٧٤ — ١٦١٤ ، كتابة الملحمة الهندية المشهورة « راميانا » (بحيرة مآتي راما) ؛ هـذا الاله المتجسد ، المخلص الذي كانت زوجته إيدا ، المثل الاسمى لكل أنثى . فراما اله انساني ، يحب الناس كما يحب اولاده فتجسد ولبس طبيعة البشر ليجعل نفسه اكثر إدراكاً لديهم . ففي كتابه هـذا تقترب الديانة الهندوكية كثيراً من الديانة المسيحية بحيث يكفي في مقاطع كثيرة ان تستبدل اسم راما باسم يسوع ، كما ان عدداً كبيراً من صلواتهم الطويلة لا يستنكف احد من المسيحيين من وجودها في كتب الصلوات المعتمدة لديهم . واستقر في يقين الهندوس ان قراءة هذه الصلوات وتـــلاوة هذه الاناشيد الروحية من شأنها ان تطهر النفس من أدران الخطيئة كمن يستحم في مياه بحـيرة مقدسة « فهذه الانشودة هي في نظر هندوس الشمال ، اكثر من التوراة لدى المسيحين العاديين في انكلترا » . وهكذا شهدت البلاد إحياء للهندوكية .

محاولة صهر الشعوب
أكبر و « التوحيد الالهي »

عاش الشاه أكبر حتى عام ١٥٧٤ كمسلم سني ، مخلص ، ثم اخذت تغلب عليه روح تشككية مع بقاء الشعور الديني قوياً في قرارة نفسه ، فلم يكن ينقطع دقيقة عن ذكر اسم الله ، وقضى حياتــه يعبد الله بالروح . الا ان ماشاهد في مملكته من كثرة الطوائف والملل والنحل ، أقلقه وآلمه كثيراً ولذا لم يكن واثقاً من نفسه اين تقوم الحقيقة . فخيل اليه يوماً انه يستطيع ان يحل هذه المشاكل التي تعترضه ، أو ليست « الملكية نوراً مصدره الله » . واعتقد اكبر في سويداء قلبه انه شعاع الله وفيض منه . فأمر عام ١٥٧٥ ، بانشاء : « بيت العبادة » ، وهو منتدى للمناقشات والمجادلات الدينية الطويلة النفس ، تم بعضها تحت اشرافه مباشرة ، ولاسيما ما دار منها حول القضايا الخاصة بالالوهية .

ومنذ سنة ١٥٧٨ قبل ان يشترك في هذه المناقشات الدينية الهندوس والمسيحيون . فطلب من البرتغاليين في مدينة غوا ان يوفدوا اليه مرسلين مسيحيين ، فجاء ثلاثة مرسلين يسوعيين . فاستمع السلطان أكبر الى مجادلاتهم وخرج بما يقرب من اليقين بان المسيحية هي افضـــل ديانات العالم . الا ان الاستشارية او التفردية المسيحية ، وسر الثالوث الاقدس ، ووجوب رذل تعـــدد الزوجات ، كل ذلك احدث فيه صدمة قوية .

ولذا مال ، اكثر فاكثر ، الى انشاء ديانة عامة ، تضم احسن ما يوجد من العقائد في الاديان الاخرى ، يفرغ فيها كل الملل والنحل الموجوده في امبراطوريته . وفي اواخر حزيران ١٥٧٩ ،

الشكل ١٩ ـ الهند عند وفاة أكبر

١ ـ امبراطورية المغول في عهد أكبر
٢ ـ الموانىء الجديدة
٣ ـ موانىء لم يعد لها وجود
٤ ـ المقاطعات التي ضمت الى امبراطورية المغول
٥ ـ الدول الاسلامية المستقلة
٦ ـ الدول الهندية المستقلة

ترأس الصلاة محل الامام في مسجد فاتبور سِكري الكبير . وبعد ان فرغ من الصلاة قال : « الله اكبر » معلناً بذلك انه مشارك للطبيعة الالهية ، وفي عام ١٥٧٩ ، اعلن عصمته امام الناس ، وطالب جميع العلماء والامة جمعاء ان يأتموا بهديه ورأيه . فمن لم يمتثل له ، فقد امواله

ومقتنياته واستوجب الهلاك الابدي. فالامبراطور هو نائب الله على الارض، وينبوع النعم. وهكذا فرض اكبر توحيداً الهياً مع شيء من الحلولية . اوصى بعبادة الشمس وباحترام النار ، واقتبس عدداً كبيراً من المراسم والعادات الدينية الهندوكية واليانية والزرادشتية او المجوسية ، واعلن عام ١٥٧٨ ، انه كما لا يمكن للانسان ان يكون له اكثر من اله كذلك يجب الا يكون له اكثر من امرأة . ومن الجائز احتمال الظن انه طلق كل النساء التي كن في عصمته . كذلك ترك حرية العمل والتصرف لكل الاديان ، واصدر عام ١٥٩٣ فرماناً بذلك . فالديانة التي نادى بها اكبر انما هي نظام ديني ، امبراطوري اكثر منه عقيدة محددة . واستقدم الشاه اكبر نفسه مرسلين كاثوليك من غوا عام ١٥٩٠ و ١٥٩٤ ، مع الملاحظة هنا انه كان يتودد للبرتغاليين للحصول منهم على مدافع . وراح من جهة ثانية في اضطهاد المسلمين . فالاولاد الذين حملوا اسم محمد اجبروا على تغيير اسمائهم ، وحظر على المرأة الهندية الزواج من مسلم، وامر ببيع بعض الشيوخ عبيداً وارقاء . وراح رجال البلاط والموظفون يعتنقون نظامه ، ان لم يكن رغبة منهم فرهبة ، وحمل كثيرون منهم صورة الامبراطور وكانوا يتبادلون التحية بكلمة . « الله اكبر ». وقد تكاثر اتباع العقيدة الجديدة في اماكن كثيرة الا ان هذا المذهب او الطريقة الايمانية الجديدة توارت عن الانظار وزالت من الوجود بعد وفاة السلطان اكبر ، ولم يبق من محاولته الدينية هذه التي حاول معها افراغ كل شعوب سلطنته في طائفة واحدة ، شيء يذكر .

انحطاط الدولة المغولية : التفكك الاداري وتقهقر العامل الهندوسي

قامت امبراطورية السلطان اكبر على اساس من التسامح والتفاهم مع الهندوس ، ونظام ضرائبي اصاب الاملاك كان قريباً من نظام الحاصة النسبية ، وهو نظام شابه كثيراً النظام الذي عمل به الانكليز ، فيما بعد عند احتلالهم للهند ، وغرس الروح الوظيفية في الخدمات العامة ، والنزعة الى تأسيس دولة عصرية . الا ان خلفاءه جهانجير (١٥٦٩ — ١٦٢٧) وشاه جهان اي « ملك العالم » (١٦٥٩ - ١٧٠٧) لم يفقهوا شيئاً من هذه السياسة التي اختطها السلطان أكبر ، واخذوا بتفكيك كل شيء . فقد كان جهانجير يكرع كل مساء عشرين كأساً من العرق القوي بحيث ان رائحته كانت تجعل السفير الانكليزي يعطس . اما شاه جهان الذي عرف في حداثته بالرصانة والشجاعة في الحرب ، فقد انغمس في الملذات ، اثر وفاة زوجته المفضلة ، عام ١٦٣١ . اما السلطان اورنكزيب . فقد كان تقياً ، ورعاً ، قانتاً من كثرة الصوم ، لطيف المعاشرة، ولكن لم يعرف ان يكتسب ثقة الناس لعلمهم انه لم يكن ليحب احداً ، لميله الفطري الديني : الى الحلم ، اذ كثيراً ما كان يصفح عن الضباط الذين يعصون اوامر السلطان فيعفو عنهم . وقد اهمل هؤلاء السلاطين اهمالاً تاماً العادة التي سار عليها أكبر ، اذ كان يستقبل كل يوم اصحاب المظالم ويقضي لهم او عليهم بالسرعة المطلوبة . وقد جهلوا تماماً ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من اوضاع ، فاهملوا امر مراقبتها عن كثب تاركين شؤون مراقبتها لعمالهم ، وعادوا الى احياء عادة مكافأة موظفيهم بتوزيع اقطاعات (جاجير) عليهم ،

كما عادوا الى نظام تلزيم جباية الرسوم والضرائب ، وصرفوا النظر عن الطريقة التي سار عليها أكبر بتخمين المساحات المزروعة والمحاصيل السنوية ، وتركوا عمالهم يستبدلون ضريبة الاملاك بضريبة توزيعية ، فيعاملون كل قرية مستقلة بدلاً من النظر في وضع كل مزارع على حدة ، كما غضوا النظر عن تصرف المزارعين الاكثر بسطة ونفوذاً ، في اعتصار الآخرين وتحميلهم فوق طاقتهم . ولم يلبثوا ، بدافع الحاجة للعملة ، ان يبيعوا وظائف الدولة بالمزاد تاركين لمن رست عليهم عملية المزايدة ، الحرية التامة باستعمال الوسائل التي تؤهلهم لاسترداد المبالغ الباهظة التي دفعوها . وقد اخذ الحكام شيئاً فشيئاً ، في توريث مناصبهم لاولادهم ، كما نزعوا ، اكثر فاكثر ، للتصرف في ولاياتهم كأنها ممتلكات خاصة بهم . واخذ هؤلاء الحكام يشعرون اكثر فاكثر ، بحاجتهم للمال ، كما اشتدت فيهم النفرة من وظائفهم واستشرى استهتارهم بالمسؤولية . ففي هذا القسم الواقع في منطقة الدائرة الانقلابية ، في الهند ، اخذت دولة المغول بالانحطاط وراح المغول ، يسترسلون وراء البذخ والسكر وفساد الاخلاق ، مما فت كثيراً في عضدهم . فقد قطع بابر سباحة ، كل الانهر التي اعترضت سيره ، خلال الثلاثين سنة من حروبه الدامية بينما كان النبلاء الذين كانوا بمعية السلطان اورنكزيب يرتدون انعم الملابس وافخرها ، ولا يتنقلون من مكان لى آخر الا محمولين على محفة . واخذت الضرائب ترهق كاهل الفلاح وتبهظه . فاذا قدّرنا ان معدل ما كان يدفعه الفلاح هو ١٠٠ في عهد أكبر ، فقد ارتفع هذا المعدل الى ١٢٥ عند ارتقاء شاه جهان العرش ، كما ارتفع الى ١٦٦ عام ١٦٤٧ ، ثم الى ١٧٥ في عهد أورنكزيب ، قبل ١٦٦٨ ليبلغ سنة ١٧٠٠ ما نسبته ٢٧٨ . وقد زادت نسبة الضريبة الجديدة على نصف قيمة الغلة او المحصول ، فلم يبق للمزارع النصف اللازم لتأمين البذار وأود المعيشة . ففي السنوات الجيدة اضطر الفلاح ان يقتطع من الكمية المخصصة لغذائه ، ففقد بالتالي القدرة على العمل . اما في السنوات التي كانت مواسمها سيئة ، فلم يكن لديه ما يطمئن معه لمستقبله او يرد عنه غائلة الجاعة ، فيركبه الهم والقلق والحيرة . وتلبية لمطالب الخزينة ، كثيراً ما كان الفلاح يضطر لبيع محصوله بسرعة وبسعر متدنّ . ورخص اسعار الحاجيات في المدن ، انما كان يتم على حساب المزارع والفلاح . فالفلاح الرازح تحت وطأة الضرائب والدين ، تعطلت لديه كل امكانية لشراء حاجته من الحيوانات اللازمة لاعمال مزرعته او للتوسع بهذه الاعمال ، او ليقوم بزراعات تعطيه مردوداً اكبر كالنيلة مثلاً . ويشهد الطبيب الفرنسي رنييه كيف ان الفلاحين كانوا يهجرون الريف ويهبطون المدينة بحثاً عن مورد لهم او عمل في المعسكرات .

ومع انحطاط الزراعة انحطت بالطبع ، الصناعة هي ايضاً ، اذ ان تكاثر المجاعات وتفاقم الأزمات كان يقضي على الصناع واصحاب الحرف ويقعدهم . فالعاملون منهم بالحياكة في كورومنديل ، ماتوا جوعاً ، عام ١٦٤٦ . وقد أقفرت مقاطعة ردبوتانا وجلا عنها اهلها عام ١٦٤٧ . ولعل افتك واروع المجاعات طراً ، هذه المجاعة التي استهدفت لها الهند عام ١٦٣٠

و ١٦٥٠ . ففي تموز ١٦٣٠ ، مات القسم الاكبر من عمال النسيج الذين يعملون في قصر المنسوجات في مازوليباتام . كذلك في سنة ١٦٣٤ ، مع ان الوضع الزراعي كان قد تحسن كثيراً . كانت التجارة مشلولة تماماً لغلاء اسعار الاقمشة القطنية ، اذ لم يكن تم بعد تعليم الاولاد صناعة النسيج . وفي سنة ١٦٣٩ ، كانت المنسوجات القطنية في غوجارات أقل جودة مما كانت عليه عام ١٦٢٩ ، بعد ان توارى من المهنة ، العمال الماهرون ولم يكن قام في البلاد من حلّ محلهم بعد . وفي سنة ١٦٥٣ ، لم تكن الدكن استردت بعد ، المهارة التي عُرفت بها قبل المجاعة الكبرى . وهكذا نرى كيف ان الهند اخذت تفتقر .

اضطهاد المسلمين السنيين

ومن جهة اخرى ، راحت الدولة المغولية تعزل نفسها عن الهندوس . فمع ان جهانجير قد عهد بالوظائف الكبيرة في البلاد الى نبلاء الهندوس ، فقد اخذ شاه جهان يبرهن ، اكثر من مرة عن تعصب ديني ، بينما السلطان اورنكزيب الذي عرف بشدة تقواه والذي كان مدة عضواً في فرقة الفقراء ، فقراء الهند ، وكان يحسن القرآن عن ظهر قلبه ، وقد نسخه مرتين عملاً بالآية الكريمة التي توصي بان يعرف كل مسلم مهنة ، راح ينسج القبعات كما راح يصلي الهندوس اضطهاداً لا هوادة فيه . فقد اصدر اوامره الى كل حكام الولايات بان يهدموا كل مدارس الكفار وهياكلهم ، وان يمنعوا تماماً ، كل مظهر من مظاهر عبادة الاصنام . وهكذا جرى هدم هيكل فكنو في بيناريس ، وحملت اصنام الشعب الى اكرا وردمت مع التراب تحت درجات المسجد ليدوس عليها المسلمون في دخولهم اليه وخروجهم منه . وفي سنة ١٦٧٥ ، اعاد أورنكزيب العمل بالجزية ، فتجمهر الشعب حول قصر الامبراطور ، في دلهي ساخطاً غاضباً يوجه اللعنات للامبراطور . وقام الهندوس بردة معاكسة تبلورت في هذه الثورة اللاهبة التي قام بها المهرات والسيخ .

وعملاً بما فيه من روح التعصب الديني واستجابة منه لمتطلبات الحكم ، أعلن اورنكزيب الحرب على ملك الدكن الذي كان على المذهب الشيعي ، والذي بقي ٢٣ سنة دون ان يتجه لشمال الهند . وفي الوقت ذاته ، قام يصرف من خدمته الفرس الشيعة الذين ألفوا نواة جيش أكبر فكانوا دوماً اكفأ العناصر الفنية في مجلس اركان الحرب ، كما كان على وشك الاصطدام بالمهرات .

ردة الفعل الهندوكية : المهرات

ألّفت المهرات فرعاً من فروع قبائل الفات الغربيين ، انقطعوا للاعمال الزراعية بين غوا وغودافيري ، فقد كانوا على الاجمال ، ربعة ، اشداء ، نزعوا للفروسية وللاعيبها الخفيفة ، وكثيراً ما ادخلهم ملوك بدجابور المسلمون في خدمتهم انتفاعاً بمهارتهم وشجاعتهم ، فنال زعماؤهم مراتب عالية ونفوذاً كبيراً . وقد راح واحد من ابناء هؤلاء الموظفين هو سيجافي عام (١٦٢٧ – ١٦٨٠) الذي عرف عنه عصبيته للهند وغيرته الدينية ، يبعث فيهم روحاً قومية وشعوراً حاراً بالوطنية .

وعندما تبدّى له ان حصون الغات أهمل امرهـا وضعفت حامياتها ، أخذ يهاجمها ويستولي عليها الواحد تلو الآخر ، كما راح يدافع عن الهندوس ضد تعديات المسلمين وشرع سلسلة لا تنقطع من اعمال السلب والنهب والعبث ، واسعة المدى ، يهاجم القوافل والركبان عام (١٦٤٨) . ومنذ ذلك الحين ، اخذ يتوافد عليه كثيرون من متطوعة الهند ، قدموا من جميع اطراف البلاد ، بعد ان اصبحت المحاولة المهراتية ، في روحها واهدافها ، محاولة وطنية وقومية ، وتجربة حربية عسكرية ، على نطاق واسع ، فألف منهم جيشاً قوياً يستثمر ما وقع تحت امرته من البلاد ، على غرار الحكام المسلمين ، ويقف منهم على طرفي نقيض . وكان زعماء المهرات من الفئة الاخيرة بين طبقات الهند *Soudras* ، يقومون على خدمة الطبقات العليا . هل كان المهرات ، يا ترى ، يعلقون فعلا ، أهمية كبرى على نظام الطبقات في البلاد ؟ والحركة الوطنية التي نهضوا بها ، أكانت ترمي بالفعل الى تحرير الهند والهنود من النظام الطبقي الذي رسفت فيه الهند منذ مئات السنين ؟ ومهما يكن ، فقد قامت فرقة الخيالة الخفيفة الحركة لدى المهرات ، بسلسلة من الغزوات بقصد السلب والنهب ، اوغلت معها بعيداً في ممالك بدجابور وغوكوند ، كما اوغلت عميقاً في الاراضي الخاضعة للمغول . وغزا سيجافي مدينة صورات ونهبها ، عام ١٦٦٤ ، كما غزا الخندش ، عام ١٦٧١ ، وراح يفرض على كل ناحية تطؤها سنابك خيله ، الربع من ايراداتها ، شرطاً منه ليجعل السكان في مأمن من غائلة السلب والنهب . فاذا ما رفض القوم قام المهرات بسلب كل شيء . وهكذا وقعت هذه المقاطعة فريسة لعملية اعتصار على نطاق واسع . واستمرت مملكتا غولكوند وبدجابور على دفع الربع المترتب عليها دفعه للمهرات ، الى ما بعد وفاة سيجافي . وتمتع المهرات بشعبية واسعة بين الهنود فنظروا اليهم كأبطال وطنيين ، يذودون دونهم ضد الغزاة المسلمين ويلقون منهم كل أزر وأيد ، وخدمة ومعونة ، يمدونهم بما يلزم من ميرة وذخيرة وعدة وعتاد ، وينتصبون لهم ، عيوناً وارصاداً ، اخبار الاعداء ، وحركاتهم وسكناتهم .

باءت بالفشل كل المحاولات التي قام بها قواد اورنكزيب ضد ملوك الدكن وضد المهرات ، وتابع هؤلاء غزواتهم وحروبهم التي كانت تؤمن لهم الموارد التي هم بحاجة اليها ، وتضمن لهم نيل الاستقلال بمنأى عن الامبراطور . الا ان سوء الظن الذي دب بينهم جعلهم يوزعون القيادة بين قائدين متنافسين كما راحوا يبدلون كثيراً من القواد . وقد استلم اورنكزيب نفسه قيادة جيشه سنة ١٦٨١ ، من احمد نجار ، وله من العمر ٦٣ سنة ، وبقي يحاربهم ٢٦ سنة . وهكذا اخضع لحكمه كل الدكن حتى الحكام المحليين المستبدين الذين حلوا محل امبراطورية الفيجايننغار ، والقائمين الى الجنوب من تريشينوبولي . ولم يربح من وراء هذا المجهود الحربي الطويل سوى اراض انجردت من كل خيراتها لكثرة ما تعرضت له من الغزو والسلب ، واصيب بالخيبة امام المهرات . فلم يعد له ما كان لآبائه من فرسان راجبوت المعروفين بخفة حركاتهم وسرعة مناوراتهم ، بعد ان احرجهم فاخرجهم واعلنوا العصيان والثورة لغرائبه . اما جيشه

فكان لجباً للغاية اذ كانت مضاربه تضم خمسة ملايين من الاهلين تحت تصرفهم ٢٥٠ سوقاً، يتارها ٦٠،٠٠٠ فارس واكثر من ١٠٠،٠٠٠ من البيادي ، وكان الضباط ضمافاً ، ظرفاء في مظهرهم ، سروجهم مريحة للغاية ومزركشة ، كأنهم يعملون في استعراض عام ، ينزلون الخيام الفخمة ، اما الجنود فكانوا مخنثين ، يرفعون اصواتهم بالتذمر ، اذا لم تكن خيامهم على مثل خيمهم في اكرا من البذخ . بينما لم يكن المهرات ليحتاجوا حتى يحيوا حياة طيبة ، الا لفطيرة من خبز الذرة وبعض البصل . وكيف العمل ضد هؤلاء الفرسان الذين لم يكن من سبيل لالقاء القبض عليهم ، والذين عرفوا ان يتجنبوا خوض معارك كبيرة ، فعملوا فئات صغيرة ، مشتتة ، ينقضون فجأة على الوحدات المنفردة او المعزولة ، ويوجهون الضربات القاصمة الى جناحي الجيش يطلقون النار على الحشود الضخمة ثم يتوارون ، ويزرعون الهلع والفزع اينما حلوا ، يقطعون المزروعات بحيث تضطر فرق العدو للتوقف عن الحرب ، لحاجتها الشديدة الى المؤن والعتاد والعلف اللازم لخيلهم . وهل من حل غير احتلال حصون الغات ؟ كانت هذه الحصون وافرة العدد يستميت حماتها في سبيل الدفاع عنها . وكان الوقت الذي يفصل بين فصلين من الامطار الموسمية ضيقا للغاية وقد شاخ اورنكزيب وتقوّست ظهره وابيضت لحيته واصبح وكأنه سجين في معسكره . وكان سكان الدكن من الهنود عوناً للمهرات ، ولذا اضطر الامبراطور للتقهقر والانكفاء حتى مدينة احمد نجار التي انطلق منها هجومه ، قبل ذلك بـ ٢٦ سنة .

ردة الفعل الهندية : السيخ

في هذه الاثناء ، ظهرت في الشمال الغربي من الهند ، قوة جديدة كان لها شأن في تاريخ تطور البلاد ، نشأت عن اسلوب جديد في تفسير الهندوكية وشرحها ، تمثلت في طائفة السيخ التي كانت قذى في اعين امبراطورية المغول في الهند وشجى في حلوقهم ،وحملت للمسلمين بغضاً أزرق . فقد بعثت من سباتها الطويل نزعة الهندوكية القديمة الى التوحيد . فالريغ فيدا ، الكتاب الاول من كتب الهند الاربعة المقدسة الذي يضم نواة الفلسفة البراهمانية ، كثيراً ما اعلن وجود الله ، هو سيد المخلوقات ، والكائن الاعلى ، اللامتناهي ، الذي تبقى الالهة حياله خداماً له تستمد منه الوجود . غير ان البراهمان جعلوا من الله روح العالم ممتزجاً بالمادة ، لا فردية له مميزة . وقد راح عدد كبير من الهندوس ، ولا سيا بين الجنود ، يعتقدون وثيقاً ان روح العالم كانت تتجسد وتتلبس جسد انسان وتبدو عن طريق بعض الاجسام في مظهر خاص يتلبسه الله هو : « المايا » والوهم ، يمكن الاقتراب منه او الدنو اليه بواسطة الصلاة . وهكذا رأينا عدداً كبيراً من الهندوس يعبدون الله بشكل فكنو الذي يمثل روح العالم متجلياً في العناية الربانية او الالهية . ففي القرن الخامس عشر وتحت تأثير الاسلام مباشرة ، قام مجددون هندوس ، امثال راماناند في مدينة بيناريس ، وغوراغ ، في البنغال ، وكبير احد تلاميذ راماناند ومن اتباعه الحميمين ، وفالاّب ، احد البراهمان الذين هاجموا بعنف تعدد الالهة ورذلوا عبادة الاصنام ، وطالبوا بان يتحرر الناس من نفوذ الكهان

ونادوا بالطهارة والنقاوة الداخلية ، والعبادة بالروح ، كما نادوا عالياً ان الايمـان يطهر النفس من ادرانها وينقيها، وطالبوا بالغاء نظام الطبقات، كما اعلنوا ان التقوى لا تتعارض قط مع واجبات الانسـان العادية .

نانك والقول بديانة انسانية عامة

كان لتعليم المصلحين : كبير وغوراخ تأثير بيّن على المجدد والمصلح الديني نانك (١٤٦٩ – ١٥٣٩) الذي رأى النور على مقربة من لاهور ، في اسرة تنتسب الى اسرة طبقة المحاربين (*Kshatryas*) هذه الطبقة الاجتماعيـة التي تأتي ، في الهند ، دون البراهمان والكهنة ، وكان يتجر بالحنطة وينصرف لقراءة القرآن والشاستراس. وقد علـّم ان الانبياء العرب وانبياء الهندوس هم مرسلون من الله لارشاد البشرية الى الهدي والصراط المستقيم ، وواجب عبادة الله الابدي ، الكلي القدرة ، الكائن منذ الازل ، قبل كل شيء ، وباريء العالم ووارثه ، الكلي الحضور ، الموجود في كل مكان وزمـان ، موجود مع العالم ، متسام فوقه، ومتميز عنه . فالله هو محب للعالم ولا سيما للخطأة وللبائسين ، لا يلتقي بالله الا الذين ينظر اليهم بعطف وحنان . فالانسان عاجز ، لا يستطيـع شيئاً بذاته ، كذلك قال بالقدرية واعداد المختارين منذ الازل . ولكن هذه النعمة ـ نعمـــة اعداد المختارين للخلاص ـ يعطيها الله وينميها في الانسان على نسبة ما يسير الانسـان بوحي قواه العقلية وارادته. فالله يجعل الخلاص في متناول كل البشر من اي نوع او جنس كانوا ، كالخطأة والنسـاء والمنبوذين ، دونمـــا تمييز او نظر الى طبقاتهم التي لا تحسب شيئاً امامه . فهو يجعل هـــذا الخلاص في متناول رب الاسرة والفلاحين والمحاربين والنساك ايضاً . اذ ان المهم ، في نظر الله ، هو العبادة بالحق والروح هو الايمان والمحبة والامتثال للشريعة الالهية ، وعمل الخير والبر . اما الطقوس والصيام ومراسم الحج ، وتلاوة المسبحة ، والزهد والتقشف ، فأشياء واعمال لا قيمة لها ولاشأن .

وعملاً بناموس « كارما » ، وهو الناموس او القاعدة التي بموجبه لا بد للانسان ان ينال ثمرة جهوده واتعابه ، فمن أتى اعمال البر والتقى على رجاء المثوبـــة والمكافأة ، خضعت نفسه ، بالضرورة للتقمص ولتناسخ الارواح ، على ان يلد من جديد في ظروف افضل تساعـده ، اكثر فأكـثر على التطور الادبي والروحي . اما من يكون اتى اعماله البارة تقية ، لمجد الله ووجهه الكريم ، فلا تخضع نفسه للتقمص ، فيبلغ السعادة ويدخل النرفانا ـ السعادة ، ينعم بها بصحبـة نانك ، ولا يذوب مع الكائن او الوجود المطلق ، بل يتحد اتحاداً كاملاً مع الخالق ، فيزول منه الضمير الفردي ليذوب في ضمير الله .

وهكذا نرى ان نانك لم يلغ الهندوكية . فقد احتفظ منها بما فيها من تعاليم ساميـة ، ولا سيا بعقيدتها الاساسية « لا مايا » ، هذه التجليات المختلفة في مظاهرها ، لله ، ممثلة في براهمان ، وفكنو ، وشيفا ، وغيرهـا ، وفي التقمص *Karma* والسعادة *Nirvana* . ولكن بابرازه وحدانية الله وشخصانيته ، وبافاضته على علاقات الانسان بالله هذه الروحانية، فكأن به يلغيها

بالفعل ويبطلها . وعندما ألغى حدود الطبقات المباعدة ، باعلانه المساواة العامة بين من يعبدون الله بالحق والروح ، مهما كانت لبوسهم ، قام بثورة جذرية يمكن للهند معها ان تخرج منقاة ، مطهرة ، متجددة ، متخففة من هذه الطقوس الجامدة التي تُزرِحها وتقعدها الى الحضيض . واذ ذاك فقط تأخذ بالتطور والنماء .

تنظيم السيخ

علم ناناك انه لابد للمريد او التلميذ ان يسترشد بـ : Gourou ، اي بقديس او معلم مرشد يحمل في نفسه روح الله ، اعلن عنه واوحى باسمه ، المرشد السابق . ومن خلفاء ناناك في دعوته هذه والنهوض برسالته من بعده : امارادار الذي توفي عام ١٥٧٤ وهو ممن تتلمذ عليه أكبر ، والذي راح يشدد على خواء حياة التأمل ، وحال دون استحالة السيخ الى فرقة جديدة من هذه الفرق الهندوكية المتنسكة ، العديدة في الهند . وقام بتنظيم السيخ المرشد والمعلم أرجون ، المتوفي عام ١٦٠٦ ، فجعل من مدينة أمرتزار محور الديانة الجديدة والقبلة التي يتجه اليها حجاج السيخ ، فنمت وتطورت واصبحت من مدن الهند الكبرى . واخذ يجمع افكار ناناك باعتباره التجسد الاول لله ، كما اخذ يجمع ما كتبه اسلافه بهذا الشأن ، والف من هذا كله ما يعرف بـ « الكتاب » ورتب الشريعة الدينية والادبية ، وانشأ لها مراكز ونوادي لاستقبال الاتباع والمريدين ، في جميع المدن والولايات ، وقرر وجوب عقد اجتماع عام كل سنة . ومنذ ذلك الحين ألِفَ السيخ العمل بهذا النظام ، وانشأوا لهم شكلاً حكومياً .

السيخ ضد المسلمين - خالصة الله

اخذ المسلمون باضطهاد السيخ في عهد السلطان جاه نجير . واذ ذاك نهض المرشد هارغوبند ، ابن ارجون يهاجم ضابط السلطنة المغولية في البنجاب حتى وفاته (١٦٤٥) ، وكتب له النصر في معارك كثيرة ، فأخذ الناس يقدسونه . وازداد اضطهادهم شدة واحتراماً في عهد اورنكزيب ، واصبح المرشد غوبند - سنغ، حفيد المرشد هارغوبند ، العدو اللدود للمسلمين في الهند . وقد سوّلت له نفسه ان يجعل من الهندوس المغلوبين على امرهم شعباً جديداً ، "متجدداً ، ينهض للعلى ويشرئب بنواظره نحو المجد . وشرع هذا المرشد منذ عام ١٦٧٥ ، يحشد المريدين حوله والاتباع . ومع ان جيشه كان لميماً من الحشود جيء بهم من مختلف الطبقات الاجتماعية ، فقد جعل منهم الايمان الشديد الذي نبض في عروقهم ، جنوداً اشداء جديرين بكل تقدير وإكبار . فأنشأ لهم ، قبل كل شيء : معمودية السيف او الدم . فمن منهم تسلح به اصبحوا أسوداً Singhs ، اما الباقون فقد ألفوا فرقة Sohidjuris ، اي فرقة هؤلاء الذين يعيشون بيسر ، اي التجار ورجال الصناعة. اما حفلة معمودية السيف ، فقد قامت بوضع سيف ذي حدين في الماء وتحريكه بشدة ، وترداد اسم ناناك وتلاوة الاناشيد ، ثم يجري سكب الماء المقدسة براحة اليد ثم ترش المياه على رأس المعتمد وعينيه ، فيمضي هاتفاً هتاف جنود السيخ في الحرب : يا امة الله ! الظفر لله . وراح غوبند سنغ يطلب من امراء الهند (الراجا) الساكنين في المناطق الجبلية ان يتعمدوا ليحموا

انفسهم من الاتراك (المسلمين) . فكانوا يجيبونه : « باستطاعة التركي (المسلم) ان يأكل شاة بكاملها ، فكيف يمكننا نحن الذين نقتات بالارز ان نجابه من لهم مثل هذه القوة » . وكان غوبند سنغ يجيبهم : « المعمودية تجعل من السيخ المُعتمد مساوياً للمسلم في قوته » ، ولم يلبث ان أخذ عدد كبير من المنبوذين يعتمدون ويأكلون اللحوم ، بعد ان تخففوا من مراسم الدين وطقوسه واصبحوا جنوداً اشداء .

كان على السيخ ان يرخي شعره وان يقتني مشطاً وسيفاً ويلبس سروالاً مقشمراً وسواراً من الفولاذ . كذلك كان على السيخ ان يبرهنوا عن ولائهم الشديد نحو رؤسائهم ، والا يديروا ظهورهم للعدو ، وان يؤمنوا بان كل الناس سواء هم . عليهم ان يستحموا بعد نهوضهم باكراً عند الفجر ، وان يتلوا اناشيد المرشدين ، وان يتأملوا في الخالق كما كان عليهم ان يرذلوا جانباً خرافات الهندوس : كمراسم الحج، وقتل الاولاد ، وحرق الارامل على محرقة بعد وفاة ازواجهن . والزموا انفسهم بأكل اللحم على شرط ان يكون الناحر او الذابح احد رجال السيخ ، على ان يقوم بنحر الذبيحة بجزة واحدة ، كما عليهم ان يمتنعوا عن التدخين وتعاطي الخمر وانواع المسكرات . اما الميزة الكبرى التي يجب ان يتحلى بها السيخ فهي التقوى والشعائر الدينية تغذيها تلاوة الاناشيد الروحية وترداد اسم الله بحرارة وتوق ، والانصراف الى التأمل ، وغير ذلك من اعمال البر والتقى ، اذ « بدون هذه الاعمال التقوية لا يمكن للمرء ان يخلص » . وكان اعتقادهم بانهم مختارون ومدعوون للخلاص يدفع فيهم الحماسة في الحرب ، حتى ان المظهر الخارجي للمنبوذين تغير : فظهروا بمظهر اكثر رجولة من قبل ، وصارو ينظرون الى الانسان في عينيه .

حاول غوبند سنغ ، منذ ١٦٩٥ ، ان ينشيء مملكة للسيخ بين نهر الجوما والستلج ، ونهض لحرب اورنكزيب حتى الرمق الاخير . فقد نفخ في المغلوبين على امرهم روحاً جديداً ، طلقوا معه الجمود الذي عرف عنهم من قبل ، كما عرف ان يبعث فيهم الشعور بالكرامة الانسانية في نشدان روح الحرية . وعندما توفي اورنكزيب ، نهار الجمعة الواقع في الرابع من اذار ١٧٠٧ ، وله من العمر ٨٩ سنة ، قضى منها ٥٠ سنة ملكاً على الهند ، كانت الامة الهندوكية أفاقت من سباتها العميق . وهذه الهندوكية التي عاد اليها وعيها ويقظتها ، انتصبت بكل ما لها من شخصية ، ضد الاسلام ، متمردة على هذا الاستعمار البغيض الذي وقعت فريسة له من قِبَل الامبراطوية المغولية .

٢ – العالم الهندي واوروبا

كان هم البرتغاليين الاول نشر الانجيل والمسيحية في ارجاء آسيا ومنافسة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على اسواق البلاد التجارية ، بحيث لم يكن ليهمهم كثيراً احتلال الهند او بعض

موانئها الا بالقدر الذي يخدم مصالحهم التجارية واغراضهم المادية . فقد خيل اليهم ان احتلالهم لبعض المرافىء والموانىء الهامة على ساحل الهند الغربي ، من شأنه ان يساعدهم كثيراً على تحقيق ما يرمون اليه من اهداف اقتصادية . ولذا تألفت امبراطوريتهم من سلسلة متصلة الحلقات من هذه المرافىء والموانىء ومن الجزر المتناثرة في عرض البحار مما يقع على طريق اساطيلهم التجارية التي تشق عباب اليم من البرتغال حتى مشارف الشرق الاقصى ، في افريقيا وآسيا . فالممالك الهند القارية او البرية لم تكن لتستطيع الوقوف بوجه الاساطيل البرتغالية ، كما ان حصونها وقلاعها كانت اعجز من ان تصمد لضرب المدفعية الاوروبية . وهكذا تم اقتسام صامت لعالم الهند : اذ راح البر الهندي للمغول والهندوس والبحر والشواطىء البحرية للاوروبيين .

الحركة التجارية في المحيط الهندي عند ظهور البرتغاليين فيه

عندما بلغ فاسكو ده غاما ، مدينة كوشين ، عام ١٤٩٨ ، كانت الحركة التجارية في المحيط الهندي تقوم على اساس قوي من النظام والتنظيم . والاوروبيون الذين اضطلعوا ، على التوالي ، بالنشاط التجاري في هذا المحيط ، الى سنة ١٧١٥ ، حلوا محل التجار ، والبحارة الذين سيطروا على الحركة التجارية في هذه البحار ، في القرن الخامس عشر ، ثم اخذوا يتبدلون بعضهم البعض دون ان يدخلوا اي تغيير ملحوظ او اي تطور محسوس . كانت الحركة التجارية بيد المسلمين من عرب وفرس الذين كانوا يملكون ويديرون معظم السفن العاملة في تلك البحار ، ويؤمنون الجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية الناشطة في المحيط الهندي بين افريقيا غرباً وآسيا شرقاً . وتلاهم في هذا المجال الصابئة *Parsis* في غوجارات ، والشطي في كورمانديل ، ثم الصينيون واليابانيون . وكانت التجارة تتم على مرحلتين ، او ترتكز على محطتين رئيسيتين : سواحل الملابار ، في الهند ، حيث كانت مدينة كاليكوت تؤلف المرفأ الرئيسي ، وهو ميناء واقع في امارة زامورين . اما الثانية فكانت مالقا . كانت مالقا وسلطنتها من هذه الانشاءات التي اوجدها المسلمون ، كما كانت نقطة الالتقاء للحركة التجارية بين المحيط الهندي وبحار الصين . وكانت هذه المدينة النقطة التي يلتقي عندها التجار العرب والفرس والصابئة والشطي والصينيون واليابانيون الذين قلما تجاوزت سفنهم مضيق مالقا ، باستثناء بعض قوارب صغيرة بلغت عرضاً واتفاقاً ، سواحل كورومانديل . وفي هذه النقطة بالذات كان يقع التبادل التجاري بين محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل وجزر الصوند مع البضائع والسلع والمحاصيل من انتاج الهند والجزيرة العربية وافريقيا واوروبا . وكانت محاصيل الشرق الاقصى تجمع فيما بعد في مدينة كاليكوت والمرافىء الواقعة على مقربة منها . يضاف اليها الفلفل من مقاطعة الملابار ، والمحاصيل الهندية الاخرى . كالقرفة والحجارة الكريمة من سيلان ، والنيلة من غوجارات والمنسوجات القطنية والجوت من البنغال وغوجارات والبنجاب ، والافيون والعقاقير ، ثم يجري شحن كل هذه السلع عبر البحر الاحمر والخليج الفارسي والاقطار الاسلامية الواقعة حول

حوض البحر المتوسط الشرقي واوروبا ، مقابل الذهب ، ولا سيما الفضة ، وخيل العجم، وجياد الجزيرة العربية التي اشتد عليها الطلب عند الجيوش المتحاربة ، والحرير الخام واللآلىء من بلاد فارس ، والبن والعطور من العربية ، والنحاس والقصدير ، والزنك والرصاص ، والزئبق والحرائر ، والمخمل والديباج ، من اوروبا ، وهي تصل عن طريق البلدان الاسلامية ، والعاج والعنبر والمرجان والعبيد من افريقيا ، وكلها مواد واصناف لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكية .

ولكي ينشىء التجار لهم مركزاً تجارياً او وكالة تجارية في مرفأ ما كان عليهم ان يحصلوا بذلك على رخصة من سلطات البلاد التي كانت تجيز لهم انشاء مراكز تجارية تضم ابناء الجالية الاوروبيين ، مع الاعتراف لهم بممارسة قوانينهم الخاصة وعاداتهم ، ويتولى رئيس من ابناء هذه القوميات ، كل بحسب جنسها ، امور الرعية . ويتمتع هذا المركز الذي كثيراً ما يكون مرفأ ، بإعفاءات ملكية باعتباره ارضا اجنبية لا تخضع لادارة الدولة . ولما كان هذا الاعفاء قابل للالغاء والنسخ من قبل ملك البلاد ، وجب على الوكالة التجارية ان تحتاط للامر بتوفير نقطة ارتكاز لها ، وتأمين شيء من التفوق البحري بحيث يؤلف تهديداً لممتلكات الملك البرية ، وفرض الحصار على المرافىء والموانىء الواقعة تحت اشرافه ، والحؤول دون وصول السفن الى مرافئه، وحمل الملك على المفاوضة بشل حركة الجمارك ، بالتالي تخفيض مداخيل الدولة ووارداتها من المكس ، ومنع وصول الاسلحة لديه وغير ذلك . والا اضطر التجار للانتقال من المرفأ الى الحصن بحيث يكونون بأمن. ولذلك كان عليهم ان يوسعوا سيطرتهم على النواحي المجاورة للقاعدة التي يحتلونها ، وتأمين سيادتهم على السكان القاطنين فيها ولا سيما السلطة التشريعية والسلطة التي تفرض الرسوم او تجبيها . ففي الهند وفي شبه جزيرة مالقا ، كان التجار المسلمون لا يزالون بعد عند مرحلة الوكالة التجارية ، اذ ان نظام التضامن الذي عملوا به وساروا عليه ، كان يتيح لهم قفل المرافىء الخاضعة للملك المتمرد دون اضطرارهم لحمل السلاح . اما في المرافىء الواقعة على سواحل افريقيا الشرقية التي لا تزال على البربرية ، فقد بلغ التجار فيها مرحلة الحصن .

لم يكن ليسمح ببقاء السفن طويلاً في موانىء آسيا الموسمية خشية ان يفتك السوس بها ، وتجنباً لاسترسال البحارة في الفسق والقصف في هذه الاقطار الحارة . كذلك وجب الاستغناء ، ما امكن ، عن الوسطاء تفادياً للتكاليف الباهظة . ولذا اسس التجار لهم محلياً ، وكلاء او ممثلين اقاموا في هذه المرافىء او في بعض الجزر ، كلفوا شراء التوابل مباشرة من منتجيها في زمن القطاف ، يحتفظون بها في مستودعاتهم ريثما تصل السفن المعدة لشحنها ونقلها . وعلى مثل هذا سارت المعاملات المتعلقة بتوسيق هذه المحاصيل . وكانت الارياح الموسمية هي التي تتحكم بنظام المواصلات وسير السفن . كانت هذه الارياح الموسمية تبدأ ، على سواحل الملابار ، في اوائل حزيران بما يجعل من الصعب جداً على السفن مغادرة موانئها لمعاكسة الارياح لها ، كما كان يستحيل على اي سفينة القدوم للمرفأ لئلا تتعرض للعطل او للتحطيم . ولذا كانت المرافيء

تقفل في اواخر ايار الى اوائل ايلول. ولهذه الاسباب حرصت السفن على ان تُوقِّت قدومها في الوقت الذي تهب فيه الارياح من الشمال ، وقبل ان يتحول اتجاهها . فالرياح الشمالية كانت ملائمة لمغادرة السفن موانئها واقلاعها . وكان لا بد من الاقلاع باكراً بحيث تتجاوز سيلان الى الشرق ، وتبلغ الموزمبيق ، في الجنوب قبل ان تكون الرياح الموسمية تحولت من جديد الى الجنوب الغربي . فالرحلة البحرية نحو الجنوب كانت تتم بين ايلول وكانون الثاني . اما في البحر الاحمر ، فترتب على السفن ان تغادره للهند في آذار ، وكان نيسان احسن شهور السنة لاجتياز مضيق باب المندب .

كانت حركة السفن تبلغ اشدها ، في مرفأي مخا وجدة ، في شهري ايار وحزيران . وكانت السفن تلتجيء، وهي في سبيل عودتها ، الى نقطة ما تقع الى الشمال من جزيرة سوكوترا . اما اذا اتفق وكانت الرياح الموسمية في الجنوب لا تزال على شدتها ، فالسفن لا تصل الى الهند الا في ايلول . اما في جهة مالقا ، فالوقت المناسب للاسفار البحرية هو الفترة الواقعة بين ايلول ونيسان. فالسفينة التي تفاجئها الرياح الموسمية كان عليها ان تتوقف مدة طويلة ، وبذلك تُفوّت عليها فرصة طيبة للكسب والربح . والسفن التي كانت تنقل الحجاج بحراً الى مكة من مالقا ونواحيها ، تراوح حجمها بين ٢٠٠ – ١٠٠٠ برميل ، بينما لم تكن سفن الشحن لتتسع لـ ١٣٠ – ٣٠٠ برميل ، بينما تراوح حجم السفن الصغيرة التي تسير والساحل بين ٣٠ – ٤٠ برميلا .

وقد تم لهؤلاء التجار الآسيويين من مسلمين وصابئة وشطي وصينيين ، خبرة واسعة لاطلاع دقيق على قانون العرض والطلب ، يحسنون على خير وجه ، المعاملات الخاصة بعقد الصفقات التجارية والاحتكارات ، كما يحسنون الافادة من السماسرة والعملاء ، واعمال الصرافة والمضاربات ، ويؤمنون على معاملاتهم بسندات مالية . فلم يكونوا ليجهلوا ما يتعرضون له هم وبضاعتهم من مخاطر ، وما يتهدد مشحوناتهم من أزمات وافلاسات . وكثيراً ما عولوا على التحاويل والسفاتج المالية في معاملاتهم التجارية . فاذا ما اراد تاجر ، مثلاً ان يشتري بضائع بقصد تصديرها لصورات ، استطاع ان يجد حاجته من المال في اكرا ، وذلك باعطائه تحويلاً على صورات تستحق بعد شهرين ، مع حسم واحد في المائة . وكان باستطاعته ان يحصل من صورات على المبالغ التي كان بحاجة اليها لشراء البضائع ، مثلاً ، من ارموز ولكن بعد حسم ١٢ – ٢٦ ٪ لقاء المخاطر والمهالك التي تتعرض لها البضاعة من اخطار البحر والقرصان . وهكذا كان يلحق الفائدة نفسها نوع من التأمين . ومبالغ من هذا النوع كان بالامكان تأمينها لمن يرغب في شراء بضائع له من جزر الفيلبين . وكان يقوم على الساحل اسواق ضخمة ، موحدة ، قبل غوجارات ملابار ، وصورات ماسوليباتام لسهولة النقل البحري . اما الهند ، فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فللحصول على بضاعة ليست في

السوق ، كان يقتضي له سنتين . وتقطع البضاعة في انتقالها ١٨٥ كيلومتراً ، مما يزيد في كلفتها وبالتالي في ثمنها .

الامبراطورية البرتغالية : احتكار تجاري

لم يدخل البرتغاليون اي تغيير يذكر على الاوضاع السياسية التي استعرضنا لها في آسيا . فقد احتكروا تجارة بعض الاصناف وبعض السلع وحاولوا استغلال التجار المسلمين في ما يتعلق بالاصناف الاخرى ، دون ان يحاولوا اقصاءهم او تنفيرهم من المجالات التي سيطروا عليها . فقد كان لهم من تفوق مدفعيتهم ومن الطريقة الوحشية التي يصفّون معها بسرعة ، السفن الاسلامية المنافسة لهم ، بعد ان يمثلوا ببحارتها ويشنعوا بهم ، ما جعل اسمهم رعباً او مفزعة في تلك الارجاء . فقد فرضوا قوانين صارمة ، وحظروا ، تحت طائلة الإغراق على كل سفينة غير برتغالية ، الاتجار بين الهند وسواحل افريقيا الشرقية ، او بين الهند والصين واليابان . وفي هذا السبيل ، احتلوا بعض القواعد البحرية منها ، في الدرجة الاولى ، مراكز توزيع السلع التجارية . فاحتلوا على سواحل ملابار : كوشين وغوا التي جعلوها عاصمة امبراطوريتهم البحرية المترامية الأطراف ، كما احتلوا عام ١٥١٠ ، مرفأ باسين على مقربة من مدينة بمباي ، حيث اقاموا دار صناعة لبناء السفن ، واخيراً مالقا التي استولى عليها البوكرك ، عام ١٥١١ . كذلك سيطروا على بعض الثغور التي تستقطب النشاط التجاري والاقتصادي في المنطقة ، يتخذون منها مراكز لمراقبة الحركة التجارية . واحتلوا أرموز على يد البوكرك ايضاً ، عام ١٥١٥ ، ثم مدن ريو ودامان عند مداخل الخليج الفارسي . وسيطروا على الخط التجاري ، عبر صورات ومنها عبر الهند ، الى اكرا ودلهي . وقد عجزوا عن الاحتفاظ بعدن ، الا انهم استطاعوا قطع المواصلات البحرية عند اطراف مضيق باب المندب ، ونشروا الحصون والقلاع على السواحل التي يمكن لهم الافادة من الاتجار معها . حلوا محل العرب على سواحل افريقيا الشرقية في صوفالا والموزمبيق التي كانت مركزاً لتجديد اساطيلهم وعماراتهم التجارية ، باستبدالها بالسفن القادمة من اوروبا ، ومماسا ولوليانه وموغا دوكسو ، وسيطروا ، في ارخبيل المولوسك على جزر التوابل والافاويه ، واقاموا فيها قلاعاً صغيرة ، اهمها الحصن الذي شيدوه في جزيرة امبوان (١٥١١) كما اقاموا حصناً لهم ، هو الثاني اهمية بين حصونهم الرئيسية ، في جزيرة تيمور للسيطرة على خشب الصندل الابيض ، واكتفوا بقواعد تجارية ثانوية اقاموها عند مصب نهر الغانج ، في هوغلي ، بالقرب من كلكوتا ، وتشيتاغونغ على سواحل مقاطعة كوروماندیل ، وفي سان توما ونغاناتام ، وفي الصين ، ماكاو (١٥٢١) وفي اليابان . وقد تمكن البرتغاليون من انشاء توابع لهم ، بينهم من تعهد بدفع جزية سنوية نقداً ، وهو وضع سلطان ارموز ، بينما تعهد البعض الآخر بتقديم محاصيل عينية ، وهو وضع عدد كبير من صغار الامراء في جزر المولوسك وجزر لاكديف فيجهزون التجار البرتغاليين باصناف كثيرة . اما من كان من هؤلاء الاتباع يتصرف بمرافىء تنشط فيها الحركة التجارية او يملك اسطولاً حربياً يخشى

جانبه ، فراح البرتغاليون يعاملونه بأقصى الشدة . فقد تعهد حاكم زامورين كاليكوت ، عام ١٥٠٩ الا يحتفظ باسطول حربي ، كما ، تعهد عام ١٥١٥ الا يستقبل في موانئه اعداء او خصوماً للبرتغاليين ، او منافسين لهم ، وان يعفيهم من كل رسم وضريبة ، وان يقاسمهم نصف ايراد المكس المفروض على غير المسيحيين . كذلك تعهد لهم ، عام ١٥٤٠ ، ان يمتنع عن الاتجار مع السواحل العربية وان يحظر على رعاياه التوجه اليها ، وان يحتفظ لحساب البرتغاليين بكل غلته من الفلفل والزنجبيل . وعقد البرتغاليون مع غودجارات ،عام ١٥٣٤ ، معاهدة حظرت عليها بناء سفن تجارية . فقد قنع البرتغاليون واكتفوا بما تم لهم من السيطرة والسيادة في المجال التجاري ، تاركين لرجارات الهند ولسلاطين الدول الاسلامية الصغيرة الذين ارتبطوا معهم بالولاء والتابعية ، الحرية التامة بادارة اماراتهم وممالكهم كما يشاؤون ، ولم يظهروا بمظهر السادة المطلقي السلطة الا في ممتلكاتهم الخاصة : في غوا وكوشين ومالقا وغيرها . فقد كان لهم نائب ملك مركزه غوا ، كما كان لهم فيها محكمة عدل عليا ومطرانية ، بينما تولى الامر في المراكز الاخرى حكام برتبة قبطان . وكانت ذهنية المجتمع ، اذ ذاك ، ذهنية من يقول بالرق ويطالب بتطبيقه على نطاق واسع والنهوض به اسوة بما كان عليه الوضع في البرازيل ، وهكذا امتدت رقعة الامبراطورية البرتغالية من ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ كيلومتر من رأس الرجاء الصالح الى الخليج الفارسي ، كما امتدت ١١ الف كيلومتر من سواحل افريقيا الشرقية الى جزر المولوسك . وقد وجدت الامبراطوريات الغازية ، مصلحة لها في مثل هذا الوضع اذ لم يلحق بها اي تغيير او تبديل يذكر . فقد قبل السلطان اكبر ، مثلاً بطلب الترخيص له وبدفع الرسوم المتوجبة للسفن المعدة لنقل الحجاج من صورات الى مكة . اما التجار المسلمون ، فقد ألفوا الحصول على ترخيص لهم بمتابعة نشاطهم التجاري وراح عدد كبير منهم يقوم باعمال التهريب وينقطع لاعمال القرصنة في البحار .

فالامبراطورية البرتغالية كانت في عرف اصحابها ، عملية تجارية واسعة النطاق تابعة للتاج . فالملك هو اكبر تاجر او مساهم في هذه الامبراطورية ، ويحتكر لنفسه تجارة التوابل والمواد الصبغية والمواد الطبية ، بينما تبقى حرة ، تجارة الصموغ والراتنجات والعطور والحجارة الكريمة . فقد انشأ ملك البرتغال على مقربة من قصره « وكالة » خاصة عرفت بوكالة الهند التي كانت في الوقت ذاته مركزاً لادارة هذه الامبراطورية ومستودعاً كبيراً قام تجاه ارصفة لشبونة . وقد تعهدت *La Casa da India* بيع كل المحاصيل المستوردة من الهند ، وكانت تتصرف فيها كيفما تشاء فتحدد منها ثمن المبيع ، كما انها تفرض رسوماً على المبيعات وتحدد للمتسوقين مهلة لتنفيق البضائع المشتراة والكميات المعروضة للبيع تفادياً لهبوط الاسعار . وبالمقابل كانت وكالة الهند تشتري ، في انفرس ، النحاس والمدافع ، والاسلحة والقلوع والاقمشة والخضروات اللازمة لتجهيز الاساطيل البرتغالية في الهند وتموينها .

وبين هذه القوافل التي تتجر مع الهند الشرقية ، للملك سفنه ومشحوناته الخاصة . واذ

كان يفتقر لرؤوس اموال يستثمرها في هذه التجارة ، فقد كان يمنح اجازات ترخيص ترخص الاتجار مع الهند لهذه الجمعيات التجارية التي تتألف من تجار ايطاليين وألمان ، امثال شركة ويلزر التي فتحت لها فرعاً في لشبونة ، عام ١٥٠٣ ، وفوجر وهوشستتر ومار كيوني وافيتاتي ، وغيرها . ومثل هذه الرخص والاجازات ، اعطاها الملك للتواجد او متعهدي تجهيز السفن التجارية من البرتغاليين ، ولاميرالية البحر ، وقباطنة السفن . كذلك ترك الحرية لقباطنة السفن والبحارة والحكام وقادة الحصون وللجنود ان ينقلوا معهم ، ذهاباً واياباً من الهند ، ما شاؤوا من محاصيل البلاد ، على ان يدفعوا للملك ٢٥٪ من ثمن مبيع البضاعة .

فلا عجب والحالة هذه ان تكون الارباح العائدة اليه واهية وافرة . فقد بلغ معدلها ، حتى في حالات فقدان السفن وتلفها ، ٢٠٠ ٪ وقد ارتفعت الواردات العامة في عهد الملك جان الثالث ، عام ١٥٣٦ ، من ٢٠٠،٠٠٠ كروزيدوس ، الى ٦٥٠،٠٠٠ بفضل الاتجار مع البلدان المحيطة بالهند . فقد كانت طريق رأس الرجاء الصالح اكثر مردوداً من طريق البحر الاحمر حيث كان يقتضي اعمالاً كثيرة لتفريغ الوسق واعادة شحنه في مرافيء عدن وجدة وقصير على النيل ، والقاهرة . وهكذا وجد الاقتصاد البرتغالي نفسه في « دوامة الدولة » .

اما المشكلة الكبرى فقد تمثلت بشراء التوابل من الهند التي لم تكن بحاجة الا لعدد يسير من البضائع الاوروبية . فالملوك والامراء الهنود آثروا ، بالاحرى ، الذهب ليحتفظوا به ودائع في صناديقهم ، بينما فضل الهنود نقداً من الفضة ، والنحاس لحاجتهم اليه في معاملاتهم اليومية . فلم تكن الهند من البلدان المنتجة للمعادن الثمينة ، انما هي جزء من هذه المنطقة ذات الاقتصاد النقدي الواحد التي تتألف من اوروبا وافريقيا الشمالية والسلطنة العثمانية وبلاد فارس . فالهند تمتص عملات هذه الاقطار من غوازي البندقية الى « دوقا » المانيا وبولونيا وهنغاريا ، وجنيهات انكلترا وسلطانيات مصر . كل هذه العملات وما اليها كانت ترد عن طريق القاهرة وعدن مع سيراف الفارسية . ولعل اكثر العملات رواجاً اذ ذاك ، هي السبيكة الفارسية ، وهي عبارة عن قطعة من الفضة بشكل ريشة الأوز ، اسطوانية الشكل من اطرافها ، مسطحة في الوسط ، مطوية على نفسها شقتين متوازيتين ، عليها كتابة فارسية ، وزنها ٥ غرامات ونصف الغرام . وكانت تسك في مدينة تقع على مسافة قريبة من الخليج الفارسي . ويقدر الثقاة ان اوروبا كانت تصدر كل سنة ، نحو بلدان الشرق ، ما زنته ١٧٥ كيلوغراماً من الذهب ، ونحواً من ٢٠،٥٠٠ كيلو من الفضة . وقد بلغ انتاج مناجم الفضة ، في اوروبا الوسطى ، بين ١٥٢٦ — ١٥٣٥ الذروة ، اذ سجل ٨٤،٠٠٠ كيلوغرام من الفضة في السنة الوحدة . وكان جانب كبير من المعادن الثمينة المرسلة الى آسيا الصغرى او الى مصر يصل الهند حيث كان يتوزع بين الملوك والسلاطين والامراء والعامة ، اذ كانت الهند تفتقر كلياً للمعادن الثمينة وللنقد ، في اواخر القرن الخامس عشر . فقد توقف سك العملة الثمينة في هندستان ، منذ اواسط القرن الرابع عشر ، ونقصت كمياته كثيراً في غوجارات وفي الدكن . وكان للهنود ، الى جانب عملة

النحاس عملة من الحديد ، القطعة منها بشكل هلال صغير او سلات صغيرة . كذلك استعملوا طريقة مقايضة البضائع بعد تخمين اثمانها بالعملة الدارجة ، ثم تجري عملية المقايضة .

لم تكن البرتغال لتفتقر بالمغنى الحصري ، للمعادن الثمينة لكي ينهض بنشاطه التجاري في الهند . فكان بامكانه ان يعتمد على الذهب الافريقي ، اي المصدر من بلاد آشنتي وموشي عن طريق مرفأ سان جورج المينا ، وعلى ذهب الغينه ، فيوفر له ١٥٠٠ ، و ١٥٢٠ كيلو بالاضافة الى ٧٠٠ كيلوغرام من المعادن الثمينة ، في السنة الواحدة . وفي ١٥١٩ ، كان سكان البندقية يلقبون ملك البرتغال ، لدى زيارته لمدينتهم : « ملك الذهب » وكان قسم من هذا الذهب ينفق في أنفرس لشراء الفضة والنحاس والقمح والمدافع ، كما يذهب منه قسم الى صقلية ، ثمناً لقمحها ، والميلانو ثمناً للأسلحة ، وللاندلس ثمناً لعتاد حربي مختلف تحتاجه حصون البرتغال وقلاعه في المغرب الاقصى . فلم يكن لديه ما يفيض على حاجته .

ولذا قررت حكومة البرتغال ان تشحن كمية قليلة ، من المعادن الثمينة الى الهند عن طريق الرأس . فقد بلغ ما شحنوه منها ، بين ١٥٠٤ - ١٥٥١ ، ما يتراوح بين ٣٠،٠٠٠ و ٨٠،٠٠٠ كروزيدو في السنة الوحدة ، اقل مما كان يدره مرفأ المينا من الذهب ، على الملك . وقد شكلت شحنات المعادن الثمينة ، في اول الامر ، اي حوالي ١٥٠٦ ، نحواً من ٧٥ ٪ من قيمة الشحن . بينما هبط هذا المعدل بين ١٥٢٢ - ١٥٥٧ الى ١٢ - ٢٣ ٪ . وكانت هذه المشحونات تضم ، فيما تضمه ، الزنجفر والزئبق والمرجان والرصاص ، ولا سيما النحاس المستورد من بلدان اوروبا الوسطى بعد ان يجري تسويقه في مدينة أنفرس ، وغلبت قيمة المعادن الثمينة . فقد شحن ، بين ١٥٤٠ - ١٥٥٥ من ٥٥٠٠ الى ٧٥٠٠ قنطار في السنة الواحدة . وقد سُكت كمية من هذا النحاس تبلغ ١٥٠٠ قنطار ، نقداً هندياً من نوع بازاروكوس ، وما تبقى فقد بيع ، وزناً بوزن ، بهاراً . والى هذا فقد استعمل البرتغاليون منذ السنين الاولى من القرن السادس عشر ، معادلة منهم لرصيدهم مع الهند ، كتب الاعتماد والسفتجة بدلاً من شحن نقد سائل اليها ، ما يوازي ٤٠ ٪ من مجموع هذه المبالغ . وهكذا فلم نر ان الاقتصاد البرتغالي خسر كثيراً من كمية المعادن الثمينة التي توفرت له .

وعرف البرتغاليون ان يفيدوا من وضع الهند والبلاد المحيطة بها التي لم تنهض اقتصادياتها على نقد معين والمعروفة بانتاجها العظيم للمعادن الثمينة ولا سيما للذهب . ففي افريقيا الشرقية نجد مدينة ممباسا التي اقام فيها البرتغاليون احتكاراً ملكياً للذهب بعد ان اقصوا منها المسلمين . فقد كان يصل كل سنة ، من الهند سفينة مشحونة بالانسجة القطنية ، مصدرة من خليج كمباي ومزالج ومنغالق يرغب اصحابها من قبائل البنتو مقايضتها بالذهب . ففي سنة ١٥٨٥ ، تم شحن ٢٧٣ كيلوغراماً من الذهب ، كما تم سنة ١٦١٠ شحن ٨٠٠ كيلوغرام من افريقيا الى غوجارات والى فيجايانا غار ، تلبية لحاجات المزارات والمعابد الوثنية . وكان الذهب يجمع في جاوا وصومطرة وبورنيو وماكسار وريو - كيو ومن كل هذه الجزر المتناثرة في البحر

حتى مشارف اليابان ، ويحمل من ثم الى مالقا . وعلى هذا النحو فنس يو - نام في بورما واللاوس والبيغو في كمبوديا . وكانت كل موانيء الهند الصينية تشحن الذهب الى مالقا فيحمله البرتغاليون الى الهند بمعدل طنين في السنة . كذلك كان البرتغاليون يستوردون من مرفأ أرموز عملة فارسية السكة من نوع *Lerins* ويقايضون بها في مدينة كوشين ، الفلفل والبهارات ، بربح ٢٠ - ٢٥ في المائة ، كما كانوا يستفيدون من المضاربة بهذه العملة صعوداً وهبوطاً ، بربح يتراوح بين ٣ - ٢٢ ٪ حسب المواسم .

وقد بعث البرتغاليون عن طريق هذه العملات والمعادن الثمينة ينزلونها للاسواق بنشاط في مرافق الهند الاقتصادية كالتجارة والصناعة ، ولا سيما في مقاطعات غوجارات وهندستان فاستأنفت الهند سك العملة منذ اواسط القرن السادس عشر . كذلك عمل البرتغاليون في في تطوير امبراطوريتهم في الهند الشرقية بحيث تكتفي نفسها بنفسها تحت ادارة حاكم الهند العام الفونسو ده صوصه (١٥٤٢١ - ١٥٤٥) ، كما استطاعت هذه الامبراطورية البرتغالية في الهند ان تؤمن بمواردها الخاصة كل نفقاتها العامة ، وان تؤمن مشترياتها من التوابل بما تحققه من الارباح من تجارتها : « في الهند ومع الهند » ، دون ان تضطر لطلب اية مساعدة مالية من البرتغال . وما هو اكثر من ذلك ، ان التجار والموظفين البرتغاليين الذين اثروا من تجارتهم في الهند ومع الهند ، استطاعوا ان يحملوا معهم لدى عودتهم الى بلدهم الام ، مقادير كبيرة من المعادن الثمينة .

وقد بدت هذه الامبراطورية مزعزعة الدعائم ، بين ١٥٤٥ - ١٥٥٢ ، من جراء هذه الأزمة الاقتصادية التي كادت تمتد الى اطراف العالم . بدت اعراض هذه الازمة ، واضحة في انفرس ، ولندن ولشبونة والبرازيل وارموز ومالقا ومكاو . فقد بلغ معدل السفن البرتغالية التي امت انفرس ، من ١٥٣٦ - ١٥٤٤ ، ما يتراوح عدده بين ٢٢ - ٢٣ سفينة في السنة ، وبين ١٥٥٤ - ١٥٦٠ ، نحواً من ١٤ سفينة . وهبط دخل الجرك في اورموز ٢٥٪ بينما بلغ معدل هذا الهبوط في مرفأ مالقا ٥٠ ٪ . اما اسباب هذا الهبوط فيمكن ردها الى ازمة الذهب ووصول مقادير كبيرة من الفضة الاسبانية المستخرجة من مناجم بوتوزي في البيرو ، عن طريق اشبيلية ، الذي طرد ، تدريجياً ، الفضة المستخرجة من مناجم اوروبا الوسطى : من بوهيميا والتيرول وسيليزيا والساكس والهارتز ، فكان ذلك سبب انهيار هذه المناجم ، بعد عام ١٥٥٠ ، وزاحم الذهب البرتغالي . هنالك سبب آخر نجده في ردة الفعل يقوم بها الاسلام ضد البرتغاليين . استأنف الاتراك العثمانيون هجومهم ضد مدينة ديو ، عام ١٥٤٦ . فالحقوا بالبرتغاليين اضراراً كبيرة وكبدوهم نفقات باهظة ، كذلك سبق ونوهنا بالهجوم الذي قام به المراكشيون في المغرب الاقصى .

نجم عن هذه الاحداث تغييرات اساسية في النظام الاقتصادي للامبراطورية البرتغالية . فقرر الملك ، في اواخر عام ١٥٤٨ ، إقفال الوكالة او المفوضية التي كان انشأها في انفرس ، كما كف منذ عام ١٥٧٠ ، عن استثمار طريق رأس الرجاء الصالح استثماراً مباشراً ، فاعتمد ، اكثر فاكثر ،

سلوب الاجازات والترخيص وعقد اتفاقات خاصة مع شركات خاصة . والاحتكار الملكي الوحيد الذي بقي قائماً هو احتكار النحاس .

والتغيير الثاني المهم الذي عرفه النظام الاقتصادي ، تمثل في هذا النجاح المطلم تصيبه الفضة الاسبانية والريال الاسباني ، الذي اخذ يغزو اقطار المحيط الهندي ، وبلغ بلدان الشرق الاقصى بين ١٥٥٤ – ١٥٦٩ ، عن طريق الرأس اولا ، ثم عن طريق اسكلة الشرق الادنى ، ثم بعد سنة ١٥٧١ ، من المكسيك ، عن طريق ما سمي « باخرة مانيلا » التي لاقت نجاحاً منقطع لنظير . واقبل المسلمون الهندوس يشترون الريال الاسباني ، باي ثمن كان ، بالليرة الذهب . وحوالي ١٥٨٣ ، راحوا يهملون التعامل بالبضائع والسلع ، لينقطعوا للاتجار بالعملة والنقد السائل . ودرج استعمال الريال في جميع اطراف الهند ، بين ١٥٨٠ – ١٥٩٠ ، ولم يكن هذا النجاح بأقل منه في الصين، حيث اخذت المضاربات بالريال ، تبلغ ٢٠ – ٢٢ ٪ . فاسبانيا هي التي تملك هذه الفضة وتسك هذه العملات على اختلافها ، ولذا لجأ البرتغاليون للتهريب متخذين من جزر الازور قاعدة لهم للحصول على حاجتهم من الريال بالاتجار « في الهند ومع الهند » ، وفي عام ١٥٨٠ ، بانضمامها الى اسبانيا . كذلك راح البرتغاليون يبحثون عن الفضة في اليابان .

واخيراً ، سجلت طريق رأس الرجاء الصالح بعض الهبوط في نشاط الحركة التجارية ، وهو هبوط يمكن رده لعدة عوامل ، منها ان مسلمي سومطرا اخذوا يستنبتون نوعاً من اغراس الفلفل ، احسن انتاجاً ، وارفع قيمة من فلفل مليزيا . وراحوا يوردونه الى القاهرة ودمشق مباشرة ، على خط مستقيم يمتد من أتشيم الى عدن . وهكذا عاد النشاط الى الحركة التجارية في كل من البحر الاحمر والخليج الفارسي . كذلك اخذت البندقية بعد ان يسر لديها الحصول على الريال الاسباني ، اكثر مما توفر للبرتغاليين ، عن طريق جنوى ومرافىء اوروبا الشمالية ، تستأنف الاتجار بالتوابل مع طرابلس الشام وبيروت . وقبل وصول البرتغاليين الى الهند ، كانت البندقية تستورد الافاويه من الاسكندرية بمعدل ١٠٬٧٦٠ قنطاراً في السنة . وقد استوردت في الحقبة الواقعة بين ١٥٦٠ – ١٥٦٤ ، من هذه التوابل ، ما معدله ١١٬٧٠٠ قنطار في السنة ، اذ ان استهلاك اوروبا من التوابل ارتفع من ١٧٬٦٠٠ قنطار ، عام ١٥٠٠ ، الى ٢٧٬٠٠٠ قنطار في السنة .

اشتدت ، من جهة ثانية ، المنافسة التجارية ، بين الفرنسيين والانكليز . فقد ركز السلطان أكبر ، امبراطوريته على دعائم قوية ، وشجع الرجوع الى الطرق البرية ودعا الى اعتمادها في نقل التوابل باتجاه الصين او بلاد فارس ، وتحول قسم كبير من محصول التوابل ، في الملابار الى آسيا الوسطى . ولهذه الاسباب ، ارتفع سعر هذه الاصناف عند البرتغاليين .

وهكذا اخذ البرتغاليون يصادفون في تجارتهم عدداً اكبر من المزاحين ، اكثر استعداداً

وجرأة وعدة . ولذا خفت بعض الشيء حركة نقل التوابل عن طريق رأس الرجاء الصالح . فقد بلغ معدل ما مر ، عبر هذه الطريق ، بين ١٥٦٠ – ١٥٧٠ ، من ٣٠ – ٣٥ الف قنطار من الافاويه في السنة،بينما نرى هذا المعدل يهبط، الى ما يتناوح بين ٢٥ – ٣٠ الف قنطار في السنة ، في هذه الفترة ، الممتدة من ١٥٧٥ – ١٥٩٥ . الا ان هذا النقص ، امكن تعويضه ، عن طريق ارتفاع معدل الارباح من التجارة مع الهند ، وهي ارباح ، بلغت في الربع الاول من القرن السادس عشر ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كانت عليه في الربع الثاني من القرن المذكور . فهنالك ارتفاع في القيمة العامة او المطلقة . وهكذا كان تأخر الحركة التجارية في البرتغال تأخراً نسبياً .

اصبح هذا التأخر شيئاً واضحاً لا يمكن تجاهله ، بعد عام ١٥٩٥ ، عقب دخول الهولنديين حلبة التجارة في الشرق الاقصى . فلم يعد البرتغاليون يستوردون الا عن طريق رأس الرجاء الصالح ما مقداره ١٠٫٠٠٠ قنطار في السنة ، من التوابل ، ثم هبطت هذه الكمية الى ٧٠٠٠ قنطار . ففي مطلع القرن السابع عشر ، اصبح استيراد التوابل عن طريق اسكلة الشرق الادنى أقل كلفة وبالتالي ارخص من كلفته عن طريق الرأس . والتجارة مع اقطار الهند الشرقية لم يعد لها المكان البارز في الاقتصاد البرتغالي . ولكن ما لنا وللحديث عن هبوط الحركة الاقتصادية في البرتغال ، اذ ان البرازيل سيلعب ، في القرن السابع عشر ، الدور الرئيسي في هذا الاقتصاد . ففي عام ١٦٢٧ ، بلغ دخل الرسوم المدفوعة على السكر اكثر من نصف واردات الجمارك في لشبونة ، وهكذا انتقل البرتغال من منطقة « البهارات » الى منطقة « السكر » . وبعد سنة ١٦٤٠ ، اي بعد ان تحرر من التابعية الاسبانية ، اصبح اقوى بكثير مما كان عليه في منتصف القرن السادس عشر ، اذ اصبح يسيطر ، في المحيط الاطلسي ، على امبراطورية دونها الامبراطورية التي تمت له في المحيط الهندي .

الهولنديون في المحيط الهندي

حل الهولنديون ، اثناء القرن السابع عشر ، كدولة رئيسية في المحيط الهندي ، محل البرتغاليين فيه . ففي سنة ١٥٩٤ قرر الملك فيليب الثاني ، اقفال مرفأ لشبونة في وجه الهولنديين والانكليز ، وهو قرار لم يجر تنفيذه دوماً ، على الوجه المرغوب فيه ، بحيث كانت بعض سفن هاتين الدولتين تقع في قبضة الاسبانيين فتصادر منها البضائع التي تنقلها . وقد خشيت الدولتان المذكورتان معاً ، سد المسالك البحرية في وجه سفنها ، وهو خطر من شأنه ان يلحق التشويش والاضطراب في الاقتصاد الهولندي ، فراحت تسعيان لاقامة علاقات تجارية لها مباشرة مع اقطار المحيط الهندي . وفي سنة ١٥٩٥ ، قفل راجعاً الى هولندا احد الهولنديين ، هو فان لنشوتن بعد ان اقام في غوا خمس سنوات،جمع خلالها كثيراً من المعلومات الدقيقة، كما عاد اليها من لشبونة مواطن هولندي آخر هو كورنالس هوتمان ، بعد ان قام بمهمة سرية فيها جمع خلالها ، هو الآخر ، كثيراً من المعلومات. وفي ٢٣ حزيران ١٥٩٦ رحلت اربع سفن هولندية الى بنتام، احدى السلطنات

الاسلامية ، الواقعة الى الشمال الغربي من جزيرة جاوا .

كانت الاوضاع السياسية السائدة اذ ذاك ، في مصلحة الهولنديين ومؤاتية لهم جداً ، بعد ان اقتصرت سيطرة البرتغاليين على بضع قلاع وعـــدد من الحصون ، كما انهم كانوا في حروب موصولة مع اصحاب السلطنات الاسلامية الذين كانوا يتجرون بالتوابل هم ايضاً ، وكانوا على اتم استعداد للتعامل مع غير البرتغاليين من التجار . ومن جهة ثانية ، لم يكن هنالك مـــن ممالك وطنية تستطيع الوقوف في وجه الهولنديين وتحد من تقدمهم وتغلغلهم ، اذ ان معظم هذه الممالك كانت سلطنات بحرية يحاول بعضها بسط سيطرتهم على بعض المسالك والمعابر المائية ، مثل مضيق أشين ، الى الشمال من صومطرة ، وهي نقطة رسو اضطرارية لكل هذه القوافل البحرية العائدة من الغرب ، ترغب في الايغال شرقاً عبر مضيق مالقا وجوهور (مالقـا) الى الشرق من صومطرة او الى الغرب من بورنيو ، وبنتام الى الغرب من جاوا ، او الى الجنوب الشرقي من صومطرة ، وماكسار الى الشرق من بورنيـو ، وجزيرة بيا ، الطريق المركزية في الانسولند ، وترنات (الى الجنوب من جزر الفيليبين ، سيراف وامبوان وسولور ، وبالاختصار جزر التوابل) ؛ وتيدور (الى الشرق من ترنات مع الجزر المجاورة ، والشمال الغربي مـــن جزيرة الغينيه الجديدة) . كل هذه السلطنات انهكتها الحروب المستمرة بعضهـا مع البعض ، وضد البرتغاليين من جهة اخرى . ففي جزيرة جاوا ، راح احد السلاطين السوسونام هـــو سلطان ماتارام ، بانهاك قوى كل السلطنات الصغيرة الواقعة في داخل البـلاد ، الى الشمال التي كان بامكان سفنها ان تؤلف سداً في وجه الهولنديـين . فهو لم يكـــن ليحسب حساباً الا للجيوش الغربية .

ومنـذ عام ١٥٩٨ ، اسس الهولنديون لهم ، مراكز تجارية في جزر : بندا وترنات ، وأشين وجاهور وبنتام وبتاني (الساحل الشمالي من شبه جزيرة ماليزيا) . فقد جـلبوا معهم خوذاً وزروداً ومصنوعات زجاجية ومنسوجات محلية والعاباً خشبية من صنع نورمبرغ ، وكلها سلع واصناف لاقت عند سكان الهند الشرقية رواجاً عظيماً . وحملوا معهم في طريق عودتهم الفلفل وكبش القرنفل وجوز الطيب . واخذت الشركات الهولندية في مزاحمة بعضها البعض ، مـــا ادّى الى ارتفاع سعر الافاويه في الجزر المنتجـــة لها ، واخذ السلاطين يرفعون الاسعار شهراً بعد شهر . وقد اوشكت اسواق امستردام تصاب بالتخمة . اذ ذاك رأى حاكم هولندا العام ، هو اولدن بارنفلت ان يتدارك الامر فاصدر عام ١٦٠٢ ، امراً بانشاء الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية .

ودخل الهولنديون في منافسة حادة مع البرتغاليين واستطاعت الشركة الهولندية ان تستولي على حصونهم تباعاً الواحد بعد الآخر ، فاحتلت سفنها : امبوان وتيدور ، وجـددوا ، عام ١٦٠٠ ، المعاهدة التي سبقوا وعقدوها مع سلطنة امبوان التي نصت على قبول حمايتهم السلطنة ،

واقامة استحكامات فيها وحق احتكار تجارة التوابل . وبهذه المناسبة ، وضع الكاتب الهولندي المشهور، الفقيه هوغو غروتيوس كتابه المشهور *De Jure praedae* الذي لخصه ونشره موجزاً عام ١٦٠٩ بعنوان : « *Le mare Liberum* — او حرية البحار » . ان حرية البحار وحرية التجارة هي من حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن لاية قوة نسخها او حرمان الآخرين منها وهكذا كان هذا الكتاب نواة الحق الدولي . وبموجب هذا القانون لا حق للبرتغاليين قط حرمان الهولنديين من الاتجار مع جزر الافاويه . وقد اصبح هذا الكتاب ، فيما بعد من اصول الحق الدولي الحديث . ونحن مدينون لظهوره ، ولو بصورة جزئية ، لهذه العلاقات التي شدت بين الاوروبيين والدول الاخرى الواقعة وراء البحار .

وفي عام ١٦٠٠ ، رأت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية النور ، برأسمال يوازي ثمن رأس مال الشركة الهولندية . وسار الانكليز ، في كل مكان على خطى الهولنديين . فبعد ان رسّخ هؤلاء أسس التجارة الاوروبية في الاماكن التي اقاموا فيها ، راح الانكليز ينشئون لهم مراكز قريبة من مراكز الهولنديين ، الامر الذي ادى الى التنافس والتصادم والاقتتال بين الفريقين ، مما حمل الحكومتين على الدخول في مفاوضات ، سنة ١٦١٣ و ١٦١٥ ، و ١٦١٩ . وقد تشبث الهولنديون بحقهم فرض احتكارات ، واحتج الانكليز بدورهم متسائلين : وحرية التجارة ؟ ، فاجاب الهولنديون ان مبدأ حرية التجارة يقوم حيث لا معاهدات ولا عقود تحد من نطاق النشاطات التجارية . اما وقد وقعت معاهدات ووضعت مواثيق ، فقد زال كل اساس وبطل كل حق لهذه الحرية ، لا سيما وان الاتفاقات والمعاهدات هي من صميم الحق الدولي العام . والحال فقد كنا (الهولنديون) السباقين لعقد مثل هذه المعاهدات والاتفاقات مع سلطنات امبوان وترنات وبنتام ، ولذا لا حق لسكان البلاد الاصليين ان يخالفوا تعهداتهم ، بمد الانكليز بهذه التوابل ، كما انه ليس من حقكم (الانكليز) قط ان تحملوهم على نقض هذه المواثيق ، او تغروهم بلحس توقيعاتهم . ومع هذا وذاك ، فقد تكبدنا مصارفات باهظة ، وشغلنا رؤوس اموال ضخمة ، فمن الحيف والظلم معاً ، والحالة هذه ، الا نفيد من هذه التضحيات ، كما يجب .

وبعد مفاوضات طويلة توصل اولدن بارزنفلدت وجاك الاول ملك انكلترا الى تأليف شركة جديدة بدمج الشركتين معاً . غير ان المستعمرين الهولنديين رفضوا قبول هذه التسوية وحطموا المهارة الانكليزية شر تحطيم عام ١٦١٩ ، كما ان محكمة العدل الهولندية في امبوان حكمت بالاعدام على ثمانية انكليز ، ونفذت بهم حكم الاعدام ، بعد ان اتهموا بمحاولة الاستيلاء على الحصن الهولندي ، بمساعدة بعض المرتزقة من اليابانيين . وهذا الحادث بالذات يعرف في التاريخ بـ « مذبحة امبوان » .

اخذت الامبراطورية الاستعمارية الهولندية تنمو وتتطور وفقاً للافكار والمبادىء التي قال بها وطبقها الحاكم العام كوين من عام ١٦١٨ - ١٦٢٣ ، كما عمل بهذه المبادىء من جديد

بين ١٦٢٧ – ١٦٢٩ . اوحت اولى هذه المبادىء بفرض التجارة الهولنــدية بالقوة ولو ادّى الامر الى فرض السيطرة السياسية . وقد رأى ، من جهة اخرى ، ان الامبراطورية البرتغالية تلاشت وانهارت لانها كانت تجارية محضة . ثم ان تجارة الافاويه والتوابل ، بــين اوروبا وآسيا ، لا يمكن ان تؤلف ، لوحدها ، تجارة رابحة . ولتأمين ربح عادل يترتب على الهولنديين الا يكونوا تجاراً فحسب بل منتجين للتوابل والافاويه بانفسهم . يتوجب عليهم والحالة هذه ، ان ينشئوا لهم مزدرعات واسعة، وان يرعوها عن كثب بواسطة ما يتم لهم من عبيد أرقــاء . فاذا ما بيع انتاجهم من التوابل في اوروبا استطاعوا ان يؤمنوا لهم ربحاً كافياً . فالتجــارة الوحيدة المربحة بالفعل هي التي تقوم على مبدأ : «الاتجار مع الهند وفي الهند» ، اي الاتجار مع بلدان آسيا وضمن هذه البلدان بالذات . فعلى الهولنديين ان يقوموا هم بانفسهم بالقسم الاوفى من هذا النشاط التجاري الممتد نطاقه من بلاد فارس الى اليابان ، عليهم ان يتسوقوا بانفسهم الحرير من بلاد فارس ، والقطن من الهند ، والزنجفر من سيــلان ، والقيشاني من الصــين ، والنحاس من اليابان ، وخشب الصندال من تيمور ، والتوابــل من جزر المولوسك ، وجمع كل المواد والسلع في بتافيا ومنها تشحن على السفن المحملة توابل الى اوروبا ، والأهم من كل هذا ، تنظيم مقايضة هذه البضائع وتسهيل تبادلها عن طريق انشاء امبراطورية استعمارية ، تجارية ضخمة مركزها بتافيا . فبدلاً من تركيز ازدهار هذه الامبراطورية على محور الاتجار بــين اوروبا وآسيا ، رأى كوين ان يرتكز هذا المحور على التجــارة الآسيوية ، تكون التجارة بين اوروبا وآسيا فرعاً منه لا غير .

اتفق ظهور هذه الافكار والنظريات مع ظهور نقص كبير في كمية الفضة التي كان الاوروبيون بمسيس الحاجة اليها لتغطية ثمن مشترياتهم في آسيا ، بعد ان انهار الانتاج الاميركي من الفضــة ، وتمكن الهولنديون من الحصول على المعادن القابلة لسك العملة او مــن الحصول على العملة نفسها من البلدان الآسيوية ، وهذا ما يفسر لنا الجهود التي بذلها الهولنديون للاحتفاظ بالتجــارة مع اليابان وللسيطرة على انتاج مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، ولمهاجمة السفن المحملة فضة ، القادمة من المكسيك باتجاه الفيليبين ، وللحصول ، بواسطة المنسوجات القطنية الهندية ، على انتــاج الذهب في صومطرة وبورنيو ، وبواسطة حرير البنغال الخــام ، على ذهب الصين والهنـد الصينية ، وبواسطة عدد كبير من منتوجات الهند المتنوعة ، على النقود المسكوكة في البندقية وغيرها من العملات الاوروبية القوية من مخا على ساحل البحر الاحمر . وكان كوين والتجــار الهولنديون في كل هذه الامور ، باستثناء سياسة اعتماد المزدرعات ، ينحون نحو البرتغاليـين .

وقد رفض مديرو الشركة الاخذ بنظريات كوين وتبني اقتراحاته هذه ، وجل ما تمنوه هو تأمين استتباب السلام عن طريق عقد معاهدات تجارية مع الامراء المحليين وبعض الموانىء المركزية ، وبناء حصن واحد من هذه الحصون المركزية التي كانوا يشيدونهــا في النقاط الستراتيجية ، الا ان طبيعة الاشياء ادّت بالهولنديين الى الاخذ بنظريات كوين وتطبيقها .

في سنة ١٦٢٧ ، احتل الهولنديون عنوة ، مرفأ جاكرتا وفرضوا عليه سيطرتهم وسيادتهم التامة ، وبنوا فيه حصناً منيعاً ، واقاموا حوله مدينة هولندية الطابع والمظهر ، واطلقوا عليها اسم بتافيا ، وهو اسم هولندا قديماً . كذلك تمكنوا من فرض سيطرتهم على امارتين غارقتين في الديون . وراح الهولنديون يشترون المواسم بالمواعدة ، فيقدمون سلفات مالية مهمة ، نقداً او عيناً . وكثيراً ما اتفق ان انفق المستلفون المبالغ التي استلفوها وباعوا محاصيلهم ومواسمهم مرة ثانية لشار جديد . وفي سبيل تأمين الاموال التي سلفوها ، راح الهولنديون يطلبون من حكام المقاطعات التنازل لهم عن بعض سلطاتهم . وهكذا فتحوا عام ١٦٢٣ ، بقوة السلاح ، جزر بندا ، وجزيرة أمبوان وجزر المولوسك ، مقابل معاش تقاعدي دفعوه لسلطان ترنات . وهكذا اصبحوا اسياد الجزر . وسيطروا على المضايق والمعابر التي لا بد من اجتيازها او المرور بها في التجول بين هذه الاقطار ، وكلها مراكز ومقاطعات انتزعوها من البرتغاليين عنوة وعدواناً : سيلان التي احتلوا عاصمتها كولمبو عام ١٦٣٦ ، ونيغابتام على ساحل ملابار (١٦٤٢) ومالقا ، عام ١٦٤١ ، وكوشين ، عام ١٦٦٢ . وفي سنة ١٦٥٢ ، اسسوا مدينة الكاب التي كانت نقطة رئيسية لرسو السفن ، اذ انهم مفاداة منهم للاصطدام بالبرتغاليين بعد اجتيازهم لرأس الرجاء الصالح ، تركوا سفنهم تسير مع التيار والارياح التي تهب غرباً ، حتى تبلغ مشارف استراليا ، ثم تتجه رأساً لنحو الشمال . وباستثناء امبراطوريتهم الواسعة الارجاء هذه ، نالوا من شاه ايران ومن المغول الكبير في الهند ، ومن امبراطور الصين ومن الشوغون في اليابان ، الترخيص لهم بانشاء بعض وكالات تجارية تناثرت حباتها من اصفهان غرباً ، الى ناغازاكي في اليابان ، شرقاً .

بدا للحاكم الهولندي العام متسويكر ، بين ١٦٥٣ - ١٦٧٨ ان الولايات الاندونيسية اخذت تنهار وتتهاوى ، من جراء هذه الحروب التي مزقتها بدداً ، وانه لا يمكن للهولنديين ان يحتفظوا باحتكاراتهم التجارية ما لم يضعوا حداً لهذه الفوضى ، وذلك بفرض سيطرتهم السياسية . ولذا راحت الشركة ترغم السلاطين المحليين على الاعتراف بالولاء لها والتسليم ببناء حصن هولندي ضمن سلطنتهم ، وان يعترفوا للهولنديين بحق فرض احتكارات تجارية ، على هذا النحو سارت الامور في ماكسار ، سنة ١٦٦٨ ، وفي أشين ، وماتارام سنة ١٦٧٩ ، وفي بادانغ ، عام ١٦٨٤ . وهكذا فرضت الشركة الهولندية سيطرتها على كل انحاء اندونيسيا من جنوبي الفيليبين حتى سواحل الهند .

أسس الهولنديون في بتافيا مجتمعاً مسيحياً لا عنصرياً . فقد تزوجوا من نساء آسيويات ، نلن بعد تنصيرهن ، جميع حقوق المواطنة الهولندية ، كما ان الخلاسيين الذين ولدوا من هذا الزواج ، تمتعوا بدورهم ، بجميع حقوق الهولنديين ، وهؤلاء المستعمرون الذين تزوجوا من نساء وطنيات ، بقوا ، في اكثر الاحيان في البلاد ، فنشأ مع مرور الزمن ، جالية هولندية تراوح عدد افرادها بين ٥٠٠٠ و ١٠،٠٠٠ هولندي او من هولندي وزوجة آسيوية . وهذا المجتمع الهولندي كان

يطالب بنظام الرق والاسترقاق شأنه في ذلك ، شأن المجتمع البرتغالي الذي قام في البرازيل ، من وجوه عـــدة ، مع الفارق الوحيد ، وهو ان معظم الارقاء كانوا هنوداً ، وان معظم رؤساء الورش والاعمال الذين يعملون لحساب الشركة او يقومون باعمال الربا ، كانوا يدأبون على العمل طويلاً واقلامهم بايديهم ، من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساء ، مع انقطاع صغير عن العمل لمدة نصف ساعة للتريقة ، وانقطاع اطول مدته ساعتان ، للفطور .

برهن الهولنديون ، تجاراً ، عن روح سمحاء ، وعن تربية مدنية ، عالية تجـــاه الآسيويين الذين لم يخضعوا لحكمهم ، ولا سيا للتجار بينهم . فقد عاملوا الصينيين بينهم معاملة طيبـــة ، سواء أكانوا تجاراً او صناعاً او مزارعين ، واجازوا لهم تعيين رئيس لمحكمتهم الخاصة برتبـــة قبطان ، يقضي بينهم وفاقاً للقانون الصيني ، كما اعفوهم من الخدمة العسكرية .

ولم يسمح ، مبدئياً ، لاية ديانة غير الكلفينية ، بممارسة عقائدها . وكان الصينيون والمسلمون يمارسون بالفعل ، مراسم طقوسهم الدينية ، على مقربة من بتافيا ، مما دفع القساوسة البروتستانت للتذمر بان شريعة موسى كثيراً ما كانت تنتهك ، فيجيبهم ، ملسويكر على ذلك قائلاً : ان قوانين الجمهوريات اليهودية القديمة لم يعد لها اي اثر او فعل في الاراضي الخاضعة للشركة الهولندية في الهند الشرقية . وبذلك تنتهي الشكوى وترفع القضية بعد ان حلت المشكلة على هـــذا النحو .

اقام الهولنديون سلطتهم وركزوا سلطانهم على اساس من المذابح والنفي والابعاد، اتسمت بالبربرية والوحشية ،فأقفروا الجزر واخضعوا للرق الاحياء الباقين متذرعين بالدّين الذي رزحوا تحته . وكانوا يشترون بالوعدة الغلال ويقدمون لاصحابها المواد الغذائية ، اذ ان جزر التوابل لم تكن تنتج مـــا فيه الكفاية ، يقدمونها باسعار عالية بحيث ان السكان الوطنيين لم يكـــن في مقدورهم تسديد اثمان هذه المواد فيرزحوا تحت وطأتها ، فيضطرهم الهولنديون للتخلي لهم عن زرع المحاصيل التجارية كالفلفل وكبش القرنفل ، ويستبدلونها بزروع غذائية كالارز والصاغو ، محتفظين بزراعة التوابل لمزارعهم الخاصة . ففي جزر بندا وحدها التي كانت تعد ٣٨٤٥ نسمة عام ١٦٠٦ ، احصوا ٥٦٠ وطنياً من ابناء البلاط بقوا قيد الحياة ، و٥٣٩ هولندياً ، و ١٩١٢ مـــن ارقاء الهنود يعملون في الزراعة ، و ٨٤٣ من الاغراب الاحرار ، بـــين تجار واصحاب حرف .

لم يهتـــم القساوسة الهولنديون بحمل السكان الآسيويين على اعتناق الكلفينية ، فراح هؤلاء نكاية بالفاتحين وتشفياً منهم ، يقبلون على اعتناق الاسلام . فاندونيسيا التي اتصفت حضارتهـــا بالطابع الهندي ، اقبلت على الاسلام ، منذ القرن الخامس عشر . والظاهر انه تم ادخال الاسلام الى هذه المنطقة على يد تجار مسلمين قدموا من غوجارات ، فعملوا على نشر الاسلام في اهم هذه المناطق الساحلية،من جزر السوند،واعتنق امراء اندونيسيون الاسلام،طمعاً منهم أحياناً بيد كريمة

بعض التجار الاثرياء . ولم يكن الهولنديون يصادفون ، عندما قدموا الى اندونيسيا ، مسلمين الا في بطانات الامراء وفي بعض المناطق الساحلية . اما في داخل الجزر فمعظم السكان كان على الهندوكية ، بوجه عام ، الى الشرق من جزيرة جاوا حيث كانت منتشرة ، على الاخص ، عبادة شيفا . وبقيت جزيرة بالي برمتها ، مدة طويلة ، مركزاً قوياً للهندوكية ، ووقفت حائلاً دون انتشار الاسلام هنالك . مع ذلك هنالك مناطق عديدة في الداخل ، لم تعرف الهندوكية ، بل كان اهلها على الوثنية او قالوا بالاحيائية الحيوانية .

وقد أولى الهولنديون ، من حيث لا يشعرون ، وبالرغم عنهم احياناً ، دفعاً جديداً لنشر الاسلام في طول البلاد وعرضها . فقد وقع عام ١٦٤٠ ، نشاط ملحوظ في نشر الاسلام والدعوة له ، من قبل بعض الدعاة النشيطين ، فاخذ الاسلام يتغلغل عمودياً بين الطبقات الشعبية ، ولا يزال الى يومنا هذا . وحاول السلاطين الداخلون في منازعات مع الهولنديين ان يستغلوا مواسم الحج الى المدن المقدسة الاسلامية ، رأساً من جزر الملايو الى البحر الاحمر ، منذ القرن السابع عشر ، ليطلبوا العون والمؤازرة من البلاد العربية او من سلطان الاتراك . كذلك شجعوا مواطنيهم ، لدى رجوعهم ، على ان يصطحبوا ، وهم في طريق عودتهم ، مصلين ذوي شأن وشيوخاً يعملون أئمة بينهم . ففي عام ١٦٣٩ ، راح احد هؤلاء الشيوخ يلقب سوسونام متَرام، يلقب سلطان واعترف له الى جانب السلطة الزمنية بالسلطة الروحية ، واذ ذاك باشر السلطان الجديد ، أغونغ ، جهاداً مقدساً ضد اتباع شيفا وعباده في بالي . وجرى مثل هذا في بنتام واشين . وهكذا شد انتشار الاسلام من ازر الزعماء الوطنيين وقوى من سلطانهم ، كما حملهم على اعلان الجهاد ضد الهندوكيين وضد الكفار عامة وضد الاوروبيين . فبعد سقوط مترام عام ١٦٩٧ ، وبنتام عام ١٦٨٤ ، قام سكان الملايو بحروب دينية ضد «الكفار» . وراح القرصان المسلمون يعيثون فساداً في بحر جاوا كما امتلأت الادغال بحرب العصابات مع المسلمين. والجهود الاخيرة ، في هذا الحال ، قام ببذلها المدعو ابن اسكندر الذي ادعى النبوءة وزعم انه من ولد الاسكندر الكبير كما قام بمثل هذه الجهود الشيخ يوسف الذي درس في مكة ونظر اليه الكثيرون نظرهم الى ولي من اولياء الاسلام في البلاد . ومن حسن الصدف والاتفاقات، ان الصوفي الكبير ، والسلطان العثماني وسلطان المغول كانوا مشغولين اذ ذاك عن هذه الحركات ، بامور اخرى . كما لم يكونوا فيما بينهم على اتفاق . فلو عرف المسلمون ان يوحدوا صفوفهم لكانوا قضوا على الاوروبيين وازالوا كل نفوذ لهم في المحيط الهندي .

في بالي، اي في قلب هذه الجزيرة بقي السكان على الهندوكية، اما في الاماكن الاخرى فقد عرف الاندونيسيون بتمسكهم بالاسلام وبعصبيتهم الدينية . غير ان الاسلام الذي حل محل الهندوكية في النفوس لم يستطع ان يقضي عليها ولو اضطر بالتالي لمصانعتها. فالاسلام الاندونيسي كان في نظر المسلم العربي او المسلم من شمالي افريقيا اكثر الشيع والملل الاسلامية هرطقة وخروجاً على الشريعة . ففي نظر المسلم الاندونيسي ، يختلط الله بالبراهمان ، فيترتب على المسلم كما يترتب على الصوفي

الهندوسي ، ان يفقد ، عن طريق التأمل ، كل فردية وان يذوب في ذات الله ، لكي يصبح « الموجة التي لا تؤلف البحر ومع ذلك فهي ليست شيئاً يختلف عن البحر .. النقطة التي يتجلى فيها ملء الكائن الكلي » . فهذا نوع من الحلولية الرمزية . ومن صلب الهندوكية ضرورة ذوبان الفرد في شخص الله بينما الاسلام القديم الارثوذكسي العقيدة يشدد كثيراً ويميز بين النفس البشرية وبين الله . وهذا التعبير الهندوسي للاسلام لم يتمثل في هذه الكتب الصوفية الكبرى فحسب بل انتشر ايضاً بين كل طبقات المجتمع الاندونيسي عن طريق كراريس تعليمية او بواسطة رسوم هندسية تجسم او تلخص مبادىء هذه الرمزية الحلولية حتى بين الاميين .

كان من النتائج التي ترتبت على هذا الوضع ، النجاح الذي عرفته الجمعيات الصوفية او الرمزية كجمعية « شتادياس » وعدم المبالاة بالطقوس الدينية ومراسم العبادة ، والوضوء التقليدي والصلوات المألوفة والصدقة والصوم . ففريضة الحج الى مكة المكرمة يكلف بها شخص بالنيابة . انهم يأكلون لحم الخنزير بالرغم من نواهي القرآن الكريم . فالاندونيسيون لا يتورعون قط عن ارتداء الملابس الحريرية والحلي الذهبية ، وينصرفون لتعاطي العاب الحظ والقمار والربا ، المهم في نظرهم ، الصلاة الروحية بحيث يتم الاتحاد الرمزي مع الخالق .

فبدلاً من الثمانية او الأولياء التسعة المتفق على تكريمهم ، اصبح عدد الاولياء الآن لا يحصى بعد ان البست معبودات الهندوكيين لبوساً اسلامياً يحيون باحتفالات حافلة ، مشاهد من حياتهم تنضح بالاساطير والخرافات الهندوكية . وهكذا عاشت في قلب بلاد اسلامية وفي اوساط اسلامية حميمة واستمرت حية نابضة ، اعراف الهندوكيين وتقاليدهم الدينية . وهكذا بقي الاندونيسيون محتفظين بأعرافهم وتقاليدهم المتوارثة يحيون فيها اساطير الجبال والانهر والمغاور والبحيرات ، وحكايات هذه الارواح حارسة القرى وارواح الموتى التي كانو يتناقلون اخبارها خلفاً عن سلف ويحيونها قبل دخولهم الاسلام . واستمر كثيرون بينهم على القول بتناسخ الارواح وتقمصها فراحوا يقدسون بعض الاطعمة الغذائية او يحرمون استعمالها او تعاطيها حتى في هذه القرى التي اسلمت برمتها ، كما استمروا في تكريم الانصاب وتماثيل البوذيين والهندوكيين ينضحونها ببعض الزيوت والشحوم الخاصة ويحرقون على اقدامها مجامر البخور ويقدمون لها القرابين من الازاهير والأرز .

وهذه الاعراف والتقاليد والعادات التي تختلط بعبادات قبائل الشامز ، في اندونيسيا ، وباعراف الفيلبين وفورموزا وبتقاليد من مدغشكر بقيت مرعية الجانب معمولاً بها في كل مكان . فالقانون الاسلامي لا يعترف بالتبني . وبقيت اعراف الاندونيسيين تعترف ليس فقط بالتبني بل ايضاً تعترف للابن المتبنى بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الابن الشرعي . فالشرع الاسلامي لا يبيح التسري لرب الاسرة الا مع امائه ، ولا يبيح له التزوج من احداهن . وأباحت الاعراف المعمول بها في جاوا التسري مع المحصنات والزواج الموقت باحدى السراري بعد حملها ،

الى ان تضع ولدها الشرعي ثم تطلق بعد عملية الوضع. فالمسلم الذي يمكن ان يتخذله شرعاً اربع نساء ، كما نصت الآية ، يستطيع ، وفقاً للتقاليد المرعية ان يطلق احداهن ليتزوج من احدى سراريه العالقة منه ، ثم يعود الى زوجته الاولى . والشرع الاسلامي الذي ينظر الى المرأة نظرة دون الرجل في ما يتعلق بالميراث لا يمنحها الحقوق التي يمنحها للرجل في المواريث . فالتقاليد الاندونيسية المعمول بها في فرائض الارث لا تفرق بين حقوق الرجل وحقوق المرأة في في هذا الصدد .

وهكذا فنحن امام صفة او شكل خاص من الاسلام في اندونيسيا بحيث يمكننا التساؤل عما اذا كان اعتناق القوم للاسلام ، في هذه البلاد يجب رده ، الى حد بعيد ، للشعور بالظهور بمظهر السيادة والتسامي والمباهاة الذي يبعثه الاسلام في صاحبه ، امام الغريب او الاجنبي ، اكثر منه الى الشعور بمطلب ديني ، تحقيقاً منه لما شرع الانبياء او سوّغوا بوجوب تحقيقه ، او عملاً بمطلب الجهاد المقدس .

هل من ضرورة ، بعد هذا ، للتحدث عن الاستعمار الانكليزي او الفرنسي في هذا الكتاب بعد الذي ذكرنا عن الاستعمار الهولندي ؟ فمهما كان من شأن هذا الاستعمار ، ومهما كان له من اهمية في حد ذاته ، فليس من مبرر ولا موجب قط ان نتعرض للكلام عنه هنا ، اذ اننا سنجد ولا شك ، الملامح والسمات والصفات النوعية الاساسية التي طبعت وصبغت مناهج الاستعمارين البرتغالي والهولندي .

اوروبا والتجارة الآسيوية

أثر الاوروبيون على التجارة في آسيا تأثيراً كبيراً بما ادخلوا على الاقتصاد الهندي من معادن ثمينة وعملات مختلفة ازدادت رواجاً بصورة مطردة خلال القرن السادس عشر . ويقدر العالم الاقتصادي الانكليزي *De Mun* بمليون دوقاً ونصف المليون قيمة المبالغ التي كان الاوروبيون يصدرونها ، كل سنة الى الشرق ، وهي مبالغ زادت ثلاثة اضعاف منذ مطلع القرن السادس عشر ، ووصل قسم كبير من هذه العملات الى الهند . فقد احدثوا بعض التيارات التجارية ، ولا سيما الهولنديون منهم الذين روجوا بعض الاصناف بادخالهم لها في الهند وجزر الصوند كالحديد والفولاذ والاكياس والجلود والملح والقرميد ، ولا سيما الارز وبعض البقول وتجارة الرق ، اذ تراوح عدد الارقاء الذين كانوا يأخذونهم في السنة من ٥٠٠ — ١٠٠٠ رقيق ، معظمهم من الهنود الذين وقعوا فريسة الجوع ، في البنغال وسواحل الملابار . وقد مثلت هذه التجارة من حيث حجمها شيئاً زهيداً . فقد بلغت تجارة الهند الخارجية ، بعد السلطان اكبر ، وفقاً لتقديرات البعض ، بين ٢٤٠٠٠ — ٣٦٠٠٠ طن في السنة ، بينما بلغ معدل هذه التجارة ، في السنة ، بين ١٩١١ — ١٩١٤ ، نحواً من ٦٧٥٠٠٠٠ طن . والذي يبدو لنا ان الهولنديين والانكليز والفرنسيين تقاسموا ، فيما بينهم في القرن السابع عشر ، التجارة التي كان يقوم بها البرتغاليون دون ان يسجل المجموع زيادة ما

تذكر . قد يكون حدث بعض الزيادة ، بعد سنة ١٦٦٠ ، عقب ان اخذ البنغال بتصدير الحرير وبعد ان نشطت صناعة الموسلين في اوروبا ، وبعد ان اشتد الطلب على ملح البارود لتلبية حاجة الحروب التي قام بها لويس الرابع عشر . ففي ايلول ١٧٠١ ، لم تكن الشركة الانكليزية للهند لتملك سوى ١٤ سفينة في آسيا : واحدة في مخا و ٣ في كنتون ، وواحدة في أرموس ، وثلاثة على سواحل كورمانديل ، وسفينتان في صورات ، وسفينتان في البنغال ، وواحدة في بورنيو وواحدة في لمبو . وبلغت قيمة شحنة من البضائع الانكليزية ٧٥٬٠٠٠ ليرة استرلينية بينما بلغت قيمة البضائع الاجنبية المشحونة ، مع الفضة ٤٣٨٬٠٠٠ ليرة انكليزية ، وهو لعمري مبلغ زهيد .

والتجارة « في الهند ومع الهند » كانت تدر من الارباح على هذه الشركات اكثر مما تدره منها الحركة التجارية بين آسيا واوروبا. فلنأخذ مثلاً على ذلك، الشركة الهولندية للهند الشرقية. كان الهولنديون يحشدون ، في مدينة بتافيا ، كل البضائع التي يجمعونها من هذه البلدان الواقعة بين بلاد فارس واليابان ليتمكنوا من القيام بتدقيق حساباتهم العامة. وكانت الشركة تستقدم كل سنة ، الى بتافيا، دفاتر حساباتها في كل المراكز والوكالات التجارية التابعة لها لتقوم بعملية تدقيق المحاسبة العامة . وبعد ان تعد الشركة تقريراً عاماً عن اعمالها ونشاطها يقع في عدة اجزاء ، يجري ارساله ، سنة فسنة ، الى اوروبا ، على متن سفينة خاصة عرفت بـ « سفينة الشاي والدفاتر » . والحال فقد ثبت الآن ان هذا التقرير كان مزوراً ، بينما اسرار المحاسبة الصحيحة تبقى خفية لا يطلع عليها الا الراسخون في العلم . ويبدو ان الارباح كانت بالفعل زهيدة جداً خلال سنين عديدة . ولهذا قرر مديرو الشركة ان يوزعوا على المساهمين ، مرضاة لهم ، حصصاً وهمية ، بمعدل ١٠ ٪ . ولكي يقوموا بهذه العملية اقترضوا مراً ، في السنوات الثلاثين الاولى من تأسيس الشركة ، ١٠ ملايين جلدر في هولندا. وهكذا استطاعوا ان يحتفظوا ، في خزائنهم وصناديقهم في الشرق ، بمبالغ طائلة من النقد يستخدمونه في اغراضهم السياسية . وعندما ازاحوا بعد سنة ١٦٣٠ ، من طريقهم الانكليز والبرتغاليين ، بقوة السلاح ، اخذت تجارتهم من الهند ومع الهند ، تدر عليهم بالفعل ارباحاً طيبة . فقد سجلت اعمالهم التجارية ١٠١ مليون جلدر ، بين ١٦١٣ — ١٦٥٤ ، بلغت نفقاتهم ٧٦ مليون جلدر ، وبذلك حققوا ربحاً قدره ٢٥ مليون جلدر . ومن اصل هذه الملايين الخمسة والعشرين، ارسلت الشركة الى اوروبا ٩٬٧٠٠٬٠٠٠ واحتفظ بالباقي في الهند كمبلغ سائل يستثمر في النشاطات التجارية بين البلدان الآسيوية .

وهكذا يبدو لنا ان الارباح التي عادت على الوطن الام كانت جد متواضعة خلافاً لما ردده البعض . فالغنى الذي رفلت به البلاد الواطية ، في القرن السابع عشر ، لم يأت من تجارتها مع آسيا ، بل يجب رده بالاحرى الى الدور الذي لعبه الهولنديون كعملاء او وسطاء تجاريين بين اوروبا واميركا . ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على باقي الدول الاوروبية باستثناء البرتغال في مطلع القرن السادس عشر . فالحركة التجارية بين اوروبا وآسيا لم تكن ذات تأثير بالغ في

الاقتصاد الاوروبي ، والمبالغ التي جمدتها هذه الحركة كانت اقل من المبالغ المستثمرة في تجارة الحنطة في داخل الدول الاوروبية وبين هذه الدول ، بالرغم من انها محاصيل ثقيلة الوزن ، فالحركة التجارية القائمة على مبدأ « مع اوروبا وفي اوروبا » في الدرجة الاولى ، والتجارة بين اوروبا واميركا ، في الدرجة الثانية ، هي التي أغنت اوروبا .

والراجح هو ان « تجارة الهند مع الهند » عادت بالاكثر ، بالنفع على الآسيويين انفسهم . من الصعب ان نعرف الى اي مدى بلغ النقد وحافز المعادن الثمينة المستوردة في تأثيرهما على الصناعة والتجارة ، والمدى الذي بلغه هذا التأثير ، في تغيير وضع العامل والمزارع في الهند . لا شك ان كبار التجار من هنود وسكان الملايو وعجم افادوا كثيراً من المنافسة الحادة التي قامت بين الدول الاوروبية ، رفعوا معها من اسعارهم وعرفوا كيف يثروا بما عرف عنهم من مقدرة ومهارة دونها « مقدرة الشياطين » . ففي مدينة صورات ، رئس برجي بوراه ، بين ١٦١٩ — ١٦٦٥ ، ادارة اتحاد تجاري كان بوسعه ان يشتري وسق سفينة او اكثر كاملة وقد كان لهذا الاتحاد وكالات فرعية في احمد آباد واكرا و كولكوند وجاوا و كمبروم استمرت على نشاطها حتى عام ١٦٤٩ . وهؤلاء الاقوام من صيارفة وتجار من ملوك الهند وحكام الولايات الذين كانوا يفرضون رسوماً جمركية وينشؤن احتكارات على هذا الصنف او ذاك ، كانوا بالفعل ، اول من استفاد من نشاط الاوروبيين في تجارتهم مع آسيا .

الامبراطورية البرتغالية وكالة تبشير بالانجيل

جاء البرتغاليون الهند لينشروا فيها الدين المسيحي . فقد وجدوا فيها طائفة من النصارى بلغ عدد اتباعها نحواً من ١٥٠ الف من النساطرة اعتنقوا هذا المذهب على يد كهنة سريان ، وتوزعوا في المدن والقرى المتناثرة على سواحل الملابار وكورمانديل . وكان بطريرك الكلدان ، في بابل يمدهم بالاساقفة ، ولكي يستطيعوا البقاء في خضم البحر الهندوسي كان عليهم ان يؤلفوا هم انفسهم ، طبقة خاصة انطوت على نفسها لا تستطيع انتشاراً ولا توسعاً . والبراءات البابوية التي اصدرها البابا اسكندر السادس بعنوان *Inter Caetera* بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، والبابا جول الثاني بعنوان *Ex quae* بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦ ، اعترفت للبرتغاليين بحق الولاية على المحيط الهندي وعلى بحار الصين ، وخولتهم حق انشاء مطرانيات واسقفيات ، وتعيين اساقفة والاحتفاظ بحق التبشير بالانجيل الشريف . ولم يكن لاحد من رجال الاكليروس ان يأتي هذه الديار والمناطق التي تهب فيها الرياح الموسمية الا بأذن خاص من ملك البرتغال ، وبعد ان يعرج على لشبونة وغوا . وبعد فترة من التردد انشىء في غوا مركز لرئيس اساقفة امتدت ولايته من لشبونة الى اليابان ، كما انشىء فيها كاتدرائية ودير للرهبان الفرنسيسكان ، ومعهد اكليريكي كبير يأخذ على عاتقه إعداد الكهنة لعمل الكرازة والتبشير بين الهندوس . وليس من ينكر ان البرتغاليين قاموا بجهود جبارة في هذا المجال . فقد سمحوا بالمجيء الى الاقطار الآسيوية لعدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحماية

ومساعدة ، من اسبان وايطاليين وفلنكيين . فقد عدّوا في غوا وضواحيها اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ مسيحي بين الهنود . وكان في نحو ١٠٠ خياط يعملون في اعداد القمصان الجديدة للمعمدين الجدد . وعدت مدينة امبوان وحدها ، سنة ١٦٠٤ ، نحواً من ١٦،٠٠٠ نصراني ، وهو عدد ضئيل بالطبع اذا ما قيس بهذه الجماهير من سكان البلاد الوطنيين ، اقاموا ، على الغالب ، في ممتلكات البرتغاليين ، وكانوا بالاكثر من الطبقة المتوسطة الحال .

اساء البرتغاليون تفسير الآية القائلة : « دعوهم يدخلون » ، فراحوا يستعملون الشدة في حمل الوثنيين على اعتناق المسيحية . ومن جهة ثانية ، كان عدد الكهنة قليلاً ، ومع ذلك فكانوا يؤمنون ارتدادات بالجملة ، اذ كانوا يحشدون بضع آلاف من الوطنيين ويلقنونهم بضع كلمات ، مما يجب عليهم اعتقاده من قضايا الايمان . فمن رضي منهم ان يكونوا مسيحيين جرى تنصيرهم في الحال . وكان بينهم بالطبع مسيحيون لايعرفون قط ما يجب عليهم حفظه من الايمان الجديد ولا يعرفون صلاة : « ابانا » ولا « السلام عليك يامريم » ، ولا قانون الايمان . فليس من غريب قط ان يتخلوا بسرعة عن ايمانهم الجديد ليعودوا الى وثنيتهم الاولى او يمرقوا الى الاسلام . وقد شجع البرتغاليون الزواج بين مواطنيهم والهندوس وكانو يدفعون نحواً من ١٨،٠٠٠ غرش لكل اسرة جديدة ويقطعونها ارضاً . وهكذا اقبلت نساء كثيرات من بين الطبقات الدنيا على اعتناق المسيحية ، وتزوجن من برتغاليين . الا ان الطبقات العليا اردرت كثيراً بالمسيحية واغضت من جانب المسيحيين . وكثيراً ما خلط البرتغاليون بين عمليات التنصير وعملية تنصير الناس بطابع البرتغالية ، اذ كثيراً ما طلب المرسلون البرتغاليون من الموعظين الجدد ان يتخلوا عن نظامهم الطبقي وان يرتدوا الزي البرتغالي والتخاطب باللغة البرتغالية واكل اللحوم . واسلوب الارشاد المتبع والدعوة الى اعتناق الدين المسيحي لم يكن : « هل تحب ان تصير مسيحياً » بل « هل ترغب الدخول في طبقة البرتغاليين » ؟ ومن هنا هذا الكره للديانة المسيحية التي كانت ديانة المستعمرين من البرتغاليين العابثين بنظام الطبقات والمزدرين لها ، واكلة لحوم الثيران ، هذا الحيوان المقدس عند الهنود .

فامام هذا الفشل الذريع تصاب به عملية التبشير بالمسيحية ، راح الملك يوحنا الثالث يطلب من اغناطيوس ده لويولا ، كهنة ومبشرين يسوعيين . وفي ايار ١٥٤٢ ، وصل الى غوا حاملاً لقب سفير بابوي ، فرنسوا كسافييه .

القديس فرنسوا كسافييه

قام الآباء اليسوعيون بجهود كبير للتبشير بالانجيل ونشر المسيحية . ففرنسوا كسافييه الذي اعلنت قداسته فيما بعد ، كان اول من وضع في التربة ، الغرسات الاولى . فقد كان كريم الطلعة ، قريباً للقلب ، وقور المشية ، ثابت الخطى وئيدها ، صريحاً الى آخر حدود الصراحة ، شديد الحماسة والاندفاع ، تنفذ عبارته الى القلب توّاً بما تحمله من عاطفة نابضة وايمان حي وشعور متدفق . فليس من عجب ان يقدره الجميع

وان يكنوا له محبة خالصة . فقد كان فارساً ، ولذا كانت مقرراته تؤخذ بسرعة وتنفذ بحزم ، يلحظ بشدة جميع الانطباعات الجديدة ويقبل بجرأة ، على المشروعات التي لا تخلو من الخطر والمغامرة ، يبدو عليه القلق وقلة الاصطبار احياناً . فلم يبدل شيئاً من المبادىء الاساسية كالارتدادات بالجملة واستعمال الضغط والقوة . وطلب من نائب الملك استعمال السلاح ضد العصاة من امراء الهند وتمنى عليه لو يشكل جيشاً يهاجم مكة ويقلم اظافر الاسلام فيخفض من شأنه . والنجاح الذي اصابه يجب رده بالدرجة الاولى ، لصفاته الشخصية ولفقره وتواضعه ولهبته الصادقة وللمعجزات التي صنعها . حرص كل الحرص على ان يوفر للمرسلين ، تربة احسن بقيت مع ذلك ، دون المرتجى ، من التربة التي عمل فيها اوائل المرسلين . فقد كان رجاؤه الاكبر وتعويله الاول على نعمة العماد . قام في اواخر عام ١٥٤٢ ، بزيارة لقبائل برافير ومنها هذا الفريق من الغطاسين العاملين في صيد اللآلىء ، الى الشرق من رأس كومورين ، والذين وقعوا من عهد قريب ، تحت حماية البرتغاليين ، كان بينهم عدة الوف اصطبغوا بالعماد المسيحي . وراح فرنسوا كسافييه يطوف بين القرى والدساكر بصحبة بعض المترجمين ، ثم يأخذ بجمع الرجال والأولاد معاً على قرع الاجراس ، ثم يتلوا عليهم : « ابانا » و « السلام » و « أؤمن » ووصايا الله العشر . فمن آمن منهم ، امر بتعميدهم للحال . وكان يعهد الى بعض وجوه القوم بينهم ليعلموهم اهم قضايا الايمان ويفسروها لهم ويقوموا امامهم بالصلوات المعتادة . وكثيراً ما حمل معه ، في طريق عودته شباناً ليعدهم للكهنوت فينشىء بذلك اكليروساً وطنياً ويستأنف مسيرته الى ابعد . وفي ١٥٤٤ ، توفق الى تنصير بضعة آلاف من صيادي السمك على سواحل ترافنكور . ومنها واصل سعيه ورسالته التبشيرية الى ان وصل مالقا (١٥٤٥) وامبوان وترنات في جزر الملوسك ، واخيراً بلغ اليابان سنة ١٥٤٩ ، وتوفي عند مداخل الصين في ٢ كانون الاول ١٥٥٢ ، في جزيرة سنسيا الصغيرة على مقربة من غوا .

توجيهات الاب فالفنياني

بعد وفاة فرنسوا كسافييه ، اشرف على عملية نشر الرسالة والتبشير بالمسيحية والانجيل ، الاب فالفنياني ، احد ابناء الاسر الشريفة في نابولي ، بعد ان تعين زائراً على اديار الرهبنة ، في الشرق الاقصى ، فوصل غوا ، في ٦ ايلول ١٥٧٤ وبرفقته ٤١ راهباً يسوعياً ، فعمل على اتحاد المسيحيين وفقاً لارشاداته وتوجيهاته . فقد قدم المطران النسطوري ابراهيم إنغامال ، بالقرب من كوشين ، خضوعه للبابا وسمح للآباء اليسوعيين بالاقامة عنده . واستطاع فالفنياني ان يبني في فايبكوتا معهداً صغيراً يُعنى باعداد كهنة من ابناء البلاد ، بعد اعدادهم الاعداد الكافي يؤهلهم للقيام بعملية الرسالة في الهند . ثم طبع التعليم المسيحي الطبعة الملابارية . وفي مجمع ديامبور الاقليمي الذي عقد عام ١٥٩٧ ، اعلن الكهنة النسطوريون اعتناقهم للايمان الكاثوليكي . وقبلوا العمل تحت ولاية اسقف يسوعي .

فبدلاً من الانصراف لتبشير الطبقات الدنيا و « المنبوذين » امثال صيادي السمك ، راح

المرسلون يتوجهون من الملوك والاسياد وعليّة القوم ، نفاذاً منهم الى قلب الهند ، فقد أرسلت بعض الرسالات الى السلطان اكبر، عام ١٥٨٠ ، و١٥٩١ ، ولا سيا الرسالة التي وفدت عليه عام ١٥٩٤ . بقي السلطان اكبر لا يلين ، انما اصدر عام ١٦٠٠ ، امراً يجيز للمرسلين التبشير بالانجيل ، كتارك لرعاياه الحرية باعتناق المسيحية . وفي سنة ١٦٠٢ ، اسست اول كنيسة مسيحية في اكرا . وبعد اكرا ، رخص بعض الامراء لليسوعيين بانشاء رسالات تبشيرية ، في اماراتهم . وفي سنة ١٦١٠ ، كان تحت تصرف اليسوعيين ، معاهد ووكالات في معظم المدن الساحلية حيث كنا نجد اكثر من ١٦٩ كنيسة .وبلغ عدد المسيحيين ،خارج غوا ٢٧٠،٠٠٠ . كل هذه الجهود ادت مع ذلك ، الى فشل جديد ، في هذا المجال..

روبرت نوبلي وطقوس ملابار

لفت هذا الوضع المؤسف ، والفشل الذي انتهت اليه جهود المرسلين ، انظار كاهن يسوعي من نبلاء روما ، هو روبرت ده نوبلي المولود عام ١٥٧٧ ، الذي قدم ، عام ١٦٠٦ ، الى الهند الجنوبية ، الى مادوره . فقد فكر ، مدفوعاً الى ذلك بمثل الاب ماتيو رتشي في الصين ، بأن المسيحيين لم يبرهنوا عن ايمانهم الوطيد به وعن ثقتهم ولم يستجيبوا لجهوده الراميـة للاتحاد مع الله ، بعد ان ضللتهم التعابير الحلولية والاصطلاحات الهندوكية التي تتنزى بالكفر والالحاد والقول بتعدد الآلهة ، وانه من المناسب لذلك ، استخدام تعاليم الهندوكية نفسها بعد ان تستخلص منها ما يتفق والحقائق الدينية المسيحية ، وبعبارة اخرى رأى ان المطلوب ليس فقط إلباس الهندوكية ثوباً مسيحياً فضفاضاً وجعلها نسخة مشوهة عن الحضارة المسيحية او اضفاء روح المسيحية على المجتمع الهندي والنظم الهندوكية ، كما هي بعد التأليف بين الطبقات . المهم ، قبل كل شيء استمالة الطبقات العليا واكتساب عطفها وثقتها ، اي البراهمان والكهنة ، والباقي يتبع من نفسه او من تلقاء ذاته .

كان في مدينة مادوره اكثر من ١٠٠٠ طالب براهماني . فتقدم نوبلي منهم باعتباره راجا رومانيا يرغب في العيش في التقى والصلاة ودرس الشريعة الالهية . ولذا راح يعتمد شارات الـ *Kshatryas* او النبلاء المحاربين وهي علامة البراهمان ، كما حمل الـ *Koudoumi* او خصلة الشعر المتدلية من الرأس ، وهي تختلف حبكاً وضفراً واتجاهاً باختلاف الطبقات ، وارتدى بزة صفراء ، وهي تميز الساناياسي الذين كانوا يتجردون من كل شيء ، ويعرضون عن كل شيء .

واقام وحده في كوخ من الحشائش والاعشاب واخذ يقتات بالبقول ويشرب الماء القراح قاطعاً سحابة نهاره في التأمل . واذ ذاك جاءه البراهمان يزورونه في خلوته ، بعد ان سحرهم بنصاعة لغته وهي التامول ، وبالنصوص الكثيرة المستمدة من خيرة كتابهم ، ومن قصائدهم الوطنية التي كان يستشهد بها في مجال التحدث اليهم . فقد كان يعرف معرفة تامة كتب الفيدا

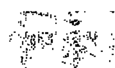

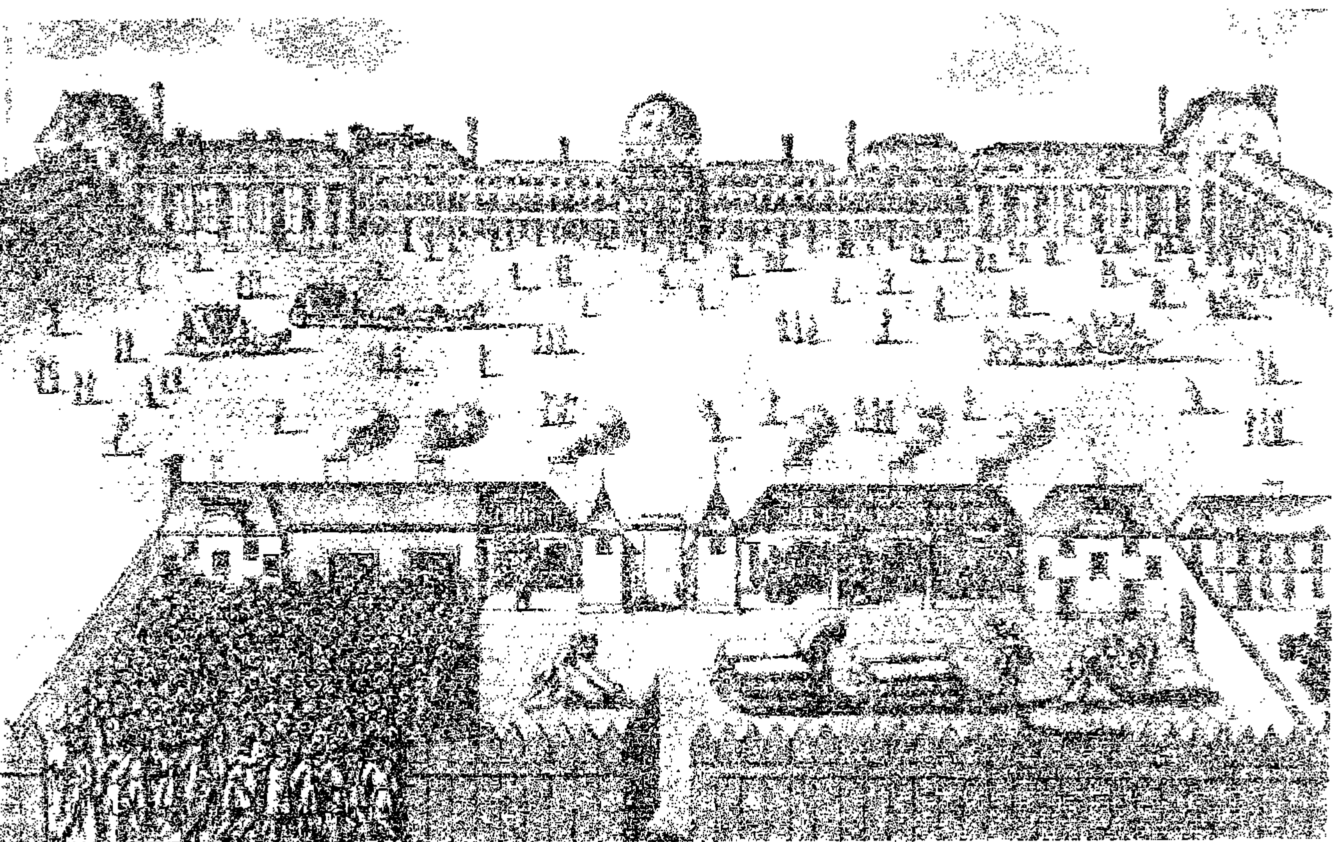

٣٤- توزيع الخبز على الجماهير في التويلري في السنة ١٦٦٢

٣٦ - زيارة لويس الرابع عشر للمرصد (١٦٦٤)

٣٩ ـ رأس شاب قبل اكتشاف كولومبوس لأمريكا مصدره المكسيك

٤١ - البرازيل في السنة ١٥١٩

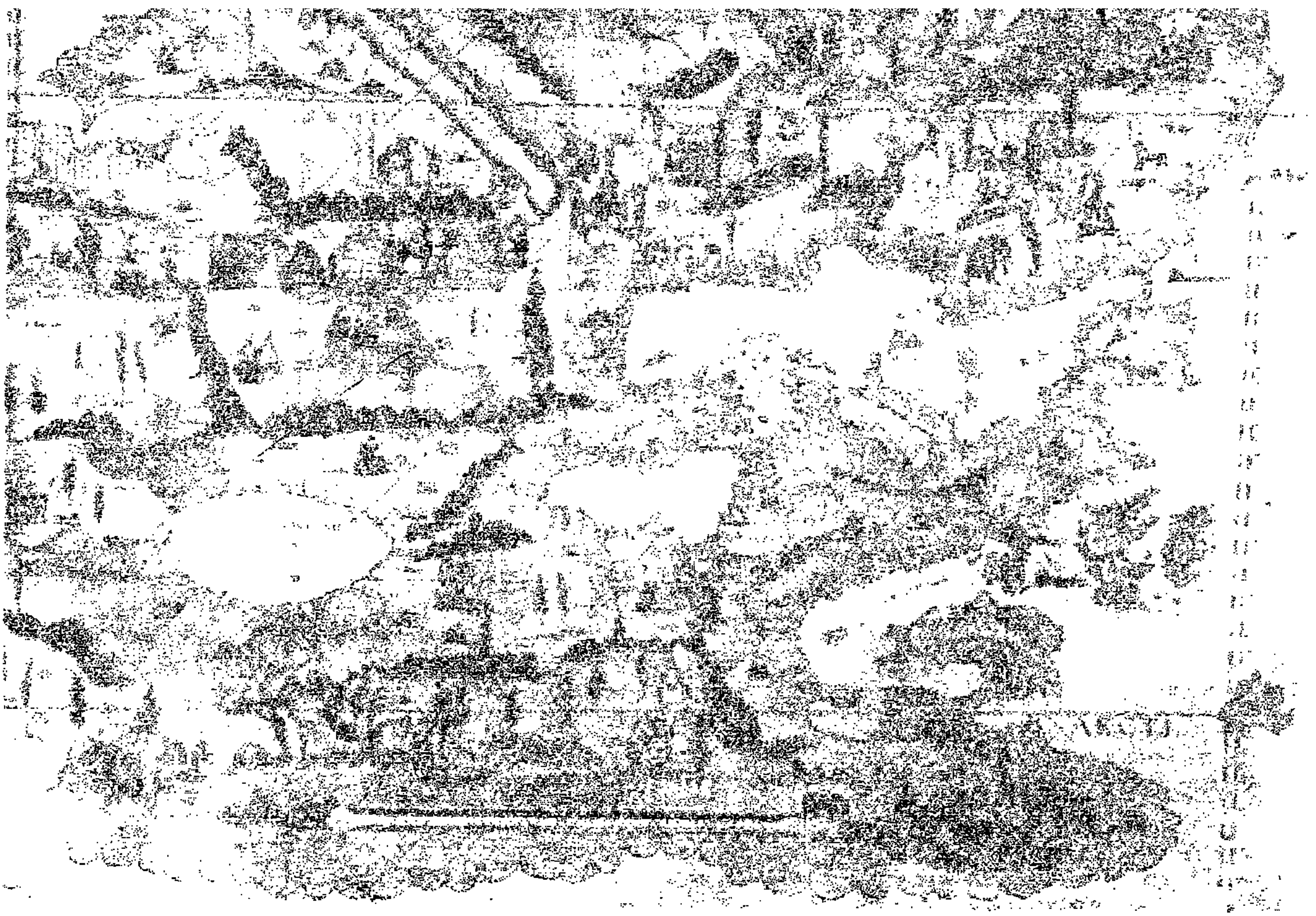

٤٢- جزء من خريطة العالم الملكية التي رسمت على رق غزال في السنة ١٥٤٢ بأمر فرنسوا الأول

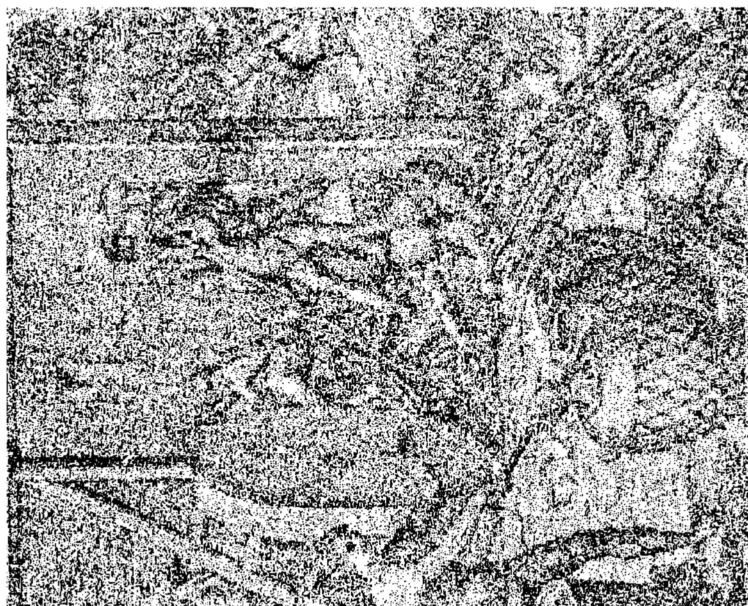

٤٤ - « ... هكذا تكلم زردشت . »

٥١ - عيد ملكي في حديقة فارسية

٤٦ - منظر طبيعي في أيام الشتاء

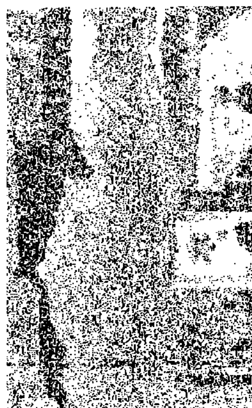

اذ كان سبق له ودرس اللغة السنسكريتية وكشف لهم عما في كتبهم المقدسة من شواهد وأدلة على المسيحية وصحتها . اعترف البراهمان به كواحد منهم وقبلوه رسمياً في مصافهم ، وهو امر يكاد لا يصدق ، اذ ان المرء يولد هندوسياً حسب الهندوكية المستقيمة الرأي ، ولا يصير المرء هندوكياً ، اي ان اي غريب يتمذهب بالهندوكية يبقى دوماً *mlechcha* ، ويحظر عليه درس الكتب المقدسة . وقد ألف نوبلي بلغة التاميل كتباً فيها الدليل على ان المسيحية هي تتمة الهندوكية . كذلك وضع اناشيد تقارب بمبناها ومعناها من الاناشيد التي تتغنى بآلهة الهند ، بحيث كان يتوجب على المدقق ان يتملى النظر ليتبين الفرق بينها . وقد احترم جداً مبدأ الطبقات . وكان يعمد البراهمان ويتركهم يحملون شاراتهم المميزة لطبقتهم الخاصة ، ويقومون بمراسم طقوسهم التي احب ان يرى فيها ليس مظهراً من مظاهر الصنمية بل مراسم اجتماعية ، وسياسية . ومن جهة اخرى ، كان نوبلي هذا البراهمان الذي يغار جداً على نقائه وطهارته ، يناول المسيحيين من طبقة ادنى ، القربان الاقدس برأس عصا صغيرة او يضع القربان امام عتبة بابهم .

استمر نوبلي على رسالته هذه حتى سنة ١٦٥٦ ، وحرص اخوته المرسلون العاملون معه في جنوبي الهند على تبني طريقته هذه وانتهاج نهجه . وهكذا رأينا يسوعيين براهمان بينهم دون جوان ده بريتو ، وكونستان بشي كما رأينا رهبان يسوعيين من ضمن طبقة المنبوذين ، امثال عمانوئيل لويس وغيره . فالبراهمان اليسوعيون كانوا يحملون على محفات ، ولا يؤدون التحية لاخوانهم من الآباء اليسوعيين في طبقة المنبوذين ، نصف العراة ، يخفي عورتهم مئزر حول حقويهم . وقد جاءت النتائج حرية بالملاحظة . ففي سنة ١٦٧٦ ، احصوا في مادوره ومقاطعة كرناتيك وميسور ، ٢٥٠،٠٠٠ هندي مسيحي كاثوليكي ، بينما كان صرف احد الآباء اليسوعيين ، قبل قدوم نوبلي ١٤ سنة في مادوره ، دون ان يسجل اي ارتداد للمسيحية . والجهد الذي قام به نوبلي وجد صداه الطيب واثره الجميل باصطباغ الهندوكية في مادوره بصباغ وحدة الالوهية والثنائية بعد ان تطورت فيها الى هذا الحد تحت تأثير النساطرة والمسلمين في هذه المنطقة .

أثارت هذه الاشياء المستجدة او المستحدثة في مناهج الرسالة المسيحية بين الهندوكيين هواجس رئيس اساقفة غوا واقلقت تفكيره . ولذا استدعى اليه الاب روبرت نوبلي للمثول امام محكمته . فحضر بزي براهمان مما اثار دهشة الجميع ورفع المطران القضية للكرسي الرسولي ، فاصدر البابا غريغوريوس الخامس عشر امره للمطران بالتوقف عن ملاحقة نوبلي وعدم مضايقته ، وسمح له باستعمال « الطقوس الملابارية » بصورة موقتة ، اشفاقاً على الضعف البشري (٣١ كانون الثاني ١٦٢٣) . اما الفرنسيسكان ، فقد رأوا من جهتهم ، في هذه الطقوس شيئاً مخالفاً للمحبة المسيحية ، اذ ان المسيح قد حرر المسيحيين من التقيد بمراسم التطهير الخارجية التي تؤلف مخالفة لعبادة الاله الحقيقي ، بعد ان اختلطت اختلاطاً بالطقوس الوثنية يصعب التفريق

بينها . وهكذا عادوا من جديد لبحث : « الطقوس الملابارية » . فصدر عام ١٦٤٥، و ١٦٤٩ قرارات بابوية بشجب هذه الطقوس ، كما شجبت الطقوس الصينية . ولم يتقيد الآباء اليسوعيون بمنطوق هذه القرارات بدعوى ان البابا اتخذ قراره هذا في نطاق الاسباب المرجحة التي تبدت له. فالرأي المبني على المرجح لا ينفي ان يكون عكسه ، له ايضاً ما يجعله مرجحاً . وهكذا فلم يحدث ما يزعج الارساليات او يشوش عليها العمل . الا ان الآباء الكبوشيين شكوا اليسوعيين عام ١٧٠٤ ، بانهم يتساهلون مع خرافات خطرة . ففي طريقه الى الصين ، توقف المطران تورنون الذي كان ممثلاً للبابا في مدينة بونديشري ، واصدر في ٢٣ ايار ١٧٠٤ ، حكماً مطلقاً ضد الطقوس الملابارية وسياسة مراعاة اليسوعيين لنظام الطبقات في الهند . ثم اصدر الديوان المقدس (١٧٠٦) كما اصدر البابا إقليمس الحادي عشر عام (١٧١٢) براءة ارغم فيها اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بندكتوس الرابع عشر، صدرت عام ١٧٤٥ .

قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية وفشل عملية التبشير بالانجيل

مهما تكن النتائج التي تمت على يد نوبلي وتلاميذه ، فما عسى ان تكون لبضع مئات الألوف من الهنود المتنصرين من قيمة بالنسبة لهؤلاء الهندوس الذين يعدون مائة مليون . ولعل الصعوبة الكبرى والعقبة الكأداء التي اعترضت رسالة المبشرين بالانجيل هي في هذا الشبه الكبيرين المسيحية والهندوكية .فالمرء الذي يكرس ذاته كاملا لله بحيث اصبح *Ishta deva* والذي جعل من الله مسرته وسعادته ليتخلص ويتطهر من ادران الـ *karma* ،واصبح في منجى من سلسلة التقمصات المتصلة الحلقات ، وتم اتحاده بالله الى الابد ، مثل هذا الانسان لم يعد ليشعر بحاجة للمسيح . فكيف لا يشعر من اعماق قلبه بالرضى والارتياح هذا الانسان الذي تم له مثل هذا الحنان ومثل هذا الحب الالهي ، والذي كان يصرخ مترنماً في القرن السابع عشر، في هيكل فكنو بالعناية الالهية قائلاً :

« ليس في الكون مكان ما ولو كان بقدر حبة خردل ، لا يمتلىء بالله . فعظمة الله فوق كل بحث وابعد من ان تدرك . فكيف تستطيع عقولنا ان تتسع لهذا الخالق الذي يشرق بنوره على الشمس والقمر ؟ » .

« هذا هو إلهنا ، هو الروح من ارواحنا . كل شيء فينا او من حولنا يحدث باسمه ويذيع مجده . الله اله الرحمة والحنان والعطف ، الاله الذي يشبع رغائبنا ، الاله الذي يحمينا ويحنو علينا » . هذا الاله ، اله المحبة ، لا سبيل اليه الا بالمحبة وفي المحبة . فهو يسمو بكثير فوق ادراكنا وافكارنا ، وفوق كل كلمة وتعبير بشري . فليس له من قياس غير قياس الحب والادراك » .

واي ايمان يمكن لهذه الألوف من القرويين ومن الحجاج ان يشعروا بحاجتهم اليه ، هؤلاء الذين تعمر صدورهم بالهتاف فينشدون غيباً هذه الاناشيد والترانيم التي وضعها تاكا — راماء عام ١٦٠٠ احد تجار الحبوب ، في بوتنا ، في مقاطعة المهرات .

« التمس رحمتك ، باكياً ، منتحباً كمن ضل سبيله وتاه عن الطريق . فسرت متكئاً على عكازي ، من باب الى باب الى ان اعياني السير ، فلم اجد احداً يواسيني او يجبر نفسي الكسيرة ، لم اجد احداً ينقذني من اوصاب هذه الحياة الفانية ... مات ابي وعيناه مسمرتان عليك ، يا رجائي وهكذا فعل جدي وجده من قبل ... فطاردتني وحدتي ورجولتي طاردتني ودفعتني فاذا بي امامك . اما انت ، فانت اليوم الى الابد ، انت الذي لا تبدلك الايام ولا تحيلك الدهور ، انت انت مهما امتد الزمن . ليس من يقف او من يجرؤ على الوقوف امامك ... كيف السبيل اليك والتعرف عليك ؟ يا اخي ! تعرف عليه بالفكر ، بالتأمل من اعماق روحك . سر في اثره كما يسير الصياد الماهر في اثر طريدته » .

وهكذا فشلت اوروبا كما فشل الاسلام ، من قبل في تبديل عالم الهند .

الفصل الثالث

العالم الصيني وأوروبا

١ ـــ الصين واليابان

الصين

انكماش الصين وانطوائها على نفسها

يمثل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، عصر انحطاط دولة منغ ، واستبدالها ، عام ١٦٤٤ ، بدولة جديدة ، بربرية من منشوريا ، هي دولة تسنغ . عاشت الصين ، هذه الحقبة ، منطوية على نفسها . فالثورة التي ادت عام ١٣٨٦ الى طرد الدولة المغولية : يوان وحلول دولة منغ محلها ، كانت اشبه ما تكون بردة فعل انعكاسية قام بها الصينيون ضد البرابرة . فقد حملت هذه اليقظة الوطنية معها نتائج طبيعية لم تلبث ان ظهرت بوضوح . فقد اعرب الصينيون عن رغبتهم بالعودة الى ماضيهم السابق ، الى تقاليدهم المرعية ، بعد ان علمتهم الايام ان يكونوا حذرين جداً ، يقظين من العالم الخارجي . وعندما التقت هذه النزعة مع الوهن الذي تمكن من جسم اباطرة الصين الذين استسلموا للحياة الدعة والرفاه في بلاط عامر باللذات ، والاستكانة الى الحريم ، حصلت الردة الصينية . ففي سنة ١٤٣١ ، قامت آخر حملة صينية استهدفت شواطىء الجزيرة العربية ومضيق ارموز ، وراحوا لآخر مرة ، يطالبون ملوك جاوا وصومطرة وسيلان والملابار ، بدفع الجزية . والقرارات التي صدرت عام ١٤٤٣ و١٤٤٩ و١٤٥٢ ، حظرت على الصينيين مغادرة المياه الصينية . وفي سنة ١٤٥٩ ظهرت السفن الصينية ، لآخر مرة ، في مياه كوشين . وفي سنة ١٤٥٣ ، توقف الصينيون ، لآخر مرة ، عن الاهتمام بشؤون المغول . ومنذ ذلك الحين ، انكفأوا على انفسهم وانطووا على ذواتهم ، فقبعوا داخل سورهم ينصرفون للتأمل والتجريد .

تكاثر السكان

بالرغم من رغبتهم بالمحافظة على عدم الاتيان باي حركة ، نشهد وقوع تغييرات مهمة في انظمتهم الاقتصادية والاجتماعية،وهي تغييرات اقل بروزاً للعين من الاحداث السياسية والدسائس التي عمر بها البلاط الامبراطوري . فقد اخذ عدد السكان بالازدياد والارتفاع . وبلغ عـدد سكان الصين ، عام ١٥٠٢ ، نحواً من ٥٣،٢٨٠،٠٠٠ نسمة ، فارتفع هذا العدد ، عام ١٥٧٨ ، الى ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ ، ليتجاوز ، عام ١٦٦٢ ، مائة مليون . فقد بلغ من اكتظاظ البلاد بالاولاد ما حمل بعض الاوروبيين على التندر متسائلين ، ما اذا كانت الصينيات يلدن كل شهر او يضمن خمسة توائم دفعة واحدة ، وفي هذا دليل على ان نسبة المواليد لدى الصينيين كانت تفوق نسبتهم لدى الاوروبيين ، بحيث بلغت ٦٠ في الألف . مع العلم ان نسبة الوفيات بين الاولاد لم تكن لتقل عن ٥٠ ٪ في السنة ، ومهما يكن ، فقد أثار هذا النمو مشكلة الغذاء . هل ان توطين نباتات غذائية جديدة كان الباعث الاول على ازدياد عدد السكان، ام انه جاء نتيجة لها ؟ فقد دخلت زراعة الذرة الصفراء عام ١٥٥٠ إلى مكة على يد مغاربة من عرب الاندلس ، ومنها دخلت الصين على يد حجاج صينيين . وللحال اخذ الصينيون بزراعته على نطاق واسع . وفي آخر عهد دولة المنغ كانت زراعة الذرة تسير على قدم المساواة مع زراعة الذرة البيضاء (الدخن) والقمح ، كذلك ظهرت زراعة البطاطا الحلوة عام ١٥٩٠ ، بعد ان دخلت زراعتها الفليبين مع الاسبان ، ومنها امتدت الى الصين على يد تجار صينيين من فو ــ كيان . وقد حلت زراعتها في اواخر القرن السابع عشر في كل مكان واستعملت لها على الاخص التربة الرملية . كذلك انتشرت زراعة الحمص بانواعه والبازلا ، وهي مادة لها اهميتها، ليس لما فيها من مادة ازوتية متممة للحبوب فحسب ، بل ايضاً لاستعمالها سماداً ازوتياً لاخصاب التربة الفقيرة .

عرف الصينيون ان يفيدوا ، الى اقصى حد من موقعهم الجغرافي الممتاز الممتد بين درجة ٢٠ ــ ٤٠ مـن خط العرض الشمالي ، وما يوفره لها هذا الموقع المؤاتي من فصول زراعية تمتد طويلاً ، وامطار غزيرة ، في الصيف ، اي في هذه الفترة من السنة التي تكثر المحاصيل والغلال الزراعية التي تتطلب من ٣٠٠ ــ ٦٠٠ طن من المياه لكل طن من الغلال حتى تبلغ حد النضج . وبفضـل مقادير هائلة من الاسمدة والمخصبات الزراعية كطمي القنوات وروث الحيوانات ، ورجيع الناس الممزوج بالتراب المجفف الناعم ليذر على وجه التربة ، والدمال الاخضر المستمد من المواد العضوية في الغابات والأحراج ، يفرشونه على التربة بعـد اختماره ، استطاعوا ان يحصلوا على عدة مواسم في السنة ، من الحقل الواحد في اثر الآخر ، او تقريباً في الوقت ذاته : اغراس على سطور متوازية ، وغلال صالحة للحصاد بينها غلة قريبة القطاف ، وأخرى آخـذة بالنمو والنضج . وقد تمكنوا من الحصول على موسمين من الارز ، من الحقل الواحد ، في السنة ، في مقاطعة تشي ــ كيانغ ، بعد موسم القمح او الشعير او الذرة او الكولزا او القاصولياء ، وموسم أرز وقطن ، في مقاطعة تشان ــ تونغ ، وموسم قمح او شعير في الربيع ، وآخر من الذرة الصفراء او البيضاء او بطاطس حلوة او حمص في الصيف ، بقطع النظر عن مواسم فرعية

اخرى كالملفوف والبصل والفجل ، ومع ذلك فلم تكن هذه المحاصيل والغلال الزراعية لتفي بحاجة السكان الغذائية بعد هذا الارتفاع في عدد السكان . ومن جهة ثانية ، هبطت مساحة الارض الزراعية من جراء الاضطرابات والحروب القائمة، من ٧٬٠١٣٬٧٩٦ كتنغ (٤٢٬٠٨٢٬٧٧٦ هكتاراً) ، سنة ١٥٧٨ ، الى ٥٬٣١١٬٣٥٨ كتنغ (٣١٬٨٦٨٬١٤٨ هكتاراً) سنة ١٦٦٠ . اما المعدل العام بالنسبة للسكان فكان طبيعياً عام ١٥٧٨ ، اذ كان يقتضي ٧٠ *meau* (٤٬٨٠ هكتار) لتأمين أود اسرة . اما في سنة ١٦٦٠ ، فقد كانت مساحة الارض الزراعية لا تفي بحاجة الاهلين الغذائية . ولذا كانت البلاد تتعرض ، دورياً ، لتفشي المجاعة والكثير من الازمات والهزات السياسية والاجتماعية . وهكذا نرى ان الاوضاع التي صارت اليها امور التغذية والاعاشة ساءت جداً في عهد دولة المنغ .

ازدهار البورجوازية

نلاحظ ظهور طبقة كبيرة من البورجوازية ، تألف معظمها من التجار ورجال المال والاعمال ، دون ان تتبين بوضوح الحوافز التي بعثت على ذلك : فهل يجب رد هذه الظاهرة ، يا ترى ، الى هذا النشاط الملحوظ الذي رافق زراعة القطن والاتجار به منذ ان راح ملوك دولة المنغ يكرهون الفلاحين للانصراف الى زراعة القطن ، بعد النجاح الذي حققته هذه الزراعة منذ اواخر القرن الخامس عشر ؟ ام يجب رد ذلك الى ازدياد النشاط في حركة التصدير الى الاقطار المجاورة ، كالفيليبين واليابان وجزر الصوند الواقعة وسطاً، بين الصين واوروبا ، او ان نمو البورجوازية جاء نتيجة لقدوم الاوروبيين الى الشرق الاقصى ؟ ومهما يكن من الامر ، فالبورجوازية الجديدة اخذت توجه ابناءها نحو الامتحانات الرسمية ، منافسة بذلك اولاد الاقطاعيين بعد ان كانت وقفاً عليهم وحدهم دون سواهم . فقد سبق لملوك المنغ ان نظموا مناهج الدروس وضبطوا طريقة الاخذ بالامتحانات . فقد كان الولد يعطى ، وهو في السادسة من عمره ، دروساً تمهيدية في تاريخ الادب ومجاريه الكبرى عبر تاريخ البلاد ، ثم يقضي من ٤ — ٥ سنوات في تعلم القراءة والكتابة والمنتقيات الادبية ، نثراً وشعراً عن ظهر قلبه ، فيتدرب على الخط والانشاء ونظم الشعر وقرض القصائد . واذ ذاك يتقدم للامتحان الرسمي ، فيقضي المرشحون يوماً وليلة في محل منعزل، يعالجون موضوعين يعينان لهم وينظمون قصيدة في موضوع مقترح عليهم . اما معدل النجاح فكان بنسبة ١ ٪ . اما الناجحون بالامتحان فكانوا يعفون من دفع الضرائب ومن العقوبات الجسدية ، ويصبح في مقدورهم ان يتقدموا، عندما يبلغون السن القانونية التي تخولهم العمل في دوائر الحكومة ، لطلب وظيفة في خدمة الدولة ، في دائرة من الدوائر المحلية . اما من رغب بينهم بمتابعة تحصيلهم ، كان بامكانهم ان يقضوا ثلاث سنوات في احدى الاكاديميات الاقليمية . واذ ذاك ، يصبح في مقدورهم ، التقدم للامتحان الثاني ، فيقضون ثلاث دورات تستمر الواحدة ثلاثة ايام . في الاولى ، يطلب اليهم معالجة ثلاثة مواضيع ادبية وان ينظموا ثماني قصائد ، وفي الثانية ، يعالجون خمسة مواضيع تتعلق بالادب الاتباعي ومشاهير رجاله ، وفي الثالثة يعالجون كتابة خمسة مواضيع تتعلق بامور الحكم وفن

الادارة ، مع تأييد آرائهم بالحجج والشواهد التاريخية الدامغة . فمن منهم كان يطمح للمراكز والوظائف العليا ، كان بإمكانه ان يدرس ثلاث سنوات اخرى ، ثم يتقدم لامتحانات نهائية تجري في القصر الامبراطوري نفسه ، في بكين ، حيث يطلب اليه معالجة موضوع يتعلق بقضية سياسية اجتماعية ، او بمشكلة وطنية كالري والزراعة ، والاستعمار والنقد ، والجيش والتربية . فمن يرغب في خدمة الجيش الامبراطوري اجتاز امتحاناً اكثر تبسيطاً واقل تعقيداً اذ كان يطلب منه معرفة اهم المصادر والمراجع التي تتعلق بفنون الحرب ، والرمي بالقوس ، ورفع الاثقال والاحمال الباهظة ، واستعمال السيوف الكبيرة . اما الموظفون الذين كانوا في خدمة الدولة عام ١٤٦٩ ، فقد بلغ عددهم نحواً من ١٠٠،٠٠٠ موظف مدني ، و ٨٠،٠٠٠ ضابط في الجيش .

كانت تكاليف الدرس والامتحانات عالية باهظة . ففي عام ١٥٤٧ ، كان يترتب على من يتقدم للامتحان النهائي ، دفع ٦٠٠ *taels* من الفضة ، كما كان عليه ان يبقى فترة طويلة لينتظر دوره في التعيين . ولم يكن المرشح لوظيفة يؤمن تعيينه الا بعد ان يتكبد مبالغ طائلة تذهب هدايا سنية يتوجب عليه تقديمها للخصيان او لمن بيدهم الحل والربط . اما المرتبات فكانت جد ضئيلة ، كما ان الموظفين الذين طلعوا من الطبقات البورجوازية كانوا يحاولون جهدهم لاسترداد ما دفعوه تسديداً منهم لديونهم . وكانت الرشوة ضاربة اطنابها بين الموظفين ، وتؤلف عورة من العورات التي شانت عهد دولة المنغ . وكانت المبالغ المقتطعة من ايراد الطبقة المنتجة ، باهظة للغاية .

بعد هذا ، هل يمكن لنا ان نرد المميزات التي اصطبغ بها الادب والفن ، في عهد المنغ ، لطلوع الطبقة البورجوازية ؟ فالرواية والرواية الاجتماعية ، هي التي طبعت الانتاج الادبي ، اذ ذاك ، بينما اخذ الشعر بالانحطاط والتدهور . فالكاتب الصيني ونغ – تاو – كوين ، ترك لنا عام ١٥٥٠ ، صورة للانحطاط الذي كانت عليه الادرة ، اذ ذاك ، وذلك في كتابه : « على شواطىء النهر » ، كما اننا نرى الكاتب الصيني دون – تشانغ – إن ، يسخر في كتابه الموسوم : « الحج الى الغرب » من الطبقات ويهزأ بهذه الملل والنحل الدينية . ومن جهة اخرى ، نرى تزدهر في البلاد فن الرواية التي تعالج البطوله وفن المسرحية . هل يجوز بعد هذا ، ان نرد الهبوط او الانحدار في النوع او الكيف ، وضعف النشاط الخلاق ، والميل للتقليد والمحاكاة ، وما هو فارغ اجوف ، الى حركة التصدير الناشطة التي تناولت مصنوعات القيشاني والعاج والحلي ، الى بلدان كوريا واليابان والفيليبين واندونيسيا ، او الى هذه النزعة القديمة للتقليد والاعراق ؟ هل يجب ان نرد الى التطور المظيم الذي تم للطبقة البورجوازية ، او لتقليد الاوروبيين ، هذا الاهتمام الشديد الذي يبديه المثقفون ورجال الفكر ، نحو الدرس وتحصيل المعارف العملية والتطبيقية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، وفي خضم هذه الاضطرابات ، عندما استطاع الرحالة الجغرافي الكبير هاو – هانغ – تسو (١٥٨٥-١٦٤٣) الكشف عن منابع

نهر البانفتسي الاصلية – وعندما تمكن من وضع الحد بين نهري سالوين والميكونغ ، كما استطاع رسامون فنانون مهرة ، وضع خريطة دقيقة للصين ، او عندما امكن نشر بعض موسوعات عام ١٦٠٩ و ١٦٢٨ ، و ١٦٣٧ ، ولا سيما الموسوعة المعروفة بينهـــا بعنوان : *Tien kung K'ainru* التي وضعها سونغ – ينغ – هسنغ ، وهي عبارة عن معجم للحرف والمهن والصنائع ، وعندما استطاع ماينغ – تسو ، عام ١٦١٥ اختصار الابجدية الصينية وتخفيض عدد علاماتها او حروفها من ٥٤٤ حرفاً الى ٢١٤ ؟

فلسفة وانغ – يانغ – منغ في وجه الكونفوشية الشهوية

ولد وانغ – يانغ – منغ في ٢١ تشرين الاول ١٤٧٢ ، على مقربة من مدينة ننغ – بو ، من اعمال ولاية تشاي – كيانغ . فقد كان ابناً لاحد كبار ممثلي الثقافة في الصين ، عمـــل وزيراً وتولى وزارة الداخلية . اجتاز هذا الصبي بنجاح كل الامتحانات المفروضة ودخل موظفاً في الادارة . تاق وهو حدث ، للكمال الخلقي والادبي ، ولذا راح يدرس البوذية والطاوية ، وعزف عن العالم وزهد ، وراح يسكن في غار . ولم يلبث ان وجد حياة الرهبان البوذيين والطاويين النسكية مخالفة للطبيعة البشرية ، متعارضة ، تماماً مع واجبـات الانسان الاجتماعية . فعاد من جديـــد الى الكونفوشية ، حوالي ١٥٠٢ – ١٥٠٤ ، وعين رئيس قلم في المحكمة الحربية ببكين . غير انـه لم يجد في الكونفوشية سوى الجمود والصقيع وخساسة المادة . فالتعليم الرسمي الذي اعتمدته دولة المنغ وكرسته الامتحانات الرسمية ، لم يكن سوى التفسير المادي او الوضعي للكونفوشية ، كما خرج من يد تشو – هي (١١٣٠ – ١٢٠٠) ، في عهد دولة السونغ ، فأبت دولـة المنغ العودة اليه ، لان ظهوره سبق ظهور الـ *Yuans* ففي تعاليم تشو – هي ان وو – كي الكائن بالقوة صدر عن تاي – كي الطاهر ، النقي ، الابدي ، الازلي ، السرمدي ، المطلق الوجود ، والكلي الحضور ، السامي الفضائل ، الكلي الحكمة . فحكمة الحكماء وفضيلة الاولياء مما من بعض فيض حكمتـه وفضيلته الساميتين . ولكن هذا الاله تاي – كي ، ليس قط باله شخصي او فردي ، فهو ليس بعناية الهية ، فهو اصل او مبدأ ، يكوّن وحدة مع المادة ، فهو يوجه المادة عن طريق لي ويوليها ما هي عليه من نواميس طبيعية وما لها من قاعدة تسير بموجبها . يبعث لي النشاط في كي (المادة) ويوليها نسمة شبيهة بكتلة غازية ، هوائية الشكل ، هذا الجوهر اللطيف للغاية . وبالتفاعل المتبادل بين هذين العنصرين : ين ، عنصر التركيز ، ويانغ ، عنصر الامتداد ، يتم خلق كل الكائنات . فالعناصر التي لا يمكن مسها او لمسها في كي ، تتكتل عماء الذي يستحيل بدوره كوناً ، محوره الثابت في الارض التي لا تتحرك ، يضم مع الارض السماوات والشموس والنجوم والبشر . وبعد ان يبلغ الكون تمامه وكماله يتفتت وينحل ليعود من جديد عماء ثم يستحيل الى كي . وهذان العنصران : كي ولي ، اللذان لا ينفصم الواحد منهما عن الآخر يعودان الى تاي – كي وهذا يعود بدوره الى وو – كي وهكذا يعيد الوجود دورتـه الى ما لا نهاية له . فنحن امام كوسمولوجيا خالدة ، ابدية تطورية ، خاضعة دومـــاً لناموس

التكرار الابدي .

للانسان روحان : احداهما شعورية ، مادية ، حساسة ، تعود عند الموت الى الارض . اما الثانية ، فهي الروح العاملة ، المدركة تمتزج عند الموت بالهيولى اللطيفة التي تتألف منها السماء . فليس من خلود فردي . فالحكيم يموت كلياً . هو يجد في هذه الحياة سعادته اذا ما عرف ان يستجيب للناموس الادبي . ولذا ترتب عليه الاتصال بالكائنات والتلاقي معها « ليطور معارفه وينمي افكاره » ، « ويقوّم قلبه » ، « ولا يروض جسده » . وعلى مثال الانسان وشاكلته ، يجب ان يسود الانسجام والتناغي المجتمع والعالم . فالعالم الاصغر هو صورة مصغرة للعالم الاكبر . فالتكامل الذاتي يولد الادارة الرشيدة في الاسرة ، في الدولة ، في الكون كله ، وهو الذي يخلق الدقة والانضباط بين فصول السنة ، ويؤمن للارض الغلال الطيبة والمحاصيل الوافرة ، ويولي الانهر والسواقي ما هي عليه من نظام وحكمة . وقد عنى تشو – هي بعبارته « ادراك الكائنات » « النظر ملياً في كائنات هذا الوجود ، والتبصر فيها بانعام نظر ودقة بصر » وبعبارة اخرى ، الوصول الى معرفة ، عميقة صحيحة ، قبل « تنقية افكارنا وتخليصها مما يشوبها » ، قبل القيام باي مجهود ادبي ، لان الحقيقة الادبية التي يجب ان تكون قاعدة السلوك هي خارجة عنا . علينا ان نتبين الحقائق الادبية ، في المجرد ، قبل كل شيء ، ثم نأخذ بتطبيقها وممارستها في انفسنا . وهذه المعرفة الكاملة، المعرفة لا يمكن ان تتوفر فينا او تتم لنا الا بدرس كتب الكمال والاطلاع على كل ما جاء به الاقدمون من شروح وابحاث . »

يبدو لنا ان فلسفة تشو – هي كانت فلسفة ارستوقراطية . فهو يوجه كلامه وتعاليمه للمستنيرين اي للمثقفين ، وبكلمة كال ، انما قصد الكمال الذي لا بد منه لمن يضطلعون بمسؤولية الامور العامة . وهي فلسفة مرزحة مُقعدة ، تسبب الشلل لمن يتقبلها ، طالما تلزمه بالتعويل على كتب الاقدمين كما كانت ، من جهة اخرى ، مثبطة للعزم . ان اشتراط المعرفة الكاملة لبلوغ الكمال الادبي وادراكه ، عملية مربكة ،معجزة، اذ يجعل هذا الكمال صعب التناول ، لا يدرك ولا يبلغ اليه . ولذا أعرض المفكرون عن هذه الفلسفة ورغبوا عنها وزهدوا بها وهزئوا من كل من يحاول الاخذ بها ووضعها موضع التحييز ، وراحوا يستسلمون لغرائز النفس البشرية . ويأخذ وانغ – يانغ – منغ بتصويرهم لنا قائلا : « مجموعة محفوظاتهم الكتابية تجعلهم يتيهون كبراً ، ووفرة معلوماتهم ومعارفهم تزيدهم سوءاً وشراً ، وكثرة ما يحملون من فوائد تحملهم على الثرثرة ، وجمال الاسلوب الذي تم لهم يذهب في ترويق اكاذيبهم وتُرّهاتهم » .

وجه وانغ – يانغ – منغ ، عام ١٥٠٦ ، بعض انتقادات الامبراطور او – تسونغ مما حمل ليو – كين ، احد خصيان الملك ومن اقرب الناس اليه ، على الحكم عليه بالجلد ٤٠ جلدة وامر بزجه في غياهب السجن سنة كاملة ، ثم ارسله مأموراً في شعبة بريد في لونغ – تشانغ من اعمال

ولاية كوي – تشايو ، وهي ولاية تسرح فيها قبائل مياؤس نصف المتمدنين . وهنـــاك اضطر وانغ ان يبني له بنفسه كوخاً من الآجر، وان يزرع بنفسه بعض البعول . وقد جاءه الهاتف ، في

الشكل ٢٢ ـ الصين في عهد المنغ والتسنغ

احدى الليالي وافاض عليه من انواره وتعاليمه . أعيد وانغ الى البلاط بعد ان اصدر الامبراطور حكمـه على ليو – كين بالاعدام واستأنف عمله في وظيفته كالمعتاد . تمكن عام ١٥١٩ من ان يخمد فتنة قام بها احد الامراء في مقاطعة كيانغ – سي ، استهدف بعدها للدسائس والمؤامرات

وسوء المعاملة ، كما تعرض لسيل من الاهانات والافتراءات الذميمة بحيث اصبحت حياته اسوأ بكثير مما كانت في سونغ – تشانغ . واذ ذاك توصل للكشف عن محور فلسفته الا وهو الادراك العقلي او الاكتناه *Liang tche* ، وذلك سنة ١٥٢١ ، ومات سنة ١٥٢٩ . فلم يترك لنا كتباً ، انما سلك نهجاً روحياً تجلى بوضوح في رسائله الكثيرة واحاديثه . وقد ظهرت الاولى مطبوعة ، عام ١٥١٨ ، كما ظهرت طبعة كاملة لآثاره ، سنة ١٥٧٢ .

وهكذا نرى ان وانغ – يانغ – منغ ليس فيلسوفاً بالمعنى الحصري – يبحث في ما وراء الطبيعة والوجود ، انما هو رجل عملي ، استمد فلسفته من تجاربه الشخصية ومن تصرفه .

فهو يقف من الادبيات موقفاً مضاداً لتشو – هي ، ويرد كل شيء الى الاكتناه الشخصي . فالقاعدة او *Norme* هي في قلب كل منا « فالقلب هو القانون السماوي الذي لا ينقصه شيء » . ففي نظره كما في نظر باسكال ، القلب هو الانا باعتباره شخصاً مفكراً ، هو الفرد . فالقانون او القاعدة هو شيء متميز عن الكائن الخارجي ، فهو ملازم لعملية التفكير نفسه . « فادراك الكائنات » لا يقوم في رصد كائنات هذا الوجود ، بل يتمثل بعمل شخصي شعوري الصميم . ان « انباه المرء لملموساته الشخصية » لا يتم بدرس العالم او الكتب القديمة ، بل بالوصول الى المعرفة الادبية عن طريق احكام ادبية . فالقلب هو الحكم في ما لعملنا او لشعورنا الداخلي من قيمة ادبية . فهو دليلنا الى ما هو واجبنا في الوقت الحاضر . فالعمليات الخمس التي تمثلها تشو – هي متتابعة ، اعتبرها وانغ واقعة معاً في وقت واحد . فهو عمل واحد ، وحيد يجري تحت مظاهر مختلفة .

فالانسان لا تتم له الحقيقة الادبية بواسطة العقل ، بل بعمل اكتناهي ادبي هو الـ *Liang - tche* ، غير المتحيز ، الذي لا دليل عليه ، بل يشمز به ، ويمكن لكل واحد منا مشاهدته فينا . في كل انسان مثل هذا الاكتناه الادبي ، هذه المعرفة الفطرية (*Inné*) غير المكتسبة ، هي معرفة الخير والشر ، الحق والباطل ، هذه الحاسة تدرك الامور دون اعمال الفكر او الروية وتتصرف دونما حاجة ، للتعلم . هذا الاكتناه الادبي يصدر عن طبيعتنا ، فهو مباشر ، معصوم كالطبيعة نفسها بالضرورة ، عند كل الناس . فهو لدى السارق والقاتل ، ولو بشكل مستتر ، ولا يمكن لوجه من وجوه المعرفة ان يحل محله او ان يقوم مقامه . يجب ان تكون ثقتنا بهذا الاكتناه الداخلي لا حد لها ، كما علينا العمل باحكامه مهما كانت وكيفما كانت . فهذا الاكتناه الذي تم لي هو ذاته في من بلغوا الكمال . فاذا ما أجهدت النفس جيداً لاتبين هذا الاكتناه الذي حصل لي ، فملامح الكاملين لم تعد فيهم بل فيّ . فالاكتناه هذا الـ *Liang - tche* لا يتمثل بفعل او بمصدر الاكتناه فحسب ، بل ايضاً في مبدأ الاكتناه بالذات ،

هو القلب ، هو القاعدة السماوية ، السماء بالذات مبدأ الكمال الذي يجب ان نحققه في ذواتنا ، هو اكتناه الجنس البشري ، هو اكتناه الكون . فالمعرفة هي ادراك ، هي فهم طبيعة العمل الادبي ، هو التصرف وفقاً للاكتناه الادبي . لنعرف ،يجب ان نتعرف ، ان نختبر . « ليستطيع المرء التأكيد بان لفلان البر البنوي وبانه تم له العرف الاخوي ، يترتب عليه ان يكون مارس التقوى البنوية ، وخبر الفرق الاخوي ... لا يكفيه ان يردد عن ظهر قلبه بعض كلمات او عبارات حول التقوى البنوية ، او حول الفرق الاخوي . كذلك ان معرفة الألم تتطلب ان يكون المرء تألم ومر بالألم » .

ولكي يحصل لنا الاكتناه الادبي، يجب كبح رغائبنا والتغلب على كبريائنا . يجب ان نتحلى بالتواضع ، « هذا الاستعداد الداخلي الذي يجعلنا دوماً على استعداد للاعتراف بخطايانا » . من الضروري للمرء ان يعتكف على ذاته ، وينطوي على نفسه ، وان يطرح جانباً الافكار الباطلة وان يكبح فيه جماح المخيلة ، وان يتفادى تشتت الفكر والانتباه ، يجب ان يتم له تهيؤ خاص لصنع الخير واتيان البر،وان نسعى جهدنا للكشف في دواخلنا عن الحقائق التي جاءت على ذكرها وتكلمت عنها كتب الاقدمين . ان فحص الضمير و مجالدة النفس والكفاح الروحي، امور يجب الا ننقطع عنها ابداً .يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه من حب الذات والجشع فيجتثها من الاساس ، باسرع ما يمكن . علينا ان نتمرّس بهذه العملية ونحن نقوم بواجباتنا العادية اليومية ، اذ ان كل عمل هو فرصة مؤاتية لتحقيق الاكتناه الادبي في داخلنا . هذا هو الضروري ، اللازم . وهكذا لا لزوم بعد ، للعزلة ، ولا لجمع المعارف من الكتب ، ولا للاهتمام باقوال الناس وآراء الغير .

قام وانغ – يانغ – منغ بعملية تحرير ، التحرر من كتب الاقدمين ، التحرر من تقاليد القدامى واعرافهم المتوارثة ، التحرر من نظريات الدولة وآراء السلطة ، التحرر من التسلسل الاجتماعي وترابطه الاقطاعي . باستطاعة كل امرء ان يحقق الكمال ، مهما كان شأنه او وضعه او الدروس التي تمت له ، لان الكمال لا يتوقف على كمية المعارف ، بل على العزم بالجهر بالحقيقة وبالسّر ، هذا الشعور الذي يتوفر لكل واحد منا، وهذه الفلسفة التي قال بها وانغ – يانغ – منغ وعلم ، كان باستطاعتها ان تصبح لدى كل شخص في هذه الصين المتمسكة تمسكاً اعمى بتقاليد الاقدمين ،نقطة انطلاق نحو التقدم والتطور الذي لا حد له،اذ بتحريرها الحكم الشخصي في الانسان ، تحرير للشخصية البشرية .

تكاثر عدد تلاميذ وانغ – يانغ منغ ومريديه ، وبلغ بعض منهم شأواً بعيداً بما تم له من شهرة واسعة وذكر بعيد ، فاصبحوا بدورهم معلمين مصلحين ولهم تلاميذهم ومريدوهم . وانتشرت تعاليمه في الصين حتى سنة ١٦٣٠ ، الا ان تلاميذه لم يلبثوا ان اصطدموا بخصيان الامبراطور وبما لهم من سلطة وسلطان . وهكذا بقيت تعاليم تشو – هي الاساس او المحور

الذي قامت عليه الامتحانات . وهكذا كتب لفلسفة وانغ – يانغ – منغ ان تبقى الى جانب الحياة ، في الظل .

طغيان الخصيان وصولتهم

ان بروز البورجوازية في الصين وتجليها على هذا النحو اضفى على النهج السياسي خلال دولة المنغ ، مزيداً من الشدة والعنف . فقد كانت هذه الدولة ، في القرن السادس عشر ، في إبان انحطاطها . فلجناح الحريم في البلاط الامبراطوري تأثيره البارز في هذا المجال ، اذ كثيراً ما آل الامر ، في البلاد ، الى اباطرة ، جهلة ، متخنثين ، عاجزين ، قَعَدَة لا قدرة لهم على شيء ، يقضون حياتهم منكفئين في زوايا البلاط بين الخصيان والنساء ، يتربصون بهذه المشاكل الكبرى التي تقض مضاجعهم ، ممثلة بهذه المنافسات الحادة ، الشائكة بين زوجات الامبراطور ، اذ كان قانون الإرث حقاً ، كما رأيناه عند المسلمين ، مبهماً مطاطاً ، غير واضح البتة . فكان الامبراطور يختار خليفته ووريثه الشرعي من بين اولاده العديدين الذين انجبتهم له زوجات عديدات وسرائر اكثر عدداً ، فنجم عن هذه السياسة صراع هائل بين نساء الحريم ، اذ تحاول كل واحدة منهن ان تجعل من ابنها الوريث العتيد ، وبين الخصيان الذين راحوا يتحيزون ، هم ايضاً ، لهذه او لتلك من هاته النسوة ، وفقاً لميلهم لهذا المرشح او لذاك . وكثيرا ما قضت مصلحتهم توحيد كلمتهم ، فتتفق مشاربهم على معاضدة مَن مِن ابناء الامبراطور يكون ألعُوبَة بين ايديهم ، يوجهونه الوجهة التي تلائمهم .

فالنظام الامبراطوري كان نظاماً استبدادياً : فلم يكن للقانون ، في الصين ، ما له في اوروبا من قيمة وحرمة ، اوروبا وريثة القانون الروماني وحاضنته . فكل مَن مِن الصينيين اضطلع بمسؤولية او سلطة سياسية ، كان اقل اكتراثاً بالقانون واحتراماً له منه بالاخلاقيات والمصلحة العامة . ومثل هذه الذهنية كانت تتسع اكثر للتقدير الشخصي ، للكيف والاعتباط ، وبالتالي للاستبداد . فلكي يلعب الصيني دوراً بارزاً في البلاد يكفيه ان يلقى أذناً صاغية لدى الامبراطور . هذه هي القاعدة الذهبية ومفتاح السر . اما من جانب الحريم ونساء الامبراطور ، فمن كان اكثر اتصالا بالامبراطور ، مكنته حظوته ان يقابله متى اراد وفي الوقت الذي يريد ، كان هو صاحب النفوذ الاكبر والمسيطر الفعلي . فمن يتمتع بمثل هذه القدرة اكثر من الخصيان ؟ ولذا رأى عدد كبير من رجال الفكر وحملة الثقافة من ابناء الطبقة الوسطى ان خير ما يفتح امامهم باب الترقي والتقدم السريع في الوظيفة هو ان يتخذوا برضاهم ، طوعاً واختياراً من الخصاء سبيلاً لهم للعيش في البلاط . وبفضل ما كان لهم من ثقافة وعلم استطاعوا ان يلعبوا بالفعل ، دوراً بارزاً في ادارة الامبراطورية التي راحت فعلا ، فريسة الخصيان بعد ان وقعت تحت سيطرتهم .

فما يكاد الواحد منهم يرقى الى الوظائف المهمة او المراكز المفاتيح ، حتى ينصرف لتأمين

المنافع له ولاعضاء اسرته واقاربه . فيؤلبون حولهم الزبائن والانصار ، ويوزعون المنافع والوظائف على خاصتهم ، وبذلك تتوفر لهم ، في البلاط وخارجه ، من القوة وبُعْد النفوذ ، ما يجعل الامبراطور نفسه يوجس شراً منهم ويخشى جانبهم . فالنفوذ العظيم الذي تم للخصيان جاء يخدم ، في المدى البعيد ، الطبقة البورجوازية ويعمل على تطويرها وتقويتها في البلاد . ولذا اخذ امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة يسيجون حول مصالحهم ونفوذهم بالاكثار من الانصار يتخذونهم من بين المثقفين من ابناء الطبقة الوسطى ، فيحملونهم على العمل في خدمة الدولة . وهكذا راحت الدولة فريسة الصراع بين الخصيان وبين طبقات المثقفين ، والامبراطور من الوسط ، فمعظمهم تخرج بفلسفة لوانغ - يانغ - منغ ويعملون بتماليمه مناهضة منهم للخصيان المستأثرين بالسلطة والمحسوبين من انصار تشو - هي المدافع عن التقاليد القومية ، وعن السلطة الشرعية .

الأزمة الاجتماعية والسياسية ازدهار البوذية والطاوية

مما زاد في خطر هذا الصراع هو ان امراء الدم او امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة والخصيان كان تحت تصرفهم قوى خاصة بهم باعتبارهم اسياد الارض ومالكيها. وقد حاولت دولة المنغ تقوية مركزها وترسيخ هيبتها بتوزيع الاقطاعات على ذوي القربى والانصار . فقد اقطعوهم اراضي شاسعة اعفوها من الضرائب والسخرة ، وهي سياسة استمروا على الاخذ بها بالرغم من مساوئها طيلة القرن السادس عشر . وهؤلاء الاقطاعيون الذين كانوا اسياداً في اقطاعاتهم يتولى ادارتها باسمهم وكيل عام ، كانوا ، هم انفسهم ، يقومون بامور القضاء ويضبطون سير الامن ، يعمل تحت اشرافهم وتوجيهاتهم حكام ونظّار حسبوا عليهم ، ألفوا على مر الزمن ، خطراً على العرش .

وقد راح الفلاحون بالطبع فريسة هذا الوضع . كانت تكاليف الدولة بارتفاع مستمر . هنالك الوف من الفتيات يعملن في البلاط وينفقن الملايين على الاسبيذاج والزنجفر ، كما كانت مرتبات عالية تدفع لاعضاء الاسرة المالكة ولكبار الموظفين ، عدا عن مبالغ طائلة تذهب هدراً بين الاتلاف والاختلاسات ، ومبالغ طائلة تهدر على الاعمال والاشغال ، وعلى الجيش الذي بلغت نفقاته ٢٠ مليون تايل *taels* ، مع العلم ان الموازنة العامة لم تكن عند اعتلاء هذه الدولة العرش سوى مليوني *taels* لا غير ، كما ان الجيش يستهلك اكثر من نصف واردات الضرائب بين ١٦٢٥ - ١٦٥٠ ، عدا عن رسوم احتكار الملح الذي نفر منه الشعب في الصين نفور الفرنسيين من ضريبة الملح *gabelle* في فرنسا . وقد اخذ الخصيان والموظفون يغالون في مطالب واشباع رغائب لا حد لها ؛ واخذوا يفرضون رسوماً من عندهم ويطالبون باكراميات عالية . ومما زاد في احراج الفلاحين توزيع الاملاك الشاسعة اقطاعات وأخاذات تعرضوا معها للطرد من الاراضي التي كانوا يستغلونها ، فيرزحون تحت الديون مما يضطرهم لترك مزارعهم والعيث فساداً في البلاد بعد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال

القرصنة . وهكذا مع ازدياد عدد السكان واتساع الاقطاعات ازداد ، في البلاد ، قطاع الطرق وشذاذ الآفاق والخارجون على القانون .

قد يكون بالامكان رد هذا الوضع الى انتشار نفوذ البوذية والطاوية في الصين ، بعد ان امتدت تعاليمهما الى الطبقات الشعبية ، بحيث ان الخصيان رأوا انفسهم مدفوعين ، نوعاً ، الى تخصيص مبالغ طائلة لتشييد معابد بوذية ورفع هياكل في المزارات واماكن الحج الرئيسية . من الثابت ان الجماهير الشعبية كانت تلوذ بالبوذية لما كانت تجد فيها من سلوى وسلوان بعد ان قالت بعقيدة الا *amidisme* . فالبوذية البدائية (الاولى) كانت لاأدريّة(*agnostique*). فهي مجرد اصول تقنية توّصل انسان بشري للكشف عنها ، هو بوذا تشاكياموني ، ليكون بمنجاة من آلام هذه الفانية وعذاباتها وليتفادى هذه الحلقات من سلسلة التناسخ والتقمص . فلكي نتجنب الألم علينا ان نتجاهل الاهواء والرغبات ، وان نتمسك بالحياة حتى نبلغ فناء الشخصانية فينا بالدخول الي هذه الطوبى *nirvana* (السعادة) وهي تعاليم صعبة التحقيق لهؤلاء الناس العطاش الى هذه المعزّيات الحسية . وهكذا فتعاليم ماهيّانا التي امتدت من البنغال الى التيبت لتتوغل في الصين واليابان ،رأت في بوذا الها،هو الحكمة الابدية،كلي الحضور وكلي القدرة،يتضاعف ويتكاثر الى ما لا حد له في الزمان والمكان اذ يخلق على شاكلته ومثاله بوذات *Bouddhas* ، وبوذات المستقبل *Bodhisattvas* او *Bouddhas à venir* . وعندما تتم لاحد الاتباع مشاهدة احد البوذات مشاهدة رمزية، تستحيل هذة الرؤيا الى *Dhyanibouddha* اي الى شخصية جديدة هي « اميدا » اي كلمة بوذا المتجسد ، اله الرحمة ، اله المحبة ، مخلص العالم ومنقذ البشر الذي يغطي باستحقاقاته اللامتناهية ، كل خاطىء يضرع اليه تائباً مستغفراً ، فيبرره بنعمته ، وينقذه من هذه التقمصات المتتالية ، ويجود عليه بالسعادة ناعماً الى جنبه ، بالسعادة السماوية . وقد لاقى الاعتقاد بِ اميدا ، رواجاً عظيماً في الصين ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في صورة الانثى التي تسربلها ، هي : كاون ــ إن ، الحكيمة ، الرؤوم ، التي طالما صوروها بصورة ام باسطة ذراعيها وعليها طفلها ، لهذه النسوة اللواتي يرغبن في ان يجود الله عليهن بمولود .

اما اتباع الديانة الطاوية ، فقد عملوا على نشر كتبهم المقدسة ، في هذه الفترة المتمدة بين ١٥٢٢ – ١٥٦٦ ، حتى ان الامبراطور تشي – تسونغ اخذهم تحت جناحه ووضعهم تحت حمايته ، مدفوعاً على ذلك بعامل الجشع والطمع اكثر منة تذوقاً لهذه التعاليم التي علّم بها لاو– تسي (٥٧٠ – ٤٩٠ ق . م) فالطاو هو القيوم ، الكائن بذاته ، الابدي ، اللامتناهي ، الكلي الحضور الذي لا يقع تحت الحواس . فهو يفيض من براءته *Tei* التي تتخذ في تفاعلها شكلين متناوبين هما : ين ويانغ ، وتبدع كل الكائنات المحسوسة التي هي امتداد للطاو . فالطاو هو في كل شيء ، وكل شيء فيه . فالحكيم هو الذي يحاول ان يتفادى كل ما يتعرض له الانسان من آلام وعذابات ، ويخضع له من تبدل وتحول ، وهذه السلاسل من صروف

وصروف متصلة الحلقات التي تتألف من *yin* و *yang* ليعود الى حالته الاولى ، الى البساطة الاولى ، الى الفناء . فهو يقتل فيه كل فكرة ، ويفقده كل معنى او صورة للعالم الخارجي حتى فكرة وجوده بالذات ليذوب في الطاو . لا ، لم يكن هذا السمي السامي نحو الكائن المطلق هو الذي كان يجذب اليه معظم اتباع الديانة الطاوية ، حتى والامبراطور نفسه . ولما كان كل شيء هو واحد في الاصل ومماثلا بعضه البعض في الطاو ، فقد نظر الناس الى كهنة الطاوية نظرهم الى جماعة تم لهم الكشف عن حجر الفلاسفة الذي له القدرة على تحويل المعادن الخسيسة الى معادن كريمة اي الى ذهب وفضة ، ونسبوا اليهم اكتشاف اكسير الخلود . ما اشده من اغراء لشعب تتلاطمه الاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، الذي يمثله الاله الرئيسي تساي - تشن ، اله الفن والثراء ، الذي قامت له الهياكل في كل مكان ، لشعب كان ينشر خزفياته الصينية وتعاويذه ومطرزاته وتمنياته لحياة مديدة ، اذ ان صلاة التبرك تفعل من نفسها !

تفكك الامبراطورية وانحلالها في القرن السابع عشر : المنشو

مثّل الشطر الثاني من عصر المنغ حقبة اشتدت فيها الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية . استطاعت قبائل التتار التي لا تزال على بداوتها ، غزو مقاطعتي تشانسي وتشنسي فاطلت على ابواب بكين ،عام ١٥٥٠ ، بينما كان القراصنة اليابانيون يعيثون فساداً على شواطىء تشا - كيا - نغ وفو - كيان وكوانغ - تونغ ، وبلغوا نانكين عام ١٥٥٥ ، ونزلوا ، بين ١٥٥١ - ١٥٧٠ عند مصب نهر اليانغ - تسي .

امعنت الامبراطورية في الانحلال،في مطلع القرن السابع عشر، بعد ان استحالت المنافسات بين الخصيان ورجال الفكر ، الى حوادث دامية ، بعد الذي استهدف له الفريق الاخير من فظائع وفظاظات الخصي واي - تونغ - كيان .فألفوا من بينهم منظمة او حزب خاص للدفاع عن انفسهم تحت ستار اكاديمية ،هو حزب تونغ - ين الذي قام بينه وبين الخصيان خصومة عنيفة وعراك هائل ، وبالتالي ، ضد الحكومة التي كانوا يمثلونها . اندلعت الثورة وامتدت الى كل مكان ، بين ١٦١٩ - ١٦٤٠ ، وقام الاقطاعيون يؤلفون جمعيات سرية لمقاومة نفوذ الخصيان وسطوتهم . وعلى هذا النحو سار الفلاحون والمزارعون فأبوا دفع الضرائب المترتبة عليهم ، وثاروا على الاخص ضد ابتزازات الموظفين وتعسفاتهم وضد المضاربات التي كان يقوم بها المضاربون البورجوازيون الذين كانوا يستغلون ما لهم عليهم من ديون لينتزعوا منهم املاكهم ومقتنياتهم . وقامت عصابات من الفلاحين عاثت فساداً في الريف . ووضع قادة الجيش يدهم على مرتبات الجند . ولكي يهدئوا من ثورتهم وهيجانهم كانوا يقومون معهم بعمليات النهب والسلب والاستباحة . فكان لزاماً على الامبراطور ان يرسل قوى يطمئن الى ولائها ضد هؤلاء « السلاخين » (١٦٣٢) . فاذا بالحرب الاهلية وبالفوضى تسود البلاد في الوقت الذي كان يتهدد حدود الصين من الشمال اعداء يتربصون بها الشر .

قام امام ابواب الصين من الشمال قبائل تنغوس البدوية وهي قبائل من المنشو اخذت في

النصف الاول من القرن السابع عشر، باسباب الحضارة الصينية. وهكذا ألفت هذه القبائل الى الدعة واخذت تنصرف للاعمال الزراعية، في هذه الممتلكات المحصنة والقرى التي يسيطرون عليها، واستطاع واحد من زعمائهم البارزين هو نورهاشو (١٥٥٩ - ١٦٢٦) ان يوحد من هذه القبائل وينشىء من مجموعها دولة. فاخذ عن دولة المنغ تنظيمهم للحدود، وقسم المنشو الى ٨ وحدات ادارية انتظمت عسكرياً تحت ألوية، ضمت الى جانب النورهاشو : المغول والكوريين، وصينيي منشوريا. واستطاع ابن نورهاشو المدعو تاي - تسونغ ان يشكل، عام ١٦٣١ حكومة وان يقيم في البلاد ادارة مدنية وعسكرية، وفقاً للنموذج الصيني، وتبنى نظام الامتحانات والإيديولوجيا الكونفوشية في السياسة. وكان يقيم باعتباره ابن السماء، بكل ابهة وفخامة، الاحتفالات الامبراطورية، على شرف الزراعة. وقام عدة مرات بغزو تشي - لي يشد من ازره صينيون، وجاء بصحبتهم يهدد بكين سنة ١٦٢٩، و ١٦٣٤. توفي سنة ١٦٤٥ دون ان يُعقب، فانتخب المنشو خليفة له ابن اخيه تشوان - تشي الذي حكم تحت وصاية النبلاء، حتى عام ١٦٥١.

وفي هذه الغضون، قام زعيم شعبي يدعى لي - تسن - تشنغ، بثورة في مقاطعة تسو - تشوان (١٦٣٧) قادته بمساعدة الفلاحين، الى بكين. واذ ذاك اضطر الامبراطور تشوانغ - لي - تي الى اعتزال الحكم والتنازل عن العرش وانهى حياته منتحراً، عام ١٩٤٤. واذ ذاك، قام الجنرال وو - سيو - كوبي المكلف بالدفاع عن الحدود يستنجد بالمنشو. فقد المحدر هو نفسه عنداً، من اسرة منشورية، وأيقن انه مهما ساءت الامور تحت سيطرة المنشو، فلن يكون وضعه بأقل مما هو عليه وانه سيبقى قائداً. فاردفه المنشو بفرقة من ٧٠٠٠ محارب. ومن جهة اخرى، لم يتمكن لي من ان يجمع حوله رجال الفكر والثقافة الذين كانوا يكرهون الفلاحين، والذين لم يكونوا ينظرون شزراً الى المنشو الذين كانوا من اتباع كونفوشيوس، لا غش فيهم. وبعد ان انهزم مرتين، اضطر الى الاخلاء بكين ثم جرى قتله. وراح وو سو - كوبي، يحاول آنئذ اقناع المنشو بالانسحاب، الا انهم، على عكس ذلك، توافدوا باعداد كبيرة. واذ ذاك، نودي بِ تشوان - تشي امبراطوراً، فكان اول ملوك دولة تسنغ (١٦٤٤). وقام المنشو بتدويخ كل الصين. وراح الذين نجوا من دولة المنغ ينتخبون لهم امبراطوراً في شخص هوانغ - كوانغ، وألفوا لهم حكومة في نانكين، وبذلك استمرت المقاومة في الجنوب وقوامها مسلمو كان - سو الثائرون يقودها الامبراطور منغ - كواي - وانغ الذي اعتنق المسيحية على يد القرصان كوكسنغا، المولود من اب صيني وام يابانية والذي تمت له السيطرة على فورموزا وعلى نهر يانغ - تسي. وقد جسم المنشو التعاليم الكونفوشية المستقيمة الرأي. واذ كانوا يفوقون الصينيين قوة بما تم لهم من خيالة ومن مدفعية قوية سبكها لهم اليسوعيون في بكين، استولوا على نانكين عام (١٦٤٥)، وكنتون (١٦٥٠) واصبحوا مسيطرين بالفعل على الصين كلها. واضطر حفيد كوكسنغا ان يقدم خضوعه عام ١٦٨٣. وفي سنة ١٦٦١، توفي تشوان -

تشي بعد ان عين خليفة له على العرش ، ابنه الثالث كانغ - هي الذي حكم في بدء عهده تحت وصاية مجلس وصاية تألف من بعض النبلاء حتى عام ١٦٦٧ .

سيطرة المنشو العرقية

نظم المنشو ، الصين على اساس عرقي بحيث أمّنوا سيطرتهم التامة على الصينيين المغلوبين على امرهم ، وبذلك تفادوا الذوبان والانصهار فيهم . فحملت الالوية المنشوية الى الصين وعهد اليها بحراسة المواضع الستراتيجية . وطلب من المنشو ان يحافظوا على طابعهم العسكري ، وحظر عليهم تعاطي اية مهنة غير مهنة عسكري مزارع ، كما اشترطوا ان يكون جميع ضباطهم من العسكريين وكذلك الحكام الاداريين . وهكذا برزوا بوضوح في مرتبة اعلى من الصينيين . وأعفيَ المنشو من دفع الرسوم والضرائب والسخرة فوقعت اعباؤها كلها على الصينيين ،وفتحت امامهم ابواب الوظائف العامة، بينما بقي الصينيون خاضعين لنظام الامتحانات . وبدا على المنشو ازدراءهم للدرس والثقافة والآداب . وقام الى جانب كل موظف صيني ، ضابط منشو عُهد اليه السهر على مصالح الفاتحين، وكانت اوراق الدواوين تحرر بالمنشوية والصينية . وقد روعي بشدة المحافظة على طابع جيش فاتح ، يستثمر على هواه ، بلاداً تم له فتحها بحد السيف . وهذا الجيش الفاتح الغازي ، شكل عرقاً اسمى بكثير حرصوا كل الحرص على صيانة نقائه . وقد حظر بشدة على المنشو الزواج من صينيات . وصدر عام ١٦٤٥ ، قانون .ألزم الصينيين الاحتفاظ بجديلة الشعر المتدلية من الرأس . وهكذا « بقي المجتمعان البربري والصيني متميزين ، متباينين الواحد عن الآخر، لا يختلطان ولا يتمازجان ، وبقيت جماهير الغزاة الفاتحين تتجاهل كلياً حضارة لا تهمها بشيء ، وزاد تباين نهج الحياة بين الجانبين شقة الخلاف بينهما تباعداً ، كما باعدت بينهما سماتهم الخارجية، ومساق التصرف عند كل فريق .فبعد الفتح بوقت طويل كان الغرباء الطارئون يميزون في بكين، المنشو البرابرة بشواربهم ،« اشداء بمناكبهم العريضة ورقابهم الغليظة كرقاب الثيران واحناكهم الناقرة واسنانهم كاسنان أكلة اللحوم » يدفعون من امامهم بازدراء كلي الصينيين المرد المخنثين.

استسلام الصينيين المنشو اداة الثورة وعدتها

شعرت الصين في الصميم بألم الصدمة التي نزلت بها . فبعد دخول المنشو بكين ، راح ألوف من رجال الفكر والثقافة والموظفين الاقطاعيين ينتحرون فيضعون حداً لخزيهم بوضعهم حداً لحياتهم: فرقاً على ما آلوا اليه من مهانة وضعة شأن . وقد اخذ الصينيون يرضخون ، مع الزمن ، للقدر الغاشم كما اخذ جماعة رجال الفكر يلوون على بعضهم البعض ويتعاطفون . ففي نظر الصينيين يستمد الامبراطور حقوقه من الحكمة . فاذا ما حاد عن الحكمة وخرج عن جادتها،كان ذلك دلالة من السماء على عدم رضاها وشجبهـا لما يقع في البلاد، وذلك بتأليب المصائب على الامبرطورية وانزال القصاص بالامبراطور ، بحمل الشعب على الاعراض عنه والتحول ضده . فمن نهض محاولاً نزع التاج عن رأس الامبراطور ، ونجح في محاولته هذه ، كان ذلك ايذاناً من

السماء واعلاماً منها بانها اختارته لانقاذ البلاد فتجب طاعته والالتفاف حوله . وهذه القاعدة جرى تطبيقها على آخر امبراطور من سلالة المنغ، كما يجب تطبيقها على اول امبراطور من اسرة تسنغ . ومن جهة اخرى فقد سبق لكونفوشيوس وقال : « من لم تكن له خدمة في الحكومة وجب عليه الا يتدخل بشؤونها ولا ان يتناول بالنقد تصرفاتها والتدابير التي تتخذها . فعلى الصيني ، ما لم يكن موظفاً ، ان يهتم بما لعائلته وبما لامور مهنته ، والا يبالي باي شيء آخر » . وهكذا ضعفت في البلاد الروح الوطنية ومفهوم الدولة ، مع ان الشعب كان يجيش بالروح القومية ويكنّ للأجنبي مقتاً عميقاً وكرهاً شديداً .

وقد عرف المنشو أن يفوزوا برضى الفلاحين بعد ان فرضوا احترامهم بفرض النظام في البلاد واعادة الامن الى نصابه ، فضبطوا مالية الدولة وقضوا على نظام الاقطاع فاكتفى كانغ – هي بالاحتفاظ بـ ٣٠٠ قناة في بلاطه . كذلك الغى الاقطاعات ووزع الاراضي التي تألفت منها هذه الاقطاعات على اعضاء الاسرة الامبراطورية ، كما وزع بعضها على ابناء الألوية ، وبذلك اصبحت ضمن املاك الدولة . فالذين استفادوا من هذا التوزيع لم يصبحوا اسياداً بل اصحاب ايراد ثابت ، فاضطر الواحد منهم ان يؤجر ارضه لمتعهد عام يؤجر من ضمنه مزارعين يأخذون باستثمار الارض برضاهم . وقد اعترف القانون ، في آخر الامر ، لهؤلاء المرابعين بحق تملك شرعي لسطح الارض ، مع بقاء حق الملكية لصاحب الارض . وهكذا رأى الفلاح نفسه مدعواً لتحسين ارضه كي يزيد من دخله .

كان من نتائج هذه السياسة واستتباب الأمن في البلاد ان ازداد عدد سكان الصين ، وهي زيادة اربت بالطبع على معدل نمو المواد الغذائية ونسبة الانتاج . فمن ١٠٠ مليون نسمة بلغ عدد سكان البلاد عام ١٦٦١ ، تحت تصرفهم ٥،٣١١،٣٥٣ لي من الاراضي الزراعية ، ارتفع هذا العدد ، عام ١٧١٠ ، الى ١١٦ مليون نسمة يتصرفون بـ ٦،٦٣١،٦٣٢ لي . ولكي تأتي النسبة بين مساحة الارض المزروعة وعدد السكان طبيعية ، كان من اللازم ان يتوفر لهم ايضاً ١٢ مليون كنغ . ولذا اخذت الزراعة في الصين تصطبغ بالصفات العصرية التي تتسم بها اليوم زراعة الحدائق والبستنة ، كما اخذ المطبخ الصيني يستعمل كل ما يصح استعماله او يصلح للاكل ، حتى مربيات العناكب .

ويبدو ان البورجوازية التجارية والمالية حققت هي الاخرى اغراضها ، اذ اخذ فانغ من مدينة تنغ –بو ، يؤسس في عهد الامبراطور كنغ –هي ، في بكين ، المصارف الاربعة الكبرى التي كانت لاتزال مزدهرة اعمالها ، مضطلعة بنشاطها ، في مطلع القرن العشرين . كذلك اخذت نقابات عمالية تضع منذ ذلك الحين ، قوانين خاصة بها نظمت من المهنة . فاحتكر حاكة الاقمشة الحريرية ، مثلاً ، لانفسهم صنع الاقمشة ، الفاخرة ، بينما تركوا لمن يرغب نسج الحرائر العادية ، ولم يخضعوا للاحتكار ، فافسحوا بذلك مجالاً للمزيد من الكسب لألوف من الاسر القروية والفلاحين وسكان المدن ، للعمل بالحياكة في منازلهم . كذلك يبدو ان هذه الصناعة نزعت ،

منذ ذلك الحين نحو التمركز . ويبدو كذلك ان صناعيين لهم نشاطهم كانوا يحيلون طلباتهم لرؤساء الورش الرقيقي الحال ، ولهؤلاء العمال الذين يعملون في منازلهم .

هل ادى فتح المنشو ، يا ترى ، الى احداث ثورة اقتصادية واجتماعية في البلاد ؟ . وهذا التبدل في النظام السياسي ، هل كان من نتائجه ترجيح السيطرة نهائياً للاقتصاد النقدي ولهذه الرأسمالية التجارية على النظام الاقتصادي السيادي او انه ادى بعبارة اخرى ، الى تكريس انتصار البورجوازية الصينية على الارستوقراطية التي خفض فتح المنشو للبلاد من جانبها كثيراً .

المنشو اتباع حيمون للكونفوشية التشوهية

اما المثقفون ، فقد بادر كنـغ ـ هـي للاعراب عن تقديره للكونفوشية . فالتفسير الذي وضعه لها تشو ـ هي والذي جاء في مصلحة السلطة ، بقي التفسير المعتمد والمعمول به لدى الحكومة ، كما بقي اساساً للامتحانات الرسمية . وهكذا اخذوا يتناسون بسرعة تعاليم وانغ ـ يانغ ـ منغ بحيث ان المعلم الذي اخذ دوماً بتعاليم القدامى وبالواجبات الاجتماعية ، رغب تلاميذه ، منذ ١٦٣١ ، في ان يتعلموا كل شيء من ليانغ ـ تشي ، فتاهوا في سفاسفهم وترهاتهم . حافظ المنشو على نظام الامتحانات كما اخذوا بالنظام الاداري المسلسل الذي بقي مسلكاً مثمراً للادباء والمثقفين . وبعبارة اخرى ، عمل النظام الاداري لمصلحة الفاتحين . وفي سنة ١٦٥٥ ، رجحت كفة الادباء على الخصيان بشكل لا يدع مجالا للشك ، فحظر على هؤلاء التدخل بالشؤون العامة ، تحت طائلة الموت ، مما ادى الى طرد عدد كبير من الخصيان وصرفهم من المراكز التي كانوا يحتلونها . صحيح ان بعضهم استطاع الحصول على وظائف ومراكز في الدولة انما لم تعد لهم فيها الكلمة الاولى .

ومع ذلك لبث المثقفون خاضعين لتعميم تشو ـ هي المزوحة والمقصدة ، كما لبثوا ، شأن من غُلِبوا على امرهم ، يتحرزون جداً من التفوه بشيء يسيء الى الفاتحين . وزالت منهم كل مقدرة او طاقة على الخلق والابداع . فالكونفوشية التشوهية قضت تماماً على كل اثر لهذه المثالية البوذية والطاوية التي عرفت ان تلهب خيال الصينيين . فالتشوهية في خدمة الفاتحين نزعت الى ان تجعل من الصين آلة ادبية عمياء لا تفكر ولا تعمل بذاتها ، بحيث يأتي كل نشاط تقوم به وفقاً لقوالب مهيأة من قبل ، افرغتها السلطة على الشكل الذي تريد . فكانوا يلاحقون بعنف لا يعرف الشفقة كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، مما ادى الى تجميد الفكر وتقهقر الفن . وشجع المنشو مدرسة بونجيفا التي كانت تحبذ « تصوير رجال الفكر » . وقد هدف هؤلاء النظريون الى القضاء على كل تمييز بين التصوير والخط : فلم يعودوا ليأبهوا بالطبيعة بل راحوا يقلدون تقليداً حرفياً ، النسخ المسحوبة عن آثار اساتذة الفن القدامى ، بنصها الواحد كما جاءت في الصورة المعبرة عنها . والاساليب التي استعملها اساتذة عصر تانغ وسونغ ، جرى التعبير عنها بطرائق واساليب ظهرت في موسوعة تصويرية بعنوان : « مبادىء تصوير حديقة حجمها

حجم حبة خردل » التي تم نشرها عام ١٧٠١ . وهذا الاثر الفني لم يثر الاعجاب الا بنسبة ما فيه من محاكاة لهذه الفوارق الملحوظة في رسم الخطوط في المخطوطة . وهكذا تخلوا عن هذا المدى الجمالي الشاسع للفن الصيني فنحن امام ثورة فكرية او ذهنية .

بقي شكل واحد من اشكال الفن يبعث الرضى والارتياح استأنس له الفاتح البربري ، يتمثل في صناعة الخزفيات ، هذه الصناعة التي عرفت ان تحافظ على نقائها وعلى تقنيتها محتفظة بقيمتها العالية .

والادب نفسه اصبح وسيلة من وسائل الدعاوة واسبابها . فالقصص والمسرحيات التمثيلية راحت تمجد الفضيلة وتشجب الرذيلة بشرط ان تكون الامثلة المضروبة تعمل على خدمة الفاتح. كذلك راحوا يتفننون ، بالوقت ذاته ، بالبر للوالدين والطاعة لهم رمزاً لما للامبراطور من سلطة ابوية وما له عليهم من حق الاحترام والخضوع ، كما راحوا يتفننون بالتفاني في سبيل الامبراطور. وحرص هانغ –هي على اعداد موسوعات علمية ، منها موسوعة تقع في ٤٤ مجلداً ، ومنها موسوعة في ٣٦ مجلداً تؤلف إزائية للادب الكلاسيكي القديم معجماً صينياً . وراح يظهر بمظهر الاديب الكونفوشي فاخذ يضع مؤلفات عديدة نثراً وشعراً ، كما وضع :«الامر المقدس» ، هو عبارة عن مجموعة من ١٦ حكمة او موعظة ادبية (١٦٧٠) . اما الآثار التي لها بالفعل قيمة كبيرة فهي الآثار التي وضعت في عهد المستقلين . فقد رفض بان – مونغ – كنغ ان يقضي سحابة عمره موظفاً في خدمة الدولة وان يسير وفقاً للامور المطروقة . فقد ألف ، نحو عام ١٦٧٩ : « حكايات مدهشة » صادف كتابه نجاحاً منقطع النظير لما في هذه الحكايات من متانة السبك وقوة التعبير ، وما تحمله من الصيغ والافكار الجديدة التي تضفي على العبارة قوة لم تكن لها من قبل ، بعد ان اكثر من المحسنات اللفظية كالمجاز المرسل والكناية والتورية . وقد رفض شو – يونغ – شون (١٦١٧ – ١٦٨٩) الذي قتل المنشو اباه ، قبول العمل في خدمة الدولة موظفاً ، فوضع كتاباً صغيراً في الحكم نال شهرة واسعة .

فقد انهار وزال كل ما لم يستطع تفادي الضغط الرسمي . فهل نرد الى القلق المسيطر على النفوس ، والحاصل من الوضع الذي صار اليه المغلوبون على امرهم ، على يد اقوام من عرق ادنى ، المادة التي ظهرت بين الصينيين ، اذ ذاك ، اي في القرن السابع عشر ، عادة تعاطي الافيون والاقبال على استنشاقه وشمه ؟

المنشو والسيطرة الصينية على آسيا الوسطى

ازداد هانغ – هي شعبية بعد ان عرف كيف يمالىء ما في الروح الصينية من كبر . فهذا البدوي الصحراوي الذي اعتاد ان يصرف ، كل سنة ، بضعة اشهر في الصحراء ، ممتطياً حيناً ، صهوة جواده ، ومستظلاً احياناً خيمته ، لا يستطيع ان يتصور نفسه امبراطوراً الا ان يعترف بامبراطورية رفاقه في البداوة . وراح ، في هذا السبيل ، ينهج نحو بلدان آسيا الوسطى ، نهجاً استبدادياً ،

إستعمارياً ، فبسط سيطرته على البدو البرابرة الذين اذاقوا الصين الامرّين في اواخر عهد دولة المنغ .

حاول السو غار ان يعيدوا تأليف الامبراطورية المغولية التي نمت لجنكيزخـان . الا ان الوهن الذي كان اخذ يدب في جسم المغول بعد ان ألفوا تقسيم إقطاعاتهم وما فيها من قطعـان الماشية واسر العبيد العاملين في الارض ، بين ابناء السيد ، فاخذت مساحة الاقطاعات تـدق وتصغر ، كما فشت بينهم الحروب المخربة وتكرر وقوعها مع ازدياد عدد الاسياد في البلاد .

ففي عام ١٧٩١ ، و ١٦٩٧ ، تم لهانغ - هي الانتصار مرتـين على خصمه غلدان زعيم السونفار ، وذلك بعد ان تم تسليح جيشه بالبنادق والمدافع التي أمّن اليسوعيون صبها لهم . فأخذ تحت حمايته المغول الشرقيين او كلخاز . فقد قدّم امراؤهم بكل رضى وقبول ، مراسم الخضوع لامبراطور الصين الذي كان بربرياً على شاكلتهم بالركوع امامه ثلاث مرات وبالسجود امامه ٩ مرات تعبيراً له عن ولائهم وخضوعهم . وراح خانات المغول يمنون من علاقاتهم بكبير خانات المنشو عن طريـق تقديم ولائهم له . فادخلهم في خدمته ، ومد قبائلهم بالحبوب يوم تتهددهم المجاعة ، كما انه وضع حداً لحروبهم الداخلية ولمنافساتهم . وهكذا توافد عليهم التجار الصينيون . وعلى الاثر توفرت عندهم الحاجيات المصنوعة ، اذ ان البندقية كانت تقايض بخمسة رؤوس من الماشية . اما في اواخر القرن ، فقد اصبحت البندقية والدرع تبادل برأس واحد من الخيـل . وجاء في إثر التجار معمرون صينيون وقامت في مراكز معينة في طـول البلاد وعرضها ، جماعات كبيرة تأخذ بأسباب التحضر . واخذ بعض الكلخاز يعملون في الزراعة وفي تربيـة الماشية ويقومون احياناً بنشاطات مهنية ، فتناقص بالتالي عدد قطعان الماشية كما تضاءلت بينهم حركة الظعن والارتحال مع تبدل الفصول والمواسم . وهكذا شهدنا بوادر حركة تطورية كان من بعض شأنها ان تنقل البلاد ، وئيداً ، من مجتمع إقطاعي ، بدوي ، الى مجتمـع حضاري ، ورأسمالي . اما هانغ - هي فقد رغب في الابقاء ، قدر المستطاع ، على التنظيم الاقطاعي وتسخيره لاغراض عسكرية وتأديبية .

وراح هانغ - هي ، من جهة ثانية ، يقوي من نفوذه ، بين البوذيين الكثيري العـدد في الصين ، وذلك عن طريق التفاهم مع رئيسهم الاعلى دالاي لاما الذي اعترف ، بدوره بشرعية اعتلاء السلالة المنشوية أريكة الامبراطورية ، مقابل التعهد باحترام سلطتـه الزمنية . ففي سنة ١٧١٣ ، ساعد هانغ - هي على اقامة سلطة الدالاي لاما في لاهسا عاصمة التيبت ، فكان من اشد انصار الحكم المنشوي في الصين . وهكذا تمتع هانغ - هي بنفوذ عظيم بـين البوذيين المنتشرين في هذا المجال الجغرافي الممتد من بحر قزوين الى المحيط الهادي .

وقد عاد الى الدولة الصينية في عهد السلالة المنشوية ما كان لها من سالف العز والقوة . بينما رجعت الحضارة الصينية القهقرى وازدادت كرهاً واحتقاراً للاجنبي ، من اي وقت مضى .

انهيار النظام الاقطاعي

عرفت اليابان ، بالرغم من اتساع الرقعة الجغرافية التي تفصلها عـــن اوروبا ، والمشقة بمـــا يعرف باوراسيا ، نظاماً اقطاعياً خاصاً اتخذ قاعدة له النظام السيادي . فقد قام في البلاد اساساً حكومة مركزية . فالامبراطور او الميكادو « ابن الشمس » الذي كان يقيم في عاصمته كيوتو ، عهد ، مكرهاً ، بالسلطـة الى سادن القصر او الشوغون هـــذا المركز القيادي الذي احتفظت به اسرة اشيكاغـا ، وكان الشوغون يتولى اعمال الادارة في الدولة بواسطة نظام اداري مسلسل من المصالح والدوائر المترابطة ، من بينها مجلس الدولة وثمانية وزراء و٦٦ ولاية او مقاطعة يتولى ادارتها حاكم يعينه الشوغون ، و٥٧٢ قضاء او ناحية يتولى الادارة فيها نقيب يُعين بناء على اقتراح حاكم الولاية ، ويتألف القضاء من قرى ودساكر .

وبالفعل لم يكن الميكادو ولا الشوغون حتى ولا أكبر ممثلي السلطة المركزية مهـــما علت وظيفته ، بالكلمة المسموعة في البلاد . فقد كان عـــدد غفير من الحكام *Daimios* يحف بهم عدد من حاملي السلاح *Samourais* يمارسون السلطة الفعلية في مقاطعاتهم وإيالاتهم ، ولم يكن ليشدهم ، على ما يبدو ، الى كبار الاسياد سوى وشائج مطاطة مـن الولاء الهش . وقد قامت بين هؤلاء الحكام والسادة الاشراف حروب اهلية لم ينقطع حبلها . واعتماداً منـا على الرسوم والصور التي تعود الى ذلك العصر ، كان هؤلاء الحكام ومن اليهم من الجنديين يشبهون الى حد بعيد ، مرتزقة الحروب *Reitres* في اوروبا بسحناتهم الخشنة ، وملامحهم القاسيـــة والاخاديد الظاهرة التي تجعد وجوههم وجباههم ، وغير ذلك من هذه القسمات التي تنم عن العنف والاهواء والشهوات .

وكان لاديار البوذيين املاك طائلة لرؤسائها ما للحكام من سلطة ومنزلة وشأن .

نظام الاقتصاد ونظام المقايضـــة

كان على الفلاحين ان يعولوا الطبقتين العسكرية والكهنوتية . فالاقتصاد المعمول به في البلاد اقتصاد زراعي ، مطبق على نفسه ، محوره الاساسي وركيزته الكبرى زراعة الارز . فقلة الاراضي الزراعية وغزارة المياه ، عوامل تساعد على استثمار اراض صغيرة تتراوح مساحة رقعتها بين ٢ – ٣ هكتار ويقتضي لها جهد شاق من العمل اليدوي بالمعول والجرفة والرفش ، ويستعين الفـــلاح ببعض الحيوانات والبقر والخيل ، وهي نادرة على الاجمال لقلة المراعي في البلاد ، فيستعملها مرة في السنة ، لشق الارض وحرثها مفردة او مكدونة . اما النقد فكان من الندورة بحيث ان بعض الفلاحين لم تكـــن عينهم وقعت على قطعة عملة واحدة . فالأرز كان معيار الاسعار واساس المقايضات . فالخـــدم والحشم والمرتزقة من الجند يتقاضون اجورهم أرزاً ، وكذلك الضرائب تدفع أرزاً . فالفلاح

في القرية يشتري سمكة من الصياد ارزاً يستخدمه لتسميد الارض واخصابها . اما المرأة في المنزل ، فكانت تقوم بامور الغزل والصباغة ، والاسرة تؤلف وحدة اقتصادية تكفي نفسها بنفسها .

والقرويون يقطنون قرى منازلها متفرقة، ولكل قرية شخصيتها تؤلف وحدة ضرائبية ، لها الحق بعقد الاتفاقات واقتناء الاراضي والاحراج والمراعي ، سكانها مسؤولون بالتكافل والتضامن عن الضرائب المفروضة، ويقوم بادارة القرية مختار *Nanouchi* ، يأتي بالانتخاب احياناً واحياناً بالوراثة ، يكلف بتبليغ الاوامر للاهلين ، كما يرفع تمنيات الاهلين ومطالبهم للسيد ، ويعد قيوداً يسجل بموجبها ملكية الاراضي ، وغلال كل فلاح ومزارع ، كما يسجل عدد المواليد والوفيات . كذلك من مهمته الاشراف على الاشغال العامة في القرية ، ويقضي بين الناس في صغار الامور . قسمت كل قرية الى فئات ضمت كل فئة خمسة اشخاص عليهم عريف . واذ كانوا مسؤولين بالتكافل عن الضرائب ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لانتاج اكبر كمية من المحاصيل الزراعية والغلال ويحولون دون اقتسام الاراضي وتشتتها بالإرث ، يبادرون لمساعدة بعضهم البعض ، حتى اذا ما مرض احدهم او اقعدته علة قاموا مكانه بحرث ارضه .

وكان وكيل السيد يقوم ، من وقت الى آخر بمساحة الاراضي ويصنفها بحسب طبيعة تربتها ونظام سقايتها ونسبة تعرضها للشمس ،وبعدها عن الاحياء المأهولة ، يخمن كل سنة ، غلة الارض بالنسبة لوحدة مساحية . فكان السيد يتقاضى خمسين الغلة ، عدا عن كمية صغيرة تذهب لوكيله وبعض الهدايا وتأمين أود عيشه والرسوم غير الملحوظة او الاستثنائية التي كانت تطلب منه احياناً . وكان الفلاح يحفظ موسم الارز في اكياس وينقلونه الى عنابر السيد ومستودعاته . فبعد ان يضع جانباً للموسم القادم البذار اللازم ، لا يبقى له ما يرد عنه غائلة الجوع والموت . اما غذاؤه فكان مزيجاً من بعض البقول والحشائش والجذور النباتية .

الرجوع الى نظام السلطة العامة في القرن السادس عشر

قام في اليابان ، بين اواخر القرن الخامس عشر واواخر القرن السادس عشر حقبة عرفت عندهم بعصر *Sengoku* اي « عصر الحرب في البلاد » ، وهي حقبة اخذت الأسر النبيلة توطد سلطتها وتشدد من قبضتها السيادية على لتباعها وتوسع من نفوذها على حساب سيادات اخرى . فبين ١٤٤٧ – ١٦٠٠ ، من بين ٢٦٠ اسرة اقطاعية ، انقرض منها ٢٤٨ اسرة او فقدت كل نفوذ لها ، واخذت حوالي سنة ١٥٦١ ، ست اسر تتحكم باليابان وتتجاذب الاستئثار بالسلطة فيما بينها ، الى ان بقيت ، سنة ١٦٠٠ ، اسرة واحدة تسيطر على البلاد باسرها . وقد تم اخضاع اليابانيين تدريجياً على يد أودا نوبوناغا وهيدايوشي ، وتوكوغاوا جيازون . وكان نوبوناغا (١٥٣٤ – ١٥٨٢) ابناً لاحد الزعماء الاقطاعيين في ولاية أواري ، فانشأ لنفسه اقطاعاً على حساب جيرانه ، وتغلب على بارونات عديدين ، ونزعت نفسه الى مرتبة الشوغونا . فاستدعاه الامبراطور واستعمله ضد الاشيكاغا . كتب له النصر عام ١٥٦٨ ، الا انه اعاد الى الاشيكاغا

منزلتهم واحترامهم وبقي كذلك حتى سنة ١٥٩٧ . ولكن منذ سنة ١٥٦٨، لم يعد للاشيكاغا السلطة الفعلية في البلاد . وتابع نوبوناغا انتصاراته . وعندما وقع قتله عام ١٥٨٢ ، كانت تمت له السلطة العليا على نصف الولايات اليابانية المحيطة بكيوتو العاصمة . وخلفه في السلطة قائد جيشه هيدايوشي (١٥٨٢ - ١٥٩٨) ، وتابع رسالته وفتح كيوسيو واصبح بالفعل سيد اليابان . ونزولا منه عند رغبة الحكام النبلاء ، جرد حملة عسكرية تولى قيادتها وقصد بها غازياً الصين . الا انه لم يستطع ان يتجاوز كوريا (١٥٩٢ - ١٥٩٨) . وقام بالامر بعده توكوغاوا اياسو (١٥٤٢ - ١٦١٦) وهو من رفاق نوبوناغا وهيدايوشي ، فتغلب على البارونات المتمردين ووطد نظام الحكم وأولى اليابان التنظيم الذي سارت عليه ٢٥٠ سنة تحت اشراف شوغونات توكاؤوا وهيداتاد ابن اياسو ، الذي اصبح رسمياً شوغون منذ عام ١٦٠٥، وتولى بالفعل الشوغونا من سنة ١٦١٦ - ١٦٢٢ ،ثم يامیتسو (١٦٢٣ - ١٦٥١) وخلفاؤه .

آل تشوغاؤوا يحاولون تجميد اليابان في القرن السابع عشر

وهكذا انعزلت اليابان وبقيت منكفئة على نفسها في عزلة تامة حتى سنة ١٨٥٤ . واستطاع آل تشوغاؤوا ان يؤمنوا الاستقرار في هذا العالم المقفل، وفقاً لتعاليم الكونفوشية التي قال بها تشو - هي بعد ان كان راضياً عن الاوضاع القائمة ويؤيد بالتالي نظام الحكم وسيطرة الشوغون . ففرض نظام التسلسل في المجتمع الياباني تحت نظام دكتاتوري عسكري يتمثل بالشوغون . وفرض آل تشوغاؤوا ، على اليابان النظم والقوانين السيادية التي كان يعمل بها ايام الحروب ،هذه النظم التي كرّست سلطتهم ووطدت سيطرتهم ، فقسموا النبلاء الحكام الى قسمين : الفودا يمثلون الحكام الذين وقفوا الى جانبهم وألفوا أنصارهم ، والتوزاما ، وهم القسم الذي يمثل المعارضة بين النبلاء والحكام ويضم الحكام الذين ابدوا مقاومة ضدهم . فقد احتفظ لاتباعه ، اي الفودا ،بالوظائف الكبرى في الحكومة ، وبواسطتهم استطاع ان يرّسخ نظام المركزية في البلاد.واخضع الحكام النبلاء لسلطة مجلس الدولة،كما عين المفوضين الاداريين في الاملاك السيادية الكبرى وفي حواضر البلاد الرئيسية ،وعين في النقاط الستراتيجية الحساسة مراقبين يرفعون الى الادارة المركزية كل شاردة وواردة . وهكذا نرى ان الشوغون لم يكونوا ليتدخلوا بشؤون الحكام طالما ان الامن مستتب في البلاد . ولم يتمتع ببعض الاستقلال الداخلي بالفعل ، سوى قلة من كبار الحكام ، امثال مايدا والشيادزو والدات . ومع ذلك فقد عرف الشوغون ان يحكموا حولهم القيود اذ فرضوا عليهم الاقامة اجبارياً سنة بعد سنة ، في ميكشويادو ، عاصمة الشوغون ، وان يبقوا فيها أسرهم وعيالهم باستمرار . وبالاضافة الى هذه الرهائن ، فالنفقات الباهظة التي كان يتكبدها هؤلاء الحكام الكبار في حلهم وترحالهم ، ومستوى العيش الرفيع الذي ساروا عليه اضعف كثيراً طاقتهم الاقتصادية ، كما اضعف فيهم كل رغبة بالانتفاض او الثورة . اما آل تشوغاؤوا فقد عملوا دوماً على توسيع نطاق املاكهم الشاسعة . فكانوا ينتزعون من النبلاء ما لهم من املاك واقطاعات اذا ما توفوا بدون عقب

يرلهم . وعلى هذا النحو ساروا في معاملة النبلاء الذين يقترف احد ذويهم احدى الكبائر. وهكذا نرى ان ٦١ اسرة فقدت املاكها السيادية في هذه الفترة الواقعة بين ١٦٠١ – ١٦٥١ .

كل فرد كان يرى نفسه مشدوداً الى طبقتـــه . فالجنـــدون العديدون الذين كانوا عيالا على كل حاكم في ايالته ، أجبروا على حمل السلاح ، لا سلوى لهم في مهنتهم سوى الادب والفنون . وفرض على التجار لباس الجندين وقبعاتهم ، كما فرض عليهم الانحناء عندما تقع اعينهم على حاكم يمر في الشارع . اما الفلاحون فكان وضعهم وضع حيوانات الجر والبهائم . وكانت الحكومة تزهدهم في تعلم القراءة والكتابة وتربي في نفوسهم مركب النقص كما يستدل على ذلك من مطلع القرارات والاوامر التي كان الشوغون يصدرها ، اذ كثيراً ما تبتدىء : « لما كان الفلاحون جماعة اغبياء » ... او « لما كان الفلاحون يفتقرون كلياً للمنطق والفطنة » .. فقد ارهقهم بالضرائب ليضطرهم دوماً للعمل ، وليقتل فيهم كل رغبة او ميل للانتقاض على السلطة . وكان الجباة يقطعون من مواسمهم الزراعية ثلثي غلة الارض . فقد بلغ انتاج البلاد في مطلع القرن السابع عشر ٢٨ مليون كوكوز من الارز . وبلغت حصة الشوغون توكوغاؤوا منها ٨ ملايين ، بينما بلغت غلة كل من مايبدا وشيماذوز والدات مليون كوكوز .ولم تكن حصة اي حاكم لتقل عن ١٠،٠٠٠ كوكوز ، ونال الـ ١٥٠ نبيلا من حزب فوداي ١٠٠،٠٠٠ كوكوز وكان الحكام يدفعون مرتبات جنودهم ارزاً ، فينال بعضهم احيانـاً ١٠،٠٠٠ كوكوز ، ومعظمهم ١٠٠ كوكوز ، وعدد قليل بينهم يصيبه من ٤٠ ـ ٥٠ كوكوزاً . اما فلاحو الطبقة الدنيا فكان يصيب الواحد نحواً من ٣٠ كوكوزاً .ومنع الشوغون توكوغاؤوا الحكام من انتزاع الاراضي من ايدي الفلاحين بعد ان يكونوا استثمروها لمدة تتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ سنة . وهكذا اعترف القانون على شكل ما ، للفلاح بحق التملك ، الا انه منعه من بيع ارضه .

كل العلاقات الاجتماعية والسياسية قامت على روابط الولاء والتابعية ، هذا الولاء الذي اصبح المثال الاعلى المشترك لكل الطبقات والقاعدة السلوكية الاولى التي شدت النبيل والحاكم الى اتباعه ، وبين المزارع والعامل في حقله والتاجر والمستخدم في متجره ، وبين معلم الكار والمتمرن على العمل . فالمثال الفروسي الذي عرف باسم *bushido* بعد عام ١٩٠٠ ، ما لبث ان انتشر في البلاد حتى ساد العلاقات بين التجار وافراد الشعب . وهذا المثال كان غني المحتوى ، من ضمنه الدقة والاستقامة ، والاخلاص والنصح والشجاعة لتنفيذ كل ما هو عدل وخير في صالح الضعفاء والمغلوبين على امرهم ، وهذا الظرف الناعم ، والادب الرهيف ، وكبح اهواء النفس والامانة في الواجب حتى الموت ، تلك كانت المناقبية التي كان على الجنود والمحاربين ان يتحلوا بها. فعلى الجندي ان يحكم بنفسه على نفسه لذنب اقترفه او لهفوة لطخت شرفه ، وذلك عن طريق الهراكيري ، ببقر بطنه . فالبوذية بطلبها المطلق وبخضوعها الهادي المستكين للقوانين في هذا العالم، والشنتوية بنبوع الولاء للسيد، والداعية الى تقديس الجدود ، والبر البنوي ، والكونفوشية ،

التي تعلم احترام القدامى والرؤساء ،واخيراً فلسفة وانغ - يانغ - منغ التي عرفت باسم *Omei* والتي لقيت رواجاً كبيراً في البلاد لحضها الناس على العمل ، كل هـذه العوامل والعناصر جاءت تقوي من جانب المثالية الفروسيـة ، هذه المثالية التي راحت فلسفة تشو - هي تضعهـا في خدمة الدولة .

من نظام المقايضة الى الاقتصاد النقدي

لم يستطع آل توكوغاؤوا الحؤول دون تطور المجتمـع الياباني . فقد عمل نظامهم على انشاء اقتصاد نقـدي في البلاد مع كل ما ترتب عليه من نتائج اجتماعية . فالبلاط الفخم الذي قـام في مدينة يدو ، والاسفار التي كان يقوم بها الحكام بين يدو وإيالاتهم، وغير ذلك من العوامل ، شجعت التجار واصحاب الحرف على إنشاء مخازن ومحلات للبيع في عاصمة الشوغون ،وفي هذه المدن الواقعة على طريـق الحكام . ولكي يؤمنوا مشترياتهم راح حكام المقاطعات يشجعون على استثمار مناجم المعادن الثمينة . فقد وحّد اياسو النقد في البلاد وامر بسك عملة من الذهب والفضة ، واخـذ بتشجيع التجار واصحاب الحرف والمهن . كذلك عمل الحكام على التعامـل ، اكثر فاكثر ، بالمعادن الثمينة ، بفرضهم رسوماً تُدفع نقداً وعيناً بالفضة ، عن محاصيل الارض غير الارز ، كالشاي واللاك والقطن والتبغ وهي مواد جرى ادخالها الى البلاد في مطلع القرن السابع عشر . كذلك فرضوا رسوماً تجبى نقداً فضة ، على اصحاب البضائع وعلى اصحاب المطاحن ، وبدلاً عن الخدمة العسكرية ، وغير ذلك . وحاول الحكام والنبلاء ، في آخر المطاف بيع مـا لديهم من غلال الارز ، وحذا حذوهم العسكريون العاملون في خدمتهم . واستدانوا على غلالهم وهكـذا اصبحت السندات التي يوقعونها لامر ، موضوع تحويل تجاري وتجيير .

وهكذا طلعت في البلاد طبقة جديدة من التجار اخذت تنمو عدداً وتزداد ثروة وثـراء ، لا سيا ولم يكن اصحابها ، في بدء الامر ، يخضعون لاي ضريبة او رسم كان ، باعتبار ان غلال الارض وحدها تؤلف مورداً : وهكذا بقيت مدن كثيرة مثل يـدو وأوزاكا وكيوتو ونارا وتواسيمى وغيرها معفاة من الضرائب . واخـذ التجار وارباب المهن يؤلفون من بينهم نقابات ، وحصلوا بالشراء من الشوغون ومن كبار الموظفين الاداريين امتيازات حددت من الانتـاج ، وعدد المستكتبين والمساعدين وارباب الحرف ، وابقوا الاسعار على مستوى ممكن ، واقامـوا احتكارات . وفي بورصة اوزاكا ، اتفق التجار على شراء الارز بابخس الاسعار في كل انحـاء اليابان . وقد سدوا افواه المسؤولين في الحكومة بالهدايا والأعطيات التي كانوا يدفعونها لهـم . وعندما كان الشعب يأخذ بالتذمر والتأفف من هذه التجاوزات كانت الحكومة تعمد الى فرض بعض الضرائب والرسوم ، وتفرض تحديد الاسعار والاعلان عنها ، وتصادر المستودعات وتحرم الاحتكارات ، لمدة ثم تعود الامور عودتها الى الماضي من جديد .

٢ — الاوروبيون ومحاولاتهم التجارية

في الصين واليابان

البرتغاليون

بقيت الصين مغلقة في وجه البرابرة طيلة عهد دولة المنغ ودولة تسنغ . فقد رضي الصينيون ان يفتحوا على طول حدودهم ، بعض الثغور والنوافذ ، كمدينتي كنتون وسو - تشيو ، تطل منها وفادات السفراء حاملين الهدايا والخراج الى الامبراطور ابن الشمس. ومثل هذا التأكيد ، زعم فيه الكثير من نسج الخيال . فالاجانب كانوا يلتفون حول سفير مزعوم فيؤلفون جماعة من التجار يستغلون بعض الاعفاءات الدبلوماسية . والهدايا المزعومة لم تكن بالفعل سوى بضائع وسلع يقايضون بها بضائع غالية الثمن . ولم يكن مثل هذا الوضع بخاف على موظفي الحكومة ، يدركونه جيداً ، اذ المهم عندهم المحافظة قدر المستطاع على سيادة « امبراطورية الوسط » الشاملة *Empire du Milieu* ، كما كانوا يلقبون الصين ، اذ ذاك . اما فتح الصين امام الاجانب على نطاق واسع ، فامر لم يكن وارداً قط في حساب الصينيين ، اذ لم يكن هؤلاء الاجانب الاغراب خليقين باقتباس حضارة الصين ، قطب العالم المتمدين التي لم تر شيئاً عند البرابرة حرياً باقتباسهم .

ففي الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون وجدوا امامهم مكاناً ينفذون منه الى هذا المجال التجاري الممتد بين الصين واليابان وماليزيا والهند الصينية . ففي عهد الامبراطور يونغ - لو (١٤٠٣ — ١٤٢٤) من ملوك دولة المنغ ، بلغت الاساطيل الصينية الخليج الفارسي وشواطىء الصومال . وبعد وفاته حظر اباطرة المنغ ، على رعاياهم ، الاتجار مع الخارج ، والهجرة الى الخارج تحت طائلة الموت ، فرموا ، من وراء هذه التدابير الى تفشيل اعمال القرصنة ، التي كانت تقوم بها عصابات وو -كو ، تألفت معظمها من مجندين يابانيين قدموا من جزيرة كيو - سيو ، فراحوا يغامرون على متن سفن مسطحة الظهر ، قلاعها من الحصر ولها مجاذيف جانبية ، تهاجم مصبات الانهر في الصين . وكثيراً ما استكملوا عدتهم من مساعدين لهم من الملايو والفيلبين . وقد عجزت ميليشيا اواي وسفن خفر السواحل الصينية ، عن رد تعديات هؤلاء القراصنة . ولم تكن حكومة الصين لتتوقع اي تعاون او مساعدة من حكومة الظل القائمة في اليابان . وفي سنة ١٥٥٩ تقدمت عصابات وو - كو واصبحت على مقربة من نانكين . وهكذا تعرقلت الاعمال التجارية واضطرب حبلها دون ان تتوقف او تنقطع . وكان حكام المقاطعات في اليابان يطمعون جداً في الحصول على حرير الصين وعلى ذهب الصين لشدة الطلب عليهما في اليابان . اما الصينيون ، فالاتجار مع الخارج ، لم يمثل سوى جزء ضئيل من نشاطهم التجاري، وهذه المهارات الصينية الماخرة عباب البحار لم تكن سوى كمية مهملة اذا ما قيست بهذه

الاساطيل التي كانت تقوم بهذه الحركة التجارية على ساحل البلاد الشرقي ، والتي كانت تؤمن الملاحة النهرية . غير ان البلاد والموظفين كانوا دوماً يسعون للحصول على الافاويه والتوابل من ماليزيا ، وعلى غير ذلك من المحاصيل النادرة عندهم ، وعلى هذه الاصناف التي قامت عليها حياة البذخ ، كما ان الصين ، بلاد الذهب الفضلى ، كانت بحاجة كلية لكمية من الفضة المسكوكة نهوضاً باقتصادياتها .

وهكذا استمرت الحركة التجارية فيها تعتمد بالاكثر على الوسائل التالية : السفارات والترخيص والتهريب . فقد رخص الدول التابعة للصين او التي تدور في فلكها ، ان ترسل كل سنة لبكين ، وفادة لتقديم ولائها وخضوعها للامبراطور ، مع الخراج المترتب عليها . وكان السفير يعطى بدوره إجازات ورخصاً توزعها حكومته على تجارها في البلاد . وبهذه الاجازات يستطيعون الدخول الى الصين بعد الخضوع لعملية تفتيش او مراقبة من قبل احدى المراكز الثلاثة المهمة للتفتيش تتألف منها « مكاتب مراقبة السفن البحرية» المعنية كل منها بمراقبة التجارة مع اليابان ، في مرفأ ننغ ـ بو ومع جزر ريو ـ كيو في مرفأ تسنغ ـ شيو ، وفي مرفأ كنتون للسفن المتجرة مع « اقطار الجنوب » ، اي مع الفيليبين وجزر السوند والسيام وكمبوديا . وكان التجار الاجانب يرسون بسفنهم في مصاب الانهر او في الجزر القريبة منها ، ويحشدون بضائعهم في عنابر او مستودعات خفيفة . اذ ذاك فقط يسمح لهم بدخول البلاد والتجول في القرى المجاورة للمرفأ دون الدخول للمدينة نفسها . وكان هؤلاء التجار يديرون شؤونهم الخاصة داخلياً وفقاً لقوانين بلادهم واعرافها التقليدية ، الا انهم لم يكونوا يتعاملون الا بواسطة اتحادات التجار الصينيين التي كانت تتولى تحديد الاسعار .

وكان الموظفون الصينيون *Mandarins* المحليون من حكام ونواب الملك يعطون رخصاً باسعار عالية ، لبعض التجار الصينيين للاتجار مع الخارج .

اما عمليات التهريب فكان يؤمنها او يقوم بها اصحاب السفن ومالكوها عن طريق قراصنة الوو ـ كو وعصاباتهم البحرية ، او عن طريق تجار جزر ريو ـ كيو او عن طريق الفور او الليكيوس ، عدا البرتغاليين ، الذين كانوا يحاولون على مسؤولياتهم ، خرق الحصار المفروض . وقد كان الفور ، في القرن الخامس عشر اهم العملاء في الاتجار مع الصين واليابان

و « اقطار بحار الجنوب » . الا ان شأنهم هبط كثيراً في القرن السادس عشره .

وعندما تم لألبوكرك ، الاستيلاء ، عام ١٥١١ ، على مالقا ، امر بان تعاد الى التجار الصينيين والسفن التي كان يحتجزها عنده سلطان المدينة ، كما سمح لهؤلاء التجار ان يتموا بحرية تامة ، عملية تسوبقهم . وعاد الصينيون الى بلادهم وكلهم ثناء عاطر وألسنة مدح تلهج باريحية الـ *Folanguis* ، كما كان يسمون البرتغاليين. وقد بلغ البرتغاليين ان التجار الصينيين يحققون من الاتجار بالفلفل ارباحاً تبلغ اربعة اضعاف ثمنه بعد نقله الى كنتون ، كما جاء من يؤكد لهم انهم

يستطيعون ان يؤمنوا من الارباح على البضائع والسلع الاخرى من ٢٠ – ٣٠ في المائة . وعملاً بالاوامر والتعليمات التي تلقاها حاكم مالقا ، قدم جورج الفاريس ، عام ١٥١٤ ، الى مصب نهر سي – كيانغ حيث تقع مدينة كنتون ، وباع بارباح طائلة ما كانت سفنه تشحن من بضائع مختلفة . واذ ذاك ، ارسل الملك مانويل – ملك البرتغال ، الى امبراطور الصين ، يطلب اليه اعطاءه ترخيصاً لاقامة وكالة تمثيل تجارية (*Factoria*) على ارض صينية . واضطر السفير البرتغالي ، توما بيريس الذي وصل كنتون عام ١٥١٧ ، ان ينتظر ، في هذه المدينة ، رد الامبراطور بالسماح له بالتوجه الى بكين . وحمل البرتغاليون معهم كمية من الفلفل بيعوه غالياً . وسمح لهم الموظفون الصينيون ان يبنوا لهم مقراً في جزيرة توان – من ، وهي أسكلة كان التجار القادمون من مالقا يتوقفون عندها .

الا ان سيمون ده اندراد ، وهو جندي جلف بدون تهذيب ، تصرف عام ١٥١٩ وكأنه في ارض تخضع لسيادة البرتغال ، فامر ببناء حصن جهزه بمدافع قصيرة لقذف القنابل ، ونصب مشنقة شنق عليها احد المجرمين ، كما ضرب موظفاً صينياً طلب اليه دفع الرسوم المترتبة على الاجانب . وعندما وصل بيريس الى بكين ، عام ١٥٢٠ ، اتضح للصينيين بشيء من الدهشة والاستهجان، ان اوراق اعتماده لا تنص قط على تقديم الولاء والاحترام ، ولا تأتي على ذكر دفع الخراج، وهي عبارات والفاظ استعملتها ، الديبلوماسية الصينية ، اذ ذاك ، بل جل ما تطلبه ، عقد معاهدة تجارية على قدم المساواة ، مع اعطائهم امتيازاً بانشاء وكالة تجارية لهم . ان قوماً لا آداب لهم ولا احترام عندهم للمراسم المرعية ، لا يمكن ان يكونوا اناساً ذوي اخلاق ، بل انما هم جواسيس وقراصنة وغزاة ، و « اجانب ابالسة » . فاصدر البلاط الامبراطوري امراً حظر على البرتغاليين ان يطأوا ارض الصين . وقد هاجم الصينيون اسطول دياغو كالفو الذي تألف من ثلاث سفن كبيرة وثمانية مراكب ، فاضطر البرتغاليون للتضحية بمراكبهم لانقاذ سفنهم . وفي السنة التالية ، فقد البرتغاليون مركبين ايضاً ، كما ان اربعة سفن اخرى لقيت صعوبات كثيرة لتتمكن من النجاة . وأرسل توما بيريس ورفاقه مخفورين الى كنتون وزج بهم في غياهب السجن حتى سنة ١٥٢٤ حيث مات معظمهم من جراء ما لحق بهم من الهوان وسوء المعاملة التي تعرضوا لها .

وهكذا رأى البرتغاليون انفسهم ، منذ عام ١٥٢٧ ، مرغمين ، على القيام باعمال التهريب من مدينة كوانغ – تونغ في فو – كيان ، وتشي – كيانغ حيث استطاعوا ، منذ عام ١٥٣٣ ، ان يقيموا لهم خفية ، علاقات سرية مع بعض الموظفين الصينيين المحليين ومع تجار التبيذ المحليين . وقد وصلت بعض العمارات البرتغالية بقيادة رئيس – قبطان تحت إمرته سفينة ملكية . وهبط البرتغاليون في جزيرة موحدة بنوا فيها اكواخاً من القش اقاموا فيها من شهر تموز الى ايلول ، وانشأوا لهم سوقاً محلياً واخذوا بالاتجار مع السفن الصينية ثم يتواورون بعد ان يبيعوا منهم ، ما لديهم من الفلفل بسعر معتدل ويشترون موادهم الغذائية باسعار عالية .

وفي سنة ١٥٤٢ ، التقى ثلاثة من رواد البرتغاليين ، مراراً بجماعات من الغور الى ان بلغوا ريوكيو . غير ان سكان البلاد الاصليين الذين كانوا يحرصون على بقاء سيطرتهم على الحركة التجارية اساؤوا وفادة البرتغاليين الذين استأنفوا سيرهم شرقاً الى ان أطلوا على مشارف اليابان. وفي ٢٣ أيلول ١٥٤٣،وصل البرتغاليون الى جزيرة نائية عن أرخبيل اليابان هي جزيرة تانيغا. فقد كان لكشفهم الجغرافي هذا وقع كبير . وفي هذه السنة لم يرجع أحد من التجار البرتغاليين الى مالقا . وفي سنة ١٥٤٤ ، قدمت عمارة برتغالية مؤلفة من عشرة مراكب محملة شحنة حرير ودخلت خليج كاغوشيما . وبذلك ابتدأت هذه الحركة التجارية التي نشطت مجاريها بين مالقا والصين واليابان . ثم جاء الصينيون في أثر البرتغاليين .

كان البرتغاليون ، مع كل هذا ، بحاجة ماسة لقاعدة رئيسية تكون محور نشاطهم التجاري في هذه البحار . ففي سنة ١٥٥٤ ، عقد رئيس قبطان ليونيل ده صوصه ، اتفاقاً شفوياً مع نائب الاميرال في نهر كنتون ، عاملهم معه معاملة السياميين التابعين لامبراطور الصين ، سمح لهم بموجبه بالاتجار. واذ ذاك استطاع البرتغاليون ، باعتبارهم موالين للامبراطور وتابعين له أن ينزلوا ، عام ١٥٥٧ في خليج الإلهة آما : آماكاو ، ومن هذه الكلمة اشتق البرتغاليون كلمة مكاو . وقد سمح لهم الصينيون بالبقاء مشترطين عليهم الا يبنوا حصوناً لهم ، وان يقبلوا بدفع الرسوم المترتبة عليهم للمكس . وعندما كانت تصل لهذا المرفأ سفينة من سفنهم يقوم الصينيون للحال بأخذ مقاييسها وتقييمها لتدفع رسوم الرسو بلنسبة حجمها ، ثم يعملون جردة كاملة بما تحمله من بضائع ووسق ، وبما ينوون شراؤه بحيث يتبين للبرتغاليين ما يجب عليهم دفعه رسوماً للاستيراد والتصدير . وقد حالف الحظ البرتغاليين ، فلم يكونوا ليدفعوا عن سفينة سعتها ٢٠٠ برميل سوى ١٨٠٠ تايل *Taels* كرسم رسو عن اول مرة ، و ٦٠٠ عن كل مرة ترسو فيه فيما بعد ، بينما السفن الاجنبية كانت تدفع ٥٤٠٠ تايل عن كل مرة ، كما ان رسوم التصدير كانت تخفض الى الثلثين . وكان للبرتغاليين حاكم عام برتبة رئيس قبطان برأس عمارة الملك المسافرة الى اليابان . ولم تلبث المستعمرة البرتغالية في مكاو ان شكلت من ذاتها حكومة بدائية تألفت من قبطان وقاض واسقف مع ما يلزم من شرطة محلية حظيت بموافقة الصينيين، ولم يعتم بهم الامر ان نالوا من الملك ترخيصاً بانتخاب حكامهم ، ومجلس شيوخ تولى ادارة المدينة . وتمتع بحق الانتخاب في المدينة كل رعايا ملك البرتغال الاحرار المقيمين في المدينة والمتزوجين فيها ومعظمهم من التجار . فقد كان عدد البرتغاليين في مكاو عام ١٥٦٣ ، نحواً من الف شخص وبضعة آلاف من العبيد والخدم معظمهم من الملايو والهنود والافريقيين ، عدا عن ١٠،٠٠٠ صيني . وعندما ضم فيليب الثاني البرتغال الى املاكه احتفظ البرتغاليون بموجب اتفاق خاص، باحتكارهم الاتجار في ممتلكاتهم عبر البحار ، كما نالوا حرية الاتجار مع الفيليبين الاسبانية والبيرو واسبانيانفسها . وفي سنة ١٥٨٦ أقر نائب الملك في الهند رسمياً ، النظام المعمول به في مكاو واعترف بها مدينة . وفي سنة ١٥٩٤ ، حظر فيليب الثاني على الاسبان الاتجار

مباشرة مع الصينيين ، من جهة ، ومع المكسيك والفيلبين من جهة ثانية . وهكذا ابعد عنهم كل خطر او احتمال اي مزاحمة من قبل الاسبان . وبالاضافة الى هذه الاعفاءات والمنافع فقد سمح للبرتغاليين الاتجار مع كنتون بدون وساطة الاتحاد التجاري الصيني . وفي سنة ١٥٨٢ ، اجاز نائب الملك في ولاية كوانغ -تونغ، للبرتغاليين في مكاو ، بعد ان عرفوا كيف يستميلونه بالهدايا الثمينة ، الاتجار مع كنتون . وفي سنة ١٥٨٤ ، عين امبراطور الصين ، النائب العام البرتغالي في مكاو ، « موظفاً *Mandarin* من الصف الثاني » اي ان النائب العـــام كان يمارس وظيفته باعتباره قاضياً صينياً وتحت الحماية الصينية . وهكذا فالفترة الممتدة بين ١٥٨٤-١٦٠٢ هي الحقبة التي بلغت فيها مكاو الأوج من الازدهار ،باعتبارها المركز الرئيسي للتجارة المحيطية في الشرق الاقصى .

وبعد تجارب ومحاولات متكررة ، وجد البرتغاليون ، في اليابان ، الميناء الأمثل لسفنهم في ناغازاكي،الذي اعطى حاكم المقاطعة الآباء اليسوعيين ترخيصاً بالرسو فيه ، فاصبح منذ عام ١٥٧٢ ، المركز الرئيسي للبرتغاليين في تجارتهم مع اليابان . ان محور الحركة التجارية منذ عام ١٥٥٠ ، تمثل في هذه الرحلة السنوية التي كان البرتغال يهيؤها، او يعطي اعفاء بها لرئيس قبطان يتولى قيادة باخرة كبيرة *nao* الى اليابان . وكانت هذه الباخرة تقلع من غوا بعد ان تزودها السفن البرتغالية القادمة من لشبونة بالبضائع الاوروبية التي كان اليابانيون يرغبون فيها: كالزجاج والبلور والاقمشة الصوفية والنبيذ والساعات والبنادق والانواط والاوسمة ، وجلود قرطبــة ، والساعات الشمسية والشمعدانات والخمل . وكانت هذه الباخرة تتسوق في طريقها الفلفل من كوشي في الملابار ، والحجارة الكريمة من مالقا والمولوسك ، وخشب الصندال والزنجفر وجوز الطيب والصعفران والعنبر الرمادي والبخور البكر والعاج ، كما كانت تشحن من مكاو : الحرير والذهب الصيني . كذلك كانت تشحن نحواً من ١٠٠،٠٠٠ وزنة من الحرير الخام الصيني ، كل وزنة ٦١ كيلو . وهذا الحرير الخام الذي كانوا يبتاعونه من كنتون ، بسعر ٨٠ تائل ، الوزنة الواحدة ، كان يباع في اليابان بسعر يتراوح بين ١٤٠ – ٦٥٠ تائل ، الوزنة الواحـــدة. كذلك كانت الباخرة تشحن من ٤٠٠ – ٥٠٠ وزنة من الحرير الملون بسعر يتراوح بين ٤٠ – ١٤٠ تائل الوزنة ، ليجري بيعه في اليابان بين ١٠٠ – ٤٠٠ تائل من الذهب الخام ، بمعدل ٥ تائــــل ونصف من الذهب في الصين و٧ تائل ونصف في ناغا زاكي . كذلك كانت تشحن : مسحوق الذهب واقمشة قطنية ، والزئبق والنحاس ، والقصدير والرصاص ، والراوند ، والبقم والسكر القاشاني، والحرير والاقمشة المزركشة والاطلس والديباج. وكان امراء الهند يحتفظون لانفسهم بقسم كبير من هذه الاصناف ، كما ان قسماً من اللاك والقاشاني كان يرسل الى اوروبا .

والمهم في هذه الحركة هو الفضة اليابانية . ويمكن رسم صورة تقريبية لهذه التجارة ، على اساس مقايضة الحرير والذهب الصيني بفضة اليابان . وكان قسم من هذه الفضة يستعمل لشراء بعض الاصناف في الصين راسماً بذلك حركة دوران بين الصين واليابان ، كما ان جانبـــاً منه

كان يشحن للهند واندونيسيا وكلا البلدين يفتقران دوماً للفضة. وزاد الاقبال على الفضة اليابانية في القرن السابع عشر، بعد ان هبط وارد فضة المكسيك الى الفيليبين، بعد سنة ١٦٣٠. ونشط اليابانيون، بعد اشتداد الطلب على الفضة، الى استثمار مناجم الفضة في بلادهم، والتحري عن المزيد منها، وكان اغزرها إنتاجاً يقع في جزيرة تسو - شيما، في هذا القسم الأوسط من منحدر هوندو الشمالي باتجاه سيكوك.

وكانت هذه الباخرة تتسع لـ ١٢١٦ برميلا، وقد سماها اليابانيون «بالسفينة السوداء *kouro fume*» لها ثلاثة متون واربعة صوار، وصرح شاهق في المقدمة يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق. كانت هذه الباخرة، تغادر غوا في نيسان او ايار بعد ان تقضي فصل الشتاء في مكاو، فيقوم قبطانها اذ ذاك بدور حاكم المدينة، تأخذ باستئناف رحلتها نحو ناغازاكي مع الرياح الموسمية التي تهب من الغرب الجنوبي، في حزيران او تموز من السنة التالية، فتبلغ ناغازاكي خلال ١٥ يوماً لتغادرها في تشرين الثاني او آذار، حسب طبيعة شحنها، مع الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الشرقي، يقودها ربان برتغالي من الاشراف، تستعين باسفارها بآلات الملاحة المستعملة آنذاك كالبيكار والاسطرلاب و «عصا يعقوب». اما الخرائط الجغرافية فكانت نادرة جداً وسيئة الرسم، بينما أدلة السفر والملاحة البحرية كانت تفيض بالمعلومات والفوائد، فتصف بدقة معالم الشواطىء والمراسي والمواني، ومهاب الارياح والمجاري المائية والتيارات المحيطية.

وتجارة البرتغاليين مع الشرق الأقصى استقلت تقريباً في علاقاتها عن اوروبا التي كانت تصدر القليل، كما كانت تستورد القليل. انجالية صغيرة من الاوروبيين كانت تحمل معها الى الشرق الاقصى روح الاقدام والمغامرة وتتسلح بتقنيات بحرية وتجارية مستثمرة هذه المدة في شبه استقلال من الوطن الام. والارجح ان البرتغاليين كانوا روح النشاط في هذه الحركة التجارية التي عمر بها الشرق الاقصى، اذا ما اخذنا مقياساً على ذلك، مناجم الفضة والنحاس في اليابان، وهذه الروح النقابية التي دبت بين التجار الصينيين.

الاسبان في الفيليبين

بلغت البعثة الاسبانية برئاسة له غاسبي جزيرة سيبو، في نيسان ١٥٦٥، وهي جزيرة كان يؤمها في السنة من ١٢ - ١٥ سفينة صينية قادمة من فو - كيان الى مانيلا، يضاف اليها بعض الزوارق اليابانية موسوقة بالحرير والاقمشة القطنية والقاشاني والقصدير وتعود منها حاملة الذهب والشمع. وكان مسلمو الفيليبين وهم المورو يقومون بدورهم بعملية توزيع هذه المواد والاصناف والبضائع الصينية واليابانية في انحاء الفيليبين. وفي ايار ١٥٧١ استولى له غاسبي على اهم المراكز التجارية التي كانت بيد المورو في مانيلا كما عرف ان يكسب ويحقق خضوع زعماء الفيليبين للسلطة الاسبانية. وقد بدت مانيلا ومرفؤها الممتاز المركز التجاري الامثل للاتجار مع اليابان والصين وجاوا وبورنيو والمولوسك

وغينية الجديدة، اذ كان يفصل بين هذه الاقطار المسافة نفسها بالنسبة لمحور مانيلا في اي اتجاه سرت. ونمت علاقات الاسبان بالصينيين سريعاً وزاد عدد المراكب الصينية حتى ان نائب الملك في فو - كيان ارسل ، عام ١٥٧٤ ، مركباً امبراطوريا واستقدم اليه اربعة موفدين اسبان كلفوا مفاوضته للحصول على مرفأ في فو- كيان والسماح لهم بالتبشير بالانجيل ، وكان يرأس هذا الوفد، الراهب الفرنسيسكاني مارتن ده رادا الذي زودنا باولى معلوماتنا عن ديانة الصينيين . الا انه شجرت اختلافات بين الجانبين دعت لسوء التفاهم ، اذ ان اول حاكم اسباني كان متشامخاً ، جلف الطباع ، وعر الجانب ، انقطعت معها العلاقات السياسية عام ١٥٧٦ ، غير ان الحركة التجارية استمرت كالمعتاد .

وفي اواخر القرن السادس عشر ، كانت « سفينة مانيلا » تغادر مرفأ أكابولكو ، حاملة بانتظام الفضة من المكسيك . وكانت السفن الصينية تأتي في كل سنة الى مانيلا حاملة معها الحرير والنسائج الحريرية والقاشاني والقمح ومعادن الصين لمبادلتها بالفضة . وقد اقام عدد من الصينيين ، تراوح بين ١٠،٠٠٠ - ٢٠،٠٠٠ في ناحية باريان التي تؤلف ضاحية مانيلا . وكان الحرير يشحن من جديد على ظهر « سفينة مانيلا » باتجاه المكسيك ومنها باتجاه اوروبا . وقد تناولت هذه التجارة كميات كبيرة اخذت تزداد سنة فسنة حتى سنة ١٦٣٠ . وكان العملة الفضية الاسبانية ، ولا سيما للريال منها طلب كبير في الصين . وكان يرد منها ، كل سنة ، عن طريق المكسيك بقيمة مليون بيزوس، بحيث ان الاسبان كانوا يحققون من الارباح ما يتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ ٪ ، وهكذا كانت السفن الصينية تفد بكثرة على مانيلا ، وبصورة تصاعدية اذ جاء منها ست ، عام ١٥٧٤ ، و ١٤ - ١٥ سفينة عام ١٥٨٠ ، و ٣٠ كمعدل وسط لهذه السنوات بين ١٥٨٠ - ١٦٠٠ ، و ٥٠ عام ١٦٣١ .

دخول الهولنديين الميدان التجاري وما كان له من اثر

أحدث دخول الهولنديين الحلبة التجارية في هذه المنطقة اضطراباً كبيراً وادخل عليها تغييراً عظيماً . وصلوا الى مكاو ، لاول مرة ، في ٢٧ ايلول ١٦٠١ ، ومنذ عام ١٦٠٦ راحوا يفرضون الحصار على مضايق مالقا وبذلك كادوا يقطعون الاتصال بين مكاو وغوا . وقد ادركوا ، بعد تحريات قاموا بها ، سر النهج او الاسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في اتجارهم مع بلدان الشرق الاقصى ، فأسسوا عام ١٦٠٩ ، وكالة تجارية لهم في فيرندو ، وهي جزيرة صغيرة ترتبط بجزيرة كيو - سيو . الا انهم رأوا انفسهم مضطرين للاعتماد على التهريب واعمال القرصنة للحصول على حرير الصين ، فهاجموا مكاو عام ١٦٢٢ الا انهم رُدوا عنها خاسئين بخسائر عظيمة ، واذ ذاك حاولوا ان يقطعوا مكاو عن اليابان ، ومانيلا عن الصين . فاحتلوا ، في هذا السبيل ، ارخبيل بسكادور وتقدموا من الصينيين بطلب السماح لهم بطلب الاتجار مع فو- كيان عن طريق تنغ - بو . فسمح لهم الصينيون بالنزول في فورموزا والاقامة في تيوان . واستطاع الاسبان من جهتهم ان يستعيدوا علاقاتهم مع فو- كيان ، باحتلالهم تان - شواي الى الشمال من فورموزا .

وفي سنة ١٦٤١ ، استولى الهولنديون على مالقا كما استولوا عام ١٥٤٢ على فان ـ شواي ،وهكذا اصبحوا يسيطرون على المواصلات بين الصين واليابان .

لم تلبث هذه الحوادث ان تركت اثرها البعيد،اذ غيرت وبدلت كثيراً في علاقات البرتغاليين مع اليابانيين . فمنذ ١٦١٨ ، استبدلوا باخرتهم الكبرى *Nao* السريعة العطب باسطول من السفن الصغيرة ، الخفيفة الحركة ، تراوحت سعة السفينة بين ١٠٠ - ٣٠٠ برميل . واشتدت حاجة البرتغاليين للنحاس ليستعملوه لصب المدافع وضرب العملة النحاسية لتسهيل اعمالهم التجارية مع الجزر، بعد ان اخذت الهند والصين تلتهمان الفضة ، وبعد ان تناقصت تدريجياً كمية الفضة المستوردة من العالم الجديد . فقد كان بالامكان الحصول على نحاس اليابان عن طريق مانيلا . وكان سكان مكاو بحاجة ماسة للمصنوعات الاوروبية التي لم تعد لتصلهم عن طريق غوا ، انما تيسر توفيرها عن طريق مانيلا . ولذا راحوا ينمون علاقاتهم مع القاعدة الاسبانية . وقد كان سبق للاسبان ان اعتمدوا،بالرغم من اوامر الحظر،على مكاو في تلبية حاجتهم للحرير . وكانت السفن الاسبانية تقارب من المرفأ بحجة امتيار الماء والتزود منه وشراء العتاد الحربي . فكانت زوارق مكاو تأتي ليلا ناقلة اليهم الحرير والاقمشة الحريرية من الصين . وقد وصلت الحركة التجارية في مانيلا الى الاوج بين ١٦٠٢ – ١٦٢٠ ، وهكذا اصبحت مانيلا قاعدة اساسية لا بد من الاعتماد عليها في تصدير الحرير والالبسة الحريرية من الصين نحو اكابولكو ومكسيكو وفيراكروز وأشبيلية . وبقيت في ازدهارها هذا حتى سنة ١٦٤٠ .

عرف سكان مكاو ان يفيدوا كثيراً من نمو الاقتصاد النقدي في اليابان وتطوره السريع تحت تأثير التجارة الاوروبية ،ولم يكن بوسع اوائل الرأسماليين اليابانيين ان يستخدموا مباشرة وبانفسهم اموالهم في التجارة مع الخارج ، اذ كان يقتضي لهم الحصول مسبقاً على ترخيص بذلك من الشوغون ، وهو ترخيص من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الحصول عليه ، كما انه حظر على اليابانيين ، بعد سنة ١٦٣٦ ، الخروج من اليابان للانقطاع للاعمال التجارية . ولهذا عهد حكام كيو - سيو وغيرهم من بعض حكام المقاطعة الجنوبية باستثمار اموالهم الى بعض تجار مكاو الموثوق بهم ، لقاء فائدة تراوح معدلها بين ٢٥ ـ ٥٠ ٪ وبدلا من ان يستخدم تجار مكاو اموالهم الخاصة في هذه الاعمال التجارية ، اخذوا ، اكثر فاكثر ، يعولون على رؤوس الاموال اليابانية .

والحال، فقد اقصرت الحكومة اليابانية، البرتغاليين ، في بدء الامر ، على الاتجار مع جزيرة دشيما . ثم اخذت منافسة الهولنديين ومزاحمتهم لهم تعنف وتشتد . فقد استورد الهولنديون عام ١٦٣٦ الى اليابان ، ١٤٢١ وزنة من الحرير ، بينما لم يزد ما استورده منه البرتغاليون ، في تلك السنة ، على ٢٥٠ وزنة . فقد استطاع الهولنديون ، فعلاً ، بعد ان تم لهم النزول في فورموزا واقامة وكالة تجارية لهم في تيوان ، ان يحولوا نحو مرافئهم، عن طريق فو – كيان ، جانباً كبيراً من الحرير الصيني الذي كان يصدّر من قبل ، الى كنتون ومكاو . ومع ذلك فقد

استطاع البرتغاليون ان يعودوا من اليابان ومعهم من الفضة ما يعادل ثمنه ٧ ملايين فلورين ، بينما عاد الهولنديون باربعة ملايين لا غير ، وفقاً لتقديرات الهولنديين انفسهم . ومع ذلك ، فالنشاط الذي بعثه الاوروبيون في هذه* الحركة التجارية ، عاد بالفائدة الكبرى على الآسيويين انفسهم بعد ان ساروا في اثرهم واحتذوا حذوهم . ففي عام ١٦٣٦ ، جاء اليابان اربع سفن برتغالية و١٢ سفينة هولندية ، بينما كان يصلها ، كل سنة من ٥٠ - ٦٠ سفينة صينية قادمة من مرافىء ننغ - بو وفو - تشيو ، واموي وكنتون .

اخيراً ، بعد ان اوجس الشوغون خيفة من المرسلين ومن تأثيرهم السياسي على البلاد ، طرد عام ١٦٣٩ ، السفن البرتغالية . ولم يسمح لها بتفريغ شحنها . ثم امر بابعاد كل البرتغاليين من اليابان حتى من جاء من اولادهم بالزواج من برتغالي ويابانية . ومنذ عام ١٦٤٢ ، سمح للهولنديين وحدهم بالتعامل مع جزيرة دشيا والاتجار مع اليابان ، هذه الجزيرة التي كانت عماد الحركة التجارية في بحار الصين ، وبذلك كادت هذه البحار تغلق في وجه الاوروبيين .

ففي سنة ١٦٤٠ ، ثار البرتغال في وجه اسبانيا وانضم سكان مكاو الى جانب ملك البرتغال الجديد ، مما سبب انقطاع العلاقات التجارية بين مكاو ومانيلا ، والخفض بالتالي المنسوب التجاري بينهما ، الا ان مانيلا عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع سواحل فو - كيان . غير ان هذا الحادث السياسي وانهيار انتاج الفضة في المكسيك والمنافسة الشديدة التي قامت في وجهها من قبل الهولنديين وضع حداً للدور العظيم الذي طالما مثلته كوسيط بين الصين واوروبا .

ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر ، يتوزع النشاط التجاري ، بين اوروبا والصين ، على اكبر الدول ، كما اخذ نطاقه ، كما يبدو ، يضيق اكثر فاكثر . ان اقفال اليابان في وجه التجار الاوروبيين خفض كثيراً من اهمية الحركة التجارية ، في هذه البحار . فلم يعد يسمح للهولنديين ان يدخلوا اكثر من سفينتين الى اربع سفن في السنة بعد ان بلغ عدد السفن من قبل ١٢ سفينة ، ثم جاء طردهم من فورموزا عام ١٦٦٢ على يد القرصان كوكسنغا ، وفقدوا مراكزهم المتحكمة بالحركة التجارية بين كنتون وناغازاكي ، وبين ننغ - بو ومانيلا . اما الاسبان فقد وفقوا ، عام ١٦٦٩ ، الى عقد اتفاق تجاري مع دولة تسنغ ينظم الحركة التجارية بين مانيلا وكنتون وننغ - بو . وهكذا اطرد قدوم السفن الصينية الى مانيلا . الا ان ندورة الريال الاميركي احدث رجة وهبوطاً في مستوى الحركة التجارية .

اما الانكليز فقد قاموا من جهتهم بعدة اسفار ، كالرحلة التي قام بها هنري بونفورد الى مكاو ، عام ١٦٣٦ . وقد شعرت الشركة الانكليزية الهند الشرقية طويلا بضعفها حيال النهوض باسباب التجارة مع الصين . والراجح ان الشركة المذكورة حاولت في اواخر القرن ان تنظم تجارتها مع الصين ، اثر اشتداد الطلب على الشاي في انكلترا . ومنذ عام ١٦٩٩ ، اخذت الشركة تقوم برحلات منتظمة . ونالت عام ١٧٠٠ ترخيصاً لها بفتح وكالة لها في كنتون .

اما الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، التي تأسست بفضل مساعي الوزير كولبير ، فقد حصلت على حق التجارة الفرنسية مع العجم والصين . الا ان اهتمامها انصرف بالاكثر ، الى الهند ، وتخلت عام ١٦٩٨ عن احتكارها المتاجرة مع الصين . وفي هذه السنة بالذات اسس الصناعي الباريسي الكبير جوردان الذي كان يعنى بصناعة البلور « شركة الصين » وذلك نزولا عند مطلب المرسلين وبحثاً عن الاموال اللازمة للارساليات الدينية . وتألفت الشركة من تجار باريسيين واعضاء البرلمان ، وقامت الباخره أمفتريت بأولى رحلاتها ، الى الصين في عام ١٦٩٨ / ١٧٠٠ ، وعادت حاملة شحنة من الحرير الخام والاقمشة الحريرية عادت عليها بربح وافر بحيث وزعت على المساهمين حصصاً بلغت ٥٠ ٪ من رأس المال . وانضمت الشركة الى شركة اخرى في سان مالو ، واستؤنفت الحركة التجارية مع مكاو واموي ، ولا سيا مع كنتون ، بالرغم من بعض التغييرات التي لحقت بالشركة في فرنسا . الا انه صدر منذ عام ١٧١٣ قرار بمنع استيراد الحرير الصيني منعاً لمنافسته الحرير الفرنسي . ومنذ ذلك الحين دب الوهن الى الشركة الفرنسية .

وقامت الباخرة سانت انطوان ، عام ١٧٠٨ بالالتفاف حول اميركا ، وجاءت والقت مرساها في مدينة كونسبسيون في الشيلي ، ومنها بلغت الصين عن طريق بحار الجنوب . وحذا حذوها سفن كثيرة بعدها .

سجل تاريخ الحركة مع الصين ، منذ سنة ١٧٠٠ ، طلوع حقبة جديدة اذ لقي كل الاجانب استقبالا حاراً في كنتون ، مع انهم أقصروا على التعامل مع الصينيين بواسطة فريق معين من تجارهم ، عرفوا باسم *Honistes* بينما وجدت اوروبا نفسها في ازمة من التأخر والقهقرى التي طبعت الحركة الاقتصادية ، في القرن السابع عشر . فالحكومات الاوروبية انهمكت ، بل غرقت في هذه الحروب الواسعة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر ، ولا يتمالك المراقب المنصف نفسه من الشعور بالتفتت والتأخر .

اما من البر ، فما زال الروس في تقدم مطرد . فقد فصل بينهم وبين الصين في آسيا حاجز من القبائل البدوية الرحل . الا انهم اصطدموا بالصينيين ، في الشمال الشرقي من منغوليا . فبعد ان قام الروس باستكشافاتهم الجغرافية في حوض نهر العامور على يد رحالتهم بوياركوف (١٦٤٣ – ١٦٤٦) ، اسسوا ، على النهر المذكور ، قلعة البازين عام (١٦٥١) . اما الصينيون ، فقد حرصوا من جهتهم ان يبقوا تحت اشرافهم المباشر ، المشارف المطلة على الصين من الشمال . ففي سنة ١٦٨٥ ، تمكنوا بواسطة ٢٠٠ مدفع صبها لهم الآباء اليسوعيون ، مقابل ثلاثة للروس ، من الاستيلاء على ترشنسك ، واعملوا فيها النار وانسحبوا منها . وعاد الروس الى احتلال هذه المدينة ، عام ١٦٨٦ . وقام الصينيون يحاصرونها من جديد ، بالرغم مما قام بين الجانبين من رغبة صادقة في اقامة اتفاق سلام دائم . فصينيو الشمال كانوا بحاجة للفراء ، وفي مقدور سيبيريا ان توفر لهم من الفراء الجيد ، ما لا قبل لمنشوريا ومنغوليا بتقديمه . كذلك رغب

الروس ، من جهتهم ان يوطدوا صندوق دولتهم ، بالمعادن الثمينة ، عن طريق بيع الفراء . وكان الروس يجهلون اللغة المنشوية والصينية كما كان الصينيون ، يجهلون ، هم ايضاً ، الروسية . فاستخدموا ترجماناً فيما بينهم ، راهباً يسوعياً في بكين يدعى الاب خربيلون . وفي ٦ ايلول ١٦٨٩ ، وقّع الطرفان معاهدة نرشنسك ، تخلى الروس بموجبها ، عن حوض نهر العامور للصينيين ، لقاء اطلاق الحرية لرعاياهم بالاتجار في الصين ، بعد تزويدهم بما يلزم من الترخيص القانوني . وهكذا امكن للروس ان يبعثوا كل سنة بقافلة الى بكين . فكانت هذه المعاهدة اول معاهدة تعقدها الصين مع دولة اوروبية .

كل هذا النشاط التجاري لم يتناول ، نسبياً ، سوى مقادير طفيفة من البضائع والسلع اذا ما قارناه بالنشاط العارم الذي سجلته التجارة العالمية في القرن العشرين . فقد انقطع لهذا النشاط عدد من الاوروبيين قضوا معظم حياتهم العاملة ، في الشرق الاقصى ، بينما عرف فريق آخر بينهم ان يحقق ارباحاً وافرة . عادت هذه التجارة ، على اوروبا ، بنتائج لا تنكر ، اذ ضمنت لها وصول الفضة سبائك او نقداً مسكوكاً ، جاءها بالاخص ، من الصين وجزر السوند ، وساعد على توفير كميات المعادن الثمينة في اوروبا وساعد على تأزم الوضع الاقتصادي ، خلال الضائقة التي نشبت اظافرها في القرن السابع عشر .

اما في آسيا فالنتائج التي ادت اليها هذه الحركة التجارية ، كانت اكبر أثراً وابعد شأناً واهمية . فقد لعب الاوروبيون ، في هذا المجال ، دور المثير المحرض ، فعاد ذلك بالنفع على الصينيين واليابانيين وسكان الفيليبين والمالو . وكان من نتائج هذه الحركة ، كما يرجح العارفون ، إدخال الاقتصاد النقدي الى اليابان بعد عام ١٥٦٩ ، وما ادى اليه توفر النقد من نتائج اجتماعية هامة . الا ان نمو التجارة البحرية وظهور بورجوازية قوامها التجار دليلان مهمان على ما كان لهذه الحركة من شأو بعيد . ومع ذلك فلم تحدث اي تغيير ملموس في حضارات الشرق الاقصى ولا في الحضارة الاوروبية ولم تخل الازمات الاقتصادية التي وقعت في العالم الجديد وما ادت اليه من تقلبات ، من تأثير ظاهر على الوضع الاقتصادي في الشرق الاقصى ، ومن الشرق الاقصى على اوروبا . وهكذا اصبح بالامكان التحدث عن اقتصاد عالمي ، تناول العالم بأمره .

٣ – التبشير بالمسيحية في اليابان والصين

التبشير في اليابان وفلسفة الأنوار

في كانون الأول ١٥٤٧ ، قدّم بحارة برتغاليون ، لدى عودتهم من اليابان ، الى فرنسوا كسافيه ، فرصاناً يابانياً من جنود المرتزقة ، اسمه ياجيرو ، أخذته الندامة على ما اقترفت يداه من معاص وموبقات . فلم يعرف كهنة بلاده ان يؤمنوا له راحة الضمير وهدوء البال ، عندما طلب اليهم مساعدته . فلقنه فرنسوا كسافيه اصول الدين المسيحي ، وعمده في مدينة غوا ، في العاشر من ايار ١٥٤٨ ،

يوم عيد العنصرة بالذات ، وسمّاه بالعماد : بولس ده سانتافيه ، فكان فاجيرو بذلك اول ياباني يعتنق المسيحية ، ولأول مرة أيضاً وجد فرنسوا كسافيه أمامه انساناً شرقياً يناقشه ويجادله مبدياً فرقاً عظيماً بين وضعه ووضع هؤلاء الهنود الذين يتقبلون بلا مبالاة ما يلقي اليهم من تعاليم جديدة ، وبين حقد المورو في الفيليبين واعراض البراهمان في الهند ، بحيث خُيل الى فرنسوا كسافيه امكان قيام مسيحية في اليابان يمكن ان تقوم بأمر الرسالة ونشر الايمان بين الآسيويين في الشرق الاقصى . وقد ذكر فاجيرو بطيبة قلب ، وبدون أنانية مبطنة ، بعض التفاصيل السطحية جعلت فرنسوا كسافيه يتصور ان ديانة اليابان قريبة من المسيحية وان امر اعتناقهم للتعاليم المسيحية سهل التحقيق ، قريب المنى .

والحقيقة انه قام بين المسيحية والديانات اليابانية كالشنتوية والبوذية هوة سحيقة بعد ان تملت الأولى ، الكون ، مليئاً بالوف الأرواح Kami تسرح في الشمس والقمر وتوجد مع الريح والعاصفة وفي الينابيع والجاري المائية والصخور والأشجار وغيرها. وبين هؤلاء الأرواح Kami أرواح الأبطال والجدود الأول لنبلاء البلاد واشرافهم . وهذه الأرواح طغمات تقوم على مراتب مسلسلة، زعيمتها اماتيراسو إلهة الشمس. فقد ارسلت نينسي نوميكوتو، جد جيمو – تنو ، اول امبراطور قام في اليابان . وتتم للناس السيطرة على هذه الأرواح بالصلاة والطهارة والتطهيرات الطقسية وتنفيذ الوصايا الخمس : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزنِ ، لا تجزع للامراض التي لا دواء لها يُستطب به ، والصفح عن اهانات الغير .

أما البوذية فكانت على مذهب مهيانا الذي جاء من الصين في القرن السادس ، الذي امتص الشنتوية وتمثلها ، إذ قال وعلم ان الأرواح هي مظاهر وأشكال آنية لبوذا . وتفرّع عن البوذية عدد لا يحصى من الملل والنحل ، اهمها آنذاك ، من الوجهة الاجتماعية والسياسية ، مذهب إيكو Ikko وهوكيه Hokké وزن Zen . اما أتباع مذهب إيكو وهوكيه فقالوا ان الخلاص انما يحصل باستحقاقات بوذا . ويكفي المؤمن في مذهب إيكو ان يبتهل ولو مرة واحدة لبوذا – اميدا ، بايمان حار وصادق برحمته وحنانه ، لينال بنعمته وشفاعته : « الأرض النقية » حيث ينعم بالفيض الاشراقي . فالخلاص هو ايضاً من نصيب افقر الناس واوضعهم حالاً إذ يكفي له حركة بسيطة من حركات القلب . وقد قالت هذه الطائفة اساساً بالمساواة ولم يكن لها من طقوس ومراسم ، ولا كهنة عندها ، اتباعها من طبقات الشعب الدنيا ولا سيما من الفلاحين والمزارعين . اما طائفة هوكيه Hokke ، فالخلاص لدى اتباعها انما يحصل بتلاوة صلاة معينة ، تلاوة متصلة بخشوع « تكريم لوتس الحقيقة الكاملة » التي على يدها تتم الحقائق المعلنة في كتاب الشاكا . وترى في المريد او التابع ، نفس بوذا الكونية الخالدة . وكان بامكان هذا المذهب ، ان يعيد ، ببساطته ، الوحدة بين اليابانيين ، وان يؤمن القوة للدولة . ولذا فطائفة الهوكيه التي كان لها اتباع كثيرون ، بين الشعب ، كانت بمثابة ديانة اليابان القومية .

اما طائفة زن فقد فرضت على اصحابها ان يستجمعوا تفكيرهم ، حول تعاليم بوذا ، في

محل منفرد او دير يعرف باسم *Zendo* او « بيت التأمل » ، وهناك يحاول ان يتجرد من أهوائه ورغائبه بالزهد والتمشق والطاعة . فهو يضرع ويتأمل بحيث يذوب او يغرق في « الفراغ » في المطلق ، غير ان مذاهب المنطق ومصطلحاته وصيغه تفقدنا قسماً من الحقيقة فتحجرها وتقتلها. فالمهم في الدرجة الأولى الحصول على الحقيقة ، الحية ، النابضة ، والوصول الى المطلق في هذه الكائنات الخاصة ، وفي الحال ، عن طريق الاكتناه . وإذ ذاك يتم الفيض فجأة ، وبلمحة طرف يرى المؤمن العالم كما كان يبدو لبوذا سكياموني نفسه ، وبذلك ، يرى نفسه متحرراً : فما من شيء يزعجه او يقلق خاطره . وهذا المؤمن لا يمكن ان ينعم بهذا الفيض إلا بالمجاهدة الشخصية . اما قدرة المعلم زن فتقوم في ان يقسط له الـ *koan* ، بحيث يتجاوز بعيداً ، كل مظاهر الفكر الى ان يتبين للمؤمن ما في الألفاظ والكلمات من خواء وفراغ اجوف .

اما الكوان فهو صيغة او وضع فوق تناول المنطق وادراك العقل . فعندما يسأل المؤمن : « من هو بوذا » يجيبه الربان زن : « الخيزران ينبت قريباً من الهضبة » . فالقصد الذي يرمي اليه المعلم او الربان هو ان يصطدم المؤمن بالكوان ، الى ان يتبين ، فجأة ، خواء صيغ الفكر والفراغ القائم وراء تراكيب وصيغ النحو والمنطق الصوري ، وكل اشكال الفكر ، الى ان يتألق النور حوله ، وتبدو له الحقيقة . بعد هذا الفيض يعود المؤمن الى الحياة في العالم ، بين الناس ، ويختلط بحياة المجتمع ليبلغ النضج باتيانه اعمال البر والتقى وبمحاولته ، في كل دقيقة ، ان يرى ماجريات الحياة العادية كما يراها بوذا نفسه .وهكذا يختلف صاحب مذهب زن عن الهندي اليوغي من حيث ان هذا الأخير ينقطع للوحدة والتنسك ليذوب في المطلق عن طريق انخطاف الذات . صحيح ان القائل بمذهب الـ زن يحاول ، هو الآخر ، الذوبان في المطلق ، انما عن طريق العيش في العالم ، وعن طريق السلوك الشخصي بواسطة الرؤية الشخصية . وهكذا فطائفة الزن هي المدرسة الفردية التي انتشرت بالأكثر ، بين النبلاء والعسكريين .

وبدون ان يفطن لشيء من هذه الأمور التي تلابس التركيب الديني في اليابان والصعوبات التي تنتظره من جراء هذا الوضع ، حط فرنسوا كسافيه رحاله في ١٥ آب ١٥٤٩ ، في الطرف الجنوبي من جزيرة كيوسيو اليابانية في خليج كاغوشيا ، وبصحبته فاجيرو والآباء الاسبانيون كوسم ده توريس وخوان فرنانديس. وراح فاجيرو يخبر الحاكم شيمازو تاكاهيا ، في مدينة كوكوبو ، بما لفرنسوا كسافيه من شأن رفيع ومنزلة عالية لدى البرتغاليين ، فراح هذا يأمل ان يفد التجار البرتغاليون الى مرفئه ، عن طريق كسافيه وتحريضه لهم. واصدر في الحال امراً اجاز فيه لرعاياه اعتناق الديانة المسيحية . واخذ فرنسوا كسافيه بالتبشير ، الا انه لم يلبث ان تبين انه راح ضحية الوهم والخيال : فالكهنة يؤمنون بعالم لا بداية له ولا نهاية ، وانهم لا يقولون بخلود النفس الشخصية ، كما اتضح له ان اليابانيين ألفوا عملية الاجهاض وقتل الاطفال ، وانهم من اصحاب اللواط وعبادة الاصنام . فلم يكن لهم اية فكرة عن خلق العالم ، ولا أي رأي او فكرة عن الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع

ان يكسب للمسيحية التي جاء لنشرها ، سوى مائة شخص لا غير .

وفي هذه الغضون، وصلت سفينة برتغالية الى هيرادو الواقعة الى الشمال الغربي من كيوسيو. وإذ راح شيازو تاكاهيا يتبرم متأففاً ، صارحه المرسل الكاثوليكي ان لا سلطة له على التجار البرتغاليين واذ ذاك ، اصدر هذا الحاكم اوامره لرعاياه بالامتناع عن التنصر تحت طائلة عقوبة الموت ، كما حظر على المرسلين الاقتراب من مقاطعته او العمل فيها .

وفي تشرين الأول ١٥٥٠ جرى استقبال حار لفرنسوا كسافيه في هيرادو من قبل الحاكم ماتسودا تاكانوبو ، أملاً منه ان يكون ذلك حافزاً على تمتين علاقاته مع التجار البرتغاليين . وسمح لكسافيه بالتبشير بالمسيحية في إيالته. ومن هناك اتجه فرنسوا كسافيه لمقابلة الامبراطور في كانون الثاني ١٥٥١ أملاً منه بالحصول على ترخيص له بالتبشير بالمسيحية يُعمل بموجبه في كل اليابان ويصلح للتبشير دونما معارضة في أي مكان . وكم كانت دهشته عظيمة اذ اتضح له ان الامبراطور لم يكن سوى مسكين يلهو ببيع المراتب والالقاب الشرفية . ثم حاول ان يقابل الشوغون ، فراح الحرس يرد بعيداً هذا الزائر الطارىء الذي يرتدي الاسمال والثياب الرثة .

واذ ذاك قرر فرنسوا كسافيه انتهاج نهج جديد في رسالته التبشيرية. ان فقره وعدم مبالاته بالاهانات التي كان البعض يلحقها به حملت الناس على الاستهانة به والسخر منه وتلقيبه القابـــاً هُزأة فيعرضوا عن الديانة التي يبشر بها ويدعو الناس اليها . فارتدى آنئذ زياً جميلاً من الحرير الثمين وراح يهاجم الهازئين به ويرد على تخرصاتهم بالسوء عليه . واذ اتضح لـه ان اقوى اسياد اليابان وامرائها هو النبيل الحاكم أوشي يوشيتاكا ، حاكم سوفو، قصده في قصره في ياماغوشي، على ساحل البحر الداخلي . وقد رجا هذا الزعيم ان تسهل له هذه الزيارة اسباب الحصول ، من البرتغاليين ، على الذهب والاسلحة النارية ، ولذا رخّص للمرسلين اليسوعيين بالوعظ والتبشير والتنصير ، وقد وجد فرنسوا كسافيه في ياماغوشي بلاطاً ذواقة عالي الثقافة يحب اهله الجدل والنقاش ، فترتفع منزلته بينهم ويزداد نفوذاً واحتراماً لدى القوم لعلومه الوافرة ولمعرفته علـم الفلك . وبفضل إتقانه لمنطق ارسطاطاليس واخذه بالقياس يوقع البلبلة في قلوب محاوريـــه ومجادليه ويجعلهم يتخبطون في بحر من المتناقضات والسفاسف والترهات ، لم يعرفوا لهم منه مخرجاً . واخذ فرنسوا كسافيه يزداد شعوراً ويتحسس على ضوء اتصالاته هـــذه ، الفرق بين الديانات اليابانية وبين الديانة المسيحية . فقد ترجم كلمة « الله » بكلمة : داي نيشي : « مبدأ الكائنـات » . كذلـــك تبين له ان كلمـــة « الاصـل الاول للاشيـــاء » لا تعني الله الخالق او المبـدع ، بل انما تعني عندهم « الهيولى » التي تقـع تحت الحــواس . واذ ذاك انطلق من فلسفة طبيعية صرفة ، وبرهن عن طريق العقل ، عـــن وجود الله الشخصي وعن خلقه العالم ، وعن خلود النفس البشرية .

فاحتج عليه اليابانيون قائلين : « اذا كان الله خيراً هو ، فما معنى هذا الشر الذي نراه امامنا

على الارض ؟ فاجابهم قائلاً : ان الله كلي الكمال . فكل ما ليس في الله لا يمكن له ان يكون كاملاً ، والا اختلط بالله وامتزج به . فالشر في العالم ، على عكس ذلك ، دليل على وجود الله الخالق الشخصي . وهكذا نرى فرنسوا كسافيه اخذ يبشر بوحدانية الله على نور العقل بقطع النظر عن الوحي الالهي . ولما كان مشبعاً بتعاليم الرسول يوحنا فقد ظن ان المسيحية ستنبع من ذاتها فيما بعد . وراح يعمد يابانيين لم يكلمهم قط عن يسوع المسيح ، وبعد العماد كان يطلعهم على لب العقيدة المسيحية ، ورسالة السيد المسيح ، وسرّي التجسد والفداء والصلب . وهذا المنهج هو الذي عوّل عليه المرسلون اليسوعيون فيما بعد ، في كل انحاء الشرق الاقصى ، كما في اوروبا ، وربما طبقوه في جامعاتهم في اوروبا ، اذا ما اقتضى الأمر . أفلا تصبح الديانة الطبيعية مبدأ الايمان بالله مجرداً عن الوحي ، اصل فلسفة الانوار .

ومهما يكن ، فقد توصل فرنسوا كسافيه ، منذ تموز ١٥٥١ للحصول على ارتدادات بين حكام المقاطعات وبين النبلاء وبين سيدات البلاط والمفكرين . وبالرغم من جهوده ، فقد حصل بعض التشويش من جراء تأخره في البحث عن الخصائص المميزة للديانة المسيحية باستعماله بعض المصطلحات اليابانية ومن بعض التشابيه الخارجية . فقد خلط تلاميذه بين « الرياضة الروحية » التي علمها اغناطيوس ده لويولا وبين تأملات زن ، وانزلوا صلاة الوردية منزلة الزوزو التي تتألف من ١٠٨ حبات اشبه ما تكون بالسبحة ، كذلك خلطوا بين هذه التعاويذ الحريرية التي تحتوي في داخلها صلاة بوذية وبين حجابات فرنسوا كسافيه التي كانت تضم آية من آيات المزامير . فقد رأى فريق لا يستهان به من المرتدين ان المسيحية انما هي شكل جديد او صيغة جديدة من صيغ البوذية .

وآخر حجة عند كهنة اليابان على عدم صحة المسيحية هي عدم اعتناق الصينيين لها وعدم اخذهم بتعاليمها. ولذا توجه فرنسوا كسافيه نحو الصين ، في تشرين الاول ١٥٥١ ، بعد ان اقام تقريباً ٣٠ شهراً في اليابان . فقد كان من إشعاع ايمانه وشدة تأثيره على روح المسيحيين، في اليابان ان بعد مائة سنة تمر على وفاته ، كان الشهداء اليابانيون ، يضرعون ، وهم يقاسون عذابات الاضطهاد الواناً ، ويتوسلون وهم في حشرجة الموت ، الى القديس فرنسوا كسافيه .

خلفه في رئاسة العمل الرسولي ، الاب كوسم ده توريس ، من ١٥٥١ – ١٥٧٠ ، واستمر التبشير بالانجيل في هذه المرافىء التي كانت تؤمها السفن البرتغالية. وقد يكون الآباء اليسوعيون هم الذين نظموا ، عن طريق السلطات البرتغالية ، الرحلة السنوية الى اليابان ، بعد ان طلبوا ممن بيدهم الحل والربط الا ترسو السفن البرتغالية الا في هذه المرافىء الواقعة ضمن المقاطعات التي اجاز حكامها التبشير فيها بالمسيحية، امثال : اوتومو يوشيا في فوتاي ، واوشي يوشيتاكا في سوفو ، ومتسورا تاكانوبو في هيرادو . فالرغبة في التغلب على منافسه ، حملت حاكم مقاطعة اوموراً سوميتادا ، على اعتناق المسيحية ، عام ١٥٥٣ ، كما حملت خصمه ومزاحمه حاكم أريما على الحذو حذوه . كذلك نجح اليسوعيون في تحقيق ارتدادات في مقاطعات غوكيناي وفي

مناطــق اوزاكا وساكاي وكيوتو وفي جزيرة هوندو . وقــد حاول حكام الحصون في هذه المقاطعات ، ان ينتزعوا مع ما لديهم ، من رهبان اديار البوذية ، بعد ان اختلفوا معهم ، ما كان لهم من نفوذ وسلطة على الفلاحين والجنود .

كانت النتائج التي توصلوا اليها، سريعة العطب ، واهية . ففي هذه الفوضى التي تتحكم فيها اليابان ، يكفي ان يحدث انكسار احد الحكام الاصدقاء ،حتى يخسر هذا الحاكم كل مقاطعته، ومن ناحية اخرى ، كان اليسوعيون بأشد الحاجة للنقود . فقد اضطروا ، منذ عـام ١٥٥٥ ، ان يستودعوا بعض التجار البرتغاليين ، مبلغاً من المال لشراء كمية من الحرير من الصين، يبيعونها لحسابهم في اليابان ويدفعوا لليسوعيين الارباح بعد قطع عمـولة عليها ، التي تمكنهم مـــن العيش والاستمرار في رسالتهم. وقد تأمنت هذه التجارة عندما راح حاكم مقاطعة اومورا سوميتادا المسيحي يجيز لليسوعيين التبشير بالانجيل في ناغازاكي عام ١٥٧١ ، حيث كانت تصل الباخرة البرتغالية . وقد راح الاب فالغناني ينظم تجارة اليسوعيين عام ١٥٧٨ بعقده اتفاقاً مع تجـــار مكاو . وقد غض البابا النظر عن هــذه المعاملة اذ لم يكن القصد منهـــا الكسب والارباح لمجرد الربح ، بل في سبيل العمل المسيحي . وهكذا استطاع الآباء اليسوعيون ان يعتمدوا على ربـح يحققونه ، يتراوح بين ٤٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ دوقا في السنة .

اما الاب بلتازار غاغو الذي كان على رأس الارسالية في هيرادو فوناي ، فقــد قامت بينه وبين رهبان زن مجادلات دينية ، فسنحت له الفرصة بذلك ان يضع كتاباً بعنوان : « موجز ضالات الكفار في اليابان ». ولاول مرة جرى التمييز بين الشنتوية وبـــين البوذية ، كما اتضحت حقيقة هذه الايحاءات المزعومة لشاكا اميدا . فقد جاء على لسان شاكا في الكتاب المنسوب اليه وعنوانه : « لوطس الحقيقة الكاملة » : على كل انسان ان يسعى لخلاصه بعمل الخير وبالتضرع الى هوتوكيـــه المخلص لئلا تذهب نفسه للجحيم ، بـــل على عكس ذلـــك ، تذهب الى النعيم وهنـــا توصل الاب غاغو الى الاكتشاف الاساسي في ان شاكا نفســه في كتابـــه المذكور اعلاه ، يعترف في آخـــر الكتاب بان تعليمه ليس سوى *Hoben* ، اي ليس سوى اكذوبـــة مضحكة ، معدّة لهذه الجماهير الجاهلة المتوحشة . وحقيقة تعاليمه التي تتفق تمامـــاً مع تعاليم البوذية ، هي انه ليس هنالك مخلص ، ولا روح ولا نعيم ولا جحيم ، فالفردوس او النعيم هـــو طمأنينة النفس في الانسان بعد ان يكون تغلب على ما فيه من رغائب واهواء ، والالم واللذة والشعور بحيث يصل الى الوضع الذي بلغه بوذا . اما الجحيم فيتمثل في وضع هذا الانسان الذي استسلم بكليته لجميع اهوائه في هذا العالم . فليس مـن اله شخصي متسام ، فالمبـدأ الاساسي او *Hombun* ، لا يحيى ولا يعيش ، ولا يموت ، ولا يمتزج عملياً بالعناصر الاربعة التي من تمازجها وتخالطها ، والتراكيب المختلفة التي تؤول اليها ، تطلع من هذه الكائنات. ليس من نفس فردية او شخصية ، اذ ان كل شيء يتركب من هذه العناصر الاربعة ينتهي دوماً الى الانحلال . والحال ، ان هذه الافكار الاساسية في عقيدة شاكا وجدها غاغو لدى كل المذاهب البوذية كما انه كشف

عن جميع الاتجاهات المتضادة تماماً ، بين البوذية والمسيحية . ولكن هذا Hoben ، الا يوجد في صلب اساس هذه الفكرة المألوفة في فلسفة الانوار ، التي تقول بان الديانات الموحى بها هي من نسيج هؤلاء الكهنة السحرة وخزعبلاتهم ؟

واذ ذاك عمد الاب غاغو الى اعداد تعليم مسيحي جديد ، عدل فيه عن النهج الذي سار عليه فرنسوا كسافيه باستعماله المصطلحات اليابانية التي خلقت هذا الالتباس بين البوذية والعقائد المسيحية ، واستعمل بدلاً منها مصطلحات لاتينية وبرتغالية مع مرادفاتها باليابانية ، منها مثلاً : «... Substantia Hitotsuna, Persona - Mitsuna - Spiritu Suneta, Filio, Pater, Deos» وشدد بعكس فرنسوا كسافيه على بعض الافكار الاساسية في المسيحية ، كالخطيئة الاصلية ، – المسيح – التجسد – الفداء . الا انه رأى ، هو ايضاً ان يؤجل ، الى ما بعد ، الكلام عن يسوع المصلوب ، لان فكرة الله المصلوب لا يمكن ان تتقبلها الذهنية اليابانية . قبل كل شي، يجب تنصيرهم بالعماد والتدرج ، فيا بعد ، في عرض اصول تعاليم المسيحية .

واستطاع الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٧٠ ، ان ينصّروا حكام بعض الولايات اذ ان تنصيرهم كان يجر معه تنصير سكان كل الولاية او المقاطعة ، امثال اومورا سوميتادا ، وآريما يوشيسادا ، واوتومو يوشيهيجه . ووثقوا صداقاتهم مع اودا نوبوناغا عن طريق احد جنوده المدعو هيدا يوشي . وقد لقي اودا نوباناغا معارضة كبار اديار البوذيين وعدائهم . ففتح امام اليسوعيين الولايات التي تم له فتحها ،ونصف ولاية هونود . واخذت المسيحية تتسع وتنتشر مع التنظيم الجديد الذي تم للدولة اليابانية المناهضة لنفوذ الاديار البوذية التي كانت في عداد الامارات السيادية .

وقد قرر الاب فالفنياني خلال الفترات الثلاث التي قضاها في البلاد: الاولى من ١٥٧٩–١٥٨٢ والثانية من ١٥٩٠ – ١٥٩٢ ، والثالثة من ١٥٩٨ –١٦٠٣، انشاء اكليروس وطني ياباني . وفي هذا السبيل انشأ كلية في فوناي ومدارس اكليريكية في كل من آريما وأزتوشي ودير ابتداء في أوزوكي ، كما اكثر من انشاء مراكز ثابتة للرساليات ضم الواحد من ٦ – ٧ رهبان يسوعيين ، يساعدهم الـ doshukus وهم من الاخوة العلمانيين . ويشد من ازرهم علمانيون عرفوا بحسن تقواهم يدعون Cambos . وهكذا اصبحت اليابان «نيابة ايالة رسولية» .فقد بلغ عدد المسيحيين فيها في مطلع القرن السادس عشر نحواً من ١٥٠ الفاً،توزعوا على ٢٠٠ كنيسة او رعوية انتشرت في كل مكان حتى في الجنوب من جزيرة يازو . اما المجتمعات المسيحية الكبرى فقد قامت في جزيرة كيو – سيو ، وفي هوندور في مقاطعة غو – كيناي . والدليل على ما بلغت اليه كثافة المسيحيين في البلاد الوفادة التي جاءت روما والتي تألفت من حكام اومودا وآريما ، وهما اميران أتيا مع شقيق حاكم بونغو وحاكم أريما ، فاستقبلهما البابا ، عام ١٥٨٥ ، والدموع تنهمر بغزارة من عيون الكرادلة لشدة الفرح .

جاء تنظيم الدولة الجديد في اليابان يحد من عمل الرسالة وانتشار المسيحية بعد ان كان الوضع من قبل ، مسعفاً لها . فقد دهش هيدا يوشي من نفوذ اليسوعيين وما لهم من شأن بين الحكام المسيحيين ، وخشي من ان يدفع اليسوعيون ، البرتغاليين على الاعتداء ، كما انه أوجس خيفة من ان يقضي تشدد الحكام المسيحيين الى القضاء على الكهنة البوذيين وهدم الهياكل والاديار التي لهم في البلاد . لم يكن هيدا يوشي ليرضى او ليسلم بزوال البوذية التي عرفت ان توطن الشنتوية ، في اليابان وترسخ اصول عبادة الجدود ، فكانت بذلك مدرسة ولاء وثقة في نظر رؤساء الدولة ، كما وضعت ما لها من نفوذ في خدمته بعد ان اصبح سيد البلاد وقائدها. فقد ساعد تنظيم الدولة اليابانية على ايقاظ الروح الوطنية في البلاد كما بعث الحيوية والنشاط في طاقة الهوكيه المعروفة بعدائها ومقتها للاجانب . وقد رغب هيدايوشي ان يقيم علاقات تجارية مع الاسبان في الفيلبين وان يقوي من شأن هندو ، مركز اقامته ، وقاعدة قوته على حساب كيو - سيو . ومن جهة اخرى كان التجار البرتغاليون يبتاعون اليابانيين بالألوف ويشحنونهم عبيداً ارقاء الى مكاو والفيلبين او الى الصين . فاصدر عام ١٥٨٧ ، امراً بطرد اليسوعيين من البلاد . الا انه خشية بالحاق الضرر بالحركة التجارية لم يعمد الى تطبيق هذا القرار . واستقبل الآباء الفرنسيسكان الاسبان على امل اقامة علاقات تجارية مع مانيلا . وعلى اثر اشاعات نشرت الرعب والهلع في البلاد ، امر بتاريخ ٥ شباط ١٥٩٧ ، بصلب ستة آباء فرنسيسكان و ٢٠ يابانياً مسيحياً ، فكانوا اول شهداء يابانيين يجودون بدمهم وحياتهم في سبيل المسيحية وتوطيدها .

وتابع يايازو سياسة سلفه هيدايوشي . ففي سنة ١٦٠٢، اصدر امراً اكد فيه للاجانب حرية الاتجار في اليابان ، وحظر التبشير بالمسيحية ، الا انه غض النظر عن نشاط المرسلين . وقد حاول ان ينشط حركة الملاحة البحرية في هذه الممتلكات العائدة للدولة اليابانية ، وان يجعل من أوراغا المنافسة الكبرى لناغازاكي . وتمكن اليابانيون من الحصول على سفن اوروبية الصنع واعطى الشوغون عام ١٦٠٤ ، نحواً من ٢٩ ترخيصاً بالملاحة ، كما انه صدر في عهد خالفه ، ١٩٧ ترخيصاً جديداً اعطيت كلها عام ١٦٠٧ . وهكذا اخذت سفن يابانية ، بحارتها يابانيون، تصل الى الهند وتبلغ اميركا . ويبدو ان اليابان اخذت تتجه للعمل في المدى التجاري بين المحيطات .

الا ان حاكم مانيلا لم يستجب لطلب يايازو بناء سفن جديدة لليابان كما انه حظر على السفن اليابانية دخول الفيلبين مع انه كان سبق ليازو ورحب بقدوم بعثة من الآباء الفرنسيسكان والدومنيكيين والاوغوستينيين الاسبان . ومن جهة اخرى ، فقد توصلت الشركة الهولندية للهند الشرقية الى عقد معاهدة تجارية ، مع يايازو ، عام ١٦٠٩ ، وانشاء وكالة تجارية لها في مرفأ هيرادو . وحذا الانكليز حذوهم ، عام ١٦١١ وتم في ما بعد انشاء مراكز هولندية وانكليزية ، في ساكاي زكيوتو وغيرهما. وقد كانت خفت بالتالي حاجته للبرتغاليين والاسبان. وفي سنة ١٦١١ تلقى الشوغون من موريس ده ناسو، حاكم هولندا العام، رسالة تحذره من الكهنة

الكاثوليك باعتبارهم جواسيس وعيونا على اليابان يتآمرون لبعث التمرد في البلاد، تسهيلا لعملية فتح يقوم بها الاسبان والبرتغاليون. وقد راح الموقف الصلف الذي وقفه وفد اسباني يزيد الشك ويثير الظنون في قلب الشوغون ويؤيد هذه الدعوة. وقد جاء عام ١٦١٣، اكتشاف بعض وثائق لدى احد الحكام توضح للاجانب خطة لمهاجمة اليابان، مع قائمـــة بالحكام والنبلاء المشتركين بهذه المؤامرة التي جاءت ثالثة الاثافي.

ومن جهـة اخرى راح يابازو يعالىء الكونفوشية، كما صورتها تعاليم تشو - هي، كما راح فوجيوارا سيكوا (١٥٦١ - ١٦٢٠)، يعلن على رؤوس الاشهاد ان المبادىء التي تنادي بهـا الكونفوشية هي نفسها المبادىء التي تقول بها الشنتوية ممثلة بصدق الولاء والاخلاص التـام للامبراطور، واعلن موقفه المعادي للبوذية. وهكذا نرى ان يابازو لم يعد بحاجة الى المسيحيـة طالما يستطيع ان يعتمد كلياً على ديانة آسيوية، يابانية تناهض الاديار البوذية للحد من نفوذهـــا القوي في البلاد. واعلن بتأثير من هياشي رازن (١٥٧٣ - ١٦٥٧)، ان التشوهية دين الدولة الرسمي، وحرم كل دين آخر في البلاد مما منع قيام اي جدل ديني فيها. فكل مخالفـة تعرض صاحبها للسجن والنفي او الموت.

وهذا النجاح نصيبه التشوهية في اليابان كان من اليسر والسهولة ما يحتج به دليلا على ان اليابانيين لم يفقهوا شيئاً من الروح العلمية في الغرب. وبالنظر لما هم عليه من روح عملية، فقـــد كرهوا الخوض في فلسفة مـا وراء الطبيعـة والمنطق الصوري والرياضيات، دون ان ينظروا او يهتموا، من قريب او بعيد، الى الاسباب والعوامل التي امنت لاوروبا، التفوق التقني.

واخيراً راح يابازو يربط اليابان بهذه النظم السيادية والاقطاعية التي سخرهـا لتأمين فوزه ونجاحه. ولم يكن ليهمه كثيراً ان يرى، الى جانب الحركة التجارية، طبقات اجتماعية قوامها التجار والبرجوازيون.

وهذا ما يفسر لنا الحظوة التي لقيها هياشي رازن والثقة العظيمة التي تمتع بها عنـد يابازو وخلفائه الاقربـــين، حتى اصبح وزيراً للداخلية، عام ١٦٢٩. فهو واضع القانون الذي صدر بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٦١٤ والذي يوجب على الشعب الامتثال للامر الصادر اليه بالتخلي عن المسيحية. فمن خالف ولم يمتثل صدرت الاوامر، في الحال، بابعاده. فلا عجب ان يحدث هذا القرار ثورة بين المسيحيين تولى قيادتها هيدا يوري احد احفاد أشيكاغا. فقد كان وعد اليسوعيين باعطائهم حرية التبشير بالمسيحية. فلا عجب ان يدعمه اليسوعيون بكل ما لهم من نفوذ عريض في البـلاد. الا ان هيدا يوري غلب على امره في معركـة سيكيغاتارا. وفي سنة ١٦١٦، راح الشوغون هيدا تيادا يؤكد من جديد منع الديانة المسيحية. وامر باعدام كل من يحاول ادخـال مرسلـــين ومبشرين الى اليابان. وراحت الحكومة اليابانية تضحي شيئاً فشيئاً بالحركة التجارية في البـــلاد. وتكرر في السنوات ١٦٣٣ - ١٦٤٠ صدور الاوامر التي توصي باقفال اليابان في

وجـــه الاجانب ، كما حظر على اليابانيين السفر للخارج او ارسال اية سفينة يابانية للخارج ، كما حظر على الآباء اليسوعيين دخول اليابان . ومنعت المسيحية تماماً في البلاد . وقد وضعت جوائز مغرية لكل من يخبر عن وجود المسيحيين او يـــدل على رهبان دخلوا البلاد خلسة ، كما فرضت المسؤوليـــة المشتركة بحيث تناولت خمس اسر معاً . فعلى اولاد البرتغاليين والاسبان ان يغادروا البلاد ، للحال ، كذلك حظر ادخال كتب اجنبية الى البلاد .

ليس بغريب قط ان تقيم هذه الاوامر والقوانين ، المسيحيين وتقعدهم وتحملهم على الثورة والعصيان . ولعل اهم الحركات الانتفاضية التي قاموا بها كانت ثورة اماكوسا ، عـــام ١٦٣٧ . وقد انكسر المسيحيون بفضل مدافع الهولنديين بادارة هولنديين ، وتقديراً لهذه الخدمـات ، صدر ، عام ١٦٣٩ ، امر اعتبر البرتغاليين والاسبان اعداء البلاد ، ولذا امر بطـــرد تجارهم واخراجهم من اليابان. وبقي الهولنديون وحدهم في البلاد بعد ان كسروا الانكليز وتغلبوا عليهم عام ١٦٢٣ ، الا انهم تم حصرهم وأقصروا على خليج ناغازاكي ، على جزيرة دشيما الاصطناعية . وراح الشوغون ، منذ ذلك الحين ، يحدد هو بنفسه ، سعر الحرير الذي يستورده الهولنديون ، انما ترك اسعار السلع والبضائع الاخرى حرة . صحيـح ان الهولنديـين استمروا في تجارتهم ، انما نقص حجم هذه التجارة كثيراً .

استطاعت الجماعـات المسيحية ان تعيش متخفية بفضل مسبحة الوردية ، كما استطاع بعض الادباء وبعض الفضوليين من اليابانيين ان يستوردوا ، عن طريق ناغازاكي تهريب كتب علمية واجهزة علمية ، من اوروبا . وظهر عام ١٦٥٠ كتاب « الفلك عند برابرة الجنوب » الذي نشر نظريات كوبرنيكوس حول مركز الشمس . وهكذا استطاع العـلم في اوروبا ان يحيى حياة مستخفية في اليابان الى أن رفع الشوغون يوشيموينه ، عام ١٧٢٠ ، الحظر عن الكتب الاجنبية وامر باعداد تقديم فلكي جديد على اساس العلم في الغرب .

نشر المسيحية في الصين والاوضاع التي احاطت بها

لم تلبث الرسالات الدينية ان وعت ، ببطء كلي ، الاوضاع القائمة في الصين والتي يجب ان يحسب لهـا حساباً ، في كل عمل رسولي ترغب القيام به . فوضع القائمون عليها خطـة عـمل تكفل لهم التغلغل داخل البلاد وبين الاوساط الشعبية .

تؤلف الصين عالماً مغلقاً على نفسه . وقد استقر في اذهان الصينيين انهم الشعب الوحيـد في العالم الذي تمت له اسباب الحضارة والتمدن، وان سواهم من شعوب الارض يتسكع في دياجير البربرية والظلمة العقلية . والخرائط التي وضعها الصينيون تجعل من الصين قطب العالم ونقطـة الدائرة ، وتحتل منها تسعة اعشارها ، يحف بها نثار من الجزر التي يقطنها البرابرة ولا يجـوز الدخول الى حرمها الا للسفراء يقدمون ولاء البلاد التي يمثلونها وخضوعها برفعهم الهدايا السنية للامبراطور ، يحف بهم عدد من التجار وبعض الخاصة الذين أخذوا بها للصين من شهرة بعيدة

في الحكمة والاخلاق، فجاوزها التماساً للفضائل البشرية وليعيشوا على طريقة الصينيين : رعايا مخلصين للأمبراطور . وفيها من دير للراهبات يتقيد مثلهم بقواعد التحصن » (الأب الفارو) .

باشر المرسلون محاولاتهم الاولى عام ١٥٥٢ ، ولم يلبث الكهنة والرهبان المرسلون ان وجدوا الصينيين جد حذرين من الأجانب المتشامخين ، الجشعين ، القساة ، وانهم يختلفون عنهم اختلافاً كبيراً ، اذ ان اي اوروبي ، مهما بدا وديعاً ، هادئاً ، مسالماً ، يبدو ، اذا ما قيس بالصيني الوديع ، المتأني ، الصبور ، حاد الطبع ، ملتهباً يتشيط غيظاً. فالاوروبي يحمل أنفاً بارزاً ، وعينين غارقتين في محجرهما ، لونها غريب مستهجن ، كث اللحية؛ بينما الصيني أفطس الأنف ، عيناه سوداوان تبرزان على مستوى رأسه ، أمرد الوجه ، خفيف شعر الرأس .

ايقن فرنسوا كسافيه ان ارتداد الصين للمسيحية من شأنه ان يجر وراءه ارتداد اليابان ، بعد ان ظهر له بوضوح ، ان حضارة اليابانيين تعود جذورها الاولى الى الصين ، هذه الصين التي وصل اليها في طريق عودته من اليابان ، في آب ١٥٥٢ ، ونزل الى البر على مقربة من مكاو ، وحاول عبثاً الدخول الى الصين ، وفاضت روحه من الضنى والوهن في ليل ٢ - ٣ كانون الأول ١٥٥٢ .

ومنذ ١٥٥٤ ، تمكن بعض الكهنة والرهبان من الاقامة في مكاو بعدد قليل جداً ، اذ ان هذه المدينة لم تكن سوى أسكلة ترسو فيها السفن في طريقها الى اليابان . فقد توصل أولهم الاب غريغوريوس غونزاليس ان يكسب للدين المسيحي ، بين ١٥٥٤ - ١٥٦٨، نحواً من ٥٠٠٠ صيني ، في مكاو ، بالطرق التقليدية المتبعة التي قامت على تعليم موجز يتبعه العماد بالجملة . واخذ الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٦٠، يضمّون جهودهم،فيهذا المجال ، للجهود المبذولة ، بعد ان باءت بالفشل كل المحاولات التي قاموا بها للنزول في كنتون .

وقام الاسبان من جهتهم ببعض المحاولات ، منطلقين من الفيلبين ، واستطاع الراهب الفرنسيسكاني ده دادا الدخول الى فو - كيان عام ١٥٧٤ ، وكان اول من تعلم الصينية ، وجمع مجموعة من ١٠٠ كتاب صيني بينها وصف لامبراطورية الصين ، والآثار الصينية وعلم الازمنة الصينية وكتب في الحكم والادارة ، واخرى في المالية والقوانين والطب وعلم الفلك الصيني . وقد إستل من هذه الكتب مجموعة منتخبات نشرها في اوروبا احد رفاقه هو الأب غونزاليس ده مندوزا ، ١٥٨٥ .

غير انه لم يقم بين الاسبان والبرتغاليين اي تعاون بهذا المجال اذ راح كل فريق ينظر الى الكرازة والتبشير بالإنجيل من زاوية عمل قومي وطني يعود أثره على بلاده . وابى البرتغاليون ان يسمحوا بالعمل الرسولي ، في مكاو الا للمرسلين الذين يقيمون الولاء لملك البرتغال ويمرون ، قبل قدومهم ، بلشبونة والبرتغال وغوا . وحظر الاسبان ، من جهتهم الدخول الى ممتلكاتهم والقيام بالتبشير لأي كاهن او راهب غير اسباني الجنسية . ورخّص الكرسي الرسولي عام

١٥٧٥ ، للبرتغاليين ان يجعلوا من مكاو كرسياً أسقفياً باعتبار صاحب هذا الكرسي ، مطران الصين واليابان،والأراضي والجزر المجاورة ، مما يجعل الفيليبين من ضمنها. وقد رد الاسبان على ذلك بجعل مانيلا كرسي مطرانية عام ١٥٧٨ ، انما وُضعت مانيلا سهواً على بعد ٢٠٠٠ فرسخ من ساحل الصين مما جعل الاسبان مستثنين من الصين .

الديانة الصينية

ومع هذا وبالرغم من تصرف الأب دادا ، لم يفقه المرسلون شيئاً من الديانة الصينية كما تبلورت في عهدهم ، اذ كانت عبارة عن مراسم دينية حوت الطقوس الزراعية القديمة ،والطاوية والبوذية طلع بها الكونفوشيون المثقفون. فقد ظهرت في القرن السادس عشر على صيغة من الطاوية او البوذية المنقاة بينما بقي جمهرة الشعب الصيني على أعراف الكهنة الطقسية الشخصية ، تحت اسم بوديساتفا (بوسّاه) او عُرفت بالالقاب او المسميات الطاوية ، امثال « السماوي المحترم » او « الخالد » . فقد نظروا الى آلهتهم باعتبارهم افراداً من البشر استحقوا بعد حيوات متتالية ان يرقوا الى مصاف الآلهة . فالاعتقاد بتناسخ الأرواح عقيدة عامة عندهم ، مع انها كانت تتعارض منطقياً وعقلياً مع عبادة الجدود . وقد رأوا في هذه الآلهة طبقة من الموظفين نالوا ، بعد طول صبر وعناء ، الترفيع الذي استحقوه ، وراحوا بشخص تماثيلهم يمهدون بوظائفهم الى ارواح العادلين ممن حلّوا محلهم ليرفعوا لهم تقارير مفصلة في المواعيد المعينة . ففي طليعة هذه الآلهة:السماء او تسان-تي،رب الاعالي الذي يحمي الاخيار ويقاصي الاشرار،ويشرف على نظام الكون، يسمع كل شيء ويقضي في كل شيء . ويأتي بعده الهه الظواهر الطبيعية : « كونت الريح » ، و « رب المطر » ، و « سيد الرعد » : جلاّد السماء ، و« امبراطور الجبل الشرقي المعظم » موزع الحظوظ ومقدّر الأعمار .

ويأتي بعد ذلك،سلسلة من آلهة الحقول .فكل ولاية وكل قضاء له:«إله الجدران والغدران » الذي يبسط الاراضي ويسهر على من فيها من السكان ، ويوطد السلام ويجلب السعادة ، ويصدر أوامره لهذا العديد من الآلهة المحليين الموكلّين :بالشارع ، والجسر والحقل . لكل منهم معبده وهيكله او مصلاّه .

وفي المنزل إله الأسرة وزوجه « الهة الباب» وكلاهما قائدان قديمان من أسرة تانغ : إلهة الينبوع وإلهة المرحاض ، وغير ذلك ، واخيراً ارواح الجدود التي تسكن في مشكاة توضع على مصطبة في الدار ، ولكل إله من هذه الآلهة العديدين طقوسه المرسومة وعبادته التكريمية الخاصة . وكل سكان المنزل يشتركون مع ارواح الجدود في عشاء سرّي .

اما الأعياد الدينية فعديدة هي : منها عيد المصابيح لراحة أرواح الموتى ، وعيد تنظيف المدافن ، وعيد القمر ،وغير ذلك ، وعيد رأس السنة ، اذ كان إله المنزل يصعد الى السماء ليؤدي حساباً لشانغ – تي عما وقع في الاسرة ، خلال السنة ، من وقائع وحوادث . ولعل أهم هذه

الطقوس عبادة الجدود، والبر البنوي مدى الحياة ، وهي طقوس كثيراً ما اختلطت بعبادة اميتابا ومراسم الطقوس البوذية .

كل هـذه المراسم والطقوس وما اليهـا من حفلات كان المثقفون يفسرونها وفقاً لشروح تشو – هي او تفسيراته المتشبعة بالمادية ، فيردن فيها وجهاً من وجوه الظواهر الطبيعية . واذ كانوا يعتقدون ان الدين مفيد للشعب ، مسل له ، فقد أضفوا عليها شكل الديانة القديمـة . « فعندما تعصف الارياح ، وينهمر المطر ويقصف الرعد ويتلألأ الجو بالبرق فهـذا دليل على ان الآلهة تتكلم لغتها وتعبر عن ارادتها ، وتعرب عن مشيئتها . وعندما يسكن الريح وينقطع المطر ويسكت الرعد وينقطع البرق ، فتلك اعمال من فعل الأبالسة » . اما المثقفون فقد رأوا « في الآلهـة مظهراً ليانغ ، وفي الابالسة صورة ليين . ولذا حرص الموظفون *mandarins* الحرص كله على احترام المظاهر الخارجية لهذا الشعور الديني في الجماهير الشعبية ، مع انهم لم يكونوا ليؤمنوا بها .

اسلوب اليسوعيين

بالنظر لعدم تفهمهم اسرار هذه الطقوس وجهلهم لعقلية هؤلاء الموظفين فقـد جاءت نتائج الجهود التي بذلها المرسلون ضعيفة جداً ومخيبة للأمل ، بحيث ان اليأس غمر نفوس الجميع وامتلأت نفوسهم ، في أواخر القرن ، غماً وقنوطاً . وقد راح الناس في مكاو يتندرون ويتفاكهون قائلين : انه لأيسر ان تبيض بشرة الزنجي من جعل الصيني مسيحياً . إلا انه في سنة ١٥٧٧ ، عندما مر الاب فالنياني ، الاب الزائر لهذه النيابة الرسولية ، بمدينة مكاو ، رسم لعمل الرسالة الدينية في الصين وفي اليابان ، خطة جديدة تضمنت حلاً مبدئياً لهذه المشكلة التي بدت لهم أعقد من ذنب الضب ، وهو مبدأ التنسيب او التوافق مع اعراف وعادات سكان البلاد ، اذا لم تتعارض مع مبادىء الديانة المسيحيـة وعقائدها الجذرية ، كما انه اوصى اليسوعيين بتعلم اللغة الصينية وان « يتصينوا » قدر المستطاع.

وقد رأى معظم رجال الاكليروس واليسوعيون بينهم في هذه الاقتراحـات مغامرة جنونية . الا ان فريقاً صغيراً مـن الآباء اليسوعيين ادرك جيـداً ما في اقتراحات الاب فالنياني من صواب ومنطق ووضعوا خطة للتغلغل بين الصينيين ، قابلها فريق كبير منهم بالهزء والسخرية .

وراح راهب يسوعي ايطالي الجنسية هو الأب روجييري الذي كان دكتورا في القانون ، وعمل قاضياً من قبل ، يدلل ، منذ عام ١٥٨٠ ، على اهمية التقيد بالآداب والاعراف الصينية كمثول الراهب أمام الناس أعزل من السلاح ، والركوع اثناء انعقاد جلسات المحاكمـة ، والانحناء عدة مرات معفرا الجبـاه بالتراب ، واستعمال تعابـير تنم عن الخضوع والخشوع والتواضع عند التكلم عن الذات ، والإكثار من عبارات المديح والثناء عند مخاطبة الآخرين . ولم يلبث ان ألح الموظفون على الاب روجييري حضور المناقشات وجلسات المحاكم ، لانه ، في

نظرهم يتفوّه بالحكمة ويقضي بالعدل ، ويفتي بحكمة ونصفة ، بعبارة هينة ، وديعة ، ناعمة ، ولا يحمل سلاحاً ، وهي نقطة حساسة في نظر هؤلاء المثقفين الذين يزدرون كل ما هو عسكري.

كذلك أدرك الاب روجييري ، ضرورة التخلي عن الزي الاوروبي واخذ يرتدي لباس الرهبان البوذيين . ومنذ ذلك الحين اخذ الصينيون يلقبونه بـ « سونغ » وهو اللقب الذي اعتادوا اطلاقه على الرهبان الاجانب . وهكذا اصبح البابا عندهم « السونغ الأعلى » الذي يوفد الوفود .

وانشأ روجييري في مكاو وكالة خاصة سماها : « منزل القديس مرتينوس » حيث عاش في عزلة على طريقة الرهبان الصينيين مع تلاميذه الموعظين . ثم قدّم إلتماساً الى نائب الملك جاء فيه : « رسالتنا هي ان نخدم الله وان نقتبس العلوم المختلفة . وقد علمنا ونحن في بلادنا ان الشعب الصيني شعب طيب ، حليم ، هادىء ، منطقي له طقوس واعراف ممتازة ، ولديه الكثير من المعارف والعلوم ، وعنده الوافر من كتب الحكمة والاخلاق الجيدة ومكارمها ، ولهذه الأسباب ، وحباً في الانتفاع من كل هذا ، والاقتباس من ينابيع الحكمة ، والتعرف الى امجاد هذه الامبراطورية ، والعيش بين هذا الشعب الممتاز ، غادرنا بلادنا وجئنا كم قاصدين » . وقد رخّص نائب الملك وسمح لهذا البربري بالدخول الى الصين ، بعد الذي ابداه من حسن الاستعداد للقبس من الحضارة الصينية . وفي العاشر من ايلول ١٥٨٣ ، أسس الاب روجييري اول مقر للكنيسة الكاثوليكية في عاصمة كوانغ – تونغ ،في تشاو–كنغ–فو.

ولم يلبث ان التحق به الاب رتشي . فعرفا ان يثيرا فضول الموظفين بما بدا من ثقافتهما العالية وعلمهما الكثير ، وبما تم لهما من تقنية الغرب ومهارة في صنع الساعات الكبيرة والساعات اليدوية والكتب والخرائط الجغرافية التي تظهر عظمة الكون واتساع الاراضي التي لا تدخل في الصين ، وصنع الاقفال والزجاج ، ورسم الصور مع المحافظة على المدى والالوان . ولما كان رتشي خريج الكلية الرومانية ، فقد ركب لخدمة الموظفين ساعات شمسية (مزاول) ، ورسم خرائط مسطحة الكرة الارضية ، واخذ يعلمهم مبادىء الحساب والهندسة ، مما ادخل البهجة الى نفوسهم . وقد كانوا يجهلون تماماً كل ما يمت بصلة الى المنطق والتحليل الذي لم تكن لغتهم لتستجيب له لانها لغة ايحائية ، تصويرية ، رمزية . ووضع لهم سلسلة من المقدمات جعلتهم يطيرون فرحاً .

ودار بين الآباء والموظفين ، محادثات استمرت من اربع الى خمس ساعات راحوا يغتنموها فرصة للبحث في امور الدين ، وقد عرض روجييري طريقته في العرض والبسط التي استوحاها من القديس بولس والقديس يوحنا ، في كتاب له سماه : « شرح التعليم المسيحي » ، وضعه سنة ١٥٨٥ فكان اول عرض للديانة المسيحية باللغة الصينية ، جرى طبعه على مطبعة حجرية ، ووزع منه اكثر من مليون نسخة في جميع انحاء البلاد والولايات . كان عليه ان يثبت لهؤلاء المفكرين الماديين ان قواعد الدين لا تخالف العقل ولا المنطق . وكانوا كلهم على

اطلاع تام بهذه الاكتناهية ، التي قال بها وعلم وانغ – يانغ – زومنغ ، كما ألِفوا ان يجدوا في ضمائرهم قواعد السلوكية الانسانية . ومن هنا انطلق الاب روجييري ، وراح يدلل على ان الانسان يجد في ذاته الخير « Le Sen » هذا الخير لا يمكن ان يكون مصدره الطبيعة البشرية . فالكمال هو لله وحده . وهذا الخير لا يمكن ان يأتي الا من كائن هو كل الخير ، هو ملء الخير بالذات . فالكمال الأتم هــو الله . فكمال الخير ، اي هذا القصد الدائم المستمر ان نعمل دوماً كل ما هو خير للآخرين ، لا يمكن ان يكون الا من إله شخصي ، له فرديتــه ، يشعر من ذاته ، ويريد الخير بذاته . فالطبيعة انما قامت لخدمة الانسان ، كما هو واضح . والدليل على ذلك ؟ – الدليل هو في تسلط الانسان على الحيوان ، وقدرته على تحويل المعادن وفلزاتها التي يستخرجها من اعماق الارض وداخل الجبال . ولكن : هل يمكن للطبيعة ان تفسر نفســها بنفسها او تعلل نفسها بنفسها ؟ . فاذا ما جئنا نبحث عــن سبب حادث او ظاهرة طبيعية وتوصلنا الى معرفته ، كان علينا ان نبحث عن اصل هذا السبب ، وهكذا دواليك . ولذا كان لا بد لنا من ان نصل الى علة العلل ، الى علة تكفي نفسها وتشرح كل العلل . فهذه العلة الاخيرة ، هذه العلة الاولى انما هي الله ، مبدع الكائنات ، وخالق الطبيعة ، وما عليه هذه الطبيعــة من نظام ، وهذا النظام يحتم ان تكون هذه العلة ، العقل الأسمى . اذن ، فالله يشعر من ذاتــه ويريد من ذاته ، له فرديته وشخصيته . فالانسان يحتاج للعدل وهذه الحاجة لا يمكن ان تجد شبعاً في هذا العالم ولذا وجب ان يتم العدل في الحياة الاخرى ، في الحياة الباقية الخالدة ليتم شبع الانسان . اذن ، الانسان نفس خالدة .

وبعد ان اثبت روجييري وجود الله الفردي ، الشخصي ، بالعقل واثبت خلقــه للكون ، وخلود النفس ، راح يدلل بان الله غرز في قلب الانسان وركز فيه ، كل ما هو لازم وضروري ليحيى حياة سعيدة . غير ان الانسان اختار ، بملء ارادته الشر والاثم . ولذا ارسل الله يوماً له مشترعاً هو موسى ليعيد الانسان الى حالته الاولى . ثم عاد الناس ووقعوا في الاثم من جديد . ولذا قال الله في ذاته : لنضربن ضربة قوية . ولذا ارسل لخلاص البشر ابنــه الوحيد يسوع المسيح الذي تجسد في احشاء العذراء مريم ، تماماً كما تملأ الشمس بنورها بلــورة دون ان تمس بشيء سلامة هذه البلورة .

واول صيني اعتنق المسيحية جرى تنصيره في ٣ حزيران ١٥٨٥ وحمــل اسم بولس . وقد بلغ عدد الارتدادات في آخر السنة ، ٣٠ مسيحياً . وفي نيسان ١٥٨٦ ارتفع عددهم الى ٤٠ . اما روجييري فقد ضعف جسمه ووهنت قواه واضطر ، عام ١٥٨٨ الى ان يتخلى عــن العمل ويسافر .

اما رتشي فقد جرى نقله الى شيو – شيو بعد سوء تفاهم وقع له مع نائب الملك الجديــد . وهناك تعرف الى احد المفكرين الادباء يدعى كيو – كاي – سو ، من هؤلاء الانسانيــين الذين لا غش فيهم ، والذي هام بالعلوم الاوروبيــة ، والذي وجه الى رتشي مــن السؤالات

الخرجة ما ساعده على ان يكتشف ، ما بين ١٥٨٨ – ١٥٩٠ ، مقومات الديانة الصينيـة ، الا وهي الوثنية والبوذية والطاوية ، والكونفوشية ، على مذهب تشو – سي ، ولاول مرة توصل اوروبي الى تفهم صحيح للديانه الصينية . كذلك ادرك الاب رتشي ان الوسيلة الوحيدة للدخول الى قلب الطبقة الاجتماعية العليا في الصين ، في هذه البلاد الشاسعة ، لا تقوم بان يبـدو المرء كاهناً فقيراً مزدرى ، بل ان يظهر بمظهر العالم المثقف . ولذا راح يتفقه بالأدب الصينـي . فترجم الى اللاتينية الكتب الاربعة المنسوبة الى كونفوشيوس وهي :

ال *Y-King* او كتاب التحولات

وال *Chou King* اي الكتاب المقدس

وال *Chi King* اي كتاب الشعر

وال *Li–King* اي كتاب الطقوس

ففي الوقت الذي كان فيه الموظفون الصينيون لا يتعمقون الا في كتاب واحـد من هـذه الكتب الاربعة ، راح رتشي يدرسها جميعاً ويغوص في معانيهـا ومبانيها بدقة وإنعام نظر . فبعد ان تسلح بما تم له من اصول الفيلولوجيـا الاوروبية ، وبـدلاً من ان يقتصر على شروح وتفاسير تشو – هي ، اعتمد هو رأساً النصوص ذاتها ، فوجد فيهـا معاني جديدة لم يصل اليها تشو – هي ، منها شخصانية الله وخلود النفس ومجـد الطوباويين . وبهذا الاسلوب التحليلي الاوروبي ، فتح امام الصينيين امكانية الوصول الى معرفة واعية ، مدركة ، حية ، صحيحة ، لكتبهم المقدسة بنصها الحرفي ، مصدراً للرقي والتقدم . واذ ذاك قرر ان يتبنـى اسلوب المثقفين وان يسير طريقتهم في الحياة ، منـذ عام ١٥٩٤ ، بارتدائه القفطان الحريري الاحمر المطرز بالحرير الازرق ، والاكمام الفضفاضـة والزنار العريض الاحمر موشى بخيط ازرق فاتح ، وان يسير دومـاً محمولاً على محفّة ، بصحبته كاتب سر وخادمان او ثلاثة بقفاطينهم الطويلة . واذ ذاك نظر اليه الناس باجلال واحترام . في هـذه البلاد لايمكـن للمرء ان يشق طريقه فيها ، ولا ان يثري الا اذا عمل على احترام الآداب السلطانية .

وفي سنة ١٥٩٥ استطاع رتشي ان يستقر في نان – تشانغ في قلب الصين ، هذه المدينـة التي تكثر فيها النوادي الادبية واكاديمية المثقفـين . ونظراً لمعرفته الدقيقة للآداب الصينية استقبله نائب الملك استقبالاً حاراً ومعه حاكم المدينة ووكيل الحاكم وغيرهما من القضاة وكبـار الموظفين ولفيف كبير من الادباء ورجال الفكر . وقد لفت انتباهه ولحظ بسرعة ان التقنية الاوروبية تستأثر بانتباه المثقفين ، والأهمية التي تحتلها عندهم الفلسفة الادبية ، والاخلاقيـة ، والبحث في الفضائل والرذائل البشرية ، والظلم والحلم ، والشرف ، والصداقـة والانشاء الجزل ولما كان الاب رتشي مطلعـاً كل الاطلاع على الادب اللاتيني ، فقد وضع كتاباً صغيراً حول الصداقة ضمنه ٧٦ حكمة او كلمة مأثورة إستمدها من شيشرون ، لقيت الرضى والاستحسان

لدى الصينيين بحيث ان نائب الحاكم امر بطبع الكتاب ونشره على الملأ . ومنذ ذلك الحين اخذوا ينظرون الى الاب رتشي كأحد كبار حملة الثقافة في الصين كما اخذ المفكرون ورجال الادب يفدون عليه للتحدث معه . وكثيراً ما مال الحديث بهم الى الدين وشؤونه وشجونه فيستعمل رتشي طريقة الاب روجييري . ولحظ ان نطق المدرسين الذي حذقه في الجامعة يوليه مقدرة راجحة على كل المثقفين الصينيين الذين يجهلون تماماً استعمال الدليل فيقنع عدداً كبيراً منهم فيعتنقون المسيحية .

كل هذا والآباء اليسوعيون في وضع دقيق ينصرفون لرسالتهم بموجب ترخيص بسيط يبقون معه تحت رحمة نائب الحاكم او نائب الملك . ولذا ترتب عليهم الآن الحصول على ترخيص رسمي لهم بالاقامة الدائمة ، ومثل هذا الترخيص لا يصدر الا عن الامبراطور نفسه . فكل جهدهم في القرن السابع عشر سيصرف في هذا السبيل .

اليسوعيون في البلاط الامبراطوري

تمكن الاب رتشي من ان يقيم له علاقات وثقى مع بعض الخصيان في البلاط الامبراطوري . وبالرغم من معارضة دائرة الطقوس وموقفها المعادي فقد رخص له الامبراطور ، عام ١٦٠١ ، الاقامة في بكين على حساب خزانة الدولة .

استقبل الاب رتشي استقبالاً حسناً ، وهو الطالب الممتاز في الجامعة إستبحر بدرس مؤلفات الاب كلافيوس الرياضية ، وأحد كبار العلماء الذين ساهموا في اصلاح التقويم الغريغوري ، والهندسة وفن بناء المزاول او الساعات الشمسية والكوسموغرافيا وفن تحديد خطوط الطول والعرض . وقد دخل في يقين الصينيين وروعهم ان حياة الانسان تقدرها مواقع النجوم والأبراج الفلكية . ولعل مهمة الحكومة الاولى تهيئة التقويم السنوي . فما من صيني قط يقوم بأي عمل ما في حياته الا ويستطلع طلع برجه المرسوم في مواقع النجوم ، ليرى ما اذا كان فأله ملائماً ام لا . والحال ، فالدائرتان اللتان تعنيان بهذا الامر وهما الدائرة الصينية والدائرة الاسلامية كانتا على اسوإ وضع وحال . فالصينيون أهملوا الرياضيات واعتقدوا ان الارض مسطحة هي ومربعة وان حجم الشمس لا يزيد عن فتحة الدلو ، كما انهم اقتنعوا بان الشمس عندما تغيب انما تختفي عن انظارنا وراء احد الجبال وان خسوف القمر انما سببه الخوف من الشمس . ولما تم للمغول فتح الصين ونشروا سلطانهم من الصين الى مشارق اوروبا ، في القرن الثالث عشر ، ادخل مسلمو ايران الى الصين ، الرياضيات وعلم الفلك . ثم استحال اسلام الاتراك المغول ، عام ١٣٦٠ ، الى اسلام عرف بعصبيته وتشدده الديني . وقامت في الصين ، عام ١٣٦٨ حركة قوية قضت على سلطة المغول في البلاد ، ورفعت الى دست الحكم اسرة منغ التي احتفظت فيما حافظت عليه بدائرة الرصد التي قام على ادارتها علماء مسلمون للفلك الذين لم يلبثوا ان صاروا الى مثل هذا المجتمع الصيني الذي تحدرت فيه العلوم الرياضية والهندسة

الى مستوى ادنى بكثير مما انحدرت اليه الهندسة الاقليدية من الانحطاط والتأخر . فقد فقدوا معلوماتهم النظرية ولم يبق لديهم سوى بعض جداول وازياج نسوا طريقة استعمالها وتطبيقها على الحركات الفلكية . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تتسرب الهفوات والمغالط الى هذه التقاويم ، ففقدت ما هي بحاجة اليه من دقة وضبط واحكام ، شأن كل وضع تتراخى فيه حلقات التقنية ، اذا ما أهمل العلم وتنوسيت مبادؤه واصوله .

وقد عن الوزراء المسيحيين امثال بول سن - كيونغ - كي وليون لي - تشيه - تساو العمل على اصلاح الجداول الفلكية ، الصينية الاسلامية ، بالاستعانة بعلم الفلك الاوروبي . وقام الأب رتشي بترجمة هندسة اقليدس المسطحة الى الصينية ، خلال عام ١٦٠٨ ، مما اثلج صدر الصينيين لشدة فرحهم بهذا العمل .

واعتقد الاوروبيون انفسهم ان رقعة الصين تنبسط بين خطي العرض ١٨ و ٥٥ الى الشمال من خط الاستواء ،وبين الدرجتين ١٢٨ - ١٧٧ من خط الطول الى الشرق من الجزر الخالدات ، أي انهم جعلوا ساحلها الشرقي في قلب المحيط الهادىء بجوار ارخبيل جزر مارشال . وراح الاب رتشي يحدد خط العرض بالاستناد الى علو النجمة القطبية فوق الافق ، كما حدد خطوط الطول على اساس الفرق في الساعة (الوقت) بين رؤية الخسوف في الصين ورؤيته في اوروبا ، وبذلك وضع الصين بين درجتي العرض ١٩ - ٤٢ وبين درجتي الطول ١١٢ - ١٣١ الى الشرق من الجزر الخالدات .

كثيراً ما جاء ماركو بولو في رحلته المشهورة الى الصين على ذكر كاثاي وذكر مدينة كبالو الجميلة . فهل عنى يا ترى بذلك : الصين وعاصمتها بكين ؟ وراح الاب رتشي يدقق في الرحلة التي قام بها الاب اليسوعي بنتو ده غويس الذي تنكر بزي تاجر ارمني وسافر بصحبة قافلة من التجار مرت تباعاً بكابول وقرقاند وقشغر وكوغاند الى ان بلغت سو - تشيو ، عام ١٦٠٧ . فقد استكشف طريق خط العرض ٤٠ ، ولاحظ بانه اينما مر ، سمع المسلمين يدعون الصين كاثاي ويسمون بكين كبالو .

وراح الاب رتشي يصوب من وسائل تحويل هذه الارقام والجداول . وعندما كان يحالفه الحظ فيقتنع صينياً بوجود الله ، كانت اصعب مرحلة او نقطة لديه الانتقال به من الاعتقاد بالله عن طريق العقل ، الى المسيحية . فيروح اذ ذاك يستعرض عمل الديانة مطبقاً على الحياة فيصف عمل الكنائس والعبادة والطقوس الدينية وحياة العلمانيين التقوية ، وحياة الرهبان والراهبات الخشوعية والعناية التي يحيطون بها المرضى والبائسين ، في المستشفيات والملاجىء ودور العجزة ، وغير ذلك من أمور التعليم والتلقين والمساعدة الاجتماعية ، ومن عرض هذه الاعمال كان يرتفع بتعليلها الى الفكرة او الغاية التي تكمن وراءها : فيسوع المسيح الذي قبل الصلب تكفيراً عن خطايا البشر ، والذي قام ناهضاً من القبر وعاش حياً بينهم ، لا يمكن رؤيته

بالحس والنظر ، انما هو حاضر يستحق كل تكريم وعبادة يجب ان نحيي به وهمه بالمناولة وبالسير على خطاه في كل شيء .

والمشكلة الثانية هي التكيف مع الديانة والطقوس الصينية . فانطلاقاً من تعاليم المجمع التريدنتي ، جرى الاعتقاد ان كل المجتمعات البشرية وكل الحضارات التي ظهرت عبر التاريخ ، قامت في الاساس ، على امور واشياء خيّرة مشتركة مطابقة للتعاليم المسيحية في بعض مظاهرها . فالآداب الصينية هي من الآداب الانسانية في الصميم . فالمشكلة هي ان نجد في هذه الآداب الانسانية الصينية وبين الكتّاب الاتباعيين الصينيين ، وفي هذه الجهود المبرورة التي بذلها بعض الصينيين لتحقيق مُثل الانسانية الفُضلى ، ما جاء مطابقاً او مؤتلفاً مع الديانة المسيحية . ولم يكن الاب رتشي ليجهل او ليغفل عن مساوىء الصينيين وعوراتهم الذميمة ، كعبادتهم للاصنام ، وخرافاتهم السخيفة ، وعدم تحسسهم بأية شفقة او رحمة نحو الفقراء والمرضى البائسين حتى بين اعضاء الاسرة الواحدة . وكم بدا على الآباء والامهات الصينيين انهم يلقون باولادهم الصغار وهم مرضى ، بين الاقذار والاوساخ ، وكثرة السرقات وتفشي الغش بين الصينيين ، وفظاظة الجماهير الصينية ، وانتشار عادة اللواط بينهم . فقد رأى في هذه العورات والمثالب بعض نتائج الخطيئة الاصلية . واستقر في يقين الاب رتشي ان الصينيين تلقوا من خلفاء آدم المباشرين الوحي القائل بوجود كائن اعلى ، وبانهم حافظوا منذ اقدم العصور ، على فكرة الله الخالق المبدع ، الى ان فسدوا ووقع بينهم الضلال كغيرهم من الشعوب وامم الارض ، وتاهوا في طقوس وعبادات ومراسم خرافية اسطورية ، بينما اصول الديانة الصينية هي نفس اصول الديانة المسيحية . ويكفي ان يتوصل الصينيون الكشف عما هو مطابق في المسيحية للفكرة أو العقيدة الاولى التي قال بها جدودهم الاولون والفضل الذي يجعل لهم هذه القيمة المثلى في نظرهم .

الا ان الصينيين كانوا يعتقدون ان جدودهم الأول كانوا آلهة . فعبادة الآباء الاقدمين كما تبدت مظاهرها وتبلورت ، صنمية محضة لا تتفق مع صميم العقيدة المسيحية . وقد عثر الاب رتشي في الكتب التي خلفها كونفوشيوس اللا ادري ، قوله ان الطقوس ليست سوى مظهر خارجي من التسليم بمجموعة من الحكم والقواعد السلوكية ، التي تساعد المجتمع على السير بانضباط ونظام . فهي مجرد ضوابط مدنية لا غير . وهذا هو بالطبع اعتقاد هؤلاء المثقفين الماديين الذين كانوا معاصرين للاب رتشي . فقد نظر العامة الى كونفوشيوس نظرتهم الى فيلسوف، بينما رأى المثقفون ، في هذا الرجل وعبادته وتكريمه : احياء لذكر رجل حكيم . ولذا خطر للاب رتشي انه يمكن السماح للصينيين المسيحيين بممارسة تكريم الجدود ، وتكريم كونفوشيوس نفسه باعتبار هذه العبادة او هذا التكريم قاعدة سلوكية مع تمسكهم داخلياً بعقيدتهم المسيحية .

بعد هذا ، ماذا عن عبادة الآلهة ؟ رأى فيها المثقفون او المستنيرون قوى طبيعية ، كما رأوا في طقوس عبادتها ، حفلات مدنية . ويبدو ان رتشي قبل الاخذ بهذا التخريج المجازي على شرط

ان ينقّي الصيني المسيحي نيته وان يرد ما يرى امامه من طقوس واحتفالات ، وهذه النذور والتقادم ، والتبركات والحركات والاشارات والايماءات ، الى سيدنا يسوع المسيح مثلاً بصليب او ايقونة يخفيها داخل ثيابه .

هذا ما يُفهم بالطقوس الصينية عندما يطرح على بساط البحث والنقاش امر التكييف او التطبيق .

وبفضل هذه القواعد والطقوس امكن لنا ان نعد في بكين عام ١٦٠٨ نحواً من ٣٠٠ مسيحي معظمهم من كبار الموظفين ورجال الفكر والثقافة . ورقد الاب رتشي بالرب سنة ١٦١٠ ولسان حاله يردد : « ها انا اتركَكم امام باب مفتوح على مصراعيه » . ومنذ ١٦١٦ ، كان لليسوعيين في الصين سبع وكالات او مراكز للرسالة ، منها واحدة في بكين ، وواحدة في نانكين ، وواحدة في تشي – كيانغ ، واخرى في كيانغ – سي وواحدة في كنتون ، تضم معاً ٢٢ راهباً يسوعياً يرعون ١٣،٠٠٠ مسيحي صيني .

كان التقويم السنوي في الصين مصلحة رسمية تتعلق بالدولة . وقد خلف الاب لنغو باردو ، الاب رتشي ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين ، فجمع الاب باردو ، في اوروبا عدداً من مشاهير علماء زمانه في الرياضيات وعلم الفلك ، امثال ترنتيوس ، صديق غاليليو ، والاب آدم شال الذي وصل بكين عام ١٦٣٠ . واساء علماء الفلك الصينيون والمسلمون حساب كسوف الشمس الذي وقع في ٢١ حزيران ١٦٢٩ . واذ ذاك استصدر الوزير المسيحي بول سيو – كوانغ – كي من الامبراطور ، مرسوماً بانشاء دائرة ثالثة لعلم الفلك ومكتباً اوروبياً لاصلاح التقويم ، ووضع تقويم يومي للظواهر الفلكية يمكن الركون الى صحته . واذ ذاك أتيح للآباء اليسوعيين ان يُدخلوا الى الصين اجهزة علمية حديثة كالمجهر وان يعتمدوا الاختراعات التي تمت على يد غاليليو . فبعد ان تخلوا عن علم الفلك كما وضعه رتشي اعتماداً على بطليموس ، فقد تبنوا الطريقة التي توصل الى وضعها العالم الفلكي تيخو براهيه ، والتي قالت بحركة الكواكب حول الشمس ، مع بقاء القول بدوران الشمس حول الارض . واستطاع الآباء ضبط التقويم كما نظموا بدقة جداول الريح ورفعوا نتائجهم هذه الى الامبراطور ، عام ١٦٣٥ ، واخيراً قام الاب شال ، يصب على الطريقة الاوروبية المدافع اللازمة لتحصين القلاع بحيث تستطيع الصمود في وجه المنشو .

وكان الاب شال قد عُين ، عام ١٦٤٠ ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين . وبوحي من القديس بولس بقي في بكين ، بعد سقوط المدينة بيد المنشو ، عام ١٦٤٤ ، واصبح صديقاً لاول امبراطور من اسرة تسنغ ، هو الامبراطور تشوان – تشي . فرقاه هذا وجعله موظفاً *Mandarin* من الطبقة الاولى ، كما رفع من اصل اجداده ، وسمح له ان يرفع اليه شخصياً التماساته ومطالبه ، وعينه رئيساً لدائرة رصد الكواكب ، وهو مركز شغله الاوروبيون ، بلا

انقطاع ، حتى عام ١٨٢٥ . واخذ الاب شال يصب لامرة سنغ المدافع التي كانت بحاجة اليها ، ووفق بين التقويم القمري المعمول به في الصين والتقويم الشمسي الغريغوري محققاً نجاحات باهرة في هذا الحقل . واعترافاً بهذه الخدمات صدر فرمان امبراطوري يعلن الديانة المسيحية ديانـــة حسنة واعطى اليسوعيين ، عام ١٦٥٠ ، ترخيصاً ببناء اول كنيسة في بكين بعد ان بلغ عـدد المسيحيين في الصـين ، اذ ذاك ، ١٥٠ الف ، ثم ارتفع عددهم ، عام ١٦٦٧ ، اي في السنة التي توفي فيها الاب شال الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة .

مات الامبراطور تشوان – تشي ، عـــام ١٦٦١ . وفي عهد وصاية خلفه الامبراطور كانغ – هي ، وجّه علماء الفلك المسلمون الى اليسوعيين تهمة الخيانة العظمى مما افقدهم الحظوة في عيـن الملك . غير ان العلماء المسلمين وقعوا في اغلاط كثيرة عند وضعهم التقويم . واذ ذاك ، استدعى الامبراطور كانغ – هي ، عام ١٦٦٦ ، بعد ان اصبح راشداً ، الاب اليسوعي فربييه الذي اصبح رئيساً عاماً للرسالة ، اثر وفاة الاب شال ، الى المجلس الامبراطوري واعلن ان علماء الفلك المسلمين ادخلوا في التقويم شهراً إضافياً راحوا يدعون من جهتهم انه لا بـــد من إدخاله ليستقيم التقويم . من نصدق واية جهة نشبل ؟ واذ ذاك امر الامبراطور كانغ – هي باستقدام مزولة شمسية وطلب من اليسوعيين ومن علماء الفلك المسلمين ان يعينوا له موضع الظل في المزولة ، عند الظهيرة . وفي الصباح قام الاب فربييه بالعملية الحسابية بطرقة عـــين ، بينما استعصى الامر على الجانب الآخر . وفي اليوم التالي ، وقع الظل تـماماً في الموقع والمكان الذي حدده الآباء اليسوعيون . وهكذا رجحت بوضوح كفة اليسوعيين وبرزت دقة علماء الاوروبيين وكلف الاب فربييه باصلاح التقويم ، ثم عين رئيساً لدائرة الرصد ، كما عين موظفاً *Mandarin* من الدرجة السادسة ،واستاذاً للامبراطور ولكبار الموظفين في البلاط ،في الرياضيات وعلم الفلك. وعمل الآباء اليسوعيون كمهندسين وميكانيكيين وطوبجية ، وتمكن المنشو بفضل المدافع التي صبها لهم الاب فربييه من التغلب على الثائرين بزعامة وو ــ سان ــ كاي ، كما تمكنوا من الفوز بالروس عند نهر العامور . كذلك عمل اليسوعيون في حقل الديبلوماسية ، اذ قام الاب فربييه بمفاوضة الهولنديين . وتمكن الاب غربلون من اعداد وتوقيـع معاهدة نرتشنسك . توفي الاب فربييه عام ١٦٨٨ . فقد كان سبق له عـــام ١٦٦٨ ، بعد ان تبين ضعف الدولة البرتغالية وتأخرها ، ان توجه بطلب المساعدة من فرنسا ، وبعد ١٠ ايام من وفاتـــه اخذ يتوافد آباء يسوعيون من الفرنسيين ، ألفـــوا بدورهم رسالة ثانية الى جوار رسالة اليسوعيين تحت حماية البرتغال .

وكان من اهمية الخدمات التي اداها الآباء اليسوعيون ، حمل الامبراطور على اصدار مرسوم امبراطوري، عام ١٦٩٢ ، رخص فيه لرعاياه بخدمة الله وعبادته في كنائس الاوروبيين ، وهذا الترخيص الرسمي بممارسة العبادة الكاثوليكية علانية ضمن الترخيص بالبشارة بالانجيل . وهكذا فالديانة المسيحية التي كان مسموحاً بها حتى آنذاك ، اصبحت معترفاً بها رسمياً الآن .

وفي سنة ١٦٩٣ ، جعل القصر الامبراطوري مقراً للآباء اليسوعيين . وفي سنة ١٧٠٣ ، اقاموا فيه كنيسة . وقام اليسوعيون الفرنسيون، بين ١٧٠٦ – ١٧١٦ ، يعدون للامبراطور خريطة للامبراطورية الصينية ، عمل على نشرها وتوزيعها الجيوغراف انفيل الذي نشر ، عام ١٧٣٧ « أطلس الصين الجديد » .

اثر الصين في تطوير الحركة الفكرية في اوروبا

طلع علينا القرن السادس عشر باكتشاف اميركا او العالم الجديد ، كما طلع القرن السابع عشر علينا باكتشاف الصين . ان معارضة افكار الاوروبيين بالافكار والمعلومات التي جمعوها عن الصين ساعدت كثيراً على توضيح الافكار الرئيسية التي كانت اساساً لمذهب الميكانيكيين ولفلسفة الانوار.

عرفت اوروبا الصين ، اول ما عرفتها ، من خلال كتاب وضعه ده غونزاليس ده مندوزا الذي تم نقله الى الفرنسية عام ١٥٨٩ ، ثم عن طريق دراسة اضافية وضعها الاب تريغولت ، اساسها مذكرات الاب رتشي ونشرت عام ١٦١٦ . ثم صدرت مذكرات ورسائل اخرى لبعض الآباء اليسوعيين . وقد عرضت هذه المؤلفات واعادت الى البحث مشكلات عويصة .

في مقدمة هذه المشكلات ، مشكلة صلاح الانسان والخطيئة الاصلية . فقد عمل الآباء اليسوعيون على اساس المجانسة او التكييف بين اخلاقية كونفوشيوس والاخلاقية المسيحية . وهنا كان لا بد للمرء من التساؤل ما اذا كان الصيني الذي يأتمّ بهذه الاخلاقية ، ويسير بهديها في سلوكه ، يتخلص ويذهب الى النعيم. وقد اجاب الاب لا موت له فايه ، في كتابه الموسوم : « فضيلة الوثنيين » المنشور عام ١٦٤٢ ، بالايجاب ، مدللاً على ذلك بان كل حكماء الامم الذين لم تصلهم البشارة بالانجيل والمسيحية ، والذين اتبعوا الناموس الطبيعي ، وعُرفوا بتقواهم ، قد تم لهم الخلاص. وراح الاب ارنولد الكبير يبين ما في هذا التعليم من خطل وخواء وبطلان ، وما يخفيه في ثناياه من سموم ، اذ في مثل هذا القول تأكيد بان الطبيعة البشرية بقيت ، بعد الخطيئة الاصلية ، صالحة وقادرة على إتيان اعمال الخير والصلاح ، ليستحق معها صاحبها ، جزاءً وشكوراً . فمثل هذا التأكيد يُفضي بصاحبه الى الهرطقة البيلاجية ، اذ يقتل تماماً عقيدة الخطيئة الاصلية كما يقضي على ضرورة النعمة .

اما الثانية من هذه المشكلات التي يثيرها هذا الاعتقاد فتمس في الصميم الميزة التي خصّ الله بها الشعب اليهودي منذ آدم ، هذا الشعب الذي عرف كيف يحافظ على وديعة الوحي وعلى صيانة التوراة والكتب الموحاة من الله ، هذه الكتب التي تؤلف اقدم تاريخ للبشرية . والحال ان قدَم الشعب الصيني يضيع في ليل الزمن ويبدو انه اقدم ما تقصه علينا التوراة من اخبار حول ظهور شعوب الارض . فالتاريخ الصيني لفت نظر لا بايرير لقدمه فشجعه على القول بوجود بشر قبل آدم . فنشر عام ١٦٥٥ نظرية ما قبل الآدميين. اما جاء في الفصل الخامس من رسالة القديس بولس الى الرومانيين انه قبل خطيئة آدم ، كان الناس يخطئون رغم ان خطاياهم لم تكن

لتحصب عليهم ، اذ لم يكن الناموس قد جاء بعد ؟ أو ليس الفصل الاول من سفر التكوين يروي لنا قصة خلق العالم والانسان ، والفصل الثاني قصة خلق آدم والامة اليهودية بعد ذلك ؟ وعندما طرد الله قايين من امام وجهه ، ألم يقل له هذا : ان الشعوب التي سأصادفها سيقتلونني مع انه لم يكن لآدم بعد ، سوى قايين وهابيل ؟ فاذا لم تكن التوراة سوى قصة شعب صغير جـــاء بعد غيره من شعوب الارض ، وليس تاريخ الانسانية وتاريخ العلاقات التي ربطت هذه الانسانيـة بالله ، كما تزعم وتدعي ، فهل يمكن ان تكون التوراة كتاب الله الموحى به والذي يفيض بحقائق من العسير على العقل الوصول اليها بقوة الطبيعة ، مع انها فوق ادراك الانسان ؟ فالمسيحيـــة والحالة هذه ، تصبح كلها مزعزعة . وقد اثار هذا الكتاب الشكوك في فرنسا وهولندا والمانيا والسويد . وفي سنة ١٦٦٩ ، وضع الاب اليسوعي مارتيني : « تاريخ الصين القديم » ، تكلم فيه عن اول امبراطور عرفته الصين سنة ٢٩٥٢ ق.م ، اي ٦٠٠ سنة قبل التاريخ الذي يعينـــه النص العبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعـلم الفلك الصيني يُعمل به ويُعتمد في جميع الاقطار . فقد جاء تاريخه هذا يقوّي ويؤيد ، مـن حيث لا يدري ، نظريات لاپاريير والنتائج التي آل اليها .

وثالث هذه المشكلات هي مشكلة « الطقوس الصينية » . لم تكن هذه الطقوس ، في نظر الآباء الدومينيكيين والفرنسيسكان سوى مظاهر لعبادة الاصنام . فقد حملوا البابا ، عام ١٦٤٥، على اصدار براءة ترذل هذه الطقوس الصينية بذاتها باعتبارها مضادة للمسيحيـة وعلى نقيض منها ، ثم استصدر الآباء اليسوعيون ، عام ١٦٥٦ ، براءة بابوية تجيز هذه الطقوس دون ان يكون في الامر اي تناقض بين البراءتين . فهذه الطقوس ، فاسدة ، مفسدة ، من حيث المبدأ والأساس ، ولكن تجنباً لشر اكبر ، وتفادياً للحقد والبغضاء والعـــداء الذي سيتعرض له المرسلون في الصين ، يمكن نوعاً ما، الاخذ بهذه الطقوس ، مراعاة للضعف البشري ، والتجاوز عنها موقتاً . وهكذا ، صدر من مجمع نشر الايمان ، عام ١٦٦٩ ، قراران ، باثبات البراءتين البابويتين الصادرتين عام ١٦٤٥ ، و ١٦٥٦ .

وقد راح الرأي العام بدوره يتعرض لهـــذه القضية بالجدل والنقاش الحـــاد الممزوج بالهزء والسخرية احياناً ، بعد ان شُوّهت بشكل يدعو للاسف ، كما ترى ذلك في الرسالة الخامســة من رسائل بسكال ، عام ١٦٥٦ . وفي هذه الرسالة الهجو القاذع يرشق به اليسوعيين ، بعنـــوان : « اخلاقية اليسوعيين العملية » ، مع انه لم يتعرض للنهج اليسوعي . وقد وجهت اليهم التهمـــة باخفاء تعاليم المسيح المصلوب ، والقيـــام باعمال تتنزّى بالصنمية والشرك وتشجع على فساد الاخلاق .

وليس بمستبعد قط ان تكون نظرية تشو ـ هي ، وهذه الحركات الدائرية المنسوبـة الى كي تحت تأثير كل من *Yin* و *Yan* قد اوحت لديكارت بنظرية الزوبعة .

فقد رأى ليبنيز في العلم طريقة تساعد على بناء مدينة شاملة من شأنها ان توحّد بين الناس

اجمع ، وهذه المدينة الشاملة بإمكان الناس ان يشيدوها بمزج كل الحضارات التي عرفتها البشرية عبر تاريخها المديد . وانطلاقاً من مثل اليسوعيين في بكين ، راح عام ١٦٧٠ ، يقترح تأسيس جمعية انسانية *Soc philadelphique* ، وهي كناية عن جمعية تضم كل العلماء ، تأخذ على نفسها انشاء مكاتب اتصال او مكاتب ارتباط في الصين واليابان . وحاول ان يستنبط لغة عالمية من هذه الحروف الصينية ، ذات الدلالة وما لها من معان . وبعد ذلك يوحي له كانغ – هي « هذا الملك الذي يتجاوز بقامته الفارعة المديدة ، اعلى ارتفاع عين للانسان ان يصل اليه ، والذي يشبه الآلهة فيدير كل شيء بإيماءة من رأسه ، والذي تحلى مع ذلك بالفضائل والحكمة ، فاستحق بذلك ان يحكم الناس » فيرى فيه مثال : « المستبد العادل » . وقد شطح به الخيال ، فتصور مرسلين صينيين يعلمون الاوروبيين الاخلاق والسياسة الصينية ، وعصر الحضارة الذي يبرز فيه كانغ – هي العصر الاخر الذي يلمع فيه اسم لويس الرابع عشر يوحد بينهما عصر بطرس الاكبر . وليس يستبعد قط ان كتاب *I – Ching* أو كتاب التحولات ونظرية تشو – هي اثرا كثيراً في الفلسفة العضوية *Organiciste* التي قال بها ليبنز ، فأدت به الى وضع نظريته في « المونادة » . هذا الجوهر البسيط ذو روحية لا جسم لها ولا امتداد ، غير قابلة للتجزئة وتدخل في تركيب الأشياء ، لا تتفاعل مع غيرها من المونادات ، ولها خاصتان اساسيتان هما الادراك والنزوع . صحيح ان ليبنز استوحى كثيراً من تقدم العلوم الطبيعية في زمانه ، بعد الاكتشافات الهامة التي حققها علماء بارزون امثال : لوينوك وسوامردام ، ومالبيجي . والصعوبة التي لقيها في محاولته تقليل الكائن الحي ، قامت في اعتماده على الميكانيكية الكرتزيانية . هنالك ، ولا شك قرائن تحملنا على التفكير بهذا التناغم الذي احب ليبنز ان يراه قائماً بين الفكرة الشاملة المفروضة التي قال بها تشو – هي وبين هذه التطورات » او « التحولات » التي قال بها ليبنز ، والتحولات التي قال بها تشو – هي بواسطة الافعال المتتالية بين ين *Yin* ويان *Yan* . قد يكون قام شيء من هذا بين هذه التعاليم والفلسفة .

وقد اثرت الصين على عدد كبير من الاوروبيين الباحثين عن اخلاقية تخالف الاخلاقية التي تعلم بها الديانة المسيحية . ففي سنة ١٦٨٧ ، نشر الاب كوبليه ، كتابه المعنون : « الفيلسوف الصيني كونفوشيوس » . وقد خصص له الناقد الفرنسي ريجيس نقداً علمياً نشره في « مجلة العلماء » *Jl. des Savants* في عددها الصادر بتاريخ ٥ يناير ١٦٨٨ ، وجد فيه : « استعداداً فكرياً شبيهاً بهذا الاستعداد الذي يدفع الانسان لان يتخلى عن منفعته او عن راحته الخاصة ويحمل لجميع الناس الحب الواحد كأنهم من لحمه ودمه يؤلفون معه شخصاً واحداً ، ويشاركهم بالتالي الشعور ذاته ، معبراً عن هذا الحب خير تعبير ، في السراء والضراء على السواء » . هذه هي الاخلاقية الانسانية التي قال بها ، وتعني الحصول عليها بمجتمع اخذ بالابتعاد عن المسيحية ومثلها ، فضمّ فيه كل حب ليسوع المسيح وكل رغبة في الاقتداء به .

وفي الوقت ذاته ، اتاحت هذه الكتب والمباحث العديدة التي صدرت حول الصين الوصول

الى هذه النتيجة وهي ان الاخلاقية الانسانية تكفي وحدها . فقد اعترف بهـذا الاب كوبليه نفسه في مقدمة كتابه حـــول « مادية الصينيين والحادهم » . وقد كرر هـــذا التأكيد الاب لونغو باردي ، عام ١٧٠١ . واذ ذاك ، راح بايل يعلم ويؤكد ان الدليل على وجـود الله المبني على اخذ جميع الناس بهـذا الايمان يسقط اذن ، من تلقاء نفسه . ومن جهـة اخرى ، لما كان الصينيون اكثر شعوب الارض تمسكا بالاخلاق والآداب الانسانية ، فلا لزوم ، والحالة هذه ، للاخلاقية التي يقول بها الدين المسيحي ، ولا لزوم بالتالي لمستوى حضاري عال .

وفي سنة ١٦٩٦ ، في كتابه الموسوم : « رسائل حول الوضع الحالي في الصين » ، راح الاب له كونت ، يفسر النتائـج الطيبة التي اصابها اليسوعيون عن طريق تعويلهم على الديانة الصينية التي عرفت كيف تحافظ ، عبر الاجيال ، على نقاء وصفاء الحقائق الدينية الاولى التي اوحى الله بها للانسان الاول ، كما عرفت كيف تصون للأجيال الطالعة معرفة الله الحقيقي مــدة ٢٠٠٠ سنة . وقد راح قراء كثيرون يضخمون كثيراً افكار الاب له كونت ويجسمونها ، عندما راحوا يؤكدون أن الصين مجدت الله بشكل وكرمته على صورة يمكن للمسيحيين ان يحتذوها ، وأن الديانة الصينية كانت انقى الديانات طراً ، وان الصينيين تفردوا بالتواضع وامتـازوا بالعبادة الداخلية والقداسة ، وان الصين وحدها بين كل الامم ، خصها الله ، دون سواهـا من الشعوب والبلدان ، بنعمته . واذ ذاك ، مـاذا يبقى من امتياز الشعب اليهودي ؟ وما الحاجة ، بعدهذا ، الى موسى ، وما الحاجة بعد هذا ، للسيد المسيح وتجسده وفدائه والعهد الجديـد ؟ واذ ذاك تطل علينا نظرية « الخطيئة الفلسفية » ، هذه النظرية التي علم بها الاب اليسوعي مونييه ، هـذه الخطيئة الفلسفية المقترفة بدون اية معرفة لله ، ليست اهانة لله. اذن ، فالفيلسوف كونفوشيوس وكل قدامى الصينيين لم يهلكوا . ويبقى بعد هذا ، الاعتصام بالفضائل الطبيعية وتطبيقها وفقاً لقوى الانسان الطبيعية حتى يخلص الانسان . ولذا فالمسيحية لا تفيد شيئـاً ، والدين الطبيعي يكفي وحده .

واذ ذاك تحتدم الخناقة ويرتفع النقاش حول « الطقوس الصينية » ، هذه القضية الشائكة التي راح يعالجها الاب سانت ماري ، من رهبانية المرسلـين الاجانب ، في كتاب اصدره ، عام ١٧٠١ . فقـد عمل الاب رتشي في محيط او جو مشبع بالحدسية الادبية والفردية التي عـلم بها وانغ – يانغ – منغ ، والتي كانت تيسر الاتجاه نحو فكرة الله . وعلى عكس ذلـك ، راحت اسرة تسنغ تعمل على تأمين الفوز للمادية التشريعية . وهذا الفرق الكبير القائم بين تفكـير المتدين والمسيحية اخـذ يتسع . وبعد ان درس الآباء اليسوعيون الكتب الصينية القديمة رأوا ان التدقيق بين هذه العقائد والطقوس الصينية ، وبين العقائد المسيحية ممكن تحقيقه ، اذا مـا عاد الصينيون الى ايمانهم القويم الصحيح القديم ، ويمكن بالتالي الانتقال بهم الى المسيحية . فكانوا في تفكيرهم هذا على حق. اما الآباء الدومينيكيون والفرنسيسكان والآباء المرسـلون في الخارج ، هذه الرهبانية التي انشئت عام ١٦٥٩ ؛ فقد راحوا يعلمون انطلاقاً مما كان عليه الصينيون من العقائد ، اذ ذاك ، انهـم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة

هذه ، هي تجديف على الله ، واهانة له . وكانوا في منطقهم هذا على صواب وحق .

ومنذ عام ١٦٥٨ ، كان الكرسي الرسولي ، قد عين ثلاثة نواب رسوليين تقاسموا فيا بينهم الادارة الكنسية في الصين ، من بينهم غريغوريوس لويس الذي جاء تعيينه ، عام ١٦٩٤ ، فكان اول اسقف على الصين . ففي سنة ١٦٩٣ ، اصدر ميغرو الذي كان نائباً رسولياً على فوكيان ، منشوراً شجب فيه نظريات اليسوعيين وتعاليمهم حول الطقوس الصينية ، وحرّم التقاديم على شرف كونفوشيوس ، وعبادة او تكريم الجدود . وبتاريخ ١٣ تشرين الاول ، شجبت جامعة السوربون بعض المقترحات المنسوبة الى اليسوعيين باعتبارها ملحدة ومنافية للعقيدة الكاثوليكية. واذ ذاك ارسل البابا الى الصين مطراناً ده تورنون بطريرك انطاكية الذي وصل بكين في عام ١٧٠٥ فاستقبله الامبراطور كانغ - هي ، فعلم هـذا ان البابا اصدر حكماً في ٢٠ كانون الثاني ١٧٠٤ شجب فيه تعاليم اليسوعيين ، فغضب كانغ - هي اذ كان سبق للبابا وأكد ، بناء على طلب الآباء اليسوعيين ، ان عبادة كونفوشيوس ليست سوى مراسم مدنية لا غـير . فأصدر الامبراطور ، اذ ذاك امراً بطرد المطارنة ميغرو وده تورنون . فنشر هذا الاخير سنة ١٧٠٦ ، في نانكين منشوراً حرّم فيه كل الطقوس الصينية . وبعد ذلك بقليـل ، اصدر الامبراطور كانـغ - هي مرسوماً يحظر فيه على الأوروبيين الاقامة في الصين بدون ترخيص رسمي من السلطات المعنية . وفي ١٩ آذار عام ١٧١٥ ، صادق البابا بالبراءة الـتي اصدرها بعنوان *Ix Illa Die* القرار الذي اصدره عام ١٧٠٤ ، وطلب التقيد به .

ومنـذ ذلك الحين ، اخذ انتشار المسيحية في الصين يتأخر ويتقهقر بشكل محسوس . وفي الوقت ذاته تحجرت الصين في فلسفة تشو - هي وشـددت في فرض الطقوس والتمسك باعراف الاقدمين وعاداتهم المرهقة .اما في اوروبا فقد بعثت الافكار والنظريات التي قامت حول الصين ورمت الى التعريف بها ، النشاط وساعدت على ترويج بعض المبادىء التي قامت عليها فلسفة الانوار ، كالديانة الطبيعية وطيب عنصر الانسان الاول ، والاخـلاق الطبيعية ونظرية النفعية والاستبداد النير ، وغير ذلك . اما الصين فازدادت تحجراً . اما التطورات التي اصابت اوروبا منذ ان اخذت من عهد بعيد باسباب التجدد والرقي الذي دعت اليه تعاليم المدرسة الاتباعية ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، و « المعتدلون » في القرن الرابع عشر والخامس عشر والميكانيكيون وديكارت اخيراً فقد ازدادت وسارت بخطى اسرع .

الفصل الرابع

آسيا تعرض عن أوروبا

التحجر الاسيوي

لم تدع آسيا مجالاً لاوروبا لجري فيها تعديلا او تدخل عليها تبديلا، باستثناء حفنة من بضعة ألوف من ابنائها . فقد أصمت أذناها امام الديانة الكاثوليكية كما أعرضت عن العلم الاوروبي ، اذ لم ترَ فيه سوى اثارة للفضول . ثم انها تحاملت على نفسها واستعانت ببعض الفنانين الاوروبيين دون ان تتلقح روحها بالتقنية الاوروبية، ورضيت تساهلا واغضاءً بشيء من التبادل التجاري مع فريق من التجار الاوروبيين ، مع حرصها الشديد على الاستمساك بمؤسساتها ونظمها المتوارثة منذ القدم . خضعت للتطور واخذت باسبابه خلال هذين القرنين استجابة لحوافز دفينة اكثر منه رغبة باحتذاء الغربيين ، دون ان يمسّ هذا التطور صلب مدنيتها . وقد عبرّ شاردن احسن تعبير عما خامر الاوروبيين من شعور من هذا الوضع اذ قال : « ليست آسيا كقارتنا الاوروبية حيث يبدل الناس من أزيائهم ومشاربهم وهواياتهم في الملبس والمشرب والمأكل والسكن ، وفي كل شيء ، باسهل مما يُظن. هناك الاستمرار على الوتيرة الوحيدة والبقاء على التقاليد الى مالا حد له ولا نهاية . فالملابس عندهم اليوم ، هي ما كانت عليه من زي من عدة قرون . وهذا ما يجعلنا نعتقد بان هذه الاشكال والصور والصيغ الخارجية التي يتلبسها الناس في تصرفاتهم واعرافهم وعاداتهم واخلاقهم وطريقة تحدثهم ، في هذا الجزء من العالم، هي هي ذاتها تقريباً كما كانت من نحو الفسنة، باستثناء التبدلات التي طلعت بها الانتفاضات الدينية . وهو شيء لا يؤبه به وليس له اهمية، فاسيا توحي للمرء فكرة الجمود او التحجر .

لماذا لم يعمد الاوروبيون الى فتح آسيا بعد ان تم لهم التفوق الحربي

ورب سائل يسأل لماذا لم يعتمد الاوروبيون هنا ، كما اعتمدوا في اميركا ، مثلا ، على السلاح واستعملوا القوة والبطش . ويرى الرحالة الاوروبيون ان ما تمّ لاوروبا من اسباب التفوق في السلاح والنظام والتقنية والتكتيك الحربي كان من شأنه ان يجعل الفتح امراً ميسوراً ، ومطلباً هيناً ، سهلاً ، وقد كتب احد المراقبين الفرنسيين المشهور لهم بعمق التفكير،

وسداد الرأي وصدق الملاحظة ، بعد ان اقام في الهند من ١٦٥٥ – ١٦٦١ ، قائلاً : « هـــذه الجيوش الجرارة التي تسمر الخوف في القلوب لكثرتها ، تقوم احياناً بمجهودات طيبة . امــا اذا مادبّ اليها الرعب وتشبت الفوضى في صفوفها ، انقطعت الحيلة في ايقاف الذعر عنـــد حد ، فاذا بها كالسيل الجارف وقد اطاح بما يقف في سبيله من حدود وسدود ، لتندفع المياه ، في كل حدب وصوب وتغرق البلاد في غمر مهلك مبيد وينقطع الرجاء من اي دواء ويبطل كل علاج . ولذا كم من مرة رُحتُ اغلي النظر في وضع هذه الجيوش التي لا نظام لها ولا قيد ، والتي تكاد تسير في تنقلاتها سير النعاج في القطيع ، فاتصور ما عسى ان يكون منها المصير لو اتفق وهبط هذه البقاع ، جيش من ٢٥،٠٠٠ جندي من هؤلاء الجنود الاشداء المجرّبين، ممن رأت مثلهم كثيراً مقاطعة الفلاندر ، بقيادة ولي العهد او بقيادة تورين مثلاً لتصورتهم يسيرون على جثث هـــذه الجيوش مهما بلغت من ضخامة او عدد. أصمدوا في وجه الصدمة الاولى، وهو امر ليس بالعسير، فتراهم وكأن على رؤوسهم الطير مصعوقين جزعاً ، او انقضوا كالصاعقة وهزوا الارض هزاً ، كما فعل الاسكندر. فاذا لم يصمدوا، وهو شيء منتظر ومتوقع، فكن على ثقة بانه وقع فيهم المقدور وينتهي بهم الامر في جو الهلع والهرب » . والامر مع الصينيين لا يختلف عن هـــذا الوضع ، فالسلطات الاسبانية في الفيليبين عرضت على الملك فيليب الثاني، فتح الصين وتدويخها لدعم عمل المرسلين بقوة السلاح ، مقدرين بان جيشاً من ١٠،٠٠٠ – ١٢،٠٠٠ جنـدي حسني التدريب ، تمرسوا بفنون الحرب، من جنود اسبانيا وايطاليا المجربين، يشد أزرهم من ٥٠٠٠ – ٦٠٠٠ ياباني مع ثلاثة او اربعة خبراء اخصائيين بصب المدافع يكفي للقيام بهذه المهمة. فلم تكن هذه السلطات على خطل او على وهم فيما فكرت به ، ومن الملاحظ ان الفشل الوحيد الذي مُني به المنشو في فتحهم للصين وقع لهم عند البدء بحصارهم الأول لمدينة كواي – ين سنة ١٦٤٦، عندما اصطدموا بثلاثمائة جندي أوروبي تساندهم المدفعية التي ارسلها لهم البرتغاليون من مكاو . فكم بالاحرى ينجــح الأوروبيون لو قاموا بالهجوم في عهد المِنغ ، عندما كان الصينيون يطبقون بكل دقــة طقوسهم الدينية في الحرب، اذ أنهم لم يكونوا يرمون الى ابادة قوى العدو، بل كانوا يتيحون لكل واحد المحافظة عـــلى الظواهر ليتم لهم عقد سلم مشرف . ففي حرب كهذه ، لا يهاجمون قلعة مربّعة الزوايا الا من جهات ثلاث ليتيحوا للمحاصرين الهرب والنجاة بانفسهم من الجهة الباقية حرة ، فيتفادون مقاومة شديدة. فلا يردّون على العدو الذي يقذفهم بالمدافع بالمثل ، وذلــك ليحملوه على الخجل من نفسه للعنف الذي يلجأ اليه ، فيتوقف عن عمله الوحشي . فاذا ما اصيب العدو ببعض الضربات ، أرغم على المفاوضة . فعليك ، والحالة هذه ، سحب جيوشك مــن مراكزهم للتدليل على استعدادك لاستقبال ممثليه المفوضين. كل تحركاتهم الحربية تخضع للطيرة او الضرب بالرمــل الذي يوجب بان تُخلي القوات المرابطة مراكزهـــا في الحصن ، من الباب الشرقي ، في الربيع ، ومن الباب الغربي ، في الصيف وهلمّ جرّ . لا وأيم الحق ، فالصينيون هم ابعد عــن ان يصمدوا في الميدان ، لو صادفوا امامهم الجنرال سبينولا مثلاً ، او القائد تورين .

النظم الاجتماعية في أوروبا تولي الدولـــة قـــوة اكبر

دخل في روع الأوروبيين ان الامور تسير بشكل ابسط بعد تحقيقهم النصر الأول ، فتنهار امامهم هذه الأمبراطوريات الشاسعة ، دفعة واحدة . في بلاد العجم والهند ، ينتقـــل الرؤساء من جانب المغلوبين الى جانب الغالب . فالتركيب الاجتماعي والنظم الاجتماعيـــة التي عليها البلاد ، لا تساعدها على المقاومة والصمود . لنترك الكلام هنا لبرنييه ، هذا المملق الثاقب النظر . « فالامر في الهند لا يشبه بشيء الوضع في فرنسا او في الدول المسيحية الأخرى ،حيث يملك اسياد البلاد بمتلكات واسعة ، تدر عليهم واردات وافرة ، تتيح لهم وسائل العيش والبقاء بعض الوقت . اما في الهند فليس لهؤلاء الأسياد سوى مرتباتهم .. التي باستطاعة الملك ان يقطعها او ان يوقفها عنهم ، ساعة يشاء ، وبذلك يهوون الى الحضيض ، دفعة واحدة ، ويفقدون ما كان لهم من شأن واعتبار ويصبحون نسْياً منسياً فلا يجدون لهم مجيراً يستظلون تحت كنفه .. فكل الارض ومن عليها وما فيها هي ملك المغول الكبير ، باستثناء بعض المنازل والحدائـــق يترك لرعاياه حرية التصرف بها بيعاً او يقتسمونها فيما بينهم كما يرغبـون ... لا قدّر الله ان يكون ملوكنا في اوروبا مسيطرين على الارض والممتلكات التي هي ملك رعاياهم ، كما لا قدّر الله ان تكون ممالكنا في مثل الوضع الذي تتسكع فيه ممالك الهند ، وهي على ما هي عليـه من حسن العناية واكتظاظ السكان ، وجمال البنيان ، ووفرة الغنى وحسن الظـــرف والأدب وسعة الازدهار الذي نراها عليه . فملوكنا هم على طراز آخر من الغنى ، والقوة ومنعة الجانب ، ليس منه النزر النزير هنالك . ولا يسعنا الا الاشارة الى ما يتمتعون به مـــن حسن الكلام وما يحاطون به من صدق الخدمة وصادق الآراء . ولن يلبث هؤلاء الملـــوك ان يجـدوا انفسهم في البادية ، معزولين في الصحراء ، وضعهم وضع البائســين المستوحشين ، اي وضع هؤلاء بالذات الذين جئت على وصف حالهم من قبل الذين طمعوا في الحصول على كل شيء ، ففقدوا كل شيء ، وفي سعيهم الحثيث لكسب الغنى والثراء ، وجدوا انفسهم لا يملكون شروى نقير ، او أقـلّه ، بعيدين جداً عن هذه الاهداف التي وضعوها نصب اعينهم الرمداء ، او نصب اطماعهم الاشعبية التي هدفوا من ورائها ليصبحوا اكثر استبداداً واكثر سلطة مما تسمح بـــه الشرائع السماوية والنواميس الطبيعية ؛ والا كيف يتوفر لنا مثل هـؤلاء الامراء ، وهؤلاء الاحبار ، وهـــؤلاء النبلاء ، وهؤلاء البورجوازيون الأثرياء وجدوا ، وهؤلاء التجار الاغنياء ، وهؤلاء العمال الصنَعَة الماهرين وهذه المدن العامرة كباريس وليون ، وتولوز وروان ، اولندن مثلاً ، وغير ذلك من المدن الكبيرة ؟ فاذا ما تضعضع الجيش في البلاد ، دبّ اليها الفساد ، فلم يَعد من تقوم له قائمة او يتمتع بقوة خاصة تؤمن لها سلطة تتوفر لها من الوسائل والامكانيات ما يؤمن للبـــلاد نظاما دفاعيا فعالا .

اما في الصين ، حيث الامبراطور هو المسيطر مبدئياً على كل الاملاك والاراضي ، فالملكية العائلية كانت اقوى وارسخ (مما في الهند) ، انما المقاومة الوطنية في هذه الامبراطورية المترامية

الاطراف ، ضعيفة ، وَهِنَة ، كما مر معنا ، وذلك لسبب رئيسي وهو ان كل فرد لا يهمه الا منفعته الخاصة ولا يهتم بالقضايا السياسية والوطنية ، ولا لقيام هذه الاسر التي تتألف من الآباء والجدود ، فيشكل اعضاؤها شيئاً اشبه ما يكون بجمهورية مستقلة .

تفوق اوروبا التقني

الدفاع عن الوطن لا يمكن ان ينهض على مهارات العامل والمهندس . كل ملوك آسيا رأوا انفسهم مضطرين للتعاقد مع طوبجية ومع مهندسين عسكريين اوروبيين ، اذ ان الوسائل التقنية الآسيوية كانت في غاية الضعف . فقد وضع الاوروبيون في خدمتهم مئات الآلات والاعتدة التقنية ، بينما لم يكن ليتوفر للآسيون منهـا سوى نزر نزير .

لم يكن للفرس نجارون بحصر المعنى،وليس للعاملين في النجارة غير الفأس والمنشار والمقص. فلم يعرفوا شيئاً عن المثقب ، وكانوا يستعملون المقدح بواسطة القوس والوتر . والعمال يعملون وفقاً للاوامر والتعليمات الصادرة اليهم ، فيقبعون في زاوية الحجرة ويديرون اجهزتهم بارجلهم ، فالمبيض يعمل والى جانبه خادمه حامل كيس الفحم والمنفخ والقليل من الصودا ، وبعض روح النشادر يخزنه في قرن الثور ، وفي جيبه بضع قطع صغيرة من القصدير . واذ ذاك يعمد الى زاوية من فناء المنزل يركز فيها كوره ويوقد النار ويأخذ في العمل . وعلى هذا النحو سارت الامـور ايضاً في الهند . فقد استعانوا بآلتين او ثلاث آلات لانجاز عمل يستخدم له الاوروبي ١٠٠ آلة مختلفة . فقد عرفوا ان يقلدوا المصنوعات الاوروبية ، انما كان يقتضيهم ذلك شهرين او اكثر ، بينما لا يحتاج الاوروبي لاكثر من ثلاثة ايام. فالنجار لم تكن تتوفر له طاولة ، ولذا تراه يجلس الى الارض يستعين برجله لتركيز قطع الخشب ، كما كان يعالج الحجارة الكبيرة بالازميل ، وكان يقتضي له ثلاثة ايام لقطع قرمية خشب بينما يقطعها الاوروبي باقل من ساعة . اما الحداد فكان يركز عمله امام منزل الزبون ، ويوقـد النار ويبني من التراب حائطاً صغيراً ، ويركب كوره ويجلس امام النار فيدفع برجله قطعة الحديد وهو ينفخ بالكور ، وعندما يحمى الحديد يأخذ ، وهـو جالس الى الارض ، بتطريقه بمطارق صغيرة ، فوق سندان صغير ، كما ان غذاءه كان سيئاً .

اما الصين التي كانت من هذه الناحية احسن تجهيزاً ، بعض الشيء ، فلم تكن احسن وضعاً. فالعربة ذات الدولاب المركزي الوحيد كانت تؤلف عملاً سيئاً كما انها لم تكن مستقرة التوازن. وكانت الزراعة فيها تتطلب مجهوداً كبيراً . كان المزارع الاوروبي يستخدم في فلاحـة ارضه حيوانات الجر فيترك العشب يغمر الحراث ، ويبذل جهداً اقل مما يبذله الفلاح في الصين او في اليابان ، في حقل الارز . فكل نشاط زراعي يقوم به يجريه بيديه باستثناء شق الارض للوجه الاول ، ويمهـد التربة ويصون الاقنية والمجاري المائية ويعشب الارض باستمرار . فالجاموس والبقرة والحمار عنـد الصيني او الياباني هي اسوأ من غذاء الثور عند الاوروبي ، ولذا تفقد هذه الحيوانات نشاطها في العمل.

رفض الاسيويون اقتباس الاساليب العلمية الجديدة . فقد اساؤوا استعمال فأرة النجارة التي ادخلها الاوروبيون على الاستعمال . وكان البون شاسعاً والفرق عظيماً في التحمس للاختراعات وطلب الكشوف العلمية الجديدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد فضل الاسيويون ان يشتروا من الاوروبيين الاجهزة التي يرغبون فيها بدلاً من صنعها (الساعات والمدافع وغير ذلك) وقد فضل امراؤهم ان يستوردوا من اوروبا تجار الجوهرات والصاغة وشغيلة الابنوس وصناع المينا والرسامين . فالعرش المرصع الذي جلس عليه المغول الكبير كان من صنع احد الصاغة الفرنسيين .

تفوق العلم الاوروبي .

ولعل السبب الاكبر لهذا الركود التقني الذي تخبط فية الفرس والهنود هو احتقارهم للعمل اليدوي وازدراؤهم للعامل الذي كثيراً ما تعرض للضرب والاهانة ، كما كانت حصته من المعاش ضئزى . اما في الصين ، فعلى عكس ذلك ، اذ كان العمل محترماً . واشتهر عن العامل الصيني قوة احتمال وجلد طويل وصبر نادر ، يعمل دونما ملل او تعب ، ودون تذمر او تأفف . وهنا يقوم عامل مشترك بين جميع الاقطار الاسيوية ، ميز هذه الحقبة بالذات ، ويتمثل في مقت او كره الجهود العقلي . فقد افتقر الاسيويون للفضول الفكري او العلمي . فكانوا يقلدونك بمهارة كلما كان بوسعهم حصر الانتباه والافادة من المخيلة البصرية . لمنهم من افتقر لروح التحليل والتجريد ، كما افتقروا للبحث الشخصي . والكتابة الصينية التي كانت ايحائية والتي كانت تتطلب حفظ الالوف من الصور والمرئيات ، وتفترض المقدرة على التمييز بين العلامات والشارات، وتفرض المضي في رسمها واستنساخها وحفظها غيباً، لم تكن لتربي في النفس القوى العلمية والقدرات على اكتساب العلوم ، كما يفعل فن الخط في اوروبا واللغات الاوروبية ، وهي كلها من ادهى ادوات التحليل وفك التقليد والتركيب التي تمهد للطريقة العلمية بالذات . ديانات الآسيويين توحي لهم احتقار العالم الخارجي . في بحثه عن الاوحد ، عن المطلق في ذاته ، وطلبه له في القرآن ، في الشاسترا او في السي – تشيو اي معرفة ما هو لازم للحياة ، فالاسيوي لا يهتم كثيراً لعلم الظواهر بحد ذاتها ويهمل درسها وتفهمها . فلم يستطع الباريسيون ان يتمالكوا انفسهم من العجب ، عندما عرفوا كيف ان سفير العجم ، بقي ، عام ١٧١٥ ، معتزلاً في فندقه ، مستغرقاً في قراءة القرآن الكريم دون ان يبدي اي اهتمام بالوقوف على الحضارة الاوروبية . فآسيا قبعت راضية عند الدور الثاني من ادوار الفكر ، هذا الدور الذي يسبق العقلانية الكيفية التي ميزت اليونان ، حيث الفكر هو قبل كل شيء اكتناه الكليات الكبة . فالاسكافي الهندي لا يأخذ قياسات فهو يضع رجل زبونه في راحة يده، ويرسم في ذهنه الصورة الذهنية او الفكرية لحجم معين ، ويفصل حذاء يأتي كما يجب . والصابىء الذي برهن عن مقدرة تجارية فائقة ، يسيء الحساب ولا يفقه شيئاً من قواعده . فهو يجهل كل شيء من القاعدة الثلاثية . والدليل على صحة اعماله الحسابية يثبت عندما يتوصل ثلاثة او اربعة الى النتائج ذاتها التي توصل اليها هو نفسه . فالفرس والهنود والصينيون

يجهلون تماماً منطق الافكار وترابطها ، كما يجهلون تماماً الدليل وفن البرهـان ، وهي امور في الاساس مـن كل علم . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن السابع عشر معرفة هذا الفارق ، « فالصينيون دهشوا عندما وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام مقدمات اقليدس مترجمة الى لغتهم ، وتبينوا بصعوبة كلية البرهان اي الطريقة التي يتبعها العقل متنقلا من الامور الواضحة ، الى أمور صحيحة ، هي الاخرى ، انما اقل وضوحاً من الاولى ، بحيث نصل بواسطة سلسلة من المقدمات الى حقائق مجردة ، تبتعد كثيراً عن الاولى التي كانت نقطة الانطلاق . لم يكونـوا ليقترحوا او ليعرضوا شيئاً الا ما هو عملي ... ان عبقرية الصيني ، مع كل تقديرنا لها ، كانت دون ما تم منها للاوروبيين ... وقد قلّت عندهم القدرة على الاختراع او على التطوير والتحسين ... » وهكذا بقي الفرس والهنود والصينيون يتسكعون في مجوسية وشرك غليظ كثيف ولجأوا الى التعاويذ والطلاسم وهذه العقاقير السحرية التي كانوا يستطبون بها الامراض ، وهـذا الحجاب الذي يحوي آية من القرآن ضد العين الشريرة الناقصة ، وعلم النجامة لاستطلاع كل ما هو مقدر لكل ظرف من ظروف الحياة ، كالنهوض من النوم صباحاً ، وتناول وجبـة الاكل ، والعلاقات الزوجية . في العجم « اذكر جيداً القرار الذي اتخذ ، عام ١٦٦٨ لارسال اسطول الى بحـر قزوين للوقوف في وجه القوزاق الذين راحوا يعيثون فساداً على سواحل هذا البحر . فقـد اضاعوا هدراً ، شهراً من الزمن لوضع هذا القرار موضع التنفيذ ، لان القمر وقع في مدار برج العقرب ، مع ان اصوات النجدة كانت تشق عنان السماء من كل مكان . وكان الجواب يأتيهم بكل برودة : تمهلوا قليلا : فالقمر في العقرب ، وهو قران شر ومكان شؤم تطبع ما يحدث ، يجب التوقف عن كل شيء والتحرز من اتيان اي عمل كان في مثل هـذا الوضع . صحيح ان الاوروبيين كانوا ، هم ايضاً ، فريسة السحر والتنجيم ، حتى في بـلاط لويس الرابع عشر ، كما يتبين ذلك بوضوح من « حكاية السموم » . ولكن هذه الامور لم تكن لتسيطر على حياتهم . ان طريقة التفكير او التصرف كهذه وطاقة ضعيفة على العمل كالتي اتينا على وصفها ، كان من شأنها ان تسهل ، الى حد بعيد ، عملية غزو او فتح .

روادع الفتح لدى الاوروبيين : السراب الآسيوي وبعد المسافات واكتظاظ السكان

لماذا لم يحاول الاوربيون فتح الصين ؟ فقد تهيبوا عملية الفتح هذه ، بعد ان وقعوا تحت سطوة هذه الامبراطوريات الضخمة الـتي اقتضاهم التعرف عليها وقتاً طويلا ، كما ان ملوك اوروبا وقعوا تحت تأثير السراب الشرقي . فجهل اوروبا الطويل للقارة الاسيوية هو فوق كل حد ويتجاوز كل خيال . فقد كتب الاب بارزيه ، من غوا ، عام ١٥٨٧ ، يقول : «استقر في روعي ان الصين او بالاحرى بلاد التتار الكبرى ، استطالت حدودها بحيث جاورت المانيا . وفي سنة ١٥٨٢ ، كان الآباء اليسوعيون في كلية القديس بولس في غوا يجهلـون حتى وجود جبال هملايا وجبال الهندوكوش . وفي سنة ١٥٨٣ مطّ رسامو الخرائط خريطـة الصين فاوصلوها الى منتصف المحيط الهادي ، كما كانوا يجهلون تماماً المراد بكلمة كاثاي التي طالما وردت

على لسان ماركوبولو . والفضل كل الفضل يعود للاب متي رتشي الذي حدد عام ١٥٩٨ موقع الصين بين الدرجتين ١٩ — ٤٢ من خط العرض الشمالي ، وإكد بأن مساحتها لا تتجاوز قط الدرجة ١٢٠ من خط الطول الى الشرق من باريس . واليه يعود الفضل كذلك ، اثر الرحلة التي قام بها بنتوده غوز بين الاقطار الاسلامية في آسيا الوسطى ، من ١٦٠٢ الى ١٦٠٧ ، حيث كانوا لا يزالون يسمون الصين باسم كاتاي وبكين باسم كمبالو ، باثباتاته ان كاتاي هي الصين كما جاء ذكرها لدى ماركو بولو . وهذا الجهل المدقع هو الذي ساعد على استمرار هذا الوهم حول قوة القارة الآسيوية . »

ومن جهة اخرى ، فقد كان الاوروبيون غارقين في منافساتهم المنيفة في اوروبا وعلى كل البحار . فلم يتوفر يوماً لأي دولة من دول اوروبا جيش من ٢٥ ألف جندي كالذي طالب به برنييه ، كما انه كان يقتضي ، بالاضافة الى هذا الجيش ، جيوش اخرى ، للعمل في بلاد فارس والهند والهند الصينية ، والصين واليابان . كذلك لعبت المسافات الشاسعة اثرها السيء على نفوس الاوروبيين . وجاء ما لهذه من وقع مهيب ، في غير مصلحتهم ، اذ كان يقتضي سنتين وبضعة اشهر لرسالة في طريقها من روما الى مكاو . وقد استلم رتشي عام ١٥٩٥ رسالة مؤرخة عام ١٥٩٣ ، يعلمه مراسله عن وصول رسالته المؤرخة عام ١٥٨٦ . والسفير الياباني الذي ارسل للبابا ، غادر ناغازاكي في ٢٠ شباط ١٥٨٢ ، ولم يصل لشبونة الا في ١٠ آب سنة ١٥٨٤ مع العلم انه اضاع فصلاً من الفصول الموسمية . ولكي يعبئوا للمعركة ٢٥ ألف جندي ، لما هو العدد الذي يجب ان يتوفر ، والحالة هذه في الحاميات والقواعد البحرية والقلاع والحصون ، وعلى خطوط التموين مع هذه المسافات الشاسعة ، وضخامة آسيا ، واكتظاظ السكان ووفرتهم ؟ كل ذلك قطع كل رغبة وقضى على كل امل بنجاح او بتأمين نصر عسكري ، في محاولة حربية على مثل هذه الضخامة ، تقوم بها اوروبا متحدة ، متماسكة . ويجب الا ننسى ان اميركا استأثرت لوحدها ، بالكثير من الوسائل والاعتدة اللازمة لاوروبا . ولكي تتغلب اوروبا على هذه الصعوبات التي لم تفطن لها ولم تدخل في الحسبان ، فقد اضطرت ان ترسل الى اميركا من الجنود والمعمرين والمبشرين ، اكثر بكثير مما ارسلت الى آسيا خلال هذين القرنين ، بحيث صح لنا ان نؤكد بان استثمار اميركا واستعمارها قد أنقذ آسيا .

عجز اوروبا عن اقناع آسيا نشاط اوروبا وجمود آسيا

لم تفتح اوروبا آسيا . كذلك لم تعرف ان تحملها على ان تقتبس نمط العيش الاوروبي والديانات الاوروبية . الاوروبي حركة دائمة ، مثله : الجهاد والعمل والانشاء والرقي والتحول . يتآكله الظمأ الذي لا ينطفىء للجديد ، وما فيه من عدم اصطبار وعدم الخضوع او التسليم للصعوبة ، سواء أجاءت من طبيعة الاشياء او من ارادة الناس . اما الآسيوي ، ففي حلم دائم وازدراء للجهد ، وعبادة القوانين المفروضة والتقاليد المرسومة والحذر من الجديد ، واحترام القوى البشرية الخارجية والطبيعية والاستسلام لها .

نظر الآسيويون الى الاوروبيين نظرهم الى من بهم العته او أصيبوا بمس . وقد وجد الفرس النزهة والتفريج عن النفس شيئاً غير معقول، كما رأوا في القيام بالاسفار والنزهات اعمالا وتصرفات هي من شيم الناس الذين لا شعور لهم . فيتساءلون ما الذي قصد اليه الاوروبي من ذهابه الى آخر الطريق ، ولماذا لم يتوقف هناك لو كان بحاجة، فعلاً الى شيء ما . فالرحلة لمجرد الفضول وللاطلاع على الجديد من البلدان والناس شيء لا يمكن ان يتصوره . « فليس في العالم غير الأوروبيين الذين يسافرون إشباعاً لفضولهم » (شاردين) . هل يمكن الحصول على الفضيلة والإستمتاع باللذة ، بغير البيت ? حسن للمرء ان يسافر اذا كان السفر يعود عليه بالربح . فراحوا يتوهمون ان كل غريب هو جاسوس ولا سيا اذا لم يكن قاصراً او صاحب مهنة . على هذا النحو كان يفكر الهنود وكذلك الصينيون المشهور عنهم ، مع ذلك ، حبهم للعمل لحاجتهم اليه . في نظرهم ، الاسفار والرياضة البدنية ، والسعي وراء اشياء لا جدوى منها ، امور تنم عن الجنون واضطراب العقل ، او ان الانسان ليس في وضع طبيعي قط . فالحياة ، في نظرهم هي التمتع الهادىء ، هي الولائم والمآدب ، هي قطع الوقت وقتله بالحديث ، او الانصراف الى الأحلام والاسترسال في النظرات الدينية والفنية . فالحركة يجب ان تقتصر على ما لا بُدّ منه وعلى ما هو ضروري .

ولذا ادمن القوم في الهند وفي بلاد فارس على تعاطي المخدرات . اما الصينيون الذين كانوا اكثر واقعية وروحاً عملية ، فلم يألفوا هذه العادة الا بعدهم بزمن طويل ، اي في اواخر القرن السابع عشر . كذلك ادمن الفرس والهنود على التدخين ، فالعامل الذي يملك منهم خمس نحاسات مثلاً ، ينفق ثلاثاً منها على التدخين واثنتين على اكله وشربه . كذلك كانوا يتعاطون غير ذلك من المخدرات ، فيدخنون التبغ ويغلون ورق القِنَّب ، وبزر القنبة . وعبثاً حاولت حكومة بلاد فارس تحظير تعاطي مضغ الأفيون ، بعد ان تأصلت هذه العادة في القوم بحيث لا يمكن ان تجد بينهم من هم غير مصابين بها . ولذا كان من الصعب ان نجد في العجم شخصاً واحداً سليماً لا يتعاطى نوعاً ما من هذه المخدرات او من هذه المشروبات الكحولية ، والا فكيف تريدهم ان يعيشوا حياة هنيئة لذيذة » .

إعراض آسيا عن المسيحية وكرهها لها

باءت بالفشل هذه المحاولات التي بذلها المبشرون لنشر المسيحية في آسيا . فقلّ عددهم فيها ، اذ فضّل معظمهم العمل في حقل الرسالة في اميركا . ومما تجب ملاحظته ان صلب العقيدة المسيحية اثار الشكوك بين معظم الآسيويين ، بعثت فيهم المقت والكره فأعرضوا عنها . فقبل الف وستمائة سنة من قدوم المرسلين الى آسيا ، كان جليلي يدعى يسوع المسيح قد بذل ذاته مصلوباً في القدس ، في قطر من اقطار آسيا الغربية . وبعد ذلك ببضع سنين ، راح موظف روماني يصف المسيحية الناشئة شجاراً بين اليهود حول شخص مائت يدعى يسوع ، بينما راح بولس يبشر به مدعياً انه حي يرزق . هذه هي المسيحية في بدء امرها ، فالاعتقاد بتجسد الله والايمان بانه تلبس جسد

انسان ، وانه افتداء للبشر من خطاياهم ، مـــات لأجلهم على الصليب ميتة اللصوص وشذاذ الآفاق وكأحد العبيد الأرقاء . فالمسيحية تقوم على ان هذا الميت قام من القبر ناهضاً وانه صعد الى السماء حيث يحيى الى الأبد مـــع انه موجود في قلب الكنيسة ، وانه فوق تطاول السنين والعصور هو في حياة دائمة خالدة .

والحال ان فكرة ابن الله او الله نفسه المساوي للآب في الجوهر ، ان الاعتقاد بان الكائن العلي قد عاش حياة نجار ، خفية ، متواضعة ، وانهى حياته تحت الإهانات ، فاقوال هي مضغة في افواه الناس ، وعاش وحيداً ومات عرياناً مضرجاً بدمائه في عـــذابات مشينة ، هذه هي مفارقة الإنجيل الكبرى ، الفكرة التي لا تحتمل في نظر الامم ، جنون الصليب ومدعاة الشك . فالاشمئزاز من هذا القول ومن هذه التعاليم كان اقوى في الصين واليابان منه في اي مكان ، هذه البلدان العامرة بالزهو ، والنساء والولائم والمآدب الشخصية ، والثياب الفاخرة والامجـــاد التي تحملها معها الوظائف الرسمية الكبرى. هذا الشيء المتمم للحكمة ولاحترام الآداب الاجتماعيـــة ، هذا المجتمع الذي يعتقد ، في الصميم ، ان الفاشل في الحياة هو هذا البائس ، التاعس ، المغلـوب على امره في الحياة ، هو هذا الانسـان العديم الاخلاق الذي لم يراعِ حرمة الجدود والآباء الاقدمين ولم يراع النواميس البشرية والإلهية . ولذا ، كثيراً ما كان اليسوعيون يخفـون صليب المسيح ، ولا يتكلمون عن المسيح مصلوباً ، الا عند العماد وبعده ، وكم من هؤلاء المعمدين لم يعتموا ان جحدوا ايمانهم الجديد وعادوا الى الشك ، حتى ان خادم القديس فرنسوا كسافييه نفسه ، هذا الياباني المسيحي الاول جحد ايمانه الجديد وعاد الى ايمان اجداده .

فالصعوبة الكبرى قامت في تفهم هـــذه الافكار والتعاليم الجديدة وقبولها والاخذ بهـا . فقد كان في شبه المستحيل التعبير عن المعتقدات المسيحية بعبارات وتعابـير الديانات الآسيوية . وهنا يكمن سر هـــذه المجادلات والمناقشات الدينية بين المرسلين في الصين ، وحول الـ *Tien* والـ *Chan - Ti* ، اذ كان المطلوب التعبير عن وجود اله شخصي ، متميز عن هـذا العالم الذي ابدعه وخلقه والذي يملأ كل مكان منه ، والقول بان كل انسان فيه روح خالدة متميزة عن الجسد المادي ، والمتميزة عن الهيولى كما تتميز تماماً عن الله خالقها ، والمعدة ، بعد المـوت ، اذا كانت خالصة ، للتنعم بمشاهدة الله الى الابد ، وبمشاهدة كمالاته التي لا توصف ولا تُحد ، مع بقائهـــا متميزة عنه ، لها وجودها الشخصي . والفكرة الدينية الآسيوية ، هي عكس ذلك تماماً . فهي وحدوية اي تقول بوحدة الوجود اي بوحدانية كل ما في الكون . فقـــد سبق وذكرنا بايجاز التحولات التي قال بها تشو — هي كما قالت بها الطاوية ، فلنلق الآن نظرة حول تعاليم الهنـــد الدينية . فاذا ما اقتصرنا على صُلب العقيدة الهندوكية ، وجدنا البراهمان الكائن بذاته ، الواحد المطلق . وهذا البراهمان هو الـ *Atman* ، نفس شاعرة ، لا حدّ لها ، مسكونية ولا نهاية لهـــا « فالاتمان » يخلق العالم بمجرد ما يفكر به ، فهو يخلق كل شيء بواسطة مايا ، او المخيلة . وليس من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعرّف اليها الانسان

بالاستبطان ، اي الانسان المفكر ، هي مظهر من مظاهر الـ Atman الشامل . اذاً ، هنالك وحدة الشخصية بين النفس الفرد والنفس الشاملة . يجب الا نخلط بين الـ Atman الانسان وبين « الأنا » الظاهري الذي هو حلقة في سلسلة الحالات الشعورية للأنا الشاعر ، الأنا المفكر ، والمتحيز بالأنا المادي . فعلى الأنسان ان يتبين ، في ما وراء ذاته ، الأنا الحقيقي ، النفس الالهية . واذ ذاك ، وبعد ان يكون الانسان رجع الى براهمان ، ينعم بالراحة الابدية ، وتضمحل فيه الشخصية الانسانية .

ان هذه العقيدة الدينية والايمان لعلى طرفي نقيض ، وقد ترتبت عليها نتائج باعدت كثيراً بين التفكير والحياة ، وبين الحياة الاوروبية والفكر الاوروبي. فاذا لم تكن الكائنات الخارجية والانسان نفسه سوى مظاهر متغيرة لهذا الجوهر الذات غير المتغير لافكار الأتمان الشامل المسكوني ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، الركون قط لشهادة الحواس ، وما العالم الخارجي سوى مجموعة من الاوهام الزائلة . فهذه المظاهر تبقى حرية بالازدراء . وما العلوم والتاريخ الا تجريدات لاطائل تحتها . فالحقيقة المدركة وحدها هي الذات المفكرة . وهكذا يتسنى لنا ان ندرك وان نفسر كيف ان الهنود لم يستنبطوا العلم كالاوروبيين ولم يحاولوا قط في القرنين السادس عشر والسابع عشر ان يتفهموا العلم الاوروبي . وبامكاننا ان نطلق مثل هذا الحكم على الصينيين واليابانيين الذين قالوا بوحدانية الوجود .

فاذا ما كانت كل الكائنات متماثلة او هي ذاتها بالاساس ، سهل علينا فهم القول بالتقمص او تناسخ الارواح ، ودورة التجسدات. فالنفس تحيى مع ما اقتبسته من فردية باتحادها بالجسم وتقتبس اكثر فردية بنسبة ما تزداد تعلقاً بالظواهر ، اكثر منها بالأتمان . ومما تكتسبه من تراث خلال التجسدات الماضية يتكون الـ karman ، الذي يحدد طبيعة هذه التجسدات التي سيتلبسها المرء في المستقبل ، ويوجه الفرد في كل من هذه التقمصات الجديدة . ولكي تتفادى النفس هذه التقمصات المتتابعة ، وبالتالي هذه الآلام التي تلازم هذه الكائنات ، عليها ان تفقد او تتخلص من فرديتها ، عن طريق الزهد والتقشف والاتصال الرمزي . فاي معنى ، يبقى اذ ذاك ، لهذا الكفاح يقوم به الانسان لاثبات فرديته ! فالشخصية او الذاتية هي الشر الاكبر ، واي معنى يبقى لكل مجهود يبذله المرء في سبيل التطور الاجتماعي ؟ لكل انسان الحياة التي استحقها في حيواته السابقة ، والسعادة لا تقوم قط في هذا الهناء الذي يحصل عليه الانسان في هذا العالم المتغير المظاهر والرؤى ، بل في قهر الذات ومحو الذات وفنائها ، فبالبشاعة وبالفظاظة رجل النهضة ، رجل الحركة الانسانية ، في نظر الهندي ! او في نظر الصيني ، سواء اكان على مذهب تشو — هي او على الطاوية او البوذية . كل شيء كان على طرفي نقيض، في هذه الصورة التي قامت، من هنا وهناك : للعالم، لله ، للحياة الاخرى، للحياة الفانية ، لآسيا ولاوروبا .

فالمسيحية امتزجت ، على مر السنين وكر العصور ، مع الحضارة الاوروبية ، « ويبدو ان

انتشار هذه المسيحية ، يجب ان يسير وفقاً لسير الحضارة الاوروبية في تطورها ونموهـا ، والمشكلة التي قامت بالفعل والتي كان على القرنين السادس عشر والسابع عشر مواجهة حلها ، هي تكييف الديانة المسيحية مع هذه الحضارات المتباينة دون ان تفقد شيئاً من خصائصها المميزة وطابعها المفرد . فقد كان الهندي والصيني والياباني مقيداً بالفعل ضمن قيود يستحيل عليه الافلات منها ممثلة بهذه الاوضاع الاجتماعية ، المحكمة الحلقات ، كنظام الطبقات والاسرة ممثلة بطقوس ومراسم واعراف دقيقة للغاية تضبط كل شاردة وواردة في اعمالها اليومية. وهـذه الأطر والقوالب الاجتماعية الجامدة التي كان لا بد للأوروبي ان يرزح تحتها لو عاش في جوها، وجد الآسيوي فيها والعيش تحت ظلالها ، النعمى وحياة مشاركة ، فوجد نفسه فيها موجهاً ، مسيراً ، مشجعاً دون ان يتعرض لهذه المخاطر ولهذا الجهد المرير الذي يتعرض له الفرد الحر . فكل محاولة للتخلص من هذه الطقوس كانت بمثابة الخروج على المجتمع او بمثابة القيام بمغامرات ومجازفات تحف بها المخاطر من كل صوب ولم يكن في مقدور معظم الآسيويين ان يفكروا جدياً بالامر ، فكانت فرائصهم ترتعد لمجرد التفكير بالتخلي عـن عادات واعـراف وطقوس امتزجت بدمائهم امتزاج الراح بالماء . وكانت فرائص البراهمان ترتعش فرقاً ، ويذوب جسده عرقاً ، وتتقيأ نفسه بمجرد التفكير بمس احد «المنبوذين» . فالصيني العالـق بشباك هذه الاسر المترابطة الحلقـات الشبيهة بالاسر الاغريقية القديمـة في عهد هوميروس ، مثلاً ، لم يكن في استطاعته ان يتخلى او ان يستغني عن طقوس علماء الآباء والجدود الذين لا يزالون يحيون مع الاسرة ، وان أشكل عليه امر رؤيتهم ، ويرون ما يجري ضمن الاسرة ، ويتتبعون حركات وسكنات اولادهم وذراريهم ، وهم يشعرون بالحاجة الى التكريم من قبل الاحياء، مع الاعتراف لهم بالقدرة على استنزال النكبات والضرائب عليهم اذا ما أحرجوا على ذلك . فلم يكـن في مقدور هذا الصيني ان يتفادى او يتملص من الصلوات والمراسم الطقسية المحددة لكل ظرف من ظروف الحياة : كالدخول والخروج ، والوقوف والجلوس ، والنظر الى الآخـرين ، واستقبال الضيف وتشييعه ، الخ . وكما انه لم يكن باستطاعته تفادي ضغط عبادة الجدود ، كذلـك لم يكن بوسعه قط ان يتخلص من نفوذ الاب ، وضغط شيخ الاسرة أله الغد ، اذ كان عليه ان يخفض من صوته ومن غلوائه عندما يكون في حضرته ، والذي له مـلء السلطة على كل افراد الاسرة ، يؤازره في الاشراف عليها ، مجلس الاختيارية المؤلف مـن شيوخ الاسرة كما كان في وسعه ان يحكم بالموت على احد ابنائه . وفي هـذا السبيل ، ولكي تخفف الكنيسة من هـذه الازدواجية التي وقع فيها عدد كبير من المرسلين بـين التبشير بالانجيل وعملية التكييف مع الطقوس ، رأت البابوية ان من الضرورة بمكان ان تنشيء ادارة خاصة بالاساليب الدينية هي مجمع نشر الايمان (١٦٢٢) وان تعين ، منذ عام ١٦٥٩ قصادتين رسوليتين فرنسيتين ، لهـما سلطات غير محدودة ، تديران ، باسم البابا ، الكنائس التي قامت في التونكين والكوشنشين، وتأخذ كل واحدة منهما ، الادارة الروحية في الولايات الصينية الخمس . وكان من المتوجب على هاتين القصادتين الزام المرسلين الاخذ بالقرارات المتخذة عام ١٦٤٤ . فالمرسل الكاثوليكي

مكلف بمهمة دينية وليس بمهمة وطنيـــة . والتبشير بالمسيحية يجب ان يتلبس ، وان يراعي صفات وعادات الشعب الذي تعمل الرسالة في محيطه . ليس المطلوب من هذه الرسالات فرض الحضارة الأوروبية على هذه البلدان وما فيها من شعوب واقـوام . « إحترزوا من ان تأتوا اي مجهود او ان تقدموا أية نصيحة يراد منها حمل هذه الشعوب على تغيير طقوسهـــم ومراسمهم وعاداتهم ، ما لم تكن مخالفة تماماً لعقائد الديانة المسيحية واللآداب العامة » . وقد جاءت هذه التوصيات متأخرة جداً فقد كانت هذه الشعوب قد اخذت انطباعات مؤسفة للغاية ، ناهيك ان التوصيات لم تغير شيئاً في المشكلة . ان قضايا الطقوس الملابارية والطقوس الصينية لدليـــل قاطع على صعوبة تكييف المسيحية مع الحضارات الآسيوية . وهكذا بقيت المشكلة مستعصية دونما حل .

اما المشكلة الكبرى فتمثلت في ان هذه الديانات الاسيوية ، بقطع النظر عن وحـــدة الوجود التي قالت بها ، ، ضمت شخصيات دينية قادرة على ان تشبع ما في النفس البشرية من منازع عالية وتوق . فهذه *Isthadevas* الهندية التي تمثـــل بعض تجليات براهمان او أميدا البوذيين ، والتي كانت تجسيداً للمادة الخالدة ، أعطت الناس الاله الحارس ، الخيّر ، المجير المخلص الواجب المحبة لما هو عليه من قداسة ، والذي لا غنى عنه لهذه النفوس العطشى للحنو والرأفة والحب والذي لا حد له . ان عدداً كبيراً من نساء الهند وجدن في الهندوكية القوة على احتمال كل شيء ، والجود بحقوقهن وحياتهن لرجالهن : للباتيديفا ، هذا البعل والاله معاً . ان نساء هنديات كثيرات غرسن في روع اولادهن انهم يحيون دوماً في حضرة كريشنا أنقياء الفكر والاعمال . ان عدداً كبيراً من الازواج والآباء نسجوا على حياة راما وفضائله كما تأسوا بمثال الافاتار الحارس ، رمز الفضيلة والتقوى في الاسرة . ان عدداً كبيراً من الصينيين واليابانيين استسلوا لعبادة اميدا ، وعاشوا في هدوء وسلام واطمئنان مع كل الكائنات بكل استقامـــة ونقاوة . فقد رأى المرسلون في هذه الطقوس بقايا هذه الحقائق الالهية ، بقيـــة الوحي الالهي البدائي ، وبنوا عليها آمـــالاً عراضاً . فاي حاجة ، بعد هذا ، عند هذه النفوس التقية ، الى المسيح ، مع انه خليق بكل محبة . لا يمكن ان يكـــون ، بالاكثر ، الا واحداً مـــن هؤلاء الا *Isthadevas* ، المعطوف على الاوروبيـــين ، مع ان هذا المسيح في نظر المرسلين ، هو المسيح الذي وحده يستطيع ان يشبع النزعات التي تثيرها هذه الطقوس الاسيوية .

وهكذا بقيت آسيا غريبة عن اوروبا ، مقفلة ابوابها في وجه اوروبا ، رافضة بكل قواها ، ما رغبت اوروبا في تقديمه لها ، باعتباره الخير الاكبر ، وهكذا رفضت آسيا بكل ما فيها من نزعات ، المثل الاوروبية والسعادة كما فهمتها اوروبا .

هذه المجموعة التي يؤلف هذا الجزء احد اجزائها تأبى اصدار اي حكم او رأي يراد منه التقييم والموازنة . هنالك فرق كبير بين الرغبة في التعبير عن حكم او رأي وبين القيام بعملية تصنيف المجتمعات البشرية عـــلى اساس من المقاييس الوصفية . فعملية التصنيف تقضي دوماً

الى اقامـــة نظام نسبي في المحتوى وفي القوة الناميين فالجانب الذي يسجل اعلى درجته من حيث التركيب او المحتوى يقال فيه انــه اسمى وارفع او اعلى ، وهو تعبير انما يشير الى رتبته او درجته في نظام ما ولا ينم قط عن اي حكم تقييمي . فاذا ما رتبنا المجتمعات وفقاً لقدرتها على البحث العلمي ، او بحسب ما لها من طاقة للتأثير على الطبيعة ، وجدنا ان اوروبا فاقت ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كل المجتمعات البشرية الاخرى التي قامت او طلعت في اي جزء من العالم ، اذ ذاك . فهناك اقوام عديدون ، كالزنوج في افريقيا والهنود الحمـر في اميركا ، وغيرهم من الاقوام الاسيويين امثال *Tupis guaramis* ، والسيو والكريك والمياوس وغيرهم ، فمثـــل هؤلاء الاقـوام لا يزالون بعد في « الدور البدائي » اي الدور الذي يعتنق اهله مذهب الاحيائية (القول بوجود ارواح عاقلة في الحيوان) ، كما تنشط فيـــه المجوسية والعرافة بصورة شاملة . هنالك شعوب اخرى ، كالمايا والازتيك وشعوب الهند والشرق الاقصى والصين واليابان ، بلغوا في تطورهم ، الدور الثاني ، الذي يقول بعلم الهيئة الاحيائي ، حيث تأخذ الحرف والمهن تعي نفسها وتعتمد مبدأ الذاتية ومبدأ التضاد والتباين ، وحيث تطلق على الاشارة او الرمـز مدلولاً معيناً تبدو معها الاشياء والمسميات ذات خصائص مميزة تنفي او تقصي ما هو ليس منها ، وحيث تشتد وتتوثق الروابط الفكرية او المنطقية ، بيـنما يبقى الاساس اكتناهاً او بدائياً ، والتطورات رمزية . واخيرا تأتي الشعوب التي بلغت طور العقلانية النوعية ، يرافقها منطق محكم يربط بين الافكار ، والاستدلال ، والعلة السببية وهندسة الاجسام . بلغ هذا الحـد من الرقي اكثر المتطورين في الاسلام ، والاوروبيون الذين لا يزالون يترسمون هدي هذه العقلانية النوعية التي حققوها ، في بلاد الاغريق ، منذ القرن السادس . ق. م ، وتجاوزوها بعيداً ، في القرنـين السادس عشر والسابع عشر ليبلغوا معها التفكير « العصري » مع العقلانية الكمية التي تفلسف الكم في هذه المقومات الهندسية الكامنة تحت الكم ، هذه العناصر التي تتمثل في هذه الانساب العددية او في هذه الملاقات التي تربط بين العلة والمعلول ، او بين السبب والنتيجة ، واخـــيراً يطلع في هذا الدور نوابغ امثال بسكال ونيوتن وهؤلاء الميكانيكيون الذين عرفوا ان يلائموا بين العقلانية الكمية الكرتزيانية والعقلانية التجريبية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اصبح في مكنة الاوروبي ، ان يفهم ويعلل الظواهر الطبيعية وان يفيد منها بشكل يتجاوز بل يبز درجـــة معرفة جميع الشعوب لها ويحمله مهيب الجانب من الجميع ويرغمهـم على الخضوع للاوروبي او يحملهم على استمالتـــا في محاربته ومناهضته او لمراوغته مستغلا انقسامـــات الاوروبيين ومشاحناتهم .

فالام ترد هذا السبق يسجله الاوروبي على غيره من سكان القارات الاخرى ، والذي يجب رده ، كما يبدو لنا ، الى تحرر الفرد تدريجياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ فالفـرد يتحرر تدريجيـاً من ضغط الجماعات : اي من ضغط الاسرة والمجتمعات الريفية او المدنية ، والنقابات والجامعات ، وغير ذلك من مظاهر واشكال هذه الجماعات . فشعور الفرد بذاتـــه

وتوعيته لحقوقه الطبيعية ، والجهد الذي يبذله لتقوية الروح الاستقلاليـة في الفرد المفكر ولترسيخه في النفس ، وثقته بالحكم او الرأي الشخصي ، والارادة القويـة ، والتمرد على الحدود والسدود والقيود ، ونزعه المطلق واللامتناهي ، كل هذا يبرز هنا ، في اوروبا بوضوح اكثر من اي مكان آخر في الدنيا . صحيح ان الهيئات الاجتماعية هي الآن، اقوى من قبل بما لا يقاس . فقد قيدت الفـرد اكثر مما قيدته هذه الهيئات المجتمعية في القرن التاسع عشر الذي كان عبارة عن نثار من الافراد . فالسلطة الابوية، وروابط الدم ، وتأثير النقابات والهيئات المهنية، وضغط الكنيسة ، وتأثير الدولة ، لا يزال الفرد يشعر بها اكثر من شعوره بها في عهـد الحرية الفكرية . ولكن ما عسى ان يكون هذا كله ، اذا ما قسناه بهذا الضغط والارهاق تقوم به القبيلة التي لا تزال تأخـذ بعقيدة الاحيائية ، وقوانين الطبقية المرهقة ، وطقوس العائلة في الصين ؟ فالفردية الاوروبية ، وان شئت فقل تحرر الشخصية البشرية في اوروبا ، اذ ذاك مـا كان التعبير الاول شديداً او قوياً ، هي الحافز الاكبر والاقوى لهذه النشاطات ، ولهذه الجهود، ولهذا السعي الحثيث وراء البحث العلمي الذي يمكن ان يكون الباعث الاول والسبب الاكبر الذي يكمن وراء رقي اوروبا وتطورها .

وهذه الشخصية البشرية التي تبرز وتتجلى ، ما عسى ان تكون ، ياترى ، الدوافع الكامنة وراء بروزها؟. رد بعض الأوروبيين، منذ القرن السابع عشر هذا التفوق الى العرق او الجنس. هنالك عروق واجناس أوتيت القدرة على الكشف والاختراع كما اعطيت عروق اخرى ، القدرة على القبس والتقاليد. « ان نبوغ الابداع والخلق يؤمن لمعلوماتنا وممارفنا التقدم السريع والتطور الحثيث هو من نصيب بعض الشعوب دون غيرها. اما الامم الأخرى فهي مطبوعة على التقليد والتمثل . والقدرة عـلى الخلق والابداع هي هبة من الطبيعة تجود بها حتى عـلى ابسط الناس واحطهم قدراً . وهـذه القوة العقلية الخارقة ، تجعلنا بعد ان تخرجنا من جو الأفكار العادية ، نحلق ونرتفـع لنبلغ افكاراً جديدة كانت مجهولة من قبل ، هي ولا شك ، من نصيب الأوروبيين، وحدهم تقريباً » (اكاديمية العلوم في باريس) فالقضية في القرن السابع عشر كانت من الوضوح بحيث لا يمكن نكرانه . وكان لا بد من التدليل بالبرهان القاطع والحجة الدامغة على ان الطبيعة قد حرمت باقي الناس من موهبة الكشف العلمي والابداع ، وان التأخر الذي توصف فيه الشعوب الاخرى ، لا يمكن رده قط لأسباب أخرى . فاذا ما جاءت اوروبا في مقدمة العالم ، وفي طليعة القارات الأخرى ، في القرن السابع عشر ، في تاريخ البشرية فلم يكن الامر منها دوماً على مثل هذا الشكل .

وقد وقع بعض الأوروبيين تحت تأثير الفوارق الجغرافية بنوع خاص ، ولا سيا فارق المناخ او الاقليم . فقد جعلوه مسؤولاً ، الى حد كبير ، عن خمول الآسيويين . فاسمع ما كتبه العالم الجغرافي الفرنسي شاردن عن الفرس : « ان ذلك ناجم عن انهم يقيمون في جو أسلم من الجو الذي نعيش فيه . فليس فيهم من الدم ما فينا نحن سكان الشمال ، وهذا الدم لا يغلي فيهم كما

يغلي فينا . فالقسم الأنشط من دمائهم كان اكثر تعرقاً من دمائنا ، وهذا ما يفسر لنا كيف انهم ليسوا عرضة لهذه الحركات التي يأتيها الجسم والتي تتسم ، الى حد بعيد ، بالخفة والقلق ، والتي كثيراً ما تدفع بالمرء الى النزق والحدة ... فأنا اعتمد دوماً على المناخ في كل مرة اود ان افسر عادات الناس واخلاقهم حتى ما فيهم من عبقرية ونبوغ ، لأنني أجد هنا في المناخ من الأسباب والدوافع القومية ما لا اجده في الدوافع الأخرى التي قد يتذرع بها المرء . فالهواء الذي يهب على اوروبا يثير فينا،لشدته ، من الرغائب والاحتياجات ما لا يتحسس بمثلها الناس العائشون في الأقاليم الشرقية . فهو يقتضي وقاية اكبر . وبما ان الهواء عندنا يولي الجسم حرارة طبيعية اقوى مما هي في غير اقليم ، فهو يجعل الدم اكثر غلياناً كما يجعل نفوسنا،بالتالي ، تجيش بأحاسيس القلب التي نتملاها . والحال فان الحالات التي نشعر بها من جهة ، وهذا القلق الطبيعي الذي يساورنا من جهة اخرى ... « يمكن ان نرد ما فينا من روح الفضول وهذا التوق الشديد للعلم والمعرفة ، مما يجيش به صدر الاوروبي . وقد رد برنييه ، من جهته ، الى مناخ الهند واقليمها المسيطر ، هذا الوهن وهذا الخمول الذي تبينه في نفس الهندي . « فلا نجد فيه من الحيوية والنشاط ما نجده في سكان بلادنا الباردة . وهذا الخمول ، وهذا الانحطاط الذي يبعثه الحر في الجسم والنفس ، هما اشبه بمرض قائم باستمرار تقريباً ، وهو مرض مزعج للجميع ولا سيما في اوقات القيظ الشديد ، ابان الصيف ، ولا سيما للاوروبيين الذين لم تألف اجسامهم بعد ، مثل هذه الحرارة الشديدة » . واي شيء لم يكتبه الرحالة والمؤرخون ، عن هذا الانحطاط والخمول الذي تلحقه الطبيعة بسكان الاقطار الآسيوية الخاضعة للرياح الموسمية ، وعما عليه هذه الجماهير الآسيوية من تبلد والتياع ، امام مظاهر الطبيعة المهتاجة ، وامام هذه الاعاصير الهوجاء ، والانهار العارمة المخربة ، وهذه الاوبئة الفتاكة ؟ قد يستنتج البعض من هذه الاقوال ان بلاد العجم كانت جد ملائمة للعمل الفكري وان الشعور بالحاجة التي جاشت في صدور الاسيويين لمقاومة الطبيعة والوقوف في وجهها ، كان يجب ان يحرك قواهم العقلية ويحملهم على الابداع . ومعترض يعترض قائلاً ان المناخ السائد في وسط اليابان لا يخدر نشاط الانسان وان اليابان كان يجب ان تكون منارة اختراعات واكتشافات علمية ، بدلاً من ان تقتبس من الصين ومن جزر السوند مبادىء حضارتها . كذلك يمكن للبعض ان يحتج ملاحظاً ان بعض الاجناس كالزنوج مثلاً يزدهرون فعلاً ، في المناطق الاستوائية ، وان مناخ المنطقة الاستوائية الذي يلائمها كثيراً ، لا يمنع عليها ان تبلغ درجة عالية من الرقي .

ولما كان العرق والوسط الجغرافي لا يؤلفان تفسيراً مقنعاً ولا تعليلاً كافياً لظاهرة تفوق الأوروبي ، إمكن الاستعانة بالظروف التاريخية المصيرية كزوال عهد الإقطاع وتكوين الدولة الحديثة ونشأتها ، وتطور المواصلات التجارية والبحث عن المعادن الثمينة وتدفقها على أوروبا . اذ ان هذا الأوروبي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذي يبدو لنا انه يعاني الحرمان ، هو مع ذلك احسن سكان الارض غذاء . قد نتذرع ، كذلك بنظام الدول الآخذة بالنمو

واعادة تنظيم العلاقات الدولية التي ساعدت على تقوية التبادل الثقافي والحضاري وازدهار دولة الادب ، وهذه الحركة الاصلاحية الدينيـة التي الهبت قلب الانسان بالنشاط ، اذ ان المسيحية ، هذه الديانة القديمة العهد والنشأة ، هي ديانة عمل تقتضي من الانسان ان يستثمر ، على الوجـه الأكمل ، هذه الوزنات التي عهد الله بها اليه ، فيعيد الوزنة عشرة اضعاف ، فيدلل عن محبته لله، باطعامه الجياع ، وكساء العريان ، وان يرغب عن مثالية الاعتدال الباهتة ، سعياً منـه وراء الحب الذي لا حد له وطلب المطلق واللانهائي . وهذه المؤثرات والحوافز الآتية لم تكن لتؤمن وحدها سيادة أوروبا وتفوقها ، اذ انه كان قد تم لأوروبا الى جانب هذه التقنيات التي اخذت باعدادها منذ القرون الوسطى، هذه الروح الكلاسيكية الناقدة ، وهذا القياس اليوناني وهندسة أقليدس ، اس العلوم ، وهذه المسيحية التي كانت خمير النشاطـات . ولهذا نرانا نُرد قضيـة المسببات الى الاصل او المحتد ، وبالتالي نعود الى العرف والى الوسط الجغـرافي ، والى ظروف تاريخية جديدة ، وهكذا ندور على انفسنا في حلقة مفرغة دونها اي امل بالخلاص .

ويبدو ان قضية الاسباب التي أمنت التفوق لاوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ليست من هذه القضايا التي تتيح لنا معلوماتنا الحاضرة القاء اضواء جديدة عليها . فعلى المؤرخ ان يقنع بتسجيل واقع هذا التفوق وان يجد له بعض الاسباب الاولية المبررة لتحقيقه . فهذه الحضارة الاوروبية ، بما تم لها من تقنيات متنوعة ، وبما تم لها من مؤسسات دولية ونظم ادارية ، وبما فيها من فلسفات ومعرفة تتعلق بالله ، اتاحت للانسان الامل بان يُشبع باستمرار ، اكثر فاكثر ، ما فيه من توق للحياة والاشعاع والانتشار ومن تطلع الى الاعلى ، وطلب الجهـول ، والبحث عن المطلق واللامتناهي من الخلود . وهي كلهـا نوازع دفينة في اعماق نفس الانسان الذي سعى دوماً او بالاحرى ، علل النفس دوماً بالوصول اليها . ان مثل الجماهير الآسيوية التي فجرت خلافاً لمنطق البراهمان او خلافاً لمنطق بوذا ، ولمنطـق فشنو وكرشنا ورامـا او شخصية اميدا المحبوبة ، ومثال السيخ ووانغ - يانغ - منغ نوازع الطبيعة البشرية ، متحررة من ربقة الطبقات وعبودية الجدود ، كل هذا دليل على ان الانسان ، اينما وجد ، اتجه بنظره الى التحرر ، الى التجلي واتيان العظائم ، والتوق الشديد الى الحياة . ان اوروبا لم تؤلف استثناءً ولا شذوذاً . فهي جاءت في الطليعة ، في المقدمة ، وكانت الاولى بين اقران متماثلين. غير ان مثل فلسفة الاغريق ورياضياتهم ، وهي من بعض نتائج لقاء اوروبا وآسيا ، وهـذه المسيحية التي جاءت تأليفاً انصهرت فيه العقائد والنزعات الاوروبية والآسيوية ، كل ذلك كان بمثابة اشارة الى الطريق ، الى المستقبل .

ان حكاية بطولة اوروبا ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر فتحت باب الرجاء والامل على مصراعيه امام البشرية جمعاء .

المـــراجع

١ ـ النهضة

R. MOUSNIER, **La Renaissance en Italie au XVI° siècle. Sociétés et civilisations**, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1956 et 1957.

André CHASTEL, **Art et humanisme à Florence au temps de Laurent le Magnifique. Etudes sur la Renaissance et l'Humanisme** platonicien, thèse de lettres, Paris, P.U.F., 1959.

W. FERGUSON, **The Renaissance in Historial Thought. Five centuries of interpretation**, Cambridge (Mass.), 1948, trad. franç., Paris, Payot.

J. BURCKHART, **Die kultur der Renaissance in Italien, ein Versuch**, Bâle, 1860, trad. franç., par M. Schmitt, sur la 2° édition.

I. NORDSTROM, **Moyen Age et Oenaissance**, trad. franç., Paris, Payot, 1933.

E. GILSON, **Héloise et Abélard**, Paris, Vrin, 1938.

A. RENAUDET, **Définition de l'Humanisme**, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance, Travaux et Documents, Paris, Droz, 1945.

P.O. KRISTELLER, **The Philosophy of** Marsilio **Ficino**, 1943.

André CHASTEL, **Marsile Ficin et l'Art**, Paris, 1954.

O. FISCHEL, **Raphael**, Londres, 1948.

Ch. DE TOLNAY, **Michel-Ange**, 4 vol., 1943-1954, en particulier le tome II., **The Sixtine Celling**, Princeton, 1945.

du même, **Werk und Weltbild des Michel-Angelo**, coll. Albae Vigiliae, Zürich, 1948

Ludwig PASTOR, **Histoire des Papes**, trad. franç., t.VI.

B. CASTIGLIONE, **Il Cortegiano**, éd. V. Clan, Florence, 1894.

W. VON SEIDLITZ, **Léonard de Vinci**, 2° éd., 1935.

L. VENTURI, **La critica e l'arte di Leonardo da Vinci**, 1919.

H. WÖLFFLIN, **Die klassische kunst**, 7°éd., 1921, trad. franç., sur 4° éd. par C. de MANDACH.

P. DUHEM, **Léonard de Vinci, ceux qu'il a lus et ceux qui l'ont lu**, 3 vol., Paris, 1906; **Léonard de Vinci et l'expérience scientifique du XVI° siècle**, Paris, P.U.F., 1953. **Colloques internationaux du C.N.R.S., Sciences humaines**, Colloques des 4-7 Juillet 1952.

A. KOYRE, éd. de Copernic, **Des Révolutions des orbes célestes**, textes et traductions pour servir à l'histoire de la pensée moderne, Paris, Alcan, 1934.

A. KOYRE, **Etudes galiléennes**, 3 vol., Paris, Hermann 1939.

E. GUYENOT, **Les sciences de la vie aux XVI° et XVII° siècles, L'idée d'evolution**. coll. «L'Evolution de l'Humanité», Paris, Albin Michel, 1941.

R. LENOBLE, **Mersenne et la naissance du mécanisme**, Paris, Vrin, 1943.

E. DELCAMBRE, **Le concept de la sorcellerie dans le duché de Lorraine au XVI° et XVII° siècles**, Nancy, Société d'Archéologie lorraine, 3 vol., 1948-1949.

POMPONAZZI, **De Immortalitate Animae**, éd. dans **Philosophy of man**, sous la dir. de E. CASSIRER, 1948; **Les causes des merveilles de la nature**, éd. H. Busson, Paris, 1930.

P. MESNARD, L'essor de la philosophie politique au XVIe siècle, 2e éd., revue et augmentée, Paris, Vrin, 1952.
A. RENAUDET, Machiavel, Paris, Gallimard, 1942.
A. LEFRANC, La vie quotidienne au temps de la Renaissance, Paris, Hachette, 1938.
P. LAVEDAN, Histoire de l'urbanisme, t. II, Renaissance et temps modernes, Paris, Laurens, 1941.
E. MALE, L'art religieux à la fin du Moyen Age, Paris, Colin, 1949.
J. DELUMEAU, La vie économique et sociale de Rome dans la seconde moitié du XVIe siècle, Paris, E. de Broccard, 2 vol., 1957 et 1959.
H. KRESTCHMAYR, Geschichte von Venedig, 2 vol., 1923 et 1934.
P. SARDELLA, Commerce et spéculation à Venise au milieu du XVIIe siècle, Paris, A. Colin.
R. ROMANO, Aspetti economici degli armamenti navali veneziani nel secolo XVIe., Rivista storica Italiana, 1954.
G. MARANINI, La costituzione di Venezia, Venise, 2 vol., 1927 et 1931.
H. HAUVETTE, L'Arioste et la poésie chevaleresque à Ferrare, Paris, 1927.
M. CATALANO, Vita di Ludovico Ariosto, 1930, 2 vol., «Biblioteca del Archivum Romanicum».
A. PIROMALLI, La cultura a Ferrare al tempo de Ludovico Ariosto, Florence, 1953.
PERRENS, Histoire de Florence depuis la domination des Médicis jusqu'à la chute de la République, 1486-1512, Paris, Hachette, 1888.
R. De ROOVER, The Medici Bank, New York, 1948.
P. VILLARI, Savonarola, 2 vol., 1898.
R. CAGGESE, Firenze dalla decadenza di Roma al Risorgimento d'Italia, t. II, III, Florence, 1913, 1921.
M. VALERI, La corte di Lodovico Il Moro, 2 vol., Milan, 1913.
C. SANTORO, Gli Uffici del Dominio Sforzesco, 1450-1500, Milan 1948.
G. BARBIERI, Economia e politica nel ducato di Milano, 1356-1546, Milan, 1938.
E. FANFANI, El origine delle spirito capitalistico in Italia, 1933.
F. CHABOD, Lo stato di Milano nell'impero di Carlo V, Roma, 1934; Per la storia religiosa dello stato di Milano durante il regno di Carlo V, Bologne, 1938.
B. CROCE, Storia del regno di Napoli, «Scritti di storia letteraria e politica», 9, Bari, 1925.
G. CONIGLIO, Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto. Amministrazione e vita economico-sociale, Naples, 1952.
A. ALTAMURA, L'umanismo nel Mezzogiorno d'Italia, Florence, 1941.

٢ ـ النهضة

A. RENAUDET, Préréforme et humanisme à Paris pendant la première guerre d'Italie, 2e éd., Librairie d'Argence, 1953; Erasme, sa pensée religieuse et son action, Paris, Alcan, 1926; Etudes érasmiennes, Paris, Droz, 1939; La pensée religieuse de Lefèvre D'Etaples, dans Mélanges Bruno Nardi, Medioevo e Rinascimento, II, 1955
M. BATAILLON, Erasme et l'Espagne, Paris, 1936.
P. MESNARD, La Paraclesis d'Erasme, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», t. XIII, 1951.
J. THOMAS, Le Concordat de 1516, 3 vol., 1910.
L. PASTOR, Histoire des Papes, vol. VI et suiv.
P. MESNARD, La lettre d'Erasme à Paul Volz, Revue thomiste, 47, 1947; L'Essai sur le libre-arbitre d'Erasme, Paris, P.U.F., 1946.
L. FEBVRE, Un destin; Martin Luther, Paris, P.U.F., 1945.
LUTHER, Le serf-arbitre, éd. Denis de Rougemont, 1936.

R. MOUSNIER, **Etudes sur la France au XVI° siècle**, 2° partie, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1959; Saint-Bernard et Luther, dans **Témoignages**, Cahiers de la Pierre-qui-Vise, Juillet 1953.

E. GILSON, Moyen Age et Naturalisme antique, dans **Héloise et Abélard**, Paris, Vrin, 1938.

Saint Ignance de LOYOLA, **Les exercices spirituels**, éd. Iparraguire, Madrid 1952, ou éd. Jeunesseaux, nomb. éd. depuis 1853.

L. FEBVRE, **L'origine des Placards de 1534**, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», 7, 1945.

P. WENDEL, **L'évolution de la pensée de Calvin**, Paris, P.U.F., 1950.

H. BUSSON, **Le rationalisme dans la littérature française de la Renaissance, 1533-1601**, 2° éd., Paris, 1957.

L. FEBVRE, **Le problème de l'Incroyance au XVI° siècle, La religion de Rabelais**, coll. «L'Evolution de l'Humanité», 53, 1942.

P. IMBART de la TOUR, **Les origines de la réforme**, 4 vol., Paris, depuis 1905.

R.H. TAWNEY, **La religion et l'essor du capitalisme**, trad. d'O. Merlat, Paris, Rivière, 1951.

J. BARUZI, **Saint Jean de la Croix et le problème de l'expérience mystique**, Paris, Alcan, 1924.

H. HAUSER, **La response de Jean Bodin à M. de Malestroit (1568)**, Paris, Colin, 1932; **Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800**, Paris, Les Presses Modernes, 1936.

W. SOMBART, **Le bourgeois**, trad, Jan Jélévitch, Paris, Payot, 1926.

R. EHRENBERG, **Das Zeitalter des Fugger**, Iéna, G. Fischer, 1896, 2 vol.

J. STRIEDER, Die Inventar der Firma Fugger aux Jahre 1527, **Zeitschrift für die Gesamte Staatswissenschaft**, Hgg. dr. K. Bücher, Ergänzunsheft XVII, Tübingen, 1905.

J. STRIEDER, **Studien zur Geschichte Kapitalistischer Organisations formen**, München et Leipzig, Duncker and Humblot, 1914; **Jacob Fugger der Reiche**, Leipzig, Quelle and Meyer, s.d.

٣ ـ النهضة الاقتصادية

G. ZELLER, **Aux origines de notre système douanier**, Les premières taxes à l'importation, Publications de la Faculté des Lettres de Strasbourg, Mélanges, 1946, III, Etudes historiques, p. 165-217.

G. PARENTI, **Prime récerche nella rivoluzione dei prezzi in Firenze**, Firenze, 1939.

F. SIMIAND, **Recherches anciennes et nouvelles sur le mouvement général des prix**, Paris, Domat-Montchrestien, 1932.

W.H. BEVERIDGE, **Prices and wages in England from the XII to the XIXth century**, vol. 1, Londres, Longmans, 1939.

A. FANFANI, **La rivoluzione del prezzi a Milano nel XVI e XVII secolo**, Milano, 1934.

E.J. HAMILTON, **Spanish mercantilism before 1700**, Cambridge (Mass), Harvard University Press, 1932; **American Treasure and the price revolution in Spain 1501-1650**, ibid., 1934; The decline of Spain, **Economic history review**, mai 1938.

R. DOUCET, **Lyon au XVI° siècle**, 1938.

F. BRAUDEL, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II**, Paris, Colin, 1949.

R. de ROOVER, **L'évolution de la lettre de change (XIV° - XVIII° siècle)**, coll. «Affaires et gens d'affaires», no 4, Paris, A. Colin, 1953.

J. BILLIOUD, E. BARATIER, R. COLLIER, F. REYNAUD, **Histoire du commerce de Marseille**, t III (1480 - 1599), Paris, Plon, 1951.

R. CARANDE, Carlos Quintos y sus banqueros, 2 vol., Madrid, 1943 et 1949.
F BENOIT, L'outillage rural et artisanal, Paris, Didier, 1947.
H. LAPEYRE, Une famille de marchands, les Ruiz, Paris, Colin, 1955.
J. GENTIL da SILVA, Stratégie des affaires à Lisbonne, Paris, S.E.V.P. E.N., 1956, coll., «Affaires et gens d'affaires».
A.G. MANKOV, Le mouvement des prix dans l'Etat russe du XVI• siècle, Paris, S.E.V.P.E.N., 1957, coll, «Oeuvres étrangères», III.
Dr. L. MERLE, La métairie et l'évolution agraire de la Gâtine poitevine du moyene Age à la Révolution, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Les hommes et la terre», II.
R. MOUSNIER, Etudes sur la France, 1492-1559, 1ère Partie, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
J. CRAEYBECKX, Les vins de France aux anciens Pays-Bas (XIII°-XVI• siècles) Paris S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Trafics».
A. TENENTI, Naufrages, corsaires et assurances maritimes à Venise, 1592-1609, ibid., 1959.

٤ ـ نهضة الدولة

F. HARTUNG et R. MOUSNIER De quelques problèmes concernant la monarchie absolue, Rapport pour le X° congrès international des Sciences historiques, Rome, 1955.
TASWELL-LANGMEAD, English constitutional history, 10 éd.
NEALE, The Elizabethan House of Commons, Londres, Cape, 1949.
R. DOUCET, Les institutions de la France au XVI• siècle, 2 vol., Paris, A. Picard, 1948
F. OLIVIER-MARTIN, Histoire du droit français, Paris, Domat-Montchrestin, 1948.
R. MOUSNIER, La vénalité des offices sous Henri IV et Louis XIII, 1ère Partie, XVI° siècle, Rouen, Maugard, 1946.
W.F. CHURCH, Constitutional thought in sixteenth century France, Harvard University Press, 1941.
P. IMBART De la TOUR, Les origines de la Réforme, I, Paris, 1905.
R. MOUSNIER, Etudes sur la France, de 1492 à 1559, 1ère Partie, cours multigraphié, Centre de Documentations universitaires, 1957.
R. FILHOL, Le Premier Président Christophle de Thou et la Réformation des Coutumes, Paris, Sirey, 1937.
H. DROUOT, Moyenne et la Bourgogne, 2 vol., Paris, H. Picard, 1937.
R. MERRIMAN, Rise of the Spanish Empire, t. III et IV.
G. CONIGLIO. Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto, Naples, Edizoni scientifiche italiane, 1951.
H. G. KOENIGSBERGER, The government of Sicily under Philippe II of Spain, London, 1951.
J. GOUNON-LOUBENS, Essais sur l'administration de la Castille au XVI• siècle, Paris, 1860.
F. L. CARSTEN, The origins of Prussia, Oxford, 1954.
A. EPCK, Le Moyen Age russe, Paris, 1933.
S. KUTRZECA, Grundriss der polnischen Verfassungs Geschichte, trad. sur la 3 éd., de 1911, par W. Christiani.
F. HARTUNG, Deutsche Verfassungs Geschichte, 16 éd., Stuttgart, 1959.
G. ZELLER, La réunion de Metz à la France, Paris, les Belles-Lettres, 1926; La France et L'Allemagne depuis dix siècles, Paris, Collin, 1932.
J. BABELON, Charles Quint, Paris, S.E.F.I., 1947.
P. de DAINVILLE, La géographie des humanistes, Paris, Beauchesne, 1940.

G. ZELLER, Le siège de Metz par Charles Quint, Nancy, Socié... d'Impressions typographiques, 1943.
C.M. CIPOLLA, Mouvements monétaires dans l'Etat de Milan (1580 - 1700), Paris, A. Colin, 1952.
N. W. POSTHUMUS, Inquiry into the history of prices in Holland, Leiden, E.J. Brill, 1946.
J.A. HAMILTON, War and prices in Spain, Cambridge (Mass.) Harvard University Press, 1947.
J. FOURASTIE, Machinisme et bien-être, Paris, Les Editions de Minuit, 1951.
HANTISCH (H.), Die Geschichte Oesterreich, I et II, Grez, Steyrische Verlag, 1950.
J. ANDERSSON, Schwedischte Geschichte, Munich, Oldenbourg, 1960.
V. L. TAPIE, La France de Louis XIII et de Richelieu, Paris, Flammarion, 1952.
R. MOUSNIER, Les réglements du Conseil du Roi sous Louis XIII, 1945.
E. d'ORS, Du baroque, Paris, Gallinard, 1935.
E. MALE, L'art religieux après le Concile de Trente, Paris, Colin, 1951.
L. HAUTECOEUR, Histoire de L'architecture classique en France, I et II, 4 vol, Paris, A. Picard, 1943-48.
J. ORCIBAL, Jean Duvergier de Hauranne, Abbé de Saint-Cyran, et son temps, Paris, Vrin, 1947.
A. ADAM, Histoire de la littérature française au XVII[e] siècle, 5 vol., Paris, Domat-Monthrestien, depuis 1949
R. LEBEGUE, De la Renaissance au classicisme. Le théâtre baroque en France, «Bibl d'Humanisme et Renaissance», 1941, t. I.
J.B. DUMAS, Philosophie chimique.
P. DUHEM, Evolution de la mécanique, Paris, Joanin, 1903.
R. PINTARD, Le libertinage érudit, Paris, Boivin, 1943.
P. GOUBERT, Beauvais et le Beauvaisis au XVII[e] siècle, étude sociale, thèse de lettres, Paris, 1958; Familles marchandes sous l'Ancien Régime, les Danse et les Motte de Beauvais, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Affaires et gens d'affaires»
P. BLET, Le clergé de France et la Monarchie, 2 vol., Rome, 1959.
V. - L. TAPIE, Baroque et classicisme, Paris, Plon, 1957, coll. «Civilisation d'hier et d'aujourd'hui».
P. ARIES, L'enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime. ibid., 1960.
R. BRAY, La formation et la doctrine classique en France, Paris, Hachette, 1931.
D. MORNET, Histoire de la littérature française classique, Paris, Colin, 1950.
P. DESJARDINS, Poussin, Paris, Laurens, 1904; La méthode des classiques français, Paris, Colin, 1904.
L. RIVAILLE, Les débuts de P. Corneille, Paris, Boivin, 1936.
O. NADAL, De quelques mots de la langue cornélienne, Paris, Gallimard, 1943; Le sentiment de l'amour dans l'oeuvre de Corneille, ibid;
A. SCHIMBERG, L'éducation morale dans les collèges de la compagnie de Jésus en France sous l'Ancien Régime, H. Chaninion, 1913.
A. KOYRE, Trois leçons sur Descartes, Le Caire, 1938.
E. GILSON, Etudes sur le rôle de la pensée médiévale dans la formation du système cartésien, Paris, Vrin, 1951.
G. GILLES, Les origines de la grande industrie métallurgique en France, Paris, Domat-Montchrestien, 1947.
H. HAUSER, La pensée et l'action économique du cardinal de Richelieu, Paris, P.U.F., 1944.
J. ORCIBAL, Louis XIV contre Innocent XI, Paris, Vrin, 1949; Louis XIV et les Protestants, ibid., 1951.
R. MOUSNIER, Etat et commissaire. Recherches sur la création des intendants des provinces (1634 - 1648), Forschungen zu staat und Verfassung, Festagbe für fritz Hartung, Dunchen et Humblot, Berlin, 1958.
A. - G. MARTIMORT, Le Gallicanisme de Bossuet, coll. Unam Sanctam, 1953.

C. G. PICAVET, La diplomatie française au temps de Louis XIV, Paris, Alcan, 1930.
J. BARUZI, Leibniz et l'organisation religieuse de la terre, Paris, Alcan, 1907.
H. GILLOT, Le règne de Louis XIV et l'opinion publique en Allemagne, Paris, Champion, 1914; La querelle des Anciens et des Modernes, Paris, Champion, 1914.
G. ZELLER, L'organisation défensive des frontières du Nord et de l'Est au XVIII[e] siècle, Paris, Berger-Levrault, 1928.
J. SAINT-GERMAIN, Les financiers sous Louis XIV, Paris, Plon, 1950.
P. HAZARD, La crise de la conscience européenne, Paris, Boivin, 1935.
P. MOUY, Les développements de la physique cartésienne, Paris Vrin, 1934.
L. DEFOSSEZ, Les savants du XVII[e] siècle et la mesure du temps, Lausanne, Ed. du Journal suisse d'Horlogerie et de Bijouterie, 1946.
P. BRUNET, Introduction des théories de Newton en France, I, Paris, Blanchard, 1931.
J. LOCKE, Essai sur le pouvoir civil, éd. Fyot, Bibliothèque de la Science politique, Paris, P.U.F., 1953.
H. LUTHY, La Banque protestante en France, de la Révocation de l'Edit de Nantes à la Révolution, I, 1695-1730, Paris, S.E.V.P.E.N., 1959, coll. «Affaires et gens d'affaires».
F. MARQUET, Histoire générale de la navigation du XV[e] au XX[e] siècle, Paris, Société d'Editions géographiques, maritimes et coloniales.
G. LA ROERIE, Navires et marins, Paris, Rombaldi, 1946.
CASTEX, Les idées militaires de la marine du XVIII[e] siècle, 1911; Synthèses de la guerre sous-marine, 1920.
PARIS, Essai sur la construction navale des peuples extra - européens, 1841.
G. LAFOND Des NOETTES, De la marine antique à la marine moderne, Paris, colin, 1935.
S. E. MORISSON, Admiral of the Ocean sea. A life of Christopher Colombus, Boston, 1942, 2 vol.
M. MOLLAT, Le navire et l'économie maritime du XV[e] au XVIII[e] siècle, Paris, 1957, S.E.V.P.E.N.
R. MOUSNIER, Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'à la fin du XVII[e] siècle, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
KENNEDY, Jesuits and savages in New France, Yale Historical Publications, 1950.
W.D. et R.S. WALLIS, The Micmac indians of Eastern Canada, Minneapolis, 1955.
S. H. STITES, Economics of the Iroquois, Bryn Mawr College, 1905.
M. BOUTEILLER, Chamanisme et guérison magique, Paris, P.U.F., 1950.
P. METRAUX, La civilisation matérielle des Tupi-Guarani; La religion des Tupinamba, thèses de Lettres, Paris, 1928.
S. - G. MORLEY, The ancient maya. Stanford University Press, 1946.
J. SOUSTELLE, La vie quotidienne des Aztèques à la veille de la conquête espagnole, Paris, Hachette, 1955.
L. BAUDIN, La vie quotidienne au temps des derniers Incas, Paris, Hachette, 1955.
J. LEONARD, Books of braves, Harvard University Press, 1949.
P. CHAUNU, Séville et l'Atlantique, Partie interprétative, structures et conjonctures, thèse de lettres, Paris, 1960, 3vol, S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Trafics».
R. RICARD, La conquête spirituelle du Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1933.
M. FASSBINDER, Der Jesuiten staat in Paraguay, Studien uber Amerika und Spanien 2, Halle, 1926.
F. CHEVALIER, La formation du grand domaine au Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1952.
L. HANKE, Colonisation et conscience chrétienne au XVI[e] siècle, Paris, Plon, 1957, coll. «Civilisations d'hier et d'aujourd'hui».
C. A. JULIEN, Les Français en Amérique. Les voyages de découvertes et les premiers établissements (XV[e] - XVI[e] siècles), P.U.F., 1948, Coll. «Colonies et Empires».

C. de BONNAULT, Histoire du Canada français (1534-1763), P.U.F. 1950 (même coll.)
G. RIGAULT et G. GOYAU, Martyrs de la Nouvelle France, Bibl. des Missions, I, Paris, 1925.
P. - C. de ROCHEMONTEIX, Les Jésuites et la Nouvelle-France au XVII° siècle, Paris, 1895, 3 vol.
M. BREMOND, Hist. litt. du sentiment religieux, en France, VI, la conquête mystique, Marie de l'Incarnation, 1922; Les Français en Amérique pendant la première moitié du XVI° siècle, éd. par Ch. - A. Julien, Herval, Th. Beauchesne, P.U.F., 1946; Les Français en Amérique pandant le seconde moitié du XVI° siècle. Le Brésil et les Brésiliens, par André THEVET, P.U.F., 1953; Les voyages de Samuel Champlain, publ. par Hubert DESCHAMPS, P.U.F., 1951.
M. GIRAUD, Histoire de la Louisiane Française, I, Règne de Louis XIV, 1698-1615 P.U.F., 1951.
G. FREYRE, Maîtres et esclaves, trad. Roger Bastide, Gallimard, 1952.
G. SCELLE, La traite négrière aux Indes de Castille. Contrats et traités d'Asiento, Paris, 1906, 2 vol.
R. KONETZKE, Coleccion de documentos para la historia de la formation social de hispano-America, I, (1493-1692), 1953.
F. MAURO, Le Portugal et l'Atlantique au XVII° siècle, thèse de Lettres, Paris, 1959.
V. MAGALHAES-GODINHO, L'économie de l'Empire portugais aux XV° et XVI° siècles, thèse de Lettres, Paris, 1959.
H.R.B. GIBB et H. BOWEN, Islamic Society and the West, I, Londres, 1950.
Ch. - JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord, 1931, 2 éd., t. II, revue par le TOURNEAU, Payot, 1952.
G. HANOTAUX, Histoire de la nation égyptienne, T.V. Paris, Plon, 1934.
M. DELAFOSSE, The Negroes of Africa, Washington. The Associated Publishers, 1932.
G. HARDY, Nos grands problèmes coloniaux, Paris, Colin, 1928.
H. LABOURET, Histoire des Noirs d'Afrique, Paris, P.U.F., 1946.
M. J. HERSKOVITZ, Dahomey, New York, 1938.
E. DEHERAIN, Etudes sur l'Afrique, I, Paris, Hachette, 1909.
H. LABOURET et P. RIVET, Le royaume d'Ardres et son évangélisation au XVIII° siècle, Paris, Institut d'Ethnologie, 1929.
R. MOUSNIER, Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'à la fin du XVII° siècle (suite), cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1953.
J.H. HUTTON, Les castes dans l'Inde, Paris, Payot, 1949.
E. SENART, Les castes dans l'Inde, L'effet et le système, 1927, in 4°.
C. BOUGLE, Essai sur le régime des castes, 2° éd., 1927.
R. GROUSSET, Histoire de la philosophie orientale.
P. MASSON-OURSEL, Les religions de l'Inde, Paris, Bloud et Gay, 1955.
H. VON GLASENAPP, Brahma et Bouddha, Les religions de l'Inde dans leur évolution historique, Paris, Payot.
J. HERBERT, La mythologie hindoue, Paris, 1953.
W.O. MORELAND, India at the death of Akbar, Londres, 1920; From Akbar to Aureng-zeb, Londres, 1923.
P.H. HADEN-POWEL, Land Revenues and Tenure in British India, Oxford, 1894.
L. De AZEVEDO, Epocas de Portugal Economico, 1929.
B.H.M. VLEKKE, NUSANTARA, A history of the East Indian Archipelago, Harvard University Press, 1944.
A. BROU, Saint François-Xavier, 2 éd., 1922.
P. DAHMEN, Robert de Nobili, l'apôtre des Brahmes (Bibliothèque des Missions, «mémoires et documents», vol. III, 1931.).
A. FARJENEL, Le peuple chinois, Paris, 1906, in-12.
H. BERNARD-MAITRE, Sagesse chinoise et philosophie chrétienne, Paris, Cathoria, 1950; Pour la compréhension de l'Indochine et de l'Occident, Paris, Les Belles-

Lettres, 1950; Aux portes de la Chine, les missionnaires du XVI° siècle (1514-1598), Tien-Tsin, Hautes Etudes; Le P.M. Ricci et la société chinoise de son temps, ibid., 1937; Les îles Philippines du grand Archipel de la Chine, ibid., 1936; Le Frère Bento de Goes chez les Musulmans de la Haute-Asie, ibid., 1934; La science européenne au tribunal astronomique de Pékin, Université de Paris, Conférences du Palais de la Découverte, série D, no 9, 1951.

H. MASPERO, Mélanges posthumes sur les religions et l'histoire de la Chine: I, Les religions chinoises, II, Le taoïsme, Publications du Musée Guimet, «Bibliothéque de diffusions», nos 57 et 58, 1950.

J. NEEDHAN, Science and Civilisation in China, II, History of scientific thought, Cambridge, 1956.

M. EBERHARD, Histoire de la Chine, Paris, Payot, 1952.

P. GOUROU, La terre et l'homme en Extrême-Orient, Colin, 1949.

MASPERO et J. ESCARRA, Les institutions de la Chine, Paris, P.U.F., 1952.

WANG-TCH'ANG-TCHE, La philosophie morale de WANG-Yang-Ming, Paris, 1936.

V. PINOT, La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France (1640-1740), Paris, Geuthner, 1932.

A.H. ROWBOTHAN, Missionary and Mandarin, The Jesuits at the Court of China, 1942.

SAMSON, Le Japon, Paris, Payot, 1938, morale de WANG-Yang, Paris, 1936.

Nitobé INAZO, Le Bushido, Paris, 1927.

L. BOURDON, La Compagnie de Jésus et le Japon de 1547 à 1570, thèse de Lettres, Paris, 1947.

C.H. BOXER, Fidalgos in the Far East (1550-1570), La Haye, 1948; The Christian century in Japan (1549-1650), Londres, 1951.

H. NAGAOKA, Histoire des relations du Japon avec l'Europe aux XVI° et XVII° siècles, Paris, 1905.

D.T. SUZKI, An Introduction to Zen Buddhism, Kioto, The Eastern Bouddhist Society, 1934; Manual of zen Buddhism, ibid., 1935.

KERNER, The urge to Sea, 1942.

R. FISHER, The Russians fur Trade (1 550-1770), 1943.

P. PASCAL, Avvakum et les débuts du Raskol, thèse de Lettres, Paris, 1949.

P. CHAUNU, Les Philippines et le Pacifique des Ibériques, Paris, S.E.V.P.E.N. 1960, coll. «Ports-Routes-Trafics».

P. MASSON-OURSEL, La philosophie comparée, 2 éd., Paris, P.U.F., 1932.

R. BERTHELOT, La pensée de l'Asie et l'astrobiologie, Paris, Payot, 1938.

A. REY, De la pensée primitive à la pensée actuelle, «Encyclopédie française», t.I

١٤٩٢ استيلاء الملوك الكاثوليك على غرناطه ـ « لوفيفر ديتابل » ينشر « شروح طبيعيات » ارسطو ـ كريستوف كولومبوس يكتشف اميركا .

١٤٩٤ شارل الثامن في ايطاليا ـ « الـدي مانوشي » يؤسس مطبعته فـي البندقيـة ـ معاهدة « تور دي سيلاس » .

١٤٩٧ ليوناردو دافنشي : العشاء السري ـ سفر « فاسكو دي غاما » ـ « جان كابو » في لابرادور (٤) .

١٤٩٨ « دورر » : « الجليان » ـ فاسكو دي غامايرفأ الشاطىء في كاليكوت .

١٥٠٠ « اراسم » : الامثال السائرة الاولى ـ بوتيشلي : مولد العذراء .

١٥٠٣ ميكال انجلو : العائلة المقدسة ـ تشييد جناح لويس الثاني عشر في قصر « بلوا » ب البوكرك يحتل كوشين في الهند ـ تاسيس « دار التعاقد » في اشبيلية ـ محمد شيباني يطرد بابير من بلاد ما وراء الاوكسوس .

١٥٠٥ مارتن لوثر يدخل الدير .

١٥٠٦ ليوناردو دافنشي : الجوكوندا ـ برامنتي يباشر بناء كنيسة القديس بطرس في روما ـ روشلين : مباديء اللغة العبرية ـ البوكرك يستولي على سقوطرا .

١٥٠٩ مولد كالفين وميشال سرفيه واتيان دوليه ـ ميكال انجلو يعمل في « المعبد السكستيني » ـ البرتغاليون يبلغون « مالاكا » ـ انشاء مجلس الهند في اسبانيا .

١٥١٠ ماتياس غرونوولد : رافدة مذبح ايزنهايم ـ البوكرك يستولي على غوا .

١٥١١ اراسم : تقريظ الجنون ـ البوكرك يستولي على مالاكا ويبلغ امبوان .

١٥١٢ غاستون دي فوا في ايطاليا ـ ميكال انجلو : موسى ـ لوفيفر ديتابل ينشر «رسائل» القديس بولس ـ بالبوا يكتشف المحيط الهادي .

١٥١٤ البرتغاليون في الصين .

١٥١٦ معاهدة بولونيا ـ تأسيس رهبانية الحب الالهي ـ ماكيافلي : الامير ـ توماس مور : «قصد المحال» ـ اريوستو : رولان الغضوب ـ سليم الاول يحتل مصر .

١٥١٧ نشر « النظريات الخمس والتسعون » للوثر ـ الاسبانيون في يوكاتان ـ البرتغاليون في كانتون .

١٥١٩ انتخاب شارل الخامس ملكا على الرومان ـ ادانة لوثر في كولونيا ـ بدء رحلة ماجلان ـ كورتيس في المكسيك ـ غزوة بابير الاولى في الهند .

١٥٢١ مجمع وورمس ـ حرم لوثر ـ دورر : المجهول ـ هولباين : المسيح الميت ـ لوفيفر ديتابل يترجم « المزامير » ـ كورتيس يسترد مكسيكو ـ سليمان يستولي على بلغراد .

١٥٢٤ اندلاع ثورة الفلاحين في المانيا ـ لوثر : تقييد الارادة ـ اراسم : حرية الارادة ـ الشروع في تشييد قصر شامبور ـ رحلة« بيزار » الاولى الى بلاد الانكا ـ رحلة فرازانو ـ بابير يغزو البنجاب .

١٥٢٥ معركة « بافي » ، أسر فرنسوا الاول .

١٥٢٦ معاهدة مدريد ـ انياس دي لويولا : تمارين روحية ـ معركة موهاكس ـ بابير يحتل سلطنة دلهي بعد انتصاره في بانيبات ـ امبرواز هوخستتر يلجأ للمرة الاولى الى قرض الدولة .

١٥٢٩ معاهدة ساراغوسا لوضع الحدود .

١٥٣٠ تتويج شارل الخامس امبراطورا ـ اعتراف اوغسبورغ ـ وفاة بابير ـ الفوضى في الهند .

١٥٣١ هنري الثامن يعلن نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية ـ تأسيس المصفق الجديد في انفرس .

١٥٣٤ نذور انياس دي لويولا في مونمارتر ـ رابليه : حياة غارغنتوا الكبير ـ جاك كارتييه في كندا ـ البرتغاليون يحصلون على « ديو » من ملك « كمباي » .

١٥٣٦ امتيازات القسطنطينية ـ كالفين : « نظام الديانة المسيحية » ـ جاك كارتييه يستكشف نهر سان ـ لوران .

١٥٣٩ قانون « فيليه ـ كوتريه » ـ «المواد الست» في انكلترا ـ تنظيم الجمعية اليسوعية تنظيما نهائيا ـ مركاتور يرسم خريطة العالم ـ الاتراك يهاجمون « ديو » .

١٥٤١ « نظام » كالفين ينقل الى الفرنسية ـ انياس دي لويولا رئيس عام اليسوعيين ـ ميكال انجلو : الدينونة الاخيرة .

١٥٤٢ احداث التفتيش في روما ـ شرائع جديدة مراعاة للهنود ـ الاسبانيون في الفيليبين ـ البرتغاليون في اليابان ـ مولد هيديوشي .

١٥٤٣ كوبرنيك : مدارات الاجرام السماوية ـ فيزال : معمل الجسم الانساني .

١٥٤٥ افتتاح المجمع التريدنتيني ـ اكتشاف مناجم بوتوسي .

١٥٤٦ وفاة لوثر ـ رابليه : الكتاب الثالث ـ اليسوعيون في البرازيل ـ اليابانيون ينزلون الى اليابسة في تشي ـ كيانغ .

١٥٤٧ معركة موهلبرغ ـ ميكال انجلو يستلم ادارة اعمال كنيسة القديس بطرس في روما ـ تيسيان : فينوس وادونيس ـ ايفان المرهوب يستلم زمام الحكم .

١٥٤٩ وثيقة التساوي و « كتاب الصلاة » الاول ـ القديس فرنسيس كسافاريوس في اليابان ـ انشاء محاكم تجارة في ليون ولولوز .

١٥٥٢ هنري الثاني يحدث محاكم البداية ـ وثيقة التساوي الثانية و « كتاب الصلاة » الثاني ـ هنري الثاني يستولي على « الاسقفيات الثلاث » ـ وفاة القديس فرنسيس كسافاريوس ـ رونسار : « غراميات » ـ ايفان المرهوب يحتل «قازان» ـ نشر القانون الاستعماري الاسباني ـ اليابانيون يصعدون نهر « يانغ ـ تسي » .

١٥٥٣ اعدام ميشال سرفيه ـ « دي بلاي » يبدا كتابة « آثار روما » ـ تاسيس جامعة مكسيكو ـ الانكليز في « اركنجلسك » ـ الصينيون يحصرون البرتغاليين في «ماكاوو» ـ محمد المهدي شيد مراكش .

١٥٥٤ اكتشاف الملغم لاستخراج الفضة من المعدن الخام .

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس ـ وفاة القديس انياس دي لويولا ـ بومبونازي : « اسباب .. الطبيعية » ـ ايفان المرهوب يستولي على استراخان ـ ولاية اكبر .

١٥٥٧ براءة كومبيانيه ــ معركة سان ــ كوانتين ــ افلاسات في فرنسا واسبانيا ــ أزمــة مالية في انفرس ــ احداث اسقفية فــي الصــين .

١٥٥٩ وفاة هنري الثاني ــ معاهدة كاتو ــ كمبريزيس ــ « الفهرست الفاتيكاني » الاول ــ لسكو يعمل في اللوفر « اويو » ينقــل « التراجم » لبلوتارك ــ « نوبوناغا » يخضع اقطاعيي اليابان الشرقية .

١٥٦١ مجلس طبقات اورليــان ــ مفاوضــات بواسي ــ القديســة تريزيا : « كتاب حياتي » ــ جون نوكس : « كتاب النظام » ــ صك بتنظيم حركة اساطيل العالم الجديد .

١٥٦٢ مجزرة « فاسي » ــ بعثة جون هوكنز الى اميركا .

١٥٦٣ نشر « المواد التسع والثلاثين » في انكلترا ــ انتهاء المجمع التريدنتيني .

١٥٦٤ « الرقيم « مبارك الله » يبرم اعمال المجمع التريدنتيني ــ وفاة كالفــين ــ القديسة تريزيا : « طريق الكمال » ــ رابليه : الكتاب الخامس ــ اكبر يلغي الضرائب المفروضة على غير المسلمين في الهند .

١٥٦٥ ثورة في الاندلس ــ ايفان المرهوب ينشيء الـ « اوبرتشنينا » ــ نوبوناغا يصبح نائب « شوغون » .

١٥٦٦ التعليم المسيحي بحسب المجمع التريدنتيني ــ القديسة تريزيا : « خطوات حول الحب الالهي » .

١٥٦٨ القديس يوحنا الصليب يؤسس جمعية الكرمليين الحفاة ــ نشر كتاب فرض الكهنة ــ جان بودين : الجواب على مغالطات السيد « دي مالسترروا » .

١٥٧١ قمع الثورة في الاندلس ــ معركة « ليبانت » ــ التتر يحرقــون موسكو ــ نوبوناغــا يقوض دير هييزيان .

١٥٧٢ يوم سان برتلمي ــ ثورة « الصعاليك » في المناطق المنخفضة ــ كاموانس : «لوزياد» ــ « دراك » يستولي على القافلة الاسبانية الى الهند ــ دراك في باناما .

١٥٧٣ له تاس : امنتا ــ هوتمن : فرنكو ــ غاليا ــ نوبوناغا يقضي بحرمان الـ « شيكاغا » من سلطتهم .

١٥٧٥ اكبر ينشيء بيت عبادة ــ تأسيس رهبانية القديس فيلبوس النيري .

١٥٧٦ جان بودين : «الجمهورية» ــ تأليف الحلف ــ تهدئة غنت .

١٥٧٧ مارتن فروبيشر يبحث عن طريق من الشمال الغربي ــ القديسة تريزيا : « المساكن » .

١٥٧٩ اتحاد اوترخت ــ تكون المناطق المتحدة ــ « انتقامات من المستبدين » ــ اكبر يعلن نفسه رئيسا دينيا في ولايته .

١٥٨٠ مونتانيه : « المحاولات » (الطبعة الاولى) ــ له تاس : « انقاذ اورشليم » .

١٥٨٤ وفاة ايفان المرهوب ــ بداية « زمن الاضطرابات » ــ فيليب الثاني يستقبل اسيادا يابانيين ارسلهم الاب « فالينياني » .

١٥٨٧ دراك ينهب قادس ــ تأسيس « مصرف ريالتو » في البندقية ــ وولتر رالاي يؤسس مستعمرة في فرجينيا ــ هيديوشي يطرد المرسلين .

١٥٨٨ كارثة « الاسطول الذي لا يقهر » ــ مونتانيه : المحاولات (الكتاب الثالث) ــ غزو اليابانيين لكوريا .

١٥٩٢ الطبعة النهائية للترجمة العامية السكستينية ـ شكسبير : فينوس وادونيس ـ هيديوشي يستولي على « يادو » .

١٥٩٦ كبلر : « سر الفلك » ـ شكسبير : « حلم ليلة من ليالي الصيف » ـ مولد ديكارت ـ الهولنديون يستقرون في زيلندا الجديدة وسبتزبرغ .

١٥٩٨ براءة نانت ـ معاهدة فرفين ـ لوب دي فيغا : « اركاديا » ـ بوريس غودونوف ينتخب قيصرا ـ وفاة هيديوشي .

١٦٠٠ اوليفيه دي سير : مسرح الزراعة ـ اصلاح جامعة باريس ـ شكسبير : « كما يطيب لك » ـ تأسيس الشركة الانكليزية للهند الشرقية ـ اكبر يباشر فتح دكان .

١٦٠٢ تأسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية .

١٦٠٣ شكسبير : هملت ـ سلالة الشوغون توكوغاوا تتولى الحكم ـ رحلة شامبلين الاولى الى كندا .

١٦٠٤ شكسبير : اوتلو ـ تأسيس تومسك .

١٦٠٥ مباشرة بناء الساحة الملكية في باريس ـ شكسبير : مكبث ـ سرفنتس : دون كيشوت ـ وفاة اكبر .

١٦٠٧ اليسوعيون يستلمون زمام الحكم في الباراغواي ـ لقاء القديس فرنسوا دي سال والقديسة جان دي شانتال ـ بناء ساحة ولي العهد في باريس .

١٦٠٨ القديس فرنسوا دي سال : مدخل الى حياة التقوى ـ شامبلين يؤسس كيبك .

١٦٠٩ هدنة اثنتي عشرة سنة بين اسبانيا والمناطق المتحدة ـ غروتيوس : البحر الحر ـ كبلر : علم الفلك الجديد ـ تأسيس مصرف امستردام .

١٦١٠ اغتيال هنري الرابع ـ غاليليو يتقن المرقب .

١٦١٣ بيرول يدخل رهبانية القديس فيلبوس النيري الى فرنسا ـ شكسبير : «هنري الثامن» ـ سرفنتس : « اخبار مثالية » ـ ولاية آل رومانوف .

١٦١٤ مجلس الطبقات في فرنسا ـ له غريكو : انتقال العذراء ـ تأسيس الشركة الهولندية الشمالية .

١٦١٥ وليم هارفي يكتشف الدورة الدموية ـ سفارة انكليزية في الهند ـ ثورة هيديوري بن هيديوشي .

١٦١٦ القديس فرنسوا دي سال : « بحث في محبة الله » . طرد الاسبانيين من اليابان ـ المنشوريون يغزون لياوو ـ تونغ .

١٦١٨ ثورة بوهيميا .

١٦٢٠ معركة الجبل الابيض ـ بيكون : « نوفوم اورغانوم » ـ حجاج « مايفلور » في اميركا .

١٦٢١ تأسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية ـ المنشوريون يستقرون في موكدن ـ توماس مون : «خطاب في التجارة» ـ تجدد الحرب بين اسبانيا والمناطق المتحدة .

١٦٢٢ الشاه عباس يسترد اورموز من البرتغاليين .

١٦٢٣ سمتسو يقفل ابواب اليابان في وجه الاجانب ـ الشاه عباس يسترد بغداد ـ فلسكيز : « رسم اوليفاريس » .

١٦٢٤ ريشليو يدخل المجلس ـ فلسكيز : « السكارى » ـ الهولنديون يدحرون الانكليز في امبوان وبندا .

١٦٢٥ والنستين يتولى قيادة الجيوش الامبراطورية ـ سبينولا يستولي على بريدا ـ غروتيوس : « قانون الحرب والسلم ـ الانكليز في « بارباد » .

١٦٢٦ فيليب دي شامبانيه : « رسم جنسينيوس » . تاسيس امستردام الجديدة ـ الفرنسيون في سان ـ كريستوف .

١٦٢٧ حصار لاروشيل ـ تاسيس جمعية القربان المقدس ـ طاي ـ تسنغ ، قائد المثوريين، يهدد بكين .

١٦٢٩ براءة عفو آله ـ فان ديك : « رينو وارميد » ـ الهولنديون يحصلون من الروس على حق تعاطي التجارة في اركنجلسك ـ منح مستعمرة ماساشوستس بعض الامتيازات ـ الانكليز يستولون على كيبك .

١٦٣٠ فلسكيز : « كورفولكين » ـ الهولنديون يستولون على برنمبوك وسورينام وكاراكاس ـ تأسيس مستعمرات « الماين » .

١٦٣١ غوستاف ـ ادولف على ضفاف الرين .

١٦٣٢ وفاة غوستاف ـ ادولف المنتصر في لوتزن ـ جون سلدن : « البحر المقفل » ـ غاليليو : خطاب في النظامين الرئيسيين للعالم ـ رمبراندت : « درس التشريح » ـ تأسيس مستعمرة ماريلند ـ الهولنديون في كوراساو .

١٦٣٣ محكمة التفتيش تكره غاليليو على الاقلاع عن « اخطائه وهرطقاته » .

١٦٣٤ شارل الاول يفرض ضريبة « مال الاسطول » ـ اغتيال والنستين ـ معركة نوردلنجن ـ القديس منصور دي بول ولويز دي ماريلاك يؤسسان جمعية راهبات المحبة .

١٦٣٥ لويس الثالث عشر يعلن الحرب على اسبانيا ـ تاسيس الاكاديمية الفرنسية ـ روبنس : روضة الغرام ـ فان ديك : رسم شارل الاول ـ تاسيس الشركة الفرنسية للجزر الاميركية ـ الفرنسيون يحتلون غواد لوب .

١٦٣٦ غزو فرنسا ـ كورناي : السيد ـ تاسيس جامعة هارفرد ـ تفكك امبراطورية سلالة المنغ .

١٦٣٧ ديكارت : خطاب في المنهج ـ اوائل عهد جمعية معتزلي بور ـ رويال .

١٦٣٨ دخول اليابان يحظر على كل اجنبي والخروج منها يحظر على كل ياباني ـ القديس منصور دي بول يؤسس مشروع جمع اللقطاء .

١٦٣٩ فلسكيز : الصلب ـ الانكليز في مادراس .

١٦٤٠ بوادر الثورة الانكليزية ـ جنسينيوس : اوغسطينوس ـ كورناي : هوراس .

١٦٤١ ديكارت : « تاملات » ـ كورناي : بوليوكت ـ له نين : « فينوس في كور فولكين » .

١٦٤٢ وفاة ريشليو ـ ثورة لندن ـ اوليه يؤسس جمعية سان ـ سولبيس ـ برونيس في مدغشقر ـ تأسيس مونتريال ـ الهولنديون في تاسمانيا ـ مولد نيوتون .

١٦٤٣ ولاية لويس الرابع عشر ـ معركة روكروا ـ ارنولد : بحث في المناولة المتواترة ـ موليير يؤسس المسرح الشهير .

١٦٤٤ انعقاد مؤتمري مونستر واوسنابروك ـ توريشلي يخترع ميزان الجو ـ ديكارت : « مبادىء الفلسفة » ـ انتحار اخر اباطرة المنغ ـ بدء زراعة قصب السكر في جزر الانتيل .

١٦٤٧ باسكال : اختبارات جديدة حول الفراغ ـ فوجلاس : ملاحظات حول اللغة الفرنسية ـ بوتر : « الثور » ـ فلسكز : « الرماح » .

١٦٤٨ ثورة القلاع ــ محاكمة شارل الاول واعدامه .ــ كرومول يحتــل أرلندا ــ معاهدتــا وستفاليا ــ اختبار باسكال في « بوي دي دوم » ــ رمبراندت : « حجاج عماوس » ــ فيليب دي شامبانيه : « الام انجليكا » .

١٦٥٠ المنشوريون يغزون الصين الجنوبية .

١٦٥١ هزيمة شارل الثاني في وورسستر ــ الغاءلقب « القائــد العسكري » فــي المناطــق المنخفضة ــ تاسيس جمعية الرسالات الاجنبية ــ غيريك يخترع آلة تفريغ الهواء ــ هوبس : لفياتان ــ التصديق على وثيقــةالملاحة في انكلترا ــ الفرس يستولون علــى مسقط ــ نهاية السيطرة البرتغالية علــىالخليجالفارسي ــ المنشوريون يستولون على كانتون ــ انهيار المقاومة الصينية .

١٦٥٢ اتحاد انكلترا وسكوتلندا ــ الحرب الانكليزية الهولندية ــ اقرار « حرية النقض » في جمعية بولونيا ــ الهولنديون ينتزعون مدينة« الراس » من البرتغاليين ــ الانكليز فــي جزيرة القديسة هيلانة .

١٦٥٣ نهاية ثورة القلاع ــ كرومول »اللورد الحامي ــ الدالاي لاما يحضر الى بكين لتوليــة الــسلالة المنشورية ــ انهيار الامبراطوريــةالهولندية في البرازيل .

١٦٥٤ معاهدة وستمنستر ــ القوزاق ينضمون الــى روسيا ــ الــروس يصعدون الــ « سونغاري » .

١٦٥٥ الانكليز يحتلون جامايكا .

١٦٥٦ باسكال : « الاقليميات » ــ محمد كبرليرئيس وزراء .

١٦٥٧ نقولا لمري : « كتاب الكيمياء » .

١٦٥٨ . وفاة كرومول ــ معركة الدون ــ تاسيساكاديميــة العلــوم فــي باريس ــ تاسيس « نرتشنسك » .

١٦٥٩ الاب فربيست في الصين ــ الاعتراف بــ« اورنغ ــ زب » امبراطورا .

١٦٦٠ عودة شارل الثاني الى انكلترا ــ توقيع « صيغة » تفرض في فرنسا على الجنسنيين ــ « هجاء » بوالو الاول .

١٦٦١ لويس الرابع عشر يتولى الحكم شخصيا ــ « منطق » بور ــ رويال ــ احداث « دائرة التجارة والمفارس » .

١٦٦٢ وثيقة التساوي ــ تاسيس جمعية لنــدنالملكية ــ الانكليز يستلمون بومباي .

١٦٦٤ كولبير يضع تعرفة الحماية الجمركية الاولى ــ « وثيقة السنوات الثلاث » ــ موليير : « المنافق » ــ تاسيس شركة الهند الفرنسيةــ الانكليز يستولون على امستردام الجديدة التي اصبحت نيو ــ يورك .

١٦٦٥ تاسيس « جريدة العلماء » ــ الفرنسيون فيسان ــ دومنغ .

١٦٦٦ نيوتون يحلل النور ــ موليير : « مبغض البشر » .

١٦٦٧ كولبير يضع تعرفة الحماية الثانية ــ لويس الرابع عشر يحتــل المناطــق المنخفضة ــ معاهدة بريدا ــ بوفندورف : نظام الامبراطورية الجرمانية ــ راسين : « اندروماك » ــ ملتون : « الفردوس المفقود » .

١٦٦٨ صلح اكس ــ لا ــ شابيل ــ « صلح الكنيسة » بين البابــا والجنسنيين ــ تاسيس اكاديمية فرنسا في روما . اورنغ ــ زب يسمح للفرنسيين بالاقامة في سورات ــ الاسبانيون يستولون على الماريان .

١٦٧٠ نشر القانون الجنائي في فرنسا ــ سبينوزا : « بحث لاهوتي سياسي » ــ باسكال : « خطرات » . ليبنيز : « نظرية الحركة » ــ كولبير يؤسس شركة اساكل الشرق الادنى .

١٦٧٢ الحرب الهولندية ــ بوفندروف : « الحق الطبيعي وحقوق الانسان » ــ تاسيس « المركور الفرنسي » .

١٦٧٣ هويغنس : « رقاص الساعة » ــ موليير : « المريض الموهوم » ــ بعثة جوليه والاب ماركيت الى وادي الميسيسيبي .

١٦٧٤ مالبرانش : « البحث عن الحقيقة » ــ بوالو : « الفن الشعري » ــ الهولنديون يستولون على المرتينيك ــ الفرنسيون يقيمون في بونديشيري .

١٦٧٥ ليبنيز يكتشف حساب الكمية الصغرى ــ معركة توركهايم : موت تورين ــ معركة فهربلين .

١٦٧٦ الدانمركي رومر يحسب سرعة النور ــ تأسيس صندوق الاهتداءات .

١٦٧٧ سبينوزا : « علم الاخلاق » ــ راسين : فيدر .

١٦٧٨ بوادر النزاع بين البابا وملك فرنسا ــ معاهدتا نيميغ ــ الجدال الديني بين بوسويه والراعي كلود ــ ر. سيمون : نقد تاريخ العهد القديم .

١٦٧٩ بوسويه : « السياسة المستوحاة من الكتاب المقدس » ــ ماريوت : « محاولة في نمو النباتات » .

١٦٨٠ بدء سياسة « الاجتماعات » ــ الجمعية الجرمانية تعترض على « الاجتماعات » .

١٦٨١ ج. مابيون : « في الدبلوماسية » ــ بوسويه : « خطاب في التاريخ العام » .

١٦٨٢ اعلان المواد الاربع ــ نيوتون يكتشف سنة الجاذبية الكونية ــ المناداة ببطرس الاكبر قيصرا ــ كافلييه دي لاسال ينزل المسيسبي .

١٦٨٥ الغاء براءة نانت ــ نشر القانون الاسود . الصينيون يرغمون الروس في الباسين على الاستسلام .

١٦٨٦ تاليف حلف اوغسبورغ ــ فونتنيل : « محاورة في تعدد العوالم » ــ تأسيس شندر ناغور .

١٦٨٧ نيوتون : « مبادىء الفلسفة » .

١٦٨٨ الثورة الانكليزية الثانية ــ لويس الرابع عشر يدخل الحرب ــ لابروير : «السجايا» ــ بوسويه : « تاريخ التقلبات » ــ ش. بيرو : « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » ــ لوك : « رسائل في التساهل » ــ الامبراطوريون يستولون على بلغراد .

١٦٨٩ اعلان الحقوق ــ لوك : « محاولة في الحكومة المدنية » ــ « زفرات فرنسا المستعبدة » ــ معاهدة نرتشنسك بين الصينيين والروس .

١٦٩٠ معركة فلوروس وراس بيغيزيه ــ هويغنس : « بحث في النور » ــ لوك : « محاولة في الادراك البشري » ــ دنيس بابين : « مذكرة في استخدام البخار المائي » ــ تاسيس كلكوتا .

١٦٩٢ كانغ ــ هي يجيز المسيحية في الصين .

١٦٩٤ « قاموس » الاكاديمية ــ تاسيس مصرف انكلترا .

١٦٩٥ بيل : « القاموس التاريخي والنقدي » .

١٦٩٧ معاهدة « ريسويك » ــ فينيلون : « تفسير حكم القديسين » .

١٦٩٨ اضطهاد المسيحيين في كوشنشين ــ تنظيم خدمة قوافل منتظمة بين الصين وروسيا .

١٦٩٩ فينيلون : « تيليماك » ــ معاهدة كارلوفيتز ــ بطرس الاكبر يفرض الزي الاوروبي ويصلح الرزنامة .

١٧٠٠ تأسيس اكاديمية العلوم في برلين ــ كانغ ــ هي يعترف باتفاق الديانتين المسيحية والصينية ــ قبول لويس الرابع عشر بوصية شارل الثاني ــ فيليب الخامس ، ملك اسبانيا .

١٧٠٢ حرب وراثة عرش اسبانيا .

١٧٠٤ نيوتون : « بحث في علم النظريات » ــ اكليمنضوس الحادي عشر يصدر حكمه على « الطقوس الصينية » .

١٧٠٥ براءة بابوية بادانة الجنسينية ــ مندفيل : « اسطورة النحل » ــ وفاة الامبراطور ليوبولد الاول ــ لويس الرابع عشر يقترح الصلح على هنسيوس .

١٧٠٧ فوبان : « العشر الملكي » ــ دنيس بابين يبني سفينة بخارية ــ بطرس الاكبر يغزو بولونيا .

١٧٠٩ معركة « مالبلاكية » ــ الروس يسحقون الاسوجيين في بولتافا .

١٧١٠ تقويض بور ــ رويال ــ لويس الرابع عشر يفرض ضريبة « العشر » ــ بركلي : « بحث في مبادىء المعرفة البشرية » ــ الروس يحتلون استونيا ــ تأسيس الشركة الانكليزية لبحر الجنوب .

١٧١١ مقدمات لندن ــ ستيل واديسون : السبكتاتور ــ بطرس الاكبر ينشىء مجلس الشيوخ

١٧١٢ افتتاح مؤتمر اوترخت ــ معركة دنين ــ بركلي : حوار هيلاس وفيلونوس ــ فاتو : ركوب البحر الى « سيتير » .

١٧١٣ معاهدتا اوترخت ــ كولنز : خطاب في الراي الحر ــ صلح ادرنا بين الروس والاتراك ــ اقصاء المرسلين عن تونكين .

١٧١٤ معاهدة راستات ــ ليبنيز : « بحث في الموناد » ــ بطرس الاكبر ينظم التعليم الرسمي ويحتل فنلندا ــ لويس الرابع عشر يرغم البرلمان على تسجيل الرقيم « الولد الوحيد » .

١٧١٥ وفاة لويس الرابع عشر .

جدول الاعلام

أ

الانتيل الصغرى ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠

ب

له :

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

لا

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرست الخرائط والتصاميم

اللوحة ١ — الحفلة الموسيقية .
مينا تزيينية من ليموج لِـ « ليونار ليموسين » . (متحف اللوفر ، تصوير جيرودون .)

اللوحة ٢ — عيد احياه هنري الثاني وكاترين دي مديسيس اكراماً لسفراء بولونيا .
وشي فلمنكي من القرن السادس عشر . (فلورنسا ، متحف المقاليد . تصوير الليناري .)

اللوحة ٣ — مكتبة في القرن السادس عشر .
نقش لِـ « كريسبين دي باس » . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ٤ — « المباراة التي اصيب فيها الملك هنري الثاني بجرح مميت في آخر يوم من حزيران من السنة ١٥٥٩ » .
نقش لِـ « جاك تورتوريل » و « وجان بريسين » (١٥٧٠) . (دار الصور المنقوشة . تصوير جيرودون .)

اللوحة ٥ — منظر عام لقصر شامبور .
(تصوير جان روبييه .)

اللوحة ٦ — قبة كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تشاهد من حدائق الفاتيكان .
(تصوير بيير جاهان .)

اللوحة ٧ — مقصف آل مديسيس في روما .
(تصوير بيير جاهان .)

اللوحة ٨ — متزحلقون في تجاويف باب كنيسة القديس جرجس في انفرس (١٥٥٣).
نقش لِـ « جان غال » . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ٩ — منجم في اواسط القرن السادس عشر .
نقش على خشب نقلاً عن كتاب حول المعادن صدر في بال (١٥٥٦) . (دار الكتب الوطنية .)

اللوحة ١٠ — مشغل صائغ .
نقش لِـ « اتيان ديلون » (١٥٧٦) . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ١١ — مجمع اوغزبورغ .
« جمعية اشهر امراء المانيا في الخامس والعشرين من حزيران من السنة ١٥٣٠ ، في

قاعة الاساقفة في مدينة اوغزبورغ ، بحضور الامبراطور شارل الخامس . »
نقش مغفل (١٦٣٤) . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ١٢ — المجمع التريدنتيني .
لوحة لِـ « له تيسيان » . (متحف اللوفر . تصوير جيرودون .)

اللوحة ١٣ — التفتيش في اسبانيا ، في فالادوليد .
لوحة مغفلة رسمت في هولندا في السنة ١٥٦٠ (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٤ — اضطهاد الكاثوليك الانكليز في ولاية اليزبت (حوالى ١٥٨٠) .
نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٥ — جمعية ملوك اوروبيين برئاسة الامبراطور وملك فرنسا وملك اسبانيا .
نقش على خشب ينسب الى فنان فرنسي على الرغم من طغراء « البرت دورر » .
(دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٦ — قصر الاسكوريال .
المدرسة الاسبانية ، القرن السابع عشر . (متحف اللوفر . تصوير جيرودون) .

اللوحة ١٧ — معركة ليبانت (٧ تشرين الاول ١٥٧١) .
نقش لادريان كولاير ، بحسب جوهان ستراادانوس . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٨ — هجوم الاسطول الانكليزي على الارمادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨ .
لوحة مأخوذة من مجموعة النقوش التي انجزها « جون بين » في السنة ١٧٣٩ نقلاً عن مدبجات طلبها اللورد تشارلز هوارد من الرسام هنريك كورنلسزن فان فروم من هازلم وحاكها فرنسيس سبيرنغ (لندن ، ١٧٣٩) . (مكتبة معهد الفن وعلم الاثار في جامعة باريس . تصوير ريفال) .

اللوحة ١٩ — مكتبة احد الوكلاء .
نقش لابراهام بوس (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٠ — الصيرفي .
لوحة من الفيشاني لدلفت ، ١٦٢٥ . (مجموعة بول انغولفان . تصوير بيير دوبوا) .

اللوحة ٢١ — داخل منزل بورجوازي هولندي ، في اوائل القرن السابع عشر .
الاشكال من رسم « ازياس فان دي فلده » ، والباقي من رسم ب. فان باسن .
(متحف رجكس ، امستردام . تصوير المتحف) .

اللوحة ٢٢ – معلمة المدرسة .
نقش لابراهام بوس . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٣ – دير بور – روبال الحقول .
نقش لنقولا بوكيه نقلاً عن صورة بالوان ممزوجة بالماء والصمغ تنسب لماجدولين دي بولونيه . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٤ – احدى جلسات البرلمان الانكليزي (١٢ ايار ١٦٤١) .
نقش لونسلاس هولار . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٥ – قاعة بيننهوف الكبرى في لاهاي اثناء انعقاد مجلس جمعية الطبقات برئاسة جاكوب كاتس في السنة ١٦٥١ .
الاشكال من رسم بالامدسز ، والباقي من رسم ديرك فان ديلن . (متحف مورتسشويز . تصوير براون) .

اللوحة ٢٦ – لمجاوزات المرتزقة :
١ – الشنق .
٢ – الهجوم على عربة المسافرين .
نقشان لجاك كالو ، نقلا عن « بلايا الحرب الكبرى » (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٧ – استلام بريدا .
رسم لفيلا سكيز . (متحف البرادو . تصوير جيرودون .)

اللوحة ٢٨ – منظر لقصر فرساي مأخوذ من جادة باريس في السنة ١٦٦٨ .
لوحة لباتل . (متحف فرساي . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٢٩ – قصر فرساي . منظر للقسم الاوسط من القصر ماخوذ من زهراء الجهة الجنوبية .
(تصوير جان روبيه) .

اللوحة ٣٠ – التمثيل الاول للمأساة الغنائية « الست » لِ « كينو » و « لولّي » ، في البهو الرخامي ، في السنة ١٦٧٤ .
نقش لِ « لبوتر » . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣١ – تشييد اعمدة اللوفر .
« تمثيل الآلات التي استخدمت لرفع الحجرين الكبيرين اللذين يغطيان الجبهة المثلثة الزوايا في مدخل اللوفر الرئيسي » .
نقش لسيبستيان له كلير (١٦٧٧) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣٢ – رفع صار في فناء مصنع غوبلين الملكي .
« منظر لاحد اقسام قصر غوبلين الملكي حيث توجد مصانع مفروشات التاج ».
نقش لسيبستيان له كلير . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣٣ – « تنظيم المأدبة التي اعدها جلالته لحضرات الفرسان بعد تأسيسهم ، في فونتينبلو ، في الرابع عشر من ايار من السنة ١٦٦٣ » .
نقش لابراهام بوس . دار الصور المنقوشة . (صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٣٤ – توزيع الخبز على الجماهير في التويلري في السنة ١٦٦٢ .
رسم مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣٥ – رواق القصر .
نقش لابراهام بوس . (دار الصور المنقوشة . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٣٦ – زيارة لويس الرابع عشر للمرصد (١٦٦٤) .
نقش لفواتون نقلا عن سيبستيان له كلير (١٦٨٢) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣٧ – عائلة فلاحين في داخل منزل .
رسم للويس له نين . (متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٣٨ – ابطال براءة نانت (٨ تشرين الاول ١٦٨٥) .
نقش لجان لويكن . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣٩ – راس سابق لاكتشاف كولومبوس لاميركا مصدره المكسيك .
الفن التولتوني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (?) (متحف الانسان . تصوير روجيه باري) .

اللوحة ٤٠ – نزول الاسبانيين الى العالم الجديد : الامير « غواكانا ريلو » يستقبل خريستوف كولومبوس .
نقش لتيودور دي بري (فرانكفورت ، ١٥٩٤) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٤١ – البرازيل في السنة ١٥١٩ .
مرغاً صغير انشأه « لوبو هومن » لملك البرتغال ثم اصبح ملك كاترين دي مديسيس . (دار الكتب الوطنية) .

اللوحة ٤٢ – جزء من خريطة العالم الملكية التي رسمت على رق غزال في السنة ١٥٤٢ بامر فرنسوا الاول .
(دار الكتب الوطنية .) .

اللوحة ٤٣ – زنوج استخدمهم اسبانيو اميركا في مطاحن السكر .
لوحة منقولة من كتاب الاسفار الكبرى لجان تيودور دي بري . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٤٤ – « ... هكذا تكلم زردشت » .
النبي زردشت يهدي فيشتاسبا ملك بلق .
لوحة قيشانية متعددة الالوان ، فارس ، اواخر القرن السادس عشر . (مجموعة بول انغولفان . تصوير بيير دوبور) .

اللوحة ٤٥ – عيد ملكي في حديقة فارسية .
رسم متعدد الالوان الممزوجة بالماء والصمغ ، المدرسة الصفوية ، اوائل القرن السابع عشر .
(متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٤٦ – منظر طبيعي في ايام الشتاء .
صورة منقوشة من القرن السابع عشر . (مجموعة فيفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٤٧ – وصول البرتغاليين الى اليابان في القرن السادس عشر .
رسم مذفل . (متحف غيمه) .

اللوحة ٤٨ – حاكم مياكو في اليابان يذهب لملاقاة السفراء الهولنديين :
نقش لارنولد مونتانوس نقلا عن كتاب « وفود شركة الهند الشرقية ... الى اباطرة اليابان ... » ، امستردام ، جاكوب فون مورز ، ١٦٦٩ . (دار الكتب الوطنية) .

فهرست عام

ص

الكتاب الثاني

القرن السابع عشر (١٥٩٨ — ١٧١٥)

القسم الثاني

اوروبا والعالم

الكتاب الأول

اوروبا والعالم الجديد

الكتاب الثاني

اوروبا والعالم القديم

انتهى المجلد الرابع ، ويليه المجلد الخامس

القرن الثامن عشر

منشورات عويدات ۹۲۱ / ۱۹۸۷

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS
publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME IV

LES XVI^e ET XVII^e SIÈCLES

LA GRANDE MUTATION INTELLECTUELLE DE L'HUMANITÉ

L'AVÈNEMENT DE LA SCIENCE MODERNE ET L'EXPANSION DE L'EUROPE

(TROISIÈME ÉDITION, REVUE, CORRIGÉE, AUGMENTÉE)

par

Roland MOUSNIER
Professeur à la Sorbonne

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER et *Farid M. DAGHER*

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

تأليف

رولان موسنييه
أستاذ في السوربون

في هذا الجزء ، قسمان كبيران:

الأول يبحث في أوروبا الجديدة، بدءاً من القرن السادس عشر (١٤٩٢-١٥٩٨) ومن خلال المؤسسات الجديدة (النهضة الكبرى، المجتمعات الدينية الجديدة، النظم الإقتصادية الجديدة، نظم السياسة الخارجية، ومع القرن السابع عشر(١٥٩٨-١٧١٥) من خلال أزمة هذا القرن اقتصادياً واجتماعياً وداخلياً، ودولياً، وكيفية مقاومة هذه الأزمة ، إزاء مظاهره المستجدّة.

القسم الآخر يبحث في أوروبا والعالم، انطلاقاً من أوروبا والعالم الجديد: الحضارات البلدية لدى قدوم الأوروبيين، ومسألة الأوروبيين والأعراق الملونة في أميركا. ثم أوروبا والعالم القديم: أوروبا والإسلام ، فالعالم الهندي، فالعالم الصيني، وكيف أشاحت آسيا عن أوروبا في المرحلة الأخيرة.

يقع هذا المجلد في ٨١٤ صفحة من القطع الكبير ومجموعة من ٢٢ شكلاً لخرائط وتصاميم، ومن ٤٨ لوحة مصوّرة لاستشهادات عما ورد في النص، الى جانب جدول زمني مقارن وجدول أعلام وأماكن.

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

القرن الثامن عشر

اهداءات ٢٠٠٠
الأستاذ / عاطف جلال
الإسكندرية

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — جانين اوبوايه
أستاذ في السوربون — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إدوار بروى — أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و أرنست لابروس
أستاذ في السوربون — أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الخامس

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

القرن الثامن عشر

عهد الأنوار

تأليف

رولان موسنييه و إرنست لابروس

أستاذ في السربون أستاذ في السربون

بالاشتراك مع

مارك بولوازو

دكتور في الأدب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر فريد م. داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مـــدخل

لقد درج « ميشليه » في معرض كلامه عن هذا القرن الثامن عشر ، على ان يدعوه ، بلهجته النبوية : « القرن المعظم » . اما « رينان » فقد تصرف تصرفاً على بعض الاستخفاف حيال عصر « نعم الانسان فيه بحرية الفكر ، ولكنه في الواقع لم يفكر كثيراً فكان الكسب ضئيلاً » .

ان ميشليه قد نظر ، والحق يقال ، نظرة مغالاة الى قوّة القرن الثامن عشر الخلاقة . ويرى « بول هازار » ان آراء هذا القرن قد اكتمل تكوّنها في القرن السابع عشر مـــا بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٧٠٠ ، وكان بمكنته ان يرقى الى ما قبل هذه السنوات . فان ما حققه القرن الثامن عشر هو في الدرجة الاولى نقل بعض التحصيلات والتوسع فيها ، وهذا ما رآه رينان بكل وضوح .

بيد ان القرن الثامن عشر يحضر العالم المعاصر وينبىء به ، بمواصلة اعمال شرع بها في القرن السالف ، وفاقاً لمبادىء سبق اقرارها ، وفي اتجاهات معينة سبق تحديدهـــا . ان خطوطـاً كثيرة من خطوط الازمنة اللاحقة ترتسم فيه . العلوم تتطور تطوراً مدهشاً وتؤلف صرحـــاً كاملاً تتوّجه العلوم الاجتماعية . الانسان يتعلم كل يوم ، ويعمق النظر ، ويرى ، ويبدو له ان الظلمات تتقهقر : انه : « قرن الانوار » . تقدم المعارف ينمي الايمان بتقدم الانسانية تقدمـــاً مستمراً شطر حالة عليا . ويشجع الكثيرين على ازدراء بالماضي يدفعهم الى نبذ المعتقدات القديمة والنصوص القديمة ، وبالفعل نفسه الى نبذ الحقائق التي تنطوي عليها وتعبر عنها ببساطة ، بلغة وبيان مختلفين . فنجم عن ذلك بعض الازدراء بالعصور القديمة وعداء الكاثوليكية ، وقـد نظر اليها معاً كما الى خرافات مضرة يجب نبذها . وفقدت الكنيســة الكاثوليكية الى حـــين بعض نفوذها وتقهقرت الكاثوليكية في كافة انحاء العالم . وهذا ما يفسر قيام مفاهيم جديـدة للعالم ، مفاهيم العقليين ، ومفاهيم القائلين بالدين الطبيعي ، ومفاهيم الماديين ؛ وقـد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك ، فرأوا ما يلاقيه الانسان من صعوبة في ادراك كنه الكون ، ونادوا بعجز العقل البشري اذا ما اراد تخطي حدود الاختبار وعلم الحساب ، وحدود معرفة الظواهـر ، ولم يكونوا اقل عداء للتفسيرات القديمة حول نواميس العالم العامة ، فانبأوا بالعنادية والفلسفة الوضعية المعاصرتين ؛ بينما بردت همة غيرهم جفاف العلم والعقل ، فانساقوا وراء نزوات قلبهم ، وغدوا رومنطيقيين من قبل ان توجد الرومنطيقية .

وبلغ من تكامل التقنيات ان حدثت ثورة عسكرية ، وشبه ثورة ملاحية ، وحدثت في انكلترا ثورة صناعية ثانية ما لبثت ان تركت اثرها في البر الاوروبي . ان اوروبا تتقدم الى الامام في عصر التقنية هذا مع ما انطوى عليه من نتائج اجتماعية .

في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا ، تتحقق الاكتشافات والنجاحات . ان اوروبا ، بقيادة فرنسا ، تتقدم العالم بأسره . ففرنسا التي تقوم بينها وبين انكلترا منافسة سياسية واقتصادية ، تسيطر بالروح ، وقد بلغ من تفوقها الفكري ان اخذ مثقفو ذاك العصر يتكلمون عن « اوروبا الفرنسية » . وقد احرز الاوروبيون هذا التفوق ليس بفضل هذه القوى التي نقصد بها المعارف العقلية والمعارف العملية ، اي العلم والتقنية فحسب ، بل بتكامل تنظيم الممالك الهامة (الذي هو تقنية ايضاً من جهة ثانية) حيث نرى على العموم نزعة الى تطور مطرد مستمر في الدولة القوية التي تستخدم لمصلحتها ، استخداماً متزايداً ، وبواسطة ادارة حصرية متعاظمة ، قوى مواطنين لا تباعد بينهم فوارق اجتماعية كبرى في اغلب الاحيان . ولكن هذه الدول ، على الرغم من اوجه الشبه بينها ، الديانة المسيحية ، وانتشار مذهب العقليين ، وجماليات واحدة ، ولغةفرنسية مشاركة،لم تتحد قط بل تنافست وامتشقت السلاح:فليس هنالك مناوروباسياسية.

بيد ان اوروبا تحرز من التقدم العلمي والتقني ما يجعلها تتخطى تخطيا بعيداً ، بقدرتها على العمل ، الحضارات الآسيوية القديمة نفسها التي لم تحرز عليها ، لمدة طويلة ، تفوقاً حاسماً . تواصل اوروبا فتح العالم واحتلاله وتطويره . الا ان الدول الاوروبية المنقسمة تتنازع العالم . الدول الاوروبية الهامة تتحارب في كافة الاوقيانوسات وكافة القارات : فهنالك منذئذ سياسة عالمية . لا بل هنالك ، منذئذ ، جماعات اوروبية تنمو خارج اوروبا ، وينجز بعضها نموه ، حتى ان احداها ، وهي التي ستعرف مستقبلا عظيماً ، تعي شخصيتها وتنفصل عن الوطن الام وتؤلف امة جديدة منافسة لاوروبا القديمة : الولايات المتحدة الاميركية .

انتهى تطور القرن الى ثورة . ففي كافة انحاء اوروبا نرى تزايد تداول الذهب والفضة ، وازدياد عدد السكان ، ونمو حجم المبادلات مع بلدان ما وراء البحر ، تفضي الى رفع الاسعار الحقيقية وتفتح اسواقاً جديدة وتضاعف المكاسب . في كل مكان تتوسع المدن وتكتظ بالسكان، وتنمو البورجوازية عدداً وقوّة ، الا انها تصطدم بالارستوقراطيات والسلطة المطلقة الا في انكلترا الاوليغارشية حيث يحسّن البورجوازيون وضعهم المدني والسياسي تحسينا منتظماً .

وانما يبرز هذا التطور في فرنسا بصورة خاصة . البورجوازية تغدو فيها الطبقة الاولى . الفلاحون والعمال يخضعون لها . تتبرم على طبقة النبلاء والاكليروس ، المستفيدين الكبيرين من النظام القديم، اللذين يدافعان عن وضعها بإقصاء البورجوازيين عن الوظائف والمراتب الرفيعة، وعلى الملكية التي تفتقر الى الحزم الضروري لتحقيق التغييرات اللازمة .

في السنة ١٧٨٩ ، انضمت الى هذه الازمة السياسية ازمة اقتصادية وازمة مالية القى الجميع

مسؤوليتها على الحكومة والمؤسسات . تسلمت البورجوازية زمـــام الحركة الثورية . ألَّفت الجماهير جنود الاصطدام . قضت البورجوازية على « الاقطاعية » وحررت الفرد البورجوازي . واستطاعت بفضل المساواة المدنية والملكية المصونة والمقدسة وسيادة الامة ان تضمن لنفسها ادارة المجتمع الجديد ومكاسبه والتصرف بأموره .

منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٧٩٥ ، أبرزت الحرب الاجتماعية بين المجتمع الجديد والمجتمع التقليدي ، استحداثات مدهشة : الوحدات الحسابية الجديدة للعالم المعاصر ، مليـــون البشر ومليار الفرنكات ؛ النظم السياسية والاجتماعية الجديدة : الدكتاتورية، الديموقراطية، الارهاب، الاقتراع العام ، الجمهورية ، وهي « اشتراكية » دام ذكرها كأسطورة ونبوءة .

استولى الرعب على البورجوازية ، فلجأت الى الجيش. جاء نابوليون بونابرت، القائم بأعمالها، يثبت الثورة ويؤمن للبورجوازية خير احرازاتها .

في عالم الحضارة الاوروبية ، غدا الاعلان البورجوازي لحقوق الانسان والمواطن انجيـــلاً جديداً . تململت الشعوب واندلعت الثورات. ولكن ردة فعل الملوك والارستوقراطيات كانت إرهاباً ابيض . منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٨١٥ قامت بين فرنسا واوروبا حرب اجتماعيـــة اممية ، حرب دعاوة وتوسع ثوريين ، حرب دفــاع عن « الحضارة » . فافضى دمج البـــلدان المحتلة وخلق الدول التابعة الى نشر النظم الاجتماعيـــة والمؤسسات الفرنسية في كل مكان . وللتغلب على فرنسا ، اضطر الملوك لأن يقتبسوا طرائقها واساليبها . وعلى الرغم من هزيمـــة فرنسا وردة فعل السنة ١٨١٥ ، فان وجه العالم قد بقي متغيراً . « فانما نحن حفدة القرن الثامن عشر المباشرون » .

القسم الأول

القرن الأخير للنظام القديم

الكتاب الأول

الأنــــوار

الفصل الأول

روح القرن

١ . – الاسلوب

دیکارت ، لوك نيوتون

لقد درج القول بان ملكية ديكارت الفكرية انتهت في القرن الثامن عشر وانها افسحت المجال الملكية لوك ونيوتون. هنالك لعمري نصوص تبرر وجهة النظر هذه. فان «فلاسفة» كثيرين يستخفون بديكارت بسبب تركيباته العقلية حول الآلية ومذاهبه في الزوابع التي زعم الفيلسوف بان يفسر بها الكون. وقد رأى فيها معارضوه مجرد نسج خيال، اذ ان نتيجة واحدة قد تفضي اليها آليات مختلفة جداً . فنظروا الى ديكارت كما الى تائه عقل رغائص في اضغاث الاحلام . وعزا « دالمبير » اكتشاف علم ما وراء الطبيعة الى « لوك » ، وعلم الطبيعة الى نيوتون . وتكلم فولتير بازدراء عن « الروايات » الكرتزيانية وحدد التاريخ الذي يجب ان يعتبر تاريخ هزيمة ديكارت حتى في وطنه فرنسا : ١٧٣٠ .

الا ان نصوصاً اخرى تنظر الى ديكارت كما الى سيد الفكر الاعظم في القرن الثامن عشر . لنقص فونتنيل المعجب جداً بالمعلم . فقد كتب فولتير في السنة ١٧٣٣ : « ان من ارشدنا الى طريق الحقيقة قد لا يكون اقل قدراً من ذاك الذي بلغ نهاية هذه الطريق منذ ذاك الحين » (الرسالة الانكليزية الرابعة عشرة) . واضاف دالمبير الى ذلك ، في السنة ١٧٥١ ، في خطبته التمهيدية لدائرة المعارف :

« بيد ان ديكارت قد تجاسر على إرشاد العقول السليمة الى خلع نير الطاعة الفلسفة المدرسية والرأي والسلطة ، وبكلمة موجزة للآراء المقبولة قبل التحقيق والهيمنة ؛ ولعله ادى للفلسفة بهذا التمرد الذي نجني ثماره اليوم خدمة اجل من كل ما تدين به لمشاهير خلفائه ... واذا ما انتهى الى الاعتقاد بتفسير كل شيء، فهو قد ابتدأ بالشك في كل شيء ؛ والاسلحة التي نستخدمها لمحاربته لا تفقد شيئاً من نسبتها اليه لاننا نوجهها اليه ... » .

وكتب « تورغو » في دائرة المعارف: « ان نيوتون قد وصف البلاد التي اكتشفها ديكارت» وان « لوك » و « بركلي » و « كونديلاك » « هم جميعهم ابناء ديكارت » . وفي السنة ١٧٦٥

فاز توما بجائزة الاكاديمية الفرنسية بسبب ثنائه على ديكارت : فهو قد اشار الى اننا اذا كنا قد تخلينا عن آراء كثيرة طلع بها، وليس هذا ما حدث، فاننا قد سرنا بأمانة على طريقة تفكيره. كما ان « كوندورسيه » نفسه ، المشايع للوك ونيوتون ، قد عنون الزمان التاسع ، في « اللوحة الايجازية لتجلمات الفكر البشري » منذ اوائل البشرية ، التي انجزها في السنة ١٧٩٤ ، بما لا يخلو من مغزى : « منذ ديكارت حتى الجمهورية الفرنسية ». فهو معجب بالفلرة التي تبتديء « منذ ان احدثت عبقرية ديكارت ، في العقول ، هذه الانطلاقة العامة ، مبدأ الثورة الاول في مصائر الجلس البشري » . وأكرم ديكارت ومُجد ورُجع اليه كذلك في لندن وبرلين وليبزيغ . ان ديكارت ، في نظر « الفلاسفة » يفتتح عهداً من عهود البشرية يضمّ القرن الثامن عشر .

قد يستنتج بالتالي من هذه النصوص ان القرن الثامن عشر قد رفض علم ما وراء الطبيعة وعلم الطبيعة اللذين طلع بهما ديكارت واحتفظ باسلوبه . فما هي حقيقة الامر يا ترى ؟

النزاع بين ديكارت والآليين

كان ضرورياً في نظر ديكارت ، لإرساخ حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية ، ربط هذه الاخيرة بمباديء ميتافيزيقية ثابتة . رقف موقفاً حذراً من كل ما هو حسي ونوعي ، فادعى بتفسير الكون بمباديء اكيدة لانها واضحة وجلية . تأكد من وجود الله ، وتأكد بواسطته من وجود العالم الخارجي ، ووحد بين المادة والاتساع ، واقتد على البساطة والقرار الالهي مباديء ثبوت الاجرام ، ودوام الحركة ، والصلابة ، والمبدأ العام لتصادم الاجسام ، واستخلص من ذلك سبع سنن الصدمة ، كما استخلص بعد ذلك ، بانتقالات المادة الرقيقة وبالزوابع ، كافة الآليات التي تفسر الظواهر . فغدا الكون من ثم استخلاصاً ضخماً ، انطلاقاً من بعض الافكار الواضحة والجلية . لقد آمن ديكارت بحقيقة هذا الاستخلاص . وكان مقتنعاً بان تحليل الافكار هذا قد اوقفه على حقيقة تركيب الكون الرياضي المستترة تحت الظواهر . وكان مقتنعاً كذلك بانه بلغ وجود الاشياء وبأن هذا الوجود رياضي . فكان تعليمه قياساً رياضياً في علم الكائنات .

ولكن رفاق نضاله ضد تعليم ارسطو، الآليين، «مرسين» «روبرفال» «باسكال» «هوبس» لم يبرهنوا اذ ذاك عن اقتناعهم . لم يسلموا بضرورة ربط العلوم الطبيعية بمباديء ميتا فيزيقية . فان « غسندي » في اعتراضاته على « تأملات » ديكارت ، قد لفت نظر الفيلسوف الى ان حقائق الهندسة وحقائق العلوم الطبيعية الرياضية لا ترتبط بوجود الله : فهنالك اشخاص عديدون يرتابون بالله، ولكن واحداً لا يرتاب ببراهين الهندسة . ورفض الآليون اسلوب ديكارت الاستنتاجي . فمن المستحيل الحكم بحقيقة فكرة استناداً الى وضوحها . وليس تفسير تكون الظواهر بتقلبات الزوابع والمادة الرقيقة سوى مجرد اسطورة . يجب التمييز ، في الافكار الواضحة ، بين الافكار الحقيقية والافكار الوهمية ، وهذا يستحيل معرفته الا بالاختبار ،

قاعدة العلوم الطبيعية . سلّموا بمذهب ديكارت التعقلي الكلي ، ولكنهم أكلوه بمذهب عقلي اختباري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انهم لم يؤمنوا بأمكان معرفة كل شيء ولا ببلوغ كنه الاشياء . فالواقع في نظرهم يتعدى مفاهيمنا تعديا لامتناهيا . وكان رأيهم ان العلوم الطبيعية الرياضية تتيح تحقيق تراكيب سهلة الاستعمال ومفيدة ، ولكن هذه التراكيب لا ترفع النقاب عن الحقيقة في ما وراء واقع الظواهر . الصوت حركة في نظر عالم الطبيعة ؛ وهذه الحركة قابلة القياس ؛ فهم بذلك اسبادها ؛ ولكن المعرفة الكية لا تعطيهم سوى مظهر من مظاهر الواقع ، وليست من ثم سوى تجزئة وتقطيع . كان الآليون سائرين باتجاهاتهم شطر مذهب العملية الذي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

انتصار الآلية النيوتونية في هولندا والاثر الهولندي

كان نيوتون قد تبنى أسلوب الآليين وحارب « افتراضات » ديكارت في علم الطبيعة . وكان التحالف السياسي بين انكلترا وهولندا البروتستانتيتين ضد فرنسا قد يسّر العلائق بين العلماء الهولنديين والعلماء الانكليز . لذلك ، وعلى الرغم من ان هولندا كانت مهد الكرتزيانية ، وان علم الطبيعة الكرتزياني قد وجد فيها خير تعبيره المتسق في « قاموس » « شوفين » ، الذي اعيد طبعه في السنة ١٧١٣ ، كانت الغلبة لنفوذ نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر . فغدا « غرافساند » صديقاً لنيوتون خلال رحلة قام بها الى لندن في السنة ١٧١٥ . وفي السنة ١٧١٧ عمل « موشنبروك » في لندن تحت إشراف العالم الانكليزي . وبين السنة ١٧١٥ والسنة ١٧٣٦ ، وفي خطب استخدمت مقدمات لابحاثهم في علم الطبيعة والكيمياء ، اطرى الطبيب والكيميائي « بورهاف » والعالمان بالفلك والطبيعيات غرافساند وموشنبروك ، في العلوم الطبيعية ، أسلوب الآليين الاختباري : ولكنهم قلما استشهدوا بديكارت وتناسوا الآليين الفرنسيين تناسيا كلياً ، وربما كان ذلك بداعي عدائهم لفرنسا التي حاربوها منذ امد قصير والتي ما زالت ظنينة اوروبا الكبرى . اما الذين اتوا على ذكرهم وغالوا في مديحهم فهم « بيكون » ، « وغاليليو » ، « ونيوتون » في الدرجة الاولى . ويؤكد موشنبروك الذي ترجم في السنة ١٧٣١ الاختبارات التي اجرتها ، ما بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٧ ، « اكاديمية الابحاث الفلورنسية » ، انه لا يجوز فصل هؤلاء الثلاثة ، كما يطيب لبورهاف ، منذ السنة ١٧١٥ ، ان يناقض الصواب وينسب الى بيكون كافة النجاحات المحققة في العلوم . واتوا كذلك على ذكر « توريشلّي » و « هويغنس » و « بويل » و « ليبنيز » ، واغفلوا كافة الفرنسيين باستثناء « ماريوت » والبروتستانتي « ديزاغوليه » . فيتضح من ثم ان مسؤولية الطلوع بفكرة علم عصري ، ايطالي وانكليزي في جوهره ، ولا سيا انكليزي ، تقع على كاهل الهولنديين وقد احرزت هذه الفكرة نجاحاً عظيماً .

ولا عجب في ذلك ، اذ ان « علماء الطبيعيات » هؤلاء قد احتلوا في حقل العلم مركزاً معتبراً زاد من رفعته مركز الاقاليم المتحدة التجاري . تهافت عليهم الطلاب من كافة انحاء

اوروبا لتحصيل العلم تحت إشرافهم . وغدت لايدن مركزاً علمياً اوروبياً . ومنذ السنة ١٧٢٤ نشر تلامذة بورهاف الفرنسيون في باريس ما القاه عليهم من دروس قبل ان اصدرها المؤلف في هولندا بثماني سنوات . رقام « لامتري » و « دي فاي » والاب « نوليه » وفولتير برحلة الى هولندا وأوثقوا عرى الصداقة بالعلمـــاء الهولنديين . فانتشرت الآراء الهولندية بفضل تراجمهم ومؤلفاتهم في علم الطبيعيات . وليست « خطبة » « ديلاند » الشهيرة في خـــير طريقة لاجراء الاختبارات (١٧٣٦) سوى اقتباس عن موشنبروك . وفي رأيهم جميعاً ان السنن التي تسير الكون « تخضع لارادة الكائن الاسمى الذي لم يوح بها الينا ؛ لذلك كان علينا ان ننتهل معرفتها من الظواهر » . فيجب من ثم « ان نلاحظ بعين ساهرة كافـة حركات الطبيعة » ، ونسير على خطى نيوتون « الذي كان اول من اقصى عن علم الطبيعيات كافة الافتراضات ولم يسلم الا بمـا يمكن التثبت رياضياً من انه سلسلة من الظواهر » (سغرافساند) .

الاختلاط بين الكرتزيانية والآلية

كان هذا الاسلوب من ثم متناقضاً في نقاط جوهرية واسلوب ديكارت. فكيف استطاع الفلاسفة ، والحالة هذه، الاعتقاد بانهم ساروا بأمانـة على خطى الفكر الكرتزياني ؟ في البدء قاوم الكرتزيانيون في فرنسـا مقاومة طويلة . « فحين ظهر كتاب « عناصر فلسفة نيوتون » (١٧٤٥) كانت الكرتزيانية ما زالت مسيطرة حتى في اكاديمية العلوم في باريس » (كوندورسيه). مشتركاً بين التفسيرين، الكرتزيانية والنيوتونية ، كان الجهـــد المبذول بغية ايجاد تفسير كمي وآلي لكل شيء ، ومشتركاً ايضاً بين علماء المدرستين كان الاسلوب ، اسلوب الآليين . منذ ظهور « خطبة في الاسلوب » لم يدرك علمـــاء الطبيعة الذين افتخروا بالكرتزيانية بجمل فكر ديكارت ولم يروا منه سوى المظهر الآلي . فان « ريجيوس » ، منذ السنة ١٦٤٦ ، « وكوردموا » ، منـــذ السنة ١٦٦٦ ، « وروهو » ، في السنة ١٦٧٥ ، و « ريجيس » ، في السنة ١٦٩٠ ، و « فونتنيل » اخيراً ، المدافع الاكبر عن ديكارت منذ كتابه « احاديث حول تعدد العوالم المأهولة » (١٦٨٦) حتى كتابه « نظام الزوابع » (١٧٥٢) ، يجاهرون كلهم بأسلوب الآليين العلمي ، مع انهم يقولون كلهم بنظرية الملء والزوابع . اختلطت الكرتزيانية بالآليـة البحتة . لم يكن ديكارت كرتزيانيا . وحين يتكلم « الفلاسفة » عن دور ديكارت كسيد الفكر ، فانهم انمـــا يفكرون بالآلية وباساليب العلم الاختباري وروحه . واذا مـا بقي لديكارت أثره الكبير في القرن الثامن عشر ، فيرد ذلك جزئياً الى الاختلاط والتجزئة العقلية في مؤلفاته . بيد ان هذا الاختلاط كان نتيجة حدث تاريخي : لم تنتصر الآلية الا مع ديكارت وبديكارت وفي ديكارت . ولعل هذا الاختلاط عكس واقعاً آخر ايضاً : اعترف العلمـــاء بالضعف البشري فقبلوا مكرهين بمذهب العقليين الاختباري، ولكن اليس مثل الآليـــة الاستنتاج الكرتزياني ، المشتق من المحسوس والكمي ، انطلاقاً من افكار واضحة وجلية ، والكون مثلاً بهندسة مترامية الاطراف ؟

٢ ـ ظروف العمل

شغف الجماهير

ان الكرتزيانية والنتائج المحققة حولت الرغبة الحـــارة في المعرفة نحو العلوم في الدرجة الاولى . فاستثير شغف حقيقي بكافة علوم الطبيعة ، اي « بعـــلم الطبيعيات » . وتفرغ لها اناس من كل الطبقات ، لا سيا في فرنسـا ، وفي بعض البلدان الاخرى ايضاً . فتعددت وسائل التعلم . وازدادت مجموعات الحيوانات والنباتات والحجارة ، كما ازدادت « دور » علم الطبيعيات ازدياداً مطرداً : فتكون او تأسس منها لدى الدوقية والقضاة ورؤساء الاديرة والاطباء والسيدات والجمعيات الدينية . وكان للويس الخامس عشر مجموعاته و « دوره » الخاصة ، بالاضافة الى « دار » الملك وحديقة الملــك اللتين أسسها لويس الثالث عشر ووسعها « بوفون » بمضاعفة مساحة الحدائق ، وبنـــاء المدافىء الزجاجية ومسرح التعلم ، والمقدمة المجموعات التي ارسلتها اليه كاترين الثانية ، واستثارة حماس الجميـع : فقدمت السيدات الهبات كي ترد اسماؤهن في « التاريخ الطبيعي » ، وكوفىء الوكلاء والموظفون الذين جمعوا له النماذج في المستعمرات بشهادات رسمية تعينهم « مراسلي غرفة الملـك » . واتيحت رؤية هذه المجموعات العامة والخاصة بسهولة للهواة. وألقيت محاضرات علنية بغية حمل الجماهير على تذوق العلم .ومنذ السنة ١٧٣٤ القى الاب نولّيه في باريس محاضرات حصرها في عـــلم الطبيعيات الاختباري : لم يتعرض فيها للنظريات ولم يستخدم الرياضيات ، بل اكتفى باحضار آلاته وإثبات مـــا لوحظ مباشرة . فأعطى بذلك عن العـــلم فكرة ناقصة ، لان العلم هو ، قبل اي شيء آخر ، سلسلة براهين يتوصل اليها الحساب ويثبتها الاختبار ، ولكن مستمعيه لم يجدوا اية صعوبة في فهم مـا يلقيه عليهم ، فأحرز نجاحاً عظيماً واستمال الكثيرين الى العلم . وازدحمت في الشارع الذي اقام فيه عربات الدوقات اللواتي كن راغبات في اضطرام نشاطهن وحماسهن . وحين اسند اليه الملك، في السنة ١٧٥٣ ، القـــاء دروس علم الطبيعيات الاختباري في كلية « نافار » ، اضطرت هذه الاخيرة لان تفتح ابوابها امام الهواة : فقد بلغ مستمعو نولّيه الستماية . وفي حديقة الملك ، كان الكيميائي « رويل » يشرع في القاء درسه معتمراً جمة مستعارة ومرتدياً اكماماً مطرزة. ولكنه كان يتنشط فينزع اكمامه وجمته ثم يخلـع ثوبه وينتهي بنضو صداره عنه ويكمل درسه مرتدياً القميص فقط ، فتنتقل حمياه الى مستمعيه . والقيت مثل هذه الدروس في كليات الولايات وفي مدن كثيرة من فرنسا وهولندا والمانيا . وامّن اناس كثيرون سبل معيشتهم بانتقالهم من مكان الى آخر لاجراء اختبارات في علم الطبيعيات : وكانت الكهرباء مـا استهوى الجماهير واستمالها . ونشرت كتب كثيرة ، ينطوي بعضها على قيمة كبرى ، لجعل العلوم في متنـــاول الجميـع ، كـ « مشهد الطبيعة » للأب « بلوش » ، و « دروس عـلم الطبيعيات الاختباري » للأب نولّيه (١٧٤٨) ، « والتـــاريخ الطبيعي » لبوفون و « تاريخ الكهرباء » لبريستلي (١٧٧٥) ، بالاضافة الى العديد من الموجزات والقواميس والكتب المدرسية التي اصدرت تباعـــاً واعيد

طبعهـــا تكراراً . وكرست الصحف اعمدة طويلة للمؤلفات العلمية ؛ وقد خصص بعضها في المنشورات العلمية .

عمت البلاد « فورة تعلم » و « حمى فهم » لم يكونا جديدتين ولكنهما غدتا اقل ندرة . فان « جنفييف دي مالبواسيير » مثلاً ، التي تنتمي الى اسرة ثرية من رجال المال ، وتعرف اللاتينية واليونانية والانكليزية والايطالية والاسبانية ، وتؤلف المآسي والمهازل ، قد طلبت من يلقنها دروساً خاصة في الرياضيات وتتلمذت لـ « فالمون دي بومار » في علم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وقرأت بوفون . كما ان ابنة احد النقاشين ، وهي التي ستصبح السيدة « رولاند » ، قد درست الرياضيات وعـــلم الطبيعيات ، وقرأت الاب نولـّيه ، وعالم الطبيعيات والتـاريخ الطبيعي « ريومور » والرياضي والفلكي « كليرو » . ودرس فولتير الرياضيات وجعل منجزات نيوتن في متناول الجميع . وتابـــع « ديدرو » دروس التشريح وعلم الوظائف والكيمياء باشراف « روبل » طيلة ثلاث سنوات ، وخلـّف اصولاً هامة في علم الوظائف . ودرس « جان جاك روسو » الرياضيات وعلم الفلك والطب وحرر « انظمه كيميائية » مسهبة جداً . وقام فرانكلين باختبارات كهربائية . وواصل « غوته » ابحـاثه في البصريات وعلم النبات . وتلقى ولي عهد فرنسا دروساً في علم الطبيعيات ، وكان جورج الثالث ملك انكلترا عالماً بالنبات ، واعـــاد « فكتور ـ اميداي » الثالث امير « سافوا » اختبارات الاب نولـّيه .

لا ريب في ان الاكثرية خـلال القرن السابق كانت قد كرست مزيداً من الوقت لتمييز ادق فروق الشواعر البشرية ، والبحث طويلاً عن خير المفردات والصيغ للتعبير عنهـــا باتقان وقوة وطلاوة وملاحة . ولا ريب كذلك في انها كانت تناولت الاقدمين بمزيد من التأمل لتكتشف في ما خلفوه بعض الايحاءات بصدد شواعر مجهولة او شواعر أسيء فهمها او مناويل تنسج عليها . وكانت قد استعانت بممارسة فحص الضمير والاختلاف الى كرسي الاعتراف ، ومحـــاولة بلوغ الكمال المسيحي بمراقبة الشواعر والاهواء مراقبة يقظى بغية توجيهها وجعلها تسام في الخلاص . ولكن الديانة ، في القرن الثامن عشر ، ما عادت لتقدم مثل هذا العون : فاذا استمر الكثيرون في الذهاب الى القداديس وكرسي الاعتراف ، فالقلب ، على العموم ، اقل اشتراكا داخلياً ، وهم اقل ايماناً منهم في السابق ، ولا يشعرون في الغالب بدينهم ولا يعيشونه . واذا مـا زالوا يهوون الادب ، فـان اتساع الرغبة في المعرفة لا يترك لهم متسعاً من الوقت للتذوق والتبحر . الذوق سائر في طريق الفساد . ففولتير ومونتسكيو ينحدران الى دون مستوى بوالو انحداراً محزنـاً احياناً . وليس فولتير بعيداً احياناً عن تفضيل « سطوع « له تاس » الخادع على ذهب فرجيل» . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم يبادرون كلهم الى الارتقاء من الظواهر الى الاصول ، وربطها بفلسفة العصر العـــامة ، وبممارسة « ميتافيزيقية القلب » كما قد يقول دالمبير . يهملون فحص الواقع ؛ وغالباً ما تغدو السيكولوجية بدائية والتعبير جافـــاً ومجرداً . فاذا تقدمت العلوم ، فان الآداب قد تقهقرت ، واذا نظرنا الى القرن الثامن عشر من هـــذه الزاوية فاننا نراه اقل

بروزاً بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

مساندة الرأي والحكومات

ولكن الشغف بالعلوم يساعد اعمال العلماء الذين اصبحوا موضوع اعتبار مشجع ووجدوا الظروف والوسائل المادية لمواصلة اعمالهم . فاراضي بوفون تعلن كونتية بأمر يصدره ملك فرنسا . عشرة شعراء يتغنون بعظمته .يقام له تمثال وهو في قيد الحياة.مسكنه في «مونبار» يغدو مزاراً . حين يموت ، تقام كنيسة على المرتفع المقابل لقصره وتضاء شموعها طيلة سنة كاملة . لا يدخل احد من مكتبه « الا كما من معبد حارسه خادمه الشيخ وحبره ابنه » . جورج الاول ملك انكلترا وبطرس الاكبر عاهل روسيا يزوران مختبرات « علماء الطبيعيات » . فردريك الثاني يستقبل العلماء والفلاسفة حول مائدته ، وكاترين الثانية في مكتبها لمجالستهم ومبادلتهم الاحاديث .

لم يقتّر المال على العلماء الذين كان باستطاعتهم ، في اوائل عهد علوم كثيرة ، التوصل الى نتائج حسنة بأدوات محدودة . فقد استخدم الكيميائي « شيل » كؤوس الشراب عوضاً عن « الاجراس » . ولجمع الغازات كان يربط بعنق قنينة نفيطة جلدية يشدها بخيط حين تمتلىء ! وبدأ فرانكلين اعماله في حقل الكهرباء بانبوب زجاجي وجلد هر . ولكن علم الفلك والجغرافية ما كانا ليكتفيا بادوات بدائية . وما لبثت الكيمياء ان فرضت المتطلبات نفسها : فان مختبر « لافوازييه » قد ضم اجهزة دقيقة كبيرة الحجم شاقة الصنع . واستلزمت اختباراته كمية ضخمة من المحروقات . ومن حسن الحظ ان الملوك قد اسموا الاكاديميات التي وفرت لاعضائها المرتبات ومكافآت الحضور واستثارت التنافس وكافأت الجهود بالجوائز ونظمت بعثات علمية تمدها الدولة بالاعانات المالية . اعطى المثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وحذا حذوه خليفتاه لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ثم اقتفي الاثر في كل مكان . استمر لويس الخامس عشر في إسناد ادارة اعمال كبرى تتعلق بعلم هيئة الارض الى اعضاء اكاديمية العلوم في باريس : قياس خط الطول ، قياس المسافة بين « برست » وستراسبورغ ، خريطة فرنسا العامة لكسيني . واوعز بايفاد بعثات علمية كبرى الى البيرو ولابونيا ورأس الرجاء الصالح بغية قياس درجات خط الطول ولتحديد المسافة من الارض الى القمر ، والقيام بمهام اخرى . فسارت الحكومات الاخرى على هذه الخطى . اسس بطرس الاكبر « اكاديمية سان بطرسبورغ » (١٧٢٤) . وارسل « بهرنغ » لاستكشاف المضيق الذي يفصل آسيا عن امريكا ، والذي حمل اسمه من بعده . وامرت القيصرتان آنّا وكاترين الثانية بالقيام برحلات علمية الى سيبيريا . واستحضرت كاترين الثانية الى « سان بطرسبورغ » الرياضي السويسري « اولر » والفيلسوف الفرنسي « ديدرو » . والحقيقة ان « اولر » هو من حرر « الرسائل الى اميرة المانية » في الفلسفة والعلوم للاميرة « دانهالت ديسو » . وتأسست اكاديمية استوكهولم الملكية في السنة ١٧٣٩ ، وجمعية كوبنهاغن الملكية في السنة ١٧٤٥ . واستدعى فردريك الثاني ملك بروسيا

الى اكاديمية العلوم في برلين بعض الرياضيين : الفرنسيين « موبرتوي » ودالمبير و « لاغرانج » والسويسري برنولي . اما جورج الثالث ، ملك انكلترا المشهور بتقتيره ، فقد انفق بسخاء على العالم الفلكي « وليم هرشل » وعين له مرتباً شهرياً قدره ثلاثون جنيه وقدم له مسكناً مجاوراً لقصر « سلو » الملكي انشأ فيه مرصداً حقق فيه اكتشافاته . لا بل تواطأت الحكومات الاوروبية للايعاز بمراقبة مرور الزهرة امام الشمس في السنتين ١٧٦١ و ١٧٦٩ بغية تحديد المسافة بين الشمس والارض . وكان انتهاز الفرصة امراً واجباً اذ ان مروري الزهرة ، اللذين تفصلهما فترة ثماني سنوات ، لا يتكرران الا كل مائة وعشرين سنة تقريباً . فقام الانكليز بالرصد في تاهيتي وجون « هدسون » ومادراس ، والدانمركيون قرب رأس الشمال ، والاسوجيون في فنلندا ، والروس في لابونيا وسيبيريا ، والفرنسيون في كاليفورنيا وبونديشيري . اتحدت اوروبا اذن لزيادة معرفة البشرية . ولم تكن النجاحات المحرزة بالحقائق الكبرى والجلية والمفيدة لتجر على الحكومات سوى نفقات ضئيلة اذا ما قورنت هذه النفقات بما تتطلبه الدبلوماسية والحروب: فان « لاكاي » ، الذي اوفدته الحكومة الفرنسية الى رأس الرجاء الصالح في السنة ١٧٥١ لرصد القمر بغية تحديد المسافة بينه وبين الارض ، لم ينفق بعد اقامة اربع سنوات نفذ خلالها المهمة المسندة اليه وحدّد بدقة مدهشة مكان اكثر من ١٠٠٠٠ كوكب في سماء نصف الكرة الجنوبي سوى ٩١٤٤١٥ فلساً بما في ذلك نفقات صنع الآلات .

شمول علم العلماء

يرد تقدم العلوم ونفوذ العلماء جزئياً الى ان التخصص ، على الرغم من ازدياده ، ما زال متأخراً جداً عما هو عليه اليوم . ما زالت معرفة الطبيعة في القرن الثامن عشر تدعى فلسفة ؛ وما زال أولئك الذين يدرسون سننها يطلقون على انفسهم اسم « الفلاسفة » . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم كلهم يعرفون مؤلفات الفلاسفة بحصر المعنى الذين يستخلصون من الاكتشافات العلمية مبادىء وروحاً ويثبتون نتائجها على الكون والانسان . بواسطة مثل هذه المؤلفات كان للعلوم مزيد من النفوذ . ان بوفون مدين بمبادئه الموجهة الى ليبنيز ، ومونتسكيو مدين بمبادئه لمالبرانش ، وكلهم مدينون لأرسطو وديكارت . زد على ذلك انهم يمارسون علوماً عدة . فالعالم الرياضي والفلكي لابلاس يسهم في اختبارات لافوازييه التي تناولت الحرارة الحيوانية والتنفس . والعالم الرياضي اولر يخوض في نظرية القياس كما يخوض في النظريات الطبيعية حول حدوث الموجات والتموج . والطبيب لامتري ينقل المذهب الآلي الى عالم الاخلاق . وان في ذلك لفائدة ، اذ غالباً ما ينتج النجاح عن تطبيق اسلوب احد العلوم ونتائجه على علم آخر . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اكثرية العلماء يحققون او يكملون تحصيلهم العلمي برجوعهم الى الابحاث الاصلية ، وذلك بفضل ثقافتهم الكلاسيكية . فان رياضيين كثيرين كانوا قادرين على ان يترجموا من اليونانية « العناصر » لاوكليد ، ومن اللاتينية « الهندسة » لديكارت « والمبادىء » لنيوتون . وبذلك اضافوا الى تميزهم في ادراك فكر المعلم ادراكاً مباشراً تميزهم في رؤية توسع علمهم توسعاً حقيقياً

وتاريخياً وكيفية تكون المسائل حقاً وكيفية وجود الحلول التي أثارت مسائل اخرى . فصار لديهم من ثم اوضح فكرة صائبة عن علمهم وروحه وأسلوبه وسيره ومستقبله .

الا انهم بدأوا يواجهون صعوبة جديدة : فعلى غرار الفرنسيين اخذ العلماء يكتبون ، لا باللغة اللاتينية ، بل بلغتهم الام ، مع ان مؤلفات علمية كثيرة ما زالت توضع باللاتينية . فأشار دالمبير منذ منتصف القرن الى مساوىء الطريقة الجديدة : «ان الفيلسوف الذي يريد التعمق في درس مكتشفات سابقيه سيضطر الى تحميل ذاكرته سبع او ثماني لغات مختلفة ؛ وبعد ان يكرس لتعلمها اثمن وقت من حياته ، سيموت قبل ان يشرع في الدرس والتثقف » . وقد حار لافوازييه في امره حين اراد الرجوع الى مذكرات الكيميائي الانكليزي بريستلي : ولكن من حسن حظه ان امرأته تمكنت من ان تترجمها له . الا ان سواد العلماء ، حين لا يكتبون باللاتينية ، يستخدمون الفرنسية ، لغة اوروبا الشاملة . هذا ما فعله العلماء الآتون من بال ، علماء الرياضيات من عائلة برنولّي ، واولر الشهير ؛ وهذا ما فعله كذلك علماء اكاديمية برلين واكاديمية سان بطرسبورغ .

وجملة القول ان العلماء وجدوا ظروف عمل مرضية جداً نسبياً .

الفصل الثاني

الرياضيات

تحليل الكمية الصغرى

صدرت مؤلفات جمة كثيرة ، ولكن مبدأ جديداً وجوهرياً واحداً لم يكتشف . توسع علماء الرياضيات في تحليل الكمية الصغرى التي اكتشفها في القرن السابع عشر نيوتون وليبنيز اللذان استخدما اعمال ديكارت « وفرما » . ان الحساب الجديد الذي يظهر حالة قدر معين في برهة معينة ويبين في آن واحد كيف يتبدل في هذه البرهة قوة واتجاهاً ، قد اتاح لعلماء الفلك والطبيعيات درس الحركات الدائمة . وقد اقبل الناس على قراءة الطبعة الثالثة « المبادىء الرياضية الفلسفة الطبيعية » لنيوتون التي ظهرت في السنة ١٧٢٦ ، و « اسلوب المدود » لنيوتون ايضاً الذي وُضع في السنة ١٦٧١ ، وترجمه تلميذه كولسون وظهر في السنة ١٧٣٦ . ولكن نيوتون وليبنيز قد تركا حساب الكمية الصغرى ناقصاً جداً مخلفين فيه قضايا دونما برهان ، ومسائل عديدة دونما حل ، وعدداً من الايحاءات والمقترحات . فجاء خلفاؤهما يكملون ، ويوضحون ، ويثبتون .

انجز علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر اعمالا عملية في جوهرها : فان ما اتوه هو طرائق لحل المسائل التي طرحها علماء الآليات والفلك ، ولتفسير الوقائع التي يرفع النقاب عنها ملاحظة الفلك او الاجسام الارضية . وان المسائل التي عالجوها هي شكل شراع مستطيل قعرته الرياح ، و « وخط اسرع انحدار » بين خطين عموديين متعاقبين ، ورسم شعاع ضوئي يجتاز « طبقات مختلفة الثقل النوعي » ، وسبب الرياح ، وحركات السوائل ، والاوتار المترجرجة ، واشكال الارض ، وحركات القمر ، والترجيح والتأكيدات . فحسنوا من ثم الاداة الحسابية تحسيناً مدهشاً . في السنة ١٧٣٥ حل اولر ، في ثلاثة ايام ، بوسائله الخاصة ، مسألة فلكية كان عدد من مشاهير علماء الرياضيات قد طلبوا عدّة اشهر لحلها بوسائل قديمة . وفي القرن التاسع عشر ، استطاع « غوس » حلها ، بطرائق افضل اكتمالاً ، في ساعة واحدة . فصل علماء الرياضيات فصلا تاماً بين التحليل والهندسة . في الحقبة السابقة ، درجوا على حل المسائل المطروحة بشكل هندسي وعلى تحويل نتائج الحساب الى شكل هندسي . اما في القرن الثامن عشر فقد جعلوا من التحليل علما مستقلا ،

وبلغ من تدلل « لاغرانج » ، في النهاية ، انه لم يورد في كتابه «علم الآليات التحليلي » اي شكل واي رسم بياني .

تفوق البر الاوروبي والفرنسي

في الثلث الاخير من القرن السابع عشر ، كان كبار علماء الرياضيات انكليزا كنيوتون او ألمانا كليبنيز . وفي القرن الثامن عشر ، كانوا سويسريين وفرنسيين . اما السويسريون ، عائلة برنولي واولر (١٧٠٧ – ١٧٨٣) ، من بال ، فقد استهوتهم ، بالتفصيل ، المسائل الخاصة والاكتشافات الكبرى للحقائق الجزئية ، وكان اولر مخترعاً لا يعرف الكلل اوحى بأكثر الآراء الكبرى التي توسع فيها خلفاؤه . واما الفرنسيون ، كليرو (١٧١٣ – ١٧٦٥) ، ودالمبر ، ولاغرانج (١٧٣٦ – ١٨١٣) ، ولابلاس (١٧٤٩ – ١٨٢٧) ، فكانوا بالتفصيل عقولا تأليفية تكتشف الطرائق المجردة وتوجز في نتائج عامة تنوع الحالات الخاصة الكثيرة جداً . وقد شرحوا ونشروا ، بالاضافة الى ذلك ، مذهب نيوتون في نظام العالم وطبقوا الحساب الجديد على علمي الآليات والفلك وبنوا علم الآليات الفلكي . لقد مارست فرنسا نوعاً من الملكية الرياضية .

لعل الخطاط الانكليز النسبي يرد من جهة الى ان نيوتون قد خلّف طريقته الحسابية اقل اكتمالا من الطريقة التي خلّفها ليبنيز ؛ ومن جهة ثانية الى المشادة التي قامت بين الانكليز والالمان والسويسريين حول هذا السؤال الهام والعديم الفائدة : من هو المكتشف الحقيقي لحساب الكمية الصغرى ، ليبنيز ام نيوتون ؟ فقد حدّت المجادلة من تبادل الآراء بين علماء الرياضيات في البر الاوروبي وعلماء الرياضيات في انكلترا . اكتفى الانكليز باساليب نيوتون ، وحتى السنة ١٨٢٠ جهلوا الاكتشافات الهامة التي تحققت في البر الاوروبي . لا بل انهم تراجعوا الى الوراء . فبينما طبق « بروك تايلور » ، في السنة ١٧١٧ ، حساب الزيادات المتناهية في الكم ، واوضح نظريته الشهيرة ، استخدم « ماك لورين » في السنة ١٧٣١ ، في كتابه « بحث في المدود » او الكميات التي تتزايد بمد متواصل ، البراهين الهندسية لاضفاء صبغة الضبط والتدقيق على ما يقدم ، واوضح بعد ذلك بشكل هندسي النظرية القائلة بان حجما سائلاً يدور حول محور يتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل مجسم ناقص بفعل الدوران . فأعاد بذلك انتباه مواطنيه الى الهندسة وجعلهم يهملون التحليل . وهكذا عمل الانكليز في حجرة مقفلة إذا صح التعبير ، فخمد نشاطهم شيئاً فشيئاً .

اما في البر الاوروبي فكان وضع الفرنسيين ملائماً لتقبل الحساب الليبنيزي والحساب النيوتوني معاً . وكان من ازدهار الرياضيات ، بفضل اعمال ديكارت ، في اكاديمية العلوم في باريس وفي كلية فرنسا ، ان برزت هنالك عقول معدة خير إعداد لاستساغتها واستخلاص ما تنطوي عليه .

والهندسة الوصفية

على الرغم من المكانة الرفيعة التي احتلتْها التحليل ، اكتشف فرع جديد للهندسة هو الهندسة الوصفية . ويعود الفضل في ذلك الى الفرنسي « غاسبار مونج » (١٧٤٦ – ١٨١٨) . كان ابن حانوتي في بون *(Beaune)* ، لفت الانتباه اليه رسم وضعه للمدينة التي نشأ فيها ، وعين مساعداً فنياً في مدرسة الهندسة الملكية في « ميزيير » ، فاستغرب تعقد الوسائل المستخدمة لوضع مخططات التحصينات ورسومها الداخلية ، وطول الحسابات الضرورية. منذ السنة ١٧٦٦ ، حوّل الطرائق البيانية المختلفة التي يستخدمها المهندسون العسكريون والبناؤون ومهندسو العمارة والنجارون والفنانون الى تقنية عامة ذات نسق واحد مرتكزة الى البراهين الهندسية البسيطة والمدققة . فكان عمله هذا مولد الهندسة الوصفية . اعتمد قائد المدرسة الطريقة الجديدة بحرص كلي ، وفي السنة ١٧٦٨ عينه استاذاً للرياضيات ولكنه لم يسمح له بإشهار اكتشافه بسبب المنافسة القائمة بين المدارس العسكرية . الا انه انتشر بعض الانتشار بواسطة الضباط المتخرجين من المدرسة ، ولكنه لم ينشر مطبوعاً للمرة الاولى الا في السنه ١٧٩٥ .

علم الآليات العقلي

لقد دفع علماء التحليل بعلم الآليات العقلي الى الامام. كان جوهره قد اكتشف في اواخر القرن السابع عشر في اعقاب اعمال هويغنس الذي وضع اسس هذا العلم ، واعمال نيوتون الذي صاغ في « مبادئه » مجموعة كاملة من القضايا وحدد الشكل الذي بني عليه علم الآليات العقلي . ومنذ عهدهما حتى السنة ١٩٠٠ لم يوضع اي مبدأ جديد حقا . وما العمل الذي انجز بعدهما سوى توسع استنتاجي وصوري وحسابي في المبادىء النيوتونية . وقد لعب الفرنسيون الدور الاول في ذلك . فان دالمبير قد اوجز ونسّق ، في كتابه « بحث في علم القوى » ، الاكتشافات المحققة وردّها الى بعض الطرائق البسيطة ، ومنها النظرية المعروفة باسمه التي اعطت الوسائل العملية لاستخدام الاختبارات المعروفة والمدروسة . فكفى العلماء مؤونة التفكير بصدد كل حالة خاصة جديدة . وصاغ موبرتوي ، منذ السنة ١٧٤٤ ، مبدأ اقلّ كمية عمل . لاحظ ان النور « حين يجتاز اوساطاً مختلفة لا يسلك اقصر طريق ولا طريق اقصر وقت » ، فاقترح ان تعتبر الطريق التي يسلكها النور في انكسار اشعته وكأنها الطريق التي تكون كمية العمل فيها اقل كمية ممكنة . « ان كمية العمل هي حاصل ضرب حجم الاجسام بسرعتها وبالمسافة التي تجتازها » . ولكن عالم الطبيعة هذا كان منهمكا باعتبارات ميتافيزيقية . فهو قد كان راغباً في ان يجعل من هذا المبدأ ناموساً عاماً من نواميس الطبيعة ، يجوز تطبيقه على حركة الحيوانات ونمو النبات ودوران الكواكب . وقد ظن انه اذا ما اظهر كيف ان الكون يخضع لناموس واحد ، فهو انما يعطي فكرة سامية عن حكمة وعظمة الله تعالى ويقدم برهانا جديداً على وجود الله .

قام علماء الطبيعيات من بعده بتجريد مبدأه من كل صبغة ميتافيزيقية واعادته الى الحالة الموضوعية . فصاغه اولر في السنة ١٧٥١ على الشكل التالي : « حين يحدث تغير ما في الطبيعة ،

تكون كمية العمل الضرورية لهذا التغيير اصغر كمية ممكنة ». واوضحه واستخلص منه طريقة « الكبريات والصغريات » وطبقه على الحركة المدسية الشكل التي تخضع لها الاجسام الوازنة وعلى الحركات التي تحدثها قوة مركزية ، الخ . ولكنه ما زال ينظر الى اجسام منعزلة لا الى مجموع اجسام تخضع لنظام واحد ، وما زال يرى في المبدأ ناموساً شاملاً من نواميس الطبيعة . اما لاغرانج فقد ترك جانباً ، في « علم الآليات التحليلي » ، كل اعتبار ميتافيزيقي وحصر المبدأ في علم الآليات ، ولكنه طبقه على مجموع الاجسام الخاضعة لنظام واحد بفضل اداة رياضية جديدة ، هي حساب التغيرات . وقد نظر الى المبدأ لا كما الى مبدأ ميتافيزيقي بل كما الى « نتيجة بسيطة وعامة لنواميس علم الآليات » . فسيطرت على « علم الآليات » الروح الموضوعية . كما ان لاغرانج قد نشر « علم الآليات التحليلي » ، في السنة ١٧٨٨ ، خلواً من كل شكل هندسي . « لن يجد القارىء اي شكل في هذا المؤلف » (مقدمة) . استنتج كل علم الآليات من مبدأ السرعات الافتراضية بضبط ولباقة كاملين . فجاء عمله بناء تاماً لعلم الطبيعيات انطلاقاً من مبدأ مجرد واحد مع ما يستلزمه هذا العلم من صيغ تتوالى « وكأنها ابيات قصيدة علمية » . انه لعمل بطولي متقن ينطوي على أهمية نظرية عظمى يلسق ويوجز عمل قرن كامل ، ولكن خلوه من الاشكال لا يجعله سهل الاستخدام مهما كان رأي لاغرانج في ذلك .

« المهندس » وهكذا فان علم الرياضيات ، العلم الكامل في نوعه ، هو نموذج كافة العلوم ، والرياضيون ، او « المهندسون » كما دعوا آنذاك ، مثال العالم بالذات . وفيما يلي وصف الصورة التي كونها القرن عن المهندس كما يراها عالم الفلك « بايي » :

المهندس رجل يتولى اكتشاف الحقيقة ، وان بحثه هذا لبحث شاق ابداً في حقل العلوم كما في حقل الاخلاق على السواء . عمق نظر ، وسلامة حكم وخيال حاد ، تلك هي صفات المهندس : عمق نظر لرؤية كافة النتائج لمبدأ ما ؛ ... سلامة حكم ... للارتقاء من هذه النتائج المنفردة الى المبدأ الذي ترتبط به . ولكن ما يعطي هذا العمق ويصدر هذا الحكم هو الخيال الذي يفعل فعله داخل الاجسام . يرسم صورة كيانها الباطني ؛ ... يشرّح الشيء اذا صح التعبير ... وبعد ان يظهر الخيال كل شيء ، الصعوبات والوسائل ، يصبح بمكنة المهندس ان يسير الى الامام ؛ واذا هو انطلق من مبدأ لا مراء فيه يحمل الحل المقترح اكيداً ، اعترف له الناس بالعقل الرشيد ؛ واذا ما أرشد هذا المبدأ البسيط جداً الى اقصر الطرق ، كان المهندس لبقاً في فنه ؛ ويكون عبقرياً اخيراً اذا ما توصل الى حقيقة كبرى ومفيدة وغير داخلة في الحقائق المعروفة ...

كانت « الهندسة » الاعداد العقلي لكل من يرغب في ان يصبح « فيلسوفاً » . اما الروح الهندسية فهي روح كل هذا القرن الذي اشتهر بالاستنتاج والتعميم .

الفصل الثالث

علم الفلك

في حقل علم الفلك ، اكمل الفرنسيون اعمال نيوتن . وبنوا علم الآليات الفلكي وجعلوا من علم الفلك علماً كاملاً ، مثال علوم الطبيعة . واظهر تقدم علم الفلك الطريق التي يجب ان يسلكها كل علم . واعطى علماء الفلك خير امثلة عن البرهنة الاختبارية . وغدا علم الفلك كمدرسة في كافة الحالات التي تنطوي على الملاحظة والاختبار والبرهنة الاختبارية. فيجب من ثم ان لا نمر به مرور الكرام.

مر علم الفلك قبل القرن السادس عشر ، على غرار كل العلوم الاخرى ، في مرحلة طويلة من ملاحظة الظواهر وابتداع الافتراضات بغية تفسيرها واخضاعها للحساب . ثم جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر عهد اكتشاف النواميس التي تخضع لها الظواهر . كان كوبرنيك قد استدل بالظواهر على حركات الارض على نفسها وحول الشمس ؛ وكان كبلر قد اكتشف نواميس حركة السيارات . وكانت اخيراً ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، المرحلة الثالثة : الارتقاع من هذه النواميس الى المبدأ الذي يفسرها كلها ، وهذا ما كان نيوتن قد فعله بمبدأ الجاذبية الشاملة .

مسألة الجاذبية

ما زالت آراء نيوتن في اوائل القرن الثامن عشر بحاجة الى إثبات . في البدء حل نيوتن المسألة التالية: ما هي القوة المحركة المفترض تسلطها على السيارات اذا كانت هذه السيارات خاضعة لنواميس نيوتن ؟ وكان قد اجاب عن السؤال بان هذه القوة يجب ان تكون ، لكل سيارة ، موجهة نحو الشمس ونسبية لحجم السيارة ، وان تتغير بتناسب عكسي لمربع المسافة . ثم واصل تأملاته ، فتبادر لذهنه ان هذه الجاذبية ليست محصورة في تأثير الشمس في السيارات ، وان القوة نفسها تدير القمر حول الارض ، وتسقط الاجسام الوازنة على سطح كرتنا الارضية ، لا بل ان هذه القوة تجعل كل ذرة مادية تؤثر في كل ذرة مادية اخرى وانها متبادلة في كافة انحاء الكون . هذا هو مبدأ الجاذبية الشاملة .

لكنا توجب إثبات النظرية ورؤية ما اذا كانت الوقائع المعروفة تدخل حقاً في هذا المبدأ،

واذا ما كانت المعارف الجديدة الممكنة حول النظام الشمسي تدخل فيه . لقد اصطدم مبدأ نيوتون في الواقع باعتراضات نظرية كبرى . فقد بدا وكأن الجاذبية تفرض تأثيراً عبر المسافات لم يتوصل احد الى تصورموضوح. واتهم الكرتزيانيون نيوتون ببعث الخاصيات الخفية. اما نيوتون فكان يصرح انه يرى الظواهر رأي العين ويحسبها ويضع نواميسها ولا يريد ان يؤكد شيئاً بصدد طبيعة الجاذبية واسبابها . ولكن تلامذه كانوا يؤكدون بأن الجاذبية مردها تأثير حقيقي عبر المسافات وبانهاخاصية جوهرية من خاصيات المادة . فبدوا وكأنهم يرجعون القهقرى نحو الفلسفة المدرسية .وقد كتب ليبنيز في السنة ١٧١٥ ما يلي :

« ... الجسم لا يتحرك طبيعياً الا بجسم آخر يدفعه بالتصاقه به ؛ ويستمر في الحركة بعد ذلك الى ان يعيقه جسم آخر يتصل به . كل حركة أخرى في الجسم اما عجائبية واما خيالية.. بهذا تنهار الجاذبيات بالمعنى الحصري والتأثيرات الاخرى التي لا تفسرها طبائع المخلوقات والتي يجب اللجوء في تفسير حدوثها الى المعجزة او الى المحالات، اي الى الخاصيات الخفية التي تقول بها الفلسفة المدرسية والتي اخذ البعض يطلعون علينا بها تحت اسم القوة المموه ، ولكنهم يعيدوننا بذلك الى مملكة الظلمات »...

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وقائع كثيرة لم يحسن تفسيرها علمياً ؛ كمد البحر وجزره مثلاً : اجل لقد عزاها نيوتون الى جاذبية الارض والشمس ولكنه لم يضبط حساب قوتهما ولم يتتبع بالتفصيل نتائج الشمس والقمر ؛ افترض كوكباً دون حركة يرفع ويخفض المياه على كرة غير متحركة . فتعرض بذلك لتهمة التحكم ، وتهمة الابتعاد عن الوقائع وسد فراغ المعرفة بالالفاظ . وما زال على الجاذبية ان تفرض نفسها .

براهين الجاذبية

ان عمل امتحان النظرية قد تم بطريقتين : البحث عن وقائع جديدة قد تؤيد او تبطل الافتراض ، لا سيا قبل السنة ١٧٥٠ ؛ تفسير الوقائع بالتفصيل بحساب اجري وفاقاً للافتراض ، لا سيا في النصف الثاني من القرن .

سبق لنيوتون وهويغنس أن أعلنا قدرة كافة الكواكب على الجاذبية . فهل تسلط الارض ايضاً ، على كافة الاجسام ، جاذبية نسبية لحجم هذه الاجسام هي ثقل الاجسام في نظر البشر ؟ كان مفروضاً ان يتغير هذا الثقل وفاقاً لمكان وجود الجسم على سطح الارض : لما كانت الارض تدور حول محور وهي تمر بالقطبين ، كانت القوة المبعدة عن المركز كبيرة عند خط الاستواء خصوصاً ومتناقصة باتجاه القطب ؛ وكان مفروضاً ان تكون الاشياء اقل انجذاباً عند خط الاستواء ؛ كما كان مفروضاً أن تكون الارض قد ارتفعت عند خط الاستواء اكثر منها عند القطب ؛ فوجب من ثم أن لا تكون كرة كاملة بل مسطحة بعض التسطح عند القطب . كان نيوتون وهويغنس متفقي الرأي على هذه النقطة . ولكنهما اختلفا بعد ذلك : فقد عزا نيوتون هذه الجاذبية الى كافة اجزاء المادة ؛ وكانت ، في نظره ؛ شاملة حقاً ؛ وقد حسب ان التسطح

يجب ان يكون بنسبة ١ الى ٢٣٠ من محيط الدائرة . اما هويغنس فقد اعتبر ان الثقل قوة ترد الى الكرة ككل واحد ؛ وأنكر الصفة الشاملة الجاذبية ؛ فوجب من ثم ، في نظره ، ان يكون التسطح أقل بكثير مما توصل اليه نيوتون ، أي بنسبة ١ الى ٥٧٨ من محيط الدائرة فقط. ولمعرفة ما اذا كانت هذه القوة الجاذبة ، التي عزاها نيوتون الى الكواكب ، موجودة حقاً ، كان لزاماً معرفة ما اذا كانت الارض مسطحة عند القطبين ؛ ولتقديم الدليل على أن هذه القوة الجاذبة هي خاصية من خاصيات كافة الذرات المادية ، كان لزاماً تحديد النسبة .

مقاييس موبرتوي ولاكوندامين

بات ضرورياً ، لتحقيق هذه الغاية ، قياس درجة من درجات خط الطول ، بواسطة مسح الارض ، في أقرب مكان ممكن من القطب ومن خط الاستواء : فاذا لم يكن محيط الدائرة كاملاً ، أي اذا كان مسطحاً عند القطب ، يكون قوس الدرجة عند خط الاستواء أقصر منه عند القطب فبادرت أكاديمية العلوم في باريس الى البحث . أوفدت بعثتان في السنة ١٧٣٥ : احداهما الى البيرو ، مع لاكوندامين وبوغر ؛ والثانية الى أقصى خليج بوتنيا في لابونيا ، مع موبرتوي وكليرو . قاس هذان الاخيران الدرجة ٧٦ من العرض الشمالي ، ووجدا في السنة ١٧٣٦ ان طولها يبلغ ٥٧٤٣٨ « تواز » [التواز يساوي ٦ اقدام] ، أي انها زادت ٣٧٨ « تواز » عن الدرجة التي حددها بيكار بين باريس واميان عند الدرجة ٥٠ من العرض الشمالي . فكانت الارض من ثم مسطحة عند القطب كما سبق لنيوتون وهويغنس ان اعلنا ذلك . ولكن بضع مئات من « التوازات » ، بالنسبة لبضع عشرات الوف ، فرق زهيد جداً ؛ أو ليس هنالك تعرض للخطأ؟ كان موبرتوي قد تنبه للامر ؛ فافترض أنه اخطأ أبداً في مثلثاته بعشرين ثانية عند قياس الزاويتين الاولين ، وبأربعين ثانية عند قياس الزاوية الثالثة ؛ وان هذه الأخطاء تسير ابداً في اتجاه واحد وتؤول طبعاً الى انقاص القوس : فلا يكون الخطأ ، في هذه الحالات القصوى سوى ٥٤ « تواز » ونصفا . وهكذا لم يبق مجال لأي ريب . وقد تأيدت حسابات موبرتوي وكليرو ، بعد مرور ثماني سنوات ، بحسابات لاكوندامين وبوغر في كيتو . صرف هذان الاخيران وقتاً أطول لأن نوامي المنطقة الاستوائية أخرت عملها . قاسا الدرجة ٣ من العرض الشمالي متخذين كل الاحتياطات الممكنة بغية تحاشي الأخطاء الاتفاقية الناجمة عن تعب الملاحظ وشرود فكره ، أو عن الظروف الجوية السيئة . قيست قاعدة المثلث الأول ، التي تتوقف عليها كافة الحسابات اللاحقة ، بواسطة فريقين مختلفين قاما بهذا العمل كل على حدة . هذا « أحد أصح البراهين التي يمكن أن تخلف للأجيال الآتية » . وجدا أن قياس الدرجة هو ٥٦٧٧٥ « تواز » . ولكنهما قاما بالقياس في أرض مرتفعة فحدث كل شيء كما لو قاسا محيط دائرة أكبر . توجب من ثم رد القياس الى مستوى البحر فحصلا نهائياً على ٥٦٢٧٣ تواز للدرجة . كان نيوتون وهويغنس على حق بصدد النقطة الأولى : الأرض مسطحة عند القطبين ، والقوة المبعدة عن المركز تنقص الثقل عند خط الاستواء ؛ والثقل ليس احدى خاصيات الأجسام بل احدى ظواهر الجاذبية الارضية .

ولكن القياسات المجراة قد أثبتت ان التسطح يبلغ ١/١٧٨ من محيط الدائرة في القطب ، وهذا ما أيدته في فرنسا منذ السنة ١٧٤٠ قياسات خط الطول بين دنكرك وبربنيان باطالة الدرجات تدريجياً نحو الشمال . وما كانت القوة اللازمة لاحداث مثل هذا التسطح لتتأتى الا من جاذبية كافة أجزاء الارض: اذن الجاذبية شاملة : وقد أصاب نيوتون في رأيه ضد هويغنس.

ملاحظات بوغر ومسكلين

اثبت الفلكي بوغر ذلك باختبارات غاية في اللباقة على جاذبية الجبال . وقد جر الى درس هذه الاخيرة على حدة بينا كان يبحث عن حقيقة ما اذا كانت الجاذبية تتسلط بنسبة عكسية لمربع المسافات . سبق لبعضهم ان لاحظوا ان الساعات ذات الرقاص تتأخر تحت خط الاستواء : الثقل اقل ، والرقاص « يجتذب » بقوة أقل ، فحركته من ثم اقل سرعة . ولضبط الساعة ، وجب تقصير الرقاص ، وهذا ما يزيد سرعة ذبذباته . وقد وجد بوغر في كيتو على ارتفاع ١٤٦٦ تواز فوق مستوى البحر ، بالاضافة الى ذلك،انه يجب تقصير الرقاص١٠٠/٣٣ من الخط الذي كان يرسمه عند مستوى البحر . وظن ان هذا الواقع مرده اقترابه من الشمس التي تزداد جاذبيتها . وكي يكون على بينة من الأمر نقل الرقاص الى قمة جبل « بيشنشا » على ارتفاع ٩٦٨ تواز فوق كيتو . وهنا ايضاً وجب تقصير الرقاص١٠٠/١٩ .وكاد يكون هذا النقصان متناسباً عكساً لمربع المسافات بحسب ناموس نيوتون. ولكن لماذا كاد يكون فقط ؟ تبادر الى ذهن بوغر ان الثقل ، اذا كان ينقص بفعل الارتفاع ، اي بالاقتراب من الشمس ، انما يزداد بفعل الجبل ، اي بازدياد حجم الارض الذي يزيد جاذبيتها: فكأن الانسان ، في أعلى الجبال ، موجود على كرة كبرى ذات شعاع اكبر . والجبال بالتالي سبب من اسباب ازدياد الجاذبية .

ولكن ما تبادر الى ذهن بوغر لم يكن في هذه الحال سوى افتراض ، لا تعبيراً عن واقع . فبات اجراء الاختبارات امراً ضرورياً . ولكن كيف اجراؤها في علم الفلك حيث لا نستطيع في أغلب الاحيان ملامسة مواضيع المعرفة ، وحيث نعجز ابداً عن تحريكها ؟ يجب اذن عزل الظواهر بالفكر ، وهم علماء الفلك من حققوا اكمل نماذج البرهنة الاختبارية . فكر بوغر بعزل تأثير الجبل . وقد استخدم لهذه الغاية فادم ارباع الدائرة المستعملة لقياس علو الكواكب فوق الأفق . يبين الفادم الخط العمودي بين مركز الارض وسمت الراس . وهو عمودي لان الكرة المعدنية الصغيرة تجتذب نحو مركز الارض . اذا ما وضعت هذه الاداة بجانب جبل منيع وعال ، كان واجباً ان يجذب الجبل الفادم اليه ويحيده عن الخط العمودي. ولكن ما هو السبيل الى رؤية ذلك ؟

بوغر وحياد الجبال

اذا ما نظرنا الى كوكب بالمنظار المثبت في ربع الدائرة ، حددت الزاوية المتكونة من اتجاه المنظار والخط العمودي ، المسافة بالدرجات بين الكوكب وسمت الرأس . ولكن اذا اجتذب الجبل الفادم ، فان سمت الراس سيتزحزح من مكانه بالنسبة للمراقب . فالمراقبات التي تتناول كوكباً واحداً ، على خط عرض واحد ،

وبعيداً عن الجبـــل ، ستعطي من ثم زوايا مختلفة . اختار برغر جبل « شمبورازو » : لاحظ انتقال سمت الراس من مكانه ، ومن ثم حياد الفادم ، وانتهى الى القول بجاذبية الجبال . ولكنه بقي في لبس من الأمر : فالانتقال كان ضئيلاً جداً ، وربما كانت الريح العاصفة التي هبت اثنــاء المراقبتين سبباً لحياد الفادم. الا ان الاسكتلندي مسكلين قد اجلى كل ريب حول جاذبية الجبال بنتيجة ٣٣٧ مراقبة اجراها في اسكتلندا . وبما ان الجبال ، وهي صغيرة جـداً اذا ما قورنت بالكرة الارضية ، قادرة على الاجتذاب ، فليس ما يحول دون قدرة أصغر اجزاء المـــادة على هذا الاجتذاب . فاعتبر حسنو النوايا ان نيوتون كان على صواب . وارتأوا ان الجاذبية لا تدرك مع ان حقيقتها لا ريب فيها : يجب الاعتراف بواقعها دون فهمها . وقد استخدم كليرو كل هذه الاعمال ليبرهن ان شكل الارض شكل قطع اهليلجي تقريباً .

مراقبات « له مونيه »

تأيدت الجاذبية الشاملة بمراقبات « له مونيه » (١٧٤٦) . لقد سبق العلماء ولاحظوا ان هنالك بعض التباين في حركة زحل حين يقترب من المشتري كل عشرين سنة . فاذا كانت نظرية نيوتون صحيحة ، كان مرد التباين جاذبية المشتري. ولكن ما هو السبيل الى عزل هذه الجاذبية عن جاذبية الشمس ؟ توصل « له مونيه » الى ذلك بان درس ، بين المراقبات القديمة فقط ، تلك التي كان مفروضاً ان يتلقى زحل اثناءهـــا التأثير نفسه من الشمس حين يكون موجوداً في النقطة نفسها من مداره ، وعلى المسافة عينهـــا من الشمس ؛ فتبين له ان المشتري وحده ، في هذه الحـالات ، كان موجوداً في امكنة مختلفة وعلى مسافات مختلفة . ثم قام له مونيه نفسه بالمراقبة في الظروف نفسها . فوجد اختلافات مطابقة في حركة زحل المبطئة ، وهو تأثير لا يمكن ان يتأتى إلا من حجم المشتري . اما حركة المشتري فكانت على نقيض ذلك تزداد سرعة . فبرز واقع الجاذبية جلياً في جزء آخر من النظـــام الشمسي ، وانكمش المكان المتروك للشك . واكتشف العلماء اخيراً ان اقمار المشتري ترسم حوله قطعاً اهليلجيا وفاقاً لنواميس كبلر . فكان ذلك دليلاً على امــكان تطبيق هذه النواميس على النظام الشمسي كله ، ولما كانت الجـــاذبية مبدأ هذه النواميس ، فقد تأيدت بها تأيداً غير مباشر .

اذا لم نستطـع القول ان اختباراً بحصر المعنى قد اجري في جميـع هذه الاعمال ، اذ ان المراقب لا يحول ولا يغير بنفسه الظواهر الطبيعية ، فهذا لا يعني ان الطريقة الاختبارية لم تطبق تطبيقاً كاملاً : فعلى غرار ما يجري في الاختبار ، أثبتت النتائـــج المتخلصة من المراقبات بمراقبات تناولت وقائع عزل بعضها عن البعض الآخر بالحيلة .

إثبات الجاذبية بالحساب

وهكذا فان وقائع خاصة جديدة قد ايدت نظرية نيوتن . وقدم علمـــاء الرياضيات نوعاً آخر من البراهين باستخدام تحليل الكمية الصغرى . انطلقوا من المبدأ المشروح ، فاهتدوا بالاستنتاج الى كل نتائجـــه ، وكل المراقبات المجراة ، واظهروا تسلسل الوقائع وتنبأوا تنبؤات تحققت .

باستطاعتنا شرح طرائقهم على الوجه التالي : لنفترض جرماً قذفته في الفضاء قوة دفعها متساو ودائم ؛ سرعته معروفة واتجاهه محدد ؛ ما هي الطريق التي سيسلكها ، وما هو الخط المنحني الذي سيرسمه اذا كان ، كما يقول نيوتون ، مجتذباً حقاً وباستمرار الى مركز جرم آخر موجود على مسافة معينة بقوة متناسبة عكساً لمربع المسافات ؟ هذه هي مسألة الجسمين . في وقت قصير جداً ، تميل « قوة الدفع » الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً ؛ وتميل قوة الجاذبية الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً آخر في اتجاه مختلف . يؤلف هذان الخطان الصغيران زاوية ويشكلان ضلعين من مسطح متوازي الاضلاع : ان الجرم يتتبع خط زاويتها في خضوعه للقوتين معاً ، وخط الزاوية هذا هو طريقه في هذا الوقت ، وجزء من المنحني الذي سيرسمه . وباستطاعتنا ان نرى كذلك طريقه في الهنيهة التالية ، وهكذا دواليك . خط الزاوية تفاضلي ، وبمقدورنا الارتقاء بواسطة حساب التكامل الى كميتها الكاملة المحدودة التي هي معادلة المنحني . ولا يمكن ان يكون هذا الاخير سوى قطع اهليلجي او دائرة او قطع زائد او قطع مكافىء .

اما مسألة الاجسام الثلاثة فأكثر تعقداً . لنفترض ثلاثة أجسام معينة بمواقعها واحجامها وسرعاتها ؛ ما هي الخطوط المنحنية التي سترسمها بجاذبيتها المتناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربعات المسافات ؟ يقدم لنا نموذج هذه المسائل القمر الذي تجتذبه الارض وتحيده الشمس ، والذي يغادر في كل هنيهة القطع الاهليلجي الذي يرسمه . اقتضى اجراء سلسلة من المقاربات : حساب قطع القمر الاهليلجي كما لو كانت الشمس دون اي تأثير ، ثم حساب تأثير الشمس بحسب مكانها في كل هنيهة ؛ وهكذا توصل العلماء بحسابات طويلة وشاقة الى تحديد موقع القمر في كل هنيهة في الفلك .

ان كل ما اجري قد أيد نظرية نيوتون تأييداً كاملاً . اتفق الحساب والمراقبة ؛ اجري الحساب وحده فوضع الاجرام حيث وجدتها المراقبة بحسب الاوقات ، وعين المكان الذي وجدتها فيه المراقبة ؛ ودلّ على كافة الحركات ، حتى اصغرها ، واظهر كيف انها تنجم عن موقع الاجسام في الهنيهة السابقة ؛ وفسر بالنتيجة كل شيء . وهكذا فان اولر وماك لورين ردانيال برنوليّ قد فسروا بمبدأ الجاذبية حركة مد البحر وجزره ، وهو الموضوع الذي اقترحته اكاديمية العلوم في باريس ؛ وقد اخذوا بعين الاعتبار سير القمر والشمس ، والارض التي تدور حول نفسها ، وهذا ما يبعد الذرات المائية ، كما اخذوا بعين الاعتبار التأثير الذي يرفعها واحتكاك الماء بالقعر والشواطىء ، ففسّر كل شيء .

نظرية السيارات والاقمار
ثبات النظام الشمسي

احرز كليرو ، في السنة ١٧٥٢ ، جائزة اكاديمية سان بطرس برج ببيان حول « نظرية القمر » ، المسألة التي اهملها نيوتون والتي وجد هو لها حلاً يكاد يكون كاملاً . وفي السنة ١٧٦٤ فسر لاغرانج السبب الذي من اجله يدير القمر ابدا الوجه نفسه نحو الارض ، ثم طلع بنظرية

اقمار المشتري فحل مسألة الاجسام الستة . وفي السنة ١٧٤٨ والسنة ١٧٥٢ احرز اولر جائزة اكاديمية العلوم في باريس باثباته اعمال له مونبيه حسابيا وبتقديمه الدليل على ان التباين في حركة زحل والمشتري مرده جاذبيتهما المتبادلة ؛ وبرهن حقيقة ظنّ طلع به جاك كاسيني يُرد بموجبه التباين الى مكان المدارات الخاص ، وتكون الظواهر متناقضة في سنوات عدة ، وهكذا فانه سار في طريق اثبات دوام النظام الشمسي ، ولكنه ترك هذا الجهد للابلاس . لقد ارتاب نيوتون واولر نفسه ، ان تستطيع قوى النظام الشمسي الكثيرة عددا والمتغيرة اوضاعاً والمختلفة قوة المحافظة باستمرار على اتزان ثابت . وقد ظن نيوتون بأن يدأ قوية انما تتدخل بين وقت وآخر لاعادة الاجسام الحائدة بفعل تأثيرها المتبادل الى مواقعها الخاصة . وكان ذلك في نظره اثباتاً لضرورة وجود الله . ولكن المراقبة اظهرت ان معدل سرعة كل من القمر والمشتري يزداد وان معدل سرعة زحل يتدنى . وبدا وكأن زحل سيخرج من النظام الشمسي والمشتري سيهبط على الشمس والقمر على الارض . فبرهن لابلاس في السنة ١٧٧٣ ان حركات السيارات ومعدل المسافات بينها ثابتة او عرضة لتغيرات دورية صغرى فقط . ثم برهن ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٧٨٧ ، ان التغيرات انما هي اختلالات دورية تخضع لناموس الجاذبية . فكان النظام الشمسي من ثم ثابتاً وخاضعاً بكليته لمبدأ الجاذبية الشاملة . ولا فائدة من ثم من وجود الله : فلم يعد لابلاس بحاجة الى هذا الافتراض .

المذنبات بعد ان اوضح إثبات للمبدأ ولقيمة الحساب ، قدمه كليرو في السنة ١٧٥٩ في موضوع مذنب « هالي » الكبير الحجم . فعلى الرغم من اعمال هالي ونيوتون، ما زال الشك مخيماً حول ما اذا كانت المذنبات تظهر حقاً بعد فترات متساوية ، وما اذا كانت حركتها دورية حول الشمس ، وما اذا كانت هذه الحركة ثابتة ومنتظمة ثبوت وانتظام حركة السيارات . ظهرت بعض المذنبات في السنة ١٧٢٩ ، والسنة ١٧٤٢ ، والسنة ١٧٤٤ ، والسنة ١٧٤٧ ، والسنة ١٧٤٨ . بالاستناد الى سرعتها واتجاهها ، حين كانت مائلة للعيان ، توصل علماء الرياضيات الى حساب مداراتها ووجدوا انها قطع مكافىء . فاذا كانت المذنبات تعود ثانية ، فمعنى ذلك ان هذا القطع المكافىء هو جزء من قطع اهليلجي كبير جداً. ولكن هالي كان قد انبأ بعودة مذنب السنة ١٦٨٢ بعد مرور ست وسبعين سنة . وكان قد عاد من قبل بعد فترات ٧٦ سنة و ٦٢ يوماً و ٧٦ سنة و ٤٢ يوماً . بالاستناد الى المراقبات التي تناولت هذا المذنب في السنة ١٥٣١ والسنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٨٢ ، حسب كليرو عودته آخذاً بعين الاعتبار تأثير المشتري وزحل على سيره وانبأ بانه سيبلغ هذه المرة اقرب مسافة الى الشمس بعد مرور ٧٦ سنة و ٢١١ يوماً اي في ١٣ نيسان من السنة ١٧٥٩ . الا انه اضاف انه قد يكون اخطأ بشهر . وفي الواقع كان المذنب منظوراً منذ اواخر كانون الاول من السنة ١٧٥٨ ، وقد شوهد في باريس منذ ٢١ كانون الثاني من السنة ١٧٥٩ .

وبلغ اقرب مسافة الى الشمس في ١٣ آذار من السنة ١٧٥٩ . فأثارت دقة الحساب اعجاب العالم وثقته . وراقب المذنب كافة علماء الفلك وحسبوا عناصره ووجدوها متشابهة كل التشابه بعناصره في ظهوراته السابقة . فكان ذلك برهاناً على ان المذنبات ، على غرار السيارات ، ترسم قطعاً اهليلجيا تحتل الشمس احد محترقيه ، وذلك وفاقاً لنواميس كبلر . كما كان برهانا على ان المذنبات ايضاً تخضع لمبدأ الجاذبية الشاملة . وقد احرز كليرو جائزة سان بطرسبورغ الامبراطورية في السنة ١٧٦٢ بعرضه نظرية المذنبات .

الا ان المذنبات ما فتئت تثير مخاوف الرأي العام . ففي السنة ١٧٧٣ تكلم «لالاند» في اكاديمية العلوم عن امكان حدوث مدّ عظيم بسبب مرور مذنب على مقربة من الارض قد يكون من شأنه غمر اليابسة . انتشر افتراض لالاند في باريس ، وما لبث ان تشوّه بانتقاله من شخص الى آخر فامسى نبوءة بوقوع الارض في المذنب: لا بل حُدد يوم هذا الوقوع بالذات . غير ان « دي‌سيجور » قد بين ان احتمال هذا الوقوع ضئيل جداً اذ ان المذنب الذي بلغ اقرب نقطة الى الارض قد بقي على مسافة ٧٥٠٠٠٠ فرسخ ؛ وان المد مستحيل حدوثه اذ ان المذنب الذي يقارب حتى مسافة ١٣٠٠٠ فرسخ من الارض لن يبقى على مقربة كافية من الارض تمكنه التأثير في البحار سوى ساعتين ونصف الساعة بينما يقتضي للمذنب عشر ساعات و ٥٢ دقيقة حتى يحدث المد وتغمر المياه الارض . كان البرهان قاطعاً : لا تنطوي المذنبات على اي خطر .

وهكذا فقد قدم الحساب ، او « الهندسة » كما درج القول حينذاك ، اثباتات ساطعة لآراء نيوتون . اجل لقد كان بالامكان الاستغناء عن التحليل : فلو اجريت الوف المراقبات لانتهت كلها الى تقديم الدليل على ان نواميس نيوتون تتحقق ابداً . ولكن علم الفلك كان في طريقه لان يمسي علماً استنتاجياً ؛ لقد بلغ كماله ، وفي اواخر القرن ، استطاع الفلكي بايّي كتابة ما يلي : « ان هذين العلمين [الهندسة وعلم الفلك] يتماسان اليوم تماماً يجعلهما يبدوان وكأنهما مختلطين » .

وسائل جديدة للمراقبة

بينما كان المختبرون و « المهندسون » يستثبتون الافتراضات ، واصل المراقبون عمل الوصف وتوسع الكون توسعاً مدهشاً . وقد سهلت المراقبات سلسلة من النجاحات التقنية التي ولدتها حاجات المراقبين . حدد بوغر ولاكاي انحراف الهواء في حالات الارتفاع والضغط والحرارة المختلفة ، فبات ممكناً والحالة هذه ان يؤخذ بعين الاعتبار حياد الاشعة الضوئية ، الصادرة عن الكواكب ، اثناء مرورها عبر الجو ، الذي يرينا الكواكب في مواقع غير مواقعها الحقيقية . وفي السنة ١٧٤٩ ، أضاف « كلود باسّمان » الى المناظير حركة اشبه بحركة الساعات اتاحت منذئذ تتبع الكواكب بدقة في انتقالها. ولكن اهم التحسينات هي تلك التي ادخلت على المناظير والمَراقب نفسها. ففي المناظير حيث تجتاز الاشعة الضوئية العدسات الزجاجية لتصل الى عين المراقب ، يعطي الزجاج نتائج

الموشور ، وتتلون الصور وتصبح غير واضحة ، ولذلك اقترح غريغوري ونيوتون المرقب حيث تعكس مرآة كروية الاشعة الضوئية . وفي السنة ١٧٤٧ خطر لأولر ان يصنع مكبرات المراقب من عدستين زجاجيتين بوضع بعض الماء بينهما : فكان على الاشعة الضوئية والحالة هذه ان تمر في مواد مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة تحلل الاشعة وتفصل بين الألوان تحليلاً وفصلاً مختلفين ؛ وقد استطاع العلماء ان يظهروا المضادة بين هـــذه النتائج وينقضوا نتيجة باخرى ويعيدوا الى الشعاع الملون هذا المزيج المضبوط الذي يكون بياض النور. ولكن استخدام الماء لم يكن سهلاً. في السنة ١٧٥٨ توفق عـــالم البصريات الانكليزي « دولوند » الى ان يكتشف ، بعد تردد ، زجاجات مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة ايضاً ، واستطـــاع ان يصنع مناظير تنفذ النور الابيض دون تحليله وتبلغ خمس اقدام طولاً وتعطي النتيجة نفسها التي تعطيهـا المناظير العادية البالغة اثني عشرة قدماً طولاً . وصنع ابنه مناظير تبلغ ثلاث اقدام طولاً وتعطي نتيجة منظار مصنوع بحسب المبادىء القديمة يبلغ ١٥ قدماً. فضلت المنـاظير المراقب فترة من الزمن. ولكنها استلزمت زجاجاً يدخل الرصاص في تركيبه ولم يرافق النجاح الكامل صنعه الا اتفاقـاً . لذلك عاد الانكليزي « وليم هرشل » وروّج المراقب . كانت هذه الاخيرة تعطي صوراً غير واضحة بسبب التفاوت في الانحناء ؛ وهذا ما يعرف بزيغان الكروية . حـــاول هرشل اعطاء المرايا العاكسة اشكال قطع مكافىء وقطع زائد ؛ فأقصى بذلـــك زيغان الكروية . في السنة ١٧٨٩ كان لديه مرقب يبلغ ١٢ مترا طولاً و ١،٤٧ قطراً حقق بواسطته اكتشافات روجت المراقب مرة أخرى .

الاكتشافات

ساعدت تحسينات الأجهزة على مواصـــلة استكشاف الفلك . ففي السنة ١٧٥١ ، حدد لاكاي، في رأس الرجاء الصالح ، مواقع كافة النجوم المنظورة بين القطب الجنوبي وخط الجدي ووضع جدولاً بعشرة آلاف نجم . وفي السنة ١٧٨١ اكتشف هرشل السيارة اورانوس ؛ كما اكتشف في السنة ١٧٨٩ قمري زحل السادس والسابع ؛ ولاحظ أن نجوماً ضعيفة الضوء كثيرة تحتوي على نواة لامعة وان بعضها يؤلف مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم .

اخذت تبرز امكانية وجود عوالم اخرى مأهولة . واعتقد مرصدا لندن وباريس باكتشاف جو يحيط بالقمر . فان كسوف الشمس في اول نيسان من السنة ١٧٦٤ قد بـــدا وكأنه يظهر انحرافا في الأشعة الشمسية لا يمكن ان يرد الا الى جو" ، لان الشعاع يأتي من الشمس بسرعة فائقة تجعله ينجو من « جاذبية » (كذا) القمر . وكان الحياد ضعيفاً : اذن الجو ليس كثيفاً . وحملت مراقبات أخرى على الاعتقاد بوجود جو" حول المريخ والزهرة وعطارد .

ارتدت السيارات والنجوم ارتداداً مدوماً الى الوراء في كون كان يتسع اتساعاً مطرداً. في السنة ١٧٥١ حدد لاكاي بعد القمر بـ ٨٥٤٦٤ فرسخاً . وأتاحت مراقبات دولية مشتركة أجريت في

السنة ١٧٦١ والسنة ١٧٦٩ تحديد بعد الشمس عن الارض بـ ٣٥ مليون فرسخ تقريباً وتحديد أبعادها بـ ١٤٠٠٠٠٠ ضعف أبعاد الارض . ولاحظ « برادلي » ان الزاوية المتكونة من الخط المستقيم الذي يصل عين المراقب بأحد النجوم والخط المستقيم الذي يصل مركز الارض بهذا النجم لا تعادل ثانية واحدة من القوس . ولا يلزم للقمر ثانية واحدة لكسف النجوم التي يصادفها . لذلك فان قطر هذه النجوم لا يحتل مسافة نصف ثانية في الفلك . وهذا يفرض ان النجوم أبعد من الشمس في الفلك بـ ٢٠٦٠٠٠ مرة ؛ ولكن اذا ما ابعدت الشمس الى مسافة توازي ٢٠٦٠٠٠ ضعف مسافتها لغدا اتساعها ٢٠٦٠٠٠ مرة اقل مما يبدو ولغدا قطرها مساوياً لـ ١/١٠٧ من الثانية . اذن النجوم أكبر من الشمس وتحتل مكاناً بعيداً خارج النظام الشمسي.

تاليف لابلاس

وهكذا ، على الرغم مما تبقى من جهالات واخطاء ، توفرت الظروف الضرورية لكي يستطيع الانسان محاولة تصور نظام الكون ، وهذا ما حاوله لابلاس في كتابه « عرض نظام العالم » الذي تعود طبعته الاولى الى السنة ١٧٩٦ ، والذي هو كتاب حجة جمع وأوجز ورتب ونسق ، بتدقيق كلي ، كافة المعارف المحققة وتخطاها بانتفاع غنية إله خالق ، وقصيدة تثير الاعجاب وتشترك في ثمل كبار الأنبياء المقدس ، وان اوغست كونت مدين له بالكثير مما كتب : فان قسماً كبيراً من « الفلسفة الموضوعية » موجود في لابلاس .

يبحث على التوالي ، في خمسة كتب ، في الحركات الظاهرة للاجرام السماوية ، والحركات الحقيقية للاجرام السماوية ، ونواميس الحركة ، ونظرية الجاذبية الشاملة ، وتاريخ علم الفلك . فهدفه فلسفي ويتخطى مجرد بيان المعارف . يرغب في اظهار سير علم الفلك ، « ... الطريق التي سلكها هذا العلم في نجاحاته والتي يجب ان تسلكها العلوم الطبيعية الأخرى على غراره... » ؛ وصف الظواهر اولاً ، ثم استعادة ما يحدث في الواقع ، ثم اكتشاف العلائق الشاملة واللازمة بين الظواهر ، اي النواميس ، واخيراً ادراك المبدأ العام الذي يستطيع العقل أن يرد اليه كافة النواميس ويجعل منه نقطة انطلاق للبناء ثانية بواسطة الاستدلال .

وهو يشدّد الكلام على ركانة النتائج :

« لقد اصبح علم الفلك والحالة هذه حلا لمسألة كبرى في علم الآليات ... ان لديه اليقين الذي يستند الى عدد وتنوع الظواهر المشروحة بكل تدقيق ، والى بساطة المبدأ الذي يكفي وحده لهذه الشروح . فلا خوف من أن يناقض كوكب جديد هذا المبدأ ، بل يمكن بعكس ذلك الجزم سلفاً بأن حركته ستكون مطابقة له » .

ويبين واقع الحال :

« هذا هو ، بدون ريب ، تكوين النظام الشمسي . ان كرة الشمس الضخمة ، المركز الرئيسي لحركات هذا النظام المختلفة ، تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً ونصف اليوم ؛

مساحتها مغطاة بخضم من مادة مضيئة ، وفي ما وراءها تتحرك السيارات وأقمارها في مداوات تكاد تكون مستديرة وعلى مستويات قليلة الانحدار بالنسبة لخط الاستواء الشمسي . وهنالك مذنبات لا يحصى لها عد تقترب من الشمس ثم تبتعد عنها الى مسافات تقدم الدليل على أن سلطانها يمتد الى أبعد من الحدود المعروفة لنظام السيارات . لا يؤثر هذا الكوكب بجاذبيته في كافة هذه الاجرام بارغامها على الدوران حوله فحسب ، بل يوزع عليها نوره وحرارته . تأثيره الخيّر يساعد على ولادة الحيوانات ونمو النباتات التي تغطي وجه الارض ، وتحملنا المماثلة على الاعتقاد بأنه يعطي نتائج مشابهة في السيارات ، فطبيعي لعمري أن نفكر بأن المادة ، التي نرى إخصابها يتكاثر تكاثراً كبيراً متنوعاً ، ليست عقيمة في سيارة بضخامة المشتري لها ، على غرار الارض ، لياليها ونهاراتها وسنواتها ، وتحدث فيها ، كما تشير الى ذلك المراقبات ، تغييرات تفرض قوى ناشطة جداً . ان الانسان ، وهو من توافق تكوينه الحرارة التي ينعم بها على الارض ، قد لا يستطيع ، في الارجح ، العيش على السيارات الأخرى ؛ ولكن أليس مفروضاً أن يكون هنالك تعضيات كثيرة جداً توافق تكوينها الحرارات المختلفة في أجرام هذا الكون ؟ اذا كان اختلاف العناصر والاقاليم يكفي وحده لاحداث مثل هذا التنوع في المحاصيل الارضية ، فكم بالاحرى يفرض ان تختلف محاصيل السيارات الكثيرة وأقمارها ؟ ان المخيلة لأعجز من أن تكون أية فكرة عنها ، ولكن وجودها ، في أقل تقدير ، قريب الى المعقول ... »

ثم يبين رحابة الكون ووحدة تركيبه ويرتفع الى فكرة التطور . في ما وراء الشمس. توجد شموس لا يحصى لها عد هي النجوم ؛ يخضع بعضها ، في لونها ونورها ، لتغييرات دورية تشير ، على سطحها ، كما على سطح الشمس ، الى بقع كبرى تظهرها وتخفيها حركات الدوران. وهنالك نجوم اخرى ظهرت واختفت ، بعد ان لمعت لمعاناً ساطعاً أتاح رؤيتها في وضح النهار . بعد ان كان لونها ابيض ناصعاً ، في البدء ، على غرار المشتري ، غدا اصفر ضارباً الى الحمرة ، ثم ابيض رصاصياً ، على غرار زحل ، ثم اختفت عن الانظار ، ولكنها لا تزال موجودة .

تؤلف هذه النجوم فئات عدة . تبدو شمسنا واكثر النجوم لمعاناً مجتمعة في احدى هذه الفئات التي تظهر وكأنها تحيط بالفلك وتكون المجرة. ولكن المجرّة قد تظهر لمراقب يبتعد عنها الى ما لا نهاية له وكأنها نور ابيض متصل ذو قطر صغير ، اذ ان انتشار الاشعة الذي لا يضمحل في احسن المراقب ، سيملأ المسافات التي تفصل بين النجوم . لمن المحتمل جداً والحالة هذه ان يكون بعض النجوم الضعيفة الضوء مجموعات تضمّ عدداً كبيراً جداً من النجوم قد تبدو ، اذا ما نظر اليها من داخلها ، شبيهة بالمجرّة .

وفاذا ما فكرنا الآن بهذا العدد الضخم من النجوم والنجوم الضعيفة الضوء المنتشرة في الفضاء السماوي ، وبالمسافات الشاسعة التي تفصل بينها ، فان المخيلة التي ستدهشها عظمة الكون ، ستجد صعوبة في ان تتصور له حدوداً » .

تبدو النجوم الضعيفة الضوء وكأنها تتكاثف . راقب هرشل الشهير التكاثف في نجوم

ضعيفة الضوء كثيرة «كما يراقب المرء ، في حرج واسع الاطراف ، نمو الاشجار في كل نوع من الانواع يشتمل عليها » . بعضها مجرد مادة غائمة ضعيفة الضوء ، وبعضها على شيء من التكاثف حول نواة باهتة اللمعان ؛ وبعضها الآخر ذو نواة اكثر لمعاناً ؛ وهنالك نجوم ضعيفة الضوء كثيرة الاجزاء مؤلفة من نويات لامعة متقاربة جداً ، يحيط بكل منها جو من مادة غائمة ضعيفة الضوء ؛ وهنالك اخيراً مجموعات النجوم . وهكذا ينتهي المرء ، بواسطة تزايد تكاثف المادة الغائمة الى الشمس التي كان يحيط بها من قبل جو مترامي الاطراف ، « وهذا اعتبار توصلت اليه بدرس ظواهر النظام الشمسي ... ان التوصل الى مثل هذه النتيجة التي تلفت الانتباه ، بسلوك طرق مختلفة ، يجعل من مرور الشمس في هذه الحالة امراً محتملاً جداً » .

وفي احد بياناته ، عرض لابلاس « بالتحفظ الذي يجب ان يوحيه كل ما ليس نتيجة المراقبة والحساب » افتراضه الشهير حول اصل وتطور النظام الشمسي الناشيء عن نجم غائم ضعيف الضوء قديم العهد تكاثف شيئاً فشيئاً . يغلب على الظن ان المادة الغائمة الضعيفة الضوء تكاثفت في مركزها بحيث كوّنت نواة . كلما تزايد التكاثف تزايدت سرعة الدوران . ويغلب على الظن كذلك ان التفاوت بين التكاثف والسرعة قد عزل عن النواة المركزية عدّة حلقات مشتركة المركز ، وان التكاثف قد تزايد تزايداً متفاوتاً في كل من هذه الحلقات ، التي تقسمت في الارجح اجراماً هي السيارات . فجاءت هذه النظرية تحل ، محل الرأي القائل بحالة الكواكب المستقرة الدائمة ، الرأي القائل بحدوث تغير في الزمان ، وتحول كائن الى آخر ، وتدخل نوعاً من النشوء والارتقاء الى علم الفلك .

وينتهي لابلاس بهذا النشيد :

« ان علم الفلك ، بعظمة موضوعه وكمال نظرياته ، اجمل بدائع العقل البشري وأشرف عناوين إدراكه . تضلّل الانسان زمناً طويلاً بأوهام الحواس والأنانية فنظر الى نفسه كما الى مركز حركة الكواكب ، وقد نال عقاب صلفه الباطل بالمخاوف التي اوحتها اليه . واخيراً انتهت اعمال قرون طويلة الى اسقاط الستار الذي كان يحجب نظام العالم عن عينيه . فاكتشف حينذاك انه على سيارة صغيرة جداً في النظام الشمسي الذي ليست رحابته الواسعة الارجاء سوى نقطة لا تذكر في اتساع الفضاء غير المحدود . الا ان النتائج السامية التي حمله اليها هذا الاكتشاف من شأنها ان تعزيه عن المرتبة التي يعينها للارض باظهاره عظمته الشخصية في صغر القاعدة التي استخدمها لقياس السماوات . فلنحفظ بعناية ولننم وديعة هذه المعارف السامية التي هي نعيم الكائنات المفكرة . لقد أدت خدمات هامة للملاحة والجغرافية ؛ ولكن خدمتها الجلّى انها بددت المخاوف الناجمة عن الظواهر السماوية وقضت على الاخطاء الناجمة عن جهلنا حقيقة علاقتنا بالطبيعة ، وهي اخطاء ومخاوف قد تتجدد بسرعة اذا ما انطفأ مشعل العلوم » .

الفصل الرابع

علم الطبيعة

كانت نجاحات علم الطبيعة صاعقة في السنوات الثمانين الأولى من القرن السابع عشر . اما في القرن الثامن عشر فكانت النتائج أقل لمعاناً، ومع ذلك فقد تحققت اكتشافات جبيلة في حقلي الحرارة والكهرباء . ولكن الوقت اضيع في النظريات حول طبيعة الظواهر .

حاول ديكارت معرفة طبيعة النور ، فتبنى طريقة التموج : افترض ان الاجسام المضيئة تشرك في تموجات اجزائها الصغرى سائلا متمططاً غاية في الرقة منتشراً في الفضاء ؛ يأخذ هذا السائل بالارتجاج فينجم النور عن ارتجاجه كما ينجم الصوت عن ارتجاجات الهواء . فكان النور من ثم انطباعاً تحدثه في حواسنا احدى حركات المادة، أي حالة خاصة من حالات الحركة. أما نيوتون فقد اعتبر ، بعد تردد طويل ، ان الوقائع توحي بالتفضيل طريقة البث : النور مركب من ذرات مضيئة تقذف بها اجسام ترسل النور حتى اعيننا : فليس النور حالة من حالات الحركة بل جسماً خاصاً . فرضت هذه النظرية نفسها على القرن الثامن عشر بأسره ، باستثناء اولر الذي استمر في تفسير اختلاف الالوان باختلاف ديمومة الارتجاجات . وقد حملت المعاصرين على النظر بالمماثلة الى الحرارة والكهرباء نظرهم الى اجسام ، لا الى حركات مختلفة لمادة منتشرة واحدة . فكان ذلك تقهقراً بالنسبة الى القرن السابع عشر .

المحرّ استطاع درس الحرارة احراز التقدم بفضل أداة قياس دقيقة ثابتة حساسة لم تتوفر من قبل : هي الحر الذي جاء نتيجة جهود بذلها علماء ينتمون الى بلدان مختلفة أدخلوا عليه تحسينات متوالية .

اهتدى الى مبدأ الحر « فاهرنهيت » الدانتزيغي ، صانع الادوات المختصة بالحوادث الجوية. في السنة ١٧٢٤، اكتشف أن لكل سائل نقطة بخار ثابتة تتغير بتأثير الضغط الجوي. فاستطاع من ثم ان يستخدم للقياسات سائلاً تبلغ نقطة بخاره حرارة أعلى من حرارة الماء : وان يتخذ كحرارة أصلية حرارة بخار الماء الغالي تحت ضغط جوي طبيعي عند مستوى البحر ، أي ٧٦ سم من الزئبق . بقي عليه تعيين الجسم الذي يعطي ابدا الحرارة الدنيا نفسها والتثبت من أن الجسم المختار يتمدد أو يتقلص ، بين النقطتين المقابلتين للحرارتين القصويين ، تمدداً وتقلصاً

مستمرين ومتناسبين تقريباً لتبدلات الحرارة . وبعد تردد اعتمد الزئبق أو الكحول سائلاً ، وعين الصفر بحرارة مزيج من النشادر والجليد والمـــاء ، والدرجة ٢١٢ في بخار الماء الغالي . ولكن المزيج وتعيين الدرجات كانا صعبي التحقيق ، كما ان استخدام الدرجات لم يكن بالأمر السهل .

اما عالم الطبيعة الفرنسي ريومور فقـــد استخدم لتعيين الصفر ، في السنة ١٧٣٠ ، الجليد الذائب ، واعتمد سائلاً كحولاً ممزوجاً بثلث مقداره ماء يتمطط تمططاً أكثر ويعطي دلالات أوضح ، وقسم الدرجات الى ثمانين لأن السائل الذي اعتمده يتمطط من ١٠٠٠ الى ١٠٨٠ بين حرارة الجليد الذائب وحرارة بخار الماء الغالي ، وهي درجات أسهل تعييناً على أنبوب. ولكن صنع الحر ما زال معقداً . ولم يتوصل ريومور قط الى صنع أدوات متشابهة الدلالات .

وارتأى « دي كرست » الجنيفي ، في السنة ١٧٤٠ ، اعتماد الدرجات المئوية ، ولكنه اخطأ بتعيين الصفر بحرارة اقبية مرصد باريس ، اذ ان ذلك جعل صنع الحر مستحيلاً في غير مكان او ارغم على اجراء حسابات للمقارنة بين الملاحظات .

وفي السنة ١٧٤٢ ، جمع سلسيوس استاذ علم الفلك في اوبسالا من اعمال اسوج بين اكثر الطرائق سهولة ، اي الجليد الذائب والتقسيم الى ١٠٠ درجة . ولكنه عين الصفر بحرارة بخار الماء الغالي والدرجة ١٠٠ بحرارة الجليد الذائب . فكان ذلك مزعجاً للقراءة. في السنة ١٧٥٠ ، عكس زميله « سترومر » سلمّ الدرجات واعطى الحر شكله الحالي .

ان محر سلسيوس هذا ، الذي نعرفه باسم الحر المئوي ، اسهل استعمالاً من غيره . ولذلك لم يلبث ان اعتمد في فرنسا . ولكن ما زال هناك ١٩ سلم درجات في السنة ١٧٨٠ ؛ سلم فاهرنهيت في هولندا وانكلترا واميركا بوجه خاص ؛ وسلم ريومور في المانيا ؛ وكان مقدراً لها ان تعرف ديمومة طويلة .

قياس كمية الحرارة

بفضل الحر استطاع الاسكتلندي « جوزف بلاك » الكيميائي والطبيب ، والاستاذ في غلاسكو وادنبرا استثبات الافكار التي اوحت اليه بها مراقباته والتوصل الى قياس كمية الحرارة . منذ السنة ١٧٥٦ ، اطال التأمل ببطء ذوبان الجليد واستمرار بقاء كميات من الثلج المتحول جليداً على الجبال في قلب الصيف ، والوقت المديد الضروري للماء الغالي كي يتبدد بخاراً . فكر بان كمية كبرى من الحرارة انما تستهلك في الارجح لإحداث تحول الجليد الى ماء والماء الى بخار دون ان يطرأ اي تبـــدل على حرارة الاجسام . فافترض من ثم ان كمية كبرى من سائل رقيق ، يدعى الحرارة ، تمازج بجزئيات المادة ؛ تضمحل دون ان تزول من الوجود ؛ يفرض ان تصبح كامنة ؛ هذه هي الحرارة الكامنة.

اراد حينذاك استثبات هذه الفكرة وايضاحها بالارقام . بحث عن كمية الحرارة اللازمة

لتحويل الماء الى بخار ، اي عن الحرارة الكامنة في عملية التحويل الى بخار . فوجد اولاً انه يقتضي كمية ثابتة من الحرارة لرفع حرارة كمية معينة من الماء درجة واحدة : هذه هي قابلية الماء للحرارة ، او حرارته النوعية . وهكذا توفرت لديه وحدة لقياس الحرارة ، واستطاع اذ ذاك تحديد كمية الحرارة التي يتخلى عنها البخار للعودة الى حالة سائل ذي حرارة مماثلة ، ومن ثم تحديد كمية الحرارة الضرورية لتحويل ماء حرارته ١٠٠ درجة مئوية الى بخار . واكتشف كذلك كمية الحرارة الضرورية لتحويل الجليد الذائب الى ماء تكون درجة حرارته صفراً في سلم الدرجات المئوية فوجد لحرارة التحويل الى بخار وحرارة الذوبان ارقاماً لا تختلف اختلافاً كبيراً عن الارقام الحالية . وقد توصل اثناء اعماله الى تقديم الدليل على ان زيادات متساوية في الحرارة تحدث تغيرات متساوية في مستوى سائل عرّاته ، والى اثبات قيمة دلالاتها . ولاحظ ان الاجسام تختلف بقابليتها للحرارة ، وانه لا يقتضي كمية الحرارة نفسها لرفع كميات متساوية من هذه الاجسام الى درجة حرارة واحدة . عرض اكتشافاته في محاضراته منذ السنة ١٧٦١، وقد صنع اثنان من تلامذته الفرنسيين ، الكيميائي «لافوازييه» والمهندس «لابلاس» ، مسعراً جليديا ، وحدّدا ، حوالي السنة ١٧٨٣ ، الحرارة النوعية لعدد كبير من الاجسام .

وهكذا بات بمكنة الانسان قياس الحرارة وأثرها في انتقال الاجسام من حال الى حال : وبات الانسان بالفعل نفسه سيد ذوبان الاجسام وتكوين البخار . وكان مقدراً له ان يعرف ، عند الحاجة ، ما يقتضي له من محروقات ووقت للحصول على قوة معينة او تحويل معين. وألهمت اعمال بلاك لجايمس وات ان يحسن الآلة البخارية ويجعل منها الأداة القوية والطيعة التي كان مقدراً لها ان تحدث ثورة في العالم .

إلا أن هذه النتائج لم تبدل الآراء في الحرارة . نظر الجميع الى هذه الاخيرة كما الى سائل رقيق، او مادة متمططة جداً تتنافر اجزاؤها وتتوزع هي على الاجسام بكمية متناسبة للجاذبية الاتفاقية التي تتبادلها هذه الاجسام وهذا السائل ، اي لقابلية الحرارة .

الكهرباء

كانت الكهرباء الفرع الذي أكب عليه بمزيد من النجاح ، او أقله الفرع الذي كان لنتائجه ، الجديدة كلها، اكبر تأثير في الحيلة. انحصرت الابحاث في الكهرباء الساكنة حتى السنة ١٧٩٠ حين بدأ درس التيار الكهربائي .

كانت المعارف الكهربائية محدودة جداً في اوائل القرن الثامن عشر. وما زال الناس يعتقدون بان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بلون الاشياء . إلا انهم كانوا قد عرفوا اظهار الكهرباء اما بواسطة انبوب زجاجي يحك ، أما بواسطة آلة قوامها كرة زجاجية تحرك بقبض وتحك باليد العارية . ثم تحسنت هذه الآلة شيئاً فشيئاً: فحلت الاسطوانة الزجاجية ثم القرص الزجاجي محل الكرة ؛ واستبدلت اليد بالوسادات ؛ وفي السنة ١٧٦٢ ، اعتمدت نهائياً الوسادة الجلدية

المغطاة بلفم القصدير . الا ان الاب نولّيه، الذي تميز بيد كبيرة وجافة جداً ، قد ثابر على الحك باليد العارية .

الاكتشافات الاولى

احرزت نجاحات سريعة في حقل لم يكتشف فيه شيء بعد . في السنة ١٧٢٩ ، اكتشف الانكليزي « غراي » ، بواسطة انبوب زجاجي بسيط ، ان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بالمواد التي تتركب منها الاجسام وقام بأول تصنيف للاجسام الحسنة النقل (المعادن) والسيئة النقل (الحرير) . وكان الاول في تقديم الدليل على ان جسم الانسان يتكهرب وينقل الكهرباء ، كما كان أول من اجتذب اجساماً خفيفة (عدة قصاصات من الورق) برأس وقدمي شخص مكهرب ومعزول ، فأتى بذلك اختباراً كان له وقعه العظيم وكان مقدراً له ان يعرف نجاحاً كبيراً جداً . وكان كذلك أول من اكتشف النقل الى مسافات بعيدة وجعل الكهرباء تجتاز ٧٦٥ قدماً .

واصل الفرنسي « دي فاي » اختباراته حتى السنة ١٧٣٩ . اثبت ان كافة الاجسام قابلة التكهرب فنقض بذلك تصنيف جلبير للاجسام بتقسيمها الى كهربائية وغير كهربائية . اظهر أوجه التشابه بين الكهرباء والصاعقة : فحين كان هو نفسه متكهربا ، معلقاً بحبال حريرية تعزله عزلاً تاماً ، ويمر شخص آخر على مقربة منه ، بدا وكأن بروقاً تخرج من جسمه وتسمع حسيساً جامداً . فكانت هذه البروق في الظلمة وكأنها شرارات نارية وكأن نوراً ينبعث من جسمه . ويروى ان الاب نوليه استصدر منه شرارات تبلغ سنتيمترات عدة . وكان رأي نوليه ان البرق والشرارة الكهربائية شيء واحد . واكتشف « دي فاي » الكهربة بالمماسة ووجد ان الاجسام الكهربائية تجتذب كافة الاجسام غير الكهربائية وتدفعها حال تكهرب هذه الاخيرة بها . واكتشف نوعين من الكهرباء : الكهرباء الزجاجية (الايجابية) والكهرباء الصمغية (السلبية) ، وجاذبيتهما لعكسها ودفعها لنظيرهما . فحاول ان يفسر هذه الظواهر ، ولكنه لم يجد ما يتخيله سوى سائلين .

قنينة لايدن

كان لهذه الاكتشافات وقع عظيم جداً . وراح أناس كثيرون يكسبون معيشتهم باجراء الاختبارات في مكان تلو الآخر . وكان الجميع راغبين في أن يتكهربوا، ويجتذبوا الرياش برأسهم أو يشعلوا الكحول بالشرارة المندلعة من سن سيف يمسك به الانسان المكهرب . وأكثر أساتذة الجامعات من الاختبارات العلنية . وفي لايدن ، حاول الأستاذ موشنبروك ، في السنة ١٧٤٥ ، كهربة الماء في قنينة . فحدث أن أحد أصدقائه ، الذي كان ممسكاً بالقنينة باحدى يديه ، حاول باليد الاخرى سحب الشريط الواصل الماء بالناقل . تلقى ضربة قوية في ذراعيه وصدره . كتب موشنبروك بذلك على الفور الى ريومور . فرغب الناس كلهم في تلقي التفريغ الكهربائي . وزادت قنينة لايدن من سلطة المختبرين . وقد أمر الأب نوليه التفريغ الكهربائي بسرية تضم ١٨٠ رجلاً من الحرس الفرنسي ، ثم ب ٣٠٠ راهب ألفوا

صفاً واحداً وجمعت بينهم قضبان حديدية . عند التفريغ كان الأشخاص الذين تمر بهم الكهرباء يقفزون في الهواء . بالقنينة قتلوا الطيور وأمرّوا الكهرباء بالأنهر والبحيرات ومغنطوا الإبر . ولوحظ سريان السائل سرياناً فواتياً .

الكهرباء الجوية ومانعة الصواعق

كانت الكهرباء حتى ذاك التاريخ موضوع فضول في الدرجة الأولى ، لكنها سيغدو بمكنة الانسان في وقت قريب أن يظهر وجودها الشامل ويفسر بها بعض أكثر الظواهر الطبيعية جلاء .

في السنة ١٧٤٧ ، ارسل الانكليزي « كولنسون » ، عضو جمعية لندن الملكية ، الى صديقه الاميركي « بنجامين فرانكلن » ، انبوباً زجاجياً وتعليمات لإجراء بعض الاختبارات . اكب فرانكلن عليها بشغف ولاحظ قدرة الاسنان على « اجتذاب وقذف النار الكهربائية » . وكان لا يزال يعتقد اذ ذاك ان الصاعقة مردها « نفث كبريتور الحديد القابل الالتهاب ، الذي هو كبريتور كربوني يشتعل تلقائياً » . ولكنه لاحظ في السنة ١٧٤٩ ان البرق والشرارة الكهربائية مضيئان كلاهما ولونها واحد وينشران رائحة كبريتية واحدة ويرسمان خطوطاً معوجة متماثلة ويتميزان بالسرعة نفسها ، والصوت نفسه ، وقابلية المعادن لنقلها ، والقدرة نفسها على تذويب هذه المعادن وقتل الحيوانات واشعال المواد اللهوبة . وتساءل عما اذا لم يكن ممكناً اجتذاب البرق بالاسنان على غرار الكهرباء . واقترح ان توضع ، على مرتفع ، مرقبة مزودة بقضيب حديدي مقرن جداً يبلغ طوله ١٠ امتار ، وان يوضع في المرقبة رجل معزول بقرص من الصمغ يجوز ان يكهرب اذا ما مر الغمام منخفضاً . واشار بانه قد يمكن ، بهذه الطريقة ، « استراق الكهرباء من الغمام » وحماية المساكن والكنائس والمراكب من الصاعقة . فعرض آراءه في رسالة الى كولنسون في شهر تموز من السنة ١٧٥٠ . اطلع كولنسون عليها جمعية لندن الملكية التي اكتفت بالاستهزاء والازدراء برؤى فرانكلن . فنشر كولنسون حينذاك رسائل صديقه في مجلد ترجم الى كافة اللغات .

في فرنسا ، لفتت هذه المسائل الانتباه . فان « روماس » مستشار محكمة « نيراك » وعضو اكاديمية بوردو ، قد اشار ايضاً ، بعد الأب نوليه ، في السنة ١٧٥٠ ، الى وجه التشابه بين الصاعقة والكهرباء . وكان الفرنسيون على علم باختبارات « جالابير » الذي اكتشف هو ايضاً ، في السنة ١٧٤٨ ، في جنيف ، طاقة الاسنان . وترجم « داليبار » احد اصدقاء بوفون ، مؤلف فرانكلن ، فبادر بوفون الى رفع قضيب حديدي فوق قصره في مونبار وشجع داليبار على اعادة اختبار فرانكلن . اجري الاختبار في « مارلي » في اليوم العاشر من نوار من السنة ١٧٥٢ ، بنجاح تام ، برعاية ملك فرنسا ، واعيد ، بعد مرور اسبوع ، في باريس ، بواسطة قضيب يبلغ ٣٢ متراً طولاً .

الا ان فرانكلن لم يكن موقناً تماماً بان المختبرين قد « استرقوا » الكهرباء من الغمائم

العاصفة لأن القضبان لم تبلغها . فصمم على ان يرسل الى الغيائم « طيارة » وينقـــل الكهرباء بواسطة الحبل . فعل ذلك في ايلول من السنة ١٧٥٢ وتمكن من « استراق » كهرباء احدى الغيائم ، وتلقي شرارة ، وشحن قنينة بالكهرباء ، وبلغ خبر اختباره باريس في شهر كانون الثاني من السنة ١٧٥٣ . قام روماس في « نيراك » بعمل مماثل في شهر حزيران وتمكن بذلك من اجهاض عاصفة هوجاء . ونصب فرانكلن قضيباً حديدياً فوق مسكنه . ثم حدث حادث الح لتحسين الجهاز : اعتقد فرانكلن بضرورة عزل اسفل القضيب ؛ ولكـــن « ريتشمن » ، الذي وجد في السنة ١٧٥٣ على مقربة من اسفل قضيب احكم عزله في سان بطرسبورغ قتل بالصاعقة التي ضربت منه الرأس ، حين لم تستطع التفريغ . فلمس العلماء الحاجـة الى تسهيـل تفريغ الكهرباء ، ومنذ السنة ١٧٥٤ انتشرت مانعة الصواعق .

وهكذا وجد الانسان التفسير الطبيعي لظاهرة اعتبرت وكأنها مظهر من مظاهر الغضب الإلهي : فان بوالو كان لا يزال يعتقد بان الله هو الذي يرعد ويجلجل . فكان الانسان في طريق النجاة من المخاوف وادراك الطبيعة واتقاء الاخطار .

الكهرباء العضوية والنابضة الكهربائية

تأيد وجود الكهرباء الشامل . في السنة ١٧٧٣ ، اثبت « وولش » ، في لاروشيل ، ان الصدمات التي تحدثها بعض الاسماك كهربائية ؛ فقد وصل ظهر وبطن رعّاد بناقل كهرباء وحصل على تفريـــغ كهربائي . كما ان الايطالي « غالفاني » ، الطبيب واستاذ التشريح في بولونيا ، قد اجرى اختبارات في افخـــاذ الضفادع واثبت ، بين السنة ١٧٨٠ والسنة ١٧٩١ ، وجود الكهرباء في عضلات الحيوانات ووضع الصيغة المشهورة : « ان جسم الحيوانات قنينة لايدن عضوية » وواصل اختباراتـــه مواطنه فولتا استاذ الطبيعيات في « كوما » ثم في بافيا ، فوجد ان الكهرباء تؤثر في اعصـــاب البصر والذوق. تابع ابحاثه في هذه الطريق ، وفي ٢٠ آذار من السنة ١٨٠٠ ، وصف، في رسالة الى رئيس جمعية لندن الملكية ، نابضه التي هي « عضو كهربائي صنعي » : تنضيد طبقات من ثـــلاث حلقات : حلقة نحاسية وحلقة زنكية متلاصقتان تغلفها حلقة ورقية رطبة . في ٢ نوار من السنة ١٨٠٠ حلل الماء بفضل النابضة الكهربائية : فاكتشفت بذلك اداة جوهرية للبحث والتطبيق العملي .

اما « فرنسوا كولون » ، الذي كان مهندساً في باريس ، والذي اكتشف ، في السنة ١٧٨٤، ميزان القوى الصغيرة بواسطة شريط مفتل ، فقد أوضح ، بين السنة ١٧٨٥ والسنة ١٧٨٩ ، ان ناموس نيوتون لذي تكون الجاذبية بموجبه متناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربع المسافات صحيح في الجاذبية او الدفع الكهربائيين والمغناطيسيين . فاوحى من ثم بالفكرة القائلة بأن كافة الظواهر الطبيعية قد تفسر يوماً بمبدأ الجاذبية دون غيره .

وقام اللندني « كافنديش » بأبحاث كاملة في الكهرباء الساكنة منذ السنة ١٧٧٣ ، ولكـــن مؤلفاته لم تنشر الا في السنة ١٨٧٩ .

طبيعة الكهرباء

بقيت الآراء في طبيعة الكهرباء متأثرة تأثراً بينا بمادة ديكارت الرقيقة وبذرّات نيوتون. فان « دي فاي »، في « مذكرته الرابعة حول الكهرباء » قد فسر بالكرتزيانية الدفع الذي يحدثه الانبوب الكهربائي في ورقة ذهبية بعد ان تكون الجاذبية الاولى قد جرت الورقة والصقتها بالانبوب : « تجدر الملاحظة ، استناداً الى المسافة التي تقف الورقة عندها بعيداً عن الانبوب ، ان بمقدورنا الحكم على مدى الزوبعة الكهربائية ، وان بمقدورنا كذلك ، اذا ما سيّرنا الورقة فوق اجزاء الانبوب المختلفة ، اما بادارتها حول محورها واما بجعلها في وضع عمودي ، ان نكوّن صورة لحدود الزوبعة ، او بالأحرى صورة لطبقة الزوبعة التي لها من القوة ما يكفي لمقاومة وزن الورقة ، لأننا اذا ما اخذنا قصاصات صغيرة جداً ، رأيناها تقف على مسافة ابعد جداً » . وفي السنة ١٧٣٧ ، توسع « دي فاي » في تفسيره الظاهرة بالزوابع الكرتزيانية . وفي السنة نفسها ، فرض « بريفا دي موليير » في المجلد الثالث من « دروسه في علم الطبيعة » ، رغبة منه في تفسير ملاحظاته ، ضرورة التسليم بتكون ما هو اشبه بالجو حول الجسم الكهربائي . ولما كان هذا الجو مضيئاً في الظلمة وقابلاً الاشتعال حين ندني الاصبع منه ، « لا يبقى مجال للشك بان اجزاء هذا الجو الصغرى ليست ذرات زيت حقيقية » . وليست هذه الذرات ، طالما هي في مسام الجسم الكهربائي ، سوى زوابع صغيرة جداً توازن ذرات اصغر منها هي ذرات الاثير ، الوسط المتمطط. بفعل الاحتكاك تخرج زوابع الزيت الصغيرة هذه وتكبر . وحين تلامس انتفاخ الاصبع غير المنظور ، تختمر وتلتهب . وكان « بريفا » قد تبنى في السنة ١٧٢٩ زوابع المادة الرقيقة الصغرى ، ذات السرعة الكبرى في الابعاد عن المركز التي سدّ بها مالبرانش في السنة ١٧١٢ ، في الطبعة الرابعة من « البحث عن الحقيقة » ، مسدّ الاجزاء الصغرى التي قال بها ديكارت . وبفضلها استطاع « بريفا » الاهتداء في الزوابع السماوية الى ناموس كبلر الثالث وملاشاة احد اعتراضات نيوتون الاساسية على ديكارت . ولكنه بواسطة تأملاته في طبيعة الكهرباء اتاح بالاضافة الى ذلك لفونتنيل الخلوص الى جواز وجود الكهرباء في الزوابع السماوية وجواز تجاذب هذه الزوابع وتدافعها تجاذباً وتدافعاً مستمرين (١٧٣٧) . وهكذا تزول كافة الاعتراضات على الكرتزيانية . إلا أن اعمال الفلكيين افضت الى غلبة نيوتون . كما ان المفهوم النيوتوني قد اوحى لفرانكلن بنظريته : الكهرباء « عنصر مشترك » موجود في كافة الاجسام ؛ اذا ما توفر منها لجسم فوق نصيبه الطبيعي ، فالكهرباء ايجابية ؛ واذا حدث عكس ذلك ، فالكهرباء سلبية . وقد سلم بهذه النظرية حتى « فاراداي » .

الفصل الخامس

الكيمياء

سارت الكيمياء في طريق صيرورتها علماً . انتقل الكيميائيون من وصف الظواهر الى اكتشاف الواقع بتنحية أجسام عديدة اعتبرت من قبل بسيطة ، ثم انتهت عبقرية لافوازييه ، الذي كمل طريقة العمل واكتشف نواميس الظواهر الرئيسية ، الى تكوين العلم .

العنصر اللهبي

لم تعد عناصر ارسطو الأولية ، النار ، الهواء ، التراب ، الماء ، كافية لتفسير الظواهر الكيميائية المكتشفة حديثاً . فكان من الألماني « ستاهل » ، أستاذ الطب في « هال » ، أن ابتدع لتفسيرها ، في السنة ١٦٩٧ ، نظرية السائل اللهبي التي نشرها في السنة ١٧١٧ .

ان شيئاً ما يخرج من الجسم المشتعل أثنــاء احتراقه . وهو وجود هذا العنصر في الجسم ما يجعل هذا الجسم قابلا الاحتراق . ان هـــذا العنصر ، أو « فلوجستون » (لهيب) ، الذي لا يُشعر بوجوده في حـــالة التركيب الكيميائي ، لا يصبح حسياً الا حين ينبعث من الجسم . وحينذاك يؤلف قوام النار . الاحتراق هو انتقال النار المركبة مع الجسم (العنصر اللهبي) الى حالة النار الطليقة ، وقـــد تخيل ستاهل هذا العنصر ، ولعله تأثر في ذلك بديكارت ، كجامد مركب من اجزاء غاية في الصغر قليلة التلاحم فيما بينها ، أكثر قدرة من اية مـــادة أخرى على التحرك تحركاً سريعاً هو كنه كافة نتائج النار كما ساد الاعتقاد. فكل مادة مركبة من العنصر اللهبي من جهة ومن عنصر آخر يختلف باختلاف الاجسام من جهة ثانية . المعدن مركب من عنصر لهبي ومن « كلس» يختلف باختلاف طبيعة المعدن . حين يكلّس المعدن ، ينبعث العنصر اللهبي ويبقى « الكلس » .

قامت هنالك صعوبة : فقـــد لوحظ ان القصدير والرصاص يرتفع وزنها حين يكلّســان . فكيف التوفيق بين هذا الواقع وفقدان أحد عناصرها. ولكن ستاهل استدل من ذلك على ان العنصر اللهبي أخف وزناً من الهواء وانه يميل طبعاً الى رفع الجسم المركب معه وافقاده بعض وزنه .

ادخلت النظرية تبسيطاً عظيماً على مفاهيم الكيميائيين . فهي قد سهلت تفسير الظواهر المعروفة خير تفسير . وقد احرزت نجاحاً حقيقياً .

كان اذن أهم الكيميائيين « لهبيين » ، واذا ما استثنينا لافوازييه ، فانهم جعلوا العلم يتقدم بواسطة التحليل النوعي في النصف الثاني من القرن ، بعد أن أتاح لهم إحكام الطريقة الاختبارية السير قدماً . كان دور الوقائع والاختبارات والافتراضات في العلم معروفاً حينذاك خير معرفة بفضل بيكون ونيوتون وبفضل أعمال علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وفي السنة ١٧٣٦ ، استشهد «ديلاند» باحدى خطب الهولندي موشنبروك في بحثه حول «خير طريقة لاجراء الاختبارات» ، فاقترح قواعد تضاهي بشدتها القواعد الكلاسيكية التي اقترحها « ستوارت مل » بعد ذلك . ولكنها باتت شبه مبتذلة في السنة ١٧٥٠ .

ان الاسكتلندي جوزف بلاك قد مهد لأعمال شيل وبريستلي ولافوازييه بشق الطريق لنمط جديد في الكيمياء ، كيمياء الغازات أو « الكيمياء الغازية » وبافتتاح طريقة لافوازييه ، طريقة الوزن ، مرتكز الكيمياء العصرية . قبل بلاك نظر الكيميائيون الى الجو كما الى خواء توجد فيه أجزاء صغرى مختلفة الأنواع لم يتوصل أحد الى التفريق بينها . بحث بلاك عن دواء أفعل قوة من ماء الكلس لمداواة النقرس والحصاة في الكلى او المثانة ، فدرس المغنيزية البيضاء ، عالج سلفات المغنيزيوم بكربونات البوطاس ، فحصل على ضالته المنشودة ، كربونات المغنيزيوم . ولكنه فحص خصائص المركب الجديد ، فوجد أنه يفقد « هواء » بالفوران حين يعالج بالحوامض أو بالنار ، وهو « هواء » ليس سوى جزء من الهواء الجوي . اطلق عليه اسم « الهواء الثابت » الذي ليس سوى غاز الكربون (١٧٥٤ — ١٧٥٦) . ولكنه تحول بعد ذلك الى مسائل « الحرارة الكامنة » .

شيل

ان الصيدلي الاسوجي شيل ، الذي ولد في « سترالسوند » في السنة ١٧٤٢ ، وكان مجهولاً في وطنه ، رأثار الاعجاب في كافة انحاء اوروبا ، بفضل صديقه « برغمان » استاذ الكيمياء في اوبسالا ، بمذكراته التي ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، وتوفي في السنة ١٧٨٦ عن عمر ٤٤ سنة ، قد كرس حياته للبحث في كل اوقات فراغه . امتاز بارابة ومثابرة نادرتين ، فكان سيد التحليل النوعي بواسطة الماء . لم يضاهه احد في استكشاف جسم جديد في تفاعل كيميائي ، كما لم يضاهه أحد في عزل جسم جديد . اكتشف عدداً كبيراً من الاجسام البسيطة : كلور ، اوكسيجين ، باريت ، منغانيز ؛ وجعل وجود عدة اجسام أخرى مرجحاً بدرسه مركباتها : فان اختباراته على فلورور الكلسيوم وحامض الفلور الصواني قد أفضت الى التسليم بجسم أساسي خاص يعرف باسم الفلور ؛ وانبأ بوجود الموليبدين والتونغستين . واكتشف عدداً كبيراً من الحوامض العضوية والمعدنية ، حامض دردي الخمر ، وحامض الزرنيخ ، وحامض اللبن ، والحامض البروسي ، وحامض الليمون ، وحامض العفص ، وغيرها ..

ووصف عملية تحضير الغليسرين وخصائصه . وحدد كيفية تركيب الهواء الحقيقية من عنصرين احدهما « هواء النار » (اوكسيجين) القابل الامتصاص بالكبريتورات القلوية وعدد من الاجسام الأخرى ، والثاني « الهواء الفاسد » (ازوت) الذي يبقى هو هو كاملا . وحصل على الاوكسيجين بتحليله النطرون وبير اوكسيد المنغانيز واوكسيد الزئبق واوكسيد الفضة ، وعين كل خصائصه خير تعيين .

وهكذا فإنه قد أدى خدمات جلّى بوصفه المدقق لوقائع خاصة عديدة . ولكنه حين أراد اكتشاف علائق هذه الوقائع فيما بينها وردّ العلائق الى مبدأ عام ، بغية جعل الانسان سيد الظواهر ، ضل الطريق وهام على وجهه . في رأيه ان الحرارة والنور مركبان من العنصر اللهبي وهواء النار . العنصر اللهبي وهواء النار وازنان ، ولكن اجتماعهما معاً قد يعطي جسماً لا وزن له . ويبلغ هذا الأخير من الرقة ما يتيح له اجتياز الزجاج والتبدد بشكل حرارة اولا وبحالة نور ثانياً . وجلي ان هذا الكلام حشو وهذر لم يتركا لشيل ما يأخذه على آخر الفلاسفة الكلاميين .

ما هو مرد عجز العالم عن اتمام عمله يا ترى ؟ ان مرده هو ان شيل ليس في الحقيقة سوى عامل افتقر الى ثقافة عامة ، فلم يلبث ان اغتر بالكلمات . اهملت تربيته في صغره ، فتعلم بالممارسة العملية ، ولكنه امتاز بعبقرية طبيعية حركها شغف المعرفة ، فأتى عملا مفيداً . الا انه افتقر ابداً ، للإفادة كل الإفادة من صفاته النادرة ، الى فلسفة الطبيعة والاداة الرياضية .

بريستلي

ولد الانكليزي بريستلي في ٣٠ اذار ١٧٣٣ ، على مقربة من « ليدس » في « يوركشاير » ، من اب جواخ . وغدا راعياً واستاذاً . لفتت انتباهه الشهرة التي عرفتها الكهرباء ، فكتب اول تاريخ للكهرباء في السنة ١٧٧٥ ، واجرى بعض الاختبارات ، وأصبح عضواً في جمعية لندن الملكية . كان مقيماً في جوار معمل جعة ، فأخذ منذ السنة ١٧٦٧ يجري بعض الاختبارات على غاز الكربون . واصل في اوقات فراغه اختباراته على الغازات وابتكر عدة اجهزة لانتاج الغازات ومعالجتها ودرسها . فأدرك وحده في عهده مدى تكون الغازات وتنوع طبيعتها . وتضلع خير تضلع من فن ايجاد الصلة بين الغاز وكافة المواد الاخرى ؛ وخلف للقرن التاسع عشر معظم الطرائق المعتمدة في معالجة الغازات .

حين باشر ممارسة عمله ، كانت الغازات المعروفة اثنين فقط : حامض الكربون او الهواء الثابت ، والهيدروجين او الهواء القابل الاحتراق . اكتشف بريستلي الازوت ، وثاني اوكسيد الازوت ، وغاز الكلور ، وغاز النشادر ، واول اوكسيد الازوت ، وحامض الكبريت ، والاوكسيجين الذي اخرجه من اوكسيد الزئبق في اول آب ١٧٧٤ واسماه الهواء الخالو من العنصر اللهبي واكتشف دوره في دوام التنفس واثره في الدم الوريدي ؛ ثم اكتشف غاز فلور الصوان واوكسيد الكربون . فتم له بذلك اكتشاف الغازات التسعة الأم شأناً ، تلك التي

تفسير الهواء ، والتنفس والاحتراق ، والتكلس ، أي العمليــــات الرئيسية التي تجري في الكرة الارضية .

ولكنه لم يتوصل هو ايضاً الى وضع أسس علم الكيمياء ولم يعرف السمو الى ما فوق تحديد الاحداث الخاصة . لا بل درج على قول ما جوهره : كلمـــا اكتشفت ، تدنى ادراكي وتدنت معرفتي ؛ وكلما تأملت زاد ارتيابي . ولا يرد ذلك ، فيما يعنيه ، إلى افتقــاره إلى ثقافة عامة : فقد تعلم اليونانية والعبرية واللاتينية في مدرسة داخلية ؛ وتعلم الرياضيات والفرنسية والألمانية والايطالية التسلية ؛ وتعلم الكلدانية والسريانية والعربية التعمق في الكتاب المقدس ؛ ومــارس الفلسفة واللاهوت ممارسة تخصص ووضع فيهما ثمانين مجلداً .

إلا إنه أرتكب خطأ في الاسلوب؛فقد قام بما قام به دون تبصر ولا قصد،ولم يسيّره « فكر سابق البحث والتحقيق » ولا افتراض يحيي استثبــاته ، ولا مخطط بحث . استخدم يديه اكثر من دماغه . امتحن اختبارات سابقيه التي انطوت على فوران واستقطـــار وحرارة واتاحت الافتراض بتكون جسم غـــازي ، وبما ان معظم الاجسام الغـــازية كانت مجهولة ، فقد وفق إلى اكتشاف بعضها . أجرى « اختبارات للمشاهدة » : اوكسيد الزئبق الأحمر أعطـــاه غازاً ؛ لم يميز بينه وبين بيراوكسيد الازوت ؛ امتحنه بثاني اوكسيد الازوت فكانت دهشته كبيرة حين رأى الخليط يصطبغ بلون أحمر ؛فلم يميز اذ ذاك بينه وبين الهواء؛ وحدث اتفاقاً أن أدخل شمعة في البردي ، فأخذ العجب منه كل مأخذ حين رآهـــا تشتعل . « ... لو لم أر أمامي شمعة مضاءة ، لما أجريت هذا الامتحان ، ولبقيت كافة اختباراتي اللاحقة على هـــذا النوع من الهواء في عالم المجهول ... » . انتقل من دهشة إلى دهشة ومن اتفاق إلى اتفاق إلى ان بيّن ان هـــذا الغــاز هو جديد ومتجانس وهو الجزء الملهب والممكن تنشقه في الهــواء ، أي الاوكسيجين . ولكن ثمن فقدان الاسلوب هذا هو أن النتائج لم تتجمع قط في ذهنه وأنه لم يستطع الحكم فيها مجتمعة . لاحظ عــدداً كبيراً من الاحــداث المتنافية والعنصر اللهبي ، ولكنه بقي « عنصراً لهبياً » ، وحين توفي في السنة ١٨٠٤ لم يكن من عنصري لهبي سواه في العالم . ولعل هذا الراعي انشغل ايضاً بالمجــادلات اللاهوتية : فلم تكن اختباراته سوى طلب للراحة في حـــال أن العلم يتطلب الاستئثار بكل الانسان. ولعل هذا المؤمن كان شديد الميل كذلك الى الاسترشاد بوحي الروح . ولعل هذا الانكليزي ، اخيراً ، كان ضحية نزعة غير نادرة عند ابنـــاء وطنه الى جمع الاحداث دون محاولة استيضاح علاقتها ولا تسلسلها ، تفضي احيانــاً الى عجز كلي عن اصلاح الآراء العلمية أو السياسية التي أثبت الاختبار بطلانها التام أو قدمها العقيم .

لافوازييه

وأخيراً جاء لافوازييه . ولد في ١٦ آب ١٧٤٣ ، منحدراً من عائلة بورجوازية ميسورة . تلقى دروسه بامتياز في كليـــة « مازارين » حيث تلقن اللاتينية والبيان والمنطق. بعد ذلك أطلق له والده الحرية، فدرس الرياضيات وعلم الفلك على«لا كاي»،

وعلم النبات على « جوسيو » ، والكيمياء على « روبل » . توفر له من ثم ما لم يتوفر لشيل : التهذب الأدبي والرياضي ، أي الآداب التي تعوّد التمييز بين أدق الفوارق والعلائق في الأفكار وتقدير معنى الكلمات الصحيح واستعمال أدوات الفكر هـــذه ، والرياضيات التي هي أداة الافتراض الواضح والسير الأمين والنتيجة الأكيدة . ولوفر له ما لم يتوفر لشيل وبريستلي معاً : فكرة اجمالية عن العلم وسيره وأساليبه وطرائقه ، وفكرة عامة جلية واضحة عن العالم انارت سبيله طيلة حياته . غدا عضواً في أكاديمية العلوم في السنة ١٧٦٨ « فتيسر له الاتصال بالعلماء والاطلاع على كافة الاكتشافات المفيدة لأعماله ؛ وكان بالاضافة الى ذلك يلتزم جمع الضرائب ويدير احتكار ملح البارود ، والتحق بصندوق القطع في السنة ١٧٨٨ ، فتوفرت لـه الثروة وبات قادراً على تكريس ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً لمختبره ، وتوفرت له من ثم كافــة أسباب إخصاب عبقريته .

اهتدى منذ البدء بوحي هذا الافتراض : كل ظواهر الكيمياء مردّها انتقالات المـــادة ؛ ولكن المادة تبقى ابداً هي هي في الكون اذا ما نظرنا اليه ككل ؛ قد تتغير شكلاً ، ولكنها لا تزيد ولا تنقص : لا شيء يفقد ولا شيء يستحدث . فاذا صح ذلك ، فان الشكل الخارجي قد يتبدل في اناء مغلق ، ولكن الوزن لن يتغير ؛ في كل تفاعل كيميائي يجب أن يكون وزن المواد المتكونة مساوياً لوزن المواد المستعملة . أداة البحث هي الميزان الذي يفيدنا عما اذا كان هنالك مادة جديدة يجب اكتشافها ، أو جسم جديد يجب تحقيق هويته والبحث عن مصدره؛ الطريقة هي طريقة الوزن . كانت الكيمياء نوعية ، فاصبحت كمية ، أي علماً حقيقياً .

أبين الفرق يجلاء باختبار السنة ١٧٧٠ الذي ساعده على تقديم الدليل على أن الماء لا يتحول ترابــاً . أوعز لافوازييه بصنع ميزان صحيح ، ثم امتحنه واعترف بضرورة الوزن المزدوج . وزن إناءه في حالات جوية مختلفة واستثبت أنه يفقد بعض وزنه حـــين يكون ساخناً بتبخر الرطوبة التي تلتصق به بارداً ، واستنتج من ذلك ضرورة اجراء الوزن الذي كان يريد مقارنته في الحالات الجوية نفسها . استخدم اناء يتصاعد فيه البخار إلى أعـــلاه حيث يتخثر ثم يتساقط ويأخذ بالغليان مرة أخرى . أخذ كمية من المـــاء ، ووزنها ، وأفرغها في الاناء الذي سبق له ووزنه ، ووزن الماء والاناء معاً رغبة منه في تحاشي كل خطأ، وأقفل الاناء إقفالاً محكماً ، وكرر الماء طوال مائة يوم ويوم . بعد انقضاء هذا الوقت لم يطرأ أي تغيير على وزن الاناء والماء معاً ؛ إلا أن الاناء قد فقد ١٧ حبة من وزنه ؛ والماء بات عكراً وازداد كثافة . وبعد تبخيره خلف درديا بلغ وزنه ٢٠ حبة . كان الاناء مصدر ١٧ حبة . أمـــا الحبات الثلاث فكانت مجهولة المصدر ، ولكن لافوازييه استنتج بحق أن حجماً على هذا الصغر مصدره طارىء من طوارىء الاختبار ، وان الماء لا يتحول تراباً . أجرى شيل الاختبار نفسه ، ولكن شيل لجأ إلى التحليل حيث لجأ لافوازييه إلى الوزن . اكتشف أن الدردي اوكسيد سيليسيوم ؛ فالمـاء الذي اصبح قلوياً قد ضم اليه عناصر قابلة الذوبان ؛ وكان استنتاج شيل من ثم مماثـلاً . ولكن شيل استند

إلى بصره وذوقه ولمسه ، الى حدة حواسه ، الى سلامة ذاكرته ، الى احـــكام صغيرة شخصية خمنية كثيرة ، بينما استند لافوازييه إلى الميزان الذي استخدمه بمنطق ودقة ، إلى أرقام يقبل بها الجميع . لم يكن شيل أميناً من أنه رأى كل شيء ومن انه لم يهمل ناحية من نواحي الظواهر ، بينما كان لافوازييه أمينـــاً من أنه لم يهمل أي جسم وأي تفاعل . ولم يكن معنى ذلك ان التحليل النوعي يجب الاستغناء عنه ، فذلك غير ممكن ؛ بل ان عليه إفساح المركـز الاول لطريقة الوزن .

ما لبث الميزان أن اوحى للافوازييه بأفكاره الموجّـهة التي كانت والعنصر اللهبي على طرفي نقيض . فقد قال في مذكرة قدمها الى اكاديمية العلوم بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٧٧٢ ما يلي :

« منذ ايام خلت اكتشفت ان الكبريت يولد باحتراقه حامضاً ويزداد وزناً : وهذا يصح في الفسفور ايضاً . إن هذا الازدياد في الوزن مصدره اتحادهما بكمية كبيرة جداً من الهواء .. » .

منذ ذاك الحين صدر الحكم على العنصر اللهبي في عقـــله ، ولكن الواجب كان يقضي بتقديم الدليل على زيف نظرية ستاهل واستبدالها بنظرية أخرى تكون أكثر انطباقـاً على الوقائع . اختط لافوازييه لنفسه طريقة بحث منظمة اتبعها طيلة اكثر من عشر سنوات بطول أناة وعزم لا يعرفان الكلل . كان يقصد مختبره منذ الساعة السادسة صباحاً ويكرس للكيميـاء ساعات عديدة ، ثم يعود اليه في المساء بعد انصرافه في النهـار إلى اعماله المالية . وفي أيام الآحـاد كان يجمع ، حول اكواره ، العلماء والعمال الذين يعدون له الأجهزة ، وبعض الشبان . ومنذ السنة ١٧٧٢ حتى السنة ١٧٨٦ ، رفع على التوالي ٤٠ بياناً نشرت في مجلدات اكاديمية العلوم ، ويبلـغ مما ارسله منها في السنتين ١٧٨١ و ١٧٨٢ أن استحال نشرهـــا كلها . ترابطت هذه البيانات وتكاملت ؛ أفضت الوقائع الى افكار جديدة ، وأدت الأفكار الجديدة الى درس وقائـع مهملة أو الى اكتشاف وقائـــع مجهولة . لم يُترك شيء للمصادفة والاتفاق ؛ فالتفكير هو ما وجه البحث ابداً .

يستحيل علينا الدخول في تفاصيل هذه الاختبارات التي كان اشهرهـا ، في السنة ١٧٧٧ ، تحليل الهواء الذي قاده الى اكتشاف الآزوت والاوكسيجين ونسبها الصحيحة وخصائصهـــا ودورها في التنفس والاحتراق ، ثم الى إعـادة تركيب الهواء من اجزائه المختلفة ؛ وفي السنة ١٧٨٣ ، تحليل الماء وإعـادة تركيبه من مقوماته . وفي النهاية أثبت ان للعنصر اللهبي لا وجود له ، وان الهواء الخالي من العنصر اللهبي جسم بسيط ،هو الاوكسيجين، وأن الاوكسيجين يتحد بالمعادن إبان تكليسهـــا ، وانه يحول الكبريت والفسفور والفحم الى حوامض ؛ وانه يؤلف الجزء الفاعل في الهواء ويغذي اللهيب والموقد ؛ وانه يحول ، في تنفس الحيوانات ، دمهـــا الوريدي الى دم شرياني ، ويغذي الحرارة الخاصة بها ؛ وانه يشكل الجزء الاساسي في قشرة الكرة الارضية وفي الماء والنباتات والحيوانات ؛ وانه كائن أزلي لا يفنى ، ينتقل من مـكان الى

آخر دون ان يكسب أو يفقد شيئاً ، على مثال المادة بصورة عامة . وفي السنة ١٧٨٣ ، وبعد بيان اجهز على العنصر اللهبي الذي قال به ستاهل ، وضع كتابه « بحث في الكيمياء » في مجلدين صغيرين كان من حسن سبكهما وضبطها الهندسي ووضوح فصولها وكال تسلسلها المنطقي أن ألهرا إعجاب أوروبا ففاقت الكتب الاخرى .

تأخر الكيميائيون اكثر من غيرهم في الانضمام الى لافوازيه . ولكن «برتوليه» «وغويتون دي مورفو» تبنيا اخيراً نظريته في السنة ١٧٨٥ ، وما لبث « شابتال » ان حـذا حذوهما ، وفي السنة ١٧٨٧ علم « فور كروا » النظريتين وقارن بينهما في محاضراته .

الاصطلاحات الكيميائية

أدى لافوازيه خدمة اخيرة الكيمياء بإسهامه في وضع لغة خاصة بهـا . كانت الكيمياء ملأى بالاسماء الغريبة : الفاروث ، ملح الالمبروث ، المـاء الفاجيديني ، زيت الدردي الناقص ، زبدة الزونيخ ، زهور الزنك . وقـد شاطر رأي لافوازيه كافة كيميائيي اوروبا ، كما عبر عنه في الخطبـة التمهيدية لكتابـه «بحث اولي في الكيمياء » : « ... يقتضي تعوّد طويل وذاكرة حادة لاستـذكار المواد التي تعبر عنها [اسماؤها] وبصورة خاصة للاهتداء الى نوع التركيب الذي تعود اليه ... انها تولد افـكاراً خاطئة جداً » . وبين لافوازيه بعد ذلك ، متصرفاً تصرف تلميذ كوندياك ولا سيا تصرف العالِم، استحالة فصل المصطلحات عن العلم وفصل العلم عن المصطلحات ،لأن كل علم قوامه سلسلة الوقائع التي تكونه والافكار التي تذكر بها والكلمات التي تعبر عنها. على الكلمة ان تولد الفكر ، وعلى الفكر ان يصور الوقائع :

« انها رسوم ثلاثة لخاتم واحد ... وبما ان الكلمات هي ما يحفظ الافـكار وينقلهـا ، يستنتج من ذلك اننا لا نستطيـع اتقان الكلام دون اتقان العلم ، ولا اتقان العلم دون اتقان الكلام ، وان الوقائع ، مهما بلغ من ثبوتها ومن صحة الافـكار التي قد تولدها ، لن تفضي الا الى تعابير خاطئة اذا لم تكن لدينا المفردات الصالحة للتعبير عنها » .

طلب الكيميائيون المصطلحات من غويتون دي مورفو الذي باشر العمل في السنة ١٧٨٧ مع لافوازيه وفور كروا وبرتولـيه . فقرروا الدلالة على المواد البسيطة بكلمات بسيطة تعبر عن اكثر خصائص المادة شمولا وتمييزاً : اوكسيجين (مولد الحموضة) بسبب دوره في تكوين الحوامض . اما الاجسام المتكونة من اتحاد عدّة مواد بسيطة ، فقد قسموها الى طـوائف واجناس وانواع . فالمواد المعدنية المعرضة لتأثير الهواء والنار معـاً تفقد لمعانهـا المعدني ويرتفع وزنها وتتخذ ظاهراً ترابياً : انها مركبة من عنصر مشترك بينهـا ومـن عنصر خاص بكل منها ؛ اشتق اسم الجنس من العنصر المشترك : اوكسيد ؛ واضيف اليـه اسم المعدن الخاص . والحوامض مركبة من مادتين ، « من صنف تلك التي نعتبرها بسيطة » ، احداهما مشتركة بينها كلها ، قوامها الحموضة ، اشتق منها اسم الجنس ؛ والثانية خاصـة بكل

حامض ، اشتق منها الاسم النوعي . وفي العدد الاكبر من الحوامض قـــد يوجد العنصران المركبان ، العنصر الحمّض والعنصر الحمّض ، بنسب مختلفة تؤلف كلتّها نقاط توازن: يُعبر عن هاتين الحالتين للحامض الواحد بتغيير آخر الاسم النوعي (*eux, ique*) .

وهكذا كان الكيمياء ، بفضل لافوازييه ، نهجها ، ولغتها ، ومجموع وقائع ترتبط بنواميس. لقد ولد علم فتي ؛ وسيعرف نمواً عجيباً .

الفصل الثامن

العلوم الطبيعية

تقدمت معرفة الطبيعة بخطى حثيثة ، على انها ما زالت ، في اغلب الاحيان ، وصفاً ،او « تاريخاً طبيعياً » ، وهذه خطوة اولى ضرورية على كل حال .

ولكن مقارنة الوقائع أثارت مسائل كبرى ، فوضعت نظريات كثيرة ، واستعين كثيراً بالطريقة الاختبارية التي طبقت تطبيقاً مطرداً على تعقد الظواهر الحيوية ، وارتسمت فكرة عامة جديدة : ويمكن اعتبار كل عمل القرن اعداداً لمذهب التطور المعاصر .

بوفون

كان بوفون (١٧٠٧ – ١٧٨١) احد اوسع عوامل التقدم نشاطاً .كان لكلير الذي ُقلد لقب « الكونت دي بوفون » ، ابن مستشار في مجلس قضاء ديجون ، ودرس في سن مبكرة علم الرياضيات وعلم الطبيعة ، وارسطو ، وديكارت ، وليبنيز ، ووضع بيانات علمية ونشر ترجمات كتب علمية . عين بعد ذلك امين حدائق الملك (حديقة النباتات الحالية) فتمخض عقله بفكرة « تاريخ طبيعي » واسع جداً كرس له حياته منذ ذاك التاريخ . منذ السنة ١٧٤٩ حتى السنة ١٧٨٩ ظهر منه ٣٢ مجلداً بقطع ١/٤ في الارض والانسان ورباعيات القوائم والطيور والمعادن . ثم الجز « لاسيبيد » ، بالاستناد الى ملاحظات بوفون ، « تاريخ الأفاعي » (١٧٨٩) . وطبيعي ان بوفون قد استعان بعدد كبير من المساعدين نخص بالذكر منهم « دوبنتون » الذي عاونه في موضوع رباعيات القوائم . ولكن بوفون تولى شخصياً تحرير الاقسام التي استهوته استهواء خاصاً : « نظرية الارض » ، « تاريخ الانسان الطبيعي » (١٧٤٩) ، « تواريخ الطبيعة » (١٧٧٨) ، « علم المعادن » . كان عالماً بطبقات الارض وعالما بطبائع الانسان في الدرجة الاولى .

تناول النقدُ بوفون كما تناول كافة واضعي المؤلفات الجامعة والنظريات الكبرى والنظريات الجريئة والعلماء الذين هم علماء وادباء معاً . اخذ عليه تصنعه وتفخيمه . ولكن الاقسام التي ُيستشهد بها لاصدار هذا الحكم هي من وضع بعض معاونيه . فهو حين يكتب يفرغ ما يكتبه في قالب بسيط ينبض بعظمة حقيقية . « ... ان حركة الموجات الهادئة والقوية وتبسطها المستفيض والجميل يجملان من هذا الكتاب العلمي في بعض اجزائه ،كه تواريخ الطبيعة،مثلا،

قصيدة تتصف بالروعة والجلال » . يروى انه حدث له ان صرف صبيحة كاملة في تركيب جملة واحدة ، وانه كان قادراً على تبرير استعمال كل كلمة . فجدير بنا من ثم ان نهنئه بهذه المقدرة. واذا كانت لغة بوفون متصفة بالعظمة والاسهاب والنبل ، فرد ذلك الى انه طرق مواضيع عظيمة وشعر شعوراً عميقاً بعظمتها . واخذ عليه ، وذلك امر مهم صدر احياناً عن رجال علم من مصف ريومور ، انه عالم مزيف ، وباني مذهب جمح به الخيال ، وانه يكاد يكون مجرماً بحق الفكر . اما الواقع فهو انه قد لاحظ واختبر طوال حياته ، واحترم الوقائع خير ما يكون الاحترام ، واجلى برهان على ذلك انه غير على الدوام نهجه وغط حكمه ، وانه حين ثبت له ، من تقدم دروسه ، ما تنطوي عليه « نظرية الارض » من نقص واخطاء ، اعاد كتابتها ، بعد مرور ٢٩ سنة ، باسم « تواريخ الارض » . ولكنه لم يكتف ، على غرار العقول الضعيفة والافئدة الخابية ، بالحقائق الجزئية : بل حاول ان يدرك ويرى مجموع الوقائع ويمسك بالروابط التي تصل بينها . لقد كان قوّة من قوى الطبيعة . اولع بالملذات والمآكل الفاخرة وجمع المال ولعه بالحقيقة ، وقضى اوقاته بين « مونبار » وباريس ، واختلف الى الصالونات وعاشر المثلات ، وضارب في تجارة العقارات ، واستثمر المحاجر والغابات ، وادار معملاً للحديد ، واستطاع على الرغم من كل ذلك ان يكرس اكثر اوقاته للعمل العلمي . ازدرى بالمجادلات ، وواصل درس الوقائع بهمة لا تعرف الكلل ، وقال ، مغفلاً صفة نادرة من صفات الفكر ، ان العبقرية ليست سوى قدرة كبرى على الصبر وان فخره في انه سلخ خمسين سنة في مكتبه . شغفه بالعلم ادخل الحياة الى كتبه بتلك الحرارة وتلك البلاغة اللتين جعلتا منها احد اكثر المؤلفات قراءة واوسعها انتشاراً في دور الكتب ، ومؤلفاً ربما كان له اكبر دور في بعث الميل الى العلوم الطبيعية والروح العلمية ، كما انه اتاح ، بفضل الطريقة التي نادى بها والوقائع التي جمعها والآراء التي اقترحها والنظريات التي بسطها ، قيام عدد كبير من الاعمال ونشوء فروع علمية جديدة ! الجغرافية الحيوانية ، علم طبائع الانسان ، علم خصوصيات الشعوب ، علم الاحاثة .

واسهم بوفون في تحرير التاريخ الطبيعي من كل تأثير عقلي فرضي وردّه الى درس انتقالات المادة . كان خصماً عنيداً للعلل الغائيـة التي كان يطيب للأب « بلوش » ، مؤلف « مشهد الطبيعة » (١٧٣٢ – ١٧٤٠) الذي عرف شهرة كبرى ، الاسترسال فيها : « ملّح الله البحر لأنه يصبح مضراً بدون ملح .

... وخلق المد والجزر حتى تدخل السفن بسهولة الى المرافيء ... وكان من شأن اللون الاحمر واللون الابيض ان يعمي البصر ، ومن شأن اللون الاسود ان يثير الحزن ، لذلك وجد اللون الاخضر في الارياف لمساعدة الرؤية، كما وجدت درجات مختلفة من اللون الاخضر لبهجتها.

و أليس القول ان هنالك نوراً لأن لنا أعيناً ، وان هنالك اصواتاً لأن لنا آذاناً ، او القول

ان لنا آذاناً وأعيناً لأن هنالك نوراً واصواتاً ، ترداد لقول واحد، او بالحري ما معنى هــذا القول ؟ ، وقد لاحظ من جهة ثانية في اكثر الحيوانات « اجزاء لا طائل تحتها ولا فائـدة منها او اجزاء زائدة ، تهدم فكرة نظام الحيوانات المخلوقة بفعل عقل كلّي الكمال وكلّي القدرة .

ناهض الرغبة المستهجنة في نسبة كل شيء الى هدف معين ، وعدم الاكتفاء « بمعرفة كيفية الاشياء والطريقة التي تسلكها الطبيعة في عملها » ، واستبدال « هــذا الشيء الواقعي بفكرة لا طائل تحتها بمحاولة التكهن بسبب الوقائع والغاية التي تتوخاها من عملهـا » . وانتهى الى هــذه النتيجة :

« ليست العلل الغائية ما يمكّننا من الحكم في اعمال الطبيعة ؛ يجب الا ننسب لها مثل هذه المقاصد الصغيرة واخضاعها في عملها الى لياقات أدبية ، بل ان نبحث عن كيفية عملهـا فعلاً وان نستخدم ، بغية معرفتها ، كافـة « العلائق الطبيعية » التي يوفرها لنـا التنوع الكبير في نتائج عملها ».

ان ردّ كل شيء الى معرفة « العلائق الطبيعية »، دون اي تساؤل آخر، كان بالنتيجة تفريجاً عن الفكر وتأسيساً لعلم موضوعي . ولكن بوفون لم يتملص الا ببطء من الآراء القديمة : فهـو قد استعاض عن الله واللاهوت بمفهوم « الطبيعة » الميتافيزيقي . حين نذكر الطبيعة نجعل منها نوعاً من كائن مثالي درجنا على ان ننسب اليه ، كعلة ، كافة المعلولات الثابتة ، كافة ظواهـر الكون » . افترض ان لها مقاصد ومشاريع واخطاء ورغائب فجائيـة ؛ وانها تجرب وترسم وتحاول . الا أن مفهومه قد انجلى شيئاً فشيئاً . لاحظ أن الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً لأنها قد تصبح كل شيء ، ولا كائناً لأنها قد تصبح الهاً . « الطبيعة هي « مجموع النواميس » التي وضعها الخالق . » ومجموع النواميس ، أي مجموع العلائق الشاملة والضرورية بـين الوقائع ، يعني نظرة موضوعية كلها .

قبل بوفون ، سبق لريومور ، في « تاريخ الحشرات » (١٧٣٤ – ١٧٤٢) ، وفي بياناتـه ومراسلاته ، ان نصح بدرس الطبيعة نفسها درساً مباشراً واستثبات كل ما يرويه المؤلفون ، حتى أرسطو وبلين . أما بوفون فلم يرد سوى معرفة الوقائع وأوحى احترام الواقع :

ان تخيل نظام أسهل من وضع نظرية ... المؤرخ مخلوق ليصف لا ليبتدع ... يجب الا يجيز لنفسه أي افتراض ... ولا يجوز أن يستخدم مخيلتـه الا للتوفيق بين الملاحظات وتعميم الوقائع وتأليف مجموع منها يوفر للعقل ترتيباً منسقاً للأفكار الواضحة والعلائق المتسلسلة .

الجيولوجية

وهكذا فانه قد جُر في الجيولوجية الى نبـذ كل التفسيرات التي لا تفرضها الوقائع فرضاً : غياب القمر ، وجود سيارة اختفت ، طوفان شامل ؛ « انها افتراضات يسهل اطلاق العنان للمخيلة في موضوعها ، اذ أن مثل هذه العلل تسبب كل ما نريد

ان لسبب » . لم يرد سوى « مطولات تحدث كل يوم وحركات تتعاقب وتتجدد بدون انقطاع ، وعمليات دائمـــة تتكرر أبداً » . هذه هي نظرية « العلل الراهنة » التي تغلبت على نظرية الكوارث .

حين بدأ دروسه الجيولوجية ، كانت الفكرة العامة ، على الرغم ممـــا انجزه بعض علماء الطبيعة الممتازين من أعمـال جزئية مفيدة ، هي هي الفكرة الواردة في حرف سفر التكوين : صنع الله العالم في ستة ايام ، وخلق القارات والحيوانات بمرة واحـدة ، كما رآها الناس في القرن الثامن عشر وكما كانت منذ القدم ، باستثناء تغييرات جزئيـــة طفيفة يرد حدوث معظمها الى الانسـان . هذه كانت النظرية التي اطلق عليها فيما بعد اسم نظرية الثبوت . عُرفت آثار عضوية متحجرة كثيرة ، ولكنهم تخلصوا منها بنسبتها الى خلق الطبيعة العوب الـــتي تلهت بإعطاء الحصباء البسيطة أشكالاً أشبه بالاصداف والأوراق النباتية والأسماك ، أو باعتبارها أثراً من آثار الطوفان . اما الذين لم يقتنعوا فلم يتجاسروا على مناقضة حرف التوراة وآثروا الاعتصام بالصمت .

أراد بوفون ألا يخشى سوى الخطأ ، والا يبتغي سوى الحقيقة ، والا يعرف سوى الوقائع . منذ السنة ١٧٤٩ ، عين للآثار العضوية المتحجرة ، في « نظرية الأرض » ، أصلهـــا الحقيقي ، ولكرتنا الأرضية عمراً حدّده بـ ٧٤٠٠٠ سنة بدلاً من الـ ٦٠٠٠ الـتي حدده بها اللاهوتيـون ، وأظهر تطوراً . واستند في السنة ١٧٧٨ ، في « تواريخ الطبيعة » ، الى خمسة « رقــــائع » وخمس « آيات » .

بيّن الوقائع :

« الأرض ترتفع عنـد خط الاستواء وتنخفض عند القطبين بالنسبة التي تفرضها نواميس الجاذبية والقوة المبعدة عن المركز .

الكرة الارضية تتميز بحرارة داخلية خاصة بها مستقلة عن الحرارة التي قد تصلها من أشعة الشمس .

الحرارة التي توصلها الشمس الى الأرض خفيفة نسبياً اذا ما قورنت بحرارة الكرة الأرضية الخاصة ... وقد لا تكون الحرارة المرسلة من الشمس كافية لابقاء الطبيعة حية .

المواد التي تؤلف الكرة الأرضية هي على العموم من طبيعة الزجاج ويمكن أن تحوّل كلها الى زجاج .

يوجد على كل سطح الأرض ، وعلى الجبال نفسها حتى ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ « تواز » كمية ضخمة من الأصداف وبقايا أخرى من نباتات البحر وأسماكه » .

ووصف آيات الماضي :

« اذا ما فحصنا الأصداف والآثار العضوية البحرية التي تستخرج من الأرض في فرنسا وانكلترا وألمانيا وبلدان أوروبا الأخرى ، تبين لنا أن قسماً كبيراً من الانواع الحيوانية التي تعود اليها هذه البقايا لا يوجد الا في البحـار المتاخمة ، أو لا وجود له في أيامنا هذه ، او لا يوجد الا في البحار الجنوبية .

نجد في سيبيريا وفي الأصقاع الشمالية الأخرى من أوروبا وآسيا من الهياكل العظمية والأنياب وعظام الفيلة وأفراس الماء والراميس ما يؤكد لنا أن أنواع هذه الحيوانات التي لا يمكن ان تتكاثر بالتناسل الا في المناطق الجنوبية قد وجدت فيا مضى وتكاثرت في المناطق الشمالية .

نجد انياب وعظام فيلة ، كما نجد أنياب أفراس ماء ليس في مناطق قارتنا الشمالية فحسب ، بل في مناطق شمالي اميركا ايضاً ، مع أن أنواع الفيل وفرس الماء لا توجد في قارة العالم الجديد هذه » .

وقد خيل اليه ان هـذه الوقائع الراهنة وبقايا الماضي هذه تفرض عليه فكرة تطور في الزمان رسم خطوطه الكبرى . يقسم تاريخ الأرض الى سبعة عهود . العهد الأول هو عهد الميع والانتقاد : « حين اتخذت الأرض والسيارات شكلها » ؛ والثاني هو عهد الابراد : «حين جمدت المادة وكونت خوالد الكرة الداخلية ، كما كوّنت الكتل الكبرى القابـلة للتحويل الى زجاج والموجودة على سطحها » ؛ والثالث : « حين غمرت المياه قاراتنا » ؛ والرابع : « حين تراجعت المياه وأخذت البراكين تثور وتقذف الحمم» ؛والخامس : «حين قطنت الفيلة وحيوانات الجنوب الأخرى مناطق الشمال » ؛ والسادس : « حين تم انفصال القارات» ؛ والسابع : « حين غـدت قدرة الانسـان عوناً للطبيعة » .

وهكذا فقد غدا النهجُ درسَ انتقالات المادة ؛ والمبدأ الاساسي المسلم به دون برهان ديمومة النواميس الطبيعية التي كانت ظواهر الماضي بموجبها مماثلة لظواهر الحاضر ؛ والفكرةُ العامـــة التطورَ الدائم ، التحول البطيء في الزمان : فتأسـست بذلك الجيولوجية الحديثة .

إن فكرة التطور هذه ، التي نحن ألفناها ، قد قلبت طرائق التفكير وصادفت مقـاومات كثيرة . قلقت الكنيسة : فبوفون قد دافـــع عن رأي معاكس لرأي سفر التكوين . في ١٥ كانون الثاني ١٧٥١ ، زيفت كلية اللاهوت ١٦ رأياً جديـداً وأوجبت استدراك القول . أعلن بوفون أنه يؤمن « إيماناً ثابتاً بكل ما يرويه التاريخ عن الخلق »وانه يتخلى عن كل ما قد يخالف رواية موسى » . وتابع طريقه . ولكن اناساً من امثـال فولتير نفسه لم يستطيعوا فهم بوفون : فهو قد تصور عللاً دائمـة أحدثت المعلولات نفسها في كافة الازمنة ، دون ان يكون هنالـك تأثير لحـالة الاشياء في عهد سابق عليها في عهد لاحق ، وعنـد في ان يرى في الآثار العضوية المتحجرة اصدافـا احضرها حجاج الحملات الصليبية من سوريا او اسماكا نبذهـا الرومان من موائدهم لانها غير طازجة ، دون أن يتمكن من ان يفسر ، في هـــذه الحال ، كيف أن الآثار المتحجرة تكتشف أرصفة قد تتجاوز ١٠٠ فرسخ طولاً .

التصنيفات النباتية والحيوانية

لقد انجز خلال هذا القرن عمل عظيم جداً هو تصنيف الكائنات الحية اجناساً وانواعاً . وكان التصنيف ضرورياً للاسراع في تشخيص النباتات التي عرف منها ١٨٠٠٠ في اواخر القرن السابق ، والحيوانات التي كان عددها يرتفـع ارتفاعاً مطرداً . ولكن علماء الطبيعة قد عنددوا في اجراء هذا التصنيف لانهم ابتغوا من وراء

ذلك اكتشاف مخطط الله ايضاً .

في اوائل القرن استخدم علماء الطبيعة التصنيف النباتي للفرنسي « تورنفور » والتصنيف الحيواني للعالم اليوناني أرسطو . أدخل عليهما السويدي « ليِنّيه »(١٧٠٧ – ١٧٨٠)، وهو ابن راعٍ بروتستانتي ، تحسيناً كبيراً . فان كتابه « انظمة الطبيعة » الذى نشر في السنة ١٧٣٥ قد اعيد نشره منقحاً ١٣ مرة حتى السنة ١٧٨٨ ونشر معه عدة مؤلفات اخرى . في علم النبات وزع ٧٠٠٠ نبات على ٢٤ طائفة وفاقاً لعدد ابرها وترتيبها ونسبتها واجتماعها ؛ وبسّط المصطلحات النباتية تبسيطاً كبيراً . كان علماء الطبيعة قد درجوا على تضمين اسم النوع خطوط الوصف الاساسية . فكان يقتضي ذاكرة اعجوبية لحفظ هذه الاسماء الطويلة ، وبات التصنيف يرهق العقل بدلاً من ان يفرّج عنه . اما لينّيه فقد اعتمد المصطلحات الثنائية العنصر : اسم للجنس وآخر للنوع ؛ فغدت الطريقة سهلة ؛ وهي لا تزال حتى ايامنا هذه اساساً للمصطلحات النباتية ؛ لكن بذلك خلفاءه من القيام بعملهم الوصفي العظيم . وادخل في علم الحيوان بعض التحسين على تصنيف ارسطو دون ان يقلب رأساً على عقب ، فأخذ بعين الاعتبار الاعضاء الداخلية ، وكان اول من ميز بين الحيوانات الولودة بواسطة الاثداء وصنف بين الضرعيات ، الحوتيات التي صنفت حتى ذاك التاريخ بين الاسماك .

وعى اهمية عمله وقدره واكبره . فقد نظر الى الانواع كما الى كيانات حقيقية متميزة بفوارق متباينة ردائمة هي الصفات النوعية . كل نوع يطابق عملاً من اعمال الخالق الذي عين له كافة الخصائص الضرورية وجعله ثابتاً ودائماً . فمهمة عالم الطبيعة الاولى تقوم في جرد الانواع لأنه بذلك يصف عمل الله العجيب : علم التنظيم هو العلم الاسمى . ان لينّيه لعمرى هو فيلسوف مذهب الثبوت .

بيد ان عمله بقي ناقصاً ، فهو قد اختار ما يختص بالابر مبدأ التصنيف لأنه اعتقد بأن تحديد الصفات على هذا الشكل يضفي عليها قيمة كبرى؛ كما فكر بالتوصل الى تصنيف طبيعي. اما في الواقع فكان اختياره تحكمياً ، وبقيت ابواب تصنيفه صعبة : صنف اشجار الورد ثلاثة ابواب مختلفة وادخل شجرة التين في باب نبات النار . وفي علم الحيوان ، جمع في باب الحيوانات الضارية النمر رالاسد وثعلب الماء والفقمة والكلب والقنفذ والخلد والخفاش ! وادخل في باب الافراس الحصان والفيل وفرس الماء وفأر السم والخنزير ! لم يبعث نظامه ارتياحاً في النفس ولم يصادف قبولاً وقناعة : فظهر عشرون نظاماً غيره ، افضت كلها الى تعمق في درس الصفات المميزة وتقدم عظيم في الوصف والطرائق ، واتاحت الاقتراب شيئاً فشيئاً من الطريقة الطبيعية . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاكتشافات بدت وكأنها تزيل الفروق بين العوالم . لقد ساد الاعتقاد ابـــدأ بان المرجان نبات بحري . فأثبت احد اطباء مرسيليا ، «بيسونيل»، في السنة ١٧٢٧ ، ان هذه النباتات « حشرات تكون المرجان » . ودرس الانكليزي«ترمبلي»،

في السنة ١٧٤٠ ، نباتاً مائياً اتضح له شيئاً فشيئاً انه حيوان هو المدرية الخضراء التي توفق في اختباراته عليها الى الحصول على التولدات الحيوانية المعروفة الاولى : قطعت المدرية فكوّن كل قسم منها مدرية كاملة ؛ لا بل انه توفق الى اجراء القمح الحيواني والحصول على مدريات ذات رأسين او عدة رؤوس . كان صدى عمله عظيماً واتجه الانتباه الى هذه الحيوانات التي كان تصنيفها من الصعوبة بمكان . واخذت تبرز فكرة دوام الطبيعة .

رأى بوفـــون بوضوح ، وربما كان اول من رأى ، طابع التصنيفات الصنعي وهاجـم ليلّيــه بعنف . واذا مـــا هو انتهى الى التصنيف ايضاً ، تفريجاً عن العقــل ، فانه لم يكن قــط مقروراً :

يرون ان الاوس نوع من الهر ، والثعلب والذئب نوع من الكلب وقط الزباد نوع من الفرير ، والخنزير الهندي نوع من الأرنب البري ، والجرذ نوع من القندس ، ووحيد القرن نوع مــن الفيل ، والحمار نوع من الحصان ، وكل ذلك لأن هنالك بعض النسب الصغرى في عــدد اثداء هذه الحيوانات واسنانها او بعض التشابه في قرونها ... افليس القول ان الحمار حمار والهر هر اسهل واصح واقرب الى الطبيعة من ان نزيد ... الحمار حصاناً والهر أوساً ؟

بيد أن الفرنسي « آدنسون » (١٧٢٧ – ١٨٠٦) هو من اهتــــدى الى طريقة التصنيف الطبيعي وقوّض أسس الايمان بواقع النوع . ففي كتابه « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧)، وفي مؤلفه الهام « فصائل النباتات » (١٧٣٦) ، شدّد الكلام على الاشكال المنظمة . لم يستطع أحد « اثبات وجود الطوائف والأجنــاس والأنواع في الطبيعة » ، لأن « ليس هنالك سوى كائنــات فردية تتعاقب ، منصهراً بعضها في البعض الآخر ، اذا صح التعبير ، بواسطة الفروق المميزة » . واذا ما فحصنا الفروق بدقة ، توصلنا في النهاية الى تميز « الخطوط الفاصلة » . وربما لم يكن بعضها ، مما هو بارز ويكون « فراغاً» بين الكائنات ، دلالة اختلاف في النــوع ، بل ان سببها الوحيد « هو جهلنا الكائنات الوسيطة التي تصل بينها ، أي فقدان هذه الكائنات بالذات في تعاقب الأزمنة وبفعل تقلبات وجـــه الارض » . ولكن لما كانت الضرورة العملية توجب التصنيف ، بات لزاماً ، على الأقل ، احترام « الترتيب الذي تبقي عليه هذه الخطوط الفاصلة فيما بينها » ، واتبــاع « طريقة الطبيعة او ... الطريقة الطبيعيــة ... وحتى اذا لم يكن من وجود الطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، بالمفهوم الذي يعنيه المنهجيون المعاصرون ، فقــد يمكن استناداً الى مدى الفراغات ، اكتشاف تقسيمات متشابهة يجوز ان تحمل اسمهــا في طريقة طبيعية » . تخلى آدنســون عن كافــة العادات وانكب على فحص المجموعات : فالمجموعة هي الواقع . « وصفتُ في البدء كل نبات وصفاً كامــلاً مخصصاً لكل من أجزائه ، بكل تفاصيله ، مقالاً خاصاً ؛ وكلما مررت بأنواع جديدة تقوم بعض الصـــلات بينها وبين ما سبق وصفه ، وصفتها الى جانب الاولى ضارباً صفحــاً عن أوجه التشابه ومدوناً الفوارق فقط . تبين لي من

مجموع هذه الأوصاف المقارنة ان النباتات تنسق من ذاتهـــا في طوائف أو فصائل لا يمكن أن تكون قياسية أو تحكمية من حيث أنها غير مبنية على جزء واحد أو عدة أجزاء ... بل على كافة الاجزاء معاً » . فكانت هـــذه الملاحظات حول انتقال غير محسوس من فئة الى أخرى طريقاً سهلة نحو مذهب التحول ؛ كما ان تحقيق واقع مستمر يقطّعه عقلنا أجزاء لأجـــل راحته الشخصية ، وكما لو كان ذلك بفعل ضرورة يستلزمها تركيبه ، لم يكن منطوياً على نتائج فلسفية ضئيلة .

التناسل الذاتي

حاول القرن الثامن عشر ان يتغلل في أسرار هـــذه الأجهزة العضوية التي توفر له وصف ظاهرها . فما هو أولاً مصدرها يا ترى ؟ كان القرن السابق قد هدم الاعتقاد بالتناسلات الذاتية فيما خص الديدان والذبان وكافـــة الحشرات . فقد اثبتت بعض الاختبارات انها تولد جميعها من تزاوج ذكر وأنثى . كما كان قد اكتشف الجراثيم بواسطة المجهر . الا أن بوفون رجع في السنة ١٧٤٨ ، بغية تفسير مصدرها ، الى نظرية التناسل الذاتي الموافقة لرأيه في التطور . طلب الى الاب « نيدهام » القيام بالاختبار . أعد الاب نيدهام بعض مرق اللحم المشوي « الساخن جداً » في قنانٍ سكب فيها ماء غالياً وسدّها سدّاً محكماً ثم وضعها في رماد «ساخن جداً». بعد مرور أربعة أيام ظهرت على التوالي خيوط عفن» وغبيرات» وخمائر ، وجراثيم ، ونقاعيات . فتكلم نيدهام عن « قوّة انمائية » في المادة تجعلها تنتقل الى حالة النبات ثم الى حالة الحيوان .

حينذاك أجرى عـــالم الطبيعة الايطالي « سبالنزاني » (١٧٢٩ – ١٧٩٩) سلسلة من الاختبارات الخليقة بباستور . اشتبه في أن نيدهام لم « يعرّض الآنية لدرجة من الحرارة كافية لافناء الجراثيم الموجودة فيها » . يضاف الى ذلك انه لم يسدّ قنانيه الا بالفرق « الذي هـــو مسامي جداً » ، فلم يتمكن من الحيلولة دون دخول الجراثيم الى منقوعاته . في السنة ١٧٦٥ ، سكب سبالنزاني منقوعات في قنان ختمت اعناقها باذابة الزجاج ثم وضعت في الماء الغالي طيلة ساعة كاملة . فلم يظهر أي « حيوان صغير » . أما اذا أبقيت القناني مفتوحة أو سخنت لفترة قصيرة ، فتتكاثر الحيوانات الصغيرة بسرعة .

اعترض نيدهام على ذلك : اضعف سبالنزاني القـــوة الانمائية بغالاته في التسخين . فسخن سبالنزاني قنانيه حينذاك طيلة ساعتين في المـــاء الغالي ، ولكنه لم يحكم سدّها : ظهرت الحيوانات الصغيرة ، وما كانت الحرارة من ثم لتضعف أية قوة ، وبالتالي كان الاختبار الاول صحيحاً ومقبولاً .

زعم نيدهام آنذاك ان سبالنزاني قلل في المـــرة الأولى كثافة هواء القناني بسدها باذابة الزجاج ؛ وهذا هو سبب عـــدم ظهور الحيوانات الصغيرة . استخدم سبالنزاني قناني تنتهي بانبوب شعري . اقفلها باذابة الزجاج وبقطع الانبوب سريعا : لم يطرأ من ثم أي تغير عـلى

ضغط الهواء . أعاد اختباره الأول في هذه الثاني : فجاءت النتيجة مماثلة .

استطاع سبالنزاني أن يؤكد ما يلي: « القوة الانمائية ليست سوى نتاج المخيلة». والحيوانات الصغيرة « تتولد من « بذور » تقاوم قوة النار بعض الوقت ولا تلبث في النهاية أن تموت . الا أن فكرة التطور والمادية ستبعث الاعتقاد بالتناسلات الذاتية . وكان مقدراً لباستور « وبوشيه » أن يجددا الجدال الذي قام بين نيدهام وسبالنزاني .

التغذية

كيف تعمل هذه الاجهزة العضوية عملها يا ترى ؟ فصل الانكليزي « هايلز » في كتابه « علم سكون النباتات » (١٧٢٧) الاختبارات التي سمحت له بالتأكيد أن انتقال النسغ صعداً يجري بسبب الانتضاح ، وان الأوراق هي مركز هذا الانتضاح تحت تأثير نور الشمس . وفي أواخر القرن أتاح تقدم الكيمياء اكتشاف كيفية تكوين النباتات لمادتها بذاتها . وفي السنة ١٧٧١ لاحظ بريستلي أن ساق النعناع الموضوع تحت اناء زجاجي مقفل اقفالاً محكماً ينقي الهواء . وبعد أعمال لافوازييه ، ادرك العلماء ان النباتات تستولي على غاز الكربون في النهار وتحتفظ بالكربون وتتخلى عن الأوكسجين : الكربون يبقى متحداً بالنبات .

اما فيما خص الحيوانات فقد قال القرن الثامن عشر ، مدة طويلة ، بآراء ديكارت : الجسم آلة ، أو اجتماع أنابيب ، وغربول ، ومنافيخ ، ومضخات ، ومناخل . لم يكن هنالك أية فكرة عن الظواهر الكيميائية . الصفراء ، والبول ، والحليب كل ذلك يتكون في الدم . الدم يمر في الغدد التي ليست سوى مصاف لإفراد هذه الاخلاط . ولما كان كل شيء آليا ، فمن الممكن اخضاع كل شيء للحساب . برهن الانكليزي « كيل » بطريقة الإستنتاج ان جسم انسان يزن ١٦٠ لبرة يشتمل على ١٠٠ لبرة دما و ١٠ لبرات عظما و ١٧ لبرة شحما . وكان ذلك خطأ غير نادر يقوم «بالاستنتاج» باعتماد طرائق علم أكثر بساطة وتقدما ، في علم أحدث عهداً وأكثر تعقيداً ، غير آخذ بعين الاعتبار الا ما هو مشترك بين العلمين ومهملاً ما هو خاص بالعلم الأكثر تعقيداً . وهذا ما كان سيحدث ، بعد ذلك بزمن ، بتطبيق علم الحياة على درس المجتمعات البشرية ، والحصول بهذا التطبيق على نتائج غريبة .

تقدم « بارتيز » ، في السنة ١٧٧٨ ، بنظرية « الحيوية » : ان مجرد حركة القوى الطبيعية لا يمكن ان يفسر ظواهر الحياة . هذه الاخيرة تنجم عن فعل مبدأ حيوي لا تكتشف نواميسه الا بدرس خصائص الاعضاء ، بحسب الروح النيوتونية . فكان ذلك وعيا لنوعية ظواهر الحياة ونبذاً لكافة النظريات الميتافيزيقية في الحياة. وقد غدت مونبلييه مركز مذهب الحيوية.

تحققت النتائج على ايدي المختبرين . فقد برهن ريومور ، في السنة ١٧٥٢ ، وسبالنزاني في السنة ١٧٨٠ ، ان الهضم كيميائي عند الحيوانات الغشائية المعدة، بينما زعم سابقوهما انه يرد الى عملية السحق التي تتولاها عضلات المعدة . فأمّننا الاطعمة ضد عملية السحق هذه بواسطة

انبوب صغير من التنك احدثا فيه ثقوباً كثيرة ، ووجدا ان الاطعمة قد هضمت . ثم وضعـا اسفنجة في الانبوب وجمعا العصارة المعدية . وضع سبالنزاني هذه العصارة في انابيب ملأى باللحم سدّها سدّاً محكماً وتأبطها طيلة ثلاثة ايام ، فوجدبعدها ان اللحم كان قد هضم هضماً تاماً : فكان ذلك اول هضم اصطناعي .

ساد الاعتقاد حتى السنة ١٧٧٥ ان الهواء يدخل الى الدم لتبريده أو لتزويده بمبدأ حي . في تلـك السنة برهن بريستلي ان التنفس ينجم عن تبادل غازي . ثم جاء لافوازييه فحل في السنة ١٧٧٧ ، باختبارات معدودة ، المسألة التي عطف عليها الاطباء وعلماء الطبيعة منـذ قرون عديدة : فبرهن ان الدم ، في الرئتين ، يمتص الاوكسجين ويتخلى عن حامض الكربون . ومنذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ ، طبق لافوازييه ، مـع لابلاس ثم مع سيغين ، مقياس كية الحرارة على درس الحرارة الحيوانية ،وأثبت ان التنفس هو السبب الرئيسي للمحافظة على حرارة الجسم ، وان العرق يبرد الجسم حين يكون بحاجة الى ذلك ، وان الهضم يعيد الى الدم مـا يفقده بالتنفس والعرق .

الاخصاب

كيف تتناسل الكائنات الحية ؟ أدت اختبارات عديـدة الى اكتشاف تزاوج النباتات: يتم الاخصاب بسقوط غبار طَلْع ذكور الازهار على اناث الازهار . تحققت هـذه النتيجة منذ السنة ١٧٥٠ . ولكن العلماء فشلوا فشلاً ذريعا في التغلل في اسرار تناسل الحيوانات . لوحظت وقائع غريبة من أمثال تناسل الارق الذاتي ، التناسل بواسطة العذارى المخصبة ، الذي لفت ريومور الانتباه اليه . اجريت بعض الاختبارات . ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة واحدة .

« ان جاذبية متساوية وعمياء موزعة على المادة كلها قد لا تفيد في تفسير كيفية تركب هذه الاجزاء بغية تكوين جسم غاية في البساطة . إذا توفرت لها جميعها النزعة نفسها أو القوة عينها لتتحد بعضها بالبعض الآخر ، فلماذا يكون هذا البعض عينا وذاك البعض اذنا ؟ لماذا هـذا الاحكام العجيب ؟ ولماذا لا تتحد كلها اتحاداً مختلطا ؟ » .

وبسبب جهلهم كل شيء من ذلك ، تعلق العلماء بنظرية التكون السابق وتداخل الجراثيم التي لا تتعرض للمسائل المطروحة : اشتمل الانسان الاول في ذاته والحيوانات الاولى في ذاتها على كافة الاجيال اللاحقة متكونة ومتداخلة كلها. وقد حسب أحد العلماء ان ٢٠٠ جيل تمثل ٢٠٠ مليار من الكائنات البشرية المتداخلة على هذه الصورة ! انتقد بوفون هذا الرأي وهذا المفهوم انتقاداً لاذعا ، ولكن العلماء انحنوا امام « حكمة العلي التي لا تدرك » .

على الرغم من هذا الاخفاق اخذت فكرة استمرار الطبيعة تتقدم رويداً رويداً . فـان طرائق الملاحظة والاختبار التي نجحت ذاك النجاح الكبير في درس الاجسام الخام ، قد نجحت

وحدها ايضا في درس الاجسام العضوية ا وقد آل عـدد كبير من الظواهر الحيوية الى ظواهر طبيعية وكيميائية ، الى حركات من حركات المادة . واعتقد بعضهم بأنه سيأتي يوم يؤول فيه اليها كل ما لم يفسر بعد : فكانوا ماديين تماما .

الاعصاب

استخدم القرن الثامن عشر مفهوم الحركة الانعكاسية الذي طلع به الانكليزي « ويليس » في القرن السابع عشر . فان « استروك » من مونبلييه ، قد درس في بيانيه العائدين الى السنة ١٧٢٣ والسنة ١٧٣٦ ، « القابليات » أي ردود الفعل التي تؤدي ، عند تهيج احـد الاعضاء ، الى تقلص أو تشنج في عضو آخر : اغلاق الجفون ، السعال ، العطاس ، الدواع ، المص،البلع . فسّرها بحركة مزدوجة من « التآمير » التي تصعد من المناخر باتجاه الدماغ ، فتصطدم بليفته وتسلك طريق عصب الحجاب الحاجز . يتحرك هذا الاخير بعنف فيحدث العطاس .

ولكن ما زال كل شيء خاضعاً للدماغ. في الثلث الأخير من القرن حدثت ثورة كوبرنيكية: اكتشاف مراكز « حسية حركية » تعمل بدون الدماغ . فإن « هويت » ، من « ادنبرا » ، قد حصل على حركة انعكاسية ، اثناء اختباراته على ضفادع مقطوعة رؤوسها ، على الرغم من عدم وجود الدماغ ، وبرهن على أن النخاع الشوكي هو ما يسبب هذه الحركات : فهي لا تحدث بعد تعطيل هذا الدماغ (١٧٤٦) . ورأى « اونز » ، الاستاذ في « هال » ، أن الجسم مركب من عدة « آلات حيوانية » تنبض بقوة نوعية خاصة بها وتحدث مباشرة وفجأة حركات حيوانية تقي جسم الحيوان بدون أي تدخل من الدماغ ، وبدون وعي وبدون ادراك . تؤمن الاتصال بين هذه « الآلات الحيوانية » عقد وضفائر عصبية تعكس الانطباعات الخارجية وتحدث الحركات الانعكاسية (١٧٧١) .

ورأى « بروشاسكا » ، الاستاذ في براغ ، ان « المركز الحسي المشترك » (الانتفاخ الفقاري والنخاع الشوكي)، يؤمن ، بمعزل عن الدماغ ، بقاء الجهاز العضوي ودفاعه ضد اسباب الفناء على انواعها . تسبب الأعصاب الحسية ، بفعل اتصالها بهذا « المركز الحسي المشترك » ، تحول الانطباع الى حركة . ويتم الانطباع الحسي عند مستوى عقد الاصول الخلفية للأعصاب الفقارية .

تحاشى هؤلاء العلماء الثلاثة التعرض لطبيعة الخلط العصبي والقوة العصبية — وتبنوا الطريقة النيوتونية فاكتفوا بدرس خصائص الاعصاب لمحاولة تحديد نواميس حيوانية دونما اكتراث للآلية الكرتزيانية والنظريات الطبيعية ∴ إلا أن الأدنى لا يفسر الأعلى . ولعلم الحياة نسقه النوعي ونواميسه الخاصة .

مذهب التحول

بيد أن فكرة تطور الكائنات وتبدلاتها البطيئة والتدريجية والمستمرة وقابليتها الكبرى للتغير كانت سائرة قدماً ومؤدية شيئاً فشيئاً إلى مذهب التحول . وقد أوحت وقائع كثيرة بهذه الفكرة : الحيوانات المتحجرة المجهولة في ايامنا هذه ؛ الطابع

الضمني الذي يرتديه النوع والوسائط الكثيرة بين الانواع المتقاربة ؛ لجاجات علم التشريح المقارن على يد الفرنسيين « دوبنتون » الذي شرّح لبوفون ، بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٧ ، ١٨٣ نوعاً من الضرعيات ، و « فيك دازير » ، طبيب ماري - انطوانيت ، الذي قارن بين الهياكل العظمية والقلوب والمعد عند الطيور والاسماك ، فاكتشفا وحدة تخطيط التركيب : ان التخطيط العام لتركيب هذه الحيوانات متماثل ، والاعضاء نفسها موجودة عند جميعها في الوضع النسبي نفسه ومركبة من الاجزاء نفسها وفاقاً للترتيب عينه ، كما لو كانت كلها منحدرة من جد مشترك ؛ ورأيا تشابه الخلق ونوع الحياة الذي حمل على الاعتقاد بالمطابقة البيئة . واتجهت الاتجاه نفسه جغرافية بوفون الحيوانية : لما كانت الفوارق بين الحيوانات نفسها تتبع المناخ والنباتات وارتفاع سطح الارض ، فلا يمكن أن ترد الا الى تغيرات تحدث بتأثير العوامل الطبيعية ؛ واظهر علم الوظائف أهمية العوامل الطبيعية والكيميائية في حياة الأجهزة العضوية ؛ وبدت بعض الوقائع الغريبة وكأنها تشير في الطبيعة الى قوى مجهولة غير اعتيادية : فقد رأى « ترمبلي » الهدريات المقطعة إرباً إرباً تستعيد تكوينها مرة أخرى ؛ وابر الهدريات برؤوس في اوضاع غريبة بعيدة التصديق جداً . وابر « دوهاميل - ومونسو » ، في السنة ١٧٤٦ ، رأس الحيوان بصيصة الديك . وشاهد ريومور ، في السنة ١٧١٢ ، تجدد تكون رجل السرطان المقطوعة ؛ كما شاهد سبالنزاني في السنة ١٧٦٨ تجدد تكون رأس حلزون مقطوع الرأس ؛ ورأى بونّيه في السنة ١٧٨٠ تجدد تكون عين سمندر ماء .

وهكذا فقد نشأت نظرية التحول باكراً في ذهن الفرنسيين . فعالم الرياضيات والفلكي « موبرتوي » ، الذي استنار باختبارات تهجين عديدة ، قد عبر عن فكره تعبيراً تحولياً في « الزهرة الطبيعية » (١٧٤٥) و « نظام الطبيعة » (١٧٥١) و « علم نواميس العالم العامة » (١٧٥٦) . بيّن تبدلات حاصلة بتأثير المناخ والاغذية وقابلة الانتقال منذ التوالد الأول : « ألا نستطيع أن نفسر بذلك كيف أمكن حصول تمدد أكثر الانواع تبايناً انطلاقاً من فردين فقط؟» لقد تصورت في ذهنه منذ ذاك التاريخ فكرة المطابقة للطبيعة والانتقاء الطبيعي ؛ ولّد اتفاق هذه التأثيرات الطبيعية عدداً غفيراً من الأفراد ؛ فما كان منها سيء التركيب ولم يستطع سد عوزه قد انتهى الى الاضمحلال ، أما ما تبقى فقد عرف البقاء بفضل « بعض علائق الانتفاع » .

اما آدنسون فقد اقتنع بقابلية التبدل لدى الانواع . تحقق ظهور انواع نباتات جديدة ، اما باخصاب نباتين مختلفين من نوع واحد ، واما بالزراعة والتربة والمناخ والجفاف والرطوبة والظل والشمس . قد تزول هذه التبدلات في التوالد اللاحق ، ولكنها قد تنتقل بالوراثة ايضاً : فيتكون من ثم نوع جديد .

خلص بوفون الى القول ان الحمار ليس سوى حصان فسد نوعه بتأثير المناخ والغذاء ؛ وان الانسان والقرد ينحدران من اصل واحد على غرار الحصان والحمار ؛ وان « كل فصيلة ، سواء

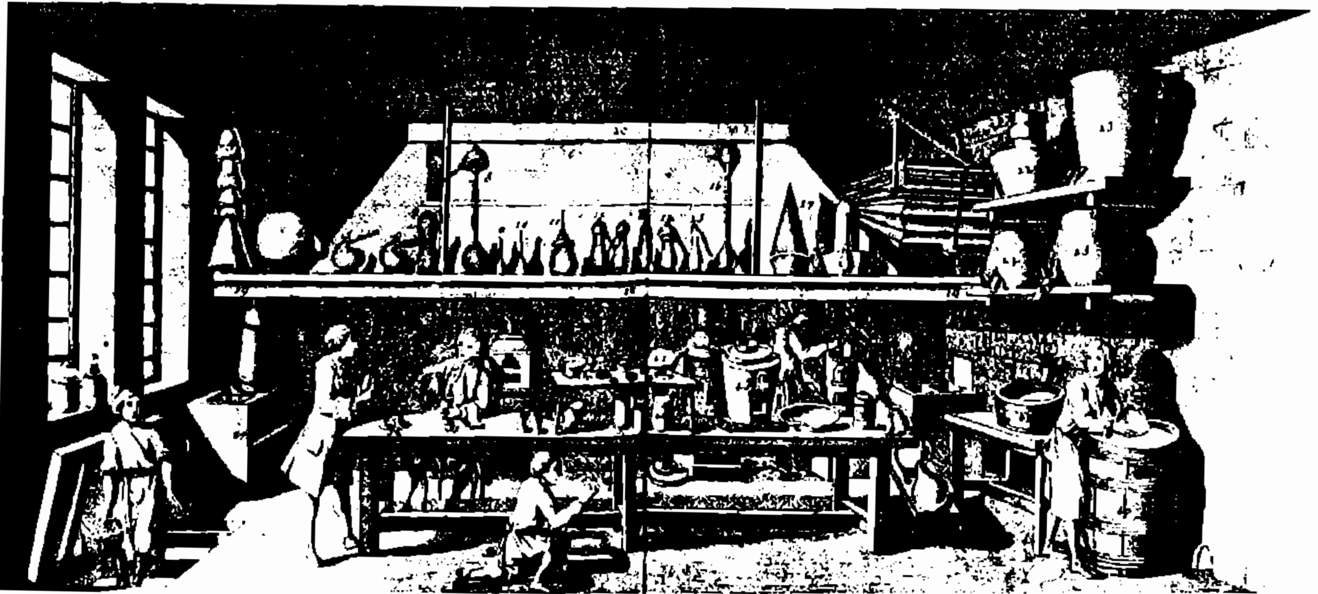

٤- مختبر كيمائي

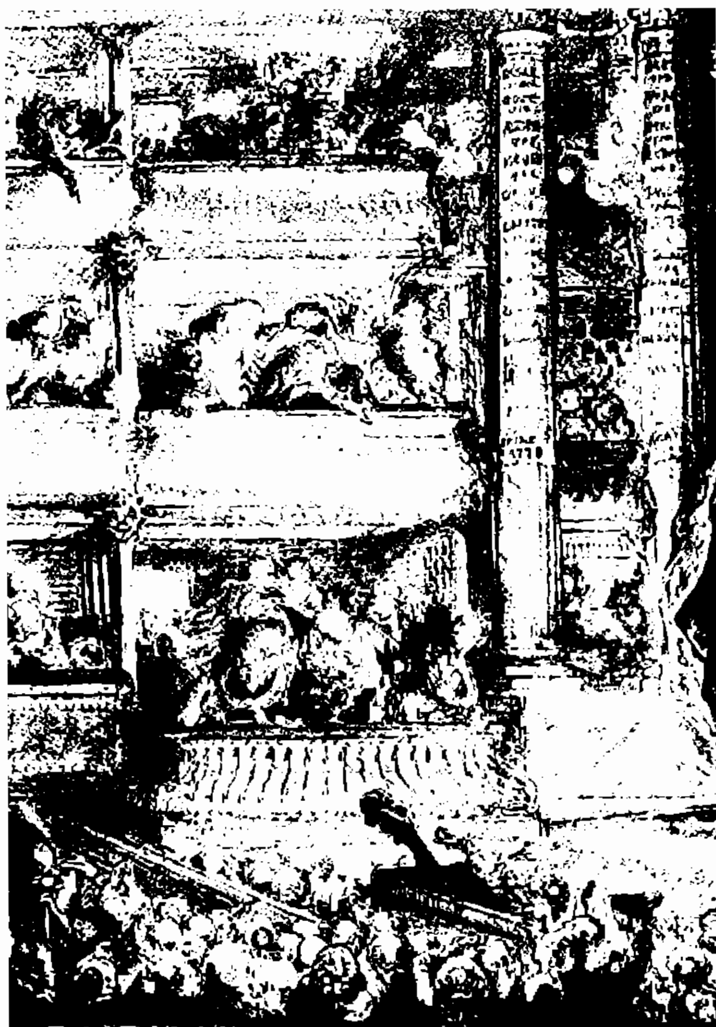

٦ـ تتويج فولتير في المسرح الفرنسي

٧- شارع كِنكامبوا عام ١٧٢٠

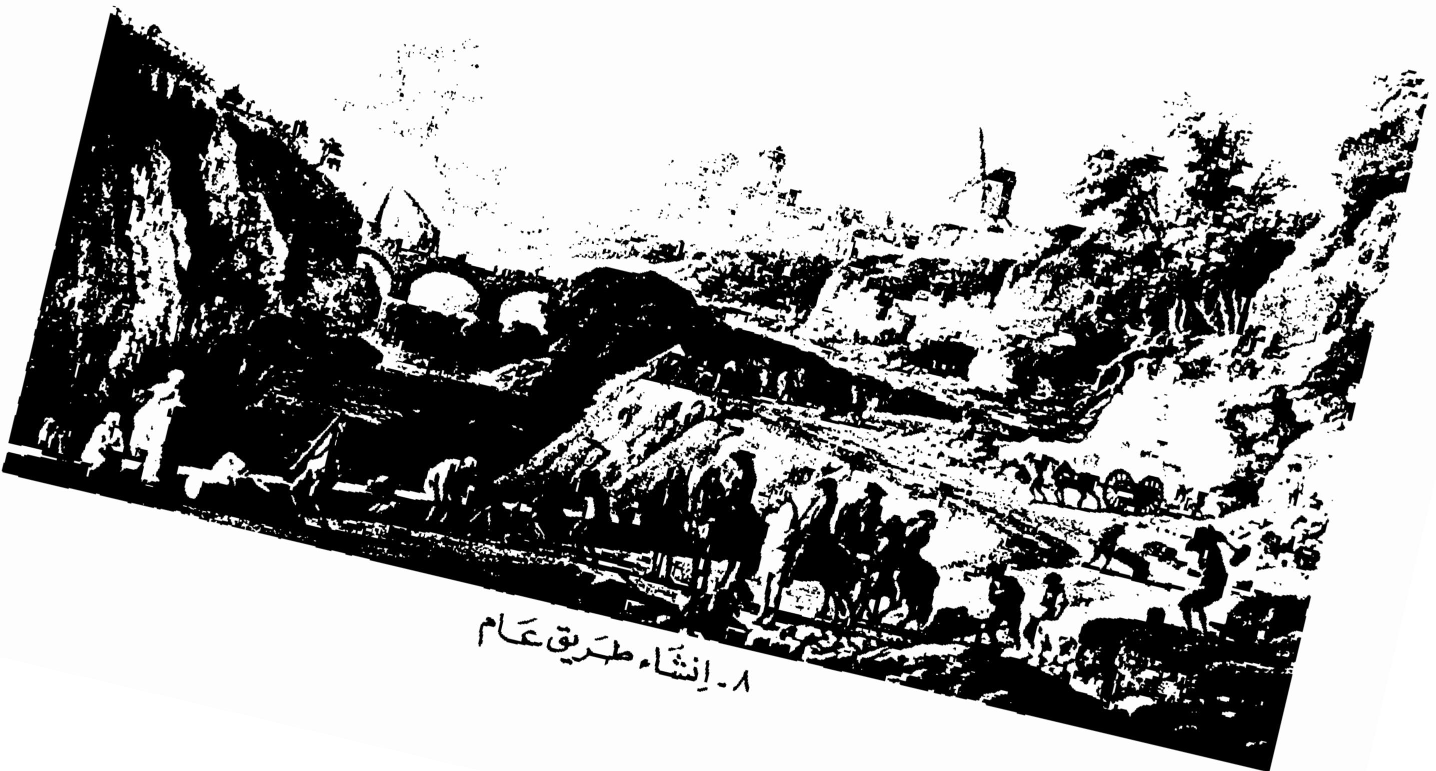

٨ - إنشاء طريق عام

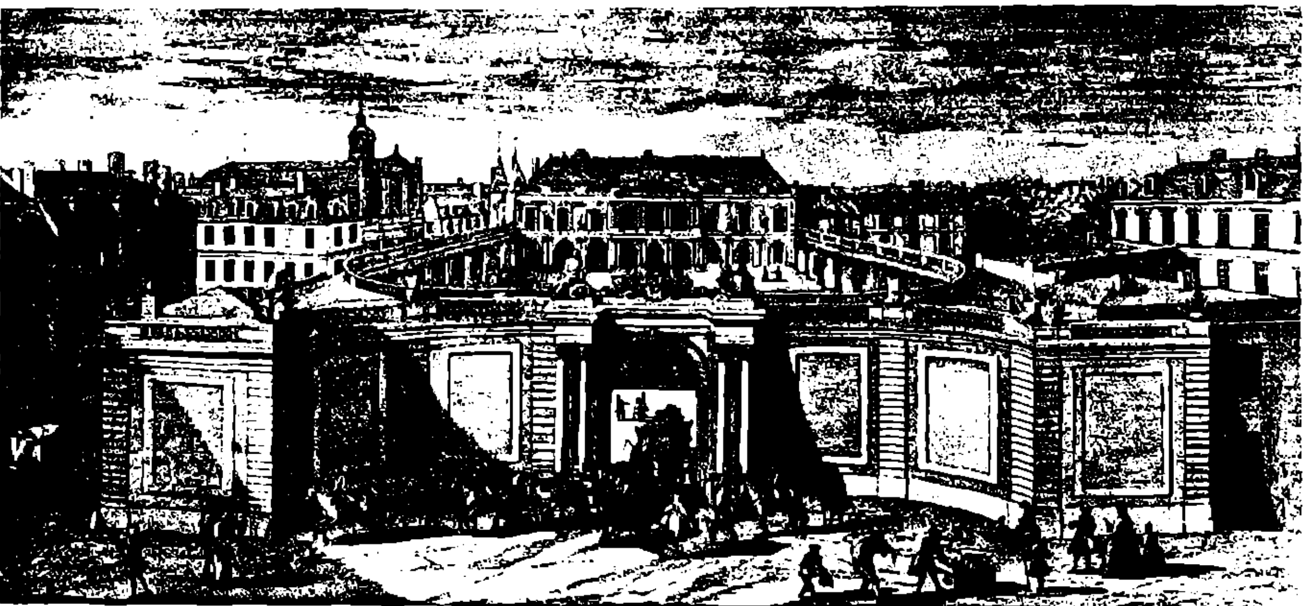

١١ - منظر دار "سوبيز" من جهة الشارع

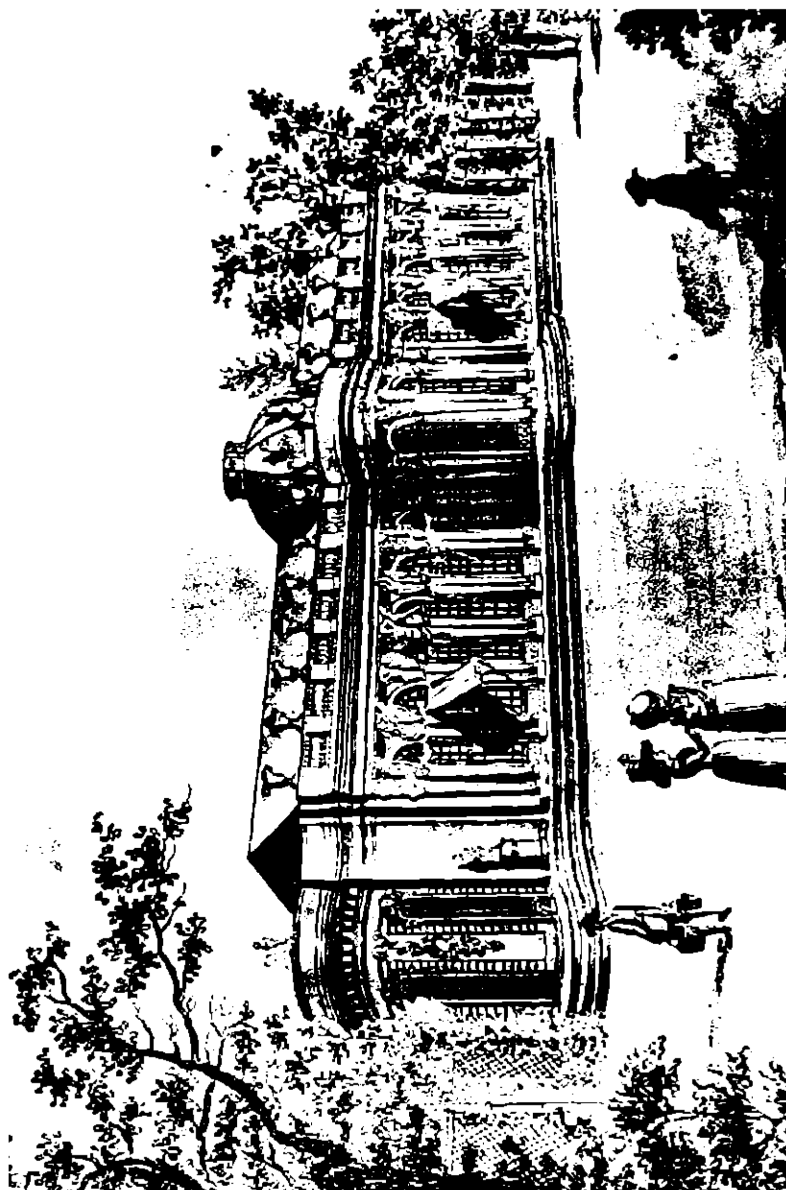

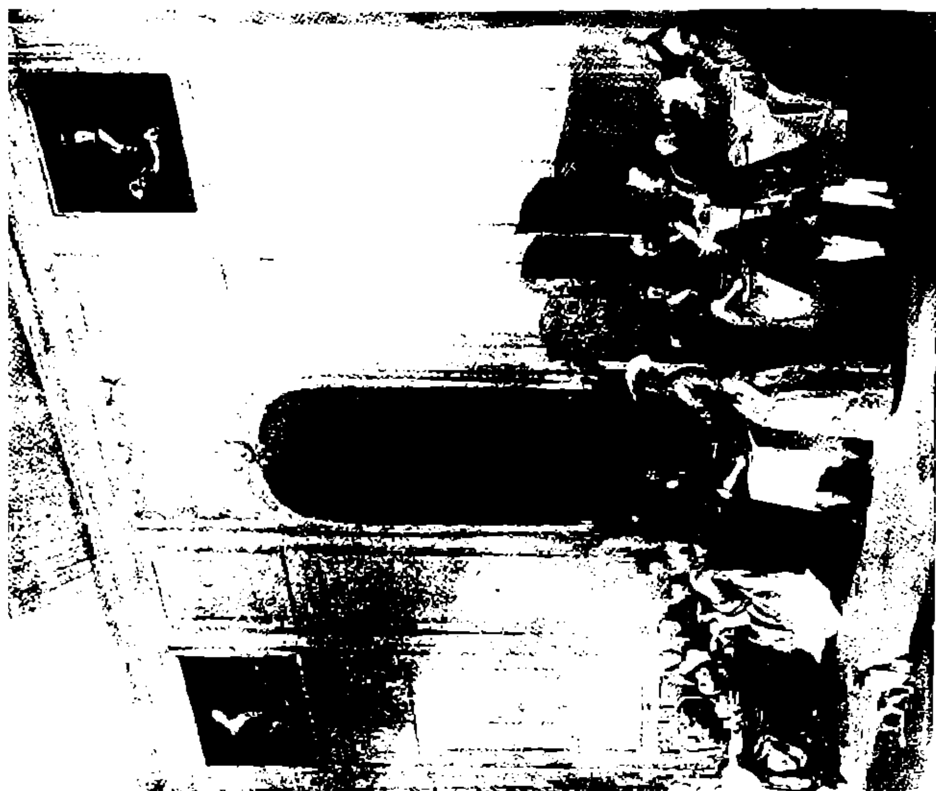

١٦- رقصة روسية

عند الحيوانات او النباتات ، تنحدر من ارومـة واحـدة ؛ « لا بل ان كافة الحيوانات انحدرت من حيوان واحد ولـّد ، في تعاقب الازمنة ، بتحسن او فساد نوعه ، كافة اجـناس الحيوانات الاخرى ... » بتأثير الظروف الخارجية التي تسبب تبدلات تدريجية تنتقل الى الذراري .

بيد ان كل ما ذكرنا ما زال متشتتاً في المؤلفات ، ثانويا ، عارضاً ؛ اي انـه ما زال نظرة سريعة الزوال . الا ان الفكرة قد رأت النور . وكان مقدراً لـِ «لامارك» مؤدب ابن بوفون ، ان يجعل منها نظرية كاملة في اوائل القرن التالي .

الفصل السابع

علـــوم الانسان

احرزت علوم الانسان تقدماً كبيراً وان بقيت ناقصة جداً . نرى فيها ووح « علم الطبيعة » وسباقه . الروح : العلل الغائية الغيت ، والعناية الالهية أقصيت ، ومبدأ الحتمية سلم به ؛ الانسان لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار بعد اليوم سوى العلل الفاعلة الطبيعية : البيئة الطبيعية ، الحاجات البشرية ، العواطف ، الاهواء ، الأفكار ؛ الطرائق المعتمدة هي ملاحظة الوقائع ملاحظة مباشرة أو بواسطة الـ... والبرهنة الاختبارية . السياق : وصف الظواهر وصفاً دقيقاً ، بذل الجهد بغية التوصل في هذا المجموع الى معيات او ترادفات دائمة ، تميز التلاحم والارتقاء الى النواميس ، والنزوع الى رد النواميس الى أقل عدد ممكن من المبادىء العامة . ولكن صعوبة تطبيق الأداة الرياضية على أكثر الوقائع تعقدا وتحركا وتشابكا ، التي غالبا ما لا يدرك العالم منهـا سوى رسوم غير كافية ، أخرت اكتمال هذه العلوم ، فبقيت وقتا أطول في المرحلة الوصفية ، مرحلة التاريخ .

علم طبائع الانسان

أسس بوفون علم طبائع الانسان والجغرافية البشرية . درس الانسان نوعا بعد أن ُدرس من قبله فرداً . في السنة ١٧٤٩ ، اثبت في كتابه « تاريخ الانسان الطبيعي » وحدة الجنس البشري . ان نوعين مختلفين يولّدان فروعا عقيمة ؛ والحال كل الفروع البشرية مخصبة . اذن الانسان يؤلف نوعا يضم تنوعات هي الاجناس التي تختلف بفعل المناخ والغذاء وطريقة الحياة . « ليس الانسان الابيض في اوروبا والأسود في افريقيا والاصفر في آسيا والاحمر في اميركا سوى الانسان نفسه متخضبا بلون المناخ » . ولكن البشرية واحدة تتميز أبداً تميزاً متزايداً عن الحيوانية بالذهن والعقل. الذهن هدف الانسان وهو في الوقت نفسه سعادته . وهكذا فقد انتهى العالم المعادي للدين الى استنتاج روحاني .

العلم الرابع

ان علم المجتمعات البشرية المتكونة في نطاق النوع ، الذي سيدعوه « اوغست كونت » علم الاجتماع» كان في طريق التكون. وان طريقة التاريخ النقدية ،التي سيستخدمها هذا العلم بالنظر الى ان الملاحظات المباشرة غير كافية ابداً والى انه يجب اللجوء

الى الشهادات في الماضي البعيد او في الماضي القريب القريب الذي ندعوه حاضراً ، كانت معروفة تمام المعرفة بفضل جهود قرنين ونيف . فالفرنسي « لويس دي بوفور » يعطي عنها ، في كتابه « بحث في الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الاولى من التاريخ الروماني » (١٧٣٨) ، امثلة جلية يمكن ان يستخلص منها بسهولة دراسة منسقة قانونية . بوفور في حالة الشك الكرتزياني، الذي هو ثمرة محبة شديدة للحقيقة . فهو يتفحص تأكيدات المؤرخين الاقدمين . يجد منها ما ينطوي على تناقض . يريد استثباتها . يجب لذلك جمع المستندات الأكيدة لأن قيمة عمل المؤرخ ترتكز الى قيمة مصادره . ولكن يجب التيقن من ان المستندات صحيحة ومن انها لا تزال في حالتها الاولى ، فيجب من ثم الفحص عن كيفية وواسطة انتقالها وتتبع سيرها حتى ايامنا هذه . بعد جمع المستندات يتوجب فهمها . يجب قراءتها دون « انشغال » ، والحرص على ان لا يطلب من النص ما يتوخاه المؤرخ ، وفهم التعابير بالمعنى الذي تتضمنه طبيعيا ، واستخلاص النتائج التي تتولد منها تلقائيا . يجب الانتباه كل الانتباه الى الكلمات ، واذا انطوت على اقل غموض ، يجب البحث عن المقاطع الأخرى التي استعملت فيها لتعين معناها الصحيح في سياق الكلام .

نعرف الآن ما تقوله النصوص . فهل تقول الحقيقة يا ترى ؟ يجب هنا التمسك بمبدأ عدم التناقض الذي هو القسم الاساسي في البرهان . كل ما ينطوي على تناقض يجب رفضه : كل ما يناقض نواميس الطبيعة او الاحتمال العقلي باطل مهما كان من عدد وشهرة المؤلفين . اذا كان هنالك تناقض بين نصوص قد يقبل بها العقل ، يجب اذ ذاك التمييز . يجب ابداً تفضيل تأكيد مستند صحيح على تأكيد المؤرخ ؛ وتأكيد مؤرخ من بين مؤرخين يتفق ووقائع تاريخ بلدان اخرى يرتبط بتاريخ البلاد المعنية ؛ وتأكيد من يكتب ضد مصلحته الخاصة بعد التعمق في درس الموضوع ؛ وتأكيد من لا يتوخى التجميل او التعييب ؛ يجب الوقوف موقف الحذر من الاكثار من التفاصيل التي تستلزم شاهد عيان مدقق : ان هذا الاكثار ينطوي على التناقض لأن الفرصة نادراً ما تسنح للملاحظة الدقيقة الواضحة . يجب البحث عن غاية المؤلف واصوله وخلقه وعاداته في العمل وظروف كتابته .

يجب اخيراً ، بواسطة الاستشهادات والاسنادات ، تمكين القارىء ، الذي يفرض عليه الشك والتفحص والتقرير بالإستناد الى مبدأ عدم التناقض ، اصدار حكمه على النتائج بذاته . ان هذه الطريقة احدى اجل ثمار مذهب العقليين .

مارسها بوفور خير ممارسة . ولكنها كانت ملكا مشتركا . فقد مارسها كذلك كافة العلماء الواسعي الاطلاع ، كما مارسها المؤرخون ، اقله في احسن اوقاتهم . تسرعوا احيانا في الاعتقاد بوجود التناقض ، وبالغوا في الاركان الى معرفتهم الناقصة للنواميس الطبيعية ، وغالوا في احترام الاحتمال العقلي : « ان ما هو حقيقي قد يكون احيانا غير محتمل عقليا » ؛ وقد يبدو

لنا غير محتمل عقليا ما هو غير مألوف . فانزلقوا من ثم ، على غرار فولتير ، الى النقد المفرط الذي هو مصدر اخطاء خطيرة . ولكنهم انجزوا على العموم عملاً كبيراً جداً .

واصل القرن الثامن عشر جهود القرن السابق في حقل العلم الواسع. اكتشفت كمية ضخمة من النصوص واستنسخت ونشرت . ووضعت جداول مسهبة بالمؤلفات . وجمعت المعلومات حول انتقال المستندات ، ومؤلفيها ، واوجه استخدامها ، والجغرافية وكيفية التاريخ في عهدها ، اي كل ما قد يفيد في التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح . انجز عمل جبار في كل مكان ، ولا سيا في فرنسا على يد البندكتيين و« اكاديمية الكتابات والآداب الجميلة » . ويؤلمنا هنا الا نستطيع ذكر ذلك العدد الغفير من العمال المهرة المتفانين حتى التضحية ، ومن المؤلفات الكبرى والبالغة الاهمية . بات بالامكان تجديد التاريخ القديم واكتشاف القرون الوسطى واكتشاف حضارات آسيا، سيدخل كل ذلك في امجاد القرن اللاحق . فتح « بريمار » النحوي « وغوبيل « مترجم « شو-كنغ » ابواب تاريخ الصين القديمة . وفي السنة ١٧٦٢ جاء الفرنسي « انكتيل – دوبرّون » الى باريس بـ ١٨٠ مخطوطاً زنديا وبهلويا وفارسيا وسنسكريتياً. وفي السنة ١٧٧١ نشر ترجمة« زند – افستا ». وفي السنة ١٧٩٣ استند « سيلفستر دي ساسي» الى قاموسه البهلوي وحل ألغاز كتابات الملوك الساسانيين . كما ان الانكليزي « جونز » ، رئيس جمعية كلكوتا الآسيوية ، التي تأسست في ١٥ كانون الثاني من السنة ١٧٨٤ ، قد نشر في السنة ١٧٨٩ ترجمة للمأساة الهندية « شاكونتالا » ، وباشر في السنة ١٧٩٤ نشر شرائع « مانو » . فبدأ الشرق يخرج من الاساطير . الا ان مصر وبلاد ما بين النهرين بقيتا مجهولتين .

علم الاجتماع

جمعت النصوص ونقدت وادركت واثبتت الوقائع ووضعت في إطارها الزماني والمكاني ، فمست الحاجة الى الأعمال الضرورية التالية : تصنيفها وفاقاً لتشابهها، تحديد علاقتها وترابطها ، واستخلاص النواميس منها ، ورد هذه الأخيرة الى بعض المبادىء العامة الخاضعة لمبدأ اصلي . ليس هذا النهج المنطقي المثالي ، في الواقع ، نهج القرن الثامن عشر، اذ ان عمل العلماء الواسعي الاطلاع والمؤرخين السابقين قد اتاح ، منذ النصف الاول من القرن ، لبعض ذوي العقول النيرة ، محاولة العمليات الأخيرة .

فان الايطالي « فيكو » (١٦٦٨ – ١٧٤٤) قد نشر كتابه « مبادىء علم جديد » في السنة ١٧٢٥ . انه احد مؤسسي علم الاجتماع بعد « ماكيافلي » و « جان بودين » . في رأيه ان الله يوجه التاريخ نحو انتصار كنيسته . ولكن اذا كان هناك الله ، العلة الاولى ، فان هناك العلل الثانوية ، الطبيعية . يكتفي فيكو بدرس نواميس التاريخ الطبيعية بمعزل عن كل تدخل عجائبي. يوجد نظام ازلي يسير الأمور ، وناموس مثالي يخضع له نمو كل أمة ، وهذا لعمري رأي افلاطوني ، ولكنه رأي نيوتوني ايضاً : ان ظواهر مختلفة كثيرة تحدث وفاقاً لناموس واحد. يكتشف العالم هذا الناموس بملاحظة الدلائل التي خلفتها البشرية : لغات الامم القديمة ومؤلفاتها،

الاساطير والخرافات ، القصائد القديمة ، الشرائع الاولى ، التي هـي انعـكاسات احوالنا السيكولوجية السابقة واحوالنا الاجتماعية الاولى . فليس والحالة هـذه من حاجة الى القراءة لرؤية حركة الاهواء البشرية المشتركة ، ومتابعة رواية مؤثرة ، وتذوق تعابير متناسقة او لاذعة ، بل الى التوقف عند الكلمات والتراكيب التي تدل على شكل خـاص مـن اشكال التفكير والشعور ، او عرف ، او تنظيم نوعي ، والاستعانة بذلك لاستعادة حالة البشرية الاولى .هذا هو « العلم الجديد » . فيكو يثبت وحدة الجنس البشري . ان في البشر بصيرة عامة ، وقـوة تمييز دون تفكير تشمل الجنس البشري كله ، وامة بكاملها ، وطبقة بكليتها ، و « افـكاراً متماثلة نشأت في آن واحد عند شعوب كاملة يجهل بعضها البعض الآخر » . وهكذا فاننا نجد عند كل الأمم نظما مشتركة وتطوراً متشابها . في امة معينة يخضع كل شيء لحالة الافكار : الدين ، والطبقات الاجتماعية ، والحق ، والحكم ، ونوع الحياة ، تنجم عنها وتصل بينها علائق انتفاع . اذا وجد احدها ، وجدت كلها . هكذا يصف فيكو ظروف وجود مجتمع في وقت معين ، او التوازن الاجتماعي . ولكن الفكر البشري يتحول ، ينطور ويمر في سلسلة احوال تتجدد ابداً ، ويسبب تحولا في المجتمعات التي تمر في سلسلة احوال مقابلة تتجدد ابداً ايضـا . الافكار تسير العالم . هكذا يثبت فيكو سنة تطور المجتمعات ، يدرس علم القوى الاجتماعية : حالة طبيعية بربرية ، ثم حالة ثيوقراطية عائلية ، وحالة ارستوقراطيـة في المدن تسيطر الحيلة عليها كلها سيطرة تخف وطأتها تدريجيا ، وحالة ملكية يتغلب فيها العقل ، ثم تقهقر وانحلال وعود على بدء . ليس التطور غير محدد بل دوريا ، يؤلف كلا يتجدد مع كل امة . انه تكرر دائم .

كان فيكو مشوش التفكير غامض التعبير ، فلم يعرف الشهرة في زمانه ، ومع ذلك كان له بعض التأثير . فان مونتسكيو قد قرأ مؤلفاته ، وعبر في ملاحظاته الشخصية عن مقدار الأثر الذي تركته فيـه نظريات فيكو ، وعن طريق مونتسكيو انتقل رأيا فيكو الرئيسيان ، التوازن ، والتطور ، الى القرن كله . وكان مقدراً لفيكو ان يترك اثراً اعم وأعمق في القرن التاسع عشر ، ولا سيما في « فوستيل دي كولانج » . كانت آراؤه الموجهة العامـة صحيحة . اخطأ هدفه بسبب افتقاره الى المواد الكافية . أمـا اليوم ، أي بعد قرنين من العمل التاريخي المثمر ، فتجدر العودة الى محاولته .

اصاب الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) في كتابته حول عـلم القوى الاجتماعية في مؤلفه « اعتبـارات حول اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » (١٧٣٤) ، وحاول توضيح التوازن الاجتماعي في كتابه « روح الشرائع » (١٧٤٨) . كان رجل شرع ثرياً ، وتولى ردحاً من الزمن رئاسة محكمة بوردو ، ثم ما لبث ان تكرس بكليته لعمله الذي انكب عليه طيلة ثلاثين حولا . كان كرتزيانياً يكثر من الاستنتاجات ، ولكنه كان عالما بالطبيعيات والتاريخ الطبيعي ايضـاً ورحالة بصيراً ومطالعاً لا يعرف الكلل ، فكانت طريقته الرئيسية الملاحظة والاستدلال : الوصف ، التحقق ، الارتقاء من الوقائع الى نواميسها ومن النواميس الى المبادىء ،

وهو نهج يحجبه بعض الشيء في مؤلفاته نسق العرض الذي يختلف طبعاً عن نسق الاكتشاف . وقد صرح بذلك بوضوح في مقدمة « روح الشرائع » . بدأ يلاحظ رغبة منه في المعرفة والمشاهدة : « تفحصت البشر أولا » ، تصورت امامه فكرة كتابه الاولى : « واعتقدت انهم ليسوا مسيرين في هذه الشرائع والاخلاق المختلفة الكثيرة ، بشهواتهم واهدافهم دون غيرها » . واصل حينذاك ابحاثه ومحاولاته: « مراراً كثيرة شرعت في هذا المؤلف ومراراً كثيرة اعرضت عنه ... سرت في موضوعي دونما قصد ؛ كنت جاهلاً القواعد والاستثناءات ، ولا اكتشف الحقيقة إلا لاضاعتها » . واخيراً توضحت فكرته العامة ، واستطاع صياغة نظرياته : « ولكن حين اكتشفت مبادئي ، جاء إلي كل ما كنت ابحث عنه ... وضعت المبادىء » ، ومنذ ذاك الحين اخذ يستثبت نظرياته ويحولها نواميس : « ورأيت الحالات الخاصة تخضع لها كما من ذاتها وتواريخ الامم كلها كما لو كانت ذيولا لها ، وكل ناموس خاص ، مرتبط بناموس آخر ، يرتبط بناموس اوسع شمولا » .

الطبيعة كلها تدار بنواميس طبيعية ، على غرار « آلة » مدهشة : ان النواميس ، في اوسع مفاهيمها ، هي العلائق اللازبة التي تنجم عن طبيعة الاشياء ، ولكل الكائنات نواميسها في هذا المعنى » . ولكن المجتمعات البشرية هي ايضاً كائنات طبيعية وتخضع لنواميس طبيعية . يجب ان تكون الشرائع التي يسنها البشر، أي الشرائع الموضوعية ، مرتبطة ارتباط انتفاع بالنواميس الطبيعية وفيا بينها . الانسان حر،وقد يحدث ان تخالف شريعته « العلائق اللازبة » : فلا ينجم عن ذلك سوى السوء . يتوجب من ثم على الانسان ان يعرف هذه العلائق كي يحترمها ويستخدمها . وبفرض ان تكون « الشرائع البشرية من الموافقة للشعب الذي سنت من اجله بحيث يصبح اتفاقاً نادراً ان تكون شرائع امة مناسبة لامة اخرى . يجب ان تطابق طبيعة الحكم القائم أو المراد اقامته ... يجب ان تكون مختصة بطبيعة البلاد ، بالمناخ البارد أو الحار أو المعتدل ، وبنوع البقعة وموقعها واتساعها ونوع حياة السكان الفلاحين أو القناصين أو الرعاة ، وبدرجة الحرية التي يمكن ان يقبل بها الدستور ، وبدين السكان وميولهم وثرواتهم وعددهم وتجارتهم واخلاقهم وطرائقهم . ولها اخيراً ارتباطات فيا بينها ؛ لها ارتباطات بمصدرها ، بالنظام العام الذي استند اليه في وضعها ، بقصد المشترع . يجب مراعاة كل هذه الاعتبارات عند النظر اليها » . بحسب هذه الاسئلة ، حدد هذه العلائق اللازبة في كل مؤلفه ، وهو تعاقبها ما يؤلف مخططه الذي تحجبه بعض الشيء تجزئة مفرطة معدة لتسهيل القراءة تضيع سياق الافكار .

حتمية ونسبية، هذان هما المبدآن الاساسيان . المعطية المعينة تستلزم شريعة معينة وتستبعد شريعة اخرى معينة . هذه الحتمية تؤمن حرية الانسان الذي قد يكون اعزل من السلاح في عالم قد يؤدي كل عمل فيه الى نتائج متقلبة جداً ، فيستحيل التبصر والتنظيم والعمل ، وقد يكون فيه الانسان مستعبداً لقوى عمياء . كما هو يستخدم نواميس العالم الطبيعي ، كذلك يستطيع

استخدام شرائع العالم الاجتماعي ، خصوصاً في سبيل التوصل الى هذا الخير الاسمى ، المناسب لطبيعته البشرية ، الحرية . ويتحول مونتسكيو في كل برهة الى مهندس اجتماعي ، فيظهر السلوك الواجب للتوصل في كل حالة الى اقصى حد ممكن من الحرية والانسانية . فالسلطات الثلاث مثلاً هي في الدولة السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . في اوروبا الغربية يجب ان يفصل بينهما وتسند الى اناس مختلفين حتى تحد من كل منهما السلطتان الاخريان وتراقباها ، وبغية الحيلولة دون الاستبداد الذي قد يفضي إليه تركزها إما في ملك وإما في عدد من النبلاء وإما في أيدي الشعب .

أفرغ الكتاب في لغة متينة ، عادمة السهولة ، مؤثرة ، صافية وكثيفة كالبلور حيناً ، أو زاهرة وقاطعة كحد الفولاذ حيناً آخر ، فعرف نجاحاً عظيماً جداً ، وترجم الى كل اللغات ، وألهم الملوك والسياسيين ورجال الشرع والمؤرخين في كافة البلدان ، وأوحى بالدستور الأميركي في السنة ١٧٨٧ ، وبالدستورين الفرنسيين في السنة ١٧٩١ وفي السنة الثالثة ، وبالدستور البروسي في السنة ١٧٩٢ ، وبمعظم دساتير القرن التاسع عشر . وان « كارل ماركس » نفسه مدين لمونتسكيو ايضاً . ولكن مقاصد مونتسكيو لم تكن سهلة الادراك ، فلم يفهمه الناس كثيراً : وراح أكثرهم يبحثون عنده عن مقتطفات انطوت ، بفصلها عن النص ، معنى وقع من أنفسهم موقع الرضى .

الاقتصاد السياسي

لم يخلف أحد مونتسكيو مباشرة . الا أن روح كتابه وكثرة المسائل التي طرحتها تأكيداته على بساط البحث قد أوحت بعدد كبير من الأعمال الجزئية . أما الذين اقتربوا منه في الواقع أكثر من سواهم ، باعارة النواميس الطبيعية اهتمامهم دون تبني مبدأ النسبية الذي قال به ، فهم الاقتصاديون الذين اعتبروا الزراعة مصدر الثروة الوحيد .

كان « كيناي » (١٦٩٤ – ١٧٧٤) طبيب لويس الرابع عشر ، وعالماً احيائياً ، وملاكاً كبيراً . فاستفاد من ملاحظات كثيرة وعبّر عن آرائه في فصلي « المزارعون » و « الحبوب » من « دائرة المعارف » (١٧٥٦ – ١٧٥٧) ، في « الجدول الاقتصادي» (١٧٥٨) ، وفي « الحق الطبيعي » (١٧٦٥) . ثم جاء تلاميذه فرسموا شكل « العلم الجديد » الذي بلغ منذ نشأته « أقصى درجات الوضوح » ، وأطلق عليه « ديبون دي نمور » اسم « فيزيوقراطيا » أو حكم الطبيعة .

تؤلف الظواهر الطبيعية وقائع تخضع لبعض النواميس النابعة من طبيعة الاشياء ، وتشكل هذه النواميس مجموع آقيسة ، أو علما . انها من وضع الله تعالى ؛ وهي جزء من نواميس الطبيعة بل هي أفضلها اطلاقاً .

ليس المال شيئاً يذكر ، انه مجرد واسطة علبية . الثروة الحقيقية نتاج قابل الاستهلاك دون

أن تؤدي الى انقاص المادة التي ساعدت على ايجاده . الزراعة وحدها تعطي مثل هـذا النتاج ، « النتاج الصافي» . الصناعة لا تعطي نتاجاً صافياً ؛ انهـا تحول شكل المواد الراهنة ، وتحدث بعملها هذا أشكالاً مفيدة ، ولكنها تنقص المادة دون الاعاضة منها . وينحصر عمـل التجارة في نقل ومقايضة هـذه المصنوعات . الفلاح وحده يخلق مادة جديدة ويكوّنها ثانية ويضاعفها. لذلك فان الطبقة الاساسية هي طبقة الملاكين العقاريين الـتي استصلحت الارض ، وتليها طبقة الفلاحين ، ثم جميع الآخرين ، « الطبقة العقيمة » . يجب ان يخضع كل شيء للانتاج الزراعي . ويجب من ثم الاكثار من الملكية الفردية بالغاء المشاعات وتحرير الزراعة من حقوق الارتفـاق الجماعية والحقوق الاقطاعية ، وتشجيع الاملاك الكبرى القادرة وحدهـا على توفير التسليف والزراعة العلمية ، وتأمين البيع الوفير بسياسة الاجور المرتفعة ، والغـلاء او « السعر الجيد » بحرية التجارة ، وزيادة الثروة قبل السكان .

الملك حق ناجم عن مشيئة الله ، وهو من ثم حق طبيعي . وكذلك الحرية التي تسمح وحدها بممارسة حق التملك ، والامن ، وعدم المساواة ، والاستبداد، لان دور الحكم محصور في أن يعبر بلغة بشرية ، في الشرائع الموضوعية ، عن النواميس الطبيعية الـتي لا تقبل جدلاً . المستبد يجبي الضرائب الضرورية من الملاكين دون غيرهم ، لانهم دون غيرهم يحصلون على نتاج صاف، لمصالحه ومصالحهم واحدة ، ويجب ان يكون حقه في السلطة وراثياً على غرار حقهم في التملك ، وان لا يؤدي حساباً الا لهم أو لمندوبيهم ولضميره وفاقاً للنواميس الطبيعية .

جاء النجاح عظيماً . وقـد صرح ميرابو ان « الجدول الاقتصادي » يشكل، بعد ابتكار الكتابة والنقد ، ثالث الابتكارات الرئيسية الـتي حققها العقل البشري . فبات مذهب حكم الطبيعة ديناً في فرنسا . وتأثرت به جمعية السنة ١٧٨٩ التأسيسية تأثراً عميقاً. وبلغ من اعجاب كارل ماركس بـ « كيناي » ان رأى فيه مؤسس الاقتصاد المعاصر .

بين تلاميذ كيناي المستقلين عن فكرة المعلم ، « تورغو » ، الذي سيصبح وزيراً في عهد لويس الرابع عشر ، والذي شدّد الكلام على أن العامـل لا يتقاضى في النتيجة سوى اللازم في اللازم لتأمين معيشته،وهذه هي « شريعة الأجور النحاسية » التي تسمح بتخفيض أسعار الكلفة وتحرم العامل من أمله في الخروج من طبقته وتخلق طبقة من الأثرياء . فرأى تورغو مـع وكيل التجارة وجوب اطـلاق الحرية للفرد لأنه يدرك مصالحه أكثر من كل شخص آخر : « اتركه يعمل ، واتركه يمرّ » .

بيد أن المؤسس الحقيقي لمذهب الاحرار في القرن التاسع عشر كان تلميذ كيناي الأسكتلندي « آدم سميث » (١٧٢٣ – ١٧٩٠) . في كتابه « محاولة في ثروة الامم »(١٧٧٦)، يصف نظاماً طبيعياً يتحقق حيثما تترك الطبيعة وشأنها ، هو في نظره خير نظام . يميل الانسان طبعاً الى تحسين حاله ، وهو خـير من يتبين مصلحته الشخصية : فيجب من ثم ان تطلق له

الحرية. يجب ان لا تتدخل الدولة الا عندما يعجز الافراد عن ايجاد المؤسسات المفيدة للمجتمع . ان هذا العالم جمهورية كبرى مواطنوها منتجون ومستهلكون يرتبط بعضهم بالبعض الآخر ، ويجب ان ينتج السلام من الشعور بهذا الارتباط المتبادل .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تحليله للقيمة يجعل منه سلف الاشتراكيين والشيوعيين . العمل هو المقياس الحقيقي لقيمة البضائع وهو ما يحدد سعرها . في البدء عاد كل هذا السعر العامل . ولكن حين جمع أحد الافراد رأس مال ، أي أرضاً أو مادة خاماً أو أداة ، واستثمره بواسطة العامل ، احتفظ الرأسمالي بجزء من السعر وأعطى العامل ما تبقى أي الأجر . كل منهما يريد أكبر نصيب ممكن من السعر . فتحديد الاجر هو من ثم نتيجة أخذ ورد بين الرأسمالي والعامل يتحولان الى « صراع بين الطبقات » المتنافسة . « أرباب الاعمال يؤلفون ، في كل مكان وزمان ، ما هو أشبه بتكتل ضمني دائم متماثل للحيلولة دون ارتفاع الأجور » . وقد تمبئس سميث حيال اولئك الذين لا ينتجون : « الملك ... وكافة وزراء العدل وكافة العسكريين عمال غير منتجين ... وبالامكان إلحاق الكهنة والمحامين والأطباء والادباء ... بالطبقة نفسها » . وتعبّس كذلك حيال التجار الذين تناقض مصلحتهم المصلحة الاجتماعية . فكانت كل هذه التحاليل مصدر وحي لكارل ماركس .

التاريخ

تفرغ مؤلفون آخرون الى الأعمال التاريخية الوسيطة التمهيدية ، بالنسبة الى بلاد أو عهد معين ، أو بالنسبة الى البشرية جمعاء : ترتيب الاحداث وتسلسلها ، وهذا ما يعتبر في أغلب الأحيان تاريخاً بحصر المعنى .

ظهرت سلسلة من كتب التاريخ الخاصة : « قرن لويس الرابع عشر » لفولتير (١٧٥١) ، « تاريخ بريطانيا العظمى » لدافيد هيوم (١٧٥٤) ، « تاريخ اسكتلندا » لـ روبرتسون (١٧٥٩) ، « تاريخ اوسنابروك » لجوستوس موزر (١٧٦٨) . لقد تبدلت روح هذا التاريخ منذ مونتسكيو . اعتبر بوفور والمؤرخون السابقون أن لا طائل تحت المعلومات المتعلقة بالحكومات والعادات ؛ يجب الاكتفاء « بترتيب الاحداث وتحديد تواريخها ، وهذا هو جوهر التاريخ » . أما في نظر المؤرخين الجدد ، فالجوهر هو تاريخ الحضارة . وكان الفرنسي فولتير أول من قال بذلك :

« يجب أن لا يتوقع القارىء الوقوف هنا على أدق تفاصيل الحروب والهجمات على المدن المحتلة والمستردة بقوة السلاح أو المسلوخة والمستعادة بالمعاهدات . فلن نتوقف في هذا التاريخ إلا عند ما يستوقف انتباه كل الازمنة وما يمكن أن يرسم صورة لعبقرية البشر واخلاقهم ، وما يمكن أن يلقي درساً ويحمل على محبة الفضيلة والفنون والوطن » .

الاخلاق ، العادات ، الاعراف ، المعتقدات ، الخرافات ، العادات المستهجنة ، الاكتشافات ،

هذا هو الجوهر[1] . الانسان هو موضوع هذا التاريخ ، وان وجهة النظر هـذه تفضي الى إلقاء نظرة شاملة على تاريـخ البشـرية . وهذا ما فعله فولتير في كتابه « محاولة في اخـلاق الأمم وروحيتها » (١٧٥٦) . وكعادته ناقض نفسه مراراً ، وانتهى بصورة خاصة ، هنا كما في كتبه الأخرى ، الى « خواء من الافكار الواضحة » ، ربما لأنه كان يتحاشى التأثر بمظهر واحـد من مظاهر الاشياء بفضل ذكائـه المتفوق . التاريخ محال ، يخضع لاتفاق ، لكوب ماء على فستان ، لأنف غانية في القصر ، ولكنه يخضع كذلك لامراء عظام يصنعونه وفاقاً لمخططات مدروسة ، ثم عنايات صغرى حلت محل العناية الكبرى . يشمل التاريخ ، في جملة مـا يشمل ، اربعة قرون عظمى : قرن بريكليس ، قرن اوغسطوس ، قرن آل مديسيس ، قرن لويس الرابـع عشر . وانما يجب ألا يدرس الفتيان الا التاريخ المعاصر ، المفيد وحده . التاريخ يخضع للأهواء البشرية التي هي هي لا تتبدل ، وكل عهد يشكل كلا يكاد يكون مستقلا عن المـاضي وغير ذي أثر في المستقبل ، ومع ذلك تتقدم البشرية كما لو كان تقدمها خاضعـاً لسنة معينة . ومهما يكن من الأمر ، فقد استهوت مؤلفاته القراء ، فأوحى بفكرة التاريخ الحقيقي وتذوقه ، والقى ضوءاً على احداث كثيرة ، وأثار العديد من المسائل ، وجعل كل المؤرخين مدينين له .

انتهى هؤلاء تدريجياً الى التخلي عن مجرد الاحداث المتماثلة المتعـاقبة في الزمان ، وتوصلوا ، بفضل تقدم دراساتهم وبتأثير العلوم الطبيعية ، الى مفهوم التحولات ، أي مفهوم التطور . فقد أظهر « ونكلمن » ، بكتابه « تاريـخ الفن في العصور القديمة » (١٧٦٤) ، ان الفن يخضع لتطور المخلوقات العام ، يولد ويتفتح ويشيخ ويموت . انه ظاهرة حية . وتصور آخرون تقدماً تحرزه البشرية انطلاقاً من الهمجية نحو كمال العقل . فبعد تورغو و « دائرة المعارف » اللذين طلعا بالفكرة[2] ، ألـّف الالماني « لسّنغ » كتـابه « تربية الجنس البشري » (١٧٨٠) ، كما ألف مواطنه « هردر » كتابه « آراء في فلسفة تاريـخ البشرية » (١٧٨٤ – ١٧٩١) . ولكنهما استنجدا بإله مبهم أو بحياة الكون السرية . فجاء ما كتباه بحثـاً فلسفياً في المعقولات اكثر منه علماً بحصر المعنى . أما الفرنسي كوندورسيه فكان أبعد موضوعية منهما في كتـابه « تخطيط لوحة تاريخية لنجاحات العقل البشري » (١٧٩٤) ، فكل عمل بوفون في « تواريخ الطبيعة » وصاغ سنة التقدم : « ان قابلية الانسان للتكامل تتجاوز في الواقع كل حد » ، وليس لها « من أجل سوى ديمومة الكرة التي القت بنا الطبيعة فيها » ؛ « ولن تسير ابداً الى الوراء » ما دامت ظروف الكرة الطبيعية هي هي دون تبدل . التطور متواصل : « ان نتيجة كل هنيهة حاضرة تتوقف على نتيجة الهنيهات السابقة ، وتؤثر في نتيجة الهنيهات الـلاحقة » . التطور يصدر عن

(١) بولنغبروك ، (١٧٥٢) : « التاريخ والفلسفة يعلماننا بالامثال كيف يجب ان نسلك في كافة ظروف الحياة العامة والخاصة » .

(٢) اوضح تورغو في «خطبة في نجاحات العقل البشري» سنة الحالات الثلاث الشهيرة، الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الموضوعية ، لاوغست كونت .

أسباب واضحة ومتميزة : يكوّن الانسان باستمرار افكاراً جديدة ، بالجمع بين ما توفره له منها حواسه ، وباتصاله بسواه من البشر ، وبوسائل صنعية ، كالكلام والكتابة والجبر ، يبتكرها ابداً ودائماً . ترتسم اللوحة بملاحظة مترادفة تتناول المجتمعات البشرية في مختلف العهود التي مرت بها » ، وستفضي بالانسان « الى تأمين واستعجال النجاحات الجديدة التي تسمح له طبيعته بارتجائها » . عشرة « عهود » تعاقبت : ١ . تجمع البشر عشائر وقبائل ؛ ٢ . الشعوب الرعاة ، والانتقال من هذه الحال الى الشعوب الفلاحين؛ ٣ .تقدم الشعوب الفلاحين حتى اكتشاف الكتابة الابجدية ؛ ٤ . تقدم العقل البشري في اليونان حتى زمن تقسيم العلوم حوالي قرن الاسكندر ؛ ٥ . تقدم العلوم منذ تقسيمها حتى انحطاطها الناجم عن المسيحية ؛ ٦ . انحطاط الانوار حتى تجديدها حوالي عهد الحملات الصليبية ؛ ٧ . منذ نجاحات العلوم الاولى، حين تجددها في الغرب ، حتى اكتشاف الطباعة ؛ ٨ . منذ اكتشاف الطباعة حتى اليوم الذي تمردت فيه العلوم والفلسفة على السلطة ؛ ٩ . منذ ديكارت حتى قيام الجمهورية الفرنسية ؛ ١٠ . النجاحات المقبلة للعقل البشري . على ضوء هذا التاريخ ، سنعرف كيف نتجنب « آراء سبق الوهم » قبل بها اجدادنا ونضمن انتصار العقل والحقيقة والبشرية ؛ « صيحة الحرب : عقل ، تساهل ، بشرية » . وقد أفاد ارغست كونت في القرن التاسع عشر افادة كبرى ، في مؤلفه حول علم الاجتماع ، من آراء كوندورسيه الذي بدا له ناهجاً نهجاً علمياً مدققاً .

أما في الواقع فان كوندورسيه لم يواصل بذلك عمله العلمي بل بشر بالجيل . كان فولتير قد حاول وصف الماضي وتفسيره، دون نظرية يجب إثباتها ، ودون فلسفة التاريخ . وأراد كوندورسيه ان يظهر البشرية سائرة ابداً نحو مزيد من العقل ، شرط تجنب المسيحية ، وعبّر عن مفهوم تفاؤلي للتطور كان فعل ايمان عظيما عند انسان يؤلف كتابه منفيا ومطارداً . وكان يرى تاريخ البشرية معداً لان ينتج ما يحبه حبا تفضيليا . فكان ذلك انتقاما من العاطفة . ان كوندورسيه،في ما يعنيه، قد شق الطريق امام مخيلة واختلاجات قلب المؤرخين الرومنطيقيين من امثال اوغسطين تيرّي ، والشعراء من امثال فيكتور هوغو في « اسطورة الاجيال » . فكانت فكرة التاريخ العلمي آخذة بالتذلل .

«علم المعقولات» القرن الثامن عشر هو عدو المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي نادى بها القرن السابق . تمثل بلوك ردعى « علم المعقولات » دراسة الادراك البشري . والمقصود هو تحليل العقل التفكير في كل شيء بسداد وجلاء كبيرين ، ولمعرفة النهج الذي يجب أن يسلكه العقل البشري والمدى الذي يمكنه بلوغه . كان هذا الدرس مبنيا على الملاحظة والاستدلال منذ ان أثبت ديكارت أن فعلا واحداً يجوز نسبته نسبة معقولة الى النفس،هو فعل التفكير : الشعور ، الارادة ، الادراك ، التصور . أقصى بذلك عن النفس الوظائف الاغتذائية والمغذية والمطارعة والدوائية التي قال بها الفلاسفة المدرسيون . لم يعد من حاجة لمعرفة النفس الا الى ملاحظة حالات الفكر . ملاحظة ، استدلال ، انتقال من الاحداث الخاصة الى نواميسها ،

ومن النواميس الى مبادئها، ان هذا الدرس هو علم طبيعي، مستوحى هو ايضا من علم الطبيعيات الذي وضعه نيوتون. هذا العلم يتيح اصدار حكم في ما يُدرك عادة بعلم المعقولات: الافكار حول الله والكون وخلود النفس والحرية والمصير البشري .

كانت السيطرة في القرن الثامن عشر لتعاليم لوك . كل افكارنا تصدر عن الحواس ، ومن ثم عن الاختبار الذي يعطينا الافكار البسيطة : البرد ، الحرارة ، المرارة ، الاتساع ، الشكل ، الحركة . ان افكار الاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد هي ، بين هذه الافكار البسيطة ، « الصفات الاولية » وتمثل الاشياء كما هي ؛ انهـا تمثيلية ، انها صور الاشياء . أما الافكار الاخرى ، الالوان ، والاصوات ، والمذاقات ، فهي « صفات ثانوية » تنتج عن الانطباع الذي تحدثه في حواسنا حركات غير محسوسة تصدر عن الاجسام . النظرية حاسية وآلية . انها تثبت قيمة « علم الطبيعة » اذ اننـا نعرف عناصره ، وتثبت « الصفات الاولية » كما هي في الواقع . لقد تردد لوك حول هذه النقطة الاخيرة : أما تلاميذه فلم يترددوا.

والحال ، هاجم الاسقف الانغليكاني « بركلي » (١٦٨٥ — ١٧٥٣) مرتكزات مذهب الآلية هذه . نشرت مؤلفاته الهامة قبل السنة ١٧١٥ ، ولكنه ، حتى موته ، أعـاد طبعها تكراراً متبعاً إياهـا بلاحق متممة . فكر في ترددات لوك بصدد القيمة التمثيلية لـ « الصفات الاولية » وبصدد مسألة طرحها « مولينو » على لوك : هل بامكان انسان ولد ضريراً ثم أبصر النور بعد عملية جراحية ان يميز فوراً ، بواسطة حاسة النظر ، بين كرة ومكعب كان يميز بينهما بواسطة حاسة اللمس ؟ أجاب لوك في حينه سلباً . سيضطر الأعمى في هذه الحال الى القيـام بالاختبارات والمقارنة حتى يتعلم ان هـذا التأثر البصري المعين يقابله ذاك الحجم المعين وتلك المسافة المعينة اللذان عينتهما له حاسة اللمس . اثبت بركلي ان ذلك يصح فينـا جميعاً : نحن لا نرى المسافات ولا نرى الأحجام ، بل نركبها تركيبا ؛ نتعلم بالاختبـار ان هذا التغير في امتزاج الألوان والضوء وهذا الحس بمطابقة العين يقابلان تلك المسافة وذاك الحجم . ثم نستخدم هـذا الاختبار بحكم صامت لاشعوري . ان هنالك عمـلا خاصاً بالعقل وحركة لاواعية . في السنة ١٧٢٨ ، نشر الطبيب « شيزلدن » ملاحظة فتى أجرى له عملية السادّة (الماء الأزرق) : قال هذا الفتى ان الأشياء « تلامس » عينيه ؛ وان شيئاً بحجم الابهام وضع على مقربة من عينيه قـد بدا له وكأنه بحجم الغرفة كلها. ودرست بعد ذلك حالات مماثلة . فكان بركلي من ثم مصيباً : ان ادراك الأحجام والمسافات بواسطة النظر نتيجة الاختبار . الاحجام والمسافات « صفـات ثانوية » بالنسبة لحاسة النظر . واعتقد بأن حاسة اللمس وحدها تدركهـا مباشرة كـ « صفات أولية » .

استخلص بركلي من تحقيقات نهائية نتائج تلم بمنطق جريء: انما الأشكال البصرية دلائل، أو لغة . ولكنها ليست دليل وقائع خارجية ، بل دليل صفات مختصة بحاسة اللمس. تصورات اللون هي دلائل تصورات الشكل والحجم والصلابة التي تعطيها حاسة اللمس . والحال ليست

هذه التصورات مختصة بالجسم اذ ان الحجم يتغير بحسب المسافة وتركيب الأعين، واذ ان الصلابة والرخاوة مرتبطتان بالقوة التي تبديها . التصورات وحدها موضوع معرفة مباشرة . الطبيعة هي التصورات المستقلة عن الارادة التي تتكون تكونا متعاقباً محدداً ؛ والأجسام هي تركيبات منظمة للتصورات . العقل هو الواقع الوحيد .

ولكن العقل حر : نحن نعرف أنفسنا بوصفنا عوامل احراراً . التصورات المتعاقبة المستقلة عن الارادة تصدر عن عقل متفوق . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان الأشكال البصرية هي دلائل ، أو لغة ؛ والحال ، كل لغة هي عمل العقل . الأشكال البصرية هي لغة شاملة ، اذن هي عمل عقل شامل ، الله .

باستطاعتنا التأكيد من ثم ان وجود العقول والله ، واللغة الشاملة التي يكلمنا الله بواسطتها، والامكانية العقلية لوحي آخر بشكل كلام ، امور ثابتة جداً . اما علم الطبيعة الآلي فوهم وخداع ، وحساب الكمية الصغرى محال ، لأن التسلم بقابلية التجزئة الى ما لا نهاية له تسلم بأن الاتساع موجود دون أن يقع تحت الحواس ، في حال أن لا وجود الا للتصور الذهني . علم الطبيعيات هو معرفة بعض التصورات المتعاقبة تعاقباً منتظماً .

ناقض بركلي بذلك كل روح القرن . فأراد الفرنسي « كونديلاك » (١٧١٥ – ١٧٨٠) ، وهو من أسرة برلمانيين تلقى علومه في اكليريكية سان – سولبيس ، انقاذ مذهب الآلية . كان كرتزيانيا مقتنعا ، فلم يستطع القبول بنظرية بركلي الذي افترض احكاما لاشعورية ، هي مفهوم غامض غير متميز . « يكفيني ان يعترف الذين يريدون فتح أعينهم بأنهم يشاهدون نوراً ولوناً واتساعاً وأحجاماً،الخ.انا لا أرتقي الى ما فوق‌ذلك لأنني هنا ابدأ بتحقيق معرفة واضحة بديهية». الحواس تنقل الينا تصورات بسيطة نعين لها دليلاً ؛ نقارن ونجمع ونبدل هذه الدلائل، التي هي اللغة ، ونستخلص منها تصورات مركبة . كل تصوراتنا ، حتى المخيلة والذاكرة والحكم والبرهان منها ، ليست سوى « التأثر الحسي المتحول » ، وكل القوى تنشأ عن تأثرات حسية ، لا بل قد تنشأ عن أدناها أي تأثر حاسة الشم . ثم حاول ان يعرف كيف ان الكائن البشري ، المتملك كافة قواه ، سيعرف العالم الخارجي ،فوصل الى مسألة بركلي :ميز بين الادراك البصري الاولي ، الغامض ، حيث ليس للاشياء حدود واضحة ، وبين الادراك البصري الحالي للاشياء المتميزة الموجودة في مكان معين . تُرد النتيجة الى تحليل يجري باللمس . حاسة اللمس تعرف الاشكال ، وحاسة البصر تدركها ، ولكن دون أي شيء يضاف الى التأثر الحسي الاول ، دون ايحاء من تأثرات حاسة اللمس التي استعانت بها . منذ البدء ، يرى الكائن البشري الاشياء ، ولكنه لا يميزها لانه لم يحللها . الا ان الاشياء موجودة كما يراها بعد التحليل . يعرفها كخارجية بفضل حركة جسمه التي توقفها مقاومة الاجسام الجامدة . اذا كان الجسم الجامد خارجياً عن جسمه ، لا يكون هناك سوى تلامس ؛ واذا لامس جسمه بالذات ، يكون هناك

تلامس في الجزء الملامس والجزء الملامَس معاً . هكذا يعرف الانسان جسماً من الاجسام ويفرق بينه وبين الاجسام الأخرى . يستثبت واقع العالم الخارجي والاتساع والحركة والقيمة التمثيلية لتصوراته الذهنية الناشئة عن التأثرات الحسية ؛ بذلك كان « علم الطبيعة » الآلي مضموناً .

اتضحت بالفعل نفسه طريقة العلم . بما اننا نستخلص تصوراتنا المركبة من مقارنة علامات اللغة ، يجب ان يكون هناك توافق تام بين التصورات والعلامات ، وان لا نستعمل أية كلمة لا يكون مدلولها موضحاً ولا يختص بواقع واضح متميز . العلم « لغة مهذبة » . يجب من جهة ثانية أن لا نستنتج بل أن نحلل : الحواس تعطينا كلاً ندركه ادراكاً آنياً غامضاً ؛ ندرك اجزاءه تدريجياً وانفراداً ، ونتوصل إلى إدراك الكل نفسه إدراكاً آنياً ومتميزاً . إن في إدراكنا لجزئة وإعادة تركيب ، تحليلاً وتأليفاً . ليست أوفع الطرائق العلمية سوى أشكال لطريقة العقل البشري البسيطة والشاملة. فباستطاعة كل عقل من ثم الانتقال من التأليف إلى التحليل . العلم في متناول الجميع . يجب أن تؤلف المعارف المحصلة طرائق غير استدلالية : « تركيب الاجزاء المختلفة لفن أو لعلم وفاقاً لترتيب تتماضد فيه كلها وتُفسّر الاخيرة منها بالاولى التي هي المبادىء » . يجب ان تكون هذه المبادىء ظواهر معروفة جيداً كالجاذبية الشاملة . إن علم الطبيعة الذي وضعه نيوتون خير مثال العلم والطريقة .

كان لكونديلاك ، بمؤلفاته الكثيرة[1] ، أكبر أثر في علماء زمانه ، وفي جماعة الباحثين في التصورات والافكار ، وفي عدد من المؤلفين من أمثال « ستندال » .

ان ما حاول كونديلاك تأمينه ، أي قيمة معرفتنا العلمية وبراهين وجود الله ، الساعاتي « الاسمى » في علم الآليات الشامل ، قد قوضه الاسكتلندي هيوم بحرية زاد منها انه أركن في حياته العملية إركاناً تاماً الى الاعتقادات الطبيعية والبديهية . اهم مؤلفاته هي « بحث في الطبيعة البشرية ، محاولة في ادخال طريقة البرهنة الاختبارية الى العلوم الادبية » (١٧٤٠) و« المحاولات الفلسفية حول الإدراك البشري » (١٧٤٨) . « أراد على غرار كونديلاك استخدام طرائق نيوتون:الانطلاق من تقديرات واعتقادات الانسان بغية البحث بالتحليل والاستدلال عن مبادئها» « التي يجب ان تعين في كل علم حدود كل رغبة بشرية حارة في المعرفة » .

قال هيوم ايضاً بمذهب الحاسيين . ان انطباعات الحواس هي الاصول التي تشكل الافكار نسخها . الفكرة الصحيحة هي تلك التي تقابل أو يمكن ان تقابل انطباعاً . ولكن هذا التحليلي الذي لم يعتمد طريقة خاصة قد لاحظ ان هنالك تصورات ذهنية بسيطة دون انطباع مقابل ؛ اذا عرضنا على العين سلم ألوان كاملاً باستثناء لون واحد ، فان العين سترى الدرجة الناقصة كما لو

---

(١) ومن بينها « محاولة في أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) ، و« بحث في المذاهب » (١٧٤٩) ، و« بحث في تأثرات الحواس » (١٧٥٤) ، و« للنطق » (١٧٨٠) .

كانت هنالك حركة عقلية خاصة نحو التأثر الحسي وفاقاً لبعض النواميس ، وكما لو كان العقل يسبق المعرفة بواسطة الحواس ، او كما لو كان في العقل شيء سابق للاختبار .

الانطباعات تولد الافكار البسيطة . العقل ينتقل من الافكار البسيطة الى الافكار المركبة بتوارد يتم وفاقاً لمبادىء المخيلة الشاملة ؛ الافكار تتجمع بتشابهها ، باتصال الانطباعات ، لأن احدهما يمثل علة يكون الثاني لها معلولا . ان هذه النواميس هي بالنسبة للافكار ما هو ناموس الجاذبية النيوتوني بالنسبة للاجسام ؛ انها اصلية وأولية . ليس من حاجة للارتقاء الى ابعد من ذلك . إلا أن الانسان يبقى حراً ؛ باستطاعته الحيلولة دون تجاذب الافكار ، باستطاعته الجمع تحكماً بين فكرين ؛ يضاف الى ذلك ان الافكار قد تتجاذب دونما مبرر ، كما بالتشابه مثلاً . هنالك خطأ في الحالتين الاخيرتين .

ان هذه التجاذبات تعطينا تصورات مركبة قد لا يكون لها وجود في الواقع . لنأخذ الصلة بين العلة والمعلول مثلاً ؛ فان مراقبة علة معينة (انخفاض حرارة الماء) لن تثبت البتة ان هذه العلة يجب ان تؤدي بالضرورة الى معلول معين (التجمد) . ان احد ملوك سيام لم يصدق يوماً ان هنالك بلداناً يبلغ من تجمد الماء فيها انه يصبح قادراً على حمل الفيل . الاختبار وحده هو ما يعلمنا ،الاختبار ،أي تعاقب بعض الأحداث الثابتة ،أو تكرر بعض الاعادات بشكل معين ، قد يتغير يوماً .

لسنا ندرك ابداً سوى تعاقب الانطباعات والتصورات . ان مجموعة تصورات بسيطة يجمعها المخيلة بحسب توارد ها بالاتصال وتُلبس اسماً غريباً تعطينا فكرة المادة وقد يكون ذلك خدعة العادة والكلام . فما الاجسام يا ترى ؟ انها اكداس انطباعات متواترة نجمعها بحسب تشابهها ونعتقد انها وقائع دائمة . والنفس ؟ اهي لامادية ، اهي مادة روحية ؟ لعلها ليست سوى سلسلة انطباعات وتصورات متعاقبة تتوارد في الذاكرة ، فتخلق المخيلة وهم ديمومتنا . إلا ان هيوم يعترف بأنه لا يعلم كيف « تتحد احساساتنا المتعاقبة في فكرنا أو في ضميرنا » . ومن هو الله ؟ ان نقد فكرتي المادة والعلة يؤدي الى العلة الاولى والمادة اللامتناهية . التشابه بين جهاز صنعي وبين الكون برهان احتمالي من براهين العلوم الاختبارية ، ولكن التشابه بين جزء محدود وبين كل غير محدود قابل للمنازعة والجدال .

ان هيوم المخيف قد ايقظ « كانت » من « سباته العقائدي » . كما ان «جان – جاك روسو» قد ترك فيه اثراً كبيراً ايضاً بتشديده على الحكم ، على هـذه الكلمة الصغيرة « هو موجود » ، التي هي دليل نشاط الانسان . ان « كانت » (١٧٢٤ – ١٨٠٤) الذي كان استاذاً في جامعة كونغسبرغ وعالماً فلكياً وعالم طبيعيات وفيلسوفاً ، قد نشر في السنة ١٧٨١ « نقد العقل الصريح » ، وفي السنة ١٧٨٨ « نقد العقل العملي » وعدداً من المؤلفات الاخرى في الفلسفة والاخلاق والتاريخ والدين. طمح في أن يحدث في علم العقل البشري الثورة التي احدثها كوبرنيك

في علم الفلك وفي ان يغير وجهة النظر تغيراً تاماً. اراد ان يثبت ان عقلنا لا يتقبل صورة الاشياء بل يستخدم واقعاً نجهله ليكوّن به الاشياء . وهو ايضـــا يتخذ علم الطبيعة النيوتوني مثالا للمعرفة : سلسلة من الاختبارات المختلفة ، نواميس تربط بين هذه الاختبارات ، مبدأ ترتبط به هذه النواميس . لقد لازمه وتسلط عليه مثل العلوم الطبيعية .

ينطلق « كانت » من تحليـــل الحكم . هنالك القضايا « الاولية » السابقة للاختبار التي لا يحتاج تحقيقها الى الاختبار ، والقضايا « الاستدلالية » المبنية على الاختبار . ان القضايا « الاولية » كلها اعتبرت من قبله تحليليـة : الخبر فيهـا موجـــود وجوداً ضمنيا في المبتدأ أو الاسم ويستخلصه العقل منها بالتحليل . هـــذه هي حال القضايا الرياضية والميتافيزيقية والاخلاقيــة . واعتبرت القضايا « الاستدلالية » كلها تأليفية : الخبر ليس جزءاً من المبتدأ أو الاسم بل يؤدي اليـه الاختبار ويوازي العقل بينه وبينها بالتأليف ، كما في هذه القضية مثلاً : الذهب قابل الذوبان بتأثير حرارة تبلغ ١٠٠٠ درجة ، التي هي تأليفية « واستدلالية » .

والحال ، القضية التحليلية « الاولية » لا تزيد المعرفة : انها توضحها . القضية التأليفيـة وحدها هي ما ينميها . ولكن الرياضيات تنمي معرفتنا . اعتقد كانت ، على نقيض دالمبير ، ان « ٢ + ٢ = ٤ » تأتينا بمعرفة جديدة تختلف عن مجرد التأمل في ٢ و ٢ . الرياضيات « أولية » . اذن هنالك قضايا تأليفية « أولية » : الخط المستقيم ، مبدأ السببية ، وغيرهما . اذن هنالك ، قبل اي اختبار ، معطية عقلية وحركة عقلية وفاقا لبعض النواميس ، وهذا عمل غير شعوري بالنسبة لنا . وتوصل « كانت » هنا الى بَدائِه بركلي وهيوم : ان افكارنا كلها وقوانا كلها لا تأتينا من التأثرات الحسية . العقل واقع حي سابق للتأثرات الحسية . فبرزت مرة اخرى الافكار المطبوعة .

بعد بلوغ هذه النتيجة ، بات لزاماً التوصل الى واقع العقل هذا . درس « كانت » انطباعاتنا الحسية . ليس باستطاعة حسنا ان يتأثر الا في المكان والزمان . المكان والزمان « اوليان » ، وهما شرطان للانطباع الحسي ، وشكلان من اشكال الحس الحاصل قبل الاختبار . الحس لا يعطينا سوى انطباعات حسية . وحتى نجعل من هذه الانطباعات تأثراً حسياً بما هـو جامد ، ورخو، وبارد ، وحار ، يجب ان يقيم الادراك ، او النشاط البديهي للعقـــل ، علائق بـين الانطباعات الحسية بواسطة « مفاهيم » ينطوي عليها « اوليا » قبل اي اختبـــار : السببية ، الكمية ، النوعية ، وغيرها . وجود الادراك يستلزم وجود الـ « انا » ، « انا » المتكلم ، الذي هو معطية « اولية » ، قبل اي اختبار ، وشرط الاختبار . وهكذا حلت المسألة التي تركها هيوم : كيف يمكن ان تعرف مجموعة انطباعات وكأنها « انا » المتكلم .

ان واقعا خارجياً يحدث الانطباعات الحسية هو شرط التفكير . ولكن التفكير لا يبلـغ هذا الواقع او «نومين» *(noumène)* بحد ذاته . والعقل لا يعرف منه الا ما يصله مركباً بواسطة الادراك ، وفاقاً لمفاهيمه « الاولية » ، بحسب ما اعطـاه الحس في اشكاله « الاوليـــة » ، او

« الظواهر » . ان ما نسميه شعوريا هو تركيب يحققه عقلنا انطلاقاً من واقع مجهول . وهكـذا ليس لتصوراتنا الذهنية من قيمة تمثيلية ، فليست هي صورة للأشياء ؛ فانهـار مذهب الحاسيين الاختباري القائل بان الحس اصل المعرفة .

ينتج عن ذلك اننا لا نعرف انفسنا كما نحن . « انا » كل منا ظاهرة نتوصل اليها بالاختبار ، من خلال شكل الزمان « الاولي » ، بحسب مفاهيم الادراك .

لا نستطيع معرفة العالم كما هو ، ك *(noumène)*، بل كما يبدو لنا فقط ، اي كظاهرة. ولذلك نرانا نصل ابداً ، حيال العالم ، الى معارضات او مناقضات . اذا قيل ان العالم متناه لانه يجب ايجاد حدّ للفضاء الراهن ، فبالامكان الاجابة بانه لامتناه لان مكان شيء ما هو نسبي لمكان شيء اخر ، واذا قيل انه متناه لأننا لا نستطيع الانطلاق من معلول للانتقال من علة الى علة الى ما لا نهاية له ، ولانه يجب بالنتيجة ايجاد علة اولى حرة ، امكن الاجابة بانه لامتناه لان علة حرة تقطع التسلسل السببي اذا لم تكن هي نفسها معلولا لعلة اخرى ، ولان علة حرة تناقض مبدأ السببية ، وهكذا دواليك .

لا نستطيع اثبات قيمة الحتمية المطلقة . انها ناموس من نواميس معرفتنا ؛ وليس اختبارنا ممكنا الا في الزمان الذي تتعاقب فيه العلل والمعلولات تعاقبا لازماً . ولكنها ليست ناموسا من نواميس الكيان : فقد يكون هنالك علة حرة ، خارج الزمان .

لا نستطيع اثبات الله . انه احد تآليف العقل اللازمة . لا نستطيع تصور كل شيء الا بالنسبة لكائن يستوعب كل واقع ممكن ، يكون بمثابة مثال كامل للاشياء الناقصة . ولكن ، هل ان هذا الكائن اللازم لنا هو موجود حقا ؟ الكون يسير بموجب نظام يثير الاعجاب ويفرض كائنا كلي الذكاء وكلي القدرة ؟ لنسلم بكائن كلي الذكاء وكلي القدرة ، الا انه قد يكون محدوداً ، متناهيا . ولكن كل الكائنات غير لازمة الوجود ، قد يكون ممكنا ان لا توجد ، ليس لها علة وجود في ذاتها ، انها مرتبطة بكائنات اخرى . يقتضي كائن لازم ، لا يمكن ان لا يكون ، يفسر كافة الكائنات الاخرى ولا يحتاج لان يُفسر . لنسلم بذلك ؛ ولكن لا يُثبت على هذا الشكل وجود اله ذاتي وخالق ؛ قد يكون الكائن اللازم المادّة او الها مختلطاً بالاشياء ويظهر فيها . ولكن اكمل كائن يمكن تصوره موجود حتما : اذا انتزع منه الوجود ، فلن يكون الاكمل ؛ تصوره كاملاً هو فرض وجوده . غير ان الوجود لا يزيد شيئا في نظر « كانت » : فان ١٠٠ « تالر » حقيقية ليست اعظم كمالا من ١٠٠ تالر ممكنة .

وهكذا فان علم المعقولات ليس ثابتاً ، وليس علماً . ان ما نعرفه واقعي لا حقيقي. ان علمنا ، المبني انطلاقاً من الوقائع الحسية ، علم مشروع اذ اننا لا نستطيع عمل شيء آخر ؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية انه علم ناجح ، وهذا يظهر بعض التوافق بين مفاهيمنا والعالم

الخارجي . ولكنه علم ليس له سوى قيمة عملية . لا نستطيع في الحقيقة ان نعرف شيئاً من جوهر االأشياء .

كان مقدراً لتفكير « كانت » ان يصبح منطلق كافة فلاسفة القرن التاسع عشر تقريباً . اعتبر « نقده » زمناً طويلاً وكأنه اكتشاف نهائي يعين الشروط الدائمة لكل معرفة فعلية ويؤلف حد حقل المعرفة بالنسبة للعقل البشري .

توسع العلم

اذن قام رجال ذاك العهد بجهود علمي جبار . حاولوا تنظيم كافة المعارف على غرار « علم الطبيعة » : الحقوق ، الاخلاق ، كل شيء ، وحتى الجمال . فان الكاهن الفرنسي « دي بوس » قد اسس علم الجمال الجديد بكتابه « افكار نقدية في الشعر والرسم » (١٧١٩) . وفي السنة ١٧٣٥ اطلق الألماني « بومغارتن » على هذا العلم اسم « علم سنن الجمال » .

مهما بلغ من انتشار العلم والروح العلمية ، فانهما ما زالا ، على الرغم من ذلك ، وقفا على اقلية ، وكم في هذه الاقلية بالذات من عزائم تراخت بفعل الانسياق وراء الاهواء . كان هناك علماء زائفون اعتقدوا برجال البحر وبنات البحر والعنقاء المغربة والتنين والوحش البشري والفرس الوحيدة القرن ونشروا اعتقادهم ، وزعموا انهم وجدوا ورسموا بشراً وحيوانات تعيش في الحصاء ، وشاهدوا اصدافاً تولد في الأرض وتنمو فيها . وقد اكد فولتير نفسه انه شاهد ولادة اصداف في ريفه . وكان هناك اساتذة من امثال ذاك الذي فسّر ، في السنة ١٧٦٨ ، في باريس ، في كلّية مونتيغو ، تناسل الحيوانات كما يلي: « ان روح الحيوان الفحل (الكلب مثلاً) تبعث من ذاتها بشعاع روحي مغلف بخلاصة من جذره الحضل : هذا هو زرع الكلب ! » وكان هناك جمهور الطفيليين الذين ازدحموا حول وعاء « مسمّر » بائع الأدوية ، المزود بالقضبان والسلاسل الدمرية ، واعتقدوا بالشفاء من كافة الامراض وبالوضع دون الم بفضل قوى مجهولة في المغنطيسية الحيوانية . وكان هناك الفلاحون الذين انقضوا على الكرات الهوائية الاولى ومزقوها شر ممزق ، والصناعيون اليدويون الذين ثاروا على مانعات الصواعق الاولى ؛ وجميع من اعتقد بالسحر والسحرة والعفاريت الوهمية والسحرة المتنكرين بهيئة الذئاب ، اي المحيط البشري الذي طفت فوقه قبضة من الفلاسفة والعلماء .

لم يجمع العلم وقائع جديدة الا باستسلام العقل البشري الذي قبل ، لتفسير الملاحظات ، بمبادىء لم يدركها . ماذا كانت كل هذه العوامل الخفية ، السائل الحراري ، والسائل الكهربائي ، والسوائل العادمة الثقل التي تنطوي على قوة فاعلة ملازمة لها يا ترى ؟ حاول ديكارت ان يقضي في كل مكان على هذه الملازمة ، كما حاول ان يثبت بالبرهان في كل مكان ما هو خاص ونوعي ، أي ما هو غامض ومفشّى وضمني بغية ردّه الى بعض عناصر مشاركة ، الاتساع والحركة ، أي الى ما هو جلي ومتميز وصريح . فقد بدت السوائل وكأنهـا تعود بالحالة الفكرية الى ما قبل ديكارت .

ولكن العلم ملك ضمن حدوده . انه يصبح دنيا . فقد برزت الثقة العمياء في العلوم . وان الانسان، الذي بات بواسطة العلم سيد اسرار الطبيعة وقادراً، كما اعتقدوا ، على شفاء الامراض المستعصية بواسطة جهاز الدكتور « ناسم » الكهربائي (١٧٧٤) ، وتمديد حياة الانسان الى ما حد له بواسطة الاوكسيجين ، وتنظيم خير مجتمع بواسطة العلم الاجتماعي ، كان في طريقه الى العصر الذهبي .

الفصل الثامن

النظريات الشاملة

« فلسفة الأنوار »

حوالي السنة ١٧٦٠ بدا النجاح وكأنه يحالف « فلسفة الأنوار » التي بناها أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفلاسفة » . أرضحو أفكارهم في مآس ، وقصائد ملحمية وتعليمية وهجائية وروايات ومقالات انتقادية عنيفة وحوارات وشروح جل فلسفية وقواميس . أما مؤلفهم الشامل الاول ، « اجمال فلسفة القرن الثامن عشر » المعد لأن يحل محل « الاجمال اللاهوتي» للقديس توما الاقويني ، فقد كان قاموساً هو « دائرة المعارف الفرنسية » لدالمبير وديدرو ، التي ظهر الجزء الأول منها في أول تموز ١٧٥١ مع خطبة تمهيدية من وضع دالمبير ، والتي انجزت في السنة ١٧٦٤ على الرغم مما وضعته السلطة في سبيلها من عراقيل وعقبات . تألف نصها من ١٧ مجلداً ولوحاتها من ١١ مجلداً . وأكمل الاجمال هذا بكتاب موجز هو « القاموس الفلسفي » السهل نقله لفولتير (١٧٦٤) . أما دائرة المعارف التي أسهم في انجازها ١٣٠ شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء في الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من أهل اليسار ومن حملة الألقاب الرسمية ، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية الكبرى المستنيرة وحدها ، فكانت مؤلفاً بورجوازياً . وكان أهم « الفلاسفة » ، الكتبة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو ، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو ، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير ، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء رجال قضاء أو شرع هم أقرب اليها من أهل الجندية . كان تفكير العصر بورجوازياً أكثر منه في القرون السابقة .

ان تفكير هؤلاء البورجوازيين عقلي وموضوعي ونفعي . يريدون في كل شيء البداهة والوضوح والمطابقة للعقل واحترام مبادئه : الذاتية ، عدم التناقض ، السببية ، الشرعية . العقل قيمة سامية . انه قادر على كل شيء ، ويدرك كل شيء ، ويصدر حكمه في كل شيء . هو الاله الأخير . اما الذين وجدوا له حدوداً ، كفولتير مثلاً ، فقد اعتقدوا ، على الأقل ، ان ليس خارج العقل سوى ليل وخواء ، وانه سبيلنا الوحيد المقبول الى المعرفة . العقل يستدل انطلاقاً من حقائق بسيطة وجلية ، إلا أنه فوق كل شيء ، يراقب الوقائع ويستخلص منها النواميس . يجب أن يقتصر العقل على المعارف المفيدة للانسان : كل ما لا يفيد باطل . اف

من الرغبة في المعرفة لمجرد الرغبة ! قد يكون هذا التفكير معقماً . ولكنهم لحسن الحظ قد بقوا له أوفياء .

قال معظم « الفلاسفة » بالدين الطبيعي مع إنكار الوحي . اثبت لهم عقلهم وجوب وجود علة أولى لأنه يستحيل الارتقاء الى ما لا نهاية له من علة الى علة ؛ فهنالك من ثم كائن أزلي يرتبط به كل شيء ويكون بالتالي كلي القدرة . ولكن هذا الكائن الأسمى كلي الذكاء أيضاً ، لأن الكون آلة ميكانيكية تثير الدهشة بتركيبها وتنظيمها : النظام يستلزم ذكاء منظماً . ان هذا الكائن الأسمى ، الكلي القدرة والكلي الذكاء ، الله هو . لا نستطيع معرفة هذا الاله ومعرفة ما هو بالضبط ، بيد اننا نعرف انه موجود : هذا هو المعتقد المشترك بين كافة الأديان ، هذا هو الدين الشامل .

إن الله خلق بالضرورة عملاً ناقصاً : فقد لا يميز بين الله وعالم كامل قد يكون هو نفسه الله ؛ الله وحده كامل . ولكن الله الكلي القدرة والكلي الذكاء ، وخالق عالم على مثل هذا التناسق ، قد خلق بالضرورة خير عالم ممكن . اذا كانت هنالك شرور ، ففي سبيل خير أكبر لا ندركه. أطلق على هذا المذهب اسمه ، « التفاؤل » ، في السنة ١٧٣٧ . كان فولتير في البدء من تبعته المقتنعين ، ثم بات عدوه العنيد بعد كارثة الزلزال التي حلت بلشبونة (١٧٥٥) وألف كتابه اللاذع « كنديد » (١٧٥٩) : قال « كاكبو » : ما هو التفاؤل ؟ – أجاب كنديد : إنه الكلف بالتأكيد أن كل شيء جيد في حال أن كل شيء سيء » . منذ هذا التاريخ أخذ التفاؤل بالانكفاء إلى الوراء .

نظم الله العالم بنواميس أزلية لا يدخل عليها أي تغيير . فلا فائدة إذن من الابتهال اليه ، ولا من حاجة إلى الطقوس والاسرار . إن ما يجب عمله هو درس الطبيعة لمعرفة نواميسها والعمل بموجبها .

كان بعض الفلاسفة ماديين وملحدين : « موبرتوي » ، الطبيب « لامتري » ، ملتزم جمع الضرائب « هلفتيوس » ، البارون « دولباك » الذي كان يجمع حول مائدته الملحدين الباريسيين الرئيسيين ويدير منشورات تتميز بالعداوة الالحادية ، وديدرو أخيراً بين الفينة والفينة . كل شيء في نظرهم يفسر بالمادة . المادة أزلية ؛ من طبيعتها تتولد الحركة ونواميسها والنظام الكوني ؛ ومن الحركة يتولد كل شيء ، حتى الفكر . الله افتراض باطل . نظر الناس الى الملحدين بحلم وتسامح : ففي أشهر روايات القرن « هيلويز الجديدة » لجان جاك روسو ، يظهر السيد « دي فوطار » ملحداً خفيف الظل . ولكن هؤلاء الفلاسفة لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد ولم يترك تعليمهم أثراً يذكر .

رأى « معظم الفلاسفة » ان الطبيعة التي خلقها الله ونظمها تجعل البشر يعيشون حياة اجتماعية . على العقل البشري أن يكتشف النواميس الطبيعية التي تنظم المجتمعات بغية العمل

بموجبها . هنالك حق طبيعي مبني على النواميس الطبيعية . على الانسان ان يعبر عن هذا الحق الطبيعي بشرائع موضوعية . وهنالك اخلاق طبيعية مطابقة النواميس الطبيعية . على أن على الانسان أن يعبر عن هذه الأخلاق بمبادىء ويجمعها في تعلم طبيعي .

حواسنا توحي لنا اننا موجودون على الأرض لأجل السعادة ، أي لأجل التمتع باللذة : « يجب أن نبدأ بالتفكير في أنفسنا أن لا عمل لنا في هذا العالم سوى أن نوفر لنا فيه احساسات وشواعر مستطابة » . التمتع باللذة حق . « ان محبة النفس » التي هي أقوى من محبة الوجود ، يجب أن تكون بالنسبة للأخلاق كما هي الجاذبية بالنسبة لعلم الآليات . الأنانية مرتكز علم الأخلاق . ولكن يجب أن تفهم الأنانية جيداً . العقل يرشدها ويظهر لها « حقيقة عملية واحدة لا جدال فيها هي حاجة البشر المتبادلة بعضهم الى بعض ... والواجبات المتبادلة التي تفرضها هذه الحاجة عليهم . اذا ما افترضت هذه الحقيقة ، اشتقت منها كافة قواعد الاخلاق بتسلسل لازب ... « لعل علم الأخلاق أكمل كافة العلوم اطلاقاً . » هذا هو أساس القواعد الأولية : لا تعمل لسواك ما لا تريد أن يُعمل لك؛ واعمل لسواك ما تريد أن يعمل لك . ومن هنا تشتق قواعد التساهل والاحسان والانسانية ، المتفقة من جهة ثانية واريحية الانسان الطبيعية ، ولكنها تخضع لتدابير حكيمة حتى يجد كل شخص في آخر يومه ان لذته اكبر من المه وان حساب الاخلاق يثبت له ، اذا رجحت كفة اللذة ، انه سعيد حقا . وينجم عن ذلك حلم عام معين : الانسان الذي يتصرف تصرفا سيئا لا يمكن ان يكون سوى انسان ارتكب خطأ . وينجم عن ذلك ايضا الاعتقاد بخلود النفس والجزاء بعد الموت : يخطىء البعض ويعذبونني على غير حق ؛ فمن المخالفة لكمال الكائن الاسمى ان لا يعيض من هذا الضرر في العالم الثاني بنظام مكافآت وعقوبات .

يجب ان تنظم المجتمعات في سبيل سعادة البشر . ولأجل تأمينها عقد البشر فيما بينهم في البدء اتفاقا ووحدوا قواهم ضد الكوارث الطبيعية وضد اعدائهم. لا يمكن ان تنجم هذه السعادة الا عن التقيد بالحقوق الطبيعية الناجمة عن النواميس الطبيعية . فالبشر من ثم يختارون حكومتهم حتى تضمن لهم حقوقهم ، وهنالك عقد اتفاق حقيقي بين الحاكم والمحكومين ؛ وبمكنة هؤلاء استبدال الرئيس الذي قد لا يحترم العقد ويتعدى على حقوقهم او يتغاضى عن التعدي عليها . اذن الثورة حق ايضاً . ولكن على الحكومة ان تتولى كل السلطات لتتمكن من القيام بمهمتها . يجب ان تكون استبدادية وملكية في الدول التي تتجاوز مساحة معينة . « قد تقوم بالضرورة » في الجمهورية ، احزاب من شأنها ان تمزقها وتقضي عليها » . الحكم الملكي « وحده اهتدى الى الوسائل الحقيقية الكفيلة بجعلنا نتمتع بكل سعادة ممكنة وبكل حرية ممكنة وبكل الفوائد التي يستطيع عضو المجتمع ان يتمتع بها على وجه الارض » . على المستبد ان يتلقى تعاليم « الفلاسفة » دون غيرهم . هذه هي نظرية « الاستبداد المستنير » ، التي نشرها « في المانيا ايضاً » « وولف » وكتبة آخرون كثيرون ضمنوا لها نجاحاً كبيراً .

على الامير ان يؤمن حقوق الانسان . حرّية الشخص اولاً : بالغاء الرق والفدادية .يمنح حرية الانتقال والتجارة والصناعة والملاحة والحرية المدنية ، لا الحرية السياسية ، او حرية سياسية محدودة ؛ فالحرية السياسية « خير لم يوجد لأجل الشعب » . لن يكون هنالك حرية فكر ولا حرية دين بل تساهل الى ان يستنير كافة البشر . ويكون هنالك حرية الكلام حتى يستطيع الفلاسفة الاعراب عن آرائهم . اما حيال الآخرين فيجب التصرف بفطنة وبصيرة : لا يمكن للحرية التهجم على الحرية ان تكون حرية . وقد رأينا ديدرو الذي عينه وكيل الشرطة « سارتين » رقيباً على المؤلفات ، يدرس مهزلة « الهجاء » لـ « باليسو » ويطلب حظرها لأنها تستهزىء بالفلاسفة . وكثيراً ما وشى هؤلاء كتابة بمعارضيهم الى الحكومة .

على الامير ان يؤمن المساواة امام القانون ويبطل امتيازات النسب ، فيدفع الاكليروسيون والاشراف جميعهم الضريبة النسبية ، ويحاكمون امام المحاكم نفسها وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها. وتفتح ابواب المهن كلها لكافة الكفاءات لان المساواة في الحقوق طبيعية ولان من المصلحة العامة ان يعين خيار الرعية في اعلى الوظائف . ولكن الطبيعة حبت البشر بارادة وذكاء وكفاءآت متفاوتة . فينجم عن تفاوت المواهب هذا تفاوت في الثروات هو من ثم طبيعي . والتملك الذي ينشأ من استخدام الحرية هو طبيعي ايضاً ، وهو مقدس . على الامير ان يبقي بعناد على حرمة التملك وتفاوت الثروات . وباستطاعته ان يسند الى كبار الاثرياء والملاكين العقاريين سلطة تشريعية . فيكون هنالك ارستوقراطية الثروة والمواهب . « لجاحات الانوار محدودة » بحسب ما جاء في « دائرة المعارف » ، « فهي لا تبلغ الضواحي قط لان الشعب هنا متأخر جداً . عدد اسافل الناس يكاد لا يتغير ... الجماهير جاهلة وبلهاء » . وقال فولتير قولاً اشد قساوة من ذلك : «يقتضي للشعب الاحمق والهمجي نير وفخس وعلف» .

يجب ان تكون العدالة اكثر حلماً . حريتنا الخارجية محدودة . فنحن نريد من ثم آراء فرضت علينا ، وهذه الآراء تخضع لتأثراتنا الحسية التي تخضع لبيئتنا ووراثتنا : فمسؤوليتنا من ثم مخففة بعض التخفيف . العدالة تستهدف الحث على القيام باعمال مفيدة للمجتمع والحيلولة دون الأعمال الاخرى . يجب إلغاء كل ما هو خطر او غير مفيد فقط : الاستنطاق بواسطة التعذيب الذي يتيح للمجرم القوي ان يفوز بالبراءة ويرغم البريء الضعيف على الاقرار بجرائم لم يقترفها ؛ العقوبات المتروكة لتحكم القاضي او العادمة التناسب والجريمة ؛ العقوبات التي تتناول الجناية على العزة الآلهية ، وهي خطيئة يمكنة الله ان يقتص من مرتكبها بمعزل عن القاضي . يجب ان لا يسلم بعقوبة الموت الا اذا كانت السبيل الوحيد لانقاذ حياة اكبر عدد ممكن من البشر . المتهم الحق في ان يعامل معاملة البريء لا معاملة المجرم ، والمجرم في ان يعامل بحلم ورحمة ، والاولى للدولة ان تمنع الجرائم بالتربية من ان تقتص من المجرمين . وقد توسع الميلاني « بكاريا » في كتابه « الجرائم والعقوبات » (١٧٦٤) في هذه الآراء التي استوحاها من مونتسكيو و « دائرة المعارف » .

لا يمكن التسليم بالحرب ، وهي آفة البشرية ووصمة عار في جبينهـا ، الا اذا دعت الحاجة القصوى الى امتشاق السلاح في سبيل الدفاع المشروع عن النفس . ولا يكون حينـذاك كل شيء جائزاً للجندي ، الذي عليه ان لا يفعل شيئاً يناقض « نواميس البشرية الأزلية » وان يبحث عن مجده في « سخائه » . على الأمم ، المؤلفة من بشر احرار ، ان تعتبر نفسها كاشخاص احرار تترتب عليهم واجبات الافراد . وقد واصل الآب «دي سان ـ بيير» حتى السنة ١٧٤٣ الدعاوة التي باشر بثها في عهد لويس الرابع عشر في سبيل سلم دائم بواسطة اتحاد دائم بـين كافة ملوك اوروبا : الاتحاد سيحول دون اندلاع الحرب فيما بينهم ؛ وسيحد من التسلـح ، ولن تقسم اية بلاد ، وسيكون للاتحاد جيش مؤلف من مجندي الامم المختلفة لفـرض احترام مقرراتـه ، وسيكون مركز الاتحاد في مدينة السلام ، الحرة والحيادية ، كجنيف مثلاً .

تتقدم الانسانية تقدما مستمراً بانتشار الانوار . التربية ابعد وسائل التقدم اثراً . يجب ان توجهها الدولة لمصلحة الدولة التي يجب ان توفر لها مواطنين تجمعهم روح واحدة ويكونون اهلاً للقيام بوظائف الدولة المختلفة بغية بلوغ مثل اعلى مشترك . يجب ان يتولى شؤونهـا مكتب خاص خاضع لسلطة الوزير المكلف امر الاشراف على امن عام الدولة . يجب ان تكون التربية طبيعية حسية ، وان تبدأ بالمحسوس ، بالوصف ، حتى تنتقل الى ما هو عقلي ، ان تنطلق مما هو بسيط حتى تبلغ ما هو مركب : استثبات الوقائع قبل البحث عن العلل . يجب ان تكون طبيعية : اي ان تكوّن اجساما قوية بالمعيشة الخشوشنة والتمارين ؛ وعملية : اي ان تستلزم درس لغة البلاد التي تعيش فيها ، والتاريخ المعاصر ، والجغرافيـة ، والعـلوم الطبيعيـة ، والرياضيات ، وعلم الطبيعة ، والتدرب على العمل اليدوي . وقد شدد الكلام في هذه النقاط مؤلفون كثيرون نخص بالذكر منهم القاضي الفرنسي « لاشالوتيه » الذي وضع في السنه ١٧٦٣ كتابه «محاولة في التربية الوطنية» . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المعرفة في متناول الجميع : « الحقيقة بسيطة» وبالاستطاعة ابداً وضعها في متناول الجميـع » . هذا ما قاله دالمبير في سياق كلامه عن « التفاضل » في « دائرة المعارف » .

وقعت هذه الآراء موقع الرضى من نفوس الملوك الذين كانوا قد اعلنوا الحرب على امتيازات الكنائس والاشراف والجمعيات . راسلوا الفلاسفة واستقبلوهم . فقد تبـادل فولتير وديدرو ودالمبير الرسائل وملك بروسيا فردريك الثاني وقيصرة روسيا كاترين الثانية . كما اقام فولتير في برلين وديدرو في سان بطرسبورغ .

الماسونية

الا أن ناشر هذه الآراء الرئيسي هو الماسونية . وقد تساءل « بول هازار » عما إذا لم تكن دائرة المعـارف مشروعاً ماسونياً . انتمى الماسونيون إلى نقابات البنائين في القرون الوسطى الذين كانوا يحرصون على الاحتفاظ بأسرارهم المهنية وقبلوا بـأن ينضوي الى جمعيتهم بعض عظماء الأسياد المولعين بمعرفة الأشياء . استمرت محافلهم في انكلترا حتى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت معها تقاليدهم وصكوكهم واحتفالاتهم وكتاب رتبهم؛

أما الأعضاء فخليط من مهندسي العمارة المتمهنين ، ورجـال الفكر ، والاشراف . في السنة ١٧١٧ ، انصهرت أربعة محافل من محافل لندن في محفل انكلترا الكبير واستبدلت الماسونية المهنية القديمة بماسونية فلسفية . في السنة ١٧٢٣ ، وبناء على أمر المعلم - الأكبر ، وضع الراعي الماسوني اندرسون « دساتير الماسونيين» التي تعتبر الجيل هـذه الكتيبة الفكرية والنفعية وقانونها و كتاب فرضها .

تحتفظ الماسونية ، من اصولها في القرون الوسطى ، بالرموز والطقوس التي أتتها من الشرق على ما يقال ؛ تعلم الأوليات ، الأعمدة ، الأقمشة الكتانية المصورة التي تمثل هيكل سليمان ، النجم الساطع ، الزاوية المثلثة ، البركار ، ميزان التسوية (رمز المساواة) ، السر المطلق « تحت طائلة قطع العنق واقتلاع اللسان وتمزيق القلب ؛ وكل ذلك حتى أدفن في أعمق أعماق البحر ويحرق جسمي ويحول الى رماد ينثر في الهواء » .

يؤلف الماسونيون من ثم شيعة صوفية ، مما أسهم في نجاحهم .

يريدون اصلاح النظام الأخلاقي والاجتماعي بنظام فكري جديد . يقولون بمذهب العقليين ويحاربون الديانة المسيحية ، ولكنهم يدينون بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ويعبدون مهندس الكون العظيم ؛ يجب على الماسوني أن لا يكون لا «زنديقاً ملحداً» ولا « دهريا بليداً» ، بل ان ينضوي الى « هذه الديانة العامة التي يجمع عليها كل البشر » . يتعلقون بالحرية والمساواة ويقولون بمذهب التمع باللذة .

« في طريق تكسوها الأزهار

الماسوني يجتاز الحياة

باحثاً عن التمتع باللذة ...

هتاف الطبيعة ، أيها الصديق ، هو الحرية ...

نحن متساوون دون فوضى وأحرار دون فساد

والخضوع لشرائعنا مرتكز استقلالنا » .

الماسونيون جمعية دولية خاضعة لنظام متسلسل السلطات ، وقانونها هو تفاني الأعضاء بعضهم في سبيل البعض الآخر وتبادل المساعدة .

على الرغم من أن البابا اكليمنضوس الثاني عشر قد أصدر حكمه ، في السنة ١٧٣٨ ، بمنع الماسونية في العالم المسيحي ، ومن أن البابا بندكتوس الرابع عشر قد جدّد المنع في السنة ١٧٥١ ، فإن انتشارها كان سريعاً وواسعاً . فما لبثت المحافل ، بفضل الأعضاء من تجار ودبلوماسيين ، وبحارة وجنود وأسرى حرب و «مثلين هزليين متنقلين» ، ان تأسست في كل أنحاء العالم ، في « مونس» في بلجيكا (١٧٢١) ، وباريس (١٧٢٦) ، وروسيا (١٧٣١) ، وفلورنسا

(١٧٣٣) ، وروما ولشبونة (١٧٣٥) ، وبولونيا وكوبنهاغن (١٧٤٣) ، وجبل طارق وأمريكا منذ السنة ١٧٣١ ، والهند والبنغال . استهوت الماسونية الأعيان والبورجوازيين الميسورين وأعضاء المهن الحرة والفلاسفة مونتسكيو ، وهلفتيوس ، وبنيامين فرانكلن ، « ولالند » ، وفولتير الذي قبلت عضويته في ٧ نيسان ١٧٧٨ في محفل الاخوات التسع في باريس . وانضوى اليها الاشراف بأعداد كبرى واحتل بعضهم مركز المعلم الأكبر : دوقية وكونتية انكليز ، والدوق « دانتين » والأمير « بوربون - كونديه » والكونت «دي كلرمون» والدوق « دي شارتر » في فرنسا ؛ والمركيز « دي بلتفارد » ، ياور الملك « شارل - عمانوئيل الثالث دي سافوا » ، ومؤسس محفل « شمبيري » الأول ، وهو المحفل الأم لسافوا والبيمون؛ والأمير دي « سان سيفيرو » ، المعلم الأكبر لمحفل نابولي ؛ «وفرنسوا دي لورين» زوج ماري - تيريز النمساوية وامبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؛ وملك بروسيا فردريك الثاني الذي أصبح منذ السنة ١٧٤٤ المعلم الأكبر لمحفل الكرات الثلاث في برلين . وكان هذا الانضواء خير وسيلة لمراقبة هذه الجمعيات السرية وضمان دعاوتها ومساندتها لهم . الماسونية قوة تنشر آراء الفلاسفة وتوحد الطبقات والأمم وتسهم في خلق ذهنية مشتركة تكون منطلقا لأعمال متماثلة .

المسيحية والكنائس

قام في وجه الفلاسفة خصوم أقوياء . وفي طليعة هؤلاء المسيحية عدوهم الأزرق . أخذوا عليها انها تطلب من العقل فوق ما يتحمل . فكيف استطاع آدم ، الكائن المحدود ، أن يهين الله اهانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الانسان الأول ؟ كيف يمكن الطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بآلاف السنين ؟ كيف يمكن تصور اله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ واله يتجسد ؟ وانسان يقوم من بين الأموات ؟ سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة ، الجارحة ، البعيدة الفهم والتصديق ! أليس جلياً أن ليس هناك من كتب موحى بها من الله ، بل مؤلفات من وضع بشر نقلوا آراء عصرهم السائدة ، نقحت وشوهت وأفسدت تكراراً ، وفاقاً لمقتضيات الزمان أو لدرجة فطنة وانتباه المستنسخين .

وأخذوا على المسيحية انها تعارض الطبيعة وتنصح بالفقر والعمل الجاهد ، والتضحية والتواضع والألم والخضوع . لا بل نسبوا إليها أبوة شواعر غير انسانية : المسيحي يبتهج بوفاة ولده الذي يربح السعادة الأزلية ؛ ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القداس .

واتهموها بالحاق الضرر بالمجتمع . الأديرة ملاجىء كسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار . البتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين

والجنود . إرسال المال إلى البابا يفقر الأمة .الكنسيون يعفون من الضرائب في حال أنهم يتملكون أراضي واسعة الأطراف ، ويحرمون الدولة من موارد وفيرة . الآراء الدينية تقسم المواطنين : وليس تاريخ الكنيسة سوى سلسلة طويلة من الاضطرابات والحروب . الكنيسة توحي بروح مقاومة وعدم انقياد : على المسيحيين أن يطيعوا الله قبل البشر ، وان يتقيدوا بوصايا الله لا ان ينصاعوا لأوامر الحكومة . ليس المواطنون والحالة هذه بكليتهم للدولة ، وما هو العمل ضدهم ما داموا يتصوورون أن ساعة وفاتهم ستكون ساعة سعادتهم الأزلية ؟

ان في مثل هذه النتائج لدليلا على أن رجال الكنيسة جميعهم مكارون ومراؤون. لا يبحثون سوى عن مصلحتهم الشخصية ، الثروة ، والسيطرة . يتجرون بجهل البشر وخوفهم وضعفهم ويخدعونهم بالأساطير والخرافات ويعيشون على حسابهم ويسخرون منهم .

ثم يطفح جام الغضب . فيتولى فولتير الحملة على الكنيسة : « لنسحق الشائنة » . تلك كانت نزعته طيلة حياته ، ولكنها غدت ، منذ السنة ١٧٦٠ ، شغل هذا العجوز الشاغل . لا شيء يصعب عليه : تبسيط استخفافي ، حذف ، تشويه . فقد صدرت بدون انقطاع ، عن «مصنع فرناي»، الاهاجي الازدرائية اللاذعة التي كتبت من أجل أولئك الذين يؤثر فيهم المزاح والجناس المستقبح أكثر من البرهان . « كان هدفه تخليف هذه السخرية لشعب اخرق وغليظ قد يألف الضحك أمام ما لا يدركه » . بواسطته خصوصاً « ولدت في القرن الثامن عشر ... ودامت بعد ذلك فئة من الناس لم تعتمد غذاء روحيا سوى محاربة الاكليروس ... واعتقدت أن محاربة الاكليروس قد تكفي لتقويم الحكومات ولجعل المجتمعات كاملة وللايصال الى السعادة » . انتشر الكفران في كل مكان . وقام الباعة الجوالون يزودون النبلاء والبورجوازيين والكنسيين بمخطوطات وكتب تناهض الاكليروس . في المقاهي والحدائق العامة ، سمع جواسيس الأمن الأراجيف الموجهة ضد الكنيسة والدين ، والصادرة عن الكهنة أنفسهم أحياناً .

ضعفت الكنيسة الكاثوليكية . وكانت آنذاك أقل قدرة على المقاومة بسبب تدخل الدولة في شؤونها ، وتسرب روح العصر اليها ، وانقساماتها الداخلية . كان الملوك والأمراء والنبلاء قد أخذوا على عاتقهم ، في كل الدول ، وعلى مر الأيام ، تعيين رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وخدمة الرعايا في المراكز الهامة . وغالباً ما اسندوا هذه الوظائف الى غير الابكار من أبناء الاشراف ، أو الى خلائق البطائن دونما نظر جدي الى الدعوة والمؤهلات . فعاش العديد من الأحبار عيشة كبار الأسياد العلمانيين وأحيوا الأعياد والحفلات وشيدوا الأبنية وزاولوا القنص ولجأوا الى الدسائس والدبلوماسية وانشغلوا بالزراعة والمعامل والطرقات والجسور ، ولكنهم اهملوا واجباتهم الرئيسية : نشر الكلام الالهي واعداد كهنتهم وترقيتهم الى الدرجات الكهنوتية . اما الكهنة ، الذين غالباً ما ينتمون الى عامة الشعب ، وتسند اليهم

خدمة أسوأ الخورنيات حالاً ، او ممارسة الوظائف العامـــة ، لقاء أجر زهيد ، بالوكالة عن الأسقف أو خادم الرعية الغائبين، فكانوا في أغلب الأحيان سريعي الغضب ، خامدي النشاط، قصيري الباع في أمور الدين . فقدت الدروس الكنسية ، في الواقع ، كثيراً من قيمتها . وقـد أصاب أسقف « سواسون » ، « فيتز - جيمس » ، حين كتب الى مونتسكيو ، في ٢٩ ايلول ١٧٥٠ ،ما يلي : «يجدر التفكير جدياً باعادة الحياة الى دروس اللاهوت التي هبطت هبوطاً كلياً، ومحاولة اعداد خدام دين يعرفونه ويستطيعون الدفاع عنه » . وقد أضاف الى ذلك : « الدين المسيحي من الجمال بحيث أنني لا اعتقد بامكان معرفته دون محبته ؛ واذا ما وجد من يجدف عليه ، فهذا دليل على جهله له . » ولذلك استسلم العديد من الكنسيين الى الآراء الجديدة وباتوا يعتقدون ، بقليل أو كثير من الصراحة ، بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ، وينادون بالالحاد أحياناً . وفتر ايمان الآخرين ؛ وكف الوعاظ ، بسبب عدم اطمئنانهم وعدم قناعتهم ، عن التكلم في موضوع العقيدة ، واقتصروا على الكلام عن عموميات اخلاقية مشتبهة . وكان بعض المدافعين عن العقائد المسيحية مملين ، وعادمي الحذاقة ومثيرين للسخرية احياناً . ونظم الأب « بلفرين » حقائق العقيدة المسيحية بحيث تنشد وفاقاً لألحان مألوفة رائجة . واخيراً كانت الكنيسة قد فقدت اعتبارها بفعل الجدال الكبير الذي قام بين الجنسينيين واليسوعيين . فهؤلاء وأولئك قد تجاهلوا المحبة المتوجبة عليهم . وقد اضعفت اتهاماتهم المتبادلة كلا الطرفين . عالجوا أدق عقائد الايمان في الساحات العامة ؛ فحمل ذلك أعمق الناس جهـــلاً على اصدار حكمه فيها . وقد طلب من السلطة المدنية أن تتدخل في الدين .

في كل مكان تقريباً ، دافعت الدولة مبدئياً عن الكنيسة . كان عمـــل مجلس التفتيش مستمراً في اسبانيا والبرتغال ، ولم ينقطع حبـــل احراق المراطقة . وفي كل مكان ، كانت هنالك رقابة ، واخطار التعرض لأحكام الأساقفة وجمعيات الاكليروس والعقوبات الحكومية . واتخذت تدابير شديدة احيانا : فان ماري تيريز قد حظرت فهرس الكتب المحرمة لأن مجرد قراءة العناوين قد يثير الرغبة في قراءة الكتب التي كان الاولى ان لا يعرف بوجودها نفسه . وفي أوساط البروتستانت طرد غليوم الاول الاستاذ « وولف » من منبره التعليمي في « هال ». وحصلت اعتقالات واضطهادات وابعادات .

ولكن الملوك ما كانوا ليحبوا في الكنيسة إلا ما كان من شأنه أن يخـــدم صوالحهم . فهم وبطانتهم وسراريهم ووزراؤهم قد انساقوا وراء الآراء الجديـــدة أيضاً . وغدت تصرفاتهم متناقضة . فان لويس الخامس عشر ، في فرنسا ، قد عين أمينا للمكتبة « ماليزرب » العاطف على حرية أهـــل الادب . كما أن « داميلافيل » المفوض الاول في إدارة الضرائب ، كان يمهر طرود مؤلفات فولتير المعادية للدين بخاتم المراقب العام ، وكان لماري - تيريز المشهورة بتقواها مستشار جنسيني وزوج ماسوني . وكانت مقاومة الدعاوة المعادية للدين ضعيفة . فهبط تأثير الكنيسة . والدليل على ذلك الالغاء على مراحـــل الذي استهدف جيش البـابا ، أعني به جمعية اليسوعيين

المرتبطة بالبابا بنذر طاعة خاص . فقد ألغيت الجمعية في البرتغال (١٧٥٩)، وفرنسا (١٧٦٤) واسبانيا (١٧٦٧) ، ونابولي ، وبارم ، وأقصي اليسوعيون إلا عن فرنسا . وأرغم الملوك الكاثوليك البابا على حل جمعية يسوع ، في ٢١ تموز ١٧٧٣ . فهتف فولتير : « لن يكون هنالك كنيسة بعد مرور عشرين سنة » .

بيد أن الكنيسة استمرت . وقد استمرت،في الدرجة الاولى ، بفضل هذه الجوقة من الكهنة والراهبات الذين لم تستوقفهم الصعوبات الفكرية ، بل جاشت قلوبهم بتلك المحبة العظيمة القريب التي هي محبة الله فبذلوا أنفسهم بصمت في سبيل المرضى والعجزة والفقراء والاطفال. واستمرت بفضل هؤلاء المرسلين الذين ذهبوا ، كما في الماضي ، يضحون بحياتهم لتخليص اخوتهم. واستمرت بفضل تلك الالوف من العلمانيين الورعين الذين بذلوا وسعهم ، دونما ضجة ، حتى يحيوا دينهم ويكونوا كل يوم أعظم صدقاً وضميراً وفضيلة وتفانيا ومحبة . فكان لها معترفوها وشهداؤها وقديسوها .

واستمرت كذلك بفضل العلمانيين أو الكنسيين الذين ردوا على الهجوم بهجوم معاكس . أوضحوا أن الايمان بيسوع المسيح ليس مرتبطاً بأية فلسفة : فالقديس اوغسطينوس قد جاهر بالافلاطونية ، والقديس توما الاكويني فضل ارسطو ، وبوسويه كان كرتزيانيا . وان العقيدة المسيحية لا تتنافى والفلسفة الجديدة . وأن كهنة اتقياء كثيرين يقولون بفلسفة ديكارت ولوك ويعجبون بها . انهم مسيحيون « مستنيرون » جمعوا بين حقائق العلم والحقائق المسيحية . فاليسوعي « بوفييه » ، الاستاذ في كلية لويس الكبير ، قد علّم مذهب لوك . وحاول الفرنسيسيون ورهبان القديس فيلبس النيري أن يدخلوا إلى البرتغال مذهب بيكون ونيوتون ويعودوا تلامذتهم النقد والحكم الشخصي . وأعاد الأب « كوناركي » النظر في برامج الجامعة البولونية : فأوصى بدراسة بيكون وغسندي وديكارت ولوك . وحارب المدافعون عن العقائد المسيحية بأسلحة الفلاسفة نفسها . العقل ؟ أحبته الكنيسة ابداً ودائماً « لا يجوز اقسام اليمين استناداً الى قول المعلمين ؛ يجب أن ينبثق الايمان من الفحص العقلي ، ولا يجوز أن يكون نتيجة الاكراه ؛ لا دين حقيقي سوى الدين الحر والاختياري . يقتضي من ثم التساهل واللين والاقناع . العقل خير ادواتنا ولكنه محدود ؛ هنالك نطاق يعجز عن بلوغه باعتراف الفلاسفة انفسهم . لذلك أوحى الله لنا ببعض حقائق ما كنا لنتوصل اليها بطريقة أخرى . فالايمان بالاسرار ليس من ثم متعارضاً والعقل : لا بل هو العقل ما يستحث على ذلك . النقد التاريخي ؟ انه يثبت صدق الكتاب المقدس ، فان المعجزات ، التي يخبرها شهود عيان او شهود معاصرون يدل كل شيء على صدقهم وسلامة طويتهم ، وتتناول وقائع مرتبطة بوقائع لاحقة ، ويسلم بها حتى اولئك الذين تقضي مصلحتهم بنكرانها ، ترتدي طابعاً لا يقبل الجدل أو الاعتراض . لا ريب في انها تناقض نواميس الطبيعة ، ولكن ليس من تناقض إلا بالنسبة لعقولنا الضعيفة ، لا بالنسبة للادراك الالهي القادر على أن يرى الصلة بين كل الاشياء وان يصهر في وحدة واحدة ما هو

بالنسبة لنا تباعد واختلاف . المساواة في الحقوق ؟ النغمة الاجتماعية ؟ هذا هو تعليم المسيح بالذات . إن بين البشر ، ابناء الله ، واخوة المسيح ، مساواة طبيعية : وظائفهم غير متساوية ، أمامهم فتساوون . على امرائهم أن لا يجعلوا نصب اعينهم سوى خير الدولة ، وأن يعملوا في كل شيء بمقتضى الشريعة الالهية التي تنهى عن ارتكاب المنكر وتأمر بالاسهام في خير الجميع ، وحتى الاعداء ، كما تأمر بأن نعمل لسوانا من البشر ما نتمنى أن يعملوه لنا . خير علاج للآلام الاجتماعية محبة البشر المتأججة المتبادلة . الدين محبة ، لا تطرف في التقوى . ويخلص الأب جينوفيزي ، الاستاذ في جامعة نابولي ، إلى القول : « أنا أعبد الانجيل الذي جوهره المحبة . آه ما أعذبها هذه الكلمة ، المحبة . وكم تكون حياتنا سعيدة لو انها تسود وحدها » . المحبة ربطت بين ملايين البشر في الكنيسة بروابط لم تقو أية محاولة على تحطيمها .

نزلت بالكنائس البروتستانتية المختلفة ، لا سيما الكنيسة الانغليكانية والكنائس اللوثرية (المانيا الشمالية واسوج مثلاً) ، مصائب مماثلة لمصائب الكنيسة الكاثوليكية : العبودية للدولة ، نقص في عدد الأكليروس وتدن في مستوى تربيته (في بعض البلدان الكلفينية كاسكتلندا وجنيف) ، وفتور في الايمان ، ونزعة عامة الى المذهب العقـلي والدين الطبيعي والاخلاق « الطبيعة » . ولكن حدثت عند البروتستانت حركات تجديد أشد عنفاً ، أو أقله أكثر بروزاً منها عند الكاثوليك ، بسبب الاستقلال المتأصل في البروتستانتية : الكتاب هو المصدر الوحيد لكل حقيقة ؛ كل من يقرأه ، مستنيراً بالروح القدس ، يدركه إدراكا تاماً ويحكم بالصواب فيما اذا كانت الكنيسة والدولة متفقتين وأياه ؛ وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تفرضا شيئاً يعارض الكتاب . هذا ما يفسر عدد ونشاط المنشقين الذين يريدون « تجديد » الحياة الدينية والعودة إلى جوهر البروتستانتية : عقيدة « الخلاص بالايمان » . ان الانسان ، الملطخ بالخطيئة الاصلية ، لا يخلص إلا بالايمان بالمسيح الذي يستتبع الحياة الداخلية بمحبة الا له الحي ، والصلاة والتأمل ، ومطابقة الأعمال للأنجيل . هذا ما قال به بروتستانت المانيا واسوج والدانمارك ؛ والأخوة المورافيون الذين انطلقت شيعتهم من بوهيميا وانتشرت في كافة انحاء اوروبا الوسطى ، وحتى في البلدان الانكلو - ساكسونية ؛ والانجيليون الذين حصروا عملهم داخل الكنيسة الانغليكانية ؛ والميتوديون الانكليز الذين أسسهم « وسلي » في السنة ١٧٣٨ ، وانفصلوا نهائياً عن الكنيسة الانغليكانية في السنة ١٧٩١ ليؤلفوا كنيسة مستقلة تستميل مريديها بنفسها غير آخذة بعين الاعتبار سوى الدعوة الفردية ؛ والبوريتانيون في انكلترا واميركا الذين انتهوا الى القول بالاختيار منذ الازل للمجد السماوي . في البلدان الانكلو - ساكسونية الآخذة في التصنيع ، بشر هؤلاء المسيحيون الغيارى العمال ببهجة الحياة الداخلية واسلام الامر لله ، وأرباب المصانع بالاخوة المسيحية . فأوجدوا حركة انسانية طالبت ، على لسان « شارب » و « ولبرفورس » ، بحل المسألة العمالية والغاء النخاسة والرق .

الرومنطيقيون

أقامت أشكال أخرى من أشكال الحس اعداء أقوياء في وجـــه فلسفة الانوار . انطوت هذه الفلسـفة ، بفعل منطقها المتصلب ، وتقدمها الهدام ، وعلم اخلاقها الحذر والمتبصر والمرتكز ابـــدأ ، في النتيجة ، الى انانية واعية ، على شيء من الحصر والانكماش والجفاف، انتهى عند كوندياك وهلفتيوس ودولباك، الى ما هو اشبه بهيكل عظمي معرى من اللحم . ما كانت لتشبع حاجات القلب والحس والمخيلة مع انها ، في الوقت نفسه ، كانت تحركها وتطلق لها العنان . نادى الفلاسفة بأن الأهواء جيدة كلها وانها مثار كل نشاط ، كما نادوا بشرعية اشباع الحس ، وحرية الفرد المطلقة في ان يحكم بنفسه ويسلك بموجب أحكامه . زد على ذلك ان فقدان السياق في تفكيرهم كان تشجيعا للفرد على رفض تعاليمهم وعلى سلوك الطريق الخاصة التي يطيب له سلوكها . تكلموا عن الطبيعة كما عن امرأة ، ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم بصددها ؛ فتارة رأوا فيها امـــا جاهدة في سدّ حاجات ابنائها ؛ وأخرى اميرة بعيدة تحتقر الافراد احتقاراً عميقاً ولا تهتم الا النوع ؛ واخرى ابا هول لغزيا لا يهتم لشيء ويعيش في الصمت حياته العادمة الرحمـــة . يضاف الى هذا من جهة ثانية ان كل ذلك لم يكن سوى مجازات واستعارات اعتبرت تفسيرات اولية، بينما هي فلسفة مدرسية في طور الانحطاط. ارادوا العمل بنواميس الطبيعة ، ولكن كل واحد منهم وجـــد لنفسه نواميسه الخاصة . اذا جمعت بين جميع هؤلاء الفلاسفة خطوط مشاركة كبرى تؤلف « فلسفة الأنوار » ، فهذا لا يعني انهم لا يناقضون بعضهم بعضا في الكثير من النقاط ، وانهم لا يناقضون انفسهم : فهم متفاوتون ولكنهم متغايرون . لذلك نشأت حركة تستهدف نبذ كل هذه الاقوال وسلوك طرق أخرى يرشد كلا من القائمين بها وحي فؤاده .

جان جاك روسو

بين العديد من الكتبة الفرديين ، الخياليين والعاطفيين ، المنساقين وراء حسهم، على شغفهم بالعقـــل في الوقت نفسه ، المنطلقين من شواعرهم ليستنتجوا منها ، بمنطق صارم ، مذهبا فلسفيا كاملا ، وليفرضوا على العالم هذا النتاج من صنع ذاتهم الذي هو اعظم هؤلاء الرومنطيقيين طرا ، ومعلم الرومنطيقيين الذين جاؤوا من بعدهم، يبرز جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) . ابصر النور في جنيف ، وكان ابنا لساعاتي ؛ هام ابدا على وجهه وتطفل في أغلب الاحيان على العظماء ، وتميز بخجله ، ومن ثم بكبريائه ، وبحس مسقام جمله يجهش بالبكاء عند كل انطباع على بعض القوة ، وبمخيلة سعرى ، فبلغ من تألمه ابدا من علائقه بالبشر ولا سيما بالعظماء ، ومن انظمة المجتمع ومصطلحاته وموجباته ، انه « سُرّ وحده» بالمقابلة ، وفي رسط الطبيعة ، بالتمتع بذاته وتأثراته الحسية والروايات التي ما انفك عن بنائها في مخيلته حيث خلق على هواه عوالم مصنوعة لاجله . في السنة ١٧٥٠ ، اهتدى الى طريقه ، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته اكاديمية ديجون : « هل أسهم إحياء العلوم والفنون في تنقية الاخلاق » . تشجع روسو بموافقة ديدرو وايحاءاته ، فعالج الموضوع وفـــاز بالجائزة في ٢٣ آب ١٧٥٠ . دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة : « لقد فسدت نفوسنا بمقدار

تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال . » وناقض نفسه : « العلوم والفنون مدينة بنشأتها الى نقائصنا . » على العلماء الحقيقيين ان يديروا الدولة . ولكن لا شأن لذلك : فالعلوم والفنون تضيع الوقت ، وتحنث بالبذخ ، وتفسد الذوق ، وتقتل الفضائل العسكرية ؛ والطباعة آفة ؛ والفلاسفة مخرقون على الجماهير الساذجة . نشر هذا الهجوم على المعابد « نوعاً من الرعب » . تحدّث عنه فولتير ودالمبير وملك بولونيا ستانسلاس لكزنسكي . ولا غرو في ذلك اذ ان معالج هذه الآراء المبتذلة رجل متشبع من التوراة ومتلمذ على كبار منطقيي القرن السابع عشر ، ديكارت وبور - رويال ومالبرانش ، لحركه كافة الآلام التي تعرض لها وكافة الاحقاد المتكدسة في نفسه . وهذا ما جعل جملته عادمة السهولة ، خطابية ، مؤثرة في القلوب ، قوية ، ايقاعية ، تعارض اسلوب العصر الموجز الظريف ، وتؤثر وتفرض نفسها . كرس روسو كاتباً . ومنذ ذاك الحين انفصل تدريجياً عن الفلاسفة .

في السنة ١٧٥٤ نشر كتابه « خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر » . رسم فيهما بدوره ، على غرار الكثيرين من اهل زمانه ، لوحة الهمجي الصالح في حالة الطبيعة ، حالة النعمة : عضلي ورشيق ، متوحّد ، فطري ، سعيد كل السعادة . « حالة التفكير حالة تناقض الطبيعة ... الانسان الذي يتأمل حيوان مفسَد » . ولكن للانسان قدرة مشؤومة على التحسن والتكامل . زد على ذلك ان سنوات المحول وفصول الامطار الطويلة ، وفصول الصيف المحرقة ، والفيضانات والزلازل ترغمه على مشاركة بشر آخرين ليؤلف معهم فرق قنص ثم قبائل رعاة . في الجمعيات يتولد الحسد والشقاق والصلف والاحتقار . يؤدي الاتفاق الى اكتشاف النار ، شرط الزراعة . توجب على البشر ، بعد ان اصبحوا فلاحين ، ان يتقاسموا الاراضي ويقروا التملك الفردي ، ومنذ ذلك الحين ، فقد كل شيء ، وارتكبت الخطيئة الأصلية ، وسلك البشر طريق « فحول النوع » . عن التملك نشأ عدم المساواة ، والمنافسة ، والخصومة ، والكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والرداءة ، وصراع الطبقات ، والحروب . بات لزاماً اختيار رئيس ؛ فغدا الرئيس طاغية . نزلت بالبشرية كافة المصائب . وهكذا يتضح ان الخطبة حل لمسألة الشر . « البشر سيئو الخلق ... الا ان الانسان صالح بطبيعته ... فماذا الذي دفع به الى هذا الدرك من الفساد ان لم يكن التبدلات التي طرأت على بنيته والنجاحات التي حققها والمعارف التي حصلها ؟ » عرفت « الخطبة » اوسع انتشار عرفته مؤلفات روسو باستثناء « هيلويز الجديدة » . عرضت في المكتبات اكثر من « العقد الاجتماعي » . واسهمت اكثر من اي مؤلف آخر في نشر عبادة المساواة .

حاول روسو آنذاك الاهتداء الى «حالة براءة وطهارة في الفساد الاجتماعي » .

لا يستطيع الانسان من ثم الاستغناء عن عضد الانسان ؛ لا يستطيع العودة الى الوراء . والحال ، الحالة الاجتماعية ليست طبيعية ، وهي ترتكز الى اصطلاحات . فيجب والحالة هذه تعيين شكل اصطلاحي يكون من شأنه الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية وفوائد حالة الطبيعة . هذا هو موضوع « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) : ايجاد شكل شراكة

يحفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة ؛ وموضـوع « اميل » (١٧٦٢) : ايجـاد طريقة تربوية تجعل الانسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعـة وعلى براءة الحالة الطبيعية وفضائلها .

سيعمد مهذب اميل الى عزله عن المجتمع لتربيته تربية فضلى ، ولجعله يعيش بحسب الطبيعة ، ولاستخدام استعداده للبحث عما هو مستطاب وتجنب كل شيء آخر . ستكون التربية من ثم تربية سلبية . يجب الا نعلّم التلميذ شيئاً ، بل ان نسلمه مباشرة الى درس الاشياء كي يتعلّم على حسابه ما يجب السعي لنيله وما يجب تجنبه . اذا كسر لوح زجاج النافذة في غرفته ، فليتألم من البرد . لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ دعه وشأنه ، اذ انه سيمل البطالة . لا ريب في ان الاشياء قد تعلمه ما قد لا نريده ، او لا توفر له الدروس المتوخاة . علينا ان نثيرهـا او نبتكرهـا : كالتظاهر باننا ضللنا الطريق حتى يدرك اميل فائدة علم الفلك ؛ او تدبير مؤامرة بالاتفاق مع سكان القرية المجاورة حتى تكرّهه الكلمة المحدثة الآذان الخروج منفرداً . اذا كان سريـع الغضب ، يقال له « كلا » دون اي تفسير . وهكذا اذا ما تربى اميل في جـو من الصـدق والحرية مختلف كل الاختلاف عن جوّ التربية المألوفة ، فانه سيحافظ على الفضائل المطبوعـة في الانسان .

حين يبلغ اميل سن العشرين ، يكشف له القناع عن حقائق الدين . هذه هي « المجاهـرة بحقائق الدين » التي يوليّ ووسو ، البروتستانتي المرتد الى الكاثوليكية ، والساقـط ثانية في الهرطقة ، امرها الى كاهن كاثوليكي من مقاطعة سافوا . يتردّد بين آراء الفلاسفة المتناقضة فيقرر الاسترشاد بـ « النور الداخلي » ، مصمماً على التسليم بكل الحقائق « التي لن استطيـع ، في صدق قلبي ، رفض الموافقة عليها » . القلب الصادق والعواطف الطاهرة هي شرط الحقيقة قبل العقل . يرى نفسه يفكر ، بتصورات ذهنية يولدها عقله بمناسبة التأثرات الحسيـة ؛ دون ان تصدر عن التأثرات الحسية ؛ له قدرة على الحـكم سابقة للتأثرات الحسية ، ليس هو « كائنـاً حسياً وسلبياً ، بل كائناً فاعلاً وعاقلاً » ، على نقيض لوك ومدرسته . كل ما حوله مادة جامدة مع انها خاضعة لحركة منتظمة . ولكن « اذا كانت المادة المتحركة تثبت لي وجـود ارادة ، فان المادة المتحركة وفاقاً لبعض النواميس تثبت لي وجود عقل » . يتوصل من ثم الى العقل الاسمى ، الله . الانسان ، العاقل ، المختلف اختلافاً عميقاً عن الحيوانات ، هو ملك الارض ، مهما قال الفلاسفة في ذلك . ولكن الشر موجود . الله براء منه . اعطى الانسان سمو الكمال ، الحرية . الانسان الحر يوجد التشويش في الطبيعة ويخلق الشر . ليكن عادلاً فيغدو سعيـداً . الحاجة الى التكفير عن الظلامات دليل على خلود النفس وعلى العقوبات والمكافآت بعد الموت . قواعد الاخلاق مدونة في اعماق القلب : « كل ما اشعر به خيراً يكون خيراً ، وكل ما اشعر به شراً يكون شراً ؛ الضمير خير حلال للمشاكل ... العقل يخدعنا غالباً ... ولكن الضمير لا يخدع ابداً ... فهو من ثم ، في اعماق نفوسنا ، مبدأ « مطبوع » للعدل والفضيلة .

ميزة الانسان الفريدة في الطبيعة ، والتصورات الذهنية المطبوعة ، والانكماش على النفس لاكتشاف الحقيقة في ذاتنـــا ، في صمت الاهواء ، بعيداً عن العالم ، هذا هو الرأي المعاكس لفلسفة الانوار ، وكان من شأنه ان يصبح انتقام ديكارت الكامل على لوك لو ارتكز كل شيء الى العقل لا الى العاطفة .

سيعمد البشر المحسّون والصالحون الى التشارك ، الى وضع « عقد اجتماعي » فيما بينهم ، بحيث يحافظون على حريتهم . « الانسان مولود حراً وهو في كل مكان موثق بالقيود ... التخلي عن الحرية هو التخلي عن صفة الانسان ، عن حقوق الانسانية ، وحتى عن واجباتها ... ان مثل هذا التخلي يتعارض وطبيعة الانسان » . السبيل الى التوفيق بين السلطة والحرية هو تنازل كل شريك عن كافة حقوقه للجماعة . فلما كان كل انسان يهب نفسه الى المجموع ، فهو لا يهب نفسه لأحد ، ولما كان ليس من شريك نتمتع حياله بالحقوق نفسها التي نتخلى له عنها ، فإننا نكسب ما يعادل كل ما نخسره ، لا بل نكسب مزيداً من القوة للمحافظة على ما لنا . » الارادة العامة تصنع القانون ، والارادة العامة ليست ارادة انسان ، ولا ارادة جمعية من الممثلين ؛ ليست مجموع الارادات الخاصة ولا قرار الاكثرية . في كل فرد ارادة خاصة تحركها الغرائز والاهواء الظرفية ؛ وارادة عميقة هي « عمل بحت من اعمال الادراك الذي يرشد في صمت الاهواء الى ما يستطيع الانسان فرضه على نظيره والى ما يحق لنظيره ان يفرضه عليه » . هذه الارادة متماثلة عند كل البشر ، منزهة عن الضلال ؛ انها الارادة العامة المنبثقة عن الضمير الفردي ، المستخلصة بالهدوء والتفكير في العزلة بعيداً عن الاحزاب والتكتلات والهيئات . لا حاجة لاية جمعية ، أو نقابة ، أو حزب ، بل لهباء من الافراد ، « وإلا لاستطعنا القول ان ليس هناك من بعد مقترعون بعدد البشر ، بل بعدد الجمعيات فقط » .

ان القانون ، وهو التعبير عن الارادة العامة ، كلي القدرة . الدولة ، حيال اعضائها ، سيدة ممتلكاتهم بفضل العقد الاجتماعي ... الملاكون يعتبرون مؤتمنين على الممتلكات العامة ». الدولة حكم في مـــا يجب ان تتركه من حرية لكل فرد ؛ باستطاعتها فرض دين مدني ، ضروري للمجتمع ، وابعاد من لا يعتنقه ، والحكم بالموت على من يعتنقه « ويسلك كمن لا يدين به » . وهذا يعني فتح الباب على مصراعيه امام الاستبداد .

ولما كان يقتضي عملياً ، وعلى الرغم من كل شيء ، اصدار قرار بأكثرية الاصوات ، فمن شأن العقد الاجتماعي ان يفضي الى طغيان الاكثرية على الاقلية .

حكم روسو بنفسه على الاهمية العملية التي انطوى عليها عمله في كتبه ومراسلاته . فنصح بصراحة الى احدى السيدات بأن ترسل الى مدرسة داخلية ابناً لها غير قابل التأديب . وكتب الى احد الكهنة : « اذا كان صحيحاً انك تبنيت المخطط الذي حاولت رسمه في « اميل » ، فاني معجب بشجاعتك » . وكتب عن العقد الاجتماعي « انه لا يمكن ان يوافق سوى دول صغيرة

جداً ، كجنيف ، وبرن ، وكورسكا » . وكتب في مكان آخر : « ان حكماً على مثل هذا الكمال لا يلائم البشر » . وفي رسالة الى ميرابو ، شبه المسألة التي حاول حلها « بمسألة تربيع الدائرة في الهندسة » .

إلا أن الجمهور لم يعر اهتمامه التحفظات التي جهل معظمها على كل حال . فغدا روسو إلهاً . وبدّل العادات والاخلاق . فاستحضرت السيدات الجميلات اطفالهن إلى مقصوراتهن في الاوبرا لإرضاعهم على مرأى الجماهير وفي وسط عاصفة من التصفيق ، لان روسو أوصى بارضاع الامهات لأطفالهن . وجمعت الفتيات نباتات الحقول لدرسها لان روسو كان يهوى علم النبات .

استوحى «مورلني» الحالة الفكرية نفسها ، وطلب في « دستور الطبيعة » (١٧٥٥) الرجوع إلى الطبيعة التي تعلم الانسان مشاعية الممتلكات . التملك مصدر كل الجرائم . والشيوعية ستكون عودة إلى العصر الذهبي . وكتب الاب « مابلي » ، تلميذ روسو ، في كتابه « التشريع » ، ما يلي : « اتعلمون ما هو مصدر كافة المصائب التي تنزل بالبشرية ؟ انه التملك» . ونصح « بهذه المشاعية المباركة في الممتلكات » ، اي بشيوعية زراعية من شأنها القضاء على الاهواء الانانية وإشباع الغرائز الاجتماعية . وحاول« مرسييه» في روايته التي تتناول المستقبل « باريس في السنة ٢٤٤٠ » ، الحد من التفاوت بالزواجات الاكراهية بين الاغنياء والفقراء ، وروّج «بريسو دي واوفيل» ، الذي سيصبح عضواً في « الجمعية التشريعية » و «جمعية الميثاق» الصيغة التي طلع بها « برودون » : « التملك هو السرقة » .

« كانت » بيد ان أهم تلامذة روسو شأناً هو « كانت » . فان « مجاهرة نائب السافوا بحقائق الدين » قد أوحت له ، بنية وحي « هيوم » تقريباً ، بـ « نقد العقل البحت » . كما أوحت له ايضاً بكتابه « نقد العقل العملي » ، واخلاقه ، ودينه ، وسياسته .

حلل كانت الاخلاق للارتقاء إلى مبدئها ، بحسب طريقة نيوتون ، فوجد أنها تسلّم كلها بقيمة مطلقة لـ « حسن النية » . « النية الحسنة » هي تصميم على القيام بالواجب نابع من أعمق اعماق ذاتنا ، اشبه بنزعة من طبيعتنا الداخلية الخفية ، او بمبدأ مطبوع ، كما قال بذلك روسو . يكون الواجب متمماً حين يؤتى العمل بتصميم على القيام بالواجب وحين نحكم في ضميرنا اننا قمنا به بحكم الواجب . لا شأن لطبيعة العمل ، وقد نخطىء بالقيام به ، فقيمة العمل لا تتولد من المعرفة بل من الشعور المتكون فينا بقيمته ، ومن الحكم الذي نصدره عليه : فقتل والد عجوز ، بحكم الواجب ، في الألم والقلق الشديد ، للاستغناء عن شخص لا يجدي نفعاً إبان مجاعة ، عمل خاطىء ، ولكنه عمل جيد ادبياً ؛ ومساعدة انسان بائس لضمان جميله نتيجة للأنانية : ان العمل ، المتفق وعلم الاخلاق ، ليس جيداً ادبياً .

الواجب شيء مطلق لا يرتبط بالظروف : « اعمل بحسب مبدأ يمكنك معه ان تريد في الوقت نفسه ان يصبح سنّة شاملة » . هذا هو الامر الجازم ، الناموس الاخلاقي . يكتشف الناموس

الاخلاقي الذي يستخلص المطلق والشامل من كل بواعث الحس . الشعور يبعث التحريك ، يولّد « النية الحسنة » ؛ ولكن العقل هو ما يرشد الى الطريق . العقل هو القوة التي تجعل الانسان انساناً . على هذا الاخير من ثم ان يحترم العقل والحرية ، في نفسه وعند الآخرين: « اعمل بحيث تستخدم الانسانية ابداً في شخصك كما في شخص الغير ، كغاية لا كوسيلة فقط » .

ولكن الانسان متجمل بحس يحب إشباعه ، حتى يصبح هو سعيداً . ولكنه غالباً ما يصبح تعساً بخضوعه للقانون الاخلاقي . فمن المرجح من ثم ان له نفساً خالدة وان هنالك الهاً يمنحه السعادة بحسب استحقاقاته . الله هو المشترع الواجب احترامه ؛ العمل الاخلاقي هو في النتيجة العمل الذي يرضي الله ؛ الدين هو التصميم الثابت على تتميم واجباتنا ارضاءً لله . الله هو المبدأ الاساسي الذي يسلم به العقل العملي بدون برهان . الكنيسة هي مجموع الناس الحسني النية . الكنائس هي محاولات مقاربة هذه الكنيسة الشاملة .

على القانون ان يسعى جهده لإرضاء حاجات الانسان وميزتي الحرية والعقل فيه . وعليه ان يحترم المبادىء : « اعمل بحيث تتخذ الانسانية هدفاً لا وسيلة » ؛ و « اعمل خارجياً بحيث يتاح لاستخدام ارادتك الحر ان لا يتنافى ووجود حرية كل فرد بحسب سنة عامة » . هذه المبادىء تضمن للدولة ، التي هي لسان حال القانون ، السلطة القسرية على الفرد ، وحق الفرد في مقاومة الدولة، وحق التملك الذي يعطي كل فرد نطاق ممارسة حريته. كما انها تستلزم النظام الجمهوري . عندما تتبنى كافة البلدان الدستور الجمهوري ، يصبح باستطاعتها تأسيس جمعية أمم ، وإقرار حق دولي ، وتأمين السلم الدائم .

عارض « كانت » من ثم مونتسكيو والفلاسفة بفكرة المبادىء المطلقة ، المستقلة عن الزمان والامكنة والظروف ، كما عارض الفلاسفة بعلمه الاخلاقي النابع من القلب المستنير بالعقل ، لا من الحواس المرشدة بالعقل .

كان شارحو الكتاب المقدس من الالمان قد عادوا مرة اخرى الى درس سبينوزا . كانت ألوهية الكون التي طلع بها ، اي قوله بإله يتميز بصيرورة دائمة ويظهر في كل الطبيعة ، مصدر وحي لـ « لسنغ » و « هردر » . ارتأى لسنغ ان ما يدعوه البشر حقيقة ليس سوى تعاقب اشكال عابرة لحقيقة تتكشف اثناء تقدمها . وارتأى هردر ان حياتنا نبض في حياة الكل الاعظم ؛ وان تاريخ البشرية هو تعاقب الرسوم الايجازية التي تقترب بها الطبيعة اقتراباً مستمراً، بتحول تدريجي ، من المثال الاكمل . لسنا ندرك هذا العمل بواسطة العقل ، بل بحدس ذاتي مباشر . وهكذا فان للفلاسفة الذين اعتقدوا بانهم توصلوا بواسطة العقل الى حقيقة نهائية قد تعرضوا هنا ايضاً لهجمات رأي سيكون له اعظم أثر في العهد اللاحق .

تأسست في هذه الاثناء ماسونية من الملهمين والصوفيين ، معادية للفلسفة الانسيكلوبيدية التي رجمتها بالسباب والشتائم . انطلقت موجة صوفية من المانيا وسويسرا واسوج وبلغت شرقي فرنسا وباريس. استوحى هؤلاء الماسونيون العقيدة المسيحية وبحثوا، بمعزل عن كل كنيسة ، عن

اصلاح نفوسهم بالاتصال بما هو الهي كي يحيوا بحسب الانجيل . ولكنهم انهمكوا في مناجاة الارواح ، والتنويم المغناطيسي ، والكيمياء ، والسحر ، وهي كلها ممارسات انفت منها الكنائس المسيحية . انبياؤهم هم الاسوجي « سويدنبورغ » الذي ناجى الموتى واكتشف « الاسرار السماوية » و « عجائب السماء وجهنم » ؛ والسويسري « لافاتير » الذي اعتقد بامكان حصوله بالايمان على قدرة فائقة الطبيعة ، واتصاله بالله بواسطة التنويم المغناطيسي ، والذي غدا مسكنه في زوريخ ، في السنة ١٧٨٩ ، مزاراً اوروبياً ؛ والفرنسي « سان مارتين » ، « الفيلسوف المجهول » ، المعادي للعلم لان الانسان لا يستطيع اكتشاف شيء ، بل الاستذكار فقط ، وعليه ان يستعجل مجيء ملك المسيح بالتأمل والصلاة (الاخطاء والحقيقة ، ١٧٧٥) . تأسست جمعيات صوفية في المانيا ؛ جمعية « التنفيذ التام » التي استمالت الامراء والاميرات وكبار الاسياد ؛ وجمعية « وردة الصليب » التي كان ملك بروسيا الجديد ، « فردريك ـ غليوم الثاني » عضوا من اعضائها ، والتي اراد أحد مشايعيها ، وهو طبيب عام في الجيش البروسي ، التقاط النيازك بغية تكرير بلسم هذه المادة الاولية . وتأسست محافل صوفية في « ليون » ، «وشمبيري» وستراسبورغ وغرينوبل . وكان كل هؤلاء الصوفيين على اتصال فيما بينهم .

كان هناك إلى جانب الرسل المخرقون الذين احرزوا نجاحا باريسيا مدهشا . نخص بالذكر منهم « كاليوسترو » الذي استدعى الارواح واسس في ليون محفل « الحكمة الظافرة » حيث كان التباع ينخطفون امام موسى وايليا اللذين يظهران لهم ؛ والطبيب الفييني « مسمر » الذي ادعى شفاء كافة الامراض « بوعائه الخشبي السحري » . انتشر المنومون المغناطيسيون ، واليقظون النائمون ، والملهمون ، بأعداد كبيرة في كل مكان. وفي الضباب الفكري استسلم بعض الافراد الى نزعات غامضة . فظن كثيرون بانهم امام ثورة تشق الطريق التي تؤدي الى العالم الثاني ، ولن تلبث ان تقوم بتجديد البشرية .

الرجعيون

تحت ستار محاولة في علم الاجتماع ، هي « روح الشرائع » ، حارب مونتسكيو محاولات الاصلاح. حاول ان يثبت ان الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقا لنواميس طبيعية حقيقية ، بظروف الاقليم ، والتربة ، ونوع الحياة ، وطبع الشعوب ، واخلاقها ، ودينها ، الخ . فاتخذ من ذلك حجة للتعريض بانه لا يجوز مس الدستور الفرنسي ، وبان هذا الدستور يحمل من المجالس التمثيلية فياصل شرائع المملكة ومعاوني الملك . عظّم دستوراً يستوحى من دستور الانكليز تقام بموجبه ، بين السلطة التنفيذية التي يتولاها الملك والسلطة التشريعية التي يمارسها ممثلو الأمة ، سلطة قضائية يتولاها القضاة وتكون حكماً كحارس للدستور . ودافع عن المذهب الذي عاد اليه ، في السنة ١٧٣٢ ، الكونت « دي بولنفيلييه » في كتابه « محاولة في طبقة الاشراف » : الطبقات الاجتماعية الفرنسية اجناس بشرية ، الاشراف ينحدرون من الفاتحين الفرنجة ، وعامة الشعب من الغالبين المستعبدين ؛ الاشراف يمتلكون فرنسا بموجب حق الفتح ؛ في البدء كانت الملكية انتخابية ومحدودة ؛ وكان على الملوك ان يطلبوا رأي فداديهم ؛

ثم اغتصبوا امتيـــازات الاسياد . وطالب مونتسكيو بأن يكون لطبقة الأشراف مزيد من الشأن والأهمية لأنها من صميم الملكية . فكان كتابه ، حتى السنة ١٧٨٩ ، انجيل المعارضة الارستوقراطية الرجعية .

فيتضح من ثم أن فلسفة الانوار ، التي حوربت في كل مكان ، تظهرت تظهراً تدريجيـــاً في اواخر القرن . كان العالم على مشارف عصر جديد .

الكتاب الثاني

الأنوار والتقنية

بلغ تقدم التقنية في اوروبا ما يجيز لنا الكلام عن ثورة حقيقية . تفوقت اوروبا بالمعدات والتنظيم على كافة انحاء العالم الاخرى . وتحققت الاكتشافات في اغلب الاحيان على يد حرفيين ممتهنين او هواة استحثتهم الحاجات الاجتماعية، او فقدان التوازن الاقتصادي ، او الازمات على اختلاف انواعها . لم تستخدم معطيات العلم ولم يدرس العلماء المسائل التطبيقية الا تدريجيا : فالبحرية ثم الجيش في النصف الاول من القرن ، والصناعة ، في النصف الثاني منه ، استفادت من الحركة العلمية ؛ وفي اواخر القرن بدا ممكناً ان تصبح التقنية مجموع تطبيقات العلم على الحياة العملية .

الا ان العلم والروح العلمية لم يغيبا قط عن الاكتشافات : فأقل مخترعي الآلات ثقافة قد استخدم بعض الحساب والهندسة، والمبادىء الاولية لعلم الميكانيكيات ، واعتمد في عمله، على علم او غير علم منه، طرائق الحكم الشخصي والملاحظة والاختبار ، كما اعتمد مذهب الآلية الكونية . ويمكن القول بصورة خاصة، نظراً الى الازمات التي حدثت في جميع انحاء العالم ، ان مصدر مكاثرة الاختراعات هو روح القرن باكلها التي تؤلف الروح العلمية جزءاً منها : ايمان بالسعادة الواجب بلوغها على الارض بارضاء الحواس ، بالتقدم المادي ، الذي ثنى عقولاً خيرة كثيرة عن النظريات اللاهوتية والتأملات الدينية ووجهها شطر مـا هو عملي ومفيد؛ ويقين كرتزياني ، انتشر واستحث الجهود الفردية ، بان كل شخص يستطيع ، بمجرد العقل الرشيد، اكتشاف ما فات «الجدود الغلاظ» ، وان من لم يتعلم في الكليات والجامعات يحتفظ بعقل سليم لان هذا العقل لا يكون معوجاً بـ «آراء المدرسة» ، ولان باستطاعة الانسان تحقيق اكتشافات فضلى بقواه الخاصة وحدها ؛ وحذر من الكتب، ولا سيا القديمة منها ، وميل الى التفحص عن الاشياء نفسها ؛ ونزعة أنتجتها الكرتزيانية والدروس الكلاسيكية الى الارتقاء في كل شيء عن الوقائع الى المبادىء البديهية واستخلاص النتائج الواجبة منها وفاقاً لترتيب صارم يتحقق في الوقائع . وقد لعبت الحاجة الى الوضوح والترتيب دوراً هاماً في بعض النجاحات التقنية . فباشمئزاز، وأي اشمئزاز ، فضح المدفعي «ديكودراي» الفوضى القديمة في معدات المدفعية ، « ذاك الخرق المفرط الذي لم يكن النظر اليه الا كما الى نتيجة همجية آبائنا القديمة» ؛ وباحتقار ، واي احتقار

مستهزىء ،وصف «سورلافيل» الفوضى القديمة في كتائب الفرسان : « ان مثل هذه البلبلة اشبه بفوضى البرابرة » . فتحقق معظم النجاحات التقنية بفضل انتشار الروح الجديدة.

بيد ان الانطلاقة الاقتصادية ، على نقيض العلم ، قد تركت اعظم اثر في التقنية . وان لنا في انكلترا ، حيث تحققت اهم الاكتشافات التقنية ، خير مثل على ذلك . توسعت التجارة الانكليزية في ما وراء البحار توسعاً كبيراً بعد الانتصارات الانكليزية، اي بعد معاهدتي اوترخت (١٧١٣) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . قفزت الاستيرادات الانكليزية من ٦ ملايين جنيه سترليني في السنة ١٧١٥ الى ١٩ مليونا في السنة ١٧٩٠ ، كما قفزت التصديرات من ٧ ملايين جنيه سترليني ونصف المليون في السنة ١٧١٥ الى ٢٠ مليوناً في السنة ١٧٩٠ .والحال ان ارباح هذه التجارة هي ما يوفر رؤوس الاموال للصناعة . فصناعات الحديد الاولى في جنوبي ولاية «وايلز» هي عمل تجار الشاي وتجار آخرين من بريستول ولندن . ومعظم التجهيز الصناعي في وادي «كلايد » عمل تجار التبغ في «غلاسكو» . وانطلقت التجارة الداخلية بدورها انطلاقة كبرى ، بفضل انشاء طرقات حدثت عليها ثورة صامتة ، هي الاستعاضة عن حيوانات النقل بمركبات تزيد من حجم النقليات وسرعتها . وافادت التجارة كذلك من فتح الاقنية الذي خفض سعر الفحم المسلم في «منشستر» الى نصفه في السنة ١٧٦١ . هي الاقنية ما اتاح استثمار المناجم والمحاجر والاحراج . وعلى ضفافها قامت الصناعات وتحققت اعظم التطورات في التقنية الصناعية الانكليزية، عند «ماثيو بولتون» صانع آلات «وات» البخارية ، وعند «صموئيل ووكر» ، متعاطي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ومجهز الجنود بالاعتدة، وعند «ودجوود» الخزاف العبقري. ولكن ما ترك اثراً مباركاً في التقنية هو كذلك توظيف الصناعيين لارباحهم في مشاريعهم ، وانخفاض معدل الفائدة الذي هبط من ٥ ٪ في السنة ١٧١٤ الى ٣,٥ ٪ في السنة ١٧٥٧ ، فادى ذلك بالنتيجة الى مضاعفة قيمة رؤوس الاموال المستقرة ، وتزايد عدد السكان الذي ارتفع ، في انكلترا وولاية وايلز ، من ٥ ملايين ونصف المليون في السنة ١٧٠٠ الى ٩ ملايين في السنة ١٨٠١ ، وضآلة عدد العمال الاكفاء التي دفعت الى اختراع الآلات .

الفصل الأول

التقنية العسكرية

يجب ان تأتي التقنية العسكرية في الدرجة الاولى لان المعاصرين أعاروها اهتمامهم قبل كافة التقنيات الاخرى . اجل كان هنالك ، في كافة انحاء اوروبا ، اشراف يتصلون باشراف القرون الوسطى من العسكريين وينظرون الى الجندية كما الى الحرفة النبيلة بالذات . ولكن هذا الالتفات كان تعبيراً عن حاجة دائمـــة ايضاً : اذ ان الدولة ، بدون جيش قوي ، لا تلبث ان تزول من الوجود ؛ الفن العسكري يستطيع وحـــده ان يؤمن الشعوب كيانها واستقلالها وأمنها ، اي المنافع التي لا منافع بدونها؛ الحرية الاولى هي حرية الدولة؛ اذا تعرضت هذه الاخيرة للاخطار، لا تكون حريات المواطنين سوى وهم باطل .

البندقية

ان تاريخ التقنية العسكرية في القرن الثامن عشر هو تاريخ « التقدمات المتتالية المحققة في حقـــل فن الحرب في سبيل استخدام البندقية والمدفعية الصقيلة خير استخدام » . اخترعت البندقية في القرن السابق . استخدمت في المانيا منذ السنة ١٦٨٩ وفرض استخدامها في فرنسا منذ السنة ١٦٩٩ ، فحلت نهائياً محل البندقية القديمة ذات الفتيلة في السنة ١٧١٥ ، واغنت عن فرق حاملي الحراب بفضل الحربـــة ذات « ماسورة الوصل » المتممة لها . لم تكن ابعد مرمى من البندقية القديمة : ٣٠٠ خطوة كحـد اقصى و ١٨٠ خطوة لتأتي بفائدة . ولكنها كانت اخف واسهل استعمالاً . وبفضل طريقة اشعال النار فيها بواسطة زناد مزود بصوانة ، لم تشكل خطراً على المجاورين بل اتاحت للجنود اطلاق النـــار مقتربين بعضهم من بعض . يضاف الى ذلك انها كانت اسرع حشواً . فمنذ السنة ١٧١٥ ، بات باستطاعة الجندي اطلاق النـــار مرة كل دقيقة . وفي السنة ١٧٤٠ اتاح اعتماد القضيب الحديدي ، وهو اصلب من القضيب الخشبي القديم ، حشو البندقية بالبارود والرصاص ومـــا يفصل بينهما دون احتياطات كبرى ، كما اتاح توفيراً في الوقت ؛ فانتقلت سرعة اطلاق النار الى طلقتين او ثلاث في الدقيقة . وفي السنة ١٧٤٤ ، تمكن الجندي ، بواسطة الخرطوشة ، من ان يطلق ثلاث طلقات كل دقيقة في اي وقت من الاوقات تقريباً .

المدفع الصقيل

كانت المدفعية مؤلفة من مدافع برونزية ، صقيلة من الداخل ، تحشى من فوهتها بعيارات ٤ و ٨ و ١٢ و ١٦ و ٢٤ و ٣٣ لبرة لاطلاق القذائف بخط مستقيم ، ومن مدافع قصيرة للاطلاق المنحني ، الضروري ضد الجيوش المتمركزة وراء المتاريس او في الخنادق . وكانت تقذف بمعدل ثلاث مرات في الدقيقة للمدافع من عيار ٤ لبرات ، او مرة او اثنتين للمدافع الاخرى ، قذائف حديدية كروية او مستطيلة ، ملأى او فارغة ، وعلباً من التنك تتمزق في الهواء وتمطر على العدو القطع الحديدية المحشوة بها . تراوح مرمى القذيفة بين ٦٠٠ و ١٨٠٠ متر ، والقطع الحديدية بين ١٥٠ و ٦٠٠ متر . كانت القذيفة من عيار ٤ لبرات تخارق بين ٦ و ٨ اشخاص على مسافة ٣٠٠ خطوة . وزاد المدفعيون من فعالية القذيفة بجعلها تثب بعد اصطدامها بالارض بفضل احناء المدافع احناء معيناً ؛ وكان من شأن القذيفة ان تثب خمس او ست وثبات بين صفوف المشاة وتحدث خسائر فادحة . ولكن هذه المدفعية كانت عادمة الضبط جداً ؛ فالانحراف عن الهدف كان يبلغ سدس المسافة . وكان ممكناً ، بحسب العيارات والمسافات ، ان تسقط القذيفة بين ٥٠ و ١٥٠ متراً امام او وراء الهدف . وكانت المدفعية بصورة خاصة ثقيلة جداً ؛ فالمدفع من عيار ٤ لبرات كان يزن ٦٥٠ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٣٣ لبرة ٣٠٨٥ كيلوغراماً . وكان يقتضي لجرها حيوانات مقرونة قوية . وبعد ان توزع المدفعية على مراكزها ، المدافع الخفيفة والمتوسطة صفاً واحداً في الجبهة ، والمدفعية الثقيلة مجموعة في كلا الجانبين لتشبيك نيرانها امام الجبهة ، لا تتحرك الا في ظروف استثنائية نادرة . لم يكن باستطاعتها مرافقة المشاة في حركتهم الاندفاعية الى الامام ، وكانت تتوقف عن مساندتهم حين تصبح الحاجة الى نيرانها ماسة جداً ؛ كما لم يكن باستطاعتها اللحاق بهم في حال تراجعهم ، فيستولي عليها العدو دونما صعوبة .

الحرب في السنة ١٧١٥

اصبح الجندي الراجل ، منذ ذاك التاريخ ، سيد ساحة المعركة : رصاصته تخارق آلات الوقاية المعدنية وترغم الفارس على البقاء بعيداً ربما يتاح للجيش مواجهة هجوم جانبي مفاجيء ؛ يتمتع بسرعة الحركة التي لا تتوفر لمدفعية يجمدها ثقل وزنها في الارض ؛ الخيالة والمدفعيون لا يعملون الا لأجل المشاة : انهم معاونوهم . فرق المشاة سيدة المعارك . كان من شأن البندقية ، منذ السنة ١٧١٥ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، ان تقلب فن الحرب رأساً على عقب . وانما توجب مرور قرن كامل تقريباً للاستفادة من نتائج الاختراع الجديد ، وهو نابليون بونابرت فقط من اوصل التطور البادىء الى كماله .

في السنة ١٧١٥ ، كان الجيش ينظم صفوفاً في ساحة الوغى لمعاركة الاعداء بالاسلحة النارية . لفت انتباه القادة العسكريين سرعة اطلاق النار بالبندقية . فوضعوا نصب اعينهم اقامة ما يشبه سماطاً من الرصاص ، امام المشاة ، لايقاف العدو في حالة الدفاع ، ولايقاع الاختلال في نيرانه وإتاحة التقدم ، في حالة الهجوم . كان على المشاة ، عند تلقي الامر بذلك ، ان يطلقوا نيرانهم

في آن واحد موقعاً تسديد تقريباً ؛ فالجوهر لم يكن الضبط ، بل السرعة ، لاقامة سور من نار. نظم القادة من ثم فرق المشاة ، في ساحة الوغى ، صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . إلا انهم ابقوا على تنظيات لم توجد إلا لاسلحة أخرى . فكما فعل اسلافهم ، في زمن البندقية القديمة ذات الفتيلة ، نظموا الجنود ستة صفوف على اربع أو خمس خطوات بين الجندي والجندي وبين الصف والصف حتى يستطيع كل صف اعادة حشو سلاحه بينما تطلق الصفوف الاخرى نيرانها الواحد بعد الآخر ؛ ولم يكن من حاجة لكل ذلك بعد أن تأمنت سلامة الاطلاق وسرعته بواسطة البندقية . وأرادوا جيشاً منظم الصفوف ، كما في زمن السلاح الابيض عندما كانت فاعلية الصدام تستلزم ان يواجه الصف كله الصف العدو في آن واحد . واستمروا في تحريم عكس نظام الصفوف : لم يسمح قط بأن يوضع الى الشمال جنود تعودوا البقاء الى اليمين ، وأن يوضع في الصف الاول جنود كلفوا عادة في الصف الثاني ، وهو تقليد يعود الى زمن توجب فيه وضع الرجال الاقوياء في المقدمة لاختراق صفوف الاعداء . فنجم عن ذلك بطء عظيم في اصطفاف الجيش للقتال وتنظيم صفوف الجنود وفاقاً للمسافات المطلوبة ؛ وحاجة الى الانتظام بعيداً عن العدو والانتقال الى ساحة الوغى عبر الارياف في مسيرة لا يفوت العدو سرها ؛ واستحالة إرغام العدو على الاقتتال اذا ما هو أراد الانسحاب ، لان المحافظة على تنظيم الجنود وفاقاً للمسافات المفروضة توجب السير ببطء والتوقف مراراً ، فيتمكن العدو ، في هذه الاثناء ، من الابتعاد صفوفاً طويلة ضيقة بسرعة المشاة العادية ؛ واستحالة المناورة في ساحة المعركة ، واستحالة مطاردة جيش الاعداء وسحقه ، وبالتالي الاضطرار الى اعتماد « ستراتيجية اللواحق » أي الى مهاجمة مستودعات العدو ومصانعه الحربية وطرق مواصلاته وكافة المدن المحصنة ، الى أن يعجز جيش الاعداء عن التموين والانتقال ؛ وحرب بطيئة جديدة ، لا نهاية لها . وكانت النتيجة الاولى لتحسين العتاد تجسيم نواقص الجيوش القديمة . فان الصفوف الطويلة في اوائل القرن الثامن عشر كانت اقل مقدرة على المناورة منها في جيوش تورين و كونديه .

الجيش البروسي

هم البروسيون من ادخلوا التحسينات الاولى . كانت الحرب صناعة بروسيا الوطنية ، وكانت نخبة البروسيين تقف ذاتها على الفن العسكري . تحقق معظم التقدمات الرئيسية في عهد « فردريك – غليوم الاول » ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ – ١٧٤٠) ، على يد احد خبراء حروب لويس الرابع عشر ، الامير « دانهالت – دشو » . منذ السنة ١٧٢٠ ، اعتمد الجيش البروسي رسمياً بعض التدابير العسكرية التلقائية التي اعتمدها الضباط والجنود في ساحة المعركة في السنوات الاخيرة من حرب وراثة عرش اسبانيا : « الاصطفاف الدقيق » ، « والاصطفاف المرصوص » . نظم الجنود ثلاثة صفوف فقط ، جنود الصف الاول جاثين ، وجنود الصف الثاني واقفين منحنين ، وجنود الصف الثالث واقفين مستقيمين ، يطلقون نيرانهم تتاليا . وقد سبق لهذا التنظيم ، الذي فرضه عدد الجنود المحدود في اعقاب الخسائر الفادحة ، ان اثبت كفاءته ، على الرغم من الاصطفاف « الدقيق » ، بفضل البندقية .

فاتح ، بعدد أقل من الجنود ، حماية جبهة طويلة والحؤول دون اندفاع العدو بأعداد كبيرة. ورصت الصفوف بحيث تتماس المرافق مسافة ، وتماس الركبة حربة الجندي في الصف الامامي ، رغبة في مضاعفة كثافة النيران. فسهلت بالفعل نفسه عمليات الاصطفاف والانتقال من الصف سلفة سلفة الى نظام خط الجبهة .

كان المشاة البروسيون يبلغون ساحة المعركة صفوفاً طويلة ضيقة ويحانبون الخط الذي سيلتشرون عليه صفوفاً متوازية في وجه العدو . وفي الصف الطويل ، تتصل بين الفرقة ، المنظمة مسبقاً وفاقاً لمراكزها ومراكز افرادها في الجبهة ، عن الفرقة السابقة مسافة تعادل المسافة التي ستحتلها في الجبهة : وهذا ما يعرف بالصف الطويل ذي المسافة الكاملة . ثم يتوقف الصف الطويل هذا . فتصبح كل فرقة امام العدو ويحتل افرادها مراكزهم في الصفوف بحركة تحولية ذات مدار ثابت يدور فيها أحد الجناحين بينما يبقى طرف الجناح الآخر في مكانه . وقد سهلت هذه الحركة الخطوة الموزونة . وبعد الاصطفاف للمعركة يتسلم كل زعيم (كولونيل) « وجهة نظر » يوجه إليها علمه ، بمراقبة بباشي (ماجور)» فتحتفظ الاعلام ، وبالتالي الفرق، بصف مستقيم دقيق . وكان الهجوم يشن مشياً لا ركضا ، رغبة في المحافظة على ضبط الصفوف ، تطلق فيه النيران على دفعات منتظمة ، باسناد مؤخرة البندقية الى الخاصرة رغبة في كسب الوقت والحيلولة دون حدور الكتف (اطلاق المرشة) . وعلى بعد ٣٠ خطوة يطلق المشاة نيرانهم مرة اخيرة على العدو ويهجمون عليه بالحراب ، إذا هو لم يتقهقر بعد ، ويزيد من أثر نيران المشاة استخدام المدافع الخفيفة أو المدافع الاسوجية التي كان باستطاعة المشاة اطلاق نيرانها باليد، والتي كانت تحتل المسافات الفاصلة بين الفرق . وأهملت المدافع الثقيلة من عيار ٣٣ لبرة. واستعملت المدفعية البروسية المنهضة ، والفشكة ، أو خرطوشة المدفع ، واشتملت على نسبة كبيرة من المدافع القصيرة . أما الفرسان البروسيون، الذين توزعوا كواكب كبيرة على صفين، فكانوا أول من اعتمد الكرة قاصاً رغبة في التخلص من نيران العدو في اقصر وقت وفي مضاعفة قوة الاصطدام . يندفعون نحو جانبي العدو بعد ان يكون قد اضعف بنيران البنادق والمدافع . دفاعهم نيران ثابتة ، وهجومهم نيران متحركة الى الامام .

اما فردريك الثاني (١٧٤٠ - ١٧٨٦) ، الذي استخدم جيش ابيه ، فقد اخطأ باعتماده السلاح الأبيض دون غيره ، وباصدار الاوامر للجيوش بالهجوم دون اطلاق النار ، رغبة منه في سرعة تقدمها . ولكن جيوشه أوقفت ابداً بنيران العدو بعد تكبد خسائر فادحة بالارواح لا سيا بين الضباط . لذلك لم يلبث ان تخلى عن خطة الهجوم بهذا السلاح . وقد كتب في السنة ١٧٦٨ ، في « وصيته العسكرية»، هذه الجملة الفصل : « إنما تكسب المعارك بتفوق النيران » . وبلغ من اقتناعه بذلك انه سير مع طلائع الجيوش مجموعات كاملة من المدفعية تضم مدافع ثقيلة من عيار ١٦ و٢٤ لبرة . فكانت النتيجة ان هذه الطلائع لم تتوقف أمام القرى المحصنة التي كان باستطاعتها قهرها بالمدفع ، بينا كان مشاة الامم الاخرى يوقفون اندفاعهم ويمنون بالخسائر امام

الخنادق والمتاريس . وكان اهم ما ادخله على فن الحرب الاستعاضة عن « الاصطفاف المتوازي » « بالاصطفاف الازور » . فحاول ، في كل المعارك تقريباً ، تسيير فرقه على طريقة الادراج ، اي انه ، إذا مـــا كان مصمماً على التوصل الى نتيجة لجهة الشمال مثلاً ، يحمل الفيلق الشمالي الاول متقدماً بعض التقدم على الثاني ، والثاني على الثالث ، وهكذا دواليك ، بحيث يكون كل فيلق منحرفاً بعض الانحراف عن الفيلق السابق من الشمال الى اليمين . ويعجز العدو ، بسبب الصفوف المرصوصة ، عن تمييز التباين في الابعاد ، وينتظر الجيش البروسي ، كالمعتاد ، على جبهة موازية لجبهته . فيتوقف البروسيون فجأة ويصطفون بسرعة في جبهة « زوراء » بالنسبة لجبهة العدو ، بينما يضع فردريك فرقه الاحتياطية وراء الجنــاح المتقدم فيصبح اعظم قوة من العدو في هـذه النقطة ويستطيع مهاجمته بأعداد كبيرة والالتفاف حواليه والتغلب عليه ، فلا يستطيع العدو القيام بأية حركة باتجاه الجناح البروسي الضعيف ، وليس له متسع من الوقت لاعادة تنظيم صفوفه ومواجهة الهجوم الجانبي .

كان اثر البروسيين كبيراً في جيوش الاعداء بفعل انتظام انطلاق نيرانهم وسرعة حركاتهم. فلم يكن نادراً ان تحتل صفوفهم الطويلة مراكزها في الجبهة في عشر دقائق . وترد هذه السرعة المدهشة الى الدقة في اعداد كافة الحركات مسبقاً والى طول الاناة في تلقينها الجنود . فيصبح الجنود أشبه بآلاتٍ متحركة قادرة على القيام بحركاتها المعتادة بكل سرعة وفي اية حـــال من الاحوال . وقد درج فردريك الثاني على مقارنة حركات الجيش البروسي بحركة مجموع دواليب ساعة متقنة الصنع. وهكذا تمكن البروسيون من التغلب على اعدائهم بسرعة حركتهم والمحافظة على نظام تام في اشدّ الظروف حراجة. فاستفاد فردريك الثاني ، القائد العبقري ، خير استفادة من هذه الاداة .

لم يلبث النمساويون، والامراء الالمان، والهانوفريون، والهولنديون، والانكليز الذين كان ملوكهم امـــراء هانوفريين ، ان اقتبسوا عن البروسيين الصفوف الدقيقة والصفوف المرصوصة واطلاق النيران دفعة واحدة. اما الفرنسيون فقد استخدموا الصفوف المرصوصة في وقت مبكر نسبياً ، ولكنهم لم يعتمدوها رسمياً الا في السنة ١٧٥٠ .

وجملة القول ان البروسيين لم يستحدثوا جديداً يذكر . قاموا خير قيام بحركاتهم ولكن حركاتهم لم تكن خير حركات . لم يجنوا من البندقية الفوائد التي كان بالامكان جنيها منهـا . فنادراً ما يأتي اطلاق النيران دفعة واحدة بالنتيجة المتوخاة ، الا على مسافة قريبة جداً ،لأن الجندي يهتم لاطلاق النار في آن واحد مع رفاقه ، لا لقتل العدو ، مع ان قتل العدو هـو المعول عليه . « يستحيل على الجندي ان يحسن التسديد إذا ما اضطر الى إعارة انتباهه امـــر القائد» (موريس دي ساكس) . وكان الصف الثالث دون فائدة . والاصطفاف الدقيق المستقيم كذلك ، بالاضافة الى صعوبة المحافظة عليه ، لان دخان المدفع كان يحجب الاعلام . ويكون

الاصطفاف الدقيق ذا فائدة في الارض المنبسطة بصورة خاصة . ولم يدخل البروسيون تحسينات تذكر على المدفعية. وقد امر فردريك الثاني ، على الرغم من سيدليتز ، على ان يكرّ الفرسان « بشكل سور » ، متراصين عند الانطلاق ، السوقاء بمحاذاة السوقاء . ولكن حركة تمايل الحصان القامص تستلزم للفارس مكاناً ارحب منه في سير الحصان العادي . وكم من مرّة اضطر بعض الفرسان المتراصين ،الذين القوا ارضاً عن سروجهم ، الى الخروج من الصف وتقدم الآخرين او ايقاف مطاياهم ، ففقد الصف قدرته على الاصطدام .

التقدمات النمساوية والفرنسية

تحققت اهم التقدمات على يد النمساويين ولا سيما على يد الفرنسيين . وهي نقائص التقدمات السابقة وسيئاتها ما حركت عبقرية هؤلاء الآخرين الابتكارية . قنط الفرنسيون من بلوغ كال رماية الجيش البروسي وحركاته . ورأوا ان هذه التمارين الدائمة الدقيقة ، وهذا الاعداد لكل حركة ، وهذا الصبر ، وهذه الآلية تتنافى كلها « وعبقرية الامة » . سلموا بانهم لن يتفوقوا في هذا الميدان ، فبحثوا عن الاعاضة من دونيتهم بتحسينات وتجديدات تكتيكية وخلقوا جيش نابوليون .

العدو
البروسيون

الانتقال من صف السير الى صف الحكومة

كانت لهم حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) مدرستي ملاحظة وتفكير افضتا الى صدور ابحاث عديدة ، وكتب وقوانين ملكية تنظم تعلم الرماية والمناورات والقتال . ولكن القوانين تأخرت في تسجيل الاكتشافات لأن الوزراء ، البعيدين جداً عن ساحات المعارك ، لم يعرفوا دائماً تميز الآراء المنطبقة على الوقائع في غمرة المشاريع المقدمة . اما اهم المبتكرين فهم : موريس دي ساكس بطل معركة «فونتنوا» الظافر الذي اوجز خبرته في كتابه «تأملات»؛ والمارشال«دي بروبل»، الأول بين قادة حرب السنوات السبع الذي خلف للفرنسيين ذكريات سيئة جداً ، مع ان القادة الفرنسيين برهنوا فيها عن موهبة ابتكارية وقدرة على التجديد كانت سبباً من اسباب الاخفاقات ، لانهم ، مع مرؤوسيهم ، طالما تلمسوا طريقهم في استخدام طرائق جديدة هي عنوان مجد وفخار ؛ والكونت « دي غيبير » ، الذي كان ابن معاون المارشال « دي بروبل »، وشهد بنفسه الفصول الأخيرة من حرب السنوات السبع ، والف « محاولة عامة في فن الحرب» نشرت في السنة ١٧٧٢ وتأثر بها بونابرت ؛ واخيراً المدفعيان « فاليير » و « غريبوفال» ، والفارس « دي تيل » . كانت الملاحظة والاختبار خير الاساليب التي انتهجها كافة هؤلاء الرجال العظام . « يجب الرجوع ابداً الى الاختبار ... حتى إذا ادت البرهنة ظاهراً الى نتائج ثابتة جداً».ان ما لم تعلمه الحرب قد روقب بعناية في مناورات شهيرة قام بها المشاة في معسكر

« فوسيو » (١٧٧٨) ، وفي محتشد ستراسبورغ (١٧٦٤) و « موبوج » (١٧٦٦) التي نزلتا بالمدفعية ، وفي تمارين الفرسان في ماتز (١٧٨٨) . وكان غيبير اول من عين بدقة الوقت الذي يستغرقه إطلاق النيران ، ومن فكر بدرس الحركات وتعاقبها كي يختار منها ما يعطي خير نتيجة .

الاصطفاف العميق

ما لبث الخبراء ان لاحظوا صعوبة انتشار الجيوش والمهاجمة بصفوف منظمة . فتبادرت الى الذهن فكرة مفاجأة العدو بكرّة قوية قبل ان ينظم صفوفه للمعركة ، او بين تارين كثيفتين ، اي عدواً وفي صفوف طويلة ، بغية تجنب الانتشار والسير بمزيد من السرعة . كان مفروضاً ان تتقدم الحركة على النار . اوصى الفارس « فولار » بالصف الطويل ، اي « بالاصطفاف العميق » في كتابه « مكتشفات جديدة في فن الحرب » (١٧٢٤) . وانما حدثت في ذهن هذا الجندي الممتاز ، على الرغم من انه شاهد الحروب ، ظاهرة قد يسمح تكررها الدائم بعد النزاعات المسلحة بان يحمل منها قانوناً : اعني بـه اهمال النار . اراد اصطفافاً طويلاً يضم بين ٣٠ و ١٨٠ صفاً من الجنود المتراصين يكون بعضهم

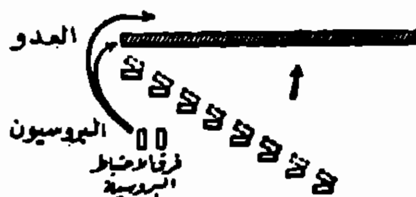

الصف المنحرف

مسلحين بالحراب لشق صفوف العدو بالاصطدام . « ان قوة الوحدة الحقيقية تكمن في سماكتها واعماق صفوفها ووحدتها وتراصها » . تتلمذ عليه تلامذة متحمسون على الرغم من خبرة الحروب . فقام المركيز « دي سيلفا » بحساب طويل جداً استلزم ست صفحات لتقدير القوة الحية التي ينطوي عليه صدام الصف الطويل . وعلى الرغم من خبرة الحروب ، عاد « منيل – دوران » ، في السنة ١٧٥٥ ، الى رأي فولار في كتابه « مشروع تنظيم فرنسي في فن الحرب » وعاد اليه مرة اخرى في السنة ١٧٧٧ . وقد عند آنذاك القائلون برأي فولار في اعتبار الكرّة بالسلاح الابيض تنطبق وحدها على المزاج الفرنسي ، واتهموا غيبير باحتذاء مثال الاجنبي ، وبالتخلق باخلاق البروسيين . وكان مقدورا للجمهورية الثالثة ان تشاهد تجدد هذه المنازعات قبل السنة ١٩١٤ .

اما في الواقع فاذا كانت فكرة هجوم الصفوف العميقة بالحراب فكرة صائبة ، فان هذا الهجوم ما كان ليصبح ممكناً بشكل الصفوف العميقة الذي نادى به كل من فولار ومنيل – دوران. الصفوف الكثيرة لا تجدي نفعاً : اذ ان الصف الاول هو وحده ما يحمل عبء الصدام.

جنود الصفوف الاخرى لا يضيفون اية قوة ولا عمل لهم في المعركة بالسلاح الابيض سوى الحلول محل الجنود القتلى او الجرحى . ان مثل هذا المجموع معرض للفناء بنيران العدو . ولا يستطيع الضباط ، في مثل هذا التنظيم ، قيادة وحداتهم كما تجدر القيادة . ولن تلبث الصفوف ان تختلط ، والجيش ان يصبح قطيعاً . زد على ذلك اخيراً ان مثل هذا الاصطفاف العميق لا يصلح لاية حركة باستثناء السير الى الامام. فكل مناورة مستحيلة وكل تراجع مستحيل. وقد تناوله غيبير بنقد حاسم :

«كل النواميس الطبيعية المتعلقة بحركة الاجسام واصطدامها تصبح اضغاث احلام حين يراد تطبيقها على فن الحرب؛ فليس بالامكان اولاً تشبيه الوحدة العسكرية بكتلة جامدة لانها ليست جسماً متراصاً خلواً من الفجوات ؛ وثانياً ، ليس في الوحدة التي تهاجم العدو سوى جنود الصف الذي يتصل بالعدو من تتوفر فيهم قوة الصدام ؛ فكل من وراءهم يعجزون عن التراص والاتحاد الذين تتميز بها الاجسام الطبيعية ، ويغدون بدون فائدة ولا يصدر عنهم سوى الفوضى والضوضاء .ولو فرضنا، ثالثاً ، امكانية حدوث هذا الصدام المزعوم بساحة كافة الصفوف، فان وحدة مؤلفة من افراد يقدرون الخطر ويشعرون به ، اقله تقديراً وشعوراً آليين ، لا تخلو من بعض الارتخاء والانقسام في ارادات الافراد ، مما يؤدي بالضرورة الى البطء في تقرير السير وقياس الخطوة ، فليس هناك من ثم من كمية حركة كاملة ، وليس من حاصل حجم وسرعة ، وليس من اصطدام ، لان الاصطدام يفرض بان تستمر السرعة ، بعد احداثها في الجسم المتحرك بالة الحركة ، حتى اللحاق بالجسم المصدوم ...»

«يندر، او بالاحرى ، لا يحدث البتة ان تتنظر [وحدات المشاة] بعضها بعضاً بحيث تتصادم وتتشابك بالحراب » . اذا لم يتوقف المهاجم بفعل النيران ، فان المهاجَم يتراجع في الوقت اللازم قبل ان يقارب منه العدو .

النيران الاختيارية

نبّه الجميع بقساوة الى فاعلية النيران في معركة « دتنجن» التي قاتل الفرنسيين فيها ملك انكلترا جورج الثاني على رأس جنديين ألمان وانكليز (١٧٤٣) . فقد روى احد الضباط الفرنسيين ما يلي : « كان مشاتهم متراصين يبدون وكأنهم سور من فلز تنطلق منه نيران من الحدة والتواصل ما جعل قدامى الضباط يعترفون بأنهم لم يشاهدوا مثلها في يوم من الايام » . كانت الخسائر الفرنسية فادحة جداً ، وزوال الوهم شديد المرارة على انصار السلاح الابيض . وجاءت معركة « فونتنوا » (١٧٤٥) تؤيد الواقع : فان وحدة الحرس الفرنسية التي كابدت نيران الانكليز على مسافة ٣٠ خطوة قد لاذت بالفرار ؛ اما شرذمة « اوبتير » التي استبسلت في صمودها فقد خسرت نصف جنودها . فكانت النتيجة حاسمة : النيران هي الجوهر ، وهي تتفوق على الحركة . وبرهنت النيران المطلقة دفعة واحدة، من مسافة قصيرة ، عن انها فعالة جداً ايضاً . ولكن هذه المعارك اوحت بما اثبته غيرها فيما

بعد : حين كان المشاة الانكليز والهانوفريون ، وحتى البروسيون ، يرون العدو وقد بات قريباً جداً منهم ، كان يستحيل على الضباط إرغام رجالهم على انتظار الامر لاطلاق النار . ففقدت النيران ما في تعاقبها من جمال واصبح اطلاق النار اختيارياً . ولكن هذا الانطلاق برهن عن انه اقتل وافعل من الاطلاق الموحد لان الجنود يحصرون همهم حينذاك في ضبط التسديد بغية منع العدو من ادراكهم . فهم لا يطلقون نيرانهم الكتس كما في النيران الموحدة ، بل القتل . فأخذ الفرنسيون يعتمدون تلقائياً النيران الاختيارية وقد اوصى بها غيبير بالحاح . واخيراً أقر قانون السنة ١٧٧٦ رسمياً النيران الاختيارية بعد النار الموحدة الاولى .

جنود الطليعة

اثناء هذه الحروب ، لاحظ المحاربون فاعلية نيران الجنود المسلحين بسلاح خفيف والمتناثرين امام جبهة الجيوش ، اعني بهم جنود الطليعة . كان السباقون الى استخدامهم النمساويين الذين غمروا ساحات المعارك بجنود الطليعة من الكرواتيين. كان هؤلاء الرجال الموزعين هنا وهناك ، وراء الاسيجة، والسواقي، والاشجار المنفردة ، والادغال ، والمرتفعات ، يطلقون النار على صفوف المشاة، ويشددون الضربات ، ويجندلون الضحايا ، وينشرون الفوضى في الصفوف ، ويزعزعون معنويات المهاجم ، بينما هم يستخدمون طبيعة الارض فلا تلحق بهم نيران صفوف المشاة كبير اذى ، ثم ينسحبون وراء صفوف مشاتهم ، حين يبلغ العدو مرمى بنادق هؤلاء. وكانوا يطلقون النيران على المدفعيين الاعداء ويشوشون نيران المدفعية . كما كانوا يفتكون جانبياً بفرسان العدو الهاجمين على الفرسان من مواطنيهم . ولم يلبث موريس دي ساكس ان رأى ان باستطاعتهم ، بفضل تسديد نيرانهم ، الشبيهة « بنيران القناصين » ، شل حركة وحدة محاربة ، الشيء الذي ساد الاعتقاد حينذاك باستحالته على غير وحدة محاربة بفضل النيران الموحدة . ففي فونتنوا تمكن افراد سرية « غراسين » الـ ١٢٠٠ الموزعين جنود طليعة في غابة « باري » ، من ايقاف سيل فرقة « انغولدسبي». اجل لقد جرى ذلك في ارض ذات كسور . ولكن في روكو (١٧٤٦) وزع موريس دي ساكس سريتي « غراسين » و « لامورليير » جنود طليعة في ارض مكشوفة لجهة جناحه الايمن ؛ فتجاوزوا قرية « آنس » وأتاحوا الاستيلاء عليها . فأكثر الجيش الفرنسي منذ ذاك الحين من استخدام جنود الطليعة هؤلاء ، « القناصين » ، وكان استخدامهم منفقاً و « اندفاع وتزق » الفرنسيين . وخلال حرب السنوات السبع ، استخدمهم « بروبل » باستمرار بغية اعداد الهجوم بالسلاح الابيض ، وتجنب طغيان العدو على جناحيه ، وتغطية انتشار الجيش ، والدفاع عن الغابات، والقرى ، والرياض، والبيوت المنفردة . وتوفق اخيراً الى التغلب على مقاومات الوزراء ، واستحصل في السنة ١٧٦٦ على نص رسمي باحداث فوج قناصين في كل سرية ، واستخدام قرابة ٦٠ جندي طليعة في كل فوج ، وعلى نص آخر في السنة ١٧٨٤ باحداث افواج من القناصين المشاة بلغ عددها ١٢ في السنة ١٧٨٨ . في هذا التاريخ جاءت حرب اميركا ، وقضاء المزارعين الاميركيين على فصيلة انكليزية في لكسنغتون ، واستسلام صف

طويل من الجنود الانكليز في « ساراتوغا » ، تثبت قيمة قتال جنود الطليعة . فاكتشف بالفعل نفسه خير استخدام البندقية .

صف الهجوم

الا ان فعالية النيران كانت قد ارغمت على اللجوء الى صف الهجوم . ففي مهاجمة اهداف جبهة محدودة، كمدخل قرية، او مدخل طريق حرجية ، او مجاز ، او تلة او زاوية في متراس ، وجب تفضيل الصف الطويل لأنه لا يعرض العديد من الجنود ، في آن واحد ، لنيران المدافعين ، ولأنه اكثر موافقة للتقدم نحو الهدف وداخله . استخدم موريس دي ساكس صفوفاً طويلة لمهاجمة المواقع في « روكو » و« لوفلد » ، كما استخدمها بروبل لمهاجمة الغابات والمتاريس . زد على ذلك ، من جهة ثانية ، انه بدلاً من ان يؤلف صفوفاً أخرى من فرقه الاحتياطية ، غالباً ما تركها صفوفاً طويلة ، لان الصف الطويل اسرع انتقالاً من الصفوف المتوازية ولان ذلك يسهل عليه نقل فرق الاحتياط بسرعة الى مكان استخدامها . ولكن القادة واجهوا حينذاك مسائل شكل الصف الطويل والتقدم نحو الهدف وانتشار الجيوش ، مع المحافظة على الصفوف المتوازية ، في اطراف الغابات او في السهول بعد الاستيلاء على الهدف ، للحيلولة دون هجوم معاكس يقوم به العدو ، لان الصفوف المتوازية اكثر موافقة للدفاع من الصف الطويل .

بيد ان الصف الطويل المعتمد لم يكن ذاك الذي قال به فولار ، والذي لم يتجاسر أي ضابط على المجازفة باعتماده بعد الكارثة التي حلت بالصف الانكليزي في فونتنوا ، والذي اثبتت التجارب المجراة في معسكر «فوسيو»عدم اهليته للمناورة، بل صف السير البسيط ؛ وهو يؤلف من صفوف متوازية لا يتجاوز الواحد منها الاربعة جنود، وتفصل بين الفرق مسافة عدة خطوات لتجنب الوقوف الفجائي بفعل عدم انتظام سير المقدمة الذي تسببه طبيعة الارض أو نيران العدو . كان مثل هذا الصف الطويل سهل القيادة ، والاخضاع للنظام ، والقيام بالمناورات . يسير بخطى حثيثة ، لا بل عدواً اذا مست الحاجة . يتقدمه جنود الطليعة الذين لا يتوارون إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ويحيط به حتى مرمى بنادق العدو مشاة مصطفون صفوفاً متوازية يصوبون بنادقهم إلى الفرجات والنوافذ والادغال وكل مكان آخر تنطلق منه النيران لإبعاد نيران العدو ومنعه من ضرب الصف الطويل. النيران تعد الحركة وترافقها. وبعد الاستيلاء على الهدف ، ينتقل جنود الطليعة الى المقدمة ويؤلفون ستاراً . ينتشر الصف الطويل صفوفاً متوازية على طول الجبهة التي يتوجب عليه الدفاع عنها بمجرد دوران كل جندي الى اليمين (أو اليسار) ، دونما حركة تحولية . واذا كان على الصفوف المتوازية السير مجدداً في صف طويل ، يدور الجنود الى اليسار (او اليمين) ، وتسير الفصيلة التي تحتل المقدمة وتبدل اتجاهها نحو العدو ؛ وتسير كل من الفصائل الاخرى بدورها ، وتحتل مركزها وراء الفصيلة السابقة ، على مسافة خطوات معدودة ، بعد أن تكون قد سلكت أقصر الطرق في انتقالها . لا شأن بعد اليوم لعكس المراكز . يحتل الجنود والوحدات المراكز التي تليها الظروف . وهكذا بات

الانتقال من الصف الطويل الى الصفوف المتوازية ومن الصفوف المتوازية الى الصفوف الطويلة عملية بسيطة وسريعة جداً .

اعتمد المارشال « دي بروبل » ومعاونه « غيبير » هذه الطرائق تكراراً خلال حرب السنوات السبع . وقد عرفت هذه الصفوف ، منذ السنة ١٧٦٦ ، باسم « الصفوف على طريقة غيبير » . ثم وضع فيها ابن المعاون نظرية كاملة في السنة ١٧٧٢ . وأوصى بالاضافة الى ذلك ، في الارض المكشوفة ، بالهجوم عدْواً ، وبصفوف متوازية ، دونما اهتمام لاستقامة الصفوف التي لا تجدي فتيلاً ؛ وبتحول على مدار متحرك يستمر فيه الجنود الذين يشكلون مدار الحركة الدائرة في السير ببطء بغية كسب الوقت . وصدر قانون السنة ١٧٦٩ باعتماد « الصفوف على طريقة » غيبير . وبعد طويل « جدال حول الاصطفاف الدقيق والاصطفاف العميق» اعتمدت آراء غيبير بالتعليمات المؤقتة الصادرة في ٢٠ ايار ١٧٨٨ .

الفرقة

كان مقدراً للطرائق « الغيبيرية » إتاحة تطورات سريعة وسهلة . إلا ان القادة فكروا ، في الوقت نفسه ، بوسائل اخرى التوصل الى توزيع الجيش المقاتل بسرعة في وجه العدو . حقق البروسيون ذلك بفضل تدريبهم المدهش . لذلك سارت جيوشهم صفاً طويلاً واحداً أو صفين ، أو ثلاثة على الأكثر . وسعى القادة الفرنسيون إلى تنظيم صفوف طويلة اكثر عدداً تسير في طرق متوازية وبسرعة مماثلة : فكان الصف أقل طولاً والانتقال الى الصفوف المتوازية ، الذي تفرضه البندقية ، اسرع تحقيقاً . وقد توصلوا الى ذلك بتقسيم الجيش فرقاً . لقد سبق لموريس دي ساكس أن شكل فرقاً ، بعد معركة فونتنوا ، للزحف على روكو ثم على لوفلد . واعتمد بروبل الطريقة نفسها في حملة السنة ١٧٦٠. قُسّم صفا المشاة أربعة اجزاء أو « فرق » ، وضمت كل فرقة قسماً من الصف الأول وآخر من الصف الثاني ، فجاء المجموع ١٦ فوجاً من المشاة . ورافق كل فوج من المشاة قسم من فرقة الفرسان وآخر من المدفعية التين قسمتا أربعة اقسام ايضاً . وعند الاقتراب من العدو ، كانت الفرقة تنقسم صفين طويلين . وهكذا اصبحت الفرقة جيشاً مصغراً كاملاً يضم المشاة والمدفعية والفرسان ، أي كل الوسائل الكفيلة بقهر العدو أو إيقافه . أحدثت لتسهيل انتشار الجيوش في الجبهة فقط ، ولكنها لن تلبث أن تبدل ظروف الحرب وتتيح مناورات جديدة تستهدف جانبي العدو أو مؤخرته . ولكن القادة الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، لم يعرفوا بعد كيف يستخدمونها خير استخدام .

وهكذا برز قسم هام من نتائج استخدام البندقية . وليست كافة الطرائق التي يعزى اكتشافها احياناً الى جنود الثورة والتي ربما استهدفت جزئياً اخفاء نقص تدريب المتطوعين ، من استخدام جنود الطليعة ، والهجوم بالحراب عدْواً وفي صفوف طويلة ، وتقسيم الجيش فرقاً ، سوى وسائل قتال وتنظيمات احدثها الجيش الملكي خلال القرن الثامن عشر ، بسبب اداة جديدة ، هي البندقية .

الفرسان

حقق الفرسان الفرنسيون تقدمات عظيمة ، ولكنهم حذوا في ذلك حذو البروسيين والنمساويين . فقد اقرت قوانين السنتين ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كواكب الخيالة الكبرى ، والقيام تماماً بهجوم قصير وعنيف ، على ان لا تؤلف الكواكب سوراً واحداً بل تتخللها المسافات ؛ واعتماد الصف الطويل في مهاجمة المشاة لاختراق صفوفهم .

مدفعية فالير

قام بعض الفرنسيين بثورة في حقل المدفعية . فان قانون ٧ تشرين الاول ١٧٣٢ فرض في فرنسا مذهب فالير الذي عمل به حتى السنة ١٧٦٥ . ويقوم فضل فالير الاكبر في انه قام بعمل تنظيمي . أراد مدفعية واحدة تتوزع مدافعها على خمسة عيارات، من ٤ الى ٢٤ لبرة ، « تكون كلها موافقة لمهاجمة المواقع والدفاع عنها ، وتشترك الفئات الثلاث الاول منها بحسب الظروف بحيث تصبح موافقة للحرب في الارياف ؛ فيصبح ممكناً ، إذا قضت الحاجة ، ان تقدم المواقع العون للجيوش ، والجيوش للمواقع » . ان هذه الكلمات يقولها ابن فالير لحدد عمل الاب خير تحديد وتتضمن نقده . أراد فالير ، رغبة في التبسيط ، صنع عتاد مزدوج الهدف . ولكنه لم يستجب تماماً لاية حاجة . فان مدافعه ، على الرغم من تخفيف وزنها، قد بقيت ثقيلة جداً لساحة المعركة (المدفع من عيار ٤، ٥٧٥ كيلوغراماً؛ والمدفع من عيار ٢٤، ٢٧٠٠ كيلوغرام) . يضاف الى ذلك من جهة ثانيـــة ان تنظيمه قد برهن عن اكثر العقليات رجعية : فهو قد صرف النظر عن المدفع القصير ؛ وأمر بأن يحشى المدفع بلعقة عميقة طويلة المقبض ، المصباح ، يستغني بها عن الفشكة ، رغبة منه في التمهل وتوفير الذخائر ؛ وألغى المنهضة بحيث توجب في معظم الأوقات اطلاق النار اطلاقاً تدريجياً ؛ وترك الفوارق في صنع الذخائر بحيث استحال استخدام القذائف المصبوبة لمدفع معين في مدفع آخر من العيار نفسه ؛ زد على ذلك ان قطع المدافع المختلفة والاسناد لم تكن قابلة للتبديل والتغيير .

« بيليدور »

حاول فالير تلافي الزيادة في الوزن بأن اعتمد في السنة ١٧٤٠ ، على غرار معظم دول أوروبا الوسطى ، المدفع الخفيف على الطريقة الاسوجية ، وهو مدفع قصير جداً من عيار ٤ لبرات ، يبلغ وزنه ٣٠٠ كيلوغرام ، يمكن جره بالايدي ، ويستطيع المشاة استخدامه . إلا انه رفض تخفيف المدافع الاخرى . فبرهن بيليدور ، العالم بالطبيعيات ، والاستاذ في مدرسة « لافير » للمدفعية ، في السنة ١٧٣٩ ، ان المرمى ليس نسبياً لحشوة البارود، وان حشوة توازي ثلث وزن القذيفة تميض من حشوة توازي ثلثي وزنها . لمـــا لبث كافة المدفعيين ان خفضوا وزن حشوة البارود . فبـــات ممكنا والحالة هذه انقاص سماكة القطع ووزنها . ولكن فالير قاوم هذا الانقاص بعناد . لا بل عزل بيليدور عن منصبه .

إلا ان الحروب اظهرت ضرورة تخفيف المدفعية . فخلال حرب السنوات السبع استخدم النمساويون قطعة خفيفة من عيار ٣ لبرات لمواكبة المشاة . وفي السنة ١٧٥٦ ، أمر « بروبل » باعادة خرت المدافع من عيار ٨ و ١٢ لبرة وتحويلها الى مدافع من عيار ١٢ و١٦ لبرة بانقاص

سماكة جوانبها ، فجعلها أخف وزناً واسهل تحريكاً .

مدفعية « غريبوفال »

اجريت التطويرات الحاسمة على يد « غريبوفال » . كان ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي ، فجمع بهـذه الصفة ثروة ملاحظات خلال حرب السنوات السبع ، وأثناء خدمته في الجيش النمساوي ، وأثناء اسره في بروسيا في السنة ١٧٦٢ . وحين استدعاه الوزير « شوازول » الى فرنسا عرف كيف يستخلص النتائج مما شاهده وزود الجيش الفرنسي بخير عتاد في العالم ، العتاد الذي استخدم في كافة حروب الثورة والامبراطورية .

ادرك غريبوفال الحاجة الماسة الى تخصيص المدافع ، الى ادخال تقسيم العمل الى المدفعية . ميز بين مدافع الحصار (عيار ٢٤ و ١٦) ومدافع القتال في الارياف (عيار ١٢ و ٨ و ٤) . خفف مدافع القتال في الارياف بانقاص طولها وسماكتها . فانخفض وزن المدفع عيار ٤ من ٥٧٥ كيلوغراما الى ٣٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ٨ من ١٠٥٠ كيلوغراما الى ٦٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ١٢ من ١٦٠٠ كيلوغرام الى ٩٠٠ كيلوغرام . وقصّر وخفف الاسناد ايضاً وأمر باعتماد الجر الواحد الذي يتيح استخدام الاحصنة اثنين اثنين معاً بدلا من الجرين اللذين لا يسمحان باستخدام الاحصنة إلا واحداً وراء الآخر . فبات الجرّ اكثر فعالية ، واستطاعت الاحصنة الجاورة السير خبباً ، لا بل قماصاً . وبات بمكنة مدفعيته اخيراً ان تنتقل من أي مكان الى أي مكان آخر بفضل الحبل الطويل وقدّة الجلد . فالحبل الطويل هو في جوهره حبل يصل بين السند ومقدم العربة . فقد غدا ممكناً بواسطته اجتياز الخندق ، والحافة التي تعترض المنحدرات ، واطلاق النار اثناء الانسحاب ايضاً ، إذ يكفي في هذه الحال ايقاف الاحصنة ، فيصبح المدفع من نفسه في وضع الاطلاق . اما قدة الجلد فأشبه بحمالة تسمح للجنود بجر المدافع في ساحة المعركة . ويكفي ثمانية جنود لجر المدافع من عيار ٤ و ٨ لبرات ؛ و ١٥ جندياً لجر المدافع من عيار ١٢ لبرة . فغدا بمكنة المدفعية ، التي اصبحت سهلة التحريك ، ان تواكب المشاة منذ الآن ، وتساند هجماتهم وتسير وراءهم اثناء الانسحاب وتحمي مؤخرتهم .

وزاد غريبوفال من فعالية هذه المدفعية باعتماد المدفع القصير ، وبعدد المدافع : ٤ لكل الف جندي بدلاً من واحد ؛ فخصص كل فوج بمدفعين عيار ٤ أو مدفعي مشاة . وحسن غريبوفال مرمى القذيفة وقوة اختراقها . فوفق بدقة بين القذيفة وقطر المدفع الداخـلي لانقاص هواء القذيفة وضياع الغاز . وفي سبيل ذلك أمر بأن لا تصب المدافع حول نواة يتشوه شكلها بتأثير الحرارة وتسبب خشونة في داخل المدفع ، بل أن تصب مليئة وتخرت بعد ذلـك . وأتاحت بعض المقاييس النحاسية المحقق عيارها ، كالنظارات والاسطوانات ، مراقبة قياسات القذيفة وداخل المدفع التي كانت مستحيلة حتى ذاك التاريخ . وجليت المدافع من الخارج بالمخرطة . فزالت الاضافات التزيينية . وتمكن الضباط من رؤية نقائص المدن واستلام مدافـع محدودة

السباكة ومن نوع جيد لا تنفجر في وجه من يستخدمها . وغدت المدفعية أدق تسديداً باستخدام خط الاحكام والمنهضة اللذين اطالا مرمى المدفع ووسعا مجال عمل المدفعية . وبات إطلاق النار اسرع تنفيذاً باستخدام الفشكة .

وجعل غريبوفال الاصلاحات عملية سهلة . فرض على العمال طـــاولة متقنة الصنع محدودة القياسات ، واقطـة ، ومثاقب ، ومساطر حديــدية ، وقوالب ، وعيارات . فباتت صناعة العربات والاسناد ومقدم العربات متماثلة متساوية . وأمكن تبديل القطع ، منها كان مصدرها ، حتى على مقربة من ساحة المعركة .

في السنة ١٧٧٦ ، وبعد منازعات طويلة ، عين غريبوفال مفتشاً عاماً للمدفعية ، واعتمدت طريقته نهائياً .

المدفع المفرض

سبق المدفعي الانكليزي « روبنز » ، في كتاب لم يترجم إلا في السنة ١٧٧١ (« رياضيات تتضمن المبادىء الجديدة في المدفعية ») ، أن اقترح تفريض المدافع من الداخل لزيادة التدقيق ، ولكنه اصطدم ، لاسباب نظرية ، بـ « اولر » الذي حال ما له من نفوذ دون العمل باقتراح روبنز على الرغم من اختبارات هـذا الأخير المقنعة . وهكذا تأخرت ثورة أخرى اعظم نتائج من الثورة السابقة .

الحرب الجديدة

بفعل تطورات الاسلحة المختلفة هذه ، تبدلت كل ظروف الحرب . فقد بات بمكنة القائد ، الآن ، إرغام العدو على القتال : عـدد كبير من جنود الطليعة المشتتين سيكرهه على ابطاء انسحابه ، ثم على التوقف للاجابة على النار بالنار ، وربما استطاع أن يقطع عليه الطريق ، وسرعة تحول صف طويل إلى صفوف متوازية ، وإمكان قيام الصف الطويل بهجوم بالحراب ، فلن يستطيع العدو الحرب بعد اليوم ، بينما يعد القائد صفوف جيشه للمعركة . وسيتمكن القائد من محاولة الالتفاف حول العدو وتهديد مؤخرته : أن فعالية نيران جنود الطليعة ، وجمع الاسلحة المختلفة في الفرقة الواحدة ، سيتيحان ، لشطر من الجيش معتصم في أرض ذات شجون أو في مواقع محصنة ، أن يوقف لمدة طويلة هجمات عدو متفوق عـــدداً ويوفر القائد وما تبقى من الجيش تحت أمرته الوقت الكافي القيام بحركة التفافية[1] . وسيتمكن القائد اخيراً من اختراق جبهة العدو ، اما بصف طويل من الخيالة ، واما بمجموعة كبرى من المدافع تؤمن الاختراق ، كما أوصى بذلك غيبير ؛ وما ان تحدث الثلمة حتى يتدفق عليها المشاة للانتشار في المؤخرة والارتداد إلى الجناح العدو الأكثر تصدعاً والقضاء عليه قضاء تامـــاً . وسيتمكن القائد ، بفضل صفوف غيبير الطويلة ، من تبديل مراكـــز جيشه بسرعة في قلب

---

(١) وهذا ما سبق لفردريك الثاني ان فعله في « زورندوروف » حيث أوقفت فرقة « زيتن » جيش العدو في مكانه ، بينما كان فردريك ، مع القسم الأكبر من الجيش البروسي ، يلتف حوالیه .

المركة ، ومفاجأة العدو مفاجآت كثيرة مختلفة . فأتاحت كل هذه التطورات إمكان التخلي عن « ستراتيجية اللواحق » في سبيل الحرب الحقيقية ، تلك التي تستهدف تدمير جيوش العدو ، حرب الافناء القصيرة السريعة .

إلا أن القادة لم يبلغوا بعد هذه المرحلة . ففي عهد « الهيئة التشريعية » نفسها ، قاموا بالحرب على الطريقة القديمة ، واقتضى نزاع استغرق سنوات عدة لاقرار نقل النظرية الى ميدان العمل . أما غيبير فكان قد أدرك كل شيء وشعر مسبقاً بكل شيء وانبأ بكل شيء ، وخلص الى هذه النتيجة :

« إن جيشاً حسن التنظيم والقيادة لن يصادف البتة موقعاً يوقف تقدمه ... كما أن قائداً يتمرد ، في هذا الصدد ، على الآراء الموروثة ، سوف يحير عدوه ويذهله ولا يترك له مجالا للتنفس ويرغمه على القتال أو على التراجع ابداً امامه . وأني الجاسر وأعتقد بأن هنالك طريقة لقيادة الجيوش اجدى ، واضمن نتيجة حاسمة ولنجاحات كبرى ، من تلك التي اعتمدناها حتى اليوم ... سيبرز انسان ، ربما كان قبل ذلك مغمورا بين الجماهير وفي الظلمة ، انسان لم يعرف الشهرة لا بكلامه ولا بمؤلفاته ، انسان ربما جهل موهبته ولم يشعر بها إلا بممارستها ... إن هذا الانسان سيسيطر على الآراء ، وظروف الحظ ، ويقول عن كبار واضعي النظريات ما قاله مهندس العمارة المتمهن ، امام الاثينيين ، عن مهندس العمارة الخطيب : سأنفذ ما قاله لكم منافسي » .

وكان نابوليون بونابرت من سيحقق حلم غيبير .

« ان اله الحرب قريب الظهور ، لاننا سمعنا نبيه [1] » .

التوسع الاوروبي

احرز الاوروبيون ، آنذاك ، تفوقاً عظيماً على كافة الشعوب ، ليس بالاعتدة والمناورات فحسب ، بل بالنظام والاعداد الذين جعلا من الاوروبيين ، كما بدا ذلك ، مثالا انسانياً خاصاً يتميز برباطة جأش ، وعزيمة وعناد ، وبسالة لا نظير لها ايضاً . ففي بلاد الهند ، حيث كان اكثر المحاربين شجاعة ، بسبب فقدان النظام والانضباط اللازمين ، عرضة لخوف محزن ليس مـا يبرره ، قال المهرات « سنديا » للانكليز في السنة ١٧٧٩ :

« أي جنود جنودكم : اصطفافهم اشبه بجدار من الآجر ! اذا سقط احدهم ، سد الثلمة جندي آخر : هذه هي الجيوش التي اتمنى ان اقودها » .

ان هذا التفوق لم يوفر للأوروبيين النصر والرعايا فحسب بل الحلفاء والاصدقاء ايضاً . فقد كان احدى أهم وسائل دخولهم شتى انحاء العالم وسيرهم نحو السيطرة الشاملة .

---

(١) ج . كولين .

الفصل الثاني

الثورة الملاحية

المهندسون

تحددت المبادىء الكبرى للسفن الشراعية منذ اعمال « دانيال برنولي » في السنة ١٧٣٨ ، وأعمال أولر في السنة ١٧٤٩ . استمرت اكاديميات العلوم والبحرية ، طيلة القرن ، في تقديم المعطيات العلمية لتصاميم بنـــاء السفن الحربية . كما أن بعض السفانين المهرة ، الضليعين في العلوم الرياضية والآلية والطبيعية ، برعوا في تطبيقها . « انتهت منذئذ المرحلة الاختبارية ، مرحلة « أرباب الفأس » كما عرفوا في عهد لويس الرابع عشر ، الذين طبقوا أساليب شخصية وقوالب موروثة ابناً عن أب وأباً عن جـــد . وحل المهندس محل المتهن ... فبين مـا انتجه القرن السابق وما انتجه عهد لويس الخامس عشر تقوم كل المسافة التي تفصل بين عمل عامل بسيط ، مهما بلغ من مهارته ، وبين النتيجة المحققة بتعاون الرياضيين والعلماء المهندسين المتخصصين » . وقد تكلل هذا الواقع بالتكريس الرسمي . ففي فرنسا اطلق قانون السنة ١٧٦٥ على السفانين اسم « مهندسي البحرية » . وقد تلقوا علومهم في معهد بنـــاء السفن في باريس ، سلف المعهد الحـــالي للهندسة البحرية . وشجع الحركة العلمية الفارس « دي بوردا » ، مفتش بناء السفن الحربية منذ السنة ١٧٨١ ، ومستحدث الاساليب الجديدة .

السفن

ازدادت سرعة السفن وقدرتها على المناورة . حافظت السفن على طول ٤٠ متراً السفن التجارية الكبرى ، حتى ٦٠ متراً لأكبر السفن الحربيـــة ، وعلى عرض يوازي ثلث الطول أو ربعه . انثنت جوانب السفينة الحربية نحو الداخل ، بين مجموعة المدافع السفلى والشّرعة العليا . اما الاتساع في القسم الأدنى فقد زاد من استقرارها . اكتسبت مزيداً من الدقة . وزالت تدريجياً الزخارف والنقوش . ارتفع المقدم بينما انخفض الكوثل : استعيض عن الطبقة التي كانت تبنى فوق شرعة المؤخر ، بطبقة صغرى بنيت فوق مؤخر هذه الشرعة ، ثم الغيت هذه الطبقة الصغرى في عهد لويس السادس عشر . وهكذا خفت مقاومـــة الهواء . وكانت هياكل السفن مزودة تحت خط العوم بمسامير وصل فطحاء ثقيـــلة لا تلبث الاشنة والاصداف ان تضيف اليها ثقلاً فوق ثقل . فاستعاض الانكليزي عن المسامير بوريقات نحاسية حقيقة اخف وزناً تسهل الانسياب . واحتذى الفرنسيون مثال سفينة انكليزية استولوا عليها .

وفي السنة ١٧٧٨ كانت البارجة « ايفيجني » اولى السفن الفرنسية المبطنة بالنحاس . ولكن البطانة كانت مرتفعة الكلفة ويجب تبديلها مرة بعد مرة .

قويت أجهزة السفينة ، وثبتت الصواري والدواقل وزيدت مساحة الاشرعة . غدت الاشرعة اكثر عدداً وبات ممكناً مراعاة النسبة الصائبة بين مساحتها وقوة الريح . وأتاحت شبكة من الحبال مناورات سهلة ودقيقة . دارت السفن على ذاتها وسارت كيفما طاب لقباطنتها بكل امان . وتمكنت من بلوغ أقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة .

« لقد اصبح شكل هذه السفن عصرياً ، وهي من هذا القبيل اكثر شبهاً بالسفن الشراعية خلال القرن التاسع عشر منها بالسفن الشراعية في عهد لويس الرابع عشر » .

مسألة تحديد موضع السفينة

استطاع الملاحون التوجه شيئاً فشيئاً الى المكان المقصود بمزيد من الامان . احدثت الحكومات مستودعات خرائط ورسوم وصحف وبيانات في موضوع الملاحة في فرنسا (١٧٢٠) وفي انكلترا وهولندا (١٧٤٠) . حسّن مقياس سرعة السفن بأن اضيف اليه ثقل يجنبه جزئياً تأثير التيارات البحرية . وأتاحت بعض الاجهزة الانعكاسية ، كالثماني ، المؤلف من ثمن محيط الدائرة ، اي من ٤٥ درجة ، والذي أحكمه الانكليزي « هادلي » منذ السنة ١٧٣١ ، ثم السداسي ، المؤلف من سدس محيط الدائرة ، اي من ٦٠ درجة ، حوالي السنة ١٧٥٠ ، تتبع كافة حركات البحر ، وتقدير ارتفاع الشمس ظهراً بفارق دقيقة او دقيقتين من القوس تقريباً ، وحساب خط العرض حساباً أكثر تدقيقاً . ولكن ملاحين كثيرين استمروا في استخدام القوس الفولاذي الذي بلغت فوارق دلائله ثلاثين دقيقة من القوس تقريباً .

كانت اهم مسألة تمكنوا من حلها مسألة خطوط الطول . كان باستطاعة الملاحين تحديدها بمراقبة آن حدوث ظاهرة فلكية وحساب آن مراقبتها في مكان معروف . وكان باستطاعتهم الاستناد الى كسوف الشمس وخسوف القمر النادرين ؛ وفحص اقمار المشتري ، على الرغم من صعوبته ؛ ومسافة النجوم الى القمر التي تتطلب معرفتها حسابات كثيرة . الا ان كل ذلك لم يكن عملياً ، وقد فاق في الوقت نفسه معارف معظم القباطنة . فكان أسهل السبل ، والحالة هذه ، الاستناد الى فارق الزمان : اي تحديد الوقت المنصرم منذ مغادرة السفينة لمكان معين حتى مرور الشمس في أعلى نقطة فوق مكان وجود السفينة ظهراً . من السهل اذ ذاك معرفة خط الطول لان كل أربع دقائق زمنية تقابلها درجة قوسية .

ولكن الصعوبة نجمت عن ان الساعات لا تحافظ على ساعة نقطة الانطلاق . فهي كانت تتعطل اثناء سير السفينة بسبب الانتقال من خط عرض الى خط عرض آخر وبسبب حركات البحر . وهكذا فان الملاحين الذين نادراً ما أتوا أخطاء كبرى في تحديد خطوط العرض ، قد ارتكبوا أخطاء جسيمة في تحديد خطوط الطول . ففي السنة ١٧٥٠ عينت الخرائط الانكليزية

والهولندية مكان الشاطىء الشرقي لـ « الارض الجديدة » على مسافة ٩ درجات من مكانه الحقيقي . وفي السنة ١٧٦٥ بلغت الاخطاء عدة درجات في تحديد مكان رأس الرجاء الصالح ورأس « هورن» الواقعين على طرق بحرية مسلوكة جداً . فكان هنالك ثلاثة أرخبيلات باسم « غالاباغوس » وعدة جزر باسم « القديسة هيلانة » . وكان الملاحون يتجهون نحو يابسات لا قرار لها في مكانها . فاضطروا اخيراً الى بلوغ خط عرض المكان المقصود والسير شرقاً أو غرباً الى ان تتراءى لهم اليابسة . ولكن ما أكثر الأخطاء والطوارىء ! ففي السنة ١٧٤١ ضل القبطان الانكليزي « انسون » خط الطول المقصود وتاه طيلة شهر في المحيط الهادي الجنوبي اثناء بحثه عن جزيرة « جوان – فرناندز » : فتوفي ٨٠ شخصاً من الملاحين بداء الحفر. وفي السنة ١٧٦٣ ، توجهت السفينة الفرنسية « له ظوريو » الى رأس الرجاء الصالح ، فاعتقد القبطان في طريقه انه بلغ نقطة تقع شرقي جزر الرأس الأخضر بينا هو كان غربي هذه الجزر وسار باتجاه الغرب حتى بلغ البرازيل . وفي السنة ١٧٧٥ ، اتجهت السفينة الانكليزية نحو جبل طارق : دل حساب تحديد مكان السفينة انها على مسافة أربعين ميلاً غربي رأس «فيليستير » الاسباني ، عندما جنحت الى شاطىء رملي امام جزيرة « ريه » .

الريح

سفينة في اقرب نقطة ممكنة من الريح الماكسة

سبق البرلمان الانكليزي ، في السنة ١٧١٤ ، ان خصص ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لمن يحدّد طريقة لاكتشاف خط الطول في البحر بفارق نصف درجة قوسية تقريباً . بعد عمل استغرق اربعين سنة ، صنع النجار الانكليزي « هارسون » مقياساً للزمان . في السنة ١٧٦١، شحن هذا المقياس في سفينة متجهة نحو جزيرة جامايكا ، واعيد الى انكلترا بعد مرور ١١٧ يوماً ، فوُجد بعد الفحص ان الفارق الزمني فيه لم يبلغ سوى دقيقة واربع وخمسين ثانية . كانت المسألة محلولة ما دام نصف الدرجة القوسية يقابله دقيقتان في الزمان . ولكن تركيب جهاز هارسون كان على كثير من التعقيد . امر البرلمان باعطائه ١٠٠٠٠ جنيه استرليني وارجأ المبلغ المتبقي الى اليوم الذي يتوفق فيه هارسون الى جعل تطبيق جهازه من البساطة بحيث يمكن النسج على منواله بسهولة . تكامل هذا المقياس بفضل الفرنسيين ، « لهروا » ، الذي ابتكر ، في السنة ١٧٦٦ ، الزنبرك اللولبي المتساوي الدوام ، والمنفذ ، والرقاص المعدّل ، و « برتو » الذي صنع ، بين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧١ ، مقاييس زمان كثيرة . وبين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧٢ ، زودت عدة سفن فرنسية بمقاييس اعطت نتائج مرضية . وهو مقياس هارسون ما اتاح لـ « كوك» القيام برحلته الثانية . ولكن الاختراع الجديد لم يعم استعماله الا رويداً رويداً . فخلال الحرب الاميركية نفسها، ارتكب قادة الأساطيل اخطاء جسيمة في تحديد خط الطول .

السفن الحربية

زادت الاساطيل الحربية شيئاً فشيئاً من قوتها وخفضت في الوقت نفسه عدد نماذج السفن بالغاء النماذج الضعيفة . فلن تتجاوز السفن الشراعية بعد اليوم القياسات التي بلغتها السفن الحربية الكبرى .

كانت هنالك البوارج ، المعدة للقتال ؛ والمراكب الحربية المعـدة للاستكشاف وحـرب المطاردة ؛ والحراقات المعدة لنقل الأوامر . كانت البوارج ذات شرعة واحدة او شرعتين او ثلاث . وزودت البارجة ذات الشرعة الواحدة بـ ٥٠ مدفعاً من عيـار ١٢ و ٨ ، وبـ ٣٠٠ بحار. والسفينة ذات الشرعتين بـ ٦٤ مدفعاً من عيار ٢٤ و ١٢ ،و٨٠ مدفعاًمن عيار ٣٦ر١٨ ، تؤلف كلها بجموعتين ، سفلى وعليا ، وبعدد من البحارة يتراوح بين ٥٠٠ ر ٨٠٠ . والسفينة ذات الشرعات الثلاث بـ ٩٠الى١٢٠ مدفعاًوبـ٩٠٠الى١٢٠٠ بحار؛ضمت المجموعةالسفلىمدافع من عيار ٦ ؛ والمجموعة الثانية مدافع من عيار ١٨ ؛ والمجموعة الثالثة مدافع من عيار ١٢ ؛ وثبتت في مقدمة ومؤخرة الشرعة العليا مدافع من عيار ٦ ؛ وفي الطبقة الصغرى مدافع من عيار ٤ . وزودت مراكب الاستكشاف والمطاردة بـ ٢٠ مدفعاً من عيار ٦ او ٣٠ مدفعاً من عيار ٨ او ٤٠ مدفعاً من عيار ١٢ . وكانت هذه المراكب الأخيرة توازي سفن الدرجة الرابعة في عهـد لويس الرابع عشر التي زالت من الوجود . اما الحراقات فقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ بحاراً وسلحت للمرة الاولى بـ ١٢ مدفعاً من عيار ٤ ، فاستطاعت منذئذ الاشتراك في القتال .

في الثلث الأخير من القرن ، الغيت السفينة ذات الشرعة الواحدة بسبب عدم قدرتها ،منذ ذاك التاريخ ، على الاشتراك في القتال . ولم تعتبر السفينة ذات الشرعتين ، المسلحة بـ ٦٤ مدفعاً، كبارجة بعد ذاك التاريخ ، وهي لن تلبث ان تزول . اما السفن المقاتـلة الحقيقية فكانت السفن ذات الشرعتين المسلحة بـ ٧٤ و٨٠ مدفعاً ، والسفن ذات الشرعات الثلاث المسلحة بـ ١١٠ مدافع و١٢٠ مدفعاً. زودت كلها بمدافع من عيار ٣٦ في المجموعة السفلى ؛ وزودت السفينة ذات الشرعات الثلاث بمدافع من عيار ٢٤ في المجموعة الثانية ؛ والسفينة ذات الشرعـات الثلاث ، المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً ، بمدافع من عيار ١٨ .

كانت السفينة « دول بورغونيا » ، التي شرع في بنائهافيالسنة ١٧٨٥ ، مزودة بـ ١١٨ مدفعاً وضمت ١٠٩٢ بحاراً ، وكان طولها ٦٣ متراً عند خط العوم ، وعرضها ١٦،٩٦ متراً ، وعمقها ٨،٠٨ امتار من الحيزوم حتى الشرعة العليا، وبلغت اشرعتها ٣١٦٢ متراً مربعاً. وكانت قادرة على التموين باغذية تكفي لـ ١٨٠ يوماً وماء يكفي لـ ١٢٠ يوماً .

كان بالأمكان اطلاق نيران المدافع مرة كل خمس دقائق اذا كان البحارة متمرنين تمرينـاً جيداً . كما كان بالامكان ، اذا احني المدفع احناء معيناً ، ان يبلغ مرمى القذيفة ٤٠٠٠ متر ، ولكن المرمى الفعال تراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ متر . في السنة ١٧٢٤ ، صبت مصانع « كارون» في سكوتلندا مدفعاً جديداً ، هو المدفع الكاروني ، القصير ، المركب على سند ثابت ،الذي لم يتجاوز ثلث وزن مدفع من العيار نفسه ولم يستلزم العدد عينه من المدفعيين . كانت نيرانه اقل تسديداً ومرماه اقرب مسافة ، ولكنه اتاح تسليح السفن الصغرى ومقدمات الشرعات ومؤخراتها بمدافع يفوق عيارها ما سمحت به المدافع الاخرى . استخدمه الانكليز بسرعة على

نطاق واسع . ولكن استعماله لم يعم في الاسطول الفرنسي الا في عهد الثورة .

الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية

كان المدفعيون يستفيدون من تحرك السفينة بفعل حركة الماء لاطلاق نيرانهم . فقضت الطريقة الفرنسية بالاطلاق حين ترتفع فوهة المدفع بغية اسقاط الصواري . اما الطريقة الانكليزية فقضت بالاطلاق حين تنخفض الفوهة لاصابة السفن العدوة في جسمها . لم يكن القصد اغراق سفن الأعداء اذ ان الخشب كان بالغ السماكة فوق خط العوم وكثرة الألياف كفيلة بسد الثقب الذي ما كان ليتجاوز ١٧ سنتيمتراً قطرا اذا ما احدثته قذيفة من عيار ٣٦ لبرة . ولكن القذائف كانت تطير شظايا خشبية شديدة الخطر على البحارة الأعداء الذين حاولوا اتقاءها بشباك مشدودة بين كوة مدفع واخرى وبلف اقمشة كثيرة حول الرأس . وجلي ان الطريقة الانكليزية كانت خيرا من الطريقة الفرنسية ؛ فالبحارة الانكليز كانوا يصلحون بسرعة الاضرار التي تلحقها بصواري سفنهم القذائف الفرنسية التي كثيراً ما لا تصيب الهدف على كل حال ؛ اما القذائف الانكليزية فقلما تذهب سدى ، اذ ان الهدف اوسع مساحة ورثية القذيفة على وجه الماء امـراً ممكناً ؛ لذلك كانت الخسائر الفادحة في الأرواح ، التي يمنى بها العدو ، ترغمه على التوقف عن القتال . وكان تفوق الانكليز هذا السبب الأكبر لانتصاراتهم .

طرأ على الفن الحربي بعض الانحطاط منذ اواسط القرن السابع عشر . لفتت قوة المدفعية الانتباه الى استخدام المدافع خير استخدام . فقدرة السفن على المناورة أتاحت الحركات العلمية المنظمة . وربما انتقلت الى الاساطيل عدوى الآراء السائدة في الجيوش البرية ايضـاً . فان الانكليز ، وسواهم من بعدهم ، قد نظموا سفنهم صفاً مستقيماً تفصل فيه بين مقدم سفينة ومؤخر سابقتها مسافة قصيرة جداً ، « الصاري الامـامي المائل على الكوثل » . وكان الصف شيئاً مقدساً . فكان الاحرى بكل سفينة ، اذا اقتضى الامر ، ان تترك العدو يقترب منها ويهاجمها من ان تتركه يخترق الصف . ولم يجز لاية سفينة ان تغادر مركزها في الصف حتى ولو اعطبت او حطمت صواريها . كما لم يجز لاية سفينة ان تخرج من الصف لمطاردة سفينة عدوة الا بأمر من قائد الاسطول . وكان واجب القبطان الوحيد الحرص على انتظام الصف واكتماله. فاستحالت من ثم كل مناورة. وغالباً ما اقتصرت المعركة على اطـلاق نيران المدافع دون نتيجة حاسمة. وقد قال امين سر الدولة للبحرية الفرنسية ، « موروبا » ما يلي : « هل تعلمون مـا هي المعركة البحرية ؟ مناورة ، وتبادل اطلاق نيران المدافع ، ثم انسحاب كل من الاسطولين ... وهـذا لا يمنع البحر من ان يبقى مالحاً» .

كان من ثم القضاء على الاساطيل العدوة امراً مستحيلاً . يضاف الى ذلك من جهـة ثانية ان السفن كانت باهظة الاكلاف والقباطنة يتحاشون بالتالي ان تغرق او تصـاب بأذى . لذلك تحايدت الاساطيل المتعادية بعضها البعض جهد المستطاع واعتمد البحارة ستراتيجية هي اشبه

« بستراتيجية اللواحق » : مهاجمة تجارة العدو بسفن المطاردة ، الاستيلاء على المستعمرات ، غارات مفاجئة على شواطىء العدو لتدمير تجهيزاته فيها . وقد بلغت هذه الحرب الخاصة ذروة ضراوتها حين تحارب الفرنسيون والانكليز من اجل جزيرة « سانت – لوسي » في الانتيل « اذ رأى الناس مشهداً غريباً لاسطولين راسيين على مقربة من جزيرة بينما كانت جيوش الانزال فيها تتنازع السيطرة عليها » ، وفي السنة ١٧٨١ ، حين غادرت بحر المانش اربعة اساطيل معا ، اسطولان انكليزيان مهمتها نقل المؤن الى جبل طارق ومهاجمة مدينة «الرأس» ، وآخران فرنسيان مهمتها نقل المؤن الى الانتيل والدفاع عن مدينة « الرأس » ، دون ان يفكر احد بان المهمة قد تنفذ خير تنفيذ ، او بالاحرى قد تصبح نافلة ، بتدمير الاسطولين العدوين عند خروجها الى المحيط حيث لم يبحث كل منهما الا عن تجنب الآخر .

وكان قد سبق للكونت دي بروبل ، اخي المارشال ، في اوائل الحرب الاميركية ، ان نادى بحرب تدميرية بغية إنزال الجيوش في انكلترا نفسها والقضاء عليها مرة واحدة . ولكنه لم يلق آذاناً صاغية .

« رودني » و « سوفرين »

ان الذين قاموا بانقلاب ثوري في حقل الحرب البحرية هم الاميرال الانكليزي رودني ، بطل معركة « سانت » الظافر ، والفارس « دي سوفرين » الفرنسي . لنأخذ مثل سوفرين . كان بروفنسيا ورث تقليد قتال التصارع الذي استهوى ضباط السفن الحربية القديمة وحرّكته روح هجومية نادرة . اسند اليه في السنة ١٧٨١ امر الدفاع عن مدينة « الرأس » ، فقام بهذه المهمة قياماً اثار الاعجاب ، ثم طلب اليه تعزيز اسطول « جزيرة فرنسا » في المحيط الهندي ، فغدا قائداً لهذا الاسطول بعد وفاة اميراله ، وتولى في السنة ١٧٨٢ والسنة ١٧٨٣ قيادة حملة الهند الشهيرة التي هزم فيها الاساطيل الانكليزية خمس مرات ومهد لانتصار الجيوش البرية ، فاطلق عليه الهنود لقب « الاميرال – الشيطان » ونظر اليه العديد منهم كا الى اله . وقد طبق في هذه الحملة المبادىء التي اوحت بها اليه حياة سلفها في المعارك .

تدمير اسطول الاعداء هو تنفيذ لكافة المهات . لذلك كان سوفرين يبحث عن الاسطول العدو وينقض عليه حيثما يجده ، حتى في المرافىء الكبرى دونما اكتراث لمدافع الساحل التي لا يمكن ان تطلق نيراناً فعالة في اشتباك قد يصاب فيه الاصدقاء والاعداء على السواء . انتظام الاسطول صفاً مستقيماً ينطوي على اضرار كبيرة لانه يشل الحركة : لذلك امر سوفرين « بان تصطف السفن القتال اصطفافاً طبيعياً » ؛ انه في نطاق عمله « لفيلسوف » حقاً . وحتى يكون الهجوم مجدياً ، يجب الا يقتصر على اطلاق نيران المدافع من مسافة بعيدة ؛ يجب الاقتراب الى مسافة لا تتجاوز مرمى المسدس (٣٠ خطوة تقريباً) ، وقد اعطى سوفرين المثل بنفسه على الرغم من القذائف التي طيرت من حوله شظايا خشب طبقته العليا ، والتي نجا منها

كما بمعجزة . ويجب بصورة خاصة الاحاطة بأكبر عدد ممكن من السفن العدوة وتدميرها تدميراً كلياً . نقطة الضعف في الاسطول المصطف للمعركة هي المؤخرة او الذنب. لذلك هاجم سوفرين المؤخرة مجدداً في الوقت نفسه مقدمة الاسطول العدو بخطر الالتفاف . وهـكذا استطاع ، بسفن اقل عدداً من سفن العدو ، إثبات تفوقه في النقطة الهامة واحراز نصر حاسم .

ان هذه المبادىء ، التي تبدو وكأنها في منتهى البساطة ، كانت بمثابة انقلاب في آراء اهل زمانه جعل من المتعذر على مرؤوسيه ان يفهموه جيداً ، فكانت النتيجة ان اوامـره لم تنفذ بحذافيرها في يوم من الايام . ان سوفرين « قد جـدد الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية وقام في البحر بثورة شبيهة بتلك التي سيقوم بها نابوليون ، بعد سنوات معدودات ، في قيادة الجيوش. وبعمله هذا يحتل سوفرين مركزه بين كبار عباقرة الحرب » .

رسم ايجازي لمناورة « سوفرن »

بعد تحقيق كل هذه التقنيات ، كانت اساطيـل اوروبا الاساطيل الوحيدة التي مخرت كل البحار ، وكان الاوروبيون البشر الوحيدين الذين قصدوا كل انحاء العالم .

السفينة التجارية

وظهرت السفينة التجارية اخيراً . في السنة ١٧٥٣ ، خصصت اكاديمية العلوم في باريس جائزة لمن يتوفق الى توفير وسائل تسد مسد فعل الريح . بحث المركيز الفرنسي « دي جوفروا – دابان » عن الحل . فخطر له في السنة ١٧٧٥ ، بعد ان شاهـد « مطفأة » « شايو » في باريس ، ان يطبق على السفن الآلة ذات المفعول البسيط التي ابتكرها « جايمس وات » . وتوفق الى حساب المقاومة الواجب التغلب عليها والى ايجاد طريقة نقل الحركة. فألف جمعية صغرى مع بعض الاشراف وانزل الى نهر « دو » زورقاً بخارياً مزوداً بمجاذيف ذات مفاصل سافر بواسطته في النهر خلال شهري حزيران وتموز من السنة ١٧٧٦ . الا ان المجاذيف لم تعمل عملها كما ينبغي . فابتكر العجلة ذات اللوحات ، التي اعتمدت من بعده. وفي ١٥ تموز من السنة ١٧٨٣ صعد نهر السون الى ليون امام ١٠٠٠٠ مشاهـد . حينذاك اراد جوفروا – دابان استثمار اختراعه ، ولكن المتمولين طالبوا ، كضمان لاموالهم ، امتيازاً لمدة ثلاثين سنة . وقبل الموافقة على هذا الامتياز ، اوعز الوزير كالون الى اكاديمية العلوم بتأليف لجنة لم تسلم بالامر بسبب عدم قناعتها : ان الآلة ذات المفعول البسيط لا تفي بالحاجة لتأمين حركة الدوران المتواصل المطلوب . وفرضت اللجنة على جوفروا اعادة اختباراته على نهر السين في باريس . ولكن جوفروا كان قد انفق كل ثروته ، فاحتقره الاشراف واستهزأت به

الجماهير ، فاقلع عن كل شيء ، مـــع ان الآلة ذات المفعول المزدوج لن تلبث ان تتغلب على كافة الصعوبات .

ان الآلة ذات المفعول المزدوج التي ابتكرها « وات » والتي نقلت حركـة دوران منتظمة جداً قد ادخلت اميركا منذ السنة ١٧٨١ . ان ضفاف الانهر المستنقعة او الكثيرة الاشجار جعلت عملية جر الزوارق امراً مستحيلاً ؛ كما ان المراكب التي تنزل مجاري هذه الانهـر كانت اعجز من ان تصعدها مرة ثانية ، فتتلف او تفكك . لذلك مست الحاجة الى المركب البخاري فعرض الاميركي « فيتش » ، منذ السنة ١٧٨٤ ، مركبا بخاريا اختبره في الســـنة ١٧٨٧ على نهر « ديلاوار » بحضور « واشنطن » وفرانكلن فيه . فثار الحماس ، وتأسـست في فيلادلفيـــا شركة برئاسة فرانكلن ، وتدفقت الاكتتابات ، ومنحت الحكومة امتيازاً . واصـل فيتش تجاربه . ولكن جهاز الدفع الذي ابتكره ، وهو في جوهره عوارض خشبية افقيـة يحركها البخار اثبتت فيها مجاذيف عادية ، كان مضيعة لكثير من القوة وعرضة التعطل . والسبب في ذلك انه استعمـان في صنع آلته بحدادين عـاديين : فتميزت بالكثير من العيوب والنواقص . فاعتقدت الجماهير بانها ستتطلب صيانة دائمة واصلاحات كثيرة وانها ستكون باهظة الكلفة . فحدث تحول في الرأي . اما فيتش الذي تخلى عنه الجميع ونعت بالجنون ، فقد انتحر في السنة ١٧٩٣ . الا ان الحل سيهتدي اليه في اوائل القرن التاسع عشـر مواطنـه « فولتون » الذي سيقلب ظروف الملاحة والنقل وكل الاقتصاد رأساً على عقب .

الفصل الثالث

الثورة المالية والصناعية

الروح التقنية

في اوروبا القرن الثامن عشر اتسعت الثورة المالية التي بدأت في القرنين السابقين ، وحدثت ، لا سيا بعد السنة ١٧٦٠ ،ثورة صناعية حقيقية استهلت عهد فن اختراع الآلات واستعمالها . اتجه الاهتمام شطر الفنون الميكانيكية . فان اعظم قاموس حققه القرن هو « دائرة المعارف ، القاموس المعلل للعلوم والفنون والحرف » الذي اعطت مجلدات نصه السبعة عشر ومجلدات لوحاته الاحد عشر معلومات جزيلة الفائدة حول اجهزة ميكانيكية كثيرة وطرائق صناعية لا حصر لها. مجد المؤلفون التقنية. ودهش دالمبير في« الخطبة التمهيدية لدائرة المعارف » من « الاحتقار الذي ينظر به الى الفنون الميكانيكية » « ومخترعيها انفسهم » ، ومن أن « اسماء هؤلاء المفضلين على الجنس البشري مجهولة كلها تقريباً ، في حال أن تاريخ مخربيه ، واعني بهم الفاتحين، لا يجهله احد . ومع ذلك، ربما توجب البحث لدى الصناعيين البدويين عن اشد البراهين إثارة للعجب على بصيرة العقل وطول اناته وامكاناته ...» وطرح على نفسه هذا السؤال:«... وكي لا نخرج من نطاق صناعة الساعات ، لماذا لا يحظى اولئك الذين ندين لهم بزنبرك الساعة والمنظمة والدقاق بالاعتبار نفسه الذي حظي به اولئك الذين عملوا على التوالي على تكميل الجبر ؟ » . وذهب فولتير في استغرابه الى أبعد من ذلك :

« من يستطيع تصديق ذلك يا ترى ؟ الجنون الذي يكرر سفاسف الفلسفة المدرسية طوال سنتين يتلقى جلاجله وصولجانه في احتفال رسمي ، فيتبختر ويفرر ؛ وهي مدرسة «بدلام»هذه التي تمهد الطريق لبلوغ المراتب السنية والثروات. توما وبونافنتورا يتألقان فوق المذابح،واولئك الذين اخترعوا المحراث والمكوك والمنجرة والمنشار لا يعرفهم احد » .

توافر رؤوس الاموال

ما كانت تقدمات الصناعات لتصبح ممكنة بدون رؤوس اموال وبدون وسائل دفع خاصة . والحال ما انفكت رؤوس الاموال خلال القرن تتجمع وتتكدس ، ووسائل الدفع تتكاثر ، والاسعار والارباح والأجور الاسمية ترتفع . ازداد حجم المعادن الثمينة من جهة وتكاملت وانتشرت التقنيات المالية من جهة اخرى .

تدفق المادن الثمينة

ان التجارة ، ولا سيا التجارة البحرية والاستعمارية الكبرى قد جمعت رؤوس الاموال في اوروبا الغربية حيث تكدس ، طوال القرن ، معظم انتاج الذهب والفضة في العالم ، تكدساً مستمراً متزايداً . وكان المنتج الأكبر مستعمرة المكسيك الاسبانية حيث استثمرت مناجم جديدة ؛ ولكن هنالك مستعمرات اخرى كثيرة انتجتها ايضاً[1] . افاد تدفق المعادن الثمينة دول اوروبا الغربية في الدرجة الاولى . فقد دخل على انكلترا ذهب وفير من البرازيل بعد معاهدة « ميتوين » (١٧٠٣) بينها وبين البرتغال ؛ ومنذ معاهدة باريس (١٧٦٣) وضعت يدها على تجارة هندوستان ، باب الشرق الأقصى ، واستأثرت بمادنها الثمينة . وتلقت فرنسا معدناً ثميناً وافراً من الامبراطورية الاسبانية بفضل التجارة الكبرى التي نشطت بينها وبين اسبانيا وحتى بينها وبين الامبراطورية مباشرة بالاتفاق مع بعض تجار قادش الاسبانيين . واستفادت هولندا من هذا التيار ، ولكن بنسبة دنيا ، لأن صناعتها تأخرت وانخفض حجم صادراتها تدريجياً . أما دول اوروبا الاخرى فلم تستفد منه الا استفادة محدودة ، لأن بعضها ، كاسبانيا والبرتغال ، كان شبه خال من المعادن الثمينة بفعل اضطراره الى استيراد الكثير من البضائع ، والبعض الآخر ، كالنمسا وبروسيا وروسيا ، كان بعيداً عن البحار دون مستعمرات ودون تجارة كبرى على بعض الأهمية .

ولكن المعادن ما كانت لتكفي للمدفوعات . فان سرعة تداولها المحدودة قد جعلت الناس يشعرون شعوراً اعظم بنقص حجمها . يضاف الى ذلك ان نقلها كان باهظ الاكلاف ومحفوفاً بأخطار السرقة . فكان باستطاعة الفرنسيين ، حتى في السنة ١٧٨٢ ، أن يروا ، في المدن التجارية الكبرى ، في العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، بين الساعة العاشرة والساعة الثانية عشرة ، حمالين يسيرون بسرعة في كل الاتجاهات ناقلين اكياساً ملأى بالفضة تنوء عليهم بثقلها . وكانت وكالات الشحن تنقل بين مدينة وأخرى اكياساً تتسع لـ ٢٠٠ دينار يساوي الواحد منها ٦ ليرات ، وتصر في صناديق مسطحة مغطاة بالتبن ومشدودة بالحبال، لقاء ليرتين لكل الف ليرة حتى مسافة ٢٠ فرسخاً ، وليرة لكل ١٠٠٠ ليرة عن كل ١٠ فراسخ فوق الـ ٢٠ فرسخاً . فكان هنالك ، كما هو جلي ، ما يحمل المشتري على التردد والتراجع .

---

(١) قدر سوتبر الانتاج العالمي ، بالكيلوغرامات ، كما يلي :

	فضة	ذهب	نسبة الزيادة
١٧٠١ - ١٧٢٠	٣٣٥ ٠٠٠	١٢٨٢٠	١٠٠٨ ٪
١٧٢١ - ١٧٤٠	٤٣١ ٢٠٠	١٠٠٨٠	٢١،٢٦ ٪
١٧٤١ - ١٧٦٠	٥٣٣ ١٤٥		٢٣،٦٤ ٪
١٧٦١ - ١٧٨٠	٦٥٢ ٧٤٠		٢٢،٣٤ ٪
١٧٨١ - ١٨٠٠	٨٧٩ ٠٦٠		٣٤،٦٧ ٪

ولا عجب والحالة هذه ، اذا ما اتقن القرن الثامن عشر كل التقنية المصرفية .

النقد الورقي

احدثت هذه الاخيرة شيئاً فشيئاً منـــذ القرون الوسطى في كبريات مدن التجارة الدولية ، البندقية ،جنوى، جنيف ، انفرس ، اوغسبورغ ، وحسنت تحسيناً عظيماً في القرن السابع عشر على يد الهولنديين الذين صدروها الى انكلترا ، وتقدمت تقدماً كبيرا بفعل معاملات البيع والشراء بالدين التي فرضتها حرب وراثة عرش اسبانيا ، فتكـاملت في القرن الثامن عشر وانتشرت في دول البر الاوروبي الكبرى عن طريق فرنسا وبلغت شرقي اوروبا .

الاوراق النقدية

تعاطى العمليات المصرفية على أنواعها مصارف دولة (لندن ، امستردام) ومصارف خاصة ، وكتاب عدل ، وسماسرة تجارة . فكان هناك الإيداع ، والتحويل ، والورق النقدي ، والسفتجة ، والحسم ، وشركة التوصية ، والقروض لقاء رهونات عقارية أو اوراق مالية أو قروض لآجـال قصيرة ، والدخول الدائمة ومدى الحياة ، والاسهم ، والسندات . ومورست في المصافق ، بواسطة الدلالين، تجارة الاوراق المالية ، والصفقة المؤجلة، والتسليف على الاوراق المالية ، والبيع لآجال قصيرة .

وارتبطت التأمينات على الحياة بهذه المضاربات . وقامت منذ ذاك الحين منازعات ضارية بين المساومين على الارتفـاع والمساومـين على التدني ، فحـاول هـؤلاء بحجم المبيعات، واولئك بحـجم المشتريات، لآجـال قصيرة ، تحويـل الاسعار لمصلحتهم . واستغلت الاخبار السياسية : الانتصار ، الهزيمة ، المعاهدة ، المفاوضة ، ارتقاب تغيير وزير أو عشيقة ، واتجاه سياسي جديد ، التي كانت تنبيء بأن سوقا استعمارية أو صفقة كبرى ستنتقل من يـد الى يد اخرى فتؤثر تأثيراً عظيماً جداً في اسعار اسهم الشركات التجارية . ومنذ ذاك الحين لم تكن الاشاعة الكاذبة والدسيسة السياسية امراً مجهولا. جرى النقد مجرى السياسة وغالباً ما أثر فيها. استخدمت من ثم كافة الاساليب الهامة ولكنها لم تستخدم استخداماً سوياً في كل مكان .

النقد الورقي في هولندا

دانت هولندا منـذ زمن بعيد لتجارتها العالمية بالعمولة ولدورها كـ « جوالة البحار » بكونهـا الدولة الاوروبية التي استخدمت فيها كل هذه الاساليب استخداماً ماهراً جـداً في مصرف امستردام ومصفقها . في امستردام الجر بسفتجات اوروبا جمعاء ، وفي مصفقها حدّدت اسعار كافة الاوراق المالية . وابتكر الهولنديون في القرن الثامن عشر القرض لقاء رهونات لفلاحي « سورينان » : فكان دين المدنيين مؤمناً عليه بالمغارس . ولم تتح قروض هولندا استثمار ممتلكاتها زراعياً فحسب ، بل استثمار الهند الغربيـة (انتيـل) الفرنسـية والانكليزية والمستعمرات الدانمركية ايضا . وقد قدمت هولندا اكثر من ثلث رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع الصناعيـة المؤسـة في مختلف الدول الالمانية . ففي السنة ١٧٨٧ بلغت دخول هولنـدا في الخارج ١٢٣ مليوناً ، أي ما يعادل ٦٢ فلورين لكل هولندي ، وهو مبلغ ضخم لعمري . إلا ان اهمية الهولنديين النسبيـة قـد اخذت في التدني منذ

السنة ١٧٥٠ بتوسع مستعمرات البلدان الاخرى وتجارتها وصناعتها. وبصورة خاصة تأخرت الصناعة الهولندية لأن الدول التجارية قد حدّت من تصدير الخامات التي يفتقر إليها الهولنديون. فأرغم الهولنديون من ثم على شراء قسم كبير من المصنوعات التي سيقايضونها، فباعوها بأسعار تفوق اسعار منتجيها. وتقهقرت بالتالي تجارتهم وتأخر تدفق رؤوس الاموال على امستردام.

في انكلترا

تفوقت انكلترا تفوقاً متزايد الاهمية بفضل ازدهار تجارتها البحرية الكبرى وصناعتها. بعد معاهدة اوترخت (١٧١٣) التي حدت من المزاحمة الفرنسية، ولا سيا بعد معاهدة باريس (١٧٦٣) التي فتحت ابواب الهند للانكليز، تدفقت رؤوس الاموال. ووزع مصرف سكتلندا ارباحاً تعادل ٢٠٪. وبفضل مصرف انكلترا ومصفقها، سارت لندن قدما في طريق التفوق على امستردام. لجأت الدولة الانكليزية، التي ثقلت عليها الديون بسبب حرب وراثة عرش اسبانيا، الى قروض كثيرة، ولكنها اعتمدت في عقدها اساليب حكيمة. فلم تقترض إلا في حالات استثنائية، لا لتغطية العجز ولا لتأمين الانفاق العادي. سددت المتأخرات تسديداً شديد الدقة باحداث ضرائب مقابلة. ووفرت كافة التسهيلات للافراد لبيع الدخول: الملاك يقصد سمساراً يتصل بالشاري؛ الملاك يوقع تخلية مؤلفة من سطرين على قصاصة ورق؛ يذهب والشاري الى المكتب حيث توجد سجلات الاملاك العامة؛ فيتم الانتقال دون نفقة من حساب البائع الى حساب الشاري؛ ولا تستلزم هذه العملية كلها سوى ١/٨٪ بشكل عمولة السمسار. اما في هولندا وفرنسا فكان متوجبا على الملاك الاخير ان يحتفظ بوثائق تسلسل انتقال الملك إليه. وكانت هنالك في فرنسا صعوبات اخرى كثيرة ايضاً.

ارتفع عدد الشركات المساهمة ارتفاعا كبيراً: شركات التأمين ضد الحريق، على الحياة، على الزواج، الخ. فقد بلغ هذا العدد في انكلترا، منذ اوائل القرن، ١٤٠ شركة مساهمة. في ٢٦ آذار ١٧١٤ اصدر «جون فريك» في لندن اول بيان اسبوعي بالاسعار. وفي حمى المضاربة، التي حدثت في السنة ١٧٢٠، بتأثير مثل «لو» في فرنسا، تأسست شركات غريبة جداً: شركة رأسمالها مليون جنيه استرليني من اجل عجلة دائمة الدوران، وأخرى لأجل تكرير مياه البحر. وعلى غرار «لو» في فرنسا تقدم مصرف انكلترا وشركة البحر الجنوبي باقتراح الحلول محل الدولة تجاه دائنيها مقابل فائدة تناقصية يستوفيانها من الدولة. وأدت المضاربة الجامحة في السنة ١٧٢٠، كما حدث في فرنسا، الى تضخم مفرط في الاسهم، ثم الى اختلال وانهيار، ولكن فقدان الثقة في الشركات المساهمة لم يدم طويلاً، كما في فرنسا، إذ لم تمض سنوات معدودات حتى استعادت هذه الشركات ازدهارها.

وكانت جنيف مركزاً مالياً عظيم الاهمية. وقد بلغ من مهارة تجارها الماليين ان قال عنهم الدوق «دي شوازول» ما يلي: «ان اتقانهم للحساب قد بلغ مبلغاً يوجب علينا، إذا ما رأينا

جنيفياً يلقي بنفسه من نافذة الدور الثالث ، ان نحذو حذوه بكل طمأنينة ، اقتناعاً منا بأننا سنكسب ٢٠٪ بالسير على خطاه » .

في فرنسا

تأخرت فرنسا عن ركب كل هذه الدول لان التجارة فيها أقل نمواً وتقدماً ، ولأن الكاثوليكية فيها دين الدولة . الحق القانوني والحق المدني يحرمان الفائدة التي تؤمن كسباً دون مشقة ودون مسؤولية . ولا يجيزانها الا عندما يتعرض المال لخطر أكيد كما في الشركات البحرية مثلاً . في السنة ١٧٤٥ تقدم بعض صيارفة « انغوليم »، الذين عجزوا عن استرداد مالهم من مدينيهم المتمنعين ، بدعوى الى القضاء ، ولكنهم فوجئوا بالحكم عليهم لعدم صحة الدعوى : خالفوا القانون بالادانة بالفائدة ؛ فخسارتهم من ثم قصاص عادل .

الا ان الدين بالفائدة انتشر بحكم الضرورة . لا بل ان فرنسا عرفت ، قبل « لو » ،الشركات المساهمة ، والسند لأمر حامله ، والصفقة المؤجلة ، اقله بأشكالها الاولية . وخلال القرن الثامن عشر ادخل بعض السكتلنديين ، من امثال « لو » ، والسويسريين من امثال « نكر » و « بنشو » و « كلافيير »، الى فرنسا ، كل التقنيات المعروفة في البلدان الأخرى ، وقد تمت في فرنسا آنذاك اهم الاختبارات وابعدها اثراً دولياً .

ان ما جعل الناس يعملون بآراء جون لو ليس حاجات التجارة الكبرى ، على الرغم من نموها مع اسبانيا وهولندا وانكلترا وألمانيا والهند حتى السنة ١٧٦٠ ، ومع الانتيل طوال القرن كله ، بل حاجات دولة اصبحت على قاب قوسين من الافلاس في اعقاب حروب لويس الرابع عشر . النقد في نظر لو وسيلة مقايضة . فالمسأله الكبرى هي من ثم الاسراع في ترويج النقد لمضاعفة الشراء والبيع باطراد ومضاعفة الانتاج بالمقابلة . وجلي بالتالي ان«لو» من مشايعي النقد الورقي المتحمسين . افلح في اقتراحه على الحكومة الحلول محلها تجاه دائنيها ووفاء الدين تدريجياً . استحصل من الوصي على العرش ، في السنة ١٧١٦ ، على اجازة بتأسيس مصرف خاص كانت ثلاثة ارباع رأسماله ديوناً على الدولة . وفي السنة ١٧١٧ ، أسس شركة الغرب التي كان مفروضاً ان تستخدم اوراقاً نقدية يصدرها المصرف والتي قبضت ثمن أسهمها سندات ملكية . ثم اشرك في جمعية جبارة اطلق عليها اسم « النظام » ، مصرفه الذي اعطي صفة المصرف الملكي في السنة ١٧١٨ ، وشركة الغرب التي تحولت في السنة ١٧١٩ الى شركة الهند ، بغية استثمار الميسيسيبي وكندا والانتيل وغينيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى ؛ وضم اليها التزام التبغ وسك النقود وجباية الضرائب . فكان ان الآمال في ارباح طائلة ، التي قوتها دعاوة ماهرة ، رفعت سعر الأسهم من ٥٠٠ ليرة الى اكثر من ١٨٠٠٠ ليرة . الا ان ربيحة الـ ٤٠٪ التي بُشر بها في كانون الاول ١٧١٩ ما كانت لتمثل ، بالنسبة لهذا السعر ، الا ١٪ أو أكثر بقليل . اخذ المضاربون بالبيع . وانخفضت قيمة الأسهم . وتضعضعت الثقة حتى

في اوراق المصرف النقدية ؛ فتزاحمت الجماهير مطالبة بأن تدفع لها حقوقها نقوداً معدنية . ولكن ما كان اصدره لو من النقد الورقي قد فاق موجودات صناديقه من هذه النقود ، فاضطر المصرف الى اقفال ابوابه . وفي كانون الاول ١٧٢٠ انخفضت قيمة سهم الشركة الى ليرة ذهبية ، فأفلس « لو » وتوارى عن الانظار . ان لو قد خفف وطأة دين الحكومة وانهض المشاريع التجارية والصناعية وأحدث انقلاباً اجتماعياً وولد في الناس كراهية النقد الورقي والبيع والشراء بالدين . «منذ«لو» بات [النقد الورقي] موضوع اشمئزاز لا بل موضوع رعدة وفزع » . أنف الفرنسيون من المصرف وذكره . فتأخرت انطلاقة الثقة في المعاملة ، وتأخرت معها الانطلاقة الصناعية والتجارية .

في السنة ١٧٢٤ فتح مصفق باريس ابوابه . ولكن تسليم الاوراق المالية حدد بأربع وعشرين ساعة ؛ وحرّمت الصفقة المؤجلة . رقد ووفق على فتحه في السنة ١٧٨٠ . استفاد الوزير « كالون » منه لمحاولة رفع سعر أسهم شركة الهند بوسائل الاب « دسبانياك » . ولكن القضية انتهت الى غير ما يشتهيه ذووها وحلت امام القضاء في عهد الثورة .

في السنة ١٧٧٦ أسس سويسري وسكتلندي « صندوق الحسم » متجنبين بحكمة كلمة مصرف . حسم الصندوق السندات التجارية وتقبل الودائع وأصدر سندات لم تعرف قط رواجاً خارج باريس . ومنذ السنة ١٧٧٦ تأسس يانصيب فرنسا الملكي الذي اصدر في السنة ١٧٨٣ سندات تعين فائدة لحاملها وتسدّد خلال ثماني سنوات ، كانت مماثلة للسندات الطويلة الأجل على الخزانة . وفي السنة ١٧٧٧ تأسس « مصرف الحبة » لمحاربة الربى فأقرض التجار ، أم زبنه آنذاك ، أموالاً لقاء رهونات .

منذ السنة ١٧٥٠ ، ولا سيا منذ السنة ١٧٨٠ ، انتشرت الشركات المساهمة انتشاراً واسعاً: شركات معادن الفحم الحجري ، مؤسسات التعدين ، مصانع الغزل ، المصارف ، التأمينات البحرية . تولت « صحيفة باريس » وصحيفة فرنسا نشر لائحة الأسعار . وتأسست بشكل شركات مساهمة شركة « انزين » (١٧٥٧) وشركة « انيش » (١٧٧٣) لاستخراج الفحم المعدني ؛ وشركة القطن ، في « نوفيل - لارشفيك » على مقربة من ليون (١٧٨٢) ، التي وزع رأسمالها على ٢٤ سهماً قيمة كل منها ٢٥٠٠٠ ليرة ، فساعد على تزويد المصنع بأحدث الآلات ؛ ومصانع الفولاذ في امبوي (١٧٨٤) التي حدد رأسمالها بمليونين ؛ وأول شركة فرنسية للتأمين ضد الحريق اسسها السويسري كلافير (١٧٨٨) ؛ وعدد كبير آخر من الشركات ، لتبطين السفن مثلاً ، او تنقية الفحم الحجري ، او صناعة التراب العضوي القابل الاحتراق . واستخدم السند لحامله لتأسيس مصنع « له كروزو » في السنة ١٧٨٢ كي ينصهر فيه ، في السنة ١٧٨٥ ، معمل الملكة للبلور ومعمل صب المعادن الملكي في « اندريه » و « مونسليس » ، برأسمال قدره عشرة ملايين موزعة على ٤٠٠٠ سهم ، فبات الملك مساهماً .

وهذا دليل على ان الصناعة الكبرى واستخدام الآلات قد ارتكزا الى الدين .

في البلدان الاخرى

في البلدان الأخرى ، عرفت المحلات التجارية الكبرى الدين منذ زمن بعيد . فمنذ السنة ١٧٢٠ قامت في همبورغ شركات تأمين بحري . ولكن الدول الكبرى كانت جداً متأخرة . ففي الدول النمساوية ، أراد شارل السادس ، متأثراً بمثل « لو » ، تأسيس «شركة اوستند » معولاً على المؤسسات التجارية والمصارف في اوسلند وانفرس . ومنذ السنة ١٧٥٠ أصدرت النمسا نقداً ورقياً ، وحذت حذوها كل من اسوج وروسيا واسبانيا . ولم يكن هناك مصفق رسمي بل مصافق « سوداء » في برلين وفينا. وأسس فردريك الثاني مصرف بروسيا في السنة ١٧٦٣ حين عجز عن مواجهة واجباته في أعقاب حرب السنوات السبع .

الثورة الصناعية في انكلترا

اننا نشاهد في انكلترا المرحلة الاخيرة لانتقال اقتصاد مبني على الماء والخشب الى اقتصاد مبني على الفحم والحديد . في السنة ١٧١٤ ، ما زال الخشب يستخدم لكل شيء . لا شك في انه استخدم وقوداً ، ولكنه هو ما وفّر الاشنان لصناعات المنسوجات والزجاج ، والقار السفن . واستخدم كذلك في دباغة الجلود . ولكن انكلترا عانت « مجاعة » خشب عرضت كل نموها الخطر . لذلك فنحن نشاهد الانتقال من اقتصاد مبني على استثمار المحاصيل النباتية والحيوانية الى اقتصاد مبني على استثمار المصنوعات المعدنية . ففي تبييض المنسوجات مثلاً ، استخدم اللبن الحازر . ولكن الزراعة ما كانت لتوفر المنظفات الكافية لصناعة المنسوجات التي ادى ذلك الى عرقلة انطلاقتها . فبات لزاماً استخراج المنظفات من المواد المعدنية ، وهذه هي مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان التي لعبت دوراً كبيراً.

الصناعة المنزلية

في السنة ١٧١٤ ، لم تكن الصناعة ، في انكلترا كما في اي بلد آخر ، المورد الأهم ، مع انها نمت فيها اكثر من غيرها . كان اكثر اشكال الصناعة انتشاراً الصناعة المنزلية التي ازدهرت في صناعة الصوف الخامة بنوع خاص . فان عمالاً يدويين كثيرين ممن وزعوا حياتهم بين الصناعة والفلاحة قد امتلكوا ادواتهم . كانوا يشترون المادة الخام ويحولونها في منازلهم بمساعدة زوجاتهم واولادهم ، وبعض العمال احياناً . وكانوا ينقلون مصنوعاتهم على عربتهم التي يجرها حصانهم بغية بيعها في سوق البلدة . وكانوا يزرعون بضعة هكتارات من الاراضي . ويربون بعض الماشية بغية تأمين كفافهم من الموارد . فهم من كانوا ينتجون اقمشة ومكاكين شفيلد واسلحة برمنغهام وادواتها المعدنية ولعبها ، ودبابيس بريستول ، اي قسماً كبيراً مما كان يصدر الى موانىء الشرق الادنى وحتى الى اميركا .

التركيز التجاري
تقسيم العمل والانتاج بالجملة

الا ان العلائق ببلدان ما وراء البحار ، والمقايضات المتزايدة ، والطلب المتعاظم ، وحاجات الزبن الجدد او اذواقهم الخاصة ، والوقوف في وجه المزاحمين ، قد ادت الى تركز الصناعة تركزاً تجارياً. اراد بعض التجار الجوالين وبائعي الادوات المعدنية ولعب الاولاد نوعية فضلى ، وسعراً

ادنى ايضاً ، فارادوا في سبيل هذه الغاية فرض طرائقهم الصناعية على المنتجين وفرض كسب محدود . وتوصلوا الى ما ارادوا اما بتزويد فلاحي المناطق الخلوة من الصناعة بالانوال ، واما بالاستفادة من جدب الحصائد وحاجات العمال المتزلين ليستولوا على ادواتهم تسديداً لاموال يسلفونهم اياها ، واما بتوفيرهم على العامل مالك الأدوات انتقالاته للبحث عن المادة الخام وليبيع مصنوعاته . اخذوا على انفسهم ايجاد الموّانين والشارين. كان ذلك اول تقسيم للعمل جعلهم اسياد السوق ، ومن ثم اسياد المصنوعات وصناعتها . فالتاجر الذي عرف باسم الصناعي او صاحب المصنع،يقدم المواد الخام، اي الصوف والقطن والقنب والحديد ، والأدوات والنماذج. اما العامل فينفذ العمل . ثم يعود الصناعي فيطلب الأشياء المصنوعة ويبيعها . وهكذا اصبح العامل اليدوي عاملاً مأجوراً بعد ان كان صناعياً مستقلاً . هذه هي مرحلة المصنع ، التعبير الذي لا يعني مؤسسة كبرى بل مجموع المصانع الفردية التي تعمل لأجل تاجر هو متعهد رأسمالي . وضم المصنع احياناً ، بالاضافة الى ذلك ، مشغلاً كبيراً تجمع فيه المصنوعات لأعمال الصقل النهائية . ومنذ هذه المرحلة ادخلت تحسينات كبرى على تقنية الصناعة : « توزيع العمل » و « الصناعة بالجملة » ، قبل اختراع الآلات واستعمالها. بدأ توزيع العمل بصناعة الصوف حيث مهد له السبيل نوع التقنية : الغسل ، التقصير ، الطرق ، الحلاجة ، الندافة ، الغزل ، الحياكة ، الجز ، الكشط . فان المهارة التي يحققها العامل الاختصاصي في احدى العمليات زادت من انتاجه كماً ونوعاً في الوقت نفسه وخفضت سعر الكلفة لانتاج افضل . ولا عجب من ثم اذا ما تكاملت هذه المهارة على مر الايام . فافضت حيث امكن ذلك الى الصناعة بالجملة، كما في مصنع الدبابيس الصغير ، الذي وصفه «آدم سميث» في السنة ١٧٧٦ ، وحيث قام كل عامل اما بواحدة، واما باثنتين او ثلاث من العمليات الثمانية عشر التي تطلبتها صناعة الدبوس الواحد ، وتوصلوا بعمل يدهم الى انتاج ٤٨٠٠٠ دبوس يومياً .

المعامل

وكان هنالك اخيراً ، في الصناعات التي استلزمت آلات معقدة التركيب وباهظة الاكلاف ، بعض « معامل » تجمع فيها الأجهزة والعمال ، كما في صناعة الحرير مثلاً . فقد جهزت بعض الشركات المساهمة بعض مناجم النحاس ؛ كما امتلك بعض ارباب معامل الحديد من النبلاء ، مصهرا او مصهرين ، ومعمل حدادة وانتجوا خمسة وستة اطنان اسبوعياً .

الآلات
اسباب اختراعها

وتحققت تحسينات جديدة بفضل نمو التجارة . ان هذه الأخيرة خلقت الحاجة : زبن جدد في بلدان ما وراء البحار ، اذواق جديدة عند الزبن الانكليز ، منافسون جدد . استوردت ليفربول من الشرق منسوجات قطنية ادى النجاح الذي عرفته الى قيام صناعة مماثلة في منشستر ، وغدت ليفربول تستورد المادة الاولى ، القطن الخام . الا ان ذلك اوجب حينذاك مجاراة عمال آسيا القانعين بمستوى حياة

متدن ، والمتجملين بخفة يدوية لا نظير لها عند الاوروبيين . فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاختراع آلات جديدة. وقد سبق أن لفت أحد الابحاث المنفقة الانتباه والى ان تجارة الهند الشرقية ، بتوفيرها مصنوعات ادنى سعراً من مصنوعاتنا ، سترغمنا في الأرجح على اختراع طرائق وآلات تتيح لنا ان نلتج بيد عاملة قليلة وبكلفة متدنية ، ومن ثم ان نخفض سعر المصنوعات » . ان الآلات كلها ، والاختراعات كلها بصورة عامة ، ولدت من فقـــدان التوازن الاقتصادي ومن الحاجة الى تخفيض اسعار الكلفة ، ولكنها ولدت كذلك من امكان الحصول على رؤوس اموال بفائدة ضئيلة وتحقيق ارباح كبرى . وقد كثرت في البدء ، كما هو طبيعي ، في الصناعات التي لم تكن خاضعة لأنظمة التعاونيات ، كصناعة القطن مثلاً ، وهي احدث عهداً من ان يأخذها المشترع بعين الاعتبار . ففي الصناعة القطنية حدّد عرض الأثواب بعرض ذراعي العامل ، بسبب مرور المكوك . وإذا ما طلب ثوب اوسع عرضاً توجب استخدام عاملين وفاق ارتفاع سعر الكلفة ارتفاع الأرباح . وهذا ما حدا بـ «جون كاي» الى البحث عن مكوكه المتحرك ، والى ابتكاره في السنة ١٧٣٣ ، فأتاح هذا المكوك انتاج اثواب بالعرض المطلوب . ثم عم استعماله حوالى السنة ١٧٦٠ . وفي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ، حدّ نقص المحروقات من انتاج الحديد وحديد الصب ، اذ ان اشجار الغابات كانت تقطع لتوسيع المراعي . فتوجب استيراد الحديد من السويد لصناعات برمنغهام وشفيلد ، ولكنه كان باهظ الثمن ورفع سعر الكلفة رفعاً مفرطاً ، بينما تعرض ارباب المصاهر من الانكليز للافلاس . فدفع ذلك بعض آل «داربي» ، في السنة ١٧٣٥ ، الى ابتكار الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، لأن الفحم الحجري غير المقطـــر ينشر مركبات كبريتية تجعل حديد الصب قصماً . اما الآلة البخارية فقد ولدت من عجز الانهار عن تحريك عجلات الآلات ، وعن صعوبة احداث الخزانات ، الباهظة الاكلاف على كل حال. واستخدمت الآلة التي سيرها « نيوكومن » (١٧٠٥) بالبخار الجوي لرفع الماء الذي يسقط بعد ذلك على العجلات ذات الالواح ، ولتحريك المضخات بغية تفريغ ماء المناجم .

المخترعون

لم تكن كل هـذه الاكتشافات ، في البدء ، عمل العلماء ، بل عمل حارفين مهرة متمكنين من الطرائق التقنية المستعملة وواقفين بالممارسة على موضوع ابحاثهم . فان جون كاي قد كان حائكاً في البدء ثم صانع منافش للانوال. ومن بين مخترعي آلات الغزل ، كان « هارغريفز » ، الذي ابتكر في السنة ١٧٦٥ ، آلة لغزل عدة خيوط دفعة واحدة ، حائكاً ثم نجاراً ؛ وكان « توماس هايز » ، الذي ابتكر « المغزل المائي » (١٧٦٧) عاملاً نفاشاً بسيطاً ؛ وكان كرومبتون ، الذي ابتكر آلة تجمع بين الآلتين (١٧٧٩) ، غزالاً وحائكاً. وكان كارترايت ، مبتكر آلة الحياكة ، راعياً محباً للبشر ، ومجرد هاوٍ في علم الآليات . وكان آل داربي ارباب مصاهر ؛ وتحقق تحويل حديد الصب الى حديد ، في السنة ١٧٨٣ ، على يد « بيتر أونيونز » ، رئيس العمال في احد المصاهر ، و « هنري كورث » ، احد ارباب المصاهر . وان الآلة البخارية ، التي اكتشفت في القرن السابع عشر وجعلت صالحة للعمل على يد نيوكومن ،

الحداد والقفال ، اصبحت عملية حقاً على يـد « جايمس وات » ، صانع الآلات المختبرية . ولكن هذا الاخير أفاد من قياس الحرارة الذي حققه « بلاك » . وهكذا انضم العلم الى التقنية . وبعد تحقيق هذه الطرائق كلها ، درسها العلماء واكتشفوا نواميسها ، وتوفقوا بواسطتها ، في القرن اللاحق ، الى اكتشافات علمية وتقنية جديدة .

نجاح الاختراعات

لقـد سبق هذه الاختراعات كلها مرحلة طويلة من السعي والبحث والاخفاق . فقبل هارغريفز وهايز ، اكتشف « جون ويات » و «ولويس بول » آلة غازلة جيدة (١٧٣٣ – ١٧٣٩) . وقبل آل دربي، يبدو ان « دادلي » قد توصل، منذ أواخر عهد جـاك الاول ، الى اكتشاف مبدأ الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، وهنالك حالات اخرى كثيرة . ولكن المخترعين الاول قد اخفقوا في البدء بسبب عـدم كفاءتهم العمليـة وافتقارهم الى الروح التجارية . اتقنوا التفكير والادراك والاكتشاف دون النقاش والحساب والبيع والشراء. وغالباً ما كانوا وجلين وجزعين ومترببين دون طموح حقيقي اقتناع بالاكتشاف ، شأن هايز ووات . وقد اصطدموا على الاخص بمقاومات الصناعيين الحذرين ابداً بسبب خوفهم من خسارة المـال ، ومقاومات العمال المعادين للآلة الذين يخشون فقدان مرتزقهم فيحطمون ويحرقون الآلات . وقـد توجب ، حتى تفرض هذه الاخيرة نفسها ، ان تصبح الازمات الاقتصادية، التي دفعت الى البحث عنها، من الشدة بحيث تبدو الآلات بوضوح وكأنها السبيل الوحيد الى التغلب عليها . مات معظم المخترعين مغمورين وفقراء . ولكن مـرم سرقه واستخدمه الصناعيون الذين رفضوا مكافأتهم . فان « آوكرايت » قد انتحل آلة هـايز الغازلة واكتشافات ثانوية عديدة حققها كثيرون غيره . كان تاجراً ماهراً ، فنجح وجمع ثروة طائلة وغدا « سير » وعظيماً بين العظماء . وقد عزا اليه مواطنوه إثراء انكلترا ونجاح الصراع الطويل ضد فرنسا ، مغفلين عدم استقامته . وجعل « كارليل » من اركرايت احـد ابطاله وقارنه بنابوليون . وحالف جايمس وات الحظ بموافقة بولتون البوريتاني الذي شجعه وسانده وبنى الآلة وجعلها تفرض نفسها بعد سنوات طويلة من الصراع .

ترابط الاختراعات في صناعة النسيج

احـدث كل اختراع تخلخلاً اقتصادياً جديداً اوجب البحث عن آلات جديدة . فقـد توالدت الاختراعات . ارتفعت نسبة انتاج المنسوجات ارتفاعاً كبيراً بفضل المكوك المتحرك بينما بقي الخيط يغزل بالدولاب . افتقر الحاكة الى الخيط لا سيما في فصل الصيف حين ينصرف الغزالون والغزالات الى اعمـال الحصاد . وقد نجم عن ذلك ان التجار الذين تعهدوا بتلبية طلبات البضائع ، معولين على طاقة الانوال ، لم يستطيعوا التنفيذ بسبب افتقارهم الى الخيط . فاضطروا الى تسريح عمالهم وخسروا بعض زبائنهم . اشتدت الازمة حوالي السنة ١٧٦٠ بسبب الانتصارات الانكليزية في الهنـد التي افضت الى ازدياد الطلب . وهذا ما اوحى الى هارغريفز باختراع آلته الغازلة (١٧٦٧) التي

اتاحت لعامل واحد في منزله ان يغزل بين ٨ و ٨٠ خيطا معا . انتجت هذه الآلة خيطا دقيقا ولكن هذا الخيط كان واهيا وقصما . اما آلة هايز الفارلة (١٧٦٨) ، وقـوامها اساطين وسفافيد عمودية، فقد انتجت خيطا متينا، على بعض الثخانة، لم يتح بلوغ دقة الاقمشة الشرقية. واما آلة كرومبتون (١٧٧٩) فقد انتجت خيطا متينا جدا غاية في الدقة صالحا جدا لصناعة الاقمشة الموصلية . ولكن الغزال تقدم آنذاك الحائك الذي ما زال يعمل بيديه . ولم يعرف الغزالون كيف يصرفون بضائعهم . فأخذوا يصدرون بعضها الى البـر الاوروبي . ولاح من ثم خطر المنافسة للاقمشة الانكليزية . فكان ذلك منطلقاً لمساعي كارتريت ، في السنة ١٧٨٥ ، في سبيل ابتكار نوله الآلي الذي نجح نجاحا تاما منذ السنة ١٨٠٠ . والدليل على ذلك ان نولين بخاريين ، يراقبها فتى في سن الخامسة عشرة ، كانا ينسجان ثلاثة اثواب ونصف الثوب ، في حين ان عاملاً ماهراً يستخدم المكوك المتحرك لم ينسج في الوقت نفسه سوى ثوب واحـد . فتيسر استهلاك الخيط المغزول ، وانخفض سعر الاقمشة ، وارتفع عدد الزبائن .

صناعة استخراج المعادن ومعالجتها

إن الحديـد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، الذي ابتكره آل « داربي » ، قد زاد من كمية الحديد المصبوب . ولكن معالجي المعادن لم يعرفوا كيف يحولونه الى حديد . فتجمعت منه كمية كبرى عجزوا عن بيعها في حين مست الحاجة الى الحديد الذي ما زال يصنع بواسطة الفحم . فقام « اونيونز » و « كورت » بتجارب كثيرة وتوفقوا الى تحويل حديد الصب الى حديد (١٧٨٣ – ١٧٨٤): يحمص حديد الصب بنار الفحم المعدني المقطر ، فيفقد جزءاً من كربونه ، ثم يذاب مع خَبَث غني بأوكسيد الحديد ، فيتحد ما تبقى فيه من كربون بالاوكسيجين، ويتجمع المعدن النقي كتلة شبيهة بالاسفنج ، تطرق لتنقى من الخبث ، وتصفح بين الاساطين . وقد اكتشفت هذه الطريقة دون ان يعلم المكتشفان أن حديد الصب يحوي الكربون المطلوب ابعاده . فكان أن الخبرة سبقت النظرية .

في السنة ١٧٥٠ ، اكتشف « هنتسمن » الفولاذ المائع باذابة الحديـد في بوتقة من الخزف العادم الذوبـان مع نزر يسير من الفحم والزجاج المسحوق بمثابة كاشف كيميائي . ومنذ السنة ١٧٧٠ انتج فولاذاً لا نظير له اتاحت عملية تحويل الحديـد المصبوب الى حديد انتاجه بكميات كبرى .

الآلة البخارية

استلزمت آلة « نيوكومن » الجوية محروقات لا تتناسب كلفتها والنتائج المحققة. حين يرفع البخار المكبس ، يدخل بعض الماء البارد في وعاء المضخة : فيخثر البخار ويحدث فراغ تحت المكبس الذي ينزل ثمة بفعل الضغط الجوي . ولكن الماء المدخل في وعاء المضخة المرتفع الحرارة يسخن بدوره ، ويتحول جزء منه الى بخار . لذلك لم يكن الفراغ كاملاً . فيقاوم هذا البخار نزول المكبس نزولا كاملاً ، ويضيع بعض القوة . أضف الى ذلك ان

وعاء المضخة كان يبرد بالماء المدخل اليه وبعودة الهواء الداخلي حين ينزل المكبس . فحين يوجه البخار ثانية لرفع المكبس ، يفقد هذا البخار ، الذي يدخل الى اسطوانة باردة ، بعض قوتـه الامتدادية ، فيقتضي تسخين وعاء المضخة اولا وتوجيه كمية من البخار توازي اضعاف ما يتطلبه رفع المكبس طبيعياً .

تسلح « وات » بنظريات « بلاك » فاخترع ، في السنة ١٧٦٥ ، المكثر المنعزل . وضع الى جانب وعاء المضخة حيث يتحرك المكبس اسطوانة تحافظ على حرارة منخفضة بفعل جريان ماء بارد وتتصل بوعاء المضخة بانبوب مزود بصمام . يفتح صمام وعاء المضخة المليء بالبخار . فيندفع هذا الاخير ، بفعل قابليته الكبرى للامتداد ، في الاسطوانة الباردة ، ويحدث التخثر فراغاً يجتذب اليه كل البخار . ويكون التخثر كلياً دون ان يبرّد وعاء المضخة الا بالهواء الذي يدخل حين ينزل المكبس . في السنة ١٧٦٩ استحصل على شهادة اختراع لآلته ذات المفعول الواحد : اسطوانة مقفلة مزودة في اعلاها بنافذة صغرى يتحرك فيها جذع المكبس . يصل البخار الى وجه المكبس العلوي ، ويدفعه نزولا ، اذ ان البخار السفلي قد وجه نحو المكثر . ثم تستخدم الاصمة بحيث يصل البخار الى وجهي المكبس اللذين يخضعان حينذاك لقوى متساوية : فيرتفع المكبس من ثم بفعل الضغط الموازن . ويحد من ضياع الحرارة غلاف خشبي يحاط به وعاء المضخة . فأنقصت « المضخة النارية » الجديدة استهلاك المحروقات بنسبة ٣ الى ١ . وكان الصناعي « بولتون » ، صانع آلات « وات » ، « يعطي » الآلات ويستعيد آلات « نيوكومن » ولا يطالب الا بثلث المبلغ الذي يوفر سنوياً من ثمن المحروقات . ففي « شازووتر » ، دفع الملاكون سنوياً لبولتون ووات ، مقابل ثلاث مضخات نارية ، ٦٠٠٠٠ فرنك ذهباً ، ولكنهم دفعوا هذا المبلغ كاسفي الوجه في حين انهم كانوا يربحون بدورهم ١٢٠٠٠٠ فرنك .

إن الآلة ذات المفعول الواحد لم توفر القوة الا اثناء نزول المكبس . فكانت القوة متقطعة . وان الآلة ، الموافقة جداً لتحريك المضخات ، كانت أقل موافقة لعمل المصانع المتواري والدائم . أدرك وات ذلك وابتكر محركاً شاملا هو « آلته ذات المفعول المزدوج » . جعل البخار يؤثر بالتناوب في وجهي المكبس وأحدث بذلك حركة ذهابية وإيابية متساوية القوة ابداً . وبالاضافة الى ذلك حول حركة المكبس المستقيمة الى حركة دائرية بواسطة ذراع الدافعة ومقبض الادارة (١٧٨٤) . فأمكن منذئذ استخدام قوة البخار في الآلات على انواعها : انوال غزل القطن ونسجه ، الاكيار ، آلات تصفيح المعادن ، المطارق ، مطاحن الحبوب والمُنتيشة ، والصوان ، وقصب السكر . لقد دخل تاريخ العالم عهداً جديداً .

التعاون المتبادل بين الصناعات

تعاونت كل هذه الاختراعات تعاوناً متبادلا . فقد اقتضى اسطوانات هندسية الإطار ومكابس محكمة الالتصاق دونما احتكاك ودواليب متشابكة بمثل دقة تشابك دواليب الساعة ، لآلات التصفيح ، ومخارط المعادن ، والمطارق البخارية ، والمثاقب ، والانوال . وحل الحديد أكثر فأكثر محل الخشب لأنه أشد صلابة ويتيح

مزيداً من الدقة . فلا اختراع آلات حيث لا حديد . وأتاحت تحسينات صناعة المعادن الحصول على الكميات الكبرى والاصناف الجيدة . فقد وفرت الآلة البخارية اكبر قوة وأسلمها استعمالا دونما خسارة واعظمها مرونة وأسلسها انقياداً . بيد أن الآلة البخارية لم يعم استخدامها إلا في السنة ١٨٠٢ ، مع أن الآلات الفازلة البخارية الاولى ترتقي الى السنة ١٧٨٥ . وأوجدت انوال الصناعات النسجية والمعدنية وآلاتها ، بدورها ، اسواقاً للحديد وللآلات وات .

التجمعات الصناعية

لقد حدث تجمع اول قبل اختراع الآلات والبخار . فقد وجد بعض التجار الصناعيين موافقاً أن يجمعوا في الأبنية نفسها عمالاً يسهمون في انتاج الصنف نفسه رغبة منهم في أن يحسنوا مراقبتهم ويكفوا انفسهم مؤونة نقل المادة من عامل الى عامل في مراحل الصناعة المختلفة . ثم قامت مصانع جديدة . ولكن اختراع الآلات اوجب بعض التجمع . فان اجهزة « اركرايت » كانت باهظة الثمن وتستلزم مكاناً واسعاً ، كما ان اجزاءها كانت مترابطة في العمل : آلة الحلج الأولى ، آلة الحلج الثانية ، آلة الغزل ، القوة المحركة المركزية . استخدم الصناعيون من ثم مكاناً واحدا وعمالاً يتقيدون بالنظام . وأصبحت مصانع الغزل أبنية قرميدية تألفت من أوبع أو خمس طبقات وضمت بين ١٥٠ و ٦٠٠ عامل . وتألف مصنع بولتون ، منذ السنة ١٧٦٥ ، من خمسة ابنية ، وضم ٦٠٠ عامل ، وسير آلاته كلها دولاب محرك قوي . فكان أرباب هذه المعامل صناعيين حقاً . وفي صناعة المعادن ، منذ أن استخدم الفحم الحجري المقطر ، لم تتحدد ضخامة المشروع باتساع الاحراج . فقد جاز أن يضم كل مشروع عدة مصاهر ومعامل . لا بل شاهد الناس ظهور التجمع العمودي: ففي السنة ١٧٨٧ ، كان « ولكنسون » يملك مناجم حديد ، ومناجم فحم معدني ، ومصاهر ، وأرصفة في التايمز .

ورافق التجمع الداخلي تجمع جغرافي . فلما كانت شلالات الماء ضرورية لتحريك الآلات تجمعت الصناعة في البدء في المناطق الرطبة وذات الكسور ، بعد ان كانت متشتتة هنا وهناك : في انكلترا ، على منحدرات جبال بنين الثلاثة ؛ القطن في جنوبي كونتية لانكستر (منشستر) بنوع خاص ، وشمالي كونتية دربي (دربي) ، منذ السنة ١٧٧٥؛والصوف في مقاطعة يوركشاير ، في ليدس وبرادفورد ؛ وفي اسكتلندا ، في وادي « كلايد » . ثم حين عم استخدام البخار ، بعد السنة ١٧٨٥ ، تبدل تجمع الصناعات بعض الشيء . فان المناطق الشمالية ، التي كانت مناطق استخراج الفحم الكبرى ايضاً ، بقيت مناطق صناعية ، ولكن نظراً الى ان طرق المواصلات المائية الكثيرة اتاحت نقل الفحم الحجري بسهولة ، قامت المعامل اما على مقربة من اسواق الخامات واما على مقربة من اسواق بيع المصنوعات ، وأما على مقربة من المراكز السكنية التي توفر العمال . فبرز من ثم تخصص المناطق .

وربط التجمع المالي بين المشاريع ، فكان ذلك ارتساماً « لتجمع أفقي » احياناً . فقد

امتلك اركرايت بين ثمانية وعشرة معامل مثّل كل منها رأسمال يقدر بعدّة آلاف من الجنيهات السترلينية . ولكن لدينا كذلك امثلة لجمع جماعي ، هي الشركات ، التي غالباً ما اقتصرت ، من جهة ثانية ، على تشارك اشخاص معدودين .

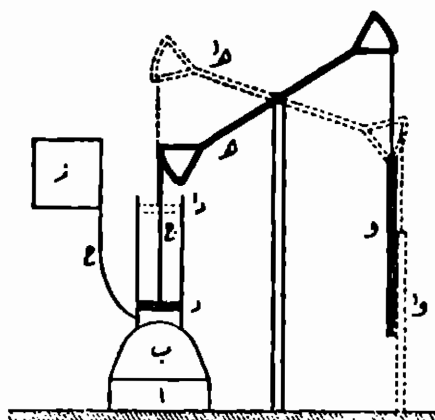

رسم ايجازي لآلة نيوكومن
ا ـ الموقد ؛ ب ـ مسخن البخار ؛ ج ـ وعاء الضخة ؛ د ، دا ـ الكبس ؛
ه ، ها ـ الرقاص ؛ و ، وا ـ ثقل موازن متصل بضخة ؛ ز ـ خزان ماء بارد ؛ ح ـ انبوب .

تحسن النوعيات وتزايد الكميات

ان اختراع الآلات والطرائق التقنية الأخرى اعطت المملكة المتحدة تفوقاً عظيماً على الأمم الأخرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد زادت الكميات المصنوعة اولاً. في السنة ١٧٨٠ صدرت المملكة المتحدة أقمشة قطنية بما قيمته ٣٦٠٠٠٠ جنيه سترليني ؛ وفي السنة ١٧٩٢ صدرت بما قيمته مليونان . في السنة ١٧١٧ ، انتج آل داربي بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طن من الحديد المصبوب سنوياً ، بينما انتجوا بين ١٣٠٠٠ و ١٤٠٠٠ طن في السنة ١٧٩٠ . ثم حسنت الكمية والقيمة التجارية . فقد أتاحت آلة « هايز » الغازلة انتاج الأنسجة القطنية . وأتاحت آلة كرومبتون انتاج أنسجة موصلية أخف وزناً من تلك التي كان ينتجها الهنود ؛ فارتفعت قيمة المادة الخام بنسبة ٥٠٠٠٪ اثناء مراحل الصناعة . ومنذ السنة ١٧٨٣ ، توصل الانكليز الى توشية الأقمشة بواسطة اسطوانات نحاسية . وفي السنة ١٧٨٦ طبق « تايلور » سر « الاحمر التركي » وانتج اقمشة « ادرنيّة » ما لبثت ان اكتسبت شهرة الأقمشة الهندية . وأعطت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد قضباناً حديدية أفضل من افضل حديد سويدي أو روسي . وكثر الطلب على الفولاذ الذائب الذي انتجه هنتسمن ، في كافة انحاء اوروبا . واخيراً تدنت الأسعار : فقد قامت الاسطوانة النحاسية بعمل ١٠٠ عامل ؛ وكانت المطرقة البخارية تضرب ١٥٠ ضربة في الدقيقة .

المآتي

ان التحقيقات الانكليزية اذهلت الأجانب . فـان ولكنسون ، « ابا صناعة الحديد » ، قد بنى في السنة ١٧٧٩ ، فوق الـ « سفرن» ، اول جسر من الحديد المصبوب قوامه حنية واحدة . وسيتوفق في السنة ١٧٩٧ الى ان يبني في سندرلند ، فوق الـ « وير » ، جسراً من الحديد المصبوب تمر تحته سفينة بحرية بكل صواريها . ودون ان يتوقف عند الاتهامات الموجهة اليـه بتحدي المعقول العام ، انزل الى البحر في السنة ١٧٨٧ اول سفينة حديدية . وفي السنة ١٧٨٨ سلم مصلحة مياه مدينة باريس ٦٤ كيلو متراً من الأنابيب المصنوعة من الحديد المصبوب .

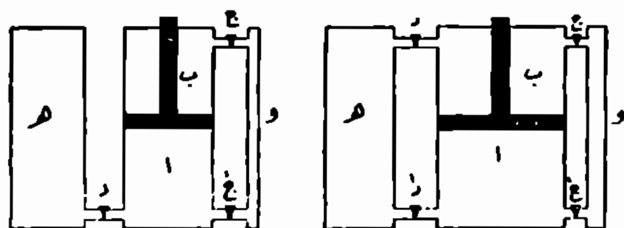

رسم المجاري للآتي وات
ا ـ وعاء المضخة ؛ ب ـ مكبس ؛ ج ، ج ا صمامات لدخول البخار ؛ د ، دا صمامات لخروج البخار ؛
هـ ـ مخار ؛ و ـ انبوب يتصل بسخن البخار

الصراع الطبقي

منذ ذاك الحين برزت نتائج الصناعة الكبرى المألوفة لدينا ؛ أزمـات تخمة الانتاج ، مع ما رافقها من ارتفـاع مفاجيء في أسعار المصنوعات وانهيار مالي في السنة ١٧٩٣ ؛ وارتفاع عـدد السكان ونمو المدن ؛ وقيام طبقة من الرأسماليين الصناعيين لا حلم لها ، من جهة ثانية، الا ان تنصهر في طبقة النبلاء ؛ توسع طبقة من عمـال المصانع الذين لا يمتلكون ايـة وسيلة من وسائل الانتاج وليس لهم سوى سواعدهم وأولادهم ، اي طبقة من الكادحين . لقد ارتفعت اجور بعضهم الحقيقية ، وتحسن الغذاء والصحة ، وطال امد الحياة مع الانتاج . ولكن الكثيرين من عمال الصناعة ، كعمال المصانع المتدربين ،وصانعي المسامير ، والحاكة ، ما زالوا يتقاضون اجراً ضئيلاً ويتغذون تغذية سيئة ويقيمون في مساكن حقيرة ، فتفتك بهم حمى المصانع وداء السل ؛ منـذ السنة ١٧٨٥ ، تجمع هؤلاء العمال وقاموا باضرابات وباعمال عنف استهدفت الآلات والأشخاص وطالبوا البرلمان بتشريع يحميهم : فكان ذلك منطلق الصراع الطبقي .

استمرار الصناعة المنزلية

على الرغم من هـذه التطورات ، بقيت الصناعة الصغرى اوسع الصناعات انتشاراً . فان آلة هارغريفز الغازلة ، التي يصلح استخدامها في المنزل، قد انتشرت في كل مكان بين السنة ١٧٧٥ والسنة ١٧٨٥ ، وارتفع من ثم عدد المنتجين الفرديين.وقد استمروا في عملهم هذا ، حتى بعد استخدام

النول الآلي ، مرتضين بتخفيضـــات كبرى على أجورهم ، وبالبؤس . وفي صناعة الصوف ، وصناعة الآلات المدنية ، وصناعة السكاكين ، دافع الصناعيون اليدويون عن انفسهم دفاعاً طويلاً . ففي أوائل القرن التاسع عشر ، ما زال مجموع انتاجهم يفوق مجموع انتاج المصانع .

الصناعة الكيميائية

ان القماش الذي ينتجه النول يحتاج الى تنظيف وتخضيب قبل تسليمه الى التجارة . والتبييض ضروري جداً لتقصير القماش ، لأن من شأن الشحم أن يلعب دور مثبت الألوان ، اي أن من شأنه أن يؤلف مع الصباغ مركبات كيمائية قد تلوّن القماش ، حيث يوجد الشحم ، بألوان داكنـة أو أكثر لماناً . فأخضع القماش من ثم الى عملية اولى هي اغلاؤه في الماء مع رماد الحطب ، الغني بالاشنان ، ينشر بعدها طيلة ايام فوق العشب ، ثم ينقع في مصالة حامضة ، ثم تنتهي عملية التبييض بغسله بالصابون . الا ان هذه العمليات أثارت مشاكل خطيرة : الافتقـار الى خشب الوقود ، حرمان الزراعة من مساحات كبرى ، تربيـــة مواش كثيرة للحصول على المصالة فقط ، الافتقار الى الصابون . فقامت العقبات في طريق صناعة النسيج .

مست الحاجة الى الحامض الكبريتي والاشنان . اجل لقد انتج الحـامض الكبريتي وعرف الناس كيف يعالجون الاملاح بهذا الحامض لانتاج الاشنان. ولكن المشكلة كانت في انتاج كميات كبرى باسعار منخفضة . استخرج الملح بوفرة من ماء البحر بواسطة التبخير. اما بصدد الحامض الكبريتي فقد احرز نجاح اول بفضل حاجات الصناعات المختلفة : القبعات ، الجلود ، الازرار ، القصدير ، النحاس . وبدلا من أن يحصل على الحـامض باكسدة كبريتور الحديد اكسدة جوية بطيئة ، أحرق الفرنسي « لفيفر » الكبريت وعالجه بملح البارود فحصل من ثم ، في مدى زمني أقصر ، على حامض كبريتي أقل كلفة . وقد أدخل هـــذه الطريقة الى انكلترا الانكليزي « يشوع وورد » منذ السنة ١٧٣٦ . ولكن كميات الحامض الكبريتي المنتج مـا زالت ضئيلة ومرتفعة الاثمان .

إن الحامض الكبريتي الغير المجرد من مائه تماماً لا يفعل في الرصاص . فاستعاض « روبوك » و « جربت » عن الزجاج بالرصاص في معالجة الحامض ونقله . وهكـذا استطاعوا زيادة حجم سفن أكثر متانة ، وتخفيض سعر النقل، وانتاج كميات كبرى ، والبيع باسعار متدنية، وتصدير الحامض ، منذ السنة ١٧٥٠ ، الى كافة انحاء اوروبا الشمالية الغربية . فأخذ الحامض الكبريتي يحل محل المصالة في عملية التبييض . وقد اعطى في خمس ساعات نتيجة لا تعطيهـا المصالة إلا في خمسة ايام .

في السنة ١٧٨٤ خطر للكيميـائي الفرنسي « برتوليه » أن يستخدم في التبييض خصائص إزالة الألوان التي ينطوي عليها الكلور . ونزولا عند رأيه طبق « جايمس وات » هذه الطريقة، في السنة ١٧٨٨ ، في تبييض انتاج مصنع حميه . ثم ما لبث اختراع ماء « جافيل »، وهو كلور

مضاف الى محلول اشنان ، ان زاد بصورة غريبة سرعة التبييض .

كان « كير » و « كوليسون » قد حلاَّ ، كل من جهته ، منذ السنة ١٧٦٩ ، مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان . فاستطاع « موسبرات » ، بفضل تجاربها، أن يؤسس ، في السنة ١٨٢٣، معمله الشهير الذي يعتبر منطلق صناعة الاشنان الكبرى في بريطانيا العظمى . وهكذا حلت نهائياً مسألة التبييض ، فازدهرت صناعة النسيج .

اتجهت الرغبة العامة الى الاقمشة الزاهية . ولكن كل الصباغات المعروفة لم تكن لتفي بالمطلوب بسبب عدم ثباتها . ففي الألوان الزرقاء مثلاً لم يصبغ النيلج والعظلم القماش بكليته بل كانا يلونان وجه القماش فقط ويزولان بالاستعمال . اكتشف الصبّاغ البرليني في السنة ١٧٠٤ « الازرق البروسي » ونشر صيغته في السنة ١٧٢٤ . فجعلها الكيميائي « ماكر » صناعية في السنة ١٧٥٠ . وهكذا تحقق لون ازرق « يضاهي بشفوفه ولمعانه شفوف ولمعان اجمل ياقوت ازرق » ، ويصبغ القماش في جميع اجزائه ، ويحافظ على زهوه . وحصل « جورج غوردن » في السنة ١٧٥٨ على احمر بنفسجي جميل جداً بنقع اشنة الصباغين في محلول النشادر . وأنقذ الفرنسيان « بوريل » و «بابيون» تجارة الاقمشة الانكليزية في افريقيا باهتدائهما، في السنة ١٧٨٦ ، الى « الاحمر التركي » ، وهو احمر زاه ، باستخدام الفوة .

وقد تمت كل هذه الاكتشافات بالتلمس وبدون معارف كيميائية تقريباً .

الزراعة الصناعية

جُددّت الزراعة قبل الصناعة نفسها . تنازعت الحظوة لدى الانكليز طريقتان : طريقة « نورفولك » التي اعتمدت منذ أواخر القرن السابع عشر، وطريقة « جترو تول » . اعلن هذا الأخير ، في كتاب نشر في السنة ١٧٣١ ، انالأسمدة نافلة ، لا بل مضرة ، اي انها سموم . وفي رأيه أن النباتات تتغذى باشياء صغرى ملتصقة بمساحة تجاويف التربة الداخلية . فيجب من ثم ، تسهيلا لتغذية النباتات ، تقسيم الارض جهد المستطاع حتى تتمكن الجذور من اختراق التراب بسهولة . اذن يجب الاكثار من الحراثة ، وقدابتكر « تول » طرائق عدة للحراثة حتى اثناء طلوع الحنطة . وهكذا تصبح الاسمدة والدورات الزراعية غير ذات جدوى . اما اشياع طريقة « نورفولك » ، الذين اكثروا من الحراثة ايضاً، فقد استخدموا الأسمدة ، السجيل والكلس ، استخداماً واسعاً ، كما استخدموا بصورة منتظمة الزراعات الدورية ، ونباتات الكلأ ، كالحندقوقة والايدوصرن والفصفصة واللفت والسلجم . ثم اثبتت اختبارات « هوم » و « دوكسون » ان تول كان على خطأ ، فكانت الغلبة لطريقة نورفولك التي اتاحت توفير كميات كبرى من الغذاء الضروري لسكان متزايدين عدداً وتخفيض نسبة الوفيات ، وسهلت التصنيع .

في سبيل تطبيق التقنيات الجديدة، عزل كبار الملاكين مزارعيهم وضموا اراضيهم وصونوها بمساعدة البرلمان الذي كان تحت سيطرتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بداعي التقنية بل بغية

الاستثمار بمكاسب الطريقة الجديدة. وقد ناسبت طريقة نورفولك كل المناسبة «الارض المكشوفة» والزراعة الجماعية ، بتصوين المراعي ، وقد أقدمت على ذلك قرى كثيرة .

في البر الاوروبي

كانت النجاحات في البر الاوروبي اكثر بطئاً ، ويرد ذلك بصورة عامة الى عدم توفر رؤوس الاموال التي لم يكن ما يوفرها سوى التجارة البحرية الكبرى . اجل توفر المال لهولندا ، ولكن صناعتها مالت الى التأخر ، ربما بسبب عدم توفر الخامات في ارضها ، وفي اعقاب القيود التي فرضتها الدول الاخرى ، الساعية وراء التصنيع ، على خروج الخامات من أراضيها . وظف الهولنديون أموالهم في انكلترا وفرنسا والدول الالمانية المختلفة واسهموا في تصنيع هذه البلدان . وخارج انكلترا والاقاليم المتحدة ، نمت الصناعة بفضل تدخل الدولة الذي أملته دوافع عسكرية: التحرر من الأجنبي ، انتاج الأقمشة للملابس العسكرية ، والاسلحة ، والبارود ، والتصدير لأجل تأمين النقد الضروري للسياسة الكبرى ولاضعاف العدو بالمنافسة . وقد تدخلت الدولة بالاكتتابات ، والمكافآت ، والاحتكارات ، والتعريفات الجمركية ، والمشاريع الرسمية،ولكن ببعض الصعوبة ، لتوسيع صناعة صنعية ، لا أسواق لها ، تدفع ثمناً لنموها سلسلة من الافلاسات وعوداً على بدء .

في فرنسا

كانت فرنسا قد اجتازت هذه المرحلة آنذاك ، وكانت صناعتها قد اتسمت منذ ذاك الحين ببعض التلقائية . كان للبلاد تجارة بحرية و استعمارية كبرى ورؤوس اموال كثيرة ، ولكن دون القوتين البحريتين درجة ، وكانت تقنيتها المالية دون تقنيتها تقدماً . يضاف الى ذلك ، من جهة أخرى ، ان الدولة قد استنزفت ، بسبب سوء تنظيم ماليتها ، قسماً كبيراً من رؤوس الأموال المتوفرة . لذلك لم تتمكن الصناعة الفرنسية من الاستغناء عن إسهام الدولة المباشر ، فكانت النجاحات ابطأ منها في انكلترا . كما في انكلترا، احتلت الصناعة المنزلية المركز الأول. وتزايد التجمع التجاري في مراكز معينة تزايداً مطرداً . ففي صناعة الجوارب في ليون مثلاً ، استخدم ١٨ تاجراً ٨١٩ عاملاً اختصاصياً . واذا كان لآل « فان روبيه » ، في « ابفيل » ، ١٨٠٠ عامل ، موزعين على عدة معامل على كل حال ، فان حوالي عشرة آلاف عامل قد اشتغلوا لأجلهم كل في منزله . وكانت « المصانع الملكية » الاثنا عشر تنجز الأعمال التحضيرية (الجز واعادة الحياكة) بواسطة العمال الموزعين على المعامل، ولكن الغزل ومعظم الحياكة كانا ينجزان بواسطة عمال الجوار وفي منازلهم .

ونشاهد من جهة ثانية تجمعاً في المصنع ، قبل استخدام الآلات، في الصناعات التي استلزمت اجهزة معقدة التركيب وباهظة الاثمان ، وانماطاً كثيرة مختلفة للصنف الواحد . في « رمس » تجمع أكثر من نصف انوال الصوف . وفي « لوفيه » ، جمع ١٥ متعهداً ألوف العمال . اما في صناعة القطن ، فللأقمشة الهندية ، التي تستلزم أرضاً واسعة للتبييض وأبنية فسيحة للمعامل وغرفاً كبرى للتنشيف وأدوات كثيرة ومخزونات هامة من الأقمشة والمواد الملوّنة وتوزيع

عمل بين العمال المشتغلين تحت سقف واحـد ، كان هنالك ، حوالي السنة ١٧٨٩ ، مائة صناعي ينتجون ١٢ مليون ليرة من الأقمشة المصبوغة . وكانت هنالك شركات مساهمة عدة على جانب كبير من الثروة . فقد أسس « اوبركامف » ، في السنة ١٧٨٩ ، شركة يناهز رأسمالها الاجتماعي ٩ ملايين . واما في المناجم فمنذ السنة ١٧٤٤ احتفظت الدولة لنفسها بما تحت سطح الارض وأعطت امتياز استثماره لشركات كبرى . فكان لدى شركة « انزين » ، التي تأسست في السنة ١٧٥٦ ، أربعة آلاف عامل قبـل السنة ١٧٨٩ . وتأسست شركات أخرى في « آليه » ، و« كارمو » ، وفي أمكنـة اخرى ايضاً . فكان ان الاستثمار ، الذي تم حتى ذاك التاريخ ، في حفائر صغيرة كثيرة قليلة العمق ، على ايدي ملاكين هم غالبـاً من الفلاحين ، قد تحسن تحسناً سريعاً. لقد حلت الاستثمارات على التنقيبات الاتفاقية . وعوضاً عن النزول بواسطة دركات مفروضة في جدران الآبار استخدم عمال المناجم السلالم الحديدية ، كما استخدموا في « انزين » ، بعد السنة ١٧٦٠ ، سلات يجرها ملفـاف تديره الجياد . وتأمنت تهوية الأروقة بآبار خاصة . ولمكافحة المياه بنيت جدران الاروقة بالقرميد في « انزين » ، وأحدثت خزانات ، واستعيض عن المضخات اليدوية الصغيرة التي يحركها عامل واحد بمضخات كبرى يحركها عمال وأحصنة . فبلغ عمق الآبار قرابة ٣٠٠ متر بعد ان كان لا يتجاوز الخمسين متراً ؛ لا بل بلغ عمق احـدى الآبار ١٢٠٠ متر . وقـد انتجت شركة انزين ، في السنة ١٧٨٩ ، ٣٧٥٠٠٠ طن من الفحم الحجري .

وأخيراً استخدمت الآلات . فمنذ السنة ١٧٣٢ استخدمت آلة نيوكومن في المناجم احياناً . وفي حقل غزل الحرير ميكانيكياً أتاحت اكتشافات « فوكنسون » قيـام مؤسسات كبرى . ففي « اوبنا » جمع فوكنسون ١٢٠ قدراً لحل الغزل في بناء واحد . اما الغزل فقد بقي صناعة منزلية وريفية . وفي صناعة القطن استحضر الفرنسيون عمـالاً وآلات من انكلترا . وفي السنة ١٧٨٩ كانت هنالك معامـل في « بريف » ، و « اميان » ، و « اورليان » ، و « مونتارجيس » ، و « لوفييه » . وظهر الحديد المصبوب بالفحم المعدني المقطر ، فأفضى الى تأسيس مصانع كبرى كمصنع الـ « كروزو » مثلاً . وغدت آلة وات البخارية الاولى مضخة « شايو » النارية ، المعدة لرفع الميـاه لباريس ، في السنة ١٧٧٩ . ولكن استعمال الآلة لم ينتشر بسرعة . ففي السنة ١٧٨٩ لم يكن عـدد المضخات النارية مرتفعاً في فرنسا . وان اقتناء شركة انزين لاثنتي عشرة مضخة منها كان مثاراً للدهشة . ولن يعم استعمال الآلات الا في عهد الامبراطورية .

في البلدان الاخرى

على الرغم من جهود الأمراء كانت النجاحات التقنيـة في دول أوروبا الأخرى ابطأ منها في فرنسا ايضاً . كانت هـذه الدول ، مع حفظ النسبة ، في الوضع الذي وجدت فيه فرنسا في عهد كولبير . مست الحاجة في أوروبا الوسطى والشرقيـة الى رؤوس الأموال لأن الدول لم تسهم اسهاما يذكر في التجارة العالمية ولأنها افتقرت

الى المستعمرات . لذلك نجد في كل مكان ، في « بافاريا » و « ورتمبرغ » و « هس » والنمسا وبروسيا وروسيا، مميزات مشاركة مختلفة الدرجات. الدولة تتدخل في كل مكان . الأمير يحدث المشاريع، ويتخلى عنها للافراد ، او يفرض تأسيسها على النبلاء ، والأديرة ، والمدن ، والتجار، واليهود. تستفيد هذه المشاريع من مساعدات مالية، واعفاءات من الضرائب والرسوم، واحتكارات، كما تستفيد في أغلب الأحيان من مدربين أجانب ويد عاملة مسخرة (متسولين ، مشردين ، بنات داعرات ، ايتام ، جنود) . تنظيم العمل مماثل له في المصانع : معمل مركزي يستكمل فيه العمل ، ولكن معظم العمليات ينجزها في منازلهم اجــراء قد يحصون بالالوف . ففي « فريدو » من اعمال بوهيميا ، ضم مصنع « جوهان فريس » للنسيج ٥٥ عامـلاً في مشاغله ووزع عملاً على ٢٠٠٠ آخرين في منازلهم . وباع مصنع برلين ، « كونيغليشس لاجرهوس » ، في السنة ١٧٤٠ ، اجواخاً من الصنف الممتاز انتجها لحسابه ١٤٠٠ عامل في منازلهم . ووزع « سولنجن » المادة الخام على عمال يعملون في منازلهم ويسلمونه السكاكين بأسعار محددة . وفي روسيا استخدمت بمصانع الاجواخ والحرير خمس عمالها في مشاغلهـا بينما عمل الباقون لحسابها في منازلهم . في السنة ١٧٨٠ ، وفي مصنع « ميدينغ » لاشرعة المراكب ، تجاوز عدد العمال العاملين في منازلهم ، الى حد بعيد ، عدد عمال المشاغل . ويصح هذا القول في مصانع الخرمات والساعات والزجاجيات والمرايا . المصانع المجموعة كلياً نادرة جداً ، وليس لدينا أمثلة عنها الا في صناعة الاواني الصينية ، والتبغ ، والأثاث الفاخر ، وتحضير الجعـــة ، والتقطير ، ونشر الاخشاب ، او حين يتوجب استخدام يد عاملة مجموعة بحكم الهدف ، كجنود افواج حاميـــة برسلو الخمسة الذين كانوا يغزلون القطن في ثكناتهم في أوقـــات فراغهم ، أو يد عاملة مجموعة بحكم واجب المراقبة ، كساجين « سباندو » (غزل الحرير والصوف) وأيتام « بوتسدام » (الخرمات البرابانية) ونزلاء « ارفورت » ، وغيرهم ايضاً . اما الآلات فكان استعمالها اكثر تأخراً واكثر بطئاً ايضاً : فان آلة وات الاولى ظهرت في ألمانيا في السنة ١٧٨٥ . ان القرن الثامن عشر الذي ابتكر الآلات المختلفة وأنتجها بكثرة ، قد انصرف كذلك الى تحقيق اختراعات معدة لمستقبل باهر : مانعـــة الصواعق ، السيارة والقطار الحديدي ، المركب البخاري ، التلغراف والهاتف ، الملاحة الجوية .

مانعة الصواعق

مانعة الصواعق نتيجة ابحاث فرانكلن الذي اوقف المانعة الاولى فوق بيته في شهر ايلول من السنة ١٧٥٢ . منذ السنة ١٧٥٤ انتشر استعمالهـــا . ففي السنة ١٧٨٢ ، كان منها ٤٠٠ في فيلادلفيا . في السنة ١٧٦٢ انتصبت أول مـانعة للصواعق في لندن . انتقلت بعد ذلك الى البر الاوروبي ، الى ايطاليا منذ السنة ١٧٧٦ ، والى جنوبي فرنسا ثم الى باريس في السنة ١٧٨٢ . اعترض بعض اللاهوتيين على استعمالها : الرعد والبروق دلائـــل الغضب الآلهي ؛ فمن الكفر مقاومة طاقتها التدميرية . أجـاب لاهوتيون آخرون والفلاسفة أن على البشر اتقاء الصاعقة ، كما عليهم اتقاء المطر والثلج والريـــح ، بالوسائل التي وضعها الله بين

ايديهم . وغالباً ما أثارت هذه الآلة الخوف في قلوب الجماهير . في السنة ١٧٨٣ ، أوقف أحد اشراف « سانتومير » الريفيين فوق بيته مانعة للصواعق تلتهي بجربة تتحدى السماء . هاجت الجماهير . اصدرت البلدية اليه امراً بانزال المانعة . تقدم بدعوى الى محكمة « آراس » التي ابطلت القرار البلدي تحت تأثير مرافعة محام شاب ، سيعرف الشهرة فيا بعد ، هو « مكسيميليان دي روبسبيير » . ثم فرضت مانعة الصواعق نفسها بخدماتها الباهرة . فان الابنية التي كثيراً ما تعرضت للصواعق ، ككنيسة القديس مرقس في البندقية وكاتدرائية سينا ، لم تصب يوماً بأذى الصواعق منذ تزويدها بمانعات الصواعق . وعرفت السفن مزيداً من الأمان : فان سفينة كوك قد بقيت سليمة ، بفضل مانعة الصواعق المرفوعة فوقها ، الى جانب سفينة هولندية اصيبت بالصاعقة .

السيارة والقطار الحديدي

حاول المهندس الفرنسي ، « جوزف كونيو » ، استخدام طاقة البخار لتحريك المدفعية . بنى عجلة بخارية لنقل الاثقال ، وعرضها على محك امتحان غريبوفال ، وأمر الوزير « شوازول » بتجربتها تكراراً في السنتين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ . في هذه السنة الأخيرة ، جربت آلة كونيو ، وهي السيارة الاولى ، في « دار الصناعة » ، فجرت مدفعاً ثقيلاً من عيار ٤٨ ، مع سنده الثقيل ، مسافة ٥ كيلومترات في ساعة واحدة. تسلقت اشد المرتفعات وعورة وتخطت بسهولة خشونات الارض. ولكن حركاتها كانت من العنف بحيث صعبت ادارتها فجمحت باتجاه جدار وهدمته . ومن حيث هي آلة يلعب فيها التخثير دوراً أولياً ، احتاجت الى كمية كبرى من الماء ، ولم يهتد كونيو الى أية طريقة إحكامية لآلته استعاضة عن الماء . كان توقيفها ضرورياً كل ربع ساعة. فلم يكن استعمالها عملياً. في السنة ١٧٨٦ ، تقدم الاميركي « اولفر ايفانس »من مجلس ولاية بنسلفانيا بطلب امتياز لسيارة بخارية تتحرك بآلة ذات ضغط عال لا تحتاج الى كمية كبرى من الماء . ولكنه لم يحصل على امتيازه الا في السنة ١٧٩٧ ،وفي النهاية كان الفشل حليفة. إلا أن الانكليز استخدموا في مناجم الفحم المعدني خطوطاً حديدية لتسهيل جرّ عجلات نقل الفحم بواسطة الاحصنة، وهو استخدام هذه الخطوط التي أضعفت تأثير الاحتكاك ، واستخدام الآلة ذات الضغط العالي ، التي جهلها كونيو ، ما أتاح الاهتداء إلى حل بواسطة القاطرة والخط الحديدي .

الهاتف

وجرت تجربة جهاز هاتفي . في أول حزيران من السنة ١٧٨٢ ، اوضح « دون غوتاي » ، أحد رهبان دير « سيتو » ، أمام اكاديمية العلوم، وسيلة تتيح الاتصال بالاماكن البعيدة : وهي أن تقام ، بين مراكز متعاقبة ، أنابيب معدنية يسري فيها الصوت دون أن يفقد قوته فقداناً محسوساً . وكان يعتقد أن باستطاعته أن ينقل امراً ، خلال ساعة،الى مسافة ٢٠٠ فرسخ. التمس المركيز « دي كوندورسيه » اجراء اختبار فأذن الملك لويس السادس عشر بذلك . استخدمت في الاختبار الانابيب التي تنقل السائل الى مضخة « شايو » على مسافة

٨٠٠ متر ، فجاء النجاح كاملاً . الشمس « غوتاي » حينذاك امتحاناً يتناول ١٥٠ فرسخـــاً : ولكن الادارة الملكية اعتبرته باهظ الاكلاف . حاول غوتاي فتح اكتتاب في باريس ، ثم في فيلادلفيا ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة .

التلغراف

بذلت جهود كبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا سيّ تلك التي قام بها الكاهن الفرنسي « كلود شاب » ، بغية الاهتداء الى التلغراف الكهربائي. إلا أنها انتهت كلها إلى الفشل لأن الذين بذلوها لم يعرفوا سوى الكهرباء الساكنة التي تنبثق من الاحتكاك أو تنتجها الآلات الكهربائية . إن هذه الكهرباء لا توجد إلا على سطح الاجسام وتميل باستمرار إلى الابتعاد عنها ؛ فالهواء الرطب وحده كاف لأن تتلاشى . لذلك فإن ثلاثين سنة من المحاولات لم تعط أية ثمرة . عاد الباحثون الى العلائـــم التي تكون في الفضاء فترى أو تسمع الى مسافات بعيدة . فابتكر الألماني برغستراسر ، من هانو ، لغة شكلية لم تكن عملية ، اذ ان جملة مؤلفة من ٢٠ كلمة استلزمت اطلاق ٢٠٠٠٠ طلقة مدفع أو قـذف ٢٠٠٠٠ سهم ناري . وكان مقدراً لـ « كلود شاب » أن يهتدي الى الحل في عهد الثورة .

الملاحة الجوية

رأت الملاحة الجوية النور في فرنسا . ان الاخوين« اتيان وجوزف مونغولفيه» ، وهما إبنان لأحد صناعيي الورق في « انوناي »اشتهر في كافة انحاء اوروبا بكمال مصنوعاته ، وقفا على المؤلف الذي وصف فيه بريستلي عدة غازات جديدة . فكرا بالارتفــاع الى الجو بأن يحصرا في غلاف خفيف الوزن غازاً أخف وزناً من الهواء : فيرتفع الجهـاز الى أن يصادف ، على علو معين ، طبقات يبقيه ثقلها النوعي في حالة توازن . قاما باختبارهما الكبير الاول في « انوناي » ، في ٤ حزيران من السنة ١٧٨٣ ، أمام مندوبي ولاية « نيفاريه » : ان المنطاد المعروف باسميهما ، والبالــغ قطره اثني عشر متراً ، والمصنوع غـلافه من نسيج مبطن بالورق ، والذي سخن هواؤه بالدرين المشتعل ، قد ارتفع حتى ٥٠٠ متر علواً .

طلبت اكاديمية العلوم إعادة الاختبار ، في ساحة مــارس ، في ٢٧ آب من السنة ١٧٨٣ . ملأ البروفسور « شارل » المنطـاد بالهيدروجين الذي يزن ١٤ مرة أقـل من الهواء ، والذي حصل عليه للمرة الاولى بكميــات كبرى بعد أن كان يحصل عليه في المختبرات فقط . أمـام ٣٠٠٠٠٠ شخص بيكون ويتمانقون ، لان أحد أقدم أحلام الانسانية كان في طريق التحقيق ، ارتفع المنطاد حتى علو ١٠٠٠ متر . ولكنه كان قد ملىء تماماً عند الانطلاق ، فتمزق وسقط على مسافة ٢٠ كيلو متراً من باريس . فذعر الفلاحون اولاً اعتقاداً منهم أن القمر قد سقط من السماء ، وانتقموا من خوفهم بتقطيع المنطاد ارباً ارباً . اضطرت الادارة الملكية إلى اشعار الفلاحين رسمياً بأن ليس هناك ما يثير مخاوفهم وبأن لا يمزقوا شيئاً من الآن فصاعداً . وبعـد اختبار شرّفه الملـــك بحضوره ، في ١٩ ايلول من السنة ١٧٨٣ ، كان « بيلار دي روزيه » والمركيز « دارلند » الانسانين الاولين اللذين طارا في الجو ؛ حلقا فوق باريس في ١٩ تشرين

الثاني من السنة ١٧٨٣ . اما البروفسور شارل ، الذي ابتكر « السلة » والشبكة والصمام ، فقد اصطحب روبير وبلغ معه ٤٠٠٠ متر علوا في اول كانون الاول من السنة ١٧٨٣ ، ثم نزل الى الارض على مسافة ٣٦ كيلومتراً من باريس ، مسجلاً مع رفيقه الارقام القياسية الأولى في المسافة والارتفاع . وانطلق « بلانشار » والدكتور « جفري » من شاطىء « دوفر » في ٧ كانون الأول من السنة ١٧٨٣ وكانا اول من اجتاز المانش عن طريق الجو . وكان « بيلاتر دي روزييه » الذي لاقى حتفه في ١٥ حزيران على اثر تمزق غلاف منطاده اول شهيد من شهداء الجو . وابتكر « بلانشار » و « غويتون دي مورفو » المنطاد المسيّر ولكن مجاذيفهما لم تصلح الا لاثبات استحالة الاكتفاء بقوة الانسان . تأسست في كل مكان من فرنسا جمعيات من الهواة ، وفي كل يوم ارتفع منطاد في الجو . استوحت أزياء القبعات والاوشحة والملابس والعجلات « مونغولفييه » والمنطاد « وشارل » و « وروبير » . ثم عم هذا التيار اوروبا . ففي انكلترا ارتفع منطاد هيدروجيني في ٢٢ شباط من السنة ١٧٨٤ . وفي ايطاليا ارتفع المنطاد الاول في ميلانو في الخامس والعشرين من الشهر نفسه والسنة عينها . منذ السنة ١٧٨٤ ، وفي رسالة من اكاديمية ليون ، فكرّ « غودين » باستخدام المناطيد في الحقل العسكري ولفت الانتباه الى ان « سوبيز » ما كان ليخسر معركة روسباخ لو كان لديه منطاد . وكان مقدراً للمنطاد ان يستخدم في الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٩٤ ويؤمن لفرنسا السيطرة الجوية الاولى .

اوروبا والعالم

وهكذا فإن الثورة التقنية الكبرى ، التي وفرت لاوروبا تفوقا ماديا عظيما على كافة شعوب العالم ، والتي اتاحت لها تلب شهرة حضارات آسيا نفسها ، قبل ان يتزود العالم بهذه التقنيات ويرتد اليها ، ترد لعمري الى الروح الاوروبية البحتة ، ولكن هذه الروح غالباً ما استثارتها الحاجات التي خلقها الاتصال بشعوب ما وراء البحار ، وغالباً ما وجدت في علاقتها بهذه الشعوب وسائل عملها . وربما كان باستطاعتنا القول ان الثورة المالية والصناعية مظهر من مظاهر اتصال اوروبا بالعالم .

الفصل الرابع

تقنيات التحسين الانساني

١ ـ الطب والجراحة

حقق الفن الطبي تقدماً كبيراً بفضل تأثير الحركة العلمية . فان طرائق الملاحظة والاختبار أخذت تعتمد اعتماداً متزايداً يوماً بعد يوم .

بقيت تنشئة الاطباء خاضعة للكتب والنظريات كما هو محتوم . ولكن الاساتذة والطلاب أخذوا يمتحنون النظرية بالواقع . كان على الطلاب المسجلين في كلية الدروس باريس الطبية ، بعد انهاء دروسهم الكلاسيكية ، ان يتلقوا الدروس طيلة سنتين للفوز بدرجة حامل البكالوريا في الطب : وكان التشريح ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والصيدلة ، والجراحة ، والتوليد مادة هذه الدروس . وكان عليهم بعد ذلك تلقي الدروس طيلة سنتين اخريين للفوز بالاجازة : وكان لزاماً عليهم حضور المناقشات العامة التي تعتمد فيها الاقيسة المنطقية للمجادلة . وكان عليهم اخيراً ، لنيل الدكتوراه ، مرافقة اطباء الكلية في زياراتهم لمرضى المستشفى البلدي ومستشفى « المحبة » . وكان هذا الجزء العملي اخذاً بالنمو والتوسع . تأسست العيادة الجامعية الاولى في فينّا في السنة ١٧٥٤ ، ثم تأسست عيادة أخرى في باريس في السنة ١٧٧٠ . في درس التوليد ، وهو الفن الذي تفوق فيه الفرنسيون ، درّب الطلاب تدريباً عملياً على دمى من شمع ، وبهذه الوسائل البدائية تمت تنشئة مولدين ممتازين . وكان العديد من الاطباء ، في الوقت نفسه ، علماء طبيعة من الطراز الاول كـ « هالر » و « سبالنزوني » و « فيك دازير » . ونشأ الى جانب تعليم الكلّيات تعليم حديث الطابع : في السنة ١٧٧١ ، اعتلى « بورتال » اول منبر لتلقين علم الوظائف في كلية فرنسا . اجتذبت باريس ومونبلييه الطلاب من كافة انحاء أوروبا. وكانت لـ « بادوا » و« بافيا » و« بودا » و« فينا » اهميتها الكبرى أيضاً. وأتاحت بعض المنشورات الدورية الخاصة للاطباء مقارنة ملاحظاتهم : « المكتبة الطبية » في ارفورت ، منذ السنة ١٧٥١ ؛ « صحيفة الطب والجراحة » في باريس ، منذ السنة ١٧٥٤ حتى السنة ١٧٩٢ ؛ « صحيفة الطب » في البندقية ، منذ السنة ١٧٦٣ حتى السنة ١٧٧٧ .

كان الجراحين أزم الكبير . لوجب عليهم ، حتى ذاك التاريخ ، اجراء العمليات وفاقــا لأوامر رؤساهم من الاطباء . ولكنهم كانوا مهرة في عملهم . مارس معظمهم العمـــل اولاً في حوانيت الحجامين الذين كانت الجراحة الصغرى وطب الاسنان وقفاً عليهم . واصلوا التعلـــم بالممارسة . فرفعوا فنهـــم ، بفضل الاختبار المستمر ، الى درجة عليا من الكـــال وأمنوا له الاستقلال . وتوفقوا الى اقرار تعلم جراحـــي خاص . وفي السنة ١٧٣١ ، تأسست في فرنسا الاكاديمية الملكية الجراحة . وفي انكلترا ، اقر البرلمان ، في السنة ١٧٤٥ ، منح الجراحـــين امتيازاً فبنوا مدرسة ومسرحاً مدرجاً .وفي السنة ١٧٨٢ ، أسس « جـــوزف الثاني » في فينا مدرسة الجراحة ، وحذا حذوه « كريستيان الرابع » في كوبنهاغن في السنة ١٧٨٥ . انطوى التعلم قبل كل شيء آخر ، في هذه المدارس ، على دروس عملية تدوم ثلاث سنوات تخضـــع لامتحانات عملية في الدرجة الاولى:تشريح، عمليات ، تضميد . وجدير بالانتباه ان كثيراً مـــن النجاحات الطبية احرزها جراحون ألفوا الملاحظة والاختبار .

التشخيص والتقدير

ان اعراضاً معروفـــة كثيرة وصفت بمزيد من الدقـــة ونظمت جداول بالاعراض التي تساعـــد على كشفها وتتبع سيرها . فقـــد اعطى الفرنسي « جان سيناك » مثلاً دلائل امراض القلب : خفقان القلب ، تورم الارجـــل ، الربو ، صعوبـــة التنفس لا سيا في حالة الضجوع ، تمدد الابهر ، نفث الدم . ووصف الاطباء الايطاليون حميات المستنقعات . ودرس كذلك درساً افضل الزحار ، والمغص الاسربي ، وتضخم المعين ، والذبحـــة والحمى القرمزية (التي لم تميز عن الحصبة) ، والنكاف ، والامراض الجنسيـــة . واكتشفت امراض مجهولة ايضاً . فان « رولو » ، الجراح العام للمدفعية الانكليزية ، قد اكتشف في احـــد ضباط المدفعية الداء السكري مع مميزاته : شهوة اكل وظمأ مفرطان ، هزال، بول غزير،حلو المذاق، التهاب اللثات ، تخلخل الاسنان . واكتشفت الحمى التيفية ، التي اطلق عليها اسم الحمى المخاطية ، والخناق الخفيف ، وســـل العظم الذي اطلق على اهم ظواهره اسم الجراح الانكليزي الذي اكتشفه « داء بوت » .

اخذ الاطباء بعين الاعتبار الحرارة وعدد الانباض لتقدير حالة المريض . وهم الانكليز من استعملوا المحر بصورة خاصة . وتبنى الطب وجهة النظر السكية ، فاصبح بذلك اكثر طابعـــاً علمياً . وفي السنة ١٧٦٠ ، اكتشف الطبيب « اونبروجر » ، في فينا ، القرع كوسيلة لتشخيص امراض الصدر ، ولكن اكتشافه لم يلفت الانتباه تقريباً .

الطب الدوائي

كانت المذاهب الطبية ، بحكم الاشياء ، كثيرة جداً ، اذ كان على الطبيب ان ينظر الى مجموع ، هو الكائن البشري،ومن ثم ان يقوم بعملية تاليفية . نال مذهب « ستاهل » (١٦٦٠ – ١٧٣٤) القائل بوجـــود الروح في كل الاجســـام الحية ، ومذهب « بورهاف » (١٦٦١ – ١٧٣٨) الاختياري ، ومذهب « هوفمن » الآلي ، ومذهب

بارتز (١٧٣٤ - ١٨٠٦) القائل بوجود مبدأ حيوي متميز عن الروح والجسم معاً ، حظوة على التوالي عند الجماهير . اختلف هؤلاء المؤلفون واتباعهم كل الاختلاف عن بعضهم وانما جمعت بينهم صفة مشتركة هي وقوفهم موقف الانتظار والارتقاب . ان الطبيعة قوة علاجية ، وللداء فائدة في انه يزيل من الجسم عناصر مضرة ، وان الحمى ، بنوع خاص ، احدى وسائل التطهير والتنقية . فحذار من ثم مقاومة الاعراض ، وملاشاة الحمى والبواسير مثلا ، لننتظر ونسهل عمل الطبيعة بتنقية الجسم من اخلاطه واجزائه النتنة . الى هذا التفكير يرد استعمال الوسائل السهلة : التليين ، الحقن ، الحمية (بالحمية شفى رولو مريضه المصاب بداء السكري) ؛ والطرائق المزيلة الاحتقان : الفصد والحراقة ؛ والتمارين الخفيفة ، والدلك ، والمياه المعدنية . فزالت باطراد الادوية المستهجنة كعين السرطان ، واللآلىء ، ولحم الثعبان .

ولكن برزت اكثر فأكثر ايضاً ضرورة مواجهة المرض نفسه مباشرة ، في وقت واحد . فاختلطت بالروح التأليفية روح تحليلية لن تلبث أن تحل محلّها . أما أهم واضعي النظريات في هذا الحقل فهو عالم الأمراض العقلية الفرنسي « بينيل » (١٧٣٥ - ١٨٢٦) الذي يطري الطريقة التحليلية ويؤكد بان كل داء يردّ الى خلل عضوي يجب اكتشافه ومعالجته . وقد رأى القرن انتصار الكينا التي اشار بها الايطاليون بنوع خاص لمعالجة الحميات . واستخدمت القمعية لتقوية القلب في حال الاستسقاء . ولمعالجة فقر الدم اشار « فولر » بالتفضيل بالزرنيخ السائل (سائل فولر) . وخطر للانكليزي « برنغل » ، في السنة ١٧٥٠ ، ان يضع الحراقة على مركز الألم الشديد في الصدر لمعالجة البرسام والتهاب الرئة . وحاول « فولتا » شفاء امراض الاذن بالصدمة الكهربائية . وعالج « كراتزنستاين » الدانماركي بالكهرباء أمراض الشلل والنقرس والرثية المزمنة . وفي السنة ١٧٩٠ لم يحصل « فوركروا » على نتائج تذكر بلتنشيق الاوكسيجين مرضى السلّ ، ولكنه احرز نجاحاً في حالات الربو واليرقان وداء الخنازير والكسح .

الوقاية

اهتم الاطباء اهتماماً كبيراً لاتقاء الامراض ولا سيا الامراض الوبائية التي تفتك بسكان العالم فتكاً . عاث الطاعون فساداً في اوكرانيا في السنة ١٧٣٧ ، وفي مسينا في السنة ١٧٤٣ ، وفي موسكو منذ السنة ١٧٨٩ . واقتفت الحمى التيفية آثار الجيوش . فكانت موضعية في اسبانيا منذ السنة ١٧٥٠ . وفي السنة ١٧٦١ اجتاح اوروبا واميركا وباء صُدام فتاك . كما اجتاح اوروبا السعال الديكي : فأفنى في السويد وحدها ٤٠٠٠٠ طفل بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٤ . وكان وباء الجدري كارثة حقيقية سببت موت ١٤٠٠٠ شخص في باريس وحدها ، في السنة ١٧١٩ . وفي السنة ١٧٧٠ انتشر في العالم وباء جدري عام : فتك بسكان كافة المدن الكبرى ؛ ويقدر ضحاياه في الهند بثلاثة ملايين شخص .

انحصرت التدابير المتخذة ، لمدة طويلة ، في تدابير الأمن تقريباً . فكانت المناطق المصابة تحاط بجنود يؤلفون حولها نطاقاً صعباً يحظر الخروج منه . وكان يحظر السفر على المسافرين ما

لم يبرزوا شهادة صحية . وكانوا يخضعون ، عند وصولهم ، للحجر الصحي ، اي يوضعون تحت المراقبة على حدة طيلة اربعين يوماً . وكان كل مريض يثير الشبهة يوضع حالاً في الانفراد في محجر صحي . بدأ « فرانك » النمساوي ، في السنة ١٧٧٩ ، بنشر « قواعد السياسة الطبية » . اكد بأن مراقبة الصحة العامة احد واجبات الدولة وطالب بتشريع خاص . وفي البندقية كان الاعلان عن حالات السل وتطهير أمتعة المسلولين امرين إلزاميين ، وجرت محاولات مماثلة في بلدان اخرى .

ألف الاطباء من جهة ثانية كتباً صحية من شأنها أن تتيح لكل انسان تحسين صحته ومقاومة الامراض مقاومة أجدى . نخص بالذكر ، بين هذه المؤلفات،« آراء الشعب حول صحته » (١٧٦١) و « صحة أهل القلم » (١٧٧٢) الذي لا تزال له أهميته في ايامنا هذه ، وكلاهما للسويسري « تيسو » .

واحرز تقدم حاسم في اتقاء الجدري بالتلقيح . علمت السيدة « مونتيغ » حرم سفير انكلترا في الاستانة بان الجركسيات يخزن انفسهن بابر مغمسة في قيح الجدري ، فيصبن من ثم بجدري خفيف ثم لا يلبثن ان يحصلن على مناعة ضد المرض ، كما لو كانت اجسامهن قد تمرنت على مقاومة المرض الخفيف واستمدت قوى لاتقاء المرض الحقيقي . اطلعت السيدة مونتيغ الغرب على الطريقة ، فكان أن تبناها الطبيب السويسري « ترونشين » (١٧٠٩ – ١٧٨١) وجعل من نفسه بطل التلقيح .

ولاحظ الجراح الانكليزي « جيز » (١٧٤٩ – ١٨٢٣) ، المكلف تلقيح سكان احدى الكونتيات الانكليزية ، ان الذين اصيبوا فيما سبق بجدري البقر (*Vaccine*) لا يتأثرون باللقاح ولا يصابون بالجدري البشري . وبعد ملاحظات واختبارات استغرقت عشرين سنة ، طعّم في ١٤ ايار ١٧٩٦ اول ولد ، « جايمس فيلبس » ، بقيح جدري البقر ، ونشر في السنة ١٧٩٨ « تحقيقه حول اسباب ونتائج جدري البقر » الذي احدث تأثيراً عظيماً . فقد انقذت البشرية من الجدري . ثم اكتشف بعد ذلك ان التطعيم يمارس في اماكن عديدة من الهند ، وفي بلاد فارس ، وبلاد البيرو . ولكن ما كان يجري ليس سوى اتفاقات محلية . اما جيز فهو وحده من توصل الى اكتشاف معلل وشامل .

فن التوليد

في منتصف الطريق بين الطب والجراحة ، احرز فن التوليد تقدماً عظيماً جداً ، لان كل ما فيه قد رد الى مبادىء آلية وطبيعية ، « باعتبار ان التوليد ليس سوى عملية آلية ، خاضعة لنواميس الحركة » («بودلوك» ، ١٧٤٥ – ١٨١٠). فان بوزوس (١٦٨٦ – ١٧٥٣) و « لفريه » (١٧٠٣ – ١٧٨٠) ، مولد ولية عهد فرنسا ، احكما ملقط الجنين الذي كان مستقيماً حتى ذاك العهد : ادخلا عليه الانحناء اللازم ، فبات استعماله رائجاً . وان « بلنك » (١٧٣٨ – ١٨٠٧) ، الاستاذ في بودا وفينا ، قاس الحوض قياسات دقيقة ،

وحدد لكل قياس العمليات الخاصة . توصل فن التوليد الى « يقين هندسي » ، وبلغ كماله التقني . وتنحصر النجاحات المحرزة بعد ذاك الوقت في التطهير والتبنيج .

الجراحة

وبلغت عمليات جراحية كثيرة درجـة الكمال ايضا . فان الفرنسي « بتي » (١٦٧٤ - ١٧٥٠) قد ادخل الاطمئنان الى نفوس الجراحين بالملوى الضاغط ذي الوصائل الذي ابتكره والذي اتاح تجنب نزيف الدم . كان بالاضافة الى ذلك اختصاصياً في معالجة انفكاك العظم ، وكان اول من استخرج الحصى من المرارة . وبلغ من البتر كماله التقني : فقد اجريت بنجاح عمليات استئصال الاعضاء المرضضة والقروح وتورمات المفاصل البيضاء والتورمات العظمية ، والغدد وامهات الدم والسرطانات ، مع علم الجراحين بان هذه الاخيرة تعود الى الظهور . وان « شوبار » (١٧١٣ - ١٧٩٥) ، مكتشف احدى طرائق بتر الرجل ، قد احرز نجاحات كبرى في جراحة المسالك البولية . واشتهر « دافيل » (١٦٩٦ - ١٧٦٢) بمهارته في إزالة سادّة العين (الماء الازرق) باستئصال البلورية ، فاستدعي الى كافة بلاطات اوروبا واجرى في السنة ١٧٥٢ ، عمليات لـ ٢٠٦ مرضى اقترن ١٨٢ منها بنجاح تام . واحرز تقدم كبير في شق المثانة لاستخراج الحصى منها ، ولا سيا على يد ممتهن باريسي هو الاخ « كوم » الذي ابتكر جهازاً لتفتيت الحصى الكبيرة ، وطريقة الشق بواسطة جهاز منحن يدخل الى المثانة . كانت العمليات مؤلمة جداً لان الجراح لم تتوفر لديه اية وسيلة التخدير او التبنيج ، ولكنها كانت تتم بنجاح بفضل المهارة التقنية والنظافة والتطهير المؤلم ، حتى بواسطة الحديد المحمى بالنار اذا اقتضت الحاجة . عرفت بعد ذلك اوائل القرن اللاحق مرحلة قهقرى الى ان استؤنف السير قدماً بواسطة الاكتشافات حول الجراثيم ومواد التخدير والتبنيج .

٢ - التعليم

روح القرن

هوجم التعلم التقليدي هجوماً أكثر اعلاناً وأكثر شمولاً ، وأكثر بلاغة أحياناً منه في القرن السابق ، دون ان يقال في هذا الهجوم شيء جديد حقاً . ليس رأي القرن الثامن عشر في موضوع التعليم سوى تكملة لرأي القرن السابع عشر واضعاف له احياناً . ولكن هنالك ، بدون شك ، مزيداً من التحقيقات .

نجد ثلاثة انواع من المهاجمين. فهنالك من جهة العلميون الذين يعتبرون ان التدريس لا يفسح مجالا كافياً للاكتشافات الحديثة ولفروع العلوم الجديدة. وهنالك من جهة ثانية النفعيون الذين يريدون ان تنطوي البرامج على مزيد من الفنون والمعارف التي يمكن الافادة منها فوراً في الحياة اليومية . وهنالك اخيراً الحاسيون ، مستوحو « لوك » ، من امثال كوندبلاك وروسو ، المقتنعون اقتناعاً تاماً بأن كل افكارنا مصدرها الحواس والراغبون في تعليم بواسطة الكائنات والاشياء ، وبواسطة

ملاحظة الوقائع والاختبار ، لا بواسطة الكتاب والكلمة. وغالباً ما يسير الانسان نفسه في هذه الاتجاهات الثلاثة . كان الجدال حاداً ، وغالباً ما انطوى على سوء النية . غالى المصلحون في مساوىء التعلم وعاملوا خصومهم بازدراء . وأخذ المحافظون عليهم اهمال الاختبار والواقع . نجح المصلحون ، بصورة اجمالية ، ولكن دون ان يحققوا كل ما رغبوا فيه : فقد ادخلت مواد جديدة على البرامج ، واعتمدت طرائق جديدة احياناً ، فكان ان التعلم النفعي ، الذي ندعوه تقنياً ، قد نما وتقدم . جرت الاصلاحات في فرنسا بنوع خاص ، وفي البلدان الخاضعة لملوك جرمانيين وفي روسيا . أما في الدول الأخرى فقد كانت الاستحداثات محدودة جداً. فقد بقيت انكلترا نفسها رفية التعلم الكلاسيكي القديم ولتعلم المهنة بالممارسة تعليماً مباشراً .

التعليم الابتدائي

ان التعلم الابتدائي الذي يجب ان يزود الاولاد بين سن السادسة ومن الحادية عشرة بالمعارف الاولى التي يمكن الافادة منها فوراً ، كان متباين الانتشار . فقد رزع في العائلات على الاثرياء والميسورين . أما عامة الشعب فكان تعليمها خاصاً في البلدان الكاثوليكية : تولته جمعيات رهبانية ، كـ « اخوة العقيدة المسيحية » ، بمساهمة الرعايا والاهالي أو بدونها . ولم يكن هناك في انكلترا الانكليكانية سوى مدارس راعوية تتعهدها الاحسانات الخاصة على قدر الامكان، وفي البلدان الكلفينية واللوثرية أدى واجب قراءة الكتاب المقدس الى قيام تعلم ابتدائي علني غالباً ما اعطى نتائج جيدة . وفي النصف الثاني من القرن سعى « المستبدون المستنيرون » جهدهم لايجاد تعلم رسمي يستهدف تربية أفراد الرعية الامناء والمطيعين والاكفاء . وفي بروسيا جعل فردريك الثاني التعليم الزامياً في السنة ١٧٦٣ . وفي النمسا اعادت ماري – تريز تنظيم التعليم الابتدائي في السنة ١٧٧٤ . وفي روسيا اصدرت كاترين الثانية، في السنة ١٧٨٦ ، قانوناً للمدارس الخاصة قضىبأن يكون التعليم وقفاً على الدولة.

شمل التعلم الدين والاخلاق أولاً ، أي تلقين الجميع مفهوماً للكون ولمصير الانسان ، ولمكان هذا الأخير ودوره في المجتمع ، ثم عتاد المعرفة الأولية : قراءة ، وكتابة ، وحساب . وكانت النتائج حسنة في معظم الاحيان . وفي فرنسا امتاز لعمري تعلم عامة الشعب عنه في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اعتبر هذا التعليم ، منذ عهد مبكر ، غير كاف لأولئك الذين توجب عليهم كسب معيشتهم حال انهاء سني دراستهم . فلذلك ، وبسبب أهمية العمل اليدوي لاحكام النظر واتقان العمل واصابة الرأي، اضاف اليه اخوة العقيدة المسيحية في فرنسا منذ زمن طويل التدرب على الحرف. وفي ألمانيا ادار «فرانك» و « سملر » في « هال » منذ السنة ١٧٠٠ مدارس وفق فيها بين التعليم والتدرب التقني في المشغل ، ونحا هذا النحو فردريك الثاني الذي اضاف الى برامج المدارس الابتدائية زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز .

الى جانب المؤسسات التي افسحت مجالاً للتعليم التقني ، تأسست مدارس تقنية بحتة ، في

ألمانيا وفرنسا بصورة خاصة . ففي باريس تأسست مدرسة الرسم الملكيـة في السنة ١٧٦٧ لـ ١٥٠٠ ولد فوق الثامنة تلقوا دروسهم فيها مجانـاً . وأسس بعض الافراد ، والبلديات ، والولايات ، حيث قامت المصانع ، مدارس لفن فيها الرسم والرياضيات . وفتح احد الفلاسفة ، الدوق دي لاروشفوكو – لنكور ، لأيتام فرقته ، مدرسة مهنية مشهورة أقرها صك ملكي في السنة ١٧٨٦ كانت نموذجاً لمدرسة الفنون والحرف في عهد الثورة الفرنسية . وانما أخـذ على هذه المدارس انها لم تهتم الا لتربية العامل مهملة فيه الانسان والمواطن .

يجب ان نضيف الى هذه المؤسسات ، بسبب الطابع الاولي لتعليمها ، معاهد تعليم أخـوة الابكار من الاشراف الفرنسيين ، التي تولت اعداد الضباط ، والتي نسج على منوالها في بروسيا وروسيا (١٧٣٢) .

وأراد بعض ذوي النظريات ، المستوحين روسو ، ان يلقنوا العـلم بالشكل ، بالتأثيرات الحسية . فان الالماني « باسدو » (١٧٢٣ – ١٧٩٠) قـد ألقى « دروس اشياء » في داسو . كان يضع امام أعين الاولاد لوحة تمثل امرأة مضناة طريحـة الفراش وبعلا جالساً الى جانبها وقبعتين صغيرتين على طاولة . وكان على الاولاد ان « يحدوا » وضع الامرأة ، ومعنى القبعتين والاخطار التي تتعرض لهـا الامرأة الحامل وواجبات الاولاد نحو أمهاتهم اللواتي ذقن الامرين قبل وضعهم . وتؤلف دروس الاشياء كذلك جوهر طريقة « بستالوزي » (١٧٤٦ – ١٨٢٧) الذي باشر رسالة تربوية في « نوهوف » في السنة ١٧٧٥ ، ولكن نشاطه الاول ، الذي لم ينحصر في التعليم الابتدائي ، لاحق العهد الذي يعنينا . وقـد أخذ على هذه الطرائق ، الحصرية جداً ، انها لا تصلح الا للأولاد المتخلفين وانها مضيعة لوقت الولد الطبيعي الذي لم يقدر حدسه وخياله وحتى تفكيره حق التقدير .

التعليم الثانوي

كان التعليم الثانوي خاصاً في كل مكان تقريباً تحت رقابة الكنيسة والدولة . وأدارت الكليات تعاونيات تعليمية أو جامعات ، كجامعة اوكسفورد أو جامعة باريس ، أو جمعيات رهبانية ، كجمعية اليسوعيين الذين أداروا العدد الأكـبر منها ، وجمعيتي البندكتيين ورهبـان القديس فيلبس النيري ، أو الافراد ايضاً في حالات كثيرة . في كليات اليسوعيين وجامعة باريس كان التعليم مجانياً للخارجيين ، وكان الداخليون يستفيدون من منح كثيرة . طالب « المستنيرون » اكثر فأكثر ، لا سيا في فرنسا ، بـ « تربيـة وطنية » وباساتذة علمانيين يختارون بين الناجحين في « مباراة لنيل شهادة التدريس » . لم اصبحت هذه النزعة عامة بعد طرد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلاً بات لزاماً ، بعد السنة ١٧٦٣ ، أن يدير كل كلية «مكتب إدارة» يضم أبرز القضاة . ولكن حل هيئة من الاساتذة الممتازين تسبب في تقهقر تعليمي أفادت منه بروسيا وروسيا اللتين احتضنتا وفادة اليسوعيين .

ارتكز تعليم الكليات الى درس الآداب القديمة كما درست في ايام النهضة . وكان تعليما عمليا .

وزع على رجال الغد من قضاة ومديرين وعامين واطباء وكهنة ورعاة واساتذة وضباط عاملين، فكان طبيعيا أن يعلمهم بتفنون اللغة ، خير اداة لأدق عمليات الفكر واكثرها تعقيداً ، لا بل الشرط الذي لا بد منه لكل تفكير . استخدمت الكلمات لهذه الغاية اللغة اللاتينية، اللغة الأم لحضارة الاوروبية ؛ وقلما استخدمت اللغة اليونانية ، وهي اكثر صعوبة وبعداً ؛ ولم تستخدم اللغات الحية قط ، وهي لم تزل ، باستثناء الفرنسية ، لغات مترددة لن تستقر إلا خلال القرن ؛ وكان استعمال المفردات كأدوات الفكر من الصعوبة بمكان بسبب افتقار المفردات العامة بصورة خاصة الى مداليل ثابتة محددة . يضاف الى ذلك ، على حد ما قيل ، أن المؤلفين اللاتين من شعراء ومؤرخين وخطباء الرياء بالاختبار العاطفي والاخلاقي والسياسي الذي لم يفقد شيئا من اهميته . فحالات ومشاكل الازمنة كلها متوفرة في مؤلفاتهم . وكان الدين ، الذي ينطوي على فلسفة كاملة وعلى علم كامل يتناول الطبيعة البشرية والمجتمعات ، متداخلاً كل شيء . فلم يكن للدين كتبه وواجباته فحسب بل ان كتب الصغار الابتدائية تألفت من مختارات للمؤلفين القدماء حول الله والاخلاق ايضا ؛ وكان يُحكم على آراء العصور القديمة ورجالها من زاوية مسيحية . فكان من ثم ، كما ساد الاعتقاد ، تعليماً غنياً جداً .

قسمت الدروس الى مرحلتين . وقد شملت المرحلة الاولى ثلاثة دروس في الصرف والنحو ودرساً في الادب القديم خصص جله للشعر ، ودرساً في البيان . البيان علم طبيعي. يستخلص من درس كبار المؤلفين قواعد الاقناع . ثم يصيغها احكاماً ويتصل بالتالي ، ككل علم ، بفن أو بتقنية اذا صح التعبير .

كان اكثر التلامذة يهجرون الكلية بعد المرحلة الاولى . وكان الآخرون يتلقون بالاضافة الى ذلك دروس الفلسفة طيلة سنتين. يدرسون المنطق الصوري وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق. المنطق الصوري علم طبيعي يستخلص من درس امهات مؤلفات الفكر البشري قواعد الحكم والبرهان ويستنتج منها فن التفكير . وكانوا يدرسون مبادىء الرياضيات وعلم الطبيعة ، على أن هذا الاخير كان محصوراً في البراهين حول طبيعة المادة وخصائصها . فكان كل شيء ينتهي الى عرض بالاقيسة لمذهب ارسطو يتداخله احياناً شيء من تعاليم ديكارت ولوك .

تميزت الدروس بالنشاط في المرحلة الاولى بنوع خاص . غالباً ما درّست اللغة اللاتينية بحسب الطريقة المباشرة ، بدون كلمة فرنسية واحدة ، سوى النصوص المطلوبة ترجمتها . وهكذا فان التلميذ، الذي لا يلبث ان يمتلك ناصية اللغة ، كان يؤلف باستمرار ، باللغة اللاتينية ، الروايات نثراً ، والامثال نثراً وشعراً ، والمراثي ، والاناشيد ، والتأبين ، والمرافعات ، والخطب . وكان طبيعياً أن تلقى الدروس في المرحلة الثانية ، وكان لدى التلامذة دفاتر يدونون فيها ما يلقى عليهم . ولكن مجرد فهم المسألة المطروحة وتتبع الاقيسة المتعاقبة كان مجهوداً صعباً للشبان ، وقد درجت العادة على المجادلة بواسطة الاقيسة . وكان التدريب يكتمل بتمارين علنية ، مهازل ، وتلاوات عن ظهر قلب ، ومجادلات ، امام الاعيان والاقارب .

. تعرض هذا التعليم للمهاجة . فقد استهزأ بعضهم بمواضيع البيان من أمثال « ندامة نيرون بعد اقدامه على قتل أمه » ، لان التلامذة ، الذين لم يقترفوا جرم قتل قط ، ما كانوا ليستطيعوا انتاج شيء شخصي . اما انصار هذه التمارين فارتأوا ان المهاجة لا تعطي وزناً لحس الشبان وتخيلتهم وحدسهم ، وان الاساتذة على حق في اللجوء اليها لتنميتها ، اذ اننا لا ندرك حق الادراك الا العواطف التي قد نشعر بها بعض الشيء . وان اهمية المخيلة تفوق اهمية البرهان : ان ما نستطيع رؤيته ولمسه وقياسه قليل جداً ؛ فمن « رأى » فرنسا ، وألمانيا ، والدولة ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الكادحين ، والمدالة ، والقساوة ، والحقد ؟ وانتقد بعض الخصوم مواضيع الفلسفة : « هل الكيان مشترك بين الجوهر والعرض ؟ » اما الانصار فكانوا يجيبون بأن هذه المواضيع ، المختارة ، تطرح ، كما يجب ان تطرح ، بتعابير تلنبة هي في منتهى الضبط والدقة .

الا ان بعض فئات رجال الاعمال قد اعتبرت ان ليس هنالك ما يفيد تجار وصناعيي ومزارعي الغد ، وربما تصور ابناء الصناعيين اليدويين والفلاحين ، الذين جاؤوا لقضاء بعض سنوات في الكلية ، دونما رغبة في متابعة دروسهم العليا ، انهم انما يضيعون وقتهم . وارتأوا ، أقله في فرنسا ، ان ما بلغته اللغة من الاستقرار ، والادب من الثروة ، يغني عن اللغة اللاتينية التي لم يعد لها من حاجة الا لترجمة النصوص ؛ وان ما حققته العلوم من التقدم وما وفرته من براهين ودلائل رائعة يسمح بالاستغناء عن كثير من حيل البيان والمنطق . وفي ذلك دليل على ان محاولات جرت لتجديد التعليم الكلاسيكي وتنمية التعليم التقني .

في كل مكان تقريبا ادخلت مواد جديدة على برامج الكليات . في بروسيا ، ادخل فردريك الثاني في السنة ١٧٦٣ تعليم اللغة الفرنسية ، وأحل منطق « وولف » محل منطق ارسطو . في النمسا ، اوجب برنامج الدروس لسنة ١٧٧٣ اعتماد الطريقة الاختبارية في علم الطبيعة والفلسفة والاخلاق . في فرنسا اقدمت بعض كليات رهبان القديس فيلبوس النيري ، ثم الجامعة بعد السنة ١٧٦٣ ، على تعليم اللغة الفرنسية بواسطة الصرف والنحو ، وعلى تدريس البيان بواسطة المؤلفين الفرنسيين . ادخل التاريخ الحديث ، وبعد أن كان سرداً زمنياً للحوادث ، لم يلبث ان اصبح درس الحضارات والحكومات والسياسة الخارجية . تأسست منابر لتلقين علم الطبيعة الاختباري ومختبرات لعلم الطبيعة في كليات عدة بعد السنة ١٧٦٠ . ظهرت اللغات الاجنبية . في الفلسفة ، دحض الاساتذة نيوتون ولوك وديكارت ، ويعني ذلك انهم تكلموا عنهم وأوجدوا الشغف بمعرفتهم . استصوب البعض آراءهم ، وتخلى واحد او اثنان عن البرهنة بالاقيسة . وكان أهم تطوير لفت الانتباه ما أقدم عليه بندكتيو « سان – مور » في كلية « سوريز » : بمكنة التلامذة ، الذين يرغبون في ذلك ، تلقي دروسهم بدون اللغة اللاتينية ووضع برنامجهم الخاص بفضل حقوق اختيار اعطيت لهم . الا أن معظم الكليات حافظت على تقليد اثبت مزاياه وأفضليته .

وإذا عارض اساتذة الكليات ادخال العلوم العملية الى المؤسسات ، ظهرت مدارس خاصة بالتعليم التقني . في المانيا أسس « هكر » ، حوالى السنة ١٧٤٧ ، « المدرسة الواقعية » الاولى. وبعد السنة ١٧٦٣ ، اكثر فردريك الثاني من هذه المدارس في بروسيا . وتعددت مدارس التجارة في المانيا . ودخلت فرنسا عن طريق « الالزاس » حيث أسس تجار « ميلوز » ، في السنة ١٧٨١ ، المدرسة الاولى . وظهرت بعض المدارس الزراعية. وعلمت المدارس كلها الدين واللغات الحية والتاريخ والجغرافية والرياضيات وعلم الطبيعة والرسم ، كما علمت بالاضافة الى ذلك ، بحسب الاختصاص،الكيمياء والعلوم الطبيعية والمراسلة التجارية ومسك الدفاتر وحساب الاوزان والمقاييس في الدول الهامة والعمليات التجارية والزراعة واعمال المشغل . فاتجه التعليم كله شطر الحياة العملية اليومية .

أحدثت مدارس عسكرية وبحرية خاصة . فكان لآل هبسبورغ مدارس عسكرية في بروكسل منذ السنة ١٧١٧ ، وفي فينّا منذ السنة ١٧١٨ . واحدث الفرنسيون خير المدارس لإعداد ضباط الغد لدروسهم العليا . فتحت المدرسة العسكرية الملكية ابوابها في السنة ١٧٥١ لتلامذة تتراوح اعمارهم بين ١٣ و ٢٠ سنة . ثم احدث الكونت « دي سان جرمين » في السنة ١٧٧٦ اثنتي عشرة مدرسة عسكرية اقليمية ، اسندت ادارتها الى رجال كنيسة يعاونهم بعض الضباط ، لقبول تلامذة حتى سن الرابعة عشرة . كان هؤلاء التلامذة يتعلمون اللغة اللاتينية واللغات الحية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والرسم وعلم الطبيعة الاختباري والرقص والمسايفة والموسيقى . وقد ضمت هذه المدارس تلامذة يدفعون رسوماً مدرسية واخرين يستفيدون من منح تتحملها الدولة . وكان نابوليون واحداً من هؤلاء الآخيرين في مدرسة « بريين » .

استقبلت فرقتا حراس البحرية في برست وتولون،لبحرية الدولة ، ابناء نبلاء تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٧ سنة . سرح افراد هاتين الفرقتين في السنة ١٧٨٦ ، فاستعيض عنهما بكليتين احداهما في « فان »والاخرى في« اليه » . تناول التعليم الرياضيات والرسم وبناء السفن والملاحة وقيادة السفن والاستهداء بواسطة الخرائط . وفي فصل الصيف كانت تنظم اسفار بحرية على ظهر سفن التدريس .

وكان هنالك ، للبحرية التجارية، ٢٤ مدرسة خاصة لتلقين علم المياه السطحية في المرافىء الهامة ، وفي السنة ١٧٤٦ أحدثت مدارس رسمية في «برست» و «روشفور» و « تولون» .

التعليم العالي

أما في التعليم العالي ، الذي يوزع على شبان اكبر سناً اعد ذهنهم لتحصيل أعلى درجات المعارف الخاصة ، فقد بقيت الجامعات ، لسوء الحظ ، بعيدة على العموم عن العلوم الجديدة والعلوم العملية . احدثت الجامعات الالمانية دروساً في الاستثمار الزراعي للشبان المعدين لادارة الاملاك الملكية ، أو مشاريع زراعية اخرى . واحدثت

جامعات « هال » و « هيدلبرغ » و « غوتنجن » دروساً في الكيميـاء العملية وعلم الآليات ، ولكن معارضة اساتذة اللاهوت والآداب القديمة كانت سببا في التخلي عنها بعد سنوات معدودة. وادخل آل هبسبورغ العلوم الاختبارية والتعاليم المفيدة الى الجامعات القائمة في بلدانهم، ولا سيما جامعة بافيا في ايطاليا الشمالية . إلا ان الدروس الجديدة نظمت على العموم الى جانب الجامعات على يد الاكاديميات والجمعيات الادبية والعلمية وبعض المؤسسات الخاصة . وكان لبعض العلماء واثرياء الهواة ، في فرنسا ، مجموعات عديدة من النماذج والآلات ، كـ « فوكنسون » مثلا الذي عرض ، في السنة ١٧٧٥ ، مجموعاته من آلات الغزل والحياكة في احد فنادق ضاحية « سانت انطوان » وسمح للجماهير بمشاهدتها . ثم أوصى بها في السنة ١٧٨٢ الى الملك لويس السادس عشر الذي اضاف إليها ٥٠٠ نموذج بغية تحسين المصنوعات . وان هذه المجموعة التي ضمت بعد ذلك الى مجموعة اكاديمية العلوم ، غدت ما نعرفه اليوم بالمعرض الوطني للفنون والحرف . وغدت حديقة الملك ، التي ادارها بوفون ،مركزاً للنشرات العلمية والتعليم . واجتذبت الدروس في علم النبات والكيمياء والتشريح والصيدلة ، التي ألقاها بعض العلماء ، طلاباً كثيرين جداً. وانشئت مدارس لتعليم اعمال المناجم في المانيا ، في « برونسويك » (١٧٤٥) و « فريبورغ » (١٧٦٥) و « كلوستال » (١٧٧٥) ، وفي فرنسا ، في باريس (١٧٧٨) . وغدت المدرسة الفرنسية للجسور والسدود (١٧٤٧) نموذج المدارس العصرية العليا للهندسة المدنية .

واكتسبت الاكاديمية العسكرية النمساوية في«فينر-نوستات» (١٧٥٢) شهرة حلالا.وأعيد فتح المدرسة العسكرية في باريس ، في السنة ١٧٧٧ ، لتستقبل نخبة طلاب المدارس العسكرية الاقليمية . وقد تلقى نابليون بونابرت فيها دروسه بعد تخرجه من بريين .

وقامت في فرنسا آنذاك افضل مدارس المدفعية . أمـا أهمها فمدرسة « لافير » حيث درّست شؤون المدفعية ، للمرة الاولى ، تدريسا قياسيا مبنياً على العقل .وقد اشتهرت كذلك مدرسة « هانوفر » (١٧٨٢) حيث درّس « شارنهورست » مجدّد الجيش البروسي بعد معركة « ايينا » .

وقد لقن خير تعليم تقني عرفته أوروبا في المدرسة الهندسية الفرنسية في«ميزيير»،التي تأسست في السنة ١٧٤٨ ، على غرار أكاديمية المهندسين للسكسونية الهندسة في الأرجح . فـان الطلاب، الآتين من مدرسة المدفعية في «لافير » ، ما كانوا ليقبلوا فيها الا بعد امتحان عسير . وقد اعتبر مهندسو الجيش الفرنسي خير المهندسين في أوروبا . وخرجت المدرسة رجالاً معروفين كثيرين : « لازار كارنو » ، منظم النصر ؛ والرياضي « بونسليه »، وكونيو ، مخترع السيارة ؛و كولومب، العالم بالطبيعيات ؛ والوطني « روجيه دي ليل » ، مؤلف المرسلييز .

منذ السنة ١٧٢٠ تلقى واضعو الخرائط البحرية من الفرنسيين علومهم في دار الخرائط والتصاميم الخاصة بالبحرية في باريس . وتخرج سنوياً من مدرسة البحرية في اللوفر ١٢ مصمماً

السفن . وكانت مدرسة المدفعيين المتمرنين ، المؤسسة في السنة ١٧٦٦ ، تستقبل شباناً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وتجعل منهم ضباط مدفعية في البحرية .

وجّه التعليم في كافة هذه المدارس شطر الناحية العملية . وتناولت الدروس ، المتميزة كلها بقيمة عملية كبرى ، مواد خاصة مختارة . ونذكر على سبيل المثل أن طلاب هندسة المناجم كانوا يدرسون المواد التالية : الكيمياء ، وعلم المعادن ، وعلم سير المياه ورفعها ، والتهوية ، واستثمار المناجم . وكانوا يحلون في قاعة التدريس مسائل عملية عديدة ويرسمون التصاميم . ويعملون في المختبر . وقد كرس نصف الوقت ، ثلاثة ايام من أصل ستة على العموم ، للأعمال المختلفة : بناء الجسور والحصون ، صنع البارود ، مناورات ، ورماية . ومن جهة ثانية كانوا يقضون شطراً من الصيف يمارسون خلاله اعمالاً تمرينية في المصانع وورش الاشغال العامة ومراكز بناء السفن واصلاحها . فكانت نتيجة الاتحاد الوثيق بين العلم والتطبيق العملي وبين عمل الفكر وعمل الايدي تعليماً مهنياً ذا قيمة عظمى . ويعتبر المؤرخ الاميركي « ف . ب ارتز » ان التعليم التقني الفرنسي العالي كان على العموم خير تعليم تقني في كافة انحاء اوروبا ، أي في العالم ، خلال القرن الثامن عشر .

٣ – الصحافة

إن الصحافة الدورية ، التي نشأت في مستهل القرن السابع عشر ، قد نمت نمواً كبيراً خلال القرن الثامن عشر ، في هولندا ولا سيا في انكلترا ، بفضل مزيد من الحرية ونشاط الحياة السياسية ، وفي البلدان الاخرى ، على غرار هذين البلدين ، كلما نمت الحياة الفكرية وبرزت وسائل العمل السياسي التي توفرها الصحافة . فالصحافة تعكس في كل مكان حالة البلاد عكساً يكاد يكون صحيحاً .

الصحف الهولندية

حافظت الصحيفتان الهولنديتان ، « صحيفة اوترخت » و « صحيفة ليدن » ، على الشهرة الاوروبية التي اكتسبتاها خلال القرن السابق . ملأت صفحاتها اخبار هامة في أغلب الاحيان ، كالاعلام بمشاريع المعاهدات ، أو معثرة ومعيبة بسبب الحرية التي يتمتع بها اصحاب المطابع في هذه البلاد الجمهورية ، وبسبب تجارتها المالية الكبرى ، وموقعها كمفارق طرق على بحار ضيقة هي اكثر البحار الاوروبية نشاطاً ، عند مصب الرين . حررتا في معظم ايام السنة باللغة الفرنسية فوجدتا قراءً في كل مكان ، وقد سمح الملوك بدخولها مرغماً صعوبة لأن هذه اللغة تجهلها الطبقات المتوسطة والشعبية . تميزتا بالاستقلال وغالباً ما شكت مجالس الوزراء لحكومة الاقاليم المتحدة قحة الصحافيين ومنقليها . فكانت الحكومة توجه اليهم التهديد تلو التهديد دون أن تعقب ذلك بعمل جدّي في غالب الاحيان. لذلك كان ملك بروسيا ، فردريك الثاني ، يتدخل شخصياً : هاجته يوماً جريدة تصدر في « غرونتغ » فنبه أحد امناء سر المتصرفية البروسية الصحافي إلى أنه ، اذا استمر في مهاجمته ، وسيُتخذ بحقك قرار سيجعلك

تندم على فعلتك طيلة الايام المتبقية من حياتك » . وقد زاحمت الصحف الهولندية صحف أخرى تصدر باللغة الفرنسية ، تأسست في بلدان صغرى تتمتع بحرية لم تعرفها الدول الكبرى ، وضمنت لها النجاح بالصدق والصراحة : « صحيفة هرف » في أقليم « ليـــاج » ؛ « روح الصحف » في لياج ، و « صحيفة برن » و « صحيفة كولونيا » . إلا أن بعض هذه الصحف لم ير ضيراً في تقبل مساعدات الملوك المالية .

الصحافة الانكليزية

ازدهرت في انكلترا صحافـــة عصرية الطابع . تميزت بحريتها الكبرى نسبياً . لا حاجة الى ترخيص مسبق : باستطاعة اي كان ان يؤسس ساعة يشاء الصحيفة التي يطيب له تأسيسها . ولا رقابة احتياطية : فالمقالات لا يقرأهـــا ولا يقتطع منها ولا يحذفها رقيب رسمي قبل ظهورها . وهذا شيء ضروري في بلاد خاضعة لنظام تمثيلي وبرلماني الى حد بعيد ، حيث بعض المواطنين ينتخبون ومن حقهم ابداء رأيهم . ولكن الصحافة ليست حاجة سياسية فحسب ؛ فهي نتيجة تفتح كافة اشكال الحياة الاجتماعية ، ولذلك فتبادل الآراء والاخبار ينمو مع كل ما سواه .

بلغت هذه الصحافة بعض الكمال نسبياً . فان المنشورات الدورية ، التي كانت اسبوعيـــة في البدء ، صدرت ثـــلاث مرات في الاسبوع منذ ان سيّرت ثـــلاث عربات بريد على الطرق الرئيسية المتفرعة من لندن. غدت الـ « دايلي كورانت » ، ابتداء من السنة ١٧٠٢ ، اول صحيفة يومية . كانت هناك اربعة انواع رئيـــية من المنشورات الدورية : الجريدة السياسية ؛ والجريـدة الاخلاقية ، وابعدها شهرة جريدة الـ « سبكتاتور » لاديسون الذي عرف نجاحـاً عظيماً حتى السنة ١٧١٢ واقتفى اثره اكثر من مائة صحافي في انكلترا وخلفه صحافيون كثيرون في الـــبر الاوروبي ؛ والجريدة الاعلانية ؛ واخيراً « المجلة » ، « مخزن » كل جديد مهم في العالم : وكانت المجلة الاولى « مجلة الجنتلمن» الشهرية التي تأسست في السنة ١٧٣١ وتألفت من ٤٢ صفحة مطبوعة على عمودين . ولكن هذا التقسيم ليس مطلقاً. فان الجرائد السياسية قد نشرت محاولات اخلاقية واعلانات ، والجرائد الاعلانية نشرت مقالات سياسية ، ونشرت المجلات خلاصات المناقشات البرلمانية . في هذه البلاد التي كانت موطن التجارة الكبرى ، عاشت الصحافة من الاعلانات ، وقد كتب احد الصحافيين في السنة ١٧٥٩ : « ان صناعة الاعلان هي الآن على قـاب قوسين من الكمال ، وليس سهلاً ادخال اي تحسين عليها » .

الصحافة الانكليزية صحافة طبقة من الميسورين. فهؤلاء قد اقصوا الفقراء بضريبة الطابـــع البريدي التي فرضت في السنة ١٧١٢ ، وزيدت نسبتها تدريجياً ، فازالت من الوجود الجرائـــد الصغيرة العديدة التي كانت تباع بفلس وتلتشل الشعب من الجهل من حيث هو يعلم اولاده فيها القراءة . الا ان الجرائد كانت ، بفضل المقاهي ، في متناول الصناعيين اليدويين انفسهم . وكم كانت دهشة مونتسكيو كبيرة حين رأى عاملا مسقفاً يطلب ان يؤتى له بجريدة.

وهي صحافة نضال ايضاً حاولت الاحزاب والحكومة الافادة منها. فرؤساء الاحزاب أسسوا الجرائد وتنازعوا الصحافيين اللامعين الذين يحصى بعضهم بين كبار الكتبة الانكليز: « ديفو »، «سويفت»، « فيلدنغ ». لا بل ان أحد الاسياد العظام، « بولنبروك »، قد احترف الصحافة منذ السنة ١٧٢٨ حتى السنة ١٧٣١ تفانياً منه في سبيل حزبه. وقد استخدم رئيس مجلس الوزراء « مالبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢) عدداً من المستكتبين واعطى تصاميم المقالات واوحى بما يجب أن يُنشر لعدد كبير من الجرائد وقدم المساعدات المالية للمستقلين أو المعادين. فجر ذلك على الدولة ٥٠٠٠٠ الف جنيه استرليني في السنة. اتفقت كلمة كافة السياسيين على أن لا يعرف الصحافيون عن البرلمان إلا ما يرونه مفيداً. لم تكن الجلسات عامة وقد حظر نشر وقائعها. فكان خيراً أن لا يعرف الجمهور معرفة أكيدة أن رئيس مجلس الوزراء كان يمر بين مقاعد النواب موزعاً عليهم الاوراق النقدية. ووجدت الصحافة نفسها، من ثم، معاقة ومستعبدة بعض الاستعباد.

حاول بعض الصحافيين، الحريصين على تأدية واجبهم المهني قبل كل شيء، أن يؤمنوا استقلالهم. وقد بلغوا ما سعوا اليه، فيما خص الاحزاب، بفضل الاعلانات وحتى بفضل ضريبة الطابع البريدي التي ازالت المنافسين من طريقهم. نشر مديرو المجلات وقائع جلسات مجلس العموم بالاشارة الى النواب بحرفين من اسمهم اولا (١٧٣١ – ١٧٣٨)، ثم بتظاهرهم، بعد صدور رواية « سويفت »، بسرد مناقشات مجلس شيوخ « ليليبوت » (١٧٣٨ ١٧٥٢)، واخيراً بنقلهم تفاصيل المناقشات بصراحة، فسارت الجرائد على خطاهم. وكان أن الأزمة الكبرى التي نشبت بمحاولة جورج الثالث ممارسة الحكم الشخصي، وقد برزت فيها قضية « ويلكس » بصورة خاصة، أفضت الى انتصار الصحافيين. ففي السنة ١٧٧١، أوقف بعض الصحافيين لنشرهم تفاصيل المناقشات البرلمانية، فأخلى سبيلهم قضاة لندن، وكان من قوة تيار الرأي العام أن تخلى البرلمان عن المنع. وبعد محاولات كثيرة بذلت بغية تكليف القضاة الملكيين تقرير ما اذا كانت المقالات تنطوي على طابع القدح والذم، تركت هذه المهمة اخيرا، في السنة ١٧٩٢، للمحلفين والصحافيين الذين اصبحوا، بمثل هذه الحماية، يتمتعون بحرية تامة.

الصحافة الاميركية

في المستعمرات الانكليزية الاميركية تقدمت الصحافة تقدماً عسيرا. فالحبر والورق وأحرف المطابع المستوردة من اوروبا كانت مرتفعة الاسعار. وكان عدد المشتركين ضئيلاً لأن الأخبار كانت نادرة ومتأخرة. وكان اجتياز الاطلسي يستغرق بين خمسة وثمانية اسابيع، ولم تكن المواصلات أقل بطئاً بين المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية. ومع ذلك فقد كان هنالك، في السنة ١٧٧٥، ٣٤ جريدة اسبوعية تصدر بانتظام تقريباً، أهمها جريدة « فرانكلن »، « جريدة بلسلفانيا »، في فيلادلفيا. خلال حرب الاستقلال، أدير النضال الفكري بواسطة الكتب الصغيرة بصورة خاصة: إلا أن

« جريدة بوسطن » لصاحبها « سام ادامز » وجرائد « توماس باين » قد لعبت دورها ايضا . ثم تعاظم ميل الاميركيين الى المنشورات الدورية . فتأسست مصانع ورق وحبر وأحرف مطابع للاستغناء عن انكلترا . وفي السنة ١٧٨٢ ، كان هنالك ٤٣ نشرة دورية ، وفي السنة ١٧٨٤ ، ظهرت الجريدة اليومية الاولى ، « بنسلفانيا باكت » .

الصحافة في البر الاوروبي

كانت الصحافة في البر الاوروبي ، حيثما قامت ملكية مطلقة ، خاضعة للترخيص المسبق ، والاحتكار ، والرقابة المسبقة . وكان الصحافيون ، من جهة ثانية ، محتقرين في كل البلدان كبجهلة رسطحيين . فكان للمؤلفات الكبرى والكتب الصغرى مركز الصدارة . ولذلك فان فولتير ، وهو اول صحافي عرفته العصور المتعاقبة ، لم يكتب في الجرائد . فكثرت من ثم الجرائد المخطوطة التي بيعت في الخفاء ، وهي الشكل الدوني من اشكال الصحافة .

في فرنسا

بيد ان استرخاء عاماً قد شجع الصحافة في فرنسا . دفعت بعض الجرائد الجديدة تعويضاً للجريدة الدورية المتميزة ، « جريدة فرنسا » ، للأخبار السياسية ، و « مركور فرنسا » للأخبار الادبية والعالمية ، و « جريدة العلماء» . وحرر غيرها خارج فرنسا وسمح لها بالدخول مقابل رسم تستوفيه وزارة الشؤون الخارجية . الا ان فقدان الوحدةفي الحكومة غالباً ما اتاح الاهتداء الى وزير يحمي الجريدةمن الرقابة . فصدرت منشورات دورية كثيرة اشهرت الأب « بريفو » ، والأب « ديفونتين » ، وفريرون . لا بل ان المكتبي « بنكوك » قد نظم منذ السنة ١٧٧٢ شركة احتكارية حقيقية للجرائد وتوصل في السنة ١٧٨٧ الى الحصول على امتياز « جريدة فرنسا » و « مركور فرنسا » ، وأدخل في خدمته المحررين النضاليين ، المشهورين بعنفهم وحيام ، الذين ينشدون الحرية . ولكن التأخر كبير بالنسبة للصحافة الانكليزية : فإن « جريدة باريس» ، وهي أول جريدة يومية ، لم تصدر الا في السنة ١٧٧٧ .

حاولت الحكومة ان تضمن لها خدمات الصحافيين الفرنسيين والصحافيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية في كافة انحاء اوروبا . وقد انفقت في محاولتها مبالغ ضخمة من المال . ثم فكرت بأن تكون لها جرائدها ايضاً . ففي السنة ١٧٦١ ألحق « شوازول » « جريدة فرنسا » بوزارة الشؤون الخارجية واوعز الى المشرفين عليها باعتماد « اللهجة الجمهورية » . وبواسطة الصحافة أعد « فرجين » الرأي العام للحرب الاميركية . ومنذ السنة ١٧٧٥ أخذت « جريدة فرنسا » والـ «مركور» تعظم « الثائرين » . ومنذ السنة ١٦٧٦ ، ادارت وزارة الشؤون الخارجية سراً جريدة « شؤون انكلترا واميركا » التي ما فتئت تهاجم الانكليز وانتهت الى امتداح مبادىء اعلان الاستقلال ونشر مقتطفات طويلة من « المعقول العام » ، مقالة توماس باين الانتقادية الديموقراطية العنيفة . فكان ذلك بمثابة لعب بالنار .

البلدان الاخرى

أما الدول الاوروبية الاخرى ، فكانت كلها دون فرنسا بمراحل. الترخيص يمنح بكل تقتير ، والرقابة تمارس بكل صرامة . نمت النشرات الدورية على العموم في المدن الحرة ، المزدهرة لتجارتها ، « فرنكفورت» ، «هبورغ» ، كولونيا اوغسبورغ ، ولكنها لم تنج من ازعاج الرقابة الدائمة . بيد ان الاولوية كانت للنشرات الأدبية الدورية في كل مكان . وفردريك الثاني هو الوحيد ، بين كافة الملوك ، من افاد من الصحافة خير افادة براعاته مصلحته الشخصية دون كل مصلحة اخرى . استحدث الجرائد في مدنه الكبرى . وكتب مقالات واوحى بغيرها ونقح سواها . مارس البُطل بكل مهارة . فلإثارة الرأي العام الألماني والبروتستانتي على النمسا الكاثوليكية لم يأنف من ان ينشر في كل مكان رسالة مزعومة من البابا الى القائد النمساوي « دون » وكتاب تهنئة مزورا من القائد الفرنسي « سوبيز » الى هذا الأخير (١٧٥٩) . في السنة ١٧٦٧ هزت برلين شائعة حرب جديدة . فاعطت الجريدتان البرلينيتان شتى التفاصيل حول عاصفة بَرَدية شديدة اجتاحت ، بزعمها ، منطقة « بوستدام » . نسي البرلينيون الحرب في استزادتهم من التفاصيل حول هذه الكارثة الخيالية . في سيليزيا المحتلة ارغمت «جريدة سيليزيا » على اطراء الانتصارات البروسية والنظام البروسي ، ومهاجمة النمسا . وأوعز فردريك الثاني بأن تؤسس في« كليف»جريدة باللغة الفرنسية بغية التأثير على اوروبا،هي «بريد الرين الاسفل »،وقدم المساعدات المالية،شأن غيره،للجرائد الصادرة باللغة الفرنسية ، كـ «جريدة برن» مثلا . وحارب خصومه بكافة الوسائل . فأمر مثلا بأن يوسع مدير « جريدة كولونيا » المعادية ضرباً بالعصا . اضطر النمساويون ، بدورهم ، الى اثارة جرائد المدن الكبرى على فردريك الثاني . وفي اقصى اوروبا ، أي في روسيا الآخذة في التنبه الى حياة الغرب الفكرية ، ادارت كاترين الثانية مجلة « شيء من كل شيء » ، واعتمدت فيها الاسلوب الجدلي . بذلت بعض المحاولات في سبيل تحقيق حرية الصحافة ، كمحاولة « جوزف الثاني » مثلا ، ولكنها لم تدم طويلا .

يتضح من ثم ان الصحافة برزت كأداة تربية قوية . وهناك جرائد دورية انكليزية وفرنسية عديدة اثبتت قيمتها الكبرى . ولكنها توجهت بصورة خاصة الى الميسورين والمثقفين من النبلاء والبورجوازيين . ان زمن الصحافة الشعبية لم يحن بعد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الصحافة ، منذ ذاك التاريخ ، اداة كذب واداة تضليل للرأي العام .

ان مجموع الطرائق التقنية التي بحثناها في هذه العجالة ، سواء كانت جديدة كل الجدة ، ام اتخذ استخدامها آفاقاً جديدة واشكالا جديدة ، لجدير لعمري بأن يحمل اسم الثورة . توفرت للاوروبيين وسائل فاقت كل ما عرف منها قبل ذاك التاريخ . وكان بمكنتهم تولي امر تحسينهم الخاص وتحسين كافة البشر ومحاولة ايصالهم الى مستوى الانسانية الاسمى . ولكنهم لم يسعوا في اغلب الاحيان الا وراء الفتح والاستثمار بغية اشباع رغائبهم . وعلى الرغم من النوايا الكريمة ، فقد حال الاتجاه التجاوي للحضارة الاوروبية خلال القرن الثامن عشر دون قيام الاوروبيين بهداية الاعراق الملونة في ما وراء المحيط الى خير ما امتلكته اوروبا .

الأنوار وتعذر تحقيق الأمة الأوروبية

الفصل الأول

وحدة أوروبا

افتتنت اوروبا بحلم ساحر ،هو حلم الامة الاوروبية . وعى المثقفون مايقرب بينهم من احياء آداب قديمة ، ومسيحية ، او مثل موروثة عنها ، تداخلت كل افكار العصر ، حتى المعادية منها ، وفردية النهضة ، وروح علمية عصرية ، واشكال فنية ، وحياة مجتمع ، وتقنيات ، ولاحظوا وجود هذا الكائن ، اوروبا . وصفها فولتير كـ « ... نوع من جمهورية كبرى مقسمة بين عدة دول ، بعضها ملكي وبعضها الآخر مختلط ، هذه ارستوقراطية ، وتلك شعبية ؛ ولكنها متطابقة كلها ، من حيث هي ترتكز الى اساس ديني واحد ، وتؤمن بمبادىء حقوقية وسياسية واحدة ، مجهولة في انحاء العالم الاخرى ... » والح الميلانيون في التأكيد : « ان البشر ، الذين كانوا في ما مضى رومانيين او فلورنسيين او جنويين او لومبارديين قد اصبحوا كلهم اوروبيين تقريباً » ؛ وذهب الجنيفي روسو في تأكيده الى حد قوله « ان ليس هنالك اليوم من فرنسيين والمان واسبانيين وحتى من انكليز ، ليس هنالك سوى اوروبيين . ميول الجميع واحدة هواؤهم واحدة واخلاقهم واحدة لان واحداً من كل هذه لم يتخذ شكلاً قومياً بموجب نظام خاص » . ودرج المثقفون على الكلام عن « عادات اوروبا المشتركة » . اما المستقبل المرتقب فكان نهاية الحروب وتقارب كافة الدول في اتحاد كبير للدول المتحدة الاوروبية .

اوروبا الفرنسية

هي فرنسا آنذاك ما وحدت اوروبا فكرياً وأخلاقياً . على الرغم من هزيمتها في حرب وراثة عرش اسبانيا ومن اعترافها بالهزيمة في معاهدتي « اوترخت » و « راستات» ، وعلى الرغم من ان انكلترا اصبحت الدولة الاولى تجارياً

وسياسياً ، فان فرنسا ما زالت تنير وتقود اوروبا ، وتنير وتقود بواسطتها عالماً بكامله . فإن المركيز « كاراشيولي » ، سفير نابولي ، قد صدّر كتابا صغيراً وضعه في السنة ١٧٧٦ بهذا العنوان : « باريس ، مثال الامم الاجنبية » او « اوروبا الفرنسية » . وقد جاء فيه : « من اليسير ابداً التعرف الى امة مسيطرة تحاول اقتفاء آثارها . بالامس كل شيء كان رومانيا ، اما اليوم فكل شيء اصبح فرنسيا » . وفي اواخر القرن ، قال « ريفارول » في احتفال تتويجه في اكاديمية برلين : « يبدو ان الزمان قد حان الكلام عن العالم الفرنسي ، كما سبق الكلام في ما مضى عن العالم الروماني » . والمقصود بكل ذلك هيمنة فرنسية مرتكزة ، لا الى القوة ، بل الى رضى الافكار الحرة .

الفرنسية لغة اوروبية

لأوروبا لغتها المشتركة ، اللغة الفرنسية ، التي كانت قيمتها احد اسباب رفعة المقام الفرنسية . منذ السنة ١٧١٤ ، اذ سلّم صاحب الجلالة الامبراطورية وصاحب الجلالة المسيحية جدا ، في راستات ، بتوقيع اتفاق باللغة الفرنسية ، حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية ، حتى حدود آسيا ، كلغة دبلوماسية : ففي السنة ١٧٧٤ حرر الاتراك والروس معاهدتهم باللغة الفرنسية .

وتكلم امراء اوروبا جميعاً اللغة الفرنسية وكتبوا باللغة الفرنسية ، ونحا نحوهم افراد بطانتهم . وراسلت ماري-تريز النمساوية ابنها جوزف الثاني وابنتها ماري - انطوانيت باللغة الفرنسية . ونظر فردريك الثاني ، ملك بروسيا ، الى اللغة الالمانية كما الى طمطمانية بربرية ولم يستعمل سوى اللغة الفرنسية . باللغة الفرنسية راسلت الفلاسفة كاترين الثانية امبراطورة روسيا . واستخدم اهل الأدب كذلك اللغة الفرنسية . لا بل ان الجرماني « لسنغ » كاد يؤلف الـ « لاوكون » بالفرنسية ، وان « غوته » ، الذي سيتكلم فيما بعد عن « لغته الالمانية العزيزة » ، قد تردد بين اللغتين . واجاد العديد من الاوروبيين التأليف باللغة الفرنسية ، وانه لجدير بسبعة منهم ان يحتلوا مركزاً في أدبنا : البريطاني « هاملتون » ، الامير البلجيكي « دي لينيه » ، الكاهن الايطالي « غالياني » ، الصحافي الالماني « غريم » ، ملك بروسيا « فردريك الثاني » ، الامبراطورة كاترين الثانية ، الجنيفي جان جاك روسو . وتكلم اللغة الفرنسية كافة « اهل الفضيلة والامانة » . فكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع الرفيع . ولم ينتقل الادب الانكليزي الى اوروبا الا في ترجمات او مقتبسات فرنسية . وحتى يستطيع المختارون استخدام مجموعة ايطالية ، كان ضروريا ان تكون مترجمة الى الفرنسية . ولعل النخبة الالمانية عرفت مؤلفات كبار الكتاب الالمان ، من امثال « كلوبستوك » و « لسنغ » ، من خلال ترجمة فرنسية . وخير القول ما قاله فردريك الثاني حين امر ان تنشر باللغة الفرنسية « ابحاث اكاديمية برلين » : « على الاكاديميات ، كي تكون مفيدة ، ان تبلغ اكتشافاتها باللغة الشاملة ، وهذه اللغة هي الفرنسية » ؛ وفي كتابه « التاريخ العصري » جاء عن اللغة الفرنسية ما يلي : « تدخل الى كافة

المنازل وكافة المدن. سافر من لشبونة الى بطرسبورغ ومن ستوكهولم الى نابولي ، وتكلم الفرنسية، فتصادف في كل مكان من يفهم ما تقول ».

ان اللغة الفرنسية مدينة بهذه الملكية الخارقة لوضوحها . فهي اكثر اللغات وضوحاً لان عمل الكلاسيكيين قد اقصرها على اعم المفردات بالاستغناء عن معظم الكلمات التي تستخدم في العلم الواسع الخاص وفي الاختبار التقني، وعن الكلمات الاقليمية والمحلية والشخصية والمؤثرة؛ ولأن كل كلمة أو تعبير احتفظ بها قد كانا موضوع بحث وتدقيق ، وكل معنى قد حدّد ، والقوّة والمدلول قد قيسا ، والتجانسات والاستعمال والموافقات قد عينت ، وأخيراً لان ليس من لغة في أوروبا بلغت هذا القدر من الضبط والصحة والوضوح وقرب المأخذ بالنسبة لكل من ليس منتسباً للبلاد او للمهنة .

انتصرت لانها استُخدمت في اكمل المؤلفات ، تلك التي انتظمت فيها الافكار انتظاماً خالياً من كل عيب ينقلنا تدريجياً من الفكر البسيط الى الافكار المطردة التركيب بحسب تسلسل منطقي ؛ ولان كل فكر قليل الفائدة أو غريب عما يريد المؤلف ايضاحه او اثباته يقصى اقصاءً تاماً ؛ ولأنها استخدمت كذلك في المؤلفات التي ُحققت فيها خير تحقيق صفات النظام والسياق والتدرج والاتصال واستمرار البيان، وفي تلك التي تطرق جوهر الموضوع بدون مداورة وتفسر وتبرهن وتقنع وتقرب الى الادراك ، بشكل لا نظير له .

ان هذه المؤلفات، وهي اجلى ما انتجته أوروبا ، لكافية بمجرد صناعتها لأن تؤلف مدرسة فكرية ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تنطوي على كنز قل نظيره من الملاحظات والآراء . غزا الادب الفرنسي كل شيء. قرأ الناس كبار كلاسيكيي القرن السابع عشر ومؤلفي القرن الثامن عشر واعادوا قراءتهم تكراراً وتأملوا فيهم واستساغوهم وقلدوهم واقتبسوهم. لقد هتف الميلاني « بكاريا » قائلاً : « أنا مدين بكل شيء الكتب الفرنسية . ايه دالمبر وديدرو وهلفتيوس وبوفون، ايتها الاسماء الذائعة الشهرة التي لا يمكن ان نسمع بها دون اهتزاز وتأثر ، ان مؤلفاتكم الخالدة هي كتب مطالعتي الدائمة وموضوع انشغالي في النهار وتأملاتي في الليل» .وكان باستطاعة الوف مؤلفة ان تقول ما قاله بكاريا .وتشرب فردريك الثاني« بايل» ، وفونتنيل ، ومونتسكيو الذي دعاه « نوراة المشترع المصري »، ولا سيما فولتير . وتغذى جوزف الثاني بمؤلفات واضعي دائرة المعارف والاقتصاديين و « الملك » فولتير . وتشبع الكتاب الالمان من الادب الفرنسي . لا بل ان صحافياً اشتهر بألمانيته كـ «لسنغ » قد حاول افراغ جمله في قالب جمل فولتير ، واشهر بمسرحياته نظريات ديدرو ، واستوحى الاب « دي بوس » في نقده الفني . وجاء غوته الى جامعة ستراسبورغ بغية اتقان اللغة الفرنسية وافتتن بالفرنسيين . لا بل بلغ من تأثر الانكليز بالادب الفرنسي ان مقالات انتقادية سياسية قد صيغت صياغة فرنسية . لقد سيطر على اوروبا اتجاه عقلي مشترك وطريقة تفكير مشتركة وآراء كثيرة مشتركة .

وكان فرنسياً كذلك الفن الاوروبي، وهو مصدر آخر لميول ومشاعر مشتركة.

الفن الفرنسي فن اوروبي اراد المجتمع الفرنسي آنذاك ان يجمل حياته بملاذ الحواس اللطيفة التي تستلزم حكماً ممحصاً، وقد خرج الفن الفرنسي من هذه النزعة التي قواها.

انه متجانس وتطوره متواصل. بشق النفس نستطيع ان نميز مزيداً من الشهوانية والهوى في عهد الوصاية، اثناء المرحلة التي عقبت الحرب؛ وحالة توازن حوالي السنة ١٧٥٠، حين عرف النمط المعروف بنمط لويس الخامس عشر اوج ازدهاره؛ ونزعة متزايدة الى البساطة وعدم التصنع، ابتداء من السنة ١٧٦٠، تحت تأثير العصور القديمة المكتشفة في اركولانوم، وبومبيي، ومصر، ونظريات «ونكلمن»، في ما اطلق عليه اسم نمط لويس السادس عشر. ولكن هنالك ما هو اشبه بتصميم على متابعة المهمة المشروع بها وادخال الجدة في التقليد. فكان «دافيد» اول من ظهر بمظهر الثائر. وان هذه الوحدة وهذا الاستمرار يردان الى هيكل اداري «لا يزعج الاقوياء ... ، ويساند الضعفاء»، ويتيح للمتوسطين انفسهم ان لا يكونوا البتة ارديا، كلياً»: سلطة وكيل الابنية ومهندس الملك ورسامه الاولين، وأثر الاكاديميات النشيطة جداً التي تعلم وترشد وتكافىء. وترد الوحدة والاستمرار كذلك الى الزبن الذين يحتل البورجوازيون ولا سيا البورجوازيات المركز الاول بينهم: المرأة هي مصدر الوحي الاول. اما الملك، الذي واجه صعوبات مالية جمة، فلم تعد نصرة الفن وقفاً عليه، بينا كانت البلاد آخذة بجمع الثروات بواسطة التجارة والمصانع. واذا استمرت الملكتان «ماري لكزنسكا» و «ماري انطوانيت»، والعائلات النبيلة الكبرى في تشييد الابنية وطلب البضائع، فان حديثي النعمة وحديثي العهد بالغنى قد لعبوا دورا ربما كان اكبر من دور الملكتين والعائلات النبيلة: الخليلات الملكيات المنحدرات من اصل وضيع، كالسيدة «دي بومبادور» والسيدة «دي باري»؛ ورجال المال كـ «كروزا» و «باري - دوفرني»؛ وممثلات الاوبرا كـ «غيمار». لم يعد الفن فرسايليا فحسب، انه باريسي في الدرجة الاولى، والولايات تقتفي اثر باريس. الفنان يعمل لجمهور اكبر عددا. فمنذ السنة ١٧٣٧، لا تسمح الاجتماعات في قاعات الاستقبال، التي يسرد تفاصيلها الصحافيون، كديدرو مثلاً، بالاتصال بمزيد من الناس فحسب، بل ان اعادة نشر المؤلفات بنقوش متقنة يرغم على ارضاء هواة من صغار البورجوازيين انفسهم ايضا. من هذه التأثيرات المختلفة انبثق الفن الذي تميز بتنوعه وسحره.

ازدهر في أعقاب حروب لويس الرابع عشر الطويلة والعصيبة، في عصر أبعد استقراراً كانت المملكة لم تشعر فيه بقتال ملوكها في الخارج، واستوحى السعي وراء السعادة على هذه الارض، فجاء فناً علمانياً بحتاً ليس من روح الكنيسة لا بقليل ولا بكثير. هندسة عمارة كان ام تزييناً، رسماً أم نقاشة، زياً أم موسيقى، فانه يطفح بالطلاوة أبداً. الحقة، وخفة حتى في القوة، وانطلاق، ونسق رشيق، واعتدال، وتحفظا، انه لمن الصعب التعبير عن هذه

الطلاوة بالكلام ، ولكن ليس من يشاهد تحقيقات هـذا الفن دون أن يتأثر بها . انه فن فتي ! فتي باختيار نماذجـــه أولاً : نعم ان الرسامين والنقاشين لم يرفضوا الكهول والشيوخ في رسم الاشخاص ، وحتى المشاهد ، فانهم قد فضلوا الاطفال والفتيان والشبان ولا سيا الشابات ، لأن العصر كان « عصر المرأة » ؛ وفتي كذلك بميله الى الحركة ، وتزوة العنف في التماثيل المختلجة ، ومسيرة الجماعات الراقصة على اللوحات ، ونسق وجه الابنية الذي يشعر المشاهد امامه وكأنه مأخوذ ومحمول كما في موسيقى راقصة سحرية . انه لفن بهج أيضاً : فاخشاب الاثاث الزاهـــرة الالوان ، ومرايا المداخن المتألقة ، والوان الرسوم اللامعة والمتنوعة ، وجمال العري ، والبسمات ، كل ما فيه سحر العيون ، وعيد دائم ، وكل ما فيه يعبق ببهجة الحياة . وانــه لفن مريح اخيراً لا يغفل رغد العيش البتة. ان هذه المميزات المسيطرة ، التي قد رافقتها مميزات أخرى ، موجودة في كافة تحقيقات هذا الفن .

هندسة العمارة الفرنسية

عني القرن الثامن عشر عناية خاصة بتجميل المدن الذي سبق القرن السالف ان عاد إليه . نظر الى المدينة ككل لتجميلها وتحسين حياة سكانها المادية . سعى وراء الجمال والمنفعة في آن واحد . كوّن لنفسه مفهوماً كلاسيكياً واراد إخضاع الطبيعة لمشيئة الانسان وعقله ، ولكنه لم يهمل الطبيعة قط ، ولا التاريخ، لأن الصواب يقضي بالافادة من معطياتها . فبرزت في كل مكان الارصفة الجلية والجسور المتينـــة في « رين » و « اورليان » و « بلوا » و « تور » و « نانت» ، والمنتزهات العامة وحدائق المدن ، كوالدائرة الكبرى » في « تولوز » مع تجمتها المخضوضبة (١٧٥٢) ، وحديقة « الينبـوع » في « نيم » ، و الـ « بيرو» في « مونبلييه » مع اطلالته على أفق جبال « سيفين » العابس والاجرد ؛ وبرزت في كل مكان الساحات الملكية الممتدة لأن تكون اطاراً لتمثال الملك، في «ليون»، و «مونبلييه» و « ديجون » و « رمس » ، و « فالنسيان » ، و « نانسي » ، و « بـــوردو » ، و « رين » ، ولا سيما ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الاتفاق) في باريس . ولكــن الســاحة ، التي كانت مغلقة في القرن السابع عشر ، انفتحت في القرن الثامن عشر واسهمت في السير العـام . لم يشيد في جوار ساحة لويس الخامس عشر سوى صف من الابنية الى الوراء، وامتدت الحدائق الى يمينها ويسارها وانساب نهر السين امامها . وتجاورت الساحات ، كما نرى ، في نانسي مثلا ، ساحـة « دوكال » مع حواجزها الحديدية المشبكة الشهيرة التي حققها « لامور » ، وساحتي « المحجر » و « نصف الدائرة » اللتين « تتقابلان وكأنهما مقطعان من نغم واحد » . وظهرت فكرة تجميل عصرية جداً في التصاميم التي وضعها « لدو » لمدينة نموذجية تقرر بناؤها في « شو » ، من اعمـال « فرانش – كونتيه » ، حيث تبدو الابنية المكعبة والكروية ، الخلو من كل تزيين ، تسبيقاً لما سيحققه « له كوربوزييه » .

احتفظت هندسة العمارة بطابعها الكلاسيكي ، وعلى الرغم من اننا نلمس فيها تطور القرن العام ، فلعل الفن هو أقل ما تبدل فيها . لم يحدث الملك أشياء جديدة كثيرة في فرسايل ، وان

اولفم هنا الـ « تريانون الصغير » الذي حققه « غابرييل » (١٧٦٨) والذي هو تحفة القرن الثامن عشر . فباريس هي التي استأثرت بالحدثات الهامـة . لم تقم هناك أبنيـة دينية كثيرة (القديسة جنفييف التي حققها « سوفلو » ، و « سان سولبيس » التي حققها « سرفندوني ») . ولكن الابنية الدينية تجددت بالاستعاضة عن الركائز الضخمة الثقيلة بالاعمدة الرشيقة وباعتماد الاوروقة . اكثر الابنية الجديدة أبنية منفعة عامة : المدرسة العسكرية ، وهي من تحقيق غابرييل (١٧٥١) ، ومدرسة الجراحة ، من تحقيق « غندوان » (١٧٨٠) ، ودار السكة (١٧٧١) ، والمسارح ، كـ « الاوديون » ، من تحقيق « انطـوان » و « بـير » ، ومسرح « فكتور لويس » في بوردو الذي كان سلفه الابهى الكبير ، المستوحى من القصور الملكية ، مثالاً نسج « شارل غارنيه » على منواله عندما حقق دار الاوبرا في باريس . وقامت كذلـك دور ارستوقراطية كثيرة شيدت بحسب تصميم خاص : المسكن منفرد تحيط به ابنية الخدمة القائمة الزوايا ويفصله عن الشارع فناء الشرف ، ووجه البناء مع بناء آخر امامي في الوسط ، والحدائق في المؤخرة . اما امثلة ذلك فدار « سوبيز » ، من تحقيق «ديلامير » و « بوفران » ، ودار « بيرون » (متحف « رودين ») من تحقيق غابرييل ، ودار « ماتينيون » (رئاسة مجلس الوزراء) من تحقيق « كورتون » ، ودار « سالم » (قصر جوقة الشرف) من تحقيق «روسو» وقد شيدت كلّها تقريباً في ضاحية (سان جرمان) عند منطلق طريق فرسايل ؛ وقصور آل « روهان » في « ستراسبورغ » و « سافرن » من اعمال الالزاس .

هذه الهندسة كلاسيكية بما اقتبسته عن العصور القديمة وعصر النهضة : الاعمدة ، الاروقة ، تيجان الاعمدة الدورية والايونية والكورنثية ، العتبات فوق الاعمدة مع الساكف ، الافـاريز والاطناف ، المثلثات في اعلى مقدم البنـاء ، الدرابزونات والقباب . وهي كلاسيكية بنظامها الصارم . تتألف الابنية كما تتألف عظات « بوسويه » ومآسي « راسين » . التوازن والانسجام والتناسق ، تلك هي صفات هذه الهندسة التي تكملها هندسة اخضيضاب الحدائق على الطريقة الفرنسية : ان نظر المشاهد يهتدي بحواشي الحدائق الطويلة وصفوف الاشجار المشذبة الوارفـة الظلال ، ينتقل من ارض مخضوضرة الى مرآة مائية ، ثم يضيع في أفق سنجوني وتستقر العين في التماثيل البيضاء .

ان هذه الهندسة معتدلة جداً . لا تعتمد التزيين الا بكل تزن . الجمـال يقوم في كمال نحت الحجر ، وتناسق الخطوط ، وضبط النسب ، والمطابقة الصحيحة بين كافة الاجزاء والغاية التي وجدت من اجلها ، والذوق الصائب في وضع العرض حيث يرتاح اليه النظر . وقد برزت صفة الاعتدال هذه بعد السنة ١٧٥٠ بصورة خاصة . ولكن لا برودة ولا تعبس ، اذا استثنينا اواخر القرن . ان حياة رقيقة تسري في اوجه البناء هذه ، وايقاعاً خفياً يهز عضلات المشاهـد وموسيقى شجية تجتذبه . على الرغم من عظمتها الحقيقية ، وحتى من جلالها احياناً ، فان مـا يشبه الخفة والاندفاع ، والطلاوة الراقصة ، يحمل المشاهد يتعرف فيها الى عصرها . امـا بعد

السنة ١٧٧٠ ، فقد اصبح المعبد اليوناني ، بتأثير من علماء العاديات ، النموذج المألوف للسارح (اوديون) ، والاسواق (المصفق) ، والكنائس («سان فيليب ـ دي – رول » ، من تحقيق شالغرين) ، واتجه الذوق الفاتر شطر الجفاف والتقشف قبل ان ينتقل ، في عهد نابوليون الاول ، الى الضخامة والعظمة .

وعلى نقيض ذلك ، تبدل تزيين هذه الابنية وتأثيثها تبدلا تاماً . فان الراحة والصفاء والظرافة قد تقدمت العظمة والقوّة . ظهرت «مساكن صغيرة » حتى في فرسابل . وبغية انارتها وتكبيرها ، وضعت المرايا فوق المداخن . ثم احدث التزيين بالملاط الكلسي والرخامي والمعاجين على انواعها والواح تخشيب الجدران والحديد المشغول ما يشبه الخطوط المنحنية التي تكونها الالعاب النارية . ان مشاهد الرعيان ، والحظائر ، والقرود الصاعرة ، والطيور ، والازهار ، والثمار ، واكاليل الازهار ، وكنانة اله الحب وقدسه هي المشاهد التي زالت عادتها ولم يستخدمها الفرنسيون الا داخل دورهم ، والتي تنفتح في دار سوبيز ، في قاعة بوفران الاهليلجية المشهورة ، او في رواق دار تولوز (مصرف فرنسا) المذهب . غدا الاثاث اخف وزنا واسهل نقلاً والبس بالنسيج المحشوّ واتخذ اشكالا تنفتق ومنعطفات القوام .حلّ محل الكرسي المستقيم المسند ، المعد التصدّر ، والمشهور بطراز لويس الرابع عشر ، الكرسي المشهور بطراز لويس الخامس عشر والذي حشي مقعده ومسانده وغلفت بالمديجات .وظهرت الكراسي الواسعة ذات الاذنين ، والكراسي الطويلة او « الحطيئة المميتة» ، والارائك ، والتخوت والكراسي الخفيفة . ونالت الطاولات المستديرة والطارلات الصغيرة والمكاتب والخزائن ذات الادراج وعلب ايداع محتويات الجيوب ، في كل مكان تقريباً . اما مادة هذه المفروشات فبهجة وساطعة بالوان متقلبة : اخشاب الجزر ، البلاذر ، خشب الورد ، وخشب البنفسج ، والك الاحمر والذهبي والك المتعدد الالوان ، وبرنيق «مارتين» . واذا عرف الميل الى الرفاهية الاستمرار ، فأن اعمال التنقيب في بومبيي قد روّجت تدريجياً ، ابتداء من السنة ١٧٦٥ ، اشكالا مستقيمة وهندسية لاتزال تتميز بالخفة والطلاوة ، والالوان غدت اقل ايذاء النظر ، وظهرت الخلفيات السوداء الاولى مزدانة بفسيفساء او رسوم قديمة المواضيع ، ولاسيما بالراقصات الساحرة . ان الطراز المعروف بطراز لويس السادس عشر قد بدأ قبل لويس السادس عشر بزمن بعيد .

الرسم الفرنسي

ماشى الرسم الظروف الجديدة . فلا مكان في المساكن الصغرى للوحات التاريخية والميثولوجية الكبرى ، بل للوحات الصغرى الكثيرة ، فوق المداخن والابواب مثلا ، التي يحلو النظر اليها . لذلك تنوعت مواضيع الرسم التزييني وكانت اللوحات الصغرى التي يسهل تركيزها ونقلها من مكان الى اخر .

اعدّ الرسم للارضاء والاعجاب قبل التربية والتهذيب ، لذلك نراه يتخلى عن المثل العقلي

الاعلى الذي سمى وراءه في لوحة « رعاة اركاديا » . توجه الى الحس بواسطة اللون . الرسامون ملونون كلفوا بالبندقيين ، والفلمنكيين ك « روبنس »، والهولنديين ك « رمبراندت » . فهم والمعجبون بهم يتلذذون باللون كلون ، ويتمتعون باهتزازاته كما بالموسيقى. اما الصناعة فعصرية في اغلب الاحيان وتبشر بالتأثريين . يفصل « شاردين » بين الالوان التي يجـــاورها ويربط بينها بتقاطع الانعكاسات . وينهج « فراغونار » النهج نفسه ، ويعتمد تبـــادل الاشعاع بين السدرف والخلفيات ، ويلون الظلال . فغدا الرسم ، اكثر فاكثر ، تأليفيا يتلقف الايجاز الحاسم .

ايقظ الرسم الخيال . انـــه شعر العصر ، ذلك الشعر الذي افتقر اليه الادب ايمــا افتقار . فيا هي « الاعياد الانيـــة » لـ «فاتــو» (١٦٨٤ – ١٧٢١) التي هي حوار مستلذٌ بين اســـياد شبان وسيدات شابات ، وخرافات حقيقية ، نخص بالذكر منها لوحـــة « الابحار الى سيتير » (١٧١٧) الشهيرة ؛ وها هما لوحتا « دور فينوس » و « الراعويات » لـ « بوشيه » (١٧١٣ – ١٧٧٠) اللتان تمثلان حلم انسانية جميلة ، شهوانية ، مخصابة ، في طبيعة منظمة ؛ وهـــا هي انشودة الحب ، لـ « فراغونار » (١٧٣٢ – ١٨٠٦) ، التي تعبق منذ ذاك التاريـــخ بكل الشعر الغنائي الرومنطيقي ؛ وها هي لوحات غرق السفن والعواصف في ضوء القمر ، لـ «فرنيه» (١٧١٤ – ١٧٨٩) ، والاطلال لـ « هوبير روبير » (١٧٣٣ – ١٨٠٨) .

ولكن الرسامين ابناء زمن كانت محبته للحياة اليومية اقوى من ان يكترثوا للعـــالم المحيط بهم . فان « فاتو » نفسه قد رسم مشاهد عسكرية ، كما رسم « فرنيه » مرافىء فرنسا . ونجـد في ما خلفه « هوبير روبير » تاريخاً مصوراً لفرنسا تحت ظل النظام القديم . امـــا الاختصاصي شاردين (١٦٩٩ – ١٧٧٩) ، فـكان رسام صغار البورجوازيين (« الام المنهمكة» و «صـــلاة تناول الطعام») .وبرع كلهم في رسم صور الاشخاص ،فكانوا سيكولوجيين يتقصون اعمق اعماق الشخص الذي يرسمونه . ويجب ان نضيف الى من ذكرنا « ناتييه » (١٦٨٥ – ١٧٦٦) الذي رسم مـــاري لكزنسكا و « سيدات » فرنسا ، والسيدة « فيجيه لبران » التي رسمت ماري انطوانيت ، وامهرهم اطلاقـاً ، المصور بالقلم ، « لاتور » (١٧٠٤ – ١٧٨٩) ، الموضعي حتى الفظاظة ، الذي رسم « مدام دي بومبادور » ولويس الخامس عشر .

الا ان في هذا القرن ، الذي بلغ هذا القدر من الثروة والتنوع ، نواحي اقل جمالاً : الرســم الخلاعي الذي لا نجرؤ على اصـــدار حكمنا عليه في ما انتجه « فراغونار » الصادق والضاحك (الاوجوحة ، القميص المخلوعة) ، والذي تقز منه النفس امـــام ما خلفه « غروز » المرائي (الابريق المكسور) ، وما هو شر من ذلك ، رسم « غروز » الاخلاقي ، البهرج والمفخم ، الذي له اسوأ وقع على المشاهد .

أما النقاشة بماء الفضة التي برع فيها « كولين الابن » وسانتوبين و « مورو الابن » ، فقـد عرّفت فرسايل وباريس . وقد اكتشفت النقاشة بالالوان في السنة ١٧٢٥ .

وأما التدبيج الذي وفّر له الرسوم الايحازية اشهر رسامي العصر فقد اعطى نتاجاً جيداً جداً نقل او نسج على منواله في كل مكان .

في أواخر القرن ثار «دافيد»(١٧٤٨ — ١٨٢٥) باستاذه «فيان» وبالساكوني «ونكلمن». على الفن ان يستخلص من الطبيعة الجمال المثالي ؛ قام القدماء بذلك خير قيام ؛ يجب التتلمذ عليهم ؛ الآن ان الرسم القديم ، اذا ما استثنينا الآنية اليونانية والرسوم الجدرانية في بومبيي ، قد اضمحل وزالت آثاره ، فيجب من ثم النسج على منوال النقاشة وانتاج نقوش مصورة . ان «يمين الهوراس» ، التي عرضت في روما في السنة ١٧٨٤ وضمت ، على تعبيسها وطابعها المسرحي ، اجزاء جيدة جداً ، قد عرفت نجاحاً عظيماً جداً وكانت بمثابة بيان المدرسة الجديدة . فأوقف دافيد بذلك ، لسنوات طويلة ، تياراً لن يظهر ثانية الا مع مدرسة السنة ١٨٣٠ .

النقاشة الفرنسية

تطورت النقاشة من الحركة الوثابة في « جياد الشمس » لـ«روبير اللورين» الى الاتزان في ينبوع غرينيل «لـ «بوشاردون» (١٧٣٩) والى الكلاسيكية الزاهدة وربما العابسة في « سان برونو » و « ديانا » لـ « هودون » .

حافظت اكثر من الرسم على المواضيع الكبرى : التماثيل الملكية للساحات («لويس الخامس عشر»لبوشاردون ، في ساحة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٠ ؛ و «لويس الخامس عشر لـ «بيغال» في « رمس» ، ١٧٥٦) ، وقد حطمت كلها على يد الثورة ؛ الأبنية المدفنية ، كضريح المارشال « دي ساكس » في ستراسبورغ لـ « بيغال » (١٧٧٧) . ولكنها ، في الدرجة الاولى ، نقاشة مساكن تتميز بالخطوط المرنة ويضاهي فيها الآجر الرخام وتكثر من النساء والاولاد والفتيان: كـ « مركور رابطاً جناحيه » و « الولد والقفص » ، و « الولد والعصفور » لـ « بيغال » ، و « المستحمة » لـ « فالكونيه ».. وكان النقاشون اخيراً مصوري اشخاص سيكولوجيين ايضاً يظهرون لنا مجتمع عصرهم كاملاً : بيغال («فولتير عار » ١٧٧١) ، « لموان » ، «باجو» « كافييري » ، وخصوصاً « هودون » ، الذي يعتبر « لاتور » النقاشة («فولتير» في بهو الكوميديا الفرنسية ، و « واشنطون » في كابيتول « ريتشموند » ، و « وفرانكلن ») .

الموسيقى الفرنسية

هل كانت الموسيقى الفرنسية ، في هذا القرن ، دون الفنون الاخرى ؟ يبدو ان فرنسا لم تنجب عباقرة من امثال اولئك الذين انجبتهم النمسا وتورنغ . ولكن اثر الموسيقى الفرنسية ، على الرغم من ذلك ، كان كبيراً . فالفرنسيون كانوا في الدرجة الاولى اساتذة معتبرين عرفوا ،هنا ايضاً ، الاهتداء الى النظام العميق المحتجب تحت الظواهر واكتشاف النواميس وردها كلها الى مبدأ مشترك . وهذا ما فعله «رامو » ، المراقب البصير ، والعقل القياسي والمنطقي ، في مؤلفين هما بمثابة « مراحل الاجرومية الموسيقية » : « بحث في الايقاع » (١٧٢٢) و « واثبات مبدأ الايقاع » (١٧٥٠) . فرد نهائياً مقامات الألحان الاثني عشر القديمة الى المقامين الأكبر والاصغر ، والمقام الاصغر الى المقام الاكبر ،

والمقام الاكبر الى توافقي الاصوات الاساسيين ، التام والسباعي ، وهــذين الآخرين الى اللحن الخاص ، اي « النقطة الايقاعية » . وقد خضع التلحين كله ، حتى العهد المعاصر ، لأعمــال رامو . عرف الفرنسيون اذن كيف يستخلصون من ممارستهم الموسيقية، بجهود تحليل وتجريد، قواعد عامة وتمارين منسقة لتعلم العزف على الآلات الموسيقية . فقد نشر « فرنسوا كوبرن » ، الكبير ، في السنة ١٧١٧ ، « فن العزف على البيانو (القديم) » ، ونشر « رامو » ، في السنة ١٧٢٤ ، مجموعة معزوفات البيانو ، تحت اسم « اسلوب لآلية الأصابع » . واعطى الفرنسيون خير أمثلة عن موسيقى البلاط وموسيقى قاعات الاستقبال . وجلّوا في البيانو القديم ، الذي هو جدّ البيانو الحالي ، ولكنه يبضّ الوتر بدلا من ان يطرقه طرقاً ، فــلا يستطيع من ثم صيانة الصوت ؛ والى هذا يرد ضعف رنينه ، « حزمة مفاتيح تحرك » ، والحاجة الى المدبجات والزين المختلفة ، وتخصيصه للموسيقى الخفيفة والرقيقة : البيانو القديم « مشط دقيق لامرأة شقراء مجعدّة الشعر جداً » . ان رامو و « وداكين » (١٦٩٤ - ١٧٧٢) ، ولا سيا فرنسوا كوبرن الكبير (١٦٦٨ - ١٧٣٣) قد اكثروا في الموسيقى من «الاعياد الانيسة» و « التسليات الريفية » و « الراعويات » التي حققها الرسم ، فجاءت نغما لطيفاً ومرناً على غرار اثاث مــن طراز لويس الخامس عشر ، على بعض التصنع في الطلاوة وتلاطف في الاناقة ، تتسلط عليهــا المرأة تسلّطاً كلياً كما تدلّ على ذلك اسماؤها : « الساحرة » ، « العفيفة » ، « الشهوانيــة » ، « الساذجة » ، الخ . وقد جلىّ رامو بالاضافة الى ذلك في الاوبرا . واشهر مؤلفاتــه الكثيرة « كاستور وبولوكس » ، (١٧٣٧) . اعطى فيهــا مثال الموسيقى النبيلــة ، المتحفظة ، المعدّة لمساعدة الشعر في التعبير عن المشاعر وأحوال النفس دونما زخارف نافلة ، الكلاسيكية ، لغة الفؤاد . وهم الفرنسيون اخيراً من خلقوا الاوبرا الهزليــة التي أشهرهــا اسم « غرتري » ، وعندهم اكتُشفت اصول الايقاع الذي احدثته منذ السنة ١٧٤٣ مدرسة «مانهايم» الألمانية .

الزي الفرنسي

اتجه الزي كذلك شطر المتحبب والمتحسن . منــذ السنة ١٧١٨ ، انتشر استعمال القضبان الخفيفة والطويلة التي تنفخ «التنانير» ؛ وكانت البهجة كبيرة بالخلاص من فساتين الزي القديم الضيقة . ارتدت النساء « مباذل » أي فساتين واسعة ومتسدلة، تكشف العنق والكتفين وأعلى الصدر ، ومزودة باكام على شكل القمــع والهيكل الصيني . الاقمشة خفيفة : منسوجات قطنية من الهند ، ومنسوجات موصلية ، وشفوف دقيقة جــداً ، وحرائر . السيدات يقصرن شعرهن الذي يجعدنه قصّاباً كبرى ويضطررن في سبيل ذلــك الى الذهاب الى المزينين . ويبرزن جمالهن بقسيمات من النسيج الحريري الدقيق الاسود يلصقنهـــا بالوجه ، « الاذية » : « المولعة » ، الى جانب العين ، « الماجنة » ، فوق الانف ، « المغناجة » ، في أعلى الخد .

وتخلى الرجال عن الجمم المستعارة الضخمة والملابس المثقلة بالاوشحة والخرمــات واعتمدوا الملابس البسيطة ، الضيقة ، السراويل من نوع « غمــد المسدس » ، والثوب المخصر المنحدر الى

الركبتين ، والجسم المقطعة .

منذ السنة ١٧٥٠ ، زادت كسوة رأس النساء ارتفاعاً . وفي عهد لويس السادس عشر باتت مرتفعة جداً ، حتى بات وجه النساء على ارتفاع ثلثي طولهن . وابتكر « ليونار » القبعات المبرة « على طريقة مونغولفيه » ، و « طريقة المتمردين » ، و « طريقة الدجاجة الحسناء » مع مركب حربي مبسوط الأشرعة . أما الملابس فقد تكلفت ، اكثر فأكثر ، البساطة وطابع الازياء الانكليزية للرجال .

ابتكر الزي فنانون حقيقيون .هم الخياطون وحدهم من صنعوا ألبسة الجنسين في القرن السابق ، أما اليوم فقد ظهر طراز جديد هو طراز الخياطة وصانعة القبعات النسائية . إن الآنسة «برتين» « وزيرة الزي » ، المقيمة في شارع « سانتونوريه» ، تشاهد الملكة « ماري – انطوانيت » يومياً . المزينون الاختصاصيون يحلون محل الفرّاش والفراشة . «داجيه» يزين السيدة « دي بومبادور » ؛ و « ليونار » يزين « ماري – انطوانيت » ؛ و « له غرو » يؤسس اكاديمية التزيين . وتقوم جرائد الازياء بنقد الفن الجديد .

الطهاية الفرنسية

ان بعض متذوقي المآكل ساعدوا الطهاة على تحسين فن الطباخة . يفرض تذوق المآكل حساً مرهفاً في اللسان والمذاق ، وانتباهاً كلياً دائماً ، وحكماً سليماً للتمييز بين الطعم والروائح الزكية في ادق فوارقها ومطابقاتها وتداخلاتها . النهم فن من الفنون الجميلة ، وهو جدير بان تكون له ربة شعره . الطهاة في دور « اورليان » و « كونتي » و « سوبيز » ، والطهاة في دور الاحبار ورجال المال يتبارون في وضع خير جداول الاطعمة تنظيماً ، وتركيب اكثر المتبلات اتقاناً وتخليد اسماء اسيادهم باطلاقها على ثريدة من الثرائد ، او على حساء جديد . انتظمت الوجبات الفرنسية انتظام المسرحيات الكلاسيكية . الخمور والاجبان الفرنسية ارسخت شهرتها . ابتكرت السيدة « دي بومبادور » صنف القدد من لحم ظهور الدجاج في « المنظر الجميل » ، وابتكرت سيدات غيرها صنف السمانيات على طريقة « ميربوا » ، وصنف الفراريج على طريقة « فيلروا » . وخلّدت مآثر الدوق «دي ريشليو » في « بور – ماهون » بالحساء المركب من زيت وخل وملح وفلفل ومحة البيض . وكان القرن الثامن عشر بالاضافة الى ذلك قرن النبيذ الشمباني المزبد ، والفطائر المحشوة بقطع الاكباد المشهورة باسم فطائر ستراسبورغ ، وحلوى « *Praline* » الدوق « دي برالين » . كما كان قرن الطاهي « كارم » المشهور الذي كانت محبته للمطبخ اقوى من ان يتأخر في تناول الطعام ، والمتصف « بريا – سافارين » الذي ولد في السنة ١٧٦٥ .

غزو فرنسا لاوروبا

غزا الفن الفرنسي اوروبا . تزاحم الامراء والنبلاء على الطهاة الفرنسيين . صدّرت المفروشات الفرنسية من فرنسا شحنات كبرى . عمِد الامراء في ردع صانعي الاثاث والفروش الفرنسيين بغية احداث المعامل في بلدانهم . وقد بلغ من شهرة مصنع الـ (غوبلين) الملكي الفرنسي انهذا الاسم اصبح اسم جنس لتمييز المفروشات

العصرية على اختلاف مصدرها . زودت حوانيت الصاغة في باريس كافة البلاطات الاجنبية . وانتشرت منتجات مصنع « سيفر » الملكي من آنية صينية وآنية شبيهة بالمرمر في كل مكان . واستوردت النساء من باريس الفساتين والجوارب الحريرية والمراوح والقفافيز المعطرة واحمر الشفاه وكافة « سلع المحبة الصغيرة الحجم » . وتزينّ وارتدين الملابس على الطريقة الفرنسية . وكن يرتقبن بفارغ الصبر دمية شارع « سانتونوريه » ، المزينة الشعر والجمة بالملابس ، التي تأتيهن كل شهر باحدث زي في باريس . وكن في ساعات دوارهن يسلمن الى السحر احياناً. فقد عادت كنة كاترين الثانية يوماً من باريس بـ ٢٠٠ صندوق من فساتين شارع « سانتونوريه » وخرقه ، وما ان رأتها كاترين حتى طاش صوابها واصدرت قانوناً يقيد النفقات المفرطة . وقد شقت باقات خيوط الحرير التزيينية والبهارج والخرمات الحريرية طريقاً امام الملحنين والكتاب والرسامين .

ان الموسيقى الفرنسية ، التي احتقرها جان جاك روسو ، كانت موضوع تقدير الالمان . وشقت القطع الموسيقية الفرنسية ، ولا سيا موسيقى البيانو ، طريقها الى كافة البلاطات الالمانية حيث عزفت وقلدت ونقلت . واقتبس الايطاليون والالمان الكثير من موسيقى رامو الاصيلة . وفي كلامه عن فرنسوا كوبرين الكبير ، صرّح « براهمز » « بأن « سكارلاتي » و « هايندل » و « باخ » من عداد تلاميذه » (مدخل طبعة المؤلفات الموسيقية المعدة للبيانو) . واعجب « باخ » بكوبرين وأشار على تلامذته بالافادة منه . وان باخ هذا ، الذي هو عبقرية متميزة ، لمدين الى الفرنسيين بفنه في التسلسل وطريقته الكلاسيكية ، الراسينية والفرسايلية ، في حصر أهمية القطعة الموسيقية بفكرة واحدة تسيطر عليها من أولها الى آخرها . وليست « ثورة « غلوك » المزعومة في الاوبرا سوى تطبيق لمبادىء رامو على يد رجل عبقري ، والى باريس جاء غلوك ، الذي لم تفهمه فيينا المتعودة محسنات الاوبرا الايطالية ، ليرى انتصار كلاسيكيته القائمة . وتأثر « موزار » تأثراً قوياً بمؤلفات رامو للاوبرا وبالاوبرا الفرنسية الهزلية . وانك لترى ، في كل ما خلفه هايدن وموزار ، اثر الموسيقى الارستوقراطية العالمية ، الطريفة والخفيفة ، التي جلى فيها الفرنسيون . وقد ذاع صيت باريس في كافة انحاء اوروبا بسبب امتياز طبعاتها الموسيقية . فان والد موزار قد طلب الى الباريسيين نقش مؤلفات ابنه ، كما ان غلوك قد ارسل الى باريس من فيينا تركيب معزوفة « اورفيه » كي ينقش فيها نقشاً فخماً.

ولكن اعمق أثر تركته فرنسا هو أثرها في هندسة العمارة والنقاشة والرسم . وكان من حق المهندس « بات » ، أن يكتب في السنة ١٧٦٥ « تجول في روسيا وبروسيا والدانمارك وورتمبرغ ، والبالاتينا ، وبافاريا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وايطاليا ، تر في كل مكان مهندسين فرنسيين يحتلون المراكز الاولى . وينتشر نقاشونا كذلك في كل مكان ايضاً ... باريس هي بالنسبة لاوروبا ما كانته أثينا بالنسبة لليونان حين ازدهرت فيها الفنون : انها تقدم الفنانين لكافة اقطار العالم » . في كل مكان نشاهد فرنسيين يحتلون مركز الرسام الاول والمهندس

الاول والنقاش الاول لدى الامراء والملوك . وهم لا يكتفون بالابداع والخلق ، بل يديرون أكاديمية الفنون الجميلة الأجنبية ويدرسون فيها ايضاً . واذا لم ينتقلوا من مكان الى آخر ، أرسلوا التصاميم والرسوم التي يراقبون تنفيذها . يؤثرون بمنشوراتهم المجموعات المنقوشة المطبوعةفي فرنسا التي تضمها كل مكتبة من مكتبات الفنانين الاجانب ، والتي هي ، بالنسبة لهؤلاء ، مرجع يستوحون منه الافكار والاشكال الهندسية : كتب الهندسة لـ « دافيلر » ، وبلونديل ، ومجموعة كبريات جوائز هندسة العمارة ، وكتاب فن تنظيم الحدائق لـ «لبلون» ، ومجموعة تماثيل ... قصر فرساي ، ومجموعة « جوليان » لصور « فاتو » ورسومه .الامراء يرسلون المشاريع التي يضعها مهندسو بلدانهم الى الأكاديميات الفرنسية طالبين ابداء الرأي واجراء التحويرات اللازمة . ويأتي عدد غفير من الفنانين الأجانب لتلقي دروسهم في فرنسا فيتشربون فيها الذوق الفرنسي .

اقتبست اوروبا عن فرنسا فنها البلاطي . ان مدينة فرساي الملكية ، مع تصميمها الموضوع بشكل مروحة ، واتجاه شوارعها الى القصر الذي يسيطر على المدينة،وفي ذلك ما فيه من تعبير عن نظام الحكم المطلق ، قد نسج على منوالها في « كارلسروه » مقر حكام « باده » وفي « سان بطرسبورغ » حيث نضّد « لبلون » ، مهندس القيصر العام ، بين السنة ١٧١٦ والسنة ١٧١٩ ، فوق الاقنية المشتركة المركز ، مروحة مؤلفة من ثلاثة ابعاد نظرية كبرى تتجه كلها الى اعلى برج « الاميرالية» ، فجعل من عاصمة القياصرة فرساي جديدة .

حاول كافة الامراء تقليد قصر فرساي مع افنائه الأمامية التي تضيق تدريجياً باتجاه فناء الشرف ، وحديقته المنظمة ، وبناءي « مارلي » و « تريانون » الملحقين به ، ورواق المرايا الكبير ، وسلم السفراء ، والسقف الرمزي تخليداً لمجد الملك ، وصورة الملك حاملاً اسلحته او مرتدياً بزة التكريس . كلهم رغبوا في ساحة ملكية تكون اطاراً لتمثال الملك فارساً أو راجلاً ، على غرار لويس الرابع عشر الراجل لـ « ديجاردين » ولويس الرابع عشر الفارس لـ « جيراردون » ، أو لويس الخامس عشر لـ « بوشاردون » ، وقد حُطم هذان الأخيران في عهد الثورة .

ان القصر المنتخبي في بون الذي حققه « روبير دي كوت » وتلامذته وزينه «اودران» و « اوبنورت » و « فاستيه » ، ومقر « بوبلدورف » الريفي ، وقصر « بروحل » ، قد شيدت في المانيا الرينانية لمنتخب « كولونيا » . وشيّد منتخب تريف ، في « كوبلانس » ، على يد « اكسنار » ثم « بير » الابن ، وبمراقبة اكاديمية باريس للهندسة ، بناء على الطراز المعروف بطراز لويس الرابع عشر . واقتبس منتخب « مايلس » قصر مارلي ، وأسند وضع تصاميم البناء الى الألمان وطلب الى الفرنسيين اعادة النظر فيها . وفي البلاتينا ، انجز « بيفاج » قصر منتخب مانهايم وانشأ حديقة « شترتجن » ، على غرار فرساي . وفي ورتمبرغ انجز « لاغيير » بعد السنة ١٧٥١ القصر الدوقي في « شتوتغارت » . وفي بافاريا طلب الأمير المنتخب من«روبير

دي كوت» تصاميم لقصره في شلسهايم واستخدم مهندسين تتلمذوا على الفرنسيين. وفي «كاسل» شيد الأخوان «دي ري» «للاندغراف» قصوراً ومتحفاً واوبرا. وفي برلين شيد «جان دي بودت» «دار الصناعة»، وتعهد فردريك الثاني عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين الذين شيدوا له قصر «بوتسدام» و«سان - سوسي». وأعدّ له النقاشون الفرنسيون عدداً كبيراً من القطع الرخامية المنقوشة للسطوح والحدائق. يضاف الى ذلك أن تمثال المنتخب الأكبر لا يفترق بشيء عن التماثيل الفرنسية، كما ان ساحة فردريك مقتبسة عن ساحة لويس الخامس عشر. ثم ان الرسام «بين» قد خلف صوراً لفردريك الثاني في كافة مراحل حياته. وفي «درسد» تزخر «الحديقة الكبرى»، التي دمرتها القذائف البروسية، بالتماثيل المستوحاة من تماثيل فرساي. وقد رسم الفنانان الفرنسيان «سيلفستر» و«هوتين» الصورة الملكية واعادا الى الذاكرة بلاط درسد وملاذه.

في النمسا شيد «جودو» جامعة فيينّا. واستعان النمساوي «دونر» بالنقوش الفرنسية لنقش تمثال «شارل السادس» على غرار تمثال لويس الرابع عشر، وزين ينبوع «السوق الجديدة» بتماثيل شبيهة بتماثيل فرساي، وليست ساحة جوزف الثاني سوى ساحة لويس الخامس عشر بالذات. وقد تولى أحد تلامذة «لارجيليير» رئاسة اكاديمية الرسم العليا. وأراد الأمير «اوجين» أن يكون له فرسايه الصغير في قصر «المنظر الجميل» وحديقته.

في روسيا جعل «لبلون» قصراً وحديقة فرنسيين من «بيترهوف»، والحديقة الصيفية التي جمّلها «بينو» بالعديد من الينابيع الضخمة. وحقق «فالين دي لاموت» بعد السنة ١٧٥٦ قصر اكاديمية الفنون الجميلة ثم «صومعة» كاترين الثانية، المستوحاة من «تريانون». ونسج على منوال فرساي في المقرات الامبراطورية في «قيصر كويه-سيلو» و«بافلوسك»، وحتى في المقرات السيدية، كمقر الأمير «غاليترين» في «اركنجلسكويه»، ومقر الكونت شرمتياف في «كوتوفو». وفي السنة ١٧٦٦ استدعت كاترين الثانية «فالكونيه» الذي نقش تمثالاً ضخماً لبطرس الأكبر فارساً، وهو المصلح ومشيد المدن، مستوحياً مشروع تمثال للويس الرابع عشر، فحقق اجمل التماثيل الملكية في القرن الثامن عشر.

في بولونيا يشاهد الأثر الفرنسي في قصر لازينكي الصيفي وقد زينه النقاش «لبرون»، نقاش الملك الأول، الذي اسهم ايضا في أعمال قصر فرصوفيا الملكي.

وان ساحتي «كونجلس - نورف» و«امالينبورغ» في الدانمارك لساحتان ملكيتان، كما أن «سالي» قد صنع تمثال الملك فردريك الخامس فارسا من البرونز على غرار تمثال لويس الخامس عشر لـ «بوشاردون».

في السويد انجز قصر وحديقة «دروتننهولم» والتجميل الداخلي في قصر ستوكهولم الملكي على غرار فرساي. وقد عمل هنا وهناك فرق عديدة من النقاشين الفرنسيين. وأقام «لارشفيك»

بين السنة ١٧٥٥ والسنة ١٧٧٨ في ستوكهولم تمثالا لـ «غوسطاف فازا» راجلا وآخر لـ «غوسطاف – ادولف» فارسا . وتولى ديبريه ، بين السنة ١٧٨١ والسنة ١٨٠٩ كافة الأعمال التزيينية التي تطلبها المسرح وأعياد البلاط . وزين رسامو مدرسة « بوشيه » القصر الملكي .

في اسبانيا ، أراد فيليب الخامس أن يجعل من الـ « غرانجا » قصر فرساي جديداً . فصنع النقاشون الفرنسيون العديد من التماثيل والينابيع ، وهكذا حوّلوا شكل حديقة « ارانجويز » . وشيد مهندسون فرنسيون منازه « بوين رتيرو » في مدريد ، ودار « كوريوس » ، وقصر « المنظر الجميل » . وفي البرتغال جاء قصر « كلوز » قصر فرساي جديداً ايضاً ، كما جاءت ساحة التجارة في لشبونة ، التي انشئت تخليداً لمجد جوزف الاول ، مماثلة لساحة لويس الخامس عشر . وفي ايطاليا اقتبس «كازرتو » في « نابولي » و « كولورنو » في « بارما » عن قصر فرساي ، كما اقتبس عنه « هت لو » في هولندا و « هامبتون كورت » وحديقة شاتسوورث في انكلترا .

ونقلت أوروبا عن فرنسا فنها المجتمعي ، الفن الباريسي ، ففي كل مكان يشاهد في الدور الخاصة تصميم الدار الباريسية المميز ، كدار البارون « دي بزنفال » في سولور (سويسرا) ودار « تور » و « تاكسي » في فرنكفورت ، وهي من تحقيق « روبير دي كوت» ، والدور الارستوقراطية في حي « ولهلستراس » في برلين .

وقد استماد التزيين فيها كلها موضوع « الاعياد الانيسة » لـ « فاتو » . فشغفت به أوروبا ، لذلك نرى اجمل مجموعات « الاعياد الانيسة » للرسامين الفرنسيين في لندن وبرلين وستوكهولم ولننفراد . وهي رسوم الاشخاص التي حققها الرسامون والنقاشون الفرنسيون ما يؤلف خير مراجع صورية لكافة بلاطات أوروبا .

لا يتسع المجال هنا لاحصاء المنجزات الاوروبية التي حققها الفرنسيون او اقتبست عن الفرنسيين . بيد ان الامثلة التي قدمنا لكافية للدلالة على هيمنة فرنسا الفنية .

اسباب التوسع الفرنسي

ترد هذه الهيمنة في الدرجة الأولى الى تفوق الفن والادب في حد ذاتها . ولكن ظروفا خارجة عن ذلك سهلت انتشار المنجزات والفنانين وانتشار الحس والمشاعر والآراء المشتركة .

العظمة الفرنسية

فهنالك اولاً سحر العظمة الفرنسية الكبير . القرن الثامن عشر هو في نظرنا الفترة التي افتقرت فيها فرنسا الى الهيمنة البحرية والتجارية والسياسية . اما في نظر المعاصرين ، فان فرنسا ، التي كانت اكثر بلدان أوروبا سكاناً وخيرها تنظيماً ، ما زالت ، على الرغم من هزائمها ، التي تخللتها انتصارات كبرى على كل حال ، ارهب قوة عسكرية في البر الاوروبي اطلاقاً . وان في القوة لجاذبا .

بلاط فرنسا

جسّم ملك فرنسا ابداً ، في نظر ملوك أوروبا ، مثال الملك بالذات ، كما كان بلاط فرنسا نموذج البلاطات كلها . لذلك حرص اصغر صغار الامراء الالمان على ان يقلدوا ، في اماراتهم ، لويس الرابع عشر وفرساي ، وبلاط فرنسا . ولذلك قصد الامراء والعظماء فرنسا طيلة القرن لاستكمال تهذيبهم فيها . نذكر من بينهم بطرس الأكبر في السنة ١٧١٧ وكريستيان السابع ملك الدانمارك في السنة ١٧٦٨ وولي عهد السويد غوسطاف ، باسم الكونت « دي غوتسلاند » ، في السنة ١٧٧١ ، وجوزف الثاني امبراطور النمسا ، باسم الكونت « دي فالكنستين » في السنة ١٧٧٧ ، والغراندوق « بول » الروسي ، باسم كونت « الشمال » ، في السنة ١٧٨٢ ، والامير هنري البروسي ، باسم كونت « اولز » ، في السنة ١٧٨٤ .

قاعات الاستقبال

يضاف الى ذلك ان عظماء اسياد كافة الأمم ، وفنانيها وكتابها ، قد استهووا قاعات الاستقبال الباريسية ، قاعات الدوقة « دي مين » ، والمركيزة « دي لمبير » ، والدوق « دي سولي» ، والأمير والأميرة « دي ليون » في عهد الوصاية ؛ ثم قاعات المركيزة « دي دفان » والسيدة « دي تنسين » والسيدة « جوفرين » ؛ وفي النصف الثاني من القرن ، قاعات الاستقبال الفلسفية في دور البارون « دولباك » والآنسة « كينو » والآنسة «دي لسبيناس» ؛ والقاعة الموسيقية في دار « لابوبلينير » ؛ وبعد وفاة الآنسة دي لسبيناس في السنة ١٧٧٦ والسيدة جوفرين في السنة ١٧٧٧،قاعة السيدة « نكَر » ؛ وقاعات اخرى كثيرة في دور عظماء الأسياد ، والأمراء الملكيين ، ورجال المال ، وأهل القلم . لم يتقن في أي مكان آخر ما اتقن في هذه القاعات من تطرق بعيد الى كافة المواضيع دون اطالة ، واطلاق الكلمات كالسهام ، وتقاذف الأفكار في مبارزة حادّة يدافع فيها كل من الأطراف عن موقفه بالنبرة والحركة والنظرة ، في « نوع من الكهرباء يطيّر الشرار » (السيدة « دي ستال ») . وبرعت السيدة جوفرين بصورة خاصة في حمل ضيوفها على الكلام : « مقاعدها اثافيّ ابولون ؛ انها توحي باشياء سامية » (الاب غالياني) . واجتذبت اليها اكبر عدد من مشاهير الاجانب :

« لا أزال أذكر انني رأيت أوروبا جمعاء
تؤلف حول مقعدها حلقات ثلاثا » (« دي ليل »)

وقد درج ملك بولونيا ، « ستانيسلاس - ارغست بونياتوفسكي » ، على مناداتها بكلمة « امي » . استقبلها في فرصوفيا ، كما استقبلتها في فيينّا بأبهة ماري - تريز وجوزف الثاني .

الاستقبال الفرنسي

احيط الأجانب في كل مكان في باريس بحسن الالتفات والملاطفة وأعطوا مركز الصدارة . « يلاقي الأجنبي هنا المراعاة نفسها التي تلاقيها سيدة في انكلترا » (بليامين فرانكلن) . درجت أكاديميات الفنون الجميلة في العواصم

الأوروبية ، وهي شبيهة بها في فرنسا ، وعلى اتصال دائم بها ، على ايفاد الطلاب الداخليين الى باريس . وكان باستطاعة الفنانين الأجانب ، حتى البروتستانتيين منهم ، الدخول الى الاكاديمية والاستحصال على الحقوق الوطنية . لذلك فان معظم الاجانب لا يغادرون باريس ، و التي لم يتركها احد مسروراً » ، الا بانكسار قلب مؤلم ، وهم يصابون بعلة الحنين اليها ، فيشعرون وكأنهم « منفيون في وطنهم نفسه » . « لا حياة الا في باريس ، اما في الاماكن الاخرى فالحياة حياة ضيق » ، كما قال كازانوفا ؛ وقال الامير هنري البروسي : « سلخت نصف حياتي تائقاً الى رؤية باريس ؛ وسأسلخ النصف الآخر متحسراً عليها » .

الهجرة الفرنسية

وغزا الفرنسيون اوروبا من جهتهم ايضاً . عددهم جعل من هجرتهم امراً يكاد يكون الزامياً ، اذ ان عدد سكان فرنسا الذي تجاوز عدد سكان روسيا نفسها ، قد بلغ ١٦ مليوناً في السنة ١٧١٥ و ٢٦ مليوناً في السنة ١٧٨٩ ، وكان يتزايد تزايداً سريعاً ومطرداً بفضل ارتفاع نسبة الولادات . زد على ذلك ان انهيار نظام « لو » ، والأضرار التي نجمت عنه ، وتدني الطلب ، قد تسببت في هجرة فرنسيين كثيرين ؛ فتوثقت عرى الصداقات وعرفت الديمومة . وقد ساعد على اكرام وفادة الفرنسيين ازاء اوروبا العام عن طريق تجارة ما وراء البحار والنشاط الاقتصادي الذي ابداه ملوك اصبحوا « مستبدين مستنيرين » . وكانت هنالك اخيراً العلائق العائلية . فقد جمعت بين اكثر العائلات الملكية والاميرية في اوروبا روابط الوراثة والمصاهرة والصداقة او الخدمات بسلالة البوربون في فرنسا : سلالة البوربون في اسبانيا وايطاليا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وذريته : سلالة هبسبورغ في النمسا ، بزواج ماري ـ انطوانيت من ولي عهد فرنسا ، وقد سبق قبل ذلك ان ازداد اثر فرنسا في فيينا بزواج « ماري ـ تريز » من «فرنسوا دي لورين». وما كانت مشاريع زواج لويس الرابع عشر من ابنة بطرس الاكبر ، اليصابات ، لتبقى دون اثر على حسن الالتفات الذي ابدته هذه الاخيرة للفرنسيين بعد اعتلائها عرش القياصرة . وكان الامراء المنتخبون الكنسيون في كولونيا وتريف ومايانس زبناً سياسيين أو نسباء لملوك فرنسا . فان منتخب كولونيا ، « جوزف كليمان» ، كان اخاً لزوجة ولي العهد الكبير ؛ وحين اقصي عن ولايته ابان حرب وراثة عرش اسبانيا ، التجأ الى فرساي . كما ان « ماكس – عمانويل » ، منتخب بافاريا ، ونسيب لويس الرابع عشر ، قد التجأ هو ايضاً ، فترة من الزمن ، الى فرنسا . وكان منتخب تريف « كليمان ونسلاس دي ساكس » عماً للويس الرابع عشر . وأسهمت علائق آل « روهان » ، الذين شغلوا مركز ستراسبورغ الاسقفي اباً عن جد ، بالامراء اساقفة مايانس وسبير ، اسهاماً كبيراً في انتشار الفن الفرنسي . فان دار ستراسبورغ الاسقفية ، وهي الرائعة التي حققها « روبير دي كوت » ، غالبا ما كانت نموذجاً للقصور الالمانية . وعن طريق الالزاس اتصلت رينانيا الالمانية بالفن الفرنسي . فيتضح من ثم ان الفرنسيين كانوا في كل مكان ، لا رسامين ونقاشين ومهندسين وضباطا ومهذبين وصحافيين وممثلين وفراشات وطهاة فحسب ،

بل بنّائين وردّامين وبستانيين وحذائين وصناعيين يدويين متسللين الى كل المهن ايضاً في البلدين الجنوبيين المفتقرين الى اليد العاملة ، اسبانيا وايطاليا .

الروح الاقطاعية

وقد سهل المبادلات بين الدول المختلفة رواسب الروح الاقطاعية التي ما زالت قوية عند الاشراف الريفيين . فما كان مسلّماً بـه آنذاك ان من حق الضابط اختيار سيده والبحث عن عمل عند ملك غير ملكه وامتشاق السلاح إذا اقتضى الامر ، ضد بلاده ، شرط أن لا يكون ملكه ، الذي يعتبر الاقطاعي الاول ، أو الاقطاعي السيد ، في وجه هذا الضابط ، يقود جيشه شخصياً . لذلك كان الأجانب من الضباط والجنود كثراً ، في كل جيش . فالامير « دانهالت - داسّو » كان في خدمة ملك فرنسا قبل أن يساعد فردريك غليوم الأول على اعادة تنظيم الجيش البروسي . وكان الأمير « اوجين دي سافوا » قد عرض خدماته على لويس الرابع عشر ، وحين استخف به هذا الأخير ، دخل في خدمة الامبراطور ، ولكنه أسهم بعد ذلك في إدخال الفنون والروح الفرنسية الى النمسا . وان المارشال « دي ساكس » ، الذي كان ابن زنى للملك بولونيا اوغست الثاني ، قد دخل في خدمة لويس الرابع عشر .

الوطنية الشائعة

ولكن نزعة جديدة عرفت بالوطنية الشائعة كانت أكثر فعالية ايضاً . جاءت هذه النزعة نتيجة لنظريات الفلاسفة الفرنسيين . نظر هؤلاء الى الجنس البشري كما الى وحدة . ان البشر كلهم حقوقاً واحدة وطاقة على السير في مدارج الرقي نفسها . ليس هنالك من شعب مختار ومن عنصر متفوق ، لا بل ان الاختلافات العنصرية والقومية ليست ذات شأن . « الطبيعة اعطت كل انسان العالم موطناً وكافة البشر مواطنين » . نظر القائلون بالوطنية الشائعة الى حب الوطن كما الى رأي مقبول قبل التحقيق . لذلك هزل فيهم الشعور القومي . فقد كتب فولتير : « كان من الواجب ان يكون ملك بروسيا سيدي والشعب الانكليزي مواطني » ، وقد هنأ فردريك الثاني بانتصاره على الفرنسيين في روسباخ . وتوصل الفلاسفة فترة من الزمن الى اقناع كافة مثقفي اوروبا بهذه النظرية . فجاهر فردريك الثاني باحتقاره اللغة والأدب الالمانيين ، ونعت رعاياه بالابروكوا . وأعلن الالماني شيلر : « اكتب كمواطن عالمي . فقدت وطني منذ زمن بعيد لاستبداله بالعالم الفسيح » . وأسدى هذه النصيحة الى أحد مواطنيه : « لا تسعوا وراء تكوين امة بل اكتفوا بأن تكونوا بشراً » . وايد غوته هذه الآراء . وصرح لسنغ بانه لا يفقه معنى لحب الوطن . ومن جهة اخرى ، إذا كان اختلاف الاخلاق والعادات والالسن ابعد منه اليوم الى حد بعيد ، فإن الانتقال من بلاد الى اخرى لم يخضع لما يخضع له اليوم في الدول العصرية القوية التي كيفت الأفراد وابرزت الفوارق بين الالمان والفرنسيين ، والاسبان والايطاليين . فنجم عن ذلك سهولة كبرى في الاغتراب وتبني اخلاق الأمة المسيطرة وآرائها وميولها ، ترسخ الوطنية الشائعة ، التي كانت مصدراً لها ، وتنمي الروح الاوروبية .

الاستبداد المستنير

ومما زاد في اظهار اوروبا وكانها اقتربت من الاتحاد ، ما قام في كل مكان من نظم متماثلة ، اوحتها ، كما بدا ذلك ، مؤلفات الفلاسفة ، وتزايد عددها تزايداً مطرداً بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن ، بعد «دائرة المعارف» ، حركة عامة تعرف بالاستبداد المستنير . ان الملوك ، او « المستبدين المستنيرين » ، اعتبروا انفسهم خدام دولهم الاولين وارادوا تجديدها تجديداً جذرياً باسم العقل . ففرضوا على رعاياهم اصلاحات « معقولة» : بعض المساواة في الضرائب بغية زيادة مواردهم ، والتناسق المطرد في ادارة الولايات والمدن بغية ضمان طاعة الرعايا بسهولة ، وبعض التسوية السياسية والاجتماعية للحد من توسع الارستوقراطيات ، والتساهل الديني بغية استخدام كافة رعاياهم بحسب كفاءاتهم ، وادارة اقتصادية تميزت بالحب المفرط للربح ، تخفف من وطأتها الحريات التي تبدو ضرورية للانتاج . ورافق كل ذلك قاموس فلسفي . أطلق الملوك على أنفسهم صفات « الفضلاء » و « الكرماء » و « المواطنين » و « الوطنيين » و « الشفوقين » ، وتكلموا عن سعادة الجنس البشري ، واحبوا الطبيعة ، وذرفوا الدموع ، ونعتوا خصومهم بالمستبدين : هذا هو ، منذ ذاك التاريخ ، التصنع البياني الذي اشتهر به العهد الجمهوري ، ولكنهم لم يستهدفوا من وراء عملهم هذا سوى ارضاء الفلاسفة محركي الرأي العام الاوروبي الأقوياء . وقد نجح المستبدون المستنيرون في ما سعوا اليه ، اذ ان الفلاسفة قد انخدعوا بالظواهر أمام التملق والملاطفة . فقام فولتير بالدعاوة لفردريك الثاني وديدرو لكاترين . لم يروا أن الملوك لم يختاروا في برنامج « دائرة المعارف » سوى النقاط التي تعود عليهم بالفائدة ؛ او بالأحرى ان في ما أقدم عليه « المستبدون المستنيرون » ، وهو خلو من كل جديد جديد ، تدابير اتفقت وبعض نقاط برنامج دائرة المعارف ؛ لم يروا أن هدف الملوك الحصر في تحقيق عظمة دولهم بغية السيطرة والغزو والتقسيم ، وان كل هذه « الفلسفة » ليست سوى فتنة خادعة ، وان وحدة اوروبا سراب خلّب .

الفصل الثاني

تنوّع أوروبا

الدول المختلفة

ان العادات والنظم المتماثلة والمتشابهة قد حجبت في الواقع فوارق عميقة. فالطوائف البشرية المعدودة، التي انتثرت هنا وهناك وكونت بفضل اتحادها « جمهورية عظيمة من العقول المستنيرة » (فولتير ، ١٧٦٢) ، قد برزت فوق جماهير مختلفة اختلافاً كلياً. ويرد ذلك إلى أن دول اوروبا الكثيرة كانت آنذاك في مراحل تطور تباعد بينها فروق كبيرة جداً . فمن الشرق الى الغرب ، كان المراقب يعود قروناً الى الوراء ويجتاز الزمن كما يجتاز المسافات .

احتفظت اوروبا بمميزات القرون الوسطى التي لن تزول إلا في القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاحتفاظ تباينت درجاته . فأوروبا كانت زراعية قبل أي شيء آخر ، يسيطر عليها النظام السيدي وبعض الارستوقراطيات العقارية القوية التي كانت تحد من السلطة الملكية حداً متفاوتاً. في كل مكان تقريباً ، كانت الأرض مقسمة املاكاً كبرى هي الممتلكات الوراثية لارستوقراطية اسياد يؤلفون هرماً منظماً من الفداديين والاقطاعيين ينتهي في القمة بالملك ، الاقطاعي الأكبر . وكان هؤلاء الاسياد يحتفظون لأنفسهم بقسم من الاملاك يستثمرونه بواسطة الملتزمين أو كما حدث ذلك غالباً في الشرق ايضاً ، بتسخير فلاحيهم الآخرين ، وكانوا يسلمون ما تبقى من أراضيهم انصبة صغيرة الى مزارعين غالباً ما يكونون احراراً في الغرب ، وفداديين الى الشرق من نهر الإلب . كان هؤلاء الاخيرون يزرعون انصبتهم لأنفسهم ، بينما كان باستطاعة الاحرار ، شرط شراء موافقة السيد بالمال ، توريث وحتى بيع حقهم في زرعها . وكانوا ملزمين أمام السيد بالعمل في قصره والأراضي التي احتفظ بها ، وهو عمل دعي « التسخير » ، غالباً ما استعيض عنه في الغرب بمبلغ من المال ، وبأتاوات مختلفة عينية ونقدية ، اسهاماً منهم في تأمين حاجات السيد واعترافاً بحقوقه السامية. هذه كانت الحقوق الاقطاعية . وكانت الغابات والمياه والبراحات ممتلكات مشاعية سمح السيد للفلاحين أن يأخذوا منها ، بشروط معينة ، الاخشاب والقشور والعسل البري والكلأ وفراش الدراجن ويسوّموا فيها مواشيهم . واحتفظ السيد لنفسه بالقضاء على الحيوانات المضرة ، أي بالقنص . ومارس حيال الفلاحين ، بأشكال مختلفة ، سلطات قضائية

وبوليسية مع مراعاة سلطات الملك مراعاة تختلف باختلاف الدول. واذا ما توسعت بعض القرى والمدن في املاك السيد، ألزم سكانها ايضاً بواجبات إقطاعية وخضعوا لسلطته القضائية. ولكن الاتحاد والاثراء وحتى تشييد الاسوار أتاح للمدن أن تتحرر كليا أو جزئيا.

إن هذه الارستوقراطيات، التي جمعتها من جهة ثانية الروابط العائلية والروابط الوثيقة بين الحامي والمحمي وبين صاحب الاخاذة والسيد، كانت مستأثرة من ثم بسلطة كبرى، أقله عملية. فالواقع هو أن الملك، وان اعترف له بسلطة مطلقة، لم يمارس السلطة الفعلية التي تمارسها حكوماتنا الحالية، حتى في فرنسا مثال الملكيات. فهو لم يصطدم بحقوق الاوستوقراطية العقارية فحسب، بل كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار حريات وامتيازات وحقوقاً فازت بها بقوة الاتحاد وضمنتها بامضاء الملك هيئات منظمة عديدة، أعني بها الجمعيات المعدة لحماية الأفراد: البلديات، التعاونيات المهنية، الجامعات، الكنيسة، واحياناً، كما في فرنسا واسبانيا مثلاً، هيئات الموظفين الذين يتملكون وظائفهم. أجل غالباً ما نافست هذه الهيئات الاوستوقراطيات العقارية، ولكنها اتحدت معها احيانا للدفاع عن «الحريات» المشتركة ضد قوة الملوك المتعاظمة.

وتوجب على هؤلاء كذلك احترام حريات وامتيازات ولايات دولهم المختلفة. الوحدة مفقودة في كل مكان، بدرجات مختلفة. لم يتحرر الناس في أي مكان من مفاهيم القرون الوسطى التي كان الملك بموجبها مالك المملكة وسيداً أعلى يمتلك أراضي ملكية. وسع الملوك ممتلكاتهم بالزواج والارث، وباختيار السكان احياناً، وبالقوة ايضاً. ولكنهم غالباً ما تركوا للولايات الملحقة اخلاقها وعاداتها ونظمها الخاصة. واذا الفت بعض الدول، ولا سيما فرنسا، أمماً حقيقية، فان الامة لم تكن كاملة في أي مكان: لقد أدى واجب الخضوع الى رئيس واحد، كما هو طبيعي، الى قيام بعض النظم المشتركة، ولكن التنوع ما زال كبيراً في كل دولة، كما أن عمل الملك اعاقته هذه الفوارق وحد منه الاستقلال الذاتي الممنوح بتفاوت لكل ولاية من الولايات.

وتباين مدى السلطة الملكية والنظم المشتركة تباينا كبيراً بحسب الدول. وانما يبدو، على العموم، انه كان كبيراً في البلدان التي تمكن الملوك فيها من أن يرفعوا في وجه الاسياد طبقة جديدة هي طبقة البورجوازيين، من تجار وصناعيين. ان هذه الطبقة، التي لم تزل من الوجود قط، والتي تزايدت تزايداً كبيراً منذ زمن بعيد، قد نمت نمواً سريعا وهاما جداً منذ الاكتشافات الكبرى في اواخر القرن الخامس عشر وتوسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى. كان هؤلاء البورجوازيون، الذين اكتسبوا ثروة وعلما، قوة اجتماعية كبرى، وقد لعبوا، بفضل الاموال الطائلة التي استطاعوا وضعها بتصرف الدولة والمصنوعات التي تمكنوا من توفيرها للملك، دوراً لا يتناسب وعددهم، لا بل لا يتناسب، في الارجح، واهمية ثروتهم الحقيقية اذا ما قيست بثروة البلاد كلها. حاول الملوك، لا بل حاول بعضهم بتدخل الدولة المنظم في الحياة الاقتصادية الذي أطلق عليه اسم الروح التجارية. فان هنري السابع وهنري الثامن و «اليزابت تودور» في

انكلترا القرن السادس عشر ، وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر في فرنسا القرن السابع عشر ، كانوا مستبدين مستنيرين حقيقيين قبل أن يحدد المعنى اللفظي لهذه الكلمات. ولكن البورجوازيين ما ان اصبحوا اقوياء حتى حاولوا بدورهم الحد من السلطة الملكية بالاتفاق مع ارستوقراطية مستضعفة باتت أقل خطراً عليهم .

يبدو التفاوت في نمو البورجوازية بحسب الدول اهم واقع في تاريخ هذه الدول خلال القرن الثامن عشر . ففي الشمال الغربي من اوروبا الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة لتيارات التجارة العالمية الكبرى ، رأت انكلترا ، البورجوازية المنتصرة في ثورة السنة ١٦٨٨ ، توسع سلطتها وتأثيرها ، ورأت دول تجارية كهولندا ، ومدن المانيا الشمالية ، قيام جمهوريات بورجوازية قديمة جداً . وفي فرنسا ، التي كانت أقل تطوراً ، هزت القرن كله الصراعات بين الارستوقراطية والبورجوازية والملك . وفي اوروبا الوسطى والجنوبية التي لم تتأثر تأثراً يذكر بالتجارة الاوقيانوسية الكبرى ، حاول « المستبدون المستنيرون » انماء بورجوازية رأسمالية لمضاعفة قوة دولهم . أما في اوروبا الشرقية التي ما زالت في قرونها الوسطى ، فاما كانت السيطرة للارستوقراطية كما حدث في بولونيا ، واما استهدفت جهود الملك ، الملاك الاول في الدولة ، ضمان قيادته الفعلية لأرستوقراطية تخلى لها عن كافة الفوائد الاجتماعية ، كما حدث في روسيا .

اوروبا الغربية

المملكة المتحدة

سيطرت التجارة البحرية على حياة انكلترا كلها، منذ ان وضعت الاكتشافات الاوقيانوسية الكبرى انكلترا في طريق التيارات التجارية الرئيسية ، ومنذ ان استطاعت الافادة من الرياح الجنوبية الشرقية التي رجهت إليها السفن الشراعية الكبرى ، تعاظمت تجارتها تعاظماً عجيباً حتى غدت منذ مطلع القرن الثامن عشر التجارة الاولى في العالم . كانت تجارة ايداع وتخزين : ينزل الانكليز في موانئهم منتوجات ما وراء البحار لاعادة توزيعها في اوروبا ، ومنتوجات البحر المتوسط لمقايضتها بمنتوجات البلطيك وبالعكس . وكانت تجارة نقل ايضاً : حل الانكليز باطراد محل الهولنديين وأمنوا نقل البضائع لحساب تجار الدول الاخرى . وكانت تجارة تصدير اخيراً تتناول ، بالاضافة الى المصنوعات ، الحنطة ، ولكن اقل فأقل ، والفحم المعدني ، و « الهند السوداء » ، اللذين صدرا الى اوروبا الشمالية الغربية . وقد قدر بعضهم ان الانكليز استأثروا في أواخر القرن بتسعة اعشار المحمول الاوروبي .

اعتمدت الدولة التعاليم الاقتصادية التوجيهية : وجهت الاقتصاد خدمة لصوالح الجميع . على البلاد ان تكتفي نفسها بنفسها ، وتبتاع القليل وتشتري الكثير ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ ان الميزان التجاري ، الذي ترجح فيه كفة الصادرات على كفة الواردات ، ووفرة المعادن الثمينة ، هما دليلا الازدهار . الدولة تعمل بقوانينها وانظمتها وسياستها. فوثيقة الملاحة (١٦٥١) تحتفظ للسفن الانكليزية بتجارة ما وراء الاوقيانوسات ، وتحظر على السفن الاوروبية ان تنقل

الى انكلترا بضائع غير بضائع البلدان التي تنتسب هي إليها ، وتحمي رسوم جمركية مرتفعة الصناعة الانكليزية التي نظمت . الدولة تعلن الحرب وتعقد الصلح وفاقـاً لحاجات التجارة : الانتصارات على قرننا انما هي انتصارات تجارية بواسطة المدفع . زد على ذلك ان معاهدتي أوترخت في السنة ١٧١٣ ومعاهدة باريس في السنة ١٧٦٣ قد كرست هيمنة انكلترا البحرية والتجارية .

بدّلت هذه التجارة كل شيء . ارتفع عدد السكان ، الذي اصبح في اسكتلندا وبريطانيا العظمى بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في السنة ١٧٠٠ ، و ٩ ملايين نسمة حوالي السنة ١٧٨٩ . ونمت بورجوازية غنية من رجال المال والتجار ومجهزي المراكب . لم تتكون فيهم روح الطبقية بعد : فحلمهم هو ان يكتسبوا الاملاك الكبرى وينظر إليهم كما الى اعضاء الارستوقراطية العقارية . ولكن صوالحهم دفعتهم اخيرا الى القيام بعمل مشترك في الساعات الحاسمة . وبعد السنة ١٧٦٣، احدثت التجارة ثورة صناعية ضمت « قباطنة الصناعة » الى بورجوازية التجار وافضت الى نشأة طبقة من الكادحين .

أدت الانطلاقة التجارية والثورة الصناعية الى تطوير الاملاك الانكليزية الكبرى . افتقرت الصناعة الى المزيد من الصوف ، والمدن النامية الى مزيد من الحنطة واللحوم . زاد طلب المنتوجات الزراعية وارتفعت قيمتها ، فرغب البورجوازيون ، اصحاب الاملاك السيدية، بحسب عادتهم ، في الافادة منها اكبر افادة . لم ينظر النبلاء من جهتهم الى النشاطات المفيدة نظرة الارستوقراطية الفرنسية . فهو احد كبار اعضاء طبقة النبلاء العقاريين ، اللورد «تونشند» ، من استهوى الزراعة ، فكان ان معظم الاشراف الريفيين اخذوا ، حوالي السنة ١٧٦٠ ، يستثمرون اراضيهم بأنفسهم . ولكن نظام الزراعة ، نظام «الحقول المكشوفة والمستطيلة» (*Openfield*) ، لم يكن موافقـاً للزراعة المنتجة والعلمية . فالحقول لم تكن مقفلة . وكان كل مزارع وراثي (*Freeholodar*) يعتبر كمالك للارض ويتصرف بعدة عقارات موزعة هنا وهناك محافظاً على حقوق السيد السامية . ويقتضي الزرع في الوقت نفسه ، وبالطريقة نفسها ، وهذا يتنافى والتقدم . أراد الاسياد صيانة اراضيهم كي يستطيعوا تغيير موعد الزرع ، وأرادوا استبدال طريقة الزرع كي يستطيعوا تأصيل المواشي . حولوا اراضيهم الى آراض مقفلة . استحصلوا من البرلمان على اجازة بتصوين الاراضي وجمعها كي يجعلوا منها انصبة يستلم كلا منها مزارع واحد ، وصولوا الاراضي المشاعية نفسها . ولكن ذلك أدى بالمزارع الحر الى الافتقار احياناً ، إذ أنه يستلم اراضي اقل جودة ويضطر الى تحمل نفقات التصوين، ويحرم حق رعاية مواشيه في الحقول بعد الحصاد وحق الاستفادة من الاراضي المشاعية ، ويعجز عن مزاحمة كبار الملاكين بمنتوجاته بسبب افتقاره الى المال والمعرفة لاعتماد الطرائق الجديدة . فيضطر الى بيع ارضه من السيد والانحدار الى منزلة العامل الزراعي ، أو الذهاب في أغلب الاحيان الى المدينة حيث يصبح

عاملاً ، أو صناعياً احياناً اذا حالفه الحظ . فما كانت الصناعة لتنمو لولا اليد العاملة التي وفرتها الحقول المقفلة . وهكذا غدا الغني اكثر غنى والفقير اكثر فقراً . والارستوقراطية اخذت تلسج على منوال البورجوازية . انشغلت بالانتاج والبيع واستثمرت المناجم كما استثمرت الارض. فقد انصرف الدوق « دي بردجووتر » بعد السنة ١٧٦٠ الى تشييد الاقنية لنقل الفحم المعدني ، ولكن اخوة الابكار في العائلة الكبرى قد انصرفوا من جهة ثانية ، بسبب البكورية الصارمة ، اكثر فأكثر الى التجارة والمال.وهكذا خفت تدريجياً حدة التضاد بين الاشراف والبورجوازية.

هاجت التجارة المجتمع هياجاً شديداً . فان الاثراء السريع الذي حققه اناس ، حتى من كبار الاسياد ، ما زالوا ريفيين افظاظاً ، والذي جاء في اعقاب حرب وراثة عرش اسبانيا الطويلة القاسية ، قد اسهم في فساد الاخلاق : ادمان الفقراء والاغنياء على المسكر ؛ فجور ؛ ميل الى المشاهد الشرسة وحتى الاليمة (ملاكمة ، معارك الديكة) ؛ اعتماد الكذب والنميمة والرشوة ، والعنف والشغب عند الحاجة في الحياة السياسية ؛ لا بل فقدان الشعور القومي في وقت من الاوقات « اني مستعد الدفع ، اذا وصل الفرنسيون ، اما اذا توجب علي القتال ، فخير لي ان يمحي الشيطان من الحياة ! » .وبصورة غير مباشرة ، سببت التجارة ، كردة فعل امام بؤس الطبقة الكادحة ، وفتور الكنيسة الانغليكانية ، التي كانت مناصبها محط انظار ابناء النبلاء من غير الابكار ، حركات فكرية واخلاقية كثيرة : الميثودية ، الانجيلية ، الميل الى محبة البشر . وانما القى (وسلي)عظة لاول مرة في الهواء الطلق امام المعدنين الغاليين . فكان ان هذه الحركات الكريمة كلها قد جددت انكلترا تدريجياً منذ السنة ١٧٤٠ ، وبعثت القوى الادبية ، كالاهتمام بالقومية والعدالة والانسانية ، ولكنها ادت للبورجوازية خدمة بينة هي حمل الكادحين على الصبر والانتظار . وكان للتجارة اثرها حتى في العلوم والفنون . فهم البورجوازيون المثقفون والمتفرغون بعض التفرغ من قادوا الحركة العلمية . ويفسر الاثراء من جهته اقبال المجتمع الانكليزي على شراء منتجات الرسامين والنقاشين الفرنسيين ، كما يفسر اخيراً ، بعد انقضاء فترة تدريبية ، قيام مدرسة اصيلة للرسم الانكليزي .

وهيمنت التجارة كذلك ، بواسطة المجتمع الذي خلقته ، على الحياة الادارية والسياسية . كانت الادارة المحلية في ايدي الاغنياء . الملك يعين الموظفين المحليين من بين كبار الملاكين . فكان في كل كونتية قائمقام يقود بجندي الملاكين ، ومأمور احكام مدينة ينفذ احكام القضاء ، وقضاة صلح يختارون من لائحة ملاكين ينظمها القائمقام ،وتسند اليهم امور القضاء والأمن والاسعاف العام والرسوم المحلية . ولكن « الامن » في ذاك العهد كان يشتمل على كل ما نطلق عليه اليوم اسم الادارة . لذلك كانت الحياة المحلية كلها خاضعة للأثرياء ، وما انفك البورجوازيون ، من بين هؤلاء ، يزدادون عدداً كلما اكتسبوا املاكاً جديدة ، ومنذ السنة ١٧٦٠ ، انضم اليهم الـ « نباب » ، اي موظفو شركة الهند الذين جمعوا ثروات طائلة .

الفت انكلترا ، سياسياً ، ملكية دستورية ، مع ملك ومجلسين . ولكن هذين المجلسين

لا يمثلان سوى الاغنياء . يتألف مجلس اللوردات من اسياد عظماء ، لوردات بالوراثة ، ومن اساقفة ورؤساء اساقفة ينحدر جلهم من الارستوقراطية ، ومن لوردات يحق للملك ان يعينهم على هواه من بين الانكليز الذين ادوا خدمات جلى للبلاد ويختارهم من بين الاغنياء . ويتألف مجلس العموم من مندوبين تنتخبهم المدن او القرى الكبرى ، والارياف او الكونتيات ، بحسب دخلها او اعفاءاتها : يجب ان يكون المقارع من اهل اليسار . بيد ان الاغنياء وحدهم هم من ينتخبون عملياً . وكيف يجوز ، في ظل الانتخاب العلني ، ان لا يصوت الناخب لمرشح السيد الكبير ، مالك كافة بيوت القرية الصغرى والقادر من ثم على الانتقام ؟ كيف يجوز عدم ارضاء السيد الكبير ، مالك معظم اراضي القرية ، الذي يجمع بين النفوذ السياسي وممارسة الوظائف المحلية التي تتيح له تضييق سبل الحياة على المنتخبين العصاة ؟ اضف الى ذلك من جهة اخرى ان اثار الحياة الاقطاعية لم تندرس كلها . فهناك عائلات كثيرة من المزارعين الاحرار ما زالت مخلصة في تفانيها في سبيل سيدها وحاميها . ثم ان الرشوة ممكنة اخيراً . فعدد المنتخبين ليس مرتفعاً ، وقد تدنى في بعض الامكنة بفعل ضائقة المزارعين الاحرار ، كما هبط عدد سكان بعض القرى الى دونه في القرون الوسطى . ليس هنالك بعد سوى ٧ ناخبين او ٥ او ٢ . ولكن هؤلاء مازالوا ينتخبون العدد نفسه من المندوبين . وجلي انه من السهل جداً شراء هذه « القرى الفاسدة » . وجلي كذلك ان باستطاعة البورجوازيين الاغنياء ان يصبحوا مندوبين . فيتضح من ثم ان انكلترا الارستقراطية هي اوليغارشية .

لا ينتخب مندوبو مجلس العموم لحل المسائل السياسية ، بل لتأمين صوالح الفئات المحلية ، والصوالح المادية ونفوذ العائلات . وغالباً ما يقوم الابكار بنشاط سياسي بغية الحصول لاخوتهم على الاسقفيات ، او قيادات السفن ، او مراتب في الجيش ، او مراكز حكام في المستعمرات . وغالباً ما يقومون بهذا النشاط كذلك سعياً منهم وراء المجد والشهرة . الأحزاب اختلاط غريب يضم فئات غير واضحة الاهداف . في السنة ١٧١٤ ، رغب الـ « طوري » في ان يتمكن الملك من ان يحكم فعلياً ، وان يختار ويعزل الوزراء كما يطيب له . ورغبوا خصوصاً في أن يتربع على العرش احد أنسال سلالة ستوارت : فهم أشبه بالـ «جاكوبيين» . اما ال«ويغ» وهم ينتسبون الى كبريات عائلات عهد الثورة ، فقد رغبوا في رجحان نفوذ مجلس العموم ، السيد في اقالة الوزراء واختيارهم على السواء . ثم ما لبثت هذه الفوارق ان زالت بين الويغ والطوري ولم يباعد بينهم سوى المسألة الجاكوبية وحدها تقريباً . وجدير بالذكر ان هذين الحزبين ما كانا ليشكلا أكثر من ثلث المجلس . فإن ثلث المندوبين تقريباً لم ينتسبوا الى اي حزب . وانتخب الثلث الأخير ابداً الى جانب الحكومة . كانت الاحزاب في الواقع تجمعات مؤقتة من المندوبين الطامعين في المراكز حول رئيس يعتبرونه قادراً على ايصالهم الى ما يتوقون اليه . وكانت كفة الميزان الدستوري تميل الى جهة مجلس العموم او الى جهة الملك وفاقاً للظروف والاشخاص .

كانت الغلبة للويغ حتى السنة ١٧٦٠ . فقد اقصي آل ستيوارت عن العرش لأن الويغ اخذوا عليهم السعي وراء السلطة المطلقة ، وقد ساند الطوري هؤلاء ، وان بتردد ورجوع متكرر الى الوراء ، حقداً منهم على الكاثوليكية . اختار الانكليز ملكاً عليهم منتخب هانوفر ، ابن حفيد جاك الاول ، جورج الاول (١٧١٤ – ١٧٢٧) . استند هذا الاخير ، وابنه جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) ، الى الويغ لان الطوري كانوا متهمين بتعلقهم بآل ستيوارت . زد على ذلك من جهة ثانية ان هذين الملكين بقيا المانيين ، منشغلين بمنتخبيتها في الدرجة الاولى، وجاهلين الانكليزية ، ومتغيبين عن انكلترا في اكثر الاحيان ، فاقدين كل سلطة بسبب ادمانها على المسكر وبسبب دسائس عشيقاتهما . اضطرا الى اختيار وزرائهما من بين الأكثرية ، اي الويغ ، وافساح المجال واسعاً أمامهم لممارسة الحكم : فما كانا ليحضرا حتى مجلس الوزراء . ولكنهما حافظا على بعض النفوذ . كان على رئيس مجلس الوزراء ، إذا اراد الابقاء على اكثريته، لا ان يدفع اموالاً للممثلين اثناء الاقتراعات الحاسمة فحسب ، بل ان يستحصل على مراكز لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم ولعملائهم الانتخابيين. فالملك كان يعين ويعزل ضباطاً كثيرين في وظائف المالية والجيش والاسطول . لذلك بات لزاماً على رئيس مجلس الوزراء ان يوثق علائقه بالملك واكثرية البرلمان على السواء . وقد لجأ رئيس مجلس الوزراء الى رشو الملك عند الاقتضاء بحمل الاكثرية على اقرار زيادة المخصصات الملكية واقرار الرواتب والمهور لعائلته والمقربين اليه. كان كل شيء مرتكزاً الى المصلحة الشخصية . وقد عرف « والبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢)خير معرفة كيف يعتمد هذه الطريقة ويمارس الحكم بارضاء عدد من كبار اعضاء البرلمان وزبنهم الكثيرين . وهي هذه الرشوة ما حاربها « وليام بيت » . كان راغباً في وزارة قومية تتألف من رجال يمثلون كافة النزعات ولا يهتمون الا بالمصلحة العامة . احدثت الحرب ضد فرنسا تياراً فكرياً عاماً اعطاه ، منذ السنة ١٧٥٦ حتى السنة ١٧٦١ ، دور رئيس مجلس الوزراء وشبه دور الدكتاتور المفروض على احزاب الأمة . ولكن ما أن تحقق النصر حتى أقاله جورج الثالث . كان هذا الاخير ، وهو حفيد جورج الثاني ، انكليزياً عاش حياة لا لومة عليها ونظر الى مسؤولياته بجد واقدام واراد ضمان الحقوق الملكية .فتوصل ، باعتماده الرشوة بدوره، الى فرض وزارة اختارها هو وجعل على رأسها اللورد « نورث » منذ السنة ١٧٧٠ حتى السنة ١٧٨٢ ، وحاول ان يحكم حكماً ملكياً مطلقاً . اضطر لقبول استقالة اللورد « نورث » في السنة ١٧٨٢ ، ولكنه توصل بالرشوة الى تأمين اكثرية من الطوري وفرض في السنة ١٧٨٤ وزيره « بيت » الثاني ، ابن وليام بيت .

يتضح من ثم ان التجارة سيطرت على الحياة السياسية كلها . فالمسائل الكبرى التي نوقشت في مجلس العموم ومجلس اللوردات مسائل قروض وضرائب ورسوم جمركية . امن « والبول الازدهار التجاري . وإذا ما بدت سياسته السلمية وكأنها تعرضه للخطر ، ارغمه مجلس العمو على محاربة اسبانيا وفرنسا ثم على الاستقالة . وهم رجال المال ، والتجار ، وسكان مرفأ لندن

مركز الحكومة ، العائشين من حركة المرفأ والمتاهبين ابداً الشغب ، من فرضوا « بيت » الاول لاعـلان الحرب على فرنسا منافسة الانكليز في المستعمرات . اعطى « بيت » الاول صيغة السياسة الخارجية الانكليزية : « السياسة البريطانية هي التجارة الانكليزية » . فاخفاق السياسة الجركية في اميركا وفقدان المستعمرات وبعض اسواقها هما ما تسببا في رحيل اللورد «نورث» . وهي خبرة « بيت » الثاني في حقلي المال والاقتصاد ما فرضه على مجلس غير واضح الاتجاهات. واذا بقي مجلس العموم قوة ادبية تقف في وجه غيرهـا دون ان تسيطر على السلطة التنفيذية، واذا بقي الوزراء خداماً للملك،فمرد ذلك الى ان النظام السائد قد عمل لمصلحة الاوليغارشيين.

الاقاليم المتحدة تؤلف الاقاليم المتحدة جمهورية اتحادية تضم سبعة اقاليم لعبت البورجوزاية فيها دوراً كبيراً بسبب تجـارة التخزين والنقل البحرية . وهي في دور انحطاط كلي لان مزاحمة الانكليز والفرنسيين تقضي على تجارتها التي لا تحافظ على نشاطها الا في الهند الشرقية . ويبرز انحطاط التجارة انقساماتها الداخلية . ينحصر النشاط كله في امستردام. اما المدن البحرية الاخرى واقـاليم الداخل الزراعية ، المتحاسدة ، فتحارب سياستها التجارية وتطالب باقصاء اوليغارشيتها البورجوازية والعودة الى القيادة العسكرية لصالح اسرة اورانج ، حليفة ملوك انكلترا . وفي الخارج اصبحت الاقاليم المتحدة اعجز من ان تعد للمعارك اساطيل كبرى وجيوشـاً قوية . زد على ذلك ان هزال القوة وورود شطر كبير من الدخول الهولندية من الاموال الموظفة في انكلترا والخوف ايضاً من اقدام الفرنسيين على احتلال المناطق المنخفضة قد ابقتها في تحالف انكليزي اشبه بالاقطاعية . في السنة ١٧٨٧ ، اسقط الانكليز ، بالاتفاق مع البروسيين ، الحزب الجمهوري البورجوازي ، صديق فرنسا ، واعادوا نظام القيادة العسكرية .

فرنسا حافظت فرنسا على طابعها الزراعي اكثر من انكلترا . فالارض فيهـا توفر ، اكثر منها في انكلترا ، معظم الموارد ، والاملاك العقارية ، ولا سيا امـلاك النبلاء ، تفرض مركز المرء في المجتمع . تضم الارستوقراطية العقارية الامراء الملكيين وكبار الاشراف من دوقة ومراكيز يعيشون في البلاط وباريس اجـالاً ، واحياناً في املاكهم حيث ينفردون ، ورؤساء الاساقفة ، والاسـاقفة ، ورؤساء الاديرة المرموقين ، ومتوسطي وصغار النبلاء في الاقاليم ، والضباط الملكيين . الامراء والعظماء مستاؤون ابداً . يأخذون على الملك المطلق انه لا يترك لهم اي دور سياسي ، وعلى الملك الذي يجمع السلطات بنظـام المركزية انه يحرمهم بواسطة وكلائه من كل ادارة اقليمية وعلية ولا يترك لهم سوى صلاحيات عقارية . يقضون اوقاتهم في المطالبة بالحرية ، اي بتولي الارستوقراطية حكم فرنسا . ويشاطرهم صغـار النبلاء آراءهم في ادارة الاقاليم ، وينضمون اليهم للاعتراض على كافة محاولات الملك لاخضاع طبقة الاشراف هذه لأعباء اميرية ؛ ولكنهم يقاومون استئثار كبار النبلاء ، انسباء الملـك ، بالوظائف الشرفية والسلطات .

سواد النبلاء في نزاع دائم مع الطبقات الاخرى. فهم يدافعون عن انفسهم ضد البورجوازيين . كلما ازداد شأن هؤلاء ، نادى النبلاء بامتياز نسبهم . الاسقفيات وقف على ابناء العائلات النبيلة من غير الابكار : ومن المحال البحث عن بوسويه آخر . بذلت بعض الجهود منذ السنة ١٧٥٧ للاحتفاظ النبلاء براكز الضباط ، وفي السنة ١٧٨١ ، حددت درجات النبل المفروضة لشغل هذه المراكز بأربع درجات . ويقاوم النبلاء الفلاحين ايضاً . صغار النبلاء ، من جهة ثانية ، فقراء لا يلبثون ان يفقدوا اموالهم في الجيش حيث يحاربون ببسالة . يحتفظ هؤلاء النبلاء حتى النهاية باحترام دورهم العسكري . فان الاسعار التي ترتفع باطراد ، لا سيما منذ السنة ١٧٦٠ ، في حال ان الواجبات الاقطاعية قد حددت منذ زمن بعيد بمبالغ نقدية ثابتة ، ترغمهم على البحث عن مداخيل اخرى ، فيخالفون الاعراف بتعاطيهم التجارة والصناعة وحتى زراعة ارض تستلزم اكثر من اربعة محاريث . لذلك تراهم يحاولون ، لا سيا في الثلث الاخير من القرن ، استثمار حقوقهم الاقطاعية جهد المستطاع . ويبحث لهم بعض خبراء النظام الاقطاعي ، في سجلات قيد حقوق هذا النظام ، عن الحقوق المنسية . فتثقل من ثم وطأة النظام الاقطاعي . ويقوم بعمل مماثل متوسطو النبلاء وكبارهم ، ولكنهم يحاولون بالاضافة الى ذلك حرمان الفلاحين من الحقوق المكتسبة والاستئثار بالغابات التي غدت نادرة الوجود كبيرة القيمة ، وبالبراحات ، ليجعلوا منها اراضي زراعية ومراعي . وقد دفعهم الى ذلك ، بعد السنة ١٧٦٠ ، نفوذ القائلين بان الزراعة هي المصدر الوحيد للثروة . وعقد بعضهم مع الجماعات القروية اتفاقات ملازمة او استقرار تسمح لها بتسييج ثلثي الاملاك العامة ، او اتفاقات اختيار تؤمن لها ثلث هذه الاملاك . بيد ان حركة التسييج كانت محدودة. فبقيت فرنسا بلاد استثمار لصغار الفلاحين . وهكذا تعرض النبلاء ، في اواخر القرن ، لحقد الفلاحين المتعاظم .

ولكن النبلاء ، في نضالهم ضد الملك الذي كانوا يريدون استعادة السلطة منه ، استندوا في مؤلفات الفلاسفة : نظرية العقد ، ونظرية الحقوق الطبيعية ، ونظرية القائلين بان الزراعة هي مصدر الثروة ، الى البراهين التي كانوا يفتقرون اليها ؛فوعى النبلاء حينئذ واقتنعوا بانهم على حق .

وقد ساند نبلاء الجندية ، في هذا النضال ، نبلاء القانون والشرع ، مالكو الخدمات او الوظائف العامة الرئيسية التي ما زال الملك يبيعها ، ولا سيا ضباط المحاكم العليا او المجالس التي غالباً ما كانت وظائف اعضائها وراثية او بيعت من عدد محدود من العائلات نفسها . الف اعضاء هذه المجالس عالماً مقفلاً ، او طبقة خاصة . احتقروا نبلاء الجندية الذين احتقروهم بدورهم أيضاً . ولكنهم لم يكونوا دون نبلاء القانون والشرع تمسكاً بامتيازاتهم ، ولا سيا الاميرية منها ، فكانوا على غرارهم اسياداً عقاريين ، وارتبطوا بهم بالمصاهرات واحترف بعضهم الجندية ، فقامت بينهم مصالح مشتركة كثيرة . ادعوا لنفسهم الحق بدور موجه في الدولة وبرقابة القرارات الملكية ، فعارضوا بعناد كل محاولة لاصلاح الملكية .

من هاتين الطبقتين انطلقت ضد شخص الملك اعنف الانتقادات ، وأقذر الافتراءات ، بوحي من الدوق « دورليان » والامير « دي كونتي » والدوق « دانفين » .

وفي وجه هذه الطبقات نمت البورجوازية التجارية . افادت من جهود كبـــار « المـبذين المستنيرين » في القرن السابع عشر : هنري الرابع ، لويس الثالث عشر ، لويس الرابع عشر . في أوائل العهد دفعت محاولة « لو » الأعمال التجارية الى الامام . انتقل مجموع التجارة الخارجية من ٢١٥ مليون ليرة في السنة ١٧١٦ (١٧٢ مع أوروبا ، و ٤٣ مع الدول الأخرى) ، الى ٤٣٠ مليون ليرة في السنة ١٧٤٠ (٣٠٦ و ١٢٤) والى ٦١٦ مليوناً في السنة ١٧٥٦ (٤١٢ و ٢٠٤) . ثم دبّ النشاط مرّة أخرى بعد انكسارات حرب السنوات السبع . ففي السنة ١٧٧٧ بلغت الصادرات ٢٥٩ مليون ليرة والواردات ٢٠٧ ملايين ؛ وفي السنة ١٧٨٩ ، بلغت الصادرات ٣٥٤ مليون ليرة والواردات ٣٠١ . وكانت اعظم التجارات كبا التجارة البحرية التي استخدمت اكثر من ٣٥٠٠ سفينة ، بينما لم يبق منها سفينة واحدة تقريبا في السنة ١٧١٣ . بلغت مرافيء « سان مالو » و « لوريان » و « روان » و « له هافر » و « نانت » و «لاروشيل» و « بوردو » و « مرسيليا » اوج ازدهارها . وكانت خير عناصر هـــذه التجارة المحاصيل الاستعمارية ، ولا سيما سكر « سان ـ دومنغ » وعرق سكرها ، والنخاسة .وقد أتاحت رؤوس الأموال المكدسة تجمع الصناعات التجاري حول المرافيء ، الصناعات القطنية حول روان ، والصناعات الكتانية حول المرافيء البريطانية ، والصناعات الصوفية حول مرسيليا «وسيت» . وأنشأ مجهزو المراكب والتجار ، في بوردو ونانت، معامل التقطير والتصفية ، كما انشأوا في كافة انحاء المملكة مصانع الفولاذ والورق واستثمروا مناجم الفحم الحجري : فكانوا في اواخـــر القرن منطلق المحاولات الاولى لاختراع الآلات واستخدامها وتجميع الصناعات . ولكن بعض النبلاء ساروا على خطاهم ووظفوا رؤوس الأموال في أعمالهم التجارية وتقاضوا الفوائد من مناجم الحديد والفحم الحجري ومصانع الفولاذ . فملك المركيز « دي سولاج » مثلا اسهماً كثيرة من مناجم « كارمو » . اخذ المجتمع يتخلق بأخلاق البورجوازية . وتسربت الروح البورجوازية الى الادب والفن وشطر من النبلاء . منذ السنة ١٧٥٠ ، غدا اللباس اسود اللون ، فأخذ الناس لا يميزون بين النبيل والبورجوازي . وفي عهد لويس السادس عشر استطيع النبلاء الاقلاع عن حمل السيف واستبداله بعصا بورجوازية وتخلى بعض النبـــلاء عن الجمّة المستعارة واكتفوا بشعورهم . وتظاهر بعضهم بعادات بسيطة ، و « باخلاق رقيقة » : فحرص الامير على أن يقدم الاميرة ، زوجته ، الى فرقته بقوله : « يا بَنيّ ، هذه هي امرأتي » .

اراد البورجوازيون الحرية لاعمالهم التجارية ، والغاء امتيازات النسب ، والاشتراك في سن القوانين ، ورقابة الميزانية والسياسة الملكية ، ولكنهم أرادوا الابقـــاء على كثير من الحقوق السيدية والاراضي المسيّجة لان العديد منهم قـــد اشتروا الاقطاعات . وقد أدّت الحكومة الملكية خدمات جلى للبورجوازيين .فان دائرة التجارة،التي تأسست في السنة ١٧٢٢ ،قد وضعت

البيانات الاحصائية ووفرت التجار المعلومات والتوجيهات وساعدت المشاريع . وتولى مجلس التجارة الارشاد والتوجيه ، فخففت شيئاً فشيئاً ، بالاقتراحات والتراجعات، حـدة العراقيل وقساوة الانظمة . وتسهلت المواصلات ؛ فانشئت دائرة الجسور والطرقات في عهد الوصاية ، ونظمت اعمال التسخير الملكي لأجل الطرقات في السنة ١٧٣٨ وشقت طرقات كثيرة وخفضت رسوم المرور ؛ واطلقت تكراراً ، في السنوات ١٧٦٣ و ١٧٧٠ و ١٧٧٤ و ١٧٨٧ ، حرية تجارة الحبوب التي كان مقدراً لها ان تزيد الانتاج بفعل يقين التاجر من البيع بسعر مغر ، فجاءت كذلك تدبيراً مشجعاً للفلاحين الملاكين . وبعد السنة ١٧٥٠ ، اقدمت الادارة الملكية، تحت تأثير القائلين بأن الزراعة مصدر الثروة ، على تلطيف انظمة الصناعة . فأجازت انتاج الكتانيات المصورة والملونة (١٧٥٩) ، وألغت منها بعض البنود ، ولم تطبق البنود الاخرى الا ببصيرة وفطنة . لا بل ان « تورغو » قد استصدر قانوناً في السنة ١٧٧٦ بالغاء تعاونيات الحرف ومحاكمها الخاصة التي كانت تعيق تأسيس مشاريع جديدة واعتماد طرائق جديدة . ومنذ السنة ١٧٧٩ استمرت التجارب لاشراك الأعيان في الادارة بواسطة الجمعيات الاقليمية .

ولكن الحكومة لم تذهب الى ابعد من ذلك . فما لبثت التعاونيات ان اعيدت . وفي السنة ١٧٨٦ عقدت مع الانكليز معاهدة تجارية مضرة بصالح البلاد اذ انها أقرت تخفيض الرسوم الجمركية على المصنوعات الانكليزية ، وهي دون المصنوعات الفرنسية كلفة الى حد بعيد ، الى ١٢ ٪ ، فنجم عنها غزو المصنوعات الانكليزية لفرنسا ، وأزمة خطيرة . ولم يمنح البورجوازيون سوى القليل من الاسهام في الشؤون المحلية والاقليمية والوطنية ، فاستمروا ساخطين من وضعهم .

ان الحكومة الملكية لم تتكيف التكيف اللازم بسبب افتقارها الى القادة . ففي السنة ١٧١٥ ، مست الحاجة الى وصاية ، اذ ان الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٧٤) كان في سن الخامسة . ترك الحكم الدوق « دورليان » ، الوصي ، حتى بلوغه الشرعي في السنة ١٧٢٢ ، ثم حتى وفاة الدوق في السنة ١٧٢٣ ، ثم للدوق « دي بوربون » ، احد الامراء الملكيين ، حتى السنة ١٧٢٦ ، وأخيراً لمهذبه الكردينال « دي فلوري » منذ السنة ١٧٢٦ حتى السنة ١٧٤٣ . فأعلن حينذاك ، وقد بلغ الثالثة والثلاثين ، عن تصميمه على تولي الحكم بنفسه . ولكنه لم يقو على ذلك. فان هذا الملك ، الجميل، الذكي ، المثقف ، الكريم ، البعيد كل البعد عن المسخ الذي ارتكب « ميشليه » خطأ جسيماً برسمه ، تميز بالوجل والخشية خلقاً وتربية . افتقر طيلة حياته الى الحزم والثبات اللازمين . فسيطرت عليه عائلته وخليلاته (السيدة « دي فنتيميل » ، والدوقة « دي شاتورو » منذ السنة ١٧٤١ حتى السنة ١٧٤٤ ، والمركيزة « دي بومبادور » منذ السنة ١٧٤٤ ، والكونتيسة « دي باري » منذ السنة ١٧٦٩) ووزراؤه وزمر دسائسهم . كما ان حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٢) ، السليم القلب ، القفال الماهر ، الأب الصالح ، محب الشعب ، البورجوازي المتربع على العرش ، قد اشتهر كذلك

بضعف ارادته . فقد رأى كلاهما الخير ولكنهما لم يفعلاه .

كان بمقدور الملكية أن تبقى ملكية مطلقة باقدامها على الاصلاحات : الغـــاء امتيازات الارستوقراطية الاميرية ، وصول الجميع الى جميع الوظائف ، إقرار حرية اقتصادية معتدلة حتى لا يقع العمال وفقراء الفلاحين في قبضة الاثرياء ، توحيد مملكة اقامت فيها الجمـارك الداخلية ، والمقاييس والنقود المتباينة ، والعادات والاعراف المتعددة في الولايات ، العراقيـــل في طريق الحياة القومية ولا سيما في طريق الحياة الاقتصادية . ولكنها لم تفعل . واذا هي وسعت رقعة الوطن بضم « اللورين » (١٧٦٦)والحصول على « كورسكا »(١٧٦٨)، فقد حافظت اللورين على جماركها من جهة المملكة واستمرت في الاتجار بحرية مع الامبراطورية المقدسة .

كان من الواجب تحطيم الارستوقراطيات. ولكن الملكين اعوزتهما الارادة ابداً للنهوض بهذا العمل. برهنت ارستوقراطية الامراء والدوقية عن عجزها في الحكم. استبدل الدوق«دورليان»، الوصي ، وزراء لويس الرابع عشر البورجوازيين بمجالس تضم كبار النبـــلاء ، رغبة منه في ارضائها . ولكن سرعان ما اتضح عجزهم. ومنذ السنة ١٧١٨ مست الحاجة الى اعادة الوزراء. ولكن كبار النبلاء شكلوا خطراً دائماً بواسطة دسائسهم في البلاط، وبواسطة زبنهم ، وبواسطة اتفاقهم مع المجالس .

كانت هذه المجالس سبباً في اخفاق كافة محاولات الاصلاحات . في السنة ١٧١٥ أعاد الدوق « دورليان » لها حق النصح والانذار مقابل قرار يجعل منه سيد مجلس الوصاية ، على الرغم من وصية لويس الرابع عشر . منذ ذلك التاريخ بات بمكنة مجلس باريس مرة أخرى تأجيل تسجيل المراسيم الملكية الى ما لا حد له. وقد بلغ من ازعاجه أن حدّ الوصي من حقه في الانذار والنصح في السنة ١٧١٨ . ولكن هذا الحق أعيد بكامله في عهد لاحق ، فأتاح بصورة عامة على الرغم من تعطيله أو الحد منه احياناً ، معارضة المجالس معارضة دائمة للاصلاحات المـالية . كم من مرة حاولت الحكومة الملكية التوصل إلى اسهام كافة رعاياها بنسبة دخلهم. وكانت محاولتها الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات المتزايدة في دولة تتسع ادارتها يومـاً بعد يوم ، في حال أن ارتفاع الاسعار قد انقص الموارد بزيادة النفقات إذ انه يحد من الاستهلاك، وبالتالي من مدخول الضرائب غير المباشرة التي تتناول الشعب كله . ولكن المجالس ، يساندها الامراء والاساقفة ونبـــلاء الولايات ، وكلهم من ذوي الامتيازات ، قد قاومت ، بكل قواهـا ، الارادة الملكية . كانت تستثير السكان برفض التسجيل، والنصح والانذار، وتأثيرها المباشر على الفلاحين، وتثير الشعب في صفوف الطبقات الدنيا التي ما كانت لتدرك ما تفعل . سببت فشل ضريبة الجزء من خمسين على دخول الممتلكات العقـارية (١٧٢٥ – ١٧٢٧) ، وضريبة العشر (١٧٣٣ – ١٧٣٦ ، ١٧٤٠ – ١٧٤٩) التي جبيت اثناء الحروب ولكنها افسدت فلم تجبَ إلا من الفقراء ، وضريبة الجزء من عشرين المرتبطة باسم «ماكو دارنوفيل» (١٧٤٩ – ١٧٥٤)، والاعانة العـامة التي اقترحها «سيلويت» (١٧٥٩) والاعانة العقارية التي اقترحها «كالون»(١٧٨٧). وحالت بمقاومتها

المتوقفة دون تقديم «تورغو» مشروعه الخاص بالاعانة العقارية. وكان الرأي العام الى جانبها لأنها اتقنت الادلاء بالبيانات الاخاذة : ان رعايا الملك « اناس احرار وليسوا عبيدا » ؛ وحاربت « طوفان الضرائب » ؛ وساندت كل مقاومي السياسة الملكية ، فساندت الجنسينيين مثلاً على اليسوعيين الذين الغيت جمعيتهم في السنة ١٧٦٤ . ولكنها لم تفكر الا بامتيازات النبلاء ، امتيازاتها ، وبالامتيازات التي ترفعها فوق الجماهير ، وبصوالحها الخاصة ، لا بل طالبت بتأليف هيئة مع كافة المجالس في المملكة ، وبحق الاشتراك في السلطة التشريعية ومقاومة الارادة الملكية . فقد ساند مجلس بريطانيا الجمعية الاقليمية المعروفة باسم « مجلس طبقات بريطانيا » على الحاكم الراغب في شق الطرقات لأن الطرقات تدخل في صلاحية المجلس ، الذي لا يقوم بأي عمل .

نفى الملك دوريا مجلس باريس ثم استدعاه ثانية . وأخيراً الغى المستشار « موبو »، في السنة ١٧٧١ ، وظائف القاضي واستبدل اعضاء مجلس القضاء بقضاة مأجورين. ولكن لويس السادس عشر ، لسوء الحظ ، أعاد المجالس في اواخر السنة ١٧٧٤ محاولا بذلك تهدئة الخواطر . إلا أن مجلس باريس تمسك بالشرائع الاساسية للملكية ، وحقوق المجالس والاتفاقات المعقودة مع الولايات ، وضرورة اقتراع مجلس الطبقات على الضرائب ، فعطل الملك المجلس وفككه ونقل تسجيل المراسيم الى محكمة عليا تضم خدام الملك الخلّص .

بدأت الثورة حينذاك بثورة ذوي الامتيازات . فقام اعضاء المجالس ، حلفاء النبلاء ، باثارة السكان في كافة المدن التي قامت فيها المجالس ، في « غرينوبل » و « رين». وكان من مجلس الطبقات الاقليمي في مقاطعة «دوفينه» ، المجتمع في «فيزيل» ، أن رفض دفع الضرائب. فاضطر الملك الى دعوة مجلس الطبقات للاجتماع في اول ايار من السنة ١٧٨٩ .

ولكن الأمة انقسمت آنذاك شطرين. فطالب الامراء الملكيون والأعيان بدعوة تجري بحسب النظم القديمة وباقتراع يجري وفاقاً للترتيب التالي : الاكليروس ، النبلاء ، ممثلو الشعب ، الذي يضمن الاكثرية لذوي الامتيازات . وطالب البورجوازيون ، الذين أسسوا « حزباً قومياً » وجمعوا كلمتهم في كل مدينة ، بجمعية وطنية ، وبمضاعفة عدد ممثلي الشعب والاقتراع الشخصي الذي يضمن لهم الاكثرية . فلم يوافق الملك إلا على مضاعفة العدد في شهر كانون الأول من السنة ١٧٨٨ .

وقد برز نشاط طبقات اخرى . لقد حدث ما يشبه ثورة الطبقة الكادحة . فان معاهدة السنة ١٧٨٦ ، سبب البطالة ، ومحول حصائد السنة ١٧٨٧ والسنة ١٧٨٨ قد زادا في ارتفاع الاسعار ؛ فبات الخبز الذي كان يمتص ٥٠٪ من موازنة العامل ، يمتص منها ٨٠٪ . ارتفع عدد المتسولين والمتشردين . انفجر فجأة حقد عارم على السيد ، والغني ، والموظف. فحدثت اعمال شغب، وهوجمت القصور، وهوجم البورجوازيون والاشراف الريفيون واضعو اليد على الحبوب.

في ٢٧ نيسان من السنة ١٧٨٩ ،نُهب مصنع « ريفيون » الورق الملون القائم في ضاحية « سانت انطون » ، إحدى ضواحي باريس . كانت ردة فعل الحكومة ضعيفة : فالوكلاء فقدوا الاعتبار والجيش فقد الانتظام .

جرت انتخابات مجلس الطبقات في السنة ١٧٨٩ باقتراع شبه عـام ، وبالترتيب . وضع المنتخبون « دفاتر شكاوى » ضمنوها امانيهم : دستور ، الحرية الفردية ، التساهل ، مساواة الحقوق ، اجتماع مجلس الطبقات دوريا التصويت على الضريبة ، اللامركزية ، جمعيات اقليمية وبلدية ينتخبها الملاكون في الدرجة الاولى ، احترام الاعفاءات والحريات في الاقاليم ، السلطة التنفيذية للملك ، السلطة التشريعية للملك والأمة. وهكذا ارتضى البورجوازيون بقسم كبير من برنامج ذوي الامتيازات بسبب عجز الملك عن تسلم دفة الاصلاحات .

اوروبا الجنوبية

اسبانيا

إن اسبانيا ، التي ما زال الانحطاط مخيماً عليها في السنة ١٧١٥ ، ما زالت دولة حطم الملوك فيها سلطة الاسياد السياسية دون أن يفلحوا في اخراج البلاد من القرون الوسطى . انتهى النظام الى التحجر في قوانين واعراف وانظمة لا يحصى لها عد . كان دور اسبانيا في اوروبا دور بـلاد حديثة اقتصادياً تصدر الى انكلترا وفرنسا ودول الشمال الغربي صوف اغنامها ومعادنها وذهب وفضة مستعمراتها ، وتستورد منها بالمبادلة المصنوعات التي تفتقر إليها .

لم يكن ممكناً ان تصدر الاصلاحات إلا عن الملك ، المطلق مبدئياً ، الاقوى من الشرائع . وقد تم ذلك على يد الملوك البوربونيين ، الفرنسي فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وابنيه فردينان السادس (١٧٣٥ – ١٧٥٩) ، ولا سيا شارل الثالث الذي اعتلى العرش منـذ السنة ١٧٥٩ ، بعد ان تربع على عرش نابولي طيلة عشرين سنة ، اجرى خلالهـا اصلاحات عديدة ، وقـد تميز بذهنه الثاقب والعملي . فأدخلوا افكار الفرنسيين وطرائق كبار المستبدين المستنيرين من الفرنسيين في القرن السابع عشر .

اقـام الملوك ملكية ادارية على غرار المملكة الفرنسية . اخضعوا مجالسهم لسلطة مجلسين رئيسيين: مجلس الهند، ومجلس قشتالة حيث فرضوا سلطتهم بواسطة وزراء كانوا احياناً مـن النبلاء المتشبعين بالافكار الفرنسية ، كالكونت « دارندا » مثلاً (١٧٦٦ – ١٧٧٣) ، ولا سيا من البورجوازيين ، كالايطالي «البروني» و «باتينيو» (١٧٢٦ – ٣٦)، و «خوسيه مونينو» الذي اصبح كونت « فلوريدا بلانكا » وتزايد نفوذه منـذ السنة ١٧٦٢ ، و « كمبومانيس » . تولى تنفيذ أوامرهم في كل ولاية وكيـل اسندت إليه، كما في فرنسا ، شؤون الاموال والادارة العامة ، وضابط عام يقود الجيش ، ومحكمة تؤمن العدل ، يعجز الواحد منهم عن العمل دون الآخرين ، ويراقب بعضهم بعضاً .

اخضعت الهيئــات المنظمة القليلة التي كان بمقدورها ان تقاوم الارادة الملكية . فمحكمة التفتيش التي ابقي عليها قد اكرهت على الخضوع للحكومة . وضمن الملك لنفسه تعيين الاساقفة طيلة ثمانية اشهر في السنة (١٧٥٣) ثم طيلة السنة . ألغيت جمعيــة اليسوعيين في السنة ١٧٦٧ بتهمة انتوائها قتل الملــك ، وخصوصاً بتهمة نشر المبادىء المضادة للحق الملكي ، وهو شارل الثالث الذي استحصل من البابا على الغائها في كافة البلدان (١٧٧٣) .

حاول الملوك جاهدين تنمية التجارة والصناعة باعتماد كولبيرية حقيقية : مصانع ملكيــة ، استدعاء اختصاصيين اجانب ، مساندة المصانع الخاصة بمساعدات مالية وحماية جمركية ، احداث شركات تجارية ، ومنذ السنة ١٧٦٥ تأسيس جمعيات اقتصادية ووطنية لاعادة العمل الى سابق عزه ، شق الطرق وإنشاء الاقنية ، حماية المزارعين الذين ما عاد الملاكون ليرفعوا يدهم عـــن الاملاك دون اسباب جوهريــة (١٧٦٨) وحماية صغار الملاكين الذين استحصلوا ، ضد مالكي الاغنام المتنقلة ، على حق تصوين اراضيهم . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان استفاقت مبادهة الاسبانيين من سباتها وان طالبت الجمعيات الاقتصادية منذ السنة ١٧٧٠ بمزيد من الحرية : ألغت الحكومة ، بعد السنة ١٧٧٥ ، الجمارك الداخلية واحتكار « قـــادس » للتجارة وفتحت باب تجارة المستعمرات لـ ١٣ مرفأ اسبانياً . وعلى الرغم من أن اسبانيا مـــا زالت محتاجة اقتصاديــاً للدول الاخرى ، فقد قامت فيها مصانع جوخ وحرير وقطن في كل مكان . ومنذ السنة ١٧٧٩ توقف طلب الاجواخ والحرائر والقبعـــات من فرنسا . وفي السنة ١٧٨٨ ارسلت اسبانيا الى الهند بضائع اسبانية تجاوز حجمها ما ارسلته من المصنوعات الاجنبية. ارتفع سكانها من ٥ الى ١٠ ملايين . اعيد انشاء الاسطول والجيش على انها افتقرا الى التدريب .

تطلب كل ذلك اموالا ضخمة . اختلت الميزانية . ألغى شارل الثالث كثيراً من التزامـات الضرائب وزاد من دخل الضريبة باسناد جبايتها الى الموظفين . ولكنه لم يتمكن من اخضـاع النبلاء والاكليريكيين للضريبة . اكثر من الضرائب ، واختبر امكانات مصرف «سان ـ شارل» الذي اخفق كما اخفق مصرف « لو » . في السنة ١٧٨٩ تخبطت اسبانيا في ازمة بلغت ذروتها ، قبل ان يكتمل تطورها .

البرتغال

ان البرتغال التي لعبت دور الوسيط بين مستعمرات اوروبا كادت تفقد هذا الدور بفعل مزاحمة الدول الاخرى . وكادت صادراتها الخفيفة (خمور ، واخشاب البرازيل) تنحصر في أسواق انكلترا . لم تستفد فيا مضى من تجارتها لتنشىء صناعة في اراضيها ولتجدد زراعتها . بقي نظامها الاقتصادي والاجتماعي شبيهاً به في القرون الوسطى . في عهـد الملك الحازم ، خوسيه الاول (١٧٥٠ - ١٧٧٠) ، تمكن مصلح قوي الشكيمة ، هو «كارفالهو» الذي لقب بالمركيز « دي بومبال » منذ السنة ١٧٦٩ ، من تحطيم سلطة محكمة التفتيش التي مـا عادت لتقدر على احراق الهراطقة دون موافقة الحكومة ، ومن تحرير الجددين (١٧٥١) ،

وطرد اليسوعيين الذين يقاومون سياسته ، بتهمة تدبير المؤامرات (١٧٥٩) ، وفتح ابواب الوظائف العامة لكافة البرتغاليين دون استثناء ، وتأسيس المدارس وادخال العلوم الى الجامعات، وانشاء المصانع، وانماء التجارة ، وبناء اسطول ، واعادة تنظيم الجيش ، وتشييد الحصون اجل لم تواصل المللكة « ماريا » الاولى عمله ، ولكنها لم تهدمه .

في هاتين البلادين يذكرنا جهد الحكومة بالجهد الفرنسي في القرن السابق . واذا كانت فرنسا متخلفة قرناً عن انكلترا، فان اسبانيا والبرتغال كانتا متخلفتين ما يناهز القرن عن فرنسا.

ايطاليا

اما ايطاليا، « العبارة الجغرافية » المقسمة الى عدة دول ، فما زالت تعاني من الاكتشافات الكبرى ومن توسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . تضاءل شأن المدن البحرية النسبي تضاؤلا كبيراً . واذا ما استثنينا مرفأ ليفورنو الحر في توسكانا ، نرى كافة هذه المدن تتأخر بفعل منافسة الانكليز والفرنسيين والنمساويين الاقتصادية ، وافتقار البلاد الى المناطق الصناعية ،وعادات البطالة والانفاق المألوفة ابان ازدهارها المظم . جنوى والبندقية ، التجاريتان ، كانتا جمهوريتين . ولكن الارستوقراطية البندقية ، التي كانت من قبل بورجوازية العادات ، قد هجرت التجارة ، وغدت البندقية في الدرجة الأولى مكان اجمل اعياد أوروبا . فتكررت على لسان ملوك فولتير هذه الجملة : « وقصدت البندقية لأقضي فيها ايام المرفع » .

كانت الدول الأخرى بلداناً ريفية ، ملكيات يترك فيها الامراء للارستوقراطيين لا سلطة اجتماعية كبرى فحسب ، كما في فرنسا ، بل قسطاً كبيراً من الحكم الاقليمي والمحلي ايضاً . كان هؤلاء النبلاء على جانب كبير من الكسل وغالباً ما انغمسوا في الملذات . تأخر نمو المدن وتدنى عدد البورجوازيين الذين كانوا فقراء وعديمي التأثير . وفي كل مكان كان الفلاحون متخلفين وبؤساء.

نزع الأمراء الى السلطة المطلقة ، وغالباً ما كانوا « مستبدين مستنيرين ». وانما يجب هنا ان نلفت الانتباه الى بعض الفروق .

فحكومة الدول البابوية الثيوقراطية لم تكترث بالمسائل المادية . فتميزت دول البابا بأسوأ ادارة وكانت اشد دول شبه الجزيرة بؤساً .

وفي مملكة نابولي ، حاول البوربونيّان ، شارل (١٧٣٩ - ١٧٥٩) ، ثم فردينان ، القيام ببعض الاصلاحات مع الوزير « تانوتشي » ، ومهدا السبيل لالغاء جمعية اليسوعيين (١٧٧٣) ، وحاربا نفوذ « فداثيي » ، « ألفونس دي ليغوري » (« اللاهوت الادبي » ، ١٧٥٣) الذين ناهضوا العلم والمكتبات ، والغيا الفدادية والارقاف ، ووفرا المساعدات المالية للصانع ، وفرضا الضريبة على ممتلكات الكنيسة ، ولكنهما عجزا عن فرض الضريبة على النبلاء فبقيت البلاد مغطاة بأملاك واسعة يسوء العناية بها شركاه ثقلت عليهم وطأة اعمال التسخير والحقوق السيدية الأخرى .

وفي توسكانا ، أتاحت سياسة اكثر حرية ، والغاء التعارنيات ، والاجازات المؤقتة بتصدير

الحبوب ، وتجفيف بعض المستنقعات ، تكديس الثروات وتأسيس المشاريع التجارية وارتقاب النهوض من السبات .

وفي لومبارديا الغى النمساويون تلزيم الضرائب الثقيل الوطأة على المكلف واعتمدوا الجباية المباشرة ، ومسحوا الأراضي ، وخفضوا الرسوم الجمركيـــة وجعلوا من ميلانو سوق مقايضة ، مشجعين بذلك لنخبة بورجوازية صغرى يتزعمها « بيترو فرّي » .

وفي هاتين البلادين خُفف من وطأة الحقوق السيدية واخضعت للضريبة كافة الاراضي تقريباً بما فيها اراضي النبلاء وأراضي الكنيسة .

اما المملكة الساردية فكانت أعظم الدول الايطالية قوة وتقدماً . فالفلاحون كانوا فيهـــا احراراً . ونظم الملك فيها استرجاع الحقوق الاقطاعية بأثمانها (١٧٧١) . أقام النبـــلاء في ممتلكاتهم وحسنوا الزراعة ، فتقهقرت المزارعـــة لصالح المساقاة . تجمعت الاراضي في أيدي الرأسماليين الزراعيين من الملاكين أو كبار المساقين . انمى الملك شبكة الطرق ، وحـــاول ان يجعل من مملكته الوسيط التجاري بين فرنسا وايطاليا ، وبين ايطاليا وسويسرا . اعتمدت هذه المملكة الاقتصاد ، فكان لديها جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان ينتظرها مستقبل عظيم .

فنرى على العموم ان ملوكاً يتمتعون بمزيد من السلطة المطلقة يدفعون بايطاليا الى الامـام ، ولكن البورجوازية ما زالت مفقودة .

اوروبا الوسطى

سويسرا

كان « الجسم الملفيق » اتحاداً غير متماسك يضم ١٣ ولاية ذات سيادة تغار على استقلالها ، وقد تقسمت عن طريق المعتقـــد الى ولايات كاثوليكية وولايات بروتستانتية . كان التنظيم جمهورياً . في المدن النامية عند نقاط المرور المؤدية الى مجازات جبـال الألب ، عاشت بورجوازية على بعض الفقر ، ولكنها كانت أعظم قوة الى حـد بعيد من سكان المناطق المنبسطة ، فكانت بمثابة اشراف احتفظوا لأنفسهم بالحقوق السياسية والفوائد الاجتماعية . كانت الخلافات مستمرة بين الولايات ، وبين المدن والارياف في داخل الولايات .

البلدان الجرمانية والداوبية

كلما توغلنا في داخل أوروبا الوسطى ، انطبع في نفوسنا اننـا نعود بالتاريخ الى الوراء وندخل ابعد فأبعد في القرون الوسطى . كانت هذه الدول في معظمها بلداناً ريفية ، ضئيلة الانتاج ، خاضعة لنظام سيدي ثقيل الوطأة جداً . الى الغرب من نهر الالب ، كانت القدادية قد زالت من بعض الاماكن أو تلطفت بعض الشيء ، ولكنها ما زالت على مرارتها الى الشرق من النهر حيث ندر ان تجد فلاحاً حـــراً . استمرت الارستوقراطية في فرض اعمال التسخير التي لم تترك للمطلوبين لها الوقت اللازم لزراعة حقولهم ، وجباية الضرائب المحولة حق الانتخاب والاتاوات الباهظة ، واستثمار الاحتكارات الرابحـــة ، كالافران ، والمطاحن ، والمعاصر ، واحقاق الحق والمحافظة على الامن . فهي لم تمـــارس هذه

الصلاحيات اكثر منها في فرنسا فحسب ، ولم تتأثر عملياً بكل الادارة الاقليمية فحسب ، كما حدث ذلك غالباً في اسبانيا وايطاليا ، بل احتفظ الملوك النبلاء بكافة مراكز الجيش وكافة مراكز الادارة ايضاً . اجل لقد انتمى بعض الوزراء الى الطبقات الدنيا ، لا سيا في اواخر القرن ، ولكن الارستوقراطية احتفظت بكل شيء بصورة عامة .

بقيت الطبقات الاجتماعية متميزة جداً ، ومتباعدة جداً . فعلى نقيض انكلترا حيث اختلطت الطبقات اكثر فاكثر على الرغم من كل شيء ، وعلى نقيض فرنسا حيث حدثت الظاهرة نفسها في النصف الثاني من القرن ، نرى النبلاء والبورجوازيين والصناعيين اليدويين والفلاحين يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض ونرى كل طبقة تحتقر من دونها ؛ فالمراتب حوفظ عليها والمسافات ابقي عليها .

ارتضى الملوك بالحصول على طاعة النبلاء والاستئثار بخدماتهم . استخدموا التقنيات الاقتصادية والسياسية التي توصلت اليها الدول الغربية المتطورة (انكلترا وفرنسا) رغبة منهم في لرساخ سلطتهم ، فاحدثوا بذلك ، كما باستخدام تعابير الفلاسفة ، انطباعاً بان دولهم دول عصرية تتقدم دول الغرب نفسها ، بينما لم يقطعوا في الواقع ، آنذاك ، سوى مراحل ما زالت بعيدة كل البعد عما بلغه الغرب .

الامبراطورية المقدسة

ما نزال هنا امام تفتت اقطاعي واسع النطاق . فالامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، التي لا تطابق حدودها حدود المانيا ، و العبارة الجغرافية » ، ليست سوى ظاهر فحسب . ان الامبراطور ، رئيس سلالة هبسبورغ ، هو مبدئياً خليفة شارلمان واوغسطوس . ولكنه انتُخب ، في السنة ١٧٦٣ ،على يد تسعة منتخبين: منتخبي بوهيميا وساكس وبراندبورغ وهانوفر وبافاريا والبالاتينا وثلاثة كنسيين هم رؤساء اساقفة ماينس وتريف وكولونيا . اكرهه الانتخاب على اعطاء الامراء ضمانات ، وتكفل التدخل الاجنبي بعمل ما تبقى : فعجز الامبراطور عن ان يجعل من الامبراطورية دولة . كرست معاهدتا وستفاليا ، كمبدأ من مبادىء الحق الدولي ، سيادة امراء الامبراطورية التي آلت الى الحاد على بعض الاسترخاء . وحدت من سلطة الامبراطورية جمعية مركزها « راتسبون » تتولى امور الادارة وتعلن الحرب او تعقد الصلح وتوقع المعاهدات . اضف الى ذلك من جهة اخرى انها كانت مؤلفة من ثلاث هيئات تضم ممثلي المنتخبين والامراء والمدن المتضاربي المصالح والعادمي الثقة بالامبراطور ، فلم تأت عملاً مجدياً حقاً . اضف الى ذلك ايضا ان المانيا ، وهي الشطر الاهم من الامبراطورية المقدسة ، كانت تضم ٣٤٣ تقسيما اقليميا يدخل في عدادها ٣٠ دولة ، وامارات ، ومدن امبراطورية حرة ، واملاك واسعة لفرسان الامبراطورية الخاضعين مباشرة للامبراطور . وضمت ضفة الرين اليسرى وحدها ١١٧ دولة صغرى تتأثر كلها تأثراً قوياً بالنفوذ الفرنسي .

الامراء حاول كافة الملوك اقتفاء اثر « اليزابت » في انكلترا خلال القرن السادس عشر ، واثر لويس الرابع عشر في فرنسا خلال القرن السابع عشر . سعوا لان يجعلوا من اماراتهم دولة مطلقة ، مركزية ، بيروقراطية ؛ وان ينموا طاقاتها بالغاء الامتيازات والمساواة الضريبية والروح التجارية كما قال بها « وليم سيسل » و « كولبير » . فخلقت الدولة الصناعة خلقاً وساعدت بذلك على قيام طبقة بورجوازية . في المدن الامبراطورية الاحدى والخمسين ، نهضت البورجوازية واثرت واحدثت تيارات تجارية جديدة ، وكلفت بالمعرفة والجمال فبعثت نشاطاً فكرياً عظيماً ، ولعلها فعلت كل ذلك بتأثير مما كان يجري في الدول المجاورة . وغدت فرانكفورت ومانهيم وليبزيغ وهمبورغ مراكز فن وابحاث ، على غرار عواصم الملوك الصغرى التي كانت اضعف من ان يلمع نجمها الا بنصرة الآداب والفن ، كـ « فيار » و « غوتا » و « ابينا » .

آل هبسبورغ لقب الامبراطور مجرد رتبة ، ولم يكن بعض آل هبسبورغ الاقوياء الا بممتلكاتهم كشارل السادس حتى السنة ١٧٤٠ ، وماري – تيريز ابنته (١٧٤٠ – ١٧٨٠) ، وجوزف الثاني حفيده ، الذي اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٧٦٤ ، واشركته امه في الحكم ، وكان سيد املاك آل هبسبورغ منذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ . سليل هبسبورغ ارشيدوق النمسا وملك بوهيميا وملك هنغاريا. اراضيه تضاهي اراضي ملك فرنسا ، ولعلها تعادلها سكاناً ،ولكن موارده دون موارد ملك فرنسا بخمس مرات ، ولم يكن مطاعاً. ما زالت اراضي آل هبسبورغ وكأنها في القرون الوسطى ، مقسمة الى قطع كبرى وصغرى ، وموزعة بين بحر الشمال والسهل الروسي وبين المانيا الوسطى من جهة ، وسهل البو والادرياتيك من جهة ثانية . العلائق بين الاجزاء المختلفة بطيئة وصعبة ، والشعوب من نمساويين وهنغاريين ورومانيين وايطاليين وتشيكيين وسلوفينيين ، وفلنك ووالون » ، متباينة اخلاقاً ولغة ومعتقداً ويجهل بعضها البعض . يرتبط كل منها بآل هبسبورغ بعقد مختلف خاص ، تتمتع كلها بالاستقلال الاداري ، ومجالس طبقاتها الاقليمية ، اي جمعيات النبلاء ورجال الكنيسة ، تدافع عن حريات البلدان وامتيازاتها ولا تهتم في الدرجة الاولى الا بدفع حد ادنى من الضرائب . تتولى هذه الشعوب بنفسها تعيين رجال اداراتها من بين النبلاء الذين يقبضون على زمام السلطة ، الا في المدن التي تعين البورجوازيات لادارتها قضاة منتخبين . هنالك مؤسسات هبسبورغية كثيرة : ثلاثة مجالس في فيينا للسياسة العامة والمالية والتجارة والحرب ؛ وثلاث مستشاريات لبوهيميا وهنغاريا والدول الوراثية (النمسا وملحقاتها) ؛ ومجلسان للفلاندر وايطاليا . ولكنها كلها شبه مقيدة امام التقاليد والعادات المحلية الخاصة .

ان شارل السادس ، الذي لم يقدر حق قدره ، قد أمن لآل هبسبورغ ، في الدرجة الاولى ، امتناع تجزئ اراضيهم . لم يرزق واخوه البكر اولاداً ذكوراً . فاقر الامر الصادر عن الامبراطور والمجلس (١٧١٣) ، في حال عدم وجود وريث ذكر ، حق الوراثة لأنساله من

الاناث دون انسال اخيه البكر . وقد اثبت في مستهل هذه الوثيقة امتناع تجزؤ دوله . وتوصل الى اعتراف بممتلكات آل هبسبورغ المختلفة بها كقانون دولة ، بينما لم يعترف بوراثة الاناث في بوهيميا وعوقية ميلانو ، وربما في النمسا نفسها . فكانت عقداً جديداً يبعد مخاطر التفكك ، استمر العمل به حتى السنة ١٩١٩ .

في سبيل ايجاد موارد جديدة للملكية ، لجأ الى طريقة شركات الاحتكار : شركة « اوستند » للاتجار مع الهند والصين التي اخفقت بفعل عداء الانكليز والهولنديين ، وشركة موانىء الشرق الادنى في تريستا .

الا انه لم يتمكن من ان يفعل اكثر من ذلك بسبب نزق الهنغاريين وفقدان النفوذ الذي مني به في اعقاب حروب خاسرة .

اما ماري – تيريز فقد حاولت مجدداً بمعاونة المستشار « كونيتز» وابنه جوزف ، تحقيق مشاريع الاصلاح ، لا سيما بعد حربي وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع اذ توفقت ، بتخليها عن سيليزيا ، الى الحؤول دون تفكك ممتلكاتها وفقدان لقبها الامبراطوري . كانت سمينة وقصيرة ، لطيفة وتقية ، يحبها رعاياها ويحترمونها ويلقبونها بـ « ام الوطن » ، وكانت ذكية وواقعية تقدر المقاومات المحتملة حق قدرها ، فارادت اجراء التغييرات ببطء وصمت . قوّت المركزية . فاوجدت فوق المؤسسات القائمة مجلس شورى يتخذ كافة المقررات . وقد نفذ هذه المقررات مباشرة ، في بعض الولايات ، موظفون تابعون التاج . نادراً ما دعت للاجتماع مجلس ممثلي هنغاريا ومجلس الطبقات . عملت بالروح التجارية وحظرت استيراد المصنوعات وتصدير الخامات وهجرة اليد العاملة ، رغبة منها في خلق صناعة بالقوة . واقامت في املاكها نفسها ملاكين صغاراً انكبوا على عمل الزراعة بمزيد من النشاط والعناية ، ولكن الاسياد لم يحذوا حذوها . واقرت الخدمة العسكرية ، الا انها اقصرتها على الفلاحين وفي الدول الوراثية . لم تستطع اصلاح الادارة المالية . حققت بعض الشيء في حقل التساهل الديني : فمنذ السنة ١٧٧٤ ، لم يعد سكان هنغاريا من غير الكاثوليك مجبرين على السير في التطوافات ، او على استدعاء كاهن كاثوليكي للمرضى . ولكنها هدفت لان تقيم كنيسة نمساوية اكثر منها رومانية : فمنذ السنة ١٧٦٧ ، ما كان اي منشور بابوي ليدخل الدول النمساوية بدون اجازة ملكية . اصلحت التعليم . بيد ان كل ما حققته ما زال جزئياً .

كان ابنها جوزف الثاني، الزاهد المتوج ،مبرهناً متسقاً منطقياً لا يقيم وزناً لمشاعر الشعوب . أوجد تسلسلاً في التقسيمات الادارية تداخلت فيه وحدات تاريخية مختلفة ، رغبة منه في صهر الشعوب : الولايات المقسمة الى دوائر . كان حكام الولايات ووكلاؤها وضباط الدوائر يتولون اعمال الادارة على حساب موظفي الدولة . وجب أن يكونوا خريجي جامعات (١٧٨٧) : فدخل صغار النبلاء والبورجوازيون مكاتب الادارة ، ولكن المراكز العليا بقيت وقفاً على

كبـــار النبلاء فرضت الالمانية على كافة الشعوب لغة رسمية للادارة والمدارس الثانوية والاكليريكيات (١٧٨٤ – ١٧٨٦) .

في السنة ١٧٨١ اصدر براءة تساهل اقامت المساواة بين الكاثوليك واللوثريين والكلفنيين والأرثوذكس . بقي اليهود خاضعين لنظام خاص . ولكنه واصل تحقيق حلم كنيسة قوميـــة مستقلة عن روما ، فانقلب تساهله تصلباً ضد الكاثوليـــك الذين نغّص ضمائرهم بتأسيس اكليريكيات رسمية يهمل فيها اللاهوت ، ومنع كتب اللاهوت (١٧٨٩) ، وحظـــر زيارة الأماكن المقدسة والتطوافات ، وإقفال أديرة كثيرة باعتبارها غير مفيدة ، بينا يرى الكاثوليكي أن الرهبان التأمليين أنفع البشر طرا بصلواتهم . علمن نصف الأديرة واستولى على ممتلكاتهـا (١٧٨٦ – ١٧٨٨) .

أبقى على كثير من النظام التجاري والروح التجارية ، ولكنه اتجه شطر الحرية التجارية : معاهدة تجارية مع روسيا ، إلغاء الاحتكارات التجارية ، حرية تجارة الحبوب في الداخل ، حرية تأسيس مصنع أو حانوت (١٧٨٢) . حرر الفلاحين وجعل منهم ملاكين وراثيين لاراضيهم مقابل ضريبة تخول حق الانتخاب. الغى الاحتكارات السيدية ، وأبدل أعمال التسخير بأتاوات نقدية (١٧٨٣ – ١٧٨٨) . وزع أملاكه وممتلكات الأديرة مزارع كبرى لزمها تلزيماً .

مسح الأراضي رغبة منه في تحقيق المساواة أمام الضريبة (١٧٨٩) ، وعمّ هنغاريا بالخدمة العسكرية ،وأجرى تبادلاً جزئياً في السكان بين الالمان والهنغاريين رغبة منه في صهر الشعوب.
ولكنه تعجل في انجاز عمله ، فساء كافة رعاياه بالخدمة العسكرية ، والكاثوليك بسياسته الدينية ،والنبلاء بتدابيره الاجتماعية، والفلاحين المحررين الذين ثاروا واستباحوا السلب والنهب. فمنذ السنة ١٧٨٨ هبت عاصفة من الاعتراضات والثورات التي كان أخطرها في المناطق المنخفضة حيث اتحد ضد الامبراطور كاثوليك « فان – دير – نوت » التقليديون وبروتستانت «فونك » الاحرار . فتوجب التخلي عن معظم الاصلاحات ، باستثناء حرية الفلاحين .

آل « هوهنزولرن »

على نقيض ذلك ، أحرز آل هوهنزولرن في بروسيا نجاحاً تاماً. ولا غرو، فان ممتلكاتهم ، وإن كانت قطعاً متناثرة بين بولونيا والرين ، كانت كلها تقريباً في سهول المانيا الشمالية المأهولة بالجرمانيين في الغرب ، وبالجرمانيين وبعض السلافيين في الشرق ، ولكن هؤلاء السلافيين المتأخرين حضارياً وصناعياً طبعوا دونما صعوبة بطابع الملوك . أضف إلى ذلك أن فردريك الثاني قد تمتع بسلطة الابطال الظافرين التي أعوزت النمساويين .

ان فردريك غليوم الأول ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ – ١٧٤٠) الجبار ذا القامة الفائقة الطول ، المريض بالسكتة ، وذا الأعصاب المهيجة ابداً بالافراط من التبغ والمشروبات الكحولية والأطعمة الأزوتية ، مثاو وعدة عائلته ورعاياه ، قد أعد آلة حرب الفتوحات، صناعة بروسيا القومية . ازدرى بالأدب والفلسفة ، « الهواء » ، فأحب الواقع وأراد « تحقيق جديـــد ، كل

سنة . قام بعمل مرهق ، إذ اطلع بنفسه على كل شيء ، باعتباره الخادم الأول لـ « جلالة الدولة » . وفرض على الجميع الطاعة السلبية دونما براهين. دفع لموظفيه رواتب محترمة وأوجب عليهم العمل والنظام ، واستخدمهم في تأسيس دوله ، ووطن البروسيين في كليف والكليفيين في بروسيا . رفع عدد السكان بتأسيس المستعمرات ، فاجتذب الأجانب من هولنديين وفرنسيين ، ووفر لهم الأدوات والحيوانات والبذار ، فانشأ مئات القرى . بلغ عدد سكان المملكة ٤٠٠ ٠٠٠ ٢ نسمة . حاول تنمية الصناعة بالروح التجارية فحظر تصدير الصوف كي يحتفظ به للمناويل. واعتمد اقتصاداً مدروساً اتاح له تنمية الجيش. أقر مبدأ الخدمة العسكرية الشاملة . وفر الاشراف الريفيون ، خريجو الاكاديمية العسكرية المؤسسة في برلين في السنة ١٧٢٢ ، ضباطا للجيش تميزوا بشجاعة لا تتزعزع . كان لكل فرقة معسكرها ، وكانت تضم جنودها من قضاء واحد ، فتقوي الرابطة الاقطاعية النظام العسكري. كانت بروسيا معسكراً واسع الاطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش : الفلاحون ينضمون اليه ، أو يؤمنون له الغذاء ، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلحونه ، والأشراف يقودونه .

أما فردريك الثاني ، ابنه ، القصير القامة ، والنحيف البنية ، ذو الأنف الحاد والشفتين القاطعتين ، الماكر والقاسي ، والكلف بالمجد ، فقد أحب الادب والفلسفة وكان كاتبا موهوبا. ساءت العلاقة زمنا طويلاً بينه وبين والده الذي خشي أن يمسي ابنه « مركيزاً صغيراً »، ولكنه رأى آراء ابيه الاساسية نفسها : يجب أن تستهدف الادارة الداخلية قوة الجيش المتزايدة ، ويجب على الجيش أن يحقق الفتح ، والفتح يتيح إنماء قوة الدولة لتحقيق فتوحات جديدة . منذ السنة ١٧٤٠ حتى السنة ١٧٦٣ ،انشغل فردريك في الدرجة الاولى بالحرب ضد النمسا والاستيلاء على سيليزيا . في السنة ١٧٦٣ ، تدنى عدد السكان ، بعد الحروب الى أربعة اخماسه ، وعم الخراب ، وارتفعت الاسعار ، وساد البؤس والفجور والفساد والفوضى .

أرسل فردريك الى المناطق المكتسحة ، ثم الى البلدان البولونية المفتوحة فلاحين آتين من الدول الالمانية الاخرى ، ولا سيما من مكلمبورغ والبلدان الصوابية ، ومالا وبذاراً وأغذية وجياداً ، ونظم القروض مقابل رهونات عقارية . في السنة ١٧٧٤ صدرت بروسيا قمحا بقيمة مليوني « تالر » سنويا .

حظر تصدير الصوف واستيراد عدد كبير من المواد البذخية ، وفرض رسوما جمركية مرتفعة ، وأعطى مساعدات مالية للمشاريع ومنح احتكارات ، ولكنه ما أن استطاع الى ذلك سبيلاً حتى أقر منح الحرية رغبة منه في تشجيع الانتاج عن طريق المنافسة . تقدمت الصناعات كلها: فأدخلت مصانع صفائح الحديد والأجواخ والقيشاني والمخمل ٣٠ مليون تالر في السنة . وصلت أقنية بين الفستول والإيلب ، ونقلت ١٣٠٠ سفينة بروسية الاقمشة والاجواخ والاخشاب والحنطة . وفي السنة ١٧٨٥ ، وقع فردريك معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة .

أما الفرنسي « دي لوناي » فقد نظم الجمارك ، والضرائب غير المباشرة على الخبز والفحم والجعة والخمور والمشروبات الروحية والبضائع الاجنبية والمصنوعات البنخية ، التي يدفعها الجميع دون أن يشعروا بها : وأوجد « دي لوناي » احتكارات رسمية . فكانت خزانة الحرب ملأى ابداً بالأموال .

اعتمد فردريك التساهل واستقبل اليسوعيين انفسهم لتولي أمر التعليم . نظم المدرسة الابتدائية والتعليم الثانوي العملي واكاديمية برلين .

تعاظم جيشه بالتجنيد ، الاجباري غالباً ، وقاده نبلاء يتخرجون من المدارس العسكرية ويتدربون في مناورات الربيع والخريف ، وزُوّد بمدفعية كافية ، واحتمى بخطوط من التحصينات على غرار فرنسا .

أعد توحيد القوانين في الدولة البروسية ، ولكن مجموعة القوانين العامة لم تظهر إلا في عهد خلفه .

أما النتائج فتوجز برقم بليغ : في السنة ١٧٨٦ بلغ عدد سكان المملكة ستة ملايين نسمة . ولكن اللوحة لم تكن جمالا كلها . فقد حدث تقهقر اخلاقي . وقد قال العالم « جورج فورستر » عن البرليين : « ان حب الالفة والذوق الرقيق في الملاذ يستحيلان عندهم شهوانية وفجوراً ، لا بل نهما ، اذا صح التعبير ؛ كما أن حرية الفكر ومحبة الانوار تستحيلان اباحية وقحة ... النساء عواهر بصورة عامة » . وكان هذا الرأي رأي العديد من المسافرين . كان بمكنة المال أن يصنع كل شيء . وقد حدد ميرابو بروسيا بقوله : « نتانة قبل بلوغ كمال النمو » .

بيد أن المملكة كلها خضعت للملك ودفعت له كل ما سمحت به طاقتها ، وكان الجيش أقوى جيوش اوروبا ، ولم يستطع رد فعل فردريك - غليوم الثاني ، المتطرف في التقوى ، زعزعة العمل المحقق زعزعة تذكر .

اوروبا الشمالية

الدانمارك

كانت الدانمارك مؤلفة من اجزاء متشتتة ايضاً : « جتلند » ، الجزر ، نروج ، و « اولدنبورغ » في الجنوب التي قبضت في السنة ١٧٦٧ بدوقيتي « شلسفيغ » و « هولشتاين » . مركز الدولة هو المضائق . المرافىء عديدة ومزدهرة ، والتجارة البحرية ناشطة . قامت في وجه النبلاء الريفيين بورجوازية تجارية توصلت الى تحقيق نفوذ كبير . وأدت علائق البلاد العديدة الى نشر الآراء الالمانية والانكليزية والفرنسية فيها .

كان الملوك فردريك الرابع (١٦٩٩ - ١٧٣٠) وكريستيان السادس (١٧٣٠ - ١٧٤٦) وفردريك الخامس (١٧٤٦ - ١٧٦٦) مع وزيره « برنستورف » منذ السنة ١٧٥١ ،

وكريستيان السابع (١٧٦٦ - ١٨٠٨) الذي احتفظ ببرنستورف وأخذ الطبيب «ستروِنسي» مستبدين مستنيرين حقيقيين ، ولا سيا الأخيران منهم . لا شك في انهم نجحوا في أن ينتزعوا كل سلطة سياسية من الارستوقراطية باقامة طبقة في وجه أخرى . ولكنهم لم يتوفقوا الى الغاء الفدادية وإعلان حرية الفلاحين مع ابقائهم خاضعين للحقوق الاقطاعية ، إلا في السنة ١٧٨٧ وبعد محاولات فاشلة كثيرة. إلا أن بعض كبار الملاكين رفعوا عن كاهل فلاحيهم أعمال التسخير منذ السنة ١٧٥٠ وجعلوا منهم مزارعين . ونهج الملوك سياسة تجارية . انمت الحمائة الصناعة ، وتأسست بعض الشركات ، كالشركة الآسيوية في السنة ١٧٣٢ ، وشركة الهند الغربية وغينيا في السنة ١٧٣٣ ، وفتح مصرف كوبنهاغن ابوابه في السنة ١٧٣٦ . وأحدث كريستيان السادس وفردريك الخامس مدارس واكاديميات ومؤسسات علمية . إلا أن النبلاء لم يفقدوا قوتهم . ففي السنة ١٧٧٢ قاموا بعمل مفاجيء وأكرهوا الملك على إدانة « ستروِنسي » وتخريب الاصلاحات تخريباً مؤقتاً . فتجانبت بلادان مختلفتان ، وجه يجري ناشط بورجوازي ، وداخل ارستوقراطي ريفي ، ولم تبرز نتائج نمو البلاد الاولى في البلاد الثانية الا بكل بطء .

السويد

ان السويد التي جعلت في فترة من الزمن بحيرة سويدية من البلطيك ، والتي ما زالت لها ممتلكاتها الهامة من جهة البلطيك الاخرى قد عرفت تطوراً أوسع وأعمق بفضل التجارة البحرية الكبرى . وفرت مناجم الحديد الممتاز ، والغابات الكبرى ، وأراضي سكانيا الغنية بالقمح ، المواد اللازمة للتصدير . وقد استثمر هذه المناجم والغابات والاراضي النبلاء وطبقة من البورجوازيين الاثرياء ، فأدى ذلك الى تقريب المسافات بين هؤلاء وأولئك . وكان الفلاحون احراراً وميسورين .

الا ان النبلاء والبورجوازيين والاكليروس اللوثري المنتسب الى البورجوازية ، قد استاؤوا من تضخم النقد وتقهقر التجارة والاقتطاع من الثروات لتخفيف ديون الحرب ، فأرادوا تحديد السلطة الملكية التي باتت مطلقة في عهد شارل الثاني عشر . كان الفلاحون راضين عن السلطة المطلقة ، ولكن الحروب الطويلة وعمليات التجنيد المستمرة جعلت البلاد تقفر شيئاً فشيئاً من السكان وافتقرت الحقول الى من يعنى بها؛ وكانت هذه الطبقة مستضعفة، وما كان مستواها الثقافي المتدني ليسمح لها بلعب دور سياسي. استفادت الطبقات الثلاث الاخرى من تأرجح حق وراثة العرش . بعد وفاة شارل الثاني عشر في السنة ١٧١٨ التأمت الجمعية ، المؤلفة من ممثلي الطبقات الاربع ، وانتخبت ملكة على العرش شقيقة شارل الثانية ، « اولريك - اليونور » دون أن تقيم وزناً لحقوق ابناء شقيقته البكر ، ولكن الملكة اضطرت بالمقابلة الى القبول بدستور السنة ١٧١٩ . غدت السويد جمهورية وملكها رئيساً . قررت الجمعية القوانين بأكثرية ثلاث طبقات من اصل اربع ، وعينت لجنة سرية تضم ٥٠ نبيلاً : ٢٥ اكليريكياً و ٢٥ بورجوازياً ، وتمارس السلطة التنفيذية ؛ وتقدم المرشح لمجلس بعينه الملك يتولى السلطة التنفيذية بين دورة

والاخرى ؛ وكان على الملك ان يرضخ للاكثرية وكان صوته بمثابة صوتين فحسب .

برهنت هذه الحكومة عن عجزها بسبب تصارع الاحزاب. فالنبلاء ، متوسطوهم وصغارهم، اضطروا ، بعد ان افقرتهم الحروب ، الى طلب الوظائف العامة التي ارتفع عددها في « عصر الحرية » ، لا سيما وان نبلاء السويد بيروقراطيون . وفي سبيل الحصول على الوظائف والتدرج في سلمها استزلم النبلاء لبعض كبار الاسياد الذين يتنازعون النفوذ والسلطة . وكي يتمكن هؤلاء من تقيد زبنهم المتزايدين ، دخلوا في خدمة الاجانب من روس وانكليز وفرنسيين . فتشيع حزب « القلانس » لانكلترا ، ثم لروسيا منذ السنة ١٧٦٣ . وتشيع حزب « القبعات » لفرنسا . وكان من ملاءمة هذا الوضع ان وقعت كاترين الثانية وفردريك الثاني ، في السنة ١٧٦٣ ، اتفاقا سريا للابقاء على الدستور السويدي الذي يلاشي السلطة الملكية ويخلد الفوضى ، وضمنا الدستور « القلانس » .

بلغ الوضع درجة من الخطورة مكنت الملك غوسطاف الثالث ، عند توليه العرش في السنة ١٧٧٢ ، من القيام بانقلاب سانده الشعب والجنود وفرض دستور جديد . استعاد حق اختيار وزرائه ، واقتصر مجلس الشيوخ على دور استشاري والمجلس على دور الاشتراك في اقرار الضرائب واعلان الحروب . تصرف غوسطاف الثالث ، الذي سلخ سنوات طويلة من حياته في فرنسا ، تصرف المستبد المستنير . الغى الاعذبة ، واطلق حرية المعتقد للمهاجرين الاجانب ، واعلن حرية لتجارة الحبوب ، ووسع التعليم الابتدائي ، وشجع الكتاب والفنانين ، وأسس الاكاديمية السويدية ، وبنى اسطولاً حربياً ، ونظم الجيش تنظيماً جديداً . بات النفوذ الفرنسي مسيطراً . ولكن ثقل وطأة ضرائبه هيج الشعب ، كما هيجته الاحسانات التي اغدقها على النبلاء دون ان يفوز بانضمامهم اليه . فالنبلاء ، الذين حركهم ذهب كاترين الثانية ، قد اوثقوا الجيش السويدي ، في ضراوة الحرب الروسية ، بثورة تستهدف استعادة دستور السنة ١٧١٩ . استنجد غوسطاف الثالث بوطنية الطبقات الاخرى الثلاث واستخدم القوة وبقي السيد المطاع . الا ان بعض النبلاء طعنوه بخنجر في السنة ١٧٩٢ خلال حفلة راقصة كان المدعوون اليها متنكرين بملابس مستعارة .

أوروبا الشرقية

بولونيا

كانت بولونيا ، وهي جزء من سهل واسع الاطراف ، لا حدود طبيعية له ، مشرع الابواب امام الغزوات ، دولة مهددة بالزوال . فكانت بمثابة خطأ تاريخي واستمراراً لعهود ولّى زمانها ، ودولة تذكّر ، بنواح كثيرة ، بفرنسا الكابيتيين الاولين ، لا تجمعها وحدة وطنية . من اصل ١١ مليوناً من السكان ، يؤلف البولونيون النصف ، والروس الثلث في المناطق الشرقية ؛ اما السدس الباقي فيتألف من ألمان وليتوانيين ويهود وأرمن . ولا تجمعها وحدة دينية ؛ فنصف السكان كاثوليك ، والثلث ارثوذكس ، والباقي

بروتستانت ويهود. وهي بلاد تكاد تكون ريفية كلهـا . فالمدن ، وهي صغيرة جداً (٦ الى ٧ ٪ من السكان) لا تضم سوى بعض التجار اليهود وعدد قليل من البورجوازيين . ٧٢ ٪ من السكان فلاحون فداديون تسيطر عليهم ٢٠ الى ٣٠ الف عائلة من صغار النبلاء الفقراء جداً في اغلب الاحيان والتابعين لحوالي عشرين عائلة من كبار الملاكين النبلاء .

تحكم الدولة جمعية مؤلفة من مجلس شيوخ يعينه الملك ، ومجلس قصّاد ينتخبه النبلاء . غدت المملكة انتخابية . لذلك لم يتمتع الملك بأية سلطة . ولم تتمتع الجمعية كذلك بأية سلطة ، لان الاجماع ضروري حتى تصبح قراراتها نافذة. تمتع كل نبيل بحق النقض الحر ، اي بحق الاعتراض بمفرده على تنفيذ قرار او قانون ، وهو اعظم حرية يمكن ان يحلم بها الانسان . ولكن هـذه « الحرية المذهبة » وضعت البلاد في الفوضى وجعلت منها ألعوبة الأجنبي. حين يتعذر اتخاذ أي قرار ، « تحطم » الجمعية او « تمزق » . يلتف كل حزب حول زعمائه من كبار النبلاء الملاكين ويؤلف «اتحاداً لا سلطة شرعية له».هي القوة وحدها ما يحسم الخلافات بين الاتحادات المتخاصمة ، وذلك بالاستنجاد بالاجنبي .

استفاد كبار النبلاء الملاكين من المخاطط الملكية لاثقال اعمال التسخير والموجبات الاقطاعية. ورغبة منهم في شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ، افقروا المدن والبورجوازيين بفتح ابواب البلاد على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية ، وبتحديد الاسعار .

قاوم النبلاء ، كبارهم وصغارهم ، كل اصلاح. انتخبوا ملوكاً من بين الاجانب . الساكسونيان اوغست الثاني (١٦٩٧ – ١٧٣٣) واوغست الثالث (١٧٣٣ – ١٧٦٥) دحـرا ستانسلاس لكزنسكي ، مرشح الحزب القومي ، وافقرا الملوك ، وخفضا الجيش الى ١٠ ٠٠٠ رجـل ، وصفّرا خزائن الاسلحة ، ولاشيا المدفعية ، وفاوضا الدول الاجنبية ، ففاوض الـ « قيصر تورسكي » الروس ، والـ « بوتوكي » الفرنسيين والنمساويين . الأرثوذكس استدعوا الروس ، والبروتستانت استدعوا البروسيين . اتفق الروس والبروسيون والنمساويون والفرنسيون على ابقاء الفوضى و « تمزيق » الجمعيات بمقتضى صوالحهم . وانتهى الامر بالروس اخيراً الى ابداء رأيهم في كافة القضايا وممارسة شبه حماية .

الا ان الدروس الجديدة ، التي بثها اليسوعيون ، ايقظت بعض النبلاء وبعض بورجوازيي المدن من سباتهم . في السنة ١٧٦٤ ، افلح الـ « قيصر تورسكي » ، بمساندة جيش روسي ، في إنجاح مرشح كاترين الثانية ، ستانسلاس بونيا توفسكي . ولكنها خدعة ، لان ستانسلاس كان وطنياً بولونياً ، والقيصر تورسكي الغوا حق « النقض الحر » ، وعينوا لجاناً تنفيذية لمعاونة الوزراء المعينين مدى الحياة . عند ذاك ، اي في السنة ١٧٦٧ ، تدخلت الجيوش الروسية بحجة حماية الأرثوذكس . اعاد « ربنين » ، السفير الروسي ، حق « النقض الحر » ، تلك « الجوهرة » ، ووضع الدستور تحت الضمانة الروسية . عبثاً قاوم اتحاد « بار » طيلة اربع سنوات . في السنة

١٧٧٢ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا الاول، فاقتطعت كل منها اجزاء كبرى، واحتلت جيوش الدول الثلاث البلاد التي حكمها في الواقع السفير الروسي، « ستاكلبرغ » .

حاول البولونيون حينذاك ان ينهضوا ويثبتوا وجودهم . اعادوا تأليف الجيش ونظموا ادارة الاموال تنظيماً جديداً ، واستبدلوا اعمال التسخير والاتاوات العينية بضرائب تخول حق الانتخاب وباتاوات نقدية ، واقروا نظاماً تعليمياً قومياً . واراد عدد من المصلحين الوطنيين إلغاء حق « النقض الحر » ، والملكية الوراثية ، والبعض تحرير الفداديين ، والجميع جيشاً مؤلفاً من ٠٠٠ ١٠٠ رجل . كان هذا برنامج جمعية السنة ١٧٨٨ الكبرى . تحالفت مع بروسيا التي فازت بجلاء الروس عن بولونيا ، لا سيا وقد انشغلوا آنذاك بمحاربة الاتراك والسويديين . ولكن ما حصل لم يكن سوى استراحة .

تركيا — ضمت الامبراطورية العثمانية الواسعة الاطراف ، آنذاك ، افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى، فلا يجوز من ثم اعتبارها دولة اووربية الا لانها ضمت كذلك شبه جزيرة البلقان وشواطىء البحر الأسود الشمالية . كانت امبراطورية ثيوقراطية اسلامية ينحدر فيها السلطان من سلالة النبي [1] محمد ويجمع في شخصه كافة السلطات . ويفوض بسلطته العليا الى باشاوات في الولايات . يرئس هؤلاء ضباط اتراك يمتلكون اراضي واسعة تأميناً لمعيشتهم ومكافأة على الخدمات التي ادوها فيما مضى للجيش . فكان النظام نظاماً اقطاعياً لجيش يعسكر في المناطق الزراعية بصورة خاصة . ويأتي بعد الباشاوات والضباط المسلمون العرب او الاوروبيون الذين يزاولون الزراعة او التجارة . اما المسيحيون من فالاشيين وصرب وبلغاريين ، فقطيع يخضع للجزية ؛ وهم وحدهم من يدفع الضريبة مبدئياً .

في هذا النظام ، كان كل شيء متوقفاً على قيمة الرئيس . والحال كان السلاطين يعيشون عتلين في حرمهم ، جهلة ومتخنثين ، ومنقطعين الى المسكر والفجور . وكان رؤساء وزرائهم مدينين بمركزهم للدسائس فحسب، ولا يلبثون ان يثوروا قبل ان يتمكنوا من انجاز عمل حاسم. اما جمعية الانكشارية الدينية العسكرية ، المغمورة بالاحسانات والمراتب السنية ، فلم تعد سوى مجموعة مناصب يتقاضى اصحابها الرواتب دون خدمة ، تشترى بالمال وتنتقل من الاب الى الابن ، ويدافع عنها بالثورة ضد كل اصلاح . لذلك كان الباشوات يستقلون ، ويلزمون الضرائب ويجمعون ثروات طائلة . وكان الضباط يتصرفون كذلك تصرف الاسياد المستقلين . وكان ملتزمو الضرائب والجنود يسلبون المسيحيين والمسلمين على السواء بعلم وموافقة الباشاوات . فكانت الجزيرة العربية وسوريا ومصر وتونس والجزائر والمغرب خارجة عملياً عن سلطة السلطان . ولم يحافظ السلاطين في اوروبا نفسها على سلطتهم الا باسلام البلاد لليونانيين الذين كانوا موجودين في كل مكان وقد اثروا بالتجارة والحرف وتمتعوا بالنفوذ الديني عن طريق

(١) كذا في النص . والحقيقة التاريخية هي انتقال الخلافة من العباسيين في مصر الى السلطان العثماني سليم الاول بعد فتحه القاهرة ١٥١٧ . المعرب

بطريرك القسطنطينية ، وحركتهم فكرة اعادة الامبراطورية البيزنطية . جعل السلطان منهم حكام الامارات فتصرفوا فيها تصرف المستبدين . وكان البطريرك يعين الكهنـــة اليونانيين في كل مكان . تفككت الامبراطورية العثمانية إذ باتت دون وحدة اقليمية ودون وحدة وطنية ودون ادارة منتظمة ، اي دون اي من مقومات الدولة ، فتعرضت لشتى الضربات .

روسيا

ما زالت روسيا ، في السنة ١٧٥١ ، مجتمعاً أشبه بمجتمعات القرون الوسطى . كانت ملسمة بطوابع شرقية دانت بها لموقعها الجغرافي ، ولكنها كانت خاضعة لتنظيم وادارة حققها الغرب منذ قرون ، وتمر بمراحل سبق للدول الاخرى ان عرفتها . بلـغ سكانها ١٣ مليون نسمة منهم ٩٠ ٪ من الفلاحين ، و٧ ٪ من النبلاء ، و ٣ ٪ من اهل المدن . ما زالت البلاد في مرحلة الاقتصاد العقاري « المقفل » . اجل هنالك فلاحون احرار كثيرون ، ولا سيما في الشمال حيث الاراضي اقل خصباً . ولكن العدد الاكبر فداديون في الاملاك السيدية . يملك معظم الاسياد بين ١٠٠ و ٥٠٠ فدادي ؛ ويملك بعض كبار الاسيـــاد اكثر من ١٠٠٠ فدادي ؛ ويملك بعض صغار النبلاء اقل من ١٠٠ فدادي . كل ملك سيدي ينتج كل ما هـــو ضروري للسيد والفداديين، بما في ذلك المصنوعات الكثيرة . المدن قرى كبيرة تبيـــع مـن الاملاك السيدية المصنوعات المعدنية والبذخية . التجارة الداخلية تمارس على نطاق ضيق في الاسواق الدورية بنوع خاص وتعيقها الجمارك الاقليمية . اما التجارة الخارجية ، المتوسطـــة الحجم ، فتجارة نقل بضائع بين اوروبا وآسيا ، تجارة تصدير الخامات ، القنـب والكتـــان والحـــديد والخشب ، واستيراد المصنوعات ، الحرائر والاقمشة الهندية والاصواف ، وكلها في يد الاجانب على كل حال .

القيصر هو مالك روسيا السامي (المالك الرئيسي في الواقع) ، وصورة الاله الآب ، وخليفة الاباطرة البيزنطيين ، والقائد الاعلى في الحروب ، وحامي البلاد . وهو يتمتع بالاضافة الى هذه الالقاب بسلطة مطلقة ، انه حاكم مطلق . سعى القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ – ١٧٢٥) ، الجبار العنيف ، وراء المجد عن طريق الفتوحات. اقتضى له من ثم جيش واسطول وموارد مالية وادارة. اصلح الدولة شيئاً فشيئاً بأن اقتبس عن الدول الغربية افكاراً وأنظمة طبقها على روسيا فأضفى بذلـــك ظاهراً عصرياً على وقائع اكثر قدماً . ولكن الحالة الاجتماعية فرضت عليه استخدام الارستوقراطية وارضاءها . افتتح قسمة السلطة والفوائد الاجتماعية هذه بـــين الملك المطلق والارستوقراطيين ، التي تمـــيز روسيا خلال القرن الثامن عشر . النبلاء ملزمون جميعهم بالخدمة العامـــة الاجبارية في الادارة والجيش ، وكل أولئك الذين خدموا بطرس قد رقوا الى طبقة النبلاء واعتبروا كما لو كانوا نبلاء قدامى . في السنة ١٧٢٢ خُص كل منهم برتبة وفاقـــاً لخدماتهم . وهكذا صهر بطرس في بوتقة واحـــدة طبقة النبلاء القديمة وطبقة النبلاء الجديدة . الرجال الثقة يختارون من بين النبلاء الذين يخدمون في الحرس الامبراطوري؛هؤلاء هم «الأوفياء» و «المتفانون » ، أدوات القيصر. منح القيصر هؤلاء النبـــلاء كل سلطة على الفلاحين . فأحراراً كان

هؤلاء أم فداديين، فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النبيل بدون اذنه (١٧١٨) . وأسند القيصر الى النبلاء الادارة المحلية : النبيل يجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين، والنبلاء المحليون ينتخبون مفوضي المناطق الاقليميين (١٧١٨) .

تمكن بطرس بفضل ذلك من تنظيم حكم مركزي ، على غرار الحكم السويدي ، مع مجلس شيوخ يضم ٩ اداريين اختصاصيين يصدر الاوامر في غياب القيصر ؛ وهيئات من النبلاء المتوسطين المرتبطين بمجلس الشيوخ بمثابة وزراء ؛ و ٨ حكومات يرئس كلاً منها حاكم خاص ؛ وقسمت الحكومات الى ولايات يقوم في كل منها مفوض اقليمي ، كما قسمت الولايات الى اقضية والاقضية الى نواح . وتمكن من اخضاع الكنيسة الارثوذكسية باستبدال البطريرك بسينودوس مقدس يراقبه وكيل عام ثقة ، ومن استيفاء بعض مداخيل الاديرة . كما تمكن من بناء اسطول وتنظيم جيش عصري دائم واقرار الضريبة الشخصية في السنة ١٧٢٠ على غرار ضريبة الاعناق الفرنسية ، واعتماد الروح التجارية ، وتوزيع الاحتكارات والاعانات المالية وتسليف القروض دون فائدة وفرض أنظمة على الصناعة ، وحماية الصناعة برسوم جمركية مرتفعة ، وإيجاد صناعة معدنية لحاجات الحرب لا سيا في جبال « اورال » ، ورؤية ٩٨ مصنعاً تعمل بانتظام ، قبيل موته ، وتسمح لروسيا بتصدير الحديد الى انكلترا .

اصطدم عمله بمقاومة عنيفة : فقد بدت كل هذه الجدة متنافية والمعتقد الارثوذكسي وصادرة عن المسيح الدجال . ولكن عيب النظام انقذ عمله : فلم يكن هنالك حق وراثي . كان القيصر يعين خليفته (١٧٢٢) . أما في الواقع فالعرش لم يكن « لا وراثياً ولا انتخابياً ، بل تملكياً » . فهم جنود الحرس وضباطه من أجلسوا على العرش المدعي الذي يختارونه . بيد أنهم كانوا ينتسبون جلهم الى طبقة النبلاء الجديدة ، ويرجحون كل شيء من سلطة القيصر العليا ، ففرضوا من ثم احترام السلطة المطلقة على أنسال طبقة نبلاء « البويار » القديمة الراغبين في الحد من السلطة الامبراطورية . وهذا ما فعلوه حيال كاترين الأولى (١٧٢٥ – ١٧٢٧) ، وبطرس الثاني (١٧٢٧ – ١٧٣٠) ، وانّا ايفانوفنا (١٧٣٠ – ١٧٤٠) ، وايفان السادس (١٧٤٠ – ١٧٤١) ، واليزابيت بتروفنا (١٧٤١ – ١٧٦٢) ، وبطرس الثالث (١٧٦٢) ، وكاترين الثانية (١٧٦٢ – ١٧٩٦) الحادة المزاج على غير تسرّع ، الالمانية « الروسية اكثر من كل امبراطورة اخرى » ، الخليفة الحقيقية لبطرس الاكبر .

لم تخل روسيا من النفوذ الاجنبي ، النفوذ الجرماني في عهد آنا ايفانوفنا التي قربت إليها الالمان ، والنفوذ الفرنسي ، في عهد اليزابيت التي نسجت على منوال فرساي وارغمت بطانتها على التشبه بنبلاء الفرنسيين ، وفي عهد كاترين الثانية التي شغفت بقراءة فولتير ومونتسكيو وواضعي دائرة المعارف ، وراسلت السيدة « جوفرين » وفولتير وديدرو ، وأضافت هذا الاخير و« مرسييه دي لا ريفيير » و« فالكونيه » ، ولجأت مونتسكيو في تعليماتها الى جمعية

النواب في السنة ١٧٦٧ ، وان طبعت ما نقلته عنه بطابع روسي ، وتلقت من الفلاسفة ، دعاتها عن غير قصد ، السذج جداً عندما يقتضي ذلك صالحهم ، لقبي « سميراميس الشمال » و « مينرفا الروسية » . وإنما اذا برهنت اليزابيت المفناجة وكاترين الكاتبة عن ذوق حقيقي ، فان الرغبة في اللحاق بالدول المتقدمة الاخرى واثبات ما تستطيعه روسيا واحتلال المركز الاول بين الملوك الاوروبيين ، لم تكن غريبة عن تحقيق ما تحقق، على ان سلوك هذه الطريق لم ينس قط الواقع الروسي . فالجميع واصلوا السير في الاتجاهات التي عينها بطرس الاكبر .

فضل النبلاء تفضيلاً مطرداً على حساب الفلاحين. في السنة ١٧٨٥ ، كان التطور قد اكتمل. ايد قانون النبلاء اعفاءهم من الخدمة الاجبارية ، والضريبة ؛ منحهم حرية التصرف بأملاكهم وأولادهم حتى تأسيس المصانع والمشاغل ، والاتجار بالجمل بمحاصيل املاكهم الزراعية وتصدير كافة منتوجاتهم الى الخارج .

تسلموا من القياصرة والقيصرات ، مكافأة لهم على خدماتهم ، اراضي واسعة جداً امسى فلاحوها الاحرار عبيداً وفدادين تابعين لهم ؛ وكان امتلاك هؤلاء وقفاً عليهم ، باستثناء الفترة الفاصلة بين السنة ١٧٢١ والسنة ١٧٨٢ ، اذ استفاد من حق الامتلاك هذا التجار المتعاطون صناعة استخراج المعادن ، رغبة في تنشيط هذه الصناعة ؛ تولوا بأنفسهم تدوين اسمائهم في لوائح خاصة، ولمجرد التسجيل في اللائحة قيمة شرعية؛ يضاف إلى ذلك ان كل فلاح حر ملزم باختيار سيده . كان من حق النبلاء ابعاد فداديهم المذنبين الى سيبيريا . خفض معدل الضرائب التي يدفعها فدادوهم كي يتاح لهم زيادة اتاواتهم السيدية.ضوعفت ايام اعمال التسخير ، فأصبحت ستة عوضاً عن ثلاثة : ولم يبق للفلاح سوى يوم الاحد لحراثة حقله .حظر على الفدادين التزوج بدون اذن السيد . عائلاتهم عرضة ابداً للتشتيت ، الرجال يبعوا قطعاناً . فلا عجب من ثم إذا كانت ثوراتهم مستمرة وإذا ما انضم فدادو املاك الفولغا وفدادو المصانع وفلاحو الدولة المسجلون في المصانع ، باعداد كبرى ، الى قوزاق « بوغاتشيف » (١٧٧٣ — ١٧٧٤) .

توقفت عن تجار المدن ، وهم اقل ثروة منهم في الغرب ، مساعدات الحكومة المالية ، فصادفوا الصعوبات في تأمين اليد العاملة اللازمة . استحال عليهم مقاومة مزاحمة الملاكين العقاريين الذين اسسوا المعامل (٩٨٤ في السنة ١٧٦٢) واستحصلوا على احتكارات تجارية . سلفت النبلاء رؤوس الاموال مصارف تأسست لخدمتهم منذ السنة ١٧٥٤ . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان تمكنت كاترين ، بعد السنة ١٧٦٠ ، من اطلاق حرية المنافسة ، ومن إلغاء كافة القوانين الصناعية . كان هنالك ٣١٦١ معملاً في السنة ١٧٩٦ ، ولكن اعظمها اهمية عاد للنبلاء ، فتذمر التجار .

أدت جهود الدولة الى انماء منطقة صناعية عظيمة في الاورال (مناجم الحديد والنحاس ومصانع تنقيتها ومعالجتها) . منذ السنة ١٧٥٠ ، تخلت الدولة عن بعض مشاريعها ، ولا سيا للنبلاء . واسس بعض النبلاء والتجار المثرين ، في بشكيريا ، مشاريع خاصة رأسمالية ضخمة.

كانت المشاريع رابحة على الرغم من المسافات ومن تقنية متأخرة ، بفضل الفدادية وعمل فلاحي الدولة الالزامي . وفرت معامل الاورال مصنوعات نصف جاهزة لكافة انحاء روسيا واسهمت بنسبة الثلثين في صادرات الحديد الروسية الضخمة ، مستفيدة من الحروب الاوروبية والاشرية الانكليزية . استمر التقدم بعد السنة ١٧٦٢ ، ولكنه كان تقدما بطيئاً : فالسوق الداخلية قد سدت حاجتها ، والاسعار ارتفعت ، والاضطرابات الاجتماعية برزت هنا وهناك ، وثورة بوغاتشيف خلفت وراءها الخراب ، وانكلترا حسنت تقنيتها وتخلصت شيئاً فشيئاً من حاجتها الى الحديد السويدي والروسي .

على الرغم من تقدم هذه الصناعات المعدنية والحياكية في جوار سان - بطرسبورغ وفي منطقة موسكو ، ومن سدّها حاجة السوق الداخلية وتصديرها الاقمشة الى جانب الحديد ، بقيت روسيا، في الدرجة الاولى، مصدرة للخامات ومستوردة للمصنوعات . وقد اضافت كميات ضخمة من الحنطة الى صادراتها منذ فتوحاتها على حساب الاتراك .

اكمل العمل الاداري بارساخ المركزية وتقسيم العمل . اسندت السياسة الى مجلس وزراء . وبعد تجارب وترددات كثيرة اصبحت هذه المؤسسة نهائية في السنة ١٧٦٨ اذ استبدلت الهيئات بالوزارات . احتفظ مجلس الشيوخ بالادارة العليا . حُدّ من سلطة الحكومات وجمعت عدة حكومات في نيابة . تمتع النائب الامبراطوري بسلطة مطلقة ولم يخضع الا لمجلس الشيوخ الذي هو احد اعضائه . وأقر تقسيم العمل في الحكومات ايضاً : ففصل بين القضاء والمالية والادارة واسند كل منها الى مجالس وغرف . فكان الحكم في روسيا استبداداً لحقق بتضحية الطبقات الاخرى على مذبح الارستوقراطية .

بلغ عدد السكان ١٩ مليوناً في السنة ١٧٦٢ ، و ٢٩ مليوناً في السنة ١٧٩٦ ، فتجاوز سكان فرنسا ، للمرة الاولى ، في أواخر القرن . تعاظم نفوذ الامبراطور تعاظماً كبيراً ، وتمكنت كاترين الثانية من مواصلة عمل بطرس الاكبر ، والنهوض بحروب فتح مثمرة، والدخول الى حرم السياسة الاوروبية الكبرى .

ويتضح من ثم ان هذه الدول الاوروبية كلها بلغت مراحل تطور اشدّ اختلافاً من ان يمكن قيام اتحاد فدرالي على قدم مساواة . وما كانت وحدة اوروبا لتصبح ممكنة الا على يد دولة تنتصر على الدول الاخرى فتضمها اليها او تجعلها تابعة لها . ولكن عهد محاولات التنظيم الاوروبي هذه يبدو وكأنه عهد ولى الى غير رجعة .

الفصل الثالث

تنوّع أوروبا
المنافسات بين الدول

الوضع الديبلوماسي في السنة ١٧١٥

في السنة ١٧١٥ ، أي في اعقاب « حرب المائة سنة الثانية » بين الانكليز والفرنسيين ، التي دامت في الواقع منذ السنة ١٦٨٨ حتى السنة ١٧١٥ ، كانت انكلترا قد توفقت الى احراز النصر . خضعت السياسة الاوروبية لداعي المصلحة العليا الذي لا ينظر الى الاخلاق بل الى صالح الدول ، فاستندت الى التوازن الذي تحقق لمصلحة انكلترا في معاهدات أوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤). اقتضى التوازن الاوروبي ان لا تصبح اية دولة من القوة بحيث تهدد استقلال الدول الاخرى . وليس هذا المذهب بالمذهب الجديد. فقد قال به الفرنسيون والانكليز . وهو يفسر السياسة الانكليزية في البر الاوروبي منذ نهاية حرب المائة سنة ، والصراع الطويل بين العائلة المالكة الفرنسية والعائلة المالكة النمساوية منذ السنة ١٥١٥ . حوالي السنة ١٦٨٨ طرأ عليه بعض التبديل . فقد برزت إذ ذاك لجاجات الرأسمالية التجارية . وباتت التجارة البحرية الكبرى ، التي توفر الوسائل المالية ، مرتكز القوة قبل الارض والسكان ، حين لم يكن نظام المجتمعات ليتيح لاية دولة تعبئة كافة مواردها وكافة رعاياها . كانت الدول قد تحاربت من اجل طرق التجارة ، والمستعمرات ، والعلائق بالامبراطوريات المستقلة الكبرى في ما وراء البحار . بات السعي وراء التوازن الاوروبي محاولة تستهدف منع أية دولة من ان تضمن لنفسها ، بانتصارها في اوروبا ، المستعمرات الهامة والنقاط الستراتيجية الرئيسية . دخلت فرنسا والنمسا في نزاع رهيب كان آخر احداثه حرب وراثة عرش اسبانيا ، ولكن انكلترا هي من وجهت هذا النزاع وافادت منه . حاربت لويس الرابع عشر باسم حرية الشعوب وسيادتها ، وحين بدا لها ان لويس الرابع عشر قد زال خطره ، تخلت عن حلفائها وارغمتهم على المفاوضة . وفي السنة ١٧١٣ ابقت على التوازن في البر الاوروبي وضمنت لنفسها من ثم الهيمنة البحرية والتجارية ، أي التفوق الشامل .

قسمت المعاهدات البر الاوروبي دولاً تتوازن توازناً كافياً لمنع تفوق احداها على الدول الاخرى ، ولارغامها جميعاً ، في حساب الانكليز ، على طلب تحكيم انكلترا . فان فرنسا التي

حصرت داخل الحدود التي عينتها لها معاهدة « ريسويك» ، قد فقدت الامل في أن تضم إليها اسبانيا في يوم من الايام ، إذ أن ملك اسبانيا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، قد تخلى نهائياً عن تاج فرنسا . وفقدت فرنسا بالفعل نفسه الامل في أن تتمكن يوماً من ان تستثمر بحرّية الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية الواسعة الاطراف التي كانت تجارتها ، شأن كافة الامبراطوريات التجارية حينذاك، وقفاً على الدولة المستعمرة . ولكن فرنسا قد فقدت في الحال ايضاً الشركة الفرنسية الاسبانية التي اسسها لويس الرابع عشر في قادس بموافقة فيليب الخامس ، للتجارة مع الامبراطورية الاسبانية واستيراد اليد العاملة السوداء .

تقسمت وراثة عرش اسبانيا بين فيليب الخامس الذي احتفظ باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وبين شارل السادس امبراطور النمسا الذي تسلم المناطق المنخفضة (بلجيكا الحالية تقريباً) ، بالاضافة الى منطقة ميلانو ، والمواقع التوسكانية المحصنة ، ونابولي، وسردينيا ، في ايطاليا . وهكذا تجزأت امبراطورية شارل الخامس نهائياً ، وتقسم شاطىء البحر الشمالي ، على بعض المسافة من « با دي كاليه » ، بين عاهلين عدوين ، لويس الرابع عشر وشارل السادس ، كما تقسمت مسالك البحر المتوسط بين خصمين ، شارل السادس وفيليب الخامس .

ورغبة في تأخير تحرك الجيوش في حال نشوب نزاع بين آل بوربون وآل هبسبورغ ، وفي افساح المجال لتدخل الانكليز ، اقامت المعاهدات بينهم « حواجز » أي خطوطاً من المدن المحصنة اسند الدفاع عنها الى حاميات من دولة ثالثة ، ودولاً فطائل تفصل بينهم : حاجز الفلاندر في المناطق المنخفضة الذي يحتله الهولنديون ، حاجز توسكانيا وفالنجين الذي يحتله البروسيون، وقطائل مملكة سافوا وبيمون وسارديفيا ، والبالاتينا (التابعة لدوق بافاريا) ، ومنتخبية كولونيا .وكانت الدول القطائل والدول الموكلة بحماية الحواجز اضعف من أن لا يحتاج الى عضد الانكليز ، لا بل من ان لا يحتاج معظمها الى مساعداتهم المالية . فتوفرت لانكلترا من ثم وسيلة للتدخل الدائم باسم حماية الضعفاء .

وضمن الانكليز لانفسهم رقابة الطرق البحرية الرئيسية والتفوق التجاري . راقبوا في المتوسط منفذ جبل طارق باحتلالهم جبل طارق ، ومسلك صقلية باحتلالهم مينورك وتبابن صوالح العائلة المالكة في سافوا والعائلة المالكة في النمسا . وحصلت شركتهم التركية ، في ايطاليا وموانىء الشرق الادنى ، على فوائد حرم منها الفرنسيون . وفي البلطيك هزمت السويد شر هزيمة أمام تحالف الروس والبروسيين والدانماركيين ، وتعرضت البحيرة السويدية لان تغدو بحيرة روسية، وهدد الروس المضائق الدانمركية. ولكن ملك انكلترا هو منتخب هانوفر ايضاً، وهانوفر تعمل لحساب انكلترا وحسابها على السواء . قاوم بطرس الاكبر ، وارسل جيوشاً الى الدانمارك المحاربة ضد السويد وحملها على المطالبة بانسحاب الجيوش الروسية الحليفة الخطرة من كوبنهاغن ، وساند الدانماركيين في هولستين على الدوق « دي غوتورب » خطيب ابنة القيصر ، ونبلاء مكلمبورغ على دوقهم ، ابن شقيق القيصر ، وفاوض فردريك غليوم ملك

بروسيا وابعده عن التحالف الروسي ، وأعفى البضائع الانكليزية من الرسوم الجمركية ، واستحصل من الدانمارك على تخفيض الرسوم المستوفاة من السفن الانكليزية التي تجتاز مضيق الا «سوند» . فحقق الانكليز التفوق التجاري في البلطيك .

وحققوا الغلبة في الأوقيانوسات . منذ السنة ١٧٠٣ ، الفت معاهدة « ميتوين » المعقودة مع البرتغال ، مقابل تخفيض الرسوم الجمركية على الخمور البرتغالية على حساب الخمور الفرنسية ، الرسوم المفروضة على الاصواف الانكليزية وأعطت الانكليز حقاً مانعاً في تعاطي التجارة في البرازيل . فغدت لشبونة عملياً مستودعاً ، وميناء تورين ، وقاعدة عمليات للانكليز .

اضطر الفرنسيون لأن يتخلوا لهم، في اميركا ، عن خليج هودسون، وبالتالي عن تفوقهم في تجارة الفراء ، وعن اكاديا والأرض الجديدة ومياهها الغنية بالأسماك ، وفي جزر الانتيل ، عن سان كريستوف وانتاجها من السكر .

لا بل اسدف الانكليز ابواب الامبراطورية الاسبانية نفسها . في اسبانيا خفضت الرسوم الجمركية على منسوجاتهم الصوفية، وأتاح لهم شرط الدولة المفضلة المطالبة بكل فائدة جمركية يعطيها ملك اسبانيا البوربوني نسيبه ملك فرنسا. وفي الامبراطورية الاسبانية استحصل الانكليز على احتكار استيراد العبيد السود اللازمين للمغارس والمناجم وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات مرة في السنة ، الى بعض المرافىء الاسبانية في اميركا الجنوبية .

وقد بلغ من مهارة صيغة هذه المعاهدات لضمان تفوق الانكليز الاقتصادي والسياسي ، ان استوحت انكلترا مبادئها في السنة ١٨١٥ والسنة ١٩١٩ .ولكنها لم تضمن السلم. فقد ارتكزت الى الحسد والارتياب المتبادلين بين حكومات يراقب بعضها البعض ، مستعدة ابداً لامتشاق السلاح . كانت هذه المبادىء تطبيقاً لمبدأ « فرق تسد » ، فلم ترض احداً .

لم ترض الانكليز انفسهم . فقد أخذ تجارهم على الحكومة ، ببعض المرارة ، انها لم تذل فرنسا ، العدو الدائم ، اذلالاً تاماً ، ولم تستول على كافة ممتلكاتها في اميركا ، وفي الانتيل بنوع خاص، ولم تفتح ابواب الامبراطورية الاسبانية على مصراعيها أمام تجارتهم. وهي هذه الاهداف التي اقتربوا منها تدريجياً في السنوات ١٧٦٣ ، و ١٨١٥ ، و ١٨٢٤ . وخشي جورج الاول ابداً أن يساند ملوك اوروبا آل ستوارت المخلوعين من العرش عليه .

لم يعترف فيليب الخامس ملك اسبانيا ، في قرارة نفسه ، بصحة التوقيع الذي ذيل به ، مكرهاً ، تنازله عن عرش فرنسا . ولم يرض كذلك بضياع الاقاليم الايطالية ، والتخلي عن السيطرة الاسبانية على حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد حملته على وقوف هذا الموقف زوجته الثانية ، « اليزابت فارنيز » ، التي كانت تريد امارات لابنائها في ايطاليا ، والتي عينت ، في رئاسة مجلس الوزراء ، « البروني » ، الايطالي المحب وطنه ، الراغب رغبة صادقة في طرد النمساويين وتحقيق الوحدة الايطالية .

ولم يقتنع شارل السادس اقتناعاً تاماً بالتنازل عن عرش اسبانيا . فقد كان راغباً ، التعويض عن هذه الخسارة ، في الحصول على اراض واسعة حول حوض المتوسط الغربي على الأقل : أي على صقلية ، ودرقية مانتو ، بالأضافة الى اراضيه ، والحماية على كاتالونيا الاسبانية بعد تقسيمها. كما كان راغباً في احياء القوة النمساوية بتنمية صناعتها ، وبفتح منفذ لها الى البحر ، وانهاض تريستا والموانيء الايطالية ، وتأسيس شركات تجارية . أقلق بذلك هولنـــدا وانكلترا ، كما أقلقها بمشاريع توسعية في البلقان ، على حساب الامبراطورية التركية ، وفي الامبراطورية على حساب بافاريا والدول الجنوبية التي كان آخذاً في استعادة نفوذه عليها . فجاء اندفاعه في هذه الاتجاهات الثلاثة تهديداً للتوازن الاوروبي .

كان ممكناً جداً لروسيا التي اندفعت ، مع بطرس الاكبر ، نحو كافة طرقات التجارة ، في اوروبا كما في آسيا ، ان تصطدم بالنمساويين ، بصدد الامبراطورية التركية والبلقان ، وبالانكليز والسويديين والداغاركيين والهانوفريين والبروسيين بصدد البلطيك والمضائق الداغاركية .

قام الانقسام من ثم بين الدول الكبرى الهامة ، وهو هذا الانقسام ما كرس قوة الانكليز . كان لهؤلاء اسطول قوي ، ولكن جيشهم البري افتقر الى القوة اللازمة ، بسبب موقفهم الحذر من الملك . اعتمدوا اضعاف السلطة التنفيذية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهي سياسة ممكنة في جزيرة تحيط بهـــا بحار كأداء تسمح برؤية من يقصدها ويقترب منها . ولكنهم كانوا بأمس الحاجة ، في البر الاوروبي ، الى الجيوش التي افتقروا اليها (كان جيش هانوفر صغيراً جداً) ، والى حلفاء يهتدون اليهم بتقسيم الاوروبيين . الى هذا ترد السياسة الفرنسية التي أوصى بها لويس الرابع عشر سفراءه بين السنة ١٧١٣ والسنة ١٧١٥ : ازالة حذر الدول الاوروبية من فرنسا ؛ اقناعها بأن فرنسا لا تهدف الى اية هيمنة ، وكانت هذه المهمة ضرورية جداً اذ ان السياسيين كانوا يخشون من اجتيـــاح الجيوش الفرنســية لاوروبا ويعتبرون ان ايقاف الفتوحات عند الرين مخطط املته الحكمة على ملك فرنسا ؛ لعب دور المستشار والوسيط ؛ اقناع كافة الحكومات بأن الانقسام فيما بينها وخوفها من فرنسا يحملان منهـــا ضحايا الانكليز ؛ حملها على القبول بتنازلات متبادلة واتفاقات تعقـد بحرّية ؛ ومن ثم اصلاح ذات البين بين دول اوروبا الكبرى وحرمان الانكليز من كل سانحة التدخل وإثارة الخلافات بين الدول البرية ؛ وبذلك تحقيق توازن حقيقي وحرية حقيقية .

ميزات السياسة الخارجية في القرن الثامن عشر

الا ان خلفاء الملك المعظم لم يقدروا هذه السياسة حق قدرها . فكان القرن الثامن عشر عهد اضطرابات ونزاعات ، اقصر امداً واقل خطورة منها في العهد السابق ، وانما اكثر وقوعاً .

ارتدى الصراع بين الدول طابع « السياسة العائلية » . فهي العائلات في الواقع من كونت الدول وأوجدت سياسات الامم الراهنـــة . الامم والدول تتجسد في شخص الملك . وافضت

الاعراف الاقطاعية، واواصر النسب ، والمصاهرات ، والوراثات ، الى ايـلاء عائلات الملوك حقوقاً على اراض لا حصر لهـا . هذه الحقوق ممتنعة الابطال والتنازلات عنها باطلة . والملك الذي يرغب في التوسع ، لمصلحته او مصلحة رعاياه ، او في الحؤول دون توسع ملك آخر ، لا يعدم وسيلة في اثبات حقـه على الارض المطموع بها او المتنازع عليها . وغالباً ما تتخذ الصراعات بين الدول شكل نزاعات على وراثة عرش . .

النزاعات تستوحي المصلحة العليـا او مذهب « السلامة العامة » : العواطف والتفضيلات والصداقات والاحقاد ، يجب ان تنحني كلها امـام مصلحة الدولة العليا القاضية بالتوسع والاستيلاء على اقاليم غنية بالسكان والموارد ، والحؤول دون توسع الآخرين الذي يشكل تهديداً لازدهارها ووجودها . الاخلاق هي مصلحة الدولة . روح السياسة موضوعية كلها . السياسة علم مستخلص من احداث التاريخ ، عبوس وقاس ، وقاطع كالاداة الفولاذية .

الصراع مستمر . يتخذ الشكل الدبلوماسي اولاً . الدبلوماسيون فئة من الرجال الطيبين المهرة ، ولكنهم قادرون على كل شيء . يتميزون بسهر دائم ؛ كل شيء قـد ينقلب خطراً ، وكل فرصة يجب ان تنتهز ؛ المصادقة لا تضر الا بالضعفاء ولا تفيد سوى الاقوياء : على الدولة ان تكون في حالة تأهب دائم ، على غرار ابن المجتمع الذين يعيش بين المسايفين وذوي الاخلاق الشرسة . هذه هي حـال دول اوروبا اليوم اكثر من اي يوم مضى اذ ان المفاوضات ليست سوى مشادة دائمة بين أناس لا أخلاق لهم ، مجترئين في الاخذ وطامعين ابداً (المركيز دارجلسون) .

المكر عادة متعارفة والطرائق معوجة . يحاول الدبلوماسيون إفساد حكم الخصم بايقاظ اهوائه ، اهواء الجسد او هوى المال . اعطاء الملك خليلة واعطاء الامبراطورة او الملكة عشيقا عادتان رائجتان . فان سفير فرنسا ، لاشيتاردي ، قد اصبح ، لصالح الخدمة ، عشيقا القيصرة اليزابت ؛ وقد أوفدت الحكومة الفرنسية البارون « دي بروتوي » مكلفة اياه مهمة اشباع شهوات امبراطورة المستقبل كاترين الثانية . وطلبت ماري - تيريز من ابنتهـا ماري انطوانيت ، زوجة ولي عهد فرنسا البالغة من العمر ١٧ سنة ملاطفة السيدة « دي باري » حتى تحمل هـذه الاخيرة لويس الخامس عشر على الاعتراف بتقسيم بولونيا . وقبض الوزير الفرنسي « ديبوا » ٦٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني من الحكومة الانكليزية. وعينت فرنسا راتباً شهرياً للوزير النمساوي « توغوت » منـذ السنة ١٧٦٨ . وكانت مجامع السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة تبيع انفسها ممن يدفع لهـا افضل سعر . في السنة ١٧٦٣ كلف مجمع السويد فرنسا ١ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني، وفي السنة ١٧٦٦ ، كلفها مجمع بولونيا ١ ٨٣٠ ٠٠٠ جنيه سترليني.

الدبلوماسيون يمسكون بالرسائل . يبتاعونها من البُرد . يختار برد ثقات : فيخطفون وتنتزع الرسائل منهم ثم يفتك بهم قطاعو طرق مصنّعون . الرسائل تكتب بأرقام اصطلاحية

ولكن هنالك اختصاصيين يفكون رموزها. توصل بلاط فيينا الى فك رموز السفارة الفرنسية ورموز رسائل لويس الخامس عشر السرية . وكان فردريك الثاني فخوراً جداً بأرقامه الاصطلاحية : ولكن علماء لويس الخامس عشر في باريس كشفوا سرّها .

التدخل بالدسيسة والمال في سياسة الجار الداخلية عادة متعارفة ايضاً . وقد توفرت في الدول الجمهورية النزعات ، كالسويد وبولونيا ، فوائد خاصة بفعل نشاط الاحزاب . امد الملوك بالمال ، في الدولة المجاورة ، احزاب الحرية التي تضعف الدولة . حرضت الدول جماعات العصاة واثارت الحروب الاهلية وحمت الثائرين . كانت السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة والمستعمرات الانكليزية في اميركا ، قبل فرنسا ، مناطق مباركة لمثل هذه المناورات . كان الملوك المخلوعون من العرش ، والتائهون ، والمعدمون ، اكثر من ان يحصوا . فاوض الملوك الآخرون مغتصبيهم وجلاديهم . المصالح تتقدم تضامن الملوك ، ويزول احترام الملوك .

المعاهدات تنقض وفاقاً لمصلحة الدول . « في السياسة والمصالح ، لاشأن للاعتراف والمعاهدات ؛ هي القوة او المصلحة ما يعمل المعاهدات ؛ وهي القوة او المصلحة ما يلاشيها » . ويضيف الالماني في كتابه (النظم السياسية : « في السياسة يجب نقض الآراء النظرية التي يكونها عامة الشعب حول العدالة والانصاف والاعتدال وسلامة النية والفضائل الأخرى المعزوة للامم الأخرى ولقادتها . كل شيء يؤول في النهاية الى القوة » .

ان اخلاق الذئاب هذه تقود الى الحرب بمعناها الحصري ، الحرب بالاسلحة . كل حرب تعتبر عادلة منذ ان تجعلها مصلحة الدولة العليا ضرورية . ولا عجب من ثم ان تلجأ الدول الى الحرب الوقائية. فالانكليز الذين حكمّت سيادة البحار في صدرهم قبل اي شيء آخر، اعطوا المثل على ذلك بهجمات ، دون اعلان حرب ، على سفن الاعداء ، وبالاستيلاء على السفن التجارية وملاحيها ، دون سابق انذار ، في ايام السلم . وقام البروسيون في البر بخير الهجمات المفاجئة لاتقاء ضربات محتملة يكيلها لهم اعداء محتملون ، كان اشهرها هجوم السنة ١٧٥٦ الذي ضرب به المثل وبات اجتهاداً قانونياً .

في الحملات العسكرية تسود المجاملة القصوى الملاتق بين اركان الجيوش المؤلفة من الاشراف، ولكن الحرب فظيعة وقاسية . تعيش الجيوش في البلاد وتسحق المقاومات بالارعاب . تصادر كل شيء ، حتى ما غلا ثمنه في الكنائس ، لتغذية خزانة الحرب . تفرض الرسوم على السكان وتدمر مساكن من لا يدفعون المفروض عليهم ، وتحرق المدن والقرى التي ترفض الضرائب المضروبة عليها . يرافق الجيوش حشد طفيلي من التجار والبغايا الذين يشتركون مع الجنود في السلب والاغتصاب واشعال النيران . النساء والاطفال يقتلون اذا ما قاوموا اجتياح منازلهم . وقد دون الكونت (دي سان – جرمان) عند وصوله الى المانيا هذه الملاحظة : « البلاد يعمها الخراب والدمار في دائرة يبلغ شعاعها ٣٠ فرسخاً ، كما لو ان النار قد اجتاحتها » .

السكان المشتبه بهم يطردون ، وسكان القرى التي اطلقت منها النيران على الجيوش يشنقون . الرهائن تكون مسؤولة عن وفاء الحاميات . في السنة ١٧٤٤ ، انذر النمساويون سكان الويرين بالتسليم : المقاومون سوف يشنقون « بعد إكراههم على قطع انوفهم وآذانهم بايديهم »، ودرج فردريك الثاني على تقتيل الاسرى أو تجنيدهم بالقوة . في السنة ١٧٥٧ ،كان الروس في «ميمل»: لم يشاهد الناس ما شاهدوا منذ غزوة الهون؛ السكان يشنقون بعد قطع انوفهم وآذانهم، وتنتزع سيقانهم ، وتبقر بطونهم وتشق قلوبهم » . في السنة ١٧٨٨ ،وبعد الاستيلاء على« اوتشاكوف » « بلغ من ضراوة الجنود الروس ، بعد انقضاء يومين على هجومهم ، انهم اذا ما وجدوا اطفالا أتراكاً مختبئين في مكان مظلم ما . . .اخذوهم وقذفوا بهم في الهواء وتلقوهم على رؤوس حرابهم» .

تنتهي الحرب بمعاهدات يقرر فيها انتقال الممالك والامارات والدوقيات من سلالة الى اخرى دون استطلاع رأي السكان ودون اكتراث بما يكون رأيهم في هذا الانتقال . هذا ما يعرف بـ « تقايض البشر » . ويجب القول من جهة ثانية ان المشاعر القومية ، في معظم الحالات ، كانت اضعف منها في ايامنا . وكان السكان ، في عهد اسيادهم الجدد ، يحتفظون بعاداتهم وامتيازاتهم وبعض حرياتهم . ولكن هذا لا يصح في كافة الحالات . ففي السنة ١٧٧٢ صادر فردريك الثاني من الاقاليم البولونية التي استولى عليها قطعاناً من البولونيات بغية اعمار بومرانيا المفتقرة الى النساء . اما البولونيون فقد منعوا الهجرة في قطاعهم وبلصوا السكان دون رحمة .

« القوة هي القانون الاعلى » .

القبول بمعاهدات اوترخت وراستات (١٧١٥ - ١٧٣١)

في السنة ١٧١٥ ، لم ينتهز الوصي ، الدوق « دورليان » ، الظروف المؤاتية لمواصلة السياسة التي عينها لويس الرابع عشر . جعلته اطماعه الشخصية يهمل مصالح المملكة ،بدافع من مربيه القديم « ديبوا » الذي عينه وزيراً . كان لويس الخامس عشر ضعيف البنية . إذا توفاه الله ، فان عمه فيليب الخامس سيطالب بالتاج على الرغم من تنازله ، كما سيطالب به الدوق دورليان ايضاً. اراد الوصي ان يضمن لنفسه مساندة الرأي العام الفرنسي على فيليب الخامس . والحال كان الرأي العام الفرنسي معاديا جداً للنمسا وعاجزا عن ادراك مقاصد لويس الرابع عشر التي لم يكن بالامكان التداول بها علناً . قبل الوصي من ثم بالعون الذي عرضه عليه الانكليز في حال نشوب نزاع بينه وبين فيليب الخامس . وبالمقابلة تحالف معهم ، وساند جهودهم التقسيمية ، ووفر لهم ذاك الجيش البري الذي كانوا مفتقرين اليه . وحين حدثت ازمة « لو » المالية في فرنسا برهن خليفتا « ديبوا » ، « بوربون » و « فلوري » ، عن عجزهما الطويل الامد عن انتهاج سياسة مستقلة . وقد ساعدت الدبلوماسية والجيوش الفرنسية الدبلوماسيين والبحارة الانكليز ، خلال سلسلة من الازمات والحروب حتى السنة ١٧٣١ ، على الابقاء على معاهدتي اوترخت . لم تتقدم اية دولة تقدماً يمكنها من تهديد الهيمنة الانكليزية ،

فبقي البر الاوروبي في حالة انقسام مرضية .

في الشمال قسم إرث السويد ، حليفة فرنسا القديمة ، بين دول كانت ثلاث منها صديقات لبريطانيا . بموجب معاهدتي ستوكهولم (١٧١٩–١٧٢١) تخلت السويد عن «بريمن» و «فردن» لهانوفر التي غدت قوّة بحرية ، وعن ستتين وبومرانيا الامامية لبروسيا ، وعن نصيبها من رسوم المرور في السوند وعن شلسفيغ للدانمارك ، بينما تخلت الدانمارك عن سكراللسون و « روغن » و « ويسمار » . فكان ذلك نهاية « البحيرة السويدية » واقامة حدود اكثر اتفاقاً والجغرافية، وانحطاطاً نهائياً للسويد الآخذة بالانظمة الجمهورية . اما روسيا عدوة انكلترا ، فقد استحصلت من السويد ، في معاهدة « نيستات » (١٧٢١)، على ليفونيا ، واستونيا ، وانغريا ، وجزء من كاريليا ، ومقاطعة من فنلندا مع « فيبورغ» . فاستحصلت بذلك على اراض واسعة على ساحل البلطيك ، المحور التجاري الهام ، واصبحت دولة بحرية بعض الشيء . ولكن عداء الدول السابقة ، التي كان يساندها الانكليز ، قد حرمها امكانية الاندفاع نحو المضائق الدانماركية والبحر الطليق ، فاضطرت لان تصرف النظر عن ذلك تدريجياً .

في الجنوب استحصل شارل السادس على صقلية مقابل تنازله عن سردينيــا ، وانتزع من الاتراك سهول «تمسفار » ، وجزءاً من فالاشيا، وبوسنيا ، وصربيا مع بلغراد(معاهدة باساروفيتز ١٧١٨) ، والاعتراف بوثيقة وراثة العرش التي ترسخ وحدة دوله . ولكنه انتهى الى التنــازل نهائياً عن اسبانيا والهند ، وحل شركة اوستند التي كانت تشكل تهديداً للتجــارة البريطانية والتجارة الهولندية ، والاعتراف بدعيــات آل فارنيز في ايطاليا التي منعته من أن يجعل من ممتلكاته الايطالية كلا ذا توسع اقتصادي غير محدود (معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١). أما فيليب الخامس ، الذي اضطر الى إقصاء « البروني » منذ السنة ١٧١٩ ، فقد انتهى الى التنازل جدياً عن عرش فرنسا وعن الأقاليم التي استولى عليها شارل السادس ، والتسليم للانكليز بجبل طارق والامتيازات التجارية التي مُنحوها في اوترخت مقابل تخصيص « دون كارلوس » ، الابن البكر لزوجته الثانية ، بدوقية « بارم » .

نهوض فرنسا
١٧٣١ - ١٧٤٠

ولكن الانكليز فقدوا بعد السنة ١٧٣١ مركزهم الأول في اوروبا . اطمأنوا الى قوتهم وانشغلوا بنزاعاتهم الداخلية ضد « والبول » ، فــلم يبالوا بالبر الاوروبي في الوقت الذي حرر فيه تقويمُ الوضع المالي الكردينال « فلوري » من سياسة لم تخف عليه مساوئها .

حاول فلوري سلوك الطريق التي عينها لويس الرابع عشر . اعترض سبيله حزب «شوفلين » أمين سر الدولة للشؤون الخارجية الذي كان يقول بسياسة العداء التقليدية للنمسا ، التي لم يعد لها ما يبررها آنذاك ، بعد أن زال خطر آل هبسبورغ عن فرنسا ، والتي باتت سياسة مضرة اذ ان انقسامات البر الاوروبي توفر للانكليز الحلفــاء وظروف التدخل . بيد ان الغلبة كانت

لانصار السياسة التقليدية عند انفجار أزمة وراثة عرش بولونيا . في السنة ١٧٣٣ توفي اوغست الثاني ، وكان التاج انتخابياً . تقدم مرشحـان ، منتخب ساكس « اوغست الثالث » ، ابن شقيق الامبراطور وحميه ، وستانسلاس لكزنسكي حمي لويس الخامس عشر وملك بولونيا السابق المخلوع من العرش . انتخب ستانسلاس في ايلول بفضل المال الفرنسي . ولكنه كان رئيساً للحزب الوطني الراغب في إصلاح بولونيا وجعلها دولة . لم تقبل به روسيا والنمسا بأي ثمن . دخلت الجيوش النمساوية الروسية بولونيا وطردت ستانسلاس وحملت الناخبين على انتخاب اوغست الثالث .

كان ذلك إهانة للويس الخامس عشر . ومن جهة ثانية كان الناس في فرساي راغبين في أن تكون ملكة فرنسا ابنة ملك . اضف الى ذلك أن الواجب كان يقضي بمحاولة انهاض بولونيا التي كانت تؤلف مع السويد وتركيا كتلة الدول الشرقية التي تضرب دول الوسط من الوراء ، لا سيّ وأن الحكومة الفرنسية قد رفضت التحالف مع روسيا . اقنع شوفلين الملك بضرورة اعلان الحرب ، ولم يجرؤ فلوري على الاعتراض . ولكنه خاض حرباً قصيرة الأمد .

لم يغز المناطق المنخفضة النمساوية حتى لا يقلق الانكليز والهولنديين . لم يرض هؤلاء يوماً بـأن يروا فرنسا ، المنافسة البحرية ، تتوسع على شواطىء بحر الشمال وتستقر خصوصاً في « انفرس » التي قد تتخلص ، اذا ما آلت الى ايدي دولة كبرى ، من عبوديات معاهدة وستفاليا وتصبح مستودع تجارة اوروبا الوسطى وشمالي فرنسا ومزاحمة لندن وامستردام . وكان وجود الفرنسيين في بلجيكا يعني قيام الحرب بينهم وبين الانكليز . اكتفى فلوري بضرب النمساويين في ممتلكاتهم الايطالية . تحالف مع دوق سافوا ، ملك سردينيا ، الذي تخلى لفرنسا عن « سافوا » ، الفرنسية اللسان والعادات ، التي يفصلها حاجز الالب عن البييمون ، مقابل حصوله على منطقة ميلانو (وهي سياسة سيعتمدها كافور ونابليون الثالث) . اما الحليف الآخر فكان ملك اسبانيا الذي كان يريد لابنه « دون كارلوس » منطقة ايطالية اعظم شأناً من بارم . انتصر الفرنسيون وحلفاؤهم دونما صعوبة (١٧٣٤) وتم الاستيلاء على منطقة ميلانو .

ولكن فلوري بادر اذ ذاك الى التفاوض للحيلولة دون اي تدخـل انكليزي . وقعت معاهدة صلح تمهيدية في ايلول من السنة ١٧٣٥ ما لبثت ان تحولت الى معاهدة صلح نهائية في السنة ١٧٣٨ . ثم فقـد شوفلين الحظوة في السنة ١٧٣٧ . وتنازل ستانسلاس لكزنسكي عن بولونيا ولكنه احتفظ بلقب الملك واعطي دوقية اللورين وكونتية بار . كان طبيعياً عند مماته ان تعود الدوقية والكونتية الى ورثته ، اي الى ملك فرنسا ، فتسد الثلمة المفتوحة في الحدود الشمالية الشرقية وتؤمن المواصلات مع الالزاس وتعود مقاطعـة فرنسية اللسان والعادات الى الوحـدة الفرنسية . امسى الضم فعلياً في السنة ١٧٦٦ . تخلى شارل السادس عن « نوفاري » لملك سردينيا الذي احتفظ بالسافوا حين لم يحصل على مقاطعة ميلانو . وتخـلى الامبراطور عن

نابولي وصقلية (مملكة الصقليتين) لدون كارلوس . واعطى هذا الاخير بارم وتوسكانا اللتين كان متوقعاً ان تؤولا اليه الدوق « فرنسوا دي لورين »، زوج ماري - تيريز ، ابنة شارل السادس، المرفوعة يده عن دوقيته . وفي ذلك خير مثل على مقايضة البشر .

في السنة التالية ، انقذت فرنسا صديقتها التقليدية ، تركيا ، وانزلت بالنمساويين والروس هزيمة ابقت على التوازن الأوروبي . منذ السنة ١٧٣٦ ، كان الروس ، الذين ما فتئوا يبحثون عن منفذ الى البحر الاسود ، في حرب ضد تركيا . كانوا قد استولوا على « ازوف » والقرم . ومنذ السنة ١٧٣٧ ، كان النمساويون،حلفاء الروس ، قد غزوا البلقان . شحذ السفير الفرنسي، « فيلنوف » ، عزائم الاتراك ، وزودهم بنصائحه . بفضله كسر الاتراك النمساويين . ففرض فيلنوف حينذاك وساطته ، وفي معاهدة بلغراد (١٧٣٩) اعاد الامبراطور للاتراك صربيا وفالاشيا . اضطر الروس الى التراجع . فأظهر السلطان امتنانه لفيلنوف بتجديده امتيازات فرنسا الدينية والتجارية في الامبراطورية التركية (١٧٤٠) .

في السنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد استعادت سيرها الى الامام . فقد احرزت حديثا نجاحاً اقليمياً كبيراً ، هو الاول منذ ريسويك . ووطدت تحالفها مع اسبانيا وتركيا والسويد ، واخذت توجه السياسة الاوروبية . وتقدمت صناعتها وتجارتها كل صناعة وتجارة في العالم وغزت مصنوعاتها انكلترا نفسها . وتفوق تجارها على الانكليز في الانتيل والهند وموانىء الشرق الادنى حيث اوقع الجواخون الفرنسيون ، حتى قبل تجديد الامتيازات ، هزيمة تجارية نكراء بالانكليز وكادوا يقضون هناك على تجارة الاجواخ الانكليزية. تقدم الفرنسيون في وادي الميسيسبي واقفلوا داخل البلاد في وجه المستعمرين البريطانيين . وأسست شركة الهند الفرنسية باطراد اسواقاً جديدة كثيرة . وأعاد الاسبانيون من جهتهم تنظيم اساطيلهم وطمعوا في منع الانكليز من الاستمرار ، دون خجل، في مخالفة بنود معاهدة اوترخت بتلاعبهم بالسفن المسموح بدخولها الى مستعمراتهم حتى تنقل فوق ما هو متفق عليه ، وبشتى الاساليب الملتوية المعتمدة في عمليات التهريب المطلق العنان . استيقظ الانكليز وانتبهوا فجأة لان كل شيء يحدث كما لو لم يكونوا منتصرين، او كما لو لم يكن هنالك معاهدة اوترخت . فهم لم يفقدوا هيمنتهم البرية فحسب بل كانوا سائرين في طريق فقدان هيمنتهم البحرية والتجارية . فقرروا اللجوء الى الحروب .

الحروب البرية والبحرية الكبرى
(١٧٤٠ - ١٧٦٣)

في تشرين الاول من السنة ١٧٣٩ قاموا باعمالهم العدوانية الاولى ضد اسبانيا . ولم يفتهم ان فرنسا ستنجر الى الحرب رغبة منها في الثأر لنفسها من معاهدتي اوترخت . وبالفعل انطلق اسطولان فرنسيان ، في شهر آب من السنة ١٧٤٠ ، لمساعدة الاسطول الاسباني . فبدأ بذلك الصراع الحاسم من اجل التفوق البحري والاستعماري،اي من اجل الهيمنة السياسية.

كانت قوّة الاسطول الفرنسي كافية لان ترتقب النتيجة بثقة واطمئنان . وكان مقدراً لفرنسا ان تصبح في طليعة الدول ولمدة طويلة . وانما كان لزاماً ان تستطيع تكريس قواها للحرب في البحر والمستعمرات، اي انلا تكره على خوض الحرب في البر الاوروبي .

ولكن الامبراطور شارل السادس توفي في ٢٠ تشرين الاول من السنة ١٧٤٠ ، فافتتحت وراثة عرش النمسا . ترك الامبراطور خلفاً له ابنة في الثالثة والعشرين من سنها ، ماري-تيريز، مع جيش غير منظم وخزانة فارغة . رأى كافة ملوك اوروبا الفرصة سانحة لكي يقتطعوا لهم بعض المناطق من اراضي آل هبسبورغ . نسوا كلهم انهم ضمنوا وثيقة وراثة العرش النمساوي ووعدوا بمساعدة ماري-تيريز على اعتلائه . ونظروا كلهم الى المعاهدات الحاملة تواقيعهم نظرتهم الى اوراق رثة حقيرة . طالب منتخب بافاريا شارل - البير بالارث كاملاً . وطالب كل من ملك اسبانيا ، وملك سردينيا ، وملك بروسيا فردريك الثاني بنصيب من الارث . كان فردريك الثاني قد ورث عن والده جيشاً مختاراً ، والحكمة القائلة بان لا قيمة للامير في العالم الا بسيفه ، ورسالة توسيع الاراضي البروسية ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وجمع الاقسام الثلاثة التي تتألف منها ممتلكات آل هوهنزولرن . وكان طامعاً في حينه بسيليزيا ، الولاية الغنية التي سيؤمن له امتلاكها تجارة الاودر الاعلى ، ويحمي براندبورغ من التعديات النمساوية ويتيح له اتقاء كل تهديد ممكن بهجوم مفاجىء على بوهيميا . كان لآل هوهنزولرن حقوق على سيليزيا تخلوا عنها بموجب معاهدات، ولكن فردريك الثاني ما كان ليقيم وزناً للعهد ، فاحتل الولاية (كانون الاول ١٧٤٠ - نيسان ١٧٤١) .

لم تكن فرنسا مهددة ، وكان باستطاعتها البقاء بعيدة عن النزاع . اجل كان الملك قد وقع وثيقة وراثة العرش وكان عليه ان يحترم توقيعه . ولكن الحزب المحافظ ، وعلى رأسه المارشال « دي بيل إيل » ، اعتقد بان الوقت قد آن للتخلص نهائياً من النمسا ، ولم يعر المسائل البحرية والاستعمارية أهمية تذكر . وما كان كباو الاسياد الفرنسيين آنذاك ، على نقيض الانكليز ، ليعنوا عناية كبرى بالمشاريع التجارية . ولم تكن العاصمة الفرنسية ، فرساي ، والمدينة الرئيسية المجاورة، باريس ، مدينتين يعول سكانها في معيشتهم على التجاوة البحرية ؛ فكان من الصعوبة بمكان تهييج الرأي العام وإثارة الفتن فيها من اجل الانتيل او السنغال . ولم يبرهن التجار الفرنسيون أنفسهم عن مثل ما برهن عنه الانكليز من عناد عنيف ، ولم يرغبوا ، على غرارهم ، في حرب ضروس تنتهي بظفر طرف وهزيمة آخر : عندما اعلنت القطيعة بين فرنسا وانكلترا في السنة ١٧٤٣ ، اقترحت شركة الهند الفرنسية على الشركة الانكليزية البقاء خارج نزاعات الحكومات ومواصلة الاعمال التجارية ، ولم تقرر الاشتراك في الحرب الا بعد أن رفض الانكليز اقتراحها . كان فلوري آنذاك قد طعن في السن ؛ فاضطر للموافقة على نولتيء بيل إيل ،وانتزاع التاج الامبراطوري من آل هبسبورغ . حين هزم هؤلاء أمام فردريك ، مهد بيل إيل السبيل لقيام معاهدة تحالف بين ملك اسبانيا ومنتخب بافاريا (ايار ١٧٤١) ،

وعقد تحالفاً مع بروسيا (حزيران) وفاز بانضمام منتخب الساكس . وقد تم الاتفاق بين المتحالفين على ان يستولي منتخب بافاريا على التاج الامبراطوري وبوهيميا ؛ وابن ملك اسبانيا الثاني ، دون فيليب ، على بعض الاقاليم الايطالية ؛ وفردريك على سيليزيا ؛ بينما تكتفي فرنسا باذلال النمسا . احتلت الجيوش الفرنسية بوهيميا ، فاعلن منتخب بافاريا ملكاً عليها ؛ ثم انتخب امبراطوراً باسم شارل السابع (تشرين الثاني ١٧٤١ — كانون الاول ١٧٤٢) .

بيد ان « بيل إيل » اخطأ في انه لم يحاول الاجهاز على فيينا ، فطالت الحرب وتمكن الانكليز من التدخل وفتح جبهة ثانية . في شهر شباط من السنة ١٧٤٢ نزل جورج الثاني الى البر الاوروبي وتسلّم قيادة جيش من المرتزقة . عقد الانكليز والنمساويون والساكسونيون حلف « وورمز » واتفقوا على انتزاع الالزاس واللورين من الفرنسيين وقدموا لماري — تيريز المال الذي كانت مفتقرة اليه . وتوقفت ماري — تيريز ، بوعدها ملك اسبانيا بشطر من مقاطعة ميلانو ، وبتخليها عن سيليزيا لفردريك الثاني الذي ادار ظهره لحلفائه على الرغم من تعهداته الصريحة (معاهدة برسلو ، تموز ١٧٤٢) ، الى تفكيك التحالف وتاليب تحالف آخر على فرنسا التي ما لبثت ان واجهت تهديد حدودها (١٧٤٣) . واخيراً ، في السنة ١٧٤٥ ، بعد وفاة شارل السابع ، تنازل ابنه عن الامبراطورية لمصلحة زوج ماري — تيريز الذي انتخب امبراطوراً باسم فرنسوا الأول . باتت القضية أشبه بمبارزة بين العائلة المالكة النمساوية والعائلة المالكة الفرنسية التي تحالف معها فردريك الثاني المضطرب البال مرّة اخرى في السنة ١٧٤٤ ، ولكنه تخلى عنها مرّة اخرى ايضاً في السنة ١٧٤٥ حين ابدت ماري—تيريز تنازلها له عن سيليزا في معاهدة « درسدن » . تحوّلت الجيوش الفرنسية ، في اعقاب ذلك ، عن الحرب الاستعمارية التي لم يلمع نجمها فيها حتى ذلك الحين . في السنة ١٧٤٥ استولت على لويسبورغ في كندا ، ولكنها فقدت مدراس في الهند في السنة التالية . ولا ريب في ان الفرنسيين كانوا احرزوا نجاحاً حاسماً لو ان كافة القوى الفرنسية تحولت شطر البحر . في البر الأوروبي صمدت فرنسا امام التحالف صموداً مشرفاً . في السنة ١٧٤٨ توقفت الى صون أكثر حدودها هشاشة ، اي الحدود الشمالية الخالية من الحواجز الطبيعية ، والمفتوحة عند ممر « الموز » و « السامبر » و « الواز » ؛ كانت قد استولت على المناطق المنخفضة النمساوية (انتصار « فونتنوا » ، ١٧٤٥) والسافوا وكونتية نيس . فبات من ثم بمكنتها ان تفرض على اعدائها المنهوكين صلحاً مجدياً . ولكن لويس الخامس عشر تخلى في معاهدة «اكس-لا — شابيل» (تشرين الاول ١٧٤٨) عن كل شيء ، المناطق المنخفضة ، وسافوا ، ونيس . ووافق لويس الخامس عشر بتخليه هذا على ضمان سيليزيا لفردريك الثاني واعطاء ملك سردينيا قسما من مقاطعة ميلانو حتى نهر « تيسينو » ، واعطاء دون فيليب بارم وبليزانس .

اندهلت اوروبا باجمعها من هذا الاعتدال الذي سخرت منه واعتبرته ناجماً عن ضعف عقل وضعف جنان . واغتاظ الفرنسيون من الملك . إلا ان هذا الصلح لم يكن شراً كله بالنسبة

لفرنسا اذ انها انقصت اراضي النمسا ، وأوثقت الروابط باسبانيا ، ووسعت دولا ثانوية . كانت متفقة وإحدى السياسات الفرنسية التي تؤثر التوازن وتجميع الدول الصغرى حول فرنسا ضد العظماء على السعي وراء التوسعات الشخصية . ولكنها انطوت على عيب جوهري . فان لويس الخامس عشر الصادق في مسالمته ، والمخلص في محبته المسيحية وشعوره الانساني ، والتعب بالاضافة الى ذلك من الحرب ، قد تغافل عن مقاصد الانكليز والنمساويين . تعامى عن أن شيئاً لم يسو في البحر والمستعمرات ، وأن شيئاً لم يسو بين النمسا وبروسيا ، وان الصلح ليس سوى مهادنة ، وأن حرباً أخرى لن تلبث أن تندلع ، وانه من الأهمية بمكان بالنسبة لفرنسا ، ما دامت الحرب محتومة ، أن تكون موجودة على قمم جبال الألب في سافوا وفي سواحل بحر الشمال حتى انفرس .

كانت الحرب الجديدة، المعروفة بحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣)، نتيجة المنازعات بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الانكليز في اميركا من اجل الاستيلاء على وادي « اوهايو ». استعد لها الانكليز باهتمام . في شهر حزيران من السنة ١٧٥٥ ، وبدون اشهار حرب ، بدأوا عدوانهم بعمل قرصنة . فان السفن الحربية البريطانية قد استولت في الموانىء الانكليزية أو في عرض البحر على ثلاث ناقلات جيوش في طريقها الى كندا واكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و ٨٠٠٠ بحار . فحرم الفرنسيون بذلك ، منذ البدء خيرة ملاحيهم المدربين .

كان الانكليز بحاجة الى حليف وجيش لاجل حماية هانوفر، المملكة الشخصية لملك انكلترا ورقبة الجسر للتجارة البريطانية في الشمال، ولاجل تحويل القوات الفرنسية شطر البر الاوروبي . لم يعد بامكانهم الاعتماد على النمسا التي عرضت المناطق المنخفضة على فرنسا في حربها الانتقامية ضد بروسيا ، فرفضت فرنسا العرض كي لا تتخلى عن فردريك الثاني ، ولكنهم وجدوا هذا الاخير قلقاً ، ومرتاعاً من تحالف انكليزي روسي ، وراغباً في المساعدات المالية الانكليزية ، فنكث التحالف الفرنسي وعقد مع انكلترا اتفاق وستمنستر (كانون الثاني ١٧٥٦) . فاستفظع الفرنسيون هذا ووقعوا مع النمسا معاهدة فرساي (أول أيار ١٧٥٦) . تقربت النمسا في الوقت نفسه من الامراء الالمان ومن الساكس وروسيا . شعر فردريك الثاني بالخطر الداهم : فصمم على القيام بعمل يشل جيوش اعدائه قبل ان ينهوا استعداداتهم، وانقض على الساكس (آب ١٧٥٦) . احرز النصر ، ولكن صمود الساكسونيين اتاح للنمساويين جمع قواهم . ولما كانت ابنة منتخب الساكس متزوجة من وريث عرش فرنسا ، استشاط لويس الخامس عشر غيظاً وعقد مع النمسا معاهدة فرساي الثانية (ايار ١٧٥٧) التي تعهد فيها بتقديم ١٤٠ ٠٠٠ رجل ومبلغ ٣٠ مليوناً اسهاماً منه في حرب المانيا . وهكذا انقلبت المحالفات واشتركت فرنسا في حروب برية حولتها عن مصالحها الحقيقية ، أي عن حرب المستعمرات التي كانت هي الحرب الحقيقية .

اعتقدت الحكومة الفرنسية بأن العمليات البرية لن تطول ، وبأنها ستستطيع بعد انتهائها

من الارتداد بقواها على الانكليز وحدهم . في السنة ١٧٥٧ احتل الفرنسيون فعلاً هانوفر ثم طوقوا الجيش الانكليزي الهانوفري وارغموه في ايلول على الاستسلام في « كلوسترسفن » وحصلوا منه على تعهد بأن لا يحمل السلاح حتى نهاية الحرب . وتحرك جيش فرنسي الماني لمهاجمة فردريك الثاني الذي كان يواجه خطر النمساويين في الجنوب ، والروس في الشرق ، والسويديين في الشمال . ولكن فردريك تمكن من المناورة بين اعدائه ، فسحق الجيش الفرنسي الالماني في « روسباخ » (٥ تشرين الثاني ١٧٥٧) ، والجيش النمساوي في « لوتن » (٥ كانون الاول) . ونكث الجيش الانكليزي الهانوفري عهده ، فاشترك في الحرب مرة اخرى ضد الفرنسيين . ومنذ ذاك التاريخ طالت الحرب وتمادت . فالجيوش الفرنسية التي قادها ضباط حذاق على غير سداد في الرأي قسّم التحاسد بينهم ،قد ارتقفت، على الرغم من بعض الانتصارات الجزئية ، بين الرين والفيزر بفضل مقاومة الجيش الانكليزي الهانوفري، ولم تتمكن من مهاجمة فردريك الثاني من الغرب . خف العبء بذلك عن هذا الاخير ، فواجه الروس والنمساويين . انزلت به هزائم تكراره ، وفي السنة ١٧٥٩ ، بلغ كشافة اعدائه مشارف برلين . ولكنه برهن عن عناد فائق ، وحال احتراز الروس والنمساويين وعجزهم عن توحيد جهودهم دون اقدامهم على كيل الضربة القاضية . وفي السنة ١٧٦٢ توفيت القيصرة اليزابيت وتولى العرش بطرس الثالث المخلص لملك بروسيا ، فبقي النمساويون وحدهم .

منعت هذه الحرب الفرنسيين من التفرغ لاساطيلهم ومستعمراتهم . أمدّوا الهند بـ ١٧ رجلاً وكندا بـ ٣٢٨ رجلاً بينما كان الانكليز ، بتحريض من « وليم بيت » ، يواصلون تعزيز اساطيلهم ويرسلون الى اميركا حتى ٦٠٠٠٠ رجل . استولوا على كندا باستيلائهم على « كيبك» (١٧٥٩) « ومونريال » (١٧٦٠) ، وعلى الهند باستيلائهم على بوندبشيري (١٧٦١) . وجاء دخول اسبانيا الحرب الى جانب فرنسا متأخراً جداً ولم يسفر سوى عن نتيجة واحدة هي اتاحة فرصة احتلال فلوريدا للانكليز . اضطر الفرنسيون لتوقيع معاهدة باريس مع الانكليز في ١٠ شباط من السنة ١٧٦٣ . تخلوا لهم عن كندا ووادي « اوهايو » وضفة الميسيسيبي اليسرى وعدد من جزر الانتيل. تنازلوا من كل مدعى سياسي بالهند حيث احتفظوا بخمس مدن دكت اسوارها وسحبت حامياتها . تخلوا عن اسواقهم التجارية في السنغال باستثناء جزيرة « غوريا » . وتنازل لويس الخامس عشر ، بالاضافة الى ذلك ، عن ضفة الميسيسيبي اليمنى أو لويزيانا للاسبانيين بغية إعاضتهم من فقدان فلوريدا . ولكن فرنسا احتفظت ، على الرغم من مقاومة العديد من الانكليز ،بمصائد الاسماك في الارض الجديدة، التي كانت بمثابة مدرسة جلّد وتدريب لبحارتها، وبجزيرتي « سان بيير وميكلون » ، و « جزر السكر » ، « مارتينيك » ، و «غوادلوب» ، و « سانت لوسي » و « سان دومنغ » ، وذلك بفضل الملك جورج الثالث المتسرع في استهلال سياسته الشخصية والتخلص من استبداد « بيت » الذي كان يفضل انتظار سحق فرنسا لتوقيع معاهدة الصلح . استاء الانكليز واعتقدوا بوجوب القيام بمجهود جديد، ولكنهم على الرغم من كل ذلك

حققوا امكانات تقدم غير محدودة بتحقيقهم الهيمنة البحرية والتجارية والاستعمارية .

أما ماري – تيريز ، التي امست وحدها في الميدان ، فقد وقعت مع فردريك الثاني صلح « هوبرتسبورغ » (١٥ شباط ١٧٦٣) . احتفظ هذا الاخير بسيليزيا وتمتع بنفوذ عظيم في المانيا وفي اوروبا . غير انه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يكن سوى ملك دولة صغرى يخيم عليها الخراب . وخرجت النمسا ضعيفة وخاسرة اقليمياً من هذه الهزيمة الجديدة . أما المسيطر الحقيقي على اوروبا الشرقية والوسطى فهو روسيا ذات الموارد المتزايدة ، التي امتدت الى رجل هو للقيصرة كاترين الثانية .

ارتقاء الروس والبروسيين (١٧٦٣ – ١٧٨٩)

ادت معاهدة باريس الى تخلخل التوازن في اوروبا . انثنى الفرنسيون والانكليز عن البر الاوروبي . انشغل الانكليز بشؤون تنظيم امبراطوريتهم . صادفوا صعوبات كبرى في مستعمراتهم الاميركية بنوع خاص . وأدرك الفرنسيون خطأهم . كرسوا قواهم لمحاربة انكلترا ، واخذ الوزير شوازول يعد العدة للانتقام . وكان الانتقام ممكناً في بلاد غنية جدا تفوق دول اوروبا الاخرى سكانا ولم تتأثر تأثراً جدياً بحروب خيضت كلها خارج ارض الوطن . اعاد شوازول انشاء الاسطول والجيش وابتاع من الجنويين جزيرة كورسيكا التي كانت مطمع الانكليز لانها تتيح السيطرة على الساحل الفرنسي المتوسطي (١٧٦٨) .

في هذه الظروف خلا الجو في اوروبا الشرقية لروسيا التي تخلت نهائياً عن مشاريع بطرس الأكبر في آسيا . فكان من ثم باستطاعتها استعادة سيرها شطر الغرب . عند وفاة ملك بولونيا اوغست الثالث (١٧٦٣) ، اتفقت كاترين وفردريك الثاني على منع كل اصلاح في بولونيا ، وضمان العرش لعشيقها ستانسلاس بونياتوفسكي (ايلول ١٧٦٤) بتهديد من الجيوش الروسية ، وفرض حماية روسية على البولونيين بحجة تأمين حريات الجمهورية البولونية (١٧٦٧) . ثار الوطنيون البولونيون ، وتوفق شوازول ، املاً منه في انقاذهم ، الى اقناع الاتراك بدخول الحرب ضد روسيا . ولكن الانحطاط التركي كان آخذاً في التعاظم . خسر الاتراك آزوف والقرم والولايات الرومانية ودُمر اسطولهم في « تشسميه » (١٧٧٠) . خشي فردريك الثاني اذ ذاك من رؤية الروس والنمساويين يعززون قوام في البلقان أو يتقابلون في حرب قد ينجر هو اليها . فاقترح على كاترين وماري – تيريز تقسيم بولونيا الذي أقر في سان بطرسبورغ في ٢٥ تموز من السنة ١٧٧٢ . « باسم الثالوث الأقدس » ... وخوفاً من تفكك الدولة البولونية تفككاً كلياً ... استولت ماري – تيريز ، التي « ما انفكت تبكي وتأخذ » ، على غاليسيا وسكانها البالغين ٢ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة ، واستولى فردريك على بروسيا البولونية وسكانها البالغين ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة فقط ، باستثناء دانتزيغ ، ولكنه حقق الاتصال بذلك بين بروسيا وبراندبورغ ؛ واستولت كاترين على جزء من ليتوانيا يبلغ سكانه ١ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة . فاضطرت الجمعية البولونية ، التي حاصرتها الجيوش الحليفة ، الى التسليم بالمعاهدة والتعهد بعدم تعديل الدستور . وقد ألف الشركاء المتواطئون الثلاثة ، بغية الحفاظ على مكاسبهم ، حلفاً ثلاثياً ناصب فرنسا العداء في

ي الثورة والامبراطورية ، وكان نواة الحلف المقدس بعد السنة ١٨١٥ ، ودام حتى
ن التاسع عشر .

بوساطة النمسا ، وقع الروس مع الاتراك معاهدة « قينارجي » (١٧٧٤) . لم

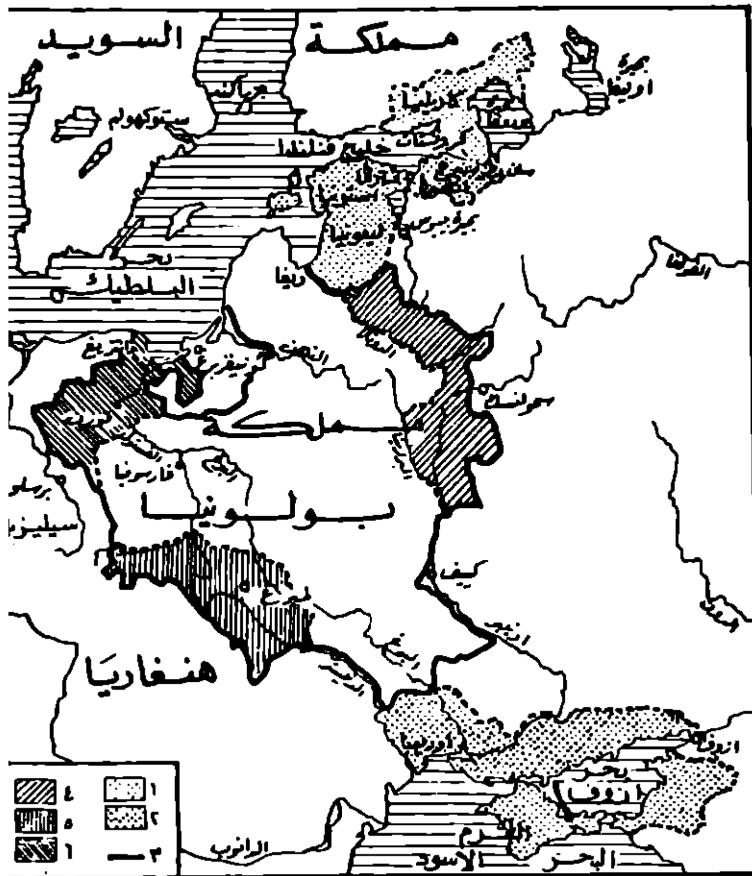

الشكل ٢ . الفتوحات الروسية وتقسيم بولونيا الأول .
- فتوحات بطرس الاكبر ، ٢ . فتوحات كاترين الثانية ، ٣ - حدود مملكة بولونيا في السنة ١٧٢
تقسيم بولونيا الاول في السنة ١٧٧٢ - ٤ الفتوحات الروسية ، ٥ الفتوحات النمساوية ، ٦ الفتوحات ال

سيا الا بـ « آزوف » ، ولكن استقلال « القرم » قد أعلن رسمياً ، وحق الروس ، ب
ـة ، توجيه الانذارات الى السلطان خدمة الكنيسة اليونانية أو السكان الارثوذ
يات الرومانية . فظهروا من ثم بمظهر حماة لشعوب المسيحية الارثوذكسية في البلقان
امكان التدخل الدائم في الشؤون البلقانية ، مما سيسهل مشاريعهم باتجاه القسطنطينية والمض
إن اعمال الدول الثلاث في بولونيا حولت نظام التوازن الى « نظام تفاهم » . فهي لم

لسمري على نظام التوازن ، اذ كان على الدول الكبرى أن تتساوى فيا بينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً. ولكنها سلّمت بحقها في تقاسم الدول الصغرى والدول الضعيفة اذا قضت مصلحتها بذلك . فتكرس بذلك مبدأ الاستخفاف بحقوق الدول ، الذي سيؤدي الى تقسيم اوروبا بين بعض الدول الكبرى المتجاورة ، المتباينة المصالح تباينا مباشراً ، التي ستمسي خلافاتها اكثر تكرراً وأشد خطورة منها في أي عهد مضى . فلاحت في الافق بوادر الحرب الدائمة وخراب اوروبا .

دب الذعر في هذه الاثناء الى السويد وتركيا والبندقية وكافة دول اوروبا الضعيفة التي ارتعدت هلعا بانتظار المبضع يوجه اليها. ولكن فرنسا عملت على استبقاء نظام التوازن القديم . فبمساندة الملك لويس السادس عشر ، حاول «فرجين» الذي اشترك في الحكم منذ السنة ١٧٧٤ حتى ١٧٨٧ ، منع توسع الدول ، وضبطها في نطاق النظام بالتوفيق بينها أو بإثارة الخلافات بينها عند الاقتضاء ، والمحافظة على الدول الصغرى يجمعها حول فرنسا . فكان ذلك تمشيا على سياسة لويس الرابع عشر الاخيرة التي سينتهجها تاليران ولويس – فيليب بدورهما ايضا . رفض فرجين عروض النمسا المغرية في المناطق المنخفضة ومصر . فأفلح باستخدام منافس النمسا الجديد ، فردريك الثاني ، في منع جوزف الثاني اولاً وثانيا من احتلال بافاريا (١٧٧٩ و ١٧٨٤) ؛ ووضع حداً مربعا لمشروع غساوي روسي يستهدف تجزئة الامبراطورية العثمانية (١٧٨١ – ٨٣) واقصر المكاسب الروسية على القرم دون أن يحصل الامبراطور على شيء . حقق بذلك السلم في البر الاوروبي الذي اتاح له محاربة الانكليز في البحر (١٧٧٨ – ١٧٨٣) ، والاسهام في تحرير المستعمرات الانكليزية الاميركية ، والانتقام جزئيا في معاهدة فرساي (٣ ايلول ١٧٨٣) ، من معاهدة باريس المذلة ، بتجريد انكلترا من أهم مستعمراتها . اضطر الانكليز الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، والتخلي لها عن داخل البلاد حتى الميسيسبي ، واعادة مينورك وفلوريدا لاسبانيا والسنغال و « تاباكو » لفرنسا مع اطلاق الحرية لها بتحصين دنكرك .

استعادت فرنسا بذلك اعتبارها ونفوذها وامن اوروبا . ولكن هذه النجاحات لم تدم طويلاً . فقد شلتها في السنة ١٧٨٧ الازمة المالية وثورة الارستوقراطية . اضطرت فرنسا لترك ملك بروسيا الجديد ، فردريك غليوم الأول ، يعيد سلطة القائد العسكري وينظم حلفاً ثلاثياً بروسيا وهولندياً وانكليزيا (١٧٨٧). اعتبرت كاترين وجوزف الثاني الفرصة سانحة لمهاجمة الاتراك (١٧٨٨). ولكن الانكليز والبروسيين حملوا ملك السويد غوستاف الثالث على مهاجمة الروس . وحمل فردريك غليوم الأول البولونيين على اصلاح دستورهم ورفض الحماية الروسية . وحرض الهنغاريين والبلجيكيين على الثورة على جوزف الثاني . ولا عجب في ذلك فقد أدى تواري فرنسا الى انفلات الاطماع . في السنة ١٧٨٩ ، كانت اوروبا متخبطة في ازمة شاملة . وكان اتحاد الدول أبعد منه في أي وقت مضى .

الفصل الرابع

تنوع أوروبا

انطلاق أو يقظة العصيان القومية

لم تكن وحدة أوروبا الفكرية سوى صنيع طوائف يسيرة من البشر ، الكتاب ، والعلماء ، وبطائن الملوك . ولكن الروح القومية رأت النور منذ زمن بعيد عند كافة الشعوب . على انها تفاوتت نمواً : ولعل الانكليز والفرنسيين وحدهم الفوا قوميات ، بمعنى هذا التعبير الحقيقي ، اي جماعات بشر مرتبطين بأرض كيفوها وكيفتهم وعالمين بتضامن ، ومصالح مشتركة ، وعادات خصوصاً ، واخلاق ، وأساليب حياة وتفكير ، ومثل أعلى ، اكثر تشابهاً فيما بينهم ، على الرغم مما لا يزال بينهم من اختلافات ، منها بين أية جماعة من البشر المجاورين . الا ان شعوباً اخرى توصلت هي ايضاً الى الوعي القومي توصلاً متباين الجلاء والقوة ، ومختلطا وضعيفا احيانا. كانت هنالك وطنية اسبانية حققهـا الصراع الطويل ضد المسلمين ، ووطنية ايطالية حققتها الغزوات الكثيرة التي عرفتها البلاد وعززتها ذكريات روما ، ووطنية بولونية تأيدت بمقاومة البولونيين الروس والجرمانيين ، ووطنية روسيا اغتها المسيحية الارثوذكسية التي جعلت الروس ينظرون الى كافة الشعوب نظرهم الى هراطقة وبرابرة ، والى روسيا نظرهم الى البلاد المقدسة ، الصادقة ، العادلة ، المحبوبة من الله بالذات ؛ وحتى وطنية المانية ايضا . واتضح اكثر فأكثر وعي الاختلافات الجماعية ، واقعيـة كانت أم خاطئة : « يقال ان الفرنسيين مهذبون وحذاق وكرماء ، ولكنهم متسرعون ومتقلبون ؛ وان الالمـان صادقون ومجتهدون ، ولكنهم ثقلاء وسكيرون ؛ وان الايطاليين لطفـاء ونبهاء وعذاب الكلام ، ولكنهم حساد وخونة ؛ وان الاسبانيين متكتمون وفطن ، ولكنهم متحذلقون ومتمسكون تمسكاً مفرطاً بالشكليـات ؛ وان الانكليز شجعان حتى التهور ، ولكنهم متكبرون ومستخفون ومتعجرفون حتى القساوة » .

نمت الروح القومية نمواً كبيراً خلال القرن بفعل سياسة الملوك الذين اخضعوا ولاياتهم المختلفة لعادات مطردة التماثـل ، وتنازعوا سياسياً واقتصادياً فأوجدوا بذلك في شعوبهم شعور التضامن والحقد على مصدر الأذية من الجيران ، سواء كانت هذه الأذية مزاحمة ام جيشاً .

ونمت كذلك بفعل التقدم الفكري واتخذت هنا شكل ردة الفعل ضد النفوذ الفرنسي ، موحد أوروبا . كل المثقفين في كل البلدان تتلمذوا على فرنسا . وفرت الروح الكلاسيكية لهذه الاخيرة تقدماً كبيراً وتفوقاً عظيماً . امست فرنسا استاذ اوروبا في المنطق والبيان والجدل . منها تعلم الاوروبيون التفكير وتكوين الافكار وترتيبها والتوسع فيها والربط بينها واستخلاص النتائج المقبولة منها . تزود جميعهم بهذه الكلاسيكية التي يفتقر نتاج اعظم العبقريات بدونها على المقاصد والتخطيطات والوعود والتآليف المرتجلة ، التي تفتقر كلها الى التفتح الكامل . الا ان هذه السيطرة الفرنسية التي رضي بها الكتاب الفرنسيون في البدء باعجاب وامتنان قد ثقلت عليهم ، بعد مرحلة التقليد الطويلة التي يجب ان يمر بها كل تلميذ ، اي بعد السنة ١٧٦٠ ، حين اعتبروا انهم امسوا اسياد تفكيرهم وتعبيرهم . وعوا قوتهم الخاصة وذكاءهم الخاص ، ونفرت اثرتهم القومية من السيطرة الفرنسية . ألهمهم كبرياؤهم المكلوم ، فانصرفوا ، رغبة منهم في التحرر ، الى نقد الآراء الفرنسية نقداً قاسياً ولاذعاً ، وجائراً في اغلب الاحيان . وقد زاد في عنف هذا النقد انه صدر على العموم في كل بلاد عن اناس منحدرين من تلك البورجوازيات النامية التي كانت اقل تأثراً من الاسياد بالعادات المجتمعية المستوردة من فرنسا وبحياة الصالونات ، التي سعت كافة الارستوقراطيات وراء تقليدها والتي باتت اسلوباً اوروبياً مشتركاً . انبثق نقدهم عن شعور تعاظم اثناء ردة الفعل الملموسة ضد جفاف واضعي دائرة المعارف واثناء ذيوع شهرة روسو فاتخذ طابع الهجوم على مذهب العقليين الفرنسي والكلاسيكية الفرنسية وشيوعية الوطنية الفرنسية . وقد تكلم كل منهم باسم مشاعر قوميته الخاصة ، فتزعزعت الوحدة الاوروبية الطالعة .

فاجأ الهجوم الفرنسيين في حالة مقاومة ضعيفة . فالروح الكلاسيكية كانت سائرة في طريق الانحطاط . رأيناها في القرن السابع عشر تصميماً على الكمال وجهاداً يستهدف التوصل بوضوح وجلاء اما الى ادراك الأفكار المتداخلة المتشابكة واما الى ادراك عالم مبهم وصاخب من المشاعر المضطربة ، وجهداً للتعبير عن هذا الادراك اصدق وأشجى تعبير ، وهذا لا ينقص ثروات الحياة الداخلية ، بل يظهرها علانية تخضع للانسان الذي يستفيد منها . اما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد باتت هذه الروح متمسكة اكثر فأكثر بالشكليات ، وأصبحت مجموع انظمة صارمة تقيّد ، وضوابط تشل ، لا بل افتقرت اللغة نفسها وأصبحت ضيقة روجلة ومقتصرة على تعابير عامة او صيغ جاهزة في اغلب الاحيان ، اي انها اصبحت اشبه بعلم جبر يلزم الشاعر بالتعريض في الكلام ، لا جهداً جباراً في سبيل التوصل الى انبجاس الحياة. والواقع ان انحطاط الكلاسيكية هذا هو نقيض الروح الكلاسيكية . هو ما هوجم بعنف ، وبحق في اغلب الأحيان ، ولكنه اختلط بالكلاسيكية التي لم يكن سوى صورتها الهزلية .وقدامه العديد من الفرنسيين انفسهم . ان عهد الرومنطيقية ابتدأ منذ روسو .

زد على ذلك من جهة أخرى ان روح شيوعية الوطنية ، والاقتناع بأن البشر متساوون

كلهم ، والاعتقاد بوحدة الجنس البشري ، وهي تفرض كلها الوطنية ، اذا احسن فهمها ، بدلاً من التنكر لها ، كما اثبت ذلك الفلاسفة الوضعيون ، قد اضعفت الشعور القومي عند أرفع الفرنسيين ثقافة . الا انها لم تقض عليه في احد منهم ، وقد افاقت الروح الوطنية من غفلتها عند الكثيرين في الملمات الجسام . خلال حرب السنوات السبع ، تبرع بجهزو المراكب وتجار المرافىء بسفن قدّموها للملك مساهمة منهم في الحرب ضد الانكليز . وتأثر الفرنسيون تأثراً عميقاً بالانكسارات الخارجية . في السنة ١٧٦٥ مثلت مسرحية « حصار كاليه » لمؤلفها « دي بلوا » ، فبكت الجماهير وصخبت ، وامتدحت هذه الرواية البطولية من روايات الصراع القديم ضد انكلترا. ولكن الفلاسفة انجزوا بناء نظرياتهم في حب السلم وشيوعية الوطنية في احلك مراحل حرب السنوات السبع ، وانجزوها بسرعة كلية ودون استطلاع كاف (اذ توجب عليهم ، في سبيل النجاح ، الاعاضة من التعلم القديم بتعلم جديد مبني على العاطفة والميل والادعاء في الوقت نفسه بأنه صادر عن العقل دون سواه) . لم يدافع الفرنسيون المستضعفون بقوة عن مراكزهم ، كما لم يصمدوا صموداً قوياً امام غزوة الآداب الاجنبية ، الانكليزية منها ولا سيما الالمانية . منذ السنة ١٧٥٠ ، نشر « غريم » في « مركور فرنسا » ، بمساعدة ديدرو ، رسائل في الأدب الألماني ، وفي السنة ١٧٦٦ ، نشر « هردر » قصائد ألمانية مختارة ، كما نشر في السنة ١٧٦٨ ترجمة « الأغاني البلدية » السويسري « جسنر » ، وبين السنة ١٧٨١ والسنة ١٧٨٤ ، « تاريخ الفن عند الأقدمين » لـ « ونكلمن » . اخذت « النفوس السريعة التأثر » بالطابع البلدي والبطريركي الذي يتميز به الشعر الالماني . استوحى « الأغاني البلدية » «دليل» ومؤلف الامثال «فلوريان» ، و « برناردين دي سان – بيير » في كتابه « بول وفرجيني » . وأحدثت ترجمة « فرتر » لغوتيه في السنة ١٧٧٧ تغييراً عميقاً في الحس. فاستوحيت منها« دلفين » لمدام « دي ستال» و«ادولف» لـ « بنجامين كونستان » ، و « رنيه » لـ « شاتوبريان » ، و « جوسلين » لـ « لامارتين » . وجاء التأثير الانكليزي ابعد عمقاً ايضاً . فعلى الرغم من استمرار شطر من الفرنسيين في كراهيتهم للانكليز بدافع من وطنيتهم ، استسلمت فرنسا لانكلترا وانجرفت في تيار استهواء كل ما هو انكليزي . وقد سلك هذه الطريق امراء العائلة المالكة انفسهم ، من امثال الكونت « دارتوا » والدوق « دي شارتر » . وغزت فرنسا حوالي السنة ١٧٧٠ حفلات الشاي ولعبة الـ « وست » وسباقات الخيل وفرسان السباق والسترة الطويلة المشقوقة الذيل . واستعيض عن الصالونات شيئاً فشيئاً بنوادٍ تدنت فيها آداب المجاملة مفسحة المجال لبهجة الاجتماعات العامة : كل يتكلم بصوت عال ، ويصغي قليلاً ، ويعبر عن مزاجه في صوته ونظرته . وتسربت الى اللغة كلمات انكليزية كثيرة . وانتشرت الحدائق الرومنطيقية على الطريقة الانكليزية في « ارمنونفيل » و « باغاتيل » (١٧٧٧) و « بارك مونسو » و « بتي – تريانون » (١٧٧٨) . وقام الفرنسيون بالدعاوة الكتب الانكليزية بتراجمهم . واستقبل الاجانب النتاج الانكليزي خير استقبال لانه يساعدهم على خلع نير فرنسا الفكري .

والواقع هو ان الانكليز كانوا السباقين الى الحقد بازدراء على الفرنسيين والتنكر للطرائق الفرنسية والذوق الفرنسي . وقد درجوا على القول: « ان تجارتنا ومصانعنا توجب علينا وقوف هذا الموقف » . اخذوا على الفرنسيين تهذيبهم الذي يفقدهم كل شخصية ويسيء الى اخلاصهم . انتقدوا اطعمتهم غير المغذية. اخذوا على اللغة الفرنسية انها لغة بطانة بينما رأوا في اللغة الانكليزية لغة اناس احرار تتميز بمزيد من القوة والرجولة . ازدروا بالشعر الفرنسي ، والمسرح الفرنسي اسير النظم الصنعية والاستبدادية. فهم قالوا بأدب رومنطيقي في الدرجة الاولى. رجعوا الى التقليد والاثارة القومية ، الى لغة اكثر تحيزاً ، واكثر اصالة انكليزية ساكسونية ، وأقرب الى اللغة الشعبية ؛ الى الشعر الغنائي الفردي ، الى الايقاعات الشعرية الشبيهة بايقاع الاغاني القديمة والقصائد الاسطورية الشعبية . ادخلوا عناصر جديدة : السيادة الكلفة بالطبيعة ، والمشاهد الليلية ،والمقفرة ، والجبلية ، هوى الحس والخيال ، القلق الكوني والديني وحتى القول بالوهيية الكون . مهدت « ليالي » « يانغ » المتوفي في السنة ١٧٦٥ ، و « مراثي » « توماس غراي » ، المتوفي في السنة ١٧٧١ ، السبيل أمام هذا التيار الذي برز في مؤلفات « كوبر » ، اول منشدي بحيرات « كمبرلند » ، وقصائد « بيرنز » (١٧٥٩ – ١٧٩٦) السكتلندية ، ومكر السكتلندي « ماكفرسون » ، الذي زعم انه اكتشف اناشيد الشاعر القديم « أوسيان » ، والذي تميز بعواطف بسيطة وعنيفة وعرف شهرة فائقة . وعرفت انكلترا هندسة عمارة الحدائق التي تميزت بشلالات الماء والمسالك المتعرجة والاطلال الصنعية ، التي تتعارض كلها والحدائق الفرنسية ؛ كما عرفت المفروشات البلاذرية. وكان لها مدرستها في الرسم التي رأت النور في السنة ١٧٥٠ مع اكاديميتها الملكية التي تأسست في السنة ١٧٦٨ ، وهي تعكس روح تجارها العملية ؛ نجح الرسامون اما في نقد المجتمع واللوحات الاخلاقية والنفسية ، كـ « هوغارت » (١٦٩٧ – ١٧٦٤) ،واما في رسم صور اشخاص المجتمع الارستوقراطي كـ «رينولدز»(١٧٢٣ – ١٧٩٢)، و « غينسبورو » (١٧٢٧ – ١٨٨٨) ، و « رومني » (١٧٣٤ – ١٨٠٢) ، و « لورنس » (١٧١٩ – ١٨١٣) ، الذي استهل عمله الفني في السنة ١٧٩٠ بصورة الآنسة « فارّن » . وأما النقاشة الانكليزية باللون الاسود أو بالتنقيط ، وهي مختلفة عن التقنية الباريسية ، فقد اسهمت في امتداد أثر هذه الفنون الى النمسا والسويد وروسيا .

أما في المانيا ، فما زال هنالك شعور غامض تغذيه ذكريات بعيدة وغير واضحة تركتها الغزوات الجرمانية والامبراطورية المقدسة . وتمكن هذا الشعور بالغيرة من الفرنسيين وعدم الثقة بهم والحقد عليهم. استعانت ماري – تيريز وفردريك الثاني كل بدوره ، على الفرنسيين بـ«الوطن الالماني العزيز» . ايقظت « روسباخ »الروح القومية وألبت الانصار في كل مكان حول فردريك الثاني ، وغالباً ما دفعت المصلحة الآنية بالامراء الالمانيين الى التحالف مع الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يضمرون في عملهم هذا حقداً خفياً ، ورغبة دفينة في ابعاد فرنسا عن الرين ،وامل اكمال بهزيمة فرنسية وبتجزئة فرنسا . والحال ، تعززت مشاعر العداء لفرنسا ، في الثلث الاخير من

القرن ، ينمو ادب الماني ارسخ آراء مشتركة مناهضة لفرنسا وكوّن الامة الالمانية . اعلن « هردر » واصدقاؤه ان اللغة الفرنسية منافية للاخلاق ، ولغة صالونات ، مرنة ، مغرية ، تساعد على المداهنة باسم التهذيب واللياقات ؛ وانها لغة الخيانة والقطيعة بين المتحابين . أما اللغة الالمانية فلا تصلح إلا التعبير عن الحقيقة . أدى كل ذلك الى تأخر اللغة الفرنسية . فمنذ وفاة فردريك الثاني (١٧٨٦) ، ساوت اكاديمية برلين في تقاريرها ومحاضر جلساتها بين اللغة الالمانية واللغة الفرنسية ، ونقح غوتيه « وصف رحلته الى ايطاليا » بابدال كافة المفردات الاجنبية المصدر بما يعادلها في اللغة الالمانية . وجمّل الكتّاب اللغة بالكلمات والتعابير الشعبية .
وهاجم الالمانيان « لسنغ » في « فن وضع مسرحيات همبورغ » ، و « هردر » في بعض مؤلفاته ، الادب الفرنسي ، المجرد والصنعي البساطة ، ولا سيا المسرح الذي تقيده قواعد تناقض الطبيعة ، والذي تعتمد فيه لغة صنعية ، ليست لغة البشر . وأبان لسنغ المضادة بين راسين ، الذي لم يدرك صدقه ولم يع فيه الحياة ، وبين « شكسبير » و « سوفوكل » . وأعلن هردر نهاية عهد الادب الفرنسي وصرح بأن المستقبل للادب الالماني . وهاجم الالمان الفن الفرنسي . فلم يميز ونكلمن و « منغز » ، لغاية في النفس ، بين الفن الفرنسي والفن التزييني المبتذل ، واعترضا على الاكثار من النقوش العادمة الاهمية في هندسة العمارة ، وانتقدا الحديقة الفرنسية بسبب انتظامها الذي نعتاه بالمل ، ومخالفة الطبيعة باخضاعها لفكرة ، ونقما على الرسم الفرنسي الذي اتهماه بأنه خلو من الفكر والعاطفة ، واطريا الرجوع الى فن العصور القديمة . ولكنهما جعلا الفن الفرنسي مسؤولاً عن افراط الفن التزييني الايطالي أو الالماني المبتذل رغبة منهما في افقاده هالة الاعتبار التي تحيط به ، مهما كان الثمن . وأطرى المان آخرون الفن القوطي الذي اعتقدوا بهويته الالمانية . فقد هتف غوتيه بسذاجة امام كاتدرائية ستراسبورغ : « هذا فن الماني لا نرى له نظيراً في فرنسا » . وكان عليه قبل التصريح بذلك ان يقوم بنزهة في المنطقة البارسية ، مهد هذا الفن الذي دعي بالقوطي اصطلاحاً . وحارب الالمان الفكر الفرنسي . اعتبروا الفرنسيين اكثر سطحية والانكليز اكثر شهوانية وسعياً وراء الرخاء من أن يصبحوا فلاسفة . وقد ارتأوا ان الالمان وحدهم قادرون على استنباط الفكر بما يتوفر لهم من عقل واتزان وميل الى البحث وبذل الجهد . وفي رأيهم ان واضعي دائرة المعارف قد طلعوا بالحماقات احياناً . فالمرء مشدود الى وطنه بكافة مصالحه ، يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ولكنه اكثر شداً إليه بأجداده وتربيته ومنافعه وممتلكاته وكل كيانه : انه مدين له بكل شيء . على الالمان ان يرفضوا تقليد الفرنسيين ويكونوا المانا فقط .

وتباهى الاسبانيون ، بلسان الأب « فيخو » ، بأن لغتهم رنانة وموسيقية ومرنة اكثر من اللغة الفرنسية . ودافع اليسوعيون الاسبانيون المطرودون انفسهم دفاعاً حاراً عن الشرف القومي . وفي السنة ١٧٨٣ ، نشر الأب « فرنسكو دي ماسدن » تاريخاً نقدياً لاسبانيا احصى فيه امجاد بلاده وجهد في تقديم الدليل على انها مدينة بها لفضائلها الخاصة لا للاجنبي . وتميز

سواه الاسبانيين باحتقار الأجانب وبالامانة الراسخة للملك والمعتقد القديم والوطن .

وكان للايطاليين لغتهم ومؤرخوهم وشعراؤهم القوميون وشعورهم بوحدة المنشأ ووحدة الطباع ووحدة الشرائع المدنية . وكانوا تواقين الى قيام اتحاد ايطالي . اخذوا يعارضون على تلقيب الايطالي غير الميلاني بالغريب في ميلانو : اذ ان الايطالي في وطنه حيثما وجد في ايطاليا. اخذوا على اللغة الفرنسية قلة مفرداتها وافتقارها الى الايقاع والموسيقى والروح الشعرية . حلم « فيكو » بايطاليا متجددة . وحاول « موراتوري » و « دنينا » انماء الوعي القومي بالتاريخ . وفي قصائد ومسرحيات تستوحي الوطنية الرومانية القديمة ، دعا « ألفيري » ايطاليا الى النهضة في ساحات الوغى . كتبت كاترين الثانية في السنة ١٧٨٠ : « ان ايطاليا تنتظر وترتجي » . لم تعد اليقظة حلماً .

أمـا اشراف روسيا فقد تلهوا بتلاوة جمل بالفرنسية دون أن يتكلموا اللغة الفرنسية . واعتبروا الآراء الفرنسية ‹ملحاً› ونكاتاً ، فلم تؤثر فيهم تأثيراً يذكر . وبقي الروس روساً يحتقرون الاجنبي .

فاذا ما حافظت اللغة والفكر الفرنسيان على تفوقها في السنة ١٧٨٩ ، فان هـذا التفوق قد تجاوز القمة وانحدر في طريق الهبوط . ولكن هـذا الفكر وهذه اللغة هما ما اعطى اوروبا وحدتها الوحيدة . فكانت الغلبة للتنوع في النتيجة . وفقد الأمل تدريجياً بقيام وحدة اوروبية . وضعف بهذا الفقدان ، حتى قبل أن تحقق دول اوروبا اقصى توسعها في العالم ، الامـل بسيطرة اوروبية دائمة على العالم اجمع ، وربما الامل بنشر لواء الحضارة الاوروبية في كافة انحاء العالم .

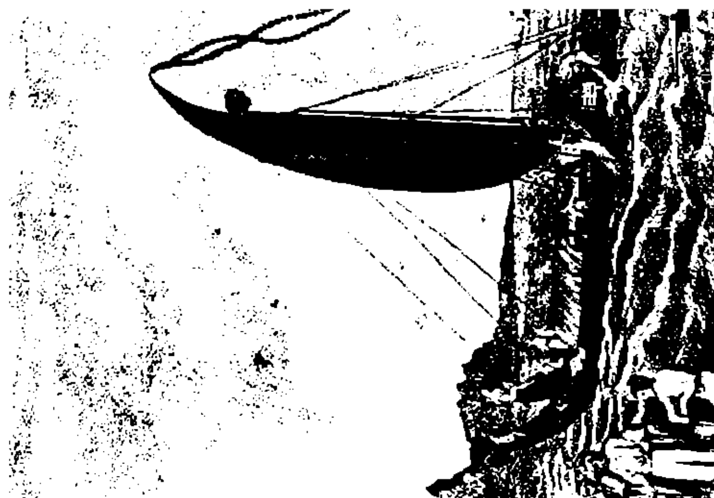

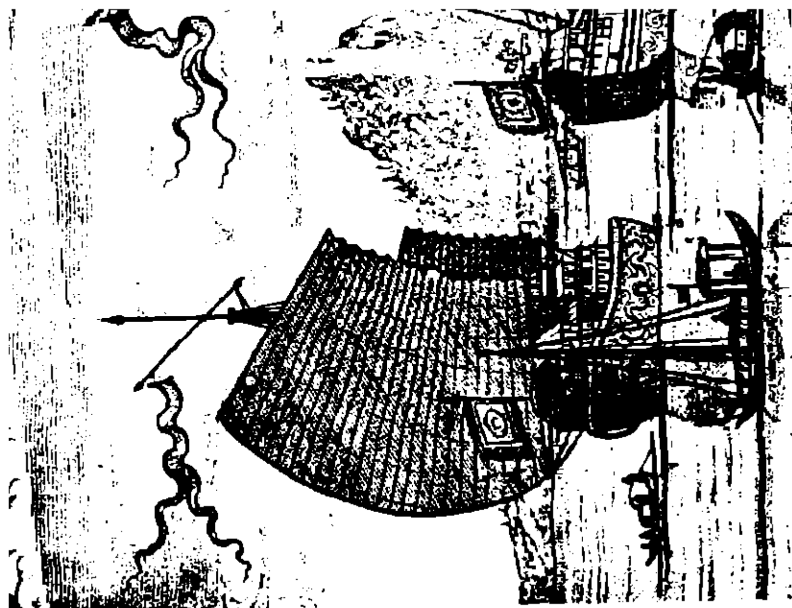

٢٥- وصول طليعة علماء الآثار الى مصر

٢٦- النخاسة في المرتينيك

٢٧- نساء "ايدنتون" في كارولينا الشمالية يأتلين على الامتناع عن احتساء الشاي حتى انقاذ بلادهن !

٢٨- جمعيـة الكونغرس الاميركي الاول

٣٠- عيد احيته مدينة باريس على نهر السين عام ١٧٢٩

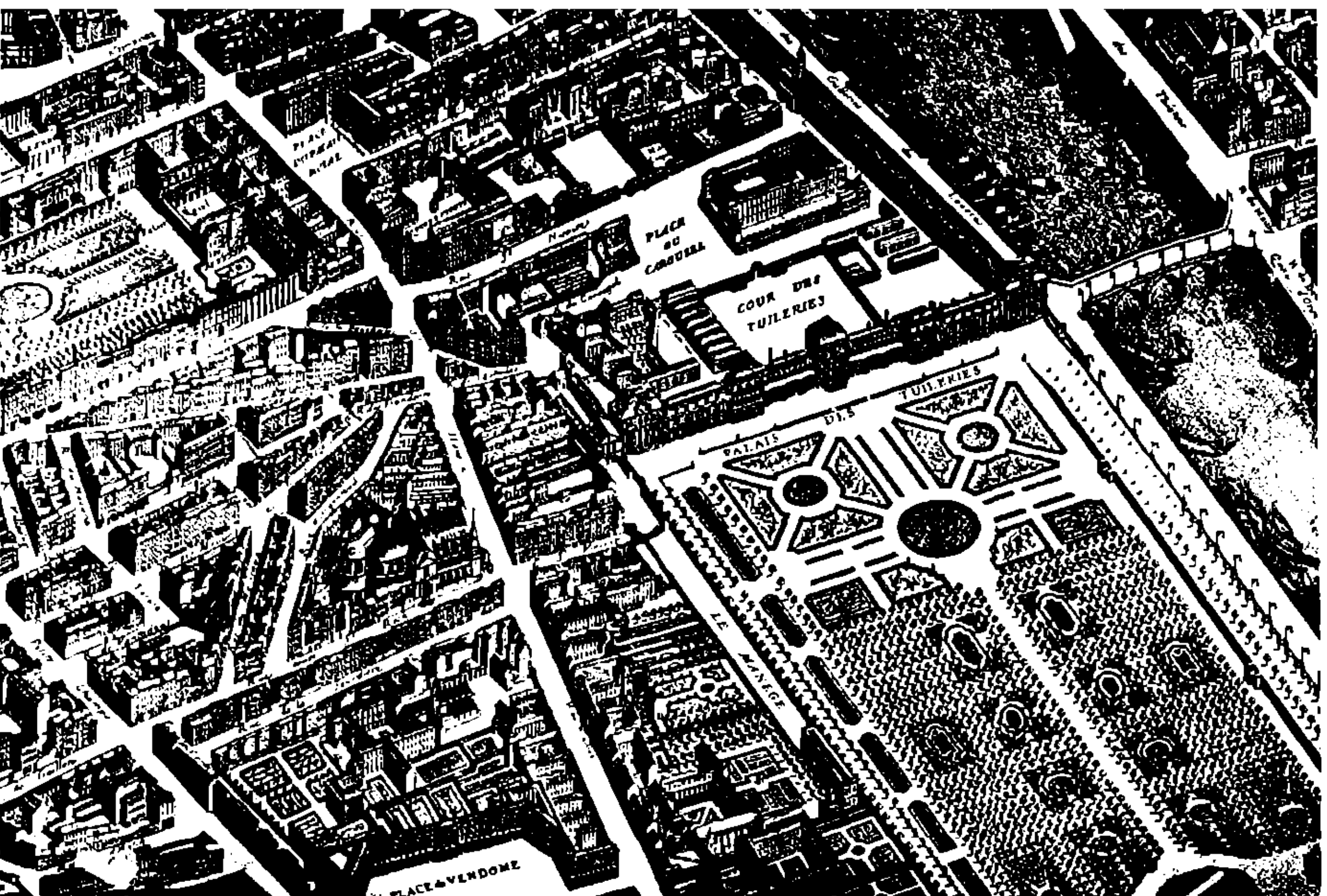

PALAIS DES TUILERIES
COUR DES TUILERIES
PLACE DU CARROUSEL
LE MANEGE
PLACE VENDOME

٣٢- مَشهَد احد الشوارع : منشد الاناشيد

حضارة الانوار وحضارات ماوراء المحيطات

انتشار الحضارة الاوروبية

بعد ان تم للاوروبيين الاستبحار بامور الفلسفة الطبيعية ، وتوفرت لهم خير الوسائل العملية [1] ، انصرفوا لاستكشاف عوالم جديدة وراحوا يوغلون عميقاً في المعروف منها لديهم : وقاموا بفتوحات واتصلوا بشعوب جديدة وزادوا كثيراً من معارفهم ، فانتشرت الحضارة الاوروبية في هذه البلدان والاقطار التي شغلها الاوروبيون ، وراح جانب محترم من ابناء هذه البلدان ما زال مع ذلك ضعيفاً جداً اذا ما قارناه بالسواد الاعظم من سكان تلك الاصقاع ، يقتبس ، ما وسعته الحيلة ، الافكار الاوروبية .

لا بد من ان نلحظ ، بدء ذي بدء ، هذا الفارق الكبير بين حضارة الشعوب والاقوام القاطنين ما وراء المحيطات ، وبين حضارة الاوروبيين . فقد وجد هؤلاء امامهم اجناساً بشرية من مستويات حضارية مختلفة : هؤلاء من العصر الحجري ، وأولئك ممن يعملون في رعي الماشية ، جميعهم من العقلية الغيبية او على النظام اللاهوتي ، اي انهم كانوا يعللون ، على تفارت بينهم في مستوى النضج العقلي الذي بلغوه ، الظواهر الطبيعية التي وقعوا تحت تأثيرها ويردونها الى ارادات شبيهة بارادة الانسان ، انما من عيار اقوى وادهى ، ومن قدرات افعل ، كالارواح والأبالسة والآلهة . وكان من المتوجب على هؤلاء الاقوام ان ينتقلوا سريعاً من المذهب الحيوي الذي يقول بوجود الارواح في الحيوان ، ومن الشرك الذي يهيمون في ضلالاته ليصلوا تدريجياً الى عقيدة التوحيد ، اي الى طور التجريد والميتافيزيقا . وهو طور يحاول فيه الانسان تفسير كل شيء برده الى هذه الكائنات الجبارة ، كالطبيعة مثلاً ، لينتقلوا منه الى الدور الوضعي او العلمي ، وهو ما يميز فلسفات الاوروبيين او يطبع تفكيرهم ، في القرن الثامن عشر ، هذه الافكار التي تأرجحت بين هذه الادوار الثلاثة التي بلغ اليها الانسان ، اذ ذاك ، مع تغليب العنصر الميتافيزيقي او الوضعي .

(١) راجع الكتاب الاول والثاني

ومن جهة اخرى ، فالسواد الاكبر من الاوروبيين الذين خرجوا من اوروبا العمل في البلدان الواقعة عبر المحيطات والعيش فيها طلباً الرزق ، انما هدفوا في الدرجة الاولى ، العمل في مجالات التجارة . فالفكرة الرئيسية التي سيطرت على هذه الجماعات وعلى الحكومات والهيئات الرسمية انما كانت الحصول على المال والاثراء السريع . ويرى البعض ان العصر سجّل شيئاً من التأخر في هذا المضمار بالنسبة للعصور السابقة . فمنذ القرن السادس عشر ، قام الاسبان فعلاً بمحاولات ملحوظة ، وجهود مبرورة ومموا منها الى رفع الهنود الحمر في مراتب السلم الاجتماعي . وفي القرن السابع عشر ، لجند الوزير ريشليو وتلميذه كولبير ، لعملية تمدين ابناء البلاد الاصليين ، واسعة النطاق ، ولانشاء فرنسا الجديدة في العالم الجديد . اما في القرن الثامن عشر ، فقد شالت الروح البورجوازية ، واستبدت في النفوس ، روح الكسب والاثراء على غيرها من المشاعر الإنسانية الرفيعة . فلنصغ لما يقوله الكتاب الفلاسفة الذين عبروا احسن تعبير عن احاسيس الطبقة البورجوازية ومشاعرها؛ أمثال مونتسكيو وفولتير والكتاب الموسوعيين خصوم سياسة الاستعمار واعداء الداعين اليه، هذا الاستعمار ، مولد الحروب ، والباعث على الاغتراب والهجرة ، والمضني للمعمرين ، مع انهم كانوا ، من جهة اخرى ، من أشد الداعين الى المزدرعات الاستثمارية ولا سيا الاستوائية منها لانها تمد المستثمرين بالمواد والمحاصيل الزراعية التي هم بأمس الحاجة لها والتي في سبيلها اجازوا الرق واباحوا الاسترقاق ، كما اباحوا طرد العروق والاجناس الوطنية الواقفة حجر عثرة في طريق المستعمرين والحد من حرية العمل عندها ، والقول بمبدأ « الحكر » هذا المبدأ الذي يحصر حق التجارة في المستعمرات بالدولة الأم . ولهذه الاعتبارات، آثرت الدول والحكومات ان تترك حرية العمل والتصرف في هذا المجال للشركات التجارية ذات الامتياز التي تعرف كيف تستثمر ، على الوجه الاكمل ، المرافق التجارية ممثلة بهذه الوكالات التي نثروها على السواحل البحرية ، عبر البحار او في هذه الجزر المعروفة بخصبها ووفرة انتاجها وتنوع محاصيلها ، بدلاً من استثمار التاج نفسه لها ، وبدلاً من تدويخ مساحات شاسعة عبر البحار في حروب لا نهاية لها ولا حد . فالاوروبيون الذين يقبلون على الاغتراب هم على الغالب بحارة وقدامى المحاربين وتجار يفتقرون ، اصلاً ، لثقافة مُعرقة ، عُرفوا بنشاط عارم وجاشت نفوسهم بالاحاسيس العنيفة ، وحب الكسب والرغبة الشديدة في الاثراء السريع بجميع الوسائل الممكنة . ولذا نظر اليهم سكان البلاد الأصليون نظرة ملؤها الرعب والكره وربت فيهم سوء الظن وحملتهم على التحرز من كل اوروبي . اما اقوام آسيا ، ولا سيا من قام منهم في أرجاء آسيا الموسمية والذين عُرف عنهم تمسكهم الشديد بتربة آبائهم وارض آلهتهم واجدادهم ، فقد عاشوا ضمن أُطر ثابتة قوامها هذه الاسر الكبيرة التي تشربت روح النظام وتشبعت من روح الاعتدال واستقرت عندها نُظم داخلية ثابتة ، اصيلة ، فقد نظروا الى الاوروبيين نظرتهم الى برابرة اخشوشنت طباعهم على استعداد للتخلي عن اسمى المثل والعبث باقدس المحرمات في سبيل إشباع جشعهم وتحقيق

اطماعهم الاشعبية . وقد رأى فيهم الصينيون ... « ان هؤلاء البرابرة هم بالاحرى وحوش ضارية » لا تحسن معاملتهم معاملة اناس متمدينين . فمعاملتهم وفقاً لناموس العقل ولمقتضيات الحس بجلبة للخزي والعار . وقد ادرك الملوك قديماً هذه الحقيقة ولم يستعملوا في وجه هؤلاء البرابرة سوى العنف والحيلة . فليس من اسلوب آخر يعتمد عليه في التعامل معهم » .

والاوروبيون الوحيدون الذين تقدموا من ابناء البلاد الاصليين بفكرة تزويدهم بخير ما لديهم واعطائهم فكرة عن العالم والكون اساسها المحبة التي تستطيع وحدها ان تؤمن الناس » في هذا العالم » السعادة » وفي تلك الحياة الابدية ... كانوا المرسلين الكاثوليك . فقد تولى البابا ادارة هذه الارساليات بواسطة مجتمع انتشار الايمان الذي كان بمثابة وزارة الارساليات الكاثوليكية . فكان هذا المجمع » يرسل الى البلدان التي يكرز فيها بالانجيل » قصاداً رسوليين وابناء الرهبانيات الدينية » ولا سيما من بين اليسوعيين والدومنيكيين والفرنسيسكان والكرمليين والاغوسطونيين »وجمعية المرسلين في الخارج » والآباء العازريين . الا ان عددهم كان قليلاً جداً . فلم يتجاوز عدد المرسلين اليسوعيين العاملين في الارساليات الدينية ٣٥٠٠ راهب في العالم كله » واقل من هذا العدد » عدد المرسلين الآخرين . وجمعية المرسلين في الخارج لم يتم لها اكثر من ٥٠ مرسلاً عملوا معاً في بلدان الشرق الاقصى . وقد خسرت هذه الارساليات من فعاليتها وقوة تأثيرها بالنظر لما قام بين المرسلين من اختلاف حاد حول منهجية العمل وطريقة الاسلوب ومن جدل ونقاش ضار حول طريقة الآباء اليسوعيين في حمل الرسالة الدينية (معركة الطقوس) » وهذه المنافسات الحادة التي شجرت بعنف بين هؤلاء الرهبان والمرسلين على اختلاف رهبانياتهم وجنسياتهم » ولا سيا من جراء تكالب الملوك على مناهضة اليسوعيين ومحاربتهم بكل الوسائل لديهم » منذ عام ١٧٥٨ » مما ادى الى الغاء هذه الرهبانية عام ١٧٧٣ » فادى بالتالي الى القضاء تقريباً على كل النشاط الرسولي في العالم . وفي سنة ١٧٨٩ » كان عدد المرسلين العاملين في حقل الرسالات قد هبط الى ٣٠٠ مرسل لا غير وقد خلخل عملهم الديني » تدخل التجار والحكومات التي تدعي المسيحية » ومن جهة اخرى » سوء ظن اسياد البلاد بهؤلاء المرسلين » اذ نظروا اليهم نظرتهم الى جواسيس يعملون عيوناً على البلاد واهلها » بل اعتبروهم طابوراً خامساً يمد العدة ويهيء الاسباب للغزو والفتح مسلح . لهذه الاسباب ولغيرها مما لا مجال لذكره هنا » كان عمل المرسلين في البلاد التي عملوا فيها » اشبه ما يكون مساً سطحياً اكثر منه توغلاً او تغلغلا . والاغرب من هذا كله وادهش ما في الامر هو ان تكون هذه الرسالات سجلت اكثر من ارتدادات فردية » فقد توصلت الى تأسيس مجتمعات مسيحية لها حياتها ونشاطها الزاخر وعوامل بقائها وديمومتها.

الفصل الأول

الاكتشافات الأوروبية في القرن الثامن عشر

في مطلع القرن الثامن عشر كانت مساحات شاسعة في جميع اطراف العالم لا تزال بعد مجهولة مقفلة، منها مثلاً المحيط الهادي والاصقاع القطبية ومجاهل افريقيا والقسم الشمالي والشرقي الشمالي من القارة الآسيوية، والشمال الغربي من القارة الاميركية واجزاء واسعة في اميركا الجنوبية. هنالك شعوب وأقوام وطنيون تعرفوا إلى مساحات واسعة وتوصلوا احياناً الى وضع خرائط ومصورات جغرافية. إلا أن معلوماتهم هذه لم تكن من النوع والشمول بحيث تصبح في متناول كل شخص في كل زمان وفي كل مكان، لافتقارها أساساً لعلامات هادية ومعالم واضحة الحدود ولحاجتها إلى وسائل حسابية دائمة، ولافتقارها لعلم الفلك والرياضيات الفلكية. فقد كانت بالأحرى، مسائل وروتينية تحفظ بالمزاولة والمراس في هذه الاسفار والرحلات تحت اشراف، مرشد مجرّب ودليل محنّك. فالأوروبيون وحدهم كان في مقدورهم، بفضل ما توفر لهم من علماء الفلك وبفضل ما تم لهم من عدة وأدوات، أن يحددوا، بالدقة المطلوبة، الاكتشافات الجغرافية التي حققوها وأن يشيروا إليها بواسطة الاحداثيات الجغرافية وغيرها من وسائل التعيين والتحديد.

كانت الاكتشافات البحرية، حتى عام ١٧٦٣ قليلة العدد، إذ كان الاوروبيون في الغرب منهمكين عنها بالاعمال التجارية. وهذه الحركة الاستكشافية التي لم تتميز على العموم بالنشاط، تناولت الكشف عن مناطق تقع في اليابسة أو في البحر، فالرحلات الرئيسية هي التي قام بها الروس فحملتهم الى اقصى أطراف سيبريا. فقد بلغ القوزاق، في القرن السابع عشر، مشارف المحيط الهادي ولكن كان عليهم أن يأتوا بالدليل القاطع على ان آسيا لم تكن لتتصل فعلاً بأميركا. وقد اخذ القيصر بطرس الاكبر عام ١٧٢٠، بهذه المغامرات الجغرافية وهذه الحركة الاستكشافية، رغبة منه في السيطرة على هذه الاصقاع النائية، ومجاراة الغرب في ميدان الكشف العلمي. فقد حالف الحظ البحّار الدانماركي بهرينغ، في الكشف عن المضيق الذي يحمل اسمه، منذ عام ١٧٢٠، ثم راح يستكشف تباعاً سواحل اميركا الغربية انطلاقاً من قمة جبل سانت ايلي فمشى على الجزر الالوشيانية المنتثرة حباتها كحبات سبحة طويلة، وتوفي في إحدى

جزر بحر بهرينغ الواقعة بين الجزر الالوشيانية وشبه جزيرة كمتشتكا ، سنة ١٧٤١. وتمكن أحد نوابه ومساعديه النشيطين من الكشف عن بحر اوكوتسك ، عام ١٧٣٣ ، كما استكشف أرخبيل الكوريل ، وبلغ مشارف اليابان . أما على اليابسة ، فقد بلغت بعض فرق الجيش حوض مجرى نهر «الإيانا» عام ١٧٣٣ ، كما استكشفوا بواسطة زلاجات تجرها الكلاب، شطآن المتجمد الشمالي، كما قام « لابتيف » بين (١٧٣٦ – ١٧٤٠) وبرونتشيتشف ، عام (١٧٣٥ – ١٧٣٦) بمغامرات بهذا الصدد . واخيراً بلغ تشيليوسكين عام ١٧٤٢ ، الطرف الشمالي لآسيا إذ ادرك الرأس الذي يحمل اليوم اسمه .وقد اثبتت هذه الكشوف الجغرافية المهمة ان القارتين منفصلتان تماماً الواحدة عن الاخرى وأن كل واحدة منهما تخفي ضمن حدودها مناطق شاسعة يتحتم الكشف عنها . وقد بقيت تقارير بهرينغ مدفونة بين المحفوظات الامبراطورية ليس من يفيد منها ولا من ينتفع بما فيها من المعلومات المفصلة حتى اواخر القرن الثامن عشر بعد ان كشف العالم الجغرافي « كوكس » والعالم الطبيعي بلاس عن اهميتها العلمية .

في اميركا الشمالية، استمر أفراد اسرة «لافيراندري» الفرنسية تحت رعاية بوهارنيه حاكم كندا العام وحمايته ، في بحثهم عن الفراء ، ورغبة منهم في الوصول الى « بحر الغرب» ، رأوا أن يكرسوا كل نشاطهم باحثين منقبين محددين المسالك باتجاه الشمال الغربي ، فاستكشفوا في خلال ٢٠ سنة السباسب والسهول الكندية كما ان بيير وفرنسوا لافيراندري بلغا ، في غرة كانون الثاني ١٧٤٣ ، السلسلة المعروفة بالجبال الصخرية .

ووضع الكاهنان الفرنسيان فويه وفريزيه كشوفاً وخرائط لاميركا الجنوبية مفيدة للغاية . وقام بالعمل ذاته المستكشف الاسباني كيروغا في ما يتعلق بالاصقاع النائية الى اقصى الجنوب المعروفة بأواضي ماجيلان .

اما المحيط الهادي ، فقد شاهد حملات استكشافية عديدة ، منها الرحلات البحرية التي قام بها بين ١٧١٤ – ١٧١٨ ، البحار الفرنسي لابارينه لوجنتيل والبحار الالماني الاصل « روغجيفن » من مدينة مكلنبورغ اذ قام في هذا المحيط ، برحلات لحساب البلاد الواطئة ، عام ١٧٢٢ ، استكشف معها جزيرة الفصح ، وجزر بوموتو وساموا ، والرحالة الانكليزي أنسُون (١٧٣٩ – ١٧٤٣) الذي احتجز ، في المياه الاسبانية سفينة عليها مجموعة من الخرائط والمصورات الجغرافية ، فكانت لقطة موفقة للغاية إذ اعتاد الاسبان والبرتغاليون من قبل ، أن يبقوا سراً ويخفوا عن اعين الناس ، سر الاكتشافات البحرية التي وفقوا إليها محافظة منهم على طرق مواصلاتهم التجارية . وقد سهل نشر هذه الوثائق الهامة وإذاعتها على الملأ ، مهمة الاستكشافات الجغرافية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

لم تلبث حركة الاستكشافات الجغرافية التي توقف نشاطها اثناء الحروب التي وقعت في منتصف القرن – ان استأنفت اعمالها العلمية بعد عام ١٧٦٣ . فقد جاب هيرن وماكنزي ،

بطالع شمال كندا – فبلغ الأخير منها ، عام ١٧٨٩ ، دلتا النهر الذي يحمل اسمه في هذه المنطقة . اما الاكتشافات الداوية فهي تلك التي قام بتنظيمها واعداد اسبابها الحكومتان الفرنسية والانكليزية ، في سبيل الوصول الى القارة الاوسترالية (او الجنوبية) التي ما فتىء العلماء ، منذ بطليموس ، يفترضون وجودها مقابل هذه الكشوف القائمة في الشمال . وقد زاد الفضول العلمي بين الناس وحب الاطلاع ، كما ينوه بذلك الكاتب والمؤرخ الفرنسي شارل دي بروس ، في كتابه الموسوم : « تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي الاوسترالية » (١٧٥٦) ، اذ يقول : « يجب الا نعلق اهمية كبرى على الفوائد التي تنجم عن هذه المغامرات ، فهي ستظهر ، ولا شك ، فيما بعد . علينا ان نفكر الآن بالناحية الجغرافية ، وبهذا الفضول العلمي الناجم عن الكشف وما سيضيفه الى العالم المعروف من اراض جديدة ، كانت بالامس مجهولة لدينا ، كما ستمكننا من التعرف على اقوام جديدة » . وقد عمل جون كالندر (*J. Callender*) من جهته على نشر مثل هذه الأفكار ، في انكلترا ، معبراً عن امانيه واماني الجميع بان يؤول هذا النشاط كله فيساعد على نشر المسيحية بين سكان البلاد الأصليين . وقد وضع الملوك ، في هذه القرارات التي اتخذوها ، نصب أعينهم ، شغف الناس بالعلم واقبالهم على حياضه . فقد اوصى الملك لويس السادس عشر ، امراء البحر الفرنسيين ، إذا ما التقى لهم والتقوا بالبحار الانكليزي كوك الذي يحاول مد العالم المعروف ، خلال حرب اميركا ، ان يعاملوه معاملة الند للند ، كصديق ورصيف لهم . ولما كان الهيام بالعلم من الامور التي استحكمت بالعقول واستبدت بالقلوب ، وعُقدت الامال العريضة على اكتشاف اصقاع جديدة ، حرص الحكام على ان يحافظوا كرامتهم ويصون عندهم ماء الوجه . واخيراً ، كم يجب ان تكون وافرة الغنى هذه القارة الجنوبية في نظر الفرنسيين، فيعوضوا بعثورهم عليها ، عن الحيف الذي نزل بهم من جراء خسارتهم الهند ، كما همّ الانكليز ان يحافظوا ، من جهتهم . على السبق الذي حققوه في الميدان التجاري .

وقد اخذوا يُعِدّون الحملات الاستكشافية بمنتهى الدقة وهيئوا لها الاسباب الكفيلة بالنجاح. فبدلاً من التعويل على الاقاويل والروايات المتواترة ، راح قادة الحملات وربابنتها يتزودون بمعلومات دقيقة وضعها لفيف من العلماء المدققين بعد ان لفتوا انظارهم الى العراقيل والصعوبات التي تعترض سبلهم ، وطريقة مواجهة حلها بالتي هي أحسن ، والأهداف التي يجب ان يضعوها نصب أعينهم من هذه المغامرات العلمية . وقد اصطحبوا معهم فريقاً مجرباً ، حنكته التجارب من هؤلاء العلماء ، بينهم علماء الفلك والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي وأمدّوهم بادهى ما استنبطه العلم من عدة وأدوات ووثائق هي غاية في الدقة والضبط. وعند رجوعهم الى اوطانهم كانوا يحرصون على اذاعة ما تم لهم من معلومات جديدة ليفيد منها من يرغب فيها .

اعتمد قباطنة البحار بالأحرى، سفناً صغيرة الحجم سعتها بين ٣٠٠ – ٤٠٠ برميل وذلك تفادياً منهم لأخطار النشوب في الرمل أو الجنوح الى الشواطىء او الغرق . وحرصوا على ان

تكون سفنهم هذه متينة قوية ، أردفوها بعدد من قوارب النجدة ، كما حرصوا من جهة اخرى ، على تأمين أسباب الصحة واختزان مبيدات الحفر ، وموّنوها بالجمة والشوكروت ، وهكذا حاولوا خفض نسبة الوفيات . ففي حملته الثانية التي استمرت ثلاث سنوات ، لم يخسر كوك سوى بحّار واحد ، وبسبب المرض .

واتخذت احتياطات شديدة اثناء الرحلة . فقد كانت البعثة تتألف جهد المستطاع ، من سفينتين تسيران على بعد مدى الصوت ، الواحدة من الاخرى . وكانت تكثر فيها اعمال الرصد الجوي ، كما تكثر عمليات تحديد المواقع وسبر الاغوار على اعماق مختلفة . فعندما تلوح في الافق معالم ارض ما ، مهما دقت او رقت ، كانت السفن تسير الهوينا متمهلة في سيرها الوئيد فتقوم بعض القوارب بعملية استكشاف سواحل الجزيرة البادية للعيان . وكان التحفظ والحيطة القاعدة المتبعة مع أبناء البلاد ، اذ العرف المتبع هو ان تسير السفينة الهوينـاء الى ان يحين الظرف المناسب لمبادرة السكان الوطنيين واستمالتهم عن طريق هدايا صغيرة والتنكب عن كل عنف او شدة في علاقاتهم معهم .

وبفضل هذه التدابير الحكيمة واجراءات الغين لم تقع سوى كارثة واحدة هي التي راح ضحيتها الرحـالة الفرنسي لابيروز الذي قتل عام ١٧٨٥ على يد بدائيي جزيرة فانيكورو .

وفي عام ١٧٦٦ ، ابحرت بعثتان على فارق بسيط الواحدة من الاخرى ، تألفت الاولى وهي انكليزية ، من البحار واليس وكارتريت ، كما تألفت الثانية من البحـار الفرسي بوغانفيل . فلم يتم البحاران الانكليزيان ان افترقا فانفصلا إثر إعصار أهوج عبث بهما إثر اجتيازهما مضيق ماجلان بقليل . فقد اتجه واليس صوب جزيرة بوموتو ، واكتشف عـام ١٧٦٧ ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وغادرها والدموع ملء عينيه ، ومنها بلغ جزيرة سامـوا وارخبيل الاصدقاء ، كما اكتشف جزر الماريان . اما كارتريت ، فقد امر بمحاذاة جزيرة بتكيرن الصغيرة ومنها افضى الى جزيرة سانت كروى ، وعرّج على جزر سلمون واستكشف جزيرة إرلندا الجديدة . واتضح من هذه الرحلات ان جزيرة بريطانيا الجديدة انمـا تتألف مـن جزيرتين . اما نتائج هاتين الرحلتين فلم يحدُ من التوفيق الذي صادفها سوى عـدم كفاءة الإعداد الذي رافقها . وقد اضيفت بواسطتها اسماء جديدة على خريطة المحيط الهادي . اما بوغانفيل ، فقد انطلق وبصحبته احد علماء الفلك ، وآخر من علماء الطبيعة وتحت تصرفه عدد من الساعات الدقيقة التي تقيس الثواني . ففي عام ١٧٦٨ ، حدد موقع جزيرة بوموتو ، واستكشف ، هو الآخر ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وسماها سيتير الجديدة . واستكشف جزر ساموا وجزر السيكلاد الكبرى التي اطلق عليها كوك ، فيما بعد اسم هبريد الجديدة ، وجزيرة لويزياد وغينيه الجديدة ، وعاد عن طريق جاوا وجزيرة فرنسا . فكانت رحلته هذه اول رحلة جاءت غاية في الدقة العلمية جرى فيها تحديد خطوط الطول . وفي سنة ١٧٧١ ،

نشر بوغانفيل رحلته بعنوان : « رحلة حول العالم» لتبت عند ظهورها رواجاً جنونياً اوحت اموراً لنيدرو وهردر .

ولكن هؤلاء البحارة الذين سيطرت عليهم فكرة المستعمرات الحارة التي تؤلف مجالاً تجاريا هاماً ، اتجهوا ،بعد ان داروا حول اميركا الجنوبية نحو الشمال الغربي ،الى ما وراء خط الجدي، ثم داروا فجأة باتجاه الغرب ، محتفظين بمحل نشاطهم للشمال . وقد جاءت رحلاتهم هذه بفوائد جمة الا انها تركت دون حل ، مشكلة كبيرة استأثرت بافكار الناس ووساوسهم . هل يوجد ياترى قارة اوسترالية جنوبية ؟ وهـــذه الارض التي اكتشفها تسمان ، في القرن السابع عشر (زيلاندا الجديدة) أم تكن هي نفسها هولندا الجديدة ؟ (ساحل اوستراليا الغربي) وهـــذه الاخيرة هل هي سلباً ام ايجابا ، غينية الجديدة . كل هذه الأسئلة كان على الرحـالة الانكليزي كوك ان يجيب عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

قررت الاميرالية البريطانية ان توفد الى جزيرة تاهيتي ، بعض علماء الفلك ليقوموا عليهـا ، عام ١٧٦٩ ، بأرصاد جوية ترمي الى درس وقوع اقتران الزهرة والشمس ، بغية تحديد المسافة بين الزهرة والارض . واختارت الاميرالية قائداً الحملة جيمس كوك ، وهو اختيـــار في محله صادف ترحيباً حاراً . فقـــد كان كوك بحـــاراً بدمه . ولد عـــام ١٧٢٩ من آب كان يعمل خادماً على الحراث ومن أم هي ابنة احد المزارعين . عمل في صباه صانعاً متمرناً في مدينة صغيرة تقع على الساحل . مال للحياة البحرية منذ صغره فتطوع بحاراً متمرنا على احدى السفن العاملة في شحن الفحم ، وفي سنة ١٧٥٥ ، عـمل نوتياً في البحرية الملكية ولمع اسمه في حمـلة استكشاف لمصب نهر سان لوران ، أتاحت للاسطول البريطاني التصعيد في النهـــر المذكور واحتلال مدينة كوبيك . ولذا عهدت اليه في السنوات الأربع التالية مهمة استكشاف سواحل كاندا (ايكوسيا الجديدة) وجزيرة الارض الجديدة ، وشبه جزيرة لابرادور . ووضع لهـــذه الأماكن والمواقع خريطة امتازت بالدقة بقيت عماد الخرائط التي وضعت فيما بعد لهذه المناطق. وهكذا فقد كانت تمت له الدربة الكافية لرسم الخرائط الجغرافية والمائيـة ، كما تمرس بالارصاد الفلكية واجادها . وقد عرف بانطوائه على نفسه وبقلة مخالطته البحارة ، كما انه امتـاز بمناقب عديدة جعلت منه بحاراً ممتازاً وأولته قدرة ظاهرة على التنظيم ، كما عُرف بروحـــه الانسانية السمحاء وبحدبه على البحارة والاهتمام بذويهم وتأمين أسباب الصحة والرفاهية لهم . ولذا فقـد كان في مكنته ان يعوّل عليهم وان يطلب منهم الكثير .

عهدت إليه عـام ١٧٦٨ ، مهمة البحث عن القارة الاوسترالية حتى الدرجة ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وان يقوم ببحث دقيق بهذا الصدد ، فان لم ينجح ، عليه الاستيثاق من المنطقة الواقعة الى الشرق من زيلاندا الجديدة ، فراح يستعد لرحلتـه هذه ويهيء لها اسباب النجاح ، وفي هذا السبيل اخذ يجمع المعلومات التي لوفرها له الرحلات البحرية السالفة . فقد كان يعرف تماماً خريطة المحيط الهادي العامة التي تم رسمها عام ١٧٥٦ والتي اشار فيها روبرت دي فوغوندي

الى موقع مضيق توريس الذي أهمل امره منذ عام ١٦٠٧ وهو موقع جغرافي اشارت إليه ونوهت به الخرائط السرية الاسبانية . ولم يكن ليجهل بالطبع في هذا المضيق التخطيط المفترض وجوده في الخريطة المنسوب وضعها الى «دالرمبل» والذي عرف بوجوده عند استيلائه عام ١٧٦٢ على مدينة مانيلا هذه الخريطة التي لم يشأ ان ينشرها كاملة . فقد رفض سفينة حربية واختار له مركباً من ناقلات الفحم هو الاندفر ، وهو مركب بطيء الحركة ، إنما قوي متين يتسع لوسق وافر ويتحمل رحلة طويلة شاقة . واصطحب معه العالم الفلكي غرين والعالم النباتي الاسوجي الاصل سولاندر ، والعالم الطبيعي بنكس . انطلق عام ١٧٦٨ وقام بمهمته العلمية الفلكية في تاهيتي (نيسان حزيران ١٧٦٩) ثم اتجه غرباً صوب خط العرض ٤٠ دون ان يعثر على القارة الاوسترالية لاسباب لها ما يبررها . ودخل في السابع من تشرين الاول ١٧٦٩ الى ساحل زيلاندا الجديدة الشمالي ، ثم قام بحركة التفاف كاملة ولاحظ ان هذه الارض تتألف من جزيرتين يفصل بينهما مضيق يعرف بهذا الاسم ، ووضع خريطة مفصلة لهذه السواحل ، ثم اتجه فيما بعد، الى جزيرة هولندا الجديدة ، ووصل الى الساحل الشرقي وقام بعملية استكشاف دقيقة امتدت من رأس إيفرارد إلى رأس يورك ، اتسمت ١٦٠٠ميلا ، دعاها مقاطعة غال الجديدة الجنوبية ، ونزل الى البر في ٢٨ نيسان ١٧٧٠ على صعيد مرتفع ملتف الاشجار كثير العشب ، شجع بنكس على تسميته : خليج بوتني . وهكذا تمت له احسن صورة للمكان الذي ارتفعت فيه ، فيما بعد مدينة سدني ، ثم جاء باتافيا عن طريق مضيق توريس ، فاستكشفه من جديد بصورة ادق . وفي عام ١٧٧١ عاد الى اوروبا حيث كان لرحلته وقع كبير .

وقد سلّم بأن القارة الاوسترالية قد تقع الى الشمال او الى الجنوب من الطريق التي سلكها. وعاد اللورد سندويتش ، لورد الاميرالية ، فأرسل كوك في رحلة ثانية فانطلق يوم ١٣ تموز ١٧٧٢ ، فبلغ جون الملكة شارلوت في زيلاندا الجديدة . ومن هذه النقطة كان بامكانه ان يقوم بحركات استكشافية الى الشمال او الى الجنوب ، ليعود اليها عندما يشاء ، ليتيح لبحارته بعض الراحة والاستجمام من وعثاء الاسفار والرحلات التي يقومون بها متعرضين تارة لزمهرير البرد القارس في المياه القطبية ، وطوراً لحارة القيظ اللاهب في المناطق الاستوائية . فتحرى كل زاوية من المحيط وقطع في ٢٨ شهراً ٨٠ الف كيلومتر في المحيط الهادي ، واعترضت سيره جبال الجليد الطافية عند الدرجة ٧٠ والدقيقة ١٠ من خط العرض الجنوبي ، في كانون الثاني ١٧٧٤ ، وبلغ في الشمال ، جزيرة تاهيتي وجزر الماركيز وجزر الهبريد الجديدة، واستكشف كاليدونيا الجديدة وجزيرة نورفولك ، واثبت ، بقوة احتمال غريبة وبالدليل القاطع انه ليس من قارة جنوبية .

عهد اليه بمهمة ثالثة البحث عن ممر مائي يصل المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي عبر الدائرة القطبية وهو الممر المعروف بالممر الشمالي الغربي . فشمر عن ساعده ليقوم برحلة ثالثة عام ١٧٧٦ ، فاكتشف عام ١٧٧٨ ، ارخبيل سندويتش (هاواي) واستكشف بحر بهرينغ والمضيق المعروف

بهذا الاسم ، وصرف النظر عن الممر الشمالي الغربي الذي لم يصبح تحقيقه ممكناً ، انما بصورة كلية ، بعد ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فيه في السنوات الاخيرة . وهذا البحار الذي كان دوماً مثالا يحتذى من اللطف والايناس ولين الجانب مع ابناء البلاد الاصليين وجد حتفه وميتته المفجعة في اصطدام دام مع سكان جزيرة سندويتش عام ١٧٧٩ .

فقد خلف كوك خرائط تثير الاعجاب لما اتصفت به من دقة لا تختلف عنها الخرائط الفرنسية ولم تكن بحاجة قط الا لبعض إضافات طفيفة .

فقد كان من نصيب الرحالة الفرنسي لابيروز ان يقوم بهذه المهمة . سافر بأمر الملك لويس السادس عشر ، فغادر مرفأ بريست عام ١٧٨٥ وبصحبته كوكبة من العلماء البارزين . فأثبت عام ١٧٨٦ انه ليس من ارض مهمة تقع الى الشرق من ارخبيل بوموتو وجزر الماركيز وصحح موقع ارخبيل سندويتش لجهة خطوط الطول. ثم وضع رسماً دقيقاً لسواحل اميركا بين الدرجة ٦٠ والدرجة ٣٧ من خط العرض الشمالي ابتداء من جبل سانت ايلي حتى مونتيريز في الجنوب ، راسماً الخرائط ودارساً النباتات البحرية والقارية . وفي تشرين الثاني اخـذ له بعض الراحة في ماكاو ، ثم اتجه عام ١٧٨٧ ليستكشف سواحل المحيط الهادي الشمالية الغربية ، التي فات كوك استكشافها ، ووضع خريطة لسواحل منشوريا وأثبت ان سخالين هي جزيرة (آب ١٧٨٨) ومن هناك اخذ باجتياز المحيط من الشمال الى الجنوب بين ابعد نقطتين بلغهما واليس الى الغرب ، وكوك الى الشرق ، ووصل الى اوستراليـا ، وصادف في كانون الثاني ١٧٨٩ ، في خليج بوتني عمارة انكليزية . ومنذ ذلك الحين انقطعت اخباره . فقد عُثر على بعض حطام سفنه ، عـام ١٨٣٧ ، على مقربة من جزيرة فانيكورو .

وهكذا وُضعت الخطوط الكبرى لخريطة المحيط الهادي، كما قضي تماماً على اسطورة القارة الجنوبية الكبرى ، وظهر ان القسم الجنوبي من كرتنـا الارضية يتكون من مياه المحيطات واتضح ان مياه البحر تغطي ثلثي مساحة كرتنا الارضية ، كما ان الأرض الـتي اكتشفت في الاوقيانوس الهـادي وسعت بصورة مدهشة معلوماتنـا عن الجنس البشري في مختلف مستوياته الحضارية .

الفصل الثاني

اوقيـــانيـا

آمن الاوروبيون بوحدة الجنس البشري الروحية وبسمو الحالة الطبيعية التي وُجد فيهـــا ، فازدادوا اهتماماً باقوام اوقيانيا البدائيين. وراح بوغانفيل وكوك يدرسانهم عن كثب ويراقبان سلوكهم وتصرفاتهم بكل عناية . فالأخوان فوستر اللذان ساهما في الرحلة الثالثة التي قام بهـــا كوك ، وضعا مع العالم الفرنسي بوفون اصول علم الانواع البشرية وتصنيفها، اي علم الاثنولوجيا أو علم السـلالات البشرية .

ظن الاوروبيون لأول وهلة انهم أمام عروق بدائية تعود طبائعهـا الى بدء البشرية بعد أن وجدوا ان كل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد عند طبائع العصر الحجري ، وان مـا لديهم من عدة وادوات هو اقرب الى ما عرفه الانسـان منها في عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن الامر يتعلق فعلاً بالبدائيين أكثر منه باقوام خضعت طويلاً لعوامل التطور والارتقاء عرف بعضها نوعاً من الحضارات العليا ، فكانوا في مرحلة التقهقر والارتكاس عند وصول الاوروبيين اليهم .

والظاهر ان كل هـــذه الاقوام تعود اصولها الاولى الى العروق البشرية في آسيا الجنوبية ، غُلبَت على أمرها فجلَت عن اوطانها مترسمة سير قواطع الطير في هجراتها الموسمية حتى اذا ما حطت رحالها في بعض الاصقاع المحدودة الانتاج والضيقة المحاصيل لانعزالهـا باكراً عن الاقطار المأهولة في القارات الاخرى، افتقرت في حياتها المعاشية ونظام غذائها للخضروات والثدييات[1]، كما ان ضيق الرقعة التي هبطوا فيها جعلتهم وجهاً لوجه أمام صعوبات كـــأداء نجم معظمها عن تضخم عدد السـكان وندرة المواد الغذائية . فاشتبكت هذه الاقوام فيما بينها في حروب موصولة محاولة ايجاد حل لمشكلاتها الحادة : في الاجهـــاض ووأد الاولاد أو قتلهم ، وفي أكل بعضهم البعض بعد أن عضهم الجوع . والى مثل هذا الوضع كلها انتهوا عندما أطل عليهم الاوروبيون من بعيد. وقد ارتعدت فرائص المستعمرين من احتمال ازدياد عدد السكان وتضخمه ، فراحوا بلء اختيارهم يعملون على الحد من المواليد عندهم . فليس بغريب الا تتطور حضارتهم عكسيا رأن

---

(١) ـ لم يعرفوا في مواطنهم الجديدة هذه غير الخلد والاربوسوم والخفافيش

لعود التهجري . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هذا النكوص والتهجر والعوامل المؤثرة الاخرى كالتهجين ، صح القول ان اوقيانيا انما هي « متحف العروق البشرية » .

والاقوام الوحيدة التي يمكن وصفها بحق بانها اقوام بدائية هي اقوام التسمانيين والاوستراليين الذين كانـوا في اسفـل دركات الجنس البشري وأحطها على الاطلاق .

كان التسمانيون في الدرك الاسفل بين الجنس البشري . فبعد أن استقر هؤلاء القوم في جزيرتهم في عهد كان اجتياز مضيق باس " يهون على اصغر بحار وأقلهم خبرة أو دربة بالاسفار ، اي مـا يزالون في الطور الاوسط من الدور البليستوسيني ، قبل ذوبان الجليد الذي أدى الى الارتفاع منسوب مياه الحيدات وجعل عرض المضيق المذكور خمسة اضعافه ، فقد عاشوا في شبه عزلة تامة جعلت حضارتهم تأسن فتضمر فتجف فتموت . فقد عثر العلماء فيها على نحو ٥٠٠٠ من العرق شبه الزنجي شعرهم مفلفل والحنك ضخم نافر والجمجمة مفلطحة هاربة والحواجب شديدة التقوس ، ألفوا اقرب حلقات الانسان السفلى الى القردة . وقد اتخذ القحف شكل اسفل السفينة فاصبح هذا الشكل من أهم الخصائص القردية المميزة . امـا الادوات التي كانت تحت تصرفهم فقد جعلتهم في مصاف أدنى دركات انسان العصر الحجري القديم في غربي اوروبا . فقد جهلوا اللباس وأنكروا الاقامة والسكنى في المنازل ، وتفيـأوا الشجر العريض الورق واعتاشوا من بعض النباتات وعلى ما تصل اليه ايديهم من قنص وصيـد دون الاستعانة بكلب صيد . اما نظامهم الاجتماعي فبدائي للغاية يوالون زعماء آنيين يختارونهم لامد معين . قالوا ببقاء النفس بعد الموت ورهبوا جانب الموتى ، وبدت عليهم معالم ديانة عرفت بعض التسامي يُشتم منها القول بالتوحيد ، وعبدوا الهاً أعلى غاصت علاقاته بالسماء والظواهر الطبيعية وَبهُمت . فزال كل اثر لهم ، في القرن الماضي .

وعلى دركة أعلى قليلاً نجد بين الاوستراليين اقوامـاً كانوا بمستوى الطور المعروف بطور *Moustier* في العصر الحجري القديم في اوروبا ، وهم عرق مزيج من عناصر على شيء من المحاكاة بشبه الاوروبي وشبه الزنجي ، من بشرة سمراء يكسوهـا شعر كث كثيف وحواجب مقوسة ، وجبين هـارب الى الوراء ، ونتوء الحنكين ، والشفاه الغليظة ، والانف الافطس الضخم . لهم دماغ ادنى وزناً بكثير وأقل تلافيف من دماغ رجل العرق الابيض .

ومع ان لباسهم مختصر فقد عرفوا كيف يبنون لهم اكواخاً من الاغصان والحشائش كما توصلوا الى استنباط النار بالاحتكاك السريع الشديد بواسطة مثقب في لوح خشب ، اسلحتهم من الحجارة المشظاة ، بينها البونيان حجر المرْو بشكل جُماع الكف المضمومة . وبينها الرمح من العصر الحجري الحديث ، والمزراق و الـ *Boomerang* المشهور الا انهم جهلوا تمامـاً استعمال القوس والنشاب كما جهلوا صناعة الفخار . اما غذاؤهم فقد تكوّن من الخضروات وبعض الصيد والبزاق والحلزون الذي يعيش في المياه الحلوة ، والديدان والجرذون والطير والكنغورو وغيره من ذوات الاكياس مثل *Oppossum* وبعض انواع النعامة ، وقدرة على اللحاق بالكنغورو النفور ، يعدون

وراءه بالسرعة التي يعدو بها . وكانت لهم حاسة شم شديدة بحيث يتبينون معالم الطريدة من استرواح رائحة التراب .

أما وضعهم الاجتماعي فكان على بدائية من التنظيم ، اذ كان للقبيلة زعماؤها الدائمـــون هم الشيوخ فيها ، وقد اعتمدوا التزاوج من الاباعد ، لكل قبيلة مجالها الحيوي وهويتميز عن مجال القبائل الاخرى . وهكذا يكاد المرء يرى بينهم شيئاً من معالم الحق الدولي .

أما عقائدهم الدينية فقد كانت على شيء من التطور . فالاعتقاد ببقاء الارواح كان عامـــاً . واعتقدوا بأن في مكنة نفوس الموتى ان تتجسد من جديد . وقد أثار مرأى هؤلاء الاوروبيين الخارجين اليهم من عرض البحار باجسامهم البضة وعيونهم البراقة بفضل مـا هم عليه من تطور جهازهم العصبي ، الهلع في نفوسهم فنظروا اليهم نظرهم الى اشباح أو خيـــالات . وقد ألفوا اكرام الموتى باقامة سلسلة من الطقوس الدينية تخليداً لذكراهم ، حتى ان بعض هذه القبائل كانت تحرص على أكل اجسام الموتى احتفاظاً منها لما فيها من مبدأ الحيـــاة . وكانت لهم محرماتهم الطوطمية التي تمثل الخير المشترك يحتفلون بذكرها بطقوس فيها الكثير من مظـــاهر التعزيم والسحر . وقد قال بعضهم بوجود إله خالد استحق الخلود في السماء بعد ان عاش على الأرض ، وباستطاعة المطلعين منهم على الاسرار ، الالتحاق به والانضمام اليه بعد الوفـاة . وكانت هذه الاقوام متمكنة من أمور السحر ، ضالعة باسراره . ولكي يرقى الفتيان الى درجة الرجـــال ويصبحوا بالتالي صالحين للزواج ولممارسة بعض الوظائف الاجتماعية العليـا ، عليهم ان يخضعوا لفترة من التلقين المعقد يضم في جملة ما يضمه من امتحان ، قلع احد الاسنان القواطع من الفـك الاعلى ، واقتبال الختـــان وتقديم بعض الرسوم وبعض الاقاصيص الخرافية التي لم تكن المرأة لتخضع لها .

اما الاقوام الأخرى فكانت على مستويات ارفع قليـلاً كما يظهر . فباستثناء اقوام البابوس الذين تميزوا بأنف أقنى ، محدودب كالمنقار يحمل منهم بحق عرقـاً اصيلاً لوحدهم ، يبدو من دراسة اللهجات التي كانوا يتكلمونها ومن بعض العادات والاعراف الحسية التي كانوا عليها ، كهذه الزوارق المتخذة من جذوع الشجر المجوفة المجهزة بهزاز ان هؤلاء الاقوام ، شاركوا ، بالرغم مما بينهم من مفارقات جسيمة ملحوظة ، بحضارة اوقيانية واحدة كما انهم يعودون جميعاً الى محتد واحد . والراجح انهم خرجوا كلهم من ماليزيا وانساحوا الى الشرق ، في ارجاء المحيط الهادي ، وقد يكون بعضها بلغ مشارف اميركا ، كما امّ بعضهم مطـــارح الى الغرب من كمبوديا ، والى سيلان ومدغشقر (كالهوفاس) على سواحل افريقيا الشرقية . فقد تكون هجرتهـم وقعت بين القرنين الثاني والخامس للميلاد ، حتى بلغت موجة الاغتراب هذه مدها الاكبر بين ٩٠٠ - ١٣٥٠ للميلاد ، ثم خفّت بينهم النزعة وضعف عندهم الميل الى الارتحال عبر البحار .

اما الميلانيزيون[١] فقـد كانوا على وضع حضاري يذكرنا باوضاع العصر الحجري الحديث

---

(١) - في جزر بسمارك وسلمون ولويزياد وسنت كروز ، وهبريد الجديدة وكاليدونيا الجديدة ولوياتي وفيجي وغينيا الجديدة .

المتطور . فقد كانوا أكثر تطوراً جسمانياً : قليلي الشعر في الوجه ، مستقيمي الانف ، قلما تقوست حواجبهم، وكانوا اكثر تفنناً في حليهم وزينتهم . نساؤهم مكثرات من الوشم، على شوه في الرأس وفي البنية ، تلوين الشعر أو صبغه بالمغر، وعقود واساور من الاسنان أو من الاصداف، وريش وزهور في الشعر .

كانت ادواتهم المنزليــة على شيء من العناية والاتقان : فؤوسهم من الحجر المصقول ، وسكاكينهم من الصدف، ومبارد من خراشف السمك ومخارز من الذهب وغير ذلك من الاسلحة المختلفة ، بينها القوس والمقلاع . فقد كانوا رجال بحر مجربين ، حذقوا صنع القوارب الكبيرة وفن قيادتها كما كانوا مزارعين ماهرين ، يمزقون التربة بعصاً واحدة ويزرعون البطاطا الصينية والتارو . عرفوا ضرباً من العملة او النقد المتخذ من الارياش والاسنان يتكالبون على الربح كما عرف بعضهم ان يجمع ثروات عن طريق الدَّيْن بفائدة مائة بالمائة .

اما مجتمعهم فمجتمع اساسه الأم . فالخـــال هو القيم على ابن الاخت . والرجال يأكلون وينامون في باحة البلدة ، يعيش الجنسان الرجل والمرأة في شبه انفصال، والزواج يتم بالشراء، كما ان الأغنياء منهم مارسوا تعدد الزوجات .

اما وضعهم السياسي فكان على شيء من الديموقراطية ، تلعب فيه الجمعيـــات السرية دوراً بارزاً ، وللاغنياء بينهم شأن بارز لقدرتهم على البذل بسخاء واقامة الحفلات وبلوغ المراكز العليا . فكانت هذه الجمعيات السرية تزرع الهلع في قلوب من لم يدخل في عضويتها، فيرزح تحت الضرب والغرامات الفادحة حتى الموت .

اما اعتقاداتهم الدينية فقد كانت متأصلة إلا انها في مستوى ادنى مما كان عليه الاقوام الذين انبنا على ذكرهم والتي كانت ادنى مستوى حضارياً. فقد اعتقدوا بالمانا ، هذه القضية او السجية الفائقة الطبيعة ، المتوارثة . فالصياد لا يكون ماهراً إلا اذا تمت له المانا . وشرط النجاح في الحياة ان تتم للمرء المانا . وباستطاعة السحر والسحَرة ان يؤمّنوها لمن يرغب فيهـــا . وبعض مظاهر هذه المانا لا تخلو من الخطر على صاحبها ، واذ ذاك يتدخل التابو المحرم ، يستنزلونه على الاشخاص والاشياء والاماكن التي يسكنها المانا او يقيم فيهـــا . فقد آمنوا بوجود الارواح في الحيوانات والحجارة والاشجار والافـــاعي ، انما لم يشركوا بالله الأعلى ، كما لم يقولوا بتعدد الآلهة ، وآمنوا بحياة النفوس بعد الموت . يقومون بصلوات طقسية ويقدمون القرابين والذبائح وينشدون الاناشيد المسجعة المقفاة وينقشون في الخشب صورة الجد الأول الذي يحيى في شخص بنيه وذراريه .

اما الميكرونيزيون[1] فقد كانوا شديدي الشبه بالميلانيزيين ، انمـا على شيء ارفع فقد كانوا بحارة ماهرين . وقام التجار منهم باسفار طويلة على قوارب مجهزة بهزاز ، مستخدمين في هذا

---

(١) ـ جزر الماريان وبالاو والكارولين ومارشال وجلبرت .

السبل خرائط صنعت من قضبان البمبو او الخيزران . قام بينهم طبقة من الاشراف واخرى من الارقاء . وكان زعماؤهم يحزلون العطاء البحارة الذين يتميزون بالخبرة وطول الباع . وكان بعض سكان هذه الجزر عرفوا خلال ادوار التطور التي مروا بها الشرك . وقالوا بعدة آلهة على رأسهم كبير الآلهة .

وفي قمة السلم الاجتماعي قام البولينيزيون[1] هذا الفرع الثاني من اشباه الاوروبيين ، بينهم عناصر من اشباه الزنوج واشباه المغل ، فارعي القامة ، مع ملامح اوروبية وأنف مستدق ، شعر املس ناعم واللون حنطي. اما السمع فأرقّ مما عليه الاوروبيون،بينا حاستا الشم والذوق عندهم تختلفان .

وهم بحارة لا يجارون يستطيعون ان يجوبوا مساحات شاسعة يبلغ مداها ٢٥٠٠ كيلومتر دون ان يرسوا في مكان . وكان في مقدورهم ان يحددوا مواقعهم او نقطة وجودهم في عرض المحيط بواسطة القرع المثقوب . وعرف سكان ساموا وتنغا قوارب مزدوجة يبلغ طولها ٣٠ متراً تستطيع نقل ١٤٠ راكبا . ولكل جزيرة عمارتها الخاصة من القوارب . وقد احصى كوك ٣٣٠ قارباً في تاهيتي وحدها بعد ان قدّر سكانها بـ ٢٠٠٬٠٠٠ نسمة .

اما ادواتهم فكانت من ادوات العصر الحجري المصقول وبعض هذه الادوات قيد الاستعمال لدى اقوام الماوريس في زيلاندا الجديدة ، بدت وكأنها من المعدن . والذين يبدو لنا ان جدودهم عرفوا المعدن وصناعة الفخار . ومهما يكن ، فقد أصبحت هذه الفنون نسياً منسياً لدى البولينيزيين عند قدوم الاوروبيين اليهم . ومن الثابت ان ادواتهم هذه انما كانت من جنس ارفع واحسن مما كانت عليه في القرن الثامن عشر .

اما ملابسهم فقد اتخذوها من الكتان في زيلاندا الجديدة . وانقطع السكان في الجزر الحارة عن صناعة النسيج التي عرفها اسلافهم ليتخذوا بديلاً عنها صناعة لحاء الشجر يصنعون منه الفساتين المزركشة والكشاكش والمثلثات والمربعات . تزينوا بالريش الهاج والاوراق الرحبة الشكل ، كما اتقنوا ، الى حد بعيد ، صناعة الوشم .

اما منازلهم فقد قامت ،في الغالب على،مصاطب من الحجر فُرشت أرضيتها بالحصر وتتاوح طول بعضها ، في جزر الماركيز ، بين ٢٠ و ١٠٠ متر ، ووجدوا بين مفروشاتها كلة لصد الناموس وابعاده . وشيّد الماوريس قلاعاً اتسع بعضها لبضعة آلاف أحاطوها بالخنادق والدرابزونات والشرفات المرتفعة الصالحة للدفاع .

وقد بلغ من تطور هؤلاء الأقوام ان قام فيا بينهم ، اسرات ضمت الواحدة بضع مئات بين افرادها ، كانت تشبه الى حد بعيد ما عرفه الرومان من امر « الرَبْع » (Gens) او

---

(١) – موطنهم جزر ساموا والماركيز وتواموتو وتنغا وتوبواي وفيجي وزيلاندا الجديدة وهاواي .

الـ Genos عند الإغريق . وقد انقسم المجتمع عندهم الى طبقات مسلسلة: الملك والنبلاء والاحرار والارقاء . وكان الملوك عندهم يتوارثون الحكم أبا عن جد وخلفاً لسلف ، عملاً بسنّة البكورة، والملك عندهم يمثل الألوهية ، وكان بالتالي مكرّساً ومقدّساً لا يُمس . اما النبلاء فكانوا اصحاب اخاذات وإقطاعات، يسيطرون على المجالس والندوات ومناقشاتها ، فهم يملكون كل الاراضي. فكانت عظامهم بعد الوفاة توضع في اماكن مكرسة ، اذ كانوا يتمتعون وحدهم بالحياة بعد الموت . وكانوا يختارون لهم زعماء محليين او إقليميين يتخذون القرارات المشتركة وهي قرارات كثيراً ما كانت عرضة للاستبدال والتحوير ، اذا ما جاءت جائرة او منافية للصواب . والرجال الاحرار بينهم كانوا يخضعون للرسوم المفروضة كما كانوا عرضة للسخرة .

اما عقائدهم الدينية فقد حوت عناصر براهمانية وربما ايضاً فارسية وبابلية فقد آمن الماوريس مثلاً ، باله سام ، خالد ، كلي القدرة ، عادل ، مسكنه السماء الثانية عشرة . وكانت هذه العقيدة على درجة عالية من السرية والتقديس بحيث ان سواد الماوريس كانوا يفارقون هذه الحياة دون ان يدروا او يشعروا بوجود مثل هذا الايمان فيما بينهم . كذلك قام بينهم مجموعة من آلهة السماء ، وأخرى آلهة محليين مأواها ومهبطها الغابات وتتمثل في الحصاد والحرب والبحر والشر ، حولها هالة من الأساطير الميثولوجية تفسر هـذا الكون . كذلك عدوا طائفة من الارواح تغلغلت في المظاهر الطبيعية كما عرفوا عادة تكريم الآباء والجدود . والطبقة الكهنوتية ، التي كان اعضاؤها ينتقون من بين النبـلاء ، كانت تحرص جداً على احترام أساطيرهم الدينية وصيانتها ، كما كانوا يقومون بالطقوس الدينية التي كان من بينها الذبائح البشرية . وقـد كانت جزيرة خياطيا المركز الرئيسي الذي كانت تجري فيه التقادم المشتركة بين سكان بولينيزيا . كذلك شاع السحر بينهم والجوسية . وافسحت العقائد الدينية المجال لظهور شعر ديني طريف جزل – وفن النقش الذي بلغ منزلة عارمة ، وان لم يكن له ، في الغالب ، سوى قيمة ترفيهية .

اما الحروب فلم ينقطع حبلها بين هـذه الأقوام ، فكثيراً ما ادت الى احراق الزرع والضرع ، ويقوم الغالبون بافتراس المغلوبين على امرهم فيأكلونهم على ان يحتفظوا بقلب الاضاحي الزعماء .

ان اعتقاد جانب كبير من هؤلاء الأقوام باله اعلى ، سام ، يختلف كثيراً عن كبير آلهـة المشركين يجيز لنا ان نتساءل ما اذا كنا هنا ، امام اثر من آثار الوحي البدائي الذي صار الى هذا التحول او الانحطاط الديني الذي تروي لنـا التوراة قصته ، او اننا امام ما تبقى من وضع سام توصلوا اليه بعد تطور طبيعي ، طويل النفَس ، انطلاقاً من القول بوجود الارواح في الطبيعة ، قبـل ان يعتري هذه الاقوام موجة من الركود والتقهقر .

فقد حافظ الاوروبيون على علاقاتهم السلمية في القرن الثامن عشر تجاه هـذه الاقطار المثيرة

التي لم يجدوا فيها ما كانوا يتوقعونه عنـــد هبوطهم اليها . ففي سنة ١٧٧٢ ، استولى القبطان كروزيه ، على زيلاندا الجديدة ، بعد ان دعاها باسم « فرنسا الاوسترالية » . الا انه لم يقم فيها اي مشروع استثماري . ولعل اول مشروع من هذا النوع هو المشروع الذي نهض به الانكليز في اوستراليا . ومنـذ سنة ١٧٧٦ ، حالت حرب الاستقلال الاميركية دون استمرار الانكليز ارسال المجرمين المحكوم عليهم بالسجن الى فرجينيا . وفي سنة ١٧٨٦ ، قرر الحاكم الانكليزي ، إنشاء مستعمرة إصلاحية في خليج بتني . وعلى الاثر وصـل القبطان فيليب بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٧٨٨ ، ينقل في عمارته ٧١٧ من المساجين ، بينهم ١٨٨ امرأة بحراسة ١٩١ من جنـود البحرية و ١٨ ضابطاً ، ومعهم ثور و ٥ بقرات وكبش و ٢٩ نعجة ، فكانوا اول من رحل من الاوروبيين الى هذه المنطقة ، فألفوا بذلك النواة المتواضعة للشعب الاوسترالي .

وراح الاوقيانيون القهقرى واخذوا سريعـــاً بالاضمحلال تدريجياً في القرن التالي ، إثر اتصالهم بالاوروبيين .

فهل كان من القدر المحتوم ان يكون لهم مثل هذا المصير ؟ فالجواب على هذا السؤال ليس من اليسير . فقد رأينا اقوام الصيادين والقناصين والقطافين هنا ، كما في اميركا ، وفي اي محـل آخر اتصلوا معه بحضارات اسمى وأرقى تقنيا من التي عرفوها ، اخذ عددهم بالتناقص تدريجيا ، كما تخلخلت اعرافهم وعاداتهم دون ان يقتبسوا لهم حضارة أرفع . ووقع لهم ذات الشيء عنـد اتصالهم بالصينيين والاوروبيين ومع ذلك فقد دل هؤلاء الاقوام عن قوة ملاحظة غريبة وقوة تفكير بارزتين حتى في هذه الموضوعات والافكار التي تبدو لهم غريبة . فقد ظنوا مثـــلاً ان العلاقات الجنسية لم تكن للسبب وحدها الحمل ، بل ان مجرد مرور الزوجة بالقرب من كهف معين او من شجرة موصوفة تسكنها ارواح الجدود ينتقل في الحال اليها احـــد هذه الارواح وتتجسد فيها . وهـذا الاعتقاد المغلوط نتج عن تفكير سليم . لا تكاد الفتاة الاوسترالية تبلغ حتى تتزوج . وكان للرجـال عادة عدة زوجات ونساء . وقد رأوا على ضوء اختباراتهم الحسية الطويلة ان العلاقات الجنسية التي كانوا يقيمونها مع نسائهم لم تكن لتعطي دوماً نتائجها وثمارها مع الجميع اذ تبقى المباشرة الجنسية عنـد بعضهنّ بلا نتيجـة او ثمرة . فما الذي يعنيه يا ترى مثل هذا الوضع ؟ فهو يعني ان العلاقات الجنسية في الزواج ، كانت تمهد او توطىء للحبل على ان تقترن العملية بشيء آخر يتم الحمل معها . فالعلاقات الجنسية كانت شرطاً اساسياً ولكنه شرط غير واف بالغرض حتماً ، وهو تفكير صحيح من وجهة نظرهم .

فهل يا ترى ، عدم وجود مبرر لدى هؤلاء الاقوام ، او عـدم وجود ما يرطمحون اليه لدى الاوروبيين ، منعهم من الاتصال بالحضارة الاوروبية والامتزاج بهـا ؟ فالحياة اليومية لدى الاوروبيين قامت على جملة من ضرورات العيش ولزومياته الضاغطة بينما حياة الاوستراليين اليومية كانت حياة حرة ، هينة ، ناعمة ، لا أسر فيها ولا ضغط . الا ان يحدث مثـــلاً شيء

طارىء ، مفاجىء يكدّر عليهم صفاء العيش الهني كما لو وقعت ، مثلاً سنة جفاف او مواسم عجفاء . وأدهى ما كانوا يخشونه السحر وأفعال السحرة . فطبيعة الحياة لدى الاوروبين لم تكن تسبب لهم سوى الملل والسأم والاشمئزاز . فاذا ما ارادوا ان يحافظوا على اعرافهم ، ويستمروا عليها في عشرة موصولة مع الاوروبين ، لامتنع عليهم ذلك وتعذر ، لأن الاوروبي اينما حل ، أينما هبط في بيئة غريبة ، ألحق فيها البلبلة وزرع التشويش وقضى على ما فيها من سالفة وحيوانات تؤلف غذاء مستساغاً عند هؤلاء الاقوام ، كما ان وجوده يجلب لهم امراضاً وعللاً لم يكونوا ليعرفوها من قبل .

الفصل الثالث

آسيا

كانت آسيا تعاني فترة صعبة من الانحطاط . فقد تواقع تاريخها آنذاك – وسيبقى هذا الوضع قائماً بعض الوقت – مع هذا العراك الذي قام سجالاً ، بين اهل المدر واهل الحضر ، او بين البادية والمدينة . فقد تألفت رقعتها الشاسعة من سهول وواحات ذات مناخ محرق لاهب، كبلاد ما بين النهرين ، وسهول الهندوس والغانج وسهول نهري اليانغ – تسي والهوانغ – هو ، هذه السهول التي كانت مهداً لحضارات زراعية مشرقة ، حفت بها سباسب ومجاري آخذة بالجدب والجفاف تدريجياً ، تمور باقوام من الشعوب المرتحلة ، يذرعون في ظعنهم يمنة او يسرة ، جيئة وذهاباً ، بلاد فارس والتركستان والتيبت ومنغوليا ، شهدت من حين الى آخر ، غزوات دورية ماحقة ، قوامها اقوام من الرعاة اعتادوا ان يعيثوا فساداً في المقاطعات الدائرية . وكان هؤلاء البدو في وضع زري ، ابداً عرضة للجوع يقومون في سبيل العيش وسد حاجاتهم ، ببعض الاعمال التجارية يتبادلون مع سكان المقاطعات الدائرية ، في ايران والهند والصين ، بعض نتاجهم الزراعي ، ويقفون مشدوهين لما تقع عليهم عيونهم من غنى وثراء ، يتسقطون ما فيها من شوائب وعورات ومن مكامن الضعف والوهن : فتقع ابصارهم على شعوب ارزحتها الحرارة الشديدة والرطوبة ، كما تقع عيونهم على امراء وملوك ترهلوا وماعوا لما هم عليه من عيش رخي وبذخ سخي او رفه مخلخل – ففشا بينهم التسري والقصف واقذع الرذائل . واذ ذاك ينهض زعيم مفتول العضل من بين زعماء هذه القبائل البدوية الضاربة في قلب الصحراء ، ويفرض سيطرته على القبائل الاخرى التي تشدها وشائج القربى او صلات الرحم ، ويخضعها لسلطانه ويقودها للفتح بعد ان تكون تقنعت شهوتها الجامحة واهتاجت ، وجاشت فيها الرغائب والاثرة ويستولي على السهول الدائرية الخصبة ، ويكفي ان يحالفه النصر مرة واحدة حتى تهوى الامبراطورية المتداعية للسقوط ويعلن نفسه « ملك الملوك » في بلاد فارس ، او امبراطوراً في الهند او في الصين . ثم يأخذ ، والنشاط ملء بردتيه ، والحماس يتمطى بين الضلوع ، ينفخ روحاً جديداً في الامبراطورية المهلهلة ويبعث فيها نهضة صادقة . ولن يلبث ابنه الذي لا يزال الدم البدوي يجري حاراً في عروقه ، والذي عرف ان يجمع في شخصه الشجاعة والحنكة بفضل ما تم له من تربية سياسية محكمة ، ان ينهض بالدولة الى الاوج .

الا ان اثر الاقاليم ، وحياة البـــلاط المرفهة ، وقتل الوقت وإضاعته في اللهو والعبث وعشرة نسائية في الحريم لا تلبث ان تترك فعلها الحلل واثرها المخلخل . ولن يمضي القليل حتى يمسي حفدة الملك الفاتح ملوكاً 'قعدة لا يـــأتون شيئاً. فاذا بالسلطة تنتهي من حيث لا يدرون ، الى ايدي من يترصدها باشتهاء ، من هؤلاء البرابرة الطارئين الطامعين .

فالى مثل هذه الصورة التي رسمنا للواقـــع المؤسف انتهت آسيا في القرن الثامن عشر . ففي ايران اخذت الدولة الصفوية بالانحدار والتدهور بعد ان استحكمت فيها الفوضى وأصلّت منها الجذور . اما في الهند ، فامبراطورية المغول تتداعى للسقوط تحت عنف الصدمات الصادعة تنهال عليها من الخارج، وردة الفعل الهندوسية من الداخل ، مما مهد السبيل لتدخل الاوروبيين الذين كانوا يتربصون لها ويرنون اليها باشتهاء . اما الصين فقد استطاعت ان تحافظ على مستوى رفيع تحت حكم اباطرة السلالة المنشوكية .هي السلالة التي تجاوزت شمسها السمت وبدت تميل نحو المغيب .اما اليابان فنراهـا ماضية في عزلتها , منطوية على نفسها لا تنثني ولا تلين ، وهي عزلة تسيت في انحـــلال المجتمع الياباني وتفسخه . فقد اخذ الاوروبيون يوسعون من علاقاتهم مع آسيا ، كما اخذوابعضهما تباعاً : الروس براً ، من الشمال ، والانكليز والفرنسيون وغيرهم ، بحراً من الجنوب والشرق .

بلاد فارس والهند

بلاد فارس

في مطلع القرن الثامن عشر ، أخذت إيران ، في عهد الدولة الصفوية ، يساورها شكّ ممضّ ، في ذهاب هيبتها وانتقاص سلطانها . فقد عرفت هذه الدولة كيف تجعل من إيران ، في القرن السابع عشر دولة زاهية مزدهرة ، إذ استطاعت ان تعيد الى البلاد المجد الذي عرفته في عهد الدولة الساسانية . كذلك أخذت الدولة باسباب التجدد تقتبس من الاختراعات الأوروبية . الا ان الدولة لم تلبث ان أخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد . وكان آخر ملك من ملوكها هو الشاه تآماسب الثاني ، ملك البلاد في مطلـــع القرن الثامن عشر ، فكان ملكاً مستبداً فاسد الاخلاق فظ الطبـاع قضى على الكثيرين من أمراء الاسرة المالكة وأغضب أعضاء قبيلته الخاصة التي كانت عماد جيشه وتمـــد البـــلاد بالمزارعين . فليس من عجب والحالة هذه ان ينظر البدو في فلواتهم ، والبرابرة في معاقلهـــم الجبلية ، في الخارج ، الى هذه الدولة نظرة اشتهاء يتربصون بها الشدائد والمصاعب ، بعد أن رأوا عوامل الانحلال تزداد فيها قتلاً ، فانقضّوا عليها واستباحوا باحتها .

وكان الأفغان أول من بادر بينهم الى شق عصا الطاعة ، بعد ان كانوا غُلبوا على امرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ، ودخلوا في طاعته . فالافغان والفرس من محتد واحد . فقـد عرفوا ان يحافظوا في جبالهم على فرديتهم المميزة بفضل هذه الوديان العميقة التي عصمتهم وهـــذه

المجازات والمعابر التي سهّلت لهم الاتصال ببعضهم البعض. وهم مسلمون سنيون جاشت حفيظتهم بالكره والبغض للفرس ، وهم على التشيع . والافغان من سكان الجبال ومن انصاف البدو ، اخشوشنت طباعهم وتعاطوا تربية الماشية يظعنون بها وفقاً لفصول السنة . احتقروا في الايرانيين حياة الحضر ، وهؤلاء المزارعين المترفين الذين تفسخت أخلاقهم بالدنايا من الاعمال التي يأتونها كما ازدروا فيهم هؤلاء التجار الخطفة الجشعين. وفي سنة ١٧١٠ ، أعلنت قبيلة غلجيس احدى هذه القبائل الضاربة في قندهار ، العصيان وراحت تزيل من طريقها الحاميات الفارسية المرابطة في البلاد الواحدة بعد الاخرى ، داعية الافغان الى الانتفاض واعلان الثورة والتحرر من ربقة الفرس . وراح أمير غلجيس هو الامير محمود يهاجم بلاد فارس الى ان قهر الفرس ودخل اصفهان منتصراً في ٢٢ تشرين الاول ١٧٢٢ ، وأعلن نفسه ملكاً . فما كان من الشاه تاماسب الثاني ان فر ولجأ بنفسه والتجأ الى مقاطعة مازندران ،وهي ولاية معروفة بغاباتها الكثيفة وبما فيها من بطائح وغياض ومستنقعات .

وإذ ذاك أخذت قبائل البدو والدول المجاورة لبلاد فارس تنقض عليها من كل صوب . فراح التركمان بقيادة أمير بُخارى يغزون خراسان . والروس الذين كانوا يرنون بأنظارهم من معاقلهم في استراكخان الى الطُرق التجارية بين الهند واوروبا ، عبر كابول وهراة ، ومشهد وطهران وتبريز ، لتتجه منها شمالاً ، الى ارضروم وطرابزونه ، وجنوباً الى ديار بكر وحلب والاسكندرون ، لم يمتنعوا ان احتلوا تباعاً داربنت عام ١٧٢٢ ، وباكو عام ١٧٢٣ ،واطلقت معاهدة بطرسبورغ التي عقدوها مع إيران ، يدهم باحتلال ضفة بحر قزوين الجنوبية وداغستان وشروان وغيلان ومازندران واستراباد . واغتنم الاتراك العثمانيون من جهتهم هذه الفرصة السانحة ليثأروا لأنفسهم مما لحق بهم في الماضي من خسف،فاحتلوا أرمينيا والعراق واذربيجان، وراح الامير اشرف ، وريث الامير محمود وخليفته الذي ربطته بالعثمانيين وحدة الايمان المشترك يتقرب من العثمانيين فاعترف بالفتوحات التركية وأعلن ولاءه للسلطان في القسطنطينية رغبة منه حمل اللقب الملكي الذي اعترف له به السلطان (خريطة٣) وتعهد له باستئصال شأفة الشيعة من البلاد ، هذه الطائفة التي أعطت بلاد فارس فرديتها المميزة ، بحيث ان كل شيء كان يدل على ان هذه الامبراطورية القديمة العهد اشرفت على نهايتها .

الا انها وجدت خلاصها على يد زعيم بدوي ، تركي العرق والمحتد . كان يعيش عند أطراف خراسان ، يدعى نادر شاه الذي أصبح بعد سلسلة متصلة الحلقات من اعمال اللصوصية والقتل والتشنيع والمخاتلات ، زعيماً لقبيلة أفشر التركمانية واستطاع كمألوف العادة ، ان يتغلب على إحدى القبائل ويفرض عليها سلطته ، كما عرف ان يكتسب بعوارفه السخية الانصار والمريدين ، وقبل في خدمته كل رجال الحرب الذين يرغبون في المغامرات ، وتمكن من اخضاع البطون والافخاذ التي تمت الى قبيلته افشر التركية بوشائج النسب . اغتنم بين ١٧٢٢ – ١٧٢٦ مناسبة انهيار دولة فارس فبسط سيطرته على ولاية خراسان وبرهن عن مقدرة وحسن تدبير

عندما أعلن ولاءه الشاه تاماسب ، وبذلك أصبح محط آمال الفرس ومناط رجائهم . وإذ كان على جانب عظيم من الحزم والنشاط في بلاد عصفت بها الاهواء والمطامع وأصبح معها العرش متأرجحاً ، فقد أخذ بتنظيم الجيش وفرض النظام واحترام هيبة القانون ، وتمكن من التغلب على الافغان وأعاد الشاه تاماسب الى عاصمته مكرماً ، عام ١٧٣٠ .

غير ان الشاه والفرس كانوا يتوقعون منه ان يعيد الامبراطورية الفارسية الى سابق مجدها وسالف عزها . فالشاه يجب ان يكون غازياً فاتحاً . وكان الفرس متشبعين منذ نعومة اظافرهم ، من نصوص كتاب الملوك او الشاهنامة للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له عند الفرس ما للالياذة والاوذيسة من منزلة عند الاغريق . فاستقر في خلدهم ان امتهم هي من اعرق أمم الأرض طراً ومن أقدمها على الاطلاق وبانها تعلو الأمم الاخرى قدراً وسمواً وشأناً ، وان الله كتب لها السيطرة وقدر لها السلطان على سائر أمم الارض . ولذا كان من الواجب إشباع هذه الاماني الوطنية وتحقيق الاهداف القومية التي جاشت في صدورهم . ومن جهة ثانية ، فالتجار الذين كانوا يؤدون خدمات جُلّى للملك بما يسلفونه من الدراهم ، كانوا يتوقعون منه ان يعيد الى البلاد امنها الضائع لتصبح طرق المواصلات آمنة والاسواق سليمة ، حرة ، وبذلك تعود البلاد الى ما كانت عليه «الطريق السلطاني الذي يربط شعوب آسيا بدول اوروبا» كما تربط الشرق بالغرب . ثم كان على الشاه ان ينهض بالحرب بحيث يؤمن للمملكة الموارد اللازمة التي كانت الضرائب المفروضة على البلاد تقصّر عن تأمينها ، فلا يلبث ان يرتفع فيها صوت التاجر منادياً بالويل والثبور وعظائم الامور اذا ما تأذت مصالحه قليلاً ، وحيث يسهل على البدوي التواري والتخفي كما يسهل على الفلاح مبارحة ارضه بيسر اذا ما تعرض للضغط . ثم كان لا بد لهذا الملك ولقيّ قصره ان يُشبع عن طريق الغزو مطامع اشياعه واتباعه ويحقق ما يرغب فيه افراد اسرته وعشيرته ومحاربيه . ولذا بادر نادر شاه للجهاد ، فاسترجع خراسان من الأفغان كما استعاد منهم ولاية هراة . واجبر الاتراك على التخلي عن العراق والانسحاب من اذربيجان وأريوان وقرص وما استولوا عليه من قلاع في القفقاس . وبموجب معاهدة القسطنطينية المعقودة عام ١٧٣٧ ، عادت الى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل ، كما ان المعاهدة المذكورة ضمنت لها الاشراف على ارمينيا الشرقية . وبسط حمايتها على بلاد الكرج . وفي عام ١٧٣٤ ، اضطر الروس ، لقلة حامياتهم ، لاخلاء الاراضي الشاسعة التي وقعت بايديهم في شمالي ايران ، عام ١٧٢٣ . وفي غرة شباط ١٧٣٦ ، تمكن نادر شاه من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية ونودي به ملكاً ، في احتفال مهيب في سهول موغان ، اشترك فيه زعماء الشعب وممثلوه بحضور قواد الجيش وعدد كبير من الضباط . فجاء اعتلاؤه العرش تتويجاً لهذا العمل المجيد الذي قام به بعد ان اعاد الى البلاد امجادها الغابرة وانقذها من قبضة الافغان والاتراك والروس .

واذ كان آخر ملك الملوك عند الايرانيين فقد استطاع ان يوسع سيادة ايران في كل الاتجاهات ونشر الأمن على الطرق التجارية الكبرى التي تمر عبر بلاد فارس . فنقل عاصمة ملكه الى مدينة

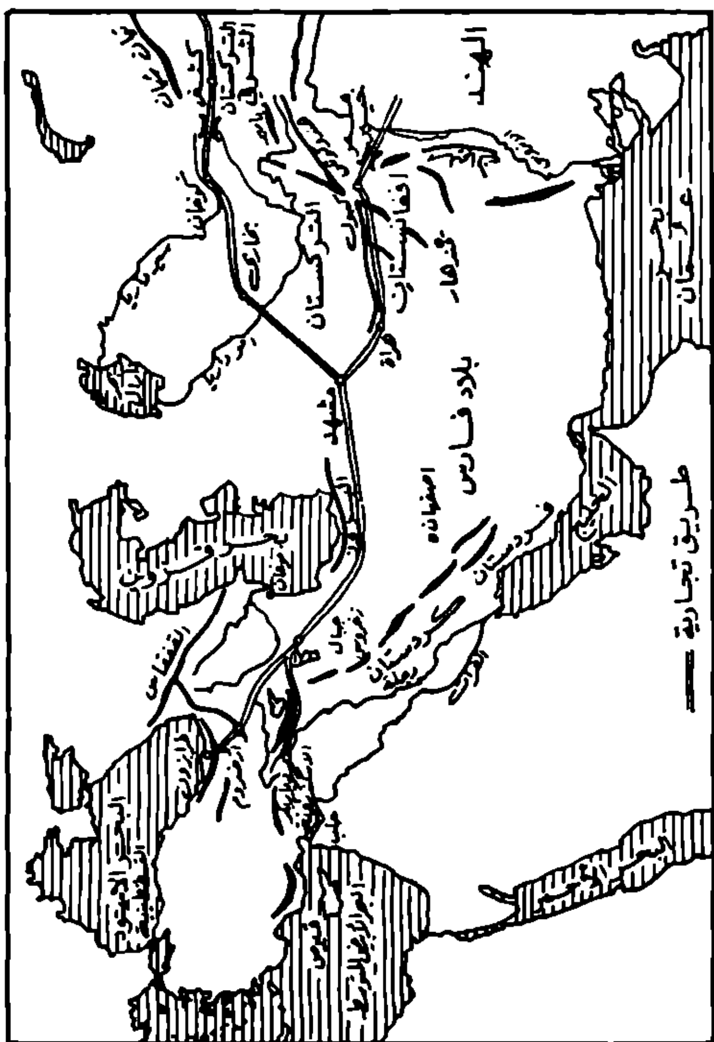

خريطة ٣٠ المراكز التجارية الكبرى في العجم

مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود الامبراطورية ويصونها من عبث البدو الرحــل في التركستان . وشيد على رأس احدى قمم علاء – داغ ، قلعة نادرشاه المشهورة تحيط بهــا الوديان العميقة ، لا يُرقى اليها الا من معبرين ضيقين لا يزيد عرض الواحد منها على بضعة امتار ، واتجه عام ١٧٣٧ على رأس جيشه وهاجم الافغانستان التي تضم خير المعابر والمجازات الموصلة الى الهند ضيق خيبر ، والتركستان ، وفيها مضيق حاجي كاك ومضيق تدجن ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابول واخضع لسلطانه كل القبائل ، فانفتحت امامه مداخل الهند . فاتتنع من حملته هذه على الهند بعملية نهب وسلب على نطاق واسع . وفي سنة ١٧٣٧ اجتــاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور على رأس جيش ضم اكثر من ٤٠ الف محارب ، وكسر شــر انكسار ، في كرنال ، جيش المغول الذي تألف من ٢٠٠،٠٠٠ محارب بقيادة السلطان محمود ، ودخل مدينة دلهي واستولى فيهــا على ٧٥٠ مليوناً وبذلك اتيح له ان يُسقط عن الايرانيين الرسوم المترتبة عليهم لمدة ثلاث سنوات . ثم اعاد الحكم في الهند الى السلطان محمود . وباتجـاه الصين ، هاجم التركستان ، عام ١٧٤٠ ، ولقن القبائل درساً بليغاً ، واجبر خان بخارى على دفع جزية فادحة واستبدل خان خيفا بآخر ممن اعترفوا بالولاء له .

ثم فكر بادخال الحضارة الاوروبية الى ايران بعد ان خيم السلام على ربوعها . وجاءت حركته الاصلاحية شبيهة الى حد بعيد بالعمل التنظيمي الذي قام به القيصر بطرس الاكبر في روسيا ، بعد ان تهيأت له اسباب النجاح . افلم تكن ايران آرية الاصل والعرق وتمثل في القارة الآسيوية التي تسحق الانسان بضخامتها واتساعها ، شيئاً من الانضباطية والاعتدال ؟ فالحضارة الايرانية،مع كونها آسيوية في صميمها،تعارض،من حيث طبيعتها ،المسرحية الآسيوية بما تمتاز به من اعتدال في الحكمة واتزان في الانسانية وبما لها من قابلية تكاد تكون فرضية ساعدتها على صهر العناصر المختلفة وصبها وافراغها في قالب اصيل . الا ان الزمن لم يمهل نادرشاه اذ وجد حتفه مقتولاً ، عام ١٧٤٧ .

لما كاد يتوارى عن مسرح السياسة في بــلاد فارس حتى دب الفساد في الامبراطورية الفارسية . صحيح ان ليس بين خلفائه من يصح مقارنته بــه ، كما ان اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه ان يسهل مهمة هؤلاء الملوك . فايران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات . فمقاطعاتها الجنوبية والغربية ، امثال كرمان وفارس ولورستان وكردستان ، يقطنها اقوام ايرانيون في الصميم ويتحــون عمقاً امجــاد الحضارة الفارسية القديمة ، مع العلم ان بعض هذه الولايات اندمجت فيها وانضمت اليها عروق جديدة كالعرب في اللورستان ، وبعض عناصر العرق الاصفر في الكردستان . اما الشمال فتألف سواده من العرق الاصفر المغولي والتتار والاتراك ، اذ ان جانباً كبيراً من الطارئين والغزاة الفاتحين والاقوام الرحالة استقر في هذا المجال الضيق الذي تحف به الصحارى الممتدة رقعتها المتماسكة من السنغال غرباً حتى نهر العامور شرقاً ، فتحتل قلب قارات ثلاث ، على نصف الطريق من

اوروبا الغربية ومن شطآن اوروبا الشرقية ، وهي منـــاطق تصلح كثيراً بسباسبها الشاسعة ، الكر والفر ولحركات الفرسان الخيالة وتنقلاتهم .

وهكذا بدت ايران خليطاً او مزيجاً من القبائل والاقوام . فقد اقتصر حكم ورثة نادرشاه على خراسان وعرفـــوا ان يحتفظوا بها متخذين من مدينة مشهد عاصمة لهم . وتمكن الافغان من استعادة استقلالهم ، والاتراك القرغز معظمهم قبائل بدوية من رعـــاة وقوافل ، والذين منهم خرج معظم قواد الدولة الصفوية، ألفوا جماعات عسكرية سيطروا بها على الولايات الواقعة الى الشمال او الممتدة من ارمينيا الى افغانستان ، من حواضرهم الكبرى اصفهـــان واستراباد وقندهار طروا على السلطة وتمكنوا بالفعل من اعلان استقلالهم . واخـــيراً في الجنوب ، والى الغرب قليلاً ، حاول زعماء قبائل البختيار والزند، إقامـــة سلطة الايرانيين على الامبراطورية الفارسية . فقامت في البلاد دولة وطنية ، قومية هي دولة الزند ، استطاع رئيسها كريم خان (١٧٥٠ – ١٧٧٩) ان ينتزع من يد القرغز الاتراك ، مدينة اصفهان واذربيجان والمازندران . وهكذا حقق وحدة ايران الغربية الممتدة من شواطىء بحـــر قزوين ، حتى مشارف الخليج الفارسي وجعل من مدينة شيراز عاصمة ملكه ، وعمل على تجميلها وشـــيد فيها مبنى تخليداً لذكرى حافظ وسعدي ، اكبر واشهر شعراء الفرس طراً .

وعند وفاته ، راح آغا محمود وهـــو من قاجار الترك ، يعيد بين صحبه واتباعه ، قصة نادر شاه ، فأخضع لسيطرته الاتراك القاجار ، وهمّ بفتح بلاد فارس . فانتزع ، عـــام ١٧٩٥ ، من يد الزند ، مدينتي اصبهان وشيراز ، واستطاع عـــام ١٧٨١ ، ان يحمل الروس على الانسحاب من مازندران بعـــد أن كانوا احتلوها . ومنذ سنة ١٧٨٥ ، بلغ قوزاق الامبراطورة كاترين الثانية ، مقاطعة القوقاز حيث راح امير الكرج يقدم خضوعه للامبراطورة ، كما قـــدم لها املاكه الواسعة الممتدة حتى نهر الاراكس، من ضمنها ثلاث قلاع هي تبليس وأريوان و كوتاي . وفي سنة ١٧٩٥ ، انقض عليـــه الشاه محمود فجأة و كسره شر كسرة،وقام بمقتلة بين المسيحيين ، ثم اتجه شطر الجانب الآخر من الامبراطورية ، ينتزع من ابن نادر شاه ، ولاية خراسان فاستطاع بعد هذه الفتوحات الضخمة ان يعلن نفسه ملكاً ويتوج ذاتـــه « ملك الملوك » ولم يلبث ان جاءت جيوش الروس تنتقم لنفسها من المذابح الهائلة التي جعل من تبليس مسرحاً لها ،ودخلت بلاد الكرج والداغستان وشيروان ، واجتازت نهر الاراكس ، وضربت خيامهـــا في سهل موخان . واسرع السلطان آغا محمود يدافع عن مداخل البلاد وثغورها ، فلاقى حتفه مقتولاً ، عام ١٧٩٧ ، فكان موته إيذاناً بحروب طويلة مع الروس ، انتهت باستقرار الروس نهائياً الى الجنوب من بحر قزوين .

آل امر ايران في هذه الظروف الى ايدي قبيلة تركية أمنت لنفسها السيطرة على البـــلاد بسلسلة من الفظائع والمذابح سرت الخوف في قلوب الاهلين ثم راحت تستغل البـــلاد وتستثمر

مرافقها على ابشع صورة . الا انها كانت اعجز من ان تعيد الى البلاد وحدتها . وفي سنة ١٧٩٥، انفصلت عنها افغانستان وبلوشستان وغربي العراق . كذلك عجزت عن ان تنشيء لها وحدة قومية اذ استقبلها سكان العراق وفارس وكرمان بالازدراء ، والاستخفاف . كذلك كانت اعجز من ان توطد دعائم الحضارة من البلاد بعد ان زعزعت منها الاركان حرب جرت على البلاد ، خلال قرن من الزمن ، الخراب والدمار . فمنذ عهد نادر شاه نفسه ، بدت اعراض انحطاط ادبي قوية . فالآثار الفكرية والادبية التي تعود لهذه العهد ، تتسم ، على الاجمال ، بالغلو والاطناب والزركشة . فقد عرفت بعض الفنون ان تحافظ ، الى حد ما ، على شيء من الازدهار الذي سجلته من قبل . فصناعة السجاد بقيت مزدهرة ناشطة حتى اواخر القرن . وفنون التحلية والوشي ، بقيت ضمن حدود المعقول والاتزان ، محافظة على ما عُرف عنها من بساطة ومن منهجية روعيت فيها بدقة ، اسس النظام ، ومبادىء الإيقاع والانسجام التي ميزت الفنون الاوروبية كما امتازت بوفرة نماذجها الشرقية ، وبهذه الرشاقة التي تطبع الطراز المعروف بطراز لويس الخامس عشر ، كما امتازت بزركشة الالوان في اتساق وانسجام ، على انساب مقدورة ، تتناوح فيهـا الالوان بين الفاتح والناصع والفاقع انسجاماً من جانب هؤلاء الفنانين مع التقاليد والاعراف الآرية التي اعتمدت طويلاً في هذه البلاد . ولكن ما ان يطل القرن التاسع عشر بغرته حتى تطل معه بوادر الانحطاط ، في كل مرافق البلاد . وهو انحطاط « يطالعك في الطرقات والمباني ، وسير العلوم والجيش والادارة ، ليشمل كل ما طلعت به بلاد فارس ، في عهد الدولة الصفوية — بلاد فارس هذه الغنية والصناعية ممثلة بشيراز واصفهان التي اثارت الاعجاب في نفوس الاوروبيين . كل ذلك انحدر وهوى الى الحضيض في عهد اتراك طهران » .

الهند

تكون الهند عالماً بذاته ، تعزله عن باقي اجزاء القارة الآسيوية، سلاسل ضخمة من الجبال الشاهقة ، عالم له خصائص حضارية مميزة،، استمدها مما تناوح عليه من الارياح الموسمية الفصلية ، والديانة البراهمانية والنظام الطبقي الذي ساد تلك البلاد ، كما استمدها من الاسلام الذي بسط سرادقه على سهول نهري الهندوس والغانج . فاذا ما ضربنا صفحاً عما بين الهندوس والمسلمين من نفرة وشحناء ، وضغينة وبغضاء ، فقد نشأ عن اختلاف المناطق الطبيعية وتباين الأحداث التاريخية ، عدد من التقاليد والاعراف والعادات والاخلاق المتباينة .

كذلك نشأ فيها مجتمعات بشرية متباينة كانت عماداً لدول وكيانات ودويلات عديدة. وهذا السور الجبلي المحيط بالهند ، يقف مارداً لا يلين ولا ينثني الا في الشمال الغربي عند « ابواب افغانستان» التي تتكون من مجازات خيبر وبيفر وخوجاك وغماجا، هذه المنافذ بالذات التي تدافعت عبرها، هادرة مزمجرة ، هذه الموجات الغازية من البدو الرحل التي استباحت الهند دون ان تبدل منها او تغيّر من حالها .

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان المغول تحت حكم المغول الأكبر اورنكزيب ، يسيطرون على الجانب الأكبر من شمالي الهند ، والشطر الشمالي من الدكن ، كما ان القسم الجنوبي منه اعترف بالولاء لهم . فقد كانوا في تنظيمهم ونظامهم اشبه بجيش اقام مضاربه وسط بلد تم فتحه عنوة . وتألف الجزء الذي خضع مباشرة للمغول من إيالات *Soubabies* ، وتقسم كل إيالة الى عدد من المقاطعات *Nababies* يتولى الادارة في الاولى : سوباب ، وفي الثانية : ناباب ، يُتخذون من بين كبار الموظفين . بيدهم السلطة الادارية والعسكرية يختارهم السلطان من بين عملائه المخلصين. ومن بين من اخلصوا له الخدمة والطاعة ، تحت إمرتهم قوة عسكرية للمحافظة على الأمن والنظام في الولايات ، ولتأمين جباية الضرائب وايصالها سالمة مضمونة الى خزائن السلطان . ولكل واحد من هؤلاء الحكام ، وكلاء ُعهد اليهم السهر على استتباب الأمن ، كما لكل واحد منهم عدد من الجند توزعوا بين القرى والحشود الكبرى في المنطقة . وقام في هـذه الولايات بالذات ، امراء هنود اعترفوا بالولاء للسلطان ، كأمراء راجبوت مثلاً ، لم يكونوا ليرجعوا في شؤونهم وأمورهم ، للحكام المحليين او الاقليميين ، بل ارتبطوا في علائقهم العامة ، بالسلطان مباشرة ، يدفعون له رأساً ، العوائد والرسوم المتوجبة عليهم كما ربطوا انفسهم تجاهه بحق الولاء والطاعة . وعلى مثل هذا الوضع كان الامراء التوابع في الجنوب . شد الامراء بعضاً الى بعض ، وشائج وثيقا من الولاء ، بينا غامت فكرة الدولة عندهم واستدق مفهومها . فاذا ما فشا التراخي في السلطة وفي صاحبها ، واذا ما استمر السوباب والناباب في وظائفهم طويلاً ، قد يستحيل نظام الحكم عندهم الى شيء اشبه ما يكون بنظام الفدانة أو النظام الاقطاعي ، فيفضي الأمر الى سلسلة متعددة الحلقات من الرؤساء والاتباع ، فيحولون مقاطعاتهم الى إقطاعات خاصة. وهذا ما حصل خلال القرن الثامن عشر . وهكذا نرى ان كل الطبقة العسكرية هي عيال على الضرائب المترتبة على الفلاحين والمزارعين والتجار .

ان ضآلة عدد المغول لدى وصولهم الى الهند ، وطبيعة الحضارة التي كانوا عليها دعتهم للاعتصام بالتساهل ولأخذ الناس باللين . فقد راحوا يستعينون بكل من أنسوا فيهم الرغبة بالتعاون معهم ، دون ان يبالوا كثيراً بفوارق العرق والدين . وهكذا عمل في الادارة ، تحت اشرافهم ، فرس وافغان وهندوس وراجبوت ، كما استخدموا ، في الجيش ، إقطاعيين مشهوداً لهم بفنون الحرب ، وفرساناً ماهرين. كذلك اقتبسوا الكثير من مختلف الحضارات التي قامت في الهند ، كما جعلوا من اللغة الهندستانية لغة الادارة ، وسادت اللغة الفارسية في البلاط الامبراطوري الذي اصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي الايراني في الهند . تميزت سياستهم باللين ، وحكمهم بالعدل والنصفة تجاه الفلاحين والهنود . وقد حاولوا جاهدين ان يتعاونوا باخلاص مع ابناء البلاد الوطنيين ، فحافظوا بذلك ، على استمرار الحضارة الهندية ، كما ابقوا المجتمعات الهندية على وضعها الطبقي الاجتماعي . وهكذا بدا وضع الفاتحين اشبه ما يكون كالزبد يطفو على سطح البحر .

فاذا ما استطاع اورنكزيب ان يوسع من مدى فتوحاته ، فقد عرّض الخطر سيادة المغول على البلاد . عُرف عنه تمسكه الشديد باهداب الدين وبتعصبه المقيت ، وباحتقاره وازدرائه لكل ما هو غير مسلم . ولذا راح يكثر من اعمال المطاردة والسخرة يرزح تحتها رعاياه . وابعد عن وظائف الدولة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، الحكام الهندوس ، والشيعة من الموظفين وأحلّ محلهم موظفين سُنّة . وحدثته نفسه بحمل الهنود على الاسلام بالقوة ، حكما اصلى الهندوكيين اضطهاداً عنيفاً يفرض عليهم ضرائب خاصة هي الجزية . وحوّل معابدهم الى مساجد وأخذ بتعذيب رؤسائهم الدينيين . فلم تلبث سياسته هذه ان اثارت بين الهنود ردة فعل اهاجتهم ضد المغول. كذلك نفّر بسياسته الهوجاء،اشد الاتباع ولاءً له حتى الراجبوت انفسهم الذين عرفوا بشدة بأسهم ، كما ان المراكز التي كانوا يحتلونها في هذه المقاطعات الخاضعة للاسلام والتي كانت تفضي بمسالكها الى « ابواب افغانستان » جعلت منهم عناصر لا يُستغنى عنهم . فقد انتقض عليه السيخ والمهرات . وبعد موته ، عام ١٧٠٧ ، راحت قبضة سلاطين المغول على الهند واصبحت سيطرتهم عليها رخوة هشة ، وبقيت امبراطوريتهم قائمة بالاسم فقط . وقد استمر كبار الموظفين يحملون عندهم الالقاب التي حملوها من قبل معلنين ولاءهم للمغول الكبير ، اما في الواقع فقد كانوا مستقلين . وكان من جراء الحروب التي نشبت فيما بينهم بغية الاستئثار بالسلطة ان جعلت ادارتهم خواء ، جوفاء ، وحكمهم سلسلة من الاجراءات لا طائل تحتها.فلم يلبث ان أطل البدو من وراء الحدود،لينقضوا كالشهاب الخاطف على الامارات الهندية يعملون فيها نهباً وسلباً قبل ان تقوم ردة فعل.فلا عجب ان تعود هذه الانقسامات الداخلية بالخير على الاوروبيين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، فساعدتهم على فتح الهند واستعمارها .

ولم تلبث شدة المنافسة بين المطالبين بالعرش ان أدت الى انحلال السلطة في البلاد . وقام اولاد اورنكزيب الثلاثة يتنازعون فيما بينهم اطراف العرش ، ويقتتلون في سبيل تأمين صيرورته الى كل واحد منهم . وقد تم الامر نهائياً لابنه البكر بهادر ، واحتفظ بالسلطة حتى عام١٧١٢.وقام ابناؤه الاربعة،من بعده،يتجاذبون خلافة ابيهم فيما بينهم ، مما أدى الى قتل ثلاثة منهم ، فعاد الأمر لاصغرهم سناً ، المدعو باهندر الذي اصبح المغول الاكبر فحكم البلاد سنة ١٧١٢ – ١٧١٣ ، الا ان ابن اخيه المدعو فاروقشير ، شق عصا الطاعة على عمه وتمكن من هزيمته وأمر بخنقه . ثم اعتلى العرش ، وتولى الحكم من سنة ١٧١٣ الى ١٧١٩ ، وانتهى الامر معه الى المصير ذاته ، على يد الهندوس الثائرين الذين نادوا تباعاً ، ببعض ذراري اورنكزيب ، سلاطين على الهند ، فحصدهم الموت وراحوا فريسة الدسائس والثورات والمؤامرات الى ان انتهى الامر الى واحد منهم يدعى السلطان محمود ، الذي كان حكمه بين ١٧١٩ – ١٧٤٨ ، اشبه ما يكون بحكم الظل . وخلفه في الحكم ، في الظروف ذاتها ، السلطان احمد (١٧٤٨ – ١٧٥٤) ، وعلمجير الثاني (١٧٥٤ – ١٧٥٩)وعلم الثاني (١٧٥٩ – ١٨٠٦)فقد كانوا جميعاً، باستثناء علمجير الذي سقط وهو يجاهد، اباطرة ظل ، وألعوبة بيد الاحزاب المتخاصمة،يوزعون

الالقاب والفرامانات ، ذات اليمين وذات الشمال ، همهم الوحيد إلباس الامر الواقع لباس الشرعية ، والتاج ينتقل من هامة الى اخرى ، وفقاً لميزان القوى والمزايدة في الثمن .

ولما كان هؤلاء المتنازعون على العرش ، والمطالبون بحق الخلافة بحاجة لمن يشد من أزرهم . فقد راحوا يستنجدون نصرة الجماعات الهندية ، ولا سيا الراجبوت منهم والسيخ والمهرات ، الذين تمكنوا من تأسيس ممالك وطنية ،جاء طلوعها تعبيراً بليغاً لهذه الحركة الرجعية التي قام بها الهندوس ضد حكم المغول .

وقد ألف الراجبوت ، باكراً ، من الامارات التي تمتعت بشبه استقلال ، اتحاداً عاماً واطل عهد تحررهم الفعلي عندما راح الراجا عجيت - ينغ ، نائب ملك احمد آباد - يسترجع عام ١٧٢٠ ابنته التي كانت تحت السلطان فاروقشير ، وحملها على انتزاع لباسها الاسلامي ، وطرد وصيفاتها المسلمات . فكان بذلك اول راجا في الهند يسترجع ابنته بعد زواجها من ملك مسلم . الا ان الامراء الراجبوت كانوا على اختلاف عظيم وانشقاق بالغ فيا بينهم بحيث قصروا عن القيام بالدور الحاسم الذي اهلتهم له بسالة فرسانهم وموقعهم الجغرافي .

فبعد ان اصلى اورنكزيب السيخ اضطهاداً حامياً ، حسن وضعهم بعد ان آل الامر الى بهادر الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني ، وادخل فيخدمته مرشدهم وزعيمهم الديني غوبند.
الا انه اقتضى لهم اكثر من نصف قرن من الجهاد المرير والحروب الموصولة ، لتأمين سلامة مؤسساتهم في حوض نهر الهندوس . وقد تم لهم ذلك بواسطة عقيدتهم الدينية التي غدت فيهم مكارم الاخلاق وبعثت فيهم الحماسة والنشاط . فقد كوّنوا طائفة ظهرت بوادرها في القرن الخامس عشر ، تألفت من عناصر هندية متعددة الجذور والفروع . فقد عزفوا عن الشرك وعن عبادة الاصنام ، كما ضربوا عرض الحائط ، بالطقوس الدينية والفروق الطبقية ، فتألب حولهم جماهير كثيفة من الهندوس ، من كل الطبقات الاجتماعية ولا سيا من طبقة المنبوذين ، فقالوا بوحدانية الله ، كما قالوا بالقدرية ، مما زادهم حماسة ونشاطاً اثناء المعارك التي خاضوها ، وفرضوا ، في الحين ذاته ، بذل الجهد الشخصي ، وعمل البر ، ومحبة الله والقريب كشرط اساسي للخلاص . ومن وصاياهم الا يديروا ظهورهم للعدو وان يمتنعوا عن تعاطي المسكّرات والمخدرات ، وابيح لهم اكل اللحوم مما امّن لهم قوة بدنية لم يتوفر مثلها في غيرهم من الهنود الذين يعيشون على البقول والخضراوات . « وهكذا فقد جعل الايمان من هذا القسم من الهنود الذين لا يعترفون بنظام الطبقات امة أعطت البلاد خير ما لديها من جنود ...» وانتهى بهم الأمر الى استرجاع البنجاب ، كما تمكنوا ، عام ١٧٦٤ من احتلال مدينة لاهور .

أما المهرات ، فقد ألّفوا ، في الاصل عرقاً جبلياً من قبيلة الغات الغربيين فشكلوا فرقة من الخيالة ، اشتهرت ببسالتها وبسرعة حركاتها بحيث كانت تنقضّ على العدو على حين غرة منه فتزرع الخوف والرعب في النفوس . فقد أعلنوا الثورة في القرن السابع عشر وانضمّ الى

نهم عدد كبير من فجّاج الآفاق والمغامرين الأشداء قدموا من كل فج وصوب ، فيغيرو
لمات الاسلامية ويعيثون فيها نهباً وسلباً يستولون على كل ما يؤمن لهـم أود العيش ،
١٧٠٨ ، حمل زعيمهم المدعو سهوجي سلطان المغول ، على الاعتراف باستقلالهم ، ولم

خريطة - ٤ الممالك المنفصلة عن الامبراطورية المغولية والممالك الاخرى القائمة الى الجنوب منها
١- المنطقة الخاضعة فعلاً لسلاطين المغول - ٢- المناطق التي يشرف عليها المهرات

ي به ملكاً على المهرات ، وجعل مدينة ستارا عاصمة ملكه . وقد قبل خليفتـ
، الراجا شـاو ان يعلن ، عام ١٧٠٩ ، تابعيته لأحد المطالبين بعرش سلاطين المغ
ليه هذا باستيفاء الضرائب في ولايات الدكن السبـع ، على ان يحتفظ المهرات لأنفس
نة الى ربـع الرسوم الجباة ، عشرة بالمائة (اي ما مجموعه ٣٥ ٪ من الرسوم) . فتو

بذلك لهم الوسائل المالية اللازمة لانشاء جيش قوي ، كما تمت لهم سلطة شرعية كانت ستاراً لهم ومبرراً للقيام بهذه الاستباحات واعمال السلب والنهب التي قاموا بها في هذا القسم الشمالي من الدكن . وبعد ان اصيب الراجا شاو بالخول ، من جراء وقوعه في Zenana اورنكزيب ، أو رسوفه في الاسر أصبح هو وخلفاؤه من بعده ، خاملاً ، كسولاً ، قعدة . فقد صار الامر الى سدنة البلاط : البايشوى الذين تولوا زعامة المهرات وتوجيهم ، واستمروا في مناصبهم مشرفين على إقطاعاتهم في بونا حيث أسسوا سلالة ملكية . فأقطعوا ضباط جيش المهرات المناطق والاقاليم ومجموعة القرى والدساكر ، وفوضوا اليهم جباية الضرائب والرسوم . وهكذا تحول حكم المهرات تدريجياً الى نظام إقطاعي . فقد نال اول امراء البايشوى ، من سلاطين المغول عام ١٧٢٧ ، حق جباية الضرائب في هذه الدول والامارات الواقعة الى الجنوب من الدكن (ميسور ، وترافنكور ،والكرناتيك) ، وفي الولات الست الاخرى الواقعة في الشمال .وقد بسط ثاني امراء البايشوى هواجي الراجي — داو (١٧٢٠) سلطانه حتى حدود الانهر : تشامبول والجوما والغانج ، ووزع هذه الاراضي الجديدة التي دوخها ، إقطاعات بين بيوتات المهرات الاربعة الكبيرة : فنال الهُلكار ، مالوى الجنوبية وجعلوا من اندور عاصمة لهم ؛ ونال السنديار مالوى الشمالية وعاصمتها غوالبور . ونال البهوسلا بيرار مع نغبور عاصمة لها ، كما نال الغويكوار قسماً من الغوجيرات وعاصمتها بارودا . وهكذا امتد حلف المهرات حتى مشارف دلهي ، وفي عهد الثالث من امراء البايشوى ، المدعو بالاجي داو (١٧٤٠ — ١٧٦١) ، استمر المهرات في هجومهم وغزواتهم في جميع الجهات . ولم يفشلوا الا مع الفرنسيين ، فاضطروا للاعتراف لهم بالتابعية والولاء (١٧٥١) . غير ان الانشقاقات التي شجرت بين امراء المهرات وبينهم وبين امراء البايشوى ، الحقت الوهن بالحلف الذي كانوا توصلوا الى انشائه . فلم يكونوا ليوحدوا فيما بينهم ويستجمعوا قواهم الا عندما يرون انفسهم امام خطر مداهم يتهددهم من جانب المغول .

والهندوس مدينون بالنجاحات التي حققوها ، لهذه الانقسامات التي اقامت المسلمين في الهند بعضهم على بعض وفرقتهم . فقد تمت الغلبة لفاروقشير ، بفضل مناصرة شقيقين من السيّاد (من سلالة النبي العربي) ، سليلي اسرة شيعية استوطنت منذ بضعة قرون مقاطعة دواب *Doab*، كانت تفخر بأصلها الهندستاني : احدهما حسين علي ، نائب حاكم بَتنا ، الذي آلت اليه رئاسة الوزارة ، والثاني عبدالله خان ، نائب حاكم اله اباد القائد العام فيها . كان تحت امرتهم عدد من الانصار ورجال الحرب . فقد نهجا سياسة قومية هندستانية ، وعينا في المراكز الحساسة الهامة بعض العسكريين من انصارهما. وإذ رأى فاروقشير انهم على جانب من القوة راح يناصر المغول. واذ ذاك جمعوا صفوفهم ولموا انصارهم ونادوا باسقاط فاروقشير وخلعوه وعينوا مكانه محمداً واخذوا بتوجيهه .

ضاق نبلاء المغول وأشرافهم صدراً مما لحقهم من خسف وأصابهم من اهانة ومذلة ، فهتاجوا

وأعلنوا الثورة. وتمكن نظام الملك سوبادار مالوى من التغلب على الشقيقين وتمكن من انقاذ الامبراطور عام ١٧٢٠ . وكان من نتائج هـــذه الردة المغولية ان افضت الى تفسخ جديد في الامبراطورية المغولية وتخلخلها . واذ اتضح لنظام الملك ان الامر خرج من يد الامبراطور الذي اصبحت سلطته واهية ، اقتطع لنفسه (١٧٢٢ – ١٧٢٤) امارة في الدكن وأسس فيها دولة وراثية ، اقامت صورياً ، الولاء للمغول الكبير . وسار على هذا النهج ايضاً ، في نيابة أوده الملكية ، سودوت خان ، هذه النيابة التي وقفها عليه السلطان محمود ، مكافأة له على خدماته . وعلى هـــذا النحو قس ايضاً نيابة البنغال وبيهار واوريسّا التي انفصلت عن الامبراطورية وأعلنت استقلالها . ولم يبق للمغول الكبير من سلطة فعالية الا في مدينة دلهي وضواحيها .

اما المهرات الذين كانوا في سبيل بسط سيطرتهم على الهند اجمع ، فقد اصطدموا في تقدمهم وتوسعهم بالدول الاسلامية ، ولا سيا بالنظام ، واخذوا يطالبون بفرض الرسوم والضرائب على ممتلكاتهم . ومع ان النظام فشل في حروبه ضد المهرات (١٧٢٩ – ١٧٣٦) فقد نال مع ذلك، وعداً بالا يدخل المهرات الى ممتلكاته . وقد تعهد من جهته بالا يسبب لهم اي ازعـاج ، ولا أية مضايقة في متابعتهم فتوحاتهم باتجـاه الشمال وباستئناف غزواتهم في هذه الناحية . وقـام المهرات بعدة غزوات امتدت الى مشارف البنغال ، واجبرت بيهار واوريسّا على دفع جزية لهم ، وكذلك كان شأن راجا ميسور . ووجه بلاجي راو غزواته باتجاه الراجبوت والبنجاب والاوده واستولى على مدينة باسّن بعد ان طرد البرتغاليين منها ، وهدد غوا بالمصير ذاته ، وقام بغزوة على الممتلكات الفرنسية الا انها باءت بالفشل . وقد بدا ان مغازي المهرات ستتنـــاول الهند في جميـع اطرافها فركب الهم والغم نبلاء المغـــول ، كما ان القلق دب بـين التجار والفلاحين الهنود . وهكذا تعطل في البلاد النظام الاجتماعي المعمول به وبارت التجارة وأرهق الفلاحون . وقام خليفة نظام الملك ، هو النظام سلبات – يونغ بجهود طيبة في هذا المجـــال واستعان بفرقة السيباي التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي بوسي الموفـــد من قبل المعتمد الفرنسي دوبليكس . وقد انكسر بلاجي – راو ، عـــام ١٧٥١ ، الا ان الفرنسيين اضطروا للانسحاب عندما اشتدت منافسة الانكليز لهم ، وغُلب سلبات يونغ على أمره واضطر للدخول في مفاوضات مع الانكليز انتهت بالتخلي عن بعض ممتلكاته . واستأنف خليفته نظام علي الجهاد ، الا ان الفرنسيين تخلوا عنه عند نشوب حرب السبع سنوات. بعد ان عرف المهرات كيف يستفيدون من تفوق جنود فرقة دي بوسي ، فأعادوا تنظيم جيشهم ، وقوّوا من شأن فرقة المشاة والمدفعية عندهم بتزويدها بمدافع شبيهة بمـا كان منها لدى الفرنسيين . وهكذا غُلب نظام علي امره وتوزعت ممتلكاته بدداً .

هذه الحروب المتصلة الحلقات بين الهندوس والمغول وما الحت من نهب وسلب واستباحات عرضت الامبراطورية المغولية لغزوات جديدة بعد ان طمع بهـا الطامعون . فبعد ان عامل امبراطور المغول ، شاه العجم نادر شاه ، بازدراء وعجرفة، راح هذا الاخير يهاجمه عام ١٧٣٩ .

فوجد الشاه في منطقة كابول وبشاور نواب ملك عاجزين مالوا بوظائفهم للعصوبية ، كما وجد الحاميات في غاية الاهمال ، والقبائل التي عُهد اليها الانذار بالخطر والاستنفار والحد من تقدم الغزاة ،تتذمر وتتأفف غير راضية لعدم قبضها مرتباتها . فدخـل الهند وكسر السلطان محمود واستولى على دلهي وقام بنهب البلاد بصورة منتظمة ، وحمـل معه عرش المغول الكبير ، ثم غادر البلاد وقفل راجعاً فجأة بعد ان اوصى السكان بطاعـة الامبراطور والامتثال لاوامره بعد ان اوسعه نهباً وسلباً . وقد قام الافغان بقيادة احمد عبدلي يغزون الهند مراراً ، بعد ذلك، سنة ١٧٤٨ ، الا انه تمكن من ايقافهم واخراجهم من البلاد ، ومن غزوها سنة ١٧٥٢ فتمكنوا من احتلال البنجاب وتعيين نائب ملك مغولي فيه ليس له من السلطة سوى الاسم ، وفي سنة ١٧٥٦ استولوا على دلهي ، واخيراً سنة ١٧٥٩ . وقام الهنود هذه المرة بحركة عامـة اشترك فيها المهرات والسيخ ، الا ان الانشقاقات الحادة نشبت بينهم وهم يواجهون عـدواً مشتركاً . فقد تخلف عن القدوم البهوسلا من بيرار ، ونائب ملك بوده القرم موقفاً معـادياً من المهرات . كما انسحبت جماعات اخرى من المواقع المخصصة لهـا في تعبئة الجيش . ولم يعرف المهرات ان يستفيدوا كما يجب ، من مدفعيتهم ومن الفرق العاملة لديهم والمعبئة على نظام التعبئة الفرنسي ، عدا عن الفرق التي لم تأت شيئاً يذكر والتي لم تعرف ان تنسق حركاتها وتنقلاتها في اثناء المعركة لتأتي منسجمة مع حركات الفـرق المختلفة . وفي معركة بانيـوت التي وقعت في ٧ كانون الثاني ١٧٦١ ، انهزم المهرات شر هزيمة امـام مناورات الخيـالة الافغـان الضخمة وهجماتها العنيفة المتكررة .

ومعركة بانيـوت والهزيمة النكراء التي الحقتها بالمهرات ، وضعت حـداً في القرن الثامن عشر للحلم المعسول الذي راودهم بان يروا الهند حرة مستقلة . فقد فُتّ في عضد المهرات بعد معركة بانيبوت الطاحنة التي خسروا فيها ٢٠٠،٠٠٠ جندي من خيرة رجالهم ومعظم قوادهم وزعمائهم بقطع النظر عن النساء والاطفال . ومنذ ذلك الحين اصبحوا اعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متماسكة الاطراف لتقف بنجاح ضد هجمات البدو ، هذا اذ سلمنا جدلاً انه جـال في خاطرهم مثل هذا الحلم ، وأوتوا مثل هذه القدوة . اما الدول الهندية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب ، مهيضة الجناح . وكذلك قل الدول الاجنبية كالأفغان الذين لم يبرهنوا الا عن مقدرة فائقة على الغزو والنهب والسلب ؛ وايران التي راحت فريسة حروب اهلية ، داخلية ؛ وقبائل التركستان والمغول التي لم تلبث ان راحت فريسة هجوم الصينيين بعد ان تمت لهـم مدفعية من الطراز الاوروبي . ومن جهة أخرى ، فالتطور الذي عرفـه حلف السيخ وتمركزه في مدينة لاهور ألف حاجزاً قوياً في وجه الغزوات التي كان يقوم بها الافغان ، كما وقف حاجزاً دون تعديات شذاذ الآفاق في التركستان والعجم الذين كانوا يمدون الامبراطورية المغولية بحاجاتها من قواد الحروب ورجال السياسة . وهكذا سار الامبراطور والامبراطورية المغولية على طريـق الانحلال والانهيار ، ولم يعد في مكنة أحد ان يعيد الى الهند وحدتها بعد ان اصبح تاريخها سلسلة

متصلة الحلقات من الفوضى والاشتباكات الدامية . فعم البؤس البلاد وخيم عليها الضيق، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم ، قبل كل شيء على سواعدهم والاعتصام بالحيلة . اذ لم يعد المرء يهتم قبل كل شيء الا بما يؤمن له أود العيش وما فيه أمنه وسلامته ، لا يلوي على شيء وفقد كل ثقة بالناس . وبارت الارض وما عليها من زرع وضرع ، لفقدان الطمأنينة ولاشتداد المجاعة في البلاد . وتعرضت المواصلات لمخاطر كثيرة واصبح المسافرون عرضة لفتك النمرة والفيلة، وشلت حركة التجارة في البلاد . فالقرى اقفرت من ساكنيها، والمدن غادرها اهلها ، وتداعت الخراب الهياكل والمساجد في مقاطعات كثيرة . فتدخل الاوروبيين وحدهم في القرن الثامن عشر ، سيساعد على إعادة النظام واستقرار الأمن تدريجياً في البلاد ويفتح امامها ابواب التطور .

بذل الاكليروس جهوداً طيباً في حقل التبشير بالمسيحية في الهند ، ولا سيا في ممتلكات البرتغاليين ومراكزهم الرئيسية امثال غوا ودبو ودامان ، كما عمل في هذا المجال ، رجال الرسالة بعض ابناء الرهبانيات الكبرى . قام في وجه الرسالة عقبات كأداء كثيرة . فالمسيحية قالت وعلمت بمبدأ المساواة ، وهو مبدأ يتعارض كلياً ونظام الطبقات المعمول به في الهند . فالروح يهب حيثما يشاء والله لا يأخذ قط بالوجوه . فكيف يألف البراهمان او يقبلون فكرة تناول القربان من يد كاهن هو من طبقة المنبوذين ؟ فمجرد تصور الاحتمال تدنيس له وتلطيخ لطهارته ، ومجرد التفكير به يحمل فرائصه ترتعد فرقاً وجزعاً ، كما ان مجرد اعتناقه للمسيحية يخلف فيه عوجاً او شوهاً لكيانه ويسبب له عذابات مبرحة . فالهندي الذي اعتنق المسيحية وارتضاها له عقيدة ودستوراً ، لم يعد يجوز له الخضوع للمراسيم والامتثال الطقوس الدينية التي كان عليه ان يأخذ بها ويخضع لها وهو على الهندوكية ، وكذلك قل عن الخرافات والطقوس الصنمية . وافراد الطبقة الذين انفصل عنهم وانقطع عن شراكتهم لا يستطيعون بعد ان يحافظوا على هذه الوشائج والروابط التي شدتهم بعضاً الى بعض من قبل ، بعد ان اصبح المتنصر ، في نظرهم ، رجساً ، نجساً ، كما امتنع على هذا المتنصر الدخول في أية طبقة اجتماعية اخرى . ولذا فهو يجد نفسه مفصولاً او مقطوعاً عن كل طبقة ، معزولاً عن جميع الناس ، مشرداً ، مرذولاً ، ضائعاً في متاهة الحياة .

ومن جهة ثانية ، فالمسيحية هي نفي من الاساس ، لهذه الصورة التي رسمتها كتب الهندوس القديمة للكون ، والتي قالت بها الهندوكية وعلمت ، والتي تمور بها وتلهج اناشيد الهندوس وزبورهم . فالصعوبة الكبرى لم تقم في القول بتعدد الآلهة ولا بالقول بالمذهب الروحي في الحيوانات . فهي تكمن في هذه الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة الهندوكية بعد أن تلقحت البراهمانية بالمؤثرات اليانية والبوذية ، كالمطلق والكائن غير المتناهي ، والخالد ، وكلها افكار آخذة ابداً في تطور دائم . وهذا الكائن المطلق يبدو للناس انبثاقاً متصلاً من الاشكال والكائنات المتغيرة ، ممثلة في هذه الكواكب والاشياء والنباتات والحيوانات والناس والآلهة انفسهم ، وهي صور واشكال ليست في الواقع سوى خيالات ومظاهر غرارة لهذا الكائن

المطلق لا وجـــود ولا حقيقة لها في غـير ذاتها . هذا القول يفضي بصاحبه الى الحلولية . فالاشياء كلها اجزاء من المطلق ، من الكائن الأسمى . وهــذا القول بالذات يصدم المسيحية في الصميم ويبطل العقيدة المسيحية ويملأ نفس المسيحي رعباً وظلاماً . وبالفعل ، فمع ان الايمـــان بيسوع المسيح هو بمعزل عن كل فلسفة او مذهب فلسفي، فقد راح علماء اللاهوت يستعينون ببعض الصفات التاريخية ليفسروا كلام الله ، اي الكتاب المقدس لتقريب مفهومه من مدارك الناس ، مستعينين على ذلك ببعض الاصطلاحات والتعابير والتراكيب التي وردت على ألسنة فلاسفـــة الأغريق كأفلاطون ، ولا سيما ارسطاطاليس ، ثم توسعوا فيها واكملوهـا . فالعقيدة المسيحية اتضحت وتبلورت وتركزت على اساس من هذه المصطلحات الفلسفية التي تقول اساساً بــأن للاشياء المحسوسة جوهرها الفرد، هذه الصورة المتعدّدة التي تعطي المادة شكلها وكيانها وصيغتها وطبيعتها المميزة . فالكون وجود واقعي . فالعالم الخارجي ، قائم موجود .وهذا القول يحمل العقيدة المسيحية بوجود الله شخصي ، جوهر روحي ، حقيقي متميز اصلا وجوهراً عـن العالم ، الاساس الركين للايمـان بالسيد المسيح . ففي نظر هندي مثقف كما يجب ، فالمسيح ليس سوى مظهر من مظاهر الكائن الاكبر التي لا عدّ لها ولا حصر . فاعتناقه المسيحية والقول بمقالتها ، يكوّن عنده بالفعل ، انقلاباً جذرياً ، كلياً ، لافكاره ومكنوناته ويقلبهـــا رأساً على عقب وظهراً لبطن .

هذه الصعوبات وغيرها كثير لم تحـــل دون حصول ارتدادات بين الهندوس واعتناقهم النصرانية ، انما هي ارتدادات اقل بكثير ممـــا تمنته محبة المرسلين وسمت غيرتهم الملتهبة الى تحقيقه ، وقد تاقوا لو يستطيعون ارتداد كل الهندوس. فقد قـــام الآباء اليسوعيون ، في القرن السابع عشر بمجهود جبـار ليوفّقوا بين المسيحية وبين فكرة الهندوس ونظامهم الاجتماعي . فقد حافظوا على مظاهر طقوس هندية كثيرة ، ووضعوا اناشيد وأماديح دينية تحاكي من حيث شكلها ومحتواها ، الاناشيد والتراتيل الهندركية القديمـــة بحيث لا يستطيع التمييز بينها الا من أوتي بُعد النظر وصدق الخبر ودقة البصر . وقد اقتبسوا كثيراً من حكمة الهنود وادخلوها حِكمَ المسيحية ، وراعوا ، مـا امكن ، مفارقات الطبقات الهندية . فاليسوعي الذي تلبس مظاهر البراهمان ازدرى بأخيه اليسوعي المتدثر باسمال المنبوذين وضرب كشحاً عنـه . فاذا ما تحتم على يسوعي مثلاً ان يحمل القربان الاقدس لمسيحيين من طبقة ادنى ، كان عليـه ان يناولهم القربان على رأس قضيب او ان يتركه على عتبة منزل المسيحي . وهذه « الطقوس الملابارية » ، سببت الشكوك لعدد كبير من المرسلين وحركت فيهم الغضب والحقد . فقد اصدر البابا ، منذ عـام ١٧٠٤ براءة رسولية يشجبها باعتبارها مغايرة للروح والآداب المسيحية . وفي عام ١٧٤٥ جاءت البراءة البابوية *Sollicitudo omnium* تؤيد الحكم السابق وتثبته . فلا عجب ان تخف من جراء ذلك حركة الارتدادات . ومع ذلك ، فقـد بلغ عدد المسيحيين في الهند ، عام ١٧٥٦ ، نحواً من المليون . الا ان الملوك اخذوا بمحاربة اليسوعيين . ففي سنة ١٧٥٧ ، أمر بمبال باعتقـــال

١٥٧ مرسلاً يسوعياً في الهند وإبعادهم الى لشبونة . وفي سنة ١٧٥٨ ، صدر امر يمنع الآباء اليسوعيين من القيام برسالتهم في المستعمرات البرتغالية ، فاضطر بضع مئات من الرهبان والمرسلين الى مغادرة تلك المقاطعات ، والعودة من حيث أتوا . وفي سنة ١٧٦٤ ، جاء دور المستعمرات الفرنسية . وفي نهاية المطاف اصدر البابا عام ١٧٧٣ ، مرسوماً بالغاء الرهبنة اليسوعية ، مع العلم ان الحروب المتصلة وفساد الاخلاق والآداب الآخذ بالانتشار لم يكن ليساعد كثيراً على نشر ديانة تقوم على البذل بالنفس والتجرد والمحبة ، والتي تجعل من طهارة القلب الشرط الاساسي لاقتبال كلمة الله ، والى هذا ، راح المسلمون والهندوس انفسهم يضطهدون المسيحيين . ففي خلال حروب ميسور (١٧٦٦ - ١٧٩٩) قتل تيبو - صاحب ، اكثر من ١٠٠،٠٠٠ مسيحي او جعلهم يرسفون أرقاء في العبودية . والهولنديون الذين كانوا على البروتستانتية ، اخذوا ، هم ايضاً ، يضطهدون الكاثوليك ، في جزيرة سيلان ، ويطردون المرسلين العاملين فيها او يأمرون بقتلهم . ففي سنة ١٨٠٠ ، لم يكن عدد المسيحيين في الهند ليزيد على ٥٠٠ الف. ثلثاهم قام في المستعمرات البرتغالية القديمة ، يقوم على خدمتهم الروحية اكليروس وطني ، بينما الباقون منهم هم مشتتون في جميع ارجاء الهند وسيلان ، على خدمتهم مرسلون كبوشيون وكرمليون ومرسلون تابعون للارساليات الاجنبية . وهكذا فشلت حركة الارتدادات كلها فشلت تماماً حركة فرنجة الهند وتمثلها الحركة العقلية الاوروبية .

وقد نجح الاوروبيون في مجال آخر ، خارجي المظهر ، سطحي المنظر ، هو بدء استعبادهم الهنود واستثمارهم لمرافق الهند . ففي ، مطلع القرن الثامن عشر نشط العمل في الهند شركتان تجاريتان احداهما فرنسية والاخرى انكليزية . لكل واحدة منها مجلس ادارة اعضاؤه من بين كبار حملة الاسهم فيها. فالشركة الانكليزية تتولى هي نفسها ، ادارة اعمالها ، بينما كان يتولى ادارة الشركة الفرنسية مدير يعينه الملك نفسه وتخضع اعمالها لمراقبة مفتشين ماليين . وعلى المدير ان يتقيد بتعليمات الحكومة الفرنسية وتوجيهاتها . وكان مجلس الادارة يتمثل في الهند بحاكم عام يتولى مهام الادارة ويقوم بتوجيه وكلاء الشركة وممثليها في المقاطعات . وقد نالت كلتا الشركتين من المغول الكبير ، إمتيازات تخولها تأسيس وكالات تجارية لها . فأنشأ الانكليز لهم وكالات هامة في مدراس وكلكوتا وبمباي وصورات ، كما أنشأ الفرنسيون وكالات لهم في بنديشري وشندرناغور .·واشتدت المنافسة بين الشركتين اشتداداً قوياً اذ ان تصدير البضائع الهندية الى أوروبا (منسوجات القطن والموسلين والحرائر والشاي والبن والفلفل الخ) كان يعود على التجار بأرباح طائلة تصل احياناً الى ١٠٠٪ الا انه منذ ١٧٣٠ ، كان معظم حملة الأسهم في الشركة الفرنسية من ذوي الايراد المحدود الدخل.كما ان مديري الشركة هم موظفون لا يهمهم كثيراً نجاح اعمال الشركة التجارية الموضوعة تحت اشرافهم او ازدهرت مشاريعها او لم تنجح .

تمكنت الشركة الفرنسية من النهوض بأمورها التجارية بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بشكل يثير

خريطة ـ ٥ الاوروبيون في الهند
الممتلكات الفرنسية الى عام ١٧٥٤ ـ ١ ممتلكات تابعة مباشرة للشركة ٢
الحلفاء والاتباع . الممتلكات الانكليزية : ٣ ـ الى عام ١٧٥٤ ـ ٤ ـ
جرت ضمها او فرضت عليها الطاعة منذ ١٧٥٤

الاعجاب . فبينا اعمال الشركة الانكليزية كانت تعاني الركود والجمود ، لقد اعتمد الحاكم الفرنسي العام دله نوار ، مبدأ الاتجار في الهند ومع الهند ، بالنظر لهذه الفوارق العظيمة التي باعدت بين مختلف اجزاء البلاد والعباد فيها ، اي ان الشركة استخدمت كوسيط في اشباع مطالب شعوب الهند وتلبية حاجاتها . فاستطاعت الحصول على امتيازات جديدة من المغول الكبير ، منها مدينة ماهيه (١٧٢١) وياناون (١٧٢٣) . فقد بدا واضحاً للحاكم الفرنسي العام دوماس (١٧٣٥ – ١٧٤١) ، وهو يشاهد عن كثب تفسخ امبراطورية المغول وتناثرها ، ان الاستمرار في الاعمال التجارية بنجاح يقتضي له قوة مسلحة تفرض حولها الهيبة والاحترام وتدعم المفاوضات التي تقيمها الشركة مع مختلف الامراء الذين يحققون استقلالهم الناجز . فلم يغل في تقديره ما العرف من اهمية (كما انه لم ينتقص بوصفه مستمراً مطلعاً جيداًعلىما للأوضاع المتحكمة) من قيمته ، وادرك جيداً ان الهنود سيكونون غيرهم بعد ان يتعرفوا الى النظام الأوروبي المدهش ويستمرئوا ميزاته وحسناته . فشكل طوابير وطنية اتخذ افرادها من بين فرقة السيباي المعروفين ببرودة دمهم ورباطة جأشهم ، حتى اذا ما تسلحوا بالبنادق الجديدة والمدفعية الخفيفة ، قاموا بالمعجزات المدهشات اذا ما قيسوا بغيرهم من الهنود الذين يتألف سلاحهم من بنادق قديمة ومدافع ثقيلة والدروع المزردة وغير ذلك من الاسلحة . وأنشأ له علاقات مع بعض الامراء كنائب كرناتيك ، ولم يتردد قط عن الاعتراف لهم بالتابعية والولاء . وتعهد له ، لقاء إيلائه امتيازاً جديداً للاتجار ، بدفع بعض الرسوم كما قدم له مراسم الطاعة مع فرقته السيباي . وهكذا نال من احد الراجات امتياز كاريكال عام ١٧٣٩ . وبرهن عن مشاعر انسانية كريمة في علاقاته مع ابناء البلاد ، وأظهر احتراماً لعباداتهم وعاداتهم وطقوسهم الوطنية . ولم يهمل قط امر مفاوضة المغول الكبير الذي انعم عليه بلقب ناباب ، وهو لقب ينتقل الى الابناء بالوراثة . وهكذا اصبح من توابع الامبراطور مباشرة ، وأصبح له في الممتلكات الفرنسية سلطة أكبر على ابناء البلاد ، كما علا شأنه وارتفعت منزلته في نظر جميع الهنود ولا سيما في نظر الملوك والرؤساء وأصبح يتعامل معهم كالند للند .

وسار على نهجه وسننه خليفته في الحاكمية دوبليكس (١٧٤٦ – ١٧٥٤) الذي كان يعرف الهند معرفة عميقة وتزوج من احدى الخلاسيات احسنت التكلم بعدة لهجات هندية . إلا ان حرب خلافة النمسا[1] اضطرته التوقف في نهجه والصمود في وجه الشركة الانكليزية. واستطاع بمساعدة عمارة لابوردونيه الذي كان حاكماً على جزيرة فرنسا ، ان يتحكم بطرق المواصلات بين الهند والصين ، واستولى على مدينة مدراس (١٧٤٦) وقد تردد قليلاً بين ان يهدم المدينة من الاساس وبين الاحتفاظ بها . الا انه رضي باعادتها الى الانكليز لقاء فدية عالية دُفعت له . الا ان هذا النبيل المغرور الذي ارهقته المفاوضات مع جلف عنيد تنازل عن الهند. ودوبليكس نفسه

(١) ـ انظر المجلد الثالث ، الفصل الثالث .

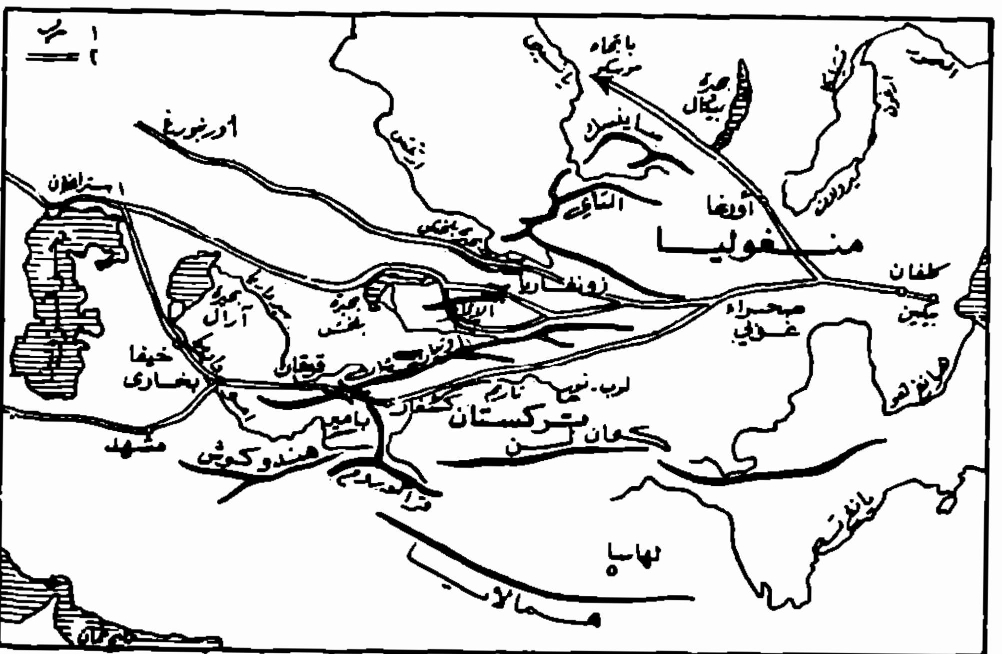

خريطة ٦- طرق آسيا الوسطى
١- الممرات الرئيسية ٢- طرق القوافل.

اثنى عن متابعة فتح المراكز التجارية الانكليزية . ومع انه لم تصله أية امدادات جديدة من الحكومة الفرنسية الغارقة في حروبها في القارة ، فقد احتفظ بمدراس وتمكن عام ١٧٤٨ من صد هجوم بحري قامت به عمارة حربية انكليزية ارفدتها حكومة الانكليز لتعزيز مركز الشركة الانكليزية التي لم تغفل قط عن حربها الاساسية ضد بُنديشري . وجاءت معاهدة أكس لا شابل تعيد الأمور في الهند الى وضعها السابق : فعادت مدراس الى ايدي الانكليز . وقد تمتع دوبليكس بنفوذ عظيم وشهرة واسعة في الهند حتى ان المغول الكبير بعث يهنئه على البسالة والشجاعة التي ابداها .

وخطر لدوبليكس ، آنذاك ، ان يجعل من الشركة الفرنسية سلطنة هندية، وذلك محافظة منه على ما لها من امتيازات تجارية عريضة وتأميناً لموارد ورسوم ثابتة. فقد اراد ان ينحو نحو التوابع الأخرين الذين يعترفون بالولاء للامبراطور ، وينشيء الشركة مملكة مستقلة مع الاستمرار على ولائه للامبراطور والاعتراف بسلطته الاسمية . فتدخل في المشكلات والنزاعات التي لم يكن للخلافة الامبراطور بد من إثارتها وبمشاورجع النصر والفوز النهائي للمطالب بالخلافةمن انصاره. وهكذا اصبح نابب كرناتيك من توابع الشركة الفرنسية ، كما ان نائب باب الدكن قبِل بحمايته وتنازل له عن مقاطعة السركار (١٧٤٩ - ١٧٥١) . وقد استنفر المهرات جيوشهم وقوامم لتأييد مطالبهم بالسيطرة على الدكن كاملا وتوافدوا باعداد كبيرة ، إلا انهم كسروا شر انكسار ، وهي نتائج أمكن له الوصول اليها بقبضة من الجند ، بينهم ٣٠٠ من الفرنسيين ، و١٨٠٠ من السيباي مع كتيبة من المدفعية بقيادة المركيز دي بوسي، هذا الزعيم المدهش الذي يعرف كيف يبعث الحماسة والنشاط في قلوب رجاله ، والذي ارسله دوبليكس فعرف كيف يستولي على جميع اطراف الدكن وألحق الهزيمة بجيش المهرات الذي تجاوز ١٠٠،٠٠٠ محارب، معظمهم من الفرسان .

ادرك احد الموظفين الانكليز في الشركة الهندية الشرقية الانكليزية، يدعى روبرت كليف، بعد فترة من الزمن ، ان السبيل الوحيد للصمود تجارياً ، في وجه الفرنسيين، هو انتهاج السياسة التي ينتهجونها ، فقرر السير على خطتهم والنسج على منوالهم . فتاريخ الهند في هذه الحقبة ،يرى في الشركتين المذكورتين المتنافستين ، تابعين من توابع المغول الكبير الآخذ بالانحطاط والانحلال ، يحاول كل منها الاستئثار بأكبر قسم من تركته . فبعد ان تلقى كليف إمدادات قوية من لندن ، تشكلت من جنود انكليز ومن مدفعية ، تمكن من دحر نابب كرناتيك (١٧٥١) ، وتغلب في معركة وريشينا بالي، على الضابط الفرنسي لو *Law* ابن شقيق الاقتصادي المشهور بهذا الاسم ، الذي كان يتولى قيادة فرقة من فرق دوبليكس (١٧٥٢) .

اضطر دوبليكس لطلب امدادات جديدة من الشركة . غير ان الشركة الفرنسية تفتقر للمال ، منذ عهد لو ، لتنهض باعمالها ولتحقق مشاريعها ، وهي مشاريع لم تكن ثمارها دوماً دانية القطوف . وكانت الحكومة الفرنسية راغبة في السلام ولم تسع صادقة اليه . فاستبدلت

ة . ٧ توسع الصين في آسيا الوسطى
لمناطق نفوذ كل من روسيا والصين . ٢ . الحدود
. ٣ . الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الصين
١٧١٥ . ٥ فتوحات الصين بين ١٢٣٤ . ١٢٤٠
، عام ١٧٥٥ .

دوبليكس ، بحاكم آخر يدعى غودهو الذي سارع فوقع ، عام ١٧٥٤ ، معاهدة مع الانكليز ، من شروطها ان تتخلى الشركتان عما تنعم به من القاب وطنية ، والتنازل عما لها من حمايات والتخلي عن كل الامتيازات التي اعترف لها بها خارج مراكزها التجارية . فكانت صفقة المغبون في اقدس حقوقه واعزها ، اذ لم يكن للانكليز غير مراكز تجارية في البلاد بينما الامتيازات التي نالتها الشركة الفرنسية ، والسلطة الواسعة التي تمتعت بهما ، امتدت فوق رقعة من ارض الهند تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسا ، وكانت تعد من السكان ١٣٠ مليون نسمة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنازلات لم يكن مندوحة من الحرب بين الشركتين والبلدين .

فبينا اخذ الفرنسيون بشن هجوم على المانيا ، راح كليف يهاجم البنغال ، المعروف نابابها بعدائه للانكليز ، وباستيلائه على مدينة كلكوتا ، وحشره ١٤٥ انكليزياً في سجن ضيق لا يدخله الهواء ، يعرف بالتاريخ باسم : « الوكر الاسود » حيث قضى ١٢٦ منهم اختناقاً بعد ان عانوا آلاماً مبرحة . استرجع كليف مدينة كلكوتا واستولى على شندرناغور ، وهزم سوباب بلاس شر هزيمة (١٧٧٥) ورفع الى العرش سوباباً اختاره هو، رضي بحماية الشركة الانكليزية . واذ ذاك ، حدثته نفسه بمهاجمة الفرنسيين مباشرة . وقد ارسلت الحكومة الفرنسية ، عام ١٧٥٨ ، حاكماً عاماً ومديراً للشركة هو لالي – تولندال ، ومعه ٣٠٠٠ جندي فرنسي . غير ان الحاكم الجديد الذي كان يجهل جهلاً مطبقاً امور الهند وشؤونها ، اظهر احتقاراً كبيراً لهذه البلاد والهنود ، اذ راح يلقبهم : «بالصعاليك السود» ، وكان سلوكه في الهند سلسلة من الاغلاط والمساوىء . واستدعى بوسي اليه بحجة ان فرنسا لا يهمها كثيراً ان ينازع الابن الاصغر اخاه الاكبر السيادة على الدكن ، كما انها لا تهتم قط بهذه المنازعات التي تقوم بين راجاوات الهند ونواباتها . ولما ايقن سوباب الدكن ان الفرنسيين سيتخلون عنه طلب حماية الانكليز الذين انصرفوا لمشاغلهم في اماكن اخرى . فتغلب على امره امام المهرات ، وهكذا فقدت فرنسا اهم انصارها . وراح لالي – تولندال يثير بسوء تصرفه وبعنفه سكان البلاد . وانقطع عنه المدد لانشغال فرنسا بحرب المانيا . وبعد ان حوصر في مدينة بونديشري هو و ٧٠٠ من رجاله على يد الجيش الانكليزي الذي تألف من ٢٢ الف محارب يشد ازرهم اسطول بريطاني ضم ١٤ سفينة حربية بقي يقاوم عبثاً خمسة اشهر واضطر للاستسلام في كانون الثاني ١٧٦١ . وقد اعادت معاهدة باريس الشركة الفرنسية مراكزها التجارية الخمسة في الهند على شرط ان تزيل من الاساس ما قام عليها من حصون وقلاع ، وان تبقى عزلاء من كل حامية وان تتخلى عن كل نزعة سياسية وبعبارة اوضح عن اهداف تجارية عليا . وهكذا هبطت موارد الشركة بسرعة وانحلت عام ١٧٧٠ .

وهكذا لم تعد الشركة الفرنسية لتثير اي قلق او اي ازعاج للانكليز في الوقت الذي اخذ الضعف يدب الى المهرات ، اقوى سلطة هندية ، اذ ذاك ، بعد انكسارهم المميت في معركة بانيبوت ، فصال الخسف الذي اصيبوا به دون قيامهم بأي مجهود يذكر في البنغال . وبالرغم من

هذا كله ، لم يتمكن الانكليز من احتلال الهند كلها بعد ان ادرك كليف جيداً انه من الأرفق للمصلحة الانكليزية ان يوطد نفوذه ويرسخ سلطته في هذه الممتلكات التي تقع تحت اشرافه بدلاً من السعي للتوسع باضافة مقاطعات جديدة الى ممتلكات الشركة . واوصى بان يقتصر عمل الفتح والحرب على ما لا مندوحة عنه او ما لا بد منه . وهكذا بقيت قائمة مُطِلّة على الوجود دويلات هندية جديدة كانت على شيء من القوة والشأن في المجالين السياسي والحربي ، وجدت في بعض الضباط الفرنسيين خير معوان لهاْ . هؤلاء الضباط قد سبق لهم وعملوا من قبل في خدمة الشركة الفرنسية في الهند ، بينهم الضابط لو ، والكونت موادافو والفارس دي كريسي وميدوك ودرينباك ، والالماني رينهارد سمبر ، ثم انضم اليهم بعد ان وضعت حرب السنوات السبع اوزارها ، مغامرون شباب اكثرهم من الفرنسيين ، وغيرهم ايطاليون وفلمنكيون وهولنديون وكونت دي بوانى من مقاطعة السافوى . وراح امراء الهند يتخاطفون الضباط الفرنسيين ، فاستخدمهم نابابُ اوده عام ١٧٦١ ، الا ان جيشه انكسر امام قواد كليف قبل ان يتمكن هؤلاء الضباط من اعادة تنظيم صفوفهم . وراح بعض هؤلاء الضباط يعمل في خدمة الامبراطور المغولي علم الثاني فكانوا عوناً له في كثير من المعارك التي انتصر فيها . كما راح البعض الآخر يعمل في خدمة المهرات مادافا سندهيا (١٧٣٠ - ١٧٩٤) وهو احد الراجاوات الذين نجوا من معركة بانيبوت ، الذي استطاع ، بفضل مساندة هؤلاء الضباط ولا سيا بفضل مؤازرة الكونت دي بوانى ، ان يقتطع له في الشمال الغربي من الهند امارة توازي مساحتها مساحة فرنسا والمانيا مجتمعتين ، واعاد سلطة الامبراطور عام ١٧٨٩ ، وحطم غزوة قام بها الافغان ، عام ١٧٩٠ . واخيراً نرى عدداً من هؤلاء الضباط في خدمة سلطان ميسور ، تحت حكم حيدر علي وتيبو - صاحب ، من اشد خصوم الانكليز ومن اعدائهم الالداء في الهند . وكان هؤلاء الضباط موضوع تقدير الجميع لما امتازوا به من روح الانضباط الذي عرفوا ان يفرضوه على الجنود . فبعد ان حذقوا التغلب على مشاعرهم الاولية بفضل التدريب الذي خضعوا له ، والتحكم بأحاسيسهم ، اخذوا يقومون بصورة آلية ، وبانضباط كلي ، تحت وابل من القذائف النارية بحركات ومناورات يكررونها الوف المرات في مأمن من المؤثرات العارضة متحررين تماماً من الفوضى والهلع الذي تستسلم له الجماهير المتاعة التي لم يتيسر لها التدريب على التحكم بعنان النفس في الاوقات العصيبة . وهكذا ارتدت الفرق الوطنية قوة تأثير شديدة ، كما ارتدت صلابة لم تكن لها من قبل ، دون ان تبلغ مع ذلك القوة والصلابة التي تميزت بها الفرق الاوروبية . وقد حمل هؤلاء الضباط معهم معرفة استخدام الاسلحة الجديدة وهي معرفة زادت كثيراً من فعاليتها . كذلك قاموا بتشكيلات وتعبئات ومناورات جهلها الجنود من قبل . وقد دشّن الكونت دي بوانى ، ضد الافغان في الهند نوعاً من التعبئة الجديدة تعرف : « بالمربعات الجوفاء » ، تبناها بونابرت وولنغتن فيما بعد . فالافغان ، هؤلاء الفرسان الذين كانوا يحاربون بروح القرن الثالث عشر مدججين بالاسلحة ، والذين كانوا يقضون

طوال الليل في مماقرة الخرة ، وكانوا في النهاية يدورون ويدورون عبثاً حول هــذه المربعات التي كانت تقذفهم حمم النــار والموت،ثم تنتهي المعركة بالفوز المرتجى بهجوم بالسلاح الابيض ، بعد ان يكون قائدهم الزعيم تناول العشاء وتجديد نشاطهم بالنوم ليــلاً . وقد القن هؤلاء الضباط روح الانضباط وفن التعبئة ، فوضعوا المبادىء الاساسية لكل تعبئة منهجية وحددوا قواعدها الثابتة ، وهي اسس وقواعد عمــل الانكليز فيا بعد ، على تطويرها . وقد اتصف عدد كبير من هؤلاء الضباط بطيب القلب ، مما حمل افراد الفرق الوطنية ، على الامتثال لهم والتفاني في خدمتهم ، بخلاف الزعمــاء الوطنيين الذين كان الفساد اخذ منهم كل مأخذ وغلبت عليهم اطماعهم الاشعبية . وكان الجنود يفضلون السقوط في مراكزهم ، في ساحة الوغى بعد ان يروا ضباطهم يجندلون في الصفوف الامامية ، وهم يقودونهم للحرب . وقد كان قبر احــد هؤلاء الضباط البواسل ، الضابط الفرنسي ميشال ريمون ، موضوع تكريم جميع الجنــود الشباب يحجون اليه كرمز للبطولة والفروسية حتى مطلع القرن العشرين . وبقي رعايا الراجا مادهاجيا سندهيا يذكرون بأسف ، وهم تحت حكــم الانكليز وسلطانهم ، الروح الانسانية التي تميز بها الضباط الفرنسيون في ادارتهم الفرق الحربية التي أمّروا عليها . وهكذا عملت التقنية الاوروبية والروح الاوروبية كثيراً على تجديد القوى الهندية ، كما فعلت فعلهــا في تأخير نجاح تطور الانكليز في الهند .

ومع ذلك فقد حقق الانكليز نجاحات كبيرة . فقد نال كليف ، بـين ١٧٦٥ – ١٧٦٧ من المغول الكبير ، مهمة السهر على الأمن وجباية الرسوم والضرائب في البنغال والبيرار على ان يرسل قسماً منها الى دلهي. وهكذا اصبحت الشركة الانكليزية قانوناً وشرعا،الموظف الامبراطوري الاول في هذه المقاطعات . اما في الواقع فقد كانت بالفعل صاحبة السلطة فيها . ولم يلبث كليف ان فرض حمايته على ناباب اوده ، وعلى راجا بيناريس .

الا ان ما نال الهنود من العنف والضغط والعنت من قبل عملاء الشركة الانكليزية والارتكابات الكثيرة التي استهدفوا لها من قبل الانكليز الذين عرفوا بغطرستهم وعنجهيتهم ، حفزهم الى اعلان الثورة . ان البذخ الشرقي والاهمية الانتخابية التي تمتع بها هؤلاء «النابابـ» الانكليز ، عند رجوعهم الى بلادهم ، زرعت الشكوك في قلوب الانكليز . وبعد ان ثبتت جريمة الارتكابات على كليف وضع حداً لحياته بالانتحار . ان سيطرة شركة خاصة على مساحات شاسعة شكلت بحد ذاتها حادثاً هاماً للغاية . ولذا راح البرلمان الانكليزي يضع ، عام ١٧٧٣ ، قانون التنظيم الذي اوجب المزيد من الاشراف من قبــل الحكومة ، على الشركة . وبذلك ابتدأ مشروع اخضاع الامبراطورية البريطانية لتفتيش أدق من قبــل التاج . وهكذا وضعت كل ممتلكات الشركة تحت مراقبة حاكم عام هو الجنرال وورن هاستنغز الذي جاء تعيينه من قبل البرلمان ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يقرر شيئاً بدون الرجوع الى مجلس اعــلى ، اعضاؤه معينون من قبل البرلمان . وكان على مدراء الشركة في لنــدن ، ان يطلعوا الوزراء على جميع مراسلاتهم .

وقامت في كلكوتا محكمة عدل ، من صلاحياتها حق الرفض لكل قرارات الشركة .

غير ان الحاكم وورن هاستنغز (١٧٧٤ - ١٧٨٥) الذي كان طاغية ، شديد البأس ، لا ضمير له ولا وجدان ، راح يستثمر ، دونما خجل او وجل ، امراء الهند ويعتصرهم اعتصاراً . كان الناس في الهند يحملون حقداً عميقاً على الانكليز ، كما انهم سخطوا على ادارتهم وسلطتهم فيها . وحمل وورن على خلع راجا بيناريس وضم ممتلكاته . الا انه باء بالفشل امام سلاطين ميسور : حيدر علي وابنه تيبو - صاحب ، اذ رضخا الانكليز امام اكبر خطر واجههم ، بين ١٧٨٠ - ١٧٨٣ ، ابان حرب استقلال اميركا . فقد كان سبق لحيدر علي ان عقد حلفاً مع فرنسا ، فأسعفته ببعض الامدادات . فهاجم جيش ميسور بقيادة ضباط فرنسيين مقاطعة كرناتيك ، في حزيران ١٧٨٠ ، ودحر الانكليز ، وأسر عدداً كبيراً من ضباطهم الذين دانوا بخلاصهم من موت محتم لتدخل الضباط الفرنسيين. وفي البحر تغلب النبيل الفرنسي دي‌سوفرين، خمس مرات على الانكليز (١٧٨٢ - ١٧٨٣) في خمسة انتصارات متتالية ، اهمها وادعاها الفخر النصر البحري في معركة غوندلور (حزيران ١٧٨٣) . وكان الانكليز يفكرون جدياً باخلاء مقاطعة كرناتيك والانسحاب منها ، عندما تم عقد معاهدة فرساي التي اعادت السلام الى ربوع الهنود ، واضطر تيبو - صاحب الذي خلف أباه ، عام ١٧٨٢ ، الى توقيع معاهدة منغالور مع الانكليز (٧ آذار ١٧٨٤) ، بعد ان رأى نفسه منعزلاً، فأعادت المعاهدة الامور الى ما كانت عليه من وضع سابق .

فقد بلغ من تجاوزات هاستنغز لواجباته وكثرة مخالفاته المتكررة القانون وارتفاع صوت الهند بالشكوى المريرة عالياً والتذمر مما لحق بها من حيف ، ان اضطرت الحكومة البريطانية لاستدعائه وإحالته على المحاكمة . فقانون الهند الصادر ، عام ١٧٨٤ ، ترك الشركة حق تعيين الحاكم العام ، مع الحق للملك بعزله ، وانشاء مجلس تفتيش تُرِكَ للملك أمر تعيينه، مركزه لندن، كما أوجب هذا القانون ، على الشركة ، توجيه نسخة الى المجلس المذكور من جميع مراسلاتها .

وهكذا نرى الانكليز ، عام ١٧٨٩ يقيمون في الهند بشكل غريب تحت ستار شركة تجارية خاصة ، تابعة ، من جهة ، للمغول الكبير ، فاعتبرت عنده بمثابة موظف كبير ، كما كانت من جهة أخرى ، تابعة لرعوية ملك انكلترا ، يشرف عليها عن كثب ، يناصرها ويشد من ازرها في ما رمت اليه من تهديم الامبراطورية المنولية وانهاكها تدريجياً . وكان فتح البلاد أبعد من ان يتم ، اذ كان لا يزال في الهند ممالك مستقلة ، مهيبة الجانب ، منها مملكة السيخ في ماهاقيا سندهيا ، ومملكة ميسور . وكان الانكليز ، لما ابدوه من العجرفة والجشع ، وبما اظهروه من ضروب العنف والعنت والقسوة ، موضوع كره الجميع ، في كل مكان ، بحيث كان الكل يتوقع انفجاراً عاماً في البلاد .

الهند الصينية

سكن جبالها الحرجة اقوام يعتاشون من القنص والصيد والقطاف وشهدت احواض الانهر الخصبة التي تجري فيها ماجريات الاحداث. فقد اقتبس شعب المونز الذين جاؤوا البلاد من الشمال ، الحضارة الهندية وأسسو على مجاري نهري الايراوادي والسيتانغ مملكة بيغو . ترك المناخ وغنى التربة وخصبها اثره المخلخل في هذه الاقوام ، فاستسلموا للدعة والكسل واصبحوا ، بالتالي عرضة لهجمات البورمانيين الذين هبطوا من اعالي جبال همالايا واستوطنوا البقاع المحيطة بأعالي نهر الايراوادي وأخذوا يستمرئون الحضارة الهندية . وحوالي عام ١٧٥٠ ، تمت السيطرة نهائياً للبورمانيين . وفي سكرة النصر الذي حققوه خرجوا من حدودهم الطبيعية وفتحوا بلاد سيام واستولوا عنوة على العاصمة أيوتيا (١٧٦٧) وحملوا معهم كأسرى حرب ، جانباً كبيراً من الشعب السيامي ، وشتتوا المسيحيين أيدي سبا أو أبعدوهم خارج البلاد .

وقد تمكن شعب من اقوام «التاي» جاء من مقاطعة يو - نان من ان ينشىء له دولة في سيام احتلت في توسعها، حوض نهر مي - نام. وكان خط مقسّم المياه السُفلي نحو الشرق والسهول المشوشبة ، يتيح لهم القيام من وقت الى آخر ، بغزوات على الكمبودجيين المترحلين وعلى الامارات تاي في مقاطعة اللاوس المنعزلة في بعض الاحواض النهرية الخصبة ، بعد ان ابيدت دولة السيام من الوجود ، عام ١٧٦٩، ثم عادت وتملكت فيها الحياة من جديد اثر ثورة الفاجاتاك عام ١٧٦٩ التي جعلت من مدينة بنكوك ، عاصمة لها واستطاعت ان تعيد البورمانيين من حيث أتوا وردتهم ضمن حدودهم الطبيعية وابعدت من البلاد، المرسلين النصارى، واستأنفت سلسلة من الغزوات المدوخة باتجاه الشرق ، فتأخذ من الارقاء ما تحتاج اليه الارض من يد عاملة لاحياء موات الاراضي البور .

اما في الشرق ، فكانت دلتا نهر سنغ - كوي او التونكين ، والسهول الساحلية الصغيرة ، ودلتا نهر الميكونغ والكوشنصين ، منذ بضعة قرون ، عرضة لموجات من الغزاة هم الاناميون مستهدفين النيل من الحضارة الصينية. فقد تمكن هؤلاء الفلاحون الاشداء من طرد الكمبودجيين الذين ألفوا طبقة ارستوقراطية ، كدولة سيطرت على شعب من أسرى الحرب صار امرهم الى العبودية والرق . فبلغوا ، عام ١٧٥٣ مدينة ميتو . وكانت مملكة الاناميين تقيم ، ولو اسمياً ، الولاء للملوك «لاي» هؤلاء الملوك الكسالى المترفون في مدينة هانوي، كما اعترفوا بالتابعية للصين. واذ كانت مملكتهم محصورة في رقعة ضيقة من الارض ، فقد انقسموا ، في الواقع ، بين اسرتين من سدنة البلاط هما : «الترينه» في هانوي «والنغويين» في مدينة هويه . وقامت بين سدنة البلاط وبين الامراء الاناميين حروب متصلة ، كثيراً ما كان المسيحيون فيها عرضة للاعتصار والسخرة كما استهدف المرسلون انفسهم للعذابات والاضطهادات والطرد . غُلب نغويين - انه على امره،

فالتجأ الى احد المرسلين ، هو المطران أدران : بينيو دي بيهان الذي غادر البلاد وجاء فرنسا لائذاً بالملك لويس السادس عشر (١٧٨٧) . وللحال ارسل الملك بعض الضباط ، ومدفعية وبعض المهندسين ، مقابل التنازل له عن خليج توران وارخبيل بولو - كوندور . واذ ذاك استطاع نغوبين-انه ان يستولي ، عام (١٧٨٨) ، على مدينة سايغون وشرع بفتح مقاطعة الانام .

الانسولاند وقعت الانسولاند تحت سيطرة سلاطين الملايو الذين كانوا على الاسلام . الا ان الشركة الهولندية للهند الشرقية كانت لها الأولوية في هذه الاصقاع النائية وتحرص حرصاً شديداً على ابعاد الاوروبيين منها . وتتلت اهم ممتلكات هذه الشركة في جاوا المشهورة بإنتاجها الضخم للبهارات والنيلة والحرير . كذلك سيطرت الشركة على مدينة بتافيا (٥٠ الف نسمة) وما حولها من الضواحي والأرباض (٢٠٠ الف نسمة) وعلى السواحل الشرقية الشمالية بما فيها سمارانغ وجزيرة مادورا (مليون و ٦٠٠ الف نسمة) . أما ما تبقى من هذه البلاد ، فقد شكل ممالك اعلنت ولاءها للشركة ، وقام بينها سلسلة من الحروب ادت الى اهمالها فانحلالها . اما المناطق الأخرى ، فقد حاولت الشركة ان تبسط سيطرتها عليها لتجعل في حرز حريز ، مضيق مالقا ، وابعاد كل من يمكن ان ترى فيه مزاحماً لها او منافساً لتجارتها والاقتصاص من القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في جزر ريو وسليبس . واقامت لها حامية في مدينة مالقا ووضعت تحت ادارتها مدينتا بندا رامبوان ، وحمت سواحل صومطرة الغربية ، وسلطان بالمبانغ ، وضربت نطاقاً محكماً حول بورنيو من الامتيازات التجارية التي نالتها في هذه الجزيرة ، واحتلت في جزيرة سليبس ، ماكسار ، وحرّضت ، بعضاً على بعض ، الامراء المحليين .

ولم يكن للشركة الهولندية سوى عدد ضئيل من الجند ، كما لم تملك عمارة حربية ، تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه الممتلكات الشاسعة . وفي سنة ١٧٧٢ ، انتزعت منها الشركة الانكليزية للهند الشرقية بضعة مراكز في صومطرة . وفي سنة ١٧٨٠ ، كان القرصان الهولنديون سبباً مباشراً لنشوب الحرب بين هولندا وانكلترا ، فانهزم الهولنديون واضطروا التخلي عن ناغاباتام للانكليز واعترفوا لهم بحق الاتجار بحرية مطلقة ، في مياه الأرخبيلات المديدة (معاهدة باريس ، ٢٠ مايو ١٧٨٤) .

خرجت الشركة الهولندية في الحرب ترزح تحت وطأة الديون ، لا هيبة لها ولا شأن . وقد تنمر عليها الامراء المحليون ، كما راح المعمرون يتحررون من عبوديتهم للشركة ومن ولائهم لها ، مُظهرين دوماً الاستعداد لاعلان الثورة . وما ان اطلت سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الشركة على وشك فقدان كل ممتلكاتها .

الصين

عاشت الصين ، في القرن الثامن عشر ، في ظل الاسرة الامبراطورية المنشوكية ، فكان عهدها من ازهر عصور الصين وازهاها ، عبر التاريخ . انحـدر اباطرة هذه السلالة من ذراري امراء القبائل الرحل التي تمكنت من ان تنتزع الصين من اسـرة المنغ ، وذلك خلال هذه الحقبة الواقعة بين ١٦٤٠ ـ ١٦٥١ ، وقد برهنوا عن رأي حصـر ورحابة صدر كما حافظوا بكل احترام ، على عادات البلاد واعرافها القومية ، حيث تنعم التقاليد بكل رعاية ومنزلة ، مع الاحتراز الا تقف هذه الاعراف حائلاً دون تطورهم فاقبلوا ، مـا وسعتهم الحيلة ، على الاخذ باسباب الاختراعات الاوروبية . فـلا يزال الامبراطور كانغ ـ هي نصف بدوي ، جندياً لا يكل ولا يمل ، وصياداً ماهراً مال بكليته الصيد والقنص ،لا يستقر في مكان، متنقلاً بين اطراف الامبراطورية النائية ، مواجها بروح واقعية احـداث الدهر وصروفه ، ذو تفكير نيّر ، وقضاء اتصف بالسرعة وصـدق العزيمة . وفي كانون الاول ١٧٢٢ ، خلفه على اريكة الحكم ابنه الرابـع ، الامبراطور لونغ ـ تشانغ . فقد كان جندياً له من العمر ٤٥ سنة ، كثير الظنون ، شديد القسوة ، رصين ، مجتهد ، متفان في القيام بواجباته . وفي سنة ١٧٣٥ ، ارتقى العرش كيان ـ لونغ ابن الإمبراطور يونغ ـ تشانغ ، وهو شـاب له من العمر ٢٤ سنة . وقد راح هذا الصيني ، البدوي الاصل يملأ البـلاط حياة ونشاطاً ومرحاً ، قلما غادر عاصمته الامبراطورية ، يفرغ ايامه بين نسائه وخصيانه ، ثقيف ، ذواقة ، وعالمٌ طلعة . قرض الشعر ووضع عدداً من المعاجم والفهارس. ومع ذلك عرف ان يحافظ على قواه البدنية وعلى نشاطه الزاخر. فاذا لم يقم هو نفسه بحروب ، فقد كان سياسياً محنكاً واداريا لبقاً قديراً ، شابه جده بنظره الثاقب ونظرياته السياسية الجريئة ، واستطاع بفضل ما تم له من صلابة في الرأي من ان يملك حتى سنة ١٧٩٦ .

تابع هؤلاء الاباطرة اعمـالهم الحربية وفتوحاتهم ، الى الجنوب من نهر اليانغ ـ تسي ، وتوفق الى احتلال الثماني عشرة ولاية التي تتألف منها الصين الحقيقية . ففي سنة ١٧٧٤ ، تم له إخضـاع قبائل مياو ـ تسي الوطنية التي كانت تقطن المنـاطق الجبلية في تسو ـ تشوان وكواي ـ تشاو . وغزو الصين الذي شرع به الصينيون منذ عهـد اور الكلدانيين وبابل ، أوفى على نهايته . ولم يبق لهؤلاء الرعاة الا ان يعمّروا السهول بالسكان وان يستثمروا البلاد الجبلية ، واستغلال ما فيها من خيرات الارض .

تابع كيان ـ لونغ سياسته المعادية لكبار الملاكين واصحاب الاراضي والاطيان العريضة . وهي اراض اعطيت للامراء ولرجال البلاط ولكبار الموظفين مكافـأة لهم ، كانت معفاة من الضرائب والسخرة . وقد صادر الامبراطور جانباً كبيراً من هذه الامـلاك ووزعها بين فلاحين استحالوا بذلك من صغار الملاكين . والمزارعون الذين يستغلون، اباً عن جد ، اراضيهم، منذ بضعة اجيال ، بلا انقطاع ، اعتبروا مالكين شرعاً لوجه الارض او أديمها ، بينما بطن الارض او داخلها يبقى من حق المالك الاصلي . وهكذا حق للمزارع ان يشتري او ان يبيع

ما يملك من وجه الارض، له الملكية العينية بينا تبقى للمالك الاصلي ، الملكية الذاتية . وهكذا طلع في الصين نظـــام ديموقراطي ، زراعي رسخت اصوله . وبذلك يكون تصرف الاباطرة المنشوكيين اقرب الى تصرف طغاة دكتاتوريين اخذوا جانب الشعب ، واعتمدوا في حكمهم وادارتهم على تأييد الجماهير الشعبية عندما راحوا يقلمون اظافر الارستوقراطية وكبار الاغنياء في عهد المنغ . وتجلى تحسين وضع الفلاحين ، في ازدياد الثراء وتكاثر عدد الاثرياء . وبلغ عـــدد سكان الصين ، عام ١٦٦١ ، حوالي ١٠٥ ملايين نسمة ، فاذا به يرتفع ، عـــام ١٧٦٦ ، الى ١٨٢ مليوناً . وهكذا قويت يد الدولة واشتد منها الساعد .

في هذه الصين العامرة المزدهرة ، ازدهرت الفنون ولا سيا مـا مالأ منها فوق سكان البلاط والنوادي الادبية ، كالشعر الخفيف الرشيق ، والخزفيات ، وهندسة المنازل والحدائق ، وهي فنون تدخل البهجة والبشر الى النفوس ولا سيّ نفوس الغزاة بعد ان يتذوقوها ويهيموا بها . اما فنون الرسم والنقش والتحلية فقد اخذت ، بعكس ذلك ، بالانحطاط .

نظم شعراء الصين في مواضيع ورموز اتخذوا منها ستاراً يستترون وراءها ، جاءت آية في الروعة كما جاءت منظوماتهم روائع تملأ القلب هزة والنفس بشراً . وقد بلغ فن الخزفيات ، وهو اهم فنون الصين اذ ذاك ، أوجـه ووصل الى الذروة من الاتقـان في عهـد الامبراطور كنغ – هي . فبعد ان يُمرّث الصلصال جيداً ويعجن عجناً مسبقاً يلين معها ويستجيب توضع العجينة في القالب وتدار بعناية كلية ، فترتدي ، اذ ذاك ، اشكالاً وصوراً تشع نعومة واناقة، ثم تصقل بعناية كبيرة وتطلى بالمينـا النقي اللماع ذي الالوان القوية الصارخـة . والآنية من كل حلي وزينة ، تبدو وكأنها قشرة الدرّاق او احمر الحديد او دم الثور ، والقرمز المرجـاني والبنفسجي الباذنجاني والاسود الفاحم المشع ، او زرقاء ، خضراء ، صفراء . اما الآنية المعدة التحليـة والتطرية فتبـدو زرقتهـا على ارضية بيضاء ، او على الوان متنوعة فوق ارضية خضراء شفافة . وفي عهـد الامبراطور يونغ – تشانغ ، حل محـل الارضية الخضراء ، ارضية قرنفلية متلألئة بالوان زاهية من القرمزي ، الى الابيض ، الى السنجوني، الى الاصفر الليموني، او الازرق الفاقع والاصفر الكبريتي ، والاصفر الخردلي ، والاحمر الارجواني ، تتناوح فيهـا الألوان بين الناعم والمهفهف ، في اتساق وانسجام يأخذ بمجامع القلب . والصور المرسومة كثيراً ما استوحاها الفنان من منظومات قدامى الشعراء ، فجاءت على شكل رصائـــع والواط او رسوم المشجرات المتشابكة ، والخيزران المتعاقد وعفـاف الغيوم ، وعود الصليب ، والفراش ودقاق الطير والعصافير والسيدة الهيفاء ذات الوجه المشرق الصبوح . ولم يلبث كيان – يونغ ان اضاف الى هذا كله التحلية المعروفة عندهم : « بذات الالف زهرة » . وهذه الآنية ذات المظهر الأثيري والالوان المهفهفة والانوار المتلألئة الشفافة ، والاشخاص ذوي القدود الهيفـاء كسارية العلَم ، تنثنى رقة ونعومة وتذوب غنجـاً ودلالاً تذكرنا ، ولو من بعيد ، بفن الرسام الفرنسي واتّطو . « هذا هو طراز لويس الخامس عشر الصيني » . ولكن بعد عام ١٧٥٠ ، يشكو القوام

والهندام قلة العناية وبـأخذ بالتحول والانحطاط ليـارع في تردّيه اثنـاء القرن التاسع عشر ، بينـما يشتد الطلب عليه في اوروبا ، كما ان الصناعة اخـذت تشكو ، هي الأخرى ، السرعة والتعجّل .

رحّل الاباطرة الثلاثة على رغم ما عُرف في بكين « بالمدينة الحمراء الممنوعة » وهو الاسم الذي اطلق على المقر الامبراطوري . كانت النيران التهمته، عند سقوط سلالة منغ، عام ١٦٤٤ . فراحوا يلتمسون ، في ضاحية المدينة ، الى الشمال الغربي من بكين ، عن طريـق الآباء اليسوعيين « فرساي الصين » ، وهو صرح منيف ، ضم عدداً كبيراً من القصور الفخمة الجليلة تحيط بهـا الجنان الخضراء والحدائق الغناء ، في تناغ موصول من الفنون الاوروبية والصينية ، على اتم ما يكون الانسجام والمناغاة . والظاهر يدل على ان الروح تختلف عن روح فرساي ، اذ ان التنوع وحرية الطبيعة هما على نطاق ضيق ، وبذرق رهيف واثق من نفسه . اختار الآباء اليسوعيين من بين هذه التواشز الجيلة الحلوة ما ينسجم تماماً مع مطلب الروح الانسانية . فقد خلقوا منـاظر ومشاهد رائعة بعد عمليات حسابية ومعادلات وتطبيقات غاية في الدقة والتعقيد ، من هـذه الاشياء البارعة الجمال التي تنطق عالياً بانتصار العقل وتذيع التجلي والتسامي .

ومع هذا ، فالفن الصيني العظيم كان ولـّى عهده ، وانقضى في القرن الثامن عشر ، فلم يبق سوى فنون تحلية ترفيهية . فإلام يجب ان نرد هذا التغير والتبـدل يا ترى ؟ أإلى حوادث الغلبة والفتح ودخول روح جديدة على البلاد بدخول المنشو الى الصين ، وكلها تغييرات وتحولات تمت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الاباطرة المنشو في سبيل تمثلهم الحضارة الصينية ؟

واستأنف الاباطرة المنشو ، في القرن الثامن عشر الأخذ بسياسة صينية قديمة طالما اعتمدها اباطرة الصين ، الا وهي بسط سيطرتهم على آسيا الوسطى . يحف بالصين سباسب وصحـاري شاسعة كانت طرقاً موصلة الى الصين اكثر منها عوائق وحواجز تحول دونها ، تمور فيهـا اقوام من البدو ، في حركة دائمة هم دوماً على استعداد للغزو والنهب والسلب والاستباحة عند أقـل بادرة ضعف أو وهن لدى الجيران . وكان يخترق هذه الصحارى الطرق البرية التي ربطت الصين بآسيا الوسطى والغرب والتي ما زالت تدرج عليها قوافل التجار والرحـالة بالرغم من سهولة الاعتماد على المواصلات البحرية ، حاملة بضائع واصنافـاً خفيفة الحمل غالية الثمن . من هذه الطرقات ، طريق موسكو – بكين ، عبر بحيرة بيكال واورغا ، او بالاحرى ، عبر نهر ارتش وبحيرة زيسان الواقعة بين جبال ألتاي وطربغاتاي ؛ منها كذلـك الطريق التي تمر الى الشمال من الجبال السماوية (تيان – شان) بين طربغاتاي وبين آلا – تاو ، عبر دزونغـاري وبحيرة بلخاش ، باتجاه مدينة استراكخان في روسيا ، وهي افضل هذه الطرق واعرضهـا وتأتي على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، كثيرة العشب والكلأ يردّها وادي نهر الإيلي الواقـع بين آلا – تاو وبين تيان – شان ، انما تقع تحت رحمة قبائل بدوية نهّابة سلاّبة ؛ ومنهـا الطريق التي تمر الى الجنوب من الجبال السماوية وهي اكثرها طروقـاً واعتماداً لدى المسافرين عبر

التركستان الشرقي وكشغار وواحات التركستان الغربي : فوكان وبخارى ثم تتجه منها : اما شمالاً الى خيوى واستراكخان ، واما ، وهو الغالب ، الى مشهد وبلاد فارس والبحر المتوسط . فحسن التدبير ، والاهتمام بالتجارة وتأمين وسائلها ، جعلت الاباطرة يهتمون دوماً بهذه الشبكة من الطرقات الدولية .

وقد حالفهم النجاح في مهمتهم هذه . فقد كان الجفاف الطابع المميز لهذه الاقطار كما كان سكانها قليلي العدد . فالقبائل البدوية انقسمت على بعضها البعض. فلم يكن باستطاعتها ان تعوّل على اهل الحضر من سكان الواحات المتناثرة عند اقدام سفوح سلاسل الجبال . ولم يستفد البدو من الحروب الاهلية التي نشبت في الصين ، بعد ان كانت سبيلهم الوحيد الفوز كانصار ببعض الغُنم . ومن ناحية اخرى ، فقد كان للاباطرة المنشو مدفعية حديثة صبها لهم اليسوعيون في بكين .

وقد كان بالامكان ان ينهض مزاحمون لهم من بين اقوام الروس القاطنين ارجاء سيبريا والذين كانوا يتحكمون ، في الجنوب ، بالطرق التجارية والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى المياه الدافئة . فقد كانوا يتضرّسون ، كل يوم ، بـ"ـاريء مرفأ أوخوتسك ، لصعوبة الوصول اليه بعد ان غمّره الجليد والثلج بضعة اشهر في السنة ، والذي كان يربطه بمدينة ياكوتسك *Yakoutsk* طريق برية طويلة الغاية ، صعبة المسلك ، قل من طرقها . فقـد كانوا بحاجة الى طريق نهر العامور . الا ان قوامهم ، في القرن الثامن عشر كانت متمركزة في الغرب ، وليس تحت تصرفهم في آسيا الوسطى سوى بعض الفرق الضعيفة التي تألفت من بعض المعمرين ومن بعض الجند . فلم يقوموا ، في عهد بطرس الاكبر، بأي مجهود مسلح واكتفوا من حيث اتصالهم بالصين ، بتحسين علاقاتهم معها عن طريق البعثات والسفارات الدبلوماسية . وكانت العلاقات بين البلدين تنتظمها شروط معاهدة نرتشنسك(١٦٨٩)اذ احتفظ الصينيون بموجبها،بكل حوض نهر العامور وحالوا بذلك دون وصول الروس الى منشوريا ، هذا الممر المنبسط الذي يتألف من سهول خصبة تمتد من النهر المذكور حتى مشارف الصين ، في الشمال . ونال الروس ، في المقابل، حرية الاتجار مع الصين الامر الذي مكن لقوافل التجار الروس الوصول الى بكين . وفي سنة ١٧٢٩ ، نال الروس بموجب معاهدة كياخطا *Kiakhta* تصحيحاً جزئياً في الحدود ، والسماح لهم بانشاء كنيسة ارثوذكسية في بكين حيث اقامت جالية روسية صغيرة . غير ان سفريات القوافل وتنقلاتها خضعت لبعض الاجراءات،والمبادلات التجارية اشترط فيها ان تتم عند اطراف منغوليا ، في كياخطا وميمتشين . وكان من جراء هذه التضييقات ان ادت منافستهم هذه الى شل حركة القوافل الى بكين ، وهي قوافل توقفت الحكومة الروسية عن متابعة إرسالها . وهكذا امّن الصينيون على حدودهم من الشمال .

وقام الى الغرب من نهر العامور حاجز بين الروس والصينيين قوامه اقـوام رعاة . وكان الصيادون القادمون من اورغنخاي *Ourgangkhai* والعاملون بين نهري الشلكا والإيانسّي ،

يدفعون رسوما عن صيدهم السمّور لكل من الصين وروسيا . ومنذ انكسارهم الصارخ عند بحيرة زيسان *Zaisan* ، عام ١٧٢٠ ، انقطع الروس عن اعتاد ممرات دزونغاري وكشغاري . وآخر حصن لهم على نهر إرتش ، كان حصن أومستكا مينوغورسك . ومنذ ذبح البعثة الروسية التي خرجت من استراكخان لاحتلال خيوى عام ١٧١٧ ، باتجاه التركستان الغربي ، لم يتجاوز الروس[1] شمالاً شواطيء بحيرة بلخش ، وبالنادر جداً منطقة الفولغا. فكان يكفيهم ان يشجعوا القوافل التجارية بتخفيضهم الرسوم المفروضة على الصفقات التجارية ٥ ٪ وباعفاءات يعطونها القوافل المرسلة من قبل كبار رؤساء القبائل . ولم يلق الصينيون ، من جهتهم اية صعوبة تحد من حركتهم التجارية .

وكان الامبراطور هانغ ـ هي ، في مطلع القرن الثامن عشر فرض الامن وسط السلام على الحدود الغربية . فهزم غول الغرب عام ١٦٩٧ .اما مغول الشرق او الكلخاز ،فقد اعترفوا بالولاء لخان المنشو وهو تتاري مثلهم . اما في التيبت الواقع تحت حكم لاهوتي رهباني ، فقد كان سبق لكانغ ـ هي ونصب عليه الدالاي ـ لاما الذي كان موالياً له .

غير ان هذه النتائج التي توصل اليها كانت واهية ، وبقيت ممرات آسيا الوسطى بعيدة عن إشراف الصينيين وسيطرتهم. فمن جبال سَايَنسك *Saiansk* حتى جبال كوان ـ لُن شكل المغول الغربيون او الإيلوث *Elouthes* امبراطورية لهم سيطرت على الطرق التي تسلكها القوافل الضاربة في تلك الارجاء ، وبعد ان سيطروا على الحركة التجارية في آسيا الوسطى ، شرهت نفوسهم السيطرة على التيبت وعلى منغوليا الشرقية . وقد يكون خَطَر لهم ان يستخلصوا الصين نفسها من قبضة ابناء عمومتهم المنشو .

ولذا قاموا في القرن الثامن عشر ، بعدة هجمات احدث كل واحدة منها ردة عند الصينيين . وكانوا في كل هجوم يقومون به يتقهقرون الى ان زالت امبراطوريتهم . فقد امتنع الروس عن شد ازرهم . واستخدم الصينيون ضدهم وحدات من فرسان الكلخاس ، واحياناً اخـوة لهم منشقين عنهم من الايلوث لا يقلون عنهم سرعة في حركة تنقلاتهم ، وقوة صبر واحتال وطول معاناة . واستعملوا الاسلوب التقليدي الابدي الذي طالما ركنوا اليه الا وهو استعمال الحضر ضد البدو . فأنشأوا عند بعض النقاط الحساسة الواقعة على طريقهم مدناً حصنوها بالقلاع ، واقاموا فيها جوالي عسكرية صينية . وقام الجنود يعمرون الارض ويحيون اراض موااتا ضيقة الرقعة ، يسهل الدفاع عنها . وانشأوا مراكز تموين فاضت بالمواد الغذائية والاعلاف للدواب ، يستطيعون معها القيام بغزوات طويلة . ورلحوا يعيثون فساداً وينهبون الموارد الطبيعية القليلة المبعثرة التي كان الايلوث يعولون عليها . فما لبث الايلوث ان اشتدت بهم الحاجة الى المواد الغذائية وعلف الدواب والخيل والجمال ، فاضطروا ، والحالة هذه ، للمهادنة والتزام جادة السلام . وعندما كانوا يعودون لحمل السلاح ويستأنفون اعمالهم الحربية ، كانت قوى الحاميات تحول دون استعادتهم الاراضي التي خسروها .

وفي سنة ١٧١٧ ، قام قبدان ، احد زعماء الأيلوث ، بهجوم على التيبت لم يلبث ان اتسع بحيث راح يهدد يوسنان وسوتشوين . فانتهزها هانغ - هي سانحة مؤاتية ليقوم بطرد الايلوث خارج التركستان الغربي ، وبذلك يؤمن الصينيين السيطرة على الطرق الرئيسية باتجاه الغرب . ثم راح ينشىء له جوالي عسكرية عند الممر الذي يؤدي من تيان - شان الى بركول وخلمي وطرفان واورومتشي . كذلك اعاد النفوذ الصيني الى التيبت .

وقامت قبائل الايلوث بغزوات متكررة ، بعد عام ١٧٣١ ، حملت الامبراطور يونغ - تشانغ الى طردهم ودفعهم الى الشمال من جبال الالتاي ، ليؤمن الصينيين ممرات دزونغاري ومعابرها . وفي سنة ١٧٣٤ ، نرى الصينيين ، في أولياسوتاي وكبدوو على ضفاف نهر إرتلش . وأجبر الامبراطور كيانغ - لونغ ، الايلوث ، عام ١٧٤٠ ، الا يتجاوزوا جبال الالتاي ، الى الجنوب .

ولم يمض وقت طويل حتى تمّ له اخضاعهم واعترفوا له بالتابعية ، على اثر الخصومات والانشقاقات التي ثارت بين النازعين للاستئثار بالسلطة ، مما حمل عدداً من امراء الايلوث الذين باءت محاولتهم بالفشل ، على الالتجاء الى الصين ، ومعهم الكثيرون من اتباعهم وانصارهم ، فقدموا طاعتهم وولاءهم للامبراطور كيان - لونغ ، مقابل المراعي التي وضعها تحت تصرفهم والحماية التي نعموا بها خلال حكمه . وقد بدت فرصة سانحة للامبراطور ، فجهز فرقة انضمت اليها وحدات من الإيلوث ، قامت بفتح وتدويخ المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال الالتاي. وهكذا انفصمت عرى الوحدة بين اقوام الايلوث فانقسموا الى اربع قبائل لكل منها خاناتها المتميزة يجري تعيينهم من قبل حاكم صيني عام يمثل الامبراطور ، استقر بعد ذلك ، الى الجنوب في مدينة خولدجا الواقعة على نهر «إيلي» ، في نقطة مركزية ، بحيث يتاح له مراقبة كل الممرات والمداخل (١٧٥٥) .

الا ان القضاء قضاء تماماً على الايلوث لم يتأخر أجله. فقد قام احد زعمائهم وهو امير من أمراء العائلة المالكة ، يدعى اموريانا ، ان حمل اثر الفشل الذي مني به ، البدو المستقلين على الانتفاض والثورة ضد الصينيين ومحاربتهم . ولما طُلب اليه القدوم الى بكين ليؤدي حساباً عما زرعته يداه ، فرّ ولجا بنفسه ، نحو بحيرة إرتلش ، وجمع حوله ٤٠٠٠ من الانصار ، وفتك بأفراد الحامية المرافقة للمقيم الصيني ، التي تألفت من ٥٠٠ صيني . فكان ذلك اطلاق العنان لثورة لاهبة ضد الصينيين . الا ان الايلوث انهزموا شر هزيمة عند نهر الاميل ، سنة ١٧٥٧، اوقعت فيهم مذابح دامية . ففر اموروسانا مع ٢٠ الفاً من رجاله وأنصاره والتجأ الى الروس . اما الباقون فقد جرى ابعادهم الى حدود كان - سو ، وضمت الاراضي التي كانت تابعة من قبل للايلوث الى الامبراطورية الصينية . فامتدت حدود الصين حتى بحيرة بلخاش . وعيّن على الاراضي الجديدة حاكين صينيين ، قام احدهما في كبدو كما قام الثاني في خولدجا . واعيد إعمار

البلاد وتأهيلها بالسكان بأقوام الكازاك هم مزارعون مسلمون من الكشغار، ومعمرون عسكريون من المنشو، ثم جاء عام ١٧٧١، بأقوام جدد من التورغوت. وهكذا اصبح التركستان الشرقي ولاية صينية، تشكلت منها ولاية سنكيانغ العسكرية.

ان القضاء التام على الامبراطورية الايلوث سجل الذروة في نفوذ الامبراطور كيان – لونغ في آسيا الوسطى. فقبائل البدو في التركستان الغربي: كالكرغس في القبيلة الذهبية الكبرى (١٧٥٨) والقبيلة الذهبية الصغرى (١٧٦٢) وخانات بخارى وخوكان وطشقند واندجان، قدموا ولاءهم للامبراطور، وبذلك بلغت سلطته مشارف بحر قزوين. وقد كان من بُعد شهرته، وشدة بأسه وقوة سطوته ان خرجت قبائل تورغوت المغول عن طاعتها وولائها للروس. فهائة الف اسرة من هذه القبائل، كانت تقيم مضاربها على ضفة الفولغا اليمنى، كان القيصر نفسه يقوم بتعيين خاناتهـا ويقدّم للروس قوات اضافية مساعدة اشتهرت بشجاعتها في الحرب. فبعد ان تبينوا الخطر الذي تعرّضوا له من قبل الحاميات والمستعمرين الذين اخذوا بمطاردتهم، وبعد الاهانات التي كالها الروس لهم ومظاهر الاحتقار والسخرية التي الحقوها بهم، نفر السواد الاكبر من هذه الأسر التي تجاوز عددها ٧٠ الف اسرة، وفرّوا نحو الشرق، بعد ان فرشوا قارعة الطريق بجثث الموتى. الا انهم وصلوا نهر ايلي والتمسوا من الامبراطور حق اللجوء (١٧٧١) وقبولهم في الامبراطورية. فسارع الامبراطور وأمدهم بما يلزم من ألبسة وأغذية واقامهم في المراعي التي كانت من قبل للايلوث، وانعم على عدد من كبار زعمائهم بألقاب شرفية صينية. وهكذا جاء شعب جديد، يقدّم طوعاً واختياراً، ولاءه للامبراطور ويمد الامبراطورية الصينية بقوى اضافية جديدة، ويأخذ على نفسه الدفاع عن حدودها الشرقية.

اما في الجنوب الغربي، وفي الجنوب، فالحدود الصينية كانت في حرز حريز. وفي سنة ١٧٩١، جاء الغوركاس وهم اقوام هنود يسكنون النيبال يحاولون السطو على ادبار التيبت، طمعاً بما فيها من خيرات، واجتازوا جبال همالايا فتصدّى لهم جيش صيني الحق بهم الخسف وهزمهم مراراً، ودفعهم الى الوراء حتى بلغ عاصمتهم كتمندو واضطرهم لاعلان ولائهم للصين (١٧٩٢). واحتل الصينيون، باتجاه برمانيا، عام ١٧٦٥؛ الممر الرئيسي واتجهوا نحو عاصمة البلاد، عام ١٧٦٧، الا ان محاولتهم هذه اصيبت بالفشل. ومع ذلك قدم ملك برمانيا، عام ١٧٩٠، ولاءه للصين وأصبح منذ ذلك الحين من اتباع الامبراطور.

وازداد امبراطور الصين نفوذاً على نفوذ بوضعه البوذية تحت رعايته وجعلها الديانة الرئيسية لهذه الرقعة من الارض الممتدة من سور الصين الى بحر قزوين. وأخذ على نفسه الدفاع عن سلطة الدالاي لاما الدينية في التيبت ضد تعديات الزعماء العلمانيين وضد الثورات التي قام بها التيبتيون الوطنيون وضد اطماع الدول المجاورة، بينما وضع تحت اشرافه المباشر عملية انتخاب الدالاي لاما، وراح يراقب سياسته عن كثب.

وفي سنة ١٧٢٠، أتاح استرداد التيبت من يد الإيلوث، للامبراطور هانغ – هي ان يحمل

منها حامية صينية . فعين عليها مندوبين ساميين اقاما مع حامية صينية في مدينة لاهسا « لتقديم النصح » للدالاي لاما .

وراح الوزير الاول التيبتي يقوم في منتصف القرن الثامن عشر بدسائس تهدف لطرد الصينيين من البلاد ، مما حمل المفوضين الامبراطوريين على تصفيته والتخلص منه . وعلى الاثر ثار الشعب في العاصمة لاهسا من جديد ، عام ١٧٧١ ، مما ادى الى التشدد في امور الحماية واعطي المفوضان الصينيان الحق بمراقبة كل اعمال الدالاي لاما ، كما اعترف لهما بحق الاشراف على عملية انتخابه ، كما كان صوتها مرجحاً في الهيئة الانتخابية . وكان على المنتخب ان ينال من الامبراطور فرماناً بانتخابه يمده مجلس الطقوس في بكين ويحظى بمصادقة الامبراطور ليصبح الانتخاب قانونياً . ان اخضاع الدالاي لاما ، للامبراطور وضع تحت تصرف هذا الاخير ، ما للاكليروس البوذي من نفوذ قوي . كما ان مراسم التكريم والتبجيل التي احاط الامبراطور كيان ـ لونغ الدالاي لاما بها ، امّنت للاسرة المنشوية ولاء كل الاقوام الذين اعتنقوا البوذية في آسيا الوسطى .

وهكذا نرى سلطة الامبراطور تمتد ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على كل آسيا الوسطى وتنتهي عند حدود السيادة الروسية والانكليزية ، كما انها تحكمت بطرق المواصلات التجارية كما سيطرت على منافذ الصين وابوابها . وهكذا حققت الاسرة المنشوية الاحلام التي طالما راودت خواطر الصين الوطنية .

اما علاقات الصين مع الاوروبيين ، من ناحية الغرب فلم تكن شيئاً يذكر على الاجمال ، بينما علاقاتها معهم في الشرق كانت انشط بكثير ، وكان لها نتائج اكبر واهم وهي علاقات سلبية تجارية ودينية ، اذ كانت الصين هدف جميع الاوروبيين العاملين في آسيا . والاشياء المدهشة التي قام بها اليسوعيون واثارت دهشة الاباطرة المنشو واعجابهم اعطت هؤلاء الاباطرة فكرة صحيحة عن القوة التي توليها العلوم والتكنولوجيا ، كما جعلتهم يوجسون شراً من احتمال قيام هؤلاء الاوروبيين بمحاولة انزال جيوش في الصين واخذهم لها على حين غرة من الوراء ، فيحولون بذلك دون الاعمال الحربية التي قام بها الصينيون في آسيا الوسطى ، وربما افضت الى خلخلة سلطانهم وقضت على سيطرتهم . وقد ازدادت هواجسهم ، وزادت خواطرهم قلقاً للاخبار التي جاءتهم من الهند عن الانتصارات الاسطورية التي حققها في الهند ، كل من دي بوسي وكليف . والخوف الذي اعترى الصينيين من احتمال غزو الاوروبيين للصين ، يفسر لنا الى حد بعيد ، حذر الاباطرة المتزايد من المرسلين والمبشرين الذين كانوا ينالون من الصينيين المرتدين ، كل ما يرغبون في الحصول عليه . الا ان بُعد الصين ، كان يوجب على الاوروبيين انشاء عدد كبير من الاسكلة ، ومستودعات على طول الطرق البحرية الموصلة اليها . فالعمليات التي كانت الهند مسرحاً لها ، في البدء ، اتبعت مثل هذه الخطة وسارت على مثل هذا النهج . وقد رأى الاوروبيون انفسهم غارقين في عدد كبير من المشروعات والاعمال ينافسون بعضهم

بعضاً . فقد قام فيا بينهم نقاط احتكاك وتصادم في كل مكان من العالم . وهكذا وجدت الدول الاوروبية نفسها في شغل شاغل من امورها لتفكر جدياً بمهاجمة امبراطورية متحدة ، هي في ابان ازدهارها حرص الاباء اليسوعيون على احاطتها بهالة من العظمة في مـا وضعوا عنها من رسائل وابحـاث وتقارير . وهكذا تقدم الاوروبيون من الصين كأصحاب التماس واستطاع الاباطرة المنشو ان يحافظوا على ملء حرياتهم ، في جميع اعمالهم العسكرية ، في آسيا الوسطى بينا لم يفتحوا ثغورهم البحرية في الشرق للاوروبيين الا بالقدر الذي رأوه مناسباً .

واستقطبت الحركة التجارية في الصين عـدداً كبيراً من الاوروبيين . فالبلاد بما لهـا من غنى ، وبما فيهـا من كثرة السكان ألـفت ، في نظرهم زبوناً مرغوبـاً فيه جداً ، وكانت منتوجاتها العديدة : كالحرير واللاك ، والخزف والشاي مواداً اشتد الطلب عليها في اوروبا ، كما ألـف تسويقها عملية تجارية رابحة . فقد ساعد النقد وسهولة السيولة على القيام بمضاربات مالية رابحـة اذ ان نسبة الفضة الى الذهب كانت بنسبة ١ – ١٠ في الصين ، بينا هي بنسبة ١ – ١٥ في اوروبا . وهكذا وفد عليها الانكليز والهولنديون والفرنسيـون ناقلين معهم عملات من الفضة حصلوا عليها من اميركا الاسبانية ، عن طريق التهريب ، فيبدلونها في الصين بعملـة ذهبية ، ثم يبادلون هذا الذهب ، لدى عودتهم الى اوروبا ، ضد البضائـع والسلـع (او ضد عملات من الفضة) فيحققون ارباحاً كبيرة .

والثغور الصينية التي سُمح للاوروبيين الاقامة فيها كانت قليلة جـداً ، كما لم يكن ليُسمح التجار الاوروبيين مغادرة هذه المدن والتغلغل الى داخـل البلاد . واذ كانوا يرون فيهم خطراً على سلامة البلاد ، فكانوا يحصرونهم في احيـاء او حارات خاصة ويضعونهم تحت المراقبة . فقد كان البرتغاليين امتياز مكاو الذين جعلوا منه مرفأ دولياً . وكانوا دوماً يدعون مجاناً ، ان لهم الحق بارغام السفن الاوروبية على الرسو فيها . ونال الاسبانيون امتيازات في بعض المرافىء الساحلية ، في فوكيان وأموي وفو – تشيو ، واحتلوا لفترة قصيرة فورموزا ، الا ان الصينيين عادوا واسترجعوها عام ١٧٤٢ . وعبثاً طلب الانكليز الاقامـة في أنوي او في نانغ – بو . وقد وجدت الحكومة الصينية انه من الافضل لها بكثير جعل مدينة كنتون قاعـدة للاتجار مع العـالم الخارجي ، ومن سنة ١٧٠٢ – ١٧٢٠ ، اعطى الامبراطور هانغ – هي ، تاجراً صينياً من تجار كنتون ، احتكار المعاملات التجارية مع التجار الاجانب . وكأن هذا التدبير لم يكن كافياً ، فراح الامبراطور المذكور ينشيء عام ١٧٢٠ الـ *Hong* او نقابة التجار الصينيين اصحاب الامتيازات ، وهي مؤسسة تجارية ضمت التجار الهانيين ، وعددهم عشرة ، هم من كبار التجار في البلاد ، برئاسة رئيس الجمارك البحرية . وفي سنة ١٧٧١ ، الغى الامبراطور كيان – لونغ هـذه النقابة (*Hong*) وراح التجار الذين كانوا اعضاء فيها يتابعون اعمـالهم التجارية ، بصورة فردية وبذلك حافظوا على الاحتكار . وكانت هذه الطريقة مؤاتية جـداً للامبراطور اذ تزيد كثيراً من دخله . ولكي يكون التاجر تاجراً هانياً ، كان عليه ان يدفـع للامبراطور

مبلغاً ضخماً، كما راحوا بدورهم يفرضون على السفن الاجنبية ان تدفع للامبراطور رسماً اميرياً يتناسب وحجم السفينة . كل ذلك كان من شأنه ان يضاعف اعتماده المالي ، اذ كثيراً ما استهدف التجار الهانيون ،من قبل الامبراطور ، لعملية تسليف واسعة اجبارية،يضطرونمعها الى استلاف مبالغ طائلة من التجار الاجانب . كذلك سهل هذا التدبير مراقبة الاجانب المقيمين في مدينة كنتون ، حيث كان لكل امة حي او حارة خاصة (*Loge*) ، وهو كناية عن خان كبير يجري تأجيره من قبل التجار الهانيين . وكان التجار الهانيون الذين يتمتعون بالاحتكار ، في المقابل ، يحددون الاسعار حسبما يرغبون ، فينظمون بذلك حركة دخول البضائع الاجنبية الى الصين ، فيثيرون بالتالي المنافسة الحادة بين التجار الاجانب ، ويؤمنون لانفسهم ارباحاً ضخمة جداً . ولم يكن للروس الحق بالاقامة في كنتون . بينما اعطي هذا الحق لنساويين وبروسيين ودانيماركيين واسوجيين واسبان . والجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية كان بيد الانكليز والهولنديين والفرنسيين . ففي ٢٩ ايلول ١٧٦٥ ، في وقت كانت فيه تجارة الفرنسيين قد اخذت بالانحطاط ، وجد في مرفأ كنتون ٢٤ سفينة منها ٢١ انكليزية و ٤ هولندية و ٤ فرنسية و٣ أسوجية و ٣ دانيماركية . وفي سنة ١٧٨٤ ، دخل الحلبة التجارية منافس جديد خطير في شخص الولايات المتحدة الاميركية . وفي هذه السنة بالذات، قامت السفينة « امبراطورة الصين » بأول رحلة لها بين فيلادلفيا وكنتون وعادت بربح بلغ ٢٥٪ . وفي سنة ١٧٨٦ ، قام في كنتون لجنة تجارية اميركية . واحتكر الاميركيون الاتجار بالفراء في جنوب الصين . وفي سنة ١٧٩٠، دخل مرفأ كنتون ٤٠ سفينة اميركية قدمت من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا .

وقد اجيز للكهنة الكاثوليك وحدهم تقريباً الدخول الى الصين . وشهد القرن الثامن عشر نهاية عملية بديعة تمت على نطاق واسع : فالكنيسة التي حلمت ، في القرن الماضي بان تكسب الصين وتدخلها في النصرانية ، رأت آمالها واحلامها تذهب هباء . وبذلك ، فقد كل امل بادخال الحضارة الاوروبية الى الصين .

ففي عام ١٧١٥ ، كانت الكنيسة في الصين تتألف من اساقفة برتغاليين في كل من بكين ونَنكين ومكاو ، يعودون في امورهم الهامة الى مرجعهم الاعلى رئيس اساقفة غوا . وكان البابا اعترف للبرتغال بحق رعاية الكنيسة في الصين . ومن بين الامتيازات التي تمتع بها ، تبليغ القرارات والمراسيم الكنسية الخاصة بالشرق الاقصى . وهكذا برز الاساقفة البرتغاليون كممثلين لرئيس الكنيسة كما برزوا رؤساء لجميع رجال الاكليروس . ولذا لم يقبل البرتغال ، في الصين ، سوى مبشرين برتغاليين او خاضعين للسلطات البرتغالية .

على المرسلين الا يعترفوا بغير سلطة الحبر الاعظم ممثلة بمجمع انتشار الايمان ، بمثله نواب رسوليون لهم سلطات الاساقفة . والتف اليسوعيون العدد الاكبر من المرسلين قام لهم في بكين نفسها رسالتان : رسالة برتغالية ورسالة فرنسية ارسلها الملك لويس الرابع عشر وتعيش على

مساعدات فرنسية . كذلك نشط اليسوعيون التبشير في عـــدد كبير من الولايات الصينية .
ويليهم من حيث العدد : الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكان الاسبان الذين جعلوا من الفيلبين قاعدتهم الكبرى ، وحلوا باعداد كبيرة ، في عدد من الولايات الصينية ، ولا سيا في فو-كيان. وكان مرسلو جمعية المرسلين في الخارج التي يقوم مركزها في باريس ، وجمعية الآباء العازاريين ، اقل عدداً من غيرهم من الرهبانيات التبشرية . وقد استطاعوا ان يكسبوا للمسيحية ٣٠٠٠٠٠ صيني ، بينهم عـــدد محترم من كبار الموظفين ، بعمل افراد منهم بمعية الامبراطور . والفوا مجتمعات وطنية مسيحية يقوم على خدمتهم الروحية رهبان صينيون . كانت هـــذه النتائج ضئيلة جداً اذا ما قيست بضخامة سكان الصين ، الا انها كانت بالفعل عظيمة اذا ما قيست بعدد المبشرين والمرسلين المحـــدود ، وبالصعوبات التي اكتنفت عملهم التبشيري . وبالرغم من العراقيل والمصاعب التي اعترضتهم ، فقد بعثوا في النفوس آمالاً واسعة .

كان اليسوعيون هم أول من حمل امبراطور الصين على الوقوف موقفاً متساهلاً تجاه الديانة المسيحية . وبفضل ما تمتعوا به من نفوذ عريض في البلاط ، استطاع المبشرون متابعة عملهـــم الرسولي في الولايات . وبفضل ما تم لهم من العلم الاوروبي والتكنولوجيا . فقد امسوا ، لا غنى عنهم كرياضيين وعلماء فلك ، فكانوا اعضاء في الديوان الفلكي الامبراطوري ورسامي خرائط ، وميكانيكيين ، ومهندسين واطباء ، وبرزوا في أعين الناس كمترجمين ودبلوماسيين . وسيطروا بما لهم من مقدرة فائقة كفلاسفة وادباء من حملة الثقافة العليا ، واصبح لهم كلمة مسموعة لدى الموظفين الذين ينزلون المعرفة وحملة العلم منزلة رفيعة ، وعرفوا ان يكسبوا لهـــم ، الكثير من الاصدقاء ومن قادري فضلهم بفضل ما ظهر من طيب احاديثهم وبفضل ما جادوا به مـــن هدايا وخرائط جغرافية وساعات وادوات رياضية وكتب علمية . وعرفوا ان يثيروا الفضول العلمي في الاباطرة .وكان يحلو للامبراطور هانغ - هي ان يقتل الوقت بالتحدث اليهم فاستطاع بذلك ان يحصل على مبادىء العلوم الغربية ، كما تم له الاطلاع على العادات الاجتماعية والسياسية المرعية لدى الغربيين . وقد هبط نفوذ اليسوعيين وتأثيرهم في عهد الاباطـرة يونغ تشانـــغ - وكيان - لونغ بسبب الجدل العنيف الذي أثارته الطقوس وفتح الهند . الا انهم حافظوا على مكانتهمالعالية كفنيين وتقنيين . فالآليات كانت معبود كيان - لونغ ، وقد صنع له الاخ تيبول ، عـــام ١٧٥٤ ، اسداً يتحرك من تلقاء ذاته ، كما ان الاب سيجسموند زاده اعجاباً على اعجاب بصنعه إنساناً يتحرك مع حركات الساعة . وفي سنة ١٧٥٢ ، صنعوا بمناسبة العيـــد التذكاري الستين لولادة الامبراطور ، تمثالاً يتحرك ويلقي خطبة تقريظ بينا تماثيل اخرى تقرع الصنوج ، ولعين اوزة بنقودها الساعة على حافة الحوض . وهكذا ، فالعلوم والتكنولوجيا مهدت السبيل امام انتشار الدين المسيحي .

وقد ساهم الآباء اليسوعيون كثيراً في تيسير سبل الأخذ بالمعتقدات المسيحية والعمل بهـا عن طريق تفسيرهم للمعتقدات و « الطقوس الصينية » . آمن الصينيون بخلود نفوس الجدود وادّوا

لهم عبادات من التكريم ، في ولائم جنائزية وفي ادعية خاصة . واعتقدوا ان بفضل هـذه العبادة كانت هذه النفوس تعيش سعيدة وتغدق النعم على ذراريها ، وبدونها كانت بائسة، تعيسة وإذ ذاك تنتقم لذاتها بمساوىء لا حد لها ولا حصر . وكان المثقفون منهم يؤدون عبادة لروح كونفوشيوس . وكان الصينيون يعبدون قوى الطبيعة التي رأوا فيها ارواحاً لها قوة هائلة . اما امر البت بعبادتها تُرك للحكام في الولايات . والفرد لم يكن له من تأثير عليهـا الا بالسحر. واخيراً هنالك اله سامٍ ، اعلى ، هو السماء او السيد المطلق ، ها تشانغ – تي ، عبادته متروكة للامبراطور وحده ، الرئيس الاعلى للدين الذي يستمطر على البلاد اجمع بركات الله في الاعالي.

وعملية تنصير الصيني يشترط فيها عــدم تحميل الصيني تغييرات قاسية تبدل جذرياً من عاداته واعرافه ، بحيث لا تسبب عملية تنصيره تنغيصاً له يجعل عيشه في المحيط الوثني الذي يجد نفسه فيه ممتنعاً لا بل مستحيلاً . هذه كانت مشكلة الهند ايضاً . ففي سبيل تخفيف الصدمة في نفس الصيني ، راح الآباء اليسوعيون يرون في الـ *Le Tien* او الشانغ – تي ، اله المسيحيين الشخصي . فالنصوص الصينية ، والحق يقال كانت غامضة في ذاتها اذ انها تصور لنا *Le Tien* تارة كإله شخصي ، كلي القدرة ، كلي المعرفة ، مثيب ، مجازي الكل على اعمالهم ، ويصورونه طوراً الهاً غير متميز عن الهيولى او المادة العامة . وقد عرف اليسوعيون ان يستفيدوا من هذا الغموض بحيث يساعدهم على تقديم الايضاحات اللازمة للتحديد والتعيين . وقد استعملوا هذا اللفظ بالذات للدلالة على الله الآب وعلى السيد المسيح . اما عبادة الجدود فقد ألفت مشكلة اساسية . فالمتنصر الجديد لم يكن له بـد من المشاركة بهذه العبادة ، والا تعرض للطرد من الجماعة واصبح بالتالي منبوذاً منها او مقطوعاً من المجتمع الصيني ، وبذلك يستهدف لاحكام القانون . فقد شجب الآباء اليسوعيون هذه العبادة ذاتها . الا انهم سمحوا للمتنصر ان يشارك بها على اعتبار منه بانها مجرد فعل احترام للجدود ، على ان يحمل تحت ثيابه او يضع على الطاولة صليباً او صورة تقوية يرتفع بطلها وقلبه من صلواته اليه . ومنذ ١٧٠٠ ، ظنوا انهم يستطيعون ان يروا بفضل تصريح من الامبراطور هانغ ـ هي في هـذه العبادة ، احتفالاً مدنياً لا غير . فلا غبار بالتالي على المؤمنين من حضورها والمشاركة بها دون ان يخدش ذلك ضمائرهم او وجدانهم .

وقد لقيت هذه الشروح والتفسيرات شجباً عنيفاً من قبل الكهنة بقيـادة الدومنيكيين والفرنسيسكان . فقد قام بين المرسلين مناقشات وجدل هي بعض ما قام منها بين الرهبانيات والجنسيات . اما الدوافع فقد كانت دينية قبل كل شيء . فقد رأى خصوم اليسوعيين في الاله *Le Tien*عنصراً شاملاً غير متناه هو والهيولى سواء . فالصينيون ، والحالة هذه هم حلوليون ، وثنيون ، مشركون ، كما راح الدومنيكيون يعلمون . فتسمية الله بـ *Le Tien* او *Chang-ti* تكوّن تجديفاً على الله كما فيه حمل الصينيين على ارتكاب خطيئة مميتة . امـا الطقوس فهي في نظرهم عبادة ارواح الجدود ، وبالتالي شيء من الصنمية او عبادة الاصنام ، وهو شيء فظيع

في نظر المسيحيين . فالموقف الذي اجازه اليسوعيون للمتنصرين كان من شأنه ان يحمل باقي الصينيين يعتقدون ان الكنيسة الكاثوليكية تجيز هذه العبادة ، مع ان جوازها يعرض النفوس الهلاك الابدي . كان لا بد من ملاحظة هذه المفارقات والإعراض عن هذه الاساليب البشرية والجهر بالحقيقة مهما قست وآلمت ، والتعويل على الصلاة وعلى الصلاة وحدها ، وعلى التقوى والمحبة ، والنعمة الالهية ، وعلى شفاعة السيد المسيح واستحقاقاته غير المتناهية في فتح الصين امام المسيحية .

فبعد ان درس الكرسي الرسولي القضية من جميع وجوهها ، شجب البابا الآباء اليسوعيين ، واصدر عام ١٧١٥ براءة بابوية *Ex illa die* التي حظرت استعمال الكلمات *Tien* و *Chant-ti* مرادفتين لكلمة الله ، كما حظرت مراسم العبادة والتكريم التي تقام لكنفوشيوس والجدود ، واجاز الاشتراك بالحفلات المدنية المرعية ، ان مثل هذا الحكم حل في ثناياه القضاء المبرم على الارساليات التبشيرية في الصين . وامام تحذيرات اليسوعيين والامور التي اثاروها ، ارسل البابا القاصد الرسولي ميزاباربا (١٧٢٠ – ١٧٢١) ليحصل من الامبراطور هانغ – هي على السماح للصينيين المسيحيين باعتماد التشريع الكنسي . واذ كان الامبراطور برماً جداً من هذا الجدل الديني والمناقشات الحادة التي استمرت ردحاً طويلاً ، رفض رفضاً باتاً النزول عند طلب القاصد الرسولي ولو تعرض لثورة عامة ، مردداً ما كان سبق له واعلن ، عام ١٧٠٠ ، بانه لا فرق قط بين الفكرة التي يليها الصينيون والمسيحيون لله ، وبان الطقوس ليست سوى مراسم تذكارية لا غير . فاذا كان ذلك تفكير هانغ – هي ، فمعظم الصينيين لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا من هذا التفكير ، وما للامبراطور من سلطة على آرائهم الشخصية . وقفل ميزاباربا راجعاً بعد ان ترك ثماني « جوازات » ، كانت في ذاتها بالفعل نقضاً لاحكام البراءة البابوية . فالبابا لم يمر هذا التدبير الذي اتخذه مثله الاهتمام الكافي ، وفي سنة ١٧٤٢ ، اصدر البابا بندكتوس الرابع عشر ، البراءة *Ex quo Singulari* التي حرمت الجوازات المذكورة واقرت احكام البراءة .

لم يأمر هانغ – هي باضطهاد المسيحيين . اما الامبراطور يونغ – تشانغ فقد اخذ يحتقر المازئين بعبادة الجدود كما راح يسخر من العاملين على نشر عقيدة الثالوث الاقدس ، هذه العقيدة التي تصدم العقل في الصميم . ولم يطل الامر على كبار الموظفين في البلاط حتى ادركوا ان الامبراطور لم يعد يأخذ تحت حمايته المسيحيين . وفي سنة ١٧٢٣ ، شجب مون –آن – بان الذي كان نائباً للامبراطور في فو–كيان ، المسيحية واصدر امره لجميع المرسلين العاملين في الولاية المذكورة بالانسحاب منها واللجوء الى مدينة مكاو .فكان ذلك إيذاناً بابتداء الاضطهاد وامتداده الى الولايات الاخرى . فهُدمت الكنائس ، او جرت مصادرتها من قبل الحكومة وحولت الى مستشفيات ومستودعات او مدارس.وتعرض الكهنة في الشوارع للمهانة والتحقير ،

وزج بالمسيحيين في السجون واوسعوا تعذيباً . وراح مكتب الطقوس يشجب المسيحية في كل انحاء الصين . واقر الامبراطور يونغ ـ تشانغ هذه الاجراءات كما اقر هذا الشجب وصادق عليه عام ١٧٢٤ ، وامر باخراج المرسلين من جميع اطراف البلاد وسوقهم الى كنتون ليجري تسفيرهم الى اوروبا . واجيز لعشرين يسوعياً بالبقاء في بكين ، باعتبارهم فنيين اوروبيين . وقد خطر ليونغ ـ تشانغ طردهم منها عام ١٧٣٣ . لم يُعرف الامبراطور كيان ـ لونغ بعدائه للمسيحية ، الا انه كان يخشى مشاعر الجماهير ، كما انه كان يتوقع هجوماً من الاجانب على البلاد . وفي سنة ١٧٧١ ، شجب المسيحية من جديد ليس باعتبارها ديانة باطلة او رديئة ، بل باعتبارها مخالفة لقوانين البلاد .

وعاد المرسلون سراً وخفيةً الى الصين متنكرين بلباس الصينيين ، يقودهم مرتدّون مسيحيون ، معرضين حياتهم لخطر الموت . فكانوا عرضة التوقيف والسجن ، ويوثقون بشكل لا يستطيعون معه الوقوف او الجلوس ، ويجري خنقهم في السجن ثم تجتز رؤوسهم . وقد تعرضوا لاتهامات مشينة واتهموهم بفعل المنكر مع عذارى مسيحيات ، كما اتهموا بقتل الارلاد ، ودس مواد سامة مؤذية الشعب . واستهدف كثيرون من المعمدين الجلد والضرب والتعذيب ، وبيعوا في اسواق النخاسة عبيداً أرقاء . فلا عجب ان يجحد عدد منهم دينهم الجديد ، كما ان بعضهم تصرف تصرف الابطال والشهداء الابرار .

الا ان الضربة القاصمة للارساليات في الصين جاءت بالأحرى، من اضطهاد الحكومات للرهبنة اليسوعية منذ عام ١٧٥٨ . وعلى الأخص من الغاء الرهبنة اليسوعية، عام ١٧٧٣: وفي سنة ١٧٨٤، حل الآباء اللعازاريون رسمياً محل الآباء اليسوعيين ، في بكين . ولم يبق سوى بعض رهبان لم يلبثوا ان توفوا الواحد بعد الآخر . ومن اصل ٣٠٠،٠٠٠ مسيحي كانوا في الصين ، عام ١٧٨٩ ، لم يبق سوى ١٨٧،٠٠٠ استمروا على ايمانهم بفضل الرهبان الوطنيين وبعض المرسلين المتخفين .

وراح البعض يتساءلون ما اذا لم يكن من الافضل البابوات ان يجيزوا « الطقوس الصينية » باعتبار ان التفسير الذي اعطاه اليسوعيون للاله الاسمى ولعبادة الجدود ، قد يكون غزا ، مع الوقت ، عقول الصينيين ، بما كان من شأنه ان يؤدي مثل هذا التدبير الى تنصير الصين برمتها مع اقطار آسيا الوسطى . وهذا الاحتمال كان يقابله ، في الوقت ذاته احتمال آخر هو ان يجعل المسيحيون الصينيون من الله بحسب المفهوم المسيحي له ، الهاً حلولياً . كما كان جعلهم يعبدون، بالفعل ، ارواح الجدود . وهكذا تختلط المسيحية لتذوب في هذه الطقوس مع مذاهب التفكير الصيني ، لا سيا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار وأدركنا جيداً الجهود البائسة التي بذلها الآباء اليسوعيون الذين كانوا يؤلفون ، الفرقة الأمامية للمرسلين المناضلين ، وهم يعملون على صعيد مترجرج ، خطر ، بذلوا الى اقصى حد ممكن الجهود الكريمة التي قاموا بها . فبقي من هذا كله ان الـ Tien ليس هو بالله الذي يلأ التوراة وان عبادة الجدود هي من صميم الصنمية والشرك .

وبما لا شك فيه قط ان فشل المسيحية في الصين يكوّن فشلاً في محاولة « فرنجة » تلك البلاد واخذها بأسباب الحضارة الاوروبية . كانت الصين متحجرة في عاداتها واعرافها وعقائدها التي سارت عليها منذ بضعة آلاف من السنين ولا سيا عبادتها للجدود ، واقتصار احترامها على الماضي وعلى طقوسها الدينية . وكان على الصيني ان يحترم ، طوال حياته ، اصغر الحركات والسكنات ويتقيد باتقه العبادات والحركات الطقسية ، بدقة كلية ، والا تعرّض لمساوىء عديدة . فكل جديد يأتيه او يقوم به ، في هذا المجال ، يكوّن مخالفة منه الطقوس المرعية ، كما يكوّن انتقاضاً لحكمة الجدود ، وخروجاً على تعاليمهم . وهكذا لم يكن من الممكن قط ادخال أي اصلاح او القيام بأي تجديد . فالخروج بالصين من نطاق هذه الطقوس او إلحاق أي تغيير او تبديل او تغيير يغير من معناها انما يعني التسليم بحدوث تغيرات جديدة وفتح الباب على مصراعيه امام التطور . وهكذا قضي على الصين أن تأسن عاداتها ، وان تبقى عند هذا المستوى الذي بلغت اليه الحضارة الرومانية . ولم يكن هذا الوضع ليتعارض مع ظهور اخلاقية عالية ومع اكبر الفضائل واروعها . الا انه كان يتعارض ، في الصميم ، مع طاقتها الكبرى على التحكم كقوة كبرى بقوى الطبيعة . وهكذا اخذ ميزان القوى ونسبة الفوارق يتسع بين الصين واوروبا او بين الشرق والغرب .

فلم يستفد الصينيون بالفعل كثيراً من اتصالاتهم مع الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد حمل اليهم الآباء اليسوعيون نتائج محققة ، مكتسبة نزلت عند اباطرة الصين منزلة عالية ، انما جهل رعاياهم كيف يطبقونها ويفيدون منها ، وبالتالي لم يفقهوا ، ما تحمله بين ثناياها من طاقات وما تخفيه في طياتها من امكانات . فعلى قيد خطوات من اليسوعيين الذين كانوا يعملون ، في ارصادهم العلمية ، على الجهر وعلم المثلثات وفرضيات كوبرنيكوس ونيوتن ، استمر علماء الفلك الصينيون يستعملون المزاول الشمسية ويعتمدون نظرية السماء الجامدة او الصلبة . وعبثاً علمهم الرسامون اليسوعيون وجوب مراعاة الابعاد ووجوب الأعتاد على الانوار والظلال . فقد استمر الفنانون الصينيون على جهلهم لهذه المبادىء والضرب بها عرض الحائط ، كما استمروا على إضفاء النور على رسومهم الفنية من كلا الجانبين . اخذ الفنانون الصينيون بتقليد الخزف الاوروبي ونسخ الرسوم والنقوش البادية على مصنوعات سان كلو وخزفيات لويس الخامس عشر ، كما قلدوا تقليداً حرفياً موضوعات وصور اوروبية ، وذلك تلبية منهم لطلبات تقدم بها بعض الغربيين ، اذ راح احد العلماء الصينيين يرى في علم الجبر بعثاً او تطوراً لطريقة علمية صينية قديمة . وموجز الكلام بقيت الصين مجالاً مغلقاً وحقلاً موصداً في وجه الفكر الاوروبي .

اما الاوروبيون فقد اظهروا شديد اعجابهم بكل ما هو صيني . وقد استطاع المرسلون ولا سيا الآباء اليسوعيون من بينهم ان يضعوا بالابحاث العلمية التي عقدوها حول الصين اساس علم الصينيات *Sinologie* فرسموا لنا صورة شاملة عن الحضارة الصينية بهذه الرسائل التقوية الغريبة التي

وضعتها الارساليات الاجنبية ، خلال هذا القرن . وكتاب « وصف الصين » الذي وضعه الأب دي هالد مزداناً بأول خريطة عامة للصين (١٧٣٥) والذي تمت ترجمته الى الانكليزية والالمانية فور صدوره بالفرنسية ، كان موضوع وحي وإلهام لعدد كبير من فلاسفة العصر . وفي اواخر القرن ، طلع علينا كتاب « مذكرات حول الصينيين لمرسلين في بكين » وهو كتاب عظيم الشأن مليء بالعلم والفوائد الجمة ، « يؤلف معيناً لا ينضب . وكثيراً ما جاء مونتسكيو على بحث امور الصين في كتابه المعروف : « روح الشرائع » . وفولتير نفسه كثيراً ما استشهد بحكمة الصينيين في « قاموس الفلسفة » ووضع لنا : « يتيم الصين » وهي مسرحية ناجحة . وعقد ديدرو بحثاً مستفيضاً عن «فلسفة الصينيين» في موسوعته المشهورة . وروسو نفسه استمد من الصين الدليل الرئيسي الذي أيّد فيه خطابه الاول .

وكان استشهاد الفلاسفة بالصين واتخاذهم بعض تعاليمها تأييداً لنظرياتهم اكثر منه سعياً لتفهم الصين . فقد اتخذوا من هذه الادلة التي استمدوها من ادب الصين وفلسفتها براهين لتأييد تعاليمهم ونظرياتهم واقوالهم بما يتعلق بالديانة الطبيعية ، لا اهتماماً منهم بتوضيح جوهر الله وصفاته او تقريب العناية الالهية للافهام ؛ بل تأييداً منهم « لاستبدادهم النير » ، اذ راحوا يتوهمون انهم امام بلاد يحكمها حكماً استبدادياً امبراطور فيلسوف وعصبة من العلماء الحكماء . وقد ُخيل لعلماء الاقتصاد ، اذ ذاك ، ان يتخذوا من وضع الصين» تأييداً لنظرياتهم الاقتصادية» اذ تصوروا الصين او بالأحرى صوروها امبراطورية زراعية قائمة وفقاً للمبادىء التي يقولون بها» وانها ُتحكم وفقاً للنواميس الطبيعية ، وهذا الكمال الامثل والاسمى الذي رأوه في الصين كان له تأثير بعيد على نشر فكرة الشعوبية في العالم .

وبفضل الهدايا التي قدمها اليسوعيون للموظفين الصينيين ونقل المصنوعات الصينية الى اوروبا ، أطلّ إقبال مهووس على كل مظاهر الفن الصيني.وهذا الهَوَس لصنائع الصينية رسخ في الناس فوق المستهجن ، وراح امراء العائلة المالكة يسعون لتكوين مجموعات لهم من الخزفيات الصينية ، منهم الفنان « كوبيل » وجولبين نصير الرسّام واطّو . وقد اوصى الاوروبيون على خزفيات صينية ، وتلقت مدام بومبادور من كيانغ ـ سي طاقماً كاملاً من الخزف الصيني يحمل شاراتها الملطة . وهنالك نفوس تقية حرصت ان تحمل خزفياتها صور القديس اغناطيوس دي لويولا ، وفرنسوا كسافيه وعماد السيد المسيح ، والصليب ورسم قيامة السيد المسيح ناهضاً بمجد من القبر . ورغب آخرون الى فنانين مشهورين امثال دلفت في هولندا ، وشانتلي في فرنسا» بتقليد الخزف الصيني .

واستوحى الفنانونمن الخزف الصينيومن هذه الألواح الفنية المنشورة فيالكتاب الموسوم: «وضع الصين الحالي » الذي نشره الاب بوفيه ، عام ١٧٩٧ ، موضوعات عديدة لوشيهم وتحليتهم . كما استوحوا منها تحفاً فنية صغيرة (*Chinoiseries*)ودمى هزلية *Singeries* . نحا الرسام واطو نحوها في زركشته وتحليته ديوان الملك الخاص في قصر الـ *Muette* ، كما ان الرسّام هوبه رسم عجلات

وعطفات وحلى كثيرة الصالونات ، وغرفاً الطعام على هذا النحو ، وغرفة زينة قصر دي روهان (١٧١٥ – ١٧٥٠) . والى هذا المنشأ او الينبوع الفني يجب ان نرد الدمى الهزلية التي تزين قصر شانتلي . كذلك عالج بوشيه وواتيه موضوعات صينية لحماسية في المرح والدعابة .

كذلك ظهرت أقمشة تحمل رسوماً صينية . فزي الاطلس الصيني اخذ في الظهور ، عام ١٧٣٢ ، والنسيج القطني الاصفر من طراز النسيج المعروف بننكين ، والنسيج الحريري الموشى من طراز بكين ، عرفت رواجاً عظيماً .

وقد طبع أوبركمف في مدينة جوي ، عام ١٦٧٠ ، اول نسيج يحمل رسوماً صينية هزلية .

والمقاعد والطاولات طلي كثير منها بالطلاء الصيني ، كمكتب لويس الخامس عشر ، هذا المكتب بالذات الذي كتب عليه الملك لويس السادس عشر وصيته ، وهو مسجون في سجن التمبل . كذلك ، صنعت السكاكين وفقاً للطراز الصيني ، كما تحلت مقابضها برسوم قردة صينية .

وكان الانكليز اول من قلد الحدائق الصينية في كيو . ومن تصميم الحديقة الصينية انبثقت الحديقة الرومنطيقية . كذلك ظهر في كيو وشانتلو اول ما ظهر ، طراز المعابد الصينية ذات القباب . وكل حديقة كان يقيمها امير كبير او مالي ثري امام قصره ، ارتفعت فيها سرادقات صينية ، منها في بلدة باغاتيل للكونت أرتوى ، وفي شانتيلي وسانت جيمس ، على الطريق الممتد بين غابة بولوني ولوبي ، وفي اماكن اخرى .

وبعد عام ١٧٦٠ ، اخذت أذواق الناس تتوق للنماذج من الفن القديم ، كما استبدت بأذواقهم النظريات الفنية التي طلع بها جان جاك روسو ، وكلها تعارض الى حد بعيد ، التنظيم الاجتماعي الشديد ، في الصين ، حيث لا قيمة للفرد ولا شأن له فجاء رواج هذا الذوق وانتشاره بين الناس يخفف تدريجياً من تأثير الفن الصيني الذي تأصل عميقاً في نفوس القوم ، اذ ذاك .

ففي اواخر القرن الثامن عشر ، بدت الصين واوروبا غريبتين تماماً الواحدة عن الاخرى . فالاخوة الانسانية التي راودت النفوس ودغدغت المشاعر برهة من الزمن نرى حلمها يتطاير هباءً منثوراً ويتوارى عن الانظار . وهذه الصين التي اصبحت عزلاء من السلاح لافتقارها التكنولوجيا الاوروبية ، دانت باستقلالها وبالنجاحات التي حققتها ، لهذه الانقسامات والمشاحنات والمنافسات التي اقامت الدول الاوروبية بعضاً على بعض فذهبت جهودهم سدىً . وعندما توارى الامبراطور كيان – لونغ عن العرش ، عام ١٧٩٦ ، تاركاً الحكم بيد خليفة خشنت اخلاقه وماعت بعد معاشرته النساء في الحريم ، بدا مستقبل الصين قاتماً مظلماً .

اليابان

بقيت اليابان في عزلة شبه تامة في جزرها المتناثرة ، وتحسباً منها لغزو محتمل تقوم به اوروبا بحافز من المرسلين والمبشرين ، حظرت اليابان الكرازة بالمسيحية والتبشير بها ، منذ سنة ١٦١٦ ، ولم يعرف ان يابانياً واحداً غادر اليابان الى الخارج ، منذ سنة

١٦٣٧ . فكل محاولة من هـذا النوع كانت تعرض صاحبها للموت الاكيد ، كما انه اشترط في بناء السفن ألا يتعدى حجمها الأقصى ٢٥ طنـــاً . فلم يكن يسمح لغير الهولنديين من بين الاوروبيين باستيراد البضائع الاوروبية الى وكالتهم التجارية في جزيرة دشيا الواقعة عند مدخل خليج ناغازاكي ، بعد ان يتعرضوا الكثير من ألوان الازعاجات والمضايقات التعسفية . وكانت بعض القوارب اليابانية تستورد من الصين ، بعض المواد والاصناف التي تقتضيها حيـــاة البذخ . فاليابان كانت موصدة الابواب ، مغلقة النوافذ .

وقد وجد سدنة البلاط من آل توكوغاؤوا في هذه العزلة وفي هذا الاغـلاق مدعـــاة الطمأنينة ، اذ كان يفوّت على كبار الاقطاعيـين الذين غلبوا على امرهم امكانية الاعتماد على عون او نصرة من الخارج . فالميكادو او الامبراطور كان يقبع في قصره في كيوتو ، لا يأتي عمـلا . وكان يحيط بسدنة البلاط من آل توكوغاؤوا او الشوغون ، في عاصمتهم يادو (توكيو)، حاشية ألتفت بلاطاً زاهياً ، حكموا البلاد باسم الامبراطور وجمعوا في قبضة ايديهم ملء السلطة الفعلية ، يتصرفون بالجانب الاكبر من التوابع المرتبطين بهم بالولاء : مـن اشراف وبارونات وساموراي وفرسان . هنالك ١٥٠ اسرة من نبلاء الفوداي *Fudai* اصحـــاب الامتيازات تتوارث ، أباً عن جد الوظائف العامة في البلاد ، مكافأة لها ، في شخص جدودها، لمناصرتهم توكوغاؤوا والوقوف الى جانبهم ، واخلاصهم لهم الخدمة . وكان في وسع التوكوغاؤوا ان يعتمدوا الى حد بعيد ، على ولاء ٥٠٠٠ فارس من الفرسان *Bannaret* ، وعلى ١٥،٠٠٠ من رجال الحرب المدججين بالسلاح . وقد أبعد عن الحكم هؤلاء النبلاء من بطون توزاما الذين سبق لاجدادهم ان وقفوا موقفاً معادياً من توكوغاؤوا، الا انهم كانوا ينعمون باستقلالهم الاداري في اقطاعاتهم الواسعة ، هذه الاقطاعات التي لم يكن الشوغون ان يتدخل بأمورها مباشرة طالمـا ان الامن مستتب وليس ما يعكر الطمأنينة والاستقرار . وكان لبعض هـذه الأسر كالشيادزو والداتا والمايدا اطيان طائلة يعمل في تابعيتهم عدد كبير من النبلاء والساموراي بحيث تؤلف الواحدة قوة مهيبة الجانب .

وكان النبلاء والساموراي يؤلفون طبقة عسكرية . الا ان معظم افراد هذه الطبقـــة لم يكونوا ليعملوا شيئاً يذكر ، اذ كان محظوراً عليهم ، باسم الشوغون ، ان يقومـوا بأي نشاط غير النشاط العسكري والدرس . وكان يؤمن أود معيشتهم طبقة بائسة من المزارعين والفلاحين، ترزح تحت عوائد ورسوم من الارز تفرضها عليهم طبقة النبلاء ، لا يبقى لهم بعد تأدية مايترتب عليهم تقديمه ، ما يسد رمقهم او يكاد . وقد قامت في المدن نقابات من اصحاب الحرف والتجار (*Chonins*) تؤمن البلاط ولسكان الريف المصنوعات التي هم بحاجة اليها في معايشهم .

وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي بالتفسخ والانحلال العزلة التي كانت فيها اليابان . وكان عدد السكان قد ارتفع كثيراً في ايام السلم ، اذ راوح سنة ١٧٢٦ ، بين ٢٨ – ٣٠ مليون نسمة

وهو رقم وقف عند هذا الحد دون ان يتعداه حتى سنة ١٨٥٠ ، بعد ان ادرك الانتاج ، في البلاد ، حدّ الكفاية . فاليابان بلاد جبلية الطابع ، لا يستثمر المزارعون منها سوى سبع مساحتها ، واليابانيون كالصينيين لم يكونوا يحسنون سوى استغلال السهول واستثمارها . وكان يخشى ان يتجاوز السكان بمبدأ طاقة البلاد الانتاجية ، اذ ان الجفاف والحباس المطر طويلا او وفرته احياناً ، من شأنه ان يسبب المجاعة في البلاد التي كثيراً ما قاست من هول المجاعة بين ١٧٠٢ – ١٧٩١ ، فتضرست باثنتي عشرة سنة من السنين العجاف ، زادها إيلاماً وشدة ، الرسوم الجمركية في الداخل التي كانت تحول دون انتقال الارز من الاقضية التي ترتع ببحبوحة الى تلك التي تعاني من الجوع ويتضور اهلها منه . وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تجر وراءها الاوبئة والثورات وتتسبب في حرب الفلاحين وفي خراب رجال الحرب ولذا راحوا يهبطون المدن طلباً للرزق . وكان لا بد من شراء الارز من الخارج فيقايضون به المواد المصنوعة في البلاد . ولكن أنى ذلك والقوانين المرعية تحول دونه ؟

والسبب الآخر هو سلوك طائفة الشونين وتصرفاتهم . فقد قام هؤلاء التجار وسطاً بين النبلاء والتجار الهولنديين في دشيا،وبين الفلاحين والصناعيين. فكانوا يحددون اسعار الحاجيات على هواهم : يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً ، وبذلك يتسببون بخراب هؤلاء واولئك على السواء . وهكذا راحوا يؤلفون ، شيئاً فشيئاً ، طبقة جديدة من البورجوازيين الرأسماليين، يشترون من النبلاء أقطاعهم كما يشترون ألقاب الساموراي . فالشيء الوحيد الذي يحد من مضارباتهم ويضع حداً لتعسفاتهم وتحكمهم هو سياسة تبيح الاستيراد الحر وتطلق المنافسة بين التجار .

والفلاحون الذين ارزحتهم الضرائب والرسوم المفروضة وارتفاع اسعار الحاجيات المصنوعة، وبخس ثمن الارز الذي يبيعونه ، اخذوا يهجرون الريف للمدن ويدخلون في خدمة المنازل ، او يهيمون على وجوههم . وبعد ان تقفر مقاطعات برمتها من السكان تعجز عن دفع ما يترتب عليها من رسوم . والفلاحون الذين يبقون في منازلهم يعجزون عن تربية اولادهم ، ولذا راحوا يقتلون اطفالهم او تعمل النساء على الاجهاض بالرغم من القانون . ولكي يؤمن اصحاب الارض الايدي العاملة الآخذة بالتناقص ، راحوا يشترون اولاداً ناشئين بعد ان يجري خطفهم من المدن على يد اناس مختصين مدربين على ذلك . وهؤلاء النبلاء الذين كانوا يعيشون في البلاط او يملكون اخاذات صغيرة لا تفي بأودهم لم يلبثوا ان اصبحوا مدينين لدى التجار . وكانوا يستمرون على هذا النهج من الحياة بعد ان ينشئوا في املاكهم صناعات الحياكة ، وبتخفيض كمية الارز المخصصة لرجال الحرب التابعين لهم . وكان بعضهم يضطر ، بعد ان يغرقوا في الدين ، لبيع املاكهم من هؤلاء التجار .

وكان عدد كبير من رجال الحرب يذهبون فريسة الفاقة والعوز ، فيفقدون كل شعور

بالكرامة التي يحملون ، كـــما يفقدون كل حس بنبل المحتد الذي ينحدرون منه فيتخففون من عبء بعض بنيهم بالتخلص منهم . وكانوا يعفون من خدمتهم لهم الاتباع الذين توارثوهم ابـاً عن جد ، لقاء بعض المال يدفعونه لهم نقداً . وكثيراً ما تبنوا ابناء بورجوازيين اغنيـاء يعطونهم اسماءهم وينقلون اليهم الامتيازات التي ينعمون بها ، مقابل مبلغ محترم من المـال ، ثم يهجرون اسيادهم ويهبطون الى المدينة ويصبحون ساموراي مشردين بعضهم ينصرف التجارة بينما يصبح معظمهم من شذاذ الآفاق ، او ممثلين مسرحيين او مغنين او قطاعي طرق .

وكانت الطبقات الاجتماعية تتداخل فيا بينها وتتشابك بصورة يصعب حلها . ففي مجتمع يبدو مستقبله غامضاً ويسارع كل افراده للتمتع بمباهج الحياة ولذاذاتها، فالمضاربون الذين حالفهم الحظ وبسم لهم القدر ، والمشردون المغمورون بين الجماهير الذين يسعون للكسب من كل جوارحهم : هؤلاء عن طريق ثروة هبطت عليهم من حيث لا يدرون ، واولئـــك عن طريق غنيمة باردة او صيدة من غير صائد ، او لينعموا بسانحة بسمت لهم بين الاشواك ، كل ذلك التف مادة استفادت منها بائعات اللذة في هذه الاحياء الخاصة القائمة في المدن الكبرى المكتظة بالسكان . فدور البغاء اصبحت مؤسسات وسمية معترف بهـــا . والفن الوطني او القومي نفسه تنزى بهذا « الزبد الطافي فوق المجتمع» . فالنو *No* ، هذا الفن الغنائي الذي يمور بالرمزية والذي تكتنفه اللمحة الشاودة دون الاعادة المقرية ، قد انحط امام الدراما الشعبية الصاخبة العـــاتية . فالصورة الخشبية ، *Estampe* اكبر فنون اليابان وابرزها طرأ ، تبرز لنا ، حتى درجة الارهاق، مشاهد حياة البغايا ، وما هن عليه من بذخ صارخ ، ومواقفهن المصطنعة التي توحي لنا هــــذا الاحتشام الكاذب والخفر الحيي ، وهذه العـاطفة المشبوبة المنكمشة او المتحفظة . فهارونوبو (١٧١٨ — ١٧٨٠) الذي كان اول من اخترع الطباعة المتعددة الألوان الكامـلة ، واوتومارو (١٧٥٣ — ١٨٠٦) لم يصورا لنـا غير البغايا . وتسيونوبو (١٧١١ — ١٧٨٥) وكيومتسو (١٧٣٥ — ١٧٨٥) وكيولورو (١٧٣٨ — ١٧٦٥) وكوريوساي ، وكيونوغا (١٧٤٢ — ١٨١٥) الذي بلغ فن الاستامب على يدهم الذروة ، صوروا بالأكثر بغايا . وهكذا أخــذ الفن يروّج لتذوق هذه اللذائـذ التي تحرك الشهوات وتهيـج الاعصاب ، وتسهم في افساد الاخلاق والآداب ، فتزيد من آلام المجتمع واوصابه .

وقد أسقـط في ايـدي الشوغون يانوبو (١٧٠٩ — ١٧١٣) ويوشيمون ، وجيناري ، ولم يستطيعوا شيئاً امام هذا الوضع المستحكم الحلقات . فقـــد حاولوا معالجة الاعراض والظواهر دون البحث عن اسباب المرض الحقيقية ، وحاولوا ان يزيدوا من نفـوذ الكونفوشية ، سياج الاخلاق الحميدة والمدافعة الأولى في البلاد عن الانضباط وحسن النظام . واتخذوا مستشارين لهم فلاسفة وحكماء متعملين في الكونفوشية امثـال هاراي هاكوسيكي (١٦٥٦ — ١٧٢٦) ومورو كيوسو (١٦٥٨ — ١٧٣٤) ، وملسودايرا سادانوبو (منذ عام ١٧٨٦) . بذل هؤلاء المستشارون جهوداً طيبة لاصدار القرارات الرادعة ، ضد حب المال وسطوته ، وضد المخاطط

الاخلاق بين طبقة الساموراي (١٧١٠) وضد المزارعين الذين هجروا الارض واوجبوا عليهم الرجوع اليها والعمل فيها ، ومنع الفلاحين من هجر اراضيهم (عددهم وافر جداً) ، والحد من البذخ والاسراف وتحديد الايام التي يسمح لهم فيها بتناول الارز ، واجبار النساء على ترتيب زينتهن بانفسهن ، وانشاء جوائز ومكافآت لمن يحافظن على طهارتهن او تقواهن ، والالغـــاء الدوري لديون الساموراي . كل هـذه الاجراءات والتدابير الاحترازية لم تحدث اي تحسـين ، وبقيت دونما اثر . وكان الوضع يزداد سـوءاً يوماً بعد يوم . واستبدت المجاعة بالبلاد على اثر الجفاف والفيضانات التي نزلت بالبلاد بين ١٧٨٣–١٧٨٨ . فالهر والفأر قنص طيب يرغب فيه جيداً . وراح اليابانيون يأكلون جيف الموتى ، ويجهزون على المحتضرين ، ويكبسون لحم الآدميين ليحتفظوا به اطول مـدة ممكنة . وقد امتنعت السلطات عن ملاحقـة السرقة والمتسببين بالحرائق .

كل هذه الامور نغصت عيش النبلاء والساموراي وابناء التجار المثقفين ، بعد ان هالهم ما رأوه من قدرة الاوروبيين وسطوهم وبعد تأثيرهم . وقد اخذ الهولنديون يستوردون الساعات والمجاهر والفانوس السحري ، وقنينة ليـدن ، وميزان الحرارة وميزان ثقل الجو وقد سمح الشوغون مورو كيوسو ، باستيراد الكتب الاجنبيـة باستثناء الكتب التي تبحث في الدين المسيحي . ووضع احد الكونفوشيين يعمل موظفاً رسمياً اسمه اوكي يونزو عام ١٧٤٥ ، لحساب الحكومة ، معجما هولندياً يابانياً . وقام بعض الخاصة امثال روتاكو وسوجيتا يتعلمان اللغـة الهولندية ، واشتروا عام ١٧٧١ ، كتاباً في علم التشريح يضم الواحـاً علمية واقتنعوا عن طريق علم التشريح بأن الحق الى جانب الاوروبيين ضد الصينيين . وعملوا عـــام ١٧٧٤ ، على نشر الكتاب الآنف الذكر مترجماً الى اليابانية . وقد ادخل سوجيتا ، بعد ذلك ، طريقة العـــالم النباتي «لينيه» . وقد بقي روتاكو يبحث حتى اجله الاخير (١٧٨١) ليكوّن له فكرة عن وضع اوروبا . وقام هيروغا جناي (١٧٣٢ – ١٧٧٩) بابحاث حول النباتات الطبية ، وصنع اجهزة كهربائية وأصبح تاريخ اوروبا وجغرافيتها ، موضوع اهتمام الجميع . واستقر في خلد الجميـع ان ليس باستطاعة اليابان قط الصمود في وجه هجوم يقوم به الاوروبيون ضدها . وراح سيهاي هاياشي ينبه النـاس الى الخطر الكائن على اليابان من تقدم الروس ، ومن مجاورتهم لهم ، وابرازه بأنه الخطر الذي يهدد القومية اليابانية بأسوأ مصير . وراح الشباب يلتفـون حول هؤلاء الرجال بعد ان قلقت خواطرهم وتاقوا جـداً الى ان تستورد بلادهم العلوم والادارة وسياسة الغرب ، كذلك اخذ الجميع يكره حكم توكوغاؤوا وادارتهم . فالشك الذي قوبل به نظـــام حكم الشوغون والكونفوشية الرسمية حمل بعض الفلاسفة اليابانيين على نبش مدونات تاريخ اليابان القديم ودرسها . واخذوا يعون ، اكثر فاكثر ، مدى القول بأن الامبراطور هو ابن الشمس الاله الأسمى والأعلى . وراحوا يعلنون على رؤوس الاشهاد بـأن الشوغون هو مرسل بسيط من قبل العرش وان الولاء للعرش هو اسمى بكثير ، وفوق الولاء لسيد إقطاعي . وفي الوقت ذاته كشف اليابانيون

عن قوة جديدة في نظريات الفيلسوف الصيني القـــديم وانـغ يانغ – منغ وتعاليمه (او – يوماي) وهذا الفيلسوف الكونفوشي المنشق يوحي بتهذيب الشخصية عن طريق التمعن بالحقائق الداخلية ، فحصها وترويض النفس عليهـــا . ويشجب الاعتماد على ظاهر الكلمات المكتوبة . فساعد بذلك اليابانيين على تحرير ذواتهم من نـير تقاليد التوكوغاؤوا . وطلع من بين تلاميذه عدد كبير من دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر .

راحت انظـــار المستائين من ادارة التوكوغاؤوا وحكمهم ، والواقفين الى جانب الميكادو تتجه ، اكثر فأكثر الى بعض كبار النبلاء من امثـــال توزاما وصاتسوما والموري والتوزا والهيزن الذين عرفوا ان يبقوا بعيداً عن مؤثرات البلاط، ان يقتصدوا وان يستثمروا إقطاعاتهم على الوجـه الامثل وينظموها وحدات مستقلة اقتصادياً . فأوجدوا بعض الصناعات لهم وللمزارعين العاملين في خدمتهم ، وأولوا التجارة اهتمامهم الاكبر وراحوا يدافعون عن رجالهم ويحمونهم من جشع التجار المرابين ، ويحافظون على هذه المناقب الاجتماعية القديمة ويتمسمون بها . واذ كانوا حذقوا فن القيادة باعتبارهم زعماء القوم ، وبرهنوا عن كفـاءة ادارية عظيمة راحوا ينتظرون بهدوء الوقت المناسب والفرصة المؤاتية .

فمنذ اواخر القرن الثـامن عشر اخذت تتهيأ في اليابان ، هذه الحركة الكبرى التي ادت الى ثورة ١٨٦٨ ، كما ادت الى بعث اليابان وطلوع نهضتها الحديثة .

الفصل الرابع

افــــريقيـــا

كانت افريقيا تعيش في عزلة شبه مغلقة . فقد قام في الشمال من هذه القارة مجتمعات اسلامية ، امتدت حلقاتها من البحر الاحمر حتى شواطىء المحيط الاطلسي ، اولت ولاءها السلطنة العثمانية . وانعزلت مثلها عن آسيا محاولة دفع الكَثْرَة عنها . وفي ما عدا ذلك ، حواجز تألفت من شواطىء قليلة التقاطيع بيئتها واطية ، منخفضة ، رملية هنا ، او تغشاها المستنقعات والغياض ، هنالك ، ونواتىء طبيعية تبرز على الخط الدائري . ومساحات شاسعة تفترشها الاحراج والغابات والغدران والرمال المحرقة ، واقوام من الزنوج مُفزعة ، ألف بعضها القسوة والفظاظة ، والبعض الآخر حربي الطابع من أكلة لحم البشر تمتمل فيه فكرة الاستعمار التجاري والاستغلال ، بحيث ان كل شيء كان يحول ، في هذه القارة المترامية الاطراف ، دون التوغل والانسياح في ارجائها . فلما ابتعد الاوروبيون في القرن الثامن عشر عن بعض المراكز التجارية التي نثروا حباتها على الساحل الافريقي . اذ ان البرتغاليين الذين كانوا تسربوا الى بعض المناطق الداخلية ، واوغلوا فيها ، خلال القرون الماضية ، والذين احتفظوا لانفسهم بسرية الاكتشافات الجغرافية والبشرية التي توصلوا اليها عبر الاجيال ، قطعاً منهم لاثارة الشهوات واهاجة الرغائب بين المنافسين ، والذين لم يكن يهمهم غير التجارة وتأمين الارباح الطائلة ، كانوا قد تناسوا بعض ما تمّ لهم من علم ومعرفة عن هذه البلدان . وكان يشار الى داخل هذه القارة ، في أدق المصورات الجغرافية التي تعود لتلك الحقب التاريخية ، بلون ابيض او بخطوط تشير الى حدود اعتباطية فيبدو منها وكأن نهر النيجر مثلاً ، يخرج من بحيرة تشاد ليتصل سيره فيما بعد بالسنغال ، كما تبدو بحيرة تشاد وكأنها احدى منابع النيل ، وكأن عدة انهر قوية تجتاز الصحراء الكبرى في اتجاهات عديدة ، كما يبرز حيناً فيل شارد يهيم على وجهه فوق الربى والتلال . والحضارات القائمة في هذه الاقطار ، الجاهلة لاصول الكتابة في ادنى صورها ، والعاجزة عن الاحتفاظ بمدوناتها البدائية ، تكوّن السواد الاكبر مما تقع عليه العين من انماط متغايرة ، باستثناء بعض المعلومات التي توفرت على جمعها المراكز الاوروبية القائمة على الشواطىء الافريقية . فالمستندات الوحيدة المتوفرة ، تتألف من هذه الابحاث والكتب التي وضعها الكتاب العرب ، حول افريقيا الشمالية ، وحول بلاد الزنج التي قامت بينها وبين العرب والبربر ، بعض العلائق عبر التاريخ .

هذه الحضارات الافريقية راها كلها آخـــذة بالانحطاط في القرن الثامن عشر .

مصـــر

فالبلدان الافريقية الواقعـــة الى الشمال تشارك السلطنة العثمانية ، انحطاطها وتقهقرها . وعند النقطة التي تلتقي فيها آسيا بافريقيا ، في هذه الزاوية التي يتلاقى عندها العالم الشرقي بعالم البحر الابيض المتوسط ، تقـــوم مصر ، التي نظرت اليها القسطنطينية نظرتها الى ولاية من ولاياتهـا . وكان السلطان العثماني يعين عليها والـــياً او باشا يستبدله بغيره مع انتهاء العام . ويأتمر بامر الوالي ٢٤ نائباً يحمل كل واحد منهم لقب بك ، لهم ٣٧ وكيلا ، وتحت امرة الوالي خمسة طوابير من الخيالة ، بينهم ثلاثـــة من الصباحيين واثنان من المشاة ، وواحد من الانكشارية ، وواحد من العُزب ، يقوم على امرتها آغاوات او زعماء ، ولكل آغـــا نائب . على الباشا ان يؤمن النظام في البلاد ، وان يقيم العدل بالسواء بين الرعية ، كما يترتب عليه جباية الرسوم والضرائب ، على اشكالها : كضريبة الاملاك ، وضريبة الاعناق المفروضة على النصيين من نصارى ويهود . فاذا كانت الرسوم المفروضة عيناً على الاطيان والاراضي التي يردفها النيل بالخصب والثراء تؤمن دخلا طيباً ، فالجمارك من جهتها ، امنت هي الاخرى ، مردوداً عالياً . فقد كانت السفن العربية ترد السويس ومرفأ القصير قادمة من صورات ، في الهند محملة بالموسلين والاقمشة الهندية والقهوة العربية ، كما كانت تصل اسيوط قادمة من دارفور ، ناقلة العاج وقرن وحيد القرن ، وخشب الابنوس وريش النعـــام ، بينما كانت الاسكندرية تستقبل الاجواخ والخرداوات المختلفة تصدرها الى مرسيليا وليفورنو . فاينما رقع منك النظر في هـــذه المدن والموانىء ، رأيت سوقاً للرق والعبيد يؤتى بهم من السودان ، او سوقاً آخر للارقاء البيض يؤتى بهم من القوقاس وكان من مألوف العادة ان يرسل الوالي الى الاستانة ، كل سنة ٦٠٠ ٠٠٠ قرش من الخراج ، وعدداً من الجند .

اخذت هذه الولاية تعيش في شبه عزلة بعد ان راحت فريسة انحلال النظام الاقطاعي ، حيث غامت كل سلطة السلطان فيها . وراح البيكوات المماليك فيها يعملون على شراء ارقـاء من البيض ، يجعلون لهم منهم فرساناً عرفوا بالمماليك الذين شدتهم الى اسيادهم ، وابطـة الولاء والاخلاص أو ما يشبه رابطة البنوة . وقد جرت العادة في البلاد على ان ينعم اقوى البيكوات بلقب بك ،على احد مماليكه المصطفى فلا يعتم هذا الاخير حتى يسارع بدوره الى شراء ارقاء له من بلاد الكرج او من بلاد الشركس يقيم له منهم مماليك يقومون على خدمته . يختار من بينهم كالمعتاد بيكوات . وهكذا نرى ان جمهرة من العبيد والارقاء يتولون اكبر الوظائف الادارية واهمها في البلاد .

واخذ الجند بدورهم يختارون هم انفسهم ، آغواتهم لمدة سنة ، حتى اذا ما انقضت انضم الاغا الخارج الى مجلس الآغوات الذي يقوم على ادارة الفرقة ويختار اعضاءها .

ولم يلبث هؤلاء الجند ان استقلوا عن ســـلطة الباشا لا يعرفون رئيساً لهم غير زعيمهم ، فيأخذون بابتزاز الفلاحين وامتصاص التجار . وكان الباشا يبيعهم او يضع تحت تصرفهم ضياعاً بكاملها يستغلونها حتى ان بعض البيكوات تم له من ٢٠٠ الى ٤٠٠ عزبة او مزرعة ، اذ كان

يحتفظ في كل ضيعة من هذه الضياع بعزبة يكل امر العناية بها لفلاحين ومزارعين يسخرهم لهذا العمل . وكان يفرض عليهم الرسوم ، والضرائب على الاراضي والاملاك ، يعهد بجبايتها الى مأمورين يختارهم من بين موظفين نصارى من الاقباط ، حذقوا اسرار مسح الاراضي كما حذقوا القضايا المالية. وكان يحتفظ بقسم من هذه الرسوم ويرسل الباقي للوالي. وكان باستطاعة هؤلاء الاغوات والمماليك ان يوصوا ، شرعاً باملاكهم لاولادهم . فبعد ان الف المماليك جيشاً مرابطاً في البلاد يستغلها كما يشاء ، راحوا بوصفهم ورثة هذ القبائل البدوية التي تم الفتح على يدها ، يردون عن البلاد هجمات البدو في عهدهم .

وكان الباشوات والاغوات يتجاذبون اطراف السلطة فيا بينهم ، يستخدمون في سبيل الاستئثار بها الدسائس والمؤامرات والاشتباكات الداميــة ولا يتورعون قط عن القتل طعناً بالخناجر او السم المدسوس . وقد يشره طاغية جبار من بينهم السلطة ويحاول فرض سطوته على الجميع . من اشهر هؤلاء البيكوات علي بك (١٧٥٥ - ١٧٧٢) احد هؤلاء المماليك الذين سبقوا محمد علي الى الاستئثار بالحكم ، والذي ادرك ما عليه الاوروبيون من قوة البــأس والشكيمة ، فحاول ان يحصل من فرنسا مــا هو بحاجة اليه من المدافع ، كما حاول ان يفرض سيطرته على السودان الى الجنوب من مصر، وعلى سوريا والحجاز ويؤمن لمصر استقلالها الناجز، كما انقطع منذ عــام ١٧٦٨ ، عن استقبال اي باشا ترسله الاستانة ، وامتنع عن ارسال الخراج اليها ، وضرب العملة باسمه . وبعد ان اخذ يدس لرفاقه ويعاملهم بكل قسوة مات مكروهاً من الجميع الا من افراد الشعب الذي امتن له ، بالحديد والدم والنار ، النظام والعدل . وقد كانت البلاد في معظم الاحوال ترسف في الفوضى المخزية، بالرغم من محاولة فاشلة قام بها الاتراك لاعادة سيطرة السلطان على البلاد من جديد (١٨٨٧ - ١٧٨٩) .

والعدد الضئيل من الاوروبيين الذين سكنوا مصر ، اذ ذاك ، كان يمثل بعض البيوتات التجارية معظمهم من الفرنسيين الذين لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين ، يأتون مصر باذن خاص من غرفة تجارة مرسيليا ،فألفوا من بينهم «أمة»، لها منظماتها وهيآتها الرسمية يرأسها قنصل . وكان القنصل موظفاً يجري تعيينه من قبل الملك، يساعده ترجمان خاص تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تأسست في باريس ، عام ١٧٢١ ، وقامت ضمن كلية لويس الكبير ، فيها . وقد كان بعضهم امثال «له غران» الذي كان استاذاً لــلفــاردي سياسي ، وكاردون وديجون من كبار علماء المشرقيات الذين ساهموا باغنـاء المكتبة الملكية بما اعدوها من كتب ومخطوطات شرقية ، تركية وعربيــة . وقد نال الفرنسيون تخفيضاً لرسوم الجمرك عن بعض السلع التي يستوردونها بمعدل تراوح بين ٢٠ و٣٪ على الاجــواخ الجيدة ، منافسة منهم للاجواخ الانكليزية . وفي سنة ١٧٥٢ ، مــات آخــر تاجر انكليزي في مصر ، كما ألغيت القنصلية الانكليزية فيها .

ولم يكن يسمح للاوروبيين بالاقــامة . وكان عليهم ان ينزلوا ارضاً عن صهوة جيــادهم

عند مصادفتهم مرور الآغا او الوالي في الطريق ، وكثيراً مـا كانوا عرضة للاهانات والضرب وابتزاز المال .

ان انشاء امبراطورية في الهند جعل اهمية خاصة لطريق السويس وهي طريق اخصر بكثير من طريق رأس الرجـاء الصالح . الا ان البحر الاحمر الذي تقوم على سواحله الشرقية مدن الاسلام المقدسة كان محظوراً دخوله على الكفار . الا ان الضعف الذي اعترى السلطنة العثمانية سهل الاتصال مباشرة مع سيد مصر الموقت. ففي سنة ١٧٧٥، نال وورن هاستنغز، الترخيص للسفن الانكليزية بالدخول الى مرفأ السويس . وفي سنة ١٧٨٦ عاد الانكليز فانشأوا لهـم قنصلية في القاهرة ، ومنذ ذلك الحين اخذ الضباط الانكليز والموظفون والتجار منهم يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند ، عبر الصحراء والاسكندرية والبحر الابيض المتوسط ، والعكس بالعكس . ونال الفرنسيون مثل هذه الامتيازات ، عام ١٧٨٥ .

هذه البلاد الغنية ، مصر ، التي تعود التجارة فيها بارباح مغرية على القائمين بها والتي تقع وسطاً بين عالمين وكانت في ولاتها تابعة لسلطان ضعيف مستضعف ، كانت تثير الرغائب والمجازفـات في قلوب من يرنون اليها باشتهاء . فقد رأى شوازول في احتلال فرنسا لمصر ، خير عوض لهـا عن خسارتها وفقدانها لكل من كندا والهند ، فراح سنة ١٧٨٤ يشرح في شانتلو ويبين افكاره وآراءه ويؤيد نظرياته امام تاليران الذي كان وزيراً للخارجية ، في حكومـة الديركتوار . وعُرضت قضية احتـلال مصر عدة مرات لفرجين . وانشأت الامبراطورة كاترين الثانية قنصلية لها في الاسكندرية لتدفـع بالبيكاوات والآغوات الى التحرر من ربقة السلطان بوضع انفسهم تحت حمايتها . وستلعب مصر ، عما قريب ، دوراً رئيسياً في المسألة الشرقية .

تونس

كلما اوغل المرء سيراً باتجاه الغرب كلما شعر بضعف الولاء وضعف تابعية شعوبها لتركيا . فقد سبق وقام في تونس دولة جديدة عقب منـاداة الآغوات منها بالحسين باي عليها (١٧١٠) وتوارث الحكم والخلافة بعده ابناؤه . واغتنم سكان الجزائر حدوث أزمة حكـم في البـلاد ، فاستولوا على تونس وفرضوا على الباي ضريبة فادحـة (١٧٥٦) ، الا انه تمكن ، عـام ١٧٩٠ ، من الغاء علاقـات الولاء والتابعية التي شدته لداي الجزائر . واثرى هؤلاء الحكـام بفضل الاحتكارات التجارية التي انشأوها . وقـد اثارت ادعاءاتهم الجانية وتعديات القراصنة الذين خرجوا عن طاعتهم ،صعوبات مع الاوروبيين كـكان البندقية والاسبان والفرنسيين (تدخل الاسطول الفرنسي في الـ *Goulette* ، عام ١٧٨٤/١٧٨٥) ونال الفرنسيون من علي بك (١٧٥٩ – ١٧٨٢) امتيازاً خولهم احتكار صيد المرجان وإنشاء وكالة تجارية لهم في بنزرت ، واربعة مراكز تجارية اخرى حـول رأس عنابة *Cap Bon* وبزت الحركة التجارية الفرنسية في عهـد خلفـه الباي حموده (١٧٨٢ – ١٨١٤) نشاطات كل البلدان الاخرى .

الجزائر

كانت الجزائر خاضعة لحكم الداي الذي يجري انتخابه عادة، من قبل ضباط فرقة الإنكشارية . فمن اصل ٣٠ داياً تعاقبوا على حكم البلاد ، بين ١٦٧١ – ١٨١٨ ، جاء ١٤ حاكماً منهم الى الحكم إثر انقلابات عسكرية كانت تؤدي الى قتل الحاكم العام . ولعل اكثر الصناعات رواجاً في الجزائر واوفرها رِفْداً ودخلاً هي القرصنة اذ يقوم القرصان بمهاجمة السفن التجارية واخذ مَن وما فيها من انس ومال ، والاعتداء على المسيحيين الساكنين على السواحل البحرية . الا ان تطور صناعة السفن واساطيل الحربية لدى الاوروبيين ، خلال هذا القرن ، والرحلات التفتيشية التي اخذت تقوم بها هذه الاساطيل ، حدّت كثيراً من هجمات القرصان . دخل الداي في مفاوضات مع الدول الاوروبية التي رضيت تفادياً منها لتعديات القرصان ، ان تدفع له ، رسماً سنوياً معيناً بشرط ان تكون في مأمن من هجماتهم وتعدياتهم ومضايقاتهم ، وما عتّم ان اصل هؤلاء القرصان مهنة لم تَعُد لتدرّ على القائمين بها مدخولاً طيباً . وهكذا هبطت قوة الاسطول الجزائري من ٢٤ سفينة عام ١٧٢٤ ، الى ١٠ سفن عام ١٧٨٨ . كذلك ضعف النشاط الزراعي فيها وتردّت الاعمال الزراعية من جراء الجفاف الذي لحق بالبلاد ، ووباء الطاعون الذي تعرّضت له ، كما ان تجارة الاستيراد التي كانت الشركة الفرنسية الافريقية تلعب فيها دوراً بارزاً تقوم به فروعها الثلاثة في لاكال وعنابة وكولو ، قد انحطت هي ايضاً .

وقد راح الداي يشدد ، اكثر فأكثر على استثمار مرافق البلاد ، اذ عهد بالادارة في الملحقات الى بيكوات اتراك لقاء رسوم طائلة يفرضها عليهم فيحملون اليه الضرائب الجباة كل ثلاث سنوات . وكانت إيالة الجزائر تقسم ادارياً الى عدة اقضية ، يعهد بامور الادارة فيها الى موظفين من الترك . وكان الحكام الاداريون يصدرون تعليماتهم لرؤساء القبائل وشيوخها الذين كانوا يتحكمون بدورهم ، بالقرى او الدوار . وتُركت للقبائل الحرية بالمحافظة على عاداتها وتقاليدها المرعية ، اذ كل ما اراده الداي منهم هو دفع الضرائب والرسوم المترتبة . اما قبائل المخزن فكانت تتمتع بالاعفاء من الضرائب وتعمل على تحصيلها من القبائل الموالية . ولم تكن سلطة الداي الفعلية لتتعدى سدس مساحة البلاد . وكانت جمهوريات القبيل والقبائل الرحل التي تسكن المرتفعات والجنوب ، والامارات العسكرية امثال توغورت ، او الدينية ، كمين مهدي مثلاً ، لم يشدها الى الداي سوى وشائج غامضة من التابعية والولاء ، تضعف دوماً مع الانقلابات والانتفاضات .

واسبانيا التي اضطرت لاخلاء وهران والمرسى الكبير أمداً من الزمن ، عادت الى احتلالها، عام ١٧٣٢ . غير ان الاسبان فشلوا في انشاء قاعدة قوية لهم ، وكانوا يعولون بالاحرى ، على وطنهم الأم ، لتأمين اسباب عيشهم . وفي سنة ١٧٩٠ ، حدثت هزة ارضية هدمت مدينة وهران مما حمل الاسبان على التخلي عن هذه القاعدة للداي .

كان السلطان الشريفي في المغرب يتمتع عملياً باستقلاله التام عن السلطنة العثمانية.

المغرب

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان حكم السلطان مولاي اسماعيل ، هـذا الطاغية المستبد ذي المزاج الناري، يمتد فوق سلطنة واسعة الأرجاء ، شملت المغرب والسودان.

كان السودان يقـدم للسلطان ما هو بحاجة اليه من قوة عسكرية فيمدّه بجيش من الزنج قوامه ١٥٠،٠٠٠ جندي يخلصون له الخدمة والولاء. وكان هؤلاء الجنود، في الغالب ، متزوجين من زنجيات ، حتى اذا ما الجبن ، شبت ابناؤهم الذكور في مخيمات التدريب وانخرطوا فيا بعد ، في صفوف الجيش . امـا الاناث فيلشأن على الاعمال المنزلية ثم يتزوجن . وقام في الاماكن الستراتيجية قصبة يحيط بها سوران ترتفع فيها المستودعات والمساجد وحامية للدفاع عنها . ومن مدينة مكناس ، كان الشريف مولاي اسماعيل يفرض احترامه وطاعته على البلاد اجمع ، بعد ان انزل في قلوب الناس الخوف والرعدة ببطشه واعمال السلب والنهب والابتزاز . فلم يترك للانكليز سوى مدينـة طنجة ، وللبرتغاليين سوى موزاغان ، وللاسبان سوى مدينتي سبتا ومليلا .

واشتهر السلطان مولاي إسماعيل ببعد النظر ، وعمل على التخفيف من حماس الذين عُرفوا بتعصبهم الديني ، وهم فرقة من القرصان يقومون بنشاطاتهم على السواحل البحرية . ويعملون على مطاردة المسيحيين وتعذيبهم . فوضع حـداً لاعمال القرصنة التي انقطع اليها القرصان في صالح وتطوان . وكان من جراء ذلك ، ان نشطت الحركة التجارية وزادت واردات السلطان ، بعد ان فرض على الصادر والوارد رسومـاً بلغت ١٠٪ ، واصبحت مدن صالح وتطوان وصافي واغادير ، مرافىء تجارية ناشطة . واحتلت مدينـة فاس من هذه الامبراطورية القلب . وكان البرتغاليون يفدون على مدينة قادس طلباً للدردة القرمزية والزنجفر من الاسبان ، والاجراخ والاصداف من الغينه التي كانوا يستعملونها نقوداً ويستوردها الانكليز مع الاقمشة ، يتلقون التوابل والاسلحة والاعتـدة الحربية من الهولنديين ، والشب والكبريت من ايطاليا ، والحرير والقطن والزئبق والافيون من بلدان الشرق الادنى ، ويحملون كل هذه الاصناف الى السواحل ، حيث كان المسلمون واليهود يتهافتون على شرائها لمقايضتها مع العرب والسودانيين لقاء مسحوق الذهب والفيل وريش النعام والعاج من السودان ، والتمر من الواحات وقد احتل الانكليز في هذه التجارة المرتبة الاولى .

وبعد وفاة مولاي اسماعيل ، أخذ أولاده من نسائه العديدات ، يتجاذبون الخلافـة كل من جهته ، في هذه الفترة الواقعة بين ١٧٢٧ – ١٧٥٧ . وقد تصرف الجنود الزنج تصرف المستبد . يرفعون الشرفاء الى الحكم ويخلعونهم كما يحلو لهم . واغتنم زعماء القبائل هـذا الوضع لاعلان العصيان والثورة . فأهمل المغـاربة مصير السودان واسقطوه من اهتمامهم فوقع في الفوضى وراح يتخبط فيها .

استطاع مولاي محمد (١٧٥٧ – ١٩٧٠) ان يعيـد الأمن والهدوء الى البلاد . الا انـه

تخلى نهائياً عن السودان وارغم البرتغاليين على الانسحاب من مازاغان ، عام ١٧٦٩ ، الا انه باء بالفشل امام مليلا . فبعد ان اعطى الدانيمارك احتكار الاتجار مع مدينة اسفي وأغادير (١٧٥١) عقد مع فرنسا معاهدة تجارية عاملها معاملة الدولة الاكثر رعاية . وقام منذ ذاك في مدينة الرباط ، قنصل فرنسي ، كما جاء وسكن البلاد عدد من الفرنسيين . وأسس السلطان مدينة موغادور وجعل منها اكبر اسواق المغرب على الاطلاق ، كما اقام احتكاراً للملح. وهكذا عرف المغرب الازدهار دون ان يعيد الى الوجود ، الامبراطورية الافريقية ، مع بقاء البلاد في وضع لا يختلف كثيراً عن وضعها في الاجيال الوسطى .

افريقيا السوداء

كانت افريقيا السوداء التي ألفت سوقاً كبيرة للرق والنخاسة آخذة في مجموعها بالانحطاط والقهقرى وهي تقاسي الامرّين من الاتجار بالرقيق . وقد راح تجار الرق من العرب ، يتجهون شمالاً وشرقاً سائقين امامهم سوق النعاج ، سحائب لا تنقطع من الارقاء باتجاه مدينة مراكش وطرابلس ، او باتجاه اسيوط والممالك الاسلامية في الصومال وسلطنة زنجبار ، ومنها يُنقلون للعمل في الزراعة او في الجيش ، او في حريم السلاطين والامراء ، في افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى . اما تجار النخاسة من الاوروبيين فكانوا ينشطون للعمل الى الغرب من القارة الافريقية ، انطلاقاً من موريتانيا حتى الكونغو في رقعة شاسعة طولها ٣٥٠٠ كيلومتر . وكانت النخاسة أهم وجوه النشاط التجاري في هذه الوكالات التجارية الفرنسية القائمة في سان لويس وبودور وغوريا وكازامانس والبريدا بعد ان تتموّن بالرقيق من السنغال ومن المراكز الانكليزية في غمبيا وسيراليون والشاطىء الذهبي . اما خير ارقاء الزنج الذين عُرفوا بقوتهم البدنية وحسن طاعتهم فقد كان يؤتى بهم من جزيرة فرناندو بو الاسبانية ومن الوكالات التجارية الدانيماركية والهولندية ، في منطقة خليج بنين *Bénin* التي ألفت سوقاً طيبة وان كانت محاصيلها وسطى،واخيراً من الوكالات التجارية البرتغالية المديدة، في سان بول دي لواندا ، وسان فيليب دي بنغويلا ، على الساحل الغربي ، ومن لورنسو ماركيز وصوفالا ، وكويليمان وموزمبيق على الساحل الشرقي .

واستعمل تجار النخاسة طريقتين : الكتيبة الغازية والشراء . فالاولى كانت الطريقة التي عول عليها التجار العرب في زنجبار ، اذ كانوا يفاجئون بكتيبة من الجند حسنة التسليح يصطحبونها معهم ، القرى على حين غرة ويذبحون فيها كل من يحاول المقاومة او يسبب لهم ازعاجاً ما ، ويسوقون السكان صفوفاً لا نهاية لها ، عبيداً وارقاء . فيلاقي عدد كبير منهم حتفهم في الطريق . وكان الهلع يسمر الخوف في قلوب السكان حتى من كان منهم في مناطق البحيرات الافريقية ، ويتعرض الريف لعملية منظمة من السلب والنهب ، ويروح الزنوج فريسة البؤس والخوف ويدب التفسخ والانحلال في المجتمعات الزنجية . ونهج الطريقة نفسها الخلاسيون البرتغاليون *Pombeiros* الذين عرفوا بالقسوة والفظاظة وفساد الاخلاق محتذين حذو التجار

العرب . اما الطريقة الثانية ، وهي التي اعتمدها بالاكثر الاوروبيون ، واحياناً تجار النخاسة من العرب ، فقامت على شراء الارقاء من بعض الزعماء على اساس من المقايضات تستدعي احياناً ستة اشهر من المفاوضات والمداولات . كان من نتائجها بيع اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ اسير زنجي ، في السنة .

وقد تركت تجارة الرق اثرها البعيد ، داخل القارة الافريقية . هنالك زعماء كثيرون اشعلوا الحرب ونفخوا في اوارها ، تأميناً لحاجتهم من الارقاء . وقد راح العرب والاوروبيون على السواء ، يحرضون الملوك والامراء والزعماء المحليين بعضهم على بعض فيقتتلون فيذهب الفريق المغلوب على امره اسرى يقودونهم الى الموانيء الساحلية ، في صفوف طويلة . ولذا قامت الحرب بينهم باستمرار ، والف الرق عند اصحابه عملية اختيار بالمعكوس . فينقل النخاسون بعيداً من افريقيا السوداء ، الفتيان الاشداء يعملون في الزراعة ، والزنجيات الجبلات للاخصاب والنسل ، والاولاد الصغار للعمل والخدمة في المنازل . وهكذا كانت افريقيا تفقد خير سكانها وتنزف دونما انقطاع ، دمها المتجدد . والذين يستبقون في مجاهل الارض يعيشون تحت رحمة شريعة الغاب ، حيث الحق للقوي ، وحيث يطلع الصباح عن مصير مجهول ، وعن غد يطوّح بهم الى البراري ، او يعرض مقتنياتهم لغزو لا يرحم من السلب والنهب ، ومنازلهم للحريق والابادة ، فيجدون انفسهم مشردين تترصدهم يد الموت ، واحيانا اذا ما اسعف الحظ وافتر القدر عن بسمة الرضى ، امام مقصف ينقطع اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر حتى اذا ما خر هؤلاء واولئك ، راحوا فريسة عملية فتح لا تبقي ولا تذر .

اما الى اقصى الجنوب في القارة السوداء ، فالشركة الهولندية لم تكترث بمدينة الراس الا باعتبارها الاسكلة الرئيسية على طريق الهند . هنالك مزارعون هولنديون انضم اليهم بعض اللاجئين من بروتستانت الفرنسيين ، جلوا عن بلادهم هرباً من الاضطهاد الديني رأوا اعمالهم الزراعية في السهول الطيبة التربة تجود وتزدهر ، اربى عددهم على ٢٠ ٠٠٠ . فمن عاش منهم على مقربة من الساحل جاء عيشهم رغيداً على النمط الاوروبي . اما الذين نهضوا منهم للعمل في مشاريع استثمارية داخل البلاد ، فقد عاشوا عيش الآباء الاقدمين .فقد كانوا كلفنيين متعصبين، يطالعون باستمرار الكتاب المقدس ، ويعتقدون اعتقاداً لا يتزحزح ، باسطورة تفوق الجنس الابيض ، وشرعية الرق وقانونيته بعد ان اقرته اسفار العهد القديم ، كما اعتقدوا يقيناً ان الله افاء عليهم بارض افريقيا شريطة ان يجتثوا منها الزنوج المشركين كما فعل اليهود باعداء دينهم من عبدة الاصنام ، وتحت تصرفهم يعمل في خدمتهم ٢٠٠ الف من الزنج العبيد ، يطاردونهم احياناً مطاردة الصياد لطريدته الهاربة اللب ، ويتعقبون فارين من وجههم ، اقوام البوشيمان والهوتنتو ، الى آخر حدود الارض المأهولة المتصلة بمنطقة الكلاهاري ، ثم يعودون للحرب ضد الاحلاف العسكرية التي شكلها الاقوام الرعاة كالزولو والماتابيلة ، والكفار والبسوتو الذين

عرفوا بنشاطهم وعنادهم . واول مستعمرة انشأهـا البيض من الاوروبيين ، عرفت بسعيها المسعور للقضاء على سكان البلاد الاصليين .

حـاول الآباء اليسوعيون ، في المستعمرات البرتغالية ، ان يكسبوا الزنوج للمسيحية فيضمونهم تحت حمايتهم . فقد حـاولوا ، هم انفسهم ، ان ينشئوا لهم مزدوعات ناجحة ، وان يؤلفوا للزنج دينا مبسطاً يأتلف مع تفكير الاطفال وذهنيتهم . الا انه صدر ، عـام ١٧٥٨ ، الامر بطرد اليسوعيين من جميع الممتلكات التابعة لملك البرتغال . هؤلاء الزنج الذين اعتنقوا من عهد قريب مسيحية مبسطة ، لم يلبثوا ان عادوا الى وثنيتهم الاولى ليغرقوا من جديد في الخرافات واعمال السحر والسحرة .

جلب العرب معهم الى سباسب افريقيا وسهولها الرحبة الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى ومن ليبيا ، والسودان ، الاسلام والزي العربي في اللباس ، أقله لزعماء القوم ، وفن البناء العربي ممثلا في المساجد ، كما حملوا اليهم المبادىء الاسلامية التي قام عليها التنظيم السياسي والاجتماعي . وقد انتشر الاسلام بين بعض القبائل الكبرى ولا سيما بين التي تعيش منها على تربية الماشية والظعن . وبعكس هؤلاء بقي سكان الريف على وثنيتهم يؤمنون بوحدة الأرواح العائلة في الحيوان . وكان من تأثير اعتناق القوم للاسلام ان اخذوا يختارون لهم زعيماً او شيخاً للقبيلة ، كما اخذوا يخضعون لقانون واحـد ولشريعة مشتركة . وألفت عدة قبائل من ذاتها مملكة قد تكون سلطنة او امارة ، على شاكلة الدول التي قامت في الاجيال الوسطى . وكان من جراء ذلك ان زاد القوم تمسكاً بالاخـلاق والآداب ، كما ازدادوا حركة ونشاطاً وكثيراً ما طلب الى المؤمنين الجـدد الاشتراك بالجهاد او الحرب المقدسة ، اشـد الفرائض الاسلامية وقعاً عليهم وافساها طراً ، وساد بينهم تعدد الزوجات ، وهو وضع خول عـدداً من انصاف الاخوة ، المطالبة بحق الوراثة ، الامر الذي سبب انحلال عدة سلالات ، كما ادى الى وقوع عدة حروب اهلية بحيث حق لنا ان نتساءل اذا كان الدين ادى بالفعل الى رفع مستوى الزنوج ام لا . واستمرت حركة نشر الاسلام طوال القرن الثامن عشر . فبعد ان اخذ اقوام التوكولور بالاسلام راحوا يفرضونه على قبائل «البوله» التي كانت تؤمن بالقيبية ويلزمونهم الاخذ بمؤسساتهم ونظمهم ، كانشاء مجلس الاختيارية ورئيس منتخب لمدة سنتين يكون في الوقت ذاته كاهن القبيلة ، وقائدها في الجهاد والقاضي فيها ، وألف البوله عام ١٧٢٠ ، مملكة ثيوقراطية في مقاطعة الفوتا–جالون ، كما الفوا لهم عام ١٧٧٠ ، مملكة اخرى في الفوتا– تورو . واذ كانوا شعباً ذا اخلاق راعوية شديدة ، محافظين حتى حدود القسوة على الاخـلاق ، فلم يلبثوا ان عرفوا بعصبيتهم المتشددة ، اشداء في الحروب . واستمروا على هـذا الوضع بينما اخذ السودان بالانحلال والتفكك .

وراح السودان يتأثر ، الى حد بعيد بحوادث الغرب . فمملكة السنغاي التي قامت عنـد

عطفة نهر النيجر ، وجدت نفسها ، في مطلع القرن الثامن عشر ، تحت حماية المملكة الشريفية المغربية ، يحكمها ملك ينتخب من بين ابناء الاسرة الملكية القائمة في مدينة تمبوكتو. وكان يقوم الى جانبه ، باشا مغربي يعينه السلطان ويعهد اليه بالإدارة المدنية . وكان قاضي تمبوكتو يتولى قيادة الجيش العليا ، كما تولى القضاة المساعدون قيادة الحاميات الغربية المرابطة في مدن جُبا وغاو ودياتا وتندرينا وكولامي . وقسمت المملكة إدارياً الى اربع نيابات توزعت كل واحدة الى عدة ولايات . وكان الباشا يختار نواب الملك الاربعة كما يختار الحكام من بين ابناء الطبقة الارستوقراطية الزنجية . وهنالك امراء توابع ، من بينهم امراء الطوارق والفولبا والجوليمند ، والبربر القادمين من جنوبي المغرب ، يستمدون سلطتهم من الباشا ، يعملون في جيش المرتزقة على تخوم المملكة . اما حضارتهم فعلى شيء من الازدهار ، والمدن عديدة مكتظة بالسكان . والحرف اليدوية ناشطة والاتجار بالحاجيات الثمينة رائجة على اكتاف المدن والاسواق التجارية ، وعرفت الزراعة ان تفيد من بعض الاشغال الفنية كحفر الآبار والاقنية والسواقي اللازمة للري ، كما ان المدن كانت مراكز للنشاط الفكري غصّت بالادباء والعلماء المسلمين الذين ألفوا تربة صالحة انبتت عدداً كبيراً من الشيوخ والعلماء والادباء والفقهاء ، وعلماء الكلام والاطباء .

بعد وفاة مولاي السلطان اسماعيل (١٧٢٧) واثناء هذه الاضطرابات الدامية التي نشبت في المغرب ، وجد الجيش المغربي في السودان نفسه سيداً مطلقاً على البلاد . وما لبث ان ألّف هذا الجيش وذراري الجند ، طبقة عسكرية عُرفت بجشعها وفظاظتها وشراستها . وتمكن قضاتهم من تأليف امارات خاصة بهم عرفت ، عندما تتفق فيما بينها ، ان تفرض تعيين الباشا الذي ترضى عنه ، لذلك كثيراً ما آل الامر فيما بينها الى الحرب والاقتتال . وراح الطوارق والجوليمندن ، بعد ان نعموا بالمزيد من الحرية عند تقهقر المغرب ، يغتنمونها فرصة سانحة لغزو مقاطعات الشمال ، بينما راح الامراء والملوك الوثنيون ، في الجنوب يحذون حذوهم ايضاً . وفي اواخر القرن الثامن عشر تمكن الطوارق والجوليمند من الاستيلاء على تمبوكتو وانزلوا الدمار بمدينتي جبا وغاو ، وزرعوا الخراب في هذه البقاع الواقعة عند عطفة نهر النيجر. فأدت هذه الحروب الى مذابح هائلة بين السكان ودمرت المزروعات وردمت الآبار والترع القائمة ، وعرّضت البلاد لمجاعات شديدة ، فاقفرت الطرق من سالكيها ، فماتت التجارة وبارت السكارات ، كما خفتت الحركة الفكرية في المدن بعد ان اصيبت بالانحطاط .

وقد تعرّض غرب السنغال لغزوات المغاربة . اما مقاطعة البورنو الواقعة في الشمال والتي اعتنق اهلها الاسلام ، فقد استكان ملوكها وخلوا وضعُف بالتالي صمودهم في وجه الطوارق الغزاة ، وفي وجه الغزوات التي شنها عليهم ملوك الدول الوثنية ، في الجنوب ، فأقفرت مقاطعة البورنو من سكانها . وهذه المدن التي اعتنق اهلها الاسلام ، امثال باغرمي وعوادات ودلرفور ، والتي كانت بمعزل من الغزوات التي قامت بها الدول الكبرى الغازية ، فقد تمتعت

بفترات طويلة من الازدهار ، استغلت فيها الى اقصى حد ، شبكة الطرقات وقنــوات الري والازرعة ، فازدهرت فيها الفنون التشكيلية والآداب وعلم الكلام . وقد تخلل هذه القرون وقوع ثورات وحوادث قتل وحروب دامية بين مختلف السلالات الملكية انطلقت فيها الاطماع والغرائز البشرية من عقالها ، فجاءت بأعمال من القسوة والوحشية زرعت البلاد خراباً ودماراً.

وراحت جاليات من العرب تتغلغل شرقاً بالرغم من اعتراض جبال الحبشة المسيحية لسيرها الى الامام ، بالرغم مما قام بينها من انقسامات وعصبيات حزبية ، فاستأثرت بالمراعي الخصبة القائمة عنـد عويداي ، حيث اختلطت ذراريهم بذواري سكان البلاد الاصليين وتمازجت معاً فتألفت قبائل الشواس الذين كانوا رعاة ثم استحالوا حضراً بعد ما ابتُلوا به من اوبئة وافدة فتاكة اصابت ماشيتهم فمحقتها ، وبعد الحروب الدامية التي ارغمتهم على القراص فيما بينهم ، فأخذوا يتعاطون الزراعة .

والى الجنوب من عطفة نهر النيجر قامت اقــوام الموسيس الذين انعزلوا عن العرب والبربر ليمدهم ولبثوا على الوثنية . واستمروا قائمين في المنطقة بعد ان ألفوا من بينهم ، مملكتين قويتين تركزتا حول واغادوغو .

اما هذه المساحات التي افترشتها الغابات الظليلة ، فقـــد استوطنها قوم من حضر الزنج احترفوا الزراعة وقالوا بوجود الارواح العاقلة في الحيوان . ففي هذه المنطقة التي تغطيها الانهر ومصباتها العريضة ، والغياض والمستنقعات والاحراج البكر الـــتي تقف حائلاً دون التواصل والتمازج ، فقد راحت تتـأر من القبائل الضاربة في مجالها . لكل منها لهجتها الخاصة وعاداتها واعرافها . ويكفي ان تتعرى ارض من غاباتهـــا لتعرضها لانحباس المطر ، حتى يروح الزنج يكوّنون لهم فيها مملكة فيلتفون حول مليك يكون لهم ، في الوقت ذاتـــه ، حاكماً مستبداً ورئيس احبار ، كله استعداد ، للأخذ هو واتباعه ، بالوثنية وتعدد الآلهة ، ثم تحاول التوسع وتشرئب بأعناقها الى السيطرة بعيداً . وفي القرن الثـامن عشر ، انقسمت امبراطورية الماندينغ الى عدد لا يحصى من الامارات . واستطاعت مقاطعة الداهومي ، اذ ذاك ، أن تحقق استقلالها على حساب مملكة أردر *Ardre* ، وتؤمن للبلاد وحدتهـا ، خلال هذا القرن . واستمرت قبائل أشنتي الحربية في توسعها وتقدمها الى الشرق والغرب معاً . ومع ان عهد ازدهار دولة « البنين » *Bénins* قد مضى وانقضى ، فقـــد عرفت ، مع ذلك ، ان تحافظ على حضارتها الأصيلة كما تشهد على ذلك صنائع الشبهان والعاج التي خلفتها ، وهي مصنوعات اقل جمالاً فنياً من سابقاتها ، مع ما لها من قيمة عالية .

وظهر في اواخر القرن دليلان على حدوث تغير او تبـــدل ظاهر في موقف الاوروبيين ، فقد قـام السكوتلاندي جيمس بروس ، بين ١٧٦٩ – ١٧٧٣ ، بعـــد ان استهدف لخاطر تشيب لهولهـا الولدان - باستكشاف مجاهل الحبشة والنيل الأزرق وبلاد النوبة . فنشر عام ١٧٨٨ ، وصف رحلته هـــذه ، فكان لها وقع كبير في انكلترا . وفي هذه السنة بالذات ،

تأسست في لندن ، الجمعية الافريقية ووضعت نصب عينيها القيام باستكشافات منهجية . ومن جهة ثانية استطاع فريق من أرقاء الزنج النجاة بأنفسهم من اميركا ، والقدوم ، باعداد كبيرة ، الى انكلترا حيث وجدوا انفسهم في حرز حريز اذ لم تكن الشرائع الانكليزية ولا طائفة الكويكر وعلى رأسها ويلبرفورس ، تعترف بشرعية الرق . فسمح لهم بالرجوع الى بلادهم الاصلية . وعلى يدهم قامت مدينة فريتون ، في سيراليون ، كملاذ لهم ولكل الزنج الارقاء الذين ينجون بأنفسهم من افريقيا . فعاش هؤلاء الارقاء القدامى فيها بين الفوضى واعمال العنف . وهكذا طلعت علينا حركة واسعة المدى من الرحلات والرسالات كشفت للناس عن موارد غنية في افريقيا ، فرنت اليها انظار الدول والمغامرين مما ادى الى اقتسام الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر .

الكتاب الخامس

الأنوار والمجتمعات الأوروبيّة في أميركا

لبث العالم القديم شبه منعزل عن الحضارة الاوروبية ، بالرغم من وقوع اوروبا على مسافة قريبة جداً من القارة الافريقية وهي امتداد او استطالة لآسيا. ففي العالم الجديد وحده، استطاع الاوروبيون ان يؤلفوا ، عبر البحار ، مجتمعات جديدة . فقد ارتفعت لهم حضارة مشتركة امتدت اطرافها من بطرسبورغ حتى مدينة كويبك في كندا وحتى اورليان الجديدة ، في اميركا ، ومن البندقية حتى مدينة بونس ايرس . وهكذا بدا المحيط الاطلسي اداة وصل وربط اكثر منه حاجزاً او حائلاً .

ومرد هذا الوضع يعود الى ان السفر بحراً هو ايسر اخذاً من الاسفار براً ، كما ان اوروبا هي اقرب بحراً الى اميركا منها الى آسيا ، مع انها متصلة بها جغرافياً . فالفوارق الجغرافية بين اوروبا واميركا ، وهذا الامتداد الذي لا ينتهي ، وهذا الاستواء في المناطق ، وقوة العناصر الماحقة للانسان المستضعف التي لم تكن لتبز الفوارق القائمة بين اوروبا من جهة ، وبين افريقيا واميركا من جهة اخرى ، قام بديلاً منها وعوضاً عنها ، ما نرى ونشهد من سهولة النفاذ والتغلغل في القارة الاميركية ، ومن امتداد طبيعة المناخ في هذه المرتفعات والاصعدة المرتفعة الملائمة للانسان الابيض . ومن ذلك ايضاً هو ان الاوروبيين لم يصادفوا ، في اي مكان من اميركا ما اعترضهم في آسيا من كثافة السكان ومن امبراطوريات قوية ذات حول وطول ، بل وجدوا انفسهم امام اقوام قليلة العدد ، مشتتة على مستوى مادي متدن جداً ، وان الامبراطوريات الاكثر تطوراً التي وجدوها احياناً امامهم ، في المكسيك او في البيرو ، كانت تقنياتها ادنى بكثير مما تم منها للاوروبيين ، كما وجدوا امامهم قبضة من المتحكمين المسيطرين ، رعاياهم واتباعهم على اتم استعداد للثورة ضدهم وشق عصا الطاعة عليهم، وزحزحة النير الذي رزحوا تحته طويلاً .

وهذه المجتمعات الاوروبية التي قامت في العالم الجديد ، خلال القرن الثامن عشر ، اخذت بدورها تتطور بسرعة فائقة وتستبدل مرافقها المهلهلة بالجديد ، وهو تطور ظهر في تزايد

موصول لعدد السكان ، وفي مختلف مظاهر النشاطات والثروة والحياة الفكرية . واكتسب السكان فيها عادات واعرافاً ومصالح اختلفت كلياً عما تم من امثالها لسكان البلدان الام . وهبت على هؤلاء الاقوام روح قومية جديدة ، فأخذت المجتمعات البشرية تتململ وتتبرم من وضع الاستعباد والاستعمار والاستثمار الذي أريد لها فأقصرت عليه ، والذي روعيت فيه ، قبل كل شيء ، مصلحة الوطن الأم لا غير . فرفضت بعد ان عاد اليها وعيها الاجتماعي والسياسي ، بشمم واباء ، ان تدار شؤونها من الخارج ، كما رفضت الخضوع والتسليم لنظرية اقتصادية نفعية ولنظام اقتصادي اعتباطي حائل اساسه الاستثناءات ، يقوم على الميثاق الاستعماري ، والذي يفرض على المستعمرات إقصاء لتجارتها على الوطن الأم او حصرها في نطاق المستعمرات الاخرى ، وان تقصر انتاجهـا الزراعي والصناعي على ما يسد حاجة البلد الأم . هنالك نزعة شاملة تتغلغل بين هذه البلدان تدفعها للتحرر ونيـل الاستقلال . وهذه النزعة تقوى او تضعف بنسبة درجة التطور الذي بلغتـه المستعمرة ، والقوة التي تمت لها مع وجوب مراعاة العديد من المستويات والمفارقات .

الفصل الأول

أميركا البرتغالية

وضع البرازيل في مستهل القرن

يمثل البرازيل احد هذه البلدان الاميركية المستعمرة التي كان فيه الوقوف في وجه الوطن الام ، والرغبة في التحرر منه والاستقلال عنه اقل مما استمر من امثال هذه المشاعر ، وادنى مما اعربت عنه الرغبات المماثلة في البلدان الاخرى . فقد تطور البرازيل دونما خضخضة او رجرجة ، فما ان مالت شمس القرن الى المغيب حتى رأيناه على استعداد ليسير سيرته الشخصية دون اي رغبة فيه بفرض مثل هذا الحل بالقوة ، حتى انه لم يفكر قط في مثل هذا الامر جدياً .

ومع ذلك ، فالبرازيل لا كيان له ولا وجود الا لمصلحة الوطن الام . فالبرتغال احتفظ لنفسه باستثمار خيرات هـــذه البلاد الغنية والاستئثار بمواردها الطائلة ، فحظر على التجار الاجانب الدخول الى البلاد . فاذا ما شذ عن القاعدة وخرج عن الصدد ، عام ١٧٠٣ بمعاهدة مثوين التي عقدها مع انكلترا واعترف لها بحرية الاتجار مع البرازيل ، فلأمر واحـــد هو رغبته في تصريف نبيذه في المملكة المتحدة ، وليجد فيها نصيراً له وحامياً ، وتوفيراً منه للمواد الصباغية التي تحتاج اليها هذه المستعمرة . فمصلحته الخاصة هي الهادي له في الامـــر والمسير لخطاه ، ومنها يستوحي احكامه ويستلهم مواقفه . فالوكالة التجارية الانكليزية في لشبونة ، هي التي تشحن البضائع الانكليزية ، والسفنَ التي ترسلها البرتغال ، كل سنة ، الى البرازيل هي التي تجلب الى مرفأ لندن ، محاصيل البرازيل ومنتاجه لتخزنها في عنابرها ، وتعود فيما بعد لتوزعها يمنة ويسرة ، حسب مقتضيات الحال واستبداد الاسعار بالاسواق .

كانت الزراعـــة في مستهل العصر المرفق الرئيسي في اقتصاديات البرازيل . وكان البرتغال ينتظر ان تصله منه المحاصيل التي تعطيها المستعمرة . فهو يحظر عليها زراعة الكرمة وشجـــرة الزيتون والتوت . وكان على المعمرين ان يشتروا ، باعلى الأسعار ، من البرتغال ، النبيذ والزيت والحرير والملح وخشب الصباغة الذي يخضع لاحتكار الدولة . ويمهد ملك البرتغال بحـــق الاحتكار هذا ، لمن يدفع خير الاسعار . ولذا كان ارتفاع سعر الملح يجعل من صيد السمك عملية راكدة ميتة . وسكر القصب يجب شحنه البرتغال غير مصفى ولا مكرر ، بحيث يجـــري

تكريره هناك . واكبر قدر من التبغ يحتفظ به لمعامل التبغ في الدولة البرتغاليـــة ، وعلى المعمرين ان يتنازلوا للبرتغاليين عن الارباح التي يحققها ترضيب التبغ ومعالجتـــه الفنية . وكل المزدرعات تخضع لضريبة كنسية تبلـــغ العشر ، تجبى باسم الملك الذي يحتفـظ لنفسه بقسم منهـــا .

والبرتغال الذي يحتفظ لنفسه بالارباح الناجمة عن عمليات الاستثمار احتفظ لنفسه ايضاً بحق ادارة البلاد وحكمها على هواه . فالمجالس الملكية في لشبونة ، وعمليا ، الملـــك ووزراؤه هم الذين يعينون بالفعل ، منذ عام ١٧٢٠ ، نائـب الملك ، ورئيس القباطنـة ، والقباطنـــة العاديين ، والقضاة في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات . ورئيس قبطان هو الذي يعين ، بدوره ، صغار الموظفين . وبالاشتراك مع القباطنة العاديين يعين اعضاء المجالس البلدية المفروض فيهم ان ينتخبوا انتخاباً .

وهذا النظام الذي فرض على البرازيل الخضوع التام للبرتغال والذي اوجب عليه وضـــع جميع مصالحه في خدمة البلاد الام ، عَمل به المعمرون عن رضى وقبول وطيـب الخاطر ، لأنه كان شكلياً او صورياً اكثر منه حقيقياً واقعيا . كان الموظفون لا يستمرون طويـلاً في وظائفهم فالهيئات الوحيدة القائمة لم تكن سوى الغرف البلدية وهي تتألف من سكان البلاد . وكان على الموظفين ان يرجعوا الى هذه الهيئات في الكثير من امور الادارة . وبالفعـــل ، كثيراً ما كانت المجالس البلدية هي التي تفتي او تقضي في الأمر حتى في القضايا والشؤون البعيدة عن الإدارة البلدية . وكان من حق هذه الهيئات ان تعين رئيس الادارة اذا ما تلكأت الحكومة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولما كان هؤلاء الموظفون كثيراً ما يرون في الوظائف التي تعهد اليهم ، فرصة لاستغلال الصلاحيات التي عهد بها اليهم ولا يهمهم من الامر الا ان يُلوا من اخصر الطرق ، فكثيراً ما تركوا لهذه المجالس البلدية حرية التصرف . ان عـــدداً كبيراً من رؤساء القباطنة لم يكونوا موظفين بالمعنى المعروف ، اذ كانوا ينظرون الى وظيفتهم كانما يجود بها عليهم الملك . والاوامر القطعية والتعليمات الاستبدادية الصادرة عن الحكومة البرتغاليـة ، كثيراً ما جرى تطبيقها ، عند ابلاغها ، بتساهل كلي ، ناهيك عن ان هذه المجتمعات البشرية كانت مشتتة ، متباعدة والمسافات شاسعة بـــين الواحدة منها والاخـرى ، والمواصـــلات بطيئة للغاية . ولذا كان كبار الملاكين والموظفون المحليون يتصرفون على هواهـــم ، دونمـــا رقيب او حسيب .

فالمعمرون وذراريهم في المستعمرات ، كان بينهم عدد كبير من الاولاد المنفيين والمبعدين والخارجين على القانون من سكان جزر الاسُور والماديرا ، فسيطر عليهم الخمول ورسفـــوا في الجهل والجهالة ولم تجش نفوسهم بأي رسيس من الرغائب التي تتطلب الاشباع ويقتضي اشباعها الانفاق . فقد ضَعُفت فيهم الميول وخف عندهم الاستعداد او القابلية للعمل ، فلم يهتمـوا من قريب او من بعيد ، ولا عَنَوا قط بما يؤمن او يؤول الى الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وما

يَبرموا يوماً من نظام الاستثناءات الذي خضعوا له وعاشوا فيه . دفعهم الى مثل هذا الوضع خفوت نشاط الحياة الاقتصادية وضعفها التي لم تُثِر فيهم اي منزع الرغبة ، ولم تحرك فيهم الا شهوة الربح . فالانتاج كان محدوداً لا يزيد على حاجة اليد العاملة بعد ان قل فيها عدد السكان في البلاد . وقد استعمال عدد كبير من الهنود فيها الى أرقاء يعملون باستمرار في المزارع او في المناجم . الا ان الآباء اليسوعيين عرفوا ان يجتذبوا اليهم عدداً كبيراً من هؤلاء الارقاء ولا سيا من بين الهنود وانزلوهم قرى ودساكر في ظل حكم تيوقراطي شيوعي . وقد بقي عدد منهم حراً يتمتع باستقلاله في هذه المناطق والمرتفعات الجبلية ، او في حوض نهر الامازون . ولذا كان لا بد من الاستعانة بالزنوج لتأمين ما يلزم من يد وقوى عاملة في زراعة قصب السكر ، في مناطق برنمبورك وبَهيّا وبراهيبا . الا ان عددهم لم يكن ليسد حاجة البلاد ، وهكذا بقيت مشكلة اليد العاملة فيها مشكلة مستعصية الحل . والعمال الاحرار من اصل برتغالي كانوا يلتجئون بالقدر الذي يفي بحاجاتهم ويسد عوزهم ، اذ لم يكن ليساورهم اي امل بأن يصبحوا يوماً من صغار الملاكين ، على قِلّتهم . وكان رؤساء القباطنة يتولون ، هم انفسهم ، توزيع الاراضي الشاغرة ، فانشأوا في البلاد ، بهذه الطريقة ، اطياناً شاسعة الأرجاء . فقد توزعت اراضي مقاطعة براهيبا بين ٤ من كبار الملاكين ، وحددت مساحة الممتلكات ، في مقاطعة بيوهي ، بـ ١١٤٠٠ هكتار . وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يقتني ما يشاء من الاقطاع ، مساحة الواحد منها ١١٤٠٠ هكتار . ولعل معمراً بسيطاً تألفت املاكه من٥٠ هكتار ، واليسوعي من ٣٠ هكتار . وكان المعمرون يرفضون رفضاً باتاً ان تقسم املاكهم لئلا يتعذر عليهم تنويع زراعاتهم وتبديلها كلما افتقرت الارض. وكان وضع المهاجرين القادمين، والمعتقين وضع المرابعين والمزارعين في بلادهم الأصلية .

كذلك اشتدت حاجة البلاد كثيراً الى رؤوس اموال . فقد تمكن الانكليز من سحب مقادير كبيرة من نقد البلاد عن طريق بيعهم الاهلين الحاجيات المصنوعة . وكانت النقليات تجمد جانباً كبيراً من رؤوس الاموال . فعدد البغال والبغالين اللازمين للنقل في الغابات الاستوائية ، والعربات والثيران المعدّة للجر ، والسواقين ، والاكارين في السهول والسباسب المرتفعة ، والحمالين الهنود ، او العملة الذين يعملون في جر السفن عند المساقط والشلالات النهرية ، وبطء المواصلات الصعبة التي تستغرق شهوراً للوصول بالملاحة النهرية ، الى ماتو غروسو ، عبر نهر تاباغوس وامازونيا ، كل هذه النشاطات والاعمال كانت تضطر الملتزمين والمتعهدين الى عمليات تسليف باهظة . ولم يكن المال يتوفر للقيام بمشروعات زراعية او صناعية اخرى .

وهذا الشعب البرازيلي ، لم يخامره يوماً اي شعور بالحاجة لاستبدال النظام السياسي المعمول به في البلاد ، ولا الى النظام الاقتصادي ، اذ عُرف عن البرازيليين ، الامتثال والطاعة. فقد عُرف عنهم حبهم للظهور . الا انهم كانوا يقنعون بمركز ثانوي من هذه المراكز التي كانت تُعطى عادة للمواليد من البرتغاليين في تلك البلاد . وكان باستطاعة الاغنياء من ابناء هذه الطبقة بلوغ

اعلى المراتب وأرفع الوظائف التي كان يحتفظ بها إجمالاً ، البرتغاليين من ابناء الوطن الام ، وهي وظائف تولي من يقوم بها او من يضطلع بمسؤوليتها شرف المحتد . ولم يكن الخلاسيون يشعرون بأي احتقار نحوهم او بأي إنتقاص من شأنهم . والفوارق الاجتماعية عندهم لم تنهض على اختلاف اللون او البشرة ، اذ كان باستطاعة الملونين ان ينالوا الوظائف العامة كالخلاسين ، مثلاً بمثل ، بعد ان اتصفوا بالنشاط والإقدام ، فألفوا نسبة محترمة بين الطبقة الوسطى . ولم يقم ما يسبب النفور بينهم او يبعث فيهم التذمر من المجتمع الذي عاشوا فيه .

اما الوحدة البرازيلية ، وحدة الشعب ، فقد عرفت اوضاع مخاض صعب . فكان لكل منطقة او مقاطعة كبيرة من مناطق البلاد ومقاطعاتها الرئيسية ، حياتها الخاصة التي تتمركز حول ما قام فيها من موانىء ومرافىء ناشطة ، تتجه بعلاقاتها الى لشبونة اكثر منها الى المقاطعات المجاورة ، ولكل قبطانية او ولاية ، عملتها الخاصة ونقدها الخاص . وكانت قبطانية مارنهاو ، تصدّر ، عبر مرفأ بارا ، ما تنتجه من خشب الصناعة كما تصدر انتاجها من الابنوس لاوروبا . واعتادت مدن باراهيا وبرنمبوك وبهيّا ، ان ترسل براً ، سيراً على الاقدام ، ما تنتجه من قصب السكر والتبغ واللحوم ، وجلود الابقار المتوحشة من المناطق الداخلية الى الساحل . وقام حول ريو دي جانيرو وسان-باولو ، كما قام حول كوريلنيا وباراناغو ، حركة تعمير واحياء زراعي اخذت تنشط وتقوى باستمرار . اما البلاد، في الداخل ، فقد كانت فارغة تقريباً ، والعزلة الاقتصادية تتضاعف بعزلة ادارية . وقد اعتادت لشبونة ان تتصل مباشرة برؤساء القباطنة دون المرور ادارياً بنائب الملك .

وهكذا نرى كيف ان السكان كانوا يتحملون راضين قانعين، سيادة كان من اليسير عليهم ان يزحزحوها ، وان يتحرروا منها بأيسر السبل . فالموظفون البرتغاليون ، قلة هم ، وافراد الجيش البرتغالي لم يكونوا راضين عن مرتباتهم التي لم تكن لتُدفع لهم بانتظام ، كما برموا من قلة العناية بهم ، ناهيك ان عددهم كان اقل بكثير من افراد الميليشيا المحلية .

تطور البلاد الى عهد بيال

اخذ البرازيل يزداد ، تدريجياً ، غنىً وسكاناً ووحدةً . فقد كانت اشتدت جداً ، قبل سنة ١٧٥٠ ، حركة السفن الانكليزية التي تعمل في التهريب ضمن الامبراطورية الاسبانية ، اذ كان جانب كبير من نشاط هذه الحركة ، يمر عبر البرازيل ، باتجاه ريو دي لابلاتا ، في الجنوب ، او باتجاه بوليفيا والبيرو ، الى الغرب ، او باتجاه فنزويلا عبر نهر الريو نغرو والكاسيكويار الى الشمال . وحركة التجارة والتهريب هذه وفرت لمتعهدي النقل البري، الاموال اللازمة لقيامهم بمشروعات واشغال جديدة، كما انها بعثت النشاط في العلاقات بين مختلف المناطق البرازيلية .

ومن جهة اخرى ، شاءت الاقدار ، عام ١٧٠٠ ، ان يعثر البولسيون ، وهم عرق توالد في البرازيل من تزاوج المتفيين والهنديات ،عرف بالنشاط العارم وروح المغامرة والاتكال على النفس،

على مناجم الذهب ، في هـذه المناطق الواقعة في حوض نهر الاورو بريتو ، وبلو هوريز ونته ، والى الجنوب من سان - باولو ، كما تُيض لهم ، ان يعاروا ، منذ عام ١٧٢٥ ، على المـاس ، عند مجرى نهر سان فرنسيسكو ، وفي المنطقة المعروفة عندهم بمنطقة الماس *Diamantina* . وقد تخلى ملك البرتغال عن استثمار مناجم الذهب لبعض الخاصة ، لقاء رسم معين يتناسب وعـدد العمال العاملين في استخراجه من المناجم . اما استثمار الماس الذي سار على النهج ذاته ، في بدء الامر ، فقد اصبح ، بعد عام ١٧٤٠ ، احتكاراً حكومياً تولته الدولة مباشرة ، وذلك تفادياً منها لاغراق الاسواق بهـذا الحجر الكريم والمحافظة من جهة ثانية على اسعاره العالية في العالم . وفي سنة ١٧١٤ ، اصبحت منطقة المناجم هذه ، قاعدة لقبطانية عامة ، عُرفت باسم « ميناس جيرايس. فقد أدّى استثمار المناجم ،بالطبع الى تعمير الارض وإحياء الاملاك الواقعة على مقربة منها ، في الداخل ، امثال : فتو غروسّو وغوياز . ولم تلبث هذه المناطق ان اصبحت فيما بعد ، مراكز نشطت فيها تربية الماشية ، لتأمين حاجة المعدّنين من المواد الغذائية ، كما قامت فيهـا اسواق تجارية ، منها سوق كويابا (١٧١٨) ، وغوياز (١٧٢٢) ، ومدينـة ريو دي جانيرو التي كانت ترد اليها محاصيل الذهب والمـاس ، كما كانت تردها الادوات الصناعية اللازمة للعمل في المناجم ، فلم تعتم ان بزت مدينة بهيا بنشاطها .وهكذا ادّى اكتشاف مناجم الذهب والماس الى توفير رؤوس الاموال اللازمة لاستثمارها والى ايجـاد مناطق اقتصادية جديدة ، كما ادى الى تنشيط التبادل التجاري بين مختلف مناطق البرازيل ، وزادها ارتباطاً بعضها ببعض، وشدّ بالتالي من وحدتها .

وكان من بعض نتائج هذا الوضع ان ارتفع عدد السكان في البلاد ، وطرأ بالتالي ، تغير على طبيعة تركيبهم الاتنوغرافي . فأخذ البولسيون بطاردة الهنود حتى في منطقة الامازون لتأمين اليد العاملة في المناجم . الا انهم اصطدموا ، في منطقة باراغيا ، بمعارضة اليسوعيين لهم ، الذين اخذوا يقاومون بالقوة ، الحملات العسكرية التي اخذ البولسيون بتنظيمها تأميناً لحاجتهـم ، وبذلك استطاع الآباء اليسوعيون ، ان ينقذوا الهنود من الرق الذين استهدفوا له ، كـما حافظوا عليهم من الفناء المحتم ، اذ كان الهنود يتعرضون للموت باكراً ، اذ لم تكن اجسامهم الضعيفة ، لتتحمل عياء المناجم واعمالها الشاقة المضنية . ولذا كان لا بد لهؤلاء البولسيين من استيراد الزنوج ، باعداد كبيرة من المستعمرات البرتغالية في افريقيا . فالف سَوقهم وشحنهـم مجرىً لم ينقطع سيله حتى اواخر القرن . ولما كانت الحكومة البرتغالية مهتمة بتطوير الزراعة في البرازيل ، فقد حرصت على نقل عدد كبير من الفلاحين ، من جـزر الاسور ومادير ا ، نزولاً منها عند طلب حكام القبطانيات ، شريطة ان يوفـروا لهـم السكن والعمـل عند وصولهم .

عمل بمبال الاصلاحي

قام الوزير بُمبال ، بين ١٧٥٠ - ١٧٧٧ ، بجهود اصلاحي ، عمـراني كبير في البرازيل وفي البرتغال ايضاً . فحـاول بوصفـه « دكتاتوراً

مستنيراً ، ان يخضع البرازيل لتوجيهات الملك مباشرة . فاجرى تغييراً جذرياً في وضع القباطنة العامين وذلك بجعلهم موظفين رسميين . كذلك اعطى الموظفين حق البقاء في الخدمة الفعلية الى ما لا حد له ، كما مكنهم من ان يتمتعوا ، عن طريق خبراتهم الواسعة لامور البلاد وطبائع العباد واعرافهم ، بكل حرية لا بالسلطات والصلاحيات التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات اللازمة ، كما انه أقصر مهمة المجالس البلدية على الامور البلدية ، ليس إلا .

واذ كان بمبال من كبار الداعين للتطور الاقتصادي في البرتغال ، فقد راح يحاول ، دون ان يمس بسوء ، منطوق المعاهدات والمواثيق الدولية السارية المفعول ، الحلول محل الانكليز ، بالاتجار مع البرازيل . فاخذ ، في هذا السبيل ، بتنشيط الصناعة في البرتغال . فحظر على سكان البرازيل ان ينشئوا ، على ارضهم ، الصناعات التي تقوم مثلها في البرتغال . الا انه ترك لهم فقط حرية صنع المنسوجات الخشنة المتخذة من الكتان او القطن والتي يحتاج اليها الزنوج والهنود والطبقات الشعبية السفلى . وحاول جاهداً ، ان يجيء البرازيل ، الاخذ باسباب التطوير والانماء الاقتصادي عن طريق إنشاء شركات برتغالية رأسمالية قوية ، بمعاضدة الدولة . فانشأ من ذلك شركات تجارية تتمتع باحتكارات خاصة ، منها شركة بارا التي رأت النور عام ١٧٦٥ ، وشركة مارنهاو ، عام ١٧٦٩ ، وشركة برنمبوك وبراهيبا . واخذت شركة بارا تقوم باعمال لها واسعة في منطقة كانت لا تزال متخلفة جداً ، وتفتقر كلياً لوسائل العمل ، ومع ذلك حققت نتائج ممتازة . فاستوردت العبيد من زنـــج افريقيا ، اذ لم تتوفر للطبقات الفقيرة ، تأمينهم من قبل ، واوجدت سوقاً لتنفيق وتصريف المحاصيل الطبيعية التي تدرها بسخاء منطقة الامازون والتي أهمل امرها لعدم وجود من يهتم بها . وضاعفت مقاطعة ماتوغروسو وغوياز تصدير انتاجها من الماشية الى منطقة الامازون ، وارغمت المعمرين على التخلي لهـــا عن محاصيل السكر بسعر ادنى من السعر الذي له في السوق الحرة ، كما الزمتهم بشراء حاجياتهم باثمان غالية . وراح بمبال يعوض عليهم هذه الخسارة عن طريق تشجيعه زراعة النيلة ، وذلك باعفائها من الرسوم لمدة عشر سنوات ، والارز لمدة عشرين سنة .

كذلك حاول ان يزيد من انتاج المناجم التابعة للتاج . ففرض ، منذ عام ١٧٥١ ، دفـــع رسم مقداره ٢٠٪ على الذهب ، فجاءت هذه الزيادة في وقت كان الانتاج قد اخـــذ بالهبوط . ولكي يحول دون حركة تهريب الماس ويخفف من نتائجها وذيولها ، استبدل نظام العهدة او التأجير بنظام الاحتكار ، وابعد عن المنطقة الغنية بالماس ، كل من لا يعمل في المناجم . ويبدو ان نظام الاحتكار لم يأت بنتائج افضل من نظام التأجير والتلزيم .

وبعد ان اقتنع بمبال بالمساوىء التي يجرها الرق على الهنود ، اصدر عـــام ١٧٥٥ ، امره بتحريرهم وعتقهم . فاصطدم هنا بمعـــارضة اليسوعيين الذين لم يكونوا مقتنعين قط ، بقدرة الهنود على تدبير امورهم بانفسهم ، وكانوا من ناحية اخرى ، يرغبون في ابقاء من يعملون منهم في الارساليات الدينية والتبشيرية ، تحت اشرافهم مباشرة . وكان بمبال على اختلاف شديد مع

تلك الرهبنة بمناسبة حركة القرصنة والتهريب التي كانت تقوم بها السفن البريطانية . وكان الانكليز راغبين جداً بتفادي كل اختلاف او مشاحنة مع الاسبان في منطقة الريو دي لابلاتا، لاستخدامهم في حركة التهريب الواسعة التي يقومون بها ، عن طريق باراناغوا المفضية في نهاية المطاف ، الى مدينة اسنسيون ، ومنها عبر اودية بلسكومايو وفيرميخو ، الى بوليفيا ، فراحوا عام ١٧٥٠ ، يحرضون البرتغال ، على ان يقوم بعملية مبادلة مع الاسبان ، فيتنازل لهم عن مقاطعة سكرمنتو (اورغواي) لقاء املاك الارساليات اليسوعية الواقعة بين نهري الاورغواي والباراغواي . واليسوعيون الذين كانوا تمكنوا من ربط ارسالياتهم في الشرق بارسالياتهم في الغرب بعد ان تم لهم انشاء مركزي ساوستانسلاس وساو براسكيم ، والذين كانوا يتولون الاشراف التام على دولة ثيوقراطية امتدت اطرافها من الاورغواي حتى جبال الاندس ، والذين كانوا يرغبون في ابقاء الهنود بعيدين عن كل اتصال بالبيض لأنهم المنحلل للاخلاق ، راحوا يقاومون بشدة هذه الاجراءات . وتمكن بمبال ، عام ١٧٥٤ — ١٧٥٥ من تحطيم مقاومتهم بالقوة ، مستعيناً على ذلك بالبولسيين . ثم اصدر امره عام ١٧٥٩ ، بطرد اليسوعيين من البرازيل . ولم يلبث الهنود ان عادوا سريعاً الى وثنيتهم الاولى ، بعد ان فقدوا كل شعور بحريتهم ، اذ كان لا بد لهم ، وهم في مثل هذا الدرك السحيق من التخلف ، ان يعهد بادارتهم ، الى حكام مدنيين ، علمانيين ، يتوجب عليهم تسليفهم بعض المال ليتغلبوا على مصاعب الحياة ، فجعلتهم ديونهم هذه التي رزحوا تحتها ، في وضع مادي عصيب لا يجدون لهم منه مخرجاً ، اما هنود بارا ومارنهاو ، فآثروا ان يعملوا فَعَلَةً احراراً باجر اعلى .

اما مشاكل الحدود بين البرازيل واسبانيا ، فقد حلت بموجب معاهدة سانت ألدفونش المعقودة عام ١٧٧٧ ، وبمعاهدة البرادو التي وقعها الطرفان ، عام ١٧٧٨ . فتنازل البرتغال عن مقاطعاته الجنوبية الواقعة على ريو دي لابلاتا،مقابل الاراضي الواقعة الى الشرق من الباراغواي، والشرق من البيرو والغويان حتى مشارف الريو نغرو . وكان من نتائج هذه الاتفاقات انشاء طريق جديدة تسلكه السفن القائمة بالتهريب (*Interlope*) قامت عليها ، عام ١٧٧٤ مدينة كورنبا ، وتسهيلات اوسع في الاتجاهات التي كانت تعتمدها حركة التهريب النهرية من قبل . وهكذا تأسست مدينة طباتنغا ، على نهر الامازون ، عام ١٧٨٠ .

وقد أتيح للوزير بمبال ان يحدث حركة تطورية عادت بالخير واليمن ، ووفرت رأس المال واليد العاملة ، وزادت من الانتاج وتقوية العلاقات بين مختلف المقاطعات ، ولكن بعد ان دفع ثمن ذلك غالياً من الاستثناءات الاضافية .

حركة التطور بعد بمبال

على إثر اعتزال بمبال مهام الوزارة ، ألغيت بعد عام ١٧٧٧ ، كل الشركات التي كان اسسها بعد ان جاءت بأطيب النتائج . فاستمرت مقاطعات الشمال تنعم بالازدهار الذي عرفت ان تؤمنه لها شركة بارا . واخذ عدد من القباطنة العامين يهتمون بمصالح رعاياهم وتأمين الازدهار للمقاطعات التي يشرفون عليها ادارياً ،

بعد ان اتيح لها القيام بمثل هذا العمل الطيب المجدي . فبقطع النظر عن هذه الزراعات التي كانت موضوع اهتمامهم منذ عهد بعيد كقصب السكر والتبغ ، فقد بذلوا جهوداً طيبة لتطوير الحديثة منها كالنيلة والارز والبن والقطن والكاكاو ، كما ازداد كذلك ، تصدير الجلود . وبذلك اصبحت الزراعة اهم مرافق البلاد ، فأمنت لها الرفاه بعد ان هبط انتـاج المناجم من المعادن الثمينة ، لنفاذ الطبقات السطحية ، ممـا ادى الى تأخر مدينة اورو بريتو بحيث امست في اواخر القرن قرية متواضعة لا شأن لها . وهذا الازدهار الاقتصادي ادى بدوره الى مضاعفة عدد السكان بين ١٧٧٦ - ١٨٠٦ .

فبعد ان اصبحت البلاد اوفر سكاناً ، واكثر غنى واشد تماسكاً ووحدة ، اخذت تشعر ، اكثر فاكثر ، بمساوىء نظام الاستثناءات الذي تعيش في ظله ، بعد ان شدد بمبال من قبضة البلاد الام في ادارتها لها . واخذ الشعب يتوق بملء جوارحه الى حريـة اوسع في التجارة والصناعة والزراعة . كما انه تاق أن يرى ابنـاء البلاد يحكمون انفسهم بأنفسهم . وانتشرت افكار « الفلاسفة » التي نادى بها الكتاب الفرنسيون بين ذراري البرتغاليـين الذين توالدوا في البرازيل وتناسلوا بعد ان تم لهم المزيد من الثراء والعلم والقبس من الآراء التقدمية ، كما ان مُثل الولايات المتحدة الاميركية حرّك رغائبهم نحو الاستقلال . فبدت على الناس أعراض التذمـر والقلق . فقد كانت الأمة البرازيلية في سبيلها الى التكون والبروز والانفصال عـن البرتغال وكانت تنتظر الفرصة المؤاتية والسانحة العارضة . الا انه بالنظر لإدارة البرتغال السمحاء ، على الاجمال ، لم تنشب في البرازيل ، أزمة حادة كما شهدنا في غير مكان من اميركا الجنوبية .

الفصل الثاني

أميركا الاسبانية

كان التطور الذي أخذت اميركا الاسبانية بأسبابه ، شبيهاً من وجوه عدة بذلك التطور الذي نهجت عليه البرازيل مع فارق وحيد هو ان الشعور الوطني او القومي برز فيها اشد ، كما ان أزمة الاستقلال أخذت تحتدم فيها ، منذ عام ١٧٨٩ ، إذ أن الدولة الاسبانية التي تم لها من القوة والبطش ما لم يتم بعضه البرتغال ، استطاعت ان تطبق ، بشكل اشد وأبرز ، مبادىء « الميثاق الاستعماري » ، ولان نفوس فريق محترم في الامبراطورية الاسبانية ، جاشت بمشاعر واحاسيس نحو الملونين فاعتمدوا تجاههم سياسة من الاستثناءات والتمييز الطبقي بلغ من عنفها وحدتها ما لم تصل الى بعضه نفوس البرتغاليين .

الوضع العام بعد معاهدة اوتريخت

كان ملك اسبانيا يعتبر نفسه عام ١٧١٤ ، ملكاً مطلقاً على امبراطورية تسكنها شعوب واقوام هم ادنى منزلة ومرتبة من الاسبان في البلد الأم ، يحتم استثمارها واستغلالها بما فيه مصلحة الملك والشعب الاسباني.

فهذه الامبراطورية التي قامت في الهند الغربية ، كانت تحكم وتدار من اسبانيا مباشرة ، وباسم الملك ونيابة عنه ، على يد مجلس الهند . والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، يقوم على تنفيذها والتقيد بها بكل دقة : نائبان للملك ، يقيم احدهما في اسبانيا الجديدة ، مركزه مدينة مكسيكو ، كما يقيم الثاني في مدينة ليما ، عاصمة البيرو ، يجرى تعيينهما من قبل الملك نفسه ، ويتمتعان بجميع الصلاحيات والسلطات التي له . ويعمل تحت ادارتها قبطانان عامان ، يقيم احدهما في غواتيالا ، ويقيم الآخر في سانت دومنغو ، واليه يرجع حكام كوبا وبورتو ريكو وفلوريدا . ويصدر نائبا الملك اوامرهما مباشرة لحكام الولايات الواقعة ضمن نيابتيهما ، والتي لا يقوم على رأس ادارتها قبطان عام . ويتولى الادارة المحلية في المجتمعات غير الوطنية ، مجالس بلدية (*Cabildos*) ، ينتخب اعضاؤها انتخاباً ، من حيث المبدأ ، مع ان وظائفهم تبقى عرضة للساومات ، فيزداد عددها للازدياد بالتالي مداخيل الملك ، وان لم يكن لها بالفعل أي سلطة ، يؤمن العدالة ، في الدرجة الاولى ، قضاة مختصون . اما في الدرجات الثانية والثالثة ،

فمطلون يحلون القضاء . السكان الوطنيين الحرية بالمحافظة على عاداتهم واعرافهم القومية ، شريطة ألا تتعارض مع وصايا الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها ، تحت مراقبة فريق من بني دينهم يقضون فيما بينهم في القضايا المدنية والجزائية ، لهم السلطة لتشغيلهم لقاء اجر معين ، ويقومون بالفصل وسطاء بينهم وبين البيض في كل ما يتعلق بامورهم . فالحكام الحلفون والقضاة، كل هؤلاء يجري تعيينهم مباشرة من قبل ملك اسبانيا . وفي حال غيابه ، من قبل نائب الملك. اما صغار القضاة ، فيتولى تعيينهم الحكام بحيث يشمر الجميع ، حتى في المجالس البلدية ، بسلطة الملك المطلقة .

واستغلال الامبراطورية واستثمارها هي من شؤون اسبانيا الخاصة وحدها فيحظر على هذه الامبراطورية أن تنتج اي صنف تنتج مثله اسبانيا . ونالت البيرو بصعوبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها ، وزرع الكرمة في اراضيها المتدلة ، شريطة الا تصدّر اي شيء من انتاج هذين الصنفين ، الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية الاسبانية التي تتمون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم . وحظر على الامبراطورية كذلك ان تصنع اي شيء يصنع مثله في اسبانيا . فلاسبانيا وحدها الحق بشراء جميع منتوجات الامبراطورية ، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج اليه من امور المعيشة . فاذا ما تعذر على اسبانيا ان تزودها بما تحتاج اليه ، او ان تستهلك هي نفسها منتوجات امبراطوريتها ، قامت اسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها . فغرفة تجارة اشبيلية التي انتقلت ، عام ١٧١٨ ، الى مدينة قادس ، لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ ، تحدد هي نفسها ، كمية الشحن المعد مثلاً للهند الغربية ، كما تحدد منها الاسعار ، وعدد السفن التي تقوم بنقل الوسق والمشحونات . هنالك اساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادس المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع اجزاء الامبراطورية الاسبانية في اميركا باتجاه مرافىء بورتو بلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الاصناف المشحونة ، ثم تباع البضاعة في الاسواق التجارية ، وهي اسواق تستمر قائمة مدة اربعين يوماً ، ومنها تنقل براً الى جميع اطراف الامبراطورية . كذلك تشحن من هذه الموانىء جميع محاصيل بلدان الامبراطورية . والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة ، بين الامبراطورية الاسبانية وبين بلاد المنشأ ، هي تجارة الرقيق التي ألفت احتكاراً انكليزياً (*Asiento*) وذلك منذ عام ١٧١٣ . فللانكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من افريقيا الى بونس ايرس وقرطاجنة وبورتو بلو ، اختصاراً للوقت وللمسافات ، واستعجالاً للمعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة السريعة العطب من اخطار ومهالك .

وهذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء والذي فرض على الامبراطورية فاضطرت للنزول عنده والاخذ به ، فألزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدن منخفض ، حال ، الى حد بعيد ، دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها . ففيه كل المساوىء التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي ، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما

تحتاج اليه البلاد من رؤوس الاموال واليد العاملة. فاسبانيا والقانون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر، يسلبون الامبراطورية، ما لديهـا من معادن ثمينة، فيقل النقد من التداول، وتتأخر حركة البيع والشراء. ان تأمين كل ما يحتاج اليه العمال العاملون في الغابات بالتلزيم، وبطء حركة النقل، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الاموال التي لا بد منها لتأمين هذه المتوجبات، يلتهم رؤوس الاموال الزهيدة التي امكن توفرها (مع العلم انه يقتضي ٣ اشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس ايرس وسلطا، كما يقتضي لقطعها ١٢٠٠٠، رأس بقر، و ٦٠٠ مركبة او عربة). واعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من اليد العاملة. ان ثلث سكان كولمبيا ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من البغالين. وهذه البلاد الكاثوليكية، على طريقتها الخاصة، تعد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى. فلا عجب ان تفتقر افتقاراً شديداً اليد العاملة.

حاولت الدولة الاسبانية ان تحافظ، جهدها، على استمرار بعض الافكار التقليدية حية بين رعايا امبراطوريتها في اميركا. فالجامعات التي قامت في كل من مكسيكو وليما وسنتا فيه في بوغوتا، وقرطبة وشركلس وغواتيالا وكوزكو وسان دومنغو، ضمت فروعاً واقساماً لتعليم اللاهوت والفلسفة الكلاسيكية والحقوق والطب، والآداب الرفيعة والرياضيات. فجامعة ليما، مثلاً، تدرّس لغة الكويشوا، كما ان جامعة مكسيكو تدرس لغة الازتيك والاوتومي. كثيرة هي في البلاد، المدارس الابتدائية والثانوية التي يقوم على ادارتها العديد من الرهبان والراهبات. اما الكتب فنادرة الوجود غالية الثمن. فليس من مطبعة بعد، في غير مكسيكو وليما. والحكومة تراقب الطباعة ودورها عن كثب ولا تبيح الدخول الى الامبراطورية، لاي من الكتب او المطبوعات التي توجس منها شراً على الاخلاق او العقائد او الآداب، كما تحظر دخول الكتب ذات النزعة المتحررة. ويساعد الحكومة في مراقبتها هذه ديوان التفتيش الذي سجل بين الكتب الممنوع دخولها الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية ٥٤٢٠ كتاباً. وهكذا نرى الاميركيين يخضعون لنوع جديد من الوصاية الشديدة والرقابة الصارمة.

ليس من عجب قط ان ترتفع، بعد هذا، الاصوات بالتذمر والشكوى معربة عن عدم رضاها. ويرى مواليد الاوروبيين في المستعمرات من ذراري المعمرين الاسبان، انهم يضحى بهم بسخاء فيذهبون ضحية اسبانيا، ناهيك عن ان كل الوظائف الرئيسية هي بأيدي من هم من مواليد اسبانيا. والشاذ نادر جداً، حتى ان الشؤون المحلية لا تخضع هي نفسها لمراقبتهم. فالمواليد البيض في المستعمرات يتحسسون عميقاً الفوارق الطبقية التي تشمل بها نفوس الاسبان: فهم يحتقرون الخلاسيين بعد ان تكاثر عددهم في البلاد ويعرضون عنهم باستعلاء وازدراء. وهؤلاء الخلاسيون يزدرون الهجناء من هؤلاء المواليد الذين بالنظر لما فيهم من الدم الابيض، خيّل اليهم انهم فوق الهنود بمراحل. وكثيراً ما شعر الهندي بمرارة المغلوب على امره فيستغله غالب علج لا تربطه به اية صلة. فمن منهم كان في ارض جاد بها ملك اسبانيا لاسباني ما، كان عليه ان يقوم بما يفرضه عليه سيد الارض الجديد من اعمال وأشغال لقاء اجر يعينه له، فيعمل

في المناجم والحقول او المزارع . ويحق القضاة ان يفرضوا عليهم العمل ، بالشروط ذاتها ، في الطرقات والمباني العامة . فالقوانين الحكومية الخاصة بالهنود تعتبر ممتازة. ولكن في هذه البلاد النائية ، تعجز الحكومة المركزية التي تفصلها مسافات شاسعة ، عن تنفيذ ما تتخذه من قرارات . فالهنود الذين تفرض عليهم اعمال شاقة ينوؤون تحتها ، والذين يذهبون ضحية معاملات مؤذية تلحق بهم الحيف والضر من حيث المرتبات التي تجري عليهم والغذاء الذي يعطى لهم ، والذين يستهدفون لالوان الابتزاز والاستثمار البشع ، كل هؤلاء تجيش نفوسهم بالحقد والبغضاء نحو اسيادهم . ويأتي دون الهنود مرتبة ، الارقاء من الزنج الذين لا يزال الكثيرون بينهم يتنغصون ، وليس من يرحم او يسمع ، الحريات التي كانوا يتمتعون بها من عهد قريب ، قبل ان يصيرهم حظهم العاثر والقدر الغاشم الى ما اصارهم اليه من نكد العيش . وفي الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي يأتي «الزمبو» ، هؤلاء الخلاسيون من الزنوج والهنود ، الذين كانوا موضوع هزء الجميع واحتقارهم ، والذين كانوا يُسخّرون القيام بأقسى الاعمال واحقر الاشغال باجور سيئة جداً .

وهذا النظام الطبقي الذي وصفنا ، كان من شأنه ان يثير الاحقاد والضغائن ويغذي الحفائظ بأشنع واقذع الذكريات . فمنذ مطلع القرن الثامن عشر ، هبّ على الامبراطورية الاسبانية ، بعكس الامبراطورية البرتغالية ، ريح صرصر من الثورة تغلي بين الضلوع ، وأخذ الناس يتطلعون بلهفة وشوق الى الاستقلال .

الامبراطورية الاسبانية بين ١٧١٣ - ١٧٩٥

كان توسع الامبراطورية الاسبانية ، حتى عهد الملك شارل الثالث ، يتجه نحو الشمال ، وذلك بفضل الارساليات الكاثوليكية ، على الاخص . فقد انشأ الآباء اليسوعيون ، في كاليفورنيا القديمة ، قرى لهم ودساكر تنازلوا عنها ، فيما بعد ، للآباء الدومنيكيين . كذلك عمل الآباء الفرنسيسكان من جهتهم ، على تطوير كاليفورنيا الجديدة ، اذ ساعدوا على توطين الهنود كما ادخلوا على البلاد زراعة الاشجار المثمرة والبقول والخضروات المعروفة في أوروبا . وأنشأ المرسلون لهم مراكز يشعون منها الى اريزونا . وخلال ١٧٢٠–١٧٢٢ ، وضعت اسبانيا يدها على مقاطعة تكساس حتى مشارف النهر الاحمر ، تحوطاً من المشروعات الفرنسية حول لويزيانا . وحاول الاسبان الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين ، حتى نهر ريو دي لابلاتا ، فأسسوا ، عام ١٧٢٦ ، مدينة مونتفيديو .

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان كما ازداد الغنى واليسر بين الناس . وقد أقصرت التجارة مع الامبراطورية على بعض المرافىء منها في المكسيك مثلاً فيراكروز . ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل ، عن طريق خلابا ، الى المناطق الجبلية ، واكابولكو التي كان يصلها كل سنة ، سفينة مانيلا محملة منتوجات ومحاصيل آسيا الشرقية . اما في اميركا الجنوبية

قام هذه المرافىء ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميتو وليما ، متبعة في سيرها الى الامام ، وادي منفدلينا وكوكا ، مارة بمـــدن : مادلين وسلتا فيه بوغوتا وبوبيان ، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبر برزخ بناما، الى مدينة بناما، لتحملها من جديد سفن باتجاه ليما. ومن ليما كانت تنقل على ظهر البغال باتجاه بوليفيا والشيلي وسلطا، ومنها تحمل على عربات نقل ، الى التوكومان وقرطبة وبونس ايرس. وكان من المحظور وصول ايـــة بضاعة الى بونس ايرس رأساً باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن ارقـاء الزنوج ، والسفينة البريطانية المرخص لها ، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بونس ايرس . وعلى طول هـذا الخط التجاري الشاسع المسافات ، نشأت تباعاً الاستثمارات الحرجية والمزدرعات ، يغذيها بما يلزم من المال ، متعهدو النقل الذين اثروا . وقد توفرت لهم اليد العاملة اذ ان عدداً كبيراً من الزنوج سهل لهم الدخول الى « الاراضي الدافئة » في كولمبيا وفنزويلا ، كما نشأت اسواق تجارية ضمت كل مـــا يلزم للتموين والانتاج .

والى هذا النشاط يجب ان نضيف عمليات التهريب الواسعة التي قامت بهـــا سفن القرصنة *Interlope* ، اذ كان يتم على يد عمليات التهريب الواسعة هـــذه حركة واسعة من الاستيراد والتصدير لعدد كبير من مختلف البضائع والسلع . وهذه التجارة غير المشروعة التي كان ينهض بها تجار الرق وقباطنة السفن المجاورة التي كان وسقها يتجاوز دوماً الخمسمائة برميل المرخص بها في المعاهدات والمواثيق المبرمة ، وذلك بفضل توسيع صابورة السفينة فوق خط العوم وعمليات تحشية الالواح والحواجز . وبين القائمين بعمليات التهريب هذه ، التجار غير المرتبطين بعقد اتفاق من كانوا يستخدمون الموانىء والطرق البرازيلية ، وجزيرة الثالوث ونهـر الاورينوك وشواطىء خليج المكسيك . وقد استخدم الانكليز في هونددوراس وساحل الموسكيتوس ، الترخيص المعطى لهم من الاسبان ، ليقطعوا خشب الصباغ الذي يتوفر كثيراً في تلك المنطقة . ومن بينهم كذلك المعمرون في جمايكا الذين قاموا ، بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بانشـــاء وكالات تجارية لهم ، عند مصب النهر الاسود *Rio Negro* وقد قام الاسبان بدك هذه الوكالات وهدمها. وفي كل مرة كان المعمرون يعيـــدون بناءهـا ، وقد بلغ القائمون باعمال التهريب الهضاب والمرتفعات الجبلية وتحالفوا مع هنود موسكيتوس ، واقاموا عليهم نوعاً من الحماية ، واخذوا يصدرون نحو جمايكا ولندن ونيويورك ، خشب البقم والكاكاو والنيلة وسكر القصب والتبغ ، وقد سوّلت لهم النفس الوصول الى سواحل المحيط الهادي ليفتحوا لهم باتجاه اميركا الجنوبية ، طرقات جديدة يعتمدها المهربون في تجارتهم الرابحة . وفي هذا السبيل ، وتأميناً لسيطرتهم على الطرقات التي تمر ببرزخ بناما ، اقنعوا ، انكلترا ، عام ١٧٤٠ ، على توجيه الاميرال فرنون ضد بورتوبلتّو وقرطاجنة ، والاميرال انسون ، الى سواحل البيرو . وفي سنة ١٧٤٣، راح تريلوني حاكم جمايكا الانكليزي ، بتشجيع من لندن ، يحشد المعمرين في هونددوراس وسلحهم ، وبلّغ حكام نيكاراغوس وغوتيماك ، بسط الحماية الانكليزي على المنطقة . الا ان الفشل الذي اصيب

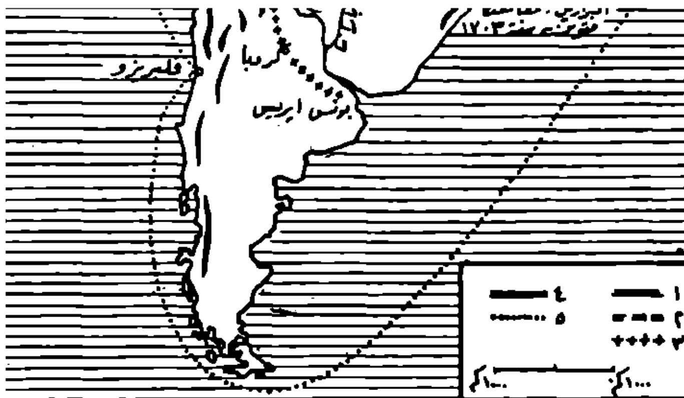

خريطة ٨ - طرق مواصلات الامبراطورية الاسبانية في امريكا الجنوبية . الطرق الرسمية ١ - السفن والنقل من بناما - ٢ - النقل على الجبال - ٣ - النقل النهري الطرق التي يتبعها المهربون : ٤ - الانكليز - ٥ الفرنسيون الى عام ١٧٢٤ .

به الاميرال فرنون امام قرطاجنة ، ومعاهدة اكس لا شابيل التي حافظت على الوضع الراهن ، من جهة اخرى ، حملت الانكليز على ان يقترحوا عقد المعاهدة الاسبانية البرتغالية ، عام ١٧٥٠ ، ليفتحوا امامهم طريقاً جديداً . وراحوا من جهة ثانية يطالبون بمنحهم حق احتكار الاتجار مع الامبراطورية الاسبانية مقابل تخليهم عن تجارة النخاسة والرق التي اصبحت ادعى للخسارة منها للربح .

وقام بتجارة التهريب هذه ، على نطاق راسع ، عدد من الفرنسيين والهولنديين فعادت عليهم بارباح طائلة، فاتخذوا من جزائر بحر الكرايبي او الانتيل قاعدة لهم ومستودعاً لبضائعهم فقاموا بمنافسة الانكليز ومزاحمتهم مزاحمة قاسية .

ولتجارة التهريب التي سببت نقصاً كبيراً في واردات مرفأ قادس حيث كان يسيطر التجار الفرنسيون ، عادت بالخسف على اسبانيا ، كما حركت الضغائن والاحقاد .

ولقد كانت مساعدة الحكومة الانكليزية لتجارة التهريب ومناصرتها للقائمين بها ، من هذه الاسباب التي دعت الى هذه الحروب التي نشبت بين الانكليز والاسبان ، عام ١٧٣٩–١٧٤٨، و ١٧٦٢–١٧٦٣ ، وتلك الحروب التي قامت بينهم وبين الفرنسيين ، عام ١٧٤٢ – ١٧٤٨ ، و ١٧٥٦–١٧٦٣ ، فاذا ما عادت حركة التهريب هذه بارباح طائلة على المهربين الأجانب فقد أمّنت ، من جهة ثانية ، للاهلين من سكان الامبراطورية الاسبانية ، ارباحاً اطيب من التي تعود عليهم من التجارة العادية ، اذ شحذت فيهم الحماس والرغبة على مضاعفة الانتاج وسهلت لهم الوسائل المالية والبشرية .

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً . وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تركزت المناجم وتضاعف انتاجها بعد ان كان اخذ يتقهقر تقهقراً ملحوظاً في القرن السابع عشر ، وأمدّت اوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد ، وساعدت في رفع الاسعار ، فكان ذلك كله سبباً لظهور هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها ، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل والمواد الغذائية في اميركا ، ولا سيما في هذه المناطق « المعتدلة » أو « الباردة » في جبال الاندس . فازدهرت زراعة الذرة والشعير والقمح والزيتون والكرمة ، بعد ان ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن اسباب الرزق . وراح المعمرون وذراري الاسبان المولودون في اميركا يستخدمون العبيد من الزنج لاحياء المزيد من الأرض ولانشاء زراعات جديدة ، من قصب السكر والتبغ والفانيلا والكاكاو والبن ، في الاراضي السهلية الدافئة ، في كل من البيرو وكولمبيا وفنزويلا والغويان والمكسيك وجزر الانتيل. وراح الخلاسيون والهنود يستثمرون الغابات بحثاً منهم عن خشب الصباغ وخشب الابنوس ، ولحاء شجر الكينا ، منذ عام ١٧٥٠ ، وزراعة الماتيه . كذلك عرفت تربية الماشية رواجاً كبيراً توفيراً لحيوانات الجر والنقل اكثر منه للحم والجلود . واخذت البيرو تستورد اكثر من

١٠٠ الف بغل من التوكومان والشيلي . وكان يباع في كل سنة يقام فيها معرض مالطا ، اكثر من ٦٠ الف بغل جرى تطبيعها وتدريبها وقد قام في السهول المشوشبة المحيطة بنهر الاورينوك وبمرتفعات غرناطة الجديدة والاناهيواك والمكسيك الجديدة،على مقربة من الاستثمارات الزراعية والمعدنية ، مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية . اما في هذه السباسب والسهول التي تنأى بعيداً عن هذه المشروعات الاستثمارية ، فقد تركت قطعان الماشية تعيش فيها نصف متوحشة او برية ، يسهر على حراستها اقوام من الخلاسيين والهنود ، يعملون على وشمها واقتيادها بمشقة الى الاسواق القائمة في خلايا وتوكومان وسلطا ، بقصد بيعها .

كذلك اخذت الحياة الفكرية بالظهور والتفتح، على اثر سماح السلطات المعنية في المكسيك، باصدار جريدة ودورية اخرى بعنوان *Mercure Volant* تعطي قراءها اخباراً عن اوروبا ، وتنشر في حقولها ابحاثاً ومقالات حول العلوم الطبيعية والفيزياء . ويجب التنويه هنا بفضل حركة التهريب التي ساعدت على نشر الافكار الجديدة بين مواليد الاوروبيين وذراريهم في المستعمرات بعد ان تغلغلت بينهم المؤلفات الفرنسية .

ان ازدياد عدد السكان ونشاط حركة الاعمال ، والرغبة في منع حركة التهريب ومراقبة الانتاج ، والرد على التهديد الانكليزي والصمود في وجهه ، كل ذلك وما اليه أدى الى انشاء تقسيمات جغرافية جديدة والاكثار من الموظفين . ففي سنة ١٧١٧ ، انشئت لتعود الى الوجود من جديد بعد إلغائها ، عام ١٧٢٣ ، نيابة الملك في غرناطة الجديدة (كولمبيا وفنزويلا) ، كما انشئت ، عام ١٧٤٢ ، قبطانية عامة في فنزويلا .

هذا التشدد في المراقبة وزيادة احكامها اخذ يحد من التطور الذي اخذت البلاد باسبابه ، كما صدم ، في الصميم ، شعورها بالحرية والاستقلال ، وساعد كثيراً في اذكاء اسباب النفرة والتذمر في الداخل، مما ادى بالتالي الى حركات تمرد في اماكن كثيرة،منها الحركة البلدية التي قام بها طلاب المدارس في الباراغواي ، عام ١٧٢١ ، والثورة التي قام بها الاسبان وذراري المصرين الاوروبيين في البيرو (١٧٤١) ، وفي المكسيك (١٧٤٢) ، والثورة الشعبية التي قام بها الخلاسيون والهنود في وجه كبار الملاكين في فنزويلا ، عام ١٧٤٩ . كذلك ثار اليسوعيون في الباراغواي عندما وقّعت الحكومة الاسبانية ، عام ١٧٥٠، المعاهدة التي عقدتها مع البرتغال وتنازلت لها فيها عن الممتلكات التي قامت فيها ارسالياتهم في الباراغواي ، مما اضطر الآباء اليسوعيون معه لمغادرة تلك المقاطعات والجلاء عنها ، مما سهل للانكليز الذين كانوا وراء عقد هذه المعاهدة ، الدخول بحرية الى البرازيل ومنها الى مقاطعة شاكو ، باتجاه المناطق الجبلية في بوليفيا والبيرو . وبذلك سلت عندهم وسائل التهريب وهددت باسوأ المساوىء الهنود الذين تُركوا وشأنهم . ورفض اليسوعيون الانصياع ، واخذوا يتحصنون في ارسالياتهم للصمود في وجه الاسبان والبرتغاليين معاً وطردهم اذا امكن ، فاضطر هؤلاء الى مجابهة حرب شنوها ضدهم . وكانت الحرب في هذه الفترة قائمة على قدم وساق في الشيلي ضد الأرركان الذين كانوا

انشأوا لهم دولة مستقلة ، اصبحتهم العداء .

عهد شارل الثالث

في عهد الملك شارل الثالث (١٧٥٩ – ١٧٨٨) وقعت معظم التطورات الجذرية وتمت النجاحات التي سجلتها الامبراطورية الاسبانية ، اذ ذاك. فقد عرف ملك اسبانيا ان يحافظ على المبادىء الاساسية التي نهض عليها الاستعمار الاسباني . الا انه تفهم تماماً الموجبات التي تقضي بخلق مصالح وبعث روح مشاركة بين اسبانيا واوروبا والتمكين لها في النفوس .

فقد حالفه النجاح في محاولاته توسيع حدود الامبراطورية الاسبانية ، والدفاع عما تم لها من وضع اقتصادي ممتاز ضد الانكليز . ففي ٢ كانون الثاني ١٧٦٢ ، دخل الحرب الى جانب الفرنسيين ضد الانكليز ، فجرت عليه الحرب الخسائر والهزائم ، اذ احتل الانكليز مدينة لاهافانا ، واستولوا على ١١ سفينة اسبانية كانت راسية في خليجها وغنموا من الاسلاب ما تزيد قيمته على ٣ ملايين غرش ، وبذلك اصبح في مكنتهم مهاجمة فيراكروز والكر على قرطاجنة دون ان يلقوا مقاومة تذكر من قبل الاسبان . وبتاريخ ٢٣ ايلول من السنة نفسها ، استولت عمارة انكليزية على مدينة مانيلا في الفيلبين هذا المرفـأ الاسباني الكبير في المحيط الهادي . وبموجب الصلح الذي عقد عـام ١٧٦٣ ، اضطرت اسبانيا التنازل لانكلترا عن واحدة من اثنين : اما بورتوريكو او فلوريدا ، فتخلت لهم عن الثانية بعد ان احدق بها الخطر الانكليزي اثر تخلي الفرنسيين للانكليز عن ضفة ميسيبي اليسرى . كذلك اضطر شـارل الثالث التنازل لهم عما له من حقوق الصيد في ضواحي جزيرة الارض الجديدة وارباضها التي كانت بمثابـة دار تدريب للبحارة الاسبان . كذلك اعترف لهم بحق قطع خشب الصباغة في هوندوراس ممـا اتاح لهم المزيد من الفرص للقيام بمظاهرات باتجـاه المحيط الهادي . الا ان الاسبان استرجعوا لاهفانا وكوبا . وبعد ان تخلى الانكليز عن تجـارة العبيد تنازلوا عن مطالبتهم الاحتفاظ بحق احتكارهم الاتجار في الامبراطورية الاسبانية . فهل ادى ذلك ، يا ترى ، الى التخفيف من تجارة التهريب التي كانوا يقومون بها ؟ وتعويضاً لاسبانيا عن تنازلهـا للانكليز عن فلوريدا ، تنازلوا لها بدورهم عن ضفة الميسيبي اليمنى . وفي حرب الاستقلال الاميركية ، تدخل شارل الثالث بوصفه حليفاً لفرنسا في الحرب ضـد انكلترا ، وذلك من سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ . واوجبت معاهدة باريس على الانكليز ، ارجاع فلوريدا للاسبان .

وسجل الاسبان لهم انتصارات ضد البرتغاليين . كان سيبالوس حـاكم بونس ايرس استولى عام ١٧٦٢ ، على المستعمرة البرتغالية سكرمنتو ، فجاءت معاهدة باريس توقف تنفيذ العملية . واستأنف سيبالوس ، عام ١٧٧٦ ، المغامرة واستولى على سكرمنتو من جديد ، واقام فوقهـا الحصون والقلاع . واذ كان الانكليز غارقين في الحرب ضـد مستعمراتهم الاميركية في اميركا الشمالية لم يستطيعوا مساندة البرتغـال وشد ازرها فاضطر هؤلاء بموجب معاهدتي سان ألفونس

(١٧٧٧) والبرادو (١٧٧٨) التخلي نهائياً عن مقاطعة سكرمنتو لاسبانيا ، ونالت اسبانيا وحدها حق الملاحة في نهر ريو دي لابلاتا والاورغواي .

وفي سنة ١٧٧٦ ، جرى تعيين الحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والاسبانية ، في سان دومنيك .

واستمر ٣٦ راهباً من الرهبان الفرنسيسكان في توسعهم على ساحل المحيط الهادي وانشائهم القرى والدساكر والمزارع . من انشاءاتهم تلك ، سان بلاس ، ومونتيري ، وسان فرنسيسكو ، وجعلوا من هذه المراكز الجديدة قواعد لتنظيم حملات ورحلات باتجاه خليج نوتكا الذي استكشفه خوان بيريس ، والذي كان مركزاً هاماً للاتجار بفراء كلب الماء . وهنالك التقى الاسبان بتجار من الانكليز والروس والاميركان . واسس الانكليز لهم في نوتكا ، شركة حاولت ، عام ١٧٨٩ ، الاستيلاء على الخليج المعروف بهذا الاسم . الا ان الاسبان تمكنوا من صدهم وردهم خاسئين .

وهكذا امتدت حدود الامبراطورية الاسبانية في كل اتجاه وعرف الاسبان كيف يناضلون دونها ويردّوا عنها تعديات جيرانهم .

وعرف شارل الثالث ، بوصفه « طاغية مستنيرا » ان يشدد من قبضته الادارية على الامبراطورية . فطبق ، عام ١٧٦٨ ، على الهند الغربية ، النظام الفرنسي الذي ادخله الملك فيليب الخامس ، على اسبانيا ، بتعيينه نظاراً او قهارمة مرتبطين رأساً بنائب الملك ، جاؤوا مرتبة ، فوق القباطنة العاملين وفوق الحكام العامين . كان عددهم كبيراً ، اذ قام منهم ١٢ في المكسيك ، و ٨ في البيرو ، و ٧ في لابلاتا ، فكانوا اكثر اهلية لادارة مقاطعة اصغر مساحة . وتمتع هؤلاء النظار بصلاحيات واسعة : مالية واقتصادية وعسكرية وفي مجال الامن العام . فتمكنوا من القضاء على مساوىء كثيرة في الادارة ، وحموا ، على الاخص ، الهنود ضد تعديات صغار الحكام الاسبان والمتزعمين. فالاصطدامات التي قامت بينهم وبين الانكليز ، والبرتغاليين ، والخوف الذي بعثه في نفوسهم مُثُل الولايات المتحدة الاميركية العميق الاثر ، والتغييرات الاقتصادية ، كل ذلك سبب ، عام ١٧٧٨ ، إنشاء نيابة ملك جديدة ، في لابلاتا كانت عاصمتها بونس ايرس ، كما أدت الى إنشاء قبطانية عامة في الشيلي . كل هذا جاء جيلاً انما زاد الادارة مركزية وشدد من المراقبة الادارية .

وشجع شارل الثالث الحياة الفكرية لتأتي وفقاً لما كانت عليه في البلد الأم . فأنشأ جامعات جديدة : في سنتياغو الشيلي ولاهفانا وكيتو . وأدخل على الجامعات القديمة تدريس علوم جديدة ، فأخذوا يدرّسون في جامعة مكسيكو علم الهيئة وعلم النبات ، وعلم المعادن والكيمياء . وقام في مكسيكو معهد خاص بتعليم علم المناجم ، وحديقة الحيوان والنبات أسسها غلفيز وزير الهند الغربية . وسمح عام ١٧٧٧ ، بادخال الطباعة الى غرناطة الجديدة ،

والى بونس ايرس عام ١٧٧٩ . وصدر في مكسيكو الـ *Le Journal Littéraire* عام ١٧٦٨ ، كما ظهر فيها عـام ١٧٨٨ الغازيت الادبية . وصدر في اماكن كثيرة جرائد عديدة . الا ان ديوان التفتيش ووزارة الهند اوصدتا بشدة ابواب الامبراطورية ، امام الكتب الاجنبية .

الا ان الاسس الاقتصادية التي قامت عليهـا سياسة البلاد الاساسية بقيت مرعية الجانب . فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة والقاعدة الركينة لكل سياسة . فالشاغل الاكبر هو ان تصبح اسبانيا بعد تجددها وبعثها خير زبون للامبراطورية تصديراً واستيراداً [1] .فهـي وحدها دون سواها، تمد الامبراطورية بالمواد الصناعية وببعض المواد الغذائية .فقد حرّم شارل الثالث العرق المستخرج من نبـات الـ *Agave* ، الذي كان ينافس العرق الاسباني المصنوع من العنب . واستمر مرفأ قادس وحده المرفـأ الذي يتولى تصدير الحبوب ومواد غذائية اخرى ، كل سنة ، الى الامبراطورية التي كان بامكانها الاستغناء عنها . وبقيت التجارة محصورة بيـد الاسبان دون سواهم. وفي سنة ١٧٧٨ ، انتهى اجل العقد المعطى الشركة الانكليزية التي تتعاطى تجارة الرق *Asiento* فرأى الملك شارل الثالث ، في حرب الاستقلال الاميركية ، فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة لاسبانيا ، واجبر البرتغـال على التنازل له عن جزر فرناندو – بو وانوبون ، على سواحل افريقيا الغربية ، باعتبارها مركزاً لتجـارة الرق الاسود . وفي سنة ١٧٨٠ ، رفض مشروعاً فرنسياً بانشاء ترعـة او قناة تربط ما بين نهر سان خوان وبحيرة نيكاراغوى ، وبذلك كان تم ربط خليج المكسيك بالمحيط الهادي ، فتختصر المسافة بين اوروبا وآسيا الوسطى ، مبرراً رفضه من خوفه ان يؤدي فتح هذا الطريق الجديد الى اشتداد تجارة التهريب ودخول التيارات الفكرية الاجنبية الى الامبراطورية الاسبانية .

فبالاضافة الى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في اسبانيا ،وحؤولاً دون قيام ابناء المستعمرات الاسبانية باحتذاء حذو الاميركيين فيطلب الانفصال وانتزاع الاستقلال، راح الملك شارل الثالث ، عام ١٧٧٨ ، يعطي حرية الاتجـار بين اسبانيا والامبراطورية لـ ١٣ مرفأ اسبانياً ولـ ٢٤ مرفأ في اميركا ، من بينها بونس ايرس . وقـد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق ، فاحتفظ لمرفأ فيراكروز وحده ، باحتكار التجارة ، الا انه لم يسمح له باستيراد اكثر من ٦٠٠٠ برميل من مختلف البضائع والسلع ، في السنة كلها .الا ان المكسيك عرف بدوره ان يتمتع ، سنة ١٧٨٦ بحرية اكبر أدت الى مضاعفة علاقاته بين اسبانيا والامبراطورية ، وهي حرية لم تحدث اي تبدل في صلب نظام الاستثناءات المعمول به . ومع ذلك فقد حققت ازدهاراً عظيماً . فقد بلغ ما صدرته اسبانيا ، عام ١٧٧٨ ، الى الامبراطورية ، ما قيمته ٢٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، وما صدّرته من البضائع الاجنبية ، بلغت قيمته ١٨ مليون ريال . فقد شحنت عام ١٧٨٨ ما قيمته ١٥٨ مليون ريال من البضائـع الاسبانية ، و ١٤٢ مليون ريال من

(١) ـ راجع الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

البضائع الاجنبية. وباعت اميركا الاسبانية من اسبانيا باقيمته ٨٠٠ مليون ريال[1]. وهكذا اخذت اسبانيا تصدر وتستهلك اكثر من الماضي ، مما أدى الى إثراء مواليد الاسبان في المستعمرات ، واكتظاظ المدن بالسكان وازدياد حركة العمران فيها . وهكذا نرى ان عهد الملك شارل الثالث المستبد المطلق ، عاد بالخير العميم على بلاد الهند الغربية .

ومع ذلك فالتململ والتذمر ازدادا حدة. فقد بعث الاثراء ونماء الازدهار الشعور في النفوس بالحاجة الى الاستقلال كما ايقظ فيهم الوعي والشعور بالقيمة الذاتية فتملكهم الشعور الشديد بالحرية والتحرر الذي يعود عليهم بالمزيد من المغانم والمكاسب . وبالرغم من التدابير الزجرية والاجراءات الاحتياطية المتخذة ، فقد راحت الافكار والمبادىء الجديدة التي نادى بها الفلاسفة الفرنسيون تتغلغل بين سكان المستعمرات الاسبانية ، وتهريب الكتب وتسربها سراً وانتقالها بين الناس كان على اشده . وعمل مربون فرنسيون على ادخال المبادىء التي نادى بها روسو واصحاب دائرة المعارف الفرنسية .

وقد قصد عدد كبير من الشباب في المكسيك وغرناطة الجديدة ولا بلاتا ، اوروبا ولا سيما فرنسا يتشربون الافكار والآراء الجديدة المسيطرة على اجواء باريس ، كما راح يستنشق هذا الجو المشبع بكل جديد من الافكار والنظريات التقدمية ، كثيرون ممن هبطوا باريس من الخارج ، ومواليد الاسبان في اميركا اقبلوا بعطش ، على تعلم الفرنسية والاستبحار في آدابها ، برغبة وتوق اين منها رغبة الشباب الاوروبي . ولم نر في مكان ما من التعليقات والشروح على حروح الشرائع على وتسكيو الذي منه استمد الاميركيون مبادىء دستورهم الجديد ، مثل ما قام منها في الولايات والمستعمرات الاسبانية التي كانت اكثر اوساط العالم طرباً اعجاباً به ولا سيما الشباب الاميركي الذين اطلعوا على تاريخهم الوطني من مطالعتهم وقراءتهم كتاب « تاريخ الفلسفة » الذي وضعه رينال . وقد خلف روسو وراءه تلاميذ تميزوا بالنشاط والحماس فكانوا خيراً بين النشء الجديد ، وهذه الجمعيات الادبية والثقافية التي رأت النور في جميع المدن الكبيرة القائمة في المستعمرات الاسبانية ، كان اعضاؤها وغيرهم من المتحمسين يقرأون ويروون عن ظهر قلبهم ، المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية .

ان مَثل الولايات المتحدة والتشبه بها عمر النفوس بالأمل . فقد تغلغلت الافكار الجديدة بين الطبقات العليا في البلاد وبين رجال الادارة والضباط حتى اخذ بها واحتضنها دون برناردو اوهجنز ، ابن حاكم الشيلي . ورؤساء الاكليروس والمرسلون كلهم أخذوا بمَثل الولايات المتحدة حتى ان الخوارنة العاملين في خدمة مواليد الاسبان الروحية في المستعمرات كانوا من بين دعاة الانفصال .

ويبدو ان الاسبان المولودين في المستعمرات الاميركية عرفوا وحدهم ان يفيدوا على الوجه الصحيح من نماء الغنى والثروة في البلاد ومن التطور الفكري الذي اخذت باسبابه . فالجامعات كانت وقفاً عليهم . والملونون هالتهم الفروق التي اخذت تتباعد بينهم وبين البيض . فالكهنة الخلاسيون ، كثيراً ما جاشت نفوسهم بفكرة التحرر ، وكثيراً ما حرّضوا اخوتهم في الدم على المطالبة بالحرية . وبالرغم من سهر نواب الملك والنظار والمفتشين العاملين تحت امرتهم استمر صغار رجال القضاة في المدن في استغلال الهنود على ابشع وجه ، بالرغم مما يزرعون تحته من

(١) يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار .

الضرائب الباهظة والرسوم القاصمة . وهكذا نرى ان طبقات الشعب الدنيا حفالت على اتم استعداد للسير في ركاب الثورة اذا قام من ينادي بها ويرفع لواءها ضد الاسبان وضد ذراريهم في البلاد .

كان عدد سكان اميركا الاسبانية يتراوح ، اذ ذاك ، بين ١٦ - ١٨ مليوناً اي بزيادة ٦ - ٨ ملايين اكثر من البلد الام ، بينهم ٣ ملايين من العرق الابيض ، معظمهم من الاسبان المتوالدين في البلاد ، ممن زودتهم الحكومة بالسلاح وشدت من ازرهم بالليشيا دفاعاً عنهم وعن المستعمرة . ولكن عدد البيض ضاع بين الهنود الذين زاد عددهم على ٨ ملايين ، اضف الى ذلك ٥ ملايين من الخلاسيين و ٧٨٠٠٠٠ من الزنج .

ففي سنة ١٧٨٣ ، رفع الكونت داراندا الى الملك شارل الثالث ، مذكرة بين له فيها الصعوبة التي يقتضيها الحفاظ على المستعمرات الاسبانية ، واقترح عليه بألا تحتفظ اسبانيا بغير كوبا وبورتوريكو وبقطر آخر في اليابسة . اما ما تبقى من هذه المستعمرات الشاسعة الارجاء فينشأ فيه ثلاث ممالك: واحدة منها في المكسيك، والثانية في البيرو ، والثالثة في داخل البلاد، على ان يعهد بالملك فيها لثلاثة من امراء العائلة المالكة يقيمون الولاء لملك اسبانيا بوصفه امبراطوراً ، ويبقون مرتبطين باسبانيا تشدها اليهم وشائج وروابط التابعية والولاء ، وهذه العلائق التجارية والمصالح المادية ، ومواثيق هجومية ودفاعية ، تقوم بين الطرفين . اما شارل الثالث فقد ضرب بهذا الاقتراح عرض الحائط واطرحه جانباً .

الا ان ريح الثورة عاد يعصف بالبلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، اذا ما ضربنا صفحاً عن الثورة المشتعلة بين اقوام الأرركان في الشيلي . من لفحات هذا الريح الصرصر ، الثورة اللاهبة التي قام بها ، في البيرو، زعيم الإنكا : توباك–أمارو ، آخر سلالة وابناء الشمس ، الذي عرف ان يستغل الاحقاد والضغائن المعتملة في قلب الشعب لهذه الابتزازات الدنايا التي تعرض لها من قبل صغار القضاة . الا ان هذه الانتفاضة الثورية انتهت بتقطيع اوصاله ارباً في مدينة كوزكو (١٧٨١ - ١٧٨٣) . ومنها الثورة التي قام بها الاسبان وذراريهم في سنتا فيه بوغوتا (١٧٨١) ، وفي الشيلي بقيادة فرنسيين هما برنيه وغراموزيه ؛ والحركات العدائية التي قام بها المواطن الفنزويلي فرنسيسكو دي ميراندا ، المولود في كراكاس ، عام ١٧٥٠ ، والذي خدم ضابطاً في الجيش الاسباني وتتلمذ على اصحاب الموسوعة الفرنسية وعلى البنائين الاحرار ، فقام برحلات الى الولايات المتحدة الاميركية ، والى انكلترا (١٧٨٠) وبروسيا (١٧٨٥) وروسيا (١٧٨٧) وراح يفاوض رجال السياسة من الاميركيين والانكليز ، ويستأنس برأي ملك بروسيا ، ويستشير امبراطورة روسيا كاترين الثانية ، مستمزجاً رأيهم ، محاولاً ان يكسب عطفهم على حركة التحرر التي تقوم بها المستعمرات الاسبانية في اميركا، قبل ان يأتي الى فرنسا وينخرط في جيش الثوار ، تمهيداً لمحاولته النفخ في بوق الثورة في اميركا الاسبانية .

في هذا الجو العابق بروح الثورة ، رأى النور ، عام ١٧٧٨ ، سان – مارتن الذي كان ابوه عقيداً في الجيش الاسباني وحاكماً اسبانياً ، والمحرر العتيد الشيلي والبيرو . كذلك ، ولد عام ١٧٨٣ ، من اسرة ثرية ومن ذراري الاسبان ومواليدهم في اميركا ، بوليفار .

وفي سنة ١٧٨٩ ، غدوت لا تسمع الناس يقولون لك : « انا اسباني » بل « انا اميركي » . وهكذا طلعت على البلاد حركة التحرر ، واطلت عليها سحائب الثورة مزمجرة . فالردة التي قام بها شارل الرابع ، وفتح الفرنسيين لاسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر ، ألهب الهشيم فتطايرت الشظايا لحرق الاخضر واليابس .

الفصل الثالث

الجـــزر

بين « جزر » البحر الكرايبي او جـــزر الانتيل الفرنسية والانكليزية اكثر من نقطة تشابه . فهي ، في نظر كل من البلد الام ، مستعمرات نموذجية ، هذه المستعمرات التي تمد الوطن الام بما يحتاج اليه ، في الاساس ، والتي لا يتوفر فيها شيء مما تنتجه البلد الام . لمزروعات التبغ والنيلة ، ولا سيا قصب السكر ، والبن تتسع فيها باطـــراد وتستوعب اعداداً اكبر من زنوج افريقيا الارقاء . وهذه المحاصيل والغلال هي محور حركة تجارية تعود على اصحابهـــا والقائمين بها بالربح الوافر : تجارة انكليزية مثلثة الاضلاع.فليفربول تشحن الى غمبيا والغينيه الخردوات الحديدية والانسجة لتصبح فيها موضوع مقايضة بالزنوج الذين يصبحون بدورهم مادة للمقايضة مقابل السكر والروم والتبغ والدبس والقطن ، وكلها مواد تطلبها اوروبا وتصدّر اليها . وعلى مثـــل هـــذا تجري في الجزر الفرنسية حركة تجارية تزفد سان – مالو ونانت ولاروشيل وبوردو وتجعل من فرنسا الند المنافس لانكلترا . وهكذا تؤلف هـــذه الجزر منطقة قوامها العرقية . فالزراعة تمتنع اسبابها ويستحيل الاخذ بها ما لم يتوفر لها مـــا يلزم من اليد العاملة ، يؤمنها رقيق من الزنج ، لا ينقطع معينه . « زنوج وما يحتاجون اليه من مواد غذائية ، هذا هو قوام الاقتصاد » في هذه الجزر . هنالك ارستوقراطية مؤنثه قوامها اصحاب المزروعات تؤلف الطبقة ، العليا في البلاد ، تسمح للزنجي بالزواج من بيضاء ، وتقصيه عن الوظائف العامة وعن المراتب المسلكية في الميليشيا ، وتحظر على الزنج ارتداء ازياء البيض، وتضن عليهم بالتعليم، وتمزلهم عن المؤمنين في الكنائس وينظر الكاثوليك شزراً الى العضو منهـــم في الكنيسة الكاثوليكية التي تقول بالاخوة الانسانية .

تاردى الجزر الانكليزية منها في وضع حرج يهدد بأوخم العواقب الحياة في الامبراطورية البريطانية ، كما رأى فيه كثيرون تهديداً السلام في اوروبا . فقد ازداد استهلاك السكر كثيراً ، في اوروبا ، منـــذ عـــام ١٧١٣ . فليس من عجب قط ان يصبح قصب السكر محور النشاط الزراعي في جزر الانتيل . الا ان انهاك التربة واعيامها ، في الجزء البريطاني من هذه الجزر ، والضرورة لاستعمال المزيد بالتالي ، من العبيد والمخصبات الكيماوية تسببت في رفـــع الاسعار

والكلفة بصورة فادحة . اما في جزر الانتيل الفرنسية فقد كان الوضع على عكس ما هو عليه في الجزر الانكليزية تماماً ، اذ ان الارض فيها لم يجر استثمارها الا بعد استثمار الانكليز لجزرهم بزمن طويل ، ولذا بقيت التربة فيها مستريحة رغنية كما ان الزنوج فيها عملوا بشكل افضل وكان الانتاج بالتالي اقل كلفة ، ولذا استطاع المزارعون الفرنسيون ان يبيعوا محاصيلهم من السكر بسعر ٤٠٪ افضل . ومنذ عام ١٧٢٨ ، اخذ السكر الفرنسي يزحزح من طريقه السكر الانكليزي ، في اي مكان عُرضا للبيع معاً في اوروبا . وما هو أنكى من ذلك واحز وقعاً في نفس الانكليز ، هو ان المعمرين الانكليز في انكلترا-الجديدة راحوا يتسوقون عصير الدبس والروم من جزر الانتيل الفرنسية ، ويصدّرون اليها ، بالمقابل ، الحبوب والحبوم ، ومواد البناء والسفن . فالانتيل البريطانية افتقرت لكل شيء واضطر المعمرون الانكليز ان يدفعوا للأميركيين الشماليين ثمن محاصيلهم الزراعية ، نقداً وعداً ، كما اضطروا لمضاعفة حركة التهريب في ارجاء الامبراطورية الاسبانية ، فكان ذلك سبباً في إطلاق شرارة الحرب ، عام ١٧٣٩ . فالانتيل الفرنسية رفلت بالبحبوحة وانخفضت فيها اسعار الحاجيات الضرورية وتمكن الفرنسيون من تخفيض سعر السكر فيها ، بحيث ان التجار الانكليز في الانتيل الانكليزية راحوا يشترون ، بالتهريب ، السكر الفرنسي لارساله الى لندن ، حتى ان انكلترا نفسها تم للسكر الفرنسي غزوها بعد ان كانت سوقاً محفوظة ، مبدئياً ، للسكر الانكليزي . واذ ذاك تحرك المزارعون الانكليز ، وكانوا من اصحاب النفوذ في بريطانيا . وبفضل ما كانوا عليه من بسطة العيش والغنى والنفوذ ، كثيراً ما كان يجري انتخابهم اعضاء ، في مجلس العموم البريطاني ، حيث كانوا يحاولون إفساد الضمائر . واذ كانوا ، في نظر الانكليز ، معمرين نموذجيين ، وزُبُناً ومصدرين لا مندوحة عن خدماتهم ، فقد كان الرأي العام دوماً على استعداد لمناصرتهم والاستماع بعطف الى مطالبهم . فطالبوا بمنع الاتجار بين انكلترا -الجديدة وجزر الانتيل الفرنسية . ان الاستجابة لهذا المطلب والاخذ به ، كان من شأنه ان يلحق الفوضى في النظام التجاري الانكليزي ، وذلك لاضطرار المعمرين الانكليز في انكلترا الجديدة للاتجار مع جزر الانتيل ، وذلك ليستطيعوا تسديد اثمان مشترياتهم من البلد الام : وقد نال المزارعون قانون عام ١٧٣٣ الذي فرض رسوماً عالية على العصير ودبس القصب الغريب الانتاج المستورد من البر الاميركي ، كما حملوا المجلس على إقرار القانون الآخر الصادر عام ١٧٣٩ ، الذي اجاز لهم بالرغم من المبادىء الاساسية للاقتصاد التجاري ، نقل السكر ، رأساً الى اوروبا. الا ان الاميركيين من سكان انكلترا الجديدة ، كانوا بحاجة الى كل جزر الانتيل كسوق طبيعية لهم اذ كانت تضم مجتمعة من السكان ما يوازي عدد سكان اميركا الشمالية . فقد كانوا بحاجة للحرية التجاوية التامة او ضم جزر الانتيل الفرنسية .

ولذا اصبحت هذه الجزر فريسة عراك هائل تمثل في هذا التصادم الدائم الذي قام بين المعمرين والقراصنة والمهربين من كلا الدولتين المتنافسنين ، كما راحت فريسة المطامع الدولية ، اذ ان « هذه الجزر » والنشاط التجاري الذي تقوم به كانت سبباً من هذه الاسباب لهذا العراك

الجبار بين الفرنسيين والانكليز ، ممثلاً بأوضح مجاليه ، بحرب خلافة النمسا وحرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأميركي . فقد اعتبر الفرنسيون معاهدة ١٧٦٣ ، نصراً كبيراً لهم ، اذ بالرغم من تنازلهم عما لهم من حقوق عملية على جزر تباغو وسانت كروا وغرناطة وغرينادين وسان فنسان ، استطاعوا ان يحتفظوا بخير زينهم من جزائر الانتيل ، كما عرفوا ان يحتفظوا بجزيرة غوريه الصغيرة في عرض السنغال وجعلها قاعدة لتجارة الرق عندهم. وقد شعر الانكليز بمرارة الخيبة المحرقة ،وجاشت نفوسهم بالحقد ضد الوزير «بوت» احد وزراء الملك جورج الثالث ، لفشله في المفاوضات . ونزولاً عنـد مطلب الرأي العام وارتياحاً منه للدور الذي تلعبه المستعمرات ، راح الملك لويس السادس عشر الذي تغلب على الانكليز ، يطالب عام ١٧٨٣ ، في معاهدة فرساي ، باسترجاع ما كان له من حقوق على تباغو وسانت لوسي ، والمراكز التجارية التي كانت لفرنسا في السنغال .

كانت « الجزر » تخضع مبدئياً لنظام الميثاق الاستعماري ، الا ان الغنى الذي رتع فيه المزارعون ، والأهمية المتزايدة التي كانت لمزدرعاتهم في المجال التجاري ، ارغمت الدول على القبول بعدة تنازلات . فالجزر الانكليزية نعمت بهيآت تمثيلية . اما الفرنسية منها في الانتيل فقد قامت فيها مجالس راحت تنافح عن مصالح المزارعين الذين كانوا موضوع رعاية الحكام ايضاً . وكان المعمرون يتذمرون من العراقيل التي تقف حائلاً دون نشاطهم الجم ، ولا سيما الفرنسيون ، وظهر بينهم حوالي عام ١٨٠٩ ، تيار قوي يطالب البلد الام،بالاستقلال الاداري ، حتى ان بعض الفرنسيين منهم ذهبوا للمطالبة بالانفصال .

أميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية حتى عام ١٧٦٣

البلاد وسكانها

وجد المغمرون الفرنسيون والانكليز انفسهم ، في اميركا الشمالية ، وسط خضم من الغابات البكر والاحراج الظلية تفارش رقعـــة من الارض تساوي ربع مساحة اوروبا . فقد حاول البيض إعمـــار بعض القطاعات منها وعزق الارض واحيائها . فعلى مقربة من سيف البحر ، لم يعد يوجد مـــا يذكر بوجود الغابات في المنطقة ، سوى واحات حرجية ، تقوم هنا وهنالك . امـــا في المدى الابعد ، فالانفراجات الحرجية ، كانت تدق وتسارق بحيث تبدو وكأنها رقاع غبراء او صفراء في بحـــر متموج من الخضرة السندسية . فعلى مقربة من نهـــر المسيسبي ، خلفت الحرائق الهائلة الأكول التي اضرمها الهنود وراءهم ، صحارى شاسعة تكسوها الاعشاب الظلية ، لتترك بعد حين المجال لسباسب لا حد لها تمتد مدى البصر . وباستثناء بعض المغامرين من رجال الكشف ، وبعض تجـــار الفراء ، كانت عملية الاستعمار والاستغلال تقوم على استثمار بعض الاحراج لمـــا فيها من خشب البناء او السفن .

في هذه الفلوات عاشت اقوام الهنود من عرق مغولي ، صفر الجلد نافرو الوجنات ، سود الشعر على نعومة عند اللمس . عددهم قليل لا يتجاوز ٤٠٠ الف كما هو مرجح بالنظر لنمط العيش الذي كانوا عليه يتأرجحون بين نصف بداوة ونصف حضر ، يعولون على نظام زراعي ، قوامه زراعة الذرة وقطاف الثمار البرية ، وصيد الوعول والغزلان وريم الفـلا ، والمعز البري . وفي سبيل القنص والصيد كانوا يتخلون ، في فصلي الربيع والخريف عن قـــراهم الخشبية ليعيشوا تحت الخيام . نظامهم الاجتماعي فوضى ، اذ كانوا يؤلفون احـــلافاً جذورها واحدة تتوزع الى قبائل تجمعها العصبية . ولكل قبيلة مجلس اختيارية يضم رؤساء القبيلة وقواد الحرب . وقد الفت قبائل الايروكوا الضارية الى الشرق من بحيرات ايريه واونتاريو مع قبائل الكريك في الاباما ، اتحادات فيما بينها ، ملاطها الضام مجلس من الساشم Sachems ، الا انه لم يكن للاتحاد اي رسية الضغط على القبيلة ولا القبيلة اي تأثير على الحلف ، ولا للحلف اي تأثير على الافراد . وكان في مقدور اي هندي ان يقوم مع زمرة من اصدقـــائه بعمليات غزو وسلب ، وهي

عمليات كثيراً ما اضطرتهم اليها وحلتهم عليها قلة الدراية وعدم المداراة . والمعاهدات كثيراً مـا انتهكت . وكانت الحرب قائمـة باستمرار بين الهنود وبينهم وبين الاوروبيـين .

فقد كانت حروبهم ضد الاوروبيين تنتهي بالفشل والهزيمة فيضطرون للتراجع والانسحاب . فقد ثقفوا استعمال الاسلحة النارية الا انهم لم يستمرئوا قط مـا تم البيض من تقنية زراعية . وقد عرف البيض كيف يستغلون رقعـة صغيرة من الارض تسهل عليهم حمايتها والدفاع عنها ويحصلون منها محصولا طيباً من المواد الغذائية تكفيهم مؤونة السنة بكاملها. اما الهنود فكانوا يحتاجون الى اراض شاسعة تسرح فيها الماشية المعدة للذبح . وكل تقـدم او تطور يحققه الاوروبيون كان يجر معه القضاء على القنص والصيد مـا يضطر الهنود معه للانكفاء والتراجع الى الوراء تفادياً منهم لغائلة الموت جوعاً . وكان الهنود المتحدون فيما بينهم يستغلون مـا بين الهنود من انقسامات ، فيقيمونهم بعضاً على بعض . ومن سـوء حظ الهنود ان يكون العنصر الانكلوسكسوني هو العنصر الغلاب في اميركا الشمالية . فالفرنسيون عـاملوا الهنود بالحسنى ، وحاولوا تفهمهم والتفاهم معهم ، وتربيتهم وتمثيلهم . وقد سن الاسبان قوانين ترمي للحفاظ عليهم. اما الانكلوسكسون فقد كانوا هنا ، كما في كل محل آخر ، عرقيين بالفطرة ان لم يكونوا من حيث المبدأ . فقد حملوا كرهاً شديداً لسكان البلاد الاصليين ونزعوا دومـاً للقضاء عليهم . واذ كانوا على البروتستانتية فقد راحوا يبررون تصرفهم هذا منهم وسلوكهم وفقـاً لنصوص التوراة وآيات الكتاب المقدس : فالله قد اقطعهم هذه الارض . ولذا ترتب عليهم ان يعاملوا سكان البلاد الاصليين كما عامل العبرانيون الكنعانيين في فلسطين .

المستعمرات الفرنسية

تألفت المستعمرات الفرنسية في اميركا الشمالية ، قبـل كل شيء ، من فرنسـا الجديدة التي تشكلت اصلاً ، من كندا . وقد اقتطعت منهـا معاهدة اوتريخت ، قسماً كبيراً ضم اكاديا وجزيرة الارض الجديدة وخليـج هدسون . وهكذا اقتصرت فرنسا الجديدة على العناصر الثلاثة التالية: اهمها وادي نهر السانت لوران الذي اخذ يكتظ بالسكان بسرعة كبيرة عن طريق التوالد والهجرة ، اذ ارتفع عددهم من ١٩٬٠٠٠ نسمة ، عـام ١٧١٤ ، الى ٦٦٬٠٠٠ ، عام ١٧٦٣ . وقد ألفوا من بينهم اشبه مـا يكون بـ« قرية » جبارة اعتمدت في معايشها على الزراعة وتربية الماشية . ولم يزد عدد السكان في مدينة كويبـك ، اذ ذاك ، على ٨٠٠٠ نسمة ، كما ان عدد سكان مونتريال بلغ ، في ذلك الحين ٤٥٠٠ نسمة . ثم يأتي ما سلم من اجزاء اكاديا القديمة : جزيرة سان ــ جان ، وجزيرة رأس بريطانيـا يعمل فيها من ١٠ ــ ١٢ الف معمر ، واخيراً عدد من الارساليات التي يشرف عليها اليسوعيون وبعض المراكز التابعة لتجار الفراء ، وفقوا في اختيار مواقعها عند نقاط العبور والمخـاضات بحيث اصبحت اليوم مدناً كبيرة عامرة ، منهـا فرونتناك ولينارا وديترويت وصولت ــ سانت ــ ماري وماكيناك ، ولابوانت (دولوث) .

ولم يكن اهتمام فرنسـا كبيراً بهذه البلدان ذات المحاصيل والمنتوجـات الطبيعية الشبيهة

بالمحاصيل الفرنسية من وجوه عدة ، باستثناء الفراء منها . ولم يكن ليرسو في مرفأ كويبك اكثر من ٣٠ سفينة طوال السنة بكاملها . وكان يمضي وقت طويل على الموظفين والجنود العاملين في هذه المستعمرة قبل ان يعودوا الى الوطن الأم . وكان عدد كبير بينهم يتزوج ويشتري له بعض الاراضي يعمل في احيائها واستثمارها . والسلطات الادارية كانت تحاول ، وهي في عزلتها ، الوصول حبياً الى قيام وضع من التفاهم بينها وبين السكان حيث ران على الجميع جو من التفاهم والمشاركة ، يشد من ازرهم كونهم جميعاً على الدين الكاثوليكي المتأصل منهم بفضل كهنة غيورين. وعلى هذا النحو ، نعمت فرنسا الجديدة بشيء من الاستقلال الاداري . وكان الحكام يمتدحون عالياً ما أنسوا بينهم من المحبة رائدة جميع السكان ، كما كانوا يثنون على ما هم عليه من دماثة الاخلاق ونمط العيش الرضي ، وكثرة المواليد في العائلة ، والقناعة وما هم عليه من طيب استمداد التعاون ومن نشاط لا يعرف الملل .

اما في حوض نهر المسيسبي ، فقد كانت مقاطعة ألينوي او البلاد العليا مرتبطة ، منذ عام ١٧١٧ ، بمقاطعة لويزيانا التي كان يدير اموالها ، في بداية الأمر ، شركات تجارية ، ثم لم تلبث ان اصبحت ، منذ عام ١٧٣٣ ، مستعمرة ملكية . وقد تم استكشاف هذه البلاد وبُدىء باستثمارها على يد مرسلين وتجار هبطوا اليها من كندا . ولم يقم فيها سوى بعض قرى معزولة ، قليلة السكان ، منها شيكاغو وحصن سان لويس (بيوريا) وكاهوكيا وككاسيا وسانت جنفياف واورليان الجديدة (١٧١٨) . وقد تألف عدد السكان في مقاطعة ألينوى من ٤٠٠ من البيض ، ومن بضع مئات من ارقاء الزنج . وعدّت لويزيانا ٢٥٠٠ من البيض ، و ٤٥٠٠ من الزنج العبيد . فالى جانب تجارة الفراء ، كانت مقاطعة ألينوى تغل القمح لتموين مقاطعة لويزيانا التي كانت تعطي بدورها الخشب والماشية والقطران الذي يصدّر لجزر الانتيل ، والأرُز والنيلة والتبغ يصدر للوطن الام . وكانت الحكومة الملكية والرأي العام يعلقان اهمية كبيرة على مقاطعة لويزيانا التي كانت تفتقر جذرياً للمعمرين .

وهكذا نرى ان المتلكات الفرنسية ، في اميركا الشمالية ، ألفت لوحدها ، امبراطورية واسعة الاطراف ، قليلة السكان .

المستعمرات الانكليزية

شابهت المستعمرات الانكليزية ، المستعمرات الفرنسية من حيث تباعدها عن بعضها البعض وبما جاشت به من نزعة نحو الاستقلال الاداري . الا انها تميزت عنها بعدد اكبر من السكان ، وبانتاج أوفر وبحركة تجارية انشط بكثير ، وبالديانة الغالبة على الاهلين وهي البروتستانتية .

غذّى هذه المستعمرات حركة من الهجرة الواسعة . فقد بلغ عدد سكان هذه المستعمرات عام ١٧٠٠ نحواً من ٢٥٠،٠٠٠ نسمة ، ارتفع عددهم ، عام ١٧٦٣ ، الى ١،٦٤٠،٠٠٠ نسمة . فقد تكاثر عدد الزنج العبيد في الجنوب لتأمين اليد العاملة للمزدرعات . اما في الشمال ، فقد كان عددهم قليلاً ، حيث عملوا على الاخص في الاعمال المنزلية .

تنوع المستعمرات الانكليزية

تنوعت هذه المستعمرات كثيراً فيما بينها . فقد كانت كل واحدة منها مستقلة تماماً عن الأخرى ، وتقف الواحدة من الثانية موقف اللامبالاة ، ان لم نقل موقفاً معادياً . وكان بعضها يرفض شد أزر البعض الآخر في حالة قيام حرب ، وتفرض الواحدة رسوماً جركية في وجه تجارة الاخرى . وكان يباعد احياناً بين الواحدة والاخرى مسافات شاسعة وصعوبة المواصلات مما يعرض الركاب والمسافرين للمخاطر . فالمسافة بين مقاطعة ماين ، في الشمال وجيورجيا في الجنوب ، تبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر ، اي المسافة القائمة بين باريس ومدريد . فالطرقات والكباري والبحيرات كانت نادرة ، وكان التقدم الى الامام يتم ببطء كلي على هذه الممرات الضيقة والشعاب القائمة بين الغابات الظليلة ، حيث لا معالم غير ضربة فأس على جذوع الشجر ، يرى المسافر نفسه مهدداً بخطر الضياع او الغرق في النهر او البحيرة ، او التخبّط في المستنقعات . ان خبر اعلان استقلال الولايات المتحدة ، عام ١٧٧٦ اقتضى له ٢٩ يوماً ليصل من فيلادلفيا الى شارلستن ، وهي ذات المسافة التي يقطعها المسافر بين فيلادلفيا وباريس .

واختلفت بما باعد بينها من فوارق طبيعية وانماط المعيشة وغير ذلك من المنافع والمصالح والمشارب والتقاليد والاعراف . فالجنوب الذي تألف من مقاطعات ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ، ثم من جيورجيا ، فيما بعد ، بلغ عدد سكانه ، عام ١٧٠٠ ، نحواً من ١٠٨،٠٠٠ ، فاذا بهذا العدد يرتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٧٣٥،٠٠٠ ، بينهم ٢٨١،٠٠٠ من الزنوج ، وتوزع على الاجال ، الى ممتلكات واسعة بلغت احياناً ٢٠٠٠ هكتار في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، كما بلغت احدى هذه الممتلكات ، في فرجينيا ٧٠،٠٠٠ هكتار . اما زراعاتهم فقامت على اساس تجاري محض : التبغ في ماريلاند وفرجينيا ، والأرز والنيلة في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، والتبغ والارز وتربية الماشية والخشب في كارولينا الشمالية . وتصرف المزارعون تصرف الاسياد المستبدين في مزدرعاتهم ، كانت تحت امرتهم قوة من الميليشيا ويقضون بين الناس كحكام صلح ، ويصوتون على مشاريع القوانين كنواب . فقد كانوا اجمالاً على جانب لائق من الثقافة ، من خريجي الجامعات الانكليزية ، فأنشأوا لهم في منازلهم مكتبات عامرة .

اما الشمال او انكلترا الجديدة (نيوهمشير ، ماساشوستس - ماين ورود ايلاند وكونكتكيت) التي عدّ ٩٤،٠٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ ثم ارتفع هذا العدد ، عام ١٧٦٣ ، الى ٧٩٥،٠٠٠ نسمة بينهم ١٧،٠٠٠ من الزنوج ، عام ١٧٦٣ ، فقد قامت فيه مجتمعات صغيرة ضمت كل منها عدداً من صغار الملاكين . فقد عولوا في معايشهم على زراعات مختلفة كالذرة والقمح والخضروات وحدائق التفاح وتربية الماشية . وقد تعهدوا بشرفهم الا يشتروا اية كمية من الخارج ، مهما صَغرت . حملهم فقر التربة عندهم على الاخذ بأسباب الصناعة والتجارة فتوزعت نشاطاتهم بين السفن المعدة للتصدير الى انكلترا ناقلة فيها الخشب والسمك ، والفحوم المقددة ، فتنقل المواد

المصنوعة في انكلترا ، الى جزر الانتيل ، واستيراد عصير الدبس وثفالة القصب من هذه الجزر ومن المقاطعات الجنوبية ، فيخضعونه لعمليات تخمير معقدة لصنع مشروب الروم الذي تجري مبادلته في الفينيه بالزنوج الذين يباعون عبيداً أرقـاء في الجنوب وفي الانتيل . وكان معظم السكان في هذه المقاطعة على منهب البيورتين الغالين في العقيدة والمتعصبين ، الذين عُرف عنهم انهم لا يصنعون رجعتهم نهار السبت لئلا تختمر يوم الاحد . اما التعلم عندهم فكان الزامياً بحيث يستطيع المرء قراءة التوراة ، مع ان عدداً كبيراً يكاد لا يعرف ان يوقع امضاءه. ومع ذلك، فقد قامت جامعة لهم ، في هارفرد (١٦٣٦) ، وبعـد ذلك جامعة اخرى في يال . وكان الجدل السياسي ضارباً أطنابه بين الجامعات ، والقساوسة يحيشون بينهم بأفكار راديكالية ، هذه الافكار التي قال بهـا وعلم كل من لوك ومونتسكيو وبلاكستون الذين قام لهم في وسط الجماعة تلاميذ ومريدون نشيطون . وكانت مدينة بوسطن الـتي بلغ عدد سكانها اذ ذاك ، ٢٠،٠٠٠ نسمة ، مركزاً فكرياً وثقافياً هاماً .

اما القسم الأوسط من هذه المستعمرات ، فقد تألف من نيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا وديلاوير . وبلغ عدد السكان في هـذه المقاطعات ٥٣،٠٠٠ ، عام ١٧٠٠ وهو عدد ارتفع عام ١٧٦٣ الى ٤١٠،٠٠٠ ،بينهم ٢٩،٠٠٠ من الزنوج . وقد حاز الملاكون ممتلكات من جميع المقاييس كما ان السكان كانوا خليطـاً من جميع الشعوب والمذاهب ، حيث ألف الانكليز أقلية نعمت بالتسامح الديني . اما المدن الرئيسية في هذه المنطقة فأهمها نيويورك حيث كانت تسرح الخنازير وتمرح ، وفيلادلفيا التي كانت أكبر مدينة اذ ذاك ، في اميركا الشمالية والـتي امتازت بشوارعها وانتظام مساكنها . وهـذه المنطقة التي نشطت فيها الصناعات الخشبية واشتهرت بمحاصيل الحبوب ولا سيما القمح والطحين وتنظم رحلات قوافل السفن باتجاه جزر الانتيل وأوروبا الجنوبية ، ازدهرت فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

وحدة هذه المستعمرات

جمعت بين هذه المستعمرات مصالح مشاركة متماثلة ، فقـد تشابهت من وجهة وحدة الرأي العام بحيث استطاعت الصمود في وجه الحكومة الانكليزية فيما بينها . فقد تنوعت اوضاعها وتوزعت الى ثلاثة اشكال او ثلاثة اوضاع استعمارية مختلفة ، هي : مستعمرات ملكية ، ومستعمرات اقطاعية لبعض كبـار الملاكين (ماريلاند وبنسلفانيا) ، ومستعمرات اعترفت براءات ملكية خاصة بملكية بعض الشركات لها (كونكتيكت وررود-ايلاند) ، وعاشت كلها في ظل نظام تمثيلي بورجوازي ، اذ كانت تنتخب لهـا هيئات من ممثلين يقومون بالتصويت والاقتراع على مشاريع القوانين المعروضة . واحتفظت كل منها بحق الانتخاب للملاكين الموسرين ممن تتوفر فيهم شروط دينية خاصة . اما عدد الناخبين فيها فكان يتراوح بين ٨ – ٩ ٪ حتى ان عددهم في ماستشوستس وكونكتيكت لم يكن ليتجاوز ٢٪ وهنالك مجلس اعلى مشترك مكلف بالتصويت على مشاريع القوانين لدى القراءة الثانية ، وحاكم عام يسهر على تنفيذ هذه القوانين بعد اقرارها .

تمركزت القضايا السياسية في مقاطعتي كونكتيكت وورود-ايلاند حول استياء الذين حُرموا من حق التصويت وحردهم . تمتعت هـــذه المستعمرات باستقلالها الاداري الواسع : فممثلو الشعب يقترعون بكل حرية ، على مشاريع القوانين ، ويختارون مجالسهم الخاصـــة وحكامهم . اما في ماريلاند وبنسلفانيا فالمشكلة تمركزت حول المجلس والحاكم اللذين كان يقوم باختيارهما وتعيينهما ، اصحاب الاملاك اذ ان القوانين لم تكن خاضعة لحق الفيتو . امـــا في المستعمرات الملكية الثمان ، فالمعمرون كانوا في نزاع دائم مع المجلس والحاكم والملك . فالحاكم كان له حق الفيتو او حق رفض القوانين ، وفي حال اقراره لها، لم تكن قابلة التنفيذ الا بعد مصادقة المجلس الخاص لها . فالمعمرون يعتبرون انفسهم انهم اخبر الناس بنوع القوانين التي تصلح لهم ، فكانوا يفرضون ارادتهم على الحاكم ، بتهديدهم له الامتناع عن فرض الرسوم والضرائب التي يستدعيها الدفاع والادارة او اقرار الرسوم التي تتعلق بمرتبه ، مـــع ان معـــدل القوانين التي كان يلغيها لم يكن يتعدى ٥،٥ ٪ . ولذا اخذوا يطالبون بالغاء كل حق بالمراقبة ، والتمتع بحقوق السلطة التشريعية كاملة .

ومن جهة ثانية فقد أخضعَت هذه المستعمرات لنظام الاستثناءات . فأخذ مكتب الزراعة والتجارة على عاتقه تحديد نمط الحياة الاقتصادية بتوجيهاته وارشاداته التي تستحيل فيما بعـــد قرارات واحكاماً يصدرها الوزير او مجلس الملك . ان عدداً كبيراً من محاصيل المستعمرات لم يكن يسمح بتصديره الا لانكلـــترا أو الى مستعمرات انكليزية أخرى ، وعلى المعمرين الذين يلـوقون من مستعمرة انكليزية ان يدفعوا رسماً اضافياً هو رسم الاستيراد ، والا كان عليهم ان يذهبوا من نيويورك الى لندن ليحصلوا على أرُز ولاية كارولينا . وقد أستُثني من هـذا التدبير ارز كارولينا منذ سنة ١٧٣٠ ، اذ أبيح تصديره رأساً الى البرتغال أو الى اسبانيا . ولا يُسمح باستيراد أية بضاعة او سلعة اجنبية الى المستعمرات ما لم تُشحن الى احد موانىء انكلترا ثم تشحن من جديد الى المستعمرة المستوردة . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون جديد فرض على دبس القصب الاجنبي وثقالته رسوماً مانعة أو رادعة بينما استيراد القصب من جزر الانتيـــل لم يكن يفي بالحاجة ، فلا بد والحالة هذه ، من الاعتماد على دبس وعصير جزر الانتيل الفرنسية لصنع مشروب الروم ، الذي كان بمثابة النقد اللازم للمقايضة في اسواق النخاسة . والصناعات على اختلافها اخذت تتطور في الاقسام الوسطى والشمالية من البلاد ، منهـــا صناعة النسيج والحياكة ، وقبعات الكستور والحديد الخام ، وكلها مواد استطاعت ، منذ عام ١٧٥١ ، ان تدخل الى انكلترا ، بينما تصدير الغزول والانسجة والقبعات كان محظوراً . وحظر القانون الصادر عـام ١٧٥٠ ، على المستعمرات انشاء اي معمل او مصنع التصفيح او اي مسبك او اي معمل حدادة او معمل نشارة . « فاذا ما خطر لاميركا ان تصنع عـــلى ارضها مسماراً واحداً لكانت انكلترا تشمرها في الحال وتتدخل في الأمر بكل ثقلها وبطشها» . ولذا كان الاميركيون في غاية الاستياء من هذه التدابير التعسفية ، ولا سيما من كان منهم في الوسط او في الشمال لان

الامر يعنيهم مباشرة . فقد كانوا مستائين اكثر منهم متضررين ، لان بعد اعلان هـذا المبدأ عاليا ، وتأكيد وجوب التقيد به كانت الحكومة البريطانية كثيراً ما تغض النظر عن المخالفات، وعن اعمال التهريب التي نشطت في هذا المجال . وقد حرصت على الأخص ، ان يفيد المعمرون ، على نطاق واسع ، من النظـام الاقتصادي البريطاني ، هذا النظام الذي هـدف الى افراغ الامبراطورية الانكليزية في وحـدة تكفي نفسها بنفسها ، اذ كان يترتب على كل عضو او جزء من اعضاء هذه الامبراطورية وأجزائها ان يعطي او ينتج ما هو مهيء بالأكثر لانتاجه . وكانت الدولة تدفع مكافآت لرجـال الصناعة عن كثير من الاصناف التي يصنعونها او يصدرونها الى المستعمرات . وكان سعرها يخفض للمستهلكين فيها . فألف هذا التدبير بحد ذاته ، عملية تسليف واعتبر بمثابة توفير رأس مـال . وهكذا كانت منتوجات المستعمرات موضوع احتكار في الاسواق التجارية البريطانيـة . فالمستهلك الانكليزي كان ملزمـاً بتدخين التبغ الاميركي واستهلاك السكر الذي تنتجه المستعمرات ، وان يستعمل القير او الزفت الذي تصدره ، وكان يدفع غالياً اثمان هذه السلع لعدم وجود منافس لها. فقانون الملاحة كان في مصلحة بناة السفن في انكلترا الجديدة اكثر منه لبناة السفن في انكلترا ، مع انهم كانوا يبتاعون الخشب فيها بأسعار مرتفعة . فالتقيدات الـتي نص عليها قانون عام ١٧٥٠ جاءت مقابل السماح بادخال عتلات الحديد الاميركي الى البلاد معفاة من كل رسم ، بينما الحديد الاسوجي كانت تفرض عليـه رسوم عالية منفرة . ولذا فهيجان الرأي العام الاميركي وتذمره ليس ما يبرره او يزكيه . فقد قـام على اساس من عدم تفهم الامور على وجهها الصحيح وعلى جانب كبير من حب الذات والاعتداد القومي والفردية الشخصية .

وهذه المشكلات السياسية والقضايا الاقتصادية التي نشبت بـين انكلترا ومستعمراتها الاميركية طبعتها نزعة ظاهرة تركزت حول تأمين وحدة المستعمرات ، كما حملت في طياتها وبين ثناياها بذور الانفصال عنها. وزادت هذه الامور حدة خلال القرن مع التطور الاقتصادي الذي اخذت المستعمرات باسبابه ، ومع النجاح العظيم الذي حققته في الداخـل ، والصمود في وجه الفرنسيين في هذا النزاع الحاد الذي نشب بين الجانبين المتجاورين .

حركة الاسكان في المستعمرات حتى سنة ١٧٦٣

أهلت المستعمرات الاميركية بسرعة وعمّرت بالسكان ، قبل عام ١٧٦٣ ، وذلـك بفضل ما انهال عليها من سيل لا ينقطع مـن المهاجرين الاوروبيين بعد ان اجتذبتهم اخبار الازدهـار المـادي الذي ينعم به الاهلون ، واغراهم رخص ثمن الاراضي وقلة تكاليف الحياة ، وارتفاع اجور العمال ، وسهولة الانضمام الى الطائفة الدينية التي يرغب بالانضواء اليها من قـال بمقالتها . فقد جاءوا باعداد قليلة من انكلترا نفسها ، وبأعداد أضخم من مقاطعة الاولستر إثر نزوح السكوتلانديين من ابناء الكنيسـة المشيخية ، وتركهم البلاد بعد استفحال ازمة النسيج الحادة التي نشبت اثر صدور القوانين الخاصة بحماية التجارة . كذلك جاءت اعداد كثيفة من المانيا الرينانية حيث

جعلت الاضطهادات الدينية ، والحروب والنظام الاقطاعي المسيطر على البلاد ، الحياة صعبة قاسية ، والعيش عسيراً في وجه عدد كبير من الفلاحين . وقامت في نواح عديدة مكاتب تجميع عهدت الى دعاة جهزتهم ببيانات جذابة ، مغرية ، حركت في قلوب الناس الشوق الى الاغتراب والهجرة . الا انه كان لا بد للراغبين في النزوح والسفر ان تتوفر لهم نفقات الطريق ورأس مال صغير يساعدهم على السكن والاستقرار بعد وصولهم سالمين الى حيث يقصدون . فالفقراء المعدمون منهم وقّعوا تعهدات اشترطت عليهم شروطاً معينة قبلوا بها وتعهدوا النزول عند مقتضياتها . فكان قبطان السفينة التي تنقلهم يودعهم عند وصولهم الى الشواطىء الاميركية ، في نزل خاص ، فيأتي المعمر الراغب في الحصول على اليد العاملة ويدفع للقبطان مبلغاً من المال يزيد مرتين او ثلاث مرات على تكاليف السفر ، ثمناً للعامل الذي رقع عليه الاختيار . فكان هذا يتعهد له بالعمل في خدمته ثلاث او خمس سنوات ، يتلقى عند انتهاء اجل العقد من رب العمل ، الالبسة والادوات والعدد اللازمة وحيوانات الجر ومبلغاً من المال بحيث يتمكن من ان يعمل لحسابه الخاص معتمداً على نفسه ونشاطه . وهكذا ، بالرغم من رحلة شاقة تستغرق بضعة اسابيع او عدة اشهر ، يعتبر المسافر نفسه محظوظاً ، الى حد بعيد اذا لم تقع عينه في النهار على اكثر من جثتين او ثلاث يقذف بها البحارة الى اليم ، ممن يموتون على ظهر السفينة ، اثناء الرحلة لكثرة ما كانت تغص به من الركاب . اضف الى هذا السيل الجارف ، عدداً من المبعدين او المنفيين يجري ابعادهم الى المستعمرات ، بلغ عددهم ٥٠ الفاً بين ١٧١٧ - ١٧٧٩ ، حكم عليهم بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ، بينهم بعض رجال السياسة الذين رؤي التخلص من مضايقاتهم ، وبعض المحكوم عليهم بجنح من قبل القضاء الذي كان يأخذ الناس بالشدة ، فاذا بهم بعد لأي من الزمن يصبحون من اقوم المواطنين واصلحهم اخلاقاً ونشاطاً للعمل في البلاد .

وعند انتهاء أجل عقود هؤلاء النازحين عن ديارهم ، والتحرر من ارتباطاتهم ، كان كثيرون منهم يتجهون غرباً سعياً وراء اراض حرة تباع لهم بابخس الاسعار أو يستملكونها بمجرد وضع اليد ، يسيرون في خطى تجار الفراء . ومعظم هؤلاء الرواد من السكوتلانديين ، يبنون لهم اكواخاً من جذوع الشجر ، يعزقون الارض ويحيونها ثم يزرعونها ناهجين في عيشهم نهج الهنود يقتاتون من بعض نتاج الارض مما يزرعون او مما يقعون عليه من صيد او قنص ، ثم لا يلبثون ان يتخلوا عن ارضهم لراغب فيها طارىء ، وينزحون هم الى ابعد ، باتجاه الغرب . وكثيراً ما حل محلهم أسرٌ ومعمرون احسن عدة وعتاداً ، معظمهم من الألمان ، فلا تمر ان ترتفع في الأرض الحدائق والمغروسات وتنشأ فيها المزارع ، وتأخذ رقاع الغابات بالتقلص والضمور حتى تصبح معالمها واحة أو جزيرة في السهل المنبسط على مدى البصر . وعندما تعترض سيرهم مساقط المياه والشلالات يتحول هؤلاء الرواد الى بنسلفانيا ويتغلغلون بين ثناياها ويهبطون أودية الابالاش ويقيمون لهم المنازل في رؤوس الوديان في فرجينيا او كارولينا . وهكذا قامت انشاءات على

الاراضي المرتفعة كما قام منها العديد على السواحل ، في هذا الغرب الديموقراطي ، حيث الرجل الموفور الكرامة الذي يتمتع بالشهرة الواسعة والجاه العريض ، هو من يقطع بفأسه اكثر من غيره من الاشجار في سبيل « احياء الارض وتعميرها » ، والذي كان في مقدوره ان يسلخ جلدة رأس عدد من الهنود ، بعكس المنطقة الشرقية التي كانت بورجوازية .

فمنذ سنة ١٧٣٠ راح المزارعون على سواحل فرجينيا من عائلات لي *Lee* وواشنطون ينشؤون لهم شركة واستحصلوا على ارض مساحتها ٢٠٠،٠٠٠ ايكر (٨٠،٠٠٠ هكتار) في وادي اوهايو ، لتوطين بعض المعمرين هنالك . وفي سنة ١٧٤٩ ، وعدت سلطات فرجينيا شركة اخرى باسم شركة : لويال لاند ، بان تضع تحت تصرفها اراضي مساحتها ٨٠٠،٠٠٠ ايكر (٣٢٣٠٠٠ هكتار) تقع الى الغرب من جبال أليغاني .

في هذه الحركة من التوسع والانتشار يقوم بها تجار الفراء والرواد المستكشفون واصحاب رؤوس الاموال ، اصطدم هؤلاء بالهنود والاسبان والفرنسيين. فقد قام بينهم وبين الهنود صراع دائم كانت معه المستعمرات تقدم مكافأة لمن يأتي برأس هندي . ووقعت بالفعل حروب دامية كالتي اصطلى بنارها اقوام تشيروكي في جيورجيا او تلك التي وقعت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، سنة ١٧٥٩ و ١٧٦١ . ونال جيمس أوغلثورب ، عام ١٧٣٢ امتيازاً بانشاء مستعمرة له في جيورجيا الى الجنوب من سفانا مزاحمة منه للاسبان في فلوريدا، مما أدى الى سلسلة من الغزوات والاصطدامات بينهم وبين الامير كيين اضطر معها الاسبان التنازل عن فلوريدا للانكليز ، عام ١٧٦٣ . ولكن النزاع الطويل هو الذي قام بين الانكليز وبين الفرنسيين .

النزاع بين الفرنسيين والانكليز

ضربت المستعمرات الفرنسية نطاقاً محكماً حول المستعمرات الانكليزية ، واصبح الفرنسيون ، بعد عام ١٧١٥ ، في وضع يسيطرون معه على تجارة الفراء . فالتجار والمعمرون الانكليز هم الذين باشروا الحرب اولاً ثم جروا اليها الهنود واخيراً ارغموا الحكومات على الدخول فيها والانغماس في ميدانها على غير رضى منها تقريباً .

بالرغم من معاهدة اوتريخت احتفظ الفرنسيون بتفوقهم في تجارة الفراء ، بفضل رحاليهم وروادهم المستكشفين. فالرحلات التي قام بها فيرندري ، باتجاه الشمال الغربي ، امنت له الاتصال المباشر بالقبائل التي تقوم بعملية الصيد وتمكنوا من تحويل تجارة الفراء نحو مونتريال. والرحلات الاستكشافية التي قام بها سان – دنيس ، بين ١٧١٤ – ١٧١٧ ، فاجتاز معها مقاطعة التكساس وبلغ منها نهر الريو غرانده ، والرحلات الاخرى التي قام بها لاهارب، فصعّد بعيداً في النهر الاحمر (١٧١٩ – ١٧٢٠) والاركنصو (١٧٢٢) ، وهذه الرحلات الاخرى التي قام بها بورمون ، فمكنته من استكشاف الكنصاس (١٧٢٣) ، وعمليات الاستكشاف التي قام بها الأخوة ماليه اللذان انطلقا من نهر ميسوري واجتازا نبراسكا والكنصاس والكولورادو (١٧٣٩) ، كل

هذه الرحلات وعمليات الاستكشاف الواسعة النطاق التي رافقتها ، ساعدت على ازدهار تجارة الفراء في اورليان الجديدة . وبفضل تفوق المواصلات البرية ، تم السبق للتجار الفرنسيين على التجار الاميركيين في ألباني ونيويورك ، مع ان هؤلاء كانوا يحصلون على البضائع الانكليزية بشروط ٥٠٪ افضل ويستخدمون نهر الهدسون الذي كان حراً من الجليد طوال السنة. ومن جهة اخرى ، وبالرغم من البند الخامس عشر من معاهدة اوتريخت التي اعطت الجلسية الانكليزية لاقوام الايروكوا ، انتشر الكنديون في المقاطعات الواقعة الى الجنوب من بحيرات اونتاريو وايريه وسان - لوران ، باتجاه خط مقسم المياه بين البحيرات الكبرى والمحيط الاطلسي .وقد اصطدم الرواد البروتستانت القادمون من انكلترا الجديدة في تقدمهم ، بالكنديين الكاثوليك ، فنظروا اليهم نظرة العبرانيين الى العمالقة والمديانيين المتوجبين عندهم للذبح والافناء ، كالهنود مثلاً بمثل .

ولذا نشبت الحرب بين الجانبين واحتدمت بينهم بالرغم من رغبة الحكومتين بالمحافظة على السلام . ونال التجار الانكليز ، عام ١٧٢٧ ، من قبائل الايروكوا ، السماح لهم بانشاء حصن في أوسويغو على بحيرة اونتاريو ، ومنه اخذوا ينطلقون غرباً ويشمون عن طريق الاوهايو . ولكي يوقفهم الفرنسيون عند حدهم ويحولوا دون تقدمهم ، راح الفرنسيون يبنون حصن فنسين على نهر الواباش ، كما راح تجار نيويورك وبنسلفانيا ، ينقلون عن طريق الايروكوا ، الاسلحة الى اقوام الرينار في مقاطعة الفسكنسين والألينوى وحرضوهم على الحرب ضد الفرنسيين ، وهي حرب استمرت حتى سنة ١٧٣٠ . وتقدم تجار كارولينا حتى الاركنصو ، وحرضوا عام ١٧٢٩ ، قبائل الناتشز على الثورة ضد الفرنسيين . كذلك عملوا على تسليح اقوام شيكاشا وعلى تنظيمهم وتدريبهم ، ثم دفعوا بهم ، عام ١٧٣٦ ، الى مهاجمة القوافل الفرنسية التي كانت تسير ونهر المسيسبي .

واثناء حرب خلافة النمسا ، احتل المتطوعة الانكليز ، في انكلترا الجديدة ، مدينة لويسبورغ (١٧٤٥) التي اعادتها الحكومة الانكليزية ، الى الفرنسيين مقابل مدينة مدراس ، في الهند ، مما اثار حفيظة سكان بوسطن واحتجاجاتهم . وكان الانكليز خلال الحرب مسيطرين على البحار ، فلم يصل الفرنسيين سوى النزر النزير من البضائع ، كما ان اسعار الحاجيات والسلع على اختلافها ارتفعت كثيراً بحيث بلغت ١٥٠٪ ، واستطاع تجار بنسلفانيا ان يكسبوا ، الى جانبهم ، القبائل الهندية وان يؤسسوا لهم مدينة لِفتاون ، الى الجنوب من بلسبورغ ، وحصن بيكاولاني ، الى الجنوب الغربي من بحيرة ايريه اللذين اصبحا مركزين هامين للتجارة في تلك النواحي .

فالصلح الذي عُقِد عام ١٧٤٨ ، في اكس لا شابيل ، لم يغير شيئاً ولم يوقف شيئاً .وحافظ التجار الانكليز على مواقفهم . واستمر آل واشنطون وآل لي *Lee* ، في محاولاتهم ومشاريعهم

الاستثمارية لوادي الأوهايو ، وراح انكلوسكسون هاليفكس التي انشئت عام ١٧٤٠ يهاجمون دونما نتيجة ، سكان اكاديا، عام ١٧٥٠ .وبتحريض من حاكم بوسطن راح المعمرون الانكليز، في انكلترا الجديدة ، يتقدمون من خط مقسم المياه حيث اصطدموا بخطوط الدفاع الكندية وراحوا يتحصنون في مراكزهم الامامية .

وقد اوجس الحاكم الفرنسي في كندا السيد لاغارسونيير خيفة من ان تنقطع اتصالات فرنسا الجديدة مع مقاطعة لويزيانا. فجرد حملة فرنسية استرجعت الاوهايو، ودكت عام ١٧٥٢، حصن بيكاولاني . وراح خلفه الحاكم دوكسن ينشىء خطاً من القلاع والحصون ، تأميناً لوصل كندا بالاوهايو . وفي سنة ١٧٥٣ ، دفع المعمرون في فرجينيا ، الحاكم على انشاء حصن لهم في الموقع الذي تقوم عليه مدينة بتسبورغ ،عند تشعب نهر الاوهايو الملقب : «الباب الى الغرب » . فاستولى عليه الكنديون ودكوه الى الارض وبنوا مكانه حصناً كبيراً باسم دوكسن واذ ذاك ، انفذ حاكم فرجينيا كتيبة من المشاة بقيادة احد كبار المساهمين بشركة الاوهايو ، هو جورج واشنطون . وفي ظروف غامضة ، مبهمة ، وقع قتيلاً قائد الكتيبة الفرنسية جومونفيل الذي كان متوجها بصفته مندوباً ممثلاً لحكومته . واضطر واشنطون للالتجاء الى قلعة ارتجل بناءها عرفت باسم « الحصن المرتجل » ، واستطاع الفرنسيون من ارغامه على الاستسلام بعد ذلك بقليل في ٢٠ تموز ١٧٥٤ .

اجتمع ممثلو المعمرين الانكليز في مدينة الباني ، في شهر حزيران ، الا انهم لم يتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم . ولذا قرروا الاتصال بالبلد الام . وفي تلك الاثناء انهزم الجيش الانكليزي وجيش المليشيا التابع لفرجينيا ، شر هزيمة امام حصن دوكسن ، وفي ٩ تموز ١٧٥٥ ، وبفضل هذا النصر عاد الهنود الى تحالفهم مع الفرنسيين . وراح جيش فرنسي يسير باتجاه الباني ونيويورك ، متبعاً في سيره الوادي الجليدي التكوين الكبير الذي يسير فيه مجرى نهر ريشليو ، والذي تقع فيه بحيرتا تشامبلين وجورج ، الا انه انهزم عند بحيرة جورج ونجح من جهة ثانية ، الهجوم الذي شنته مليشيا بوسطن على اكاديا . وحدث من جراء ذلك ان تم ابعاد سبعة آلاف من سكان اكاديا الكاثوليك ، وبذلك حيل بين الابناء ووالديهم ، والازواج وزوجاتهم، كما تعرضت النساء للضرب العنيف ومات تحت الضرب عدد منهن . ومن اصل هؤلاء الآلاف السبعة قضى اربعة منهم فريسة البؤس والعناء وتمكن ثلاثة آلاف آخرون من الافلات والفرار والنجاة بانفسهم ، واستهدف بعضهم لسلخ جلدة رؤوسهم اذا ما شاء نكد طالعهم وحظهم العاثر ان يقعوا من جديد في قبضة الانكليز . واحرقت القرى والدساكر ليزيدوا من شقاء الفارين وهلعهم . وصودرت املاكهم واراضيهم ووزعت بين معمرين اميركيين . « وهكذا راح هذا الشعب الشهيد فريسة قوة طاغية اظهرت من الفظاظة والفظاعة وعدم الحياء مـا لا يختلف بشيء عما تضرست به اوروبا وراحت فريسة له في تلك الآونة» .

ومع هذا كله ، كانت فرنسا وانكلترا لا تزالان رسمياً بحالة سلم . الا ان مهاجمة الاميرال

الانكليزي بوسكوين ، في حزيران ١٧٥٥ ، بدون سابق اعــلان حرب ، لقافلة من السفن الفرنسية ، في طريقها الى كندا ، ثم مهاجمة كل السفن الفرنسية ، في تشرين الثاني ، افضى الى حرب مكشوفة بين الدولتين ، في كانون الثاني ١٧٥٦ . واذ كانت الحكومة الفرنسية منهمكة في الحرب القائمة اذ ذاك ، على القارة الاوروبية ، المعروفة بحرب السنوات السبع ، فقد اهملت شؤون كندا . وعندما راح مندوب فرنسيي كندا يطلب ، عام ١٧٥٩ ، امدادات ليقوي من موقفهم الصعب في الحرب ، رد عليه وزير المستعمرات قائلاً : « عندما تكون النار عند ابواب منزلك ، يا سيدي ، فلا يعود من الجائز التفكير بالاصطبلات» . اما التفكير الانكليزي فكان على عكس ذلك تماماً . اذ تصبح حرب المستعمرات في نظرهم ، هي الساحة الاولى والمجال الرئيسي لها ، وتمسي مشروعاً قومياً وصليبية مقدسة .

ومع ذلك ، وصل في شهر مايو ١٧٥٦ ، القائد الجديد للقوات الفرنسية ، هو المركيز دي مونتكالم الذي عُرِف بروحه المرحة ، وبُعْد تفكيره ، ونشاطه وشجاعته ، وعرف بالتسمة آلاف من الجيش النظامي الفرنسي وبقبضة من جنــود المليشيا وبعض الهنود ، ان ينظم صفوفه وان يصمد في وجه القوات الانكليزية التي كانت تفوق قواته كثيراً ، والتي كانت تتلقى الامدادات باستمرار اذ وصلها ١٢٬٠٠٠ عام ١٧٥٧ ، و١٤٬٠٠٠ عام ١٧٥٨ ، و٩٠٠٠ ، عام ١٧٥٩ ، عدا عن جيش المليشيا العامل في المستعمرات الانكليزية الذي يزيد على مجموع هذه القوى بكثير . فراح مونتكالم يؤمن ، قبل كل شيء ، سلامة وادي الاوهايو ، باستيلائه على حصن اوسويغو ، في آب ١٧٥٦ . وفي سنة ١٧٥٧ ، امّن طريق مونتريال باستيلائه على حصن وليم ـ هنري الواقع عند بحــيرة جورج . وفي سنة ١٧٥٨ ، راح الانكليز يستغلون تفوقهم العددي الساحق ، فبادروا الهجوم من ثلاث نقاط ، في وقت واحد . فقد فشل سيرهم رأساً ضــد مونتريال ، اذ استطاع مونتكالم ، بقوات ٦ مرات اقل ، ان يلحق بهم الهزيمة الى الجنوب من بحيرة تشمبلين ، عند حصن تيكونديروغا . الا انهم استولوا على حصن فرونتناك وحصن دوكسن وبذلك تمكنوا من فصل كندا عن مقاطعة لويزيانا ، كما فصلوها تقريباً عن فرنسا الجديدة باستيلائهم على لويسبورغ . واخذت قوى الجيش الفرنسي بالتناقص والانخفاض. وفي سنة ١٧٥٩ ، قام الانكليز بهجوم مركز على كوبيك ومونتريال ، مستخدمين لاتجــاهه بحيرة اونتاريو ونهر ريشليو ومصب نهر سان لوران . فالطوابير المهاجمة من الجنوب اخفقت في تحقيق اهدافها بالرغم من احتلالها حصون تيكونديروغا ونياغارا . والعمــارة الانكليزية في سان لوران ، فشلت هي الاخرى ، في بدء الامر ، في مهاجمتها لخطوط الدفاع القائمة الى الجنوب من كوبيك . الا ان القائد البريطاني وولف المعروف بعناده ، قــام بمناورة جريئة رائعة ، اذ نقل قوة انكليزية عبر النهر ، كما انزل قوات اخرى الى الشمال من المدينة ، ودار في ١٣ ايلول قتال عنيف بين الفريقين ، قتل فيه كل من القائدين : وولف ومونتكالم ، الا ان الانكليز بقوا مسيطرين على الوضــع . وهكذا اضطرت كوبيك للاستسلام في ١٨ ايلول ١٧٥٩ . وتمكن

الشفاليه دي لفيس من الصمود سنة ثانية ، وانتصر في نيسان عام ١٧٦٠ ، على الانكليز عند ابواب كويبك . الا ان الامدادات لم تصله من فرنسا ، فراحت ثلاثة جيوش انكليزية ، تضرب الحصار حول مونتريال ، فاضطرت المدينة للاستسلام في ايلول ١٧٦٠ ، لحاجة المدافعين للاعتدة الحربية والمؤن والقوى اللازمة لمتابعة الحرب . وبموجب معاهدة باريس ، في ١٠ شباط ١٧٦٣ ، اضطرت فرنسا الى ان تتخلى لانكلترا عن كندا وعن وادي الاوهايو وضفة المسيسبي اليسرى . وهكذا زالت الامبراطورية الفرنسية في اميركا الشمالية من الوجود ، وراح المعمرون الانكليز يستسلمون في الخيال للاحلام المعسولة امام غنى هذه المجالات الشاسعة الغنية بمواردها التي انفتحت آفاقها امامهم .

الفصل الخامس

استقلال المستعمرات الانكليزيــة في أميركا

(١٧٦٣-١٧٨٣)

الشعب الاميركي

ما كادت عشرون سنة تمر على انتصار انكلترا على فرنسا وانتزاعها ممتلكاتها في شمالي اميركا ، حتى كانت المستعمرات الانكليزية قد انفصلت عن انكلترا واستقلت عنها تماماً . لم يأت هذا الاستقلال قط رليد ارادة رغبت فيـــه وهيأت له الأسباب . ان عدداً كبيراً من المعمرين في اميركا بقوا على تعلقهم بالوطن الأم . وعندما كان يخطر لبعضهم الذهاب الى انكلترا ، كانوا يقولون انهم ذاهبون الى « بلادهم » ، وأثنـــاء الثورة الاميركية ، وبالرغم من الاصطدامات العنيفة التي قام بها كلا الجانبين بقي هنالك ما لا يقل عن ثلث السكان يحتفظون بولائهم للانكليز ، كما بقي على الحياد ، في هذا المصطرع ، ثلث آخـــر ، ولم يبق في الميدان سوى ثلث « الوطنيين » الذين قرروا ، في اللحظة الأخيرة ، والأسف يحز في نفوسهم ، والغصة في حلوقهم ، القيام بالخطوة الحاسمة .

الا ان المعمرين كانوا قد استحالوا ، دون ان يشعر أحـد من الناس ، ولا هم تبينوا في مطلع الأمر ، كيف انهم أصبحوا ، شعباً جديداً هو الشعب الاميركي . فقد برزوا من هــذا المزيج او الانصهار الذي تم بين المهاجرين والسكان ، وكلهم من اصل انكلوسكسوني ، دون ان تتم لهم السيطرة على كل شيء. فقد كان ثلثا سكان بنسلفانيا من السكوتلانديين نزحوا من مقاطعة الاولستر في ايرلندا الشمالية ومن الالمان . أما الجنوب ، فكانه جمهرة سكانه في الداخل أجانب . وتخلق هؤلاء الناس ، في مثل هذا المحيط والبيئة الجديدين ، باخلاق وعادات جديدة ، وتمت لهـــم اعراف واحدة مشاركة فيما بينهم . ولغتهم الانكليزية ، احتفظت ببعض التعابير والمصطلحات القديمة ، وببعض التراكيب التي عفا اثرها لدى الانكليز ، واقتبسوا عن الهنود وعن المهاجرين الجدد ، اوضاعاً ومسميات وكلمات جديدة . فتطلعت نفوسهم الى روح المغامرة وهاموا بالجديد من كل شيء . وهذا المجتمع الجديد الذي طلعوا به كان أكثر ديموقراطية ، في مجموعه مما هو عليه المجتمع البريطاني المعروف بروحــــه المحافظة . فباستطاعة أي متطوع في الجيش أو أي متطوع خدم فيه ان يباري وان يرتفع ويرقى الى المراتب الأولى. فالغرب منه كان أكثر اخذاً بالعقلانية من

الشرق ، حتى ان المزارعين في الجنوب تشربوا بتعاليم لوك ومونتسكيو وبكاريا والموسوعيين الفرنسيين . فقد احتفظوا بهذه الروح الثورية التي جاشت بها انكلترا ، حيناً، الا ان جذوتها خمدت في الوطن الأم ، فيا بعد وخفت ريحها . ومن جهة ثانية ، فالكنيسة التي كانت توصي بالطاعة والامتثال للملك اقتصر اثرها على الجنوب وعلى نيويورك ، أما في ما عدا ، فالأمر كان بيد المشاقين . ومع نظريات العقد [الاجتاعي] رفرفت فوق النفوس ، في كل مكان ، روح من سوء الظن والريبة نحو السلطة ، والرغبة في تحديها والصمود في وجهها .

وامتنع التفاهم بين الانكليز والاميركيين . فالانكليز كانوا يزدرون : « رعايانا في اميركا ». ودار في خلد العسكريين منهم واستقر في يقينهم ان المصرين أكثر من جبناء بحيث يستطيعون الصمود ، وانهم سيفرون زرافات ووحدانا لدى أول لقاء بهم أو اصطدام معهم . وكان صموئيل جونسن (١٧٠٩ – ١٧٨١) اكتب كتاب الانكليز وأبعدهم شهرة في هذه الحقبة يردد: « نحن أمام عرق من ذراري من حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، يا سيدي » . بالطبع لم يكن هذا الكلام رما أشبه مما يطيب للاميركيين سماعه او مما يشنّف آذانهم ، عندما يأتون لانكلترا ، فيتبرم كبرياؤهم من مثل هذه الآراء فيهم . وقد هالهم مـا هي عليه الطبقة العليا في انكلترا من تفسخ الأخلاق ومن فشاء روح التشكك رحب التنعم بلذاذات ، وفساد الطباع وشيوع ذلك فيا بينهم بالرغم من « وشي » رمن نزعتهم القديمة الى السيطرة والحكم المطلق .

كان من المتوجب على الحكومة البريطانية ان تستعمل معهم الكثير من الدراية والمداورة واللين . وكأنه حلا لها ان تصدم باستمرار مصالح الاميركيين وتثير مشاعرهم ، وبذلك جعلتهم يعون ، أكثر فأكثر ، ما يباعد بينهم وبين انكلترا ، ويدركون ، أكثر فأكثر ما يوحد بينهم ، فساعدت بذلك على ان تجعل منهم أمة مترابطة متراصة .

روح السيطرة البريطانية والمقاومة

ثمل الانكليز بانتصاراتهم الداوية فراحوا يطبقون، الى اقصى حد ، بعد عام ١٧٦٣ ، النظرية الاقتصادية القديمة التي قامت على الاستثناءات . فهم تصوروا الامبراطورية البريطانية مجموعة من البلدان والأقاليم والشعوب والأمم يجد بينها كل انكليزي ما يشبع اطماعه ويروي غليله على ان تبقى هـذه المجموعة تحت حكم بريطانيا وسيطرتها مباشرة لانها سبب هذا الازدهار المشترك الذي ينعم به الجميع . وهـذه الطريقة في التفكير تنسجم الانسجام كله مع مـا جاش به الملك جورج الثالث من نزعـات استبدادية تعسفية ، هذه النزعات التي دان بها التربية التي تلقاها وخضع لها والتي قد تكون جاءت على مثل ما اراده « الطغاة المستنيرون » . فبعد عقد معاهدة باريس ، خُيّل للحكومة البريطانية انها تستطيع ان تتصرف بمستعمراتها الاميركية كيفما تشاء .

وفي ٧ تشرين الاول ١٧٦٣، نشر تصريح ملكي جاء فيه ان الأراضي الجديدة التي يتم فتحها الى الغرب من خط مقسم المياه في جبال أللغاني ، يجب اعتبارها أراضي ملكية يحظر فيهـا

القيام بأية انشاءات او استثمارات ، ويُطرد بالتالي كل من استقر فيها أو قام عليها. وهكذا رأى المعمرون وأصحاب رؤوس الأموال أنفسهم محرومين الافادة من الأراضي التي ناضلوا دونها وبذلوا دماءهم في سبيل استخلاصها .

ومن جهة أخرى ، رغبت الحكومة الانكليزية في ان تؤمن لحكام المقاطعات مرتباً ثابتاً يضمن لهم مع الكرامة الذاتية ، الاستقلال والسيادة ، ويجعلهم في مأمن من هَوَس المجالس المحلية واهوائها ، فترسخ سلطاتهم وتنزل هيبتهم في النفوس. كذلك أعرب حكام المقاطعات عن رغبتهم في الاحتفاظ بجيش دائم قوامه ١٠،٠٠٠ جندي للحفاظ على المستعمرات والدفاع عنها لدى الطوارىء . ولما كانت انكلترا غارقة في ديونها ، وجدت من العسير عليها تأمين الرسوم اللازمة من الضريبة العقارية . فمن العدل ، والحالة هذه ، ان تسهم المستعمرات في تحمل بعض هذه الأعباء التي هي في مصلحتهم وحدهم . وكان من حق البرلمان البريطاني ان يفرض رسوماً على التجارة في المستعمرات . فأقر عام ١٧٦٤ ، قانون السكر ، كما وضع عام ١٧٦٥ ، قانون التمغة . ففرض الأول رسوماً جديدة تجبيها ادارة الجمارك أصابت عدداً كبيراً من المنتوجات الأجنبية ، من بينها عصير قصب السكر وثفالته وهي مادة لا غنى عنها . وفرض قانون التمغة من جهته رسماً جديداً على المعاملات القانونية، كالسفاتج المالية وكتب الاعتماد والجرائد. وأخيراً وليس آخراً ، أعاد البرلمان سنة ١٧٦٦ ، النظر في تصدير أي بضاعة من المستعمرات الى غير انكلترا أو الى أي بلد يقع الى الجنوب من رأس فلستير ، من مستوردي الأرز في الجنوب .

لم يكن في مثل هذه الاجراءات شيء جديد . فالجديد فيها هوان الوزير غرينفيل ، رغبة منه في تطبيق هذا القانون ، ارسل الى اميركا فريقاً من مأموري الجمارك وسفناً تقوم على مراقبة الشواطىء البحرية ، وأحال المخالفات الى محكمة الاميرالية . وهكذا قامت الصعوبات في وجه تجارة التهريب .

وراح الاميركيون بدورهم ، بوصفهم من الرعايا البريطانيين ، يعترضون على هذه التدابير فاعترفوا للبرلمان الانكليزي ، من حيث المبدأ ، بحق اصدار القوانين المتعلقة بتنظيم التجارة في الامبراطورية عن طريق فرضه للرسوم اللازمة . أما في هذا الوضع بالذات ، فالقضية ليست قضية تنظيم التجارة ، بل ايجاد موارد جديدة للخزينة . فالرسوم المفروضة على السكر وعلى التمغة ليست في نظرهم ، سوى ضرائب غير مباشرة . ان إقامة المعمرين في اميركا لم تفقدهم حقوقهم كمواطنين بريطانيين . فمن حقهم الأساسي ان يقروا هم أنفسهم ، الضرائب التي يترتب عليهم تحملها . ولم يكن لهم بالتالي من يمثلهم في البرلمان الانكليزي . ورد الانكليز على هذا الاحتجاج بان أعضاء البرلمان يمثلون الشعب الانكليزي أينما كان وليس الدوائر التي انتخبتهم . الا ان الاميركيين لم يكونوا ليرضوا الا بتمثيلهم الفعلي في البرلمان .

انطلقت إشارة المقاومة في٢٩ أيار ١٧٦٥ ، من مجلس فرجينيا، على يد محام شاب هو بتريك

هاري الذي أعاد الى الذاكرة تمثل بروتوس الذي تصدى لقيصر ووقف في وجهه ، كما استشهد بمثل كرومويل الذي وقف في وجه شارل الأول ، وحمل المجلس ببلاغته على إقرار « قرارات فرجينيا » ، وهي قرارات أيدت حق الاميركيين وكان لها اذ ذاك ، وقع هائل في نفوس القوم. وراح التجار ينظمون في ما بينهم حركة مقاطعة واسعة النطاق للبضائع الانكليزية. واتفق تجار المرافىء الرئيسية كنيويورك وفيلادلفيا وبوسطن على ان يمتنعوا عن استيراد بضائعهم من انكلترا . وشكل العمال في المدن جمعيات لهم ، عُرفت باسم « أبناء الحرية » ، تجاهل التجار في أول الأمر وجودها ، ثم ما لبثوا ان اتخذوا منها أداة انتفعوا بها ، وأخيراً توصلوا معها الى اتخاذ موقف موحد ، وارغموا على الاستقالة ، بالقوة ، الموظفين المعهود اليهم تصريف أوراق التمغة . وفي تشرين الأول ١٧٦٥ ، عقد ممثلو تسع من هذه المقاطعات مؤتمراً لهم في نيويورك وجهوا خلاله عريضة التماس الى كل من ملك انكلترا والبرلمان، صاغوها بعبارة تنبض بالاحترام. وعلى الأثر ، أرسل فرنكلين مندوباً عنهم يمثلهم في لجنة برلمانية خاصة تشكلت لهذا الغرض . وبعد أخذ ورد أقرت الوزارة الغاء رسم التمغة وخفضت الضريبة على نقل السكر بمقدار نحاسة (بني) واحدة للغالون الواحد (آذار ١٧٦٦) ، مما أدخل البهجة والفرح الى قلوب الاميركيين بعد ان سبب لهم توقف الحركة التجارية كثيراً من صنوف الحرمان . الا ان المشكلة الدستورية بقيت قائمة كلها ، اذ ان القانون الجديد الذي فرض رسماً على عصير قصب السكر وثقالته ، مع انه ابقاه متدنياً جداً ، لم يشترع شيئاً جديداً في المجال التجاري . فبقي هذا الرسم ضريبة سارية المفعول وراح البرلمان يعلن صلاحيته وحقوقه المطلقة لسن القوانين، مهما كانت طبيعتها، وهي قوانين يجب تطبيقها على كل أجزاء الامبراطورية البريطانية .

وفي سنة ١٧٦٦ ، خلال وزارة «بت» الثانية ، راح وزير المالية تاونسهند يأخذ من جديد بسياسة غرينفيل ، وحمل البرلمان في شهر مايو ١٧٦٧ ، على اقرار رسوم جديدة على الورق والزجاج والقصدير والشاي . واذ ذاك ، قام التجار في اميركا ، يقاطعون البضائع الانكليزية وعملوا على ادخال بضائع اجنبية بالتهريب ، فنتج عن ذلك اضطرابات . وفي الخامس من آذار، اصدر اللورد نورث قراراً بالغاء الضرائب الجديدة باستثناء الرسم المفروض على الشاي ، الأمر الذي ادخل البهجة الى القلوب ، باستثناء قلة من الناس رفضوا بكل حيلة ووسيلة ، الوقوف موقفاً معتدلاً . وفي نيسان ١٧٧٣ ، تسهيلاً لشركة الهند الشرقية تصريف شحنة لها من الشاي، رخص لها اللورد نورث ، بيع بضاعتها رأساً من الاميركيين بحيث يصبح سعر الشاي متدنياً للغاية . غير ان هذا التدبير عرض التجار الاميركيين لخسارة الأرباح الناجمة عن النقل ، كما جعل من المتعذر عليهم بيع الشاي الذي كانوا استوردوه رأساً من انكلترا ، كما ان التجار الذين اختزنوا كميات كبيرة منه رأوا أنفسهم مهددين ان يبيعوه بخسارة . واذ ذاك دفعوا الى الامام « ابناء الحرية » . فقد راح عام ١٧٧٣ ، فريق من سكان بوسطن تزيّوا بلباس الهنود الحمر ، يطرحون الى البحر وسق ثلاث سفن مشحونة شاياً .

والمهم في هذا الأمر كله هو ان الحكومة الانكليزية لم تكن تجاوزت حقوقها في هذه القضية، بينما رأى الاميركيون في المناسبة السانحة فرصة مؤاتية للتعبير عن موقفهم المتصلب هذا وعن عزمهم على معالجة شؤونهم الاقتصادية بأنفسهم، دون ان يبالوا، من قريب او بعيد، بالمصلحة العامة في الامبراطورية. وبذلك عبروا بصراحة عن رغبتهم بالاستقلال التـام. فقد كانوا تجاوزوا بعيداً القضية الاساسية التي كانت سبباً أولياً في هذا الجدل. ولذا قام بعض الاميركيين، من بينهم بنجامين فرانكلين، يسعون جهدهم، للمحافظة على وحـدة الامبراطورية وحيانها، وذلك عن طريق الوصول الى صيغة تصونها في المستقبل، بحيث تؤلف المستعمرات الانكليزية، من بينها، حلفاً يتمتع باستقلاله ويبقى متحداً، مع ذلك، مع الامبراطورية، بالملك. وعلى مثل هذا كان رأي «بت» الذي استقدم فرانكلين الى دارته وأعد معه، من آب الى كانون الأول ١٧٧٤، مشروع تحقيق امبراطورية انكليزية تمتد من البحر الشمالي الى المحيط الهادي. الا انهم كانوا بهذا، اسبق من زمانهم بكثير.

واذ ذاك اغلقت الحكومة البريطانية مرفأ بوسطن واخضعت المدينة وولاية مسشوستس كلها لنظام عسكري (١ ايار ١٧٧٤). وقد ارسلت جميع المستعمرات، باستثناء فرجينيا، مندوبين عنها يمثلونها في مؤتمر قاري (٥ ايلول ١٧٧٤) فأسس المؤتمر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول «الجمعية القارية *Le Congrès continental* تأخذ على نفسها تنظيم مقاطعة شاملة للنظام الاقتصادي الانكليزي. وتحول حماس الاميركيين الى هياج شديد عندما بلغهم خبر قانون كويبك، الذي ربط ادارياً كل الشمال الغربي حتى الاوهايو بولاية كويبك، اي انه وضع بمثل هـذه الاقطار الجبلة تحت تصرف «البابويين»، اذ كانت الديانة الكاثوليكية مسموحاً بها في كندا. وهكذا اصبح الصمود في وجه الملك ومقارمته صليبية شعارها: «لا بابوية». وتألفت في طول البلاد وعرضها لجان شعبية من المواطنين وقدم «بت»، في اول شباط ١٧٧٥، مشروع تسوية رفضه الى مجلس اللوردات. وراحت اللجان الاميركية «للسلامة العامة» تقيم مستودعات وتنشىء لها مخازن للاسلحة والعتاد الحربي. وفي ١٩ نيسان ١٧٧٥، وقع اصطدام بين كتيبة انكليزية ارسلت لوضع يدها على احد هذه المستودعات، بأفراد الميليشيا الاميركية، في لكسنغتن. فأتلفت المستودع الا انهـا اضطرت للعودة بفوضى وبدون نظام الى بوسطن، بعد ان تعرضت لتحرشات الاميركيين ومضايقاتهم لها. وفي اليوم التـالي، اخذت فرقة الميليشيا، في انكلترا الجديدة بضرب الحصار حول بوسطن. وهكذا نشبت في البلاد الحرب الاهلية.

حرب الاستقلال

استمرت الحرب تتأرجح ثماني سنوات. وكان حزب الاحرار *Whigs* الانكليزي يعطف على الاميركيين ويعمل باستمرار، على اثارة العراقيل، بوجه الحكومة. وكان عدد الموالين في اميركا كبيراً. فبعد ان قلق التجار جداً من راديكالية «ابناء الحرية»، نزعوا الوقوف الى جانب الملك، اذ رأوا في الحرب القائمة حرباً بين الطبقات. وراح الموالون يؤلفون من بين انصارهم، فرقاً خلصاً مما اضطر الجيش الانكليزي الى اتخـاذ

احتياطات عسكرية خاصة كالتي يتخذها جيش ماهر . فالمسافات الشاسعة ، والبلاد المقفرة ، زادت كثيراً من صعوبة المواصلات والتموين . والجيش الانكليزي الذي تألف من وحدات نظامية مدربة وجد حركاته وسكناته مقيدة من قبل القيادة في لندن التي كانت ترغب في ابداء رأيها في خطط الحروب والتصميم العمليات الحربية . اما الجيش الاميركي ، فقد تألف من افراد الميليشيا الذين رفضوا الخدمة في مقاطعاتهم ليعودوا ، بعد انتهاء نوبتهم وانقضاء مدة خدمتهم للعمل في الحصاد ، كما تألف من متطوعين كثيراً ما راحوا في بدء الأمر ، فريسة الهلع والخوف ، مرتباتهم سيئة تدفع لهم « بعملة ورقية فاربة » ، ولم يكونوا دوماً ممن يطمأن الى نواياهم . وكان غايتس يدس على واشنطون ويحيك له الدسائس ، كما خان شارلي لي وارنولد القضية وتخلوا عنها . ولحسن الحظ ، فقد اظهر القائد العام الذي جرى تعيينه من قبل الكونغرس القاري الثاني ، من الروح الوطنية ، ما جعله فوق كل امتحان ، كما انه برهن عن تفهم سليم للامور والأوضاع القائمة ، وعن حزم لا يتزعزع ، ورباطة جأش ليس ما يكدرها . كل ذلك اعاد الثقة الى اكثر المترددين المتأرجحين وبعث الحماس في النفوس .

اجتمعت الكونغرس الثانية في العاشر من ايار ١٧٧٥ ، وأدركت على ضوء الحوادث انه لا بد من عقد احلاف مع بعض الدول الأجنبية لتحقيق اهداف الثورة . فتوجهت بأنظارها الى الكنديين الذين كانوا لا يزالون يذكرون ، والمرارة ملء نفوسهم ، ما لحقهم من عنت الحروب السابقة ، وما استهدفوا له من حقد هذه التقوى البروتستانتية المتعصبة التي تكشفت عنها نفوس الانكليوسكسون . ان قانون كويبك كان منحهم من جهة ثانية التسامح الديني واستمرار العمل بمعظم القوانين الفرنسية التي ساروا عليها من قبل . فلم يحركوا ساكناً . ولذا راحت كتائب الاميركيين تغزو كندا . وأصبحت بالتالي خطراً يهدد مونتريال و كويبك . واذ ذاك نهض الكنديون لامتشاق الحسام وردوا الاميركيين على اعقابهم (تشرين الثاني ١٧٧٥) . .

وهكذا بقيت الكونغرس وحدها في الميدان . وكان الملك جورج الثالث اعلن على الملأ ان الاميركيين بحالة عصيان وتمرد وحظر كل نشاط تجاري معهم ، اذ قصد من ذلك ان « يزرع » الخراب في اميركا . وأحرق الانكليز مدينتين مفتوحتين هما فالموث في مقاطعة الماين ونورفولك في مقاطعة فرجينيا .

واذ كان اعضاء الكونغرس على يقين تام بأن الحرب وحدها هي التي ستقرر المصير ، وان الحليف الوحيد الطبيعي الذي يقف الى جانبهم في حربهم ضد الانكليز ، انما هو فرنسا ، فقد قاموا بمفاوضتها . فاشترطت فرنسا عليهم لدخول الحرب الى جانبهم ، انفصالهم التام واستقلالهم عن الانكليز شريطة ان يوحدوا من صفوفهم بحيث يظهرون مظهر المتحدين . ففي ٤ تموز ١٧٧٦ ، اتخذ الكونغرس قراراً باعلان الاستقلال التام . وقد وضع نص هذه الوثيقة التاريخية جيفرسن فجاءت بمثابة قياس استدلالي ذكّرت مقدمته الكبرى بمبادىء « الفلاسفة » ، هذه المبادىء التي أصبحت التراث المشترك لكل الأوروبيين . فقد جاء فيها بالحرف الواحد :

« نحن نعتبر واضحة بذاتها المبادىء التالية التي تعلم وتقول ان الناس اجمع خلقوا متساوين فيما بينهم ، وان الله خالقهم ميزهم ببعض الحقوق التي لا يمكن نسخها . من هذه الحقوق : حق الحياة ، وحق الحرية والبحث عن السعادة . فالحكومات تقوم بين الشعوب لضمان هذه الحقوق وان صلاحياتها ومسؤولياتها الحقة تصدر عن رعاياها وموافقتهم . فكل مرة يستحيل فيها شكل الحكومة الى حكومة تعمل على العبث بهذه الحقوق ، حق الشعب ان يستبدل حكومته هذه بأخرى وان يقيم محلها حكومة جديدة » .

ثم راحت تعدد سلسلة من العبث لهذه الحقوق الطبيعية ، من قبل ملك انكلترا والانكليز . وانتهت من سرد هذه الأمثلة بالنتيجة الحتمية قائلة :

« نحن ممثلو الولايات المتحدة الاميركية المجتمعون هنا هيئة عامة ، نحتكم الى محكمة الديان الاعلى لهذا العالم ، المطلع على سلامة نوايانا وطهارة خواطرنا . نحن ننشر ونعلن باسم هذا الشعب الطيب المقيم في هذه المستعمرات ، بان لهذه الولايات الحق التام بان تكون ولايات حرة مستقلة ، وبانها لا تعترف بأي ولاء ولا بأي خضوع للتاج البريطاني وان كل اتحاد سياسي فيما بينها وبين بريطانيا العظمى انقطع ويجب ان ينقطع تماماً » .

ابتهج الشعب الفرنسي لثورة الاميركيين ، اذ رأى فيهم رجالاً من ابناء الطبيعة ، كلهم تقى . جاء فرانكلين باريس بما هو عليه من بساطة الروح ، بجواربه الصوف وأحذيته الضخمة ، فازداد القوم في فرنسا ايماناً بهذا الشعور . وقد راح الشباب الفرنسي يجتاز المحيط الاطلسي باعداد كبيرة مقدماً خدماته الكونغرس الاميركي . وراحت وثيقة اعلان الاستقلال تحيل حماس الفرنسيين الى هذيان الفرح والغبطة . وفي هذه الفترة بالذات يسافر المركيز دي لا فاييت نفسه ويتطوع في خدمة الجيش الاميركي . وحلا للوزير الفرنسي فرجين ان يرى في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة ليثأر لفرنسا من معاهدة ١٧٦٣ المشينة . وبواسطة بومارشيه ، استطاع ان يمد الاميركيين بالسلاح والعتاد الحربي . غير ان هزائم الاميركيين المتتالية جعلته يتردد قليلاً قبل ان يكشف عن اوراقه . الا انه في ١٧ تشرين الاول ١٧٧٧ ، اضطر جيش انكليزي أرسل من كندا الى نيويورك لتعزيز موقف الانكليز الحربي فيها ، الى الاستسلام ، في بلدة سراتوغا ، بعد ان احاطت به كتائب الميليشيا ومنعت عنه وصول الامدادات والمؤن . وقد كان لهذا النصر الأميركي الكبير الأول صدى عظيم ووقع كبير على الرأي العام ، فأكسبهم محالفة الفرنسيين لهم . وُقعت معاهدة التحالف هذه في ٦ شباط ١٧٧٨ ، وتعهدت كل من فرنسا والولايات المتحدة الأميركية على الا تعقدا هدنة أو تجريا صلحاً إلا برضى الفريق الثاني ، وان لا ترميا السلاح الا بعد أن تنال الولايات الاميركية ، استقلالها التام الناجز . وتعهدت فرنسا بألا تعود إلى استرجاع كندا . الا أن الولايات المتحدة ضمنت لها الممتلكات التي لها او التي بين أيديها في القارة الاميركية ، وقد استطاع الوزير فرجين ان يحمل اسبانيا على الدخول في الحرب الى جانبها (حزيران ١٧٧٩) . وأعلن الانكليز الحرب على الهولنديين الذين راحوا يبيعون الاميركيين ما هم بحاجة اليه من البارود (كانون الاول ١٧٨٠) وأخيراً راحت الدول الأخرى الواقفة على الحياد بمسعى من الامبراطورة كاترين الثانية ، تؤلف من بينها حلفاً يقف بالقوة ، في وجه كل سفينة من سفنها تحاول تهريب الأسلحة الحربية .

جاء التدخل الفرنسي حاسماً . فالاساطيل الفرنسية بقيـــادة امراء البحر لاموت - بيكه وغراس واستانغ وسوفرين استطاعت ان تؤمن حرية البحار . والانكليز الذين تعرضوا الهجوم اينما وُجدوا : في جزر الانتيل والهند واميركا وجبل طارق ، اضطروا لتوزيـع قواهم . فقد اخذت جيوشهم في اميركا تشكو عالياً من انقطاع الامدادات والذخائر الحربية . ثم ان وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٥٠٠ جندي ، في تموز ١٧٨٠ ، بقيادة الكونت دي روشمبو ، امّنت للاميركيين الذين بقوا حتى الساعة يسجلون الهزيمة تلو الهزيمة في المعارك المعبّأة ، قوة نظامية حنكتها الاعمال الحربية التي تمرست بها ، كانت بمنأى من التقلبات الموسمية أو من الاشتباكات المحلية ، وكانت لها قدرة تامة على متابعة الحركات الحربية ، وقامت بتعاون مشترك بين اسطول فرنسي بقيادة الاميرال دي غراس وبيـــين الجيوش الفرنسية والاميركية بقيادة واشنطون ولافاييت وروشمبو . فقد اجبرت هذه الاعمال الحربية والتعـاون بين مختلف القوات العاملة في مختلف القطاعات ، على الاستسلام ، الجيش الانكليزي الوحيد الذي له القـدرة على التناور في البر ، وذلك في مدينة يورتون ، في ١٩ تشرين اول ١٧٨١ وبذلك ربحوا الحرب .

وقد حنث المندوبون الاميركيون قسمهم وأخلفوا بوعدهم بالرغم من معـــارضة فرانكلين وضربوا بعرض الحائط توقيـع الشعب الاميركي ، فسارعوا الى التفاوض مع انكلترا والى التوقيع على تمهيد الصلح ، في ١٣ تشرين الثاني ١٧٨٢ . واذ رأى الوزير فرجين نفسه امام الأمر الواقع اضطر للدخـــول معهم بالمفاوضات . جرى توقيـع المعاهدة الفرنسية الانكليزية في فرساي ، في غرة ايلول ١٧٨٣ ، وهي معاهدة لم تعترف الا ببعض المنافع والتنازلات لفرنسا بسبب انسحاب الاميركيين من الميدان ، وبسبب هزيمة نزلت بالاسطول الفرنسي في جزر الانتيـل ، في نيسان ١٧٨٢ ، ولأن المفاوضين الفرنسيين لم يطالبوا بكل ما كان يجب ان يطـــالبوا به . فاستعاد الفرنسيون جزر تباغو وسانت لوسيا وبعض المؤسسات والمراكز في السنغال . اما نصيب ملك فرنسا فقد كان انه حال دون استبطار سيطرة الامبراطورية الانكليزية ، وقلّم اظافرها بعد ان نزع منها احسن مستعمراتها واغناها وأمن الحرية والاستقلال لشعب من شعوبها. اما المعاهدة الانكليزية الاميركية ، فقد جرى توقيعهـــا في باريس ونصت على اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، وحلت حدودها في الغرب الى المسيسبي ، وفي الشمال الغربي الى البحيرات الكبرى ونهر السان لوران .

فبالرغم من انسحاب الاميركيين لم يشأ لويس السادس عشر ان يطالبهم باي تعويض لقـاء النفقات الباهظة التي تحملها في الحرب . فقد تنازل لهم ، فوق ذلك ووهبهم ١٢ مليون ليرة ، وعلاوة على قروض الحرب التي استدانوها ، قدم لهم سلفة من ٦ ملايين ليرة لأجـــل ترميم اقتصادياتهم واعادتها على أسس قوية عام ١٧٨٣ .كل هذا حدا بفرانكلين التنويه عالياً بالصداقة والامتنان الخالدين .

الفصل السادس

تطوّر كندا
(١٧٦٣-١٧٩١)

ونشأة الولايات المتحدة الأميركية
(١٧٨٣-١٧٨٩)

كندا وأكاديا

على ضوء التجربة والاختبار راحت الحكومة الانكليزية تنهج تجاه ما كان يُعرف بفرنسا الجديدة نهجاً يتسم بالحرية الواسعة. فقد نشأت فيها مستعمرات تمتعت باستقلالها الاداري، سكانها مزيج من عروق متباينة واجناس مختلفة.

فقد استثنى الملك جورج الثالث، في منشور له، العناصر الكاثوليكية من الاشتراك في ادارة البلاد، وبذلك رأى سكان كندا انفسهم خاضعين لسيطرة بضع مئات من الانكليز. الا ان خصومة انكلترا وحربها مع مستعمراتها القديمة، حملت الوزارة الانكليزية على انتهاج سياسة تتم عن تسامح اكبر. فقانون كويبك (١٧٧٤) اعترف للكاثوليك بحرية ممارسة طقوسهم الدينية، واعفى الكنديين من مرسوم *Bill of Test* الذي كان يفرض على كل من قام باعباء وظيفة عامة تناول القربان حسب الطقوس الانغليكانية، كما ترك لهم حرية العمل بجانب كبير من القوانين الفرنسية التي خضعوا لها من قبل ان يخضعوا للحكم البريطاني، لقاء قسم بالتزام الولاء لملك انكلترا، والأخذ باحكام اهم الشرائع الانكليزية، والعمل تحت اشراف حاكم عام ومجلس يقوم الملك بتعيينها. وقد اتسم اول حاكم انكليزي على كندا بروح سمحاء، واقام علاقات طيبة مع الاكليروس الكاثوليكي وطبق بكل دقة مرسوم كويبك بحيث بقي الكنديون على ولائهم الصادق لملك انكلترا.

واتفق ان ٣٥٠٠٠ من «الموالين» الاميركيين، نزحوا عن الولايات المتحدة، خلال حرب الاستقلال وبعدها، فجاوزوا وسكنوا الى الشمال الغربي من بحيرة اونتاريو. وشابت العلاقات بين الفرنسيين والانكليز الظنّة وسوء التفاهم والتحفظ باستمرار. وتقديراً لحسن موقف الكنديين وصدق ولائهم للتاج البريطاني، اصدر الملك جورج الثالث امراً بتقسيم البلاد الى

ولايتين متميزتين : كندا العليا للانكليز ، وكندا السفلى للفرنسيين. وتمتعت كل ولاية باستقلالها الاداري ، وقام فيها مجلس تمثيلي منتخب .

وقد حافظ الكنديون الفرنسيون على عقيدتهم ولغتهم واعرافهم وتقاليدهم، وطبقوا ما جاء على لسان النبي إرميا ، اذ يقول : « ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمارها ، واتخذوا نساءً ، ولِدوا بنين وبنات ، واتخذوا لهم نساءً واجعلوا بناتكم لرجال وليَلِدنَ بنين وبنات،وأكثروا هناك ولا تقلّوا واطلبوا سلام المدينة التي أجلاتكم اليها،وصلّوا من أجلها الى الرب ، فإن بسلامه يكون لكم سلام . »(1) . وبدون ان يتلقوا أي رديف عن طريق الهجرة والاغتراب من فرنسا التي أهملت أمرهم وتخلت عنهم ، وبفضل تمكسهم بالمثل الكاثوليكية السامية وانتهاجهم في الحياة نمطاً قوامه الزراعة والاستمساك بمكارم الأخلاق على سنة الجدود ، وبفضل تزايد عدد السكان عندهم بمعدل هو أعلى ما عرف الجنس الأبيض من أمثاله ، وبعزم لا يفتر ، قرروا معه الا يتركوا أنفسهم يذوبون في الكير الانكليزي والبوتقة البريطانية . فقد بلغ عددهم عام ١٨٠٦ ، أكثر من ٢٥٠،٠٠٠ نسمة . وهكذا استطاعوا بفضل ما أوتوا من صلابة العود وصدق العزيمة ، ان يحافظوا على طابع حضارتهم الفرنسية ، وسط بلد ومحيط سكانه من الانكلوسكسون .

اما اكاديا ، فقد أخذ يعود اليها تباعاً ، بعد عام ١٧٦٣ ، جماعات صغيرة ممن نجا من المحنة الماحقة التي ابتلوا بها وما تابهم من جرائها ، من العذابات والاضطهادات المريرة . وقد فرشوا طريق العودة ، كما فرشوا طريق الهجرة من قبل ، بالاعزّة ممن سقطوا في مختلف مراحل صلبهم المرير . وهكذا وصل منهم ١٢٦٥ شخصاً ، فوجدوا املاكهم ومقتنياتهم واراضيهم يحتلها المعمرون الانكليز . ولذا استقروا بين اراض رديئة التربة راحوا يعزقونها ويحيونها بعرق جبينهم ، حتى اذا ما لانت وطابت وجادت فاجأهم على حين غرة طارىء انكليزي وبيده صك تملك ، فينتزعها ويجبر مالكها على العمل في خدمته ، وليس في اليد حيلة بعد ان كانت المحاكم التي يرفعون اليها ظلاماتهم تصدر دوماً احكامها ضدهم . وكانت الجنس الاجور تعطى لهم دوماً عن اشق الاعمال واقسى الاشغال . وراحت الحكومة الانكليزية، خلال حرب الاستقلال الاميركي تداري جانبهم وتلين ملامسها ، فتتنازل لهم عن اراض يستملكونها ، كما اجازت لهم ممارسة واجباتهم وفقاً للطقوس الكاثوليكية . الا ان سيلاً جارفاً من « الموالين » الاميركيين ، زاد عددهم على ١٠،٠٠٠ ، هبط عليهم واغرقهم تحت غمره ، واخذوا في تعمير واحياء ما عرف بايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة . ومع ذلك فقد عرف الاكاديون ان يحافظوا كالكنديين على شخصيتهم وفرديتهم المميزة . فبلغ عددهم عام ١٧٩٠ ، بفضل حركة الموالين الناشطة بينهم ، ٨١٦٦ نسمة ، واستمروا على نمائهم وتكاثرهم ، يشترون من الانكليز اراضيهم ويعملون بذلك على زحزحتهم تدريجياً .

(١) – ارميا ، اصحاح ٢٩ ، عدد ٥ ـ ٧

الولايات المتحدة ودستورها الجديد

تُخيل لمعظم الناس بما فيهم الملك جورج الثالث وفردريك الثاني ، ولعدد كبير من الاميركيين انفسهم ، ان الاتحاد الذي تألف من هذه الولايات لن يعمر طويلاً ، لما بينها من فوارق واختلافات ، وبما في هذه الجمهورية التي الفوها من عناصر مختلطة وقوى محلة . وبالفعل فقد اخذت هذه الولايات تتصرف فيما بينها كدول مستقلة ، سيدة والفوضى فيها ضاربة اطنابها .

وبدعوة من مجلس الكونغرس ، راحت الولايات الاميركية ، باستثناء كونكتيكت وررود آيلاند ، تنشىء نظمها ومؤسساتها الجمهورية على اساس من المبادىء التي نادى بها العقد الاجتماعي (لروسو) ، والنظريات التي قال بها مونتسكيو وعلم . وقد اتسمت هذه النظم والمؤسسات الروح الديمقراطية بالرغم من قلة عدد سكانها ، في بلاد كانت فيها الملكية العقارية هي التي ولي صاحبها ، حق الاقتراع ، وهذا مطلب يسير ، سهل التحقيق ، كما برهنت عن سماحة وتساهل ظاهر في علاقاتها مع الكاثوليك . واذ كانت الهيئات التمثيلية توجس خيفة من طغيان السلطة الفردية ، فقد سيجت حولها بسلطات مطلقة . فالحكام الذين ينتخبون بالاقتراع العام يتمتعون بسلطة تنفيذية محدودة . ومثل هذا الوضع ، كان معقولاً ومقبولاً يوم كان هؤلاء الحكام ممثلين للملك وراثي ، تتمثل في شخصه وتتجسم المصالح العامة في الدولة ، ويتمتع بالتالي ، بنفوذ عظيم ، اما ما هو من الغرابة بمكان ، ان يكون هؤلاء الحكام هم ممثلو الشعب . فقد ادى النظام الذي قام على هذه المجالس والهيئات الى نتائج وخيمة ، بحيث ان سلطة الحكام اخذت تزداد وتقوى طوال القرن التاسع عشر .

وراحت هذه الولايات تتباعد عن بعضها البعض حسب منطوق مواد دستور الاتحاد الذي أقرّ بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٧٧٧ ، اذ جعل هذا الدستور ، من هذه الولايات « عصبة من الاصدقاء يعملون في سبيل الدفاع المشترك » ، وفي سبيل « مصلحتها العامة المشتركة » . فقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها التامة واستقلالها . والكونغرس الاميركي ، لم يكن في الواقع سوى مؤتمر من الدبلوماسيين لعدد من السفراء تبعث بهم الولايات ممثلين لها . فلكل ولاية صوت واحد ، والقرارات يجب ان تؤخذ باجماع الأصوات . ويتولى الكونغرس الشؤون الخارجية وكل ما يتعلق بالحرب والبحرية والنقد ، والمكاييل والموازين والبريد . الا انه لم يكن من صلاحياته ، ولا بوسعه ان يتولى النظر او تنظيم النشاط التجاري بين مختلف الولايات ، ولا بين الاتحاد والخارج . فلم يكن للكونغرس اي سبيل او اي وجه للضغط على الولايات المستقلة وارغامها على السير باتجاه معين .

عجز مجالس الكونغرس

فالضعف الذي وجدت حكومة الاتحاد نفسها فيه خلّف الفوضى في جميع مرافق البلاد ، وسبب لها ازمة حادة جعلت في وضع مضطرب ، خَطِر ، مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فقد اقعدتها حاجتها الملحة للمال . فراحت تصدر نقداً ورقاً لا تغطية له ، فهبطت قيمته بسرعة بحيث ان خطر لاحد الحبثاء من المزينين ان يفرش جدران محله بالأوراق المالية الكبيرة. وعبثاً طلب الكونغرس من الولايات الاسهام بالنفقات العامة التي بلغت ٨ ملايين دولار ، عام ١٧٨٢ ، ومليوني دولار فقط عام ١٧٨٣ . الا انه لم يصل من أصل هذه المبالغ الا الى مليون دولار ونصف . وقد هبطت مساهمة الولايات ، عام ١٧٨٥ الى ٣٧٥،٠٠٠ دولار لا غير .

ولذا عَسُرت قضايا تسريح الجيش وتعقدت كثيراً ، اذ راح الضباط يطالبون بمعاش تقاعدي ، وهو طلب لم يكن وضع خزينة الاتحاد يستطيع تحقيقه ، كما انه كان يلاقي معارضة قوية لدى الرأي العام ، الذي وجد في مثل هذا الطلب وتحقيقه ايجاد جسم جديد في الدولة ونوعاً من الارستوقراطية .

واستطاع واشنطون ان ينتزع ، في ٢٢ آذار ١٧٨٣ ، من مجلس الكونغرس سندات على الخزينة بفائد ٦٪ ومعاشاً كاملاً لمدة خمس سنوات . وقبل ان يأخذ الضباط بالتفرق ، اسسوا فيما بينهم ما يعرف ، في التاريخ ، باتحاد سلسنالي ، مع شارة خاصة تعطى للأعضاء هي عبارة عن نسر وشريطة زرقاء . فكان هذا الاتحاد ، الهيئة الوحيدة المعترف بها في كل الولايات . فألف له لجاناً في كل المدن الرئيسية . وقد ساعدت هذه المنظمة كثيراً على تمتين روابط الوحدة ، كما جاهدت كثيراً وسعت الى اقرار الدستور الذي وضع عام ١٧٨٧ .

أما أفراد الجيش ، فلم يتيسر لهم قبض المتأخر من مرتباتهم ، فأعلنت وحدات معسكر نيوزبرغ العصيان ، في أيار ١٧٨٣ ، فاضطر واشنطون لاستعمال كل سلطته ونفوذه ليحملهم على قبول تسريحهم ، بعد دفع مرتب ثلاثة أشهر ، ونثر الوعود المعسولة للمستقبل .

واشتدت الازمة الاقتصادية وأخذت بخناق البلاد ، وهي ازمة تسببت اصلاً عن الخراب الذي زرعته الحرب وويلاتها في البلاد كما نتجت عن نزوح عدد كبير من الموالين للانكليز ، بينهم عدد كبير من التجار ورجال الصناعة الاغنياء ، ناهيك عن الاهمال الذي نزل بالمشروعات العامة وفقدان رؤوس الأموال ، في البلاد ، والنقص الفادح في الانتاج . وزاد في حدة الأزمة وشدتها العجز المالي المقعد الذي تحكم فيه مجلس الكونغرس. فقد أبت عليه الولايات الاعتراف له بأي حق في فرض الرسوم الجمركية حتى ولو كان طابعاً اميرياً لتأمين جانب من واردات الخزينة . وراحت هذه الولايات المتمتعة باستقلالها وسيادتها تشن على بعضها البعض حرباً اقتصادية لا هوادة فيها . فاذا ما خطر لاحداها ان تزيد من رسوم الجمرك في اراضيها ، راحت الأخرى تخفض الرسوم عندها اجتذاباً منها للتجار وخنقاً لحركة الاعمال في الولايات المجاورة . وقد رأت انكلترا في هذا الوضع المجزّأة ، فرصة سانحة لها ، لاغراق البلاد بمصنوعاتها الوطنية ، وبذلك سددت ضربة قاصمة لهذه الصناعات الناشئة التي رأت النور في البلاد إبان حرب الاستقلال. فقد باعت الاميركيين ، سبعة أضعاف ما كانوا يستوردونه من البضائع والسلع المصنوعة في الخارج ، بينها المصنوعات الحديدية على اختلاف حجومها ، والسكاكين والمسامير ومصنوعات الصفيح ،

والأجواخ والمِقادة (تجارة الخردوات) والعقاقير والمواد الطبية . وأخذت الولايات المتحدة تصدّر اليها ، بدورها ، القسم الأكبر من محصول القمح والطحين واللحوم المحليـــة ، والتبغ ، وشيئاً من محصول القطن . ومع ان هذه الولايات كانت مستقلة سياسياً فقد كانت تمول اقتصادياً على انكلترا التي منعت عليها ، مع ذلك ، الاتجار مع جزر البحر الكرايبي او جزر الانتيل ، فان أتوها فمن باب التهريب ليس الا . وقد أبت انكلترا عقد أي معاهدة تجارية معهـــا لعجز مجلس الكونغرس عن إلزام الولايات المتحدة احترام المواثيق والتقيد باحكامها ومندرجاتها. وفي البحر الأبيض المتوسط، كان القراصنة المسلحون ينقضون على السفن الاميركية، لامتناع الانكليز عن حمايتها او الدفاع عنها . وبالرغم من الاسواق التجارية الجديدة التي انفتحت أمام صادراتها ، في كل من فرنسا والبرتغال والصين ظل الميزان التجاري عندها يشكو العجز المرزح .

وكانت رؤوس الأموال تخرج باستمرار من البلاد او تختزن في صناديق أصحابهـــا تحسباً للمستقبل الغامض . فقد عجزت عن تلبية حاجات البلاد ومطلب المرافىء الشرقية ، كما انهـــا كانت شبه مفقودة في اقصى الغرب حيث اقتصرت الحركة التجـارية على المقايضات ، وحيث كانت الرسوم تجبى جلوداً او لحم خنزير مملحاً او شحماً او وسكي . وقد شلت ندورة النقـد حركة البيع والشراء وكل نشاط تجاري ، فخف بالتالي الانتاج . فلا عجب ان ترتفع أصوات المتبرمين والشاكين . وراح كثيرون يطالبون باصدار عملة ورقية ولا سيما بين المزارعين والرواد المستكشفين والقائمين باعمال المضاربات الغارقين في ديونهم لقاء المبالغ التي استلفوها من التجار . وقد بـدا للمدينين ان النقد البنكنوت سيخسر كثيراً من قيمته الاسمية ، وان منتوجاتهـم سترتفع أسعارها وبذلك سيتخلصون بسهولة مما يرزحون تحته من ديون ، فيتاح لهـم شراء الأراضي والاملاك . وهكذا راحت سبع ولايات تصدر لها عملة ورقية .

رفضت ولاية ماستشوستس الاخذ بهذا الاصدار ، فتأسقط بيد الدائنين في وفـــاء ديونهم واستهدفوا لعقوبات السجن . وبالنظر لفقدان السيولة ونقص رؤوس الاموال الفادح ، والمزاحمة الانكليزية الشديدة ، اصبحت الحياة صعبة في البلاد . وتولى ضابـــط قديم في جيش التحرير ، يدعى شايس ، قيادة فرقة من العصاة الخارجين على القانون معظمهم من رجـــال الميليشيا الذين استدانوا على مرتباتهم خلال خدمتهم العَلَم في حرب الاستقلال ، لتـأمين أوَد ذويهم . قُمِعت حركة العصيان هذه بسهولة كلية الا ان الحركة لاقت عطفاً كبيراً من قبل الطبقـــات الشعبية اذ رأوا فيها نذيراً لحرب اهلية تنفجر بين الطبقات الفقيرة والطبقة الغنية . وقد كتب واشنطون الى لي Lee ، اذ ذاك ، قائلاً : « يجب ان تتمتع البلاد بحكومة تضمن حياتنا وحرياتنا ومقتنياتنا والا دهانا ما هو انكى وافظع » . فالثورة التي قامت بقيادة شايس ، اقنعت الجميع بالمحسوس ، بعد ان زرعت الهلع في قلوب الطبقات الثرية ، بوجوب قيـام حكومة قوية ، لتفرض احترام « قدسية الارتباطات المعقودة » وحقوق الملكية . فكان الوضع الذي تردت اليه البلاد من هذه البواعث التي دعت الى وضع دستور جديد لها .

امتنع على مجلس الكونغرس الاميركي ايجاد الحل المرتجى لقضية الغرب الاميركي . لمنذ عام ١٧٦٣ ، وبالرغم من الاوامر والتعليمات الصادرة عن ملك بريطانيا ، وبالرغم من قيام الحرب ، لم يتوقف الرواد قط عن عبور الانهر واجتياز الجبال . وقد اضطرتهم الأزمة التي نشبت بعد حرب الاستقلال الى الانسحاب والانكفاء نحو الشرق . ففي سنة ١٧٧٦ ، رأينا ٢٥،٠٠٠ اسرة اميركية تقيم في وادي الاوهايو ، الى الغرب من ولاية بنسلفانيا بحيث اصبحت بلسبورغ مدينة صغيرة . والرواد كانوا يسرحون في الاودية التي تسير فيها روافد الاوهايو ، امثال كنتاكي والتنسي ويجتازون الاوهايو . وشكل عدد من المضاربين شركات قوية لهم اخذت بشراء الاراضي وبيعها حصصاً . وهكذا تأسست مدن جديدة ، منها مدينة لويزفيل ، عام ١٧٧٤ ، ولكسنغتن وسنسناتي ، عام ١٧٩٠ . وفي هذه السنة بالذات بلغ عدد سكان كنتاكي ٧٨،٠٠٠ نسمة وتنسي ٣٥،٠٠٠ نسمة كما رأينا يقطن مقاطعة الاوهايو التي ستصبح فيما بعد ولاية ، ٢٣٠٤ ، نسمة .

وقد نشأ عن هذا التوسع والتطور صعوبات ومشاكل مع الهنود . فالمعاهدات التي عُقدت عام ١٧٦٨ (فورت-ستانفكس) ، وعام ١٧٨٥ ، حملت البعض منهم على التخلي عن حقوقهم العينية . وقد اضطرت السلطات الاميركية الى شن حرب فعلية عام ١٧٧٤ ، و ١٧٧٦ ضد قبائل تشيروكيز ، وعام ١٧٧٨ ضد قبائل الايروكوا .

ومع ذلك ، فلم تكن هذه الامور اصعب المشكلات وأشقها مما وقف في وجه الحكومة الاميركية ، اذ راحت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وجيورجيا تطالب لنفسها بضم هذه الاراضي التي انتزعت من الهنود ، باعتبارها امتداداً لها ومكملة لحدودها . وقد اعترضت على هذا المطلب كل من ولايات ماسَاشوستس وكونكتيكت وماريلاند التي اوجست شراً من رقعة هذه الولايات الضخمة ، واقترحت على الكونغرس بان يجعل من الغرب اقليماً خاصاً خاضعاً للاتحاد . فاحبط في يد المجلس المنكود الحظ وبقي متردداً لمن من الجانبين يستجيب . فأمام إصرار ماريلاند ووقوفها موقفاً متصلباً من الاعتراف بالدستور ، اضطرت هذه الولايات الراغبة في التوسع ، التنازل ، الواحدة بعد الاخرى ، عن مطالبها ومطامعها . وحوالي عام ١٧٧٨ ، اعتُبر الغرب مقاطعة خاضعة للاتحاد .

وقد أثار الرواد ، من جانبهم ، مشاكل عديدة ، في وجه الكونغرس ، اذ راحوا يسطون على المواشي وينهبون حدائق الكنديين الفرنسيين القاطنين كسكاسكيا وكاهوكيا ، بعد ان راحت إحدى الشركات ، تحاول انتزاع ملكيتهم . وبصعوبة كلية نال الكنديون من الكونغرس الاميركي ضمان حقوقهم في التملك والتعويض اذ ما تخلوا عنها . وقد اخفق مجلس الكونغرس الذي كان بحاجة ملحة للمال والجيش في حمل اسبانيا ، على منح الاميركيين ، حق الملاحة في نهر المسيسبي بعد ان اصبحت ضرورية لهم في عملية تطوير الغرب الاميركي . ولذا راحت اسبانيا تقفل النهر في وجه الاميركيين وتحرض الهنود على الوقوف ضدهم . واذ كان الرواد المستعمرون

لحاجة شديدة للمال ، لقد أخذوا يهددون بالانفصال عن الاتحاد ، كما راح فريق منهم يهدد الآخر ، بالالتحاق باسبانيا .

كل هذه الامور والقضايا كانت مرآة انعكس عليهـــا عجز الكونغرس الاميركي وضرورة تقوية حكومة الاتحـــاد . ولذا راحت ولاية نيويورك ، عام ١٧٨٢ ، وولاية ماساشوستس ، عام ١٧٨٥ ، تقترحان تعديل الدستور . وفي سنة ١٧٨٦ ، انتخبت الولايات مجلساً تأسيسياً ضم ٥٥ مندوباً ، اجتمع في ٢٥ ايار ١٧٨٧ ، برئاسة جورج واشنطون ، وأقر الدستور الجديد الذي صدر عام ١٧٨٧ ، هذا الدستور الذي تسير عليه الولايات المتحدة اليوم .

دستور عام ١٧٨٧

انشأ هذا الدستور الجديد عدداً من النظم والمؤسسات الجديدة التي « تعمل في سبيل الدفاع المشترك » ، ومن اجل « تأمين الازدهار العام » البلاد ، وتحقيقاً لهذه الاهداف ، فقد الغى سيادة الولايات واستقلالها المطلق ، واعلن قيام أمة اميركية واحدة تتشكل من الولايات وتكون فيه مجرد اعضاء باسم : « نحن شعب الولايات المتحدة » . ويجري العمل بهذا الدستور ويُعمل بموجبه ، عندمـــا تقره تسع ولايات من اصل ثلاث عشر ولاية . فلم يعد اذاً للولايات من سيادة مطلقة ، وعلى الاقلية ان تتبع الاكثرية ، وبذلك اعترفت بسلطة بشرية اعلى من سلطتها وسيادتها الفردية .

استوحى واضعو هذا الدستور المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وعلّم . وقد اخذ بمبـــدأ الفصل بين السلطات تفادياً للحكم الاستبدادي المطلق ، وتجنباً لهذه الفوضى التي تفضي بالبلاد الى الضعف والوهن وتؤول بالتالي الى وقوعها تحت سيطرة الاجنبي . وقام بموجب الدستور الجديد حكومة قوية باعتمادها النظام الرئاسي في الحكم ، تحت حكم رئيس ينتخب لمدة اربع سنوات من قبل المجلسين ، وينفذ باسمها القانون . ينتخب اعضاؤهما المواطنون لغرض واحد هو انتخاب الرئيس . فالرئيس يمثـــل ، إذاً ، الشعب الاميركي ، ويكتسب بهذه الصفة ، سلطة ادبية عظيمة ونفوذاً كبيراً . فالرئيس ليس مسؤولاً امام المجلس ، وهو يختار وزراءه ، كما يشاء ويرغب ، ويصرفهم عندما يستحسن . ولا يمكن لأي من المجلسين ان يرغمهم على الاستقالة ، اذا ما حجب عنهم الثقة .فليس هنالك من نظام نيابي بالمعنى الحصري. فباستطاعة الرئيس ان يتابع مدة ولايته التي تمتـــد اربع سنوات ، السياسة العامة التي رسم خطوطها الكبرى عندما تم انتخابه شريطة ان يصادق المجلسان على الموازنة العامة .

ويضطلع الرئيس كذلك بجانب من السلطة التشريعية .فالقوانين لا تكتسب الصفة الالزامية الا اذا اكتسبت مصادقته النهائية . فاذا ما رفض الموافقة عليها وأبى إقرارها ، كان باستطاعة الكونغرس ان يتجاوزها شريطة أن ينال مشروع القانون في كل من المجلسين ، اكثرية ثلثـــي الأصوات ،وهي اكثرية من الصعب توفرها .لا يحق الرئيس ان يقترح هو نفسه مشاريع القوانين، ولكن بوصفه رئيساً للدولة ويمثل مصلحة البلاد باجمعها،بامكانه ان يقدم اقتراحاته في رسائل عامة

يوجهها الى الكونغرس يعرض فيها الوضع العام في الاتحاد كما يستعرض قضايا الساعة ومشكلاتها وموقف الاتحاد منها .

وينوب عن الرئيس ، نائب الرئيس الذي يجري انتخابه مع انتخاب الرئيس ويقوم باعباء الرئاسة ومهامها عندما يستحيل على الرئيس القيام بها .

ويؤمن الدستور مراقبة المواطنين في معالجتهم القضايا العامة الـتي تهم الشعب الاميركي . السلطة التشريعية بيد مجلسين : مجلس النواب الذي ينتخب ممثلي الشعب فيه الناخبون في كل ولاية ، من الذين تتوفر لهم المؤهلات القانونية فتوليهم حـق الاقتراع والاشتراك بعمليات الانتخاب لاكثر هـذين المجلسين اعضـاء . وتنتخب كل ولاية من الممثلين لهـا عدداً من النواب يتناسب مع عدد سكان الولاية .فالولاية التي تضم ارقـاء ، البيض وحدهم حق الاقتراع . وفي عملية تقدير عـدد ممثلي الولاية في المجالس ، يعتبر الارقاء ثلاثة اخماس عددهم . فالبيض في الولايات الجنوبية هم اكثر تمثيلاً من البيض في الولايات الشمالية ، ينتخب اعضاء المجلس لـسنتين فقط. وهكذا بإمكان الناخب ان يراقب ممثليه ويحاسبهم على اعمالهم اثناء ولايتهم .

هنالك خطر على الولايات القليلة السكان ، هـذه الولايات بالذات التي تألفت منهم انكلترا الجديدة ، بأن تهدر مصالحها الولايات الكبيرة المكتظة بالسكان . ولذا كان لا بـد من مجلس ثان للنظر في القوانين الـتي مرت على المجلس الاول وقد يكون اقرها في ساعة من الهوى او الغرض ولذا قام مجلس الشيوخ . فلكل ولاية شيخان يمثلانها ، مهما كان عدد سكانها . ويقوم بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ المجالس التشريعية القائمة في الولاية. وينتخب الشيوخ لست سنوات ،يتجدد انتخاب ثلث الأعضاء كل سنتين، وذلك تفادياً للتغييرات المفاجئة التي يمكن ان تقوم بهاالاكثرية تحت تأثير حوادث عاطفية .

القوانين المقترح اصدارها يجب ان يصادق عليهـا كل من المجلسين . يمكن تقديم مشروع القانون المقترح لهذا المجلس او لذاك ، على السواء ، باستثناء قانون الموازنة العامة الذي يجب ان يصوت عليه مجلس النواب في الدرجة الاولى ، وذلك لتأمين مراقبة المواطنين لنفقات الدولة ، وبالتالي مراقبتهم لأعمال الحكومة واجراءاتها .

يشارك مجلس الشيوخ ببعض السلطة التنفيذية . فعلى الرئيس ان ينال موافقة مجلس الشيوخ على تعيين بعض كبار الموظفين في الدولة . فما من معاهدة يوقعهـا الرئيس مع الدول الاجنبية تكتسب الصفة القطعية ، ما لم يقرها مجلس الشيوخ . كذلك يمارس هـذا المجلس جانباً من السلطة القضائية ، اذ يتحول الى مجلس أعلى ليقاضي الأشخاص الذين يوجه اليهم مجلس النواب تهماً معينة . وهكذا اتخذت الاحتياطات الضرورية لتفادي اي انقلاب يمكن للرئيس ان يقوم بـه .

ولكن المجلسين ليسـا مطلقي التصرف في إقرار ما يرغبان في إقراره من القوانين . فالأقلية

قد تستهدف الضغط من قبل الأكثرية . ففوق القوانين يوجد الدستور الذي بموجبه يصدر ما يصدر من الشرائع والقوانين . وفوق القوانين التي يضعها البشر والدساتير التي تقرها الأمم ، هنالك شرائع طبيعية ركزها الله في الانسان وأولته حقوقاً مقدسة لا يمكن نسخها او انتزاعها منه : كالحرية وحق التملك او الحيازة . فكل قانون يخالف الدستور او يتنافى وحقوق الانسان الطبيعية ، باطل هو وساقط ، لا يُعمل به . فالمحكمة العليا مكلفة النظر والحكم فيما اذا كانت القوانين مطابقة لروح الدستور ولحقوق الانسان الطبيعية . هنا تقوم وظيفته الأولى. وهذه المحكمة تنظر وتقطع في القضايا الناشبة بين المواطنين والادارة ، وفي المشكلات التي قد تنشب بين الولاية والأخرى . فهي تتحرك للعمل بناء لطلب يتقدم به احد المواطنين او احدى ولايات الاتحاد . وهذه المحكمة تتألف من سبعة قضاة يعينهم رئيس البلاد مدى الحياة، تأميناً لما يتمتعون به من استقلال تام في اقضيتهم .

الجماعات عرضة للتغير والتبدل على مر الزمن وكر السنين . والدساتير التي يجب ان تحافظ على المبادىء العامة ، يجب ان تكون قابلة التكيف وفقاً للظروف المستحدثة . فالدستور اذاً ، هو قابل التكامل ، ويمكن بالتالي إدخال تعديلات عليه . تعديل الدستور يجب ان يتقدم بمشروعه ثلثا عدد الولايات . والتعديل يصبح جزءاً مكملاً للدستور اذا ما اقرته ثلاثة أرباع الولايات في الاتحاد ، من قبل هيآت خاصة تنتخب لهذه الغاية .

وقد رؤي اتخاذ اجراءات خارجية عن الدستور لتوسيع احكامه على الغرب الاميركي . فقد سبق واتخذ عام ١٧٨٥ ، قراراً باجراء عملية مسح للمنطقة الشمالية الغربية ، نص في بعض مواده على بيع الفدان الواحد من الارض بالمزاد العلني ، على الا يقل السعر الادنى عن دولار واحد للفدان ، يدفع نقداً . بوشر بعملية المسح عام ١٧٨٦ . والقرار الذي صدر في تموز ١٧٨٧ حول المنطقة الشمالية الغربية ، جعل من هذه المنطقة اوضاً تابعة للاتحاد ، وعين لها حاكماً وثلاثة قضاة ، واوصى بقسمتها الى عدة اقضية متميزة . فكل قضاء منها بلغ عدد السكان فيه ٥٠٠٠ من الذكور البالغين ، تمتع بحاكم عام يعينه مجلس الكونغرس ، وقام فيه مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس آخر ينتخبه الكونغرس من بين قائمة من المرشحين يعدها مجلس النواب . وعندما يبلغ عدد سكان القضاء ٦٠٠٠٠ من الافراد الاحرار، يمكن له ان يصبح ولاية جديدة فيضع لنفسه دستوراً خاصاً ويرسل ممثلين عنه الى الكونغرس ، وينعم بكل الامتيازات التي تنعم بها الولايات الاخرى على قدم المساواة التامة معها . وهذا القرار اصبح الدعامة او الوثيقة الاولى التي قام على اساسها التطور المعظم الذي اخذ الغرب باسبابه .

وفي سنة ١٧٨٨ صادقت اكثرية الولايات على الدستور المعدل وبذلك اصبح نافذ المفعول . وقد ادخلت عليه ، فيما بعد ، عشرة تعديلات ، صُوِّق عليها في حينه واقرت وشكلت نوعاً من اعلان حقوق الانسان ، فهي تضمن الحرية الفردية ، وحرية الصحافة وتحظر على الكونغرس

تحديد دين الدولة . واذ ذاك تم انتخاب جورج واشنطون رئيساً بالاجماع واخذ بممارسة صلاحياته كرئيس اعلى للبلاد ، في ٤ اذار ١٧٨٩ .

كان على الدستور ان يؤمن بالضرورة ، وعلى الوجه الاكمل ، السلطة للبلاد ، والحرية لافراد الشعب وان يساعد على نمو الاتحاد وتأمين ازدهار الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة واوروبا

لما كان الدستور الاميركي اول دستور محرر او مكتوب تضعه دولة كبيرة قام على المبادىء العقلانية ، وتشبع ، اسوة بوثيقة اعلان الاستقلال ، من مبادىء وافكار « الفلاسفة » الفرنسيين ، ولا سيا من المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وغيره ، فقد اصبح ، كإعلان الاستقلال نفسه ، مصدر وحي وإلهام للدول الاوروبية المستنيرة . فالولايات المتحدة الاميركية التي تدين لاوروبا بوجودها وطريقة تفكيرها وسياستها ، والتي تلقت منها الفن يوم كان هودون يرفع فوق كابيتول رتشموند ، تمثال جورج واشنطون على شاكلة تمثال لويس الرابع عشر برفم ديجاردين ، كما ان الكابيتول جاء نسخة عن النزل المربع في مدينة نيم ، كما كان اونيل سَلَّمَ ‹‹ملهماً›› لبُناة البيت الابيض ‹فرساي الجديدة› ، والمباني التي قامت في واشنطون عاصمة الاتحاد الجديدة ، في هذا الوقت بالذات انتقل طراز غبريل المهندس الى بوسطن ، وقد ساهمت الولايات المتحدة بمحاصيلها وتجارتها في اعداد هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وصلت الى اوروبا عن طريق الاتصالات الدولية ، وراحت تقدم لها ، اليوم ، مثلاً يحتذى ، لاكمال حركة التطور ، عن طريق نقل الثورة اليها .

كان الاوروبيون يتتبعون بشوق وحرارة اخبار اميركا ، وقلوبهم تخفق لكل خبر من اخبار صراعها . وعندما بلغ مدينة ألستور خبر نيل اميركا استقلالها ، وكان مرفأ المدينة يعج بالسفن من جميع الدول ، وقد ارتفعت الاعلام ابتهاجاً وأخذ البحارة يهتفون هتافات الفرح والغبطة ... وقد راح ابي يثير فينا الشعور بالحرية السياسية ، فجمعنا حول المائدة وشربنا مع ضيوفنا نخب الجمهورية الجديدة ... » واستولى على الجميع ، في أوروبا رغبة شديدة دفعت الناس الى احتذاء حذو اميركا والنسج على منوالها ، اوروبا هذه المتعبة ، المهتاجة ضد حكوماتها والتي اخضعها جميع البرمين ، المستائين ، اينما وجدوا : في بروسيا والمتلكات النمسارية ، وفي هولندا واسوج ، وجنيف ، ينظمون المظاهرات الصاخبة . ولم يبلغ الحماس في مكان ما من اوروبا ، مابلغه في فرنسا . وهذه الثورة الهادرة التي كانت وشيكة الانفجار ، في كل مكان ، قامت بها اوروبا لان ما تبقى فيها من مخلفات الاجيال الوسطى ، كان قريب الزوال لانه بدا للناس شيئاً لا يطاق . وقد عرفت فرنسا وهي اكثر حكومة مركزية في اوروبا ، وفيها أكبر طبقة مهيضة الجناح من النبلاء ، مؤسساتها الثانوية أشدّ ، عبودية . فكانت اكثر الدول تجانساً وأكثرها تماسكاً . وقد بدت فيها الثورة ضرورة ملحة ، كما بدت وسائل النهوض بها سهلة التناول الغاية . ولم تكن فرنسا لتقنع بأن يقتصر العمل الثوري عليها وحدها . فستحاول ان تجعل من حقوق الانسان ، انجيل البشرية الجديد ، كما تجعل من ثورتها اداة لتحرير الشعوب ، وصليبية ، تأخذ على نفسها انقاذ الشعوب والامم وتأمين سعادة البشر .

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر
أمام الثورة

من اقل الامور احتمالاً وتوقعاً ان يرسخ في الارض المحتوى او المفهوم الثوري كنظام يعمل به . وهذا المجتمع الذي قام في العهد الملكي القديم والذي طوحت السنوات السبعون الاخيرة بالجانب الاكبر من اوضاعه المادية والروحية ، اصبح الآن مهلهلاً نخراً ولن يبقى منه بعد لأي من الزمن ، سوى الركام والحطام المتناثر . ومثل هذا الوضع تجلّ الجيل الطالع فهماً له على نطاق واسع ، الاسباب الكفيلة بتحقيقه والخروج به الى حيز الوجود .

فعنصر المفاجأة يكمن في اغراض الثورة واهدافها اكثر منه في العمل الثوري نفسه . وهو يتمثل على الاخص ، في ما اتخذت الثورة لها من نهج او صراط سارت عليه ، وما استعانت به من وسائل للخروج بالنهج الذي رسمت الى الفعل الحيز . فمدينة السعادة والحُبّ التي ارتفعت قبابها تحت كنف الكائن الاسمى ، اثارت بين المواطنين مشاعر واحاسيس كثيرة الى جانب الارتياح الذي جاشت به نفوسهم في بدء الامر . فقد افتقرت الحركة لرضى الطبقة التي جُردت من امتيازاتها : وهو تجلٍ من تجالي المشكلة ، التي لم يفطن لها بالقدر اللازم ، القرن الثامن عشر الذي استرسل كثيراً وراء التفاؤل . فالبورجوازية والارستوقراطية اللتان تمثلان معاً عوامل الدفع والاستمرار ، ستنتصبان الواحدة في وجه الاخرى ، وتأخذان ، لمدة ربع قرن ، في صراع عنيف مرير لم تعرف البشرية ، خلال تاريخها المديد ، اعنف منه صراعاً واقسى . فالاتجاه نحو السعادة الشاملة لم يعتم ان افضى الى تصادم عام ، الى حروب طاحنة قامت على جبهتين : داخلية ثم خارجية ، الى حياة لحمتها القلق وسداها الاضطرابات . وعندما راح المارشال الامير شوارزنبرغ يتكلم في الوقت الذي كان فيه هذا الصراع يلفظ انفاسه الاخيرة ، باسم الردة الاوروبية على الثورة ، اخذ يصف « السنوات العشرين التي الفت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطرابات والويلات ، فاذا « بالعالم يرى وهو مشدوه كيف تتجدد في عصر الانوار ، المصائب والنكبات ذاتها التي تضرست بها الاجيال الوسطى » .

هذا العالم « المشدوه » كان قد عاش بالفعل واختبر ، بعد ان تنازعه عاملاً الإثارة والهلع ، ثورة اجتماعية لاهبة عارمة ، كما شاهد ارتكاساتها وردود فعلها العامة .

الثورة الفرنسيّة والدعائم النابوليونية

الفصل الأول

قوى الثـورة

١ - القوى الطبيعية

في هذه المدينة ، مدينة القرن الثامن عشر ، التي لا نعرف عن اوضاع الحياة فيها اليـوم ، شيئاً يذكر تهيأت اسباب الثورة وتمت حضانتها . وبواسطة هذه المدينة امكن القيام بالثورة والانقلاب الجذري الذي يعنيه . وهذه المدينة التي كانت المجلس الاجتماعي للتماظل التركيب والتي يمكن ان تحيي او ان تموت لكثرة ما قام فيها من حدثان وما شهدت من امور جسام والتي كان طابعها الاساسي بورجوازياً على درجات متفاوتة ، مهما كان اصلها او جاءت نشأتها ، تبدو ، هنا ، مركزاً للاعمال تعيش في بعض اقسامها على الاقل ، من حياة البلاد الاقتصادية ، تزدهر بازدهارها وتركد بركودها او تخفت بخفوتها ، كما تبدو ، هنالك ، مركز جذب واستقطاب لرجال المال والاعمال في مجالات الصناعة والتجارة والفن وتأثيرهم المباشر على الطبقات او الفئـات الاجتماعية القريبة منها او المتصلة بها ، ولا سيما على طبقة البروليتارية التي عاشت دوماً على اتصال مباشر برب العمل وصاحبه : مدن وقصبات وبورجوازيون ، هذا هو العنصر التاريخي المقسر الذي يبرز هنا اكثر منه في اي زمن من الازمنة التاريخية .

١ - المدن

الدفع الديموغرافي
ارتفاع عام في الاسعار

اخذ الدفع البورجوازي يحتدم ويشتد في الجيلين الاخيرين . فالنخبة القديمة بين الطبقات الشعبية اخذت تزداد غنىً وتنمو ثراءً ، وعـدداً وتتعاظم نفوذاً وشأناً ، فعرفت اعمالها ومشروعاتها النجاح والاقبال ولاقت الازدهار . فبين الربـع الثـــاني والاخير من القرن الثامن عشر ارتفع الانتاج الصناعي

الى الضعفين ، ومردود التجارة ، في الداخل والخارج ، ولربما ازداد ثلاثة اضعافه ، كما ان التجارة مع المستعمرات ازداد نشاطها خمسة اضعاف فليس من هبوط في قيمة النقد يلفت اليه النظر . فأرقـــام المعاملات التجارية ترتفع باستمرار بصورة طبيعية دون اي ظاهرة تضخم . فالتوطيد المالي الذي تم سنة ١٧٢٦ ، وضع حداً نهائياً لتقلبات الليرة وتأرجحها ، اذ حافظت على وزنها حتى عهـد « فرنك بوانكاريه » ، كما حافظت على قوتها الشرائية حتى عام ١٩١٤ ، باستثناء الفترة القصيرة التي طلعت علينا فيها سكة الـ *Assignats* . فبالرغم من استمرار وحدة العملة ، اخذ معدل الربح دوماً بالارتفاع . والبورجوازيون من جميـع الألوان والاوضاع عرفوا ان يجمعوا ثروات هائلة بأسرع ما يمكن وباخصر الطرق . وهذا الوضع لا يعني قط ان العرق او الجنس الفرنسي تغير او تبدل . وهذه الطبقة البورجوازية الناصبة ، المتصدة ، الحذرة ، التي قامت في القرن الثامن عشر ، والتي تجلت فيهـا أرسخ الفضائل والاخلاق العائلية والمنزلية ، هي هي بالذات الطبقة التي عرفنا وتبيناها من قبل ، في الأجيال الماضية . لا شك في ان بعض صورها وأوضاعها العليا تبدي لنا بعض التأخر من حيث الفطنة والأخلاقية ، الا ان الاعمـال عندما ازدهرت تحت تأثـير عاملين مهمين . فالتضخم الديموغرافي لم يُحدث اي ارتفاع في سعر النقد الورقي وأرباح النقد الورقي . فالتضخم الذي سجل في عدد السكان ، وفي ازدياد المعادن الثمينة ، ترك اثره البعيد في ترسيخ النقد « الذهب » والربح « الذهب » .

ان تضاعف عدد السكان المفاجىء الذي نما ، نلاحظه جيداً في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، جعل نمو السكان في المملكة بمعدل تراوح بين ٣٠–٤٠٪ . فمن ابرز الامور في هذه الظاهرة الاجتماعية ، هـذا الفارق بين الحركة الديموغرافية الساكنة ، في عهد الملك لويس الرابع عشر ، والحركة الديموغرافية الثورية في عهد العاملين اللذين تعاقبا على الملك بعده . وهذا لا يعني ان حركة المواليد زادت وارتفعت ، بل ان معدل الوفيات نقص او انخفض ، ولا سيما معدل الوفيات بين الطبقات الشعبية ، خلال هذه الازمات التي نصفها « بالدورية » . فلم يقع شيء من هـــذه الازمات التي تتصف « بالمجاعة » ، هذه «المجاعات» الاجتماعية التي هي اكثر تعقيداً مما تبدو في الظاهر ، والتي كثيراً ما صحبها انهيارات ديموغرافية ، تحتـاج الى نصف جيل للتعويض عن خسارتها . فالأزمة « المميتة » حل محلها ازمة « عرضيـة » او خفيفة هذه الأزمة التي تغضّ عن الحياة والتي تنوع مشكلاتها عن طريق ازدياد السكان وتكاثرهم .

وهذا الارتفاع في عدد السكان الناجم عن الثورة التي ألمّت بمستوى الوفيات ، كان من شأنه ان يحدث ضغطاً على أسعار الحاجيات الزراعية ، في بلد لم يعد ليأمل ان يرى على ارضـه عمليات إحياء زراعي واسعة تزيد من دخـله كثيراً ، وحيث تقنية المواصلات تقصر استيراد المواد الغذائية ، على النزر النزير منهـا . فبين عدم قابلية توسع الاراضي الزراعية ، في البلاد ، وهو شيء معروف من قبل ، وبين حركة تزايد السكان المفاجىء يقوم تناقض «ملتوس» ، فأخذ ملتوس منه عبرة له وعظة . فقد بدا من الضرورة الملحة رفع معدل الانتاج في البلاد بكلفة

اكبر ، عن طريق استثمار احسن وأكفأ لهذه الاراضي التي يصعب استثمارها . وهكذا تأخذ بالارتفاع ، منذ مطلع الثلث الثاني من القرن كأنها حلقات ممسك بعضها باطراف البعض الآخر ، اسعار كل المواد الغذائية التي تسيطر على الاسواق التجارية ، اذ ذاك ، ولا سيما ، المحاصيل الزراعية التي تتعلق بغذاء الانسان وقوته وبالخامات الاساسية . ومن جهة اخرى ، هذه الزيادة في معدل السكان تفيد منها المدينة اكثر مما يفيد منها الريف. صحيح ان طابع الأمة الاساسي يبقى زراعياً، غير ان المدن تتضخم بنسبة اكبر ولا سيما تلك التي يتمركز فيها الاقتصاد القائم على الرأسمال الذي كان مثاراً للنشاط التجاري ، هذه المدن التي كان يترتب عليها ان تؤمن اسباب السكن والكساء للمتدفقين عليها والنازحين اليها باستمرار ، طلباً للرزق ، فكان ذلك باعثاً على رواج الصناعتين الاساسيتين المسيطرتين ، اذ ذاك البناء والنسيج . ان ازدياد عدد السكان وتوزيعهم الجديد كان سبباً مباشراً في ارتفاع الاسعار ، وفي ايجاد مجالات ومرافق جديدة للتجارة .

وبعد التضخم في السكان ، جاء التضخم في « الذهب » ، وبعبارة اخرى ، في المعادن الثمينة ، حاملاً معه النتائج ذاتها التي حملها معه العنصر الاول ، على انساب واقدار ، ليس من السهل تحديدها وتوضيحها . فالقرن الثامن عشر درّ على اوروبا ، من الفضة والذهب اكثر بكثير مما دره عليها اكتشاف اميركا . وقد حدث اذ ذاك ، كما حدث في القرن السادس عشر ، وكما سيحدث مرات عديدة بعد ذلك ، خلال القرن التاسع عشر ، ان توفرت للناس وسائل اوسع وامكانات اكبر للدفع أيسرها طرأ المعادن الثمينة ، بعد ان اكثرت الدول من ضربها سكة وطرحها في التداول ، فتسبب عن ذلك ارتفاعات ثابتة في معدل الاسعار . وهكذا ظهرت في الاسواق وبرزت المجالات التجارية التي اتسع نطاقها ، الاسعار بعملة الذهب . وبعبارة اخرى زادت كثيراً تحت التأثير المزدوج لارتفاع سعر الوحدة وازدياد حجم البضاعة المبيعة ، حركة الاعمال والاشغال بين المتعهدين البورجوازيين وتجاوزت حركة الاعمال والاشغال كثيراً النسب التي رسمنا من قبل ، صورة لها ، ولا سيما الارباح التي كانت عوامل كثيرة تحدد منها اليوم ، كما في الماضي سعر الكلفة ، وخصوصاً معدل الفائدة والاجر ، فارتفعت بمعدل اقل من معدل ارتفاع الاسعار .

وهكذا ازدادت ثراءً وغنى ، الطبقة البورجوازية الناشطة ، على مختلف اشكالها ، من بورجوازية المال والاعمال والصناعة ، العليا الى البورجوازية الوسطى والبورجوازية الدنيا التي تسيطر على التجارة بالمفرق وعلى النشاطات الصناعية القريبة منها . وبالرغم من النقابات التي لم تكن توجد في كل مكان ، كانت المخازن والاشغال من جميع المقاييس تتكاثر في المدن النامية . وحدث ولا حرج ، عن صناعة البناء والصنائع الأخرى التي تنبت على جوانبها. فلقد كانت اكثر النشاطات التي تستفيد من حركة التجدد في المدن . وهذه البورجوازية المتعددة الوجوه والمظاهر ، لم تزدد غنى فحسب بل ازدادت كماً وقدراً ايضاً .

وعلى هذا قس ايضاً ثقافة الجماهير التي ازدادت هي الاخرى تنوعاً وغنىً ساعد كثيراً على

تطورها . فقد ازداد الاقبال على المواد الفكرية والعقلية بعـــد أن اصبحت من موارد الرزق وكونت مردوداً طيباً استهوى الناس فأقبلوا عليه . فالرأي العام الضيق ، الذي تمثـل قديماً في رأي « مدينة » القرن الـسابع عشر ازداد انفتاحاً واتساعاً وضخامة بحيث ارتـــدى مقاييس وطنية . فذراري هذه الطبقة الآخذة بالتكاثر والنماء ، سواءً أ كانوا من طبقتها العليا أم الوسطى أخذوا يؤمّون الجامعة وينخرطون في صفوفها ، سيان لديهم أأحسنوا اللاتينية أم جهلوهـــا . وهذا الضرب الجديد من البورجوازية الذي أخذ بالانتشار والشيوع والصقل ، يوماً بعد يوم ، اصبح منصرفاً فكرياً وتربة خصبة تُنبت المؤلفين كما اصبحت زبوناً كبيراً لم يلبث ان فرض رغـائبه المضمرة وهواياته المستبدة. فهي ، بعكس التعـاليم الكنسية التي تتجه من الحياة الابدية ، تسعى وراء السعادة القريبة المنال ، والدانية القطوف ، السعادة المـــادية ، الواقعية « البورجوازية » . فالقضايا التي يثيرهـــا كتابها ومفكروها والنقاد والمتشائمون المنادون بالشرور وعظائم الامور ، تمثل مشكلات تكمن بالقوة ، امام الطبقة الطالعة ، مشكلات سياسية تُعنى بالدرجة الاولى ، بإعادة توزيع السلطة هذا التوزيع الذي لا يمكن أن يتم مبدئيـاً ، ولو بصورة جزئية الا لمصلحة الطبقة البورجوازية . فالسلطان في تعبير العصر ، لم يعد ليعني الملـك فقط أو الأمير الحاكم، بل«الجسم السياسي»، والمشكلات الاقتصادية اخذت هي الاخرى تعني تحرير الاقتصاد، وهي عملية تعود بالخير الكبير على البورجوازية نفسها. وهذا التحرر للاقتصاد، هل ارتفعت الاحداث، بالمطالبة به عالياً ، قبل القرن الثامن عشر ؟ لا شك في ذلك قط ، انما بصورة اضعف بكثير لعمري وأخف وبين وسط أضيق . والجديد في الأمر هو أن هنالك الآن تياراً قوياً وان شئت فقل مدرسة، تسند بكل قواها مثل هذا المطلب، في كثير من التضامن والتعاضد ، بعد أن غمر تيار اقتصادي عارم ، فرنسا وكل دول القارة باجمعها ، بشكل معين أو بآخر ، وعلى أثر هـذا التطور الذي طبع الافكار السياسية التي قالت بها هذه المدرسة ، والذي سيبقى الطابع المميز . والمطالبة بحرية الاقتصاد تتطور شيئاً فشيئاً وتتسع على شكل حساب التوجيه « الاستبدادي » الذي ميز مطلع القرن .

اهداف البورجوازية « المستيرة » والعوائق التي تحول دون تقدمها

في وسع البعض ان يحاجوا ، ولا شك ، الفردية الاقتصادية باسم العـــدالة البشرية ، ولكن ليس باسم الفعالية . فحركة الاثراء الشاملة أو العامة ، ألم تكن آخذة بالاتساع والانتشار منـذ أكثر من خمسين سنة – أليس بفضل الارتفاع المستمر للاسعار بالعملة الذهب ومـــا يؤمنه من أرباح؟ – لا، ليس هذا. فقد اشتطت في الجواب، بل قل بفضل ارباب العمل لعمري، ولا شك ! لا لزوم لاكثر من « ترك الامور تجري في أعنتها » ، ويتم كل شيء على ما يرام . على هذا النحو كان يفكر رجال العصر. وكيف لا تكون البورجوازية على ما يجب ان تكون عليه من التوعية واليقظة ، بعد ان اصبحت اكثر غنى وثراء ، واكثر عدداً ونصراء ، وأكثر وعياً وعلمـــاً وتضامناً ، واكثر اتصالاً من أي وقت مضى في المدن ؟ وكيف لا يتم لهـــا من عمق الشعور

والتنبه ما لم يُعطه من قبل بوصفها هيئة متميزة ومثلوها الاماثل على خير ما يكونون من الوعي والشعور والتحسس بهذا كله. ومثل هذا الشعور أخذ بالامتداد والانتشار بفضل المقاومة والصمود ؟ فالعدوة القديمة للبورجوازية طبقة النبلاء هذه تعمل دوماً على إقامة الصعوبات وإثارة العراقيل في وجهها وتقف كالمعتاد عقبة كؤود ، لحد ان لم تضد من هـذا الصمود او التطور الاجتماعي الذي اخذت البورجوازية باسبابه ، وهذه العراقيل التي عانت منها طويلاً ستكون يوماً سبباً للاحتكاك ، فتجعل الحويصلة الصفراء تنشط ابداً للعمل وإفراز المزيد من الاحقاد والمرائر بين الطرفين .

ويتفاقم خطر هذه العقبة فجأة . فمنذ ان انقضى عهد الملك العظيم وغاب ذكره عن الاذهان ليس ما يصدم الخواطر مثل الفارق القائم بين تطور البورجوازية المـادي والروحي من جهة وبين تقهقرها المدني من جهة أخرى . فشأنها آخذ دوماً بالازدياد والتعاظم في الامور الحياتيـة أو المعاشية ، بينا لا حيثية لها ولا شأن في الدولة . فاستمتاعها المستمر براسم التأثيـل لا يثير مشكلة . فالقضية الاساسية المطروحة على بساط البحث تتعلق بصميم النَّسَب ومعدل الاقدار ومدى المجالات المفتوحة امامها . فابواب الوظائف العليا موصدة تقريباً في وجهها ، وكذلك أيضاً ابواب القضاء . فنبلاء المحتـد بنزاتهم المميزة الذين يملأون باحات البرلمان وبطانات الملوك والامراء ، يؤخذون من بين صفوف ابنـاء طبقة الاشراف السفلى . وطبقة النبـلاء الوسطى اصبحت مع الزمن ، هي الاخرى ، وراثية . كذلك أوصدت امامها ابواب طبقة الاكليروس العليا . اما في الجيش فالوضع بالنسبة اليهم اصبح افجع وأوقع فالارتكاسات والحركات الرجعية التي ألفنا وقوعها لم تلبث ان اصبحت وضعاً كرسه القانون . فقد حظر على ابناء البورجوازية ، منذ عام ١٧٨١ ، مباشرة الخدمة العسكرية ، برتبة ضابط . ويتحتم على طالب هذه الوظيفة من ابناء البورجوازية ان يثبت بالدليل القاطع ، حصوله على اربع شهادات تأثيل لـكي يحق له ممارسة هذه الوظيفة دون ان يخضع للخدمة العسكرية الفعلية . وعبثاً اعتبرت حرة ومفتوحة امام الجميع المراكز العسكرية التقنية . وهكذا اصبح السلك العسكري مقفلاً الابواب امـام النشيء الطالـع من ابناء البورجوازية ، في وقت توفرت فيه الفرص وزخرف العرض البورجوازي كما تضخمت فيه واستفحلت الطبقة البورجوازية نفسها .

وهل في بقاء الوظائف الوسطى والسفلى وقفاً على البورجوازية ما يشفي غليل هذه الطبقة ويخلق فيها شيئاً من القناعة والرضى ؟ فحدوث بعض استثناءات حرية بالذكر والتنويه يؤكـد بوضوح التمييز المدني الذين راحت البورجوازية فريسة له . وهذا التمييـز المدني شمل كل ما يتعلق بالارض والمواريث . فقام بون كبير في الحقوق التي تنتظم الاطيان والاملاك والعقارات الخاصة بالنبلاء ، وحقوق الارتفاق المفروضة على الاطيان والاملاك والعقارات العائدة للبورجوازيين ، حتى ان بعض احكام هذا الارتفاق اصبحت مع الوقت عبئاً ثقيلاً وحملاً لا يطاق . قد يكون في استطاعة أي انسان ان يبتاع أي اقطاع يرغب في اقتنائه . فـاذا كان الشاري من طبقة الشعب

والمماليك حمّلته عملية الشراء رسوماً وعوائد خاصة لا تطال الشاري النبيل . فهل يشتري هذا البورجوازي غالياً ، راضياً مرضياً ، ما يمكن ان يصبح معه سيداً أو ربّاً ؟ فالعقار العائد لنبيل يبقى استثناءً او شذوذاً ، كما يستدل على ذلك من ريع الاقطاع الحر . « فالاقطاعية » الفخرية وما تبقى من أثر الاقطاعية السياسية التي تعود بربح اكبر ، يزيد في تباين هذه الفوارق الاجتماعية العنصرية أو الطبقية .

فالبورجوازية عام ١٧٨٨ هي اشبه ما تكون بنبوذ اجتماعي .

فما ان تدق ساعة الاصطدام بطبقة النبلاء حتى تسرع البورجوازية، الى افراغ جام حقدها ، كما نرى ذلك في تصرف كروزيه -لاتوش أحد النواب العامين واحد نوابهم الاماثل ، الذي يأخذ، قبل ١٤ تموز (يوليو) ، بشجب هذا «الصلف المكابر» و «هذه الادعاءات البغيضة المتطرفة»، و « هذا السيل العارم من المشاحنات المتعالية ، والمشاكسات الصارخة ،وهذا الفيض من الاهانات وهذه الخيانات المتمثلة على اتمها ، في الطبقة العدوة » .

اما الملك فيبدو متضامناً مع طبقة النبلاء . فهذه الحركة الرجعية التي بدرت من النبلاء ، انما قامت برضاه وبالاتفاق معه ، ولهذه البورجوازية اكثر من سبب لتنقم على الحكومة ولسلقها بألسنة حداد . فالوضع المالي الذي تتخبط به البلاد فرصة سانحة للإيقاع بها . فهي تتوق من كل مشاعرها الى ان ترى في البلاد ادارة مالية ، منتظمة بعد ان كثر بين ابنائها عدد مُقرضي الحكومة وحملة الاسهم المالية ذات الاستحقاق القريب الاجل. فهي ترغب صادقة ، بالاتفاق مع طبقة النبلاء ، بفرض رقابة شديدة عليها ، كما انها ترغب ، من جهة أخرى ، في مراقبة السياسة الاقتصادية في البلاد ، تفادياً « لازمات وضربات » مؤلمة ، كهذه المعاهدة الفرنسية الانكليزية التي عقدتها عام ١٧٨٦ . وهذا يستدعي بالطبع وصول بعض من يمثلها ، للمراكز الحساسة العليا لتحمل المسؤوليات .

والروح التي هبت على العصر أوحت لها بمطالب أخرى أهم واكبر ، لا سيما بعد الدرس البليغ الذي تلقته من الجانب الاميركي . فهي ترمي في الواقع، يحدوها الى ذلك شعور يتراوح بين الشدة والضعف ، الى قيام مجتمع لا يعرف الطبقات ، مجتمع لا يكون أقل تهديداً وزعزعة لنبلاء العهد البائد من تهديم مجتمع لاطبقي للنبلاء ، هذا المجتمع الذي سيطلع فيما بعد .

ولمواجهة هذه التغييرات الجذرية التي ترتسم معالمها العيان في الأفق ، كان باستطاعة البورجوازية ان تعتمد على قوى أخرى هي غير القوى التي لها . فاجتذابها الطبقة الطالعة ، تضمن لها اوساطاً أخرى وفئات جديدة . فبالرغم من تعارض صريح احياناً بين المصالح، وهو تعارض يخفف من حدته أو يذهب بها كلياً كثير من التوافق ، نرى البروليتارية تشد بنواجذها على الايديولوجيا التي تقول بها . كذلك هنالك فريق من النبلاء المتحررين وعدد كبير من الكهنة ورجال الدين الذين تتألف منهم طبقة الاكليروس .

البروليتارية ومن هم في منتصف الطريق منها

والاختلاف بين البورجوازية وبين البروليتارية لا يقل قدماً وحدة عما قام من جهة أخرى من اختلافات بين البورجوازية والارستوقراطية . ففي أي نظام اجتماعي اساسه الاستئثار يحاولون عبثاً ، عن طريق الاستثناء والاغتصاب والروح النقابية ، الوصول الى تحديد نسبة معينة بين قيمة الاجر الذي يأخذه العامل وبين ازدياد دخل البورجوازي . فقد هبطت كثيراً القوة الشرائية للنقد في هذا القرن . ولذا بـدا البون فاضحاً بين ارتفاع دخل البورجوازي وبين هبوط أجرة العامل . فالخصومة الطبيعية القائمة بين الجانبين كان لا بد لها من ان تزداد حدة ، وهذا ما حدث بالفعل كما يبدو في الواقـع ، ولكن ليس الى درجة يضؤل معها ما نرى من اختلافات وخصومات اخرى لا تقل قدماً وحيوية ونشاطـاً عن حدة هـــذه الخصومة التي قامت بين العامل الذي يؤخذ عادة من بين فلاحي المدن ، وبين الارستوقراطي ، هذا الملاك العقاري الكبير المسيطر كليـاً أو جزئياً ، مباشرة أو بالواسطة ، على الجانب الاكبر من الخامات المعدة للمبادلات التجارية كالحبوب وبين هذا البورجوازي الذي يتمتع خاصة لجهة الرسوم المعمول بها محلياً والمفروضة مباشرة او غير مباشرة ، بالمحـاصيل الغذائية التي لا يستغنى عنها .

ومما يلفت النظر في الوضع الاقتصادي السائد اذ ذاك ، ما هو عليه منحنى الاجر من ثقل وسلبية اذا مـــا قارناه بتكاليف الحياة . ففي حِرف عديدة يستثنى منها الصناعة الضخمة ولا سيما هذه الفئة الرأسمالية التي تمول صناعة النسيج ، بقي معدل كلفة الحياة يحافظ لسنين عديدة ، على ما له من طابع المشابة او المقاولة المقطوعة . فالعنصر المتقلب او العنصر الحاسم في الامـر الذي يتمثل ، قبل كل شيء ، في الارتفاع او الهبوط الناجم عن ضواغط الموازنـــة او سهولة توازنها ، هو ارتفاع او انخفاض سعر اهم المواد الغذائية التي يعول عليها الشعب في معايشه ، ولا سيما الحبوب ، او الخبز الذي يبلغ ثمنه ، نصف معـــدل دخل الاسرة في السنة ، بارت مواسمها او طابت . فالبروليتارية تبدو اذ ذاك حريصة جداً على تأمين مصالحها كعنصر مستهلك . ففي حالة حيف يصيبها او ينزل بها ، نراهـا تفرغ جام غضبها على الارستوقراطي او على المحتكر الجشع . وكثيراً ما اضطرب النظام الاجتماعي واختل امنه من جـــراء حدوث ثورات او انتفاضات كان الباعث اليها انعدام المواد الغذائية . وقد قبل المصيبة توحد بين هذه الانتفاضات التي عبرت فيها عن نقمتها وغضبها . فاذا ما طالبوا باستمرار الرسوم على المواد الغذائية ، فالمطالبة بالحد الادنى من الاجور او « التعرفة » ، تبقى من الامور الاستثنائية ، وليست البروليتارية بحصر المعنى هي التي تقوم بالمطالبة ، بل طبقة اصحاب الحرف والمهن المرتبطين بالبروليتارية ، هذه الطبقة التي سيدور الحديث حولها ، بعد حين . علينا ان نضيف هنا ان هذا الارتفاع الملحوظ لاسعار الخبز الذي يتفاوت كثيراً مع معدل ارتفاع اجر العـــامل ، يردّه كثيرون الى تصرفات ممثلي السلطات العاملة كموظفين لبلديات ووكلاء الموظفين والمفتشين والمراقبين ، هذا ان لم يكونوا كلهم على تواطؤ مباشر مع « المحتكر » والعمال وارباب العمل الضالعين جميعاً في مثل هذه الاستغلالات .

وما عسانا ان نصف به هـذا البون الشاسع الذي نلاحظ وجوده بين البروليتارية العاملة في المصانع في عهدنا هذا وبين بروليتارية القرن الثامن عشر، في المدن. وسنتكلم، فيما بعد عن بروليتارية الريف، هذه البروليتارية التي لا تزال مشتتة و «مستكينة» في مـا تحالف عليها من وضع زري. فقد توزعت على اكثر من نصف مليون معمل او متجر. وكثيراً مـا كانت بمثابة تكملة عدد في الوضع العائلي، تعمل في خدمـة رب العمل القديم محسوبة على التابع نفسه، كثيراً ما تسكن معه تحت سقف واحـد وتأكل على مائدته. فهل يعقل الا تخضع لنفوذه وسيطرته؟ وباعتبارها عاملاً تابعاً او ثائراً، فهي تقـع تحت تأثير المجال الاقتصادي والفكري البورجوازي، فان ثارت او تمردت فخدمة منها الغير، ومع ذلك فدورهـا يبقى رئيسياً.

فاليد العاملة في الصناعة في المدن الكبرى والتي تؤلف وحدة مركزة نكرة حيث العامـل يعيش، على نسبة كبيرة، عيش الهيئات العمالية في عصرنا هذا، هي ميالة بطبيعتها للاستقلال والشعارات العمالية. وعلى هذه قس ايضاً هـذه الفئة التي تتناول، في المدن، اجرها من التاجر الرأسمالي بشكل ما او بآخر يكون الشغيل في صناعـة نسيـج الحرير خير نمـوذج لها. فالعامل فيها يعمل في منسجه او منزله ـ وغالباً ما يكون الاول ضمن الثاني – بعيـداً عن مراقبة التاجر، فهو يكاري بدوره عمالاً ليعملوا معه، ويصبح قانونياً من هذه الناحية، رب عمل. ولما كان امره مقصوراً على اشغـال تقنية فهو يبقى تحت رحمة طلبات التاجر المسيطر على وسائل التنفيق والتصريف والتسويق والتوزيع. فهو، من حيث الشكل رئيس ورشة. اما من الوجهة الاقتصادية، فهو لا يخرج عن كونه أجـيراً، همه الأول ومطلبه الاكبر تأمين «تعرفة» للحد الأدنى كما سبق ونوهنا بذلك من قبل. فهو أجير عامل، يحلب على صاحب رأس المال وجع الرأس. انه لعمري في مستوى افضل من الأجير البسيط وباستطاعته ان يناقش بحرية تامة شروط اتفاقية العمل. فهو في وضع احسن وأفضل، ولديه امكانات اكبر. وكثيراً مـا يكون مسكنه في حارات او في مساكن شعبية آهلة بأمثاله من العمال والشغيلة. وهكذا يقـوم بينه وبين رفاقه زمالة السكن اذا ما فاتته زمالة العمل المشترك. وهنالك وسيلة اخرى تساعده على العمل التعاوني المشترك: هي النقابة او الرابطة العمالية؛ اذ ان هؤلاء العمال هم بالفعل أرباب عمل. وهذه الرابطة لن يلبث الوضع الاجتماعي ان يجعل منها نقابة نصف عمالية. وهكذا يخوض عمالصناعة الحرير مثلاً، الحرب على جبهتين: فيندفعون بكل قواهم يناضلون ضد طبقة النبلاء أسوة بالقرى والدساكر العمالية القائمة على ارباض المدن وفي ضواحيها. فهؤلاء واولئك هم، على الاجمال، «متملـّتون» متشبعون من افكار ونظريات متقاربة بعضها من البعض الآخر، الا ان يكونوا واقعين تحت تأثير رب العمل مباشرة او انهم لا يزالون في هذه المناطق والاقاليم التي وقعت فريسة التطرف الديني والتعصب المذهبي، خاضعين لهذه النظريات والدعوات الدينية المتعصبة التي اقامت الكاثوليك ضد البورجوازية والبروتستانتية المتحكمة باليد العاملة.

المدينة تلف في وجه امتيازات النبلاء

وهكذا قامت في وجه طبقة النبلاء ونصرائها في الادارات العامة مشاعر المدينة المعادية التي تنبض بالنفرة والعداء. فطبقة النبلاء ليست سوى أقلية ضئيلة لا يؤبه لها من الوجهة العددية بين مجموع السكان في المدن، حيث تمثل أقل من ٢٪ من الشعب الفرنسي ، هذه الطبقة التي راحت تطالب عالياً باجراء تحقيق دقيق شامل بين أصحاب الرتب والمراتب لتحديد الاصيل منها والدخيل الطارىء ، والتي جدت في وضع صلب لا ينثني ، وذلك في وقت اخذت فيه البورجوازية تنمو وتتسع ويشتد منها الساعد . ومع ذلك ، فهي تسيطر على جانب كبير من مالية البلاد يتمثل على اتمه في رؤوس الأموال المشتركة المستثمرة في ما يقع في حيازتها من الاطيان والعقارات والصناعات القائمة في البلد الام او في الممتلكات الواقعة عبر البحار او في الحركة التجارية بين المستعمرات ، كالمناجم وصناعة التعدين والاستثمارات الزراعية الاخرى حيث يعمل وينصب ألوف مؤلفة من العبيد والارقاء المستوردين من الجزر . فالتجارة الكبرى هي مجالها الافضل . وتؤلف الملكية العقارية عندهـا العنصر الاساسي الذي تنهض عليه وتقوم به . فهي تملك ربع مساحة البلاد برمتها ، كما انها تسيطر على القسم الاكبر من الاحاذات . كل هذا يمثل ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الدخل السيادي ، اكثر من ثلث مداخيل البلاد القابلة للتبادل والاتجار ، وثلث المحاصيل الغذائيـة الضرورية لمعيشة الانسان مما ينفق في الاسواق المحلية .وهب ان عدلتها مساحة الاملاك التابعة للبورجوازية فهذه الاملاك تتوزع على بضعة ملايين من الافراد ، عُرفت أسراتهم بضخامة إنفاقها الماثل على المواد المعيشية . فالرأسمالية العقارية وطبقة الاشراف ، واقطاعية النبلاء هما شيء واحد في نظر العامة ويؤلفان في نظر علماء الاقتصاد ، العنصر الاساسي الذي تقوم عليه « الطبقة المالكة » .

من الطبيعي ، وايم الحق ، ان تتفرع طبقة النبلاء وتتشعب كما تشعبت طبقة البورجوازية والبروليتارية الى عدد كبير من الفئات الاجتماعية . فهؤلاء واولئك هم في طليعة المستفيدين من ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، وقد ارتفعت، خلال هذا القرن، قيمة محاصيل الاطيان والاملاك الزراعية . ولا بد لنا من ان نذكر هنا الثورة الاجتماعية الجذرية المتمثلة بوفرة اليد العاملة بفضل تناقص حركة الوفيات ، وبفضل ارتفاع الاجور ارتفاعاً يكاد لا يذكر ، ومزاحمة الملتزمين والمتعهدين . فهبطت بالتالي كلفة الانتاج مفسحة المجال ، لفائض اضافي جاء يردف انتاج الارض وفائض الغلال . وبالنتيجة، ففي الوقت الذي راحت فيه اسعار الغلال الزراعية ترتفع من ٥٠ — ٦٠٪ ارتفع بالتالي معدل التزام الاراضي . وكذلك ارتفع ريع الاراضي السيادية : كارتفاع الاسعار وزيادة خفيفة في مساحة الاراضي الزراعية،ونشطت الرجعية السيادية التي راحت تبعث حية عوائد ورسوماً عفا عليها الدهر وتناساها الزمن. كل هذه العوامل مجتمعة تضافرت معاً وفعلت فعلها. ان جمهرة صغار الملاكين، والمتعهدين الملتزمين والمرابعين تحملت وحدها وطأة هذا التوزيع الجديد للدخل ، بعد ان لم يعد احد يجهل التأثير العميق لهذا كله على الفلاحين . وقد اخذت هذه الجمهرة تشكو مريراً مما أحاق بها من حيف ومما نزل بها من ضعف ذات اليد، بينما راحت تُلزي

قبضة من أصحاب الاقطاعات صبت عليها الجماهير الشعبية غضبها وافرغت دونها مرارة حقدها.

وفي الوقت الذي راحت فيه هذه الطبقة المتنعمة بمثل هذه الامتيازات المريضة والاعفاءات الضافية والتي ترفل بمثل هذا الوفر الطائل وتستمتع بمرتباتها الضخمة ، راح البورجوازيون ومن لف لفّهم من الاتباع يصبون عليها مراوة حقدهم . ان سلم الوظائف العامـة في الدولة رحب وواسع . فبين الموظف الصغير من الفئة والسفلى والاداوي الكبير ، مـن الفرق ما يزيـد ٥٠ واحياناً ٦٠ ضعفـاً . ومثل هـذا الفارق الكبير بين أفراد هذا المجتمع الاقتصادي ، ما يصدم ويذهل ويترك اثره العميق في قرارة النفس . والمهم في هذا كله وفوق هذا كله هو ان يخضع الجميع شرعاً او عرفاً ، لمبدأ مثالي واحد .فعلماء الاقتصاد انفسهم يرون هذا الرأي. فهم لا يسلمون الا بفرض ضريبة واحدة موحدة تصيب، على السواء، نسبة كبيرة من أفراد الشعب، ضريبة واحدة تفرض على ريع الارض وعلى عقود الايجـارات والالتزامات وعلى الصافي من محاصيل الارض على اساس المعدل الفردي والمعدل العام للمجموع. فأصحاب الاعفاءات وأصحاب طبقة الاشراف يتمتعون بامتيازات تعفى معها محاصيلهم من الضرائب والرسوم ، وهي رسوم وضرائب عبثاً يدور حولها ويحاول التعرض لها الجباة المكلفون لتحصيل ضريبة الواحـد من العشرين . وبالرغم من حركة الثروات التي عكسها جيداً علماء الاقتصاد اذ ذاك ونظرياتهـم حول الضريبة ، فالريع العقاري المركز المسيطر بين ايدي النبلاء ، ينعم الى حـد بعيد بحق الاعفاء الضرائبي . والمواد التي تخضع في الدرجة الاولى لاضريبة تتجمع وتحتشد في نطاق يتمتع بالاعفاء من الضرائب. فقد اصرّت طبقة النبلاء ونجحت في اصرارها ، على المحافظة على موقفها المكابر ، هذا الموقف الذي ستضطر مرغمة التخلي عنه مبدئياً ، ولكن ليس بصورة مطلقـة عامة ، في اللحظات الأخيرة التي كان النظام القديم فيها يلفظ أنفاسه .

يجب ان نستخلص من هذه المظاهر الأولية التي لا تفضي بالمراقب الى شيء واضح ، بانهـا تعبير صريح عن تطور عام غير المعقول وسطا على الافكار . فالقول بظهور او قيـام طبقة من النبلاء الاحرار او المتحررين ، والاعتقاد بان هذه الطبقة اخذت ترتاب بوجودها وتشك بقدرتها على البقاء وتتمنى بالتالي طلوع عهد جديد ، ليس سوى اسطورة او مظهـر خارجي غرّار . هنالك ولا شك نبلاء متحررون كانوا مخلصين لنظريتهم وتفكيرهم المتحـر ر يتمثلون على خير وجه في هذه الفئة التي طلعت علينا في شخصيات ديفبّون وكستلان وليانكور وغـيرهم من قدامى المحاربين الذين اشتركوا بحرب التحرير في اميركا امثال لا فاييت ونواي والاخوة لامث الثلاثة . فالاكثرية الساحقة من ممثلي هذه الطبقة بقيت على موقفها المتصلب المعروف لا تحيد عنه قيد أنملة.فبدلاًمن انتهزها ثورة فكرية تقدمية ،فهي في حركة رجعية تحاول معها زيادة امتيازاتها، جارة وراءها الدولة ،تتطلع للاستئثار بالسلطة السياسية في البلاد، عن طريق البرلمان وعن طريق توسيع قاعدة تمثيل الولايات التي تم لها ولطبقة الاكليروس ، السيطرة عليها . فهي حريصة كل الحرص على ان تحافظ على حقوقها الاقطاعية : الاقتصادية منها والشرفية ،بعد ان رأت فيهـا ممتلكات او مقتنيات لا تختلف بشيء عن الاملاك الاخرى التي تمت لها، يؤيدها الملك في مطالبها

الملحقة ويشد من ازرها - فهي ترفض المساواة امام القانون كما ترفض التسليم بقانون العدد او الاكثرية . وسنرى جيداً ، في حزيران ١٧٨٩ ، خلال المناقشات التي دارت مع ممثلي هذه الطبقة ، وفي الاحاديث الخاصة من يقول : « هل تنظر الى قائد الجيش نظرتك الى احد أفراد الجند ؟ » . مثل هذا الكلام هو على لسان وفي قلب كل نبيل على الاطلاق .

قوة الكنيسة

تؤلف الكنيسة من جهتها ركناً قوياً من أركان النظام الاجتماعي في العهد البائد في فرنسا . وهذا التأكيد لا يعني قط ان الاكليروس كان يؤلف كتلة واحدة متراصة ، مع العلم ان مصالح مادية واحدة وروابط روحية واحدة كانت تشد اعضاء هذه الطبقة التي تخضع لنظام مسلسل آمر .

يعول اعضاء هذه الطبقة في معايشهم على غلال الاراضي ومحاصيلها . فالاوضاع التي تتمتع بها هذه الطبقة التي تعمل على السواء في المدينة والريف ، من الوجهة العقارية ، هي اقرب الى الكمال . فتحت تصرفها في المدن اوقاف غنية من المباني والممتلكات الاخرى تؤمن لها دخلاً طيباً يقوم معظمه على الانتاج الزراعي . وقد تبلغ نسبة الاوقاف العائدة للكنيسة ١٠٪ من مساحة الارض في فرنسا . ويجبي الاكليروس العُشر من غلال الارض وتمثل هذه النسبة ١/١٣ من المحصول الخام للارض بما فيه البذار . وبالاضافة الى ذلك فالاقطاعات السيادية التي يملكها الاكليروس هنا وهنالك ، في جميع انحاء البلاد تؤمن له حقوقاً سيادية بالمعنى الحصري . فكمية الحبوب التي تحت تصرفه - وهي كمية بامكانه ان يبيعها مباشرة او بواسطة المتعهدين او المزارعين العاملين في خدمة الاراضي الوقفية ، تمثل جانباً كبيراً من المحصول الزراعي القابل للتبادل والاتجار . فاذا ما اضفنا الى هذا كله الربع العائد لطبقة النبلاء ، ألّف المجموع الجانب الاكبر من المحصول الزراعي في البلاد .

وهكذا يبدو الاكليروس بفضل النظام الذي يتمتع به من كبار اصحاب الاملاك السيادية والعقارية . وقد زادت مداخيله بنسبة الزيادة التي اصابت مداخيل طبقة النبلاء ، وقد كانت لهذه الاعتبارات سبباً من أسباب الاحتكاك الطبقي والاجتماعي . صحيح ان الكنيسة كانت ، تتحمل مصارفات عديدة ناجمة عن الاحتفال بالطقوس الدينية واعمال البر والمؤاساة والتصدق التي كانت تقوم بها ونفقات التعليم في جميع انحاء البلاد ، كما كان عليها ان تؤمن للاسقف عيشاً كريماً ، هذا الاسقف الذي لم يكن ليؤتى به من صفوف الشعب بل من بين ابناء طبقة النبلاء الصميمين . وعلى هذا ايضاً قس رؤساء ورئيسات الرهبانيات والاديار والكهنة القانونيين في الكنائس الكبرى ، وعدداً كبيراً من النواب الاسقفيين في كراسي الابرشيات الشهيرة البعيدة الصيت . فليس من حاجة بعد لاستمطار نعمة الروح القدس وبركته لاختيار اصحاب هذه المراكز الدينية الكبيرة .والكاتب الهجّاء الذي يستشهد بكلامه الاب«له فلون»يضيف قائلاً : «تكفي وساطة السيد دووزيه» .ويتصرف اصحاب المراكز العليا من رجال الاكليروس وهم على

الغالب من ابناء الأسر النبيلة العليا ، بريع هال من دخل املاكهم يزيد احياناً على ١٠٠ الف ليرة اي ما يزيد ٢٤٠ ضعفاً على مرتب النائب الاسقفي ، كما يزيد ٤٠٠ مرة على الاقل ، على اعلى اجر يدفع للعامل في المدينة ، عن يوم واحد . والاعفاءات التي يتمتع بها الاكليروس تتناول هذا الدخل اكثر مما تتناول دخل النبلاء . فالاكليروس معفى قانوناً من ضريبة ١/٢٠ ، وهو يرفض بعناد واصرار البحث او المناقشة حول هذا الموضوع . فبعض الاستثناءات من الكهنة يجب الا تخدعنا . فامثال الكهنة شمبيون دي سيسه ، ولافرانك دي بومبنيان هم من هذه الشواذات القليلة التي خرجت عن خط الاكليروس الذي يؤلف ، في مجموعه مع النبلاء ، كتلة واحدة متراصة . فكلهم على اختلاف شديد مع فلاسفة العصر وتأليههم للانسان . فالاسقف ، بما تم له من انتخاب وشرف المحتد والحسب والنسب ومما له من افكار ومبادىء ونظريات، هو على طرفي نقيض مع البورجوازي ومع صعاليك الشعب في تمسكه بمصالحه الدنيوية والامتيازات التي ينعم بها . « فتجريده » من هذه الامتيازات عملية وطنية في الصميم .

وقد يكون هذا هو ايضاً رأي الطبقة السفلى او الوضيعة من رجال الاكليروس،هذا الفريق الذي يختلف نشأة ومعتداً وأصلاًوفصلاً واختياراً عما تمّ من هذا كله للاسقف.ولذا فالتفاهم بينه وبين ابن البورجوازية ليس بصعب قط ويسهل تحقيقه من وجوه عديدة .ولكن ما العمل وامامه عراقيل وصعوبات كثيرة روحية ومادية تحد من حريته . فالسلطة الكنسية لن تلبث ان تحطم المخالفين او الناشزين عن الخط ، فتنزل بهم صواعق القطع والحرم والبَسْل . رجل ما تستطيع الطبقة السفلى من الاكليروس صنعه هنا ، بالاكثر ، مسايرة الدفع الثوري والوقوف الى جانب الرأي العام المحلي . فلن يكون في مجموعه رفيق طريق يُؤمَن جانبه ، وأقل من ذلك، قوة في يد الثورة وسيسهم احياناً ، ولا سيما في الارياف ، في مد الحركة الرجعية ضد التيار الثوري بالأطر التي هي بحاجة اليها .

٢ – الارياف

الفلاحون الملاكون

قد يكون تبادر الى ذهن بعضهم ان جمهور الفلاحين المستثمرين لاملاكهم هم الذين استفادوا ، بالاكثر، باستثناء الذين افادوا من ارتفاع اسعار الضمان ومن ردة الفعل السيادية ، من ارتفاع عدد السكان وتضخم النقد الذهبي الذي تسبب في ارتفاع اسعار المواد الزراعية . فلكي يستفيد الانسان من حركة ارتفاع الاسعار يفرض فيه ان يكون لديه ما يبيعه . فالفلاح الذي له من محصول ارضه وغلال املاكه ما يستطيع معه ان يعيش وان يبيع هو من الندرة بمكان .

فليس اكثر ، مع ذلك ، من الفلاحين الملاكين . فكثرتهم توهم وتغرّر . فهم يملكون ٤٠٪ من مساحة الارض الزراعية . فممتلكاتهم عبارة عن قطع من الارض مساحتها بضعة درامٍ او قراريط من املاك القرية ، فهي هنا : منزلٌ ومعه حديقة صغيرة او كرم عنب او كرم زيتون

او ارض تزرع جنبلاً او حشيشة الدينار ، مما يرد ذكره او بيانه كثيراً في السجلات العقارية او في قوائم توزيع ضريبة الخراج . فنصيب الفرد الواحد من هذه الاملاك قسماً ضئيلاً قلما يسد أوَد العيش في الاسرة . فالغلال قليلة المحصول . ان ثلث الارض او ما هو اكثر من ذلك بقليل يبقى محولاً (بوراً) ، كما ان البذار يمثل نسبياً ، قسماً كبيراً من محصول الارض يوازي احياناً الخمس او الربع . فاذا ما قطعنا او طرحنا ١٠٪ منه لضريبة العشر والضريبة السيادية ، فلم يبق منه ما يقوم بأود افراد الاسرة ، وهي عادة كبيرة لتفي بحاجة الارض الى اليد العاملة . وهذه الاسرة الكبيرة التي يعمل معظم أفرادها في الارض تستهلك مقادير كبيرة من الخبز . فما اكبر عدد الاسر التي يمد أفرادها أيديهم مستعطفين ، أيام الشدة وفي مواسم القحط ، وما اكثر عدد الاسر التي يظهر اسمها في سجلات العائلات المستورة التي تعاني الامرين لضيق ذات يدها ، هذه السجلات التي نظمتها الثورة ! ان ردود فعل الريف الكثيرة امام الغلاء ، وامام قحط المواسم الزراعية ، هي من مميزات هذا العصر . فلا عجب ان ترتفع الاصوات منادية بالويل والثبور وعظائم الامور ، ويكثر الهرج والمرج في هذه المجتمعات الريفية وسرعان ما تتضخم صفوف المحتجين والمتظاهرين بمن ينضم اليهم من سكان الدساكر في السهل والجبل .

ومع ذلك ، هنالك بعض اعيان القرية يتصرفون بفائض من الغلال ويتجرون به . وليس من عجب قط ان يرتفع عددهم وان تتضخم صفوفهم فيؤلفون من بينهم بورجوازية زراعية . هنالك فئات متنوعة من الفلاحين الملاكين الموزعة املاكهم يعتمد اصحابها نهجاً اقتصادياً في عمليات المقايضات والمبادلات التجارية عرفوا ان يفيدوا جيداً من ارتفاع الاسعار ، ولا سيما فئة ملاكي الكروم الذين ألـفوا من بينهم طبقة كان لها اثرها البعيد في حياة الريف . وقد عاش هؤلاء واولئك ، مع ذلك ، اياماً شداداً وذكريات مريرة ، كما سيمر معنا بعد حين ، في هذه الحقبة الممتدة من ١٧٧٠ – ١٧٨٠ . الا انهم عرفوا على العموم ، ان يفيدوا الى حد بعيد من الظروف المؤاتية .

اما الفئات الاخرى التي تؤلف جمهرة الفلاحين الملاكين ، فقد تضرس اصحابها بمآسي هذه الحقبة العصيبة . صحيح ان ما لهم من الارضين اتاح لهم ان يصلحوا من شؤون معايشهم بعض الشيء فتفادوا على انساب واقدار مقسومة ، مغبة غلاء المعيشة بعد ان استحكمت حلقاتها برقاب العباد . الا انهم اضطروا ليؤجروا زنودهم واوقاتهم ليؤمنوا ما يحتاجون اليه من المواد الغذائية . فكم من ملاك صغير رقيق الحال ، عمل في الاوقات الصعبة ، خادماً او سائق عربة ، او بناءاً وعماراً او حائكاً لقاء النزر النزير من اجر مجبول بعرق الجبين او بدمعة العين ؟ فوضعه المادي ليس بسر نجهله . فقد كبا به الدهر وهوى . فاسعار الحاجيات اغلى بكثير من الاجر الذي يُصرَّد له ، والبطالة في الريف بدلاً من ان تخف وطأتها تزداد شدة وسوءاً . فقد راح فريسة تفاعل عاملين بارزين : تكاثر عدد الناس وضآلة غلال الارض وشح نتاجها . ومن جهة اخرى ، فان تناقص معدل الوفيات بين الاطفال ولا سيما بين اوساط الفلاحين زاد تكاليف

الاسرة واحبط قدرتها على الانفــاق لتأمين اود الايدي العاطلة او القاصرة عن العمل ، فكان هذا وجه جديد من وجوه المجتمع المتخبط بالجديد من الازمات والمشاغل الضاغطة . فالتطور الاقتصادي خلال هذا القرن عاد على الفلاح الملاك باسوأ العواقب بدلاً من ان يعود عليه باليمن والرفاه ، بعد ان اضعف في الاسرة القوة الشرائية كما زاد كثيراً من عدد افرادها .

متعهدون ومرابعون

فما عسى ان يكون لعمري ، في حــالة تضخم سعر النقد الذهبي ، وضع هذا المتعهد او الملتزم ؟ بالطبع عليه ان يبيع ليتمكن من دفع ما سيستحق عليه للمؤجر . نحن هنا امام فئة من الناس حالفها الحظ بعد ان جاء ارتفــاع الاسعار يسير في ركابها ويحسن لها الرفد فيخدمها اطيب الخدمات . هذا هو بالذات وضع كبار المتعهدين الذين جاءت حركة المركزية الجديدة تضاعف من صفوفهم . سيحاول ارباب المــال ومستثمرو رؤوس الاموال ان يوسعوا من نطاق عمليات الالتزام التي يقومون بها بحيث يلتزم الواحد منهم جباية العُشر والرسوم السيادية . فارتفاع الاجور بقي دون ارتفاع الاسعار بمراحل وهذا ما وفر مجالات جديدة امــام هؤلاء المتعهدين الذين يكترون الاجراء في بعض المواسم الخاصة الى جانب ما يتوفر للاسرة من يد عاملة . اضف الى هذا كله التطور التقني البطيء الذي كثيراً ما ساعد على تحسين قيمة املاكهم وغلالها . استطاع هذا الفريق من الناس ان يتدبروا امرهم بالتي هي احسن بالرغم من مضاعفة ايجاراتهم . ولكن الى جانب هذه الاطيان الضخمة كم من القطع الصغيرة ؟ كم هو اذ ذاك ، عدد الملتزمين للاطيان المتجزئة الذين سيحاولون بالطبع اجتذاب الفلاحين الملاكين اصحاب الاملاك المتباعدة او المشلّثة ؟ فقد تأثر هؤلاء جميعاً من جراء ارتفاع اسعار الايجارات دون اي مقابل .

اما المرابع – وهو وضع اكثر انتشاراً وشيوعاً من وضع المتعهد ، فهو في وضع من شأنه ان يدخل الوهم على الانسان . فالمرابع ورب العمل يبدوان ، امام القانون شريكين متضامنين . فقد اقترح سيسموندي في مطلع القرن الطالع ، جعل وضعهما شيئاً يحتذى به . فعلماء الاقتصاد والزراعة في القرن الثامن عشر يتفقون رأياً على ان المستثمر « بالنصف » لا يحيا بالفعل الا نصف حياة . ففي مقدور اقلية ضئيلة جداً ان تبيع ، اذ ان عدم توفر بضاعة صالحة للبيع يفسّر بالطريقة نفسها التي ألمعنا اليها من قبل عندما تكلمنا عن وضع الفلاح المــلاك . فالسواد الاعظم يعمل ضمن اقتصاد مقفل اي انــه يقتصر على الشراء . فسيد الارض يستطيع ، على عكس ذلك ، ان يبيع بسهولة لا سيما وفي مقدوره ان يختزن وان يجمع جزءاً من غلال الارض التي يملكها .

فهل في وسع المرابع ان يحافظ ، بالمقابل ، اقله على موقفه ؟ هل في مقدوره خلال هذا القرن بكامله ، ان يقتطع من غلة الارض التي هي باستثماره ، جزءاً سوياً ؟ وبالتالي مقداراً متساوياً من المواد الغذائية ؟ وتبقى الحصة بالنسبة للفرد الواحد ، في حال الاخذ بمثل هذا الافتراض ،

عرضة النقص او التناقص لان الثورة الديموغرافية التي اخذت بتلابيب المجتمع زادت كثيراً من عدد افراد الاسرة العاطلين عن العمل او العاجزين عنه ، وهي زيادة لم يلبث المرابع ان شعر بها ووقع تحت وطأتها ، لا سيا وهـــو لا ينعم ، على العموم ، بالبحبوحة وبسطة العيش . فالوضع هنا لا يختلف بشيء عن وضع جمهرة الفلاحين الملاكين ، وهذه الفئات الشعبية البائسة يؤلف بينها تناقص معدل الوفيات ظاهرة اجتماعية شعر بها على الاخص كل من هم في مثل هذا الوضع فجاء عاملاً اضافياً ساعد على هبوط مستوى العيش في الاسرة .

فاذا ما تعادلت الامور كان لا بد من ريع المرابع ان يميل بالتالي الى الهبوط . ولكن هذا التعادل او التساوي لم يكن « في كل شيء » . ففي نظام المرابعة المعمول به ، لا يستطيع المرابع الذي يستلم دخله عيناً ، اي من محصول الارض ، ان يرفع من مقدار هذا الدخل ، طوال القرن، الا في نطاق تسمح به نسبة ارتفاع اسعار الغلال والمحاصيل الزراعية ، اي بمعدل يتراوح بين ٥٠ – ٤٥ ٪ اما نظام الالتزام فارتفاع الاسعار في ظله يبلغ الضعف . فلرب الارض او السيد وسائل كثيرة وذرائع عديدة لتحسين اوضاعه . في مكنته مثلاً ان يخفض من معدل نفقات اعماله الزراعية « بتوحيده » اراضي المرابعة ، كما « وحد » مزارعه الخاصة ، وهي طريقة من شأنها ان تجعل عدداً من المستثمرين بلا عمل . باستطاعته كذلك ان ينهج سياسة عكسية وذلك بتصغير مساحة الارض التي يعطيها مرابعة وتخفيض نسبة دخله من الارض بصورة تدريجيـــة . ومثل هذا التصرف من شأنه ان يزيد من فعالية عمل المزارع اذ يضطره ان يعتني أكثر فأكثر بزراعة ارضه وان يتقن استثمار ما تحت تصرفه من الاراضي الزراعية بعد ان نقصت مساحتها، كما يضطره ، من جهة اخرى ، لمضاعفة الاعمال والخدمات . وفي مكنة صاحب الارض ان يرفع معدل الحصة المفروضة على المرابع وان يعدل من قيمة الرسوم والعوائد العقارية وان يزيد من ايام السخرة وان يفرض علاوة نقدية على الحصة التي يتقاضاها عيناً، فيقبضها عداً ونقداً تحت ستار ريع مرابعة او ضريبة استثمار ، كما يجري عادة في عمليات الاستصهاد . فلديه من الوسائل ما يمكنه من الاخذ بهذا كله دون ان يثير اي سبب للمشاحنات بينه وبين الفلاح المرابع ، بطريقة شيطانية ، هي طريقة الالتزام العام التي تساعده ، بايسر الطرق واسهلها على ان يساوي بين اسعار الارض المستثمرة مرابعة وبين الاراضي المعطاة بالالتزام. وبذلك يحافظ ظاهرياً على الاعراف والتقاليد المعمول بها في الزراعة بين سكان الريف في منطقته . وهكذا يبقى نظام المرابعة هـــو النظام المتبع . فالملتزم العام الذي يلتزم غلال عدد كبير من القطع الزراعية ، يدفع للملاك رسوم استثمار ترتفع سنة بعد سنة يعود فيحصلها اضعافاً من المرابع الذي يرتبط به مبـــاشرة . فمن المفيد ان نقرأ بتمعن وتدبر هذه الصورة الوصفية المليئة بالعبر المستخرجة من سجلات الضرائب التابع لإيالة «بورج» .

« يجري الملتزمون إلتزاماتهم بالسر الذي يجدده اصحاب الاراضي . من هو لمن يري ، كبش المحرقة في عمليـــة استغلال كهذه ؟ هو بالطبع المزارع او المرابع . ويأخذ الملتزم فيشرح للمرابع كيف انه ، التزم الارض بسعـــر

مرتفع جداً وان عليه ان يستثمر دراهمه بحيث تدر عليه ما يجب من الارباح ثم ينهي حديثه معه بقوله : هذه هي شروطي . فان لم تعجبك ، فهنالك من هو على استعداد العمل بها . فيضطر المرابع النزول عند الشروط القاسية المفروضة عليه ، فإن ينصب ان رفض ؟ وعليه ان يؤمن ما يقوم بأود عائلته والاولاد ، هنالك بالطبع متعهدون او ملتزمون يعترفون صراحة انهم ملزمون العمل على إنهاك الفلاح وارزاحه (مأخوذ من ج . لوفيفر في كتابه : « القضايا الزراعية في عهد حقبة الهول ») .

الرأسمال العقاري والمتعهدون

فاذا ما اخذنا باقوال البعض ، فنظام المرابعة بالنصف لا يمتم ان يصبح ، على هذا الشكل نظام مرابعة بالربع .

فالمرابعون والملتزمون كانوا بالطبع على خلاف دائم مع الملاك سيد الارض ، أي مع طبقة الملاكين ، على العموم ، وهو خلاف زادته حدة واذكت أواره حوادث عدم التوازن المتصلة الحلقات خلال القرن الثامن عشر . فمع الريع العقاري الذي يتضاعف والاجر المتناقص الذي يدفع للفلاح البائس ، معارضة صارخة . وهذا التحدي ليس بالعقبة الصغرى التي تواجه صغار البورجوازيين من الملتزمين حتى ولا كبارهم الذين يستطيعون بنسبة تتباين حجماً وقدراً ، الصمود في وجهها . ففي نهاية كل ايجار أو التزام يعمد الملاك دورياً ، عن طريق رفع رسم الالتزام ، الى مصادرة ، كل الربح الإضافي الذي أتاحت له تحقيقه ظروف اقتصادية مؤاتية أو مقدرة الملتزم ونشاطه خلال مدة الالتزام . فالاصطدام « بفئة الملاكين » في الارياف هي من هذه الامور التي لا مناص منها ولا حيدة عنها . هذا التصادم مع الرأسمال العقاري المتمثل على انه في الطبقتين الناعتين بالامتيازات العريضة وصاحبتي حصة الاسد في كل استثمار زراعي أو التزام مرابعة بالاضافة الى ما لها من حقوق عينية في الحصيد وجباية الاعشار بوصفهما من ذوي الاقطاع امر لا يمكن تفاديه .

وبالاضافة الى هذه الاعتبارات ، تقيم طبقة الملاكين ضدها فئات الفلاحين الثلاث التي تكلمنا عنها اعلاه . فالرسوم والعوائد الدسمة التي تتقاضاها ، ولا سيما حصتها من الحصيد وجباية العشر ، هذا العُشر الذي هو من مقومات النظام الاقطاعي الصميم ، ترهق الملاك والملتزم والمرابع . فاذا ما تحسسوا معاً بشعور مشترك فهذا الحقد الذي يحملونه عنيفاً يوجهونه ضد اصحاب الاقطاع وما يمثله من رسوم وعوائد باهظة .

فهم يتحملون ، والحق يقال ، كل مساوىء العهد بما فيه الضغط الذي تمارسه منظمات أثقل وطأة . فسجلات الرعويات ليست سوى صرخات داوية في وجه اصحاب السيادة . وهذا النظام نفسه ساء وازداد رداءة خلال هذا القرن ولا سيما في الثلث الأخير منه . فهنالك رسوم وفرائض عفا ذكرها وتنوسي ، اسمها عادرا فأحيوها واستأنفوا الاخذ بها بينا ازداد وقر رسوم اخرى لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة اليوم ، لا تروي غلة حول مدى هذه الردة السيادية وشدتها . الا انه ليس من شك قط من حدوث هذه الحركة الرجعية التي تضرست بها كذلك ، على اقدار متفاوتة ، الطبقة البورجوازية في المدن بوصفها من اصحاب العقارات والاملاك .

اما فئة اصحاب الاملاك والعقارات المفتتة او المتباعدة بعضها عن بعض ، والمرابعين الذين كانوا يضطرون احياناً لتأجير سواعدهم وقوام الجـدية تأميناً منهم لموارد إضافية تساعدهم على تأمين اسباب العيش لهم ولذويهم ، فقد أولوا هذه الحـركة الرجعية لديهم ، بصورة تلقائية ، شكلاً آخر اشمل واوسع.. فقد خضعت غلال الارض ومحصول المواسم لاستيفاء العُشر والحصة المفروضة على الحصيد حتى ولو قصر الموسم عن سد حاجـة الاسرة من المواد الغذائية ، فتضطر ، والحالة هذه لشراء حاجتها من الاسواق او من العمل المأجور الذي يؤديه رب البيت . وبسبب الهبوط الذي لحق بأجر العامل ، فالمقادير التي تمثل الرسوم السيادية تؤمن عن طريق تأدية كمية اكبر من الشغل والسخرة . فاذا ما قدرنا رسوم العشر وحصة السيد من الحصيد بنسبة ايام العمل الثابتة المفروض على المرابع تأديتها بالمقابل ، شالت كفة الرسوم وزادت كثيراً. وفي حال افتراض استقرار قيمة الرسوم المتوجبة ، وهو افتراض لا يصح قبوله ، والأخذ به مهما بلـــغ التفاؤل من الانسان ، فكل دخل او ربع سيادي يقابله دوماً مجهود بشري ابداً في ارتفاع .

بؤس البروليتاريه الريفية

وهذا الهبوط يصيب الاجر في الصميم هو هبوط اشرنا الى وجوده من قبل وتوقفنا عنده هنيهة ، وقد تضرس العمال به في الريف ، كما تضرس به العمال في المدينة . فهو ينزل بالعامـل اليومي في الريف ويلحق دارس الحنطة على البيدر ، وخادم المزرعة وعامل النسيج في منزله يعمل لتلبية توصيات الرأسمالي في المـــدن ، كما يصيب العامل اليومي في الدسكرة او المزرعة . هنا ايضاً ترتفع قيمة الاجرة على اساس العملة الفضية ، ولكن بصورة اقـل بكثير جداً من كلفة الحياة لدى افراد الشعب . وكثيراً ما يُدفع قسم من الاجر لقاء العمل في المزارع عيناً لتقديم الغذاء مثلاً للعامل او بعض الحبوب . ولو فرضنا جدلاً ان هذه الرسوم الجباة بقيت على حال واحد لكان هبوط القوة الشرائية للعملة استهلك بكامله . الا انه بسبب بعض الاستثمارات الريفيـة الضعيفة المردود او الفاشلة وازدياد عدد السكان في البلاد اشتدت البطالة في الريف اكثر منها في المدن التي لم تلبث ان اصبحت قطب جذب العاطلين عن العمل . ومهما يكن ، فالعامل بالاجرة في الريف يبتـــاع عادة جانباً من حاجة اسرته الخبز ويخضع للمؤثرات ذاتها التي يخضع لهـــا العامل في المدينة . فهو يشترك ، مثله ، في المظاهرات والفتن التي تنشب من وقت الى آخر للمطالبة بالمواد الغذائية . وقـــد تضطره هذه الانفعالات الطبقية للوقوف في وجـه متعهدي الـفعلـة في الوقت الذي تتجمع فيه اليد العاملة عمن تحتاج اليهم الاستثمارات الكبرى . فهو ينتمي مع ذلك ، الى فئة معينة من الطبقة البروليتارية هي من هذا الصميم الذي لا تجانس بين افراده الذين يتألف سوادهم من اناس نصف بروليتاريين ، من هـــذا الجنس بالذات الذي اتينا على وصفه اعلاه ، كصغار الملاكين والمزارعين والمرابعين العاملـين الى جانب الملتزم . وهـــذه الفئة من العمال المياومين والخدام العائشين في المزارع والعساكر او على الاملاك السيادية ، كثيراً ما يأكل افرادها على مائدة المزارع ، وهم اكثر توزعاً وشتاتاً واكثر تآلفاً من فئة العمال في المدن . ولذا نراهم يتحركون ويدورون في مجال التابعية الاقتصادية

والايديولوجية لطبقة خاصة من البورجوازية ظهرت في الريف. وعلى هذا قس ايضاً المهني العامل في منزل لبورجوازيّ في المدن ، التي منها يخرج ، على انساب متفاوتة الداعية والمبشر . فهؤلاء وأولئك على السواء كثيراً ما يتعاطون عدة حرف ريفية وكلهم يشعرون عميقاً بما بينهم وبين الطبقة المتملكة من فوارق جذرية . وهكذا تتجسد وتتضخم احقاد البورجوازية والبروليتارية في المدن والارياف ، ضد الطبقة الاقطاعية العريقة وضد الدولة المحظوة التي توليهم اياها .

هذا هو لعمري الشعور العام الذي يسيطر على النفوس ويرتسم على الوجوه والذي يجدر ان تقوم حوله دراسة جغرافية . فالمدن تبدو على الاجمال ، اكثر تجانساً من الريف حيث المنزلة التابعية للملاك العقاري ، والتماس الشخصي المحلي الموصول بين النبيل ورجل الدين يقف حاجزاً ويؤلف عائقاً في توجيه هذه الخصومة القائمة .

٣ – ازمة ١٧٨٩ الاقتصادية

مواسم زراعية رديئة وارتفاع مستمر في الاسعار

هذا « الازدهار » المنسوب للقرن الثامن عشر ، انما هو ازدهار طبقي تركز بنوع خاص في الطبقات العليا للمجتمع البشري في فرنسا .

هذا الازدهار الذي طالما تغنوا به ، انقطع حبله في مستهل عهد لويس السادس عشر ، مع العلم انه لم يكن يوماً مطرداً ولا متصلاً . وكانت تقوم ، اذ ذاك ، كما تقوم اليوم ، أزمات اقتصادية تُزيد الحروب الناشبة من حدتها وشوكتها ، حروب رافقها حصار بحري اوقف كل نشاط تجاري وعطل كل حركة تجارية في البلاد . غير ان ايام الشدة والضيق لم تكن لتطول ، اذ كان يعقبها ايام سعة وهناء يتناسى فيها الناس بسرعة ايام المحنة التي تضرسوا بها . ولم يكن تم للاقتصاد الفرنسي بعد ، التخلص من عقابيل آخر أزمة نزلت بالبلاد عام ١٧٧٠ التي تكونت في الصميم من عدد من الازمات المحلية او الاقليمية تجمعت حول هذه السنة بالذات . واخذت البلاد ، عام ١٧٧٦ – ١٧٧٨ ، تشعر بوطأة تدهور عام استحكمت حلقاته ابان حرب الاستقلال الاميركي ، وبقي الناس يتألمون من شوكة هذه الازمة اللاذعة حتى بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها . وصناعة النسيج التي عانت من نقص فادح في القطن من جراء الحصار البحري الذي فرضته الاساطيل البريطانية، اخذت تعاني مريراً وتشكو من جديد من نقص فاضح في الاصواف وهو نقص يجب رده لفقدان المراعي والعلف ، عام ١٧٨٥ . وجاءت المنافسة الدولية الحادة التي نشطت عبر المانش ، في انكلترا تزيد الطين بلة والوضع سوءاً في اعقاب توقيع المعاهدة التجارية، عام ١٧٨٦ . ومن جهة ثانية ، فالارباح التي كانت تدرها الكرمة على البلاد – هذا النوع من الدخل الزراعي الشعبي – اخذت تتقهقر وتتدهور لتنهار تماماً منذ عام ١٧٧٧ ، في فترة الاثنتي عشرة سنة التالية . هنالك لعمري قطاعات وجوانب في الحركة التجارية بقيت بمعزل عن هذا الوضع العام. من ذلك مثلاً الاتجار بمحاصيل المستعمرات التي لم تكن اليد العاملة الفرنسية

لتهتم بها او تكاثرت لها. وعلى مثل هذا قس ايضاً قطاع البناء . فنحن هنا لسنا امام ازمة عامة حادة ، من هذه الازمات الدورية التي تنقض على البلاد ، بل بالاحرى امام حركة جمود اوركود مستمرة . فاذا بأزمة ١٧٨٩ الدورية تطل فجأة في وقت كان فيه الاقتصاد الفرنسي يشكو الأمرّين .

وهذه الازمة التي أنشبت اظافرها الحادة اخيراً في البلاد،حلت في ثناياها كل شوائب العهد. فقد ابتدأت ازمة نقص في المحاصيل الزراعية في المرحلة الاولى ، ثم لم تلبث ان تحولت سريعاً الى ازمة نقص فادح في الاستهلاك الصناعي جارّة وراءها مصاعب ومشكلات اقتصادية هزت اركان البلاد من اساساتها .

جرفت سنة ١٧٨٨ العاصفة في ما جرّته من غوائل البرد والصقيع والعواصف الهوجاء التي هبت على البلاد اذ ذاك ، جانباً كبيراً من المواسم الزراعية ، في وقت لم يبق في البلاد سوى قسم ضئيل من المواد الغذائية المختزنة . ان اباحة تصدير الحبوب للخارج واعطاء ترخيص بذلك لكالون وبريين ، في العام الفائت تركت اثرها السيء ونتائجها الوخيمة على البلاد . فقد راح العهد يشجع ، اكثر من اي وقت مضى ، تصدير الحبوب بحيث فاق ما صدر منها ، عام ١٧٨٧ المعدل المعروف ، اربعة اضعاف ، كما بزّت حركة التصدير هذه ، عام ١٧٨٨ ، المعدل الاخير ، سبعة اضعاف ، بالرغم من القيود التي فرضها الوزير نكير . الا ان ضعف وسائل النقل ، لم تسمح ، ولا شك الا باخراج كميات ضعيفة على الاجمال. فقد كان في مثل هذا التصرف الطائش ما اقلق الرأي العام واهاجه ، لا سيا وقد دلت الدلائل على ان المواسم الزراعية ، لعام ١٧٨٩ ، ستكون سيئة في جميع المناطق ، وقد جاء الخُبرُ ، في نهاية الأمر ، تؤيد الخَبَر . فارتفعت اسعار المواد الغذائية بصورة جنونية اذ ارتفع سعر إردب القمح من ٢٢١ لحاسة و١٠ صولد عام ١٧٨٧ الى ٣٤١ و ١٢ ، عام ١٧٨٩ . وهكذا بلغت موجة ارتفاع الاسعار ٥٠٪ وهو المعدل السنوي للاسعار . وبالطبع بلغ ارتفاع الاسعار أوجه في الاشهر الختامية لسنة ١٧٨٩ و ١٧٩٠ . والمادة الغذائية الاساسية الشعبية زاد ثمنها مائة بالمائة . وهذا الغلاء جر وراءه ، بالطبع ، اسعار الخضروات والنبيذ التي جاءت مواسمها ، هي الاخرى ، رديئة عاطلة .

وبدلاً من ان ترتفع الاجور بالنسبة ذاتها انخفضت بالاحرى في الريف عن المعدل المعروف في المدينة . والعمل قلّ الطلب عليه . وراحت جماهير من صغار المستثمرين تزاحم العمال المياومين على اعمالهم بعد ان قلت لديهم اسباب الرزق . كذلك نزل الضيق بالفئة الاخرى من المستثمرين ، اذ لم يبق تحت تصرفهم سوى قسم ضئيل من البضائع او المواد القابلة للاتجار ، يخسرون على الكميات اكثر مما يربحون على الاسعار . فتكاليف الخبز التي يبلغ معدلها عادة نصف تكاليف اسرة العامل اخذت تمتص ثلاثة ارباع موازنة الاسرة ، هذا اذا ما افترضنا ،

في الاساس ، حصوله على اجـــر ثابت . وهكذا تقلصت فجأة القوة الشرائية في الارياف ، كما تدنت قدرة المستهلكين في المدن .

انهيار الانتاج الصناعي واستحكام البطالة في البلاد

وهذه الضائقة تنزل بالانتـاج الزراعي في البلاد ، اقترنت كما هي القاعدة عامة في النظام الاقتصادي الذي ساد عليه العهد القديم ، بأزمة حادة اصابت الانتاج الصناعي . فقد كانت سوق الحبوب، البوصلة او ميزان الطقس بالنسبة للصانع في البلاد ، كما وصفتهـا ادارة تفتيش الصناعة . سبق لنا وتكلمنا ملياً عن ارتفـاع اسعار المواد الاولية وعن المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا . فقد استحكمت حلقات الازمة خلال السنة بعد ان تأزم الوضع الزراعي في البلاد ، فأصيبت كل المراكز الصناعية الكبرى بالجمود ، من نورمنديا الى شمبانيا ، ومن مصانع الجوخ في الشمال الى « المصنع الكبير » في مدينة ليون . فهبط الانتاج الى اكثر من النصف كما هبط بالتالي معدل العمل واجور اليد العاملة . وامتدت الازمة الى المرافق الاخرى الاساسية والكمالية على السواء كصناعة البناء والمفروشات ، وانقطع النشاط في حي سان انطوان . ففي هـــذا المحيط العمالي العاطل عن العمل والذي اصيب في الصميم، من جهة الاجور اومن جهة الاسعار، انطلقت الثورة او بالاحرى الفتنة المعروفة بفتنة ، «ريفيّون» ، فـلم يعد لاي قطاع كان ان يسجل اي ربح او كسب . فانهالت الافلاسات تترى وتكاثرت حوادث الاعلان عنها ، فقد تكدست الديون على المحل التجاري الكبير في مدينة روان الى خمسة اضعاف رأس ماله ، مع العلم ان هذا المحـل هو اكبر البيوتات التجارية في البلاد .

والهزات السياسية التي توالت تباعاً منذ عام ١٧٨٩ زادت الامور تعقيداً والوضع حرجـاً . فالضغط على سوق الحبوب والازمة العامة استطالا حتى سنة ١٧٩٠ المعروفة بطيب مواسمها .

واخذت تلوح في الافق الاعراض العامـــة الملازمة لكل تصفية نهائية : فانهارت اسعـار الحبوب وتراكمت بين ايدي الفلاحين المحاصيل القابلة التبادل التجاري ، واستعادت الاوساط الريفية وأوساط المدينة القدرة على الشراء ، والصناعة استعادت اسواقها في الداخل ، والشعور ببوادر التضخم في النقد جعل النـــاس يستبشرون باقتراب الانفراج والانفلات من القيود الضاغطة ، بحيث تنعم البلاد بشيء من التوازن الدقيق يستمر حتى نهاية عهد الجمعية التأسيسية .

وانتقال الثروات البطيء الذي حدث في عهـد لويس الخامس عشر زاد في احقاد الطبقات واثار ضغائنها . فالمشكلات الاقتصادية التي قامت في عهد لويس السادس عشر ولا سيما ازمـة ١٧٨٩ الحادة منها ، كانت بمثابة صب الزيت على النـــار الخافية فأثارت هذه الاحقاد وجاشت في الصدور تتشابك بعنف ، واطلقت في البلاد صراعاً طبقياً مريراً، فلم تلبث الازمة الاقتصادية ان استحالت ازمة سياسية واجتماعية .

النتائج السياسية والاجتماعية

فهل من عجب ، والحالة هـذه ، ان يذهب الناس كل مذهب في اتهام الحكومة ويرموها بكل فرّية ويجعلونها مسؤولة مباشرة عن هذه المشكلات التي يتخبط فيها رؤوساء الاعمال والعمال، والمنتجون والمستهلكون ويتضرس بها الجميع، يرون فيها ازمة بشرية اكثر منها اقتصادية؟فهم يجهلون كل شيء عن مقوماتها الروحية والفكرية . والتفتيش في المصانع والمعامل يتحرى لدى ارباب العمل ويتلمس معرفـة الاسباب الدفينة الـتي ادت بالمجتمع الى مثل هـذا التفكك والانهيار . فجعل بعضهم النظام الاداري المسؤول الاول عن هـذه الكوارث كما نزل آخرون باللائمـة على الشركة الهندية التي تحتفظ ، وهي الفرنسـية ، بمستودعاتها وعنابرها ، في كل من لندن وامستردام ، بدلاً من مدينة لوريان . ورأى آخرون في سماح فرنسا للولايات المتحدة الاميركية تمويـل المستعمرات الفرنسية مسؤولاً بعض الشيء عن هـذا الوضع المتردي ، وعزا بعضهم هـذه المساوىء القرار الملكي الذي حرّم على العسكريين ارتداء جوارب الحرير ، كما عزاه فريق آخر الى غـلاء سعر الاصواف . وجعل السواد الاعظم علة هذا البلاء المعاهدة التجارية التي ابرمت مؤخراً مع انكلترا . وقد كان هذا رأي المفتش العام للمالية بالذات . فليس من اهمية بالطبع ان تكون هذه التهم العديدة مجتمعة، اسباباً صحيحة ، المهم هنـا هو هذه الحملة الفكرية للرأي العام في البلاد . ان غالبية الناس رأت ان المسؤول الأول والأكبر عن هـذا الوضع الاقتصادي المتأزم هـو الوزارة والهيئات العامة في البلاد .

أما الطبقات الشعبية فقد رأت الامور بشكل ابسط . فهي تتهم بالدرجة الاولى الاجهزة التي ساعدت على نشر البطالة في الصناعة . فالازمة تتمثل في كليها على السواء ، ان في المدن أو في الريف ، فتبدو تارة في ندرة المواد الغذائية ، وطوراً في هذا الارتفاع الهائل لتكاليف الحياة الذي اقلق الخواطر واثارها. فقد رأوا في الامر فرصة سانحة لاتهام النظام القائم وجعله مسؤولاً عن مساوىء السياسة الزراعية في البلاد . فأخذوا يتساءلون مثلاً لماذا راحت الحكومـة تشجع اقامة المروج الخضراء دون زراعة الحبوب ؟ كما تساءل عن الاسباب التي تركت الدولة معهـا الحبل على الغارب لزراعة الكرمة دون العناية بالفلاحة والزراعة ، وقـد جهلوا ان الزراعة لا يمكن ان تعيش وان تزدهر في ظل نظام ضرائبي ثقيل الوطأة . كل هـذه الشكاوى والتذمرات تعلات قديمة قدم الانسان فراحت الازمة تعيدها من قرار الذاكرة الانسانية للخواطر ، محاولة تغذيتها في النفوس وتركيتها امام الناس .

كل هذه التبريرات تتعلق بالمسؤوليات البعيدة . اما القريبة أو المباشرة منها ، فلا تقل عنها وضوحاً . وراحت الاسئلة ترتسم على الشفاه وترقص امام الاعين . لمـاذا سمحوا باخراج هذه المقادير الهائلة من الحبوب خارج البلاد؟ لماذا لم يضعوا حداً لحركة التصدير هذه؟ فقد اتخذ الرأي امام من المجاعة وفقدان المواد الغذائية من الاسواق ذريعة للهجاج العنيف. فما من أحد يعتقد بصلاح هذا التعليل حتى ولا ارثور يونغ . فالكل يرى ان اصحاب المصالح المغرضة بالغوا في هذه التهم

عن سابق قصد وتصميم . فحكاية المضاربات المالية في البورصة هي على كل فم ولسان ، هذه المضاربات التي غضت السلطات المسؤولة الطرف عنها ان لم تكن سمحت بها واجازتها . ألم ترفض هذه السلطات التدخل في الاسواق لتجعل الاسعار عند حد معقول مقبول ؟ فلم تسمح بتطبيق العلاج الشعبي الفعال وهو فرض العقوبات الرادعة على المخالفين . وهكذا أخذ موظفو البلديات والوكلاء الاداريون والمفتشون الماليون يفقدون من اعتبارهم بعد ان استهدفوا مراراً لانفجار غضب الشعب وفورانه . ومن جهة أخرى فلسكان الارياف وجهة نظر خاصة في هذه الازمة الزراعية .فالمزارعون انفسهم الذين اعتادوا ان يحتفظوا ببعض محاصيلهم الزراعية برسم البيع، رأوا مواسمهم تبور بعد ان امسكت الارض رفدها ورفدها فلم تطلع الا بالنزر النزير . فتوفير البذار اللازم وتأمين ما يلزم من المواد الغذائية للاسرة يستهلك معظم الموسم ويخلف وراءه على أي حال ضغطاً قوياً ووقراً ثقيلاً ترزح تحته مواسم السنة الشحيحة . والحال ، فالحقوق السيادية العينية وفريضة العُشر نفسها لا يقومان على الحصول الصافي بل على المحصول الاجمالي او العرفي. فمن لم تؤمن مواسمه الزراعية اسباب معيشته ، والذي تبدلت منه الحال من بائع الى شار ، عليه ان يؤدي كاملة غير منقوصة ، الفرائض والرسوم المقررة وفقاً لحجم الغلة وطاقة المحصول ، عليه ان يبتاع بأي ثمن ، ما فيه أود اسرته وما فيه وفاء عوائد النبيل ورجل الاكليروس .

وهكذا فالازمة الاقتصادية التي انشبت اظافرها الحادة ، عام ١٧٨٩ ، والتي تثاقلت وطأتها الخانقة على المدن والارياف ، وأناخت بكلكلها المرزح على التجار والمزارعين ، وعلى جماهير الشعب واصحاب المهن والصنائع ، واصحاب الاجور الصغيرة ، صهرت في بوتقة واحدة كل المتذمرين الناعين ، وأحرجتهم جميعاً فأخرجتهم . فقد ركت الرهـا العميق على الخصومات الطبقية المتراكمة ضغائنها في الصدور على مر الزمن ، وزادت في النفوس الملتاعة مرارة الاحقاد . فبعد ان كيفت نفسها مع الذهنيات الاجتماعية المتأتية عن النُظم القديمة ، هذه الذهنيات التي ولدتها الخصومات ، فلن تلبث أن اصبحت قوة هادرة وعاملاً جديداً من عوامل التهديم السياسي .

واستمرت الازمة مستحكمة بالبلاد ، مستبدة بالعباد حتى منتصف عام ١٧٩٠ ، الى درجة انها ليس فقط لم تخمد جذوتها مع طلوع الحوادث الثورية الاولى، بل أبقت الجماهير طويلاً تحت وطأتها الثقيلة ، وكابوسها المرزح .

وهكذا بدت البورجوازية والبروليتارية بمثابة المحرك الاول للثورة والنافخ الاكبر في بوقها . فالدور الموجه يعود للطبقة الاولى دون ان تؤلف مع ذلك وحدة مستقلة ، اذ ان عدداً كبيراً من افرادها ما زال تحت التأثير الفكري للطبقات الممتازة الاخرى واحجموا عن ولوج الطريق المنفتح امامهم . فاهدافها التي قل التحمس بها ، والحوادث الاولى التي وقعت والتي ساعدت كثيراً على توضيح معالم الطريق ، كانت على طرفي نقيض مع مبادىء النظام القائم . وأي شأن

أو كبير أمر ، من الوجهة النظرية ، ان تتجه انظار ذوي الطبقات الممتازة الى إعطـــاء بعض الحريات الفردية أو العامة ، أو يرضون بالتنـــازل عن الاعفاءات المالية ، التي ينعمون بها ؟ فـترام ، خلال الجمية التأسيسية وقد ضاقت عليهم الانفاس و'نبذوا جانباً . ولكن هـــذه البورجوازية تتطلع من جهتهـــا وبكل نوازعها المختلفة ، نحو تحقيق السيادة العليا وتشرئب بانظارها الى مشاركة الملك بها . فهي تتمسك بعناد ، بقانون العدد أو الاكـــثرية الذي يفضي بنهاية الامر الى انتصارها وتأمين فوزها . فهي ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ، تطالب بالمساواة المدنية . فالحرية والسيادة قيمتها الخاصة ولا شك . فيها تساعدان على تحقيق المساواة وتأمين استمرارهـا في المجتمع . اما المشكلة الحقيقية فهي شق الطريق امام مجتمع جديد ، مجتمـــع بورجوازي لا وجود للطبقات فيه ولا يقوم لها فيه نظام . فالاهداف ثورية في الصميم بينا الوسائل المسفة لم تصل بعد الى هذا الحد . ان افراد النظام الجديد يطلبون من النظام القديم ان يضحي بنفسه فيقوم من ذاته أو ان يقوم هو نفسه باصلاح ذاته بصورة حبية .

كان من شأن منهاج على مثل هذا النحو ان يثير حماسة الطبقات الشعبية التي كان لها هي الاخرى مطالبها الخاصة ، هذه المطالب التي جرى التعبير عنها بصراحة ووضوح في هـــذه العرائض والالتماسات الراعوية والتي ابدتها الانتفاضات الشعبية التحررية مطالبة بالغـاء النظام الاقطاعي والغاء الرسوم والعوائد السيادية ومكافحة الغلاء واسبابه عن طريق الغاء الضرائب والرسوم والتعريفات على المواد الاستهلاكية ، وفرض المراقبة على سوق الحنطة ، وحماية حقوق تلك الفلاحين من تعديات كبار الاقطاعيين المغتربين . ولم يكن بين هذه المطالب ما يهدد بشيء مطالب للبورجوازية ، فليس بغريب قط ان يتفق الطرفان على العديد من هذه المطـــالب الاساسية المشتركة .

ثانياً ـــ عدة الثورة وادواتها

لم تدع الثورة هذه القوى الطبيعية الهائلة المتوفرة لديها على حالتها البدائية . فمنذ ان ارتفع كل وهم وسقطت الغشاوة عن الابصار باستحالة تحقيق أي اصلاح بصورة سلمية ، وابتدأت المعركة ، راحت الحركة الثورية توحد من هذه القوى وتجمعها حزمة واحدة . فقامت بين ١٧٨٩ - ١٧٩١ ، في جميع انحاء البلاد ، مجالس بورجوازية ، مختلفة على انساب مختلفة عناصر من العهد الماضي ، تتأثر اقدار متفاوتة بضغط الطبقات الشعبية ممثلة بهذا العدد الكبير من اللجان ومجـــالس البلديات والجمعيات والنوادي المتباينة الاشكال والمظاهر والالوان . فيقوم من بينها ما يشدد من اواصرها . فهذه الجمعيات والصحافة والحرس الوطني والاحلاف التي قامت اذ ذاك ونشطت للعمل ، برزت للعيان اجهزة دعاية وإعلان تدعو للثورة وتعمل لهـــا ، مهما تباينت منها النوازع واختلفت بينها الاغراض وتلونت معها وجهات نظر الواحدة عن الاخرى .

المجالس البورجوازية والنوادي والصحافة

جاء قيام هذه الوحدات وتشكيل هذه الهيئات التي تألفت منها عـدة الثورة وادواتها الفاعلة ، في وقت واحـد واستمرت تظهر وتعمل بلا انقطاع . فاللجان والبلديات التي كثيراً ما نزعت باشكال مختلفة لانشاء تحالف عام من بينها ، اخذت منذ عام ١٧٨٩ بمارسة السلطة المحلية . وراح عـدد كبير من البلديات جرى انتخابها عام ١٧٩٠ وفقاً لاحكام الدستور تتجاوز بدافع من المنظمات الشعبية القائمة وضغطها ، الصلاحيات المخولة لها بموجب القانون. وكانت هذه المنظمات والجمعيات نشأت في المدن الكبرى في الوقت الذي أطلت فيه على الحياة، في تموز (يوليو) من السنة نفسها، السلطة الجديدة، البلديات . ولم يلبث نفوذ هذه الهيئات والمنظمات ان اشتد بسرعة واقامت ممثلين لهـا في أطراف البلاد على اقدار مختلفة من الحول والطول، حسب وجودها في الاحياء والمدن والدساكر مع ما بينها من تباين في النظريات السياسية . فالجمعية الثورية وحدهـا ، والحق يقال ، نمت وازدهرت ولعبت في المجال الثوري دورها الحاسم . فقد كان النادي الرئيسي الذي انشأته يؤمن الاتصالات بين النوادي الاخرى ويذيع على الملأ ، القرارات وكلمة السر والشعارات بـين الاعضاء ، كما راح ينظم عرائض مشتركة ويعلن للعموم عن قراراته ويعلقها في الساحات العامة ليتمكن الجميع من قراءتها والاطلاع عليها ، ويتدخل في حياة البلاد الادارية ويدعو للمثول امامه موظفي الادارة العامة ، ويأخذ تحت حمايته الوطنيين الأحرار ، ويقف بعد الاضطرابات والهزات التي يثيرونها او يدعون اليها ، في وجه ملاحقتهم من قبل القانون ، ويشهّر بالرجعيين المناوئين للثورة ، ويراقب جلسات المحاكم عن طريق ممثلين له يحضرون جلسات القضاء ويطلب بان تخصص لهم مراكز خاصة على مقربة من قوس المحكمة ، ويعارض في تنفيذ بعض الاجراءات والتدابير التي اتخذتها السلطات ضد الثورة ورجالها ، ويعهد الى اناس من قبـله بمهمات خاصة ، ويحضر بكامل اعضائه الاحتفالات الرسمية . وكان في مقدور افراد الجيش من اي رتبة وصنف كانوا ، ان يحضروا الجلسات التي يعقدها هذا النادي، كما أقام علائق من المكاتبات والرسائل مع ادارة الجيش وقيادته ، وتدخل حتى في صميم شؤون النظام . واخذ النادي يوجه لمن يستحق ، اللوم او الثناء ، كما انه أمّن الاتصالات مع كل الملاكات والأطر الجديدة ، وحرص على مراقبة التيارات الفكرية والحياة السياسية في البلاد . ولعل ما هو احسن من ذلك كله انه اخذ يعمل على توجيه هذه السياسة ويسعى لتغليب وجهـة نظره في الامور المعروضة على بساط البحث . هذا هو بعينه الدور الذي قام به النادي البريتاني القديم الذي رأى النور او الشجار الذي نشب بين ممثلي الطبقات الثلاث ، وتأثيره العميق عام ١٧٩٠ ، على نوادي اليعقوبيين التي بلغ عددها في البلاد ١٥٢ نادياً . وكانت طبيعة هذه النوادي واهدافهـا تختلف طبعاً باختلاف المكان والزمان . فالنادي هو ، على الاجمال « فرع » محـلي لفرع الحزب الثوري في المنطقة ، وهو السلطة العامة شبه الرسمية. وكثيراً ما احتدم، بهذه الصفة ، الخلاف بينه وبين السلطات القانونية، والمجلس الوطني نفسه الذي كثيراً ما اتخذ ضده احكاماً واجراءات بقيت غير نافذة المفعول ، فبعد ان تحدّت النخبة الثورية الادارة الملكية القديمة واعتكفت في النادي ، راحت تتحـدى

الهيئات الجديدة نفسها وتدخل معها في عراك مرير . ومهما يكن فقد اخذت هذه النخبة على نفسها توجيه الرأي العام وراحت تستفل الى اقصى حد ، الوضع السياسي والاجتماعي المتأزم .

ووسائل الاعلام والاعلان من جرائد واعلانات وكراريس وبطاقات ، لعبت من جهتها دوراً مماثلاً للدور الذي لعبه النادي . فبعد ان اطلقت حرية النشر والكتابة في مايو – يونيو (ايار – حزيران) ١٧٨٩ ، اصبح من الميسور استعمالها ، مبدئياً ، كالنادي نفسه للعمل في خدمة الارستوقراطية او الحركة الوطنية . فالارستوقراطية التي عدت في صفوفها كتاباً ومفكرين يحسنون امتشاق القلم ، احسنت الدفاع عن نفسها فجالت وصالت في هذا الميدان . ولكن الصحافة الثورية انطلقت بكثرة واخذت بعد الرابع عشر من تموز (يوليو) بالازدهار والتألق . والصحافة المتطرفة امثال : « صديق الشعب » الذي انشأه مارات في ايلول (سبتمبر) ١٧٨٩ ، والذي اخذ على نفسه التشهير بالرجعيين كما اخذ يدعو الى العصيان المدني ومقاومة قوانين البلاد ، لقي من الرواج والانتشار ما يذهل ويخبل العقل . فقد زرع الرعب وسمر الخوف في قلوب الارستوقراطيين والمعتدلين في موقفهم . وقد ساعد هذا الشكل الجديد من الادب السياسي ، طوعاً واختياراً ، او غصباً وكرهاً على رواج النداءات والشعارات الثورية الجديدة التي ساعدت على انتشارها وسريانها اما باقتباسها واما بالدعوة لها . فقد انسابت وتغلغلت كالنوادي ، في الرلاية وبين وحدات الجيش .

الجيش والحرس الوطني

وهذا الجيش عملت الحوادث الثورية تباعاً على تفكيكه واهانه . فرؤساء تشكيلاته معظمهم من النبلاء ، فألفوا بذلك ضمن اطره طبقة خاصة . اما الافراد الذين تتألف منهم وحدات هذا الجيش ، فقد تشبعوا بمشاعر الشعب واحاسيسه . فقد كان قسم من وحداته لا يقيم في الثكنات بل يشاطر اصحاب المنازل الخاصة السكنى معهم ، اي ينزل ضيفاً على البورجوازي . فمنذ يونيو – يوليو (حزيران – تموز) ١٧٨٩ ، سيطر على هذه الوحدات جو عابق بالروح الثوري والايديولوجيا الثورية ، وذلك من جراء ما يقاسي افرادها من غلاء اسباب المعيشة ، فاخذوا يرمون ، كغيرهم من الناس ، المحتكرين بكل تهمة وفرية وبالتواطؤ مع كبار المسؤولين . وهكذا ، اشتد موقف المعارضة بعد النجاح الذي سجلته الجماهير الشعبية . وقد أخذ افراد الجيش وصغار الضباط بالافكار الثورية والشعارات التحررية المدوية كما وقعوا تحت اغراء وجاذبية هذه المساواة المدنية التي رأوا من خلالها الف احتمال للترقي والتطور . والضباط النبلاء اصبحوا اكثر فاكثر مظنة وموضع ارتياب كالطبقة نفسها التي ينتمون اليها ويؤلفون معها كتلة واحدة . ويحرص الضباط الذين يتخلون عن رتبهم ومراكزهم في الجيش على تهشيم الصامدين من زملائهم وقتلهم ادبياً فوقعت بين صفوفه وتكررت حوادث العصيان والتمرد . وقام في وجه جيش العهد البائد جيش جديد حديث كان عماد الثورة وركيزتها الاولى تمثل ، قبل كل شيء ، في المليشيا البورجوازية ، ولم يلبث هذا الجيش ان اصبح الحرس الوطني الذي ضم بين صفوفه نحواً من ثلاثة ملايين . وانشأ الحرس

الوطني له على شاكلة المدن والنوادي ، شبكة من الاتصالات بين مناطق البلاد المختلفة . وقد جاء تشكيل هذا الجيش يتباين نزعة سياسية وطابعاً اجتماعياً بحسب منشأ افراده وتشكيل وحداته . فالعناصر « المنشطة » منه تسيطر على مختلف المراكز وتلعب دوراً بارزاً ، اكبر مما يسمح به عددها نسبياً ، ولا سيما في الاحياء الشعبية في المدن الكبرى والارياف . ومهما يكن ، يؤلف الحرس الوطني ، اي الثورة المسلحة ، ضمانة العهد الجديد تجاه اي حركة رجعية هجومية يقوم بها العهد القديم ، وضد الحركات والانتفاضات التي يسببها فراغ صبر الطبقات السفلى . وقد اتفق له احياناً ان يترك الامور تجري في اعنتها عندما تكون العناصر الثورية الجديدة هي التي تهاجم وتقوم بكفاحها ضد السلطة السيادية كما تجلى ذلك ، منذ عام ١٧٩٠ ، اذ ان اكثر من ٤٠ الف بلدية ريفية كانت على اتصال مباشر بالفلاحين تستنجدهم وفقاً للحالات الطارئة ، دعماً منها للحركات الثورية او عندما تريد ان تتجاهل الحوادث وتشيح عنها بنظرها .

فالحرس الوطني لن يتصرف ابداً منفرداً او يعمل لوحده ، حتى ولا جماهيرياً ، على اساس هذا الاعتبار . فالعناصر التي تشترك منه في الاضطرابات والقلاقل الشعبية لا تؤلف في الغالب سوى تتمة عدد ، لها شأنها وخطرها نسبياً بحيث يكون اثره حاسماً بعض الاحيان . ولكن هي الجماهير الشعبية التي تسيطر على الموقف العام بشعاراتها العفوية ، ترددها الاندية والجرائد اليومية ، هذه الشعارات التي تأتلف كلياً وتعبر بصورة غريبة ، عن الوضع الاجتماعي وحقيقة تركيبه الشاذ . فقد عرفت ان تزاوج بعفوية مدهشة بين مطلب « اقتصادي » خاص ، له دوي عميق لدى الاوساط الشعبية وبين شعار سياسي يسري سريان النار في الهشيم بين الطبقات البورجوازية ، وكلاهما شعارات برّاقة ، خلابة ، مغرية كجعل الخبز ارخص سعراً وفي متناول الجميع ، والتلويح بحقوق الانسان الاساسية . ولم تلبث هذه الاضطرابات الشعبية ان استحالت بالفعل الى ثورة عارمة لا الى فتنة محلية ، بينما كونت الشعارات السياسية من جهتها قوة اجتماعية لا مثيل لها ولا نظير .

هذه الجماهير اليقظة ، التي تجيش بالحركة ، وهذا التركيب الناجم عن مزيج من البورجوازية الصغرى وطبقات الشعب السفلى والذي اولى الاحداث تأثيره الموصول ، لا تتمثل ، بالطبع ، سوى أقلية ضئيلة . فهذه الأقلية الديناميكية المصطفاة هي التي تتحرك وتنشط العمل ، كما ان هذه الاقلية هي التي تقتفي بعين يقظة سير الامور وما تترك بعدها من أثر وتؤيد بصراحة . فاذا كان المطلب قضية تصويت إداري أو اقتراع على أمر سياسي بلغ ، عدد الممتنعين عن التصويت عادة الثلثين ممن لهم حق الاقتراع ، أو الثلاثة ارباع أو اربعة اخماسهم . اما نسبة الذين يقترعون بالفعل فأقل بالطبع ، من ذلك . وقد يحتجون باطلاً بعد ذلك على ما كان لطريقة الاقتراع اذ ذاك ،من صفة تمدادية . وسنرى بعد حين ان عدد المواطنين الذين لهم حق الاقتراع يفوق كثيراً عدد الذين يتمتعون بهذا الحق . فجمهور المقترعين لا يُعتَدّ به في القضايا السياسية . وعلى هذا قس ايضاً عدد الممتنعين عن الاقتراع . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء واولئك لا يبالون من قريب

او بعيد او بقليل او بكثير،بالاحداث الجارية. فنفوسهم تجيش بالمشاعر الفياضة نحو الثورة ،ولا سيا بانجازاتها في المجال الاجتاعي . الا انهم قلما تهتز نفوسهم للقضايا السياسية العامة . فالقلة التي تتولى الحركة الثورية وتوجهها تتمم لذا ، بحرية اكبر . فلا شيء يعيق نشاطها او يحد من الجرأة لمواجهة الوضع الجديد الذي طلع على البلاد ، كالتلهي بالسوابق الماضية واحتضان الافكار والنظريات القديمة الرثة . وهذه الاقلية تكوّن قوة في المدن حيث تعتمد على عناصر ووحدات كثيرة يمكن تجنيدها والاعتماد عليها بسرعة ، وهي عناصر يقيمها ويقعدها تمجيد الأمة، والتغني بالوطن الجديد في مثل عبادة تتأجج بها القلوب والنفوس في طقوس ومراسم مكرمة وتقاليد محترمة بعد ان دُفعت على هياكلها قديسيها وأولياتها. فاذا ما سارت الجماهير عن بعد،فالطليعة تتقدمها كتلة متراصة

ثالثاً ـــ انتصار الثورة

هذا الضغط الذي مارسته هذه العناصر والقوى المجتمعة التي استعرضنا أثرها أدّى في بضعة اشهر الى انهيار النظام السياسي القائم ودكه من الاساس .

ولعل اول الانتصارات الكبرى التي سجلتها هو انتصار حزيران ، أي الانتصار الذي حقق وكرس الاقتراع الفردي ، هذا الاقتراع الذي اولى الطبقة العامة وتمثيلها المضاعف ، القوة الكبرى في المجلس الوطني بعد ان تحوّل الى جمعية وطنية عليا.فانهار بذلك النظام القديم وهوى الى الحضيض برمته .

انتصار الشعب في المجلس

تحقق هذا الانتصار الباهر في التغلب على الارستوقراطية وعلى الملك . فاوهام المصالحة الوطنية التي ساورت النفوس يوماً والتعلل بثورة سلمية كما حلمت بذلك الطبقة البورجوازية ، خيبها الواقع فأصيبت بنكسة مريرة خلال هذه المعركة التي استمرت سبعة اسابيع . فقامت طبقة النبلاء بحركة رجعية بدت فيها العناصر المتحررة على حقيقة امرها ، كما هي بالفعل أقلية ضئيلة مستضعفة ، اذ ان اربعة اخماس ممثلي هذه الطبقة بقوا صامدين الى جانب الملك . وعلى هذا قس ايضا مصف الاكليروس العالي . فطبقة الاكليروس هي اشد انقساماً وتفتتاً . فالاقلية والاكثرية بينها تتمادلان تأثراً تقريباً ، بالتيارات التقدمية والقومية الكبرى ، هذه التيارات التي لم تكن الا لتترك اثرها البعيد على هذا الوسط الكاثوليكي الاول الذي شكّل النصف الشعبي في هذه الطبقة . فالطبقة الثالثة او الطبقة العامة قادت المعارضة بمهارة وعناد ، دونما هوادة او لين . فان لم تكن جماعية في ١٧ يونيو (حزيران) عند إعلان الجمعية الوطنية ، فقد حققت هذا الاجماع او كادت ، في العشرين منه ، عندما تعاهد ممثلوها بقسم مُغلظ في ساحة التنيس ، جاورّن وراءهم ممثلي الطبقات الاخرى . وقد ناصب الطبقة العامة العداء : الجيش والمحاكم والقانون وكل الجهاز الاداري والمالي في الدولة . فالامر جلل ، وسيحالف النصر في النهاية الستمائة محام من البورجوازيين الذين قيّض لهم التغلب

على النظام القديم .وقد حالفهم الحظ لوجود ملك مستضعف على رأس الدولة، من جهة، ولتأييد الرأي العام باجمعه الذي صقلته تطورات العصر الاجتماعية واهاجته مزامنة الازمات الثلاث معاً: الازمة السياسية التي جاءت تعبيراً صريحاً لهذا التطور ، والازمة الاقتصادية ، والازمة المالية الناجمة عن الازمتين الاخريين .

وهذا الانحلال والتخلخل الذي ترسف فيه البلاد وتلكم ترك اثره البعيد في نفوس الخصوم . فانقسمت الحكومة على نفسها ، اذ اخذ اربعة من الوزراء من اصل سبعة ، بينهم «نيكر» ، يطالبون باجراء مصالحة عامة، كما راحت الازمة الاقتصادية تثير الفتن والاضطرابات بين الشعب وتعمل على تفتيت الجيش .

واخذت جماهير الشعب بالغليان بعد ان أطل على الناس شبح افلاس الدولة فازدادوا كراهية النظام القائم ، وعلا الهيجان في كل من فرساي وباريس وزاد الهرج والمرج بعد ان انضم البورجوازي الحامل السندات على الخزينة الى الثوار في القصر الملكي والاحياء الشعبية، واصبح همّ الناس الوحيد تأمين الدخل والخبز والمطالبة باصلاح النظام الملكي. وراحت الجماهير في فرساي تفرغ جام غضبها على ممثلي الطبقتين المتميزتين، خصوم الطبقة الثالثة وتكيل لهم الشتائم والاهانات . وشاعت بين الناس اخبار يتقولون فيها عن اعداد مذبحة النبلاء . فالفاترون اصبحوا عرضة لغضب الشعب ونقمته ، وظهرت في البلاد تجمهرات واحتشادات تخشى الناس شرها . واعترى البلاط الخوف والرعب فاضطر التراجع وتظاهر بالتنازل على طول الخط، بينما راح يستعد سراً ليثأر لنفسه .

انتصار الشعب في باريس

فالثأر اصبح مؤكداً وفي متناول اليد عندما يستطيع الملك ان يؤمن له من الجند ما يضمن القضاء على كل مقاومة من قبل القوى الشعبية ، ومثل هذه العملية لا يقتضي لها سوى بضعة ايام او اسابيع بالاكثر . فقد شعرت الطبقة العامة بما يُحاك لها من مؤامرة تهيء إعدادها الطبقة الارستوقراطية، سواءاً أكانت حقيقية ،او وهمية، بشكل من الاشكال والتي راحت الثورة تحاول ردها الى نحر القائمين بها ، كما يفصّل لنا ذلك جورج « له فيفر» . وهكذا بَدت الجمعية العامة بحكم المقضي عليها ما لم تتدخل الطبقات الشعبية في الامر بكل قواها . وسيقع امر جلل ، حادث جماهيري شامل سيمكن الثورة الخروج ظافرة مما يتهددها. فالأزمة الاقتصادية تشتد وتستحكم حلقاتها مما يسبب انهيار الاجور وارتفاع اسعار كلفة الحياة خلال هذه الحقبة التي يحاولون فيها رتق الفتق . فتكاثرت في البلاد الفتن واعمال الشغب واضطرب حبل الامن في جميع اطراف البلاد : فقطعت الطرق ، وسُدت الاقنية والممرات المائية وتعطلت أرصفة المرافىء حيث احتشدت الجماهير الشعبية تتصدى لمرور شحنات الحبوب ومنع تصديرها للخارج. وغمرت الفتنة الاسواق ومخازن التموين الكبرى، فاستولت عليها الجماهير وحاولت بيع ما فيها من ارزاق ومحاصيل بسعر ارتجلته مع رسم

اضافي . وثارت صفوف المصطفين بانتظار دورهم لاستلام قروناتهم وراحت تهاجم حواصل المؤن والمخازن والاهراء الخاصة بالاديار والرهبانيات الكنسية . وانتشرت الفتن واعمال النهب والشغب في دوائر البلديات ومكاتب وادارات جباة الرسوم البلدية وحول الدواوين الرسمية المكلفة جباية الرسوم والعوائد المفروضة ، وراحت البورجوازية نفسها تتدخل احياناً في الامر وتشارك هي نفسها باعمال الشغب هذه التي اخذت ترتدي ، اكثر فأكثر طابعاً سياسياً. وتراخت امام هذه الاحداث قبضة الجيش واخذت وحداته وافراده يفكرون ملياً بكل هذه الحوادث المثيرة ويستعرضون ، مع الجماهير الشعبية ، مشاكل الساعة . وفي اواخر حزيران وقع في باريس حادث دوى وقعه بعيداً في البلاد ، تمثل في تمرد الحرس الوطني .

واطلت على العاصمة باريس ، اذ ذاك ، فترة حاسمة استمرت ١٥ يوماً تميزت بالاعمال التي قام بها العمال وافراد الجيش . وبلغت الحركة ذروتها في ١٤ يوليو (تموز) اذ قامت في العاصمة مظاهرة جبارة ضمت بين صفوفها العديد من العمال والصناع واعضاء الحرس الوطني والفرسان ، فملأت جماهيرهم الغفيرة الحدائق العامة والميادين الرحبة ، وقد اهاجهم منظر القصر الملكي ، وتضخمت ، لتوافد الوافدين ، صفوف البورجوازيين الامامية ، وسرى بين الناس خبر التخلي عن نيكر ، صباح الاحد في ١٢ تموز يصب الزيت على النـار ويشعل برميل البارود . فعمت المظاهرات الاسواق والشوارع وراح افراد الحرس الوطني والجماهير يهاجمون الفرسان والخيّالة الملكية ، والكل يبحث عن الخبز والسلاح اينما وجدوا منه شيئاً ، واخذوا باشعال النار في الحواجز المنصوبة ويطردون مأمير الجباية بحيث راحت المواد الغذائية تصل بحرية تامة . وفي اليوم التالي ، اي في ١٣ تموز ، قامت الجماهير بنهب دير سان لازار ، في حي سان – دنيس على امل ان يجدوا فيه من المواد الغذائية مـا يشبع جوعهم . وراحت الاجراس تدق دقات الخطر تستنفر مناصري الثورة . وتألف على الفور حرس وطني دخلت فيه عناصر شعبية كثيرة الى جانب عدد كبير من ابناء البورجوازية . وفي ١٤ منه انقضت الجماهير على مخازن الاسلحة في الانفاليد ونهبتها وبدأت المناوشات حول الباستيل وتحت الضربات الشديدة التي انهالت على هذا السجن المشهور من قبل الجماهير في احياء سان انطوان والماريه ومن افراد الحرس الوطني ، انهار هذا المعقل القديم الذي يمثـل عصور الظلم والاستبداد والطغيان . وهكذا قام العمال والشغيلة بأول حادث حاسم في تاريخ الثورة .

وفي اليوم التـالي ، قـام الملك نفسه بزيارة للمجلس الوطني تعبيراً عن خضوعه واستسلامه وامر بابعاد الجيش . ثم اصدر امره في اليوم الثاني باعادة نيكر الى منصبه . ثم قـام في ١٧ تموز بزيارة ثانية للمجلس البلدي، لها من الرمز والمعنى ما للاولى، حيث يقدم مجلس «الكومتين» .

الثورة في المقاطعات الفرنسية

كان لثورة العاصمة دويها البعيـد في المقاطعات الفرنسية التي قامت بدورها بثورة عارمـة التهمت معها الاخضر واليابس . وعمت الثورة البلديات ، اينما كانت ، كما راحت الثورة تنشىء لها حرساً وطنياً خاصاً بهـا .

وهكذا جمعت البورجوازية بين يديها السلطة الفعلية والسلطة القانونية ، وانفجرت في الارياف الاحقاد الدفينة ضد الاسياد ، اذ كان الوقت وقت جباية الرسوم والعوائد المفروضة على ابناء الطبقة العامة . وأبت الجماهير دفع او تسليم شيء من هذه الرسوم فأجبروا اصحاب الحقوق الميلية على التخلي عنها ، واخذوا بمهاجمة الحصون والقلاع والغرف الحصينة ، وأوقدوا الحرائق في دور الوثائق والمخطوطات السيادية فأتت على قصور النبلاء وصروحهم والتهمتها . وموجة الهلع العام الذي اعترى الجميع ادّى بدوره الى حركة تسلح شاملة في البلاد . وزاد من قوة الدفع الثوري ، الفزع الذي دبّ في قلوب الارستوقراطية ، وسعر الخوف في قلوبهم عندما رأوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم. وكان الحرس الوطني يتغاضى عادة عن هذه الامور العنيفة .وفي هذا الوضع المؤلم الذي تخبطت فيه فرنسا ، وقع حادث الرابع من اغسطس (آب) الذي تمت فيه المناداة بحقوق الانسان .

الانتصار على البورجوازية المحافظة

تأثر المجلس الوطني نفسه بهذه الاحداث الجسام . وشعر عميقاً بالدفع الذي احدثته . وقد بدا من المحتملات الممكنة قيام اغلبية من الوسط واليمين تضم في صفوفها رجال المقاومة والداعين الى ثورة مسالمة تقف في وجه التيار المهتاج . مثل هذه الاكثرية كان يمكن ان تتألف بصورة طبيعية من ممثلي الطبقات الممتازة ومن قسم كبير من ممثلي الطبقة الثالثة القائلين بالتمثيل المضاعف . فمنذ حزيران ، وبعد اجتماع الطبقات الثلاث راح عدد كبير في صفوف البورجوازية ممن جزعوا لحوادث العنف التي ألمها الثوار يقومون بحركة تقارب مع ممثلي الاكليروس والنبلاء ، ليؤلفوا بشكل من الاشكال الطبقة الثالثة بقيادة مونيه وبرغاس وشمبيون دي سيسه وكليرمون تونير ولالي تولندال بعد ان عينتهم الجمعية الوطنيةاعضاء عنها في اللجنة التأسيسية . فالثورة الاصلاحية المجددة ُغلبت على امرها . فليس لها من سند ولا خلاص الا بانتصار الشعب . واخذ المجلس بالتصويت على القضايا الهامة بتسمية الاسماء بين هتافات المحبذين وصياح الناقمين الشاجبين . ان «خيانة» قسم من ممثلي الطبقة العامة بانضمامهم الى الارستوقراطية تثير الشكوك . وراحت رسائل التهديد المغفلة تنهال على مونيه ورفاقه . وخاف اصحاب المطابع على انفسهم من تحمل مسؤولية نشر خطبهم . فالصحافة الثورية تسيطر وحدها على الشارع . وراح رجال ١٤ تموز يهددون بالسير السافر على فرساي وصار الناس يخشون كثيراً « لوائح النفي والابعاد » كما كانوا يرجسون خوفاً من المراسلات المتبادلة مع المقاطعات وهي رسائل تشنع القول على رجال الاكليروس والنبلاء لمقاومتهم ، الامر الذي خشي منه على اشعال الحرائق من جديد في القصور والصروح .

واخذ المجلس الوطني يتأرجح بين اليمين وبين الشمال . فاعتصمت اكثرية النبلاء والاكليروس بالصمت حتى انها وقفت احياناً اسوأ المواقف . فهي لم ترض ، في الواقع يوماً بالهزيمة . ففي سلسلة الاخطار التي تهدد الثورة ، في نظر البورجوازية خطر الارستوقراطية يأتي في المقدمة

فهو خطر متصل ، مـــاثل في كل حين . فالتهديد الاجتماعي للطبقات الشعبية يـــأتي في الدرجة الثانية .

ولم تلبث اللجنة الدستورية ان استقالت في ١٢ ايلول ، فعاد البــار يسيطر ومعه سيس وهكذا غلب على امرهم نصراء الملكية ومريدوهم ومن بينهم ميرابو .

غير ان الملك لم يقر بعد ٥ – ١١ آب (اغسطس) كما انه لم يصادق على وثيقة اعلان حقوق الانسان . وعادت الارستوقراطية عودتها الاولى الى الدس والتبييت ، كما راح البلاط يستعد ليثأر لنفسه من حوادث ١٤ تموز . وراحت مجالس الاقضية تتحرك في العاصمة . ولعبت الصحافة اذ ذاك دوراً حاسماً . وكان يوسع الثورة في باريس الاعتماد كلياً ، هـــذه المرة ، على قوة جديدة : هي الحرس الوطني . والازمة الاقتصادية التي زادتها الازمـــة السياسية حدة وحرجاً ، اخذت تتسع وتزيد من اهاجة الخواطر . وكانت وليمة الحرس الملكي التي اقيمت في غرة تشرين الاول (اكتوبر) بمثابة اشعال الفتيل المتصل ببرميل البارود . واخذت الجماهير تلوح في الخامس منه بتنظيم مسيرة الى فرساي تتألف من الرجال والنساء وافراد الحرس الوطني انفسهم . وراحت الجماهــير تتناقل فيما بينها النداءات المثيرة : « الخبز ووضع حد للامور » اي الرضوخ للقرارات . فيخضع الملك للتهديد من جديد ويسلم بالامر الواقع ويصادق على هذه القرارات ويعود الى باريس على رأس الثورة المظفرة . « فالانتفاضة الثانية للثورة » التي طالمـا طالبت بها حركات باريس الثورية جاءت في حينها ، فالسلطتان الرئيسيتان في البـــلاد : الملك والمجلس الوطني هما بكامل تصرف الحزب القائم بالحركة . ومثل هذا الوضع سيمتد العمل به الى عام ١٨٩١ .

وامام تحالف من هذا النوع للقوى الثورية تفشل عملية هرب الملك الى فارين فيقع المقدور الذي باعد بين الملك والامة . ان محاولة هرب الملك لويس السادس عشر عملية كان بالامكان ان تنجح كما نجحت عملية هرب الامير . فالقدر الغاشم هو وحده الذي فضح هوية الهارب ، في الوقت الذي راحت فيه الدعوة للفرار وحركة تنقلات جيش بوييه تخلق بين الناس جـــواً مشحوناً بالتحسب والتحرز . فبعد الكشف عن هوية الملك اصبحت ماجريات الحوادث التي وقعت بين ٢١ / ٢٢ حزيران ١٧٩١ متوقعة ومنتظرة . فمن محلة ســان منهولد الى كليرمون ، الى فارين ، نشطت الاتصالات بين مختلف البلديات وفـــرق الحرس الوطني والجماهير الثائرة ، وراحت تستنفر بعضها البعض وتتخـــذ سلسلة من المناورات الجريئة فتخلخل صفوف الجيش وتدب الفوضى بين وحداته فيفسد الامر على بوييه وجيشه بعد ان عملت الدعـــاية الحاذقة في صدعه عملها الثوري الهدام .

ففي سنة ١٧٩١ كما في سنة ١٧٨٩ ، في جميع انحاء فرنسا كما في باريس نفسها ، وبالرغم من حادثة شان دي مارس المثيرة ، شالت لجهة واحدة كفة الميزان وهوت بكل ثقلها .

الفصل الثاني

عهد المؤسسات
الثورة والجمعية التأسيسية
(١٧٨٩-١٧٩١)

انهارت النظم السياسية والمؤسسات الاجتماعية التي عرفها العهد القديم في الاشهر الاولى من الثورة . فما ان مالت شمس عام ١٧٨٩ للغروب حتى كان حل محل هذه المنظمات الانجازات الكبرى التي حققها العهد القديم . فالامور الرئيسية وقعت ، قبل خريف ١٧٩٠ ، ولم يبق حتى ايلول ١٧٩١ ، موعد انفراط عقد الجمعية التأسيسية ، سوى بعض الاجراءات الثانوية .

فالاشياء والسمات التي ما زالت ماثلة على الواجهة لا يؤبه لها ولا يحسب لها حساب في البلدان الجديد . فقد أطل على الحياة مجتمع جديد ، مجتمع لا طبقات فيه ، ادارته وتوجيهه هما في يد البورجوازية .

اولاً — النظم السياسية

١ – الغاء النظام الاقطاعي

ثورة الفلاحين

انهال على الجمعية الوطنية ، من جميع الولايات والمقاطعات ، سيل من الرسائل والتقارير لم تترك في الاذهان اي شك او وهم حول مدى الاضطرابات التي قام بها الفلاحون ، في شهر تموز (يوليو) ، اي أبان موسم الحصاد ، طارحة على بساط البحث ، قضية الرسوم السيادية والاعشار المتوجب تأديتها .

قد استهدفت ملكية الارض ، في كل مكان من البلاد ، « لاكبر لصوصية مجرمة على الاطلاق » اذ اضرمت الحرائق في القصور وطرحت وقوداً للنار وطعماً لها مستندات التملك وكل ما ينهض دليلا على العوائد السيادية ورسوم الاعشار .

وقد لخصت لجنة العرائض والتقارير الوضع كما يلي :

« فالقوانين تبقى ميتة لا مفعول لها ولا من ينفذها ، والحكام لا سلطة فعلية لهم ولم يبق من العدل والعدالة سوى شبح عبثاً يبحثون عنه في المحاكم » .

وهكذا انفجرت « حرب الصماليك ضد الاغنياء » وسَمر الرُعب قلوب النبلاء بعد ان غُلبت طبقتهم على امرها مع الملك ، في ١٤ تموز وتنكّرت لها الطبقة الثالثة او الطبقة العامة ، فاصبحت موضع مِظنّة وارتياب ، في المدن والارياف ، ملاحقة في املاكها ، مضطهدة في افرادها. وحُرمت هذه الطبقة ، دفعة واحدة من كل شيء . وكذلك قل عن مصف الاكليروس العالي الذي تعرض ، هو الآخر ، ولو بدرجة أقل ، للاخطار ذاتها . فامام الطبقة الثالثة ، فرصة ذهبية عليها ان تستغلها الى اقصى حد ولو لفترة قصيرة ، وان تفيد من هذه القوة الشعبية العارمة لما فيه خير الثورة البورجوازية والجاحها ، وان تقوم بعملية توزيع غير متساوية بين فريقين ، وان « تصفّى » في الحال وتسجل دفعة واحدة ، في النصوص والوثائق الرسمية التي رسمت إلغاء النظام القديم « الاقطاعي » وقضت بالمساواة القانونية امام القانون ، اي انها حققت بضربة واحدة مزدوجة ، المساواة بين املاك النبيل واملاك البورجوازي ، كما ساوت بين شخصية النبيل وبين شخصية البورجوازي. فالفلاح الذي قام بالدور الاول في هذا الانقلاب الجذري الثوري كان من حقه ان يصيب ، اجراً له زهيداً ، مثل هذا الغُنم ، مثلاً في هذه المنافع التي عادت عليه من الغاء النظام الاقطاعي البغيض . وبذلك يهدئون روعه فيطمئن باله ، ويهدأ بلباله ولو اضطروا لاستعمال الشدة معه والقمع حيناً .

لم يبق للطبقة الثالثة ان احرزت في المجلس الوطني مثل هذا المركز القوي تحققه هذه الدفعة ، بحيث اصبحت الطبقات الممتازة تحت رحمتها ، لا مرجع لها ولا سند غير المجلس الوطني بالذات الذي اصبح في وسعه وحده ان يخفف من قبضة الفلاحين ويلطّف من شوكتهم الناخسة . فقبل الساعات الفاصلة من الرابع من آب (اغسطس) بدت الطبقة العامة ، في مجموعها، مترددة ، حيرى ، منقسمة على نفسها . والليلة الليلاء التاريخية التي سيلهج العصر كله بذكرها، ليست من ناحية خطة التنفيذ وتفاصيلها ، سوى عملية ارتجال ، قوامها التجربة والجرأة او الاقدام .

ليلة الرابع من آب

كانت ثورة الفلاحين تهديداً مباشراً للنظام السيادي ولكل ما يمثله او يرمز اليه . اجتمع اليسار المتطرف ، في ليلة ٣ – ٤ للبحث والمناقشة . واخذ المجلس الوطني في ٤ آب ينظر في التشكي من الاقطاعية . فالعملية تولاها ، في البدء ، ليس ممثلو البورجوازية في الطبقة العامة بل نصراؤها التوابع بين النبلاء ، كالفيكونت دي نواي ودوق دي غوبون وهو تكتيك كان في غاية البراعة طالما اعتمدوه ، فيما بعد ، عندما تستأنف الجمعية جلساتها لوضع الصيغة النهائية للقرارات التي تم الاتفاق بشأنها . وراح لويس دي نواي يشدد بحق على السبب « الاجتماعي » لهذه الاضطرابات والقلاقل التي هزت البلاد من اقصاها الى اقصاها . فلنعالج هذه الاسباب ! ان سكان الارياف وجماهير الرعويات لم تتقدم من الجمعية الوطنية ، بطلب دستور ، بل بالغاء الرسوم والعوائد والتخفيف من الفرائض السيادية . ودوق دي غوبون نفسه راح يعالج القضية نفسها ويبحثها . هنالك الآن ثورة شعبية عارمة

تهز الآن اركان المملكة . وما حديث الناس غير احاديث القرصنة واللصوصية ، ففي مقاطعات عديدة ، الشعب كله ثائر ، مهتاج يرعد ويزبد .

فهو يكون في مجموعه ، شبه عصابة ترمي لهدم القصور ونهب الاقطان وسلب الغلال والاستيلاء على خزائن المحفوظات حيث تصان سندات تلك الاقطاعين .

فالحل الوحيد المرتجى هو الغاء العوائد المفروضة والرسوم السيادية .

يجب ان نحدد ، قبل كل شيء ، مفهوم كلمة « الغاء » ، وما هو المقصود منها . فمن جهة الرسوم السيادية ، فالدائن لن تنزع حقوقه . « اذ ان هذه الحقوق تؤلف بالفعل ملكية قائمة... ولا يمكن مس الملكية على الاطلاق » . غير ان باستطاعة المدين ان يستهلك دَيْنه . فيدفع ما يترتب عليه ، مع الزمن . فقابل المجلس هذا الكلام بالتصفيق الحاد . ولم يشذ عن هذا الاجماع صوت واحد في صفوف الطبقات الممتازة حيث تتمثل على انها مباهج الحياة والثراء ... واذا بصوت يلعلع من بين صفوف الطبقة العامة محتجاً معارضاً ، صوت فرد ، وحيد الآن ، لا صدىً له ولا دوي ، صوت الاقتصادي ديبون من نواب الوسط — اليمين الذي شق عليه كثيراً ان يلحق بالنظام الطبيعي مثل هذه الاهانة ، على مثل هذه الصورة . وراح يتكلم عن القوانين وعن الحاكم وعن الازمة الاقتصادية . حادث يقع وينتهي الامر . وراح احد ممثلي الطبقة العامة ، يصل ما انقطع باعادة البحث في الموضوع ، فيقابله تصفيق داو كالرعد: لن يكون ابداً حقوق للانسان طالما هنالك رسوم وفرائض اقطاعية .

ليس عندكم من الوقت ما تهدرونه جزافاً . فكل يوم تأخير يتسبب في حرائق جديدة . الا ترغبون في اعطاء فرنسا للحاجة ، المهتاجة ،القوانين والتشريعات اللازمة لها ؟

واذ ذاك حدث مشهد رائع من التنازلات العفوية . ففي ليلة واحدة شهد العالم انهيار العهد القديم . وقبل انفراط عقد الاجتماع عند الساعة الثانية صباحاً ، راح المجلس يوجز مناقشاته ويضبط في محضر الاجتماع ، القرارات الخمس عشر الرئيسية التي اوحت بها الجمعية الوطنية ، واتخذت بشأنها التواصي بحيث ترتدي شكلها وتأخذ صورتها النهائية من الجلسات اللاحقة . في الطليعة من هذه القرارات ، المواد الست المتعلقة بالنظام « الاقطاعي » ، هذه المواد التي تنص على الإلغاء والاستبدال : الغاء الاسترقاق الزراعي (*Servage*) الذي لم يكن بقي منه سوى بعض الحالات النادرة الفردية والانعامات السيادية ، وحقوق الصيد المحتفظ بها للاسياد ، والتعويض عن الرسوم السيادية جهد المستطاع ، واستبدال ضريبة العشر التي يمكن ردها بيسر الى الريع السيادي ، برسم نقدي خاضع للشراء والاستبدال .

وليلة الرابع من تموز التي انطلقت عن ثورة الفلاحين تبدو وكأنها الليلة البكر الكبرى التي قوضت سلطة الاسياد ، فكانت بمثابة الفتح الاغر يحققه سكان الارياف . فلا يجوز التقليل من

اهمية الارباح والمنافع التي حققتها لهم . فالاقطاعية الرسمية تكاد وحدهـــا تـسقط بالنتيجة من هذه النصوص التي تَعدُ اكثر ممـــا تفي وتمنّ اكثر مما تُعطي . وعلى الاجمال « فالاقطاعية » الواقعية ، هذه الاقطاعية الاقتصادية بقيت معمولا بها . صحيح ان الارستوقراطية اكثرت من التنازلات الفرعية الا انها احتفظت بالنصيب الاطيب من التركة .

تحقيق المساواة

اما البورجوازية ، فالمغانم التي حققتها لم يكن ليستهان بها ، والحق يقال . فقد ساهمت من جانبها ، بوصفها مالكة لأراض شعبية ، ببعض التنـازلات المادية ، اسوة بالنبلاء . اما هذا البورجوازي ، المنافس الاجتماعي للنبيل ، فقد عاد عليه إلغاء الاقطاعية ، بأكثر من ذلك بكثير . فلم يبق ، بعد الإلغاء ، اراض سيادية واراض فلاحيـــة (*Roturière*) ، ولا إقطاع ولا َفدَن ولا من يحزنون . فالمساواة بين المتلكات حالة هيأت من قريب للمساواة في الحقوق المدنية . وعلى هذا قس ايضاً إلغاء حقوق البكورية هذه الحقوق التي تتناول ، في الاساس ، ممتلكات النبلاء .

وها هي المساواة المدنية ينادى بها عالياً وتعلن على الملأ في نهاية الامر . فابواب الوظائف العسكرية والمدنية مفتوحـــة على مصراعيها ، لجميع المواطنين . وكذلك الوظائف القضائية . والعادة المعمول بها في شراء الوظائف تسقط الى الابـــد وينسخ الاخذ بها من الآن فصاعداً ، كما تنسخ من الاستعمال حقوق وراثة مهنة المحاماة . والوظائف حتى الكبرى منها ، تنفتح ابوابها امام الجيل البورجوازي الصاعد ، فيدخلونه زرافات ووحدانا من البـاب العريض ، بعد ان كانوا يتسللون اليه ، من قبل ، تسللاً متحرزاً . فلم يعودوا ليقنعوا ، هنـــا ، بالمظاهر الفرارة الجوفـاء . فللبورجوازية حصة الأسد في الحال وتدأب بالتالي على تصفية مـــا تبقى من امتيازات ، لحسابها .

والمساواة المالية جاءت تجمّمُ كأس المساواة المدنية . فالفـلاحون سيفيدون ، ولا شك ، من هذه المكاسب ، ولو كان احياناً على حـساب احد النبلاء ، من سكان المـــدن أو على حساب مواطن ينعم بموجب اعفاء شخصي أو جماعي من بضريبة الخراج. هنالك بين اصحاب الامتيازات في العهد القديم ، مدن ومقاطعات َنعمت ، هي الاخرى ، بإعفـــاءات ضرائبية ، فاضطرت للتنازل عن هذه الامتيـازات التي خولتها وضعاً خاصاً متميزاً عن الغير ، في المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وأخذ الجميع يتسـارعون ويتنافسون في عملية التنازل عن امتيازاتهم المحلية أو الاقليمية ، وهي تنازلات لم تكن لتلحق باصحابها الضرر والخسارة كما لحق منها اصحاب الطبقات الممتازة . وهكذا تغيرت فرنسا وتبدلت منها الاوضاع الاجتماعية . فقد حدث في هذه الليلة شيء اشبه ما يكون بالخَلْق ، بالولادة الجديدة ،عن طريق هذا الاتحاد الوطني الذي صحح بالتراضي الارادي، هذا النظام التعاقدي الاستبدادي القديم الذي يعود منشؤه الى عهد ايام الفتح، اذ استبدلت في فرنسا كلها المَلكية الفيدرالية باتحاد وطني اساسه المساواة المطلقة .

كثيرون باركوا ليلة القدر هذه وغبّطوا ، وبحق فعلوا . فهذه الليلة التي تميزت بعملية هدم شامل مثير ، شارك فيها صاحب الغُرم والغنم ، جنباً الى جنب ، هي من هـــذه الليالي التي قلما يجيء بمثلها الزمن . فما من أحد ، والحق يقال ، من بين ممثلي هذه الطبقات المجتمعين معاً ، يفقد صوابه أو يضيع رُشده ، كما ما من أحد بينهم يتناسى مصالحه الحقة في هذه التصفية العـامة التي قامت اساساً على المساومات ، وفي هذه التنازلات التي امكن التعويض عنهـا ، وهي تنازلات وتصفية أخذ المجلس الوطني بكامل هيئاته علماً بها ، وضُبطت القرارات المتخذة بها ، بكامـــل دقة . فالممثلون للادوار الرئيســة في هذه المسرحية المأساة والنظارة على الســواء ، شعروا ، باتفاق الآراء ، انهم يعيشون « حدثاً مصيرياً » ، بحيث كان يُخشى على ضعاف القلوب ومفؤوديهـــا ، من شدة الفرح وهزة الطرب . فنحن هنا امام ظاهرة من هذا الشعور الجماهيري الغلاب ، لم يكن ، كما سنرى ، خاصاً بعام ١٧٨٩ ، بل على عكس ذلك ، كثيراً ما يتجدد بمثل هذا الفوران العارم ، خلال مناقشات رجال الثورة ومداولاتهم : تريث حيران يخشى من الاسوأ ويوجس من الانكى ، ويتوقع ما قد يكون أشد وأدهى ، فيصرفون من ذلك كله ، بمواقف اجماعية سمحاء ، يُغلفهـا الغموض حيناً ، ويشيع منها احياناً ، تفاؤل المنتصر وأمل الفائز المرجّى ، هذه الظاهرة التي غشيت ، في تلك الليلة التاريخية ، اعضاء المجلس الوطني الذي غمره الحماس والذي لم يكــن في كنانته خير ما يمنع عنه الخطل والشطط وخير ما يوقفه عند حافة الخطر .

ومع ذلك فالمبادىء ، والمبادىء وحدها ، تُعلن وينادون بها . فلم يبق سوى إعطائهـــا الصيغة القانونية ، وهي مهمة سينصرف لها المجلس الوطني بكليته ، خـــلال الاسبوع الواقع بين ٥ – ١١ آب – دون حاجة الامر بعد للاجماع الذي عرفناه من قبل .

قرارات ٥ – ١١ آب

وراح الاقطاعيون الذين دفعوا من جيبهم الخاص ، قائمة حساب ليلة ٤ آب (اغسطس) يتساءلون ، ما اذا لم يكن من المستطـاع لديهم ، الخروج بثمن أقل . فهل يوافق ناخبوهم ، في المقاطعات ، على ما قبلوا به والتخذوا له من قرارات؟ فلم يتعرض أحد لحصة البورجوازية . ولكن ماذا من أمر حصة النائب الاكبر ، حصة الجماهير ، في الارياف؟ أولم يُضحِّ ممثلو طبقة النبلاء ، اولم يعرّضوا الخطر بسرعة ، هذا الذي اعترف به المجلس الوطني « ملكاً » لهم ؟ فجاء ذلك اشبه ما يكون بمذبحة جديدة « من مذابـــح سانت برثلماوس » فيما يتعلق بممتلكاتهم ، كما بدا الامر لريفارول . هذا ما يمثل بالفعل رضى الطبقـات الممتازة وما يعني قبولها هذه التنازلات . وسيكرر ممثلو طبقة النبلاء ، فيما بعد ، مثل هـــذه الاقاويل عندما يتحدثون عن الليلة الليلاء ، عن ليلة القدر . وراح أحد النواب المعروفين بموقفهم المعتدل هو الكونت مونتلوزييه ، الذي غادر البلاد مهاجراً فيما بعد وانضم الى حركـة بونابرت وحارب الغلاة في عهد إعادة الملكية الى فرنسـا بعد سقوط نابوليون ، يدون في مذكراته قائـلاً ان العمل الذي تم في ٤ آب قامت به لصوصية أقرته لصوصية أخرى ، وكم من ممثل من ممثلي طبقة النبلاء فكروا ، وهم في مقاعدهم ، في المجلس الوطني ، مثل هذا التفكير ، خلال المناقشات

التي دارت حول الموضوع . وهل من عجب ان نرى ونسمع ، بعد هذا عن حوادث تنشـــع وخلافات في صفوف هذه الارستوقراطية التي طـــال صمتها في ليل ٤ آب . هنالك عدد من ممثلي هذه الطبقة ادعوا انهم وافقوا بشرط الرجوع الى استفتاء عام، بينما راح فريق آخر ومن بينهم تاليران يحاول الحد من التضحيات مستعينين على ذلك بابرز العناصر في القلب واليمين . الا ان المجلس لم يتنكر لنفسه . فبدلاً من ان يلطف من المبادىء التي أقرها فقد تجاوزها ، في كثير من الحالات وذهب الى ابعد مما تنطق به النصوص .

وعاد المجلس يسلك المسلك الذي سلكه في ٤ آب . هوذا ممثل عن طبقة النبـــلاء التي تنازلت عن حقوقها وامتيازاتها ، يتقدم بنص وثيقة التنازل ، كما يشير الى ذلــك موغورانسي. وها هو نبيــل آخر ، دي بورت ، من ممثلي باريس يضع النصوص النهائية لوثيقة إلغـــاء النظام الاقطاعي .

قضى المجلس الوطني على النظام الاقطاعي قضاء مبرماً ، بعد ان قرر بأن الحقوق والواجبات الاقطاعيـة والضرائبية ، على السواء ، ولا سيا ما تعلق منها بالرهونات العقارية العينية او الشخصية ، او بحقوق الارتفـاق الشخصية او ما يقوم مقامها، تلغى كلها بدون اي تعويض عنها . اما ما لبقى من هذه الحقوق والواجبات فيمكن التخلص منها بالشراء او الافتداء ، وفقاً لشروط التي يحددها المجلس الوطني . اما الحقوق التي لم يأت نص على إلغائها في هذه الوثيقة ، فتبقى قائمة، يجب استيفاؤها كاملا الى ان تسدد برمتها .

فالمجلس يثبت هنا القرار الذي كان اتخذه في الرابع (من آب) مع ما فيه من متناقضات ظاهرة وما يخفيه من محاذير . فهو يبقي بالفعل الرسوم « الاقطاعية » مــع انه ألغى الاقطاعية « كليـــاً » . فالارياف التي تحررت يجب ان تتحمل هي نفسها نفقات معاملات الافتداء او الافتكاك .

اما في ما يتعلق بالاعشار ، فقد ذهب اعضاء المجلس التأسيسي الى ما هو أبعــد من منطوق النص الاول واحكامه . فقد وقعت ، في هذا السبيل ، مناقشات صاخبة استمرت طويلاً . هل يمكن إفتداء هذا العُشر كما افتديت الحقوق السيادية ووفقاً للمرسوم الصادر بهـــذا الشأن ؟ او يلغى نهائياً.فالموضوع له اهميته الكبرى .فالقرارات التي اتخذت في الرابع من آب لم تعط الفلاحين اية ترضية مادية تستحق الذكر ،في هذا الشأن.وراح ممثلون عن الطبقة العامة يتولون الهجوم المركز بعنف مصرحين على رؤوس الاشهاد ان العُشر يؤلف ملكية كالريع السيادي ، مثلاً بمثل . فهو بالتالي ضريبة يمكن الغاؤها ككل ضريبة من هذا النوع . وراح ميرابو يفضح ببلاغته المعروفـة هذه الضريبة المرزحة التي تسبب الخراب لمن تقع عليه ، اذ تقتطع ثلث المحصول القـــائم .. «ضريبة مرهقة ارادوا ان يلبسوها لبوس الملكية» .وأصر الاكليروس من جهتـــه على الرفض باسقاطها والتمسك بها الى النهاية . فقضيته قوية من الوجهة الحقوقية . وراح أحــد كبار الفقهاء يؤيدها بالنصوص القانونية ، وله من منزلته الرفيعة وشهرته البعيدة في عالم الشرع والفقه مـــا يكوّن دعامة قوية للقضية . نعم ان العشر هو ملكية ، هو حـــق مقدس ككل ملكية ولا يمكن بالتالي التعرض لها ببحث الا من جهة شرائها او افتدائها.ووقف هذا الموقف الصلب نفسه

اعضاء بارزون في المجلس الوطني بينهم مطران لانغر ، و «لالوزيرن» شقيق الوزير نيكر احد اعضاء الجمعية البارزين ، والأب مونتسكيو ، والأب سييس المعروف عنه وقوفه الى جانب اليسار ومؤازرته له فأيدوا جميعهم القول بان العشر ملكية هي وتمم من هـــذا القبيل ، بحماية القانون . ولذا يجب ألا تلغى لصالح الاكليروس ولصالـــح الفقراء معـــاً . ومهما يكن فلا يمكن الغاؤها قبل استبدالها بشكل آخر ولما من أحد يهدم مدينة قبل ان يعلن مسبقاً عزمه على اعادة بنائها » . واعترت الحيرة المجلس أمام هذا الموقف من مواقف نزع الملكية الذي من شأنه ان يؤلف سابقة مخيفة . وقد بدا من المرغوب فيه كثيراً ان تستبدل هـــذه الضريبة التي يذهب جانب كبير منها جزافاً على يد كبار الجباة وعبثهم ، لتحل محلها موارد معينة ، محددة تستطيع ان تغطي الحاجات القائمة . كم من الكهنة المتواضعين يفكرون هـذا التفكير السليم ؟ ففي الوقت الذي كان فيه احد كبار خطباء الطبقة العامة يوضح من فوق منبر الخطابة كيف ان شراء هذه الضريبة او افتكاكها "يرزح صاحبها" راح عدد منهم يلقون اليه ببيانات عن تنازلاتهم. فكان ذلك ايذاناً بحركة عامة من التنازلات ، فحذا حذوهم عدد كبير من الكهنـــة . ولم يمض القليل حتى انهار كل أثر للمقاومة والصمود،وراح المطارنة ورؤساء الاساقفة يقومون هم الآخرون بتنازلاتهم . وجاءت الضربـــة القاضية على يد تاليران ، فراح اسقف اوتون يتلو نص المادة التي تجرد طبقة الاكليروس من هذا الامتياز ، فيقرها الجميع بالاجماع . فالاعشار تلغى بلا اي عوض او مقابل باستثناء ما كان اقتطع منها لاحد العلمانيين وصار خاصاً به .

قرار اساسي ، وان بقي لأمد وجيز مجرد وعد مقطوع . فالاخذ به والعمل بموجبه يبقى معلقاً ويستمر استيفاء العشر وبما يخرج المجلس باجراء قانوني يعوض معـــه على من حرموا من ضريبة العشر . وهذا المزارع القائم على حراسة زرعه والمدافع عن غلته ومواسمه فيرفض تسليم العوائد والرسوم المترتبة عليه ، يواجه المجلس برفض في غير محله . فقـــد ابقى واجب الاداء او التسديد لرسم قضى بالغائه بناءً على مسببات وحوافز عديدة .

والمرسوم العظيم الذي وضع في شكلها النهائي القرارات المبدئية التي اتخذت في ليل ٤ آب ، صدر في الحادي عشر منه . تشبثت البورجوازية ، من جهتها بأن يُدفع لهـــا نقداً في الحال ، فاستجيب طلبها باعطائها المساواة المدنية . اما الشعب ، فلم يُدفع له الا صبراً او عِـــدَةً او في مواعيد معينة وبمهلة عليه ان يؤمن هو نفسه قسماً من غطائها .

الحقوق الاقطاعية القابلة الافتداء او الافتكاك

فالمرسوم الذي صدر في ١١ آب لم يتخذ الا مبادىء أساسية . فعـــلى المجلس الآن ان يضع النصوص القانونية الصالحة للتطبيق ، كما عليه ان يستخلص النتائج العملية المترتبة على الغاء الاقطاعية ، هذا الالغاء الذي نصت عليه المادة الاولى من قانون الالغاء . وكثيراً ما يعمد الفلاح نفسه الى استخلاص هـــذه النتائج بدلاً من ان ينتظر من يستخلصها له ، اذ يمتنع بعناد عن تسليم الحصة المفروضة عليه من

غلة الموسم ، هذا ان لم يحاول ان يسترجع ما كان سبق له وسلّم من حصة مضروبة عليه ، كما انه هاد يتلف سندات تملك كبار الاقطاعيين ، هذه العملية الــتي كان باشرها في تموز الماضي . الا ان المجلس وقف منه موقفاً خشناً صلباً في بادىء الأمر . فراح يؤكد من جديد الغاء النظام الاقطاعي ويشدد على نصوص الالغاء واحكامها القطعية القاضية قضاء تاماً على كل اثر من آثار الاقطاعية الشرفيــة ، كما انه حافظ على كل المنافــع والامتيازات التي حققها الغاء الاقطاعية الاقتصاديــة .

ووفاقاً لاحكام القرار المتخذ في آب ، هنالك بعض حقوق (رسوم وعوائد) تلغى دونما مقابل بينما يبيح شراء او افتكاك بعضها بشرط وفي حالات تحددها النصوص .

تغتدي وتستحيل املاكاً بورجوازية : الحقوق والواجبات والرسوم الاقطاعية والعينية التي اعتبرت ، منذ القدم ، مؤسسات استثمار . وينزل هذه المنزلة احكام القرار الصادر في ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، وما هو بحكم حصة الحصيد الواجب تأديتها والرسوم المفروضة على التركات ، والملتزم المزارع ، والمؤجر الاقطاعي . فلا يمكن القانون الا الوقوف بجانب هــذه الالتزامات . وراح مقرر اللجنة مرلين ، المندوب عن الطبقة العامة في مقاطعة دوّاي ، والذي مارس المحاماة مدة ٣٥ سنة ، وصاحب المرافعات الطنانة والدعاوى الشهيرة ، والذي سنجده فيما بعد في مركز الادعاء العام في محكمة التمييز وكونت الامبراطورية ، يميز بين الاقطاعية السيادية واقطاعيــة الالتزام . فحــق التملك هو الذي يخشى عليه هنا ، والذي لا يمكن ان يتأثر ، بأي حال من الاحوال باعمال العنف او الاكراه . فلا يسع المجتمع الا المحافظة عليه والدفــاع عنه بكل قواه . فالتنازلات التي تتم بالاكراه او تجرى قسراً تبقى لاغية ، لا قيمة لهــا ولا وزن . ولذا صدرت التعليمات للبلديات ولمراكز الاقضية والمحافظات تحظر عليهم التدخل لصالح المكلفين او التصدي لجباية الرسوم المقررة ، وذلك تحت طائلة الالغاء والتعرض للملاحقة القانونية ، وتحمل مسؤوليــة الاضرار المتسببة . وأكثر المجلس من النصوص الزاجرة . فعلى البلديات ان تسهر على عملية الجباية ، وان تعمل على تفريق التحشدات التي ترمي التصدي لها والوقوف بوجهها ، بالقوة ، كما على الحاكم ان تلاحق عدلياً موظفي البلديات المتهاونين ، وعلى أفراد الحرس الوطني وأفراد الجيش ان يضعوا أنفسهم تحت تصرف الجباة ، ولا بأس من اعلان الحكم العرفي وحالة الطوارىء اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . وعلى هذا قس الاعشار التي صدر النص بالغائها والتي لا بد من تأمين جبايتها حتى غرة كانون الثاني (يناير) ١٧٩١ ، وهو التاريخ المحدد للتوقف عن جباية تحصيلها الى الأبد .

وهكذا قام بين المجلس الوطني وبين ثورة الفلاحين ، وضع أوجب اللجوء الى القوة المسلحة . فقد بدت عملية شراء الحقوق العينية في نظر صعاليك الملاكين عملية لا يمكن الأخذ بها في معظم الحالات . فهي كثيرة التكاليف من جهة اذ تبلغ كلفتها من ٢٠ — ٢٥ مرة قيمة الريع السنوي بالاضافة الى الحصص السابقة التي لم تسدد بعد ، كما يجب ان يضاف الى هذا كله العوائد والرسوم

المترتبة على انتقال التركات والتي يجب دفعها في الوقت ذاته ، وهي رسوم مفروضة على المواريث التي تتم في الارياف عادة ، بالوراثة ، من الأب الى الابن والتي قلما كان يُطلب استيفاؤهـا . هنالك بعض الملاكين يقومون بعمليات الافتداء او الافتكاك ، ولا سيا الاغنياء منهم ، هؤلاء الذين لا يستثمر معظمهم املاكهم بأنفسهم . وهكذا نرى ان الصعوبة لم تجد حلها بل انتقلت من محلها الى جانب آخر . فشراء هذه الحقوق المترتبة على المالك لا يفيد منها بالطبع الا هو ، وهو وحده تخلص من هذه الرسوم والعوائد وليس المزارع الذي يعمل في ارضه ، سواءاً أكان مرابعاً أو فلاحاً ، وبقيت همّاً عليه ، عليه ان يحسب لها الف حساب . فالحق المترتب على سيد مالك الأرض بالنسبة للسند في المنطقة جرى استبداله بحق آخر ترتب على مستثمر الارض نحو المالك البورجوازي في العقار الذي حل محل النبيل صاحب العوائد السيادية. وعلى هذا قس العشر ايضاً،فالمالك هو الذي يفيد وحدهمنالغاء العشر بموجب نصوص قرار ١١ آذار (مارس) ١٧٩١ . ويبقى على متعهد الارض او الملتزم ان يدفع الرسوم نقداً بينما يترتب على المرابع ان يدفع رسومه من الغلال بنسبة المحصول. فسواء اقتديت الرسوم المتوجبة بحسب النظام الاقطاعي او ألغيت،فهي تبقى قائمة على الفلاح يتوجب عليه اداؤها. وهذا الوضع يُفضي بالطبع الى المقاومة: المقاومة القضائية او الشرعية يداوررون معها ويداوررون ما مكنهم القانون وما شاؤوا ،او المقاومة غير الشرعية : سلبية كانت او ايجابية واحياناً بقوة السلاح ، الى ان تتحول ، في غالبية الأحوال ، الى مقاومة جماعية. فينتج عن هذا كله حرب اهلية ، حرب شعبية داخلية تتصدى للمجالس البورجوازية ، ومثل هذه الحروب استمرت نارها الى عام ١٧٩٣ ، اي الى ما بعد سقوط حزب الجيروند .

تدابير أخرى لتأمين المساواة يتخذها المجلس الوطني

قد يكون الفلاحون ، سجلوا حتى هذا التاريخ ، دفعات مهمة ، على الحساب قبضوا معظمها منذ طلوع الجمعية التأسيسية . منها مثلاً ، الغـاء العشر ، ابتداء من اول يناير ١٧٩١ ، فأفاد منها كل ملاك بينهم مع بقاء الضريبة على المستثمرين بينهم لاملاك الغير . وعلى عكس السياسة التي انتهجهـا النظام الملكي ، حرص المرسوم الصادر في ١٥ من آذار (مارس) ١٧٩٠ ، على توسيـع المشاعات التي تتألف منها الكومونات (*Communes*) على حساب الاسياد المحليين ، وذلك بمصادرة املاكهم واغتصاب اراضيهم وبالغاء الحقوق المترتبة عليها دونما مبادل . وعلى الاجمال ، فقد الغى المرسوم المذكور ، كل التعهـدات والالتزامات التي فرضتها الاقطاعيـة السيادية : كالرق المفروض على الارض (*Servage*) او القدانة الذي ورد نص بشأنـه في القرارات التي اتخذت في الرابع من آب (اغسطس) ، وغير ذلك من الرسوم المترتبـة على الارض ما لم تكن نتيجة اتفاق سابق ، فعلى القائم بالاستثمار والحالة هذه ، ان يأتي بالدليل على صحة دعواه ،والسخرات الشخصية، والسخرات العينية ما لم يثبت الدائن انها حصة تنازل منه عن مبلغ من المال او عن رسوم عينية ، وبعض رسوم الباج او الدخولية المفروض على نقـل البضائع في الداخل وانتقالها بين مقاطعة واخرى ، ورسم القبان ، وبعض الرسوم المحليـة على

المواد الاستهلاكية ، لمنفعة السيد الشخصي . وهكذا توارى عن الأنظار وارتفع عن الخواطر كابوس مرزح بزوال ما تبقى من الرسوم والعوائد الخاصة ، وكل ما تبقى من معالم العوائـــد البلدية . ففي نظام الكومون الذي عمل به عام ١٧٩٠ ، فالسيد « الماثل هنا » لم يعــد سوى بورجوازي كغيره من الناس .

وستبين ذلك جلياً لدى البحث في الغاء الحقوق والامتيازات الشرفية . فالمادة الاولى من مرسوم ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، نصت بالحرف الواحد على الغاء « كل شارات النبل الخارجية التي تنم على السيادة والسلطة الناجتين عن النظام الاقطاعي». وقد طبق أعضاء الجمعية التأسيسية نص المادة المذكورة الى اقصى ما تتسع له من مدلول ومفهوم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر تمامـــاً ، أي في ١٩ حزيران يلغى الغاء نهائياً حتى وراثة النبالة . وقد حُظر على الجميع اطلاق مسميات ومراتب شرفية : كالامير والدوق والكونت ، وحامل السلاح ، كما حظر على أي كان ان يحمل هو نفسه أو ان يلقب غيره بألقاب شرفية : كالسيد ، وصاحب السمو ، وصاحب السعـــادة ، وحظر تماماً استعمال شعائر النبالة والبزات الخاصة بها او الدالة عليها . وراح عـــدد من ممثلي طبقات الاشراف يحتجون باطلا على هذا الحرمان والالغاء . وقد حدث هنا ما حدث في الرابع وفي الحادي عشر من آب ، اذ راح النبلاء الأحرار يخوضون المعركة باندفاع كلي فيشجبون الادعاءات المضحكة التي توليها الجدائل والشعور المستعارة : وأهكذا يتكلمون في امـــيركا : المركيز فرانكلين ، والكونت واشنطون والبارون فوكس » ؟ وممثلو الطبقة الثالثة يتقدمهم : لاشابليــه ولانجوينه وروبل صوتوا الى جانب القرار بصفوف متراصة . وأخذ الشعب من جهته يسهر على تطبيق النصوص بحرفيتها ، ويراقب ، عن كثب ، تنفيذها بكل دقة . وقــد يسبق الجمعية نفسها احياناً فيقوم بحوادث دامية أمام بعض الالقاب السيادية الشرفية وشارات التكريم لبعض النبلاء ابان المراسم والحفلات الكنسيـة . وقد الغى القرار الصادر في ١٣ نيسان ١٧٩١ ، « كل الحقوق والامتيازات التكريمية المدرجة هنا والمرسومة للسيد الذي يناط به امر القضاء او لرب العمل » . فالمشانق وأدوات التعذيب التي افتنّت العدالة السيادية باستنباطها ، تلغى كلهـا الغاء قاطعاً، وكذلك تلغى الرياحات (*girouettes*) بوصفها من شارات النبل المميزة. فمحطمو الرياحات كانوا في الطليعة من هذه الحركة الثورة . فقد أصبح من حق كل مواطن ان يرفع على سطح بيته او رأس مدخنته رياحة . وقد أزيلت من الكنائس والخورص المقاعـــد والكراسي المتصوبة للسادة او الموقوفة على النبلاء . وقد وُجه النصح لاصحاب الامتيازات القدامى بان يتقيدوا « بالنصوص الرسمية الخاصة بالمقاعد المعينة لبعض الخاصة في الكنائس » . فـلـم يعودوا أول من يوزع عليهم الماء المقدس في المعابد والكنائس ، او القُربنية او البخور ، او قبلة السلام، ولن يكونوا بعد اليوم المتقدمين او الطليعة في المواكب والزياحات ، وفي حفلات التقـــادم . فعليهم ان يلغوا الوشائح السود التي تُلف بها أعمدة الكنائس في الجنائز الخاصة باصحاب المقامات، كما يجب رفع العلائم المأتمية التي تحمل شارات النبل ، سواءاً أكان في داخـــل الكنيسة أم في خارجها . فاذا ما حاولوا اللف والدوران والعب على النصوص ، والرجوع الى الالقــاب

والمراتب الشرفية : كالسيد والدوق والكونت « المشار اليه هنا » ، انصبت امامهـم نصوص المرسوم الصادر في ٣٠ تموز (يوليو) ١٧٩١ ، تذكرهم بوجوب التقيد بأحكام المنع . ومع ذلك تبقى ظاهرة العيان بعض شارات وعلائم النبل الخارجية . وفي اليوم نفسه تجري مناقشة حادة حول الموضوع ، فتتخذ الجمعية في الحال قراراً نـص على ان « كل مراتب الفروسية وما شاكل، وكل شارات الجمعيات وكل الاوسمة ، وكل شارة خارجية تولي حاملها تميزاً خاصاً ينم على شرف المحتد او الاصل ، تلغى تماماً في كل انحاء فرنسا » . وفي ايلول من السنة نفسها يقترح شبرود في حماسة لقامت النظارة واقعدتها ، بان يُحكم على المتمنتين الذين يرفضون الانصياع والامتثال بلبس طوق الحديد (Carcan) الذي كان يُحكم بوضعه على رقبة كبار المجرمين، ويعود القرار الصادر في ٢٧ منه فيقرر جزاءً نقدياً على المكابرين المتعنتين .

٢ – حقوق الانسان

الافتراع على وثيقة اعلان حقوق الانسان

اعلان حقوق الانسان والمواطنية الذي صدر بتاريخ ٢٦ آب، لا يقتصر قط على ترديد نصوص القرارات الصادرة في الرابع من آب التي قضت بالمساواة المدنية والضرائبية . فهو يكرس عالياً ويعلن حقوق الانسان بالحريات العامة كما يكرس ويعلن حق المواطن في السيادة . فهو يؤلف البراءة الكبرى الثانيـة التي صدرت عن الثورة الفرنسية .

وقد قوبل النص الاول لمشروع وثيقة حقوق الانسان الذي قدمـه لافاييت في ١١ تموز بالترحاب المتحفظ ، اذ كان الجميع تحت وقع تهديد الملك باستعمال القوة المسلحة . فاليمين كله على استعداد للوقوف موقفاً معارضاً للمشروع ، مقترحاً بالاحرى اعلان حقوق الملكية . وراح المجلس الوطني يقرر من جهته ان على الدستور ان يتضمن صراحةً اعلاناً عالياً بحقوق الانسان .

وجاء يوم ١٤ تموز يشجع الاخذ بهذا الاقتراح ، كما جاء ، من جهة ثانية تهديداً مباشراً له. فانطلقت الحركة واخذت الاقتراحات تترى على الجمعية : هذا يقدمه سييس، وذاك باسم تارجيه وذلك باسم مرفان . الا ان جانباً كبيراً من ممثلي الطبقة العـامة الذين أوجسوا شراً من الاضطرابات العنيفة التي وقعت وهزت ارجاء البلاد رأوا ان الخطر يهمن تارة هنـا وطوراً هناك ، بين الصفوف . ففي جلسة المناقشة الحادة الـتي عقدت في غرة آب ، راح النواب يتساءلون فيا بينهم ، ما اذا كان من المناسب او من اللائق طرح القضية عـلى بساط البحث من جديد . وراح النائب الملكي مالويه ، تحت ستار تقييم المشاريع المقترحـة على مكتب المجلس وتبيين حسنات وسيئات كل واحد منها على حدة، يلخص بالاحرى ويشدد علانية على الهواجس والمخاوف الـتي تساور الوسط – اليمين . وأخذ يشدد ، بنوع خاص ، على المخاطر الكامنة في التأكيد للناس انهم احرار وانهم متساوون، مع ان الوضع القائم او الراهن في المجتمع البشري، ليس هو في الواقع ، وفي أكثر الاحيان ، سوى تابعية مسلسلة، وعدم مساواة على طول الخط .

ومع هذا تبلغ منكم الجرأة على مماثلة الناس ومصارحتهم بانهم احرار :

بين مواطنينا عدد لا يحصى من الناس لا مقتنيات لهم ولا مال ، يعتمدون في معايشهم الحياتية على عمل مضمون وعلى أمن مستتب ، وحماية موصولة ، ترمد عيونهم احياناً ، لغير ما سبب ، من مرأى البذخ ويحرضون في ويلهم من رؤية الثراء .

فليس من يعتقد بينكم انها السادة ، ولا شك في ذلك اني اخلص من هذا القول بالاستنتاج ان هذه الطبقة من المواطنين ، لا حق لها بالتنعم بالحرية ... الا اني ارى ... من الضروري جداً ، لهذا الفريق من المواطنين في هذه المملكة ، جعلهم حظهم العاثر في وضع التابعية ، ان يقنعوا بالاحرى ، بما هيء لهم من الظروف التي تمت لهم والحالات التي تكتنفهم بدلاً من التشوق الى حريات اوسع والتطلع الى آفاق ارحب .

فهل نُباده الناس بانهم متساوون ؟ من الافضل ، قبل كل شيء التخفيف بالاحرى مما يباعد بينهم من فوارق مادية .

فلنهاجم هذا البذخ في الصميم ولنتصد لاسبابه ومبعثه . لتحل الروح العائلية ... ومحبة الوطن محل الحزبية وروح العصبية بيننا ، وعلى التمسك بالامتيازات والاعفاءات ... لننم فينا هذه الفضائل والمكارم ... لو لنحاول أقله ، غرسها في نفوسنا قبل ان نصارح بصورة جازمة هؤلاء الناس المتعبين وهؤلاء البشر المحرومين من كل لون ووسيلة ، بانهم متساوون في جميع الحقوق مع عظماء الارض واغنيائها

واذا بالمجلس يصرف النظر عن الموضوع ويشيح بوجهه عن هذه القضية . الا ان المعارضة تعاود الكرة متذرعة هذه المرة بوسائل جديدة ، فاذا كان لا بد من الكشف عن حقوق الانسان الطبيعية والاعلان عنها ، فلماذا لا نعنى بالمقابل ، بتوضيح الواجبات واعلانها في الوقت ذاته ؟ فتقابل الاكثرية الاقتراح المقدم بالرفض القاطع . واذ ذاك ، يتزحزح الوسط-اليمين ، ولو الى حين ، عن موقفه المعلن . فتقر الجمعية ، نهاية الامر بشبه الاجماع ، ان لا بد من ان يسبق وضع الدستور ، اعلان حقوق الانسان وحقوق المواطن .

ويطل الرابع من آب والجمعية على بضع ساعات من الجلسة المسائية . فالقرارات التي اتخذت اثناء الليل ، والمناقشات الحادة الطويلة التي تلتها ، اوقفت لاكثر من اسبوع ، النقاش في القضية المطروحة على البحث ، واذا بهم يعودون النظر في القضية في ١٢ منه .

وكان الوسط-اليمين قد اتخذ له موقفاً معيناً اساسه المشروع المفرط الحياد لاعلان الحقوق والواجبات ، هذا المشروع الذي اعده المكتب السادس في المجلس الوطني الذي كان يرأسه احد افراد حزبهم ، هو شييون دي سيه . فكان هذا الموقف مفاجأة للمجلس اوقعته في حيرة واربكته ، فتبنى نص هذا المشروع واتخذه اساساً للمناقشة . الا انه ابتداءً من العشرين في الشهر ، جرى في جلسة عامة اعادة النظر وصياغة جديدة جماعية في عملية عامة من التركيز والتحديد تتابع خلالها تشكيل اكثريات استرجعت بالتفصيل كل ما كانت فقدته بالجملة في القرار السابق . فلم يبق في وثيقة اعلان الحقوق التي تم الاتفاق بشأنها في السادس والعشرين ، شيء كبير من نص الاقتراح الذي تقدم في الاول .

المساواة المدنية

سبق للمجلس ونادى ، مرتين مختلفتين في الرابع من آب وفي الحادي عشر منه ، بالمساواة المدنية ، وسيعلنها مرة ثالثة . فلهذا التشديد المكرر مغزىً ومعنىً خاصان . ان وثيقة اعلان حقوق الانسان لا تأتي على ذكر الغاء النظام الاقطاعي الذي يؤلف نصراً مزدوجاً لحققه البورجوازية وجمهرة الفلاحين . الا انها تحرص على ان تكرر النص الخاص بالمساواة ، هـذا النص الذي يكرّس النصر ويحمل منه انجاز البورجوازية الامثل في الدرجة الاولى ، القائم على المساواة الشرعية مع النبلاء .

واعضاء الجمعية التأسيسية يعمدون مع ذلك الى اعـلان المساواة المطلقة لما فيه خير الناس اجمع . فالخوف الاجتماعي الذي عبّر عنـه مالويه في خطابه كان يشع من كل تعبير من تعابير المكتب السادس . فالصيغ الصريحة السامية التي تقررت اثناء الجلسة نزولاً عند ضغط الرأي العام تنطق عالياً وتعبر خير تعبير عن الفوز المبين الذي سجلته الحركة الثورية .

نص مشروع المكتب السادس	النص النهائي
مادة ٤ ـ لكل انسان من الحقوق ما يتساوى مع ما يتمتع به من حرية وملكية .	المادة الاولى ـ يولد الناس ويظلون متساوين في الحقوق . فالفوارق الاجتماعية لا يمكن ان ترتكز الا على المنفعة المشتركة.
مادة ٥ ـ لم تجد الطبيعة على كل انسان بـذات الوسائل التي تخولهم الافادة بنسبة واحدة من هذا الحق. من هنا نشأت حالة عدم المساواة بين الناس . فاللامساواة هي من صميم الطبيعة البشرية .	
مادة ٦ ـ نشأ للمجتمع البشري على الشعور بحاجة المحافظة على الحقوق تجاه عدم مساواة الوسائل .	

وستحرص هذه الوثيقة على ان تلبنى وان تذيع ، من جديد ، بعد التأكيد المطلق بالمساواة كما نصت على ذلك المادة الاولى ، النتائج المنبثقة عنها ، هـذه النتائج التي نجدها بحرفها الواحد، او مضمرة في صلب النصوص التي تم الاتفـاق عليها ، يوم ٤ و ١١ ، اي وفقاً للمساواة المدنية والمساواة الشخصية والمساواة الضرائبية . فالنصوص الـتي وضعها المكتب السادس وتلك التي وضعتها الجمعية تحمل الفوارق التي اشرنا اليها اعلاه :

لما كانت لولى واجبات للمواطن خدمة المجتمع وفقاً لطاقته ونبوغه . فمن حقه ان يضطلع بأي خدمة عامة .	المواطنون متساوون في نظر القانون ويحق لهم تسلم الوظائف والخدمات العامة وفقاً لكفاءتهم وطاقتهم . افضلهم أقومهم خلقاً واوفرهم استعداداً .

وعلى كلمة « الواجب » و « الخدمة » استعملت الجمعية كلمة مساواة التي هي اساس كل حق .

الحريات

وعلى عكس المساواة المدنية تم اعـلان حق التمتع بالحرية للمـرة الاولى : الحريات الفردية والحريات العامة وحرية العبادة .

لم تُثر الحريات الفردية او الشخصية اية صعوبة . وقد برهن الاطلاع على بيانات الطبقات

وتقاريرها عن اتفاق عـــام في هذا الشأن . وسيعطي النص الذي جرت الموافقة عليه ، مرة اخرى ، القضية الاساسية قـــوة اكبر ويبرزها بشكل اوضح من النص الاول الذي ورد في مشروع الاقتراح ، وسيظهر في مقدمـــة وثيقة اعلان الحقوق . فالعمل بموجبه سهل يسير : « لا يمكن اتهام اي انسان او توقيفه او سجنه الا في الحالات التي ينص عليها القانون ، ووفقاً للانظمة المعمول بهـــا . ويتعرض للملاحقة القانونية كل من يصدر اوامر استبدادية او يبلغها او ينفذها » . والعقوبات الـــتي يتعرض لها المخالف لا تتضمن اي شدة لا محل لها . واللجوء الى الشدة يجب ان يكون « حسبما تقتضيه الضرورة بشكل واضح » . فالقانون الجنائي لا يمكن ان يكون له مفعول رجعي .

وتضيف الجمعية التأسيسية الى هذه الحريات الاساسية ، حرية المرء في التنقل والانتقال . فهو حر « بأن يذهب وان يبقى وان يسافر الى اي مكان يرغب فيه » .

والحريات العامة تتناول حـــرية النشر ، وحرية التعبير ، وحرية الاجتماعات السياسية وفقاً للعرف وكما سينص عليــه القانون ، بعد حين . الا ان الاتفاق هنا ليس تاماً ، كما نرى ، اقله فيما يتعلق بالصيغة وببعض الفروق والتحديدات. فالمعارضة الجدية تأتي من قبل رجال الاكليروس: « هنالك خطر على الدين والآداب في اطلاق الحرية الصحافة » . وكان من العسير جداً تحقيق شيء من التفاهم العـــام حول الموضوع . والنص النهائي الذي تم قبوله وأقر في النهاية ، نحن مدينون به لاحد النبلاء الاحرار هو الدوق لاروشفوكو ، وهو كما يلي :

التعبير عن الافكار والآراء هو من اثمن الحقوق التي يتمتع بهـــا الانسان . فلكل مواطـن حرية الكـــلام والكتابة وحرية النشر بشرط ان يتحمل مسؤولية تجاوز هذه الحرية ، في الحالات التي ينص عليها القانون.

وستضيف الجمعية التأسيسية ، فيما بعد ، نصاً يتناول الغاء المراقبة والغاء التحري وبالفعل بقيت الصحافة وستبقى حرة بالرغم من الملاحقات التي قامت بها الجمعية التأسيسية ، بعد ذلك بقليل، ضد من يسيئوا استعمال هذه الحرية بنظرها او ضد من يقومون بالتحريض على العصيان. فقرار ١٧ آذار (مارس) ١٧٩١ الذي الغى الجمعيات واعترف لكل صاحب مصلحة بحرية القيام ، باي نشاط اقتصادي يرغب القيـــام به . وقد حرر من جهته المهن والحرف الخاصة بالطباعة وتجارة الكتب .

ومبدأ حرية الكلام الذي جرى اعلانه واقراره بعيداً عن هـــذه التضييقات التي رافقت الاعلان عن حرية الصحافة ، يتضمن ما يشير الى حرية الاجتماع ، هذه الحرية التي لجأت اليها الثورة واستعملتها على نطاق واسع . وقـــد صدرت ، فيما بعد ، قوانين كرست هذا العرف . وبحسب منطوق المرسوم الصادر في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر)١٧٨٩ ، يتمتع المواطنون بحرية عقد الاجتماعات بهدوء ، عزلاً من السلاح في جلسات خاصة بقصد وضع العرائض والالتماسات .

وبعد ذلك بأقل من سنة ، طلع قرار ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ الذي أيـــد من

جديد ، حرية الاجتماع ، كما ان الجمعية التأسيسية نفسها ادرجت هـــذه الحرية ضمن المبادىء السياسية التي اعلنتها .

كذلك استعملت الثورة على نطاق واسع حق تأليف الجمعيات التي قامت الى جانب هذه النوادي العديدة من كل لون وصنف . وقد جرى الاعتراف بهذا العرف بموجب القرار الصادر عام ١٧٩٠ ، هذا القرار الذي اجاز تشكيل جمعيات حرّة ولا سيما لمواد سياسية . الا ان وثيقة اعلان حقوق الانسان ، والدستور نفسه لا يشيران الى شيء من هذا . وفي اواخر عهد المجلس الوطني ، حرصت الجمعية التأسيسية ، عند قيام الحركة الرجعية التي ظهرت اثر حادث اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، على تنظيم هذه الجمعيات وضبط نشاطاتها ، وذلك باصدارها القرار المؤرخ ٢٩ – ٣٠ ايلول ١٧٩١ . فقد كان سبق لها وحظرت ، كما سنرى بعد قليل ، انشاء الجمعيات المهنية والعمالية . وباستثناء هذا النوع من الجمعيات ، ساد البلاد نظام من الحريات العامة ، بصورة مؤقتة .

وقد حدثت مناقشة حادة لدى البحث في حرية الضمير . وهنـــا ايضاً قام أحد النبلاء المتحررين ، هو الكونت دي كستلان يقترح مـــا ألّف القسم الجوهري من صلب النص الذي تمت الموافقة عليه .

والصيغة التي تم تبنيها اختلفت كثيراً عن النص الاساسي الذي قدمه المكتب السادس .

المادة ١٦ – لما كان ليس في وسع القانون ان يطال الجنح الخفية ، وترتب على الدين وعلى الاخلاق ان يسدا هذا السد . فمن الضروري والحالة هذه ، محافظة على حسن النظام في المجتمع ان يلقيا الاحترام اللازم .	(فصلت هذه المادة وارسلت الجمعية التأسيسية لمناقشتها) .
المادة ١٧ – الابقاء على الدين يستدعي حتماً قيام عبادة علنية . ولذا لا بد من احترام مظاهر العبادة العامة .	(فصلت وارسلت الجمعية التأسيسية لمناقشتها) .
المادة ١٨ – كل مواطن لا يعتنق هذه العبادة يجب الا يتعرض لاي ازعاج كان .	المادة ١٠ – لا يجوز ازعاج اي كان لآرائه الدينية بشرط الا يؤدي التعبير عنها الى الاخلال بالنظام العام الذي اقره الدستور .

احل المجلس الوطني محـــل المشروع الذي ضمن الحقوق الدينية وحرية الاعتقاد والحريات الشخصية ،نصاً كان على الجمعية التأسيسية استكماله ، ولم تَستَبْقِ منه الا ما تعلق بحق الفرد في حرية الرأي حتى في امور الدين ، والتساهل المشروط لاقامة مناسك العبادة . فنحن لم نصل بعد الى حرية الضمير . فالمساواة التامة في الحقوق لم يُسلم بها لغير الكاثوليك ، الا في الرابع والعشرين من كانون الاول ، بينما استثنى نص صريح ، اليهود ، من هذا التدبير العام . فالقرار النهائي بشأنهم لم يصدر الا عام ١٧٩٠ و ١٧٩١ .

ووثيقة اعلان حقوق الانسان سجلت في عداد حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن نسخها على الاطلاق ، حق التملك وحق التمتع بالطمأنينة ومقاومة الضغط ، وهو قرار تمت الموافقة عليه بالاجماع . فلتملك « هذا الحق المقدس الذي لا يمكن مسه ولا يمكن إنكاره على الانسان أو تجريده منه الا اذا اقتضت ذلك ، المصلحة العامة ، ولقاء تعويض عادل سابق» نص صريح تقدم به احد نواب اليسار هو السيد دي بور .

السيادة

هذه الحريات والمساواة المدنية وحق التملك، كل هذا في مقدور طاغية مستبد ان يعترف بها عند الاقتضاء . تبقى بعد هذا ، قضية السيادة . وراح اذ ذاك بعض البروسيانيين يزعمون ان النظام الملكي الفردريكي، قد رسم من قبل ووضع بكلفة أقل، اساسيات كل حكومة ، هذه الاساسيات التي راحت الجمعية التأسيسية تقتفي أثرها وتحذو حذوها . الا ان الثورة الفرنسية جاءت من اسفل وطلعت من تحت فنادت بحقوق المواطنين في السيادة . فهي انبثقت من صميم الانسان وبواسطته لتعمل وتجري كل ما يعود عليه بالنفع .

فمبدأ السيادة الوطنية مبدأ عبرت عنه وطالبت به باتفاق الآراء تقريباً كل مشاريع القرارات التي رُفعت الى مكتب المجلس ولو بصورة نظرية ، مجردة : من مشروع مونييه الى مشروع لافاييت ، الى مشروع سييه . ان مشروعاً واحداً من هذه المشاريع يكاد لا يتعرض لهذا الموضوع بشيء . فاذا ما راح يؤكد : « ان القانون انما هو تعبير عن ارادة الامة ، فعلى كل مواطن ان يسهم مباشرة باعداد هذا القانون . فقضية السيادة تُعرَض الآن عرضاً جانبياً . فلا يؤتى قط على ذكر الملك أو الدولة ، حتى في أي من مواده الاربعة والعشرين.

تثبت وثيقة اعلان الدستور بالحرف الواحد ، تقريباً نص المشروع الذي قدمه لافاييت في ١١ تموز ، هذا المشروع الذي تبناه في ما بعد كثيرون ولا سيما مونييه . وقد نص فيما نص عليه : « ما من هيئة او فرد كان ان يمارس سلطة ما لا يكون مصدرها الامة » . ولعل ذلك من اتفاق الصدف بين الثورة المسالمة والثورة المجددة . فالاختلافات لم تلبث ان برزت حالاً على حدتها ، تماماً كما حدث بعد ليلة ٤ آب ، اذ نشبت المعركة حول تطبيق المبدأ .

وقد جرى التصويت على المواد الاخيرة من وثيقة اعلان الحقوق في السادس والعشرين . ورفضت الجمعية في السابع والعشرين منه مواداً إضافية أخرى . واحتدم النقاش في الجلسة ذاتها بشأن الدستور حيث عادوا لقضية السيادة يستجلون مدلولها .

ما من احد في الجمعية التأسيسية وما من تيار فكري او سياسي في البلاد فكر يوماً أن يكون النظام المعمول به غير نظام حكومة دستورية او النظام الملكي فهو أمر فوق كل جدل ونقاش . ولكن كيف يمكن التوفيق بين الامتيازات الملكية والسيادة الوطنية ؟ وكيف يتأتى التعبير ، من جهة ثانية ، عن « الارادة العامة » ؟ هل تحال القضية الى مجلس واحد تختاره البلاد ليفتي في الأمر بقرار يصدره بهذا الشأن أما يجب ان تقوم سلطة تمثيلية لهذا الاستمرار

الوطني تأخذ على نفسها استخلاص فرنسا من هذه التبدلات وليدة النزوات العابرة؟ وهذه السلطة قد تكون ممثلة في الملك أو في مجلس الشيوخ أو في الاثنين معاً ، يتمتع كل منهما بحق النقض. وراح المقرران : لالي تولندال ومونييه يختاران الحل الأخير : حق نقض ملكي وحق نقض في مجلس الشيوخ ، لا حد له ، كما هو مفروض . اما حق الرفض التوقيفي فليس هو سوى مجرد حق يدور على الشجب أو الانتقاد .

وهكذا يتم التوازن بين السلطات . فالقول بمجلس وحيـد ، من شأنه ان يعرّض الدولة كثيراً لمناقضة نفسها بنفسها ويوجد فيها وضعاً مستمراً من عدم التوازن يساعد على إقامة الطغيان الديموقراطي في البلاد :

سلطة وحيدة في البلاد ، لا تلبث ان تلتهم كل شيء .
لا بد لسلطتين تمارسان الحكم في البلاد ان تفضيا الى نزاع لن ينتهي قبل ان تقضي الواحدة منهما على الاخرى .
اما مع ثلاث سلطات فمن المعقول لن تبقى البلاد في توازن عام . انما يجب تشكيل هـذه السلطات بحيث لو قامت اثنتان منها بمخاصمة الواحدة الاخرى اعادت الثالثة الهدوء الى البلاد .

يجري انتقاء اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي « من بين جميع الطبقات » ، أي من بين ابناء الطبقات الثلاث . ويمكن ان يقوم بعملية التعيين هذه الملك وممثلو المجالس الوطنية ، أو الملك وممثلو مجالس المحافظات أو ممثلو هذه الهيئات وحدها . ويكون في ذروة المنى ان يُعمل بالوراثة في الوظائف ، غير ان الرأي العام الحالي لا يسمح قط بذلك . ولذا يجب الركون الى التعيين الدائم أو لمدة معينة ، وفي الحالة الاخيرة ، فرض شروط صعبة يجب ان تتوفر في من ينتخبونه .

يهم المالك الغني اوكثر من سواه ان يستتب الامن في البلاد ، ويخشى جداً لاكثر من سبب هذه الانتفاضات المتجددة .

وراح اليسار يعارض بشدة هذه الحجج عن طريق الصحافة وإثارة الشارع . فكيف السبيل الى اصلاح المفاسد أو المساوىء مع مجلسين يحاول كل منهما الشد بالحبل من طرفه الخاص . ولن يلبث مجلس الشيوخ أن يصبح ، شئنا أم أبينا ، ملاذ الارستوقراطية ، لا سيما عندما يكون اعضاؤه غير قابلين العزل أو معينين من قبل الملك. وبذلك « تتحكم الأقلية بالأكثرية » كما يلاحظ لانجونيه بحق . هل يكون من المنشأ ذاته وتتم له بالتالي ، القيمة التمثيلية التي للمجلس الثاني ؟ في مثل هذا الحال لا خير منه ولا فائدة . فالاقتراع الذي جرى في العاشر من ايلول كان بمثابة كارثة على اللجنة الدستورية ، صوت ٨٤٩ عضواً ضد مشروع مجلس الشيوخ كما اقترحه مونييه ، مقابل ٨٩ غياب ، و ١٢٢ امتنعوا عن التصويت .

حق الملك بالرفض

تناول الشق الثاني من المناقشة حق الملك غير المقيـد بالرفض . فالقضية تبقى في الصميم ، حيث هي . ففي حـال غياب أو عدم وجود مجلس الشيوخ ، الملك وحده يمثل عنصر الاستمرار « المحافظ » ، في الجسم التشريعي .

وراح مونييه يطلق باسم اللجنة الدستورية قائلاً :

« لا نعرف حكومة قط تعتمد في عملها الاداري على ارادة الجماهير وحدها... من واجب اللجنة المقدس ان تعرب هنا امامكم عن المخاوف التي تساورها والنتائج الوخيمة التي تتوقعها من نظام ديموقراطي يدعي الفصل في خلاف الملك وممثلي الامة ، من لهم حق الاقتراع في المحافظات ، او ان نترك للممثلين الجدد حرية القضاء على كل ما يعرض انقسام السلطات على نفسها » .

فحق الرفض غير المقيد في شخص الملك هل يترك المجلس في وضع يستحيل عليه معه الدفاع عن نفسه ؟ فميرابو لا يرى ذلك قط . وهذا سبب من الاسباب التي حملته على التصويت الى جانب هذا الرأي . باستطاعة ممثلي الامة أن يردّوا على أي رفض لا يراعي المصلحة ، بتدابير جذرية حازمة وقاسية ، شديدة الفعالية ، منها مثلاً عدم إقرار ضريبة الاراضي وعدم التصديق على الاعتمادات الحربية .

وراح معظم الخطباء الذين تعاقبوا على الكلام يأتون بحججهم ضد حق الرفض غير المقيد الوصول بذلك الى حق رفض توقيفي او تعليقي ، والا لم تخرج « القرارات التي تتخذونها – كما يقول لانجوينه – عن كونها مجرد التماسات لا غير » . وقد عارض نيكر ومجلس الوزراء هذا الاتجاه واعرب نيكر رسمياً عن موقفه هذا . ولم يجر الاتفاق ، والحق يقال ، بشأن تحديد مدة الرفض التوقيفي . وقد التف حول المبدأ غالبية ضمت ثلثي اعضاء المجلس . وفي الاقتراع الفاصل الذي وقع في ١١ ايلول ، اندحر المعتدلون من جديد . فنتائج حق الرفض قد تستمر طوال مدة المجلس ، على الاقل ، اي مدة سنتين . ورفض الملك يرتفع من ذاته في الدورة التشريعية الثانية التي تأتي بعد الدورة التي صدر فيها الرفض الملكي .

وهكذا فالكلمة الاخيرة تبقى للامة بعد فترات قصيرة ، ما لم تحدث ظروف خاصة كاعلان الحرب مثلاً ، تقصد على الناس مفهوم الزمان والطوارىء .

٣ – الديمقراطية البورجوازية
نحو ديمقراطية قوامها دافعو الضرائب

فالامة التي يمثلها مجلس تشريعي وحيد لا يلبث ان تعلو فيها ، بعد لأي قصير ، كفة الامة على كفة الملك . ولكن من هذه الامة السياسية يستثنى شطر كبير من الشعب . فبالرغم من مبدأ تساوي المواطنين في الحقوق ، هذا المبدأ الذي وعد باعتماد الاقتراع العام ، اقر المجلس الاقتراع المبني على المكلفين .

مواطنون عاملون وسلبيون

فالمجلس الوطني لم يفكر يوماً بالاتجاه الاول . ففي نظر الاغلبية الساحقة من اعضاء الجمعية التأسيسية ، كانت الملكية الضمانة الوحيدة التي تنهض على التجربة والروح الاستقلالية والحكمة الاجتماعية ، والتي يمكن ان تعتبر بالفعل الاساس الوطيد للمواطنية . وقد رضي فريق من المعتدلين ، بينهم مونييه ورفاقه الذين كانوا يسيطرون على اللجنة الدستورية ، منذ شهر آب ، ان يشارك في عملية انتخاب ممثلي الامة : « اكبر عدد ممكن » من الناخبين ، ناخبين من الدرجة

الاولى ، على الاقل ، اذ ان عملية الاقتراع تجري بشكل غير مباشر اي على درجتين . فالحد يتم بتعيين من تتوفر فيهم شروط الانتخاب ووسائل اخرى : كالمجلس الاعلى وحق الرفض المزدوج المطلق . ان مدى اتساع حق الاقتراع في الدرجة الاولى من شأنه ان يقيد الجمعية التأسيسية ويطبعها بطابع خاص كما يرى الوسط اليمين .

وكان من رأي توريه ، مقرر اللجنة الجديدة ، ان تُعطى صفة المواطن العامل وبالتالي حق الاقتراع ، في الدرجة الاولى ، لهؤلاء المواطنين من الفرنسيين الذين يتوفر فيهم الشرطان التاليان: صفة الاستقلال الذاتي اي ان لا يكونوا من الاجراء ، ويدفعون ضريبة مباشرة قيمتها قيمة ثلاثة ايام عمل ، اي من ليرة ونصف فرنسية الى ثلاث ليرات ، وبعبارة اخرى اي ما يقرب من فرنك ونصف الى ثلاث فرنكات الجرمينال وعبثاً راح الاب غريغوار يلوح بخطر ارستوقراطية الاغنياء ، كما راح دي بور وروبسبير يلوحان بوثيقة اعلان حقوق الانسان . وعلى عكس ذلك ، راح دوبون دي نيمور بوصفه من اكبر علماء الاقتصاد المبني على الزراعة ، يحاول حصر حق الاقتراع في الملاكين وحدهم . واخيراً اقرت الجمعية المشروع الذي اقترحته اللجنة .

وهكذا جعلت الجمعية التشريعية من ٤٬٣٠٠٬٠٠٠ مواطن فرنسي مواطناً عاملاً كما جعلت نحواً من مليونين مواطنين سلبيين . وهكذا اصبح في وسع ثلثي الفرنسيين ان يقترعوا . واسقط القانون حق الاقتراع ، تلقائياً ، عن الأجراء الذين هم في خدمة الغير او الفعلة الذين يعملون مأجورين في الحقول ، ممن يؤلفون شطراً كبيراً من البروليتارية في الارياف . ولا يدخل في هذه الفئة طبقة المزارعين والمرابعين والصناع وكذلك جمهرة صغار الملاكين واصحاب الاملاك الموزعة والمشتتة وان كانوا عمالاً او مياومين . ففي مقارنة هذا الوضع بالوضع الآخر الذي أوجد رجوع الملكية « المتحررة » بتخويلها حق الاقتراع للمواطن الذي يدفع من الضرائب ٣٠٠ فرنك فاذا بعددهم يبلغ ٩٠٬٠٠٠ ، او مقارنته بالوضع الذي اوجدته الملكية في تموز ، اذ حصرت حق الاقتراع بمن يدفع ٢٠٠ فرنك ضريبة ، فبلغ عددهم ١٦٠٬٠٠٠ ناخب عام ١٨٣١ .

من الواضح ان ملايين المواطنين من دافعي الضرائب الذين اعطتهم الجمعية التشريعية حق الاقتراع، يشاركون في تأليف الهيئات الاولى التي يوكل اليها اختيار ممثليها للاشتراك في انتخابات الدرجة الثانية . فلم يخطر للعهد اي تدبير او وسيلة اخرى لانتخاب الهيئات التشريعية . في هذا النظام من انتخابات الدرجة الاولى الذي وضعته الثورة ، ينتخب النواب مندوبين من قبل الشعب يُعهد اليهم الاقتراع في بالدرجة الثانية لانتخاب ممثلي الامة . اما الانظمة الاخرى التي عرفها القرن التاسع عشر والتي اتخذ اساساً لها دافعي الرسوم الضرائبية، فلم تكن لتنتخب هذه الهيئة بل تعين تلقائياً من بين دافعي الضرائب .

الانتخاب الضرائي

وبرز الاختلاف حول حق الانتخاب . فمندوبو انتخابات الدرجة الاولى الشعبية الذين يتولون هم انفسهم انتخاب ممثلي الشعب الذين تتألف منهم الجمعية التشريعية ، جرى انتخابهم وفقاً للقـــرار صدر عام ١٧٨٩ ، من بين دافعي الضرائب المباشرة ، مبلغاً يعـــادل قيمة عشرة ايام عمل ، اي ما تتراوح قيمته بين ٥ – ١٠ ليرات . وهكذا نرى ان ثلاثة ارباع المواطنين العاملين يتوفر فيهم هذا الشرط ، وهكذا تبدو قاعـدة الانتخابات الشعبية الاولى واسعة جداً الا انـه عندما اعيد النظر في النصوص الدستورية على اثر حادث اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، راحت اللجنة الدستورية تقترح رفـع هذا المبلغ الى اربعـــة امثاله ، وهكذا اصبحت الطبقة الوسطى ، كما يلاحظ برناف ، هي صاحبة المسؤولية الكبرى في انتخابات ممثلي الامة ، « اذ ان الطبقة الوسطى هي التي تمثل اصحاب الثروات » ، دون ان يكون الانتخاب وقفاً على الاغنياء وحدهم ، اذ كان من اللازم وضع حد لهذه الطبقة التي كان همها الاكبر الدس والتبييت ونشر الاخبار المشوشة والتلفيقات الهدامـة ، تهيئة لنظام جديد . وبعبارة اخرى كان لا بد من اتخاذ اجراءات زجرية ضد فـــراغ صبر الصحافة ونزقها وضد الشعارات التي ترفعها النوادي الثورية ودعاياتها . وراح روبسبيير يهاجم باسم حقوق الانسـان ، اقتراح اللجنة قائلاً :

« اعترفتم ... للمواطنين بحق استلام اي وظيفة وممارسة اية خدمة عامة دون اي ميزة او فارق للواحد على الآخر غير محامد الاخلاق وطيب الاستعداد . فما الفائدة من مثل هذا الاعتراف او الوعد البراق طالما لحستم موافقتكم في الحال (بعض التصفيق في اقصى مقاعد اليسار وبين النظارة). وماذا ، وماذا يهمنا؟ الا يوجد بعد نبلاء اقطاعيون اذا ما اقمتم مقامهم بالفعل فارقاً معنوياً او مادياً لجعلونه اساساً لحق سياسي ؟ ... وهذا التناقض الذي تقعون فيه يخولنا ان نشكك بحسن نياتكم وباخلاصكم (تصفيق بين النظارة) .

والحال نهض برناف يرد على هذا الكلام ملاحظاً بحق ان المعارضة تخلط بين « الحكومـــة الديموقراطية » و « الحكومة التمثيلية» . فالدستور اعترف بهذه وأقرها ورفض تلك ، مع العلم أن « وظيفة الناخب أو المقترع ليست حقاً له قط » .

واستبدلت الجمعية في نهاية الامر شرط الاربعين يوم عمل ، بنظام اكثر اعتدالاً من النظـام الذي اقترحته اللجنة وأكثر تنوعاً ، مميزة بين المدن التي يزيد سكانها على ٦٠٠٠ نسمة والمـدن الاخرى والارياف . فالضريبة التي تخول دافعها حق الاقتراع تعادل رسماً ضرائبياً يتـــاوح بصورة تقريبية وفقاً للحالات والاوضاع ، بين ١٢ – ٢٥ ليرة . فـــاذا لم تُستثن البروليتارية بالمعنى الحصري ، من الهيئات الناخبة في الدرجة الاولى ، فقد استثنيت بالفعل من الهيئـــات المكلفة انتخابات الدرجة الثانية ، وحرمت بالتالي من الاشتراك بالتمثيل الوطني. إلا أن جماهير البورجوازية الصغرى ، كأصحاب الحوانيت وعـدداً كبيراً من اصحاب المزارع وعناصر مهمة ممن يؤلفون طبقة أنصاف البروليتارية كالمرابعين مثلاً ، يؤلفون معاً ، على الاقل من الوجهـــة النظرية ، مجالاً رحباً لانتخاب هيئات الدرجة الاولى . وهكذا نراهم يبتعدون كثيراً ، هـذه

المرة ، عن الحكمة الاجتماعية التي اعتمدتها انظمة الحكم التي عمل بها خلال عهدي لويس الثامن عشر ولويس فيليب ، هذه الحكمة التي قامت على معدل ضرائبي تحدد عام ١٧٩١ بين ١٢ – ٢٥ ليرة ، والرسم الضرائبي الذي فُرض على أقلية المواطنين في القرن التاسع عشر والذي تراوح هو الآخر بين ٣٠٠ – ٢٠٠ ليرة .

المارك الفضي

اتجهت افكار اللجنة الدستورية التي سيطر عليها الوسط - اليمين الى جعل حق الاقتراع محصورا باصحاب الملكية العقارية . وقد خطر على بال مونييه حصر هذا الحق بمن عندهم ثروة عقارية تساوي ١٢ الف ليرة . وراح كلزاليس يزايد على ذلك مشترطاً بالاحرى ، على من يتمتع بحق الاقتراع أن يكون له من ريع اطيانه دخل يبلغ ١٢٠٠ ليرة . وبذلك تم الاحتفاظ على اساس من المساواة مع الارستوقراطية ، بالتمثيل الوطني في أقلية ضئيلة من اصحاب العقارات والاملاك . فاللجنة الدستورية الجديدة التي جرى تعيينها في ايلول ١٧٨٩ ، اعادت الى الثروة العقارية الحقوق التي تمتعت بها من قبل،اذ كان يكفي المواطن ان يملك عقاراً ما ليتمتع بهذا الحق . ثم ظهر فجأة شرط لم يلبث أن ارتدى شهرة واسعة ، هو شرط « المارك الفضي » : وحدهم يُنتخبون اعضاء في الجمعية التأسيسية ، المواطنون العاملون الذين يدفعون من الضرائب ما يساوي قيمة « مارك فضة » أو ما يعادل قيمة ٥٠ ليرة . وراح بيتيون وباربر والاب دي لامارن وحتى ميرابو نفسه يهاجمون باطلاً هذا الاقتراح الذي حظي في نهاية الامر بموافقة الجمعية فأقرته وعرفت أن تحافظ عليه باكثرية ضئيلة بالرغم من الهجمات المتكررة التي قام بها اليسار المتطرف مع شطر من اليسار ، وبالرغم من الحملات العنيفة التي قامت بها الصحافة الحزبية . وقد ذهبت اعادة الملكية الى فرنسا ، والنظام الملكي الذي أعلن في تموز ، الى ابعد من ذلك ايضاً ، عندما اشترطا أن يكون صاحب حق الاقتراع لممثلي الجمعية التشريعية من يدفع من الضرائب الف فرنك ، وهو مبلغ انزل الى ٥٠٠ فرنك ، عام ١٨٣١ .

وشرط « مارك الفضة » غير المرغوب فيه لم يلبث أن اختفى وزال من الوجود ، عند إعادة النظر في الدستور ، عام ١٧٩١ ، مقابل شرط إسقاط الضريبة المترتبة على حق الاقتراع لناخبي الدرجة الثانية . وهكذا أمكن انتخاب ممثلي الامة من بين جميع المواطنين العاملين .

وتسيطر ، في نهاية الامر ، البورجوازية على الهيئة الانتخابية كما ان اعيانها كانوا مدعوين لتمثيل دور حاسم. ونزعت الجمعية الى ممالأة الفئات العليا بين هذه الطبقة ونبذت جانباً الشطر الأكبر من البروليتارية بعد أن رأت في مؤازرتها لها شراً يفوق المؤازرة التي قد توفرها،أقله في المدن الصغرى ، لبعض العناصر البورجوازية الصغرى واصحاب الحرف .

فالقاعدة الانتخابية بقيت ، مع ذلك ، رحبة واسعة . فالقدامى من اصحاب الطبقات الممتازة اصبحوا ، بالرغم من محافظتهم على مالهم من نفوذ اجتماعي اقوى بكثير مما يوليهم اياه

عددهم ، كمية مهملة ، أقله في البدء . وهكذا تحقق الانتصار ، من هذه الناحية ، على النظام القديم ، كما ظهر من جهة اخرى ، مجتمع قوي لا اثر فيه للطبقات ، حتى بين أمة حق الاقتراع فيها يتولاه الثلثان من السكان . فالاشداء من بين الذين قاموا بهذه الثورة المجددة ، والذين عدوا بين صفوفهم زعماء بارزين استطاعوا ان يحافظوا على مراكزهم واقدارهم .

التنظيمات الادارية والعدلية

ان توزيع السلطة التنفيذية بين الشطر الذي يدفع الضرائب في الأمة وبين الملك ، لا يبدو ،بالرغم من كل المظاهر، بأقل انصافاً من السلطة التشريعية . صحيح ان الملك « وحده » يعين الوزراء ويقيلهم ، ويعين السفراء وقادة الجيش والمارشالات وامراء البحر ، وجانباً كبيراً من اصحاب المراتب العليا في البلاد ، « وفقاً لأحكام القرارات والمراسم المعمول بها في كل ما يتصل بترفيعهم » غير ان هذا القسم الهام من السلطة التنفيذية ممثلة بالادارة العامة في الولايات ، يخرج من يده بالكلية تقريباً . فوفقاً لأحكام المرسوم الصادر في ٢٢ ايلول ١٧٨٩ ، تقسم المملكة ، ادارياً الى محافظات *Départements* وهذه بدورها الى أقضية ، فناحية . ويقوم من لهم حق التصويت من سكان المقاطعات والاقضية والنواحي انفسهم بانتخاب حكامهم والموظفين الاداريين ، كما يقومون بانتخاب ممثليهم في المجالس البلدية ، ويدعون للاقتراع من جديد عندما يحين موعد الانتخابات .

ولعلة عدم وجود ممثل دائم للسلطة المركزية في هذه الادارات الاقليمية او المحلية ، فتأثيرها فيها يكاد لا يذكر . وقد نص القانون « على انه لن يقوم اي وسيط » بين هذه السلطة والسلطة المحلية في المقاطعات . وهكذا زال من الوجود كل اثر للمفتشين ونوابهم . صحيح ان مرسوم ١٥ مارس ١٧٩١ يعترف صراحة للملك ان يحل ، على مسؤولية الوزير ، كل ادارة في المحافظة تحاول العصيان او التمرد ، ولكن هو المجلس الذي يجب ان يشعر بالامر والذي له الكلمة الفصل في نهاية الامر . كل محافظة مكلفة بأن تُشعر المجلس التشريعي بالاوامر الملكية المخالفة للقوانين المرعية الاجراء . وادارة الاقضية ، تنعم هي الاخرى ، بالاستقلال تجاه السلطة التنفيذية . اما البلديات ، فالمرسوم الصادر في ١٧٨٩/١٢/١٤ ، يصرح بأن يقوم المواطنون العاملون فيها انفسهم بانتخاب المجالس البلدية ،بما فيها رئيس المجلس البلدي . وهكذا يبدو ان النظام اللامركزي الذي فرضته الجمعية التأسيسية انما كان يخفي تحسباً للحركات الثورية .

وهكذا سيكون النظام عن طريق الاقتراع العام اداريون على شاكلته ، كما سيكون له قضاة يختارهم الناخبون انفسهم مباشرة ويخضعون للتجديد دورياً . فمنذ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، أجل المجلس ، الى أجل غير مسمى ، اجتماع البرلمانات . وكرس المرسوم الصادر في ١٦ آب ١٧٩٠ نهاية هذه الاقليات القضائية القديمة كما كرس نهاية القضاة السياديين ، وانشأ عوضاً عنهم محاكم قضاء ، وقضاة صلح ومحاكم تجارية . ومفوضو الملك وحدهم يمثلون تجاه قضاة

الاقضية وظيفة النائب العام ويعينون من قبل السلطة التنفيذية . الا انهم لن يثلوا وظيفة النائب العام في الامور الجنائية . والمواطنون العاملون ينتخبون بأنفسهم قضاة الصلح . اما قضاة المحاكم التجارية ، فينتخبهم ، مبدئياً ، ابناء المهنة انفسهم . والقضايا الجنائية ينظر فيها محلفون . ومحكمة الجنايات في المحافظة التي نص على انشائها في كانون الثاني ١٧٩١ تشكل من رئيس ومدع عام منتخبين ومن قضاة يجري انتدابهم من محاكم الاقضية .

وليس من درجات استئنافية . فالاستئناف يجري من محكمة قضاء الى محكمة قضاء أخرى . كما ان اعضاء محكمة التميز يجري انتخابهم بالاقتراع العام ، وهي المحكمة التي نص على تشكيلها المرسوم الصادر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ . وتشترك المحافظات مناصفة ، على التوالي ، بعملية الاقتراع .

الاكليروس والدستور المدني

رجال الاكليروس انفسهم يؤتى بهم انتخاباً ، اقله فيما يتعلق بالخورانيات والاسقفيات وفقاً لهذا الدستور . فحق انتخاب خدَمة الدين هو من احكام هذا الدستور الاساسية .

وهذا الدستور المدني الذي نظم وضع الاكليروس ورجال الدين في البلاد ، صدر في تموز ١٧٩٠ . فالعملية ، كما تصورها السيد دوزيه تتم بالاقتراع العام . وبناء على دعوة رئيس رابطة الأساقفة في المقاطعة وتعليماته ، يجتمع الناخبون – هؤلاء الناخبون انفسهم الذين ينتخبون مجلس المقاطعة ، يوم احد ، في الكنيسة الكبرى في مركز القضاء ، وينتخبون ، بعد الاستماع الى القداس ، اسقفهم بالاكثرية المطلقة . ويجري الانتخاب من بين كهنة الراعويات ، والنواب الاسقفيين ، ورؤساء النواب الاسقفيين أو رؤساء المدارس الاكليريكية ، الذين سبق لهم وعملوا ١٥ سنة في خدمة النفوس في الابرشية . فأمام الاكليروس الوطني المتوسط النسب ، كل الحظوظ المؤاتية . وبذلك تصبح الاسقفية مهنة بورجوازية ، حرة . وقد ازيحت سلطة البابا . فالمتروبوليت أو اقدم اسقف سيامة في المقاطعة يقوم بمراسم السيامة القانونية . ويُعلم الحبر الجديد المنتخب الكرسي الرسولي بارتقائه السدة الاسقفية ، وكذلك خوارنة الراعويات يُنتخبون وفقاً النظام نفسه بواسطة الهيئات الانتخابية في القضاء ، من بين رجال الاكليروس الذين تولوا خمس سنوات على الأقل ، وظيفة نائب اسقفي الابرشية ، ويجري تكريسهم من قبل الاسقف الذي جعل مرتبه اقل بكثير مما كان عليه هذا المرتب من قبل ، بينما اخذ الكاهن يقبض اكثر بكثير مما كان يقبض في الماضي ، اي زهاء ١٢٠٠ ليرة على الاقل ، علاوة عن السكن والحديقة امام المنزل ، بينما يتناول نواب الاسقف ٧٠٠ ليرة . وعلى الجميع ان يتقيدوا بفريضة الاقامة حيث هم معيّنون .

وكلا الفريقين يعتبران من موظفي الادارة العامة ، موظفي لدى الامة التي تدفع لهم مرتباتهم . وهم ملزمون بوصفهم موظفين ان يؤدوا في كنائسهم قَسَم الولاء قبل الشروع باقامة

القداس الراعوي ، بان يخلصوا لوطنهم والقانون والملك ، وان « يحافظوا » بكل قواهم على « الدستور الذي سنته الجمعية الوطنية وصادق عليه الملك » .

رها هو الاكليروس نفسه يُؤَمَّم بعد ان تأممت املاكه وممتلكاته . اما تأميم الاكليروس الرهباني فقد كان عملية اصعب واشق ، اذ لم يكن بوسع الاقتراع هنا ، ان يلعب دور التصفية والتنقية الذي لعبه هناك . والتحرز المعادي النظام الجديد يبرز على اقه ، في المرسوم الصادر في ١٣ شباط (فبراير) ١٧٩٠ الذي يَعد الرهبان الذين يخرجون على رهبانياتهم بتعويض مالي . وقد حظر المرسوم المذكور النذور التي ستبقى من الآن فصاعداً دونما مفعول مدني . فالقانون لم يعد ليقف بجانب المخالفات التي تعبث بالنذور : فللرهبان الحرية العامة بترك الحياة الرهبانية والتزوج ، كما بامكانهم ان يرثوا وان يورّثوا ما يشاؤون . وهكذا هدف النظام الجديد الى حل الرهبانيات دفعة واحدة دون ان يذهب الى تحريمها بالمرة .

فالاكليروس العامل في خدمة النفوس اخذ يقاوم ورفض التقيد بقسم الولاء المترتب عليه . وسار الاساقفة في مقدمة المعارضة والمقاومة . وقد اعتبر المرسوم الذي صدر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ ، مستقيلاً من وظيفته في خدمة الدولة، كل رجل من رجال الاكليروس لا يؤدي قَسَمُ الولاء في خلال ٨ ايام من تاريخ صدور المرسوم ، وحرص المجلس على ان يؤكد بان حلف اليمين يجب الا يرافقه اي تفسير او تضمين او اكتفاء او احتفاظ بالرأي . ونشبت على الاثر حرب دينية في معظم المحافظات ، ولا سيا في تلك المحافظات التي تعد اكبر عدد من الكاثوليك من سكانها او من الكهنة الذين لم يؤدوا قسم الولاء ، كمجموعة محافظات الغرب من كلفادوس الى بريتانيا حتى محافظة الفاندية ومحافظة الشمال وبا دي كاليه والرين الاسفل والموزيل ، ومحافظات الجنوب الشرقي من السلسلة الوسطى . وكأن بهذه المناطق التي تقطنها اغلبية ريفية حاسمة والتي تبدلت منها الاوضاع على اثر حركة التصنيع العصري والتي رأى فيها اندريه سيغفريد واتباع مدرسته المركز الرئيسي للمحافظة ، تبرز فيها روح محافظة شديدة بمعزل عن كل اثر لرجل الكنيسة على محيطه ، بل تأثير المحيط على رجل الدين .

كذلك حدث صدام بين البابوية والعهد الجديد . فجاء هذا الخلاف الحاد مظهراً جديداً لمطالب الكنيسة الغاليكانية ، كما ان هذا التصادم كان من جهة ثانية مظهراً قوياً لهذه الخصومة الجذرية التي قامت بين المجتمع الثوري الجديد وبين اكبر سلطة روحية في المجتمع الطبقي ومع الملكية الرسولية ، اكبر واقوى المراكز المحافظة في اوروبا ، اذ ذاك . واحتار البابا بيوس السادس في امره ، ولم يتخذ موقفاً جلياً الا بعد ان رأى موقف مصاف الاحبار في فرنسا . فالبراءات البابوية التي اصدرها في ١٠ آذار (مارس) و١٣ نيسان (ابريل) ترمي بالحرم علانية ليس الدستور المدني للاكليروس والكهنة الذين ادوا يمين الولاء له فحسب بل ايضاً الثورة الفرنسية نفسها . فهو يتكلم باسم الله الخالق وباسم الناموس الذي لا يُنسخ . وقد تعطلت لغة الكلام بينه وبين المجتمع الجديد .

وقد صمدت الجمعية التأسيسية في وجه الفتنة بعد ان حلتها المدن حملاً على هذا الموقف العسير وشدت من ازرها . ولذا راحت تقطع علاقاتها مع البابا وتضم مدينة افنيون التي صوتت باكثرية ساحقة للانضمام الى فرنسا . امـــا في الجبهة الداخلية فقد حققت نصراً اكيداً . فالاكليروس الدستوري او المدني اصبح كاملاً في اواخر ١٧٩١ . وقد اصبح الاساقفة بنسبة ٧٠٪ من اصل كهنة عملوا من قبل في خدمة الراعويات .

اما البورجوازية فقد بقيت على انقسامها الشديد . فبالرغم من فـــترة انصرمت بين التردد والمساومات والتعصب لردة يقوم بها انصـــار النظام القديم ، فقد نزع وجوه القوم فيها ، شيئاً فشيئاً للتربع في دست معظم السلطات التشريعية والادارية والقضائية والروحية ! فقد تمسكت بمهمة مد البلاد بأطر وطنية وقضاة وطنيين ، وكهنة وطنيين ومربين وطنيين . فالتربية العامة يجب ان تحرر من سيطرة رجال الدين واحتكارهم لها وان تلقى بين ايدي الامة . فهي من هـــذه المهمات الرئيســية التي يترتب على النظام الجديد الاضطلاع بها ، وهي تبعة يؤكد الدستور وجوب تحملها والقيام بها ، عندما يؤكد :

يصار الى انشاء وتنظيم مصلحة عامة للتعليم تعنى بامور تعليم المواطنين يكون من اهدافها الاساسية نشر المعاهد التربوية تدريجياً وفقاً لنظام مدروس يتناول جميع نواحي الدول .

ولعل ما هو افضل من ذلك هو أنه نشأ في جميـع انحاء فرنسا بصورة عفوية تلقائية شعور عميق بايقاظ الروح المدنية بين المواطنين . وراح الدستور نفسه يعمل على بعث هذه الروح ، اذ جاء فيه بالنص الواحد :

تنشأ في البلاد اعياد وطنية ترمي لتخليد مآتي الثورة الفرنسية وانجازاتها والى شد اواصر الاخوة بين المواطنين وازديادهم تعلقاً أكثر فاكثر بدستور البلاد والوطن والتعلق بالقوانين المعمول بها .

وبدا النظام الجديد أن يجتـــذب اليه النفوس ويستميل القلوب ليس عن طريق التحكم بالافكار ، بعد أن اصبح الرأي العام من الامور التي تهتم لها الحكومة وتحسب لها الف حساب .

ثانياً ـــ النظم الاقتصادية

حرية العمل وحرية التنقل

قلبت الثورة التشريعية نظام البلاد رأساً على عقب بايجادها نظاماً ضرائبياً قوامه النخبة بين الطبقة البورجوازية العليا والوسطى.

وقد قلبت كذلك النظم الاقتصادية دون أن تدخل على المؤسسات والمنظمات القائمة تغييرات جذرية وتعديلات اساسية . وتمكنت البورجوازية من أن تسيطر تماماً على هـــذا القطاع وتتحكم به . فسياسة تدخل الملك في الامور الاقتصادية التي انحسر تيارها وسارت القهقرى منذ منتصف القرن ، تركت ما يلزم من حرية التصرف للمناهج والخُطط التقدمية المتحررة ولا سيما في قطاع الاسعار والارباح وهي التي تعد بحق من أهم مقومات النظام المالي

والتي عانت كثيراً من نظام الحكر والاعفاءات ، هذا النظام الذي اثار الصعوبات في وجه المنافسة التجارية والصناعية : وهو احتكار جماعي من قبل رؤساء النقابات استأثرت به بعض الاستثمارات الكبيرة والمصانع وبعض الشركات التجارية . وقد حدت التعريفات الجمركية لحماية التجارة من حركة انتقال الحاصيل ، سواء في الداخل وفي الخارج ، كما وقفت حاجزاً في وجه هذه التجارة الضرائب ورسوم الباج والدخولية . وكذلك جمدت الاوقاف الكنسية جانباً كبيراً من رأس المال ممثلا في الثروة العقارية . اضف الى هذا كله حقوق ارتفاق سيادية او طائفية كانت ترتهن الى حد بعيد ، جانباً من الملكية الزراعية .

وقد حرصت الجمعية التأسيسية على ازالة هذه المعيقات التي حدت كثيراً من حرية العمل وحرية المرور . وحررت من كل ضغط النشاطات المبذولة لتحقيق الارباح المشروعة ، ففتحت بذلك الباب على مصراعيه امام اقلية رأسمالية عرفها القرن التاسع عشر . الا انها لم تنظر الى ابعد من النظام الاقتصادي الفردي او الجزأ الذي سيطر على العصر ، كما انها لم تفكر قط ان بامكان الحرية ان تفضي الى شيء آخر ، الى ديموقراطية متنافسة قوامها المزارعون وارباب الصناعات والتجار ورؤساء المصانع ، والتي رأت في معامل النسيج ومغازلها المائة خير ما يمثل هذه الصناعة الضخمة . وكثيراً ما يحملها الضغط او الحتمية الثورية على التصلب في موقفها . والسياسة الاقتصادية تقيم وزناً كبيراً وتحسب حساب الرغائب والحاجات التي تجيش في نفوس وصدور عدد كبير من زبائن البورجوازية حتى رغائب الجماهير الشعبية ، عندما يتبينون انها لا تتعارض قط مع مصالحها الاساسية .

وقد ادت حرية العمل في الصناعة والتجارة بصورة عملية ، ولو موقتاً ، الى إلغاء نظام كثيراً ما جمع الى الحكر وما يمثله من امتيازات شرعية ، القوة التي يمثلها الرأس المال . اما التسهيلات الجديدة التي تتيحها حرية التنقل او المرور ، فتتمثل على احسن وجه بالقضاء على الضرائب غير المباشرة ، والتعهدات المالية ، ورسوم الدخولية وضريبة الملح ، وهذه الرسوم الموضوعة على المواد الاستهلاكية . ان تصفية الارقاف الكنسية يعود بالخير المشترك ، انما مع تفاوت ، على البورجوازيين والفلاحين . وكذلك قل عن تحرير الاراضي « من القيود الاقطاعية » التي تكبلها . وبعد ان اعادت الجمعية التأسيسية الى محله الطبيعي ، المذهب الفردي ، اي هذه النظرية التقدمية التي تجعل من الفرد العامل الوحيد الحر ، والعنصر الوحيد الحر الذي باستطاعته ان يخلق الثروة ويعمل على تسهيل انتقالها ، وتجعل منه السيد الوحيد الحر لارضه ، تبدو لنا ، في الوقت ذاته في ما لها من معان مختلفة وما لها من متناقضات ، الوسيلة الوحيدة للانتاجية ولتأمين المساواة في التنافس ، كما تبدو ، الى حد كبير ، ولوقت قصير جداً ، محور سياسة ترمي لتأمين الرفاهية الاجتماعية بين الناس .

١ - حرية التصرف وإلغاء الاحتكار

الامتيازات المهنية وليل ٤ آب

يبدو الاحتكار هذا الشكل الرئيسي الذي يتلبسه الامتياز الاقتصادي ، امراً يتعارض تماماً مع مجتمع لا اثر الطبقات فيه. وباعتبار النقابات المهنية شكلا من اشكال الاحتكار ، فقد كُتبَ عليها ان تزول من الوجود. فالثورة لم تبت في القضية دفعة واحدة ، هذه القضية التي حرص الدستور الموضوع عام ١٧٩١ ، التشديد عليها بصورة بارزة.

فقد انقسمت الطبقة الثالثة رأياً بشأنها ، بعد ان برز هذا النظام ، نظام النقابات بصور مختلفة ، وأتت بنتائج متعارضة وتلبست اشكالاً واوضاعاً متباينة. صحيح ان هذه المنظمات النقابية تألفت من رؤساء حرف واصحاب مهن ، يهيمن عليها كلياً القيمون على هذه الحرف ، الا انها كانت تنزع بالفعل الى اقامة احتكارات والى الحد من النشاط الاقتصادي والتحكم به. ومعظم اعضاء هذه النقابات انفسهم شعروا بشيء من الحرج لهذه الاجراءات والقيود الاستبدادية التي أدخلت على تنظيمها والتي فرضوها على الناس كما تضايقوا من هذه الرسوم المالية ، التي كانت تفرض بالمقابل والتي كونت بالفعل ضرائب مهنية او حرفية ، وهي رسوم وضرائب يتبدل مدلولها ويتغير بين حرفة واخرى وطبقة واخرى ، وبين منطقة واخرى ، ومدينة واختها. فالريف كان ضدها بالطبع. ولذا لم تلم هذه النقابات الحرفية الا في المدن. فالمزارع لم يكن ليفيد منها كمنتج ، وكثيراً ما تضرس بترمها باعتباره مستهلكاً ، كما انها كثيراً ما وقفت حائلا دون سكناه المدينة او دون ممارسته مهنة صغيرة. والنظام النقابي او المؤسسة النقابية بالاحرى ، لم يكن معمولاً بها في كل مكان. هنالك مناطق كثيرة لم تتعرف على هذا النظام. والمدينة المرتبطة بقَسَم الولاء والتضامن المهني ، لم تكن ، بما لها من اوضاع مكرسة متبعة ، تتحكر كالمدينة الحرة التي لم تتقيد بمثل هذا التعهد أو القسَم الولائي. وقد تباين مفهوم هذه المؤسسة واختلف مدلولها اختلافاً كبيراً بنسبة ما ضمت في صفوفها من اصحاب المخازن ورؤساء الورش المستقلين ، يبيعون زبائنهم بحرية تامة. ومثل هذا الوضع شاع وعم انتشاره ، وكان أرباب الصناع يعوّلون في تصريف انتاجهم على شيخ تجار أو بندر تجار يتولى تصريف انتاجهم. وفي مثل هذا الوضع كانت الرابطة تبدو بمظهر اتحاد نقابي يضم عدة نقابات ، كثيراً ما انتصب في وجهها ، تحت أشكال وألوان مختلفة ، الاتحاد التجاري الكبير.

وهذا الوضع يفسر لنا تماماً التردد الذي استحوذ على الجمعية التشريعية عند معالجتها هذه القضية ومحاولتها إيجاد حل لها ، اذ أن كل حل تقترحه كان من شأنه أن ينعكس على اوضاع الفئات الاجتماعية العديدة التي تتألف منها هذه النقابات الحرفية ، وهذا ما سبب بالفعل انقسام الطبقة الثالثة رأياً ، ولا سيما البورجوازية منها ، بعضها على بعض.

وقد حل ليل ٤ آب القدر المحتوم للامتيازات النقابية اذ صدر قرار الحل في ٥ آب ونص على أن « كل الامتيازات الخاصة بالمقاطعات والامارات والمدن والهيئات والنقابات... تلغى نهائياً ، وتبقى خاضعة القانون العام الذي يخضع له جميع الفرنسيين ». وللحال راح كيل ديمولان وقد هزه الشعور ، يعلن فرحته الكبرى ، قائلاً : « هذه هي الليلة الكبرى » .

هذه هي الليلة التي ألغت الاعفاءات والامتيازات التي تجاوزت كل حد.. فيفتح دكاناً له من توفرت لديه الوسائل المسعفة . فمعلم الخياطين ، ورئيس الاسكافيين ، ورئيس باعة الشعر المستعارة سيكون وينوحون . اما الخدم فيبتهجون جذلين ويبصبص النور من خصاص الباب وقوافذ العليات .

وقد يكون هذا هو الشيء الذي لم ترم اليه الجمعية التشريعية بالذات. فالفرحة التي ابداها كيل بتسرع كلي كانت سابقة لاوانها . فمن يستطيع أو يجسر أن يستغني بمثل هذا اليسر ، عن جانب من تجارة وصناعة الباريسيين في اليوم التالي لـ ١٤ تموز ، وفي هذا الوقت بالذات من ركود الاحوال والاعمال التجارية ؟ فبعد أن نص القرار الصادر في ٥ على إلغاء هذه الامتيازات اذ بالمرسوم الختامي الذي صدر في ١١ آب لا يأتي بشيء على ذكر « النقابات والهيئات الحرفية » بل يذكر بتخصيص المقاطعات والامارات ... والمدن والجمعيات الاهلية . فالاغفال والاسقاط التفسيري الذي صدر في ١١ جعل الالغاء الذي صدر في الخامس ، لا أثر له ولا مفعول .

فالقضية لن تلقى حلها النهائي إلا بعد سنة ونصف السنة ، بعد أن تبدلت الظروف وتغيرت الاوضاع كلياً وبعد أن اصبح موقف الجمعية التأسيسية من العهد القديم ، أقوى بكثير ، كما اصبحت غالبية سكان البلاد لا تبالي كثيراً بهذه الهيئات ، كما أن تكون حركة الاعمال والاشغال تحسنت بعض الشيء اينما كان .

الغاء تعويضات الحلفين ورؤساء الحرف

دار البحث في الجمعية حول رسم الرخصة اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان المستهلك هو الذي يتحمل بالنتيجة هذا الرسم . « لا تتصوروا ان باستطاعتكم حمل التجار على دفع الضريبة » . كما كان يقول فرانكلين بكل مناسبة ، « فهم يقيدون الضريبة والرسوم التي يتكبدونها في فاتورة الحساب ». ولم يكن علماء الاقتصاد في فرنسا ليقولوا بخلاف ذلك . فمقابل رسم الرخصة فرض رسم الاستهلاك. ولذا راحت الجمعية تتساءل ما اذا لم يكن من المناسب إلغاء ضرائب أخرى من هذا النوع ، او مؤسسات أخرى شبيهة ، كالنقابة الحرفية التي كانت تعتبر عنصراً هاماً في تسبب الغلاء في البلاد . وراح السيد دالارد المقرر العام للجنة الضرائب يربط كل هذه القضايا معاً . فلا بأس من الغاء رسم الرخصة ، ولكن بعد الغاء ما يوازيه من تعويض . كذلك يجب إلغاء الرسوم والضرائب كما يجب الغاء النقابات التي يساعد وجودها على ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف العيش ، وذلك عن طريق اضافة الرسم الحرفي الى ثمن الحاجيات الانتاجية او عن طريق الاحتكار .

وسيقضي منطق النظام الجديد بالطبع بالغاء تعويضات المحلفين *Jurandes* ومعلمي الكار « لسبب واحد هو انه'" إنعامات أسيء استعمالها » بحيث يتناول الالغاء ليس فقط النقابات الحرفية بل ايضاً مؤسسات الصناعة الرأسمالية ذات الاحتكار. كم بينها من ينعم، بشكل او آخر، بامتيازات مادية او ادبية وباحتكارات مختلفة الاشكال ؟

هذه الاعفاءات يجب أن تزول من الوجود باعتبارها سيئة ليس للمستهلك فحسب بل ايضاً للجميع ولا سيا لرؤساء الكارات في مجموعهم ولحمل الكثير من الصنف العمال. فليمارس كل منهم مهنته بحرية تامة بمنأى عن كل ضغط او تعسف .

وهكذا فقد ازيح بصورة قاطعة كل خطر ناتج عن اغراق الاسواق بالانتاج .

هل يخشون من وفرة العمال (اي من ارباب الحرف وشغيلتهم الذين يعملون لحسابهم ؟) فعددهم سيكون ابداً بنسبة عدد السكان في البلاد ، وبعبارة اخرى بنسبة حاجة الاستهلاك .

صدر قرار الالغاء في ٢ آذار ١٧٩١ . فالنقابات والمنظمات الحرفية ومشاريع الاستثمارات ذات الامتياز لم يعد لها وجود شرعي ابتداء من اول نيسان .. وهذا القرار الهام الذي سيحرر – في القرن الطالع – قوى الرأسمالية الانتاجية ، كان في نظر اصحابه اجراء لابد منه لتخفيض غلاء المعيشة ولبعث روح نقابية عامة . وقد رمى فصلاً في مدلوله العام لتحقيق هذه الاغراض بالذات .

سيجري فيما بعد اجراءات تكميلية اخرى . فالقرار الذي صدر في ٢ آذار لم يحرر الانتاج تماماً من عراقيل العهد القديم . فقد استبقى ، شرعاً ، التدبير التقليدي المعمول به وهو إلصاق تمغة او علامة مميزة توضع على المواد المنتجة ، شهادة من النقابة على جودة الصنف المباع واستجماعه المواصفات القانونية . وقد ألغى القانون ايضاً ، الى جانب النقابة الحرفية ، التنظيمات التي كانت تخضع لها . كما ألغى القرار استعمال التمغة . ان الغاء النقابات والجمعيات والرابطات وعادة تعيين بوليس مراقبة للمحافظة على اسرار المهنة كان يعني ، من الوجهة العملية ، في اكثر الحالات والاوضاع ، منعها من العمل . كيف يمكن ضبط الرسوم المهنية بدون الاستعانة بمراقبة المحلفين ؟ بقي قائماً ، مع ذلك ، امر تفتيش الانشاءات الصناعية الكبرى . كما بقيت قائمة مكاتب الزيارة ومكاتب التمغة ، انما لبضعة اشهر لا غير . وقد ألغيت بالفعل كما ألغيت بالاسم. فلم تختلف نظرة الثورة الى دائرتي التفتيش والتمغة عن نظرة رجال الادارة اليها في العهد البائد ، اي انها كانت تحد من قدرة المواطنين وقوتهم على الخلق والابداع . واتخذت الجمعية التأسيسية قراراً بالغائها في ايلول . وها هم المفتشون يصبحون بلا عمل كما ان المرتبات لم تعد تدفع لهم حتى غرة كانون الثاني (يناير) ١٧٩٢ .

والغيت في الوقت ذاته الغرف التجارية ، قوام الحركة التجارية الكبرى ، اذ ان وجود هذه الغرف « كان يتعارض والمبادىء التي استندت اليها الجمعية التأسيسية عندما ألغت النقابات الحرفية » . ويكفي التجار الآن كما يكفي جميع المواطنين ما اخذوا يتمتعون به من حق

الاجتماع بحرية وحرية الالتماس ليعربوا بانفسهم عن تمنياتهم وعن حاجاتهم العارضة .

وهكذا حُلّت كل المنظمات والمؤسسات النقابية ، الامر الذي جعل المنظمات العمالية تستهدف ضمناً هي الاخرى ، لهذا المصير بالرغم من القرار الصادر في ٢١ آب ١٧٩٠ المتعلق بحق الاجتماع ، وحق تأليف الجمعيات . فالطبقة البورجوازية لم تحظر على ارباب العمل تأليف الاتحادات الحرفية في اسواق الانتاج حتى ترضى بوجود اتحادات العمال في مجال العمل .

قانون لاشابلييه

وعلى هذا الشكل مرّ قانون لاشابلييه في المجلس دون اية مناقشة ، في ١٤ حزيران ، ولم يُثر حوله اية ضجة في خارج المجلس ايضاً كما في داخله . وقد حظر على « المواطنين الذين يمارسون الحرفة او المهنة الواحدة عمالاً كانوا ام ارباب عمل ، ان يختاروا لهم رؤساء اتحادات وأمناء سر أو أن يتخذوا لهم قرارات أو أن يقوموا بمداولات » . وها هي النقابة الحرفية تُمنع وتلغى مرة ثانية ، كما ان الجميع رأى في « إلغائها ومنعها احد الانجازات الجذرية التي حققها الدستور الفرنسي ». وها هو يلغي ايضاً ـ وهنا كل اهمية النص ـ كل شكل من اشكال الجمعيات المهنية . واتخذ المجلس في العشرين من تموز التدابير اللازمة لمواجهة الاوضاع في الريف ، فحظر من جهة ، على اصحاب الاملاك والمتعهدين الزراعيين وعلى عمال الحصاد ، والخدمة والأجراء من جهة ثانية ، كل تحزب نقابي أو كل تكتل يُقصد منه التأثير على الاجور .

من المعقول جداً ان يمر هذا الاقتراح في اليوم التالي لحوادث اطلاق النار في ميدان شان دي مارس ،دون أن يبالي به احد. ولكن هل من المعقول ذلك بشأن قانون لاشابلييه ،في حزيران؟ فاليسار المتطرف يبقى صامتاً مع ذلك دون أن يبدي حركة . أتقف منه الطبقة البورجوازية هذا الموقف محافظة منها على مصالحها ؟ ليس شيء من هذا لدى روبسبيير او لدى مارات ، روبسبيير هذا الذي حرص على ان يفضح في نيسان ، بمناسبة المناقشة التي دارت حول تشكيل الحرس الوطني ، الروح الحزبية عند هؤلاء الذين رغبوا ألا يسلحوا غير المواطنين العاملين .

من قام بثورتنا المجيدة هذه ؟ هل هم الاغنياء في هذه الامة ؟ هل هم الاقوياء في هذا العصر ؟ الشعب وحده تنامى وتاق اليها وقام بها . وللسبب نفسه ، بامكان هذا الشعب السير بركبها والعمل على مؤازرتها .

الا ان روبسبيير يلازم الصمت التام امام نص القرار الذي صدر في ١٤ حزيران ، هذا القرار الذي لم يتبين مدلوله التاريخي . ولم يكن موقف مارات بخير منه ولا نظره بابعد ، مع انه فتح صفحات جريدته لعمال البناء في كفاحهم ضد رؤساء الورش . اما احسنها فرصة ، في نظره ، لمهاجمة قانون ١٤ حزيران ! فقد راح ينتقده بالفعل بشدة . اما الذي عزاه اليه أو رماه به ؟ فلم يتعلل بأنه قانون وضعته « الرجعية الاجتماعية » كما نقول اليوم ، بل قانون الرجعية السياسية اذ انه حدّ من حرية الاجتماع وحرية الالتماسات .

ولكي يحولوا دون تجمعات الشعب المتعددة التي يخشونها ويتهيبونها كثيراً ، فقد حرموا فئة العمال وفئة مساعدي البائتين الضخمة ، من حق الاجتماع للتداول وابداء الرأي في امور مصالحهم .. لم يكن لهم من هدف سوى عزل المواطنين والحؤول بينهم وبين اهتمامهم بالمصلحة العامة .

ويبدو ، كما يلاحظ البير ماتيوز بحق أن مارات يلوم الجمعية التأسيسية لاقفالها النوادي أكثر مما يلومها لحظرها الاتحادات النقابية . فالحظر الذي قرره الدستور الجديد ليس سوى تكرار لهذا الحظر الذي اصدره التشريع الملكي من قبل ، اذ منع ، منذ اجيال النقابات العمالية والاضطرابات. فالمنظمة المهنية التي كانت بمثابة قوة بوليسية لتأمين النظام ضمن المنظمة المذكورة، والتي كانت ترمي لتقييد الجماهير المشاغبة في الارياف ، كانت تتمتع ، في العهد القديم ، بامتياز من جانب واحد : أي منع قيام جمعيات أو مؤسسات عمالية . فالروح الفردية الحرة التي نادت بها الثورة ، استبدلت الحظر غير القانوني « للمنظمات الوسيطة » بنظام يقوم على المساواة . فمها ضؤلت هنا المساواة في الحقوق ودقّت ، فقد حلّت ، ولو اسمياً على الأقل ، محل عدم المساواة .

فقبل أن يتعرض اعضاء الجمعية التأسيسية لامتيازات النقابات العمالية أي لهذه المنظمات المهنية الصغرى والمتوسطة، فقد ألغوا أو حدّوا كثيراً ، تحت ستار حرية الاقتصاد ، المؤسسات التجارية الاستعمارية الكبرى وحدوا من امتياز احتكاراتها كشركة الهند مثلاً التي اقامت ضدها ارباب التجارة الحرة ، وشركات التعدين المشهورة التي تفانى في محاربتها ومناصبتها العداء ، هذا الفريق من الفلاحين المستثمرين .

الغاء امتيازات المؤسسات التجارية

كانت الجمعية التأسيسية ، تبحث منذ ربيع عام ١٧٩٠ ، قضية الشركة التجارية الكبرى التي تجاوز رأسمالها ٤٠ مليون ليرة ، وهو مبلغ كان له من القدرة الشرائية اذ ذاك ما يوازي عشرات المليارات في يومنا هذا . فبعد ان أعيد تنظيم هذه الشركة ، عام ١٧٨٥ ، وأقر لها المراقب المالي العام كالون بامتيازات استثنائية أخذت تحتكر بين يديها الاتجار مع كل البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح : مدغشقر ، وبلدان ساحل افريقيا الشرقي والهند والكوشنصين وكل بلدان الشرق الاقصى . فقد كانت ربيبة كبار رجال المال والنواخذ من مجهزي السفن التجارية وكبار رجال الاعمال ، وعلى اتصال وثيق بالاوساط السياسية العليا ، وألفت بذلك اكبر اتحاد رأسمالي في ذلك العصر . فمستودعاتها الضخمة ، وهذا العدد العديد من الوكلاء والممثلين التجاريين والاسطول التجاري الضخم الذي كان تحت تصرفها ، كل ذلك جعل منها بحق اكبر مشروع تجاري عرفه ذلك العصر . فالاحتكار الذي نالته والامتيازات التي تمتعت بها الحق الضرر مباشرة ، ان لم يكن بمصالح الكثيرين ، فأقله بمصالح كبيرة للغاية ، بحيث ان المناقشة التي دارت بشأنها امام الجمعية التشريعية برزت وكأنها صراع بين جبابرة المال والاعمال . فالاحتكار الذي نعمت به اقام الصعوبات والعراقيل امام الحركة التجارية في البلاد والاستثمارات الصناعية معاً . وارتدت

القضية من جهة ثانية طابعاً رمزياً : الوقوف مع مبدأ الامتياز أو ضده، مع الاستبداد الوزاري أو ضده . والموقف تحدد تماماً اثناء طرح القضية للمناقشة . فاليمين في الجمعية وقف الى جانب الشركة ؛ وأخذ فريق ضئيل من الوسط واليمين يساوم بشأنها ، كما راح اليسار يطالب بالغائها وحلها .

فانتصب لاشابلييه بقامته الفارعة وهو يقول : ليُدلِ المدافعون عن حق الامتياز بحججهم وأدلتهم . والحال قبل زعماء اليمين التحدي بينهم كازاليس وابرمسنيل وموري ، وكليرمون تونير نفسه ، فراحوا يطالبون الشركة بحق الاستثمار الذي تتمتع به والاستمرار بالتالي بنشاطها التجاري . وأخذ موري يدافع عن الامتيازات الضرورية التي لا بد منها للشركة . وراح أبرمسنيل من جهته يهاجم بعنف كل خرق الدولة التعهدات التي قطعتها تجاه الشركة وينده على الاخص « بهذا المبدأ المخيف الذي يجعل قانوناً يلي الحرية قانوناً ذا مفعول رجعي ضد حق التملك » . وأخذ مالويه ، من جهته يحاول عبثاً حلاً وسطاً يخفف بعض الشيء من حدة الامتيازات ويلطفها نوعاً ما . وصمد ممثلو اليسار للهجوم دون أن يقوم البارزون في صفوفهم بما قام به وجوه اليمين . وراح بعض النواب في صفوفهم امثال : رودرير ولاشابلييه وفواي ودستوت دي تراسي يتدخلون في المناقشة كلما دعت الحاجة ، اما الهجوم العنيف المركز فقد قام به النواب الاعضاء الذين يمثلون الحركة التجارية والموانىء البحرية ومؤسسات التصدير وراحوا يشيدون عالياً بسمو الحرية التجارية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والادبية . وأخذ الحذر يرسم على الوجوه بوضوح من الشركات والجمعيات القائمة على الاسهم والتي تعود على القائمين بادارتها بالغنى والثراء على حساب « المساهمين » الذين لا يفقهون شيئاً من اسرار عملية الاستثمار كلها . فالتعويض على الشركة ليس موضوع بحث ، اذ لم يُسمع قط انهم عوضوا عن ملكية قامت خلافاً للحق الطبيعي وضده .

وفي جو من الحماس الذي ألهب المجلس والتأثير البالغ الذي استحوذ على الاعضاء وبين دوي تصفيق اليسار والنظارة قررت الجمعية الغاء هذا الاحتكار المخالف لحقوق الانسان الطبيعية والمضاد في الصميم للاقتصاد الحر . « حرية التجارة مع البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح معترف بها لجميع الفرنسيين » . وبعد قليل سيأتي دور الشركات التجارية الأخرى . وستعلن « حرية التجارة مع السنغال » لجميع الفرنسيين » في يناير ١٧٩١ .

إلغاء احتكار شركات التعدين

كان من شأن قضية المعادن واستثمارها أن أضفت على حرية الاقتصاد التي جاش بها اعضاء الجمعية التأسيسية مدلولاً اجتماعياً اكثر مما اضفته قضية النقابات المهنية ومؤسسات الاستثمار والشركات التجارية الكبرى التي قامت على الاحتكار والامتيازات التي تؤمنها لاصحابها . فنحن هنا امام نظريتين متناقضتين : الاولى تقول بان المنجم ملك للدولة ، وهي نظرية تبناها وناضل حيالها رجال الاختصاص والتقنية وأقلية ضئيلة من الشركات صاحبة الامتيازات . اما الثانية فهي النظرية التي تقول بان المنجم

هو ملك خاص لصاحب الارض ، وهو نظر أخذ به فريق كبير من الفلاحين المستثمرين .

نظريتان قديمتان جـداً من حيث المبدأ ، اختار النظام الملكي احداهما كما يستدل من منطوق القرار الوزاري الصادر عام ١٧٤٤ . فقد رجحت عنـده كفة الشركات الاستثمارية الكبرى . « فالمنجم » الشعبي تتصل فيه معاول الفحامين ولا يسهل استثماره لما هو عليه من عطفات وتثن وتعاريج» لا يمكن الأخذ به والدفاع عنه . وخضع استثمار المناجم لموافقة المراقب المالي العام ، وهو استثمار تقوم به الشركات الكبرى وحدها . ولذا ُطرد الفـلاح من منجمه المشتت كما ُطرد من الحقل الذي يملكه . وهذا الحل تتخذه الحكومة في العهد البـائد ، ترك مثاراً للبحث والجدَل ، مشكلة اجتماعية حادة ، برزت على أشدّهـا ان لم يكن في الشـمال من البلاد» فاقله في الجنوب» في مقاطعة مورنز واللانفدرق أي في أغنى منطقتين للفحم اذ ذاك .

وجاءت الانتفاضة الثورية تطرح على بساط البحث من جديد الوضع القائم منذ عـام ١٧٤٤ . فالتقسيمات الاداوية الجديدة والدوائر البلدية التي تكثر فيهـا مناجم الفحم الحجري ومراكز المحافظات نفسها اخذت ُتعرب عن مطالبها الشعبية في هذا المجال. فهذه الشركات ذات الامتيازات التي تعيش وتثري على حساب احتكار تتمتع بمنافعه الجزيلة ، أليست في وضع مغاير لاحكام الدستور ؟ ألا يكوّن وجودها والعمل بها نقضاً صارخاً لحق التملك ؟ فالدولة لا حقّ لها قط على ما يقع تحت سطح الارض . وتصرفها به لا ينهض به أي حـق. فالفحم المخبوء في بطن الارض يخص مالك سطح الارض . فالطبقات التحتانية تعود كلهـا للمالك كما يعود له السطح ، مثلاً بمثل . فالتفريق بين الاثنين طعنة في قلب وثيقة اعلان حقوق الانسان» كما يطعن في الصميم هذا القانون الطبيعي الذي « اكثر حكمة واكثر طبقية من القوانين التي تنص عليهـا الالواح الاثني عشر » .

فالشركات الاستثمارية واصحاب الاملاك من الفلاحين ، وقفوا وجهاً لوجه امـام الجمعية التشريعية ، في النصف الثاني من شهر اذار ١٧٩١ .اما موقف المقرر فقد كان الى جانب النظرية التي تقول بان المنجم هو ملك عام ويخضع بالتالي للاستثمار أي ان موقفه كان تماماً الوضع الذي كان مثار النقاش امام الجمعية . وقد القى ميرابو خطابه الأخير محاولاً التوفيق بين النظرتين ، مع ميل ظاهر لتأييد موقف كبار مستثمري المناجم في الشمال . ثم راح يدافـع عن قضية «أنزين» وسياسة النظام الملكي القائل: الاقتصاد اولاً والتقنية اولاً» هذه السياسة التي وجدت بين اعضاء الجمعية من يتبناها وينهض بها عالياً .

فالتسليم باستثمار المناجم المتوزعة ، قول يمجه العقل من عـدة وجوه انما يطمئن له الضمير ويرتاح اليه . ها هم المدافعون عن حقوق صغار الملاكين ضد الاحتكار والامتياز وما يمثله من قوة الاغراء . « فالموالون لاصحاب الامتيازات » و « لاصحاب الاستثمارات التعسفية » يحاولون « ان يحرموا من املاكهم اصحابها الآمنين الذين ليس من يدافع عن قضيتهم الحق غيرنا » . فبأيّ حق تجعل المنجم مشاعاً عاماً» يتساءل دستوت دي تراسي .قد يخفي حقلي بين طبقاته كنزاً مثلاً

ام درة أو ماسة ، ومع ذلك يريدون ان تضع الدولة يدهـا عليه . ان ادعاءات الشركات الاستثمارية صاحبة الامتيازات العريضة تكوّن اهانـة الجمعية التأسيسية وانكاراً لحق الانسان الطبيعي . لمالك الطبقة الارضية لا يمكن ان يكون غير صاحب سطح الارض . والى اي عمق تبلغ يا ترى الطبقة الارضية ؟ فعلم الاقتصاد بالذات والاقتصاد الحر والمذهب الفردي نفسه ، كلها تتساءل مع درون: «كيف يمكن بمناسبة البحث في قضية المناجم ، تغيير المبادىء الاساسية التي يقوم عليها المجتمع » ؟ وتدخّل احدهم في النقاش وراح يقدم ، للملكية الفردية ، باسم جيش جرار من صغار المستثمرين ، في جدلهم ضد اصحاب الشركات الاستثمارية ذات الامتياز ، تحديداً أو تعريفاً هو أحوى وأشمل ما جاء من أمثاله .

يجب ان يكون اصغر ملاك فرنسي ، بعد ان كسرت عنه قيود الاقطاعية التي كبلته ، حراً طليقاً في هذا المدى الذي يمتد من الجو الذي يعلو ارضه من اعلى طبقات الجو حتى اعمق الارض .

وأخذت الجمعية تراعي وتسالم . فقـد أعلنت القوانين التي صدرت في شهري آذار وتموز ١٧٩١ المناجم « تحت تصرف الأمة » ، الا انه يجب الاحتراز من الاستثمارات الضخمة بحيث لا تتجاوز المساحة الكبرى منها ستة فراسخ مربعة في حال الاستثمار يعطى الافضلية لمالك سطح الارض ، هـذا اذا ما اراد هو نفسه أن يستثمر المنجم الموجود في أرضه ، بذات الشروط والظروف التي تقدمها شركات الاستثمار نفسها اذا هـا كانت أرضه وأراضي شركائه تصلح لتأليف مشروع استثماري . فالمناجم التي تستثمر بخندق مفتوح أو « بدهليز مضاء » عمقه مائة قدم تبقى من حق مالك سطح الارض . هـذا فيما يتعلق بالمستقبل . ولكن ماذا من الحاضر ؟ كيف الوصول الى حل هـذه المشكلة الاجتماعية الهامة التي اقامت شركات الاستثمار والفلاحين بعضاً على بعض ؟ ولكن وجهـة نظر الشعب لم يجر الدفاع عنها باطلاً . فالاستثمارات التي قامت على مناجم معروفة من قبل ، بعد ان انتزع الاستثمار من يد صاحبها ، تفسخ وتصبح لغياً ملغياً .

واستناداً للقانون ثار الملاكون من أصحاب المناجم وراحوا يتسلحون . وفي مقاطعة فوريز، لم ينتظر البعض منهم هـذه الفرصة . واستقبل الملاكون بحفاوة بالغة في مقاطعة فوريز ممثلهم الذي حضر جلسات الجمعية ومتابعة اعمالها ، وذلك لدى رجوعه الى مدينة سانت أتيان ، بينما كان المجلس البلدي على استعداد ليرسل الى الجمعية قطعة من الفحم الحجري نقشت عليها عبارة تم عن شكر الشعب وامتنانه .

زراعة حرة وسياج حر

وعندما اعترف اعضاء الجمعية التأسيسية بحرية التصرف في القطـاع الاقتصادي وفي المجال التجاري والصناعي ، هدفوا من ذلك بالاحرى الى تأمين المساواة في القريب العاجل اكثر منه الى تسمم العلاقات بين الجانبين المتخاصمين وقـد كان يخشى ، اذا ما أريد تطبيق هـذا الحق على الاقتصاد الريفي ، من ان يؤدي الى نتائج

عكسية ، اذ أن النظام القديم المعمول بـه في هذا القطاع ، كان الى جانب مصالح الفلاحين ، كا كان من جهة ثانية ، متصلاً الى درجـة كبيرة بحياة الريف بحيث لم يدخل في الحسبان قط توقع حدوث تغييرات مفاجئة في هـذا المجال . وتمييزاً عما تجيش به هذه الجمعية من روح تحررية أصيلة اخذت تحاول التوفيق مع الاعراف الشعبية المعمول بها في البلاد.

ولم يتم الامر باليسر المرغوب بعـد ان استحوذ التردد على الجمعية التأسيسية ، فقد راحت اللجان المختلفة مع مقررها هيرتو دي لامرفيل تقدم اقتراحات أقل تهدئة للخواطر من هذه النصوص التي توصلوا الى اقرارها من قبـل . ففي نظر هيرتو ان تحرير الملكية هي قضية دستورية في الصميم .

وبطت الجمعية الوطنية مصائر المواطنين بالحرية الفردية القائمة على العدالة التي لا يمكن مسها . وها هي اللجنـة تتقدم ... منكم بطلب ادراج هذه الكلمات الاخيرة : « حرية الارياف » في صلب نص الدستور الذي كرس عالياً حرية المواطن وحرية الفكر .

وهذه الحرية تقتضي بالطبع : حرية الزراعة وحرية الاسعار وكذلك حرية التسوير أو اقامة السياج كحدود فاصلة بين قطعة ارض وأخرى، هذه الحرية التي يجب ان تقوم على سياسة حكيمة رشيدة تيسر المبادلات التجارية وتحـدد شروط الدفع . وراحت الجمعية تعطي الدليل القاطع على موافقتها : فالملاك سيصبح حراً في ارضه الموروثة حيث يستطيع ان يطبّق نظام استصلاح الاراضي على هواه. وهكذا انقلب الوضع رأساً على عقب وبطناً لظهر في اعراف وتقاليد الحياة الريفية القديمة .

وهذا الاتفاق الاجماعي زال عنـد مناقشة الحقوق الجماعية ولا سيما حقوق رعي الماشية في المراعي الطبيعية . فاقترح هيرتو إلغـاء هـذا الحق أو ما يقرب من ذلك . ان حقاً من هذا الشكل ، « يطعن » في الصميم ، دونمـا مبرر ، ويحرم من التعويض ، حـق التملك الطبيعي والدستوري معاً ٢٢٠٠٠ . فان احتفظ به فكقانون خيري لا غير ، ولمصلحة المعوزين فقط . واذ ذاك راحت الجمعية تعرب عن مقاومتها وترفض باصرار الأخذ بنص اكثر اعتدالاً تقدمت به اللجان. واذ ذاك اخذ كل من مرلن دي دراي وترونشيه وبرور دي لامارن وغيرهم عديدون من مقاعد الطبقة الثالثة يدافعون بكل ما لديهم من حجج عن اعراف الحق القديم .

ضعوا قانوناً تستحلبون معه ادعية سكان الارياف وبركاتهم . فالنص المقترح امامكم يستنزل عليكم السخط واللعنات .

فحق رعي الماشية في المراعي الطبيعية غير المسوّرة بقي معمولاً به للجميع، باستثناء المراعي الاصطناعية – الا اذا كان هـذا الحق قائماً على سند خاص أو منصوصاً عنـه في قانون ما أو جاري المفعول منذ عهـد سحيق . فالوضع بقي عملياً كما هو ، أقلّه من حيث الحق المبدئي . كذلك ابقت الجمعية حق المرور ، اذا قـام على حجة أو عرف وليس عـلى « تصرف غير

منازع ، كما اقترحه المقرر في الاساس .

وكان من نتائج مساعي التوفيق ، التميز بين حق رعي الماشية وبين حق المرور ، في النظام الزراعي ، بعد أن كانا مرتبطين معاً إلى ذلك الحين . فالحقوق تبقى مرعية الجانب في المجال الزراعي الذي تحرر من القيود ومن حظر التسوير . وهذا التوفيق الذي توصلوا اليه يكتنفه التضاد والتناقض في كل مظاهره ، اذ كان يكفي الفلاح الذي يتمتع بحرية الزراعة على هواه ، ان يلغي الارض البور ، ليمنع بالتالي حق رعي الماشية وحق المرور . ويكفي له أن يسوّر أرضه ويقيم حولها سياجاً ليقضي على الاثنين معاً ، دون أن يحسب حساباً التطور الزراعي البطيء السير . وهذه الحرية المعترف بها لمربي الماشية كانت تقوم على ترخيص أو اذن سابق . والتصرف بهذه الرخصة أو الاذن كان يقتضي له الوقت الطويل والمال الجزيل . وبانتظار هذا كله ، وباستثناء المناطق التي لم يُحظر فيها العهد القديم بعد ، انشاء المراعي الاصطناعية ، فالاقتصاد الجماعي القديم بقي معمولاً به كيفما كان الامر من حيث المبدأ ومن حيث الوضع القائم . فالحرية رجح جانبها الى حد كبير من الوجهة الحقوقية . اما الاعراف الجماعية القديمة ، فقد روعي جانبها واحتفظوا بهـا بالفعل . وهكذا قامت جنباً الى جنب الاعراف القديمة والحق الجديد .

المشاعات

كذلك بقيت قائمة الاملاك المشاعية . فقد حرصت الجمعية التأسيسية على هدم ما عملته الروح الفردية السيادية . فقد توصل السيد الاقطاعي بصورة قانونية حيناً إلى اقامة الحدود ووضع التخوم حول شطر كبير من الاملاك المشاعية ، شريطة أن يتولى إحياءها وإعمارها ، وبصورة غير قانونية احياناً ، عن طريق الاختلاس أو التزوير أو التواطؤ مع المجالس الاقليمية ، وبعض الأحايين ، منذ عشرين سنة على الأخص ، بالتواطؤ مع الادارة الملكية بواسطة قرارات يتخذها مجلس الوزراء ، تؤلف تشريعاً يعمل به في جميع انحاء البلاد .

بقي امام الجمعية النظر ملياً في قضية كبرى والبت بهـا : ما العمل بهذه الاملاك المشاعية المتضخمة ؟ راحت اللجان المختصة ترى كما يرى هيرتو . انه لم « يحن الوقت بعـد لاصدار القوانين الرادعة » اذ انها ستحدث في حال ظهورها ، هزة عنيفة في البلاد . فعملية اقتسام هذه الاملاك المشاعية ، مرتبطة الى حد بعيد ، بمشيئة هذه البلديات نفسها وبرغبتها في ذلك ، معلنة ذلك في بيان صادر عن ادارة المجلس البلدي . فباستطاعتها ايضاً بيع أو تأجير أو الاستمرار في التمتع بها جماعياً . ففي حالة اقتسامها يجري التقسيم وفقاً لطريقة اقترحها المقرر تقوم على التراضي بين الفرقاء المعنيين ، تلائم تماماً المشاعات الواسعة . فيجري اقتسام نصف المشاع بين الأشخاص والقسم الثاني بنسبة الرسوم والضرائب التي يدفعها المكلفون . ولم يكن لدى الجمعية من الوقت ما يتسع النظر بحيث تقضي نهائياً في الأمر ، فتركت الامور في وضعها القائم .

٢ – حريـــة المرور
او إلغاء الرسوم المفروضة على المواد الاستهلاكية

حرية الانتقال في الداخل

من شأن حرية التنقل في الداخل ان تساعد ولا شك على تنشيط التبادل التجاري بين المحافظات والاقاليم المختلفة في البلاد ، كما تتيح بالتالي، تحقيق الارباح المشروعة ، مع العلم ان الابقاء على المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا ، عام ١٧٩١ ، كان يهدد بالمرة مشكلات حادة بوجه ارباب الصناعة في فرنسا .

ولكن لحرية التنقل اكثر من مدلولها الاقتصادي. فرجال العصر اليوم يرون لها وجهاً اجتماعياً ومالياً . فالرسم المفروض على التنقل ، رسم بصيب ، على الغالب ، المواد الاستهلاكية وهـذا الشكل يؤلف لوناً من الوان الضرائب المفروضة ، كثيراً ما أثار غضب علماء الاقتصاد والفلاسفة والمكلفين . فالاعتراف بحرية المرور للدقيق واللحوم والسمك ، والحطب والخمور والملح معناه إلغاء رسم الدخولية والضرائب غير المباشرة والرسم المفروض على الملح . ومثل هذا التدبير انما يعني رفع القوة الشرائية ، بالفعل او بالقوة ، بين الطبقات البورجوازية وعلى الاخص الشعبية . هنالك شطر كبـير من الشعب – الفرنسي – لا يمكن ان نتصور اهميته في القرى والارياف الفرنسية ، تعود عليه حرية التنقل بالخير العميم ،كالكرّام مثلاً الذي تُفرض عليه رسوم وضرائب استثنائية باعتباره مستهلكاً ومنتجاً في الوقت ذاته . فحرية التنقل تنقذه الى الابد وتحرره نهائياً من تعسف هؤلاء المآمير المجبولين بالشر ، كما تجعله بأمن من ماصّي دم الدولة والذين يتفننون بلص الناس فكانوا سفالة الجنس البشري.فالقرار الذي صدر في٢ آذار (مارس) ١٧٩١،والذي ألغى تعويضات النقابات الحرفية ، والخوّة ، ألغى كذلك الضرائب على الكحول وأقر بالنتيجة عدم الدفع احدى رغائب الشعب العامة .

وكانت الثورة المتأججة منذ ١٧٨٩ قد التهمت مكاتب جباة الرسوم والدخولية . وسيبادر دوبوا غرانسه لمصارحة اليعقوبيين بضرورة الغاء أوكار أكلة البشر ، إلغاء نهائياً . وهـذا هو بالذات ما فعلته الجمعية التأسيسية خلال شهر شباط (فبراير) ١٧٩١ . فقد كانت أقرّت قبل ذلك ببضعة أيام حرية الزراعة وحرية صناعة التبغ وبيعه ، كما كان صدر ، قبـل ذلك بسنة ، الغاء الرسوم المترتبة على اسواق الخضار وغيرها من الاسواق التجارية . وأزيل من الوجود مبدئياً الرسم المترتب على بيع الملح منذ آذار ١٧٩٠، وعلياً منذ الاشهر الاولى لانفجار الثورة وانطلاق لهيبها ، كما كانت الغيت تماماً ضرائب اخرى منذ تشرين الاول .

ففي الحين الذي انتهت فيه مهمة الجمعية التأسيسية كانت ألغيت تقريباً جميـع الرسوم المفروضة على السلع الاستهلاكية ، باستثناء الرسوم التي تفرضهـا التعرفة الجركية والرسوم المفروضة على شهادة المنشأ .

ومع ذلك هنالك محصول فرنسي هام بقي مقيداً « ولم يمر » انقـله من فرنسا الى الخارج ،

هي مادة الحبوب ، اذ بقي تصديرها محظوراً تماماً . كل شيء كان يحمل الجمعية الميالة للدفاع عن حرية التبادل التجاري ، على الرجوع الى حرية التصدير كما سبق للملكية ورسمت حدودها عام ١٧٦٤ ، وبصورة جذرية عام ١٧٨٧ . فلم تأتِ شيئاً مع ذلك بهذا الصدد، اذ كان الامر لا يخلو من التعرض لمصلحة كبرى او لضرر عام . ولذا عمدت الجمعية هنا ، بدافع من الروح التحررية ، كما عمدت من قبل لدى مناقشتها الحقوق البلدية، الى المصانعة ومحاولة التوفيق بين المصالح المختلفة. فاذا ما استبقت ، بالرغم من رغائب الشعب التمتع بحرية التنقل في الداخل ، وحرية الاسعار والارباح صعوداً ونزولاً ، فقد وقفت في ما يتعلق بالتجارة مع الخارج الى جانب النقيض من تشريع عام ١٧٨٧ . وبالرغم من جودة مواسم عام ١٧٩٠ والهبوط المحسوس في الاسعار الذي جاء في اعقاب هذه المواسم ، لم يسمح بتصدير الحبوب من فرنسا موقتاً .

٣ – محاولة اعادة توزيع الثروة في فرنسا

فعلت عوامل عديدة هنا ، كما في الظروف الاخرى ، فعلها في تصلّب الجمعية في موقفها فجعلتها تسارع لاتخاذ القرارات اللازمة .

تأميم الاوقاف الكنسية

فالظروف المالية التي احاقت بالبلاد في اواخر خريف ١٧٨٩ اضطرت الجمعية الوطنية لاتخاذ اجراءات جذرية. فالازمة الاقتصادية والازمة السياسية حدّتا كثيراً من جباية الضرائب وتغذية خزينة الدولة . فلم يعد يتوفر البلاد ما تحتاج اليه من اعتمادات قصيرة او طويلة الاستحقاق . كذلك اصبح من المتعذر جداً عليها ، ان لم نقل من المستحيل ، تجديد عمليات التسليف عن طريق تحاويل او سحوبات بواسطة سندات مالية أشبه ما تكون بسندات على الخزينة مرهونة لدى المؤسسات العقارية التي أصبحت ملغاة. وعلى هذا قس ايضاً حسومات صندوق القطع التي كان يمكن الحصول عليها بالطريقة ذاتها . فقلّ النقد المتداول بين الناس. وفشل تماماً قرضان الواحد بعد الآخر أنزلا الى السوق ، الاول بفائدة ٤½ في المائة والثاني بفائدة ٥ في المائة ، بعد ذلك ببضعة أشهر . ولم يكن من المنطق بشيء ، ولا من المعقول بالتالي ، التمويل على التبرعات الوطنية ، على كثرتها، لما كانت عليه من نتائج زهيدة بالنسبة للحاجات العارضة . فلم يتجمع منها أكثر من مليون حتى آذار ١٧٩٠ . وفي الوقت نفسه فالتبرع بربع الدخل ، هذا التدبير الذي اقرته الجمعية بتصويتها عليه في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ لم يعطِ اكثر من ٨½ في المائة . اما موازنة النفقات فكان من المتوقع لها ان تبلغ ٥٥٠ مليون ليرة . وهكذا نرى ان جميع الذرائع المشروعة العادية استنفدت فلم يبق أمام الثورة ، والحالة هذه ، سوى اللجوء الى وسائل جذرية ثورية .

وهكذا رأت الدولة نفسها مضطرة لمصادرة اوقاف الكنيسة وتأميم املاك الاكليروس وعرضها بالتالي للبيع وتجميد قيمتها قبل المباشرة ببيعها، بحيث تصبح اساساً لسندات على الخزينة لم تلبث ان اصبحت عملة متداولة . وهكذا صدرت « الاسينياء » ***Assignats*** اوراقاً نقدية

أشبه ما تكون بتحاويل مسحوبة ، تغطيتها المالية : الاوقاف الكنسية واملاك الاكليروس .

ابتدأت المناقشة العامة حول مبدأ المصادرة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٨٩ ، إثر انتقال مجلس الأمة الى باريس . وجاء دفاع الاكليروس محكماً وقوياً جداً من الوجهة الحقوقية. هذه الاوقاف تخص جماعات عديدة لها شخصيتها الادبية ، لها ككل شخص، حق بالتملك كما لها الاهلية القانونية للحيازة والتملك . والبعض من هذه الاوقاف والممتلكات يعود لثلاثة عشر قرناً . وقد تولت هذه المؤسسات الدينية ادارة هذه الاملاك وتصرفت بهـا بيعاً وشراء حسبما دعت الحاجة الى ذلك ، كما انها نالت احكاماً بنشأتها . والدولة نفسها اعترفت بهـذه الملكية العقارية فكان ذلك بالتالي منها تصديقاً وتثبيتاً لهذه التدابير . ان خضوع هذه الاملاك لبعض التضييقات ولا سيما قضية بيعها لا يمس بشيء حق تملكها. أوَليس هذا هو وضع القاصر او العاجز بعينه ! وخضوع هذه الاملاك لبعض الرسوم ولبعض الضرائب لا يجعل منها فئة او طبقة خارج القانون . الا يوجد في البلاد ممتلكات او حقوق استثمار يترتب عليها رسوم متأخرة الاداء ؟ ان حق المؤسسات في هذه العقارات هو الحق الذي يتمتع به جميع الفرنسيين . فحق الدولة عليها واهٍ لا يمكن ان يصمد في وجه الحق. لم يهدف مؤسسو هذه الاوقاف من وراء عملهم هذا الى مجرد الجود بهبة ، بل رموا منه الى انشاء وقفية لهذه المؤسسة او تلك ، وبراءة الوقف تعتبر مبسولاً او ملعوناً كل من حاول استبدال او تغيير وجه الانتفاع بهذه الوقوفات ، بحيث يستطيع حفدة الذين أسبلوا هذه الاوقاف على الخير ، ان يطالبوا ، في بعض الحالات بحقهم فيها وباسترجاعها.

وبدون ان تستهين الاكثرية ، بهذه الحجج الدامغة والادلة القاطعة والبراهين التاريخية والحقوقية التي لا تُدحض ، هذه الادلة التي يحلو لاحد أعضاء الكونفنسيون ان ينعتها عندما تعرض لقضية ، اخرى بـ « قطر من المعارف والمعلومات لا خير منه يرتجى ولا فائدة » ، فقد تبنت مع ذلك نظرية الثورة وموقفها متعللة بالعدالة والحق الطبيعي . فما هو القصد الذي قصده الواقف ووضعه نصب عينيه عندما أسبل وقفيته هذه ؟ أليس تأمين أوَد الشخص أو المؤسسة التي وقفها عليها وخص الفقراء والمعدمين بما تفيء من إيراد ومدخول ؟ فاذا ما اضطلعت الامة بهذه المسؤولية ، واذا ما عولت على هذه الاوقاف في الملمات الكبرى والازمات الخانقة افلا تبقى مقاصد الواقفين محترمة ومرعية الجانب ؟ ثم هل من المعقول ان تقيّد مقاصد الواقفين الاجيال الطالعة بعدهم ؟ وراح ميرابو يستشهد هنا بحجج تورغو الشهيرة : فلو كان آباؤنا احتفظوا لانفسهم بقبورهم لكان وجب، توفيراً للاراضي الزراعية اللازمة ، هدم هذه القبور والعبث بالتالي برفات الراقدين فيها تأميناً لقوت الاحياء ؟ وهكذا خرجوا من هذا النقاش الحـاد الطويل بالنتيجة التي اوجزها دوبون دي نمور عندما قال : ان املاك الاكليروس تخص المجتمع كله .

وعبثاً يرد الجانب الآخر معللاً ان انتزاع هذه الاملاك من اصحابها الشرعيين يهدد الاحسان والتصدق في الصميم ، هذا الاحسان الذي يرى فيه الغني الواقف نوعاً من الضمان الوطني، كما انه يجرح مبدأ حق التملك الخاص ، هذا الحق الذي راح موري يتنبأ بشأنه قائلاً :

لحق التملك واحد هو ومقدس هو عندنا وعندكم . فأملاكنا ضمان لاملاككم . فنحن نستهدف اليوم لهجوم ، فاذا ما جردونا من حقوقنا ، فسيأتي دوركم غداً ولا شك في ذلك .

الأسينياء وبيع الاوقاف ذات المنشأ الاول

وقد ردت الاكثرية على هذه الحجج بان عدد المالكين – عماد كل نظام وقوامه – سيزداد ويتضخم بعد توزيع الاملاك الضخمة التي يحملها الوقف .

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، اتخذ المجلس قراره بوضع املاك الكنيسة « تحت تصرف الأمة » . وراح باريز يعلق على هذا القرار في صحيفته : « شق الفجر » قائلاً : كان من الواجب « توضيح كل المبادىء أو العوامل التي تحول دون ظهور الطبقات من جديد ودون بعث الارستوقراطية من رفاتها وهي رميم » . فهذه الكنوز المنتظرة التي تتراوح قيمتها بين ٢ – ٣ مليارات من الليرات، أي ما يوازي من ٣ – ٥ اضعاف نفقات الدولة في السنة، كان يمكن أن تكون اساساً لنظام من السندات على الخزينة ، ودعامةً لقروض داخلية جديدة، قصيرة الأجل أو غطاء مضموناً لنقد جديد . وبقراره الصادر في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٩ ، اختار المجلس بكل حرص الحل الاول الذي لا يطال سوى فئة الزبائن القدامى ، هذه الفئة المتكونة من حَمَلة الاسهم أو السندات . فقد باءت التجربة بالفشل التام . فلم يعد من مَفزع يُركن اليه سوى الاقدام والجرأة . فبدلاً من « الاسيلياء » السند على الخزينة ظهرت « الاسينياء » نقداً أو عملة التداول، حددت انواعها وفئاتها وقيمتها، القرارات الصادرة في ١٧ نيسان و٢٩ ايلول و ٨ تشرين الاول ١٧٩٠ . فهذه الورقة النقدية الصادرة باسم الدولة والمطروحة في التداول بين الناس والتي لها قوة إبراء لا حدّ لها والتي تتداولها الامة باجمعها ، تسهل القيام باعمال مالية جبارة .

وكم عوّل عليها الناس وأملوا بتحقيق نهضة اقتصادية كبرى في البلاد ، اذ كان من شأن تداولها بين الناس أن يبعث النشاط في الحركة التجارية بعد الجمود والركود الذي اعتراها ، بعد ان شكا الناس وتذمروا من ندرة النقد وانقطاعه . وراح ميرابو يستحلف المجلس ، في آب ١٧٩٠ ، ان يطرح« في التداول هذا العنصر الحيي الذي يبعث النشاط في المجتمع بعد أن اشتدت حاجته اليه » . ويمثل توزيع املاك الاكليروس جانباً سياسياً واجتماعياً كبير الاثر ، اذ من شأنه ان يفتح في سوق الاراضي تياراً قوياً من الطلبات يغري الشاري البورجوازي والريفي بالاقبال عليها .

وسيفيد المتقدمون الأوَل من هذه الصفقة اكثر من المتمهلين بكثير . فالجمعية التأسيسية تبحث عن كميات طازجة من النقد . وقد اتفقت مصلحة الخزينة ومصلحة البورجوازية التي بامكانها الدفع نقداً ان تحتفظ لنفسها بالقسم الأكبر من قرص الحلوى. فالبيع يجري بالمزاد العلني. هنالك بين هذه الاملاك ما يؤلف وحدة تامة تتوفر لها مجموعة متناسقة متكاملة من المباني

والأدوات الصالحة للفلاحة والمروج تؤلف اجزاؤها وحدة إنتاج متكاملة ، يصعب جداً تقسيمها وتوزيعها . وقد أبت الجمعية أن يصار الى تقسيمها « الى قطع صغيرة ، تباع أو تؤجر بنسبة ثمنها بحيث لا تلبث ان تستبدل الزراعة التجارية (الاستثمارية) بزراعة متخلفة تعود بالاقتصاد القهقرى .

فبعد ان ترددت الجمعية مدة حول الوسائل ، راحت تبحث على طريقتها الخاصة ، عما يوفق بين وجهات النظر العديدة المتعارضة . وقد نص القرار الصادر ٢٥ حزيران – ٢٥ تموز على أن تقسم الاراضي بحسب اتساعها ، الى شقق ملائمة « رغبات الشاري وتكثير العروض » لا سيما والمشتري الجديد لهذه القطع الارضية سيستفيد من تسهيلات محترمة في الدفع : ١٢٪ نقداً في كل ما يتصل بالحقول والمروج والكروم وأبنية الاستثمار . والباقي يُسدد اقساطاً متساوية على ١٢ سنة ، بفائدة ٥٪ وبالنظر لما كانت عليه الاملاك من توزع وتشتت ، كانت هذه الشروط المغرية حافزاً للزبن على الدخول في المزايدات . فالقطع التي كان ثمنها أقل من ١٠٠٠ ليرة كانت متوفرة جداً . هذه قطعة أرض تضم اقساماً قابلة للزراعة يشاريها الزبون ، فيدفع من ثمنها ٦٠ ليرة نقداً ويدفع الباقي اقساطاً سنوية على ١٢ قسطاً ، أي انه يدفع ما يترتب عليه ، من غلة الارض ومدخولها تقريباً . الا ان العملية لم تكن في متناول الجميع . فالستون ليرة توازي مرتب أو اجرة ثلاثة اشهر . هنالك عدد كبير من المياومين لا يملكون مثل هذا المبلغ . وقد خطر للجنة الصدقات ان تعهد اليهم باستثمار اراض من الجنس الرديء ، فتتنازل لهم عن قسم منها ، « وهو تدبير يجنبهم العوز والحاجة » . الا ان هذا الاجراء وخطة الاسعاف الكبرى التي سنتكلم عنها فيما بعد لم يجر عرضها على بساط البحث . ومن المظنون ان اعضاء الجمعية التأسيسية لم يكونوا ليرضون قط بان يتم مثل هذا الامر على حساب املاك الاكليروس .

والراغبون في الشراء جاؤوا بعدد كبير . فقد سيطر على عملية المزايدة احياناً ، جو من الحماس الشديد . وكثيراً ما قوبل المشرفون على عملية المزايدة بالاهازيج والاغاريد الحماسية . والذي يرسو عليه المزاد ، كانت الموسيقى تشيعه لدى انصرافه ، ويسلمونه إكليلاً مدنياً وبندقية ليرد من يتعرض لاوضه بسوء . وكثيراً ما راح البورجوازيون في المدن ، والنبلاء والفلاحون حتى وبعض رجال الاكليروس يزايدون بعضهم على بعض لرفع الاسعار . وكان الأول منهم يتقدمون لشراء العقارات الواسعة ، كما انهم لم يأنفوا قط من شراء القطع الصغيرة . وقد فاقهم عدداً ، عندما تكون المزايدة تتعلق باملاك ريفية ، المزارعون وعمال المنازل ، والفلاحون والمرابعون ، والعمال المياومون في الصناعة الذين كانوا يرغبون في الحصول على قطع صغيرة من الارضي ، أو على عقارات صغيرة ، واحياناً على عقارات كبيرة ، فيؤلفون ، في هذا السبيل نقابة من المشترين . ستعمد الدولة على منعها وإلغائها عام ١٧٩٣ ، أي في وقت كانت معظم الاملاك الكنسية قد بيعت أو جرى التصرف بها بشكل أو آخر . وفي نهاية الامر ، نرى أن مشتري الاملاك الريفية كانوا نوعين من المشترين : بورجوازيي المدن والفلاحين : فالفارق بين

الفئتين ، لم يكن كبيراً . انما يظهر هذا الفرق بوضوح اكبر اذا ما قسنا ذلك على الافراد ، وعلى فئة الفلاحين ، بين بروليتارية المياومين من جهة وبين انصاف البورجوازيين في الارياف من جهة اخرى ، الذين يتألفون من الفلاحين أو يعملون في الصناعة . ومهما يكن من الأمر فالملكية العقارية المتمتعة بالامتيازات كانت كبش المحرقة هنا .

هنالك ، مع ذلك ، نقطة يجب التوقف عندها هنيهة والتأمل فيها ملياً . فبيع املاك الكنيسة والاكليروس لم تزد من نسبة عدد اللاكين في البلاد فحسب ، بل زادت كثيراً من نسبة أصحاب الاستثمارات . ان قسمة العقارات الكبيرة لما فيه مصلحة البورجوازية حمل عدداً أكبر من الفلاحين على طلب رزقهم من خبايا الارض بوصفهم مزارعين أو مرابعين. وهكذا تحقق أمل كبير من آمال سكان الريف الذين طالما دغدغت خيالهم وافترّت لها شفاههم بسمة رضى عندما وقفوا موقفاً معارضاً في وجه توحيد المزارع وتكتلها في وحدات متماسكة ، ضخمة .

الضرائب والرسوم العقارية

وهذه السياسة التي قامت على توزيع قسم كبير من الثروة العقارية تتفق كل الاتفاق مع السياسة الأخرى التي رمت لتصحيح أوضاع الدخل الوطني في البلاد ، وقد تم تطبيقها على حساب الطبقات الاخرى ولفائدة المتضررين ، ولو جاءت شزرى لدى البعض . ان تخفيض المرتبات العالية تخفيضاً محسوساً حمل ، هو الآخر ، عمله في هذا المجال . وهكذا قل عن إلغاء العُشر والحقوق السيادية الاخرى،وإزالة الضرائب المفروضة على المواد الاستهلاكية وتساوي الجميع أمام الرسوم المالية .

والنظام الضرائبي الجديد : كضريبة الاراضي والمسقفات بلغ تمامه في الاشهر الاخيرة من سنة ١٧٩٠ ومطلع عام ١٧٩١ . فاذا ما قارنا هذا النظام بالنظام الضرائبي القديم نراه يلقى شيئاً من الرضى وحسن القبول والارتياح لدى جمهرة الخاضعين للضرائب أو المكلفين ، لا سيا عندما تعارض بأسعار اليوم ، قيمة الاعشار والرسوم السيادية التي كانوا يرزحون تحتها . غير ان الفارق الطفيف بين الرسوم المباشرة التي فرضت عليهم احدثت فيهم احياناً شعوراً مريراً لشدة فداحتها ، اذ ان هذه الضرائب ، بخلاف الضرائب غير المباشرة التي اعتادوا ان يدفعوها يومياً دون أن يشعروا بها ، والتي كانت تختلف باختلاف أسعار المواد الاستهلاكية نفسها ، أو قيمة الاعشار والرسوم التي يلزمون بدفعها بنسبة قيمة الغلة، لم تكن لتتأثر كثيراً — هذا ان تأثرت — بتغيرات المحصول السنوي . وبالفعل ان جمود الهيئات السياسية المنتخبة والمكلفة بتطبيق هذه القرارات جعل البلاد تنعم بمهلة طويلة من تأجيل الديون .

ان جانباً من هذه الضريبة التي تصيب الجميع بالتساوي معد للانفاق في وجوه جديدة لم تعرف مثلها البلاد من قبل ، منها مثلاً ما هو مخصص للمجال الاجتماعي لا سيا التربية والتعليم ، هذا القطاع الذي حلت فيه الدولة محل الكنيسة .

كذلك في مجـال الاسعاف الاجتماعي . فقد سبق لجنة الصدقات في الجمعية التأسيسية ان وضعت مشروعاً كاملاً للاسعاف العـــام . فهي ترى ان « البؤس الذي تتـكبد فيه الشعوب ، انما تقع مسؤوليته على الحكومات » . فيترتب بالتالي على المؤســات الحكومية وهيئاتها الرسمية، العمل على إزالة أسبابه والقضاء على مسبباته . والنظام الذي اقترح الاخذ بـه وتطبيقه يكفل البائس والفقير المدقع رعاية تلازمه في كل مراحل حياته ، كما ينص على تخصيص اسعافات للاولاد المحرومين من كل عون ، وللاسر الكبيرة والفقراء الذين اقعدتهم العاهـة عن العمل ، وللمرضى والطاعنين في السن . فتعويض الشيخوخة البالغ ١٢٠ ليرة يمثل تقريباً نصف الأجر الذي كان العامل اليومي يتناوله ، على ما نعلم من تدني هذا الاجر . فليس من يعارض ، من هذا القبيل ، في العالم الاقتصادي : من دوق دي لاروشفوكو – ليانكور ، رئيس اللجنـة المذكورة الى مجموع اعضاء الجمعية . فاذا لم يكن لدى الجمعية التأسيـسية من الوقت للتصويت على هـذه الخطة ولاقرارها فهي تحرص ، في قسم الاحكام الاساسية من الدستور عـلى وعد علني بهذا الشأن .

وهكذا تمّ قطعاً ، بانتهاء الجمعية التأسيسية بين ٣ – ١٤ من ايلول، تقويض النظام البائد وهدم المجتمع الذي قام عليه .

فالنظام الملكي الذي عاش قرابة الف سنة مات وزال تماماً من الوجود ، والسيد السند اول نبلاء فرنسـا وطليعتهم لم يَعد سوى خـادم الدولة الأول ، هذه الدولة التي هي نفسها اوجدته وتدفع له مرتباته وترفته ، تحت ستار تقدم استقالته من نفسه اذا ما رفض ان يؤدي لها يمين الولاء أو اذا ما حنث بهذا الحلف وخفر قسمه أو اذا ما تولى قيادة جيش يحاول معه النيل من سيادة البلاد واستقلالها ، او اذا ما ترك هذا الجيش يتصرف على هواه ، أو اذا غادر فرنسـا فلن يسمح له بالعودة اليها حتى ولو بدعوة من الهيئات التشريعية .

كذلك انهارت أرضا دعائم هذا النظام الاجتماعي الألفي. فطبقة النبلاء أرغم انفها صاغرة. والاكليروس صودرت أملاكه وانتزعت اوقافه وأقسر على الطاعة والخضوع . واستقر في روع «المتمصرين» ان «الرؤساء» القدامى تمّ محقهم الى الابد. فالمال والكفاءات وحدهما تتكلم وتفصل. فسير الادارة في النظام الجديد يؤمن البورجوازية العليا والوسطى السلطة الفعلية في البلاد . ويسند النظام قوة شعبية بالرغم مما يظهر عليه احياناً من عوارض الاختلاف .

الا ان الوضع العام لا يزال يبدو متقلباً وموقوتاً . فهنالك بعد، خطر البطن (الجوع) يطل من خلال القوة . والمغلوبون على امرهم لا يسلمون بالهزيمة ويتمتعون في فرنسـا نفسهـا بقوة تفوق كثيراً نسبة عددهم ، والبعض منهم يستغيث باوروبا ويدعو ملوكها للنجدة ، وتراود الجبـال اهوال الثائر الذي يبدو لهم وشيكاً. فالمؤسسات الثورية وفرنسـا نفسها عام ١٧٩١ تزرع الخوف في قلب العالم القديم . وقد انتصبت امام انظار المعاصرين – يوماً بعـــد يوم – اخطار حرب كبيرة طاحنة .

فالمتضررون من جهتهم متقسمون على انفسهم . كثيرون بينهم آثروا ، بعد ان تحرروا من كل ضغط خارجي ، على الثورة الخلاقة المبدعة ، ثورة سلبية مسالمة . فالخطر الذي مصدره اليمين ، والضغط الذي يمارسه اليسار من جهته لم يكونا ليتركا لهم حرية الاختيار . فقد انجرفوا مع قوى الثورة العارمة ودخلوا خضمها فساورهم القلق وقد حان الوقت ، في نظرهم ليحلوا محل حركة المقاومة .

الا ان هذه القوى التي تحالفت في ظلها البورجوازية مع الطبقات الشعبية ولعبت معها دوراً حاسماً كانت تخطط لأبعد من ذلك . فسواء لديها أنشبت الحرب ام اشتد ضغط اليمين واصبح خطراً مبيناً على النظام الجديد ، فضرورة المصير ستمكن الحركة الجديدة من تجربة حظهـا وتنطلق الى الامام .

عهد المتوقعات
الثورة والمؤتمر الوطني
(١٧٩٢ ـ ١٧٩٥)

الحرب الكبرى التي ستنفجر لتضع وجهاً لوجه ، المجتمع اللاطبقي والمجتمع التقليدي فيه شجرت عام ١٧٩٢ . ففي هذا الصراع المحموم الذي لم يسبق ان اهتاجت المشاعر المتلاحمة فيه بمثل هذا الهيجان ، في ما سبق من العصور ، اذ بلغت فيه الاحاسيس من الغليان ما سجل رقماً قياسياً ، تبرز لأول مرة الوحدات العددية القياسية التي تطبع سياسة العصر : الوحدة العسكرية او الحربية التي تقوم على مليون جندي مسلح ، والوحدة المالية قوامها المليار ، والوحدة النقدية قوامها الورقة النقدية بـ ١٠،٠٠٠ ليرة ، ليتكون من هذا كله ، ما عرف في تاريخ الثورة بعهد « الاوليّات » أو المتوقعات . ان معظم النظم أو المؤسسات التي رأت النور في هذا العهد تحت ضواغط استثنائية لم تلبث ان زالت بسرعة كلية ، مع انه شدت بينها وشائج وروابط محكمة ربطتها بالعهد المنصرم ، وهي نظم ستؤلف ذكراها في هذه الاحزاب السياسية التي قامت في القرن التاسع عشر ، قطب جذب واغراء عظيمين .

اولاً ــ القوى المتحركة

١ ــ الخطر المزدوج

كانت الثورة قد تفاعلت حتى الآن ، والى مدى بعيد ، بمشاعر جماهيرية واجتماعية الطابع . فطلعت احاسيس جماهيرية اخرى مازجت بين القوى ووحدت بينها في المجالين الوطني والاجتماعي لتزيد الثورة تأججاً واضطراماً .

« الانفعال الوطني » واللاجئون « الخونة »

اخذ الناس يشعرون منذ ١٧٩١ بطلوع جو مثقل بالحرب : حرب الشوائع الغثة والسمينة والمناوشات والفتن التي لا نهاية لها . يقرأ هذا في الصحافة اخبار الفوضى الضاربة اطنابها في فرنسا واخبار الجرائم الوحشية التي يحدث العالم الخارجي عن وقوعها ، كما يروون في الداخل ، حوادث الاضطرابات والقلاقل والانتفاضات الثورية . هنالك تحركات جيوش على الحدود وإهانات يلحقونها في الخارج بالعلم المثلث الالوان . وازداد الجو ضغطاً عموماً بعد حادثة فارين *Varenne* . وتصل باريس، في مطلع ايلول ، بجسمة مضخمة ، اخبار مؤتمر قصر بيلنتز *Pillnitz* ، تصف بصورة متقطعة الشخصيات التي اشتركت باعماله ، بينهم امبراطور النمسا ليوبولد ، والارشيدوق فرنسوا ، وملك بروسيا وابنه ولي العهد الملكي ، وامير هوهنلوه ، وامير ناسّو ، عدا ناخب ساكس وقهرمان القصر . والمهاجرون تمثلوا هم أيضاً في المؤتمر بشخص كالون وكونديه واسترهازي وبولينياك و« مسيو دارتوا » و « الخائن بويه » ، وبالاجمال « مجموعة مدهشة » من ممثلي اوروبا الارستوقراطية . لا شك في ان حديث المؤتمر دار حول فرنسا بعد الشوائع العديدة التي نثرها واشاعها اللاجئون في كل من كوبلنتز وبروكسل، وعلى اثر المنشور الذي اذاعه الامراء في العاشر من ايلول عقب اجتماعهم المعلوم ، الذي تضمن استنفاراً للاجنبي ودعوتهم التدخل استجابة منه لهذه الصرخة الرسمية . وقام اذ ذاك ما يعرف « بالتحالف الذي لا يُقهر » الذي هدف الى وضع حد لعهد الاستبداد والطغيان الديماغوجي، و « بطر الطبقة الشعبية » فاذا ما جرت محاولة اعتداء على ذات الجلالة الملكية « تناقلت باريس كلها الخبر ، وكان على باريس ان توقن جيداً .. ان جيوشاً قوية جداً ستنقض حالاً على المدينة المارقة فتنزل بها صواعق السماء وغضب العالم بأمره » . لا شك في ان الامراء اللاجئين سيتجاوزون الحقائق كثيراً في البيان الذي اذاعوه ، ويورطون الامبراطور ليوبولد فيذهب أبعد مما كان ينوي الذهاب اليه . فالعلم الذي تم للمعاصرين اذ ذاك، نراه مسجلاً في هذه النصوص وفي هذه المجادلات العنيفة التي أثارها هذا البيان . من يذكر بعد هذه الاستطرادات والابحاث التقدمية المستفيضة حول حرية اختيار الوطن ، وحول سابقة ابناء الفريق الفارين الذين اعترفت الجمعية التأسيسية لذراريهم بالجنسية الفرنسية . والفرصة سانحة لكوندورسيه وفيرنيو ولغيرهم ان يحولوا وان يصولوا ، فيعيدون عبثاً ، على الاسماع، خلال المناقشات الاولى التي دارت في الجمعية التأسيسية حول اللاجئين ، ويذكرونهم بالواجبات المترتبة عليهم نحو الوطن المحدقة به الاخطار من كل صوب ، ووجوب التحلي بالتضامن الوطني ، والجريمة النكراء التي يأتيها من يتنكر لهذه الواجبات . وراح القرار الصادر في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) يهدد المجرمين ، ومن بينهم السيد السند ، بمصادرة املاكهم والحكم باعدامهم . فاذا رفض الملك المصادقة على قرار يُعرض عليه ، وهو يعمل سراً لحمل الدول الاجنبية على التدخل، اتُهم بالتواطؤ معها بالخيانة . وقد حدث اذ ذاك ما هو أنكى وأوقع ، وهو انطلاق الحرب الدبلوماسية . فأخذت الامبراطورية تحاول ممالأة الامراء الذين جُرّدوا من املاكهم وألقابهم لاجبار فرنسا على اعادة النظر في القرارات التي اتخذتها بهذا الصدد . وراحت فرنسا من جهتها

تحاول ان تفرض على الامبراطور تسريع تشكيلات اللاجئين. كذلك تقطعت العلاقات الدبلوماسية مع البابا بيوس السادس منذ الربيع . وقد وجهت تهمة الخيانة الى وزير الخارجية : دي لسّار بالتواطؤ مع النمسا وأحيل أمام المجلس الوطني في آذار ١٧٩٢ ، للمحاكمة ، جاراً معه الى السقوط الوزارة برمتها . فعندما اعلنت الجمعية الحرب على ملك هنغاريا وبوهيميا في ٢٠ نيسان، حرصت على ان تؤكد موضحة ان هذه الحرب ليست بين أمة وأمة ، بل بين شعب وملك . و « تبنّت مسبقاً كل اللاجئين الذين يغادرون صفوف العدو ليحاربوا تحت الالوية الفرنسية » .

هنالك ظنون وريب مخيفة تحوم حول الزوجين الملكيين في هذا الصراع ضد النمسا دفاعاً عن الحرية . ففي ايام الحرب ، يعزل الملك في ١٣ حزيران ، الوزراء الوطنيين ، امثال رولان وسرفان وكلافيير ، ويرفض توقيع القرارات المتعلقة بأمن الثورة الوطنية ، الصادرة في ٢٧ ايار (مايو) و ٨ حزيران (يونيو) فثارت باريس في ٢٠ منه وراحت تشهّر في عريضة تهديدية ، بهؤلاء المتآمرين ضد الوطن ، المسؤولين « عن الجمود الذي يشل جيوشنا ويُقعدها » . فاذا ما كانت السلطة التنفيذية هي المسؤولة عن هذا المسلك « فلتسحق سحقاً » . وراح لافاييت بدافع عنها بوصفه قائد جيش يتولى الاعمال الحربية ، بعد ان اتهمه دانتون من قبل انه « يتزعم فئة النبلاء المتحالفين مع كل الطغاة في اوروبا » ، ثم يسارع في ٢٨ حزيران الى منبر المجلس الوطني ويهاجم اليعقوبيين فيلاقي خطابه دوياً في صفوف الـ *Feuillants* . وقام روبسبير يتصدى له بالرد عليه من منبر شارع سانت هونوريه ، مطالباً بملاحقة «هذا المجرم» .

« الخائن » لافاييت
« الخونة » في الداخل

ولم تلبث ان برزت الاوضاع بشكل اوضح ، اذ اعلن الامبراطور وملك بروسيا موقفهما الصريح من « الفوضى الفرنسية » ، واعلن ملك بروسيا الحرب في ٦ حزيران . وراح برونسويك يوضح في ٢٥ منه الاهداف التي وضعها البلاطان نصب اعينهما : « القضاء على الفوضى داخل فرنسا ... ووضع حد لهذا التهجم على البلاط والكنيسة ... وإعادة السلطة الشرعية... وجعل الملك في وضع يستطيع معه ممارسة الحكم وادارة البلاد وفقاً لما له من سلطة شرعية» . ويكاد المنشور الذي اذاعه من التهديدات ضد الامة الفرنسية ، ترديداً منه التهديدات نفسها التي اصدرها الامراء والتي تبنّاها اللاجئون بدورهم . فالرأي العام لم يفرق بين الاعداء في الداخل والاعداء في الخارج فهم واحد اينما كانوا. والشعب في شعوره العفوي لمس الواقع لمس اليد . فالمنشور صدر بالفعل عن « اللجنة النمساوية » في التويلري التي كشف امرها تيسّو ، اكثر منه عن برونسويك . وراحت بعض الاحياء تتخذ قرارات بسقوط الملك . فبعد ثورة ١٠ آب وسقوط العرش ، حاول لافاييت عبثاً حمل الجيش العمل ضد السلطة الجديدة في البلاد ، ثم ينجو بنفسه باتجاه العدو في ١٩ آب مسجلاً بعمله هذا « خائناً جديداً » في البلاد . ثم تتعاقب الاحداث العسكرية بسرعة ، اذ يعبر الجيش الالماني الحدود ويدخل فرنسا في اليوم ذاته ليستولي في ٢٣ منه على بلدة لنغوي . « بين صفوفكم خونة » ، يصرح بيان صادر عن المجلس الاستشاري ، « وإلا

لـكانت المعركة انتهت » ... وفي ٣٠ منه يبدأ النمساويون بحصار تيونفيل . « الملك رزع جيشنا وشتته وترك حدودنا مفتوحة » ، مشرعة » يعلن التعميم الوزاري المرسل الى مختلف المحافظات ، وذلك على إثر الوثائق والمستندات التي عثر عليها في قصر التويلري ، وفي ٢ ايلول انتشر خبر سقوط فردان ، آخر خط دفاعي في الطريق الى باريس ، بعد ان اذيع ان المدينة سلمها الخونة من انصار الملك ، وان مطران المدينة ينوي دخولها في اعقاب احتلال الجيش البروسياني لها . وفي كل مكان تقريباً نرى النظام القديم يلبعث من جديد في إثر الغزاة . ويعلن المجلس الوطني العام ، الكومون ، التعبئة العامة ، كما يأمر بتجريد المشبوهين من اسلحتهم ، ويكشف عن الخيانات التي تحيق بالبلاد وتتهددها . « من الافضل لنا ان نُدفن مع وطننا » ، وان تحول « مدينتنا الى تلال من الردم والخراب » على ان تخضع لبرونسويك » . وانطلق المدفع يستنفر الناس ، كما اخذت الاجراس تقرع باستمرار منذرة بالخطر الداهم . لما الذي تفكر به الجماهير وهي تتألب زرافات وتتجمع في الشوارع ؟ فقبل الالتحاق بجبهة فردان ودخول المعمعة يجب ان نضع حداً للجبهة الموجودة في العاصمة . « فهذه الكتائب المعدوة القادمة للقضاء علينا تتواطأ سراً مع المجرمين ومع المساجين » في السجون . نحن امام دسيسة سجون » . فاعداء الثورة ينتظرون قدوم العدو ليفتحوا ابواب السجون . يجب اخلاؤها في الحال .

لويس الخائن

بعد هذا بثلاثة أشهر كان القرار الاتهامي يذكر ، امام المؤتمر الوطني ، الجرائم التي اقترفها الخائن لويس ، آخر ملوك الفرنسيين ، ضد الوطن . فهو متهم بخلخلة الجيش الفرنسي ، واغراء طوابير برمتها لترك صفوف الجيش ، وتسليم لنغوي وفردان ، عن سابق قصد وتصميم للعدو ، والقضاء على الاسطول الحربي ، وتواطؤ على طول الخط مع ممثلينا الديبلوماسيين الذين يقدمون خدماتهم للدول الاجنبية وللامراء ضد فرنسا ، وعدم اكتراثه لسوء المعاملة التي يتعرض لها الفرنسيون في الخارج ، وتحقير الأمة الفرنسية ، في المانيا وايطاليا واسبانيا .

حركة انفصالية يقوم بها سكان مقاطعة الفانديه

خونة هم ايضاً سكان مقاطعة فانديه « الانفصاليين » ، كما ينعتهم سوربل بالذات ، بعد أن راحوا يكشفون ، منذ عام ١٧٩٣ ، عن خططهم المعادية للثورة « بالتواطؤ مع اعدائنا في الداخل والخارج » .

وفي شهر آذار نفسه ، تشهد البلاد خيانة القائد ديموريز ، ليعيد على المسرح الدور الذي قام به لافاييت من قبل ، ويجتاز عن سابق قصد وتصميم ، الحدود ملتحقاً بصفوف العدو ، ويتكلم كما تكلم برونسويك ، ويعرب عن رغبته « بالهجوم على باريس ليضع حداً لهذه الفوضى المجعة التي تسيطر على العاصمة » كما ان كوبورج يعلن في ٥ نيسان عن تضامنه مع ديموريز ، ويشهّر بهذه الغوغاء التي « لا تحلم إلا بالقتلة والسفاحين » . خونة ايضاً الجيرونديون رفاق ديموريز ، وراح روبسبير يعلق في غرة نيسان على الحوادث امام اليعقوبيين ، قائلاً :

الجسور ميورييز ان يأتي ما الله لو لم يكن يعتمد على حزب قوي ؟ هو يعد بيننا من الانصار من يتواطؤون معه ... فسلامة الجمهورية تقوم في اعادة تنظيم الحكومة .

ففي فرنسا المستباحة التي يقف مصيرها على كف عفريت ، كل اعداء الثورة من المهاجرين الى حزب الجيروند ، يتهمون تباعاً بالتواطؤ مع الاجنبي .

فرنسا والثورة سيان ، شيء واحد هنا . فالعدو ، واحد هو سواءاً أكان في الداخل أم في الخارج . ها هو باربر يعتلي منصة الخطابة في المؤتمر الوطني، في ٨ آب ١٧٩٣ ، وأخذ يتكلم باسم لجنة الانقاذ العام قائلاً :

« عليكم ان تضربوا في يوم واحد كلا من انكلترا والنمسا والفانديه والهيكل وآل بوربون » .

وفي الوقت ذاته يشهّر «بيت» وينعته بأنه : « عدو الجنس البشري». فانكلترا «قرطاجة هذا العصر » يجب محقها من الوجود . ويردد الشارع هذه النداءات : علينا أن نقوم بغزو هذا الشعب الضاري وأن نمسح لندن من الوجود . ويقوم من يضيف : وفيننا ايضاً . والتهب الشعب بالحماس الوطني ضد العدو التقليدي وضد شركائه المتواطئين معه من الملكيين أو « المتحالفين » الذين يحاولون – عبثاً – تمكينه من مرسيليا ، في اواخر آب ، انما يحالفهم الحظ في الوقت ذاته ويمكنونه من مدينة طولون ، بينما تثور مدينة ليون وقد بدأ صفة الغزاة البيامونتيين . وقد دخل في روع الجماهير واستقر في خلد الغوغاء ان فئة من افراد الفرنسيين يعملون في خدمة العدو ، من داخل مدننا الحصينة ، وهم على استعداد كلي لمؤازرته بالسلاح ، ومده بما يرغب من المعلومات . ان عملاء الاجنبي ، كما يؤكد روبسبيير ينسابون بين جيوشنا، ويعملون على خلخلتها من الداخل ... ويحضرون المداولات والمناقشات التي تجري في الدواوين وفي أي لجنة من لجاننا الفرعية ، ويتغلغلون في انديتنا حتى بين صفوف المؤتمر الوطني .

وأياً كانت نيات الترميدوريين ، فهم لن يلعبوا بالنار ويعبثوا بهذه المشاعر . فبعد كيبرون يعتلي تاليان المنبر في التاسع من شهر ترميدور من السنة الثالثة الجمهورية في التقويم الجمهوري الجديد ، ويسلق بلسان حديدسليط هذه الطغمة النميمة من المتواطئين ، وهؤلاء الخونة من مأجوري « بيت » الذين « يحلمون بقتل آبائهم » ، والذين « بلغ من فحتهم أن دنسوا هذا الوطن عندما وطأته اقدامهم الرجسة » . فطبقت بحقهم احكام النصوص القاسية التي أقرت ضدهم في التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٢ و ١٨ اذار ، و ٥ نيسان ١٧٩٣ . وسيُحكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص ، على هذه الفئة الخارجة على القانون . وقد نصت المادة ٣٧٣ من دستور عام ٣ على أن الامة الفرنسية لا تسلم بشكل من الاشكال ، برجوع اللاجئين الى بلادهم .

لم ترَ قط ، منذ القرن السادس عشر أمة تُقبل برمتها على الحرب وتنغمس فيها بمثل هذه الحماسة وبمثل هذا الاطباق . فمن الجانب الفرنسي وحده ، بلغ عدد افراد الجيش ، مليون جندي .

« الانفعال الاجتماعي ». التضخم المالي وارتفاع الاسعار

فاذا ما بلغ من شدة الانفعال الوطني ما ساعد على عقلنة الرأي العام وتلبيم الحياة السياسية في البلاد ، فقد استطاعت الحياة الاقتصادية بدورها ان تُبرز المشاعر الاجتماعية الدفينة للانسان والملازمة له . كهذه الظاهرات التي يسببها غلاء المواد الغذائية المتأتي عن ارتفاع اسعار المحاصيل الزراعية وتقلباتها بعد جدب المواسم الزراعية لسنة ١٧٩١ و ١٧٩٤ . ولا سيا هذا الجو الثقيل الذي سببه ، تضخم النقد ، فأضفى على حركة الاسعار هذه مقاييس شذت عن الصدد وفاقت كل وزن وحد ، وتركت اثرها واضحاً في هذا الجو المسيطر على الحياة الاقتصادية في البلاد .

والثورة لا يزال اعتمادها الاول والاكبر على الاسيلياء . فقد زالت الى غير رجعة ، الضرائب القديمة ، والضرائب المباشرة الجديدة تجبى بصعوبة كلية ، وباب الإنفاق والصرف التي وَرُحب مجاله وتحتم على الخزينة مواجهة مصروفات مستجدة ، منها مثلاً تسديد الدين القصير الامد الذي لم يعد بالامكان تمديده ، ودفع الرسوم المخصصة لمراسم العبادة ولمرتبات رجال الدين، وتكاليف الاسعاف الوطني ولا سيما ما تعلق بالمؤسسات الخيرية ، والاشغال العامة المختلفة التي قضت بها الازمة الاقتصادية المستحكمة ، والاعتمادات اللازمة لآلة الحرب . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هنا الاوراق المالية التي طرحها في التداول صندوق النقد برسم التبادل وإتلاف الاسيلياء التي دخلت الصندوق ، بلغت قيمة النقد الورقي في التداول ، في اواخر ١٧٩١ ،ما يوازي تقريباً مليارًا ونصف المليار وهو مبلغ ضخم جداً اذا ما قارناه بالمبالغ التي طرحها في التداول صندوق الحسم والمبالغ التي طرحها في التداول بعد ذلك مصرف فرنسا عام ١٨٢٠ ، التي قلما تجاوزت ١٠٠ مليون . ثم جاء عهد الحرب الكبرى ، وهي حرب من طراز جديد تستمر بضع سنوات فاقتضت تأمين الناس كما فرضت بالتالي تأمين العملة . فتمويل هذه المغامرة الكبرى لم يكن ممكناً بغير القروض الاجبارية التي تستدعي لزاماً في التداول ، نقداً وافراً : ملياران من الأسيلياء عام ١٧٩٢ ، وقرابة ٣ مليارات في اواسط عام ١٧٩٣ ، و ٦ مليارات في مساء التاسع من شهر ترميدور ، و ١٨ ملياراً في آخر عهد المؤتمر الوطني وأقل من ٣٤ ملياراً بقليل في مطلع عام ١٧٩٦ ، أي في اواخر عهد التضخم المالي الهجاج .

وتبعاً لذلك ، ارتفعت بالطبع الاسعار ، انما بنسبة غير متساوية وفقاً للظروف والصروف والأصناف . ففي السنة الاولى من الثورة ، اي من منتصف سنة ١٧٩٠ الى منتصف ١٧٩١ ، هبط معدل الاسعار بصورة ملحوظة بدلاً من ان يرتفع ، تبعاً لهبوط سعر الحبوب . اما القطع، فقد بلغ معدله الذروة منذ البدء ، والازمة الدورية التي نزلت بالبلاد عام ١٧٨٩ ، زادت سوءاً مع الحوادث السياسية التي وقعت اذ ذاك . فليلق القارىء الكريم نظرة عابرة على الخط البياني في الصفحة التالية . ففي أواخر ١٧٨٩ يفقد القطع من ٥ — ١٠ ٪ من قيمته . ثم ان طبيعة التغييرات والحوادث السياسية والدورية واستمرار ازمة النقد هي الميزة التي تطبع منحنى الانحدار في السنوات التالية . فالفرق يقرب من ١٥ ٪ في أواخر عام ١٧٩٠ ، ثم يرتفع الى الرُبع بعد حوادث بلنتز ، والى النصف قبيل إشهار الحرب ، ولا يبقى الا الثلث بعد

مصرکا فالي ربلغ ٪ حوالي منتصف عام ١٧٩٣ ، عند الغزو الجديد الذي تعرضت له البلاد وثورة الإئتلافيين ... ثم يأتي بعد ذلك ، النهضة المالية الكبرى في الاشهر الأولى من العام الثاني التقويم الثوري . وبالرغم من الانتصارات الباهرة جاء المنعطف الخطر الذي صارت اليه البلاد بين شهري *Pluviose* و *Ventose* والنكسة التي أصابتها من جراء هبوط النقد وهي نكسة استمرت حتى مطلع عهد الدير كتوار .

وسعر القطع في الداخل ، والتداول بالذهب وبيعه بحرية – ولو تأخر عن مسايرة تقلبات سعر القطع في الخارج – يُعيد عهد هذه التقلبات من جديد . فالليرة الذهب الحاملة طغراء لويس والتي تساوي قيمتها في آذار ١٧٩٦ ، نحواً من ٧٠٠٠ – ٨٠٠٠ فرنك، تفقد في خلال سبع سنوات، اكثر بقليل مما فقدته الليرة الذهب بطغراء نابوليون خلال فترة الـ ٣٥ سنة التي انقضت قبيل ١٩١٤ مباشرة .

فالطاقة الشرائية في الداخل المرتكزة على اسعار الحاجيات وتوفر الرساميل معاً ولا سيا العقارية منها بين اراضٍ ومبانٍ ، تبدو متأخرة عن المعدل الذي يسجله خط المنحنى الثاني ، ويتغير في ذات الاتجاه تقريباً ، مع الملاحظة ان ذبذباته او اهتزازاته هي اقل اتساعاً وان كانت اكثر وضوحاً وبروزاً مما هي في مراكز المحافظات حيث البيوتات التجارية الكبرى ، او هي على اتصال مباشر بهذه المراكز نفسها . كل هذا يقع في هذه الفترة الواقعة بين ربيع ١٧٩١ وصيف ١٧٩٤ ، كأنما سعر القطع في الخارج هو الذي يحدد سعره في الداخل . وعلى هذا تبنى الاسعار في الداخل . سنصادف من جديد في مطلع الحرب العالمية الاولى ، مثلاً ، مثل هذا الترابط المنظم بين سعر القطع في الخارج واثمان الحاجيات . ان هبوط سعر القطع في الخارج تحت التأثير المزدوج للتغيرات والثابتة المشار اليها اعلاه اصبح بعد ربط السوق الداخلية بالذهب، سبباً من أسباب هذه التطورات التي أصابت قيمة الاسينياء لدى الرأي العام ، هذه التطورات التي كثيراً ما يحدثنا عنها الكتاب المعاصرون . وهذه القيمة الاسمية تعبر على الاخص عن شعور البورجوازية وتتناول معاً المحاصيل والرساميل . وقد يختلف عن هذا بالطبع «رأي» أصحاب الاجور الذين يهتمون على الاخص ببعض المواد الاساسية التي ترتفع اسعارها اكثر من ارتفاع الرساميل ، بين ١٧٩٠ – ١٧٩١ ، وبين الاشهر الاولى من عام ١٧٩٣ ، اذ بلغ ارتفاع سعر القمح ١٠٠٪ تقريباً . فالاسيلياء تخسر على الاجمال ، بحسب ما يمكن ان نكوّن لنا رأياً في الموضوع ، في سوق القطع ، اكثر مما تخسره في سعر الحاجيات والمحاصيل .

وينقلب الوضع تماماً منذ صيف ١٧٩٤ ، اذ تأخذ الطاقة الشرائية بالانهيار سريعاً. فنحن على ابواب تضخم مالي طام وامام ظهور اوراق نقدية بـ ١٠،٠٠٠ ليرة للورقة الواحدة . والقطع لم يعد العنصر الذي يتحكم بالحركة . فهبوط قيمة النقد مصدره الاسواق الداخلية ، وأسعار الحاجيات في الداخل ، بعد أن أخذ معدلها بالارتفاع اكثر من معدل الاصدار . ومنحنى الاسعار يحاول اللحاق بمنحنى القطع دون أن يدركه تماماً . وقد عرفت سنة ١٧٩٥ بما جرته

على البلاد من صعوبات مالية واقتصادية في الداخل ، وبما سببته من ارتفاع هائل شامل في مستوى الحياة ، بعد ان جمعت معاً في فرنسا بين بؤس الازمة الدورية وبين البؤس الذي يسببه التضخم المالي . وعندما يعقد المؤتمر الوطني جلساته النهائية ، يبلغ سعر الحبوب بقدر ما تسمح لنا الدلائل بتقديره اعلى بين ١٥ ـ ٣٠ مرة مما كان عليه عام ١٧٨٩ .

رئيس الجوقة : البؤس

كل انهيار في القوة الشرائية يصحبه على العموم ، المزيد من التشويش والاضطرابات ، يبدو ذلك واضحاً لمن يتملّى النظر في الرسم البياني الذي أشرنا اليه اعلاه . فأول ازمة طلعت على البلاد هي ازمة خريف ١٧٩١ ومطلع ١٧٩٢ ، تلتها على الاثر اضطرابات شديدة في المحافظات والولايات . فشحونات القمح تصادر في الطريق ويجري تسعيرها وبيعها من قبل الجماهير . وهذه الرسوم غير القانونية ، تنزل كذلك بالزبدة والبيض وبعض المحاصيل الصناعية . « فالاغنياء » يتحملون الضرر . وترتسم في الافق مطالب اجتماعية جديدة ، ويأتي اعلان حالة الطوارىء ليزيد الطنبور نغمة والطين بلة . فيرفض الجيش الانصياع بالتدخل . فالجماهير هي التي تبادر الى اطلاق النار احياناً . وفي الثالث من آذار يصرع سيمونو رئيس بلدية ايتامب ، ويروح احد الكهنة ممن يخدمون في الضواحي يدافع ، خلافاً للقانون ، عن حقوق الفئة الاجتماعية ويزكي عملهم . وقد خبرت باريس ، قبل ذلك بقليل ، اضطرابات دامية بمناسبة فقدان السكر من الاسواق . وبعد ان توقفت الاضطرابات لفترة قصيرة ، خلال الربيع لمواجهة الاحداث الخارجية ، عادت للظهور من جديد ، في أواخر الصيف ومطلع الخريف في العاشر من آب ، وفي اليوم التالي لمعركة فالمي . فالرأي العام لم يتبدل قط . فاذا ما ارتفع سعر الخبز من جديد ، فالذنب على المضاربات التي يقوم بها سليل آل كابت (الملك) والمحتكرون ومن وراءهم من قضاة مماثلين لهم وتتضاعف الرسوم والضرائب في كل من ليون ومنطقة باريس ومنطقة سهل البوس *Beauce* ، والسلطة عاجزة تترك الحبل على الغارب .

وتطل علينا في أواخر ١٧٩٢ ومطلع عام ١٧٩٣ ، الازمة الاقتصادية الكبرى الثانية . فقد عرفت أسعار الحبوب ، خلال فصلي الشتاء والربيع ، ارتفاعاً مستمراً سجلت معه رقماً قياسياً جديداً . فرغيف الخبز الأسود الرديء ، ثمنه في المحافظات الوسطى بين ٧ ـ ٨ نحاسات بحيث ان اجرة العامل المحلية تكاد لا تكفي شراء أكثر من ليبرة واحدة . اما في مدينة ليون حيث يستمر عمال النسيج في اضرابهم ، فالرغيف يساوي ٦ نحاسات متجاوزاً بكثير السعر القياسي الذي بلغه السعر الاستفزازي للخبز عام ١٧٨٩ . وقد تجاوزت الأسعار هذا المعدل في أكثر من نصف البلاد . ويهاجم الشعب في باريس دكاكين البقالين فيتصرها او ينهبها ، ويأخذ سكان الأحياء في الهياج احتجاجاً منهم على غلاء ثمن الخبز ، ويتهمون الرجعية والمتواطئين بانهم وراء هذا الغلاء المفتعل ، كما يصر المؤتمر الوطني وأصحاب الأفران على المطالبة باتخاذ اجراءات زجرية ضدهم . كل هذا والموسوعيون من حزب الجيروند ماضون بتحبير الخطب التقدمية حول

المواد الغذائية لا يأبهون بشيء لتهكمات مارات الساخرة والهزء بهم .

واضطراب الأحياء واهتياجها يظهر من جديد في آب وايلول ، أي في هـذا الوقت بالذات الذي بلغت فيه الأزمة أوجها . ويأخذ الناس يصطفون أمام أبواب المخابز والأفران منذ الساعة الرابعة صباحاً بانتظار الواحد منه حصته الضئيلة من الخبز عند الساعة الحادية عشرة. وسرعان ما تسري الاشاعة بان الخبز سيختفي تمامـــاً من الأسواق . وراح جاك رو وثيوفيل ليكلار يطالبان عالياً بنصب المشانق للخونة وللنواب الخائنين وللقائمين بالمضاربات المالية وللمحتكرين. وراح الأب درشين (*Duchesne*) يصب الزيت على النار ، صارخاً : الوطن أين هو.. فالتجار لا أوطان لهم ، ثم يأخذ بتشهير « أكلة اللحوم البشرية » ، أعـــداء الجمهورية ، المتواطئين مع العصاة المارقين . فالعمال المتظاهرون يغشون في الرابع من ايلول صالة المجلس البلدي مطالبين بالخبز، كما يتهم المتظاهرون، في اليوم التالي وهم حاملون اللافتات: «الطغاة» و « الارستوقراطية» و « المحتكرين » ويتزايد ضغط الجماهير يوماً بعد يوم طول الشهر وتتخذ بالاقتراع ضدهم تدابير رادعة بين خاصة وعامة .

وأزمة أسعار الحاجيات الحياتية تسير جنباً الى جنب والأزمة الاجتماعية ، في هذا الانهيار العام الذي وقع في شتاء عام ١٧٩٣ – ١٧٩٤ . كانت قضية الخبز سجلت بعض النتائج الايجابية، بعد ان اسلتت الحكومة لها سياسة خاصة قوامها المصادرة والاسعاف والتنظيم وتعيين حصة لكل فرد . الا ان هـذه السياسة أصيبت بالفشل على الاجمال . ويكثر الشجار وتقوم الخناقات أمام أبواب الجزارين . فالازمة هي على اسوأ ما عرفت البلاد من امثالها ، في كل مـــا يتعلق بالبيض والحليب والزبدة . وراح فريـــق كبير من نصراء الثورة يطالب المسؤولين باستعمال الدواء الناجع أي المقصلة او القيام بعملية تصفية جديدة أشبه بعملية ايلول الجذرية . واستمرت الأسعار في صعودها بعد تصفية اتباع حزب هيبرت كما كانت من قبل ، وبعد القضاء على حزب دانتون وقبله . وبعد التخلص من روبسبيير كما قبله . وقد قضت هذه العلة في النهاية على خلخلة الروح المدنية وقتلها .

ان التوقف عن استعمال اقصى الشدة في اليوم التالي التاسع من ترميدور لم يكن له من نتيجة غير ازدياد الوضع سوءاً ، في وقت اخذت معه صفوف المتذمرين والناعبين من الوضع الاجتماعي تتضخم الى ان انفجر في شهري جرمينال وبريريال من السنة الثالثة للتقويم الثوري وشعاره : دستور ١٧٩٣ والخبز .

فالتمويل على الأسينياء ، والتغييرات الجذرية التي لحقت بالسندات المالية خـــلال السنوات الخمس المتوالية اوجدت وضعاً متصلاً من الضغط الاجتماعي ، هو ابهظ واخشن مما نزل من امثاله بالبلاد حتى الآن ، نتيجة لهذه الأزمات الاقتصادية الآخذ بعضها برقاب البعض الآخر . وقـــد رأت الطبقات الشعبية في هذا الوضع البائس نتيجة محتومة لتحالف المجاعة على البـــلاد ، وهي مجاعة من جنس جديد ، على النظام ان يضع حداً له باسرع ما يمكن . وهـــذا الوضع الاجتماعي

كالوضع القومي اخذ يُعقلِن الثورة . فالرأي العام هنا لا ينم عن الاجماع بشيء . فقبل نشل التجربة الأخيرة ، نرى عناصر عديدة بين الطبقات البورجوازية الوسطى والعليا تضمر لهذا الوضع العداء . فاذا ما كانت حوادث الوطن تُعقلن القوى الثورية وتؤلف فيا بينها ، فالحوادث الاجتماعية لا تعقلن فحسب ، بل تفرق هي ايضاً .

٢ – عدّة الثورة واداتها

الجمعيات الشعبية
اللجان الثورية ، الصحافة

هذه القوى الطبيعية التي تعاظمت شأنها في بضع سنوات ، مضت تستعمل عدّة الثورة وأدتها التي اوجدتها الجمعية التأسيسية . وقد اضاف اليها المؤتمر الوطني جهازاً جديداً أولاها فعالية لا مثيل لها .

فالنوادي والجمعيات المحلية ولا سيا هذه الجمعيات الشعبية التي تجاوز عددها الالفين والتي كانت تأتمر باشارة اليعقوبيين وتعمل بتوجيهاتهم ، ضمت بين صفوفها النخبة في الجهاز الثوري . وأخذت هذه النخبة تتسم – شيئاً فشيئاً – إجتماعياً وسياسياً ، بطابع ديموقراطي راديكالي . فقد طردت من بين صفوفها حزب الجيروندبين في اعقاب طرد حزب الـ *Feuillants* كما طردت فيا بعد الهيبرتيين والدانتونيين . وراحت هذه النوادي تقوم بصورة قانونية ما حالت الجمعية التشريعيةفي اواخر عهدها دون قيامها به . فكل حائل او عائق او مانع دون اجتماعها، اعتبره المرسوم الصادر في ٢٧ تموز ١٧٩٣ متجنياً على الحريات العامة . فالسلطة الحكومية والهيئات الشعبية حرصت من الآن فصاعداً على التآزر فيا بينها والتساند ، بدلاً من التنافر والتخاصم . وقد طُلب من النوادي في الملحقات الاشتراك بالادارة المحلية ، وعُهد اليها مراقبة الموظفين، كما انيط بها كل ما يتعلق بشؤون العزل والرفت والتعيين . وعن طريق اللجان الثورية المحلية التي تضم الكثيرين من انصارها واعضائها بسطت هذه النوادي اشرافها على المدن والقرى وقد امنت لها عمليات التطهير التي جرت في اوقاتها المرسومة ، التجانس بين اعضائها والنفوذ الحزبي البعيد المدى ، وهذا ما جعل الناس يطلقون على الجمعية الشعبية اسم : « الجمعية المتجددة » . وهكذا أخذ حزب اليعقوبيين دور الحزب الموجه باعتباره « الحزب اليقظ » .. ورائد الرأي العام في البلاد ، بعد ان عرف كيف يستثمر هذا الرأي العام وينيره ويثيره وفقاً لخطة رسمها جمعت من الدهاء ما مازج بين المطالب الاقتصادية والسياسية . وقد ألّفت الجمعيات والنوادي الشعبية العاملة في باريس والملحقات على اختلافها ، اثر ارتباطها بالبلديات مباشرة ، المراكز المحركة للثورة ، لعبت فيها الطبقات الشعبية السفلى دوراً بارزاً .

وحرية الكلام والنشر والصحافة استعملت على الاجمال ، منذ عام ١٧٨٩ في ما ينفع في تأييد النظام الجديد ، وهي حرية لن تستخدم على مرور الزمن الا لمصلحة هذا النظام ولمصلحته لا غير . واستمرت وحدها في الصدور ، المنشورات الثورية التي راحت تصطبغ ، اكثر فأكثر ، بالروح الحزبية المتصرفة . فمنذ ١٢ آب ١٧٩٢ ، قررت الكومون ، في باريس ،

« لتعطيل هذه الصحف التي تسمم الرأي العام » كما اوصت أصحاب المطابع الوطنية بالامتناع عن نشرها او تأمين صدورها . وفي الحين ذاته اصدرت الجمعية التأسيسية ، بين ١٨–٢١ آب قراراً « يتعلق برسائل القدح والذم » التي تمس الروح الوطنية والتي ترمي لتضليل الرأي العام » كما وضعت مبلغ ١٠٠،٠٠٠ ليرة تحت تصرف وزارة الداخلية تشجيعاً للصحافة الوطنية .
وعاد شيء من الحرية الى الصحافة في مطلع عهد المؤتمر الوطني (*Convention*)وتقلص الخطر الاجنبي وابتعد عن البلاد ، وذلك لفترة قصيرة جداً . وكان من جـراء الازمة السياسية والاقتصادية التي ذرّ قرنها في آذار ١٧٩٣ ، ان اصـدر المؤتمر مرسوماً تاريخه ٢٩–٣١ آب نص على وجوب الحكم بالاعدام على كل من يُحرّض ، عن طريق الصحافـة ، على إفساد التمثيل الوطني وخلخلته او اعادة النظام الملكي الى البلاد . ويتعرض العقوبة نفسها كل من يهدد الغير بالقتل وكل من يتعدى على حق التملك او يعبث به ، اذا مـا وقع الجرم بعد التحريض الفعلي . وعُطلت الصحافة الخاصة بحزب الجيروند في الصباح مـن ٢ حزيران . وكان الصراع بين الاحزاب قد جر المؤتمر الى اتخاذ اجراءات مبدئية حدّت ليس من حرية الصحافة فحسب بل ايضاً من حرية الكلام اجمالاً . وسيذهب حكم الارهاب (*La Terreur*) الى ابعـد من ذلك ، كما سنرى بعد قليل . والنظارة والصحافة ، هاتان المؤسستان الحزبيتان اللتان اطلقتها الثورة لم يعودا في نهاية الامر يعملان ، الا لما فيه مصلحة الاحزاب التي وضعت نُصب أعينها التوسيع في الحريات وجعلها في مأمن .

وفي الوقت ذاته اخذ الحرس الوطني طابعاً ديموقراطياً خليقاً بأن يجتذب اليـه المواطنين السلبيين الذين أُهمل جانبهم من قبل ، او كانوا موضع شبهة او ظنّة ، بعد ان امنتوا لهـم مرتباً يُدفع لهم مياومة مقداره ٤٠ لحاسة . ونري بين الطوعية بنـوع خاص ، عدداً كبيراً من اصحاب المهن ممن أخلصوا لعقيدة الثورة . وانشئت في باريس قـوة خاصـة ، وكذلك في الملحقات ، تحت ستار جيش الثورة ، واحيطت الحياة المدنية والعسكرية بشـل هـذا الدعم ايضـاً .

الاعياد الوطنية

وهذا الدعم يتناول ايضاً المظاهر المثيرة في هذا الوضع السائد . فالدعايـة تنشط جداً لتكريم مظاهر العبادة الدينية التي حضنتهـا المشاعر المدنية وتبنتها في عهد الجمعية التأسيسية . فهذا الحماس يتجلى على اتمه بالكلام واساليب التعبـير . فخدّام الديانة الجديدة ، يتملقون الجماهير ويمتدحون امامها الاولياء الجدد : الجبـل المقدس ، والمساواة المقدسة ، والحرية المقدسة . وطقوس العبادة الجديـدة تتألق بأناشيد واماديـح وتسابيح لا مثيل لها . وتطل علينا من جميـع اطراف البلاد ، هياكل جديدة وشهداء جـدد . فالاعياد البشرية تحتفل بعيد الكائن الاعظم ، بالطبيعة ، بالآلهة البشرية : كالجنس البشري ، والشعب الفرنسي وبكبار المحسنين الى الانسانية .

بين الديموقراطية والدكتاتورية
« طغيان » الحرية

فاذا ما تمكنت حدة الثورة من تسخير القوى الشعبية على مثل هذا النحو، والاستفادة منها واستغلالها على مثل هذه الصورة، فلانها اصبحت ليس اكثر تجانساً فحسب، بل ايضاً لانه اشرفت عليها الآن حكومة مركزية اخذت تجانس بين عملها وتتداركه واحسنت دمجه في قانون شامل للحق العام ينتظم الكفاح .

هدّفت الحريات العامة اول ما هدّفت اليه، تحقيق الديموقراطية، واتخذت سبيلاً اليها اقامة دكتاتورية مؤقتة في البلاد. فقد نص المرسوم الذي صدر في ١٩ فندميير (*Vendémiaire*) من السنة الثانية للتقويم الجمهوري، هذا المرسوم الذي اقترح اصداره سان ـ جوست باسم لجنة السلامة العامة، على ان : « حكومة فرنسا المؤقتة هي حكومة ثورية حتى استتباب السلام في البلاد . فمن يستطيع ان يُخضع لنظام واحد « السلام والحرب، والصحة والمرض »، راح يكتب روبسبير فيما بعد . فأعداء الوطن جرى وضعهم خارج الوطن. « فليس من مواطنين في الجمهورية غير الجمهوريين »، فهي تتحكم بالاقلية الملكية، كما يعلن سان ـ جوست « بما لها من حق الفتح ... يجب أخذهم بالعنف، بالقوة هؤلاء الذين لا يمكن أخذهم بالعدل ؛ يجب استعمال الظلم مع الطغاة الظالمين » يجب الا يختلط الناس، كما يقول روبسبير في تقرير له مؤرخ في ١٨ بلوفيوز (*Pluviose*) « بين استبداد الحرية واستبداد الطغيان . فالشدة التي يلجأ الطغاة الى ممارستها مصدرها التعنت والقسوة . اما الشدة التي تمارسها حكومة الجمهورية فمصدرها حب الخير » . فقد كان سبق لباريز وصرح في ٨ آب ١٧٩٣ بمناسبة حروب الافناء التي اسلم لها الملوك من قبل والتي تقوم بها الجمهورية الآن، بان الاولى منها قامت على الضغط والكبت، بينما تمت الثانية حفاظاً على حقوق الانسان .

« فطغيان » الحرية تمارسه دكتاتورية تتألف من المجلس والمقاطعات ممثلة بلجنة السلامة العامة، تحت اشراف المؤتمر الوطني الاسمى، هذا الاشراف الذي يمكن ان يتحول يوماً من الايام، الى اشراف فعلي . فجهازه معروف، مفهوم، مقيد اساساً بنصوص المراسيم والقرارات الصادرة في ١٩ فندميير و ١٤ فريمير من السنة الثانية للتقويم الجمهوري . واللجنة التي اعيد تشكيلها من جديد في تموز - ايلول ١٧٩٣، ضمت بين صفوفها ابرز وأمثل الشخصيات التي قامت بثورة اليعقوبيين، وكبار « الاخصائيين » العاملين في خدمتها والمتضامنين مع الفريق الاول، امثال: روبسبير وسان جوست وكوتون وبيّو - فارين وكولو ديربوا وباريز، وكارنو وجان - بون سانت اندريه وبريور دي لاكوت دور، وروبير لنديه . فهي تمد القوانين الرئيسية وتعرضها لموافقة ومصادقة المؤتمر الوطني وتشرف على تنفيذها بدقة . والوزراء الذين جرى استبدالهم فيما بعد بالمفوضين، وفاقاً للمرسوم المؤرخ ١٢ جرمينال، والقواد والهيئات النظامية تقع كلها تحت اشرافها . ولجنة السلامة العامة هي بالفعل يدها اليمنى في كل ما يتعلق بالاجراءات البوليسية أو التأديبية . فهي تتصل مع الاقضية والمحافظات

مباشرة . وتقوم في كل من مراكز الاقضية والبلديات بصورة مستمرة ، هيأة تمثلها تتألف من العملاء الوطنيين واللجان الوطنية للمراقبة المرتبطة بالأقضية او بلجنة السلامة العامة التي تراقب تنفيذ الاجراءات الثورية . وهي تنتدب للمهمات الخاصة ممثلين عنها . وتراقب بالاسم والفعل معاً مجلس الثورة ومن يضمه من محكمين وقضاة ، اذ جعل المرسوم الصادر في ٢٢ بريريال تعيينهم ، من اختصاصه وحده . وقد اجاز له التدخل في اجراءات الحاكمة . فهو يحكم ويدير ويقضي في كل ما يرفع اليه ، ويقوم عملياً بأمور التشريع على ان تنال موافقة المؤتمر الوطني .

وعنه صدرت بالفعل ، ما يعرف بوثيقة « استبداد الحرية » التي تم الاقتراع عليها بناءً على اقتراحه ، اعني بذلك قانون المظنون عليهم أو المشتبه بهم ، الذي صدر في ١٧ ايلول ١٧٩٣ ، والمرسوم الصادر بتاريخ ٢٣ فنتوز من السنة الثانية للتقويم الجمهوري ، هذا المرسوم الذي إتخذ اجراءات جديدة ضد المنفيين ، والمرسوم الصادر في ٢٧ جرمينال حول تدابير الامن العامة في الجمهورية ، واخيراً القرار الذي صدر في ٢٢ بريريال . وهكذا تمت للبلاد تشريعات خاصة ، اعتبرت خارجين على القانون ، النبلاء والسادة والعملاء القائمين على خدمة هؤلاء النبلاء،ورجال الدين والاجانب . ومن الاجراءات الاحترازية الخفيفة التي اتخذت ضد هذه الفئة : استثناؤهم من الوظائف العامة والاقامة الجبرية، واجبارهم على إثبات وجودهم بحضورهم شخصياً الى مركز البلدية . وقد عبر عن هذه الاجراءات تدبيران مهمان : اولهما احترازي والثاني تأديبي : السجن لكل من يشتبه به انه موال لاعداء الثورة ، والاعدام لكل من ثبت عليهم عداؤهم للثورة أو عملوا ضدها . وحكم عليه بالاعدام ، منذ كانون الاول ١٧٩٢ ، مع ذلك ، كل من يحبذ الملكية والفدرالية ، أو يطالب بالقانون الزراعي ، كما ورد النص على هذا في القانون الصادر في اذار ١٧٩٣ . ولم يعد من حاجة بعد لتقديم الاقتراحات أو للكشف عن هوية الناس ، بعد ظهور القوانين الارهابية الكبرى. «خونة للوطن كل من مالأ،بشكل أو بآخر،أي خطة تهدف لزعزعة السلطة ، أو خلخلة الرأي العام » . تعد جريمة ضد الوطن وخيانة عظمى ، كل مقاومة ، وكل محاولة تهدف لعرقلة عمل الحكم باي شكل أو باي مسلك يصوّب ضدها » . فالمقاومة تؤلف جريمة يعاقب عليها القانون بالموت. والتذمر يؤلف عملاً إجرامياً بحد ذاته... أقلّه للاغنياء. فالماطلون عن العمل الذين لم يبلغوا الستين أو لم يشكوا من علة مزمنة ، يستهدفون للابعاد الى مستعمرة الغويان اذا ما ثبتت عليهم تهمة التذمر والتأفف من الثورة وجهاز التطهير . فالقمع يتحرك بسرعة مدهشة وفقاً لقانون شهر بريريال الذي يعلن: عدواً للشعب كل من افترى القول بشكل من الاشكال ، ضد الروح الوطنية ، أو حاول زرع اليأس والقنوط في النفوس أو حاول إفساد الاخلاق ، وضد كل من « يحاول باي شكل من الاشكال أو تحت أي ستار أو مظهر يتلبس تحته ، الاعتداء على الحرية أو مس وحدة البلاد ، أو العبث بأمن الجمهورية وسلامتها ، أو سعى لايهانها أو إضعافها » . فالدليل الاولي يكفي حجة عليه . والعقاب الذي يستحقه هو الموت .

ويأخذ غولون بالتعليق على هذا قائلاً : يجب رفض كل مظاهر العدالة الزائفة التي « كانت تحكم بالموت على الشعب تحت ستار إنسانية زائفة ، ثم تخون الشعب تجنباً لوساوس الضمير وتأنيبه » .

وهكذا توفرت لقوى الحركة فعالية رهيبة . ونرى هنا ، كما في عهد الجمعية التشريعية جزءاً ضئيلاً من الشعب يساهم في نشاط الحياة السياسية . وبامكان هذه الدكتاتورية الثورية أن تتحرك لما فيه مصلحة الاكثرية. فهي صنيعة قلّة ضئيلة في الوطن. والسواد الاعظم من الشعب ، اذا ما وقف جانباً ، مثله اليوم كما في السابق ، فهو لا يبقى على الحياد قط . فمشاعره وعواطفه كلها في مأمن. فمن لم يكن مع عهد الرعب ، فهو على كل حال ، مع الثورة التي يؤلف الرعب فيها ذريعة أو اسلوباً وقتياً من الذرائع التي اعتمدتها، لها على الاقل ما يبررها. فهو يترك حرية التصرف والعمل لهذه القلة المحدودة ، الحازمة . وعلى شاكلة المواطنين العاملين هؤلاء ، لا نرى بين من يتمتع من الناخبين بحق الاقتراع ، من يسارعون لاستعمال حقهم الثابت هذا . فعددهم يكاد لا يعدو ١٠ – ١٥٪ لا غير . فالرأي الحزبي لا يزال بعد ، حتى في معناه الواسع ، من هذه الكماليات عند الاكثرية .

٣- فوز الحركة

الشارات المتزنة ، عهد الرعب

في هذا الوسط الرحب ، السهل التكييف ، حيث لا يعارض سير الزمن ، أي نظرية سياسية سابقة ، يجري التاريخ بسرعة كلية ، لا سيما والحكومة اللامركزية التي انشئت عام ١٧٩١ ، والتي عاشت سنة واحدة بعد النظام الملكي ، لم تعرف أن تصمد في وجه الخطط التي وضعتها لها الحركة الثورية .

والجمعية التشريعية ، نفسها جاءت عقب أزمة وطنية واجتماعية حادة . وها هم « ممثلو » الامة تتقاذفهم الاحداث الهوجاء المتلاحقة الى الوراء ، دفعة واحدة . فالاحياء الباريسية والكومون والحرس الوطني في العاصمة والملحقات ، وفي حواضر البلاد وقراها ، قاموا بمحاولة جريئة تكللت بالنجاح . وهذه الثورة الثانية التي دكت العرش الى الحضيض تفتح الطريق امام الديموقراطية السياسية ، كما تمهد السبيل امام حادث خطير جداً ، وان قصر أمده ، سنعود الحديث عنه بعد حين .

واجتمع المؤتمر الوطني في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ ، وراح يستخلص لذاته النتائج التي طلعت بها الثورة الثانية بقضائها على النظام الملكي وإعلانها الجمهورية . وشهد العالم باجمعه تجربة سياسية مليئة بالعظات والعبر تمثلت بالدعوة المقامة على الملك . لم يتخذ المجلس بالطبع قراره التاريخي « تحت التهديد بالخناجر » . فالحكم بالاعدام صدر بعد مناقشات ومداولات استمرت منذ تشرين الثاني . غير أن سرد « الخيانات » المتهم بها لويس ، ورد الفعل الذي احدثته على الرأي العام الذي استثارته الجمعيات الشعبية والصحافة ، اوجدت جواً من الضغط لا يقاوم . ففي عمليات

التصويت التي تعاقبت من ١٥ الى ٢٠ كانون الثـاني (يناير) انشق حزب الجيروند على نفسه ، بينما بقي « الجبل » صامداً كالطود الشامخ ، متراصاً كالبنيان المرصوص .

فمع الازمة الوطنية والاجتماعية التي سيطر جوها على الاشهر الاولى من عام ١٧٩٣،هنالك مع ذلك ، ما هو أدهى وأنكى : هذا الجو الثقيل الذي عبق به الصيف المنقضي . فالتحالف الذي وحّد بين القوى الثورية التي تمت لها السيطرة ، عاد فأطل من جديد في العاشر من آب ، والجه صراحة ليس ضد النظام الملكي والمجلس المنتخب من قبل دافعي الضرائب ، بــل ضد المجلس الاول الذي تم انتخابه بالاقتراع العام . والزعماء الذين كانوا يسيطرون على الحركة في ٣١ ايار ، أخذوا يلوحون عالياً بالشعارات التالية : اصدار قرار اتهام ضد زعماء حزب الجيروند ، والخبز بسعر ٣ نحاسات، وانشاء جيش ثوري بمعاش بعد تنقيته من العناصر المشبوهة،وتأمين مساعدات لعائلات حماة الوطن . وقد ُغلب المجلس على أمره ، وُهشم تهشيماً في ٢ حزيران وقضي على الاكثرية. وهكذا أطلت ثورة ثالثة فتحت امام البلاد مرحلة جديدة، لعبت البورجوازية الصغيرة فيها والهيئات الاجتماعية الصغرى دوراً رئيسياً في توجيه احداثها .

وهذه الازمة المزدوجة ازدادت حدتها ايضاً في الاشهر التالية ، بعد أن أطلت الاحداث التي وقعت في ٤ و ٥ ايلول ١٧٩٣ ، والجو يدوي بكلمات السر والشعارات المثيرة : « الحرب الطغاة » ، و « الحرب للارستوقراطية » و « الحرب للمحتكرين » . فالنتائج لم يتأخر ظهورها قط . ففي ٥ ايلول بالذات يجري تطويق المؤتمر الوطني ويخيم عليه جو ثقيل من الضغط المرهق، فينصاع ويقرّ الرعب . ويصادق في ١٧ منه على القانون الخاص بمن تحوم حولهم الظنون . ثم جاء القرار الاكبر الذي صدر في ١٩ فنديمير من السنة الثانية للتقويم الجمهوري الذي اعلن مبدأ الحكومة الثورية وحدد منها المهام والمسؤوليات ، بالعبارات التالية : الحكومة – وتأمين المواد الغذائية ، ولجنة السلامة العامة الكبرى .

ويطلع على البلاد اذ ذاك نصر مزدوج مبين في القطاعين الاقتصادي والحربي : الحد الاقصى للاسعار ، وارتفــاع الاسيلياء ، وانكسار الفانديه ، وتطهير الوطن من الغزو الاجنبي . وحكومة الانقاذ العامة التي كان منهــا روبسبير بمنزلة الراح من الروح قضت تماماً على كل مقاومة. وأرسل بالجيرونديين الى المقصلة زرافات ووحداناً ابتداءً من ٣١ تشرين الاول. واخذ الرعب يوجه سيفه البتار ذات اليمين وذات اليــار فيحصد بمنجله النافخين بريح الانقسام كهيبرت وأتباعه ، كما حصد فيما بعد دانتون واتبــاعه الداعين للمسالمة والتوفيق . وفي صبيحة العاشر من آب ، أعيد النظر ، في التشريع الاجتماعي من اساسه فعدلوه بحيث اصبح اكثر تشدداً وتصلباً .

بوادر الضعف

كان من بعض نتائج حكم الرعب والهول الذي أناخ بكلكله على البلاد ان اخذ القلق يساور الطبقات البورجوازية ويقلقها . فالبورجوازي الأثيل لم ُيخفِ عـام ١٧٩٠ ، مخاوفه من استئثار هذه الطبقات الجديدة بالسلطة . فان لم يخشَ هو شراً

على نفسه منها ، فقد أوجس شراً على ممتلكاته ومقتنياته من هذا النظام الذي يعيش على دوامة من القروض الداخلية القسرية ، وعلى المزيد من الضرائب والرسوم . فلم يلبث كل هذا ان استحال حرباً ضد الاغنياء والموسرين . وقد شاركهم في هذا الشعور كثيرون غيرهم من ابناء الطبقات البورجوازية المغمورة . كذلك اضطربت خواطرهم وجزعوا كثيراً من الغـزو الاجنبي ورأوا من خلاله احتمال عودة الارستوقراطية المكبوتة . ولم تعتم ان ذهبت الانتصارات الباهرة بالاخطار التي هددت الوطن . فالانتصارات التي سجلتها مرافق البلاد في المجال الاقتصادي لم تلبث ان مر اثرها بسرعة ، كما انها جاءت غير محكمة وكلفت غالياً جداً ليس الاغنياء فحسب ، بل ايضاً الثورة الشعبية ، اذ قضى عليها بتشتيت قواها المسلحة . وصغار التجار لا يطيقون صبراً على تحمل الحد الاعلى عندما يطال منتوجاتهم وهي الحالة التي استقر عليها الوضع العام منذ شهر فنتوز وقد كنّ المزارعون والباعة في الارياف كرهاً شديداً لهذا الوضع بالرغم من الاجراءات المماثلة والتدابير التي سبق للجنة السلامة العامة ان اتخذتها في سبيل التخفيف مما يصيبهم من سوء ولا سيما ماشيتهم ، من جراء هـذا الوضع . وعلى النقيض من هذه الاسباب ، اغتاظ اصحاب الاجور بدورهم من فعاليتها بالقدر الذي يتمنون ، وبلغ السيل الزبى عندمـا حاولت السلطة رفع الاجور الى الحـــد الأقصى ! فالفشل كان كامناً يتربص ابداً النظام الجاري الاخذ به . وقدرة الاسينياء الشرائية كانت دوماً في تدهور موصول ، خلال الفصل الاول من عام ١٧٩٤ . فسعرها الاسمى عاد ، في شهر ترميدور ، الى ما كان عليه قبـــل ذلك بسنة عندما بلغ الخطر الخارجي والداخلي ذروته .

وتردد الجماهير المرْبِك مع شعور عميق بخيبة الامـل أوشك الا يترك في الميدان سوى افراد يعملون منفردين ، لا سيا وقـــد كانت الحياة الشعبية في باريس اخذت بالتدهور والتردي منذ ايلول ١٧٩٣ ، تحت ضغط الحكومة نفسها . وفي ربيع ١٧٩٤ ، توقفت الهيئـات الشعبية في الاحياء عن عقد اجتماعاتها العادية . فتصفية النظرية التي قال بها وعلم والقضاء عليها ، كانت الضربة القاضيـة ونقطة الماء التي جمت الكأس ، بعد أن رأى فيها فقير الحال سبباً ، أطلّ ولو من وراء القبر ، للتدهور المستمر في قـوة الاسينياء الشرائية . وهذه الحركة تبدو معالمها اوضح في الملحقات ، ولم يبق منها قائمـاً الا النادي التقليدي المعروف (*Conformiste*) وهذه القوى الجماعية الكبرى التي نهضت بالثورة وحملتها على اكتافها اصيبت الآن بشيء من الانحطاط والوهن . ويبدو ان الثورة الفائقة على المدد ، هـذه الثورة التي تثأر بعيداً بعامل القوة ، كاد يحل محلها ثورة القصر بكل ما تحمل في ثناياها من اخطار وما تتعرض له من دسائس واحابيل . ففي سلسلة الاحداث الكبرى التي طبعت الثورة وركت عليها ميسمها ، نكاد لا نرى العدد فيها من الر . فحادث التاسع من شهر ترميدور يبدو وكأنه ليس للعدد فيه من الر ، وبالتالي الشعب ، هـذا الاله الذي كان المحرك الاول والفاعل الاول في هـذه الضغوط السابقة ، اية صورة واضحة او شأن . فالحادث الدامي وقع وكأنه ضمن وعاء مغلق ، في نطاق فردي خالص . فكأن بـــه

صدام فردي شخصي وقع ضمن المؤتمر الوطني . فالاخطار التي تهدد بها احكام قانون بريريال ، وعداء لجنة الأمن لروبسبير ولصحبه، والانشقاق الذي بليت به لجنة السلامة العامة ، والدسائس التي افتعلها المفوضون المرجفون لدى استدعائهم ، وهفوات روبسبير نفسه ، كل ذلك ، وما اليه فعل فعله وهيأ النتيجة المحتومة لهذا الصراع الذي كان المؤتمر الوطني ميداناً له .

كان في وسع باريس ان تعيد المجلس الى رشده مرة اخرى في اعقاب الحوادث المفجعة التي وقعت يومي ٨ و ٩ ترميدور . صحيح انه أطلق سراح روبسبير وصحبه ، بعد اعتقالهم ، بفضل قبضة من رجال الدرك وبعض الموظفين وثورة الكومون المعروفة . غير ان الحركة بحاجة لعنصر الوقت وتفتقر اصلاً لعامل الحماس ، فالتفسخ الذي اصيبت به قوى الثورة لم يلبث ان ادّى نتائجه المتوقعة . والدم المهراق الذي اهدره حكم الارهاب جزافا في نظر عدد كبير من المستائين ، جعل الرأي العام يشمئز من هذه الافعال . فالاستجابة جاءت ضعيفة جداً للاستنفار الذي تم بواسطة دق الطبول وقرع الاجراس نذيراً بالخطر الفاغر فاه في ٩ ترميدور . وقوى النظام والانضباط تتفوق على قوى الفتنة الثائرة . والتدبير الذي اقدم على اتخاذه المؤتمر الوطني أمّن له الغلبة على القوى المقاومة دون ان يلقى اي حماس بين صفوف اعدائه .

٤ – الخلع البورجوازي

الردة السياسية والاقتصادية والاجتماعية

بدت على الثورة حركة من الجزر . وهذا لا يعني قط ان الاكثرية في المؤتمر الوطني أو في البلاد اصبحت مضادة للثورة . ولم يَدُر في خلد احد من الناس ، اذ ذاك ، الرجوع الى النظام القديم مثلاً ، كما لم يَدُر في روح احد التخلي ، ، مثلاً عن نظم الجمهورية . وقد عني المؤتمر الوطني بوضع حد لهذه الضغوط التي مارستها الاقليات في الخارج وتعرّض لها فأخرجته عن الصدد وأزاحته عن الصراط القويم . وامام الخطر المزدوج المنتصب امامه من كلا الارستوقراطية والديموقراطية ، كان لا بد من اعادة تنظيم احزاب القلب او الوسط فيه . وبعبارة اخرى ، فالبورجوازية التي وقعت الاحداث المتعاقبة بين فئاتها المختلفة – باستثناء أقلية ضئيلة من الارهابيين وبعض عناصر الطبقات الشعبية التي اصبحت بلا قوة في عزلتها – انكفأت على نفسها وراحت تتولى بيدها تدبير شؤون الحكم والادارة .

ولذا كان لا بد من اعادة النظر بصورة شاملة في الجهاز الثوري وعدته الحركة . فراح المؤتمر الوطني يوجه اهتمامه الخاص « للحركة الإرهابية » ممثلة بهذه الادوات الجديدة التي أطلقت في شخص الحكومة الثورية والادوات القديمة كالنوادي والصحافة ، والحرس الوطني والكومون في باريس ، اي كل هذه الاجهزة المعجلة لعمل الثورة والمضخمة له .

وقد تم منذ ترميدور ، الغـاء معظم القوانين والتشريعات التي زرعت الهول في البلاد وعدلت تعديلاً جذرياً فأعيد تنظيم لجنة السلامة العامة كما حدد عدد افرادها ، بانتظار ان يفقدوا في الشهر القادم ، جانبـاً كبيراً من سلطتهم ونفوذهم وُوضعت بلدية باريس في ٩ من الشهر خارج القانون ، وقُضي على الكومون وجرت تصفيتها الى الابد ، ووزع القرار الصادر في ١٤ فروكتيدور صلاحياتها ، فعُهد بادارة البوليس لهيئة معينة من الموظفين . وفي الشهر التي تمت تصفية حزب اليعقوبيين ، اذ راح المرسوم الصادر في ٢٥ فنديمير من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري يحظر كل انتساب للجمعيات القائمة وكل تراسل جماعي بينها ، كما يحظر كل التماس أو كل استرحام يقدّم جماعياً . ووُضعت الاندية تحت مراقبة البوليس . فعلى كل جمعية ، ان تنظم من الآن فصاعداً ، قائمة مفصلة بالاعضاء المنتسبين اليها ، كما أجبرت على ارسال نسخة من هذه القائمة للمسؤول عن أقرب مركز قضاء منهـا وعلى تعليق هذه القائمة على ابواب البلديات . وجرى في ٢١ برومير اقفـال نادي اليعقوبيين في باريس . وصدر بعد ذلك بتسعة اشهر ونصف مرسوم بالغاء كل الجمعيات الشعبية . وراحت الصحافة تحبّذ بالطبع مثل هذه الاجراءات المتخذة بعد ان تحررت من كل ضغط وتمتعت بحرياتها ، لا تخشى ما يسيء اليها من الحوادث الطارئة ، باستثناء حوادث فردية ، كما انها اصبحت معادية لليعقوبيين في مجموعها ، اذ اصبحت « بورجوازية » بطبيعتها وبأهدافها . والحرس الوطني أعيد على ما كان عليه في عهد الجمعية التأسيسية ، فجرت تنقية صفوفه من الفقراء والارهابيين ، بصورة مباشرة وغـير مباشرة ، بانتظار صدور مرسوم ١٠ بريريال من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري الذي « اعفى » الصناع والمياومين والعمال المساعدين من الخدمة العسكرية .

وهكذا قضت البورجوازية بعد ان استعادت وعيها وعاد اليها رشدهـا ، على الخطر الذي بيّنته لها الديموقراطية الفوغائية . لا مراء بان الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي أخذت بخناق البلاد ، في العام الثالث من التقويم الثوري تسبب لهـا بعض الاضطرابات والقلاقل ، لا سيما ما وقع منها في ١٢ جرمينال والأيام الأولى من بريريال . وقد فشلت الحركة في المهد لافتقارها لأطر بورجوازية ، اذ ان قطاعاً صغيراً من البورجوازية هو الذي يفكر باسم الجماهـير . ومن جهة أخرى ، فالجماهير لم تعد قوة فاعلة في هذا العهد ، بعـد ان تمت الغلبة والسيادة للمؤتمر الوطني ، وامّن له السيطرة بالقوة في شهر بريريال . وبذلك تأمن لليمين انتصاره الساحق بدون هذه الجماهير وبواسطة الجيش وحده .

فالجيش يلعب الآن في الصراع السياسي القائم الدور الذي لعبته الجماهير منذ اطلالة الثورة . والرجل الذي هيأته الاقدار لتوجيه هـذا الصراع على جبهتين ، هذا الصراع الذي وحـده يستطيع ان يُرسّخ العهد الذي أطل على البلاد ، هو قائد حرب مجرب .

ثانياً ــ الوحدات القياسية في السياسة

اعلان حقوق الانسان عام ١٧٩٣

في هذا التحدي الجنوني العالي الذي تتطح ، بين ١٧٩٢ — ١٧٩٤ ، العالم القديم والجديد ، تطل علينا من خلاله ، مؤسسات ومستجدات ضخمة ، أفعمت قلب اوروبا دهشة وهلعاً . كما زرعت الخوف وسمرت الرعب في قلب البورجوازية الفرنسية بالنظر للماضي في كل ما يتصل بالاقتراع العام والنظام الجمهوري والاعمال الحربية التي قامت بها الديموقراطية الاجتماعية في سالف أيامها ، والجور الذي سيطر على المدينة في المستقبل ، أمور مرت كأضغاث الأحلام والكابوس الضاغط ، اذ ما كادت السنة الثالثة من التقويم الثوري تمر حتى كانت معظم هذه الاشباح مرت وزالت ولم يبق منها عين أو أثر .

فالاعلان الجديد لحقوق الانسان ، عام ١٧٩٣ وضع المساواة بين المواطنين في رأس هذه الحقوق التي يتمتع بها الانسان . ويليها اهمية : الحرية والأمن والملكية . وجعل من الاسعاف العام واجباً مقدساً . واعترف للانسان بنوع من الحق في العمل ، وهو حق يختلف تماماً عن مفهوم الحق في العصر التالي . والانتفاضة الشعبية أعلنت حقاً من أقدس حقوق الانسان يقوم بها ضد حكومة تغتصب السلطة اغتصاباً .

فهذا الاعلان الذي تم في السنة الثالثة اعاد للحرية المرتبة الاولى ، هذه المرتبة التي ارادها لها النص الاول لحقوق الانسان كما اعلنتها وثيقة عام ١٧٨٩ . فهو يشدد بالطبع على المساواة المدنية ، ويفسح هذا الاعلان محلاً مرموقاً و لواجبات الانسان ، وهو الشيء الذي حاول دعاة التوفيق في الجمعية التشريعية ، عبثاً تحقيقه . من هذه الواجبات : احترام حق الملكية ، اذ نصت المادة الثامنة منه على ما يلي :

المادة ٨ — على صيانة الملكية تقوم حراثة الارض وما يرجى من محاصيل وانتاج ، وكل وسائل العمل والنظام الاجتماعي نفسه .

فما من داع بعد للاسعافات العامة ولا اللجوء بالتالي لحق العصيان والتمرد .

حق الاقتراع العام وحكومة المجلس

فحق الاقتراع العام قضي عليه هو الآخر . سنت هذا القانون الجمعية التأسيسية وذلك في ١٠ آب ١٧٩٢ ، وهو القانون المتعلق بانتخاب اعضاء المؤتمر الوطني . يعترف هذا القانون لكل فرنسي بلغ الحادية والعشرين من عمره ، بحق التصويت ، دون تمييز ما بين المواطنين من حيث الوضع المالي ، وقد استثنت القرارات التي صدرت في ١١ و ٢١ منه ، الخدّم المرتبطين بخدمة شخص معين باعتبارهم

لا يتمتعون بالاستقلال الشخصي . وحق الانتخاب بقي غير مباشر ، تماماً كما كان الوضع في دستور عام ١٧٩١ . يُنتخب كل من بلغ عمره ٢٥ سنة ، وقـــد حافظ دستور ١٧٩٣ ، على طريقة الاقتراع هذه ، بعد ان الغى الاستثناء الخاص بالخدمة ، وساوى من جهة ثانيـــة ، بين السن الذي يمكن للمرء معه ان ينتخب ويُنتخب ، فجعله ٢١ سنة . ولم يطل العمل بهذا النص ، اذ ان قانون ٥ فروكتيدور من السنة الثالثة للتقويم الثوري ، اعتبر الاقتراع عموميـــاً ، أي يشمل كل الفرنسيين الذين اشتركوا في الدورة الأولى من عملية الاقتراع ، وطلب اليهم ابـــداء الرأي في النص المعروض عليهم ، هذا النص الذي سيصبح دستور البـــلاد في السنة الثالثة ، كما دعاهم للاشتراك في انتخابات الدورة الاولى للمجلس التشريعي . فالوضع يقتضي السرعة والعجلة . وقد حصر هذا الدستور ، حق الانتخاب بمن يدفعون ضريبة الاملاك وهي ضريبة معدلها أقل مما فرضه قانون ١٧٩١ . له حق الاشتراك في انتخابات الدورة الاولى ،كل مـــن يدفع ضريبـــة مباشرة ، مهما كانت قيمتها . وهكذا نرى ان غالبية السكان تمتعت ، وفقاً لهـــذا النص بحـــق الاقتراع . كذلك اعيد العمل بالرسم الضرائبي الذي يولي صاحبه الاهليـــة ليُنتخب عضواً في المجلس . كما حددته الجمعية التشريعية من قبل بنصه الحرفي الواحد تقريباً ، بعـــد ان استثنى المرابعين والمزارعين الذين يتمتعون ، هم ايضاً برسم أقل . فالناخبون للدورة الثانية يُتخـــذون من المحيط الاجتماعي ذاته ، اسوةً بدستور عام ١٧٩١ ، ويجري انتخاب ممثلي الامة بدون اي اعتبار او اكتراث لضريبة الارض التي يدفعها المرشح للانتخابات .

كذلك استغني أيضاً عن المجلس الوحيد الذي يتجدد كل سنة ، كما استغني كـذلك عـن حكومة المجلس على الوجه الذي اقترح تشكيلها دستور عام ١٧٩٣ . فمجلس الشيوخ الذي كان مونييه وانصاره عجزوا عن إقراره ، عاد للظهور من جديد ، وهو مجلس يختلف مع ذلـــك اختلافاً كلياً عن المجلس الذي خططوا له .

فدستور السنة الثالثة من التقويم الثوري وزّع السلطة التشريعية بين هيئتين مختلفتين : مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ . وكلا الهيئتين تأتيان بالاقتراع العام من قبل هيئة واحدة من الناخبين. وكلاهما ينتخبان لدورة تدوم ثلاث سنوات ، يجري خلالها تجديد كل واحد منهمـــا بالثلث . والفارق الوحيد ، بقطع النظر عن الاوضاع الخاصة بالاحوال الشخصية والسكن هو فارق السن لا غير بعد ان اشترط فيه ان يكون ٣٠ سنة ثم أنزل الى ٢٥ لاعضاء مجلس الخمسمائة و ٤٠ سنة لاعضاء مجلس الشيوخ . فمن مميزات مجلس الشيوخ حق انتخاب المديرين الذين يُنتخبون لمدة خمس سنوات . ويجري تجديد انتخابهم على اساس الخمس . والوزراء الذين لا يؤلفون مجلساً خاصاً يعينون ويعزلون من قبل مجلس الادارة (ديركتوار) ، ويجب انتخابهم من خارج اعضاء الهيئتين المذكورتين . لا يمكن لاية هيئة من الهيئتين تشكيل أي لجنة دائمة ، تفاديـــاً وتجنباً بالوقت ذاته ، من اللجان الحكومية في عهد المؤتمر الوطني .

الكائن الاعظم
فصل الكنيسة عن الدولة

استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية حتى شهر برومير *Brumaire* تحت مظاهر مختلفة احتفظ نابليون في تشريعه ببعضها . فقد أقفلت الاديار بموجب القرارات الصادرة بتاريخ ١٧ و ١٨ آب ١٧٩٢ كما حلت هذه القرارات الجمعيات الرهبانية . فمحاربة المتمردين ، وتقلب العديد من عناصر الكنسة الدستورية وتغيرها ، وضغط قوى الحركة التي تحظى من وقت الى آخر ، بمؤازرة البلديات التي عهد اليها المرسوم الصادر في ٢٤ آب ١٧٩٠ بمهمة تأمين الاحتفالات العامة والتي راحت ، فيما بعد ، تدعي لنفسها حق مراقبة طقوس العبادة ، كل هذا وما اليه أدّى بالطبع الى خلخلة الاكليروس العلماني والى اشاعة الفوضى في الحياة الدينية . ففي السنة الثانية من التقويم الثوري ، نرى ثلثي الاساقفة الدستوريين مستقيلين ، او مارقين عن الدين او متزوجين . والدولة الثورية التي لم تتعرف الى عبادة العقل انشأت لها بموجب القرار الذي اصدرته في ١٨ ، فلوريال ، عبادة الكائن الاعظم ، وانقطعت عن دفع مرتبات الكهنة ، وتبنت ، في اواخر السنة الثانية من هذا التقويم الجمهوري مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة . والكائن الاعظم ، لم يعمّر بعد ترميدور ، اذ ان القرارات التي صدرت في ٣ فنتوز و ١١ بريريال من السنة الثانية لهذا التقويم الثوري ، اكّدت حرية الطقوس التي يمكن ان تقام في المعابد الواحدة ، على اختلافها . فدستور العام الثالث عجل في ترسيخ مبدأ الفصل ومبدأ حرية العبادة .

كذلك استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية في الحياة الاجتماعية ، وذلك ابتداء من الطلاق المبني على تراضي الفريقين المعنيين ، او التناقض القائم بينهما ، او لعدم التجانس ، وذلك وفقاً لاحكام القانون الصادر في ١٠ ايلول ١٧٩٢ ؛ وفي كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية والتقويم الجمهوري والنظام العشري الذي وضعته الثورة .

واخيراً عاد الى استلام زمام الامر في البلاد ، ان لم يكن رجال ١٧٩١ ، فأقله الاوساط الاجتماعية ذاتها،على نسبة كبيرة للصالح ذاتها . فقد شعر هؤلاء الذوات انه يمر فوق رؤوسهم كابوس المساواة الذي فرضه نظام السنة الثانية من التقويم الجمهوري . كثيرون بينهم لا يزالون يستندون بالحريات العامة ولكن باحتراز وتحسب لم يكن ليتحلوا به من قبل كطبقة ، او انهم لم يجدوا فيهم الجرأة الكافية ، اذ ذاك ، التعبير عنها قبل ان يسيطر عليهم الخوف الاجتماعي. فان لم ينشر الاعلان الجديد لحقوق الانسان الى هذه الحريات خلافاً لاعلان هذه الحقوق ، سنة ١٧٨٩ ، و ١٧٩٣ ، فالدستور الذي وضع ونشر العام الثالث من التقويم الثوري ، اعلنها من جديد ، في الفصل المعنون: الاحكام العامة . من هذه الحريات : حرية التعبير وحرية الصحافة. فالنص مع ذلك ، هو اقل وضوحاً من السابق . وراحوا يشددون على التدابير الاحترازية بعد ترميدور . فنظموا ، في كثير من الحيطة والاحتراز ، حق الاجتماع وحق الالتماس : لا يمكن الجمعيات السياسية ان تنعت نفسها بـ « شعبية » ، ولا يحق لها بان تنضم بعضها الى البعض الآخر ، ولا ان تقوم بمراسلات فيما بينها ، كما يجب ان يقدم كل التماس على اساس فردي

وليس على اساس جماعي. ويحق للقانون، لدى الاقتضاء، ان يعلق حرية الصحافة لمدة سنة، مع امكانية تجديد التعطيل لسنة اخرى.

ثالثاً — الوحدات القياسية في الاقتصاد والاجتماع

من بين هذه المستجدات الرئيسية التي حققتها الانتفاضات الثورية، بقي الكثير منها حياً معمولاً به في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

خليط من المتسرع والزائل إلغاء الرسوم الاقطاعية

في الطليعة من هذه المستجدات، القضاء قضاء مبرماً، على النظام الاقطاعي في ما تعلق منه بالمرافق الاقتصادية في البلاد. ومثل هذا الاصلاح طالما نزع اليه الفلاحون من انفسهم بشوق، اذ نراهم مستمرين ابداً في مقاومتهم الجماعية لجباية الرسوم السيادية. فتم لهم تحقيق اغراضهم هذه على مرحلتين تتمثلان في: انهيار العرش وانهيار الجيرونديين.

وصفت الجمعية التشريعية أسس السياسة التي انتهجتها في مصادرة الاملاك السيادية، خلال الاضطرابات التي سبقت الـ ٢٠ من حزيران ١٧٩٢. فالقانون الذي صدر في ١٨ منه، نصّ على إلغاء الرسوم العارضة او الطارئة كالرسوم التي يتقاضاه السيد على بيع التركات، ما لم يثبت المالك، عن طريق ابرازه سند تملك قديم ان الرسم المترتب عليه انما اساسه تنازل سابق عن العقار. ومثل هذا الدليل كان من العسير جداً ابرازه والاحتجاج به. وعادت الجمعية الى تعيين هذا المبدأ وتوسيعه في اليوم التالي العاشر من آب. وقد ألغى المرسوم الصادر في ٢٥ منه، بذات الشروط، كل الرسوم الاقطاعية او الضرائبية المقيدة، وكل الفوائد التي كانت تجبى تحت ستار: حصة الحصيد او رسم الاراضي، والعشور المرسومة، وعلى الاجمال، كل الرسوم التي ابقت عليها التشريعات الماضية، او جعلتها قابلة للفداء او الشراء، وبعبارة اخرى، نص هذا المرسوم، الى حد بعيد، على إلغاء كل الرسوم السيادية المتبقية او التي ربطها الشارع بشرط الفداء. فالمادة الاولى، ألغت، بدون تعويض ما، كل الرسوم، حتى منها ما احتفظ به قانون ٢٥ آب الماضي، وأجبر حاملو السندات الثبوتية على ايداعها قلم البلديات ليجري احراقها واتلافها فيما بعد، علانية. وفي ذكرى العاشر من آب في كل سنة تضرم في البلاد نيران الابتهاج، امام اعضاء المجلس البلدي والمواطنين المجتمعين معاً في ميدان البلدية. وهكذا خلصت، في نهاية الامر، على حساب السيد وحده الملكية العقارية ممثلة باملاك البورجوازيين وبهذه الملايين من قطع الارض الصغيرة التي يملكها الفلاحون. وقد رمى المؤتمر الوطني من تشريعه هذا ليس لتأمين فائدة مجموع الملاكين فحسب، بل ايضاً لتأمين مصلحة المستثمرين لاملاكهم، اذ حظر القانون الصادر في اول بررمير من العام الثاني للتقويم الجمهوري، مطالبة المرابعين والمعمرين والمزارعين باي حصة او جزء من محصول الارض كتعويض لهم. وتمكن بعض الملاكين في محافظة

Gers ان يتحدّوا القانون علانية ، بينما حاول غيرهم الدوران حوله . هل حدث ذلك كثيراً؟ لا ندري . فالنص ماثل امامنا ، وشهر ترميدور لا يتعرض له بشيء .

انتقال الملكية وبيع املاك اللاجئين

وهكذا تم انتقال جانب كبير من ثروة الارستوقراطية « الاقطاعية » الى طبقة البورجوازية والفلاحين ، كما ان نزع ملكيـة اللاجئين النازحين ادى من جهته الى انتقال جانب كبير من رؤوس الامـوال والثروة الوطنية الى هذه الفئات . وهكذا نرى ان خطوة الثاني من حزيران كانت اوفـر نتيجة واكثر حزماً من الخطوة التي اتخذت في العاشر من آب . صحيح ان قرار ٩ شباط عـام ١٧٩٢ امر بمصادرة املاك الفارين النازحين الى الخارج ، كما ان القرار الذي صـدر في ٢٧ تموز قرر بيع املاكهم بالمزاد العلني . وقد نص قرار ٦ – ١٤ آب على قسمة هـذه الاملاك وعلى فرزها قطعاً صغيرة تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٢ ـ ٤ دونمات(*Arpents*) على ان يُسـدد ثمنها اقساطاً من العملة الفضية تدفع سنوياً . وبهذه الشروط يتقدم للشراء من يرغب من المواطنين. الا ان قرار ٢ ايلول قصرّ عن القرار السابق ، اذ انه يقتصر على تحبيذ تقسيم الاملاك الى قطع صغيرة واستبدل في معظم الحالات طريقة الدفع بالتقسيط بالدفع نقداً . فحزب الجيروند رفض العمل بهذه النصوص ، وكذلك حزب « الجبل » الذي لم يأبه لها كثيراً ، نزولاً منهما معاً عند مقتضيات مالية اكثر منها لاسباب اجتماعية . ولم يكن من إشكال او غمـوض في مطالب الفلاحين . ولم يسع حزب « الجبل » الا النزول عند مطالبهم وبذلك اصبحت قضية هذه الاملاك واملاك الدولة سلاحاً بين يديه ضد المعتدلين من اعضاء المجلس . ومنذ ٣ حزيران عام ١٧٩٣ ، عاد المؤتمر الوطني لتبني الاسس ذاتها التي قام عليها قرار ايلول السابق بعـد ان استبدلت طريقة الدفع نقداً عندما لا تنص شروط البيع على تسديد المتأخرات اقساطاً ، وذلك بجعل الدفع على عشرة اقساط موزعة على ١٠ سنوات . وقد عاد القرار الذي صدر في ١٣ ايلول فحدد هذه المهلة بعشرين سنة بدون فائدة . وقد سجلت المراسيم الصادرة في ٢ بروميير و ٤ نيفوز من السنة الثانية للتقويم الثوري كل مبيعات الاملاك العامـة متساويـة بينها وبين الشروط الخاصة ببيـع املاك اللاجئين . ونصت على وجوب تقسيمها كالاخرى ، الى قطع صغيرة شريطة الا يُلحق ذلك اي ضرر بسلامة الارض ، كما اشترط ان تدفع المبالغ المتوجبة على ١٠ سنوات .

ولا يستنتج من ذلك ان الشعب اقدم بصورة لا تقاوم على شراء هذه الاملاك المصـادرة . فالامر على عكس ذلك تماماً . فمن اوليات الفطنة التي يعتمدها الفلاح في سلوكه شعـوره بشيء من الانكماش والوقوف موقف المتحرز من هذه الاسعار التي يُستجلبها البيع بالمزاد العلني ، ولا يجازف ، اقله في المدن ، بهذه الفوائد التي يلزمنها تضخم المال في الاجل البعيـد . فالارض تحتاج لرؤوس اموال كبيرة لاستثمارها ، ومثل هذه الاموال لا تتوفر دوماً . ومن جهة اخرى ان موقع هذه القطع المعروضة للبيع يثير بنفسه مشكلة لدى الشاري ، سواءاً

أكان من العمال المياومين او من صغار المزارعين الذين يبقون مشدودين الى اعمالهم الرتيبة . فلم يكن من مصلحتهم قط ان يقتنوا ، في أي مكان كان ، ارضاً يزرعونها . وهذه المراقبة لم يكن لها من كبير اعتبار لدى بورجوازيي المدينة الذين كانوا المستفيد الاكبر من انتقال هذه الثروة الضخمة من فريق الى آخر .

الاقتصاد المشترك

هذا الانجاز المستمر الاثر ، يبرز على اشده اذا ما قارناه بالانجازات الاخرى السريعة الزوال التي تمت في المجالات الاخرى ، ولا سيما اذا ما قارناه ، بالدرجة الاولى ، بهذا النظام الاقتصادي المرتجل الذي عُمل به من ١٧٩٢ – ١٧٩٤ مع ما حصل من ارتفاع كبير في الاسعار .

فقد أصمّت الجمعية التشريعية آذانها على مطالب الشعب الذي كان يطالب بإلغاء التراتب والرسوم . فاليمين واليسار على السواء رأوا ان الحل الوحيد يقوم باطلاق حرية التجارة باستثناء تصدير الحبوب للخارج الذي بقي تصديره ممنوعاً بالكلية . فسياسة التدخل لم يبد الاحتمال بانتهاجها الا في اليوم التالي العاشر من آب . فالضغط الذي تعرضت له السلطات من اسفل ، حمل السلطات المحلية والبلديات ، والجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي المؤقت ، على التسليم والرضوخ . فالمراسيم التي صدرت في ٩ و ١٦ ايلول خوّلت السلطة مصادرة الحبوب . فاذا ما قارنا هذا التدبير بالتصريح الذي صدر عن الحكومة في ٤ منه بفرض الرسوم والذي طبق على نطاق واسع في هذه السياسة التي رسمتها الجمعية للاستيراد ، وعينت وسائل جديدة لتنفيذها ، نجد انها جاءت ضمن الخطة الموضوعة للاقتصاد الحر ، في هذا القطاع الرحب الذي يتناول المواد الغذائية . وهذا التعارض لن يدوم طويلاً ، لا سيما وقد وجدت الحكومة في هذه الخطة وسيلة من وسائل تدبير الامور التي ارتجلتها مصلحة الاعاشة ، وضرورة لا بدّ من اخذها والنزول عندها على هذا الشكل ، في اليوم التالي للثورة . فقد كان في هذه الاجراءات ذرائع مرتجلة اكثر منها خطة حكومية في المجال الاقتصادي . فرولان وصحبه في الجيروند اعتبروها على هذا الشكل . فالقرار الذي صدر في الرابع من الشهر والذي كان يفتقر اصلاً الى التوقيع ، تم نسخه وإلغاؤه ، وهو قرار يتفق تمام الاتفاق مع رغبات المجلس الجديد اقله مع غالبيته الساحقة . فبعد جدال ونقاش طويلين اقترع المؤتمر الوطني بحماس في الثامن من كانون الاول الى جانب الحرية .

واستمر غلاء المعيشة في ارتفاع موصول يعكس هذه الارتكاسات الشعبية . فلم يعد ، بين اعضاء حزب « الجبل » من يثق قط بالضريبة على الحبوب ، ولا بالحد الاعلى للاسعار على العموم . ومع ذلك تم الاتفاق في نيسان ١٧٩٣ . فالمؤتمر الوطني اخذته الحيرة وراح يتردد ، مع ان حزب الجيروند خفف من مطالبه بعد ان تشدد فيها . وتبنى المؤتمر الوطني في النتيجة النص الذي وصفه ممثلو « الجبل » فاصبح اساساً للمرسوم الذي صدر في ٤ ايار . فالمناقشة قامت على موضوع الحبوب مع المطالبة بتثبيت الاسعار ، في المعدل الذي سجلته في الاشهر

الاربعة الاولى من السنة انه تدبير محال . فالفشل كان اسرع مما ظنوا . لماذا لا ينتظرون موسم الغلال ؟ يقتصرون ، على إقرار قوانين جديدة ، لا فعالية لها ولا تأثير ، كقانون ٢٧ تموز الذي جعل من الاحتكار واختزان المواد الغذائية جريمة نكراء ، وكقانون ٩ آب الذي اوجب انشاء حواصل لحفظ المواد الغذائية في مركز كل قضاء . واشتد الضغط العام بحيث اصبح لا مندوحة من الرجوع الى سياسة ٤ ايار والسير بها الى ابعد .

فمنذ النصف الثاني من شهر ايار ، أخذ المؤتمر الوطني باتجاه الحد الاقصى العام ، فاطلق يد السلطات المحلية في المحافظات المختلفة لتفرض وسوماً على مختلف المنتوجات. فاعمال المصادرة هي الوسيلة الوحيدة لتأمين الغذاء للجماهير ، والتجارة بالجملة لم يبق لها من أثر ، كما ان التجارة بالقطاعي تخضع لاجراءات وتدابير دقيقة . وطلب الى الجمعيات الشعبية مؤازرة الدولة في تطبيق القانون ووضعه موضع التنفيذ . وعلى أثر ذلك ، صدرت المراسيم الجديدة في ٢٩ ايلول و ١١ برومير و ٦ فنتوز فأقرت نهائياً الحد الاقصى العام للمحاصيل والخدمات بما فيها الاجور . واتخذوا اساساً له الحد الاقصى لعام ١٧٩٠ ،مع إضافة الثلث اليه ، هذا مع العلم أن أجرة العامل اليومي الذي يأكل على حسابه تزاد ، استثناء ، الى النصف . ويضاف الى سعر الصنف نفقات النقل وربح التجار بالجملة وبالفرادى ، مع إضافة رسم مقداره ٥ — ١٠٪ فالجداول الشاملة الموضوعة في شهر فنتوز تضم بالتفصيل الكلي قائمة طويلة باسماء الاصناف التي حددت اسعارها القصوى . وراحت لجنة السلامة العامة تمتدح بلسان جريدة باريز « قائمة المواد الغذائية » وتتبجح بأنها قضت ، الى الابد ، على « الاسفنجات الماصة » الممثلة بهذا العدد الضخم من الوسطاء والعملاء .

وبواسطة القرارات الخاصة بالتسعيرة العامة وما شاكل من القرارات التي أشرنا اليها . استطاعت السلطات العامة أن تراقب جانباً كبيراً من التجارة الداخلية. واذ كانت هذه السلطات تسيطر بالفعل على التجارة الخارجية ، فقد كان في طاقتها أن تتحكم الى حد بعيد ، بحركة النقل . كذلك تناول تأثيرها إنتاج المواد الضرورية لغذاء الطبقات الشعبية ، وراحت تنشطها عن طريق تحديد جوائز مكافأة . فبعد أن اصدرت قرارها الصادر في ١٣ آب ١٧٩٣ الذي أمر بتجنيد عام في الاقتصاد الوطني ، اخذت بتنظيم صناعة المواد الحربية . وهكذا بفضل الضغوط الاجتماعية الشديدة الوطأة والضرورات التي اوجبها الكفاح والصراع في الداخل والخارج ، وضعت السلطات الجمهورية يدها على مرافق وقطاعات رئيسية في الاقتصاد الوطني .

جمهورية اجتماعية

وقد فرضت الظروف ذاتها ، سياسة مالية ومت من خلالها الى مضاعفة الرسوم والضرائب على الاغنياء . فكان عليهم ان يتحملوا نفقات المجهود الحربي عن طريق فرض ضرائب تصاعدية : ضرائب الثورة عهد بجبايتها لموظفين خاصين ، وقرض اجباري قيمته مليار فرنك ، أقره القانون الصادر في ٣ ايلول ١٧٩٣ اصاب كل من لم

يكتتب بالقرض الاختياري . وقد اعطت هذه التدابير نتائجهـــا المرجوة . وتأميناً للمساواة الضرائبية لدى الجميع ، وإصابة للاجئين « في ثروتهم العقارية » وتحطيماً للشركات الرأسمالية التي تضارب بالعملة الجمهورية ، ألغيت السندات لحاملها ، كما ألغيت الشركات المساهمة . وفي آب ١٧٩٣ ، رضي كمبون « خوض هذه المعركة المميتة بين ارباب المال والمتجرين به توطيـــداً لأركان الجمهورية » .

محاولة وضع تشريع اجتماعي طابع العام الثاني الزائل والرمزي

نحن على ابواب تشريع اجتماعي وشيك الوقوع . انبثق هـــذا التشريع من المبادىء والخطط التي استلهمهـــا رجال الجمعية التشريعية . من بينهـــا المراسيم التي صدرت في ١٨ اذار و ٢٨ حزيران ١٧٩٣ . فقد نص الاول منها على تخصيص مساعدات مالية للفقراء الاصحـاء ، كما نص على مد يد المساعدة للفقراء المقعدين في منازلهم العاجزين عن العمل . ونص الثاني منها على تنظيم الاسعاف للاطفال والشيوخ . من هـذه المراسيم التي صدرت ، المرسوم المؤرخ ٢٢ فلوريال من العام الثاني التقويم الثوري الذي خص بعض عمال الارياف بمعاشات تقاعدية وبمساعدات تعطـى للارامل وللامهات الولود ، واسعافات طبية اخرى للمرضى . وفي هـــذا السبيل ، انشىء الى جانب دفتر الاستاذ للديون العمومية الذي تم انشاؤه في ٢٤ آب ١٧٩٣ حيث تسجل الاستحقاقات المترتبة على الاغنياء ، دفتر آخر تقيد فيه المبرات الوطنية المقدمة بروح اجتماعية عصرية .

وستفضي نتائج هذه السياسة الوقائية ضد البؤس ، بالثورة التي قام بها المؤتمر الوطني ، الى ابعد من ذلك بكثير . كانت حصة الفقراء للآن ضئيلة من هذه الاملاك الوطنية في مصدريهـا الاول والثاني . والاملاك المشاعية ، التي تضاعفت بمصادرة الاراضي المفروض فيها ان تكون مشاعية ، وذلك عملاً بنص المراسيم والقرارات الصادرة في ٢٨ آب ١٧٩٢ ، و١٠ حزيران ١٧٩٣ ، قد يمكن اعتبارها مصدراً ثالثاً من مصادر هذه الاملاك . والقانون الزراعي الذي صدر في ١٠ حزيران ، يبيح قسمة الاراضي بصورة مجانية ، وبحسب الافراد ، اذا ما تقدم بذلـك بعريضة موقعة من ثلث السكان .

وستضع القرارات الصادرة في ٨ و ١٣ فنتوز من العام الثاني التقويم الجمهوري ، عمـــا قريب ، تحت تصرف المعوزين ، مصدراً رابعاً لهذه الممتلكات كانت تخص هذا الفريق من الاشخاص الذين تحوم حولهم الشبهات والظنون ، ثم اتضح في نهاية الامر انهم من اعداء الثورة . «من يبدو عليه انه عدو الوطن لا يمكن أن يكون من اصحاب الاملاك في هذا الوطن » ، كما علق على ذلك سان - جوست مقرر اللجنة الخاصة .

« لتفهم اوروبا باجمعها رتسمع الكم لم تعودوا تتحملون رؤية بائس او مضطهد على الارض الفرنسية . ليعط هذا المثل فوائده على ارضنا هذه ، ولينتشر في كل مكان محبة الفضائل والسعادة، فالسعادة فكرة أطلت حديثاً على اوروبا»

جديدة ؛ وهنة وسريعة العطب . .هذه التدابير ، كهذا الالغاء للرق «في نواحي المستعمرات» هذا الالغاء الذي نادى بـــه المؤتمر الوطني ، من شهر سبق ، أي في ١٦ فنتوز من العام الثاني للتقويم الجمهوري .

لم يبق من هذه الاجراءات والتدابير اجراء واحد بعد ٩ ترميدور . وقــد جاء رد الفعل أحياناً قبل ذلك بكثير ، لا سيا في ما يتعلق بالتنظيات الزراعية . وقد قام في شهر فروكتيدور من السنة الثانية للتقويم الثوري حملة شديدة في سبيل حرية التجارة من شأنها ان تعيد البحبوحة الى البلاد وتجعل اسعار الحاجيات رخيصة . ومع انه مدد العمل بقانون الحد الأقصى ، فقــد أصبح هذا القانون مع ذلك كلمة جوفاء الى ان صدر قانون ٤ نيفوز (*Nivose*) من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري ، فألغاه تماماً . فالنظام الضرائبي فقد طابعه الاجتماعي . فالمحاولة التي قامت بها حكومة الادارة (دير كتوار) مرتين لفرض قرض اجباري ، لم تخلف الا الفضيحة . وبسبب فقدان الاعتمادات اللازمة لم يجر تطبيق القوانين والقرارات الخاصة بالاسعاف الوطني ، وان طبقت ، فبشكل مجزوء مختصر ، وذلك بالرغم من الجهود التي بذلت في تنفيذ المرسوم الصادر في ٢٢ فلوريال . ويبدو ان المؤتمر الوطني اخذ يتنكر ، في نهاية الأمر ، لهــذا النظام بكامله ، في الأشهر الاخيرة من العام الثالث للتقويم الجمهوري وفي مطلع العام الرابع . وستتخذ حكومة الدير كتوار ، بعد ذلك بقليل ، قرارها الفصل ، بشأن المشاعات ، فقد اوقف مفعول المرسوم الصادر في ٢١ بريريال من السنة الرابعة ، بصورة مؤقتة » والتقسيم الذي اجازه «القانون الفاسد» لعام ١٧٩٣ ، كما ان القانون الصادر في ٢ بريريال من العام الرابع الذي يحظر تماماً تطبيق القرارات التي صدرت في شهر فنتوز ، لم يتعدّ قط الاجراءات التمهيدية .

وهكذا بدت حقيقة رجال المؤتمر الوطني في آخر عهده على ما كانوا عليه ابداً منذ الاساس : جماعة من الفرديين لا يختلفون بشيء عن رجال الجمعية التشريعية وعلى شاكلة هؤلاء الناس الذين كوّنهم القرن الثامن عشر ، مثلاً بمثل . فبعد ان رأوا انفســهـــم بمنأى عن الضغوط السياسية والاجتماعية التي طالما تعرضوا لها في العام الثاني من التقويم الجمهوري ، اذ بهم يرجعون الى المواقف الاقتصادية ذاتها التي وقفوا منها ، عام ١٧٩٠ يحيون في حافظتهم ذكرى مـــا تعرضوا له من ضواغط ، ويعون تمام الوعي هذا الخطر الشعبي ويوجسون شراً من هذا الهول المريع الذي روّع البلاد وقضّ مضاجعهم . وعلى هذا النحو فكر السواد الأعظم من أعيان البلاد ووجهائها .

هذا العهد التاريخي المضطرب لم يطل أكثر من سنتين . فقد انقذ دولة البورجوازية التي مـــا ان رأت الخطر يرتفع عنها حتى اصبحت اقوى وأشد ، بعد ان امنّت جانبه ودفعته بعيداً عنها .

لا شك في انه بقي هنالك ، في المدى القريب ، ديمقراطيون وعناصر شعبية مخلصة لهذا العهد التاريخي المضطرب . انما اثر هذا العهد لن يظهر الا في المدى البعيد ، اذ انه بقي حقاً ، ماثلاً في

ذاكرة الاجيال . وأخذ الناس في أعقاب عام ١٨٣٠ يرونه شيئاً واحداً هو والثورة . وتولت المخيلات الخصبة نحت الأساطير ، واختلاق الحكايات والروايات حول شخصيات هـذه الحقبة التاريخية وأخذت تحللهم وتشرحهم بعاطفة مشبوبة . فالبروغرام عاد فبُعث حياً بعد ان تغيرت منه الملامح والقسمات . وهذه المسجلات السياسية التي سجلها العهد في الحقل الاجتماعـي ارتدت طابعاً رمزياً او تنبؤياً واتخذ صفة الرؤيا . فالسنة الثانية التي مرت كالطيف الزائـل تركت على المستقبل مسحة من السناء تألق لها القرن التاسع عشر بكامله .

الفصل الرابع

عهد التدعيم والتوطيد، محاولة الديركتوار الفاشلة والثورة النابوليونية (١٧٩٦-١٨١٥)

اولاً — القوى الموطدة

الجميع يتوقون بملء جوارحهم الى الاستقرار السياسي

أخذ أنصار ٩ ترميدور يتفننون في ممالأة الشعور العام، فراحوا يقدمون له بشيء من التحدي القرار الذي اتخذوه في الخامس من شهر فريمير من السنة الثالثة للتقويم الثوري، فاقروا اعادة انتخاب ثلثي الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس الوطني، وفاقاً « للقرار الذي كانوا اتخذوه حول أفضل طريقة لوضع حد للثورة » . كذلك ، أخذت حكومة الادارة (الديركتوار) تعرب من جهتها، عن رأيها في أحسن الوسائل التي تساعد على اعادة الاستقرار الى البلاد ، محاولة جهدها لتحييز هذه الوسائل واخراجها بالتي هي أحسن الى حيز الوجود . فالحزب الملكي بقي على عنـــاده لا يهادن ولا يصانع وهو شاهر سلاحه . فإن لم يعمد للقوة فقد أخذ يحيك الدسائس ويحبـــك المؤامرات . ومع ان مقاطعة الفانديه الثائرة قد غُلبت على امرها و كبح جماحها ، فقد سكتت على مضض وعزمها لم ينثن ، فكان على الحكومة ان ترد على التهديد وان تتحداه . فقـــد خرّ ستوفلو صريعاً برصاص ثلة من الحرس الوطني اعدمته رمياً بالرصاص في شباط ١٧٩٦ ، كما نال شاريت العقاب نفســه في آذار . فاذا ما هدأت الاحوال بعض الشيء في تلك السنة والتي بعدها فقـد عاد الاضطراب ، عام ١٧٩٩ ، الى مقاطعات الغرب والجنوب ، والى بلجكا . وراحت اللجان العسكرية تحكم بالاعدام رمياً بالرصاص على المهاجرين حتى شهر بروميير . وقـد أطلت الفتنة بقرنها بين صفوف الجيش في الوقت الذي وقعت فيه الخيانة الانكليزية الملكية مع بيشغرو ووصلت الى قلب حكومة الديركتوار بشخص برتلمي . ولعل ما هو أنكى واحزّ في النفس من

هذا كله ، هذه الحالة الفكرية الرجعية التي لقيت رواجاً في البلاد والتي تفسر لنا، بعض الشيء، حقيقة الانتخابات التي تمت عام ١٧٩٧ والتي اسدلت ستاراً على هذه المحاولات ، قوامها فريق من المتواطئين ومن المغرورين .

وقد زاد الحالة الفكرية قلقـاً واضطراباً ، الخوف الاجتماعي الذي استحوذ على الطبقة البورجوازية من احتمال عودة اليعقوبيين الى الميدان، بالرغم من ان الحزبية اليعقوبية لم تعد سوى فزاعة لا غير . فالفتنة الـتي اثارها كل من بابوف بنظريته الجديدة حول المساواة ، وأزمة التضخم الحادة تقضي عليها الحال ، اذ جرى توقيف بابوف وصحبه ، في ايار ١٧٩٦ ، دون ان يثير توقيفه اية مشكلة . لم يثر قمع هذه الفتنة ولا الاشتباك الدامي الذي وقع في ميدان غرينل ، في شهر ايلول ، اي قلق للحكومة . فالمتمردون في غرينيل ، وأنصـار بابوف تمت تصفيتهم جميعاً وحكم عليهم بالاعدام ، عـام ١٧٩٦ ، و ١٧٩٧ ، دون ان تتحرك باريس او ان تهتز أو ان ترتجف لها عين ، بعد ان كبح جماحها ، في شهر بريريال الماضي. لا بأس من هذا كله. فالتهديدات حتى الفاشلة منها تبعث الرعب في النفوس . فالشبح اليعقوبي ترتعد له الفرائص . فكل سياسة تفتح امام هـذا الحزب المجال لاستعادة نشاطه او شيئاً من حيويتـه ، كانت تثير اشمئزاز معظم وجهـاء الجمهورية واعيانها . ومع ذلك ، فالخطر المدام الذي يتهدد البلاد من جهة اليمين ، كان يحتم على كل حكومة جمهورية ، شاءت أم أبت ، النزوع الى مثل هـذه السياسة اذا ما شاءت ان تحكم بأكثرية برلمانية .

فالانقلاب الذي قامت به حكومة الديركتوار في ١٨ فروكتيدور بالغائهـا الانتخابات الملكية الطابع التي وقعت في العام الخامس من التقويم الثوري ، بعثت النوادي حية من جديد . وجاءت الانتخابات التي جرت في العام السادس يسارية محضة ، الامر الذي حدا بالحكومة الى القيام بانقلاب جديد ، فألغتها في ٢٢ فلوريال . كذلك جاءت يسارية ايضاً الانتخابات الـتي تمت في العام السابع . غير ان نشوب الحرب من جديد والانتصارات الاولى التي حققها التحالف الثاني ، والاضطرابات التي اثارها ، في الداخل ، الممالئون لهذا التحالف ، كل هذا جعل النظام الجديد يتصلب في موقفه وفي مقاومته . والقانون الذي صدر بتاريخ ١٠ مسيدور من العـام السابـع ، دعا لخدمة العلم، كل الذين هم في سن الخدمة العسكرية من ابناء الفئات الخمس الذين لم يجر تجنيدهم بعد . وجرى تغطية نفقات التجنيد بقرض داخلي اجباري تصاعدي وقع عبئه على المكلفين الاغنياء . وبعد ذلك بعشرة ايام ، صدر قانون الرهائن ، وهو قانون فرض توقيف ذوي القربى من اللاجئين والنبلاء ، في فرنسا ، ووجهاء الملكيين في المقاطعات التي تعيث فيهـا الاضطرابات ، وارسالهم الى مخيمات الاعتقـال ، وهدد بنفي وإبعاد هؤلاء المشبوهين من جنس جديد واتخاذ عقوبات ماليـة بحقهم تنزل بهم الخراب والدمار ، اذا ما ألحقوا بالجمهوريين ادنى أذى . وعادت الى الظهور كذلك الجرائد والنوادي « اليعقوبية » . كل هـذا ادخل الخوف في روع البورجوازية منذ شهر فروكتيدور .

الكل يرغب في الاستقرار الاقتصادي

كذلك قل عن الازمة التي سببها ، عام ١٧٩٧ ، الرجوع الى العملة المعدنية ومحاربة التضخم المالي في البلاد ، في اثر الفشل الذريع الذي اصاب ، في السنة السابقة ، السندات العقارية التي شابهت الاسيلياء . اشتدت هـذه الازمة ودامت طويلاً ، خلال عامي ٦ و ٧ وأنزلت اسوأ الاثر في المشروعات الاستثمارية الكبرى . وزادت الحرب الطنبور نغمة والطين بلة بما ألحقته بالبلاد من ضيق ومصاعب . فالخمسة في المائة التي جعلت الـ ٢١ فرنكاً ٢٥ ، في السنة الاولى من تحديد هـذا المعدل ، هبطت في السنة التالية الى ٧ فرنكات . كل هذه المشاكل تحمل في نظر اعيان القوم ، اذ ذاك ، علامات مصدرها أو منشئها ، اذ انها تعبر جميعها عن الخطر الذي يشكله اليسار . وهذا الخطر ليس بأخف قط من خطر الملكيين وقد تضاعف بانضمام خطر الغزو الخارجي اليه . فالوضع ، مع ذلك هو اكثر تعقيداً وارتباكاً وأصعب حلاً ، من بعض الوجوه ، ولو لم يبلغ من التوتر ما بلغه عام ١٧٩٢ و ١٧٩٣ . فالمهم ، في هذا كله ، انقاذ الثورة ، مما يحيق بها من مخاطر هي هذه العناصر الشعبية التي لم يكن لها فضل انقاذ الثورة من قبل فحسب ، بل ايضاً انقاذها من هذه العناصر بالذات . كل هذا يقتضي له دكتاتورية مركزية او ما شابه ذلك . الا ان الدكتاتورية الشعبية لا بد من ان تخلي المكان في آخر المطاف ، لدكتاتورية عسكرية .

الجيش الموطد

لم يكن من الممكن قط اجبار الجمهورية البورجوازية على انتهاج خطة متزنة ، بعد فنديمير ، الا بواسطة الجيش ، والجيش وحده . فالرجال الذين قاموا بحركة ترميدور والمسؤولون في حكومة الديركتوار ، شكلوا وحدهم القوة الموطدة لاركان النظام . فقد عرفوا ، على اساس من الفشل والنجاح ، ان يتفادوا العواصف الهوجاء ، وان يتجنبوا الزعازع . ولكن فرنسا كانت ترزح تحت ما تعاقب عليها من المحن والاحن . وكانت تطمع ، منذ عهد بعيد ، ان يعود الاستقرار على انواعه الى جميع القطاعات : الى البلاد ، الى اوروبا ، الى الاعمال ، الى دنيا المال ، كل هذا في اطار مجتمع لاطبقي بالطبع ، وفي ظل ادارة بورجوازية . فالمشكلة قامت في ايجاد طريقة الفصل بين الثورة وبين « الروح البرلمانية » وعند الاقتضاء « ثورة التحرر السياسي » . ومثل هـذا الوضع لم يعرف الديركتوار ان يحقق منه الا صورة ممسوخة ، وهو وضع أخفى دوماً بين طياته ، كما دل الاختبار على ذلك حديثاً ، احتمال بعث الروح اليعقوبية من جديد .

وها هو الموطد يطل فجأة : فاذا ببونابرت يصل فجأة الى فريجوس ، في ١٧ فنديمير من السنة الثامنة للتقويم الثوري ، ويدخل باريس في ٢٤ منه . كل شيء حاضر للانقلاب في أواخر النصف الاول من شهر برومير .

ففي مساء ١٩ منه ، يحل القناصل الثلاثة : بونابرت وسييس وروجيه دوكو ، محل الديركتوار ، والدستور الجديد يُفرض على الامة للاستفتاء ، في الرابع والعشرين من شهر فريمير .

يرتكز الدستور على المبادىء الصحيحة التي هي اساس كل حكومة تمثيلية وعلى مبدأ الملكية المقدس ، والمساواة والحرية .

والسلطات التي نص الدستور الجديد على اقامتها تتصف بالقوة والاستقرار ، وهاتان الصفتان لا بد من توفرهما لضمان حقوق المواطنين ولتأمين مصالح الدولة .

ايها المواطنون ! الثورة ترتكز دوماً على المبادىء التي انطلقت منها ، وقد انتهت الآن .

القنصل الاول وعهد التوطيدي

كرّس صباح ١١ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، أطول فترة استمرار عرفتها فرنسا عبر تاريخها الحديث . فمن قنصل موقت الى قنصل أول منذ ٢٥ كانون الاول ١٧٩٩ ولمدة عشر سنوات ، الى قنصل لمدى الحياة ، منذ ٢ آب ١٨٠٢ مع صلاحية تعيين خلف له ، كما نص على ذلك القرار الصادر عن مجلس الشيوخ (*Senatus Consulte*) الذي صدر في ٢ آب ١٨٠٢ (ترميدور من السنة العاشرة) الى المناداة به امبراطوراً وراثياً ، وفقاً للاستفتاء الشعبي الذي جرى في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة (١٨ ايار ١٨٠٤) . فقد اضطلع نابليون بمسؤوليات السلطة العليا لمدة ١٤ سنة ونصف . فمحاولات الاغتيال التي تعرض لها ، تارة من قبل الملكيين ، وطوراً من قبل « اليعقوبيين » كما زعموا ورددوا ، ساعدت كثيراً على تحديد مراحل هذا التطور ، كما ساعدت على ذلك الاحداث التي وقعت في الخارج ، كاعادة السلام يرفرف من الجديد على البلاد ، عام ١٨٠٢ بفضل معاهدة أميان . لا مراء قط ان سياسة من هذا النوع كانت تستجيب ، بمعزل عن اطماع نابوليون الواسعة ، للاماني العراض التي جاشت في قلب الشعب الفرنسي الذي تاق ، من جميع جوارحه ، للاستقرار والديمومة في الحكم .

وهكذا قضي تماماً على حركات « الاحزاب » التي طالما اصابت البورجوازية في الصميم من مصالحها الرئيسية . وهكذا زال من الوجود ، كل خطر « يعقوبي » . فألغي قانون الرهائن ، في ٢٣ برومير ، كما فرض ، في ٢٧ منه ، القرض الاجباري التصاعدي . وفي بضعة ايام لا غير ارتفع سعر القطع ٧٥ ٪ وارتفعت الا الابد ، قوانين المصادرة والسلب ، وقامت في البلاد جمهورية تتمتع « بحرية صحيحة » . وسمح قانون ٣ نيفوز لكل من طالهم قانون الابعاد في شهر فروكتيدور بالرجوع الى البلاد . وليس بغريب قط ان يعود بلرير وفاديه ايضاً في عداد من عادوا اليها . وقد عرف العهد ان يضع الندى موضع السيف ايضاً وان يصانع ويقطع الالسنة ، وسرعان ما وضع الحزب الديموقراطي في وضع لا يستطيع معه ان يأتي بأي أذىً . فبعد محاولة الاغتيال التي وقعت في شارع سانت نيكيز في الثالث من شهر نيفوز من السنة التاسعة ، صدر قرار من مجلس الشيوخ يسلق بألسنة حداد « سفاكي الدماء » و « مقلقي الامن في كل حكومة » كما كانت المحاولة « النكبة النكباء التي نزلت بالبلاد في جميع المراحل التي مرت بها الثورة » . انها لفرصة ذهبية بيد السلطة لوضع الديموقراطية تحت المراقبة المستمرة ، لتنفي من ترغب في نفيهم ، ولاعدام من يروق لها اعدامهم . ومن جهتهم لم يَعُد اصحاب النظريات من

الجمهوريين في المجالس الجديدة ليسببوا اي ازعاج بمطالبهم . ففي اواخر العــام العاشر من التقويم الجمهوري ، نرى « اليسار » يسير الهويناء .

اما الملكيون الذين لم يتزحزحوا عن مواقفهم ، فحركة القمع التي تعرضوا لها لم تتم بالسرعة والشدة المطلوبة ، فلم يكن لهـــا بالتالي التأثير الرادع . فالقانون الذي صدر في ٢٣ نيفوز من العام الثامن، أوقف العمل بالضمانات الدستورية في هذه المحافظات الواقعة الى الغرب والتي سادت فيها الاضطرابات والقلاقل . فقد حق للقائد العام في الجيش ان يتخذ قراراً يقضي بعقوبة الموت على الثائرين ، كما اعترف له بصلاحية فرض ضرائب استثنائية ، على المؤسسات العامة ، أسوة بما يجري في البلدان العدوة ، كما اعطيت المحكمة التي تنظر بالجنايات ، بصورة استثنائيـة الحق باصدار أحكام لا تقبل أي طريق من طرق المراجعة ، وتستمر اللجان العسكرية التي كانت تعمل في عهد حكومة الادارة (الديركتوار) ، في تنفيذ حكم الاعدام بزعماء الثوار ورؤسائهم في المقاطعات الغربية . أما الثوار من الجند ، فما زالوا يستهدفون للمطاردة ويُصرعون بالمئات الى عام ١٨٠١ . فما من حاجة بعد اليعقوبيين ، لتطمئن جماهير الملاكين لحسن مصير مـــا في حيازتهم من الاملاك العامة . كذلك عادت الحياة ، في شباط ١٨٠٤، الى المحاكم الجنائية الخاصة، بعد المؤامرة التي دبّرها كادودال : فاعدام دوق دانغان *Enghien* في ٢١ آذار واعدام كادودال ومعاونوه في ٢٤ حزيران ، كان من شأنه ان سرّ الخوف في قلب « حزب اليمين» . استعملت ضد الملكيـــة وضد اليعقوبية ، على السواء كل الوسائل الناجعة ، حتى الحلم منها . ان اعلان اقفال قوائم المهاجرين صدر اثر الانقلاب الذي وقع في آذار ١٨٠٠ ، والاستفتاء الذي جرى في ٦ فلوريال من العام العاشر مناقضاً نص الدستور الموضوع عـــام ٨ ، منح عفواً عاماً لم يستثن الا الزعمـــاء . وقد اجاز للاجئين العودة الى اوطانهـــم ، بعد ان الزموا بقسم الولاء للجمهورية .

وهكذا سعى النظام الجديد ليؤلّب كل فرنسا وقادتها ووجهائها حول النظام الذي انبثق من الثورة .

ثانياً ـــ القوى الموطّدة لسياسة البلاد العامة

فالجمهورية تبقى قائمة بصورة رسمية . ولا يزال هذا المسمى ينزل الرعب في اوروبا ويحول دون استتباب السلام في ربوعها . فالمادة الاولى من الدستور الذي صدر في العام الثامن تعلن عالياً : « الجمهورية الفرنسية واحدة هي لا انفصام لهـــا » . فبونابرت وزملاؤه هم « قناصل الجمهوريـــة » والمادة الاولى من الدستور المعلن في ٢٨ فلوريال عام ١٢ ، تدمج الامبراطورية بالجمهورية :

المادة الاولى ـ يتولى مقاليد حكومة الجمهورية امبراطور... المادة ٥٣ ـ وقد صيغ القسَم

الذي على الامبراطور ان يؤديه ، على هذا الشكل : « أقسم بأن احترم وأجعل الكل يحترمون المساواة في الحقوق والحرية السياسية والمدنية » .

نابوليون هـــو امبراطور الفرنسيين ، اقله في الايام الاولى « بمشيئة الله وارادة دستور الجمهورية » . فالثورة التي اعلنها نابوليون ترتكز على سيادة الشعب كما جرى التعبير عنها في استفتاء عام الشعب . هو « الشعب الفرنسي » الذي عيّن نابوليون بونابرت قنصلاً اولاً مدى الحياة » وهو الذي « يرغب » وفقاً لاحكام الدستور الصادر في عـــام ١٤ « في جعل المنصب الامبراطوري وراثياً في ذرية نابوليون » .

الاقتراع العـــام يقتصر على اقلية من دافعي الضرائب ، إستفتاءات

فالاقتراع العام الذي الغاه الدستور الصادر في العام الثالث ، أعيد العمل به اساساً من أسس النظام الجديد بعد أن جرى دمجه بنظام ضرائبي شديد الفعالية ، جرّد من كل قدرة على اتخاذ القرارات الا في ما له علاقة بالاستفتاء .

فالجان التي عهد اليها إعداد قوائم الوجهاء وفقاً لنص الدستور الصادر في العـــام الثامن ، تنبثق من الاقتراع العام. المواطنون من سكان الناحية ينتخبون المرشحين لادارة الشؤون العامة من بين لوائح الوجهاء في الناحية ، بنسبة عُشر عدد الناخبين في المقاطعة . ففي كل محافظـــة يؤلف مجموع أعيان الاقضية ، بالطريقة ذاتها ، قائمة خاصة بالمحافظة يُنتخب من بين الأسماء التي تضمها قائمة الموظفين ورجال الادارة في المحافظة ، وأعيان المحافظات ينتخبون هم أنفسهم عُشر الأعضاء الذين يؤلفون بهذه الصورة قائمة الأعيان الوطنيين الذين يتم من بينهـــم انتخاب كبار الموظفين وأعضاء المجالس الوطنية . واذ رأى الدستور ان هذه القوائم لا يتم وضعها لاول مرة الا في العام العاشر ، فكل موظفي العهد وكل أعضاء المجالس جرى تعيينهم ، خلال هذه الفترة ، دون العمل بالتمثيل من أسفل .

لم يعمل بهذا النظام ، والحق يقـــال الا لأمد قصير ، أي من شهر فنديمير الى شهر ترميدور من العام العاشر . فقد وضع الدستور الذي صدر ، في هذه السنة بالذات ، نظاماً آخر جاء فيه نظام الاقتراع العام اضعف قاعدة بمراحل . فالمرشحون للانتخابات لا يمكن اختيارهم إلا من أقلية ضئيلة من رجال المال . وعلى عكس النظام الانتخابي الواسع الموضوع عـــام ١٧٩١ ، والنظام الآخر الموضوع في العام الجمهوري الثالث الذي قـــام على قاعدة واسعة من دافعي الضرائب والذي جعل بضعة ملايين من المواطنين ، مها تباينت اوضاعهم المـالية ، واتجاهاتهم الفكرية مؤهلين للمشاركة في انتخـــاب مجالس المحافظات ، راح الدستور الذي صدر في السنة العاشرة يحصر المؤهلين لعضوية هذه المجالس ، في حيّز اجتماعي متجانس، ضيق جداً . فمجالس النواحي ، حيث الكل يقترع ، لا تستطيع انتخاب ممثلين لها في مجلس المحافظـــات الا من بين الـ ٦٠٠ الواردة اسماؤهم من قبل المحافظة . وبما ان مجلس المحافظـــات يتألف من ٢٠٠ – ٣٠٠

عضو، ظهرت لنا الحدود الضيقة التي يستطيع ناخبو الدرجة الاولى العمل ضمنها . فاذا ما تقيدنا بالاراضي الفرنسية ، كما كانت سنة ١٧٩٠ ، كان حق الانتخاب وقفاً على طبقة من الاغنياء لا يتجاوز عددهم ٥٠،٠٠٠ من الفرنسيين . وبالاضافة الى ذلك ، فالمنتخب يصبح عضواً في المجلس مدى الحياة . وكان باستطاعة الحكومة ان تضيف ٢٠ عضواً ، من اختيارهـا هي ، بعضهم يُختارون من بين الثلاثين ممن يدفعون من الضرائب في المحافظة اكثر من غيرهم . والملحق الدستوري الذي صدر عام ١٨١٥ حافظ على هذا النظام . وهذا المجلس لا يتمتع بغير حق الترشيح ، أي ان مهمته تعيين المرشحين فهو يسمي المرشحين للوظائف العامة لا سيما لوظيفة عضو مجلس الشيوخ وبالاشتراك مع الهيئات المعنية في النواحي ، هذه الهيئات التي تألفت بقطع النظر عن نسبة الضريبة التي يدفعها الاعضاء ، ينتخبون اعضاء المجلس التشريعي . غير ان الانتخاب لا يتم على ايديهم . فهو يأتي من فوق ، من القنصل الاول ، في الاصل ، أو من الامبراطور الذي يمثل وحده الشعب في هذا النظام .

وتحت مظهر الاستفتاء الشعبي الذي يتخذ شكل الاقتراع العام ، أولي القنصل الاول بموجب احكام الدستور ، سلطة واسعة جداً . فهو يعين ويعزل كما يشاء. فهو الذي يعين اصحاب المقامات والرتب الكبيرة في الامبراطورية و كبار القضاة من غير اعضاء مجلس التمييز دون أن يكون له الحق مع ذلك بعزلهم . فهو يقترح بحق اقتراع القوانين وينشرها بعد إقرارها ، كما انه يعين قسماً من اعضاء المجالس العليا .

النظام الدستوري والهيئات الاستشارية

في رأس هذا النظام نرى أول ما نرى ، اعضاء مجلس شورى الدولة . فالمادة ٥٢ من دستور العام الثامن هي التي نصت على انشاء هذه الهيئة التي تعمل تحت ادارة القناصل . يعدّ مجلس شورى الدولة مشاريع القوانين والانظمة الادارية التي تسير عليها الادارة العامة في البلاد، كما انه ينظر في القضايا الادارية ويقطع بها . كذلك يعين القناصل ، وبالفعل القنصل سييس نفسه ، الفريق الاول في اعضاء مجلس الشيوخ ، هذا المجلس الذي يرعى تطبيق الدستور ويحافظ عليه . ويعمد مجلس الشيوخ الى استكمال عدد اعضائه الجدد ، وذلك عن طريق انتخاب اعضاء المجلس انفسهم من تبقى من الاعضاء لتكتمل هيأته بكاملها ، بعد ان انحصر عددهم بـ ٩٠ شيخاً يُنتخبون مدى الحياة .إلا ان الدستور الذي صدر في العام العاشر فتح الطريق امام تدخل السلطة التنفيذية في تشكيل المجلس . فالشيوخ الذين يجب تعيينهم من الآن فصاعداً يجري انتخابهم من قبل المجلس ومن بين ثلاثة مرشحين يعينها القنصل الاول بالاعتماد على قوائم تقدمها المحافظات . وبالاضافة الى ذلك ، في مقدور القنصل الاول ان يعين ٥٤ عضواً جديداً من اعضاء مجلس الشيوخ دون أن يختارهم من القوائم المقدمة له من قبل . وهذا الامر بالذات يولي القنصل الاول قسماً من السلطة الدستورية، بعد ان اصبح من حق مجلس الشيوخ ،عن طريق قرار اتخذه (*Sénatus - consulte*) ان يفسر الدستور وان يكمله . وهكذا اصبحت هذه الهيئة العليا الى حد بعيد ، تحت قبضة

القنصل الاول . وهذا الامر يبرز اكثر وضوحاً في دستور عام ١٢ الذي خول الامبراطور نفسه تعيين اعضاء مجلس الشيوخ وجعل عددهم غير محدود .

وهذا المجلس نفسه يعين من بين المرشحين الذين يقدم الامبراطور اسماءهم ، اعضاء مجلس الـ *Tribunat* واعضاء المجلس التشريعي . تقوم صلاحية مجلس التريبونا هذا بمناقشة مشاريع القوانين التي يعدها مجلس شورى الدولة ويرفعها اليه ، ويتخذ بشأنها قرار تمنّي بالقبول او بالرفض . اما المجلس التشريعي ، فدوره دور هيئة الحلفين الذين يلزمون الصمت طوال المحاكمة . فيقترع مع المشروع او ضده بعد الاستماع الى مرافعات وخطب الدفاع التي يلقيها مجلس شورى القوانين ومجلس الـ *Tribunat* دون ان يشترك او ان يتدخل بصورة من الصور ، بالمناقشات الدائرة . ولما كان عمل الـ *Tribunat* يدعو ، اكثر من غيره ، التشوش ، فقد تم الغاؤه بناء على فتوى من مجلس الشيوخ ، بتاريخ ١٩ آب ١٨٠٧ . وبذلك أعيد النُطق او حرية الكلام والتعبير ، الى المجلس التشريعي .

وقد عرف نابوليون ان يضع في خدمة اغراضه بسهولة كلية ، هذه المجالس الصورية . فالنصوص القائمة والعرف المعمول به في البلاد ومقتضيات الامن العليا قضت تماماً على الروح البرلمانية الدستورية ، مع العلم ان الامبراطور وهذه الهيئات القائمة صدرت عن الثورة ، وذلك ليس لان القطيعة الصارخة مع النظام القديم قد جاءت كاملة ، بل لان التباين بين ذهنية البورجوازية النابوليونية وبين ذهنية المجلس التشريعي كانت اكبر في الظاهر منها بالواقع ، لا سيما اذا ما سلمنا جدلاً بان الاخيرة منها اصبحت بمنأى من ضغط الجماهير الشعبية وعما تبقى من الروح الحزبية الملكية . فالاغلبية الطبيعية في الجمعية التشريعية تألفت من القلب واليمين متحلقة حول مونييه وصحبه . فثورتهم المسالمة التي رمت التوفيق بما ضمنوها من حق انتخاب موقوف على اقلية من ارباب المال ، ومن مجلس شيوخ كثيراً ما تمنوا ان يكون وراثياً يعينه الملك والطبقة العامة ، وحق النقض المزدوج ، غير المحدود ، كل ذلك ينبع من مصدر الهام واحد مشترك مع الثورة الموحّدة التي وقعت في آخر المطاف ، في شخص هؤلاء تبنت الامبراطورية بلبها وانصارها . والجمعية التشريعية ذاتها كما ابرزتها الحوادث المتعاقبة تحررت الى حد بعيد من سلطة تنفيذية شديدة الشكيمة لاسباب عدة ، اهمها جميعاً انها كانت ملكيّة بعد ان طرحت سلطة تنفيذية ، ثورية او منبثقة عن الثورة ، القضية بشكل آخر . فالمؤسسات والنُظم النابوليونية التي كان في شبه المستحيل على رجال الاكثرية « الطبيعية » ان يفطنوا لها او ان يفكروا بها ، عام ١٧٨٩ ، اصبحت بعد ذلك بعشر سنوات ، أيسر اخذاً واسهل تبنياً بكثير ، من قبل هؤلاء الافراد انفسهم بعدما اعتراهم من هلع اجتماعي ، وتحت ضغط وتأثير شخصية قوية كنابوليون لا مثيل لها ولا كفاء ، بينما تستمر من جهة اخرى ، في اوروبا ، حرب لا هوادة فيها ، تهدد في الصميم ، النظام الجديد .

مهما يكن من الامر فالمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ ، انما كان في الحقيقة بمثابة تعبير

صريح واضح ، عن الحد الاخير لهذه التنازلات التي في مقدور النظام الجديد ان يقدمها الحركة التقدمية التحررية : مجلس للاعيان وراثي ، ومجلس تمثيلي ينتخب من بين ٥٠،٠٠٠ من اصحاب الغنى واليسار ، يمثلون رجال المال والاعمال والصناعة .

مصير الحريات الاساسية

كذلك زالت من الوجود الحريات العامة في البلاد . صحيح ان الامبراطور اقسم اليمين الدستورية التي نص عليها المرسوم الصادر في عام ١٢ ، هذا القسم المتعلق بالمحافظة على الحرية السياسية . فقد نصت المادة ٦٤ من الدستور المذكور على انشاء لجنة في مجلس الشيوخ تعنى بامور الحريات والصحافة . وقد نشرت الجريدة الرسمية المونيتور *Monitor* عام ١٨٠٦ ما يلي : ان هذه الحرية هي اولى الحريات التي حققها هذا العصر ويهم الامبراطور جداً ان تبقى مصونة ، محترمة . فليس من مراقبة معطلة . ظواهر غرارة : فالبوليس والعدلية والداخلية ، كلها تقوم بمراقبة الصحافة وتخضعها التفتيش ، فارغم الجانب الاكبر منها على التوقف عن الصدور . ففي يديها الموت والحياة . صحيح ان السلطات تظهر احياناً بمظهر التساهل امام التيارات الادبية والفلسفية التي تهب على البلاد . ولكن منذ عام ١٨١٠ اخذت مصلحة النشر والمطبوعات بفرض الرقابة على المطبوعات قبل ارسالها للطباعة ونشرها . فالعهد يريد التحكم بالافكار ، والتعليم الرسمي نفسه يساعد على هذا الامر هو ايضاً ، كما نتبين ذلك في كتاب التعليم المسيحي الذي صدر عام ١٨٠٦ والتعليم الجامعي ايضاً عام ١٨٠٨ . فالبوليس والداخلية والدوائر التابعة لها تراقب المسرح عن كثب . فبعد الرجوع الاول الى النظام الملكي ، نص الدستور على ان حرية الصحافة باستثناء حالات سوء الاستعمال ، هي جزء لا يتجزأ من « الحق العام الذي يتمتع به الفرنسيون » وحقبة المائة يوم ، تتميز هي الاخرى ، بحركة تحررية . والمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ يجعل حق الطباعة وحق النشر « بدون اي رقابة مسبقة » وبالفعل فقد اصبحت الصحافة حرة .

فالدساتير القنصلية والامبراطورية لا تشير بشيء الى حق الاجتماع . فالقضية هي من اختصاص الأمن ، تقطع بها الحكومة باصدار امر منع اذا كان ما يوجب المنع او ما يبرره . فالاحكام التمهيدية لقانون الجزاء الذي صدر في شباط عام ١٨١٠ تشير بصراحة الى ان الموضوع لم يسبب على الاطلاق لرجال القانون اي ارتباك ولم يثر عندهم اية صعوبة . فالقضية لم تعد فتح « هذه الاوكار المظلمة » التي أغلقت في ١٨ برومير . فمن الجهة الحقوقية النظرية : « ان حق الجماهير المطلق وغير المحدود بالاجتماع التداول في الامور السياسية والدينية وما شاكل يتعارض تماماً مع وضعنا السياسي الراهن » . ومع ذلك ، فالقضية ليست منع الاجتماع على اطلاقه ، او اجتماع بضعة اشخاص معاً حتى ولو كان القصد من اجتماعهم التعليق على اخبار الجرائد . فالترخيص الذي يرتبط برضى الحكومة ورغبتها ، لا يطلب الا عندما يتجاوز الاجتماع العشرين شخصاً .

وهكذا زالت من الوجود الحريات العامة التي نادت بها الجمعية التشريعية خلال الثورة ، هذه الحريات التي يحلو النظام الجديد ان يتغنى بها . فالثورة النابوليونية والحالة هذه، تتنكر للسّم النابوليوني ، ولكن ليس لروح ميثاق شهر برومير الذي صدقته واقرته عدة استفتاءات شعبية . فالصحافة الحرة عرف سوادها الاعظم كيف يمالىء الحركة ويماشيها مع الزمن ومن بعدها الرجعية الملكية .فالنوادي لم تلبث ان تطورت الى نوادٍ ثورية (يعقوبية) . وهذه الحريات التي بدت شيئاً لا يحتمل في نظر المتربع على العرش والتي لم ير معظم الاعيان الجدد ضرورة لها ظهرت لهم كأنها عوائق تحد من التوطيدات التي كانوا يرغبون في الاخذ بها ، او ذرائع بدائية اعتمدوها لتأمين فوز البورجوازية عندما اقرها العرف ورعاها القانون ، فلم يبق لها ، من بعد ، ضرورة البتة للعهد المكلف بتأمين الاستقرار وترسيخه في البلاد .

وبالمقابل ، فقد بقي قائماً ، مَرعي الجانب ، الحق الجديد المعترف به للحريات الفردية . فالاحكام العامة للدستور الصادر في العام الثامن ولقانون الجزاء منذ اول كانون الثاني ١٨١١ ، تقدس في كل ما يتعلق بالاتهام والتوقيف والسجن ، المبادىء التي بني عليها اعلان حقوق الانسان والتشريعات اللاحقة . فالاحكام التي تقضي بفرض جزاء حلت محل الاحكام التعسفية التي عُمل بها في الماضي ، بعد ان تركت للقاضي ضمن حدود النهايات الكبرى والصغرى ، حرية تقدير الاسباب وتقييمها . فالحاكم سعيداً لن يتورع قط ولن يخشى لومة لائم ، ولا شك ، اذا ما رأى من مصلحته ان يتعدى الشرعية التي أقامها ، وسيكون عنده سجناء دولة . وستساعده الاضطرابات الناشبة والحروب القائمة على اللجوء الى القضاء العسكري . وما عسانا ان نقول عن تعسف الدكتاتور ؟ فاجراءات العدل تضبطها مع ذلك هذه النصوص الجديدة ، في معظم الحالات العارضة .

كذلك قل عن حرية الضمير أو الاعتقاد التي تجد مكانها في سياسة التوطيد والتدعيم والترسيخ النابوليونية . فالكاثوليك والبروتستانت واليهود ينعمون جميعاً على السواء بـذات الحقوق المدنية والسياسية . فبالرغم من الجهود التي بذلها البابا بيوس السابع ، لم تؤمن المعاهدة المعقودة مع الكنيسة (كونكورداتو) عام ١٨٠١ ، ولا القانون الصادر في ١٨ جرمينال من العام العاشر الذي أقرها ، أي امتياز للديانة الكاثوليكية التي اعترف لها بكل بساطة ، بانها « ديانة غالبية المواطنين الفرنسيين » . وممارسة مراسم عبادة هذه الديانة تتم بكل حرية ، بالاتفاق مع الانظمة والاجراءات التي يضعها البوليس . ان قسس البروتستانت وكهنة الكاثوليك يتناولون على السواء مرتباً من الدولة ، وفقاً لمنطوق المواد الاساسية التي تتعلق بممارسة العبادة الدينية ، كما ان المرسوم الذي صدر في ١٧ اذار ١٨٠٨ نظّم العبادة الخاصة باليهود .

بقيت الكنيسة الكاثوليكية في المجتمع التقليدي القوة الكبرى التي تعمل في الحدود التي رسمتها لها الجمعية التأسيسية ، بالرغم من التنازلات التي قدمتها، لفترة طويلة، الادارة النابوليونية للاكليروس الكاثوليكي. فقد احتفظ القانون النابوليوني بعلمانية الأحوال الشخصية في البلاد وبالطابع المدني المجرد للزواج والطلاق – بعد ان حُددت بوضوح ، الظروف والحالات التي يصح فيها الطلاق – فأبْطِل الأخذ بعدم تمازج الاخلاق والطباع ، كما ان الاحتجاج بالتراضي المتبادل ، يسقط بعد مرور عشرين سنة من الحياة الزوجية المشتركة ، أو عندما تكون الزوجة تجاوز سنها الـ ٤٥ سنة . وقد حافظت الكنيسة في قضية التربية والتعلم على مواقفها القوية . غير ان الجامعة اخذت تنزع ، في اثر الاصلاح الذي وقع عام ١٨١١ ، على تجريدها من التعلم الثانوي واصبحت بالتالي خطراً يتهدد مستقبل الكنيسة. فاذا لم يتناول الامر بعد،الرجوع الى خطط المساعدات الواسعة التي وضعتها الجمعية التأسيسية . فالروح العلمانية بقيت مع ذلك معمولاً بها ومسيطرة على الاوضاع ، بالرغم من الاستعانة براهبات المحبة، في العام التاسع من التقويم الجمهوري، للعمل في المستشفيات. فقد بقيت املاك الكنيسة مصادرة وقد اعترف قداسة البابا عالياً في المعاهدة المعقودة مع فرنسا ان الاملاك الكنسية التي صارت الى حيازة مالكيها تبقى غير قابلة للتصرف ، كما أجيز باقامة وقوفات جديدة . وقد ألغت المعاهدة المذكورة الدستور المدني القديم للاكليروس وقانون فصل الكنيسة عن الدولة . فالحكومة تعين الاساقفة والبابا يوليهم الولاية ويتولى سيامتهم كما ان الدولة تؤمن لهم مرتبات سنوية كافية . قد اندمجت الكنيسة في العهد الجديد بمثل ما اندمجت مع العهد القديم . فعلى الاساقفة ان يقسموا يمين الولاء للجمهورية اسوة بما كانوا يؤدونه من ولاء سابق للملك ، فيتعهدون بألا يشتركوا في أي مسعى أو عمل ضد الحكومة ، وبان يخبروا عن كل مؤامرة أو دسيسة ضد النظام القائم يبلغهم خبره وعلى الكهنة ان يحتذوا حذوهم في هذا الصدد. ومن جهة اخرى فالمواد الدستورية التي وضعها نابوليون من جهته زادت من احكام قبضة الدولة على الكنيسة . فعلى اساتذة ومعلمي الاكليريكيات الدينية ان يتبنوا المبادىء التي نادت بها الكنيسة الغاليكانية المعلنة عام ١٦٨٢ ، كما ان البراءات البابوية وتنفيذها ، وتنفيذ قرارات المجامع الكنسية يجب ان يخضع مسبقاً لموافقة الحكومة . فكل مجمع كنسي وطني أو اقليمي يجب ان ينال ترخيصاً مسبقاً من الحكومة. كذلك لا يحق لأي فرد يحمل لقب سفير أو مندوب بابوي او اي لقب بابوي آخر ان يمارس أية خدمة او وظيفة خاصة بأمور الكنيسة الغاليكانية بدون ترخيص سابق من الحكومة . ويترتب على رجال الاكليروس القيام باعمال المراسم العامة التي تأمر السلطات القيام بها حتى ولو ادى الامر الى اعتقال البابا وسجنه ، كما حدث عام ١٨٠٩ . وستحرص هذه السلطات ، بالطبع على توضيح وتحديد الفوارق الطفيفة . كذلك يترتب على الاساقفة تقديم الشكر على الانتصارات التي سجلتها جيوش الامبراطور في «وغرام» – حتى في اثناء توقيف البابا – وعلى فوزه العظيم على نهر الموسكوفا مشيدين عالياً بهذه الانتصارات الباهرة . وهكذا أعيد العمل من جديد بتقاليد الاستقلال القديمة التي طالما طالب

الملوك باحترامها والتقيد بها ، ولكن لصالح الثورة الثورية هذه المرة ، كما كان في عهد الجمعية التشريعية ، بعد ان اصبح الاكليروس ، شاء ام أبى ، مساعداً لها وسائراً في ركابها . ولم يحُل هذا التدبير دون ان يتبنى بعض رجال الاكليروس ، شيئاً فشيئاً ، ولا سيما بعد ١٨١٠ – ١٨١١ ، موقفاً معارضاً .

سلطة الاعيان والبورجوازية النبيلة

بعد كل هذا ، وبعدما تمّ من تبدل وتغيير ، بقي قائماً راسخاً في الارض ، هذا المجتمع اللاطبقي والانتصار العظيم الذي حققه مثلاً بهذه المساواة امام القانون التي طالما نادوا بها واتوا على ذكرها والتغنّي بها منذ عام ١٧٨٩ . فالقَسَم الامبراطوري الذي على الامبراطور ان يؤديه طالما نوّه بذلك صراحة . فالقانون المدني الذي فُرغ من وضعه في شهر فنتوز من العام ١٢ ، أقام على نتائج مبدأ المساواة هذا ، نظاماً منهجياً . كل المواطنين سواء امام القانون . وكذلك املاكهم ايضاً : فلم يعد هنالك عقارات نبيلة وعقارات فلاحين . فالدستور المعلن عام ١٢ ، يحظر ، من جهة اخرى ، كما سنرى بعد قليل ، كل محاولة للعودة الى النظام الاقطاعي البائد . فالارض ، أياً كان نوعها ، تأخذ تعريفها الصريح الحر ، تحت اسم مشترك ، هو الاملاك العقارية التي تؤلف فئة واحدة . ومبدأ المساواة في الإرث ، هذا المبدأ الذي قام على المادة ٧٤٥ من القانون المذكور ، جاء وضعه يكمّل النظام . فلم يَعُد من أثر ، في القانون الجديد لهذه الفوارق الاجتماعية القديمة . الا ان الثورة النابوليونية اوجدت نوعاً من التفريق او التمييز يخلقها الطبقة المنتصرة . فوسام الشرف *Légion d'honneur* الذي أنشىء في العام العاشر والذي تم الاحتفاظ به في الدستور المعلن في العام ١٢ والذي فرض على حامليه قَسَم الولاء للثورة اي بالدفاع عن قوانين الجمهورية وعن الممتلكات التي كرس ملكيتها والذي يتعهد بمحاربة كل محاولة يقصد منها العودة للنظام الاقطاعي ، والسهر على تطبيق المساواة والحرية ، هذا الوسام سيصبح العلامة الفارقة والشارة المميزة « لفرسان » الرتبة الجديدة . كل هذا شيء بسيط . وقد قام في العام العاشر الى سنة ١٨٠٨ ، اوستوقراطية ظاهرة ، مفتوحة ، هي طبقة من النوابغ والمبدعين ، هي حلية البورجوازي الاولى . في مقدمة هذه الطبقة افراد الاسرة الامبراطورية المالكة ، الذين جعل منهم الدستور الذي صدر في العام ١٢ : امراء فرنسيين . وها نحن امام اصحاب المراتب الكبرى في الامبراطورية الذين يُضفي عليهم الدستور القابا طنّانة هي من مخلفات الاجيال الوسطى او العهد القديم بعد ان جُدد من شبابها ونشاطها وصُقلت من جديد . من ذلك مثلاً : المنتخب الاعظم *Le Grand Electeur* (لقب جوزف بونابرت) ورئيس مستشاري الامبراطور (كمباسارس) ورئيس مستشاري الدولة (اوجين بوهارنيه) ، والخازن الاكبر (لوبران) والكونتابل (لويس بونابرت) والاميرال الاكبر (مورات) . ويليهم مرتبة كبار الضباط : المارشالية وكبار الموظفين المدنيين لدى البلاط . فتاليران يصبح الحاجب الاكبر ، وبرتيه : رئيس البيّزرة (*Le grand veneur*) . وما زلنا بعد في اول الطريق .

وستزداد حركة الترقيع البورجوازي وتتضخم مع المرسوم الصادر في غرة آذار ١٨٠٨ ، الذي انشأ مرتبة نبلاء البلاط ، وحملة هـذه المراتب واصحابها ينعمون بها مدى الحياة ويمكن لهم توريثها لاولادهم. فأصحاب المقامات الكبرى يحملون: هذا لقب امير وذاك، لقب صاحب الجلالة، وذلك عطوفة، فابنهم البكر يحمل لقب دوق، شريطة ان يكون الوالد قـد ترك لابنه مبرة مدخولها ٢٠٠،٠٠٠ ليرة في السنة. وهنالك عدد من الوزراء واعضاء مجلس الشيوخ ومستشارو دولة مدى الحياة ، كما ان هنالك اساقفة ورؤساء يحملون لقب كونت . فكبـار القضاة والاساقفة يصبحون بارونات ، ومثل هذه الالقاب يمكن اعطاؤها للقواد وللحكام في المحافظات كما يمكن اعطاؤها ايضاً للمواطنين العاديين اذا مـا قيض لهم وأدّوا خدمة كبرى للبلاد ، مكافأة لهم لما أتوا من جليل الاعمال. ويحق لهؤلاء النبلاء الجدد استخدام علائم الشرف والنبل . ومرتبة الشرف التي عرفوا بها مدى الحياة ، يمكن توريثها لخلفائهم من بعدهم اذا ما أنشئت لهم مبرّة تتباين قدراً وقيمة بتباين الرتبة الـتي يحملونها . فاللقب والاملاك المرتبطة بالمبرة يمكن توريثها للابن البكر في بعض الحالات المعينة ، وهو تدبير يرتبط بمشيئة الامبراطور وترخيصه وفقاً لأحكام المرسوم الصادر في اول آذار ١٨٠٨ . وبعض هذه المواريث ستتعدى الحق العام. وهكذا نشأت في البلاد طبقة نبلاء جديدة ، على اسس بورجوازية تقوم على المنافسة والمزاحمة الشريفة المبنية على العمل والاقدام والمهارة التقنية – والطاعـة ، هي ارستوقراطية وراثية مفتوحة . ولكن دون ان تتمتع بأية اعفاءات أو اية امتيازات ، ارستوقراطية ستحافظ عليها معاهدة عام ١٨١٤ .

وبختصر القول ، فالمجتمع المدني الذي قام ١٧٩١ ، لا يزال قائماً . كذلك بقي معمولاً بهـا الادارة البورجوازية للمجتمع الجديد ، وعن طريق تقنية الانتخابات ، عرفت البورجوازية ان تستأثر بكل السلطات ، كما عرفت ان تحافظ عليها بواسطة التعيين، وهي وسيلة عرفت حكومة مركزية ثورية ان تستغلها على الوجه الامثل . ان سياسة كسب الانصار من جهـة ، والميل الى الاكثار من حديثي النعمة ، هذا الميل الذي شاع بين الاسر القديمة ، من جهة اخرى، عبثاً جعل لافراد العهد القديم ، في الادارة شأناً اخذ دوماً بالازدياد ، وادخل الى قلب مجلس شورى الدولة أعضاء من بين قدامى اللاجئين الذين حملوا السلاح ضد وطنهم فرنسا، امثال السادة ولاس كاس، وجلبرت دي فوازن ، أو قرّب الى الحكام الرؤساء السابقين لجنة العفو والاسترحام ، أو عيّن في القضاء ممثلين قدامى للنيابة العامة ، أو وزع مطرانيات على اساقفـة من العصاة المنشقين . فمجلس شورى الدولة بقي مع ذلك ، الثورة الدستورية ، الحصن الحريز الذي لم يمكن اقتحامه، هذا الحصن الذي دافع عن الفتوحات الاجتماعية التي حققتها هذه الثورة ، وقـام حول النظام الجديد بحراسة شديدة ، مبعداً عنه اليعقوبيين والملكيين الذي بقوا مصرين على نشوزهم . ان رجال عام ١٧٨٩ ، اعتنقوا الحركة بعد ان تخلقوا باخلاق العصر ، حتى رجال العام الثاني منهم الذين عادوا الى روح ١٧٨٩ ، بينهـم مثلا رودير ورينيو دي سان جان دانجلي، ومولاي دي

لامورت وديفرمون، وشبتال وبرون وثيبودو وتريهارد. وفي عام ١٨٠٦، عاد فدخل الحظيرة، مرلين، واضع القانون الخاص بالمشبوهين، وفي سنة ١٨١٠، المشارك بقتل الملك كينيت (وغيرهم كثيرون). فمن اصل ١١٢ مستشاراً عملوا اعضاء في مجلس شورى الدولة، في الفترة الواقعة بين العام الثامن وعام ١٨١٤، كان ثلثهم اعضاء في المجالس والهيئات الثورية. ومعظم كبار الوزراء، هم من المنشأ ذاته او تعاونوا، على الاقل، مع الحكومات الثورية: بينهم كمباسيرس وتاليران وفوشيه ولوبران وشبتال وكارنو. وقد ضم اول فوج من المحافظين ١٣ محافظاً كانوا اعضاء في الجمعية التأسيسية، و١٦ في المجلس التشريعي، و١٩ في الكونفسيون، و٥ في مجلس القدامى، و ٢١ في مجلس الخمسمائة. فـ «درويه» اليعقوبي ومن اشد انصار بابوف يعين وكيل محافظ في سانت مانهولد. فاذا ما خطر لدرويه او لغيره من هؤلاء الناس ان يلعب لعبة اليعقوبين، او ان يجتمع خلال تمرسه بالوظيفة باي عدد من المرتدين، كبر او صغر، او باي من هؤلاء الرجال الذين لا ماضي لهم، فمثل هذا التصرف او المسلك لا يؤثر بشيء في جوهر الادارة الجديدة واتجاهها. فقد حل محل ادارة العهد القديم، هيأة سياسية جديدة. والهيئة القضائية، تجدد القسم الاكبر منها، واكثر من ذلك الجيش ايضاً. فالاسقفية، كالمارشالية اصبحت وظيفة بورجوازية. لم تكن الاسقفية لتعد، في اعقاب المعاهدة المعقودة بين الدولة والكنيسة، سوى ١٦ اسقفاً من كانوا قبل ١٧٨٩. ان اعيان الطبقة الجديدة الموجهة قوي جانبهم اكثر فاكثر، في الأطر والملاكات العليا. فالبورجوازية هي التي تحكم بما تم لها من أطر وملاكات. فهي تحكم بواسطة القنصل الاول او الامبراطور. فالتجربة وحالة الحرب على جبهتين استبدلت سيطرتها بسيطرة مركزية، مباشرة، بسيطة، منتدبة، شخصية. فالذرائع تبدلت انما الهدف الاجتماعي بقي وحده قائماً.

ثالثاً — التدعيم الاقتصادي

لم يترك التدعيم الاقتصادي اي مجال للشك من هذا القبيل. فقد ثبّت الدستور الصادر في العام الثامن من التقويم الثوري، المتملكين للعقارات الوطنية، في املاكهم وممتلكاتهم الجديدة. كما ان القسم الامبراطوري، عام ١٢، اعلنها عالياً وبصورة مطلقة عدم الرجوع عن هذه البيوع اصلاً. ومجلس شورى القوانين اخذ يسهر من جهته على تطبيق الشرائع، ولا سيما في كل ما هو مضاد لسلطة الاسياد، وتطبيق قانون ١٧ تموز ١٧٩٣ تطبيقاً دقيقاً. وقد أكد انه يقف ضد الايجارات الدائمة. فالرسوم السيادية والاعشار التي ألغيت دونما اي تعويض ستبقى ملغاة الى الأبد، بالرغم من المداورات والذرائع غير القانونية التي يلجأ اليها بعض عاقدي هذه الايجارات، وبالرغم من ارتفاع سعر الايجار، بالنسبة للاسعار منذ الرجوع الى العملة الثابتة. فهو يصادر من جهة ثانية، لحساب البورجوازية، القسم الاكبر من المنافع التي ادت اليها العملة الثابتة. ان عملية انتقال الاملاك وإلغاء الرسوم اجرت تبدلاً كبيراً لا يقل بشيء عن ٢٠٪ من ايراد الاملاك

العقارية الوطنية ، مما عاد على البورجوازية هنا بالقسم الاكبر من الارباح ، مع العلم ان عدداً كبيراً من الفلاحين افاد هو الآخر من هذه الزيادة .

تدابير تتناول حرية التصرف

هنالك على العموم تعديلات هامة مصدرها هذه الروح البورجوازية التي تطبع القرن التاسع عشر وتميزه بعيدةً عن ضغط شعبي ، توطيداً التدعيات التي جرت في مجالي حرية التصرف وحرية المرور والانتقال. فقد استمر إلغاء النقابات الحرفية كما ان مجلس شورى القوانين بقي متصلباً في موقفه من هذه القضية. الا انه ظهر في دنيا الاعمال شركات تحمل طابع الاحتكار . فقد صدر في ٢٨ نيفوز من العام الثامن قرار يقضي بانشاء مصرف فرنسا ، اتخذ مقراً له رئيسياً دير الاوراتوار الوطني ، واعطي بموجب القرار الصادر في ٢٤ جرمينال من العام ١٢ الامتياز ، دون سواه ، باصدار سندات لحامله وسندات عند النظر . كذلك عادت الى الظهور ، ابتداءً من العام ٨ ، شركات قانونية ، وصدرت في البلاد قوانين جديدة بشأن المناجم واستثمارها جاء صدورها يقطع قطعاً باتاً لصالحها قضية استثمار المناجم ، هذه القضية القديمة التي كانت بين الشركات وبين الفلاحين اصحاب الاملاك . فقد نزع القانون الصادر عام ١٨١٠ ، عن مالك سطح الارض الافضلية التي اعترف له بها قانون عام ١٧٩١ باستثمار المناجم الواقعة في بطن الارض ، مفضلاً عليه الشركات الاستثمارية ، واخضع القانون العام استثمار المناجم المفتوحة ، ولم يعين اي حدود كما لم يحدد اي اجل لهذه الاستثمارات . وهكذا اصبح المنجم ملكاً مستمراً قابل الانتقال ، وان بقي عملياً محتفظاً به للمشاريع الاستثمارية الكبرى . وقد أحتفظ بالقانون الزراعي الصادر عام ١٧٩١ ، غير ان مشروع الاصلاح الزراعي عام ١٨٠٨ كان يرمي لان يضع باسرع ما يمكن، حداً نهائياً لحق المرور وحق الرعي في المراعي المشاعية ، بينما تبنّى مشروع قانون ١٨١٤ ، موقفاً وسطاً قريباً جداً بالفعل من الموقف الذي وقفته الجمعية الدستورية وقد تصلبت الدولة في موقفها عند مواجهتها لقضية اصحاب الاجور . فعقد العمل يعالجه القانون المدني في الفصل الخامس الخاص بالاستكراء ، اذ انه يميز بين استكراء الاشياء واستئجار الماشية ، ويخصص له مادتين ، منها المادة ١٧٨٠ التي تعترف ، كما يعترف القانون القديم ، بان صاحب العمل هو حري بالتصديق عند نشوب اختلاف بينه وبين الأخير حول معدل الاجر و كيفية الدفع ، وهو معدل حدد ٦٦ لاستئجار الاشياء و ٣٢ لاستثمار الماشية ، وما تبقى يعود امره في النهاية لاجراءات بوليسية ولقانون الجزاء الذي امتنع المشترع الثوري ، حتى الآن ، عن الخوض بشأنه . فقد نص قانون ٢٢ جرمينال من العام ١١ ، وقانون ٩ فريمير من العام ١٢ : على ان يوضع دفتر العمل الذي يرقمه مأمور البوليس ، اسم العامل ومهنته واسم رب العمل وصفته ، وتاريخ انتهاء عقد العمل . وباستطاعة صاحب العمل ان يحتفظ بدفاتر العمل طوال مدة العقد ، كما يجب ان يشير الى المكان الذي يتجه اليه العامل عند انتهائه من العمل . فبدون تذكرة عمل لا يمكن تشغيله ، والا اعتبره القانون متشرداً . وقد احتُفظ بقانون لاشابليه ، بعد ان

جرت تقوية نصوصه بقانون ٢٢ جرمينال ، ولا سيا بالمادتين ٤١٤ ، و٤١٦ من قانون الجزاء اللتين تشددان على النصوص السابقة . وامام الحظر المتساوي لاتحاد العمال ولاتحاد ارباب العمل، قام نظام من الحظر غير المتساوي يختلف ولا شك عن النظام الذي كان قائماً قبل الثورة ، مما ينم عن عقلية متقاربة امام مشاكل العمل والعمال . ان اتحاد العمال كاتحاد ارباب المهن ، يقع تحت طائلة القانون انما الاتهام والقمع هما اقل قوة . هنالك عدم تساوٍ في الاتهام . فاتحاد اصحاب العمل لا يتعرض للجزاء «الا اذا رمى الى تخفيض الاجور بصورة تعسفية وغير عادلة». واذا تدخل اتحاد العمال بغية رفع الاجور او بغية ادخال تعديلات على شروط العمل ، فمثل هذا التصرف قابل للجزاء والعقوبة في كلا الحالتين . ففي عدم تساوٍ في المنع ، يتعرض رب العمل للسجن من ٦ ايام الى شهر ، ولجزاء نقدي من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك . اما العامل فيتعرض لعقوبة سجن من ٥ سنوات مع استهدافه للبقاء تحت المراقبة من قبل دوائر البوليس العليا . ونرى في الواقع ان التساهل والقانون احياناً يحمي بعض النقابات المهنية : امثال غرفة البناء الاتحادية التي يحول اليها القضاة احياناً قضايا لحكم الفصل فيها، ولا سيا غرف التجارة التي عادت للظهور والعمل بها وفقاً لقانون ٣ نيفوز من العام ١١ .

حرية الانتقال والرسوم المشتركة

حرية الانتقال بقيت هي القاعدة ، أقله في الداخل ، شريطة الا تلحق اي اذى بنظام اميري جديد اعتمد اكثر فاكثر ، على ضريبة تصاعدية للاستهلاك . فقد اعاد القانون الصادر ، عام ٧ ، بعض الرسوم الخاصة بالدخولية ، وعرف هذا الرسم ازدهاراً جديداً في اعقاب ظهور القنصلية . والرسوم المشتركة التي فرضت عام ١٨٠٥ تناولت التبغ المستورد وورق اللعب والعربات ولا سيا المشروبات الكحولية التي فرض عليها القانون الصادر ، عام ١٨٠٦ رسماً عندما يجري بيعها بالجملة . والقانون ذاته فرض رسماً على الملح لدى خروجه من الملاحات . وطبيعة نظام الضريبة تختلف كلياً عن الرسم المفروض من قبل على الملح الذي جاء أخفّ بكثير . والضريبة على التبغ التي لم يكن ليشعر احد بها لخفتها في السنين الاولى من عهد القنصلية، انتهت بنظام الحكر على التبغ، وهو نظام عُمِل به منذ عام ١٨١١ .

وبالرغم مما اتصف به نظام التبادل التجاري في الداخل ، من حرية اساسية ، فقد حرصت الحكومة هنا ، اكثر مما فعلته الحكومات في العهد القديم والجمعية التأسيسية ، كل الحرص ، على تأمين المواد الغذائية . فقد نظمت من العام ٨ الى العام ١١ ، مهنتي الخبازين والقصّابين او الجزارين . وعملاً بمنطوق المرسوم الصادر ، في ١٩-٢١ حزيران عام ١٧٩١ ، أعيد العمل برسم طفيف على الخبز وعلى اللحم ، في عدد كبير من المدن ، على اساس السعر الحر للحبوب والماشية . الا ان سعر الجملة بقي مراقباً ثم فُرض عليه رسم عندما سجّل ارتفاع الحبوب ، رقماً قياسياً ، عام ١٨١٢ ، وذلك بالاعتماد على سياسة تقوم على الشراء والخزن ، والاحصاء والمصادرة ، والمنع ، تكللت في اواخر السنة بحد اقصى موقت . وتصدير الحبوب الذي حُظر

منذ عام ١٧٨٨ ، بقي معمولاً به مبدئياً خلال العهد النابوليوني . فالحرب والحصار البحري المضروب على البلاد خلخل التجارة الخارجية ، وهو امر لم تنزع له قط سياسة الحماية التي اخذ بها العهد الامبراطوري . فقد ارتفعت على العموم ، مع ذلك ، ارقام التجارة الدولية ، وكذلك ارقام التجارة الداخلية. وتحت تأثير ارتفاع سعر الذهب ظهر من جديد الازدهار المادي الذي ميز القرن الثامن عشر ، وبقي قائماً الى ان برزت الازمة الاقتصادية الكبرى ، عام ١٨١٠–١٨١٢، وحتى بعد ذلك ، بصورة متقطعة .

النتائج

ان الاماني السياسية والاقتصادية التي اعربت عنها الامة ، عام ١٧٨٩ ، تحققت جزئياً . فالثورة النابوليونية كانت عدوة الثورة الدستورية ، لا نسخة حرفية لها . فقد عملت ، شأنها شأن افلاس سببه سوء الادارة ، على تضييقها وعلى تدعيمها ، في وقت واحد .

فهي ثورة شخصية ، مخطط لها ، تحمل طابع رجل يفتقر اساساً القياس ، وطابع طاغية يحكم بانتصاراته المدوخة ويلقي جانباً ، عند أول صعوبة يصادفها ، بكل العهود المقطوعة ، انما هو طاغية متدرب من نوع معين يؤلف طبقة لوحده ، ويمثل الثورة التي قام بها . وهذه الثورة التي فُصلت على قدّه والتي قضت بها ضرورات الصراع أصبحت ثورة تجربة واختبار ، وليس ثورة فكرية او نظرية ، يمكن تعريفها بالشعار التالي : مساواة ، سلطة وتقنية . والروح التي انطلقت في البلاد ، عام ١٧٨٩ ، انقطع هبوبها ، والحركة الدائمة حل محلها الخمود والجمود . والجبهة التي راحت الثورة النابوليونية تناضل دونها ، جاءت نتيجة حركة ارتداد أكثر منها حركة انطلاق .

وامام النظام القديم صمد الامبراطور بواسطة الارادة الوطنية ، في كل المواقع الستراتيجية الكبرى . فقد تخلى طوعاً واختياراً عن البعض . فالخط الذي وقف عنده ، يرسم شكلا يثير الدهش . فقد عرف ان يحتفظ حتى النهاية ، بما قصد المحافظة عليه بكل عناد ، هذا الشيء الذي كان لا يزال بعد ، جرثومة في القرن الثامن عشر . فالمنظمة القيّمة التي اطلقتها الثورة البورجوازية ، تحمل طابع عدة عهود . فقد ولدت في الثورة ولكن ليس في الثورة وحدها . فقد نموها قبل ذلك بكثير ، وتحققت اثناء الثورة ، وجرى تدعيمها فيما بعد خلال هذا العهد الطويل من التجربة التي تمتد من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٥ .

في سلسلة الثورات المترابطة الحلقات هذه التي لا توجهها اية قوة منظمة مستقرة، من طرف الى طرف آخر ، في هذا العالم العَفوي الذي قام على التوازنات المتعاقبة ، فالتاريخ يحافظ ، كما يظهر لنا ، على وعوده : فالصحيح يختلط على اقدار وانساب بالمرجّح وبالمتوقع.

العالم أمام الثورة الفرنسية والفتوحات النابليونية

الفصل الأول

العالم في سنة ١٧٨٩

رئاسة أوروبا الأطلسية

في أعقاب حرب الاستقلال الاميركية انحصر مجال النشاط الزاخر في العالم ، هذا النشاط الذي يصنع التاريخ ، في أوروبا. فلم يكن عـــدد سكان الولايات المتحدة ليتجاوز ، اذ ذاك ، أربعة ملايين نسمة بينما لم يكن عدد سكان مدينة فيلادلفيا وهي أكبر مدنها آنئذ واعمرهـــا ليتجاوز ٤٥٠٠٠ نسمة . والنشاط الاوروبي ، انحصر اساساً في مناطق اوروبا الغربية والوسطى حيث كان يقطن ثلاثة أرباع سكان القـــارة تقريباً، مع العلم ان لا حدود « القلب » الاوروبي ولا حدود المجال الشرقي منها، واضحة جلية ، ناهيك عن صعوبة المواصلات وقلة وسائلها التي كانت تضاعف من المساحات الفاصلة ، اذ كان يقتضي ثلاثة أسابيع لرسالة ترسل من فرنسا الى بولونيا . وكان أكثر الصحف انتشاراً اذ ذاك « كالمركور دي فرانس » و « الانباء الوطنية والادبية » التي كان يصدرهـــا كادا ، لم تكن تنشر من الانباء وأخبار الاحداث ما يتعدى مداه مدينتي درسد وفيينا . وبالرغم من اتصالات فولتير وديدرو وغيرهم ، كانت روسيا القيصرية ، في عهد الامبراطورة كاترين الثانية ، تمثل في نظر الرأي العام « بلاد البرابرة » . فالأنباء الأجنبية التي كانت الصحافة تذيعهـا عن الخارج تكاد لا تأتي على ذكرها الا لِماماً . وهذه المناطق ، لم يكن مجموع سكانها ليتجاوز ٣٠ مليونـاً أي بزيادة بضع ملايين لا غير عن سكان فرنسا.

فحدود اوروبا الناشطة كانت تقف ، في الشرق ، عند مقاطعتي الـاكس والنمسا . فالغرب أفقه، لا يمتد نظره الى أبعد من ذلك، بينما يتطلع الشرق الى هذا الغرب المثـــالي أي الى اوروبا

البحرية التي تطل على المحيط الاطلسي حيث يكتظ الناس ويحرصون على جمع المال والثروات . فالمقاطعات المتحدة والبلاد الواطية النمساوية ، تعد من ٤ – ٥ ملايين نسمة ، وانكلترا ١٥ مليوناً ، منهم ٥ ملايين في ايرلندا ، وفرنسا تعد من ٢٦ – ٢٧ مليوناً ، ويقرب عدد السكان في اسبانيا من عشرة ملايين ، بقطع النظر عن امبراطورية ضخمة من المستعمرات تترامى أطرافها بين سان فرنسيسكو شمالاً وبين مقاطعة بتغونيا في اقصى الارجنتين، جنوباً، والبرتقال نفسه لا يعد أكثر من ثلاثة ملايين بينما هو يسيطر على البرازيل . فالولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا تسيطر بمستعمراتها او بالاقطار المتجرة معها على ما تبقى من أقطار العالم . فكل ما يقع في المجال الاطلسي هذا لا يلبث ان يأخذ طابعاً عالمياً .

هذا الطابع يبدو قبل كل شيء اوروبياً ، ليس لأن الغرب الاوروبي هو قبلة الأنظار بل لما عليه هذه القارة الاوروبية من وحدة التركيب السياسي والاجتماعي، لا تند عنه حتى انكلترا الا لحد ما ، كما لبينا ذلك مما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب . فكل ما زحزح هذا التركيب او أدخل عليه ما يشوشه أو أحدث فيه رجة ما تردد صداه في الاجزاء الاخرى.

١ – المباني الرئيسية

ان المدى الاقتصادي الطويل الذي عاد على فرنسا بالغنى والثروة ، خلال القرن الثامن عشر عمل على إغناء اوروبا ايضاً . فقد توزعت هذه الثروة في كل من فرنسا وبلدان أوروبا توزيعاً واسعاً مما أدّى الى تغييرات وتطورات عظيمة ، مادية وروحية معاً . وقد حدثت هذه التغييرات بالرغم من استمرار الأنظمة القضائية القديمة .

وبالرغم من الاصلاحات التي تمت في ظل الاستبدادية المستنيرة ، فالنظام السياسي التقليدي عرف ان يحافظ على الطابع الذي يميزه، فهو نظام ارستوقراطي دعامته الاولى الطغيان المستبد وعدم المساواة في كل ما يتصل بالامور المدنية . وهذا الطابع التقليدي القديم يبدو على أبرز صوره في هذه المقاطعات الواقعة الى الشرق من نهر الإيلب . وقد جرى صورياً تكييفه في بعض البلدان المطلة على المحيط الاطلسي بينما يحاذر القلب الاوروبي كل تغيير ويجانب أي تطور . وتحت ستار من التنويع الظاهر بقيت النظم الملكية والاقطاعية قائمة في كل مكان ، ان لم نقل اشتدت اواصرها متانة بعض الاحيان .

الاستبداد والارستوقراطية الاقطاعية

لم يلبث مفهوم الدولة النظام الملكي كما حدده بوسويه ان حلّ محل السلطة الاقطاعية. فالحق الالهي لا يطبق الا على الدولة في ما استقر من مفهومها : كل الملوك يملكون باسم الله العلي العظيم ، أي هؤلاء الذين يؤول اليهم الملك بالولادة أو حصلوا عليه بالانتخاب ، لأن كل موهبة صالحة تنحدر من لدنه وهو الذي « ينير كل بجلس ». فيبدو الملك ، والحالة هذه ، مستودع السلطة الإلهية .

فقراراته كلها معصومة عن الغلط وفي الملك تتمثل الدولة وتنصهر . فمهما حاول الاستبداد المستنير ان يحمل هذه السلطة في خدمة المصلحة العامة او ان يسخرها لتحقيق نظرية نفعية ، فلن يغير هذا شيئاً من منطلقها الأصلي ، كما انه لا يمس بشيء شمول هذه السلطة . فلها وحدها حق التشريع والادارة في البلاد . لمن آزرها أو عمل في خدمتها فقد قام بما انتدبته له . قد يفتقر الملك لشخصية لامعة : فلن ينتقص هذا بشيء من جوهر الملك ومن النظم الملكية ولن يلحق بها أي وهن أو أي ضعف . ففي سنة ١٧٨٩ ، كان يتربع في دست الحكم ، في كل من الدانمارك والبرتغال وانكلترا وبروسيا ملوك أدنى من المستوى العادي . والثالوث الذي تألف من شارل الرابع وماري لويز دي بارما وغودوى هو مضغة تلوكها بلاطات أوروبا وتحدث بها . الا ان الروابط السلالية بقيت متينة شديدة كما بقي قوياً الاحترام للسلطة الملكية .

ومع ان الارستوقراطية تقف في وجه الملكية في كل من السويد وهنغاريا وأوروبا العثمانية ، ومع انها هي التي تستبد ببولونيا ، فهي تستخدم الاساليب ذاتها التي تستخدمها الملكية ، وترمي الى تحقيق الاهداف نفسها . فأصحاب السلطات من العلمانيين والاكليريكيين يحتفظون بجانب كبير من الحكم مثلاً بمرافق الادارة والسلطة البلدية والسلطة القضائية في درجتها الاولى . وقد عرفت الملكية كيف تدمج كل هذه العناصر في انظمتها . فالاسباب مرتبط بعضها ببعض . فبعد ان اخضعتهم الملكية ، لسيطرتها وانتظمتهم مراتب وهيآت فقد ألفوا أطر الدولة وملاكاتها الادارية ، وقاموا بالاعمال الادارية في المقاطعات والولايات والألوية والمدن . فهم مساعدون لملاك الادارة ويؤمنون جباية الضرائب . وقامت في كل من انكلترا وهولندا ارستوقراطية هي في مجموعها لا عسكرية ولا اقطاعية ، تتولى ادارة الحكم في البلاد. فاللوردات وحدهم في البلاد يؤلفون مرتبة متميزة ، ويورّثون رتبتهم لابنهم البكر . الا ان اصلهم او منشأهم لا يعود بعيداً ومنذ ان تولى ملوك آل تيودور الأول، فقد تغلغلت بينهم البورجوازية الثرية . وهنا ايضاً ترتبط الاسباب بعضها ببعض .

والامتيازات المالية التي تمتعت بها طبقة النبلاء الاقطاعية تدعم في القارة هذه المصالح المشتركة . فالملك الذي هو اول النبلاء في المملكة غير قادر ان يضع حداً لهذه العوائد التي يفرضونها على الفلاحين ، ولهذه الاعفاءات التي يتمتعون بها دون ان يلحق اي اذى بسلطتها الخاصة . وهكذا أسبلت الامبراطورة كاترين الثانية على الارستوقراطية امتيازات ومنافع جديدة . اما جوزف الثاني الذي راح يتصدّى لامتيازات النبلاء ، فقد أحدث البلبلة والاضطرابات في مملكته . وقد شدد كثيراً من قبضة السلطة الملكية بعد محاولته تحقيق المركزية الادارية في البلاد . والاستبدادية المستنيرة تبدو ، في الاصل ، ذريعة من الذرائع المالية التي تتسلح بها . فالعاهل الفيلسوف يحاول ان يستخلص من نتائج فلسفته ، نفعاً مادياً مباشراً . فهو يبحث عن المال اينما وجده ويفرض الضريبة على المواد الصالحة لفرض الضرائب ، اي على هذا الدخل العقاري الآخذ بالازدهار ، هذا الدخل الذي يعود الجانب الاكبر منه على

الارستوقراطية نفسها. فراح يقتبس عن الغرب التدابير والاجراءات التي تساعده على الانتفاع، الى اقصى حد ، من هـذه الاطر المعمول بها في البلاد ، كما راح يوسع من نطاق املاك التاج بمصادرته املاك الرهبانيات القانونية . وهذه الروح التجارية التي جاشت فيه دفعته على تحسين وسائل الاستغلال المعمول بها في البلاد ، وعلى الحد من الاستيراد وعلى حماية بعض الصناعات الوطنية . وقد قصَد من هذا كله تغذية خزينته وصندوق بيت المال بحيث يتمكن من مواجهة الاعباء المالية المتزايدة بعد ان عرف كيف يمالىء الارستوقراطية ويصانعها تأميناً منه لمساهمتها . فالنبيل البروسياني لا يتنازل عن اي شيء من حقوقه وفردريك الثاني يتورع كثيراً عن التدخل في شؤون الامور السيادية . فالانظمة القديمة بقيت مرعية الجانب بصورة عامة . فالاستبدادية والارستوقراطية بقيتا مترابطتين . فالفلاحون وحدهم يقع عليهم غرْم الحركات الاصلاحية بينما لا يعود ذلك على البورجوازية ، كما يبدو ، بكبير امر .

أرقاء الارض ومتعهدون ومكاترون

والنظام الإقطاعي هو اشد وطأة على اوروبا منه على فرنسا . فما تكاد تعبر نهر الايلب شرقاً حتى يطالعك استبداد ملكية النبلاء ونظام رق الارض . فالفلاحون المتحررون او الاحرار يؤلفون شواذاً . فالارض الروسية برمتها تعود للنبلاء والقيصر الذي ربط املاك الكنيسة واوقافها باملاك التاج. وعندما ضمت الامبراطورة كاترين الثانية مقاطعة اوكرانيا الى ممتلكاتها ، ازداد بذلك عدد أرقاء الارض التابعين لها ٨٠٠،٠٠٠ فألفوا بذلك أربعة أخماس سكان البلاد اجمع . فالرق يقع على الشخص اكثر مما يقع على الارض ويجعله في منزلة الحيوانات ، ويجري بيعهم قطعاناً وجماعات، بيع البهُم في الاسواق التجارية ومعارض الحيوان. ليس ما يحميهم ضد تعسف السيد ونزواته سوى مصلحته الآنية . فقد يسمح لهم احياناً العمل في الخارج شريطة ان يقاسمهم حصة من الاجر المدفوع لهم . صحيح ان فلاحي البلاط يتمتعون ، من جهتهم بحرية اوسع نسبياً ، الا انهم يخضعون كغيرهم من هؤلاء الارقاء للسخرة ويدفعون مثلهم العوائد المترتبة عليهم . والوضع سواء في بولونيا حيث سبعة ملايين ونصف من ارقاء الارض يعملون في خدمة ١٠٠،٠٠٠ نبيل . اما في بروسيا وفي البلدان السكندينافية ، فقد توارى رق الارض عن الانظار تقريباً ، انما بقيت قائمة ، مرعية الجانب ، الامتيازات المترتبة على الإقطاع ذاته ولذا كان تطور ملكية الفلاحين بطيئاً للغاية ، بعد ان أخضعت الملكية لقانون الفدية او الاستخلاص . فالنبيل هو وحده ، من حيث المبدأ ، سيد الارض . والمتعهد يبقى خاضعاً لارادة السيد الذي في مقدوره ان يفرض عليه عقوبات جسانية ويخضعه لرسوم وجزاوات تأديبية . وهو يقوم بوظيفة قاض في كل مـا يتعلق بالمشاعات ، ويراقب النشاط الصناعي في المقاطعة ويحاول فرض الحكر على تجارة الحبوب كما يحتكر صناعة الجعة والتقطير ، وبيع السمك ويحتفظ لنفسه بحق القنص والصيد .

والعوائد العينية والنقدية ، وتأدية الخدمة على انواعها والسخرة ، ودفع الرسوم المترتبة على

البيع والشراء ، يرزح الفلاح تحتها في المملكة النمساوية ، بالرغم من الغاء رق الارض وتحرير الفلاحين رسمياً فيها ، اذ ان المعارضة التي قوبلت بها الاصلاحات التي قام بها جوزف الثاني ، من قبل النبلاء في هنغاريا بالاخص ، جعلت من هذه الاجراءات الملكية ، حبراً على ورق ، فأدت هذه التدابير الى تسمم الوضع اكثر مما ادّت الى تذليل المصاعب والمشكلات القائمة . ومع ذلك ، فتملك الفلاحين للارض اخذ بالازدياد والنماء فتناول حتى تلك اراضي النبلاء ، انما على نسبة أقل مما نرى في الامبراطورية الجرمانية المقدسة وفي ايطاليا . فرق الارض الذي يبقى معمولاً به في مقاطعتي البافيار وهانوفر بدا في وضع أخف ، كما راح الفلاحون يقتنون لهم ، على طول نهر الرين ، بعض الاملاك ، وأخــذ مارغراف بادن يخفف من اعمال السخرة واعطى تسهيلات اكبر لافتداء العوائد المفروضة على اصحابها . وكذلك ، فلم تتضرّس المجتمعات الجبلية السويسرانية كثيراً من الضغط الإقطاعي ، وحركة تحرير الفلاحين في مقاطعة السافوا اخذت تتطور ببطء هي ايضاً . كذلك توارى عن الانظــار رق الارض في كل من مقاطعات سهل البو وتوسكانا وفي اسبانيا : فالنبلاء ورجال الاكليروس من مالكي الارض يؤجرونها لمزارعين ولمرابعين . فهم في وضع أقل بؤساً مما هو عليه وضع المزارعين في مملكة الصقليتين وفي السلطنة العثمانية حيث تسيطر عــلى أرض ممسكة ، جدباء ، اقطاعية جشعة لا ترحم ولا تشفق . واكتراء الارض لقاء بدل نقدي ، هي طريقة من طرق الاستثمار ، يُعمل بها في الاراضي الخصبة المعطاء فقط . ففي البلاد الواطية حيث قسم كبير من الارض يعود للكنيسة ، اتسع الأخذ باكتراء الارض . وفي انكلترا خصوصاً حيث الملكية تقع معظمها بين ايدي اللوردات والبورجوازيين ، فقد أوجد اتساع رقعة القطع الزراعية ، أوضاعاً مختلفة . وفي ايرلندا أصار اصحاب الارض المزارعين الى البؤس والفقر المدقع ، اذ ان ثلاثة ارباع السكان كانوا يمشون حفاة ، ومثل هذا الوضع البائس لم يكن ليخفى امره لدى المجتمع المستنير في اوروبا ، بعــد ان أنّ الجميع وتعالت تشكياتهم من فداحة الضرائب التي رزحوا تحتها .

وهكذا مهما كان وضع النظام الزراعي المعمول به في البلاد ، فالمجتمــع البشري كان يعوّل بالاكثر على استثمار الفلاح للارض . فرق الارض مشكلة حادة عانت منها اوروبا جمعاء ، وفي كل الاقطار الاوروبية كانت الرسوم السيادية والعوائد المفروضة ، تجبى دونما رحمــة . والنتيجة الثابتة هي ان المحاولات التي استهدفت الاصــلاح والتخفيف من حدة وحراقة الاوضاع القائمة والتي لم تخل ابداً من مقابل والتي وقع معظمها على الفلاحين ، كانت بمثابة طرح قضية الواقــع السيادي على بساط البحث .

نحو الملكية المركزية

فالفلاح حتى المتحرر منه يبدو وكأنه أعزل من السلاح ، لا يبدي ولا يعيد امام طغيان « اسياد الارض » . فالاملاك الكبيرة تؤلف النظام المستبد بالريف . والطريقة المتبعة في استثمار الارض واستغلالها ، تحمل مالك الارض على طلب المزيد من العمل والربح ، ولذا اتجه استثمار الارض اكثر فاكثر نحو شكل رأسمالي . واعتبــار

امكانية زيادة الدخل هو الذي يَفصل في نهاية الامر : فالنظرة النفعية هي التي تشيل في النهاية على النظرة الاجتماعية او الانسانية . ففي اوروبا الغربية غلبت رقعة المروج على رقعة الاراضي التي كانت تزرع من قبل ، والحنطة اخذت مقاديرها تتضاءل بالنسبة لتربية الماشية التي امتصت عدداً اقل من اليد العاملة . وعلى عكس ذلك اصبحت الاراضي الزراعية في الشرق ، تعطي كميات اكبر من الحبوب. وازداد عدد من لا املاك لهم اكثر فاكثر . ففي ايرلندا وحدها اكثر من مليون عامل نصفهم فقط يعمل باستمرار طوال السنة . وفي انكلترا والمقاطعات البلجيكية يطلب الشغيلة أوَدهم من العمل في الصناعة ، اما في المقاطعات والبلدان المطلة على البحر المتوسط فقد راحوا يرذفون صفوف المستعطين فازداد بالتالي الوضع حرجاً وسوءاً من جراء التفاوت الاجتماعي الصارخ ومن انخفاض معدل الملكية لدى الفلاحين او المتأتي عن الحركة الديموغرافية وازدياد حركة السكان ازدياداً سريعاً لا يرحم. ويحق لنا ان نقدر ان عدد سكان اوروبا الوسطى ارتفع هو ايضاً بمعدل الثلث ، خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر . وبالرغم من ارتفاع معدل الوفيات في روسيا ، فقد كان عدد السكان فيها يزداد بنسبة ٢٠٠،٠٠٠ في السنة . كذلك تضاعف عدد السكان في اسبانيا وفي البلاد الواطية والجزر البريطانية ، خلال هذه الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ و ١٧٨٩ وقد بدا بؤس الفلاحين، في اواخر القرن الثامن عشر، اكثر انتشاراً واكثر اتساعاً. وكثيراً ما قاموا بانتفاضات ثورية طلباً للتحرر الا ان ثوراتهم هذه امكن كبحها بسرعة . فمثل هذه الحركات لا تتمخض بعد الا برسيس ضعيف جداً من الوعي الطبقي. ولكي تؤلف ثورات الفلاحين قضية سياسية كان لا بد من مؤازرة الأطر المتحررة لها ومن ثورة عارمة تقوم على مقربة منهم .

٢- البورجوازية والرأسمالية

ازدهار المدن الصناعية والتجارية

ها هي البورجوازية تستبطر شأناً وتزداد عدداً وقوةً ، في كل مكان ، كما تبرز نهضتها الاجتماعية في كل مكان بالرغم مما تصادفه نهضتها هذه من صعاب وعراقيل تثيرها النظم التقليدية . فاذا ما تطورت هذه البورجوازية رئيداً في الاقطار الانكلوسكسونية ، فهي تلاقي في القارة ، متاعب عديدة . وبالرغم من بعض التنازلات ، بقيت اللامساواة المدنية القاعدة المعمول بها . فالنظام الاقطاعي ، والوضع القانوني للملكية والسلطة السياسية التي تتمتع بها طبقة النبلاء ، كل ذلك وما اليه حد كثيراً من اطماعها ومن الاهداف التي ترتسمها . وهؤلاء النبلاء يقطعون الطريق على كل من يروم الوصول الى المراكز العالية أو يطمع اليها . فسكان المدن يبقون ، على الغالب ، دونما شك بذلك، مقتصرين على نسبة طفيفة . والتطور الذي اخذوا باسبابه انما مصدره هذا النشاط التجاري والصناعي الذي اخذت المدن باسبابه ، ان دلّ على شيء فعلى ما تتمتع به من نفوذ « بورجوازي » هو في أبان نشاطه . ومع ذلك فالمدن الكبرى تبقى نادرة جداً الى الشرق من نهر الرين . ففينا تعد ،

اذ ذاك ، أقل من ٢٥٠ الف نسمة ، أي أقل من نصف سكان باريس ، في تلك المدة . وليس في برلين ما يوازي ربع هذا العدد . ففي بولونيا ، مدينة فرصوفيا وحدها تعد ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، وروسيا لا تعرف سوى مركزين هامين : هما موسكو وبطرسبورغ ، وكلاهما بلسبة فيينا من حيث عدد السكان. والمدن الحرة الواحدة والحسون القائمة في الامبراطورية الجرمانية المقدسة لا تعد مجتمعة اكثر من ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، الا ان مدينة همبورغ وحدها يزيد عدد سكانهـا على ١٣٠ الف نسمة ، أي ما يعادل مجموع سكان مدن فرنسا وانكلترا معاً في المقاطعات . اما على الساحل الاطلسي ، فقد ادى النشاط التجاري الذي زخرت به المدن البحرية ، الى ازدياد عدد السكان فيها . فلندن ناهزت المليون ، وامستردام تعد ٢٠٠ الف . ويتجاوز عـدد سكان كل من مدن روتردام وبروكسل وانفرس وغاند وليـيج الخمسين الفاً . وفي الجنوب برّت لشبونة بعدد سكانها مدينة مدريد،بينا تجاوز عدد سكان مدينة برشلونة بكثير الـ ١٠٠،٠٠٠ نسمة . فالمشي يفسر لنا اكثر من الحاضر الطاقة الكامنة في المدن الايطالية : هنالك ستة مدن كبيرة تعد الواحدة اكثر من ١٠٠،٠٠٠ وستة مدن أخرى يتراوح عدد سكان الواحدة منهـا بين ٥٠،٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ والازدهـار المظم الذي سجلته الحركة التجارية في هـذا العصر ساعدت الى حد بعيد على تكوين مزيج من الطبقات الوسطى قام مقام البورجوازية .

فالازدهار التجاري والاقتصادي يفسر لنا ،الى حد بعيد،ازدهار المدن وتطورها الصاعد . فالازدهار الاقتصادي الخارجي والارتفاع الدولي للاسعار ، واتساع الاسواق التجارية امـام حركة الاستهلاك المتزايدة ، والنزعة نحو الحرية التجارية أدت ، بعـد فترة من التردد ، الى احداث بعض الاثر على سياسة الدول التجارية . فمن انكلترا الى روسيا ، اخذت حركـة المقايضات التجارية تنمو وتتطور باستمرار ، فارتفعت الى ثلاثة اضعافها خلال القرن في الاولى، وارتفعت اكثر من ذلك ايضاً نسبياً في ما يتعلق بالثانية. فما من شك قط ان مثل هذا التطور المحسوس حصل في مجال التجارة الداخلية والصناعة ، ونشطت الحركة نشاطاً عموماً بتأثير من العوامل ذاتها . فالنجاحات التي سجلها الانكليز في هذا المجال يعرفها الجميع ، الا انها نجاحات يجب الا تكسف ما تم من امثالها في البلدان الاخرى . وانشئت افران تعمل على الفحم لتشغيل معامل الحديد على طول مدى نهري السامبر والموز ، في مـدن شارلروا وليـيج ، مع العـلم ان جوف الارياف الفلنكية كان يرتكض لكثرة ما قام فيها من معامل النسيج . فمقاطعة وابس تعد اكثر من ٤٠،٠٠٠ من الحاكة واكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من مغازل القطن . وأخذت معامل الاجواخ في فرفيه ومعامل الدانتيلا في مالين تستعين بعدد كبير من العمال تأخـذهم من بين الفلاحين وتدفع لهم اجوراً لا ترد عنهم غائلة الجوع . وعلى عكس هذا كان الوضع في الشرق . فالفلاح ، ولو حراً ، لا ينعم بحرية صناعية أو تجارية فكم بالحري من كان رقيق الارض ؟ فرق الارض في روسيا يشجع ، مع ذلك ، على الاخذ ببعض المشروعات الاستثمارية : حكومية كانت أم خاصة بالنبلاء . فصناعة الحديد التي تمركزت في الاورال تعود لهم ، وقد زاد انتاجها عـام

١٧٨٩ على انتاج فرنسا من الحديد . الا ان البورجوازية تعاني كثيراً من المصاعب والعراقيل التي يُثيرها امامها النظام الاقطاعي . فالفلاحون الاحرار وأرقاء الارض الذين يعملون على اساس مقاسمة اجورهم مع اسيادهم لا يفون بالحاجة قط ، ولذا فلن يلبث المصنع ان ينشىء له فرعاً في الريف ليفيد من اليد الثانية العاملة ، وليس اغرب من ان تعرف كيف افادت مختلف الفئات الاجتماعية من حركة الازدهار الاقتصادي هذه. والثابت هو ان معظم هذه المنافع والارباح كانت تذهب للمتعهدين ، كباراً وصغاراً ، بورجوازيين واحياناً من النبلاء ، فتحدث بينهم تطوراً بطيئاً لا يلبث ان يترك اثره الظاهر على نمط الحياة وطرق التفكير في المجتمع ، على نحو ما تم في انكلترا وفرنسا .

وقد مر ولا شك ، هذا الازدهار ، من وقت الى آخر في ازمات تركت مضاعفاتها على المجتمع ، واقامت ارباب العمل ضد اصحاب الاجور . ان ١٤٪ من سكان المدن في انكلترا كانوا عيالاً على صندوق الصدقات ومبرات الاحسان ، عام ١٧٨٩ ، وكنا نرى الحاكة في فرنسه يناضلون في تلك السنة بالذات ، في سبيل الحصول على زيادة لحامة واحدة عن كل ذراع قماش ينتجونه .

الخائر الثورية

غير ان موضوع الخلاف الاكبر كان في غير هذا المجال ، وسواءاً أكان خفياً أو مكشوفاً ، فقد قام على الاخص ، بين البورجوازية والارستوقراطية فانتصبت الواحدة منها في وجه الاخرى . فقد شكلت حرية الصحافة سلاحاً جديداً في يد الاولى ، في كل من الدانمارك وبروسيا . صحيح ان فردريك غليوم الثاني عاد عن محاولة الاصلاح التي قام بها ، فأمر في كانون الاول عام ١٧٨٨ ، باخضاع كل مطبوعة أو نشرة تصدر في البلاد ، لمراقبة مسبقة من قِبل لجنة حكومية . الا ان أية نشرة مُنعت عن الظهور في برلين مثلاً كان لها ملء الحرية في فرانكفورت .

وليس ما يضير قط ان يبقى قائماً في المانيا امير صغير وبلاطه المتواضع، أو اسقف ما مع كهنة أو أية بلدية من البلديات . فالقرن الثامن عشر قد زرع في النفوس خمير الثورة . فالوعي الوطني يمهد الطريق امام بعث ماضي الامبراطورية المجيد . وها هي المقاطعات السويسرانية وايطاليا تتحسسان عميقاً وجوب تحقيق وحدتها .

فالنار تخمد تحت الرماد حتى في الجانب الآخر من المحيط الاطلسي ، في الطرف الآخر من العالم الابيض ، في اميركا اللاتينية التي انتظمها على شاكلة اوروبا ، سلك واحد من الازدهار الشامل ، ولا سيا المستعمرات الاسبانية منها. فالى قبضة الوطن الام الشديدة الوطأة من الوجهة الادارية والتجارية ، أضف سلطة الكنيسة المتغطرسة وغناها المفرط. ليَعُد من يشاء القسم الاول من هذا الكتاب ليرَ كيف انتصبت مطالب الموظفين ورجال الاكليروس التصفية ضد « بورجوازية » قوامها التجار والخلاسيون والمزارعون الذين ابتدأوا يكافحون في سبيل عيش

اكرم ، من نحو عشر سنوات ، فتهدف من وراء صراعها هذا الى خلع النير الاسباني الثقيل عن اكتافها ، ليس رغبة منها في تحرير ابناء البلاد المستعبدين والزنوج الأرقاء، بل طمعاً في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد . فلم تلبث ان قامت ثورات في كل من الشيلي وغرناطة الجديدة . وأقبل الناس يقرأون بلهفة « العقد الاجتماعي » ، لروسو ، و «البيان الاقتصادي » الذي وضعه «كيناي» ، و«بحث المشاعر» لكونديلاك . وميراندا يحتفظ بهذه الكتب في خزانته الخاصة . فراح بوليفار وسان مارتن يلتهمانها . كذلك رغب سكان البرازيل في خلع نير البرتغال عن اعناقهم . فقد التقى احدهم المدعو مايا في مدينة نيم ، من اعمال فرنسا، عام ١٧٨٧ ، بجفرسون الفرجيني بعد ان كان استقر منه الرأي ، على ان يكسب عطف الولايات المتحدة الاميركية لمساعدتها على استقلال بلاده .

في كل مكان نرى البورجوازية أو ما يقوم مقامها تشرئب باعناقها وانظارها نحو البلدان الانكلوسكسونية مدفوعة الى ذلك بالآمال المعسولة .

٣ ـ السراب الانكلوسكسوني

ثورة الارستوقراطية البريطانية

تجري في كل مكان بكل ارتياح ، المفاضلة بين الدول ذات النظام الاستبدادي وانكلترا . فالمجتمع « المستنير » نظر الى انكلترا نظره الى الرائدة، وحلا له ان يرى في نظامها الدليل القاطع على تأثير المبادىء والنظريات الفلسفية . فالأمة الانكليزية قائمة بالفعل ، ولها حياتها السياسية الخاصة . ومثل هذه الحياة لم تتوفر بعد للفرنسيين ، كما تنعم بنظام تمثيلي وتقاليد مشبعة بالحرية . ومع ذلك فالسلطة فيها هي في قبضة أقلية . أما المجتمع الانكليزي فاشبه ما يكون حقل اختبار وتجربة ، ومجالاً تجارياً واسعاً .

في هذه المملكة الدستورية ، العرف وحده هو القسطاس الذي يضبط الحقوق الخاصة بالملك وبالبرلمان . فليس من نص دستوري يبين الحدود ويقيم السدود ، والملك جورج الثالث يعلنها عالياً بانه «يرغب في ان يكون هو نفسه رئيس وزرائه». فهو الى جانب حزب المحافظين الذين يحترمون ارادته حتى ولو تعارضت مع اهداف مجلس العموم ، هذا المجلس الذي لا يمثل بالفعل سوى قسم ضئيل من الشعب الانكليزي . فحق الاقتراع هو امتياز وقف اصلاً على كبار مالكي العقارات من اراض ومنازل . فالبلاد برمتها لا تعد اكثر من ٤٥٠،٠٠٠ مقترع ، فالبورجوازيون اصحاب المهن والمزارعون الاثرياء يؤلفون توابع لاصحاب الاراضي الاغنياء الذين يتقاسمون فيما بينهم المقاعد في مجلس العموم. فالخريطة الانتخابية التي لم يدخل عليها أي تعديل منذ بضعة اجيال، لا تتفق بشيء مع التوزيع الحالي للسكان في انكلترا اليوم . فالمدن المنحطة *Bourgs pourris* ومدن الجيب (*Bourgs de poche*) التي لا تزال مراكز رئيسية للانتخابات بالرغم من انحطاط شأنها ، تبعث في النفس الشك . ان وظيفة النائب العام تشرى وتباع، وثمنها

لا يقل قط عن ٢٥٠٠٠ فرنك ذهب. والثابت ان ثلثي اعضاء مجلس العموم يُعرفون قبل اوان الانتخابات ، بعد ان تفرض الحكومة وكبار الملاكين إرادتهم على الناخبين الذين يقترعون وفقاً لسجل مفتوح. فالطبقات الاجتماعية الواحدة تؤمن لنفسها ادارة المقاطعات والراعويات وادارة البوليس والعدل وجباية الضرائب. وبالرغم من الاصلاحات التي قام بها وليم بت، لا تزال تسيطر على البلاد جباية مالية بالية يضاف اليها رسم خاص بالكنيسة الانغليكانية يجبى من جميع اطراف البلاد ، من اتباع الكنيسة المسيحية في اسكتلاندا ، ومن الكاثوليك الارلنديين الذين حُظّر عليهم القيام برامم عباداتهم. فالدولة بقيت مذهبية في الصميم ، والمشاجرات الدينية كانت تسمم العلاقات الاجتماعية، فالتسامح الديني ليس بالفعل سوى كلمة جوفاء، كما هي الحال تماماً مع الحريات العامة. فحق تأليف الجمعيات مع انه حق معترف به رسمياً ، لا يطبق على المحادات العمال. وحرية العمل هي حرية محدودة في بعض الحالات بمجرد الاضطرار لقبول العمل وفقاً للاجر الذي يحدده القانون. فالمعوزون الذين يترقب على الراعوية أو الخورانية إعالتهم ، يمكن ابعادهم عن اولادهم وارغامهم على القيام باعمال السخرة. فالطبقات المعدمة هي بالفعل خارج الحق العام. هنالك قانون وحشي يعاقب على الجرائم التي تجر اليها الحاجة والفاقة. ان سرقة احدهم ما يزيد على ١٢ نحاسة من جيب جاره تستوجب عقوبة الموت. والنساء كالرجال هن عرضة لعقوبات الجلد والتشهير.

ومع ذلك ، فهذه التجاوزات نفسها تساعد على تكوين الرأي العام ، هذا الرأي الذي تعبر عنه النوادي والذي يعبر فيها عن مطالبه ومتطلباته. فالحركة الراديكالية التي ظهرت عام ١٧٨٠ ، خلال حرب الاستقلال الاميركي جاءت رجع صدى لهذا الرأي العام. من خطبائها المشهورين *Price* و *Priestley* وتوماس باين الذين وقعوا تحت تأثير افكار روسو السياسية ، وراحوا يطالبون بالمزيد من « الحرية والمساواة والاخاء ». فحرية الصحافة اخذت تهيب بهم الى الاكثار من اكتساب الانصار ، فاستعملوا افانينها على نطاق واسع.

الجمهورية الاميركية

فالمبادىء التي علموا وعملوا بها نراها محترمة ومرعية الجانب في الجمهورية الاميركية. فكل ولاية من الولايات الثلاث عشر لها دستورها المكتوب يسبقه اعلان رسمي لحقوق الانسان الطبيعية التي هي اساس العقد الاجتماعي. فالسلطات يُفصَل بين بعضها البعض كما ان حدود السلطة التنفيذية فيها جاءت واضحة جلية. فباستثناء ولاية بنسلفانيا ، يقوم في كل ولاية ، كما هي الحال في انكلترا ، مجلسان. الا ان حق الاقتراع بقي محصوراً بملكية الارض ، والشروط الموضوعة لمن يحق لهم ان ينتخبوا تحدد من ذاتها الهيئة السياسية : يجب على كل من يرشح نفسه للانتخابات ان يكون له من الاملاك ما قيمته ٢٠٠٠ ليرة انكليزية بحيث يحق له ترشيح نفسه لمجلس الشيوخ في ولاية كارولينا الجنوبية. فالحكومة الاتحادية تبدو ضعيفة حيال الولايات التي تتمتع بملء سيادتها. فقد توصلوا الى تأمين توازن بين سلطات مجلس الكونغرس ورئيس البلاد الذي يجسّم رغبات الولايات. فهو بالنسبة لكل ولاية

رئيس الوزراء لكل منهـا . فالحكومة تعود بالفعل لأقلية من المزارعين من ولاية فرجينيا من اصل انكلوسكـون ومن المذهب البيوريتاني . فعجز الحكومـة المركزية يُغضب الجمهوريين ، ومعارضتها تكاد لا تبرز لهـا صورة ، اذ باستطاعة اي فرد كان ان يجرب حظه في هذه الارض الجديدة التي لا ماضي لها . فليس من عائق يقف في وجه حرية الصحافة او حرية العمل ، او يحد من حق الاجتماع وتأليف الجمعيات ، الا ان الدساتير الـتي وضعها البيض لهم ولابنائهم ، دون سواهم ، تتجاهل في المجتمع المدني ، جماعـة الملونين . فليس من يُطالب ، في اي من ولايات الاتحـاد ، بالغاء الرق وأوضاع الزنوج تبقى حيث وضعها وكيف تركها عهد الاستثمار الاستعماري .

وهكذا يبدو واضحاً سبق الانكلوسكـون لاوروبا القارة وتقدمهم عليها . فالاوهـام المتناقلة والحقائق الواقعيـة تسهم جميعاً في تكوين قوة الجذب هذه التي يتمتعون بها في الخارج . فالكل يرى فيهم اول من خلق مجتمعاً اقرب من اي مجتمع آخر ، الى الحرية والمساواة والمدنية تتولى الحكم فيه طبقـات البورجوازية العليا والوسطى . فالاغراء الذي تمثله الثورة الانكليزية واحسن منها الثورة الاميركية ، يبقى قوياً .

ولكن ها هي فرنسا ، فرنسا التي أطلقت « الثورة الفكرية » والتي عبّرت بمثل هـذا الوضوح عن فكر العصر وروحه ، تعلن ثورة جديدة ، تعالج على المكشوف بصورة علنيـة و اكثر من اي ثورة اخرى ، المشكلات الكبرى التي تقضّ اوروبا وتُغضها . فكل مشاكل فرنسا الزراعية ، نجدها في الخارج ، اكثر عدة ، ولا سيا بنسبة غير متساوية ، مشكلة بورجوازية ، متصاعدة ، نامية ، تزخر بالتطور المادي والروحي وتتخبط في خضّم من الموجبات المدنية ، في مجتمع يحاول ان يعيش .

فبين المجتمع القديم المبني على الطبقات ، والمجتمع الجديد الذي انبثق عن الثورة الفرنسية ، سيطل على الدنيا صراع يلف العالم بأسره ، الى عام ١٨١٥ ، ويستأثر بتاريخ العالم .

الفصل الثاني

الثورة الفرنسية والعالم

(١٧٨٩ - ١٨٠٢)

اولاً - عدوى الثورة الفرنسية

انضمام المجتمع المستنير

أثارت حدثان فرنسا أول ما أثارته هزة من الدهش والارتياح معاً. فالجرائد والمنشورات الثورية لقيت في جميع انحاء اوروبا وارجائها، معلقين وشارحين يتناولون تطوراتها بالرضى واليمن بينها تعمل مدينة ستراسبورغ على نشر هذه المطبوعات السرية التي كانت تقذف بهـا المطابع السرية وتؤمن نشرها وتوزيعها في الشرق. وتحرص الجرائد الاجنبية على نشر اخبار فرنسا بانتظام كلي. واخذت غازيتا فرصوفيا تنشر في اعدادها المتوالية، ابتداءً من ٢٣ ايار ١٧٨٩، رسالة يبعث بها مراسلها من فرساي. فجريدة الاتحاد والحرية كانت تصدر، في باريس، بالفرنسية والانكليزية. ومما لا شك فيه قط ان المحافل الماسونية قامت بدعاوة عريضة للثورة. فبونفيل، احد اعضاء محفل النادي الاجتماعي، حرص على ان يبعث بسلسلة من الرسائل للمستنيرين في البافيير، كما ان محافل سافوى الاسكتلندية كانت تتلقى كلمة السر من مدينة ليون. وفي سنة ١٧٩٠، تُرجمت وثيقة اعلان حقوق الانسان الى عدة لغات واصبحت بذلك رفيق الروح المتحررة التقدمية التي كانت تهب على اوروبا جمعاء، حتى في اسبانيا نفسها حيث عين ديوان التفتيش اليقظة لم تكن لتغفل لحظة، رحبت لقيت مبادىء الثورة عنـد منطلقها، ترحيباً حاراً، بالرغم من ملاحقة هذا الديوان لاحرار الفكر وتحرياته الدقيقة لهم.

فيا هم السياح و« حجاج الحرية» يتوافدون على فرنسا من كل فج وصوب، فقد قدم من المانيا الى فرساي فورستر والملاك الكبير غليوم دي همبولدت، ومن انكلترا: الشاعر وردسورث، والمحامي الحر التفكير أرسكين، وبيغوت من فرقة الكويكرز، الذي سيصبح فيها بعـد اللورد كستلريغ، والامير الروسي الشاب ستروغانوف الذي سيتولى مهمة تهذيب رومة Romme،

عضو مجلس الامة في المستقبل، والذي وقّع سجل التشريعات باسم مستشار هو سكرتير جمعية لعبة التنس ، وحضر مراسم احتفالات الذكرى الاولى للقسم المشهور . وقد استقبلت النوادي والجمعية التشريعية ، بكل ترحاب الاجانب القادمين الى باريس . والبارون البروسياني غلوتز تمنى ملتمساً ان يحضر التحالف على رأس وفد كبير من مختلف الاجناس والقوميات ، فيه التركي والايراني ، وذلك بغية الاحتفال بطلائع حلف عام . وطلب مثل هذا الشرف توماس باين وغيره من الرعايا الاميركيين .

فأخبار فرنسا والمشاهد الصادرة عنها تضع في الرتبة الاولى من الاهتمام ، المشكلات المشتركة بين جميع الشعوب . « ان مجهوداً رائعاً في سبيل الانسانية جمعاء ، تنهض به فرنسا . فقد رأى « كنت » في هذا العمل « تطبيقاً للعقد الاجتماعي » كما رأى فيه « فِختَه » تأكيداً جديداً للكرامة الانسانية . وسيقوم غوتيه بعد ذلك ، بتقييم اهمية السنين التي عاشها كما صرح بذلك ، على لسان القاضي الاجنبي في النشيد السادس من كتابه : هرمان ودوروتيه ، حيث يقول بأنه « شعر قلبه يكبر في صدره ، وبان دماً اكثر نقاءً فاض على هذا الصدر المتحرر عندما أطلّت بوادر هذه الشمس المشرقة وعندما اخذ الناس يتحدثون عن هذه الحقوق المشتركة بين الجميع وعن الحرية المسكِرة والمساواة الفائقة الوصف » . كذلك نجد في ايطاليا بيارو فرّي « وكأن نور باريس يُضيء وطنه » ، وراح فريق من مواطني بولونيا ، امثال ستانسلاس اكازتش وجوليان نيمتفتش يبحثون فيما بينهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية ، كما ان اليوناني ريغاس فلستنليس يستخلص من مبدأ سيادة الشعوب العناصر التي عليها بنى نظرية القومية . ووثيقة اعلان حقوق الانسان تجد طريقها الى الخارج فتتغلغل بسرعة في جميع ارجاء اميركا اللاتينية بعد ان نقلها فارينو وتم نشرها على يد المهندس الهندي أسكويخو بالتعاون مع ميراندا واليسوعي السابق بابلو فسكاردو إي غوسمان الذي عرفت « رسالته الى الاسبان الاميركيين » رواجاً عظيماً . وشقيق الكونت ليلييه الذي كان يعمل ضابطاً في صفوف الجيش الاسباني ، يترجم في مقرّه في بونس ايرس « صفحة تروي آخر اخبار باريس» وهي وثيقة كان لها رواج عظيم في داخل البلاد . وراح احد شعراء البرازيل يقترح على بلاده ان تتخذ من فرنسا اشبيناً لها ، كما ان تيرادنتس راح يعلن في صحيفة *Minas Geraes* المبادىء التي نودي بها عام ١٧٨٩ .

أولى الانتفاضات : ثورات برابنت ولييج

اخذت الاضطرابات تظهر عند جيراننا الاقربين وتمتد فيما بينهم ، فيما هي مدينة أفينيون ، آخر مركز للبابوات في فرنسا ، ترذل سلطة البابا وتطلب في ١١ حزيران ١٧٨٩ ، انضمامها الى فرنسا . كذلك ارتفع كل اثر للنظام الاقطاعي من المقاطعات العائدة لامراء الامبراطورية الجرمانية المقيمة في الالزاس ، وقامت اضطرابات في مدينة مونبليار. اما في بلجيكا ، فقد كان سبق لمندوبي الإيالات المتحدة ان نادوا بالعصيان وقاموا بالاضطرابات قبل نشوب الثورة الفرنسية . ففي كانون الثاني ١٧٨٩ ، رفض ممثلو ولاية هاينو التصويت على الاعتمادات التي تطالب بها

النسا ، لفخسروا بذلك الأمتيازات التي كانوا ينعمون بها . وها هم ممثلو ولاية برابانت ينهجون نهجهم في حزيران من تلك السنة . وقد اقسم الامبراطور جوزف الثاني يميناً مغلظة بالدفاع عن امتيازاته ، فراح الاهلون ينادون عالياً بسقوط سلطته . وهكذا ابتدأت المقاومة يقودها الاكليروس والبورجوازية العنيفة . وانقسم الرأي العام في البلاد بين انصار الشرعية *Statistes* الذين تحلقوا حول فان در نووت واخذوا يطالبون باعادة امتيازات الامبراطور القديمة وبين الوطنيين الذين راحوا ، بزعامة فونك ، يتمنون استبدال السفير النمساوي بسيادة الشعب . والاتحاد الموقت الذي توصلوا الى تأليفه أمّن لهم الفوز والنجاح اذ استطاع فان در نووت الدخول ظافراً الى بروكسل ، في ١٨ كانون الاول عام ١٧٨٩ ، ممهداً بذلك الطريق امام تحالف عام لممثلي الشعب ، على اساس ارستوقراطي . واذ صدرت الاوامر والتعليمات بابعاد انصار فونك ، فقد آثر اللجوء الى فرنسا ، وتمكن ليوبولد الثاني الذي برهن اكثر مما فعل والده ، عن مقدرة ادارية ، من اعادة سيطرته على البلاد ، بمساعدة بروسيا ، وذلك في اواخر عام ١٧٩٠ . اما حوادث ليبج فقد كانت من نوع آخر . فالثورة التي نشبت فيها في آب عام ١٧٨٩ جاءت صدىً لحوادث فرنسا الداوية ، وقد وضعت نصب عينيها ، القضاء على سلطة المطران الامير ، يشد من ازرها اصحاب المهن والفلاحون الذين رزحوا تحت وطأة الضرائب الثقيلة والذين راحوا فريسة المجاعة . « وبدون هدر اي نقطة دم ، فقد انهارت الانظمة القديمة ، كما ألغيت التسوية التي يعود تاريخها الى عام ١٦٨٤ . وقد كانت الثورة هنا شعبية وتبنت المبادىء التي سارت عليها الجمعية التأسيسية ، وراحوا ينظمون بيانات بمظالمهم وموضوع شكاياتهم . وتنازل رجال الاكليروس والنبلاء عن امتيازاتهم وعوائدهم المالية . ووثيقة اعلان حقوق الانسان في ١٦ ايلول التي جاءت عندهم اكثر جذرية من اعلان حقوق الانسان في فرنسا ، جددت وسائل تعيين ممثلي البلاد وطريقة انتخابهم . انتهت ثورة ليبج في اواخر عام ١٧٩٠ ، بانتهاء ثورة البرابانت ، لدى وصول القوات النمساوية الى البلاد .

فمثل مدينة ليبج لم يكون شواذاً ولا استثناءً . فالقرارات التي اتخذت في باريس في ليل ٤ آب ، سارت سير النار في الهشيم ، واخذت الانتفاضات وحركات التمرد تنفجر على طول نهر الرين : في كولوني وتريف وسبير . واخذت المناشير الثورية توزّع في كل مكان ، ولسان حال موقعيها يقول : « نريد ان نتحرر من نير الرهبان » . وراح اسقف مدينة بال ، في سويسرا يستعين بالقوات النمساوية لاستعادة سلطته المتأرجحة . وفي جنيف اضطرت حكومة المشيخة ، مرتين متواليتين ، عام ١٧٨٩ ، لتعديل دستور المدينة وراح « المشاغبون » في مقاطعة السافوى يهددون بالاستيلاء عنوة على الحكم . وامتدت الاضطرابات الى ايطاليا ولا سيا الى مدينة ليفورنو وفلورنسا .

والمملكة المتحدة نفسها لم تبق على وضعها مع الاضطراب الديني والاجتماعي الذي انفجر في ايرلندا . وفي هولندا راحت حركة مقاومة قوية تقف في وجه الحاكم العام (*Stathouder*) .

وعلى منأى من فرنسا ، الى الشرق ، ارتبكت الاوضاع الاجتماعية وزاد القلق والبلبال في عدد من بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية الرازحة تحت الضغط والاستبداد المرهق. فالمجر يتغنون بخشوع بهذه الاشعار من نظم شاعرهم الوطني « بكساني » عندما يقول : علينا ان نحذو حذو فرنسا وان نحطم الاغلال التي تقيدنا . ويردد هذه اللازمة وطنيون بلغ منهم الحماس كل مبلغ امثال ألويس بتياني . والظاهر ان الامبراطور ليوبولد كان على استعداد كلي للنزول عند مطالبهم ، واخذت الدييت باعداد دستور يضمن للصحافة حريتها كما يؤمن للاهلين حرية العبادة . كذلك أعدّت قراراً بتحرير الفلاحين ، غير ان الامبراطور اختتم اجتماعات الدييت بخطاب بذل فيه الكثير من الوعود البراقة ، وانفرط عقد المجلس دون تسجيل اية نتيجة واقعية. وفي كتابه :«رحلة من بطرسبورغ الى موسكو» يحبّذ رادتشيف إلغاء عبودية الارض التي ينسب اليها كل الشرور التي تتألم منها روسيا. وفي بولونيا يلجأ الوطنيون القيام بحركة انقلاب ويفرضون على الدييت وعلى الملك في ٣٠ ايار ، دستوراً جديداً اعترف البورجوازية بحريات واسعة ، مع تأكيده الاعفاءات والامتيازات التي تتمتع بها طبقة النبلاء ورجال الاكليروس. والحكومة الدستورية التي تألفت في اعقاب الحركة الوطنية قوي جانبها من جراء إلغاء حق الرفض *Liberum veto* . وهكذا وُضع حد للفوضى في البلاد واصبح في مقدرة الحاكم ان تقضي في الناس دون الاخذ بالوجوه وان تحكم بلاداً تحاول استرداد قوتها واستعادة مكانتها .

ردود الفعل الارستوقراطية وموقف الملوك

هذا الهيجان العام مبعثه ، الى حد بعيد ، الف سبب وسبب . فقد انتهت هذه الانتفاضات بالفشل ، الا في لييج . الا ان عدوى الثورة ونقلها الى الخارج اصبح بالفعل الشغل الشاغل ، كما انها اصبحت مفزعة الاوساط الاجتماعية ذاتها كما كانت في فرنسا ، ومفزعة فئة الامراء واصحاب الامتيازات ومن يقول مقالتهم او يعتنق نظراتهم الفلسفية ، وغيرهم عناصر عديدة من البورجوازية الثرية او المستنيرة التي اثارت الفتن والاضطرابات المخاوف في نفوسها ، كما انها أوجست شراً من هذه القلاقل وسياسة اللف والدوران والتهجم على النظم والهيئات الدستورية في البلاد . فالامراء الالمان يخشون ان يصيبهم ما اصاب زملاءهم في مقاطعة الالزاس وقد كتب الامبراطور ليوبولد للملك لويس السادس عشر ، في كانون الاول عام ١٧٩٠ عن تمنياته « في اعادة الحقوق السيادية الى اصحابها ، وارجاع كل ما اطاحت به الثورة الى ما كان عليه من قبل . وقد اقام فلوريدا بلانكا حول جبال البيرانيس ، ما بين فرنسا واسبانيا صفاً من الجند يحول دون انتقال العدوى الوخيمة الى اسبانيا ، وراح البابا بعد ان رذّل دستور الاكليروس المدني الذي سنته الثورة ، يحرّض الدول الكاثوليكية على فرنسا ، كالبافيير والبرتغال ، وبعد ان اخذت النخبة المستنيرة في المانيا تتأرجح في موقفها من الثورة الفرنسية ، انقلبت في نهاية الامر «ضد أكلة لحوم البشر في باريس». واستقر الرأي عند «كنت» و«هردر»

وغوليه على ان الفرنسيين الضالين هم غير اهل لهذه المثل العليا . وانكلترا خرجت في نهاية الامر عن تحفظها ، وفي النداء الملكي المنشور بتاريخ ٢١ ايار عام ١٧٩١ والمعزو إعداده الى « بت» ، يعلن هذا الاخير جهاراً انه يتخذ موقف الهجوم ضد المبادىء الفرنسية. و«بورك» الذي وقف وحده تقريباً ، عام ١٧٩٠ ضد مبدأ المساواة بوزارة الاكليروس الانكليكاني ورجال الادارة ، يبدو الآن وكأنه احد الانبيـــاء . اما حزب الاحرار فينقسم اعضاؤه رأيــاً . فالحذ المسؤولون من الوضع القائم عندهم حجة ليؤجلوا الاصلاحات التي كانوا باشروهـــا كما انهـــم وقفوا ضد الاحرار .

فمن هنا التدخل الفعلي لا يزال الجال بعيداً . فقد نظر الملوك الى احداث فرنسا كمظهر من مظاهر أزمة عابرة ، حلها بين يدي حكومـة لويس السادس عشر . وكانوا مرتاحـــين الارتياح كله لهذه المصاعب والمشكلات التي من شأنها ان تفت من عضد الدولة المجـــاورة . والحروب التي قامت في القرن الثامن عشر ، جعلت الدول ذات الحكم المطلق تنتصب في وجه بعضها البعض . ففي غرة عام ١٧٩٠ ، نرى النمسا في حرب مستمرة مع تركيا ، وروسيا في حرب مع تركيا والسويد . وبروسيا تعارض في كل مكان النمسا وتقف في وجهها ، ومستشار كل من النمسا وبروسيا اللذان يجتمعان في شباط عام ١٧٩١ ، يهتان بشؤون بولونيا اكثر من اهتمامها بشؤون فرنسا . فهما يقفان موقفاً متأرجحاً باستمرار بين هذين القطبين : فرصوفيا وباريس . ومن جهة ثانية أخذت الجمعية التشريعية تدل على رغبتها في السلام ، كما تشهد على ذلك حادثة نوتكا . فقد صرحت عالياً في ٢٢ ايار عام ١٧٩٠ : «انها لن تمتشق السيف قط ولن تلجأ ابداً الى السلاح او تستخدم قواها لسلب اي شعب حريته» ، وتحدد مفهوم الجندي المواطن ،وتجرد الملك من حق اعلان الحرب وعقد السلم .

ومع ذلك نرى النوادي والصحافة في باريس ، اشدّ جرأة من الجمعية الدستورية . فقد مر معنا كيف ان الجدل الثوري ارتدى ، عام ١٧٩١ ، طابعاً دولياً . فالديموقراطيون أخذوا يرفعون عقيرتهم عالياً : « على كل امة نبيلة وفخورة بحريتها حتى النزول الى عملية الفتح ان تعلن انها لا ترغب بأن تهين احداً كما انها لا تطيق ان يلحق احد بها اية إهانة» (روبسبير). وبعد ان فشل كيل دي مولين ، عام ١٧٩١ من جراء التطورات التي اتخذتها احداث بروكسل، نراه يضيف على كتابه : « ثورات فرنسا والبرابانت » عنواناً فرعيـاً رمزيـاً هـو : « ثورات فرنسا والممالك التي تطالب بجمعية تأسيسية والتي ترفع العلم المثلث الالوان ، هـي حرية بان تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ البطولة » . واليعقوبيون يقابلون بالتصفيق الحاد الخطب الحربية التي يلقيها الوطنيون اللاجئون ويدعون الجمعية « لتحسن الافادة دونما إضاعـــة في الوقت ، من هذا الاحترام العميق ومن هذا الشعور الديني العارم الذي عرفت الجمعيـــة التأسيسية ان تفرضـــه على جميع ارجاء اوروبا ، وذلك في سبيل القيـــام بتطور خلاق على يد قواتهـا » .

وبالمقابل ، نرى النفوس على خير استعداد للقيام بصليبية مضادة للثورة يدعو لها وينهض بها ملك السويد غوستاف الثالث ، بتحريض من روسيا. والامبراطور ليوبولد يوقع ، من جهته، صلحاً مع الاتراك ، فتسارع الامبراطورة كاترين الثانية السير على نهجه ، وتعقد كل من بروسيا والنمسا اتفاقاً خاصاً حول القضية البولونية. ومع ذلك، فها يتورعان في امر تدخلهما في الغرب. الا ان النداء الذي وجهه الملك لويس السادس عشر ، ومحاولته الفرار ، والاهانات التي لحقت بجلالته ، والتحديات المتتالية من قبل اللاجئين ، كل ذلك وما اليه ارغمها على التدخل . فمع تصريح بلنتز وبعده ، لسنا بعد امام الحرب مع فرنسا. لما هي الحرب ضد النظام الجديد ، الحرب ضد الدستور الذي سيطلع به علينا عام ١٧٩١ ، هذا الدستور الذي يكوّن تهديداً لا يمكن للنظام الاجتماعي السائد ولا يصح له السكوت عنه. وهكذا يتأزم الموقف من كلا الجانبين. ولن يلبث ان اتضح جلياً انه لا مجال للتفاهم قط بين الثورة وبين اوروبا القديمة . وبعد ذلك ببضع سنين ، في أبان المعمعة ، تبدّى الامر لجوزف دي ميستر على الشكل التالي : « ان الثورة في صميم عقيدتها هي عدوة لكل الحكومات ، اذ انها تنزع الى تقويضها جميعاً بحيث يصبح من مصلحة الجميع القضاء عليها » .

٢ - الحرب الاجتماعية الدولية
(١٧٩٢ - ١٧٩٥)

صراع في سبيل الدفاع عن المدنية

الثورة هي التي تقوم بالمبادرة . فبالرغم من تحذيرات روبسبيير اليعقوبيين ، قام المجلس الوطني ، باعلان الحرب ، في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ في نشوة من الحماسة الوطنية ، اذ عارض سبعة من اعضاء المجلس لا غير ، اعلان الحرب .

وهذا الصراع لم يعتم طويلاً حتى ارتدى طابعاً مميزاً . فهو ليس من هذه الحروب التقليدية القديمة النمط ، بل هي حرب من طراز جديد ، حرب اجتماعية دولية تتصدى لنظريات مضادة في الصميم ، قائمة في العالم. فالرعب الذي تبعثه الثورة يسيطر على مؤخرة الجيش البروسياني القائم بالغزو ، بينما يسيطر على جو باريس هلع يُسمّر الخوف في قلوب السفراء الاجانب . فالكومون تتصدى لهم في العاشر من آب وتحتجز حقائبهم الدبلوماسية ، فيطالبون بتسليمهم جوازات سفرهم ويركبون البريد في طريق عودتهم الى بلادهم ، وبعد ذلك ببضعة اشهر ، اقامت محاكمة الملك وتنفيذ حكم الاعدام به ، اوروبا القديمة واقعدتها : وباستثناء سويسرا ودول سكندينافيا،وجدت جميع دول اوروبا نفسها في حالة حرب . وهذا الصراع لاسباب متعددة ، منها احتلال جيوش فرنسا المظفرة البلاد الواطية النمساوية ، في الاشهر الاخيرة من عام ١٧٩٢، وفتح منافذ نهر الإسكو ، وكلاهما يؤلفان حالة حرب مع انكلترا نفسها التي كانت تطمع ، من وراء ذلك، الى احتكار الحركة التجارية مع المستعمرات وتأمين المنافع الطائلة التي تؤمنها سيادتها على البحار. ودريت بالذي عُرف بترديده حتى الآن،لم يلبث ان اصبح المحرك الأكبر للأحلاف ضد فرنسا. وقد اخذت الدوائر الدبلوماسية في متابعة اعمالها التقليدية مع الظاهرة الجديدة التي تشكلها

الثورة الفرنسية . ان تدخل الملوك يجب الا يكون مجانياً . وهذه الظاهرة الجديدة هي الشيء الاساسي . واخذوا يبررون هذه الحرب الشاملة ، في نظر الرأي العام ، ويصورونها كضرورة الحفاظ على شكل جديد أطلّ على المجتمع. فلنترك لـ «بت» التعبير عن وجهة نظر المتحالفين ضد الجمهورية والمجلس الوطني وباريس :

باريس لم تعد سوى مثوى الاشرار او قطيع من العبيد. فالثورة الفرنسية تهديد لكل قيم الحضارة .
هي قضية موت او حياة للمدنية .. لسلامة اوروبا وللمجتمع المدني . علينا ان نستعد لحرب طويلة الأمد ،
لحرب دائمة الاشتعال والاضطرام الى ان نقضي على الوباء القتال .

فقد ترك التاسع من ترميدور الوضع سليماً ، مع انه زالت من الوجود بعض خصائص النظام ومقوماته المفردة . فالمهم باقٍ . وليس من يغفـل عن باله قط ان الحرب نشبت بين الثورة واوروبا . فالثورة بقيت ، كما سيلاحظ جوزف دي ميستر بعد حين ، « شيئاً شيطانياً » سواءً بوجود روبسبيير او بدونه ، في الحين الذي يهيب به بورك ، بين ١٧٩٥ – ١٧٩٧ ، بالعالم المتمدن لمحاربة حكومة الديركتوار القاتلة للملك .

من المعروف جيداً ان في مثل هذا الصراع ، ستجد اوروبا ، حتى في فرنسا الثورة نفسها حلفاء طبيعيين لها . ويتحتم على الحلفاء ، بالمقابل ، ان يحموا انفسهم ، في عقر دارهم بالذات ، من خط ثوري ثانٍ . وستستمر الثورة الفرنسية في اثارة الاصداء الموالية لها في بعض الاوساط البورجوازية المتحررة والشعبية ، بالرغم من الدعاوة التي يستغلها المتحالفون ويبنونها على واقع الارهاب الذي ساد فرنسا مدة من الزمن . ويحاول الملوك خلق "هول" ابيض حولهم. فقد بادرت الامبراطورة كاترين الثانية – وكانت الاولى بذلك، في اوروبا – اقفال المحافل الماسونية وامرت بابعاد راديشيف الى سيبيريا . وجرى توقيف المحامي المتحرر ثوريلد ، في ستوكهولم ، في كانون الثاني ١٧٩٣ . ويجري في جميع انحاء اوروبا ، رذل المبادىء الثورية ، كما حلت كل المنظمات الطلابية ، حتى انهم حرّموا مطالعة مؤلفات « كنت». واشتدت التحريات في كل من البانيير وبودابست وفيينا . وفي تشرين الثاني ١٧٩٤ ، تم توقيف مارتينوفتش والمنغاريين المطالبين بالانفصال . وقامت في نابولي عصبة من الملكيين تلاحق بمؤازرة رجال الاكليروس ، الديموقراطيين وتحكم عليهم بالموت . وفي شبه الجزيرة الايبيرية استعمال ديوان التفتيش بوليسياً سياسياً . واتخذت انكلترا ، من جانبها ، منذ كانون الثاني ١٧٩٣ ، اجراءات مشددة تتصف بالعداء . واتاح إقرار القانون الخاص بالاجانب *Alien Bill* ، للحكومة الانكليزية ، ابعاد الاجانب من بلادها. و « باين» الذي كان عضواً في المجلس الوطني ، حُكم عليه غيابياً ، وقامت تحريات شديدة ضد المحامي مُوير الذي كان سبق له واتجه الى باريس ، منذ عهد قريب ، وراح بيت يستثمر مشاعر الوطنيين ، فأصدر قراراً شجب فيه كل المبادىء « الهدّامة » باعتبارها من مصدر فرنسي . وفي اسكتلاندا ، ارتدت « مطاردة للمشبوهين » مع دنداس ، طابعاً من التعصب الشديد . وفي اواخر تشرين الثاني ١٧٩٣ ، اجاز مجلس النواب البريطاني ، القيام

بتحريات واسعة وباعتقالات تعسفية، ورلسوا يحلمون «كل من يتذمرون او يشهرون بالدستور البريطاني المجيد» . وقد حكم بالموت في اسكتلاندا، على عضوين من رابطة الجمعية التأسيسية، كما جرى ابعاد موير الى خليج بوتني . اما في لندن ، فمن اصل ١٣ شخصاً حامت حولهم التهم وتولى ارسكين الدفاع عنهم ، من بينهم توماس هاردي ، ثلاثة فقط برئت ساحتهم . وقامت الجماهير في لندن تنظم للمحامي الحافظ حفلات شائقة . وتؤكد *Annual Register* في اواخر عـام ١٧٩٤ ، ومطلع ١٧٩٥ « ان طبقات الشعب السفلى » في « كل انحاء اوروبا » تصف هذا التحالف الذي قام ضد الجمهورية « بحرب الملوك ضد الشعب » . وقد عزوا هـذه النتائج الى الدعاوة الفرنسية .

المقاومة السرية في الخارج

لا شك قط في ان هـذا الضغط المرهق اوجد فراغاً كبيراً في صفوف رجال الفكر الاحرار ، بعد ان حمل فريق منهم على النكوص ، امثال غوتيه وشيلر او ألفياري، كما اضطر فريق آخر منهم ، اللجوء الى فرنسا امثال كرامر . الا انـه ساعد على ترسيخ ردسورث في آرائه . وتعمد المقاومة الى التخفي وتزداد نشاطها عمقاً بين الجماهير التي تتضرس بالحرب وبمـا صار اليه الوضع الاقتصادي في اوروبا من تدهور ، أضف الى ذلك المساوىء التي جرتها وراءها الأزمة الاقتصادية الدولية التي اشتدت وطأتها بين ١٧٩٤ ـ ١٧٩٦ . فالمواسم البائرة التي تميزت بها اعوام ١٧٩٢ و ١٧٩٤ ، واستيفاء الرسوم والعوائد السيادية تكشف عن اضطرابات اجتماعية في سويسرا ولا سيا في مقاطعة سانت غال وفي القرى الواقعة على حدود مقاطعة البيامونت . وتتخبط بروسيا نفسها في غمار ازمة عنيفـة فيقوم العمال الصناعيون في كل من سيليزيا وبرلين بفتن هوجاء في مدينة برسلو. وجرت مشاغبات صاخبة في اسبانيا رمت التخلص من غودوي . وفي بولونيا قامت فتنة ، في تشرين الثاني ١٧٩٤ رفع فيهـا الشباب الثائر العلم المثلث الالوان داعين الشعب الى الثورة والتمرد . واكتشفت في « بالرمو » مؤامرة حاكها الاحرار كما اعلن الفلاحون الثورة في مدينة بازيليكا . اما في جنيف فقد نجحت الحركة الديموقراطية التي انفجرت فيها ، خلال تموز ١٧٩٤ وامتدت الى مقاطعة زوريخ . اما هولندا فقد بلغ من تأصل الروح اليعقوبية فيها واشتداد سيطرتها ما هيأ النتائج الرهيبة التي وقعت فيهـا . كذلك تكاثرت الفتن في انكلترا نفسها : في لندن وبرمنغهام احتجاجاً على نظام القرعة ، وفي ليفربول ضد حريـة الصحافة التي دعوا التخلي عنها . اما في الريف فقـد أثارت *Enclosures* جرائم زراعية . وقد خففوا من حدة الحصار البحري بمنع الخطر على القمح . والالتماسات توالت دراكاً من المدن الكبرى . وقامت في البلاد تجمهرات ضخمة راحت تنادي في نفس لندن بالذات : « كفانا «بت»، كفانا حرباً ، اننا نريد خبزاً » .

حرب الدعاوة وانتشار التيار الثوري

فالحرب ، في فرنسا بالذات ، هي من طراز جديد . ان فكرة بعث عالم جديد تختمر في النوادي فتردد الصحافة صداها عالياً . فالنظام الديموقراطي سيعم اوروبا جمعاء ، من الرين الى روسيا . وتتبلور هذه السياسة بعد معركتي فالمي وجيماب . والمرسوم الصادر في ١٨ نوفمبر نص عالياً على ان « الامة الفرنسية » ستجود بالاخاء وبالمساعدة على جميع الشعوب التي تتحسس عميقاً الرغبة في استرجاع حريتها المهيضة . فالاقربون هم ، بالطبع ، أولى بالمعروف، ولذا بادرت القوات الفرنسية باحتلال بلادهم . ويحرص المرسوم المذكور على التنويه بالنظام الرّخيّ الذي سينعمون به بعد الاحتلال . اذ ينص على « الدفاع عن المواطنين الذين يتعرضون للمظالم ولعبث العابثين أو يمكن لهم ان يستهدفوا لهذا كله من جراء حرياتهم ». فنحن هنا امام دعوة مباشرة الى الحرية اكثر منه عرضاً لها . وقد اتضح ذلك جلياً بعد شهر من هذا التاريخ ، وذلك بصدور القرار المؤرخ ١٥ — ١٧ كانون الاول الذي يعلن عالياً ان الأمة الفرنسية ستعامل معاملة بلاد عدوة البلدان التي تختار لنفسها النظام الملكي أو النظام الطبقي القائم على الامتيازات ، بينما هي تدعم استقلال البلدان التي « تقوم فيها حكومة شعبية حرة » . وهكذا نحن امام نظام حماية ثوري يُعرض على الدول أو يُفرض على البلدان التوابع الدائرة في فلك الثورة الفرنسية . وقد ذهبوا بالفعل الى ابعد من ذلك بكثير . فهذه القوى الاجتماعية والوطنية التي تحتدم حماسة في فرنسا ، فرضت على الدولة انتهاج سياسة خارجية معينة ترمي في المدى البعيد ، لتحقيق حدود فرنسا الطبيعية . والنظام الجديد يتطلع بانظاره الى الحد الاثيل الذي يصيبه من تحقيق هذه الاهداف. فالمؤتمر الوطني يضع كل اعتماده على هذه العناصر الثورية المحلية ، ايا كان طابعها : اكثرية كانت أم أقلية ، ليس الأمر بمهم قط . وتنعقد هيئات تمثيلية تحت اشراف مراقبة جيش الاحتلال ، وتتخذ قراراتها بالانضمام الى فرنسا . ومنذ اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٢ حتى نهاية آذار ١٧٩٣ ، يختتل المجلس الوطني يضم السافوى و كونتية نيس والبلاد الواطية النمساوية ومقاطعة رينانيا ومقاطعة بورانتراي الصغيرة (بالقرب من مدينة برن) .

الا ان الفشل الذي لحق بالجيوش الفرنسية عام ١٧٩٣ ، والمقتضيات الجديدة للحرب ، اضطرت المسؤولين على انتهاج سياسة أخرى ، أقله في الظاهر . ففرنسا تقف موقف المدافع عن نفسها . فالأمر لم يعد حرب تحرير شاملة كما نص على ذلك مرسوم ١٨ تشرين الثاني. وعلى عكس ذلك تماماً ، قرر المجلس الوطني في ١٣ نيسان ، بناءً على اقتراح دانتون « بألاّ يتدخل باي صورة من الصور في شؤون حكومات الدول الاجنبية » . والدستور الذي صدر عام ١٧٩٣ ، يؤكد: « بألا يتدخل الشعب الفرنسي قط في شؤون الدول الأخرى» . وبعد ذلك بخمسة اشهر ، يصرح روبسبيير بأن الحرب الباردة أو حرب الدعاوة التي يشنها الجيرونديون هي « حماقة مكيافيلية ليس إلا »، « اذ انهم يلحقون الاهانة بالطغاة فيخدمونهم من حيث لا يدرون» فوق اختلافات الفرقاء ، ووراء الظروف التي تشجع احياناً أتباع دانتون على المصانعة تستنّ الثورة

السياسة الخارجية التي تتفق والقوات الموضوعة تحت تصرفها . الا انها تفضل الف مرة ان تسقط وتدفن تحت الانقاض ، كما صرحت بذلك ، في ١٣ نيسان ، من ان تقبل أو ترضى بأي تدخل اجنبي في شؤونها . كذلك لن ترضى قط بالتخلي يوماً عن البلدان التي انضمت للجمهورية، لهؤلاء الطغاة الذين دخلت معهم في حروب مميتة، ما عدا بعض التعديلات التي يجريها«الشعب الفرنسي» الذي جعل منه الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ، « الصديق والحليف الطبيعي لكل الشعوب » . فهو لن يتخلى قط عن حمل مشعل الثورة الى كل مكان ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا . وحاول روبسبير نفسه ان يحمل الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ينص على : « ان الملوك والارستوقراطيين والطغاة » ليسوا « سوى أرقاء ثاروا في وجه ... المجلس البشري » . وقد حاولت مصادر ادبية ضخمة تعميم هذا المبدأ ونشره في كل مكان، هذا المبدأ الذي وضع موضع التنفيذ، سياسة المجلس الوطني ولجنة السلامة العامة ، وهي سياسة واقعية من ناحية أخرى لم تعد لتنتقص بشيء من قوة النظريات المحافظة على سلامة الشعوب . الا اننا لم نرَ قط ان الحرب التي تعني كفاحاً مريراً بين نظامين اجتماعيين مختلفين ارتدت مفهوماً على مثل هذا الوضوح والجلاء .

والترميدوريون الذين لم تقم عندهم مثل هذه القضية ، والذين استفادوا من وضع عسكري ملائم جداً ، اخذوا على انفسهم تطبيق هذه السياسة والنهوض بتطلباتها ، الى الحد الأخير . صحيح ان انصار الملك واعضاء حزب اليمين يتمنون ، ثم الآخرون ، تحقيق «الحدود الطبيعية» للبلاد . الا ان الرأي العام الذي كان يحن عميقاً الى السلم والسلام وقف منها موقفاً معادياً ،ومثل ذلك واكثر الجيش الجمهوري . فما من حكومة بلغ منها التردد والحيرة مبلغه ، تستطيع ان تتجاهل هذه التيارات الفكرية العاصفة . الا ان المصلحة العليا كانت تفرض سلماً دولياً ، اي تحقيق الحدود الطبيعية، سلماً يرسّخ اكثر من أية وسيلة أخرى ، أمن الثورة ، ويضمن السلامة والطمأنينة ويشيد نفوذ من قاموا به في عيون العالم اجمع . فحرب الدعاوة وتحقيق حدود البلاد الطبيعية ، ليس في الواقع سوى وجهين أو مظهرين لشيء واحد ، الا وهو النشر العفوي للثورة. والقضية لا تنتهي بمجرد عملية انقاذ اخوي على حساب المنقذ ، بل بالضم على حساب البلد المضموم ، هذا الضم الذي يمكن وصفه أو نعته بأنه جاء محققاً للمصلحة ، اذ ينقذونه من ضغط وقسر الطبقات الممتازة . فبدلاً من الضم القديم الطراز الذي كان يحترم النظام القائم في القطر الذي جرى ضمه ، قام ضم آخر من نوع جديد ، الذي يجري فيه قلب النظام رأساً على عقب لخير السواد الاكبر من سكان البلاد . فليتم تعميم الثورة ونشرها تحت ستار الـ *Sans Culottes* أو بدون البورجوازيين دافعي الضرائب : فالامر سيان . فالفتح يأتي وفقاً لطبيعة الاشياء وجوهرها . وهكذا تتمثل عام ١٧٩٤ و ١٧٩٥ الحدود الدائرية الفرنسية . وسترى سنة ١٧٩٥ اول جمهورية تدور في فلك فرنسا الثائرة ، هي التي تتكون من الإيالات المتحدة .

مناهج الديبلوماسية التقليدية والحصار البحري

وهذه الحرب تعمد من كلا الطرفين القائمين بها ، للذرائع والاعتدة التي تأتلف وطبيعتها . وهي ذرائع طبيعية ، تقليدية لدى الحلفاء الذين لا يفكرون بالنهوض بالحرب على غير الاسس التي نهضت بهـا الحروب السالفة . فالحرب عندهم هو مواقعة الملوك الذين اعتادوا ان يحشدوا جيوشهم على الطريقة التي سادت عهد لوفوى . فقد اصبح من المتوجب الآن اذكاء الحماسة والهـاب النفوس ضد العدو ، تحقيقاً للاماني التي جاش بها صدر ماليه دي بان وفرسن ، أي « انشاء لجنة تسهر على السلامة العامة في اوروبا » . وبمختصر القول، فقد كان من اللازم الغاء أو أقله زحزحة هذا النظام القديم الذي يحارب الحلفاء في سبيل الحفاظ عليه ! فـ «بت» نفسه لا يجسر على توجيه نداء للامة الانكليزية خشية منه على الديموقراطية .

تقليدية ايضاً الحرب التجارية التي يشنها الانكليز . فهي ترمي لتهديم مالية فرنسا وتخريب تجارتها . ففي مطلع ١٧٩٢ ، عبثاً راح النازحون يقترحون على ملـك بروسيا طرح اسيناياه مزورة في التداول . اما «بت» فقد اغرق البلاد بها مرتين . كان لا بد من التداول ، في باريس بسندات على لندن تسهيلاً لتهريب العملة . فبعد ان صدر «بت» الحظر على بيع الاسلحة والمواد الغذائية التي لا بد منها للجيوش ، اضاف الى ذلك الحبوب والطحين . وقـد اصدر امراً في ٨ حزيران ١٧٩٣ «بمصادرة كل سفينة تحمل مواداً غذائية الى فرنسا مهما يكن العَلَمَ الذي ترفعه» . فانكلترا تراقب الشحونات وبواسطتها التجارة بين المحايدين ، وتضع قانوناً بحرياً يخدم مصالحها في الدرجة الاولى ، وتمنح أذونات وتسهيلات تصدير مشجعة ، وتحـاول ان تكتسب موازرة الولايات المتحدة الاميركية بحيث تحتفظ لنفسها باحتكار الحركة التجارية في المستعمرات .

تقليدي ايضاً النشاط الديبلوماسي . فالمدى الثوري يقع ضمن أطُر اوروبا القديمة . فتراءاً التفت شرقاً أو غرباً وقعت عيناك على مفاوضات تدور حول التوسع والتقسيم . وهـذه اللقم ينالها اصحاب المطامع تربدهم اقتساماً بعضاً على بعض كما تذكي فيهم سورة النهم للمزيد» ولكل منهم حربه الخاصة والشهوة الآنيّة تعبث بحدود الاتفاق المرسوم . فاقتسام بولونيا ، يلهي الى حين، بين ١٧٩٣ – ١٧٩٥ الفرقاء الشرهين: بروسيا وروسيا والنمسا. واذ استثنيت هذه الاخيرة من عملية اقتسام المغانم ، عام ١٧٩٣ فقد ترك لها ملء الحرية ، لتعوض عن حرمانهـا ، من جهة الغرب ، فتبتلع مقاطعات الالزاس والفلاندر والماينو . فيرحب كونتز بهذا الاقتراح الذي وقع من نفسه موقع الرضى والقبول . ففي محافظة الشمال يرفض ساكس كوبورج ، عام ١٧٩٣، المناداة بلويس السابع عشر ملكاً كما يرفض السماح للنبـلاء النازحين بالعودة للمقاطعة . وفي تموز ١٧٩٣ ، تعترف انكلترا باقتسام بولونيا ، فاذا ما رفضت العمل بالمشروع النمساوي الرامي لمقايضة الإيالات المتحدة بالبافيير ، فهي تقترح على النمسا مط حدود الولايات البلجيكية في الجنوب حتى نهر السوم . وهكذا نرى ان « الاربعة » لا يفكرون الا بمصالحهم الخاصة . فقد أبوا ان يرموا بالكراع الى حلفائهم الصغـار وبقيت اسبانيا صامدة في وجه مطالب لندن

التجارية في اميركا اللاتينية .

جيش الثورة وتمويل الحرب

اما فرنسا فهي واحدة ، موحدة وتقوم بالحرب على نهج جديد ، نهج الحرب في القرن العشرين ، حيث يأخذون بحشد الجيوش دون ان يبالوا بشيء : بالناس والمال . ففي ميزان القوى ، فستلقي ، في المعركة ، بكل مواردها المادية والروحية ، هذه الموارد التي تكمن في ٢٧/٢٦ مليوناً من سكانها ، بينهم مليونان ممن تتراوح اعمارهم بين ٢١ – ٣٠ سنة .

وفرنسا ، باستثناء روسيا وحدها ، هي أغنى دول اوروبا بالرجال . فعملية الصّهر والذوبان لا تلبث ان تمزج معاً ، في جيش واحد ، الفئات المجندة حديثاً « الفيشاني الأزرق » بالجيش الملكي القديم « الفرسان البيض » . فالمصادرة والتعبئة العامة يقضيان على كل شعور بالوجل لجهة العدد . وفن الحرب وتعبئة الجيوش على نمط فني جديد عرف ان يفيد الى اقصى حد من الكمية أو العدد . فالتكتيك الحربي ، يضع في وجه العدو ويوجه في هجوم ساحق ، وحدات من الجيش يحسن الضباط الافادة منها في المعركة ، الى اقصى حد . فالشجاعة والتمرس الطويل بامور القتال يُستغنى معهم عن تدريب تقني طويل سابق . فكارنو وجل الحرب الهجومية الامثل يتحمل مسؤولياته ويولي القيادة الشبان : هوش الذي كان عريفاً عام ١٧٨٩ يقود جيشاً وله من العمر ٢٥ سنة . وفرنسا ´تطْلِع اذ ذاك ، أخصب ما عرفته عبر عصورها من رجال الحرب جيلاً من نوابغ قادة الحرب معوّلة في ذلك على معين لا ينضب من طبقات البورجوازية الصغرى والمتوسطة . ان تطهير أطر الجيش العليا ، والاختلاف الطويل الى النوادي وقراءة الجرائد والصحف ، واستعهاد ممثلي الشعب في مهمات المراقبة ، كل هذا وما اليه رفع الروح المعنوية في الجيش وأذكى نار الحماسة بين وحداته .

كل شيء في سبيل الجيش ، وفي سبيل تأمين ميرة الجيش وذخيرته تجنّد كل موارد البلاد . فالاسبيناء تشكل مورداً لا ينضب كما ان البلاد التي تم « تحريرها » والبلاد العدوة نفسها تتناهد في سبيل تأمين ميرة الجيش وعتاده . على المرء ان يواجه الواقع . فالنهوض بهذه الاعباء وتوفير كل أسباب النجاح لقضية الثورة التي هي بالفعل قضية مصير الجنس البشري ، فلا قِبَل للنقد وحده ان يتحمل الأعباء الباهظة المرزحة . فمن استمر ينظر الى الأمور القائمة بمنظار العهد القديم ، يجد من الطبيعي ، بالرغم من اندفاعه للدفاع عن الجديد ، ان تغتذي الحرب بالحرب . « فمن رغب في النتائج تحتم عليه استعمال الوسائل المحققة لها » كما جاء في صحيفة « المونيتور » في عددها الصادر في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٧٩٢ . « فالتبرعات هي من وسائل الحرب المادية الا انه عندما تنتضي الأمة بأجمعها السيف وتشهره في وجه العدو ، فالويل لمن يتبنى هذه النزعة الانسانية التي تحاول ، في غير اوانها ، ان تفل منه الحد او تثلم منه الشفار » . وتقرباً من الفلاحين وكسباً لثقتهم ، سيعمدون قريباً لاعلان الحرب على « الصروح والقصور » ، وتأمين السلم والسلام

اقتسام بولونيا الخامس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

« لساكني الأكواخ » . الا ان اعمال المصادرة والتداول بالاسينياه ، يحمل هذا التميز في غير محله . فلجنة السلامة العامة تفرض على البلاد المحتلة تضحيات غالية : « قهر العدو والعيش على حسابه هو قهره مرتين » . وفي ايلول ١٧٩٣ ، اصدرت هذه اللجنة الى القواد تعليمات تقضي بجمع السلاح من بين أيدي الأهلين ، وأخذ الرهائن منهم وفرض الضرائب على المدن ، ومصادرة المواد الغذائية والخيل والمعادن والأواني الفضية ، واتلاف الكباري والممرات المائيـــة ، ونزع البلاط من الطرقات . فماذا يقول الناس عن هذه الأمور كلها ! « فعلى نسبة عظمة التضحيات التي يقومون بها وضخامتها يكونون أهلاً للحرية » . والجيوش تتحول بواسطة مفوضي الشعب الى ُمرضع الجمهورية وُمعيليها ، بعد ان أوجدوا ركالات خاصة تعنى باستخلاص مـــا يمكن استخلاصه او انقاذه . فكل ما لا يمكن حمله ُيتلف في مكانه . وممثلو الأمة الذين ُيعهد اليهم بمهات رسمية ، تلقوا ، عام ١٧٩٤ ، تعليمات لا ترحم ، اذ كان بامكانهم ان يطلبوا خلال الأربع وعشرين ساعة التالية ، دفع كل الضرائب والرسوم المتأخرة . كما أعطوا الصلاحية بتنظيم قوائم مفصلة بالاشياء التي يمكن مصادرتها ، وان يدفعوا من الاسينياه ، ما يوازي ثلاثة أرباع القيمة المستحقة ، ويرسلون الى مؤخرة الجيش « مواطنين على جانب كبير من الثقافة العالية يعهد اليهم البحث والتقصّي عن التحف والـُطرَف الفنية » . وقد عمدوا ، في مقاطعـــة البالاتينا الى خلع الأقفال والغالات من الأبواب وارسلوا بها الى فرنسا. وبعد ترميدور، لم يطرؤ أي تحسن على الوضع : « نحن بحاجة لكل شيء ولذا يتحتم علينا أخذ كل شيء » . فقد ألفوا « لجان الانقاذ » ، وبقي العمل بالانقاذ والاستخلاص . وقد تعرضت بلجيكا مرتين للغزو والاستباحة خلال سنتين ، وقد تركها الغزو الثالث قفراً يباباً .

النتائج : النصر الفرنسي واحتدام الخلفاء غضباً

فالنصر هو من نصيب العدد ، من نصيب الحماسة والوحدة ، وقوة الاندفاع ، هذه القوة الجديدة الصاعدة التي تتمثل بالثورة الفرنسية كما بدت في ذلك العصر . وقد كان بامكانها ان تعتمد مسبقاً على مناصرة قلّة لها في اي محل كان . وفي كل مكان داخل حدودها الدائرية ، كان بامكانها ان تعتمد على غالبيات امينة ، صادقة ، بالرغم من المشاعر الوطنية التي تثيرها ، وذلـــك بفضل العلاقات الاجتماعية التي عرفت ان تقيمها .

فالقرار النهائي يترددون باتخاذه . ها هو اولاً الغزو النمساوي البروسياني يمتد من نيسان الى ايلول ١٧٩٢ ، هذا الغزو الذي امكن ايقافه والتغلب عليه عندمـــا كتب النصر للجيوش الفرنسية في فالمي . ثم ينقلب الوضع تماماً من ايلول ، الى آذار ١٧٩٣ ، اذ يدخل القائد الفرنسي مونتسكيو مقاطعة السافوى في اليوم التالي لفالمي . وفي اواخر الشهر ، يدخل جيش « كوستين » مدينة سبير ثم يدخل مدينة مايلس في ٢١ تشرين الاول ، ويحقق في ٦ تشرين الثاني انتصاره الرائع في موقعة جماب ، وتفتح الولايات الواطية التابعة للنمسا ابوابها امـــام جيش ديموريز ، ثم يطل عهد التراجع الذي يستمر من اذار ١٧٩٣ الى الخريف : فالحرب مع اوروبا والانقسامات في

الداخل ، كل ذلك يحمل الثورة على الانكفاء من جديد . ديموريز يخون ويستسلم العـــدو في نيسان ، واذ ذاك يبتدىء الغزو الثاني : في الشمال والشرق والجنوب وتنتصب الحـدود عنوة . ولكن دنكرك تنجو بفضل معركة هندشوت في ٨ ايلول ويجري تحرير مدينة موبوج بعـــد معركة « وتّيني » في ١٥ و ١٦ تشرين الاول ، في اثر الهجوم الذي قام به جـــوردان وكارنو بواسطة فرقة المشاة . ويقوم القواد هوش وبيشغرو ودسيه وسان جـوست بتحرير مقاطعـة الالزاس في شهري تشرين الثاني وكانون الاول . واذ ذاك يبتدىء الدور الثالث من الحرب الذي ادى بالنتيجة الى تثبيت النصر والترسيخ له . فجيش السامبر والموز بقيــادة جوردان وبموازرة القواد كليبر ومارسو ولوفيفر وماي يلحق الهزيمة بالنمساويين في « فلوريس » في ٢٦ حزيران ويبلغ في تشرين الاول ، مدينتي كولوني وكوبلنز . وها هي بلجيكا تفتح ابوابها للمرة الثانية ، ثم هولندا في كانون الاول وكانون الثاني . وفي الجنوب الشرقي والجنوب تحتل الجيوش الفرنسية الخط الممتد على طول جبال الألب والبيرانيس وجانب صغير من مقاطعة كتلونيـــا وبسكاي . وهكذا اختل توازن القوى .

وبدخول سنة ١٧٩٤ ، ابتدأ عهد السيطرة الحربية الفرنسية ، هذا العهد الذي استمر نحواً من ٢٠ سنة .

فمنذ خريف ١٧٩٤ ، اخذت كل من بروسيا واسبانيا والبيامونت يتمنى حلول السلام . فراح باريز يتهم بالخيانة العظمى اية محاولة من هذا القبيـل . وقد اقتضى لجنة ترميدور عـــدة اسابيع لاتخاذ قرار بهذا الشأن بعد ان انتهجت سياسة اتسمت حيناً بالعف والدوران وحينا بالتنازل والانسحاب ، في سير ملتو لا يستقيم على قرار. وخلال المفاوضات، حاول سيبه افراغ اوروبا وصهرها من جديد ، وذلك بانشاء خط ستراتيجي يحمي فرنسا يكون حاجزاً من الدول الحليفة يمتد من هولندا الى البيامونت . الا ان مثل هـذا الافراغ يقتضي له نصراً مؤثلاً يكون حاسماً ، يجر وراءه استسلام انكلترا والنمسا معـاً . وسار ممثلو فرنسا الدبلوماسيون ومن بينهم برتلمي على مصانعة ملوك اوروبا ، فاعتمدوا سياسة كانت مزيجـاً من الواقعيـة والتقليدية والكلبية . ولم يكن المطلوب ، اذ ذاك ، وضع اخلاقية دولية جديدة واعادة القضية البولونية الى بساط البحث مثلا. فالمهم هو الوصول الى تفتيت هذا التحالف الاوروبي الذي يشكل بالفعل خطراً مميتاً على الثورة ، وتسجيل حقيقة النصر الفرنسي في معاهدة رسمية .

فقد عقدت بروسيا سلماً منفرداً ، في مدينة بال ، خلال شهر نيسان ١٧٩٥ بحيث تستطيع ان تتفرغ، في الشرق لمعالجة قضية بولونيا والمصاعب التي سببها هذا الاقتسام الثالث، لها ولحلفائها، فقد اعترفت اكبر قوة برية في اوروبا ، بالجمهورية وسلمت باحتلال فرنسا الضفة الغربية من الرين ويضم بعض الاجزاء بشرط التعويض عنها ببعض الاراضي عند عقد سلم عام في اوروبا . وتأتي بعد ذلك المعاهدة التي عقدت مع الايالات المتحدة ، في لاهاي بتاريخ ٢٦ ايار بعد ان اصبحت جمهورية باسم بتافيا تابعة للجمهورية الكبرى. وعندمـــا اقترب جيش بيشغرو نشبت ثورة في

هولندا اضطر معها حاكم البلاد العام للنجاة بنفسه والهرب الى انكلترا ، فقام الوطنيـــون يطالبون بدخول الجيش الفرنسي البلاد . واضطرت هولندا التنازل عن ممتلكاتها الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الرين متخلية بذلك عن قاعدة فلسنغ البحرية وتحولت مع اسطولها الى تحالف مع فرنسا ضد انكلترا ، وألفت مجلساً وطنياً يهيء البلاد دستوراً جديداً ويُعد لها الانظمة والمؤسسات الجديدة التي فُصلت على طراز الدستور الفرنسي الصادر في العام الثالث ، واخيراً عقدت الجمهورية في مدينة بال ، بتاريخ ٢٢ تموز معاهدة صلح مع اسبانيا تخلت هـذه الاخيرة بموجبها لفرنسا عن الجزء الذي لها في جزيرة دومنيك ، مقابل انسحاب فرنسا مـن الاراضي الاسبانية المحتلة . وستعقد في السنة التالية معاهدة تحالف وضمـان متبادل لسلامة اراضي البلدين .

ثالثاً – تتمة الحرب الاجتماعيـــة

انكسار اوروبا (١٧٩٥ – ١٨٠٢)

ها قد « طلع » اخيراً التحالف الاوروبي ، مع العلم ان جانباً كبيراً من دول اوروبا بقي في حومة الوغى . فانكلترا هي التي تقوم بتمويل الحلف وتأمين حاجاته المالية . فالخطر الاجتماعي المتمثل في الثورة والذي شكّل تهديداً موصولاً لاوروبا تضاعف وازداد حرجاً عليها بالضربة التي نزلت بها في بال والتي قضت على توازن القوى فيها . فمنذ ايلول ١٧٩٥ ، تم تجديد الميثاق الثلاثي في بطرسبورغ على اساس الوضع الذي كان قائماً قبل الحرب: ان اعادة الملكية الى فرنسا يستطيع وحده كبح جماح المطامع الفرنسية كما من شأنه ان يعيد البلاد الى حدودهـا الاولى . وقامت على الاثر مفاوضات فرنسية انكليزية باءت بالفشل فلم يكن من حل سوى الحرب الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً .

وحدة الهدف والوسائل والتكتيك

فالحرب الجديدة هي من الوجهة الفرنسية ، امتداد للحروب التي اندلع لهيبها عـام ١٧٩٢ – ١٧٩٣ ، سواء أاعترفت بذلك حكومة الديركتوار ام لم تعرف . وما من شأن قط لحادث انحياز باو آس الى جانب البندقيـة لقاء ٦٠٠،٠٠٠ ليرة ، وما لبيع تاليران نفسه من الانكليز ببضعة ملايين من أن يذكر . راي بأس من ان تصبح الدعارة ، حتى في اعين الباقين من الجيروندين امثال لارافليير ، اداة كفاح بالية لا تخـلو من خطر على مستعمليها انفسهم ؟ فلن يكفوا ، مع ذلك عن استعمالها والركون اليها ، بالرغم من خيبة الامل المريرة التي تركتها في النفوس . فقد استعملها مورو ، عام ١٧٩٦ ، على ضفة نهر الرين اليمنى وبوتيرا الذي قدم خصيصاً من بال ، راح يستعملها في مقاطعتي الصواب والبافيير وورتنبرغ ، مستعيناً على ذلك ببعض القدامى من اعضاء نوادي ماينس . وستقوم كل من حكومة مقاطعة ورتنبرغ وبادن بمصادرة املاك الكنيسة وبالغاء الحقوق والرسوم السيادية .

وفي ايطاليا يوجـه بونابرت ، منذ شهر نيسان ، من مدينة ميلانو ، نداء للايطاليين ، يدعوهم فيه الحرية ، وقامت فتن ثورية (يعقوبية) الطابع في هنغاريا حيث راح دعاة السلم يكاثرون من نشاطاتهم. وفي تركيا حيث بلغت الفوضى الضاربة اطنابها كل مبلغ وجعلت منها تربة صالحة، فقد اعطت فيها الدعاوة ثمارها المرجوة . وراح بونابرت يشجع هذه الحركة ، فاستقبل وهو في ميلانو وفـداً من اقوام الـ *Maniotes* قدموا من شبه جزيرة كورفو التي كانت قطب النفوذ الفرنسي في تلك الأرجاء . وقد لقي هذا النفوذ صدى بعيداً في جميع ارجاء اليونان ، اذ خطرَ لريغاس فلستنلس ان يقوم بتوحيد كل اجزاء شبه الجزيرة اليونانية تحت كنف اثينا . الا انه جرى توقيفه في فيينا ، في اواخر عام ١٧٩٧ ، وعُهد الى فريق من الاتراك مهمـة تصفيته بالخنق مع بعض رفاق له . وفي مصر ، احتفل بونابرت في مأدبة فخمة سخية بذكرى قيـام الجمهورية الفرنسية حيث كنا نرى جنباً الى جنب وثيقة اعلان حقوق الانسان والقرآن الكريم . وفي حملته على سوريا ، خشي الانكليز من أن تصل محاولة نابوليون نشر الديموقراطية ، الى العجم .

يجب ان نذكر هنـا بكلمة وجيزة خاصة ، الحركات الانكليزية الايرلندية الشعبية . اساس هذه الاضطرابات الازمة الاقتصادية التي نشبت عام ١٧٩٥ ، فجاءت نتيجة للهزة الاجتماعية التي بلغت الذروة في انكلترا عام ١٧٩٥ – ١٧٩٦ ، واعطت ابرز حوادثها وابعدها صدى عـام ١٧٩٧ ، بالتمرد الذي اعلنه الاسطول الانكليزي . فقد تألفت في كل سفينة لجنة خاصة من بحارتهـا ، وراحت اللجنة الـتي قامت على ظهر سفينة شامبيون تطلب حماية الحكومة الفرنسية التي وتم لها وحدها ان تدرك على وجهها الصحيح ، حقوق الانسـان،.وقد راح كاننغ في كتابه *Anti - Jacobin* الصادر عام ١٧٩٧ يصور بونابرت ممثلاً للحزب الجهنمي . ويبدو ان الحوادث سارغم بت على طلب الصلح. فقوات الانزال البحرية في الجمهورية الفرنسية تضع نصب عينيها ايرلندا الثائرة ، بين ١٧٩٦ – ١٧٩٨ التي كانت تدعوها اليها وتنتظر وصولها بفارغ صبر. وفي هذا السبيل ، جُمعت اعتمادات في الولايات المتحدة الاميركية ، في الوقت الذي دخـل فتزوليام ، في همبورغ ، بمفاوضات مع فرنسا . وفي آخـر الامر انفجر الوضع في ايرلندا ، عن ثورة لاهبـة ، عام ١٧٩٨ ، دون اي انسجام في التوقيت بينها وبين محاولة الغزو . وهكذا تم لانكلترا ، على شاكلة فرنسا ، ولو متأخراً ، مقاطعة الفانديه الثائرة .

وفي ايلول ١٧٩٨ ، عُهد الى الزعيم البولوني كوشيوسكو ، بمهمة حمل الجنود البولونيين على الفرار من صفوف جيوش الحلفاء الـتي كانوا يخدمون فيها. هنالك طابور من الجنود البولونيين يحارب افراده تحت الأعلام الفرنسية الى جانب فرقة المانية واخرى ايطالية .

فقبل معاهدة بال وبعدها ، وبالرغم من التحول الذي طرأ على الرأي العـام في فرنسا ، اصطبغت الحرب الاوروبية بطابع حرب اجتماعية في الداخـل والخارج . فقـد خضع جيش الجمهورية،من جهته ، لتغييرات عميقة ، فمنذ ترميدور بلغت نسبة الفارين من الخدمة العسكرية

نصف الذين هم في الخدمة الفعلية الذين أربى عددهم على ٥٠٠،٠٠٠ . وقد جرى تسريح جانب كبير من الجيش في اعقاب معاهدات ١٧٩٥ . لمن بقي منهم في خدمة العلم ، اتخذوا من الخدمة في الجيش مهنة لهم او حرفة ، كما رأوا في الحرب حلاً لمصاعب الحياة ومشكلاتها ، اذ باستطاعة الفرد هنا اكثر من أية حرفة او وظيفة اخرى ، ان يقطع مراحل التقدم ويرقى الدرجات بسهولة دون ان تتوفر له اسباب التربية والتعلم . الا ان حب الطمع وشهوة الربح والافادة لا تتنافى قط والروح الوطنية وحب الاوطان . والحماسة التي ميزت ، عام ١٧٩٢ لم تزل متأججة في النفوس . « ففي نظرنا ، يقول ستاندال ، ان سكان بلقي اوروبا الذين يقاتلوننا البقاء تحت نير الاستعباد ، لم يكونوا سوى معتوهين حريين بالشفقة ، او خطكة باعوا انفسهم لهؤلاء الطغاة المستبدين الذين يحاربوننا » . ومع ان التفاني في خدمة السيد يتمثل بالتفاني بحب الوطن ويذوب فيه ، فنحن امام جيش جمهوري في الصميم ، هو على استعداد كلي لتدريخ عواصم جديدة .

فالمصادرة المستمرة وقانون جوردان الصادر عام ١٧٩٨ الذي فرض الخدمة العسكرية على الجميع ، ساعدا كثيراً على مد الجيش دوماً بدم حار جديد . الا ان تمويل هذا الجيش ، وتأمين العُدد والعتاد الذي يحتاج اليها عن طريق الاسيلياء ، لم يعد سهل المأخذ . ومثل هذه الصعوبات اعترضت المؤتمر الوطني من قبل ، عام ١٧٩٥ . وقد اصبح من الضروري ، والحالة هذه ، لا سيا بعد انقضاء العام الثاني من التقويم الجمهوري ، وقبل عقد المعاهدة البروسيانية ، ان تموّل الحربُ الحربَ وان تغتذي بها . وهذه الحرب نفسها ستعمل على تأمين العيش للجمهورية كلها حتى والقادة انفسهم . فالامة العظيمة لا تهيء مجاناً ، اسباب التقدم لهذه القارة الاوروبية التي ترزح تحت عوامل التأخر والتقهقر .

فمنذ ان انطلقت شرارة الحرب الاولى ، عهدت حكومة الديركتوار الى بونابرت ان يحسن الاستفادة من انتصاراته الداوية ومن فتوحاته العريضة ، الى اقصى حدود الافادة ، وهي مهمة سيقوم بها على الوجه الامثل . والدرس الايطالي الذي جاء مثالياً ، يجب الا يُخلط بينه وبين الدروس او الامثلة الاخرى . فالقائد العام سيصبح المموّل الاكبر للنظام القائم في البلاد ، والاموال ستجري مصادرتها من صناديق اصحابها او من صناديق الائتمان حيث تودّع ، وعلى البابا ان يدفع ، من جهته ، القسم الاوفى الذي قد يكون تجاوز ١٠٠ مليون ليرة ، ستُستخدم بعض كنوز برن التي سقطت بيد الغزاة ، في تمويل الحملة الفرنسية على مصر . والى هذا يجب ان نضيف المواد العسكرية الاخرى ومصادرة اي مادة اخرى حتى اعلاق الفنون الجميلة . ونهب ايطاليا وتجريدها من خيراتها كانت عملية عادت على فرنسا بخيرات اكثر بكثير مما عادت عليها عملية نهب المقاطعات الرينانية ، عام ١٧٩٤ . وقد خطر احياناً للسكان ان يمارضوا وان يعترضوا على اعمال السلب هذه فيتعرضون لعمليات كبت وقمع دامية . وقد اصدر بونابرت امره يوماً باضرام النار ببلدة بيناسكو وان يقتلوا كل سكانها .

وفي مدينة بالي اقتضى الامر يوماً اطلاق النار على اعضاء المجلس البلدي ، وأخـذ ٢٠٠ مـن الرهائن كما أطلق بونابرت لأفراد جيشه العنان بنهب كل ما وقعت عليه ايديهم لمدة اربـع وعشرين ساعة .

وهكـذا تجاوزوا بعيداً الاعراف والعادات التي كان معمولاً بهـا في العـام الثانـي من التقويم الثوري . وستعرف الثورة الفرنسية ، حتـى في ايطاليـا ان تحتفـظ بولاء المخلصين لهـا من يعقوبيين واحرار ، وقـد عـرف هـؤلاء كيف يصـانعون الغـازي ويفوزون برعايته .

بونابرت في ايطاليا

بالرغم من التراخـي والتفكك الذي ابتليت بـه الدوائـر الحكوميـة والتصدع الذي ألمّ بالرأي العام ، فقد كانت مهمـة فرنسـا ، في نهاية الامر ، أيسر ممـا كانت عليه عـام ١٧٩٣ . ومـع ذلك ، فقد مرت سنتان بين معاهدات مدينـة بال والمفاوضـات التمهيدية التي جـرت في ليـوبن والـتي ادت الى انهيـار النمسـا واستسلامهـا .

ففي الحين الذي كان فيه القادة مورو وجوردان يرسفان مترددين على ضفاف الرين راح بونابرت يقود جيوشه المتجمعة عبر ايطاليا الشمالية ويطوف بها من ضواحي مدينة نيس الى أرباض مدينة فيينا . ابتدأت حملته هذه في ١١ نيسان عام ١٧٩٦ ، فتمّ له في أقل من خمسة ايام ، فصل النمساويين عن فرق البيامونت ، فدب الرُعب في بلاط تورينو ، وجرى توقيع المدنة في شيراسكو في ٢٢ نيسـان . والبيامونت الذي اصبح اعزل من السلاح ، اضطر التخلي عن مقاطعتي السافوى ونيس . وأخذت الضربات القاصمة تنهال اذ ذاك على النمساويين ، ممـا اتاح لبونابرت الدخول الى ميلانو ، في ١٥ ايار فاستقبله الاهلون استقبال الفاتحين . واضطـر درق بارما ودوق مودينو والبابا وملك نابولي لطلب السلم وعقد الصلح . واجتاز نهر الأدّا في ٩ ايار على جسر لودي ، واذ بالجيش النمساوي بقيادة برليو يرى نفسه محتجزاً في مدينـة مانتو . وقد استنزف الامبراطور قواه في محاولة الاستيلاء على الموقع في نهاية السنة لانقاذ جيشه المحصور . وتمكنت الجمهورية ان تسجل عليه سلسلة من الانتصارات الداوية في كستغليوني وبسّانو وأركول ، واخيراً في كانون الثاني عام ١٧٩٧ ، في موقعة ريفولي ، وسقطت مانتـو في ٢ شباط ، وبذلك أصبح نابوليون بونابرت حراً طليقاً ، فاندفع بكل قواه باتجاه فيينا ، عبر جبال الالب . وبعد ان حل هوش محل جوردان في قيادة جيش الرين اجتاز النهر مـع مورو . واذ ذاك ، لم تر النمسا بداً من الاستسلام فالقت سلاحها ارضاً ، ووقعت الهدنـة في ٧ نيسـان بعد المفاوضات التمهيدية في ليوبن .

وبعد ذلك بستة اشهر عقدت معاهدة كمبوفورميو التي تنازلت النمسا بموجبها لفرنسا عن المقاطعات البلجيكية واعترفت لها بحدودها على الرين مروراً بمدينة بال . وبالرغم مـن حكومة الديركتوار ومعارضته ، فرض بونابرت السلم الذي اراده على ايطاليا : فاوجد ثلاث

جمهوريات توابع في شبه الجزيرة الايطالية ، هي جمهورية ما وراء الالب *Rép. Cisalpine* التي تشكلت من مقاطعة الميلانية ولمبارديا بعد ان تخلت النمسا عنها في معاهدة كمبوفورميو وجرى توسيع رقعتها بضم مقاطعة فالتالين ومقاطعات اخرى اقتطعت من البندقية ، وممتلكات البابا ودوق مودينو ؛ وجمهورية عبر بادوا *Rép. Cispadane* التـي انشئت على حساب الآخرين والتي لم تعتم ان انضمت الى جمهورية ما وراء الألب، واخيراً الجمهورية الليغورية التي حلت محل جمهورية جنوى القديمة . وهنالك جمهورية اخرى حرية بكل احترام قامت وزالت سريعاً ، من البندقية ، التي ترك امرها النمسا تعويضاً لها مما خسرته ، عن الممتلكات البرية حتى نهر الاديج . فالصلح النابوليوني ابتدأ بما يشبه «بولونيا» . فليس ما يحمله على ان يترسم على الدبلوماسية التي جرى عليها العهد البائد القديم .

فالفتح الجديد له خصائص مفردة من نوع خاص . ان تمثيل البلدان المفتوحة وصهرها وانشاء دويلات توابع تدور في فلك الجمهورية الفرنسية قلب الوضع السياسي والاجتماعي في قسم كبير من اوروبا رأساً على عقب وظهرا لبطن وارتفع بذلك عدد المحافظات الفرنسية من ٨٣ محافظة الى ١٠٢ ، وسياسة الضم التي سارت عليها حكومة الديركتوار منذ معاهدة كمبوفورميو أكسبت فرنسا مدينة مولهوز ومونتبليار وجنيف حاضرة محافظة ليمان . وهكذا دخلت كل هذه المدن ضمن الوحدة الفرنسية . وفي كانون الاول عام ١٧٩٨ ، اعيد احتلال البيامونت بعد ان فر ملكه في اثر الدسائس والمؤامرات التي دبرها ممثلو فرنسا في هذا البلد .

الجمهوريات الشقيقات

قامت الى جانب فرنسا والتف حولها سلسلة من الجمهوريات التوابع لها دساتيرها ونظمها الخاصة مستمدة كلها من دستور العام الثالث ومفصلة على شكله ومثاله . فجمهورية بتافيا التي أنشئت من قبل عدّلت دستورها عام ١٧٩٨ الى « جمهورية واحدة لا تنفصم عراها ، أساسها سيادة الشعب وسيطرته » . فالقوائم الانتخابية الموضوعة في البلاد لا يمكن لها ان تضم اسم اي شخص ما لم يقسم مسبقاً انه يحمل « حقداً أزرق» لحكومة الستاتهودر والروح الفدرالية والارستوقراطية والفوضى . يُحرم من حق الاقتراع ، لمدة عشر سنوات على الاقل ، كل من عُرف بخصومته وعدائه « لمبادىء الثورة المعلنة عام ١٧٩٥ ». فقد زخر كل مكان في ايطاليا بهذه النوادي ترفرف فوقها الحرية والاعلام المثلثة الالوان : الازرق والابيض والاحمر ، التي تم اقتباسها عام ١٧٩٤ . والدساتير الموضوعة عام ١٧٩٧ ، والموطىء لها بوثيقة اعلان حقوق الانسان وواجباته لا تقل بشيء عن دستور جمهورية بتافيا . فالمحتل لا يطبق النصوص بحرفيتها والقادة الفرنسيون لهم فرحتهم الكبرى في تعيين المرشحين للانتخابات ، وتنقية الادارة من كل ما يشينها ، مطبقين في الخارج ما طبقه الديركتوار لحسابه في فرنسا . وكثيراً ما هيّجوا الروح الوطنية بتدخلهم في شؤون البلاد الداخلية ،باعثين اليأس في قلوب حلفاء فرنسا ونصرائها،منتقصين من كرامتهم وخافضين من

• افيـــنيون	ــــــــ	- - - - -	ـــــــــ
قصبة المحافظة	حدود المحافظة	حدود ١٧٩٠	حدود ١٨٠٢

شأنهم . كل هذه التغييرات التي وقعت على حدود فرنسا بدت للاوروبيين نجاحاً مسرحياً للثورة العارمة . والسبحة زادت حباتها بانشاء الجمهورية السويسرية ، في نيسان ١٧٩٨ . وهكذا تمت تقوية حدود فرنسا في الجنوب الشرقي ، من مرتفعات الجورا حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، كما ان هولندا ، تحميها من الشمال . والنُظم الثورية تمتد وتتسع لتغشى املاك الكرسي الرسولي نفسه . ففي شباط من تلك السنة ، نودي في ساحة الفوروم بانشاء الجمهورية الرومانية . فلقد كان سبق للبابا ان ابرم معاهدة تولنتينو مع الثورة الجهنمية رقبلَ بالتنازل لها عن بعض ممتلكات الكنيسة. اما الآن فقد اصبح في قبضتها. وقد تم لبرتيه والفتنة الديموقراطية السيطرة على روما . فألقي القبض على البابا بيوس السادس وأبعد الى فرنسا حيث اسلم الروح بعد القليل من وصوله اليها .

الحلف الثاني

انكلترا وحدها بقيت واقفة على قدميها ، بعد ان تمكنت من عزل بونابرت في مصر التي تم له فتحها ، وذلك بقضائهـا ، في ١٨ آب ١٧٩٨ ، على الاسطول الفرنسي في موقعة ابو قير . ووقفت معها روسيا ايضاً التي لم يتم لها ان تظهر بعد في الغرب . فقد أطلت على الغرب بزمر ودف ، في ربيع ١٧٩٩ . فقد خلف القيصر نصف المعتوه بولس الأول الذي اقضّ مضجعه الخوف من اليعقوبيين ، منذ أكثر من سنتين بقليل ، الامبراطورة كاترين الثانية . فانضمامه الى الحلف الثاني الذي تألف في اواخر عام ١٧٩٨ ، من انكلترا والنمسا ، فتح لاساطيله مضايق الدردنيل واتاح له ان يرفع العلم الروسي على الجزر الايونية ، وسيبقى العلم الروسي مرفرفاً عليها حتى واقعة تلسيت ، وقد اتيح الجيش الروسي – النمساوي بقيادة سوفوروف ان يفتح ايطاليا الشمالية برمتها وان يتجه في آب نحو محافظة الدوفنية . ودخل كوراكف الملقب وفكي (أي الروماني) سويسرا، ونزل جيش انكليزي روسي في هولندا. والنمساويون الذي حققوا انتصارات لهم في المانيا منذ شهر آذار ، أخذوا يهددون الحدود الفرنسية من جهة الرين . وقد راح الحلفاء يضعون خطة شاملة لاعادة الاوضاع الى نصابها الاول،ليس في ايطاليا فحسب حيث يرغب سوفوروف باعادة الوضع الى ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي، بل في كل مكان ، وذلك بمساعدة خصوم الثورة واعدائها الذين اخذوا يعملون على اثارة مقاطعة الفرانش كونتيه والجنوب والغرب .

وقد اتخذت الشؤون الحربية اتجاهاً جديداً في مطلع الخريف ، اذ تمكن مسينا من سحق الجيوش الروسية بقيادة كورساكوف ، في زوريخ ، في ٢٥ – ايلول ، كما ارغم بعد ذلك ببضعة أيام الجنرال سوفوروف الذي كان يزحف على زوريخ على التراجع والتقهقر نحو الشرق في أحوال مضنية وظروف مهلكة . وفي الوقت ذاته تمكن الجنرال برون من كسر الانكليز والروس معاً في هولندا وارغمهم على الانسحاب من البلاد وركوب البحر . واذ ذاك استدعى الامبراطور بولس الاول جيوشه ، فاذا بفرنسا تجد نفسها ، كما كانت عام ١٧٩٥ ، وجهاً لوجه ، مع النمسا لوحدها تقريباً في القارة . فالقنصل الاول الذي فاز بالنصر في مارنغو ، في حزيران ١٨٠٠ ،

املى على العدو شروط الهدنة ، الذي تعهد باخلاء لمبارديا والبيامونت . وفي كانون الاول ، حقق الجنرال مورو في هوهنلندن انتصاراً مبيناً ، فتح أمامه طريق فيينا . فلم يعد أمام النمسا الا الرضوخ والاستسلام وتوقيع شروط السلم بعد ذلك بشهرين ، في لونفيل ، فجاءت هذه المعاهدة تؤيد وتؤكد التنازلات الارضية التي نصّت عليها معاهدة كمبوفورميو ، والاعتراف بالجمهوريات التوابع التي انشئت في ايطاليا . باستثناء القطعة التي احتفظت بها في مقاطعة فنيسيا ، فقد تخلت النمسا بالفعل عن كل ايطاليا ، للجمهورية الفرنسية .

وجاء في نهاية الأمر دور انكلترا التي لم تقل رغبتها في السلم عن رغبة فرنسا فيه . وكانت الاضطرابات الديموقراطية لا تزال تمزق شعبها وارضها ، ، وقد زاد الاضطرابات تأججاً ولهيباً نشوب ازمة اقتصادية ، بلغت فيها اسعار الحبوب رقماً قياسياً في القرن التاسع عشر . وتقرب بونابرت من الدول المحايدة التي ألـفت من ضمنها عصبة قصيرة الأمد ، للدفاع عن حرية التجارة تألفت من قيصر روسيا ومن بروسيا ضد انكلترا . وقد قدّم بت استقالته قبل توقيع معاهدة لونفيل ببضعة أيام . وجرى التوقيع على مفاوضات لندن التمهيدية في أول تشرين الاول ١٨٠١، كما رقعت معاهدة السلم في اميان *Amiens* ، في ١٥ آذار التالي . فاعادت انكلترا الى فرنسا وحلفائها الاسبان رجمهورية الباتاف المستعمرات التي استولت عليها باستثناء مستعمرة الكاب وسيلان وجزيرة الثالوث ، هذه الجزيرة الجميلة التي من غلالها السكر . وقد قبلت تحت شرط بالتخلي عن مالطة . وفرنسا من جهتها ، اعادت مصر الى أصحابها . والمهم ان كل شيء تم بصمت وسكون : فبلجيكا وضفة الرين اليسرى واوروبا القارية الجديدة وسيطرة فرنسا الثورية.

والصراع الضخم الذي اقام الدول بعضاً على بعض لم يعد قط حرباً بين مجتمعين بل هو عراك في سبيل اقتسام العالم ، هو منافسة حول السيطرة ، كما بدا هذا الصراع مجهوداً ضخماً تقوم به الدول ، بعد ان اختل ميزان التوازن الدولي في اوروبا ، محاولة اعادة هذا التوازن ، في هذا الوقت بالذات الذي يعمل فيه التجاوز النابوليوني على إذكائه واهاجته .

الفصل الثالث

نابليون والعالم

(١٨٠٢ - ١٨١٥)

اولاً - اقتدار نابليون ١٨٠٢ - ١٨١١

المعسكر النابوليوني وموقف الدول التوابع

تألفت الجمهورية ، عام ١٨٠٢ من ١٠٨ محافظات بعد ان ضمت اليها البيامونت . اما قوتها السكانية فكانت تعادل ، الى حد بعيد ، قوة روسيا من هذه الناحية . فالكتلة الغربية بما لها من دول متحالفة او واقعة تحت الحماية تمتد من قادس جنوباً الى بحار الهانزا شمالاً ، ومن برست غرباً الى انكونا شرقاً . ففيها أكثر من ثلث سكان القارة الاوروبية .

وموقف الدول التوابع تميز منذ نشأة الحلف الثاني بانضباطية أكبر سياسياً وادارياً واجتماعياً . فقد جرى انتخاب بونابرت ، منذ مطلع السنة ، رئيساً لجمهورية ما وراء الألب سابقاً بعد ان اصبحت الآن الجمهورية الايطالية . وبدلاً من الدساتير الديركتوارية حلت الآن دساتير « قنصلية » ، الى ان تحل محلها في العام الثاني عشر من التقويم الجمهوري دساتير امبريالية . كذلك اخذ بالارتفاع عدد الدول التوابع ، الذي جاء علةً او معلولاً ، نتيجة للانتصارات المتلاحقة . وهكذا طلعت لاحقاً الدساتير الهلفتيكية (السويسرانية) سنة ١٨٠٢، و ١٨٠٣ ، والدساتير الجمهورية أو الملكية الهولندية ، عام ١٨٠١ ، و ١٨٠٥ ، و ١٨٠٦ ، والقانون الدستوري للجمهورية الايطالية الذي ظهر في العام العاشر ، والقانون الدستوري لمملكة ايطاليا في سنة ١٨٠٥ ، ولمملكة نابولي عام ١٨٠٦ ، ولدوقية فرصوفيا ، ولمملكة وستفاليا ، عام ١٨٠٧ ، وللممالك البافير واسبانيا، عام ١٨٠٨ ، ولدوقية فرانكفورت الكبرى عام ١٨١٠ . وقامت انظمة حكم تمثيلية من نماذج وانماط متنوعة جداً في قسم متزايد من بلدان اوروبا . ومخلفات الاعراف الماضية التي تفاوتت وضوحاً، ميّزت الى حد بعيد، دساتير الدول التوابع الجديدة الا انها اصطبغت أو تمازجت، على العموم ، مع اعلان حقوق الانسان الاساسية ،

غالباً ما كان بينها حرية الصحافة وحرية العبادة . كل هذه الدساتير تضع في يد النبلاء والاشراف الذين يُنتقون على أسس صعبة من شروط دفع الضرائب ، حق الاقتراع والتصويت على الضرائب والشرائع وفقاً لاحكام النصوص الرسمية ، التي يتوقف تطبيقها ، الى حد بعيد ، على الظروف السائدة ، أو على أمزجة الملوك وطباعهم . فروح الحكم الاستبدادي أو الطغيان يبقى قائماً متحكماً . فملك ورتنبرغ يكاد لا يستفتي بشيء ، مجلس شورى القوانين . فالامثولة الفرنسية حاضرة امام الاذهان في كل مكان مع المخالفات والنواشز النابوليونية ، وغيرهما من ضروب والوان المخالفات التي وقعت في الخارج . فنابوليون يطرح جانباً بالمجلس الايطالي . ومراقبة الجرائد والمسارح لم تبارح اي مكان . ومع ذلك فالحكم الاستبدادي المطلق والنظام الارستوقراطي ، في نكوص وتأخر متلاحقين، اينا كان . وفي كل مكان تسير في الطليعة ، البورجوازية والطبقات الوسطى ، حتى في هذه البلدان التي ما زالت طبقة النبلاء فيها وطبقة الاكليروس تحافظان على ما لها من تمثيل خاص بها . فاصحاب الاملاك والتجار ، ورجال الفكر واصحاب المهن الحرة يصلون على اقدار ونسب كبيرة ، الى عضوية المجالس والهيئات التمثيلية .

وهكذا نزع النظام السياسي الفرنسي ، على اقدار تختلف كثرة أو قلة ، لان يصبح النظام السائد في اوروبا . وكذلك قل عن نظام القارة الاداري . وهذه الروح الموحدة ذاتها التي هي روح الثورة أو روح الامبراطورية ، تدفع الناس على التخلص من سوء تجربة الادارات السابقة ، فيستعينون على ذلك ، بكل ما كانت له قدرات وقابليات ، في سبيل جعل البيروقراطية أكثر فعالية واقدر على جمع الضرائب وتحصيلها، وافعل في حشد الانصار والازلام والمحاسيب. فلو قيض الله لهذا النظام امداً اطول وبقاء اوسع وارحب لكانت اوروبا النابوليونية برمتها « كونت شعباً واحداً ولكان المسافر الذي يرغب في الارتحال وجد نفسه ، اينا توجه وانما هبط أو دبت رجلاه في وطن واحد مشترك » . ورجال الادارة الذين يجري انتقاؤهم علمياً يستمرون في تخاطبهم بالالمانية والايطالية ، مثلاً ، مع التزام كبار الموظفين بينهم تعلم اللغة الفرنسية . وانشئت في ايطاليا الشمالية مدارس ثانوية، منها مثلاً ثانوية ميلانو للاناث « التي كانت منقطعة النظير حتى في فرنسا نفسها » . وقد تكونت في شبه الجزيرة الايطالية فرقة هندسية عم نشاطها الولايات الالبيرية نفسها ، كانت تعنى بالجسور والطرقات ، كما قامت فيها مصالح مستقلة تعنى بادارة التعليم ، ومصلحة الرهونات ، وشيئاً فشيئاً ادارة مركزية في المحافظة . وفي الطرف الابعد من المدى النابوليوني ، قسمت دوقية فرصوفيا الكبرى ، الى محافظات واقضية، كما قام النظام المالي فيها على مثال النظام المالي في فرنسا ، تحت مراقبة دائرة التفتيش المركزي . وقد رحبت السلطة ، في كل من البافيير وورتنبرغ ، خير ترحيب ، بهذه المستجدات الادارية ، وحرصت على تقوية فعاليتها الادارية .

الثورة وانتشار فتوحاتها الاجتماعية

والاهم من هذا كله – وهنا الميزة الرئيسية – هو ان النظام الاجتماعي الفرنسي ، نزع قبل كل شيء ، الى العالمية او الشمول ، داخل الحدود الفرنسية ، وهو شيء طبيعي جداً ، هذه الحدود التي كانت تتسع باستمرار . فرعوية الامبراطورية تولي صاحبها ، قبل كل شيء ، المساواة المدنية والحرية دون ان يضطر يوماً بعد يوم ، لفتح عيانه ، ودفع ضرائب سيادية ورسوم اخرى ، وكلها عوائد تتلمس ظلها في كل مكان ، باستثناء الولايات الإلليرية . وفي جميع المناطق التي تتألف منها هذه الكتلة ، نرى الضربات القاصمة تنهال على الاقطاعية وعلى النظام الطبقي القديم . فوثيقة اعلان حقوق الانسان تأتي ديباجة الدستور البتافي المعلن عام ۱۸۰۱ ، هـذا الدستور الذي ينادي بالمساواة المدنية ووجوب الغاء الرسوم الاقطاعية . والدستور السويسري يعلن امكانية افتداء عوائد الارض الدائمة ولا سيا الاعشار ، وقانون الوساطة الصادر عـام ۱۸۰۳ ، يعلن مبدأ المساواة المدنية. ونابوليون يقسم عام ۱۸۰٥ ، بعد ان نودي به ملكاً على ايطاليا ، يميناً دستورية مشابهة اليمين التي يؤديها رئيس الجمهورية الفرنسية ، فيقسم بالله العظيم : « ان يحترم المساواة في الحقوق ... واستحالة الرجوع عن بيع الاملاك الوطنية ...» وفي سنة ۱۸۱۱ ، تبدو المساواة المدنية القسطاس الفصل الذي تسير عليه الدول التوابع . والاسس الزراعية التي ارتكز اليها العهد البائد لم يعد لها من وجود ، او هي في طريق الزوال الى الابد . فاملاك النبلاء وغير النبلاء هي سواء امام القانون ، وباستطاعة الصعاليك ان يصبحوا من اصحاب الاملاك . والغـاء رق الأرض يحرر ليس الانسان فحسب ، بل ايضاً ، اليد العاملة . فقـد نصت على هذا الالغاء ، دساتير هولندا وايطاليا ووستفاليا والبافيير وغراندوقية بيرغ ، واسبانيا وهس . فالعبوديات الجسمانية زالت كلها من الوجود . الا ان الغاء العوائد قابلة الافتداء ، والغيت فقـط السخرات التعسفية . اما في ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، فقد احتفظ الناس بالعوائد التقليدية . وكثيراً مـا يضطر الفلاح تحت ستار افتداء العوائد ، الى وضع يعمل فيه كرابع . وفي بولونيا نفسها ، هذه الرقعة الخاضعة للامبراطورية النابوليونية ، في بلاد عدوة ، اصبح نظام العوائـد المترتبة على الارض ، مخلخلاً . وفي سنة ۱۸۰۹ ، اغرق الفلاحون ، في مونستر ، تحت سيل من المطالب التي راحوا يتساءلون فيها عما اذا لم تكن الاراضي الواقعة على ضفة الرين الشمالية قـد اصبحت متحررة ، وهكذا نرى ان سياسة الثورة النابوليونية هي سياسة قـامت على المناسبات ، فاوجدت في المنطقة التي سيطرت عليها ، تنويعاً كبيراً . الا انه ليس من يشك قـط في توجيهاتها العامة . وهكذا فالنظام الاجتماعي القـائم في فرنسا ، نزع دوماً الى الانتشار والتوسع ، اينما كان .

والقانون النابوليوني الذي عم تطبيقه المجـال الدولي ، سيصبح ، ولا شك ، اداة مثلى في تأمين التزامن أو التوقيت المشترك . فبانتشار هذا القانون ، انتشرت المبادىء التي نودي بهـا عام ۱۷۸۹ : المساواة بين الناس والاراضي والتركات ، والتسامح الديني ، وعلمنـة الاحوال

الشخصية ، والطلاق . فقد وضعت هولندا ، هذا القانون ، موضع التنفيذ ، وفي سنة ١٨٠٦ ، 'رجم الى الايطالية بغية تطبيقه بين الايطاليين . وفي سنة ١٨٠٧ ،تبنته نابولي، بعد ان ادخلت عليه تعديلات طفيفة اقتضتها ظروف الكثلكة ، التي هي ديانة السواد الاعظم من سكان البلاد . كذلك دخل هذا القانون معظم الدول الألمانية، كما دخل معظم المدن الداخلة في الاتحاد الاقتصادي (*Hanséatique*) والى الولايات الإلليرية . وفي سنة ١٨١٠ تتبناه فرصوفيا ، ويراهنون على دخوله الى كل من اسبانيا والبرتغال .

وتستمر الثورة ، من جهة ثانية ، في خلق مناطق نفوذ اجتماعي لها في البلدان العدوة ، مع العلم ان الحرب كثيراً ما وقفت سداً منيعاً وحاجزاً دون هذا الانتشار وجرّت الى تعديل مبادئها أو الى مقاومتها ، مثيرة في وجه المستجدات الفرنسية ، الشعور الوطني . وهذا لا يمنع قط الجماهير من ان ترفع العلم المثلث الالوان وان ترتدي القبعة الحمراء ، خلال الانتخابات التي وقعت ، عام ١٨٠٢ في فوتنغهام . والقارة لم تكن معصومة قط او سليمة من هذا القبيل . فستعمل بروسيا من جهتها ، على الاخص ، لتخفيف من هذه المؤثرات وذلك عن طريق اصلاحات سياسية واجتماعية ، سنعود التكلم عنها بعد حين .

الجيش والتكتيك النابوليوني

هذا الحصار البري الضخم القائم في الغرب والذي يزداد ضخامة يوماً بعد يوم وتجانساً ، يقابله حشد بري جبار ، بامكان ثورة عارمة هوجاء ان تقوم وحدها به . فنابوليون لم يغير شيئاً في نظام حشد الجيش ولا في نظام تعبئته العام . فقد ابقى سائر المفعول ، جاري الاخذ به ، قانون جوردان الذي يحدد العدد اللازم في السنة وذلك بواسطة نظام القرعة . فعدد المدعوين للخدمة العسكرية ينمو باطراد سنة بعد سنة من جراء اتساع رقعة فرنسا ، الا انه عدد لم يتجاوز مجموعه في اي حال ٣٦ ٪ في مجموع المسجلين . وعملية المزج او الملغمة تستمر وتعمم : فالقدامى في الجيش يتولون تدريب الشبان خلال الحملة نفسها . والترقية هي من نصيب من يتحلون بالشجاعة والبسالة اكثر مما هي من نصيب اوفرهم علماً ومعرفة . وقد فتحت الترقية ، امام الطبقات الوسطى امكانيات رحبة وفرصاً ذهبية للترفيع والتقدم . فالجهاز الحربي لم يتغير ولم يتبدل . وحرص نابوليون على تقوية جهاز المدفعية التي بالرغم من عجز مصانع الحرب كان لها شأن كبير ومساهمة واسعة في تقرير مصير الاشتباك الحربي . والحرس ، هذه المنظمة الجديدة التي تشكل قوة بوليسية من الدرجة الاولى ، يؤلف من ناحية ثانية جهازاً مستقلاً ، كما يؤلف في نهاية المطاف ، احتياطياً ثميناً .

واذ رفض نابوليون العودة الى عملة الورق ، فقد آثر ان يقوم بحروب قليلة الكلفة ، سريعة الفعالية ، نظراً لصعوبة التموين . فالحرب الخاطفة تتفق تماماً ومزاجه الخاص . فهي تحافظ ، في الصميم ، على مبدأ التكتيك والستراتيجية الذي سارت عليه جيوش الجمهورية .

فالمعركة التي تشترك فيها الكتلات الحربية، يتركز الهجوم فيها بالدرجة الاولى على العدد. فالعدد يزرع الرعب في الخصم ويرهبه. فشجاعة الجند ونشاطهم وقوة احتمالهم، وتفانيهم في ساحة الوغى، كل هذه العناصر تساعد القائد وتؤازره في المبادرة التي يقوم بها. وعبادة الامبراطور تحل محل عبادة الجمهورية الشخصية وتتلبّس قيمتها المعنوية، كما يحل الشرف محل الروح الوطنية. وكلما ازدادت هذه العبادة وقويت تناقصت، من جهة ثانية فعالية هـــذا الجيش الذي سيحارب بنشاط اقل وبروح أخف في اوروبا الشرقية، ليس بالنسبة للظروف المحلية والجغرافية القائمة فحسب، بل ايضاً لانخفاض محسوس في قيمة افراد الجيش وقواده والمارشالية، وللمساهمة الكبرى التي طلب من الدول التوابع تقديمها للجمهورية.

الوضع الدولي

وهذه القوة الديموغرافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية الضخمة التي تمثلها الثورة النابوليونية، جاءت الاوضاع الاقتصادية تزيد من فعاليتها. فبالرغم من الحرب ومن الحصار القائم، كان الوضع الدولي، في مجموعه، حتى نشوب الازمة بين ١٨١٠ – ١٨١٢، ملائماً للغاية.

لا شك ان الحصار البري ألحق بالنوافذ خسائر فادحة. فالمرافىء اعتراها الكساد والتجارة مع المستعمرات أصيبت في الصميم. وقـــد عجزت بعض الدول التوابع عن تصريف انتاجها الزراعي ومحاصيلها من الخشب. وكان من الضروري تكييف التبـــادل التجاري مع الظروف الجديدة، واعداد الطرقات وجعلها صالحة للمرور والتنقل في كلا الإتجاهين. فالمحاور الرئيسية تنطلق من ستراسبورغ ومن ليون. فالاولى تؤمن الاتصالات بالمانيا، والثانية بايطاليا، الا ان المواصلات تصطدم هنا، بجبال الألب. وقد انجزت عام ١٨٠٥، طريق مجاز السمبلون، وسنة ١٨٠٦، الشعبة المارة بجبل سني، وفي سنة ١٨١٠، شعبة الكورنيش حتى مدينة سازيا، واخيراً مددوا المواصلات البرية باتجاه راغوز وليبـــاخ لتسهيل وصول الحرير من بلدان الشرق الادنى. وبالرغم من اهمية حجم البضائع المنقولة عبر هـــذه المسالك والممرات، فقد قصرت جداً عن تعويض النقل البحري. وقـــد ابى نابوليون الاخذ بفكرة انشاء مناطق اقتصادية تقتصر من المسافة المقطوعة وتُحد منها. فقبل ان يفكر باوروبا كانت فرنسا تهمه بالاكثر. وعبثاً اقترحوا عليه انشاء اتحــــاد جمركي الماني واتحاد جمركي ايطالي. فهذا العابث الاكبر بالحدود والمقوض لها، آثر بالاحرى استمرار الحدود والحواجز الجمركية. فقد اغلق في وجه انكلترا موانىء الدول التوابع ولم يفتح لهـــا بالمقابل، الاسواق الفرنسية، باستثناء ايطاليا. وهكذا بقي النظام الاقتصادي في اوروبا بعيداً عن كل مركزية وتضرّس كثيراً من هذا التقسيم الجغرافي ومن الجمارك الداخلية التي بقيت دوائرها قائمة.

واذ كتب على اوروبا ان تعيش ضمن اقتصاد مغلق، فقد عرفت مع ذلك ان تكيف نفسها وفقاً لهذه الظروف الاستثنائية التي عاشتها اذ ذاك. فبعد ان تخلصت من المنافسة الانكليزية،

اخذت الصناعة المحلية والاقليمية تتطور وتنمو بسرعة من ذلك مثلاً صناعة الخرضوات وصناعة الاسلحة في مقاطعة تورنج حتى ان صناعة نسج القطن اخذت تزدهر في الساكس . وصناعة سكر القصب نمت كثيراً في منطقتي فرنكفورت ومجدبورغ . وقد عاد الحصار البري بفائدة عظيمة على البلدان المجاورة لفرنسا كسويسرا وايطاليا الشمالية . وارتفع الدخل القومي في اكثر هذه البلدان . واكثر من ذلك ايضاً الارباح التي حققها ارتفاع الاسعار بالعملة الذهبية للمنتوجات الصناعية والزراعية . ووضع فرنسا الذي سبق وصفه من قبل ، توفر مثله من جديد هنا . فالبورجوازية ، هي المستفيدة الكبرى من ارتفاع الاسعار ، هنا كما في فرنسا ، وعلى هذا قس ايضاً المجال الزراعي . فالمزارع الكبير وكبار الملاكين توفرت لهم مقادير كبيرة قابلة للاتجار بعد ان ادّى الغاء الضرائب والرسوم السيادية الى ازدياد محسوس في عددهم . فالحياة المادية وحركة الاعمال جاءت في صالح هذه الفئات النبيلة صاحبة النفوذ ، بعد ان دعاها النظام القائم للمساهمة في حياة البلاد السياسية والتحرر الاجتماعي .

النبوغ النابوليوني

هذا الحصار البري الضخم والمواد الجسيمة التي يتناولها يمثل ذرائع نبوغ واساليب سياسية لم يعرفها للآن تاريخ العصر الحديث ، وهذه الوسائل الهائلة هي بتصرف نبوغ فرد واحد أحد : نابغة حرب ونابغة سلم ، ونابغة سرعة حركة ونابغة فعالية يزيد من طاقتها مخيلة رومنطيقية ، جامحة ، ويحركها مزاج مغامر لبق ، وسار في ركابها وعمل في خدمتها ، حتى معركة إينا حظ يفلق الصخر ، بسمله القدرطويلا وقد توفرت لعبقريات ومهارات من اقوى ما عرفه العصر ووسائل غلابة ، قاهرة ، بطاشة .

في وجه هذه الكتلة ، كل ما تبقى من اوروبا لم يعرف ان يؤلف كتلة أخرى تجابهها . وشعور هذه الكتلة ليس من يرتاب فيه . فالالماني فردريك دي جنتز الذي نقل بورك ومالية دي بان الى الالمانية ، والذي سيضع نفسه قريباً في خدمة بلاط فيينا ، عبّر عنه خير تعبير ، عقب معركة مارنغو ببضعة أيام . فقد تنبأ بقرب نهاية العالم أمام التقدم الذي لا يقاوم لحققه الثورة الفرنسية .

سيقوم في وجه المجتمع البشري بكامله عصر هائل ، من شأنه ان يقلب ، كما تحدثني مشاعري ، كل النظم القائمة وكل المبادىء التي يقوم عليها هذا المجتمع . فالجيل الحاضر سيغرق في لجج من الشرور والويلات على يد الثورة التي لم تبتلع حتى الآن سوى ضحاياها الاولى .

سواءٌ أُحكم على أوروبا بالموت أم لا ، فقد انهالت عليها الضربات القاصمة وقد خاضت الحرب متخاذلة الصفوف . فالفرق الروسية والنمساوية والبروسيانية والانكليزية لم تقم حتى الآن باي اتصال بعضها ببعض في الغرب . وهذه الشعوب لم "تجند" على هذه الفرق والوحدات لا بجسمها ولا بروحها .

ثانياً – الفتوحات النابوليونية [1]

وهذا الخطر الوطني والاجتماعي الموحد الذي تشكله القوة الفرنسية الرهيبة والذي يرزح على صدر اوروبا ، لم يكن ، عام ١٨٠٦ ، ليلتسم لاكثر من هدنة عابرة . فبعد ان وصل نابوليون بانتصاراته الداوية الى رئاسة البلاد وتولى قيادتها لم يكن ليرضى او ليسلم بان يضحي بأي جزء من الأراضي التي احتلتها جيوشه ، مهما كان ضئيلاً . فالقسَم الامبراطوري الذي أقسمه في العام الثاني عشر ، فرض عليه ، من جهة أخرى، « المحافظة على سلامة وصيانة اراضي الجمهورية». واكثر من هذا ، فقد أخذ يفكر في مضاعفة المنافع والفوائد التي تمكن من تحقيقها حتى الآن . وتقوية لنفوذه وهيبته ، راح يثير او يخلق اوضاعاً مثيرة يتحتم عليه فيها ، عندما تحين الضربة الأخيرةالقاصمة وساعةالفصل ان يقول: «بلاها اوضعفها»تمثلاً بقول المؤرخ الفرنسي جورج لوفيفر .

وهذا النفوذ يريده في كل الحقول والمجالات : في عالم التجارة كما ساحة القتال . ولكي يعيد الازدهار الى فرنسا ، كما كانت عليه قبل الحرب ، والى البلدان التي فتحها ، اختط سياسة الاستبداد ، هذه السياسة التي سار عليها من قبل ، الاستبداد المستنير . الا انه لا يستطيع استعادة الاسواق العالمية الا على حساب لندن . فحكومة بت كانت قبلت ، بعض الشيء ، بمعاهدة اميان ، على امل منها ان تستعيد اسواقها في اوروبا الغربية . فسياسة كولبير التي اعتمدها نابوليون ، جاءت تعارض خططها ، كما ان سياستها الاستعمارية نمّت عن مخاطر اكبر وأدهى . فقد استطاع البريطانيون ان يحتكروا محاصيل الاقطار الاستوائية وان يفيدوا منها فوائد جمة . وكان الناس يستبضعون في لندن البن والشاي ، والسكر والافاويه . ولذا عزم بونابرت على ان يتخلص مرة واحدة من هذا الحكر ومن هذه الوصاية ، باستغلاله الى اقصى حد ، جزر الانتيل ، كما شرع باستثمار مقاطعة لويزيانا . الا ان استعادة العمل بالنخاسة بعد ان رأى فيها الضمانة الوحيدة لاعادة هذا الازدهار ، ادى الى نشوب الفتنة والعصيان في جزيرة سان دومنيك . وبالرغم من تدخل لوكلير وتوفيف توسان لوفرتور ، اعلنت الجزيرة المذكورة استقلالها في تشرين الثاني عام ١٨٠٣ . وقد اصيبت فرنسا ، في السنة نفسها بفشل آخر في مقاطعة لويزيانا . فالحملة التي قام بها الجنرال فكتور اهاجت الولايات المتحدة الاميركية ، ولذا آثر بونابرت ان يدخل معها في مفاوضات انتهت ببيعه المقاطعة المذكورة بـ ٨٠ مليوناً . والبعثات التجارية التي ارسلها الى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، والى سوريا حتى الهند اقلقت جداً لندن والوزارة البريطانية . وهكذا بدا الصراع بين الدولتين الاستعماريتين امراً لا بد منه . فانكلترا التي شيدت قوتها على التجارة البحرية تحرص كل الحرص على ان تبقى في طليعة الدول البحرية ، كما انها رفضت ، من جهة ثانية الانسحاب من الموقع الستراتيجي المهم،

(١) راجع ص ٥٦١ ، خريطة اوروبا سنة ١٨١٠ .

الذي تمثله جزيرة مالطة ، بعد ان نصّت على هـذا الانسحـاب معاهـدة اميان ، وفقاً لشروط معقدّة .

والاصطدام بين انكلترا وفرنسا بدا امراً لا مفرّ منه، في القريب العاجل. ففي ايار ١٨٠٣، اصدرت الوزارة الانكليزية امراً بمصادرة كل السفن التي ترفع العلم الفرنسي . وجاءت ردة الفعل عند نابوليون ان امر بتوقيف كل الانكليز الموجودين في فرنسا ، كما اصدر اصـــره الجيوش الفرنسية ، باحتلال الهانوفر والموانىء الايطالية . وعرف ان يؤمن من جهة اخرى ، التعاون بين هولندا واسبانيا . ولكي ينزل بانكلترا ضربة قاصمة اخذ باعداد حملة غزو وإنزال في الجزر البريطانية ، وهي حملة وضع خططها عام ١٧٩٨ . فجمع في هذا السبيل ، اكثر من ٢٠٠٠ سفينة مسطحة الظهر ووضعها تحت تصرف الجيش الذي حشده حول مرفأ بولوني . ولكي يتمكن من النزول في انكلترا ، كان لا بد له من ابعاد الاساطيل الانكليزية والمانيا ، أقله لبضعة ايام ، فعهد الى الاميرال فيلنوف ، بعد نجاته من معركة أبوقير الجريئة ، بمهمة اجتذاب الاميرال نلسون الى جزر الانتيل ، بالتعاون على ذلك مع الاسطول الاسباني ، على ان يعود فجأة لبحر المانش بغية حماية عمليـة الانزال في انكلترا . وقد تمكن نلسون من تحطيم اسطول فيلنوف امام رأس الطرف الأغـــر ، في تشرين الاول ١٨٠٥ . وهكذا ربحت انكلترا الشق الاول . واحتفظت لوحدها بالسيادة على البحار . وكان عليها ان تحتاط لنفسها فتؤمن لها حلفاء اقوياء ، بين هؤلاء الملوك الذين يتهددهم خطر مشترك . ولكي تضمن تحالفهم معها ، فقد قبلت بتحمل الأعبـــاء المالية الباهظة ، مستعينة على ذلك باليسر والرخاء العام الذي تتمتع به انكلترا ، والازدهار الدولي الذي يطبع الوضع السياسي والذي غمر جميع البلدان ، فسهّلت عمليات القروض ، كما سهلت جباية الضرائب والرسوم المفروضة . وقد ردّت انكلترا على فرنسا ، بتجنيد الجنيه ، بقرض داخلي درّ عليها ٣٣ مليون ليرة انكليزية بينما لم يعطِ القرض الذي عقدته عـــام ١٧٩٢ سوى ٩ ملايين لا غير .

نابوليون والدول الكبرى في اوروبا

أرغمت النمسا على الخضوع فوقعت معاهدة لونيڤيل التي سمحت بادخال بعض تعديلات جغرافيـة على الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، قام به نابوليون عام ١٨٠٣. وجاء الفرمان (*Recès*) الذي صدر في شباط يخفض عدد الوحدات السياسية التي تتألف منها الامبراطورية المذكورة الى ٨٢ وحدة، ويُعلمن الامارات الكنسية لمصلحة كل من بروسيا والباڤيير. وبذلك اصبحت غالبية الناخبين فيها من البروتستانت مما اقلق بال النمسا وازعجها كثيراً . ومن جهة اخرى ، ان ضم البيامونت ، منذ ايلول ١٨٠٢ ، وتوسيع رقعة الجمهورية الايطالية ، والمشارفة على سويسرا بعد ان اصبح بونابرت ، الوسيط ، في مطلع عام ١٨٠٣ ، اثار من جهة اخرى ، غضبها . فهي لا يمكن ان تسكت عن السيطرة الفرنسية على ايطاليا والمانيا ، كما لا يسعها الاطمئنان للخطر البعقوبي الثوري الجاثم على حدودها ، وكذلك انكلترا . فالموقف السلبي الذي وقفته حتى الآن

لم يعد من الجائز الاستمرار فيه . فهي ستخرج من سلبيتها لدى الفرصة الاولى . وبالفعل فالاتفاق الانكليزي الروسي الذي تبدى القيصر اسكندر الاول بشكل تحالف مقدس ، يؤلف نطاقاً صحياً يعزل فرنسا ويحكم المراقبة حولها بعد ان يعيدها الى حدودها الاولى . وقد انضم الامبراطور فرنسوا الاول لهذا الحلف في آب ١٨٠٥ ، وأمر جيوشه بالزحف على البافيير حليفة نابوليون . والحال قام الجيش الكبير بحركة التفاف بارعة وتحرك من بولوني الى الرين ، واخذ بمحاصرة الجنرال ماك في مدينة « أولم » ، الذي اضطر للاستسلام في ١٥ تشرين الاول . وبعد ذلك بشهر تقريباً ، دخل الجنرال موراث مدينة فيينا ، حيث رفرف العلم المثلث الالوان فوق المدينة التي صمدت في وجه الاتراك كما صمدت في وجه السويديين ، وجرى احتلالها لاول مرة . وفي الثاني من كانون الاول ، عند الساعة الثانية ، من بعد الظهر ، انهارت البقية الباقية من القوة الروسية النمساوية ، في معركة اوسترلتز . وعلى الاثر انسحبت روسيا القيصرية من الحلف المقدس . وقد قبلت بروسيا التحالف مع فرنسا مقابل السكوت عن احتلالها مقاطعة الهانوفر الانكليزية . وهكذا وُضعت شروط الصلح في بضعة اسابيع : ففي ٢٦ كانون الثاني ١٨٠٥ ، تم طرد آل هبسبورج نهائياً من المانيا ومن ايطاليا . واجبروا على التخلي عن لقب امبراطور . وهكذا فالصفحة المفجعة التي خُطّت في كمبوفورميو ، جرى تمزيقها بعنف في برسبورغ كما تم ضم مقاطعة البندقية الى الجمهورية الايطالية .

وهكذا قضي على الامبراطورية الجرمانية المقدسة لتفسح المجال امام طلوع الامبراطورية الكبرى التي بلغت الحد الاقصى من القوة . فالرومنسية النابولونية ، تعمل على افراغ اوروبا الآخذة بالذوبان ، حيث كان يمكن ان يحدث كل شيء ، ولو بصورة موقتة .

وفي تموز سنة ١٨٠٦ ، أنشىء حلف الرين الذي تشكل من عدد من الامراء الالمان انضمت اليهم البافيير وفورتمبرغ ، وقد كان نابوليون الحامي لهذا الحلف والمدافع عنه . هذه التغييرات الجديدة لم تكن لتترك بروسيا غير مبالية بالامر ، لا سيما وقد جرى البحث اخيراً في باريس ، خلال المفاوضات الانكليزية الروسية ، حول امكانية اعادة الهانوفر الى انكلترا ، مقابل بعض التعويض . واذ ذاك ينذر فردريك غليوم الثالث ، الامبراطور بوجوب التخلي عن المانيا والا فالحرب . وقد وصل بلاغ اعلان الحرب في ٧ تشرين الاول ١٨٠٦ . فقد ورد الجواب بعد هذا التاريخ بستة ايام ،اي من ٨ — ١٤ منه . ففي المساء من ١٤ ، في اثر معركتي إيينّا واورستادت ، زالت من الوجود دولة بروسيا التي انشأها فردريك الكبير . فبعد ان قُطعت اوصالها وجرى احتلالها وفرضت عليها غرامة حربية باهظة ، لم يبق لها وجود في خريطة اوروبا ، حتى عام ١٨١٣ . ودخل نابوليون برلين في ٢٧ منه ، حيث كان سبقه اليها الجنرال دافو المنتصر في معركة اورستادت ، بيومين . امـا الحملة ضد الروس فلستمر ثمانية اشهر ، اي من شهر كانون الاول ١٨٠٦ الى حزيران ١٨٠٧ . وسار نابوليون لملاقاة الروس . فأثار دخوله مدينة فرصوفيا ، حماسة البولونيين ، فاستقبلوه استقبال الفاتحين . الا انه لم يرد اعادة بولونيا الى الوجود ، بل

اكتفى بأن انشأ فيها ادارة مؤقتة، وعمل على تأليف جيش من ابنائها وعلى تأمين أودّ جيوشه. الا ان الحظ اخذ يتمرج في بروسيا الشرقية، عند مداخل روسيا وامام الشتاء الروسي. فمعركة «أيلو» لم تحسم الخلاف ولم تضع حداً الحرب. وفي حزيران يفاجيء نابوليون الجنرال بنيغسن في قواعده في فريدلاند ويحطمه. فاذا بنابوليون يقدم للامبراطور اسكندر الاول اكثر من هدنة، فهو يقترح عليه عقد تحالف معه ويتم الاتفاق في اجتماع تلسيت على حساب بروسيا وبالتالي على حساب انكلترا. وتفقد بروسيا مقاطعاتها الواقعة غربي نهر الايلب، هذه المقاطعات التي ينشئون منها مملكة تكون من نصيب جيروم بونابرت، هي مملكة وستفاليا، وتفقد كذلك هذه الولايات البولونية التي تكوّن غراندوقية فرصوفيا. وهكذا امتدت سيادة فرنسا وسيطرتها حتى نهر الفستول. وهكذا بالتحالف مع روسيا يلمع الحصار البري ضد انكلترا ليشمل كل اوروبا تقريباً.

الحصار البري ونتائجه

آمن نابوليون بفعالية السلاح الاقتصادي وجدواه، هذا السلاح الذي لم يثبت التاريخ فعاليته، منذ ذلك الحين. والمرسوم الذي اصدره في برلين في الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٨٠٦، عبثاً اعلن الحصار حول الجزر البريطانية، اذ لم يغير كثيراً من الوضع السابق، وذلك، لان اوروبا كانت تؤلف سوقاً رئيسية للصادرات البريطانية، فالاقسام الاخرى من العالم كان لها عندها حساب اكبر. فكانت البضائع الانكليزية تتغلغل في اوروبا محملة على سفن حيادية. وقامت انكلترا نفسها بردة فعل. فبعد ان قصفت مدينة كوبنهاغن، أسرت الاسطول الدانماركي، كما استولت على جزيرة هليغولاند وانزلت فيها حامية عسكرية، باتجاه سكانيا، محررة بذلك مداخل البحر البلطيقي. وقد اصدرت الوزارة البريطانية امراً بتفتيش كل السفن المحايدة التي تمخر عباب البحر. ورد نابوليون على هذا التدبير من ميلانو اذ يعلن عن عزمه مصادرة كل سفينة تقبل بتفتيشها. ولذا كان لا بد من اختيار احد الأمرين. ونجاح الحصار البري كان يتوقف الى حد بعيد على انتصارات الجيش الكبير. فضخامة هذا الجيش عرضته لمواطن الضعف والنفاذ، فاستمرت مدينة همبورغ مثلاً مركزاً لنشر وتوزيع البضائع الانكليزية التي كانت تصلها باستمرار بصورة متواصلة. وعلى هذا سارت ايضاً مدينة لشبونة بالرغم من وجود الجنرال جونو فيها، الذي جعل منها عام ١٨٠٧، مقراً له، بعد ان ارغم الاسرة المالكة على الانتقال الى البرازيل.

ولكي يؤمن الجنرال مورات المواصلات وحرية التنقل، احتل شمالي اسبانيا ثم مدينة مدريد نفسها، ممهداً الطريق، عن غير رضى، لاعتلاء جوزف بونابرت، عرش اسبانيا. وبذلك حمل الشعب الاسباني على الثورة والعصيان. وقد كان لهذا الحادث شأن كبير اذ قام لاول مرة منذ عام ١٧٩٢، حرب شاملة بين أمة وأمة أخرى. وتجنيد الانكليز الجنيه سيتيح لها تجنيد الرجال بصورة بديهية. ولكي يعيد نابوليون الوضع الى ما كان عليه اضطر لاستخدام الجيش الكبير، الا انه لم يتلق من القيصر الذي طلب منه اثناء المقابلة التي جمعتهما معاً في ارفورت،

مخالفاً ضد النمسا ، سوى جواب مبهم ، ولذا رأى نفسه ملزماً بقيام حملة سريعة في شبه الجزيرة الايبيرية،لم تأت بأثر قط . فحرب المناوشات التي قام بها الاسبان بعد إستباحته البلاد، في كانون الثاني ١٨٠٩ ، كانت اكثر فتكاً من قبل .

وراح البلاط الامبراطوري في فيينا يبني له قصوراً في اسبانيا . تمكن ولا شك من ان يعيد تشكيل جيشه بعد انهزامه الماحق في اوسترلتز ، ووضع في الخدمة جيشاً كان اقوى جيش بعد الجيش الفرنسي في اوروبا ، جاش بروح وطنية عارمة . الا ان السياسة التي اتبعتها حكومة فيينا كانت جد محافظة ، كما ان النمسا كانت وحدها في حلبة الوغى ، باستثناء انكلترا ، والفتن القائمة في كل من اسبانيا والبرتغال . انفجرت الحرب دون اعلان سابق من النمسا ، واستمرت ثلاث سنوات . وقبل مرور سنة واحدة تمكن نابوليون من الدخول الى عاصمة آل هبسبورغ ، من جديد . وصلح فيينا الذي جرى توقيعه في شهر تشرين الاول ، بعد انتصار الفرنسيين في معركة وغرام بثلاثة اشهر ، جرّد النمسا من مقاطعة غاليسيا ومن الولايات الواقعة على البحر الادرياتيكي . فالاولى اعطيت غنيمة باردة لفراندوقية فرصوفيا التي ترمز الى بولونيا ، بينما كانت الثانية ، من نصيب الامبراطورية الكبرى . وهكذا امكن احكام الحصار البري حول انكلترا بعد ان اضطرت النمسا للانضمام اليه والعمل بمقتضاه .

الامبراطورية الكبرى والنظام القاري في اوروبا

نزولاً عند متطلبات هذا الحصار ، استمر نابوليون في قلب اوروبا رأساً على عقب . فضم اليه الممتلكات البابوية وهولندا ومدن اتحاد الهانزا . ففي وجه هذه النمسا التي ُدرست َدرساً وُعزلت تماماً عن البحر ، وامام بروسيا التي قصت اجنحتها وأقصرت على بروسيا الشرقية والبراندبورغ وبوميرانيا وسيليزيا، انتصب هذا البناء الامبراطوري المشمخر الذي ضمت جنباته ٧١ مليوناً من البشر منهم ٢٧ مليوناً لا غير من الفرنسيين الصميمين. وهذه الامبراطورية تمتد من الزويدرزه شمالاً الى جبال البيرانيس جنوباً ومن روما الى همبورج ، وتبلغ مساحتها ٧٥٠،٠٠٠ كلم٢ . وقد قسمت الى ١٣٠ محافظة . ويستند الى هذه الامبراطورية عدد من الدول والتوابع اقامتها حولها نطاق وقاية تألفت من ولايات وراثية في العائلة ، أو من اقطاعات أو من احلاف لها . وكورسيكا التي كانت رئيسة الجوقة عرفت ان تخدم ابناءها الخدمة المثلى . فابناء اسرة نابوليون تقاسموا فيما بينهم العروش والتيجان : فنال جيروم مملكة وستفاليا ، وجوزف مملكة اسبانيا ، ومورات مملكة نابولي . وكان على كل واحد من هؤلاء ان يمتثل لارادة رئيس الاسرة الماضي والقائم بالوصاية على من هم في حكم اولاد قاصرين ، له ملء الحرية بحل أو ربط كل الروابط الزواجية ، والمتصرف دونما رقيب أو حسيب ، بشخصيتهم. والامبراطور، مع ذلك، هو المتبوع الأكبر وحكمه الاستبدادي يتلاءم مع النظرية الاقطاعية القديمة التي لا تزال تسود اوروبا الوسطى . فقد احتفظ له في كل دولة من هذه الدول التوابع ، بعدد من الاقطاعات الخاصة يوزعها كيفما شاء على رجال بطانته مدى الحياة ، بينما امارات كأمارة نيوشاتل مثلاً

التي كانت من نصيب برتييه ، وأمارة بنيفانت التي راحت لتاليران ، و ٦ دوقيات في ولاية البندقية و ١٢ في دلماتيا . وهذه المقاطعات تدخل في المحالفات الجديدة ، سواءٌ أكانت اتحاد هلفيتيا (سويسرا) أو المملكة الايطالية أو غراندوقية فرصوفيا أو حلف الرين . وقد شدد من روابط التبعية ووشائجها عن طريق المصاهرات التي اخضع لهـا اخاه جيروم وبرتييه وارجين وبوهارنيه . وفرض في كل مكان الاصلاحات التي يقتضيها الوضع ، فوحد بين مجموعها وطّد فيها المركزية .

وهذا البناء لا يخلو مع ذلك من فجوات وثغرات، لا سيا في النواحي المطلة منه على البحر، اتاحت للبضائع الانكليزية بالنفاذ منها والتغلغل فيها ، بعد ان نشطت حركة التهريب في كل مكان وانسرحت بعيداً في البلاد. ففي ليل ١٧ - ١٨ تشرين الاول ١٨١٠ ،رأت فرنكفورت نفسها محوطة باحدى فرق الجيش . وبعد اعمال التحري والبحث وجدوا بضائع انكليزية الصنع لدى ٢٣٤ تاجراً من تجار المدينة . وقد زادت الصادرات الانكليزية في هذه السنة وبزّت ما سجلته من قبل من ارقام قياسية،كما ان قيمة هذه البضائع ضربت الرقم المسجل. كذلك سجلت الكمية المصدرة مثل هذا الرقم ، باستثناء السنة التي عُقد فيها صلح اميان . وهذا الحصار الذي أريد منه أن يحطم التجارة الانكليزية لم يستطع ان يوقف عند حد نشاط هذه التجارة .

ثالثاً - يقظة الروح القومية وانتصار اوروبا

القوى المادية

راحت قوى الانحلال تفعل فعلها في الداخل والخارج على السواء ضد الامبراطورية . فقد ملّت اوروبا نابوليون الخدمة العسكرية ومسّت هذا السير الذي لا ينقطع للطوابير الحربية ، واستعراضات الجيوش واعمال المصادرة التي لا تنتهي عند حد،وهذه الضرائب التيلا تنفك. فقد تضاعفت الضريبة بين ١٨٠٨-١٨١٢ في غراندوقية برغ ، وازدادت ثـلاثة اضعاف في مقاطعة فنيسيا . وهذه الشعوب التي غُلبت على امرها والتي أمضّها الاحتلال الدائم وأقضّتها روحات المنتصر وغدواته نحو العاصمة او باتجاه اطراف اوروبا القصيّة ، وأرزحها الغُرم الذي اناخ عليها بكلكله عقب انكسارها ، كل هذه العلل خلقت في نفوس سكان هذه البلدان روحاًمن التذمر والتأفف والاهتياج اخذ يتزايد ويتصاعد. وهذا الحصار البري ألحق في العالم كله الاذى والضرر سواءً من جهة المنتجين او من جهة المستهلكين،كما انالسياسة الجركية التي انتهجها نابوليون اهاجت البلدان التوابع بعد ان اوصدت في وجه سكانها او كادت ، ليس البحار فحسب ، بل ايضاً البر الفرنسي نفسه مع انها أجبرت على فتح اسواقها للمحاصيل الفرنسية معفاة من كل رسم . والبلاد التي تمّ ضمها الى فرنسا او أجبرت على السير في فلكها لم تمتثل دوماً للاوامر التي تبلغتها كما انها لم تلتزم السير والصراط المرسومان لها دون خشية على نفسها من الرسوم الاقتصادية التي فرضتها عليها فرنسا . وقد راح اصحاب الحرف ينعون جمعياتهم ونقاباتهم التي ألغيت . وازدادت حركة التذمر هذه

حدة كلما عبثت الاقدار بالجيوش الفرنسية رقا الحظ لها . وقد بدا ان عهد الازدهار زال وارتفع منذ عام ١٨٠٩ كما أخذت تهبط باستمرار اثمان المواد الصناعية . ثم تأتي بعد ذلك الأزمة الاقتصادية الدورية عام ١٨١١-١٨١٣ التي تضرس الجميع بأثرها البالغ . فراحت أوروبا بأجمعها تعزو أسباب هذه الازمة للحصار البحري ان لم يكن للمستجدات الفرنسية التي فُرضت على البلاد . والارستوقراطية العقارية التي عُرفت بمداناها لهذه الاجراءات بعد ان أسقط في ايديها في تصريف محاصيلها من الحبوب والاخشاب، والاوساط البورجوازية نفسها التي كانت اسهل اتصالاً واقرب، راحت كلها تشدد من مقاومتها الوطنية بعد ان أصبح نابوليون في نظرهم المفسد الاقتصادي الاكبر .

والقوى الدولية عملت هي الاخرى عليها كالقوى المادية ، مثلاً بمثل ، في المجال الروحي والادبي . فالصراع العنيف الذي قام بين نابوليون والبابا ، منذ عام ١٨٠٩، حمل على الوقوف ضد هذه السياسة الخرقاء ، كل من اعتنق العقيدة الكاثوليكية ، بحيث ان العداء ضد فرنسا النابوليونية انتشر بين جميع طبقات السكان .

فالمصير مرتبط فقط بمهارة الحكومات في تجميع الشعوب وشدّها عصبة واحدة تقف في وجه الثورة وان تستعمل ضدها الوسائل التي عرفت وحدها ، حتى الآن استخدامها .

فان لم تعرف اوروبا اللانابوليونية ان تستغل هذه الظروف السانحة بما فيها من مادة بشرية ومادة تقدمية ، على الوجه الاكمل ، وان تؤلف من دولها حلفاً عاماً ، فقد كانت مع ذلك هي صاحبة الكلمة الاولى في القارة . وأوروبا هذه تتألف ، عام ١٨١٢ ، من انكلترا ومن المغلوب على امرها من دول القارة . فالدول المفروض فيها ان تكون صديقة او حليفة ، لا يستقيم النفوذ الفرنسي فيها الا عرَضاً . فالدانمارك التجارية في الصميم هي في منأى منه جزئياً . والسويد التي عهدت بعرش ملوكها الى شخص برنادوت ، هي منافس قوي لنابوليون . وبعض حلفاء فرنسا كالبافيير مثلاً ، هم موضوع شك وريبة . ولم يلبث الامبراطور اسكندر الاول ان استفاق من احلام تلسيت المعسولة : فقد احاول له ان يلعب دور « حامي الدول المضطهدة والمسيحيين الارثوذكس في البلقان » وقد اضطر التخلي عن حمايتهم عام ١٨١٢ ، بعد ان بنوا قصوراً على مساعدته ضد الاتراك العثمانيين .

بالطبع كان على نابوليون ان يحسب حساب الحقد الازرق الذي يجيش ضده في صدر الارستوقراطية التي كثيراً ما هزلت بهذا « الوصولي » وضحكت من نبالته المستجدّة . فاذا ما تبنت بعض المبتكرات التي طلع بها النظام الجديد ، فعلى مقدار ما يتفق هذا مع مصالحها الاساسية ، وعلى نسبة ما كانت تخشاه من قوة فرنسا الحربية كانت توجس شراً من المبادىء التي أعلنتها الثورة. والنمسا التي صار الامر فيها للامبراطور فرنسوا الثاني وللمستشار مترنيخ منذ صلح شونبرون ، تمثل خير تمثيل ، هذا الشعور . ان زواج الاميرة ماري ـ لويز

من بونابرت سجل حلقة مخجلة جديدة في سلسلة الخطوات المخيبة التي خطاها الامبراطور ، في نظر بعض أوساط المجتمع القديم. فالارشيدوقة لم تكن، فينظر مترنيخ، سوى ذريعة من هذه الذرائع التي استعان بها الخلفة التحالف الفرنسي الروسي . ان حياد بلاط فيينا الطويل في صراع يحمل في ثناياه خطراً اكيداً على فرنسا لم يكن من الامور الواردة .

علينا ان نبحث في غير مكان عن الوسائل والاساليب الاخرى التي أعتمدت في هذا الصراع . فقد اظهر قيصر روسيا ارتياحه ، بعد تلسيت ، لمشروعات الاصلاح التي وضعها سبيرانسكي والتي كان لها دوي بعيد الأثر على العوامل الغربية. فقد سلم القيصر اسكندر الاول، عام ١٨٠٩ ، بانشاء مجلس تمثيلي (دوما) يُنتخب اعضاؤه انتخاباً ، من قبل اصحاب الاملاك في المقاطعات ، كما وافق على قيام دوما امبراطوري يتولى التصديق على الموازنة والقوانين . الا انه اكتفى بالواقع ، عام ١٨١٠، بانشاء مجلس استشاري كما وافق على خلق مراكز وزارية. وقد اشترط للدخول في خدمة الدولة النجاح في مباريات عام تنظم في هذا السبيل ، وانعم على الكفاءات التي تؤيدها الشهادات الجامعية برتب الشرف . وستقوم فيما بعد اصلاحات اخرى ، منها مثلاً وضع تشريع مستوحى من القانون النابوليوني . الا ان الارستوقراطية وقفت منها موقفاً معادياً . فقد وجّهت الى سبيرانسكي تهمة التواطؤ مع فرنسا فتخلى عنه الامبراطور فراحت مشاريعه الاصلاحية مع الريح . ومع ذلك فقد ارتدت الحرب،في تلك السنة، طابعاً من الشدة كان دوماً بازدياد . ودخل الشعب الروسي المعمعة اكثر مما دخلها الشعب الاسباني ، مقدماً في سبيلها ، راضياً مرضياً ، الجنود والعتاد ، واضعاً اكثر من ٤٠٠٬٠٠٠ ،دفعة واحدة، تحت تصرف الحكومة ، عام ١٨١٢ . والغزو الفرنسي قابلته البلاد ، بهبة عامة قام بها الشعب وراء الاكليروس الأرثوذكسي يذكي في النفوس،روح التعصب والروح القومية ويدعو للمقاومة والصمود في وجه الغزاة .

اليقظة البروسية والرومنطيقية الالمانية

فاللجوء الى القوى الوطنية والاعتصام بحبلها يبدو على الاكثر ، في بروسيا ، مع ما اقتضى ذلك من التنازلات وقطع الوعود والتضحيات التي لا بد منها ومواجهة الاخطار الاجتماعية العارضة . فبعد ان اتخذ فردريك غليوم الثالث من كونغسبرغ عاصمة له اثر هزيمته النكراء، فقد قبل خدمات بعض الضباط امثال شارنهورست وغنايسنو ، كما عرف ان يستدرج خدمات بعض رجال الادارة المشهورين امثال شتاين القيام باصلاحات جذرية في الجيش والدولة. فقد عرفوا ان يؤمنوا في المجال المدني ، التعاون بين البورجوازية وكبار الملاكين ، في كل ما يتصل بالامور السياسية . كذلك أعيد النظر في صميم الاوضاع الاجتماعية. فقد عرف كبار الملاكين ان يحافظوا على ما لهم من قوة بالرغم مما اصابهم من خفض في امتيازاتهم . والمرسوم الذي صدر عام ١٨٠٧، اباح تملك الارض لكل من يستطيعه . فبامكان المتعهدين ان يقتنوا العوائد المترتبة عليهم . وقد ألغي رق الارض . وقد أوقف الاصلاح في منتصف الطريق بعد ان قرر شتاين الابقاء على القيود

الشديدة التي غلّت طبقة الفلاحـــين ، كما رفض التخفيف من الروابط الاقطاعية . واستأنف الأخذ بهذه الاصلاحات ، عام ١٨١١ ، هاردنبرغ فتناولها بروح أخرى ، فقــد ألغى القرار الصادر عام ١٨١١ ، الصعوبات القائمة لقاء التخلي عن بعض ريع الارض للسيد ، محرراً بذلـك الفلاح ، الا انه شجع كثيراً توسع الملكيات القائمة على الرأسمالية . وامتثل هاردنبرغ لارشادات «تاير» ونصائحه. فقابل النبلاء هذه الاصلاحات بمعارضة شديدة. ومجلس الاعيان الذي تم تعيين اعضائه في شباط ، اوقف جلسـاته في تشرين الثاني . ولم يبق قائماً غير مجلس القضاء والهيئـات البلدية المنتخبة من قبل البورجوازيين . وقد ادّى الاصلاح الحربي الى نتائج قيمة محسوسة بالرغم من نفقات جيش الاحتلال ،والغرامة الحربية التي فرضت على البلاد. وادرك كل من شارنهورست وغنايســو جيداً ان القضيـة الحربية هي ، قبل كل شيء ، قضيـة اجتماعيـة واستشهد على ذلك بالمثل الفرنسي . وقد ابدى غنايسـنو دهشته واستغرابه « لهذه القوى غير المحدودة الـــكامنة في قلب الشعب الالماني ، التي لم يعرفوا حتى الآن كيف ينموها ويفيدوا منها الى الحد الابعد » . فتأميم الحرب وادخال الأمة بأسرها في اطار الجيش ، كل ذلك يفرض جيداً انسكاب الشعب في صميم الدولة . فعدم المساواة بين افراد الشعب ، والامتيازات التي ينعم بها المجتمع الطبقي في البـــلاد يقيم الحواجز والفواصل بين الشعب الواحد ويحول دون تحقيق هذا التجمع والحشد العام الذي يسمح وحده بالتجنيد العام . وفي سنة ١٨٠٨ ، افسح النظام الذي وضعه كرومبر المجال لاعداد أطُر الجيش الوطني الذي استشرف شتاين ، شكله وصورته ، من قبـل ، وراح شارنهورست يقلل من عدد الاعفاءات ، ويلغي العقوبات الجسمانية ويفتح امام الجميع سُلـَّم الرقي الى مراتب الضباط ، مع انه لم يتمكن من كسر الاحتكار الذي فرضه كبار الملاكين على الرُتب العليـا . وعندما اخذ الوزراء البروسيانيون بتنظيم ادارة الجيش ونفخ الروح الحربية بين صفوفه ، جعلوا من برلين التي انشئت فيها ، عام ١٨١٠ ، الجامعة وفقاً لتصاميم الذي وضعها همبولت ، المحور الاكبر لاحرار الفكر الألماني .

واستولى القلق على الشعب ، وقامت منظمة *Tugen dbund* تراقب الموظفـين وتقتفي اثر الاشخاص الذين يستسلمون للهزيمة أو يعملون على الترويج لها .

والرومنطيقية الالمانية اسهمت ، من جهتها ، بهذا البعث الوطني الالمـــاني ، وهي حركة تنمو وتمتد في بلدان أخرى ، بما لها من خاصيات تجعلها تنتصب في وجـــه الشعوبية الثورية والنابوليونية .

وقد ساعدت هذه الحركة المانيا اكثر من أي بلد آخر ، على تمجيد فكرة النبـلاء . فراح «فخت» يعلم ، منذ عام ١٨٠٧، بان الشعب الالماني الذي يتمتع وحده بين الشعوب بلغة فرضت احترامها على الاجيال المتعاقبة ، فلم تسمح قط بدخول المؤثرات الاجنبية الفاعلة فيها . فالشعب الالماني هو « شعب الله المختار » و « الخير الذي سيغمر الارض » . وراحت جامعة هيدلبرغ ، تعنى بالبحث عن القصص الشعبي الالماني الفولكلوري ولعمل على تكييفه وترجمته الى لغة العصر

امثال *Niebelungen* . ووجدت في ما يسميه «جامن» عام ١٨١٠ ، *Le Volkstum* ، اسس حضارة جماعية مستقلة ، بحيث امكن لشتاين ان يكتب قائلاً : « من هيدلبرغ انطلقت الشعلة الالمانية التي قيّض لها ان تطرد الفرنسيين من البلاد » .

ومهما يكن ، فالحريق اتسع واصبح شاملاً في الاشهر الاولى من عام ١٨١٣ . فالوطنيون وانصار الحرب بقيادة شارنهورست نجحوا في نهاية الامر بالفوز بفردريك غليوم الثالث والخروج به من التردد المميت الذي كان يتخبط فيه . وفي شباط وجه الملك نداءً يدعو فيه الشعب للحرب وينشىء الجيش البري *Landwehr* ، ويأمر بالحشد العام « بشدة وعزم لم يتم لجنة السلامة العامة من قبل شيء منها » وانتقلت الحماسة من طلاب الجامعة في برلين الى البورجوازية وطبقة النبلاء . وبروسيا التي خرجت من اجتماع تلسيت مهيضة الجناح لا تضم غير خمسة ملايين نسمة ، ستتمكن من حشد جيش جرار قوامه ٣٥٠،٠٠٠ جندي .

وعلى درجات متفاوتة من الحماس والاستعداد دخلت الدول الاخرى حومـــة الوغى ضد فرنسا : هي حرب الجماهير المتكتلة ضد فرنسا . ولاول مرة منذ عـــام ١٧٩٣ تتحالف دول اوروبا الكبرى الثلاث وتتكتل دون ان يندّ عن الصف احد ، فتضم قواها وحشودها الحربية بعضاً الى بعض . ومما هو خير لها من عام ١٧٩٣ ، فقد تمكنت من تأمين الانسجام في التدقيق . فالقبة البولونية لم تعد لتنفع شيئاً . فها مليون جندي يتهيأون للانقضاض على الجيش الكبير .

وقد وقع هـــذا بالفعل ، في الوقت الذي اخذت فيه تتراجع القوى الفرنسية وتنثني . فالحرب التي لن تتأخر عن احراقهـا قد التهمت النخبة من شبانها وشبابها كما التهمت الفرق التي طالما تمرست بالحرب فألّفت خير الأطر لهذا الجيش . ومع ذلك فالمادة البشرية لا تزال متوفرة . والوضع يقتضي له الحشد الكامل ولكن بشروط اقسى بكثير مما اقتضاه عام ١٧٩٣ . فأعيان العهد لا يرغبون قط في المغامرات الاجتماعية الـــتي تؤول اليها الحرب . فبعد ان اطمأنوا ، في المجالين المدني والسياسي ، راحوا يبدون كل استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل سلامـــة الوطن والحفاظ عليه . فقد اختل توازن القوى الفكرية والروحية : فها هي الدعاوة التي يقوم بها الحلفاء تنشط بـــين صفوف الفرنسيين انفسهم تدعوهم للسلم والاستسلام . فقامت في الغرب قلاقل . وقامت الارستوقراطية وبعض عناصر البورجوازية ترّحب بالغـزاة . وها هي خزينة الدولة فارغة والمال ينقص بعد ان انقطع المورد الاكبر: الحرب على حساب الآخرين ، والتسليف العام الذي لا يزال في طور الجرثومة ينكب ويتوارى ، والركون الى الأسينياه ، امر لا يمكن تصوره او التفكير به .

قوى على قياس الثورة الفرنسية

والقضاء على الثورة الفرنسية في الشكل الذي تلبسته والاتساع الذي بلغته والشأو الذي حققته ، كان لا بد من قوى بقياس هذه الثورة وبضخامتها : قوة العدد المادية تجيش بالشعور الجماعي او قوة الطبيعة المعدية . وقد

استبطرت هذه القوى وتلك ، بين ١٨١٢ – ١٨١٥ فما هو الفضاء الروسي ، والشتاء الروسي ، والعدد الروسي ، والعدد الاوروبي ، والروح القومية المستشيطة التي أوقظت من سباتها العميق والجبروت المالي الذي توفر لسيدة البحار .

النصر الروسي

واخذت الاحداث تتوالى سراعاً : ففي اقل من ١٦ شهراً ، اي من ٢٤ حزيران ١٨١٢ ، وهو تاريخ بدء الحملة على روسيا ، الى ١٦ – ١٩ تشرين الاول ١٨١٣ ، وهو تاريخ انكسار نابوليون في ليبزيغ عبرت القوة وانتقلت من الجيش الكبير الى صفوف الحلف الكبير .

فوقوف طبقة النبلاء الروسية ، في وجه فرنسا النابوليونية والامتداد غير المحدود الذي حققته فرنسا والذي جعل من روسيا الحليفة دولة من الدول التوابع ، كل ذلك ادّى ، بعد تِلسيت ، الى القطيعة التامة بعد عام ١٨١٢ . فأي وزن بعد يا ترى ، وأي قيمة لهذه المكاسب تحققها روسيا بانتزاعها ولاية غاليسيا الشرقية على حساب النمسا ، عام ١٨٠٩ ، وبانتزاعها عام ١٨١١ ، فنلندا من السويد ، وبسارابيا التي احتلتها عام ١٨٠٦ ، انتزعتها نهائياً من تركيا عام ١٨١٢ ، بإزاء المدى الفرنسي العظيم واتساعه الرحب بحيث قطع القارة برمتها وانتصب عملاقاً من البحر البلطيقي حتى البحر الادرياتيكي؟ والعملية تمت احياناً ، كما حدث في مقاطعة اولدنبرغ ، على حساب صهر القيصر ووريثه العتيد في المستقبل القريب ، وعلى مسافة بعيدة من هذه المنطقة . تشعر روسيا ، بحق او بباطل ، لسبب او لغير سبب ، بانها حدودها مهددة في الصميم كل يوم . فنابوليون يحتل بوميرانيا السويدية ، منذ مطلع عام ١٨١٢ ، وقد جعل من مدينة دانتزيغ قاعدة كبرى لاعماله الحربية في هذه المنطقة كما انه كان في الصميم من قلب بروسيا . واخشى ما تخشاه روسيا هو اعادة بولونيا الى الحياة وبعثها دولة قوية من جديد . فلا لزوم لاكثر من هذه العوامل ، لاثارة هواجس القيصر اسكندر واهاجة الروح القومية والعصبية الروسية فيه .

فقد رفض نابوليون دون أية مداراة بلاغ القيصر الأخير الذي ارسله له في نيسان واجتاز نهر النيمن بعد ذلك بشهرين . وسيكون تحت تصرفه جيش لجب من الفرنسيين والألمان والبولونيين . وهو أكبر جيش عدداً وشتاتاً تم حشده في أية دولة للآن ، من دول الارض : ٧٠٠،٠٠٠ جندي ، نصفهم تقريباً غرباء عن اوروبا ، بينهم وحدات ايطالية وكروات وبرتغاليون وسويسريون ودانماركيون كلها مؤتلفة مع الوحدات الفرنسية في جيش واحد . وقد اشترك في عملية الحشد هذه ملك بروسيا وامبراطور النمسا ، اذ اسهم الاول بتقديم ٢٠ ألف رجل والثاني بتجهيز ٣٠ ألف محارب . وهنالك ١٨٠ ألف الماني أي ما يوازي عدد الفرنسيين الذين تم حشدهم من حدود فرنسا لعام ١٧٩٠ .

والروس على استعداد للتراجع الى الوراء ، الى مسافة ٧٤٠ كيلومتراً مخلفين وراءهم عند

الامبراطورية الفرنسية
الدول التابعة
الدول الحليفة
الدول المستقلة
حدود حلف الراين

انسحابهم الخراب والدمار أمام الجيش « الاوروبي » . وهكذا قلّت الميرة وندرت الذخيرة ، وأخذت الأمراض، والتفتت والهرب من صفوف الجيش يفتّ من عضد قوى الغزو التي أوغلت في قلب البلاد . وفي ٥ أيلول ، ها ١٣٠،٠٠٠ فرنسي والماني وايطالي وبولوني على بعد ١٥٠ كيلومتراً فقط من موسكو ، وقد احتشدوا في موقع موروودينو على نهر الموسكوفا حيث يقف كوتوسوف معترضاً تقدمهم الى الأمام . انفجرت المعركة في ٧ ايلول ، وفي ١٤ منه يدخل الجنرال مورات قصر الكرملين ، ثم يدخل نابوليون والحرس الامبراطوري موسكو، في اليوم التالي ، على انغام النشيد الوطني المرسيلياز . وفي اليوم ذاته اشتعلت موسكو بالحريق . وبعد ذلك بشهر يغشى الجليد البلاد . وانقطاع العلف يفني الخيالة ويهدد المدفعية . ولذا لا بد من الانسحاب والتراجع بأسرع ما يمكن . واذا بكوتوسوف يقطع عليهم الطريق في الجنوب . وأعاد العدو تشكيل قواته . فها هو يهاجم بدون انقطاع ، مستخدماً في ذلك فرسان القوزاق مع من لديهم من الانصار ، المائة ألف الذين بقوا على قيد الحياة من جيش الغزو ، و١٨ ألف لا غير يعبرون نهر النيمن في كانون الاول .

فقد ذابت جيوش الغازي في الفضاء الروسي وأمام الشتاء الروسي والعدد الروسي . وقد صمد الشعب الروسي وحكومته صمود الأبطال . والقيادة الروسية العليا التي كانت في مستوى ضعيف بالنسبة للقيادة العدو ، كانت مهمتها يسيرة نسبياً ، في بلاد منبسطة السهول حيث لا يعترض حركات الجيوش مشكلة ولا تثير أية قضية في وجه أركان الحرب .

وهكذا « هوى الى الحضيض درع الامبراطورية الكبرى » .

الحلف العام

هذا التغيير المفاجيء للاقدار والاوضاع الذي تم على مرأى ومسمع جميع الشركاء الاوروبيين ، لم يلبث ان وضع حداً لتعاونهم . فالشعوب تبقى سهلة الانقياد والتعاون أمام الأمل المرتجى . فقد أزفت ساعة الهجوم الأخير العام على فرنسا . فمنذ ٣٠ كانون الأول ١٨١٢ ، خرجت الفرقة البروسيانية من الصف، اثر اتفاق الحياد، وقعه الالمان مع الروس في توروجن . ونشبت الفتنة في بروسيا الشرقية وسارت في اثرها البلاد برمتها وانضم اليها الملك في شباط وأخذت المانيا برمتها تهتز وتموج ، والنمسا من خلفها تترقب الفرصة المؤاتية . صحيح ان نابوليون بادر الى تأليف جيش جديد ، الا انه جيش افتقر في الصميم ، الى فرقة الخيالة . والانتصارات التي حققها في لوتزن وبوتزن ، في شهر أيار ، لم توفر له سوى فترة قصيرة من الهدوء والراحة ، بفضل الهدنة التي عقدت في بلايسفتز *Pleiswitz* بتاريخ ٤ حزيران ، وهي هدنة ستغتنمها الدول للوصول الى التفاهم فيما بينها . فبروسيا تعاد اليها وحدتها كاملة كما كانت في الماضي ، وبرنادوت يستولي على النرويج ، وغراندوقية فرصوفيا يجري اقتسامها من جديد بين الفرقاء الشركاء الذين قطعوا عهداً بالا يبرموا صلحاً منفرداً . ومهما يكن من موقف نابوليون في مسرح براغ ، خلال الحلف الذي ينتصب في وجهه ، خلال تموز وآب ، من اعدائه اليوم ومن هؤلاء الاعداء في الغد الطالع ، فلن يبدل الحلفاء من موقفهم قيد شعرة . فهم يفكرون في قرارة

نفوسهم بوضع حد لاوروبا النابوليونية ، والعملية ستمتد الى أبعد من ذلك ، بالطبع وسينضم لصفوف الروس والبروسيانيين والانكليز والنمساويين المتراصة ، السويديون والبافيريون . وقد يكون مترنيخ قد تردد كثيراً حول توقيت ساعة العمل ووسائل التنفيذ : ان انكسار فرنسا ، يجب ألا يؤول لتأمين السيطرة للروس والبروسيانيين . وفي ٧ آب اوصل بلاغ اعلان الحرب الى نابوليون ، وفي ١٠ منه تدخل النمسا الحرب بدورها .

ففي ساحات الحرب وميادينها المختلفة هنالك أكثر من مليون جندي يتجهون صوب فرنسا. فتفوقهم العددي هو بنسبة ٢ — ١ أي النسبة التي يراها كلوسفتز في الجيوش العصرية ، هذه النسبة التي تؤمن النصر النهائي اذا ما تعادل السلاح والتجهيزات الحربية والتدريب العسكري ، مهما أوتيت قيادة العدو من مهارة ومقدرة ودهـاء حربي في الستراتيجية والتكتيك ، لا سيما والأمل ضعيف بان تنجح سرعة التحرك والضربات المفاجئة ومهارة المناورات ، مع هذه الحشود الضخمة .

نابوليون هو في وضع الخاسر . فالقائد الانكليزي ولنغتن الذي انتصر في فيتوريا يتقدم الآن نحو البيرانيس ، ولذا اضطر الجيش الفرنسي للانكفاء واخلاء اسبانيا . فقد استطاع الحلفاء ان يوجهوا ضربتهم القاصمة في ليبزيغ ، هذه المعركة التي استمرت أربعة أيام من ١٦ — ١٩ تشرين الأول حيث انتصب وجهاً لوجه أكثر من ٥٠٠،٠٠٠ جندي وتدخّل في المعركة ٢٠٠٠ مدفع . فالتفاوت بين القوى المتناظرة ظهر بوضوح في هذا الاشتباك الدامي ، فقد خاض نابوليون المعركة ضد خصم يزيده ضعفين . ففي اليوم الثالث ، وفي اثناء احتدام المعركة قلبت له فرق الساكسون والفرق الورتنبورجوازية ظهر المجن وصوبوا ضده مدافعهم ، وكان بادن اخذوا بمقاومة مؤخرته ، والتقهقر استحاله كارثة هوجاء . واذ ذاك يتخلى عنه الباقون من حلفائه الجرمان، كما هوى الى الحضيض حلف الرين . ومورات يسير باتجاه الخيانة منذ الخسف الذي لقيه في روسيا ، ولن يلبث ان فر الى انكلترا ثم الى النمسا في اوائل عام ١٨١٤ ، وتخطى العدو الحدود التي كانت لفرنسا عام ١٧٩٥ بين كوبلنتز وبين بال ، في أكثر من ١٥ مركزاً .

ومعجزات معركة فرنسا المدهشة لم تبدل أي شيء في المصير المقدر، والحلفاء لا يتزحزحون عن قرارهم قيد أنملة . وبناء على اقتراح قدمه كستلريغ بانشاء كوردون صحي محكم الربط حول فرنسا ، يتألف من الستاتهودر ومن بروسيا ، فقد وقعوا جميعاً ، في شومون ، بتاريخ ٩ أيار ١٨١٤ ، اتفاقاً اعلنوا بموجبه تحالفاً فيا بينهم مدته عشرون سنة ، يجمعهم في السراء والضراء ، وفي السلم والحرب ، على السواء ، الأمر الذي اضطر معه نابوليون التنازل عن العرش في ٦ نيسان . وفي الوقت الذي « أعلنت فيه عودة فرنسا الى احضان حكومة ملوكها الابوية ، وتؤلف بذلك لاوروبا جمعاء « ضمان سلامة واستقرار » — وهو التعبير الرسمي الذي أريد منه ارضاء الجماهير — لتعود ، وفقاً لمعاهدة باريس المعقودة في ٣٠ أيار ١٨١٤ ، الى ما هو وسط بين حدودها عام ١٧٩٠ — ١٧٩٢ . فمن الفتوحات الواسعة التي حققتها أثناء الثورة ، تحتفظ

بجزء ضئيل من مقاطعة السافوى ، والفيون والكونتا Comtat ومولهوز ومونتبليار ، وبعض الاراضي الاخرى الواقعة على حدودها الشمالية والشمالية الشرقية التي تربط بين ممتلكاتها القديمة في لانده وفيلبفيل وماربنبورغ .

ان حادثة المائة يوم تنتهي أمام اختلال توازن القوى الذي فاق بكثير قوى الاحتياطي . ومعركة واترلو الحاسمة تنهي في ١٨ حزيران ١٨١٥ ، هذا الصراع الذي انفجر قبل هذا التاريخ بـ ٢٣ سنة . « وقد استطاعت اوروبا بعد طول عناء ان تتنفس الصعداء وان تسلم الضبطة موقعا حد بفضل هذا النصر المبين »، كما كتب في ١٣ تموز، من بطرسبورغ، جوزف دي ميستر ، الى الكونت فاليز . ومعاهدة باريس الثانية ستشهد عالياً من جديد ، في ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ ان فرنسا واوروبا قد خرجتا معاً سالمتين « من هذه الانقلابات الجذرية التي استهدفتا لها من جراء جريمة نابوليون بونابرت الأخيرة النكراء، ومن جراء النظام الثوري الذي رضحته فرنسا لانجاح هذه المحاولة » .

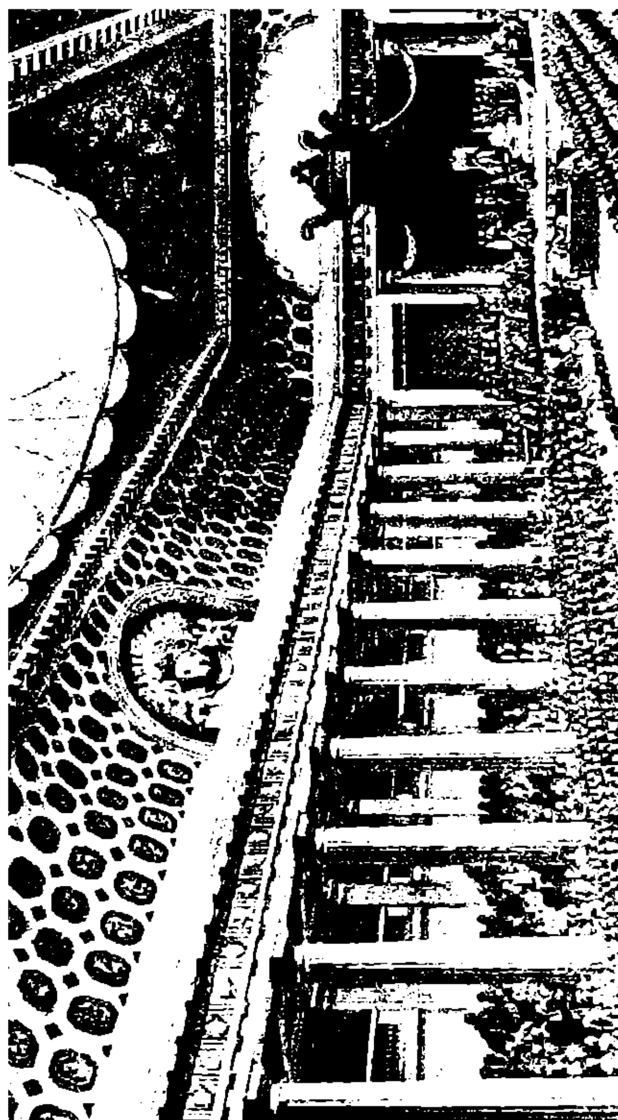

٣٥- الشعب في الشارع (ليل ١٢-١٣ تموز ١٧٨٩)

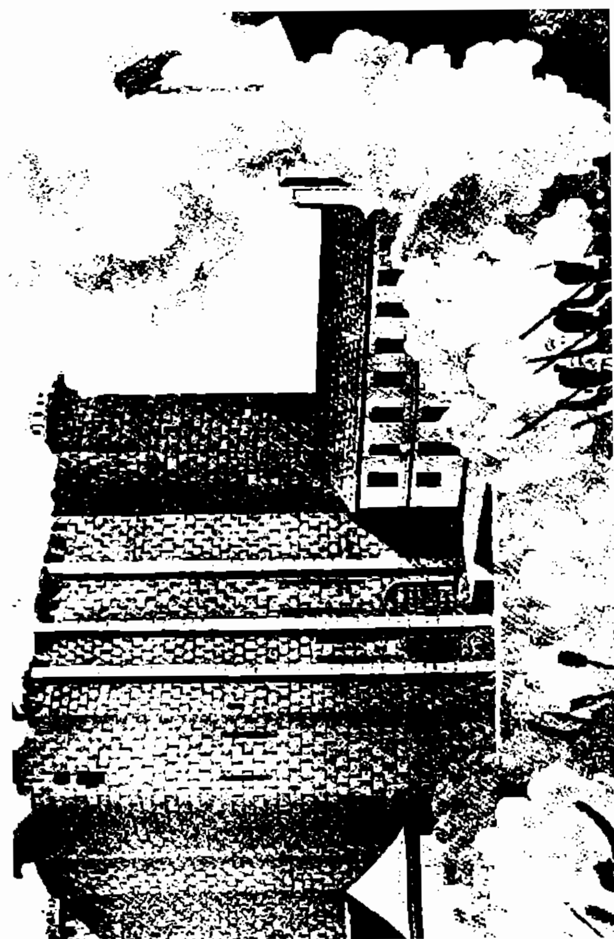

٣٧- عودة العائلة المالكة الى باريس

N°. 391.

L'AMI DU PEUPLE,

OU

LE PUBLICISTE PARISIEN,

JOURNAL POLITIQUE ET IMPARTIAL,

Par M. MARAT, auteur de l'Offrande à la patrie, du Moniteur, du Plan de constitution, &c.

Vitam impendere vero.

Du Dimanche 6 Mars 1791.

Nouvelles assemblées et nouvelle conjuration des anti-révolutionnaires, qui s'étoient rassemblés en armes dans l'appartement du roi pour l'enlever. — Exécution projettée de leur complot sous la huitaine, afin de ne pas faire morfondre sur nos frontieres les Capets conspirateurs et leurs amis les Autrichiens, qui n'attendent que la fuite de la famille royale, pour venir nous égorger. — Projet des municipaux de faire proclamer la loi martiale, pour appuyer l'exécution du complot de leurs complices. — Avilissement et dégradation d'un grand nombre des volontaires de l'armée parisienne.

A l'Ami du peuple.

Grand dénonciateur des conspirations contre la liberté publique, apprenez donc aux badauts de Paris, qui en agissent avec les traîtres à la patrie, comme des chasseurs imbécilles qui s'amuseroient à tirer à

٢٩- صورة طبق الأصل من جريدة "صديق الشعب"

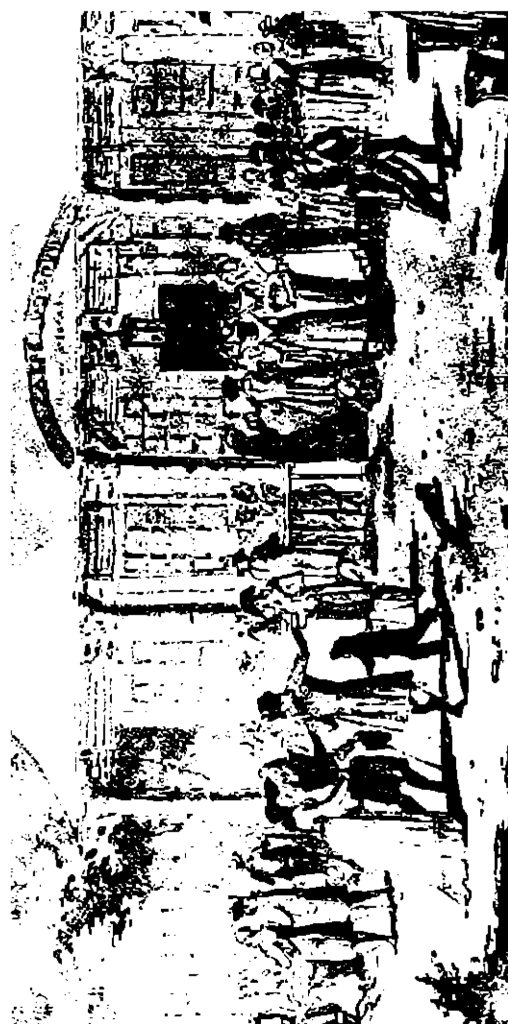

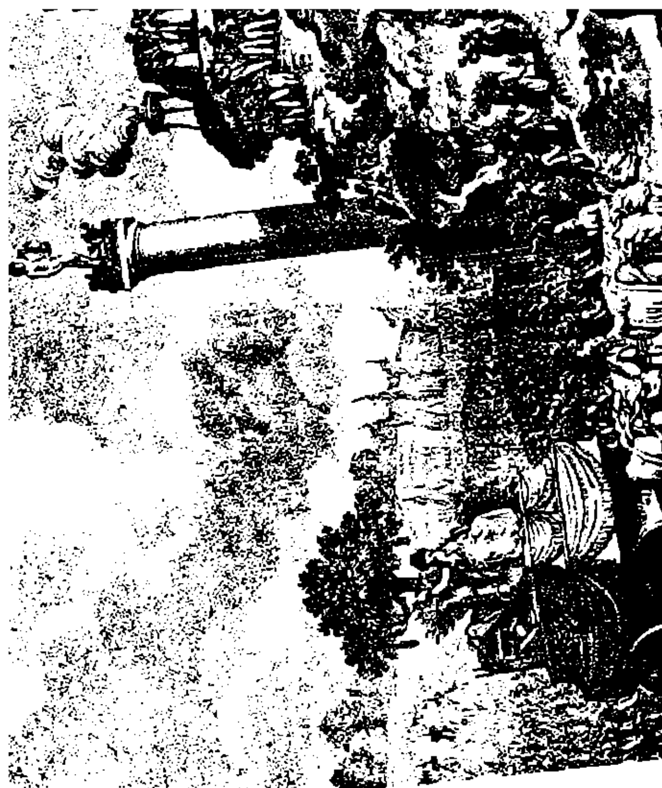

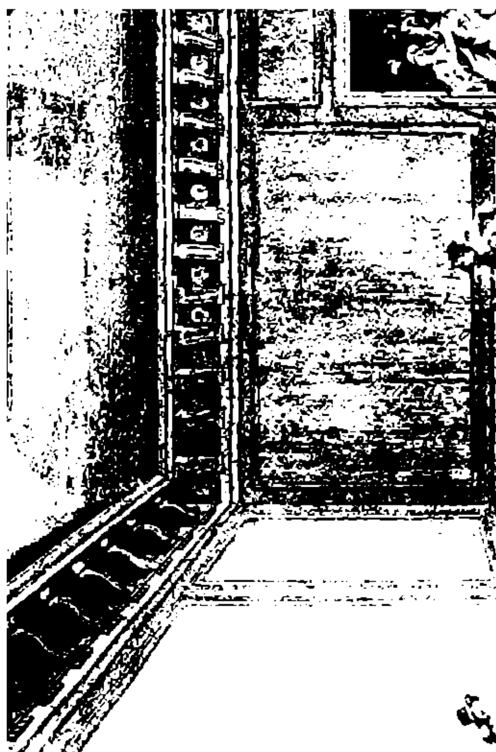

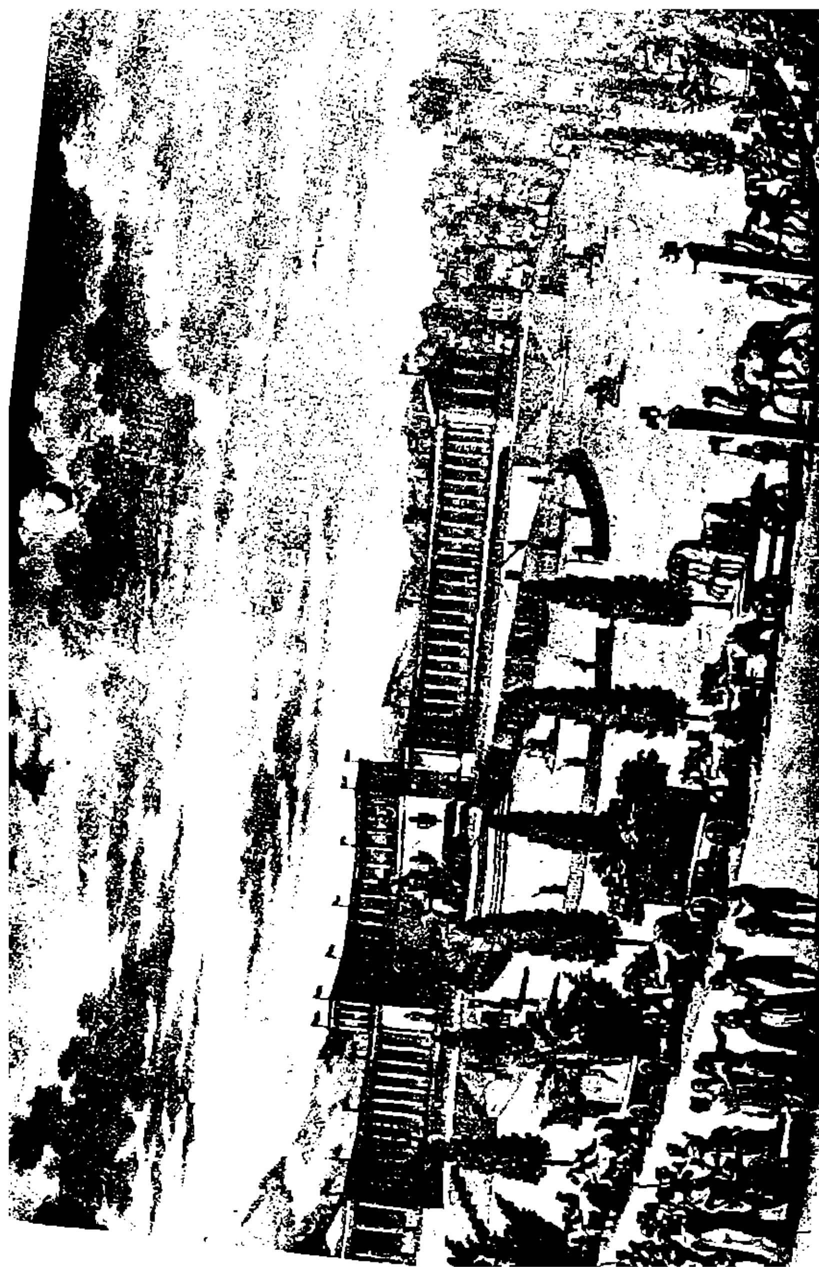

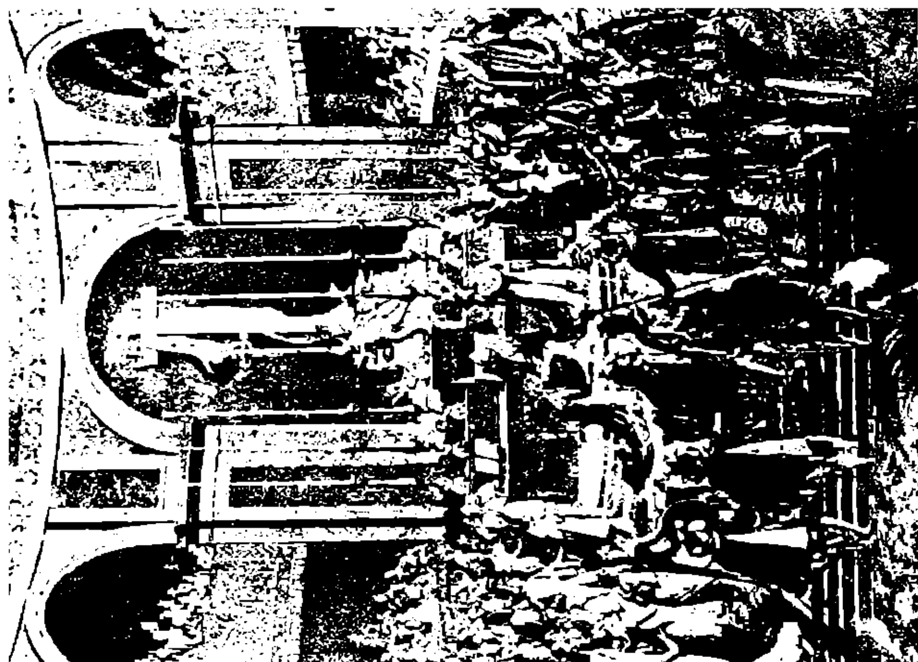

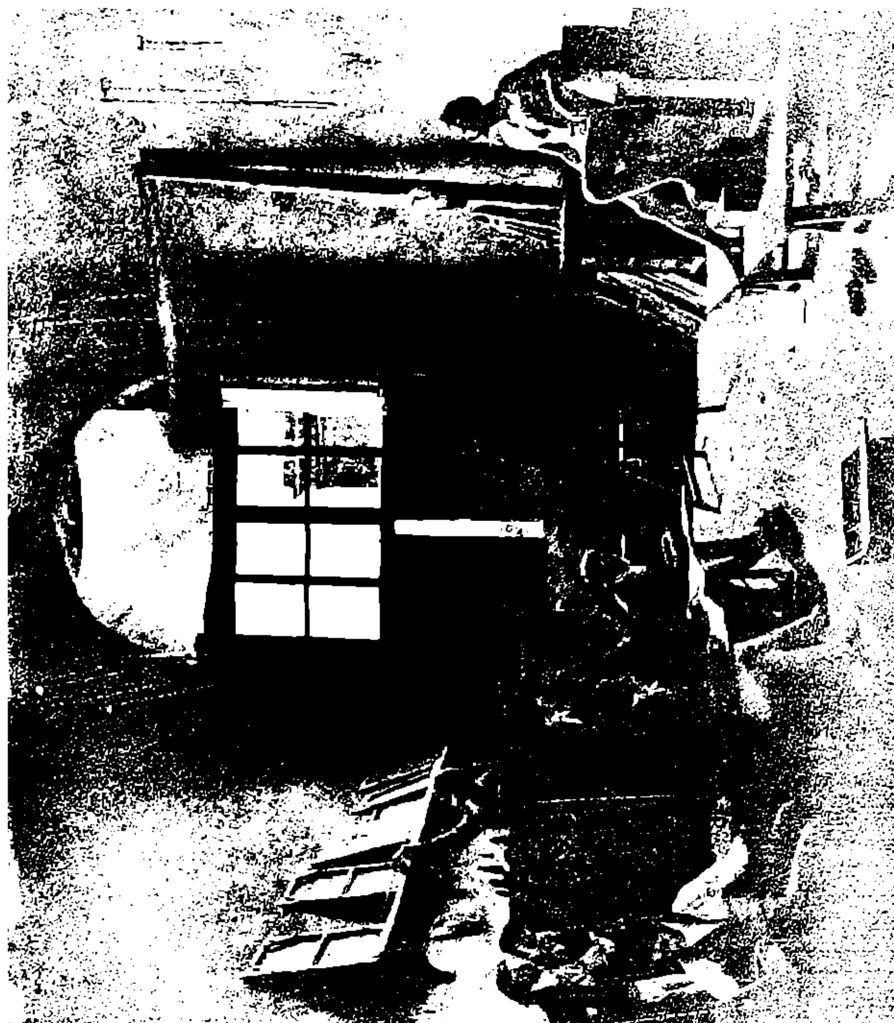

استنتاجات عامة

حضارة السنة ١٨١٥ المجددة

١ - التجدّد الاوروبي و « مجتمع الدول »

اوروبا « اوروبا» : لقد تبدل مفهوم هذه الكلمة منذ السنة ١٨١٣، اي منذ انقلاب ميزان القوى وانتصار الحلفاء . ان المؤتمر الذي سيصنعها سينعقد في فيينا عاصمة الثورة المضادة . وسيترأسه المستشار ، الامير « دي مترنيخ » : « مترنيخ دي كوبلنتز » الذي حرمته « الثورة » من اماركه ، تلك الثورة التي حقد عليها حقداً « تعاظم بتقدم سنه واتساع خبرته». اضف الى ذلك اقتناعه بأنه انما « يعاون ساعد الرب » . وقام الى جانبه ، «كأمين سر » للمؤتمر ، صديقه وسيّده ومجيّه ، « فردريك دي جنتز » الشهير ؛ وهو الرجل الذي اقام في وجه الثورة الفرنسية الآخذة في التوسع ، ومبادىء سياستها الجهنمية ، اعظم النظريات فعالية ، اعني بها القول الفاتن بالتوازن الاوروبي ، واعادة توزيع السيادة التي تضمن الاستقلال القومي ، – والقول بالفعل نفسه عملياً ، من قريب او بعيد ، بالاستمرار الاجتماعي ؛ انه المفكر الالماني الكبير الذي طلع بالنظريات لِـ « اوروبا » الواقفة في وجه نابوليون .

التوازن أجل سيعاد بناء اوروبا باسم التوازن. فان الميثاق الذي وقعه الحلفاء الاربعة الكبار في « شومون » (١ آذار ١٨١٤) قد جعل من استقرار اوروبا ، « باقامة توازن عادل جديد بين الدول » ، احد اهداف الحرب .

الشرعية ولودي بمبدأ آخر : الشرعية التي تستلزم اعادة الاقاليم ، نفسها او قيضها ، الى مالكها الشرعي ، وفاقاً للحق الملكي القديم . فان السيادة ، من بعض الاوجه ، ارث ابدي ، او ملك ممتنع النزع لا يستطيع البشر – امراء كانوا ام رعايا – ان يعتدوا عليه .

لقد ادى المبدآن كلاهما خدمة للاتجاه المحافظ . الفرنسيون والحلفاء اسندوا اقوالهم اليها . ولم يمن ذلك تساهلاً مع الحق العام الثوري ، واكتراثاً لامنية السكان التي تجاهلتها الثورة نفسها ، وتجاهلتها الامبراطورية تجاهلاً اشدّ سفهاً . ازدهرت مقايضة البشر كما في الزمان القديم . وباشرت لجنة الاحصاء الحسبان ، ووزعت « النفوس » ودخل الضرائب» بحيث يحصل كل شخص على نصيبه .

او ما يشبه ذلك تقريباً . اما الحلفاء فقد فهموا التوازن والشرعية والاستعادات

والتعويضات على طريقتهم الخاصة . اعتمدوا شريعة الاقوى . وكما شرح القيصر ذلك لـ « ناليران » ، كان « الحق ما يوافق اوروبا » . لمن الموافق الابقاء على برنادوت غير الشرعي في عرش السويد التي توسعت بضم النروج اليها ؛ ومن الموافق كذلك الابقاء على ماري ــ لويز في بارم . لم تجدّد جمهوريتا جنوى والبندقية القديمتان ، ولا الامارات الكنسية ، ولا الدول الالمانية التابعة . ولم يستعد آل بوربون نابولي تاجهم بنعمة المبدأ ، بل بفضل زهو « مورا » وعجبه . وكان هناك الى جانب ما يوافق اوروبا، ما يوافق الدول ، وحتى الملوك . دب الخلاف بين الاربعة الكبار حول بولونيا والمانيا وايطاليا . لا بل حدث ما هو ادهى من ذلك : حين زال كابوس الهيمنة الثورية ، برزت مجدداً اللعبة الديبلوماسية التقليدية . عولت انكلترا على بروسيا ضد روسيا . وخشيت النمسا روسيا . ولكن بروسيا اقلقتها ايضاً . وما ان تم التقارب الروسي البروسي في خريف السنة ١٨١٤ ، حتى قابله تقارب انكليزي نمساوي ما لبث ان شمل فرنسا ، اذ وقعت الدول الثلاث معاهدة تحالف سرية في ٣ كانون الثاني من السنة ١٨١٥ .

مؤتمر فيينا

ان مؤتمر فيينّا ، الذي تقرر انعقاده في البدء في أواخر تموز ١٨١٤ ثم ارجيء الى غرّة تشرين الاول ، ثم الى غرّة تشرين الثاني ، لم يفتتح بعد رسمياً عند توقيع المعاهدة . فاللجان وحدها هي ما اخذت تعمل عملها منذ هذا التاريخ الاخير . كان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الدول على ابواب حرب جديدة : بين معسكري التحالف المتفكك . ولكن الامور انتهت الى تسوية . وطبيعي ان الحلفاء تكتلوا مرّة أخرى في آذار منذ ان نزل الى اليابسة نابوليون الذي رفضوا الدخول معه في مفاوضات . وهذا ما يسر اعمال ديبلوماسييهم في اللجان حيث اعدّت المعاهدات الخاصة بين الدول .

ولكن مؤتمر فيينّا لن ينعقد في النهاية . ولن يفتتح رسمياً قط . الا ان ممثلي اوروبا كلها قد حضروا الى الموعد . فالامراء المجردون من سلطانهم والشعوب المطالبة بحقوقها ، والجماعات المذهبية ابتداء من فرسان مالطة حتى اليهود الالمان ، قد ارفدوا اليه محاميهم ان٢١٦ وفداً ، تقدر بعدة آلاف من الاشخاص،افادت من ضيافة آل هبسبورغ البذخية . دامت المفاوضات منذ مستهل تشرين الثاني ١٨١٤ حتى التاسع من حزيران ١٨١٥ . ولكن لجاناً فرعية من المفوضين المطلقي الصلاحية هي التي وقعت معاهدات خاصة . وهي النصوص « ذات الاهمية الكبرى والدائمة » ما ألّف وثيقة المؤتمر النهائية . وهي هذه الوثيقة ، مع معاهدتي باريس المعقودتين في ٣٠ ايار ١٨١٤ و٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، ما سوّى حالة فرنسا ، واقر النظام الاقليمي للعالم « المجدّد » .

فرنسا

انه لتجديد ينطوي على قديم وجديد . فمعاهدة باريس الثانية، المعقودة في ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، قد اعادت فرنسا الى حدودها في السنة ١٧٩١ مع بعض التغيرات الطفيفة . احتفظت فرنسا باقليمي مونبليار ومولوز ، الفرنسيين منذ السنة ١٧٩٣

والسنة ١٧٩٨ فقط . ولكنها فقدت شطراً من السافوى تركه لها في السنة ١٨١٤ ، كما فقدت «السار» والجيوب القديمة في الشمال والشمال الشرقي – لندو ، بويون ، فيليبفيل ،ماريلبورغ– مع الاقاليم التي ربطت بها . وفقدت كذلك سان – دومنغ ، الركن الفريد في مستعمراتها ، التي كانت تؤمن لها بمفردها ، في السنوات الاخيرة من العهد القديم ، بفضل اعادة تصدير منتوجاتها عن طريق الوطن الام ، تعادل الميزان القومي لحساباتها ، بينما سيتوجب عليها التعويض على الحلفاء بمبلغ ٧٠٠ مليون ، الذي يوازي واردات الموازنة العادية خلال سنة كاملة .

وابتغى هاردنبرغ انتزاع الالزاس واللورين والفلاندر من فرنسا ، ولكن مطالباته الشديدة اصطدمت بمقاومة اسكندر ثم انكلترا اللذين وقف الى جانبهما مترنيخ في النهاية : ومن جملة الاسباب المقدمة ان المستفيد الاكبر من تجزئة فرنسا سيكون البروسي ، فيختل من ثم ، بفعل ملابسات هذه التجزئة ، التوازن الذي لم يتحقق في فيينا الا بكل جهد وعناء .

وكمن الخطر كذلك ، كما اجاد مترنيخ في تفسيره ، في تخطي الهدف ، وفرض صلح لا يطيقه الفرنسيون ، وحرمان الحكم الملكي الجدد من خير الفرص السانحة ، ومن ثم تغذية الإعداء الثوري . فكانت حدود السنة ١٧٩٠ ، والحالة هذه ، خير أمل في رؤية فرنسا تسهم في النظام الجديد .

وستخضع فرنسا ، على كل حال ، لرقابة داخلية وخارجية . ستراقبها جيوش احتلال تبقى فيها طيلة خمس سنوات . وسيراقبها من الخارج حاجز جديد من الدول . في الشمال مملكة البلدان المنخفضة ، التي تضم الاقاليم المتحدة القديمة ، « والولايات البلجيكية » القديمة ، والتي كان ملكها في الوقت نفسه غراندوق لوكسمبورغ ، المرتبط بهذه الصفة بالاتحاد الجرماني الذي سيتناوله البحث في سياق هذا الكلام . وفي الشمال الشرقي ، بروسيا التي تتولى حراسة الرين بعد ان استولت على ضفته اليسرى باستثناء البالاتينا الرينانية التي ضمت مجدداً الى بافاريا . وفي الشرق ، الاتحاد الجديد ، الذي قام مقام اتحاد الرين (١٨٠٦) ، ودخلته النمسا وبروسيا ، وضم معظم الدول الالمانية . وفي الجنوب الشرقي ، مملكة سردينيا التي استعادت السافوى وكونتية نيس ، وضمت اليها اراضي جمهورية جنوى القديمة ، واسندت ظهرها بالاضافة الى ذلك الى النمسا بفضل المملكة اللومباردية – البندقية الجديدة . وجلي ان السد ودعامته من المتانة بمكان ، فكبح جماح الثورة في اشد جبهاتها خطراً .

بروسيا

ليست فرنسا ، من جهة ثانية ، في اوروبا الجديدة ، سوى دولة كبرى مصغرة. مصغرة بصورة مطلقة ، لا بل بصورة نسبية ايضاً : اذ ان الاربعة الكبار قد تعززت مراكزهم في السنة ١٨١٥ ، ليس باسترداد الاقاليم التي انتزعتها منهم الجمهورية والامبراطورية فحسب ، بل بمكاسبهم الجديدة ايضاً . فان بروسيا قد اعادت شطراً كبيراً من

بولونيا وتنازلت عن فرصوفيا ؛ ولكنها استعاضت من ذلك بما استولت عليه في الساكس وبسطت سيطرتها على كافة انحاء المانيا الشمالية وأمست دولة رينانية كبرى . انتقل مركز ثقلها نحو الغرب . امتدت امتداداً متواصلاً تقريباً من نهر « نيمن » حتى الحدود الفرنسية . ولم يفصل بين كتلتي ممتلكاتها سوى الممر الهنّي – الهانوفري الضيق . ولم تحقق البلاد كسباً في التجانس الجغرافي فحسب ، بل في التجانس البشري ايضاً . قبل اينا ، كان ما يقارب ثلث سكان بولونيا من السلافيين ، ففدا خمسة اسداس رعاياها ، في السنة ١٨١٥ ، من الالمان . اضف الى ذلك ان الولايات التي ادخلتها الحلف الجرماني تفوق من حيث الأهمية الولايات النمساوية المشتركة فيه . لا شك في ان عدد سكانها قد بقي مماثلاً له في السنة ١٨٠٦ تقريباً ، بعد توسعها العظيم في بولونيا ، ولكنه زاد خمسة ملايين عليه في السنة ١٧٩٠ ؛ وهي زيادة تمثل ثلاثة ارباع. واصبحت مساحتها ٢٨٠٠٠٠ كيلومتر مربع بعد ان كانت ١٩٠٠٠٠ كيلومتر مربع فقط . بيد انها شعرت بانها مغبونة على الرغم من هذه المكاسب الباهرة .

النمسا

ولا خلاف كذلك على مكاسب النمسا ، مع انها لم تظهر الا في زيادة ضئيلة في المساحة والسكان . لندع جانباً مكاسبها في بولونيا في السنة ١٧٩٥ ، اقليم لوبلن – كراكوفيا الشاسع ، الذي سيعود الى القيصر – باستثناء كراكوفيا – كما سنرى ذلك قريباً . ولنقارن مرّة اخرى بالسنة ١٧٩٠ . كسبت النمسا ، من جهة الّيريا ومنطقة البندقية ما فقدته بفقدان المناطق المنخفضة النمسارية القديمة . ويقابل مكاسبها الالمانية – ترانت ، سالزبورغ – بعض المقابلة ، تخليها في باد وبافاريا . ولكن اراضيها تؤلف الآن كتلة واحدة . وبعدها جمهورية البندقية ، باتت دولة ايطالية كبرى . ماري–لويز تملك سعيدة في بارم مكان آل بوربون . والارشيدوقية يحكمون ، طبعاً ، مرّة اخرى ، توسكانا ومودينا . ولا يعني ذلك ان النمسا ، التي تتجه اكثر من أي وقت مضى شطر ايطاليا والبحر الادرياتيكي ، تتخلى عن المانيا ، فهي تشرف على الجمع الاتحادي في الاتحاد الجرماني الجديد ، الذي تتجمع فيه المانيا . ومؤتمر فيينا قد واصل هنا العمل التوحيدي الذي حققته الثورة والامبراطورية تحقيقاً بعيداً : فالدول الالمانية الـ ٣٦٠ ما قبل السنة ١٨٠٣ لم تعد اليوم سوى ٣٩ .

روسيا الرابعة الكبرى

ولكن الرابع الاكبر هو روسيا . غنمت بولونيا « البروسية » وبولونيا « النمساوية » : فاليها عادت–بصرف النظر عما استولت عليه في تقسيمات السنوات ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥ – فرصوفيا ، لوبلن ، كاليز ، اقاليم النيمن والبوغ والفستول والفارتا . بين السنة ١٧٩٠ والسنة ١٨١٥ ، تقدمت حدودها « البولونية » ، على العموم ، من روسيا البيضاء حتى سيليزيا . لا ريب في ان مملكة ً بولونية « مستقلة » قد أنشئت ، في فيينا ، من الشطر الغربي من هذه الفتوحات . ولكن القيصر هو

ملك بولونيا . وفي الشمال الشرقي كذلك ، انتزع من السويد ، في السنة ١٨٠٩ ، فنلندا التي بات هو غراندوقها . وفي الجنوب الغربي كانت كاترين قد اقتطعت ، في السنة ١٧٩٢، سواحل البحر الاسود بين البوغ والدنيستر . وفي السنة ١٨١٢ اضاف اسكندر بسارابيا الى ذلك . وفي الجنوب الشرقي ، وراء القفقاس ، اصبحت جيورجيا روسية منذ السنة ١٨٠١ ، ومصب الاراكس ، على بحر قزوين ، منذ السنة ١٨١٣ . وجملة القول ان عدد رعايا القيصر ، قد انتقل في ربع قرن ، بفضل تكاثر السكان والفتوحات ، من ثلاثين الى خمسين مليوناً تقريباً .

انكلترا

اما الكبير الرابع ، الحليف الانكليزي ، فقد حقق جل مكاسبه في الخارج . ففي اوروبا وضع يده على قواعد ستراتيجية جديدة : هليغولند ، مالطة ، الجزر الايونية . ولكنه صرف اهتمامه في الدرجة الاولى الى ممتلكات فرنسا الاستعمارية وحلفائها القدماء ، اما بالحصول على الاعتراف بمكاسبه المحققة في صلح « اميان » ، اما بضم ممتلكات جديدة اليها . ففي بحر الهند مكنته الحرب الكبرى اخيراً من الاستيلاء على جزر ميشل ، وجزيرة فرنسا ، وررودريغ ؛ وفي الانتيل ، على سانت لوسي ، وتاباكو ، وترينيته ، وبصورة خاصة على الرأس وسيلان . وحققت مكاسب غير منظورة أهم شأناً من المكاسب المنظورة : الاسواق الجديدة في البحار النائية ، والحركة التجارية الضخمة مع اميركا ، وانطلاقة المقايضات الخارجية المدهشة التي ربما بلغت ثلاثة اضعافها قيمة ذهبية بين السنة ١٧٩٠ والسنتين ١٨١٤ – ١٨١٥ .

تأمن المال لتحالف جديد قد تمس الحاجة اليه . وفي آخر سنة واترلو ، بدا عدم تناسب القوى بين الثورة واوروبا المجددة وكأنه يضمن للحلفاء ، لمدة طويلة ، رجحان النصر .

ان « توازن » السنة ١٨١٥ ، لم يفض قط ، من ثم ، الى صلح توازن بين المغلوب والغالب . اذا ما قورن صلح فيينا بصلح اوترخت ، وحتى بتلك المعاهدات التي وضعت حداً لكافة الحروب الكبرى منذ القرن السادس عشر ، بدا في حسبانه ومهارته صلحاً ساحقاً ماحقاً . زد على ذلك ان شيئاً جديداً قد طرأ على العلائق الدولية منذ الثورة . تأزمت بسرعة بين الطرفين، فتحولت الى فظاظات كلامية لم يسمع مثلها من قبل واعمال وحشية مادية رهيبة . ظهر اثر ذلك في « معاهدات صلح » كثيرة عقدت في هذا العهد . لم تكن الحرب كغيرها من الحروب . اجل ، لم تستبعد الحرب الثورية الرابحة الدول الحليفة . ولم تجزىء فرنسا الملكية القديمة . ولكنها اتخذت ضد الثورة كافة الاحتياطات التي اعتبرت ضرورية ومجدية . وهكذا لم يقم في النهاية بين العالم القديم والعالم الجديد سوى سنة الاقوى .

التنظيم الاوروبية

بيد أن صلح السنة ١٨١٥ لم يستخدم بعد سوى الوسائل التقليدية . ثم لجأ الى وسائل اخرى : ففي سبيل ضمان النظام الجدّد ، هدف الى تأسيس مجلس دائم ، او ما هو أشبه بمنظمة دائمة تسهم فيها الدول الاوروبية المختلفة . وقد سبق لجنتز عند اندلاع الحروب النابوليونية ان اوضح على طريقته ان « جمعية الامم » الاوروبية متكافلة متضامنة ، وان الخير والشر لا يمكن ان يتمايشا ، وان دولة سليمة لا يمكن ان تتساهل في قيام شر ، في بلد مجاور ، قد يعرّضها للخطر . وسيقول مترنيخ من جهته ان « علينا ان نضع ابدا نصب اعيننا « جمعية » الدول ، ذاك الشرط الاساسي العالم المعاصر . فلكل دولة من ثم ، خارج صوالحها الخاصة ، صوالح مشتركة اما بينها وبين كافة الدول الاخرى ، واما بينها وبين بعض المجموعات من الدول :

« ان ما يضفي على العالم المعاصر طابعه الخاص ، ان ما يميزه في جوهره عن العالم القديم هو ميل الدول الى التقارب وتكوين ما يشبه جسماً اجتماعياً يرتكز الى القاعدة نفسها التي يرتكز اليها المجتمع البشري الذي تكوّن في وسط المسيحية » .

هذه القاعدة هي التبادل ، هي الاساليب الخيرة المتبادلة . وقد رأى مترنيخ ايضاً ان الدول متكافلة ومتضامنة . ولا يعني هذا التبادل وهذا التضامن سلماً وتوازناً فحسب ، بل التزاماً بمقاومة ما قد يلحق الضرر بالبلاد المجاورة ؛ وفي الدرجة الاولى النظريات الهدامة ، التيارات المضرة بالمجتمع ، الآراء الثورية المقلقة .

ومن الجانب الفرنسي ، برهن شاتوبريان في كتابه « بونابرت وآل بوربون » ، الذي ظهر في اوائل آذار من السنة ١٨١٥ ، عن تفكير غير بعيد عن تفكير مترنيخ وجنتز . هناك مجتمع ملوك :

« فليعلم الجميع ان كافة ملكيات اوروبا تكاد تنتسب بالبنوة الى الاخلاق نفسها والازمنة عينها ، وان الملوك اجمعين هم في الواقع أشبه باشقاء تجمع بينهم الديانة المسيحية وقدم الذكريات » .

وانطلاقاً من ذلك يجب ان ينظر الفرنسيون الى نصر الحلفاء كما والى درس من دروس العناية الالهية التي تعاقبنا دون ان تذلنا » . جنود جيش الغزو « محررون » لا فاتحون » . ونسمع صدى ذلك في النداء الذي اذاعه في « ماليلاكيه » بتاريخ ٢٢ حزيران ١٨١٥ : فهو لا يدخل فرنسا عدواً ، وانما يدخلها « لمساعدة » الفرنسيين على «خلع النير الحديدي الذي يضيمهم» . وفي ٢٩ حزيران أعلن لويس الثامن عشر في « كاتو – كمبريزيس » ان « جهود حلفائه الجبارة قد بددت توابع المستبد الظالم » . وقد بلغ من رسّوخ هذا الرأي ان الهزيمة قد جعلت صحيفة « لاكوتيديان » تتراءى بوارق الخلاص الاول» . وفي ١٢ تموز كتبت الـ « مونيتور » التي اخبرت بأن امبراطور روسيا وملك بروسيا قد وصلا في اليوم السابق الى باريس :

« وبعد مرور ساعة » ... قام الملك بزيارتها . واليوم جــاء الملوك الثلاثة الى قصر « تويلري » ... وعلمت العاصمة » بشعور الرضى العميق » ان هذين المليكين العظيمين موجودان فيها » .

وتبنى لويس الثامن عشر رسمياً الرأي القائل بحسن نوايا الغازي : وذلك في وثيقة رسمية هي القانون الصادر في ١٦ آب . فقد جاء فيها ان « الاعتداء » الذي شكلته العودة من جزيرة « إلبا » « قد ارغم الدول الاجنبية على ادخال جيوشها » الى فرنسا . ازدانت الولايات المتحزبة للملك بالاعلام ورقص سكانها ابتهاجاً » ولكنهم ما لبثوا ان افاقوا من سباتهم وغيروا موقفهم . واوصت صحيفة الـ « تايمس » من جهتها بأن « لا تمحض الثقة سوى المليكين الاوفياء » .

ليس من ثم ما يحول دون تعاون بين الغالب والمغلوب في اطار أوروبا الجديدة . سيعمل كلاهما على احياء القيم القديمة وتجديد الحضارة وباسم الثالوث الاقدس الممتنع التجزؤ »، الذي استشهد به مرة اخرى » كما في العهد القديم » في المعاهدات التي وقعتها فرنسا .

الحلف المقدس

سيكرر الحلف المقدس هذا القول » في باريس نفسها » في شهر ايلول . انه لاداة ديبلوماسية غريبة لعمري » تختلف كثيراً عن نهج دواوين المستشارين الخاص : فان اسكندر الذي اقترحه لا يكتب كما تكتب دوائر مترنيخ – ولعله يقصد تلبيك البعض من شركائه . ولكنه وثيقة بشرية لا نظير لها » وشهادة رمزية في النهضة » تؤكد قواعد ومبادىء السياسة الدولية في نظر الارستوقراطية الاوروبية ! قواعد ازلية من وحي الله » هي « الحقائق السامية التي تلقننا اياها ديانة الاله المخلص الازلية » . نرى فيها تأكيد واجب المساعدة المشترك بين الملوك » الذين سيتبادلون العون والتساند والمساعدة في كل زمان ومكان » . هؤلاء الملوك بموجب الوضع الالهي « منتدبون من قبل العناية الالهية » لحكم الشعوب » التي تؤلف اعضاء عائلة واحدة » والتي يمارسون حيالها سلطتهم الابوية المطلقة : ينظرون الى انفسهم » « حيال رعاياهم وجيوشهم » كما الى ارباب عائلات » » يستحثونهم على «التشدد تشدداً مطرداً في مبادىء وممارسة الواجبات التي لقنها المخلص الالهي البشر » . يقتضي « لسعادة الامم التي طالما اضطربت وقلقت » ان يكون لهذه الحقائق كل ما تنطوي عليه من أثر على المصائر البشرية ... » ملوك ثلاثة وقعوا الوثيقة : اسكندر الارثوذكسي » فرنسوا الكاثوليكي » فردريك غليوم البروتستانتي. وسيوافق عليها لويس الثامن عشر وامراء آخرون من كاثوليك وبروتستانت بدورهم .

الحلف الرباعي

وبعد انقضاء اكثر من شهرين بقليل على الحلف المقدس واقترانه بالتواقيع الاولى – وبناء على مبادهة انكلترا التي ربما ابتغت مخادعة القيصر وخشيت نتائج تعاظم القوة الروسية – برزت الاداة الديبلوماسية التي جاءت تأييداً لسياسة المساعدة

المتبادلة ونادت بها ، اعني بها هـذه المرة ، معاهدة اكثر كلاسيكية بين الحلفاء الاربعة ، اي ميثاقاً سياسياً وعسكرياً اكثر صراحة ، وقع في باريس بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، اي في يوم توقيع المعاهدة الثانية مع فرنسا بالذات – وتبنى من جهة ثانية بعض المقررات المتخذة في شومون في السنة ١٨١٤ . فالانكليزي « كاسلريغ » ، امين سر الدولة للشؤون الخارجية، لا ينظر لاسكندر ألاعيبه ودبلوماسيته غير الاعتيادية . ولكن اللورد كاسلريغ ، قامع الحركة « اليعقوبية » ، وباعث التحالف ، قد فكر هو ايضاً تفكير الارستوقراطية الاوروبية . لا ريب في انه استطاع النظر الى الحلف المقدس كما الى « وثيقة صوفية وحماقة ساميتين » . وكان للحلفاء على الصعيد الاوروبي والعالمي مصالح متباينة ، ولكن سياستهم قد اتفقت ضد فرنسا وكل ما تمثله . فان المعاهدة الجديدة قد استشهدت بـ « اوروبا » ، وبـ « الاستقرار » والضمانة الواجبة له . كل تهديد ثوري سيصطدم اليوم وغداً بجيش الثورة المضادة المتضامن . المبادىء الثورية والفتح النابوليوني يشكلان خطراً واحداً .

« المادة الثانية : ... ان المبادىء الثورية نفسها التي ساندت الاغتصاب الاجرامي الاخير قد تستطيع ، بأشكال اخرى ، تمزيق فرنسا ، ومن ثم تهديد راحة الدول الاخرى ... »

في هذه الحال ، سيتفق الموقعون فيما بينهم وبين ملك فرنسا على التدابير الواجب اتخاذها . وكما فسرت ذلك ، من جهة اخرى ، مذكرة صدرت بالتاريخ نفسه من وزراء الدول الحليفة الاربع ،

« وعد الملوك الحلفاء صاحب الجلالة المسيحي جداً بان يساندوه بجيوشهم على كل حركة ثورية » .

الحركة الثورية قد تجر « بالحاح » الى التدخل . فبهتم « ولنغتون » ، قائد جيوش الاحتلال، بما يقتضي معالجة سريعة ، آخذاً بعين الاعتبار « تنوع الاشكال التي قد تتلبسها الروح الثورية مرة اخرى في فرنسا » . وفي حال خطر يهدّد جيش الاحتلال ، او في حال الحرب ، توجب المادة الثالثة على الموقعين التدخل بالقوة وفاقاً لنصوص معاهدة شومون . اضف الى ذلك ان الاتفاق على هذه الموجبات لم يحدّد بزمن : فهي تبقى سارية المفعول بعد مرحلة الاحتلال .

وتنص المادة السادسة على اجتماع يعقده في مواعيد محددة ، مجلس رقابة حليف يراقب الاحداث .

« ستكرس بعض الاجتماعات للمصالح الهامة المشتركة والنظر في التدابير التي ستعتبر خير ضمانة لراحة الشعوب ويسارها ولصيانة السلم في اوروبا » .

وسيتواصل من جهة ثانية وزراء البلاطات الحليفة الاربعة والدوق ولنغتون تراسلاً منتظماً ، كما ان الحكومة الفرنسية ستتصل به مباشرة ايضاً اسهاماً منها في المحافظة على النظام الجديد .

وفي سبيل هذه الغايات سيعقد الوزراء الاربعة ، علياً ، اجتماعاً اسبوعيـاً طيلة استمرار الاحتـلال .

في قطاع آخر من اوروبا ، اتخذت النمسا احتياطاتها بالتعهد لملك نابولي بان لا تدخـل الى دوله انظمة لا تتفق وانظمة المملكة اللومباردية البندقية. وفي المانيا نفسها اعلن الميثاق الاتحادي المؤرخ في ٨ حزيران ١٨١٥ ان الهدف من هذا الاتحاد الدائم هو « الحفاظ على سلامة المانيـا خارجياً وداخلياً ... » وسيضيف نص آخر بعد ذلك ان هذا الاتحاد يرتكز الى حق اوروبا العام . « اذا حدثت اضطرابات في احدى الدول الاتحادية وهددت الدول المجاورة ، على مجمع الاتحاد ان يقدم كل امداد لازم لاعادة النظام الى نصابه » .

يتضح من ثم ان الدستور الجديد لـ... الاوروبي يستهـدف ، بشتى التدابير المتخذة ، ولا سيا بالنظام الدولي للتعاون المتبادل ، احباط قوى الثورة الفرنسية . وقد احبطها كذلك في الداخل الدستور الخاص بكل دولة .

٢ — التجديدات الداخلية

اما هذا الدستور فتراقبه اوروبا الحذرة من الاستعدادات او الواقفة منهـا موقف الدفاع . وطبيعي انه يختلف باختلاف مقتضيات الحال في الدول المختلفة ، ووفقاً لميزان القوى المتقابلة ، وبحسب مزاج الملك احياناً : فان ادعاءات اسكندر « بالحريات الدينية والمدنية » مثـلاً هي ايضاً عنصر تاريخي زائل في إطار الوضع العام .

ميثاق السنة ١٨١٤

ان الدستور الفرنسي الذي وضع ما بين ٤ و ١٤ حزيران ١٩١٤ قد اقام تسوية بين العهد القديم والعهد الجديد تمثلت فيها التحقيقات الاجتماعيـة الكبرى للثورة. وقد الح الحلفاء ، عند اعداد معاهدة باريس الثانية ، في ان تستخدمها الحكومة من أجل التهدئة واعادة السلم . وعلى الرغم من دفاعهم عن المجتمع التقليدي ، فقـد سلموا ، في فرنسا ، بالتساهل مع نظام حاربوه سحابة ربع قرن تقريباً وما كانوا ليقبلوا به في بلدانهـم . بدا لهم الدستور احتياطاً ضرورياً يستجيب لوضع فرنسا في الداخل . فهو يدعـم موقف آل بوربون ، اخلص من قد تحلم بهم اوروبا كولاة يمثلون الحلف المقدس . يضاف الى ذلك ان اخطار الإعداء قد تبدلت تبدلاً تامـاً . فان فرنسا المغلوبة على نفسها في السنة ١٨١٥ كانت في نظر الاجنبي موضوع كراهية وحقد اكثر منها قدوة يقتدى بها .

تقليد ووراثة

لم ينادِ الدستور ، على كل حال ، الا بمبادىء التسوية . اما تطبيقها فمـا زال في عالم الغيب . المبادىء الاساسية محافظة كل المحافظة . هي « المنابع الالهية » التي استدعت لويس الثامن عشر ، الملك « بنعمة الله » . بالامس كما اليوم ، تنحصر « السلطة كلها » ،

في فرنسا ، في شخص الملك » . يتفضل « بمنح » دستور قطعي ، « بممارسته الحرة لسلطته الملكية » . ولكن :

«يتوجب علينا التذكر ايضاً بأن واجبنا الاول نحو شعوبنا كان المحافظة ،من اجل مصلحتها بالذات ، على حقوق وامتيازات تاجنا » .

اضف الى ذلك ان الدستور يمت بصلة الى الماضي ، الى الملوك السابقين . أجل ، لقد اقتضى عدم اغفال « نتائج الاثار المتعاظمة ابداً .. والاتجاه الذي تركه اثرها في العقول» ـ « والمفاسد الخطيرة التي نجمت عنها ايضاً» . ولكن ما استلهم في الدرجة الاولى هو الخلق الفرنسي والآثار الجليلة التي خلفتها القرون الغابرة . وهكذا بدا التقليد ، والوراثة التي هي أحد مظاهره ، وكأنها صفات الحق العام ، لا ارادة الشعوب . وان الشرعية التي استُشهد بها في فيينّا قيمتها بالنسبة للحق الداخلي والحق الخارجي على السواء : انها مبدأ شامل يتعلق به «النظام الاجتماعي». وهذا بالفعل ما سيقوله الملك الفرنسيين في بيان ٧ تموز ١٨١٥ :

« ان مبدأ الشرعية احد المرتكزات الاساسية النظام العام ... وقد غدى بهذا المذهب ، في الآونة الأخيرة ، مذهباً اوروبياً شاملاً » .

وهكذا كان الحدث الجديد في وثيقة الدستور ما يبرره قانوناً ، حاضراً وماضياً ، في اعتبارات السلطة المطلقة . قد يرى فيه رجال القانون شيئاً آخر غير التفسير المسير التضحيات التي فرضتها قساوة الايام . وقد يكشف « التبرير » الملكي ، اتفاقاً ، في حال غموض النص ، النقاب عن مقاصد « المانح » العامة ، ويسهم في حصر الاهمية العملية لتنازلاته . ولكنه ، على اية حال ، ينم عن حقيقة نفسيته وتفكيره .

التنازلات لجهة المبادىء

وعلى الرغم من كل ذلك ، فان التنازلات المثبتة في النصوص على جانب كبير من الاهمية . السلطة التشريعية ، تعود للملك والمجلس الأعلى ومجلس النواب. لا تقر الضريبة الا بموافقة المجالس التي لا تستطيع التسليم بالضريبة العقارية الا لسنة واحدة . مجلس النواب ينتخب انتخاباً . الضريبة الانتخابية محدد ب ٣٠٠ فرنك للمنتخبين وب ١٠٠٠ فرنك للمرشحين ، وهما رقمان فاقا الى حد بعيد أرقام السنة ١٧٩١ والسنة الثالثة ، ولكنهما سيتيحان لتجميع هيئة من منتخبي الولايات من بين اوليغارشية أوسع منها في عهد الامبراطورية .

يتمتع الملك بحق تمديد ولاية المجلس أو حله شرط دعوة نواب المجلس الجديد خلال الاشهر الثلاثة التي تلي الحل . يعين اعضاء المجلس الاعلى ، دونما تقيد بعدد ، اما مدى الحياة ، واما بصفة وراثية ؛ وبه ترتبط ، من ثم ، اكثرية المجلس الاعلى . واليه تعود من جهة ثانية الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . كما تعود اليه كذلك المبادهة في سن القوانين : شأن الحكم القنصلي والامبراطوري من قبله . وحق الابرام والنشر ايضاً . ولا يتمتع المجلسان بحق التعديل . الملك

يمارس السلطة التنفيذية : « الملك وحده » يعين الوزراء ويعزلهم ، كما يعين ويعزل كافة موظفي الادارة العامة . لا بل تبدو صلاحيات السلطة التنفيذية وكأنها تحد من صلاحيات السلطة التشريعية . فللملك حق اشهار الحرب ، في حال ان الدساتير القنصلية والامبراطورية فرضت مبدئياً الاقتراع على قانون يجيز هذا الاشهار. لا بل يبدو كذلك انه يستطيع ، في بعض الحالات ، ولا سيا حين يكون النظام العام في خطر ، تعديل القانون وادخال بعض الاضافات عليه :

« ١٤ – الملك هو الرئيس الاعلى للدولة ... يسن الانظمة ويصدر الاوامر الضرورية لتنفيذ القوانين وتأمين سلامة الدولة » .

اذا ما اقتصرنا على حرف الدستور ، رأينا ان السلطة التنفيذية قد تعززت ، من بعض الاوجه ، لجهة الشخص والتسلط – بينما زالت ، من جهة ثانية ، الشخصية التي لا تقاوم والتي افسدت كل النصوص ! ويبرز هذا الفارق بروزاً ظاهراً في « الوثيقة الملحقة » . ولكن هذه السلطة التنفيذية الملكية تمثل التقليد في الدرجة الاولى ، بينما هي مثلت الثورة ، مع الامبراطور المنتخب باستفتاء شعبي ، أي مع الامبراطور « البورجوازي » .

فهل نحن الآن بصدد الحريات العامة أم الحريات الفردية التي استهدفها التجاهل منذ ١٢ سنة . ان حرية الصحافة ، التي عُطلت في الواقع في عهد الامبراطورية ، وبرزت مجدداً خلال « الايام المائة » وفي « الوثيقة الملحقة » ، قد تأيدت مرة اخرى ، شرط مراعاة « القوانين التي يجب ان تحول دون تجاوزات هذه الحرية » . وتأيدت كذلك حرية الاديان ، مع ان « الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني » قد أعلن « دين الدولة » . كما تأيدت الحرية الفردية اخيراً .

ولكن ما يلفت الانتباه – والحدث من الاهمية بمكان – هو ان الدستور قد اعترف ، على ما يظهر ، الى حد بعيد ، بالمجتمع الذي خلفته الثورة الفرنسية . فان بنوده الثلاثة الاول تنادي بالمساواة المدنية : مساواة امام القانون ، مساواة جبائية ، حق الوصول الى الوظائف المدنية والعسكرية . ويضمن البند التاسع ملك الممتلكات القومية . اجل ان سكوت النص أو بعض مفارقاته قد يثيران القلق . فقد اغفل ذكر الاقطاع، والحقوق السيدية ، والعشور مثلاً . ولكن التأكيدات بهذا الصدد ستعطى في وقت لاحق. فالبيان الملكي الذي صدر بتاريخ ٧ تموز ١٨١٥ قد نعت « بالاساطير ... والافتراءات ... والاكاذيب » ما اشاعه « العدو المشترك » حول العزم المنسوب للعهد على اعادة العُشر والحقوق « الاقطاعية » . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان القانون المدني ، حيث تأيدت تحقيقات ثورية كثيرة ، قد بقي ساري المفعول – أقله « ريثما يُنقض شرعاً » . فان ممثل المجتمع القديم المنظم قد قبل من ثم مبدئياً بالمجتمع الجديد – على الرغم من كل ما قد يبدو اخفاء وكتماناً في هذه التصريحات العامة جداً ؛ وعلى الرغم من اعادة طبقة النبلاء القديمة ، الى جانب الطبقة الجديدة على كل حال؛ وعلى الرغم من المجلس الاعلى الذي سيبقى حصن الارستقراطية الحصين والذي سيؤلفه الملك وحده .

شكوك　لم يكن ذلك سوى المبادىء ، على كل حال . يبقى ان يعرف التشريع الموضوع
حول التطبيق　الذي سنستخلص منها ، ولا سيا الروح التي ستطبق بها .

ان الدواعي في مقدمة الدستور قد تثير القلق . وقد يثير مزيداً من القلق الجو المسيطر في السنة ١٨١٤ ولا سيا في السنة ١٨١٥ . فهناك وراء النصوص القوى الاجتماعية والسياسية المتقابلة . لا ريب في ان الدستور قد وفر امكان نهضة الحياة العامة وتسوية مفيدة جداً ، في النتيجة ، العهد الجديد . ولكن المسألة هنا هي معرفة مدى امكانات مثل هذا المستقبل في السنة ١٨١٤ أو السنة ١٨١٥ . ما زال الوضع متقلباً جداً في نظر رجال السنة ١٨١٥ . وفي السنة ١٧٨٩، بدت الثورة المُصلحة ممكنة ايضاً. فمن يستطيع تقدير امكانات الثورة المضادة المصلحة، في السنة ١٨١٤ ،في فورة حروم الثورة المضادة، والحملة التي استهدفت الجامعة ومقتني الممتلكات القومية ، وفي السنة ١٨١٥ ، بُعيد واترلو ، في غمرة الارهاب الابيض ، مع انتخابات آب التي اسفرت عن المجلس الذي لا وجود له ، وبعد سقوط وزارة « تاليران – فوشيه » في ايلول ، وبعد قانون تشرين الثاني الذي انشأ المحاكم الاستثنائية – الذي رده « كوفيه » الى المجلس الاعلى – وبعد اعدام « ناي » في كانون الاول ، والغاء الطلاق ، والحملات التي استهدفت بعض نصوص الدستور واستهدفت مقتني الممتلكات القومية كما في السنة ١٨١٤ ؟

الا ان الخطر الاكبر قد كمن في جهة السلطة التنفيذية : اذ ان نصوص التسوية يمكن ان تطبق بمفهوم محافظ . وقد برز هذا الخطر بشكل واضح ، في السنة ١٨١٥ ، بصدد المساواة المدنية المعتبرة مادة رئيسية . فبحسب القانون يحق للبورجوازي ، على غرار الشريف ، ان يعين في الوظائف العامة الكبرى . ولكن المسألة مسألة موافقة وتناسب . فطبقة الاشراف القديمة – التي يجب الا" ننسى ، من جهة ثانية ، ان قسماً منها قد التف حول الامبراطورية قبل السنة ١٨١٤ – كانت تسيطر آنذاك في الواقع على المجلس الاعلى ، لا سيا بعد تعيينات السابع عشر من شهر آب . وتمثلت بعدد كبير في مجلس النواب . وتولت الحكم في معظم الولايات . اما البورجوازيون فقد شغلوا مراكز كثيرة في القضاء وحتى في الاسقفيات . ولكن الاشراف– مع مراعاة النسبة العددية في الطبقات – كانوا في كل مكان موضوع تفضيل على من سواهم الى حد بعيد . ففي الارياف، حيث لم تعد مسألة الحقوق السيدية لتجعل منهم اعداء لجماهير الفلاحين، ولا سيا في الغرب ، اصبح الاشراف هم الاعيان بالذات بفضل ثروتهم ووجودهم وتأثيرهم على السلطات المحلية ، والجو المسيطر العام .

في انكلترا　باستطاعة التسوية في الدستور ان تنفذ بالنتيجة من المجتمع القديم اكثر مما يبدو ذلك ممكناً عند قراءة النص .

الا ان التنازلات الواردة فيه لم تقبل في الدولة الدستورية الكبرى الاخرى : المملكة المتحدة التي تضم بريطانيا العظمى وايرلندا – وهي « متحدة » منذ السنة ١٨٠٠ . ان انكلترا

الاوليغاوشية والمحافظة القديمة ، قد خرجت من الحرب الكبرى معززة الجانب . وعمت جبهة النضال حتى النهاية . فان وزارة النصر ، التي رأسها ليفربول منذ السنة ١٨١٢، ستتربع في دست الحكم حتى السنة ١٨٢٧ . كما ان حزب المحافظين الذي استلم الحكم في السنة ١٧٨٣ سيستمر فيه حتى السنة ١٨٣٠ . وقد استمد الحزب الوزاوي قوته ، ولا يزال يستمدها ، من الاكليروس والاشراف وكبار ارباب العمل وشطر كبير من الاوساط الشعبية التي بقيت مرتبطة بالاعيان ارتباطاً نظرياً وحركها الشعور القومي . ان برلمان الاشراف هذا ، ومجلس العموم الملقب بـ « الابوقراطية الوردية اللون » الذي سيتكلم عنه « كارليل » في عهد لاحق ، لا يمثلان البلاد بشيء : ولكن على الرغم من العياء ، والانشقاقات ، والصعوبات الناجمة عن الازمات الاقتصادية ، واثر الثورة الفرنسية العميق في شطر من الرأي العام ، بقي ولاة الامر في الواقع منسجمين مع الشعور العام . لم يعرف نضالهم الذي دام ٢١ سنة سوى فترات نادرة من الضعف والخور . الخوف من الغزو وطدهم في الحكم . عند بدء الاعمال الحربية لم يوافق على اقتراحات « فوكس » بإقرار المراقبة سوى خمسين نائباً تقريباً . ولكن « بورك » ، الذي توفي في السنة ١٧٩٧ ، قد وضع مبادىء « الهويغية » الوزارية والارستوقراطية ، التي ستعرف الحياة زمناً طويلاً من بعده . اما المعارضون الهويغيون الآخرون – وقد حاكوا العديد من الدسائس واوالوا الكثير من القلاقل التي لم ترفع من شأن معارضتهم في نظر الرأي العام – فقد توفقوا بكل صعوبة في السنة ١٨٠٨ ، الى ان يجمعوا ، حول اقتراح هوايتبرَد السلمي ، عدد لاصوات نفسه تقريباً . ولعل المعارضة البرلمانية الدائمة لم تعد تتضمن هذا العدد في السنة ١٨١٥ .

ان الحرب قد حللت ممارسات تعزز الامتياز الملكي الذي حرص كل من جورج الثالث والامير الوصي من بعده على التمسك به . فبات حل المجلس قبل انتهاء مدّته عادة مألوفة لا اعتراض عليها . وتدخل الملك شخصياً مرتين (١٨٠٠و١٨٠٦) للحيلولة دون تحرر الكاثوليك. وسبقت الاشارة الى تشريع يستهدف مقاومة الاخطار الثورية كانت نتيجته خلق سوابق مخيفة في التعرض للحريات التقليدية . اجل كان لبعض هذه النصوص صفة مؤقتة ، ولكن بعضها الآخر قد عرف الديمومة . وكانت هنالك قوانين لمراقبة النوادي استغلت خير استغلال لمحاربة الجمعيات العمالية . وكان من نتيجة قانون السنة ١٧٩٩ الذي اقر عقوبات خطيرة على التكتلات الحزبية – اخفها السجن لمدة ثلاث سنوات او الاشغال الشاقة لمدّة شهرين – انه اقام العقبات لا في طريق النشاط العمالي فحسب بل في طريق المجتمع العمالي الذي كان أشبه بتكتل دائم . الا ان بعض القوانين اللاحقة ، ولا سيما قانون السنة ١٨٠٠ ، لم تسمح بالتعرض لكافة مظاهر التكتل : فلجأ القضاة آنذاك الى قانون « التآمر » القديم الذي يسمح لهم بفرض الغرامة النقدية وعقوبة السجن على هواهم بعد ثبوت المخالفات للمطلبين .

منذ السنة ١٨٠٠ صدرت نصوص تحدّ من حرية الصحافة ادت الى اصدار احكام

٥٧٥

متعكورة على الصحافيين . ارتفــع رسم التمغة على الصحف من « بلستَين » في السنة ١٧٨٩ الى اربعة «بنسـات» في السنة ١٨١٥ . الا ان حرية الصحافة وحقوق الاجتماع وتأسيس الجمعيات لم تلغ قط الغاءً تاماً . واستمر كذلك حتى تقدم العرائض . ولكن الاوليغارشية قــد عرفت كيف تدافــع عن نفسها بمجموعة من التدابير التسلطية ، وقــد برهنت عن ذلك عند الحاجة . وسيطرت كذلك سيطرة شديدة على الادارة المحلية التي مارسها بالمجــان بعض افرادها او بعض خلائقها .

وكانت دستورية ايضاً بعض البلدان التي ضمتها فرنسا النابوليونية اليها او انضوت هي تحت لوائها ، ولا سيما تلك التي تأثرت بها تأثراً عميقاً : المناطق المنخفضة ، والاتحــاد الهلفيتي ، وبولونيا – ونروج ايضاً .

المناطق المنخفضة

انه لابتكار تحت رقابة انكليزية ذاك «القانون الاساسي» للمناطق المنخفضة ، الذي اعيد النظر فيه في تموز ١٨١٥ ، والذي اقر دستور المملكة . على غرار ما حدث في فرنسا ، كان لا بد من ان تؤخذ بعين الاعتبار القوى السياسية والاجتماعية المتقابلة . وكان الرجوع الى النظام القديم امراً مستحيلاً . كان الدستور مماثلاً للدستور الفرنسي – مع انه خص الملك بتعزيز امتيازاته – فاعلن الامير مصدراً لكل سلطــة ، ووزع السلطة التشريعية بينه وبين مجلس الطبقات – تاركاً الكلمة الفصل للملك – ونظم السلطة التنفيذية التي اعطاها حق تعطيل الحريات العامة . ان النظام الاجتماعي الذي اقامته الثورة الفرنسية قد استمر في خطوطه الكبرى . الا ان بعض الحقوق السيدية قد اعيدت . وكانت المســألة الكبرى ، هنا ايضاً ، معرفة كيفية تطبيق السلطة الملكية التنفيذية للمبادىء عملياً : وبصورة خاصة معرفة ما اذا كانت المساواة المدنية ستطبق دون حكم اجتماعي او قومي او معتقــدي مسبق ، على حساب البورجوازي او البلجيكي او الكاثوليكي . وفي هذا الصدد ، ما لبثت من جهة ثانية ان برزت معارضة حــادة عبر عنها الاساقفة في « الحكم المذهبي » الذي ندد بحرية الآراء الدينية ، والمساواة في حماية الاديان ، والمساواة في الحقوق المدنية والسياسية ، وحرية الصحافة .

سويسرا

عرفت سويسرا النابوليونية ، على غرار المناطق البلجيكية والهولندية، دستوراً على الطريقة الفرنسية . وها هي الآن « محررة » مستقلة ، ولكنها منقسمة بين انصار التجديد العــام وخصومه . كل ولاية ستضع دستورها الداخلي بملء سيادتها . سيشكل المجموع ، في تنوعه ، عودة محسوسة الى الانظمة الارستوقراطية القديمة ، منطوياً على تباينات كثيرة تؤمن نفوذ سكان مركز الولايات ، او العائلات القديمة ، او الثروة ، بالطبــع. الاكليروس يقبض مرة اخرى على زمام الحالة المدنية . مساواة الاديان ليست قانوناً .

الدستور النروجي

يبدو الدستور النروجي ، الذي اقرر بالتصويت في السنة ١٨١٤ ، ابعد سخاءً بالحريات ، لا من الدستور البولوني المضحك الذي اعلنه اسكندر رسمياً في شهر كانون الاول ١٨١٥ – قاضيـــاً بمجلس شيوخ يعينه الملك ومجلس نواب ينتخبهم النبلاء والمدن – فحسب ، بل من كافـة الدساتير الاوروبية ايضاً . استوحى دستور السنة ١٧٩١ الفرنسي ، فأعطى البرلمان ، او « الستورتنغ » ، الذي تنتخبه هيئة انتخابية كبيرة نسبياً ، الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . الملك لا يتمتـــع الا بحق ايقاف المجلس مؤقتاً عن القيام بعمله ، ولا يستطيع حل الجمعية . زد على ذلك ان شارل الثالث عشر الاسوجي مدين بتاجه الثاني للمجمع التأسيسي الذي انتخبه ملكاً على « نروج » شرط اعترافه بالدستور .

في المانيا

اما الدول الاوروبية الاخرى ، فقد عادت ، في السنة ١٨١٤ – ١٨١٥ ، الى نظام السلطة المطلقة او بقيت خاضعة له . لم تثر المسألة اية صعوبة في البلدان التي لم تعرف قط دستوراً على الطريقة الفرنسية ، والتي لم يعدها الملك بشيء : كالنمسا وروسيا ، حيث عدل اسكندر عن كل اصلاح بعد السنة ١٨١٥ . وبين اولئك الذين اغدقوا الوعود ، لم يتقيد الاقوياء بوعودهم : فـــان الدستور الذي كان مفروضاً ان يمنحه فردريك غليوم الثالث بروسيا بموجب قانون ٢٨ ايار ١٨١٥ – قبـل واترلو – لن يرى النور في يوم من الايام . الا انه سيؤسس مجالس اقليمية استشارية . واذا ما استثنينا المانيا الجنوبية التي ستعرف دساتير محافظة جداً – كما في باد وبافاريا – فان معظم دول الاتحاد الجرماني قـــد اكتفت بالسلطة المطلقة على الطريقة القديمة ، وان خففت وطأتها بعض الشيء هنا وهناك . اما غراندوقية « ساكس فيار » فقد شذّت عن القاعدة بمبادىء دستورها الحرّة .

وكذلك عادت ايطاليا ، التي سيطرت عليها النمسا ، الى نظام السلطة المطلقة . كما اعـاد البابا الى دوله الادارة الكنسية .

في اسبانيا

منذ شهر ايار ١٨١٣ ، اعلن فرديناند السابع ، الذي استعاد عرشه بفضل النصر الانكليزي ، بطلان الدستور الذي اقرتـــه بالتصويت جمعية كادكس في السنة السابقة – واقتبسته عن دستور السنة ١٧٩١ ، فاعتبر جناية على الملك ، تعاقب بالموت ، كل عمل يستهدف المحافظة عليه . أوقف بعض الاعيان وحوكموا امـــام محكمة خاصة لم تستطع ادانتهم بموجب اي نص ، فتولى الملك محاكمتهم بنفسه واصدر عليهم في كانون الاول ١٨١٥ احكامـــاً بالاشغال الشاقة ، او الحجر في احد الاديرة ، او النفي .

رافق السلطة المطلقة بصورة اجمالية فقدان الحريات العامة . الا ان نظام الصحافة قـــد اختلف باختلاف الدول ، باستثناء الرقابـة الـتي كانت تكون شاملة ، اذ قد عمل بها في روسيا وبولونيا والنمسا ، واخيراً في بروسيا بعـــد تردد . في الاتحاد الجرماني ، تأخر صدور التنظيم المعلن عنه في وثيقة فيينا والمسند وضعه الى المجمع : فاستعاض عنه كثير من الحكومات الخاصة

بتشريع يكرس السلطة المطلقة ؛ الا ان دستور غراندوقية ساكس - فيار قد منح الحرية . واعاد ملك سردينيا الرقابة الكلية . وتبدو حرية المعتقد كذلك خروجاً على القاعدة سواء اقرت في البلدان الكاثوليكية ام في البلدان اللوثرية والارثوذكسية . واعتمد فردينان السابع في هذا الصدد سياسة قمع عنيف واعاد محاكم التفتيش . واعاد فكتور عمانوئيل الحالة المدنية الى الاكليروس والغى حرية الاديان . وتناولت الدائنين بغير الكاثوليكية الذين اغضي عليهم في النمسا منذ جوزف الثاني تدابير قاسية مختلفة : فقد اقصوا عن الوظائف العامة والزموا بالحصول على وثيقة اعفاء لاقتناء العقارات والتمكن من ادارة الموسيقى في الكاتدرائيات او نيل الدرجات الجامعية . اما في روسيا فكانت الكنيسة الارثوذكسية كنيسة الدولة . اجل لقد مارس سكان المناطق المحتلة بحرية معتقدهم قبل الفتح ، ولكن كل ارتداد من الديانة الارثوذكسية الى ديانة اخرى كان محرماً .

التجديد الاجتماعي

ان ما قلناه عن الحق العام القديم ، يمكن قوله عن المجتمع القديم الطبقي الذي استمر او برز ثانية . وتأتي في الطليعة طبقة الاشراف ، طبقة الاشراف الروس التي وفرت للدولة ضباطها وموظفيها ، وطبقة الاشراف البولونيين التي ادار كبار ممثليها البلاد مع الاكليروس ؛ والتي تنتخب بهذه الصفة ، مع المدن ، مجلس قصّاد الجمع حيث يضمن لها الدستور الاكثرية ؛ في حال ان الامراء الامبراطوريين والملكيين والاساقفة الامراء يؤلفون مجلس الشيوخ . والجمع السويدي والجمع الفنلندي من بعده - مع طبقاتها الاربع : الاشراف والاكليروس والبورجوازيون والفلاحون الذين يقترعون كل طبقة على حدة ، والاشراف النمساويون ويكادون يشكلون وحدهم المجالس الاقليمية التي تضم احباراً واسياداً وفرساناً وممثلين عن المدن الغراندوقية . ويسيطر النظام نفسه في منطقتي « تيرول» وبوهيميا . وتتألف الجمعيات الاقليمية البروسية من ممثلي الطبقات الثلاث : الاشراف ، ممثلي المدن ، الفلاحين ، ومجالس طبقية في بافاريا عملاً بدستور السنة ١٨١٨ ؛ وتحدد براءة النبلاء حقوق طبقتهم . وتتألف مجالس « ساكس » ، التي سيقرها مرسوم ملكي في السنة ١٨٢٠ ، من ممثلين لثلاث طبقات : ممثلي الاحبار ، والكونتية والبارونات والجمعيات ؛ وممثلي طبقة النبلاء بصورة عامة التي قد تضم اشخاصاً من غير طبقة الاشراف يتملكون عقارات حصلوا عليها من الاشراف ؛ واخيراً ممثلي عامة الشعب . وعرفت هانوفر مجلسين في السنة ١٨١٩ : الاشراف وغير الاشراف . الاشراف وممثلو البلديات الممتازة يؤلفون مجالس مكلنبورغ . وفي غراندوقية « ساكس - فيار » نفسها ، ضمت جمعية ممثلي الشعب مندوبي الفرسان والمدن والفلاحين. وحتى في مملكة المناطق المنخفضة تألفت المجالس الاقليمية من ممثلي الطبقات الثلاث ، النبلاء والمدن والارياف . وعاد الى هذه المجالس الاقليمية تعيين اعضاء مجلس الطبقات الثاني .

يتضح من ثم ان طبقة الاشراف كانت صاحبة امتيازات شتى ، مع ان الامتياز قد تراجع من بروسيا الى ايطاليا ، وحتى الى نابولي عاصمة البوربون . ما زالت الاقطاعية قائمة مع ما

لستتبعه من تميز بين الارض الشريفة والارض العامية . ففي النمسا عاد للاشراف دون غيرهم اقتناء الاراضي من الفئة الاولى . وحدث التمييز نفسه بين الاملاك الشريفة والاملاك غير الشريفة في دول المانيا مختلفة . الا انه حق لغير الاشراف ، في روسيا ، اقتناء املاك لا فدادين فيها . وقد استمر التمييز القديم ، بصورة خاصة ، في الاراضي التي لم تخضع من قريب لاحتلال الثورة او الاحتلال النابوليوني . ويصح القول نفسه في السلطات السيدية : سلطات الامن والقضاء وتنظيم الصناعات والايواء في المنزل، التي مارسها الاشراف في اراضيهم ، واعمال التسخير والاتاوات التي فرضوها على الفلاحين . وفي بروسيا نفسها ، باستثناء الاقاليم الغربية ، مازالت طبقة الاشراف ، على الرغم من الاصلاحات التي تحققت قبل السنة ١٨١٤ ، تحتفظ بمكانة خاصة في المجتمع الريفي وبحقوق الامن والقضاء على الفلاحين ، التي تتيح لهـا اصدار احكام خليقة . تحرر الفدادون البولونيون منذ السنة ١٨٠٧ : ولكنهم لم يتملكوا ارضاً فبقوا تحت رحمة الاشراف . وباستثناء الاقاليم الدائرية الغربية من الامبراطورية الروسية ، ولا سيما في استونيا وكورلاند ، نرى حركة التحرير تعود الى الوراء بعد النصر . عرف الارتقاء البورجوازي نحو المساواة المدنية فترة من التوقف على الرغم من ان قانون نابوليون ما زال ساري المفعول ، مؤقتاً او نهائياً ، في المناطق المنخفضة ، وبروسيا الريفية ، وباد ، وغراندوقية « برغ » ، ومملكتي نابولي وبولونيا . احتفظت طبقة الاشراف قانوناً – فللاشراف البروسيين « حق الافضلية في المناصب الفخرية التي اثبتوا جدارتهم باحتلالها » – ولا سيما عملياً ، بامتياز شغل الوظائف العليا .

فلم يقتصر من ثم مجهود السنة ١٨١٤ – ١٨١٥ في سبيل التوطد او التجدد على تثبيت اقدام الحكومات ، واعادة السلالات الملكية الى عروشها ، وتجديد اوروبا، واقامة تضامن اوروبي من اجل البقاء . لم يكن العمل سياسياً فحسب . بل استهدف المجتمع باكله .
مجتمع يتميز بالخوف ، وبرفض قيم القرن الثامن عشر ، المسؤول الاكبر عن الكارثة .

٢ - قيم الحضارة المجددة

المقولات الاولية

الثورة هي الشر المطلق . لقد رأى مترنيخ فيها « كارثة اجتماعية رهيبة » لجا « العالم المتحضر » منها باعجوبة . وبدا له نابوليون وكأنه « الثورة المجسمة » . وبعد مرور ربع قرن من الانقلابات الوحشية ، اخذت حضارة السنة ١٨١٥ القلقة تبحث عن قيمها الخلصة : قيم التثبيت ، والسمو ، والتحريم ، في مقاومتها العقل النقاد وتدخل الارادة في العقد الذي يمكن اعادة النظر فيه .

وجدتها في تجديد ديني واخلاقي اولاً . وقد عبر « بونالد » خير تعبير عن هـذا التضامن بين العرش والمذبح . كما عبر عنه كذلك « جوزف دي ميستر » :

« ان المبدأ الديني يتصدر كافة الابتكارات السياسية ، وكل شيء يزول بزواله ... في تجاهل هذه الحقيقة الكبرى ينحصر ذنب اوروبا ، وهي تتألم لانها مذنبة » .

وكما عبر مترنيخ اخيراً عن شعور عم خواص القوم: الشر منبعه « قرن الحساد» مع ما جاء به من « تعاليم مزيفة » و « فلاسفة مزعومين » .

طبيعي ان الكنيسة ستبقى في الدولة كما في السابق : ولكنها لن تكون ظنينة ، ومنافسة السلطة الملكية يجب مراقبتها، بل معاونة لا غنى عنها الحرب ضدّ الروح الثورية تستلزم الصلح بين الكنائس والصلح في الكنيسة . المشادة الاجتماعية الكبرى عقمت المشادة الدينية الكبرى . للمرة الاولى منذ اوائل العصر الحديث ، نرى ملوكاً ثلاثة يدينون بمعتقدات مسيحية مختلفة يتكلمون ، طوعاً أو كرهاً ، في ميثاق الحلف المقدس ، اللغة الصوفية نفسها . في نظر الكنيسة الانغليكانية ليس المسيح الدجال هو البابا ، بل نابوليون . وهـا هو « كونسالفي » يستقبل في لندن في السنة ١٨١٤ ، في هذه المملكة المحرمة على البابويين منذ اكثر من قرنين ونصف القرن . وسيقوم امبراطور النمسا وملك بروسيا ، في وقت لاحق ، بزيارات داوية الى روما . لقد ولى عهد الجلسينية والغليكانية والفبرونيانيه والجوزفية : فقد انتقلت هذه المنازعـات المياتة الى خلفية اللوحة . وبموافقة البلاطات كلها اعاد بيوس السابـع ، في ٧ آب ١٨١٤ ، جمعية اليسوعيين التي ألغاها اكليمنضوس الرابع عشر منذ ٤١ سنة بسبب عداء هـذه البلاطات نفسها لها .

ليس تقسيم اوروبا الجديدة وحده ما يجري « باسم الثالوث الاقدس » ، بل بناء المجتمع من الداخل ، أقله كما اراده رجال الساعة . وقد عبر فلاسفة السلطة المطلقة من امثـال بونالد ، وجوزف دي ميستر ، وهالر في كتابه « تجديد العلم السياسي » الذي اعد منذ اوائل القرن والذي سيترك صدى عظيماً في اوروبا الالمانية ، خير تعبير عن هذا التيار الفكري . المجتمع ليس تعاقدياً . هو الله من خلقه واعطاه مؤسساته . فمن حيث هو واقع واجب وأولي وأزلي وشامل ، فانه يفرض نفسه على الانسان الذي لا يستطيع تغييره . « الدستور السياسي عمـل الهي » . اجل ليس هذا الدستور مكتوباً بالمعنى العامي ، ولكن الطبيعة توحيه لنا بوضوح لا يترك مجالاً للشك . قد تنادي الدساتير بالمساواة المدنية ، ولكن فقدان هذه المساواة في الطبيعة سيحول دون قيامها فعلياً . ويستشهد هالر بالتاريخ الذي يُظهر له ، من اوجه كثيرة ، وكان نظام الملكية التقليدية تطبيق الحق العام في كافة الازمنة . الامير يبقى شبه في الزمان من حيث هو يملك الارض التي يحكمها ويديرها كما يدير املاكه الخاصة : انه ذو سلطة على غرار رب العائلة والولي والقائد ، « وعلى غرار الملاّك العقاري الذي له سلطة على خدّامه وعمـاله وكل من يقيم في اراضيه » . لم تتكون السلطة من اسفل الى اعلى بل من اعلى الى اسفل :

« السنة الالهية الطبيعية بدلاً من الارادة العـامة ... وسيادة من هو مستقل بقوته وثروته

بدلاً من سيادة الشعب أو استقلاله ... والسلطة الشخصية أي الصادرة عن الله بـدلاً من سلطة التفويض ... وواجبـات العدالة والمحبة المفروضة على كافة البشر بدلاً من الوصايات الخيالية ... »

على هذه القواعد ستجدد السلطة الملكية التي يشابه الازدراء بها، كما اشار الى ذلك المركيز « دي كلرمون - تونير » ، الازدراء بالسلطة الابوية وبالزواج . مبادىء الملكية والعـائلة متكاملة ، لا بل لا تتميز احياناً . كلاهما يرتكز الى السلطة والوراثة . ويصح الكلام عن حـق الارث الشامل بصدد السيادة كما يصح بصدد الاملاك الوالدية . ..

أجل ليس حق الارث واحداً بالنسبة لكل هـذه الاملاك . وفي موضوع السيادة ، يرافق الحدود القانونية نوع من المنع الطبيعي : لا يستولي عليها كل من يرغب فيهـا . الانسان سجين بيئته . وسيقول شاتوبريان « ان من يخرج من صفوف المجتمع الدنيا » لا يستطيع ان ينازع سلطة سيده و « يجلس مكانه بين الملوك الشرعيين ... » امـا الوفاء فيبدو وكأنه الفضيلة الاجتماعية الكبرى : بين الولاء للملك ؛ الوفاء للسيد ، للولي ؛ الوفاء للمهنة، للاخلاق ، التقليد، القيم الاخلاقية التقليدية .

وهي قيم داستهـا الثورة والامبراطورية ، في نظر مسؤولي السنة ١٨١٥ . فيقول شاتوبريان ايضاً :

« باسم القوانين تنكس الديانة والاخلاق ، ويكفر باختبارات آبائنا وعـاداتهم ، ويدنس بالتحطيم ضريح جدودنا ، القاعدة المتينة الوحيدة لكل حكم ، من أجل اقامة مجتمع لا ماضي ولا مستقبل له على عقل متقلب فيه » .

فكيف العجب والحالة هذه، كما يقول شاتوبريان ايضاً ،من التجاوزات الغريبة التي شوهدت في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ؟ من اغتيـال « فروتيه » والدوق دانغين ، ومن تعذيب «بيشغرو» واغتياله ؟ من سوء معاملة الحبر الاعظم الذي اقدم الكورسيكي الغريب على ضربه بنفسه وجره بشعره ؟ بهذا، كما يقول مترنيخ ، يتضح ان القرن الثامن عشر هو المذنب الاكبر، بازدرائه « بكل ما اعترفت الحكمة البشرية بارتباطه ارتباطاً وثيقاً بمبادىء الاخلاق الازلية » . تلك المبادىء التي لم يقنط « كاسلريغ » - على الرغم من الظواهر - من تلقينهـا « الشعب الفرنسي » مرة اخرى .

الالوهية ، الوراثة ، الوفاء : تلك هي من ثم مبادىء التجديد الاجتماعي ، ذاك التجديـد الذي سيقف في وجه نفسية القرن الثامن عشر ويعرف ، اذا اقتضى الأمر ، كيف يوقف التقـدم المادي عندما يكون منطوياً على أي خطر إعـداء ثوري . في النمسا حظرت كتب الطب التي وضعها « بروسيه » البيطوني . وفي روما منعت المستحدثات الفرنسية كاللقاح ، والمصابيـح الحاكسة النور في الشوارع . وفي تورينو ، ازيلت بأمر ملك سرديليا حديقة النباتات . كل هذا

قد تم بوحي الشعبية نفسها . وقد اعلن كذلك خطر روح التنعّم ، « الميل الى الملاذ والنفقات التي تتعدى طاقة الثروة» – الذي تعاظم بفعل الازدهار الاقتصادي قبل السنة ١٨١٢. يستشف المرء هنا موقفاً حذراً يقفه المحافظون والملاكون العقاريون من كافة التغييرات – وحتى من تلك الثروة المريبة التي تجمع بسرعة وتشكل خطراً على الحياة التقليدية .

التجدد الرومنطيقي

تركت هذه القطيعة مع القرن الثامن عشر اثراً عميقاً في كافــــة نشاطات الانسان التي يمكن ان تتأثر بالاوساط الحاكمة. وليس تجديد الأدب وتوجيه الفكر توجيها معيناً اقل مظاهر الحضارة المجددة في السنة ١٨١٥ . اضف الى ذلك ان تأثير الشعوب التي اشتركت اشتراكاً فعلياً في الصراع ضد فرنسا قــــد حالف هنا ، لفترة قصيرة ، تأثير خواص الشعب المحافظة .

اجــل لا شيء يشير ، لا في التيار السابق للرومنطيقية ولا في التيار الرومنطيقي الاول – روسو ، هردر ، غوته في شبابه وكهولته ، شيلر – الى وحي سياسي او اجتماعي معاد لنزعات العصر العامة . فهي تجد فيها ، على نقيض ذلك ، تعبيراً معززاً . وستسير المدرسة مرّة اخرى في هذا الاتجاه في مرحلتها الاخيرة ، حين يعود القرن التاسع عشر نفسه ، عند اندلاع ثوراته ، الى القرن الثامن عشر . ولكن بين هاتين المرحلتين الكبريين ، ازدهرت ، في الصراع ضد فرنسا وفي فترة ارتقاء كافة القيم القديمة ، رومنطيقية مسيحية ، كاثوليكية ، اوسطية ، تنبض بالحنين الى الماضي التقليدي . لا ريب في ان اصول المدرسة قد اعدتها لهذه المهمة . نشأت عن ردة فعل مضادة لمذهب العقليين ، ومن تحرر من الحس يدعو الى الحوار مع الله . فكان طبيعياً ان تقودها عاطفتها الدينية الى الدين . اما مواضيع وحيها الجديدة ، الحياة الريفية ، وبساطة الازمنـــة القديمة وعظمتها ، والاسطورة الملحمية البعيدة ، فقد جعلتها سريعة الاستجابة لنداء التقليـــد والانبعاث . وما ان اعلنت الحرب على فرنسا الثورية ، وتجندت الشعوب ، وتعاظـــم الشغف العام والاقبال على الادب ، حتى « تجندت » المدرسة بدورها . وغني عن البيان ان هذا التجند قد اختلف باختلاف البلدان والبشر ، وان البعض قد تمسكوا بشدّة باستقلالهم . ولكن بالقـــدر الذي حددت به المدرسة موقفها من مسائل عهدها ، ردت له ما جاءها منه .

وسيكون ذلك ، لا سيا في الشعر الرومنطيقي الالمـــاني ، بانتصار المذهب المضاد لمذهب العقليين ، والدفاع عن الصوفية والكاثوليكية والرهبنة . فقد كتب « نوفاليس » الذي توفي في السنة ١٨٠١ ، وان صلة الغريزي تربط بين قوّة الحس الشعرية وقوّة الحس النبوية وقوّة الحس الدينية والمنيان بصورة عامة » . وعلم « شليغل » في السنة ١٨١٢ ان الشعر الفرنسي لا يمكن ان يتجدد الا بالعودة الى المنابع القديمة والى « الحمية الدينية الخالصة » . ولكن هذا التجدد ليس ممكناً الا اذا « رجعت العقول الى الوراء » واذا « رجع الشعر الى عصور فرنسا القديمة » . كل بلاد تلهم شعراءها . وفي المانيا ، رأى « تياك » « ان قوة الحس الوطنية في المؤلفات الحديثـــة تتلاشى تلاشياً كلياً » حين ينتشر الادب الفرنسي . في السنة ١٨١٤ مجّد « روكرت » الشعور الوطني

في « القصائد المدرّعة » . وتجلت الروح الوطنية كذلك في مسرحية « سيفورو » لـ « لاموت – فوكيه » ومسرحية « معركة ارميليوس » لـ « كليست » . ولا يعني ذلك من جهة ثانية ان الرومنطيقيين الالمان قد الفوا جبهة سياسية متجانسة : فـ « اوهلاند » وتيك نفسه ينتسبان الى الديموقراطيين او الاحرار . ولكن «برنتانو» و «ايخندورف» – مع « نوفاليس » – مسيحيان قوميان . كما ان بيتهوفن ، الذي استلهم الروح الجمهورية من قبل ، قد وضع في السنة ١٨١٣ سمفونية « معركة فيتوريا » التي عظم فيها ظفر ولنغتون . وفي الوقت نفسه تقريباً انشد « جوكوفسكي » في روسيا « الشاعر في معسكر المحاربين الروس » و « الرسالة الى القيصر الظافر » . اما في الادب الانكليزي ، ولا سيا في مؤلفات كبار الادباء ، فلا تترك الاحداث اثراً بعيداً . فان اللورد « بايرون » الذي سيكون لمؤلفاته تأثير قلّ نظيره على الرغم من وفاته في ربيعه السادس والثلاثين ، قد بقي ثورياً يحتقر المضطهِدين والمضطهَدين على السواء . وبين الشعراء البحيريين ، جاهر شيلّي ، الذي سيموت في التاسعة والعشرين من عمره ، بآراء دينية إلحادية ، حتى في كتابه « الملكة ماب» الذي صدر في السنة ١٨١٣ . ولكن « وورد سوورث» و « كولردج » ، اللذين انجزا آنذاك معظم مؤلفاتهما ، قد انتقلا الى محاربة نابوليون . اما « وولتر سكوت » المحافظ ، فكان روائي التقاليد و « شاعر الشرعية » .

لم يبرز في فرنسا سوى اسم عظيم واحد : شاتوبريان . بالاضافة الى « اتالا ورنيه » ، وضع ثلاثة مؤلفات كبرى بليغة المعنى الالهامي : « عبقرية المسيحية » (١٨٠٢) ؛ « الشهداء » (١٨٠٩) ؛ « رواية رحلة من باريس الى اورشليم » (١٨١١) . ولكن على الرغم من هذا الانتاج الرائع ، لم تعد الاولوية لفرنسا ، بسبب افتقارها الى الرجال . انتقلت العظمة والآراء الرائعة الى بلدان اخرى . ان كسوف فرنسا الادبي قد رافق كسوفها السياسي . ولكن ما يجب لفت الانتباه اليه ، في اوروبا المقهورة هذه حيث تنتظم الثورة المضادة ، ان برج الرومنطيقية الاوسطي والمسيحي ينادي على طريقته بقيم التجديد التي سبق وشاهدنا غلبتها .

القيم الجديدة

ان مجتمع السنة ١٨١٥ قد عرّف من ثم بضعف الانسان أمام المقولات الازلية . هنالك دين ازلي ، واخلاق ازلية ، وتسلسل سلطة ازلي ، ونظام الهي وبشري ازلي . نظام لا يهتم بالحقوق ، بل بالواجبات ، « بالوصايا » . كان علم الاخلاق الديني وتعليم الكنائس العام مشبعين بالروح الاجتماعية المنتشرة في اوساط الارستوقراطية او الاوليغارشية الضيقة الحاكمة – التي ما زالت ، من جهة ثانية ، تحتل مراكز السلطة الروحية في معظم انحاء اوروبا – والفا خير جهاز منظم للدفاع عن العالم التقليدي ، كما اتضح ذلك منذ قرون عدّة على كل حال . ولكن علية القوم قد لمست ذلك لمس اليد في السنة ١٨١٥ ، ولا سيا كبار الملاكين الذين تغلب بمجتمعهم الراسخ غير المتحرك على المجتمع الصناعي السريع التبدل في ثرواته وافكاره وخواصه . وقد زاد في رسوخه الخوف الاجتماعي : فان روح الحذر قد تغلبت على روح التفاؤل والاقدام ، والايمان بمصير منقطع النظير ستبلغه الشعوب سبق لكوندورسيه ان أومأ اليه بالرموز .

ان الصراع المنتهي قد اقام في وجه القرن الثامن عشر وحضارتـه المتحركة الصادرة عن الانسان حضارة مقاومة صادرة عن الله .

٤ ـ الاخطار المحدقة بالمجتمع المجدّد

الخوف الاجتماعي

بدت هذه الحضارة في السنة ١٨١٥ وكأن لها انصبتها في الحيـاة . نصيب سلسلة طويلة من خيبات الامل ؛ والنهكة ؛ وارتقاب سلام معمر . نصيب الخوف الاجتماعي نفسه : اذ ان الخوف لم يسيطر على الاوساط الارستوقراطيـة او « المجدّدة » وحدها ، بل فككك ، منذ زمن بعيد ، الجبهة البورجوازية ، وأسهم، خلال القرنين الاخيرين، في الحيلولة دون تنظيم دفاع قومي على غرار ما جرى في السنة ١٧٩٣ . فان العديد من اوساط البورجوازية الكبرى قد رغب في التعاون . وهكذا فان تجديد العالم القديم، بالقدر الذي تم به، قد يعطي معاصرين كثيرين فكرة خاطئة عن متانته .

الا ان الوضع ما زال مهدداً باخطار جمة ، من خارج اوروبا ، وفي اوروبا نفسها حيث تقوم أشد الأخطار هولاً .

انطلاقـة الولايات المتحـدة

ان الحدث الاكبر ، خارج اوروبا ، هو لعمري سرعة نمو هذه الجمهوريـة الاميركية الفتية التي لم يعتقد فلاسفة العهد القديم ، قبـل عشرين سنة ، بحظها في الحياة . انها لجمهورية بورجوازية ، تفرعت عن القرن الثامن عشر تفرعاً سريع الامتداد ، وبقيت ، على ما يظهر ، وفية القيم الأصلية : الفلسفة الثورية ، لحقوق الانسان ، للدستور العقد ، وبدت منذ السنة ١٨١٥ وكأنها ترفض التاريخ بحسب التعاليم الازلية الواردة في الحلف المقدس .

ما فتئت البلاد تتوسع ، لا سيا نحو الغرب ، وكذلك نحو الجنوب . ابتـدأت المسيرة نحو الباسيفيكي بشراء مقاطعة « لويزيانا » من « القنصل الاول » في السنة ١٨٠٣ وبانتقال السكان الى « الغرب الاوسط » و « اوهايو » و « الميسيبي » ؛ وباقامة اول مركـز للجنود الاميركيين على شاطىء الباسيفيكي عند مصب نهر كولومبيا في السنة ١٨١١ . وضُم قسم من فلوريدا بين السنة ١٨١٠ و ١٨١٣ . فبلغت رقعة الاتحاد الآن أكثر من خمسة ملايين كيلومتر مربع بـدلاً من المليونين ، مساحة رقعته الاولى ، وتجاوز عدد السكان ضعف ما كان عليـه في السنة ١٧٩٠ ، فبلغ ، حوالي السنة ١٨١٥ ، بين ثمانية وتسعة ملايين نسمة : أي نصف سكان المملكة المتحدة، وثلثي سكان بريطانيا العظمى . اما كندا المولية المجاورة فلا شأن لها تقريباً ، اذ ان سكانهـا لا يتجاوزون نصف المليون .

بتأثير الظواهر التي سبقت الاشارة اليها في اوروبا القرن الثامن عشر ، والتي كان لها هنـا

مزيد من التأثير القوي ، تكاثرت النشاطات الاقتصادية ، وتكدست المكاسب تكدساً مطرد السرعة لا نظير له في الماضي . اتسعت السوق الداخلية بارتفاع عدد السكان . واتسعت كذلك السوق الخارجية ، في اوروبا واميركا اللاتينية ، بفضل الفوائد التجارية التي يوفرها الحياد للبلاد في ظروف حرب شاملة : على ان الحصار الانكليزي قد اشتد اكثر فأكثر بعد نقض صلح أميان . اضف الى ذلك ان ارتفاع الاسعار الاميركية - كما يظهر ذلك من الرسم البياني المنشور في الصفحة ٥٩٣ - قد وسع حجم الاعمال والمكاسب توسيعاً عظيماً . فبين السنة ١٧٩١ والسنة ١٨١٠ كاد محمول السفن المستخدمة في التجارة الخارجية يبلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه ، بينما تضاعفت قيمة الصادرات ، منذ السنة ١٨٠٧ ، ست مرات تقريباً . وسار الانتاج الصناعي في الطريق نفسها ، اذ ربما ارتفع عدد مناسج الحياكة من ٨٠٠٠ في السنة ١٨٠٨ ، الى ٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٨١٥ . اما في صناعة الاجواخ فكان التقدم اقل سرعة . ولكن الصناعة التي قامت في المشاريع الكبرى على أنواعها كانت صناعة جديدة كلّها ومجهزة خير تجهيز . وشجعت الظروف نفسها ، وتوسع المدن ، وازدياد الاستهلاك الداخلي ، حرف البناء والتجارة الصغرى ، كما شجع الانتاج الزراعي ارتفاع اسعار الخامات في العالم كلّه ، وهو ارتفاع ملموس جداً حتى السنة ١٨١٢ تقريباً ، لا سيا وان الاراضي واسعة جداً وتصلح للمتاجر الكبرى او للزراعة الاستهلاكية الصغرى . وفي الداخل توفرت الاراضي للجميع ، اعني بها اراضي الهنود القليلي العدد والمدفوعين الى الوراء باتجاه الغرب . وقد تراوح سعر المكتار بين دولارين وثلاثة في حال ان اجر العامل العادي غير الكفء تراوح بين ٨٠ سنتا ودولار .

في فردوس المشاريع الحرّة هذا، بدا من ثم وكأن كل شخص قادر على الجد في طلب الثروة . اجل انه الفردوس لخاسي ، وبستلزم ، من جهة ثانية ، ابادة الهنود . ولكن ليس من يعبأ بامر الابادة . كما ان النخاسة ، على الرغم من الغائها في السنة ١٨٠٧ - الذي لم يحل دون تضخم حجم الانعام السوداء - لم تصبح بعد معضلة قومية كبرى .

ويجدر لفت الانتباه اخيراً، في هذه الديموقراطية الاقتصادية السائرة قدماً في انطلاقتها والخاصة بالعرق الابيض ، الى ان طبقة ارباب المشاريع ، وهي العنصر الخلاق بالذات في البورجوازية ، قد توسعت من اعلى المجتمع الى اسفله .

الفوز الجمهوري

بدت الجمهورية الاميركية من ثم ، في نظر العالم، وكأنها نجاح مادي باهر . كما بدت في الوقت نفسه وكأنها خلق ديموقراطي يتوطد اكثر فأكثر كل يوم . كانت السيطرة للمتدلين الاتحاديين اولاً ، حتى السنة ١٨٠٠ ، وقد تكلم أحدهم ، وزير المال « هاملتون » ، عن اسناد الحكم الى « الطبقات العليا » . اتهمهم خصومهم الجمهوريون بانهم « الحزب الانكليزي » ورجال الثورة المضادة ، وطالبوا - اقله في تصريحاتهم العلنية -

بدخول الحرب الى جانب الثورة الفرنسية ، فكان منهم ، امام القيود التي فرضهـا « مجلس المديرين » على تجارة الدول المحايدة ، وامام خرقه المهين ، ان قطعوا علاقاتهم الديلوماسية به . انتزع الجمهوريون السلطة منهم لفترة ثلاثين سنة تقريباً . وانتخب الرئاسـة « جفرسون » ، واضع بيان الاستقلال في السنة ١٧٧٦ ، وصديق فرنسا الثورية ، الذي نعته خصومه الاتحاديون باليعقوبيـة والميل الى فرنسا، والذي رأى في انتخابه انتصاراً ديموقراطياً على« فئة من المتجنين الملكيين والارستوقراطيين الميالين الى الانكليز » . الا انه انتهج سياسة توفيق انتهت الى احباط تدابير الحزب الاتحادي وتفكيكه . وحرص كذلك ، في الخارج، على ابقاء بلاده خارج الحرب الكبرى . ولكن زيارة الاساطيل الانكليزية السفن الاميركية ادت الى حوادث كثيرة ، كما ان فرض الحظر على البضائع الاجنبية عرض مجهزي السفن للافلاس . فتململ المزارعون واصحاب المغارس في الغرب والجنوب من الهبـوط الخيف في تصدير الحنطة والقطن . وكان للاوهام والاطماع شأنها ايضاً . فقد اعتقد الجميع بقرب فتح كندا . وهكذا فان ماديسون ، خليفـة جفرسون ، اعلن الحرب في السنة ١٨١٢ .

يتضح من ثم ان ظروفاً كثيرة ، لم تلعب النظريات فيها اي دور ناشط على كل حال ، قد انتهت الى وقوف الولايات المتحدة ، عملياً ، الى جانب فرنسا في أشد ساعات صراعها حرجاً ضد اوروبا . فاشتعلت من ثم الحرب (الاستقلالية الاميركية الثانية ، المجهولة المصير ، التي نشبت المعارك فيها بين جيوش غير ثابتة لم يحسن تدريبها وبين جيوش ولنغتون المضرسـة على الحرب التي جيء بها من اسبانيا في السنة ١٨١٤ . نزلت فرقة انكليزية صغيرة الى البر في جون (شيسابيك) واستولت على واشنطن حيث احرقت الكابيتول والبيت الابيض ، انتقاماً مـن احراق الجيوش الاميركية لمبنى برلمان تورونتو ، كما يقال ، ومجرد اغارة سريعة على ارض العدو ، اذ ان العمليات الحربية لم تنته الى أي حل عسكري . الا ان معاهدة الصلح ستوقع في النهاية في «غنت» في شهر كانون الاول .

انه لصلح غريب ، لا غالب ولا مغلوب فيه . صلح « وضع راهن » — ولكنـه يوطـد استقلال الجمهورية الكبرى التي لن يكون لاوروبا الحلف المقدس حق البحث في موضوعها مرّة اخرى . وقد عززت هذا الاستقلال تحقيقات الاستقلال الاقتصادي التي يعود الفضـل فيهـا لتقـدم الآلات الصناعية . وقد رافق كل ذلك انتشار الديموقراطية وتوسيع حق التصويت في داخل الولايات .

خرجت الجمهورية معززة من الاحداث الخطيرة التي صمدت فيها في وجه اقوى دول الحلف الكبير ، وكأنها جدّدت شبابها برجوعها الى الاصول . فقد جاشت فيها قوى جديـدة ، نخص بالذكر منها وعياً قومياً اوفع سمواً تولّد من اخطار الحرب والتضامن الذي استلزمته . فكتب حينذاك احـد محامي واشنطون الشباب ، « كي » ، « العلم المكوكب » . وباتجاه الجنوب ، في تلك القارة الاميركية التي أخذت تبـدو وكأنها تعود كلّها الى الجمهورية ، ارتفعت نجوم

جديدة ايضاً .

الثورات اللاتينية

في الوقت نفسه الذي تخلخلت فيه الثورة في اوروبا وانطفأت ، اندلعت النار فجأة في كافة انحاء اميركا الشاسعة المستعمرة . فمن « لابلاتا » الى اسبانيا الجديدة» ومن «بونيوس ايرس» الى مكسيكو رددت حروب الاستقلال اللاتينية صدى حروب الاستقلال «الاميركية» . وبفضل هذه وتلك،وفي الشطر الاكبرمن العالم الجديد»في الشمال وفي الجنوب ، ومن «الارجنتين» حتى الحدود الكندية ، خفقت في اوائل السنة ١٨١٤ ، على الرغم من بعض الهزائم المثيرة القلق ، الاعلام الدستورية او الجمهورية .

انبثقت الثورة من هيجان خواطر طويل الامد شمل اواسط السكان المولودين في المستعمرات وبورجوازية تضم اصحاب المغارس والتجار والمثقفين المنحدرين من أصل واحد . جلي ان هذه البورجوازية قد اكتملت بحسب شرائعها الخاصة . فالمجتمع الاستعماري ، ولا سيا المجتمع الاميركي» قد اثار هنا بشكل فريد مشاكله الخاصة الناتجة عن الاعراق ، والطبقات ، والمدى الحيوي ، والانعزال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان هذه « البورجوازية» قد وضعت هنا ، اكثر من أي مكان آخر ، قيودها الاوليغارشية . ولكنها ترعرعت ، في الواقع ، على غرار كافة بورجوازيات القرن . فبفضل الحركة التجارية وارتفاع الاسعار جمعت ثروات طائلة في وقت قصير جداً . ورافق هذا الاثراء المادي الاثراء الثقافي ووفرة الاتصالات في المدينة المتوسعة . فاستمالت من ثم اليها عدداً كبيراً من الخلاسيين والعبيد الجهلة . اجتمعت فيها ، في آن واحد ، الانزار ، والقوة الحقيقية ، والتصميم على التغيير .وجهت تفكيرها الفلسفة الفرنسية . اجتذبها مثل الثورتين الاميركية والفرنسية . واصلت تربيتها السياسية وجمعت خواصها في جمعيات سرية . انضم خلاسيون اثرياء الى المحافل الماسونية او تأثروا بتعاليمها : بوليفار ،الذي كان مكباً على قراءة مؤلفات جان–جاك ، وبلوتارك ، و «سان مارتين » ، و «مورينـو» ، الذين سيلعبون ، مع «ميرندا» –صديق الجيرونديين وجندي السنة ١٧٩٢ – اكبر الادوار في الثورة الجديدة .

على غرار البورجوازيات الاخرى تطلعت « بورجوازية » اوائل القرن التاسع عشر الخلاسية ، بوعي متفاوت ، الى الاستيلاء على الدولة . اقصيت عن الوظائف الكبرى العامة في المستعمرات الاسبانية . ونُظر اليها كما الى عنصر اجتماعي من المرتبة الثانية ، بينما توطدت ثروتها روعيها توطداً لم يعرفاه من قبل ، فانبثت ، في اعمق اوساطها تطوراً ، تحقيق دستور شبيه بالدستور الاميركي . واقتضت صوالحها الاقتصادية من جهة اخرى التخلص من الحرمان الذي يستهدفها ، اذ ان البلاد يجب ان تعيش لنفسها . فاتخذت صيغة التحرر ، التي ستستخدم لمنفعة الاوليغارشية الاستعمارية ،طابع الحريـة والقومية .لن تلبث الكنيسة الكاثوليكية ان تتلم بصدد هذه المسائل ، ولكنها اسهمت في البدء اسهاماً غير منتظر : اوغر صدرها إلغاء

جمعية اليسوعيين ، فقاومت في الحفاء السيطرة الاسبانية . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان أحداث اوروبا التي ستفضي الى الصراع الكبير ستسهم بعض الاسهام بدورها ايضاً . سيخطب المستكران ودّ المستعمرات التي ستساعدها او تشجعها انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة على السواء ، فتجد في اتفاق الظروف هذا فرصة نادرة للتحرر .

البرازيل

اصبحت البرازيل ، في شهر شباط ١٨٠٨ ، ملجأ العائلة المالكة الفارة امام جيش « جونو » . فقد اقام الوصي على عرش البرتغال الذي سيحمل اسم جان السادس بعد الحلول محل والدته المتوفاة – والبلاط وكبار موظفي الادارة في « ريو دي جانيرو » التي باتت بالفعل نفسه عاصمة دولة مستقلة عملياً . ومنذئذ سيتولى آل « براغنس » والسياسيون الذين تبعوهم حكم البلاد لا بوصفها مستعمرة للاستثمار ، بل دولة يجب ان تؤمن حاجاتها وتعمل بنفسها . جهزوها على الطريقة الاوروبية بالوزارات والمحاكم والمدارس . وفتحت الموانيء للتجارة الخارجية ، ولا سيما التجارة الانكليزية والتجارة الاميركية . ووضعت اتفاقات جمركية حصلت انكلترا بموجبها ، في شباط ١٨١٠ وكانون الاول ١٨١٢ ، على مركز ممتاز . فنجمت عن ذلك ، في شتى الميادين ، انطلاقة مدهشة ستحول دون العودة فيما بعد الى الميثاق الاستعماري ، الذي ما كان الامير الوصي على العرش ولا المقربون اليه ليرغبوا فيه . فقد بلغ من تعودهم حياتهم الجديدة ان اهملوا البرتغال بعد ان تخلى عنها نابوليون وقد حافظت البرازيل على استقلالها الداخلي في السنة ١٨١٥ داخل المملكة المتحدة التي ضمت البرتغال والبرازيل « والغارف » ، واعترف بها مؤتمر فيينّا . فلم يكن ما حدث ثورة حربية بل ما يشبه « ثورة قومية » .

انتفاضة المستعمرات الاسبانية

ولكن الإعداء الثوري تفشى في اميركا الاسبانية بنوع خاص على الرغم من الاحتياطات التسلطية التي اتخذتها الحكومة . رفضت المستعمرات الاعتراف بـ « جوزف » في السنة ١٨٠٨ وانضمت الى فرديناند السابع . الا انها ارادت ان تدير شؤونها بنفسها في اثناء منفى الملك وطالبت بالعودة الى التقاليد البلدية القديمة ، الى تلك الجمعية المحلية المفتوحة ابوابها ديموقراطياً للجميع . عارض المجلس الاسباني المركزي هذه المطالبة وعين للمستعمرات تمثيلاً يحمل على السخرية ، في مجلس الكورتيس الذي سينعقد في قادس . اثار الرفض حفيظة سكان المستعمرات على الاسبانيين في الوطن الام . فألف بوليفار واصدقاؤه والكاهن القانوني التشيلي « مادارياغا » ، بدورهم ، مجلساً اعترفت بسيادته كافة المجالس المحلية . طُرد نواب الملك او الضباط المامون ، خلال ايام ثورية نشيطة ، في فنزويلا ، وغرناطة الجديدة ، وبوينوس ايرس . وحدث ما حدث في بوينوس ايرس في « ٢٥ ايار » ١٨١٠ . وفي تموز اعلنت تشيلي استقلالها . وفي كل مكان تقريباً اجتذب السكان المولودون في المستعمرات جماهير الخلاسيين الاول والعبيد الزنوج والهنود . فحدث الحدث المرغوب

دونما مقاومة ، باسم حقوق الانسان والديانة الكاثوليكية .

ولكن هذه التباشير الاخيرة ما لبثت ان بلغت اجلها . فبرزت المقاومة . ثم اتضحت معالم الصراع بين بورجوازية السكان المولودين في المستعمرات وطبقة « الموالين » اصحاب الامتيازات ، اعني بهم الموظفين الاسبانيين الذين يغارون على الاحتفـــاظ بسلطتهم وممتلكاتهم ووظائفهم . انتصر الاحبار للموالين ، والاكليروس الادنى لخصومهم ، وانقسم الخلاسيون الأول والهنـــود كذلك . وليس سوى الزنوج من التجهوا دون تحفظ شطر ثورة هدفت في برنامجها الى الغاء الرق . توفق الموالون ، الذين ساندتهم عناصر هندية كثيرة وجيوش مرسلة من اسبانيا بعد اعـــادة

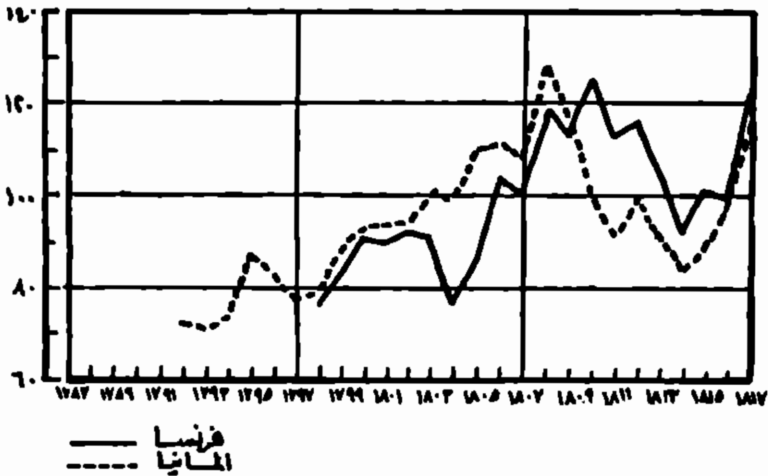

الملكية القديمة ، الى التغلب على الحركة في اغلب الاحـــيان . فاستُردت « كيتو » في السنة ١٨١٢ ، كما ان فنزويلا ، الـــتي اعلنت في السنة ١٨١١ دستوراً مقتبساً من دستور الولايات المتحدة ، والتي خلف فيهـــا بوليفار اليعقوبي ميراند الجيروندي ، قد استعيدت السيطرة عليها في السنة ١٨١٥ . وفي اسبانيا الجديدة عرفت الثورة ، منـــذ السنة ١٨٠٨ ، انتصارات وهزائم كثيرة تعاقبت تعاقباً مطرداً . ارتدى الصراع طابعاً خاصاً جداً وقد لعب فيه الهنود دوراً رئيسياً . ابصر النور دستور اعـــدّه مؤتمر « شيلبنسينغو » . في السنة ١٨١٣ ، اعلن الاستقلال المكسيكي . ولكن وحدة عسكرية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي وصلت من اسبانيا . فسحقت الحركة ، وفي كانون الاول ١٨١٥ اعدم زعيم الحركة الكاهن موريلوس رميـــاً بالرصاص . اما في الجنوب فقد صمدت بعض مناطق « لابلاتا » في مقاومتها . فأحرزت الثورة هنا نصراً حاسماً .

ـكان هذا النصر نموذجاً يبعث في المناطق الاخرى آمالاً لن يفوت مصالح الولايا
ـية والتجارية مساندتها . وربما مصالح انكلترا ايضاً . فاذا كانت المعاهدة التي
ـبانيا في تموز ١٨١٤ قد حظرت عليها شحن الاسلحة بعد هذا التاريخ ، فهي قد
ـذه الاسواق الجديدة بمركز الدولة المفضلة . فهل ستعتمد سياسة تمليها عليها اسوا
لفت النظر هنا الى ان عملها ، وعمل الولايات المتحدة كذلك سيكون سهلاً :
ـلر على المحيط يسيطر على العالم الجديد . امام هذا العالم الجديد ، الذي جاءت ا

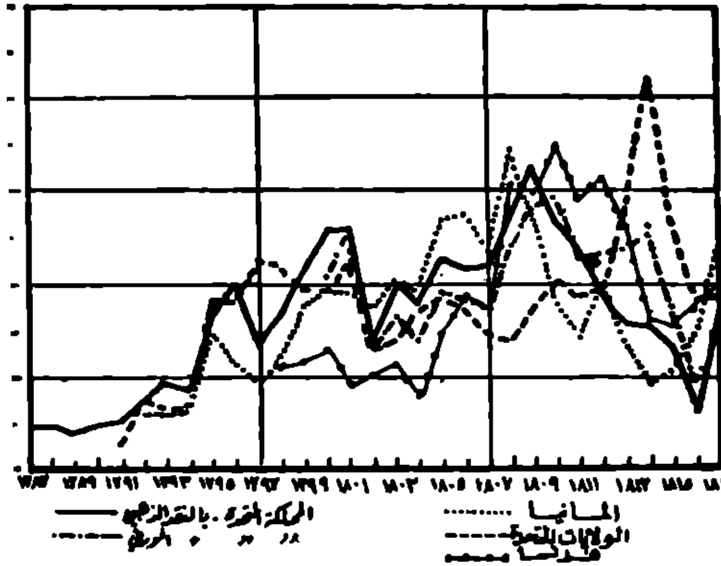

ـة وكأنها تناقض وتتحدى من الخارج قيم الحلف المقدس ، ليس مستبعداً ا
ـة « الاوروبية » .

شمول
طلاقة البورجوازية

وفي اوروبا نفسها ، من جهة اخرى ، كم من « متناقضات » ،
ولكنها بالغة الاهمية ، يبصرها من يقدر على ابصارها . لا
ان الثورة المضادة قد انتصرت ، ولعل ما هو اهم من ذلك
ـبورجوازية قد اسهم في هذا الانتصار . وان ضربة السنة ١٨١٥ القاضية قد تركت
ـة الحركة والحياة . ولكن القوى التي قامت بالثورة ما فتئت تتعاظم .

ـن امكانات قيام مجتمع عقاري وحضارة عقارية ولئن زمانها ، ما زالت مثاراً
ـيام الثورة الصناعية ، وان هـــذه الثورة التي بات بالامكان ، منذ السنة ٨١٥

اتجاهها الهادف الى ان يدخل على الحيـــاة ، وكأنه سيتحدى العصر الذي بدت فيه «الحركة» السياسية شبه مشلولة ، حركة « اقتصادية » لا تقاوم ستخدم ، اقله في البدء ، مصلحة الثورة البورجوازية. اذا ما قورنت بالحضارة الزراعية او الريفية، بدت الحضارة التجارية والصناعية، منذ الآن ، حضارة سرعة في جوهرها : فقـد تزايد الانتاج والمقايضات والاستهلاكات ، في النظام الاخـير ، تزايداً اسرع منـه الى حد بعيد في النظام الاول . وسوف يزيد انتشار التقنيات الجديدة كثيراً من هذا التفوق الطبيعي . يضاف الى ذلك ان الاقتصاد «البورجوازي»

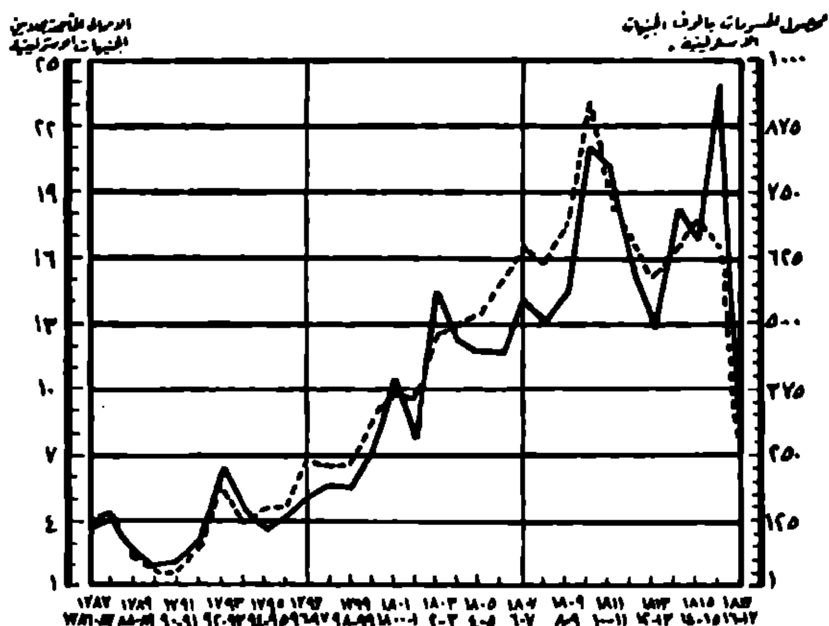

الجديد ، المتميز بمرونـة لم يعرفهـا الاقتصاد القديم ، قد تقـدم الاقتصاد العقاري المتصلب مسافات اكثر بعداً ايضاً . وهو سوف يجر ، في تقدم مشترك ، الفئة الناشطة التي تنظمه .

ان الثورة الصناعية ، المتميزة بجمعها الشامل بين الآلة البخارية والآلة الاداة ، ما زالت في اوائل عهدها على كل حال. فالانقلابات الدولية خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة قـد اعاقت او اوقفت الشواغل التقنية التي اعارها القرن الثامن عشر اهتمامه . الا ان بعض النقاط قد رسمت . فقـد اقيـم اول مصنع بخاري في ملشستر في السنة ١٨٠٦ . وتعاظم دور الآلة البخارية في صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، ولا سيما على مقربة من افران تحويل الحديد المصبوب الى حديد وتصفيحه . وابتكر المهندسون الكثير من الآلات الادوات . منذ

السنة ١٨٠٣ حتى « مدلي » الفاطرة، وفي السنة ١٨١٠ باشر ستيفنسون اعماله . حلت الخطوط المصنوعة من الحديد المصبوب محل الخطوط الخشبية المستخدمة لنقل الفحم المعدني في حوض « نيوكاسل » . كما ان الانارة بالغاز التي سوف تتيح وحدها استمرار عمل المصنع ليلاً نهاراً قد اعتمدت في لندن في السنة ١٨٠٧ في حي « بول مول » . ولكن الطاقة المائية هي دائماً ما يحرك الصناعة الكبرى ، باستثناء عمل المناجم .

مهما كان من طابع العظمة الذي بدت الآفاق القريبة مطبوعة به في السنة ١٨١٥ ، فان الشيء الأهم، منذ ربع القرن الاخير، لم يقم في جدة المستحدثات قيامه في ديمومة اتفاق الظروف، ولم يقم كذلك في تجدد الجهاز المنتج قيامه في ديمومة وتعزز الجو الاقتصادي الذي خلفه القرن الثامن عشر ، جو الاثراء ، والكسب الوافر ، واتساع البورجوازية ونضجها . اذا ما ألقينا نظرة على الرسوم البيانية المنشورة في الصفحات السابقة ، تبين لنا ان ارتفاع الاسعار ، الذي حدث قبل الثورة بزمن بعيد يستمر زمناً بعيداً بعدها ايضاً ، حتى حوالي السنوات ١٨١٠ - ١٨١٢ ، في العالم كله تقريباً . وكانت لهذا الارتفاع نتائجه الاعتيادية : ارتفاع غير متناسب في المكاسب ، ودفع الى الانتاج المطرد النمو ، وتوسيع في المقايضات، وتقدم عام في التجارة، الكبرى منها والصغرى على السواء . فالبائع يكسب من ثم في كل من الاسعار والكميات . وغالباً ما يسهل الكسب تضخم معتدل نسبياً، بشكل من جهة ثانية ضداً النقد الذهبي المتداول في فرنسا . في السنة ١٧٩٧ حظر « قرار » التقييد على مصرف انكلترا تسديد دائنيه نقداً معدنياً . وما زال هذا القرار ساري المفعول في السنة ١٨١٥ . فالنظام النقدي انطوى عملياً على استحالة التحويل والسعر المفرط . تجاوز هبوط قيمة الجنيه الاسترليني الورقي ٢٥٪ في السنة ١٨١٤ . وفقد كل من الفلورين والروبل و « التساج » السويدي اكثر من نصف قيمته الاسمية . فتوجب اللجوء الى التضخم المالي لتأمين نفقات الحرب الضخمة في معظم البلدان . ورافق هذه الكوارث النقدية انتقال الثروات الى بائعي المحاصيل والمصنوعات وارباب المشاريع على اختلاف فئاتهم . وان في ارتفاع الرسوم البادي في الرسم البياني المنشور في الصفحة السابقة لخير تعبير عن ارتفاع حجم المعاملات في التجارة الانكليزية الكبرى . ويصح القول نفسه في مراكز البر الاوروبي الرئيسية . وهنا يبرز ما انطوت عليه المحاولة من مغايرة الصواب : فهي البورجوازية المتعاظمة ، والسائرة قدماً في نموها الاقتصادي، ما حاولت الحضارة الجديدة الانتقاص من مقامها سياسياً واجتماعياً .

النظام البريطاني الحر

اضف الى ذلك ان صعوبات جمة قد تقوم بصورة مفاجئة . لا يمكن ان يعود التاريخ الى الوراء . فبعد ان تبلغ البورجوازية مستوى معيناً من الثقافة والوعي ، ستسير قدماً في طريقها الخاصة . ومهما كان موقف العالم القديم منها ، فهي تشكل عنصراً رئيسياً وثابتاً من عناصر المجتمع السياسي . ان لتفكيرها المستقل ومصالحها المستقلة وسائلها التعبيرية المستقلة ، ولعكسها صحف كثيرة واسعة الانتشار . في انكلترا ثاني

صحف يومية صباحية وثماني صحف اخرى مسائية ، من بينها الـ « تايمز » ، صحيفة الاعـلام الوزارية ، والـ « مورنتنغ كرونكل » ، لسان حال الهويغ ، والـ « مورلنغ بوست » لسان حال التوري ، التي لا تقتصر على رواية تفاصيل الاحداث بل تنشر مقالات تتناول امهات المسائل . وبين المطبوعات الدورية مجلة « كوورترلي ريفيو » المحافظة نظيرة « مجلة ادنبره » التي أسسها الهويغ في السنة ١٨٠٨ . وقام في مدن كثيرة ما عرف بـ « نادي الكتـاب » . وتأسست نواد ثقافية ، شبيهة بالجمعيات الادبية والعلمية في لندن والعواصم الاقليمية . منذ ذاك الوقت ظهرت بوادر الاستعداد لفتنة « الاحرار » والراديكاليين بعد صدور قانون السنة ١٨١٥ الذي اقر رفع قيمة مدفوعات الحنطة . فانضم « بلتام » الى الحركة المطالبة بالتخلي عن النظام الانتخـابي القديم . وفي كتابه « مبـادىء الاصلاح البرلماني » ، الموضوع منذ سنوات عدة ، اتهم الملك والاوليغارشية الحاكمة المحدودة العدد اللذين اعتبرا انفسهما الاوصياء على الأمة ، بتبذير اموال اليتيم القاصر .

بوادر النظام الحر في روسيا

ان بعض العناصر المنادية بالنظام الحر في بروسيا والنمسا ولا سيا في روسيا قد لحقت بالحركة من بعيد وبطرائقها الخاصة . فقد صدر في موسكـو « رسول اوروبا » لـ « كرامزين » ، و « الرسول الروسي » لـ « غلنكا » ، وماتزوني بو « روح الصحف » . حد ارتفاع بدل الاشتراكات من عدد المشتركين ، ولكن عدداً من المثقفين تطوعوا العمل في هذه المنشورات ، على غرار ما حدث في القرن الثامن عشر . فأسهمت الحروب ولا سيا الحرب الوطنية الكبرى في السنة ١٨١٢ ، في ايقاظ وعي الضباط والجنود والانصار السياسي . ومن ناحية أخرى اوسع نطاقاً ، تجلى للاشراف الروس والعناصر المتقدمة في الجيش ، بفضل الغزو الغربي ، عالم جديد كله بعاداته وعلاقاته الاجتماعية وافكاره .

الحركات القومية

وعلى صعيد آخر ايضاً ، قامت معارضة رهيبة كانت لها امكاناتها الكبرى . فالالمان والايطاليون لم يطيقوا نير النمسا بملء رضاهم ولم يخـف « بالبو » وماتزوني بو « غوارالسي » و « مسيمو دازيليو » خيبة آمالهم . « ولن نغدو احراراً ما لم نكن أمة واحدة » . وتحسروا على « فكرة المملكة الايطالية الحلوة » التي قال بها الفرنسيون . واستمرت المبـادىء الثورية في الاختمار في المحافل الماسونية . فتأسست جمعيات سرية منذ السنة ١٨١٥ ضمت الطلاب وقدامى ضباط الجيش الكبير قبل غيرهم . وأثار « ميلوخ اوبرينوفيلش » الصرب مرة أخرى على السلطان الذي اعترف باستقلالهم في السنة ١٨١٥ . وما لبثت ان اندلعت في اقصى البلقـان ثورة اعظم شأناً ستحظى بعضد البورجوازية اليونانية التي جمعت الثروات عن طريق التجـارة والحرف الصغرى . اجل لا يمثل النظام الحر في هذه الحركات المختلفة سوى قوة غير متساوية : ولكن الحركات القومية اخذت تهدد اوروبا الجديدة تهديداً مباشراً ، حتى حين كانت الحواجز قائمة بين الشعوب وبين هذا النظام .

وهكذا عملت في سبيل الثورة البورجوازية ، أو أقله ضد هذا العالم المجدد ، المعرض لشتى الاخطار ، اعظم قوى القرن التاسع عشر : الشعور القومي ، والحس الاجتماعي بما فيه الحس الطبقي البورجوازي بصورة خاصة . فهذا وذاك قد جعلا فرنسا منذ هذا التاريخ ترفع لواء الثورة الصامتة على معاهدات ومواثيق السنة ١٨١٥ . وسيحدث ان يجتمعا كلاهما في خارج فرنسا ايضاً . ومهما يكن من امر فانها لن يتعارضا كما حدث ذلك احياناً من قبل . لقد رفع الحظر عن الهيمنة النابوليونية : ولم تعد الفلسفة الثورية لتبدو لاوروبا وكأنها فلسفة العدو ، أو كأنها فرقة خيّالة تهدد استقلال الشعوب . ولم تعد « الحركة القومية » ، أقله مؤقتاً ، مبطلة « الحركة الاجتماعية » .

البروليتاريا

وباتباستطاعة بورجوازية الثورة،في وجه اوروبا السنة ١٨١٥،وفي وجه النظام القديم في ما مضى ، الاعتماد كذلك على قوة طبقة أخرى : البروليتاريا التي ما زالت ، مؤقتاً ، عنصراً رئيسياً من العناصر المرتبطة بها سياسياً .

بيد ان اختلافات خطيرة ، زادت من حدتها احداث ربع قرن كامل ، قد نشبت بين الطبقتين . لقد وعى كل منها حقوقه . ولكن وعي البورجوازية ربما فاق وعي البروليتاريا . فالبروليتاريا وما اليها سيتحدان عند الحاجة في سبيل مقاومة العدو المشترك . أما البورجوازية فستثبت ، حتى في الصراع ، على حذرها وخوفها ، ذاك الخوف الاجتماعي القديم الذي بلغ اقصى حدوده خلال السنوات الثورية الاولى ، والذي شمل من جهة ثانية رجال التجديد الاوروبي انفسهم . وان في الشواعر التي اعرب عنها شاتوبريان في السنة ١٨١٥ في كلامه عن العامة — ذاك « الرعاع » المدعو التداول « في وسط شوارع باريس » في المواضيع السياسية الكبرى » و « اولئك الملوك شبه العراة الذين لوثتهم الفاقة وخبلتهم ، ومسختهم اعمالهم وشوهتهم ، والذين تقتصر فضيلتهم على سفه البؤس وكبرياء الرثاث » — تعبيراً تقريبياً عن حركة اجتماعية انعكاسية مشتركة بين توابع الاسياد على اختلاف مناشئهم . وليس شعور اوروبا الارستوقراطية القديمة بهذا الواقع أقل حدة : ودليلنا على ذلك في ذعر مترنيخ الذي تلسم « نزعة اشد خطراً من كل ما سواها » ، هي تلك التي « يستهدف التبشير بها إثارة الطبقات المعوزة على الملاكين » .

فاذا ما سوّي النزاع المزمن الذي يقوم بين البورجوازية والارستوقراطية تسوية نهائية، وارسخ المجتمع الخالو من المراتب، بات ممكناً حينذاك تنظيم مقاومة المجتمع الخالو من الطبقات مقاومة مشتركة .

وقد عبر اقتصاديو المدرسة الجديدة خير تعبير عن تصلب البورجوازية هذا . فان الوعي الطبقي والخطر المحدق بها قد املیا علیها هذا الموقف . ويُشاهد ذلك في المسافة التي تفصل بين « آدم سميث » و«ارغو» واعضاء لجنة التسول ــ وكلهم يطالب باتخاذ بعض التدابير التعويض

على الفقراء ـ وبين « مالتوس » الموفي الذي احترم جان ـ جاك منـــذ حداثة سنه والذي ستعرف مؤلفاته شهرة عظيمة :

« اذا ولد انسان في عـــالم سبق تملكه ، واذا لم يستطع الحصول من ذويه على الأود الذي يحق له مطالبتهم به ، واذا لم يكن المجتمع بحاجة لعمله ، فلا يكون له أي حق في المطالبـــة بادنى نصيب من الغذاء ، ويكون في الواقع عبئاً على المجتمع . لا مـكان له في وليمة الطبيعة الكبرى . الطبيعة تأمره بالذهاب ولن تتأخر عن تنفيذ اوامرها اذا لم يتمكن من استعطـاف بعض المدعوين الى الوليمة . واذا ما توانى هؤلاء المدعوون وافسحوا له مكاناً ، اسرع غيره من الدخلاء الى استجداء المنة نفسها . فمجرد سريان الخـــبر بان هناك اطعمة لكافة القادمين يملأ القاعة بطالبين كثيرين . ومن ثم يضطرب نظام الولائم ، وتتحول البحبوحة الى عوز ، وتنهار سعادة المدعوين بمشهد البؤس والعسر اللذين يسودان كافة اجزاء القاعة ، وضجيج اولئك الهائجين بحق لانهم لم يجدوا الاطعمة التي تعلموا الاعتماد عليها . ويكتشف المدعوون متأخرين الخطأ الذي ارتكبوه بمخالفتهم الاوامر المشددة التي تتناول الدخلاء والتي اصدرتهـــا السيدة الكبرى الداعية للوليمة » .

أجل ان هـــذا المقطع الذي نشر للمرّة الاولى في طبعة السنة ١٨٠٣ لـ « مبادىء السكان » والذي قامت حوله جدالات كثيرة ، قد حذف في النهاية ، من المؤلف . ولكن ليس تحت هذا الحذف كبير امر . فالفكرة راسخة ، وسوف تترك اثراً عميقاً في مجموع الاعيان البورجوازيين. الفقراء هم الاسباب الرئيسية لويلاتهم . فاليهم وحدهم يعود أمر معالجة ذلك بالتبصر والعفـــة وتحديد النسل . ولن تخلو « المبادىء » من هذا التأكيد :

« يجب التبرؤ علناً من حق الفقراء المزعوم في ان يتولى المجتمع الانفاق عليهم » .

وليست المعضلة انكليزية فحسب . انها لمعضلة شاملة . اما العمل برب عائلة ، دهمته الازمـــة وعجز عن توفير الغذاء لافراد عائلته ، نرى امثاله في كافة البلدان ؟

« للسلم .. هذا الانسان الى العقوبة التي حكمت عليه بها الطبيعة .. عليه ان يعلم ان نواميس الطبيعة ، أي نواميس الله ، قد اصدرت عليه حكماً ان يعيش حياته بكد وعناء .. وان ليس له على المجتمع أي حق في الحصول منه على أي نصيب من الغذاء سوى ما يستطيع شراءه بعمله » .

أجل ليست البورجوازية كلها ما تتفوه بهذا الكلام القاسي . ولا رجال التجديد الاوروبي ايضاً . لا بل ان هذا الكلام يصدم اناساً كثيرين في هذه الأوساط المختلفة . ومع ذلك فان نجاح المدرسة الجديدة والعقلية الاجتماعية التي تمثلها كان باهراً جداً . هو « تفاؤل » « حيث » ما يميل الى الزوال ، وتشاؤم مالتوس ما يتصاعد ويرتقي . ومن مميزات هذا العصر ان مثل هذا التيار الفكري أخذ حينذاك يجد بيئته في كل مكان تقريباً ، وان الدلائل تشير الى انتشاره وسيطرته .

بيد ان المعاندين الذين سيعترضون على المبنى قبل المعنى كثيرون جداً . فالمالتوسية قيمتها،

في الدرجة الاولى ، اذا ما نظر اليها كما الى رمز ، او موقف،في وجه معضلات العمل الجديدة . فبينا نرى ان أية مدرسة لم تهتم بعد المجتمع الصناعي الناشىء — اذ ان « المبادىء الجديدة للاقتصاد السياسي » لـ « سيسموندي » لن تصدر الا في السنة ١٨١٩ — ، وان مطاليب البروليتاريا لم "تصغ" بعد بتعابيرها الحديثة ، أخذ تيار الفلسفة البورجوازية، المتسع أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ، يلبنى ، في وجه البروليتاريا ، قيم المنع والسمو في الفلسفة التجديدية . أجل ليس هذا القول بالجديد . فان المدرسة المسيطرة في القرن الثامن عشر قد نظرت الى اجهزة الانتاج والمقايضات كما الى طبقات ازلية ، صادرة عن العناية الالهية . ولكن التشديد الكلّي يتناول الآن ظواهر التوزيع .فهو توزيع الدخل الاجتماعي ما تفكر به المدرسة المسيطرة بتعابير الازلية والوجوب . رأيناها اعلاه تستشهد « بنواميس الطبيعة » و « نواميس الله » ضد مبدأ التدخل الاجتماعي ، على غرار « دي ميستر » و « بونالد » و « هالر » وغيرهم على الصعيد السياسي . البورجوازية توجه على غير علم منها الى البروليتاريا الكلام الذي يوجهه المجتمع التقليدي الى البورجوازية . فيستنتج من ثم ان التقليدية السياسية والتقليدية الاجتماعية ترتكزان من بعض الأوجه الى القواعد نفسها .

واذا صح ان رفض الحركة ورفض التاريخ ظاهرة التقدم في السن ، فان بورجوازية السنة ١٨١٥ الاوروبية قد اصيبت منذ ذاك التاريخ بهذا الداء الخفي .فالميل الحقيقي الى الزوال يبتدىء بالنسبة لها قبل ان تبلغ القمة في تصاعدها .

التوجيـــه البيبليوغرافي

لا مجال هنا لايراد مراجع تاريخ القرن الثامن عشر والثورة والامبراطورية الاولى بالتفصيل. فبالامكان طلبها في الكتب المدرسية المعدّة لطلاب التعليم العالي من مجموعة :

(P.U.F.) «Clio»

Ed. PRECLIN et V-L. TAPIE, t. VII, Le XVIIe siècle, 1952, 2 vol.

Louis Villat, t. VIII, La Révolution et l'Empire, 1947, 2 vol.

:«Peuples et Civilisation»

P. MURET et Ph. SAGNAC, t. XI, La Prépondérance Anglaise (1715-1763).

Ph. SAGNAC, t. XII, La Fin de l'Ancien Régime et la Révolution Américaine (1763-1789), 1952.

G. LEFEBVRE, t. XIII, La Révolution Française, Nouv. Ed., 1951.

G. LEFBVRE, t. XIV, Napoléon, 1953.

ولكننا سنورد فيما يلي ، بالاضافة الى ذلك ، بعض اهم المؤلفات ، لا سيما الفرنسية منها ، التي تصلح عند الحاجة للمطالعات التكميلية .

١ ــ تطورات الثورة الفكرية

P. BRUNET, L'Introduction des théories de Newton en France au XVIIIe siècle, I, Paris, Blanchard, 1931; Les physiciens hollandais et la méthode expérimentale en France au XVIIIe siècle, Paris, Vrin, 1926; La vie et l'oeuvre de Clairaut, Paris, P.U.F. 1952.

R. TATON, l'Oeuvre scientifique de Monge, Paris, P. U. F., 1951.

M. DUMAS, Les Instruments scientifiques aux XVIIe et XVIIIe siècles, Paris, P.U.F., 1953.

Centre international de synthèse, l'Encyclopédie et le progrès des sciences et des techniques, Paris, P.U.F., 1952.

M. DUMAS, Lavoisier, Paris, Gallimard, 1941.

E. GUYENOT, L'Evolution de la pensée scientifique. Les sciences de la vie aux XVIIe et XVIIIe siècles, L'Evolution de l'Humanité»., N°. 68, Paris, Albin-Michel, 1941.

R. MOUSNIER, Progrès scientifiques et techniques au XVIIIe siècle, Paris, Plon, 1958.

P. HAZARD, La Pensée Européenne au XVIIIe siècle, Paris, Boivin, 1946.

D. MORNET, Les Origines intellectuelles de la Révolution française, Paris, A. Colin, 1947.

P. WEULERSSE, La Physiocratie sous les ministères de Turgot et de Necker (1774-81), Paris P.U.F., 1950.

J.J. SPENGLER, Economie et Population. Les Doctrines françaises avant 1800, I, de Budé à Condorcet, Inst. Nat. d'Etudes Démographiques, Travaux et Documents, N° 21, Paris P.U.F., 1954.

٢ ـــ الثورة التقنية

P. MANTOUX, The Industrial Revolution in the eighteenth century, 17° éd. Londres,Jonathan Cape, 1952.

T.S. ASHTON, La Révolution industrielle (1760-1830), trad. F. Durif, Paris, Plon 1955.

A. et L. CLOW, The Chemical Revolution, 1952.

G. LEON, La Naissance de la Grande Industrie en Dauphiné, I, Paris P.U.F. 1954.

H. SEE, Les Origines du Capitalisme Moderne, Paris, A. Colin, 1926; Histoire Economique de la France (avec compléments par R. SCHNERB), I, Paris, A. Colin, 1939.

R. BIGO, Les Bases Historiques de la France Moderne, Paris, Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales.

Ch. de LA RONCIERE et G. CLERC-RAMPAL, Histoire de la Marine Française, Paris, Larousse, 1934.

S. T. MAC CLOY, French Inventions of the eighteenth century, Lexington, University of Kentucky Press, 1951.

O. FESTY, L'Agriculture pendant la Révolution française, Paris, Gallimard, 1947.

E. JUILLARD, La Vie Rurale dans la Plaine de Basse-Alsace, Paris, Les Belles-Lettres, 1953.

٣ ـــ استحالة قيام الامة الاوروبية

L. REAU, L'Europe Française au siècle des lumières, «L'Evolution de l'Humanité», N° 70, Paris Albin- Michel, 1938.

A. SOREL, l'Europe et la Révolution Française, I, Paris, Plon, 1885.

F. BRUNOT, Histoire de la Langue Française, VI, Le XVIIIe siècle, Paris A. COLIN, 1930-1933.

H. LAVEDAN, Histoire de l'Urbanisme, II, Paris, Laurens, 1941.

L. HAUTECOEUR, Histoire de l'Architecture Classique en France, III, Le Style Louis XV, IV, Le Style Louis XVI, Paris, Picard, 1952.

J. COMBARIEU et R. DUMESNIL, Histoire de la Musique, II, XVIIe-XVIIIe siècles, nouv. éd;, Paris A.Colin

A. LORTHOLARY, Le Mirage Russe en France au XVIIIe siècle, Paris Boivin, 1951.

J. FABRE, Stanislas-Auguste Poniatowski et l'Europe des lumières, Paris Les Belles-Lettres, 1952.

G. ZELLER, Les Temps Modernes, II, De Louis XIV à 1789, «Histoire des Re-

lations Internationales» publié sous la direction de P. RENOUVIN, t. III, Paris, Hachette, 1955.

P. GAXOTTE, Le Siècle de Louis XV, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.

A. de TOCQUEVILLE, l'Ancien Regime et la Révolution Française, Paris, Gallimard, 1952.

PH. SAGNAC, La Formation de la Société Française Moderne, II, Paris, P.U.F. 1946.

C. E. LABROUSSE, La Crise de l'Economie Française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution, Paris, P.U.F., 1943.

M. BLOCH, Caracteres Originaux de l'Histoire Rurale Française, Paris, A. Colin, 1952.

F. OLIVIER-MARTIN, L'Organisation Corporative de la France d'Ancien Regime, Paris, Sirey, 1938; Histoire du Droit Français, Paris, Domat-Moutchreacien, 1948.

J. EGRET, Le Parlement de Dauphiné, Paris 1942.

H. FREVILLE, L'Intendance de Bretagne, Rennes, Plihon, 1953.

A. V. DICEY, Introduction à l'Etude du Droit Constitutionnel Anglais, Paris, Giard, 1902.

H. BUTTERFIELD, George III, Lord North and the People, London, 1949.

R. PARES, King George III and the Politicians, Oxford, Clarendon Press, 2ème Ed., 1954.

P. GAXOTTE, Frédéric II, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.

W. L. DORN, The Prussian Bureaucracy in the Eighteenth Century, Political Science Quarterly, XLVI, 1931, p. 402-423, XLVII, 1932, p. 75-94, 259-273.

R. MINDER, Allemagne et Allemands, I, Paris, Coll. Esprit, Frontière Ouverte, 1948.

E. J. HAMILTON, War and Prices in Spain (1651-1800), Cambridge (Mass.) Harvard University Press 1947.

R. PORTAL, L'Oural au XVIIIe siècle, Limoges, Bontemps, 1950.

L. JUST, Der Aufgeklärte Despotismus, Darmastadt, Hacfeld, s.d.

٤ ــ علاقة اوروبا بالعالم

H. DESCHAMPS, Méthodes et Doctrines Coloniales de la France, Paris, Colin, 1953.

GASTON-MARTIN, Histoire de l'Esclavage dans les Colonies Françaises, Coll. «Colonies et Empires», Paris, P.U.F., 1948; L'Anti-colonialisme au XVIIIe siècle, «Colonies et Empires», Paris P.U.F., 1951.

R. GROUSSET, La Chine, «Les Grandes études Historiques », Paris A. Fayard, 1942.

M. EBERHARD, Histoire de la Chine, Paris, Payot, 1952.

G. MASPERO et J. ESCARRA, Les Institutions de la Chine, Paris, P. U. F., 1952.

V. PINOT, La Chine et la Formation de l'Esprit Philosophique en France, Paris, Geuthner, 1932.
A. H. ROWBOTHAM, Missionary and Mandarin. The Jesuits at the Court of China, Los Angeles, University of California Press, 1942.
H. CORDIER, La Chine en France au XVIIIe siècle, «B. i. des Curieux et des Amateurs», Paris, Laurens, 1910.
W. W. APPLETON, A cycle of Cathay. The Chinese Vogue in England during the seventeeth and eighteenth centuries, New York, Columbia University Press, 1951.
B. WLADIMIRTSOV, Le Régime Social des Mongols. Le Fédéralisme Nomade, Paris, Maisonneuve 1948.
SANSOM, Le Japon, Paris, Payot 1938.
H. A. R. GIBB et H. BOWEN, Islamic Society and the West, I. Islamic Society in the eighteenth century, Part I, Oxford University Press, 1950.
R. C. MAJUMDAR et H. C. R. CHAUDHU et KALIKINDAR DATTU, An Advanced History of India, II, London, Macmillan 1949.
P. SPEAR, Twilight of Mughuls .. Studies in Late Mughul Delhi, Cambridge University Press, 1951.
Ch. A. JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord, 2ème Ed., II, revu par LE-TOURNEAU, Payot, 1952.
G. HANOTAUX, Histoire de la Nation Egyptienne, V, Paris, Plon, 1934.
M. DELAFOSSE, The Negroes of Africa, Washington, The Associated Publishers, 1932.
H. LABOURET, Histoire des Noirs d'Afrique, Paris P. U. F. 1946.
G. HARDY, Histoire d'Afrique, Paris A. Colin, 1930; Nos Grands Problèmes Coloniaux, Paris, Colin, 1928.
A. BALLESTEROS BERETTA, Historia de America, XIII, Los Virreinatos en el Siglo XVIII, par C. ALCAZAR MOLINO, Madrid, Salvat, 1945.
R. PARES, War and Trade in the West India, Oxford, Calarendon Press, 1936.
A. MARTINEAU et L. Ph. MAY, Trois Siècles d'Histoire Antillaise, Paris Leroux, 1935.
D. PASQUET, Histoire Politique et Sociale du Peuple Américain, I, Paris, Picard, 1924.
E. PRECLIN, Histoire des Etats-Unis, Paris, Colin, 1937.
E. H. BELDT, American History and American Historians, London, The Athlone Press, 1952.
M. GIRAUD, Le Métis Canadien, Paris, Institut d'Ethnologie, 1945.
TRUDEL. M. Louis XVI, Le Congrès Américain et le Canada, Publ. de l'Université Laval, Québec, 1949.
Cl. de BONNAULT, Histoire du Canada Français «Colonies et Empires», Paris, P. U. F., 1950.

٥ — الثورة والامبراطورية

J. JAURES, Histoire Socialiste, Paris, Librairie de l'Humanité, nouv. Ed. par A. MATHIEZ, 1922-1924, 8 vol.

M. DESLANDRES, Histoire Constitutionnelle de la France de 1789 à 1870, t. I, Paris, Sirey, 1932.

J. GODECHOT, Les Institutions de la France sous la Révolution et l'Empire, Paris, P. U. F. 1951.

D. MORNET, Les Origines intellectuelles de la Révolution Française, Paris, A. Colin, nouv. Ed. 1947.

B. FAY, L'Esprit Révolutionnaire en France et aux Etats-Unis à la fin du XVIII siecle, Paris H. CHAM-PION, 1924.

M. MARION, La Vente des Biens Nationaux, Paris, H. Champion, 1909.

G. LEFEBVRE et A. TERRAINE, Recueil des Documents Relatifs aux Séances des Etats-Généraux, t. I, Paris C. N. R. S., 1953, in 8°.

G. DEBIEN, Les Colons de St. Domingue et la Révolution, Paris, A. Colin, 1953.

G. LEFEBVRE, M. BOULOISEAU, A. SOBOUL, Discours de Robespierre, t. I, II, III, Paris P. U. F., 1950-54.

G. LEFEBVRE Questions Agraires au Temps de la Terreur, nouv. Ed., La Roche-sur-Yon, H. Poitier, 1954.

G. LEFEBVRE, Etudes sur la Révolution Française, Paris, P.U.F. 1954.

G. LEFEBVRE, Les Paysans du Nord Pendant la Révolution Française, Lille, Giard, 1924, 2 vol.

G. LEFEBVRE, La Grande Peur de 1789, Paris A. Colin, 1932.

G. LEFEBVRE, Quatre Vingt Neuf, Paris, Maison du Livre Français, 1939.

A. MATHIEZ, La Révolution Française, 3 vol. Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1922-1927.

G. LEFEBVRE, Les Thermidoriens, Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1937.

G. LEFEBVRE, Le Directoire, Coll. A. Colin, Paris, A. Colin, 1946.

A. MATHIEZ, La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur, Paris, Payot, 1927.

J. EGRET, La Révolution des Notables, Mounier et les Monarchiens, 1789, Paris, Colin, 1950.

A. LATREILLE, l'Eglise Catholique et la Révolution Française, 2 vol. Paris, Hachette, 1946 et 1950.

A. CHABERT, Essai sur le Mouvement des Prix et des Revenus en France de 1798 à 1820, Paris, Lib. de Médecis, 1945-1949, 2 vol.

L. DUBREUIL, Histoire des Insurrections de l'Ouest, Paris, P. U. F. 1929, 2 vol.

J. BOUCHARY, Les Manieurs d'Argent à la fin du XVIIIe siècle, Paris, Rivière, 1939-1949, 3 vol.

E. VINGTRINIER, Histoire de la Contre-Révolution, Paris, Emile-Paul 1924-1925, 2 vol.

Chanoine J. LEFLON, La Crise Révolutionnaire, Histoire de l'Eglise par FLICHE et MARTIN, t. XX, Paris, Bloud et Gay, 1949.

P. CARON, Les Massacres de Septembre, Paris, Maison du Livre Français, 1936.

P. CARON, La Première Terreur (1792), I : Les Missions du Conseil Exécutif

Provisoire et de la Commune de Paris, Paris, P. U. F., 1950.
M. DOMMANGET, Babeuf et la Conjuration des Egaux, Paris, Lib. de l'Humanité, 1922.
M. REINHARD, Le Grand Carnot, t. I, Paris, Hachette, 1950.
A. FUGIER, La Révolution Française et l'Empire Napoléonien, «Histoire des Relations Internationales» publiée sous la direction de P. RENOUVIN, t. IV, Paris Hachette.
R. GUYOT, Le Directoire et la Paix de l'Europe, Paris, P. U. F., 1911
E. HALEVY, Histoire du Peuple Anglais au XIXe siècle, t. I, Paris, Hachette, 1913.
J. DROZ, l'Allemagne et la Révolution Française, Paris, P. U. F., 1949.
J. DESCHAMPS, Les Iles Britanniques et la Révolution Française, Bruxelles La Renaissance du Livre, 1949.
P. MILIOUKOV, Histoire de Russie, t. II, Paris P. U. F., 1933.
P. VERHAEGEN, La Belgique sous la Domination Française, Bruxelles, Goemare, Paris, Plon, 1922-1929, 4 vol.
H. PIRENNE, Histoire de Belgique, t. V, Bruxelles, Lamertin, 1921.
A. FUGIER, Napoléon et l'Espagne, Paris, P. U. F. 1930, 2 vol.
J. MANCINI, Bolivar et l'Emancipation des Colonies Espagnoles des Origines à 1815, Paris, Perrin, 1912.
F. CHARLES-ROUX, L'Angleterre et l'Expédition d'Egypte, Le Caire, Soc. Géogr. 1925, 2 vol.
A. LATREILLE, Napoléon et le Saint-Siège (1801-1804), Paris, P. U. F., 1935.
G. SIX, Dictionnaire Biographique des Généraux et Amiraux Français de la Révolution et de l'empire (1792-1814), Paris, Bordas, 1934-1935, 2 vol.
A. ROBERT, L'Idée Nationale Autrichienne et les Guerres de Napoléon, Paris, P. U. F., 1933.
F. BALDENSPERGER, Le Mouvement des Idées dans l'Emigration Française, Paris, Plon, 1925, 2 vol.

مـراجـع عربيـة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية وتتمة للبحث ، رأت « دار منشورات عويـدات » في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبـات والخبير العالمي بالبيبليوغرافيا الشرقية من عربية واسلامية ، وبالتوثيق العلمي ، وأحد المترجين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة ببليوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالم بين ١٧١٥ ـ ١٨١٤ . وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لاسبابه وللعاملين في مجال البحث في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

عسى ان يجد الباحثون في هـذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتفتيش .

منشورات عويدات

اوروبا في القرن الثامن عشر

فيليب ميرزا ـ التاريخ العام للكليات والمدارس العالية، الجزء الثالث: التاريخ الحديث ـ بيروت ، المطبعة الاميركية ١٩٢٩ ، ص ٤٠١ ـ ٦٤٢ .

نهاد رضا ـ الادب الثوري في القرن الثامن عشر ـ بيروت، دار مكتبـة الحيـاة ، ١٣٤ ص ـ مراجع ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

هيز ـ كارلتون جوزف ـ الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي ـ بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٠ ، ١١١ ص .

الهنـد

ابو الليل ـ محمد مرسي ـ الهند : تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ـ القاهرة مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٥ ، ٢٨٦ ص ـ صور وخرائط .

الحسني ، عبد الحي ـ الثقافة الاسلامية في الهند معارف العوارف في انواع العلوم والمعارف ـ دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٨ ، ٣٥٧ ص .

الساداتي ، احمد محمود ـ تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ـ القاهـــرة ، وزارة التربية والتعليم ، جزآن ١٩٥٢ .

لوبون ، غوستاف ـ حضارة الهند ، ترجمة عادل زعيتر ـ مصر ، مطبعة دار إحيـــاء الكتب العربية ، ١٩٤٨ ـ ٧٣١ ص ، مع خرائط.

محمود ، احمد عبد المنصف ـ في بلاد البقرة المقدسة ـ القاهـــرة ، دار الكتاب العربي، لا. ت. ١٥٤ ص ـ صور .

موداك ، مانورافا ـ الهند : شعبها وارضها . ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ ، ٢١٧ ص.

النمرة ، عبد المنعم ـ تاريخ الاسلام في الهند ـ القاهرة ، دار العهد الجديد ١٩٥٩، ٤٨١ ص ـ صور ، خرائط.

الثورة الفرنسية والعهد النابوليوني

جلال حسن ـ حياة نابوليون ـ مصر ، مطبعة الاعتماد ، جزآن – مع صور.
الحويك ، الياس طنوس ـ تاريخ نابوليون الاول ـ القاهرة ، مكتبة زيدان العمومية ، ١٩٣١ ، ٣ اجزاء .

رفعت ، محمد – تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة ـ القاهـــرة ، مطبعة الشعب ١٩٢٠ – مراجع .

شكري ، محمد فؤاد – الحملة الفرنسية وظهور محمد علي – القاهرة مطبعـــة المعارف ومكتبتها ، ١٩٣٠ ، ٣٥٦ ص .

العودات ، يعقوب – اسلام نابوليون – عمان ، لا. ت. ٦٩ ص .

عوض ، احمد حافظ – فتح مصر الحديث او نابوليون بونابرت في مصر ، القاهــــرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٥ ، ٤٣٨ ص.

كابانيس ، اوغستين – حول سرير الامبراطور . نقله بتصرف نقولا الياس القاهرة ،دار الهلال ، ١٩٢٦ ، ١٢٨ ص ـ صور.

لودفيغ ، اميل ـ نابوليون ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي ـ القاهـرة ، دار الكتاب المصري ، ١٩٤٦ ، جزآن.

كاليفاريس ، لويس ـ سيرة نابوليون الاول ـ ١٨٥٦ ، ٥٨٤ ص .

لوبون ، غوستاف روح الثورات والثورة الفرنسية ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهـرة ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٤ ، ١٨٣ ص.

ليفي ، ارثر – النسر الاعظم او نابوليون الاول ، ترجمة يوسف البستاني القاهرة ، مطبعة الهلال – ١٩١٣ ، ٩٨ ص.

يمين ، انطوان – نابوليون : أحدث تاريخ له – بيت شباب ، مطبعة جريدة العلم ، ١٩٢٦ ، ٢٢٢ ص.

التيار الفلسفي

الحاج ، كمال يوسف – رنيه ديكارت ، ابو الفلسفة الحديثة – بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٤ ، ٢٦٨ ص.

الحاج ، كمال يوسف – مدخل الى فلسفة ديكارت ، مع ترجمة التأملات – بيروت ،دار منشورات عويدات ، ١٩٦١ ، ١٩١ ص.

اوروبا ، تاريخها الحديث

الاسكندري ، عمر وحسن سليم – تاريخ اوروبا الحديثة وآثار حضارتها – مصر ، مطبعة المعارف ، ١٩٢٠ – ١٩٢٢ ، جزآن ، رسوم – خرائط.

حداد ، جورج مرعي – تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة – (١٧٨٩–١٨١٨) – حلب ، المطبعة الوطنية ، ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص.

سلطان ، عثمان – التاريخ السياسي – دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٢٥ .

فيشر ، هربرت البرت – تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع – القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٦ ، ٦٦٩ ص – خرائط .

قاسم ، احمد واحمد نجيب – التاريخ الحديث والمعاصر – القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ١٥٦ص – صور وخرائط.

الصين

ترلشيع ، محمد – الصين والاسلام – القاهرة ، دار الطباعة والنشر الاسلامية ١٩٤٥ ، ٢١٠ ص – خريطة .

حي الصيني – بدر الدين ، العلاقات بين العرب والصين – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٣٢٠ ص – صور .

السيرافي،حسن،رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونيسيا سنة ٨٥١م ـبغداد، دار منشورات البصري ، ١٩٦٢ ، ١١٢ص.

روسيا

بيدش ، خليل ابراهيم – العقد المنظم في اصل الروسيين واعتناقهم الايمان القديم – بعبدا ، المطبعة العثمانية ، ١٨٩٧ ، ١٦٠ ص.
خرباوي ، الخوري باسيليوس – تاريخ روسيا منذ نشأتها الى الوقت الحاضر نيويورك ، ١٩١٤ ، ٧١٨ ص.

سليم قبعين– سياحة في روسيا – مصر.
نخلة قلفاط – تاريخ روسيا الحديث – بيروت ١٨٨٦ ، في ٤ اجزاء
نخلة قلفاط – تاريخ بطرس الاكبر – بيروت ، ١٨٨٥ .
حسن لبيب – تاريخ المسألة الشرقية – القاهرة ، مطبعة الهلال، ١٩٢١ ١٢٠ ص.
وهبي تادرس – الاثر النفيس في تاريخ بطرس الاكبر وعاكمة الكسيس – بولاق ، ١٩٠٤ ، ١٦٠ ص .
فولتير – الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر ، ترجمة احمد عبيد الطهطاوي بولاق، ١٢٦٦ ، ٢٤٨ص.
مؤلف مجهول – كاترين الثانية – مصر ، ادارة الهلال ١٩٢٢ ، ٥٩ ص .
شارل ، ريمون – الهلال الشهيد . مصير الاسلام في ظل الانظمة القيصرية والسوفياتية، المعهد الدولي للبحوث والدراسات الشرقية ، ١٩٦٣ ، ٢٣٦ ص.

البرتغال والبرازيل

عبد الهادي ، محمد هنائي – نهاية الاستعمار البرتغالي – القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ، لا. ت ، ٢٠٢ ص.
اطلس ، جورج ميخائيل – تاريخ البرازيل – سان باولو ، دار الطباعة والنشر العربية ١٩٤٦ ، ١٨٠ ص .

العلم والحركة العلمية

كونانت ، جيمس برلنت – مواقف حاسمة في تاريخ العلم ، ترجمة احمد زكي –القاهرة، دار المعارف ١٩٥٤ ، ٥١٦ ص .
مرتز ، جون ثيودور – نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر – القاهرة ، مطبعة جريدة الصباح ، ١٩٢٣ ، ٩٠ ص.
منتصر ، عبد الحليم – تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ٢٨٣ص .

الولايات المتحدة الاميركية

جيمس ، برستون آي ـ ملحمة اميركا الشمالية . ترجمة جورج قاضي ـ بيروت، المؤسسة الشرقية ، لا ت. ، ٢٠٨ ص.

حداد ، يوحنا ـ تاريخ العالم الجديد ـ بيت شباب، مطبعة العلم، ١٩٥٢ ، ٣٥٤+١٢٨ص.

دجلاس ، ولم ـ رئيقة حية للحقوق . ترجمة يوسف شاهين ـ القاهرة ، دار الكرنك ١٩٦٥ ، ٨٣ ص.

زيادة ، فرحات وابراهيم فريحي ـ تاريخ الشعب الاميركي ، برنستون ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص ـ صور ـ خرائط.

كويل ، دافيد يوشعان ـ النظام السياسي في الولايات المتحدة . ترجمة توفيق حبيب ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ ، ٣٢٠ص.

ليسي ، دان ـ الثورة الأميركية : دوافعها ومغزاها . ترجمة سامي ناشد ـ القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ (١٩٤٦)ـ مجلدان .

ماير ، فيكتور ـ معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجيار ـ القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٢ ، ٣٢٩ ص ـ صور .

هاملتون، الكسندر ـ الدولة الاتحادية: اسسها ودستورها. ترجمة محمد احمد ـ بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٩، ٦٨٨ص.

جدول زمني مقارن

١٧١٥ — ارتقاء لويس الخامس عشر العرش « ١ — ٩ » — وصاية دوق اورليان « ٢ — ٩ » — تنظيم *Plysynodie* — انشاء هيأة مهندسي الجسورة والطرقات — فنيلون : رسالة الى الاكاديمية .

١٧١٦ — بطرسبرج عاصمة بطرس الاكبر — انشاء مصرف لو « ٢ — ٥ » — مرسوم السباعية *Septennalité* في انكلترا « ٧ — ٥ » — البروني رئيس الوزراء عهد فيليب الخامس .

١٧١٧ — حلف لاهاي الثلاثي « ١١ — ١ » — بطرس الاكبر في باريس « شهر ايار » — انشاء شركة الغرب الفرنسية « آب » — استيلاء الامير اوجين على مدينة بلغراد « آب »

١٧١٨ — معاهدة بساروفتز « او معاهدة بوجارفتز » بين الامبراطور وتركيا « تموز » — التنازل عن ولاية بوليستوديا « ايلول » — وفاة شارل الثاني عشر « ٣٠ — ١١ » — مصرف لو يصبح المصرف الملكي « ٧ — ١٢ » — انشاء مدينة اورليان الجديدة —

١٧١٩ — الغاء فريدريك غليوم الاول عبودية الفلاحين في اراضي النبلاء — بطرس الاكبر يغزو اسوج — دانيال ديفو يضع روايته : روبنسن كروزيه .

١٧٢٠ — معاهدة ستوكهولم بين بروسيا واسوج — فيليب الخامس يزهد بعرش فرنسا « ٢٢ — ٦ » — استقالة لو وهربه — « ١٢ — ١٢ » — عودة والبول الى الوزارة « ك ١ » استيطان الاسبان في مقاطعة تكساس — افلاس شركة مياه الجنوب الانكليزية —

١٧٢١ — معاهدة نستادت « ٢١ — ١ » — انشاء اول محفل ماسوني في مدينة دنكرك — وضع واتو رسمه المعروف : علم جرسين — مونتسكيو ينشر كتابه : رسائل فارسية .

١٧٢٢ — ديبوا يرأس الوزارة « ٢٢ — ٨ » — انشاء شركة اوستاند — بطرس الاكبر ينشىء التشن .

١٧٢٣ — وفاة ديبوا « ١٠ — ٨ » والوصي على العرش « ك ١ » — وزارة دوق بوربون — استيلاء الروس على مدينة باكو — اعادة تنظيم الشركة الفرنسية للهند .

١٧٢٤ — انشاء نادي انترسول في باريس — تاسيس البورصة في باريس .

١٧٢٥ — وفاة بطرس الاكبر « ٨ — ٢ » — زواج لويس الخامس عشر بماري لكزنسكا « ١٥ — ٨ » معاهدة فيينا الاولى « ٥ — ١١ » — اكتشاف مضيق بهرينغ .

١٧٢٦ — فلوري رئيس الوزارة في فرنسا « ١٢ — ٦ » — رحلة بهرينغ الى كمشتكا — فيكو يضع كتابه للعلوم : « العلم الجديد » .

١٧٢٧ ـ وفاة نيوتن ـ بطرس الثاني قيصر روسيا .

١٧٢٨ ـ جورج الثاني ، ملك على انكلترا « ٢٢ ـ ٦ » .

١٧٢٩ ـ معاهدة اشبيلية « ٩ ـ ١١ » ـ انشاء اولى المستعمرات الانكليزية في كارولينا .

١٧٣٠ ـ بدء حبرية البابا اقليمس الثاني عشر ـ معاهدة كياخطا الروسية الصينية ـ أوري يعين مفتشا عاما للمالية ـ آنا ايفانوفنا قيصرة روسيا .

١٧٣١ ـ معاهدة فيينا الثانية والثالثة « ١٦ ـ ٣ و ٢٢ ـ ٧ » ـ فولتير يضع كتابه : « تاريخ شارل الثاني عشر » ـ دوبلكس حاكم شندرناغور في الهند .

١٧٣٢ ـ مجلس الامة الجرماني يقر المعاهدة الدينية « ١١ ـ ١ » ـ تاسيس المستعمرة الانكليزية في جيورجيا .

١٧٣٣ ـ حرب الخلافة في بولونيا ـ ستانسلاس لكزنسكي ينتخب ملكا على بولونيا « ايلول » ـ الميثاق الاول في الاسرة « ٧ ـ ١١ » ـ اختراع اول نول للحياكة على يد لويس بول .

١٧٣٤ ـ فولتير ينشر كتابه : رسائل انكليزية ـ باخ يضع نشيد عيد الميلاد .

١٧٣٥ ـ حساب خط الطول يقوم به لاكوندامين ـ استخدام الفحم الحجري في صناعة الحديد على يد ابرهيم دوبي .

١٧٣٦ ـ احتلال الروس لمدينة ازوف وغزوهم شبه جزيرة القرم ـ معاهدة القسطنطينية الثانية بين الاتراك والفرس « ١٧ ـ ١٠ » ـ انشاء مصرف كوبنهاغن .

١٧٣٧ ـ طرد الروس من القرم ـ اول صالون للرسم ـ رامو يضع : كستور وبولوكس .

١٧٣٨ ـ معاهدة فيينا الرابعة « ٢ ـ ٥ » ـ وسلي ينشىء اول جمعية متودية « حزيران » ـ اختراع كاي « للمكوك الطائر » ـ تأسيس معمل البورسلين في فنسين « ثم ينتقل الى سيفر » .

١٧٣٩ ـ معاهدة بلغراد « ١٨ و ٢٣ ـ ٩ ـ الحرب الانكليزية الاسبانية « ١٩ ـ ١٠ » .

١٧٤٠ ـ تجديد الامتيازات الاجنبية « ٨ ـ ٥ » ـ وفاة الملك الشاويش واعتلاء فريدريك الثاني العرش « ٣١ ـ ٥ » ـ وفاة الامبراطور شارل السادس واعتلاء ماري تريزيا العرش « ١٩ ـ ١٠ » ـ اعلان الحرب بين فرنسا وانكلترا « ك ١ » ـ فريدريك الثاني يغزو سليزيا « ١٦ ـ ١٢ » ـ ريشاردسن يضع : باميلا ـ شاردين يضع : البندسيتة .

١٧٤١ ـ التحالف الفرنسي البروسياني « ٥ ـ ٦ » ـ الحرب بين روسيا واسوج « اب » .

١٧٤٢ ـ سقوط وزارة ولبول في انكلترا « ١٣ ـ ٢ » ـ معاهدة برلين « ٢٨ ـ ٧ » ـ دوبلكس يعين حاكما عاما في الهند الفرنسية ـ بندكتوس الرابع عشر يشجب طرق واساليب اليسوعيين في الصين .

١٧٤٣ ـ وفاة فلوري « ١٩ ـ ١ » ـ معاهدة ابو بين روسيا والسويد « ١٧ ـ ٨ » ـ الحلف العائلي الثاني « ٢٨ ـ ١٠ » .

١٧٤٤ ـ انطلاق شرارة الحرب بين فرنسا وانكلترا والنمسا « ١٥ ـ ٣ » ـ فريدريك الثاني يهاجم بوهيميا .

١٧٤٥ ـ انتصار موريس ده ساكس في موقعة فونتنوا « ١١ ـ ٥ » ـ صلح درسد «٢٥ ـ ١٢» وقوع جزيرة كاب بريتون بيد الانكليز ـ بدء حظوة مدام بمبادور .

١٧٤٦ ـ سقوط بروكسل بيد الفرنسيين « ١٢ ـ ٢ » ـ وفاة فيليب الخامس ملك اسبانيا « ٩ ـ ٧ » ـ سقوط مدينة مدراس بيد لابوردونيه « ٢١ ـ ٩ » ـ ديدرو يصدر : « خواطر فلسفية » .

١٧٤٧ ـ فرنكلين يكتشف ناموس الشاري او قضيب الصاعقة ـ تاسيس مدرسة للمناجم في باريس على يد ترودين .

١٧٤٨ ـ معاهدة اكس لا شابل « ٢٨ ـ ١٠ » ـ مونتسكيو وكتابه : روح الشرائع ـ اكتشاف آثار مدينة بمباي .

١٧٤٩ ـ فرض ضريبة ٥ بالمائة في فرنسا « ايار » ـ هنتسمان يكتشف طريقة صنع الفولاذ المصهور ـ ديدرو ينشر كتابه : رسائل حول الانكليز ـ فيلدنغ ينشر روايته : توم جونز .

١٧٥٠ ـ مناهضة ماشو للامتيازات والاستثناءات ـ فولتير في برلين ـ دوبلكس ينال الحماية على مقاطعة كرناتيك ـ روسو ينشر كتابه حول « خطاب حول العلوم والفنون » .

١٧٥١ ـ نشر المجلد الاول من دائرة المعارف الفرنسية « ٧ ـ ٢ » ـ فولتير ينشر كتابه : عصر لويس الرابع عشر ـ البرتغال تحظر التعذيب بالنار .

١٧٥٢ ـ اول حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٧ ـ ٢ » ـ كونتز يعين مستشارا في النمسا ـ انشاء ميدان ستانسلاس في مدينة نانسي .

١٧٥٣ ـ قضية اوراق الاعتراف النقدية ـ حل برلمان باريس « ايار » واعادته « تشرين الاول » ـ مؤتمر لندن لتسوية شؤون الهند ـ الاعمال العدائية تنشب من جديد في كندا ووادي نهر الاوهايو .

١٧٥٤ ـ استدعاء دوبلكس « اب » ـ معاهدة غودهو « ٢٦ ـ ١٢ » ـ ماشو يتخلى عن مركز المفتش العام ـ روسو يضع كتابه : خطاب حول اصل عدم المساواة بين البشر ـ كوندياك يضع بحثه حول الاحاسيس والمشاعر .

١٧٥٥ ـ حادث اعتقال بوسكوين « ١٠ ـ ٦ » ـ طرد الرهبنة اليسوعية من البرانغواي .

١٧٥٦ ـ انقلاب الاحلاف : معاهدة فرساي الاولى « ١ ـ ٥ » ـ الحرب الفرنسية الانكليزية « ١٥ ـ ٥ » ـ مونكالم في كندا « ايار » ـ سقوط مينوركا بيد الفرنسيين « ٢٨ ـ ٦ » ـ اول وزارة لبت « ك ١ » ـ فولتير يضع كتابه : محاولة حول الاخلاق .

١٧٥٧ ـ دميانس يحاول الاعتداء على لويس الخامس عشر ـ الاستيلاء على كلكوتا « ٢ ـ ١ » على شاندرناغور « ٢٣ ـ ٣ » وانتصار كليف في موقعة بلاسي ـ معاهدة فرساي الثانية « ١ ـ ٥ » ـ موقعة روزاباخ «٥ ـ ١١» ـ وموقعة لوثن « ٢٥ ـ ١٢ » .

١٧٥٨ ـ شوازول سكرتير دولة للشؤون الخارجية « ٩ ـ ١٠ » ـ استيلاء الانكليز على اللكسمبورغ « ٢٦ ـ ٧ » وعلى حصن دوكسين « ٢٥ ـ ١١ » بابوية اقليمس الثالث عشر ـ احتلال الروس لروسيا الشرقية ـ لالي لوتندال في الهند « نيسان » ـ

روسو ينشر كتابه : رسالة الى دالمبير ـ وهلفتيوس يضع كتابه : حول العقل ـ كنباي يضع كتابه : صورة الوضع الاقتصادي ٠

١٧٥٩ ـ ثاني حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٨ ـ ٣ » ـ سقوط كويبك « ١٨ ـ ١٠ » ـ ارتقـاء الملك شارل الثالث عرش اسبانيا ـ موت مونكالم ـ تاسيس المتحـف البريطاني ـ فولتير ينشر كتابه : كنديد ٠

١٧٦٠ ـ استسلام الفرنسيين في مونتريال « ٨ ـ ٩ » ـ سقوط برلين بيـد النمساويين والروس « ٩ ـ ١٠ » ـ ارتقـاء جورج الثالث عرش بريطانيا « ٢٥ ـ ١٠ » ـ روسو يضـع : هيلـويـز الجديـدة . بيا

١٧٦١ ـ سقوط بونديشيري « ٨ ـ ١ » رما هي « شباط » بيد الانكليز ـ « بت » يتخلى عن الحكم « ٦ ـ ١٠ » تورغو مراقب مالية الليموزين ٠

١٧٦٢ ـ قضية كالاس واعدامـه « ١٠ ـ ٣ » ـ موت اليزابت بتروفنا « يناير » ـ ارتقـاء بطرس الثالث العرش ، ثم كاترين الثانيـة في روسيا « ٢٨ ـ ٦ » ـ برلـمان باريس يتخـذ قرارا بالغاء الرهبنة اليسوعية ـ روسو يضع : العقـد الاجتماعي ثم « اميل » كما يضع غلوك : اورفيه ٠

١٧٦٣ ـ معاهدة باريس « ١٠ ـ ٢ » ومعاهدة هوبرتسبورغ « ١٥ ـ ٢ » ـ موت اغسطس الثالث ملك بولونيـا ـ الروس يغزون ليتوانيا ٠

١٧٦٤ ـ وفاة المركيزة دي بمبادور « ١٥ ـ ٤ » ـ انتخـاب ستانسلاس بولياتوفسكي ملكا على بولونيا « ايلول » حـل الرهبنة اليسوعية في فرنسا ـ فولتيـر ينشر كتاب : المعجم الفلسفي ـ صعوبات بين دوق أغويون وبرلمان رين ـ سوفلو يشرع ببنـاء البانتيون في باريس ٠

١٧٦٥ ـ اعادة الاعتبـار الى كالاس « ٩ ـ ٣ » ـ فردريك الثانـي يؤسس بنك برليـن ـ ارتقاء جوزف الثاني عرش النمسا ـ اختراع هارغريفس لدولاب الغزل ٠

١٧٦٦ ـ موت ستانسـلاس لكسنكي وضم اللورين الى فرنسا « ٢٣ ـ ٢ » ورحلـة بوغنفيـل في البحـار الجنوبية ـ أرندا يرأس الوزارة عند شارل الثالث ٠

١٧٦٧ ـ طرد اليسوعيين من اسبانيا « ٢٧ ـ ٢ » ـ جيمس واط ينتهي من صنـع اول آلـة بخارية ـ الدانمارك تنال مقاطعتي شلـزويغ وهولـستين .

١٧٦٨ ـ عريضة ماستشوستس « يناير » ـ فرنسا تشتري جزيرة كورسكا « ١٥ ـ ٥ » ـ الحرب الروسية التركيـة « تشرين الاول » ـ كاترين الثانية تصادر امـلاك الاكليروس الروس ـ بدء حظوة مدام دي باري ـ اول رحلة يقـوم بهـا كـوك في البحار الجنوبية ـ كنباي يصدر كتابه : حول علم الاقتصاد ٠

١٧٦٩ ـ الغـاء امتياز الشركة الفرنسية للهند « ١٣ ـ ٨ » ـ مولـد نابليون بونابرت « ١٥ ـ ٨ » ـ احتلال الروس لاهم الامارات الرومانيـة ـ حلف « بار » في بولونيا ٠

١٧٧٠ ـ مذبحـة بوسطن « ٥ ـ ٣ » ـ زواج الملك القـادم لويس السادس عشر بماري انطوانيت « ١٦ ـ ٥ » ـ معركة تشسميه « ٦ ـ ٧ » ـ صرف شوازول « ٢٤ ـ ١٢ » ـ الوزارة الانكليزية برئاسة اللـورد نورث ـ لافوازييه يحلل تركيب الهـواء ـ بارون دولباخ ينشر كتابه : مناهج الطبيعة ـ الاب رينال ينشر كتابـه : تاريخ الفلسفة في الهند ٠

١٧٧١ـ ابعـــاد برلمان باريس « ٢٠ ـ ١ » ـ موبيو والاصـلاح القضـائي « ٢٣ ـ ٢ » ـ الغاء رق الارض في مقاطعـة السافوي ـ اختراع اوكرابت للاطار المالي .

١٧٧٢ ـ تقسيم بولونيا لاول مرة « ٥ ـ ٨ » ـ انقلاب غوستاف الثالث في اسوج « ٩ ـ ٨ » ـ كوك يقوم برحلته الثانية .

١٧٧٣ ـ مشكلة الشاي في بوسطن « ١٦ ـ ١٢ » ـ انشاء محفل الشرق الاكبر في فرنسا ـ بـدء ثورة بوكاتشيف ـ ديدرو في روسيا ـ البابا اقليمس الرابع عشر يحل الرهبنة اليسوعية .

١٧٧٤ ـ وفاة الملك لويس الخامس عشر « ١٠ ـ ٥ » ـ ارتقـــاء لويس السادس عشر العرش تورغو يؤلف الوزارة « ٢٠ ـ ٧ » ـ معاهـدة قينرجـي « ٢١ ـ ٧ » ـ مجلس كونغرس فيلادلفيا « ٢١ ـ ٩ » ـ مرسوم كوبيك ـ غوتيه يصدر فرتر .

١٧٧٥ ـمعركة لكسنغتن « ١٩ ـ ٤ » ـ انتهاء ثورة بوغاتشيف « ايلـول » بابويـــة بيوس السادس ـ اول تمثيل لمسرحية حلاق اشبيلية ـ استخدام قـــوة البخار المحركة في الصناعة على يد واط الاسكتلاندي .

١٧٧٦ ـ صرف تورغو وفقدانه الحظوة « ١٢ ـ ٥ » ـ اعلان استقلال الولايـــات المتحدة « ٤ ـ ٧ » فرنكلين في باريس « ايلول » ما يلي يضـع : اصل القوانين ونشأتهـا ، وآدم سمث ينشر كتابـــه : غنى الامم ـ رحلة كوك الثالثـة حيث يلاقي حتفـه ـ سفينة الماركيز دي جوفروا البخارية ـ اول خطوط حديدية .

١٧٧٧ ـ نيكر يعين مديرا عاما للمالية « حزيران » ـ لافاييت في اميركا ـ استسلام ساراتوغا « ١٤ ـ ١٠ » ـ الاقتراع على دستور الاتحـــاد .

١٧٧٨ ـ عقـــد تحالف بين فرنسا والولايات المتحدة الاميركية « ٦ ـ ٢ » ـ وفاة بت الاول « ١١ ـ٥» ـ انشاء مجلس الولاية في بري « ١٢ ـ ٧ » ـ انشاء صندوق الخصم في باريس ـ فتح الامبراطورية الاسبانية للتجارة الدولية ـ بوفون يضع كتابـــه : حقب الطبيعة .

١٧٧٩ ـ معـــاهدة تيشن « ١٣ ـ ٣ » ـ الحلف الفرنسي الاسبانـي المعقود فيارانخويـز « ١٢ ـ ٤ » ـ اختراع الانكليزي كرومبتون نول حياكة القطن ـ الوزر حريـــة الاستثمارات في روسيا .

١٧٨٠ ـ روشمبو في اميركا « ايار » ـ موت ماري تريزيا امبراطورة النمسا « ٢٩ ـ ١١ » ـ حلف الحياديين ينتصب ضد انكلترا ـ هودون ينشر كتابـــه عن فولتير .

١٧٨١ ـ تقرير يرفع للملك « فبراير » واستقالة نيكر « ١٩ مايو » ـ استسلام الانكليز في يوركتون « ١٩ ـ ١٠ » ـ انشاء معامل كروزيه ـ الغـــاء اوقاف الفلاحين في النمسا ـ كنت يضع كتابه : نقـد العقل المجرد ـ روسو ينشر كتابه : اعترافات ـ وموزارت يضع : الخطف في السراي .

١٧٨٢ ـسقوط وزارة اللورد نورث« ١١ ـ ٣ » ـ جوزف الثاني يصادر الاديار « تشرين الاول » فشل محاولة فرنسية اسبانية امام جبل طارق « تشرين الاول » .
اعتراف الانكليز باستقلال اميركا « تشرين الثاني » ـ سوفرين في الهند ، حصـــار مدراس .

١٧٨٣ ـ وزارة بت الثاني « ١٩ ـ ٢ » ـ معاهـــدة فرساي « ٣ ـ ٩ » ـ وزارة كالون

« ١٠ - ١١ » - ثورة الفلاحين في بوهيميا - ارتفاع اول منطاد يحمل بشرا - لافوازييه يتمكن من تحليل العناصر المقومة في الماء - اختراع تسويط الحديد - تمثيل رواية زواج فيغارو ، تاليف بومارشيه .

١٧٨٤ - اقرار قانون الهند « نيسان » - ضم القرم الى روسيا - انشاء مصرف نيويورك - انشاء الشركة الاسبانية للفيلبين .

١٧٨٥ - قضية عقد الملكة - اجتياز بلانشار مضيق المانش جوا - رحلة لابيروز - اعادة تنظيم شركة الهند الفرنسية - اول معمل للنسيج على البخار في نوتنغهام - اختراع كارترايت لاول نوع للحياكة الميكانيكية - كنت ينشر كتابه : اسس متافيزيكا الاخلاق - موزارت يضع : زفات فيغارو .

١٧٨٦ - وفاة فريدريك الثاني « ١٧ - ٨ » - وارتقاء فريدريك غليوم الثاني العرش - معاهدة تجارية تعقد بين فرنسا وانكلترا « ٢٦ - ٩ » - تسلق الجبل الابيض لاول مرة .

١٧٨٧ - المعاهدة التجارية الفرنسية الروسية « ١١ - ١ » - مجلس النبلاء الاول « ٢٢ - ٢ » - سقوط كالون وتاليف وزارة بريين « ٨ - ٤ » - حل مجلس النبلاء « ١٢ - ٥ » - الحرب الروسية التركية « ١٣ - ٨ » - اقرار دستور الولايات المتحدة الاميركية « ٢٧ - ٩ » - التحالف الثلاثي الانكليزي الهولندي البروسياني - احتلال الانكليز لخليج بوتاني - لاكرانج يضع كتابه : الميكانيكا التحليلية - برناردن دي سان بيير يضع كتابه : بول وفرجيني - دافيد يرسم صورة : موت سقراط - موزارت يضع : دون خوان .

١٧٨٨ - الحرب النمساوية التركية « فبراير » - لاموانيون يقوم باصلاح القضاء « ٨ - ٥ » - يوم التراشق بالقرميد في مدينة غرينوبل « ٧ - ٦ » - المباشرة بوضع الدستور الاميركي موضع التنفيذ « ٢١ - ٦ » - اعلان دعوة ممثلي الطبقات في فرنسا لاجتماع عام « ٨ - ٨ » - التخلي عن بريين وتشكيل نيكر وزارته الثانية « ٢٥ - ٨ » - دعوة دييت الاربع سنوات للاجتماع في بولونيا « ٦ - ١٠ » - مجلس النبلاء الثاني « ٦ - ١١ » - معاهدات برلين « ١٣ - ٦ » ولاهاي « ١٥ - ٩ » بين البلاد الواطية وبروسيا وانكلترا - مرسوم الدين في بروسيا - كنت ينشر كتابه : نقد العقل التجريبي - بنثام ينشر كتابه : المدخل الى مبادىء الاخلاقية - تاسيس جريدة التيمس .

١٧٨٩ - انتخاب جورج واشنطون رئيسا للولايات المتحدة « ٣٠ - ٤ » - جلسة افتتاح مجلس ممثلي طبقات الامة « ٥ - ٥ » - قسم قاعة لعبة التنس « ٢٠ - ٥ » - بدء جلسات المجلس الوطني التاسيسي « ٩ - ٧ » - الاستغناء عن نيكر « ١١ - ٧ » - الاستيلاء على الباستيل « ١٤ - ٧ » - اعادة نيكر « ١٦ - ٧ » - الهلع الاكبر وليلة الرابع من آب « تموز - آب » - ثورة ليبج وانتشارها في جميع المقاطعات البلجيكية « ١٨ - ٨ » - التصويت على حقوق الانسان العامة والمواطن « ٢٠ - ٨ » - هجوم الشعب الباريسي على فرساي وقدوم الملك الى باريس « ٥ و ٦ - ١٠ » الامبراطور جوزف الثاني يستولي على بلغراد « ٩ - ١٠ » - التصويت على مصادرة املاك الكنيسة « ٢ - ١١ » - انشاء عملة الاسينياء « ١٤ - ١٢ » « .

١٧٩٠ ـ المناداة بالولايات المتحدة البلجيكية « ١٢ ـ ٢ » ـ موت الامبراطور جوزيف الثاني وارتقاء ليوبولد الثاني العرش في النمسا « ٢٠ ـ ٢ » ـ قضية نوتكا ساوند « ايار ـ تشرين الاول » ـ اقرار دستور الاكليروس المدني « ١٢ ـ ٧ » ـ عيد التحالف « ١٤ ـ ٧ » ـ راشنباخ بين بروسيا والامبراطور « ٢٧ ـ ٧ » ـ فانكوفير يستكشف الشواطىء الاميركية على المحيط الهادي ـ كنت ينشر كتابه : نقد العقل ـ بورك ينشر كتابه : خطرات حول الثورة الفرنسية ٠

١٧٩١ ـ موت ميرابو « ٢ ـ ٤ » ـ البابا يحرم دستور الاكليروس المدني « ١٣ ـ ٤ » ـ الدستور البولوني الجديد « ٣ ـ ٥ » ـ المجلس التاسيسي يقر قانون لاشابلييه « ١٤ ـ ٦ » ـ محاولة هرب الملك لويس السادس عشر « ٢٠ ـ ٦ » ـ حادث اطلاق النار في ميدان شان ده مارس « ١٧ ـ ٧ » ـ معاهدة سيستوفا تعيد السلام بين الامبراطور والاتراك ـ تصريح بلنتز « ٢٧ ـ ٨ » ـ ضم افنيون والكونتا « ٢٠ ـ ٩ » ـ لويس السادس عشر يقسم باحترام الدستور « ١٤ ـ ٩ » ـ انتهاء عمل الجمعية التاسيسية الوطنية وانصرافها « ٣٠ ـ ٩ » ـ اول جلسات المجلس التشريعي « ١ ـ ١٠ » ـ توجيه انذار للناخب تريف « ٢٩ ـ ١ » ـ تحقيق التلغراف البحري على يد شاب ٠

١٧٩٢ ـ معاهدة ياسي بين روسيا وتركيا « ٩ ـ ١ » ـ وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء فرنسوا الثاني العرش « ١ ـ ٣ » ـ اغتيال غوستاف الثالث في السويد « ٦ ـ ٣ » ـ فرنسا تعلن الحرب على ملك بوهيميا وهنغاريا « ٢٠ ـ ٤ » ـ الروس يهاجمون بولونيا « ٩ ـ ٦ » ـ هياج الشعب في باريس « ٢٠ ـ ٦ » ـ اعلان الوطن في خطر في فرنسا « ١١ ـ ٧ ـ بيان برونسويك « ٢٥ ـ ٧ » ـ تكوين الكومون الثوري في باريس « ٩ ـ ٨ » ـ استيلاء شعب باريس على التويلري ـ الغاء النظام الملكي « ١٠ ـ ٨ » ـ المذابح في سجون باريس « ٢ و ٦ ـ ٩ » النصر الفرنسي في فالمي ونهاية المجلس التشريعي « ٢٠ ـ ٩ » ـ اول جلسات الكونفنسيون والغاء النظام الملكي « ٢١ ـ ٩ » ـ الجمهورية الفرنسية واحدة لا تنفصم عراها « ٢٥ ـ ٩ » ـ انتصار فرنسي في جماب واحتلال بلجيكا « ٦ ـ ١١ » ـ ضم مقاطعة السافوى الى فرنسا « ٢٧ ـ ١١ » ـ بدء محاكمة لويس السادس عشر « ٤ ـ ١٢ » ـ شيلر يضع كتابه : « تاريخ حرب الثلاثين سنة » ٠

١٧٩٣ ـ اعدام الملك لويس السادس عشر « ٢١ ـ ١ » ـ اقتسام بولونيا الثاني « ٢٣ ـ ١ » ـ ضم كونتية نيس الى فرنسا « ٣١ ـ ١ » ـ فرنسا تعلن الحرب على انكلترا وبدء التحالف الاول « ١ ـ ٢ » ـ انشاء محكمة الثورة في باريس واعلان حالة العصيان في مقاطعة الفانديه « ١٠ ـ ٣ » ـ خيانة ديموريه وتشكيل لجنة السلامة العامة « ٥ ـ ٤ » ـ اول قانون بتحديد الحد الاعلى للاسعار في فرنسا « ٤ ـ ٥ » ـ الايام الثوروية في فرنسا وسقوط الجيروند « ٣١ ـ ٥ و ٢ ـ ٦ » ـ المصادقة على دستور عام ١٧٩٣ « ٢٤ ـ ٦ » ـ تجديد لجنة السلامة العامة « ٦ ـ ٧ » ـ قتل مارات « ١٣ ـ ٧ » ـ روبسبيير ينتخب عضوا في لجنة السلامة العامة « ٢٧ ـ ٧ » ـ اقرار النظام المتري والعمل به في البلاد ـ استيلاء الاسطول الانكليزي على قاعدة طولون « ٢٩ ـ ٨ » ـ قانون ضد المشبوهين « ١٧ ـ ٩ » ـ فرض الحد الاقصى للاسعار في جميع انحاء فرنسا « ٢٩ ـ ٩ » ـ العمل بالتقويم الثوري « ٥ ـ ١٠ » ـ استعادة

مدينة ليون « ٩ ـ ١٠ » موقعـــة واتيني وانتصار فرنسا « ١٥ و ١٧ ـ ١٠ » ـ انهزام ثوار الفانديه في موقعة شوليه « ١٧ ـ ١٠ » ـ استعادة مدينة طولـون « ١٩ ـ ١٢ » ـ انتصار الجنرال هوش في موقعة جيسبرغ « ٢٦ ـ ١٢ » ـ اختراع هويتني آلـة حلج القطن وفرز البزر ـ تأسيس متحف التاريخ الطبيعي .

١٧٩٤ ـ الثورة البولونية بقيادة كوسيوسكو « اذار » ـ تصفيـــة انصار هربرت في باريس « ٢٤ ـ ٣ » ـ تصفية دانتون والمتساهلين « ٥ ـ ٤ » ـ عيد الكائن الاعلـى في باريس « ٨ ـ ٦ » ـ انتصار الفرنسيين في معركة فلوريس « ٢٦ ـ ٦ » ـ احتلال الفرنسيين لمدينة انفرس « ٢٧ ـ ٧ » ـ سقوط روبسبيير وتصفيتـــه مع انصاره « ٢٨ و ٢٩ ـ ٧ » ـ التاسع من شهر ترميدور ـ حـل كوميـــن باريس « ايلول » ـ احتلال الفرنسيين لوادي الرين « ٢٣ ـ ١٠ » ـ هزيمـــة كوسيوسكو ووقوعـــه اسيرا في ماشيايوفتش « ١٠ ـ ١٠ » ـ اغــلاق نادي اليعقوبيين « ١٩ ـ ١١ » ـ معاهدة جاي الانكليزية الاميركية « ١٩ ـ ١١ » ـ الغـاء العمل بالحد الاعلـــى للاسعار في فرنسا « ٢٤ ـ ١٢ ـ » ـ الفرنسيون يغزون هولاندا « ٢٧ ـ ١٢ » ـ كوندورسيه ينشر كتابه : رسم بياني لتاريـــخ تطور الفكر البشري .

١٧٩٥ ـ بيشغرو يستولي على الاسطول الهولندي عند راس هلدر « ٣٠ ـ ١ » ـ معاهـــدة صلـــح في بـال بين فرنسا وبروسيا « ٦ ـ ٤ » ـ حوادث يوم ١٢ جرمينال « ١ ـ ٤ » ـ الصلح مع هولاندا وحلف لاهاي « ١٦ ـ ٥ » ـ حوادث يـوم اول بريريـال « ٢٠ ـ ٥ » ـ انتهاء ثـورة مارتينوفتش في المجـر « ٢٠ ـ ٥ » ـ استسلام المهاجرين الذين نزلوا الى البر في كيبرون « ٢٢ ـ ٧ » ـ معاهـدة بال بين اسبانيا وفرنسا « ٢٢ ـ ٧ » ـ اقرار دستور العام الثالث « ٢٢ ـ ٨ » ـ حوادث يــوم ١٣ فنديميير « ٥ ـ ١٠ » ـ اقتسام بولونيا للمرة الثالـــثة « ٢٦ ـ ١٠ » ـ انفراط عقد الكونفنسيون وبدء حكومة الديركتوار « ٢٦ ـ ١٠ » ـ الغـــاء حق التجمهر في انكلترا .

١٧٩٦ ـ نابوليون بونابرت يتزوج جوزفين برهارنيه « ٩ ـ ٣ » ـ استبدال الاسينيـــاء بتحاويل فارية « اذار » ـ انتصاوات بونابرت في ايطاليا « منذ ١٣ ـ ٤ » ـ هدنـة شيراسكو « ٢٨ ـ ٤ » ـ مؤامرة بابوف وتوقيفه « ١٠ ـ ٥ » ـ انتصار فرنسي في لودي « ١٠ ـ ٥ » ـ معاهــــدة نيسان ايلدفونس بين فرنسا واسبانيـــا « ١٩ ـ ٨ » ـ بونابرت يحاصر ورمسر في مدينة منتو « ٨ ـ ٩ » ـ وفاة كاتريـــن الثانية واعتلاء بولس الاول العرش في روسيا « ٧ ـ ١ » ـ انتصار بونابرت في موقعة اركول « ١٥ و ١٧ ـ ١١ » ـ محاولة انزال بحريـــة يقوم بهـــا هوش في ايرلندا « ١٦ ـ ١٢ » ـ بــدء حكم كيا ـ كنــغ في الصين ـ شروع جنر بتجاربه العلمية حول اللقاح ـ لابلاس ينشر كتابه : عرض نظام الكون ـ غوتيـــه يصدر : ولهلم مايستر .

١٧٩٧ ـ انتصار بونابرت في ريفولي « ١٢ و ١٦ ـ ١ » ـ معاهـــدة تولنتينو ١٩ ـ ٢ » ـ انتخاب جون آدمز رئيسا للولايـــات المتحدة الاميركية « ٤ ـ ٣ » ـ انتخابات ملكية النزعة في فرنسا « اذار ـ ابريل » ـ مقدمات الصلـح في ليوبن بين بونابرت والامبراطور النمسا « ١٨ ـ ٤ » ـ تمرد الاساطيل الانكليزية في سبيتهيد والبحر الشمالي « ابريل ـ ايار » ـ انشاء الجمهورية الليغورية « ٦ ـ ٦ » ـ بــدء

المفاوضات في ليل « ٧ ـ ٧ » ـ انشاء جمهورية ما وراء الالب « ٩ ـ ٧ » ـ انقلاب ١٨ فروكتيدور « ٤ ـ ٩ » ـ افلاس الثلثين في فرنسا « ٣٠ ـ ٩ » ـ حملة مشتركة فرنسية هولاندية ضد انكلترا « ١١ ـ ١٠ » ـ معاهدة كمبوفورميو « ١٧ ـ ١٠ » ـ موت فردريك غليوم الثاني وارتقاء فردريك غليوم الثالث العرش في بروسيا « ١٦ ـ ١١ » ـ بدء معاهدة راستادت « ٢٨ ـ ١١ » ـ غوتيه يصدر : هرمان ودوروتيه ٠

١٧٩٨ ـ ضم مدينتي مولهوز « ٢٨ ـ ١ » ـ وجنيف الى فرنسا « ٢٦ ـ ٢ » ـ اعلان الجمهورية الرومانية وابعاد البابا الى مدينة فالنس « ٥ ـ ٢ » ـ انتخابات يعقوبية النزعة في العام السادس « نيسان » ـ انقلاب في ٢٢ فلوريال « ١١ ـ ٥ » ـ سفر الحملة الفرنسية على مصر « ١٩ ـ ٥ » ـ انتصار الفرنسيين في معركة الاهرام « ١٢ ـ ٧ » ـ تحطيم الاسطول الفرنسي في معركة ابوقير « ١ ـ ٨ » ـ قانون جوردان الذي يفرض الخدمة العسكرية والتجنيد الاجباري « ٥ ـ ٩ » ـ نزول الجنرال همبرت من البحر في ايرلندا « اب ـ ايلول » ـ مالتوس يصدر كتابه : محاولة حول مبادىء السكان ـ تكون الحلف الثاني ضد فرنسا « تموز ك ١ »

١٧٩٩ ـ انشاء الجمهورية البارثنوبية او النابولية « ٢٣ ـ ١ » ـ اعلان فرنسا الحرب على النمسا واختتام مؤتمر راستادت « ٢٣ ـ ١ » ـ انكسار جوردان في معركة ستوكاخ « ٢٤ ـ ٣ » ـ فشل بونابرت امام عكا « ٢٠ ـ ٥ » ـ انقلاب ٣٠ بريريال « ١٨ ـ ٦ » ـ اعادة تشكيل نادي اليعقوبيين في باريس « ٦ ـ ٧ » ـ انكسار الجيش التركي في ابوقير « ٢٥ ـ ٧ » ـ انكسار جوبر في نوفي وموته « ١٥ ـ ٨ » ـ انتصار ماسينا في زوريخ مما اضطر الروس معه للانسحاب من الحلف « ٢٥ و ٢٦ ـ ٩ » ـ عودة بونابرت الى فرنسا « ٩ ـ ١٠ » ـ استسلام الكمار « ١٨ ـ ١٠ » ـ انقلاب ١٨ برومير وتاليف حكومة القنصلية « ٩ و ١٠ ـ ١١ » ـ موت جورج واشنطون « ١٤ ـ ١٢ » ـ رحلة همبولت الى اميركا الجنوبية ـ انشاء ادارة الضرائب المباشرة « ٢٣ ـ ١٢ » ـ تطبيق دستور العام الثامن « ٢٥ ـ ١٢ » ـ انشاء مجلس شورى القوانين « ٢٦ ـ ١٢ » ـ شلييرماخر ينشر كتابه : خطاب حول الدين ـ بيتهوفن يضع الصونات المثيرة ٠

١٨٠٠ ـ اتفاقية العريش في مصر « ٢٤ ـ ١ » ـ انشاء حكام المحافظات ومصرف فرنسا ـ اعادة تنظيم الادارة المحلية والمحاكم « فبراير ومارس » ـ صك اتحاد انكلترا وايرلندا « ٥ ـ ٢ » ـ انتخاب البابا بيوس السابع « ١٤ ـ ٣ » ـ انتصار مورو في ستوكاخ « ٣ ـ ٥ » ـ انتصار الفرنسيين في مارنغو « ١٤ ـ ٦ » ـ انتصار مورو في هوهنلندن « ٣ ـ ١٢ » ـ عصبة الحياديين الجديدة ضد انكلترا « ١٦ ـ ١٢ » ـ محاولة قتل بونابرت في شارع سان نيكيز « ٢٤ ـ ٢ » ـ اختراع فولتا للحاشدة الكهربائية ٠

١٨٠١ ـ صلح لونفيل « ٩ ـ ٢ » ـ استقالة بت « ١٤ ـ ٣ » ـ قتل القيصر بولس الاول وارتقاء اسكندر الاول العرش « ٢٤ ـ ٣ » ـ انتخاب جيفرسن رئيسا للولايات المتحدة الاميركية « ٤ ـ ٣ » ـ معاهدة ارانخويز « ٢١ ـ ٣ » ـ عقد الصلح مع فلورنسا والصقليتين « ٢٨ ـ ٣ » ـ الانكليز يقصفون كوبنهاغن « ٢ ـ ٤ » ـ توقيع المعاهدة الدينية مع البابا « ١٦ ـ ٧ » ـ استسلام

القائد منو في مصر « ٣٠ ـ ٨ » ـ مفاوضات تمهيدية في لندن « ١ ـ ١٠ » ـ توقيع معاهدة الصلح بين فرنسا وروسيا « ٨ ـ ١٠ » ـ شاتوبريان ينشر : أتالا ، وشلر يصدر كتابه : *Die Jungfrau von Orlean*

١٨٠٢ ـ بونابرت رئيس الجمهورية الايطالية « ٢٦ ـ ١ » ـ صلح اميان مع انكلترا « ٢٥ ـ ٣ » ـ المصادقة على المعاهدة الدينية والمواد الدستورية « ٨ ـ ٤ » ـ انشاء المدارس الثانوية في فرنسا « ١ ـ ٥ » ـ انشاء وسام جوقة الشرف « ١٩ ـ ٥ » ـ استيلاء الجنرال لاكلير على توسان لوفرتور « ٧ ـ ٦ » ـ بونابرت قنصلا مدى الحياة « ٢ ـ ٨ » ـ دستور العام العاشر « ١٦ ـ ٨ » ـ نشوب ثورة عامة في سان دومنكو « ١٣ ـ ٩ » ـ ضم البيامونت وبارما الى فرنسا « ايلول ـ ت ١ » ـ شاتوبريان ينشر كتابه : عبقرية المسيحية ـ فوسكولو ينشر كتابه : رسائل جاكوبو اورتس الاخيرة .

١٨٠٣ ـ ارغام سويسرا على القبول بوساطة « ١٩ ـ ٢ » ـ تثبيت قيمة فرنك جرمينال « ٢٣ ـ ٢ » ـ قطع صلح اميان « ١٦ ـ ٥ » ـ فرنسا تبيع مقاطعة لويزيان للولايات المتحدة وتحتل الهانوفر « ايار » ـ سان دومنغو تعلن استقلالها « ت ٢ » بدء العمل بتذكرة العامل « ك ١ » ـ مؤامرة ملكية ينظمها بيشغرو ضد بونابرت « ك ١ ـ ج . ب . ساي ينشر كتابه : بحث في الاقتصاد السياسي .

١٨٠٤ ـ انشاء دائرة الرسوم المجتمعة « فبراير » ـ تنفيذ عقوبة الموت بدوق دانجين « ٢٠ ـ ٣ » ـ نشر القانون المدني « ٢ ـ ٣ » ـ المناداة ببونابرت امبراطورا باسم نابوليون الاول . دستور العام الثاني عشر « ١٨ ـ ٥ » ـ قطع العلاقات الديبلوماسية بين فرنسا وروسيا « ايلول » ـ عودة بت الى الحكم « ت ١ » ـ تتويج الامبراطور والامبراطورة « ٢ ـ ١٢ » ـ اسبانيا تعلن الحرب على انكلترا « ك ١ » ـ فوريه ينشر كتابه : الانسجام العام وشيلر يعد : وليم تل ، وغرو ينشر كتابه : المصابون بالطاعون في يافا ، وبيتهوفن : السنفونية البطولية .

١٨٠٥ ـ نابوليون ملك ايطاليا « اذار » ـ ضم جنوى الى فرنسا « حزيران » ـ ظهور الحلف الثالث ضد فرنسا « اب » ـ استسلام النمساويين في أولم « ٢٠ ـ ١٠ » ـ تحطيم الاسطول الفرنسي عند الطرف الاغر « ٢١ ـ ١٠ » ـ انتصار الجيش الفرنسي في اوسترليتز « ٢١ ـ ١٠ » ـ التحالف الفرنسي البروسياني في شنبرون « ١٥ ـ ١٢ » ـ صلح بريسبورغ « ٢٦ ـ ١٢ » ـ جاكار يخترع دولاب حياكة الحرير ـ شاتوبريان ينشر كتابه : رينه .

١٨٠٦ ـ وفاة بت « ٢٣ ـ ١ » ـ قطع العلاقات بين نابوليون والبابا « فبراير » ـ جوزف بونابرت ملك على نابولي ـ انشاء الجامعة « ايار » ـ لويس بونابرت ملك على هولاندا « حزيران » ـ تكوين تحالف الرين « تموز » ـ فرنسوا الثاني يتخلى عن لقبه امبراطور المانيا وانتهاء الامبراطورية المقدسة « ٦ ـ ٨ » ـ انقطاع العلاقات بين فرنسا وبروسيا وظهور الحلف الرابع « ٨ ـ ١٠ » ـ انتصار نابوليون عند ايانا وانتصار دافو عند اورستادت « ١٤ ـ ١٠ » ـ دخول نابوليون الى برلين « ٢٧ ـ ١٠ » ـ مرسوم برلين يفرض الحصار البري « ٢١ ـ ١١ » ـ دخول نابوليون مدينة فرصوفيا « ٢٧ ـ ١١ » .

١٨٠٧ ـ معركة آيلو « ٨ ـ ٢ » ـ انتصار نابوليون في فريدلاند « ١٤ ـ ٦ » ـ معاهدة تلسيت والتحالف الفرنسي الروسي « ٧ ـ ٧ » ـ انشاء غراندوقية فرصوفيا « ٢٢ ـ ٧ » ـ فقدان تاليران الحظوة لدى الامبراطور « ٩ ـ ٨ » ـ جيروم ملك وستفاليا « ١٨ ـ ٨ » ـ الغاء التريبونية « ٩ ـ ٨ » ـ الغاء عبودية الارض في بروسيا « ت ١ » ـ دخول الفرنسيين الى لشبونة وفرار ملك البرتغال الى البرازيل « ٣٠ ـ ١١ » ـ مرسوم ميلانو « ٢٣ ـ ١١ » ـ تشديد الحصار • الغاء انكلترا للنخاسة • فلطن ينشيء مصلحة السفن البخارية على الهدسن ـ غروس يرسم : معركة آيلو •

١٨٠٨ ـ الغاء النخاسة في الولايات المتحدة الاميركية « يناير » ـ ضم روما الى الامبراطورية « فبراير » انطلاق الثورة الاسبانية « ٢ ـ ٥ » ـ مقابلة بايون وتنحي فرديناند السابع عن العرش « ٥ ـ ٣ » ـ جوزف بونابرت ملك اسبانيا • مورات ملك نابولي « ١٠ ـ ٥ » ـ استيلاء بوليفار على السلطة في كركاس « تموز » ـ استسلام بايلان « ٢٢ ـ ٧ » ـ بروسيا تعمل بنظام كرومبر « آب » ـ استسلام جونو في سنترا « ٣٠ ـ ٨ » ـ مقابلة ارفورت « ٢٧ ـ ٩ » ـ دخول نابوليون الى مدريد « ٤ ـ ١٢ » ـ فيخت : خطاب الى الامة الالمانية ـ بيتهوفن : السنفونية الراعوية •

١٨٠٩ ـ غوستاف الرابع ملك السويد يترك العرش لعمه شارل الثالث عشر « اذار » ـ قدوم الجنرال الانكليزي ولسلي الى البرتغال « نيسان » ـ بدء التحالف الخامس « ١٠ ـ ٤ » ـ نشوب الثورة في التيرول ـ انتصار فرنسي في اكموهل « ٢٢ ـ ٤ » ـ دخول نابوليون فيينا « ١٣ ـ ٥ » ـ ضم فرنسا ممتلكات الكرسي الرسولي اليها « ١٧ ـ ٥ » ـ معركة اسلنغ « ٢١ و ٢٢ ـ ٥ » ـ رمي الكنيسة الحرم على نابوليون « ١٢ ـ ٦ » ـ انتصار في معركة وغرام « ٦ ـ ٧ » ـ توقيف البابا بيوس السابع « ٦ ـ ٧ » ـ عملية انزال الانكليز من البحر في هولندا « ٢٩ ـ ٧ » ـ صلح فيينا « ١٤ ـ ١٠ » ـ طلاق نابوليون « ١٦ ـ ١٢ » ـ شاتوبريان يصدر كتابه : الشهداء •

١٨١٠ ـ زواج نابوليون من الارشيدوقة ماري لويز « ٢٧ ـ ٣ و ٢ ـ ٤ » ـ انطلاق الثورة الشاملة في المستعمرات الاسبانية « ايار » ـ ضم فرنسا هولندا اليها « تموز » اختيار برنادوت اميرا وراثيا شرعيا في السويد « آب » ـ مرسوم التريانون « آب » ـ ظهور الازمة الاقتصادية في انكلترا « آب » ـ انشاء جامعة برلين « آب ـ مرسوم فونتنبلو « ت ١ » ـ ضم مقاطعة فاليه « ت ٢ » ومدن الهانس الى الامبراطورية الفرنسية « ك ١ » ـ اسكندر الاول يخرج على الحصار البري « ١٣ ـ ١٢ » ـ نشر قانون الجزاء ـ فيليب دي جيرار يخترع دولابا لحياكة الكتان ـ بيتهوفن يضع : اغمونت •

١٨١١ ـ نابوليون يضم مقاطعة اولدنبورغ « يناير » ـ ماسينا ينسحب من البرتغال « اذار » ـ ولادة ملك روما « ٢٠ ـ ٣ » ـ فشل ماسينا في توريس فدراس ـ في انكلترا : هياج اللوديت ، وفرض العملة الورقية بالقوة « اذار ـ مايو » ـ اجتماع مجمع وطني في باريس « حزيران » ـ مرسوم التسوية في بروسيا « تموز » قرار هاردنبرغ يولي الفلاحين البروسيانيين ملكية قسم من الاراضي التي يستثمرونها « ايلول » ـ التشديد على احتكار الجامعة « ت ٢ » ـ سبيرانسكي

يعين سكرتير دولة للامبراطور اسكندر الاول .

١٨١٢ - بدء التحالف السادس « ٨ - ٤ » - صلح بوخارست بين روسيا وتركيا « ايار » - الولايات المتحدة الاميركية تعلن الحرب على انكلترا « ١٨ - ٦ » - بدء حملة روسيا « ٢٤ - ٦ » - نابليون يامر بنقل البابا الى فونتنبلو « حزيران » - معركة سمولنسك « ١٦ و ١٧ - ٨ » - ومعركة بورودينو او موسكو « ٥ و ٧ - ٩ » - دخول نابوليون مدينة موسكو « ١٤ - ٩ » - بدء الانسحاب والتقهقر « ١٩ - ١٠ » - مؤامرة ماليه الثانية على الامبراطور « ٢٣ - ١٠ » - اجتياز نهر البرزينا « ٢٦ و ٢٧ - ١١ » - بيرون يصدر : نشأة شلد هارولد .

١٨١٣ - معاهدة فونتنبلو الدينية « ٢٣ - ١ » - البابا يسحب اعترافه بالمعاهدة « اذار » اعلان بروسيا الحرب على نابوليون وبدء الحلف السابع « ١٧ - ٣ » - معركة لتزن « ٢ - ٥ » - ومعركة بوتزن « ٢٠ و ٢١ - ٥ » - هدنة بلسويتز « ٤ - ٦ » - انتصار الانكليز في فيتوريا « ٢١ - ٦ » - مؤتمر براغ « ١٢ - ٧ و ١٠ - ٨ » - النمسا تعلن الحرب على نابوليون « ١٢ - ٨ » - انتصار فرنسي في درسدن « ٢٦ و ٢٧ - ٨ » - انكسار نابوليون في معركة ليبزيغ « ١٦ و ١٩ - ١٠ » - تراجع الفرنسيين الى ضفة نهر الرين اليسرى - مؤتمر فرنكفورت « ٤ - ١١ » - الثورة في هولندا واعلان البلاد استقلالها « ١٧ - ١١ - » - نابوليون يعيد عرش اسبانيا الى فردينان السابع « ١١ - ١٢ »

١٨١٤ - نابوليون يفرج عن البابا ويعيد اليه املاكه « يناير » - بدء حملة فرنسا : معارك بريين « ٢٩ - ١ » - وروتيير « ١ - ٢ » - مؤتمر شاتيون « ٥ - ٢ و ١٩ - ٢ » - انتصار نابوليون في مونتيرو « ١٨ - ٢ » - ميثاق شومون « ٩ - ٣ » - معارك لان ودارسي « اذار » سقوط باريس « ٣٠ - ٣ » - مجلس الشيوخ يصوت على عزل نابوليون « ٣ - ٤ » - معركة تولوز « ١٠ - ٤ » - معاهدة فونتنبلو « ١١ - ٤ » - تصريح سانت أوان « ٢ - ٥ » - دخول نابوليون الى جزيرة البا « ٤ - ٥ » - معاهدة باريس الاولى « ٣٠ - ٥ » - اعلان وثيقة البراءة « ٤ - ٦ » - بدء مؤتمر فيينا « ت ١ » - معاهدة غنت « ٢٤ - ١٢ » - البابا بيوس السابع يعيد الرهبنة اليسوعية الى الوجود - اختراع القاطرة البخارية على يد ستيفنسن . الرسام أنغر يضع : الوصيفة الكبرى - وغويا يضع رسم فردينان السابع وظهر مايا .

١٨١٥ - مغادرة جزيرة البا « ١ - ٣ » - وصول نابوليون الى باريس « ٢٠ - ٣ » - المائة يوم - القرار الاخير في مؤتمر فيينا « ٩ - ٦ » - معركة واترلو « ١٨ - ٦ » - سقوط باريس « ٣ - ٧ » - لويس الثامن عشر يعود الى باريس « ٨ - ٧ » - نابوليون يتنازل ثانية عن العرش « ٢٢ - ٧ » - ونفي نابوليون « ٢٩ - ٧ » - اتحاد السويد والنرويج « ٦ - ٨ » - الحلف المقدس « ٢٦ - ٩ » - اعدام مورات رميا بالرصاص « ١٣ - ١٠ » - وصول نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة « ١٧ - » - معاهدة باريس الثانية « ٢٠ - ١١ » ومعاهدات الحلف الرباعي .

ث

ج

ح

خ

د

ش

هـ

و

فهرست الخرائط والتصاميم

١ – احد مشاهد الشارع : السير في باريس في القرن الثامن عشر (تصوير «فيوتيه») .

٢ – اختبار كهربائي على رجل يجريه الاب (نوليه) في مختبر لعلم الطبيعة .
نقش لـ (ر . برونيه) ، نقلا عن ن (له سيور) ، لكتاب الاب «نوليه» : « محاولة في كهرباء الاجسام » (باريس ، الاخوة غيرين ، ١٧٤٦) .

٣ – اختبار مغناطيسي (متحف « كرنفاليه » ، تصوير « بولوز ») .

٤ – مختبر كيميائي في القرن الثامن عشر .
نقش « بريفو » ، نقلاً عن « « غوسيه » ، لدائرة المعارف (دار الكتب الوطنية) .

٥ – لافوازييه يجري في مختبره اختباراً على تنفس الانسان في حال الراحة .
رسم السيدة لافوازييه (دار الكتب الوطنية) .

٦ – تتويج فولتير في « المسرح الفرنسي » ، في ٣٠ آذار ١٧٧٨ .
رسم « غابرييل دي سانتوبين » (١٧٧٨) . (متحف اللوفر . تصوير بولوز) .

٧ – شارع « كنكامبوا » في السنة ١٧٢٠ .
رسم مغفل (مجموعة « بول انفولفان » ، تصوير ب. و. ف.) .

٨ – انشاء طريق عام في منطقة جبلية .
رسم « جوزف فرنيه » (متحف اللوفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

٩ – فلاحو غونيس يزفون منطاداً هبط في قريتهم .
نقش مغفل (دار الصور المنقوشة) .

١٠ – ملشأ القاح (رسم هزلي لـ « ادوار جنر » (دار الصور المنقوشة) .

١١ – منظر دار « سوبيز » ، من جهة الشارع .
رسم « ج. ب. رينو » نقلا عن « جاك رينو » (متحف اللوفر).

١٢ – منظر قاعة الاستقبال في الوفر في السنة ١٧٥٣ .
رسم « غابرييل دي سانتوبين » (دار الصور المنقوشة) .

١٣ – رمز « جرسين » ـ نقش « ب . افلين » نقلا عن « ولتو » . (دار الصور المنقوشة).

١٤ – قصر « سان‌سوسي » في بوتسدام .
نقش « ج . س . كنوبفز » (١٧٨٨) . (دار الصور المنقوشة).

١٥ – الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون « المرايا الاربع » في الـ « تمبل » .
رسم « اوليفييه » . (متحف الوفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

١٦ – رقصة روسية ـ نقش « سانتوبين » ، نقلا عن « له برنس » ، لكتاب الاب « شاب دوتروش » : « رحلة الى سيبيريا » . (دار الصور المنقوشة . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

١٧ – منظر حدائق « باغاتيل » ـ نقش « نيكه » ، نقلا عن ل . « بلانجه » . (دار الصور المنقـــوشة) .

١٨ – الملكة « اوبيريا » تتخلى عن « تاهيتي » الضابط « واليس » .
نقش نفـّذ تحت اشراف « غودفروا » لكتاب حول الرحلات التي امر بها صاحب الجلالة البريطانية ... لتحقيق الاكتشافات في النصف الشمالي من الكرة الارضية .
(دار الكتب الوطنية) .

١٩ – برابرة من راس « دين » يعدون طعامهم .
نقش « كوبيا » و « م . ـ ف . ديان » نقلا عن « بيرون » . (دار الكتب الوطنية).

٢٠ – منظر جزيرة «اولياتيا» مع زورق مزدوج مصنوع من جذع شجرة وعطة مسقوفة لايواء زوارقهم .
نقش لكتاب « رحلات كوك » ، الجلـّد الثالث (تموز ١٧٦٩) . (دار الصور المنقـــوشة) .

٢٠ – موكب المهراجا ـ رسم سيلاني ، (مجموعة «بول انتولفان» : تصوير «ب . و . ف .»)

٢٢ – الامبراطور « كيان‌لونغ » يتقبل الجزية من الـ « كازاك ـ كرغيز» .
نقش نفذ تحت اشراف « كوشين » ، نقلا عن رسم للأب كستيغليون اليسوعي (عهد النسخ) – (متحف غيمه ، المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

٢٣ – مراكب صينية ـ صورة منقوشة مفنفة ، (دار الصور المنقوشة) .

٢٤ – متنزه على شاطىء البحر ، في اليابان ـ صورة منقوشة لِ « كيونغا » .

٢٥ – وصول طليعة علماء الآثار الى مصر.
نقش مغفل منقول عن كتاب « دانون » : « رحلة الى مصر » (١٨٠٢) . (دار الصور المنقوشة)

٢٦ – النخاسة في المرة ... لنقوشة) .

٢٧ – نساء « ايدنتون » ... الامتناع عن احتساء الشاي حتى انقاذ بلادهم
نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة).

٢٨ – جمعية السكونتوس الاميركي الاول .
نقش « غودفروا » نقلا عن « له باربييه » . (دار الصور المنقوشة) .

٢٩ – نزهة عند اسوار باريس .
رسم « ب. ف. كورتوا » نقلا عن « ارغسطين دي سانتوبين » (١٧٦٠) (دار الصور المنقوشة) .

٣٠ – عيد احيته مدينة باريس على نهر السين في السنة ١٧٣٩ .
نقش «ج.ـف. بلوندبل» نقلا عن « سالي » (متحف اللوفر) .

٣١ – حي الـ « لوبلري » مع بناء « الجمعية » ومنتدى « اليعقوبيين ».
نقش «كلود لوقاس » نقلا عن « لويس بريتز » (متحف اللوفر) .

٣٢ – مشهد احد الشوارع: منشد الاناشيد.
نقش « مادلين كوشين » نقلا عن « ش. ـ ن. كوشين » الابن . (دار الصور المنقوشة).

٣٣ – افتتاح مجلس الطبقات في فرساي «في ٥ ايار ١٧٨٩.
نقش هلمن نقلا عن « ش. مونيه » . (دار الصور المنقوشة) .

٣٤ – « كميل ديمولان » يخاطب الجماهير في القصر الملكي » في ١٢ تموز ١٧٨٩ .
نقش « برتو » نقلا عن « بريور » . (دار الصور المنقوشة) .

٣٥ – الشعب في الشارع (ليل ١٢ ـ ١٣ تموز ١٧٨٩) .
نقش « ا. ف. سرجان » (١٧٨٩) . (دار الصور المنقوشة) .

٣٦ ـ الاستيلاء على سجن « الباستيل » نقش « سليه » (١٧٨٩) . (دار الصور المنقوشة) .

٣٧ ـ عودة العائلة المالكة الى باريس » في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ .
رسم مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

٣٨ ـ عيد « الاتحاد » في باريس ، في ١٤ تموز ١٧٩٠ .
نقش « برتو » ، نقلا عن « بريور » (دار الصور المنقوشة) .
٣٩ ـ صورة طبق الاصل مأخوذة من العدد ٣٩١ من « صديق الشعب » أو « الصحافي الباريسي » . (٦ اذار ١٧٩١) . (دار الكتب الوطنية) .
٤٠ ـ مقهى « غوديه » في شارع « التمبل » ، حوالي السنة ١٧٩١ .
رسم « سويباك ديفونتين » . (متحف كرنفاليه . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
٤١ ـ الاحتفال بعيد « الكائن الاسمى » في ٢٠ « بريريال » من السنة الثانية .
(دار الصور المنقوشة) .
٤٢ ـ العودة بروبسبيو مجروحاً الى مدخل مركز لجنة السلامة العامة ، في ٢٨ تموز ١٧٩٤ (١٠ ترميدور من السنة الثانية) .
رسم (برتو) نقلا عن « دوبلسي ـ برتو » (دار الصور المنقوشة) .
٤٣ ـ وصول الغنائم الحربية الى فرنسا .
صورة منقوشة منفلة (متحف كرنفاليه ، تصوير بولوز) .
٤٤ ـ مسح نابوليون ـ نقش « لافاليه » . (دار الصور المنقوشة) .
٤٥ ـ حديقة قصر الـ « توبلري » في السنة ١٨٠٨ .
رسم « نوربلين دي لاغوردين » . (متحف كرنفاليه . تصوير بولوز) .
٤٦ ـ القنصل الاول والسيدة بونابرت في زيارة مصنع الاخوة « سنين » في مدينة «روان» في تشرين الثاني ١٨٠٢ .
رسم « ايزابيه » (صالون السنة ١٨٠٤) . (متحف فرساي ، تصوير «جيروحون») .
٤٧ ـ داخل مشغل « دافيد » في اللوفر ـ رسم « كوشرو » . (متحف اللوفر ، تصوير « فيوليه ») .
٤٨ ـ فتنة الثالث من ايار ١٨٠٨ في « لابويرتا دل سول » .
رسم غويا (١٨٠٨) . (متحف الـ « برادو » . تصوير جيروحون) .

فهرس

ص

الكتاب الثاني

« الانوار » والتقنية

الكتاب الثالث

الانوار وتعذر تحقيق الامة الاوروبية

الكتاب الرابع

حضارة الانوار وحضارات ما وراء المحيطات

الكتاب الخامس

الانوار والمجتمعات الاوروبية في اميركا

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر امام الثورة

الكتاب الاول

الثورة الفرنسية والدعائم النابوليونية

ص

ص

الكتاب الثاني

العالم امام الثورة الفرنسية والفتوحات النابوليونية

استنتاجات عامة

حضارة السنة ١٨١٥ الجديدة

انتهى المجلد الخامس . ويليه المجلد السادس

القرن التاسع عشر

- أصالة الفكر العربي / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- الله والإنسان في الفكر العربي والإسلامي / د. أحمد حواجة
- أفلوطين رائد الوحدانية / د. غسان خالد
- الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر / د. فايز ترحيني
- تاريخ الفلسفة الإسلامية / هنري كوربان
- تيارات الفكر الفلسفي / أندريه كريسون
- آداب الزواج في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- الوصية الواجبة في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- مع القرآن في الدين والدنيا / القاضي هشام قبلان
- رسل ثلاثة لإله واحد / روجيه ارنالديز
- جبل العرب - صفحات من تاريخ الموحدين الدروز / حسن البعيني
- تاريخ الثورة الفرنسية / ألبير سوبول
- فلسفة الثورة الفرنسية / برنار غروتويزن
- مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية / رينوفان ودوروزيل
- اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان / د. خالد قباني
- معركة وادي المخازن / يونس نكروف
- يوم تبطش الصين / آلان بيرفيت
- تاريخ الرواية الحديثة / ألبيرس
- اللسانيات واللغة العربية / د. عبد القادر الفاسي الفهري
- مدخل لجامع النص / جيرار جينيت
- تاريخ السينما في العالم / جورج سادول
- الزراعة اللبنانية وتدخلات الدولة في الأرياف / د. أحمد بعلبكي
- المسألة الزراعية في ريف الجزائر / د. أحمد بعلبكي
- سيكولوجيا الذكاء / جان بياجيه
- المورفولوجيا الاجتماعية / موريس هالبواكس
- سوسيولوجيا العمل ج 1 / فريدمان ونافيل
- سوسيولوجيا العمل ج 2 / فريدمان ونافيل
- مدخل إلى الإحصاء / د. عبد القادر حلمي
- التفاعل الكيميائي / ترجمة صلاح يحياوي
- الكيمياء العضوية / ترجمة صلاح يحياوي
- طرق الاحتياط والتنفيذ / يوسف جبران
- القانون والجرم وشبه الجرم / يوسف جبران
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن الفعل الشخصي / د. عاطف النقيب
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن فعل الأشياء / د. عاطف النقيب
- أصول المحاكمات الجزائية / د. عاطف النقيب
- الوظيفة القنصلية والدبلوماسية / د. عاصم سليمان جابر
- مذكرات الجنرال ديغول: أربعة مجلدات

١ - النفير

٢ - الوحدة

٣ - الخلاص

٤ - الأمل

- الكامل في قانون التجارة للأستاذ الياس ناصيف. أربعة مجلدات

١ - المؤسسة التجارية

٢ - الشركات التجارية

٣ - عمليات المصارف

٤ - الإفلاس

- تاريخ الحضارات العام: بإشراف موريس كروزيه

١ - الشرق واليونان القديمة / أندريه ايمار وجانين أوبواييه

٢ - روما وامبراطوريتها / أندريه ايمار وجانين أوبواييه

٣ - القرون الوسطى / ادوار بروي

٤ - القرنان السادس عشر والسابع عشر / رولان موسنييه

٥ - القرن الثامن عشر / رولان موسنييه وارنست لابروس

٦ - القرن التاسع عشر / روبير شنيرب

٧ - العهد المعاصر / موريس كروزيه

HISTOIRE GENERALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de

MAURICE CROUZET

Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME V

LE XVIII^e SIÈCLE

L'ÉPOQUE DES « LUMIÈRES »

(1715-1815)

par

Roland MOUSNIER et **Ernest LABROUSSE**

Professeur à la Sorbonne — *Professeur à la Sorbonne*

avec la collaboration de

Marc BOULOISEAU

Docteur ès Lettres

QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

تاريخ الحضارات ال

منشورات عويدات - بيروت - باريس

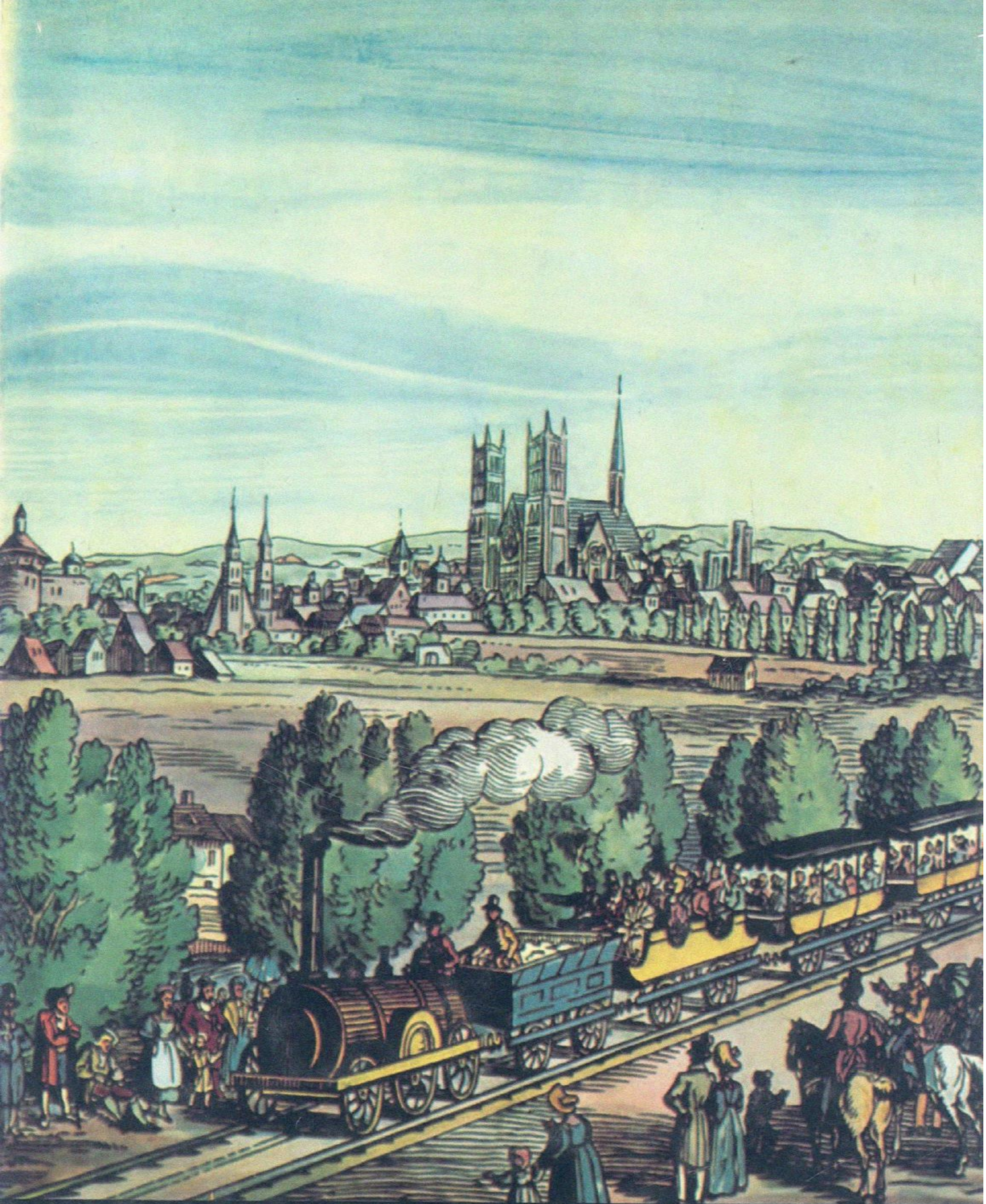

تاريخ الحضارات العام

القرن التاسع عشر

تاريخ الحضارات العام

موسوعة
تاريخ الحضارات العام
في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١
الشرق واليونان القديمة
أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٢
روما وإمبراطوريتها
أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٣
القرون الوسطى
إدوار بروي — أستاذ في السوربون

٤
القرنان السادس عشر والسابع عشر
رولان موسنييه — أستاذ في السوربون

٥
القرن الثامن عشر
رولان موسنييه — أستاذ في السوربون
و
إرنست لابروس — أستاذ في السوربون

٦
القرن التاسع عشر
روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧
العهد المعاصر
موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد السادس

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

القرن التاسع عشر

تأليف

روبير شنيرب
أستاذ فخري في الدراسات العليا
دكتوراه دولة في الآداب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر   فريد م. داغر

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مدخل

لكل شيء أثره ... وعلى هذا فالكل او لا شيء . فالكشف عن الحقيقة التاريخية كلمة غير منقوصة يقتضي له التقصي واقتفاء ما ترك من أثر ملحوظ أينما وقع وبأي شكل ظهر ، مهما صغر او دق .

ميشليه

١٨١٥ - ١٩١٤

وإن شئت فقل القرن التاسع عشر . وإذ ذاك تنطّ أمام نواظرنا هذه المفارز الفرّارة التي يشير اليها مارك بلوك عندما يستعرض أمامنا هذا التشويش او الاضطراب الذي يلازم « تصنيفاتنا الزمنية » . بعد هذا ، هل يقف راوية ما من أمثال هيرودوتس مثلاً ، عند « سرد ما حدث او جرى » دون ان يرد هذه الأحداث الى أطرها التاريخية ومفارقاتها المميزة ؟ فاذا لم يرو ماجريات التاريخ وفقاً للتسلسل الزمني حسب تعاقب الملوك وتوالي السيطرات السياسية او الحربية ، فسيشمر ، في اضعف الايمان ، عاملاً في إقامة الحدود ووضع الصوى بين هذه العهود التاريخية المعروفة لدينا باسم : التاريخ القديم ، والأجيال الوسطى ، والعصر الحديث والزمن المعاصر . ولكن أي معنى بعد لهذه الأدوار والأطوار ، وأي مدلول لهذه المصطلحات والمسميات ؟ ففي نظر ليتريه ، التاريخ المعاصر « يدون وقائع الزمن الذي عاش فيه الناس وجرت حوادثهم » بينما يمتد العصر الحديث من حقبة الانبعاث الادبي في القرن السادس عشر الى يومنا هذا . ومع ذلك فقد جرت التقاليد منذ عهد سحيق ، وهي تقاليد وأعراف لم تنسخ بعد ، على جعل سنة ١٧٨٩ ، حداً فاصلاً لهذه الحقبة . ومثل هذا الاضطراب في المسميات الزمنية يشوب الحقب التاريخية الاخرى . فاذا ما جعلنا من عام ١٧١٥ نهاية القرن السابع عشر ، فمن المعقول ان نجعل من عام ١٨١٥ الحد النهائي للقرن الثامن عشر . ففي التسليم بمثل هذا التقسيم الزمني ، لم يعد القرن التاسع عشر ليتفق وحدود الاصطلاح المسيحي للأزمنة التاريخية ، كما انه لا تقاطع هنالك ولا حدود في ديمومة التطور وحركة النشوء . فالأمر ، والحالة هذه ، لم يعد ليتعدى الاصطلاح على حقبة هي خير ما يتفق وروابط الحوادث لتماسكها وفقاً للمفهوم الاوروبي للتاريخ .

لا مراء قط انهم توصلوا الى مقررات هامة في هذه المفاوضات التي دارت في مؤتمرات باريس وفيينا وغنت. ومع ان التماثد لم ينقطع قط بين مفهوم النظام القديم والأيديولوجيا الجديدة التي طلعت علينا منذ عام ١٧٨٩ ، فباستطاعة اوروبا التي أعاد اليها نظامها « هذا العالم المتمدن » ، كما جاء على لسان مترنيخ بالحرف الواحد ، ان تتنفس الصعداء ، وأن تنعم بسلام دائم . وقد استثمرت البورجوازية الفوائد الجسام التي سيعود عليها بها الاقتصاد الصناعي المتطور ، الحر ، في تكامله المتصاعد . فليس بعد ما يبق او يحد من استشراء الحركة التجارية وانبساطها عبر البحار والقارات . وستجد انكلترا بنوع خاص نفسها في وضع لم تعرف خيراً منه لتفرض على الناس ما تنتج من السلع والبضائع .

واندلعت عام ١٩١٤ حرب أكول ، ضروس ، حملت الحضارة الاوروبية على قاب قوسين وأدنى من الانهيار والهالكة ، في هذا الانقلاب الجذري الذي لف العالم لفاً فكان نذيراً بطلوع عهد جديد على البشرية جمعاء .

فأوروبا ، ولا شك في ذلك ، هي روح العالم وريحانته في هذا العصر . ومع ذلك ، فالسبق الذي سجلته لها في المضمار الحضاري ، مهما بلغ من مداه ورحبه وبُعد مراحله ، لم يكن بأمن من كل منافسة او مزاحمة . فقد كشفت اميركا الفتية في صحة موصولة لبرومونيه ، عن سر نهضة عارمة سريعة الخطى ، كما ان بلداناً ودولاً اخرى اخذ يدب في ثناياها رسيس نشاط وتمطى بين جوانحها وجوارحها هزة طافرة .

فالقرن الثامن عشر الذي كان عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل اوروبا تسير في طليعة الركب الحضاري. فهل كتب لهذه القارة،في حلبة الزمن، ان يكون القرن التاسع عشر، عصرها الجلي وذروة التطور عندها ؟

القسم الأول

بين الاستمرار والتغيرات المحتملة في مطلع العصر

خصائص هـذا العصر ومميزاته برزت واتضحت شيئاً فشيئاً . فأنماط العيش وطرق التفكير التي سيطرت وراجت بعد حقبة الثورة والعهد النابوليوني لم تكن ، ولم يكن لها أن تكون جديدة بالنسبة للغرب . فتحرير الفلاح المشدود الى الارض لم يكن امراً مشكوكاً فيه وحسب لدى قسم كبير من دول اوروبا ودويلاتها ، بل ان طرائق العمل ووسائل استثمار الارض سجلت تقدماً بطيئاً . لم يطلع علينا بعد ١٨١٥ كما لم يحدث قبل ١٧٨٩ « ثورة صناعية » إذ نحن أمام تطور يتسم بالبطء في كل ما يتصل بتقنية الانتاج ووسائل النقل والانتقال، ولا تزال اكتشافات القرن الثامن عشر هي التي تفيض بنعمائها على القرن اللاحق. فالأفكار التي صدمتها بعنف التصدعات السياسية وما صاحبها ولازمها من هزات اجتماعية وارتجاجات سياسية ، بقيت عرضة لهواجس الحيرة والتردد والتشكك ، وما زالت المشاعر المهتاجة في تفاعل وانفعال . فالصراع لا يزال على أشده بين النظام التقليدي والروح التحررية التي جاشت بها البورجوازية ؛ والقلق الذي يبعثه في النفوس مرأى الفقر المدقع المسيطر على الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ينحسر عن أعمـــال تافهة او عن نظريات خدّاعة ، برّاقة ، والطريقة الثورية التي شرعها احتلال الباستيل ودكها تستمر وتتأسد ؛ والتحالف المقدس الملكي والارستوقراطي يستهدف دوماً الأخذ بهذه الاساليب التي سيطرت على دبلوماسية بلاطات الملوك . فاذا مـــا هيأت سنوات حكم لويس الرابع عشر الاخيرة وثورات انكلترا وانتفاضاتها ، طلوع القرن الثامن عشر ، فحضوره يتمثل في معظم المجالات والنشاطات. ألم يُرس أُسس الاستقلال الاميركي الذي رحبت مغاليقه واتسمت جنباته ما بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ؟ ألم يوح بالحملة المستمرة المضادة للرق ؟ ومع ذلك فنفوذ اوروبا ولا سيما انكلترا ، لا يزال يتعاظم ويتجسم أكثر فأكثر ، كما ان شخصية اميركا برزت بصورة أجلى . وبالرغم من تحكم وضع اقتصادي لم يكن مؤاتيـاً ، فالبورجوازية المدنية اخذت تستبد بالسلطة في هذه البلدان بالذات التي تستبد بها وتسيطر عليها عوامل المال والتجارة والصناعة . والمعارك العنيفة التي خاضتها البروليتاريا الكادحة عكست من جهتها شكيمة رأس المـــال وسيطرته الناشئة . فانتصب في وجه الطبقة الظافرة المتحكمة طبقة اخرى اخذت تحاول إثبات وجودها بشق طريقها واحتلالها محلاً مرموقاً تحت الشمس . وفي الوقت ذاتـه طلع على العالم اكتشاف تقني جديد يتمثل بدخول البخار في خدمة الغرب ، وبفضل هـذا الكشف العلمي العظيم عرف الغرب ان يفيد ، الى حد بعيد من خدمات ووسائل يسّر استعمالها ، لم يحلم في الامس الغابر ، من ظن بها خيراً ، ولا من رأى بها نفعاً . وهكذا تستطيع اوروبا استئناف السير حثيثاً وهي على مثل ما نرى من نشاط زاخر وعافيـــة ، السيطرة على العالم وبسط نفوذها ، في الوقت الذي انصرف فيه الاميركيون ، من جهتهم ، لبسط سيطرتهم على اميركا .

الفصل الأول

سكان أوروبا

النمو المطرد

تضخم عدد سكان العالم ، خلال القرن الثامن عشر ، إذ ارتفع هـذا العدد من ٦٠٠ مليون حوالي عام ١٧٠٠ الى ٩٠٠ مليون في مطلع القرن اي في سنة ١٨٠٠. وقد عرفت اوراسيا ان تحافظ من جهتها على تفوقها العددي . صحيح ان اميركا الشمالية عدّت ، إذ ذاك ، ٦ ملايين نسمة بعد ان ضمت مليوناً واحداً من السكان فسجلت بذلك اكبر معدل في الزيادة ، بينا بلغ عدد سكان ما تبقى من العالم الجديد ١٩ مليوناً بعد ان كان في حدود ١٢ مليوناً . أما افريقيا فقد بقيت على وضعها المعروف تقريباً أي في حدود المائة مليون . وبالمقابل بلغت آسيا ٥٧٥ مليون نسمة بعد ان كانت ٣٣٠ ، واوروبا ١٨٧ مليوناً بعد ان كانت ١١٨ مليوناً . وهكذا فقد أربى معدل الزيادة في اوروبا على معدل النمو في آسيا [1] .

وهذا النمو المتصاعد لم يتوقف ولم يخف كما انه لم تتغير كثيراً نسبة التوزيع الديموغرافي في النصف الاول من القرن التاسع عشر . هنالك في العالم زهاء ١٢٠٠ مليون حوالي عام ١٨٥٠. فاذا ما عرفت اميركا ان تحتفظ بأكبر معدل في هذا النمو السكاني ، إذ ارتفع عدد السكان فيها من ٦ ملايين الى ٢٥ مليوناً ، فقد سجلت آسيا ٧٦٠ مليوناً وأوروبا ٢٦٦ مليوناً . وهكذا نرى كيف ان معدل النمو ازداد في اوروبا . وقـد يتأتى معدل الزيادة أعلى من ذلك بكثير اذا ما اخذنا بعين الاعتبار حركة الارتحـال الاوروبي الى الولايات المتحدة الاميركية (اي ما يقارب ١٠ في المائة من سكان عام ١٨٥٠) .

وقـد طرأ ما غيّر من معدل توزيع السكان داخل المجموعة الاوروبية . فالخمسة والثلاثون مليون فرنسي ، عام ١٨٥٠ ، لم يكن ليبزهم عدداً إلا الـ ٥٧ مليون روسي . والدويلات الالمانية (باستثناء النمسا) تعادل لوحدها هذا الرقم ، بينما ارتفع عدد سكان ايطاليا من ١٨ مليوناً الى ٢٥ مليوناً ، كما نلاحظ زيادة مرموقة في معدل نمو السكان في الجزر البريطانية إذ ارتفع رقمهم

---

(١) راجع في هذا الصدد الجدول البياني لتعداد السكان في اول الفصل الرابع من القسم الثاني من هذا الكتاب.

من ٩ ملايين ، في عام ١٧٠٠ ، الى ١٦ مليوناً ، عام ١٨٠٠ ، والى اكثر من ٢٧ مليوناً ، بينهم ٨ ملايين ونصف في ايرلندا . والسبق الفرنسي في هـــذا المضمار أصابه التمهل ، فالتأخر لعلة تناقص المواليد ، بينما يرتفع معدل نمو السكان في البلدان الاخرى . فبينما يبلغ معدل النمو في فرنسا ، عام ١٨٠٠ ، ٣٢ في الالف ، تحافظ انكلترا على مثل هذا المعدل ، عام ١٨٥٠ ، ويبلغ في المانيا ٤٠ في الالف و ١٣٫٣ بالالف في الولايات المتحدة الاميركية .

المعدل العالي في الوفيات
الأوبئة الفتاكة والطاعون

قابل معدل المواليد العالي معدل عالٍ في الوفيات . ان الامل بحياة طويلة الامد ضعيف أينما كان ، فالسواد الاعظم من السكان هم من الاحداث . ان ٤٤ ٪ من سكان فرنسا، عام ١٨١٥ ، لهم من السن اقل من عشرين سنة والذين يجـــاوز منهم الـ ٦٠ لا يؤلفون سوى ٧ ٪ لا غير . فاذا ما انخفض معدل الوفيات قليلاً في غربي اوروبا والبلدان السكندينافية ، فالظروف الاقتصادية السيئة تحول دون أي تحسن في هذا المجال وتقف حجر عثرة في اي امل بتحسن الوضع . لا بد من ان نتذكر هـا ان السواد الاعظم من الاوروبيين لا قدرة عندهم على مقاومة المرض ولا مناعة عندهم بالنظر لمـا هم عليه من نقص في التغذية ولأن موقفهم من المرض ليس خيراً من الآسيويين والافريقيين . ففي مدينة ليل ، عام ١٨٣٠ ، لا يتجاوز معدل سن نصف الاحداث بينهم ، خمس سنوات ، بينما لم يزدد معدل مدى الحياة في مدينة ملهوز على ٢٢ سنة . ويكفي ان تجدب الارض سنة واحدة او ان تجدب غلالها حولاً واحداً حتى يتساوى المساكين والبائسون بعشرات الالوف.

فاللقاح الذي اكتشفه جنّر ساعد كثيراً على التحكم بسير الجدري، والبرص اعتصم في أشباه الجزر الجنوبية والسكندينافية،بينما بقيت حمى البرداء على فتكها الذريع في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والتدرن الرئوي المتلبس أشكال مرض السل ومظاهره المألوفة بقي يحصد الناس دونما رحمة او شفقة .

فالتيفوس والوباء والطاعون هي اكثر الأوبئة الوافـــدة التي خشي الناس شرها الوخيم . فالتيفوس ، كالطاعون ، مرتعه القذارة وانعدام الوسائل الصحية ، فهو يعشش في الزرائب وفي الاوساط التي تعاني من سوء التغذية ، او تذهب فريسة لويلات الحرب وفتكها الذريع . فقـد تميزت اواخر الحروب النابوليونية بجائحة تيفوس فتكت دونما رحمة بالمانيا ، وبقي هــذا المرض الوبيل الخبيث ينتقل من محل الى آخر في جميع ارجــاء اوروبا ، معلناً عن قدومه واستشاطته بجيهات فتاكة تقضي على ٢٠٠٠٠ في بلجيكا ، خلال الازمة التي استحكمت بها بين ١٨٤٦–١٨٤٧، وينزل بالمحاربـين في الشرق ، عـام ١٨٢٩ ، ولا سيا في حرب القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦) من ويلاته ضحايا لا تحصى ولا تعد . وقد عرفت اوروبا ، بين ١٨١٠ – ١٨٣٢ ، ان تتفادى وافدة الوباء الذي نشأ بين سكان السلطنة العثمانية . وقد اتضح للجميع بالاختبار ان افتراس الجرذان الاغبر للجرذان الاسود والتهامه له فيه ما يخفف من انتشار هذه الجائحة .

ان الطاعون ضيف طارىء ثقيل ، يزرع الرعب أينا حلّ وقـام ويسمر الخوف في القلوب والنفوس . فوافدته الكبرى اجتاحت اوروبا في اثر حملة الروس على ارمينيا وعلى ايران وأثناء الدور الاول من الصراع الدامي الذي نشب بين مصر وتركيا . فالعدوى تسهل انتقالها خلال الحملات والاشتباكات الحربية ، التي قامت بين الروس والبولونيين ، عام ١٨٣٢ ، عقب وصول بعض السفن الموبوءة الى سواحل البرتغال، محملة جنوداً وعتاداً لحساب دون بدرو، ووافدة الوباء لم تتجاوز استراخبان عام ١٨٢٣ ، إلا انها اتجهت بعـد ١٨٣٠ ، شطر اوروبا فاشتدت عليها وطأتها مدة سبع سنوات ومنها امتدت الى الجزائر [١] . فقـد بلغ عدد الضحايا الذين خلفتهم وراءها في فرنسا مائة الف ، بينهم ١٦،٥٠٠ في باريس نفسها ، و ١٤٠٠ في برلين ، و ٢٠٠٠ في فيينا و ١٠٠٠ في النروج ، و ٦٧٠٠ في لندن . والمدن التي تثاقلت عليها وطأة الجائحـة ، فرّ اهلها بأنفسهم الى الريف . فيا له من خوف مريع . فبمَ يستطب الناس ويتعالجون ؟ هل يفيد في سبب الموت الزؤام، البزموت والكلور والكينا وحمامات البخار . وعندما اصدر حاكم مقاطعة السين اوامره بنقل الاوساخ والنفايات بالعربات ، راح الزبالون بعد ان حرمهم هـذا القرار من لقمة العيش ، يشعلون النار في عدد من هذه العربات ، كما راح خصوم لويس فيليب ، يستغلون لحسابهم الخاص ، الاضطرابات التي نشبت في العاصمة ، كما راحوا يسممون الخواطر ، بالشوائع المغرضة والاقاويل زاعمين مرددين ان كزيمير بريّه يسم الشعب بالتواطؤ مع الاطباء والكهنة . ولم يلبث النـاس ان راحوا يتخاطفون النعوش والتوابيت وصناديق الموتى . ومع كزيمير بريه غابت وجوه: شمبوليون الابن وكوفييه وسادي كرنو.

والرياح الموبوءة الفاسدة اخذت ، بـين ١٨٤٧ و ١٨٥١ ، تهب من سباسب آسيا وفلواتها الموحشة في الحين الذي اخذت تستحكم في الرقاب ازمة اقتصادية حادة. ولما كان الشعب البلجيكي ضعيفاً وهناً لكثرة ما يعاني من ضنك العيش وسوء التغذية فقـد رأت فيه الجائحة مرتعاً خصباً وفتكت فيه فتكاً ذريعاً ، فحصدت من بين صفوفه ٢٣،٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد الضحايا ، في لندن ضعفي عددهم عام ١٨٣٢ ، كما ان امبراطورية القياصرة الروس سجلت لوحدها اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ ضحية، وحصدت هذه الوافدة في باريس، بين ١٦،٠٠٠ و ١٧،٠٠٠ فريسة وتجرأت على الجنرال بوجو ، « ملاذ المجتمع ومعقله الحصين » ، كما يقول فيه لويس فويو . واشتد الوباء بالأكثر في الاحياء المدقعة الفقر ، كما يؤكد ارمان دي ميلون . وكان الجيش النمساوي أداة نقل هذه الوافدة الى ايطاليا ، ومن مرسيليا انتقلت الى الجزائر . وقد سلكت الطريق ذاته عـام ١٨٥٥ ، فأناخت هذه المرة بكلكلها الثقيل على بلدان الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، كما

---

(١) انظر الى الخريطة ص ٢٤ - ٢٥ . وزيادة في المعلومات يحسن مراجعة البحث الاستقصائي الذي قام به السيد لويس شفاليه بعنوان: « الكوليرا أولى وافدات القرن التاسع عشر » المنشور في مجلة مكتبة جمعية الثورة، عام ١٨٤٨ (التي صدر عام ١٩٥٨)

سارت في ركاب الفرق الفرنسية في حروبها في شبه جزيرة القرم ، وانتقلت عن طريق النازحين الى اميركا . وقد عرفت اوروبا في آخر الامر كيف تتقي هذا الشر الوخيم .

مع ملطوس وضده

فلماذا ينجب الناس مثل هذا العدد من الولد اذا كانت قسمتهم الفقر المدقع والموت الخاطف وحياة ملؤها الغصص ؟ هذا السؤال كثيراً ما طرحه على نفسه القس ملطوس في كتابه الموسوم : « بحث حول مبدأ السكان » الذي صدر عام ١٧٩٨ ، والذي احدث صدوره دوياً عظيماً [1] . فعندما راح يهاجم نظرية النشوء والارتقاء ، هذه النظرية التي قال بها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلوا ، حسب عليه هجومه هذا شجباً القانون الانكليزي المتعلق بالفقراء ، هذا القانون الذي حبذ تكاثر النسل لدى طبقة المعوزين، مشيراً بذلك الى ناموس المتوالية الهندسية ، بينما « وسائل التغذية » لا يمكن ان تتطور وتزداد بأسرع من « المتوالية الرياضية » . وقد تنطح للرد عليه غودون ، فراح يؤكد ان البؤس والفقر انما ينشأ عن تفاوت في توزيع مصادر الثروة الطبيعية او عن سوء في هذا التوزيع ، وعن تمركز الملكية العقارية وحصرها في ايدي عدد قليل من المالكين . وقد وقف هذا الموقف المناهض لمالطوس هذا القبيل من الناس الذين راحوا يتمنون ردة عكسية للحد من حرية التصرف المؤاتية ، في نظر سيسموندي ، « للدول الثرية ، حيث ظاهرة البؤس والفقر العام تسير جنباً الى جنب والثراء المادي » . وقد حرص ماركس ولا سيما انغلز على تجريح نظرية ملطوس ودحضها ، الذي ينزل العامل منزلة حيوان الجر ، تأميناً للانتاج ، ويذهب بالحكم عليه بالموت جوعاً ، والعيش اعزب طوال حياته . وعلى عكس هذا تماماً راح المتحررون من علماء الاقتصاد ، يرحبون بمبدأ يتنافى والاصلاح الاجتماعي . من الواجب ، وأيم الحق ، تشجيع الناس على الاقتصاد وحملهم على التوفير ، بدلاً من التكاثر والانسال بكثرة ، كما يؤكد جان باتيست ساي المعروف بشدة تفاؤله والذي لم ينف قط « ان جانباً من الناس يموتون من العوز والتضور جوعاً حتى بين الشعوب التي تنعم بالازدهار المادي » . وراح دونويه ، عام ١٨٣٣ يوصي بقطع المساعدات الانسانية عن كل الأسر التي لا يزيد عدد الاولاد عندها ، على ولد واحد . وجان ستيوارت ميل لا يتورع قط عن « النظر الى الأسر العديدة الاولاد والبنين نظرة الازدراء والاحتقار التي يحتفظ بها للمدمنين على تعاطي المسكرات او لغير ذلك من الموبقات الجسدية » . وتألفت في انكلترة عصبة خاصة تعرف بعصبة ملطوس اخذت على نفسها مناهضة الانسان والأسر الولود بين البائسين .

وهكذا انفتح باب الجدل والنقاش على مصراعيه . فهل يقضي العصر لملطوس او عليه ؟

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٥٩٩ و ٦١٢ (الطبعة العربية)

الفصل الثاني

العناية بالأرض في اوروبا
أنماط الحياة القديمة والتطور

« كل عارف بشري أوتي القدرة على انتاج كمية تزيد على حاجته من الغذاء » ـ غودوين: (نظرات حول السكان ـ ١٨٣٠)

الطابع السائد في اوروبا لا يزال طابع التربة والارض

لم يكن في مقدور « الثورة الصناعية » ان تزيل عن اوروبا ، وهي بعد عند عتبة القرن التاسع عشر ، الطابع الريفي الذي لازمها منذ عهد سحيق . ومهما كان من الدفع الرأسمالي في انكلترا ، فالتوازن لم ينقطع ، لدى سكان الجزيرة ، بين الثروة العقارية (*Landed Interest*) وبين الثروة النقدية (*Moneyed Interest*) لجهة الاخيرة منها . أما في فرنسا ، التي دخلت في ظل إعادة الشرعية الى الحكم ، فالتربة تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية ، وهي نسبة تجاوزت هذا الحد في معظم دول القارة . فإن كان الانسان لا يزال يعول في معايشه على عمله في الارض والسعي لتأمين ما فيه كفافه ، فقد بقي الخوف من المجاعة هاجسه اليومي الذي لم يبارحه إلا في السنوات التي تجود بالمواسم الطيبة والغلال المشجعة ، حتى المدن التي كان شأنها متواضعاً على الاجمال فقد وجدت نفسها غارقة في محيط ريفي تعيش معه في مقايضة موصولة وتبادل لا ينقطع .

الاقتصاد الريفي لا يزال على طابعه التقليدي

حرص الاوروبيون الذين همهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين أود العيش ، على ان يجنوا من غلال الارض ومحاصيلها المتنوعة ما يؤمن معايشهم العادية. مغبوطة هي الارض التي تكفي نفسها وتفي بفرائضها المرسومة ومباركة المواسم التي تتيح لأصحابها توفير بعض الغلال ، بعد ان يسدد المزارع ما عليه من رسوم وأتاوات وضرائب وعوائد .

فالمساحات المخصصة لانتاج الحبوب لم تكن ابداً ، فائضة عن الحاجة ، إذ المهم في هذه الحياة تأمين حاجة المرء من الحنطة . فالمحاصيل الزراعية في البلد الام تكفي عام ١٨١٠ ،

بحاجات ٩٠٪ من البريطانيين . فإن قصر موسم الشوفان شال موسم القمح . ومع ذلك بقي خبز القمح ورغيف القمح من الامور الكمالية او الترفيهية . والشوفان والشعير والذرة دخلت أكثر فأكثر في تكوين الرغيف والطلبة والعصيدة . أفليست كعكة الحلوى او قرص الحلوى في سكوتلندا من القرطم ؟

وتربية الماشية تأتي بالرديف المؤمل والعنصر المساعد ، وهي تربية تعوّل ، الى حد كبير ، على انتاج الحقل اكثر منها عملية استثمار قائمة بذاتها . فهي توفر لصاحبها القوة وتوفر له حاجته من اللبن واللحم ، اذا ما كانت تقوم على تربية الخنزير وتعتمد على السماد الطبيعي . وهذه السائمة التي تعيش قطعانها بصعوبة كلية ، على المراعي والقصيل الجاف والتي تفتقر احياناً للملح ، هي عرضة ، من حين الى آخر ، لجوائح وأوبئة تصيب الماشية ، فتفتك بها حتى الفناء ، باستثناء الوباء البقري منها . ومع ذلك فالخروف، يسرح في الجنوب ويمرح في مراع واسعة يغشاها دورياً مع مواسم الظعن . والماعز الذي يعرّفونه عادة ببقرة الفلاح يقضي على الخضرة في الارض بعد ان يلضمها قضماً من الاساس .

والأهمية التي اتخذتها زراعة البطاطا بحيث اصبحت الركن الركين في نظام التغذية تعبر من نفسها عن حراجة الوضع ، كما انها دليل على قلة الطمأنينة للمواسم الزراعية وتقلباتها المحتملة . فما من شك قط ان السهول الساحلية الرطبة لم تكن تكفي لتأمين ما فيه أوّد العيش لسكان الآخذ عددهم بالازدياد لولا التعويل على المحاصيل الاخرى في البلاد ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان ايرلندا لم تقفر من السكان منذ عهد بعيد .

وفي اماكن وفراغ كثيرة ، لم يكن الجهد البشري ، حتى بعد ، السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة . فقد يقنع الفلاح باستثمارها المؤقت مستعيناً على ذلك بوسائل بدائية تؤول الى حرق الاعشاب بعد كشطها ، وعزق التربة واحيائهـا والتسميد ، كما اخذ العمل بذلك كله مناطق عديدة من الاردين . ومهما تكن دورة الارض الزراعية فهنالك دوماً ارض بور . وأمام فقدان السماد الحيواني ، كثيراً ما عمد الفلاح الى الزبال او السماد الاخضر . وكثيراً ما يقنع بعزق الارض على الطريقة الصينية ، اذا لم يتوفر له ما يلزم ، من حيوانات الجر والفلاحة وكثيراً ما جرّ البزار الرديء او المتأخر عن اوانـه ، والعزق الناقص ، الى مواسم سيئة . فالأعمال الزراعية يقتضي لها جهود شاقة ووقت طويل وسواعد مفتولة . فالبزار يتم باليد ، وهي حركة معرورة تبقى عماد الموسم الزراعي الى اواخر القرن . فالحصاد يجري بالمنجل ، والدراسة بالخابط او النورج لجره الأبقار . فالصور الفرعونية لعملية الحصاد لا تجرح انظار الصغار .

الازمات الزراعية

هذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب ولا سيما الحنطة يبقى دوماً عرضة لتقلبات عميرة اساسها اصلاً ضعف معدل انتاجية الارض ، وهذه التقلبات التي تطرأ على الحد الاعلى في المحصول ، وقصور وسائل النقل وبطئها . وهكذا اصبحت سوق الحبوب سريعة الحساسية الى حد بعيد . وهـذه التقلبات السريعة كثيراً ما تقع خلال فترة من

ركود الاسعار او هبوطها ، هذا الهبوط الذي يطبع بيسم خاص، عام ١٨١٧ وما بعده ، وهو ركود تعقب حقبة طويلة من ارتفاع الاسعار استطالت الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١).

ومع الاستقرار ، انعكس الوضع وانقلب ، إذ يكفي ظهور موسم عاطل واحد لتطل الازمة برأسها من جديد . فعندما برزت ازمة عام ١٨١٦ ، ارتفع ثمن الهكتوليتر من القمح في فرنسا ، من ٢٢ الى ٣١ حتى بلغ ٤٦ فرنكاً في بعض الاماكن . وراح الناس ينزلون باللائمة على المحتكرين ، كما راحوا بالتالي يطالبون بالمصادرة . وقد تجلى الهيجان ، إذ ذاك ، بأعمال سرقة المطاحن ومحاولات تمدٍّ بالقوة . وكما حدث في عهد لويس السادس عشر ، راحت الحكومة تعفي القمح من رسم الدخولية ، وتعطي مساعدات لمستوردي الحبوب ، وفتحت ابواب المشاغل الخيرية . ومنذ ١٨٢٥ ، اخذت البلاد تشكو من فقدان البطاطا مما سبب زيادة جديدة في اسعار المواد الغذائية ، ولا سيما في اسعار الحبوب ، فعادت الاضطرابات وسيطر الهيجان في مطلع عهد ملكية تموز، وجرت اعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب غير المباشرة ؛ فإذا ما هبطت الاسعار عقبَ ذلك هدوء الاحوال. وعندما عادت الاسعار الى الارتفاع من جديد ، عام ١٨٣٢ ، عاد الهيجان يطل ثانية ليعكر صفو الامن . فندرة المواد الغذائية اوجدت مناخاً لا ينسجم واستتباب الامن في البلاد ، عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .

وقلة المواد الغذائية وفقدانها كانت اصلاً وراء الانتفاضة الثورية التي وقعت عام ١٨٤٨، اذ قلت البطاطا في الاسواق بعد ان فتكت بها حشرة مهلكة . ففي الحين الذي لاقى فيه مئات من الألوف في ايرلندا حتفهم جوعاً وتضوراً (الأمر الذي سبب مهاجرة أكثر من مليون نسمة من سكانها) طرأ موسم جفاف اجدبت معه مواسم الحبوب في هذه المقاطعات الواقعة بين السين والرين فتعرض لمجاعة شديدة سكان منطقة واسعة تقع على سواحل البحر الابيض المتوسط . وهكتولتر القمح الذي كان سعره يتراوح بين ١٨ – ٢٣ فرنكاً قفز فجأة الى ٤٣ فرنكاً . كما أن سعر الخبز تضاعف من جهة ثانية ، هو الآخر . فالانعكاسات والردات هي واحدة مما شجع جول فاليس على أن يضع كتاباً حول فتنة انتفاضية في فرنسا في مقاطعة الاندر ، صدر بعنوان « البلوزات » . وكان من جراء حركة ارتفاع الاسعار والاستيراد، أن ضعفت السيولة بين أيدي الناس وأوصلت الازمة الى القطاع الصناعي . وعند أقل بادرة تساهل من قبل القوى الساهرة على حفظ النظام ، كانت الجماهير الهائجة في كل مكان تعمل على اسقاطها والتخلص منها ولو الى أمد قصير .

---

(١) راجع الكشف البياني ، الشكل ، في الفصل ٦

نتائج « الثورة الزراعية » في النهج البريطاني

هنالك كما يبدو تطورات ملحوظة بدت طلائعها منذ القرن الثامن عشر .

راح آرثر يونغ يؤكد عالياً « ان طريقة تعاقب المزروعات العلفية ، الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية ،هي القاعدة الاولى والركن المعول عليه في النظام الزراعي المتبع في انكلترا » . ويؤكد نورفولك بالفعل : ان الدورة الزراعية الرباعية من شأنها ان تقضي على الارض البور وان تزيد الارض خصباً بمزجها التربة بالنباتات والحشائش والمواد العلفية الغنية بعنصر الازوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمدته «الثورة الزراعية» . وعلى هذا فان اضافة بعض انواع الفصيلة الصليبية كاللفت والكرنب والسلجم وبعض الحشائش الريفية التي تتكاثر بالبذار كالفصة والبرسيم والحلفا يجب ان تعتبر من افضل الطرائق العلمية التي استنبطها العصر الحديث . وقد اخذ بطريقة التحويل الزراعي وتطبيقها كبار المزارعين الانكليز . بينا عارض المزارعون ، في فرنسا ، اقتباس هذه الطريقة لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صغار الملاكين والمزارعين ، في فرنسا ، مثلاً . ومع ذلك فقد راحت اراض عديدة معروفة بطيب تربتها ، بين المارش ومقاطعة بوعيبا او في سهل نهر البو ، تحاول زرع الشمندر السكري بينا اخذت أماكن اخرى تعاقب بين زراعة السلجم ، وبين زراعة الحبوب والبطاطا ، ومثل هذه البقول تجد لها سوقاً رائجة في المدن المكتظة بالسكان . وراحت زراعة الكرمة في الغرب تتقهقر أمام الاقبال المتزايد على زراعة التفاح . بعد ان ثبت بالتجربة ان التربة والمناخ في المقاطعات الجنوبية هي أكثر ملاءمة لها . كذلك حشيشة الدينار اخذت مناطق زراعتها تنحدر من الشمال الغربي ، نحو وادي الرين ومقاطعتي بورغوني والبافيير .

وقد عولوا في علف الماشية ، على بعض الحبوب . فراح العاملون في تربية الماشية في انكلترا يعنون ، على الاخص ، بتأصيل عروقها واستيلاد انواع جديدة بالمصالبة . فقد همهم أن يحصلوا على عرق من الابقار يعطي المزيد من اللحم او الحليب . كما راحوا يستولدون عروقاً جديدة من الغنم الجيد الصوف . وهكذا استطاعوا ان يسجلوا لهم تقاليد محترمة يعمل بها في مجال تربية الماشية . من ذلك مثلاً ، النوع المعروف عندهم بـ *Durham Shorthorned* القصير القرن . كذلك صرف المزيد من الاهتمام والعناية بنظام السقاية والري استوحيت اصوله من الاساليب المستعملة في الاراضي الاسبانية *huertas* المروية المشهورة بخصب زراعاتها . وكان من بعض نتائج هذه الطريقة ظهور مروج ومراع هامة في انكلترا وفي بعض بلدان القارة .

وأخذت اوروبا تجري تجارب تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الغنم والبقر . فبعد ان كان الخروف من عرق المارينوس يعد في فرنسا مليون ونصف المليون ، عام ١٨١٥ ارتفع عدده في عام ١٨١٠ الى ٨ ملايين رأس . وقبل أن تدخل بلدان جديدة مضمار تربية الماشية ،

أقبلت اوروبا القارية على هذا النوع من الاستثارات ، بصورة غريبة بحيث ان المانيا عدت ٢٠ مليون رأس ، منها ٨ ملايين في بروسيا .

وبذلوا كذلك المزيد من الاهتمام والعناية لرفع الإنتاج في الاراضي الخاصة بزراعة الحبوب بعد ان ظهر للجميع فائدة تسميدها بالكلس وتخصيبها . ومع انه اصبح في الامكان التعويل أكثر فأكثر ، على السماد الحيواني ، فقد راحت شركات استثارية بريطانية ، تعنى باستعمال العظام المحروقة لهذه الغاية حتى ان احداها اخذت تستعمل تربة بعض الحقول التي كانت ميداناً لاحدى المعارك النابوليونية الكبرى . وأخذ الغوانو *Guano* يلعب ، بعد عام ١٨٤٠ ، دوراً بارزاً في عملية تسميد الاراضي الزراعية ، ومثل هذه المادة تتوفر بكثرة في بلدان اميركا الجنوبية المطلة على شواطىء المحيط الهادي . كذلك جاء بفائدة كبيرة الاختراع الذي تم على يد ليبيغ *Liebig* ومكنه من صنع مخصبات صناعية تستمد من الكيمياء الصناعة .

ومما استدعى اهتماماً أكبر وجهداً مريراً هي الاراضي التي عرف الانسان ان يستخلصها من البحر . فقد طرأ تحسين كبير على طريقة تصريف المياه تدريجياً بواسطة قساطل متخذة من الطوب والقرميد ، وهي الطريقة التي اقترح العمل بها السكتلاندي سمث عام ١٨٢٣ . وقد عرف بيل *Peel* ان يحدث حولها دعاية للترويج لها ، وذلك باعتماده لها في مزرعته الواسعة في ستافوردشير بانتظار الانابيب التي اوصى عليها في معامل هوايتهيد في برستن . ونظام تصريف المياه مع نظام سقاية دقيقة مكن من زراعة واستثمار السهل البادالي . وهكذا امكن ادخال تحسينات ملحوظة على الاراضي الواطية في يوركشير ولنكولنشير ، وسهل فوريز ، وبطائح سولوني والمستنقعات القائمة في المانيا الشمالية .

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط الزراعي ، عمليات تجفيف الاراضي الواطية وانشاء المزارع مكانها . وبهذا تم للانكليز الاستيلاء على *Fens* ، كما اخذ الفرتيسيون يجففون مستنقعات *Moers* . وتمكن الهولنديون على الاخص ، بين ١٨١٥ – ١٨٧٥ ، من استخلاص اراض من البحر مساحتها ٥٨،٠٠٠ هكتار ، مقابل ٢٥،٠٠٠ هكتاراً تم استخلاصها منذ عام ١٦٧٥ ، وبذلك تم ضم مقاطعات كيفراس ، وانابولونا ، وأزالوا بحر هارلم ، وراحوا فيما بعد يعملون على تجفيف ونزح مياه مستنقعات مياه لوماس وبولينا ، بعد ان استبدلوا المضخات التي تعمل على الهواء بأخرى تعمل على البخار . وفي الوقت ذاته ، استمر العمل في بناء سدود ماركنتير ، واحياء اراضي مستنقعات البراتو ، وتثبيت كثبان الرمل في مقاطعة كيغوني . وهكذا اتسعت شطآن اوروبا المطلة على الاطلسي وأمكن تثبيتها .

وهذا الجهد لا يعني قط إغفال ما للأدوات الزراعية من قيمة والانتقاص من شأنها بعد التحسين الملحوظ الذي طرأ عليها قبل اكتشاف البخار . ولم تلبث انواع المحاريث الانكليزية المحسنة ،

على اختلافها ، من طراز Bibble و Howard و Mathieu ان غزت القارة واكتسحت اسواقها وذاع استعمالها في مختلف البلدان الاوروبية .

ومع ذلك فهذه النجاحات التي حققتها الهندسة الزراعية لم تكن بحاسمة قط . فالتجارب والمشاريع الفردية التي قام بها في هذا المجال أمثال ماتيو دي دومبال وإيفار ، الذي كان في فرنسا ، ما كانه آرثر يونغ في انكلترا ، لم تلقَ التشجيع المرتجى من قبل السلطات في باريس . فالأساليب والطرق الفنية الانكليزية وجدت لها استجابة اكبر بين كبار الملاكين في بروسيا ، وأصبحت المدارس الزراعية تعتمدها كل من Thaer و Thuner . وطبّق بسمارك في مزارعه الواسعة ، في كنيفوف ، الارشادات والاقتراحات التي أوصى بها الاخير منهما ، كذلك اخذ بأسباب التجدد وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة وأساليبها كبار الملاكين في الامبراطورية النمساوية ، وفي ايطاليا ايضاً امثال كافور ، وفي روسيا .

كل من تطلع ، عام ١٨٥٠ ، الى الارياف ، في كل من فرنسا وانكلترا رأى الفرق والتباين بين ما كانت عليه مناظر الريف والحدائق بين البلدين ، وكلها تشهد بالسبق الذي سجلته الزراعة الانكليزية في هذا المضمار . كذلك جاء الفرق كبيراً بين اسطبلات الخيل في مقاطعة نورمنديا ومقاطعة الليموزين . ويتضح من البيانات والحسابات الدقيقة التي وضعها ليونس دي لافيرني انه يلزم فرنسا ثلاثة ارباع القرن من الجهد والتطور الزراعي لتصبح في المستوى الذي بلغته جارتها في هذا المضمار .

بريطانيا العظمى وكبار الملاكين

عندما انتهى كبار الملاكين في انكلترا ، عام ١٨٤٥ من إقامة السياجات وعملية التصوين حول ممتلكاتهم العريضة ، كان قد صدر ، قبل ذلك ، منذ عام ١٧٠٠ ، نحو من ٤٠٠٠ قانون او قرار ، تطالب بشكل او بآخر اصحاب الاملاك إحاطة أملاكهم الواسعة بالأسوار والسياجات اللازمة . وهكذا أتيح لهؤلاء الملاكين الاستيلاء على جانب كبير من الاراضي في انكلترا .

هنالك زهاء ٢٠٠٠ من كبار الملاكين كانوا يملكون اكثر من ثلث مساحة الاراضي الزراعية في انكلترا ، ولا يزال تحت تصرف البعض منهم اليوم ، من هذه الأملاك الشاسعة ما يربو على ١٠٠٠٠٠ والبعض على ٤٠٠٠٠٠ هكتار ، وهي ممتلكات تضم لعمري جانباً كبيراً من الاراضي الموات والمراعي . ورغبة من الارستوقراطية العقارية البريطانية في رفع وارداتها ، راحت تحاول لتجعل من اراضيها وممتلكاتها استثمارات زراعية ناجحة . ان آل بدفورد مثلاً ، استطاعوا ، بعد ان عنوا بتصريف مياه المستنقعات من بعض ممتلكاتهم ، وإحياء الكثير من الاراضي الموات ، ان يؤمنوا لهم دخلاً سنوياً من مواسمهم الزراعية يجاوز مليونين ونصف [1] . فأملاك الكونت

(١) الاشارة هنا الفرنك الفرنسي وفقاً للبيان الفضية في شهر جرمينال من العام الثوري الحادي عشر .

ليستر الذي عرف بمعارضته لنظام الدورة الزراعية ، والتي بلغت مساحتها ١٢،٠٠٠ هكتار ، وقيمتها خمسة ملايين، في عام ١٧٧٦ ، ارتفعت اسعارها الى ٢٥ مليوناً ، عام ١٨٤٠ . فالأملاك الواسعة تولي اصحابها ومالكيها سؤدداً ونفوذاً عظيمين . فالبورجوازي الكبير بيل لا يخرج عن كونه ابن مرابي مالور او صرح درايتن .

ففي انكلترا نحو من ٢٠٠،٠٠٠ من هـذا الصروح التي تبدو ببساطتها من الداخل وتشرف بارتفاعها على المروج السندسية والغابات . ووجود هـذه الحدائق والمروج التي تكثر فيها اسباب القنص والصيد تضفي على مالكها شخصية تفرده ، كما انهـا تيسر له ولضيوفه ونزلائه ما يبعث في نفوسهم البهجة إذ تمكنهم من الانصراف لرياضة الخيـل والالعاب الرياضية . فعلى مقربة من مدينة شفيلد التي تغشاها الجلبة والضوضاء كما تغشى جوها سحابة دائمة من الدخان الكثيف ، يقوم قصر دوق ديفونشير المنيف الذي يحاكي بجماله وروعته ومناظره ، قصر فرساي من قريب بباحه المادرة ومساقط مياهه وأحواضه وفسقياته المزدانة بالتماثيل، وبدفيئته الفنية التي عولوا عليها لتجهيز معرض لندن ، عام ١٨٥١ ، بما يلزم . ويحتشد الأسياد من كبار الملاكين بالمئات في حفلات الصيد المرحة فينصرفون لصيد الثعلب وما اليـه من طرائد الطير والوحش التي تحوم في الغابات والمراتعات الفيحاء .

فالجهاز الاداري في المنطقة يقع تحت تصرف الطبقة المالكة بما لديها من قوى الشرطة وأجهزة العدل حتى ورجال الاكليروس تنويها بما توليه الملكية العقارية لصاحبها من شرف وسؤدد. وهذا الوسط الكبير من كبار اصحاب العقارات الكبرى يعرف ان يؤمن له ريعاً كبيراً ممـا على سطح الارض او في بطنها ، يساهم الى حد كبير في تأمين ما يؤول الى تطوير المدينة ومرافق الصناعة في البلاد . ويملك كل من اللورد وستمنستر وبدفورد ، جانباً هاماً من لندن يتكون من أطيان وعقارات طائلة ، ويقومان فيها بمعاملات وأعمال تجارية واسعة ، وإيجارات مع رهن وبنيان العديد من المباني والعمارات التجارية لاستثمارها . ويحصل لورد دورهام ولورد لندندري في تجارة الفحم الحجري وتسويقه ويملك كثيرون من كبار الملاكين المصانع والمعامل. ما من شركة تجارية ولا من مصرف مالي إلا وله عائدات عارمة من ريع العقارات التي يملكها ، وهذا الريع هو في انكلترا أعلى منه في القـارة بفضل قوانين الحبوب *(Corn Laws)* التي تحظر دخول الحنطة الأجنبية الى البلاد. في مقدورنا ان نلاحظ شيئاً من التناظر بين القوانين المتعلقة باقامة السياجات *(Enclosure Acts)* وبين الميع سعر الحبوب. ففي الحين الذي كان فيه علماء الاقتصاد وآدم سمث ينظرون الى الدخل او الريع العقاري نظرهم الى هبة او عطية من الله رأى ملطوس في هـذا الريع نتيجة حتمية للضغط الديموغرافي في البلاد . وما هو ريكاردو يشجب ربيبة القلة والعوز ، هذه الثمرة المجازة الخائنة . ويتساءل كوبدن المتفائل مستوضحاً ما اذا كان باستطاعة صغار الملاكين في البلاد ان يعرّضوا، باستمرار ، سكان المدن للمجاعة. ولذا حتمت المجاعة التي وقعت عام ١٨٤٠ *Hungry Forties* على اصحاب الاملاك الكبيرة،القيام بتنازلات ملحوظة بهذا الشأن.

ومن جهة اخرى ، كان المزارع في انكلترا الطفل وضعاً من زميله في القارة ، إذ انه يملك منزلاً بورجوازياً يضم غرفة الاستقبال وينعم في سويعات فراغه بالمطالعة والرسم ويبعث زوجته لتبتاع من المدينة ما رغب في شرائه من ألبسة وزينة . هنالك ، بالمقابل بروليتاريا هي دوماً عرضة لتقلبات سوق العمل ، كما يوجد في البلاد ، طبقة من اصحاب الفقر المدقع ، كما يدل على ذلك هذا العدد المرتفع من هؤلاء العمال المسجلة اسماؤهم في بيت العمل *Workhouse* ، إذ تتراوح نسبتهم بين ١٠ و ١٥ ٪ من سكان الناحية ، وهي حالة فقرية يزيد من بؤس اصحابها وتعاستهم التطورات السريعة التي اخذ بأسبابها رأس المال الصناعي ورأس المال الزراعي ، إذ جرّ الاول الخراب على الحِرف اليدوية في الريف كما استأثر الثاني بالسيطرة على الارض . فالاصلاح الزراعي الذي أجري عام ١٨٣٤ لم يحدث اي تغيير يذكر ولم يحوّر شيئاً من المبادىء التي كرست ديمومة هذا الشكل من الفوضى الاجتماعية في البلاد . وبالرغم من المساعدة التي قدمها هـــذا الاصلاح للراعويات التي لم يعد بامكانها مد يد المساعدة للمعوزين والبائسين ، فهو لم يمنع المساعدة عن هذه الأسر إلا ليجعل العمل الالزامي أشد اسراً وأنكد عيشاً .

الفلاح الايرلندي
وما يعانيه من بؤس ومذلة

بحق الفتح وباسم القوة سيطر كبار الملاكين على ايرلندا هذه الجزيرة الواقعة الى الغرب من انكلترا . فسواء أقام فيها صاحب الارض او في مدينة بلفاست او في دبلين او مكث في انكلترا ، فهو لا يستثمر منها سوى قسم ضئيل من رأس ماله وهو على يقين بأنه سيجد دوماً فيها السواعد المفتولة. فالسكان الذين يتناسلون فيها بسرعة يتوزعون بين ٧٠٠،٠٠٠ مزرعة (مقابل ٢٠٠،٠٠٠ في بريطانيا العظمى) معظمهم لا تزيد مساحة مزرعته على هكتارين وتبقى شبه ضائعة لا تقع عليها عين بين ملكات تتراوح مساحة الواحـــدة منها بين ٦٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ هكتار . فالمرابع او المزارع الضعيف الجانب يشده الى الارض عقد مشروط لا يستطيع معه مبارحة المزرعة التي يعمل فيها لأخرى إلا بعد إنذار صاحب الارض برغبته تلك بستة اشهر ، عملاً بالعرف المتبع (*rundale* او *runrig*) الذي يجعل القريـــة بأجمعها متضامنة متكافلة معاً في أداء المفروض عليها من الغلة او *Comacre* المرتبط دوماً بأمل الحصول على موسم طيب ، تسديداً ووفاء لعوائد باهظة . فهو لا يتمتع حتى بهذه الطمأنينة التي تتوفر لرقيق الارض . فهو يستدين ليؤمن بذاره والعشر المترتب عليه لحو الكنيســة ، سواء أكان من أتبـاع الكنيســة الانكليكانية او لا ، والضرائب العقارية التي زادت فداحة منذ الحروب الاخيرة . ولما كان دخله لا يتعدى إلا ثلث المحصول القائم ، كان على ملتزم الارض ان يتدبر امره بالاستدانة بفوائـــد عالية ويبيع قسم من حصته . وكان من جراء هـــذا التصرف ان فقدت البلاد مواردها لا سيا اذا ما عرفنا ان مساحة الارض المخصصة لزراعة المواد الغذائية أخذت تتناقص امام إقامة المراعي والمروج. والبطاطا وحدها هي المعول عليه في تأمين أوَد الاسرة والخنزير الذي يحتل قسماً من المطبخ في الزريبة فيأخذ الفلاح الايرلندي يجوب الارض بحثاً عن عمـل (هنالك اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ يبقون عاطلين عن العمل اكثر من

نصف السنة) وإلا اضطر ان يبلغ عيثه الضنك في منزله الموحل يصطلي، على الرديء من الفحم . يتنازعه عاملا الاستسلام واليأس .

زد على ذلك الاضطرابات الزراعية التي كثيراً ما رافقتها حرب دينية وصراع مستميت ضد اجنبي طارىء استباح باحة البلاد مما لم يترك للانكليز سوى فترات قليلة من الهدوء النسبي وراحة البال . فبعد الهيجان الذي احتدم أواره عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤ ، والفتنة الدامية التي قامت بين ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ، وهذه الفوضى التي استبدت بالبلاد بين ١٨١٠ - ١٨١٤ ، والمجاعة التي أنشبت أظافرها ، عام ١٨٢٢ ، كل ذلك جر البلاد الى اضطرابات دامية تخللت الازمة التي نشبت عام ١٨٣١ اصبحت معه الجزيرة مسرحاً لأعمال العنف والحرائق والجرائم السياسية . ولم يعد الأمن الى نصابه إلا بعد حوادث ١٨٤٦ - ١٨٤٨ المفجعة التي أدت ليس الى إفقار الريف فحسب بل الى ثورة دامية .

في فرنسا مجتمع من صغار الملاكين المتواضعين

بعد عودة البلاد الى الشرعية وجد ملوك آل بوربون عندهم طبقة من الفلاحين متحررة تماماً من النظام السيادي . وهذا المجتمع ما زال يتألف في كثير من المناطق من مزارعين ومرابعين وعمال مياومين . فبعد ان صدمت آمالهم في ما علقوا النفس به وتوقعوا من تقسيم ، استمسك اكثرهم حرماناً بالأعراف المعمول بها مجتمعياً ، هذه الأعراف التي شجبتها ونددت بها غالباً التشريعات الفردية والاقتصادية . وعندما راحت حكومة تموز تفكر بإلغاء حق رعي الماشية في المراعي الخاصة ووقف العمل بما تمتعوا به من حق المرور ، والمباشرة بإحياء الاراضي الشاعية وتعميرها ، أثارت المجالس البلدية امامها احتمال قيام هيجانات شعبية في البلاد. وقد استقر في روعها انه من الافضل الاخذ بنظام تأجير الارض بدلاً من توزيعها. وقد صدر بذلك، عام ١٨٥٠ ، قانون بيّن وسائل تطبيقه ووضعه موضع التنفيذ .

هنالك أملاك ساروا في استثمارها وفقاً لأصول الزراعة الحديثة كما حدث احياناً منذ القرن الثامن عشر ، وظهر للعيان الفرق بينها وبين الاملاك التي ساءت العناية بها فبارت بالتالي مواسمها وفانت غلالها. ويلحظ ستاندال في « مذكرات سائح » تحول بعض اصحاب الاملاك الذين قالوا بالشرعية ، الى العناية بالارض . وراح بعض البورجوازيين وبعض اصحاب الاراضي من النبلاء ، خذأً منهم بالنظام الانتخابي المعمول به ، يتحكمون بمجتمع ريفي تسوده الفردية والتشتت . الأملاك العقارية هي متواضعة الحجم ، اجمالاً ، باستثناء بعض المقاطعات حيث المزارع الكبرى بقيت تدار وفقاً للتقاليد المرعية، وحيث المستأجر يفتقر للنقد والسيولة لتأمين ما يطمع فيه من ارباح واستقرار .فهل كان فوربيه يغلو عندما يؤكد لنا، عام ١٨٢٩ ان هنالك في ارجاء مقاطعة بيكارديا ، فلاحين ومزارعين لا فراش عندهم في هذه الأكواخ الترابية التي يعيشون فيها ، فهم يتخذون لهم فراشاً من الاوراق اليابسة التي تعبث فيها الهوام والحشرات . ويتساءل نويل

تفليس
طرابزون
ارضروم

بارفيه ، عام ١٨٤١ ، ما اذا كان وضع الفلاحين العاملين في سهول Beauce يختلف كثيراً عن وضع آبائهم وجدودهم، إذ كان طعامهم دون ما يحتاجون اليه بكثير ، إذ لم يكن غذاؤهم اليومي سوى الخبز الاسود الناشف بعد ان كفوا يؤمنون لنا خبزاً ابيض شيئاً – وبعض البقول ، وشيئاً من الجبنة مع الماء بالقدر الكافي ، هذا الماء الذي ينقص احياناً ، في فصل الصيف بعد ان تجف البرك والغدران وتنزح الينابيع والآبار ، بينما لا يذوقون من انواع اللحم غير دهن الخنزير ضمن ورقة الملفوف ، مع العلم ان الحصة السنوية للفرد الواحد من القمح واللحم قد ارتفعت ، من عهد لافوازييه الى سنة ١٨٤٠ ، من هكتولتر وربع و ١٨ كيلو من اللحم الى هكتولتر و ٣/٤ من القمح و ٢٢ كيلو من اللحم ، بالاضافة الى كمية اكبر من البطاطا والخضراوات والحليب وأحياناً النبيذ . والنظام الاقتصادي الذي حرص ابن الريف دوماً على التمسك به هو ان يكفي نفسه بنفسه وان يبيع كل ما يعطيه مردوداً أطيب ، وهي عقلية رجل مقتصد همه الوحيد ان يتمكن من زيادة املاكه مهما كلفه الامر من حرمان ، وتحمل من غصص ومضض ، مع العلم انه لن يتمكن دوماً من تفادي الوقوع في الدين . وهذا هو بالذات ما حل بردون ان يرى في عمليات الرهن التي كثيراً ما تعرض له ابن الريف ،المشكلة الكبرى، هذه المشكلة التي رأى فيها ماركس انه حلت محل الرسوم السيادية .

وهكذا مهما بدا من امر هذه المفارقات الاقليمية القائمة ، فالريف الفرنسي بقي متمسكاً بالأعراف والتقاليد التي أقصرت سكانه على العيش الحقير . فهم يصرفون اوقاتهم في المماحكات والانتقاص من خدمة المعلمين ورسائلهم ويسلون بالخدمات التي يؤديها الطب ، ويعولون كثيراً على الاطباء الدجالين ، ويخشون جانب النبلاء ويستسلمون بكليتهم كالأطفال ، لمباهج الأعياد الوطنية وأفراحها ، ويتنكرون هنا ، للخوري الذي يقوم على خدمتهم الروحية ، ويحلّونه هنالك ، محتفظين من المسيحية بمعظم ما لها من مظاهر وثنية ، عارضين صورة العذراء مريم الى جانب صورة نابوليون . وبالرغم من ثورة ١٧٨٩ التي حررته من العشر والحقوق الاقطاعية ومنحته تلقائياً الحق القانوني دون الحق الفعلي بالاستملاك واقتناء الاراضي ، فالعالم الذي يعيش فيه هذا الريفي الفرنسي هو، من الوجهة المادية والعسكرية، يحاكي من قريب ، العالم الذي عرفه وغمره في العهد البائد . فهو لن يتخلص ، من الوجهة الديموغرافية بسهولة ، من عقابيل الازمة التي اخذت بتلابيبه بين ١٨٤٦ – ١٨٤٨ .

انكفاء النظام السيادي في المناطق الواقعة بين البحر الشمالي وجبال الالبين

على اثر الفتوحات الفرنسية ، استمرت حركة تحرير الفلاحين في احتدامها الصاعد وان لم تأت هذه الحركة واحدة قدراً ونوعاً ،في كل مكان في البلاد الواطية ومقاطعات الرين وسويسرا وايطاليا الشمالية . فقد ألغيت في كل من هذه الاقطار تقريباً الحقوق السيادية كما اخذ يختفي فيها تدريجياً ، رق الارض ، وسهلت بالتالي امام الاهلين حقوق التملك

ومعاملات توزيع الارض ، مع ما نرى الى جانب هـــذا كله ، من بوادر حركة رجعية وردة عكسية بعد عام ١٨١٥ .

ففي البلاد الواطية حيث بقيت الكنيسة وطبقة النبلاء محافظتين على امتيازاتها ، استحوذت البورجوازية على حصص كبيرة من الاراضي بينا بقي مستثمرو الارض من مستأجرين ومكاترين على صرم المالي المعروف . ففي السهول الفلنكية حيث لا يزيـــد معدل مساحة الارض التي يتصرف بهـــا الفلاح او المرابع على ثلاثة هكتارات ، يوجد نحو من ٣٠٠٠٠٠ من الشغيلة المياومين ، بحيث ان نصف عدد سكان الريف لا يستطيعون العيش إلا باحتراف الحياكة وصناعة النسيج . فقد كانت السنوات ١٨٤٠ – ١٨٤٨ ، وبالاً على هذا القطر الذي اصطلحت عليه ، في آن واحد ، أزمة خانقة من هـــذه الأزمات التي حلت ببضاعة النسيج ، ومرض زراعي فتك بزراعة البطاطا ، بينما كان سكان مقاطعتي البرابنت والهينو في وضع يحسدون عليه .

أما في سويسرا ، فالمجتمعات الريفية تعيش متحررة ، متمسكة بأعرافها وتقاليدها ، بينما يرزح المزارعون العاملون في المرتفعات ، تحت سيطرة كبـــار الملاكين في المدن الذين لا يزالون متمسكين بأعراف السخرة وضريبة العشر ، فلن يكتب الفوز التام لحركة التحرر هذه إلا بعد جهود الديموقراطية الريفية وتضحياتها السخية في أعقاب سنة ١٨٤٨ .

أما في المانيا حيث لا نزال نرى بعض واحات ترزح تحت وطأة رق الارض ، فالحرية مثال جانبها ، والأملاك السيادية لم تعد تمثل شيئاً يذكر اذا ما قيست بنظام اكتراء الاراضي الزراعية. فليس فيها من يفكر بالتخلي عن الاجراءات التي تم وضعها تحت تأثير الثورة الفرنسية . فقـــد صدر في مقاطعة ورتمبرغ مرسوم يقضي بإلغاء رق الارض ، واستبدلت السخرات الاعتباطية بأعمال سخرة محددة ، مشروطة ، كما ان التشريعات التي صدرت في مقاطعة بادن يسّرت شراء او افتكاك الرسوم المتوجبة كما اصبح إلغاء السخرة ، بعد عام ١٨٣٠ ، امراً واقعياً في هـــذه الفراندوقية . ومع ذلـــك فالفلاح يقاسي كثيراً من حرمانه من الارض ومن الربا الفاحش مع الرهن ، بحيث ان ثورات الفلاحين ، في المانيـــا الجنوبية ، عام ١٨٤٨ ، اتجهت ضد اليهود وضد كبار الملاكين من النبلاء ورجال الكنيسة .

فالسوادُ الاعظم من سكان الريف ، الى الجنوب من الالب ليسوا بأسعد حـــالاً ، بالرغم من زوال الرسوم الاقطاعية . فنظام استثمار الارض وتأجيرها على أساس المرابعة ، هو النظـــام الذي لا يزال متبعاً في هذه المرتفعات ، والارض غير المروية الواقعة في سهول البو بيـــنا نرى المرابعين والعمال المياومين العاملين في سهول لومبرديا ومقاطعة البندقية وفي دوقيات مودين وبارم هم عرضه لأبشع الاستغلال من قبل اصحاب الاملاك الجشعين وأرباب الأســر الكبيرة ، الذين يعيشون عيشة الترف والقصف على مقربة من هذه الاكواخ المتخذة من اغصان الشجر ومن اللبن المجفف . وبالرغم من تبجحه بالتضلع من أفانين الزراعة وأصولها . فان هيولويلد مي توسكانا

الذي يزور مزارعه معتمراً قبعة من القش ولابساً قماطه أيمدمن ان يفكر في تلطيف وضع هؤلاء المرابعين والعمال المياومين ، بعض الشيء . وهذه المستحدثات التي اخذ بها ولبناها قرّاء رجال الاقتصاد ، من بينهم مثلاً ، كميل بنسو دي كافور ، كانت اعجز من ان تدخل تحسينات سريعة على وضع الطبقات الكادحة .

الاطيان الضخمة على حدود اوروبا الشرقيا وفي شبه الجزر المطلة على البحر الابيض المتوسط

ساد الى الشرق من نهر الايلب ، والى الجنوب من جبال الابنين في توسكانا والبيرانيس نظام الاطيان والممتلكات الضخمة . فرقّ الارض هو النظام المسيطر هنا وهنالك في هذه المقاطعات المتصلة بروسيا والبلقان .

ففي شبه الجزيرة الايبيرية ومملكة نابولي اصبح الخطر يهدد وضع النبلاء والاكليروس تحت تأثير مفارقة غريبة تتمثل في هذا التنافس الانكليزي الفرنسي . فراح الفلاحون الذين عُرفوا بكرههم للاجنبي وبتعصبهم الشديد يتصرفون تصرف سكان مقاطعة الفانديه . واذا لم يعد آل بوربون ، في ايطاليا ، بعد عودة الشرعية في فرنسا ، فالبوربون في اسبانيا ، قوّضوا من الاساس، بحركة جذرية، العمل الاصلاحي الذي بوشر به في عهد الملك جوزف او جرى الاخذ به عن طريق الكورتيس بتوجيه منه .

وكانت هذه الممتلكات الواسعة *Latifondi* تمتد من جبال الابنين الوعرة المسالك حتى السهول الساحلية التي ساء تصريف مياهها. فلقد أخذت في مقاطعة بولوني ٧٢٪ من مجموع مساحة الولاية، نصفها للنبلاء والنصف الآخر لأصحاب الطبقة البورجوازية . ويصور لنا لامارتين ، سنة ١٨٣٢ ما كان عليه ، وضع الشواطيء البحرية في مقاطعات روماني وكالابريا والاراضي الواقعة في جوار مستنقعات بونتين وبطانحها ، من فقر واستيحاش ، . هنا ارستوقراطية زاهية متغطرسة تتخفف من مشاغل الارض والعناية بها تاركة امرها لمتعهدين عامين ، لتنشغل بالعبث واللهو وللاستمتاع بمشاهدة التمثيل وسباق الخيل ، وهناك بروليتاريا بائسة ، كادحة قوامها مزارعون ومرابعون وعمال مياومون ، تؤلف معيناً لا ينضب من شذاذ الآفاق ومرتعاً للمعوزين .

والاحصاء الذي أجري عام ١٧٨٧ ، سجّل ملاّكاً واحداً بين ٣٥ شخصاً . فمقاطعات البَشْك تخلو من كبار الملاكين ، هذه المقاطعة التي كانت تفاخر بما فيها من معمرين يعملون في استثمار الارض ، ومثلها مقاطعة النافار ومقاطعة كتلوني حيث راج نوع من الايجار المرهون يكاد يؤلف شبه ملك للفلاحين . فسهول فالنسيا تتقاسمها آلاف الحصص الصغيرة التي لا تتجاوز مساحة الواحدة منها بضع درنمات ، بينما يخيم ، على ولايتي غاليسيا واستوريا حيث يسيطر توزيع الاراضي المرهقة بحقوق الارتفاق ورق الارض، البؤس والشقاء وما يحملان في ثناياهما من ويلات. فالمزارع المرتبط بالارض بعلاقة واهية يرزح تحت وطأة الاعشار ،كما ان الفلاح القشتلاني يتضور ، من جهته ، جوعاً فوق قطعة ارض تزرع قمحاً يبقى نصفها بوراً . والمياوم الاندلسي يغادر المدينة

وما اعتاد عليه فيها من بطالة لينصرف العمل مرتين في السنة ، وذلك في اوان الحصاد او لتقليم الكرمة وقطف العنب . ونقابة العاملين في تربية الاغنام (La Mesta) ، تحول دون زراعة الارض وتعميرها واحيائها لتؤمن لقطعان الغنم ، المراعي اللازمة وفقاً لمقتضيات الظعن. والكنيسة من جهتها ، تعمل على منع الفلاح من التملك ، هـذا الفلاح الذي يتسكع في مهاوي الجهل والخرافات ، ليكون ابداً على استعداد لتأمين الاعمال الوحشية ، هـذا الفلاح الذي يصوره لنا غويا في « ويلات الحرب » يقنع بشرحة لحم وكسرة خبز اسود او ببصلة او كراثـة او بحبة بندورة او بحز بطيخ مع قليل من النبيذ اذا ما اسعفت الحال . فاذا ما تمت عام ١٨٣٥ مصادرة املاك الكنيسة ، فلا يستفيد من العملية غير الملاكين العقاريين والبورجوازية .

أما في بروسيا ، فالمعارضة التقليدية المتمثلة في كلايست وآدم مولر ، والمتمركزة حول الملاك الاقطاعي الكبير لودفيغ فون دي ماروتز ، أوجست خيفة من ان تفقد الخدمات التي كان رب الارض يفرضها على المستأجر ، ليحسن استثمار الارض التي هي باستلامه ، هذه الارض التي يحاول مالكها ان يوسعها ويزيد من نطاقها بضم قطع اليها ، الامر الذي يعيد الى الاذهان عملية التسييج التي اخذوا بها في انكلترا . فالأطيان الواسعة آخذة فيها بالازدياد والاتساع وعرفت ان تؤمن لها يدأً عاملة احتياطية ، تكلف اقل من الاول ، كما انها تسعى في تأمين المزيد من الاصلاحات الزراعية. إلا ان اتجاه اوروبا الوسطى نحو رأسمالية عقارية من النمط السائد في انكلترا لم يكن ليتحقق إلا على انقاض النظام القديم . فرق الارض لن يزول في هـذه المناطق التي يرويها نهر الدانوب قبل عام ١٨١٨ . وهذا ما سبب تأخر البلدان الدائرة في فلك آل هبسبورغ . هنالك بعض كبار الملاكين امثال تشني يدعون غالباً للأخذ بالأساليب والمناهج الانكليزية ، فتنتصب في وجههم طبقة النبلاء الصغرى ، مما هو في مصلحة فيينا العليا التي عرفت ان تفيد من هـذه الانقسامات إبقاء منها لوضع كان لا بد ان يفضي في نهاية المطاف الى خرابها فهلاكها .

القرى الروسية الكبرى الخاضعة لرق الارض

لا نعرف بلداً احسن استغلال الطغيان المستبد مثل روسيا القيصرية التي فرضت عبوديتها على الفلاح . ففي الوقت الذي اتسع فيه العمل بنظام رق الارض ، اشتد في تلك البلاد ساعد المجتمع القروي (Le Mir) بحيث اصبح باستطاعة القيصر ان يعهد اليـه بجباية الرسوم والعوائـد والضرائب المترتبـة .

مما لاشك فيه قط ان علم الاقتصاد الريفي عرف ان يجتذب اليه بعض ذوي الاملاك الواسعة ، امثال آل غالتزين وآل سامرين وآل مورافيف الذين لم يفتهم قط الاطلاع على النظريات الانكليزية والفرنسية والالمانية الحديثة فيما يتعلق بخير الاساليب الخاصة باستثمار الارض. فالاصلاح الزراعي الذي قامت به بروسيا بين ١٨٠٧ - ١٨١١ ، كان له اثره البالغ على طبقة النبلاء البلطيقيين من دم الماني ، هـذه الطبقة التي كانت تبيع محاصيلها الزراعية لتجار مدينة ريغا ، بفضل اعمال ونشاط هذا المرابع الذي كان يحسن تسميد الارض بكشط سطحها مع ما عليه من احشاش يحرقها تخصيباً للارض وإلا مات عليها جوعاً .

فالعمل المأجور يعود على صاحبه بربح اكبر اذا ما تم في الجال الصناعي الذي تأذّى كثيراً من رق الارض وعبودية الفلاح . وانتشرت بين الناس فكرة تقول ان العمل المأجور يربح اقل مما يربحه العمل الحر . فاذا كان الفلاح او المزارع يطمع في المزيد من الحرية فلرغبته بالخلاص مما يعانيه من أعمال السخرة ومما يرزح تحته من عوائد الارض وأتاواتها ، والعمل على تحرير المجتمع الفردي ، لا ان يضطر لقضاء يومه كادحاً يعمل في حقل سيد الارض . ومع ذلك ، فعندما راح القيصر يلغي بعد التجربة التي قام بها في ليفونيا ، رق الارض ، في الولايات البلطيقية ، فقد رمى من حركته الاصلاحية هذه الى تسهيل تحويل سواعد القرويين الذين جرى تحريرهم ، العمل في ممتلكات البارونات . ففي بولونيا ، لم يتدخل القيصر نيقولا لوضع حد لمساوىء النظام ، إلا لغاية واحدة ، هي تقليم اظافر النبلاء الذين وضعوا انفسهم في موضع سيء خلال الثورة التي نشبت ، عام ١٨٣١ . فبعد ان سلّم واقتنع بأن رق الارض ، كما يجري العمل به آنذاك هو شر واضح،فالتمرض له الآن وتعديل هذا النظام يفضي الى شر اكبر. ومع ان الاضطرابات المستمرة التي زاد عدد الفتن التي قامت خلالها على ٥٥٥ فتنة ، بين ١٨٢٦ – ١٨٥٥ ، باعتراف الادارة ذاتها حمله على التسليم ببعض التنازلات ، فهذه التنازلات لم يفد منها سوى الفلاحين العاملين في املاك التاج ، مع العلم ان القائمين بالحركة الاصلاحية يترددون جداً في حركتهم هذه . و فجمعية الجنوب ، برئاسة بستل تواجه احتمال القيـام بتغييرات جذرية ، بينما و جمعية الشمال ، ترفض تحت تأثير نيكيتا مورافييف ، التسليم والاخذ بمبدأ التقسيم .

وايجازاً للوضع يمكننا ان نقول بأن اسباب التذمر آخذة بالازدياد والارتفاع. ففي السنوات التي يجود فيهـا المحصول وتطيب الغلال ، تعجز السوق الداخلية فيها من تصريف الانتاج واستهلاكه فتسقط الاسعار . أما في السنوات العجاف فالمجـاعة تطل بقرنها على الابواب . فالجماهير الريفية تتسكع في البؤس ، ويروح الملاكون المعروف سوادهم بالكسل والقعود وعدم الاكتراث ، يستدينون إشباعاً لمطالبهم التي يعجز ريع الارض عن اشباعها . وهكذا نرى الامبراطورية تتجه نحو ازمة حادة إلا اذا حلت في الوقت المناسب ، المعضلة الزراعية الآخذة بالخناق ، وذلك بالغاء رق الارض والقضاء على النظام السيادي فيها ، مشجعة بالأحرى الدعوة للرأسمالية العقارية . فالظروف العارضة يمكن ان تقنع النبلاء بأن في اتخاذ مثل هـذا التدبير ، وهذا التدبير وحده ، الخلاص ، شريطة ان تتبع هذه الحاركة الاصلاحية العامة دون ان يلحق أذى بالنظام السياسي والاجتماعي المعمول به في البلاد .

الفصل الثالث

التقنيات الجديدة في الصناعة والنقل

سير العلم بين جيل وآخر

جاش عصر الانوار برغبة جامحة لحفز المعرفة فغاص عميقاً في الابحاث الرياضية وتوغل الى نظرية علمية لتفسير نشأة الكون وسبر أبعاد النجوم في مداراتها وأبعادها السحيقة ، واستثمر البحار المترامية الاطراف ، وأنشأ علم النبات ودشّن عهد الكيمياء وسخّر الكهرباء للترفيه عنه واستنبط المحرك البخاري وتوقف ملياً منعماً النظر في ماهية الاجيال الطالعة كما اعرض جانباً عن الآداب الكلاسيكية . صحيح ان الحروب الدولية لم تساعد كثيراً على تطوير الاتصالات التي هيأت اسبابها الشعوبية الدولية ، غير ان الحوافز الضرورية جعلت العلماء في يقظة واستنفار حتى اذا ما عاد السلام الى نصابه والامن الى عرابه ، تجددت الاتصالات . فاذا ماراح شاتوبريان ومدام دي ستال يلومان بتشهير « الطغمة الرياضية » ، واذا ما رأى لامارتين في العلوم الرياضية غلا وقيداً للفكر البشري ، فلقد عرف غوتيه ، من ناحيته ، ان يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وغاص « كونت » الى ما فوق أذنه في الفلسفة الوضعية بعد ان اولى العلم المقام الاول ووضعه في رأس النظام الفلسفي .

أما العمل وظروفه وأوضاعه فلم يطلع عليه شيء جديد . فقد باتت باريس جذوة هذه المعاهد الكبرى التي أسسها المؤتمر الوطني (الكنفنسيون) والتي راحت تنافس بنجاح ما قام فيها من ركائز ومؤسسات سابقة وطيدة تعمل في خدمة العلم ، امثال : كوليج دي فرانس وأكادمية العلوم والسوربون شيخة الجامعات . أما في انكلترا ، فقد تقدمت الركب وسارت في الطليعة هذه المؤسسات المتمتعة باستقلالها فتقدمت على جامعتي اكسفورد وكمبريدج. وايطاليا لا تزال تتمتع بكنوز فنونها التي تفيض نعومة وعذوبة ودقة . وهذه « الجمهوريات العلمية » التي طلعت في سماء اوروبا الوسطى ، تمثلت على خير وجه في هذه الجامعات التي نمت بنصرة الامراء المستنيرين ومؤازرتهم ، حتى ان روسيا نفسها ساهمت بهذا النشاط الفكري العارم . وقد اوشكت تأزف ساعة هذا الجامعي الذي يدرس كل شيء في أثناء طلبه العلم ، بعد ان قل عدد نصراء العلم في صفوف الارستوقراطية . فالروح تهب حيث تشاء ، والتفاعل الفكري وتبادل المعلومات ساعد ادمز على اكتشاف السيّار نبتون بواسطة مرصد جامعة كمبريدج ، في

الوقت الذي راح فيه لوفريه يعين بالارقام مكان هذا الكوكب وموضعه بحيث اخذ عدد من علماء الفلك امثال غوس الالماني ولوباتشفسكي الروسي وبولييه الجري بدعوة كل نفسه فضل السبق الى وضع هندسة غير إقليدية هي الهندسة الاهليجليجية .

عرفت العلوم الاخرى ، من جهتها ان تفيد من الانجازات البعيدة الاثر التي حققتها العلوم الرياضية في تطورها الصاعد . فقد تعاون لابلاس ولافوازيه فيا بينهما ولمرضا في الابحاث التي وضعاها العديد من المشكلات والقضايا العلمية . وامبير الذي تميز بفضوله العلمي وبروح طلعة لاتني ولا ينطفىء لما غاليل انطلق من الاختبار العلمي الذي قام به دورستد حول زيغان الابرة المغنطيسية ، فوضع لهذه الظاهرة قاعدتها المعروفة . وغوس ارتبط اسمه بالتحليل العلمي وبالهندسة المتناهية الصغر والرياضيات العليا وحساب المحتملات والميكانيكا الفلكية والجيوديسيا . هنالك لعمري نوابغ بين العلماء انصرفوا للرياضيات النظرية ، امثال ابيل الذي كشف عن قواعد واسس حساب التكامل ، وايفارست غالوا الذي وضع نظرية الفئات والاجناس ، فمات الاول بائساً ، كما قتل الثاني في حادث مبارزة . وفي اثر المعطيات العملية لحساب المتناهي الصغر التي تم الكشف عنها في الحقبة الكلاسيكية على يد نيوتن وليبنتز بعد أولير وفوريه ولوجاندر ، وضع غوشيه مبادىء الدالة التحليلية والمعادلة التفاضلية ربما يتمكن ريمان من وضع الأساس الحقيقي الدالة الجبرية بعد ان اقترح فرضية هندسية جديدة غير اقليدية .

كل الانجازات العلمية التي حققتها العلوم التجريبية تتصف بطابع علمي صرف . ومناهضة منه لنظرية نيوتن حول الانبعاث البصري ، راح فرسنل يؤيد النظرية الرجوية التي كان لاح لهويجنز بعض ملامحها الاولية . واذ ذاك اخذ بيو وأراغو ودافيد بروبسالر يوضحون الظاهرة استقطاب الضوء . وبفضل حاشدة (بطارية) لفولطا ، اخذ اورستيل يفسر عملية زيغان الابرة المغنطيسية ، ثم تمكن امبير من ان يضع اسس الكهربائية المغنطيسية ، اساس الملف الاولي والمغنط الكهربائي والتلغراف البرقي . وعلى عكس ذلك ، كتب لفرادي ان يكشف عن اسرار ظاهرة اخرى هي الحث ، اساس الدينامو . وبالاتفاق مع جاكوبي فقد توصل الى اكتشاف الكيمياء الكهربائية المتعددة التطبيق في مجال صناعة التعدين : كالفلفنة والتذهيب والتفضيض ، وصب امهات احرف الطباعة والكليشهات في الطباعة والحفر المباشر : ففي الحين الذي كان يعمل فيه كل من انطوان بكريل ودانيال على تحسين حاشدة فولطا ، نرى سيبك يتصرف لدرس مؤثرات الكهرباء ، الحرارية التي سبق لـ « اوم » ان وضع قوانينها .

كشف لافوازيه ولابلاس وفي اثرهم فوريه عن نظرية الحرارة التحليلية ، هذه الحرارة التي تجلت مظاهرها بشكل قوة حية جزيئية . فالعلماء غاي لوساك وبيوا وبرتوليه وبروست بما فيهم دالتن وقانون الانساب المتعددة وافوغادرو الذي كشف عن ثقل الجزئي ، بقوا عند هذا الحد .

لا شك في ان رامفورد ودايفي هما اول من ظنا بالعلاقة الموجودة بين الحرارة والعمل . ويعود لسادي كارنو احد اولاد لازار كارنو ، الفضل في اثبات التكافؤ بينهما ، في بحث وضعه من قبل لم يكترث له احد . فكان اساس الديناميكا الحرارية التي انشدت اليها أنظار روبرت مـاير وجول في الابحاث التي وضعاها في هذا المجال . فالمحافظة على الطاقة واندثارها او انحـلالها ، والميكانيكا التطبيقية اتخذت اساساً لها هذه الابحاث .

ومنذ لافوازييه اخذت الكيمياء المعدنية تكشف تباعاً عن اسرارها الدفينة ونواميسها . كذلك اخذت الكيمياء العضوية تحسر هي الاخرى عن اسرارها ، عندما تمكن شفرويل من ان يستخرج الشحوم على اختلافها من الحوامض الدهنية ومن الغليسرين ، كما استخرج بلوتييه وكافنتو القلويات من المواد النباتية . فالمعارك القلبية احتدمت حول نواميس العلم الجديد فراح دالتن لاول مرة يقول بالنظرية الذرية ويبسطها وراح القائلون بالتكافؤ الذري يهاجمون بعضهم بعضاً : جان باتيست دوماس والذريون وعلى رأسهم برزيليوس الذي قال بنظرية « ثنائية » في التفاعلات الكيمياوية والكهربائية التي تصحبها ، ولم تلبث امثالت نظرية التعامل او التكافؤ ، هذه النظرية التي نهض بها جرهاردت ، وورتز وكيكوليه بينما راح بوتليروف يوضح النظرية الايسومارية او نظرية التقابس والنظرية التجزئية .

وقامت معارك اخرى في مجالات العلوم الطبيعية . فقد سبق لبيدرو وبوفون ان استشعرا نظرية الارتقاء والتطور كما ان روسو راح يشدد ، من جهته على ناموس الانتقاء الطبيعي او بقاء الاصلح ، وهي نظريات ادخلت الشك والارتياب على عقيدة خلق الكون ، وبالتالي الديمومية او الاستقرار كعقيدة دينية . وراح احد تلاميذ بوفون هو لامارك يثير جدلاً حامياً عندما وضع عام ١٨٠٩ كتابه المعنون : « فلسفة علم الحيوان » ، حيث اخذ يعرض نظرياته وآراءه حول تطور الانواع ولغيرها زارعاً الارتياب في نظرية الثبوت او نظرية الاستمرار التي يبدو ان لينيه قال بها ، وعلّم . وفي بحث له مشهور حول « تصنيف الثدييات » اخذ كوفييه الذي يعد من مؤسسي علم التصنيف المقارن وعلم الاحاثة او الباتيولوجيا ، ينشر عام ١٨١٢ ، كتابه الموسوم : « خطاب حول جوائح الكرة الارضية » ، وذلك ليفسر لنا عن طريق الكوارث الطبيعية ، كيفية ضياع الانواع البائدة وزوالها . فعودة هذه الانواع الى الحياة من جديد لا يمكن ان يكون الا هبة من الله . فقد سلموا بوقوع هذه الكوارث او الجوائح الجيولوجية – وهو قول يؤيده كوفييه – الا انهم رفضوا الاخذ بالنظرية والبركانية ، التي تقول بالظهور التدريجي للقشرة الارضية البرانية التي تبنى القول بها ليل فيما بعد . واذ ذاك اصطدم كوفييه بصديقه جوفروا سانت هيلار الذي تبنى في كتابه « الفلسفة التشريحية » النظرية التي تقول بسلم الكائنات . فأثارت هـذه القضية ضجة حملت اكاديمية العلوم على التدخل في النقاش العلمي . وقـام غوتيه يكتب عام ١٨٣٠ لايكرمان بعد ان بادر الى اذنه انه يهتم بقضية *Les Trois Glorieuses* ، يلفت نظره الى ان

« المناقشة تدور على ما هو اهم من ذلك بكثير» . الا ان كوفييه عاد فانتصر بعد الموقف الرسمي الوطيد الذي وقفه وانتصر معه ، الى حين ، خصوم نظرية النشوء والارتقاء التي تبنّى مقالتها الفلاسفة الطبيعيون وغوتيه نفسه .

ففي الوقت الذي توطدت فيه ابحاث بيشا حول علم التشريح اطلت علينا نظرية الكائنات المتناهية الصغر بفضل المجهر الذي ساهم في اختراعه اسرة درلوند. فاذا بالعالم امام كشوف جديدة واسرار جديدة . فما هي لعمري هذه المادة التي يدعوها هوغو فون موهل : البروتوبلازما ؟ فالخلية لا تتولد الا من الخلية كما يؤكد فيرشوف *Virchow* بعد هارفي وشليدن وشوان . وعلى هامش الجدل الذي قام حول نظرية النشوء تبدو العلوم الحياتية على اتم استعـــداد للانتقال الى مرحلة جديدة مهمة جداً .

ومهما يكن من الامر فالتاريخ الطبيعي عام يأخذ بمجامع القلب . وعندمـــا راح جوفروا يقدم للملك شارل العاشر في سان كلو ، ظرافة اهداها اليه محمد علي ، اظهرت الجماهير حماسة عارمة افاد منها المتحف الوطني . وبستوحي كونت تعاليم بلانفيل خصم كوفييه اللدود ليشيد نظريات علم الاجتماع. وسانت بوف يتطلع من جهته لوضع التاريخ الطبيعي للعقل البشري ، ويأخذ اسكندر همبولدت بوضع كتابه : « الكون » الذي جاء شبه موسوعة في العلوم الطبيعية .

كشوف النهضة الصناعية

عبثاً نحاول ان نعرف بالضبط الوقت الذي استطاعت فيه الآلـة ان تحدث فيه تغييراً واقعياً في ظروف الحيـــاة واحوالها في الغرب ، فالعقل المتعدد - الفنون ، النظيف يداعب احلاماً معسولة ، وفي هذا يكتب كونت قائـــلا : « مما لا شك فيه قط ان طبقة المهندسين ستبقى العامل المباشر الذي لا بد منه لتأمين التحالف بين العلماء ورجال الصناعة ، هذا التحالف الذي سيرفع البنيان الاجتماعي الجديد » . هنالك على ما يبدو شيء من الاستعجال لدى ابناء العصر الذي يدعون متأسفين هـــدر القدرات العقلية والطاقات الفكرية كما يأسفون الاسف الشديد لهذا السير المتوش والمخالف للمنطق الذي يسيره التقدم البشري

ففي السنة التي مات فيها واط - ١٨١٩ - لم تكن الآلة التي استنبطها استطاعت بعد ان تقضي على مطاحن الماء والهواء، كما ان الساقية لا تزال هي التي تتحكم بالمكان الذي يصلح لاقامة مـــنع الحياكة . وبالرغم من هذا كله فظهور كشف البخار سيبقى العلامة المميزة لهـذه « الثورة الصناعية » التي رأت النور في القرن الثامن عشر والتي كانت عصب القرن التاسع عشر بطوله وهذا البخار ليس بالواقع سوى الماء الغالي ، مهما كان الوقود المستخدم لرفع حرارة هذا الماء الذي استحال الى حالة الغليان بدلاً من ان يكون سائراً يتدحرج فوق الحصى . وقد بذلوا قصارى العناية لادخال تحسينات على طريقة واط ليفيدوا منها الى الحـــد الاقصى ، فطلعت علينا المراجل ذات الوقود الداخلي . وفي سنة ١٨٢٩ خرج علينا آل ستيفنسن بقاطرتهم الاولى:

الصاروخ (*The Rocket*) على الشكل الاسطواني وجاءت النتيجة رفع الطاقة التي يوفرهـا الاحتراق الى العشر . ومن جهة اخرى كان الناس خارج انكلترا يفتقرون جـداً للاشخاص الذين المتخصصين بصنع هذه القاطرات وتركيبها . وقد عرفت انكلترا ان تحافظ طويلاً على السبق الذي سجلته في هذا المضمار اذ كان لديها عام ١٨٣٠ نحواً من ١٥٠٠٠ من الآليـات البخارية بينا لا يتوفر منها لفرنسا سوى ٣٠٠٠ ولبروسيا ١٠٠٠ .

فقد عرفت هذه الجزيرة ان تزاوج بين فوائد الحديد والفحم الحجري لسد حاجات الصناعة المعدنية التي فاقت بكثير المستوى الذي سجلته هذه الصناعة في دول القارة . فقد اخـذت ترسل الاخصائيين المهيئين لاعمال الثقب والحفر . وكان حفر الدهاليز واستخراج الفلزات لا يزال يقوم على سواعد العمال . ولم يلبث ان حل التقفيص المعدني محل الآجر او الطوب . واخذت آلات الجر التجارية تجر العربات الى سطح الارض محولة على روافد من الخشب نُضت عليها قضبان من الحديـد عرفت باسم *Rails* ، كما تم تحسين ملحوظ في طرق الضخ واساليبه الفنية . وأطل على العالم في انكلترا المصباح الذي وضع تصميمه الكيميائي همفراي دايفي فجاء هـذا الاختراع ضمانة نسبية ضد انفجار غبار الفحم ومع ذلك ترددوا كثيراً في التعمق والتوغـل في بطن الارض . فقد اقتصر التنقيب عـن الفحم والمعـادن في المقاطعة الريفيـة على الحفر عنـد سفح التـلال . وفي سنة ١٨٣٣ فقط تجرأوا عـلى فتح عـرق في قلب الارض على عمق ٥٤ متراً .

وصناعة الصب التي تستعمل كوك الفحم لم تكن من المستجدات ولا عمليـة نزع الكربون بواسطة تسويط الحديد (*Puddlage*)، وهي عملية تقتضي العامل جهداً شاقاً (اذ كان عليه ان يحرك الصب المصهور بواسطة مسعر من الحديد يعرف باسم *Ringard*). وهـذه الطرائق الميكانيكية التي عرف الانكليز ان يدخلوا عليها ، في القرن الثامن عشر تحسينات ملحوظة زادت كثيراً من فعاليتها ، أولتهم اسبقية ظاهرة في مجـالات الصناعة عـلى انواعها . فمثلات الحديد ، ثمنها في فرنسا ضعفا ثمنها ونصف في انكلترا . وتمكن الانكليزي ولكـن من استعمال الكوك وقوداً في المعامل التي انشئت لصب الحديد في الكروزو عام ١٧٨٢ . اما بلجيكة فلم يقم فيها مثل هذا الفرن ، قبل عام ١٨٢٢ ، وقام واحد منها في سانت الجـلبرت عام ١٨٣٢ ، وفي الروهر عام ١٨٤٧ . وجروا على الطريقة ذاتها في عملية تسويط الحـديد . فالكوك قيد الاستعمال في نيوويد ، عـام ١٨٢٤ ، وعند ستوم في الروهرعـام ١٨٣١ ، وفي سيليزيا بعد ذلك بخمس سنوات . واذا كانت صناعة الزجاج تخلت عن وقود الخشب لتقبل على المواقد ذات الشعرية ، فصناعة الخزفيات الانكليزية اعتمدت طريقة ودجوود الفنية التي يعود وضعها الى عـام ١٧٦٠ هـذه الطريقة التي ضمنت للخزفيات الانكليزيـة الرواج اينما كان .

وتركزت حول حرفة الخزاف ، مهنة النجار هذه المهنة التي يجب ان يراعي مقتضيات دولاب الطاحونة او نول الحايك . الا ان الآلة البخارية تأثرت من عدم توفر الدقة في تركيب الدواليب . ولذا اخذوا يفكرون بالفوائد التي تعود على الصناعة بصنع آلة متحركة توصّل العلم الى صنعها بعد قرن من المحاولات والتجارب ، بعد استلهام اجهزة الساعة والمواد التي توفرها صناعة الخشب. فقد خطرت ا ه براماه ، من قبل، صورة عن المكبس المائي كما وضع ولكنسن صورة لمثقب يسلسل في صنع المدافع ، ومودسكي صنع دولاباً معدنياً للفلوزة البراغي وفارة النجارة ، كما اخترع مارك إيزمبار برونل المنشار المستدير . وتمكن فيربيرن الذي اخترع محركاً من المعدن النسيج ان يدخل تحسينات ملحوظة على مثقب إشعاعي . وتوصلوا بين سنة ١٨٣٨ – ١٨٤٢ الى اختراع المدقة الحديدية التي تعمل على البخار وتستطيع ان تقوم بتركيب تام اكبر القطع المعدنية وأدقها على السواء . وكان من نتائج اختراع هذه الادوات المتنوعة ان مهدت السبيل لظهور العديد من المهندسين الميكانيكيين امثال فرنسوا كاليه .

وقد حقق النول الميكانيكي انتصاراته الاولى اذ ساعد كثيراً على تسهيل اعمال الحياكة والنسيج الخاصة بصنف حديث من الخيطان مأخوذة من مادة القطن . ففي الوقت الذي تمكن فيه الاميركي ايلي هويتني ان يخترع عام ١٧٩٣ محلج القطن الذي حل معه الثروة والازدهار بانشاء ما يعرف بحزام القطن في بلاده، فقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا بسر صنع الادوات الخاصة بصناعة النسيج والحياكة . وبمساعدة احد الهاربين المدعو ديكسون ، مكن رسلر احد سكان مدينة ملهوز المدعو شلمبرجيه من ان يبني مصنعاً يعنى بصنع آلات النسيج . وقد أدخلت تحسينات على فن طباعة الاقمشة على يد برو ، وعلى نول الحياكة نفسه على يد السويسري بودمير الذي استوطن بولطن وعلى يد احد سكان ملهوز المشارك مع كوكلي هو هيلمان ، هذا النول الذي اخترعه كارترايت من قبل والذي يعمل بالبخار . كذلك هنالك تحسينات لحقت طبع الاقمشة باختراع اسطوانة نحاسية ، كما ان المكوك المدبب كان باعثاً على ازدهار هذه الصناعة في نوتنغهام قبل ان يتم ادخالها بالحيلة الى فرنسا . كذلك شاع استخدام آلة *Jacquard* في صناعة التخريم او الدانتلا التي بعث النشاط الصناعي في مدينة كاليه. وصناعة الكتان نفسها عرفت بدورها انقلاباً ثورياً بفضل المكوك الذي اخترعه سكان مدينة غنت المدعو برفانس ثم ادخل عليه كروكس ولاسيا جيرارد فيما بعد تحسينات ملحوظة . وقد سجل مطلع القرن في عداد الانجازات العلمية التي سجلها اختراع الانوال الخاصة بنسيج التريكو والصداري بدون خياطة والتطريز الآلي ، ناهيك عن المشبك الذي اضفى على المنسوجات الحريرية المصنوعة في ليون ما امتازت به من نعومة ودقة ومتانة . ولكي نتبين اهمية هذا التطور التقني يجب ان نتيقن ان حائكاً ميكانيكياً يعمل في صناعة القطن اصبح ينتج سبعة اضعاف ما كان ينتجه حائك آخر يعمل باليد .

من المستجدات في الكشوف العلمية آلة الخياطة الآلية التي اخترعها خياط متواضع للالبسة هو تيمونيه . وكان من بعض نتائج هذا الاختراع ان احدث ثورة في مصنوعات الالبسة وعمل على ترويج ما يعرف بـ Sweating system .وقد ادخل فيا بعد هو وسنجر في الولايات المتحدة تحسينات هامة حيث آلة تركيب الالعاب وآلة خياطة الوجه والنعل مكنت صناعة الاحذية من تأمين الانتاج بالجملة .

ومما يلفت النظر في هذا التطور التقني العظيم هو ان المواد الاولية في التغذية بقيت خاضعة لوسائل العمل التقليدي . فاستخدام الآلة في مجال الزراعة هو في اول مراحله . فالحاصدة الميكانيكية التي اخترعها الاميركي ماك كورميك لم تفرض نفسها على الاستعمال الا بعد مدة طويلة . ومطاحن الماء والهواء ستبقى قيد الاستعمال على نطاق واسع ولمدة طويلة ، والخباز لا يزال يستعمل يديه في ترضيب العجين وتهيئة الخبز ، كما في السابق ،مع انه عام ١٨١١ اختراع معجن آلي لا يزال غير متقن ، والكرّام لا يزال يستعمل رجليه في عصر العنب او المعصرة ، وتخمير الشعير لصنع الجعة يقتضي له عناية كبيرة . والوسيلة المثلى لحفظ اللحوم تبقى التمليح والتدخين ، والالبان لا يمكن حفظها وصيانتها الا بشكل جبنة، يجب استهلاكها بسرعة ومحلياً والا تعرضت للفساد سريعاً . وقد اشار أبير الى الوسائل التي تضمن مكافحة الفساد والتعفن عن طريق الحرارة العالية التي تسبب التعقم ، ولم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه استخدام التبريد الاصطناعي . فصناعة سكر الشمندر وحدها تطور بسرعة بفضل الطريقة التي توصل الى استنباطها اشار بفضل تكريره بالحامض الكبريتي وبازالة لونه بواسطة المادة السوداء من طريق استعمال مداخل اسطوانية الشكل تمتص العصير .

لم نلاحظ من ناحية اخرى اي تقدم يطرأ على فن البناء، ومع ذلك فقد ظهر منذ عام ١٨٢٤ سيمنت بورتلاند الذي يلتصق ببطء، ولا في مجال التدفئة . ولما كانت بريطانيا مهتمة بتصريف محصولها من الفحم الحجري فقد جرت محاولات لصنع رجاقات ومداقيء من ذوات الموقد المسيج ، واجهزة توزيع البخار المائي على المنازل .

والاستصباح بواسطة الغاز المستخرج من حطب الوقود ومن الفحم الحجري لعدم وجود الغاز الطبيعي الذي اخذ الاميركيون بضبطه واستغلاله في بلادهم ،شق طريقه نحو الاستعمال منذ التجارب الاولى التي قام بها لوبون وموردوخ . وقد راحت لندن تباهي باريس وتدل عليها بسبقها لها على استعمال الغاز في التنوير والاضاءة العامة . وسيمضي نصف قرن قبل ان تتمكن منازل البورجوازيين ، في المدن الفرنسية من تقدير نعمة التمتع بالغاز في كل ادوار المنازل . والمصطلح عليه هو عادة قنديل زيت الكولزا المستخرج من بزر السلجم بعد ان ادخل عليه أرغان بعض التحسينات بعد ان راح كنكيه يتبجح بانه صاحب الفضل في اختراعه، وقد ادخلت عليه تحسينات فيا بعد على يد جيرار وقرانشو ، كما ان الناس بقوا يعولون على استعمال

الشمعدان الحقـــير المعروف . وستحل الشمعة في نهاية الامر محـــل الشمعدان التي نرى في اسمها شيئاً من اثر الجزائر التي كانت قد سكان البندقية بشمع العسل الذي اخذ بتخـــل ممزوجاً بصنع الشموع مـع مادة الشحم . وقد سبق لشفرويل ان اشار الى الدور الذي يمكن للحامض الستياري لعبه في هذا المجال . وقد توصلوا فيما بعد الى تأمين نوع من التصبن والى صنع فتيلة صالحين للاستعمال . ومن الاجهزة الاساسية في الملاحة البحرية المنائر التي يعمل فيها قنديل من طراز أرغان؛هذا القنديل الذي استطاع رمفورد تزويده بعدة فتائل متراكزة والتي تضاعفت طاقة الضوء فيها بواسطة جهاز عدسية وعاكسة فرينل .

وليست اقـل اهتماماً بالملاحظة والتقدير العالي التطورات التي امكن للغرب ادخالها على صناعة الكتاب والجريدة والصورة ، رغبة منه في الترويج لها ونشرها على الملأ . فقد درجوا الى الآن ، على استعمال الورق المصنوع من الياف القنب والكتان بعد مزج عجين الورق بالصلصال (وهي طريقة اكتشفها لويس روبرت في مصانع ديدون في أسون ، اذ ان الالة الخاصة بصنع رب الورق لم تكن معروفة الا في انكلترا) . وسكب احرف الطباعة وصبها كان يتم بواسطة قوالب امهات الحروف او باليد . كذلـــك أدخلت تحسينات على حبر الطباعة وعلى فن صنع الكليشهات ، وهي طريقة مكنت من توفير النسخ باعداد غير محدودة . كذلـك تمكن اللورد ستانهوب من اختراع نموذج لا مثيل له من امهات الحروف .

وتمكن اللورد ستانهوب نفسه من اختراع مكبس من المعدن ترك بعيداً وراءه المكبس الذي كان اخترعه غوتنبرغ وحل عام ١٨١٠ محل الآلة التي وضعها كونيغ السكسوني بالاشتراك مع الطباع اللندني بنسلي . وقد كان سبق لجون والتر مدير جريدة التيمس ووصف لكونيغ طريقة الدفع الميكانيكي التي ارتسمت صورتها لبكلسن مدير جريدة الجورنال الفلسفي عندما وقع نظره على الاسطوانات الطابعة للاقمشة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، جرى طبـع هـــذه الجريدة الكبرى في لندن لاول مرة على طابعة تعمل بقوة البخار المحركة للآلات . وبعد ذلك بقليل اخترع كونيغ مكبساً يعمل على عجلتين كما اخترع روسلبه ، عام ١٨٣٧ ، مكبسا ذا رد فعل . ومهما يكن ، فالطبلية كانت تركز مسطحة على ارضية من المرمر . وكان لا بد من الانتظار الى سنة ١٨٤٦ حتى يتمكنوا من تركيبها على الاسطوانات نفسها . وهـــذا الشكل الاسطواني هـــو الذي سيهيء السبيل للتركيب الطابعة المعروفة بـ الروتاتيف بحيث اصبح ميسوراً ، منذ ذلك الحين ، سحب ٨٠٠٠ نسخة في الساعة بدلاً من ١١٠٠ نسخة عام ١٨١٤ وبذلك أطل على العالم عهد الدورية ذات الانتشار الواسع .

فلا عجب قط ان تفيد صناعة الكتب من هذا التطور العظيم الذي طرأ على فن الطباعة . ولم يلبث ان تمكن الذوق الفني في الطباعة على انواعها واستبد بالانتاج الفكري . ففي باريس نشطت اعمال النشر في دار النشر ديدو وازدهرت . وصناعة الحفر التي اصبح الآن بامكانها

استنساخ الصور والرسوم انتشرت وعم استعمالها بسرعة على اشكال متنوعة ، كالحفر على الخشب وفقاً لطريقة بيويك ، والحفر على الحجر او الطباعة الحجرية التي توصل اليها الممثل المسرحي سنيفلدر . وانفتح الباب على مصراعيه امام الجورنال المصور الذي عُرف باسم مغازين . كذلك عرفت طباعة العملة الورقية ان تفيد هي الاخرى من هذا الاختراع (وبذلك عرف جاكوب بركنز الاميركي ان يعقد الامور في وجه مزوري النقد) ، وهـواة جمع الطوابـع البريدية ستطلع بعد حين لتوفر للعاملين على تكوين المجموعات الفنية ، اللذة والفائدة معاً .

وفي سنة ١٨٢٩ ، اخترع برايل بالتعاون مع فوكو الكتابة النافرة لتعليم العميان ومكفوفي النظر .

ذروة السرعة في وسائل النقل

لم تنقطع العناية طول القرن الثامن عشر بتحسين شبكة الطرقات وتطويرها بشكل يسهل الاتصالات والانتقال . ولحن لا نقصد هنا التأكيد بان الطرقات التي كان يسلكها الانسان ماشياً على الاقدام او ممتطياً صهوة احد الحيوانات او راكباً احدى العربات كانت في وضع يركن الانسان اليه .فمن الحوادث الحرية بالذكر مثلاً ان تيوفيل غوتيه ، في الرحلة التي قام بها الى اسبانيا عام ١٨٤٠ كان يشكو من ان العربة التي أقلته لم تمكن لتستطيع التقدم الا بفضل قبضة من العمال تسير في ركابه ، اذ « كانوا يعملون على التخفيف من حدة كر العجلات في المنحدرات والمنعطفات الخطرة» والسهر على متانة السرج واستقراره ، وسلامة الازمّة ولارسنة والقدرة على كبح البغل الحرون الجفول ». وبالفعل لم يمكن في اسبانيا ، اذ ذاك من الطرقات الموصوفة « معبدة » ما يتراوح طوله بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ كلم. تم شقها خلال خمسين سنة ولم يتوفر شيء من هذا في صقلية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وجادة موسكو في بطرسبرغ لم ينجز شقها الا في سنة ١٨٣٤ ، وعلى عكس ذلك تماماً كانت شبكة الطرقات الفرنسية التي بلغ طولها ٣٠٬٠٠٠ كلم ، قامت السياسة التي اوحت بناءهـا على مطالب وطنية واعتبـارات سياسية والرغبة في الظهور والتأثير في الخارج ، وكانت الرئيسية منها باتجـاه المانيا وسويسرا وايطاليا الشمالية . وعلى هـذا الشكل وتلك السياسة سارت الدولة البروسيانية، رغبة منها في تيسير العمل بالوحدة الجمركية (*Zollverein*) . اما في مملكة البلاد الواطئة ، فقد نشطت الشركات والهيئات البلدية فيها النهوض بطرقها . وفتحت سويسرا من جهتها طريق الفريزون وجبل سان غوثار .

ولعل ما هو اصعب وأشق من هذا كله هو صيانة هذه الطرق . فقد راح كل من تاليه وبكوف ينصحان عبثاً بكشط الطريق بعـد كل مطرة ، بينما راح بولونسو ولامورانديير بوصيان باستخدام المداحل الضاغطة التي فكروا بفائدة استعمالها منذ عام ١٧٨٠ . وعـلى عكس الطرق الفرنسية التي كانت تُعد ، اذ ذاك ، اجمـل واحسن الطرق في العالم كـله ، كانت الطـرق في انكلترا تتمتع بسمعة عاطلة لما كانت عليـه من ضيق وتعرج وتقاطـع الحواجز . ألم يكتب يونغ عن الطرقات التي تنطلق من لندن باتجـاه

اطراف البلاد ، بأنها على الوضع الذي ركبها له فيه بعد الطوفان ؟ اذ كان شق هذه الطرق وصيانتها تقع على شركات محلية (turnpike trusts) قوامها اعيان المنطقة ووجوهها ، تقوم بجباية رسوم الدخولية واستيفاء عوائد هينة . ومع ذلك اخذت شبكة الطرق فيها بالامتداد والاتساع اذ بلغ طول هذه الشبكة ٣٢،٠٠٠ كلم عام ١٨٣٠ وارتفع الى ٥٠،٠٠٠ كلم عام ١٨٥٠ . وقد تطورت على الاخص الوسائل التقنية في شق الطرق : اذ غلب عليها بتأثير بلفوره«السطح المقبب الطريق بحيث يسمح هذا الشكل بتصريف المياه المتسربة»كما اوصى ماك آدم في هذه الابحاث التي عقدها وحث فيها على الاهتمام بطرق البلاد ، برصف الطرق بالحصى فيسهل دحل الطريق كما يسهل بالتالي تأمين الشكل المقبب لها . وطريقة (تحصيب) الطريق التي دخلت الى بلجيكا عام ١٨٣٠، لم تنتشر في فرنسا الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والاميركيون ، رغبةً منهم في التغلب على مشكلة المسافات، أخذوا ، على الاجمال، بهذه الطريقة الفنية ، عام ١٨٤٠ ، وبذلك جعلوا صالحة للسير هذه المسالك السيئة corduroy roads كما كانوا يصفونها لمشابهتها كثيراً شريط المخمل والتي لم تكن تفضل قط الطرقات المعروفة في الغرب باسم Plank roads التي اتبعوا في شقها الطريقة الروسية اذ فرشوها او بالاحرى دكوها بالواح الخشب من جذوع الشجر .

وكما في السابق ، فالطريق يسير عليها جمهرة من المشاة ومن اصحاب الحرف وعمال المناجم بينما الموسرون يمتطون خيولهم او يدرجون في عرباتهم ، في الوقت الذي تأخذ فيه الطرقات العامة بالانتظام . فالحالة البريطانية تتمتع بسمعة طيبة . فهي تقطع الـ ٦٠٠ كلم التي تفصل بين لندن وأدنبره في ٤٢ ساعة ، اما عربة Quick silver فلا يقتضي لها اكثر من ٤ ساعات ونصف لقطع المسافة بين لندن وبرايتن، وبعد ١٨٣٠ تقطع المسافة بين لندن وبرمنغهام بسرعة ٢٣ كلم في الساعة . اما في الشق المقابل من خليج المانش ، فالانتقال بالعربة من باريس الى مدينة رين ٤ ايام،والى مدينة ليون ٦ ايام و١٢ يوماً الى ستراسبورغ ، في عهد الامبراطورية. ومدة الوقت تهبط الى النصف بين١٨١٥ و ١٨٤٠ ، اذ كانت العربة تقطع ٦ كلم في الساعة بدلاً من ٣ ، وهي عربة ضخمة ثقيلة زنتها ٤ اطنان وتشحن من ١٦ - ١٨ راكباً في حجراتها الاربع من درجات مختلفة . ومنذ عهد الديركتوار كانت عربة البريد التي تؤمن نقل البريد تنقل ايضاً من ٣ - ٤ ركاب فكانت عربة خفيفة تجرها ٤ جياد وتقطع ١٠ كلم في الساعة حوالي عام ١٨١٥ ، ثم ارتفع المعدل الى ١٥ كلم عام ١٨٤٠، ولبلغ بوردو وليون وستراسبورغ في ٤٠ ساعة، تسير «كهبوب الريح »كما يكتب موغو ، اد ذاك. فاذا كانت الرحلة لا تعوزها المناظر الشيقة امثال : السائق الطروب الهازل ، والكحول احياناً وغالباً السكران ، وفرقعة السوط ينهال على اقفية الخيل ، والموسيقى عند الانطلاق ، وحدوث ما ليس بالحسبان من المفاجآت ، ووقوع الحوادث المثيرة . فقد كان من مميزاتها ومفارقاتها غالباً : المقاعد الضيقة

ارتجاجات لا نهاية لها ، والزمهرير هنا ، والحر هناك ، تارة يغوصون في الوحل وطوراً يغشاهم الغبار ، وأسرة لا يمكن الاطمئنان اليها في هــذه الخانات المشبوهة ، بقطع النظر عما تتعرض له العربات احياناً من تحطم العجلات . فاذا كانت المسافة اصبحت تقطع بوقت أقل ، فظروف السفر لم تتغير هي كثيراً .

ففي الوقت الذي سجل فيه النقل ارتفاعاً في معدل الواردات بفضل ازدياد النشاط التجاري ، فقد سجلت اسعار النقل فيه هبوطاً محسوساً . فكانت كلفة الرحلة من باريس الى بوردو في عهد لويس الرابع عشر ، ١٢٤ ليرة ، فاذا بها تهبط الى ١٠٨ فرنكات ، في عهد نابليون والى ٧٤ فرنكاً عام ١٨١٠ . غير ان الجر العادي للطن الواحد كان يكلف ٢٠ سنتيماً عام ١٨٤٨ بينما كان بمعدل ٣٣ سنتيماً عام ١٨١٠ ، اما الجـر السريع وشحن البضائع فقد كان اكثر كلفة . فالبضائع لا تسير بسرعة اذ كان الشحن من باريس الى مدينة ليل يقتضي له ٤ ايام . ويقتضي ١٤ يوماً من باريس الى مرسيليا ، ولما كانت كلفة نقل الرسالة مرتبطة بوزنها وثقلها كان على قاطن باريس ان يدفع ٢٠ سنتيماً عن تحرير يبعث به الى فرساي ، وفرنكاً و ١٠ سنتيمات الى مرسيليا ، فيما كان على قاطن لندن ان يدفع فرنكاً و ٤٠ سنتيماً على رسالة من لندن الى ادنبرة . ومع ذلك ، فالبريد كان يوزع ١٠٠ مليون رسالة ، في فرنسا حوالي عام ١٨٤٠ ، مقابل ٣٠ مليون رسالة في عهد الوزير تورغو . وبعد ان ادخل رولاند هل تعديلات على تشريع قديم ، عمل على تبني رسم موحد هو بنس واحد (١٠ سنتيم) ، كما ان الجمهورية الثانيــة وضعت من جهتها رسماً موحــداً مقداره ٢٠ سنتيماً الامر الذي افضى الى زيادة غير متوقعة في عدد الرسائل المتبادلة .

كل هذا والطريق تخدم في الدرجة الاولى ، المدن الرئيسية : فهي تتجاهل مصالح النواحي والملحقات اذ كان يترتب على ذوي العلاقة في المقاطعات والاقاليم ان يسهموا متضامنين في مــا يصون طرق المواصلات في الناحية ، وقد صدر في فرنســا ، عام ١٨٣٦ ، قانون اناط العناية بالطرق الرئيسية بمأموري الطرق لا سيما تلك التي تربط بين المناطق ، فجعلتها على عاتق البلديات . ولن تلبث حركة السير ان اعتمدت طرقات ثانوية في الوقت الذي اخذت فيه سكة الحديد تستأثر تدريجياً بطرق المواصلات الرئيسية .

حمى الاقبال على الممرات والاقنية المائية

لما كان نقل البضائع والاحمــال الثقيلة يكلف غالياً على الطرق البرية ، فقد استأثر النقل النهري بالاهتمام واستبد بالخواطر ، واصبح من الوسائل التي لا مندوحة عنها ولا بد من التعويل عليها امام هــذا التطور الذي طرأ على صناعة التعدين واستغلال المناجم واستثمارها . ولذا بادر الانكليز الى ربط مصابّ أنهرهم الكبيرة بالمراكز الصناعية الرئيسية . فقد تم فتح قناة *Severn* كما ان مشروع *Shropshire Union* ضاعف نشاط الـ *Trunk* الكبير وبالرغم من وجود ٢٨ حاوساً على طول

القناة الكاليدونية، فقد استغني عن المرور على مقربة من جزر الاركاد المحفوفة بالمخاطر. وهبطت بالتالي كلفة النقل بين ليفربول ومنشستر الى سبعة امثالها، كما ان سعر الاسهم في هذا المشروع الاستثماري ارتفع عشرين ضعفاً. الا ان عدم وجود اي اتفاق بين الشركات ينظم المقاييس والرسوم سبب هبوطاً سريعاً عند ظهور الخط الحديدي.

والشرعية التي عادت الى آل بوربون افادت كثيراً من تقليد مرعي الاجراء كما افادت من الغاء رسم الدخولية على ايدي الثورة. فقد اشترى النظام الجديد الاقنية وشمّر عن ساعد الجد لانجاز المشروعات التي كان بوشر بها في عهد لويس السادس عشر، وفي عهد لويس فيليب برزت بوضوح شبكة الترع المائية التي شدت الاحواض المائية، بعضاً الى بعض. صحيح ان شبكة الاقنية كانت غير كاملة وتفتقر كثيراً للتجانس فيما بينها: فقد امتنع على سفينة شحن قادمة من الفلاندر مثلاً المرور عبر قناة الاردين، كما ان الكباري القائمة على نهر الرون في مدينة ليون وقفت حائلاً دون الملاحة بين نهري الساون والرون. الا ان دخول البخار كقوة محركة ذهب بكل هذه العوائق.

جاء في توصية لغرفة تجارة ستراسبورغ ان «على نهر الرين ان يؤلف اداة وصل بين كل الشعوب». فقد كان شحن بضاعة من درسدن الى همبورغ يكلف اكثر من نقلها بين مرفأ نهر الايلب ومدينة نيويورك. فقد سبق لمؤتمر فيينا (١٨١٥) ان دعا الدول الواقعة على مجرى الرين للتعاون فيما بينها للقيام بتحسينات على مجراه. وقد ظهرت السفينة البخارية لتعمل في وقت مبكر بين مدينتي روتردام وكولوني، ولم تمتم ان شقت طريقها الى ستراسبورغ. ولم يباشروا في تنظيم مجرى هذا النهر الا في عام ١٨٥١. وقد حدث رغبة جامحة بكل المرافىء الواقعة على سواحل البلاد الواطية الى اجتذاب الحركة التجارية ونشبت على أثر ذلك منافسة حادة فيما بينها زادها حدة وتعقيداً دخول السكة الحديدية الحلبة. فبينما راحت روتردام تتحرر من حوائل الزويدرزة بانجازها قناة البحر الشمالي الكبرى، كان حوض نهر الموز يحاول تيسير اتصاله بمرفأ انفرس بين ليبج وشارلروا، وبين هذه الاخيرة وبروكسل. وراحت بروسيا والدول المجاورة لها تطلق حرية النقل التجاري على نهر الإيلب. وقد عقد اتفاق روسي – بروسي يرسم خطة تؤمن قيام اشغال بقصد تحسين الملاحة على نهر الفستول، في الوقت الذي كانت فيه فيينا تخطط هي الاخرى، للاستفادة من نهر الدانوب. وتوصل نيلز أركسون عن طريق قناة ترولهاتن الى تفادي شلالات غوتالف فيتم بذلك وصول الخشب والحديد السويدي الى مضيق كاتيغات.

اما في روسيا والولايات المتحدة الاميركية المعروفتان بمساحتها الشاسعة فقد ألفت البحيرات والانهر الضخمة فيها طرق مواصلات طبيعية مهمة للغاية، مع ما هي عليه من حاجة ملحة لاصلاح مجاريها وربطها بعضاً ببعض بشبكة متجانسة من الاقنية والترع. فالسبق القصير الامد الذي

سجلته الامبراطورية القيصرية في هذا المجال ، لم يــدم طويلاً امام هذه الانجازات الضخمة التي تحققت في العالم الجديد . فقد بقي نهرا الدون والدنيبر منعزلين . وقامت شركة روسية السفن التجارية للعمل على نهر الفولغا وكاما، واذا كان نهر النيفا يتصل ببحيرتي لادوغا واونيغا وفالفولغا بقي منفصلاً عن خليج فنلندا الى عام ١٨٥٠ . كل هذا يبقى تافهاً زهيداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانات الضخمة والطاقات الواسعة التي ستحظى بها السفالة القديمة . وعلى عكس ذلك هنالك شعور عارم في اميركا بوجوب ربط نهر الميسيسبي وروافده العديدة باحواض المحيط الاطلسي الساحلية ، وهذه بالبحر الداخلي القائم عند حدود كندا . فقد ألفت مواعين الشحن الهبوط من نهري الاوهايو والميسيسبي حتى اورليان الجديدة، حاملة اليها من السهول والمروج الفيحاء ، الحبوب ولحم الخنزير المملح ، كان سكان الولايات الشرقية يشدون الرجال لنقلها براً على عربات النقل البدائية ، راسمة في سيرها دورة هائلة . واختصاراً منهم للمسافات وتفاديا للموانع الحائلة والعقبات القائمة ، راحوا يضعون الخطط لانشاء ما يلزم من الترع والاقنية الموصلة ،عندما خطر لفولتن التصميد في نهر الهدسون على السفينة التجارية الجديدة وكليرمونت، التي تم بناؤها في برمنغهام، وضربت المعول الاول التي بوشر بها عام ١٨١٧ ، ايذانا بشق الخندق الذي سيمتد الى بحيرة ايريه والبالغ طوله ٦٠٠ كلم . الذي تم الفراغ منه بعد جهود وشاقة استمرت سبع سنوات بكاملها ، وكلفت ٤٥ مليوناً من الدولارات سيسمح بوصول ٣٠٠،٠٠٠ طن ، عام ١٨٢٥ ومليوني طن ، عام ١٨٦٠ . وعن طريق هذه القناة ارسلت شيكاغو اول شحنة لها من الحبوب . والطون الذي كان نقله يكلف ٥٠٠ فرنك هبطت كلفة نقله الى ١٠ فرنكات في اقل من عشر سنوات وهكذا جاءت حركة النقل التجاري هذه تكرّس اسبقية مرفأ نيويورك في مضمار التجارة في العالم الجديد . ومنذ ذلك الحين قامت منافسة حارة بين الولايات الاميركية والمدن الكبرى الواقعة على الاطلسي ، اذ راحت كل من هذه الولايات والمدن تحاول جاهدة الوصول الى احواض الغرب حيث عدد كبير من الاقنية كان على وشك ان يؤلف شبكة متجانسة من هذا الترع المائية . مما لا شك فيه قط ان هذه التصاميم الموضوعة لم يحالفها النجاح . فشبكة بنسلفانيا التي تألفت من قناتين تربط بينها جادّات منحدرة السطح تجتازها العربات المشحونة ، لم تتجاوز لنشبورغ ، الامر الذي حمل بلطيمور على تفضيل سكة الحديد . ومع ذلك ، فالولايات المتحدة التي ترك لنا ميشال شفاليه باعجاب كلي وصفاً دقيقاً لمجاريها المائية القابلة للملاحة النهرية، بلغ طول شبكتها هذه ٧٠٠٠ كلم عام ١٨٣٥ ، وبذلك هيـأت اسباب تغلب البخار . وهذا الحماس لم يلبث ان خمد وانطفأت جذوته بسرعة امام طلوع البخار في انكلترا بالذات .

ظهور سكة الحديد

من اليسير ان يتصور المرء ان استخدام الانحناء البخار وتسخيره له كوسيلة من وسائل النقل الحديث كان ثورة طارئة . فقد عاش والحق يقال جيل كامل من الناس تنازعهم عاملا الامل والشك حول مستقبل القطار والخط الحديدي . فما عسى ان تكون عليه يا ترى ، سكة الحديد، هذه السكة التي تتألف من خطين متوازيين من الخشب،

ثم خطين من الصب واخيراً من الحديد ظهرا في اواخر القرن الثامن عشر، احسن المدنون واصحاب المناجم ، في انكلترا ، استخدامه لنقل عربات الفحم . ولكن هل يكفي ان يلتصق الجانت بالخط الحديدي حتى لا تبقى العربة تتأرجح في مكانها ؟ ليس من عنصر حاسم في الامر منذ العربة التي صنعها كونيوت قبل ان يخترع ستيفنسن عربة *Puffing Billy* عام ١٨١٤. فقد شهد عام ١٨١٤ نهاية عظمة نابليون كما شهد ظهور القاطرة التي تجر ثماني عربات تزن معاً ٣٠ طناً بسرعة ٧ كلم في الساعة [1] وهي آلة باهظة التكاليف كما يقولون ولا تصلح من جهة ثانية الا لنقل الفحم لمسافة قصيرة . فهي عبارة عن فكرة خطرت لمدنيّ فتقت بها مخيّلته نزولاً عند مقتضيات المنجم . وعندما خطر للمركيز دي لور سالوس ، عام ١٨٢٣ ان ينشىء له خطاً حديدياً ينقل عليه وقود الفحم من سانت اتيان الى منطقة اللوار ، لم يفكر بغير الخيل والحمير كأداة لجر العربات . ومع ذلك ، قام جورج ستيفنسن ، عام ١٨٢٥ بتجربته الحاسمة على خط دارلنغتن ستوكتن للتدليل على الخدمات التي تؤديها القاطرة . وتمت التجربة في ٢٧ ايلول امام حماس جميع الذين شاهدوها . فقد استطاعت ثلاث قاطرات تعمل على البخار ، قوة الواحدة منها ٥٠ حصاناً – كما تروي الخبر جريدة التيمس – ان تنقل ١٣ عربة محملة بالبضائع وغير ذلك من المواد المختلفة ، على خط حديدي مرتفع الصعيد . فقد وصلوا هذه العربات وعربة اخرى تحمل السلطات والمدعوين والمساهمين ، بقاطرة نقالة عرفت باسم *Experience* . وتألف القطار من ٣٤ عربة بينها عربة تحمل فرقة الموسيقى تصدح بانغامها الشجية ، بينما كان يرفرف على احدى العربات ، علم كتب عليه : « خطر فردي لقاء منفعة عامة » وعند انطلاق اشارة معينة اخذ القطار يتحرك فراحت الجماهير تهتف هتاف الفرح . وراح بعض الفرسان الخيالة يحاولون إستباق القطار الا انهم لم يلبثوا ان شعروا بانه فاتهم كثيراً . فالمسافة التي كان الانحدار فيها قوياً بلغت سرعة القطار معها ٢٦ ميلاً (٤٠ كلم) في الساعة . وفي سنة ١٨٣٠ ، فاز ستيفنسن وابنه روبرت بالجائزة ضد ادكسون ، وهي جائزة وضعها تجار لانكشير لمن يفوز بالسبق بين ليفربول ومنشستر . فقد جرت قاطرتهما ١٢ طناً بسرعة ٢٢ كلم في الساعة. فالحادث لم يقل اهمية عن حادث *les trois glorieuses* في المدى التاريخي .

فبينما كان الشباب المتحمس في فرنسا يدفع المهندسين ومعظمهم من خريجي البوليتكنيك ومن انصار السان السيمونية ، ويطالبون بالسكك الحديدية ، نراه يصطدم هنا بتنكر البعض الفكرة كما تلقى الفكرة هنالك عدم رضى الآخرين ، كما اصطدمت بمعارضة الذين رأوا في هذا المشروع ، اذا ما خرج الى حيز الوجود ، مساً بمصالحهم ، ويتطلون بغلاء الحديد ، رأينا الفكرة ذاتها تفوز برضى الرأي العام الانكليزي كما انها نزلت منزل الرضى من الاميركيين . وفي إثر إنفالس فكر ستيفالس ان يربط بين المدسون وبحيرة ايريه باختراع يدخل فيه الخط الحديدي

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ، ص ٥٩٦ (من الطبعة العربية) .

والآلة البخارية ، فيكون ذلك الفضل من وصلها بقناة مائية . وقد كان لنجـاح التجربة ان حمل بعض رجال الاعمال في بلسلفانيا على شراء قاطرة من انكلترا . وها هي بلطيمور تندفع بكليتها في الامر فتستخدم اول ما استخدمت الحصان والشراع ، فالقاطرة فـازت في السنة التالية . وانهالت الاموال على المساهمين فسهّل هذا الاقبـال مد فروع الخط الى واشنطون، ومنشـار . وفي الوقت ذاته سارت الآلة البخارية على خط شارلستن – همبورغ . ولما كانت السفنة الشراعية تسبب مشاكل وتثير المتاعب فقد كتب النجاح لاحسن صديق او رفيق الذي باستطاعته ان يقطع ٣١ كلم في الساعة جاراً وراءه أربع عربات والذي انتهت رحلته بانفجـار عقب ان جلس السائق الزنجي على الصمّام ليمنع البخار من الصفير . فالقاطرة *Old Ironsides* التي صنعها بُلدوين وتلـك المسماة *Thumb* التي جرى صنعهـا في احواض وست بوينت اصبحتا حديث القوم . وبالرغم من بعض الحوادث المبكية المضحكة التي رافقت تجربتهـما ، فقد رسختا مصير هذه الوسيلة الجديدة من وسائل النقل . ومنذ ذلك الحين ، سـارت الولايات المتحدة في الطليعة وتخطت اوروبا بمراحل ، فمن ٦٥ كلم للاولى مقابل ٣١٦ في اوروبا (منها ٢٧٩ لانكلترا) عام ١٨٣٠ ارتفعت الولايات المتحدة الى ٤٥٠٩ مقابل ٢٥٣٤ لاوروبا، عـام ١٨٤٠ – وبعـد ذلك بعشر سنوات يصبح لدى الولايات المتحدة ١١٤٠٠ كـلم من الخطوط الحديدية قيد الاستعمال وتأخذ في الامتداد والتغلغل في الداخل. صحيح ان هذه الشبكة ليست بعد كلها متجانسة فيما بينها . فتفاوت البعد بين الخطوط يختلف بين خط وخط وشعبة وشعبة وعملية التفريغ وانزال الشحن المعد الفنادق تفرض على القطار التوقف ليلاً بعض الوقت . ومع ذلك فقد راحوا يقطعون المسافة بين بوسطن ونيويورك باربع وعشرين ساعة بدلاً من ٨٠ ساعة. وفي سنة ١٨٥٤ كانت خمسة خطوط تجتاز جبال الابلاش . وهكذا يبدو واضحاً ان الولايات المتحدة الشمالية حققت لها اسبقية ملحوظة في اعتمادها على الخطوط الحديدية .

ففي اوروبا المتيقة لا يزالون بعيدين البعد كله عن هذه الانجازات البنّاءة الطموحة النيرة التي يقترح ميشال شفاليه الاخذ بها والاقبال عليها ممثلة « بشبكة البحر المتوسط » ، اي القيام بشق قناة مائية تربط كل الخلجان الواقعة في اوروبا على سيف هذا البحر بأم المراكز الصناعية والمدن الكبرى . فالطريق والنهر هما قوتان . وجاءت ردة الفعل وفقاً لطبيعة ومزاج ومصالح كل بلد من هذه البلدان المعنية بهذا الامر . فمن جهـة الجنوب والشرق نرى انهما يفتقران كلياً لرؤوس الاموال اللازمة كما يفتقران للفنيين والتقنيين . فها هي ايطاليا التي تنبأ لهـا أزغليو بأن انشاء السكة الحديدية فيها « سيخيّط الجزمة » لا تملك ، عام ١٨٤٦، سوى بعض شعبات من هـذه الخطوط (خط ميلانو – مونزا ، وخط بادو – البندقية ، وخط ليفورنو – بيزا ، بقطع النظر عن خط مقاطعة كمبانيا ، هذا الخط الذي انشأه فرديناند دو نابولي للنقله الخاصة وجهز كل محطة تقع عليه بكنيسة صغيرة ، وحظر السير عليه ليلاً وايام الاعياد) . اما هنغاريا فستبقى طويلاً لا تملك غير الخط الدائري الذي يلتف حول بودابست (بعد ان كانوا يرددون فيها القول بأن

كل من ينظر الى القطار في سيره على الخط يصاب بالجنون . وفي روسيا كان على القيصر ان يضرب بعرض الحائط المخاوف التي جاشت بها نفوس «المصابين بمرض العصر» يعارضون فكرة بناء خط موسكو – بطرسبورغ. ومن جهة اخرى لمحافظ انكلترا على سبقها في هذا المضمار وعلى التقدم الذي سجلته على كل جيرانها . فهي البلد الوحيد الذي يتمتع بشبكة حديدية تربط ما بين مدنها الرئيسية وحواضر البلاد الكبرى . وقد اقبلت بشيء من الهوس الجنوني على بناء هذه الشبكة التي استمر العمل فيها من ١٨٤٠ – ١٨٤٧ بالرغم من المناقشة الحادة التي ابداها اصحاب العربات ومعارضة بعض الشركات المالية ولا سيما معارضة *Turnpike Trusts* وكل من يعتاش من صناعة الجر ، وبالرغم من المضاربات على الاراضي. ان و . شابلن الذي كان في حيازته عام ١٨٣٦ نحو من ٣٠٠٠ عربة نقل و ١٥٠٬٠٠٠ حصان جر رأى انه من الايسر والاسهل نقل الطرود البريدية بالقطار الحديدي ، وقبل ان يترأس شركة خط لندن والجنوب الغربي . وقد احدث انشاء خط حديدي بين بروكسل ومالين تحولاً في الرأي العام الذي اخذ يعطف على الفكرة بعد ان تنكر لها فاخذ يظاهر الاقتراح الجريء الذي كان يرمي الى انشاء خط حديدي يربط ما بين انفرس – كولوني وهو مشروع تقدم به الوزيران روجيه ولوبو . وقد تطلوا في معارضتهم لهذا المشروع بانه يجر الخراب على اصحاب عربات النقل ويدهك الارض الصالحة للزراعة ويدخل الرعب على الماشية والحيوانات ويحقلها . فبعد سنة ١٨٤٣ ،قام في هذه المملكة الصغيرة من الخطوط الحديدية ما يوازي ما كان منها في فرنسا . وكان من حسن وضع شبكتها ان اجتذبت اليها كل الحركة التجارية في اوروبا الريفية . اما البلاد الواطية التي تخلفت عن جارتها في هذا السبق ، فلا عجب قط ان تفقد جانباً من الارباح التي كانت تعود اليها من الحركة التجارية وحركة النقل التي كانت تتجه اليها .

كبير جداً عدد رجال المال والاعمال والاقتصاد ورجال الادارة في المانيا الذين ادركوا كما يجب، الفوائد والمنافع التي يحملها الى المانيا المنقسمة على نفسها سياسياً وعلى الاتحاد الجمركي الذي قام فيها التخلف عن الركب في هذا المجال . ولكن كيف العمل وقد راح الاطباء يؤكدون ان السرعة التي يتعرض لها المسافر تعرضه لفقد بصره وبالتالي العمى،كما ان بعض المصالح الفردية الخاصة وفقدان الثقة التي يجب ان تقوم بين الدويلات الالمانية وقلة رؤوس الاموال، كل هذه التعللات قامت وانتصبت في وجه القائلين بالتطور في هذا المجال والقائلين بوجوب الاخذ باسبابه . ففي عام ١٨٣٥ فقط ، وتحت ضغط ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة توبنجن وبفضل المبادرة التي اخذها شارير، عمدة نورمبرغ ، تم انشاء فرع خط نورمبرغ – فورث . وقد وجه البروفسور ليست نفسه ، نداءً الى سكان مقاطعة ساكس دعاه « البراءة الكبرى ، الخطوط الحديدية» يحيبهم الىمعاضدة خطة تطوير المواصلات الحديدية واخذ يجمع اشتراكات المساهمين بقصد بناء خط يربط بين ليبزيغ ودرسدن ، هذا الخط الذي جرى تدشينه باحتفال عظيم ، اقيمت فيه اقواس النصر واشتركت فيه اجواق القيات . وراحت كل مدينة

تطالب بوصلها وربطها بجارتها او بأقرب نهر منها ، وكل واحدة ترغب في ان تصبح عقدة مواصلات. الا ان الحكومات المستبدة كانت في حذر من هذه المشروعات الخاصة: اذ ان القانون البروسياني كان يقيم مراقبة شديدة على كل مشاريع الاستثمارات وراحت بعض الدويلات الالمانية تحتفظ لنفسها مسبقاً بحق استثمار الخطوط الحديدية فيها. فمن المفارقات الحرّية بالملاحظة ان تلعب السلطات العامة في المانيا هذه التي تفتقر اصلاً الى حكومة مركزية دوراً اكبر من الدور الذي قامت به الحكومة الفرنسية. اذ لم تلبث ان اصبح لديها ٥٠٠٠ كلم من الخطوط الحديدية مقابل ٣٠٠٠ في فرنسا وهي شبكة تتألف من خط رئيسي يربط بين اكس لاشابل وبوزن، ماراً بهانوفر وبرلين ويقطع الانهر الكبيرة في شمالي البلاد. ومن هذا الخط تتشعب فروع نحو بريمن وهمبورغ كانت قيد الانشاء. ولما كان الرين الأوسط لا يفي تماماً بالغرض فقد تم وصل فرانكفورت بمدينة بال ، كما ان بروسيا ارتبطت بالنمسا واتصلت بها عن طريق سيليزيا وبوابة مورافيا.

وطالت فترة التردد في فرنسا وانتصب فيها جبهتان: المجددون التقدميون الجريئون، والنظاميون الرجعيون. من هنا السان سيمونيون ومهندسو الكباري والطرقات، ومن هناك رجال المال المتحفظون وفريق النبلاء الحذرون، والمنقسمون على انفسهم ذوي الموقف المتزعزع، وحكومة لويس فيليب الذي يتأرجح بين الأخذ باقتراحات له غران ومارتن دي نور ، وبين تحفظات المجلس الوطني وتردده . فلم يكن الى سنة ١٨٤٢ سوى بعض فروع قائمة . وعبثاً يحاول كل من اميل بيراير في جريدة « الناسيونال » وفلاشا في جريدة « الدستوري » وشارل دي فربيه في جريدة « الكوريدي » وشفاليه في جريدة « الدبيا » امتداح سياسة الانشاءات العامة ويحثون رجال الاقتصاد على وجوب تبنيها . صحيح ان جيمس دي روتشيلد اقتنع في نهاية الامر ليغامر بتنفيذ خط يربط بين باريس وسان جرمين ، تحت سمع الباريسيين وبصرهم، تأميناً لما فيه الترفيه والسرية عنهم . وقد ساهم الجيش الفرنسي ببناء جسر أنيير . وجرى تدشين الخط باحتفال كبير ،عام ١٨٣٧ وعند افتتاح خط نيم - بوكير راح احدهم يقرظ شعراً فوائد القاطرة، منشداً :

ما اجمل القاطرة الهوب اللاهثة
يداعب عرف شذاها النسيم العليل
مري باعربة الجود والكرم
عابرة من ارضنا السهل والجبل
دحامك الاقتم هو خير بدار
بفيض الخصب من الاتلام والحركات

وهذا الحماس يتجاوب مع نشوة الطرب يهز مشاعر ميشليه وهو في القطار من لندن الى ليفربول فيقول : خمسون فرسخاً باربع ساعات. ليس ما يستطيع وصف هذه السرعة الجنونية

التي نجتاز معها كأننا مع قصة من قصص الخيال ، هذه المناظر الغناء. نحن لا نعدو ، نحن نطير فوق الحقول المنبسطة وفوق الصخور والبطاح ، نمر سراعاً فوق الكباري المعلقة والقناطر التي تذكرنا بما نجده من فن وملاحة ، في كل لحظة والتفاتة ، بهذه المباني الاوروسكية والرومانية. نحن نحوّم فوق المهاوي والاغوار » .

اما في فرنسا فالمسافات رحبة هي وشاسعة ، واصحاب رؤوس الاموال يفضلون ربما تكفلالحكومة ، بينا اكثر المشاريع الاستثمارية تعيش فيها عيشاً نباتياً. وراح اراغو يحذر الناس من « هذه الاحلام التي يطلقونها على قضيبين من الحديد » . ففي عهد حكومة غيزو فقط ، وبفضل حركةازدهارقصيرة الامد،صدر قانون١٨٤٢الذياوجب على الدولة معاضدة المشروعات الخاصة ومؤازرتها ، انما تحت مراقبتها الرسمية واشرافها الفعلي . فتأسست في البلاد شركات جديدة ، واخـــذت الاسهم المالية تقوى في حمى من المضاربات ، وقامت ورشات احتدمت بالنشاط . فالازمة التي استبدت بالبلاد شلت الاعمال لا بل عطلتها تماماً . فالذهاب من باريس الى ليون ، عام ١٨٤٨ كان يضطر المسافر ان يستقل القطار الى كورباي ، ليعود فيستقله من جديد من ميلون الى تروى واخيراً من ديجون الى شالون . ولكن لا مندوحة له من ركوب القارب او العربة بين كورباي وميلون – وتروى وديجون ، وبين شالون وليون . ومع ان ركوب القطار يكلف ٢٥ سنتيما للكلم الواحد مقابل ٦٠ للعربة ، فالعربات تسير اسرع وتسير توا .

ففي ديوانه الشعري *Les Destinées* ، تتزى ريشة فيني بشيء من الشك المبهم عندمـــا يقول :

هذا الثور الحديدي الذي يدخن ويلهث ويخور
فاي عاصف فيه يطلق هذا الاعمى المائج ؟

من التلغراف البصري الى التلغراف البرقي

عالج القرن الثامن عشر البطء في المواصلات بالاختراعات الجديدة يكشف فيها عن اسرار القوى الطبيعية ، ويأتي بها علاجاً اولياً نشراً لافكاره وبثاً لها بالسرعة المرتجاة . فالاهتمام بتوفير وسائل الاتصـــال والاعلام عن بُعد لايزال يستبد بالخواطر حتى بعد ان اكتشف الانسان التلغراف البرقي . ففي سنة ١٨٣٨ فقط ، اعتمدت الحكومة الروسية طريقة شاب للاتصال السريع بـــين فرصوفيا وبطرسبورغ ، هذه الطريقةالتي كان لها في فرنسا اذ ذاك ٥٠٠ محطة فمكنتها الاتصال بين باريس وطولون في اقل من ١٥ دقيقة واتفق عام ١٨٣٧ ان كان الانكليزي هويتستون ، والالزاسي ستانهايل الاستاذ في جامعة ميونيخ ، والاميركي مورس ، ان تقدموا في وقت واحد تقريبـــاً ، بشهادة اختراع جهاز خاص للمخابرات السريعة عن طريق استخدام شاحنة فولطا بعد التجارب التي قام بها غوس وويبر حول المغنطيسية الكهربائية فاستنبط هويتستون طريقة المحطـــات للتغلب على عنصر المسافة وعامل المقاومة ، بينا راح ستانهايل يقترح الاخذ بالشبكة الوحيدة

تكون الارض فيها سلك رجوع ، في الوقت الذي استنبط مورس طريقة جديدة مبسطة جداً تتألف من علامات ترسم على لفافة من الورق . فبدلاً من تسجيل الاشارات الرمزية تسجل البرقية نفسها . واستطاع مورس ان يتبادل البرقيات بين واشنطون وبلطيمور عام ١٨٤٤ . ولم يمض كبير وقت حتى راح كل من برنار وولف بالاشتراك مع ارنست ورنر سيمانس ثم رويتر المعروف بصداقته لفوس يستخدمون طريقتهم هذه في هذه الوكالة للاخبار التي انشأوها . اما التلغراف البصري فقد احتفظوا به في مصالح الجيش والبحرية .

ازدهار السفن الشراعية وبدء العمل بالبخار

كانت تنقلات الانسان على البحار حتى الآن مرتبطة الى حد بعيد بمزاج الارياح والاهواء التي حاول جهده ان يكبحها او يتحكم بها بشكل او آخر . والعمل في السفن الشراعية كان مليئاً بالمخاطر والمشقات اذ تقتضي القائمين به والناهضين باعبائه واحكامه ، الكثير من المهارة والجرأة ورباطة الجأش . فعلى من يرتضي حيــاة البحر مهنة له وحرفة ان يقنع بفراش خشن وحجرة ضيقة ، ضئيلة النور ضعيفة الانارة ، فاسدة الهواء كثــيراً ما تفح منها رائحة العطن ويعيث فيها الجرذان ويعبث بها الهوام.اما طعامه فقوامه المعجنات والمملحات والتبلغ غالباً بماء مز أجاج . فهو ابداً عرضة للامراض تترصده المخاطر بين الصخور ومهاوي البحر واغــواره . وتطل عليه من سطحه واعماقه ، فيسير على بركات الرحمن مستوثقاً بالظروف والامكانات الآنية ، ويقلع ملؤه النشاط كلما سمحت له الظروف وافتر له القــدر بيسمة الامل . فوكالات السفر البحرية اخذت بتنظيم اسفار في مواعيد محددة بين نيويورك وليفربول ، شهرية في بدء الامر ثم نصف شهرية بعد حين ، كما قامت وكالات اخرى في لندن والهافر تنظم السفر الى شواطىء الهدسون، في رحلة يقتضي لها من اسبوعين الى ثلاثــة اسابيع ، ذهاباً من الشرق الى الغرب ، ومن ٣٠ — ٤٠ يوماً إياباً في الاتجاه المعاكس ، والمهم في هــذا كله تأمين الطمأنينة والسلامة اكثر من الوقت .

وبالرغم من هذا كله فقد قطع الاوروبي مسافات شاسعة فوق البحــار يخترق عبابهــا قبل ان يتاح له السيطرة على القارات والتحكم بالمسافات. فبعد ان اعتمدوا في اواخر القرن الثامن عشر السدسية *sextant* في تحديد خطوط الطول وقياس ارتفاع الاجرام السماوية وابعادهــا اكثر من اعتمادهم على الاسطرلاب ، استطاع الميقت او الكرونومتر بعد التحسينات التي ادخلها عليه كل من بريغيه وابرهيم لويس ان يسجل تطورات عظيمة في قيــاس الوقت بدقة كلية . ولن يلبث رجل البحر حتى يرى تحت تصرفــه خرائط مفصّلة لرحلات فصلية مرتكزة على رصد مهب الارياح . اما البركار فلن يصبح في مأمن من الاضطرابات التي تحدثها الجسوم المعدنية الواقعة على مقربة منه الا بعد لأي من الزمن .

فكيف السبيل والحالة هذه الى استبدال السفينــة الشراعيــة بأداة للملاحة تكون اسرع واكثر ابعاث الطمأنينة ؟ وفكرة استخدام البخار كمحرك في الملاحــة وجدت لها رواجاً اكبر

بعد نجاح تجربة السفينة التي تعمل على الفراشات في المياه الداخلية التي قاموا بها في العالم الجديد . وكانت نقطة الانطلاق هذه التجارب والاختبارات التي قام بها جوفروا دابالس على نهري الساون والسين ولاسيما التجربة التي قام بها فلتن على سفينة *Clermont* في خليج هدسون . هنالك عام ١٨١٥ نحو مائة بيروسكاف (وهو الاسم الاول للسفن البخارية) تعمل على الحطب كوقود لها لوفرة هذه المادة ورخص ثمنها بينما ارتفع هذا العدد عام ١٨٣٠ ، الى ٥٠٠ بيروسكاف . وهكذا طلع علينا الـ *steamboat* ممهداً السبيل لظهور الـ *steamer* . ولكن هل باستطاعة المركب البخاري الذي اطلقه دل وفسن على الكلايد ان يستجيب لمقتضيات رحلة بحرية طويلة ؟ فقد ارادوه للملاحة القريبة من الشواطىء ولاجتياز البحار الضيقة كبحر إيرلندا مثلاً . فليس من الغريب قط ولا ما يدعو العجب ان تجتاز « السافاناه » شمالي المحيط الاطلسي عام ١٨١٩ ، بخمسة وعشرين يوماً ، فلا تصل الى مرفأ ليفربول الا بعد ان استعانت بالشراع . وقد ذهبوا بها الى كرونستادت الا انها لم تجذب بشيء اهتمام الامبرالية الروسية ، فاضطرت النكول راجعة الى اميركا مستعينة في ذلك بالقلوع مرة اخرى . فقد برهنت التجربة على ان العجّل الذي يحرك الفرّاشات لا يعطي النتيجة المطلوبة ، اذ ان حركة السفينة من الاسفل الى المقدمة تكشفه تارة وتغطيه طوراً . ومن جهة اخرى ، ان تحتك العجلات الذي يتحكم بالآلات يفقد السفينة الكثير من قوة الدفع بعد ان يفقدها المرجل ذو المربعات قسماً كبيراً منها . فهي من جهة ثانية لا تصلح كسفينة حربية اذ انها هدف سهل المنال لرماية العدو . اما اذا ما عادت سفينة الفنكس بسرعة ٩ عقد تذيع في فرنسا على الاملين خبر سقوط مدينة الجزائر عام١٨٣٠، فالسفن التجارية لم تكن لتخلو اذ ذاك من محاذير سيئة . اما كان يقتضي لها من وقود الفحم ما يملأ كل الفراغ المخصص فيها للشحن؟ والسفينة انتربرايز وصلت كلكوتا عام ١٨٢٥ بعد رحلة استغرقت ١١٣ يوماً ، منها ٨ ايام قضتها تتار الماء والوقود في مدينة الكاب . والى هذا كان لا بد من ان يحسب المرء حساب لاخطار الحرائق والانفجارات الطارئة ، وهي اخطار لم تكن نادرة الوقوع على خطوط الملاحة . فالسفر في عرض الاوقيانوس ، بدون انقطاع او توقف، على ظهر سفينة تشحن الفحم ليس باقل خطر من رحلة يخططون الى القمر تنطلق من ليفربول، كما يؤكد ذلك العالم الرياضي لاردنير ، عام ١٨٣٥ . فليس من غرابة قط ، والحالة هذه ، ان يتردد بمواجهة البحر ، قبل الاقدام على تعريض اموالهم الخطر .

ومع هذا لم تمر ثلاث سنوات حتى وقعت التجربة التاريخية المشهورة التي قامت بها السفينة سيريوس والسفينة الاخرى *Great Western* اللتان عرفتا كيف تستفيدا من البخار والشراع معاً ، اذ قطعتا الاوقيانوس ، بين ليفربول ونيويورك ، الاول في ١٦ يوماً ونصف والثانية في ١٣ يوماً ونصف . وعلى الاثر يتعهد البحار السكتلندي صموئيل كونارد بنقل البريد على اربع سفن تجارية اولاها بريتانيا التي قطعت المسافة بين ليفربول وبوسطن بـ ١٧ يوماً محققة بذلك الاقتراح الذي تقدم به المهندس إيزمبير كنغدوم برونيل ، الى شركة *Great Western Rail Way*

بعد خطها حتى اميركا وذلك باستخدامها سفن تجارية في اسفار مطردة .

واخيراً هل في مكنة السفينة البخارية لعمري ان تستغني الى الابد عن الاشرعة التي تحتاج الى ايد عاملة كثيرة ؟ فلقد اتجهت السفانة نحو تحقيق هذا المطلب باستعمالها المروحة القائمة على مبدأ برغي ارخميدس ، هذا المبدأ الذي خطر لبعضهم ، منذ القرن الثامن عشر استعماله وتطبيقه ، والذي قام باخراجه الى حيز الوجود في وقت واحد تقريباً احد بناة السفن في بولوني هو سوفاج، ومزارع انكليزي هو بتيت سمث واركسن نفسه ؛ بين ١٨٣٢ – ١٨٤٤ . وستمر ١٥ سنة قبل ان يعم استخدام هـــذا المحرك الحلزوني او الدوامة . كذلك سيتم بالبطء نفسه من حيث التطبيق والافادة من خدماته ،الاختراع الذي وضعه هول عندما وضع المكثف السطحي الذي يرفع من حرارة المرجل ويزيد كثيراً من طاقتهـــا الآلة المزدوجة التي ستوفر الكثير من الوقود لن تظهر الوجود قبل عام ١٨٦٠ .

وفي غضون ذلك تعرف السفينة الشراعية اندفاع عن نفسها بنجاح بفضل عناية الاميركيين انفسهم وتفوقهم الذي عرفوا اثناء حروبهم عام ١٧٩٣ و ١٨١٤ ، ان يفيدوا الى حـــد بعيد، مما لديهم من احراج وغابات كثيفة ظليلة . وزادوا ثلاثة اضعاف من حجم اسطولهم فجاؤوا في المرتبة الثانية بعد انكلترا،كما انهم راحوا يقلبون النظر في كيفية التغلب على اسطول الملك جورج من حيث السرعة واستبانه ، وذلك بتنميم شكل السفينة دون ان يلحقوا اي ضرر او اي وهن بتانتها . وفي هذا السبيل اخذوا يبنون سفناً شراعية يزيد طولها ٦ او ٧ اضعاف عرضها ويجهزونها بعدد اكبر من الصواري يباعدون فيما بينها . وهكذا طلع علينا نوع جـــديد من السفن من طراز *Clipper* وهو نوع ادق قيادة لعمري وان كانت سعته دون سعة الطراز المعروف بـ *Brick* ، تسير برشاقة وسرعة باشرة ١٠٠٠ متر مربع من الاشرعة ، لها من الطاقة ما يساعدها على اجتياز المحيط الاطلسي من الشرق الى الغرب بـ ١١ يوماً لتعود إياباً بـ ١٠ يوماً . فبلغت سرعة السفينة *Lightning* عام ١٨٥٥ نحواً من ٣٣ كلم فيالساعة اي ١٨ عقدة، وهي سرعة لن تتخطاها السفينة التجارية الا بعد مرور ٢٥ سنة . والذي جعل منها بحق ملكة السفن الشراعية ورجح جانبها الى حين واولاها الافضلية على منافستها هو قدرتها على القيام بالرحلات الطويلة . الا انه بالنظر لاعـــال وتهريب الافيون الى الصين في اعقـــاب ١٨٢٥ والاتجـــار الحر بالشاي الهندي بعد ان الغت انكلترا عـــام ١٨٣٣ ، الحكر الذي تمتعت به شركة الهنـــد الانكليزية ، واكتشاف مناجم الذهب في كل من أوستراليا وكاليفورنيا ، اوجب التعويل على سفينة الـ *Clipper* واستخدامها في هذه الرحلات الطويلة ، من كلا جانبي اميركا ، من جهة بين اميركا وآسيا ، ومن اخرى بين اوروبا نفسها والقارات الاخرى . لمنذ سنة ١٨٢٦ دشنت السفينة *red rover* الاتجار بالافيون مع كلكوتا وهونغ كونغ. وفي سنة ١٨٤٥ انطلقت سفينة « قوس قزح » من نيويورك لتبلغ كنتون بعد ٩٢ يوماً . وفي سنة ١٨٤٩ قطعت السفينة الشراعية *Oriental* المسافة بين هونغ كونغ ولندن بمثل هذه المدة من الزمن.والسباق على الاتجار

بالشاي بين الشركات الانكليزية والاميركية استمر الى ان فازت انكلترا بالسبق على منافستها بعد عام ١٨٥٠ . ولكنت السفينة *Cap hornier* من ربط شمالي الاطلسي وكاليفورنيا بثلاثة اشهر بدلاً من ستة اشهر او سبعة اشهر لتدور حـــول الطرف الجنوبي العالم الجديد في طريق رجوعها من ملبورن التي تأليها متبعة طريق الكاب ورأس الرجاء الصالح . فالغوانو والنترات المتوفر بكثرة على سواحل جبال الاندس يصل اوروبا بالطريق ذاته .

وهكذا صانت الـ *Clipper* شرف السفينة الشراعية من الهوان والاستخفاف ، فالبخار لم يكسب بعد قصب السبق. ففي عام ١٨٥٠ يبلغ حجم السفن الشراعية ١٠ ملايين طن بينها ليس منها السفن البخارية غير ٧٥٠ الف طن. ومهما يكن، فحجم الاسطول البريطاني يتضاعف، وسيكون تحت تصرف الاوروبيين ، عام ١٨٧٠ نحو من ١٤ مليون برميل مقابل ٣ أو ٤ ملايين، عام ١٨١٥ .

الفصل الرابع

الدفع الرأسمالي والبورجوازي

« فقد اتخذوا لهم من وكالتهم معبداً ومن مكاتبهم كرسياً للاعتراف ومن ملطفاتهم توراة ومن مستودع بضائعهم محل . فاجراس الصلق تقرع عندهم السلام اللانكي ، والذهب الرنان اصبح معبودهم ، والاعتماد المالي دينهم ومذهبهم » .

(هنري هاين : رسائل من برلين)

حقبة تسيطر عليها حاجة ملحة للنقد

سارت التكنولوجيا قدماً الى الامام . فهل توفر لهم الاسواق التجارية ما يطمع المجتمع بتحقيقه من اهداف تسعى الوسائل التقنية الى تحقيقها . وكما حدث في القرن الثامن عشر ، عهد اشتداد الحاجة للنقد والسيولة ، نرى ان انتاج المعادن الثمينة اخذ بالهبوط، اذ لم يعد هذا الانتاج ليتجاوز ٢٠،٠٠٠ كيلو من الذهب قبل سنة ١٨٤٠ ، بينما ارتفع هذا الانتاج ، بين ١٨٤٠ – ١٨٥٠ الى ٥٥،٠٠٠ كيلو ، ليسجل بين ١٨٥١ – ١٨٥٥ انتاجاً يقدر بـ ٢٠٠،٠٠٠ كيلوغرام . وحركة ارتفاع الاسعار التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر توقفت تماماً بمداعادة السلام واستتبابه تماماً في القارة . فاذا ما عدنا نتمعن النظر في الكشوف البيانية [1] ونحلل ارقامها لاحظنا هبوطاً ملحوظاً يستمر حتى عام ١٨٥٠ .

رافق حركة الاستثمارات هذه نزعة الى احداث تخفيض في الاجور بعد ان توفرت في معظم البلدان ، اليد العاملة ، وهي نزعة تأرجحت بين فرص الحماية الجمركية وبين النزعة الى التوسع

(١) راجع الكشف البياني ، ص ص ٨٨ . كذلك من المستحب الرجوع الى الكشوف البيانية الاخرى المنشورة في المجلد الخامس من تاريخ الحضارات العام ، ٥٩٣ ـ ٥٩٠ (الطبعة العربية).

في الحركة التجارية . فاذا كان رأس المال يدر ربحاً صافياً لم يكن مع ذلك ليخرج من صناديقه بسهولة . ولعل خير من يرسم لنا صورة واقعية عن الوضع السائد اذ ذاك هو هذه الشخصيات التي يمثلها الاب غرانديه لبلزاك ، والبخيل في رواية « اجراس كورنفيل » ، ولا سيا شخصية مردستون وشقيقته في رواية دافيد كوبرفيلد ، ورواية السير رالف نيكلباي لديكنس ، حيث نرى غوبسك يقرض بفائدة ٥٠ و ١٠٠ ٪ . وعند اقل بادرة او اشارة خطر تظهر في وضع شركة تجارية او مصرف مالي ، يتهافت الناس على المصرف ويندفعون لسحب ودائعهم . فالمهم قبل كل شيء في دنيا الاعمال ، هو تاريخ الاستحقاق وشهرة ومكانة اقوى المحلات التجارية وارسخها ، فتصبح تحت رحمة مدين لا يستطيع وفاء ديونه . ولذا كثيراً ما يلجأ ارباب المال والاعمال الى استعمال القوة والاكراه ، والسجن يؤلف عندهم سيفاً مصلتاً فوق رأس الدائن العاجز بعد ان انزله الشارع منزلة السارق .

الدول : مصاعبها المالية ومشكلاتها

من الامور التي لها دلالتها في فرنسا ، بعد اعادة الملكية ورجوع الشرعية اليها ، الرغبة في عصر موازنة الدولة وتشحيلها ، على اعتبار ان كل انفاق لا كبير مبرر له يلحق الضرر بالوضع المالي العام الذي تتحكم فيه البلاد . ففي بريطانيا العظمى نفسها ، بلغ من ضعف الثقة بالوضع المالي بحيث ان التغطية الذهبية للبنك الاهلي فيها ، عجزت مرتين عن منع الذعر يدب بين الاهلين كما عجزت عن منع حوادث افلاس بالجملة .

ومن جهة اخرى ، فالرجوع الى التعامل من جديد بالنقد المعدني كان من شأنه ان يسبب هبوطاً في الاسعار . فالسوق يرتاح الى الطمأنينة ويؤثرها على التوسع في حركة الاعمال .

فالتداول بالأسيناه ، ترك في فرنسا ذكريات مريرة استمرت طويلاً في الخواطر والاذهان. فتلك قيمة القسيمة لم يتجاوز الالف فرنك، والقسائم ذوات الخمسين فرنكاً ، لم تدفع قيمتها قبل ١٨٦٥ . والبنك الاهلي في بروسيا فرض عليه نظام شديد ووضع تحت مراقبة شديدة من قبل الدولة البروسيانية حتى انه لم يتمتع بحق حسم السندات المالية الا في سنة ١٨٤٦ وكذلك بحق التسليف . فحكومات النمسا وروسيا واسبانيا وادارة صغار الامراء الايطاليين كلهم في عسر مالي وحاجة ملحة النقد .

ان اجبار المصارف في الولايات المتحدة الامركية على دفع السندات بالعملة المعدنية أثار صعوبات كثيرة بين وزارة المال وبين خصومها من كبار المزارعين في الولايات الجنوبية ، والرواد في الغرب، وصغار الملاكين في الشرق الشمالي الذي راحوا يشكون من فداحة الضرائب ورسوم الايجارات المحددة بالعملة المعدنية . وعندما راح جاكسون ، عام ١٨٣٦ ، نزولاً عند ثورة الشعب وتحقيقاً لمطالبه ، يتجاوز امتيازات البنك الاهلي ، حدثت في البلاد ازمة عنيفة امتدت عقابيلها الى جميع ارجاء اوروبا .

كبار رجال المال والحكومات

يجد ستندال الملاحظة ويعبر بعمق عندما يقول : المصرف هو رأس الدولة . فالبورجوازية حلت محل حي سان جرمين ، واصبح المصرف بالتالي بالنسبة الطبقة البورجوازية ما كانته طبقة النبلاء بالنسبة الشعب » .فقد طلعت على البلاد اوليغارشية مالية لم يعد في وسع الحكومات تجاهلها والاغضاء من شأنها ، معظم اعضائها ينتمون الطائفة الانجيلية . وقد اخذوا يشيرون الى هذه الفئة، منذ عام ١٨١٥ ، باسم كبار رجال المال ، وانخرط في صفوفها بعض اصحاب المصارف من اليهود الالمان ، امثال هاين . وقد تمتع اصحاب هذه الاقلية بسمعة مالية قوية واخذوا يتحكمون بمصرف فرنسا الذي رأى النور تحت جناح ورعاية المالي الكبير بيريغو من سكان نيوشاتل . وقام في لندن آل بيرنغ، هذا البيت المالي الذي يعود اصله الى ابن قسيس في مدينة بريمنهو فرنسيس بيرنغ ، مدير شركة الهند والذي مد يداً سخية ليبت في المشاريع التي نهض بها . وبعده طلع اسكندر الذي اصبح فيها بعد اللورد أشبرتن الذي آل اليه الاشراف ، بين ١٨١٥ – ١٨١٨ ، على الاعمال المالية الضخمة التي جرت في هذه الفترة،ثم دخل شريكاً مع آل هوب في امستردام وباريس . وقد تمكن احد حفدته هو اللورد نورثبروك ان يتولى مقدرات وزارة الخزينة ثم وزارة المالية .وقد تحلى افراد هذه الفئة بالفطنة والحذق وحسن الاطلاع وهي كلهامن هذه الصفات التي ميزت كبار رجال المال اذ ذاك . فقد اتقنوا الى حد بعيد ، معاملات الكومسيون (الوساطة) في كل ما يتصل بشراء وبيع السفاتج والسندات المالية واسهم المعادن الثمينة لحساب الغير ، كا تمت لهم في الوقت ذاته خبرات واسعة في الاعمال التجارية الكبيرة ، كا هي حال آل ايشبورن في مدينة بريسلو الذين هيمنوا على مصانع نسيج الكتان وتجارة البن ، كا ان آل هلتزمان اصحاب مصانع الاصواف ، انشأوا لهم شركة التأمين ، كما ان انطوان برليه أسس مع شقيقه كزمير مصرفاً له ، وامتلك مصانع لتكرير السكر ومعامل النسيج ، ومسبكا للحديد والصب في شايو ، كذلك تعاطى تجارة غاز الانارة .

لم تسجل الاسواق المالية حتى عام ١٨٣٠ تطوراً كبيراً . فالمصافق او البورصات التي نشطت اذ ذاك ولا سيا بورصة الاسهم المالية في لندن لا تتداول بسوى قسم ضئيل من الاسهم العائدة لبعض الحلات الصناعية ، فالاعمال التي تستأثر بالانتباه والنشاط هي المعاملات العائدة للقروض التي تجريها الدول والتي كان يرغب فيها كثيراً اصحاب رؤوس الاموال وتحوز رضاهم . فالمصارف الكبرى تلعب هنا بالفعل دور المصالح الادارية في تأمين الخدمات العامة .

ثروة آل روتشيلد

لاحظ جنتز مستشار مترنيخ ورفيقه في مؤتمر فيينا ، بما له من شدة الفراسة ودقة الملاحظة ، ان آل روتشيلد « يتمتعون بغريزة مدهشة وموهبة ممتازة يتبنون معها احسن الحلول العارضة يختارون الافضل بين حلين جيدين ». فقد كان المؤتمر المذكور فرصة طيبة عرضت امام هذه الاسرة التي كتب لها ان تبرز وتلمع من بين هذه

البيوتات المالية الكبرى التي كتب لها ان تلعب بمقدرات الدول في القرن التاسع عشر .

يعود اصل هذه الاسرة البعيد الى الطائفة الاسرائيلية في مدينة فرانكفورت حيث كان جدهما الاول أمشل - ماير يتعاطى بنجاح، اعمال الصرافة ويدير بكل جدارة اعمال منتخب هس كاسل ومصالحه العديدة. وقد رزقه الله خمسة اولاد عرفوا بـ « سادة فرانكفورت الخمسة » ، تسلم اكبرهم المدعو أمشل ادارة اعمالهم في فرانكفورت بينما استقر اخـوه سلومون في فيينا واتجه اخوهم الثالث ناثان ، وهو اكثرهم وأبلغهم الى لندن ، بينا توجه جاكوب او جيمس الى باريس ، واتخذ اصغرهم كارل مقراً له في نابولي . واعتاد هؤلاء الاخوة ان يعقدوا - كل سنة في المدينة الامبراطورية الحرة ، اجتماعاً لهم يستعرضون فيه سير العمل في علاقاتهم على ضـوء بيانات وكشوف دقيقة ، ودراسة الاوضاع العارضة . وسواء أصحت عملية مضاربة مالية ضخمة قاموا بها بمناسبة معركة واترلو التاريخية ام كذُبت ، فقد كرست هذه العملية شهرتهم وجعلتهم اشد اطلاعاً على بواطن الامور وخفاياها ، من رؤساء الدول وملوكها . فقد اصبح آل روتشيلد المموِّلين الاوائل لدول الحلف وشركاتهم . ويقوم سر النجاح الذي اصابوه ، بتأمينهم نقل مبالغ ضخمة قد تكون صورية او وهمية ، بين انكلترا وشركائها ، في ظروف صعبة ، خطرة من الحروب القائمة، في وقت كان نقل مبالغ ضخمة من المـال لمسافات بعيدة ، محفوفاً بالاخطار . فاتخذوا لحلفهم شعاراً ان دل على شيء فعلى ما جاشت به نفوسهم من اعتداد وطموح بعيد وهو شعار تألف من الكلمات الثلاث اي : إتفاق ، مهارة ، نزاهـة .

وهكذا لم يبق في وسع الملوك الاستغناء عن خدماتهم .ومعظم عمليات القروض الكبرى التي وقعت بعد عام ١٨٢٠ تمت على ايديهم وبواسطتهم . وكافأهم الامبراطور فرنسوا باعطائهم لقب بارون . ولما كان من المهم جداً لديهم ان يسود الامن بين الدول والشعوب بحيث ينصرفون هم لاعمالهم التجارية والمالية بطمأنينة ، فقد حرصوا جهدهم على تأمين اسباب التفاهم بين الملوك والامراء. ففي الوقت الذي كانوا فيه يُتهمون بتحسين وضع ابناء ملتهم في العقيدة والدين الذين كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهادات ، فقد راحوا يعملون على توطيد اسباب النظام بعد ان عاد السلام الى اوروبا . وكيف لا تقلق خواطرهم وتجزع نفوسهم على ثرواتهم الطائلة بعـد ان اصبحت اسطورية ومضرب الامثـال بين الناس ؟ فقـد راحوا يستثمرون اموالهم في مشروعات عديدة على شاكلة آل فوجرز قديماً . فقد حازوا على مناجم الزئبق في ادريا كما راح ناثان يعمل لتأمين سيطرته على مناجم المادن في الوقت الذي كان فيه سلومون الذي يسيطر على مناجم وافران فتكوفتش الصب يعمل على تأسيس شركة لويد النمساوية للاسفار البحرية. كذلك عنوا بتجارة الشاي والتبغ. وامتلكوا لهم اماكن للراحة والاستجمام والترفيه عن النفس، وابتنوا لهم دارات وقصوراً جمة يقيمون فيها الحفلات الواسعة ويستقبلون علية القوم بكل مظاهر البذخ والأبهة . وقد عرف ناثان وابنه ليونيل ان يتغلغلا في صميم الارستوقراطية البريطانيـة ، بحيث راحت مدينة لندن تنتخب عام ١٨٤٧ ليونيل ممثلاً لها في مجلس العموم. إلا انه لم يتمكن

من القيام بالمهمة الملقاة عليه والمشاركة بأعمال المجلس . واعادت البلدية انتخابه من جديد عام ١٨٥٨ ، وجرى تعديل نص القسَم لاجله ليتمكن من القيام بواجباته كعضو في المجلس . وكارل الذي اصبح شخصاً مرغوباً به في نابولي ، عرف ان يكسب ثقة الادارة البابوية . فقد قدم له البابا يده ليقبلها وعلق على صدره الاوسمة البابوية. امــا جيمس البارون الذي كان اصهب الشعر ، احمر الوجه والذي كان يتكلم الفرنسية بلهجة المانية ظاهرة ويقيم من الولائم والمآدب السخية ما يدهش الناس لما فيها من بذخ واسراف، فقد راق له ان يلعب دور نصير الادباء والادباء والفنانين . فقد اخذ على عهدته مؤازرة ميربير – كما اخذ تحت جناح حمايته برليوز وهاين ، وسلف بلزاك ما يحتاج اليه من مال بعد ان قدم له مؤلفاته واخذ يجمع الآثار الفنية .

ومع انه دخل في خدمة آل روتشيلد صحفيون أمنوا لهم كل اسباب الدعـــاية وعضدوا مشاريعهم – من ذلك انهم عرفوا كيف يصطنعون جنتز ويؤمنون موالاتــه – فالنجاح الذي حققوه لم يؤلف مع ذلك تياراً موالياً للسامية . كان آل روتشيلد مضرب الامثال في الغنى والثراء اذ كانوا يقولون : هو في غنى روتشيلد ، قول يردده الناس بشيء من الاعجــاب الذي يشوبه الحسد أو النعرة فقد تعرضت عام ١٨٣٠ ، حياتهم للخطر . وفي سنة ١٨٤٨ اضرمت النيران في قصرهم الصغير في غابة فنسين على مقربة من باريس كما ان سلومون اضطر للنجاة بنفسه والهرب من قصره الواقع في فيينا بعد ان هاجمه الثوار . وكان باستطاعة توسيـل وهو من القائلين بمذهب فوريه الفلسفية ان يصرح عام ١٨٤٤ وان يكتب وينشر عـام ١٨٤٧ ، رسالة بعنوان : « اليهود هم مـلوك العصر » جاء فيها قوله : « ما من احد يعترف ويقدّر اكثر مني ما للامة اليهودية ، من عبقرية وموهبة عالية . فليس من ملك في فرنسا غير اليهود . فاليهودي هو الذي يملك عندنا ويحكم . فاليهودي الانكليزي والهولنـدي والجنيفي يؤلف اليوم اسباط اسرائيل الاربعة ، اسرائيل الذي يدعي انه شعب الله المختار ، هذا الشعب الضاري ، المفترس الذي يعيش على الخطف والربا الفاحش ، والذي ينهش في جسم البشرية نهش النسور الجيف » .

الشعور بالحاجة الى توزيع احسن في الثـروة

ارستوقراطية المال الحذرةهذه، تهزها الى الاعماق نظرية السان سيمونية التي راحت تطالب بتوزيع أفضل للثروة بين الناس.والحال، فالتجارة والصناعة لا تزدهران إلا ضمن تسهيلات خاصة تؤمن لهـا النجاح في عمليات الحسم والتسليف .

وقد جاء فريداً في بابه اقدام البلاد الواطية على تأسيس الشركة العامة لتشجيع الصناعة الوطنية بحيث يمكن اعتبار هذه الشركة أول مصرف نشأ في القارة لتشجيع الاعمال المالية . فقد اصيبت مشروعات لافيت في فرنسا بالفشل ، فجاءت محاولاته هذه نذيراً بطلوع محاولات بيرايـر في عهد الامبراطورية الثانية .

وهذا النهج الجديد في الاعمال المصرفية لقي قبولاً في انكلترا التي اصدرت قانوناً خـاصاً

يتيح انشاء شركات مساهمة القطع ادارتها مشتركة بين رجال الصناعة والتجارة ، مهمتها تسهيل وتيسير الاعمال التجارية الكبرى . وسيمضي وقت طويل قبل ان تتمكن هذه الشركات من القضاء على ما اكتنف اعمالها ونشاطاتها الاولى من التشكيك والظنة .

فالشركات المعروفة بـ *Commandite* او شركات التوصية المساهمة هي في طريقها للظهور، في ظروف اكثر ملاءمة تتيح لها الازدهار ، مفسحة الطريق امام الشركات المغفلة التي تمثل طرازاً او طوراً جديداً من اطوار ازدهار رأس المال ، وهي شركات توقع طلوعها بعد حين بعض بعيدي النظر في الشؤون المالية .

مطرقة سيطرة رأس المال على الرأي العام . الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة

كان المالي الفرنسي نيكر يطلق اهمية كبرى على هذه القوة الجديدة الطالعة التي كان يحلو له ان يسميها «الملك المجهول» الرأي العام . فقد استقر في روع الجميع ان المطبوعة ، على اختلاف لبوسها ، ولا سيما الصحيفة الدورية هي التي تساعد على خلق هذا الرأي العام وتكوينه . فاذا ما اخضعت الحكومة الصحيفة الثمنة والكفالة المالية استطاعت ان تؤثر عليها وان تخضعها لحضانة رأس المال وكفالته . ويلاحظ مونتلبير بكثير من الحذق والبصيرة ، وقد كان من كبار الصحفيين في زمانه « ان الدولة تجهل كيف تربح المعارك بدون التضحية بجنودها ولا تعرف ان تؤمن نشر الجرائد في البلاد دون ان تبذل فلوسها » . ولذا كان عدد الدوريات قليلاً ومحدوداً ، كما انها كانت تسحب اعداداً محدودة تكلفها غالياً . فالناس كانوا اذ ذاك يذهبون للمقاهي لقراءة الجريدة ، ولذا أخذت هذه المقاهي تشترك بالجرائد اجتذاباً منها لزبن جدد . فالرأي العام كان متعطشاً للاطلاع والمعرفة .

لا شك قط في ان الطابعة الميكانيكية كانت خير وسيلة وأفضل اداة في يد جون ولتر، مدير جريدة التيمس، اتاحت له عملية تضعيف النسخ بسرعة اكبر . ولما تبين لهذا الرائد، على ضوء الاختبار، بان البريد بطيء جداً في حركاته وتنقلاته بحيث لا يفي بالغرض، فقد خطر له ان ينشيء مراسلين . فأنشأ في هذا السبيل ادارة خاصة ادخل عليها البحار توماس فلتشر وغهورن تحسينات جمة عُرفت عندهم بالبريد القاري أو « بريد الهند » . وأخذت تظهر اذ ذاك وكالات للاخبار لم تلبث ان السعت شبكتها وامتدت في جميع الانحاء ، غايتها جمع الاخبار والانباء. انشئت اول هذه الوكالات عام ١٨٣٥ بناء على اقتراح تقدم به شارل هافاس الذي ربط بين باريس ولندن وبروكسل ، بشبكة من المواصلات السريعة مستخدماً لها حمام الزاجل ثم الخط الحديدي واخيراً التلغراف البرقي . . وحذا حذوه في هذا المضمار رويتر احد مستخدميه وكذلك وولف، هذا في برلين وذاك في لندن . وفي الوقت ذاته راحوا يكثرون من الاعلانات بقصد الدعاوة بحيث احتل قسم الاعلان في جريدة التيمس ، كل يوم ، ٦٠ حقلاً أو عموداً ، وهكذا اطل علينا الاعلان الصحفي والنبأ التجاري . فهنا يكمن على ما نرى ،

سر الصحيفة الرخيصة . واخذت الشمس تنشر كل يوم مئات الاعلانات التجارية الثقيلة ، وبذلك غطت النفقات الباهظة التي تكبدها في سبيل جمع الانباء وتأمين الاخبار الجديدة المشوقة ، ودفع أجور المقالات العلمية والادبية التي كانت تكتبها بعض الاقلام الشهيرة التي تتابع نشرها . وفي اميركا اخذ بنجمين داي يبيع جريدته بسعر سنتين العدد الواحد ، مثبتاً الاعلانات التجارية بين الاخبار المشوقة .وراح غوردون بنيت يصدر جريدة المورننغ هيرالد التي عينت مراسلين لها في الخارج يمدونها بالاخبار ، مشددة على الحوادث المختلفة التي تثير الاهتمام .

وبعد ذلك بقليل أطل اميل دوجاردن وتمكن ، بعد محاولات شتى ، من اصدار جريدة يومية جعل اشتراكها السنوي ٤٠ فرنكاً بدلاً من ٨٠ ، وهكذا ظهرت جريدة « الصحافة » كما ظهرت في الحين ذاته جريدة « الجيل » بمساعدةأحد المتمولين يدعى دوتاك ، فامتنع على دوجاردن التفاهم وبالتالي التعارن معه ، فاذا كان الفضل في رواجها يعود أصلاً للاعلانوالدعاوة فقد كان من نشرها الروايات المسلسلة المشوقة اثره البعيد في الترويج لها. وبعد النقد الذي قوبل به النهج الجديد من جانب بعض الكتاب ، أخذ بعض حملة الاقلام الذين يتمتعون بشهرة واسعة امثال بلزاك وجورج صاند يساهمون في التحرير . وراح الكسندر دوماس واوجين سو يؤمنان لها شهرة واسعة . وازدادت جريدة الـ *Débats* انتشاراً بين الناس وذيوعاً بنشرها مسلسلة رواية « اسرار باريس» ، كما راحت جريدة الدستور تنشر على الطريقة ذاتها رواية اليهودي التائه ، وبذلك عولت الجريدة اكثر فاكثر على الاعلان وزادت انتشاراً وأمنت بالتالي ارباحاً كبيرة . ووقعتجريدة الديبا والدستور اتفاقاًمع الشركة العامة للاعلان،هذه الشركة التي ألفها بعض أتباع سان سيمون ، امثال دو فريب وبيرابر وارلس – دو فور .

وراح بلزاك يضع على لسان احد شخوص رواياته ، بشيء من الغلو هذا الكلام: «كل الجرائد جبانة ، مداجية ، وكاذبة ، لا اخلاق لها ، سفاكة . فهي مقتلة الافكار والنظريات والناس وبذلك نجاحها وازدهارها » .

بين التجار وصناع

فالاستثمارات الفردية والعائلية تشكل النظام المسيطر للآن . فنحن في عصر المسؤولية غير المحددة وفقاً للقوانين المعمول بها. فالمشروعات هي في الغالب بنت المبادرة الشخصية الجريئة ولذا تعرضت لمخاطر كثيرة.

فنظام التاجر الصناعي لا يزال هو المعمول به للآن على الغالب . فالتاجر يبيع السلع التي تخرج من مصنعه ويتصرف على هواه بما يتوفر له من رؤوس الأموال ، وهو مطلع على متطلبات الاسواق ومستلزماتها ويؤمن بنفسه المواد الأولية ليد عاملة متوفرة ، عُرفت بمهارتها اليدوية تتمتع بما تم له من صنعة ، بتقدير الجميع واحترامهم .. وقد لوحظ جيداً ان هذا النظام العائلي استمر الأخذ به والنهج على منواله في صناعة الحياكة . فالحائك العامل في منزله أو بيته سيصمد

طويلاً في وجه مزاحمة المعمل له بالرغم من البؤس والشح والتقتير الذي يرزح تحتـه . والمشغل العائلي ، سيصمد هو الآخر في وجـه المصنع حيث العمل اخذ يتجه نحو المركزية . ولعـل خير مثل نضربه على هذا النمط من النشاط الذي يجعل الصناعة مرتبطة بالتجارة تابعة لها ،هو المصنع الليوني (في مدينة ليون) اذ يبدو لنا صاحب المصنع تاجراً أو من كبار التجار احياناً ، يوزع النشاطات في مصنعه ويقسّمها بين معلمي الكار ورؤساء الورش يجري عليهـم الرزق والمرتبات كلا بحسب درجته من الفن والصنعة والتقنية . والنشاطات التي يضطر التخلي عنها هـذا النظام الصناعي العائلي هي التي تتمثل في الحياكة والنساجة . إلا أنـه يبقى محتفظاً بالنشاطات التكميلية كصنع الملابس التحتانية والقبعات وما أشبه . وسيُعرف هذا النشاط في الصناعة باسم « النظام المفرّق » .

ومع ذلك فقد برز في المجال التجاري نشاطات جديدة كتجارة الفرادى او المفرق وتجارة الجملة التي جاءت وسطاً بين الصناعة والتاجر الصغير وهكذا أطلت علينا بيوتات تجارية كبيرة تعنى بالاستيراد او بالتصدير . وفئة الوسطاء والعملاء زادت كثيراً من نشاط الحركة التجارية . كذلك ظهر للوجود « العميل الرحالة » . فها هو كوبدن يقطع كل يوم ٥٠ كيلومتراً يعمل في سني حداثته عميلاً في صناعة الموسلين ، وقسمات هذا العميل خلدهـا بلزاك في الصورة الـتي وضعها « لغوديسار » المشهور .

فاذا ما طمحت التجارة بالجملة لتوفير السلع والبضائع لاصحاب الدكاكين والباعـة بالمفرق ، فقد أخذ الدكان والاعمال التي تتم فيه يرتدي طابع عمل تجاري له شأنـه . فقد زالت من الوجود معالم تاجر الفرادى الصغير والدكان المتواضع الحقير أمام ما اصطلحوا على تسميته بالمخزن الكبير ، هذا الطراز الجديد من المحلات التجارية التي تعمل على إرضاء زبائنها وتلبية رغائبهم وفقاً لامزجتهم وأهوائهم . ومن الرواد في هذا المجال نرى في باريس البقال باريسو الذي حـذا حذو لابيل جاردينير وتخصص ببيع ملابس النساء الداخلية ، ثم اعتزل العمل في وقت مبكر بعـد أن جمع ثروة لا تقل عن ٣ ملايين. والسعي وراء « الجديد » والرغبة في حيازته ، ساعـد على ظهور مخازن كبيرة ، منها مثلاً المحـل التجـاري المعروف بـ (*Les Deux Magots*) ، ومخزن (*Le Bonhomme Richard*) والمخزن المعروف بـ (*Les Trois Quartiers*) . وقـد رأت الجريدة الهزلية شاريفاري في هذا الطراز من المحلات التجارية ما أطلقت عليه اسم المخازن العملاقة وراحت تعطي عنها بصورة هزلية رسوماً وصوراً معقدة . وبتخصصه ببيع المصنوعات من الجلد الممتاز ، وباحترامه الوزن الدقيق الى اقصى حد استطاع البقال بونرو أن يحقق له شهرة واسعة في هذا المجال ، جاء ينافسه اياها فيا بعد صاحب محلات بوتين الذي باشر بانشاء مراكز فرعية للتموين في الملحقات .

عاد عدد كبير من اصحاب المصانع لابناء طبقة النبلاء . فأبناء هـذه الطبقة في انكلترا

يهيمنون على عدد كبير من المؤسسات الصناعية . وعلى هذا قس أيضاً في بروسيا ابناء طبقة (*Junkertum*) . وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تطوير ما يعرف بنظام الفبارك . ففي معظم الحالات نحن أمام عامل يدوي متواضع يستثمر لحسابه الخاص طريقة جديدة استحدثها أو اخترعها اكتشفه ، وتحت تصرفه المال اللازم لاستثماره بإشراف او اشتراك أحد ارباب المال . فها هو ستيفنسن يتعاون معه الكويكر بيازالقري المقيم في ارلنغتن ؛ وها هو ماسون صانع الريّش والاقلام في منشستر يستثمر الاختراعات التي تمت على يد الكنغن في عمليات التفضيض والتذهيب . وصنع وليم كوكريل لحساب سيمونيس وبيوليه في فرفيه ، آلات الحلاجة والحياكة التي شوهدت لاول مرة على القارة . واضاف احد اولاده المدعو جون الى مصانعه العديدة في سيرانغ حوالي عشرين معملاً وزعها على بلجيكا وفرنسا والمانيا وبولونيا . واوجين شنيدر ، حفيد أحد القواد من تلاميذ الفوج الاول الذي تخرج من مدرسة الفنون العليا (البولتكنيك) كان رفيق الحال لما دُعي لاستلام ادارة مسابك بازاي الواقعة على مقربة من سيدان ، واستطاع مع شقيقه أدولف أن يبعث النشاط في معامل كروزو بعد أن أصيبت بالجمود . وقد عملا فيما بعد في مصرف سايلر الذي كان شريك توصية في شركة شنيدر وشركاه . وتمكن فرنسوا وندل من اعادة النشاط الى معامل ديانج ، وذلك بفضل مؤازرة أحد الطرفين في ميلهوز وبتطبيق الطريقة الانكليزية في عملية تسويط الحديد . كذلك كانوا مهندسين آل موني ودوربان وتالابو الذين استعانوا بالاموال الموضوعة تحت تصرفهم لاستثمار ثقافتهم الفنية .

نحن هنا أمام معين لا ينضب من أرباب الصناعة عرفوا بنشاطهم وجهادهم وكفاحهم في مواجهة مسؤولياتهم الواعية . وهذا المصنع الموجود في محيط ريفي يؤلف مؤسسة مغلقة على نفسها . فهي ملك سيدها ورئيسها ، يوجهها كما يوجه عقاراً يديره على هواه ، لا تترك ابويته للسلطات العامة أي باب لتتدخل في اموره الا فيما يتعلق بالمحافظة على النظام والامن الداخليين وضبط العامل ، وذلك بما لها من أسوار عالية هي أشبه ما يكون بسجن يعزز كقلعة تسيطر عليها الاقطاعية الصناعية .

الاقتصاد : تطوره ومشكلاته
حمّى الصناعة

بالرغم من التغييرات التي طرأت على النظام السياسي والنهج المتبع ، فقد استمر الانتاج وحركة المبادلات التجارية في نموها الصاعد .

فالانتاج تضاعف على الاجمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ . ففي انكلترا وحدها زاد انتاجها من الحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل ، كما زاد انتاجها من الفحم أربعة اضعاف عما كان عليه عام ١٧٨٩ . وزاد انتاج فرنسا من الفحم والصب والحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٨١٥ . ونلاحظ حدوث مثل هذه الزيادة لدى كل من بروسيا وروسيا . أما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالتطور الذي تم عندها خلال هذه الحقبة هو جدير بكل

اهتام وتقدير . فقد زاد انتاج الفحم عندها عشرة أضعاف ، كما ان انتاجها من الحديد زاد ١٢ ضعفاً . وقطاع النسيج الذي يأتي في طليعة القطاعات الاخرى في تلك البلاد بلشاطه ، زاد بالنسبة ذاتها .

ومع هذا ، فالتقدم يبدو أدنى مما حققه القرن الثامن عشر في هذا المضمار ، ومن التطور الذي تم فيما بعد . فقد تطورت الحركة التجارية في الدول الغربية ١٠٠٪ بين ١٧١٧ و ١٧٥٠ بينما تطور هذه الحركة بين ١٨١٥ - ١٨٥٠ لا يتعدى قط ١٥٠٪ . والسبب في ذلك هو ان الاستهلاك لم يتطور بسرعة أكبر . فالسوق الريفية ، وهي عنصر هام في الموضوع، لها قدرة محدودة على الشراء في وقت لم تكن الطاقة الانتاجية فيه كافية لتلبية الطلب . اما العمال أو الشغيلة فهم في وضع زري ، على الاجمال . قرب العمل يلشدد كثيراً تجاههم مع أن الوضع المسيطر اذ ذاك لم يكن ليخلو من مخاطر تهدده . فالعالم الرأسمالي يعاني أزمات عديدة ليس ريفية فحسب بل أيضاً يشكو انكماش الاسواق المالية .

ومهما بلغ من تفاؤل علماء الاقتصاد الاحرار من تلاميذ آدم سميث ، فلا يمكن تجاهل الصعوبات الكامنة . فقد نفى الاقتصادي الاميركي جون ستيوارت مل عام ١٨٤٨ : « الركود الشامل الذي يعاني منه الوضع » . وقد سبق لسيسموندي فصرح : « بأن هذا هو الوضع نفسه في كل الازمنة » ، وأن الازمة هي نتيجة محتومة لهذا التطور الذي بلغه الرأسمال الاقتصادي ، هذا النشاط من الاقتصاد الذي شجبته المدرسة التي تطالب بنظام عُرف فيما بعد بالنظام الاشتراكي .

ولذا راحت المصالح الكبرى تتجه بأنظارها نحو الدولة. وفي هذا السبيل أصدرت انكلترا بعد عام ١٨١٥ ، قوانين الحبوب تسييجاً منها حول ما يعرف عندهم (*The Landed interest*) محافظة منها على ريع الأرض والدخل العقاري . أما في فرنسا فالتحالف القائم بين البورجوازية وبين كبار الملاكين حمل الحكومة على اتخاذ سياسة حماية شديدة. وفي الولايات المتحدة الاميركية، لا يتطور النظام المعروف بـ (*Factory System*) الا في ظل تعريفات حماية تفرض رسوماً عالية. وعلماء الاقتصاد في بروسيا الذين وضعوا الاتحاد الجمركي المعروف *Zollverein* ، انما رموا من وراء تشكيله الى ايجاد سوق وطنية تشبهاً برجال عام ١٧٨٩ . ومما له من مغزى خاص، الموقف الذي وقفه ليست الذي راح يضع عام ١٨٢٧ ،بعد أن تبين نظام الحماية،الذي تعيش فيه الولايات المتحدة في ظله ، وهو نظام شمل قارة بأسرها ، كتابه المعنون : « محاولة اقامة نظام اقتصادي سياسي جديد » تدليلاً على حسناته لمجموعة من الولايات تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها. ان مثل هذا النظام الاقتصادي الوطني هو سليل هذه الروح التجارية التي جاشت بها نفوس الملوك والامراء ، هذه الروح التي جرى التعبير عنها عام ١٨٤١ ، خير تعبير ، في الكتاب الموسوم : « النظام الاقتصادي الوطني » ، وقد راق الكتاب في عيني الامبراطور نقولا الاول فأمر بنقله مع الكتاب السالف الذكر الى الروسية .

هذه السياسة القطرية او الانانية القائمة على الحماية كانت تسيء في الصميم الى الرأسمالية الفتية التي بالتفاؤل . ولما كان تلاميذ آدم سمث منطقيين مع انفسهم توجب عليهم التسليم بفائـ العمل بحيث يشمل العالم اجمع. ان معاهدة ايدن ـ رينفال المعقودة عام ١٧٨٦ تركـ

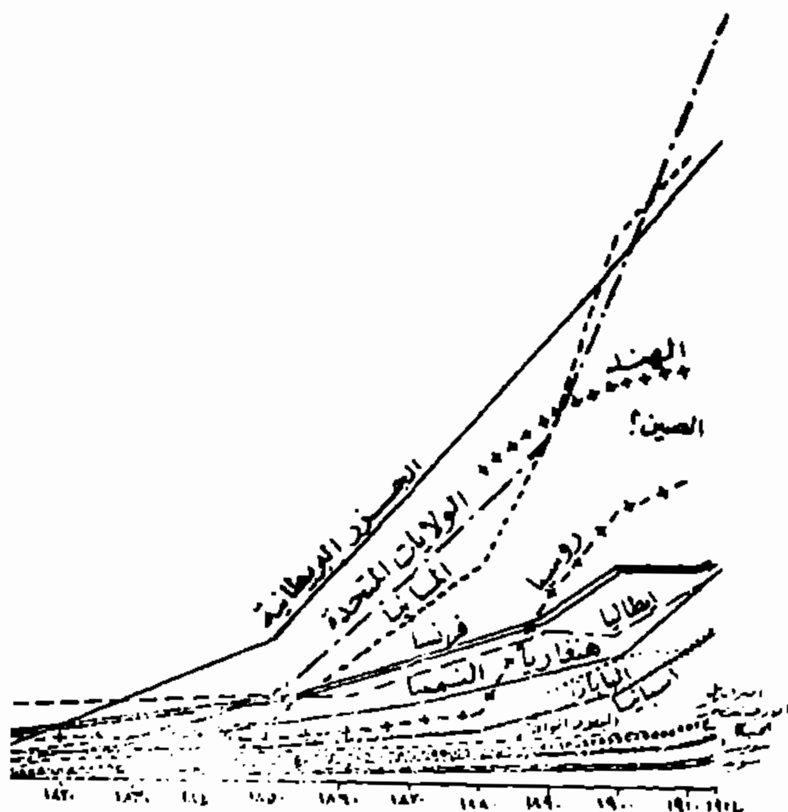

الشكل ٢ ـ عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المائة الف
(وفقاً لاحصاء بيور العام التلع)

في فرنسا ذكريات مريرة . فقد رأى فيها كل الذين قالوا بان القلق الذي يشعر به العالم التقلب عليه لعدم تمتع التجارة بسياسة حرة واسعة ،درساً مفيداً وعبرة لمن يعتبر . فقد انكلترا الخطوة الاولى في هذا المجال ، انكلترا التي كانت اول من عانى من نتائـج الحماية الجمركية . فاصحاب المصانع من التجار في تلك الجزيرة ، ايقنوا صادقين بانهم يحـ

البلاد الى سياسة تؤدي الى رفع اسعار الخبز والى الاضطرابات الاجتماعية فيها . لقد وقعوا الى جانب انصار بيل وهسكسن الذين عملا على التخفيف من تأثير قانون الملاحة واجازا للاجانب الاتجار مع المستعمرات على شرط المعاملة بالمثل ، وحولا حظـــر الحبوب الى مرقاة متحركة الدرجات تشبها منها بالقانون الفرنسي . واخذ كوبدن وسكان منشستر بشن حملة شديدة ادت بالبلاد الى انتهاج سياسة تؤمن حرية التجارة والتخفيف من الرسوم الجمركية ، وهـو تصرف لم يلبث ان انتقلت عدواه الى بلدان اخرى ونهجوا نهجه في الخارج .

هذا لا يعني قط ان حرية التجارة ربحت القضية وكتب لها النصر ، ومثل هذا الأمر لن يتحقق ابداً بصورة كاملة . وعندما نشر بستيا ، عام ١٨٥٠ كتابه المعنون : « المؤلفات الاقتصادية » الذي نادى فيه بسياسة حرية التجارة المطلقة ، راح العالم الاقتصادي الاميركي كاري يصدر ، هو الآخر كتابه الموسوم : وانسجام المصالح ، ويطالب على طريقة ليست بتضامن القوى الانتاجية القائمة في بلد واحد . فدنيا الاعمال تتحرك دوماً بين طريقتين او مذهبين تضمن لها احداهما الطمأنينة المؤقتة بينما تفتح الاخرى امامها منافذ جديدة وانطلاقات اوسع .

مدن الامس ومدن الغد

ففي نظام اقتصادي من هذا النوع ، المدينة هي التي لها الكلمة القطع والرأي الاول . من الطبيعي ان تطورها السريع مربوط الى حـــد بعيد بالسياسة الاقتصادية التي تنتهجها البلاد . فالتطور الذي عرفته الوظيفة التجارية والمركزية الصناعية الى حد ما ، عاد على المدينة بفوائد جزيلة عادت عليهـا بالخير دون ان نـسقط مـــن حسابنا التقدم الذي لا يمكن لجاحد والذي اصاب المصالح العامة وتناول المهـــن الحرة . الا ان حركة التكييف فيها جاءت على غير ما يرام . فقد بقي مظهرها الخارجي على ما عهدناه من قبل والملامح الجديدة التي اقتبستها تمت لها بسرعة وبشكل تعوزه اللباقة والبراعة .

اياً ، مع ذلك ، والظن بسيطرة المدينة . فالنمو الذي حققته المدينة في انكلترا جـــدير بكل تقدير واهتمام . هنالك في انكلترا ، بقطع النظر عن المدن السبع - باستثناء لندن - التي تجاوز عدد السكان في كل منها ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، ١٨ مدينة أخرى بدلاً من سبع ، تجاوز عدد السكان في كل واحدة منها ٥٠،٠٠٠ ! فالعاصمة قفز عدد سكانها من ٩٨٨،٠٠٠ الى ٢،٢٦٣،٠٠٠ نسمة . وغلاسكو من ٧٧،٠٠٠ الى ٣٢٩،٠٠٠ نسمة . وبرمنغهام من ٧١،٠٠٠ الى ٢٣٢،٠٠٠ نسمة . ومنشستر وضاحيتها سالفورد من ٩٥،٠٠٠ الى ٤٠١،٠٠٠ نسمة . أمـــا في الولايات المتحدة فقد قفز عدد سكان مدينة نيويورك من ٨٠،٠٠٠ الى ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا من ٤٠،٠٠٠ الى ١٢٠ الف نسمة ، بينما مدينة اورليانز الجديدة وسنسناتي وبوسطن وبلطيمور لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠،٠٠٠ نسمة . أما البر الاوروبي ، فالنمو المدني ليس فيه مـا يصدم الحواس اذ أن هذا النمو اقتصر على العواصم دون سواها بينما لا تتطور رومـــا وبعض المراكز الصناعية سوى القليل . فباريس التي تضاعف عدد سكانها اذ انه قفز من ٥١٨،٠٠٠ الى

١٫٠٥٣٫٠٠٠ ، تأتي بعيداً في الطليعة . فالمدينة التي يتراوح عدد سكانها اجمالاً بين عشرة آلاف وثلاثين الفاً تتوفر لها النسبة التي تلائم مثل هذا المجتمع البشري كا تتفق ووسائل الاتصال والتنقل الرئيسية التي تتم بها وهي السير على الاقدام .

أما من حيث النشاط التجاري والصناعي فلم يأت بأي إثر ملحوظ التطور. فالحياة في المدينة هي استمرار في وتيرة واحدة واطار واحد يتسم بالجمود الملازم لطابعه القديم . وعلى هذا تبدت المدن الاسبانيه لتيوفيل غوتيه ساحرة فاتنـــة لا تتحرك . فمدينة بورغوس الفخورة حيث الصعلوك يتدثر بعباءته بوقار بحيث تخاله امبراطوراً متجلبباً بالارجوان، ومدينة فالاموليه والتي بامكانها أن تستوعب ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة ، لا تعد غير ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، فتبدو نظيفة ، هادئـة ، جمية تبشرنا طوالعها بقرب الشرق . ومدريد نفسها ببيوتها المبنية من روافد الخشب والقرميد أو من قوالب الشيد ، ومدينة طليطلة حيث المنازل لها مظاهر الدير والسجن والحصن وأحياناً الحريم ، بعد أن تعرف أن الاسلام مر من هنا ، وغرناطة التي تبدو موزعة بين الطراز العربي والطراز القوطي ، حيث « قباب الكنائس تواكب مآذن الجوامع » ، بينها تبدو قرطبة اكـثر طابعاً افريقياً من أي بلد آخر في الاندلس كلها . ففي هذه الرحلة يقوم بها غوتيه عام ١٨٤٠ الى الاندلس لا نرى فيها شيئاً ينبيء من قريب أو بعيد بطـــابع القرن التاسع عشر البورجوازي والعمالي .

فالمدينة القديمة تحشر نفسها داخل اسوار نصف متهدمة تتراكم فيها الحوانيت والدكاكين كما تتراكب منازل السكن فيها بعضاً فوق بعض . فهي تستوعب من السكان اقصى مـــا تستطيع استيعابه ، ولم يوضع لها أية خطة أو تخطيط ينظم امتدادها وتوسعها في المستقبل . والحـــد الفاصل بين المدينة والريف يرفرف فوق قرية أودسكرة برزت من الارض استجابة لمقتضيات النقل . فمدن برمنغهام ومنشستر وليفربول تثير الدهش في نفس المسافر بعد أن يرى كيف أن نواتها القديمة توارت بين ما نشأ فيها من أرباض وضواح واسعة لم تلبث أن غلبت عليها الجدة بما تم لها من اتساع وبما توفر فيها من خدمات تؤمنها مؤسسات مدنية ، كا يشهد ميشليه على ذلك : فالطريق بين روشدايل وليفربول أصبحت كناية عن شارع طويل تقوم على جـــوانبه بيوت ومسـاكن تتعادل ارتفاعاً وعرضاً ولوناً . وهذا التماثل أو التشاكل لا يلبث أن يبعث في النفس السأم والملل . « بينما مدينة ليدس ، اكبر مدن النسيج في انكلترا تفترش بشكل مـــدرج المرتفعات المطلة على النهر كأنها تزهد في السهل لا تنزل اليه الا لماماً، فتبدو وكأنها قفير نحل وقد ارتفعت مداخنها الضخمة في الجو أشبه ما تكون بمسلات فرعونية تنفث دخانها الاسود فينعقد قباباً قاتماً يغطي كاتدرائيتها » .

فانكلترا هي البلد الوحيد في اوروبا تقريباً حيث نرى المساكن في لندن وفي بعض المدن الصناعية مبلية بالقرميد ومن طراز الـ *Cottage* ، ينبئك منظرها الخارجـــي عن طلوع العصر

الصناعي في البلاد. والمعامل لا تقوم في الريف بل بالقرب من الاحياء القديمة على الغالب، وأحياناً تختلط بها، كلما قام في احيائها ساحات تتسع لبناء المصنع أو المشغل، كما انه من مصلحة الدكاكين والمخازن أن تقوم في حركة المرور. ومن بعض نتائج هذا الوضع أن البورجوازية وأبناء طبقة الشعب يبقون على مقربة بعضهم من البعض. فلا يبتعدون كثيراً عن أماكن عملهم، مع العلم أن هذا التمركز يجد فقراء الحال بينهم على السكن في مآو واكواخ يكاد لا ينفذ الى داخلها الهواء ولا النور. ومع ذلك فمن النادر جداً ان تخلو مدينة ما من احياء جيدة فخمة المباني يبدو على ساكنيها الثراء، درجوا على اعدادها وتهيئتها منذ أواخر الاجيال الوسطى أو بفضل هبات أو وقوفات تعود الى القرن الثامن عشر، اذ أن جانباً من البورجوازية الثرية والارستوقراطية تسكن قصوراً خاصة بها أقيمت لهم على جنبات الشوارع الرئيسية، حولها ساحات واسعة مسوّرة يتألف من مجموعها أحياء وحارات رتيبة، تكشف بمظهرها هذه الفوضى والضوضاء المخيمة على الاحياء الشعبية، وعلى الاحياء التجارية. وقد تكاثر عدد الاثرياء الذين راحوا يبنون لهم منازل كبيرة تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاه. ومع ذلك هنالك نزعة تبدو في انكلترا أشد منها في أي بلد آخر على القارة، الى اقامة مبان سكنية للاستثمار، لم تلبث أن تصبح الطابع الذي يميز المدن الحديثة.

فقد جمعت لندن بين حي المدينة، محور رجال المال والاعمال، وبين حي وستمنستر بحي تجاري يعج بالنشاط ووسعت مرفأها وأرصفتها الى ما وراء جسر البرج وغطت السهل المترامي أمامها بالرف المنازل المتماثلة شكلاً كما شغلت مساحات واسعة من الريف.

أما باريس فبالرغم من أن المزارعين أقاموا حولها نطاقاً من المزارع والبساتين قبل أن ترتفع في ضواحيها التحصينات العسكرية التي أمر الرئيس تيير باقامتها فلا تزال مدينة سحر وفتنة، مقصد كل من لم يرها، واليها تتجه الانظار، تحمل الخير والشر (وفقاً للأقدار والحظوظ) الى ساكنيها، وتخلف الأسف والغصة في قلب من يغادرها بعد ان سكنها ردحاً من الدهر. فالسكان يزدحمون كثافة في القلب والمآرب، وفي ضاحية سانت انطوان. فاذا ما راح ذوو اليسر والثروة من أبنائها يطلبون الهواء الطلق باتجاه الغرب، راح الشغيلة من سكانها يحتشدون قريباً من مكان عملهم. وهكذا راح فريدريك سوليبه يصف لنا كيف ان سكان المدينة يندفعون بكليتهم ايام الآحاد وفي عطلاتهم، الى الخارج بحثاً عن الهواء النقي، مخترقين الابواب والمنافذ.

الا ان معظم المدن لا تزال تبدي طابعها الريفي لما عليه من صغر الحجم. فقد كتبت جريدة برمنغهام عام ١٨٢١ تصف لنا كيف ان الناس في الريف يقفون مشدوهين أمام منظر الواجهات وهم متراصون، يخشون ان يقعوا تحت عربات الجر وعربات النقل التي تتخطى الارصفة غالباً نظراً لما كانت عليه الشوارع من ضيق، بينما الجزارون وتجار الخيل يساومون في جدل لا ينتهي، الفلاحين والمزارعين بشأن قطعان الماشية التي تغص بها الازقة. وتحتل الجانب الاكبر من جادة

الطريق ، مع ما عليها من أسراب الدجاج، وقطعان الخنازير غادية رائحة بحرية ،طلقة بينما يتدافع صبيان الازقة ويتراشقون بالبيض الفاسد وكتل الوحل والزبل ، هذا يكدش رغيفه ممسكاً به بين يديه بينا الكلاب في نباح لا ينقطع حيث والمستطون يلأون الشوارع . وما أن ينهمر المطر مدراراً حتى تستحيل الأزقة والشوارع بركاً من الوحل والمقاصات. فالوحل يغطي برمنغهام كما يغطي غرينوبل ، هذه المدينة « النتنة» كما ينعتها ستندال.ومثل هذا الوضع يجعل برودون يتململ قائلاً : « ترى جيداً انه يكفيني ما تعثرت به طوال حياتي من أوحال ليون ! يا لها من مدينة قذرة ! عسى ألا يتحول عدم الاكتراث بهندامي، هذه التهمة التي يلصقونها بي، الى اتهامي بالاوساخ . فكيف النجاة من هذه الحمأة ، ومن هذه الاقذار التي لا حصر لها ؟ ليس في المدينة من دورات مائية جارية : فالماء ينقل على الظهور واكتاف الحمالين ، وليس من مجارير لتصريف القاذورات والمياه الملوثة . فالقذارة والمرض يسيران دوماً جنباً الى جنب » .

وعندما تكون المدينة صغيرة ، تشعر وكأن الريف يسحقها سحقاً . فما هي سيدان ، هذه المدينة القديمة ،المحصنة التي ماتكاد تعطى فيها اشارة اطفاء النور حتى تقفل منها الابواب.هي عبارة عن شبكة من الازقة الضيقة المعتمة حيث تكثر الحفر والاخاديد المليئة بالمياه الآسنة تفح منها الروائح الكريهة ، سكانها عمال وشغيلة يعملون في صناعة النسيج ، يروّحون عن نفوسهم في هذه الاحياء والحارات المحيطة بالبلدة او يعتنون بحدائقهم وبساتينهم . لنضرب مثلاً على ذلك بلدة سان ديزييه التي كان لها من السكان ، عام ١٨٤٦ نحو من ٧٠٠٠ نسمة ، ١٣٪ منهم يعملون في زراعة الكرمة ، و ١٩٪ عمال مياومون ، و ٧٪ يعملون في الحدادة . فالكرامون يقطنون أكواخاً في ضاحية جيني ، ثم يليهم باتجاه الوادي البحارة والمناشون من البحر . كما يسكن في ضاحية نر الحوذية وسائقو العربات وصانعوها ، والبيطريون والمنجدون والحمالون والباعة الجوالة. ويقوم مقابلهم بناة السفن والشخاتير بينا يتوزع الحدادون على مربعات سكنية لا يزيد عدد سكان المربع الواحد ، على مائة نسمة . أما ابناء البورجوازية ، فقد سيطروا على الشوارع القائمة في وسط المدينة ، بينهم بعض اصحاب الدكاكين ، وبعض المحامين والملاكين . وهذا الحي هو أحسن بناء الا انه قليل السكان اذ لا يوجد فيه اكثر من ١٧٠٠ شخص لا غير .

ومدن العالم الجديد لا ماضي لها ولا تقاليد،ليس فيهاما يلفت النظر سوى اتساعها ورحبها ، « فشوارع مدن الاتحاد ، كبيرة كانت أو صغيرة ، تبدو مستقيمة الزوايا وعريضة . ولشوارع فيلادلفيا عرض كبير يستلفت الانتباه ، تنتصب الاشجار من كلا جانبيها ، كما يروي خبر ذلك عاملان فرنسيان . « هنالك منازل عديدة ، مغطاة واجهاتها بالمرمر الابيض » والحركة فيهذه المدن ناشطة قوية . ترى في نيويورك الى جانب العربات التي تجرها الجياد، حافلات تسير على خطوط حديدية ، تتسع الواحدة لأكثر من ١٠٠ راكب بكل ارتياح . صحيح ان عدداً كبيراً من هذه المدن يبدو حقير المنظر . ففي شوارع بوسطن وازقتها كانت قطعان الخنازير الى وقت

قريب لسرح لها ولرح وتتكلل بالقضاء على النفايات والاوساخ المتراكمة في مدن الغرب التي تبدو وكأنها ورش لا حدود لها ولا سدود . الا ان هذه المدن كالفطر ، تنمو بسرعة كلها ، والبشر بضخامتها الهندسية بقرب طلوع هندسة المدن الحديثة .

البورجوازي في عهد الملك لويس فيليب

فالبورجوازية ماضية في تصميمها . فهي التي تفرض الذوق وتعطي القياس في كل بلدان الغرب . ومما هو حري بالملاحظة ان الشعب فرض ذوقه في كل ما يتعلق بالهندام واللباس. فالسروال هو الذي يتحكم بالذوق واجلة في طريقها الى الزوال. فالبورجوازي يتميز عن السوقة بالريدنغوت وزيه وقبعته، بينا يرتدي الاخير سترة. وهذا البورجوازي ينتعل السكربينة أو البابوج الخفيف او حذاء ناعماً ويضع حول عنقه عقدة كبيرة . واما سيدة المجتمع الراقي ، فهي تتفنن في تأمين الانسجام والتنافي في كل ما يتصل بملابسها وزينتها مجاراة منها للذوق الرومنطيقي . فهي تحلم دوماً بالفساتين المطفطفة الاكمام والاردان وتكثر من استخدام الدانتيلا والشرائط، ولا تستغني عن أكمام الفرو ، كما انها تتفنن في عقص شعرها وتصفيفه وتحليته . فالهندام الخارجي هو الذي يدل على هوية صاحبه : « أخوانيا » هو أم « عقيلة » ام « كريمة » من ابناء العصر ؟

فالمال وحده العنصر الذي يحدد مركز الفرد ومكانه في هذه البورجوازية وداخلها . فالمال وحده يوليه المركز الاجتماعي والاحترام اللائق . في قمة السلم الاجتماعي نرى أرباب البذخ من اصحاب المصارف، كما يحتل الدركة السفلى منه البقال او العطار « الحشو الذي لا بد منه ولا غنى عنه للحياة الاجتماعية » كما يسميه بلزاك. ويتوزع بين مختلف درجات السلم كل من تعاطى التجارة أو حاز عقاراً له طابع صناعي . وهكذا نرى القوم في بلدتي بارمن وابرفيلد ، كما يؤكد الجلس « غارقين بين الارقام والاعداد في عمليات حسابية لا تنتهي بحماس؛ وتكالب لا نظير لها . وفي ساعات معينة، في المساء يخرجون لقضاء السهرة فيلتهون بلعب الورق ، ويبحثون في امور السياسة العارضة ويدخنون ليعودوا الى منازلهم عند الساعة التاسعة ليلاً ».

عاملان يوليان المرء أهميته وشأنه : الوظيفة العامة والمهنة الحرة . ففي بلدان مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، ليس ما يحد من اطماع الفرد او يصد من طموحه ومن تطلعه الى المراكز الكبرى في خدمة الدولة . غير ان ابناء طبقة النبلاء من كلا جانبي المانش يكافحون للاحتفاظ بالمراكز العليا : في الجيش والسلك الدبلوماسي . ففي أوروبا الوسطى وروسيا ، لا ترقى العامة من الناس الى مراتب الادارة الا بفضل إنعام خاص من أولي الامر او بفضل مواهب وكفاءات خاصة تفرّد صاحبها وتميزه . الا ان ابواب القضاء مفتوحة على مصراعيها امام ابناء البورجوازية . فالطبيب سواء وجد في المدينة او في الريف، هو في مستوى النبيل منزلة ومقاماً يتداول مع أصحاب العقارات الكبيرة.« فقد اصبح – كما يؤكد بلزاك– من دعائم الحضارة والمجتمع » . ان ما يحمله في الصدر من علم يوليه شأناً عالياً ينهض بأطماعه السياسية .

فالعيش على النهج البورجوازي ، يقتضي له منزلاً تتوفر فيه كل التسهيلات ووسائل تأمين التعلم والتربية للاولاد ، وتأمين بائنة البنات ، هذا فيما يختص بالرجال . اما عند المرأة ربة المنزل ، فأن تزور وان تزار . هنالك درجات متفاوتة في الوضع الاجتماعي . ففي مدينة كانت مثلاً كانوا يقسمون المجتمع عام ١٨٣٥ الى ٨ طبقات او درجات في السلم البورجوازي وفقاً لنهج الحياة ، اعلاها مرتبة من يبلغ ريعه السنوي ١٢٠٠٠٠ فرنك، يستطيع معه ان يدفع ١٠٠٠ - ١٢٠٠ فرنك ايجاراً في السنة لمنزله ، وعنده عربة وحوذي واسطبل . اما من تراوح ريعه السنوي بين ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ فرنك فهو من صغار البورجوازيين. باستطاعة البعض ان يرتادوا المدن المائية ويختلفوا الى المسابح التي اخذت تظهر هنا وهنالك، كما ان البعض الآخر يقنع بارتياد المتنزّهات القائمة على مقربة منهم . والكل يتوق لارتياد دور التمثيل ودور اللهو . ان معظم اصحاب معامل النسيج وكبار التجار في مدينة ليل من آل سكريف وآل ماثون مثلاً ، لهم صروحهم وداراتهم الباذخة . وبعد انسحابهم من حياة العمل نرى اشخاصاً امثال كوليبيه - بتّور واغاش دمعد يحيون حياة بذخ اصحاب القصور .

وبفضل الدور الذي مثله تيير في مجالات الصحافة والادب والسياسة ، ارتقى حتى اصبح وزيراً للملك لويس فيليب ، وهي وظيفة كانت تدر عليه مرتباً يتراوح بين ١٠٠ الف و ١٢٠ الف فرنك في السنة . وقد در عليه كتابه « تاريخ الثورة » مبلغ ٥٠ الف فرنك ومحل عضواً في مجلس ادارة جريدة « الدستور » وبذلك عاد اليه قسم من الارباح . وعندما تزوج عام١٨٣٣ انفق على فرش دارته عشرة آلاف فرنك . وكان معه نقداً ٦٠ ألف فرنك وملك قصراً في شارع سان جورج باعه فيما بعد بمائة الف فرنك كما ملك منزلاً في مدينة اكس . وقد كلف جهاز عروسه عشرين الف فرنك وجلبت معها بائنة تقدر بثلاثمائة الف فرنك تدر في السنة ريعاً صافياً قيمته ١٥ الف فرنك . وتراه يشتري الخيل والعربات ويجمع التحف والكتب النادرة ويسافر محوطاً بمظاهر الابهة ويتعاطى المضاربة بالعقارات .

وهذا النموذج الممثل بجوزف برودوم وجيروم باتورو وقيصر بيروتو الذي كان يمثل الاناقة ويتحدث عن الشرف وينادي بالانسانية المثالية والذي كان يزعم انه يخشى الشعب ، يدعي انه من الشعب ويتبجح بأنه يتكلم باسم الشعب ، هو نفسه سبب نفرة واشمئزاز لهؤلاء الذين يتهمونه في ذوقه الفني والتبجح بنزاهة الضمير والوجدان، ويهزأون من رضاه عن نفسه . وهذا النموذج المثالي يبدو على أتمه في هذه الصورة التي وضعها الرسام انفر لبرتن الاب مؤسس جريدة الديبا. فصوره لنا غارقاً في كرسيه الكبير ويداه مسبلتان على ركبتيه ، شامخاً بأنظاره ، معتداً بنفسه وستبرز لنا صورته من جديد بعدعام ١٨١٨ بنصب ويجهد ، ويشيد فرنتاغ بذكراه في كتابه المعروف *Droit et avoir* .

في فجر هذا العصر الصناعي الذي تتجه اليه البورجوازية بخطى حثيثة ، تطلع علينا الرومنطيقية ، لتحرر قوى الاستقلال بعد ان عقلها النقد الاجتماعي وكبتها عندما استطير شأنه .

الفصل الخامس

الحركة الرومنطيقية
وعودة الشرعية الى أوروبا

الروح الرومنطيقية بين جيل وآخر

أي متى ظهرت ، يا ترى ، الحركة الرومنطيقية الـتي تجلت بوضوح وبرزت على أنها في مستهل القرن التاسع عشر ؟ هل منذ عام ١٧٧٧ ، بعد ان شن كلنجر ، في هذه السنة بالذات ، هجومه على المذهب العقلي، في مأساته الموسومة : « *Sturm und Drang* » (عاصفة وصراع) التي ينم عنوانهـا عن زخم التيار واندفاعه الشديد ، او منذ عام ١٧٧٣ ، تاريخ وصول « غلوك » الى باريس ؟ فقد تخلى غلوك عن النهج الايطالي وسار على طريق « رامو » رامياً من وراء ذلك الى اخضاع الموسيقى للشعر وادخال الطبيعة في المأساة الموسيقية . وقد مهد رامو في مسرحيته *Les Indes Galantes* لطلوع برليوز كما انه جاء بالدليل على ان مؤلفات موزارت تتزى بالزي الجديد الذي رسخ وتوطد في النفوس .

ففي الحقبة التي تلت العاصفة الثورية والنابوليونية مباشرة ، برز للعيان من جهة ، الشعور بالقلق ، ومن جهة أخرى التمرد على الحياة الرتيبة التي تشوبها الروح البورجوازية . ولذا بـدا هذا الشعور متشائماً على شيء من مظاهر التدين ، ومن الحنين الى الوطن المألوف . فقد اخذ من الشعوبية النزعة نحو النظام الاجتماعي ، وقد فُتِنت الشبيبة البورجوازية بهذه النزعة الجديـدة واقبلت عليها بشغف ، فجاءت الاستجابة عندها وفقاً لمشاغلها الخاصة ، وبذلك اصبحت الروح ذات نزعة متحررة ووطنية الاتجاه ، تتجه تحت تأثير العاطفة ، شيئاً فشيئاً ، نحو مثالية من الاخوة الديموقراطية جاءت بلسماً خفف نوعاً ما من أوصاب البروليتارية وآلامها . وهكذا لن تلبث المثالية ان التقت بالتفاؤلية التي ميزت العصر الماضي . فهي في نظر ستندال الذي عايشها: « عامل لا يبصر ولا يسمع في خدمة مستقبل غامض » .

بين الاباعية والابداعية : رضع غوته وبيتهوفن من بعده

وصف دليكلوز في يومياته : الابداعية (الرومنطيقية)، بالحواء، مع العلم ان هذه الحركة انطلقت تحت مظــاهر الاتباعية او الكلاسيكية وتطورت تحت جناحيها . والفنانان داڤيد وأنغر ليسا بمنفردين. فالجماهير التي وقفت مشدوهة امام تمثال « تأليه هوميروس» والتي قابلت بتصفيق حاد طالما، يحتفظ بمثل هذه الحماسة لراشيل . الا ان الفكرة التي ارتسمت في الاذهان عن التاريخ القديم برزت اقل مطابقة للصورة المألوفة او الصورة التقليدية . وقـــد اطلت علينا رؤى عن الحضارتين الاغريقية والرومانية ، ألصق بالتاريخ واعلق بالواقع التاريخي واخذت تبدو شيئاً فشيئاً الصورة الادبية التي علقت في الخواطر عن بشرية خالدة . ومما له دلالة خاصة بهذه الحركة هو اكتشاف شكسبير بعد جهل العالم له ، فأنزله فولتير منه منزلة خـــاصة ، واشاد به لسنغ عالياً وترجمه شليغل وتيك وادخله كرامزين الى روسيا فأدخل الغبطة على روح بوشكين. وقصة فوست التي دخلت المسرح على يد مارلو احد معاصري شكسبير ، حلت لسنغ على معالجتها وتدبرها قبل ان اصبحت موضوع اهتمام غوتيه .

فالتحولات التي خضع لها فوست انما تدل على تطور الفكرة عند غوتيه . فصورة فوست البدائية رمزت اليها صورة بروموتية المتحمس في رواية «Sturm - *Drang*» الى آخـــر تجسد من تجسداته المديدة الحلولية الطابع والصيغة مروراً بفوست المتـاصل الذي يهوي الى الارض . ففي هذه القصة رمز للبحث عن الحقيقة ، عن طريق الثورة اولاً ، ثم عن طريق التكامـــل المتناغي للقوى العقلية المنسجمة . فبدع فوست وخالقه هو هذا الاديب الاولمبي الخـلاق الذي يسن من علٍ على الظروف والصروف ويتحكم بها بحيث تتم له المطـــابقة ويحصل التلبيب بين افكاره وبين الوظائف التي شغلها في بلاط ويمار ، وهذا التجريد الموسوعي العقلاني الذي يسمى وراء البحث العلمي محولا على اجنحة التفاؤل البشري . فهو يطري الى ابعد حد هذه الحرية التي يجود ابطاله بأرواحهم دونها ، هؤلاء الابطال المتمثلون بـ : غوتز واغمونت وفوست ، ويؤمن ايماناً عميقاً برسالة الشاعر . وسيبقى في نهاية الامر الشاعر الكلاسيكي الامثل في الادب الالماني ، بما له من انشاء جزل ولغة سامية .

يتمتع بتهوفن بشخصية لا ترام ، كما يقول فيه غوتيه نفسه . فلقـــد توفرت له خصائص وسمات مفردة : عنفوان شباب لم يلبث ان استحال نزعة قوية تدفعه نحو العظمة الوقور ، ومفهوم اكمل للاثر الفني بوصفه منجاة من عاطفة الحب المشبوبة ، والسعي الرصين بحثاً عن الوحدة وراء التناقض ، بين القوى الخيرة ، وقوى الشر ، هذا التناقض الارستوقراطي الطابع هنا ، والشعبي الجماهيري، هناك، الذي يذكرنا بأبحاث جان جاك روسو في انعزاليته الاجتماعية في ما جمع بينهما ووحد من قالب كلاسيكي ، والكلاسيكية الموسيقية الحقة التي عمر بها الجو الذي استكشفه باخ وهندل. فالمعجزة البيتهوفنية تقوم في ان سيد بون نفخ روحاً جديدة في الانغام دون

ان يبدل بشيء في الفنون . فبعد ان وسع من الاركسة وباعتماده على المعزف كوسيلة اولى في الانشاء والتنغيم ، وعن طريق ادخال الحزن أو الشجى في التعبير الشخصي ، فتح الباب على مصراعيه امام المدرسة الابداعية الرومنطيقية . فالكمال الفني الذي بلغه موزارت قد يُدخل اليأس على نفوس الشباب . اما السمو الفني الذي حققه بيتهوفن ، فيبعث النشاط والتجدد بعد ان حرر الفن من ربقة التقاليد .

الرومنطيقي وحلمه الدفين

يحلو لهذا الرومنطيقي ان يلفت الانظار بطريقة أو بأخرى من طرائقه الغريبة كالمظهر الخارجي والفروق ، والمزاج ، والطبع ، فهندامه او زيه « مدروس الى اقصى حد » كما يقول فيه تيوفيل غوتيه . فقد سبق اليون غوزلان ووضع لنا عنه صورة هذه بعض قسماتها المميزة : بزة رسمية ، سوداء اللون مزررة مما اتصل بالبطن حتى الشريان السباتي ، وياقة فضفاضة مسترخية ، الى سحنة معتمة اللون ، مستديرة ، عليها شيء من اللامبالاة ، لون وجهه ينم عن القلق المنبىء بموت قريب ، اذ عليه ان يحيي حياة ملؤها العنف والنضال او يزول من الوجود . وبالفعل فاللورد بيرون ، هذا اللورد الذي صدمه الواقع فجاء مزيجاً من المرارة والقحة عبر عن الطريقة الفرسية التي لا تتوقع شيئاً من البشر ، وذلك قبل ان يجود بنفسه بكبر في مدينة مسولونغي ؛ وساندور بتوفي يُقتل في ساعة الوغى ، في معركة سجسفار ، عام ١٨٤٩ ، وحوادث المبارزة تخترم بشكل مبكر حياة بوشكين وله من العمر ٣٧ سنة ، كما تودي بحياة ليرمونتيف وهو ابن ٢٧ سنة ، وغالوا ، هذا العالم صاحب الفكر الرياضي ، يموت وهو ابن ٢١ سنة . وها هو كليست يقتل عشيقته ثم يحطم رأسه امام جثمانها ؛ وجيرار دي نرفال يشنق نفسه في احد الازقة ؛ والممثل نوري يقذف بنفسه من النافذة خلاصاً من الحياة . واذا اتفق وقام ، انتهت حياته بالجنون ، او الادمان على الكحول ، امثال لينو وشومان وبو ، فهناك غيرهم امثال نوفاليس وشيلي وكيلس وليوباردي وشوبرت وشوبان وديلاكروا وابيل تتخاطفهم حوادث المرض والعوز والبؤس واليأس . كم هو كبير عدد هؤلاء الامراء في هذا العصر الذين يبدون كريشة في مهب الريح ، على شاكلة شارل البير ، وفريدريك غليوم الرابع ، ولويس الاول ملك بافاريا ، بينما لويس نابليون المصاب « بالتوحشة » يعيش في احلامه ويؤمن بطالع نجمه .

ولما كان الفرد هو قسطاس نفسه وله نمطه الخاص في العيش ، راحت روح الثورة تدفعه الوقوف في وجه الاعراف والتقاليد المعمول بها فزقاقية اللغة وريشة ديلاكروا الشعلة ، وموسيقى برليوز « الرهيبة ، المفزعة ، البركانية الاثر » ، كلها ذرائع ووسائل لاستشاطة البورجوازي وإثارته . فبيرون يستشيط غيظاً ضد التصنع والتزمت المغالي ، ورياء اللغة ، ودجل التعبير ، وبوشكين لا يتورع عن ابراز معايبه ونقائصه ، واورور دوبين ، بارونة دوديفان تحتسي الـ Punch وتدخن السيكار ، وتظهر تارة بلباس القندور المتأنق الانيق ،

وطوراً بلباس البوهيمي . « يعجبني ذوو الطبائع والغرائز الشاذة ، واني لواحـــد منهم » يصارحنا بلزاك في مسارات جورج صاند .

من يستطيع على شاكلة برليوز ، ان يسمر الهلع بواسطة موسيقـــاه الرهيبة ، في نفوس مستمعيه ، ومن يستطيـــع على شاكلة جريكو ، ان يجمع جثث الموتى في مرسمه ، ليؤلف لنا هذه القطعة الموسيقية المعروفة بـ « طوف المدوزة » ، هؤلاء بالذات يذهبون فريسة التأمـــل والتفكير . هذا ما يشبه نوفاليس بحواء النفس وهذا هو الملتّس عند هوفمان وتيك ، وهذه هي رائحة الضباب الذي يغشى المقابر ، مطلب غـبـار ـ دافيد ـ فريدريك ، ومنظر المستنقع الآسن ومنجم الفحم الذي يجتذب اليه أنيت دي دروست ـ هولشف ! هذا هـو لويس سولر الذي يجد لذته ومتعته المفضلة « واقفاً امام قـبر » او في دير حيث يسود الصمت والسكون او امام صرح قديم منعزل » ، على ضوء « قمر متقع اللون » ، هذا القمر الذي يوحـــي لاندرسن اقاصيص غريبة عذبة . فالصورة التي خلفها لنا هوغو تعبر عن اللذة التي تجيش في صدر من يرزح تحت الكابوس او ما يوحي الشعور بالضغط المرهق . معبود كورو ، رسام المناظر المشهور ، هو ان تكتحل عيناه بهذا الوشاح المهفهف الذي يتألف من هذا الضباب الفضي ، الذي يترك الاشياء قلقة ، لا تستقر على وضع او حال . هنالك من ينقطع للرحلة والسفر بروح طلّعة او بروح ملول كما ان البعض يؤثر المشاهد الهادئة التي تكثر بين الناس داخل أسرهم ، ومعظمهم يحاول ان يجد في الطبيعة سلواه وعزاءه . فاذا ما رهب فينبي برودة هذه الام الشرسة الطباع ، واذا ما نقم عليها ليوباردي لامبالاتها وعدم اكتراثها لهذه البشرية البائسة ، واذا مـــا غاص لامرتين في احشائها واذا ما نظر اليها ميشليه كما هي على علاتها ، بعجرها وبجرها ، وهو يقول : مـــا من شيء في الطبيعة لا يثير فيّ الانفعالات ، فأنا اكرهها واعبدها سواء بسواء ، كما امقت المرأة واعبدها » . ولما كان الزواج يقيد صاحبه ويفرض عليه شيئـــاً من العبودية ، فأنا احتقره واسخر منـــه ، فالاتحاد البورجوازي يجب الا يقوم الا على العاطفة التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، وها هو غريلبرسر وهبل يجملان من المرأة بطلة مسرحياتهم التي تذكرنا عن قريب بمسرحية راسين .

اليها وأدوات التعبير

هذه الشعوبية المستنيرة ، الارستوقراطية الطابع ، والطبقة البورجوازية العليا اللتان اتخذتا من فرنسا موطناً لها ومستقراً ، لم تختفيا قط من الوجود . فالصالونات ونوادي المجتمع الراقي ونصراء الادب والفنانين من الاثرياء ، لم تتمكن الثورة الكبرى من القضاء عليها او ان تستأصل شأفتها من البلاد . فاذا ما سلمنا جدلاً بأن فرنسا خسرت كثيراً في هذه العملية ، فسيطرتها الفكرية لم تتأثر كثيراً من هذه المغامرة الكبرى . من المعروف باتفاق الآراء ، ان باريس هي مدينة الذوق الرفيع ومقياس الشهرة الواسعة . الا ان الظروف لم تعد تماماً كما كانت من قبل . فقد مرت بسماء فرنسا عاصفة هوجاء ، والمستقبل يبدو عندها وكأنه على كف عفريت . ومن جهة اخرى ، فالخطل الذي ذهبت اليه المغامرة النابوليونية

والحركة البطولية التي سبقتها ، تسببت في ردة فعل هوجاء ضد الروح الفرنسية ، كما عاد كل ذلك على القومية الفرنسية بمثل هذا الخسف .

ولذا فليس بعجيب قط ان يصاب في الصميم هذا الاتساق أو الانسجام والفلسفي ، الذي طبع النماذج الفرنسية وميزها في القرن الثامن عشر . وعندما كان المهندسون والنقاشون ، والرسامون ، والمذوقون يقومون بعملية الخلق والابداع كل في فنه ، كانوا كلهم يستوحون النماذج الفرنسية ويستلهمونها . ولذا لا نرى في الفن هندسة رومنطيقية . فالارستوقراطي والبورجوازي الذي يبتني له منزلا يستوحي ما وقع تحت انظاره من نماذج قائمة ، عندما لا يرغبون في بعث الطراز القوطي. فالرغبة الجنونية بتقليد كل ما هو انكليزي فرشت بلدان القارة بالحدائق والجنان التي تبدي طابع الجزيرة المزدانة بالخرائب او الآثار المزيفة . وهكذا زالت من الوجود النقوش والمحفورات - باستثناء « رود » الذي يؤلف وحده خروجاً على القاعدة . ولذا راح العاملون في النقش، يتجهون على الغالب، نحو الموضوعات التي يعالجها النقاشون عادة ، مثال ذلك الرسام باري المتخصص برسم الحيوانات والذي لقب بحق « ميكالو انجلو الكواسر » ، وأفيد انجيه المتخصص برسم الاشخاص،ودانتان الابن المتخصص بالرسم الهزلي او الكاريكاتور . ففي الوقت الذي يتوارى فيه فن الرسم التشكيلي عن المسرح ، يطل علينا فن التصوير على مسند ويزدهر بشكل لم يكن ليتوقعه احد .

وهذا النوع الذي يأتلف كما يجب ، والهوى او الرغبة ، كما يطابق معارض الصالونات والمتاحف ، والذي يصف بدقة كلية ، هذه اللخبطة العجيبة ، وهذه الفوضى الماكرة المتقلبة باستمرار ، هذه الفوضى التي « توحي الضبطة » كما يؤكد بلزاك ، وتوحي السماجات البشرية ، والهلع ، او توحي هذه الطبيعة الذاتية او الفنائية الموحشة او المعبرة عن سرائر النفس الدفينة ، فن شخصي يستمد كل قوته من اللون . ولذا كانت عناية أنفر بالرسم على نسبة صدق محاربته للريشة النملة .

كذلك تتوفر للموسيقى وسائل هائلة لتعبر عن انفعالات النفس وتثير الاخيلة . فهي تنبعث وتتجدد بالتأليف بين هذه الانغام والتعبير عن المبادىء والقواعد التي يقوم عليها ائتلاف الانغام وانسجامها . فهي تتوخى التنويع وتهدف للتأثير على القلب اكثر من تأثيرها على العقل. وهكذا يطل على الناس عهد المعزف الذي له من الايقاع المدوي ما لا يتوفر بعضه للبيانو القديم. فكبار صانعي المعازف امثال ايرارد وبلايل عملوا على انتشاره وجعله في كل منزل ، وفي متناول البورجوازية الحديثة العهد . فالمعزف هو الآلة الموسيقية الفضلى لدى شومان وشوبان وليست . وجل ما يريده الموسيقاريون الكبار او يطمحون فيه من القيثارة مع بغانيني ، ومن الفيولونسيل والناي مع الآخرين ، هو الخلق الفني . وساكس، رب الآلات الموسيقية النحاسية النافخة ، كما يسميه هابربير ، جدد الحياة وبعث النشاط في آلات النفخ وزاد عليها اختراعه الكبير

مثلا بالسكلون .

فاذا ما ابرز الكونسرفتوار موهبة النبوغ الموسيقي ، فقد عقدوا الأمل على القصائد الرومنطيقية المعروفة بـ *Leids* والتي تلائم تلاؤماً بين النغم واللفظة لكي تعبر عن احق خوالج النفس البشرية ومشاعرها الدفينة . فموسيقى الحجرات المغلقة التي تتجه من عدد معين من المستمعين تأتي ادنى مرتبة من المسرح الغنائي الذي طلع علينا بعهده الذهبي ، هذا المسرح الذي يعمل في سبيله العديد من المؤلفين واضعي نصوص الاوبرا . هذا المسرح الذي يفتر عن *Belcanto* ومن رقص جميل ميزته الكبرى قربه من افهام الجماهير . من هذه التواريخ المفردة روائع ويبر المسماة *Freischutz* عام ١٨٢١ ، و *La muette de porici* أحد آثار اوبير ١٨٢٢ ، ومقطوعة « روبير العفريت » من تأليف ميير بيير عام١٨٣١ ، و«اليهودية» من وضع هاليفي عام ١٨٣٥ .

والمسرحية الرومنطيقية هي من نفس المعين والمصادر . فالعاطفة الجماعية تمتد الحركة والشعارات المثيرة وبكل ما يثير الحنان والشفقة . فالعاطفة الجماعية تجد فيها كما يجد المؤلف نفسه ما ينفعها . فهاهو هوغو يباشر معركة هرناني التي يكتب له فيها الفوز عام ١٨٣٠ ، كما ان مسرحيته « سقوط البورغراف » التي صدرت عام ١٨٤٣ جاءت تعلن للملأ ان ساعات الرومنطيقية الكبرى قد ولت ومضت . من المفيد ان نلاحظ هنا ان في الوقت الذي تفقد فيه الاستدارة البيانية ، ما لها من سحر وفتنة ، كان الشعر الغنائي او الوجداني قد اعطى معظم روائعه الادبية هذا الفن الذي يفرغ المرآة الغنائية ، في القصيدة الفلسفية ، والذي عرف كيف يمازج بين العبارة والسرد الملحمي . فمنزلته من الادب منزلة الرسم من الفنون التشكيلية، لا حد لصوره وصيغه واشكاله كما لا حد قط لموضوعاته ، ويعبر بصورة ذاتية او شخصية ، أكان ذلك تعبيراً عن المشاعر الدفينة او تعبيراً صادقاً عن فكرة او خاطرة وجدانية .

فالرومنطيقي، بما له من اسلوب بياني فخم يحول دون ابراز الحقيقة عنده ، بما لها من قوة ، سواء اراد تحلية الامور او تسويدها ، يستعمل بكل ما اوتي من قوة ، حتى ولو لم يكن شاعراً ، هذا الاسلوب التقني الجديد ، اعراباً عن سخريته وتهكمه . ففي الوقت الذي يتاح فيه لشارليه ولرافيه الترويج لشخصية « الجندي المُسنّ » ولشخصية « العرّيف الصغير » ، سلستين نزتيل تذويق مؤلفات هوغو وغوتيه واسكندر دوماس وتحليتها بالصور و الرسوم ، ولديكروا تحلية فوست لغوتيه ، عرفت الطباعة الحجرية (الليثوغرافيا) ان تزمن لها ازدهار التصوير المنزلي .

ففي الوقت الذي اتاح فيه فن الفكاهة عند الانكليز خلال شخصية بكوربك لديكنز، وجعله قوفنجا لا يقل شهرة بشيء عن شخصية روبير ماكيه ، كما ابدعت الفكاهة الاميركية شخصية نيكربكر لواشنطون اروين ، نرى بلزاك من ناحيته ، يضع امامنا ، شخصيات ذات مفارقات متعاندة متضاربة ، فيهوي بالسوط على عابدي المال ، كما نرى سانت بوف يمد حمة النقد المعاصر بالنقد

النقيق الذي كان بمثابة مرآة تنعكس على صفحتها ، كل المدرسة الرومنطيقية .

رومنطيقيا رجعية القلول

التاريخ مدلول يعمل عميقاً في ربط الحاضر بالماضي . فقد سبق القرن الثامن عشر ان وضع تفسيراً عقــلانياً لتطور البشري دون ان يذكر بشيء المسألة التي طرحها بوسويه . فقد شدد كل من فيكو وهردر على هذه القوة التي توجه العالم ، حلولية هي عند الاول ، عضوية وخاصة بكل شعب ، عند الثاني ، اي ردة هجومية للاعقلانية[1] الى ان وقعت اذ ذاك الهزة العنيفة عام ١٧٨٩ الــتي استبعدت بالفكر والمفكرين امثال بورك وجوزف دي مستر وبونالد الذين تسلحوا بدليل الديمومة ، حجــة الكنائس والارستوقراطية . والتاريخ الذي يسير في ركاب الضائقة الربانية والسلطــات المتوط بها امر المحافظة على الامن ، يتبنى هو نفسه فكرة الاستمرار والديمومة ، وبذلك ربط نفسه بهذه الاصول الرجعية .

وقد تكفلت المعرفة الواسعة والبحث عن العنصر الجمالي او الصورة الذهنية ، بالباقي . ليس من وجوب قط لرذل او التنكر لما جاء به اليونان واللاتين : فالنزعة الانسانية جامت والحق يقال ، مثيرة ، مبهجة . ففي الحين الذي راح فيه نيبهور يكتشف عما التقليد الشعبي الشفهي من قوة عند تيت ليف ، نرى الاعجاب بالهيلينية يثير الهمم ويحرك المشاعر . ومع ذلك فالحركة الاستشراقية التي طلعت علينا ، والاعمال الوحشية المرعبة ، ونبش معالم الحضارة في كل من مصر وايران والهند ، كل ذلك وسع كثيراً من آفاق المعرفة البشرية ، حتى هذه النظريات الحدسية المتعلقة بالأصل او العرق الآري للشعوب الغربيــة ، هذه النظريات التي راودت الاذهان اذ ذاك ، لم تأت بأي فائدة للــتراث الكلاسيكي لشعوب حوض البحر المتوسط . فالدروس التي استفدناها من آسيا وافريقيا اختبارات اكثر وشعوراً اعمق بالتقاليد . أفلم ينزع ديلاكروا الى ان يرى في الاسلام تكملة للحضارة الهيلينية او حصيلة هذا القران الذي تم بين الشرق والغرب ؟

فالكشف العظيم هو الكشف عن الاجيال الوسطى . وسار شليغل في اعقاب لسنغ عندمــا هتف قائلاً : « ليل الاجيال الوسطى ؟ ليكن ، انما هو دليل متلألىء بالنجوم الزواهر . انهــا حقبة عجيبة مدهشة ، كل ما فيها مشرق وأخاذ، فاضلة، ساذجة خصبة بالمعجزات والخوارق ، ليس اصغرها لعمري هذه التقوى المسيحية المستبدة بالنفوس ، وعندما يروح شاتوبريان يتغنى في كتابه « نبوغ المسيحية » بعودة الايمان الى البلاد على يد ابن الثورة وجنديها ، يحقق هـــذا حكمه بوصفه ارستوقراطياً محباً للجمال . اما هؤلاء الناصريون ، هؤلاء الرسامون ، المأخوذون بالجمال الديني ، فقد تبنوا الحياة الرهبانية . ثم من المانيا هذه التي ينعتها ماكنتوش بوصفه لها : « المترهة بصورة ميتافيزيقية » ، حيث لاقت الروح التقوية رواجاً عظيماً . وهذه الاقاصيص

(١) انظر تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٥٨٦ (الطبعة العربية) .

الاسطورية ، اقاصيص البطولة ، كالساغا الـسكندينافية والرواية البطولية الاسبانية المعروفة بـ romancero ، ولا سيا الالمانية منها ، وفوست وغيرها من هذه القصص الشعبي المعروف باسم Marchen واغنية رولان ، لاقت او ستلاقي شهرة منقطعة النظير ، بحيث تكاثرت وانتشرت الى حد بعيد اقاصيص الابوكريفا او المزيفة . وفي الوقت ذاته عرفت الروايات التاريخية ازدهاراً رائعاً . فقد أمدنا ولتر سكوت بانتظام مدهش بأقاصيص رسمت نهجاً خاصاً احتذوه في كل مكان وكان له اتباع ومريدون في كل قطر وصقع : روايات بطولة تبهر بألوانها الزاهية اظهرت ، على الاجيال ، احترامها التقاليد والاعراف الشعبية . وهذا القصص التاريخي، امد الى هذا كله ، المسرح بمادة خصبة استلهمها من قبل كل من شكسبير ، وكالديرون ولوب ودي فيغا .

وقد كان هذا الجو جد مؤات للمؤرخ الطلعة اذ جاءت القصة تستند الى الوثيقة التاريخية وتنهض على الدليل الاثري . فقامت على الاثر جمعيات علمية،في كل مكان تقريباً، تولت تصنيف النصوص وتحقيقها،وحاولت فك ما تحمل من رموز في خطوطها وردها الى اصولها.من ذلك مثلا الجمعية الخاصة بدراسة التاريخ الالماني التي رأت النور على يد المؤرخ شتاين عام ١٨١٩ ، ومدرسة القراطيس او معهد الوثائق الذي تأسس في باريس عام ١٨٢٢ ، وهذه الكشوف العلمية التي حققها غيزو . وعلى هذا الاساس وضع اوغسطين تييري وميشليه تاريخ الاجيال الوسطى بعد ان تفننا في التوفيق بين مراعاة اللون المحلي وبين التفاصيل الدقيقة ، محافظة منها على احترام المصادر ونصاعة التعبير .

والاجيال الوسطى هذه تبدت صورتها لكل واحد كما تبدت على صحيفة مرآة . فهي تمثل في نظر سيسموندي عهد الاستقلال الذاتي للمدن ، كما رأى فيها فيلسوف بارجمونت عهد السلطة المسلطة التي نفر منها سيسموندي . ولم يلبث ان رأى فيها كل شعب صورة لما يرجو ولما يطمح اليه . فهذه الرومنطيقية الابداعية ذات المفعول الرجعي ألبسوها لباساً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى وثورياً . فما من مكان قط استشرى فيه هوس الاصول التاريخية المتوسطية بين افراد الشعب كله مثل المانيا اذ راحوا فيهـا يستبدلون الـ Aufklrrung بالروح القومية الموعودة نافرين من هذه الشعوبية العقلانية ومن الروح التحررية البورجوازية . فمنذ عام ١٧٩٩ واجه نوفاليس هذه المعضلة الثانية : اوروبا المسيحية ، فحلها باختيار او بتحقيق الامبراطورية المقدسة بشكل جديد تحت اشراف الكنيسة ، الخيرة ، الملائمة لطبيعة البشرية ، حتى اذ ما كاد يتوارى ، اشتد التيار بعده ، عنفاً ، غلاباً مطالباً باعادة الهيرخية او الملكية الشرعية . ومع ان المدرسة الشعرية في انكلترا تطورت باكراً، رافعة لواء الثورة ومناوئة بسلطان الحب ، فقد ترك ودسورث عليها طابع الروح المحافظة المهذبة ، كما كانت لذة سكوت الخاصة ان يبعث التجدد والحياة في بريطانيا العظمى التقليدية المحافظة في الصميم . من دعاة الشرعية ومؤيديها ، هوغو في دواوينه ولامرتين في « تأملاته » اذ راح كلاهما يتغنى ، عام ١٨٢٥ ويشيد غالباً

بنكريس شارل العاشر ، وبلزاك نفسه يتجه آنذاك نحو الشرعية . بعد عام ١٨٣٠ . ومع انها من اقحاح الوطنيين الايطاليين ، راح منزوني يضع : « الاناشيد المقدسة » ، فاتحاً بذلك نقاشاً حاداً مع سيسموندي حول الدور الذي لعبته الكنيسة في ايطاليا ، كما راح سلفيو باليكو بروي علينا بكلمات تتنزى بالرضوخ وروح الاستسلام المسيحي ، قصة اعتقاله . والكل يتفادى او يحاول ان يتفادى هذه البورجوازية الواقعة تحت تأثير عبودية العجل الذهبي .

هيغل واستبدادية الدولة

راحت المثالية الفلسفية تقدم هي الاخرى ، خدماتها لاقضية الشرعية ، كما راح كل من غوته وكنت ولفخت يستجيب حالياً للاتجاه الذي اختطته الثورة الفرنسية . فقد بقي غوته ، على الاقل امينا للمثال الجمهوري كما راح فخت بدوره يرسم لنا نظريته عن الدولة معترفاً لها بحق الاكراه وحق الركون اليه. ومن هذه الثنائية التي قال بها كدنت والتي اعترف فيها بقدرة العقل على معرفة مظاهر الاشياء دون كنهها يفضي بنا الى القول بالأحدية الفائية ولو بصورة ذاتية .

واذ ذاك طلع علينا هيغل الذي راح يقول بمثالية مطلقة مناقضاً بذلك تعاليم القرن الثامن عشر . فمثلا بمنطق ديناميكي هو الديالكتيكية الجدلية ، فالافكار المتحركة توجد الواقع وتخلقه وتدفع بالكائن دوماً ليتجاوز باستمرار وضع وجوده . ولذا فالمطلق عنده هو وحده الذي له وجوده الخاص وينزع دوماً التحيز بفضل فكرة الدولة المثل الملكية الطابع من اساسها ، هذا الشكل السياسي الوحيد الذي باستطاعته وحده ، التوفيق بين الحرية والسلطة . اما الفرد هذه الفكرة المجردة التي لا قوام لها ولا كيان فلا وجود له قط بذاته . فالدولة هي تجسيد لله على الارض لها وحدها الحق بالسيادة المطلقة والاستئثار بها .

وبعد ان دعي هيغل عام ١٩١٩ للتدريس في جامعة برلين راح يثبت ان الصورة المثلى لهذه الدولة هي الدولة البروسيانية . فقد واخذ هذا الفكر الفني المتوجه بأنظاره نحو الماضي يبرر ، بطريقته الخاصة ، الشرعية التقليدية . وقد كان لا بد لنظريته هذه عملا بمبدأ رجوع الامور الى نقطة الانطلاق ، من ان تؤول الى راديكالية واضحة ، فقد انتصب في وجه الابداعية الرجعية ، هيغلية محافظة او ملتزمة ، كما قام في وجه ابداعية مستقبلية ، هيغلية ثورية .

عودة النظام في اوروبا الى الشرعية

وهذا الصراع العملاق الذي وضع وجهاً لوجه ، هنا النظام الاوروبي القديم وامتداداته الاستعمارية ، وهناك القوى البورجوازية الجديدة والجماهيرية ، استمر قائماً . فقد اتصل بشبه الجزيرة الايبارية التي اعلنت الثورة وامتد الى اوروبا نفسها حيث انصار الحرية ومؤيدوها استمروا ماضين في كفاحهم . فالانتصار الذي حققه الملوك في ساحة القتال ذهب جزافاً كما ان قرارات مؤتمر فيينا بقيت حبراً على ورق وكلمات فارغة ، اذا لم يقم في اوروبا نظام دائم يفرضه القائمون بالثورة المعاكسة هو نظام ديني ملكي ارستوقراطي .

الترهبة الدينية

ان قيام شعور ديني رومنطيقي لدليل على وجـــود يقظة دينية . فارتدادات فريدريك شليغل وستولبرغ وهولر، واعتناق آ ل راتـبون اليهود الكثلكة ، واعتناق ستاهل البروتستانتية ، يشير بوضوح لا يدع مجالا للشك الى مـــا في المسيحية من قوة جذب واغراء . فنوادي مونتـالر ومونتبع لها روادها الكثيرون . ففي الوقت الذي راح فيه هنغستنبرغ المدافع الاكبر عن اللوثرية الاصيلة ، يهاجم المذهب العقـــلي بعنف ، دوت في جميع ارجاء فرنسا صرخة انذار واستنفار اطلقها كل من لامنيه في كتابه « محـــاولة حول اللامبالاة في امور الدين » وجوزف دي مستر في كتابه الموسوم : « حول البابا » مشيدين بالدور الذي يمكن للبابوية ان تلعبه في هذا المجال . ويحاول الاب بلميس ، متبرأ منه على خطى بوسويه ، الكشف عن « التغييرات » التي لحقت بالكنائس ، والملل الانجيلية . فاذا مــــا عاد الكاثوليك ، ولو متأخراً ، الى الدراسات الكتابية التي تخلوا عنها فترة للأوساط البروتستانتية والعقلانية ، فقد برزت الدعوة التطهير وفي اوساط النخبة الفكرية ، بعودة بيوس السابع الى روما وباعادة الرهبنة اليسوعية الى الوجود ، (كما ان الاب لاكوردير سيقوم بتجديـــد الرهبنة الدومنيكية في فرنسا) . وقد تكاثر عدد الرهبانيات التربوية والتأملية والخيرية ، ولا ســــيما الجمعيات التي تعنى منها بشؤون المرأة . فنحن امام حركة عارمة من ازدهار الجمعيات الخيرية ، والكتب الجيدة والدراسات القومية وجمعيات القديس يوسف للدفاع عن المسيحية . ومما هـــو ابرز من هذا كله ، اعمال الارساليات الدينية التبشيرية التي نشطت لنشر المسيحية ، وحمـــل الصليب الى البلدان التي لم تعرف شيئاً عنه ولا عن المصلوب شيئاً ، كما انها اخــــذت توزع على المؤمنين الاشياء التقوية وتقوم بالكرازة بالانجيل من مكان الى مكان آخر .

ومع تسلم الادارة الرومانية في روما بفوائد الادارة العلمانية فقد اضطرت للخضوع لهـــذا التيار الذي يؤيده المتزمتون الذين فازوا باقرار التشريع القديم ، والنزول عند « اصـــلاحات البارونات » ، وديوان التفتيش والى توصيات « مجمع الايمان» الذين نجحوا ، في مجمع الكرادلة عام ١٨٢٣ ، وانتخبوا عام ١٨٣٠ للكرسي الرسولي ، احد ابناء الرهبنة « الكامالدولية » المعروف بتزمته في امور الدين وتقشفه ، هو البابا غريغوريوس الرابع عشر . فبعد ان كرر حـــرم المذاهب الفلسفية والجمعيات السرية ، فلم يتورع قط في توجيه اللوم الى رؤساء الحكومات لما هم عليه من فتور ديني ، طالباً اليهم مؤازرتهم بحيث يتعاون التاج والهيكل . الا ان المفاوضات التي بوشر بها لعقد معاهدة دينية (كنكورداتو) بين الكرسي الرسولي والدول الاخـــرى ، هذه المفاوضات التي تتسم دوماً بالدقة وتحف بها المخاطر والصعوبات لم تلته الى ما يرضي مطالب الكرسي الرسولي .

فالكرسي الرسولي يضع نفسه في موضع حرج عندمـــا يطالب للكنيسة الكاثوليكية بامتيازات ومنافع بعد ان يرفض منح مثلها الكنائس الاخرى . فهو يتجاوز عن السماح لليهود

بإقامة حي لهم في روما ، كما يتجاوز عن تركهم تحت رحمة الدول عرضة للاضطهاد في دول اوروبا الوسطى (مع العلم ان الكاثوليك لا يتمتعون بحرية اكبر في روسيا)، في الوقت الذي راح فيه يطالب سويسرا والبلاد الواطية وبروسيا بالمزيد من الحرية للكاثوليك . وباسم الكاثوليك يعارض بشدة قانون الشهادة في انكلترا كما يعارض بشدة امتيازات الكنيسة الانكليكانية في ايرلندا . وبفضل هذا الجو من التساهل استطاع اوكنيل والرابطة الكاثوليكية ان يحققا مبدأ الانتصار الذي حققاه عام ١٨٢٩، مسجلين بذلك المرحلة الاولى من مراحل سحب اعتراف الدولة بالكنيسة ، كما ان الكاثوليك الاحرار في فرنسا طلبوا من الحكومة ان تتقيد بأحكام دستور عام ١٧٨٩ الخاص بحرية التعليم فيها . وما عسانا ان نقول ، من جهة اخرى عن هؤلاء المؤمنين والكهنة الذين راحوا ، في كل من ايطاليا وكرواتيا وهنغاريا والامارات الرومانية يسهمون سراً وعلانية ، بالحركات التحررية التي تقوم بها الاقليات في هذه المناطق في سعيها نحو الحرية . ألم ينعت وزير الدولة والباقي، قبيل اندلاع الثورة البلجيكية به مرعب، التحالف الذي تم بين الكاثوليك والاحرار ضد الملك غليوم الاول البروتستانتي ! ومع ذلك فهذه الهتافات التي تنطلق من حناجر الجماهير التي تجمعها وحدة العقيدة او الوحدة القومية والحرية ، قبيل عام ١٨٤٨ ، موجهة ضد البابا بيوس التاسع أتاحت لمترنيخ ان يقول فيها : « توقعت كل شيء ما عدا قيام بابا متحرر » . كل ذلك سراب غرار يمكن تبريره .

ففي الوقت الذي تطل فيه على المجتمعات الكلفينية في فرنسا « يقظة » انجيلية وتتكتل في بروسيا الكنائس اللوثرية والاصلاحية ، يقترح فيه المفكر السويسري فينه الكبير على اوروبا ، الاحتذاء بالولايات المتحدة الاميركية . وقد لقي اقتراحه استجابة لدى غيزو ولدى بعض الفئات في فرنسا وجنيف ولا سيما في اسكتلندا . وكان المسيحيان النبيلان مونتلمبير وتوكفيل معجبين جداً بالديموقراطية الاميركية حيث اخذت جميع الطوائف الدينية تتنافس فيما بينها بعد ان نعمت البلاد بفصل الدين عن الدولة . وفي انكلترا حيث راح جماعة يطالبون في اثر ولبرفورس واشلي وتوماس ارنولد مع اتباع الكنيسة العريضة الاخذ باصلاحات تحررية ، كما قام من جهة ثانية فريق مناهض للكنيسة العليا عرفوا باسم « المساعدين » وكانوا من غلاة الطائفة الطقسية يطالبون برفع ولاية الدولة للكنيسة الرسمية ، فانتهوا في تطورهم الديني عند نهج بيوزي الذي لم يكتب لطريقته الاكتمال ، والبعض منهم عند نهج نيومان والرجوع بالتالي الى الكثلكة . ان روح الكفاح الذي جاشت بها بعض الطوائف الدينية المنشقة (لا سيما الموديست منها) تبلورت عن عدائها العنيف للبابوية ، هذا العداء الذي لم يكن ليبزه شدة الا النفرة من المذهب اللاعقلاني .

وهكذا بالنسبة لوضعها الداخلي ، وفي عجزها عن الصمود في وجه الاندفاع المطالبة بالحرية لم تستطع المسيحية في اوروبا ان تؤلف لمدة طويلة ، ضمانة للنظام الذي يدعو للمحافظة على النهج .

السلام الاوروبي عن طريق شرعية النظام الملكي

ألم يخطر ، مع ذلك، للقيصر اسكندر الاول ان يؤمّن الوحدة بين المسيحيين عندما راح يقترح على الحلفاء،وضع الحلف المقدس تحت حماية « الثالوث الاقدس غير المنفصل» ؟وماذا يهم ان تأتي الموافقة، كما أتت المبادرة من صفوف بعض المتصوفين او ادعياء التقوى ، وان يكون غوتيه رأى في هذا الاقتراح « خير محاولة وامثلها جرت لخير البشرية جمعاء ، هذه الحركة «الطنانة الجوفاء »، كما يصفها مترنيخ ، والتي لم يرَ فيها سياسيو تلك الحقبة ، سوى المقاصد البعيدة وتحقيق السيطرة التي راودت القيصر ، من خلال صليبية اوروبية جديدة ضد الاتراك .

والحال، ان العدو الذي يجب وضعه تحت الانظار هو « تنين الثورة » . ان الخير الاكبر الذي حمل ميثاق عام ١٨١٤ بتحقيقه ، هو « تأمين الراحة والهدوء لاوروبا عن طريق اقامة توازن عادل بين دولها » ، اذ كان المنتصرون عاجزين كما انهم غير راغبين في اعادة اوروبا الى حدودها الجغرافية التي كانت لها عام ١٧٨٩ ، فالحق العام هو نتيجة موافقتهم ، وبعبارة اخرى هو هذه الشرعية التي تؤلف بالنسبة النظام القديم ، ما تمثله طبقة الاشراف المتحدرة بالنسبة لطبقة النبلاء الاصلية . فالقضية لا تخرج عن كونها قضية اتفاق بين الدول المنتصرة الاربع التي انضمت اليها فرنسا البورجوازية لتؤمن معاً النظام الحقيقي ، اي توازناً يأتي في صالح هذه « السلطة الحامية الادبية » .

وسلطات هذا الدير كتوار الاوروبي تبقى غامضة ، مبهمة، ولذا كان لا بد من التشاور وتبادل الرأي فيا بينها كلما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا اصبح مترنيخ رجل المؤتمرات اذ راح من مؤتمر فيينا الى مؤتمر فيرونا ثم الى مؤتمر مونيخ - غراتز يحاول توطيد اسس الوئام السائد بين الملوك .

الا ان هذه المؤتمرات تبقى دونما جدوى تذكر اذ لم يكن هنالك من قوة بوليسية او حربية تعضدها او تسندها . وبالفعل فقد كان الكونت سدلنتسكي بمثابة كلب نيوفاوندلند الحارس للامبراطورية النمساوية ، بعد ان عهدت اليه ، عام ١٨١٧ مهام دقيقة قام بمسؤولياتها مدة ثلاثين سنة أولته حق الاشراف المزعج على المانيا برمتها وعلى ايطاليا متقصياً اثر اللاجئين السياسيين ومتعقباً لحركاتهم وسكناتهم في ارض غربتهم في كل من سويسرا وفرنسا . فقد عرفت هذه البلدان نظاماً من الاستثناءات القضائية منها هذه المحاكم التي قامت في عهد لويس الثامن عشر وفي عهد اعادة الشرعية في فرنسا للمرة الثانية والمعروفة بـ « المجلس العدلي » التي لا تقبل احكامها اية مراجعة امام اي قضاء ، والمحاكم الاستثنائية التي قامت في كل من نابولي ومودينا وتورينو ، في عقب الثورات التي طلعت على تلك المدن سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وعقوبة الشنق في اسبانيا اثناء الحركة الرجعية التي شجرت عام ١٨٢٣- ١٨٢٤ .فالشرطة البوليسية والمراقبة تحد من حرية الكلام وتحكم افواه الجامعات والصحافة ، وتجور على المسرح . ففي فرنسا بين

١٨١٥ – ١٨٣٠ ، ما من مسرحية تمثل قبل ان يتم فحصها بالتدقيق فيها جملة جملة ، ثم راح النظام الملكي الجديد المعلن في تموز يفرض غرامة مالية على المتجاوزين للقرارات الحكومية . وقد صدر عام ١٨٣٧ امر في ميلانو يمنع تمثيل رواية بوليوكت لكورناي ، مع انه جرى استبدال كلمة « المسيحيين » فيها باتباع الزرادشتيه . وانكلترا نفسها خضعت ، ولو لأمد وجيز لنظام خاص عرف عندهم بنظام القوانين الستة هذه القوانين التي اقرتها ، عام ١٨١٨ ، حكومة المحافظين في عهد ليفربول ، اضف الى هذا كله التدخل المسلح من قِبَل كل من فرنسا في اسبانيا ، والنمسا في ايطاليا ، وروسيا في بولونيا .

وهذا النظام الملكي والمحافظة عليه يتوقف الى حد بعيد ، على الموقف السلبي المفروض بالقوة او المقبول به من سكان الريف ، مع الملاحظة هنا متانة موقف الحكومات المحافظة في هذه البلدان حيث تسيطر الملكية العقارية الضخمة . ففي الوقت الذي راح فيه القانوني الالماني الشهير سافيني يؤكد حق العرف ويعليه على الحق الطبيعي والقائلون بأن الملكية حق إلهي هي ، ومعظمهم من النبلاء ويشيدون عالياً بفضائل السلم الاجتماعي المسلسل ، تولي طبقة الاشراف ولاءها للملوك : فكلا الحزبين : الاحرار والمحافظين ، يقفان موقفاً عدائياً من السلطة الشخصية ، في بريطانيا العظمى . وفي فرنسا يقف المتطرفون موقف المدافعين عن حقوق المؤسسات التمثيلية ويعلنون انفسهم ملكيين اكثر من الملك . وفي اسبانيا الوسطى يستمر الخوف على اشده بين البيروقراطية الملكية وبين المجالس التمثيلية . وفي كل مكان يبقى صامداً في موقفه لا يتزحزح ، من يتمتع بامتيازات مالية او قضائية ، او عسكرية . ولعل ما هو افضل من ذلك ، هنالك عدد من كبار النبلاء يتحمسون بالحرية ويؤيدون مطالب القوميات . مما لا شك فيه قط ان الخوف من الاضطرابات والاستمساك بعرى السلام حملا البورجوازية على تبني اعادة الشرعية والوقوف الى جانبها . فاذا لم يكن للدول من حليف افضل غير المصرف (ارباب المال) فالهم الاكبر الذي يقض مضجع الحكومات الدستورية هو ان يُعتَرف بشرعيتها . فالملك لويس فيليب يتمسك باصرار بالتأييد التقليدي . وبفضل ماله من محتد كريم ، استطاع ليوبولد ساكس كوبورج ان يدخل بارتياح مصف الاسرة المالكة .

كان من الصعب على القوى الاجتماعية المحافظة ان تتغلب على هذه الخصومات او العداوات المستعصية التي كثيراً ما كانت الباعث الحقيقي لهذا الصراع الذي كثيراً ما يقوم بين الدول . فنظام الحكومات الخمس يفضي بأصحابها الى الجمود الموصول بينا سياسة الوضع القائم التي تفرضها فيينا وارتضتها قاعدة لها ، وجدت في وجهها الى جانب هذه الاطماع التي جاشت بها نفوس بعض الامراء ، النزعات القومية التي لا تزال تتفاعل وتتطور بالرغم من كل شيء .

الفصل السادس

الحركات القومية والقضية العمالية في أوروبا
الروح التحررية والأبداعية المتفائلة

جاء في كتاب بوناروتي : « مؤامرة في سبيل المساواة »
« ليست الحرية سوى القدرة المحدودة على التملك »
(مؤامرة في سبيل المساواة ، المعروفة بمؤامرة بابوف ، ١٨٢٨) .

الاحرار بقي الحزب الثوري حتى عام ١٨٣٠ ، كما يؤكد كورنو ، يشد بنواجذه مستمسكاً بنظريات وافكار القرن الثامن عشر ، كما ان توكفيل يؤكد هو الآخر ، من جانبه : بأن تاريخنا (تاريخ فرنسا) بين ١٧٨٩ - ١٨٣٠ ، اذا ما نظرنا اليه عن بُعد ، نظرة شاملة ، ليس سوى مشهد صراع عنيف قائم بين النظام القديم بما له من تقاليد وذكريات ، وآمال ورجالات ، يمثلون خير تمثيل ، في طبقة الارستوقراطية ، وبين فرنسا الجديدة بقيادة الطبقة الوسطى » . وجماعة الثورة هذه ليست سوى طبقة الاحرار . وقد حدد غيزو الطبقة الوسطى: « هذه الطبقة التي لا يعيش افرادها على المراتب والاجر ، والتي ينبض الفكر عندها وتجيش الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ ، والتي تستطيع ان تخصص جانباً ملحوظاً من وقتها لبحث القضايا العامة ، اي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات الماضية ، وبين هذه الطبقة المنصرفة للعمل اليدوي » .

وهذه الروح المتحررة ، قوام الشرعية وعدة الشرعية الدينية على الاخص ، تقترح نظاماً هو خير الانظمة وافضلها ، والهدف الاسمى لحقبة تاريخية طويلة من حقب التاريخ امتدت الف سنة ، هو الملكية الدستورية التي يوجهها اعيان البلاد الذين جرى انتخابهم من بين المواطنين الذين تتوفر لهم عن طريق الثروة التي تمت لهم ، ونعمة التعلم التي صقلت نفوسهم ، الامكانيات السياسية . فالجمهورية التي رسم دعائمها صاحب الفضل واشنطون ، لها بالطبع المعجبون بها والقادرون لفضلها . غير

ان معظم اصحاب الفكر الحر يفضلون عليها نظام الملكية : « فلو لم يكن من نظام ملكي » يقول كازيمير بيريه «لهبط النظام الى درك الديموقراطية» وبذلك تكون البورجوازية قد اضاعت سيادتها . والحال يجب ان تتمتع البورجوازية بهذه السيادة لاسباب مبدئية، لأنها أكفأ الجميع» .

واذا كان بروز البورجوازية له ما يبرره ويزكيه ، فهي تعتبر نفسها والحالة هذه ، تتمتع بصورة طبيعية بالحرية لان لديها من الاستنارة ما يجعلها تدرك جيداً ان سعادة الجنس البشري تتوقف قبل كل شيء ، على التنعم بالحريات الفردية التي تأتلف مع تطور الجسم البشري ويؤمن سلامة المقتنيات . ولهذه الاسباب ، فالافضل هو النظام الانتخابي او التمثيلي القائم على اساس دافعي الضرائب والصالح للوقوف معاً في وجه الفتن الجماهيرية والثورة الماكسة .

فالروح التحررية حتى الرومانية منها ، تشجب الملكية القائمة على حق الهي وترفض كذلك التسليم بأي سلطة للاديان والكنائس وستجردها مما تتمسك به من حقوق الاحوال الشخصية ، وتعلن الزواج ولا تقبل بخدمات الكاهن او خادم الدين في التعليم الا لغرض ادبي واخلاقي . وهذا العداء للاكليروس ، يقابله لا سيما في البلدان الكاثوليكية الدعاوة الدينية . فبين ١٨١٧ — ١٨٢٩ ، اصدرت دور النشر ٣١٦٠٠٠٠ نسخة من مؤلفات فولتير ، و ٢٤٠٠٠٠٠ نسخة من مؤلفات روسو . وقد ادت هذه المنافسة الحادة في قضايا الدين، والدعاية أو الدعاية المضادة لها، الى حروب اهلية ، في كل من سويسرا والدول الايبرية .

والى هذا ، فمن آدم سمث وجان بابست راي الى جون ستيوارت مل ، راح علم الاقتصاد السياسي بعد ان انتسب الى الكلاسيكية ، يضع القواعد الذهبية التي تنهض عليها المصلحة الشخصية القائمة على تفهم صحيح للامور والاوضاع ، وعلى المنافسة الحرة . وهذا يعني حتماً الاقتصاد الحر الا فيما يتعلق بمصالح الدولة التي تمتزج بمصالح البورجوازية .

الحركة الرومنطيقية والقوميات

من مفهوم الحرية والصفات المعقودة عليها، القديرة على إثارة وتحريك الشعور والهائها . فبيرانجيه يجعلها ، في فرنسا عروس قصائده واغانيه الشعبية ، وهكذا سكريب في مفكراته واوبير في موسيقاه . ففي صفوفها وعداد الناهضين بها ، نرى الحداة المتفننين بها ورجال الاقتصاد الى جانب العاملين في الدعوة لها والفلاسفة والمؤرخين والمناضلين حيالها . فهي تعتمد ، الى حد بعيد ، على اصوات الناخبين في الانتخابات العامة واعضاء الجمعيات السرية واحياناً على الثوار والهاربين في الشوارع . ففي وضع من هذا النوع الموصوف، التحررية انما تعني الكفاح ضد السلطة الشخصية تارة ، وطوراً الصمود في وجه الاجنبي الدخيل،هذا الصمود الذي كثيراً ما يصطبغ بالمطالب الوطنية او القومية.

فالثورات الاميركية والفرنسية كانت في الاساس ردات فعل شعبية ، في وجه الحق الملكي

الألمي القديم . وهل يصلح لمسري التاريخ وحده بحقوق الانسان مبرراً لهذه الرغبة الجماعية التي تهيب بالامم الى النهوض بعد ان يجيش في عروقها الحياة ؟ فيكو يجد هذه القوة في الكون ، في الامة ال Volksgeist عند هردر ، اما فخت فيشدد منجهته على ال Urvolk بينا يراها هيغل في الفكرة ذاتها التي يعمل التاريخ على تحقيقها. وما عسانا ان نصف به هذه المؤازرة المؤاتية تشد ازر الحركة اتفاقاً يقدمها احدهم هو شارل البير فريسة الاوهام والهواجس والظنون، هـــذا التلميذ الاثم لجوزف دي مستر ، او يتبرع بها آخر من صف فريدريك غليوم الرابع ، هذا الفنان السقيم المؤهو بالامبراطورية المقدسة ؟

والى هذا ، فمها كان من سحر الفتوحات الفرنسية التي لا يمكن للمؤرخ ، مهما اعماه التعصب وضيق الصدر ان يتجاهلها ، ومن هذا الاثر المدوي الذي تركته في النفوس والقلوب الامجـــاد التي سجلها الامبراطور الكبير ، هذه الامجاد الآخذة ذكرياتها بالانتشار والتبرعم ، فلا مجـــال لنكران عنصر المفاجأة ـ العنصر الاسطوري ، في التاريخ بحيث لا يمكن للمؤرخ ان يجهل قط الاثر العظيم الذي تركه التوسع الفرنسي في القارة، فساعد على بعث المطالب الوطنية المتعددة بين الشعوب التي وقعت ضمن هذا الفتح . ففرنسا لا تزال ، حتى في سنة ١٨٣٠ ، تعطي اشارة الانطلاق والتقدم الى الامام . الا ان بيكر يضع عام ١٨٤٠ في وجه النشيد الوطني الفرنسي « المرسلياز » ، النشيد الالماني Wacht am Rhein الراذا بنشيد هوفمان دي فالمرسلبن : « المانيا فوق الجميع » بدوي عالياً مطالباً بألمانيا واحدة موحدة :

من الموز الى النيمن

من الاديج الى البلت

فمن هذا الريفي السلافي الذي يشدو متغنياً ويرقص معبراً عن تعلقه الشديد بهذا المـــاضي المجيد ، الى هذا العالم الالماني الذي يكتشف بغبطة ويفهرس ويفسر ويشرح بشغف هـــذه النصوص والوثائق التي تشهد عالياً بخلود ثقافته الوطنية ، تم عمل عظيم ساعد كثيراً ، شيئاً فشيئاً ، على ابراز سمات ارض هذه الجماعات التي تجيش في صدورها الرغبة في الظهور والتجلي وعلى اثبات ما أوتيت من نشاط زاخر وما فيها من العضلات المفتولة . وهذه المطالب الوطنية تتجند في سبيل تحقيقها اجيال متعاقبة من الكفاءات والطاقات المشحونة المتعددة الالوان ، فتوحي الشعر وتحرك الاطماع السياسية وتسخر الموسيقى ، وتجند الغناء ، والرسم ، والتصوير والنقش والحفر ، وتستغل القانون والاقتصاد السياسي . وكل شعب من هذه الشعوب يهيم بليلاه ويغني على هواه .

فالهوى او الغرض قلما يعمل في قلب هذه الشعوب التي لم يكن لديها من سبب يحملها على التذمر من هذه القرارات التي اتخذت عام ١٨١٥ . فالكبرياء التي يحمل جون بول (انكلترا) يتيه عجباً وهو المعروف بكرهه لكل ما هو فرنسي ، لا قبل لها بهذه المطالب التي تعلن عنها

ايرلندا الفتاة ، كما ان السويد لا يمكن ان تهضم او ان تتقبل اي فكرة رسمي لنسخ المشارحة بينها وبين النرويج، والدانمارك ليست على استعداد للاصغاء الى اي مطلب الماني رسمي لاسترداد مقاطعتي شلسويغ وهولشتاين . ولم تكن هولندا احسن استعداداً للتسليم بانفصال بلجيكا عنها. وايطاليا تتحرك وتمور جنباتها تحت تأثير الحركة الانتفاضية التحررية التي اطلقتها جمعية الفحامين السرية . الا ان قيام الدولة البابوية عليها جعلتها تواجه مشكلة وجدان ، فراحت الرومنطيقية القومية تبث في شبه الجزيرة « *Italia fara da se* » ايطاليا فخورة بذاتها. لفخورة لعمري الا ان لا امر لها ولا شأن ، وكثيراً ما أطل عليها النهار بفجر الم . والحركة الالمانية المتأرجحة بين بروسيا والنمسا وعدد من الامراء من الصف الثاني، والتي تتقاذفها البروتستانتية والكاثوليكية والمتموجة بين الاتحاد الجمركي والسوق النمساوية، والمشبعة بروح التقليدية الفضالية تحلم بتحويل هذا الـ *Bund* العاجز، المستضعف، الى رايخ تجهل تماماً ما اذا كان سيأتي على نطاق المانيا العظمى او المانيا الصغرى. واطل البعث السلافي على العالم على اثر اتصاله بالعلم الالماني ، كحركة رجعية قامت في وجه الروح الالمانية المتبطرة ، رافعاً لوائي العلم والفن، مستعيناً على تحقيق اغراضه الوطنية . بالفيلولوجيا تارة ، والشعر طوراً، هذا الشعر الذي يرقص على انغام موسيقى جياشة. فليس الفضل من شوبين على لعب دور السفير المتجول الذي يبعث الاسى اينما حل، وينشر الشجى في قلب شعب خذلت اقداره فتعس . الا ان وقوع القوميات السلافية في اوروبا الوسطى تحت سيطرة عدد من الدول القومية جعلها في حيرة من امرها لا تعرف ما اذا كانت تستجيب للدعوة العقلية: قيصرية كانت ام ثورية ، او انها تنضم تحت جناح شقيقتهم الكبرى روسيا التي تُقلق منها البال وتُشغل الخاطر .

واوروبا الفتاة هذه ، سواء رهبوا امرها او رغبوا فيها ، ذات الملامح الغامضة تستبد بقلوب السياسيين ، وتشغل بال الدبلوماسيين ، فتغزو الادب وتوحي الفنون . فقد بذلت دماً غالياً ذكياً من هذه الاضاحي والشهداء تقدمهم قرابين على هيكل الفداء ، وقام من بينها الابطال يناضلون ويكافحون في سبيل الرؤى الحلوة والاحلام المعسولة، فتزخر بنوعها بالألوف . وقد احسنت باريس وفادتهم. فها هو متشيافتش يغنينا امجاد بولونيا ويصف لنا اخلاق وعادات واعراف بولونيا هذه، المضطهدة والمهيضة الجناح والتي لا تُغلب مع ذلك ولا تُقهر. وهاهو هاين حفي بهذه الصداقة والضيافة بعد ان رفرتها له المدينة المضيافة غب انتفهمت واكتنهت سره، هذا الانسان المثقف الذي تخيفه غرائز ما وراء الرين الحربية ، واخوة « حلف الشعوب المقدس » ، الذي يحيي بير الجيه طلوعه، والذي يحتفظ فيه كل من كينه وميشليه لالمانيا هردر بمركز ممتاز . يا لها من فكرة جبارة !

من لا يعلق قلبه وعقله بحب هذه الامة الكبيرة كما يتصورها ميشليه ويشيد بها ؟ نموذجي ، مثالي ، على كل حال ، كتابه الضخم « تاريخ فرنسا » الذي انتهى من وضعه ، بطله الاول

والأخير هو الشعب الفرنسي ، وليس غير الشعب الفرنسي بنزواته وغضبه ، بأفراحه واتراحه بأحزانه ومباهجه ، هذا الشعب الجاهد الصابر ، الحبيب الى قلوب ابنائه .

وضع العمال الصناع بؤس البروليتاريا

اخذ البعض يتساءل عما اذا كان الوطن يعير اي انتباه لهؤلاء الذين يعولون في تحصيل أودهم على سواعدهم وقوائم البدنية . فالريف لا يزال يحتضن عدداً كبيراً من اصحاب الحرف الصغيرة الذي ليس بوسعه ان يستغني عنهم فحسب ، بل انه في الريف ايضاً اشياء كثيرة تصنع فيه لها أصواتها وعدتها يقتضي لها الكثير من الوقت والعناء والمراس الطويل لتدر على صاحبها دخلاً متواضعاً يدخل المسرة الى نفسه ويعتبره مسعفاً في تحمل اعباء الحياة. ومن الامور التي استأثرت بالانتباه والملاحظة وضع عمال النسيج ، هؤلاء العمال الذين يعملون معزولين ، فرادى في القرى والدساكر ، وضع يأتي دون وضع العمال في المدن المتمركزين في المصانع والمعامل ، يخلّدون التقاليد التي سجلتها مصنوعاتهم الفنية من الابنوسيات والبرونزيات والخزفيات والزجاجيات والمنقوشات فبرزوا نخبة مختارة من رجال الفن والصنعة . وهذا العامل ليس أسوأ وضعاً من وضع زميله او رصيفه عامل النسيج في انكلترا وفي مقاطعات الفلاندر او رينانيا او سيليزيا . الا اننا نرى في بعض الاوساط التي يتمركز حولها العمال ، في المناجم مثلاً او في مصانع حياكة الاجواخ او معامل صناعة الحديد ان العامل الذي يتناول اجره من صاحب العمل تقلقه مزاحمة الآلة له وتزيد من اليد العاملة بكثرة . ويلاحظ احد علماء الاقتصاد والاحرار هو ادولف بلانكي ، عام ١٨٤٨ ، ان الصناعة اخذت تتمركز حول معامل ضخمة هي اشبه ما تكون بقشلاقات او سرايات او اديار ، يتكدس العمال فيها بالمئات ، واحياناً بالألوف ، يعملون في عنابرات يصرّد فيها النور والهواء تصريداً ، يرتبط فيها العمل بالآلة ، فيبقى مثلها ، عرضة للصدمات ولتقلبات العرض والطلب » .

فمع تباين ظروف العيش تبايناً ملحوظاً بين بلد وبلد ، وبين حرفة وحرفة ومهنة ومهنة ، فمن الثابت على العموم هو ان هذه الظروف لم يطرأ عليها أي تحسن يذكر في القسم الأول من هذا القرن ، بينما تكاليف العيش السنوية لدى الاسرة العاملة ، في فرنسا مثلاً كانت دوماً بارتفاع مطرد الى عام ١٨٢٥ وما تكاد تنتهي إلى اقرار حتى تأخذ بالهبوط فيها بعد[١] . فمعدل كلفة الحياة يرتفع اكثر بكثير من معدل الاجر الحقيقي الذي يدفع للعامل ، فمرتب عامل المنجم الذي كان ١٠٠ عام ١٨٩٢ ، كان ٣٦ عام ١٨٠٥ ، و ٤٢ عام ١٨٣٠ و ٤٩ عام ١٨٥٠ . وقد حدث هبوط في قطاع النسيج لا يمكن تجاهله او نكرانه . فمن ٨٠ عام ١٨٠٠ هبط الى ٦٥ عام ١٨٢٠ ، والى ٤٠ عام ١٨٢٧ ، والى ٤٥ عام ١٨٥٠ . والأدلة كثيرة تشهد غالباً على ما في هذا القطاع من تفاوت وتناقض ومفارقات . فالعامل في مصانع سكروس – روس في مدينة

---

(١) راجع الكشوف البيانية المثبتة في الصفحات (٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠) .

ليون الذي يعمل في صناعة الحرير ، هبط اجره الى النصف في هذه الازمة — ازمة الج
التي وقعت بين ١٨٢٤ — ١٨٣٠ . فدزينة المناديل في مدينة روان ، يتراوح ثمنها ،

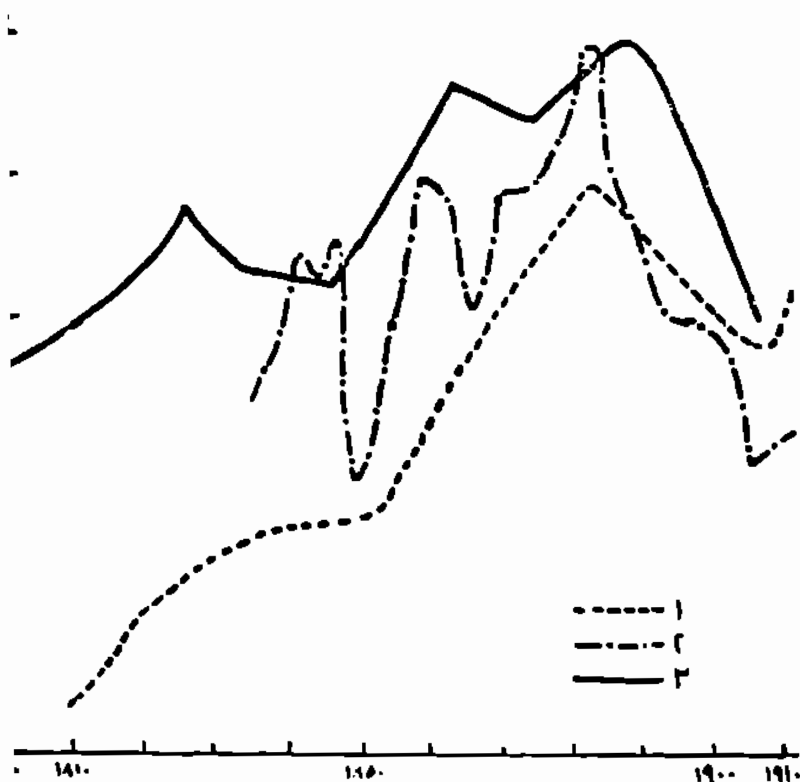

شـكل ٣ - نفقات عائلة عاملة في فرنسا

١ - عائلة بدون اولاد ٢ - عائلة من ٩ اشخاص في باريس - ٣ - عائلة من ٤ اشخاص
(مأخوذة من الاحصاء العام في فرنسا . والدليل ١٠٠ وضع على اساس سنة ١٩٠٥ للحالة الاولى
اساس سنوات ١٨٩٥ - ١٩٠٠ للحالة الثانية ، وعلى اساس سنة ١٩٠٨ للحالة الثالثة .

عرض المنديل من ٥ — ٣٠ فرنكاً ، عام ١٨١٥ ، بينما هبط ثمنها الى سعر يتراوح بين
ونصف و ١ فرنكات ونصف عام ١٨٣٠ . اما في انكلترا ، فعامل النسيج الذي يعمل في
كان ربحه في الاسبوع ، عام ١٨١٠ يتراوح بين ٧—٩ شلن بينما بلغ ربحه ٣٠ شلناً حوالي .
والرقم القياسي عند سوبربيك يشير الى هبوط في هذه الحقبة ، في اسعار البضائع وال
فالرقم القياسي هو ٩٣ لفترة ما بين ١٨٣٨ — ١٨٤٧ ، بينما كان ١١١ في السنوات بين ١٨

١٨٢٧، فكان باستطاعة العامل المذكور ان يحصل على الكمية نفسها من دقيق الزهيد والصيدة، بينا يحصل على نصف هذه الكمية من دقيق القمح ومن الزبدة . اما اللحم ، اما الجعة فلا اثر لها على مائدته .

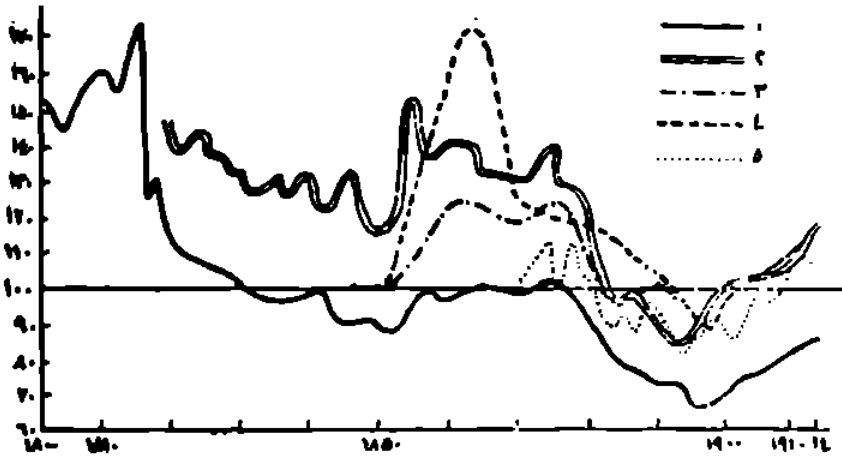

شكل ٤ . حركة الاسعار في القرن التاسع عشر

١ ـ وفقاً لدليل سلبرلنغ وسوربيك : سعر الجملة البريطاني (معدل ١٠٠ : ١٨٦٦ ـ ٧٧) .
٢ ـ سعر الجملة الفرنسي وفقاً للاحصاء العام في فرنسا (معدل ١٠٠ : ١٩٠٠ ـ ١٩٠١) .
٣ ـ وفقاً لمعدل شاتلي جرنز : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ ـ ١٨٥٠) .
٤ ـ وفقاً لجداول الايكونوميست : الاسعار البريطانيا (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ ـ ١٨٥٠) .
٥ ـ اسعار الجملة الايطالية : وفقاً لجدول فرساتي : الانتاج في ايطاليا (معدل ١٠٠ : ١٨٧٠).

حري بالملاحظة هنا هذا العدد من المطبوعات التي اخذت تطل علينا منذ عام ١٨٣٠ واصفة البؤس الذي تتردى فيه الطبقة الكادحة. ان تحديد الحياة عند العامل في مدينة نانت: « ان تحيى هو ان لا تموت »كما يؤكد لنا ذلك الدكتور غيبان عام ١٨٣٥ . وهذا الوصف يشدد بالاخص على الظروف القاسية التي تكتنف العمل : حرارة مرتفعة او واطية ، عدم توفر النور ضيق المبنى ، ورطوبة المكان ،مضار المواد المستعملة وأذاها في صحة العامل ، اختلاط الجنسين والاعمار . ويلاحظ ادولف بلانكي « ان العاملات في مصانع كروس ـ روس تربح الواحدة منهن « ٣٠٠ فرنك في السنة ، بمعدل ١٤ ساعة عمل في اليوم الواحد على انوال تكون معها العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجليها ويديها معاً في هذه الحركة الدائمة المتراقبة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون » . وفي احد معامل النسيج في مدينة أنسي ، جاء في احدى العرائض المؤرخة عام ١٨١٨ ما يلي : « هنالك مراقبون لا

بدان لهم ولا خبير ، يسمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل ، القسوة الفا
عدداً كبيراً مهماً يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح » . ولكن اي زريبة يجد ا
روجه من المعمل ؟ قليلون جداً أرباب العمل الذين يعنون ببناء منازل لائقة الـ

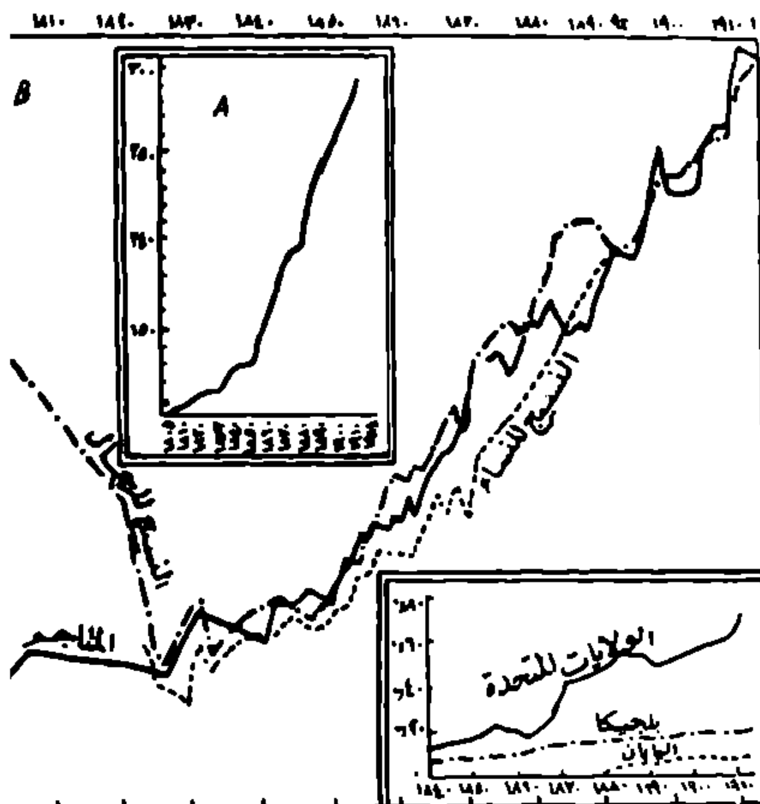

شكل ٥ . حركة الأجور

A - دليل الاجور في فرنسا ، المعدل ١٠٠ : ١٨٠٦ (وفقاً للاحصاء العام في فرنسا)
B - الاجور في فرنسا في المناجم وصناعة النسيج ؛ معدل ١٠٠ : ١٨٩٢ (وفقاً للجداول التي سيان تحت عنوان : الاجر والتطور الاجتماعي والنقد) .
C - الاجور بالساعة في حياكة المنسوجات القطنية (وفقاً للجداول التي وضعها ف. فان هرت تطور صناعة النسيج في بلجيكا وفي العالم) .

ا العمال . فالقبو او الكهف ينتظرهم في مدينة ليل وفي ليفربول ، والزريبة في د
نس وروان ، والبيت الخرب العالي الجدران النتن الساحة في ليون . وفي الداخل

الفتى فلا عرف الشرشف او الحرام غطاء في الليل ، حيث يستلقي رازحين ، لعين ، شخصان او ثلاثة ، «يصعب عليك وصفه ، او التعرف اليه » ، مما وقعت عليه انظار ادولف بلانكي في روان وشاهده مارتن نادو لدى البنائين العاملين في معمل كروز ، في باريس ، او هذا المراقب على زرائب عمال الحياكة الفلنكيين . فخلال المجاعة التي اشتدت وطأتها عام ١٨٤٥ – ١٨٤٦، يأخذ العمال بنبش جيف الخيل ويتناهشون في تخاطفهم الكلاب والهررة ، ويلاحظ عدد من المسافرين ان العاملة في انكلترا تنتفخ سحنتها من كرع كؤوس مشروب الجن، كما ان شعرهـا وسخ قذر . وكثيراً ما يصادف ادولف بلانكي في روحاته وغدواته في روان اولاداً : «شاخوا وهم بعد احداث ،... ضمرت اجسادهم وقصرت قامتهم بحيث لا يستطيع المرء ان يتبين، ولو بصورة تقريبية ، اعمارهم كما يجد في مدينة ليل ، صبية احدودبت ظهورهم وتلوثت اجسامهم ، وشوهت اعضاؤهم ، معظمهم عرايا ليس ما يتدثرون به ، وقد فشت بينهم الامراض عـلى اختلاف انواعها : كرض الخنازير والزهري والتدرن الرئوي وراحت تحصدهم حصداً بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بغاء البنات من الموارد العادية التي يعولون عليها عادة».

فمن اصل ٣ مواليد في باريس واحد منها يولد سفاحاً ، وواحد من ٥ في مدينة ميلهوز ، عام ١٨٢٧ ، ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل . ويروي لنا أشيل بينو « أن معظم العمال يشاهدون اولادهم يموتون دون ان يبالوا بشيء واحياناً بكل ارتياح» ، كما ان البعض منهم يعتبر نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا ما وجد عملاً له ، الا ان بينهم من يهرب من العمل ويتفاداه . وعلى كل فالمستعطون والمتشردون الذين لا حرفة لهم ولا عمـل تغص بهم الازقـة والطرقات كما في الماضي . ان محافظة الاور – واللوار كانت تضم ، عام ١٨٣٣ ، نحواً من ١٧٬٥١٦ معوزاً بينهم ٨٨٦١ من المستعطين . وفي عام ١٨٣٩ ، ارتفع عدد من يلتمس الصدقة الى ٢١١٬٦٧٧ وفي سنة ١٨٤٥ ، كان من المطلوب مد يد المساعدة وتأمين الاسعافات لـ ١١٤٣١ من اصل ٦٨٥٢ في مدينة نوجان - له – روترو . وفي عام ١٨٢٨ ، هنالك في محافظة الشمال ١٦٣٬٠٠٠ عامل من اصل ٢٢٤٬٠٠٠ سجلة اعوازهم في سجلات الاحسان والاسعاف . وفي كتابه : «بين الماضي والحاضر » يرينا كارليل انكلترا تختنق بالغنى والـثراء الفاحش ، بيـنما هنالك مليونان في اصلاحيات الاحداث ، و ١٬٤٠٠٬٠٠٠ من المعوزين الجياع . « هنالك طيف بشع يرزح على صدر اوروبا هو طيف الشيوعية » ، كما يؤكد ماركس في بيانه ، عـدا عن خطر الاملاق والفقر المدقع .

تنظيم العمال
الاضطرابات العمالية العفوية

فالشعور بعدم الاطمئنان والخـوف من الوقوع فريسة البؤس لاعجز من ان تحمل العامـل على الاخلاد للاستكانة والركون الى الدعة والسكون . ففي المانيا حيث التحسس بالروح النقابية او المهنية لا يزال عميقاً في النفوس ، فقد اتخذ اصحاب الحرف القديمة الطراز من هـذا الشعور

«تكتلاً» لهم لتنظيم صفوفهم والصمود في وجه القانون الذي ينظم المنافسة الحرة في مجال العمل . وقد بقيت قوية وطيدة ، هذه الرابطات او الجمعيات المهنية ، مثل: رابطة ابناء سليمان المعروف اعضاؤها باسم « Gavots » ، ورفاق العمل ، ودورة فرنسا وغيرها التي مها باينت بينهما المصالح الخاصة لا تزال مع ذلك تشدها عاطفة من التضامن والتعاضد بين ابناء المهنة الواحدة ، والعمل على توجيههم التوجيه الصحيح .

وفي وسط هذه الجمعيات والأخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي من اهدافها الرئيسية السعي لتخفيف من الاضرار والاذى التي يتعرض لها ابناء المهنة : كحوادث العمل ، والمرض والبطالة ، وذلك عن طريق الصناديق الخيرية التي تغذيها التبرعات . وقد عدت باريس وحدها في عهد عودة الشرعية الى البلاد ، ١٣٢ جمعية مهنية تحت ١١٫٠٠٠ عضو بينهم ٢٦٠٠ من عمال المطابع الا ان هذه الجمعيات تفتح ابواب عضويتها على الاخص للعمال الذين لمت لهم الخبرات الفنية وبعض المهارات بعد ان توفرت لهم درجة ما من التنظيم ايقظت فيهم روحاً اقتصادية . واول التعاونيات التي ظهرت في الولايات المتحدة وفي انكلترا جاءت وفقاً للأوينية ، هذا المذهب الذي قام وفقاً لنظريات Owen في الوقت الذي طلعت في فرنسا احدى هذه التعاونيات باسم « الرواد المنصفون » التي اتخذت اساساً لنشاطها المبادىء التي قال بها وهلم روشدال ، كما قامت تعاونية اخرى على اساس المبادىء التي قالت بها المدرسة البوشيزيانية التي كانت تطالب بادارة حكيمة . والاتحاد النقابي الوطني الكبير الذي بني عليه أوين آمالاً كبيرة ، والذي اصيب بالتفسخ والانحلال من كثرة المطالب والاهداف التي وضعها نصب اعينه . فلم يجن بعد طلوع عهد النقابية حتى السلبية منها والنفعية .

فالعمال وأصحاب المهن مقتنعون جميعهم بالضرر والاساءة التي تسببها لهم الآلة . فالآلة هي عدوتهم الاولى وخصمهم الكبير ومنافستهم الجديدة . فمن انكلترا حيث عم استعمال الآلة في اوائل القرن التاسع عشر ، اطلت على دنيا العمال نزعة تحطيم الماكينات في المصانع[1]. فالعامل او الانسان الذي يعتمد كلياً على سواعده وقوته البدنية لكسب معاشه يقف ، وهذا امر طبيعي ، في وجه كل قوة اخرى تزاحمه او تقف حائلاً دون تأمين معيشته ، او التي تتسبب في تخفيض اجره او مرتبه . ولذا تكاثرت حوادث تحطيم الماكينات والآلات في كل من فرنسا وبلجيكا وبريتانيا وسويسرا نفسها . فقد انطلقت الحركة من مدينة فرلطيه في آب عام ١٨٣٠ ، مطالبة « بتحطيم الماكينات » . وعمال المطابع الذين تمردوا ضد الملك شارل العاشر في تموز ١٨٣٠ ، راحوا يطالبون بعد ذلك بسنة « بالتخلي عن المطابع الآلية » .

فالعهد عهد غليان يلف الريف والمدينة على السواء . وقد انضم عمال الكرمة في مدينة بيزنسون الى المظاهرات احتجاجاً على توحيد الرسوم ، عام ١٨٣٠ . والثورات البلجيكية التي نشبت في السنوات ١٨٤٥ - ١٨٤٦ في المقاطعة الفلمنكية تحت المجتمعات الريفية كما تحت مدينة

عمّت . وهذه الفتن والاضطرابات التي تكرر وقوعها لا يقوم بها العمال المعامون في مناجم الزين او القوار او المعامون في المناطق الانكليزية ، بل ايضاً اصحاب الحرف والعمال المياومون العاملون في المرافق الزراعية . وهكذا نرى العمال يمسكون عن العمل ويضربون في ولايات البيامونت ولمباردیا والبندقية ، في الاشهر الاولى من سنة ١٨٤٨ . وقد برزت الحركة لتظاهرة في الشوارع على شاكلة مظاهرات الشوارع في الثورة الكبرى . فالعمال والصناع ينضمون الى اصحاب الدكاكين والمخازن والمستودعات والى جماعات البورجوازيين في الفتن التي وقعت عام ١٨٣٠ و ١٨٣٢ ، و ١٨٣٤ ، وفي شباط ١٨٤٨ ويثورون لشؤونهم الخاصة عام ١٨٣١ وفي حزيران ١٨٤٨ .

قمعت السلطة الفتنة التي نشبت في ليون عام ١٨٣١ بعد ما لاحظ المعاصرون ما للحادث من خطر وشأن . فقد كتب سان مارك جيراردن حول هذه الحادثة في جريدة الديبا قائلاً : ان الفتنة التي نشبت في ليون اظهرت للناس امراً خفياً هو هذا الصراع الداخلي في مجتمعنا والقائم بين طبقة الملاكين وطبقة الفقراء المعوزين ... وراح يشهّر بـ « هؤلاء البرابرة »، من نوع خاص الذين « يشكلون خطراً » على هذا المجتمع « والقائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضها » . وهذه الكلمات ردد صداها ماركس في كتابه : « بؤس الفلسفة » حيث جاء « فالبربرية أطلت برأسها من جديد وطلعت هذه المرة علينا من احشاء حضارتنا واصبحت من اجزائها المقومة » . وهذا لا يعني قط ان نظرية سياسية جديدة هي التي تحفز العمال في صناعة الحرير ، هؤلاء « المتبوذين » كما يصلهم لامرتين ، بل هذه النقابة التي دعا الى تأسيسها معلمو الورش والمصانع للحد من تعنت تجار الحرير والتي تعمل من وراء العمال وتعتبرهم رفاق عمل . الا ان جل ما يطلبه هؤلاء العمال المتمسكون بتقاليدهم المرعية هو رفع اجورهم . « نحن نجاهد ونكافح لتأمين خبزنا اليومي ، ولتوفير العمل لنا » كما يصرحون . ولما كانوا يخشون عاقبة الحركات التي يقومون بها ، نراهم يتراجعون عن موقفهم ويفسحون بذلك المجال للجنود لاسترجاع المدينة التي سيطروا عليها مدة من الزمن . فقد اسفرت هذه الحركة عن سقوط اكثر من الف بين قتيل وجريح ، الا ان اثنين حكم عليهما بالشنق بعد ان قبض عليهما الثوار وهما متلبسان بجريمة النهب والسلب . ومن الملاحظ انه لم تقع حوادث عنف على اصحاب الممتلكات الخاصة او العامة

وباستطاعة انجلس ان يشدد فيما بعد قائلاً : « ان الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية برز الى الصف الاول في تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدماً وتطوراً » .

حرية العمل والنضال دونها

واذ خشي محافظ الرون ان يرموه بتهمة الضعف ، رفع الى اولي الأمر تقريراً مسهباً جاء فيه : هنالك بين ٦٠،٠٠٠ و ٨٠،٠٠٠ من العمال كانوا بالفعل يتضورون بؤساً . فلم يكن بالامكان مقابلة مظاهرتهم السلبية اعراباً عن

مطالبهم المشروعة بإطلاق النار عليهم الا اذا كنا بالفعل ننوي النام بالجملة ». لقد بلغ من شدة خوف اصحاب الاملاك » في باريس » عام ١٨٣٤ ان راح تيير يطن عالياً : « لا مكان للرحمة قط » » كما راح الجنرال بوجو يصرح بدوره : « يجب قتل الجميع » لا رحمة على الاطلاق . كونوا بدون شفقة ... يجب القضاء على ٣٠٠٠ من العصاة » . واذ ذاك وقعت مذابح شارع ترانسنونين . وقد جاءت حركة القمع » عام ١٨٤٨ » أشد منها واقوى .

فالمحافظة على النظام انما تعني التسييج حول العمل ومنع او حظر كل ما يمسه او يوقفه . فالتشريعات الاجتماعية التي صدرت اذ ذاك في اي مكان » انزلت الاعتصاب بمنزلة الجناية » كما ان اي اخلال بالقوانين التي توصي باحترام الملكية وصيانتها كان جزاؤه التوقيف» وربما السجن مع الاشغال الشاقة . وقد تناولت احكام من هذا النوع » بضعة آلاف في السنة الواحدة .

فالمجتمع غير ملزم بمساعدةمن وقع فريسةالعوز» وتوفير ما يلزم من أوده دون ان يقوم بأي عمل . ولهذا استمرت انكلترا في اخذها بنظام فرض الاصلاحيات على المخالفين . فالحركة الاصلاحية التي ادخلت على « سجن البؤساء المعدمين » » عام ١٨٣٤ هي من بعض نتائج المساعي الجيدة التي قام بها المتأثرون بتعاليم بنتهام » والمنشقون عن الكنيسة الانكليكانية في انكلترا والاحرار من اتباع الـ *Broad Church* وبعض اعضاء حزب المحافظين الاجتماعيين زاد صعوبة عملية الاختيار بين العمل الاجباري » والتشغيل في المدينة والمهاجرة . وهكذا نستطيع ان نتفهم اليوم بصورة ادق تعلق المحافظين الالمان بالروح التعاونية النقابية القديمة » هذه الروح التي عرفت كيف تصمد في وجه الاجراءات الاصلاحية التي حصلت بين ١٨٠٧ – ١٨١٢والتي رؤي اكثر من مرة جعلها الزامية .

اما في فرنسا حيث القوانين المعمول بها تحول دون بعث الروح النقابية » فقد راح بعض من الكاثوليك يقترحون» بعد ان تبينوا العجز الذي يشل عمل المؤسسات الخيرية الفرنسية » الاخذ بطريقة التحكيم وتشكيل مجالس نقابية مختلطة وانشاء تعاونيات . « علينا ان نشجع العامل على استكمال تهذيبه خلقياً وعلى اكتساب طبائع اكثر انسانية وذلك عن طريق تقوية وسائل التملك والحيازة عنده وانشاء توفيرات له » . هذا ما كتبه زوبير الكلفيني ومن رجال الاعمال في الألزاس . ففي كل مكان ترتفع الدعوة مطالبة بالادخار والتوفير .

وقد عدت انكلترا نفسها مجدودة الحظ اذ انها تقدمت غيرها من الدول في وضع قوانين العمل في المصانع» هذه القوانين التي خولت العمال حق الاحتكام لدى السلطات العامة عندما يتجاوز ارباب العمل حقوق الحريات المعطاة لهم » وهي قوانين ترمي لحماية الولد . وبالرغم من انشاء هيئة تفتيش خاصة بالعمل » كثيراً ما عبثوا بالنصوص المتعلقة بسن تشغيل الاولاد ومدى يوم العمل وضربوا بها عرض الحائط» ولا سيا الامتناع عن تشغيلهم ليلاً » فيغضي المفتش او المراقب مأمور الشرطة عن المخالفات . وصدر قانون جديد » حدد بموجبه يوم العمل للولد

بست ساعات ونصف ، و ١٢ ساعة للنساء اللواتي حظر عليهن العمل في المناجم منذ عام ١٨٤٢ ، كما انه عملاً بأحكام الوثيقة ، نشطت الدعاية لاصدار قانون يجعل ساعات العمل في اليوم عشر ساعات فقط . واتخذت بروسيا الاجراءات الاولية التسييج حول مصلحة العمال الصغار ، الا انها جاءت غير وافية بالمرام . اما في فرنسا فاذا مــا وقفت المؤسسات التشريعية الى جانب ارباب العمل لعدم وجود دائرة خاصة تعنى بالتفتيش ، فلم يكن هذا الموقف ليملي عليها وجوب التصرف في مصلحتهم . ولذا فقد اقرت الجمهورية الثانية قانون العمل بـ ١٢ ساعة عمــل في اليوم .

احلال المدرسة محل المصنع ، سياسة تلتقي ومتطلبات التقنية والاخلاقية . فغيزو البروتستانتي يلتقي هنا مع مطالب النحل الانكليكانية البريطانية . ولذا راح يقترح عام ١٨٣٣ المباشرة بتعليم مدرسي يتولاه اعيان من رجال الدين والقنيا . « لتحسين وضع العمال يجب قبل كل شيء تنقية نفوسهم وتوطيدها وتنويرها » . وراح مسيحي آخر مشهور هو مونتلمبير ، يعلق على هذه القضية قائلاً : « هنالك شيء ما تم في فرنسا مع تقدم التعليم العام : هو الحركة الاجرامية » .

الرومنطيقية الاجتماعية وانبياء المدينة الفاضلة

مما لا مراء فيه فقط ان الجريمة الاجتماعية تــلاقي السخط في اصحاب الضمــائر الحية ، وتهيج المشاعر في القلوب الحساسة . وهذا الشعور الغامض في اعماق النفس يستحيل ، شيئاً فشيئاً عاطفة انسانية عارمة كما ان الرومنطيقية الوطنية تحتدم جذوتها امام التهمة التي يرمون بهــا الوطنيين من انهم سيظلون غير مبالين بنداء الوطن . فالجمعيات والهيئات العامــة في حقل الاصلاح الاجتماعي كثيرة هي ، ولكل واحدة شاراتها وتعاليمها ومراسمها ، وكلها تنطق باسم المسيحية وتنزل الله على الارض وترسم لنا صورة السيد المسيح متسربلاً بلباس الثوار ، بزي ابن البروليتاريا . فعلى البشارة الجديدة ان تُعلَن ويكرز بهاانتظار اليوم العظيم . فبعد اعلان حقوق الانسان وبعد اعلان ابناء الشعب ، والبيان الصادر عن *Les Egaux* ، يطل علينا قانون ايمان السان سيمونيين وبيان الفورياريين المعنون : « الديموقراطية المسالمة » الى جانب الكتاب الذي اصدره برودون بعنوان : « ما هي الملكية » ؟ الذي يخاطب فيه الطبقة الرابعة على شاكلة الاب سييس في تساؤله : « ما هي الطبقة الثالثة » ؟ ربما يطلع علينا البيان الشيوعي والبيان المعروف ببيان الستين وبيان الدولية الاولى .

والشعراء الفنانون ، كل منهم مؤمن برسالته . فقد جمع احد رجال المال المعروفين هو اولند رودريغس من اتباع السان سيمونيين ، عام ١٨٤١ ، تحت عنوان : « قصائد العمال الاجتماعية » نخبة من قصائد عامل اللبسات كلود دسو ، وقصائد الساعاتي لويس فستو ، والاسكافي دي لاپرانت ، وعاملة التطريز اليزا فلوري ! والشاعر الفنائي بيرانجيه قــدم لهم ديوانه الشعبي : « حورية القوافي » ! ووضع لامنيه على شرفهم « كتاب الشعب » ، وهوغو يطمئنهم من جهته

ويؤكد لهم قائلاً : « ونحن كلنا عمال ، حتى الله نفسه . والفكر عندكم يجهد فوق ما الجهد اليد وتتعب » . ولوكونت دي ليل ينشر في جريدة « لافالانج » العديد من القصائد ، والموسيقار ليست يضع للعزف قطعة يسميها « ليون » ، ويقدمها للعمال في صناعة الحرير ، تخليداً لثورتهم ولامرتين يكرس لهم احدى مؤلفاته (*Harmonies*) ويتنح حالياً في مجلس النواب الممثل الوحيد للطبقة الحظ العاثر .

هنالك عدد كبير من الكتاب في المانيا الفتاة ، امثـــال بورن ، وهرويغ وفريليغرات يعبرون عن مثل الجماهير الشعبية ومطالبها؛ والبؤس الذي يرسف فيه العمال اوحى الى توماس هود « انشودة القميص » كما اوحى لاليوت « قوافي قانون القمح » ، ولديكنز اروع المشاهد التي تهز المشاعر ، بعنوان : « الازمنة العصيبة » ولدزرائيلي روايته المشهورة « *Sybil* » التي تمور صفحاتها بالألوان والتي تدور حول واجبات الطبقة الارستوقراطية ، اذ من اول واجبات هذه الطبقة مد يد رفيقة للبائس ضد البورجوازي الذي لا شفقة عنده ولا رحمة . واستطاع هرزن من ان يثني بكلنسكي عن مثاليته الفن للفن بحيث يكن المزيد من العطف على الشعب « اسوة بمارات » . وراح ابرقتوس ينادي بتحرير اليهود ، والغاء النظام الاقطاعي في هنغاريا ، وتصوير المجتمعات التي يخيم عليها البؤس اتخذ هو الآخر اتجاهاً مثيراً ، بينا حرص الطليعيون في الحركة الرومنطيقية على الباس الاخلاق العمالية شكلاً مثالياً . وعلى مثل هـذا النهج سار هاين في كتابه : « رحلة الى هارز » . لم يكن المطلوب منهم وضع خطة شاملة للاصلاح الا انهم وضعوا اصبعهم على الداء .

وهذه المرأة التي يشتد التملق اليها والتي لا تزال مضطهدة ومزدراة في المجتمع ، تعبر بدقة عن مطالبها الرئيسية . فالاخوات برونتيه ينطقن بألسنة حداد ما تخفيه التقاليد المرعية من رياء . وتروي لنا فلورا تريستان،هذه المرأة السفاح التي عرفت زواجاً مشؤوماً ، قصة حياة بائسة . ويشدد السان سيمونيون على وجوب تحرير شريكة الرجل وقرينته . ويطالب كتاب معروفون امثال جورج صاند ودانيال سترن غير مبالين بهزء الهازئين وعذل العاذلين ، بحق المرأة في التعلم وحقها كمواطنة . وتقدمت نوادي السيدات وجمعياتها ، عام ١٨٤٨ بطلب المساواة وبالزواج الحر المبني على الحب المتبادل .

وقد رؤي ، تحريراً للرجل ، ان يصار الى تنظيم المجتمع من جديد. وهكذا قامت حركة رجعية ضد التحررية الطبيعية تمثلت في هذه النظريات والآراء حول التعاون والتعاضد . والسان سيمونيون يوصون باستخدام الدولة في هذا السبيل بعد ان يحرروها من شكلها السياسي، كما يستخدمها لويس بلان لتحقيق الجمعيات العمالية ، الا ان أوين ينصح ابناء البروليتاريا بان يتدبروا امرهم بيدهم وان يحكموا جلدهم بظفرهم ؛ ومدرسة فورييه لا تعتمد الا على التجمع الواعي او التلقائي ، كما يوصي برودون من جهاته بالاعتماد على تبادل الخدمات . ومعظم هذه

المذاهب الاجتماعية كما يبدو اما انها لا تعلق اية اهمية على الآلة او الماكينة ، واما انها تعكس بوضوح النزعة المثالية . فهي تتمنى ، على العموم سعادة هادئة في احضان الطبيعة . وانبياء المستقبل السعيد هؤلاء المسالمون ، يرمون الى انقاذ البشرية من الاضطرابات ومن تشتيت القوى جزافاً بشكل لا يقل بشيء عن رغبتهم في انقاذها من البشاعة . فسان سيمون يشجب « استثمار الانسان للانسان » ، وهو اصطلاح يتبناه الكتاب ويمضي مثلاً في الارض ، ويدعو كلاً من المهندس والصيرفي والعامل الى التعاون العام للتغلب على البؤس . وهذه الشيوعية التي نادى أوين وكابه والتي تقوم عن بسمة الامل لا تقل رضى عن الديموقراطية المسالمة التي نادى بها أتباع فورييه ، عدوة العنف . ومقابل « الانسجامات البشرية » للامريكيين ، والانسجامات الاقتصادية لبستيا ، يجب ان نذكر الانسجامات الاجتماعية التي قال بها اصحاب هذه النظريات . فراح البعض يصفهم بأنهم غير واقعيين او عمليين ، اذ انهم كما يقول فيهم انجلس : « لا مندوحة لهم من التعويل على العقل لوضع اسس بنائهم الاجتماعي الجديد » . فالخط الذي رسموه يلتقي بتوماس مور عبر فلاسفة القرن الثامن عشر .

ماركس وردة الفعل التي قام بها

من بين هذه النداءات التي طلعت علينا ، هذا النداء الذي أحدث اكبر واضخم دوي في العالم والذي اطلقه ماركس بعنوان : « نداء الحزب الشيوعي » بعد ان تعاون على وضعه في اواخر عام ١٨٤٧ ، كل من كارل ماركس وفريدريك انجلس ، كلاهما عضو في هذا الفريق الثوري الالماني ، من سكان مقاطعة رينانيا ، العامل في المنفى . كان ثانيهما ابن عامل يعمل في صناعة النسيج ، نشر بحثاً بعنوان : « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » ، عقب اقامته القصيرة في منشستر درس خلالها التنظيم الذي كانت عليه الصناعة في تلك البلاد . « فقد ظهر له – كما يؤكد لنا – بأن الامور الاقتصادية التي لم يعرها التاريخ ، حتى ذاك ، أي وزن وكاد يجهلها بالمرة ، تؤلف ، أقله في عالمنا الحديث ، قوة تاريخية حاسمة هي اساس الصراع القائم اليوم بين الطبقات » . اما الاول منهما ، فهو سليل اسرة بورجوازية من اصل يهودي وعلى مذهب هيغل الفلسفي ، خرج من نقده للمثالية التي قال بها هيغل ، الى نقد الاقتصاد السياسي . فبعد ان احتفظ من الفلسفة الهيغلية بالنهج الديالكتيكي الذي يحسب حساباً كبيراً للحقيقة المتغيرة وانتهى للقول بفلسفة مادية غير اخلاقية ولا فردية – كما يقول النفسيون – بل تاريخية ، اي انها ترى في العلاقات الاجتماعية القائمة نتيجة احتياجات انسانية وذرائعها المتحركة . وبعد ان اتخذ موقفاً له المبدأ القائل : « بأن ليس ضمير الانسان هو الذي يحدد نهجه في هذا الوجود ، بل ان النهج الذي يسير عليه الانسان هو الذي يحدد ضميره » ، راح يؤكد مع الجناح اليساري الهيغلي ، ان الانسان هو الذي يخلق فيه فكرة الله وليس الله هو الذي يخلق الانسان . وهكذا وصل الى فكرة تحول الانسان . وهذا التحول ليس في وسع الانسان منعه الا بتغلبه على المتناقضات الحاصلة من صراعه مع الطبيعة ، وبتجاوزه

المستمر للظروف الخاصة التي تكتنف حياته . فاذا ما رأى نفسه ، في آخر المطاف مضطراً ليعلن في بيانه « بأن تاريخ المجتمع البشري برمته ، لم يكن حتى يومنا هذا سوى تاريخ طبقاته المتصارعة فيا بينها » ، فلأن هذه الطبقات تكيف وحدها الفئات الاجتماعية وهي التي تتصارع فيا بينها، وصولاً منها للتحكم بوسائل الانتاج . ففي مجتمعنا البشري اليوم يقوم صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الاقطاعية ، كل منها تعتمد نظاماً اقتصادياً خاصاً بها . فبمجرد استيلائها على الملكية العقارية ، تؤلف البورجوازية ، بالضرورة ، طبقة خاصة او منازعة ، بينما تروح البروليتاريا تسعى بالضرورة ، هي الاخرى ، تأميناً لحريتها ، للقضاء على هذه الخصومة التي تسببت بانشاء البروليتاريا . وقد تبين ماركس في الدولة الحديثة ذريعة او آلة في خدمة الطبقة المسيطرة . ففي تحطيمه لها تحرير بالتالي، للانسان . الا ان الفرد لا يمكن ان يتحرر الا ضمن طبقته وبواسطتها . نحن هنا امام غائية انسانية يرجى منها ان يبلغ الفرد البشري تفتحه الكامل في مجتمع لا اثر للطبقات فيه . ففي البروليتاريا مناط هذا الامل المعسول . ومع اسقاطها مبدأ العدالة ، فالماركسية لا تتعرى ، والحالة هذه ، من كل مثالية .

ومهما جاءت فكرة ماركس ونظريته الفلسفية، اصيلة فهي تتصل بنظريات ريكاردو حول الدخل والربح والاجر ، ونظريات سيسموندي حول تجريد الرأسمالي لصاحب الاجر، من كل شيء . فهي تعيد الى الاذهان اقوال بيكور الذي كثيراً ما ردد بأن الآلة تفضي الى الحشد في الصناعة ، وهذا الاخير الى وجوب وضع آلة الانتاج تحت مالكية المجتمع وسيطرته . فأمام ما نرى من مفارقات البذخ والبؤس في البلدان الأكثر تطوراً في اقتصادياتها التي تنهض على التبادل التجاري الحر ، نرى بالاضافة الى ذلك ، هذا الاقتصاد يجيش بعوامل وتفاعلات ثورية من جراء تصادم المجتمعات الديموقراطية والراديكالية، والبطوبية والرائقية . فلا يمكن فصمها عن هذه الحركة الدولية التي تعمل ضد النظام القائم الذي اتخذ محاوره الكبرى في كل من لندن وبروكسل ولا سيا باريس . فقد كان لاقامة ماركس في باريس ومكثه الطويل فيها، تأثير عميق على بنيانه السياسي .

الديموقراطيون والثوريون الراديكالية والرائقية

تجر العجلة الصناعية التي تزداد سرعة يوماً بعد يوم وبشكل لا يقاوم (ميشليه ، ١٨٣١) وراءها القوى الديموقراطية التي تعتمدها الروح التحررية في صراعها ضد النظام القديم ، وادهى ما تخشاه هو ان يتم طلوعها . وهكذا تسببت البورجوازية في بعث الطبقة الرابعة ، وليس من يدري قط ما اذا كان بالامكان تأمين الاتفاق فيما بينها ، وفي اي مكان ، في هذه الشعوب التي تعتمد النظام النيابي او التمثيلي .

ليست الديموقراطية في الظاهر سوى فرد تشبع بالروح التحررية ويسلم بالاقتراع العام . «صوت الشعب هو من صوت الله» ، هتف الشاعر، وعبثاً يتحدث لامرتين عن القفز في المجهول،

فهو لا يسعه الا التسليم بأن الامر قضي به على هذا الشكل . يجدنا كورمنين عن « الايمان بسيادة الشعب » . ولكن هذه الرمزية ، يعارف ارستوقراطيون مشهود لهم بالاطلاع الواسع امثال شاتوبريان وتوكفيل ، بما لها من قوة وسحر ، لنهوضها على المنطق واعتمادهـا عليه . فالاقتراع الشعبي المستنير المثقف ، من شأنه ان يلي ، في اضعف الايمان ، من العنف ، وان يطأطىء رأسه امام الكفاءات .

فمهما بلغ من غموض النظام الجمهوري ، فالمعاصرون الذين عاشوا تجربته المريرة يعيدون الى الاذهان ، ذكر الحوادث الكالحة التي حدثت عام ١٧٩٣ . اما في ايطاليا والمانيا ، فحظ هذين البلدين منها مربوط بقدرتهما على تحقيق وحدة الامة . كذلك شأن اي انسان يرد الحروب الى خناقات الملوك بعضهم مع بعض ، يتمنى من الصميم طلوع عهد الجمهورية العامة .

أما فرنسا ، فالبلبلة السائدة فيها يغذيهـا هذا الوضع الديموقراطي الخـاص القائم على النظرية النابوليونية . صحيح ان روبسبيير وسان جوست ، لهـما هما الآخران ، انصارهما ومريدوهما . غير ان نابوليون فهو يتمتع في البلاد بشيء اشبه ما يكون بالعبادة وقد رسخت على الأصل واعرقت بين صفوف صغار القوم على الاخص . ففـي حـالة وقوع اي اضطراب ، فالوريث الشرعي لهذه الاسطورة التي تأخذ بمجامع القلوب يبرز للجميع كالمنقذ الوحيد للنظام ، هذا النظام الذي يراه قادراً على الخلق والتجديد . فالبس والغموض يغيدانه ويزيـدان من الحنين اليه والتلهف عليه . « عد نابوليون ، وانزل قصرك وكن ابناً باراً للجمهورية » ، هذا ما كانت تردده احدى الاغنيات الشعبية ، عام ١٨٤٨ .

فاذا لم يقم في انكلترا ما يمس بعاطفة الولاء للنظام الملكي ، هذا النظام الذي وطد اركانه وشدد من دعائمه حكم الملكة فكتوريا السديد وادارتها الرشيدة ، فالقلق الاجتماعي المسيطر على البلاد يضع وجهاً لوجه هذا النصف مليون من اثرياء القوم هنالك ، اصحاب الامتيـازات والاعفاءات ، مع هذه الملايين الثمانية من الفقراء المعوزين . فقد ساد تلك البلاد مزاج خاص من الراديكالية المتصلة بحبل وثيق بالبيوريتانية المتزمتة التي يتردد على لسانها القول المأثور : العمل صـلاة ، شعار ديموقراطية الاكفاء أمام الله . وبفضل الحالة الفكرية الآخـذة بالاحتدام ، تستبد بالأفكار اكثر فأكثر ، فكرة الصراع الاجتماعي المكشوف الذي يدعو اليه علانية فرغوس اوكنور ، وفرونتير اوبريان ، وكلاهما ايرلنديان ، ومن ابناء ايرلندا المتحررين ، راح الاخير يترجم الى الانكليزية كتاب بيونار'وتي عن بابوف ، فربط بين برامة الشعب التي تطـالب بالاقتراع العام ، والغاء طبقة اللوردات ، وبين وثيقة اعلان حقوق الانسـان التي صـدرت في فرنسا عام ١٧٩٣ . غير ان الصدام العنيف المتوقع لم يحدث وذلك لاضطرار زعماء الوثيقـة التسليم بأن كوبدن وبيل بكسبهما معركة الرغيف بسعر رخيص ، اقاما الدليل على ان امام النظام الرأسمالي دور كبير يجب ان يلعبه . فالمجلس الذي وضع آنذاك كتابه حول الطبقـة

العاملة في انكلترا ، وماركس عضو العصبة الشيوعية فكرا صيغاً بنتائج موقفهما هذا . وهكذا ختما بيانهما بالدعوة الى تضامن البروليتاريا في جميع انحاء العالم حبــا بحاجة لمناصرة الثورة والوقوف الى جانب الثوار في القارة . فاذا ما راح الراديكاليون في فرنسا على طريقة لودري - رولن ، يشجبون بحماس ، اكثر مما جرى في المانيا ، الاشتراكية (استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة ، عام ١٨٣٧) فلم يتورعوا عن التحدث عن الجمهورية الديموقراطية والاشتراكية . ومهما يكن ، هنالك في باريس ارضت بيانكي وانصاره ، وكلهم شيوعيون ملحدون ، يعتقدون بوجود مؤامرة انقاذ . والحال فقد لعب فيليبو بيوناروتي ، حتى ساعته الاخيرة ، دوراً بارزاً ، اذ كان بمثابة اداة وصل بين جمعية المتضامنين والبيانكيين والواثقين ، وبــين اليعقوبيين والبابوفيين من أنصار الثورة الفرنسية ، وبين دعاة اليعقوبيــة الجديدة وانصار البابوفية الجديدة الذين أخذوا يعون اكثر فأكثر ، القطيعة القائمــة بين البورجوازية والبروليتاريا .

عهد الجمعيات السرية والدسائس وثورات الشوارع في اوروبا الغربية

في عهد سيطرة الحلف المقدس ، راحت المنظمات والفئات السرية التي وضعت نصب اعينها تقويض السلطات القائمة وهدمها ، تنظم صفوفها في الخفية . وقــد رمت من وراء نشاطها السري هذا الى توفير عنصر المفاجأة ، وبغتة أطلت الفتنة برأسها ان لم نقل حركات الانقلابات العسكرية .انها أمر ضروري ولا شك ، ولكنهامزاج خاص ايضاً . فالرومنطيقية تتعشق الظلام والانقلابات العسكرية .

فاذا لم يكن من المراجح، الظن بأن مؤامرة ماسونية كانت وراء ثورة عام ١٧٨٩،فليس ما يؤيد الادعاء كذلك بأن الماسونية هي التي بثت الحركات الثورية التي وقعت بعــد الثورة الكبرى بأربعين او بستين سنة . فقد اقامت لها علاقات صريحة مــع الحكومات منذ اليوم الذي تقدمت منها بطلب التساهل الفعلي . فهي ثورة المسلك والطابع ، في هذه الاقطــار الواقعة الى الجنوب من اوروبا ، تصدياً منها لهــذه النظم الملكية الكلية او المستبدة التي تنتصب في وجهها وتسد عليها الطريق . فقد جعلت فلسفة الاحرار منها في روسيا ، حركة مناهضة لمقاوم النظام الجاري الاخذ به .ومما لا شك فيه مع ذلك ان الثورةالموصوفة decabriste التي انطلقت عام ١٨٢٥ ، سببها المباشر اغلاق المحافل الماسونية عام ١٨٢٢ ، بعد ان استمرت البابوية ، منذ القرن الثامن عشر على شجب الماسونية بعنف كلي وتحريمهــا . ولذا استمر الصراع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية . وهذه المنظمات او الجمعيات التي نعتها كل من البابوات إقليمس الثاني عشر ، وبندكتوس الرابع عشر بـ « ضارة ، تؤدي ليس فقط باستقرار الدول وهدمها ، بل تؤلف خطراً شديداً على النفوس » .

ففي البراءة الرسولية التي اصدرها البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٢٦، ويلاحظ ان من هذه

الجمعيات الماسونية القديمة التي لم يبق لها نشاط قط ، طلعت علينا عدة جمعيات سرية اشد كراهية منها ومقتاً » . فيذكر منها منظمة « الفحامين » التي « وضعت نصب اعينها قلب الحكومات الشرعية والقضاء على الكنيسة » . رأت جمعية الفحامين هذه النور في مملكة نابولي واستطاعت ان تقيم لها شبكة من الفروع غطت كل ايطاليا وامتدت الى كل من فرنسا واسبانيا. وقد عرفت ان تكتسب لها اعضاء كثيرين بين افراد جيش نابوليون . حاولت هذه المنظمة عام ١٨٢٠ – ١٨٢١ تنظيم فتنة ضد الشرعية في فرنسا . وبالمقابل نشطت معارضة قوية في الاوساط العسكرية ، في كل من بولونيا وروسيا . واثارت بمناسبة وفاة القيصر اسكندر الاول فتنة (*décabriste*) . الا انه انطلاقاً من ١٨٣٠ ، اقتصرت الانقلابات العسكرية على اسبانيا وحدها . والمطالب الشرعي بالعرش النابوليوني ، حاول عبثاً مرتين مغادرة جزيرة ألبا .

ففي هذه الجمعيات ذات النزعة الجمهورية التي تكاثر وجودها ، لا تزال روح الفحامين تغمرها وتسيرها . فالغاية المتوخاة من الدس والتبييت الاعداد لانقلابات جديدة . وكلما توارى العنصر العسكري عن الانظار بتواري « قدامى » الحروب المظفرة ، ازداد بالتالي اقبال العناصر المستنيرة واعضاء المهن الحرة وحتى العمال على الانخراط في هذه الجمعيات التي جاشت في نفوس اعضائها فكرة الجمهورية الديموقراطية والاجتماعية .

ولما كانت اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات هي التي تستأثر بالسلطة ، كان يكفي على ما يبدو لاسقاطها ، مهاجمتها على حين غرة . « فيوم » الثورة ، حيث يصفى الوضع في بضع ساعات – هو عبارة عن حرب في شوارع العاصمة . فخطط المدينة تستجيب جيداً لمحاربة جيش نظامي يضطر للتناور والتحرك بين الاحياء والحارات والمنازل المرتفعة ، وهو اعجز من ان ينتشر او ان يستعمل بنجاح المدفع ، بينما يسعى الثوار من جهتهم ، الى تحويل هذه المنازل الى حصون مرتجلة يطلقون النار منها على افراد الجيش بنجاح او على الواقفين امام الشرفات او على السطوح .

والمهم في هذه الفتنة ، المتاريس التي تقام في الشوارع. فأمر اقامتها يسير اذ يتخذ منها الثائر ملجأ يطمئن اليه ويخلق منه مركز دفاع جديد لا يمكن القضاء عليه بنيران البنادق ، فيحد من تقدم صفوف الجند الذين يحاولون اجبار الحي على التسليم ، كما يساعد الثوار على الالتفاف حول المباني الحكومية للاستيلاء عليها . ووضع حد للفتنة المشتعلة المسلحة يقتضي الجيش المزيد من الضحايا ، الا اذا ضعفت المقاومة امام عناد الثائرين وصمودهم . ففي الحالة الاولى تطلع علينا المذابح الهائلة ، في باريس عام ١٨٤٨ ، ومعارك فيينا في تشرين الاول ١٨٤٨ . ثم يتدخل عنصر التهدئة على طريقة هوسمان وينتهي الامر بسيطرة المدفع . اما في حال نجاح محاولة الانقلاب هذه ، تأتي الخسارة في الارواح اقل . وتتوقف اعمال القتل مع توقف الحرب واعمال المقاومة . ان قمع الفتنة وانكسارها قد يؤدي الى هدر دماء كثيرة ، وبزج الالوف في السجون ، كما

أن عدد الذين يأخذون بالنزوح الى الخارج ومغادرة البلاد فيتضاعف يوماً بعد يوم .

تهجرون قبلنا هذه الارض اللعينة
بعد ان يقف الله فيها الى جانب الاقوياء
حيث الفقير يرسف في السرداب عبداً ويرفل فريته
وحيث الجاعة لا تستطب الا بالموت الزؤام

(لويس مينار « محنة الثوار » حزيران ١٨٤٨)

الثورات الاوروبية ١٨٣٠ - ١٨٤٨

فعهد الثورات الذي اطل علينا عام ١٧٨٩ ، لم ينته بانتهاء نابليون .

فالهزة العنيفة الاولى التي تعرضت لها مقررات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وقعت ١٨٢٠ – ١٨٢١ ، وهي هزة تعرضت لها بالاحرى مقاطعات الجنوب المتخلفه في تطورها ، ولم يلبث ان قمع التدخل العسكري هذه الفتن التي قامت في شبه الجزيرة الايبارية والايطالية على اكتاف اقليات ضعيفة العدد والعُدد . الا ان الثورة التي انطلقت في اليونان طال حبلها وانتهت بالفوز بفضل اطماع الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة ، امثال روسيا وانكلترا وفرنسا .

اما الثورات التي شبت عام ١٨٣٠ – ١٨٣١ ، وفي سنة ١٨٤٨ – ١٨٥٠ ، فقد ارتفع لهيبها عالياً فاكتوت اوروبا بنيرانها اللافحة . ولم يبق في مأمن منها غير الامبراطورية الروسية . والسلطنة العثمانية التي لم تنج من الحريق ومن سقوطها فريسة بيد محمد علي ، صاحب مصر ، الا بفضل دسائس الدول الكبرى . ومما لا مراء فيه هو ان التوقيت المتزامن لم يمكن من الدقة بحيث تستقيم له اسباب النجاح . فاسبانيا والبرتغال اللتان لم تعرفا الاستقرار طويلاً عرفتا فترات من الاضطرابات الداخلية . والاتحاد السويسري استطاع ان يقضي على الاقليات القديمة قبل وقوع الاصطدام العنيف عام ١٨٤٨ .

«وها هي الثورة الفرنسية تتأجج نيرانها من جديد وتندلع ـ كما يصرح توكفيل عام ١٨٤٨ ـ بعد ان تماثل الوضع وتشابهت الظروف » ، ودكتاتورية السلامة العامة لم تظهر الا لفترة قصيرة. وبصورة استثنائية ، في كل من روما والبندقية ، وبودابست . واتفق كذلك ان المد الرومنطيقي هبط وانحط بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها وانكشف الحلم عن خيبة امل مريرة وتحطمت الجهود . وعلى كل فقد علمنا ارميدور ان لا ينتظر طويلاً ، فارتفاع اللهيب لحظة ويخف ، فتضطر المجالس الدستورية للاخذ بتسويات غرارة ، والحصون التي وقعت في ايدي الثوار لم تلبث ان افلتت من ايديهم ، كما ان القوميات الثائرة سرعان ما يصيبها البهر وعسر التنفس .

وعندما برزت بلجكا للوجود انهارت بولونيا ، من جهتها . ففي غربي البلاد بورجوازية

مستنيرة ؛ بينا في الشرق ارستوقراطية عقارية هي اعجز واضعف من ان تقف في وجه نفوذ الملكية المتمتعة بالكثير من الامتيازات. فمن مكيليكس الى مسب الف حساب لتزار تورسكي. والثورة في بلجيكا انطلقت ضد جوزف الثاني ، قبل عام ١٧٨٩ وجاء زوال جمهورية كراكوفيا قبيل عام ١٨٤٨ ، تكريساً لاقتسام بولونيا نهائيا ، هذا الاقتسام الذي شرعوا به في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وبعد ان فتنتها النزعة التحررية ، لم تماش البورجوازية التيار الاصلاحي الاجتماعي الا بمقدار ما تكنه هذه الاصلاحات من احترام للملكية الخاصة وتوطد اصولها . فالغاء عبودية الارض يؤلف لمصري اجراء من اهم الاجراءات التي طلع بها علينا القرن . فالمؤتمر الوطنـي في فرنسا اعطى المثل الصالح في هذا المضمار ، فسارت على النهج ذاته بريطانيا العظمى ، كما ان الجمهورية الثانية جاءت لتدعم قرار الجمهورية الاولى وتشدد عليه . والتقاليد التي كرستها ثورة عام ١٧٨٩ ، قضت بتحرير الفلاح من جميع العبوديات الاقطاعية ، وثورة ١٨٤٨ التي رفعت بعيداً حتى حدود روسيا ، عبودية الارض والرسوم السيادية ، جعلت اوروبا الوسطى ، في وضع مطابق لوضع دول الغرب من هذه الناحية . الا ان الخوف المستحوذ على العامل يرغم على اتخاذ موقف معاكس ، كل هؤلاء الذين يرون فيه ، ممثلا للفوضى ، والموصل الى المجاعية . وهذا الهاجس الكبير الذي جثم على صدر سنة ١٧٨٩، واستحوذ على الفلاح والبورجوازي الفرنسي خلال ازمة المواد الغذائية الحادة ، كان من بعض نتائجه ان دك معالم العهد القديم من الاساس ؛ والازمة الاقتصادية التي اشتدت حلقاتها بين ١٨٢٦ – ١٨٣٢ ، عرفت ان توحد تارة ، وان تقيم الواحدة ضد الاخرى طوراً البورجوازية والبروليتاريا دون ان تحرك طبقة الفلاحين طبعاً. أما أزمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، فبالرغم من انها شجعت سكان الريف في بلدان اوروبا الوسطى على التحرر ، فقد عجزت عن تحريك الطبقة الثالثة (طبقة الشعب) وفشلت بالتالي في ما رمت اليه من دك النظام القديم دونما رجعة، بينما اثارت في فرنسا موجة جديدة من الهلــع الكبير ، الذي اثاره « المطالبون باقتسام الثروة » و « الحمر ». « ضاع كل شيء » في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٤٩ ، كما زعم بلزاك، «ويبدو انكم يا سيد اراغو لم تذوقوا ابداً طعم البؤس » ، اجابه احد ثوار حزيران . وقال بوجو لتيير عام ١٨٤٩ : « يا لهم من وحوش ضارية . كيف يسمح الله للامهات ان يتصرفن على هذا الشكل ! هؤلا لمصري الاعداء الحقيقيون وليس الروس او النمساويون ! » . وبالفعل فالعامل نفسه يتورع كثيراً في تصرفه عندما يتصرف للمطالبة بحقوقه ، اذ ليس من غريزة توجهه الى ما فيه ضمانة مباشرة، وهو حقه في العمل يلوح به عالياً على رؤوس الأشهاد ، بينا يجهل تماماً، وهو امام البورجوازي الذي يبادر في الحال الى خلع قبعته عندما يقف امام الجندي ، كيف يفك القيود التي تكبله ، ولن يلبث ان يرى نفسه بين احتمالين لا ثالث لهما : اما الموت واما الرضوخ والاستسلام .

« أفضل عندي بكثير ٩٣ على ٤٨، كان هوغو يصرخ وهو في طريق الاغتراب والنفي. أفضل الف مرة رؤية الجبابرة يتمرغون في الحواء على رؤية المغفلين الاغبياء يتخبطون في حمأتهم » . حكم قاس لعمري ، انما يعبر احسن تعبير عن المرارة التي تنغص حياة هؤلاء المثاليين ، ثمانية واربعين ساعة التي تلي هزيمتهم . درس قاس لعمري لهؤلاء الديموقراطيين والاشتراكيين الذين يضطرون التطلع الى المستقبل ، بعد ان يتفحصوا بدقة الامكانات المتوفرة، كما لبه عبر ايضاً للكنيسة الكاثوليكية نفسها التي يترتب عليها تجديد رسالتها بصورة اوضح . الا ان هناك بعض الافتراضات تفرض نفسها بعد لم يعد بالامكان الركون الى أوهام الرومنطيقية، والتعويل عليها بالكلية .

الفصل السابع

بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم
الدفع الاستعماري الجديد بعد فترة من التمهل

« هنا نصبنا علم الحرية ، وهنا لنمتحن قدرة الناس على
حكم انفسهم بأنفسهم » .
(والت هويتمان في كتابه « حشد القرى » - ١٨٤٦)

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم في العالم الجديد

بدت على نظم اوروبا الاستعمارية في اميركا عوارض التفسخ والانحلال ، وذلك نتيجة حتمية لهذه المنافسة الحادة التي اقامت الدول الاوروبية الكبرى بعضاً على بعض ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، نتيجة النظام الاستعماري نفسه الذي كان موضع نقد ونقمة . وهذه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على « الاستثناء » انتهت الى الفشل التام في هذه الاقطار التي تعذر على العرق الابيض فيها التفكير ، والسعي الى رفع كثافة السكان بين الملونين . فقد قام في وجه هذه السياسة معارضة شديدة من قبل المعمرين الاوروبيين في هذه الاقطار التي ألفوا فيها العنصر الاقوى . ومما لا شك فيه قط ان قيام الولايات المتحدة الاميركية وتحقيقها الاستقلال الناجز ، بعث الامل وحرك الهمم بين الاقوام المطالبة بحقها الطبيعي في الحياة ، كما ان مبادىء ثورة عام ١٧٨٩ ، ونفوذ فرنسا الادبي وسيطرتها كان له الاثر البعيد في ما وراء المحيط . ففكرة التحرر تغلغلت بين شعوب المستعمرات وايقظت فيهم الوعي ورغبة صادقة في التحرر السياسي تخلصاً من ربقة القيود الاقتصادية التي احكمت فرضها البلد الام [١] .

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٢٤٥ و ٥٩٠ (الطبعة العربية) .

فاذا ما اعتبرنا ، من جهة ، ثورة اميركا اللاتينية ، مرحلة حاسمة في القضاء على الاستعمار المستحكم في بلدانها والقائم على « الاستثناء » ، فقد لعب مع ذلك الانكليز ، في هذا المجال دوراً بارزاً . ففي حروبها ضد نابوليون ، اضطرت بريطانيا للرد على الحصار البري المعلن ضدها لانتهاج سياسة اقتصادية اكثر انطلاقاً لتتجه من اسواق العالم الجديد . فقد ظهر لها بوضوح ، بعد عام ١٨١٥ ماعليه الاسواق الاوروبية من ضيق ، كما قام في وجهها سياسة من الحماية الجمركية كان لها صداها في حمل الولايات المتحدة الاميركية على رفع رسومها الجمركية، كما ان الازمة التي نشبت في المملكة المتحدة حملت هذه الجزيرة القائم نشاطها على التجارة ، على تحرير اسواق قارة بأسرها واستخلاصها من سياسة « الاستثناء » التي اخضعتها لها دول شبه الجزيرة الايبرية .
وفي الوقت ذاته راح اسطول صاحب الجلالة يمارس في المحيط الاطلسي حق الزيارة (او حق التفتيش) وهو حق اعترفت له به المعاهدات الدولية المعقودة عام ١٨١٥، مكافحة منها لاعمال النخاسة . كذلك ان نشاط حركة الهجرة بين البيض وانشاء مستعمرات إسكان « ولا سيما بريطانية » ، اوجب البحث عن بديل جديد او صيغ جديدة في ادارة وحكم هذه المقاطعات النائية حيث يغلب العنصر الاوروبي ، بحيث ان افضى استقلال الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي بلدان اميركا اللاتينية ، الى نظرية جديدة او نهج جديد في الاستعمار هو نهج الحكم الذاتي الذي عرف ان وفق بين مطالب البلد الام ومصالح مستعمراتها عبر البحار .

تحرير اميركا اللاتينية
حروب الاستقلال

في عام ١٨١٥ ، كادت الشرعية تعود بكامل مستلزماتها الى دول شبه الجزيرة الايبرية والى ممتلكاتها الواسعة في القارة الاميركية ، ولما كانت قوى الثورة في هذه المقاطعات سيئة التسلح ، ومشتتة تتوازعها اراض شاسعة ، فقد باءت المحاولات التحررية التي قامت فيها بالفشل، مع العلم ان البريطانيين المنهمكين بحروبهم مع فرنسا ومع الولايات المتحدة الاميركية ، لم يكن في وسعهم قط التدخل في هذه الثورات ومساعدتها بصورة ناجعة .

فكيف تغيرت الحال بأخرى وانقلب الوضع غيره يا ترى ؟ فالصعوبات التي اعترضت سبيل الثورة وارتهنت نجاحها بقيت لعمري قائمة ، كانعزال مراكز الثورة بعضها عن بعض بما يباعد بينها من مسافات شاسعة تغشى الحشائش والاعشاب والغابات الملتفة في غرناطة الجديدة ، او تعترضها السهول المرتفعة الجرداء المترامية الاطراف بين البيرو والشيلي ، سهول اوليبا الواقعة بين الشيلي ولابلاتا وسلسلة جبال الاندس الشاهقة الارتفاع حيث تكثر الغياض والبطائح والمستنقعات ، والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها الثورة من جانب كبير من الطبقات الموجهة التي لم تسقط من حسابها احتمال قيام الهند بحركة ثأرية ، وتأرجح الكنيسة وترددها اذ كانت تهيب التسبب بزوال سلطة تقليدية صديقة ، والخصومات العنيفة والمناقشات الحادة التي جاش بها زعماء الحركة فتفرقوا معها مشارب ومطالب اذ توقعوا ان تتصدى لحركتهم التحررية قوات

أشد تدريباً ، وأكثر تسلحاً وقيادة مما تم لهم من هذا كله ، وعدم توفر أية مناطق لديهم تستطيع مدهم بالسلاح وتزويدهم بالعتاد الحربي الذي لا بد منه لتسليح فرق المتطوعة من ابناء الريف واضطرارهم للتمويل ، قبل كل شيء ، على الاسعافات التي قد تصلهم من الخارج . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه النواقص، هنالك امكانات تتوفر الآن لم تكن متوقعة من قبل خلت فيهم الامل بالفوز والنجاح ، تمثلت في حركة القمع العنيفة التي قامت بها السلطة الحاكمة فولدت في النفوس احقاداً مشبوبة وبغضاً ازرق وضغائن عنيفة ، كما امكن ان يعولوا، من جهة اخرى، على تدخل الدول البحرية الكبرى التي تهيمن اساطيلها على البحار وموازرتها بصورة اوسع ، وفعالية اكبر واوقع .

واشتدت روابط التعاضد والتضافر بين طلاب الحرية وناشديها من كلا جانبي المحيط ، كما اشتدت روابط التضامن بين الاميركيتين الشمالية والجنوبية . فالثورة التي ارتفع لهيبها في لشبونة، عام ١٨٢٠ اجبرت الملك جان السادس على مغادرة البرازيل والعودة الى البرتغال ، تاركاً جماع السلطة فيها لابنه دون بدرو . كما ان الثورة الاخرى التي نشبت في قادش اربكت فردينان السابع وشلت فيه كل حركة . غير ان استئثار الاحرار بالسلطة ، في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولو لأمد وجيز ، شجع الكنيسة في تلك المستعمرات الثائرة ، على الوقوف الى جانب حزب الاستقلال ، فساندت ثورة إيتوربيد في المكسيك . وتفادياً للمحاذير التي يثيرها اعلان الجمهورية في الريو ، راح كبار الملاكين ينادون بدون بدرو ، امبراطوراً على البلاد ، بينما تطرح بريطانيا بكل ثقلها في كفة الميزان التي يرفرف فوقها خط الثورة ، ولم يصعب عليها وجود المغامرين والعسكريين المسلكيين الذين يتطوعون لتنفيذ المهام التي سيعهد بها اليهم .

ومنذ عام ١٨١٩ ، استقبلت واشنطون ممثلاً لبوليفار بعد ان سبق لها واعترفت بجمهورية كولمبيا الكبرى والمكسيك .

اظهرت الولايات المتحدة كل استعداد لديها لتقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من مساعدات مالية وعتاد حربي. وبعد ان احتجت حكومة لندن ضد تدخل فرنسا وضد موازرتها لفردينان السابع ، اقترحت على الاميركيين اصدار تصريح مشترك بتأييد استقلال الجمهوريات الجديدة . فاذا لم يشأ مونرو الارتباط بأي وعد صريح ، فقد ساعد التصريح الذي اذاعه عام ١٨٢٣ ، في توطيد هذه الجمهوريات الناشئة ، كما رأى كاننغ ، من جهته ، ان يعترف بالامر الواقع . ففي سنة ١٨٢٤ ، حدث في أياكوشو انهيار آخر مركز للمقاومة الاسبانية في تلك البلاد ، ولم يبق لمدريد سوى جزيرتي كوبا وبورتو ريكو . اما تحقيق مثل هذه النتائج الحاسمة ، فقد تمّ بعد سبع سنوات من الجهاد العنيف والحروب الدامية ، كانت محكاً قاسياً لشجاعة هؤلاء الثوار المطالبين بالاستقلال، ولقوة احتمالهم ولمهارتهم تحت قيادة زعيم ارتجيل ارتجالاً هو الزعيم (كوديلو) الذي اعطى كل طاقاته .

وقد لمع في هذا الصراع المحتدم احمان ، وبرزت شخصيتان هما : بوليفـــار وسان مارن ، كلاهما من مواليد المصرين الاغنياء ، متطيان من الفنون الجميلة واعماد لارثهم القـــديم . برز اولهما في كركاس وطلع الثاني في بونس ايرس. كلاهما على اطلاع واسع على امور اسبانيا لاقامتها ردحاً من الدهر في اسبانيا . فالشاب الفنزويلي ذو العاطفة المشبوبة والذي فقد زوجته وهو ابن ٢١ سنة ، طوف في جميع اطراف اوروبا وقبس من التجربة والخبرة ما حنكه في العمل الذي ندب نفسه له ، متوجهاً بأنظاره نحو الاجنبي ولا سيا نحو الانكلوسكسون ، بعد ان تبين ما هم عليه من قوة وبأس وبعد أثر ، يعلو قامته رأس جاش بعظائم المقاصد ، جذاب ، شديد الفتنة ، له القدرة على ان يجر وراءه الجنود دون ان ينفر منه كبار الملاكين . وقد أوتي من قوة الاحتمال وطول الاناة ما لا يتوفر بعضه القليل ، مع ما تعرض له من مسببات اليـــأس وبواعث القنوط . فقد عرف ان يفرض النظام وروح الانضباط على المراد جيشه ، الا انه عجز باعتباره زعيماً مؤقتاً ، ان يؤلب حوله كل القوى الراغبة في الاستقلال .

ومع رغبتها الصادقة بتجريد اسبانيا والبرتغال من كل مستعمراتهـــا ، فقد حرصت الدول الاسكندينافية ،معذلك على ألا تشجع كثيراً قيام اميركا لاتينية موحدة. وبوليفار الذي كان يخشى كثيراً وطأة او ضغط وحدة سياسية من هذا العيار ، نزع في الصميم الى انشاء اتحاد فـــدرالي شبيه بهذا الاتحاد الذي تم في اليونان قديماً على يد فيليبس المقدوني. فكانت مدينة كورنثس مركزاً له . ولكن هيهات ان تلعب بناما دور كورنثس، اذ ان كولومبيا الكبرى ليست بمقدونيـا ، ورومان هـــذا العصر القابعون في جزيرتهم ، في المحيط الاطلسي ، حريصون على زرع بذور التفرقة والانشقاق .

وهكذا برزت اميركا اللاتينية لدى وفاة المنقذ الاكبر (ليبيراتور) سوقاً ضخمة مشرعة الأبواب امام سادة البحار وارباب التجارة والاعمال ، لم تلبث ان ازدادت تفسخـاً ، كما ان الفوضى استحالت فيها مرضاً عضالا .

توسع الولايات المتحدة وامتدادها

في الوقت الذي عجزت فيه اميركا اللاتينية اثر تحررها ، من تشكيل اتحاد فدرالي فيها ، اخذت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب المظفرة التي خاضتها ضد انكلترا بين ١٨١٢ - ١٨١٤، تتسع وتمتد جغرافياً بسرعة مدهشة حتى انها أطلت في الغرب على مشارف المحيط الهادي ، وما ان طلعت سنة ١٨٥٠ حتى كانت حدودها من هذه الناحية بارزة العيان ، واضحة ، واقتسام اميركا الشمالية الذي بقـــي مرجرجاً لا يستقر تماماً على وضع معين واحد اوحد، مستقيم ، انتهى الى وضع ثابت . فالروس اقتطعوا لأنفسهم المقاطعة المعروفة بالاسكا التي كوفت عبر مضيق بهرينغ استطالـــة طبيعية لسيبيريا ، والقسم الذي كان اسبانياً لعهد قريب، اقتصر الآن على المقاطعات الرائعة حول المنطقة

الاستوائية بعد ان اقتطع الاميركيون الاراضي الواسعة التي ألفت قسماً من المكسيك في الشمال. وجاءت معاهدة اوريغون توزع بصورة حبية القسم الاكبر من هذه القارة بين بريطانيا والاتحاد الاميركي . ومع انه لم يخطر لسياسيي واشنطون اذ ذاك ، ان يضعوا خطة شاملة يستشرفون فيها سوى تطورهم الصاعد في المستقبل والعمل على تحقيقها ، فقد جاءت ، مع ذلك ، عوامل عديدة كالاسكان والحاجة المستمرة الى اراض جديدة ومحاربة الهنود واستئصال شأفتهم ، والرغبة الخفية في التحرر من الضغط البريطاني وحتى من الروس في الشمال ، والحد من الامتداد اللاتيني ، وغير ذلك من ظروف عارضة ، ساعدت على تحييز هذه الرغائب وتحقيقها . الا انه جال في رأس أولي الامر من الاميركيين ، افكار توسعية برزت بوضوح من خلال الازدهار التجاري الذي نعم به الاتحاد الاميركي وبناء اساطيل تجارية وحربية ضخمة ، ساهم ، انهاك اوروبا بحروبها المتصلة ، على تحقيقها. وهكذا قامت ضد الشركات الروسية والانكليزية، ولا سيا ضد الشركة المعروفة بشركة خليج هدسون الاميركية الفراء ، بادارة ألماني مهاجر يدعى استور كان خير من يمثل مصالح الجمهورية الفتية ، هذه المصالح التي راحت اميركا تدافع عنها ، محذرة بلسان رئيسها مونرو ، من مقاصد الروس واهدافهم التوسعية ، وباخراج بريطانيا شيئاً فشيئاً من هذه الشراكة في السلطة على مقاطعات الاوريغون .

صحيح ان الاستيلاء على هذه الاراضي جاء متقطعاً . فقد رافق تحقيق مراحل الاستيطان والاسكان الزراعي والراعوي والتعديني ، مساحات شاسعة غير مشغولة . فالابيض يتطور على حساب الهندي الاحمر بعد ان يسلبه ارضه التي يظعن اليها ويتحرك فيها على هواه ، هذه المنطقة التي لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار لما يحف بها من مخاطر ، فيضرب خيامه في ارض معادية ، في هذه المنطقة المتحركة المتنقلة التي يعرفها الاميركي بالحدود ، والتي شهدت صراعاً خفياً ، لا يرحم ولا يلين منذ القرن الثامن عشر ، لا ينتهي الا في اواخر القرن التاسع عشر . والقائمون بهذا الصراع الخفي الغامض هم على الغالب ، رواد مغامرون في بحثهم عن الاصفر الرنان ، وقد اجتذب سناؤه من بعيد هذه الألوف المؤلفة ممن سال لعابهم على بريقه ولمعانه ، فتركوا لنا في سعيهم اليه وتكالبهم عليه حوادث لها وصف رائع في هذه القصص والروايات التي تركها لنا فنيمور كوبر و واشنطون ايرفن .

وفي اثر هؤلاء يهبط العطاش الظامئون الى الاستقلال ، الى الوحدة ، هؤلاء المزازون الذين يعيشون في هذه الحيرة المحمومة ، بانتظار المدينة الفاضلة ، المثل ، رمز المدينة السماوية ، بعيدين عن الخطيئة والخطاة ، بمعزل عن المشركين الضالين . ولعل ابرز هذه الجماعات ، جماعة المورمون الذين يهبطون ضواحي البحيرة المالحة الكبيرة ، حيث يؤسسون لهم مملكة القديسين : صهيون الجديدة . وهذا الغرب البعيد يفتن بسحره الاخاذ ، هؤلاء الاوروبيين الذين اخذوا يرون في اميركا ارض الميعاد الجديدة التي عليها يتوقف تحقيق هذه المثل الخيالية التي راودت الفكر

وخيال اتباع هذه الجماعات الدينية التي طلعت جديداً ، امثال الـ *Owénistes* في نيو هارموني من اعمال ولاية انديانا ، والـ *Icariens* في مدينة نوفو ، من اعمال ولاية ألينوي ، وفي تكساس ايضاً فئة الـ *Sociétaires* واخيراً وليس آخراً اصحاب بدعة الـ *Mennonites* كما يتوارد على حوض نهر الميسيسبي ، باعداد تأخذ دوماً بالارتفاع والاتساع ، البريطانيون والايرلنديون ، والالمان والسكندنافيون الذين غادروا بلادهم تحت وطأة البؤس والمسكنة او تحت عوامل الضغط السياسي الذي كثيراً ما تعرضوا له .

واميركا الفتاة هذه التي بوتقت انسانيتها بخشونة وغلظ اقصرتها على تربية الماشية والأعمال الزراعية على نطاق واسع ، في هذه المروج والسهول المترامية الاطراف ، ذات التربة المعطاء والاقليم القاسي . فما يكاد المعمر يطل بقامته الفارعة الطول من وراء جبال الابلاش الملتفة الأحراج، حتى يفضي به المطاف الى سهول جرداء ، حيث تغمره وحشة مخيفة، عليه ان يتدبر امره بأي حل وحال . ولما كان لا مال عنده، كان عليه ان يستلف ويستدين ليؤمن حاجته من البذار معولاً على الموسم لتسديد دينه . وهذا الغرب البعيد النائي الذي يصقل الطباع ويوحي الى ساكنيه الشعور بالمساواة ، ويحرك روح المغامرة في النفس ، يدرر بالفعل ، في فلك الولايات الشرقية مع انه يمد المؤخرة بالكثير من حاجاتها الحبوب واللحوم ، وهكذا تنظر الى الساحل المنبسط امام المحيط الهادي نظرتها الى مستعمرة نائية . كان الاتحاد الاميركي يضم عام ١٨٥٠ نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد سكانه عام ١٨٢٠ ، تسعة ملايين لا غير . فكان خط العرض، المار بمدينة بتسبرغ المحور الذي يمر فيه العمود الفقري للاسكان، بينما محور الانتاج الصناعي يقع في بلطيمور وضواحيها. فشبكة الخطوط الحديدية جمعت بين شيكاغو وسان لويس قبل عام ١٨٥٢ ، ومع ان الولايات الأطلسية اخذت تتحسس بهذه الروح الاستقلالية التي جاش بها الغرب ، فلم تكن على استعداد قط التخلي عن سيادتها وسيطرتها .

روح واشنطون وجيفرسون الديموقراطية

وهذه الجمهورية الفتية تلفت النظر بمؤسساتها ونظمها الوطيدة. فها هو ميشال شيفاليه يقف مشدوهاً امام الانجازات المادية التي حققتها ، والطاقات الاقتصادية التي تتوفر لها . فتوكفيل يرى في هذه الاوضاع التي تمت لها دليلا قاطعاً على متانة هذه الديموقراطية ورسوخها ، وبشيراً بمستقبل زاهر عظيم . فهل نجحت يا ترى الحرية على التأقلم في هذه الديار دون ان يطرأ عليها أي زيغ او انحراف أو ان تصاب بأي سوء ؟

فالتطور الديموغرافي الذي أخذت بأطرافه لا يمكن رده الآن الى هجرة كثيفة واسعة . فالنازحون اليها بين ١٨٢٠ - ١٨٤٥ يزيد عددهم قليلا على المليون . ففي عام ١٨٥٠ ، نرى مهاجراً واحداً يدخل البلاد مقابل ٩ ولادات . فالشعور الاميركي الاصيل يستبد قوياً بالسكان الذين اخذت نفوسهم تجيش بروح اميركية صرفة .

وهذه الأوساط الاجتماعية التي استقر عليها وضع هذه الامة الجديدة هي التي تتولى التوجيه في البلاد وتستأثر بادارتها . فسكان الريف في هذه الولايات المعروفة بانكلترا الجديدة وفي بنسلفانيا من فراري البيوريتيين المتزمتين في امور الدين والمتوديست الذين جاؤوا البلاد من قبل بكثير ، قد حافظوا على بساطة النفس في اخلاقهم ومعايشهم ، فانقطعوا للأعمال اليدوية يبتغون شيئاً من كل شيء ، واتخذوا من قراءة الكتاب المقدس عادة لهم واستمسكوا بروح الديموقراطية المحافظة .

اما على الساحل حيث تكاثر الخلجان العميقة ومصبات الانهر العريضة ، فلقد قامت بورجوازية ناشطة انقطعت للمشاريع والانشاءات البحرية والاعمال التجارية الواسعة : كتجارة الرق وتجارة الروم وصيد السمك ، وكلها اعمال عادت على اصحابها بثروات واسعة استثمروها في تجارة الشاي والتوابل فالحرير وانشأوا دور صناعة ضخمة لبناء السفن ، امنت للاتحاد ردحاً من الدهر ، اقوى اسطول تجاري شراعي في العالم ، وراست لها صناعة ضخمة للنسيج والحديد تبشر بمستقبل عظيم . وهؤلاء الأغنياء الحديثو النعمة الفوا في البلاد طبقة من النبلاء لوطدت علاقاتها مع الانكليز واقتبست الكثير مما طلعت به الحضارة البريطانية وشمخت بأنفها على الملكية وطبقة النبلاء في البلد الأم سابقاً . وقد تجلت ثقتها بنفسها على الوجه الاتم، فهذه المثالية التي يمثلها خير تمثيل أمرسون ، هذا الوزير التوحيدي المذهب والطريقة التي صرح عنها عام١٨٣٧ قائلاً : « طال اصغاؤنا لمواقف اوروبا وموحياتها . فقد حان الأوان لأن نمشي على ارجلنا وان نعمل بأيدينا وان نعبر عن خوالجنا وهواجسنا وافكارنا » .

وهذا التطور الصناعي الذي حققه شعب انكلترا الجديدة ونيويورك وبنسلفانيا ولّد في نفوس القوم هناك عقلية اقتصادية سيطرت على العقول . فمنذ عام ١٧٩٠ ، اقيم في مدينة بتسبرغ مصب كبير للحديد، وارتفع عام ١٧٩١ أول مصنع في البلاد للنسيج في ولاية رود ايلاند وفي سنة ١٨١٠ ، استعملت لوبل احد مساقط نهر مريماك لتوليد القوة المحركة، فانشأت في هذا السبيل شركة خاصة اشترت الارض وشيدت عليها مصنعاً وبنت مدينة ، فبلغ انتاج المصنع ٣٨٠٠٠٠ نول لحل القطن عام ١٨٤٠ . الا ان عدم توفر اليد العاملة وقلة كفاءتها وغلاءها جعل المصنع المذكور يعول اكثر فأكثر على الآلة . كما ان ارباب العمل المذكور اتخذوا الطريقة الابوية في معاملتهم العمال . وهكذا نرى في لوبل ٥٠٠٠ امرأة ينزلن بنسيونات يقوم على ادارتها ارامل تدفع اجورهن من حسومات يقتطعها ارباب العمل ، مع تأمين الوسائل الصحية والتقيد بأوقات الخدمة الدينية في مواعيدها المعينة . وعبثاً قامت نقابات عمالية مطالبة بتطبيق العمل على القاعدة التي تقول من الستة الى الستة بدلاً من شروق الشمس الى مغيبها ، وعبثاً يخطب فرنسيس رايت نصير المرأة واحد انصار فلسفة أوين حول صراع الطبقات امام حشود من حزب العمال . إلا ان ارباب العمل أصموا آذانهم امام هذه المطالب متعللين بحرية العمل وراحوا يسمون التحكم

بالاسواق الداخلية . كان باستطاعة الاثرياء ان يؤمنوا حاجاتهم من انكلترا ، امـــا الاصناف المحلية الصنع فيجب ان تخضع لنظام التعرفة ، بعد ان صدر بذلك عام ١٨١٨ قانون كان بالنسبة السفن الأجنبية بمثابة قانون الملاحة في انكلترا. وهذه السياسة المستوحاة من مبدأ مونرو يمكن اعتبارها بمثابة استقلال البلاد الاقتصادي .

ومن حسنات قانون الجمارك هذا ان ادى الى تغذية ميزانية الاتحاد، كما أتاح للحكومة فرصة لتأمين وضع سليم لمالية الدولة . وقد برز ، في الشمال ، نفوذ رجال المال وذلك بانشاء البنك الوطني وانتهاج سياسة تخفيض النقد المتداول في البلاد ، وهي سياسة سببت الكثير من المتاعب والازعاج للمدينين والمتعهدين في الغرب. وقد غصت سجون بوسطن بالمئات من الموقوفين لتأخرهم عن تسديد ما يستحق عليهم من ديون . وراح الجنوب الذي كان يعتمد في معايشه على محصول التبغ والقطن يتذمر من فداحة نظـــام التعرفة الجمركية فألف شيئاً من التحالف بين صغـــار الملاكين وكبار المزارعين ضد هذه الاوليغارشية المالية والصناعية كان من بعض نتائجه ان حل الى الحكم انصار جكسون الديموقراطيين ، عام ١٨٢٨ .

من الامور المتعارفة في الولايات المتحدة أن الحكم هناك قاعدتين يقوم عليها تتمثلان في هذا الفريق من اصحاب الاعمال في الشمال ، وارستوقراطية كبار الملاكين في الجنوب ، هـــذه الارستوقراطية التي امدت البلاد حتى الآن، بالقسم الاكبر من السياسيين الذين جلبوا الاستقلال الى البلاد وشكلوا الاتحـــاد ، امثال واشنطون ورجالات فرجينيا ، بينهم : جيفرسون ومادبـــن ومونرو الذين تعاقبوا ، مع آل ادامز من سكان بنسلفانيا ، على رئاسة الاتحـــاد الأميركي .

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي الذي لا ينصرف فيه الأبيض للعمل في الأرض بملء ارادته قام في البلاد نظام اقتصادي اساسه الزراعة نهض على مزدرعات واسعة امتدت من ضفاف نهر البوتوماك حتى بلغت مشارف خليج المكسيك ، قوامه اليد العاملة والملكية العقارية الكبيرة وهو نظام لم يلبث أن اكتسح بنسلفانيا على يد فريق من الهولنديين والمهتزين (الكويكرز) ، وامتد الى ولايتي ماريلاند وفرجينيا اللتين تألف منهما ما يعرف هناك بـ « نطاق التبغ ». فـــلم يكن من النادر قط في هذه الولايات أن نرى بـــين اصحاب الأطيان الكبيرة ، من يملك ٢٠٠،٠٠٠ هكتار واكثر. الا ان جمعيات المزارعين كان معظمها يتألف، في كارولينا وفرجينيا على الأخص ، من الملاكين المتوسطين الذين تتراوح الثروة العقارية لدى الواحد منهم من ١٠٠ – ٣٠٠ هكتار بحيث ان ١٠،٠٠٠ أسرة فقط كان للواحدة منها ٥٠ عبداً من أرقاء الزنوج . هنالك لعمري طبقة من فقراء البيض تتألف من الـ *Crakers* ومن الـ *Sandhillers* أفرادها اميون كسالى ، يسكنون الزرائب ويكرهون بغضاً ازرق الزنوج وكان هؤلاء الزنوج يقطنون ، على

الغالب زرائب واكواخ ضيقة ويجبرون على العمل بين ١٦ و ١٨ ساعة في اليوم الواحد، وضعهم في فرجينيا أرفق منه في اية ولاية اخرى ، وسيء جداً في مزارع الأرز في ولاية كارولينا ، يعيشون حياة الحرمان والبؤس متسكعين في جهل مدقع، ومع ذلك عُرفوا النكتة وخفة الدم، يهوون الغناء على الطريقة الافريقية الشعبية (الجاز)،كما عرفوا ان يفوزوا خلال خدمتهم ، بثقة اسيادهم ، يراعي جانب الزنجية المرضع التي فرضت نفسها . فاذا ما كان الدين يوصي ابناء حام بالخضوع والخنوع ، فاللامبالاة التي تقرأ على سيماهم تخفي وراءها الكثير من المشاعر الدفينة. الا ان الغاء النخاسة وتحرير عدد كبير من الزنوج ادخل في روع البعض ان تجارة الرق تلفظ انفاسها الاخيرة . الا ان اختراع هويتني للمحلاج في عملية حلج القطن واشتداد الحاجة الى الزنوج ، في كل من اوروبا وانكلترا الجديدة ، بعث المزيد من النشاط في هذه التجارة . واقبل الجنوب على تنشيط زراعة القطن،وعرى بشيء من الهوس الجنوني من اشجارها الاراضي التي تطل على مشارف خليج المكسيك حيث غلبت زراعة القطن الطويــــل التولة ، والقطن القصير التولة . وكلها زراعات يقتضي لها الكثير من اليد العاملة. وبالرغم من تزايد اليد العاملة ونموها المتصاعد فقد عجزت ، مع ذلك ، عن الوفاء بمطالب زراعة القطن وحاجتها العمال بعد أن اخذ الانتاج يتضاعف كل عشر سنوات . وقد ركن المزارعون الى اسواق النخاسة لتأمين حاجتهم من اليد العاملة من الزنوج ، مما ادى الى ارتفاع اسعارهم حتى ان بعض البلدان راحت تنظم عملية تربية « ماشية الملونين » دون ان يؤمنوا أمور تغذيتهم بالقدر الكافي ، واستطاع تجــــار النخاسة في كوبا وغيرها أن يؤمنوا لهم ارباحاً طائلة ، كما ان التشريع اخذ ينزع الى الحد من تحرير العبيد والحؤول ما امكن دون هربهم من المزارع .

فالمزارع يقطن عادة منزلاً رحباً له شرفات عالية تقوم على حفافي الأعمدة وينعم بأثاث وثير هو على الغالب من صنع انكليزي ، متخرج على العموم من جامعة هارفرد او أية جامعــــة أخرى وتمت له ثقافة عالية ، ويستــلم للذة المطالعة في اوقات فراغه ويستقبل في منزله عدداً كبيراً من الأصدقاء ، ويهوى الصيد والقنص وسباق الخيل ومشاهدة مصارعة الديكة ، ويقيم الولائم الفنية ، ويشترك بادارة الناحية ، كما يُعهد اليه عادة بادارة الشرطـــة ، كما يتولى الاشراف على العمال في مزدرعاته ، ويبهجه أن لا يتمثل إلا لصوت الانسانية ولمطالبها الحقة ؛ إلا أن وضعه مرتبط الى حد بعيد بتقلبات المواسم والاسعار ، اذ كثيراً ما كان يحيا في مستوى يفوق امكاناته المادية ، ولذا كثيراً ما رأى نفسه بحاجة للاستدانة والاستلاف من التاجر الذي اعتاد شراء محصوله من القطن أو التبغ . ولما كان كثير الاعتداد بمنزلته ، فقد تألم كثيراً في قرارة نفســه من هذه التابعية التي اقتصر عليها أرباب الثروة وأصحاب رؤوس الاموال في الولايات الشمالية .

والدستور الذي عمل به منذ عام ١٧٨٩ ، جاء مطابقاً للروح الذي جــــاشت في صدور

أصحاب اليسار والدعة ، ويتفق تماماً مع ذهنية بلاد تتعدد فيها الملل والنحل ، لا يحسن أتباعها الانقطاع الى عاداتهم ومناسك عقيدتهم الدينية الا في ظل التسامح الديني . فقد أعجب توكفيل بالطريقة التي تتوزع معها السلطات العامة في البلاد التي جاءت وفقاً لما فصله مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» وبالنشاط الذي تزخر فيه المجتمعات البلدية هنالك ، وهذا الورع المدني الذي يبثه في النفس مخافة الله والاحتكام الى المحكمة العليا عند طغيان الهيئات السياسية وخروجها على القانون.صحيح ان الشكل الاتحادي تغلب ، في نهاية الامر،على صيغة التحالف ، وكل ما لا يدخل بشكل او بآخر في اختصاصات مجلس الكونغرس او حكومة الاتحاد ، يبقى ضمن اختصاصات الولايات او الشعب . فالنزعتان الاتحادية والجمهورية اختفتا تماماً ، في هذه الفترة التي سيطرت فيها المشاعر الطيبة . فالتسويات النافعة والمفيدة أنيط امرها بهذه المؤسسات التي تعمل بطواعية ومرونة ، منها على الأخص التسوية الحبية التي تميز بها حل مشكلة الميسوري ، هذا الحل الذي تم وضعه ، عام ١٨٢٠ ،وضمن المستقبل وأمنه، وأجل البت بقضية ما اذا كان سيعوّل على العبد او اليد العاملة الحرة في بلاد الغرب . وقد خشي على النظام من أن يؤول انتخاب جكسون للرئاسة ، الى الاخلال بحبل الامن في البلاد ، بعد ان وصل الى الرئاسة الاولى على اكتاف حلف من المتذمرين كرس الاخذ بالنظام المعروف *Spoil System* هذا الرئيس الذي جيء به من الغرب ، ووضع حداً لسلسلة حكام فرجينيا وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال ، وخفض رسوم الجمارك . الا ان الحزب الديموقراطي وانصار الرجوع الى « عهد المشاعر الطيبة » - الاحرار - قاموا بتنازلات متبادلة . فالى عام ١٨٥٠ ، تاريخ الاتفاق الذي تم بشأن كاليفورنيا ، استمر الاندفاع نحو الغرب حتى حدود المحيط الهادي، على حساب المكسيك ومصالحه الحيوية ، دون ان تثير قضية الرق في البلاد اي اضطرابات يخشى منها . وقد خرج الاتحاد من هذه المشكلات اقوى وارسخ وضعاً . فعقد مع انكلترا معاهدة تضمن حياد قناة يحتمل انشاؤها عبر قناة بناما . وهكذا اصبح الاتحاد دولة كبرى محترمة الجانب. وقت لها عام ١٨٦٠ ثروة زادت ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه عام ١٨٠٠ ، كما ان دخلها القومي زاد ستة اضعاف .

ضربة تنزل بالاستعمار القديم: الغاء الرق

فالنظام الاستعماري الذي ساروا عليه في البلدان الحارة ارتكز ليس على شد المستعمرة بالبلد الام شداً وطيداً فحسب ، بل ايضاً على استثمار اليد العاملة الملونة فيها ، فعولوا عليها في استثمار الارض واستغلالها الى اقصى حد . والحال فقد قام في القرن الثامن عشر تياران ضد الرق ، من هنا فلسفة الانوار باسم حقوق الانسان ، تبنتها معظم الملل والنحل الدينية في انكلترا من متوديست وانجيليين وكويكرز ، وبعض الكاثوليك ، رفضاً لبعض تعاليم المسيحية فراحوا يناجون نظاماً مضاداً في الصميم الاخلاق ، ومن هنالك ، الاقتصاديون المتحررو النزعة الذين

راحوا يتعقدون شكلاً من أشكال العمل لا يفسح مجالاً لأي محرك او مشوق الربح الشخصي . وراحت هذه النظريات المشبعة بالروح الانسانية، وهذه الحجج التي تقوم على الواقع تصدم بشدة مصالح بعض الفئات الخاصة والتقاليد القوية المعمول بها في البلاد . ففي الوقت الذي راح فيه دستور الاتحاد الاميركي يحدد بحكمة بالغة ، عام ١٨٠٨ ، كتاريخ اقصى لتحريم الرق، كان قانون إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية الذي اصدره المؤتمر الوطني في فرنسا ، قد بقي حبراً على ورق ، اذ ان بونابرت ابطل هذا القانون ، عام ١٨٠٢، مما سبب فقدان جزيرة سان دومنيك الى الابد . والقرار الذي اتخذه جيفرسون عام ١٨٠٧ تنفيذاً للوعد الذي قطعه الدستور الاميركي ، والدعاوة الناشطة التي قام بها ولبرفورس وبعض اصدقائه في هذه الفئات الفتية ، حملت مجلس العموم البريطاني على اتخاذ قرار يحظر النخاسة والاتجار بالرق ، كما ان كسلريغ نال من بعض الدول الكبرى الممثلة في مؤتمر فيينا قراراً بتحريم هذه التجارة الوحشية، وهو قرار اعيد إقراره من جديد في معاهدة اكس لاشابل وفي معاهدة فيرونا . ونابوليون ، خلال فترة المائة يوم ، ولويس الثامن عشر في معاهدة باريس الاولى قطعا على نفسيهما مثل هذا التعهد . الا ان تطبيق الوعود والاتفاقات شيء وقطعها آخر ، لا سيما وقد اشتد الطلب ، في العالم الجديد على الزنوج ، إثر التطور الذي عرفته مزدرعات القطن والسكر . فقد استقبلت جزيرة كوبا اكثر من ١٠٠ الف رق من الزنوج بين ١٨١٠ – ١٨٢٠ ، واستوردت البرازيل منهم اكثر من ٤٠،٠٠٠ اسير زنجي في السفن التي ترفع العلم الفرنسي ، حسبما جاء في تقرير قيادة البحارة البريطانية [1] .

وقد اثارت قضية حق تفتيش السفن مشاكل حادة بين بريطانيا العظمى ومعظم الدول الاخرى التي ابت عليها القيام بمهام المراقبة البحرية . ففرنسا والولايات المتحدة تسلمان بمثل هذا الحق على اساس المعاملة بالمثل على ان تتم المراقبة بالاشتراك معاً . ولم ترضخ اسبانيا لهذا القانون الا عام ١٨٣٥ ، بعد وفاة الملك فردينان ، والبرتغال عام ١٨٣٩ ، تحت التهديد بمطاردة السفن التابعة له ، والبرازيل عام ١٨٥٠ ، في اثر ظهور الاسطول البريطاني امام شواطئه . فبالاضافة الى المعاهدات الـ ٢٦ التي تم وضعها ودخلت دور التنفيذ ، يجب ان ننوه هنا بهذه المعاهدات الثنائية الاخرى التي عقدتها بريطانيا مع رداما ملك مدغشقر ومع سلطان مسقط ، بغية إحكام نطاق المراقبة في المحيط الهندي .

مما لا شك فيه قط ان النخاسة لا يمكن ان تنقطع حركتها تماماً ، بل تبقى على شيء من النشاط الخفي طالما لم يتقرر بعد إلغاء الرق بصورة رسمية قاطعة . أفلم تحذر الجمعيات المطالبة بالغاء الرق من ان نظام المراقبة والتفتيش الجاري الاخذ به من شأنه ان يحمل تجار النخاسة على

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٣١٦ من الطبعة العربية .

ممارسة تجارتهم هذه بصورة افظع واكثر فظاظة من ذي قبل .

ونشطت على الاثر دعاية قوية مطالبة بالغاء الرق ، اختلفت نتائجها وتباين مفعولها بين بلد وآخر .

فالموقف الذي ستقفه الولايات المتحدة من هذه القضية ، سيكون حاسماً . الا ان تحرير العبيد وعتقهم لقي فيها معارضة قوية من قبل كبار المزارعين لم يتزحزحوا عنها قيد أنملة . صحيح ان الرق يجد الكثيرين ممن يشجعون عليه في اوساط عديدة . فأمام السياسيين واوساط رجال الاعمال الذين يترددون متأرجحين في مواقفهم ويخشون الانقسام الذي يلوّح اكثر الجنوبيين حماسة بالجهر به ؛ وامام موقف القساوسة الذين يستشهدون بنصوص التوراة التي تعترف باستعباد سلالة حام ، فقد وجدت جماعات الكويكرز والانجيليين والمعمدانيين ، وحتى الكاثوليك انفسهم امام شعور عارم يأخذ بالازدياد كل يوم ، استقر فأكثر بين صغار التجار واصحاب المخازن والعمال والمصرين في الغرب حيث لا يرون فائدة تذكر من عمل الارقاء . فمع شجب الكويكرز لاعمال العنف والقسر ، فقد راحوا مع ذلك ينصحون باعتماد اسلوب مقاطعة المواد الاستهلاكية التي يؤمن انتاجها انصار الرق و « من لف لفهم » . فقام من يقترح اعادة الزنوج الى افريقيا وطنهم الاصلي . وفي هذا السبيل أسست مدينة فريتون وموزوفيا . ولن تلبث ليبريا ان اصبحت جمهورية مستقلة ، كما اطلت علينا مدينة ليبرفيل . وفي سنة ١٨٣١ ، قابلت اميركا ثورات اوروبا بالنداء الذي اذاعه منضد الحروف ، الاميركي غاريسون في جريدة « ليبراتور » ، وبالثورة الدامية التي قادها الزنجي نات ترنر فجعلت الجنوب يرتعد هلعاً . ومنذ ذلك الحين اخذت المشاعر بالهيجان . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يمكن اعتباره تهديداً مباشراً للرق . هنالك مصالح عديدة يهددها اصدار قانون بالغاء الرق وتحريمه . ولم يقنع الجنوب بمواجهة الدعاية ضد الرق بدعاية معاكسة ، ورفع التوراة في وجه التوراة . فلقد انتصرت عام ١٨٤٨ سياسة السيطرة والتحكم التي كان يمثلها في تكساس . وبعد ذلك بسنتين فرض الاتفاق الذي اعلنت بموجبه كاليفورنيا ولاية جديدة ، والمكسيك الجديدة ، فضاء حراً ، وجوب اعادة الزنوج الفارين الى اسيادهم الاول . وهكذا فالمصير القاتم بقي جاثماً على صدر الولايات المتحدة يشل منها الحركة وليس من يستطيع التنبؤ بموعد زحزحته او رفعه .

حل عام ١٨٤٨ ، وفي السابع والعشرين من نيسان من هذه السنة ، قررت الجمهورية الثانية في فرنسا ، إلغاء الرق في كل الاراضي والممتلكات التابعة لها . كان لا بد من ثورة شباط ليتمكن شولشر من الحصول على قرار التحرير .

فاذا ما سبق الفرنسيون الدانمارك وهولندا على دروب تحرير الرق ، فلم يكن الاسبانيون في جزر الانتيل ، ولا البرازيل ، من جهتها ، على استعداد بعد للسير على النهج ذاته . وعلى

هكوس هاتين الدولتين ، ها هي انكلترا نفسها تطلق الاشارة الاولى في هذا المضمار . فالصعوبات الاقتصادية التي قامت في تلك البلاد في اعقاب عام ١٨١٥ اجبرت انصار كلفنتغ القائلين بالنظرية النفعية ، على معاضدة وجهة نظر الفريق المغاير لهم في الرأي ، هذه النظرية التي اعتنقها بدورهم انصار ربنتام وتوصل في نهاية الامر المحافظون والاحرار الى التعاون فيما بينهم ، وتم تبني قانون عام ١٨٣٣ الذي يتحول بموجبه الارقاء الى عمال متدربين كما واجه امكانية التعويض على اصحابهم المتضررين في هذا القانون . وقد ادى هذا الاجراء الى تعقيد الامور في جزيرة جامايكا التي كانت تعاني الصعاب ، وفي مستعمرة الكاب ايضاً . فبدلاً من ان يرضخ سكان هذه المستعمرات لاحكام القانون الجديد ويحرروا اليد العاملة الملونة التي تعمل في خدمة كبار الملاكين ، فضل المعمرون في تلك البلاد ، وجلهم من اصل هولندي ، مغادرة المستعمرة . وقد اعطي السكان الحرية التامة برفض المواطنية او باعطائها لمن يجري تحريرهم من الارقاء بحيث ان الالغاء النهائي للرق ارتبط الى حد بعيد باصلاح النظام الاستعماري في تلك البلاد .

الاتجاه نحو امبراطورية بريطانية متحررة

نشأ في اميركا الشمالية ، وفي النصف الجنوبي من الكرة الارضية مناطق ضخمة للاسكان لدى البريطانيين ، تعوض عليهم الخسارة التي فقدوها من ثورة الولايات المتحدة ونيلها استقلالها التام في أواخر القرن الثامن عشر . ولما كان قد صرف النظر عن نظام الاستثناءات الذي برهن الاختبار عن عدم جدواه ، فقد رؤي استعمال حلول جديدة تتفق ومستلزمات الوضع الجديد والمزاج الانكلوسكسوني المعروف بنزعته الفردية . فهذا التوسع ليس فيه ما يضير قط اذ انه يحمل الخير كله للبشرية جمعاء ، اذ يفضي الى تطوير هذه الاقطار البكر بالسرعة والحرية المطلوبتين . فالحرية الاقتصادية تجر وراءها الحكم الذاتي .

وتوالت الهجرة من الجزر البريطانية ، معتدلة اذا ما قيست بالزخم الذي اتسمت به حركة النزوح في منتصف القرن التاسع عشر ، الا انها جاءت اقوى وانشط من اية حركة مماثلة في اي بلد اوروبي آخر . فمع ان السواد الاعظم من النازحين يتجهون شطر الولايات المتحدة ، فقد تزايد سنة بعد سنة ، عدد الذين قصدوا البلدان التي يرفرف فوقها علم صاحب الجلالة البريطاني . فالازمة التي اخذت بخناق البلاد ، في اعقاب ١٨١٥ وتسريح الجند من الخدمة العسكرية ، غذى هذا التيار الذي تضخم من جراء تأزم ظروف العيش واشتدادها على ابناء الطبقة الفقيرة . فقد ركب البحر مهاجراً ، عام ١٨٤٣ ، نحو من ٦٠٫٠٠٠ ، وقد ارتفع العدد الى ٢٦٠٫٠٠٠ ، عام ١٨٤٧ ، ثم الى ٣٠٠٫٠٠٠ عام ١٨٤٨ ، حتى بلغ معدل من يغادر البلاد ١٠٠٠ شخص في اليوم الواحد . وهكذا اطلت علينا في خريطة هذه البلدان الشاسعة ، ولايات جديدة ، عمّرها البريطانيون . وحركة الهجرة هذه نشطت باتجاه الكاب واتجاه كندا وبرزت في مقاطعة الناتال وكولومبيا البريطانية وتضخمت في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية في اوستراليا ومقاطعة اوستراليا

الجديدة الغربية ثم في مقاطعة اوستراليا الجنوبية ، ومقاطعة فكتوريا ومنها انصلت بزيلاندة الجديدة . هذه الانشاءات الاستعمارية الجديدة أثارت مشاكل جديدة ارتبط بعضها بالارض والبعض الآخر بالنظم السياسية .

لمنذ القرن الثامن عشر تمتت الملكية العقارية ، في بريطانيا بامتيازات متحررة من كل قيد وشرط تخالف تماماً ما عرف من الامتياز الاقطاعي المعروف باسبانيا ، باسم ***Encomiénda*** وهو امتياز يعطى مدى الحياة . وقد لوحظ شيء من بعثرة الاراضي المقتطعة لبعض الشركات الخاصة في هذه المستعمرات القائم انشاؤها على براءة ملكية ، او في تلك المستعمرات التي يقطعها التاج البريطاني . ولن تمتم المضاربات المالية ان استبدت بها لتأخر من جراء ذلك نموها . وقد كانت قوة الجذب في الولايات المتحدة اقوى منها في هذه المستعمرات راشد، اذ كان العمل الحر فيها يعطي مردوداً اطيب . ولذا عمدوا الى وضع تخطيط عام قام على ثلاث عناصر يجب توفرها معاً : هي الارض ورأس المال والعمل . وفي سنة ١٨٣٣ ، نشر ويكفيلد كتابه المشهور بعنوان : « انكلترا واميركا » عرض فيه بصورة جلية واضحة النظام الذي ارتبط باسمه . فقد قدم الدليل على صحة هذا النظام وحسن جدواه اذ اسس منذ سنة ١٨٣٠ ، شركة اوستراليا الجنوبية . ثم جاء بتجربة اخرى في زيلاندة الجديدة حيث ارتدت هذه الشركة طابعاً دينياً . وفي عام ١٨٤٢ صدر قانون يعرف بقانون *Torrens* فرض القيام بعملية مسح شاملة للاراضي البور ، وحدد منها سعر الفدان الواحد .

وقد وصل الى اوستراليا بين ١٨٣٠ – ١٨٥٠ ، اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ مهاجر انكليزي بينهم عدد كبير عجز عن دفع ثمن الاراضي المقتطعة لهم، فعملوا في خدمة مربي الماشية او في المدن . اما في الكاب فقد ادى بيع الاراضي بالمزاد والغاء نظام الرق فيها الى مشاكل وصعوبات مع البويرز ، بعد ان تعذر عليهم ايجاد مراع تفي بالظمن بمواشيهم وعجزهم عن توفير اليد العاملة مما اضطرهم للاتجاه شمالاً الى مقاطعة فالد . اما في المستعمرات الكندية حيث قام نظام الاراضي المحمية الخاصة بالاكليروس والتاج ، فقد كان من العسير فيها توزيع الاراضي بحرية .

ومهما يكن من الامر فنظام مستعمرات الاسكان اقتضى الاعتراف للمستعمرة بصلاحيات ومسؤوليات عليها ان تقوم بها وتتحمل اعباءها . فمنذ عام ١٧٩١ ، اعترفت انكلترا في اعقاب تحرر الولايات المتحدة ونيلها الاستقلال الناجز ، لمقاطعتي كندا العليا وكندا السفلى ، بانشاء نظام تمثيلي في كل منها . وفي الكاب ، بالرغم من المنافسة الحادة القائمة بين البريطانيين ، وبين البويرز ، اضطرت السلطات هنالك لمسايرة الاهلين والعمل على ارضائهم ، بالاعتراف لهم شيئاً فشيئاً ، بامتيازات معينة ، بعد ان برهنوا عن ارادة قوية في التوسع باتجاه مقاطعة الفالد . وقد نال آخر الأمر هؤلاء الذين اغتصبوا الاراضي (*The Squatters*) في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية المعروفين بفرديتهم ، شيئاً من أوليات النظام التمثيلي .

اما الحادث الخطير فهو هذه الازمة التي اخذت بخناق كندا وامت فيها الى تطبيق برنامج دورهام ، عام ١٨٣٩ . ولما كانت اكثر المستعمرات البريطانية المكتظة بالسكان وموضوع اشتهاء القومية الاميركية ومرامي اطماعها التوسعية ، ونظراً لهذه الاقلية الفرنسية القوية التي تمتعت فيها بنظام تمثيلي ، اجتازت كندا فترة من الاضطرابات الحادة . فالقانون الدستوري الذي صدر عام ١٧٩١ وقضى بفصل كندا العليا عن كندا السفلى ، امّن السيطرة في البلاد لارستوقراطية عقارية ، او تجارية ، واعترف ، في الوقت ذاتـه بمركز ممتاز الكنيسة الانكليكانية فيها . وقد أهاج مثل هذا الاجراء ، المزارعين وعمال الارض من الكاثوليك واتباع بعض الطوائف البروتستانتية . فألفوا من بينهم معارضة انتصبت في مجالس الأقليات . فالاضطرابات التي وقعت عام ١٨٣٧ ، اقامت لندن واقعدتها . فبينما مال اللورد بروغهام وبعض اعضاء الحزب الراديكالي الى منح كندا استقلالها ، راح اللورد دورهام ، من ناحيته ، يقوم بتحقيق دقيق حول الموضوع ووضع عند انتهاء تحقيقه تقريراً كان صدوره حدثاً تاريخياً في تلك البلاد ، اذ اقترح بأن تتمتع كلا الولايتين بالحكم الذاتي ، لكل منهما مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس اداري معين وحاكم له اختصاص رئيس وزراء . وهذه المؤسسات المنقولة عن النظام البريطاني جرى توسيعها فيما بعد لتشمل الولايات البحرية في ايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، كما انها طبقت فيما بعد ، على كل من الكاب واوستراليا .

وهكذا اطلت علينا هذه الامبراطورية المتحررة ، في هذا الوقت الذي سيطر على الانكليز النظام الانتخابي القائم على اساس الضريبة وسياسة حرية التجارة .

عودة الى التوسع والبسط في كل من البحر المتوسط والهند

فاذا ما توقف الاخذ بالسياسة الاستعمارية القديمة ، من جهة الغرب وفي النصف الجنوبي من قارتنا الارضية ، فقد سيطرت هذه السياسة واعتُمدت اساساً واتخذت قاعدة ، تمشوا عليها من جهة الشرق . وهذا الانحراف زامن فترة بسط النفوذ البريطاني على الهند برمتها ، لم يفت الاجيال الماضية معرفة شيء مما يتصل : بطريق الكاب وشعوب البربر القاطنة في المغرب ومصر ، والسلطنة العثمانية الآخذة بالانحلال والتفكك ، واستثمار هذه الارخبيلات الآسيوية الواقعة الى الجنوب من آسيا والى الجنوب من الهند ، وما العالم الاصفر من فتنة وسحر ، وما الى ذلك كله مما يتصل بالقضية الشرقية التي ألف الاوربيون شؤونها . وهكذا قامت العلائق التجارية وتوطدت واخذت الاطماع الاستعمارية تبرز وتتضح .

فلم تكن الحركة التجارية بحاجة لأكثر من وكالات تجارية واسكلة بحرية على طول الشواطىء الافريقية التي تسير وإياها في رحلة طويلة من هذا النوع . فلما كانت مدينة الكاب للهولنديين وجزيرة موريس للفرنسيين ، فقد فرض البريطانيون سيطرتهم بشدة على هذا الطريق السلطاني . فالقسم الداخلي هو موضوع اهتمام بعض الرحالة المستكشفين ، وهو ميدان رحب

لأسواق النخاسة والاتجار بالرق . فالاهتمام تركز حول مسالك البحر المتوسط . فمنذ الحملة الفرنسية على مصر ، راحت الدول الكبرى ، محافظة منها على مصالحها الحيوية ، تضع الخطط التي تخدم مصالحها في الغرب وتنهض بها على الوجه الأكمل . فقد خطر لميشال شفاليه ان يوصل الى مصر ، شبكة الخطوط الحديدية . وعندما انتظم سير بريد الهند البري خطر للمهندس (انفانتين) القيام بمشروع ضخم هو فتح قناة السويس . واعلنت الحرب بشدة على القرصنة ورجالها ، فراح الاسطول الانكليزي يقصف بشدة مدينتي الجزائر وطرابلس وقام اسطولهم بمظاهرة بحرية وعرض القوى ضد الداي الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، عام ١٨٣٠ ، تضع حداً لحكمه وادارته. وفي حادثتين تركز الاهتمام بمصر واشرأبت اليها الانظار : هنا رغبة في توطيد الجهود التي يبذلها محمد علي باشا لخلق دولة قوية له على ضفاف النيل ، وهنالك من جهة ثانية فريق يخشى كثيراً من بروز اسرة مالكة طموحة ويوجس شراً من سيطرتها على هـذا المفارق الدولي الهام . فكلا الفريقين يراقب عن كثب وضع المضايق والممرات المائية الهامة ، فتشهد القسطنطينية طوراً جديداً من هذا الصراع العنيف الناشب بين روسيا وانكلترا ، السيطرة على هذه الممرات التي تعد من اهم مفاتيح البحر المتوسط .

ان عدم التسليم بالانتقاص من هيبة الدولة وضرورة السير الى الأمام لترسيخ نفوذ الدولة ، كل هذه الاعتبارات تفسر لنا البطء والصعوبات التي رافقت عملية فتح الجزائر وهي عملية جاءت بنت الخاطر ولم يخطط لها من قبل . فالتصرف الفرنسي في هـذه الناحية من الناحية الافريقية الشمالية يشبه الى حد بعيد ، مسلك انكلترا وتصرفها ، في الناحية الجنوبية . فنظراً للمسافات الشاسعة ، ولقيام هذا الجدار الذي يؤلفه البوير في وجه تقدم الانكليز شمالاً ، اقتضى التغلغل الانكليزي في هذه الاقطار الجنوبية طوال القرن بكامله ، بينا إخضاع الشعب الجزائري كاد يفرغ منه في الوقت الذي سقطت الملكية في فرنسا ، في تموز .

واهم من هذا كله واوسع ، هذه الأهداف التي رسمتها انكلترا من حروبها الطويلة في الهند . فهي امام كتلة بشرية من ٢٠٠ مليون نسمة تختلف عنهم عرقاً وأصلاً وفصلاً ولغة وديناً ونمط عيش ، ليس فيهم ما يجمع او يوحد ، وامامهم غاز طامع فيهم يرى نفسه بعيداً عن قواعده ، قليل العدد والمدد ، انما تجيش نفسه بالجرأة والاقدام ، مبطن بـدبلوماسي مراوغ . وهنا ، كما في الجزائر ، فقد حل تدريجياً محل الاحتلال المحدود اشراف عام على البلاد بأجمعها. صحيح أن وضع امراء الهند ساعدوا جزئياً على تأمين نجاح هذه المغامرة الضخمة . وهكذا استطاع خلفاء كورنواليس ولسلي من هاستنغز الى اوكلاند الى ألمبورو أن ينفذوا من الهند الرطبة الى الهند الجافة ، وأن يبسطوا نفوذهم حتى مشارف ايران ، وأن يحتلوا السواحل الجبلية الممتدة من الخليج الفارسي حتى بورما . فالهدف الأساسي لسياسة لندن الدولية في هذه المنطقة هو إخضاع أمراء هذه المقاطعة أو تلك لسيطرتها والتحكم بثغورها ومسالكها. فاذا

كان لا بد من ضمان حرية الطرق الموصلة بين اوروبا والشرق الادنى ، استلزم ذلك وجوب السيطرة التامة على المحيط الهندي مما ادى الى احتلالهم لسنغافورة ولمضايق مالقا، ولمضيق عدن من جهة الغرب،وهما بمثابة جبل طارق . فسنغافورا ومالقا يتحكمان الى حد بعيد بشواطىء الهند الصينية وبالامبراطورية الهولندية في الانسولاند والممتلكات الاسبانية في الفيليبين . ففي الوقت الذي تتصرف فيه البلاد الواطية لحروبها الاستعمارية رامية منها لبسط سيطرتها على جاوا وصومطرة بعد ان اعيدت هذه اليها ، راحت بريطانيا العظمى تسعى لبسط سيطرتها على اسواق الشرق الاقصى . وانتهزت مناسبة حرب الافيون ، فاحتلت هونغ كونغ وارغمت الصين على فتح منافذها للغرب . فبعد ان تحولت لتجارة الحرير والشاي باتجاه البحر ، فلن تلبث ان وقعت ضمن الشبكة التجارية التي يشرف عليها الانكلوسكسون .

وفي هذا الوقت بالذات توفد الامبراطورية الروسية تجار الفراء عندها الى آلاسكا فتهدد بذلك الامير كيين في عقر دارهم في المحيط الهادي ، كما تدفع ببعض القوزاق على الطريق السرية التي يسلكها تجار الشاي ، باتجاه واحات آسيا الوسطى . صحيح ان بيروفسكي يفشل تماماً في محاولته الوصول الى خيوة وسط الصحراء ، فقد استطاع مورافييف العاموري ان يظهر امام ساخالين . وقام نيفلسكي بتأسيس مدينة نيكولايفسك ، فهلع لب انكلترا لهذه الانجازات . ومع ذلك صمدت مقاطعة القفقاس طويلا امام الفتح الروسي ، واذا ما تمكن الروس من تطويق هذه المنطقة الجبلية واستطاع الجيش الروسي النفاذ الى قلب مقاطعة جورجيا واذربيجان ، فستبقى المنطقة الجبلية على عصيانها وتمردها ، مدة طويلة ، وهنا ، كما في الجزائر ، وكما في الهند وماليزيا، يحاول العالم الاسلامي ان يصمد ويواجه القوة بالقوة .

ففي الوقت الذي حاول بعضهم فيه استشراف المستقبل امام روسيا وانكلترا ، تحافظ اوروبا الغربية من وراء انكلترا على سبقها ، هذا السبق الذي يؤلف لها خير حافز لاستثمار موارد العالم الغنية .

القسم الثاني

قوى الغرب
وتوسع الأوروبيين العالمي

في السنة ١٨٥٠ ، بدا النظام الاوربي ، الناتج عن معاهدات سنة ١٨١٥ ، وكأنه قد عاد الى نصابه ، وفي السنة عينها ، زال خطر الحرب الاهلية الى حين في الولايات المتحدة بفضل التسوية الكاليفورنية ، واتفـــا ، منذ السنة ١٨٥٤ ، بينما بلغت أزمـــة الرق ذروة حدتها في العـالم الجديد ، اندلعت الحرب – للمرة الاولى خلال القرن التاسع عشر – بين الدول الكبرى في العالم القديم ، فابتدأت بذلك اعمال حربية لن تنتهي الا في السنة ١٨٧١ . انهار النظام الاقليمـــي المقرر في مؤتمر فيينا والهيمنة العسكرية الفرنسية ؛ وحققت كل من ألمانيا وايطاليا وحدتهما ، وسيطر الرايخ البسمار كي بدوره على اوروبا البرية الجديدة التي عرفت ، منذئذ ، السلام المسلح . اما الحرب الانفصالية فقد حررت مستقبل اميركا الانكلوساكسونية مما يعترض سبيله .

توطدت اركان الولايات المتحدة ، وعرفت اوروبا انقساماً لم تعرفه من قبل : وقد بـدا ، منذئذ وكأن مصير هذه الاخيرة يتردد حائراً .

ولكن الحقيقة على غير ما يبدو ، اذ ان قوى القارة الصغيرة ما زالت سائرة قدماً في نموها الحثيث . فاستمرت حركة توسع بريطانيا العظمى التي لم تدخل طرفا في حروب القوميـات ؛ وما لبثت فرنسا أن دخلت دور النقاهة بسرعة ، فساورتها رغبة متزايدة في اثبات وجودها خارج اوروبا ؛ وما زالت الكتلة الروسية تنوء بثقلها على آسيا ؛ ولن تلبث ان تبرز « السياسة العالمية » التي اختطتهـــا الامبراطورية الالمانية المتميزة بقوة هائلة . ولعل الحضارة الاوروبية أشعت حينذاك اشعاعاً فائق القوة .

الفصل الأول

المنعطف الحربي خلال القرن
الحروب القومية في أوروبا
والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة
(١٨٥٤ ـ ١٨٧١)

من حرب القرم الى الحرب الفرنسية الالمانية ، حرب الانفصال وانقلاب الوضع في البر الاوروبي لمصلحة المانيا

تميزت السنوات ١٨٥٣ – ١٨٧١ بمزيد من الاضطرابات . فهبت على الغرب ريح حربية . وكان ميدان المعركة الاول شواطىء البحر الاسود . فقد حالف نابوليون الجديد انكلترا ، وهاجم بجيوشه روسيا. ولكن نتيجة حرب القرم هذه لم تكن هزيمة للامبراطورية القيصرية وقيام ازمة داخلية فيها فحسب ، بل عجلت التوسع الاوروبي شطر الشرق واندلاع الحروب القومية في اوروبا نفسها في آن واحد . فمن جهة شمر مهزومو سيبستوبول ، الذين ابعدوا مرة اخرى عن المتوسط ، بحاجة الى الاندفاع نحو آسيا الوسطى والشرقية زاد من حدتها نشاط عمل فرنسا وانكلترا على الطرق البحرية المؤدية الى آسيا الجنوبية . ومن جهة ثانية ، برزت حركات الشعوب بسرعة في المانيا وايطاليا والدول الدانوبية بسبب انعزال النمسا وعداء الامبراطورية الفرنسية الثانية لمقررات مؤتمر فيينا الاقليمية . فأدى ذلك، بدون انقطاع تقريباً، الى الحرب الايطالية في السنة ١٨٥٩، وحرب دوقيتي شلسفيغ وهولشتاين في السنة ١٨٦٤، والحربين النمساوية-البروسية والنمساوية-الايطالية في السنة ١٨٦٦ : فبدلت خريطة اوروبا تبدلاً كلياً، ولم تبق ملكية آل هبسبورغ الا بشروط نمساوية - هنغارية .

عقب هذا الهيجان في العالم القديم هيجان في العالم الجديد . فمبن تخلخل التوازن غير الثابت بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها بارتفاع عدد سكان الشمال ونمو اقتصاده ارتفاعاً ونمواً لا

بفارمان ، انتهى الجنوب الى تحرير الانفصال ، فكانت الحرب الاهلية التي نشبت في السنة ١٨٦١ نزاعاً مسلحاً بين فئتين اجتماعيتين تكاملتا وتضامنتا زمناً طويلاً ، وانتهى الامر بينهما الى عداء ازرق . لا شك في ان المذهب إلغاء الرق ، الذي زاد انتشاراً منذ السنة ١٨٥٠ ، واحرز الغلبة في الانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٦٠ بنجاح لنكولن ، أثره الكبير في تصدع الاتحاد ; ولكن الازمة المالية الاقتصادية - أزمة ١٨٥٧ - قد شددت اصحاب المزارع في موقفهم الحذر من رأسماليي الشمال ، بخلقها تيار حماية الصناعة الوطنية في الاوساط الصناعية . اجل انها حرب اجتماعية ، ولكنها حرب ضارية ، استطال عهدها ، لا نظير لها آنذاك في ما اسفرت عنه من تقتيل وتخريب .

أما اذا خرج منها الاتحاد اكثر قوة ، فان ضعفه العابر قد شجع مع ذلك بعض مطامع الدول الاستعمارية القديمة . وان الغزوة الفرنسية للمكسيك ، التي يعتقد البعض بأنها « الفكرة الكبرى » التي راودت حكم نابوليون الثالث ، قد جرت على طريقة من اميركا العاجزة عن فرض مبادىء « مونرو » . فهل هي فكرة لاتينية يا ترى ؟ أم هل هي نظرة الى المنطقة البرزخية بين الاطلسي والهادي في الوقت الذي تعد فيه العدة لفتح ترعة السويس ؟ ولكن القصد قد تصدع بناؤه منذ ان رفضت اسبانيا ، شأن انكلترا ، التورط حتى النهاية ، وحاولت عبثاً انتزاع الجزر « الآنفة » ، « النتيا » ، « الغوادلو » . فان حكومة لندن ، التي عملت بوحي الاختباء ، آثرت منح كندا نظام الممتلكات . فكانت نتيجة المغامرة الفرنسية تقهقراً النفوذ الاوروبي في نصف الكرة هذا .

بعد أن صُدّ في المكسيك ، فكّر نابوليون الثالث بالاعاضة عما ناله في المناطق الرينانية . ولكن عداءه المتأخر للوحدة الالمانية ، بُعيد « سادوفا » ، قد جعله وجهاً لوجه امام بروسيا فكانت له « سيدان » بمثابة « واترلو » لنابوليون الاول .

في السنتين ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، استكملت الدولتان الايطالية والالمانية عناصر وحدتهما ، الاولى بالاستيلاء على روما ، والثانية بسحق فرنسا التي خسرت الالزاس وجزءاً من اللورين بعد ان كانت اسلمت السافوا ونيس . اجل لن تتجدد الحروب الكبرى طيلة نصف قرن لأن المانيا الجديدة بحاجة للاستراحة . ولكن اهواء الشعوب لم تهدأ ، وهو السلم الذي عبر عنه بالسلم المسلح ما سيميز العلائق الدولية في اوروبا حتى السنة ١٩١٤ .

بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للعهد الحربي

حاول بعضهم تقدير كلفة هذه الحروب : مليار ونصف المليار للحرب الايطالية ، ومثلها لحرب السنة ١٨٦٦ ; وبين ١٣ و ١٥ ملياراً للحرب الفرنسية الالمانية ، وقرابة ٣١ ملياراً لحرب الانفصال . وما ان سدد تعويض المليارات الخمسة حتى استعادت الموازنة الفرنسية توازنها مرة اخرى . الا ان الاقتصادين النمساوي والروسي قد تأثرا اكثر من الاقتصاد

الفرنسي،وامضت حكومة الولايات المتحدة زهاء ١٥ سنة في عمر آلر عجيز مالي الميل الوطأة .
وعلى اي حال ليس رأس المال ما تحمل هذا العبء في هذه الجهة من المحيط الاطلسي او تلك :
فهي رسوم الاستهلاك والرسوم الجمركية ما وفر النصيب الاكبر من الواردات الاضافية التي
يتوجب على جمهور السكان أن يؤمنوها ؛ اما تضخم الاوراق النقدية « ذات الظهر الأخضر »
فقد سهلت المضاربة وانتقال الثروات الى اميركا .

رافقت الحروب ارتفاع في الأسعار ، كما حدث بين السنة ١٧٨٩ و ١٨١٥ . ارتفعت نسبة الكسب الرأسمالي : ارباح الصيارفة عن طريق القروض (اصدرمنها « ارلنغر» واحداً في اوروبا لحكومة جنوبي الولايات المتحدة ، ولكن ثلث القيمة خصص لتجهيز السفن التي لم تسلم) ، ارباح المبارة(مورغان، كرلجي، روكفلر، وارمايكر ، فاركورهار، مارككس في الولايات المتحدة) هاركس ببيعه الروم والوسكي ، وفاركوهار ببيعه الحامل لنقل الجرحى) ؛ أرباح مصانع الآلات الحربية والذخائر : كروب في اسّن ، وشنيدر في الكروزو، وارمسترونغ وفيكرز في انكلترا ، والاسوجي نوبل في روسيا ، و « دي بون دي نومور » في اميركا (زوّد هذا الاخير الطرفين المتحاربين في حرب القرم) رمنغتون وهولشكيس اللذان لجأ « محبنا » الى خدماتهما . وحققت الكيمياء وصناعة استخراج المعادن نجاحات سريعة .

ميزات الحروب وعدد الحرب في منتصف القرن

تميزت النزاعات المسلحة التي ادمت اوروبا بقصر مدتها وسرعة تقرر مصيرها لأن القوى بمعظمها تتجابه منذ الاصطدامات الاولى. اجل حافظ معظم الدول على الجيش التقليدي الحارف، وبقيت القوى المتقابلة في جبهة القتال محدودة العدد نسبياً . الا أن الجيش الوطني البروسي قد ارتفع عدد أفراده منذ الاصلاح الذي فرضه بسمارك في السنة ١٨٦٢ – ١٨٦٣ ؛ وقد هزم هذا الجيش على التوالي جنود الامبراطورية الثانية والفرق التي ارتجلتها حكومة الدفاع الوطني عائدة في تنظيمها الى أساليب السنة ١٧٩٣ .

أما في الولايات المتحدة ، فقد جرت حرب «حكة» حرب شاملة يلعب الارتجال فيها الدور الاول في النهاية ؛ ولكنها تستلزم وقتاً طويلا واستهلاكاً عظيماً في الرجال والعتاد ؛ وما زال اختصاصيو « وست بوينت » المحترفون يأنفون من ارسال الجيوش بأعداد كبرى الى جبهة القتال ، فكانت النتيجة ان الشمال أحرز السيطرة بقوة النار وبالعدد على السواء .

ان فترة السلم الطويلة التي عقبت السنة ١٨١٥ لم تكن موافقة الطلوع بتعاليم عسكرية جديدة. وتأمل المعنيون بالأمر في مآثر كبار القادة من أمثال فردريك الثاني ونابوليون: فاكتفى « جوميني » الذي أخضع كل شيء للعقل المفكر ، بعدد صغير من القواعد الثابتة ونادى بتوفير القوى ؛ ونادى « كلوسفتز » ، الذي خص المبادرة بنصيب اكبر ، بأهمية القوى المعنوية ، وترابط السياسة والحرب ، ورأى دور القطار الحديدي . أما عملياً فان الجيش النمساوي كان

ينصب الى المركة كما الى لعبة شطرنج ، والجيش الفرنسي ، الذي فاتته عادة العمليات الواسعة ، لم يستخلص من حملاته على الجزائر سوى دروس شجاعته و « حسن تصرفه » . وعاش العسكريون البروسيون ، بعد ليبزيغ وواترلو ، في مناخ الثقة الجاهلة نفسه الذي عاشوا فيه بعد انتصارات فردريك ، فتلمسوا طريقهم قبل ان يسيروا على خطى « مولتكه » الذي انضجه عوزه في بدء حياته وبعض خيبة الآمال في تركيا ، وخدمه مبدأ جمع كافة الجندين في فرقة واحدة – مما يسهل احداث رحلات كبرى على بعض الاستقلال – فاختار استراتيجية على طريقة كلوسفتز ، وعين من ثم على رأس الجيش أركان حرب يعرفون كيف يتحملون مسؤولياتهم ، وفضل على « المركز الحسن » الذي يسعى وراءه المشاة ، المناورة التي وسع من أجلها مور المدفعية .

استمرت المنافسة بين الرماية والدرع ، ففي سيبستوبول وحول ريشموند شلت حركة المهاجم زمناً طويلاً أمام الخطوط المحصنة ؛ ولم يحاول الالمان الاستيلاء على متز بالقوة ، كما أن باريس قاومت طيلة خمسة أشهر . ولكن الاسلحة الهجومية حققت بعض التقدم : فان ابتكار كبسولة التفجير ، والطلقة النحاسية ، والرصاصة المستديرة – المخروطية الشكل ، كان بمثابة انتقال من البندقية الزنادية الى السلاح المفرض الذي يحشى من المؤخرة ، من نوع « درايز » المعتمد في الجيش البروسي ، أو من نوع « شاسبو » الذي اختاره الجيش الفرنسي . واذا كان المدفع المسدس ومدفع الرصاص–رشاش الكولونيل « دي رفتي »– اللذان ابتكرا في أميركا ، أثار في فرنسا ، في السنة ١٨٧٠ ، آمالاً ليس لها ما يبررها ، فان المدفع المفرض ، الذي انكب على دراسته الكولونيل « تروي دي بولبو » والذي يطلق قذيفة مقوسة المقدمة تعرف بالقنبلة ؛ قد احتل مركز المدفع الصقيل الذي يطلق القذائف الملأى والمستديرة ؛ ولكن الحشو من المؤخرة واستبدال الشبه بالفولاذ لن يعتمدا الا شيئاً فشيئاً .

وتنافس الدرع والقذيفة على البحر أيضاً . فقد كان حدثاً هاماً ابتكار مدفع « بكسان » لاطلاق القنابل ، الذي جعل السفينة الخشبية عرضة للتدمير ، وهو هذا المدفع ما أتاح للروس تدمير الاسطول التركي في « سينوب » . زد على ذلك أن « فولتن » قد ابتكر القذيفة الناسفة التي استخدمها المدافعون عن « كرونستات » و « سيبستوبول » ، وبنى الجنوبيون لقذفها اول سفينة تسير تحت الماء . ولكن الاختراع المضاد له قيمته الكبرى ايضاً . فقد سبق لفولتن واركسون ان فكرا بتصفيح هياكل السفن . ثم ظهرت السفن المعدنية والآلات البخارية في السنة ١٨٥٠ : لرفق « غرياس » الى تمويم خمس مدفعيات استخدمت في القرم ، ثم حققت « دوريان » في السنة ١٨٥٩ ، السفينة الحربية المدرعة مستعينا بتصاميم « ديبوي دي لوم » اطلق عليها اسم (*Gloire*) المجد ؛ ولكن الانكليز ما لبثوا ان حققوا سفينة حربية تنافسها هي « المحارب » .ولم يمض وقت قصير حتى حققت في الولايات المتحدة السفينة (*Monitor*) التي صممها اركسون الشماليين ، فكانت لا ترى بسهولة ولا تقاوم الامواج بقوة ، ولكنها كانت

مدرعة بصفائح حديدية سميكة جعلتها تلف بالمرصاد (Merrimac) سفينة الجنوبيين الخشبية المزودة بجهاز ممدلي في طرف مقدمتها ، وتكيل لها الضربات الواحدة تلو الاخرى . فخشيت بريطانيا العظمى فترة من الزمن على زوال هيمنتها ، فبنت بسرعة سلسلة من « المدرعات » التي زودها « ارمسترونغ » بالابراج .

بيد ان النجاحات التقنية لم تكن من التقدم بحيث تتجاوز الخسائر في الارواح خسائر حروب الثورة والامبراطورية تجاوزاً يذكر . فان معركتي « ريزونفيل » وسان - بريفا اللتين تعتبران ام المعارك الدامية في السنة ١٨٧٠ قد اسفر كل منهما عن ٣٣ ٠٠٠ ضحية ، والحال ، اسفرت واغرام عن ٠٠٠ ٤٠ قتيل وواترلو عن ٠٠٠ ٥٠ . وبالامكان اضافة الوفيات المعزوة للامراض . فتقدر ضحايا حرب القرم بمجموعها بـ ٠٠٠ ٨٠٠ شخص تقريباً، وحرب السنة ١٨٧٠بـ٠٠٠ ٦٠٠ وحرب الانفصال بـ ٠٠٠ ٣٢٠ ١ .

ولكن الشاعر لا يريد ان يفقد الامل :

« لا ! لا ! ليس مصير الانسانية

أن تجلس بلا حراك عند عتبة المدافن الباردة ...»

(فكتور هوغو ، « السنة الرهيبة »)

الفصل الثاني

عصر الايمان المطلق بإمكانات العلم

« تمسك بعقيدة التقدم تمسك المؤمن بعقيدته ... »

(فلتيرد)

رسالة الغرب

كانت حرب الانفصال حدثاً عابراً في مرحلة ارتقاء تميز بسرعته ، فلم تضعف عند الاميركي شعوره بأنه معد لدور عظيم ، ولكن المنازعات القومية قد عجزت هي ايضاً عن صرف الاوروبي عن اعتقاده بأنه يحمل مشعل « الحضارة » . ولا يشك « فورييه » في ان مفهوم الحضارة نفسه لا ينطبق على « الفترة الخاصة من الحياة الاجتماعية التي بلغتها الامم الاوروبية ». ويسخر « ماكولي » من أولئك الذين يرغبون في تثقيف الهندي وفقاً لمفاهيمه الخاصة : « حين نعلم فلسفة سلبية وندافع عن الحقيقة في التاريخ ، نكون كمن يكتب بالاموال العامة لعلم فلك من شأنه اثارة الضحك في مدرسة الفتيات الانكليزيات ، او القصة ملوك يبلغون ثلاثين قدماً ارتفاعاً ويتولون الحكم آلاف السنين ، أو لجغرافية لا ذكر فيها الا لبحور من الزبدة أو من السائل الحلو الكثيف الذي يبقى بعد تبلور السكر ». والسبب في ذلك ان تفوق الثقافة الغربية لا يمكن ان يكون موضوع جدل . وقد قال « برودون » في هذا المعنى: « ان قدسية الانسان مصونة ، وما علينا ، نحن العرق المتفوق بالنسبة للاعراق المتخلفة ، سوى رفعها الينا ، ومحاولة تحسينها ، وتكوينها ، وتثقيفها ، وتشريفها . ورأى « بول لروا-بوليو » ، وهو صهر « ميشال شيفالييه » القائل قول « سان - سيمون » ، ان ما يتوجب على « الشعوب العصرية » هو « عدم التخلي عن نصف الكرة الارضية لأناس جهلة وعجزة » . واستند «تيودور روزفلت » ، على غرار معاصره غليوم الثاني ، الى الرسالة التعليمية المتوجبة على هذا الشطر من البشرية الذي يطلق عليه الربان « ا . ت . ماهان » اسم « واحة الحضارة في صحراء البربرية »، وتمنى من صميم فؤاده « استهلاك الاعراق العاجزة الاهلية » لمصلحته . ورأى ماركس من جهة ثانية ان مهمة ارشاد المجتمعات وقيادتها تعود الى البروليتاريا المتنورة،أي بروليتاريا البلدان المتطورة.

مسألة الثقافة

فالأمر الهام من ثم هو المعرفة ، هو التربية التي قال عنها فولتير انها « المنبع الخصب لكل نظام وهدوء وسعادة » .

ان نقطة الانطلاق هي محاربة الامية ، ذاك العيب المخزي . لقد اسهمت المطبعة والمدرسة في ذلك . وما كانت الثانية لتعطي ثمارها لولا التقدم الذي احرزته الاولى . ولكن اذا رغب الانسان في القراءة والكتابة - اذ أن الكتاب والصحيفة والاعلان آخذة كلها بالانتشار والرسالة تنقل بسعر منخفض - فليس معقولاً ان يطلب من التعليم الابتدائي فوق ما يستطيع اعطاءه ، ومهما يكن من فضل هذه الثقافة الأساسية ، فهي لا تعدّ للمهنة. من هنا تنشأ الميل الى تعليم مهني لا ينفصل فصلاً كبيراً بين النظرية والتطبيق العملي، ويوسع في الوقت عينه افق الكتاب المدرسي. ولكن نادراً ما قهرت الصعوبة ، فقد استمر التفريق بين من يتوجب عليه تأمين قوته وبين من يستطيع متابعة تحصيله العالي ، وقد ساعدت على هذا التفريق التمييزات الاجتماعية السائدة .

ولكن ما هي قيمة تعلم آداب قديمة يتذوقها أبناء الارستوقراطية والبورجوازية في الكليات والجامعات ؟ هل في الثقافة الكلاسيكية القديمة ، التي أرضت اهواء النخبة ، استجابة دائمة للحاجات ؟ لذلك كان القرن التاسع عشر ايضاً مجادلة بين الاقدمين والمعاصرين . فقد قال أراغو من اعلى منبره : « لا يصنع سكر الشمندر بالكلام الحلو ؛ ولا يستخرج الاشنان من ملح البحر بالأبيات الشعرية » ، بينا دافع لامرتين عن قضية « الحقائق الاخلاقية التي تأتينا عن طريق الدروس الادبية » . فهل ان الآداب هي والعلوم على طرفي نقيض ؟ ان مستلزمات القرن واقع ثابت ، والاختيار المتفاوت الحرية - بحسب الأمزجة القومية - أملى التسويات بين الانظمة الفكرية المختلفة . ومهما يكن من أمر فالحقل العلمي اتسع بسرعة . ولم يبق سوى تدبير التوفيقات الضرورية بين المختبر والمصنع : تحققت الحالفة بعض الشيء بين الفني والعالم ؛ وهي المانيا التي ارشدت الى الطريق في اوروبا. واذا ما زال ممكناً ان يكون المخترع في الغالب ممتهناً وضيعاً ، فقد اصبح الاختراع ، اكثر فأكثر ، ثمرة الدرس. ولكن العائلات صاحبة الامتيازات لم تفقد مكانتها . فعائلة « هرشل » وعائلة « سطروف » تمثلان وحدهما مائة سنة من علم الفلك . وقد سيطر اسم عائلة « كاندول » زمناً طويلاً على تاريخ علم النبات . وفرضت عائلة « بكريل » نفسها في حقل علم الطبيعة منذ منتصف القرن . واكبت عائلة « لينورمان » بكل نجاح على علم الآثار . ويمثل الاخوة « سيمنس » العشرة جيلاً من الفنيين يثير الاعجاب والدهشة : فقد اعطوا مثلاً نادراً في نجاح وتوسيع تطبيقات العلم على الصناعة .

نمو الروح العلمية : الاثر الوضعي

ازدادت ثقة العلم بنفسه اكثر فأكثر، فأوضح اسلوبه وتنظيمه. لقد خلف مذهب العقليين الكرتزياني الذي استند الى بصيرة العقل مذهب عقلي يرتكز ارتكازاً أساسياً الى الاختبار . يضاف الى ذلك من جهة ثانية أن القرن قد نبذ نبذاً نهائياً المنطق الصوري الذي علمته الفلسفة الكلامية والذي ليس ابتداعياً ،

وأرسخت للبرهنة على الاستدلال الحسابي الذي يفتح الطريق باستمرار امام الاكتشاف . وقد جمع « جون ستيوارت ميل » قواعد الاستثبات بواسطة المعطيات المتمة . وبينا أخضع «غالوا» الحساب نفسه للاختراع ، لم يبق « كلود برنار » على الاختراع الا ليجعله في خدمة الاختبار ، مقاومة منه للمنطق الكرتزياني الذي أخضع الاختبار للتصور الذهني : ليس الفكر ان يخضع الاختبار امام متطلبات فكرة تكون ببصيرة العقل ؛ اذا كان هنالك بصيرة عقلية عرافية ، فان الاختبار يستدعي بصيرة عقلية رقابية . وليس من الصعب استشفاف ما ينطوي عليه هذا الموقف من خصب وامكانات . فهو ما سيوفر لعلوم الطبيعة عدّة فكرية عليّمة وبعيدة الغور . ولكن مذهب ماركس المادي الجدلي قد اقترح كذلك،انطلاقاً من الواقع، نظرة «ديناميكية» على العالم تنطبق على تصرف البشر . زد على ذلك ان علماء الرياضيات قد قدموا النتيجة بعد اليوم على اقامة البرهان .

لا ريب في ان المذهب الوضعي قد ابتنى من العلم أن يمين بوضوح صفاته المميزة ومداه وحدوده . ومن حيث هو يدّعي تحديد « الحالة النهائية الحقيقية للعقل البشري » ، فقد عين للعلم موقعه بالنسبة لعلم المعقولات والنظريات المنطبقة على مفهوم الغائية ، وأسند اليه مهمة اكتشاف السنن النهائية للظواهر باستخدام البرهنة والملاحظة معاً ، واقترح عليه ، كشل أعلى ، جمع كافة آرائنا حول الكون في مجموعة واحدة من الحقائق المترابطة رابطاً عادم الانفصال ، وطلب اليه اخيراً خدمة التقدم البشري قبل أي شيء آخر ، فربط بذلك الدروس العلمية بعلم الطبيعة الاجتماعي أو علم الاجتماع .

معرفة الكون

لاحظ « كورنو » ان الرياضيات اتجهت « اتجاهاً تغلب عليه الصفة النظرية حين كان القرن يبدي مزيداً من الاهتمام بالناحية العملية » . فما زالت موضوعَ الساعة التوابعُ والاعداد والمجاميع الحسابية ، تلك المسائل الكبرى التي أكبَّ على ايضاحها « ويرستراس » و « هرميت » و « كرونيكر » والعديد غيرهم ممن حجب اسماءهم لمعان اسم « هنري بوانكاريه » . فلم يكتف هذا الاخير، في المجلدات الثلاثين والبيانات الكثيرة التي نشرها ، بانجاز مجهود سابقيه ، كأن يعود الى توابع « فوكس » مثلاً ويطبقها على الهندسة الاوقليدية ، بل تناول في ابحاثه المعادلات التفاضلية ، والكميات الصغرى ، وحساب التكامل، ومسألة الاجسام الثلاثة (سبق للآلية النيوتونية ، ان حلت مسألة الجسمين) ، واهتم بالعلائق بين الظواهر الكهربائية والظواهر الضوئية . وان « ريمان » الذي ابتدع هندسة غير اوقليدية قد وجد نفسه منساقاً ، منذ السنة ١٨٥٤ الى اقتراح فضاء ذي أربعة ابعاد ، والشعور شعور بعيداً بالنسبية . وقد وضع المعالم على هذه الطريق الاخيرة كل من « هاملتون » بنظرية الجمل الجبرية الخيالية ، و « كايلي » و « سيلفستر » بنظرية الثوابت .

وهكذا فتح علم الرياضيات امام علم الطبيعة آفاقاً غير منتظرة . ولكن ذلك لم يمنع الانسان من ان يروّح الوقت ، وقته ، لاجل راحته وتسهيل اعماله : حدد ساعة وسطاً ولختار

من ثم خط طول أصلياً (هو خط طول « غرينوتش ») ، ورسم اقساماً وهيئة منزلية الشكل لتحديد الوقت وتوحيده في مختلف الدول ، وسينشىء مكتباً دولياً للساعــة . وتحت قبلب المراصد ، التي ارتفع عددها ارتفاعاً مطرداً ، وزودت بالمراقب الجبارة ، وأجهزة التصوير ، ثم بالمناظر الطيفية ، رسم خريطة السماء بصبر وطول أناة ، وثابر على اكالها بالكواكب الــتي حقق هويتها واوضح طبيعتها وابعادها وحركاتها . ثم عين « فيزو » سرعـــة الضوء بواسطة عجلة مفرضة ، وبرهن « فوكو » ، الذي أكب على البحث نفسه ، ان الارض تدور حول محورها بواسطة رقاص جعله يتذبذب بعد ان علقه بخيط تحت قبة « « بانتيون » . ثم سار فن التحليــل الطيفي قدماً بفضل « كيرشوف » و « بونسن » و « هوغنز » و « ميلر » (مولد علم الطبيعة الفلكي) . واصاب « ماكسويل » بتفسيره ان الضوء نتيجة تموجات مغنطيسية وكهربائيـــة مشتركة . ودنت الساعة التي سيحقق فيها « هرتز » الموجات الكهربائيـــة . فبدت الموجات منذئذ وكأنها تؤلف مجموعاً ضخماً ، ابتداء من الموجات وراء البنفسجية التي لا تتجاوز بعض اجزاء مئوية من المليمترات حتى موجات « هرتز » التي تبلغ ألوف الكيلومترات . أفليس في هذه الظواهر الضوئية والتموجية والكهربائية والكيميائية دليل وحدة هي وحدة الكون نفسها ؟ .

زمان « مرسلين برتلو » و« اللورد » كلفن »: الدورة الآلية

في بيان نشره في برلين في السنة ١٨٤٧ ، طرح « هلمهولتز » مسألة ذلك الشيء المبهم الذي يظهر في الآلة البخـــارية والكهرباء والنور نفسه : مسألة الطاقة . والحال ، فان « ماير » و « جول » و« كلوزيوس » ، و « كارنو » من قبلهم ، قد عينوا سنن علم القوة الحرارية ، التي طبقت على درس الغازات فقادت « ماكسويل » و « بولتزمن » الى النظرية الحركية ؛ وفي الحقل العملي ولد الضغط والتذويب صناعة التبريد .

بعد صياغة سنن دوام وتلف الطاقة ، بقي هنالك اخضاع المادة العضوية نفسها لقواعـــد الطاقة الآلية . وقد توصل اليها الكيميائيون فعلاً ، ولو بعد مجادلات عنيفة : ألم ينبىء « دوماء » بأن الكيمياء ستصبح قادرة على مجاراة الطبيعة الحية ؟ فبعد مرور عشرين سنة ، جاء تحليـــل كلورور الالومين على يد « سانت كلير - دفيل » ، وتركيب الكحول الخشبي انطـــلاقاً من عناصره على يد مرسلين برتلو ، يحكيان لما قاله . وهكذا فان بعض الاجسام ، التي كانت تبدو ثابتة ، قد تحللت ، في بعض الظروف الحرارية ، الى عناصرها ، فلحق مدلول التوازن غير الثابت بسنن علم القوة الحرارية . وفي السنة ١٨٦٣ تحقق تركيب الاسيتيلين انطلاقـــاً من عناصره بمجرد تدخل الشرر الكهربائي . ثم جاء على التوالي دور البنزين والنفتالين والشحوم . وأيـــد « برتلو » تأكيد الدانمركي « تومسن » بأن الحرارة المتكونة بالتفاعل الكيميائي قابلة القياس ، فقام علم حراري كيميائي الى جانب علم القوة الحرارية .

كـلِف بالاختبار وامتنع بقدرة العلم القاهرة ، فتخيل بفضل العلم مستقبلاً عظيماً جــداً

للانسانية . وجدّ على غرار « نوبل » في اتقان المتفجرات ، ولكنه انتج الـ « اوزون » صناعيا ووفر لمعاصريه وسيلة لتعقيم الماء وتخيل للسنة ٢٠٠٠ غذاء قوامه صفائح آزوتية : آمن بالتقدم اللامحدود واسهم في وضع الكيمياء في خدمة التدمير . انه لوجه هادم المثل والنظير . وقد وصف « ميتلبه » كتابه « الكيمياء العضوية المبنية على التركيب » وكأنه والمصلح الذهبي » في هذا الفرع الذي بلغ اشده .

ان « ملك الكيمياء » هذا – كما اسماه « جول لو ميتر » ، الذي استقبله في الاكاديمية الفرنسية – قد مات في السنة ١٩٠٧ ، سنة وفاة اللورد كلفن ، الممثل العظيم الاخير للايمان المطلق بامكانات العلم . كان « وليم تومسن » عبقرياً عملياً اكثر منه نظريا ، فاكتشف المبدأ الذي سبقه « كارنو » الى اكتشافه ، وحسن خصوصا اجهزة كهربائية كثيرة ، وادار عملية انزال السلك البحري الاول عبر الاطلسي ، وكتب العديد من المقالات والبيانات وترأس جمعيات علمية كثيرة في بريطانيا العظمى وسواها . احيط بالتكريم وأغدقت عليه الدرجات الرفيعة ولكنه لم يتوار عن مسرح هذه الحياة قبل ان يشهد هبوط المذهب الآلي الذي دافع عنه اكثر من اي عالم آخر .

معرفة الحياة والانواع الداروينية

بعد مبارزة « كوفيه » وجوفروا سانت – ايلير » بدا النصر وكأنه حليف مذهب ديمومة الانواع ونظرية التبدلات الفجائية . الا ان بعض معطيات الجيولوجية وزمن ما قبل التاريخ وعلم الاحاثة قد امالت العديد من الطبيعيين الى مذهب التحول الذي قال به « لامارك » .

والحال ، اصدر شارل داروين ، في السنة ١٨٣٩ – ١٨٤٠ ، « يوميات اجحاله » الذي دوّن فيه ملاحظاته خلال سفرته البحرية في المياه الجنوبية : فقد لفت انتباهه الاختلافات في النوع الواحد بين جزيرة واخرى . لقد سبق له ان عرف الجيولوجي « ليال » ، المناوىء للمذهب الذي ينسب التبدلات التي حصلت على الارض الى الفيضانات والزلازل ، كما قرأ مؤلفات « مالتوس » . ارتأى ان الصراع من اجل الحياة ظاهرة عامة تتم بواسطتها عملية انتقاء طبيعية . واصل استقصاءه ، وفي السنة ١٨٥٩ اصدر كتاب « منشأ الانواع » الذي بيع منه ١٢٥٠ نسخة في فترة قصيرة ونقل الى ست لغات .

كان الانتباه متجهاً آنذاك الى الانواع الضخمة من الحيوانات المنقرضة : الزحّاف الاريش ، والطير الانيّب . وقد وضع « اوسبورن » بياناً بانسال الحر منذ الدور الجيولوجي الثالث . ولكن ماذا عن اصول الانسان ؟ فهل سنكتشف يوماً بقايا « بشر سابقين الطوفان » كما انبأ بذلك « بوشيه دي برت » ؟ في الواقع عثر فجأة على جد انسان نيندرتال في السنة ١٨٥٢ ؛ ثم جاءت الاكتشافات الحاسمة في منطقة « بيريغور » ، في « اوريناك » و« غريمالدي » . ولم يخش بعضهم من اقامة نسب بين القرد والانسان .

قام في الوقت نفسه ، منذ ان حقق « بوهل » جبلة خلايا الاجسام الحية ، نقاش حاد حول

تركيب الخلية وصورها ، وهما موضوعان هامان عني بها التقليديون ، المناوئون لمبدأ التطور والتناسل الذاتي . فبينا كان الداروينيون يرفضون التناسل الذاتي ، اقتنع بعض العلماء من امثال « باستور » و « كلود برنار » من السير وراءهم حتى النهاية . ولكن « هكسلي » شدد على اوجه التجانس بين الانسان والقردة في السنة نفسها (١٨٦٤) التي ندد فيها البابابيوس التاسع عشر برقم مشهور ، وما لبث « فريتز مولر » ، بعده بوقت قصير ، ان ربط بين علم تخلق الجنين والانتقاء الطبيعي . افترض هكسلي ان المادة العضوية الاصلية موجودة في قعر البحار ، بينما طبق « هكل » ، الذي ربط نظرية الخلايا بمذهب داروين ، سنة « بار » المعروفة بسنة نشأة الحياة ، على الجنس البشري . وقال الفيلسوف « هربرت سبنسر » نفسه بمذهب تحولي ينطبق على حقل المعرفة بكليته ابتداء من تشكل السديم حتى القول بصيرورة اجتماعية متناسقة .

كان سبنسر من اولئك الذين لا يعتقدون بصراع الانواع اعتقادهم بأثر البيئة . وقد نقل آنئذ « هيات » و « كوب » من اميركا لاماركية حديثة حلت « لوب » على الطلوع بنظرية التفاعلات بين المادة الحية والظواهر المحيطة بها . اما « موريتز فاغنر » فقد قال بتجمع الانواع المتشابهة بدلا من الانتقاء الطبيعي ، بينما استند « هوغو دي فريز » الى السنن التي وضعها الراهب النمساوي « غريغور مندل » ، وعاد ، تحت اسم التحولية ، وعن طريق التناسل ، الى نظرية التحولات الفجائية . فجلي من ثم ان مواقع الداروينية قد ضعفت منذ ان قامت بهجومها القوي .

الصراع من اجل الصحة
كلود برنار والثورة الباستورية

مهما كان من امر النظريات حول اصل الانواع وتطورها ، فقد ولد شيئاً فشيئاً ، بفضل علم الوظائف وعلم الحياة ، طب جديد قدمت له الجراحة مؤازرة قيمة . أتاحت الملاحظة الطبية للانسان معرفة جسمه والعوامل المرضية التي تهاجمه معرفة فضلى : فساعدته بقوة على تخفيف الالم وبعث الآمال المتزايدة في الحياة .

ومهما كان من اختبارية الطب حتى في منتصف القرن – فهو ما زال ينعت الحمى التيفية والزحار بالأمراض « العفنية » – فانه قد استفاد من اعمال « لاينك » و « بروسيه » و « اندرال » و « برايت » الذين قطع علم الامراض العضوية بفضلهم المرحلة الهامة اعداداً لعلم الامراض المرضية الصحيح . ولكن الجراحة ما زالت تقاسي من جهل طرائق استئصال الجراثيم وتأمين المناعة .

على الصعيد العلمي ، يجب انتظار « كلود برنار » لاحراز تقدمات حاسمة . البث تلميذ « ماجندي » هذا وجوده للمرة الاولى في السنة ١٨٤٩ ببيان حول كيفية هضم الشحوم ، ولا سيا باكتشاف وظيفة الكبد السكرية التي تسيطر على عملية التغذية كلها . وبعد ان افضى به الامر الى ان يرى في السكر الوقود الذي يحترق في الانسجة ويأتي به الدم مع الاوكسجين ، وان ينسب الى الاعصاب الاشتراكية دور منظم حركة الدم ، ويدرس فعل السموم في الاعضاء ،

نشر كتابه « دروس في علم الوظائف الاختباري وتطبيقه على الطب » ، ثم « مدخل الى درس الطب الاختباري » الذي كان بمثابة الجيل لعالم الطبيعيات والعالم بصورة عامة ، والذي اولى فيه الافتراض والاستقلال أهمية كبرى ، وأوصى بمناقضة الآراء السابقة ، وأراد اسناد الطب الى سنن ، شأنه في ذلك شأن علم الطبيعة . وحين أدركته المنية في السنة ١٨٧٨ ، كان قد توصل بالفعل الى اثبات وحدة النطاقين الحيواني والنباتي، واعتاق علم الوظائف من الاختبار وعلم المعقولات ، وتحقيق احد آمال « اوغست كونت » . ان هذا الانسان الذي تميز بهيئة مهيبة وطيبة قلب وطلاقة وجه ، قد استمال اليه الناس وأشع من حوله اشعاعاً قوياً . خلفه في « كلية فرنسا » « برون – سيكار » الذي نجح في مواصلة درس الافرازات الداخلية ، فدفع من ثم بدرس الغدد دفعة الى الامام . وتخصص احد تلامذته « بول برت » في فحص الوظائف الحاسية وظواهر التنفس ، قبل ان يتفرغ للديموقراطية الجمهورية ويلقى حتفه في الـ « تونكين».

الا ان امنية كلود برنار الاولى كانت تحرير الطب من ضلاله المعتاد . وقد اكب احد الكيميائيين من جهته على تحقيقها . كان « لويس باستور » قد تقدم في السنة ١٨٥٧ ببيان حول الاختمار الكحولي ، وقد خلص فيه الى وجود الخائر والمواد القابلة للاختمار معاً ، والعلاقة بين تعفن الفضة – وهي جرثومة قوسية – وحياتها بدون هواء . اجل لقد سبق لـ « ليبيغ » وأعلن وجود مثل هذا الفور ، ولكن باستور قد اظهر علمياً كيفية حدوثه . ثم انتقل الناس الى التساؤل عما اذا كانت الاجهزة العضوية المجهرية لا تهاجم الكائنات الحية . وقد صادف أن أصيب دود القز بمرض مجهول ، فاكتشف باستور جسيمات بالغة الصغر تنتقل بواسطة البيوض ، هي البكتريات . وقد اثبت الجراح السكتلندي « ليستر » آنذاك ان الفساد الذي يحول دون شفاء الجروح مرده هذه الجراثيم التي اتقاها بالتطهير او تأمين المناعة ضد العفونة . عند ذاك توفق الدكتور « كوخ » من « برسلو » الى زرع جرثومة الفحم التي اكتشفها « دافين » و « ايرت » والتي كانت تفتك فتكاً بالمواشي . درس باستور بيانه ولاحظ اتفاقاً ان جرثومة هيضة الدجاج ، تمنع الدجاجة ضد المرض اذا ما لقحت بها ، ثم لقح بالفحم ، في السنة ١٨٨١ ، خمسين خروفاً بعد ان طعم ٢٥ من بينها بنسبة خفيفة من الجرثومة (وفاقاً للطريقة التي اتبعها « جنر » في اعداد لقاحه ضد الجدري) ؛ فلاحظ الجمهور ان الخرفان غير الملقحة وحدها قد ماتت . انه لاكتشاف على جانب كبير من الاهمية : فلن تلسب الامراض بعد اليوم الى الاعتلال بلا تمييز ؛ لقد امسك بالجراثيم ؛ وروقبت اعمالها ، وحوصرت بحيث امكنت محاربتها في معركة مباشرة وناجعة . وقد بلغ مجد باستور ذروته حين شفى ، في السنة ١٨٨٥ ، ولداً عضه كلب كلِب .

قضى باستور عشرين سنة في المجادلات الحادة قبل ان يتغلب على المقاومات والآراء المقبولة قبل التحقيق . ولكنه انتصر في النهاية ، وقد استمد جيش من التلامذة الحلول محله في مقاتلة الجراثيم والطفيليات . فان احدهم « لوبليه » قد توفي في الاسكندرية حيث كان مكباً على

دراسة صيفة وبائية ، ووفق آخر ، هو « شامبرلان » الى إحكام مطهرة بالبخار المضغوط ومصفاة مالية صحية ، وتخصص بعضهم في الكيمياء الزراعية : « رولين » ، « فان تيغم » ، « اميل ميكلو » الذين اسكتشفوا بتحقيق الحقول المختلفة التي تعيش فيها النباتات ولحقوا به شلوسنغ ، و « مونتز » و « فينو غراد سكي » في بحثهم عن بكتاريات العالم النباتي : فحققوا اكتشافاً عظيماً حين اثبتوا ان الاختمار سبب تكون الأزوت في التربة .

في هذه الاثناء واصل سواهم تحقيق هوية اصاغر الجراثيم — ك . « كوخ » مثلاً الذي اكتشف جرثومة مرض السل ، بعد ان درس الفحم ، ثم اكب على دراسة جراثيم الهيضة والملاريا ومرض النوم والبرص ، الى ان ادركته النهكة فتوفي هو نفسه بعد اصابته بمرض السل — فعمت معالجة الامراض السارية معالجة وقائية . وقد احرز تقدم جديد بالمعالجة المصلية التي توفق اليها « شارل ريشيه » فدشن بذلك الطريقة الدوائية ، ثم طبق « اميل رو » و « فون بهرنغ » الطريقة على مرض الخناق (دفتاريا) الذي حقق « كلبس » هوية جرثومته في السنة ١٨٨٣ ، وركب مصله في السنة ١٨٩٤ ، ومن جهة ثانية امتدت حالة المعالجة الكيميائية ضد الفساد التعفني الى حالة الامراض المتسببة عن الاوليات .

اتسع حقل الابحاث امام الغربي ، الآخذ في السيطرة على العالم ، كلما وُجد وجهاً لوجه امام الادواء والاوبئة في المناطق الحارة . نشط منذ زمن بعيد في معالجة الملاريا والقضاء عليها في الحوض المتوسطي : في السنة ١٨٨٠ لاحظ « لافران » الحيوانات الدموية في قسطنطينة ، وجاء بعده « رونالد روس » ، الطبيب في جيش الهند ، يعين بعوضة الاجمة كناقلة للملاريا فحاربها بنجاح في كوبا وباناما ومصر ، ثم اهتم الاطباء الايطاليون المتخصصون في معالجة الملاريا ، الذين شق « غراسي » الطريق امامهم ، بتطهير مناطق المستنقعات في بلادهم وجعلها صحية . وشن الهجوم على الهواء الاصفر حين حقق « فنلاي » الطبيب الكوبي ، هوية جرثومته . واكتشفت جرثومة الطاعون الدبيلي في « كانتون » في السنة ١٨٩٤ بفضل « يرسين » ، تلميذ معهد باستور ، والياباني « كيتاساتو » . واوضح « سيموند » ان الجرذ الاسود ينقله الى الانسان . وحقق الدكتور « فورد » من غامبيا وبمثة « بروس » هوية الحشرة التي تسبب مرض النوم . وسوف يبرهن « نيكول » و « كونت » و « كونساي » في السنة ١٩٠٩ ، ان القمل هو ما ينقل الحمى النمشية . وقد وضعت ابحاث في الجغرافيا الطبية والطفيليات ترشد الى مراكز الاعداء بين سكان المناطق الحارة .

الا ان العرق الابيض لم يستطع التغلب على عدة امراض خطيرة ، بالاضافة الى انه نقل بعضها احياناً . فقد تفشت الامراض الجنسية بفعل الخوف من الاقرار بها . ووصف الاطباء ظواهرها واشاروا الى معالجتها بالزئبق . واكتشف « نيسر » جرثومة السيلان الابيض في السنة ١٨٧٩ ، وانما يجب انتظار السنة ١٩٠٥ حتى يتوفق « شودين » و « هوفمن » الى عزل جرثومة الداء الزهري ، والسنة ١٩٠٦ حتى يكتشف له « واسرمن » الدواء الشافي — بانتظار معالجته

بالبزموت . وبدا السرطان اصغر خبوضاً ايضاً . واذا كان علم الأمراض الرئوية قد اكتشف جراثيم الالتهابات الرئوية ، فان تشخيص التصوير بالاشعة ليس كل شيء ، وليس للطهرات والمصل مفعول اكيد . أما السل ، وهو المرض الاجتماعي الناجم عن البؤس والتعب ، فقد استلزم حماية ترتبط بظروف فضل العمل طال انتظارها؛ يضاف الى ذلك ان المعالجة الجراحية لا ترقى الى ابعد من السنة ١٩٠٨، تاريخ تجميع الهواء في الصدر الذي اعتمده «فور لانيني» . وقد اخذ الاطباء يستشفون استشفافاً بعيداً دور نقص بعض المواد في الجسم ودور الاضطرابات الغددية؛ ولم تدرس الامراض الوراثية فعلاً الا منذ اكتشاف السنن المتدلية (نسبة الى «مندل») حوالي السنة ١٩٠٠ .

بيد ان طرائق المعالجة قد تحسنت تحسناً مستمراً . فمقابل طريقة معالجة الداء بضده التي بقيت رائجة ، كان لطريقة معالجة الداء بمثل خواصه من الدواء انصارها من الاتباع المتحمسين الذين آثروا تخفيف الادوية بالمزج تخفيفاً مفرطاً . وقد اثبت كلود برنار ولا سيا برون – سيكار اهمية المعالجة بواسطة السوائل الحيوانية . ثم برزت المعالجة الكيميائية في اعقاب الدروس التي قام بها « اهريش » . ثم نادى « ارسونفال » بالمعالجة بالعوامل الطبيعية ، ثم أدى تطبيق الموجات الحرارية على المعالجة الى تعزيز فعالية المعالجة بالماء وبمياه الينابيع في الينابيع نفسها التي سهلتها وسائل النقل الجديدة . الا ان التردد على ينابيع المياه المعدنية قد استلزم ، بالاضافة الى مستوى حياتي مرتفع ، معرفة علم خصائص المياه ونواميسها معرفة يقظى . لا بل برزت معالجة مناخية حقيقية في اعقاب ابحاث « بول برت » و « جوردانيه » حول نتائج انخفاض الضغط الجوي في الجبال ، كما اتضحت اهمية الاشعاعات الشمسية والجفاف والبرد .

تميزت انطلاقة الجراحة بمزيد من الجرأة ايضاً وهي في ذلك مدينة بالكثير للطهرات . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان باستور قد فضل استعمال المواد المطهرة ، وقد اتضح فيما بعد ان تفضيله كان في محله . وتوجب كذلك ادخال ألم المريض في حساب المعالج : وهم بعض الاميركيين من اشار باستعمال روح الحوامض الممزوج بالكحول او اول اوكسيد الآزوت ؛ وقد نشر احدهم ، « سمبسون » ، في السنة ١٨٤٧ ، بياناً حول اهمية الكلوروفورم (البنج)التخديرية. فأصبح باستطاعة الجراح ، منذئذ ، اجراء عمليته بأمان. وهكذا بات استئصال الزائدة الدودية عملية سهلة في السنوات ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، في حال ان اصابة هذا العضو بالتهاب حاد قد اعتبر حتى ذاك التاريخ احد اعظم الامراض فتكاً بالانسان . وخطت جراحة الاعصاب خطواتها الاولى بفضل نظرية طلع بها « بروكا » في السنة ١٨٦١ حول تعيين وظائف مختلف اقسام الدماغ . واستفاد علم جراحة العين من الاكتشافات التي توفق اليها هلمهولتز ، ولا سيا «غراف» الذي فكر بازالة الساد بعملية دائرية . وبفضل النجاحات التي احرزتها تقنية علم الامراض النسائية ، سار في طريق الزوال سبب غير نادر من اسباب الوفاة : استخدم الطريق المهبلي حتى السنة ١٨٩١ ، تاريخ اعطاء الافضلية للطريق الجوفي بفضل طاولة عمليات « ترندلنبورغ »

وأجرى « بورـ٣ » و « سالجر » العملية التجريبية بنجاح ، ولم يستفد فن التوليد من تقدم استعمال المواد المطهرة فحسب ، بل من التحسينات المدخلة على ملقط الجنين ايضاً .

وهنالك حقل من ادق الحقول لم يعد وقفاً على الاختبار والرأي المقبول قبل التحقيق : اعني به حقل الامراض العقلية . فبعد ان احرز علم قراءة الدماغ نجاحاً فضولياً نراه يدخل في طور اختباري ، بحيث لم يعد المجانين موضوع تدابير امن وسلامة فحسب : فان « فالنتين ملنيان » و « اميل كريلين » ومدرسة « ادنبرا » قد توصلوا ، من اجلهم ، الى الغاء الاقتسار . وقد رأت النور بعض الطرائق الدوائية ولمع في طب الامراض العقلية اطباء مشهورون . وأخذ أحدهم ، « لومبروزو » ، على نفسه اثبات قيام العلائق المحترمة بين النظام الوظيفي الطبيعي والإجرام . ولا ريب في أن نظريته حول المجرمين منذ ولادتهم ، التي شرحها في مؤلفه العام « الانسان المجرم » (١٨٧٥) ، قد أثارت مجادلات عنيفة : ولكنه نشر في السنة ١٨٨٨ « الانسان العبقري » الذي جمع فيه بين علم الوظائف وعلم النفس . ورأى بعضهم ان الكائن البشري يتأثر بكليته بالمراكز العصبية التي يرتبط بها الفكر نفسه .

المعرفة التاريخية والاجتماعية

ما عساها تكون قيمة العلم اذا لم يتح هذا الاخير معرفة كيفية التطور البشري وسببيته ؟ لقد جعل « كونت » من درس الظواهر الاجتماعية قمة بناء الفلسفة الوضعية . وارتكز الجدل الماركسي الى حركة الحقل التاريخي . وبالاضافة الى أن توسع آفاق هذا الاخير قد أثار فضولاً متزايداً والى انه قد امسى سلاحاً سياسياً ، فليس من شك في ان منهب العقليين المؤمنين بامكانات العلم الشاملة قد حرك الحاجة الى تفسير الاحداث تفسيراً افضل . فحدث من ثم في الوقت نفسه تعمق في البحث وتوسع في الحقل التاريخي . وقد بدت المهمة مزدوجة : يجب اثبات الواقع بواسطة العلم الراسخ في التاريخ ، ولكن العقل البشري يرغب في استخلاص العام من الخاص . وقد كتب « فوستيل دي كولانج » ما يلي : « ان يوماً واحداً نقضيه في التأليف يجب أن تقابله سنوات نقضيها في التحليل » . واكد فوستيل هذا نفسه ان التاريخ « ليس فناً بل علماً بحتاً » ، بينا رأى « رينان » ان « التاريخ فن وعلم سواء بسواء » . وأنجز عمل توضيحي عظيم في حقل الوثائق سهلته نجاحات العلوم المساعدة ، لا سيا علم الكتابات وعلم الآثار ؛ ولكن أسرى الآراء العقائدية والآراء المقبولة قبل التحقيق قد استسلموا أبداً للميل الى رسم لوحات عريضة . وهكذا فان « تين » الذي امرك مهنته خير ادراك لم ينشغل يوماً عن العمل المنسق النظامي ، وليس كتابه « أصول فرنسا المعاصرة » سوى دفاع عن نظريته . كما ان فوستيل دي كولانج ، المشهور بتدقيقه ، قد استخلص من الديانة المنزلية دون غيرها مؤسسات « المدينة القديمة » . ولم يرَ « ميبل » ولا « سوريل » تشابك المعطيات التي تدخل في تفسير الثورة الفرنسية . بيد أن المؤرخين اتجهوا شيئاً فشيئاً شطر الموضوع المحدد أو المجموعة التي يجب أن تكون عملاً جامعاً .

لم تستخلص اهمية العوامل الاقتصادية الا ببطء كلي . وكان « ليت » و « شمولر » في طليعة من تولوا هذا الاستخلاص ؛ ولكن يجب انتظار آخر القرن حتى تظهر الماركسية في هذا الحقل نظرية مقبولة للبحث. اما التاريخ فقد برهن عن جرأته في معالجة مسألة الاصول الدينية. اجل ان التاريخ قد طبق في نقد التوراة الطرائق نفسها التي استخدمها في كشف حقيقة نشأة روما او المسألة الهوميروسية . الا ان الباحث الذي تحوم حوله شبهة العداء لحقائق ايمان حي يأخذ على عاتقه مهمة خابية في النقد . فقد سبق لكتاب « حياة يسوع »، الذي نشره شتراوس في السنة ١٨٣٥ ، ان أثار مجادلات حادة . ثم جاءت مؤلفات « فورباخ » و «برونو بوير » التي اعتبرت باعثة الشقاق : هل تصمد الفصول الاولى من سفر التكوين امام اكتشافات ما قبل التاريخ الطبيعي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان «حياة يسوع » التي لطفها رينان وأبعد عنها كل ما هو اسطوري ، قد أثارت ردة فعل عنيفة وكللت مؤلفها متبره في كلية فرنسا . فقد وقف رجال الاكليروس موقفاً دفاعياً قوياً وانشغل الكثيرون منهم باثبات التوافق بين تأكيدات العلم واقوال الكتب . ولكن ذلك لم يحل دون اتساع الهوة بين المؤمنين المتمسكين بالرواية التقليدية وبين الوضعيين والعقليين والقائلين بحرية التدين الذين اعتبروا انفسهم احراراً في مناقشة الاناجيل كما هم احرار في مناقشة اية شهادة أخرى .

بينما كان التاريخ متجهاً ، ولو ببعض الصعوبة ، شطر التعريف بماضي الانسان في جميع مظاهره ، كان علم الاجتماع يبحث عن نهج واسلوب . كان رأي ماركس ان التركيب يجب ان يرتكز الى الجدل وقوة الصراع بين الطبقات ؛ أما هربرت سبنسر فقد اعتقد بوضع قواعد مذهب تطوري يكون نتيجة تكيف المجتمعات تدريجياً على البيئة . ثم جاء « دوركهايم » يقاوم المدرسة الآلية التي يمثلها « باريتو » و « والراس » والمدرسة المعنية بعلم طبائع الانسان التي يمثلها « جايمس فرايزر » – وهو من سار على خطى « فردريك ماكس مولر » باهتمامه بتفسير الاساطير – ، والمدرسة المعنية بعلم النفس التي يمثلها « تارد » و « فوييه » ، فحاول بقوة وضع الشروط التي قد تتيح لعالم الاجتماع القيام بعمل علمي حقاً ؛ وقد نشر كتابه «قواعد الأسلوب الاجتماعي » في السنة ١٨٩٥ ، فكان له بدوره صداه العظيم .

الايمان بامكانات العلم والعلم الاخلاقي النفسي

لاحظ « كورنو » زوال الميل الى الحقيقة الفلسفية البحتة » . فالواقع الاختباري قد فرض نفسه فرضاً على الانتباه . واذا صدق كلود برنار ، فان للعقل البشري قد تفرغ منذ اليوم الى « دراسة الظواهر الطبيعية في واقع الأشياء الموضوعي » . زد على ذلك ان رينان قد اعلن منذ السنة ١٨٤٨ : « العلم دين ؛ العلم وحده قادر على تمكين الانسان من حل المسائل الازلية التي تفرض طبيعته حلها بالحاح » . ولكن الاختبارية النفعية تنتهي عند « جون ستيوارت ميل» الى إدبار مماثل أمام علم المعقولات . وان مذهب الطبيعة المؤمن بامكانات العلم الشاملة قد حمل « تين» على رد النشاط الدماغي الى تصادم الذرات المعقلية . ورأى اتباع المذهب الظاهري من امثال

« بان » و « جايمس ميل » ان الوجدان ليس سوى توارد افكار وصور (ولن يرى اتباع الظاهرية الحتمية ، من امثال « مودسلي » و « هكسلي »، في الوجدان ، سوى مجرد وميض فوسفوري دماغي) . وعاد « بوخنر » و « فوغت » و « مولسكوت » الى صيغ « كابانيس » (الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، مثلا) ، وقد عاصرت بياناتهم تحليلات علم الوظائف . وافتتح « وونت » في ليبزغ مختبراً لعلم النفس ، واسس « فشنر » علم النفس الطبيعي ، وربط « ريبو » بين علم النفس وعلم وظائف الجهاز العصبي . فتبخر كل مفهوم سام او لم يعد سوى وهم خادع .

ولكن نشاط الفرد ، مهما بلغ من ارتباطه بعلم الوظائف ، لا يفسر تفسيراً مقبولا الا على الصعيد الاجتماعي . ان هذا الوجدان الاجتماعي المتفاوت الطواعية ، يشكل الترياق الواقي من الحتمية المطلقة المستحيلة ، عند ماركس كما عند سبنسر ، وعند جون ستيوارت ميل كما عند « رينوفييه » . ومن جهة ثانية ليست الحرية في نظر هذا الاخير ، كما في نظر « كانت » ، سوى مبدأ اساسي مسلم به من مبادىء العقل العملي . وأعطى « هكل » منهب الواقع الواحد الذي قال به معنى فلسفة البهجة الخلاقة ، وأبان « وونت » بجلاء هيمنة الارادة .

يتضح من ثم ان الايمان بامكانات العلم الشاملة عارم بالنشاط والقوة الفاعلة . ومادياً كان أم مشبعاً بالنفسية ، فانه لا يبتعد عن علم المعقولات السامي الا ليكتفي بالواقع. وسيعلن «وليم جايمس » ان « الفكر حقيقي لانه نافع ، وانه نافع لانه حقيقي » ، كما سيظهر مذهب العملية ايضاً كعلم اخلاقي موضوعه العمل .

الفصل الثالث

استكشاف الأرض وانتشار المثل الأوروبية

معرفة الارض وتمثلها

انطلق الانسان الغربي بفرح وبهجة الى فتح الكرة الارضية . وان ما دفعه دفعاً الى امتطاء المغامرة هو الهوى والشجاعة والتكلف بالرسالة والعلم ، لا سيا وان عالم المجهول ما زال واسعاً جداً .

غذّت الرغبةَ الحـــارة في المعرفة مجموعات المؤلفات وروايات السفر وكتب الارشادات والتعليات . فقد بيع « ملايـــين عدد يومياً من « اخبار لندن المصورة » التي ظهرت في السنة ١٨٤٢ . وقد عرفت « مغامرات روبنسون كروزويه » نجاحاً مطرداً منقطع النظير ، وتقلت الى كافة لغات اوروبا ، فأوجدت الكثيرين من امثـــال روبنسون ، السويسري ، والاميركي ، و « روبنسون البالغ من العمر اثني عشرة سنة »،و« امثال روبنسون الحقيقيين»، ولا سيا مغناة « ار فنباخ » الهزلية . واشتهر عدد من ارباب القصة الاجنبية : « ماريات » ، مؤلف« مغامرات بيتر سمبل » ، والاميركي « ملفيل »، والسكتلندي « ستيفنسون » ، و « لوتي »، الملاح المحترف الذي تذوق جمال الكون اثناء تجواله في تذوق الفنان المتوحد . وأوجد « جول فيرن »القصة الجغرافية . فتجول هو ايضاً في العالم ، دون أن يغامر مكتبه، وجمع بين السبق العلمي ومشاهدة المناظر والمجتمعات مشاهدة صحيحة ، وخلقَ اشخاصاً يستهوون الفتيان ، كـ « فيلياس فوغ » الذي يدور حول العالم في ثمانين يوماً ، والقبطان « نيمو » الذي نسير على خطـاه ٢٠٠٠٠ عقدة تحت البحار ، والقبطان هاتراس الذي انتصر على القطب الشمالي (وهي المأساة الاسطورية)« نجم الجنوب » ، ما لفت انتباهه ، في السنة ١٨٦٧ ، الى افريقيا الجنوبية (أما فكرة الدوران حول العالم فقد أوحى بها اليه ، في السنة ١٨٧٢ ، اعـــلان لوكالة كوك . وسوف يتولى دور الراوي الفرح في « كتب الغابة الملبدة » احد قرائه ، روديارد كبلنغ ، الذي كان ، من جهـــة ثانية ، صديقاً لابن « توماس كوك » .

لم يعد قط من مدرسة خلو من خريطة قارات العالم الخمس وخريطة الوطن الأم . واذا وفر الاطلس تمثيلاً اكثر دقة ، فان الأداة العلمية المثلى ، التي جاءت ثمرة عملية مسح وقياس ارتفاع استغرقت وقتاً طويلاً ، هي الخريطة الطوبوغرافية : وهكذا فان المسقط المخروطي المشكل الذي صححه « بون » قد استخدم في رسم خريطة بقياس ٨٠٠٠٠/١حلت في فرنسا محل خريطة « كاسيني » .

اسهم علم طبيعة الارض ، والجيولوجية ، والجغرافية الطبيعية اسهاماً متوازياً ، ان لم يكن تضامنياً ، في معرفة الكرة الارضية . فقد أمكن وزن هذه الاخيرة وقياسها . لجيل ، لقد تعاقبت النظريات حول طبيعة القشرة الارضية ، فحلت الواحدة محل الاخرى ؛ ولكن تفسير نواتىء الارض بات اذ ذاك أكثر ارضاء واقناعاً حين نشر « سويس » النمساوي في السنوات ١٨٨٣ – ١٨٨٨ ، بروح شاعر وعالم واسع الاطلاع ، كتابه « وجه الارض » . وقد صرح « كورتلين »آنذاك ايضاً : « لا اقرأ من المؤلفات الخيالية سوى القشرة الجوية احياناً » ؛ ولكن علم المناخ الذي اعتبره مساوي آخر ، هو « هان » ، قد انبث في العهد نفسه تقريباً ؛ لئن درس التيارات الهوائية الكبرى وانواع الطقس المختلفة قد سجل نتائج قيمة مهدت لها دروس مهندس البحرية الاميركية « موري » ، ودروس « لو فربيه » .

هي حاجات الملاحة بصورة خاصة ما يجدر بنا ان نعزو اليها النجاحات الجديدة المحققة في علم البحار . فبين السنة ١٨٢٠ والسنة ١٨٥٠ أدت اسفار « ديمون دورفيل » و « ويلكس » الى رد القارة الجنوبية أبعد الى الجنوب . وبالاستناد الى المعلومات التي دونها « موري » في خريطة جية التيارات البحرية » أو في « توجيهات الملاحية » القيمة ، ابتكر « بروك » مرجاماً سهل تحديد الاعماق البحرية ، واتاح البخار كذلك سهولة استخدام الملفاف لانزال اجهزة المراقبة واخراجها . ولعل اهم حدث هو الرحلة التي قامت بها بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٧٦ ، السفينة « شالنجر » التي عادة بمعلومات وفيرة جداً اوردتها لجنة برئاسة « ويفيل طومسون » في ٥٠ مجلداً . وفي السنة ١٨٨٥ سيّر « البير الاول » امير موناكو بعثته العلمية الاولى . وفي السنة ١٨٩٩ ، تألف في كوبنهاغن مجلس دولي دائم لاستكشاف البحر .

الاستكشافات البرية

حوالي السنة ١٨٦٠ اشير في الخرائط الى الاراضي المجهولة في القسم الاكبر من افريقيا وفي آسيا الوسطى والجزيرة العربية و « امازونيا » . وما زال تكون الجبال وحياض الانهار يخفي مفاجآت كثيرة ، والاستكشافات البرية تسفر ابدا عن وقوع ضحايا كثيرة . فركوب مخاطر الصحارى الشاسعة الاطراف ومناطق التوامي الحرجية يقتضي صوفية حقيقية وجلداً غير اعتيادي . وهو الجمل الافغاني القادر على البقاء ١٣ يوما بدون تجرع الماء ، ما استطاع وحده اجتياز الصحراء الاوسترالية ؛ ولم يفلح « لابرين » في اجتياز الصحراء الافريقية الكبرى الا بمعونة جنود من قبيلة «شامبا» يمتطون الجمال ؛ كما ان « برازا » ، على الرغم من رغبته في الظهور بمظهر المسالم ، قد اصطحب ٣٠ بحاراً ورقيباً ، و ٣٠٠ بحار

شكل ٦ ـ اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر

سنغالي ، ١٢٠٠ جذاف او كندي او امومي وقرابة الف حمال بالتكي وبابوندي وخمسة زوارق بخارية ، وجهز مستودعاً في « ليبرفيل » ، وانشأ ٢١ محطة ومركزاً عسكريا بين الشاطىء والكونغو . زد على ذلك ان امر المهمة الحامل توقيع احد الملوك لم يكن شيئا يستهان به : فقد استحصل « ناشتيغال » على مثل هذا الامر من ملك بروسيا لتقديمه الى الشيخ عمر في « بورنو » ، وقصد « جوزف هاليفي » مأرب، مدينة ملكة سبا القديمة ، مرتديا زياً اسرائيلياً، ومزودا بكتاب توصية من حاخام صنعاء ، وتنكر « بالغراف » ـ على غرار « كاييه » في الصحراء الافريقية ـ بزي اسلامي ليتمكن من دخول صنعاء عاصمة الوهابيين . ولم يهمل كذلك امر المال والبضائع . فكشفت القارات اسرارها .

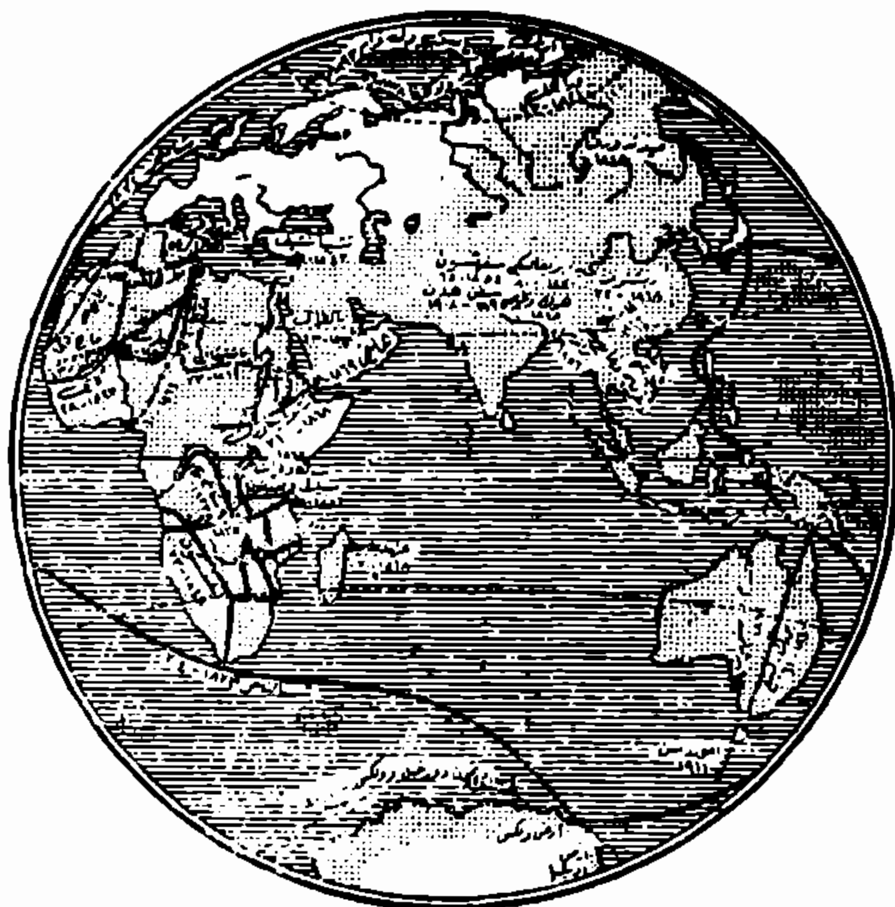

كانت هنالك مسألتان في افريقيا : مسألة الانهار الكبرى التي تصلح دون غيرها لربط ساحل بآخر عبر السباسب والاحراج ، ومسألة الصحراء الافريقية الكبرى التي تمتد بين المتوسط والمناطق السودانية . يضاف الى ذلك مسألة النخاسة ، لان النخاس يحرص على ان يضل المسافرون المسالك ، ويحرك الزعماء البلديين ، ويقاوم بالحيلة ، وحتى بالعنف ، كل دخول يرتدي طابع العداء للرق . ففي منتصف القرن نجح « بارت » و « ديفرييه » و « رولف » و « ناشتيغال » ، ببذل جهود خارقة ، في اجتياز الصحراء وبلوغ الساحل النيجيري و « تشاد » . واسدل في الوقت نفسه الستار الذي كان يخفي الشبكة المائية في المنطقة الاستوائية : اهتدى ليفنغستون الى ينابيع الزامبيز وينابيع الكونغو ؛ اما ستانلي الذي انطلق للبحث عنه فقد

قام بحركة كبرى في المنطقة الكونغولية . وفي السنة ١٨٨٠ بدأت عملية تقاسم الاراضي .

لم يكن قلب آسيا اسهل منالا . بينما كان الروسيان « تشرسكي » و « برجفلسكي » يدخلان الاراضي المرتفعة في الشرق الاقصى السيبيري ، كان «ريشتوفن» يتجول في اصقاع الصين ويصفها . ولكن العائق الحيف كان « سطح العالم » الواسع الذي توفق فيه برجفلسكي الى اكتشافات هامة ، اعني بها ينابيع الـ « يانغ تسي » و « تاريم » و « لوبنور » ؛ ولم يستطع لا « مانتنغ » ولا الاخوان العازريان « هوك » و « غابيه » مشاهدة «لاساء الا باخفاء شخصيتهم؛ ولم يحقق غيرهم هذه الامنية . فقد ظل الارتفاع حاجزاً : واذا استطاع هواة تسلق الجبال اقتحام اعلى القمم شموخا في اوروبا ، فان قمم آسيا قد تحدت جرأة الانسان الابيض .

فتح القطبين

القطب يجتنب كالمغنطيس ، ومثال القبطان « هاتراس » ليس من نسج الخيـال . سارت السفن الشراعية أولاً على خطى كوك في البحار الجنوبية ، فجر صيد الحوت اعظم اللاحين جرأة الى أبعد من القواعد المأهولة . وبرزت الرغبة كذلك ، في عهد مبكر ، في اكتشاف مجاز بين الاطلسي والهادي شمالي اميركا وآخر الى الشمال من العالم القديم . ولكن الصعوبة قامت في وجوب تمضية فصل الشتاء في مناطق يمتد فيها الليل بين أربعة وستة أشهر ، ومقاومة الجبال الجليدية التي قد تتداخل وتسحق السفينة : فهكذا انتهى في ظروف فظيعة الاميركي « لونغ » ومن معه على السفينة « جانيت » خلال رحلة الى المجاز الشمالي الشرقي ؛ وفي هذا التاريخ نفسه تقريباً عرفت بعثة « غريلي » النهاية نفسها في « غرينلند » حيث عثر على جثث مرعبة ابتترت اعضاؤها العلوية والسفلية ، بسبب دفع الجوع ببعضهم الى أكل لحوم البشر . فمست الحاجة من ثم الى التجهز بأدوات خاصة والتزود بغذاء ملائم . وليست البعثة الى القطب مما يلائم الشماليين فحسب ، فهي توجب ارتداء البسة شعوب المناطق المتجمدة والتدهن بالشحوم . وفي أواخر القرن ، كان « نانسن » و « بيري » و « اموندسن » قد تلقوا درساً من الاختبار ، فلم يتركوا شيئاً للمصادفة : بنى « نانسن » السفينة « فرام » القادرة على مقاومة ضغط الجليد ؛ وتزود بمؤن تكفي لمدة خمس سنوات وفكر حتى ببعض اسباب اللهو ؛ وتعلم بيري تقنية الاسكيمو الذين ادخلهم في خدمته وامتحن رجاله ومعداته على جليد الارض الغرينلندية .

بعد أن تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ، بقي التقدم ، ما أمكن التقدم ، فوق الامواج المتلاطمة باتجاه القطب الجنوبي . وفي سبيل تحديد موقع القطب المغنطيسي الجنوبي ، وضع ويلكس وروس رسماً تقريبياً لحدود القـارة المتجمدة الجنوبية الحقيقية وتعرفوا الى براكينها وخلجانها الواسعة . ثم توقفت النجاحات : اذ اقتصروا العمل على صيد الحوت والاستيلاء على الجزر والارخبيلات الصغرى المتناثرة في مياه المحيط المتجمد الجنوبي .

يرد هذا التوقف الى أن مسألة مجازي الشمالي الغربي والشمال الشرقي كانت اشد استهواء . فقد عند البريطانيون في بذل الجهود لاكتشاف الاول ، وانتهى « ماك كلور » ، الذي انطلق للبحث عن بعثة « فرانكلن » المفقودة ، الى الدوران حول القارة الاميركية من الشرق الى الغرب . ثم

لجمع « نانسن » ، و « اموندسن » من بعده ، في اجتياز « غرينلند » . أما مجاز الشمال الشرقي ، فقد توصل « نورد نسكجولد » الى عبوره بالسفينة « فيغا » بعد أن امضى الشتاء في الجليد على بعض المسافة من مضيق « بيرنغ » . عند ذلك مفسح وم « بحر القطب الطليق » بالسفينة « جتهوف » ، ثم بالسفينة « جانيت » ، نحو الشمال ؛ ولكن حوض البحر المتجمد الشمالي لم يستكشف إلا في أعقاب حيدان مركب « نانسن » ، « فرام »، عن طريقه طيلة ثلاث سنوات، فاستفاد المهندس الاميركي « بيري » من ذلك وسار تكراراً على رأس بعثات قرّبته شيئاً فشيئاً الى القطب الشمالي الذي توفق الى بلوغه في السنة ١٩٠٩ بواسطة مزالج يجرها الكلاب .

كان القطب الجنوبي أكثر بعداً وأشد وعورة ، ولكن المستكشفين ما لبثوا أن بلغوه هو ايضاً . لقد تعددت المحاولات بين السنة ١٨٩٧ والسنة ١٩٠٥ ؛ فـان شاكلتون قد اقترب من الهدف وبلغ نقطة ترتفع اكثر من ٣٠٠٠ متر وتبعد عنه أقل من ٢٠٠ كيلومتر ، ولكنه افتقر في النهاية الى المؤن ؛ وأخيراً ظفر اموندسن النروجي ببلوغه في السنة ١٩١١ ،بينا لاقى سكوت حتفه في عاصفة ثلجية .

معرفة الكون

ولكن ما هي بالضبط الشعوب المختلفة التي يتألف منها الجنس البشري ؟ لقد وقع مدلول العرق موقع الرضى من الرومنطيقيين الذين تكلموا عن العرق الفرنجي والعرق الكلتي والعرق الجرماني ؛ فالعرق يفسر كل شيء ، وحتى السلوك الفكري ؛ وسوف يبث « غوبينو » فكرة وجود عرق آري، هو أنبل الأعراق البيضاء ومُعَد للمهام المختارة .وقد قام نقاش حاد بين القائلين بوحدة النوع والقائلين بتعدد الانواع . لا بل لم يعرف ما اذا كان يجدر الكلام عن علم طبائع الانسان أم عن علم خصوصيات الشعوب . وكان مقدراً للصوفية العنصرية، بفعل تشوش الآراء ، أن تغذي ، في أواخر القرن ، الاهواء القومية والتوسعية الاستعمارية .

الا أن هذه النظرية الساذجة قد صادفت مقاومة شديدة تولاها اولئك الذين ارتأوا، كـ « ميشليه » مثلاً ، ان البيئة والحياة المشتركة أعظم أهمية من الدم أو شكل الرأس في تكييف الشعوب والأمم . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن « كارل ريتر » ، الذي يبدو المهد الحقيقي لجغرافية بشرية تفسيرية ، قد حاول ، منذ السنة ١٨١٧ ، وصف البلدان وسكانها وصفاً يستهدف اثبات تبادل الارتباط . وفي هذا الاتجاه سار من بعده « برغهوس » و « بيترمن » و « ركلو » . وبينا يقترح « راتزل » ، المتشبع بالنظريات الحتمية ، درس العلائق القوية بين الدول وسياستها وبين المعطيات الطبيعية ، تشبث « فيدال دي لا بلاش » و« ماكندر » بالتوسع في مدلول طريقة الحياة الناجم عن تعاون صادق بين النوع والطبيعة قادر على تفسير التعددفالتنوع في طرائق التكيف، ومن ثم تفسير النماذج البشرية . ونزولاً عند طلب« لافيس » ، وعلى طريقة ميشليه ، سوف يقدم « فيدال دي لا بلاش» ، لكتاب مفصل في «تاريخ فرنسا »من وضع مجموعة من المؤرخين ، بـ « لوحة جغرافية » متنوعة الألوان .

دور اللغة في انتشار الثقافة الاوروبية

نظر الغربي الى الاداة والنسيج والطريق والخط الحديدي ، وحتى الى المسكن، كما الى وسائل عمل في الاجزاء الأخرى من العالم ، ولكنه ليس الحاجة الى افهام غيره فوائد وجوده . واذا وجد موافقاً أن يتعلم بالضرورة لغات تختلف كل الاختلاف عن لغته ، فقد بدت له أفضلية انتشار لغـات تنقل بسهولة تأثيره وحالته النفسية . وقد رأى سابقة تثير الانتباه في قوة انتشار اللغتين الاسبانية والبرتغالية في العالم الجديد .

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نتعقب ذلك الهجوم اللغوي الذي قام به المهاجر والمستعمر والتاجر ومعلم المدرسة والمرسل ، بواسطة الصحيفة والبيان والكتاب – وكتاب التوراة بصورة خاصة . وهكذا فان اللغة الفرنسية ، التي احتفظت بمركزها في جزيرتي هايتي وموريس ، قد احرزت تقدماً مطرداً في كندا وأفريقيا الشمالية (حيث اقتبست بعض المفردات من العربية) والشرق الأدنى وحتى الشرق الأقصى . ولكن كم كان اشعاع اللغة الأنكليزية أعظم قوة : فان الأماكن الكثيرة التي تحمل أسم فكتوريا وادوارد وجورج في العالم لدليل على عظمة البريطانيين العالمية ؛ وإنما تفاهمت الشعوب بواسطة اللغة الانكليزية في الهند ؛ واللغة الانكليزية ملكت سيدة في كافة الطرق البحرية . إلا أن الاتصالات بين الشعوب قد خلقت لغات مشتركة غريبة : ففي « لويزيانا » عرفت البلاد لغة عامية فرنسية – زنجية ، « غـامبو » ، وفي آسيا الشرقية يتكلم الحمال والعامل والتاجر لغة عامية تعرف باسم « بدجن الانكليزي » . ومن الصعوبة بمكان احياناً كتابة لغة بالاحرف اللاتينية أو الانتقال من كتابة الى أخرى (ان مثل الـ « كوك نغو » في فيتنام مثل استثنائي على وجه العموم) . يضاف الى ذلـك من جهة ثانية ان الدولة المستعمرة آثرت في المستعمرات تنشئة البلديين عن طريق لغتها الخاصة : فالطريقة البريطانيـة المعتمدة في الجامعات الهندية تعكس الاساليب السائدة في اوكسفورد وكمبردج ، ولم يهتم الهولنديون إلا في عهد متأخر بـ « مدرسة شعبية » تعلّم فيها اللغة الماليزية واللغة الجاوانية .

انتشار المسيحية

اعتبر الاوروبي والاميركي اللذان حركتهما الحرارة الدينية ان الحملة الصليبية لم تتوقف قط . لذلك فان المذاهب التي تنتسب للمسيح قد نمت نمواً مطرداً ؛ زد على ذلك ان العالم الجديد الذي بُشر فيه بالانجيل واستُعمر في آن واحد قـد زاد من الحيوية المسيحية . اما دعوة الرسالة ، التي عرفت فترة من التوقف ، فقد نمت مجدداً بساندها الاستعمار الذي ساندته هي بدورها .

برزت قوة الارثوذكسية ، التي ساندتها اجهزة الدولة الروسية ، في مـا بين الشرق الادنى وآسيا الشرقية . بيد ان علينا في الدرجة الأولى تقدير الأهمية التي ارتدتها تقوية الكاثوليكية في مركزها . فان ما فقدته الكنيسة الرسولية الرومانية في ايطاليا ، في المجال الزمني ، أمـام تيار الحركة القومية ، قد حاولت بنجاح الاستعاضة عنه في المجال الروحي بتحديدمركزها بدقة ليس من الالحاد فحسب ، بل من المبادىء العصرية أيضاً . الم يؤكد المجمع الفاتيكاني في السنة ١٨٧٠

ان خليفة القديس بطرس «يمتلك... العصمة التي اراد المخلص الالهي ان يقلدها كنيسته في تحديد العقيدة حيال الايمان والاخلاق» ؟ وبفضل الوحدة وتسلسل السلطان حقق العمل الكاثوليكي ، آنذاك نتائج قيمة خارج اوروبا. فقد سبق لبيوس السابع ان احيا جمعية اليسوعيين واعاد إنشاء جمعية الرسالات في الخـــارج . واستفاد خلفاؤه من الظروف (ضعف الامبراطورية التركية ، واحتلال الجزائر ، والتدخل في الصين) لاحداث نيابات واسقفيات رسولية جديدة . وقـــد جمعت جمعية نشر الايمان وحدها ٢٦٨ مليوناً ، تبرع الفرنسيـون بـ ١٧٤ منها ، بين السنة ١٨٢٢ والسنة ١٨٩١ . فاستطاع بيوس التاسع ولاون الثالث عشر تقسيم اوقيانيا ، وافريقيا ، وآسيا من ارمينا الى اليابان ، الى دوائر كنسية . وقد برزت أسماء شخصيات شهيرة : الأب « هوك » وصاحبا السيادة « اوغدار » ، « رسول الكونغو » ، « ولافيجري » ، مؤسس الآباء البيض ، والاب « دي فوكو » الذي كان ناسكاً اكثر منه مبشراً على كل حـــال . وبينما لم يكن هناك أكثر من ٣٠٠ مرسل خارج أوروبا في السنة ١٨١٥ ، نرى عـــددهم يرتفع الى ٦١٠٠ في السنة ١٩٠٠ ، بصرف النظر عن جوقات المربين . فسارت الهند في الطليعة لجهة عـدد الاهتداءات ، تليها الهند الصينيـة والصين ، والف الشرق الادنى منطقة ثالثة من حيث الاهمية ، متقدما على افريقيا . اما اذا اخذنا عدد السكان بعين الاعتبار ، فاننا نرى ان النجاح المحرز في بعض الجزر كان اكبر منه في البلدان المذكورة . ولعل المهتدين بلغوا بين ٤ و ٥ ملايين تقريباً .

اعتمدت البروتستانتية على مستعمرات النوطين الكبرى التي اسسها الهولنديون — في الكتاب — ولا سيما البريطانيون؛ ثم اشمت الولايات المتحدة بدورها بكل غيرة . فاسفرت « يقظة » القرن الثامن عشر عن ولادة مؤسسات كبرى لنشر المسيحية المصلّحة : الجمعية المعمدانية التبشيرية ، وجمعية لندن التبشيرية، التين تأســت على غرارها منظمات عديدة لا تقل عنها غيرة تبشيرية متقدة . ففي السنة ١٩٠٠ كانت ٢٤٩ جمعية بروتستانتية تتولى أمر الانفاق على ١٦٠٠٠ مبشر ؛ كما ان جمعية الكتاب المقدس باعت أو ورعت ٤ ملايين انجيل طبعت بـ ٣٥٠ لغة ؛ وتراوح عدد المهتدين بين اربعة ملايين وأقل من ثلاثة (بحسب المؤلفين) ، وتوزع بين الهند ، وافريقيا الجنوبية واندونيسيا ، وجزر المناطق الحارة ، والصين . وكانت المكاسب هنا ايضاً اكبر منها في المستعمرات الصغيرة الخاضعة لوصاية ادارية شديدة .

ليس من ينكر فائدة التدخل السياسي للدفاع عن الايمان . أجل قد يحدث أحياناً ان تتأذى الارساليات من التدابير التي تتخذها بعض الحكومات بحق بعض الجمعيات . ولكن عداء الجمهورية الفرنسية الثالثة للاكليروس لم يمتبر يوماً مادة من مواد التصدير . لا بل غالباً ما اتخـــذت من الدفاع عن المصالح الدينية حجة لتبرير توسعيتها الاستعمارية . ولذلك غالباً ما نرى قضية الانجيل تختلط في نظر البلديين بقضية الاجنبي الذي يريد السيطرة عليهم .

يضاف الى ذلك ان الشكل التجاري الذي ارتداه التبشير الديني قد اغاظ هؤلاء البلديين . فقد اشتهر العديد من المهتدين الصينيين باسم « المسيحيين من اجل الارز » . ولم ينس اليابانيون

يوماً « الاغراء بالحرير والبندقية » الذي استخدمه اليسوعيون لاستمالتهم . وهو الطبيب المبشر ، القس « شارل غتلوف » ، من ركب السفينة كترجمان في خدمة شركة « جاردين ومالسون » لبيع الافيون من الصينيين في السنة ١٨٣٢ ، بعد ان قبض منها مساعدة مالية . ودخل الاب « فيناز » اليسوعي « تاناريف » في السنة ١٨٥٥ متنكراً برفقة عميل مصنع فرنسي للاسلحة. ولا شك ، في رأي « ستانلي » ، ان الافريقيين جميعهم ، اذا ما اخذنا سجيتهم بعين الاعتبار ، يفضلون التاجر على المرسل المبشر ؛ بيد ان هذا الاخير سيلعب في افريقيا الشرقية دوراً اعظم من دور الاول ، اذ ان الكتاب المقدس يجب ان يسبق بالة البضائع ؛ في حال ان العكس هو ما حدث في افريقيا الغربية .

تناسلت المنافسات بين الارساليات من جهة الى مع الخلافات بين الدول . فقد استمر النزاع حول الاماكن المقدسة تتخلله حوادث مفجعة في أغلب الاحيان ؛ وقام هذا النزاع في الهند بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الاكليروس البرتغالي في « غوا » والارساليات الكاثوليكية الفرنسية ، وفي الصين بين العازريين في « مكاو » واليسوعيين ، وبين هؤلاء والآباء الانكلوساكسونيين ؛ وفي « هاواي » بين الاميركيين والبريطانيين ؛ وفي مدغشقر لم تخف المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت الخصومة الفرنسية الانكليزية .

فمن الوهم الخادع من ثم الاستنتاج بان المسيحية قد حققت مكاسب حاسمة . وبصرف النظر عن مقاومة متباينة العنف قابلتها بها السلطات التقليدية في الشرق الاقصى ، يجب الاعتراف بان الاسلام قد صمد في كل مكان ، لا بل حقق نجاحات ذات قيمة في افريقيا وربما في آسيا دونها نجاحات المسيحية .

انتشار الروح الانسانية : مواصلة مكافحة النخاسة

كتب لاون الثالث عشر الى صاحب السيادة « لافيجري » ما يلي : « اني اكبر علو الهمة الذي تبرهنون عنه حيثما اقتضى ذلك خلاص البشر » . ولكن هذا العمل الروحي لا ينفصل عن المحبة التي تستهدف التخفيف من الآلام الارضية وتتصل بدورها بصراع العلمانيين من اجل الانسانية .

كانت مكافحة المرض مع التعليم مهمة الارساليات الرئيسية ، دينية كانت هذه الارساليات ام غير دينية . فان « بنات المحبة » اللواتي اسس جمعيتهن القديس « منصور دي بول » قد انشأت في الجزائر والشرق الادنى ومدغشقر والصين ملاجىء للاطفال ودور ايتام ومستوصفات وادرن مستشفيات دخلت في عدادها مستشفيات البرص احياناً . وكان الكثيرون في الهند ، من بين المبشرين البروتستانت ، أطباء وممرضين ؛ ولما كانوا متزوجين ، فقد سعوا الى ازالة عادة تعدد الزوجات ورفع مستوى المرأة . وكان تحسين الصحة وحفظها ، في نظر الاوروبيين والاميركيين ، احد حقوقهم الاول في اقرار السكان البلديين بفضلهم .

اعتبروا ان للاستعمار ما يبرره اذا ما نجح في استئصال احدى افظع آفات عالم المناطق الحارة طراً ، اعني بها النخاسة . فكان عليهم ، والحق يقال ، اقفال هذه السوق الكبرى ، بسبب

لمهمتهم ايماناً في مغارسهم في العالم الجديد. ولكن ما هو السبيل الى استنزاف النبع الذي يغذيها ان لم يكن بمراقبة القارة الافريقية بكاملها ؟

كان المستكشفون والمبشرون يعلمون بالآفة ، ويقتدون بعض الماكين ويستكونهم . ولكن عملية استئصالها كانت تستلزم بوليساً دولياً وحملات عسكرية منظمة . الا ان « الجمعية الدولية الافريقية » التي اخذت على عاتقها فتح ابواب افريقيا امام الحضارة عقدت في « بروكسل » في السنة ١٨٧٦ جلسات ظهر فيها « ليوبولد » ملك بلجيكا بمظهر « المحسن الى الزنوج » ، ولكنها ما لبثت ان تحولت عن هدفها الى استعمار رابح يخدم مصالح الملك . ولن يحدث شيء حاسم قبل سنة ١٨٨٠ .

في هذه الاثناء مارست انكلترا الضغط على سلطاني زنجبار ومسقط للحيلولة دون النخاسة بين شاطئي المحيط الهندي ؛ واستحصلت من جمهورية افريقيا الجنوبية على وعد بتلطيف حالة الزنوج ؛ وعاتبت خديوي مصر واستحثته التدخل في « دارفور » . ولكن النخاسين ، بعد ان اقصوا عن المحيط الهندي ، صمموا اكثر فأكثر بالمقابلة على الاحتفاظ بالطرق التي يسلكونها بين السودان والبحر الاحمر . وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدول المجتمعة في برلين ، في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ ، بدولة ، الكونغو المستقلة ، موجبة عليها مكافحة النخاسة ، سقطت الخرطوم في ايدي الثورة المهدية ، وربما بدا موت « غوردون » باشا ، الذي كان يعتبر فارساً من فرسان المسيح ، في قرن لا يعير الفروسية اهتماماً يذكر ، تحدياً لاوروبا المسيحية المناهضة النخاسة . فعقد في بركسل في السنة ١٨٨٩ مؤتمر جديد واجه اتخاذ تدابير قانونية ، ولكن النخاسين لم يزولوا من السودان الا بعد سحق الدراويش على يد كتشنر في السنة ١٨٩٨ ، وسحق ملك « اوبداي » ، « رباح » ، على يد الجيوش الفرنسية في السنة ١٩٠٠ .

لا ريب في واقع العاطفة الانسانية التي املت هذه المكافحة . ولن يستوقفنا هنا سوى النجاح المنقطع النظير الذي احرزه كتاب « كوخ العم توما » من تأليف السيدة « بيشر ستو » الذي نقل الى معظم اللغات الغربية وطبع اكثر من ٥٠٠ طبعة وصيغ حتى بابجدية العميان. ولا نستطيع كذلك ان ننعت بالمراءاة كلمة التهدئة التي ترد باستمرار في كتابات المستعمرين حين يعلن هؤلاء عزمهم على وضع حد للحروب الداخلية ، والجرائم الطائفية الطابع ، والاتاوات المرتفعة التي تفرضها الاقطاعيات البلدية . فقد استهدفت اتفاقية بروكسل في السنة ١٨٨٥ واتفاقية برلين في السنة ١٨٩٠ ايجاد حق دولي حقيقي ، بتنظيم الفتح وتوصية الفاتح بتحسين مصير السكان والغاء النخاسة وتجارة الاسلحة وبيع الكحول . وفي السنة ١٨٨٨ اصدر لاون الثالث عشر رقيماً اثنى فيه على مبادهات الكردينال لافيجري .

كان من شأن هذا العطف الكريم ، في اعتقادنا ، تبرير الوصاية التي توجبت ممارستها على حضارة متفوقة . فهو قد وفر عليها الاستناد الى حق الاقوى ، لا سيما وانه اتفق كل الاتفاق والرغبة ، الصادقة ايضاً ، في استثمار الكرة الارضية استثماراً أبعد بصيرة .

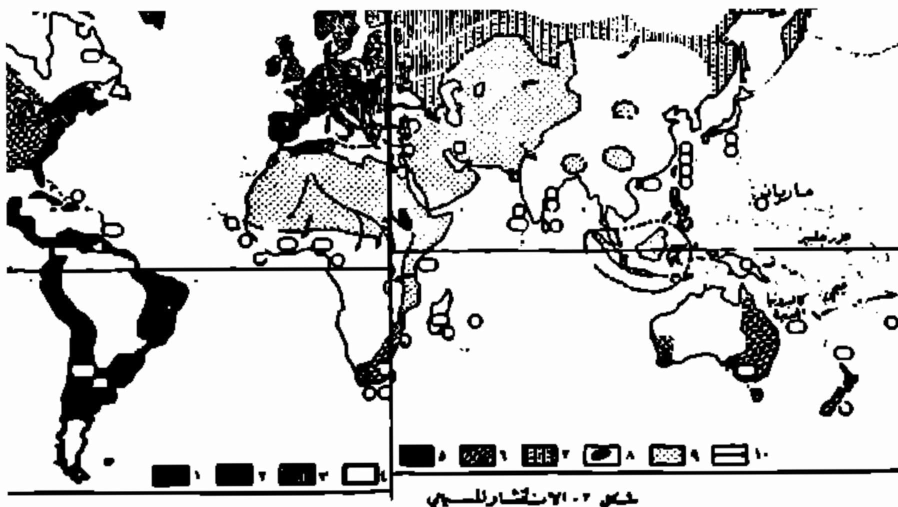

شكل ٢ - ١ الانتشار المسيحي

١ - بلدان كاثوليكية [illegible] أكثر كاثوليكية في أوائل القرن ، ٢ - بلدان بروتستانتية [illegible] [illegible] كانت الكاثوليكية [illegible] في أوائل القرن ، ٥ - مناطق التبشير [illegible]) ، ٧ - مناطق التبشير فيها ضعيف (أكثر أرثوذكسية) ، ٨ - مسيحيون [illegible] أكثر بروتستانتية في أوائل القرن ، ٣ - بلدان أرثوذكسية في أوائل القرن ، ٤ - بلدان [illegible] (أغلبية كاثوليكية) ، ٦ - مناطق التبشير فيها ضعيف (أغلبية [illegible]) ، ٩ - مناطق يسيطر فيها الإسلام ، ١٠ - [illegible] الإسلام .

الفصل الرابع

ارتفاع عدد السكان
ونزوحات الأوروبيين الكبرى

نمو عدد السكان في اوروبا والعالم

كان ارتفاع عدد سكان الارض في النصف الاول من القرن الثاني عشر اسرع منه في القرن الثامن عشر ، وقد برزت هذه الظاهرة بروزاً أوضح بعد السنة ١٨٥٠ . فاذا سلمنا بأن عدد سكان الارض كان ٥٠٠ مليون في السنة ١٦٥٠ و ٧٠٠ مليون في السنة ١٧٥٠ ، فاننا نرى العدد يرتفع الى ضعفه بين السنة ١٦٥٠ ومستهل القرن التاسع عشر ، بينما هو يتضاعف مرة ثانية بين السنة ١٧٥٠ والسنة ١٨٨٠ . كما نرى ان معدل الارتفاع في النصف الاول من القرن التاسع عشر أعلى منه في النصف الاول من كل من القرنين السابقين ، الا في آسيا . وعلى الرغم من ان سكان آسيا قد تجاوزوا ابداً نصف سكان الارض ، فان هيمنة هذه القارة قد ضعفت . وكذلك فان اميركا لم تحتل بعد سوى مركز وضيع على الرغم من تقدمها الملحوظ . أما الكتلة الاوروبية الآسيوية فقد جمعت بمفردها ثلاثة ارباع السكان . ولكن ما يستوقف انتباهنا بصورة خاصة هو سكان اوروبا : كان اكثر من خمس سكان الارض في السنة ١٨٠٠ ، فارتفع الى اكثر من الربع بقليل في السنة ١٩٠٠ . فاذا اعتبرنا ان هذا العدد قد بلغ ضعفه على الاقل خلال القرن التاسع عشر ، وان مساحة اوروبا تأتي في المرتبة الرابعة بين القارات الخمس – وفي المرتبة الاخيرة ، اذا لم تدخل فيها روسيا – فاننا ندرك الطاقة الديموغرافية التي تنطوي عليها .

يجب الا ننسى ، بالاضافة الى ذلك ، ان اوراسيا انما نمت بذاتها . فان افريقيا قد استقبلت اكثر مما اعطت ، والامريكتين لم تقدما اي عنصر الهجرة ؛ كما لم تقدم اوقيانيا اي عنصر ايضاً . والحال ، نحن نرجح ان الذين هاجروا آسيا اقل عدداً من أولئك الذين هاجروا اوروبا . ففي السنة ١٩٠٠ ، يجب ان نضيف الى الـ ٤٠٠ مليون اوروبي كل البيض الذين جاؤوا الى القارات الاخرى من أوروبا او انحدروا من ارومة اوروبية : لذلك فان ابناء اوروبا قد مثلوا آنذاك

ثلث الجنس البشري[1] .

(١)

عدد السكان بالملايين

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٧	٢٦٦	٤٠١
آسيا	٥٧٥	٧٦٠	٩٠٠
افريقيا	١٠٠	١٠٠	١٢٠
اميركا الجنوبية	٦	٢٥	٨١
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	١٩	٣٣	٦٣
اوقيانيا	٢	٢	٦
	٨٨٩	١١٨٦	١٥٧١

نقلا عن الدبرلت ريلكوكس وساندبارغ

نسبة توزيع السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	٢٠٫٩	٢٢٫٣	٢٥٫٥
آسيا	٦٤٫٦	٦٤٫١	٥٧٫٢
افريقيا	١١٫١	٨٫٣	٧٫٦
اميركا الشمالية	٠٫٥	٢٫٦	٥٫٢
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	٢٫٦	٢٫٥	٤
اوقيانيا	٠٫٣	٠٫٢	٠٫٥

كثافة السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٫٧	٢٦٫٦	٤٠٫١
آسيا	١٣٫٧	١٧	٢١٫٣
افريقيا	٣	٣٫١	٤
اميركا الشمالية	٠٫٧	١٫١	٢٫٤
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	١	١٫٢	٣٫٤
معدل الكثافة	٦٫٧	٨٫٧	١٢

(نقلا عن ساندبارغ)

نسبة الزيادة

	١٨٠٠-١٧٥٠	١٨٥٠-١٨٠٠	١٩٠٠-١٨٥٠
اوروبا	٣٤ ٪	٤٣ ٪	٥٠ ٪
آسيا	٢٨٫٥ »	٣٣ »	١٨ »
افريقيا		٠ »	٢٠ »
اميركا الشمالية	١٤٥ »	٣٠٠ »	٢٢٢ »
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	٥١ »	٧٣ »	٩٢ »
اوقيانيا		. »	٣٠٠ »

(بشكل تقريبي للفترة ١٧٥٠ - ١٨٠٠)

الزيادة السنوية ٠٫٧٠ بالمئة بين ١٨٠٠ و ١٨٥٠ ؛ ٠٫٨٣ بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠

النزوحات الاوروبية الكبرى

كان لنزوحات السكان التي حدثت ابتداء من السنة ١٨٥٠ البعيد في المعاصرين.ولا ريب في ان ارتفاع عدد السكان قد كان لها محركاً ودافعاً ، وامتحنت تطورها التقني والاقتصادي ، واوجـــد فيها هجرة أتاحت بعض التوافق بين العرض والطلب في سوق العمـــل ، وسهلت على العم المدن الكبرى ، ولا سيا مراكز الصناعة الكبرى والتجارة الناشطة.ولكن المقايضات لم تكن كافية ، فنزح عدد كبير من الاوروبيين عن اوطانهم ، نزوحاً مؤقتاً او نهائيـاً منهم في تحسين مصيرهم .

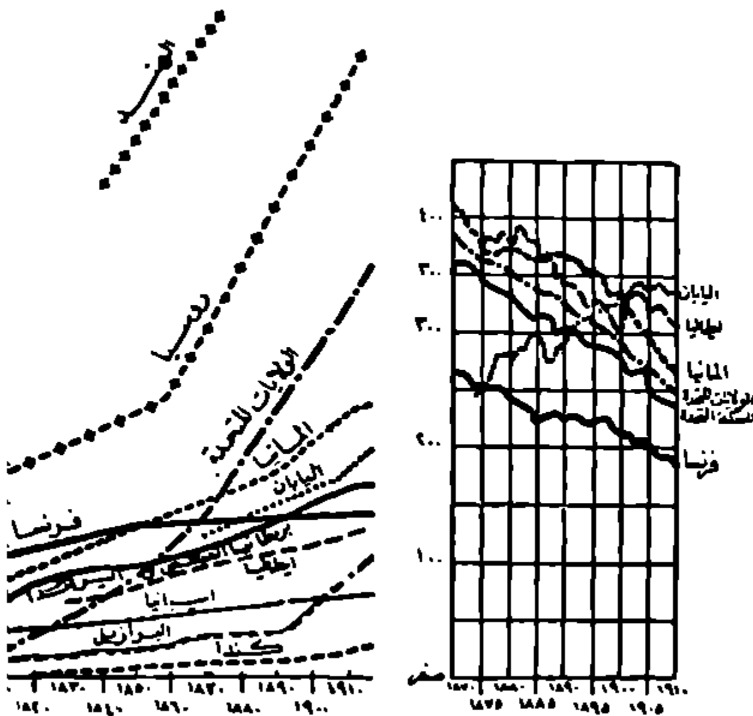

شكل رقم ٨ ـ السكان ونسبة الولادات

الى اليسار : سكان بعض البلدان بملايين النسمات (نقلا عن احصاء « بيرو » العام)

الى اليمين : نسبة الولادات لـ ... ١٠ نسمة (نقلا عن « هوبر » ، بونل » ، « بوتر » ، « سكان »

وعن احصاء « بيرو »)

وما كانت هذه الهجرة لتتحقق في القرن الثامن عشر . فان ظروفاً مؤاتية كثيرة ـ كلفة وسائل النقل ، وعدم قابلية المدن لاستيعاب كافة النازحين عن الارياف ، وحرية في التوجه الى مناطق واسعة خالية من السكان والاستيطان فيها ـ قد توفرت في الوق

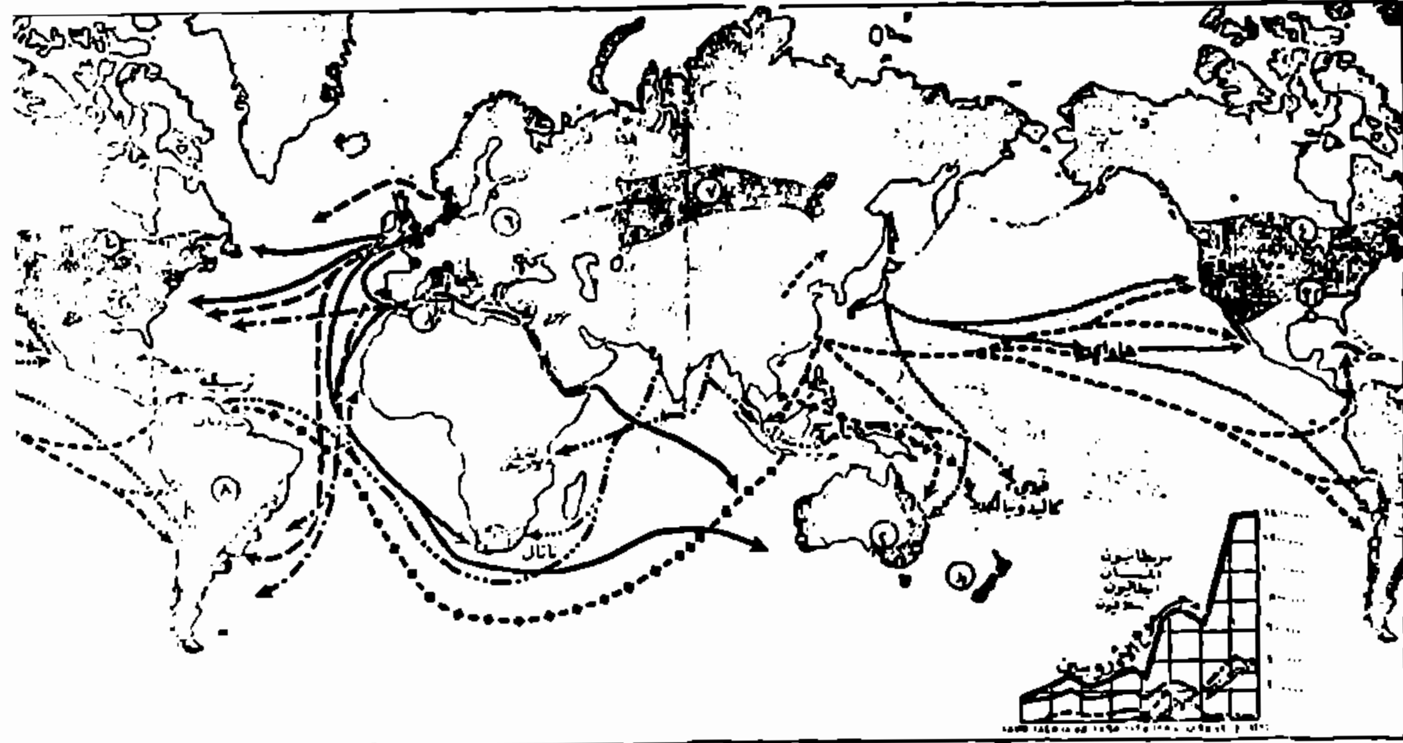

شكل ٩ - النزوحات الكبرى

بدت فيه تقديرات « مالتوس » وشبكة التحلق في كل مكان تقريباً ، بين الاطلسي والمتوسط ، وحتى الاورال في وقت لاحق قريب . فكان هذا الوقت هو البرهة السريعة الزوال: فبالامس اعتبرت الروح التجارية تزوح الرعية مضرة باقتصاد الامير ، وغداً ستفرض الوطنية قيوداً اما على الخروج واما على الدخول عبر الحدود . ومنذ السنة ١٨٤٦ ، نادى « تورنتون » ، تلميذ « مالتوس »، بهجرة « على نطاق واسع » في كتابه « تضخم عدد السكان وعلاجه » . فنشطت الدعاوة ، دون اي عائق ، في اغراء المساكين ، واخـذت بعض الجمعيات الدينية وشركات الملاحة على عاتقها امر النقل والايواء ، ورضيت الحكومات ، وتولت بعض دول مـا وراء البحار دعاوة تشويقية . ولم يحكن مهما ان يتم السفر في ظروف صعبة (فقد زعم بعضهم ان ١٥٠٠٠ من اصل ٩٠٠٠٠ مسافر من بريطانيا العظمى قد ماتوا في الطريق او بعد انزالهم الى البر في السنة ١٨٤٧) ، اذ ان اليقين من وجود اراض وعمل مضمون كان حافزاً قوياً للمعوزين .
اما أولئك الذين ارغمتهم الازمات السياسية او الاضطهاد الديني على الجلاء او الانتفاء فكانوا اقلية ضئيلة (عدة آلاف من الفرنسيين بعد السنة ١٨٤٨ ، وعدة آلاف من سكان الالزاس واللورين بعد السنة ١٧٨٠) : فالمليون يهودي شرقي الذين دخلوا العالم الجديد بعد السنة ١٨٨٠ قد فروا من البؤس ومن الاضطهاد الروسي (« پوغروم») على السواء . وقد سبق لـ « ميشليه » في السنة ١٨٣٥ ان شاهد ذلك جيداً في ليفربول : « جـاء الآن دور المهاجرين المساكين الذين يُدفعون دفعاً الى ظهر السفينة . انهم لقطيع بشري بائس . . . لا مفر من أن يسافروا . صغار الحاكة يتضورون جوعاً في جوار منشستر » . هذه هي هجرة الكادحين .

تراوح عدد المهاجرين ، حتى السنة ١٨٤٠ ، بين ٣٠ و ٤٠ الـف شخص في السنة : اي ١٥٠٠٠٠٠ منذ السنة ١٨٠١ ؛ وكان جلهم من الصناعيين اليدويين الذين افقرهم المعمل والمصنع . ثم ارتفع هذا العدد في السنة الواحدة ، بقفزة اولى ، الى ٢٠٠٠٠٠ وحتى الى ٣٠٠٠٠٠ ؛ ويرد ذلك الى خطورة ازمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، والقضاء القدادية في اوروبا الوسطى – الذي حرر الفلاح من ارتباطه بالارض – ، والاندفاع وراء الـذهب في كاليفورنيا واوستراليا : وهم البريطانيون والايرلنديون والالمان خصوصاً من هاجروا باعداد كبيرة ؛ فان ٨٠٪ من مجموع المهاجرين بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٥٠ ، و ٥٠٪ حتى السنة ١٨٧٥ ، انتسبوا الى انكلترا وايرلندا وحدها . ويقدر عدد المهاجرين بـين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٨٠ بـ ١٣ مليوناً . ثم مرت فترة توقف نسبي في السنوات ١٨٥٧ - ١٨٧٥ التي توافق انطلاقة صناعية ملموسة في اوروبا والحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولكن التدفق تجدد وتعاظم مرة اخرى بعـد السنة ١٨٨٠ : فنزح عن اوروبا ١٣ مليوناً خلال عشرين سنة فقط ؛ نسبة اقل من البريطانيين والنسبة نفسها من الايرلنديين والالمان ، يضاف اليهم السكندنافيون ؛ اما الجدة الكبرى فهي بدء هجرة سكان اوروبا الجنوبية والشرقية : البرتغاليون والاسبانيون اولا ، ثم رعايا فرنسوا – جوزيف والقيصر .

حركة انتقال الشعوب والشعوب الجديدة الاوروبية المنشأ

سجلت الجغرافية من ثم انقلاباً عظيماً يلفت الانتباه فيه واقعان هامان : فمن جهة اخذ شطر كبير من اليهود يجتاز الاطلسي بحيث اصبحت اميركا ، بعد روسيا ، موطن اكبر عدد منهم في العالم ؛ يضاف الى ذلك ان شعوبا صغيرة عدة ـ كالايرلنديين والبرتغاليين - كانت تتوزع مناصفة بين ديار الاغتراب واراضي الجدود ؛ ومن جهة ثانية ، امتدت شبكة المجتمعات المنظمة تنظيماً اوروبياً الى القارة الاميركية كلها تقريباً ، واوستراليا وزيلندا الجديدة ، ومناطق الريفية معتدلة المناخ ، وحتى الى بعض مناطق آسيا . فأسهم المهاجرون في استثمار الكرة الارضية ونشروا في الوقت نفسه الحضارة الاوروبية ، بحيث ان وجه هذه العوالم الاوروبية الجديدة ، الذي لم يكن مماثلا كل المماثلة لوجه اوروبا القديمة ، قد اعاده الى الذكرى على الرغم من ذلك ، بصورة مؤثرة جداً .

الفصل الخامس

فتح المحاصيل الكبرى الحيوانية والنباتية

طلبت اوروبا من العالم مساعدته على التغذية والاكتساء .

القنص والصيد — ان التقنيات الصناعية لم تضعف فروع الاقتصاد الاساسية بل قوتها ودفعت بها الى الامام .

فان ردة الفعل الدفاعية ضد الحيوانات المؤذية قد افضت الى ما يشبه القضاء عليها في الغرب، ولكن حيوانات المناطق الاخرى كانت كذلك مطمع حرصاء لا يعرفون الشفقة معنى . فغدت الجبال المرتفعة والاراضي المتجمدة حول القطبين الاسواق العالمية بالفراء ؛ وفي المناطق الحارة طورد الظبي والغزال ولا سيما الفيل في عملية استثمار استباحت كل تجاوز ووحشية . ولا عجب من ثم اذا انقرضت بعض الانواع ، واذا ما توجب ، للمحافظة على الحيوانات المهمة ، ايجاد احتياطي طبيعي او اللجوء الى تربية الحيوان (تولت افريقيا الجنوبية تربية النعامة) . وقد بلغ من الحاح الطلب ان صناعة الفراء قد اكتسبت خبرة واسعة في فن استخدام كل قنيص موبر .

وعلى الرغم من ان الانسان لم يعد ليتقيد بالصوم ، فانه قد مال اكثر فأكثر الى طلب غذائه من البحر . وقد تحسنت عدته لتحقيق مطلبه ، بينما كشفت المياه عن اسرار حياتها العضوية . فان البخار والمروحة وهيكل السفينة الحديدي قد اتاحت بناء سفينة الصيد التي كان باستطاعتها ، اذا ما زودت بالمحروقات الكافية ، اطالة رحلة الصيد وتعقب السمكة عن كثب وحتى معالجتها عليها . وقد بوشر في السنة ١٨٧٥ استخدام الشبكة التي تجر تحت سطح المياه. وبفضل التبريد ، بات باستطاعة السفينة المزودة بالجليد توسيع نطاق عملياتها. وقد ولد مرفأ «غريمسي» في السنة ١٨٥٨ وجهز « بالخط الحديدي المركزي الكبير » الذي سارت عليه قطارات نقل

لاسماك الاولى . وبرز نشاط ملحوظ في البحار الضيقة والساحلية، وعلى شواطىء اوروبا الشمالية الغربية ، واميركا الشمالية في الغرب والشرق على السواء ، وآسيا الشرقية . فأثار هذا النشاط منازعات بين الفرنسيين والانكليز حول صيد « الارض الجديدة » الغنية بالاسماك ، وبين الانكليز والاميركيين في صيد « بيرنغ » ، فأقر مؤتمر عقد في لاهاي قانوناً دولياً للصيد ، كما استهدفت احدى الاتفاقيات حماية الانواع المهددة بالانقراض .

كان الحوت في عداد هذه الأنواع . فقد جد الصيادون في اثره الى ان زال من نصف الكرة الشمالي منذ السنة ١٨٥٠ . فتحول الصيد الى المحيط المتجمد الشمالي حيث قام به النروجيون بمهارة فائقة وولع عظيم . وقد روى « ملفيل » هذه الملحمة في « موبي ديك » .

تحولت حياة اهل البحر : فطال غياب الصياد ، وامسى اقل استقلالاً ، وازدهرت المشاريع الرأسمالية بفضل معدات تميزت بمزيد من الفعالية .

استخدام الشجرة

قضت المجتمعات العصرية على قسم كبير من احتياطي الاشجار الحرجية في اوروبا الغربية ، وجر الاستعمار الى الافراط في قطع الاشجار في جنوبي الولايات المتحدة وشرقيها . وكانت الكميات المتوفرة في تناقص مستمر حين تكاثر استخدام الاشجار على الرغم من اللجوء الى الفحم الحجري .

ثم جاء دور الاحراج الواسعة في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي التي لم تشك بعد من الاعتداءات البشرية : فغدت اسكندينافيا وفنلندا وكندا دولاً منتجة كبرى . فقدمت شركة « خليج هودسون » خشب البناء بصورة خاصة حتى منتصف القرن وزودت مصانع السفن بخشب الصنوبر ، ثم جاء عهد الالواح الخشبية الطويلة المقطوعة من جذوع ضرب من أشجار الصنوبر وعهد الاشجار التي لم تعر اية اهمية حتى ذاك التاريخ . فوظفت رؤوس اموال جديدة في مشاريع هامة كثيرة كـ « شركة الورق الدولية » التي ابتاعت ٣٠ ٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد امتلك اللورد « نورثكليف » صاحب صحيفة الـ « دايلي مايل » ٦٠٠ ٠٠٠ هكتار في جزيرة « الارض الجديدة » وبنى في « غراند فولز » مصانعه الورقية الخاصة .

لم تكن احراج المنطقة الحارة اقل فتنة وسحراً بأشجارها الثمينة . الا ان اميركا الجنوبية والهند واندونيسيا قد تقدمت على افريقيا في هذا المجال بفضل وسائل النقل . فبينما استخرج العفص من شجرة الـ « كبراكو » في الارجنتين ، استخرجت الكينا والكوكا من اشجار جبال « اندس » . وعاد « لاكوندامين » باسم المطاط الذي لن يستخدم صناعياً الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ومنذ السنة ١٨٧٠ ، انتشرت حمى الذهب الاسود في الاحراج الامازونية : فجال جامعو صمغ المطاط في الاحراج المظلمة لتأمين طلبات الزبن الموصين الذين نقلوا المحاصيل المجموعة عن طريق الانهر . وستبلغ هذه الحمى ذروتها في السنة ١٩١٢ .

مكاسب متاجر المناطق الحارة

ما زال الغرب ملتفتاً بالطور التي وفرتها له المناطق الرطبة المرتفعة الحرارة : واذا كان استقطار الفحم المعدني قد وفرّ له صباغات صنعية واسم لرمزية فوالالا ونيلج الصين والهند، فانه ما زال يتجه نحو الطبيعة الغنية بالنباتات للحصول على الجاذبة والقرنفل والاوجية . فوسع زراعة الخشخاش المنوّم التي وفرت له اربلما طائلة ، واستخلص من الكوكا احدى لقاله الطبية . وادخل في سلسة الزراعات المتقنة عالم التوابل : اشجار القرفة ، واشجار الونيلية ، واشجار الفلفل واشجار القرنفل ، التي كانت تنمو ، كما يلفتى لها النمو ، بعناية البلديين الكسال . ولم يأبه الضرر الذي سيلحق باشجاره الزيتية الخاصة، فطلب من الهند زيت السلجم لمصابحه واستعمله في غذائه كما استعمل الفول السوداني وزيت البلح وجوز الهند ، والسمسم ، واستخدم الخروع التداوي والتصوير .ووسع كذلك صناعة المنسوجات التي أتته من المصادر عينها : قنب سيام الذي اسماه «حرير كانتون »، والراليا ، وقنب مانيلا أو « اباكا » ، والقنب المكسيكي ، والقنب الهندي بنوع خاص . واتجه أكثر من اي يوم مضى شطر الشرقين الأدنى والأقصى في طلب الخز أو الحرير الخام بعد انتشار مرض التنقل الطفيلي الذي اصاب دود القز في مغزالة نفسها ؟

بيد أن ما اراد توسيعه واخصابه في الدرجة الأولى هو زراعة القطن . فان الخبازيات النهمة قد انتشرت في أكثر من مليون كيلومتر مربع حين افتقرت بعض المراكز الصناعية الرئيسية في اوروبا الى المادة الخام بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية . ومهما يكن من أهمية نهضة وانطلاقة زراعة القطن الاميركي – الذي لن ينافسه قطن آخر – فان صاحب المصنع في « لانكاشاير » أو « ميلهوز » أو « شمنيتز » لن يستطيع الاكتفاء بمورد واحد . لذلك تم الاتفاق على انتاج القطن ، حيثما سمحت الحرارة بذلك ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المياه ، والتربة التي يجب ان تكون خصابة ، والسواعد التي يجب أن تكون كثيرة : فيُنتج من ثم في ارض « بيرار » السوداء» ووادي الـ « غانج » ،وعلى جنبات النيل وداريا – بواسطة الري ، ثم في البرازيل وجزر الانتيل الانكليزية الصغرى والصين ، وأخيراً في المكسيك و « كويلسلند » ونيجريا و « اوغاندا » . وفي اوائل القرن لم يغط النسيج النباتي الأول سوى ١٢٪ من حاجات البشر ، بينما هو غطى أكثر من ٥٠٪ في اواخره .

ولم يكن توسيع زراعة اشجار الشاي والبن والكاكاو اقل الحاحاً في المناطق الحارة ، لا سيما وان الاشربة المصنوعة من ثماره كانت مرغوبة جداً . فان الاحتكار الصيني القديم ، الذي غذى تجارة رابحة عن طريق كانتون وآسيا الوسطى منذ ان زرع البريطانيون في اسام وسيلان، والهولنديون في جزر الـ « انسولند » ، شجرة الشاي التي حسنو انواع عصورها . على ان آسيا لم تفقد مرتبتها الممتازة . فان البن ، الحبشي الاصل ، الذي احتكره العرب تحت اسم « مخا » قد وجد في اميركا ارضه المختارة . فقد اعتنى به الهولنديون في جاوا والانكليز في سيلان ،ومن جاوا انتقل الى«غويانا»،بينما استورده الفرنسيون الى الـ«ماسكارانيه» والانتيل،وزرعالبرتغاليون

شجرته بدورهم في منطقة « برنامبوك » و « باهيا » ، لم يلبث « ساو باولو » التي والفته تربتها الحمراء ، ومناخها ، وانتقل اخيراً الى أرض كولومبيا « المعتدلة » والمزارع الفنزويلية ، وشالق منحدرات الـ « كورديليير » ، وغزا اميركا الوسطى . إلا أن البرازيل ازلت منه الى الاسواق قدراً من الأكياس لم يعد لنتاجه معه عليه رابحا . فليس من اقتصاد أوهى من هـذا الاقتصاد المرتبط بالطلب الغربي . ولكن اقتصاد الكاكاو ليس بالاقتصاد الافضل : فان الأكوادور تدين له بما تدين كولومبيا او ساو باولو البن . وكان الكاكاو شراباً مفتخراً في اواخر القرن الثامن عشر ، وقد عرفه هنود اميركا ، فانتقل من ثم الى اسبانيا . ولكنه احتل فجأة مرتبة رفيعة حين انزل السويسريان ، « بيتر » و « لندت » ، الشوكولاتا الى الاسواق ، فوظفت رؤوس الأموال في مغارس البرازيل وفنزويلا والاكوادور ، ثم انتقلت شجرة الكاكاو الى مستعمرة الشاطىء الذهبي حيث أغرى البريطانيون الزنوج بانتاج عالي . وبفضل ذلك لاحت في أفق القارة الافريقية ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، زراعة لن تقل شأناً عن زراعة شجرة الشاي في آسيا وشجرة البن في اميركا .

ولكنها لن تستطيع مزاحمة هذه الأخيرة طويلاً على المرتبة الأولى في تجارة الموز. أجل لقد عني المستعمرون الانكليزيون باشجار الموز التي تظلل اشجار الكاكاو والبن ؛ ولكن موز « كناري » كان موضوع تقدير اعظم. فتبدل الوضع في أواخر القرن حين ابتاعت بعض الشركات الاميركية — وعلى رأسها « شركة الثمار المتحدة » — اراضي واسعة جداً في اميركا الوسطى ؛ يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن أحد فروع هذه الشركات ، « الدرز اند فيفز » ، قد احتكرت تجارة الموز مع الكناري .

الثمار والبقول على الخوان في الغرب

ليست ثمرة الموز سوى واحدة من الثمار الكثيرة التي دخلت اوروبا واميركا الشمالية حديثاً . وقد تنوع الغذاء من ثم ، بصورة عامة ، تنوعاً وفيراً ، ولا سيما في المدن . ولم تأت الكميات الكبرى من الثمار والبقول التي طالبت بها المدن من الأرياف المحافظة على الطرائق التقليدية فحسب ، بل من بعض الأراضي التي اكتشفت ، بفضل هذه الزراعة ، مصدر ثروة لم تحلم به قط . ويجدر التذكير هنا باستفادة هولندا وبريطانيا الساحلية و « كورنواي » الانكليزية وبعض المناطق المتوسطية من زراعة بواكير الثمار . فان هنالك ، الى جانبي خطي السرطان والجدي ، مستعمرات اتقنت انتاج النبيذ والزبيب والزيتون والبواكير المختلفة الكثيرة . أما مناطق زراعة شجرتي التين والبلح فكانت محاذية لهذه الأراضي وأبعد نحو الصحراء . وقد اتسعت كذلك اتساعاً عظيماً أراضي زراعة الحمضيات : ففي السنة ١٨٦٠ ابحرت سفينة تجارية من فالنس وأفرغت في لندن شحنتها الكاملة من البرتقال . وفي السنة ١٨٨٣ وصل خط حديدي بين كاليفورنيا الجنوبية وشرقي الولايات المتحدة . وما لبثت كاليفورنيا وفلوريدا والانتيل ومستعمرة الـ « كاب » وأوستراليا واليابان أن انتجت التفاح الذهبي على غرار البلدان المتوسطية القديمة .

التنافس والحرب بين الشمندر وقصب السكر

ارتفعت نسبة استهلاك السكر ارتفاعاً كبيراً. فلم يعد البريطاني ليكتفي بثلاثة كيلوغرامات للشخص الواحد كما في اوائل القرن بل اصبح بحاجة الى ٤٠ ؛ واستهلك الفرنسي منه ٣٣ بدلاً من ٢ ؛ واستهلكت المانيا ٧ ملايين قنطار في سنة ١٩٠٠ مقابل مليون واحد حوالي السنة ١٨٥٠ ولن تلبث الولايات المتحدة ان تؤلف سوق البيع الاول لهذا الصنف . اجل ان في ذلك لدليل يسار : ولكن مـا يلفت الانتباه من جهة ثانية ان هذه المادة الغذائية قد رغب فيها سكان المناطـق الشمالية اكثر من سكان المناطق الجنوبية ، وابن المدينة اكثر من الفلاح . لذلك لم يعد قصب السكر ليكفي بعد السنة ١٨٥٠ ، فانتزع الشمندر مركزه ، بعد ان احرز نجاحات ملموسة :ولكنه تأخر عـاير منيت به المناطق الحارة ، عند الغاء النخاسة ، امام اوروبا واميركا الشمالية اللتين عممتا الثورة الزراعية واستثنا المزيد من معامل السكر في كنف الحماية الجمركية .ولكن الاشياء عـادت الى حالها بعيد الثورة الكوبية التي وافقت في الزمان ثورة تدن في الزراعة : وقد افضى الى ذلـك المجهود الذي بذله في آن واحد الهولنديون في جاوا ،والبريطانيون في الهند وجامايكا وموريس، والبرازيليون في بلادهم،واليابانيون في فورموزا،ولاسيا الخطوة التي خطتها كوبا « وبورتوريكو » الى الامام في كنف الولايات المتحدة . ثم اوجدت الاتفاقات الدولية المساواة بين الزراعتين ، فتوزع قصب السكر والشمندر ، مناصفة تقريباً ، انتاجاً استهلك الغرب ثلاثة ارباعه .

توسع مساحات زراعة الحبوب

كان الجدب بالامس يعني الحاجة الى الخبز.ومن جهة ثانية قابلت التجمعات البشرية المناطق التي كانت فيها الحبوب مرتكز الغذاء . ولذلك كانت معركة الارز في آسيا ومعركة الحنطة في اوروبا معركتين حيويتين في نظر المجتمعات المرتفعة عدداً ؛ ولكن كانت هنالك معركة الذرة الصفراء عند الهنود الاميركيين ومعركـة الذرة البيضاء والجاورس في افريقيا . وقد اشار « ماليو دي دومبال » الى الصيغة التي توافق اوروبا الضيقة : « ان الاهراءات الحقيقية اليـار هي الدورات الزراعية المتقنة».ولكن الزراعة الوفيرة الانتاج متعذرة في المساحـات الواسعة التي يجب ان « تصنع فيها الارض » اولاً . فهي المساحة الصالحـة للحراثة مـا يعول عليه حين يكون المقصود فتوح الارض البكر بواسطة المحراث .

انه لظاهرة عظيمة تقدم جبهة مستصلحي الاراضي عبر المروج او السباسـب من الشرق نحو الغرب في اميركا الشمالية ، ونحو الشرق عبر سيبريا ، ومن الشواطيء نحو الداخل في المناطـق الجنوبية . ومن الطبيعي ان الامكانات وطرائق المعيشة قـد اختلفت بين فريق وآخـر : فشتان بين « المزارع » الاميركي الذي استفاد من الخط الحديدي والآلة الزراعية ، وبين الفلاح الروسي المشدود الى عادات جدوده في اعتماد الزراعة الجماعية . اما وجه التشابه فهو ضعف الانتاج الذي يعيض عنه ضعف الاستهلاك محلياً بحيث اعطت اراضي زراعة الحبوب فـائض انتاج بيع بمعظمه في الاسواق العالمية . اضف الى ذلك ان الطرائق والتقنيات قـد افادت من

الاختيار : فقد شوهد قمح شتوي ، هو القمح « التركي الاحمر » ، يزرع في اراض واسعة بين « كنساس » و« داكوتا » وقمح ربيعي ، هو الـ «مزمار الاحمر» الغاليسي المنشأ ، يغزو «اونتاريو» و« مانيتوبا » و « ميناسوتا» و«داكوتا» ثم بلغت اراضي زراعة القمح في تقدمها المتلاحق نصف الصحراوية التي وافقت ، بفضل « الزراعة البعلية » ، نوعاً من الحنطة اعظم قــدرة على مقاومة الجفاف والبرد ، هو « المركيز» ، الذي استحصل عليه بتهجين «المزمار الاحمر» والقمح الهندي . اما في الهند فقد وجه الانكليز جهودهم شطر البنجاب والسند حيث ساعــد الري على انتاج قمح ربيعي .

بيد ان اعظم نجاح هو نجاح اميركا الشمالية التي افادت من تنظيم مجاري متين مرتكز الى الاهرامات ، ووسائل نقل سريعة ، وصناعة طحينية متقدمة . فقد خصصت لزراعة الحبوب ، بما فيها زراعة الذرة الصفراء ، مساحة ٧٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة ، و ٧ في كندا ؛ فتوفر ٥ مــلايين طن من طحين الحنطة في السنوات ١٨٩٠ - ١٩٠٠ . وباتت «مينيا بولس » و « شيكاغو » و « وينيبغ » تؤمن الخبز لـ ١٠٠ مليون نسمة . اما الارجنتين واوستراليا والهند فقد اسهمت ، بامكاناتها المتواضعة ، في تسليم اوروبا الغربية ما تحتاج اليه ، اي ١٢ مليون طن بالاضافة الى ما كانت تسلمها اياه اوروبا الشرقية على غير نظام .

تقهقرت امــام القمح الحبوب المعروفة منذئذ بالثانوية ، لان الخبز الابيض كان دليل حضارة متقدمة .

ولا يخلو من المغزى كذلك التقدم البطيء في انتاج الارز الذي لم يعره الغرب اهتماماً يذكر . ولكن الغرب قد توفق ، بحمل بورما تلعب دور ممون الجماهير الآسيوية الشاكية من التقنية الناقصة ، الى ان يتحكم بتموين شطر عام من هذه البشرية .

حاجات تربية المواشي

ان المروج والسباسب التي يسهل اعدادها لزراعة الحبوب تصلح لتربية المواشي ايضا . لذلك نرى ان تربية المواشي ارتبطت بالزراعة في البلدان الاوروبية التي زاولت الزراعة منذ القدم . امــا فتح الارض البكر فغالبا ما تم بواسطة القطيع الذي يمكن ان يكون موضوع مضاربة مائعة .

هذه هي حال الخروف الذي انكفأ في اوروبا الغربية والوسطى امام النباتات القيمة المقلقة ، ووافق المساحات الجافة الشاسعة في الغرب الاميركي والسهل الروسي ونصف الكرة الجنوبي . وتعطينا اوستراليا على ذلك مثلا عظيما. فان الحدث الرئيسي بالنسبة لها ليس انزال ٧٥٠ محكوماً من لفظهم المجتمع في خليج (سدني) بامرة « ارثور فيليب » في ٢٦ ك٢ ١٧٨٨ ، بل انزال ٢٩ خروفاً . ففي السنة ١٨٢١ ارسلت بالات الصوف الاولى الى انكلترا ، وفي السنة ١٨٦٠ ارتفع عدد الاغنام الى ٢٠ مليون رأس ، والى ١٠٠ مليون في السنة ١٨٩٠ . وعلى الرغم من الجفاف الرهيب الذي حصل في السنة ١٩٠٢ ، ومن جرد الارانب للارض ، اللذين لحقــوا اضراراً

كبيراً بعد ذلك بهذا العدد الضخم من الاغنام ، فان صحة المثل الاسباني السائر تتحقق في هذه القارة القليلة السكان : « اقدام الخروف من ذهب ، والأرض التي تظهر فيها آثر اقدامــه تتحول الى ذهب » . فبات بمقدور العالم ، الذي لم يستهلك قط أكثر من ١٠٠٠٠٠طن صوفاً في اوائل القرن أن يستخدم ١٣٠٠٠٠٠ طن حوالي السنة ١٩٠٠ ، فاصبح الانفصال نهائيــاً بين المناطق المنتجة والمراكز الصناعية .

وهنالك واقع آخر كان من شأنه تشجيع تربية المواشي ، اعني به أهمية اللحوم والاجبان في تغذية المجتمعات الجديدة . لا ريب في أن مجهود أوروبا الشمالية الغربية ، التي حسنت فيها المراعي التي ترويها امطار كافية ، قد تكلل بالنجاح : فعلى غرار الزراعة ، ارتدت تربية الأبقار والغنم طابع التصميم على انتاج عظيم . ولكن النشاط الزراعي في البلدان الجديدة ، التي توفرت لهــا المراعي الطبيعية الواسعة والحبوب المغذية ، قد تقدم كل مجهود . فان « منطقة الأبقار » ، حيث اعتمدت في تربية المواشي الطريقة البدوية ، مع ما استلزمته من رعاة بقر وحراس (*Gauchos*)، ليست سوى المرحلة الأولى من النشاط في هذا الحقل ؛ ثم جاء دور المحطات الثابتة ، او مزارع التسمين ، التي غذت صناعة المعلبات ؛ ثم اخذت ترتسم انطلاقة الحليب : فقد دخلت كندا وزيلندا الجديدة وأوستراليا الى جــانب الولايات المتحدة في منافسة الشمال الغربي الأوروبي في قيمة المنتوجات ، وقد سهلت الذرة الصفراء ومصالة الحليب ، بالاضافة الى ذلك ، نمو تربيــة الخنازير ، ونجاح الـ « مارغارين » (مزيــج حليب وشحم حيواني حققه « ميج – مورييس ») وشحم الخنزير . ولم يكن أقل شأناً كذلك تقدم تربية الطيور والدواجن ، بفضل الانتقــاء التزاوجي وبسبب طلب متعاظم للحوم والبيض . أما النحل فقد اصبح موضوع استثمار أكثر تنظيماً قياسياً : فبعد « ربو مور » ، جاء هوبير و « دزيرزون » اللذان اكتشفا التناسل الذاتي لدى العاملات البياضات ، و « لانغستروث » و « دادان » اللذان ابتكرا القفران ذات النحت المتحركة . كان الغذاء الحيواني المنشأ لا يزال نادراً ومتوسطاً في القرن الثامن عشر : فلا مجال من ثم التقليل من أهمية التبدل الذي حدث في هذا النطاق ، اذا مــا اردنا فهم ارتفاع مستوى المعيشة العام في الغرب منذ منتصف القرن اللاحق .

انتشار الغريبين ونتائجه غير المقصودة على الانواع النباتية والحيوانية

الا ان الانســان قد تأثر ، على الرغم من ذلك ، بالنتائـج غير المرتقبة التي اسفرت عنها الصالاته . وقد لاحظنا ان استيراد اصواف المناطق الجنوبية كان كافياً لانتشار أكثر من خمسين نوع نباتي جديد حول مراكز صناعة الجوخ في جنوبي فرنسا . ويفسر شراء الحبوب من الشرق الأوروبي دخول بعض انواع نباتات البورات الى فرنسا. وقد انتقلت من العالم الجديد الى أوروبا آفة الارمداد التي فتكت منذ السنة ١٨٤٧ بالكرمة المتوسطية القديمة ، بينما قاومتهــا الانواع الاميركية مقاومة فضلى . وانطلاقاً من نصف الكرة الغربي ، انتشرت كذلك آفــة الطرونة وقمل الشجر المثمر. وكان الصرصور الذهبي قد تردد الى الباذنجانيات البرية في الولايات المتحدةقبل

أن يفتك فيها بالبطاطا ، وظهر في أوروبا مرتين بين السنة ١٨٧٦ و ١٨٨٠ . والتلف داء الكرمة كذلك الجفون الأوروبية التي زرعت في اميركا قبل أن ينتقل الى أوروبا ويحدث فيها الكارثة التي لم تعالج إلا جزئياً بعملية تطعيمها . وظهر داء اوراق البن العربي في سيلان ، ثم انتشر في أقل من عشرين سنة في كافة البلدان الواقعة حول المحيط الهندي ، وتسرب اخيراً الى قلب افريقيا . أما الدوري النهم فقد دخل اميركا بعيد السنة ١٨٥٠ ثم اوستراليا حيث جاء الأرنب بدوره يحدث اضراراً أكثر مثولاً العيان ايضاً . واذا استصوب في بوهيميا إدخال الجرذ المسك الذي ابتغاه الكثيرون من أجل جلده الفروي ، فانه من جهة ثانية قد تكاثر فكان خطراً في موطنه الجديد .

الفصل السادس

العبقرية الصناعية في أوج انتاج الفحم الحجري وعند ظهور الفولاذ

« وا أسفاه ! ان الطاحنة التي تدور ، تدور ثم تموت » .
(« فيرهايرن » ، « الاسيلت »)

« ايها النزلة الفاتنة القلب ، انما انتم آتون لتحرموني من شعلة عروقي ... »
(« غوردو » ، « اغنية الفحم الحجري»)

ترويض القوى الطبيعية وسيطرة الفحم الحجري

سارت الحضارة الصناعية بخطى حثيثة بعد السنة ١٨٥٠ : فلرتسم حينذاك الخلاف في اوروبا بين بلدان الحصان البخاري وبلدان حصان الجر ، وتوصل الاميركي الشمالي حقاً الى استثمار ثروات قارته ، وحقق الغرب في العالم تفوقاً ماديا ساحقاً .

لم تتخل المياه قط عن وظيفتها كقوة فاعلة . فبالاضافة الى الخدمات الضرورية التي ما زالت تؤديها ، من غسل نسائج وتسلية شغار وتوفير الانبجاس القوي المضغوط الذي يستخدمه المنجم للتحليل ، نراها تحرك آلات الرفع وتغذي مضخة « ايولد » المبعدة عن المركز وتتيح تركيب المصعد وتولد الكهرباء بواسطة العنفة . واذا ما لدنى شأن الطاحنة الهوائية والسفينة الشراعية ، فان الهواء المضغوط قد حرك كذلك المعاصر والمثاقب وامن المثانة لفرملة « وستكهوس » .

اجل ان البخار ، الذي هو وليد الماء على كل حال ، قد استقطب العديد من المحبين ، كما ان تحقيقاته قد اخرست المرتابين . الا ان المهندس والعالم قد أخذا منذئذ يبحثان عن محرك

أعظم فاعلية : اما بواسطة الهواء الساخن كما توخاه « اريكسون » و « فرانشو » ، واما بواسطة الغاز كما ارتأى « هوخود » ، وكما ارتأى بعده « لنوار » و « اوتّو » و «لانجن» ، واما بواسطة عروق سائل ايضاً . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق تحققاً نهائياً ، وقد عجزت الكهرباء نفسها التي اثبتت قدرتها على اضاءة افضل ، عن توفير قوة دافعة كافية . فالمجال ما زال واسعاً امام الفحم الحجري .

امتد المنجم ونشر الدخان ولوث الاراضي المجاورة المادية ؛ وجمع البشر بمئات الالوف في هذه « البلدان السوداء » حيث اخضعهم لعمل شاق مضن ؛ وغالباً ما تسبب بالموت والمر الاحقاد ، ولكنه عرف كيف يستميل الناس اليه . وتمكن التعدين بفضل المطرقة الثاقبة والمثقب (مثقب «كاي» حوالي السنة ١٨٢٠ ، ومثقب « سوماييه » بعد ذلك بعشر سنوات) ، وبفضل اجهزة فضل التدعيم والضخ والتهوية والافراغ (بواسطة سلة مزودة بفرملة ابتكرت في السنة ١٨٥١) . وسهلت الآلات استنزاف المياه والفصل والغربلة ؛ ولكنها لم تخفف الجهد اللازم لقطع الاشجار ودحرجتها واعدادها للتخشيب ولردم الحفر . فتضاعف الانتاج تضاعفاً متبايناً جداً . ولكن نسبة الاستهلاك ارتفعت ارتفاعاً عظيماً جداً . فتنوع استعمال الفحم : استخدم وقوداً في المدن ، ثم مست الحاجة اليه في القاطرة وفي صناعة الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسير العديد من الانوال ، واحدث ثورة في صناعة الورق والزجاج ، واوجد معمل السكر الشمندري ؛ و'كرّر فأعطى غاز الانارة الذي حل محل الزيوت والنفط ؛ والقار الذي استخرج منه البنزين والانيلين ، ومواد تلوينية كثيرة ؛ وحوامض الفينول على انواعها التي استخدمت في الطب الدوائي وصناعة الجلود ، واملاح حمض البكريك القابلة الانفجار .

يقدر العارفون ان استخراج الفحم قد انتقل من ٩ ملايين طن حوالي السنة ١٧٩٠ الى ٩٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه ارتفع حتى ٣٠٠ في السنة ١٨٨٠ وناهز الـ ١٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ . وقد كتبت صحيفة التايمس يوماً : « ان الاماكن الغنية بالفحم الحجري امست وكأنها حجر الفلاسفة المعاصر ... » ورأى فردريك سيمنس في الفحم « قياس كافة الاشياء » ، وسيذهب «مكسيمليان هاردن» الى ابعد من ذلك باعلانه : «لا خلاص بدون الفحم » . فقيست القوة منذ ذاك التاريخ بالوحدات الحرارية التي يولدها الوقود المعدني . ومهما يكن من الامر فان سلاح المحارب وقلم الدبلوماسي يجب ان يحسبا حساباً لمعول عامل المنجم . ومنذ السنة ١٨٧٠ انتجت مناجم الـ « رور » ضعفي ما تنتجه مناجم فرنسا . وعلى نقيض هذه الاخيرة ، تجمعت داخل حدود البلدان المنتشرة بين الـ « أبالاش » والـ « دونتس » اغنى طبقات الفحم الحجرى في نصف الكرة الارضية الشمالي : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، المانيا ، ولا سيما بريطانيا العظمى التي تقدمت غيرها في الاستثمار واستفادت من تسهيلات كبرى لعقد الصفقات .

كانت الاولوية البريطانية ساحقة في السنة ١٨٥٠ (٥٦ مليون طن) ؛ ولن تزول الا قبيل

السنة ١٩٠٠ ، حين احتلت الولايات المتحدة بدورها المرتبة الاولى . ولكن بريطانيا العظمى احتفظت ، حتى بعد هذا التاريخ ، بالسيطرة على الاسواق من حيث نسبة المبيعات : واذا هي تراجعت بعض التراجع في اوروبا الوسطى امام المنافسة الالمانية ، فانها ما زالت تزود الموانىء البحرية بالوقود . فكانت نتيجة وجود الفحم الانكليزي في كل مكان الوجود الانكليزي في كل مكان ايضاً: وان لندن التي توفرت لها هذه الامكانية العظيمة قد سيطرت في كل مكان ايضاً.

اربطب صناعة الحديد والفولاذ

في القرن التاسع عشر انطلق عصر الحديد . فقد تحققت انتصارات تقنية تشي بنفسها وبالمستقبل : بناء الجسور المعدنية الكبرى في « بروكلن » و « فورث » و « غارابيت » - وقد بنى هذا الاخير « ايفل » ، « رجل الحديد » ، رجل البرج - ، وبناء هذا البرج الساحر نفسه فوق معرض السنة ١٨٨٩ . وغزا المعدن المروض حياة الغربي ودخل في كافة ادواته المألوفة . فالريشة بقيت ريشة حتى ولو صنعت من الفولاذ ، واستمرت المرأة في حل لحي المشد وان لم تكن لحى حوت حقيقية .

تحتمت هزيمة الفحم الخشبي الذي كان يغذي « الكور الكاتالاني » ، لقد انتقلت السيطرة الى الفحم الحجري المقطر : انه لتحول بطيء لعمري ، اخرّته في أماكن عديدة نوعية المنتوجات المحققة حتى ذاك التاريخ والمصالح المشتركة القائمة بين الحدادين واصحاب الاحراج . وازدادت طاقة المصاهر بفضل اكبار « كوبر » : فقد بني منها ما انتج ٥٠٠ طن في اليوم الواحد ، وحتى ٩٠٠ طن في الولايات المتحدة . وتحسن التصفيح الذي تناول الفولاذ ايضاً .

وكان انتاج الفولاذ المستوفي كافة الشروط هدف الطرائق التقنية التي مثلت ثورة حقيقية في صناعة الحديد والفولاذ خلال القرن . فقد اعطت بعض المعادن الحديدية غير الخالصة فولاذاً سائلاً عن طريق التكليس في مصهر مزود برايا عاكسة للنور ، وأنتج في أميركا فولاذ عرف بالفولاذ الممزوج بالكربون ، وتحقق الفولاذ « الدجاجة » في « بتسبورغ » في السنة ١٨٤٠ ، والفولاذ السائح في السنة ١٨٥٣ . وفي هذه الاثناء فكر « هنري بسمر » الذي كان قد هوى تعطيل الطوابع البريدية واستخراج عصير قصب السكر واختراع مضخة مبعدة عن المركز ، بتحويل الحديد المصبوب تحويلاً مباشراً الى فولاذ سائح بواسطة تيار هوائي مضغوط ؛ وكان تحوله هذا يبعد كربون الحديد المصبوب السائح فلا يبقى الا الاستعاضة عن الكربون بواسطة حديد مصبوب ممزوج بالمنغنيز او الكبريت . وكان ذلك في السنة ١٨٥٦ . فاستقبل الاختراع في البدء استقبالاً حاسياً ، ثم تغلب الارتياب ، فاضطر بسمر لان ينشىء بنفسه في « شفيلد » مصنعاً للفولاذ بحسب نظريته . وما لبثت فوائد طريقته ان برزت شيئاً فشيئاً ، مع انها لم تنطبق على المعدن غير الخالص الممزوج بالفوسفور واستلزمت مادة خاماً نقية جداً .

ثم ابتكرت طريقة اخرى : هي طريقة اذابة الحديد المصبوب مع الحديد اللدن . وكان

هذا الاختبار قديم العهد : وقد سبق لـ « ري مور » و « هاسنفراتز » ان اشارا اليه. فقد عاد اليه « لويس لو شاتليه » في السنة ١٨٥٦ بواسطة كور مزود بالمرايا يحترق فيه الكربون احتراقاً بطيئاً ، ومن شأنه إتاحة استخدام نفايات الحديد وقراضاته . ولكن العملية لم تنجح نجاحاً تاماً إلا في السنة ١٨٦٤ حين استخدم الاخوان « اميل » و « بيير مارتين » كوراً زودت جدرانه بأوكسيد السليسيوم ومولداً للغاز من صنع « فردريك سيمنس » . فتم انتاج الفولاذ بشتى درجاته وبكميات كبرى . وانتقل استخراج المعدن الغير الخالص من ٤ ملايين طن إلى ١٨ مليونا بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ .

في هذه الأثناء تحسنت السقاية وتعلم الناس الاستفادة من المعادن غير الخالصة الممزوجة بالفوسفور . وكان « فرونز » قد اثبت أن القاعدة الكيميائية وحدها قادرة على تثبيت الجسم الممزوج بالفوسفور والخالي من الماء ؛ ولكن لما كان جدار الكور مزوداً بأوكسيد السليسيوم ، فان القاعدة كانت تحلل هذا الأوكسيد . والحال وجد للمسألة حلان في السنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ : فمن جهة فكر « توماس » و « جلكرست » بتلبيس الحول بكربونات الكلس المزدوج والمنيزيا؛ ومن جهة ثانية اعتمد « بورسيل » و « فالران » تلبيساً مماثلاً لكور « مارتين » . فقفز الاستخراج قفزة جديدة ، وبلغ ٢٧ مليون طن في السنة ١٨٩٠ و ٤١ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

تسبب هذا التطور السريع في التقنيات في انتقال المشاريع من مكان الى آخر . فقد كانت المؤسسات الصغرى من قبل موزعة هنا وهناك على مقربة من الاحراج والمياه . ثم برزت الحاجة الملحة الى حديد وفحم حجري يتوفران معاً . ففي انكلترا مثلاً تجمعت المصانع في « مدلندس » ومنطقة « غلاسكو » الغنية بالحديد ؛ ولكن منجم الفحم الحجري لا يلبث أن ينزف ولا يكفي: فتنتقل المصانع نحو البحر الذي تأتي عن طريقه المعادن غير الخالصة من البلدان الأخرى؛ وتستخرج هذه المعادن كذلك من الطبقات الجوراسية بين « كليفلند » و « غلوستر » ؛ ولكن هذه المعادن لم تكن كثيرة الانتاج بسبب امتزاجها بالفوسفور . بيد أن طريقة توماس لم تحل دون فقدان الجزيرة أولويتها ، لا سيما وقد سُلّم فيها بأفضلية طريقة مارتين . وتأخرت بلجيكا كذلك تأخراً نسبياً لأن الحديد قد نزف فيها . وأحدق الخطر بفرنسا التي انقذها منجم اللورين الصغير . ولكن هذا المنجم الأخير لم يكف المانيا ، فكان أن الصناعات الحديدية والفولاذية الكبرى في انكلترا وألمانيا قد استوردت حاجاتها من بلدان لا تستخدم كل ما تستخرجه من المعدن غير الخالص (فرنسا ، اسوج ، اسبانيا) أو تصدره بكليته (الجزائر) . وفي روسيا ، تأخر الأورال نسبياً أمام تقدم الـ (دونتس) . وفي الولايات المتحدة باتت بتسبورغ عاصمة صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، وحتى في السنة ١٩٠٠ ، اجتذب اليها كرنجي ، المالك فيها سعيداً ، معدن « ماركيت » الادبس اللون بفضل فتح قناة « سولت — سانت — ماري » . إلا أن المؤسسات العاملة لحساب البحرية قد اقتربت من الاطلسي ، والجنوب أخذ يتجهز شيئاً فشيئاً ، وقامت مدن الحديد والفولاذ في السهول الكبرى بعد اكتشاف أهمية المناجم الحديدية

في منطقة البحيرات ، دون أن يؤدي ذلك الى تخفيض انتاج هذا المركز العظيم . فأكد كرلجي حينذاك أن الولايات المتحدة « سوف تستطيع سد حاجات العالم بأجمعه » .

تنوع المعادن غير الحديدية والاملاح

كان الفولاذ من ثم امتزاج حديد وكربون . أما صناعة انواع الفولاذ الخاصة فقد استلزمت معادن غير حديدية كثيرة كان بعضها جديداً ، كالتونغستين والمنغنيز والنيكل .

صنع الشبهان من امتزاج النحاس والخارصين ، وحل محل الورق المقوى في صناعة اسطوانة الخرطوشة ؛ وبفضل لدانته استخدم في صناعة انابيب المصابيح وصناعة الصنابير ؛ ومماثل المجوهرات وارتدى مظهر البرونز المذهب . ومن حيث ان النحاس مادة حسنة الايصال فقد استخدم في مصانع التقطير والتمحيص ومعامل السكر ؛ ودخل في خدمة الكهرباء . أما الزئبق فقد استخدم في اذابة المعادن الأخرى وأضفى على المتفجرات خاصيات فاعلة ، واستعين بـه لمعالجة المصابين بالداء الزهري . وأمنت علب المحفوظات ازدهار الحديد الابيض (التنك) الذي ليس سوى حديد ملبس بطبقة رقيقة من القصدير . واستخدم البورق لبرنقة الزجاج وطلي الخزف الصيني والتصوير. وتمت كذلك تقنيات خاصة سيقوم لها التحليل بالجرى الكهربائي عوناً كبيراً ؛ وهو هذا التحليل ، بصورة خاصة ، ما سوف يحقق آمـال « وهلر » و « بونسن » و « سانت كلير دفيل» باتاحته تحليل الألومين. ولكن اذا استثمرت أوروبا ثرواتها خير استثمار، فانها لا تستطيع مقارنة مواردها من النحاس والرصاص والنكل بموارد اميركا : وليست جزر (كاسيتريد) المعاصرة من بعد قائمة على مقربة من شواطئها بل في ارخبيل « « سوند » .

بين الاملاح ما زال ملح الطعام ، المقوي والمـدر البول ، والضروري للانسان والحيوان ، يستخرج من الملاحات الساحلية ومناجم الملح . وليست هذه المادة ما افتقرت اليهـا أوروبا . ولكن الحاجة مست الى املاح أخرى في الزراعة ومن أجل خصائصها الصناعية. فأوجد «ليبيغ» في « جيسن » و « جان باتيست دوما» و « جلبير » و « لوز » من بعدهما ، الكيمياء الزراعية، مع ان المزارعين ما زالوا يفضلون الأسمدة العضوية على انواعها: الدمن والاشنة ومقذوفات البحر والغوانو . وقد غذى هذا الأخير، الذي ليس سوى فوسفات كلسي تكون من دبوقاء الطيور ، تجارة كبرى خلال نصف قرن في كافة ارخبيـلات المنطقة الحارة ، لا سيا وأن استثمار جزر « شنشا » في « بيرو » قد استمر منذ السنة ١٨٣٠ حتى السنة ١٨٧٥ . ثم اكتشفت أهمية املاح الفوسفات الموجودة في بعض الصخور اما بشكل عقد أو بمر الشيطان ، واما بشكل حجارة طبشورية فوسفورية . وفي الوقت نفسـه لفت الانتباه إلى شواطىء اميركا الجنوبية نفسها ملـح البارود الذي صنع منه عمال المناجم بارودهم والذي كان من شأنه انتاج سماد ازوتي من النوع الجيد . وبسرعة ذاعت شهرة هذه الاملاح ، فاستفاد التشيليون من الحرب المعروفـة بحرب الباسيفيكي في ١٨٧٩ — ١٨٨١ وانتزعوا من « بيرو » و « بوليفيا » المنـاطق الغنية بنترات الصوديوم في جوار صحراء « اتاكاما » . ومن جهة ثانية وفر الملح الطبيعي المعروف بال «كاينيت»

والمركب من سلفات المغنيزيوم وكلورور البوتاسيوم ، الاشنان للزراعة الأوروبية المتقدمة ، ثم توفق « جوزف فوغت »، اثناء بحث عن الفحم الحجري في السنة ١٩٠٤ ، الى اكتشاف كلورور البوتاسيوم الطبيعي في الالزاس العليا .

امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف

كانت نتيجة توسع المناجم أن الغرب امتلك مواد خاماً وفيرة ومتنوعة جداً تطلبتها عبقريته الصناعية وتفتحت في تحويلها. وقد سلكت في ذلك طريقين .

فان الكيمياء قد اشتركت اشتراكاً فعالاً في المعركة من أجل الحياة وغدت عاملاً قوياً من عوامل الموت . حاربت الأمراض التي تصاب بها الانواع النباتية كالكرمة، وحفظت المأكولات (حين حقق « شارل تليه » - بعد « جاكوب بركنس») - التبريد الاصطناعي بواسطة روح الحوامض الخشبية والكلورور الكلسي ، قامت السفينة « البراد »في السنة ١٨٧٦ برحلتها الأولى ذهاباً وإياباً بين اميركا الجنوبية وأوروبا))وحسنت عملية التخمير واشتركت في اعداد الجعة. وساعدت على مزج الخمور بسوائل أخرى وعلى غشها أيضاً ؛ ووسعت نطاق الانبيق والكحول التي تعاظم استهلاكها تعاظماً مخيفاً ، والتي صلحت ، اذا ما أفسدت ، التدفئة والانارة والصباغة وصناعة البرنيق على اختلاف انواعه. ومن بين فروعها الأولى انتاج الحامض الكبريتي الذي لعب دوراً رئيسياً في صناعة الأسمدة الفوسفاتية والقلي والمواد الملونة والعطور والمتفجرات ، والذي صنع بواسطته الحامض الأزوتي والحامض الكلوري. يضاف إلى ذلك أن صناعة القلي قد تجددت بالطريقة المرتكزة الى محلول النشادر التي احكمها « سولفاي »و « شلوسنغ » : وأن هذا الملح قد أعطى ماء(جافيل) بامتزاجه بالكلور؛ وصلح التبييض اذا ما أضيف اليه كبريت أو كربونات؛ واذا ما أضيف اليه البكربونات سهل الهضم واختار العجين واشترك في تركيب معجون « بوردو »لمكافحة طفيليات الحدائق، واذا ما أضيف اليه حامض البور أصبح مطهراً واستخدم في صناعة الجلود الرقيقة . واذا ما عرف الكيميائي كيف يحسّن توشية النسائج (انتقلت التوشية من لونين في النسائج الهندية والنسائج القطنية في السنة ١٨١٣ الى ٨ بفضل « كوشلين » في السنة ١٨٥٦ والى ٨٥ في السنة ١٩٠٠) ؛فانه لن يلبث أن يبتكر العديد من الألوان بفضل « رونج » و « باير ». ولكنه بانتظار ذلك سيبتكر ، بمجرد إضافة الكافور الذي يخفف من الخصائص التفجيرية التي يتميز بها السلولوز الازوتي ، والسلولويد الذي صنعت منه الامشاط والطواق القمصان واطراف الاكمام (هذه هي البياضات الاميركية) ، والذي حل محل القشرة والند،والذي استخدمه « ايستمن » في صنع الأفلام الفوتوغرافية . ثم ان تثبيت الصور بواسطة الاملاح السريعة التأثر بالنور قد أحرزت نجاحات عظيمة جداً .

اودع الانسان فكره الورق اكثر فاكثر يوماً بعد يوم. فجاءت الكيمياء عوناً له بواسطة المعجون الخشبي الذي عالجه بالكلور والقلي والاشنان والنشادر. وفكر « مونفولفيه » بخشب الزيزفون؛ وفي السنة ١٨٦٠، عند الساعة الخامسة مساء،خرجت « الصحيفة الاميركية الشمالية » من المطبعة

بينها قطعت شجرة الحور التي ضحي بها من اجلها في الساعة العاشرة من صبيحة النهار نفسه .

« ولكن الانسان يحارب الامواج الهادئة ...»
(« المان والشبه » « فيكتور مي لابراد »)

قبل الولاعة الفوسفورية ، مثل الثقاب خير نجاحاته في اشعال النار : جمع بين مفاعيل الكبريت والفوسفور وبين الخشب ، بعد ان اقترحه « رومر » « وبريشل » في النمسا ، فصنعه « لونسادروم » و « جونكوبنغ » . فبدأ القرن الثامن عشر ، الذي لجأ ابداً الى ضرب الصوانة بمعدن لاشعال الصوفان وكأنه ، بالمقارنة ، اقرب الى العصور الاولى . وكان غاز الانارة موضوع رضى لسكان المدن ، فتقدم تقدماً حثيثاً سهله ليس صنبور « اوير » فحسب بل مضرم« بونسن » ايضاً . وتوجب على الشمعة الشحمية ان تحسب حساباً للاسيتيلين ولا سيا للمصباح البترولي الذي بدا عملياً واقتصادياً . وفرض الهيدروكاربور نفسه بصورة مفاجئة في اعقاب احكام الاجهزة المزودة بالفتيل التي يصعد فيها الزيت بفعل الخاصية الشعرية ؛ ولكن لنجاحه تفسيره في نجاحات استخراجه وتقطيره : فان حمى البترول التي انتابت اميركا غداة الاستثمار الذي اجري في السنة ١٨٥٩ في « تيطوسفيل » على يد الكولونيل درايك – الاندفاع نحو « اوهايو » – قد رفعت الانتاج من ٣٠٠٠ هكتوليتر في السنة الاولى الى قرابة ٤ ملايين منذ السنة ١٨٦٥ . وبينما تأسست شركات قوية لاستثمار هذا المصدر غير المرتقب للثروة ، واجه بعضهم الطاقة الحرارية ، وبالتالي مصدر القوة الفاعلة ، التي قد يوفرها هذا الوقود السائل اذا ما ابتكر محرك موافق .

تباشير الكهرباء الجديدة

لا شك في ان المستقبل يخبىء في طياته تهديداً للبترول كعامل انارة بفعل نجاحات الكهرباء . فـ« دافي » و « بلانتيه » قد اخترع المركم ، و « غروف » فكر بأول مصباح كهربائي ، و « رايت » استحصل على شهادة اختراع قوس كهربائي توفق « فوكو » الى تطبيقه عملياً بعد حين : كان كل ذلك مجرد تباشير . ولكن الجدة المشجعة تحققت في السنة ١٨٦٩ حين وفر «غرام» بدينمه تياراً قادراً على تغذية المصدر الضوئي. ثم حلق « جابلوشكوف » شمعة من الفحم المركوم . اما المصباح الكهربائي الاول المضيء في الفراغ فيجب نسبته الى « سوان » . ولكنه لم يضيء سوى برهة قصيرة . فأخذ اديسون يبحث آنذاك عن خيط ثابت ؛ وفي سبيل الحصول عليه اوفد البعثات الى كافة الجهات ، وبعد ان امتحن الخيط القطني ونشارة الصنوبر وشعر اللحية ، استقر اختياره على نوع من الخيزران الياباني. ثم جاءت السنة ١٨٧٩ : فاحدث الاكتشاف ضجة كبرى . وقامت اول شبكة توزيع منذ السنة ١٨٨٢ في نيويورك ؛ ثم أنشيء صف انوار في مقدم اوبرا باريس ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، كان بالامكان مقارنة اضاءة « مبنى عام » بمعدل ١٦ شمعة في المتر المربع باضاءة « رواق المرايا » التي لم تعط سوى ٢,٥ فقط. ولكن الشوط لم يبد خاسراً ، لا بالنسبة للغاز الذي كان اقل كلفة ولا للمصباح البترولي الذي كان اكثر ملاءمة للمساكن الوضيعة والارياف .

جهز « برجيس » اول شلال مائي في السنة ١٨٦٩ فولدت الكهرباء الحقة شعوراً قوياً بأن

التيار الذي سيكون وفيراً . وجاء التلغراف والهاتف الكهربائيان غطين لوريين لنقل الفكر . وشق التحليل بالجرى الكهربائي ، في الوقت نفسه ، الطريق امام تحويلات عظيمة في المادة : وبحسب الطريقة التي اشار اليها « ارنست — وورنر سيمنس » ، استخدم « هــول » في اميركا و « كيلياني » في المانيا و « هــيرو » في فرنسا فرناً لاذابة معدن الالومينيوم بواسطة القوس الكهربائي ؛ ثم طلع « مواسان » بصناعة الكربورالكلسي ومركبات الحديد والمعادن الاخرى . ولن يلبث الشرر ، الذي يشمل امتزاجاً غازياً قابلا للاحتراق ، ان يولد المحرك المبني على هذه الظاهرة : وهكذا فان الكهرباء ستسهم ، بمخالطة غريبة ، في فتح آفاق وامكانات جديدة امام البترول .

المجهود الآلي

لقد افضى كل شيء الى انتصار الآلة التي بدت وكأنها لا تعرف الكلل وتتفوق على الانسان تفوقاً كبيراً بالسرعة وبمزيد من الاتقان والدقة في اغلب الاحيان .

ففي السنة ١٧٧٦ كان عشرة اشخاص ينتجون ٨٠٠٠٠ دبوس : فجاءت الآلة ، بعد مرور مئة سنة ، تنتج ١٨٠ دبوساً في الدقيقة اي ما يعادل مليونين بالنسبة لهؤلاء العمال العشرة . وفي الولايات المتحدة انتج عامل النسيج ٩٦٠٠ يردة من النسيج القطني في السنة ١٨٤٠ خلال ١٣ساعة عمل في اليوم؛ وفي السنة ١٨٨٠ بات ينتج ٣٠٠٠٠٠يردة خلال عشر ساعات عمل في اليوم. وبينما كانت امهر عاملات صناعة الجوارب تنجز بين ١٥٠ و ٢٠٠ عقدة في الدقيقة،انجز النول المستقيم ٥٤٠٠ ، والنول الآلي ٤٥٠٠٠ ، والنول المستدير ذو الابر المتصلة حتى ٤٨٠٠٠٠ .وبواسطة آلة « ماك كورميك » الحاصدة التي يجرها حصانان ، جمع المزارع الاميركي سنابل سبعة هكتارات بينما لم يستطع فلاحان اوروبيان ، في الوقت نفسه ، حصد اكثر من هكتار واحد .

تطلبت الآلة وقتاً للعمل منظماً بكل دقة . وباستطاعتنا تحديد السنوات ١٨٥٠ — ٦٠ تاريخاً لانطلاق صناعة الساعات صناعة منسقة ، وهو فيليبس من احكم زنبرك الرقاص في السنة ١٨٦١ .

« ايتها الساعة ! الاله التاعس ، والمخيف ، والعديم الاحساس ... »
« بودلير »

حققت الآلة اكثر الاشغال دقة ، فانتشرت انتشاراً عظيماً ، سواء في اعمال الخشب (آلات النجر والنشر والتفريض والتلسين) ام في اعمال المعادن (المخارط،والمثاقب،والمناشير المتصلة الاطراف ، والمثاقب الولبية) . وقد احكم « هويتوورث » دقتها بعد « مودسلي » و « كليان » .

حافظ القطن ، بين النسائج ، على تقدمه التقني . فاعتمدت آلات غازلة جديدة ، نول « روبرتس » الذي عمل آليــا ، والنول المستمر الحــركة الذي ابتكره « بار كورليس » و « مادسلي » . وارتفع عدد الصنانير في النولالواحد من ٣٠٠ او ٤٠٠ الى ١٢٠٠ . وازدادت كذلك سرعة المكوك في الحياكة . وبشر النول الآلي ، الذي ابتكره الاميركي « نورثروب » ،

بتغييرات هامة جداً : فالمحمة تستبدل آلياً حين ينقطع احد الخيوط، وباستطاعة حائك واحد ان يراقب لا آلتين فقط او اربع آلات بل حتى ٤٠ و ٥٠ آلة. أجل، لن تعرف آلة « نورثروب » في اوروبا قبل السنة ١٩١٤ . ولكن الانتاج في الساعة قد تحسن في كل مكان (ارتفع خلال قرن في بريطانيا من ١٠ الى ١٠٠ في الغزل ومن ٤ الى ١٠٠ في الحياكة) . وزودت صناعة الغسل بآلات تؤمن عمليات التقصير والمضمضة والتنشيف والتنظيف الكيميائي. وكانت آلة التطريز مصدر ثروة « سان غال » ؛ كما ان آلة « برناز » الخياطة والتطريز ، التي اخترعت في السنة ١٨٦٣ ، قد استعملت لصنع الالبسة والاثاث ، ونول « موشليه » والحق تخريم النسيج الدقيق . فانتشرت آلة الخياطة انتشاراً سريعاً وتحسنت تحسناً مطرداً، فاحتلت المركز الاول في صنع الالبسة . واستخدمت الآلات في خياطة القفافيز وتثبيت العقب وخياطة الساق وجمع وجه الحذاء والنعل . وتوفرت لصناعة الفراء اجهزة تدلك وتصقل .

واذا ما زال الحجر ينحت باليد ، فان الانسان قد استخدم آلات لرفع الاثقال ؛ وجلب الى مراكز عمله القراميد والآجر والانابيب المصنوعة كلها آليا بواسطة الطواحين الهارسة والكسارات المبعدة عن المركز والخارط . وفي صناعة الزجاج وفرت الناقلة الآلية على العامل الاقتراب من الفرن ؛ وقضت الآلة النافخة على طريقة استخدام القصب المثقوب الذي كان ينفخ فيه بالفم .

وجاء انتصار الآلة كاملاً في صناعة الورق . فقد استخدم « مونغولفييه » ، في هرس الخرق الرثة ، الآلة العاجنة المخترعة في امير كا ؛ واكتملت اجهزة صناعة الورق بآلة لتقطيع الخرق وآلة رفع المعجون ومنظم الحركة وجهاز التصفية والمساطح . وكان الحدث الاكبر في حقل الطباعة ظهور الآلة الدائمة الحركة التي احكمت شيئاً فشيئاً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥ بفضل استخدام الصفائح المستديرة والوشيعة التي تطبع الوجه والظهر : فبينما لم يطبع سوى ٨٠٠٠ طلحية في الساعة وعلى الوجه فقط في السنة ١٨١٥ اصبح بالامكان طبع ٩٦٠٠٠ طلحية من ١٢ صفحة في السنة ١٩٠٠؛ ولم تؤمن الآلة الاسطوانية الدائمة الحركة طي الطلاحي فحسب ، بل جمعها حزماً من ٥ و ١٠ او ١٥ طلحية بحسب المراد .

والى السنة ١٨٦٧ يعود تحقيق الآلة الكاتبة الاولى على يد الاميركيين « شولز » و « منسور » اللذين اشترى (رمنغتون) شهادتيهما . ولكن طموح الآلة بلغ حد منافسة آلات الطرب نفسها أو اقله حد تسجيل الاصوات : وهذا كان الهدف من الحاكي (الفونوغراف) الذي ابتكره اديسون في السنة ١٨٧٧ .

فهل كان من أمل في تحقيق نتائج على مثل هذه الأهمية في انتاج المواد الغذائية يا ترى ؟ انه لجلي أن الآلة الزراعية أعجز من أن تنظم هذا الانتاج على غرار الآلة المستخدمة في الصناعة ، ولكن من شأنها تلافي نقصان السواعد والمساعدة على فتح ساحات جديدة ما كانت الزراعة بدونها لتنتزعها من الطبيعة القاهرة . وهكذا فقد امتدت إلى أرضها المختارة في اميركا

الشمالية حيث نستطيع ملاحظة تقدمها في عهدين ثلاثينيين : عهد الآلة الحاصدة ابتداء من السنة ١٨٥٥ ، وقد عقب عهد المحراث الحديدي ، ثم عهد الحاصدة الرابطة . ويجب هنا ان نعترف لـ « ماك كورميك » بفضله الأول في تحقيق حركة اسنان المنشار تناوبياً . وقد سهلت المسلفة استخدام المبذر الآلي فغدت تتدحرج وتدور وتهرس ، بينا جمع المحراث في هيكله حتى أربعة اجهزة حارثة . وأتاحت الآلة الدارسة ، الكتلة الأصل ، التي ادارها فريق من ستة رجال ، درس ١٥٠ هكتولتراً بينا لم يستطع الرجل الواحد درس أكثر من ٣ بواسطة المدقة . وفي صناعة الطحين التجاري تحل الرحا عن مركزه لسحق مستديرمن الحديد المصبوب المسلي، ونُظف القمح بالنساسيف والغرابيل ، ونخل الطحين بالمناخل. واذا تأخر اعتماد المعجن الآلي في صناعة الخبز، فان الآلة قد لعبت دوراً هاماً في صناعة البسكوت والمعجونات الغذائية، ومعامل التصفية ، وصناعة الشوكولاتا. وفي المسالخ جزرت الآلة الحيوانات ونظفتها بالفرشاة وأفرغتها وقطعتها وملحتها . وفي المزرعة أخذت آلة مبعدة عن المركز تحل محل المخضة ، ومخلت مصنع الالبان مفرزة الكُتْلة الدائقة الحركة .

لا يعني ذلك أن التيار كان عارماً لا يقاوم ، وأن طرائق العمل القديمة كان محكوماً عليها بالزوال في كل مكان. فكل ما حصل هو أن التضاد قد أتضح وبرز بين مهنة وأخرى وبين بلد وآخر . ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن المسألة غالباً ما كانت مسألة دفع إلى الامام . فبالإمكان مثلاً تسيير الآلة الدارسة بساعد الانسان ، أو المدورة ، أو البخار ، ولكن ما هو المحرك الذي يجب استخدامه في العاجنة الآلية ؟ وكيف يجب جر الآلة الزراعية ؟ وفي هذه الحال الأخيرة ما زال الحصان مفضلاً على القاطرة البخارية التي عرضت منذ السنة ١٨٥٠ .

أكب القرن من ثم على زيادة قوة الجهاز الحراري: فخفف ضرر نقاط فقدان مفعول مكبس المحرك في سيره ، وحد من التخثير في الاسطوانة ، وزاد مساحة الاحماء ، ولجأ إلى الانفجار المزدوج والثلاثي وحتى الرباعي بواسطة الطريقة المركبة . ولكن هذا المحرك ما زال ثقيل الوزن ، كبير الحجم ، متوسط الفعالية بالنسبة للوقود المحرق . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر بعضهم أنه أدى لأوروبا واميركا ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عملاً يوازي عمل مليون عبد .

المعارض تباهى ذاك العهد بتحقيقاته ، فطاب له تعدادها واظهارها . ففي السنة ١٨٥١ جمعت لندن ١٧٠٠٠ عارض في قصر البلور حيث أحل « باكستون » ، في مساحة تبلغ ٩ هكتارات ، الحديد والزجاج محل الحجر والقرميد ، وفي السنة ١٨٥٥ ، قام في باريس قصر الصناعة مع « رواق للآلات » تحرسه أربع قاطرات صنعت على شكل أبي الهول. وفي كل عرض جديد توسع نطاق المعرض وتعاظم الاقبال . وعلى غرار لندن التي دعت العالم في السنة ١٨٦٢، وجهت اليه باريس الدعوة في السنة ١٨٦٧ لزيارة قصر الـ « كوليزيه » المظلم ذي الاروقة الدائرية السبعة التي كان أحدها « رواقاً جديداً للآلات » : فكتب « هوغو » : « هذا هو الميثاق السلمي

العظيم » . وفي السنة ١٨٧٣ أقامت فيينا معرضاً في إطار « برانر » ، وليون في إطار « الرأس الذهبي » ؛ وفي السنة ١٨٧٦ أقيم معرض في فيلادلفيا التي جعلت منه احتفالاً بالذكرى المئوية للاستقلال الاميركي ؛ وفي السنة ١٨٧٨ ، أقيم معرض جديد في باريس التي شيدت « تروكاديرو » وعرضت المصنوعات الحرفية . ثم أقيمت المعارض على التوالي في « سيدني » ، و « ملبورن » ، و « امستردام » ، و « انفرس » ، و « اورليان الجديدة » ، و « برشلونة » ، و « بروكسل » ، وشيكاغو التي أحيت في السنة ١٨٩٣ ذكرى اكتشاف كولومبوس لاميركا . ولكن اعظم المشاهد كانت المشاهد الباريسية بمناسبة الذكرى المئوية للسنة ١٧٨٩ ، والاحتفال بنهاية القرن الرسمي في السنة ١٩٠٠ : فقصدها الزائرون بعشرات الملايين للتمتع برؤيتها . « ان السنة ١٩٠٠ ... سوف تكون نهاية قرن كامل من الجهود المدهشة في حقلي العلم والاقتصاد » ، كما جاء في مرسوم صدر في السنة ١٨٩٢ . « وسوف تكون كذلك عتبة عصر يتنبأ العلماء والفلاسفة بعظمته وستبلغ وقائعه حيث لم تبلغ احلام مخيلاتنا في الارجح ... فمعرض السنة ١٩٠٠ سوف يشكل تأليف القرن التاسع عشر ويحدد فلسفته » .

وسواء كانت المعارض شاملة أو دولية ، فانها تؤرّخ السير الظافر للحضارة الصناعية

الفصل السابع

الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار

انتصار الخط الحديدي

ان حلم سان - سيمون باحتلال الكرة الارضية بواسطة الخط الحديدي قد تحقق ما بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ : نصف قرن كان جديراً باسم « عصر الخط الحديدي » الذي اطلق عليه . ولكن الجسر على الخطوط الحديدية بقي عمل الغرب بصورة خاصة . ففي السنة ١٨٦٠ تقاسمت اوروبا والولايات المتحدة ، بما يقارب التساوي ، ١٠٨ ٠٠٠ كيلومتر ، بينما لم يتجاوز طول هذه الخطوط في اجزاء العالم الاخرى ١٥ ٠٠٠ كيلومتر ؛ وفي السنة ١٩١٠ كان نصيب الولايات المتحدة ٣٨٠ ٠٠٠ واوروبا ٣٣٠ ٠٠٠ من اصل مليون كيلومتر ونيف في كافة انحاء العالم .

لقد جند بناء الخطوط الحديدية رؤوس اموال عظمى وافضى الى ولادة اجهزة خاصة قوية ، حين لم تتولّه الدولة مباشرة ، والى قيام اشغال عظمى . ودفع كذلك بصناعة المعادن ، واضفى على الآلة البخارية كل رونقها ، وكثّر الاعمال الفنية .

ان الخط الحديدي ، الذي اخترق الارياف ، قد استلزم تسوية ترابية متينة ، وقد صنعت العوارض من خشب السنديان الذي حفظ من الفساد بحقنه بالكريوزوت او بكلورور الزنك . ثم حل الخط الفولاذي محل الخط الحديدي ، كما استعيض عن الجسر الحجري بالجسر المعدني .

وان في اختراق الجبال ما يثير الاعجاب في هذا المجال . ففي التسلق امتحان البخار ، وفي فتح الانفاق امتحان التقنية . وسوف يستخدم المساس والمثقب المحرك بالهواء المضغوط للتغلب على الحجارة الصلبة ؛ وسوف يلبس الرواق بالحديد المصبوب لا بالخشب ، وتؤمن التهوية بواسطة الآلات الجاذبة الهواء او النافثة . وجاء تحقيق نفق « سنيس » مشجعاً جداً من هذا

النيل على الرغم من ان اجتياز الرواق على ارتفاع ١٣٠٠ متر وبطول ١٣٦٠٠ متر قد استغرق ١٥ سنة . وبفضل الخبرة المكتسبة ، تحقق نفق « غوتار » في عشر سنوات ، بطول ١٥٠٠٠ متر تقريباً ، بواسطة المثقب الآلي وبالرغم من عذاب العمال الذين اضطروا الى تحمـــل حرارة بلغت ٨٦ درجة مئوية . ثم فتحت الانفاق بالتفضيل في اسفل الجبال (نفق سمبلون سيفتح على ارتفاع ٧٠٠ متر) ، فصرف النظر رويداً رويداً عن النفق في المرتفعات ، كنفق «سمرنغ» الذي فتح منذ السنة ١٨٥٤ بعد ١٤ نفقاً تقريباً و ١٦ جسراً .

فلم يلبث النفق من ثم ان بدا افضل من الجسر لاجتياز الانهار العريضة والاقسام المستطيلة الضيقة من البحر . فحفر الانكليز نفقي « مرسي » و «سفرن» (طول هذا الاخير ٧ كيلومترات) والاميركيون نفق « هدسون » . ولكن العقبة السياسية حالت دون تنفيذ مشروع اتصال تحت مضيق « با ـ دي ـ كاليه » ، كما ان الاتصال بين شبه الجزيرة السكندنافية والمانيا قد تم بواسطة سفن خاصة مجهزة بخطوط حديدية لنقل القطار ، بين « ساسنيتز » ، « روغن » و « مالمو » .

احرزت القاطرة تقدماً حاسماً منذ ان فكر المهندس الانكليزي بين « كرامبتون » بوضع العجلات المحركة في مؤخر مسخن البخار لا تحته ، وهي عجلات مترابطة "ثناء" تتناقل حركة دورانها . وفكر النمساوي «انغرت» الخطوط السريعة الانحدار ، والفرنسي «بتيه» القطارات نقل البضائع ، بأجهزة محكمة خاصة . فارتفع الوزن شيئاً فشيئاً من ٢٥ و ٣٠ طناً الى ١٥٠ طناً ، فاستطاعت القاطرة جر مقطورات يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن . واستعيض عن المكبح اليدوي القديم بالمكبح الآلي او المائي او المكبح العامل بالهواء الخفيف الكثافة او الهواء المضغوط . وأحكم تسيير القطارات البخارية التي تسير بالحبال على منحدرات الجبال (في ريغي وبيلاط ، في جبال الالب ، وفي جبل واشنطن ، في اميركا) . ووفر الابراق الكهربائي عوناً مفيداً لنقل الاشارات . كما اتاحت العربة السهلة التوجيه للمقطورات السير في منعطفات الخطوط واطـــالة القاطرة والمقطورة .

باتت المقطورة اكثر راحة . فأنيرت بغاز زيت المنضد بعد ان كانت تنار بزيت السلجم . ثم أجريت محاولة إنارتها بالكهرباء على خط « لندن » - « برايتون » . وتمت التدفئة بواسطة مساخن يغذيها البخار . وبسبب المسافات بنى الاميركيون مقطورات النوم مع منتفعاتهـــا ومقطورات للاستقبال وحتى مقطورات فخمة استطاعت العائلات الثرية بواسطتهـــا الانتقال دون ان تخالط المسافرين الآخرين . وجهزت القطارات التي تصل دول العالم الجديـــد بجسور ضيقة تتيح التجول بين مقطورة واخرى اثناء سير القطار . وفي السنة ١٨٨٠ اضيفت الى قطار خط الباسيفيكي مقطورة تحتوي على مطبعة اصدرت فيها صحيفة يومية تنشر الاخبار الواردة برقياً في المحطات . وازدادت السرعة ازدياداً مطرداً . فمن معدل ٢٨ كيلومتراً في الساعـــة حوالي السنة ١٨٥٠ ارتفعت الى ٧٤ في انكلترا و ٥٩ في اميركا في السنة ١٨٨٠ . وبعد انقضاء

عشر سنوات لتجاوزت سرعة القطار بين نيويورك و « بوفالو » ۱۰۰ كيلومتر في الساعة . كما أن السفر من باريس الى مرسيليا لم يعد ليستغرق سوى ١٤ ساعة . وفي نصف قرن انخفضت الكلفة الى نصفها وحتى الى ثلثها بحسب البلدان .

اذا استثنينا بريطانيا العظمى وبلجيكا وجزءاً من المانيا ، لرأينا ان الخطوط الحديدية لا تؤلف شبكات في بلاد اخرى قبل السنة ١٨٦٠ . اما في فرنسا فان الاتصال بين باريس ومدن الحدود الكبرى او المرافىء فقد بدت تباشيره في الافق. وقد بذل الجهود الكبير في هذه البلاد في عهد الامبراطورية الثانية واوائل عهد الجمهورية الثالثة. فارتسمت حينذاك بوضوح في اوروبا الغربية شبكة خطوط حديدية هامة تقع الى الشمال من جبال «البيرينيه» و«الابنين» وجبال الالب الشرقية. ولم تشمل هذه الشبكة شبه الجزيرة الايبيرية والسوق الايطالية والبلدان الواقعة الى الشرق من خط الطول المار بـ «دانزيغ» و «بودابست»؛ ولكن ايطاليا الشمالية استفادت منها بفضل الانفاق الالبية . وأخذت سويسرا تلعب دور الانطلاق في وسط اوروبا . وبينما اتصل الغرب بالنمسا بواسطة نفق « ارلبرغ » ، نرى النمسا ، التي حفلت نفق « سودباهن » على طريق تريستا ، تمد شبكتها نحو الداتوب الشرقي والبلقان وتتصل بالقسطنطينية وتصل اوروبا الوسطى بالشرق الادنى .

وفي اميركا الشمالية لم يطرأ على البناء اي توقف . فهي الولايات المتحدة ما وضعت في السنة ١٨٦٩ اول شريط معدني يصل بين الاوقيانوس والآخر . انها لفكرة جريئة اخرت الحرب الاهلية تحقيقها ، على الرغم من ان الاعمال ، التي تقررت منذ السنة ١٨٦٢ ، قد شرع فيها في السنة التالية . وقد اشرف القائد « غرنفيل م. دودج » على هذا المشروع اشرافه على حملة عسكرية : فجند اليد العاملة في « الغرب الاوسط » من بين الجنود المسرحين والمهاجرين الايرلنديين واستخدم الصينيين في كاليفورنيا . وقد واجه عقبات كثيرة اهمها الهنود – وقبيلة « سيو » بصورة خاصة – ونواتىء الارض وفقدان اليد العاملة ، ولا سيا التنافس بين شركة « الاتحاد الباسيفيكي » و« الشركة الباسيفيكية المركزية » اللتين كان على حكومة الاتحاد ان تفصل في خلافاتها . زد على ذلك ان المنحدرات كانت سريعة والجسور خشبية ، والسرعة محدودة ؛ ولكن اكتمال العمل قوبل بحماس منقطع النظير ، وسوف تنجز خمسة خطوط هامة اخرى بين المحيط والمحيط ما بين ١٨٦٩ و ١٨٩٣ ، بما فيها ذاك الذي انشأته الحكومة الكندية بين « هاليفاكس » و « فانكوفر » مروراً بـ « كيبيك » بغية تحقيق ضم كولومبيا البريطانية الى ميثاقها الاتحادي .

وجاء الجهود الروسي مماثلا ، وان متأخراً ، بمساعدة رؤوس اموال الغرب على كل حال ، وبغية توسع نحو الشرق الآسيوي يقابل التوسع الذي قاد الولايات المتحدة وكندا حتى الباسيفيكي. فأنجز الخط القزويني اولاً، الذي سوف يكمله الخط الارالي في السنة ١٩٠٥ ، وهو اقصر من الاول واكثر استقامة : وهذان الخطان هما في آسيا الوسطى شبيهان بالخطين المارين في الصحراء

الافريقيا . وبدت الصعوبات في سيبيريا امعن منها في امـيركا : طبقات ارضية متجمدة او تسرب مياه الثلج فوبان الجليد ، وانهـار عريضة يجب اجتيازها ، ومسافات شاسعة ، وكثافة سكان متدنية جداً ، يضاف اليها نوالي، جبال « بايكال » المستعصية . ولكن الطرق المعـدة للخيل لم تعد تلبي بالحاجة امام الاستعمار المتوقع والمستقبل المنشوري . فشرع اذن في اطول خط حديدي في العالم منذ السنة ١٨٩١ وصل الى « فلاديفوستوك » في السنة ١٩٠٢ بفضل اتفاق عقد مع الصين اجيز بوجبه اجتياز منشوريا الشمالية .

كان الخط الحديدي أداة توحيد جلي لاميركا الشمالية وللامبراطورية الروسية . وقد خدم كذلك الشراكة الجركية في الدول الالمانية ، وعرف الريخ البسماركي خير معرفة ما هو مدين له به ، فلم يتركه في ايدي الافراد . وفي ايطاليا ايضاً كان عوناً لاسرة « سافوا » على إرساخ سلطتها ، فجمعت حكومة روما الشركات الخاصة واشارتها . ولكن الشركات الخاصة ما زالت تتقاسم الارض الفرنسية ؛ تلك هي الشبكات الست ، ولكنها اتجهت كلها الى باريس باستثناء شبكة الجنوب . ومنذ السنة ١٨٥٣ ، وضع اللورد دالوزي تصميماً لشبكة هندية تكون خير صلة بين بلدان وشعوب غير متلاحمة وربما خير وسيلة لارساخ السيطرة البريطانية .

نبض الخط الحديدي بطاقة كبرى وكاد يتمخض بخلق الامم ، وكان بالاضافة الى ذلـك قادراً على اصدار احكام بالموت . فكان ممكناً ان يتسبب في الاضرار بالطريق المائية وحتى ان يقضي على بعض التجارات (سيكون الخط المنشوري سبب زوال قوافل نقل الشاي التقليدية بين بكين وسيبيريا) . ولكنه احيا المقايضات الـتي ادارها ، والمشاريع الـتي استخدمته ، والمناطق التي اجتازها وانتهى اليها . وقد نقل بين ١٠٠ و ٥٠٠ مليون مسافر وبين . . ٢ و . . ٣ مليون طن من البضائع حوالي السنة ١٨٥٠ ، و ٤ مليارات مسافر و ٥ مليارات في كل من السنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

سباق الطرق البرية ودفاع الطرق المائية

على الرغم من مقاومة يائسة ، كان على نقل البضائع بالعجال ان يعترف بخسران قضيته حينما مر الخط الحديـدي . فكانت الضربة قاسية للطريق البرية التي توجب عليها من ثم تحديد اطماعها فلن تكون بعد اليوم سوى رافد الخط الحديدي وتكون سعيدة اذا ما اتصلت بمحطة القطار الحديدي وحافظت على وظيفة توزيع ما ينقله القطار. كانت كافية للعربات والمشاة والدراجات. ولكن اذا لم تتوفر المصلحة القديمة للنقل البري ، فغالباً ما لا يكون هنالك شيء البتة . امـا الطريق الزراعية فقد استفادت من النشاط التجاري الذي أغنته الخطوط الحديدية ، وتحسنت .

واذا ما أبدت الطرق المائية بعض المقاومـة في ظروف أفضل ملاءمة ، فمرد ذلـك الى انها كانت تتقاضى اجور نقل أقل ارتفاعاً بالنسبة للوزن. وما زال الجدل قائماً بين انصار كل من طريقتي النقل المذكورتين . اما الحقيقة فهي ان النقل المائي يتقهقر اذا ما اعتمد معدات واجهزة

قديمة العهد . ففي انكلترا مثلاً اثارت حركات السكك الحديدية وسائل النقل المائي ، وفي فرنسا كادت الملاحة تتلاشى في بعض الانهر كالـ « لوار » والـ « آليه » ؛ ولكن الرأي العام أقلقه قوة أسياد الخط الحديدي ، ومنذ السنة ١٨٧٣ ، كرس اكثر من مليار فرنك لاعادة انشاء وتوسيع شبكة يكون مركزها في المناطق الصناعية الشمالية والشرقية .

أحست المانيا بحماس حقيقي للملاحة الداخلية . فاستخدمت ما استطاعت الى ذلك سبيلا الطرق الطبيعية الممتازة التي تؤدي الى بحر الشمال وتؤمن المواصلات بين مختلف مناطق بروسيا ، ولكنها نظمت كذلك لورين برلين بالخامات وجعلت منها مركزاً صناعياً من الدرجة الاولى . وكان الشريان الكبير الذي يشكله نهر الرين موضوع عناية يقظى : سدود في حوض « كولونيا » تلوم منعرجات ، وتنظيم مجرى في الوادي الضيق وما قبله من جهة البلبوح ، وحفر احواض بالغة الاتساع في المرافىء التي جارت المرافىء البحرية من حيث حمول السفن ، وانخفاض أجور النقل انخفاضاً جعل النهر ينظم ويحرك ويقلب تيارات مقايضة كبرى ، ويجتذب المؤسسات الصناعية ، ويسهم في ازدهار الـ « رور » وكافة انحاء المانيا الغربية ، ويتحكم برقعة واسعة تؤلف سويسرا جزءاً منها ، ولم تتجاهلها برين وحتى همبورغ ، وتنازعتها كذلك المرافىء البلجيكية والهولندية . واذا كانت قناة « دورتموند » – « امس » خيبة للآمال ، فقد ارتسمت الخطوط الكبرى لطريق نهرية كبرى تصل الغرب بالشرق .

ولم يكن تجهيز الحوض الدانوبي اقل فتنة واغراء . ولكن انتاجية الاعمال كانت اقل شأناً . فبعد أن توفقت معاهدة باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، الى تحرير النهر من كل عائق سياسي ، تنظم الامن فيه بوليقة ملاحة وتولت المملكية النمساوية الهنغارية تنظيم تدفق مياهه ؛ وتحول الانتباه بعد ذلك الى مختنق « الابواب الحديدية » وبجاز « سولينا » اللذين يغلقان الممر الضيق العميق الماء الصالح للملاحة : والسبب في هذا التحول مرده الى اهمية النهر المتعاظمة لتجارة الحبوب .

استمر التضاد بين روسيا والولايات المتحدة المتشابهتين من حيث اهمية شبكة النقل الطبيعية فيها . فقد فتحت روسيا قناة الـ « نيفا » وانجزت شبكة « ماري » التي كانت تكملة لطريق تبلغ ... ٤ كيلومتر بين بحر قزوين وبحر البلطيق . ولكنها لم تستخدم سوى تلث انهارها ولم يتجاوز طول اقنيتها مجتمعة الـ ٨٠٠ كيلومتر ؛ يضاف الى ذلك ان نهر الـ « فولغا » الذي سار فيه اكبر عدد من السفن لم يتصل بالانهار الصابة في البحر الاسود . اما في اميركا ، فلم تحقق قناة « ايريه » القديمة نمواً مستمراً فحسب ، ولم تتخلف مصاب الميسيسبي فحسب ، بل اصبحت البحيرات الكبرى بحراً داخلياً حقيقياً تنشط فيه حركة نقل عظمى ايضا .

وقد امنت السفينة البخارية ، في البرازيل بواسطة الامازون ، وفي الصين بواسطة الـ « يانغ تسي » ، توغل التجارة الى مناطق شاسعة شبه خالية من الطرقات والخطوط الحديدية بمساعدة رؤوس الاموال الاوروبية اجمالا . كما انها سهلته احيانا بالاشتراك مع الخط الحديدي ، على النيل والكونغو و « البارانا » مثلا .

تقهر السفينة الشراعية وتفوق السفينة البخارية

على غرار عربة المسافرين التي عرفت ذروة اكتمالها حين كان مقدراً لها أن تمحي امام القطار الحديدي ، كذلك بلغت السفينة الشراعية أوج عزها حين أخلت السفينة البخارية تقصيا عن البحار .

ان السفينة الشراعية السريعة الحركة ، المعدة للأسفار البحرية الطويلة ، قد لعبت دوراً لامعاً حتى أواخر القرن. فان السفينة البخارية المزودة بالمروحة لم تتفوق عليها سرعة إلا حوالي السنة ١٨٨٠ ، والسرعة ثمنها على كل حال . ولذلك استمرت الملاحة الشراعية ، في طرقات كثيرة ، لنقل المشحونات الثقيلة. فالبناء المعدني قد ساعد على إطالة هياكل السفن : فانتجت بين السنة ١٨٩٠والسنة ١٩٠٠ السفن الطويلة الكبرى المزودة باربعة وحتى بخمسة صوار التي جابت البحار الواسعة في نصف الكرة الشمالي ، وشحنت النكل من كاليدونيا الجديدة وقنب مانيلا وقصدت « شيلي » والشاطىء الغربي من الولايات المتحدة . ودافعت بعناد وشجاعة عن سمعتها. ولكنها غالباً ما واجهت الصعوبات بين الاطلسي والباسيفيكي حول رأس « هورن » — الرأس الوعر — بينا وقفت منافستها في مضيق « مجلان » . وهو فتح ترعة السويس بصورة خاصة ما كان لها ضربة قاسية (فالقناة اضيق من أن تساعد على السير بقوة ريح ، والأرياح نادرة في البحر الاحمر) . واخيراً ازداد الامان بواسطة السفينة البخارية وكان التأمين على الأشرعة مرتفعاً. ففي السنة ١٩١٣ بلغ محمول ٢٣٠٠٠ سفينة بخارية ٢٦٥٠٠٠٠٠ طن ومحمول ٦٦٠٠ سفينة شراعية ٣٩٠٠٠٠٠ طن ، فكتبت صحيفة « تايمس » بحزن : « ان غياب السفن الشراعية يولد فينا التأثير الذي يولده غياب صديق قديم » .

قال « وليم موريس » عن السفينة البخارية « أنها كاتدرائية العصر الصناعي » ، وقد اثارت حماس روسكين نفسه : فان هذا الأخير يحمد الله الذي أتاح له رؤية الباخرة التجارية الكبرى التي هي اشرف ما انتجه الانسان ، ذلك الحيوان العائش في جماعة. فقد تعاظم قوامها واتضحت خطوطها الخاصة التي لا تخلو من الأناقة .

في السنة ١٨٥٢ انزلت الى البحر السفينة الأولى المعدة لنقل الفحم ، « جون بوّر » ، وهي سفينة بخارية مزودة بمجلات . فتعددت من ثم مستودعات الوقود على الطرقات البحرية . ومن جهة ثانية اتاحت موانىء التموين بالمحروقات تموين مسخن البخار بالمياه العذبة لأن مياه البحر قد تآكله . فقام آل بورن مؤسسو « شركة الملاحة البخارية في شبه الجزيرة والشرق » ينشئون مستودعات الفحم وخزانات المياه واحواض إصلاح السفن في السويس وعدن وبومباي وكلكوتا. وحوالي السنة ١٨٧٠ استخدم المكثر الذي وفر الماء ، والآلة المركبة التي وفرت الفحم . زد على ذلك أن هذه الآلة قد زادت من السرعة ايضاً .

لكارديف يعود الفضل في قوة الاسطول البريطاني ، والهيكل المعدني كذلك . والسبب في ذلك أن المروحة لا تلائم إلا هذا الهيكل . وقد اعتمدها آل بورن في السنة ١٨٥١ في السفينة حملايا التي عين لها السير على خط مدينة الكاب ؛ ولكن استعاضتهم عن الخشب بالحديد استهدفت

كذلك لجنب العفونة والاهتراء وتعرض الخشب للنمل الابيض في مياه المناطق الحارة ؛ وبالمقابل احتفظوا بالصحة في المتوسط الذي تفتقر موانئه الى احواض لاصلاح السفن . وكانت شركة « كونار » قد انزلت الى البحر سفنها الخشبية الاربع المزودة بعجلات ذات لوحات ؛ وفي السنة ١٨٥٤ كان في حوزتها سفينة حديدية ، « برسيا » ، التي كانت تستهلك ١٥٠ طناً من الفحم الحجري في اليوم وتعبر الاطلسي في تسعة أيام بدلاً من اربعة عشر بفضل آلاتها المزودة برقاص جانبي ؛ وفي السنة ١٨٦٢ كسبت اربعاً وعشرين ساعة بفضل المروحة ، ولكن جهازاً من الحبال والحال احتفظ به فيها لمساعدة الآلات عند الحاجة . أما البارجة نابوليون ، من الاسطول الحربي الفرنسي ، وقد بنيت وفاقاً لتصاميم « ديبوي دي لوم » ، فقد بلغت سرعتها ١٣ عقدة في السنة ١٨٥٣ . وبهذه السرعة عبرت سفينتا النقل «بيرير» و«مدينة باريس» الاطلسي في تسعة أيام . وجهزت السفينة بمزيد من وسائل الراحة : فان مالك السفن «واحاي» ، الذي اسس شركة « الملاحة البخارية البحرية » قد زود السفينة « اوسيانيك » بغرف وردهات بنيت في الوسط لا في المقدمة ، وبقاعة الطعام تمتد على طول السفينة ؛ وفي السنة ١٨٦١ ظهرت الشرعة الحقيقية التي غطت الشرعة الرئيسية لايواء المسافرين .

حين استخدم الفولاذ بدلاً من الحديد ، اجازت متانة الهيكل وصلابتها قياسات كبرى وسرعة متزايدة . وقد استحدثت حيازم جانبية عززت ركانة السفينة . وأعطى سخن البخار والآلات المحركة ، بفضل المروحة المزدوجة ، طاقة فاعلة كبرى ، بينما تدنى استهلاك الوقود نسبياً . فانتقل معدل حمول السفن في السويس من ٧٦٦ طناً في السنة ١٨٧٠ الى ٢٠٠٣ في السنة ١٨٩٠ و ٢٨٣٣ في السنة ١٩٠٠ . وبلغت السرعة القصوى ١٨ عقدة في السنة ١٨٨٠ و ٢٥ في السنة ١٩٠٥ . فقامت المنافسة من أجل « الشريط الازرق » بين الشركتين البريطانيتين « كونار » و« النجم الابيض » ، وبين شركة « الخطوط البحرية بين همبورغ واميركا » . فدفعت الى انزال سفن الى البحر تتميز بمزيد من الحجم والسرعة (فان قوة آلة السفينة «بريطانيا» كانت ٥٠٠ حصان بخاري في السنة ١٨٤٠ ، بينما بلغت قوة آلة «الامبراطور » ٠٠٠ ٦٨) .

دُفع من ثم بصناعة بناء السفن الى الامام . وقد صنعت المعامل البريطانية وحدها ثلاثة ارباع البواخر بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٥ ، ثم خمسيها فيما بعد .

انخفضت اسعار الشحن . فان كلفة نقل مد القمح الاميركي إلى انكلترا ، التي كانت ٦٠ سنتيما في السنة ١٨٦٠ ، قد هبطت الى ١٥ سنتيماً في السنة ١٨٨٠ والى ٥ في السنة ١٩١٠ . ولم يتم السفر في ظروف فضلى فحسب ، بل نقلت البضائع بسعر متدن ايضاً . فوحد البحر العالم أكثر من أي وقت مضى .

المرافىء البحرية الكبرى

أوجدت السفينة المرفأ ، فجددته وأحيته الاساطيل البحرية . ووصل الخط الحديدي كذلك بين المرافىء وبين بحر وآخر ، فتقاربت بذلك أوجه الاوقيانوسات المتقابلة أو المتدابرة . فلعبت أوروبا اكثر فأكثر دور برزخ حقيقي لا

بل دور برازخ عدة بين الاطلسي والمتوسط ، واميركا الشمالية دور الجسر بين الاطلسي والباسيفيكي .

استندت حياة المرفأ بالامس الى كل ما من شأنه الاجتذاب اليه . وغالباً ما استخدم الحرب والنشاطات الاقتصادية معاً . فان « لو هافر » قد بقيت مرفأ عسكرياً حتى السنة ١٨٢٤ . وفي برست و شربورغ ، كانت الوظيفة العسكرية مثاراً للوظيفة التجارية . إلا أن التخصص لم يعد شيئاً نادراً . فرفأ صيد السمك هو لعمري من الجازات القرن التاسع عشر . و كارديف مدينة بنموها الفحم الحجري ولبواخر نقله ، وقد قدّر بعضهم أن نسبة ارتفاع عدد سكانها كانت ١٠٠٠ نفس لكل مليون طن تصدرها الى الخارج ، وفرت لهـا لندن وبريستول وليفربول المواد الغذائية ، وبلغت دائرة عملها شانغاي نفسها . وانشىء في اقرب النقاط الى البحار الصيقة مرفأ السرعة الذي ترسو فيه السفن فترة قصيرة . وفي أمكنة أخرى أخذت الوظيفه الاقليمية بعين الاعتبار . أما الوظيفة الدولية ، وهي اوسع نطاقـاً ، فقد تجزأت بفعل توسع الشبكات الحديدية والنهرية : فتنازعت انفرس وروتردام وامستردام المناطق القائمة ما وراء رينانيا التي نازعتها اياها برين وهمبورغ ، بينما تزاحمت جنوى ومرسيليا على مداخل أوروبا الألبية . وأما لندن التي كادت تحتكر اعادة التوزيع فقد تقهقرت نسبياً ، ولكن نيويورك مدينة لاعـادة التوزيع هذه بثروة طائلة جداً . وعلى الطرقات البحرية الكبرى ازدهرت المرافىء المجهزة خير تجهيز كالكاب وبومباي وسنغافورة وهونغ كونغ .

إلا أن السفن المتعاظمة قوة والمتكاثرة عدداً استلزمت احواضاً أكثر عمقاً واتساعاً . فالمطلوب تأمينه هو الدخول والخروج والتحميل والتفريغ في أقصر وقت ممكن . وبرز من ثم مثالان ، يشكل أولها غزو اليابسة البحر بواسطة سدود مبلية وأرصفة تعزل الاحواض المنتظمة بمحاذاة الشاطىء ؛ وهذا المثال غير نادر في المتوسط : فحين لم يعد جون مرسيليا الطبيعي ليكفيهـا ، تقدمت نحو الشمال الغربي حيث بنت حوض «لاجوليات» ثم الحوض الامبراطوري أو الوطني ، ثم حوض «لابيفيد» وحوض «مدراغ» . أما المثال الثاني فيقوم بالحفر في اليابسة عند مصاب الانهر الواسعة ، كما في لندن وليفربول وانفرس وهمبورغ ونيويورك . وبغية تجنب مسـاوىء الارساء قرب الارصفة في النهر ، جهزت لندن احواضاً واسعة جداً في نهر التايمس لتعويم البواخر . ولما كانت البرك وراء السدود قد اتسعت ، فقد امتدت انفرس الى ٩٠ هكتاراً منها . ثم ووجهت مسألة المداخل ، المقضة بالنسبة لروتردام ، ضحية تراكم الرمل في الممرات الضيقة القائمة على الانهار الرينانية : وهذا ما حل وشوره على تولي حل جبار يجرفه الرمل من أحد هذه الممرات على طول ٣٣ كيلومتراً وعمق ٩ امتار تحت مستوى البحر التام مده . وانشئت اجهزة قوية من جسور قابلة التدوير ، ومحطات لربط السفن بالقلوس ، وآلات لرفع الاثقال ، ومستودعات في الاماكن المردومة بالاتربة وفي المسـلاجىء البحرية للسفن . وجلي أن كل ذلك قد فرض تقنيـة متقدمة جداً .

فتح الترع: السويس وبناما

لو نظرنا إلى شكل القارات لرأينا أن الاطلسي يؤلف اداة اتصال كبرى بين نصفي الكرة الارضية ، وان العالم الجديد يشكل حاجزاً يحول دون الملاحة حول الارض ، وان افريقيا تشكل كتلة ماثلة تحول دون المرور من الغرب الى الشرق بين الاطلسي والمحيط الهندي . ولكن الكتلتين البريتين الرئيستين تبدوان وكأنها تتلاشيان في وسطها . فان البحار المتوسطة تخترقها ولا تبقى منها في هذه النقطة سوى برازخ ضيقة ما كانت لتحول ، الا بنوع من السخرية ، دون الملاحة حول الارض عند خطوط العرض الوسطى .

كان مقدراً لفكرة ايجاد طريق مائية بين المتوسط وبحر الهند أن ترى النور في الترجمة الاولى . لقد رأت النور منذ القرن الثاني عشر مشاريع كثيرة استهدفت فتح هذا « البوسفور الجديد » ، كانت ستتوقف السانسيمونيين وتستهوي محمد علي : فتأسست شركة مهمتها اعداد الدروس لفتح قناة ، اشترك فيها « انفانتين » و « ارليس – ديفور » و « بولين تالابو » مع ستيفنسون الابن ، بعد ان ثبت لهم ان مستوى المياه في المتوسط لا يختلف عنه في البحر الاحمر .

إلا ان احد محاذير المشروع كان انه يخدم النفوذ الفرنسي في نظر المسؤولين البريطانيين الذين صرفتهم مصالح كبرى ، من جهة ثانية ، عن ان يمدوا له يد المساعدة . فما زالت الطريق المألوفة هي طريق الكاب ، كما ان نقل البريد والمسافرين ، الذي يرتدي طابع السرعة ، ما زالت تؤمنه ، منذ ١٨٣٩ – ٤٠ ، مصلحة « البريد عبر اليابسة » التي كانت تستخدم السفينة في المتوسط حتى الاسكندرية ، ثم بين السويس وبومباي ، بعد اجتياز مصر بطريق النيل وبطريق برية . أجل كان الانتقال يستغرق عشر ساعات من الاسكندرية إلى رشيد ، وستة عشر ساعة من رشيد الى القاهرة ، وثمانية عشر ساعة من القاهرة الى السويس ، يضاف اليها الوقت الذي يُضاع في المحطات بين مرحلة وأخرى ، مما يرفع مجموع الساعات الى ٨٠ أو ٨٥ . فكان يقتضي شهر لقطع المسافة بين مرسيليا وبومباي ، في حال ان السفر بين لندن والهند ، عن طريق الكاب ، كان يستغرق ثلاثة اشهر . ولكن قناة النيل قد حسنت ، ومرفأ السويس قد جهز تجهيزاً حسناً ، والقاهرة قد شيد فيها فندق توفرت فيه وسائل الراحة بما فيها حوض السباحة ، وجُند الوف الجمال والجمالين لعبور الصحراء . اما كان يكفي لذلك خط حديدي ، بني بين السنة ١٨٥٥ والسنة ١٨٥٩ على كل حال ؟

في هذه الاثناء كان « فرديناند دي لسبس » ، القنصل السابق في الاسكندرية ، والمشدود بصلة القربى الى الامبراطورة «اوجيني» وبصلة الصداقة الى الامير محمد سعيد ، ابن محمد علي ، يتقدم سواء في تنفيذ المشروع ، اطلع على آراء السانسيمونيين ، وتميز بطبع متكبر ، وكان فارساً ماهراً ، فتوصل الى اقناع سعيد باصدار فرمان يمنح الامتياز بموجبه لمصلحة شركة عالمية قدم لها المهندس النمساوي « نغرلي » ، مشروع قناة دون سدود ، واخذ على عاتقه انجاز المشروع بـ ١٦٠ مليوناً ، وتجول في اوروبا لجمع الاموال اللازمة ، واستحصل من صندوق التوفير الفرنسي على اكتتاب بـ ٢٠٧٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك وتخلى منها عن

٠٠٠ ٨٥ سهم للخديوي الذي اصدر امراً بمصادرة ٢٠ ٠٠٠ فلاح . فشرع في فتح الترعة في شهر نيسان من السنة ١٨٥٩ .

ولكن عشر سنوات قد انقضت دون ان تحول اليها المياه . فقد قامت صعوبات سياسية : اعترضت انكلترا لان الفرمان لم يحرص على موافقة الباب العالي، وحين توفي سعيد في السنة ١٨٦٣، وجب مراعاة جانب نوبار ، وزير خارجية خلفه المتردد ، اسماعيل . وكان هناك مسألة اليد العاملة المائضة ، التي استغلها خصوم القناة : فقد بلغ من الاحتجاج على التسخير ان الشركة ارغمت على استخدام عمال احرار براي نابليون الثالث نفسه الذي احتكم اليه في هذا الموضوع، اما العمال البالغ عددهم ٠٠٠ ١٥، فقد جاؤوا من انحاء حوض المتوسط المختلفة، ولكنهم تقاضوا اجوراً مرتفعة ورفضوا جبل الطين بايديهم : فارغم ذلك على اللجوء الى الآلات ، ولاسيما جارف الرمل البخارية ، بعد ان ضحي عبثاً بالعديد من العمال . وحين تحطمت القلبة على العائق التقني الرئيسي، واعني به سعي الوصول السوداوية اللون ، قام عائق جديد هو انتشار الهواء الاصفر والتيفوس. اجل لقد تبدل الرأي العام الانكليزي شيئاً فشيئاً في هذه الاثناء بعد ان امركت الاوساط المشترية الفائدة التي ستجنيها التجارة من هذا النجاح . ولكن ما زال هناك الشاغل المالي، لان الاكلاف قد تجاوزت التقديرات الى حد بعيد : وقد فشل الاكتتاب بموجب سندات في السنة ١٨٦٨ ، لاسباب مختلفة منها حملة قامت بها الصحافة البريطانية ، ولكن الهيئة التشريعية انقذت الموقف باقرار اصدار بشكل انصبة . واخيراً احتفل في السنة ١٨٦٩ بايصال البحرين بشهد شرقي فاتن : اذ رافقت السفن الذاهبة من بورسعيد الى السويس ، مروراً بالاسماعيلية ، الازرار التزيينية والموسيقى والرقصات الشعبية .

ان القناة البالغة ١٦٢ كيلومتراً طولا و ٢٢ متراً عرضاً و ٨ امتار عمقاً قد فرضت قيادة السفن بحذر وبسرعة محدودة (يتم التلاقي في « المحطات » ويستغرق عبور الترعة ثلاثة ايام). ولكنها استفادت من وجود السفينة التجارية ومن اتساع حركة المقايضات بين اوربا واراضي الشرق ، مشجعة بدورها هذا الطراز من السفن ومسهمة اسهاماً قوياً في الانطلاقة التجارية المهنية. وبدا بين ليلة وضحاها وكان العالم القديم كله قد اقترب من اوروبا الغربية ، وكانت نيويورك نفسها قد اقتربت من المحيط الهندي . فان « جول سيغفريد » قد امضى سنة وعشرين يوماً في السنة ١٨٦٢ للانتقال من مرسيليا الى بومباي ، وفي السنة ١٨٧٢ لم يمض « فيلياس فوغ » الآتي من لندن سوى ثمانية عشر يوماً لبلوغ المرفأ الهندي . وتدنت اجور النقل الى ربعها بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٨٠ . الا ان السنوات الاولى كانت صعبة مالياً لان محصول السفن المدرة في القناة لن يبلغ الارقام التي قدرها « لسبس » المتفائل الا في السنة ١٨٨٨ . وحين تطورت الشركة بفضل الوجود البريطاني في مصر والاتفاقية الدولية المعقودة في الاستانة ، اخذت توزع ربائح مغرية وقررت توسيع وتعميق القناة وتجهيزها بالانارة الكهربائية . فكان ان سهم الـ ٥٠٠ فرنك الذي سعّر بـ ١٦٣ في السنة ١٨٧١ ، قد ارتفع الى ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ . وجملة القول

ان القناة ربما كانت « اعظم انجازات القرن » .

انتظر الرأسماليون نجاح قناة السويس للاهتمام بالبرازخ الاخرى . فان قناة كورنثوس، التي فكر بها نيرون ، قد تحققت بين السنة ١٨٨٣ والسنة ١٨٩٣ ؛ وحققت المانيا في السنة ١٨٩٥ الاتصال بين البلطيق وبحر الشمال بواسطة قناة « كيال » التي ستكون مشروعاً خاسراً على كل حال ؛ وفكر بعضهم بحفر ترعة « كرا » ، ودرست بعض اللجان مشروع قناة بين الاطلسي والمتوسط . ولكن المغامرة الكبرى كانت مغامرة باناما .

ان فتح قناة في هذه الجهات كان،والحق يقال ، اقل إفادة لاوروبا منه للاميركيين.فبالنسبة لمصر : فتنة المكان ، مفترق اجزاء العالم الثلاثة ، والضرورتان المتوسطية والآسيوية ؛ اما هنا فطبيعة تسيطر عليها امطار غزيرة ، واحراج واسعة وغابات متلبدة ، ومنطقة غير آهلة ، على شواطىء محيط لا يسلك بعد الا نادراً . وعلى الرغم من ذلك فسحر المشروع كان أخاذاً ، لا سيما وان البرزخ يضيق باطراد بين تهوانتيبك (١٩٧ كيلومتراً) حتى باناما (٧٠ كيلومتراً) . فالقرن السادس عشر قد استرسل في خياله في صدد مثل هذا المشروع ؛ وهمبولدت فكر به في السنة ١٨٠٨ . وحين افتتح بوليفار مؤتمر باناما في السنة ١٨٢٦ اقترح غوتيه بدوره فتح القناة ، ونادى كلاي بعمل جماعي . جاءت السنة ١٨٥٠ : حين سمع الناس صوت نداء الذهب الكاليفورني . فعقدت الولايات المتحدة اتفاقاً مع كولومبيا بغية اعلان حياد البرزخ في اضيق نقاطه ؛ ولما كانت انكلترا تحتـــل بليز وشاطىء الـ « موسكيتو » ، وتسلم بامجية جون فرنسيكا، عقد الاميركيون معها معاهدة تنم عن حذر متبادل بينهما كل تحصين في تلك الجهات ، ثم حققوا ، على الرغم من تفشي الملاريا ، مشروع خط حديدي بين كولون وباناما . امـــا في الواقع فقد ارادوا كسب الوقت وآثروا العمل بمفردهم .

في السنة ١٨٦٩ فتحت ترعة السويس للسفن واجتاز اول قطار « الجبال الصخرية» . وعلى الرغم من العودة الى مشاريع فتح القناة ، اما على تهونتيبك ، واما على نيكاراغوا ، فلا شيء يدعو بعد للاسراع في العمل . فان المصالح البحرية ومصالح الخطوط الحديدية قـــد تضافرت للحيلولة دون تنفيذ مشروع اجمع الرأي على اعتباره محفوفاً بالاخطار . فهل تركب اوروبا الخطر يا ترى ؟ اما اميركا فقد وقفت مرة اخرى موقف التريث والتبصر والسخرية . فأوصت بعثة « وايز – ركلو » (١٨٧٦ – ٧٨) بباناما ؛ ثم حصل « وايز » على الامتياز في بوغوتا ؛ ثم انعقد المؤتمر الاول للدروس الذي رفض اقتراح ابفل حفر قناة ذات سدود ووافق على اقتراح لسبس حفر ترعة عميقة يكون مستوى مياهها موازياً لمستوى مياه المحيطين ؛ ثم وضع مشروع تقديري بالاكلاف التي بلغت ١١٧٤ مليونا ؛ ثم اسس لسبس الشركة العالمية للقناة ما بين المحيطين ، التي احاطت الشروع في العمل بمزيد من الدعاوة؛ على الرغم من انها لم تجمع سوى ٣٠ مليونا ، بدلا من ٤٠٠ ، عن طريق الاكتتاب، واصطدمت بمناخ قاس قتال وبفيضانات النهر المتكررة وانهيارات جانبي الترعة .فانتهى مشروع هذه القناة الى الفشل وانفضت الشركة في السنة

١٨٨٩ بعد ان لجأت الى الرشوة لحمل البرلمان الفرنسي على منحها قرضاً مقابل اسهم ودون ان تتمكن من حفر قناة ذات سدود . وبعد هذه الفضيحة السياسية والبرلمانية والمالية والمصرفية معاً التي انتهت بالحكم على لسبس وابنه وايفل ، مست الحاجة الى قيام شركة بديلة اخرى . فعرفت اوروبا بذلك لمثلا ستستغله اميركا .

سبق لـ « غرانت » ان اعلن بان ما يلزم الولايات المتحدة هو « قناة اميركية بمال اميركي، في ارض اميركية » . فاستمرت المنافسة مع انكلترا في نيكاراغوا ، وفي السنة ١٩٠٧ ، سوف ينشأ خط حديدي في تهوانتيبيك . اما في الواقع فهي باناما ما يترصده الاتحاد . فقد استفاد من النزاع الجنوبي الافريقي لالتقاء مطالبة بريطانيا ، فأعلنت المعاهدة الموقعة لهذا الغرض حياد القناة قبل حفرها ومنحت الملتزم ، في الوقت نفسه ، حق تحصينها واقفالها في حالة الحرب. وبات بمقدوره من ثم ارغام كولومبيا على الاعتراف بدولة باناما التي تخلت عن كل ما يحتاج اليه بنـاء الترعة وحمايتها . وبينما تولى الزعيم غوتهلز ، الاختصاصي في بنـاء السدود ، ادارة المشروع الفنية ، قضت الحملة التي تولاها روس على البعوض الذي ينقل الهواء الاصفر والملاريا ، ثم زود بالمعدات ٤٥٠٠٠ عامل (من بينهم ٣٠٠٠٠ زنجي) استهوتهم الاجور المرتفعة ، فتحوا الممر المائي الذي سيدشن في ١٥ آب من السنة ١٩١٤ . وقد بلغ ما انفقه الامير كيون على هـذا المشروع ١١١٥ مليوناً بعد ان كرس له الفرنسيون ١٢٧٤ مليوناً .

كانت باناما فكرة طلع بها القرن التاسع عشر ، وهي ستسهل في القرن العشرين ارتقـاء اميركا بجعلها الباسفيكي والشرق الاقصى اقرب الى نيويورك منها الى لندن .

الاتصال البعيد

بعد السنة ١٨٥٠ نما نقل البريد نمواً فجائياً . فان معدل الرسائل في المانيا مثلاً كان ١٫٥ للشخص الواحد في السنة ١٨٤٠ ، و١٢٫١ في السنة ١٨٧١ ، و٥٨٫٦ في السنة ١٩٠٠ . وقـد بيع في الولايات المتحدة مليون ونصف المليون من الطوابع البريدية في السنة ١٨٥٠ ، و ٣٩٩٨ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

ومما يثبت كذلك توسع الشبكة التلغرافية المعتمدة رمـوز « مورس » ، التمديدات التي بلغت ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الشريط حتى السنة ١٨٥٨ ، والتي ستبلغ ستة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وقد ارسلت في اوروبا ٩ ملايين برقية في السنة ١٨٥٨ و ٣٢١ مليوناً في السنة ١٩٠٨ (منها ٧٠ مليوناً الى الولايات المتحدة). ومنذ السنة ١٨٦٠ اتاح جهاز هوغ الاكتفاء ببثة واحدة للحرف الواحد وطبع الحرف مباشرة. وخطر « هويتستون » ان يطبق على جهاز مورس طريقة احكام جهاز نول « جاكار » بشكل دائرة الساعة ؛ وبفضل « الطريقة الازدواجية » التي انتهت اليها دراسات « ستيرنز » ارسلت في الوقت نفسه برقيتان في الاتجاهين معكوسين؛ ثم وصلت آلة « ماير » الباعثة عدة اجهزة بخط واحد واتاحت طريقة « بودو » الرباعية بث... ٧ كلمة في الساعة

بدلا من ....٢ بواسطة جهاز هوغ ، وهو عدد سيرتفع الى ... .٢ بفضل البث على تيارات مختلفة القوة .

استهوى الابراق الدول المفتقرة الى الطرقات والخطوط الحديدية . فان ايقاف الاعمدة الخشبية ومد الخطوط اسهل من توطيد عوارض السكة الحديدية بالقطع الحجرية . ولذلك كان لبلاد ايران في السنة ١٩٠٥ ، ..٩٦ كيلومتر من خطوط التلغراف مقابل ١٣ كيلومتراً من الخطوط الحديدية ، ولبلاد الصين ... ٣٥ مقابل ..٥٥.

ولم يقف البحر حاجزاً في سبيل الخط التلغرافي. فمنذ السنة ١٨٤٥ ، وبفضل صمغ المطاط، غط الاميركيون حبلا سلكياً تحت نهر الهودسن. ولكن السنة الحاسمة كانت سنة ١٨٥١ . فقد ساعد المهندس كرامبتون مواطنه «جاكوب برايت» على تحقيق الاتصال بين دوفر وكاليه. وفي السنة ١٨٥٣ غط الحبل السلكي تحت قناة الشمال من جهة وتحت بحر الشمال من جهة اخرى. ثم حاول جون «ووكتز برايت» اقامة خط تحت البحر المتوسط ، بين الشاطىء البروفنسي وكورسيكا وسردينيا اولا ، ثم بين هذه الاخيرة والجزائر . واثناء حرب القرم انشىء خط تحت البحر بين فارنا و بالاكلافا .

تكوّن آنذاك مشروع اتصال عبر الاطلسي . فأسس الاميركي « سيروس – وست فيلد » شركة اسندت الى مؤسسة « غلاس واليوت» في لندن صنع حبل سلكي يبلغ .٣٦٥ كيلومتراً طولا بغية ربط جون فالنتيا وترينتي – باي على شاطىء الارض الجديدة . الا ان العملية لم تكلل بالنجاح بعد ثلاث محاولات فاشلة ، الا في ١٢ آب ١٨٥٨. وفي ١٦ منه وجهت الملكة فكتوريا رسالة الى الرئيس بيوكانان : فاستغرق نقل بعض الكلمات ١٧ ساعة و ٤٠ دقيقة، ولم يرد الجواب الا في ١٨ منه . زد على ذلك ان الحبل قد انقطع ، فبردت الهمة فترة من الزمن . ولم يتحقق المشروع اخيراً ، بعد شتى الصعوبات ، الا باستخدام حبل سلكي اعظم متانة يبلغ وزنه ... ٢٤ طن ، من انتاج معمل هنلي في وولويتش . ثم انشئت شبكة عالمية بلغت ٠٠٠ ١٢٥ كيلومتر طولا في السنة ١٨٩٠ ، و ... ٥٠٠ في السنة ١٩١٤ ، تسيطر عليها لندن القادرة وحدها على الاتصال مباشرة بمعظم بلدان الارض (مراكز ٢٢ شركة من اصل ثلاثين تقريبا موجودة في الشارع نفسه).فبدا ما كتبه «ادمون ابو» في السنة ١٨٦٤ دون الواقع الى حد بعيد : « لا ينقضي في ايامنا اكثر من شهر حتى تدور الفكرة دورة كاملة حول الارض » . وحين احتفل بيوبيل « وليم طومسون » (اللورد « كلفن ») في غلاسكو في السنة ١٨٩٦ ، بعث اليه ببرقية عن طريق الارض الجديدة وسان فرنسسكو وواشنطن اجيب عليها خلال سبع دقائق .

ولكن الكهرباء اثبتت قدرتها على نقل الصوت ، اي الكلمة . فأبصر الهاتف النور ، بعد ايناع طويل الامد ، في السنة ١٨٧٦ ،بفضل العالمين الاميركيين « اليشع غراي» و«غراهام بل».

فحقق هذا الاخير الاتصال الاول على مسافة ٣ كيلومترات . وكان الاختراع مرتكزاً الى قدرة الكهرباء على ان تنقل الى مسافات بعيدة الارتجاجات التي تسجّل على صفيحة رنانة ويعاد تسجيلها على لوحة اخرى عندما تبلغها الارتجاجات المنقولة .وقد اصبحت الطريقة عملية بفضل الميكروفون الذي ابتكره هوغ وبفضل الملف المتناطيسي الذي ابتكره اديسون والذي يوسع الارتجاجات. فافتتح المكتب الاول في نيوهـافن في السنة ١٨٧٨ والثاني في باريس في السنة١٨٧٩ . فبلغت الاجهزة ، في السنة ١٩١٠ ، اثني عشر مليوناً في العالم ، منها ثمانية ملايين في اميركا الشمالية ، وثلاثة في اوروبا . وقد اعلن ولم طومسون آنذاك : « عجيبة العجائب » .

ولم يكن اقل إثارة العجب الحاكي الذي يسجل الصوت والذي توصل « شارل كرو » الى اكتشاف مبادئه واديسون الى تحقيقه في السنة ١٨٧٨ ، سنة مؤتمر برلين .

٣ ـ تجربة الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .

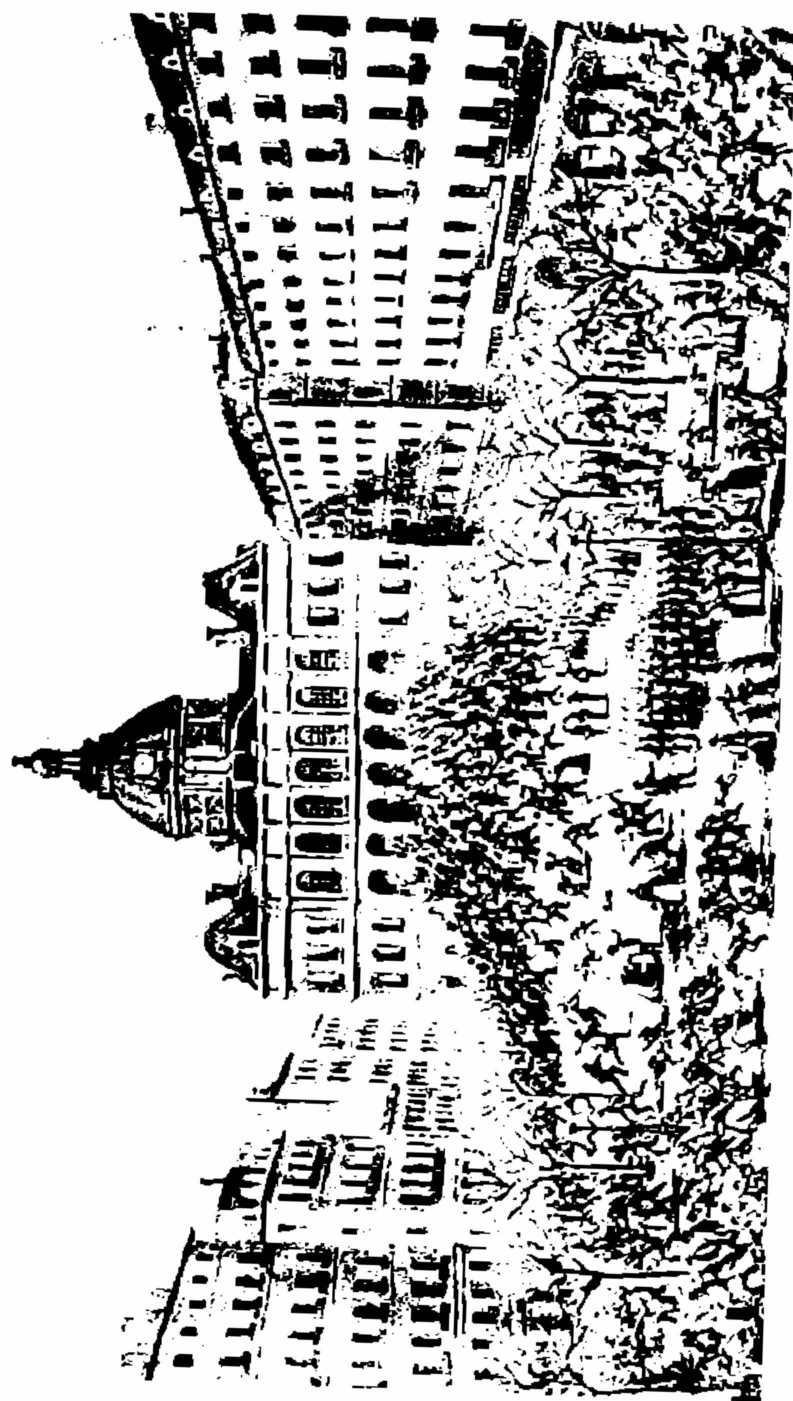

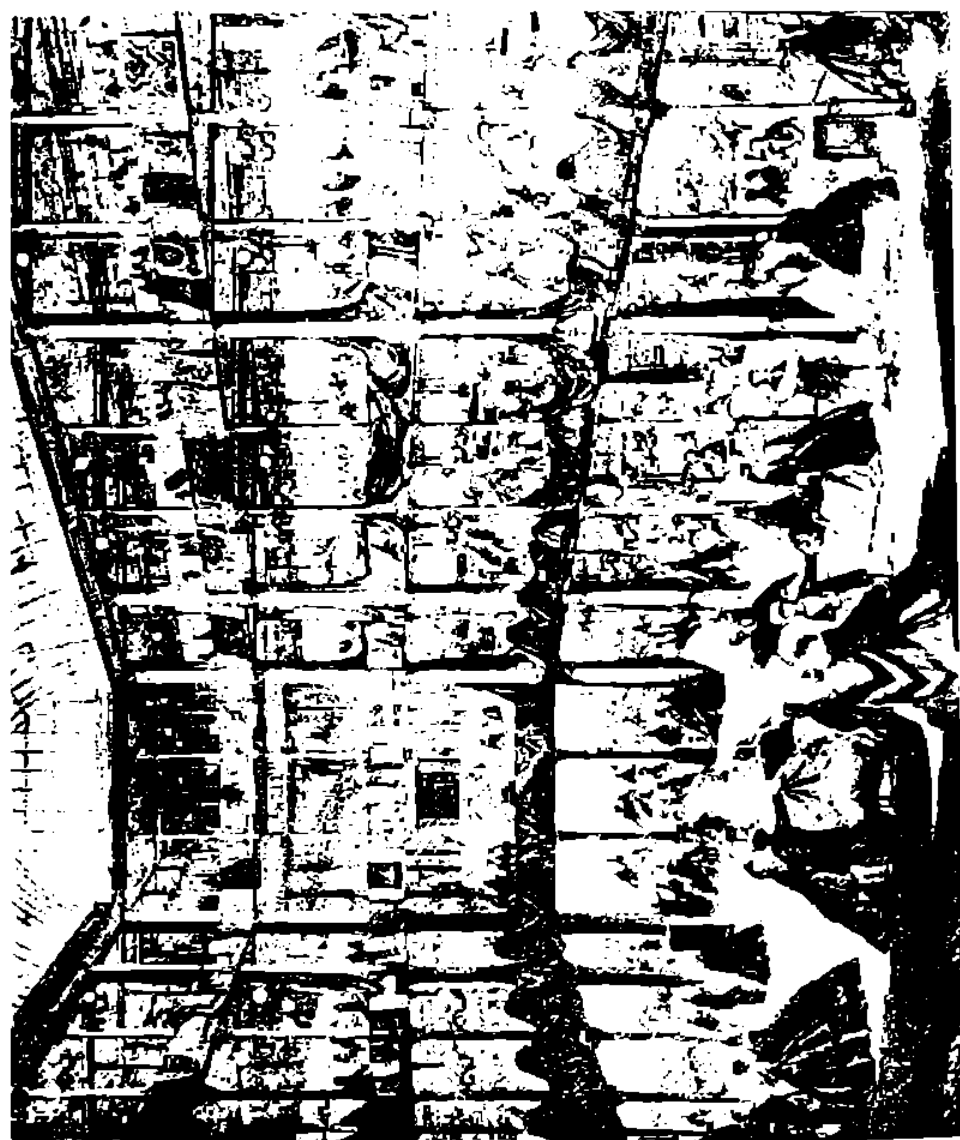

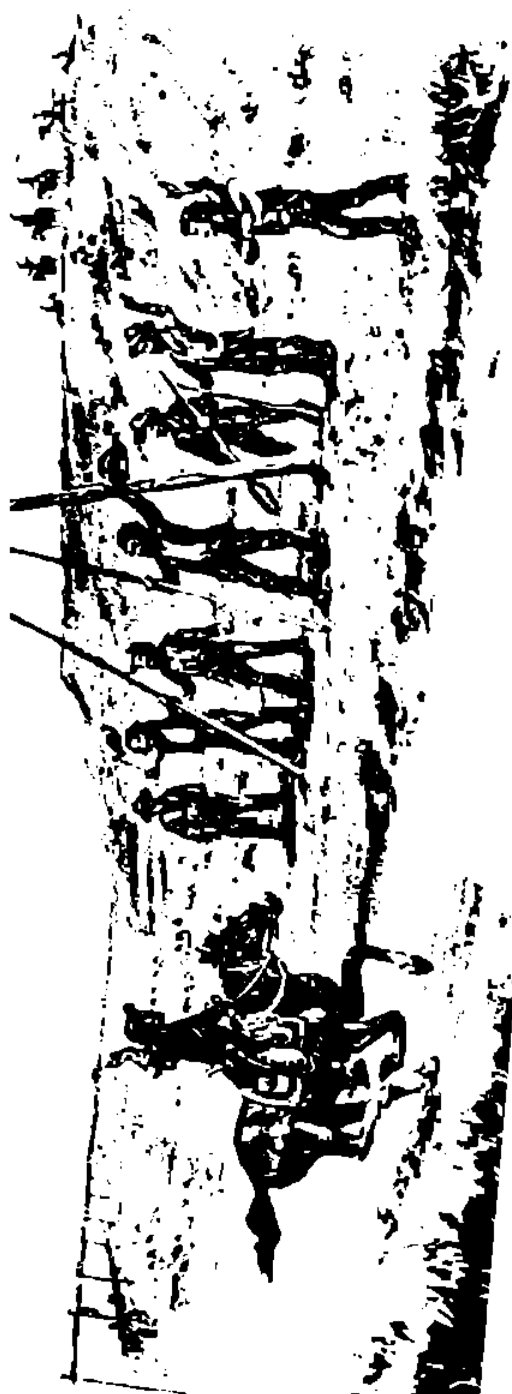

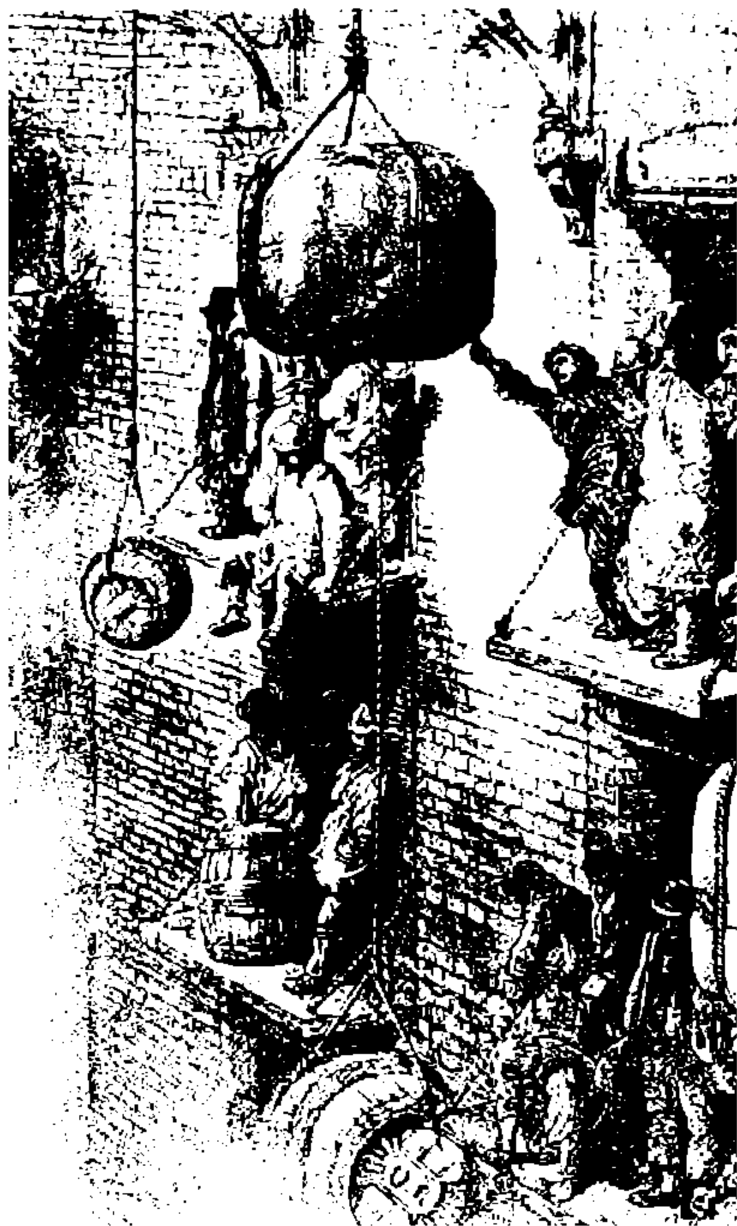

الفصل الثامن

انطلاقة الرأسمالية في الغرب

رسالة الغرب الرأسمالية

«غزت البورجوازية كافة انحاء الكرة الارضية بدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة، لكان لزاماً عليها الدخول الى كل مكان، والاقامة في كل مكان، وخلق وسائل اتصال في كل مكان. وباستثمارها السوق العالمية، طبعت البورجوازية الانتاج والاستهلاك في كافة الدول بطابع الوطنية الشائعة. وبفضل سرعة اتقان ادوات الإنتاج ووسائل الاتصال، ادخلت البورجوازية في تيار الحضارة حتى اكثر الامم تخلفاً وهمجية ...» هكذا تكلم «ماركس» و«انجلز» في السنة ١٨٤٨ في «البيان الشامل للحزب الشيوعي». وهذا يعني أن طبقة اجتماعية معينة، هي البورجوازية، «ثمرة النمو الطويل العهد، وعدد من الثورات في طرائق الانتاج والاستهلاك»، قد دفعت بأوروبا الى فتح العالم. والمقصود بهذا الفتح فتح تجاري اولاً، وفتح صناعي ثانياً. ولكن ماركس وانجلز يتكلمان عن نمو «البورجوازية أي الرأسمالية». لذلك فان نظاما معيناً، اقتصادياً واجتماعياً معاً، يميز اوروبا ويفسر توسعها قبل ان تشمل في توسعها هذا اميركا الشمالية وبعض انحاء العالم الاخرى وتبعث فيها حركات مماثلة.

وفرة المعادن الثمينة
سيادة الذهب

رأينا ان القرن التاسع عشر هو قرن الفحم الحجري والحديد، ولكنه في الوقت نفسه قرن الذهب والفضة ايضاً. فقد برزت مناطق جديدة غنية بالذهب، هي اعجب ما عرفته البشرية في تاريخها: كاليفورنيا، «مونت - مورغان»، «كلونديك»، «كمبرلي»، «ويتووتر سراند». بيد ان الكثيرين قد خشوا من ان يفقد المعدن الابيض والمعدن الاصفر، اللذان لم يعودا نادري الوجود، صفتهما الذاتية الرئيسية؛ وعلى نقيض ذلك، ابتهج كثيرون غيرهم ممن رأوا الصلة الوثقى بين النشاط الاقتصادي ووفرة المعادن المعروفة بالثمينة. ومهما يكن من الامر، فان الغرب هو الذي استثمر هذه الكنوز لمصلحته، وهي الاراضي الانكلوساكسونية التي ورثت الامتياز الذي كان في فترة من الزمن امتياز الامبراطوريات الايبيرية.

اذا نظرنا الى الذهب وحده ، واعتبرنا ان معدل الانتاج السنوي قبل اكتشاف اميركا هو ١ ، فان هذا المعدل يرتفع الى ٤٥ في اواخر القرن الثامن عشر ، والى ١٠٠٠ في السنة ١٨٦٠ ، والى ٢٨٠٠ في السنة ١٩١٤ . وهذا يعني ان المعدن الاصفر الذي دخل في التداول في الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠ ، يوازي ما دخل منه بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٨٥٠ . وازدادت كذلك كمية الفضة ازدياداً عظيماً : فبعد ان تجمع منها ١٤٠ مليون كيلو بين السنة ١٤٩٣ والسنة ١٨٥٠ ، ارتفع وزنها ٣١ مليوناً بين السنة ١٨٥٩ والسنة ١٨٧٠ و ٦٧ مليوناً بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٣ .

قبل ان تتخلى المكسيك للولايات المتحدة عن كاليفورنيا بتسعة ايام ، عثر «مارشال» ، صانع العربات ، صدفة على بعض قطع المعدن الاصفر في جوار «ساكرامنتو» . فاندفع الناس وراء الذهب اندفاعاً منقطع النظير . وقد جاؤوا من كل مكان : استخدم بعضهم مسالك «لاراميه» او مقطورة «سانتا – في» – وكانت المسافة تستغرق خمسة اشهر – وسلك البعض الآخر طريق «باناما او «ماجلان» ، فكان سفرهم في البحر مضنياً لا بل مهلكاً احياناً ، ووصل قرابة ٢٠٠٠٠ من آسيا . اما نتيجة هذا التدفق ، الذي ادى الى خلو الحقول والمصانع من اليد العاملة ، فكانت تنشيط بناء وحركة السفن ، واستقرار ٣٠٠٠٠٠ شخص في كاليفورنيا ، واكتشاف الزئبق في «نيو المادان» وإلحاح الحاجة الى تحقيق الاتصال بين الباسيفيكي والاطلسي بواسطة القطار الحديدي .

وكان «الهواء الاصفر» قد انتقل الى اوستراليا ، القارة الخالية من السكان تقريباً ، التي اطلق عليها ، بمعرفة غريزية غريبة ، اسم «الشاطىء الذهبي» في الخرائط البرتغالية القديمة . وخشية من اختلال النظام والانضباط بين المجرمين المبعدين اليها البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ حاول حاكم ولاية «ويلز الجديدة» الجنوبية اخفاء سر الاكتشاف الذي توفق اليه احد الرعاة في شهر شباط من السنة ١٨٤٩ ، في مقاطعة باثورست . ولكن سفر المهاجرين المستمرين قد احدث انقلاباً ، وقد تعذر من جهة ثانية منع هذا التدفق حين توفق المهاجر هارغريفز العائد من اميركا ، الى اكتشاف ذهبة تبلغ قيمتها ٤٠٠٠ جنيه استرليني واثبت تشابه التربة بين منطقة ساكرامنتو ومنطقة ماكري . ومما شجع البحث عن الذهب ان مستعمرة فكتوريا ، التي تنظمت في السنة ١٨٥١ ، خصصت مكافأة لمن يكتشف ذهباً في اراضيها . وهكذا تم العثور على منجم بالارا وبنديغو الشهير . وقد بلغ من تدفق الحفارين ان عدد سكان فكتوريا قد ارتفع الى اربعة اضعافه خلال اربع سنوات .

اما مجتمع هؤلاء الباحثين عن الذهب فمجتمع غريب . لقد عاشوا في اكواخ خشبية مسقوفة بصفائح حديدية او تحت خيام بسيطة . وقاسوا الامرين من الغبار والاذبة والتهاب الاعين والحمى التيفية . وبرهنوا عن بطولة ، على طريقتهم الخاصة ، وسنوا لانفسهم قانوناً ديموقراطياً مختصراً احترموه احياناً . ولكن حالة الحدة الدائمة التي سيطرت عليهم جعلتهم قادرين على القيام باسوأ اعمال العنف . وقد جرهم تفاوت العدد بين الجنسين الى الفجور ، والدعارة كما ان تجارة

النساء في كاليفورنيا جعلت من الانسان الابيض منافساً رهيباً للرئيس الهندي الذي صب عليه جمع النساء في حرمه . اضف الى ذلك ان الحفار العامل لحسابه قد افسح مكانه شيئاً فشيئاً للعامل المأجور الداخل في خدمة الشركة الرأسمالية التي اعتمدت تقنية اكثر اتقانا .

خلال اربعين سنة سيطرت اميركا الشمالية واوستراليا على سوق المعادن الثمينة. فقد اجريت بين «ارض النار» و«آلاسكا» اعمال تنقيب منظمة . وجمع الباحثون الذهب الرسوبي من نهر فرازر في كولومبيا البريطانية . واستفادت «ليدفيل» في الكولورادو من بحث واسع مماثل في منحدر «بيكس بيك» : ففي اقل من سنتين خرجت من الارض مدينة مبنية بالقرميد جمعت بين ١٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ مغامر ، و خمس كنائس و ٢٠ فندقاً ومسرحين وقرابة مائة قاعة للاجتماع والرقص ، يضاف اليها الكثير من الحانات والمقامر ؛ وكان فيهما باثعو المشروبات ومديرو المحال المذكورة اسياداً مسيطرين ؛ وصدرت فيها اربع صحف منها اثنتان يوميتان . ولكن الفضة كانت اوفر من الذهب ، ممزوجة بالرصاص والنحاس وحتى بالزئبق ، واعتبروها بعضهم نوعا ثانوياً من المعادن الاخرى التي تعيرها الشركات الصناعية اهتماماً اكبر احياناً. ففي ليدفيل مثلاً اهتم الناس على التوالي بالفضة ، والرصاص الممزوج بالفضة ، والزنك ، وهو النحاس ما انقذ «بوت» و «هيلينا» و «اناكوندا» .

تسبب الذهب بعد ذلك في تدفق بشري جديد في اقصى الشمال الاميركي : «كلونديك» و«آلاسكا» . فقد نزل بين ٣٠ و ٤٠٠٠٠ باحث في سكاغواي واجتازوا الجبال التي تفصل بين الباسيفيكي والـ «يوكون» وانحدروا بواسطة الزوارق او الاطواف على نهر الـ «لوتمس» حتى داوسون سيتي : فاغل المنجم ١٠ ملايين دولار في السنة ١٨٩٨ ، وحتى ٢٢ في السنة ١٩٠١ . وفي السنة ١٩٠٠ حدث تدفق جديد باتجاه شبه جزيرة سيوارد قبالة مضيق بيرنغ ؛ ففي «نوم» التي تسيطر عليها ارياح جليدية ، وحيث انشئت على جناح السرعة حانة وبيت دعارة وملهى ، عثر في الرمال ، في اشهر معدودة ، على ذهب تبلغ قيمته اكثر من مليون دولار . وفي السنة ١٩٠٩ ، تكلم الناس عن بحيرة «بوركوبين» بعد ان اظهر فيها حريق طارىء شرايين مرو ابيض.

وعلى الرغم من كل هذا ، فان نصف الكرة الارضية الجنوبية كان قد انتزع ، منذ ١٥ سنة تقريباً ، صولجان الذهب من اميركا التي احتفظت بصولجان المعدن الابيض . ففي اوستراليا توالت الاكتشافات : في مونت مورغان من اعمال كوينسلند وفي «بروكن هل» من اعمال وايلز الجديدة. وحدث ان احد المهاجرين ، مالك الارض التي سيجمع فيها الاخوة مورغان وولم دارسي ثروة طائلة ، باع الاكر بجنيه استرليني دون ان يعلم بما كانت تخبئه ارضه ومات حزناً . ولكن اوستراليا لم تكن اقل ثروة معدنية واجتذاباً للباحثين : فقد اكتشف الذهب في الصحراء على مسافة ٣٠٠ كيلومتر من «برث» ، ثم اكتشفت كنوز «كولغاردي» على مسافة ٣٠٠ كيلومتر من برث ، في منطقة تتميز بمناخ حار جداً ، وهو الجل ما انقذ المشروع من الخطر بنقله الماء والمؤن والمعدات ، قبل ان تبنى اقنية جر المياه والخطوط الحديدية . فضمن ذلك القارة

الاوسترالية المرتبة الاولى في السنة ١٩٠٣ .

بيد ان العالم عاد الى الحديث عن افريقيا : وهو عود طبيعي الى بدء ، اذ ان هـــذه القارة كانت قد اعطت اكبر كميات من المعدن الاصفر . اجل لقد بذلت محاولات فاشلة بغية الوصول الى كنوز السودان الاسطورية انطلاقا من الشاطىء الذهبي وعبر السهول المشبة . ولكن مـــا ذهب بعقل الناس آنذاك هو هضبة « فلد » الجنوبية . فلقد توفق احد الـ « بوير » ، في السنة ١٨٦٣ ، الى اكتشاف الحجارة الكريمة الاولى ، ثم اشهر اكتشاف « نجم الجنوب » حقول الماس حول كمبرلي . وكانت شركة « دي بيرز مينتنغ » ، التي تولت الامر ، على علم بان الذهب لم يكن بعيدا . فلقد اكتشف في السنة ١٨٧٧ في « غريكوالند » ، ولكن حكومة «بريتوريا» حاولت منع الباحثين من فحص الارض لمعرفة ما يحويه جوفها من المعادن في منطقة ويتو وترسلراند التي قدر بانها اغنى المناطق ثروة معدنية ؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الباحثين ما لبثوا ان واجهوا طبقات صوانية تمتد تحت الاتربة والصخور الرملية . ولذلك مست الحاجة الى استخدام الوسائل الآلية ، ولم يتمكن من الاستمرار في العمل سوى المشاريع الكبرى القوية وحدها . وصادف في السنة ١٨٨٧ ان « ماك ارثور » و « فورست » من غلاسكو توفقا الى فصل الذهب عن كبريتور الحديد بواسطة التحليل بالمجرى الكهربائي او بالزنك . فأسست شركة دي بيرز فرعا لها هو شركة « الحقول الذهبية في افريقيا الجنوبية » التي عقدت اتفاقات مع شركة شارترد لصاحبها «سيسل رودس» وشركة نوبل ، وقد نص الاتفاق مع هذه الاخيرة على ان تقدم النيتروغليسرين القادر على تفكيك المعدن الخام . وقد تغلبت هـــذه المصالح الكبرى في النهاية على اشمئزاز وكراهية البوير بعد تدخل انكليزي مسلح . وكما ان النترات كانت سببا لحرب الباسفيك ، كذلك لم يكن الذهب غريبا عن حرب الـ « ترنسفال » . وهكذا فلقد كان مقدراً لافريقيا الجنوبية ، التي بلغ انتاجها من الذهب الناعم ٢٢ طن في السنة ١٨٩١ ، ان تنتج ١٨ طنا في السنة ١٩٠٦ و ٢٨٣ في السنة ١٩١٢ ؛ كما كان مقدراً لها ان تتفوق بدورها على اوستراليا والولايات المتحدة .

الخلافات والاتفاقات المالية

ادت وفرة المعادن الثمينة الى وفرة النقد . اضف الى ذلك ان حيازة مخزون معدني هام قد سمحت باصدار كميات اكبر حجما من النقد الورقي . فاعتاد الناس استخدام الورقة النقدية كعملة رائجة .

كان النقد المعدني في نظر الساعين وراء الربح التجاري هو الثروة بعينها ، بينما نظر اليه القائلون بمذهب الحرية نظرهم الى وسيلة مقايضة . ولكن سوء الطالع اراد ان لا يكون اداة قياس ثابتة . فهل يتحقق توحيد القواعد النقدية القومية على الاقل يا ترى ؟ لا شك في ان قيام « الاتحاد اللاتيني » في السنة ١٨٦٥ كان سيراً في هذا الاتجاه ؛ الا ان البلدان الانكلوساكسونية لم تقبل بفرنك المائة سنتيم كما لم تقبل من قبل بالنظام المتري .

ولم يكن اختيار العيار النقدي اقل صعوبة . فلقد قام نقاش مستمر بين انصار المعدن الواحد

وانصار المدنين . فقبل السنة ١٨٥٠ ، وبينما لم تعرف آسيا سوى الفضة ، كانت بريطانيا قد اختارت العيار الذهبي ، واختارت اغلبية الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة عمليا العيار الذهبي والعيار الفضي معاً . ولما كان تدفق الذهب قد صادف بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٧٠ طلب المزيد من الفضة في الهند والشرق الاقصى ، اهتم المسؤولون بالنتائج التي قد تستتبعها اولوية المعدن الابيض . ولكن هذا الاتجاه قد انقلب شيئاً فشيئاً حين تدنى انتاج الذهب وخطا استخراج الذهب بالمقابلة خطوة كبرى الى الامام . ثم جاء الانحطاط الاقتصادي واعاد رباطة الجأش الى انصار المعدنين الذين ساندهم « بارونات الفضة » في الولايات المتحدة . ولكن لمعان نجم الترانسفال واوستراليا وآلاسكا قد اتاح الفرصة لانصار العيار الذهبي لاعتباره قادراً على الوفاء بالحاجات ، بينما كانت قيمة الفضة آخذة بالتدني .

مهما يكن من الامر،فان الارتباط المتبادل بين حركات الاسعار وحجم النقد المتداول قد بدا وكأنه تأيد تأيداً واضحاً .وعلى غرار «بودين»و«كانتيون»وكثيرين غيرهما،انكر علماء الاقتصاد القائلون بمذهب الحرية بان نمو حجم المعادن الثمينة مفيد ، وقد سبق لميشال شفاليه ان حيّا ارتفاع انتاج الذهب معتبراً اياه « حدثاً على جانب كبير من الاهمية للجنس البشري بأجمعه » . وكان ماركس قد عارض وحده تقريباً هذه النظرية الكمية للنقد ، اعتباراً منه ان ارتفاع الاسعار مرده الى الكسب الرأسمالي . فكانت من ثم معركة النقد:مظهر المنافسة ، والاتفاقات النقدية : مهادنات مؤقتة او جهود لتقاسم الاخطار والمكاسب على السواء . ولكن بعض الاستقرار قد لوحظ على الرغم من الازمات والثورات .

نمو سوق رؤوس الاموال والجهاز المصرفي

كتب «كورسل سنوي» في السنة ١٨٤٨ : « لا يُحصل دائما على الاعتماد بطرق المواصلات ، اما بالاعتماد فالحصول على طرق المواصلات امر مضمون » . وفي كتابه «تاريخ المصرف » ، قارن « ماك لود » الاعتماد بفيضان النيل المخصاب . وقد سبق للسانسيمونيين ان اعتبروه علة قيام كل مشروع كبير .

فالمال من ثم ضروري للعمل . ولكن اين يوجد المال ؟ اعتبر التوفير احتياطيا اساسيا . والتوفير توفير اقتصاد لمسري ، وقد تبارى الصحافيون والسياسيون الاحرار في تعظيم هذه الفضيلة . ولكن من المستحسن ان يتخذ هذا التوفير شكلا اشد نشاطاً .

هذا هو منذ الآن مثل التوفير – التأمين . فالتأمين يستجيب لحاجة الامان ، ولكنه خلاق من حيث هو يتصل بالقرض الطويل الاجل .وقد اهتمت الادارة باكراً بفروعه الثلاثة الرئيسية : التأمين البحري ، التأمين ضد الحريق ، التأمين على الحياة . وفي اواخر القرن، أمنت ٨٥ شركة بـ ٢٢ مليارا . وقدر بعضهم ، باتخاذ المعدل ١٠٠ في السنة ١٨٥٠ ، ان حجم التجارة العالمية قد بلغ المعدل ٦٥٠ في السنة ١٩٠٠ وحجم المبالغ المؤمنة بلغ المعدل ٢٥٠٤ . وتعددت

المحادات التأمين الدولية واجرى التأمين على التأمين على نطاق واسع. وربما كان هذا القطاع خير القطاعات لتقدم الراسمالية المـالية . وكانت معظم الشركات التي تأسست في سويسرا شركات تأمينية . كما كانت الصلة وثيقة بين التأمين والتجارة والملكية العقارية .

بقي المصرف المؤسسة الرئيسية للاعتماد. فقد وفر لاوساط الاعمال مساعدة لا بد منها بشكل حسم. فبينما تأرجح معدل الفائدة تأرجحاً بطيئاً (انخفض شيئاً فشيئاً من ٥ الى ٣ ٪ بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٠٠) ، بقي الحسم خاضعاً لحركات فجائية وغير منتظمة. وقد حاولت مصارف الدولة الكبرى ، كمصرف انكلترا ومصرف فرنسا ، تنظيم نسبته . واقتلعت السفتجة بعض جذورها بفعل التسهيلات الجديدة في وسائل المواصلات. الا ان لندن قد احتفظت بمركزها الممتاز ، لا بل حسنته ، في ما يعود للسفاتج في المناطق الخارجية . وانتشر استخدام الشك في العالم الانكلوساكسوني اولا ؛ وقد سهل الى حد بعيد تسديد الحسابات بمجرد معاملات كتابية. وليست اوراق الدفع المخزينة سوى اشكال مختلفة للتسليف القصير الاجل . واذا ما لجأت الحكومات الى القرض ، فانها قد توجهت الى الموفرين توجها مباشرا اكثر منه في السابق؛ ولكن ارباح المصارف ما زالت هامة جداً .

هو التسليف الطويل الاجل ما اتاح توظيف رؤوس اموال كبرى في الحقل الصناعي والتجاري. فتوسع فرع الاموال المنقولة من ثم توسعاً عظيماً . وقد نشر « برودون » في السنة ١٨٥٣ « كتاب المضارب في المصفق » احتجاجاً على « عصر اتخذ المصفق واعماله لوحة وصايا إلهية ، والمصفق فلسفة ، والمصفق سياسة ، والمصفق علماً اخلاقياً ، والمصفق وطناً وكنيسة » . وقت صحافة مالية ، وقامت الصحف الكبرى بدعاوة فعالة لخدمة اصدار الاوراق المالية . ثم جاء التشريع في حينه يخفف من وطأة تجارة المال . ففي السنة ١٨٥٨ صدر قانون يوسع حريات « الشركات المالية المتحدة » ؛ وفي السنة ١٨٦٣ والسنة ١٨٦٧ شجعت الامبراطورية الثانية قيام الشركات المحدودة المسؤولية . واذا لم يصدر « سماسرة لومبارد ستريت » في لندن سوى نشرة يومية واحدة في السنة ١٨٦٠ ، فانهم قد اصدروا ١٦ نشرة يومية حوالي السنة ١٩٠٠ انطوت على ٤٠٠٠ بيان بالاسعار . فتعاظم دور شارع فيفيان في باريس ، و « وول ستريت » في لندن ، و « اورانيبورغرستراس » في برلين . وفي مصفق باريس بلغ مجموع النقد القابض ٨٥٠ مليوناً في السنة ١٨٣٠ ، و ٨٩٨٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ، و ٢٥٦١٢ مليونـاً في السنة ١٨٨٩؛ ثم بلغ ٨٧ مليارا في السنة ١٩٠٠ .

استلزم توزيع الاعتماد اجهزة اكثر عدداً واعظم تخصصاً. ففي اساس النظام احتفظت مصارف الاصدار بمركزها الممتاز ، منظمة نسبة الحسم ، ومزاولة دور تسوية وتعديل (دور المكتب المركزي) ، وموافقة على تسليف السلطات العامة . ولكن مصارف الاعمال المساهمة قـد تكاثرت ، وجرت في الوقت نفسه عملية توزيع بين المصارف الحديثة منها ، التي اهتمت بشؤون التوفير ، وبين بعض المؤسسات القديمة – المصرف الفرنسي السامي مثلاً الذي يعود الى النصف

الاول من القرن – التي تخصصت في رقابة الاعمال الكبرى. ولم يشهدها التوزيع دون منازعات؛ فالمنازعة بين « بيرير » و « الابر » في فرنسا واوروبا الجهل بامتلاك خطوط المواصلات الكبرى ليست سوى احد هذه الخلافات المعروفة جيداً ؛ وبعد ان تغلبت على مصرف التسليف « استطاعت مجموعة « روتشليد » في السنة ١٨٨٢ من تضخيم الاتحاد العام الذي كان يحاول بدوره منازعته السيطرة. اضف الى ذلك ان مثل هذه التنازعات امر مألوف في الولايات المتحدة. وقد كان لها صداها البعيد في الحياة السياسية . ومهما يكن من امر ، فان العالم المالي قد وطد مركزه الاجتماعي .

فر المشاريع الرأسمالية

قال « باستيا » عن المنافسة : « انها اكثر القوانين تقدمية ومساواة وجماعية من بين القوانين التي وكلت اليها العناية الالهية تقدم المصائر البشرية » . بفضل هذا المبدأ ، وفي مناخ الحركة السياسية والقضائية ، ارتفع عدد المؤسسات الصناعية والتجارية ارتفاعاً سريعاً . وهو اتجاه استفاد ، من جهة ثانية ، من توسع عملية التسليف ، وتقسيم العمل ، والنجاحات التقنية ، وحاجات الحضارة الغربية .

وجدت الحرفة الصغرى والحانوت علة وجود جديدة في هذا التخصص . وما زالت المهارة اليدوية ، التي انقذت الكثير من الصناعات التقليدية ، ضرورية جداً في الانتاج الصغير الحجم . وتقدمت بعض فروع الصناعات المنزلية لانها استخدمت صناعيين يدويين ابعدوا عن عملهم او يداً عاملة نسائية : وهذا ما حدث في صناعة الالبسة والخياطة وصناعة الملابس الداخلية. وتمت تجارة التفصيل ، على الرغم من ان المخازن الكبرى قد انتشرت انتشاراً عظيماً ايضاً .

ولكن الحدث الذي لفت الانظار هو التوسع الذي عرفته الشركة المحدودة المسؤولية. فان الاموال الطائلة التي وظفت في المانيا بعد السنة ١٨٧١ قد ادت الى قيام ٧٨٠ شركة خلال سنتين ، وان الشركات الـ ٧٩٣٩ التي احصتها الادارة الاميرية الفرنسية في السنة ١٩٠١ قد ارتفعت رؤوس اموالها الى ٣٦ مليارا . ولكن مشاريع كثيرة لم تعرف سوى وجود سريع الزوال . فكل ارتفاع في الاسعار يبعث ازدهاراً جديداً ، وكل ازمة او كل هبوط ادى الى الافلاسات . هذا هو الانتقاء الطبيعي في نظر الاقتصاديين الاحرار : انما الغلبة للاذكياء والاقوياء في النهاية : فلا يمكن من ثم ان يتوالى تكاثر المشاريع الى ما لا نهاية له ، لان ذلك قد يضر بانتاجية الاعمال نفسها .

وينجم عن ذلك ان نظام التنافس يفضي ايضاً الى الحصر الذي يفضي بدوره الى الاحتكار ويميل طبعاً للاشاة هذا النظام . ولكن التخصص ادى منذ البدء الى هذه النتيجة : ان القطاع المنتشر حديثاً عرضة لان يسيطر عليه عدد صغير جدا من المشاريع .

شوهد تأيد هذا الاتجاه الآخر منذ البداية في صناعة الحبال السلكية وصناعة النفط كلما جدت جدة في صناعة المعادن او الكيمياء . وكانت الصناعة المنجمية الالمانية احدث عهداً من الصناعتين البريطانية والفرنسية فتجمعت وانحصرت اكثر منها. فلم يقل عدد الشركات الفحمية

عن ٧٠٠ في الارخبيل بينما نحن نرى في الرور ٨٥ لربع او لخس مؤسسات قد أشرفت على صناعة الفحم منذ السنة ١٨٨٠ . وهو الحصر الافقي ما يبرز في البداية . ولكن « كيرموف » و « ستنس » ثم « تيسن » ، انطلاقاً من الفحم الحجري ، و « كروب » ، انطلاقاً من صناعة المعادن ، قد اشرفوا منذئذ على اشكال اولية للحصر العمودي بايجادهم اسواقهم الخاصة للبيع ووسائلهم الخاصة للنقل . ومنذ تأسيسها في السنة ١٨٣٧ ، الجهت « شركة الجبل القديم » طبعاً الى تنظيم صناعة الزنك تنظيماً يخدم مصلحتها . وبعد معاهدة التجارة المعقودة في السنة ١٨٦٠ ، جمعت « لجنة المعادن » العدد الاكبر من ارباب صناعة الفولاذ الفرنسية . وبالاختصار اذا ما كان مناخ البلدان الحديثة العهد في الانتاج الكبير اكثر ملاءمة للحصر ، فان الحصر يبدو تلقائيا وكأنه تعبير دفاعي غريزي لاتقاء الاخطار يتخذ اثناء الصراع الذي يقوم بين مؤسسات متفاوتة القوى .

تعاظم دور مقرض المال واتسعت في الوقت نفسه المسافة بين المتعهد والمساهم . وربحت الشركة المساهمة على حساب المشروع الفردي او العائلي ، بحيث قامت صلات وثقى بين مؤسسات الفرع الواحد ومؤسسات الفروع المختلفة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان التجمع المصرفي كان شرطاً ونتيجة معاً لادارة رأس المال ، وقد ولد بدوره التجمع الصناعي والتجاري. ولكن الاتفاقات قد نجمت على الرغم من ذلك من تنسيق جغرافي للنشاطات سهله تقصير المسافات وتوسيع الآفاق . وقد استهدفت بصورة طبيعية تحسين تنظيم العمل بتجمعات جديدة تتيح مطابقة العرض على الطلب مطابقة اكثر دقة . وهذا ما عبرت عنه مفردات خاصة : « مراقبة حرام الاخلاق » ، « الشراكات» ، اسواق البيع ، الجمعيات ، النقابات ، الاستيارات ، التجمع الافقي والتجمع العمودي ، الانصهار ، الضم .

فرجوه فرانسيا الكبرى

« ان مستقبل فرنسا لا يختلج بعد اليوم في شارع سان – دنيس ، وساحة « فريف» ، الارض الكلاسيكية لاندلاع الثورة ، بل في شارع فيفيان وساحة « فندوم » ، عند « بيرير » وعندكم » . (من رسالة « جول فاليس» الى جول « ميريس » ، ١٨٥٧) .

يتوقف النجاح على الانسان الذي يقود الزورق ، ذلك « الانسان المسكوني» ، الجريء، والمتبصر ، القادر على التضحية بصحته وملذاته اليومية ، سعياً منه وراء القوة المادية والمال ، واقتناعاً بأن عليه ان يلعب دوراً مفيداً ، وبأن على المجتمع عدم مطالبته بالعظمة والثروة لانه يعمل للتقدم العام ويوزع المهام ويستطيع ان يظهر بمظهر نصير الانسانية . وقد اعرب له جوريس عن تقديره واحترامه : « ان في الانتاج البورجوازي وقوته وتجدده التقني المستمر ومسؤولياته المتجددة ابدا لدافعاً عظيماً لطاقات العمل عند من يشرفون عليه » .

تعايشت الفئات الرئيسية الثلاث تعايشا كاملاً : التاجر الذي تقلقه بصورة خاصة حاجات

السوق وامكاناتها (الرأسمالية التجارية) ، والصناعي الذي يستنزف نشاطه في الحقل الثاني (الرأسمالية الصناعية) ، والصيرفي الذي يجمع رؤوس الاموال ويستخدمها(الرأسمالية المالية). وربما كان من العبث محاولة تمييز مرحلة اولى قد يمكن ان تكون مرحلة المؤسسين ، التي قد تليها مرحلة ثانية تعرف بمرحلة المحققين . ولا شك في ان عباقرة الاجيال السابقة غالباً ما اصبحوا آباء لسلالات كبرى ، ولكن استثمار طريقة او فكرة او موقف قد يؤدي في كل آن الى بروز مؤسسين جدد . وغالبا ما انحدر حديثو العهد بالثروة من اصل وضيع : فاذا ما ذكرت اميركا « روكفلر » و « وفاندربلت » كابني فلاحين » و « كرنجي » كابن حائك ، وهاريان كابن راع معوز ، واذا كان « سلفردج » ، « مؤسس المخازن الكبرى في شيكاغو ثم في لندن ، قد بدأ حياته خادماً في ميدان السباق ، فان هيربو و شوشار كانا بالمين عاديين قبل ان يؤسسا الـ «لوفر» و «جاندورف» و«ثيالس» و «وورتهايم» مؤسسي المخازن البرلينية الكبرى ، قد كانوا من قبل اصحاب حوانيت صغرى ، شانهم في ذلك شان بوسيكو ! كما ان «باس» ، ملك صناعة الجعة الانكليزية ، كان حوذيا ، و«جوسنغ ماسون» الذي اسهمت ريشته المعدنية في اثراء برمنغهام قد كان بياعاً جوالاً في الطرقات والارياف .

بيد ان غيرهم قد تحلى بثقافة تقنية وحتى علمية : بسمر ، اميل راتنو ، سيمنس . وقد تردد معظمهم في امرهم قبل ان يهتدوا الى الطريق التي سيجدون فيها الشهرة والثروة . ودان بعضهم بالكثير للحروب والازمات التي اتاحت لهم تحقيق مضاربات جريئة . ولكن لكل الفروع «مغامريها الفاتحين » : فان براسي قد فرض نفسه متعهداً للخطوط الحديدية ، وجوزف طوم في البناء ، وموند في صناعة ملح القلى ، وكوهلمن وبيشيناي في صناعة الكلور ، و ريتز في العمل الفندقي ، وبولنك في المصنوعـات الصيدلية ، و كروسلي في صناعة طنافس هاليفاكس ، و وورث وغيلدرو و باكين في الخياطة ، و ماريتوني في الطباعة وغوردون بنت و ويليسان و ميلو و جان ديبوي في الصحافة ؛ وما زلنا نتذكر كبار بناتي السفن من امثال كونار و اسماي و ويلرايت وبورن و الان و رود ولكن « هيوليت وورمس » هو من زود مرافىء التموين بالفحم الحجري ، وجدد « بوتين » طرائق تجارة الافاويه ، ولكن لويس دريفوس قد نظم تجارة الحبوب . واذا حافظ المصرف – العالي المفاخر بتقاليده على مركزه ، فانه قد اضطر لان يفسح مكاناً لـ « بيرير » ومنري جرمان وتشرنوسكي و لازار . وغني عن البيان ان المؤسسات الموطدة الاركان قد حافظت على مستواها او استمرت في سيرها الصاعد احيانا . وما زالت كذلك في سيرها الصاعد اعمال عائلة روتشيلد التي لم تترك فرصة تفوتها دون استثمار اموالها؛واذا ما تقهقر مصرف بارينغ الشهير قديماً فان تقهقره لظاهرة استثنائية .وقد توالت اجيال عدة عند آل شنيدر و وندل و دميدوف وكروب في الصناعة المعدنية الثقيلة وآل بوجو وجابي وكوشلين في الصناعات الآلية ، وآل دولفوس وشلومبرجيه في خيوط الخياطة وآل ميكيليـ-نوبلو في الصناعات القطنية المختلفة ، وآل ساي في صناعة الانسجة الكتانية والحبال ،

وآل ماريلاي في صناعة الورق ، وآل فيلورين في التبغ المجبوب ، وآل هنسي وكونيه وكوانترو و برنو في صناعة المشروبات . ويلفت الانتباه كذلك ان توظيف الأموال في الاملاك الغير المنقولة ما زال مرغوباً فيه جداً : ففي نيويورك، كدس استور ودجريجه ثروات طائلة ببيع الاراضي للبناء ، في حال ان ارستوقراطية الاعمال في أوروبا قد ابتلعت القصور واعادت تذهيب اشعرة الشرف القديمة.

تجنيد اليد العاملة للأجورة

ما كان هؤلاء العظماء ليستطيعوا شيئاً الا بتجنيد الجماهير المكرهة على بيع طاقتها العملية. وبفضل هجرة الارياف الواسعة تعبأ جيش للأجورين الذين هاجر بعضهم الى اميركا ودخلوا في خدمة مشاريعها . زد على ذلك ان المرتكز الى الكسب قد أبعد الوسط الزراعي عن الاعمال التي تستهدف مجرد سد الحاجات الاولية ، وان توسع المدن قد انمى نشاطات موافقة لتوسع الاسواق .

اذا كان نظام الاجور مرتبطاً بالنظام الرأسمالي ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير يعتبر قوة العمل سلعة تخضع لسنة العرض والطلب . وانما يميل مذهب الحرية الاقتصادية الى تأمين العمل بهذه السنة . لا بل ان ماركس ، الذي عاش الصراع المتكرر ضد النظام التعاوني من جهة ، وضد الرق والفدادية من جهة اخرى ، قد استخلص من ذلك ان استثمار المأجور يفسر الكسب الرأسمالي . وقد استطاع توكفيل ان يكتب ما يلي : « ماذا نفعل حين نمنح الزنوج مؤقتاً من امتلاك الارض ؟ اننا نضعهم في موقف العامل الاوروبي». اما كورنو فقد شك في ان الغيرة على الاعتناء بخير البشر ستفلح في التوصل الى إلغاء الرق . بيد ان العبودية كانت تبدو منافية للاستثمار الموسع الذي يستجيب لمتطلبات الغرب . والدليل على ذلك ان المطالبة بالغاء الرق لم تجد سنداً اثبت من اوساط الاعمال ؛ فذن ستيفنس الصناعي المشهور من بنسيلفانيا ، و د جاي كوك ، الصيرفي ومؤسس شركة الباسيفيكي الشمالي هما من ادارا عملية تجديد البناء. وهذان الرجلان نفساهما هما من استصدرا قانوناً غايته اعمار الغرب بالمستعمرين الاحرار . ولذلك فان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي توفرت لديه وسائل الانتاج ، قد استطاع دون غيره تجنيد الفلاح المبعد عن حقله والفدادي السابق والعبد السابق المجردين عن الاراضي .

حرية المقايضات

حدثت في منتصف القرن ثورة تجارية حقيقية . كانت الرأسمالية منطلقة مع نفسها ، فأرادت تحطيم العوائق القائمة في سبيل حركة انتقال البضائع انتقالاً حراً . فحدث تيار قوي يقول بحرية المقايضة في الفترة الممتدة من السنة ١٨٤٠ حتى السنة ١٨٧٠ ، وهي الفترة التي تحقق فيها ارتفاع سريع في حجم المعاملات ، وانتشار التسليف ونمو وسائل المواصلات . وهي بريطانيا العظمى ، المتمتعة بمركز صدارة لا ينازعها اياه منازع في حقول المال والتجارة والتقنية ، التي اعطت المثل بسلوكها هذه الطريق ؛ فمدرستها المنشسترية هي التي قامت بحملة ناشطة من اجل سوق عالمية موحدة ، مستندة في دعاوتها الى

الفوائد التي يجنيها السلم والتقدم – المرتبطان ارتباطاً وثيقاً على كل حال – من تضامن اشد قوة بين الشعوب والافراد على السواء بفضل تقسيم العمل تقسيماً مبنياً على العقل .

اجل كان محتوماً لمثل هذه الحركة أن تصطدم بالروح القومية . ولكن التجارة الحرة ، بشكل معاهدات تجارية تفرض تخفيضاً ملموساً على رسوم الاستيراد والتصدير ، قد وافقت الدول الصغرى – بلجيكا وهولندا – التي تعيش من تجارة مرور البضائع . لا بل ان اسبانيا وروسيا نفسيهما قد تخلتا عن موقفها المتصلب المعاكس . ولكن فاتحة عهد الاتفاقات الناصة على المقايضة الحرة تعود في الواقع الى الانقلاب الجمركي الذي قام به نابوليون الثالث ضد جموع ارباب المهن المتمسكين بمذهب حماية الصناعة الوطنية .

ان هذه السياسة التي شجعت المقايضات بين الدول وكانت حافزاً لتجديد التقنيات ، قد كانت في الوقت نفسه بمثابة ناقوس نعي « الحصرية » المزعزعة قبلا . ثم خطت بريطانيا العظمى خطوة اخرى الى الامام ، فألغت الحقوق التفضيلية ، ومالت الى منح المستعمرات « الحكم الذاتي » ، فوافقت حيالها على معاملة الباب المفتوح . ثم زالت « الحصرية » الفرنسية بدورهـا بعد السنة ١٨١٨ . فزالت شركة الهند الانكليزية من الوجود بعد ثورة الجنود البلديين . وعلى غرار نظام الامتيازات الذي بموجبه منحت الامبراطورية العثمانية « الفرنجة » بعض الحصانات ، فتحت الدول الآسيوية ابوابها تحت ضغط الاوروبيين السلمي او المسلح . وفي الاتجاه نفسه – الميل الى الباب المفتوح – عدلت دولة الكونغو الحرة في السنة ١٨٨٥ عن فرض اي رسم على دخول البضائع الاجنبية . وحتى في السنة ١٩٠٦ مغزى وثيقة « الجزيرة » حول مراكش تستوحي فكرة المقايضة الحرة .

وعن طريق الاتفاقات الدولية سُوّي جيداً عدد معين من المسائل التقنية والاقتصادية التي تهم مجموع الامم . فقد تأسست سبعة أجهزة دولية قبل السنة ١٨٥٧ – بما فيها لجنة الدانوب الاوروبية التي تأسست في معاهدة باريس في السنة ١٨٥٦ ؛ ورأت النور ١٢٨ لجنة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . فنجم عن ذلك قيام اتحادات دولية كان عددها ٧ في السنة ١٨٦٤ ، ثم اصبح ٢٣ في السنة ١٩١٤ . وكانت هذه الاتحادات في البدء اوروبية في الدرجة الاولى ، ثم شملت او استهدفت شمل كافة اقطار العالم . وقد عني معظمها بالمواصلات وانتقال البضائع . أما أول اتفاقية من هذا النوع فهي الاتحاد التلغرافي الذي تأسس في السنة ١٨٦٥ . وفي السنة ١٨٧٤ أبصر النور في برلين الاتحاد البريدي العالمي الذي سيعاد تنظيمه في اتفاقية روما في السنة ١٩٠٦ . وفي احد المؤتمرات اختيرت باريس مركزاً لاتحاد من اجل توحيد النظام المتري بين الدول ، وأقر في اتفاق آخر تنظيم الطرق البحرية . وعقدت مؤتمرات اخرى ، من اجل الكونغو في برلين (١٨٨٤ – ٨٥) ، ومن أجل تدويل قناة السويس في القسطنطينية (١٨٨٨) .

الحركة المالية الدائرية الفائضات

اذا كانت التجارة بين الدول تقدر بمليارين ونصف المليار حوالي السنة ١٨٠٠ ، فقد ارتفعت الى ٢٧ مليارا في السنة ١٨٥٠ والى ١٠٠ في السنة ١٩٠٠ . ويقدر الخبراء ان معدل التجارة في بريطانيا العظمى قد ارتفع خلال قرن من ١ الى ١٤ ، وفي فرنسا الى ١٥ ، وفي ألمانيا الى ٣٤ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٩ . الا أن بريطانيا العظمى قد احتفظت بالمركز الاول باحتكارها سدس مجموع المعاملات التجارية العالمية .

واشتدت المنافسة وتقسيم العمل الجامعين أساسيين . فكان هناك أولاً نوع من التوزيع الافقي للنشاط بين الدول المتطورة صناعياً ، وكان ذلك نتيجة عجز كل منها عن أن تكتفي تقنيا بنفسها : فان فرنسا وبريطانيا العظمى مثلا قد تبادلتا شراء الكثير من المصنوعات الرائجة. ثم حدث تقسيم عمودي للعمل : فمن جهة طلبت اوروبا من القارات الاخرى الخامات الزراعية والصناعية ، بغية تحويلها بنفسها ، ومن جهة ثانية زودت الدول الجديدة النامية بالمصنوعات . وقد سهل توظيف رؤوس الاموال هذه الحركة الدائرية ، لأن رؤوس الاموال تنشط استثمار المناطق المتخلفة وتزيد من قدرة سكانها على الشراء . وجملة القول ان العالم كان سائراً في طريق التحول الى مجموعة اقتصادية وحيدة عظيمة مرتبطة بالرأسمالية الاوروبية ، وانه جاز للبريطانيين الاعتقاد بأن موقفهم خير موقف لجني خير الثمار من مثل هذا النظام .

إعلام واسع وإعلان ناشط

ارتكز حسن سير التجارة العظمى الى معرفة السلع التجارية والحاجات. ولكن الجهاز القادر على تجميع كافة المعطيات لم يكن متوفراً . فقد انشئت دوائر استعلامات في لندن أولا ، ثم في نيويورك وباريس ، وتوفر لبرلين ٧٥٠ ٠٠٠ جذاذة في السنة ١٨٩٠ . وعقدت مؤتمرات الاحصاء الاولى وتناولت موضوع المعارض عندما سنحت الظروف . وابرزت صحف عديدة كالـ « اقتصادي » (ايكونومست) و « صحيفة الاقتصاديين » ، و « الاقتصادي الفرنسي » معلومات ومستندات وفيرة. وفي السنة ١٨٧٩ عقد في بروكسل مؤتمر للجغرافية التجارية .

كانت السوق الدورية ، من قبل ، ملتقى الشارين والباعة . ثم تلاشت اهميتها ولم يبق منها حوالي السنة ١٩٠٠ سوى سوق النماذج وسوق العرض . ومرد ذلك الى ان التفاوض في المعاملات التجارية اصبح يجري في الصافق أي في اجهزة دائمة تقرر فيها الصفقات نقداً ولآجال معينة في الدرجة الاولى . فعقد البيع المؤجل قد نظم المعاملات التجارية التي تتناول كميات كبرى من السلع بين اطراف تفصل بينهم مسافات كبرى . ولكن المضاربة قامت الى جانب وظيفة المصفق الطبيعية ، من حيث أن البائع يرجح تدني الاسعار لأنه يكسب عند التسليم ، بينما يحسب الشاري حساب مكاسب الارتفاع ، ومما يؤيد ذلك ان التفاوض غالباً ما تناول سلفاً وهمية وكان أشبه ما يكون بالمراهنة . فقد تناول التفاوض حصيد قمح او قطن مقبلا ومنسوجات او مصنوعات معدنية لم تخرج بعد من المصانع . ومنذ السنة ١٨٤٤ ، مست الحاجة في لندن الى

كية ، بغية التخلي عن البناء القديم ا ، مقايضة المخزونات ، ثم
رر مصير القطن في ليفربول والهافر وبريمن ونيويورك ، ومص

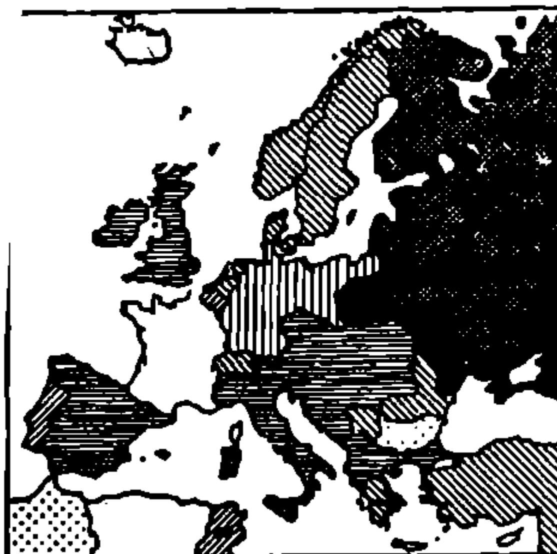

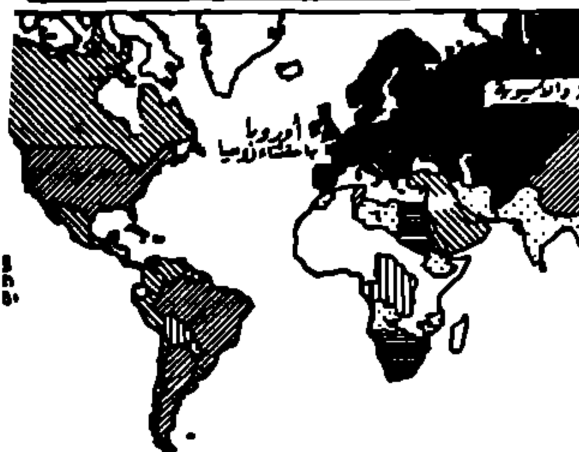

شكل رقم ١٠ ـ الثروة الفرنسية في الخارج
مليارات ؛ ٢ ، بين مليار وخمسة مليارات ؛ ٣ ، بين ٥٠٠ مليون وملبـ
مليون ؛ ٥ ، بين ٥٠ مليونا و ١٠٠ مليون ؛ ٦ ، اقل من ٥٠ مليونا .
« نقلا عن التحقيق الذي اجري في السنة ١٩٠٢ »

الحبوب في انفرس ومرسيليا وشيكاغو . وكان من عدد المط
ع قد تكاثرت : فلعصر الهم في « مـــارك لاين » على الحبوب ،

« منسغ لاين » على الشاي » الخ . وفي ما مضى، اختلف سعر الحبوب بين منطقة انتاج واخرى: ولكن التجارة الكبرى توصلت شيئاً فشيئاً الى فرض الاسعار وفاقاً للحصيد والطلب العالمين . ومن ضفاف الـ « ميشيغن » الى ضفاف الـ « مرسي » ، ومن مونتريال وسيدني وبوينوس ايرس الى لندن اعطيت المعلومات يومياً ، بواسطة التلغراف ، حول اهمية المخزونات والمحاصيل المرتقبة وطلبات البضائع والاسعار المتداولة . وركزت مؤسسات الحرير اهتمامها على ظروف الصناعة ، التي غدت بمثابة تحكيم تقني حقيقي في موضوع النوعية .

وتعاظم دور الوكالات . فسارت « هافاس » قدماً في طريقها الصاعدة: وقد توصلت شبكة فروعها ، التي كانت على اتصال تلغرافي يومي بالوكالة الام، الى ضم الصحافة الفرنسية في الولايات. وغدت « رويتر » في لندن اكبر جهاز اخباري في العالم : فان الابن الثالث لحاخام «اسرائيل بير » قد امن الخدمة بين العاصمة الانكليزية والبر الاوروبي منذ السنة ١٨٥١ ؛ وفي السنة ١٨٥٩ فاز بموافقة صحيفة الـ « تايمس» على نشر البرقيات حول الحرب الايطالية؛ وخلال حرب الانفصال اعطى الاخبار بواسطة مركب بخاري يلاقي السفن الآتية من اميركا في عـرض البحر ؛ وفي السنة ١٨٦٦ استحصل على امتياز حبل سلكي يصل لنـدن بالهند مباشرة.

كان « بارنوم » مثال المخترق العصري ، وربما عاد اليه فضل ترويج اللون الاعلاني :فبعد ان عرف « طوم بوس » الشهرة بواسطة الدعاوة ، دون آراءه حول من جمع الثروة باستغلال فضول البشر وسرعة تصديقهم المفرطة (« خدائع العالم » ، ١٨٦٥). فلجأ الثلاثي « موريسوف » - « بار » - « هولواي » آنذاك الى الاعلان لتمجيد الاقراص الدوائية، وزاد « غوردن بنيت » من نسخ صحيفته « نيويورك هارولد » بفضل ادراجات يشتبه في مغزاها الاخلاقي . ودان اميركي آخر هو « سلفردج » للاعلان الصاخب بنجاح مخزنه في ساحة لندن . وقابل الدعاوة لصابون « بير » الدعاوة لصابون « سن لايت » ، واستخدم لبتون طرائق جديدة بـ « بارنوم » لتصريف شايه في الاسواق الانكليزية . وقد اشتاز كثيرون من المصباح السحري الذي عكس على عمود ملـون دعاوات السلعات او المواد الصيدلية . فدخل الاعلان نهائياً في الاعراف الصحفية التي اسهم في افسادها اسهاماً كبيراً، ولكنه لم يسد مسد المال المدفوع الذي كان يخدم ، بحجة الاعلام ، هذه الصفقة التجارية او تلك . فاستمر الاستيلاء على الرأي العام بواسطة المال .

وقد جندت الرغبة في هذا الاستيلاء كذلك البيانات والجداول الاعلانية الـتي وزعت في الطرق العامة او ارسلت الى المنازل . فلا عجب من ثم اذا ما علمنا بأن طوماس هولواي كرس نصف مليون دولار لتعريف الاميركيين بأقراصه الدوائية في السنة ١٨٥٠ . لهل يجب ان نرفض شهادة الراعي الالماني الذي ذكر انه استلم ١٣٥٥٧ صفحة من المنشورات التجاريـة في السنة ١٨٩٩ ؟ ان من المسلم به ان الدعاوة في فرنسا حوالي السنة ١٩٠٠ قد كلفت زهاء ١٠٠ مليون خصص اربعون مليوناً منها للاعلانات في الصحف . ولكن الاعلان قـد غزا المناظر الطبيعية . فبواسطة الاعلانات الملصقة على الجدران "فرض الاعلان فرضاً على البصر في شوارع

المدن والطرقات وقاعات الاجتماع والمسارح . فقد اعتبر الاعلان الملق اداة نظرية للدعاوة وقد ولد بولادة الطبع على الحجر ومكابس الطباعة الكبرى ، وبدافع الرغبة في مقابلة الانتاج الكبير بتوزيع كبير على مستواه . فكان الاعلان مزعجاً بلازمته للرائين ولكن أثره الجامعي كان عظيماً جداً .

دين اوروبا على العالم

كانت الرأسمالية الاوروبية في موقف المسلف الجليل الفائدة . اجل ان هذا الموقف كان منطوياً على اخطار كثيرة ، ولكنه قد وفر لها دخولات كبرى وسمح لها في الوقت نفسه بتنشيط الحركة التجارية الدائرية . فكان من ثم عدد صغير جداً من البلدان بمثابة صيارفة للدول الاخرى لقاء دخل تقتطعه منها . وباستطاعتنا تقدير هذا الدين بـ ١٥٠ مليارا حوالي السنة ١٩٠٠ يعود اكثر من نصفها الى بريطانيا العظمى . وقد توزع قرابة ثلث الاوراق التجارية الفرنسية في الخارج . ويجدر لفت النظر هنا الى ان توظيف الاموال في المستعمرات لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة جداً .

كان التعويض الفرنسي لألمانيا مفيداً لمشاريع الحكومة الالمانية في الدرجة الاولى ، ولكن حصة التوفير الجرماني ، بعد أزمة السنة ١٨٧٣ ، ولا سيا بعد السنة ١٨٨٠ ، قد سلكت بالتفضيل طريق الخارج (وقد لشكى بسمارك نفسه من ذلك لدى مصرف « بلايخرودر ») : فقد اتجهت اما شطر الولايات المتحدة او اميركا اللاتينية ، واما شطر اوروبا الوسطى المجاورة . واذا بدأت الولايات المتحدة تصدر الرساميل الى اميركا اللاتينية ، فان المال الاوروبي ما زال يستثمر فيها . ولما كان المكتتب البريطاني منصباً على العموم الى الطبقات الاجتماعية الميسورة ، وواقفاً على وضع السوق التجارية ، فقد ساند ، في اوروبا وسواها ، معظم المشاريع التي تتطلب مصنوعات بريطانية . فهو قد فكر ، قبل السنة ١٨٥٠ ، بالبر الاوروبي القريب خصوصاً ، مع اهتمامه منذ ذلك الحين بأميركا . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، توسع افقه واهتم اكثر فأكثر بالبلدان النامية وبمستعمراته .

ما زالت بعض رؤوس الاموال المتوفرة توظف في انحاء اوروبا . وقد سارت في اتجاهين منفصلين هما الشرق والجنوب اللذان كانا اعجز من ان يجهزا بالادوات بوسائلهما الخاصة . ففي الشرق اصبحت الامبراطورية الروسية ، منذ السنة ١٨٨٠ ، المستعمرة الاوروبية الرئيسية للرأسماليين الفرنسيين .

ان الشرق لميدان عمل واسع : مشاريع خطوط حديدية ومرافىء ومناجم ، وقروض للحكومات الفقيرة ، وعمليات اخرى كثيرة ، مغرية ومحفوفة بالاخطار معاً ، قد تنجم عنها ملابسات سياسية شتى . وكان هنالك ميدان مفضل آخر للسلفين : اميركا اللاتينية حيث احرزت سوق لندن تقدماً ما زالت تحافظ عليه . اما الشرق الاقصى فقد كان له سحره القوي على الرغم من بروزه متأخراً ، وهنا ايضاً كانت السيادة للندن .

وحبذا لو نستطيع تقدير النفوذ الذي توصلت اليه المؤسسات التجارية الكبرى في البلدان التي عملت فيها : فانها كانت دولاً حقيقية داخل بعض الدول .

الازمات الرأسمالية

لم يكن ارتقاء الرأسمالية منتظماً . وقد سبق « ده سيسموندي » ان تنبأ بحتمية الازمات الدورية التي تلازم نظاماً يحكم على نفسه بالاكثار من الانتاج احياناً بفعل اقتطاعه الارباح من اجور اليد العاملة . لا بل برهن ماركس وانجلز ان الرأسمالية منتهية حتماً الى الاضمحلال بفعل متناقضاتها . وقد مثل «جوغلار» الازمات بمراحل الانتقال من عهود الازدهار الى عهود التقهقر التي شبهها « باريتو » و « والراس » « تليه « كورلو » » بالحركات التذبذبية . وقد عزاها « جيفونس » الذاك لاسباب كونية .

بدت الظاهرة وكأنها حركة دورية ، يتألف الدور فيها من مرحلة مؤاتية ومرحلة غير مؤاتية ويستغرق عشر سنوات تقريباً . وهذا ما حدث منذ السنة ١٨١٥ ؛ وهذا ما سيحدث بعد السنة ١٨٥٠ ، اذ تعاقبت الازمات الهامة في السنوات ١٨٥٧، و١٨٦٦،و١٨٧٣ ، و ١٨٨٢ – ٨٤ ، و ١٨٩٠ ، و ١٩٠٠ – ٠١ ، و ١٩٠٧ . ولكن بينما كانت الازمة ، في السنة ١٨٤٧ ، ازمة نظام قديم او ازمة من الطراز السابق للرأسمالية، التي تبرز في القطاع الزراعي اولا والتي يصعون عاملها الرئيسي افتقاراً الى المواد الغذائية ، نرى على نقيض ذلك ، في السنة ١٨٥٧ ،ان الجهاز الرأسمالي نفسه هو ما تحل به الازمة قبل غيره ، في اهم مركز من مراكزه ، اي في لندن . وكان سير الازمة منذئذ وفاقاً للترتيب التالي : المؤسسات المالية اولا ، ثم الصناعة والتجارة ، واخيرا الارياف . وقد بدا ان الازمة تنشأ ابدا من افراط في المضاربة يتسبب في انهيار مصرفي جزئي .

فهل كانت الازمات ازمات نمو ، مفيدة بعض الشيء ، وعاجزة على كل حال عن ايقاف النظام الرأسمالي في سيره ؟ ام ازمات مشؤومة وسيئة العاقبة لا تترك طبيعتها المزمنة اي شك حول نهاية الرأسمالية ، باعتبار ان فترات الانطلاقة ليست سوى هنيهات سريعة الزوال ؟ ومها يكن من الامر فقد اتفق الاحرار والاشتراكيون على ملاحظة انخفاض معدل الفائدة وحاجة السوق الملحة الدائمة الى التوسع : ومر تطور يرافق التقدم الاقتصادي في نظر الاولين ، ويؤدي الى اشد التسلطات خطراً على مستقبل البشرية في نظر الآخرين .

التقلبات الطويلة الامد
السنوات الجيدة ١٨٥٠ - ١٨٧٣

بعد هزات السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ ، استؤنف العمل استئنافاً بناء ولكن الاسعار تدنت تدنياً حقيقياً بمداهمة السنة ١٨٧٣،ولم ترتفع نسبة الفائدة بعد انخفاضها ،واستمر الهبوط في الاوراق النقدية والهبوط في الارباح بصورة عامة . فقارن المعاصرون عصرهم بالعصر الذي سبقه وتساءلوا عن معنى انقلاب على مثل هذا الوضوح والتمادي في الاتجاه . فعاودت سكان الارياف ، الذين عانوا من هذا الهبوط اكثر من غيرهم ، ذكرى « السنوات الجيدة » : التي

سببت الحرب الاهلية بالنسبة للمزارعين وأصحاب المزارع في اميركا . وعلى الرغم من استقرار السلم في اوروبا ، فقد بدا لعالم الاعمال ان الاعمال كانت اكثر سهولة قبــل السنة ١٨٧٠ ؛ ولم يحكن القلق الذي أثاره السباق الى التسلح ليفسر الجمود السائد .

فاذا ما درسنا الاسعار ، استطعنا الخلوص الى وجود مرحلة استئناف عمل تعقب مرحلة الهبوط التي عرفها الربع الاول من القرن ، وتبتدىء بعد ازمة السنة١٨٤٧ – ١٨٤٨، لا بل قبل ذلك في انكلترا . ويظهر الخط البياني المنحني انخفاضاً يكاد يكون مستمراً ، ثم ارتفاعاً قوياً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٥٦ يليه تقلبات بقيت اسعار البضائع معها اعلى منها في المرحلة السابقة[1]. واذا اتخذنا المعدل ١٠٠ اساساً السنة ١٨٥٠ في فرنسا ، كان معدل مجموع الارباح ٣٥٨ ، ومعدل الارباح الصناعية ٣٥٦ ، ومعدل الاجور ١٧٥ ، وكلفة المعيشة ١٢٣ ، في السنة ١٨٧٠ . ولكن الحركة كانت مماثلة في كافة البلدان الغربية .

لوحظت آنذاك حركة تجارية ناشطة ؛ فسالت مياه نهر الحرية الاقتصادية غزيرة ؛ وبدا نمو الاسواق السلمي امراً ممكناً بسبب توفر وسائل الاثراء دون اثارة الاطماع . وانطوت الاساليب الاستعمارية نفسها على مزيد من الرفق والتلطف . فعرف هـــذا العهد بالعهد التشاوري . وعلى الرغم من الازمات العابرة والحروب ، التي ربما اسهمت في نمو الانتاج والاستهلاك على كل حال ، فان المناخ العام ، الذي كان مشجعاً ، قد حل على التفاؤل .

هبوط السنوات ١٨٧٣ - ١٨٩٠
ونهاية المرحلة ١٨١٥ - ١٨٩٠

انحنى الرسم البياني للاسعار مرة اخرى بعد السنة ١٨٧٣ . فتكاثرت الدلائل المكدّرة : مزيد من المنافسة حول سوق يبدو نشاطها مصاباً بالضعف والارتخاء؛ تدن جلي في الطلب بالنسبة للعرض ؛ هبوط نسبة المكاسب ؛ وجدير بالانتباه ان هذه الوقائع الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً . وأبطأت في الوقت نفسه حركة الدخل الحقيقي الشخص الواحد التي لوحظت منذ السنة ١٨٥٠ . ولكن سلماً دائماً ، وان مسلحاً ، قد عقب الحروب القومية الاوروبية . فبدا العرض متفوقاً على الطلب بفضل النجاحات التقنية ؛ لا سيم وأن القيمة الشرائية لم ترتفع ارتفاعاً كافياً بسبب استثمار اليد العاملة استثماراً مفرطاً . وأدى بروز البلدان الحديثة الى اشتداد المنافسة ، فتضرر منتج الارياف بصورة خاصة بسبب افتقاره الى الادوات المتقنة : فأدى انخفاض المحاصيل الريفية الى انخفاض شامل سريع الخطى . وصمدت الاجور في البدء صموداً دونه صمودها خلال الفترة المقابلة التي دامت من السنة ١٨١٥ حتى السنة ١٨٤٨ : ولم ترتفع الاجور الاسمية ارتفاعاً مطرداً فحسب ، بل لوحظ ارتفاع الاجور الحقيقية ايضـــاً . الا ان الازمات الدورية كانت ثقيلة على العامل ورب العمل على السواء . فكان على المشروع ان يبذل جهداً توفيقياً كبيراً ،

---

(١) راجع الرسوم البيانية في الصفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

بالسعي وراء انتاجية متزايدة ، واعادة التنظيم لجهة التجميع ، وتوسيع العمل. واشتدت حدة الصراع من اجل التصريف في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه حدة المعركة الاجتماعية . ولكن التغييرات المدخلة على الادوات ووسائل العمل انقذت مؤسسات كثيرة : فان معمل « هولنز » للغزل » في احدى ضواحي « نوتنغهام » ، الذي هبطت رباحه من ٣٦ الى ٩٪ ، قد تحول الى نسج صنف اسكتلندي جديد واستغنى عن الوسطاء بتعامله مباشرة مع الباعة بالتفصيل ؛ كما ان معمل « فورتن » للغزل في « غنت » قد جُهِّز بأنوال جديدة واستبدل آلات التحضير بحلالات آلية .

يتضح من ثم ان الهبوط الكبير قد استعجل التقدم التقني ودفع بالرأسمالية الغربية الى الضغط بمزيد من القوة على مناطق العالم الاخرى .

يجب لفت الانتباه ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان ارتفاع الاسعار ونسبة الفائدة في السنوات ١٨٥٠ - ٧٣ كان سريع الزوال . اوليس الانخفاض الذي ابتدأ منذ السنة ١٨١٧ هو ما استعاد حقوقه بعد السنة ١٨٧٣ ؟ لذلك فان الواجب يقضي بادخال مفهوم موجات تكاد تتجدد قرناً بعد قرن ، هي اعظم تمادياً من التقلبات الطويلة الامد . فيكون امامنا موجة جديدة تمتد من السنة ١٨١٧ حتى السنة ١٨٩٥ وتشمل ٨٤ سنة تقريبا ، ونذكرنا بالموجة التي امتدت من السنة ١٧٣٣ حتى السنة ١٨١٧ ، وتميزت بارتفاع تطاول عهده جداً ، وبموجة اخرى ابعد عهداً امتدت من السنة ١٦١٠ حتى السنة ١٧٣٢ وتميزت بالانخفاض عموما . وربما بلغت الرأسمالية الحرة ذروتها اثناء هذه الموجة تقريبا، مستفيدة من النجاحات التقنية وتوسع الاسواق التجارية . وجملة القول ان كل ما حدث قد حدث وكأن النظام الاقتصادي ، بعد ان استفاد من تدني الاجور اولا ، ثم من تبدل الاجور بالنسبة للاسعار والمكسب خلال الارتفاع العابر ، قد وجد نفسه في موقف ضيق حين تدنت الاسعار والمكاسب مرة اخرى وصمدت الاجور في وجه الاتجاه نفسه. وفي سبيل التغلب على المحنة ،ربما رضي بتغييرات تتناول منه التركيب، واستنجد بالعبقرية الصناعية ، وسلك طريق السلطية متحمسا ، ولجأ عند الحاجة الى الطرائق التي قد توحي بها اليه القومية .

القومية الاقتصادية تستعيد مكاسبها : العودة الى مبدأ الحماية

ان الهبوط الذي طال عهده من السنة ١٨٧٣ حتى السنة ١٨٩٥ قد كال الضربات القاسية للمقايضة الحرة . وعبثا حاول القائلون بهذه السياسة تقديم الادلة على ان الانانيات القومية مسؤولة عن القلق السائد ، لأن توزيع العمل بين الدول ما زال ناقصا . اما الخصوم فقد نسبوا لها هبوط الاسعار والمكاسب . وكان الحدث الهام في هذا المجال تحول العناصر الزراعية الى مبدأ حماية الانتاج الوطني ؛ فجاءت آفة الكرم نفسها ، التي قضت على آمال الكرامين في فرنسا تدعم هذا المبدأ مثلا . فتحول كافة المستائين بأنظارهم نحو الدولة وطالبوا بمساعدة

موظفي جماركها . اما الحكام فقد استجابوا لنداءات هؤلاء المتضخين دون صعوبة لأن الرسوم ستساعدهم على دفع نفقات الخدمات العامة والتسلح . يضاف الى ذلك ان الاوروبيين استطاعوا بذلك اتهام الولايات المتحدة التي استفادت من الرسوم الضئيلة لتصدير محاصيلها ومصنوعاتهـــا ورفضت تسهيل بيع سلع العالم القديم . ولكن العصيان قام في وجه بلاد المدرسـة المتشـارنة : فمشت المانيا البسمارككية على رأس المتمردين ، وانتصر مبدأ الحمـــاية بسرعة نسبية حتى في بلجيكا ، ولم يرفضه سوى هولندا وبريطانيا العظمى . وبينما كانت الحروب الجمركية قائمة بين فرنسا وايطاليا ، وبين المانيا من جهة وروسيا واسبانيا من جهة اخرى ، وبينما كانت الولايات المتحدة تعزز تكراراً اجهزة الحماية ، قام حلف « التجارة السمحاء » يحاول اقصاء « التجـارة الحرة » عن وطنها الام .

وهكذا احتمت الرأسمالية الغربية في مواقع مذهب الحماية الدفاعية ، فأطلقت الحريـــة القومية وتميزت بمزيد من السلطية . انه لمصير محتوم ، سينتهي اليه البريطانيون انفسهم حتى ولو رفضوا التنكر للكوبدنية التي تتصل ذكراها ، بالنسبة لهم ، بذكرى عظيمة اخاذة .

فيتضح من ثم بعد البحث والتدقيق ان النظام الاقتصادي السائد في اوروبا واميركا الشمالية سينتهي حتما بالاولى ، وبالثانية من بعدها ، الى التوسع بفعل الظروف والاتجاه الطبيعي .

الفصل التاسع

الأستعمار الاوروبي
ونشأة السياسات التوسعية الكبرى

« المستعمرات احدى ضرورات الحياة العصرية ... »
(فرنشسكو كريسبي ، في ٢ ايار ١٨٨٨)

« ان القياس الوحيد الواجب اعتماده في كل مشروع استعماري هو درجة فائدته ومجموع العائدات والمكاسب التي يجب ان يدرها للوطن الام » .
(« اوجين اتيان » ، مقال في « الدفان » ، ١٨٩٧)

الفائق الظروف القومية في اوروبا والاستعمار في منتصف القرن

بعد القضاء على سيطرة الاسبانيين والبرتغاليين البرية في اميركا، لم يبق في منتصف القرن سوى امبراطورية واحدة عالمية حقاً، هي الامبراطورية البريطانية ؛ فمعظم الممتلكات الهولندية كانت مجموعة في جنوبي شرقي آسيا ، ولم تستطع فرنسا حتى ذاك التاريخ سوى التمكن هنا وهناك في بعض النقاط الدائرية من افريقيا واوقيانيا والهند الصينية . والحال توفق الاوروبيون خلال سنوات قليلة ، في النصف الثاني من القرن ، الى الاستيلاء على الشطر الاكبر من افريقيا (١١٪ فقط في السنة ١٨٧٥ ، و٩٠٪ في السنة ١٩٠٢)، ومجموع الاراضي الاوقيانية تقريبا (٩٨٪ مقابل ٥٦٪) ، بينما تكونت نهائيا حدود الولايات المتحدة الواسعة في اميركا الشمالية . واذا ما استثنينا المغرب وليبيا ، فان المستعمرات الاوروبية قد تحددت آنذاك بما يقارب ثلاثة اخماس اليابسة واكثر من نصف سكان الكرة الارضية، بصرف النظر عن اوروبا.

لم تشكل المنازعات القومية حجر عثرة في سبيل هذا التوسع . واذا كانت الحروب الكبرى التي نشبت بين السنة ١٧٩٢ والسنة ١٨١٥ قد اعاقت مؤقتا الجهود الاستعماري الفرنسي

والهولندي ، فانها قد أدت من جهة ثانية الى توطيد الوجود البريطاني خارج اوروبا ؛ ويجب انتظار السنة ١٩١٤ حتى نرى دولة تفقد مستعمراتها حين ينقطع اتصالها بها . لا بل ان النصر الالماني في السنة ١٨٧٠ وقيام المملكة الايطالية قد استعجلا في الواقع ظهور تيار استعماري قوي . فمن جهة اتجهت اهتمامات روما الى تحويل البحر الابيض المتوسط الى حلبة منازعات ؛ ومن جهة ثانية اسهمت السياسة الاميركية في تحريك وغالب الدول الاستعمارية التقليدية ، ودفع فرنسا الى الانقضاض على افريقيا ، وروسيا على آسيا ، ووقوف فرنسا وروسيا معاً ضد بريطانيا العظمى التي ما كانت لتقف موقف اللامبالاة من اقتسامات جديدة . ولعبت المصادفة نفسها دوراً هاماً في ارشاد منافس جديد ، هو ليوبولد ملك بلجيكا ، الذي استغلها بمهارة ، الى طرق القارة السوداء . وبعد ان قطع توزيع الانصبة شوطاً بعيداً ، اعلنت المانيا، ربما بعد فوات الاوان ، عن عدم رضاها واستهلت سياسة استعمارية رهيبة .

استمرار مذهب المناهضا للاستعمار

بيد ان التوسع الاستعماري قد صادف خصوماً يناهضونه . لصادفهم في الدرجة الاولى بين اولئك الذين تخوفوا من توزع القوى الوطنية . أفلم يبد نابوليون الثالث هذه الملاحظة في السنة ١٨٤١ : « نحن نفقد الجزائر بحرب لا هدف لها ... ان هذه الممتلكات النائية ، الباهظة الاكلاف في ايام السلم والمسببة المصائب في ايام الحرب ، تشكل سبباً من أسباب الاضعاف » ؟ وقد قاوم حملة المكسيك شطر هام من الاعيان المحافظين والمعارضة الجمهورية : وقد لاحظ المدّعون العامون آنذاك ان الرأي العام يعتبرها « باهظة النفقات ، ... ولا نتيجة لها » . واتفقت احزاب اليمين والراديكاليون في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع ارسال الجيوش الى خارج اوروبا : فلقد صاح كليمنصو في السنة ١٨٨٢ قائلاً : « يجب الا نحاول ارتداء عنف اسم الحضارة الخداع » . وفي السنة نفسها اعلن بسمارك في الـ « رايخستاغ » : « لن ننتهج سياسة استعمارية ما دمت مستشاراً » . وقد امتنع سواد البلجيكيين عن مساندة ما انتواه الملك ليوبولد .

وغالباً ما استند الى الاعتبارات العاطفية والانسانية ، ووقفت الاشتراكية موقفاً معادياً بيّناً من السياسة الاستعمارية لانها نظرت اليها نظرتها الى احدى طرائق الرأسمالية التسلطية . ولكن يجب لفت الانتباه الى ان النفور قد تجلى زمناً طويلاً في صفوف الرأسماليين الاحرار بصورة خاصة . فقد اكد « ايف غويو » في السنة ١٨٨٥ : « اذا ما رغبنا في ان نمثل تمثيلاً رمزياً ما كلفه من ضحايا الـ ٢٥٠٠٠٠ مهاجر مستعمر الذين استوطنوا الجزائر ، لتبين لنا ان كلاً منهم يجلس على اربع جثث ويحرسه جنديان » . ولا يخلو من مغزى ذاك الاتجاه القوي الذي ارتسم في بريطانيا العظمى بين السنة ١٨٤٠ والسنة ١٨٦٠ واستهدف شمل المستعمرات بـ « الحكم الذاتي » والتوقف عن كل فتح جديد . وقد كتب « دسرايلي » نفسه الى « ملمسبوري » في السنة ١٨٥٢ : « كل هذه المستعمرات اللعينة ستصبح مستقلة بعد سنوات ، وهي بمثابة رحى

مطلق بعقلنا » . وقد سلّم « روجرز » ، امين سر الدولة لشؤون المستعمرات ، بأن « مصيرها الاستقلال » . وفي السنة ١٨٦٣ صدر كتاب « غولدوين سميث » المشهور «الامبراطورية» الذي اقترح فيه المؤلف انفصالاً حبياً بين بريطانيا العظمى وبعض البلدان ككندا واوستراليا . وفي كتابه ، « المستعمرات » ، اعلن الرحالة الالماني العـالم بأصول الشعوب ، « ادولف باستيان » ، عداءه الصريح للفتح الاستعماري . أضف الى ذلك الانطباع القوي الذي تركته قصة « ماكس جافلار » ، لـ « ادوارد دوز — دكرز » الذي بسط ، باسم « مولتاتولي » المستعار ، تجاوزات طريقة « فان — دن — برش » الاستعمارية في الهند النيرلندية . اما السياسة السلبية ، والمتحفظة على كل حال ، التي سيعتمدها « غلادستون » المتشائم ، فلها ما يبررها على ضوء نفعية تجارية عززت موقفها المعادي للسلطة الاستعمارية نجاحات « الازمنة الجيدة » : فان استثمار الثروات العالمية لا يبرر البتة تملك هذه الارض او تلك بموجب مبدأ قومي وحتى تحضيري ، ولكنه يستلزم منافسة حرة باعتماد سياسة الباب المفتوح . ولذلك كان كافياً ان يحمي « بلمرستون » حرية البحار التي بفضلها تأمنت ثروة بريطانيا العظمى وكافة الشعوب المتطورة .

ديمومة التقليد الاستعماري والخطوط الاولى لمذهب تسلطي

ابدى « كوبدن » هذه الملاحظة التي لا تخلو من الفم : « تتمسك الطبقة الوسطى بالمذهب الاستعماري تمسك الارستوقراطية نفسها به ، وليس العمال اكثر المية من هذه وتلك » . اما الجاز فقد أسف على ان العمال « يتمتعون بكل طمأنينة مع الراديكاليين المحافظين والاحرار باحتكار انكلترا الاستعماري وباحتكارها السوق العالمية » . فقد ساد الرأي من ثم ان التخلي عن المستعمرات هاقبته الانحطاط .

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الاول من القرن بتنمية فرق الاختصاصيين المؤهلين للحرب والادارة في المناطق الحارة ؛ فأعد هذا الاعداد الجنود والموظفون المرسلون الى الهند والجزائر الذين استفيد بعد ذلك من خبرتهم في مناطق آسيوية وافريقية اخرى . وقد تجددت تقاليد قديمة في كثير من العائلات الفخورة بالانتساب الى « رسالة الجندية » او « الخدمة » . وامنت الامبراطورية الثانية استمرار الجهود الذي ما زالت انكلترا تبذله ، اقله لتوطيد مراكزها . وقد جاهر بلمرستون بما يلي : « لا تتخلوا ابداً عن رأس ديوس يحق لكم الاحتفاظ به وتعتقدون ان باستطاعتكم الاحتفاظ به » .

ربما مت ذلك بصلة الى المفهوم التمديني للصليبية المسيحية ، السلمية او المسلحة . وكان هذا المفهوم قد استعاد قوته بفعل الحماس الذي اثاره تيار القوميات . فبينما ما زالت بعض الشعوب منشغلة بهاجس وحدتها ، تولت شعوب أخرى رسالة اوسع آفاقاً . ألم يقدم كيريافسكي على الشعوب الاخرى ، حوالي السنة ١٨٣٠ ، « الشعبين الفتيين الطريين العود » ، اي الشعب الروسي والشعب الاميركي ؟ اضف الى ذلك ان صدى السلافية الرومنطيقية الشاملة قد تردد في مؤلفات

« كاتكوف » و « أكساكوف » بفكرة الدور المجيد الذي تدخره العناية الالهية لروسيا الارثوذكسية ، وان دوستويفسكي ارتأى ان « كل شعب قوي يؤمن ويجب ان يؤمن ، اذا أراد لنفسه حياة طويلة ،بأن خلاص العالم متوقف عليه وعليه وحده » . وقبل ان تستغل الداروينية وينشر « غوبينو » كتابه « محاولة في اختلاف الاجناس البشرية » ، جزم « افاسيز » « وكارفاج » بتفوق الجنس الابيض ، وتكلم « كوربه دي ليل » عن « الاجناس المتفوقة بالطبيعة » ، وكتب « كارليل » الذي امتدح الحكام ، ما يلي : « ان جزيرتنا الصغيرة باتت ضيقة بسكانها ، ولكن اتساع العالم يكفي لستة آلاف سنة » . وفي أسلوبه الديني ، عظّم « شارلز كنغسلي » ، العزيمة الجماعية ، بينا تغنى « تيسون » بالبطولة في خدمة السياسة البلمرستونية . وحين نشر « شارلز ديلك » كتابه « بريطانيا العظمى » افتتن قراؤه ، قبل أي شيء آخر ، بالنشيد المخصص لعظمة ما وراء الاوقيانوسات فبات ممكناً ان يأتي دسرايلي ويحل الحزب التوري من العربة المتشاركة ويمين له مهام اعظم نبلاً ويحمل من فكتوريا امبراطورة الهند . وعلى الرغم من أن غلادستون ، الذي جاء بعده ، قد اصدر اوامره بالجلاء عن أفغانستان والترانسفال ، فان الحملة التوسعية قد عرفت منذئذ نشاطاً مطرداً : فان « سيلي » ، تلميذ « داروين » ،قد عرض في كتابه « توسع انكلترا » ارتقاء مهيأ منذ اليزابيت؛ كما ان « فرود » ،تلميذ كنغسلي ومنفذ وصية « كارليل » ، قد طاف في الماضي والعالم البريطانيين ، فرأت الدور « عصبة فكتوريا » و« عصبة الامبراطورية » و « عصبة الامبراطورية البريطانية » ، وارتسم في الافق مثال جديد للسياسة الخارجية . وجرى تحول ذو مغزى الى فكرة امبراطورية سيدة مسيطرة تكفي نفسها بنفسها ، هو تحول « جوزف تشمبرلن » ، تاجر البراغي ، الغلادستوني والمتشتري .

حملت الوطنية والرأسمالية معاً –وهذه الاخيرة ،تحت ظل التأخر الاقتصادي– في اتجاه التوسع الاستعماري . فان « ديبون –هوايت » كان بمثابة ممهد الطريق حين عين للدولة مهمة « اغناء البشر باضافة المستعمرات والاسواق النائية والاسواق الجديدة الى وسائل انتاجهم او مقايضاتهم » . ولكن « ليست » و « روشيه » كانا قد عارضا كذلك المدرسة السميثية ، فأخذ الناس يصغون اليهم في المانيا حيث افلحت الجمعيات الاستعمارية ، بساندها مجهزو السفن والصناعيون ، في ارغام بسمارك على « كلفرسا » جديدة ، بانتظار « السعر الجديد » الغليومي .فأعاد « بول لروا – بوليو » حينذاك طبع كتابه « الاستعمار عند الشعوب المعاصرة » ، وفاز بحمل القائلين بمنصب الاحرار على اعتناق هذا المبدأ : « ان الشعب الذي يستعمر هو شعب يبني ركائز عظمته في المستقبل » . وقد برر « فرّي » مبادهاته بربطه بين العظمة والمصلحة : فمن جهة « تأسيس المستعمرة يعني ايجاد سوق » ،ومن جهة ثانية « للأجناس المتفوقة حقوقها حيال الاجناس الدنيا » . وهو سيوجز برنامج الرأسمالية الاستعمارية بعد ذلك في جملة واحدة : « السياسة الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية » .

الخطاط الشركات الممتازة القديمة

بعد انهيار النظام التجاري القديم ، عرف الديمومة بعد السنة ١٨١٥ عدد معين من المشاريع الكبرى المبنية على الاحتكار .

اجل لم تجدد الملكية ، ولا نابوليون ، شركة الهند الفرنسية ، ولم تزدهر اية مؤسسة من مؤسسات هذا العهد باستثناء الشركة الهولندية الجديدة التي تعاطت حتى السنة ١٨٧٥ تجارة رابحة في الـ « انسولند » والشرق الاقصى . وحين تجديد عقدها لم تفقد شركة الهند الانكليزية امتياز التجارة مع الصين فحسب ، بل رأت امتيازها في الهند ، المحدد بعشرين سنة ، يرتدي طابع مجرد مستودع للتاج . ثم حُدّ بعد ذلك من صلاحياتها ، وما لبثت المؤسسة المقاومة ان انهارت بعد ثورة الجنود البلديين في السنة ١٨٥٧ .

كان في نية معظم الشركات القديمة الممتازة استثمار المناطق الحارة . والحال كان عـدد منها قد عرف الديمومة في الشمال الاميركي الغني بالفراء . لا بل ان الشركة الروسية الاميركية وشركة الشمال الغربي وشركة خليج « هودسون » قد تنازعت بشراسة المناطق المخصصة للقنص والممتدة من الآلاسكا الى الاوريغون واللابرادور . واتحدت الشركتان الاخيرتان بغية التمكن من مقاومة الشركة الاولى التي كانت تزود سوق بطرسبورغ وتمارس في الوقت نفسه في آلاسكا احتكاراً وضع حداً له ضم هذه البلاد الى الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ . وبعد ان قامت شركة خليج هودسون بعمل ناجح باهر ، اضطرت بدورها الى الانحناء امام الاستعمار الحر الذي غزا الاوريغون ؛ ثم تأسست كولومبيا البريطانية ؛ وحين ابتاعت كندا منها ، في السنة ١٨٦٩ منطقة « روبرت » (مانيتوبا) ، الغنية بالاحراج ، تولت استثماره بوسائل جديدة . ولكنها ما كانت آنذاك سوى شركة رأسمالية ، شأنها شأن غيرها .

الشركات التعاقدية الجديدة

كانت الفترة ١٨٥٠ — ١٨٧٠ ، وهي فترة المقايضة الحرة ، اقل الفترات موافقة للامتياز . ولكن حين احرز مذهب حماية البضائع الوطنية بعض التقدم ، بدت المشاريع الحائطية بالعطف والتشجيع ،التي تمهد الطريق للاستثمار الاستعماري ، مغرية للرأسمالية التوسعية .

مارست اهم الشركات اعمالها في ظل الوصاية البريطانية او الالمانية . وقد اهتمت كلها تقريبا بالقارة الافريقية حيث رأت امامها مثل الجمعية الدولية التي اسسها الملك ليوبولد بغية استثمار الحوض الكونغولي . وهكذا توليهت في هضاب افريقيا الشرقية « الشركة البريطانية لافريقيا الشرقية » ، التي حملت اسم « الشركة الامبراطورية البريطانية الافريقية » ، و « الشركة الالمانية لافريقيا الشرقية » ، التي أسسها الدكتور « بيترز » . ثم أسس عدد من التجار الانكليز «الشركة الافريقية المتحدة » ، التي حملت « اسم الشركة الملكية النيجيرية » بعد اتحادها بشركة « التجار الافريقيين في الشاطىء الذهبي » .

على الرغم من حداثة عهد هذه الشركات التعاقدية الجديدة،يبدو انها كانت ذات شأن عظيم في تاريخ التوسع الاستعماري . فحين اضمحلت « الشركة الملكية النيجيرية » التي لم تمثل سوى

١٣ سنة ، دفعت لندن ٢٢ مليوناً للاستيلاء على ما يعرف الآن بـ « نيجيريا » التي يبلغ عـــدد سكانها ٢٥ مليون نسمة وتوازي مساحتهـــا ضعفي مساحة فرنسا . وكانت هـذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين ، هما « جورج توبمان غولدي » واللورد « ابردير » اللذان بلغا الـ « تشاد » بعد ان اجتازا الحـــاجز الحرجي في سواحل غينيا . وكانت قـد وقعت اكثر من اربعمائة معاهدة مع الزعماء البلديين ووفرت فائدة سنوية قدرها ٦٪ لمساهميها. وحين ارغمت على التخلي عن احتكارها امام حملات التجـــار في الوطن الام ، لم تتوار عن مسرح نشاطها بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة واستحصلت على حق استيفاء الرسوم المنجمية لمصلحتها الخاصة طيلة تسع وتسعين سنة . وقد ادت خدمة جلى للعظمة البريطانية في افريقيا الغربية .

ولكن اشهر هذه الشركات التعاقدية اطلاقاً هي «الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسسها « سسيل رودس » .

شركة سسيل رودس التعاقدية

لم يكن « نابوليون الراس » ملكاً متربعاً على عرش ، ولكنه كان ملك الماس والذهب ، واسس لانكلترا امبراطورية جنوبية . كان ابن رجل دين ، وقصد « ناتال » للاعتناء بصحته المتزيلة ، فسمع نداء « روسكين » « لاستثمار الاراضي البائرة » ؛ وكان عازباً ونافراً من النساء ، فاخذ يفكر في نفسه قائلا : « ان اخضاع الشطر الاكبر من العالم لشرائعنا سيكون بمثابة نهاية كافة الحروب » . وكان سالماً على غـرار « كوبدن » ، فوضع الاستعمار والرأسمالية في خدمة « السلام البريطاني » . سار في البـــدء في تيار البحث عن المـاس في كمبرلي ؛ فاشترى امتيازات الاستثمار وجرب حظه . فوافاه الحظ حين اعتمد ، على غرار روكفلر ، التقنية والتجميع معاً . وقد ضمنت شركته «دي بيرز مينتخ» في السنة ١٨٩٠ ، رقابة سوق الماس . ثم وقع اختيار رودس كـذلك على ذهب الترنسفال ، فأسس شركة « حقول الذهب في جنوبي افـريقيا » التي اشرك فيها آل « روتشيلد » . ولكنه ما لبث ان اصطدم بالتشريـع « البويري » .

وهو لم يكن تاجراً مغامراً فحسب . فقد كان مولعاً بالحضارة الاوربية ، التي يؤلف العنصر البريطاني خميرها ، فتخيل امبراطورية افريقية تكون قاعدتهـا مدينة « الراس » وقمتها قنـاة السويس حيث تمر طريق لندن-بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح بحراً بريطانياً. وانما يجب اسهام البوير لتحقيق ذلك – لا سيما وانه كان يحتقر الزنوج . امـــا اذا لم يستجب انسال الهولنديين لندائه ، فانه سوف يسحقهم. ولكن مشروعه يستلزم السرعة لان الالمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين « لمبوبو » و « زامبيز » . فاعرض حكام « الراس » انفسهم عن تبني المشروع . لذلك تحول رودس بانظاره نحو لندن حيث اعتمد على صـــداقاته في عـالم الاعمال واسس « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي استلمت في السنة ١٨٨٩

ملك التماقد الذي خولها ، تنمية بيشوانالند والمناطق الواقعة ابعد الى الشمال ، .فبني على الفور معمل ، فورت ـ سالسبوري ، في قلب الغابات ، وراء بلاد البوير ، على الطريق التي يسلكها البورتغاليون . وعندما اصبح رئيس وزراء ، الراس ، ، اخرج البورتغاليين من المنطقة المتنازع عليها واشترى من شركة ، البحيرات الافريقية ، منطقة شمالي الزامبيز وسحق مقاومة الـ ، زولو ، ، فضمن له ذلك اعتبار البوير في ، الراس ، .وفي السنة ١٨٩٥ ، احتلت ،روديسيا، مكانها على الخريطة . ولم يبق سوى ضم جمهوريتي ، اورانج، والترانسفال ،وسوف يحققه بعد انتزاع موافقة المسؤولين البريطانيين . ثم اجهز الذهب والامبراطورية على استقلال البوير حين وافته المنية في السنة ١٩٠٢ .

حمية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية

كان ليوبولد الثاني استبدادي المزاج ، ومحتالا ومتصلباً ، ومنتسبا الى اسرةمالكة مرموقة،ومفتقراً الى المال ،وشغفاً بمعرفة العالم ومكبلا في تصميمه على العمل بفعل النظام السياسي في مملكته نفسها ، ولكنه تميز بمؤهلاته لان يكون مؤسس امبراطورية عظيمة .فقد كتب منذ السنة ١٨٦١ :«لما كان التاريخ يعلمنا ان للمستعمرات قسطها الأوفر في تكوين عظمة الدول وازدهارها ، فلنحاول بدورنا الاستحصال على مستعمرة» .فتحين الفرص،وكان على استعداد لشراء الفيليبين،او الكناري او اي ارخبيل اوقيانوسي آخر ، الى ان وقع اختياره على افريقيا الوسطى البكر . واذا هو عقد في السنة ١٨٧٦ مؤتمراً في بروكسل من اجل حملة شديدة تستهدف ، العلم والانسانية والتقدم ، ، فانه لم يلبث ان ادرك الفائدة الشخصية التي باستطاعته ان يجنيها من مؤسسة مجردة عن الغاية في مستهل نشاطها . وفي سبيل الاستيلاء على البلاد ورسم خريطتها ، فكر بـ ، غوردون ، وتوجه الى ، برازا ، واستهال ، ستانلي ، ودفع الثمن غالياً . وفي سبيل الحصول على رؤوس الاموال ، طرق كافة الابواب . ثم لجأ الى الحيلة وتقدم شيئاً فشيئا في تنفيذ مطلبه ، فعرف كيف يبعد عن مصاب النهر الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة ، الى ان اناط مؤتمر برلين (١٨٨٥) هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها الى دولة الكونغو المستقلة ، ثم حمل المجلسين التمثيليين البلجيكيين على منحه حق ، رئاستها ، وانصرف الى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في افريقيا الشرقية .الا انه صادف صعوبات مالية حالت دون مشروعه بالاستثمار فأوصى بالكونغو لبلجيكا في السنة ١٨٩٠ واستحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليونا وعلى اجازة باستيفاء رسوم الدخول . اضف الى ذلك من جهة ثانية انه لم يتقيد باي تعهد ، فجند اليد العاملة بالقوة واحتفظ لنفسه بمكاسب اراضي التاج الواسعة وسلم الاراضي الاخرى شركات لم تنسه ولم تنس ذويه عند توزيع الربائح .فكان ما كان من التهافت الجنوني على جمع العاج والمطاط ،وكان ما كان من ، فظائع الكونغو ، .ولكن ليوبولد قد امتنع بغطرسة حتى وفاته عن التسليم بان عليه تأدية حساب للرأي العام .

تدخل الدول الاوروبية الاستعمارية خدمة للمصالح الرأسمالية : مثل تونس ومثل مصر

كتب « ميلك » ما يلي : « حيث تكون المصالح يجب ان تكون السيطرة ». اجل لم يحظ الاختيار الكونغولي بمساندة الامة البلجيكية المباشرة ؛ بينما حال تدخل القوة البريطانية في « الراس » دون مراجعة الوضع وتأزمه المحتمل . فـهل اعوز « بريتشارد » السيطرة على « تاهيتي » ان لم يكن مساندة لندن غير المشروطة ؟ وبامتناعها عن التدخل المعلن ، اطالت فرنسا وانكلترا على السواء عمر الحكومة « الهوفية » ، وربما كان « سربا بتو » توصل الى توحيد انغولا وموزمبيك لو استطاعت لشبونة مساعدته مساعدة فعالة . وعلى نقيض ذلك ، درجت الشركات الرأسمالية على رفع البيرق بجسارة كلما خاضت الدبلوماسية ، وحتى القوة المسلحة ، غمار المعركة . لذلك فان ارتباط السياسة بالاعمال ، ظاهراً كان ام مستتراً ، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية . واذا فات النجاح حملة المكسيك ، فانه قد توج حملة تونس وحملة مصر تتويجاً كاملاً .

مثلان نموذجيان وتشابه عجيب. مملكتان مسلمتان يغرقان في الديون بسبب رغبتهما في العيش ببذخ وتفضل ؛ بلادان تتميزان بمركز وموارد من شأنها اثارة الاطماع ؛ دولتان حريصتان على حقوقهما وقادرتان على دعم مطالب رعاياهما . هنا وهناك غزو رؤوس الاموال الاوروبية الذي سهله وضع الاقتصاد المتردي ؛ في مالية باي تونس ومالية خديوي القاهرة ازمة لا يمكن معالجتها معالجة مؤقتة الا بقروض جديدة ؛ ثم رقابة دولية يفرضها المقرضون الجازعون المتشمون ؛ تحسن مؤقت وجزئي تعزز الادارة المالية بفضله مراكزها بوضع يدها على الرهون والكفالات وجميع الموارد الاميرية . وحدث اخير : فبينما خضع الباي للحماية الفرنسية ، اقيل الخديوي اسماعيل خلفه توفيق الى القبول بوجود الجيش البريطاني . فمن جهة ازالت حكومة باريس الخطر الايطالي والحقوق الايطالية ، ومن جهة اخرى صرفت حكومة لندن النظر عن امكانية لم تنظر اليها بعين الرضى هي امكانية مشاركة فرنسا لها في الحكم. وكانت النتيجة فتح ابواب البلادين لنشاطات الغرب الصناعية والتجارية تحت ستار الوصاية السياسية والادارية والعسكرية .

دور الضابط الاستعماري فاتح ومدبر

« وفي افريقيا نفسها ، ماذا احببت يا ترى سوى نشوة دامت سنتين ، نشوة النسيان الخالصة ، نشوة الشمس ، والنور ، والكمال الفني بكل ما للكلمة من معنى ؟... » (ليوتي ، في السنة ١٨٨٢).

لقد برزت وجوه كبيرة « مؤسسون » و « فنيو » استعمار . فكان هناك المستعمرون الاداريون : موظفو دائرة الاستعمار مثلاً ، « جايمس فيتز - جايمس ستيفن » الذي أمسى ، ابتداء من السنة ١٨١٣ ، وطيلة خمس وعشرين سنة ، الرئيس الحقيقي للامبراطورية بعد انحطاط النظام « المصري » ، او اللورد « كارنارفون » الدافع الى الاتحادات ؛ وفي فرنسا ، مديرو الوزارات ، من « فيلو دي سانت ابلار » الى « غاستون جوزف » الذين يبقون في مراكزهم بينما

يتعاقب الوزراء ، او ذاك المدير الآخر ، البلجيكي ، اميل بانتنغ ، الذي كان يذكر « الفريقيا الباقية معلونة في عزلتها والمنبطحة انبطاح عبدة جسيمة عند اقدام اوروبا اللامبالية » ويريد ان يجعل منها « حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية » فيشجع انعقاد المؤتمرات الدولية ، ولكنه يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب .

عمل جنود الفتح بهذه الارشادات او تجاوزوها ، متعرضين لمسؤوليات كبرى احياناً ، وقد واطأهم على الذنب المسافة وصعوبات عملهم اليومي . « بهجة النفس تكمن في العمل » ، هذا هو الشعار الذي اقتبسه ليوتي عن « شلي » . ألم يتكلم يوماً عن « العمل، العمل المقدس والالهي ... » هو الذي لم يرد ان يكون سوى « محارب وزعيم قبلي » ، و « سيد اقطاعي شاب » ؟ فقد كتب من تونكين : « انني اسير الحياة والعمل المباشر ، فبعد قضاء يومنا في المقدمة ساعين وراء شق طريقنا بالفأس بين الاشجار الكثيفة ، وباحثين على الارض عن دلائل المرور ، وسائرين في الماء حتى الركبتين ، ومتسائلين باضطراب ، عند نهاية المرحلة ، عما اذا كان الارز سيصلنا ام لا ، وعما اذا كنا سنجد دليلا يرشدنا الى الطريق ، وتكون النتيجة ، بعد استسلامنا للنوم ، عاصفة هوجاء تبلل خيم الجنود ، اؤكد لكم ان الوقت لا يتسع لتفحص النفس ، التي لا يمنعها ذلك من ان تكون في احسن حال » . وفي رأي سيسل رودس ان على كل مستعمر ناجح ان يتقن لعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم. اما غوردون الذي كان صوفياً حقيقياً يضع سيفه في خدمة الايمان وتحت تصرف السلطة المدنية على السواء ، فقد اكثر في « يومياته » من الاستشهادات التقوية .

حكم الدبلوماسيون على مبادهاتهم بأنها كانت متهورة احياناً وبأنها لم تخدم المصالح الكبرى دائماً . فهم قد درجوا على انتقاد الدوائر الادارية والسياسيين الذين كانوا يحتقرونهم . كانوا قساة في اداراتهم ولكنهم كانوا يتباهون بمعرفة البلدي على حقيقته وباحترام عاداته وبعدم التقيد بمذهب اداري معين . وقد جاء في كتاب « غالياني » « مبادىء التهدئة والتنظيم » : « لا شيء يجب ان يكون اكثر مرونة من تنظيم بلاد يجري تطورها باشراف موظفين حازمين تستخدمهم الحضارة الاوروبية والاستعمار الاوروبي » . كما جاء ايضاً : « كل عمل سياسي يجب ان يميز العناصر المحلية الصالحة للعمل ويستفيد منها ويلاشي العناصر المحلية غير الصالحة للعمل ويقضي عليها » .

انحدر جيل اول من الحروب النابوليونية ، حروب اسبانيا وروسيا التي تطلبت صبراً وجلداً ومعرفة صحيحة للسكان والموارد . وقد تخرج من هذه المدرسة رجال من امثال « بوجو » ، و « شارلز – جايمس نابير » ، و « غسو » الذين انتصروا على المهرات والسيخ ، و « باسكيفيتش » و « مورافياف » (كارسكي وأمورسكي) و بيروفسكي ، ابطال الفتوحات في القفقاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية .

ثم جاء اولئك الذين خرّجتهم افريقيا السوداء والهند نفسها، ونخص بالذكر منهم « فيدرب »

الذي لم يكن من ترلمسي الناس مثل بوجو ولم يكن له مطامعه السياسية كمحافظ اجتماعي ، بل كان ابن حلاق فقيراً وتأملياً وعنيداً ومثالياً ، فاتكل على غرارة على الملاحظة المباشرة ، وسيطر على السنغال بوسائل محدودة ، وأسس دكار ، وحارب النخاسة وادخل التلغراف الكهربائي ، وتمسك بالمدرسة العلمانية الفرنسية وبالتعليم الفرنسي الاسلامي العلماني ؛ وغاليانى : السكيت ، والحريص على الخبر الثابت والنشاط العملي ، والفاتح في السودان والتونكين ، والاداري القدير في مدغشقر ، والقادر بدوره على اعداد للامثلة كثيرين اشتهر بينهم ليوتي الذي سيطبق المبادىء الواقعية خير تطبيق في الامبراطورية الشريفية . وبالمقابلة تخرج من جيش الهند بناة الامبراطورية الأفريقية البريطانية : « روبرت كورناليس » المنتصر على الجنود البلديين ، الذي سير في السنة ١٨٦٧ حملة الارث الاعجاب على النجاشي تيودوروس (فقد نقل كل معداته ومؤنه على ظهور الفيلة ثم فتح طريقاً عبر الاحراج) ؛ و « ولسلي » الذي ارغم الـ « اشانتي » على الخضوع ، واشترك في النزاع ضد الـ « زولو » ، وهزم جيوش عرابي باشا في السنة ١٨٨٢ ودخل القاهرة ، ولكنه اخفق في محاولة قام بها لانقاذ الخرطوم التي كان يحاصرها الدراويش ؛ و « روبرتس » الذي كان مع نابير في الهند وفي الحبشة قبل ان يقود في السنة ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول ، وفي السنة ١٨٨٦ الحملة العسكرية على بورما ، وقبل ان يتسلم قيادة الجيوش التي ستتغلب على البوير ؛ و « كتشنر » الذي انتصر في الخرطوم ثم في الترانسفال .

الحروب الاستعمارية

ربما كان القرن التاسع عشر قرن الحروب الاستعمارية . ولعل سنة واحدة لم تنقض منه دون ان ينفذ الاوروبيون عملا حربياً في احدى نقاط القارات الاخرى .

اذا ما استثنينا الروس ، تبين لنا ان كل هذه الاعمال استلزمت جهوداً بحرياً . فان الحملة على الجزائر قد عبأت ٦٧٦ سفينة تنقل قرابة عشرين ألف رجل . وقد تألفت الوحدة المعدة لمهاجمة « ماجونغا » في السنة ١٨٩٤ من ١٥ الف محارب . فيتضح من ثم الدور المنوط بالبحارة. اجل لقد عاد لـ « كوربيه » امر قيادة الهجوم على الشواطىء الصينية ، ولـ « فردريك بوشان – باجيه » قصف الاسكندرية بالمدافع في السنة ١٨٨٢ ؛ ولكن القيادة العليا للحملة قد اسندت احياناً لضباط البحرية ، كـ « دي بتي – توار » في اوقيانيا ، و « سيمور » في الصين ؛ وقد ذهب البعض الى الكلام عن « كوشنشين امراء البحر » في عهد الامبراطورية الثانية . وكان مشاة البحر السلاح المفضل في الجيوش المعدة للانزال الى البر، وقد برز بينهم مستعمرون لامعون من أمثال القائد « بربير دي ليل » .

باستثناء حملات قليلة لم تستغرق وقتاً طويلا ، اعترضت معظم الحملات ظروف صعبة ، فتطلب النهوض بها وقتاً غير قصير وخسائر فادحة في الرجال والعتاد . اما العائق الاهم فكان المناخ في اغلب الاحيان . وقد باء الهجوم الاول على قسنطينه بالفشل بسبب الجوع والبرد

والعناء . وعلى الرغم من جلد الجيوش التي قادها بيروفسكي ، فانها كانت ضحية شتـــاء قاس في سيرها على « خيفا » ، اما في المكسيك والتونكين ومدغشقر ، فهي الحرارة الرطبة والحميات ما فتك بالجنود . وقد تم هجوم ولسلي على الاشانتي في أشد الظروف صعوبة ، عبر مستنقعات السواحل اولاً ، والغابات الكثيفة ثانياً . لذلك كانت الانهار عظيمة الاهمية عـــلى الرغم من الشلالات التي تتخللها : فان ستانلي قد استخدم الكونغو ، وكتشنر النيل ؛ كما ان « مارشان » قد انتقل من الكونغو الادنى الى النيل الاوسط عن طريق الـ « اوبانغي » والـ « مبومو » .

انطوى كذلك عدم معرفة السكان ولغاتهم وطرائق معيشتهم واسلوبهم الحربي معرفة كافية على صعوبات خطيرة . اجل كان تفوق الاوروبيين التقني ساحقاً ؛ ولكنهم بصرف النظر عن اضطرارهم التكيف وفقاً لطبيعة البلاد وسكانها ، ما كانوا ليحققوا النصر بوسائلهم الخـــاصة وحدها . فكانت المسألة من ثم مسألة تجنيد الفرق المساعدة.ففي الهند جرب الانكليز اختباراً تكلل بنجاح عظيم على الرغم من خطر احدق بهم في احد الظروف : اسندوا المحافظة عـــلى الامن الى السيخ والـ « غورخا » ؛ وجند « بوجو » الـ « زواـاوا » (زواف) والفرسان والقناصة المغاربة واستخدمهم ضد غيرهم من المسلمين ؛ وسيطر فيدرب على السنغال بواسطة القناصة الـ « اولوف » ، ولجأ لابرين الى الـ « شامبا » للمحافظة على الامن في الصحراء الكبرى .

الولاة المدنيون

اذا حدث ان اسندت السلطة مباشرة الى احد العسكريين ، فان موظفــي الادارة الاستعمارية قد اختيروا قانوناً من بين الموظفين الذين ينتسبون الى ملاكات مدنية خاصة . ولكن غالباً ما توجب على المستعمرين النهوض بالاعمـــال الحربية والاعمال الادارية في آن واحد ، فتكاثرت الخلافات بين العسكريين والمدنيين.وقد تصرفت كل دولة بحسب مزاجها وبمقتضى الظروف.فطرأت على النظام الاستعماري الفرنسي بنوع خاص تبدلات كثيرة ؛ ويجب انتظار الجمهورية الثالثة حتى يعود الحكم في المستعمرات ، بصورة عامة ، الى السياسيين (« لانسان » ، « جونار » ، « دومر ») ، او كبار الموظفين (« بول كامبون » ، مثلا) .

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف ارستوقراطيتها موظفين تحلوا بصفات نادرة وعرفوا، في كنف ادارة المستعمرات المركزية ، كيف يجدون في مختلف انحاء الامبراطورية البريطـــانية الحلول الموافقة للحاجات الطارئة دون ادخال اي تبديل على السياسة الاستعمارية التقليدية . فقد اجاد ممثلو العائلات الكبرى هؤلاء ، في الحقل الاستعماري ، تطبيق مبادىء الاختباريـــة التنظيمية . وقد اتوا مآثرهم الرائعة في فتح الهند وادارتها معا . فهكذا تولى المركـــيز « دي دالوزي » بنشاط الاعمال الحربية وجهود التطوير التقني . ثم بدأ اللورد كانغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات قوية من امثال اللورد « الجن » واللورد «ليتون» واللورد «ريبون». واختير كذلك اختياراً موفقا الحكام المعدون لتمثيل جلالته في المستعمرات المتمتعة « بالحكم

الذاتي » . ونذكر منهم على سبيل المثل اللورد كرومر حاكم مصر الاول .

الحمايات والمستعمرات

بينما كانت « الحصرية » سائرة في طريق الزوال والتطور منحها اما نحو الحكم الذاتي واما نحو التمثيل بالوطن الام ، في المناطق المأهولة بالاوروبيين او في المستعمرات القديمة ، بدت الحماية اكثر ملاءمة من الوصاية المباشرة لاهداف ووسائل اوروبا الرأسمالية في المناطق المحتلة حديثا . ولا يعني ذلك ان الاحرار المشتاربين قد ابتكروا الطريقة : فقد سبق لـ « دوبلكس » ان طبقها ! كما كان البريطانيون في الهند والهولنديون في « جاوا » متمشين عليها . وفكر المسؤولون في تطبيقها في الجزائر والسنغال وكوشنشين . ووجد الروس فائدة في ابقاء بعض خانات تركستان النافذين في مراكزهم . واستسهل فرّي الذهاب الى تونس بالتذرع بمدّ يد المساعدة للباي ، وصرح غامبتا بما يلي : « لا جلاء ولا ضم » . ولجأت حكومة لندن الى حيلة مماثلة لتبرير تدخلها في القاهرة . واستحصل « دودار دي لاغربه » من ملك كمبوديا على الاعتراف بحق فرنسا في حمايته من تعديات جيرانه السياميين والفيتناميين ، كما استحصل « اوغست بافي » على الاعتراف نفسه من الزعماء اللاوسيين . وقد جرت الامور عموما على هذا النحو كلما رأت الدولة المستعمرة نفسها امام انظمة توخت هي خيراً من مداراتها .

الا ان الضم كان واجبا حين كانت السلطة البلدية مجزأة او لا شعبية او معادية جداً . فتصبح المستعمرة آنذاك مستعمرة سيطرة او إفراد : تبقي الادارة الاوروبية على الزعماء المحليين في مراكزهم وتجردهم في الوقت نفسه من السلطة السياسية وتخضعهم لرقابة شديدة ؛ وقد تستبدلهم بكفلاء عاديين تختارهم من بين البلديين الآمنين ؛ وتدير مباشرة شؤون البلاد وفاقا لما ترى فيه مصلحة السكان العامة . وقد استخدم البريطانيون هذا النظام في الهند حيث لم يكن نظام الحماية كافيا ؛ ثم استخدم على نطاق واسع في افريقيا السوداء ، وحتى في مدغشقر ، بعد قلب المملكة الهوفية .

المنافسات الكبرى والتقسيمات

خلال القرون السابقة تسببت المنازعات الاستعمارية في حروب بين الدول الاوروبية . والحال ، كما ان سياسة المعاهدات مع الزعماء البلديين قد اعتبرت خير سياسة ، كذلك سوّيت الخلافات الدولية بطريقة المفاوضة .

تخلص العالم الجديد اكثر فأكثر من هذه المنافسات . فباسم المونروية التي كانت تتوخى ابعاد الاساليب الاستعمارية عن القارة الاميركية ، انتهجت الولايات المتحدة طريقة الشراء للحصول على المناطق التي ما زال الاوروبيون يتملكونها فيها : وهكذا تم انتقال هام في السيادة في السنة ١٨٦٧ حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا . ولكن الدانيمارك باعت كذلك من بريطانيا العظمى قطاعها الغيني ، كما باعت اسبانيا من المانيا « بالاوس » و « ماريان » و « كارولين » .

الا ان مناطق الاحتكاك الكبرى قامت في اماكن اخرى . فقد اتصل اهمها شأنا من

الغرب الى الشرق ، من مضيق جبل طارق الى المحيط الباسيفيكي الغربي ، على جنبات البحار الداخلية ، والبرازخ والمضائق التي تتيح انتقالا يسيراً بين الكتلتين الاوراسية والافريقية ، ثم على الاراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا. وقد تعاونت طرنسا وانكلترا فيها على ابعاد روسيا او اختلفتا اختلافاً متكرراً . وتأزم الوضع في المتوسط بعد السنة ١٨٧٠ عند نزول ايطاليا الى الحلبة . وامتد البراز الانكليزي الروسي الى كافة انحاء آسيا الوسطى ، ولا سيما عند مشارف الهند . ويجدر لفت الانتباه هنا الى ان الحدث الحربي الوحيد الذي جرى في اوروبا نفسها بسبب المنافسات الاستعمارية – حرب القرم – مرده الصراع من اجل السيطرة على اكثر بقاع هذه المنطقة المرة التنازع ، الشرق الادنى .

لم يعد صحيحاً ان الخصومة بين بريطانيا العظمى وروسيا كانت قائمة بين امبراطورية بحرية وامبراطورية برية. فالدولة التي كانت مسيطرة على البحر كانت مصممة على الاستئثار من جهة اليابسة . وفي هذا المجال يبدو احتلال الهند بكاملها سابقة ذات مغزى . ولكن الحدث لم يعد لينطوي على اي طابع استثنائي ، اذ ان احدى ميزات الاستعمار آنذاك كانت الحصول على قواعد برية كبرى . وجاز لـ « جول فري » ان يؤكد : « اما اليوم فهي القارات ما يطلب ضمه ، وهو العالم الاوسع ما يطلب اقتسامه » . وان في تقسيم افريقيا لخير تمثل على هذه السياسة . الا ان منافسة قامت من اجل السيطرة على الباسيفيكي .

على غرار ما حدث في الماضي ، سويت الخلافات على العموم بين دولة ودولة بفضل اتفاقات تلزم الطرفين . وباستثناء جزر « الهبريد الجديدة » ، حيث ادخل في السنة ١٨٨٧ ، لم يعش نظام « الامتلاك المشترك » حياة طويلة في اي مكان : فهو لم يدم لا في مصر ولا في « ساموا » . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يعط التحكيم بدوره سوى نتائج هزيلة ، فانه قد اثار في السنة ١٨٨٤ حدثين جديرين بأن نتوقف عندهما : فمن جهة ، النداء الموجه الى البابا ، الذي سلك سلوك البابا اسكندر السادس وفصل في الخلاف الاسباني الالماني حول الكارولين ؛ ومن جهة اخرى ، انعقاد المؤتمر الدولي في برلين . فكان على هذا الاخير « ان يستدرك المنازعات التي قد تثيرها في المستقبل الاستيلاءات الجديدة على شواطىء افريقيا » . وفي الواقع ، كان اعتقاد بسمارك بأنه سيلعب فيه الدور المفيد نفسه الذي لعبه في مؤتمر السنة ١٨٧٨ حول المسألة الشرقية . وكما حدث في السنة ١٨٧٨ ، جرت المناقشات الهامة وراء الكواليس حيث عينت حدود الدولة الكونغولية . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجدد السباق ، بحرارة لم يسبق لها مثيل ، من اجل احتلال المناطق الدائرية . الا ان فكرة عرض المسائل الاستعمارية الشائكة على محكمة دولية لم تضمحل قط ، فهي التي ستوحي بالدعوة الى مؤتمر « الجزيرة » في السنة ١٩٠٦ . ومهما يكن من الامر فان ريشة الديبلوماسيين قد وجدت لها عملا دائما ؛ فقد رسمت على خريطة العالم الاشكال المواتية للانصبة التي آلت في النتيجة الى الدول الاستعمارية المختلفة دون ان يتعرض السلم الاوروبي للاخطار

مصير السكندينافيين المشرف في الشمالي الاطلسي

ان المؤسسات الاستعمارية السكندينافية تتصل في الارجح بفتوحات « الفيكنغز » القديمة . وكان السكندينافيون خبير بحارة وصيادين وقناصة في المياه الشمالية ؛ فتأثروا بهذه الصفة بسحر المياه الجنوبية ؛ وما كانت الجزر والاسواق التجارية في المناطق الحارة لتستهويهم استهواء يذكر . وبينا كانت النشاطات الزراعية والصناعية كافية لتشغيل السويد ، اضطر النروجيون ، المرتبطون بهم منذ السنة ١٨١٥ ، الى حصر توسعهم في الاستيلاء على « سبتزبرغ » والمطالبة بـ « جان مايان » و ارخبيل « فرنسوا - جوزف » و « غرينلند » . ولكن الدانماركيين نظروا دائماً الى هذه الارض الاخيرة ومعادنها واسماك مياهها الوفيرة نظرهم الى مُلك خاص . فهنا تقوم حدود امبراطوريتهم التي تضم بالاضافة « فارا اوير » و « اسلندا » . زد على ذلك ان اسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال : تعرضت لامتحانات قاسية وعانت من المناخ وثورات البراكين والزلازل والمجاعات واوبئة الجدري ، فتخلصت شيئاً فشيئاً من حالتها السيئة باحياء الزراعة وصيد الاسماك وفازت بجمعية محلية ، والغاء « الحصرية » ، ثم باستقلال ذاتي حقيقي في السنة ١٨٧٤ ؛ فأرشدت بذلك ايرلندا جارتها الى الطريق التي يجب عليها سلوكها .

الانحطاط الايبيري

اغتنم الاسبانيون والبرتغاليون بذكرى ماض اعظم سحراً ايضاً ، ثم بفعل كارثة لا دواء لها . فلم يبق في حوزة كلا الشعبين سوى بقايا متناثرة على طرقاتها الامبراطورية القديمة ، ولا وسائل لديهما لتحقيق نهضة متوخاة .

انهارت الامبراطورية البورتغالية انهياراً سريعاً في النصف الاول من القرن بانفصال البرازيل عنها ، وباحتلال الهولنديين لبعض جزر السوند ، كجزيرة « فلوريس » مثلاً ، التي خلت من الحاميات العسكرية ، وبالتخلي عن شطر كبير من غينيا والغابون . ثم تلاشت الاسواق التي كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند على السواء . الا ان محاولة اصلاحية قد جرت بفتح المستعمرات للتجارة الخارجية ، ونقل الممتلكات في المستعمرات الى ايدي المهاجرين المستعمرين ، وبالغاء الرق . ثم تعللت البورتغال بأمل تحقيق السيطرة على افريقيا الجنوبية والوسطى ، ولكن آمالها تحطمت في مؤتمر برلين ، وقد وسم مطلع عهد كارلوس الاول بمعاهدة مذلة وقعها في السنة ١٨٩٠ . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انغولا وموزامبيك اقتضتا من النفقات فوق ما درته من المداخيل ، وعم الرأي في اوروبا ان البورتغال قد تسلم بالتخلي عنها مقابل تعويض كبير .

تعذر على الحكومات الاسبانية المتعاقبة التفكير بأي مشروع خارجي حتى السنة ١٨٥٠ بسبب الاضطرابات الداخلية . وقد حاول القائد « اودونل » ، بدافع النفوذ الشخصي ، تجديد عهد الحملات الصليبية بانقاذ حصون سبتا ومليلا التي ما زالت قبائل الريف تهاجمها بدون انقطاع ؛ ولكن مناورته امام طنجة و « لاراش » وتطوان لم تدم طويلا بسبب تدخل انكلترا . وجرت بعد ذلك محاولة هجومية فاشلة في اميركا اللاتينية : اشتركت اسبانيا في حملة المكسيك ولكنها

انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا العظمى ؛ وانزلت جيوشاً في « سان - دومنغ » ، ولكن الاهالي الثائرين طردوا الجيوش منها ؛ وارسلت اسطولا الى شواطىء الباسيفيكي واستولت على الجزر الغنية بالفوانو ، ولكن تحالف الدول الآندية ارغمها على الانسحاب . وبعد ذلك ثارت كوبا على سيطرة احتفظت بميزات « الحصرية » ، وازدادت حالة القلق خطورة في الفيليبين و « بورتوريكو » اللتين عانتا الامرين من اهمال الادارة وتفاقلها . وكانت كارثة السنة ١٨٩٨ قريبة الحصول حين احتل الاسبانيون ساحل « ريو دي اورو » الصحراوي وزعموا حينذاك انهم يقومون « بأول عمل في سلسلة اعمال سياسة افريقية » ستتيح لهم تعزيز موقفهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتمل .

استمرار العظمة النيرلندية

في الوقت الذي نظر فيه الأب « دي برادت » الى البلجيكيين نظره الى « اناس عادمي الفضول في المعرفة وغرباء عن كل ما يجري خارج بلادهم » ، كان للهولنديين تقليدهم الاستعماري الراسخ. اجل كانت لهم خسارة « الراس » وسيلان ضربة قاسية ؛ ولكن مملكة هولندا حققت السيادة ، أقله نظرياً، في السنة ١٨١٥ على مستعمرات شاسعة اوسع من رقعتها بستين ضعفاً ومأهولة بأربعة اضعاف سكانها: وتتألف هذه المستعمرات من مجموعتين متميزتين متباينتين شأناً يغلب فيها المناخ الاستوائي، مجموعة الهند الغربية (بعض جزر الانتيل ، كـ « كوراسو » وسورينام) ، ومجموعة الهند الشرقية المتكونة من ارخبيل السوند والشطر الاكبر من بورنيو و « سيليب » والمولوك. فكان ذلك كافيا لنشاط شعب صغير جلود ومتبصر : تفرغت هولندا منذئذ لهذه الممتلكات دون ان تحاول توسيعها محاولة تذكر . فهي بعد اليوم لا تتقدم ولا تتراجع ، بل تثبت اقدامها .

امبراطورية الروس الاوراسية

واصلت روسيا ، عبر سهولها اللامتناهية، حرباً هي أشبه بحرب استرداد الاراضي من الاسلام الذي لم ترده الى الوراء بل دخلت بعيداً في الاراضي التي يسيطر عليها . ويبدو من جهة ثانية ان النزاع القديم بين الحضر والبدو كان لا يزال قائماً لان التقدم الروسي عنى كذلك اقامة الفلاحين المزارعين في البقاع التالية من منطقة البورات الواسعة الاطراف. واذا كانت سيبيريا اخيراً، في مناطقها الشمالية الشرقية ، امتداداً لطبيعة روسيا القاسية ، فان امبراطورية القياصرة لم تتصل بالبحار الباردة فحسب ، اذ كان باستطاعتها النزول الى المر المشوري حتى وسط عالم الشرق الاقصى ، بل بلغت في الجنوب المناطق الطورانية ومناطق ما وراء القفقاس التي تذكر بالمناطق الحارة . ولا يجوز ان نرى في هذا التقدم تصميماً على فتح المنافذ الى المحيطات فحسب : فهناك هجرة شعب مطرد التكاثر الى مناطق قليلة السكان ، وجاذب الموارد التكميلية .

« ايه روسيا ، ألا تسرين بأنك منطلقة نحو المجهول على غرار الـ « ترويكا » الجامحة التي لا يستطيع احد اللحاق بها ؟ » (« غوغول » ، « النفوس الميتة ») .

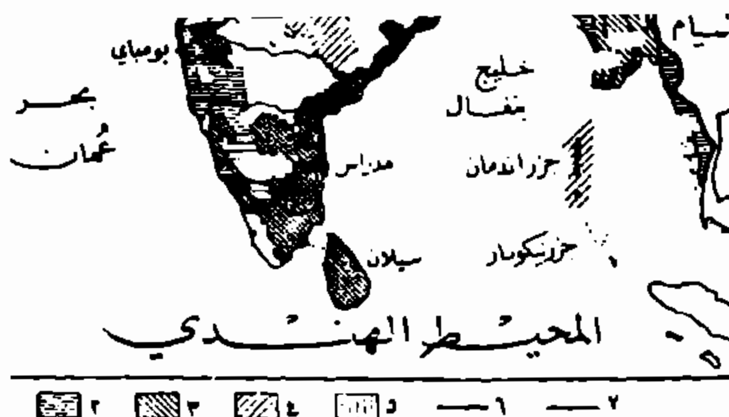

شكل ١٠١ - البريطانيون في الهند ، والروس في آسيا الوسطى

١ ، احتلال بريطاني حتى السنة ١٨٠٥ وتوسع روسي في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ٢ ، تا
ن حاكمية اللورد « دالوزي » العامة (١٨١٥ - ١٨٤٨) ؛ ٣ ، فتوحات اللورد دالوزي حتى
دين في الجيش البريطاني (١٨١٥ - ١٨٥٧) ؛ ٤ ، تقدم الروس ومكاسب البريطانيين بين
سنة ١٨٧٠ ؛ ٥ ، تقدم الروس والبريطانيين بعد السنة ١٨٧٠ ؛ ٦ ، حدود امبراطورية الهند
ديدية الرئيسية المبنية في القرن التاسع عشر .

ادبرت العملية بجلد وطول اناة منذ زمن بعيد. اما الوسائل فكانت هي هي ابداً: القوزاق، التجارة ، « البخشيش » ، والمفاوضة عن طريق الدين كلما كان ذلك مفيداً. فكانت روسيا ارثوذكسية في البلقان والشرق الادنى ، واسلامية في خيفا ، وبوذية في منغوليا .

تميز هذا الاستعمار ، من جملة ما تميز به ، باسهام القوزاق فيه اسهاماً رئيسياً . اشتركوا في كافة الحروب الاوروبية ، وسيشتركون فيها في المستقبل ، ولكنهم خدموا بمزيد من الاندفاع ايضا في هذه الثورات التي تذكرهم بثوراتهم . وجند القيصر فرسانه المتفوقين من بين طوائف الـ « ستانتساس » التي كانت تعيش من تربية المواشي وترويض الجياد بحب تفضيلي . وكانت قيادة كل من فرق القوزاق الاحدى عشرة (فويسكوس) - لآلىء التاج الاحدى عشرة - مسندة الى قائد يدعى « اتامان » . وكان القوزاق محاربين لا يبالون بالتعب ، يأكلون الاسماك واللحوم والخبز المجفف ، ويشربون الماء ويمتطون صهوات خيولهم بدون مهاميز ، ويقبضون على السوط الجلدي ، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف بالـ « بورقا » : يتسلحون بحربة ، وسيف دون غمد ، ومسدس ، وبندقية قصيرة خفيفة ، ويتوجهون بدون خريطة ولا بوصلة مهتدين بالشمس والنجوم . واذا دان معظمهم بالارثوذكسية - وقد انتمى بعضهم الى شيع « راسكولنيك » - فقد يحدث ان يكونوا مسلمين في « ترك » او « كوبان » ، وبوذيين في ما وراء بحيرة « بايكال » ، وكان بعضهم يهوداً . واشتهر قوزاق الـ « دون » بقيادة «بافل بطروفيتش دي ريلنكامبف » في حروبهم ضد فارس ، وفي بولونيا والقفقاس وهنغاريا والقرم . ثم عمد القيصر ، رغبة منه في توطيد فتح القفقاس ، الى تنظيم قوزاق كوبان ، وقوزاك ترك مقطعاً اياهم بعض الاراضي في هذه المناطق . واشترك قوزاق الاورال في حملة بيروفسكي . وكان « سكوبليف » بطلهم في تركستان وفي حملة البلقان في السنة ١٨٧٧ ، وكانوا يلقبونه بالـ « باشا الابيض » . وتألفت في «سميرتشنسك » فرقة من قوزاق سيبريا لمراقبة تركستان . واضاف مورافييف الى الفرقة المقيمة في ما وراء بحيرة بايكال فرقة الـ « امور » مجنداً افرادها من بين الـ « بوريات المتوليين» البوذيين «المشهورين بالقنص واحتساء الشاي . وكان هؤلاء بمثابة المراكز الامامية للسيطرة على الشرق الاقصى التي لن يربطها الخط الحديدي بروسيا الاوروبية الا في اواخر القرن .

كانت هذه الامبراطورية اكبر من ان تدار بالضبط اللازم : فان مسألة المسافة لم تحل الا جزئياً بانشاء الخطوط التلغرافية وبناء خطين او ثلاثة خطوط حديدية كبرى . فقد بقي هناك شيء ناقص لم يكتمل ، أعني به وضع اليد على الارض ، بسبب عدم اتصال المناطق المأهولة . ولكن الخطر الروسي كان جديا على حدود هذه الكتلة الضخمة التي بدت وكأنها ستسحق آسيا بكاملها في يوم من الايام .

تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة

جمع الفرنسيون شيئاً فشيئاً العناصر التي ستتألف منها ، خلال مئة سنة ، احدى أوسع الامبراطوريات الاستعمارية ، دون ان يسيروا على مخطط مدروس ودون ان تحركهم الحاجة الى مناطق قادرة على استيعاب المهاجرين، ولكنهم كانوا في ذلك حريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن دائماً

مصالح مادية .

لم يبق من الممتلكات الماضية سوى بعض اجزاء مستعمرات المناطق الحارة التي تصادم حول ادارتها التقليد التجاري ورأي مواليد المستعمرات من الفرنسيين ومبادىء السنة ١٧٨٩ . وقد اثبتت الجمهورية الثانية وجودها القصير الامد بالغاء الرق واستهلال سياسة التمثيل ، وفي عهد الامبراطورية الثانية زالت « الحصرية » نهائياً من الوجود .

كان الحدث الهام احتلال الجزائر الذي اثار بعض الاسئلة : امتداد للوطن الام ؟ أم تعايش مع البلديين وفاقاً لنظام مختلط ؟ تلمس المستعمرون طريقهم الى ان تأيد عمل فرنسا في المناطق الحارة بارتسام عالمين استعماريين مختلفين ، احدهما في افريقيا والثاني في آسيا : فحوالي السنة ١٨٦٠ ، وفي ظل الحرية الاقتصادية ، بدت الحماية بمرونتها كخير نظام لادارة مناطق مختلفة كل الاختلاف كافريقيا الشمالية والسنغال و كوشنشين؛ ولكن فرنسيي الجزائر قد قاوموا فكرة « المملكة العربية » .

كانت الجمهورية الثالثة مرتابة حيال المستقبل ومرغمة على الوقوف موقف الارتقاب ، فاختارت في البدء سياسة التمثيل التي كان مدعواً للاستفادة منها لا مستعمرات الجزائر القديمة فحسب بل السنغال والمؤسسات الاستعمارية في الهند ايضاً . ثم تألفت كتلة افريقية ، من المتوسط – بجبهة زادت اتساعاً على هذا البحر – حتى خليج غينيا و « دارفور » وحتى الكونغو الاسفل . وجرى تجمع آخر في داخل المثلث المرسوم بين جيبوتي وشاندرناغور و « سانت – ماري » في مدغشقر ؛ وارتسمت كتلة ثالثة في الهند الصينية . واذا اضفنا الى ذلك ان فرنسا موجودة في اميركا واشتركت في اقتسام اوقيانيا ، اتضح لنا ان امبراطوريتها قد تميزت بوجودها في كل مكان على غرار الامبراطورية البريطانية . وانما تقابلت نزعات مختلفة اتصل بعضها بالفلسفة الجمهورية الديموقراطية وبعضها الآخر بالموضوعية النفعية ، او كانت توفيقاً بين المبادىء والوقائع . واضطرت الانتهازية،بالاضافة الى ذلك، الى ان تأخذ بعين الاعتبار المعارضة المقاومة للاستعمار ، فقامت بتبديل الصيغ وفاقاً للظروف والحالات ، وتبرير « الاستبداد المستنير » الذي يعتمده الحكام، وافساح المجال في الوقت نفسه للمشاريع الرأسمالية. ولم يكن هناك وزارة مستقلة للمستعمرات قبل السنة ١٨٩٤ : بل اكتفي بمجلس أعلى استشاري انشىء في السنة ١٨٨٣ ، ومديرية ترتبط اما بوزارة التجارة واما بوزارة البحرية ، بينما ارتبطت محميتا تونس وأنام بوزارة الشؤون الخارجية . ورقبت التجمعات الاقليمية (اتحاد الهند الصينية ، وافريقيا الغربية الفرنسية ، وافريقيا الاستوائية الفرنسية) انشاء ملاك الحكام الاستعماريين في السنة ١٨٨٧ . يضاف الى ذلك ان ردة فعل مذهب حماية الصناعة الوطنية قد شجعت السياسة المعروفة بسياسة الربط التي كانت التدابير الجمركية نفسها ممكنة التطبيق بموجبها في الوطن الام والجزائر والمستعمرات القديمة ومدغشقر. اما بصدد المحميات والممتلكات الاخرى فيجب التفاوض مع الاجانب .

ان توثيق الروابط هذا بين فرنسا وممتلكاتها قد صادف في الزمن فترة الهبوط الاقتصادي . فاعتمدت الانتهازية والاختبارية طرائق جديدة . وقابل اللامركزية الادارية والتجمعات الاقليمية توجيه نحو الاستقلال المالي الذي كان من شأنه تشجيع التجهيز دون ان يتحمل الوطن الام نفقات كبرى .

دخلت «فرنسا الكبرى» هذه في التراث العاطفي الفرنسي ، مع ان الفرنسي لم يُجد تحديدها كما يجب التحديد . ولكنها لم تعرف ، لمدة طويلة ، سوى تقدم بطيء جداً ، لأنه كان ينتظر منها اكثر مما يسلِّم بإعطائها .

التفوق البريطاني

منذ أواخر القرن الثامن عشر تجدد ارتقاء بريطانيا وسيرها قدماً . فقد حلت محل امبراطوريتها الاولى ، التي كانت تجارية وتمثلت في اميركا اكثر منها في القارات الاخرى ، امبراطورية ثانية ارتسمت حدودها حوالي السنة ١٨٥٠ وبلغت الذروة في السنوات ١٨٧٠ – ١٨٨٠ . تلك هي امبراطورية العهد الفيكتوري : امبراطورية المقايضة الحرة ؛ امبراطورية بريطانيا العظمى التي اصبحت بدون منازع اعظم دولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية ايضاً . زد على ذلك من جهة ثانية ان الهيمنة البريطانية قد بلغت، كما يبدو ، من الرجحان الذي لا يقاوم ما جعل بعضهم يعتبرون استخدام القوة وحتى عرضها عملية نافلة كان لها ما يبررها قبل تلك الايام ؛ فليس من حاجة الا للمفاوضة والتجارة لترجح الحجة البريطانية . الا ان وجود الامبراطورية كان ضمانة جليلة الفائدة للتقدم .

تألفت الامبراطورية من عناصر ثلاثة موروثة عن العهود السابقة ما زالت تتقدم تدريجياً : المستعمرات الستراتيجية ، المناطق الحارة ولا سيما الهند ، ومستعمرات الاسكان في المنطقتين المعتدلتين .

كان المضرب المعظم الذي حاكته انكلترا على سطح الارض على وشك الاكتمال . وقد طنبته شبكة كثيفة من الاسواق التجارية ونقاط المساندة ومرافىء التموين ، وفاقاً للطريقة الاستعمارية البورتغالية . فحيثما وجد جون امين ونقطة يسهل اقتراب السفن منها على الطرق البحرية ، هناك يكون البريطاني. امعن في البحث عن الجزر وحتى عن الجزيرات في المضائق، وجعل منها محطات بحرية لتزويد اساطيله بالمياه والمواد الغذائية والمحروقات وتموين السفن الاجنبية . وعلق فيها اسلاكه التلغرافية . وانطلق منها ، عند الحاجة ، لاستطلاع الوضع التجاري في القارات القريبة . واستخدمها كقواعد للعمليات البحرية وحتى البرية . فامتلك من ثم معظم الجزر المتناثرة امام الشاطىء الاطلسي في العالم الجديد ، التي كانت بمثابة الركائز لجسر عظيم يصل اوروبا بافريقيا الجنوبية (حتى ولو كانت ترفع علم ايبيريا) ، والجزر المتناثرة كذلك في المحيط الهندي – الذي احتفظ به لنفسه – او المحيطة به ، والجزر التي تسيطر على مدخل بحر الصين . واضاف بريم الى عدن لمراقبة باب المندب مراقبة فضلى ،

وهونغ كونغ الى سنغافوره لاستقطاب تجارة الصين ، وحين شعر بأنه ما زال بحاجة الى محطة اخرى ، استولى على جزيرة « لابوان » أمام ساحل بورنيو الشمالي ، التي انطلق منها لاحتلال بورنيو الشمالية البريطانية ؛ وخلال السنة ١٨٧٨ ، حين اشتدت الازمة بينه وبين روسيا ، وضع يده على قبرص في المتوسط الشرقي ؛ ولم يكتف بانزال جيوشه الى جزر البحرين وكشم في مضيق اورموز لمراقبة الخليج الفارسي ، بل وقع اختياره على رأس جلرك قبالة مسقط ، وجزر كوريا – موريا جنوبي الجزيرة العربية ، وجزيرة سكوطرة عند مدخل خليج عدن ؛ وباستيلائه على جزر « فيجي » احتفظ لنفسه باحدى المحطات الفضلى على الطريق البحرية عبر الباسيفيكي من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المواقع بمثابة نوافذ على الاراضي المجاورة : سنغافورة على الدول الماليزية ، ولابوان على بورنيو ، وعدن على مؤخرتها العربية ، ولاغوس على نيجيريا ، و « مباز » على افريقيا الشرقية ؛ بالاضافة الى زنجبار التي قايض مليغولند بها في السنة ١٨٩٠ .

الهند الغربية والهند الشرقية : لوحتان دلتا ابداً على الممتلكات الكبرى في المناطق الحارة . فمن جهة ارخبيل « وندوورد » وارخبيل « ليوورد » في الانتيل ، وجامايكا الجميلة ، وكبرى مستعمرات « غويانا » ، وبقعة من « هوندوراس » حول « بليز » ؛ ومن جهة اخرى الهند وملحقاتها . وفيما بينهما ، اي في افريقيا ، مستعمرات لا اهمية كبرى لها : غامبيا و « سيراليون » وسوقا اكرا ولاغوس على الشاطىء الغربي . فقد انحصر الاهتمام كله بالهند التي لم يدخر الانكليز وسعاً في سبيل استثمارها وحماية حدودها . اليها اتجهت كافة الطرقات التي سهرت عليها غيرة مفرطة : الطريق القديمة التي زاد نمو افريقيا الجنوبية البريطانية من تعزيزها ، والطريق الجديدة التي كادت تصبح بدورها طريقاً بريطانية بعد احتلال مصر . وقد تلاحمت حينذاك الحلقة الاخيرة من السلسلة الامبراطورية التي امتدت بين لندن وبومباي مروراً بجبل طارق ومالطا والبحر الاحمر .

ولم يعتد بكندا وافريقيا الجنوبية والمستعمرات الاوسترالية للاسكان بقدر ما اعتد بهما لمساحاتها الكبرى . بيد ان الاوروبيين اخذوا يتوافدون عليها بأعداد كبيرة ، ونمت فيها حياة على الطراز البريطاني . فأخذت تترعرع شخصيات قومية قوية في هذه الاراضي التي اكتسب فيها المهاجر عادات جديدة اضافها الى اخلاق الوطن الام .

والحال ، في الوقت الذي ما زال غلادستون يثبت فيه انه المعبر الامين عن الحرية المنشترية ، وبينما تواصل في الوقت نفسه ، في الوطن الام ، وفي مستعمرات الإسكان ، وحتى في مستعمرات المناطق الحارة ، تطور نحو نظام تمثيلي اوسع عدداً ، دخلت الامبراطورية الثانية في مرحلة تحول .

هي نتيجة الهبوط الاقتصادي ما جعلت المنافسة اشد حدة والحمى الاستعمارية اعظم خطورة في حين بدأ التسابق الى التسلح . فاتخذت الدولة البريطانية احتياطاتها على طريق

شكل ١١ ـ الـ... بريطانيا في القرن التاسع عشر

١ ـ الممتلكات البريطانية في سنة ١٨١٥ ... التوسع الاستعماري خلال القرن التاسع عشر ... ٣ ـ مناطق النفوذ ... الخطوط التجارية البحرية الرئيسية في ...

... مواني التموين والمحطات البحرية ... رحلات ... الأسواق البريطانية ... في سنة ١٩١٤ ...

الهند عبر السويس ، ولكنها ما كانت لتستطيع البقاء بعيدة عن اقتسام افريقيا واوقيانيا الذي سوف يتحقق بكل سرعة . اضف الى ذلك من جهة ثانية أن القوميات الفتية استيقظت في داخل مستعمراتها الاسكانية التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي : فاذا اصبح بمقدور ممتلكة كندا في شبابها ان تلتفت على اميركا الشمالية ، فان اوستراليا وزيلندا الجديدة اخذتا منذ ذاك الحين تنشطان في الجزر الاوقيانوسية الصغرى ، وانطلاقاً من « الراس » تأسست شيئاً فشيئاً افريقيا جنوبية بريطانية واسعة الارجاء . وهكذا بينا كانت بريطانيا تعزز حدود الهند باستيلائها على الممرات الايرانية والمملاوية وبضمها بورما ، هجمت بجيوشها على افريقيا حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة . وكانت مكاسبها الاقليمية عظيمة جداً بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٢ : ١١ مليون كيلومتر مربع .

باتت الامبراطورية برية اكثر منها بحرية . وبعد اليوم تمثلت فيها الجماعات البشرية المتأخرة حضارة والمتخلفة تطوراً تمثلا اقوى ، فتعاظم التضاد سياسياً بين هذه المناطق التي كان الوطن الام حريصاً على الاحتفاظ بها وبين المجتمعات الاوروبية الطابع التي ستكوّن الممتلكات . ولكن بريطانيا اهتدت بمرونة الى خير صيغة تلائم مزاج كل منطقة . واذا قضت الحاجة بأساليب مختلفة ، واذا اقلقت بعض القوى الانفصالية ، الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة ، فان التضامن قد عززته الحاجة الى دفاع مشترك واعتماد مبدأ الحماية التجارية اعتماداً مطرداً .

وفي آخر القرن كان العالم البريطاني محافظاً على تلاحمه وعلى الاعتزاز بتفوقه .

المستعمرون الاخيرون : من الارث البلجيكي الى المطامع الالمانية والايطالية

في السنة ١٩٠٠ ، كان اقتطاع المستعمرات قد بلغ مرحلة متقدمة جداً ، وهي الدول القديمة ، ولا سيا فرنسا وبريطانيا العظمى ، ما اصابها النصيب الاوفر . ولكن دولاً استعمارية جديدة قد برزت .

فان الدولة الكونغولية التي كانت ثمرة مبادهة ملكية ومعاهدات دولية لم تضمن مستقبلها ، سوف تخضع لرقابة حكومة بروكسل : انها أوسع الانصبة مساحة واكثرها تجانساً واوفرها ثروة واصعبها استثماراً .

كان بسمارك قد اشرف على ولادة « الدولة » المستقلة . فهل هو لم يصمم بعد على تحمل مسؤولياته يا ترى ؟ ام هل أنه كان راغباً في مراعاة جانب انكلترا ؟ واذا كان هذا هو واقع الحال ، لماذا تستطيع المانيا ، ان لم يكن الاستثمار بما تبقى بعد النفسيات الكبرى ؟ وهكذا تكونت ، في اقل من عشرين سنة ، مستعمرات المانية شملت مجموعتين ، الاولى في افريقيا (جنوبي غربي افريقيا) وهي نصف صحراوية وتتميز بعدم الاتصال وصعوبة الاستثمار ، والثانية في الباسيفيكي (في ساموا ، وغينيا الجديدة ، ومجموعة الجزر المجاورة) ، وهي ثانية جداً وقليلة التجانس . ومن جهة ثانية لم يبتغ بسمارك سوى تشجيع مشاريع مواطنيه ؛ فهو في

كل مكان تقريباً قد اراح نفسه من شجون الادارة ملقياً اياها على عاتق الشركات التعاقدية ، وحين حل « الرايخ » محل هذه الاخيرة ، وجد نفسه أمام « مقاطعات موضوعة تحت حماية الامبراطور » لا ترتبط الا بالمستشارية الامبراطورية . وبعد بسمارك لم يبق من اهمية لهذه المستعمرات ، في برلين ، الا بالنسبة للسياسة التوسعية الجرمانية ؛ لقد تمت فيها الشركات ذات الامتياز بكل حرية ، وأتت التجاوزات نفسها التي اتتها الامتيازات البلجيكية او الفرنسية.

ولكن ألمانيا ، التي عجزت عن ارضاء حاجات هجرة واسعة وحاجات رأسمالية تزايدت مشاريعها ، والتي لم تمتلك اي موقع من المواقع الهامة الرئيسية ، والتي كانت مع ذلك في موقف ملائم للمطالبة ، اذ ان ممتلكاتها كانت محاطة بممتلكات الدول الاخرى ، ارغمت بالضرورة على اللجوء الى التهديد الجدي للحصول على فوائد جديدة .

كانت ايطاليا دون المانيا قوة ، ولكنها على الرغم من ذلك ، كانت راغبة في الاستيلاء على تونس : فخاب املها مرة أولى . ثم توجهت بانظارها الى افريقيا الشرقية : ولكن قواعد انطلاقها (اريتريا والصومال) كانت ضيقة ، فانتهى هجومها على الحبشة في السنة ١٨٩٦ بكارثة كبرى . وجملة القول انها كانت غنية بالرجال وفقيرة بوسائل العمل ، فلن ترضى ولن تقنع ، بل ستوجه اطماعها شطر ليبيا .

بيد ان مجالات المنافسة قد ضاقت حين استفادت الولايات المتحدة من الانحطاط الاسباني ودخلت المعترك بدورها . فحول المناطق الاخيرة التي لم تدخل في فلك احد - المغرب ، والشرق الادنى ، والشرق الاقصى - كانت الدول الاستعمارية ، القديمة منها والجديدة على السواء ، في حالة ترقب وتأهب . وفي الشرق الاقصى برز شريك مضارب اخير هو اليابان .

لقد بلغ توسع اوروبا الاستعماري ذروة اشرف منها على الانحدار .

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بلغت اوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تمّ لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لعمري ، في الشرق والجنوب منها، مناطــق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبعث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها الى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الثروات وتتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤســسات.

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الاوروبية تنمو بسرعـــة وتنشط باستمرار، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تفيض ، بالرغم من صغرها، بالمفارقات الاقليمية والاجتماعية . فالاثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنىً تلحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يجف او ينضب .

الفصل الأول

المدينة ودفعها الشديد

«اخضعت البورجوازية الريف للمدينة وخلقت مدناً جبارة» . (بيان الحزب الشيوعي - ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن

اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف، حتى عام ١٨٥٠، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف، واخذ يتطور ويتضخم. فهو ناجم عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور الى النمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلاً نرى ان المجتمعات التي يمكن وصفها بالمدينية (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى ٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا يبرز لنا بوضوح كلي تفوق مديني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نحواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف لتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبة التي تحتلها عواصم

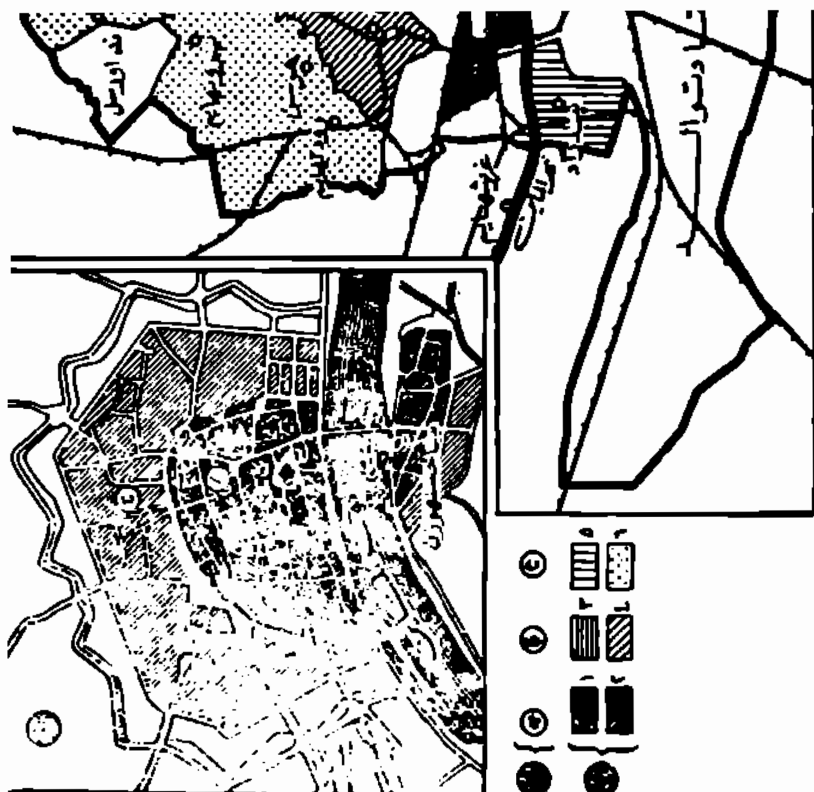

ثانياً ـ نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم المدينة القديمة بأحيائها : الالستادت والنوستادت فيها ٤٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي اقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذ ذاك ٦٧٨٢ هكتاراً . كما يرتفع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠٠٠٠ نسمة وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث اصبحت تعد ، عـــام ١٨٩٥ ، اكثر ٢٨٠٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

ل لفت النظر ولـتـلـيـد بالانتباه وللاحظة فقد نمت لندن ، عام ١٨٨٠ ، نحـــواً
ين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، ونمت باريس قرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فر

شكل ٠ ١٥ توسع مدينة تورينو

- جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ هكتاراً) نسم ٠٠٠ ٦٥ نسمة.
- امتداد على عهد شارل البير .
- حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ هكتاراً).
- منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة).
- امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ هكتار ، ر ٠٠٠ ٥١٠ نسمة عام ١٩١١) .

(مأخوذة من كتاب ب. غريبود)

ادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مــــدينة بطرسبورغ ، و ٣١٠ بالمائة في لند

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فيينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالايرلنديون والسكنديناڤيون والعديد من سكان القارة ينزحون الى لندن . بينما السلافيون والمجر واليهود يقصدون فيينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت اتيين فعدد من ولدوا فيها هو ٥٠ بالمائة .

المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة

فاذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للمدن القائمة ، فقد عمل بالاكثر على صقلها وافراغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعها في الامس القريب خواء . والامر يتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عادة حيث تتوفر امكانات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غربلة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافيء وامتدادها . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لعبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقاً وبندراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجلت صورتها لموريس بارّيس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هاهي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هاهي ذاتها تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيّز الذي شغله حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلواها ومتعتها . ففي كل يوم ، وفي الساعات والاوقات ذاتها نرى هذه الايدي التي تعتني بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي الماثل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن، اي اذي، وهذه المظاهر والرؤى المتتالية تحيى معاً وتتراكب بمدان تتخلى عن ميزاتها الفارقة . فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم ، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تتكيف ومقتضيات هذا الوضع الطوبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلا تمسها معاول الهدم . ولذا فاننا كم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غريبة ، فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة للهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والاتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٨٫٥ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام ١٨٠١، بعد ان فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه. أما في برلين ، فالاحياء *Altstadt* و *Ferderichstadt* سجلان تأخراً او بالاحرى تقهقراً بين ١٨٧٥ - ١٨٩٦ ، اذ هبط معدل السكان فيها من ١٧٫٦ الى ٧٫٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الاحياء العائدة فيها الى الاجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي امر بتشييدها الملك لويس فيليب. فقد امر بفتح ثغرات او فجوات واقام ميادين او ساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما امر بهدم المنازل السكنية الحقيرة المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مبانٍ بورجوازية ضخمة . فهاهو بودون يحدثنا عن « المدينة الجديدة الرتيبة ، المملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفة بديعة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احمال الحجارة والرمل مع مراكب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية، التي بعد ان حلت محل مرافىء المدينة وموانئها القديمة ، افقدتها سبب وجودها لهذه الساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصباء ، وهذه الطوابير من الكناسين ، وهذه السحائب المخيفة ، من الغبار المتصاعد . واخذت الاحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الاحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك احياء محطة سكة الحديد ، واحياء الادارات العامة .وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حملت طابعاً اجتماعياً مميزاً اتخذ يبرز من خلال ارادة البورجوازية . « فالعملاء أبعدوا بقسوة عن قلب المدينة » ، كما يلاحظ اوغسطين كوشين .اما في منشستر حيث يسكن اصحاب المبارك والمصانع ،عام ١٨٣٠، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ العمال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين والمياومين الذين اخذوا يتكدسون في احياء تفتقر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والعمائر المعدة للاستثمار ، من ابرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والحشم وقد قسم داخلياً الى حجرات ذات سقف مُندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد ينقسم الى شقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بعد ان ضحّوا بالمطبخ والقسم الصحي، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها الا فيما بعد . فكل شيء في المبنى جرى تصميمه على اساس انجاري برسم الايجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز الضخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثا هاماً في تاريخ تطور المدينة وامتدادها ، اذ يحررها ، الى الابـــد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قـام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحالت فيما بعد حارات واحياء جمة متحدة المركز ، وقــد حدّ من طاقتها على التطور والاتساع سلسلة الحصون التي انشئت حولها عام ۱۸٤٠ . ولم تخضع لندن لمثل هذا الارتفاق الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والمعالم محـــل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وُهدمت عـام ۱۸٥٧ ،وأزيلت كذلك كتباعاً من مدينة انفرس اسوارها عام ۱۸٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشلونة ، عام ۱۸٦٠ ، ومن كوبنهاغن ، بـين ۱۸٥٧ و ۱۸۷۲ ، ومن كولوني عـام ۱۸۸۱ ، وامتدت ميلانو الى ما وراء سلسلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها .وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والمقاهي ، ولن تلبث المـدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احيـــاءً عـامرة اصبحت واسطة العقد بين الريف والمدينة .

بحثا عن هندسة خاصة بالمدن

هنالك رغبة شديدة في ادخـال تعديل اساسي عـلى هـذا الطراز المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة . ففي مذكراته يعترف هوسمان « بأنه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء ، وبأسف كثيراً لان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلاقاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديـــدة » . وبالفعل ، فالعصر كله يتعثر في تردده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

وبشعور من الوجل والجرأة ، والتردد والاقـدام ، خيل للكثيرين في هذا العصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هواهم ، الفن القديم او الفن القوطي او فن عهد النهضة والانبعاث . ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علقت باريس بالفن الايطالي في عهـــد النهضة محتذية بذلك حذو العصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتملى النظر في كنيسة الثالوث الاقـــدس وسان فرنسوا كسافيه ، والاوبرا والوفر الجديد ، كما يحلو لغارنييه الاكثار من ترويق الأوبرا بشكل ينبو عن الذوق السليم ، كما ان دوكـنوى عمـد هو الآخر ، الى تقليد الفن الكلاسيكي في هندسته لمحطة الخط الحديدي الشمالية ، ويحذو حذوه هيتورف في بنائه المحطة الشرقية . الا ان بلتار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المـواد المعدنية آثر ان يضفي على كنيـسة القديس اوغسطين مظهراً بيزنطياً . اما البريطانيون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز القوطي بينما اخــذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما نتمثل ذلك في قصر بوكنغهام مثـــلا وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لمسلة نلسون ، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيـــة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هولفـــبرغ والمتاحف التي قـامت فيها ، معظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديـــد رسم وشكل قصر العدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قادت على اقدار مختلفة من النجاح، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجادات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومفـــارق الشوارع الكبرى ،بالتماثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحي دائماً فكرة الضخامة ، فقـــد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج متضمناً مبهماً ... فالمهندس لابروست يكثر من المواد الحديـــدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنفيف مخففاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الثقيلة المشرقة، الهيفاء، تليق كثيراً بالمباني الخـاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالهالات .

تطور الخدمات البلدية الصحية

اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة،متماثلة، فاذا مـا حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسمـــاء يتمتع اصحابها بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فبروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها أنسباش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشتهر جوزف شمبرلن بوصفه اميـنـاً لمدينة برمنغهام .

فقد عدت لندن ١١،٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم،كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣١٥ كلم ، رصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة العريضة على جانبيها. ورصف الطرق بالخشب ، أخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى ترقيت الطرق بعد ذلك بقليل وتم النقل بثلاثة انواع من الوسائل : الامنيبوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والخط الحديدي على سطح المدينة او تحت الارض، ثم الترامواي : مكهرباً كان او غير مكهرب. وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة التدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحالبين والسقاة ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بئر من هـــذا النوع هي بئر غربنيل . وراح المهندس بلغران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كمبرلاند . وتصريف المياه القــذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محـافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خـــاصة ليتولى عمال من قبـــل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ١٠٠،٠٠٠ من جامعي الخـــرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندمـــا راح يتكلم عن هال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعول ، في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضاً على هذه المناطق النائية عنها . فـفيينا تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنغاريا ، والجعـــة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الرور يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والحنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والخس علـى انواعه من مناطق البحر الشمالي ، والفاكهة والاثمار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

الشارع في حبه وطربه ومقاته

وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن العملاقة تعيش جماهيرياً ، لهـا ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تغتفر للمجلس في فرساي «مجلس ابناء الريف» كما يلقبونه ، منافسته لها على لقب « العاصمة » ، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا . ويحلو لهـــذا الشعب الباريسي التهكم «بالتونكيين» ، ويتحلق حول بيرالجيه ويصفق له ويظهر عداءه للسامية خلال « القضية » (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف القيصر مردداً :

لرؤية القيصر كما يجب
قم باكراً واحضر بسرعة
ولا تتمهل في سريرك

وقد تفاءل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبها) يهتف قائلاً : «ليحي الملك الرامح» ، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على انزال فرقة المانية في جزيرة باب . البزة العسكرية لها اغراؤهـا لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنبـــي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امـــام قصر بوكنغهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض الجيش تقام في احياء العاصمـــة . فالتماثيل والانصاب الوطنية والشوارع تمتد باسماء مشاهير الوطن ؛ والمبني التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتسبي الالباب بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلاً . والنساء والفتيات لا يتحرجن قط عن الخروج ليلاً . وفي باحات المقاهي يحتشد النظارة والزبن يتحدثون ويتسامرون محدقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع ولجساداتها البديعة سحر وفتنة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجعــة اصبح من الامـــور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءتها من المانيا . فواجهات المخازن الكبرى تلفت اليها الانظار والاعلان يجتلب النظر .

بين الاخلاق الباريسية والاخلاق البورجوازية

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محور الموسيقى المرقصة . هنالك لعمري انماط من الحياة هي من صميم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او السترة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بانه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عند مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدومينو والورق . فهو يتردد على الحانة ويأتي الى هذه « الدوّامة » ، كما ينعتها زولا في وصف لها أخّاذ . الا ان هذا المجتمع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه نظرته الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستهجناتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فسواء حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة اوالطرحة ، والنقاب او الخمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثر الى الحركة والتنقل والى ركوب العربة ، كان عليها ان ترفع اطراف فسطانها الذي يشكو من الطول اجلالاً . فهي تدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحقيبتها الصغيرة تودعها منديلها وبعض اغراض زينتها . فالالبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكثر السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياد المناظر في الاوبرا ، أمور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفروا له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثرون من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة الطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة للنوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا مـا يتدلى من السقف الثريات الجميلة ، كما حرصوا على تزيين المداخن بالشموع . اما المائدة فترفل عادة بالاطايب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كثرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاعق والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز ديولز و كريستوفل وملفن . والبيانو يضفي على البيت مسحة من الثراء والغنى ولا ينقرض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، وبصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة العهد . وبانتظار تهيئة الباكرة قبل الزواج، تنصرف الفتاة لاشغال الابرة والتطريز . اما تبادل الزيارات في ايام ومواعيد محددة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تتقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب ونادي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بحفظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر . فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الفنية الكبرى . فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، ولم بورجير . كل بورجوازي من علية القوم يحاول نفسه يرغب صادقا في ان يؤلف له مجموعة منها محتذياً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوالى وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فأميل غيميه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة ، والصراف سرنوشي ، والبارون دافليه ودوقة غاليارا وآل كونياس – جاي ، وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذاك ، فمن ناطور العمارة الى ساكن الطبقة العلوية، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المعنية بالإعلام والاربا على نشرها تباعا . وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلون بحماس على المسرح الغنائي . فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهج الغنائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبير ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية . وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « اليهودية » تطل علينا الميلودراما التي تغص صالات العرض بالمستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز توماس ، وفوست ، وميراي لغونو ، وكارمن لبيزه ، ومانون لماسنه ، وباريس تقوم وتقعد لواغنر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرها حول *tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ، ملازمة له ، و « موسم » فني ، تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات . والآلة تفيد كثيرا من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فن التزيين والتحلية يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباء .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبث . فالى جانب المسارح التي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين) ، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

ممثلين امثال : بروهان ومونيه - صولي وروزين برنارمت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد حمل بمعزل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم، ومسرح المستحدث (*Nouveautés*) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاة الذي يقول عنه سانت بوف انه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، لن يضعنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكىء الى درابزون الشرفة « موضوع حوالة الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن »، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للابيش ان يطلع علينا، فيلعب لوحده، او مع بعض المساعدين له نحواً من ١٠٠ مسرحية، بين ١٨٣٦-١٨٧٦ واكثر سخرية منه واوفر، كما برز كل من اميل أوجييه واسكندر دوماس الابن الذي تمكن من أقلمة مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوبريت التي تداني الفودفيل ، تبتعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هـــذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفي، اذ كان من المفروض الالتزام بحركة مماكسة لما يسميه تيوفيل غوتيـه الفن الهجين الحقير الذي جاء خليط من طريقتين التعابير تعارض احـــداهما الاخرى حيث يسيء اللاعبون تمثيل ادوارهم بحجة انهم مغنون ويغنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوبريت ان تضحي بعنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكـــوك واودران وبلانكيت ومساجيه اتقنوا، الى درجة عالية، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوركسترا، وقاموا بردة مماكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاقي » والسافـــل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتـــها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك ملذات ايسر مناﻻً وأيسر اخذاً واشد وقعاً. فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وبيبيه والبطينة ، كما استلمـــت هواية السيرك الذي تملك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فعرفت باريس اربـــع فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بألعاب الخفة التي قام بها مازوربيه ، صاحب الوجه المصبوح ، واوريول ، هـــذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت اعين النظارة العاب السيرك الاولمبي الذي لم يلبث ان حل محـــل سيرك الشاتليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهـدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعاب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الفنائيـة حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

الحضارة المدنية : مساوئها وعوراتها

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احيـــاء باريس امثال الـ *Salpêtière* ، والمحطـــة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العُلب الليلية وبيوت المشاغلة والسرى .

ولسترا سبورغ مثل هذه ، هي الاخرى ، اشهرها الـ (Ponts - Couverts)ومثل لذلك لمدن روبيه وليون ومرسيليا . اما في لندن، فمقابل الاحياء السكنية الغنية الى جهة الغرب، يقوم حيها القذر ، الوسخ East - End ، واحياؤها الفقيرة القـذرة . ويرى ماكس اوربل في لندن مزيجاً بشعاً من الجنة والانجيل ، وخليطاً من مشروب « الجين » والتوراة ، والسكر والرياء، والاوساخ مما لا يرى في غير مكان ، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع ، والازدهار والانحطاط وغير ذلك من الفارقات والمتناقضات الصارخة، وهؤلاء البائسون الجائعون ، الحيارى، وهذا الفريق الغارق بصلف وعلياء في الفن والملذات .

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى السائمة منها الى الناس ، هي نتيجة هذا الازدحام والقذارة معاً . ففي عام ١٨٨٥ ، كان معدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤ ٪ في باريس ، و٢٨ ٪ في برلين وفيينا ، و ٤٦ ٪ في بطرسبورغ . وجاء في احصاء حول بروكسل ، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها و١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل ، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط ، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة،و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفة علوية تحت السقف ، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي.

ففي عهد ديكنز،آوت ارصفة لندن وعنابرها ١٠٠٠٠ سارق.وهايد ـ بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهاراً الا على صهوة الخيل،هو مكان يتعرض من يجتازه ليلاً لخطر الموت ، وكلمة « مخضب بدمائه»هي على كل شفة ولسان . ففي فرنسا ٢٢شخص من كل ١٠٠،٠٠٠ من سكان المدن يقدمون لمحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف ، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريباً، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشدات .

ففي لندن ، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في هبستيد ، و٢٥ في بتنال غرين ، وفي تورينو ٢٤،٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو، و ٤٥،١ في حي سان لورنزو الفقير . اما معدل الحياة ، فالاحصاءات تقدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد . فالاحصاء الذي وضع ١٨٧٣ - ١٨٧٥ ،كان معدل الوفيات ١٥،٧ في المقاطعة الثامنة في باريس، بينا بلغ هذا المعدل ٣٦،٢ في حي ١٩ ، عام ١٩١١ ، مقابل ٩،٦ و ٣٢،٤ .اما في برمنغهام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠ ،والى ١٧عام١٩١٠ ،بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة، وارتفعت اسبابها . وتطل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انما يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة، فكلمات السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتتدافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة العفنة .

من خلال الانوار التي تعبث بها الارياح
بيوت البغاء تتألق نورها في الشوارع
(بودلير : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة

كثيراً ما جاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه، في الوقت الذي يفكر هذا الاخير بنابة لتغيير الهواء الذي يستنشقه. وهكذا نرى ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة واستجماعاً للصحة! وكلما توفر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع الجميلة واماكن الاستجمام. وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويخرجها ليتره في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسميها اليوم هذه الرياضة، من الانكليز. الا ان الاسفار اصبحت عادة استبدت بالناس وطغت على الامزجة بعد طلوع السكك الحديدية، فكثرت بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدانية. فالنادي البريطاني للرياضة البدنية التصعيد في الالب، نشأ عام ١٨٧٧ وسميّه النادي الفرنسي ظهر عام ١٨٧٤، وتولى ادارة الثاني منها شخصيات لها شهرتها الواسعة لترسيخ الرياضة البدنية وحركة السياحة، امثال: ادرلف جوان وفيوله – لودوق، ودوق دومال والبارون نفليز. وطلع علينا بيارا بالخريطة المصورة التي تشير الى المواقع الاثرية المشهورة.

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديدية الرئيسية الفنادق الفخمة لاستقبال المسافرين والسياح، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها ومقاطعات بكاملها بالفنادق والاوتيلات على اختلاف درجاتها. وعلى شواطىء البحر قامت مسابح اثيرة يرتادها المستجمون من كبار القوم والربائهم ومشاهيرهم.

ورياضة الجبل راجت، هي الاخرى ايما رواج. فقد أم شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عام ١٨٦٠، كما امها حوالي ٢٥٠٠٠٠ عام ١٩٠٠. واخذت سويسرا تصنع السياحة في بلادها فدرّت عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً. فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace*، وآدمز التي مائدة الضيوف ليقدم لهم بديلا عنها غرفة الحمام. ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعة السياحة بلغت المليار، عام ١٩١٠. والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن ستتار قنن الجبال وقممها، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج.

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠، ومدينة بلمبيه تجمع ينابيعها الجديدة عام ١٨٥٧، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فترة استجمام في مياه كارلسباد، ونابوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي وبلوم بمفاوضة كافور في بلمبيه، بسمارك بأبي وبياريتز. وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية: في ايشل، رغاستاين، وبادن. والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز ١٨٧٠، انها انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم.

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحيي العابها المفضلة: التنس والغولف

وكرة القدم ولعبة الكريكيت، واخذت عادة التزلج تنتشر في باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونشان. اما هواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستقراطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من منخور وفرهم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صغار القوم فيكتفون منها بصيد صغار الطير ومقتنص الطرائد بالبندقية. واخذ الطب يدعو الرياضة البدنية ، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها ابا ورواج آل لنغ ، الاب والابن. وقامت جمعيات رياضية في جميع البلدان تدعو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق ، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً ، التي رمت الى تغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي .

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان

كلما تقدم بنا العصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والاثراء وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والتقنية . فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل شيء . فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء . وقد طغى الكم على النوع وليس بمستغرب . ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونفر قليل ، كالموسيقى مثلا . لنعد بالفكر الى هذا الحد الذي سيطر على فيينا فترة من الدهر وكان المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته اذا لم يأت اهتمامه بفنون المسرح دون اهتمامه بمهام الحياة وشؤونها الدنيا . فتألفت جمعيات فنية ، عنت باقامة الحفلات الموسيقية ، منها في باريس مثلاً ، الجمعية الوطنية للموسيقى ، وجمعية بادلو للموسيقى ، وكولون ولامور ، وكلها رمت لتصحيح الذوق وصقله وتهذيبه ، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها ابنيك اخذت تعرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي . فاذا ما حل النصراء من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصراء الامراء ، فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبداً يحل محل هوى يبسط للفنان يداً رفيقة دون ان يفرض عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه . فالنوصية حملت دومـاً شيئاً من الاستبداد والتسلط . فعلى هذا الهوى الا يأخذ بعين الاعتبار والملاحظة ، هذا الخيال الجنح الخلاق ، بل عليه ان يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية .

فكان لا بد ، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجه الضغط الذي يتعرض له من الجمهور . فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بمطالب الجماهير ، فراحت في تعنتها توصد ابوابها في وجه العديدين . وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقــد استطاع الجيل الرومنطيقي ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتوافه . فثورة الشباب التي السمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عــام ١٨٥٠ تقف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه تقت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فسبق الجو بهذا الاريج وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمري كل جاذبية الربيع وسحره – في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي – الذي قابل ، بإعراض شكلي حرفة الادب والفن لعجزها عن تأمين الخبز لمحترفيها . فقد سبق الشباب الرومنطيقي واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور يافطات . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكريتان . وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبــات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينها رفضوا ان يعرضوا الصورة : « جنازة في اورمانس » بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام١٨٥٥ ، فاضطر لعرضها في كشك من خشب . والمحكون الفنيون لم يعاملوا معاملة احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : أزاهير الشر – ومدام بوفاري – وتبريز راكن – ومادلين فيرات ، والمدرّج ، بحجة انها انتهاك للآداب العامة . فقد ترك لنــا « مورجر » وصفاً لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفــع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . وبــذهب ستيفن زفايغ الى اطراء مناخ باريس الغريب « المشبع بالسذاجة ، وبهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة » ، هو الذي « خرج من مدينة فيينا هذه ، الطائشة ، اللعوب » ، وقد وقع الانفصال حقاً : فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خلــق النوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي – الداني والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة .

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية – وهي ليست بشيء جديد – ظهرت في جميــع البلدان على اقدار متفاوتة ، فها هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادباً حظه التاعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا « الادب المتهم » . فبعد ان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد المهيض الجناح في

تطلعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم انجازها برعاية الاسرة المالكة سعيداً في سردينيا. والفكر الالماني القلق، المضطرب دوماً، يمرض جانباً عن هذه المغريات التي توفرها له سياسة بسمارك الوطنية، فيتيه حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة. فلا يسيرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي حكم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي، برفضهم لسهولة التعبير فطلعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت الينا ..

اتكون هذه الحضارة المدينية في اوروبا، اسفيناً او اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل هذا التطور، يا ترى ؟

مخلفات المدرسة الرومنطيقية

وهذه الرومنطقية، الثنائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها وسر بقائها، في قدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المجنحة والحماس الوطني. وهذه الينابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة، فياضة اصبحت الان اشبه بخط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت طلوع ادب وطني قومي، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد، فلا نراها تشكو من اي ضعف او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا الحس العاطفي والمادة الشعرية الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشبوب طي الضلوع والمتمطي بين ثنايا لواعج النفس، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تمور بالحرارة والوهج والدفء كالاديب الانكليزي روستي، والاديب الاسباني بكر، ومعظم الشعراء اللاتينيين والرومان والسكندينافيين. والطابع المميز لآثار روبرت براوننغ هو الطابع السيكلوجي، وهو الذي ادركته الشيخوخة وراح يعاني من اعراضها، اخذ يعنى اكثر فاكثر، بامور الحياة والموت هذه القضايا التي عالجها الكاتب النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلك فحماسة الناصريين تبرز على اتمها في المانيا، في ما عرف بـ الفن المثالي الذي لمع فيه ماكس كلنجر، اشهر وابرز نقاش على ما نرى، منذ طلوع دورر؛ وهذه الردة التي ظهرت في انكلترا ضد الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهار المدهش السابق لرافائيل والذي يتمثل على اتمه في هونت وروستي، وميلاي، وبورن – جونز الذين حرصوا جميعاً على ان ينموا فيهم البدائية الفنية، التي راح رسكن، هذا الناقد الذواقة الذي راى « في كل فن كبير، شكلاً من اشكال العادة، رسكن هذا الذي كان همه الاول والأخير ان يطهر البشرية وينقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة » . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى نجده من جهة عند « هيل »، كما نجده من جهة ثانية عند ولم موريس وولتر كراين اللذين

حلولا لجديد لمن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هذا الفنان الذي عني بفن التمنمة والتزويق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما تواثقوا على وصفه بحضارة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلا : « لن ارى بعد الآن اناساً لابسين الحداد ويشربون الافسانت وهم يبحثون شؤون مشاريعهم التجارية » . فاذا ما راح برودون يستعيد بدقة ظاهرة ذكريات حداثته ، عهد كان يحرس قطعان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي تقتضيها العناية بالارض . والاقبال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بربيزون لقيت رواجاً عظيماً وكانت امتداداً لفن السملونيات الراعوية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيابين ، في مجال المستهجن ، فالخوف من المجهول الذي يرزح على الصدر ، عرف ادغار بو ان يفيد منه الى اقصى حد وبعنف كما اجاد ذلك مريبه بمهارته المعروفة ، وغوتيه بذوقه الرهيف ، وجيرار دي نرفال بجهاليته . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حالة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصر على ربط الحاضر بالماضي.من ذلك مثلا مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في الريه الخالدين : « القصاص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتنسون ، وولم موريس وماتيو آرنولد ، وفريتاغ في روايته «الجدود»،وتولستوي في روايته : «الحرب والسلم» . ولهذا السبب بالذات لقي واضمو القصص التاريخي ارتياحاً لدى الرأي العام واقبالا شديداً منه ثم ان الاستمساك بالارض الام والتعلق بتاريخها،قدم من جهة ثانية،الشعر الملحمي،موضوعات قوية. ومع ان هذا القصص خضع لمستلزمات الواقعية واحياناً راعى،مبدأ الفن لاجل الفن،فالرومنطيقية، بقيت تكأة لهذه الآداب الحديثة العهد ، تعتمد على بعث المآتي المطمورة التي تنزى ، على اقدار متفاوتة بين الكبير والصغير ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفخ فيها الحياة . وهكذا اخذت بمعاضدة حركة البعث القومي التي سار في خدمتها منذ عام ١٨١٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعضدها وتهيء لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بين الاقوام السلالية ، وسكان شبه الجزيرة الايبرية . وفي هذا المجال ، يستلهم كاردوتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غالدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطيقي الذي لا ينضب ، تنفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . منذ ان توارى عن الانظار الممثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومان ،

وشوبان ، وليست ، جرت حثيثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فلكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهام الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسبير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يمي اكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالصور من ليست الى واغنر تم بصورة طبيعية مع ما صحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

البلدان الرجعية ضد الرومنطيقية : الواقعية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي

مما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من نواح عديدة : من بلزاك وميريه ، كما أطلت علينا من ستندال . وكم راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقعي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف . وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان رينان بقي قريب الصلة بيشليه . وفلوبير بسحنته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجلت له افاريز ضخمة ، يوضح لنا قائلا : « الطبيعي عندي هو الشاذ الغريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي » . فلا يحق للروائي ، اياً كان ، « ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق » . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئلا يودع الورقة اي شيء من قلبه » . وزولا نفسه يعترف قائلا : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربية الزائفة التي لقنتنا ، فانا لا أزال احمل في نفسي اثرها وهذا ما يهيجني بالفعل » ليجمح به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليها الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العلية من تأثير بعيد في هذا المجال ... ! « ان ما أرغب فيه ، يصرح ديكنز على لسان احد شخوصه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلغي المخيلة وان ننتزعها عنا الى الابد » . فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بغريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاعية والمقذعات فلم يعد ثمة من موضوعات سامية اوخسيسة منحطة . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان يحيز واصبح واقعياً . فاذا اعترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يثقلها . وعلى هذا الاساس انزل رينان يسوع الى الارض ورده الى المحيط الذي وُجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويزول سحرها ، هذه الاجيال التي تبعث الرعب بما فيها من ايمان وبرص وبجاعة ، حسب ما يقوله لوكنت دي ليل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها . فعدم التأثر والتجرد من الغرض، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقريات خصبة وقوية جددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجيه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيبل

وهوتان ، في ألمانيا ، والثالوث الشمالي الذي تألف من يحرسن وابسن وستراندبرغ ، وفي روسيا لتشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي بـ :تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لتن ومريديث، طليعة سلسة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تشتمل على خير شكل بفونتان في المانيا ، وكيلر في سويسرا ، وتورغنيف ثم دستويفسكي وتولستوي،مهما كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بألوان صارخة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ، وحمل فلوبير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي، هذا المذهب الذي حرك الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي.وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغا وكبرانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالّتو وبوتشيني .

وكوربيه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهذه التفاهات الرومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقاقي اذا ما صلح للتعبير عن السامي الجزل » وكلاهما يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . اما في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عنى بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . ويختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانبا كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على نحت وصقل عمله الاثري نحت الصائغ لقطعة ذهب بين يديه وصقلها ، يتمد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النغمة التي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي رك اثره البعيد في لوكونت دي ليل، وفي «تين» ،ولا سيا في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحادث الواقعي مظهراً جمالياً.واذ كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثل الفلسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باتر تسيطر تماماً على هذا الفريق في انكلترا، وبيرمز لو والون وفوسمير في هولندا، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرة الصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالم الاجتماعي غوير التعبير الاسمى لهذا التجاوب الجماعي في الشعور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد تبنى تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول: « الجمال هو تعبير عن الواقعي المميز » . و « تين» معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتوافقة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقة . ومن مندلسوهن الى براهمز وسان - سايتس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتآليف موسيقي آسر

وفقاً للقواعد التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقلّد الطريقة اليونانية اللاتينية . الا ان تذوق التاريخ القديم يتباين الآن نوعاً وقدراً . فاذا ما راح الاول فرانس يصب بلغة فاخرة من أريج فلسفة أبيقور،فرينان بدوره استعمل حبراً سرياً ، كما وجد فن الرثاء للامنة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي، الى فن، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطيقي الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية » الى البرناسية» ، كما يؤكد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشعوره ويكبت احاسيسه في كل ما يكتب » ؛ ولوكونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فورييه ومريديه،ونصير الغابة ضد المصنع وضد تعديات الصناعة، والمستسلم بكليته الى بداية تقول بالاشتراكية ، لم يعد ليرغب في عليائه وكبريائه واشمئزازه ، الا الانقطاع الى هذه القوائد الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كاردوتشي وشادت عظمته ، سيعرف جوزيه – ماريا دي هريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف يتبناها بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب : «الاناشيد البربرية» ، والذي يتنزى بالعلم والدقة ، والذي يعنى الى اقصى حد، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكآبة والسأم . فالامثولة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الاناشيد القديمة » كما ان « الاناشيد المفجعة » لن ترى النور قبل عام ١٨٨٥؛ وفي هذه الغضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الاناشيد الزُحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغنر : « مذكرة تريستان » . وهكذا أطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامه ممهدة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

الدرسة الانطباعية

في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسمه كلود مانيه فيصفه «بالفن الانطباعي » بينما دليل المعرض يشير اليه بعبارة « انطباع » الشمس الطالعة . « يا لنا من مساكين ، ومنبلي مساكين » طفق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولما كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يقعوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لوميتر فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان : «انطباعات حول المسرح » . وأناتول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الادبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابرييه الذي ُعرف ببراعته وتقنته سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسعنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقيين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي ُعرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقد يكون استيفي ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة التي طالما اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع الطفولة او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر - ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منهما يأخذ على الثاني اعتقاده بمظاهر وظواهر دائمة مستمرة، كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القائم ، في مرسمه السيء الانارة والاضاءة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحادث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندما عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمه المشهور باسم : « زويقة على الحشيش » وهي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلته نرى مونيه مأخوذاً « بهوس الضوء وحتى النور » . والحال، فالنور او الانارة تتغير وتتبدل بتغير الظروف والاحوال الطارئة . ومن ثم فالشيء الماثل امامنا هو هو ذاته في كل الحالات اذ ان لاتتغير ولاتتبدل في ذاتيته . مما لا شك فيه اننا هنا امام تأثير الـ *Estampe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيماً بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا ايضاً امام تأثير الفن الهولندي والاسباني ايضاً كما هو ثابت. وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي: فالرمادي والاصفر يغشيان كل شيء حيث تضيع الالوان وتبهم وتشتد بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على المِلْون (لوحة الالوان) . فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يوفر له اللقطات الآنية ، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونيه الذي يعتبر خير ممثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العارض سوى المناظر الآنية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بحد ذاته . فالابداع او السمو يكون في رسم « الهواء » . وسيزلي يضحي بهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربييه الى مونيه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا، آلوانا تهيج الحواس وتثيرها. لا يمكن اعتبار ديغاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام الحافظ ، اليقظ ، انقطع للمرقم (الپستل) وتوصل به الى نتائج مدهشة فاذا كان من العسير وضع هوسلر في مرتبة مونيه فقد دشن ليبرمان ، مع ذلك ، في المانيا ،

مدرسة القطيعة او الانفصام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وطرقت بدورها رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشمالية ذات الجو السويداني . وبوفيس دي شافان مدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

واغنر والاتجاه نحو الفن اللاعقلاني

كثيراً ما وصف نفسه بـ *tondichter* اي شاعر الموسيقى الذي جمع في شخصه كل التيارات الفنية الذي عرفها القرن . رومنطيقي ، فقد « كانه » كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما واجه حدثاً داوياً بسبب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيغفريد فوضوي يتحدى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة المجردة ، المسوخة الصور وراح يلوم فرنسا التي غنت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » ، كما لم يوفر في موقفه هذا ، اليهودي ، اي روتشيلد مرمزاً من تعابير *Glaubiger* الى دائن الملوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحكمة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى الهرمونيا ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحد بين الشعر والموسيقى . ومن هذه الفكرة طلع علينا « برباعية خاتم آل نيبلونجن » فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد . وتطالعه فلسفة شوبنهور القائلة بالفن المنقذ . وينجه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية التي تجلت بكل معانيها في كتابه : « تريستان » . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « تانهوزر » في باريس ، لاذ بمرفأ السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maitres Chanteurs de Nuremberg* هي تجلي لسمو العبقرية المتحررة التي انقذت في شخص ، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وبهر مسرح بيروث ليشهد تمثيل وقائع سيغفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيفال المنقذ .

واستبداد موسيقى راغنر بالناس واستئثارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قام منهم بحركة رجعية منهم ، امثال دوبوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت خجولا من مشاهدتي *Festspielhaus* » صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرباعية *Tetralogie* عام ١٨٩٦ ليس ما هياني ، انا الكرتزياني الحديث العهد ، لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم ، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات البرنيخ اللزم والحركات السحرية التي ترسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرساة » .

وقد خطر لليست ان يوسع واغنر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المدلول الفلسفي العالي . والأثر الواغنري هو الذي حققه نيتشه . فبعد ان وضع جانباً العقلانية السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع ، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الانسان الكامل . فقد نزع نيلشه بارادته نحو القول بمبدأ حياتي سام ، الا انه يأخذ بعد قليل ، بمهاجمة موقف واغنر من قضية الفداء أو الخلاص وبنظور ، بعد موت واغنر عام ١٨٨٤ ، باتجاه فلسفة نيوررومنطيقة شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في اخريات القرن التاسع عشر .

الابداع الشعري المستقل والرمزية

ربما كان بودلير بين الاوائل ممن انبروا للدفاع عن واغنر مع استمراره في جهاده ذوداً عن كوربيه . فقد اطلق هـــذا الرجل الغريب الطباع ، الوجيع، الصعب التصنيف، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة». وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الايمان والتهتك وسيطرت عليه ابسط الغرائز مشترطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفا بكل حريته بالانظمة ، دونما التزام ، مزدرياً بهذه الاصنام وبهذه التماثيل ؛ وقد ′رفع على العيا كل رسميا بعد عشرين سنة من وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شبيها من قبل، راح رامبو ، محولا على اجنحة الاحلام والخيال الشرود ، يرصف امام اعيننا، صوراً لم تخطر يوماً عـــلى بال ، باحثاً عن الشك الشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع الرحـــلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغنر بقليل ، طلــع علينا مالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً معدوداً من قصائده الرائقة الداوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادهـــا واغنر ، اذ شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفين بـ *Décadents* ومن يليهم من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء قرننــا الشباب في الحي اللاتيني « قـلة » من فتحت لهم الابواب ، فتقبلوا بارتياح كلي « البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به موريا‎س.

فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استلهم ، بعد ان تسلح بالشعر المرسل،الشعور وحده والعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الايحاء واكثر من المجاز الشعري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاًكبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه بمترلنك وموكل بقطع النظر عن فيرهارن . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر بريدجس وسونبرن كما ترك مســه في الثالوث الشالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره، كما ترك مـــه في الكاتب السويسري سبتلر ، ودخل روسيا مع تيوتشيف « فت » . فألهـــم المسرح كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى.

حركة انقطاع او انفصام تام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخـذ برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . وتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة تباعداً تقدمياً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمري .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئيا بأسباب التطور

فاذا لم ترجح كفة المدينة عددياً من الوجهة السكنية ، فقد سجلت مع ذلك، في جميع انحاء اوروبا شأناً لا ينكره الا كل مكابر عنيد .فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

اكتظاظ الريف بالسكان ونزوحهم الى المدينة

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يقابلها انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالاسر التي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يعد في فرنسا سوى ٠٠٠ ١٩٢ ٢٣ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كان عددهم ٠٠٠ ٧٥٣ ٢٦ ! وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنعي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كئيب تعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحتضر وقد ابتلعته المدينة
(فيرهارن « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الاوروبية بطابعه انخفاضاً مطلقاً فلا نزال نشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من اوروبا ، فهذا النمو يطرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، نرميها باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تعوّل في معايشها على الفلاحين الاوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالربح او نزولاً عند مقتضيات القانون (لتصدير

المنطقة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالخبز الابيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، اذا ما قارناها بنسبة المحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلا او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج اوروبا .

ومهما يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفضي اليها ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل على زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتخلى عن ارضه بملء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بها بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسببها دورياً الحاجة اليد العاملة ، في هذه المزدرعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريتانيا او من البلجيكيين. كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس تجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضنية ، مرزحة ، بينما يبقى عاطلا في ما تبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الرديف الآني من اليد العاملة .

وهكذا نرى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانحلال في اوروبا الوسطى بينما يتصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في المانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يجرف عدداً اكبر مما يجرف في الشمال . والهجرة اشتدت في شرقي المانيا أكثر منها في غربيها، ولكي تحد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentenguter* الذي يقضي باقطاع العمال المياومين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها. وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة الدولة كما اصاب ايرلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من اوروبا على البحر الابيض المتوسط، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من اوروبا. فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عدداً من الفلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من الـ *Pnitra* المجربة الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع معزولة عرفت عندهم باسم [illegible] عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا . اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموات الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والخسارة لصالح السهل ،

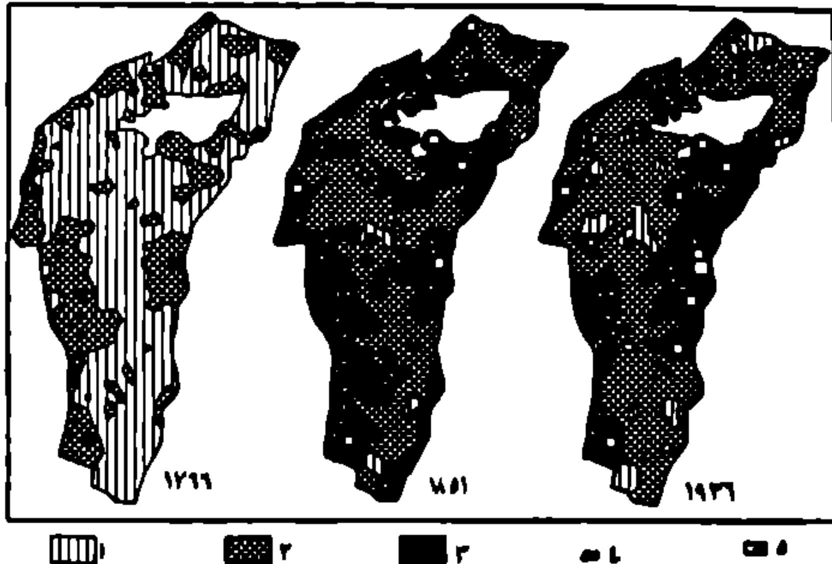

شكل رقم ١٦ ـ كثافة السكان الزراعيين في ألزاس السفلى

١ ـ اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع، ٢ ـ من ٧٥ ـ ١٥٠ نسمة ، ٣ ـ اكثر من ١٥٠ ، ٤ ـ تجمعات سكنية تعداد سكانها اقل من ١٠٠٠٠٠ ، ٥ ـ تجمعات سكنية تعداد سكانها اكثر من ١٠٠٠٠٠ .

الى الغرب : منطقة الكروم وكوشيرسبيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنو وغاباتها . الى الشرق : منطقة الريد على طول نهر الرين .

يلاحظ التزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها .

(نقلا عن جويبار الحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ راح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المؤاتية . فمنطقة الـ *Velay* مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالاخص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للتعدين ، بينما الصناعة الضخمة تفتل الحرف المتشتت بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغيرات السكانية انما تشير صراحة الى المساوىء التي يتأذى منها الريف. فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدثه اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت مـلازمة للارض للاخـذ باصلاحات جزرية تساعدها على قهر الصعوبات التي تتعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الجديدة واستثمار أصلح للارض

من المبادىء التي تستمدها الصناعة الزراعة وتنهض عليها هي ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها المتعددة ، تخضع مثلها لمقتضيات العلم والتقنية . فعلم النبات وعلم الحيوان، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنسيق . واذا انتشر التعلم المهني ونماع . ولا شك ان رأس المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء . ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالمفارقات تبقى كبيرة ، واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا باسباب التجدد، يجاهد الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس بغريب قط ان تلعب ُسنة الاصلاح وقانون الاكفأ لعبتها المعروفة هنا ايضاً .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطاع والاراضي الزراعية القديمة في اوروبا لا تصلح جميعها على السواء للاجهزة الميكانيكية. فقد تركت فرنسا المانيا تبزها في هذا المضمار وتتجاوزها بعيداً . فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٠ من الحاصدات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضعفان من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضاً. فبلدان اوروبا الشمالية، تتبنى قبل غيرها من البلدان الاوروبية الاخرى المماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقهقر في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان تخلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتعلقة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر . وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ – ١٩٠٨ من ٦٬٢٠٠٬٠٠٠ الى ٣٬٨٠٠٬٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية على الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا. كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات سولوني والبراين والدومب ، خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة «كامارغ»، وبذلت جهوداً جبارة باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (*Polders*)» واستخلاص بطون المناجم من رواسب المياه واستنزاح الرمال من هذه الاراضي الممتدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف سكندينافيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمباين ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على شواطىء هولندا والمانيا، واراضي الجوتلاند والسويد السيئة التصريف. والفرس تستعمل نفاياتها وقمامتها المنزلية لتسميد البساتين الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الخضراوات والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه، واقامة السدود والحواجز المائية تفلح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي الجسر التي كانت معرضة من قبل لطغيان المياه . امــا في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقنية الري على نطاق واسع بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠٬٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برنامجاً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شمل كل انحاء الجزيرة الايطالية . ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تتهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على العطاء والانتاج . فالعهد النحسي الذي عولوا فيه على سواد الغوانو والذي يقع بين ١٨٥٠-١٨٨٠ ولى وأمحى لتحل محله خصبات جديدة طلعت علينا بها الكيمياء الحديثة جاءت سحقاً كبيراً للسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان فعله بطيئاً في نواح اخرى ، مما اتاح الفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيب في المحصول . والنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جديدة ، ومكافحة الاوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتعويل على تسميد الارض بالمواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب افضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيب في البطاطا مثلا اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٣٠ طناً عام ١٩٠٠ ، لقاء سبعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١١٪ من المادة السكرية بدلا من ٧٪ . كذلك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرخ ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات اللازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الارمداد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلوكسيرا .

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تمليها الغريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان وتقاوم تيار التجديد . فهي تلائم تماماً نشاط صغار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والمعول عليها في بيئته . ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عندهم بـ *Saltus* اي من اراضي للرعي تجاور ما يعرف عندهم بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندينافية حتى سلسلة جبال شيارا مورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتطاب عندهم من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والاتساع الذي تتخذه في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالا للشك مما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية الماشية . ففي هذا انهاك للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان لنجاح التخصص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية الماشية يستدعي استبدال عملية

الاسمدة *Emblavure* بالعشب وزراعة النباتات العلفية والبطاطا التي تحل بشكل اجدى وانفع محل الارض البور . فبعد الفصل بينها، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكثر، كل واحد منها . وربح الوحدة منها ، من حيث الانتاج والمحصول، مـــا تكون خسرته من المساحة ، بينما يسجل التالي ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحدائق وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكتفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فلكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسبما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عزفت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولنـــدا وسكندينافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لهـــا امكانات اكبر كفرنسا مثلا تركت لمختلف مقاطعاتها ومحافظاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبهـــا ، وتلونت عروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعول عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغربلية اثبتت صلاحيتهـــا لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تتقاسمه مع السهول الرطبة. فالخط الحديدي والملاحة يسهلان نقل المحاصيل التي تعطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتلغي حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل مـا لا يستطيـع توفيره او صنعه .

التطور الزراعي يتوالى بين مواسم خصبة وسنون عجفاء

ارتبط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد، بعيدة المدى. فقد عقد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط التجاري . فالاستهلاك ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتهـــا الاولية. وقد صحب ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار[1]. ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التأجيرية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ – ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ مليارا، كما ان ريع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ – ٨٠٪ . وفي بروسانيا تضاعفت قيمة الفدان الواحد بين ١٨٥٧ – ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفراً طيباً لهم. فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السادي

---

(١) راجع الكشف البياني ص ٨٩

عندما راح العهد القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة نزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذاك بالاشتداد ، اقرت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الامر . وهكذا ساهم قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شعروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفهر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما أن المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم . وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠ ٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ ، و ٦٠ – ٧٠ ٪ في هذه المناطق التي تعول على زراعة الكرمة التي فتكت بها آفة الفيلوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ مليارا الى ٣٠ مليارا في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ – ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ – ٦٥ ٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشطت حركة الهجرة في الريف والنزوح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى، بل تعدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء . فالمزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استثمار الارض باستخدامهم وسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للمزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر :كمية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكمية اكبر من الهكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحالت مساحة ١٦٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراع . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكنديناقيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جذرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليعة في تربية الماشية . وسويسرا اتجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للمراعي الجبلية. وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي الماشية وبيعها من الانكليز .وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبنة والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمة جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربيها هي التي اخذت ، على الاجمال، بأسباب حركة التكييف والتسبيب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعه الى الامام كانت كافية .

فالازمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها . فسياسة الحماية الجمركية ليست بعلاج بحد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسعف آلي – اذ تفسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساوىء المخدر الوقتي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخذ قسم من سكان الريف يبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر – ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، يبدأ النقابة .

الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها

ليس يستبعد قط ان مالكاً من اصحاب الاقطاعات الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكافية من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طليعة حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالماني وسهل الجر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة ، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية ، وطدت جانب المزارعين والمتعهدين الزراعيين الذين تمتعوا باحكام قانون الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري . في سنة ١٨٩٠ ، كان المتعهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان ، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطاعات يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتسمة في الاذهان تصور لنا طبقة بورجوازية تنعم في بحبوحة وارستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمة جداً ، فالاراضي المرجية تعد ٦ ملايين هكتار ، درت عليها ربما بلغ ٣٥٠ مليون ، وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الربع نحو نصف مليون) . وفي ارلندا ، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني ، عام ١٨٧٠ ، سن قانون خول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء . صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشر بها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غرونتنغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استمال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها . والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الرايخ ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تخلفها ما يعرف عندهم *Junkertum* .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تتسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنائس والاديار وابناء الارستوقراطية العلمانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيتة ، منفرة ، مرزحة قلما تتيح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الخصبة هي في قبضة ٢٣٠٠٠ من كبار الملاكين . بينما ١،٢٤٠،٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١،٢٧٩،٠٠٠ من صغار الملاكين. فقد حاز احد امراء استرهازي وحده ٢٣١،٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستيك ٨٨،٠٠٠ هكتار ! هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللبن ، مغطاة بالقصب ، وهنالك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ٤٠،٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣٠٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ١،٠٤٢،٠٠٠ شخصاً ٢٩،٦ بالمائة ويؤلف المرابعون في ايطاليا مع العمال المياومين،السواد الاكبر من الشعب الايطالي. فايطاليا لا تعد من أصحاب الاملاك سوى ١٠٠،٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠،٠٠٠ من الملاكين. فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والخسارة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزّمها الى متعهد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣،٧٪ من الاراضي المستثمرة، لا تزيد مساحة القطعة الواحدة عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ! بينما ٢١،٦ بالمائة يملكها ٠،١ بالمائة من الملاكين،و ٣٢،٤ بالمائة يملكها ٢،٠ بالمائة. والصورة تكاد تكون مماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالعقارات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار توازي من ٥٠ – ٧٠ بالمائة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ ا ٨، ٢ شخصاً بينما يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلا ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها والاستثمار المباشر

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر اصحاب العقارات الضخمة . من الامور المرعية الاشادة بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضآلة في المواسم بجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطر الزوال. ان استملاك الارض من قبل من يستثمرها بقي عرضة للطوارىء اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالايجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما افضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستملاك . ففي سكندينافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السابقة عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسبة . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضيق وتصغر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضعها وضع اراض اشتدت حولها رغبة الطامعين بها . فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكر (٨ هكتارات) بالاكثر ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الاستلاكية واصحاب المزارع الضخمة ، يلمكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية . فاذا ما اعتمدنا اساسا الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطيهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقرب الى الصواب القول في انها تخص في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ — ٥٠ هكتاراً . فمن اصل ٠٠٠ ٦٧٢ ٥ مزارع ، هنالك ٠٠٠ ١٧٦ ٢ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ٠٠٠ ٢١٤ ١٢٥ قطعة ، فالمعدل الوسط القطعة الواحدة يتألف من ٣٩ آراً . ومثل هذا التوزع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي القيام بعمل اضافي .

الغنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين

ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط العيش .

فاذا ما اقتصرنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلا ، هل يصح لنا ان نأخذ بعين الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعوية عامية كانت الف مرة اقرب الى رعوية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعوية في يومنا هذا » . ولنصغ الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يحياها المزارع ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المجروش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسيبها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطحين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشورباء فهو اللون والصنف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء ، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا والبقطين مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون نادر جداً وصنف يترك لايام الاعياد المعدودة .

« ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المقالي التي يصعب مضغها بحيث تنغرز فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، وبطاطا مشوية تحت الرماد ، وفاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون » . ومع هذا ألا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساؤله : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخر، في عمل هو هو، واستمرار عاصيه دوماً في هبوط، وهذه الديمومة في عمل روتيني، ولتدني سعر قمحه وسعر ماشيته، ولبيله وعصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر، استسلامه له امام هبوط البرَد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التعزية « لاول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نقر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم، احسن مما قرأنا له من وصف . فخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية النبيذ التي يشتريها ، او الجعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان. فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكمّاً منه نوعاً وصنفاً . وشبح المجاعة تضاءلت اسباب ظهوره واوضاع سكنه تحسنت قليلا . فاذا ما قلت رؤية الغرفة الواحدة سكناً العائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معاً يفصل بينهما حاجز رقيق. وشيئاً فشيئاً ، فقد حل القرميد محل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يعد المفزعة التي ترزح كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوئة . أما الفرش او الاثاث فغاية في البساطة ، مع ان الخزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكملة، كما ان الناس ازدادوا اقبالا على المقصف او صوان المائدة . فالالبسة الداخلية والاسرّة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، عنيف الطباع ، متأفف من نير الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قاتماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ — ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بمثابة تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة ليبتاع منها ما هو بحاجة اليه ، ساعده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشعر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتحوط ضد طوارىء الحياة[1] .

---

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع ، و ١٢ فرنكا حوالي ١٨٥٠ ، و ١٥ فرنكا حوالي ـــ

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يستنجد فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين، فهو ينظر نظرة المدير للنظام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحها في صندوق الاقتراع. فاللعبة السياسية لم يعد في مكنتها تجاهله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجرته في السنة ٥٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اعلى اجرة العامل اليومي غير الممون او المكفى . فالاجر في الريف دون ما هو عليه في المدينة ، ووضع المرأة في حقلا الحالين ضعيف جداً بجعلها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٢ فرنك في المدينة . ومع ذلك فمحتال القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

الفصل الرابع

المدينة المتحررة
بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »
ادمون بينو ـ « مساوىء التربية والتعليم العام »
كادیس ۱۸٦٧

الدول القومية وعبادة القومية

اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هبسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . فآل رومانوف يستمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنمي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن. ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً. إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ۱۸۷۱ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد: المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فعظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهم الشعراء رتهم رجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني بنشط وبروح الشعر يتغنى بهذه الامجاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستلهم انغامها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والعقول معاً ، ويصبح التاريخ معيناً للتوكيد ان الماضي يهيء الحاضر ويعزز الايمان بطلوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارستوقراطي وبورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والعاطفة .

الاقليات وحقوقها ضمن الامة

ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن ضغط أو التزام ما .

والاقليات الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تنتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهقر روح العصبية الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨١٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ،وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية وحركة معاداة اليهودية التي تغذيها هذه الاقليات القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التعساء في اوروبا الوسطى ، لم يخبُ نارها في اي مكان. هذا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقة . لمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي الضغط البريطاني اصبح رمزاً التحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه الشخصية الانسانية .
والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ،وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السياسي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعوه في الوقت اللازم ، والرايخ الذي اقتطع الالزاس واللورين ، والذي رفض ان يعيد الى الدانمارك مقاطعة الشلسويغ ،والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست

يستخدم القومية الالمانية والمجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المقاطعات البلط ، والفنلنديين والبولونيين، يحتج بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل قمع . فالتناقض يبرز بين حق الاكثرية ، وبين سوء استعمالها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرتجى من نظام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

الابقاء على الوظيفة الملكية ومقاومة الارستوقراطيات

ولهذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقد شابهت جمهورية الموقتات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلمانية والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكلة بلجيكا ما كاد معظم الدول البلقانية تفوز باستقلالها حتى تولى رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة في اوروبا . وفي ايطاليا تتم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تتم في المانيا حول اسرة هوهنزولرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقامت فيها النظام الملكي .

فعهد المشاحنات السلالية ولى وأدبر . فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من التزاوج والمصاهرة، أملكوا بحق الهي، كما هي الحال في كل من بروسيا والنمسا، او ملكوا بدون ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودها التضامن والتعاضد ، وهي صفات تلعب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خاصة والارستوقراطيات العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية والوثرية لحارم كالارثوذكسية، التقاليد التي تقول بعضد العرش الهيكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواءٌ اتسمت الحياة فيها بالبذخ او بالبساطة تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبلاء تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحقة . ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق السياسي لنتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثلي البورجوازية والعاملين في خدمتها ، امثال بسمارك وهوهنلو ورصفاؤهما في كل من انكلترا ، في شخص دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، افله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطلوع غمبتا ثم بروبل وديكاز .

تطور المصالح العامة الكبرى

فالطبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهد القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ،تصدت كذلك لروح المطرسة والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحديثة في تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يرجهها الموظفون » . وفي المانيا بين ١٨٨٠ – ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ٢٥٠٠٠٠، الى ٧٠٠٠٠٠ . وراح فرنسوا جوزف يتبجح بأنه الموظف النموذجي في الدولة . ومهما بلغ من تملق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي ، فقد شعرت بشديد الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة .

هنالك مصالح عليا يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين ودبلوماسيين واداريين . فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية ، ويقتضي ، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة ، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة ، وهي روح تضمن الاستمرار ، فيها يقوم سر كل نجاح . ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويحل بديلاً عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلما دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليـــا .

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم . فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله ، واذا ما تطور الاخذ بنظام الحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن ، تدخلهـــا المكشوف او الخفي، الاستمرار للحكومة او سقوطها. فحوادث الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يجب اعتبارها ، قبل كل شيء عملية بوليسية ، في الدرجة الاولى ، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون . « فالنظام الادبي ، يعتمد عليها قبل كل شيء ، ومدير البوليس لابين يغذي علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية الـــتي يخدمها بكل اخلاص .

فالمصالح العامة في الدولة العصرية : كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم ، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الـــدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضعهم على نفقة الجماعة .

مشكلات التعليم العام والتعليم المهني

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع ، فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة الـتي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان . فالتعليم الابتـــدائي سجل تطوراً اكبر كما نلاحظ ، في البلدان الشمالية والمانيا وفرنسا وسويسرا . ومع تفاوت الاعتمادات المرصدة له في موازنة الدولة العامة ، فـتبقى هذه المخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفـــاع بكثير .

ومها يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير ارتسمت صورته في ذهنية الطبقات الادارية التي تتقاذفها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك الغريزي بالنظام . فبعد بستلوزي ، راح فريق من امثال لانكاستر وفروبيل ومونتاريتو ينبذون تبشدة

التقريرية او الجزمية . فالانتقالي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار المتنورون القبول به من حيث المبدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لها ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعليم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادثاً تاريخياً يتمثل في قانون « فالو » الصادر عام ١٨٥٠ ،هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجيكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امنت لها مساعدة السلطات العامة على قدم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الحين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لمزاجها الخاص ، الوقوف بجانب التنويع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية، فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المبدئي ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية.

هبوط في الايمان التقليدي وتطور الفكر الحر

فالجدل حول المدرسة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي احتدم بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري خارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان دون ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية، الا انه أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقاة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات القلقية الى جادة الايمان ... » . وقد خشي غليوم الثاني كثيراً من إعراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارتفع عددها ، عام ١٨١٥ ،لتهبط بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ – ١٨٨٠ لتهبط من جديد . هنالك ١٢٠٠ راعوية ، حوالي ١٨١٨ ، واكثر من ١٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استعداده القيام بالمهمة الملقاة عليه . وقد لاحظ لامنيه، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المتحكم ،

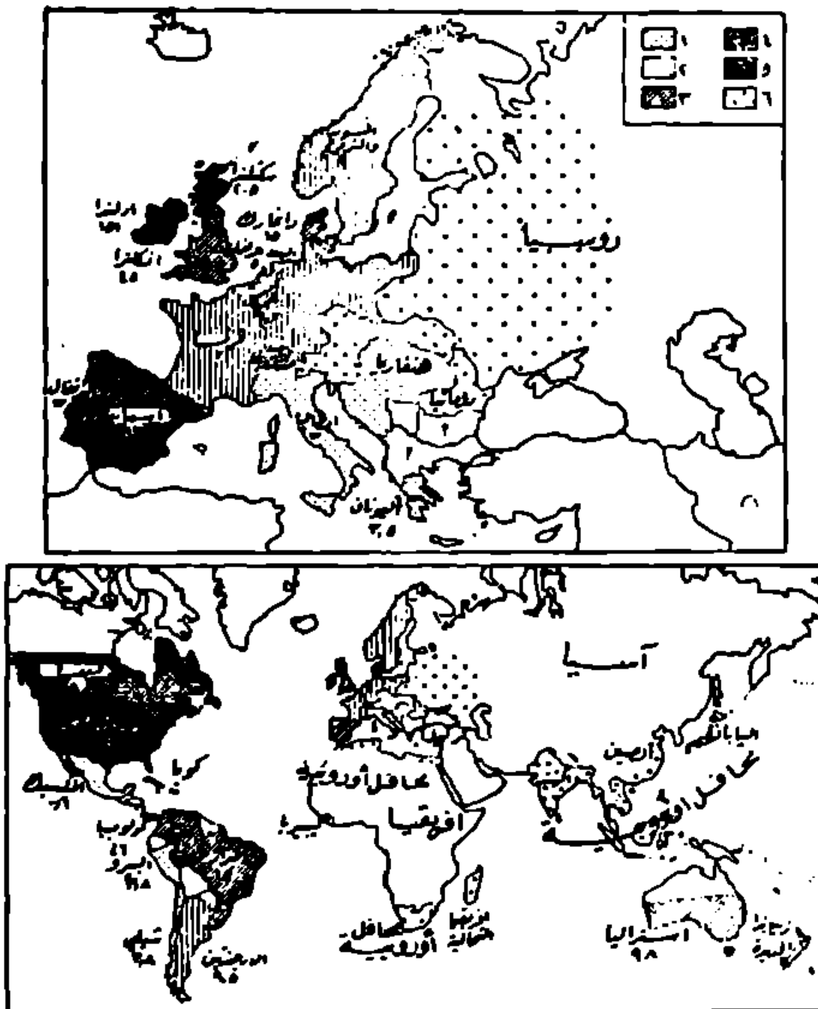

شكل رقم ١٧ ـ توزيع اعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ ـ ١٨٩٠

١ ـ ٥ اعضاء من ١٠٠٠٠٠ نسمة ؛ ٢ ـ من ٥ ـ ١٠ ؛ ٣ ـ من ١٠ ـ ٥٠ عضوا ؛ ٤ ـ من ٥٠ ـ ١٠٠ عضو ؛ ٥ ـ اكثر من ١٠٠ عضو ؛ ٦ ـ وجود اعضاء بدون تحديد عدد .

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً،بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيون المدافعون عنها ، فلا الفنون التشكيلية ، ولا الهندسة يتخذان بـدأ من التقوى الدينية . » ففن السان سولبيس ، يفتقر اصـلا للانطلاقة ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالخسف ، والموسيقارليست عجز تماماً عن التعبير الصحيح الطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غيرانجيه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احتدم الجـدل والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاذب الكنيسة العليا ، والكنيسة المريضة والكنيسة السفلى . والظاهر ان النقطة استنفدت كل نتائجها ، وفي بروسيـا والبلاد الواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحر بحيث لم تلبث هـذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تمسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءتها من هذه الحركة الاصلاحية ، الموجهة ضد التلمود ،كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تعرض عن استعمال اللهجة اليدية هذه اللهجة العبرية المجين من الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللاادرية بمختلف الوانها فتغلغلت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت بوف يحدثنا عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تعـد الوف الاتباع من هؤلاء القائلين بالربوبية وناكري الوحي ، او المتصرفين الى مخاطبة الارواح والاستسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبتـه الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلـغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧،٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتيـة وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية . ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومات الذين يحبنون الروح العلمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس ما لها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اناتول فرانس : « جمعية » ... للأمن للترفيع المتبادل » !

مقاومة الكنائس لها مصالحتها للدولة المتحررة

ومها وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مع ذلك ، كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفـاح والنضال لم تلن ولم تضعف .

فعندما وطدت البروتستانتية اقدامها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقـات

طيبة مع الدولة التي كثيراً ما ترعى مصالحها ، وتقنى بوصفها الحكّم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين النزعات المحافظـــة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة القبلية (الكونكوردانو) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضـع الكاثوليكية في فرنسا ، فقد آثر اتباع هـــذه الكنيسة ان يعتمدوا على انفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فيه الأخذ بها والنهج عليهــا باعتبارها شرطـــاً اساسياً في عملية الاصلاح . وهذه الروح الاصلاحية التي كان بوسعها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطـاق ، لعبت دوراً بارزاً في اعداد هذه القوانين الانسانية وفي قضية التعليم العام واخذت تنزع الحواجز دون تشتت الراهويات وتباين المذاهب الطائفية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان، منها مثلا ، مؤسسة جيش الخلاص ، هـذه المؤسسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقى تأسيسها نجاحاً تاما ، وقد غدت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلاءم تاماً مع تجمع القوى .

واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعلل النفس بحشد القوى وجمع الطاقـــات الخيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تفض قط الى وضع حد لسلسلة الانفصالات التي أدت اليها سياستها المتصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرناك الى توضيح وجهة النظر القوية وجلائها ، بينما سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوطـــد فيه الشعور القومي وترسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقـــد نزعت ، من جهة أخرى ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة اليسوعية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجدداً جديدين ، نوّت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الحبـــل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم المحرمة *Syllabus* لدى الكنيسة الكاثوليكية ، هيأ إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلنـــاً بذلك الراعي الدائم. وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها العفوية في الدفـــاع عن النفس ، زادتها مركزية وجعلتها تتجه بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن انتشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائـــل المواصلات التي تعمل على حشد الخدمات في المدينة الخالدة .

فاذا ما زاد إعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤسســات الرهبانية من جهتهـــا ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هـــذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعمار الاديار ، كما ادى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المثقفين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، الخصم فيهـا الملحد المعطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينهـا تجديد الروح المسيحية عن طريق المحبة والكرازة والتبشير .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجلسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من ايطاليا عمت الكثالكة جماء . وتجلت الناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على اتمها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الاماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تألقت آنياً بهذه الظهورات العجائبية كما لـ *salette* ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سحر لورد العجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حجاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كما انه وفد على لورد من الحجاج بين ١٨٧٠ – ١٨٧٨ اكثر من ٦٦٠,٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافع عن العقيدة التقليدية ، في تشهيره لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية *Quanta Cura* وفي دليل الكتب المحرمة *Syllabus* الذي اثارت لهجته الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بين الفرقاء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي معاهدات الكونكوردات بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر حبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كما قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بسمارك نحو الكثلكة سياسة عدائية تمثلت في منهج الـ *Kulturkampf* (الصراع في سبيل الحضارة) ، كما ان غمبتا اعلن الحرب ضد « النظام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية ، هذا هو العدو بعينه » . فاذا ما تسلح خلفه البابا لاون الثالث عشر بمرونة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا المضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعاليم العصر ، كما حذّر من المساوىء والمخازي التي يذهب اليها « العقل » عندما يشتط في مداهناته وتدليساته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان » .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : *Immortale Dei* يصرح البابا قائلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معاديا من أي « تساهل متعادل » ولا تبدي العداء للحرية المشروعة الحقة وهي محاذير أقل وطأة وأخف اثراً . ويؤكد في براءته انه لا يكن شعب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقارب الى انصار الجمهورية في فرنسا الذين قلقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحوا يتمنون لو يصار الى « تهدئة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحي بوجوب الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصا بطبقة العمال ، اطمأن العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تَحُل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لابد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية تردد كثيراً قبل ان يقطع صلاته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقر الطلاق النهائي - مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ - الا عام ١٨٨١ ؛ ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوثريين كالبرتغال الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كايطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تباين الروح التحررية فيها. فلنسمع ما يقوله هوغو هنا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

من الاقتراع الضرائبي الى نظام الاقتراع العام ومن حكم النبلاء الى حكم البيروقراطية

في براءته المعنونة *Diuturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر: «انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصغي الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجوب البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلا : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بارادة الشعب نكون استهدفنا الشطط ، من حيث الاساس ،ونكون أولينا السلطة اساساً وَهِناً سريع العطب ، لا قوام له » .

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نُصب اعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكلترا ، في هذا المجال ، مثالاً يحتذى ، اذ ان سياسة الصراحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية ـ بما فيها من ملاكين وذوي أهليات ـ امنت الاستقرار للحكومة والسير بمقدرات البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الاحرار ، ان يحول دون استئثار الفرد او فئة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديموقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال ،عادة،لمواجهة المجلس الادنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصغرة . ومع ذلك فهذا النظام - باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨١٨ - مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب بـه بما يتفق ومصلحتها - لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية. هنالك، بالطبع بعض تغيير يطرأ على مفهوم الحـرب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث فتح الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لخير الطبقة العمالية،الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة.

الضرائب والموارد المالية في الدولة

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من نسج الخيال،كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستيا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يعارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

والمال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب، وربطهم اكثر فاكثر بأصحاب رؤوس الامــوال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ اربعة مليارات بحيث ان ٢٦ مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تغطي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوماً يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكل امر جبايتها الى مأمورين يعدون هم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي تراهم يتمسحون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي. وكانت الضريبة الفرعية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسيانية حيث للموظف هيبة وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديـــل عن تخفيض التعرفة الجمركية ، وقد اثارت في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبيها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الاوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجب وفاؤها ، لو وزعت على المواطنـــين لأصاب الفرد الواحد منها فرنكاً في سويسرا ، و ٣٣ فرنكاً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات

حدد آدم سمث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمسهلة لها » . ويلاحظ بعضهم عـدم الدقة اللازم لهذا التعريف . ومع ذلك فنمو هذه الثروة المطرد ليس من ينكره ، اذا ما تمثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدّر سوثبر ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عـام ١٨٧٦، بينما ارتفعت الى ١٠,٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ، وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تطال غير ٨٠٠,٠٠٠ شخص من أصل ٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ، ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموضوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨١٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تباعاً ١٨٨ و ٤٠٧ ملايين ليرة، بينما الضريبة E (الاجور) درت ٩٣ و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ، و ٢٧ و ٦٠ ملياراً عام ١٨٩٥ ، لقاء ٢٥ و ٦ للاولى والثانية عـــام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأميركا عام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بـــين الافراد. فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨–١٨٨٨، يشير الى ان ١٨ بريطانياً يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً).

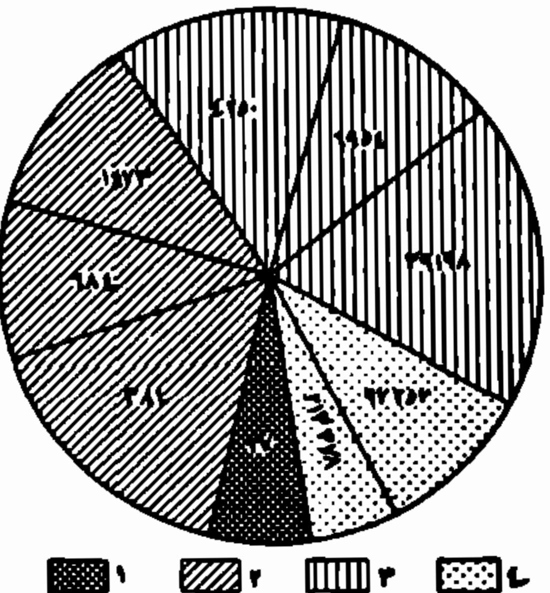

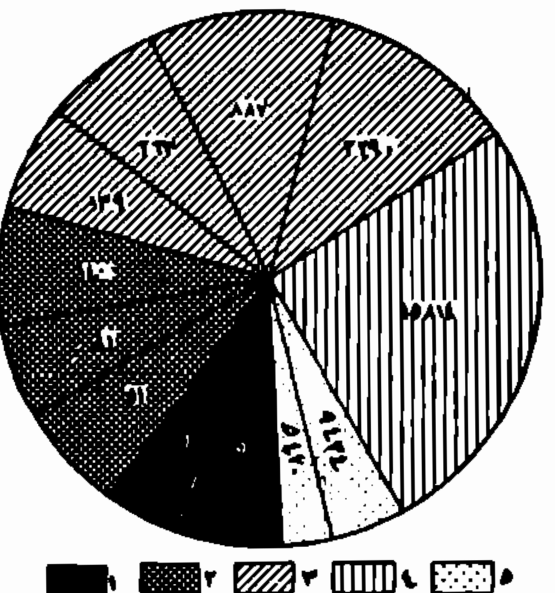

شكل رقم ١٨ ـ توزيع الثروات في كل من فرنسا وانكلترا ، وفقا للتصاريح الارثية

الى اليسار : بريطانيا العظمى (السنة المالية ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ قبلها نحو ٣٤،٥٠٠ تركة مجموع غناها معا ١٠،٤٠٠ مليون فرنك تقريبا) .

الى اليمين : فرنسا (السنة المالية ١٩٠٢ ، تضم ٣٦٠٠٠٠ تركة مجموع غناها معا ٥،٧٠٠ مليون فرنك (عن النشرة الاحصائية لوزارة المالية) .

ويدل الكشف الموضوع للتركات الموروثة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ او ١١,٠٠٠ ، و ٥,٠٠٠ الى ١,٦٠٠ صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحـــد بينهم على مليون . فالعالم الاقتصادي لوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ، في حسابه ٢٠,٠٠٠ عـــائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا ، ثم اضاف قائلا : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل ، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هـــذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفاً من كبار الملاكين يملكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يجمعون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجـــد في خدمة الاسر الغنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨١٣ – ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (*D*) من اصحاب الـ ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمـــانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لا غير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ – ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣٫٩ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجميع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية

تفاقم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والعمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً وضع اصحاب الاجور ، كما لا بـــد من الملاحظة هنا ان حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ، وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة ، منها فشل الثورات والفتن التي نشبت والضغط السياسي وعـــودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتعظت بحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة المسلكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحصناً ضـــد النظريات الثورية التي تسلقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي نادى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية ، عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ أوين ثاره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتبا . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم تمت في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافتة تحت الرماد تتربث سنوح الظروف المناسبة ، للظهور والانطلاق من جديد .

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانحة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لهـا في المانيا . وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس ، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم ، تمنحهم حق تشكيل اتحادات عمالية ، وهو حق جـاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبنت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمة ، فراح اعضاؤها يستميلونها العمل الثوري . وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجب فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد ، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧ . واذ ذاك ، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون ، فتكاثرت الاضرابات العمالية في الرّوهر وسيليزيا والهاينو وسورانغ وأنزين وريكاميري واوبين والكروزو . واخـذ الاضطراب يحتدم ويشتد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس ، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصميم هو الوقوف في وجه الرأسمالية . وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا الطباعين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية .

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة. فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكبر للمخاطر ؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مـع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه . فاذا مـا راح يطالب بزيادة في الأجور فجهوده تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشغل لمدة ثمان ساعات ، وهذا أقصى ما يحلم به .

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي. إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعامل الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهدئة ؛ فالظروف المتحكمة اذ ذاك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية .

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً ، تميل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفـاع ، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية . فالاضرابات تخف حوادثها بينا تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا ، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا ، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت اتحادات عمالية جديدة فتحت صفوفهـا لعمال غير متخصصين . واليد العاملة في كل مكان في الريف تتململ وتتحرك دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احيانـاً ، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون العمال بحق تأليف نقابات لهم ، كما راح بسمارك ، من جهته ، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة الضمان الاجتماعي.

وحدث اثر تحسن وقتي في الاسعار ، عام ١٨٨٦ ، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيا في

مقاطعات الماينو وليـاج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هـــذه الاضرابات، عام ١٨٨٩ ،وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانىء انكلترا لمدة خمسة اسابيع متوالية ، وفازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هـذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاوستراليين معهم . ونال عمال المنـاجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تخلى عن بسمارك وصرفه ، وعداً بتطبيـق مبدأ العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول َغسْد ، على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسيـة ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث داميـة عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط، بعد عام ١٨٩٠ ،وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقفهم ، في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيا وقد اخذت الحكومات تجزم شديداً لحوادث القتل والاغتيـالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المضربين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كرمو . وقد ُغلب عمال المناجم على أمرهم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط اتحاد العمال الى الجمعية الفابيـانية عدوة العنف والضغط ، كما اتجه بلوتيـه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطـاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية،عُرِفت بالتحالف العمالي العالي . وتم شيء من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة العمالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديموقراطية الاجتماعية التي راحت تطمئن بقدرة الحركة النقابية .

الحركات الاشتراكية والفوضوية عام ١٨٦٠ الدولية الاولى وكرمون عام ١٨٧١

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني نعياً لهذه الحركة والقاء رثاء فيها . فالجهـد المبذول لنشر الاشتراكية انقطع ، ومدلولهـا غمض وجف . فاذا ما استمر الشغف لهذه الحركة ، فتحت ستار آخر وتحت تبريرات أخرى » . وبالفعل ، فهذه الحركة الثورية التي اصيبت في الصميم والتي تلبّس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالمؤامرات والجمعيات السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتعيد تنظيمها ولتتخذ لها عبرة وعظة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة،انتظار الحادث الاغر الضخم «الرأسمال»الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول. وقد كرسه لتحديد خصائص الرأسمالية وتوضيح مميزاتها بدقة ، فكلمات السر والشعارات التي جاش بها « البيان » هي التي شقت طريقها ونيداً والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فالمفهوم الرومنطيقي عنـد المحبذين

للانقلاب بالقوة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي ،يتمثل على الاخص ، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية ، وبالروح الفوضوية. ولاسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، ألزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تتقدم بها العمال ،كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع بسمارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العمالية ، وهو وضع بعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول ، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية ، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرايخ. ومما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكتسح فرنسا وسويسرا وقسما كبيراً من البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريق من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرهها ، والرغبة في التحرر منها . وها هو ماركس يلتقي مع برودون ، برودون هذا الذي نشر على الملأ شعارات هزت كل شيء في طريقها ، منها مثلا تصريحه : « ان الاشتراكية ليست بشيء ، ولم تكن شيئاً للآن ولن تصبح شيئاً في المستقبل » ، وكذلك المأثورة الأخرى : « من المستحيل ان لا تقضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح٢ + ٢ يعملان ٤». وقد رد ماركس على ذلك قائلا : « نحن ننكر هذه التأكيدات في الاساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ » ، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضي بالتالي الى اضعافها وانهائها .

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكليروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها : « لا إله ولا رب عمل » ، ليست بعيدة قط عن الجماعية الفدرالية المضادة لكل سلطة ، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحاء اوروبا . « انا أمقت الشيوعية – راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المعقود عام ١٨٦٩ ، لانها تؤلف نفياً للحرية ، اولا ، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئاً بشرياً يفتقر كليا للحرية ».وباكونين الذي يُسلّم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضا باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء ، بجانب الفلاح الروسي الموجيك . وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العامة في مجالاتها . ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح ، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم . أهو احتقار الالماني للسلافي – هذا السلافي الذي يجيش صدره بكره بغيض للمزاج اليهودي؟ اهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون ؟ هنالك من ظن ذلك وقال به . الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضها أمر واقعي ،

قائم بالفعل . فهو ينغّص العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨١ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يـــد النقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقّعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين اكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشقاقات الداخلية تعمل على اجهاضها ، مع انها بقيت توحي الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها الى كل مكان ، حتى الى الولايات المتحدة واميركا اللاتينية . الا انها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في اوروبا ضـــد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بها سكان باريس ، بعد ان انزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما انزل من آلام وعذابات وحرمان ، وبعد ان شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بها فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبـــلاء « الريفيون » . وقد تسربلت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمري ، محصورة في مدينة ، ضخمة منعزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتابها من انقسامات ، العلم الاحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الافران والمخابز ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به او مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي للدولية ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما ان يتلاقيا . فبعد ان غُلبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلفت وراءها دوياً تجاوبت اصداؤه بعيـــداً . وأدت هزيمتها الى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي الجأ انجلز الى ان يلاحظ معقباً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسناً فعلوا ، فقد تخلصنا منها » .

نشأة الاحزاب الاشتراكية وتأليف الدولية الثانية

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال وماركس الالمان يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي عُرف بالحزب الاشتراكي الديموقراطي . صحيح ان مؤتمر غوتا وضع برنامجاً معتدل اللهجة ، خصه ماركس بنقد لم ينشر الا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب اذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من الاعضاء ، كما انه تمثل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً . وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به بسمارك اكثر من إرادتـــه الثورية ، واذ اصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الاكثر والاحسن تنظيماً في اوروبا جمعاء ، فقد قدمت المانيا العالم اجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بـــالحذر والحسبان .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعقيد والتشعب في البلدان الاوروبية الأخرى.

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وترسيخ القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الضئيلة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا وما اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السياسي بعد ان تقاسمتها فئات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحي والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توصي بمجابهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية .اما الحزب الاصلاحي فقد تعرض للغوص في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعية . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤدي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اضفت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ، النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينما لبس الآخرون لباس الماركسية (هذا وضع حزب العمال في غد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعدة شعبية له التعاونيات ، ووطد نفسه حزباً بلدياً وفقاً للتقاليد البلدية المرعية في البلاد الواطية ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communalisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هدف الى السيطرة على المصالح العامة بينما تألف المذهب الضدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينما تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا العظمى متمسكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحق أي تشويش أو اضطراب باللعبة البرلمانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائباً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الفابية ، مثلا (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ، فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا للناس وكأنه اعظم بكثير مما كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية .وقد تابع انجلس رسالة المعلم والجز العمل العظيم. كذلك ترجم « البيان » الى عدة لغات ، والنداء الذي وجهه الى ابناء البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوبت اصداؤه في جميع اطراف العالم . وقد كتب فيه اموار فيان قائلا : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للعلوم التاريخية والاجتماعية ، هي منزلة داروين من العلوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . فما من احد سام

مثلها على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا » .

هنالك جهود تبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المعرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار بجعل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل مصنع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثماني . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بفتنة لاهبة ، أخمدت بالدم .

عهد الاغتيالات الفوضوية

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحي ، على السواء لشجبها كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى «اعمال العنف» ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واوروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثني دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الايرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتهما للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونين الهدامة . وعملت هذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديد ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال الموجهة ضد الروح العسكرية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

الصراع المفتوح ضد الاضرابات العمالية وضد الاشتراكية

« الارض مغطاة بجثث القتلى . ففي هذا المشهد المريع درس وعظة » (تيير – ٢٢ ايار ١٨٧١) .

وراحت المحاكم تصدر احكامها تباعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسمالي ، واخذوا يصورونهم «بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات . فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي» . فانضمت الكنائس الى الطامنين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي ينعتونها شيوعية « وهذه الانظمة الممنوعة ، وهذه الاضطرابات التي تهدف « الى مخالفة الشرائع السماوية والارضية» ، كما ان البابا ليون الثالث عشر . هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . «فأنا حر باستخدام من اوغب باستخدامه في معاملي ومصانعي»، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠) «وافضل الف مرة ان تخمد النار في مسابك معاملي وتنطفىء الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . والافضل جواب وانجع رد على مخالفات العمال هو الطرد من الخدمة وهي طريقة كثيراً ما اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقامت بين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا مخالفات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطاع الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجه المطالب التي يتقدم بها المرابعون والعمال المياومون .

العاملة الابوية والتشريع الاجتماعي

حدد الخبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، بارى ، معالجة هذا المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العمالية بحيث لم يعد من المستطاع تجاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المعنيون بالامر يقلبون الرأي ويعدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجهين الاضواء الكشافة لاكتناهها على الوجه الصحيح، معربة عن حقيقة العذابات والضنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرمبه وفيلنوف بارجمونت يميطان اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابلها من جهة اخرى ، بين احرار البورجوازيين ، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينهما رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هذه المساوىء والشرور التي تكتنف الطبقة البروليتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادىء الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بحرية العمل ، فعلى الطبقات الموجهة ان تتفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخيرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفاقا للمبدأ الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لدزرائيلي نظام ملكي يسن له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسمارك في النظرية التي قال بها للضمان الاجتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جوديني بعث الدفء في الجمعية الفابيانية، ودفعت نحو حزب العمال العصبة المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف .

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذرا لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلدبراند وبرنتانو، التي كانت تدعي بأنها تنبثق من الواقع وبأنها تحسب حساباً التطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن، فقد أطلت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر ردبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « رسائل اجتماعية »، وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أزيناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كوبدن الذي كان من بعض تأثيره على بسمارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بعد لأي قصير ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانية الفرنسية والفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب ١٨٧٠ ان يتكد «حب الذات» مصدر الاشتراكية، والحسد مصدر الديمقراطية ، كما اعجب تين بالروح التجريبية التي تمت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليتريه ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل. فعقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هذه المحافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهذه الفلسفة التي قال بها رينوفييه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة، وعلى فكرة العدالة ، راح يوصي بفكرة التضامن والتعاضد التي تلقي على الدولة الديموقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلاي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضعية والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماده على التشريع في سبيل تحسين العلائق بين العامل ورب العمل ، ويرجو ان يعامل هذا ذاك كما يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لتجعل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقابية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بما تحلى به من مراتب مسلسلة ومن طابع مسيحي، ونذكر كل من المركيز دي لاتور والكونت دي مون - وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجبا وهما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كتلير ، نقصبا لتأسيس نواد العمال الكاثوليك . وراح الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية والحاد فريبورغ الذي بعث فيه المطران فرميلود النشاط ، يطلقان بألسنة حداد النظام الرأسمالي و «عبادة العجل الذهبي» وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديموقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هذا الفريق

من ابناء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة هيونز وايرلند اخذا يطلقان على النقابيين الاميركيين ، كما انبرى الاساقفة مانتنغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . وبنداء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية التي توقع الكاثوليكيان منه ان يحمل « التهدئة » الى البلاد ، قد يعني ايضاً اتفاقاً ضد الاشتراكية. من هنا تبدو اهمية البراءة البابوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسيين الذين قابلوه برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية العمالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقي حلها المرتجى والعملي في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدها لتأمين القيام بأعمال الاسعاف والوقاية . الا ان اعمال المؤاساة كانت تروح بالاخص الى المرضى والمشوهين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوهم ، وقليلاً جداً الى الاسر المستورة . وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دونها علاج . فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا أول ما شهدت طلوع الدولة الوالدية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يجعل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً وتجلى على أثره بانشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اول الحكومة صلاحية لتشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتشريع يسيج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاغ يعرب عن تمنياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمأنينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزماً اكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالماني . ولما كان الامبراطور مشبعاً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بامور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه ممثله الشخصي يؤكد قائلا : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف العامل بحرية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تألف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة الاصلاحية لا تطبق على الموظفين والعمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات التفتيش ويقصر نشاطاتها على الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية ، كان المطلوب ، حسب رأي غيد ، تطبيق قانون لوشابلييه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فـالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدئة والمسالمة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في اي محل كان ، طريق التوفيق والتهدئة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية التي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن والعمل: مداه وظروفه » ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية [1] . تاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، لطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلن ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة للايجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، بالنظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

آمال وحدود الحركة النقابية

عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في تنفيذها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم للربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

---

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في المنجم بقي ، كالسابق عرضة لامراض عدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان الثقاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت ، وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للربو لعدم استعمال ما يقيه لفح النار ، وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كلمة التنظيم او التجديد الاجتماعي من طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . « فالمهدون العدل ،الذين قاموا في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزبن الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت العدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالخبازين مثلاً .وهكذا استطاع عزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضفى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المحلات التجارية التي تبيع بالجملة ، في منشستر وفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ، وقد بلغ من إقدامهم وجرأتهم إن اشتروا بعض مزدرعات الشاي في سيلان واراضي زراعية واسعة في كندا وحقول النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المحلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كان مثل ومكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشيز ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثمار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تتيح لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبو ، بل بعشرين مليوناً . فانا على استعداد كلي لمنحكم اياها ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تخلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي تم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غد ، على غرار بلاكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس . حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسان موريس و كنغسلي والعاميان لدلو وفانسيتارت نيل ،فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رسام بؤس عام ١٨٢٧ لحسابه الخاص عملاً استطاع ان يقنع بعض العمال بشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمته بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل التخلي عن مشروعه

العمال العاملين فيه . وهنالك بعض المشاريع من هذا النوع قامت على هذا الأساس ، بينها مطابع ، والـ *Bon Marché* ومناجم بريغز – في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لندن ، ومعامل الجعة البرلينية لصاحبها بوروشرت . فقد تعرضت كلها لهذه الخصومات والمنافسات التي وقعت بين الاشتراكيين واصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البروليتاريا الذين لا تتوفر لهم الامكانات والطاقات المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . فقد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم لبرئه عندما اخذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، تخصص اولها في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي ألمت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظام التعاونيات الزراعية التي تعاطت على السواء ، الشراء او البيع او الاثنين معاً . ومثل هذه المشاريع تروق الفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويجد اسواقاً لتنفيق محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيات للزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للاجبان والفاكهة .

فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل همها ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاعضائها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تتجه من المستهلكين عرفت الازدهار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد والعلماء ، امثال والراس ومنجر يبثون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بعث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فورويت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، راح الناس يحلمون بجمهورية اشتراكية لها القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحل فيها الحسم المضاف الى الرأسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة ومشاجبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تغيير او تعديل الظروف التي تكتنف حياة البروليتاريا .

الطبقة العمالية تحت وطأة مرض اجتماعي مزمن : الفقر

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً العيان منه لدى البورجوازية . هل نحن با زاء

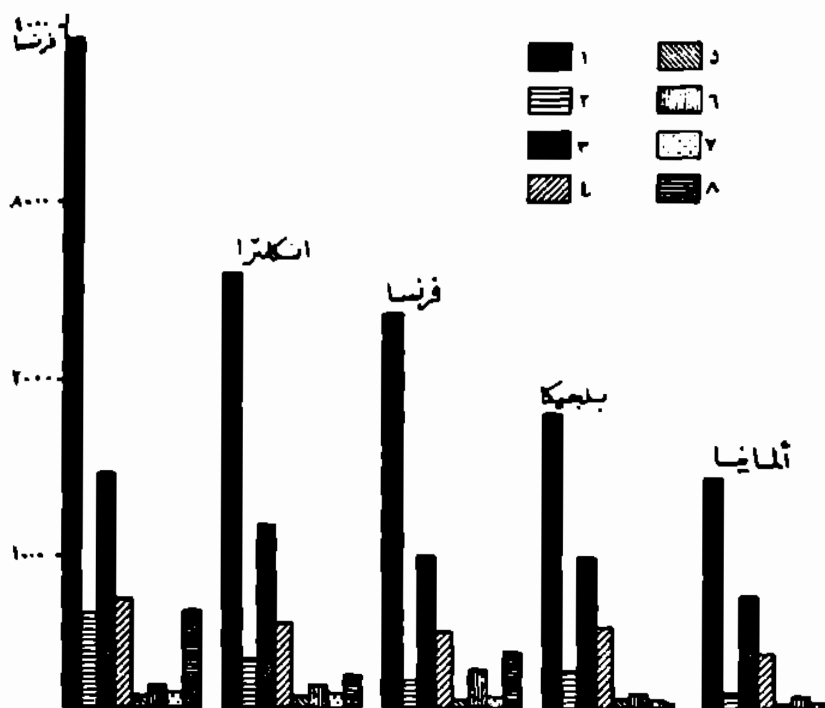

شكل رقم ١٩ ـ الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ٦٢٣ اسرة عمالية في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ ـ المرتب ؛ ٢ ـ الايجار ؛ ٣ ـ الغذاء ؛ ٤ ـ اللباس ؛ ٥ ـ القراءة والمطالعة ؛ ٦ ـ المشروبات (بينها الكحول) ؛ ٧ ـ التبغ ؛ ٨ ـ الوفر .

(لتحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٨٩٣).

امام حركة افتقار تصاعدية ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهة تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية انحصرت كلها في موازنة العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بهـا مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المعدنية ، مثلاً،تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات ثانوية اخرى كالمشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اغلى مما يعود على الفرنسي والالماني ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالماني يكتفي بثياب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تعاطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالماني ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيا عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاتضح لنا جلياً انخفاض الوضع عند الآخرين[1] . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزياً كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا ٤/٣ موازنة اسرته والبلجيكي ٥/٣ ، والالماني ٧/٦ ، والاميركي ١٠/٩ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العمالية التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احياء باريس كل من درمنيل ومنجنو ، تخصص لايجار سكنهـا من سدس الى نصف دخلهـا . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق ا(١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها السنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥–٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيلو اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيما . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحد . وفي بروسيا حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠ –٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينا أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨ – ١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالماني في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركاً ، يدفع منها ١٦٨ ماركاً اجرة غرفة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركاً ، ويغادر مسكنه صباحاً بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكر وينتقل على نفقته حاملاً معه من الشطائر ما ثمنه ١٠ *Pfennigs*، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا. والعائلة تنفق من ٢– ٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع،ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركاًللملبوس. وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعوز هما ابداً ضيفان ثقيلان يحلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

دليلان عن تحسن الوضع الاجتماعي
صحة احسن واخلاق انعم

ولكن أكان من حق الناس في اوروبا ان يستشعروا اليأس ؟ ان مدى الحياة يستطيل على الاجال. فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا، بين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤٦ ، والشيخوخة بين الناس خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣١ بالألف في اوروبا ، عام ١٨٥٠ ، فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩١ - ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن (كالحرب) او ان تأثيرها ضعف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل النظافة سجلت مكافحة المرض تطوراً ملحوظاً ، تباين الشعور بها ، في اوروبا ، باختلاف البلدان والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الأمراض التي تسير دوماً في ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً وسائل معالجتها[1] . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ، بينما فتك فتكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها بنجاح في انكلترا والتي أتت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان السكندينافية وفي هولندا ، عد من الاوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل استهلاك الخمور والمشروبات الكحولية ، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة. كذلك نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار . ومع ذلك فحوادث الاجرام يهبط معدلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجع تدريجياً على فكرة التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحي ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

---

(١) ففي ايطاليا حيث الوفيات كانت تعد بالملايين ، هبط معدلها بين ١٨٨٧ - ١٩٠٧ من ٥٢٤ الى ١٣ في مرض الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفوئيد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للملاريا ، ومن ١١٥ الى ١٨ في مرض الحصاف او البلاغرا . اما في انكلترا ، فقد احصوا، للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ - ١٨٧٠ و ١٩٠١ - ١٩٠٥ ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفوئيد ، و ٥٣٥ و ٣٠٠ لمرض الوافد (الشهقة) ؛ و ٢٠٨ و ١٠٦ لضحايا الخناق؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي وهبط معدل الرجال المصابين بمرض الزهري من ٥٤ بالالف الى ٢١ بالالف في الجيش البروسياني ، بين ١٨٦٧ و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالالف الى ٥٩ بالالف في الجيش الايطالي بين ١٨٦٧ - ١٩٠٥ ، وهبط من ٧٦ بالالف الى ٥٥ بالالف في الجيش النمساوي المجري ، بين ١٨٧٠ - ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالالف الى ١٧ بالالف في الجيش الفرنسي بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالالف الى ٥٢ بالالف في الجيش الانكليزي في انكلترا بين ١٨٨٥ - ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (تونس - الجنود الترنسفال).

فشيئاً من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عـــام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية،عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطية ، وايطاليا فيا بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يواجهون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هـــذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدهما بنتام، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالاً الجدل والنقاش الطويلين في البـــلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الغويان الى ان استقر في نهـــاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة اللومان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضاً لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من يهدد امن الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دوياً عظيماً ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيهـــا البعض تدبيراً تأديبياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العاثرة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احـــدى دور الرعاية او ملجأً خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطة وغير ناجعة من قبل شرطة الأخـــلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً النخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبغاء . وقد تبدى للمراقبين بأن هـــذا النشوز يجب رده الى البؤس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تخلي الضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بهـــا ، والى عمل القوادين او المستمرين للنـــاء والى فرص الاقامة على بنات الهوى. وكان من تأثير الاعراف والعادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المعتقدات التي تحط من شأنها. فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبح مشروعاً ،هنالك بعض البلدان،معظمها على البروتستانتية،أباحت للمرأة قطع الرباط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتتعرض فيه للمهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة منزل او خليلة ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجـــامعة والمعاهد الثانوية ، كما فُتحت امامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثارت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النـــاء امثال جورج صاند وفلورا تريستان وبولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلـــترا والسويد بهذا الحق ولو حصرته الاخيرة منها بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولي ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير اي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المـــدنية فحسب ، بل ايضاً يقرون بجدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعلم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراء بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

خطر السلام القائم على التسلح وضآلة مكاسب القانون الدولي

كان اميل جيرار دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكمن الالتباس الخيف. فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة اكثر مما كان يشركها في الحكم . ومع ذلك ، فاذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي ميستر وفخت وهيغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بنتام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فورييه ومازيني وروودون يجدون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرهم ، ان تضع حداً للحروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر السلام دُعي هوغو لترؤسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كوبدن ، وخرج المؤتمرون بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحكم فيه ألمانيا البسماركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا .هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسلح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة . وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سنسر بأن السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مها بهظت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية ، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتآزرهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتهل وتضرع الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المشرعون والدبلوماسيون يحملون الناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتسبيح حوله ، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون ، اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة ، وراح مفكرون امثال لوريمر وبلونتشلي ومارتنز وفيور يطيلون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ايزمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر العلوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثارت فكرة التحكيم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقدها هـذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعبثاً راح مؤتمر باريس المعقود عام ١٨٥٦ يوحي بالرجوع الى وساطة او تحكيم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعبثاً ذهبت النتائج الطيبة التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المعقود عام ١٨٧٢ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العـدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها وويلاتها ، من ذلك مثلا مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤،والذي دوّل الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذهـا مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروبي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهدها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تتهيأ بحرارة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة.هناك خطر كبير دائم يتهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تعنى من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط
الـدول الاوروبيـة

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج - الى مسن - ١٨٧٠)

وجه بارز القسمات نافر التقاطع ، هكذا تبدو اوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يسر المواصلات وسهولتها ، والمكاسب التي حققها هـذا الطراز السوي ذو الطابع المدني والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على ماتها وكيف تتحامى . وقد شهدت اوروبا عمليات تجميع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم تفض الى فك اوصال الملكيات الدانوبية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والايطالي ؛ الا ان تقهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة جنوبي شرقي اوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مفارقات عدة ، تمركزت في المنطقة الشمالية الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب والى الشرق ، المتميزة بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين اوفرها انتاجاً صناعياً ونشاطاً تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها . ومن هـذا التنوع والتباين المظلم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هـذه الفوارق الكبرى التي تطبع شكل عضو من اعضاء الاسرة الاوروبية .

بريطانيا العظمى الشديدة البأس في عهد الملكة فيكتوريا

في عام ١٨٣٨ دشنت الملكة الفتاة فكتوريا عهدها الجديد الذي انتهى عام ١٩٠١ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بـدا العهد الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومها بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فلطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قـلة السكان فيها بينا لجارتها الواسعة واستثار مستعمراتها الشاسعة الواقعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينا شكلت اطيانها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقـاري وارستوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ – ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : «بنيّ» ، حلت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعد من ان يجف حليبها » ؟ هذا هو الخصب الذي استثمره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا النسغ الخصب فرض عليها في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجرأة اشد ، فاستقدمت بحراً ما لم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الفاشم وضعها طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجـارة او الزوال من الوجود. وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما تطمع به وتريد: من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر، عرفت بورجوازية مدينة منشستر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريـق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشامخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الثروة ، امـام مرأى ومشهد اوروبا التي تهتز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم أمّن لهم مـا كانوا عليه من غنى وثراء ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسعتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منـذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ، مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ، رأس مال حكيم ، فطن ، يعرف كيف يناور ويحشد ويستثمر، ليجعل من بريطانيا العظمى ، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني المثقف ، المهذب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث واللباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تـذوق الاسفار ، وتعشق اللعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تزكيها وتبررها فلسفة إنتفاعية لا ينكرها إلا كل متعنت مكابر . وهذا الاشعاع الدظيم الذي عرفته البلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتسبها ، كل ذلك دل بوضوح، على ما رُكز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتي من قوة التحليـل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباهج الطبيعة وما فيهـا من فتنة وسحر ، كما ان إشراقة من الالهام تلت ثنايا الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

اما المفارقات المتضادة فتطالعك عند كل مأتى عين وحط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف المخضل المورق ، في هذه المدن التي غشاهـــا السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بـــرعة فائقة ، وفي هذه المدن الغـــالية التي شابت وهي بعد فتاة في شرخ شبابها.ما الاجتماعية من هذه المفارقات فامثلها هذه الفروق الصادعة الصارخة في تفاوت الثروة والغنى مما لا يتوفر بعضه في اي بلد من بلدان اوروبا الغربية ، مع العلم ان الانســان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانســان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان الصورة التي يوسف فيهــا المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى ، لانها تمثل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد الناجز » . ومنها ايضاً هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية مَن ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحب عنوان كتابه : « حول المخاطط انكلتراء الذي اخذ فيه مؤلفه لو درو – رولن ان يتنبأ بسقوط بلد تقوده أقليةمن هذا الطراز. ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، بتكتلات وحدهـــا بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثورية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في العزوف عن مسالك الوثبية . فقد عرف كوبدن وبيل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الخانقة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ على الريف يجب ان نضيف هنا الصعوبات التي اعترضت الصناعة البريطانية ، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزبائنها . ففي وجه طبقة من العمال متصلبة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية العنيفة ، كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة . وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتهـــا تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفهر .

كفاح الشعب الايرلندي

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بهـــا عام ١٨٠١ ، وقعت الامة الايرلندية فريســة امة اخرى ظلمت لها واخذتهـــا بالعنف والشدة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بأرضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيـــا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالغاء قانون الاتحاد هذا . فجل ما حققه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية لمجاوزته بعيداً في مطالبتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصير وقعت الجائحة الغذائية عام ١٨٤٧ ،

وعقبتها حركة نزوح عارمة جرفت بسكان الجزيرة خارج البلاد والهيــاج الذي سببه حزب الفانيان السياسي .

اخذت الجزيرة بالانحطاط والتدهور. فقد هبط سكانهــا من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتتسكع في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتي شعب هذه الجزيرة خيالاً مجنحــاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، وبغنى أدبه الشعبي الفاليكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتتلبس لغة المتصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المتوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر الغاشم .

وبوادر النهضة يجب ردها اصلا الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي تزرع حبوبـاً فحولت الى اراض للمراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم .غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها(بعد ان رضي من قبل بفصل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبالغاء العشر المترتب على الكاثوليك دفعــه لكنيسة الانكليكانية هذه)،جعل من المتعهد الزراعي شبه شريك للمالك،ومن جهة اخرى، فالجهود التي بذلها بارنيل لحل البرلمان، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ارلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودهــا لتحسين تربية الماشية على ارضها وطورت صناعتها وسهلت اسباب التعلم لمن يرغب فيها من ابنائها ، وراحت تنمي الروح والاعراف الكلتية في ابنائها ورفعت من مستوى الحياة فيهــا ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتحرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينافيا

امام هذا التطور العظيم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيلا وحريــاً بالشفقة بالنسبة لمصير هــذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في هذه المنطقة المرتفعة من خط العرض ذات التربة الممسكة المفتقرة للفحم، وصاحبة الدور الثانوي المتواضع على المسرح الاوروبي منــذ القرن الثامن عشر . فالدانمارك والسويد والنرويج التي تتقاسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطيقي ، عجزت تمامــاً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلمار . فشبه الجزيرة السكندينافية الكبيرة هذه ، تم توحيدها موقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ومليون دانماركي . فمعدل الوفيات فيها عال جداً وكذلك الهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي حمل اكثر من ٨ ملايين سكندينافيا على النزوح تباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التبسط طويلا حول الاعجوبة السكندينافية . فبفضل عهــد من السلام استتب طويلا (اذ ان الحرب الدانماركية الجرمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحلــة قصيرة

اضطرب فيها الامن) ، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعد نظر حكيم . فقد حققت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فنمر سريعاً بظاهرة تكاثر السكان في هذه البلاد . فالثمانية ملايين التي ضمتها عام ١٨٥٠ وال ١١ مليون التي بلغتها عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكثر الى هبوط قوي في معدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكندينافيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين. فلم يزدد عدد السكان في كل من كوبنهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كرستيانيا (اوسلو اليوم)فلم يزد عدد سكانها على ١٥٠٠٠٠ ، ولعل ابرز حادث ميز التاريخ هذه البلاد الحديث ،فهو الثورة الريفية .صحيح ان جبال النرويج الشرقية اقتصر نشاط سكانها على مقايضة محاصيلهم الزراعية .فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعاتغودبرنسدال واوسترودال . فالمنازل هناك معتمة ، والبياضات او الملابس الداخلية نادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وعمت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يعولون في غذائهم على السمك المملح. وقد جرت في الوقت ذاته ، حركة تجميع بين القطع الزراعية الصغيرة بينما انصرفت حركة عارمة من الاصلاح الزراعي الى توزيع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحدة إستثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في تطورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكثبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنفيق المحاصيل والبيع ، وفتحت امام محاصيلها من الحنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذ كانت السويد عاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيع ما لديها من فلز الحديد العالي القيمة فحسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة ، ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلات ومساقط المياه وكلها قوات محركة تذكرنا من قريب بهذه الطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدنمارك الواقع عند مداخل البلطيق والذي ضعف مركزه ووهن شأنه راح يقوي من قاعدته الزراعية .فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج والاتيا ، كما خففت من معارضة النبلاء والاكليروس اللوثري . وبعد ان فقد مرقية شلسويغ هولشتاين،اضطر الملك كريستيان التاسع الرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية. الاخرى وقامت في البلاد، حركة ادبية وفنية وعلمية حملت بعيد شهرة عاصمة السويد الجبلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدةعنلعب اي دور بارز .ولما كانتم الدنمارك كبن الا كيرصوت

مكانتهم وهيبتهم الدنمارك ، فقد كان بامكان ابناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاتحاد السكنديناڤي . ولكن الحركة السكنديناڤية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية . كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعاً متحرراً تقدمياً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ، حل محل ، طبقات ، النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجملت ستوكهولم وخيم على هـذه السويد النشيطة التي اطلعت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين. ان ادخال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقر الملك اوسكار الثاني حق الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بفطنة ، الحركة القومية التي هزت النرويج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها العرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعولوا في معايشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركيين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولاؤهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطؤهم المفتوحة بطولها على البحر ، واستثمارهم لمطارح السمك الغزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كسماسرة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تفادي الفقر والعوز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبز الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريج في الموسيقى وإبسن في الادب ونانسن في كشف القطب . فاشرأبت نفسها للاستقلال . وحققته دونما صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركياً ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دوماً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

بعث النشاط في هولندا وبلجيكا

سجل القرن الثامن عشر فترة تقهقر وانحطاط لهذا المفترق الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت تباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض بمرافقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئاً لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرس.

ولقد شاهدنا رسيا من النشاط خلال عهد اورانج - ناسو وملكها على البلاد . الا ان الشراكذبين الشعبين عرفت اياما صعبة بعد ان غلب على البلجيكيين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه العلائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقا في الاذهان طبع بالعنف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوروبا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة الكيلومتر المربع الواحد ، مكنهما من الافادة الى اقصى حد من مركزهما الممتاز ولوقوعهما بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوية التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ - ١٨٥١ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة ، المادية التي ألمت بمرافق البلاد الثلاثة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مما عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ، صبور وتمتعت بسلم طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياد السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجها لها وجهة النظام التمثيلي ، شدها شداً قوياً الى بريطانيا العظمى . من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً آل ساكس كوبورج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي نمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيدة ، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلا بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت الحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كبسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد ذهب عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العمالية فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء مـــا

رغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابت لنداء التشكيلات السياسية التي تتلاءم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بها ، انقسام الشعب فيها الى شطرين متباينين لغة وحضارة : شطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشطر فلمنكي راح يعرض بحماس مطالبه . أفيبدو غريباً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، باتباع سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

البيوغرافية الجبلية في سويسرا

هل بامكان الجغرافيا ان تفسر وان تحلل لنا كيف قامت في قلب جبال الألب ، دولة مستقلة ، مع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربيها ؟ استطاعت اقاليم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تمور في جبال الألب وجبال الجورا ، فألفت من مجموعها حمىً او ملجأ كان خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معواناً لها لتقي نفسها من تعديات الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارىء من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسبجت عليها بالحياد ، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددهم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠ ، ارتفع عددهم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد ، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتمركزون اليوم في مساحة من الارض مرتفعة على الاجمال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان معيناً لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبال في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في كل منها ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الريفي تأثر بعيداً بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلاداً تدر الحليب والسمن اذ تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لها شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلا للفحم الحجري فقد اتجهت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينما خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هذا الشعب الذي توفرت له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة المهرة . واستثماراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ، الشبكة الاوروبية للمواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افاقت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البلاد تستثمر ثرواتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وترابطاً وأدت بالتالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشتركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارستوقراطية وتعاونية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدّى لنا ، عام١٨١٥ وكأنه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض. فالتمسك الشديد بأعراف الجدود، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموكب الديموقراطية يسير دوماً الى الأمام ، بصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال .ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسياد » برن ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيا البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبال ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت تبشر بدنو أجل *Staatenbund* وبقرب ظهور *Bundestaat* [1]، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي ، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادي والعلماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي الحبذ لتطوير الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة ، وتحافظ كل مقاطعة بنتهى الغيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ، ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشتد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة يتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية. فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعناية بالصحة ، لا يبالي كثيراً بالدراسات الادبية وبالفنون. وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة.

الديموقراطية الفرنسية بين النظام والحركة

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . اما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا اشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو - برادول الرأي وذهب بعيداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد « نحن الفرنسيين، سيكون لنا من الوزن-بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني - مع الاحتفاظ بكل نسبة ، ما كان منه لأثينا

---

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح سارياً على الشفاه .

قديماً بالنسبة العالم الروماني » . فالمقارنة بين فرنسا والمانيا ليست فقط في مصلحة الأولى . فلم يكن عدد الالمان ، عام ١٨٧٠ ، ليزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينما بلغ عدد الالمان، عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينما كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . ففرنسا هي الدولة الكبرى في اوروبا التي فتحت ابوابها على مصراعيها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشعر بأي ضغط ديموغرافي . ومع ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلاً لا يضاريها فيه أحد ، فهذا مرده أصلاً الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . ونلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطيعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولا أو بالاحرى إنصرافاً بطيئا عن بعض الاقاليم، بفرغها من سكانها ، لا سيما في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالمزارع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادوات والعدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأنس كثيراً لحركات التجدد ويعول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عن مصالحه ، ولذا نراه يستمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحليمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ،بتوفير غد له يطمئن اليه ويأتلف مع اطماعه المحدودة. وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم ، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ،يؤلف طبقة بروليتارية أخذت تعي مصلحتها الطبقية بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنية الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نزاعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيها والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شقت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة ، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فحبهم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يمازجه كره لا يغلب لهذه التدابير ولهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهم ، كما يمقتون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل. فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبنأى من كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيسة الكاثوليكية ومساعدتها ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً للتردد بين النظام والحركة، هاتان النزعتان اللتان تتقاسمانها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على المزاز الانتخابي تكفي للترجيح هذه الصفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . هي ذهنية صغار البورجوازيين وصغار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨١٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً احتياطياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ ، اذ راح يعرض النظام للاعيان والفلاحين ، والعمل لمن يرغب فيه ، ويحاول التسوية بين مبادىء عام ١٧٨٩ والسلطة . ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر . وفي اعقاب الكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجاله ، فتمت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراض بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكثرية الشعب الفرنسي وكرساة انقاذ او خلاص طالما تمنوا الوصول اليه منذ عهد بعيد ،ربما منذ عام ١٧٨٩ ،وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يمهد السبل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناتول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر ». هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، 'فرَصية ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتلوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستثمارية ، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم، وتغلبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، وبشتد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعتها الديموقراطية المعلنة لا تعيشها قط ، للسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي .وقد عرَفت فترات كان الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفتقر كلياً الذوق ، ولكن لا يتطور بالقدر الذي تم لالمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والذها، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، حليم .

وقد عرف الفرنسي ،باقل سرعة من غيره في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

لذوقه الادبي والفني بسرعة الخـاطر عنده ،وذوقه الرفيه وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جعله يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومـع انه أقل إقبالا من جيرانه في الشمال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً ووحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يعرض قط عن ملذات العيش الرضي .

اوروبا المتوسطية وميزاتها الفارقة

لعل فـرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفء معاً من المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانغدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائـع واخلاق هذه الاقوام المرحة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلـدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والجمود المتطاول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتقلت عن شواطئه حيث تطالعك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة . هنالك لقاءات مدهشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد البدو الحضر ويخنق الجبل الارض القابلة للحرث، فالاقليم يفتقر اصلا للفحم فيضعف النشاط في الصناعات المدنية كما ان المنطقة تفتقر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة تقف وتطوير الخط الحديدي كما ان السفن البخارية اخذت تمول ، اكثر فاكثر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضـع جغرافي عظيم الاهمية لا سيما ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمـال التي عقدها ميثال له شغاليه لن تلبث ان تتحقق . فمنذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافيء البحر المتوسط ، مـوزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الخمور والفاكهة والزيوت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوروبا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار،كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا،بعد انزحزحت الأولى عنها ،على غرار اسبانيا والبرتغال، نير الاسلام، كما زحزحت الثانية ،ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جامحة ، بقيادة دولة قارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب

مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها مع ذلك،ايةميزة قط .فهما ابدأ في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفتقر الرجال ، اذ كان عـدد سكانها عـام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عـام ١٩٠١ وهي زيادة

برّت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . اما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى سنة ، فمستوى العيش فيها بقي متدنياً .ما يلفت النظر عندها ، هـذا التفاوت العظيم في توزيـع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بجيه في اقليم علمتيخو ١١نسمة لاغير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصعيد الجبلي الوسيط، كما ان اسبانيا الساحلية تنتص بالسكان من جهتها. وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ، المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق ليغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يعرقل، الى حد بعيد ، استثمار الاراضي . فاذ ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالياً والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن بوسعه ان ينقل اكثر من ثلث بضائعها. فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطيء ولهم موطيء قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين). وهـذا الماضي الزاهي الذي عرفته الصناعات التعدينية ، في شبه الجزيرة الايبرية لم يبق منه غير الذكر الجيد ؛ وهذه الافران والسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالونيا انطفأ الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عين . وستطل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تتركز في مقاطعات استوريا وبلباو حيث يتوفر بكثرة العاملان الاساسيان لكل صناعة : الحديـد والفحم . وبالاضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سبقاً ملحوظاً في هـذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدرانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعبر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشبع بطونها . كانت البلاد تصـدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الخمور والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بامطارهـا الغزيرة ، الغارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيـداً متوسطاً قاسياً ، تلين لزراعة الحبوب والمزدرعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوسـط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعاتها الكرمة والخضروات والاشجار المثمرة ان تزيـد من انتاجها بفضل تصديرها هذه الحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العـام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطراباته وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالاخص . .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الغزو الافرنسي والفتح النابوليوني ارزحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار المالكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يسانده الجيش والماسونية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقعدها ، وتعلو بها وتنزلها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشمالية لتغذي الحرب التي اثارتها قضية الملك كارلوس وتأليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فدرالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتها . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعت منذ اللحظة الاولى الى الفوضوية فسرت الخوف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم. وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كأسلافه بالكثلكة ، كما اعلن نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر » . فلم يتغير شيء وهدأت الحروب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد. فالمجالس النيابية لا شأن لها والمرتبات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، واخذت الحركة الكثلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتأزمت القضية العمالية . وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن للمؤسسات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط العمل في ظلها، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية. وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد للنقد راحت حكومتا مدريد ولشبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحجى في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملأ قوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغانس الملكية التي عجزت كلياً عن

اخراج ولاية لوزيتانا من الورطة التي تعانيها .

مشكلات المملكة الايطالية الفتية

نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبرية والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه هناك، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليونا عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليونا عام ١٩٠١، وبذلك بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، في سهل البو واودية توسكانا ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية ، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركبها الحميات ، قليلة السكان ، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاغتراب . نرى من جهة تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة . كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد للوقود والمعادن . في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة ترسف في الجهل والامية وقمت فريسة الملكيات الضخمة ، كما تفتقر البلاد الى رؤوس الأموال . وقد مزقتها نزعات اقليمية تمتاها عهد طويل من التقاطع والتنابذ ، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق ، محدودة المرمى والهدف . وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة،اذ كان الاول اكثر ارتباطاً باوروبا الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الاوروبية ، شعبه نشيط ، دؤوب على العمل والصناعة ، بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحيق بتحكم في مساوىء الملكيات الضخمة . فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة فتية ، قوية عرفت ان تفرض نفسها بمساعدة أجنبية ، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال . الا ان عملية التوحيد بين المقاطعات والافراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل ، لم تحل كل المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة . فالمهمة بدت شاقة ، مرزحة لهذه الدولة الحديثة ذات الامكانات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة ، كثيرة الاحتياجات .

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد . فالجنوب لم يكن ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو . واسرة آل سافوى التي كانت تتمتع بالعطف والرضى في المناطق الشمالية لجبال الابنين ، كانت ، في الجنوب ، موضوع تشكك وتذمر . وقام في وجه حزب اليمين المناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت ،رجال الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية،والحزب الباري الذي،بالرغم من نزعته المضادة الدين ، كان يشوبه شيء من النعرة المزيّنية لم تكن باشتراكية ، وكان يجد العديد من الانصار ، بين هؤلاء الفاضبين في مملكة نابولي القديمة . وراح سكان البيامونت يهاجمون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات اللومباردية والتوسكانية المتحالفة ، الامتيازات التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها ، كما راحت تهاجم حروب المتارشات في الجنوب ، محاولين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا للعمل والانتاج . وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً ، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق التي لا نفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشعبية التي تتحكم في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسعوا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظام الضرائب ومارسوا إفساد الضمائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يطلقون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسبي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذ بها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتولیتراً من القمح في الهكتار الواحد مقابل عشرة هكتولترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً الفارقات بين الشمال والجنوب ، هذا الجنوب الذي نراه يتذمر باستمرار مدعيا انه مرزح ، مثقل كما ان البؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملها على الهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كبيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع العلم ان النظام المصرفي فيه كان ضعيفاً وسريع العطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تفد كثيراً ، وانه الى جانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان تحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

وايطاليا تعتمل فيها تيارات اجتماعية عميقة الغور . وكان من العسير جدا على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تسير عليها، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً العجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحمل بالسلطة تولي عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، وموقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولها التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوروبا الوسطى تحت سيطرة المانيا البسماركية

بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا متنقلة الى اقصى حد حرب عام ١٨٧٠ .فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين. وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثر بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الاخرى ، بالتجمع ، فتقاصت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً مملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحّد بين المانيا الشمالية والمانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصومة عنيفة انتهت بينهما الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة للامبراطورية الالمانية .

الريخ الالماني مجال لتطورات عظيمة

في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، والمانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، والمانيا الرينانية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكس الوافرة الغنى بموارده الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المترامي الاطراف، المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرين، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينما الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، وألزاسية لورينية الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودانمركية الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة تميزت بأصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجيال،والرضوخ لابوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بمجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام اتحاد كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا ، ولسنا كذلك امام اتحاد دول كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الجرماني . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تغير الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشستاغ المنتخبين من قبل الامة جمعاء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لسلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمارك الرجل الحديدي اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها. فهو منصرف بكليته لترطيد عمله وترسيخه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ - ١٩٠٠ ، من ٤٠ - ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تتيه فخراً ، فانتشار البر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطرأ اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عدداً من الفقراء ، والاقبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من إتساعه وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تعول اكثر فاكثر ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض المسكة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها. فبينما كانت البلاد في الامس

الغابر تصدر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجمركي المعروف بـ *Zollverein* فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم ، محاولا ان يزيد من انتاجية هــذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح المديدة ليجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geest* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري ، والخنزير وحشيشة الدينار دون ان يغني هــذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب . فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخصبات ، ومثال هذه المحاصيل تنجة نمو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها . وهــذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة ، إنضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تآلفها توفر رؤوس اموال ضخمة ، بعد ان عرفت كيف تفيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العلمية التي هي قيدالاستعمال. وقد برز باكرا ، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية ومت الى تأمين حركة بيع وتنفيق ضخمة في الداخل والخارج ، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومرافىء البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى ، وبفضل اسطول تجــاري يبشر بطلوع نشاط واسع . فالبورجوازي هو الذي في شخص فربناخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقيلة الوطأة نوعاً .

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في قفير النحــل الذي تمثله الامة الالمانية . فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الريخ في خــدمة الاقتصاد الوطني. ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا ، هو المارك ، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة والنفقات الحربية، فالجيش الالماني يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها . واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسماؤهم ، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة ، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك والرجوع الى سياسة الحماية الجمركية ، عام ١٨٧٩ ، يجب رده جزئياً ، الى حاجة الخزينة . فبسمارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة .

فقبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة ، المحافظون والمعروفون بعصبيتهم البروسيانية واللوثرية ، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني . وكان بسمارك قد قطع لهؤلاء ولأولئك ضمانة ، اذ قبل الاخذ بمبدأ الاقتراع العام ، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون ، في جميع انحــاء الامبراطورية

الالمانية اذ ان صلاحيات الرايخشتاغ كانت مقيدة ومحـــدودة ، بينما كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز الوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هـذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فـــراح يحاربهم بسياســة *Kulturkampf* يشد من ازره اللوثريون والوطنيـون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المجن لهذا الفريق الذي طالما مالأه ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضـد الحزب الاشتراكي ، تارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقـــة المطران كتلير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الخانقة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزاحم الاسواق الكبرى في الخارج. الا ان التطـــع الاقتصادي يتوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالماني قـــد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكبـار الموظفين . غير ان الوفر المفتخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلا على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهما تباينت الآراء من الوجهة الجمالية ، كما يدل التصنيـع ، على هذه الإدارة الجبارة ، نحو ما هو ضخم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغنر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشادات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيع في المجتمع . وهذا التعاضد والترابط يقتل روح الاصالة في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تخبل العقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعـــاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فعبـــارة القوة توشك ان تـسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل السادس

أوروبا الشرقية ويقظة الصقالبة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جماء منوطة بأوروبا الغربية وحدها (اسكندر هارزن ـ ١٨٥١)

بروز اوروبا الشرقية

بعد الخط الممتد من هبورغ الى تريستا ، تأخذ القارة الاوروبية بالتكثف والتضخم . فالمناظر التي تتعاقب تحت انظــــار المسافر تشير بانه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب ليوغل اكثر فاكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقع العين على اقطار اكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجاء ، وطرق تندر وتقل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مخلخلة العرى . وألوان الطعام تتغير وتتبدل فحلت العصيدة على الخبز ، وصرنا نلمح الوانا من الطعام بينها الـ *Borszcz* وهو مزيج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvnas* الروسي (بينا يستطيب الالماني صنف الشوكروت مع الجعة) ، وتتنامت المدن وتباعدت وهي اقرب الى القصبة من المدينة ، بكنائسها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى تجمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تستأثر بالتجارة واحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها واحياء تنقطع اليها وتعتزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد تبلبلت فيها اللغات واللهجات المحكية وتنافرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلا في مدينة لفوف [1] كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث وُجد ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بودابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على الزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تتراس اختلاف الاسرائيلي في فينا عن ابن دينه في الكربات الروثينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الالمانية ضمن وحدتها المتراصة جزءاً ـ بولونيا ـ من اوروبا الشرقية ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في اوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو اكثر تعقيداً .

---

(١) ـ بالبستوك ـ من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

الشراكة النمساوية المجرية في حوض الدانوب

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تبعد النمسا عن المانيا وتقضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشىء عام ١٨١٥، توصلت فيينا الى تحقيق التفاهم مع بودابست ، هـذا التفاهم الذي حولت ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده بين الطرفين عام ١٨٦٧ ، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا ـ المجر أو المجر النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة ، وبعبارة أخرى اكثر لباقة ديبلوماسية ، وحد بين ترانسلبتانيا ما وراء النهر وترانسليتانيا عبر النهر .

وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك، ورمزها النسر ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة . وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المجن ، فقد عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكانته عن طريق انصراف البلاد الخاضعة له ، العمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم . فقد كان عهده عهد حكم مطلق ، خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنعومتها ورقتها . وكان تعلق السكان بالاسرة المالكة تعلقاً قوياً مخلصاً ، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة .

وقد ألف الحوض الدانوبي ، الى هذا كله ، مجموعاً طبيعياً متماسكاً متكافلاً لو تناثرت اجزاؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة . ومع انها ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي ، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة ضيقة ، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب المتأخر تحت حكمها . فالجمود الى الغرب ، بعد عام ١٨٤٨، ورؤوس الأموال اللازمة النهوض بأسباب التطور وقطع مراحله حثيثاً ، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه الاتحاد الجمركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى. الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتتوفر فيها يد عاملة لم تكن متطلبة . ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنتيا والنمسا العليا والسفلى ولا سيا بوهيميا تنعم بشهرة صناعية واسعة عرفت ان تحققها منذ عهد بعيد . واملاك التاج في هنغاريا ، وهي املاك ضخمة واسعة جداً ، تردف بمواردها الزراعية والرعوية الغنية ، الغلال والمحاصيل التي تعطيها سيلزيانيا من الحبوب والشمندر والمواعي . وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو المزدوجة ، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى .

هنالك ، مع ذلك ، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار . فالصناعة ، في النمسا ، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية ، ومثل هذه السياسة لم تكن هنغاريا تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب وللمحاصيل الزراعية . ولذا كان لا بد من التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين . وهذا ما رمى اليه بالفعل الاتفاق الذي توصل الجانبان الى عقده، واعادة النظر فيه كل سنتين، على ضوء الاوضاع الراهنة .

ومقابل الفوائد التي أمنها هذا الاتفاق الحي رأت النمسا تعويضاً لها عن تُغبن لحق بها فرض تعريفة مرتفعة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الاكثر تطوراً،فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعريفة الاكثر رعاية عرفت مرافىء وموانىء البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسها حيناً ، واتفاقها احياناً ، وتطوراتها ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة ومخارجها . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها بدءاً من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الحبوب وتشحنها الى الخارج بينا عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون النزوح عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ريع الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحماية ، اكثر من أي وقت مضى ، ان توقف عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بمهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكليريكية ، كما اخذت تطالب بعلمانية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تيسر كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي الجامعات والمعاهد العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شحن النفوس بعداء مستحكم للسامية) . وبدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عدداً من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلاقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضطرابات والفتن الريفية .

فقد ألفت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العالية،اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داع الى رهن اراضيه وأطيانه هذا المالك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطايب الوان الطعام وترفل بالانبذ الفاخر من الشراب، والذي تم له من طاقم الفضة ومجموعات السجاد والطنافس والخيول الأصيلة والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فيجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع نظيف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرأبت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فصغار الامراء وبورجوازيو بوهيميا او غاليسيا هم على استعداد التفاهم مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا مماراة فيها هي ان العنصر الجرماني الذي طبع عميقاً المؤسسات والاذواق ومناحي التفكير في الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجري الا ليتمكن من الصمود في وجه الدفع السلافي . « صونوا حدودكم لنحافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التي ادت الى هذا الاتفاق [1] وهذا التفاهم الالماني المجري آل في نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالي الى احتلال البوسنة والهرسك ، وكلاهما من الاراضي السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل ، الرفيق الجميل ، للرايخ والمجري وسيط بينهما .

في حوض الدانوب ، كما نرى ، ناجحون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالي – قد يكون من المستبعد تحقيقه – بقي التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هبسبورغ .

من البحر البلطيقي الى الادرياتيكي قوميات مستعبدة تتململ وتنسطى

والقرن التاسع عشر الذي تميز بالاستقرار جغرافياً في اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التي رسمت الى الشرق منها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسيانية والروسية . فالاتفاق الذي تم عقده ، عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين ، : إضعاف « الاجلاف » قطع سيلبزانيا : البولونيين والروتين في مقاطعة غاليسيا ، وباعد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرب والكروات في مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم في الدم : الكروات والصرب في هنغاريا ، واحتفظ للامبراطورية النمساوية بايطاليي البترول وتريستا وبرومانيي بوكوفينا ، كما ادمج رومانيي تراسلفانيا في تراسلينانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تسد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق ، خاضعة منذ الاجيال الوسطى للنفوذ الجرماني . فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريغا مدينة حلوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضي الزراعية . والتعليم في جامعة دوربات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم في أثر عملية الاصلاح الزراعي الذي قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر في البلاد ، من جهة ، طبقة من صغار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدي وتطور المرافىء البحرية في هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، يقظة بين القوميات ابتدأت في مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسي . فاذا ما رأت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار الجرماني ، فلم تكن لترمي من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

(١) في عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين الماني (منهم ٨ ملايين في النمسا نفسها) ، و٦٫٥ ملايين مجري ، مقابل ١٧ ـ ١٨ مليون سلافي ، و٣ ملايين ونصف مليون روماني وايطالي .

رمت الى تشجيع حركة « ترويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الروسي وذلك بتحريم استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الظلية الاحراج والغابات القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية والفوارق التي تغلغلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية انتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفنية . وقد ترك الحكم القيصري هنا الشعور القومي ان ينمو ويشتد بحرية، وذلك لاضعاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتي من حق الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة مخيفة تعرضت لها البلاد. وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استثمار صناعة الخشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شزراً الى امتداد الحركة الوطنية واستفحالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسها ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهة الستراتيجية ، تقع على قيد غلوات من ابواب عاصمتها . وسيصادف سورومي اوقاتاً عصيبة جداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمري الى بعث الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المتزايد سكانها، الجامدة، الفتية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالها الجموح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي أصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر الغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هذا الكيان المهلهل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتها الدول الثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابهتها بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرتجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار ابناء غاليسيا وآل هبسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السياسي الكبيرة في جميع أرجاء اوروبا عجزت في محاولتها إثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الغرار ، ومنذ ذلك الحين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرة الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعين المجردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « ترويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تبرز الصبان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالاً على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتها الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحرراً بين البورجوازيين الاحداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راحوا يعولون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الالماني ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكي يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسي فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حلم خفيف الوطأة ، اذ تمتعت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألفت مع كراكوفيا ، مشعلاً للآداب ومنارة العلوم والفنون. وهذه البرودة التي دبت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخريين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ مجراه ضمن المملكة النمساوية . ففي بوهيميا نفسها نرى العنصرين الالماني والتشيكي تارة على وفاق وطوراً في خصام . فالاول منهما، اي الالماني ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج. أما الثاني ،فيسكن التجويف الجغرافي الذي يحيق بالعاصمة براغ التاريخية ،وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عالياً ،بحقوقه التاريخية وفي هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك فنسلاس،اي باعادة مملكة بوهيميا الى الوجود ،ومن ضمنها موارافيا وسيليزيا . هنالك ارستوقراطية تشيكية ألمانية ألفت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هبسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة. وهذا الوضع بالذات حمل بلاتشكي على التصريح بعد الفشل الذي اصيبت به حركة الجامعة السلافية الفدرالية ،عام ١٨٤٨ ،قائلا : «لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد بعيد، لوجب العمل على انشائها في الحال لخير اوروبا جمعاء» . ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمساوية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيليتانيا ، سوى تنازلات جزئية ، كازدواجية اللغة مثلا و كانشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بخصب تناسله ، اخذ يحلق شيئا من السيطرة في هذه المناطق المتعددة،وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزيل تدريجياً الطابع الجرماني العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تنبذ هي الاخرى ، الثقافة الالمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم الهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بانشاء دولة تشيكية ديموقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسلوفاك نحو الاتحاد معاً لدك السيطرة المجرية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاني في تتراس نحو بوهيميا وهو الاكثر تطوراً موصياً بأن الهجوم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للملكية الهبسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلت علينا حركة « مجيرة » قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى، في مملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر، راح اولو الامر في بودابست يمارسون ضغطهم الشديد عندما وُضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . « فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت » ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . وهجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي نزح من جبال ترانسلفانيا الجرداء ليستقر في مقاطعة بانات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في ما بين النهرين الباتوني ، بالرغم من الاتفاق المعقود بينهما عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات على الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الثكنة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاعباً وتزويراً ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضللة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوماً ردات فعل عكسية ، فدفع بالسلوفاك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحمل الصرب على الاتجاه بنواظرهم نحو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويشمل صقالبة الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسفان تحت حكم آل هبسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك، بوصف سكانهما من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طرياً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في إلليريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو العقيدة الذين خضعوا أجيالا طوالاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام. من هنا: صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه البيامونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة اتحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودالماتية (*La Troyadne*) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوستروسلافية اخرى . فالفريق الكرواتي بزعامة جيلاتشيلش قام يرد على تمنت كوسوت كرجع صدى لبالاتسكي : « لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال » . برنامج يوغسلافي هذه المرة ، يضمه كرواتي ويدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوقفت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقي بهؤلاء الى ايدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه أقلية صربية كرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هذا الاتفاق

الغامض الذي وقعه قوم يجيشون كراهية الحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي محل ، بعد هذا التدبير ، لالبريا . ولوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية ترافع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الارثوذكس في مقاطعتي البوسنه والهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم نَعُد ببعيدين عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة اليوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية ـ المجرية وتفسخها لمنفعة صربيا الكبرى.

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك ، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور الذي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . وما هو انكى من هذا كله واوقع في النفس هو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

تقهقر تركيا وبروز الدول البلقانية

والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة. فشبه الجزيرة البلقانية هذه التي تتقاسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الايبرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قاب قوسين وادنى من تحررها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثة أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشرئبون بأعناقهم الى القسطنطينية والى المضايق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق ، كما نرى الضغط الجرماني المجري يشتد لينتهي من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يعلل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدامهم كما تعلل القوميات التي تتحرك وتحور في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان تجد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فطلوع هذه الدول البلقانية وإطلالتها على الدنيا ، تتم نهزة نهزة ، وفقاً لمجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكرها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها ـ هكذا نعتت الامارتين ، عام ١٨٣٢ ـ لا مال عندها ولا حكومة ، قوامها وكيانها يتألف من مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبيه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (المورة) وجزر السيكلاد ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . ومع ذلك فبتنازل لها الانكليز عن الجزر الايونية ، ثم حالفها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جدياً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما اتجهت بأنظارها نحو شواطىء إيجه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتيسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة للفنيين ولرؤوس الأموال مفقودة لها مرزحة ، اذ ان تحصيل العلم يفضي بطالبه الى مزاولة المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المغريات والى المعترك السياسي. واثينا التي كانت قصبة صغيرة عند الاستقلال، ألبانيـة الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٠٠٠ شلت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصلات وافتقار البلاد للادوات والاجهزة المسعفة كل حركة. وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم يحل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة يرزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريقي يؤثر التجارة ، وهنالك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هـذه المملكة الصغيرة التي أمدتها بافاريا بملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمـل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات المحلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها من جزر متناثرة،تشعر في الصميم،انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها. اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطابع القاري الشرقي ، فهي تمور وتتحرك ضمن حدود مبهمة لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك اين ذاك الحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كاراداغ وعند الايطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف بـ *Tserno Gora* ويطل من عَل على نهـر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الثيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيغوش ومن اليهم من هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يتراوح عددهم بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المعبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلـك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفهـا في معركة كوسوفو الطاحنة .

وتُبعث صربيا من جديد، ولو ببطء فتقتطع محلا لها تحت الشمس ليس بين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهري الدانوب والساف فيجربا معاً في وادي موراڤيا بالجـاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعـة بلغراد حصناً حريزاً لهم لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يربون قطعان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » في عيني لامارتين الذي زارها عـــام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى *Knez* للامة الصربية كان احد مربي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، دونما ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقـــة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر المورافا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تفضي من نرافيا الى شواطيء البانيا والى البوسنة. وقد أقصيت ، هـــذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركتها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعية الامبراطورية الاوسترو – مجرية الاقتصادية . وبعد ان حيل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتيها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرنوفيتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائج القربى والتماسك مع مجتمعهم . ومـــع ذلك،لن يلبث هذا الشعب الفخور، المناضل الذين لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محـور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولداف والفـــلاخ ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadie* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Cmp* او السهل، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية أقصت سلطة السلطان عن الفناريين واستبدلتهم بأمراء محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقـــد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي ساهم نابوليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو – فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امـــام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمع الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبترول . وهذا الاستثمار حرص على ان يبقي متدنيا ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الخاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متحررة ، لم تحل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبة الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجماهير الريفية التي تتسكع في الجهل والجهالة والتي تفتقر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكواخ من اللبن او من روث البقر المجفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفر . هذا وضع

تقع منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً. فالوفيات بينها عالية والانسال في خصب غريب. فرومانيا التي كانت تعد عام ١٩٠٠ خمسة ملايين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا. فضمهم لقاطعة دوبروجه القفراء على البحر الاسود ليعوض عليهم خسارتهم لقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا التخلي عنها للروس. اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الى عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تنسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدانوب السفلي.

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك. فاينما أجلت النظر وقعت منك العين على الاملاك الضخمة و «الجفتلك» التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يرزح تحت الجزية والخراج. فقد سجل الاسلام هنا ارتدادات كثيرة تفادياً من الأهلين للطرد ولمصادرة املاكهم وأراضيهم. وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الرودولف، والالبانيون في الجنوب، وعدد كبير من قرى ودساكر الصرب في البوسنة. ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم، هنا وهنالك، مزارع عديدة. وفي وادي نهر الماريتزا، حيث خضع الفلاحون لعبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روماني او رومي اي روماني، الا انهم في الواقع، من عرق البلغار، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم. وأتيح لهم ان يؤسسوا امبراطورية دامت ردحاً من الزمن، ولم يلبثوا أن رزحوا تحت ضغط البكاوات، عرضة للسرقة والاعتصار من قبل التجار اليونان يقتمون، طعامهم، بكعكة وبعض البندورة والبصل واللبن. فللمدن طابع تركي صرف بمآذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة. ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة.

وفجأة أطلت علينا، بدافع من أطماع قيصر روسيا، عام ١٨٧٠ أكسرخيا (امارة) بلغارية كما راح دعاة الروس يحثون للفلاحين المهتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكسرخيا. والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكوميتاجي المسيحيين. فالفظاظات التي اقترفها هؤلاء الباشيبزق، المعروفة في التاريخ «بالمآسي البلغارية»، والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً. غير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين، في السنة التالية لم يقر سوى قيام «امارة مستقلة ادارياً خاضعة لولاء السلطان، هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفة باسم الروميلي الشرقية، بينما اوقف التقدم الروسي عبر وادي مورافيا واعترف للامبراطورية الحق بادارة البوسنة والهرسك. والثابت ان الامير اسكندر بانتبرغ اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠، يعتبر نفسه «امير بلغاريا الشمالية والجنوبية»، الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استقالته كما اضطر خليفته الامـــير فرديناند الاول من اسرة ساكس كوبورج الملقب « برئيس الثعالب » ان يمهد الطريق لمدة طويـــلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لأمة خصب الانسال فيها والتوالد لا يقل بشيء عما هي عليه جاراتها من هذا القبيل ، مدفوعة الى ذلك بما رُكز في طبيعتها من حب العمل ومـــا فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يومــاً ان تعاود سيرتها في جمع شمـــل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضايق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والبانيا والأبير حيث يؤلف الاقـوام فسيفساء مدهشة من الشعوب والاجناس. ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني، كاثوليكياً كان او ارثوذكسيا او مسلماً، ويعيش مستقلا في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار، تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر. أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا، ذات الاسم الساحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام يفتخرون الى عرقيـة واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاء وازورار ، كما يحدجون بأنظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكثرية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية ، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة اللهجة المحكية ؛ يجوبها ظعناً بمواشيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفالاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاتراك فيها وقـد زرعوا فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المنافسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هـذا الممر ، مقاطعة تراقيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي يتشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء. فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيرة وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوروبا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعـد ان رزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهملوا شأنه وأساؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهـلة التقلبات السياسية بين قوميات مخشوشنة ، مفتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحـال ، عرضة دوما الفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه. وموقف ألبانيا يذكرنا حتما بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدنية الزراعية والراعوية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها، فهي تذكرنا ، وبحق، بروسيا القريبة منها .

العهد الاستبدادي الروسي والنظام القديم قبل حرب القرم

للامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية النظام التقليدي السائد في اوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق « الحلم البوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت بجلاء عن عورات هذا الحكم المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واكليروس كهنته جهة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بحركات بنانه ، وطبقة من اسياد الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من الباطنة والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والعجرفة أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادىء التي سارت بينهم ان الكل يسرقون ، وان يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يداه مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها محاكمها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حجر صحي آسر شديد يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ،وجيش بطاش هو أداة لفرض هيبة الحكم والنظام في البلاد ،واداة الفتوحات الاستعمارية ،الا ان عدم الانضباط فت في عضده. أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحيناً متذمرة متأففة من وضعها المرزح المرهق ، نزّاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، تكره نظارها وتحقد على وكلائها ، ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتحرر من رق الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، عاجزة ، مع كل هذا ، عن احتمال أي تحسين على الوضع المزري الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (« فليس في روسيا من طبقة ثالثة او طبقة الشعب » كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مرتبطة بالدولة رأسا او ببعض الاسر الشريفة ،أو بأصحاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية، تسير في تقاليدها المرعية ،لا تحيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد عندما لا تلاقي شاريا او زبونا يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة الغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعا كبيرة منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون، لها احياؤها المقفلة ولها ما يعرف عندهم ب *Kreml* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق للمواصلات يسهل معها التنقل والانتقال ، والتضييقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة وقلة النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقلية المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخير الذي يطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد ، ويؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السيادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجهلة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كتابا مثل غوغول او تورغنيف او سلتيكوف تشيدرين الذين رسموا لنا صورة لامعة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهذا الموظف المختلس ، لا يستنكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه الروسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ لهذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فالفشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سيباستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعبثاً يخضع القيصر نيقولا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكم الافكار والالسنة . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بها جمعية الضمامين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تنكفيء وتعود القهقرى في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهافتت عليها الاوساط الارستوقراطية تتلقف مبادئها وتعاليمها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغليانية التي غذت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعض الآخر الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها: تيار « الغربيين » الذين شعروا عميقاً انهم قريبون من خصوم العهد كالاشتراكيين والفوضويين والليبرالية البورجوازية اكثر هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافيين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمهد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوي بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المشارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم لليأس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات اليمة ويصورون الشقاء والبؤس الذي يتحكم فيه المجتمع الروسي الغارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامها بهبة ثورية .

الازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني ـ الاصلاحات وبوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رق الارض وتحرير الفلاح لا يزيلان من الطريق كل العقبات . فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة اعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشرور . ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعويض عليهم ، كان لا بد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو مجحفة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يرزح تحتها صاحبها الجديد . ومهما يكن ، فعلى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما . من هذه الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يعلن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا بتلقيبه ، ابتداءً من هذا اليوم « بالمحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجزل غبطة وسروراً . الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ٨٠/١ المبلغ المتوجب. فالمتملكون ينالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيلقون يعانون الجوع الذي ستشتد وطأته مع التقسيم الجديد للارض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيعتبرون أنفسهم قد هُزىء بهم وراحوا ضحية السرقة بينما تشابك القطع الزراعية التي نالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاوٍ كثيرة امام القضاء. كل هذا والنبلاء ينفثون احقادهم: فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ سائر الدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصيبت بالهبوط. فلاعجب والحالة هذه ان تبيع املاكها او ان تؤجرها التجار. فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع – لو شاء – ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة. وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استثماره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليونا ، حوالي عام ١٨٨٠) كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردة الفعل ، مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » وتحسن النية « بالجمود . فحصول سنة ١٨٨١ كان طبيعياً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الاكبر للنين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ *Zemstvos* وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جعله

إلزامياً وبانشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهيئات الزراعية في القرى ما تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وبتخفيض ضريبة الاعتاق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذه القديم بوبيا دونستزيف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى «ملكية» اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشىء فيه مصرف يعنى بمساعدة النبلاء الذين يعجزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى ال *Barine* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبل بوصفه قيماً على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقد لعبت الارثوذكسية دورها المعروف في الضغط على القوميات الغريبة ، متبعة في سياستها تلك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى *Skopsy* (المتحرفين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، واللوثريين في الولايات البلطيقية ، وسببت انزعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده . وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد . رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا والولايات البلطيقية والبولونية وبسارابيا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاته بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيبته ونفوذه يجب ربطه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهافتت رؤوس الأموال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أُخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحها للاستثمار والاستثمار . ففتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البلاد قفز عددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين من صغار الملاكين ينعمون باليسر كما استقر في الاذهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً هم من البروليتاريا يعملون في خدمة الصناعة ، و٣٦ مليوناً من صغار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتاريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض الحالات ، محلاً مرموقاً بين الدول الاقتصادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى العيش على الاطلاق في اوروبا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الاشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنابها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبناها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بونج وفتشنغرادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجب بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لندائها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل١٠٠ في الفترة الواقعة بين١٨٠٠ ـ ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢، الفترة الواقعة بين ١٨٧٤ – ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة أضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة. ومهما يكن فقد ساعد تهافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافيء والموانيء البحرية والاقنية النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوكرانيا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونتز ، الروسي بوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرهم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وشغل بلجيكيون ، والمان مراكز هامة في البلاد وفي هذا العهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذاك ، يتعهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبترول باكو كما راح يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه. هنالك مساكن يفترش ساكنوها الارض العراء لا حصير فيها ولا فراش. وقد اعدّت بعض الشركات لعمالها مباني ضخمة جهزوها بالحمامات والمغاسل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راحوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تفرض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمّون فيهم روح النقمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد إضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاصاً منهم لسوء العمل . ولهذه الاسباب

راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية «تتسم بروحها الابوية .

ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستمد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح مخيفة (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الخريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقة عليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسعر أعلى مكتفياً في غذائه وغذاء ذويه بطعام رديء . هنالك سبعمائة ملاك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠،٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣٤،٠٠٠،٠٠٠ هكتار . وقد استطاع «اكلة» الاراضي ان يغتصبوا شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما نرى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خصام موصول مع هؤلاء القولاق . من هذه البرولبتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو المعمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يطلق النفس بسأمه يستقر يوماً في سيبريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنغصاتها . وهكذا نرى الوف من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى نقير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم عناء ويموتون فريسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها أرقاء الارض .ولم يعد الموجيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله بعيد عنه في الاعالي ، كما ان القيصر بعيد عنه جـداً في قصره . ففي خضوعه دوماً لحياة الجماعية ولمتطلباته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكييف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحقير – عزبة الشمال – المبنية من الخشب ، لا نافذة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بملابسهم ، أو خطة الجنوب ، من اللبن وأحياناً من القش اليابس. ليس في هذا المسكن من صابون ، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لبعده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالشاي عندهم من الكماليات (واعطاء بقشيش ، في الروسية ، انما يعني: اعطاء شيء من الشاي » . وكثيراً ما يحتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسغ الدردار وعصيره ، يعرف عندهم «كفاس » . فالنقص في المواد الغذائية والادمان على المسكرات يرفعان عالياً من نسبة الانحلال والفساد . والامل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فوالدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينعمان باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثمانية ، غير ان الخصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من المعوزين والفقراء .

منظران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية وفنية ممتازة وتأخر اقتصادي متصل

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما تبديه حضارتها من اضداد ومفارقات . من جهة اخلاق شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها، ومن جهة ثانية ، مجتمع رفيع مستلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة .

الادب الروسي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجيك الخشن الطباع والمرح معاً ، والتاجر الجشع ، والملاك الفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكراسوف الى بلوك ، ومن غوغول الى دوستويفكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي بقفز الادب الروسي عن شعر او قصة أو اقصوصة بلغت سدرة المنتهى بما تمور به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحب الفضول والظمأ الى المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة . فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي الذي نبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز الغريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية الينبوع، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطيقي او من الطراز الواقعي ، ورسم المناظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التزييني ، الا ان مظاهر الحساسية الروسية تجلت على اكلها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازونوف وروبنشتاين يلعبون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم دارغومسكي اولاً ، ثم « الخماسي » او الفريق الخمس الصغير *Koutchka* (او الكومة الصغيرة) كما كان يلقبهم بسخرية خصومهم ومنافسوهم . وقد برز بينهم : بورودين ورمسكي – كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بأنغام والحان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما تتسم به من سمو وروعة ومناغاة وانسجام . وقد تتلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي وبروكوفييف وخوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً غريباً ، وقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه السكوبية هي ، ولا شك اكبر لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد » كما كانت تشهد بذلك مدام جوليت .

تمثل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها. ويكوّن العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي الذي يتوفر لها كما يكوّن علماء الاقتصاد فكرة لهم للموارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها . والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك

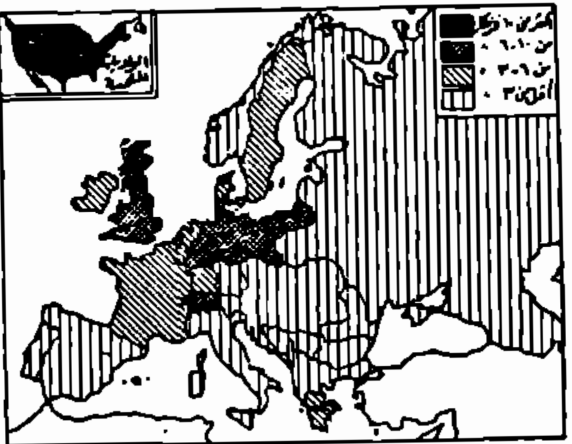

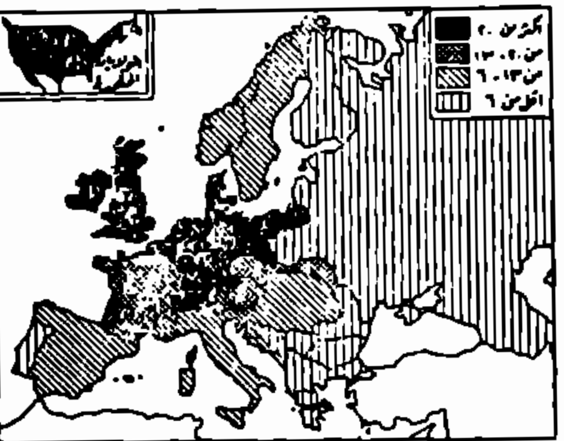

شكل رقم ٢٠ - نشاط اوروبا سنة ١٨٩٠

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسيـــا من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٥٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ماشيتها انما لا تنتج سوى ٢ بالمائة من الفحم ، و ٤ بالمـــائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل، وعلمها لا يرفرف الاعلى ٣ بالمائةمن مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٦،٤ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سيت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالمراقبون السياسيون يشددون على صـــا «العملاق الروسي من اقدام سريعة العطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادىء السلطة المستبدة ، كان الشك يخيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تعتمل فيه .

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

اذا كانت اوروبا مدينة لتوسعها الخاص بارتفاع مستوى معيشتها واثراء ثقافتها ، فانها قد اوجدت بدورها مجتمعات جديدة على صورتها وزعزعت اكثر الاوساط البشرية اختلافاً عن وسطها . الا ان هذه الاوساط – المتنوعة جداً – لم تتطور الا ببطء ، وقد استساغ كل منها على طريقته ، وبنسبة متفاوتة ، ما أتى به الاجنبي . فان العالم الشمالي ، وافريقيا السوداء ، وشطراً كبيراً ممن اطلق عليهم بصورة عامة ، اسم البدائيين قد تقبلوا ما أتاهم دون ان يصدر عنهم ردة فعل تذكر . واخذ الاسلام ، بكامله تقريباً ، يرزح تحت سيطرة اوروبا ، ولكنه لم يتخل عن شخصيته المميزة القوية . وسلمت آسيا الرياح الموسمية تسليماً متفاوتاً بدخول الحضارة الاوروبية وقاومت جماهيرها الكثيفة طرائف اوروبا بتقليدية متصلبة ؛ واذا ما أخذت اليابان تذعن في النهاية لطرائق البيض ، فانها قد فعلت ذلك وكأنها تقصد مقاومتهم مقاومة أجدى . وكاد العالم اللاتيني الاميركي ، الذي كان بالامس اسبانيا وبرتغاليا ، لا يخفي الملامح التي تكوّن شخصية هذه الارض المميزة . ويجدر لفت النظر اخيراً الى ان العوالم الانكلوسكسونية نفسها في اميركا وافريقيا واوستراليا ، لم تكن ، ولم تستطع ان تكون ، صورة صحيحة لبريطانيا العظمى القديمة .

الفصل الأول

المجتمعات الشمالية الحقيرة

ادت الاستكشافات والتجارة ، حول الحوض القطبي الشمالي المتوسط الامبراطورية الروسية واميركا الشمالية ، الى اخراج شعوب اقصى الشمال من عزلتها . فكان هنالك الشعوب الرعاة التي اعتمدت في معيشتها على حليب الرّنة ، لحمها وجلدها ، والتي وفرت لهـا الاحراج الشمالية بعض الموارد الاضافية : الى هذه الفئة انتسب قبائل الآسيويين القدامى ، « ارستياك » ، و « صامویاد » ، و« تونغوز » ، وقبائل « الالاسكيين » الاميركيين . ولكن سواد هذه الشعوب قدتعاطى في الوقت نفسه تربية الرنة واستثمار الموارد البحرية . ونخص بالذكر منها شعب الاسكيمو الذي امتدت املاكه من غرينلند ، حتى « الابرادور » ، وقد اتاح له انتقاله الموسمي من منطقة الى منطقة اقتناص الكاريبو او الرنة الكندية والحيوانات الفروية وحيوانات المضائق الخاصة ؛ وكان يحسن استعمال الخاطوف ويستخدم المزلج الذي تجره الكلاب ، والكاياك او زورق الصيد الجلدي ايضاً . وكان يمسح جسمه بالادهان ويتلوء من اكلها ؛ ويعيش منفرداً في الايغلو ، او الكوخ الثلجي المؤقت ، طيلة فصل الشتاء البالغ القساوة في هذه المناطق .

ثم جاء الاجنبي ، وقد استهوته الحيوانات الغنية بالفرو والادهان والزيت والجلد والمواد القرنية والعاجية . فجلب معه للسكان السلاح الناري ، والاداة المعدنية ، والنفط الذي سهل الطهي والاضاءة ، والطحين والسكر والشاي مما جعل الغذاء اكثر تنوعاً ولذة ، والكحول وبعض الامراض ايضاً . وزاول القنص بوحشية فأفنى بعض الأنواع الحيوانية وقلب طرائق الحياة ظهراً على عقب . وهكذا فان اسكيمو اللابرادور قد اهملوا صيد الفقمة وبحثوا اكثر فأكثر عن الرنة الكندية والثعلب القطبي واستطابوا المأكولات الجديدة ، ولكن اوبئة الجدري والسل والداء الزهري فتكت بهم فتكاً ذريعاً ؛ فاضمحلوا اضمحلالاً تاماً في آلاسكا الشمالية . وكان ان السلطات الكندية والاميركية ادخلت الى مناطق الشمال الفسيحة الرنة السيبيرية التي اخذت تتكاثر تكاثراً فائقاً مطرداً وفكرت بتنمية الرنة الكندية والثور المسك في الارخبيل القطبي ؛ وذهبت الدانمارك الى ابعد من ذلك فعزلت « غرينلند » لتضمن فيها حماية العناصر الخلاسية المنحدرة من الاسكيمو والسكندينافيين معاً .

الفصل الثاني

التقدم السريع
في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة

«... هذا العرق المحيط منذ اليوم بالكرة الارضية والمقدر
له ان يلأها كلها يوماً ... »

(تشارلز ديلك ، ١٨٦٨) .

الاعمار : مشابهات واختلافات

ليس في القرن التاسع عشر ، في اعتقادنا ، من احداث اكثر إثارة للانتباه من تكون عالم انكلوساكسوني يشمل اميركا الشمالية كلها ومجموع القارة الاوسترالية وارخبيل زيلندا الجديدة وشطراً واسع الاطراف من افريقيا الجنوبية . واننا نطلق على هذا العالم صفة الانكلوساكسوني لان أناساً ينتسبون الى الارخبيل البريطاني او البلدان الاخرى المحيطة ببحر الشمال قد عمروا هذه المساحات الشاسعة ومهروها بطابع حضارتهم .

وهي اوستراليا وزيلندا الجديدة ، في الارجح ، ما تقدمان المثل على خير اعمار لجانساً . لقد تأخرت بريطانيا في استعمارهما ، ولكنها استعمرتهما بسرعة ، دون غيرها ، في النصف الثاني من القرن . ففي الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ حتى السنة ١٩٠٠ ، بينما لم تتجاوز نسبة تزايد عدد السكان سنوياً ٠،٨ بالمائة في اوروبا ، بلغت ٢،٤ في الولايات المتحدة ، و ١،٦ في كندا ، و ٤،١ في اوستراليا ، و ٦،٨ في زيلندا الجديدة . ولم تكن اوستراليا لمدة طويلة سوى منفى يبعد اليه المجرمون ؛ ومن جهة ثانية ، لم يبد مناخها ملائماً الا لتربية المواشي التي لا تستلزم يداً عاملة وفيرة . فحدث آنذاك ما عرف بالـ « اندفاع » وراء الذهب الذي جاء يُعيد

المجاعة في ايرلندا وحركة الهجرة تحريكاً فجائياً : فارتفع عدد السكان الى المليون في السنة ١٨٦٠ ، وسوف يبلغ الخمسة ملايين في السنة ١٩٠٥ . واذا تدنت نسبة الولادات في هذه البيئة، فان نسبة الوفيات قد سقطت الى ١٠ بالمائة ، والبلاد قد نمت بنمو طبيعي عارم . ولم يبلغ البدائيون او الآسيويون الـ ١٠٠ الف نسمة في البلاد . اما الـ « ماوري » الذين انخفض عددهم الى ٤٠ الفاً ، فلم يكن لهم شأن يذكر في السنة ١٨٠٠ إزاء ٩٠٠ الف مهاجر مستعمر. ولكن هذه الدول الاوروبية الجديدة التي قامت في الجهة المقابلة لاوروبا على الكرة الارضية قد تميزت ابداً بطابع ضعف الكثافات البالغ .

في افريقيا الجنوبية كان البيض اقلية ازاء السود . فكان هناك اقل من ٥٠٠ الف بويري في جمهوريتي اورانج وبرانسفال ، وزهاء ٣٠٠ الف اوروبي ، ثلاثة ارباعهم من البريطانيين في « الراس » وناتال ، حوالي السنة ١٨٥٠ . ويجب انتظار التهافت على المناجم حتى تؤلف العناصر الآتية من الخارج خطراً جديا على مراكز المهاجرين الاول الذين كانوا يتباهون بأنهم «افريقيون». ومها يكن من الامر ، فان اتحاد جنوبي افريقيا ، لم يضم غداة تكونه سوى ٠٠٠ ١٣٢ ١ ابيض مقابل ٤ ملايين ملون (يدخل في عدادهم ١٢٢ الف آسيوي) . اما كثافة السكان فكانت اعلى منها في اوستراليا (٤ انفس في الكيلومتر المربع مقابل ١) ، على نقيض المهاجرين الاوروبيين الذين كانوا دونهم في اوستراليا بصورة محسوسة،والذين لم يستطيعوا السيطرة عدديا.

ان أوجه الشبه كثيرة بين كندا والارض الاوقيانوسية الكبرى : اتساع الارجاء ، اقامة في مساحة ضيقة من الارض قبل وصول مهاجري العالم القديم ، إعمار تدريجي متأخر دونه في اوستراليا بالنسبة الى المساحة . وكما في افريقيا ، شعبان متقابلان : الشعب الفرنسي الاقدم استيطانا والشعب البريطاني الذي لم يلبث ان تفوق عدداً ؛ الا ان مصالحة والحاداً عجديا قد تحقق هنا لمصلحة الفريقين . اجل ان جاذب الولايات المتحدة الملاصقة قد اخلى المنطقة من بعض سكانها (اجتاز الحدود قرابة مليون نسمة بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٩٠٠) . الا ان عدد سكان البلاد ، التي اعلنت « ممتلكة » في السنة ١٨٦٧ ، قد ارتفع من اقل من مليونين في السنة ١٨٥١ الى اكثر من خمسة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وصحيح كذلك ان مساحات شاسعة ما زالت شبه مقفرة بين الولايات الغربية من نهر « سان - لوران » وبين المحيط الهادي (بحيث لم تكن الكثافة العامة سوى ٠،٦) ، كما امتدت مساحات مقفرة واسعة في اوستراليا بين الولايات الشرقية والولاية الغربية . ولكن منطقة المروج الكندية كانت مدعوة لمستقبل لامع ارتسم في اواخر القرن بفضل تزايد عدد المهاجرين تزايداً مطرداً . وقد تجمع الناطقون باللغة الفرنسية في كندا السفلى حول كيبيك، ثم تكاثروا بسرعة وتقدموا نحو كندا العليا، ممثلين نسبة ٣٠ بالمائة من مجموع السكان ، بينا عمت اللغة الانكليزية الولايات البحرية وسيطرت في مقاطعة اونتاريو وملكت سعيدة في الغرب .

اجتذبت الولايات المتحدة وحدها سيلا بشريا دونه السيل البشري الى كافة المناطق التي

خلق فيها العلم البريطاني . ومرد ذلك الى امكاناتها الانمائية النادرة ، وربما الى استقلالها . سار الاستعمار فيها ، كما في كندا ، من الشرق الى الغرب ، وانطلاقا من الشواطىء البحرية ، على ان كل منطقة اميركية قد استعمرت قبل المنطقة الكندية المقابلة . وقد اثار فيها وجود الزنوج والجماعات الآسيوية مسائل تعيد الى الذاكرة مسائل افريقيا الجنوبية ، كما ارتدى الصراع ضد الهنود ، في بعض الاحيان ، الطابع الوحشي نفسه الذي ارتدته الحرب الماورية . ولكن اذا لم تنتشر لغتان في الولايات المتحدة كما حدث في كندا ، فان عناصرها البشرية المتنوعة قد خضعت لعملية مزج حازمة اعطتها وجها مميزاً .

حوالي السنة ١٨٥٠، وعلى الرغم من أن المهاجرين أتوا من الارخبيل البريطاني وحده تقريباً، كان مثال الـ « يانكي » الاميركي قد برز بصورة واضحة . وتفسير ذلك ان تكاثر سكان الولايات قد فاق المهاجرين الجدد منذ القرن الثامن عشر ؛ فلم يدخل البلاد اكثر من مليون شخص حتى السنة ١٨٤٠ ، ولم يتجاوز الداخلون الـ ١٠٠ الف شخص الا منذ هذا التاريخ . ولكن سكان الاتحاد كانوا قد بلغوا ٢٣ مليون نسمة ، حين ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعاً سريعاً بعيد الازمة الاوروبية بين السنة ١٨٤٦ والسنة ١٨٥٠ : ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الداخلين ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ نسمة مقابل ٧٠٠ ٠٠٠ ١ في العقد السابق ، و ١٠٠ ٠٠٠ ٢ في العقد اللاحق ، على الرغم من الحرب الانفصالية ؛ وقد بلغ عددهم ٨٠٠ ٠٠٠ ٢ خلال العقد الثامن . وقد نجم عن ذلك ان نسبة زيادة الولادات للداخلين قد تدنت ، فأصبحت ٧ مقابل ١ بدلا من ٩ مقابل ١ في السنة ١٨٥٠ . وهي اوروبا الشمالية التي ما زالت تصدّر اغلبية المهاجرين؛ غير انها ، بالاضافة الى البريطانيين ، أرسلت الايرلنديين والفلنك والسكندينافيين والالمان . وقد حدثت آنذاك هجرة واسعة الى داخل القارة الاميركية ولا سيما الى المنطقة التي سيطلق عليها اسم « الغرب الاوسط » . ففاقت الجمهورية آنذاك كافة الدول الاوروبية باستثناء روسيا .

منذ السنة ١٨٨٠ ، باتت الهجرة اكبر حجماً واكثر كثافة ايضاً : فأدخلت ٥ ملايين نسمة في العقد التاسع و ٦٠٠ ٠٠٠ ٣ في العقد العاشر .ولكن نسبة الشماليين تدنت الى اقل من٥٠ بالمائة وارتفعت نسبة اللاتين والسلافيين واليهود الشرقيين الى ٥٠ بالمائة . وقد ارتفعت نسبة المهاجرين الايطاليين وحدهم من ٦ بالمائة في السنة ١٨٩٠ الى ١٧ بالمائة في السنة ١٩٠٠ . وسيبلغ مهاجرو اوروبا الجنوبية والشرقية ٨٠ بالمائة من مجموع المهاجرين الذين يعبرون الاطلسي . وامام هذا العدد من المهاجرين الاجانب الجدد ، انخفضت نسبة المقيمين الى ٥٤ بالمائة ؛ وحتى الى ٢٠ بالمائة في نيويورك وشيكاغو .

في السنة ١٩٠٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٧٥ مليوناً ، ولم تتجاوز كثافتهم الـ ١٠ في الكيلومتر المربع .ولكن لم يبق سوى سنوات معدودة امام الهجرة الحرة اذ ان الدلائل كانت تشير الى تصميم « يانكي» على مقاومة تتبع استمرار عمل البوتقة التوحيدي والتمثيلي .

شكل رقم ٢١ ـ تكوين الولايات المتحدة والمملكة الكندية ١ ـ الولايات المتحدة الثلاث عشر الاولى ؛ ٢ ـ ولايات تكونت قبل السنة ١٨١٥ ؛ ٣ ولايات تكونت بين ١٨١٥ و ١٨٦٥ ؛ ٤ ـ ولايات تكونت بين ١٨٦٥ و ١٩٠٥ ؛ ٥ ـ الحدود الغربية للمنطقة التي تخلت عنها فرنسا في السنة ١٨٠٣ ؛ ٦ ـ مناطق حصلت عليها الولايات المتحدة من اسبانيا (١٨١٩) والمكسيك (١٨٤٨) ؛ ٧ ـ منطقة حصلت عليها بعد تسوية اوريغون (١٨٤٦) ؛ ٨ ـ الولايات الاولى التي ضمتها المملكة الكندية (١٨٦٧ ـ ١٨٧٤) ؛ ٩ ـ ولايات كندية تكونت في عهد لاحق ؛ ١٠ ـ منطقة يقل فيها الزنوج ٥٠ ٪ من مجموع السكان ؛ ١١ ـ الخطوط الحديدية الرئيسية ؛ ١٢ ـ حدود الولايات المتحدة.

الساحات الفسيحة والحريات العامة : الحكم الذاتي والاتحادات

اذن ضمت الولايات المتحدة مساحات شاسعة يقابلها عدد قليل من البشر . ولكننا لسنا هنا امام امبراطوريات أسستها قوة فاتحة تولت هي الوصاية عليها ووزعت فيها المهام.

وقد ساد الاعتقاد ، منذ « توكفيل » ، بأن اميركا لا يمكن ان تكون الا ديموقراطية لأن كل شيء فيها يؤول الى السماح للفرد بالتضرع على هواه الى الله ويجمع الثروة دون اضرار بالغير . وكانت انكلترا قد اعترفت ، فيا بعد ، بأن المؤسسات التمثيلية توافق ممتلكاتها التي تنمو بدورها على غرار المستعمرات الثلاث عشرة التي كانت مضمورة في القرن السابق .

اعطت الولايات المتحدة اول مثل عن كيان اقليمي كبير يرتكز الى المبدأ الاتحادي . فقد بدأ دستورها ، الذي كان بمثابة تسوية بين حاجات الدفاع المشترك وارادة الجماعات المحلية والاقليمية التقليدية ، وكأنه مثال الحكمة . وقد عرف الديمومة على الرغم من بعض التعديلات التي جعلتها الظروف ضرورية والتي لم تغير منه الروح . فجابه محنة الحرب الاهلية دون ان تتعين اعادة النظر فيه . وبات نفوذ السلطة الاتحادية منذئذ واقعاً لا يمكن انكاره او الاعتراض عليه ؛ وبدا كل انفصال مستحيلاً في المستقبل . فتواصل التوسع الاقليمي دون هزات جديدة : فكان هنالك ٣٦ ولاية و ١٢ اقليماً في السنة ١٨٦٧ ؛ وسوف تنشأ الولايات الـ ٤٨ في السنة ١٩١٢ .

بعد ان مرت كندا في ازمة شباب خطيرة ، حققت وحدتها ونعمت في الوقت نفسه بالحكم ذاته الذي منحتها اياه « وثيقة » السنة ١٨٤٠ . وفي السنة ١٨٤٧ ، اقدم اللورد « إلجن » صهر اللورد « دورهام » ، على إسناد الوزارة الى الزعماء المصلحين في برجوازية الاحرار ؛ وكانت هذه الاخيرة راغبة في بذل جهود كبير التجهيز ، فتلفت الى تحمل مسؤولياتها . فبدأ حينذاك عهد عمل بناء استهدف تخفيف حدة الخلاف تدريجياً بين الناطقين باللغة الانكليزية والناطقين باللغة الفرنسية . فاتجه الكنديون من ثم نحو فكرة الاتحاد التي تقبلتها لندن في النهاية بحسن الرضى وطيبة الخاطر ، لا سيما وان هذه الصيغة قد بدت ، بعد الحرب الانفصالية ، قادرة على إحباط بعض مقاصد الولايات المتحدة التوسعية على حساب كندا .

جمعت « وثيقة اميركا الشمالية البريطانية » - وهي وثيقة ولادة « المملكة » الاولى في السنة ١٨٦٧ – بين الحكم الذاتي على الطريقة الانكليزية والنظام الاتحادي على الطريقة الاميركية . فقد اتحد ، بموجب ميثاق ، شطرا كندا وسكتلندا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، ثم كولومبيا البريطانية ؛ وكما تقرر في الولايات المتحدة ، يمكن ان يقبل في الاتحاد كل اقليم يتقدم بطلب لهذه الغاية ، على ان تؤخذ بعين الاعتبار درجة إعماره وتقدمه . فمن جهة تحافظ كل ولاية على حكومتها الخاصة ، ومن جهة اخرى يكون على رأس الاتحاد حاكم يمثل الملك ، وبرلمان ، شبيه بالكونغرس الاميركي ، يتألف من مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ . ولما لم يكن هناك رئيس

تنتخبه الامة ، فقد اسندت ادارة الشؤون ، على الطريقة البريطانية ، الى رئيس وزارة يختاره الحاكم ويكون مسؤولا امام المجلسين .

عرفت اوتاوا ، عاصمة المملكة الجديدة ، منذ ذاك الحين، نظام الحزبين نفسه المعمول به في لندن وواشنطن . وهم المحافظون – تحالف الملاكين العقاريين والبورجوازيين الكاثوليك والبروتستانت ، المعادين كلهم للراديكالية – من احرزوا الغلبة وتسلموا زمام السلطة اولاً . ثم قرب « الخط الحديدي الكندي الباسفيكي » المسافات بين الولايات الـ ـان – لورانية وبين كولومبيا البريطانية . وفي السنة ١٨٧٠ ، ادى الاتفاق مع خلاسيي النهر الاحمر والـ « اسيتيبويا » الى ادخال « مانيتوبا » في الاتحاد . ثم وضعت شرطة اوتاوا يدها على الاقاليم الشمالية الغربية حتى « الجبال الصخرية » بينما قضي على ثورة قام بها الخلاسيون والهنود؛ فمهد ذلك لقيام ولايتي « ساسكاتشوان » و « ألبرتا » . وعندما تسلم الاحرار بدورهم زمام السلطة ، تقدموا بمشروع تسوية تجيز استخدام اللغتين الانكليزية والفرنسية واخمدوا نار الخلافات الدينية والمدرسية ، واعدوا مشروعاً لإعمار الغرب واستثماره بسرعة ، وحافظوا على العلائق الطيبة بالوطن الام . ولكن المساواة في الحقوق، في نظر الديموقراطية الكندية – كما في نظر الديموقراطية الاميركية – لا تستلزم الحق في الحياة الا بقدر تأمين الفرد هذا الحق لنفسه بجهده الشخصي .

كانت المستعمرات الاوسترالية الاولى ثمرة نشاط مربي الاغنام . وعلى غرار ولاية « وايلز الجديدة » في الجنوب ، قامت في ولاية فكتوريا ، التي انفصلت عنها ، وولايات اوستراليا الجنوبية واوستراليا الغربية وكوينسلند ، مؤسسات تمثيلية عملت عملها لمصلحة اغنى المهاجرين المستعمرين. الا ان اكتشاف الذهب أثار بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ حركة اجتماعية كبرى؛ فقد تزعزعت سيطرة المهاجرين المستعمرين ، وبرز الاقتراع العام الى الوجود ، واعتمدت بعض المستعمرات نظام الوزارات المسؤولة . فقامت الى جانب اوستراليا الاولى ، اي اوستراليا قطعان المواشي الكبرى في المساحات الشاسعة ، اوستراليا اخرى انتظر فيها المأجورون القليلو العدد ، المتحالفون مع صغار المزارعين ، مساندة الدولة المطلقة ، لا سيما وان الحياة في اوستراليا اقل تعزيزاً منها في اميركا الشمالية . ولم يستطع الحكام ولا المجالس العليا احتباس التيار الديموقراطي الذي اتاح للمجالس المنتخبة بارادة الشعب تأليف واقالة الوزارات التي زاد من ضعفها عدم وجود الاحزاب التقليدية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المجالس العليا باتت تعين ، منذ السنة ١٨٩٠ ، لفترة محدودة ، بواسطة هيئات انتخابية متزايدة العدد تدريجياً . وان مؤسسات اوستراليا المقتبسة عن مؤسسات الوطن الام قد تطورت بمزيد من السرعة ، وجاء النشاط التشريعي القوي يستجيب لانتظار حركة عمالية تطالب بتشريع اجتماعي . ولكن ذلك لم يبلغ حد التنازل عن الانانيات الاقليمية . لذلك فان الميثاق الاتحادي لن يبرم قبل السنة ١٩٠٠ ، كما ان « كومونولث » اوستراليا ، الذي تكون في هذا التاريخ، قد تمتع بصلاحيات اقل اتساعاً منها في المملكة الكندية .

كانت زيلندا الجديدة قد رفضت عرضاً بالاتحاد مع اوستراليا خشية منها ان تكون ضحية هـــذا الاتحاد . فاقتبست هي ايضاً مؤسساتها عن مؤسسات بريطانيا العظمى ، ولكنها كانت خلوا من الارستوقراطية ، وسوف تعين الوزارة مجلسها الاعلى لمدة سبع سنوات . وقد عقـــد الاحرار البورجوازيون تحالفاً مع العمال في السنة ١٨٩٠ ، فمنحوا النساء حق الاقتراع والماوري حق التمثيل والمأجورين حماية اجتماعية واسعة . وسترتقي زيلندا الجديـدة في السنة ١٩٠٧ الى مصف « المتلكة » فتصبح مساوية في الامبراطورية لكندا واوستراليا ، بينما تكون افريقيا الجنوبية في طريقها الى هذا النظام .

على نقيض الكنديين الفرنسيين ، رفض المهاجرون الهولنديو المنشأ ، هنا ، التعايش السلمي مع البريطانيين . وعبثاً اقترح السير « جورج غراي » ، بعد رحيـل البوير على نطاق واسع ، اتفاق شراكة بين الجمهوريتين البويريتين والناتال والرأس لم تباركه لندن نفسها . ولكن المشروع سيبرز الى الوجود مرة أخرى : فسوف يتحقق الاتحاد الجنوبي الافريقي في اعقاب قتال دام ، وسوف تنظم المتلكة الجديدة نهائياً في السنة ١٩١٠ .

مصير الاعراق الملونة

حالت الاوهام العنصرية في كل مكان دون اتحاد الانكلوساكسون مع الاعراق الملونة ؛ ونادراً ما تقبلوا عليها باعتبار المنتمين الى هـذه الاعراق مساوين لهم .

كان في اميركا الشمالية أناس تميزوا بقامة رفيعة وشعر اسود واملس وانف اقنـــى وجلد اصفر اخطأ المهاجرون بأن اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر . زاولوا صيد الحوت وقنص الرنـة الكندية ، في الشمال الغربي ، وقنص البقر الوحشي والزراعة في الوسط (وقد ظهرت حضارة الذرة الصفراء بين البحيرات الكبرى والجبال الصخرية الوسطى) ، وكانوا اهل حضر في الجنوب الغربي ؛ فتنوعت نظمهم السياسية تنوعاً عظيماً ، ابتداء من القبيلة المنعزلة وانتهاء بالاتحادات العسكرية الكبرى . وربما بلغ عددهم المليون « متوحش » عند وصول المهاجرين .

فلا مناص من ثم من احد امرين . نقلهم الى منطقة أخرى أو تقتيلهم . ولن يقر للمهاجر المستعمر قرار حتى تحل مسألة الحدود هذه . ثم جاء قانون السنة ١٨٨٧ الذي استهدف التهدئة بهبة الاراضي وتحسين الحالة الصحية والتعليم : فحدثت الثورة الاخيرة في السنة ١٨٩٠ ؛ وزال « الاقليم الهندي » الاخير من الوجود في السنة ١٩٠٥ . اما الباقون على قيد الحياة – أقل من نصف مليون – فقد خضعوا للقانون العام او انفردوا في « مناطق خاصة » .

وكذلك لم يخضع الماوري ، البولينيزي المنشأ ، المتوحش والفنان ، للسلطة النيوزيلندية ، الا بعد معارك ضارية . فزرع الذرة الصفراء والبطاطا في اراض مشاعية وتزيا بطيبـــة خاطر بالزي الاوروبي واعتنق المسيحية وتعلم التكلم باللغة الانكليزية .

وأبعد البدائيون الاوستراليون ، البائسون والودعاء بالسليقة ، عن المناطق الكثيرة الصيـد

الى الصحاري . ثم طاردهم البيض مطاردة فعلية بمساعدة شرطة من الزنوج . وهم لا يشكلون اليوم سوى اقلية لا اهمية لها الا في نظر العلماء .

وصل الاوروبيون الى افريقيا الجنوبية اثناء هجرة قبائل الـ « بانتو » من المنطقة الحارة الى الجبال والهضاب المرتفعة الخالية من الذبابة الناقلة مرض النوم والموافقـــة لتربية المواشي والكثيرة الصيد . فقاوم زنوج افريقيا الجنوبية احتلال البيض لاراضيهم مقاومة طويلة وضارية. ولكن كلما خفت حدّة المقاومة المسلحة تكاثر عدد الزنوج الذين خضعوا الشروط المفروضة عليهم ، وارتفع المنجم كذلك عدد الكادحين من الاعراق الملونة . ومن جهـــة ثانية اجتنبت المهن الشاقة هنوداً ومالزيين عوملوا المعاملة نفسها ونظرت اليهم العناصر الأخرى كما الى دخلاء. وكان الخوف من الاعراق ، التي اعتبرها البوير والبريطانيون متدنية واستغلوها، قسطه الكبير في التقريب بين هؤلاء واولئك .

وظهر عند الاوستراليين والنيوزيلنديين قلق مماثل أثاره فيهم الآسيويون – وجلهم مـــن الصينيين – الذين لم يكن عددهم مرتفعاً ، ولكنهم كانوا مهرة في التجارة والحرف الصغرى وحتى في الزراعة . فأدى ذلك منذ السنة ١٨٥٥ الى فرض القيود الاولى على دخـول الصفر ؛ وقد نعت احد رجال السياسة النيوزيلنديين منافستهم بـ « القذرة والمنافية الطبيعة والجائرة » .

وبشاهد القلق نفسه كذلك عند اميركيي الغرب امام تدفق سيل الصينيين . فقد ظهـــر هؤلاء إبان الاندفاع وراء الذهب : فقد جمعتهم بعض الوكالات من ما كاو وهونغ - كونغ ، ثم اشتغلوا في اعمال بناء الخطوط الحديدية . ولكنهم اشتهروا كطهاة وخدام منزليين واتقنوا غـسل الثياب وكانوا اهلاً لتربية دودة القز وتجاراً اذكياء . فلم تترد كاليفورنيا في السنة ١٨٨٢ في منع الهجرة ناقضة بذلك الاتفاق المعقود مع الصين ، وقد صادق المجلس الاعلى علىهذا المنع . وسوف يتعرض التشريع لليابانيين في عهد لاحق .

اعتق الزنجي الاميركي منذ حرب الانفصال فاصبح من حيث المبدأ مواطنـــاً على غرار الآخرين . ولكن الرق والخلاف الدامي تركا آثاراً وذكريات دائمة . فخلال عهد « التجديد » الناقم ، عاد رجال الانفصال الى صوابهم وملكوا انفسهم ، فقابلوا بالعنف والارهاب بعض اعمال العنف التي اتاها الارقاء السابقون (ويعرف هذا العهد بعهد « كو كلوكس كلان»)وسيطروا مرة اخرى على المجالس التشريعية وحدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا من الحقوق الممنوحة للاعراق الملونة بالتعديلات المدخلة على الدستور . فتجانب من ثم عرقان ، احدهما متشبع ابدا من تفوقه ومعاد لكل امتزاج وفارض على الآخر تمييزاً عنصرياً مذلاً . وعلى الرغم مـن ان عدد الزنوج قد انخفض نسبياً بالقياس الى مجموع السكان العام (١٢ ٪ في السنة ١٨٩٠ مقابـل ١٤ ٪ في السنة ١٨٦٠ وزهاء ٢٠ ٪ في السنة ١٧٩٠) ، فقد ارتفع ، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الاهلية ، الى ٦ ملايين ونصف المليون يضاف اليهم زهاء مليون من الخلاسيين . وقـــد

مالت هذه الاقلية طبعاً الى التجمع في الولايات القريبة من خليج المكسيك : فجاء تجمعها هذا تميزاً جغرافياً اضفى على التمييز الآخر مزيداً من الخطورة .

عاد معظم الزنوج الى العمل في مشاريع استثمار الاراضي بصفة مكترين او مياومين . ولما كانوا يميلون طبعاً الى الانتقال من مشروع الى آخر ولا يعطون انتاجاً كافياً ، انتشرت شيئاً فشيئاً اشكال مزارعة شدتهم الى الارض . وقد فضل اصحاب الاملاك « العامل بالحاصة » الذي لا يتوجب عليه سوى تقديم سواعده ويتقاضى اجوره عينا ، « والشريك » الذي يقدم الحيوانات والادوات ويحتفظ بثلاثة ارباع الحصيد ، على المكتري الذي غالباً ما كان يعجز عن الوفاء .

الزنجي يزرع القطن
والزنجي يجمعه
والابيض يقبض المال
والزنجي يستغني عنه

السيدة تسكن القصر الجميل
والام الزنجية تقيم في الزريبة
والسيدة تحافظ على بياض ايديها
والام الزنجية تتولى كافة الاعمال الشاقة
والابيض يرتدي قميصه الشاة
ويجلس في مكان ظليل بارد
انه أكمل انسان خلقه الله .

اجل لقد ارتسمت حركة تستهدف السماح للزنوج بالدفاع عن مصالحهم في المعركة الاجتماعية . فقد كان باستطاعة النخبة ، بفضل العلم ، مزاولة المهن الحرة . ولذلك فقد قبل الزنجي في الهيئة الطبية في السنة ١٨٨٩ ، وفي المحاماة في السنة ١٨٨٩ . وقد نجح احيانا في الاعمال فاقتنى المساكن والعقارات التي اجرها بدوره . وبدأت رسالة المربين – واشهرهم « بوكر واشنطن » مؤسس جامعة « توسكيجي » الزنجية – تعطي ثمارها حوالي السنة ١٩٠٠ . ولكن الكثيرين من الزنوج هجروا الارض بحثاً عن الثروة بين البيض في المناطق الاخرى، فلم تفقد الروح العنصرية شيئاً من حدتها ، بل انتشرت حيثما حلوا . ومهما يكن من الامر فان العالم الاميركي كان متشبعاً بهذا الوجود غير المرغوب فيه والمحتوم معاً ، ولن يستطيع التمالك عن اقتباس « الجاز » الافريقي وعرض ملاكمي العرق المستحقر .

استثمار الاراضي الجديدة : من الاشكال البسيطة الى الاقتصاد التجاري الاكبر

في مجتمعات ارياف البلدان الانكلوساكسونية ، حل محل استثمار الارض البدائي استثمار واسع حقاً ولكنه مبني الآن على توزيع العمل توزيعاً مفرطاً . ولكن ما زالت هناك بعض النشاطات الابتدائية في اواخر القرن .

يجب هنا ان نضع جانباً مناطق الاقليم الحار حيث عرف المثال الاستعماري الديمومة وحيث

لم يستفن الابيض بسهولة عن المساعدة التي وفرها له الملونون . وخير مثل هام على هذه المناطق هو جنوبي الولايات المتحدة . فالاقتصاد المنزلي يؤمن فيها الحاجات اليومية، بينما يتبع محصولان او ثلاثة محاصيل اساسية – القطن والتبغ قبل كل شيء – المقايضات مع الخارج . ولن يحدث فيها التحويل الجزئي الى الصناعة اي تبديل ؛ فذلك لن يزيل فقر فلاحين – بيض وسود على السواء – غير متعلمين ، ومفتقرين الى رؤوس الاموال وواقعين ابداً تحت رحمة الحصائد السيئة وانخفاض الاسعار .

لم تمارس زراعة الاصناف الكثيرة ، الاوروبية المنشأ ، الا بين كندا وبنسلفانيا . يضاف الى ذلك ان تطوراً حدث فيها نحو اقتصاد الالبان والبقول والفاكهة . فظهرت هنا القرية كما عرفها العالم القديم . ولم يلبث المهاجر المستعمر الاميركي ان استهوته مساحات المروج الفسيحة حيث اصلاح الارض اقل صعوبة منه في المنطقة الحرجية ، وحيث تسهل تربية المواشي وزراعة الحبوب . ولكن ضرر الجفاف في ما وراء الميسيسيبي كان كبيراً جداً .

اما في نصف الكرة الارضية الآخر فان جبهة الاستعمار ما لبثت ان بلغت حدود المساحات الجافة الكبرى . فبرز من ثم « المستعمر » الاوسترالي الذي مارس عمل الصوف ، وهو العمل المثمر الوحيد ، آخذاً بعين الاعتبار المناخ والحاجة الى اليد العاملة وطريقة « وايكفيلد». واحتل اعلى السلم الاجتماعي عدد محدود من كبار الملاكين : فقد امتلك اربعة منهم حوالي السنة ١٨٥٠ اقليما توازي مساحته مساحة بلجيكا ، كما امتلك بعضهم بين ٥٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رأس من المواشي .

قامت في « الراس » فئة من الاشراف الريفيين البريطانيي المنشأ ، نظراء « المستعمرين » الاوستراليين ، ولكن الـ « فلد » عاد للمهاجرين المستعمرين الهولنديي الاصل،الاوفياء للاعراف البطريركية . فالعائلة البويرية لا تقرأ على العموم سوى التوراة، وتسعى لان تكتفي نفسها بنفسها، وتضحي بكل شيء من اجل الماشية . انه لشعب نمطي ، لا يخضع ولا يقهر ، ساذج وكثير آراء سبق الوهم ، معاد للرأسمالي والزنجي اللذين ينازعانه مسالكه وطرقه .

منذ السنة ١٨٦٠ تعاظمت مشاريع الاستثمار الحيواني في الولايات المتحدة . فبرز آنذاك «راعي البقر» ،رجل«مناطق الابقار» اي المناطق الواسعة الواقعة وراء الميسيسيبي التي اقتاد مواشيه عبر مسالكها في اتجاه خطوط الطول جامعاً بين حرارة ورطوبة الـ « تكساس » ومراعي « بلات » الصيفية . وبعد ان يسلم حيواناته في احدى « مدن الابقار » التي يلمع نجمها وبأفل بسرعة ، كان يقامر ويحتسي الخمرة بما ادخره من اجوره ، ويعتمد على مسدسه الذي يحمله ابدا في جيبه ليلص المسافرين وتوقيف وسلب القطارات الحديدية ؛ اما مأتيه فقد دونها كتاب « مشهد الغرب المتوحش » أ « بوفالو بل » . ثم اضطر المثال الراعوي البحث الى ان يهاجر ابعد الى الغرب في الجبال الصخرية .

تقدمت الزراعة الكبرى على غيرها من الزراعات تقدماً حاسماً في منطقة المروج الاميركية وفي « اونتاريو » . فقد حدد قانون السنة ١٨٦٢ المساحة التي يتناولها عقد المزارعة بـ ٥٠ الى ٦٠ هكتاراً . الا ان الجزء الاكبر من الارض باعته اما شركات الخطوط الحديدية واما الولايات والحكومات الاتحادية انصبة اوسع مساحة الى حد بعيد . ولكن محاصيل الارض لم تكن جيدة في اي مكان ؛ فسعى المزارعون بالتفضيل وراء اختيار الاحسن من النباتات والحيوانات ؛ واتسع نطاق الزراعة في المناطق الجافة بواسطة « الزراعة البعلية » ، ونشط انتاج الالبان في منطقة جديدة حول البحيرات الكبرى . اما الوادي الكاليفورني ، التي كانت بورة في الأمس، فقد تحولت الى زراعة الحنطة قبل ان تكتشف انها مدعوة لأن تصبح حديقة غناء .

في اواخر القرن تناول التشريع الاوسترالي مناطق تربية الغنم الواسعة ، ولما تعاظمت حاجات السكان المتزايدين عدداً ، شوهد ، الى جانب المستعمر المنتشر ، المستعمر « المنتقي » الذي تعاطى التجارة ببيع «مزرعته المنقلة » حيناً واستثمرها حيناً آخر ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة قد حاولت تشجيعه بـ « سياسة مالية » ، انطوت على حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود لاعمال الري . وفي « وايلز الجديدة » اتاح المناخ المتميز بمزيد من الرطوبة تربية المواشي الكبرى التي بيعت لحومها في مراكز التبريد في الموانىء ، وقيام صناعة ألبان راقبها السلطات العامة . بيد ان زيلندا الجديدة هي البقعة التي شابهت خير مشابهة دولة اوروبية مثل الدانمارك .

اجل لقد تمتع صاحب المزرعة على العموم برفاهية هي اقرب ما يكون الى الرفاهية البورجوازية . ولكنه كان مضطراً لبيع كل شيء حتى يشتري كل ما يحتاج اليه تقريباً ، فارتكزت موازنته في اغلب الاحيان الى الدين الذي جعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقطاع الرأسمالي . ولذلك فرضت المدينة شريعتها على هذا المجتمع الريفي بتجبر لم يعرفه العالم القديم نفسه .

مدينة العالم الجديد

لم ترتد الظاهرة العمرانية طابع الاتساع العظيم الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ففي السنة ١٨٥٠ ما زال ١٩ مليوناً من السكان من اصل ٢٣ ، يعيشون في الارياف . وكانت كافة مدن المناطق الجنوبية متواضعة جداً . اما في السنة ١٩٠٠ فقد عاش في المدن ٣٠ مليوناً اميركياً من اصل ٧٥؛ وكان هناك اكثر من ثلاثين مدينة يزيد سكان كل منها على ١٠٠٠٠٠ نسمة ويبلغ مجموع السكان فيها كلها ١٢ مليون نسمة . ومنذ السنة ١٨٧٠ قفز سكان شيكاغو من ٣٠٠٠٠٠ الى ١٧٠٠٠٠٠ ، وتجاوز سكان نيويورك الـ ٣ ملايين وسكان فيلادلفيا المليون . وفي هذا المجال كان التطور متواضعاً في افريقيا الجنوبية ، وناشطاً في كندا ، وسريعاً جداً في اوستراليا حيث جمعت سيدني وملبورن وادلايد ، في السنة ١٨٩٠ ، ربع مجموع السكان العام ، وحيث ضمت ملبورن وحدها نصف سكان ولاية فكتوريا تقريباً .

فنحن من ثم امام ظاهرة تكاثر المدن الجديدة السريعة النمو . وكانت المدينة ، على الجبهة الاستعمارية ، مجموعة اولية تضم الحانات والكنائس والمدارس ودور البريد لكل تقسيم اداري . فكانت من ثم استجابة لوظيفة المقايضة التي لم تلبث ان فرضت نفسها على اهالي الارياف . ولكن غالباً ما كان المنجم او المصنع سبباً لقيام المدينة . وفي مثل هذه الحال نرى ان اعتماد الاسماء بعيد الفكر الخلاق بلوة الى الذاكرة : بسمر ، اثنا ، كرنجي ، مونسن (اسّن ومولونغاهيلا) حول بتسبورغ ، وابرونتون ، وابرونتونتن ، وابرونوود في اماكن أخرى . وهنالك كذلك عواصم تأسست لايواء المصالح الحكومية والادارية ، كواشنطن مثلاً .

لقد ولىّ الزمان الذي كان ممكناً فيه ابتياع « كل مستنقع شيكاغو اللعين » بزوج احذية عتيقة ، كما زعم بعضهم في عهد لاحق . وقد اعطى المثل « جون استور » تاجر الفراء بشرائه بعض الاراضي في نيويورك ؛ فان احد ابنائه ، الذي توفي في السنة ١٨٧٥ ، قد خلف وراءه ثروة تقدر بـ ١٠٠ مليون دولار تشمل من جملة ما تشمل ٧٠٠ عقار على ضفاف نهر هودسن ! وفي السنة ١٩١٢ ، اصبح رأسمال آل استور ٤٥٠ مليون دولار بفضل ابتياعات جديدة وارتفاع الدخل العقاري . وفي شيكاغو ارتفع ثمن الـ ١٠٠٠ متر مربع من ٢٠ دولاراً في السنة ١٨٣٠ الى مليون دولار في السنة ١٨٩٢ .

ان في اتساق تقسيم المساحات الواسعة ، الممسوحة هندسياً ، ما يفسر التصميم الشبيه برقعة الشطرنج . فالى الشرق من الاطلسي يسير الشارع كما تسمح بذلك المنازل ، لأن تصميمه يفرضه رسم الاملاك غير المنسق ؛ اما هنا فالمنزل يشيد على جانب الشارع . وينجم عن ذلك وحدة سياق مفرطة يراعي الانتباه اليها ترقيم الشوارع . فان كثافة السكان في شيكاغو ، البالغة مساحتها ٤٤٠٠٠ هكتار ، وفي فيلادلفيا البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠ هكتار ، هي ربعها في لندن للاولى وخمسها للثانية .

كانت نتيجة هذا الاتساع المفرط تشتيت المساكن التي كانت على العموم قليلة الارتفاع ومبنية بالقرميد . ولم تظهر الابنية المرتفعة الا بعد السنة ١٨٨٠ في الاحياء التجارية حيث اكتسبت الاراضي قيمة كبيرة جداً : وهكذا انتصبت ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عند رأس مانهاتن في المدينة المنخفضة ، القريبة من المرفأ ، زهاء ثلاثين بناء يتراوح عدد طبقاتها بين ١٠ و٢٠ ! وقد شيدها بعض الافراد الاثرياء او شركات التأمين او المصارف . وعلى مسافة قريبة من هذه الابنية الشاهقة التي اوت المخازن والمكاتب ، انبسطت منطقة من المساكن المدخنة والمهملة التي تخلى عنها تدريجياً لمساكين الفقراء ؛ فكان ان الكوخ الخشبي قد جاور ناطحة السحاب في بعض الاحايين؛ ثم انبسطت بعد ذلك مدينة صناعية جديدة احاطت بها احياء سكنية . فالقسم الشرقي من المدينة المنخفضة في نيويورك هو حي العمل الشاق ؛ وتكون مركز ثان للاعمال والسكن في وسط المدينة . فتجاذبت مجموعات مختلفة قطعت مناظرها العامة الخطوط الحديدية

شكل رقم - ٢٢ - توسع فيلادلفيا

و . م . وسط المدينة ؛ ج . ش . الحربات الشمالية ؛ س . و . سوثورك ؛ ك . كنستون ؛ ج
بلة الربيع؛ م . موبامنسنغ ؛ ب البيرتك .

(نقلا عن اوبرهلتزر في « فيلادلفيا . تاريخ المدينة وسكانها » ومعلومات البروفسور « لن م . كايز »
عة بنسلفانيا) .

والمؤسسات الصناعية . اما في ادلايد فكانت مدينة العمل ومدينة السكن منفصلتين تحيط بكل منهما الحدائق والرياض . وبدت المدن الاوسترالية من جهة ثانية احسن نظافة وافضل تنظيماً : فقد رصفت شوارعها بالاخشاب ، ولم تكن مساكنها المتشابهة لتظهر الفوارق الاجتماعية ، على نقيض مدن الولايات المتحدة حيث تميزت احياء الاغنياء عن احياء الفقراء تميزاً جافاً . وقد وصف المسافرون باعجاب مساكن الاثرياء الجميلة في بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ؛ وهكذا فان البارون « دي هوبنر » قد دهش حوالي السنة ١٨٧٥ في شيكاغو من « جادة ميشيغان الشهيرة ... ، حي كبار الاثرياء، ومساكنها البذخية الزاهية، الخشبية كلها، والمطلوقة بالجص ، والمبنية وفقا لشتى الانماط، الايطالي ، والكلاسيكي، والمتهجن، والقوطي والروماني ، والمحاطة كلها ، اقله من جهة المدخل ، بحدائق جميلة صغرى » ... ولكن غبار الصيف واوحال الشتاء كانت آفات حقيقية . فقد لاحظ احدهم ان الجادة الخامسة في نيويورك تكاد لا تفضل غيرها تعهداً وعناية ونظافة ؛ اقذار في كل مكان ؛ وحاجة ماسة في كافة الفصول الى انتعال احذية من المطاط . اما في كندا، فقد ذكر احدهم ان الشوارع الوحيدة المرصوفة بالبلاط هي شوارع تورونتو و « وينيبغ » . ولكن الانارة افضل منها في المدن الاوروبية ، على ان البواليع ما زالت في حالة سيئة والمياه تنقطع احياناً . ومنذ السنة ١٨٧٨ ، دشنت « بوفالو » تدفئة مركزية بخارية ما لبثت ديترويت ونيويورك ان اعتمدتاها بدورهما . وتعددت وسائل الانتقال ، وعلى نقيض المدن الاوسترالية ، الهادئة نسبياً بفضل مركباتها العامة التي تجرها الاحصنة ، اذهلت المدن الاميركية الاجانب بضجيج السير في شوارعها .

تميزت المدن الاميركية كذلك بيرقشة سكانها العنصرية . ففي نيويورك ، كان للايطاليين والايرلنديين واليهود والزنوج احياؤهم الخاصة . ولم تزل « البوتقة » قط هذه الخصوصيات ؛ ولكنها خلقت واضافت الى كل مثال خاص مثالاً اميركياً هو المثال المشترك .

حضارة الآلة في الولايات المتحدة والاعمال الكبرى

احتلت الولايات المتحدة بين العوالم الانكلوساكسونية مركزاً خاصاً متفوقا حقاً . ولم تكن مدينة به للامكانات الكبرى التي وفرتها البيئة الطبيعية فحسب ، بل لطبيعة شعبها الخاصة ايضاً . وقد سبق لـ « توكفيل » ولاحظ ان « المصلحة هي الرابطة » الجامعة بين العناصر « المختلفة جداً » التي يتكون منها هذا الشعب . فان هذه الامة « التي لا ماضي لها والتي لا وثنى تشدها الى الارض » تألفت من جماعة من البشر وضعوا نصب اعينهم الرفاهية المادية التي حققوها بخير الطرائق فعالية . وقد تميزت بغلواء الشباب المقتحم مغامرة كبرى والعامل في كل ما هو جديد .

حضارة جماهيرية ، كما هو محتوم . فالجغرافية نفسها قسمت القارة مناطق واسعة متشابهة . فقابل تشابه الطبيعة تشابه العمل البشري . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الخيار لم يكن جائزاً .

فاما يحكم هذا المجتمع على نفسه بالاملاق ، واما يقبل بالمنتجات « الموحدة » .

في كنف التعرفات الحامية ، وبفضل مجهود تقني كبير استهدف تخفيض النفقات العامة وزيادة الانتاجية ، وبواسطة الاعلان الذي دعا الجماهير بالحاح الى زيادة استهلاكه ، اصبحت اميركا بالتالي بلاد الصناعة النسقية وانتاج القطع القابلة التبديل . ثم اتضح مكان كل من النشاطات جغرافيا ، بعد ان سهّل تعيينه بناء شبكة خطوط حديدية واسعة جداً . ورافق تجمع رؤوس الاموال انتاج الكميات الكبرى ، بينما تكاثرت الى جانب المشاريع الكبرى وفي ظلها الحرف المنزلية الصغرى التي تجمعت في حي العمل الشاق .

ُجرّت اوروبا شيئاً فشيئاً الى الاستفادة من خدمات الآلة ؛ ولا غرو فان سكان العالم الجديد مدينون لها بكل شيء . فهي التي تزرع الحنطة وتحلج القطن وتقتل الحيوانات في المسلخ وتقطعها . فهم سوف يستلمون منها بملء رضاهم المواد الغذائية والملابس والاحذية النسقية ؛ وسوف يأتمنونها على بناء منازلهم التي ستكون متشابهة بالضرورة . وهي توفر الكمية وتسهم في الوقت نفسه في تخفيض الاسعار . ان عملها لعمري لعمل استبدادي . ولكنه عمل مفيد في نظر الجماهير التي تطالب بحاجيات تكون في متناول ايديها .

لنتصور انطلاقة الصناعة . لقد ضمت ١٤٠٠٠٠ مؤسسة في السنة ١٨٦٠ ، و ٣٥٥٠٠٠ في السنة ١٨٩٠ ، و ٥١٢ الفاً في السنة ١٩٠٠ ؛ وربما بلغ رأسمالها ١٧ ملياراً في السنة ١٨٩٥ ، مقابل ٢١ في بريطانيا العظمى ، و ١٧ في المانيا ، و ١٤ في فرنسا . ومن المسلم به من جهة ثانية ، ان ثروة الولايات المتحدة قد تضاعفت اربع مرات بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٩٠ (في حال ان الدخل قد تضاعف مرتين فقط) . ولم تعرف اية دولة اوروبية مثل هذا التقدم في حقول التجهيز وصناعة مواد الاستهلاك . وان علم الاحصائيات الذي دون هذه النتائج المرضية قد أصبح هو نفسه موضوع عبادة : فقد اخذ الاميركي يقدم الارقام كخير البراهين الثابتة على تفوقه . ووطن نفسه على انه تقبل نصيب « الاعظم في العالم » ، وعلل نفسه منذ ذلك الحين بانه سيتمكن قريباً من ان يكون موّان العالم كله .

الا ان هذه التقنية المتطورة تطوراً دائماً قابلتها منافسة حادة جداً اعتبرت ضرورة حتمية . اجل تقدمت الارستوقراطية بعض التقدم ، ولكن بورجوازية اعمال كبرى نمت في النصف الاول من القرن ، فألفت طبقة منفتحة لأعداد كبرى تتجدد وتزداد ثروة في كل جيل . وقد ذل اعجاب الناس « الرجل المكون نفسه بنفسه » : يولد فقيراً ويتصرف ، حين يصبح من اصحاب الملايين ، – وسنتكلم قريباً عن اصحاب المليارات – تصرف « النعمة السامية التي تردع الفقير الصناعي العمل الذي لن يتأخر سكان الفقير ، والجموع بصورة عامة ، عن الاستفادة منه » . هكذا تكلم « كرنجي » .

كان اتساع الحقل المفتوح أمام النشاط ، واهمية المشاريع ، وحتى نزعة السكان المسرفين

الى استخدام المصنوعات الموضوعة تحت تصرفهم استخداماً سريعاً ، عوامل مؤاتية كلها لتقدم الاعمال . فأميركا بلد المضاربات العنيفة والارتفاع الممنوح في الاسعار ، فـلا عجب من ثم اذا ما تحركت البادهات ، وتضخم حجم الوسائل النقدية تضخماً فجائياً ، وارتفعت الاسعار ، وارتفعت المكاسب بمزيد من السرعة ايضاً : كل شيء مرجو وجائز كما يبدو . وطبيعي ان مثل هذا الدوار لا يمكن ان يدوم طويلا : فكما في اوروبا ، لا بل اكثر من اوروبا ، حدثت انهيارات مفجعة ؛ وحدثت بالتالي عملية اختيار طبيعية ، سقط الضعفاء خلالها الى الحضيض ، وتلتها عملية تمكين كانت نقطة الانطلاق لمرحلة صعودية جديدة .

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الحركة السريعة (على الرغم من التبذير الصناعي) تقوية سيطرة رؤوس الاموال الكبرى . فمن أصل ٥١٢ الفاً ، استخدمت ٤٥٤ الف مؤسسة مليون اجير ونصف المليون ؛ ولكن ١٢ الف مؤسسة اخرى ضمت مليونين ونصف المليون : وربما راقب ٢٥ الف شخص نصف الاعمال الصناعية .

الفروع الكبرى لعالم الاعمال الاميركي

لا ريب في أن الحدث الرئيسي كان تقدم الصناعة الثقيلة تقدماً عجيباً نادراً . فمقابل مليوني طن حديداً و ٤٠٠ الف طن فولاذاً في السنة ١٨٧٥ ، انتجت الولايات المتحدة اكثر من ١٠ ملايين طن حديداً وزهاء ٥ ملايين طن فولاذاً في السنة ١٨٩٠ ، حين انتزعت الاولوية من بريطانيا العظمى . وقد توفرت لصناعة المعادن هذه موارد نادرة من الوقود والمعادن غير الخالصة . فهناك من جهة استخراج الفحم الحجري الذي ارتفع انتاجه من ٧ ملايين طن في السنة ١٨٥٠ الى ٢٥٠ مليونا في السنة ١٩٠٠ ؛ ومن جهة اخرى مناجم المعادن غير الخالصة التي احتلت الولايات المتحدة، بالنسبة اليها ، المركز الاول ايضا . وقد تفاوت تجمع هذه الاعمال ، فكان في صناعة الفحم الحجري دونه في صناعة النحاس مثلا التي اشرفت عليها خمس شركات خضعت هي نفسها لسيطرة رأسماليي بوسطن ونيويورك ، او في صناعة التصدير التي اشرف عليها « مور » ، « ملك التنك » بالاشتراك مع «شركة التنك الاميركية » .وهي ارادة روكفلر ما ادارت حقل تجارة النفط ، اذ ان شركة « ستاندرد اويل تراست » قد روجت زهاء ٩٠ بالمائة من هذه المادة في الاسواق . وقامت كذلك مشاريع كبرى في صناعة الفولاذ ؛ وكان كرنجي على رأس احداها في بتسبورغ، ودعا الى تأليف تجمع يكون أعظم مشروع عالمي في حقل الفولاذ . وبعد خصام طويل وعسير خضع ثلثا الخطوط الحديدية لسيطرة بعض الفئات التي كان يرعاها « فاندربلت» ، و«بير بونت مورغان » ، و « هاريمان » ، و « غولد » ، بينا اخرج « بولمن » من مصانعه في شيكاغو اكبر عدد ممكن من مقطورات السكة الحديدية . وترأس غولد كذلك شركة « تلغراف الاتحاد الغربي » التي كادت تحتكر صناعة الاسلاك احتكاراً فعليا . ووزعت شركة « بل الاميركية للهاتف» ،خلال عشر سنوات، مليوني دولار تمثل ارباح رأسمال يبلغ ١٠ ملايين دولار، وقامت بعد انتشار الاضاءة الكهربائية ثلاث قوى اخرى : « ادسون جنرال اليكتريك » ،

و « طومسون – هوستون » ، و « وستنكهوس » . وبدأ « دوبون دي نمور » عملا واسعا في المواد الكيميائية .

اذا انتجت صناعات الحديد والفولاذ والآلات والادوات الاجهزة التي تحتاج اليها النشاطات الاخرى ، فهي التغذية والمنسوجات ما احتل المركز الاول بالنسبة لقيمة رؤوس الاموال الموظفة . فان صناعة معلبات اللحوم مثلا قد عرفت شركتين او ثلاث شركات كبرى كشركة « ارمور وسويفت » في شيكاغو التي توصلت بمفردها ، في مصانعها الواسعة (٢٥٠ هكتاراً) الى تقطيع وتوزيع بين ١٠ و ١٢ مليون حيوان ، وزادت أرباحها بصناعة المنتجات الثانوية : العظام والقرون للاسمدة ، الشحوم للصابون والكليسرين ، والدم للازرق البروسي ، وشعر الخنزير للفراشي ، وشعر الثيران للفرش . وبلغ التجمع كذلك شأواً بعيداً في تكرير السكر لمصلحة « شركة تكرير السكر » ، بينما قام « دوك » بدعاوة ناشطة لفائف التبغ وأسس « شركة التبغ الاميركي » .

ما زال الشمال الغربي منطقة صناعة النسيج الاولى ، وعلى الرغم من ان « شارع القطنيات » في كارولينا وجورجيا ، القريب من المادة الخام ، قد أخذ ينافس المناطق الاخرى منافسة جدية ، فان « ماساشوستس » و « رود - ايلند » و « كونكتكت » ما زالت متفوقة في هذا المضمار . فان هذه الولايات قد تربعت مع بنسلفانيا على عرش المنسوجات الصوفية ، ولكن « باترسون » هي التي بلغت ، في سنوات قليلة ، مستوى « ليون » و « ميلانو » في صناعة الحرائر . وقد خرجت من مشاغل نيويورك وفيلادلفيا العائلية الوفيرة العدد الالبسة الجاهزة التي تسلّم الى تجار جملة يزودون بها المخازن الكبرى بدورهم ؛ وبرع المهاجر اليهودي في هذا العمل بفضل آلة خياطة انتجها مصنع « اليزابيت » ، فكان يفصل ويشرح ويصنع العرى ويكوي ، لحساب المخازن الكبرى .

وزادت في الوقت نفسه سرعة التجمع المصرفي . فليس هناك ، خارج الشمال الشرقي ، سوى ١٤٠ مؤسسة من اصل ٢٧٠٠ ، وكانت الحركة المصرفية تصدر عن « وول ستريت » الذي ارتفع مجموع معاملاته المالية الى ٣٥ مليار دولار في السنة ١٨٩٠ . اضف الى ذلك ان معظم الشركات الصناعية رغبت في ان يكون مركزها في « مانهاتن » حيث يخفق قلب « الاعمال الكبرى » .

ولم يعن كل ذلك ان اميركا اهتمت اهتماما كبيراً لاجراء مقايضاتها الخارجية في ظل علمها الخاص . وقد قال كرنجي : « فلنترك البحر المالح للوطن الام القائم في وسط الامواج ولنكتف بالارض التي هي تراثها القومي » ! لذلك كان الاسطول متأخراً تأخراً بيناً عن اسطول بريطانيا العظمى : ففي السنة ١٩٠٠ لم يكن مجموله نصف ما كان عليه في السنة ١٨٦٠ . زد على ذلك من جهة ثانية ان التجارة مع الخارج قد تعاظمت وان الميزان كان دائماً مع اوروبا : فاحصى الاتحاد بتصرفاته ووسع تجارته مع آسيا واميركا اللاتينية ، فساعد ذلك على نمو كاليفورنيا ومرفأه سان

«فرنسيسكو » . ولن تلبث الولايات المتحدة ان تصاب بداء الاستهتار الاقتصادي .

سيلسة المصالح الكبرى في الولايات المتحدة

جاز لانفلز ان يكتب لاحد مراسليه في السنة ١٨٩٢ : « قد قدم الاميركيون للعالم الاوروبي ، منذ زمن غير قريب ، الدليل على ان الجمهورية البورجوازية هي جمهورية رجال الاعمال ، حيث السياسة عمل تجاري كغيره .... » ويكاد الاميركيون يعترفون بذلك في الواقع .

قدم كرلجي كتابه « الديموقراطية الظافرة » ، « الجمهورية العزيزة التي تتيح لاي شخص كان الارتقاء في السلم الاجتماعي بجده وكده » ، وخلص الى القول : « لا تتم التسوية بانزال الناس من مرتبة الى مرتبة بل برفعهم كلهم الى كرامة « المواطنية » التي هي ارفع كرامة يمكن ان يتوق اليها الانسان » . لقد ولى الزمان الذي جاز « توكفيل » فيه القول بأن الناس كلهم يسهمون إسهاما ناشطا في الشؤون العامة ! فقد ارتفعت نسبة الامتناع عن هذا الاسهام كلما ارتفعت نسبة المنتمين الى الطبقات الجديدة من المواطنين المفتقرين الى مزيد من الثقافة والى الخبرة في النظام التمثيلي . ولما كان كل شيء يُرد ، من جهة ثانية ، الى الصراع بين فريقين يعرف اولهما بالفريق الجمهوري والثاني بالفريق الديموقراطي ، كان من الاهمية بمكان ، قبل أي شيء آخر ، ان يشجع الفريق الحاكم دائرة المصالح التي يتحرك فيها . فنجم عن ذلك ان المصالح الكبرى هي مـا قررت الاتجاه الحقيقي للتشريع والرئاسة . وصعب من ثم على اعظم الحكام نزاهة الوقوف في وجهها . ومرد ذلك الى ان الحملات الانتخابية باهظة الاكلاف ، ولا سيما حملات انتخاب الرئيس التي تستلزم جهوداً اعلانيا كبيراً جداً . وان مثل « تاماني هول » الزعيم الديموقراطي الايرلندي في نيويورك ، الذي عمل بنصيحة «تويد» ، تاجر الكراسي المفلس، واختلس قرابة ٥٠ مليون دولار في اعقاب حرب الانفصال ، ليس مثلا نادراً . فان « غرانت » ، الجندي الطاهر الذيل ، قد اغضى عن اختلاسات بطانة تتناول عمالاتها من الميثارة ؛ كما ان كليفلند ، الرئيس الديموقراطي الذي اكتسب مدينة « بوفالو » ، بوصفه محافظها ، دعوى على متعهد البواليع ، وتجاسر ، بوصفه حاكم ولاية نيويورك ، على محاربة « تاماني هول » ، قد انتهى الى إثارة استياء حزبه الخاص بامتناعه عن تطبيق « مبدأ تقاسم مكاسب الانتصار » على نطاق واسع ، واستياء التجمعات النقابية التي لم يكن موافقا على قيامها ؛ ودان خصم كليفلند ، هاريسون ، بنجاحه ، لانتقال الاصوات في ولاية نيويورك الهامة بواسطة حاكمها السريع التأثر بالعروض .

بالاضافة الى الامتيازات وتلزيمات الاشغال الكثيرة التي تسند لاصحاب التعهدات الخاصة ـ وهي معارك يومية ـ ، عادت للاتحاد كذلك المسائل الكبرى الجمركية والنقدية . فكيف تنظم العلائق التجارية بالخارج يا ترى ؟ فضل الديموقراطيون تخفيض التعرفة لأنهم لا يستطيعون الفوز الا بمساندة المزارعين والمستهلكين الذين اعتبروا ان السوق الاميركية المقفلة انما هي سوق تتسلط عليها الصناعة . اما المسألة النقدية ، وهي مسألة اكثر تعقيداً ، فقد فرقت بين رجال الاعمال الذين طالبوا اما بنقد سليم واما بوفرة النقد التي تحرك الصفقات ، فقال الفريق الاول

باعتماد المعدن الواحد اساساً للنقد ، وقال الفريق الثاني طوعاً باعتماد المعدنين . وقد ضم هـذا الفريق الاخير منتجي الفضة في المناطق الغربية ، والمزارعين ، الدائنين منهم والمصدرين ، الذين كانوا يفضلون التضخم . ثم انضم رجال الاعمال الكبرى الى الفريق القائل باعتماد المعدن الواحد (الذهب) خلال فترة تجدد الازدهار الممتدة من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٠ .

بقيت هنالك مسألة حرية العمل . فحين يتعرض التشريع للتجمع النقابي ، انما يستهدف الدفاع عن الفرد . ولكن انصار التحالفات الصناعية ، بالاضافة الى انحكارهم على السلطات العامة حتى التدخل في هذا المجال ، تذرعوا بمصلحة الجموع التي تخدم خدمة فضلى بتحسين تنظيم السوق . والحال اجاز العرف للولاية التعاقد مع المؤسسات التي تلعب دور الادارات العامة ؛ وفي سبيل اجتذاب رؤوس الأموال، كان باستطاعة المجلس الاشتراعي الاجازة لاحدى الشركات بشراء اسهم الى شركة أخرى ، مشجعاً بذلك « الاحتكارات » (وقد اعطت ولاية نيوجرسي المثل في السنة ١٨٨٨ لمصلحة شركة « ستاندرد اويل » المهددة بخطر الافلاس) . وليس « قانون التجارة بين الولايات » الذي استصدره كليفلند في السنة ١٨٨٧ سوى حق التحقيق في التصرفات السيئة المتناقضة وحرية التجارة . الا ان ولايات غربية عدّة قد استخدمته ضد شركات الخطوط الحديدية . ولكن « قانون شرمن لمقاومة التجمع النقابي » اسند أمر التقرير القاضي . ولما كان روكفلر هو المقصود آنذاك ، فقد توصل الى كسب الوقت ووجد في مبدأ « الاحتكار » وسيلة للدوران حول القانون .

معارضة المزارعين في الولايات المتحدة

شعر سكان المروج منذ عهد مبكر جداً بارتباطهم بالمدينة ، فأثار هـذا الشعور منذ عهد جاكسون خصومة بين الشرق والغرب . وكان ممكناً ان يفكر هذا الاخير بمدّ يده للجنوب الذي يرتكز الى اقتصاد ريفي ايضاً : وهو تحالف استند اليه ديموقراطيو الساعة الاولى ثم تجدد عقده بين حين وآخر . ولكن مجتمع « اصحاب المنازل » ، « الملاكين المتوسطين » كان مختلفاً عن مجتمع المزارعين الجنوبيين . وقد نفر كذلك من التحالف مع طبقة الكادحين في المدن .

وهكذا كلما انفجرت أزمة ، قام الغرب بحركة سريعة الزوال . فبعد حرب الانفصال حدث اختلال بين اسعار المحاصيل الزراعية التي هبطت واسعار المنتجات الصناعية التي ارتفعت . فاعلن المسؤولون في احدى الجمعيات المعروفة باسم « النبر » انهم اعتمدوا النظام التعاوني وحملوا احد عشر مجلساً اشتراعياً في الولايات على استصدار « قوانين نبرية » ضد التصرفات التفضيلية او التمييزية التي وضعتها شركات الخطوط الحديدية . ثم تعاظمت هـذه الحركة في فترة انخفاض الاسعار الكبير الذي عقب ازمة السنة ١٨٧٣ واصاب القطاع الريفي بصورة خاصة . وقد بلغ عدد « النبريين » ١٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٨٧٥ ، لا بل انضم شطر منهم الى « الاتحاد القومي للعمل » بنية انجاح برنامج تضخمي ، وهو برنامج الاوراق النقدية . ثم رافق تجدد الازدهار في السنة ١٨٧٩ هدوء وقتي . وانما لوحظت منذ السنة ١٨٨٣ معاودة الهيجان بادارة « التحالف

القومي للمزارعين» . لقد ارتسمت مرة أخرى حركة شعبية تقدمت بمرشح للانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٩٢ . اما في السنة ١٨٩٦ فقد انضم المزارعون الى « براين » المرشح الديموقراطي وخسروا معه معركة اعادت الى الحكم لمدة طويلة الجمهوريين القائلين باعتماد المعدن الواحد ، المقربين لارباب الاعمال الكبرى . وسيستفيد الجمهوريون هؤلاء من عودة السنوات الخيرة . وقد اوصى كتاب « هنري جورج » ، « التقدم والإملاق » ، الذي صدر في السنة ١٨٧٩ ، بالصراع ضد الدخل العقاري بواسطة الضرائب التصاعدية : فلم تحدث هذه الاشتراكية الزراعية سوى صدى ضعيف .

العامل الاميركي ونشأة النقابية في الولايات المتحدة

بات عمال الولايات المتحدة احدى اكبر الطبقات العمالية عدداً في العالم . ولكن اميركا كانت قد عانت لمدة طويلة من حاجة حقيقية الى اليد العاملة بسبب ضخامة الاعمال الواجبة التنفيذ : فتألفت من ثم طبقة اولى ، « يانكية » جداً ، متمسكة بالحرية الفردية وغير قابلة التأثر بالمذاهب المختلفة ، ومتقاضية اجورا على بعض الارتفاع . وفي الواقع كان لجاذب هذا الارتفاع اثره الكبير في الهجرة الواسعة التي حدثت في منتصف القرن . ولكن طبقات جديدة برزت ، متميزة بالفقر والامية والبعد عن كل رأي سياسي . وهي هذه العناصر التي قامت بالاعمال الصعبة لقاء اجور متدنية وغذّت حي « العمل الشاق » . وفي السنة ١٨٨٠بلغت نسبة اليد العاملة النسائية ٢١ ٪ – وهي اعظم ارتفاعاً الى حد بعيد في صناعة المنسوجات – وضمت الصناعة ١٧٠٠٠٠٠فتى تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة (١٨٪) . وقد روت «الأم» « جونز » ، المناضلة النقابية ، ان « معدل ساعات العمل في مناجم الفحم الحجري في بنسلفانيا كان ١٢ و١٣ ساعة ، او ١٤ ساعة احياناً » ؛ « وان لا قانون يحمي جسم عمال المناجم او حياتهم . وان العائلات تعيش في مساكن الشركة الحقيرة التي قد لا تقبل بها الخنازير نفسها . وان مئات الاولاد يموتون بسبب جهل وفقر آبائهم » . وقد بينت الاحصاءات ان العمال كانوا يعملون ستين ساعة في الاسبوع في السنة ١٨٥٠ ، وستا وستين في السنة ١٨٦٠، وتسعاً وخمسين فقط في السنة ١٨٩٠ (بينما ارغم المياومون الزراعيون على العمل بين سبعين واثنتين وسبعين ساعة) . ولفت انظار كافة المراقبين ارتفاع عدد حوادث العمل . فقد ورد في « مذكرات « جول هوريه » : « انها لمذابح دائمة . لا يتخذ اي احتياط للمحافظة على حياة العمال ؛ ولما كانت الشركات كلية الاقتدار ، والحاكم واقعة تحت سيطرتها ، والقانون نفسه مسخراً لخدمتها لم تعر الامر اي اهتمام » . وسوف يسجل « ابتون سنكلير » ، في الفترة الممتدة من السنة ١٩٠١ حتى السنة ١٩٠٤ ، ٤١ ألف وفاة و ٢٥٠ ألف اصابة بجروح مختلفة . واذا ما نظرنا الى مجموع الفترة ١٨٥٠ – ١٩٠٠ ، لتبين لنا ان معدل الاجور لم يرتفع بنسبة ارتفاع الانتاج والارباح . فقد حدث ارتفاع بيّن ابان حرب الانفصال عقبه بعض التوقف ؛ لا بل تميز العقدان ١٨٧٠ – ١٨٨٠ و ١٨٩٠ – ١٩٠٠ بتدني القيمة الاسمية ، اذ ان العامل لم يشعر بالضيق نفسه خلال

العقد ١٨٨٠ – ١٩٠٠ بسبب هبوط الاسعار الزراعية . وكانت الاجور في الغرب ، المفتقر الى اليد العاملة ، اعلى منها في الجنوب بنسبة كبرى ؛ كما ان اجور عمال صناعة المعادن كانت اعلى من اجور عمال صناعة المنسوجات ؛ وربما بلغ الفرق بين اجور العمال الزراعيين واجور العمال الاختصاصيين نسبة ١ الى ١٠ .

يبدو ان اجر العامل الاختصاصي كان اعلى من اجر اي عامل ماهر في اوروبا[١] . ولما كان المأكل والملبس اقل ارهاقاً لموازنة العائلات العمالية ، فقد خصص للسكن مبلغ اكبر (ويقدر ان ١٢ ٪ كان لهم بيوتهم الخاصة مقابل ١ ٪ في اوروبا) . ولكن المسكن اختلف اختلافاً كبيراً بين مدينة واخرى : فقد اشتهرت بلتيمور وفيلادلفيا بسمة العيش فيها (ويقدر ان بين ٩ و١٧ ٪ من البيوت العمالية كانت مزودة بغرف للاستحمام) ، على نقيض نيويورك التي كانت مساكنها متوسطة ، و « اورليان الجديدة » التي كانت تعتبر غير صحية اطلاقاً . وبصورة عامة لم يدخر العامل شيئاً من اجوره ، بل انفقها كلها يومياً وربما لجأ الى الاستدانة .

ان البيئة تعزز القناعة بان حظ كل انسان في متناول يده : وقد ابدى انغلز في رسالة يعود تاريخها الى السنة ١٨٩٢ هذه الملاحظة : « يتصور العامل الاميركي ان المجتمع البورجوازي هو ، بطبيعته ، وفي كل زمان ، تقدمي ومتفوق ولا يعلو عليه مجتمع . لا يفكر بالدفاع عن وضعه الا في نطاق عمله ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالنشاط السياسي . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان السلطات العامة تقدم لارباب العمل مساعدة فعّالة : فالشرطة الاميركية تتدخل بقوة ، وحتى بوحشية احياناً ، والجيش يساندها اذا ما مست الحاجة الى ذلك . واذا ما تسربت الفوضوية الى داخل الحركة العمالية ، فان هذه الحركة لا تتأثر بالدعاوة الاشتراكية .

لقد قامت قبل السنة ١٨٤٨ حركة مطالبة بالحقوق ارتدت طابعاً نقابياً وتعاونياً . ثم ظهرت مرة اخرى « اتحادات عمال التجارة » اثناء الحرب الاهلية وطالبت بان تحدد ساعات العمل في اليوم بثماني واربعين ساعة . وتبنى « الاتحاد القومي » هذه المطالبة في برنامجه السنة ١٨٦٦ ؛ ووقف كذلك موقفاً ايجابياً من التعاون وموقفاً سلبياً من التضخم ؛ ورغب في تحسين مصير الزنوج وتحرير المرأة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الهيجان طالما تجدد خلال « العهد المذهّب » الذي عمت فيه الرشوة وتكاثرت الفضائح المالية ؛ ولكنه استمر كذلك خلال فترة الهبوط التي عقبت ازمة السنة ١٨٧٣ بسبب توسع البطالة وتدني الاجور تدنياً نسبياً . وبينما لجأت بعض الجمعيات السرية ، كجمعية « مولي ماغواير » الى اعمال الارهاب في منطقة المناجم في بنسلفانيا ، انفجرت اضطرابات كثيرة كان اعظمها دويا اضراب عمال السكك الحديدية في بلتيمور وبتسبورغ في السنة ١٨٧٧ : ادخل المضربون مئات القاطرات الى مستودعاتها في بتسبورغ ، وأشعل فيها النيران بعض العملاء المحرضين ودمروها تدميراً تاماً ؛ وعلى الرغم من

---

(١) راجع الرسم البياني في الصفحة ٣٠١ .

اعضاء قوى الامن عن العمال ، كانت الكلمة الاخيرة للشركة التي صرفت العديد من المستخدمين واستبدلتهم بمهاجرين من اوروبا الوسطى .

في اعقاب هذا الفشل ، ظهرت « جمعية فرسان العمل » ، المنظمة التي كانت سرية من ذي قبل ، فأوصت بانهاض الطبقة العمالية عن طريق التربية والعمل على السواء . وبعد ان كان اعضاؤها متدينين ومسالمين جداً ، اصبحوا اشد ميلاً الى الكفاح تحت تأثير الاحداث. وقد تعاظم نفوذهم حين استحصلوا من « غولد » على اعادة استخدام عمال مصروفين بسبب انقطاعهم عن العمل . وفي السنة ١٨٨٦ كان عددهم قد بلغ اكثر من ٧٠٠ الف ، ويقال ان مشايعيهم بلغوا الملايين . فأجاب ارباب العمل على الاضرابات التي تجددت وتكاثرت مرة اخرى بالصرف المؤقت . وحين حدثت بعض الاضطرابات في مؤسسة « ماك كورميك » في شيكاغو بتأثير دعاوة الفوضويين، اتهم عدة مسؤولين في الجمعية باثارتها وادينوا .

برز حينذاك بدوره الاتحاد الاميركي للعمل الذي اقترح اقامة مظاهرة في اول ايار من السنة ١٨٨٦ للمطالبة بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات . وقد رغبت هذه الجمعية الجديدة ، التي امتدت فروعها الى كندا ، في تنمية نقابية على اساس المهنة ورفضت بحزم فكرة الصراع الطبقي ، كما رغبت في مفاوضة ارباب العمل في تحسين وضع العمال تحسيناً تدريجياً . ففازت بالساعات الثماني في النجارين ، ولكن اضراباً اعلن في مصانع كرنجي الفولاذ في « هومستد » وقمع بالقوة : فصرف ٢٥٠٠ عامل لانضمامهم الى الاتحاد المحلي ، فأتاح هذا النجاح لملك الفولاذ العظيم تطهير كافة المؤسسات التي كان يشرف عليها . وبعد مرور سنتين ، رفض الاتحاد مساندة اضراب اعلن في مؤسسة « بولمن » في شيكاغو ، فأعادت قوى الامن النظام الى نصابه. يضاف الى ذلك ان ردة فعل ارباب العمل ستشتد بعد تحسن الاحوال الذي ارتسمت دلائله منذ السنة ١٨٩٥ .

في بريطانيا خرج حزب العمال من اتحاد عمال التجارة ؛ اما في الولايات المتحدة فليس بعد ما ينبىء بترعرع اشتراكية ، حتى « بدون عقيدة » . وقد لفت الانتباه في السنة ١٨٩٢ ان مرشح اوساط المزارعين قد جمع مليون صوت وان الاشتراكي « دبس » لم يجمع سوى ٢١٠٠٠.

فهل يجب علينا مشاطرة العالم الاقتصادي « سومبار » رأيه القائل ان مثل هذه الحركة السياسية تتحطم على « شواء البقر » ؟

فاتحة الحركة العمالية في اوستراليا

ولدت في المجتمع الاوسترالي اشتراكية « بدون عقيدة » بتأثير ظروف خاصة . فمنذ عهد مبكر ، رأى جزازو الصوف ، وعمال احواض السفن الذين يشحنون البالات ، وعمال البناء ، انفسهم في موقف ملائم للمطالبة بحقوقهم بنجاح. ولما كانت الدولة متولية اعمال فتح الطرق وبناء الخطوط

الحديدية والمدارس والمستشفيات، فقد اصبحت احد ارباب العمل الرئيسيين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان عيون الجماعة ارتفعت ارتفاعاً سيفضي بالضرورة الى فرض الرسوم على الثروة المجموعة والدخول : وقد عزز ذلك مركز اصحاب الاجور الذين يتعذر بدون مساندتهم تطبيق مثل هذه الرسوم .

بعيد السنة ١٨٥٠ حددت ساعات العمل في اليوم بثماني ساعات . ثم اعترف بالنقابية قانونياً . لا بل جعلت الحكومة النيوزيلندية من نفسها مؤمّنة على الحياة وألزمت ارباب العمل بالاعتراف بمسؤولياتهم حين يتعاقدون مع النساء والفتيان .

الا ان الفشل الذي انتهى اليه اضراب كبير في السنة ١٨٩٠ ، بينما اعطت هذه الطبقة العمالية مثل التضامن الفاعل بمساندتها عمال احواض السفن اللندنيين، وتجه اتحادات عمال التجارة شطر النشاط السياسي ، فتألفت احزاب عمالية تحالفت مع الجناح التقدمي في احزاب الاحرار . فكان ذلك نقطة انطلاق اشتراكية برلمانية شبيهة بالاشتراكية البريطانية ، وبعيدة مثلها عن كل برنامج ثوري . وكان همها الاكبر وقف هجرة الملونين بغية الدفاع عن الاجور المرتفعة .

الايمان والثقافة عند الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة

كانت اميركا الوطن المختار والمبارك للشيع الدينية . ويصح هذا القول كذلك في البلدان الانكلوساكسونية الاخرى في ما وراء البحار . فان الكاثوليكية لم تتجانس مع اي شعب ، وفي اي مكان ، تجانسها مع سكان كندا الناطقين باللغة الفرنسية ؛ وبلغ عدد اتباع الكنيسة الرومانية في الولايات المتحدة في السنة ١٨٩٠ عشرة ملايين مؤمن ساعدوها على تشييد اكثر من ٨٠٠٠ بناء للعبادة . وهذبت البروتستانتية العقول بقوة كذلك في كنائسها التي لا يحصى لها عد . وقال الناؤون الاحرار بوجود الله والدين الطبيعي وانكروا الوحي ، واحتلوا مراكز قوية . وكان لمذهبي التصوف والروحانية اتباع كثيرون . وتأثرت الطوائف اليهودية ، التي تعززت تعززاً كبيراً بهجرة اواخر القرن الواسعة النطاق ، بمذهب الاصلاح السياسي الذي قال به الحاخام « وايز » وبالنداءات من اجل اصلاح صهيوني . ويلفت الانتباه كذلك نجاح منظمات من امثال منظمة « جيش الخلاص » (وذلك بعد ان انصرت الرغبة في الكمال على الصوفية الرمزية الغامضة القديمة) . وقد شاهد « بيير لروا - بوليو » حوالي السنة ١٩٠٠ ، تطوافاتها التي كانت تنضم اليها جماهير غفيرة « في كافة مناطق البحث عن الذهب في العالم ، في « كريبل كريك » في الجبال الصخرية ، و « كولغاردي » في الغرب الاوسترالي ، و « جوهنسبرغ » في الترانسفال » . ويعتبر « اندريه سيغفريد » انها « اسهمت اسهاماً كبيراً في طبع مدن (زيلندا الجديدة) بذلك الطابع التديني الذي يميزها » . والمقصود هنا هو الايمان العملي المطابق للتصميم على العمل في هذه الدنيا . وهو لم يدفع قط الى المجادلات اللاهوتية . ولم يفلح في معالجة عدم استقرار العالم معالجة ناجعة ، وانما طلب منه توفير الخير والاطار لنشاط يستهدف

مقاومة الرذيلة والبؤس . وقد تولى هذه المهمة بصورة خاصة ، بالاضافة الى « جيش الخلاص »، بعض الجماعات من الشبان : جمعية الشبان المسيحيين ، جمعية الشابات المسيحيات ، جمعية الشبان الكاثوليك .

تعهد هذه الطوائف مؤمنوها فلم تشعر بحاجة لطلب حماية الدولة . وعملت في مناخ حرية نادرة . واعتمدت الطرائق الاعلانية نفسها التي تعتمدها المؤسسات التجارية . واوصت بخدماتها لأجل خلاص النفوس كما يوصي رجال القانون بخدماتهم من اجل الطلاق . وقد اجريت تسويات مختلفة من اجل طبع المدرسة بطابع ديني: فرجحت في الولايات المتحدة كفة التعليم « العلماني »، بينما استدت كل ولاية من ولايات كندا امر تنظيم التعليم الى لجنتين مختلفتين ، لجنة بروتستانتية واخرى كاثوليكية . ولم يكن باستطاعة المواطن الا ان يختار بين العبادات الماثلة امامه . وقد حظر عدد من ولايات الاتحاد كل عمل في يوم السبت ، وكان هذا الحظر مشدداً في كافة انحاء اوستراليا وزيلندا الجديدة . واقرت بعض المجالس الاشتراعية في الولايات المتحدة مبدأ تنافي شغل وظيفة عامة وعدم التقيد بالمبادىء الدينية . وحدث احياناً ان اعفيت املاك الكنائس غير المنقولة من الضرائب . اما رجال السياسة فغالباً ما التمسوا حماية الاله الكلي القدرة ، وحدث في السنة ١٨٩٦ ان حكومة « ولز الجديدة » الراديكالية توسلت اليه بالحاح وخضوع ان يمن على البلاد بالمطر . وساند رجال المال والصناعة المؤسسات الدينية القوية . وجاهروا بان الالحاد وحتى اللامبالاة منافيان للاخلاق . وهكذا فان « بيربونت مورغان» المساهم الرئيسي في اوبرا «متروبوليتان » في نيويورك ، قد منع التمثيليات التي اعتبرها منافية والاخلاق الجيدة. وفي السنة ١٨٧٩ حكمت محكمة الجنايات في الولايات المتحدة على الصحافي « بنث » بالاشغال الشاقة لمدة ١٣ شهراً بسبب مقالاته المناهضة للدين ، وقد رفض « هايس » ، رئيس المحكمة ، تخفيض العقوبة . وفي ناتال ،انتقد الاسقف الانغليكاني « كولنسو » بعض فقر الكتب المقدسة، وكان بذلك سبب زلة للمؤمنين ، فتحمست كنيسة جنوبي افريقيا اكثر من كنيسة انكلترا في المطالبة بعزله في السنة ١٨٦٣ .

كان المدرس خاضعاً لاشراف الهيئة الانتخابية المحلية، وكان يختار من المنطقة نفسها ويلقى دروسه فيها ، ولكنه غالباً ما شكا من مركب نقص ولقن المبادىء التي يفرضها المجتمع . وحوالي السنة ١٨٩٠ بلغ عدد المعلمين الابتدائيين المتخرجين من دور المعلمين في بنسلفانيا ١٥٠٠ فقط من اصل ٢٠٠٠٠ . وفي السنة ١٨٧٠ – كما اقر بذلك « كرنجي » – كانت نسبة الاميين ١٦ ٪ من المواطنين الاميركيين ، واذا تدنت هذه النسبة ، بعد مرور عشرين سنة ، الى ٧ ٪ لمواليد اميركا ، فانها ما زالت ١٣ ٪ للمهاجرين و ٥٦ بالمئة للزنوج . وبينما وفرت زيلندا الجديدة بفضل الدولة ، العلم الـ ١٣٠٠٠٠ ولد من ابناء السكان البالغ عددهم ٧٠٠٠٠٠ نسمة ، فان الترانسفال لم توفره الا لـ ٨٠٠٠ ولد من ابناء سكانها البالغين مليون نسمة تقريباً . وكانت بعض الشيع قد اسست الدور الجامعية الاولى في الولايات المتحدة: هارفارد ويال . ثم اسست الولايات

بعض الدور الاخرى . ولكن اصحاب الملايين هم الذين لعبوا دوراً هاماً في هـــذا المجال : « بيبدي » في نيويورك ، و « هوبكنز » في بلتيمور ، وهنالك جامعة تعرف باسم « جامعة فاندربلت » ، وقد انقذ روكفلر جامعة شيكاغو بمنحها ١٢ مليون دولار ، بينما كرّس كرنجي مبلغاً مماثلاً لتأسيس معهد للابحاث العلمية .

لم تكن الاخلاق الديمقراطية لتتنافى ووجود بعض الفئات المقفلة . فقد كان منها ست في بوسطن . وكان ظرفاء نيويورك يجتمعون في « سومرست » او في « نيكربوكر » . ولكـــن الاميركي ، فقيراً كان ام غنيـــاً ، لم يقرأ كثيراً : فقد كانت تكفيه الصحيفـــة التي توفر له بانتظام الاخبار المؤثرة والاخبار المتفرقة وتحمل على التقيد بالمبادىء السليمة . وقد لوحظ ان الطلاق كان اسهل منه في اي مكان آخر (طلاق من كل ١٥ زواجاً مقابل طلاق من كل ٣٠٠ في انكلترا) ، وبدت المغازلة وكأنها نظام معمول به . يضاف الى ذلك ان كافة هذه المجتمعات المدنية قد شعرت بحاجة ملحة الى الألاهي : فشغفت اميركا بمبارزات الملاكمة ، واوستراليا وزيلندا الجديدة بلعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم وسباق الجياد .

اذا افتقرت الحركة الادبية زمناً طويلاً الى صفات ذاتية مميزة في دول الامـــبراطورية البريطانية ، حيث تمتع المؤلفون الانكليز بنفوذ فعلي (كان لكندا وحدها مدارسها التي عبرت بالفتين عن فكر محلي خاص) ، فلا نزاع في ان الادب الاميركي قد لمع بنضارة الشعر ، ورقة التحليل السيكولوجي ، والحياة النابضة في وصف البيئة . فبرزت بين الادباء مواهب كبرى انتجت الكثير من المحاولات والقصص والروايات البالغة الأهمية .

ما كانت الولايات المتحدة من قبل لتجهل الرومنطيقية التي كان من شأن طبيعتها البكر ان تحرك اندفاقاتها . ثم جاءت الحرب الاهلية التي عظمها « وولت ويتمن » كامتحان عصاب : « شاهدت البرق الحقيقي . شاهدت مدني الكهربائية . عشت لكي أرى ظهور الانسان ويقظة اميركا الحرابة » . اجل لقد قام ، منذ السنة ١٨٧٠ ، من يشكو من عيوب مجتمع الاعمـــال والاوساط السياسية : وكان الغرب قاسياً ابداً حين شكا منها . وانما يجب انتظار السنة ١٨٩٠ حتى تميط الواقعية الستار حقاً عن المفاسد ؛ وعلى الرغم من ذلك فان « كراين » قـد تعثر في فضيحة مع « ماغي » احدى « بنات الشوارع » ؛ ولكن « مارك توين » اكثـر من رغـــوه بمحادثة معاصريه بلغة ماجنة وبالاستهزاء بالتعابير الاوروبية القديمـــة المبتذلة . وسوف تبرز الطبيعة في عهد متأخر معنى القصة التشاؤمي في مؤلفات « درايزر » الذي سيشدد على التسلط الجنسي . فبقي ان فردية العالم الجديد النفسية قد ارتضت بنظريات سبلـر و « ولم جايمس » . استقبل الاول بحماس في السنة ١٨٨٢ ، ووجد صدى عظيماً لدى رأي عام متفائل حقاً ؛ فدعا هذا الرأي العام الى التسلم بأن الحرية ومذهب الارتقاء يتزاوجان ويولدان التقدم . اما الثاني فقد نادى بالحاجة الى بذل الجهود ، ومثّل الحقيقة بالنجاح ، وأكد ان « الدين يتصل بالحياة » وربط بين صحة الاخلاق وصحة الجسد ، واقترح مذهباً عملياً مطابقـــاً لمقاصد شعب مولع

بالابتكارات العملية .

اما بصدد الحاجات الفنية ، فقد ارتأت هذه الشعوب الجديدة ، دونما خجل ، ارضاءها باقتباس افكار اوروبا وحتى منجزاتها . فقبل السنة ١٨٦٠ شغفت اميركا بالمعبد اليوناني ، فشيدت الكثير من الدور الحكومية ذات الاعمدة والمزارع ذات المثلثات في أعلى مقدمتها ، ثم اهتدت الى النمط القوطي وأضافت بعض التفاصيل الارسطية الى ابنية مربعة الشكل . وكل من توفر له المال اللازم اراد ، حوالي السنة ١٨٨٠ ، اقتناء مسكن على نمط مسكن « هوهن » ، او قصر على نمط الحمراء،او بيت خشبي على نمط البيوت السويسرية . ومع اعجابه بالروائع الاوروبية فقد نصح « ويتمن » بعدم تقليدها ، وفي نظر رجل الشارع ما كانت كنيسة القديس بطرس في روما لتوازي الكابيتول في واشنطن . ولكن ذلك لم يمنع « هانت » من اعادة بناء بيت « كورنيليوس فاندربلت » على النمط الايطالي ،ضيفا اليه قفص سلم قد يتسع لمحطة سكة حديدية . وكان « فرانك لويد رايت » احد الاوائل الذين ابتكروا اشكالا جديدة ، واضحة ومتناسقة ، لا سيا في بوفالو وشيكاغو .

وبنت اميركا هذه نفسها مسارح فسيحة ، ولكنها لم تتوفق الى اعطائها الروح . وحين نزلت « راشيل » الى البر الاميركي في السنة ١٨٥٥ ، اهتزت نيويورك كلها حبوراً ، وعرضت حلويات ومخدّمات وسجاير وقبعات ليلية حملتها اسم راشيل،وفي اورليان الجديدة طلع صاحب احد المقاهي اخاملة اسم راشيل بشراب (« بونش ») راشيل . وصفق رواد الحفلات الموسيقية لموسيقى الكلاسيكيين والرومنطيقيين بينا فضلت الجماهير المهزلة الموسيقية المليئة بالحوادث المؤثرة المعقدة .

لم تمثل الفنون التصويرية بأسماء كثيرة : فـ « هويستلر » هو الاسم اللامع الوحيد بين رسامين كثيرين لم تنقصهم الموهبة ؛ ولكن ليس هناك من مدرسة مجددة حقيقية .

وجملة القول ان هذه الشعوب الانكلوساكسونية الفتية قد تفرغت بحب تفضيلي للنشاطات التي تتيح لها احكام السيطرة على الفضاء والمادة ؛ وقد بحثت اول ما بحثت عن البهجة في الحركة؛ واناطت فخرها بفتح القارات وتحقيق الرفاهية المادية .

الأيام الصعبة في أميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال

اختلفت اميركا ، المعروفة عموما باللاتينية ، اختلافا عميقا عن اميركا الانكلوساكسونية . فكانت لها حضارة خاصة اقدم عهداً . وكان سكانها يقدرون بـ ١٩ مليون نسمة في اوائل القرن التاسع عشر ، فكانت هي من ثم متقدمة من حيث الاعمار ؛ ولكن معظم سكانها كانوا منتسبين الى الاعراق الملونة ، وكان البيض منذئذ اكثر منهم عدداً في الولايات المتحدة . فلنقابل الآن احصاءات اواخر القرن : انها تشير الى اكثر من ٨٠ مليوناً في القسم الشمالي من العالم الجديد ، وهو اصغر مساحة بصورة ظاهرة ، بينا لا تشير الا الى ٦٣ مليونا في القسمين الاوسط والجنوبي من هذه القارة . فالزيادة من ثم كانت اقل منها في اميركا الشمالية . وعلى الرغم من أن الزيادة بلغت ٧٣ بالمائة بين السنة ١٨٠٠ والسنة ١٨٥٠ ، و ٩٢ بالمائة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ ، مما رفع معدل الكثافة من ١ الى ٣٫١ في الكيلومتر المربع ، فليس أمامنا بعد سوى نسبة عددية طفيفة من مجموع سكان العالم : ٤ بالمائة بدلا من ٢٫٥ (١) .

انطوى التوزيع من جهة ثانية على مضادات تلفت الانتباه . فلقد احصي ١٥ مليونا في البرازيل التي لم تتجاوز كثافة سكانها العامة ١٫٧ ؛ ولكن اذا هبطت هذه الكثافة الى ٠٫٠٦ في « ماتو غروسو » و ٠٫٠٤ في « أمازونيا » ، فانها ارتفعت الى ٣١٢ في منطقة « ريو » . وقد بلغت ٥٣ في « سان سلفادور » ، و ٤ فقط في نيكاراغوا المجاورة . وكانت نسبة السكان في الانتيل ، بصورة عامة ، ارفع منها الى حد بعيد في القارة القريبة .

---

(١) راجع البيان في الصفحة ١٥٥ .

ربما كان باستطاعتنا ان نعزو هذا التدني الى وضع البلاد بالنسبة لخط الاستواء . فنسبة الولادات مرتفعة (٤٠ الى ٥٠ بالمائة في البرازيل) ، ولكن نسبة الوفيات مرتفعة جداً ايضاً . ومرد ذلك الى ان المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان هي حرم الهواء الاصفر (« الهواء الاسود » الذي فتك بـ ٢٨ الف ضحية في البرازيل بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥) . كما يرد كذلك الى ان الاجبة والزحار تسلطا على الاراضي المنخفضة والحارة قرب الشواطىء ، وان الجدري والتيفوس قد حالا فساداً في الهضاب المرتفعة . فالمناطق الجنوبية وحدها هي ما استهوى الاوروبيين ؛ ولكن الهجرة لم تتجه الا في عهد متأخر شطر هذه المنطقة الجنوبية النائية .

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة الاوروبية الجديدة

خلافاً لما حدث في اميركا الشمالية ، لم يتغلب العرق الابيض قط على العرق الاميركي بعنصر المعنى – وقد اقترح بعضهم تسميته بالعرق الاميركي الهندي او الهندي الاميركي – الذي دافع عن نفسه بفضل المناخ والبيئة والعدد. وهكذا فقد ألف الهندي قوام سكان بوليفيا والبيرو لانه يتحمل الـ « بونيا » أو داء الجبال الاندية العالية ، اكثر من البيض . ولكن الاوروبي توفق في كل مكان الى اخضاعه لسيطرته . وقد تحقق اخضاع اميركا الحمراء هذا على مرحلتين : قوّض « فالحو » القرن السادس عشر امبراطوريات الهضاب الاندية ؛ واضطر سكان المنطقة المعتدلة ، الـ « شاروا » في الاوروغواي والـ « آروكان » في « شيلي »، الى الانحناء بدورهم خلال القرن التاسع عشر . وتأسست كذلك في هذه الاثناء ، بواسطة النخاسة ، ولمصلحة البيض ، اميركا السوداء .

كان عدد مواليد المستعمرات ٣ ملايين فقط حوالي السنة ١٨٠٠ . وكانوا مصممين على الحلول محل اسبانيا والبرتغال. وعلى غرار ما حدث في فرجينيا ، لم تعن الحرية ، في رأيهم ، الغاء الاعمال الشاقة والرق . ولكنهم خلصوا من قراءة الفلاسفة الى العزم على انتزاع املاك الاكليروس والحد من امتيازاته . والسبب في ذلك ان ممتلكات الكنيسة كانت على جانب كبير من الاهمية : فهي قد شملت ، في المكسيك مثلا ، نصف المساحات المستثمرة . وقد فرضت صفة الاملاك الوقفية وجود الكنيسة في كل مكان .

وعرفت الديمومة الاملاك العلمانية الكبرى كذلك خلال القرن التاسع عشر . فحوالي السنة ١٨٨٠ كان لا يزال في المكسيك بين ٨ و١٠ آلاف مشروع استثماري ، ولكن مساحة بعض المزارع الكبرى قد بلغت ٦٠ وحتى ١٠٠ الف هكتار ، وقاربت نسبة الريفيين المحرومين من الاراضي ٩٥ بالمائة . ومن مواليد المستعمرات الـ ٣٠٠ الف في الشيلي ، امتلك ٣٠ الفاً كافة الاراضي الزراعية تقريباً ، و ٦٠٠ اكثر من نصف هذه الاراضي . وتقاسم السهل الفسيح في المنحدر الشرقي لجبال الاندس الجنوبية بعض كبار الملاكين الذين ادخلوا في خدمتهم خلاسيي المنطقة ، وأجروا المهاجرين الفقراء ، لآجال قصيرة ، بعض القطع الصغرى . وفي الهضبة البرازيلية ، حدث ان

شكل ٢٣ - امريكا اللاتينية السياسية

١ - تيارات الهجرة ؛ ٢ - انتقال السكان ، الطرق التي سلكها الصيد

شكل ٢١ - امريكا اللاتينية الاقتصادية

١ - طرق مائية طبيعية مستعملة ، ٢ - الخطوط الحديدية الاول ، ٣ - مناطق تبدل فيه وجه الطبيعه بفعل عمل الانسان ، على حد قول جيجر .

بلغت الاملاك الكبرى مساحة تقارب مساحة دولة اوروبية كايطاليا او انكلترا . وفي كل مكان ساد اقتصاد يستهدف تأمين الحاجات الاولية قبل اي شيء آخر بسبب ضعف المقايضات وندرة النقد .

أتاح التنجم جمع ثروات طائلة وظلت جزئياً في العقارات . وانما لم يكن هناك رأسمالية صناعية جديرة بهذا الاسم ، لأن اميركا اللاتينية كانت تصدر خاماتها ومحاصيل زراعتها دون ان يدخل عليها اي تحويل .

اكتفى الملاك من مواليد المستعمرات بالتمتع بمحاضره . ففي بلدان كثيرة ، كشيلي والبرازيل مثلا ، احب الاقامة في المدينة حيث عاش عيشة بطالة . واذا ما حدث ان اقام في اراضيه ، فانه غالباً ما يكل امر ادارتها الى رؤساء خدامه . واذا جمع ثروة ، فانه يفضل النفقات المفرطة ؛ واذا حدثت أزمة فانه يقلل نفقاته او يستدين ؛ يلاطف امرأته ويخضعها لوصاية غيورة بعد ان تعتني بها المربية ؛ ولكنها امية وسريعة التصديق على كل حال .

كانت هذه الطبقة الريفية ، البطريركية الطابع ، غير المولعة بالاستعدادات ، الانية والبليدة ، تثقل وطأة الضرائب على يد عاملة بائسة يفسر انتاجها الضئيل الجمود المسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . هذا هو قرن الفتح . والحال تجددت الهجرة الاسبانية والبرتغالية على نطاق واسع في اواخر القرن . ولكن الحدث الجديد هو وصول الالمان ولا سيما الايطاليين باعداد كبرى . فكانت النتيجة ان اميركا اللاتينية القديمة ، الهندية والخلاسية والزنجية عنصرياً في الواقع ، انقسمت نهائياً الى منطقتين مختلفتين كل الاختلاف : فمن جهة ، المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان حيث توطد تفوق الدماء المختلطة والهنود ؛ ومن جهة اخرى ، اميركا بيضاء ثانية ، مماثلة للاولى ، اضيق رقعة منها واقل سكاناً ، تقابل مستعمرات الراس واوستراليا وزيلندا الجديدة . وقد تحقق هذا الفتح الاوروبي الجديد بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٤ ، فأوجد تضاداً اقوى منه في الماضي بين الارجنتين والاوروغواي والشيلي وحتى شطر من البرازيل الجنوبي وبين باقي العالم اللاتيني - الاميركي .

حياة السكان الهنود : بداءة وبؤس

هنالك مناطق واسعة لم يقم فيها سوى الهنود البرابرة تقريبا . فكان الـ « غوياهي » ، بين « بارانا » و« باراغواي » ، يأكلون كل ما يختص بالمولد الحيواني ، بما فيه من انواع الهوام كالزنابير والنحل الذي بحثوا عن عسله ايضاً . واشتهر الـ « بوتوكودي » او « ايموري » ، بأقراصهم الشفهية . وتسكع في البلوس نفسه الصيادون الـ « بوراتا » و الـ « كارايا » ، في البرازيل ، و الـ « شانغو » في السواحل الشيلية ، والـ « اونا » في جزر النار ، وقد افنى هؤلاء الاخيرين شيئاً فشيئاً رجال المزارع ومرض السل . اما الـ « اباش » و الـ « الكومانش » في المكسيك الشمالي فكانوا بدواً يربون المواشي ، وقد انتشرت هذه الحياة البدوية في اقصى الجنوب ، في منطقة « باتاغونيا » . واما الـ « شاروا » « القساة » الذين

واجه البيض والخلاسيون شتى الصعوبات في اخضاعهم، فقد اعتمدوا الحصان في صيد الحيوانات على غرار الـ « تهوالتش » ، وكانوا يكتفون بضرب خيام من الجلد يحتمون بها من الرياح . وفي الشيلي ، لماطى الاروكان ، الذين الفوا الجاداً حربياً شبيهاً بالجاد الـ « ايروكوا »، زراعة الذرة الصفراء وتربية المواشي في آن واحد .

بيد ان اهل الحضر كانوا اكثر عدداً الى حد بعيد. ويمكننا الكلام عن حضارة الذرة الصفراء التي سيطرت على المناطق الواقعة بين الجبال الصخرية وجبال الاندس الجنوبية . فهناك منطقة الذرة الصفراء الشمسية الممتدة حتى المكسيك الوسطى : حيث يسحق الحب بواسطة الهاون ويستهلك بشكل طلم . وافضت هذه الزراعة الى قيام قرى ثابتة ، ونشطت صناعة الخزفيات التي استجابت الحاجات المنزلية والتزيينية . وتبدأ في بـــلاد الـ « مايا » منطقة الذرة الصفراء المروية التي غالباً ما تزرع في الاراضي المحرقة : فأضيف الى الطلمة معجون الذرة الصفراء الممزوج بالماء فقط . اما الحبوب فغالباً ما تزرع وفاقاً لطريقة بدائية جداً : ففي نيكاراغوا استعمل بعضهم اداة شبيهة بالسيف اكثر موافقة لحفر حفر البذار منها لحراثة الارض . وفي كل مكان استخرجت من الذرة الصفراء جعة (شيشا) مسكرة .

في اميركا الوسطى والانتيل وغويانا مكان المنيهوت مفضلا في بعض الاماكن عـــلى الذرة الصفراء . ولكن الذرة الصفراء استعادت كافة حقوقها في جبال الاندس . ففي كولومبيـــا زرعت مع البطاطا والفلفل الهندي . وفي شيلي دخلت حبوبها في اعداد كافة اصناف الاطعمة واستخدم لباس زهرها لف الدخان . وفي هضاب البيرو وبوليفيا المرتفعة ولدت قساوة المناخ والجفاف حضارة مشتركة تمكنت من مقاومة الجدب بواسطة زراعة المنحدرات والري. وقد استمر مثال الهندي القديم ، الذي خضع فيما مضى لتنظيم دولي صارم ، ثم التحق بالنظـــام السيدي في عهد الفاتح الاسباني ، لشاهد تعاقب الحكام ، جامد القلب غالباً ، على مزيد من الفظاظة هنا ، ومزيد من الوداعة هناك، واحب الارض ، فتمسك بالاملاك المشتركة التي كانت غير قابلة البيع مبدئياً . ولكنه كان يخاف من الكد او لا يستطيع العمل بنشاط . ويرد ذلك الى سوء تغذيته . فاذا لم يحصل على الذرة الصفراء اكتفى بالبطاطا واللوبياء ؛ وقـــد احب بالتفضيل البطاطا المجلدة المطحونة التي دعاها « شونو ». وأعد حساه بأوراق « رجل الاوز » . وحصل على بعض الحليب من الجمل الاميركي والالبكة اللذين كان يحدث ان يربيها ؛ ولذلك كان يفتقر الى الشحوم والمواد الآزوتية . واكثر من احتساء الشيشا، وكان شغله الشاغل تحضير الـ « اكوليكو » وهي كتلة صغيرة من اوراق الكوكة يصنع منها كرية يضعها في فيه : يمضغها اثناء سيره او مزاولة اعماله فيتولد فيه النشاط . وكان بيته مبنياً بالصلصال المجفف بحـــرارة الشمس ، ومؤلفاً من غرفة واحدة لا نوافذ ولا سقف ولا ارضية لهـــا ولا سرير فيها . وكان ينام على فراش مصنوع من جلود الحيوانات . وقد رآه الرحالة « مرسارز » ، في السنة ١٨٦٦، بعد بواسطة الحبال المعقدة . اجل لقـــد تمكن المستعمر من تقويض امبراطورية الـ « انكا »

وبشيرها بالانجيل ، ولكنه لم يتمكن من تغيير طبيعة هذا الكائن الذي بقي متعلقا بشياطينه الاليفة والارواح التوابع وآلهة الجبل والثلوج والبحيرات ، وعبد الشمس والقمر . واستغله الزعيم والكاهن والقاضي استغلالا دائما فتلهى بالرقص والعزف على الشبابة والمزمار . واذا هو تعلم الاسبانية فلا ينسيه ذلك لغته، الـ « ايمارا » او الـ « كيشوا » او الـ « ناهواتل » او الـ « مايا » . وعلى الرغم من تمتعه بالحقوق المدنية ، لم تستهوه الوظائف العامة . ولم يكن من مشاركة حقيقيةبينه وبين الابيض. يضاف الى ذلك انه حيثما كان فرضت عليه اعمال التسخير والاتاوات. وقد خضع لنظام نصف قدادي في المنجم. وكاد لا ينجو من هذا النظام الا بمرافقة قطيع جمال اميركية او بمواكبة القوافل او بصناعة القبعات ، كما في الاكوادور، بوص خاص يحاك تحت الماء .

مصير الدماء المختلطة والزنوج

كان عدد السكان من الدماء المختلطة اكثر من عدد السكان البيض . وكان معظمهم من الخلاسيين المولودين من البيض والهنود المتزاوجين ، يضاف اليهم نسبة دنيا من الخلاسيين المولودين من البيض والزنوج والـ « زامبو » المولودين من الهنود والزنوج. وقدنجح الخلاسي احيانا في الارتقاء في السلم الاجتماعي. وحدث أن جمع ثروة بتربية المواشي وادارة الاملاك وحتى باقتنائها احيانا ، واستثمر بدوره حينذاك الملونين الفقراء أو الارقاء . تعاطى حراسة قطعان الماشية ، فأصبح في فترة من الزمن ملك الارجنتين ، وانضم الى البولسيين فأسهم بنشاط في احياء الاراضي في الهضبة البرازيلية التي يمر فيها خط الجدي . وفي سالفادور تملك معظم الخلاسيين الاراضي فعرفوا بـ « لادينوس»، ومن فرع الغواراني المتحدر الـ «ملوك» المولود من ام برتغالية ،و الـ « شولو »في البيرو ، والـ «رولو» في شيلي، وكلهم عناصر نشيطة. وانتسب سكان باراغواي الحرايون الى الغواراني وخلاسييهم . وقد سال الدم الهندي في عروق زعماء (كوديلو) كثيرين . ولكن عامة الدماء المختلطة لم ترتفع يوماً الى طبقة اهل اليسار . ففي الشيلي مثلا خضع الخلاسيون لاعمال التسخير وارتبطوا بكبار الملاكين من مواليد المستعمرات بعقود الحقت بهم المزيد من الغبن .

أقام الزنوج وخلاسيوهم حيث أدخل البيض الافريقيين اي من جهة الاطلسي ، من الانتيل حتى الريو . وفي اوائل القرن جاءت كذلك موجة من الانتيل نحو كولومبيا ومناطق غويانا ، وموجة اخرى من غينيا نحو « بارا » و « مارانهاوو » ، وموجة ثالثة من الكونغو وبنغويلا والموزامبيك نحو «باهيا » . واعتق ١٠٠ الف عبد في منطقة غويانا الانكليزية في السنة ١٨٣٨ ، و ٦٠ الفاً في المنطقة الهولندية في السنة ١٨٦٣ . ولكن الجماعات الكبرى عاشت في البرازيل. ففي السنة ١٨٧٠ ، كان في البرازيل البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين نفس ، ٢٠٠ ٠٠٠ ١ زنجي بينهم ٩٠٠ الف معتق ، و ٤ ملايين خلاسي من ابوين اسود وابيض بينهم قرابة ٥٠٠ الف عبد، ولم تطرأ على الخلاسيين والبيض زيادة تذكر حتى السنة ١٩٠٠ .

كان الرق ، على ما يبدو ، اقل قساوة منه في الولايات المتحدة : فقد كانت البرازيل في نظر الاميركيين الشماليين بمثابة « فردوس الزنوج » . ومهما يكن من الامر فان الحصول على الحرية كان هنا اقرب منالاً . ولكن الغاء الرق سيتطلب وقتاً اطول . واما في المزرعة فكان العبد يشتغل من مشرق الشمس حتى مغربها ولا يتوقف عن العمل الا ساعة واحدة يتناول فيها طعامه ؛ وغالباً ما ضُرب بالسوط على ظهره العاري ، وطُلب منه عمل اضافي في الليل . فلا عجب من ثم اذا كان انتاجه ضئيلاً . وقد شكا اصحاب مزارع البن من الاجور الباهظة التي تدفع لليد العاملة المتوانية .

اضطر الزنجي والخلاسي الزنجي ، بعد تحررهما ، الى العمل كمزارعين او كعمال زراعيين ، ما لم يفضلوا العمل في المنجم . ولكن مستوى حياة هؤلاء المساكين ، المعجبين بأنفسهم ، الارقاء الكلام ، السريعي التهيج ، لم يتحسن قط . فقد حافظوا بعناد على عاداتهم ومعتقداتهم الافريقية . وقد استطاع بعضهم تبيان اوجه الشبه بين حضارة الـ « يوروبا » وحضارة زنوج كوبا وباهيا ، وبين العادات في هايتي والعادات في مارانهاو وفي داهومي ؛ وفي غويانا ، ربما اعتقد الانسان بأنه عند الـ « فانتي » او الـ « اشانتي » . ولم تخف المسيحية الطقوس الوثنية اخفاء تاما : فقد دخل بعض الآلهة الافريقيين في عداد القديسين او بقوا موضوع تكريم وتعظيم ، وبقي للعبادات الافريقية تأثيرها الغامض .

التنقل الاقتصادي وتزايد وسائل النقل

كانت اشكال النشاطات متحركة لأنها كانت بدائية . واتصف عمل احياء الارض بطابع الوقتية لأن الاحراج لا تلبث ان تستعيد الاراضي التي ينتزعها الانسان منها . ولكن الزراعة نفسها مسرفة ؛ وقد قام الخلاف ابداً بينها وبين تربية المواشي والمنجم . فاذا تزاحم الناس على العمل في المنجم هاجر السكان المغارس وتركوا القطعان . واذا استُخرج كل ما في المنجم عادوا الى الاعمال الزراعية والراعوية . وكانت هنالك في البدء برازيل السكر والمناجم حول محور باهيا و « ميناس جيريه » ؛ ثم تدنت زراعة قصب السكر ، بينما حلت محلهما زراعة القطن وشجرة الكاكاو والتبغ او اجتذبت الناس الى ابعد من مواطن هذه النباتات ؛ وبالمقابلة عرفت « غويار » و « ميناس » الازمة : فان مصاهر تنقية المعادن المنشأة في جوار الاحراج حول « اورو – بريتو » قد اخمد نيرانها الخط الحديدي الذي نقل الحديد الاجنبي . فعاد رعاة البقر الى قطعانهم في الهضاب الداخلية ، وعاد من تبقى من عمال المناجم والمصاهر الى « ساو باولو » التي كانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة في مغارس شجر البن ؛ وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ عرفت المناطق الواقعة على خط الجدي بدورها ثروة مفاجئة . اما تشيلي الراعوية فقد اكتشفت حوالي السنة ١٨٥٠ رسالتها الزراعية بامارتها للباحثين عن الذهب في كاليفورنيا بالحبوب . وأما السهل الارجنتيني فقد تغير وجهه تكرارا اذ تعاطى فيه السكان على التوالي تربية المواشي الكبرى وتربية الاغنام ثم تقسم الى عدة مناطق تميز كل منها بنشاط مميز .

يصح القول نفسه في سرعة التغيرات التي طرأت على الصناعة الاستخراجية . فعلى الرغم من أن مناجم الفضة في « بوتوسي » و « سررو دي باسكو » ما زالت مثاراً الفتنة ، فان دلائل النقص في المعدن كانت سبباً ، في منتصف القرن ، في انتقال الجماهير الى « الجبـــال الملكية » و « اوررورو » من جهة ، والى جبال « كرابايا » من جهة اخرى حيث اكتشف الذهب على ارتفاع « آلاف متر واستأثر استخراج الفضة في البدء باهتمام شيلي ثم توجهت الاطماع شطر النــترات والنحاس . اما في المكسيك فقد تعاقبت فترات ارتفاع حمى البحث عن المعادن وهبوطهـــا تعاقباً مطرداً .

كانت مسألة النقل احدى المسائل العسيرة جداً . لقد جعلت الطبيعة من قطـــع المسافات عملية طويلة وشاقة ، فابرز ذلك اهمية الطريق المائيـــة الطبيعية للجماعات البشرية والكيانات السياسية . فبينما وقفت مناطق البرازيل الشرقية سداً في وجـــه الساحل الاطلسي ، اتاحت الشبكة الامازونية بلوغ لحف جبال الانديس من الشرق وغوياز و « ماتو غروسو » . وحين اقفل « روزاس » البارانا بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٥٢ ، تحولت حركة النقـــل الى الاوروغواي ، فكان ذلك فاتحة ازدهار الجمهورية الشرقية . ولم يكن الهـــدف من حرب الباراغواي سوى امتلاك شبكة الطرقات الطبيعية المؤدية الى « لابلاتا » .

فما العمل للانتقال من حوض الى آخر ؟ ما زال العائق الاكبر الجبل الذي يحاذي المحيـــط الهادي . ولذلك استخدم النقل الكولومبي نهر « ماجدولينا » ، ووجه الدولة الكولومبيـة شطر بحر الانتيل . وكذلك وجهت الطريق التقليدية الى هضاب البيرو شطر الاطلسي الجنوبي : على هذه الطريق الفضية تمكنت « توكومان » من تنمية مغارس قصب السكر بتصريفهـــا السكر في مناطق المناجم المرتفعة ، واستخدم الملح القريب من « بونيادي اتاكاما » لحاجات قطعان جبال الانديس قبل ان ينقل الى سكان الـ « بامبا » . ويتضح من ثم ما كان للزوامل ، ولا سيما البغال ، من اهمية كبرى . فهي قوافل البغال ما كانت تؤمن النقل في جبال الانديس والهضبة البرازيلية . اما في السهل فقد امكن استخدام العربات التي تجرها الخيول او الثيران : فالارجنتيني كان يمتطي الحصان اذا كان مستعجلا او يستخدم العربة الثقيلة التي يجرها حتى سبعة حيوانات والتي اتاحت عجلاتها الكبرى اجتياز المخاضات .

جانب الحياة في المدينة وبسط تطور الوظيفة المدنيـــة

ان الاسبانيين والبرتغاليين المتوسطيين نقلوا معهم الى مـــا وراء الاوقيانوس ميولهم المدنية . وعلى الرغم من نمـــوها البطيء ، لعبت المدن دوراً عظيماً جـداً في هذه الحضارة الايبيرو - اميركية .

ذكرت مدينة العهد الاستعماري تذكيراً مدهشاً بمدينة شبه الجزيرة ، وذلك بكاتدرائيتها الفخمة ، وابنيتها العامة العظيمة ، وينابيعها الجبلة . وعرضت لنا باعتزاز « ساحة الاسلحة » و « سانتياغو » الشيلية شوارعها الاربعة التي تنتصب على جانبها اشجار الحور الظليلة ، والاقنية

التي تمر فيها وتسمح برش الشوارع ؛ وتباهت « ريو » القديمة بمساكنها البرتغالية الانيقة ذات الشرفات . الا ان الحجر نادر بصورة عامة : ولم يبن بالحجر الجيل الصلب سوى ريو و« كوزكو» . فمواد البناء المستعملة عادة هي القرميد المشوي بحرارة الشمس الذي يجب طليه لاعطائه بعض البهرج . ولم تسقف البيوت الصغرى في اغلب الاحيان الا بالتبن الطويل ، وقد حدث ان الامطار المتساقطة بغزارة في ليما قد تسببت في انهيار السقوف . يضاف الى ذلك ان الناس كانوا يخشون الزلازل : فزلزال السنة ١٨٢٨ قد دمر عاصمة البيرو ، وزلزال السنة ١٨٥٤ دمر سان سالفادور . وفي كافة المناطق الحارة جمعت الغرف حول فناء تشاهد فيه بعض الطيور والحيوانات المؤالفة كالببغاء والقرد ؛ اما الاثاث فكان قليلاً . وافتقرت المدن الى النظافة ، لا سيا وان شوارعها لم ترصف رصفاً جيداً بالبلاط . وفي عهد مكسيميليان فتحت في مكسيكو جادة كبرى جديدة تؤدي الى شابولتيبك زرعت على جانبيها اشجار الكينا وانشئت فيها بين مسافة واخرى مستديرات ازدانت بالتماثيل . ولكن ما ان تهطل الامطار الاولى حتى يتعرقل السير بسبب الاوحال . اما التدابير الصحية فغير متوفرة ، لا سيا في الاحياء المنخفضة من الموانىء البحرية ، وهو الاطار الطبيعي ما اوجد الفتنة ، اذ ان النواصي قد حجبت الكثير من القباحات ، وقد اشتهر جون ريو منذ تلك الايام بجماله الفتان .

ان القرن التاسع عشر لم يحمل قط ، بل بنى بسرعة وبدون ظرافة . فالمدينة الجديدة في ريو عادية ومبتذلة على الرغم من اتساع شوارعها وظهرت بوينوس ايرس لمدة طويلة بمظهر حقير . فالمدينة نمت بسرعة فائقة وابنيتها شيدت في مساحات ضيقة . اجل لقد تم توسيعها وفاقاً لمخطط هندسي على طريقة المدن في اميركا الشمالية ، وانتقلت مساحة رقعتها من ٤٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٨٠ الى ٠٠٠ ٣٠٠ نسمة فقط الى ١٩٠٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ ولكن الاوبئة فتكت فيها بالسكان فتكاً ذريعاً (١٣٧٠٠ في السنة ١٨٧١) ، ولم يتحسن تبليط الشوارع قط قبل السنة ١٨٩٠ . فمنذ هذا التاريخ انجزت اعمال كبرى لتزويد المدينة بمياه الشفة ولتجهيزها بشبكة بواليع ؛ وبدأ استخدام الغاز والكهرباء .

كان للمدينة وظيفتها الاقتصادية ، كما في اي بلد آخر . فقد استخدمت مستودعاً (هذا هو دور « لاباز » للكينا ، ودور فالباريزو للنيترات ؛ وقد ازدانت « توكومان » و « سالتا » بالكثير لاسواق لتجارة البغال ؛ ولم تتم الموانىء الا بنسبة نمو التجارة البحرية . ولكن بصرف النظر عن جودها وعن تصميم البعض لها بغية ايواء الادارات العامة وتأمين حاجات الحياة الاجتماعية ، فقد طبعت ابداً بطابع اداري وسكني بارز . وبين سكان المدن كثر هم الذين تفرغوا للسياسة والمهن الحرة : فان نصف الذين تلقوا دروساً عالية قد فكروا بمزاولة المحاماة . ولكن الهجرة قد ضخمت الطبقة الكادحة الامية بنوع خاص .

تخلفت المواصلات الحضرية تخلفاً عموماً عن العالم الانكلوسكسوني ، وهي لم تبرز حقاً الا في اواخر القرن ، دون ان يبلغ سكان اي منها المليون نسمة . ويجدر لفت النظر مرة اخرى

هنا الى اننا نتكلم عن عالم يجاوز سكانه الـ ٦٠ مليون نسمة .

ولادة رأسمالية اميركية جنوبية وتدخل الرأسمال الاوروبي

ان الطابع العقاري الصريح الذي طبع به الاقتصاد قد سيطر طيلة القرن على كافة ارجاء اميركا اللاتينية . فكان هنـــاك اغنياء الرتهم الحنطة في شيلي، او اثرتهم الجلود واللحوم المملحة في مناطق « لابلاتا » . وبرز شيئاً فشيئاً في البرازيل بعض المستفيدين من زراعة البن : فان اول آل « برادو » المشهورين قد زاول تجارة البقال ، وتوصل احد ابنائه الى تلك منصبة فسيحة ! وبين اولاد هذا الاخير اكتشف احدهم بدوره « ارضاً حمراء » جيدة جـــداً واصبح في السنة ١٩١٢ رب مزرعة تحتوي على ٧٦٧٠٠٠ ١ شجرة . واشترك معه احد اخوته في تأسيس شركة الخطوط الحديدية البولسية لخدمة المنطقة ؛ وضمت هذه الشركة بين كبار مساهميها رب مزرعة كبرى اخرى هو البارون « ايتابورا » ، وقد اصبح باروناً بانعام من الامبراطور « بدرو» الثاني. وأسهم المنجم كذلك إسهاماً كبيرا في توسيع عدد الاغنياء . ففي البرازيل ليس « ماوا » وحده من برز وبرهن بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ عن انه صيرفي ورجل اعمال ماهر رأس العديد من شركات النقل والعمل في المناجم . ولكن التوفير ما زال ضئيلا لان المال ينفق على شـــراء المواد الباهظة الاكلاف او يبذر في الميسر والمراهنات . يضاف الى ذلك وجود الكثير الكثير من الوسطاء الاردياء : كالخمّار الذي يبيع بالتقسيط لقاء سندات توليه حق استيفاء ديونه بتملك المواشي او البيوت ، و « الصرصور » الذي يزيف صكوك التملك .

ما كانت اميركا اللاتينية ، والحالةهذه،لتستطيع التجهز بدون مساعدة الدول الرأسمالية. فهي المؤسسات الاوروبية ما انشأت معظم الخطوط الحديدية . ويجب الاعتراف هنا بأن خط ساو باولو رائعة من روائع التقنية البريطانية : اذ ان القُطُر تتسلق خمسة منحدرات متعاقبةزوّد كل منها بجهاز خاص للجر . وهي « شركة البيرو التعاونية » ، التي كان مركزهـــا في لندن واستخدمت مهندسين اميركيين ، ما بنت خط « مولندو » و « اريكوتيا » باتجاه كوزكو وتيتيكاكا . اما الخط الذي يعبر الانديس فقد بني قسم منه في البامبا في السنة ١٨٨١ ثم اسند « بارنغ » التزامه الى الـ « كرورزو » بعد ان امن مبلغاً من المال ، ولكن الالتزام رســـا اخيراً على « كوكريل » .

في التجارة الخارجية احتلت بريطانيامركز الطليعة الاول بعد ان تراجعتالولايات المتحدة نهائيا حوالي السنوات ١٨٤٠ - ٥٠ . وباستطاعتنا ان نعتبر ان اميركا اللاتينية تعلقت اقتصاديا ببريطانيا العظمى .

لم يكن الوضع المالي في الدول الفتية وضعاً سليما : فالوظيفة العامة باهظة الأكلاف ، على انها لم تكن في مأمن من الرشوة بسبب تدني الرواتب . زد على ذلك ان الحكام لم يحافظوا على مراكزهم الا بتعهد انصار يتأكلهم الجشع . لا بل كان من شأن برنامج التعليم العام وحده،

بسبب ما انطوى عليه من طموح ، إلحاق العجز بميزانية تغذيها بكل صعوبة الجمارك والضرائب المفروضة على مواد الاستهلاك . فتوجب من ثم اللجوء الى التضخم الذي خفض قيمة النقد والى القروض الباهظة . ولذلك فان تاريخ الجمهوريات هو ، على وجه التقريب ، تاريخ التزاماتها نحو الادارات المالية الاوروبية .

وافقت هذه الاخيرة على السلفات الاولى ابان الحروب الاستقلالية . ثم توجب عليها الاستمرار في مساندتها لتجنب الافلاسات التي ستجعل مدينيها عاجزين عن الوفاء . وهكذا استدانت شيلي من لندن بفائدة ٦ بالمائة في السنة ١٨٢٢ ؛ وتوقفت عن الدفع بين السنة ١٨٢٦ والسنة ١٨٤٠ ؛ وفي السنة ١٨٤٢ عُقد اتفاق حصلت سانتياغو بموجبه على مال جديد ؛ وفي السنة ١٨٥٨ ، استحصلت من آل بارنغ على قرض ثالث ؛ وفي تاريخ لاحق ولت البلاد وجهها شطر مؤسسة « مورغان » . وفي البيرو ، رهنت الشيلي النترات الذي وضعت يدها عليه خلال الحرب الباسيفيكية عند مؤسسة « دريفوس اخوان » . ولم يندر ان حصلت الدولة الدائنة على رقابة الجمارك او رقابة الخطوط الحديدية . ونذكر هنا قضية مشهورة جداً هي قضية دين « جيكر » على المكسيك الذي كان سبب التحالف بين انكلترا واسبانيا وفرنسا ، ثم تدخل هذه الاخيرة تدخلا متمادياً. ولم تكن النزاعات بين الدول من اجل النفوذ نادرة الحدوث ايضا. وباستطاعتنا ، من اوجه كثيرة ، ان ننظر الى الحرب الباسيفيكية وكأنها مبارزة بين المصالح البريطانية وراء الشيلي ، والمصالح الفرنسية والاميركية وراء بيرو وبوليفيا ، كان النصر فيها حليف المصالح الاولى. ويقع على رأس المال الاجنبي كذلك مسؤولية اختلافات مدنية كثيرة.

وحدة الثقافة والتصادم بين التقليد وفكرة التقدم

ان من شأن الطابع الايبيري في حضارة اميركا الوسطى واميركا الجنوبية ان يخلق فينا وهما خادعاً . فلا ريب في انربع السكان يتكلمون الاسبانية أو البرتغالية، ولا يزال هناك عدة آلاف من اللهجات البلدية . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الجزء من العالم مدين للغة الفاتح بوحدة ثقافية معينة : لغة العلائق من اجل المقايضات الاقتصادية وتبادل الافكار في مناطق شاسعة . ويلفت الانتباه ان الاشكال القديمة قد استمرت في الارياف دون المدن التي خلقت اشكالا جديدة .

على الرغم من ان الانجيل نادراً ما نجح في الحلول نهائياً محل المعتقدات القديمة ، فان الكنيسة قد لعبت دوراً كبيراً في نشر اللغات والعادات الايبيرية . والمقصود بالكنيسة هنا كاثوليكية متسلطة ترغب في رقابة الحياة الخاصة والشؤون العامة على السواء . وحين استطاع الاكليروس الى ذلك سبيلا ، ابطل حرية المعتقد واخضع الحقوق المدنية للمعتقد الكاثوليكي واحتفظ لنفسه بحق التعليم . ولكن اعداء الاكليروس حملوا الكنيسة مسؤولية امية الجماهير . وهكذا فان نسبة الذين عرفوا القراءة من الاحرار في البرازيل لم تتجاوز ٢٣ بالمائة في السنة

١٨٨٠ ، ومن العبيد ١ بالمائة .

بيد ان التمتع بلغة رنانة جيلة والميل الى ملاذ الفكر قد اعطيا الشعوب اللاتينية الاميركية مدارس ادبية غنية بالانتاج . ففي البدء تَدَّر كلاسيكيو شبه الجزيرة حتى قدرهم ، ثم جاءت الرومنطيقية ، ونظم الشعر ، واكتشفت الواقعية والطبيعية بدورها حقـلا فسيحاً للتوسع والانتشار . فصدرت مؤلفات شخصية مبتكرة كثيرة تعبر عن الاهواء وتنطوي على وصف رقيق جداً للطبيعة البديعة . وقد تجانب في هذه المؤلفات انسلال الوقائع ووصفها الدقيق ، كما ان الشاعرية لم تقصر بالنضارة .

عصفت بالنخبة المثقفة مثالية متأججة . فبرزت بقوة مقاومـــة الوصاية الكنسية (ضد اليسوعيين ومحكمة التفتيش بصورة خاصة) ، وكان لفكرة التقدم في الحرية سحرها الاخاذ . وعُمل بالقانون المدني الفرنسي في الجمهوريات بعد ان ادخلت عليه تعديلات تجعله يتفق والعادات الاسبانية ؛ اما القانون الجزائي في البرازيل فقد اعده خير اعداد حقوقي كبير اختصاصي في القضايا الاجرامية هو «برناردو دي فاسكونسلوس». وبكل جدية حرر الحقوقيون،من قراء « روسو » و « بنجامين كونستان » ، البنود الصريحة للنصوص الدستورية ؛ لقد قابـــل عدم الاستقرار الفعلي توق الى تثبيت القانون .

انتشرت الماسونية وانضم اليها الناس بأعداد كبرى . فان « سارمينتو »، حامل لواء التعليم العام في اميركا الجنوبية ، ومؤسس الدار الاولى لتخريج المعلمين – في شيلي ، في السنة ١٨٤٢ – ومؤسس المدرسة النموذجية في بوينوس ايرس ، ورئيس حزب الاحرار في الارجنتين ، ورئيس هذه الجمهورية بين السنة ١٨٦٨ والسنة ١٨٧٤ ، قد برز بين كبار باعثي محفل « الشرق الاكبر » ومحفل « المجلس الاعلى » . واشتهر الماسوني « غاريبلدي »باشتراكه في القتال من اجل استقلال اوروغواي .وعن طريق الماسونية الانكلوساكسونية تسربت الروح النفعية الى مذهب الاحرار . ولكن الفلسفة الوضعية هي التي احرزت اعظم النجاحات إثارة للدهشة في اوساط المثقفين الذين كانوا يبحثون عن قاعدة يسلكون بموجبها . لا بل ان تعاليم « كونت » ، التي فسرت تفسيراً حرفياً ، قد دفعت الى تأسيس بعض الكنائس ، ككنيسة « معبد الانسانية»، واحدثت بعض النهضة في العلوم الاجتماعية . وسعى الشيلي « لاستاريا » الى التوفيق بين كونت و « جون ستوارت ميل » وتوكفيل . وفي البرازيل والمكسيك ادى الخوف من الفوضى والمذهب الوضعي مشتركين الى ولادة حزب « علمي » ابتغى نوعاً من الاستبداد المستنير القادر عـــلى تحقيق امور عظيمة .

كان سبب الخلاف في النزاع بين الكنيسة وخصومها نفوذ الاكليروس على المجتمع والمدرسة والسلطات العامة ؛ ولكن « الكفاح الثقافي » قد استهدف كذلك الممتلكات الكنسية الـــتي اتاحت للكنيســة ان تكون دولة داخل الدولة ، والتي طمعت بها هذه الاخيرة لان كاهـــل ميزانيتها كان مثقلاً بالديون . فقابلت اعمال العنف التي اتاها هذا الطرف اعمال عنف اخرى اتاها

الطرف الآخر . اما التسويات القليلة التي تحققت فلم تدم قط طويلا .

تعـذر الوحدة الاقليمية

لم تضع حروب الاستقلال حداً للسيطرة الايبيرية فحسب : فهي قد كرست تجزئة الممتلكات الاسبانية الواسعة الاطراف . وهي البرازيل وحدها التي استطاعت المحافظة على اراضيها : ولو ان الاوروغواي انفصلت عنها . ثم توفي بوليفار منهوكاً في السنة ١٨٣٠ بعد فشل مشروع كولومبيا - الكبرى . ولن تسفر المؤتمرات من اجل تحقيق الوحدة ، التي ستدعو اليها المكسيك ثم البيرو ، الى اية نتيجة ؛ فقد نشبت منذ ذاك التاريخ نزاعات دامية بين الجمهوريات الجديدة . وهكذا فان ١٦ دولة قد تقاسمت في النهاية اراضي البر الاميركي الجنوبي حتى رأس هورن ، قبالة الاتحاد الشمالي الاميركي .

نجد تفسير هذا التفتت في الجغرافية . فقد كتب « همبولدت » ان « الدول المتجاورة لا تتصل في معظم الاحيان الا بالمضائق الاستوائية » . ولما كان البحر جانبه ، فان التجمعات الطبيعية قد جرت بدلالة اقرب ساحل اليها . وكان للاحراج الامازونية نصيبها الاكبر في قيام فنزويلا على بحر الانتيل وفي الحد من توسع الممتلكات الاوروبية الانكليزية والهولندية والفرنسية التي تمكنت من البقاء ، السبب نفسه ، على حدود البرازيل ، وعلى هامشها اذا صح التعبير . واوقفت الصحراء زمناً طويلاً التوسع الشيلي في الشمال . وتكونت باراغوي وراء الخطوط المائية والمستنقعات واشجار الغابات الشائكة في « شاكو » . فالحدود تمتد من ثم منطقة لا خطاً واضحاً ، وقد تجددت المنازعات حولها تكراراً .

لم تقم سوى فوارق جزئية بين خريطة التقسيمات الادارية الاسبانية (نيابات ملكية وقبطانيات) وبين خريطة الجمهوريات . فان عواصم الامس قد احتفظت بوظيفتها الجاذبة ؛ ولكن المنافسات القائمة بينها ، على غرار الاثرة الاقليمية التي عانت منها اسبانيا في العهد نفسه ، قد زادت حدة التنازعات الاقليمية . فقد عجزت الوحدة الثقافية والتيارات التجارية التقليدية عن الحؤول ، في جو اقتصاد لا يزال بدائياً ، دون تفرق السكان بفعل المسافات . لا بل اذا كانت الدولة واسعة نسبياً ، اصبحت وحدتها قصيمة جداً . فان المنازعات تنفجر حينذاك بين العواصم والولايات ، وبين المدن والارياف ، وبين الوحدويين والاتحاديين : ففي فنزويلا مثلاً ظهرت نزعة سكان السهول الاستقلالية عن سكان كراكاس ، ونزعة رعاة المواشي المائلة في البامبا الارجنتينية عن بوينوس ايرس . وغالباً ما رجحت كفة الحل الاتحادي في النهاية : الولايات المتحدة المكسيكية ، والولايات المتحدة الكولومبية ، والولايات المتحدة البرازيلية ، والولايات المتحدة الفنزويلية ؛ وقد اتخذت الارجنتين كذلك شكلاً اتحادياً .

كانت الحرب شبه دائمة بين هذه الدول الفتية التي تأكلها التحاسد وانجر حكامها الى خوض المغامرات الخارجية بداعي النفوذ وتنازعوا الطرق النهرية النادرة والهامة وثروات المناجم

الشيلة . وحدثت هذه النزاعات في كل مكان: بين كولومبيا والاكوادور ، وبين الاكوادور والبيرو ، وبين الجمهوريات الصغرى التي نشأت عن تفكك اتحاد اميركا الوسطى . وكان مسرح ثلاثة او اربعة منها نيابة لابلاتا الملكية القديمة التي كانت مناطقها النهرية الشمالية مطمع الطامعين؛ وانتهى اهم هذه النزاعات هولاً ، بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٧٠ ، الى افناء شعب باراغواي الصغير . وبعيد ذلك نشبت الحرب المعروفة بالحرب الباسيفيكية التي انتزعت التشيلي خلالها من بوليفيا والبيرو المقاطعات الغنية بالنطرون وأقصت الاول منها عن الشاطىء .

في اواخر القرن فقط ، اخذت هذه الدول تتصرف شيئاً فشيئاً عن طريق اللجوء الى القوة الى الاجراءات المعمول بها بموجب الحق الدولي . واوحت الاضطرابات التي عانى منها هذا الجزء من العالم بتقارب اميركي شامل اعتبر ضرورياً .

مرض آخر واسع الانتشار : الاضطرابات الدائمة في قلب الامم الفتية . حكم الزعيم الفرد وصعوبة ولادة النظام الدستوري

دانت الجمهوريات مبدئيا بالحريات وحتى بالديموقراطية ، ولكنها في الواقع كانت فريسة احزاب تنازعت الحكم بعنف. فنادرا ما توفرت الشروط التي تسمح بقيام نظام دستوري. يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حروب الاستقلال ابرزت دور الزعيم ، اي الـ « كوديلو » . فان بوليفار « وسان مارتين » ، اللذين سيخلد ذكرهما ، قد تركا بعدهما خلفاء ومقلدين . وقد تجلت رومنطيقية ادبية مجدت العزائم الفردية : فان « ادرداد » قد ذكر بآلي نابوليون ، كما ان « مونتالفو » ، في « المعاهدات السبع » ، قد احل بوليفار فوق بطل العالم القديم . وليس هناك من حكومة تولت الحكم الا في اعقاب انقلاب او انتخاب افسدت فيه ارادة الناخبين ، ثم كانت ضحية اللاشرعية والاضطرابات . ففي المكسيك تولى الرئاسة شخص كل سنة تقريباً خلال السنوات الست والثلاثين التي عقبت سقوط زعيمها الاول « ايتوربيد » . وفي فنزويلا نشبت ٥٢ ثورة في اقل من ١٠٠ سنة . وكانت بوليفيا مسرح ستين عصياناً عسكرياً ، وغيرت دستورها عشر مرات ، واماتت او سمحت باماتة ستة من رؤسائها . ولم تعرف باراغواي نظاماً غير الدكتاتورية . ويروى ان ضحايا ثورة السنة ١٨٧٩ في كولومبيا بلغوا ٨٠٠٠٠ .

ان حسم الخلافات على هذا النحو اتاح لبعض المسلولين ان يلعبوا دورا هاماً . فان الرشوة والنداءات المهيجة والحقد المزمن على مواليد المستعمرات الاغنياء قد دفعت العامة الامية وراء المغامر الجسور . اضف الى ذلك ان الكوديلو قد بدا وكأنه مواصل عمل الزعيم الهندي . فكم من وجه اثار الاعجاب ؟ والى جانب بعض مواليد المستعمرات المهذبين تهذيباً ارستوقراطياً ، من امثال « روزاس » الشبيه بأشارف الاسبانيين ، « وبورتاليس » المحافظ على القيم التقليدية ، كم من ملون غريب الاخلاق ؟ واننا نكتفي هنا بذكر راعي الخنازير الهندي ، « كاريرا » ، الذي حكم غواتيمالا حكما استبداديا طوال خمس وعشرين سنة . واي انتقام كذلك حين يحكم المكسيك هندي من امثال « بنيتو جواريز » او خليفته الخلاسي « بورفيريو دياز » ، او حين

بحكم فنزويلا « بايز » الامي الطويل القامة الذي كان فارساً ماهرا نظير روزاس !

ورقة تولي الكوديلو السلطة وورقة اخرى تنزعها منه . اليوم هو رســول العناية الالهية الواجب الوجود ؛ وغدا سوف تلحق به كل شتيمة ؛ واذا ما استلم دفة الحكم مرة اخرى ، استعاد شعبيته . ومن غريب التناقض انه انما ينتهك حرمة القانون بغية فرض احترامه احتراماً افضل . اما الكنيسة فترضى عمن ايدته او من هو بحاجة اليها ، وتعاني من النظام الذي تكون هي ضحيته .

ولكن مهما يكن من قساوته ، فان هذا النظام ، الذي كان وليد الفوضى ،كان علاجها ايضاً . يثقل الضرائب لمصلحته ، ولكنه يثقلها لمصلحة الدولة ايضاً . وقد ظهر ممثله بمظهر الموحد حين دعــي روزاس في الارجنتين وبورتاليس في شيلي وجواريز في المكسيك . لقد تنكل بالامين ولكنه اهتم اهتماماً كبيرا بالتعليم العام ؛ وقتل بالعسكريين والحقوقيين ، ولكنه كان واسع الآفاق ، فوفر العمل بتأسيس المشاغل والمصانع . وجملة القول انه اعاد وصان وأمن المستقبل الوحدة الوطنية ، وان تخلى عن بعض حقوقه للرأسماليين وللدول الاجنبية .

الاستمرار والتنوع البرازيليان

من غويانا الى مشارف لابلاتا، ومن جبال الاندس الى الاطلسي امتدت سيادة واحدة ، كما في عهد السيطرة البرتغالية ، على اكثر من ٨ ملايين كيلومتر مربع . وعلى نقيض ما حدث في الاقاليم الاسبانية السابقة،استمرت هذه الوحدة في كنف السلالة الشرعية ، سلالة « براغانس » فكان للبرازيل من ثم وجــه مميز خاص .

لم يستلزم ابتداؤها على سلالتها الاوروبية اي ارتباط بالوطن الام القديم . وقــد حافــظ « دون بدرو » على كرسيه في ريو لانه برهن في برهة من الزمن انه برازيلي اكثر منه برتغالي . وعرف كيف يقتنع بنظام دستوري ترك له ، من جهة ثانية ، سلطة حقيقية ، ولا سيما الإشراف على ادارة مركزية ؛ وتحلى بالفطنة ابداً فاستقال في الوقت المناسب ، تاركاً ادارة شؤون البلاد لوصاية ، وفي الواقع للطبقات المسيطرة التي سرّت بالحكم طيلة قصور ابن الامبراطور الشرعي والتمهيد لولاية مليك برازيلي حقاً . فلعب بدرو الثاني دوراً شبيها بذاك الذي لعبه في الماضي ماركوس اوريليوس ، وذلك بفصله في الخلافات السياسية وباهتمامه بالتحقيقات العملية قبــل اي شيء آخر .

كانت هناك في الواقع اربع دول برازيلية متجانبة اكثر منها متضامنة : برازيل الاحراج الامازونية منتجة الاخشاب الثمينة ، برازيل الهضاب الواسعة حيث يستمر النشاط المتجمعي ، برازيل مشاجر المناطق الحارة (هذه هي برازيل قصب السكر والقطن في باهيا وبرنمبوك وريو)، واخيراً البرازيل الجنوبية التي اخذت منذ عهد قريب تتعاطى تربية المواشي . واذا اخــذ المهاجرون الاوروبيون ، وجلهم من الالمان ، يستوطنون هذه المنطقة الاخيرة ، فان الهنود ما

زالوا يسيطرون على المنطقة الاولى ، بينما تميزت المنطقتان الاخريان بعمل الارقاء في خدمة الارستوقراطيين من مواليد المستعمرات والخلاسيين . وكانت النزعة الانفصالية خافية ابداً حين لا تظهر بمحاولات انفصالية معلنة : حيناً في سيربا او برنمبوك ، وحيناً في بارا أو باهيا ، وآخر في ميناس ؛ وطوال عشر سنوات ، الفت « ريو غرانده دو سول » الاهابة والخوف في جيوش ريو. كلها ازمات اضرت بالنمو الاقتصادي واثقلت كاهل الخزينة، واوجبت تعهد قوة عسكرية وبحرية هامة . وكانت الكلمة الفصل الاخيرة للاسطول الذي يحاصر الثائرين . وقد اعتمدت في الوقت نفسه - في سبيل النفوذ والسيطرة على مداخل حوض « بارانا - بلاتا » - السياسة التوسعية البرتغالية القديمة باتجاه الغرب ، الى ما وراء خط « توردسيلاس » فأقحمت البرازيل في نزاعات دائمة باهظة الاكلاف لم تؤد الى اشباع مطامعها اشباعاً تامــاً . فان الشل الذي انتهت اليه البارافواي مثلا لم يكن تعويضاً كافياً عن فقدان الاوروغواي .

توطدت الدولة البرازيلية شيئاً فشيئاً باستمالتها رؤوس الاموال البريطانية ، وبيعها المواد الغذائية والخامات وتشغيلها العبيد ، وتمويلها اصحاب المغارس والمناجم . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، وطيلة ١٥ سنة ، ارتسمت انطلاقتها بمزيد من الوضوح : فقد تضاعف دخل التجارة الخارجية وتوسعت عمليات احياء الاراضي ، وظهر الخط الحديدي والتلغراف . وكان ذلك العصر الذهبي للقطن والسكر . ولكن حرب البارافواي الرهيبة كلفت اموالاً كثيرة بلغت المليار ، فعقبتها مرحلة هبوط : ازمة سكر وازمة مناجم زادت من شدتها ازمة الرق . فبين قانون السنة ١٨٧١ ، وقد اقرت بموجبه حرية الزنوج الذي سيولدون (قانون البطن) ، وقانون الاعتــاق الشامل الذي صدر في السنة ١٨٨٨ ، تفاقم الهيجان والاضطرابات . فتخلى عن الامــبراطور اسياد الارقاء ، كما تخلى عنه الاكليروس والجيش نفسه الذي شكا من ضآلة الرواتب،فتخاذل امام انقلاب السنة ١٨٨٩ .

كانت الخطى الاولى التي خطتها جمهورية الولايات المتحدة البرازيلية عسيرة جداً. وقد ترتب على كل ولاية ، منذ ذاك التاريخ، ان تعيش لنفسها . فتجهزت « ساو باولو » بالادوات ونجحت في بيع بنها وازدهرت ، بينما عاشت باهيا وبرنمبوك في ضيق ؛ واستفــاد الجنوب من الهجرة الاوروبية الثانية وربّى المواشي وزرع الحبوب ؛ ولكن منطقــة الهضاب اعتمدت الاقتصاد الراعوي ببعض الصعوبة . وأثار زوال اليد العاملة العبدية مسائل خطيرة دارت كلها حول اعتماد اقتصاد جديد مبني على نظام الاجور. الا ان تزايد الطلب الاوروبي والاميركي الشمالي قد ساعد البرازيل الحديثة على النهوض . وقد اجتاحت حمى المضاربة مجتمع اصحاب المزارع وتجار اللحوم والجلود ؛ ثم ما لبثت هذه الحمى ان امتدت الى مناطق احراج امازونيا الغنية بالمطاط فتحسن التجهيز واتسعت المدن ، ولكن تفضل الفئات المثرية قابله بؤس الجماهير التي كان الجوع رفيقها الدائم . وقابل نخبة من كبار الحقوقيين والكتاب المتنجين من جهة سيطرة امية واسعة من جهة اخرى . وقد طبعت التناقضات الاجتماعية والاقليمية الجمهورية الكبرى الخاضعة لنظام

الانتخاب العام المباشر بطابع مميز لم تعرفه من قبل .

جمهوريتان راعويتان : الارجنتين والاوروغواي

كما في القارات الاخرى ، وفي المناطق المتقابلة بالنسبة لخط الاستواء ، تمتد جنوبي خط الجدي مساحات واسعة جرداء ، وتصبح الارض جافة والمناخ منشطاً وملوياً . تعزل المجموعة السكنية في الباميا ، شبيهة بالمزرعة البويرية او الانكلوساكسونية ، ويتعاطى اصحابها تربية المواشي . ويذكر نمو المدن الجديدة بالاراضي الجنوبية المقابلة ايضاً : فمنذ السنة ١٨٧٠ اقام في المدن زهاء ١٠٪ من سكان الارجنتين ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ضمت « بوينوس ايرس » ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة من اصل ٤ ملايين ونصف المليون . وهنالك نسبة اعلى من هذه : فان الـ ٢٠٠ ٠٠٠ شخص الذين عاشوا في « مونتفيديو » كانوا يمثلون اكثر من ربع سكان الاوروغواي . ويذكرنا مرفأ تصدير الاصواف واللحوم والجلود هذان بمرفأي ملبورن وسيدني .

ويبرز التضاد خصوصاً مع البرازيل ، غير المتجانسة ، والمشكلة بفعل التنوءات : فنحن نتصور دولة كبرى واحدة في اطار واسع جداً وخال من التنوءات هو اطار السهل الذي تتجه مياهه كلها الى لابلاتا . والحال لم يتجاوز سكان بوينوس ايرس الـ ٢٥ الف نسمة حين قررت انكلترا فيها إبطال الميثاق الاستعماري الاسباني وأولتها كل اهميتها . وحتى في السنة ١٨١٦ اعلن سان مارتين في توكومان استقلال ولايات لابلاتا المتحدة قبل ان يذهب الى « ليما » ليبحث فيها عن مفاتيح مسكنه . وستبقى حدود الجمهورية زمناً طويلاً بدون تعيين . ففي سبيل استمالة اقليم الـ « شاكو » ، وأقاليم المغارس والملح في منطقة جبال الانديس ، كان يقتضي الانتصار على الباميا التي لم تكن حلقة اتصال بل عائقاً جدياً . وقد اصاب سارمينتو حين قال « ان المصيبة التي تعاني منها الجمهورية الفضية هي امتدادها ؛ الصحراء تحيط بها من كل جانب وتدخل الى قلب البلاد ؛ العزلة والمسافات الخالية من اي مسكن بشري تؤلفان الحدود المسلم بها بين الولايات المختلفة » . وهكذا فان البورة التي يسيطر عليها الجفاف واسراب الجراد وتمر فيهما مسالك نادرة الدروب ، قد تحكمت بوسط البلاد وحتى بمشارف العاصمة وعزلت الولايات وخلقت الفوارق الاقليمية . ولكن الحقيقة التي يجب تمثلها هي ان البلاد افتقرت الى السكان الذين لم يبلغوا المليونين في السنة ١٨٧٠ .

تخطى المفكر « ربما دافياء اهل زمانه الى تجربة محاولة ديموقراطية تكون على رأسها نخبة سكان العاصمة . فحدثت ردة فعل انفصالية عنيفة كادت تؤدي الى قيام ثلاث او اربع دول مستقلة مكان الارجنتين المتفككة لولا شدة عزم «روزاس» . سار روزاس على رأس عمال المزارع ورعاة المواشي وسحق الزعماء المحليين او فاوضهم واقترح على الارجنتينيين احتلال المناطق النهرية وتحدى اوروبا . اجل لقد انتهت فظاظته بقتله ، ولكن عمله بقي من بعده .

كانت ارجنتين السنة ١٨٥٠ من خلق مواليد المستعمرات والخلاسيين الذين اسسوها . فكل

شيء فيما كان مرتبطاً بالراعي الذي يراقب ويطارد ويسلم القطعان الثائهة: وقد عظمه سارمينتو في كتابه « فاكوندو » . ولكن بورجوازية اعمـــال تمت في بوينوس ايرس واتصلت بأوروبا ونازعت المزارعين المكاسب التي وفرتها لهم تربية المواشي . فان « اوركويزا» الذي مثل العهد الاتحادي ما زال أشبه بسيد عقاري كبير ؛ اما سارميتنو فقـــد أنبأ بتسلم البورجوازيين زمام السلطة .

وكما جرى في البرازيل ، حدثت ثورة بـــين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٠. فمن جهة رفعت الهجرة الاوروبية عدد السكان من مليونين الى اربعة ملايين : مما زاد نسبة البياض في لون الارجنتين . ومن جهة ثانية تعاظم شأن الاقتصاد الراعوي تعاظماً كبيراً : فنمت في الوقت نفسه القطعان المعدة لانتاج الاصواف والقطعان المعدة لانتاج اللحوم ؛ وعقبت تسليمات اللحوم المجففة تسليمات اللحوم المملحة ، وبني البراد الاول في السنة ١٨٨٢ . ثم بوشر تنفيـــذ بعض المشاريع ببناء الخطوط الحديدية ، فارتسمت الشبكة التي ستنشأ في المستقبل وتوثقت روابط الاتحاد . وزاد نفوذ بوينوس ايرس الفخورة بمجتمعها الانيق ونشاطها : وبرهنت ارجنتين سارميتنو وألبردي عن حرصها على التعليم الالزامي والدروس العلميـــة ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، عادلت التجارة الخارجية بأهميتها تجارة البرازيل التي كانت تفوقها سكانا .

بينما كانت الباراغواي عائشة في ضيق تحت سلطة دكتاتوريها الذين دافعوا بلا مراء دفاعاً حريصاً عن شخصيتها العنصرية ، ولكنهم جروها الى كارثة لن تنهض منها قبل القرن العشرين، استفادت الاوروغواي من حسن طالع الارجنتين . فالرعاة سنوا فيها الشرائع على غرار مـــا جرى في الجهة المقابلة وراء لابلاتا ، وتوصلوا في السنة ١٨٩٠ الى جمع ٢٣ مليون حيوان مقابل ٧٠٠ الف نسمة . ولكن بورجوازية مونتفيديو ، المدينة الجميلة القائمة على رأس داخل في البحر نظير قرطاجة ، اتصفت بانفتاح فكري عظيم . اجل كان الصراع عنيفاً بين البيض ، الاسباني المنشأ والكاثوليك عموماً، من جهة ، وبين الملونين ، الخلاسيين المستندين الى المحافل المـــاسونية عموماً، من الجهة الثانية : ولكنه لم يمنع انفصال الكنيســة عن الدولة ، وإلغاء عقوبة الاعدام ، واقرار قانون العمل .

الشيلي : غرابة جغرافية ونجاح قومي

لم تسمح جبال الاندس بأن تحتل دولة واحـــدة كل عرض البر عند المناطق المتوسطة البعد عن خط الاستواء . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان قبطانية الشيلي العامة كانت تابعة اليها ؛ وعلى شواطىء الباسيفيكي قام الجسم المسيخ الذي تحاذت ولاياته ، على طول ٤٢٠٠ كيلومتر و ٤٠ درجة من درجات العرض كما تتحاذى خرزات السبحة ، وتميز بمواصلات برية بعيدة التصديق وبسواحل لكثر فيهـــا الرؤوس والخلجان . فكانت البلاد أشبه ما تكون بجزيرة تحيط بها المـيـــاه والقمم المرتفعة وأحراج المناطق الباردة في الجنوب – حيث تقطع الاخشاب الضرورية لبناء السفن – والصحراء

الحارة في الشمال ، ويمتد في وسطها واد معتدل المناخ وخصب التربة .

تسلم وادي سانتياغو هذا زمام السلطة مستفيداً من مرفأ كبير هو فالباريزو ومن مجاز لا كومبره المؤدي الى البامبا الغنية بالحقول التي اولع بها أصحاب المزارع. وأضافت بعض العائلات الغنية من مواليد المستعمرات مكاسب زراعة الحبوب الى تربية المواشي . وتحقق الاستقلال بمساندة الانكليز . ومنذ ذلك الحين ، أمن الحزبان المتنافسان ، المحافظون والاحرار - اللذان يعبران عن الجناحين مختلفين في الرأي العام الارستوقراطي - تسيير عجلة الشؤون العامة دون صعوبات هامة .

ولكن التشيلي ما كانت لتحتل مركزاً هاماً في هذه المنطقة الضيقة . ففي سبيل السيطرة على الاحراج الجنوبية توجب عليها اخضاع الاروكان ، فدخلت صراعاً لن ينتهي الا في السنة ١٨٨٣ ارغمها على البقاء في حالة حرب دائمة. واستغلت كذلك صفاتها الحربية بشنها على بوليفيا والبيرو، بغية الاستيلاء على الصحراء الشمالية الغنية بالمعادن ، حرباً لم تكن دون صراعها مع الاروكان عنفاً .

على الرغم من ان عدد سكانها قد تضاعف ، افتقرت التشيلي الى اليد العاملة ، وكانت الاجور فيها اعلى منها نسبياً في البلدان المجاورة . ولسنا نعني بذلك زوال البؤس ! فاستثمارات المناجم كانت أشبه بالجحيم . ولكن النترات والنحاس قد وفرا مداخيل اتاحت تجهيز البلاد بالخطوط الحديدية والمرافىء . وتعاظمت طبقة بورجوازية نازعت الاوليغارشية العقارية السلطة : فكانت ثورة السنة ١٨٩١ التي نهض بها الاسطول واستفاد منها رجال المال ، انتهت باستقالة « بالماسيداء آخر رئيس سلك سلوك الاشارف . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار النهضة الاقتصادية وحسن ادارة الاموال العامة وتقدم التعلم وتقسيم الاملاك الكبرى تقسيا تدريجياً ، بدا لنا ان مستوى الحياة العام كان آخذاً في الارتفاع .

الجمهوريات الاربع في جبال الاندس المرتفعة : نموها العسير

بعد تواري بوليفار وتبخر حلمه - وحدة النيابتين الملكيتين القديمة ، غرناطة الجديدة وليما - اشرف خلفاؤه على ولادة خمس جمهوريات خصيبة وفقيرة . ولكن الطبيعة نفسها قد ساعدت على التجزئة : فان قيام النيابتين قبل مشروع التوحيد كان مطابقاً لتضاد كلي الوضوح بين المناخات الرطبة والمناخات الجافة في الجبال التي لم تتأثر بها تأثراً كبيراً ؛ فلن يتمكن اي مركز من فرض نفسه بعد انهيار السيطرة الاسبانية .

جمع البيرو بين المناطق المنخفضة التي يتعذر زرعها الا بواسطة الري وبين وعورة الهضاب التي تعتبر بين اكثر هضاب الكرة الارضية ارتفاعاً واقفاراً . انها ارض الهندي والخروف والجمل الاميركي والمعادن الثمينة .

اما الكتلة الكثيفة ، التي ارتبطت بنيابة لابلاتا الملكية بعلائق تجارية وانضمت اليها في

عهد متأخر ، فقد حملت اسم « ليبرتادور » الجيد . ولكن اسمها لم يجعل منها دولة قوية : اذ لم يتجاوز سكانها المليوني نسمة في اكثر من مليون كيلومتر مربع في السنة ١٩٠٠ . وقـد بلغ السيل الزبى عندما فقدت بوليفيا منفذها الضيق الى البحر وانتزعت البرازيل منها بعد ذلك اقليم « اكر » الغني بالمطاط . اضف الى ذلك ان سكانها الفقراء والمتخلفين لم يستفيدوا استفادة كبرى من ثروة الفضة التي ما لبثت ان انضمت اليها ثروة اعظم شأناً هي مناجم القصدير الوفيرة .

لم تكن البيرو اوفر حظاً . فان ليما، العاصمة الشتائية الساحرة ، كانت آخذة في التقهقر بسبب بعدها عن « الاراضي الباردة » أي عن المنطقة الهندية المرتفعة ، وقد مالت طبعاً الى اعتبارها كاحدى ملحقاتها . وقد اضرت بها « اريكويبا » بفضل حسن موقعها بالنسبة لمراكز الغوانو ، ومناجم النترات ، و « كوزكو » وحتى منطقة مونتانا الامازونية الطابع التي اجتذب « مطاطها الشتائي » العديد من المهاجرين في اواخر القرن. اجل لقد اعتق الكوديلو « كاستيلا» الزنوج والهنود ، ولكن مسألة اليد العاملة اصبحت مسألة عسيرة،لا سيما وان الـ ٩٠ الف صيني الذين نزلوا الى البر بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ لم يلبثوا ان اعتبروا غير مرغوب فيهم . ولكن الدولة يجب ان تعيش من الغوانو والمناجم : ألم يذهب « مانويل باردو » الى حد تقرير احتكار النترات في السنة ١٨٧٥ ؟ والحال فقد عجز الجيش الضعيف والمتطلب ، الذي ترتبط به السلطة ، حتى عن الدفاع عن النترات ! وفقدان النترات يعني الافلاس ، لا سيما وقـد ثقلت وطأة ضريبة الملح على كامل عامة الشعب . انه لتاريخ حكم معوز تخللته ثورات دائمة شاهدها الشعب دونما اكتراث .

عرفت الاكوادور ، الضيقة الرقعة ، مشاقات مماثلة . فان « كيتو » ، العاصمة الهندية القديمة ، القائمة على ارتفاع ٣ آلاف متر ، لم تتغلب على « غواياكيل »، سوق تصريف محاصيل مغارس المناطق الحارة . وازداد هذا التضاد الذي شاهدناه في البيرو بين « الاراضي الباردة » و « الاراضي الحارة » . وادت ازمة قصب السكر الذي كان يزرعه الزنوج الى افقار اصحاب المغارس ، وما كانت شجرة الكاكاو بعد لتخلص البلاد من ورطتها . ولذلك فان الجيل القاسي والمتخلف قد فرض « فلوريس » وساند « غارسيا - مورينو » والمحافظين ورجال الاكليروس. وقد دخلت الاكوادور في نزاع دائم مع جيرانها ، فانكمشت رقعتها شيئاً فشيئاً وفقـدت في النهاية نصيبها من منطقة « مونتانا » .

ابعد الى الشمال تزول الانجاد في جبال الاندس وتزداد الرطوبة ، فتتجزأ كولومبيا جبالاً وعرة المنحدرات ووديانا داخلية سحيقة موازية لخط الطول، بينا تعزلها عن شاطىء «شوكو» الباسيفيكي احراج كثيفة الاشجار . وذهب بعضهم الى حد القول انها اشبه بجزيرة جبلية تحيط بها الاحراج . وقد نشطت فيها تربية المواشي في « المناطق الباردة » الى جـانب المغارس في « المناطق المعتدلة » ، ووجهت شبكتا « مجدلينا » و « كوكا » حركة النقل فيهـا شطر بحر

الانتيل لمصلحة قرطجنة . واعطاها امتلاكها لمضيق بانامـا مركزاً دولياً قوياً لم يخـل من الاخطار .

تسلطت ذكريات غرناطة الجديدة على رجال بوغوتا الذين لم يرضوا بالتخلي عن فكـرة كولومبيا الكبرى على الرغم من ان حكم كولومبيا الحالية كان من الصعوبة بمكان بسبب انقسامها . فسكان المناطق المختلفة لا يرون مبرراً يوجب عليهم الانحناء أمام توجيهات سكان بوغوتا: فئات تجانبت وتألف كل منها من مواليد مستعمرات وخلاسيين وزنوج ومن بعض الهنود الذين لا شأن لهم . اضف الى ذلك ان الاقتصاد كان في حالة ركود : فقرطجنة لم تكترث لانكباس القناة التي كانت تصلها بمجدلينا ، والاسهام الاوروبي كان طفيفاً جداً . وكانت الاثرة الاقليمية والبؤس مصدر الاضطرابات التي ارتدت طابع الوحشية القصوى . وانتقل الحكم من المحافظة الاوليغارشية الى الراديكالية ، ومن مناهضة الاكليروس الى ردة فعـل اكليروسية ، ومن الغاء حكم الاعدام الى مذابح بين انصار الفرقاء ، ومـن الاتحادية بـين الولايات الى الدكتاتورية الخانقة . واتضح التدخل الاميركي في النهاية وأدى الى خسارة بانامـا ، بينما هيأ نجاح زراعة القطن وشجرة البن لمستقبل قريب افضل ، بانتظار ظهور البـترول ، ذلك المورد غير المتوقع .

فنزويلا بين سكان السهول واصحاب المغارس

جاءت الثورة مبكرة في شطر غرناطة الجديدة المتجه نحو بحر الانتيل والمجاور لـباسب الاورينوك ايضاً : فقـد استطاع مواليد المستعمرات الاتصال بكوراسا ووترينيداد من جهة ، والحصول على المساعدة والحماية في السهول . وكانت هنالك حركة نقل هامة بين مناطق تربية المواشي الداخلية الواسعة وبين المرافىء ؛ وكانت الجزر قد ادخلت الى مرتفعات غرناطـة الجديدة زراعة شجرتي البن والكاكاو واسترقاق الزنوج . فألف مربو المواشـي وأصحاب المغارس من ثم الفئتين الاجتماعيتين اللتين سيتبع اتفاقهما انماء فنزويلا ، وربما تفسر خلافاتها تاريخها المضطرب ايضاً .

هم سكان السهول ، وسوادهم من الخلاسيين ، القساة والاميين، الذين الفوا، بقيادة « بايز» « زعيم السهول » ، خير عناصر الجيش الذي جمعه بوليفار . ولكن الدستور الاتحـادي والاوليغارشي الذي خلفه « المحرر » ما كان ليحول دون الحروب الاهلية التي نمت ابانها الروح الانفصالية : فان انفصال « ماراكايبو » ، منافسة كاراكاس، استعجل التطور نحو الصيغة الاتحادية ، فقسم دستور السنة ١٨٦٤ البلاد الى ٢٤ ولاية . وفي فترة من الزمن ادار الكوديلو « غوزمان بلانكو » دفة الحكم بقوة : فنظم الجيش وناصر الادباء وسعى الى تنمية الاقتصاد وعادى الكنيسة التي كانت ممتلكاتها مغرية ، ولكنه لم يرض مع كل ذلك بالخضوع لاوروبا الاستعمارية . فقد نشب نزاع على الحدود بينه وبين انكلترا حول اراضي « يوروراي » الغنية

بالنصب ، دام ١٣ سنة . ثم تجددت الاضطرابات ، مصادفة في الزمان حدوث الازمة التي عانت منها تربية المواشي : فوجهت الاوبئة الحيوانية والحروب الاهلية ضربة خطيرة لسكان السهول الذين كانوا يرفضون الانحناء امام فنزويلا البن والكاكاو . وهنا كما في غير مكان تم الانتقال بصعوبة من اليد العاملة العبدية الى نظام العمل المأجور : وعلى الرغم من ارتفاع عدد السكان ، فان الهجرة الاوروبية ما زالت غير كافية ، لا سيما وأن منافسة المزارعين البرازيليين كانت مثاراً للخوف . زد على ذلك اخيراً ان هوة سحيقة قد باعدت بين الاقلية المتملة والغنية وبين كبار المالكين والسكان الآخرين ، في هذه الجمهورية المدعية بالديموقراطية .

الجمهوريات الصغرى في اميركا الوسطى

يمكننا اجمال القول بأن النظام الاتحادي قد حد من تجزئة الكتلة الاميركية الجنوبية . أما في اميركا الوسطى ، فقد اخفق وعجز عن تحقيق اعادة التجمع . فقبطانية غواتيمالا العامة القديمة قد تجزأت بعد رفضها سيطرة المكسيك التي كانت متحدة بها في نيابة اسبانيا الجديدة الملكية .

دفع المناخ الحار والرطب نفسه بالانسان في كل مكان تقريباً الى « المناطق المعتدلة » . ولكن كثافة السكان متباينة تبايناً بعيداً والتكوين العنصري مختلفاً جداً . فبينما كانت غواتيمالا ، ولا سيما سان سلفادور ، اكثر أهلاً بالسكان من البلدان المجاورة ، تميزت كوستاريكا بنسبة كبرى نادرة من العنصر الابيض . ولكن هذه الأخيرة انفت من تحمل شريعة دول الملونين ، كما ان غواتيمالا افتقرت الى التفوق العددي الذي كان من شأنه ان يعيد اليها اولويتها السياسية القديمة .

سيطرت من ثم على هذه الدول حروب دائمة كثيرة ، كما سيطر على كل جمهورية اضطراب داخلي مزمن . ولم يحقق الغاء الرق التهدئة الاجتماعية . وهو أحد كبار اصحاب مغارس شجرة البن من انشأ في غواتيمالا الطريق الجيدة الوحيدة التي تستطيع اميركا الوسطى ان تفاخر بها .

لم تستهو اميركا الوسطى المهاجرين ، ولكنها اثارت اطماع الدول الاستعمارية والخلافات فيما بينها . واذا كثر الكلام عن قناة تفتح عبر غواتيمالا ، فان الخطوط الحديدية الاولى قد انشئت في باناما وتهوانتيبيك ، بينما فتحت القناة في النهاية في البرزخ البانامي .

ارتقاء المكسيك المتأخر

ما زال اسم المكسيك ، على غرار اسم البيرو ، يعيد الى الذاكرة امجاد الماضي العظيمة .

ولكن الواقع اراد ان تكون البلاد فقيرة . فان سواد السكان - ٦ ملايين حوالي السنة ١٨٠٠ ، و ١٣ مليون ونصف المليون في السنة ١٩٠٠ - خضعوا لمستوى معيشي متدن جداً . إلا ان هنالك نسبة من الخلاسيين ربما ساوت نسبة الهنود في اواخر القرن . وهذا هو بالضبط سبب حدة التضاد بين الارستوقراطية البيضاء الاسبانية الاصل وبين الملونين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان شبه الجزيرة المرتفع هذا يمتد في جوار الولايات المتحدة والدول الاستعمارية

الموجودة في الانتيل . فقد سعى مواليد المستعمرات الى اطالة النظام الاسباني بشكل ملكية محافظة تؤمن امتيازاتهم، كما رغب الاجانب ، فيما بعنيهم ، في قيام سلطة تضمن استثمار الثروات المنجمية استثماراً هادئاً : فكان هنالك ارتباط مزدوج . وسواء عمت الفوضى أو ساد النظام فان مصير المكسيك يخضعها لأحد هذين الارتباطين . ولم تحل الحكومة المقيمة في مكسيكو الا بصعوبة كلية دون تجزئة نيابة اسبانيا الجديدة الملكية القديمة : فمن جهة افلتت اميركا الوسطى من يدها ، ومن جهة ثانية ، اضطرت لأن تتخلى للولايات المتحدة عن مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ! وبعد انفصال تكساس ، تغلبت بصعوبة على انفصال سونورا وشبهاهوا في الشمال الغربي الصحراوي ، ويوكاتان وراء احراج تهوانتيبيك . ومهما يكن من الأمر فقد تغلب النظام الاتحادي الذي كرس ضعف السلطة المركزية .

عبثاً حاول « ايتوربيد » ، باسم « اوغسطين الاول » ، ان يقلد الاباطرة بمساندة الجيش والاكليروس وكبار الملاكين في الهضبة الوسطى: فحين انقطع عن اغراء الجيش بالمال ، بدأ عهد الحركات الانقلابية والاضطرابات بالاستناد الى دستور جمهوري اتحادي . واشتهر سانتا - آنا ، بغرابة اطواره وتقلبه - فتارة اعتمد على الخلاسيين وأمر بأبعاد حتى ٢٠ الف من مواليد المستعمرات، وأخرى استند الى الاوليغارشية والاكليروس - وعاش من القروض ولقط حيثما سقط ، فسيطر على عهد بلبلة لا يمكن وصفها أدت الى كارثة السنة ١٨٤٨ . ثم عرفت البلاد فترة حكم مركزي لم يكن اوفر حظاً . واخيراً استعجل الغاء الرق فقدان تكساس .

قام الراديكاليون - « الاطهار » - « باصلاح » على حساب الكنيسة لم يرض الهنود والخلاسيين (فهم الرأسماليون من اشتروا الممتلكات المصادرة) ، بل تحول الى حرب اهلية وجر الى التدخل الاجنبي . أجل لقد حقق « جواريز » ، بعد اخفاق امبراطورية مكسيميليان المحافظة ، حكماً علمانياً افاد منه الخلاسيون والتعليم الشعبي . ولكن الأمية كانت عميقة الجذور، والفدادية الهندية لم تُلغ ، والحكومة لم تتوفق الى فرض هيبتها نهائياً .

حين استلم نائب جواريز ، بورفيريو دياز ، زمام الحكم بدوره ، بدا الظرف مؤاتياً للعلماء ، الراغبين في تطوير المكسيك وجعلها دولة عصرية ، حتى ولو انتهت السلطة الى دكتاتور .

ولكن الكوديلو استخدم هذه الطبقة المثقفة المتأثرة بالفلسفة الوضعية وسحق كل مقاومة ولصوصية معاً بواسطة قوى أمن حسنة التنظيم ، واشرك في مجهوده الاكليروس ، والملاكين ، والمضاربين الذين اثروا بفضل « الاصلاح » ، وانصرف الى ايحاء الثقة للرأسماليين الاجانب . فانشئت شبكة الخطوط الحديدية ووصلت بخطوط الولايات المتحدة ، وفتحت بعض المصارف ابوابها ، وارتفعت التجارة الخارجية الى خمسة اضعافها خلال ٢٥ سنة ، وجملت مدينة مكسيكو واتخذت فيها التدابير الصحية الضرورية ، وجمعت بورجوازية من الخلاسيين ثروات طائلة . ولكن هذه النجاحات كانت اعجز من ان تخفي العجز المالي، والبؤس والجهل الشاملين، واستئثار الاجانب بالاراضي والمناجم .

غويانا والانتيل تحت السيطرة الاوروبية

من غرائب الظواهر ، بعد الاستقلال ، ان بعض الدول الشمالية قد حافظت على ممتلكاتها . وتشمل هذه الممتلكات ، بالاضافة الى هوندوراس البريطانية ، غويانا بكليتها ومعظم جزر الانتيل . لا بل حدث في السنة ١٨٩٨ ان اقصيت اسبانيا عن مستعمرتيها الاخيرتين ، كوبا وبورتوريكو .

ان جبال غويانا ، المرتفعة وراء ساحل منخفض كثيف الاشجار ، والمغطاة باحراج وسباسب المناطق الحارة ، وغير المؤاتية للاستثمار الاوروبي ، قد مرّت بأزمة حادة خطيرة . فقد افتقرت مغارس قصب السكر واشجار البن فيها الى اليد العاملة البديلة حين الغي الرق . بيد ان تحسناً نسبياً طرأ على الوضع حوالي السنة ١٨٩٠ بادخال الجاوانيين الى القطاع الهولندي والهنود الآسيويين الى القطاع البريطاني . اما القطاع الفرنسي فما زال يعاني من الأزمة .

ومرت جزر الهند الغربية كذلك بساعات عصيبة ايضاً .

خرجت بريطانيا العظمى بمكاسب كثيرة من التنازعات الدولية الطويلة . فعلى الرغم من ان الاسبانيين ما زالوا يملكون جزيرتين كبيرتين من جزر الانتيل ، وان الهولنديين احتفظوا بكوراساو ، والفرنسيين استعادوا المارتينيك و « غوادلوب » و « ماري - غالنت » ، فانها قد احتلت مركزاً ممتازاً في الوسط بفضل امتلاكها « جامايكا » وسلسلة شبه متصلة من الجزر ، من برمودا وباهاما الى مصاب الاورنيوك ، اي انها راقبت بالنتيجة المناطق المجاورة للمتوسط الاميركي والبرازخ .

ولكن الهزة الاجتماعية التي سببها الغاء الرق قد خلخل هذا العالم الذي كوّنه الاستثمار الاستعماري . فان الحروب العبدية التي اجتاحت جزيرة هايتي والتي لم تتعاف هذه الأخيرة من بعدها ، قد انتقلت الى جامايكا حيث لم يصمد اعتاق الزنوج جروح الاقتصاد . واذا اتاحت ثورة السنة ١٨١٨ في فرنسا تبني مرسوم « شولشر » ، فان الامبراطورية الثانية حاولت العودة الى اشكال الأعمال الشاقة ، بينما سلمت هولندا بدورها مبدأ الاعتاق . وبعد السنة ١٨٧٠ مثلت الجمهورية الثالثة مستعمراتها بالوطن الأم . اما اسبانيا فقد غضت الطرف بملء رضاها عن النخاسة التي وفرت لنخاسيها مكاسب كبرى ، إلا أن الثورة التي اندلعت في كوبا وبورتوريكو ارغمتها على ان تحذو حذو الدول الأخرى . فلم يُبتّ من ثم نهائياً بالقضية إلا بعد قرن كامل من المماطلات والتأجيلات . ويرد ذلك الى تصادف بروز دول جديدة ومنتجة لقصب السكر والقطن والبن والأبازير والاخشاب الغريبة ، ومنافسة الشمندر لقصب السكر والكيمياء للنيلج . فاصيب الاقتصاد الانتيلي بضربة مزدوجة .

في جزر الانتيل الفرنسية ضحي بالمزروعات « الشريفة » . ولكن الادوات اللازمة لانتاج المواد الاساسية كانت بدائية ، والعمل كاد لا يكفي لحاجات السكان الكثيرين المتزايدين تزايداً سريعاً . يضاف الى ذلك تزايد متطلبات صاحب الملك كلما هبط انتاج المغارس . وحين استعاد

السكر هجومه ، استفادت منه الامـلاك الكبرى لان التكرير العصري يؤدي بالضرورة الى جمعه في « المعمل المركزي » . ففي السنة ١٩٠٠ احتل قصب السكر نصف الاراضي المزروعة في المرتينيك . وعلى الرغم من المؤسسات التسليفية ، فقد بقي الفارق كبيرا بين كبار الملاكين وجمهور الزنوج الذين يكتفون بالقليل .

في جامايكا استمرت الحرب العنصرية حتى السنة ١٨٩٥ . وكثيرون هم الزنوج الذين رجعوا الى قلع الاعشاب واحراقها وذر رمادها على الارض الزراعية والى تربية المواشي البـدائية . واستعمان البيض بالعمال الشرقيين المستأجرين الذين اثارت منافستهم اشتباكات مسلحة جديدة ؛ وقد اعتمدوا على الاجور المتدنية للمضاربة في اسواق السكر والبن ؛ ولكن الجمود كان كبيراً منذ السـنة ١٨٨٠. وتأثرت كذلك تأثراً كبيرا بأزمة السكر جزر ترينيداد والدومينيك وباربادء فاتجهت الاولى نحو زراعة شجرة الكاكاو والثانية نحو زراعة شجرة الليمون والثالثة نحو زراعة الـ « مارنتا » .

كانت كثافة السكان مرتفعة في بورتوريكو ، صغرى الجزيرتين الاسـبانيتين. ولكن الجزيرتين اهلتا بأكثرية من البيض الذين تعودوا ظروف الحياة المحلية . وبفضل الهجرة الاسبانية كانت نسبة الملونين آخذة بالتدني.وفي كوبا، توسعت زراعة قصب السكر توسعاً كبيراً في اراضي الغرب الجيدة ، بينما توزعت زراعة شجر البن والتبغ على مناطق مختلفة ، وحرس الرعاة الفرسان قطعان المواشي في «كاماغواي» الرملية . وهكذا ارتفع انتاج السكر من ٠٠٠ ١٢ طن في السنة ١٧٧٠ الى اكثر من ٧٠٠ الف في السنة ١٨٨٠ . وقـد جمعت الثروات الكبرى بفضل المغارس والنخاسة ؛ ولكن فقراء البيض لم يكونوا اوفر حظاً من الزنوج وخلاسيي الزنوج والهنود .

عشية الحرب الانفصالية الاميركية ، بدأت الازمة الكوبية الكبرى . فبينا برز جـانب الولايات المتحدة ، نرى الوطن الاسباني الام ، الذي اهمل تجهيز الجزيرة بالادوات اللازمـة ، يتجاهل الامية والحال الصحية السيئة في المستعمرة ، ويفرض على معاملاتها التجارية رسومـاً مرتفعة ، ويضع العراقيل في سبيلها . ولا يخلو من المغزى ان زعيم الثورة « دون كارلوس مانويل سـيدس » كان احد كبار اصحاب المغارس الاغنياء ؛ وحين طلب الى الزنوج امتشاق السلاح ، اسرعت مدريد الى الغاء الرق .

اتاحت قضية كوبا للولايات المتحدة التدخل مباشرة في الانتيل وتحويل ميزان القوى فيها لمصلحتها .

جمهوريتا هايتي

مهما قيل في ما عانته الجزر الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، فان البلايا التي امتحنت بها هايتي تفوق بلاياها طرا .

ان تاريخ الارض الهايتية انما هو تاريخ فوضى مستمرة واقتصاد متهور .

منذ زوال السيطرة الفرنسية ، لم يفارق الجزء الغربي من « سـان دومنغ » القديمة ، الذي

استمداد اسم هايتي الاسبق ، سوى اثنين من رؤسائه ينهبان مدة ولايتها . ولم يتردد احدهما ، « فوستين – نابوليون – روبسبير سولوك » ، الطاغية المعجب بنفسه ، في الادعاء بالكرامة الامبراطورية . وقد احرقت « بور – او – برنس » في السنة ١٨٧٩ والسنة ١٨٨٣ ، ولكن الجيش ضم ٧٠٠٠ ضابط مقابل ٦٥٠٠ جندي . ولم يكن هناك من طريق جيدة، ومعدل الرسائل التي ينقلها البريد هو رسالة واحدة للشخص الواحد كل ثلاث سنوات . ولكن هل يعرف احد بالضبط عدد مواطني الجمهورية ؟ فقد قدره بعضهم بمليون نسمة في السنة ١٨٠٠ ، بينا لم يقدره سواهم الا بـ ٥٠٠ الف الذي هو عددهم في السنة ١٨٠٠ . كل شيء كان متأخرا ولا سيا زراعة قصب السكر والقطن . الزنوج وخلاسيو الهنود والزنوج كانوا يتنازعون الاراضي ولا يتفقون الا على منع البيض من امتلاكها . وعلى الرغم من كل ذلك كان السكان مرحين ، يعتقدون بالسحرة والكهان الراقصين ، ويمارسون تضحية الديكة والكباش البيضاء وحتى الاطفال ، ويجهلون القراءة والكتابة . وقد يحدث احياناً ان يدفعهم طبعهم الحربي الى مهاجمة الجمهورية المجاورة .

في أواخر القرن الثامن عشر كان الجزء الفرنسي من الجزيرة متفوقاً تفوقاً بينا من حيث عدد السكان والثروة . ولكن نسبة الخلاسيين المرتفعة في القسم الاسباني قد خففت من وطأة الاختلافات العنصرية . اما الجمهورية الدومينيكية التي لم تخل من الاضطرابات ، فقد تميزت بمزيد من الحلم وتوفقت الى رفع عدد سكانها الى اربعة اضعافه ، والى تحسين تربية المواشي ونوعية التبغ . وقد كان من بعض مواليد المستعمرات وبعض خلاسيي الزنوج والهنود ، بقيادة احد مربي المواشي الحازمين ، « سانتانا » ، ان فكروا بالتخلص من الاضطرابات بالرجوع الى السلطة الاسبانية ؛ ولكن الاتفاق الذي عقد في السنة ١٨٦١ لم يدم طويلاً . وخلاصة القول ان التأخر في الاستثمار بقي كبيراً جداً ، ومستوى الحياة متدنياً جداً .

مذهب مونرو ويزوغ فجر سياسة اميركية شاملة

اذا ظهر منذ زوال الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية ، الشعور الذي ابدته رسالة مونرو بشراكة المصالح بين الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى واميركا اللاتينية ، فقد قابل براهين التضامن التي قدمتها الاولى موقف حذر غير خفي وقفته الثانية . ومرد ذلك الى ان سكان واشنطن ونيويورك احتقروا كل ما هو « داغو » ، اي من اصل ايبيري ، بينا سخر « داغو » بـ « غرنغو » ، اليانكي الوقح . يضاف الى هذا ان اعمال العنف التي كانت المكسيك ضحيتها في السنة ١٨٤٨ من قبل الولايات المتحدة ، والقحة التي سوت بها هذه الاخيرة مسائل البرازخ تسوية مباشرة مع لندن ، كانت كافية لجعلها مريبة في نظر اولئك الذين كانت تتظاهر بحمايتهم . وما كان اميركيو الوسط والجنوب ليجهلوا انهم وثرواتهم هدف التنازع على النفوذ بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة . فهم لم يشعروا بالميل الى سياسة اميركية شاملة كتلك التي يقول بها مونرو الا اذا بدا لهم الدفاع المشترك ضرورياً ضد استعمار ما زالت اخطاره محدقة بهم .

الا ان الشعور بتضامن ضروري بين الدول الاميركية قد نما عند رجال القانون وعلماء الاجتماع في الجمهوريات التي انهكتها حروب متكررة اعتبرت حروباً بين الاشقاء . وهكذا فقد نشر اندريس بالو الشاعر الكبير وجامع القانون الشيلي «مبادىء الحق الدولي» المشهورة التي استوحت مؤلفات القرن الثامن عشر الكبرى وبشرت ببيانات القرن العشرين . وفي الاجتماعات التي عقدت في ليما اقترحت صيغ جمة من اجل التعاون بين الامم التي يجمع بينها دم واحد وثقافة واحدة . ومع ذلك لم يبد غريبا ان تستهوي بعضهم رؤيا التقارب على قدم المساواة من الوطن الام القديم : فان كولومبيا وفنزويلا قد توجهتا الى اسبانيا لتسوية خلاف على الحدود وكان غيرهم اكثر واقعية ، وربما ارتضوا بالوصاية المقنّعة التي عرضتها بريطانيا العظمى الموجودة في كل مكان .

في السنة ١٨٨٩ ، بدأ عهد المؤتمرات الداعية لسياسة اميركية شاملة ، اي عهد «موزونية» تستجيب لحاجات دولة استعمارية . فهل كان على اميركا اللاتينية المنقسمة على نفسها والمتأخرة اقتصاديا ، حيث الهندي والزنجي والمهاجر الابيض الكادح العناصر الرئيسية السكان البائسين ، ان تتهرب من عروض الولايات المتحدة يا ترى ؟ ولكن هل هي ستتمتع طويلا بحرية الاختيار ؟

الفصل الرابع

العالم الاسلامي
من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب

مناقب الاسلام : وحدة واستمرار واشعاع

لم تفقد الحضارة الاسلامية شيئاً من شخصيتها في وسط القارة القديمة . اجل لقد اخضعها الاوروبيون سياسياً شيئاً فشيئاً . ولكن العقيدة التي ارتكزت اليها قد حافظت على حيويتها ، ولم تتخل عن شرائعها المعيشية واستمالت المزيد من المؤمنين .

يوافق الاسلام من جهة ، وبصورة خاصة ، المساحة الشاسعة النادرة المياه ، او حتى الصحراوية ، التي تمتد من موريتانيا الى الهندوس السفلي وبورات تركستان : وهي تمثل ، على وجه التقريب ، فتوحات العرب الذين وجدوا فيها ظروفاً سكنية شبيهة بظروف بلادهم . ومن جهة ثانية ، تخطى دين النبي في عهد لاحق – يدخل فيه القرن التاسع عشر – حدود هذه المناطق باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وانتشر في مناطق المناخ الحار الرطب وحتى الاستوائي، سواء في افريقيا وراء الصحراء ، ام في الصين الجنوبية ، حول المحيط الهندي ، وحتى في « المولوك »[1].

ما هو عدد هؤلاء المسلمين الذين يؤدون واجب الصلاة يومياً ، جاثين ارضاً ، ومتجهين نحو القبلة ، اي نحو مكة ؟ ان رقم الـ ١٧٥ مليوناً الذي اعطاه « بلونت » في كتابه « مستقبل الاسلام » (١٨٨٣) هو دون الواقع في الارجح (لم يقدر المؤلف الانكليزي حق قدرها اهمية عدد المسلمين في الهند والاراضي الروسية) . ومهما يكن في الامر فاننا نعتبر هذا العدد قليلا

---

(١) راجع خريطة الصفحة ٥٢٩ من المجلد الرابع (الطبعة العربية)، وخريطة الصفحة ٥٢١-٥٣ من هذا المجلد .

بالنسبة لمساحات على مثل هذا الاتساع . ويلفت الانتباه من جهة ثانية ان سواد المؤمنين يقطنون اشباه الجزر والجزر الآسيوية . ولكن الطابع القرآني يفرض في كلكوتا وباماكو والقاهرة وفاس وتومبوكتو على السواد اللغة المقدسة نفسها ، والشريعة نفسها ، والاخلاق نفسها ، والمؤسسات نفسها . فان ما امر به الكتاب المنزل من الله يصلح لكل الازمنة التي ستسبق مجيء « المهدي » (المسيح المنتظر) . والوحدة قائمة في الاستمرار نفسه ، والتقيد المشترك بالوصايا ، والانتظار المشترك اليوم الذي سيظهر فيه رسول الرب . ولذلك فان الاسلام خليق ابداً باسمه المشتق من من فعل « اسلم » ، اي سلم امره الى الله . يعامل الانسان بمزيد من القوة تبررها مراعاته لحاجات الحياة وحتى لبعض مخالفاتها ، وتساهله بالتمتع ان لم يكن بالتجاوز ، باعتبار ان الحرمان ينطوي على مساوىء يعتبرها خطيرة . فهو مثلا ينظم تعدد الزوجات دون تحريمه ، ويبقي على الرق ويحاول في الوقت نفسه التخفيف من وطأته ، ويحرم المراباة ولكنه لا يمنع التجارة ؛ يحل المرأة في مرتبة دنيا ولكنه يصرفها في ادارة ثروتها الشخصية ويحيطها بشتى مظاهر الاكرام ؛ يوصي بالحج الى مكة دون ان يجعل منه امراً الزامياً ؛ يحصر اللجوء الى الجهاد ، او الحروب المقدسة ، في الدفاع عن الدين الحقيقي وعدي الاوثان . يخلق بين المؤمنين اخوة ومساواة تتنافيان ووجود طائفة مختصة بالكهنة او الاشراف .

الايمان يدفع بألوف المؤمنين كل سنة الى الاماكن المقدسة . وقد قدر بعضهم ان زهاء ٥٠ الف هندي و ٢٠ الف ماليزي وعدداً كبيراً من المغاربة والمصريين والاتراك والايرانيين يذهبون الى مكة يؤدون طقوس العمرة حول الكعبة ؛ وقد يأتون للقيام بهذا الواجب حتى من افريقيا السوداء والصين . ينزل معظمهم الى البر في جدة التي تنقلهم اليها سفن بريطانية . أما طريق البر التي تبتديء في دمشق ، فطويلة وشاقة ؛ لذلك سوف يطلق السلطان عبد الحميد اهمية كبرى على بناء خط حديدي ينتهي الى ضريح محمد ، الى المدينة التي تفصلها عن مكة مسيرة احد عشر يوماً . وسوف يرفع الخط الحديدي الى اكثر من ٢٠٠ الف عدد الحجاج السنويين الذين لن يستخدم الطريق البحرية منهم بعد ذلك سوى اقل من نصفهم . واجتذبت الجماهير كذلك المدن المقدسة في بلاد فارس الشيعية ، ولكن على طرق اقل طولاً ومشقة .

ساعدت هذه الروحات والغدوات على سريان الافكار والاشعرة . ولكنها في الوقت الذي احيت فيه بعض التيارات التجارية ، أسهمت في انتشار الاوبئة ايضاً . ففي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦٨ ، ظهر الهواء الاصفر في مكة ، ثم انتقل الى شواطيء افريقيا الشرقية والحبشة ووادي النيل : فأدت معاودة الوباء واشتداده الى الفتك بزهاء ٣٠ الف شخص في زنجبار في السنة ١٨٧٠ . وانتقل الطاعون كذلك من الهند والخليج الفارسي ، فانتشر في السنة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ من جهة نحو مصر ، ومن جهة اخرى نحو افريقيا الشرقية وسنغافورة ، وحتى ابعد من ذلك في الباسيفيكي .

ما زال المؤذن في المغرب والسودان وتركستان والانسولند وفي كل مكان يوجه الدعـــوة الى الصلاة (الأذان) من اعلى المئذنة . وفي كل مكان ايضاً، وعلى الرغم مما ادخلته الفنون الاقليمية من اشكال متنوعة على تصميم الجامع وتزيينه ، آثر الاسلام تجديد القديم على الابتكار . فان بيت العبادة الذي شيده محمد علي في القاهرة لا ينم عن اي فن عصري ، شأنه شأن جامـــع الحميدية على كل حال ، مهما كان من رشاقة هذا الاخير . ولكن القصور الكثيرة التي خلفها بعض الامراء المتطفلين – قصر شيراغان ، لعبد العزيز (١٨٦٢ – ٦٧) ، وقصر يلدز الذي احتفظ به عبد الحميد بدوره لنفسه بعد زمن قصير في اسطنبول ، وقصرا القباري والمكس اللذان شيدهما سعيد في الاسكندرية (وقد تهدم ثانيهما بفعل ضرب القنابل في السنة ١٨٨٢) ، او قصر « بهية » في المغرب الذي شيد بين السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٠ للوصي على العرش احمد بن موسى – استجابت لمستلزمات المناخ وسمحت في الوقت نفسه للابتكارات التزيينية بأن تطلق لنفسها العنان ؛ وانما لوحظ تأخر في الذوق منـــذ انتشار الفن الغربي المبتذل في اواخر القرن الثامن عشر .

يبدو شكل المدينة الاسلامية وكأنه ثابت لا يدخل عليه اي تغيير : تحاط بأسوار تفتـــح فيها ابواب فخمة ، وتضم ، بالاضافة الى قصورها او سراياتها ، بعيوتها العمومية ، ومدارسها ، وزواياها التي تكرس لخدمتها دخول الاوقاف ، وحماماتها التي يتوجب على كل مسلم صالـــح ان يختلف اليها ؛ وتتوزع هنا وهناك اسواقها المسقوفة التي تقوم على جوانبها الحوانيت ، وخاناتها التي تستخدم كمستودعات للبضائع او فنادق ، وتجمع فوضى بيوتها بين الاكواخ الحقيرة ومساكن الاثرياء التي يفرق فيها بين السلاملك (او بيرون في ايران) المعد للاستقبال ، والحرم (او اندرون في ايران) المحفوظ للحياة الخاصة . ولكنها ، وان احاطت نفسها بتيقظ بالاسوار ، تحـــرص ابداً على الفصل بين المسلم واليهودي والمسيحي ؛ فكأنها تعزل مجتمعاً يرى الخير في احترام الوضع الراهن ، من اجل حمايته وتثبيته على حاله .

التيارات الدينية في الاسلام وسلوك المسلم حيال العبادات الاخرى

كانت ردة الفعل لمخالطة المسلمين لغير المؤمنين اتجاها نحـــو مزيد من التشدد او نحو موافقة ممكنة .

حاولت بعض الاتجاهات الاتفاق ومـا يعرف بالروح العصرية عن طريق التساهل . واننا نذكر منها البابية . التي انبثقت من المدرسة الفارسية الـتي كانت تكتفي بتفسير الامور العجيبة المتعلقة بحياة النبي تفسيراً رمزياً . فان «ميرزا علي محمد» الذي اختار لنفسه اسم « الباب» في السنة ١٨٤٢ ، وبدا من ثم وكأنه « المهدي» ، قد طلع بتعليم يقتبس عناصر كثيرة من المزدية وفلسفة انسانية ماسونية الطابع ؛ أوصى بحياة مطابقة للطبيعة وبمزيد من الحرية الفردية وبمساواة المرأة للرجل ، فأحرز نجاحاً شعبياً جعل السلطة تعتبره خطراً عليها ، ثم أعدم بأمر الشاه في الارجح. ولكن احد تلامذته ، بهاء الله، صمم على نشر دين جديد يقرب بين البشر ويخدم قضية السلام ، فالتف حوله في اوروبا واميركا اتباع اكثر عدداً من اتباعه بين

ابناء دينه من المسلمين . ثم تطورت البهائية بدورها ، بفضل عباس افندي ، ابن بهاء وخليفته ، نحو مذهب عقلي صرف . وبينا رجع الفارسي احمد خان بهادوس الى المعتزلية التي تقول بحرية الارادة ، اقترح جمال الدين الافغاني اسلاماً متحرراً، تابذاً في الوقت نفسه كل ما هو ، في نظره، مادية غربية . ثم جاء احد تلامذة هذا الاخير ، محمد عبده ، وطلع بنظريات اصلاح جـذري، مسلماً بأفضلية وحدة الزواج ومنفعة الربا وتحرير المرأة . وقد اتفق مذهبه العقلي ومذهب سيد خان الذي اوصى في الهند بدراسة العلوم ولم يعترف للروايات القرآنية الا بمعنى رمزي .

ولكن تصلبا كان سيحدث في قلب الاوساط الميالة لأن ترى في تبني الافكار الاوروبية بداية ارتداد الى الدين المسيحي ، او اقله استسلاماً غير مقبول . فكما ان البابية لا يحسن فهمها الا في بلاد فارس ، كذلك يمكننا في الحقيقة ان نرى الوهابية ظاهرة مطابقة للوذهية العربية الخاصة . ولكن الاسلام ، شأنه شأن كافة الاديان ، قد عرف على الدوام انتفاضات استهدفت الحرص على نقاوة العقيدة . وهكذا جاء المذهب – المنبثق عن الطقس الحنبلي ، ابعد طقوس السنة عن الحرية – الذي بشر به محمد بن عبد الوهاب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر : خطئاً احترام الاولياء ، والتفخيل ، والتبغ ، والمسكر ، والميسر ، وصمم بالاختصار على ان يعيد للاسلام نقاوته الاولى . فقد استجاب هذا المذهب لعبوسة عقلية البدوي في نجد الذي كان يثور ثائره بسبب الاعمال التجارية التي تجري بمناسبة الحج الى الحجـاز . وكان من جهة ثانية مظهراً من مظاهر الصراع بين البدو والحضر . وعلى الرغم من ان باشا مصر قد استولى بالقوة على المدن المقدسة وأخرج الوهابيين منها ، فان الوهابية التي انكفأت نحو الرمال قد تحصنت فيها وانتشرت من جهة في الهند ، ومن جهة اخرى بين القبائل الليبية حيث حفزت الى تأسيس اخوية جديدة اشتهرت بكره الاجانب هي اخوية السنوسيين .

هي الاخويات ما جمعت الطائفات الصوفية التي انطوى عليها الاسلام . تزايد عددها حتى بلغ زهاء المئة في اواخر القرن التاسع عشر . فكان منها خمس في تونس في السنة ١٨٨١ ، وليس بعيداً عن المعقول ان يكون عدد التابعين المنضمين الى مثـل هذه الاخويات في الجزائر قد بلغ الـ ١٧٠ الف حوالي السنة ١٨٩٠ . لكل طائفة مرشدها اي الشيخ الذي يقيم على مقربة من ضريح المؤسس ، ومقدموها،واخوانها ؛ وكل طائفة تتعهد وقفاً هو الزاوية ؛ كما ان كل طائفة تسعى وراء هدف خاص هو الذكر اي المحبة والتواضع والفقر والعزلة . وانما يجب ان لا تسقط التنافسات من الحساب . وهنا يجب ان نذكر على سبيل المثل النزاع الذي قام في منطقة وهران بين الدرقاويين والتيجانيين وبين القدريين الذين كان عبد القادر في عدادهم . فقد ارتـدى بعض هذه الاخويات طابعاً ارستوقراطيا ، بينما ارتدى البعض الآخر طابعاً ديموقراطيا ؛ وقد انتسب سكان المدن بالتفضيل الى اخويات الفئة الاولى، بينما انتسب البدو الرحل الى اخويات الفئة الثانية .

انها لشبكة معقدة ومتحركة ، ولكنها شبكة انتقلت الشائعات بفضلها انتقالا سريعاً يثير الدهشة . ولنذكر هنا ان القدريين ، المشهورين باستقامة رأيهم ، قـد امتدت فروعهم من

افريقيا الغربية الى « يونان » انطلاقا من مركزهم الرئيسي في بغداد . ولا عجب من ثم اذا ما قدمت الطوائف الدينية للاسلام قادة وجيوشاً مختارة للحرب المقدسة . فان الدور الذي لعبه السنوسيون بات من الشهرة بمكان. كان سيدي محمد بن علي بن سنوسي وهراني الاصل ومنتسبا للقدريين ، فلفت اليه الانظار في مكة بصلابة عقيدته ، ثم اعتزل في السنة ١٨٥٥ في احدى واحات ليبيا وأسس فيها زاوية ما لبثت ان اشعت في كافة ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية . فشكا أتباعه من عدم اهلية سلطان الاستانة ورفضوا مدعياته بالخلافة وبشروا بمجيء مهدي في رأس السنة الهجرية ١٣٠٠، اي في ١٢ كانون الاول من السنة ١٨٨٢ . فسمع النداء ، ورفع حينذاك محمد احمد ، النجار النوبي ، لواء الحرب المقدسة . وكان مقدراً لثورة الدراويش ان تستنكد الدولة البريطانية طيلة سنوات عديدة .

وفاقا التقليد نعم المسيحيون واليهود الذين عاشوا في البلدان الخاضعة للشريعة الاسلامية ، بمجرد تساهل ديني. ولكن هؤلاء غير المؤمنين قد تُركوا وشأنهم في ممارسة عباداتهم ونوع معيشتهم شريطة دفع ضريبتي الخراج والجزية ؛ ولما كانوا ذميين،اي رعايا محميين ، حظر عليهم حمل الاسلحة . وبحسب الظروف المحلية ، اختلفت العلائق بين التعاون المعترف به (وهذه حال اروام الفنار) وعداء شبه معلن . وقد مارس شيمبر فارس سياسة هدي الى الدين الاسلامي نجم عنها قيام فئات جديدة سرية من اليهود . وفي السنة ١٨٦٢ دعمت بريطانيا العظمى مسعى قام به آل روتشيلد لدى سلطان المغرب ، ولكن المرسوم الذي حظر كل مناكدة ما لبث ان ابطل . واثارت اسطورة الاغتيالات الطقسية في سوريا التي تحتلها جيوش محمد علي موجة تعصبية صاخبة في السنة ١٨٤٠ ؛ وبفضل تدخل «كريميو» و «مونتفيوري»، نجا اليهود المتهمون قبل ان يعلن فرمان بطلان الاتهام .

ارتضت الكنائس المسيحية بنوع من التسوية ضمنت بموجبه طاعة مؤمنيها ؛ ولكنها بحثت في الوقت نفسه عن الابد في الخارج . وبحجة حماية هذه الطائفة او تلك ، تعودت بعض الدول الاوروبية التدخل في شؤون الامبراطورية التركية . وأخفت هذه التظاهرات الدينية بعض الحركات القومية :فساندت القيصرية بعناد مستمر الاكليروس والمؤمنين والحجاج الارثوذكسيين ؛ واعتبرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة نفسها ملزمة بدورها بالدفاع عن حقوقها التقليدية في حماية الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي انعم بها السلاطين على « الفرنجة » . وغالباً ما عاد سبب المنازعات لادارة بيوت العبادة في الارض المقدسة .

كان اهم نزاع ذاك الذي نشب في السنة ١٨٥٣ بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى ونجمت عنه حرب القرم . وفي اعقاب ذلك ، طالبت اوروبا في باريس ،في السنة ١٨٥٦،بالحصول على ضمانة جماعية للسكان المسيحيين في الامبراطورية التركية :مساواة امام القانون وإلغاء ضريبة الخراج . ويرتدي هذا التاريخ اهمية خاصة لأنه يوافق اول مسعى جماعي بغية فرض الاعتراف بمبادىء تتنافى والشرائع الاسلامية على دولة اسلامية مستقلة. وانساق الاوروبيون

بعد ذلك في كافة مستعمراتهم او مجاراتهم الى اجراء اصلاحات مماثلة . ولكن المسألة ما زالت معرفة ما اذا كان المسلمون يستطيعون القبول بمثل هذا التغيير دون التنكر لايمانهم. ويجدر الاعتراف هنا بان الاسلام ، حيثما اختلط بجماهير تحركها العصبية الطائفية ، قابل هذه العصبية بعصبية مماثلة . فقد استمرت طويلاً في الهند والصين نزاعات مسلحة في اغلب الاحيان بين المسلمين وغير المسلمين. وما زالت الحال في افريقيا في مرحلة الحرب المقدسة ، والحوادث الوحشية ترافق ابدا الدخول الى المناطق الوثنية .

ميزات الدولة الاسلامية وارهاتها

لا يتصور الاسلام السلطة العامة الا بدلالة الدين. فليس للدولة مرتكز اقليمي ؛ وهي لا تعترف الا بجماعات طائفية ؛ ولا وجود لها على كل حال الا بفضل الفتح الذي ادى الى سيطرة المؤمنين . ليس المشرف على ادارتها سوى خليفة رسول الله او نائبه ؛ انه امير المؤمنين وامام ، ولكنه ليس له من منصبه حتى الحق في تفسير الشريعة لانها تأمر باسمه . ولما كانت الخلافة ، من جهة ثانية، نتيجة اختيار لا نتيجة حق ، فقد تعذر الاتفاق على النسب الشرعي ابتداء من محمد . وهذا يفسر التجزؤ السياسي العضال في العالم الاسلامي .

وانما يجب الا ننسى كذلك ، اذا كانت روحية الفتح فعل شعب من الرعاة ، ان القريشي المكي ينتسب الى ارستوقراطية من التجار تحتقر الزراعة . ان عمل الارض جدير بالرعية التي عليها قبل سواها ان تدفع الضرائب . ولكن نصيبا كبيراً من الارض يجمد بسبب الممتلكات الموقوفة من اجل تعهد دور ايواء الفقراء والمدارس ؛ ويحدث ان للقاضي ، ابن المدينة ، الذي يفصل في العقود ، يسهل مصالح ابناء المدينة ، بحيث يصبح الحقل ملكاً للمرابين . ويحدث اما ان تعود اراضي الارياف للمشاع ، او القبيلة ، واما ان تعود لملاك كبير من اعيان المدينة ، هو الآغا الذي يخشاه الفلاح بوصفه مزارعاً وملزماً بتقديم اتاوات عينية كبيرة. اما القبيلة فتحتفظ بقائدها وشيخها بسبب اختلاط الحق الخاص بالحق العام . وما الدولة في الغالب سوى هذه القبيلة التي لا حساب في داخلها الا لأواصر القربى والعداوات الشخصية . وحتى حين تضم في صفوفها البدو الرحل والتجار ، لا تنجح الا بصعوبة في معالجة تقلقل يكاد يكون طبيعياً ؛ وتتأرجح بين الاستبداد والتراخي ، وكلاهما تحكميان . وجملة القول ان الاسلام الذي فتح مناطق السباسب ومناطق الزراعات الحارة الرطبة ، لم يظهر الا على مجتمعات كانت مؤسساتها الاجتماعية اكثر بداوة من مؤسساته .

لا ريب في ان ديانة محمد تستجيب لفكرة شاملة : فان دار الاسلام تسع العالم برمته . وهكذا تتحد فيها شعوب مختلفة جداً . ولكن الغيرة المذهبية ليست هي القومية . فحتى القومية العربية والاسلام شيئان مختلفان . كما ان اللغة العربية ، التي هي اللغة القرآنية والكلاسيكية ، لا تحل محل اللهجات الاقليمية . وكثيراً ما يجد الناس اختلافاً بين الفقه والعرف

العالمي . ونادراً ما لا تضم الدولة الاسلامية ، بالاضافة الى عناصر مسيحية ويهودية قد يكون عددها كبيراً ، فئات اخرى مختلفة عنصرياً . وهذا ايضاً من مظاهر الضعف .

امام الاستعمار الاوروبي ، كان الاسلام ، المتخلف تقنياً واقتصادياً ، في وضع سيء اذ ان التضامن الديني لا يوفر وحده فعالية كافية . اجل ، حين شنت انكلترا الحرب على فارس في السنة ١٨٥٦ ، في اعقاب مساندتها لتركيا ، انتشر الاضطراب بين مسلمي الهند واسهم في اثارة الجنود الهنود في الحاميات البريطانية ؛ ولكن ذلك يشكل واقعة استثنائية . فالشاه قد فاوض القيصر بينما كان الروس في نزاع مسلح ضد الاتراك في السنة ١٨٢٨ – ٢٩ ؛ واستفادت لندن وبطرسبورغ من سوء العلائق بين الفرس والافغان ، كما ان مخاصمات السلطان لمحمد علي سهلت تدخل الدول .

وبانتظار بروز قوميات خاصة في الاسلام ، دقت ساعة اذلاله واستعباده .

الامبراطوريا التركية : تنوع الشعوب

سارت الامبراطورية التركية في طريق التأخر منذ اواخر القرن السابع عشر ، ولكنها ما زالت في القرن التاسع عشر اكبر الدول الاسلامية مساحة واقواها نفوذاً . واذا ما ضممنا الى ممتلكات سلطان الاستانة الفعلية الاقاليم التابعة لسلطته ، فان نطاق ادارته ، البالغ ٦ ملايين كيلومتر مربع ، يشمل ، بين شبه جزيرة البلقان والخليج الهندي ، وبين القفقاس وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى شطر من اوروبا الجنوبية الشرقية ، افريقيا الشمالية الشرقية وكافة انحاء آسيا الامامية المعروفة بالشرق الادنى. وعلى الرغم من ان سكان هذه الامبراطورية لم يجاوزوا ٤٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٠ (يدخل في عدادهم ٩ ملايين مصري) فانها ما زالت تلعب دوراً رئيسياً في تاريخ العلائق الدولية ، لانها كانت تحتل مواقع هامة من الدرجة الاولى في قلب القارة القديمة ولا سيما الطرقات المؤدية من المتوسط الى آسيا الجنوبية .

لم يكن الاتراك في عقر دارهم حقا الا في بلاد الاناضول التي لم يقطنوا سوى بورة هضبتها . اما في المناطق الاخرى فقد عسكروا بين الرعايا من اهل الذمة او بين شعوب اسلامية اخرى. وقد وافقت الهضبة الاناضولية المرتفعة الكبرى ، القاسية المناخ والمفتقرة الى المياه والاشجار ، هؤلاء الرعاة الذين اعتمدوا في معيشتهم التقليدية على اللبن (يوغورت) والقشدة (قيمق) والاجبان والجريش والبرغل وشواء لحوم الاغنام. وكانوا ينتقلون من مراعي الشتاء الى مراعي الجبل ويسكنون في اكواخ حقيرة او تحت الخيام المصنوعة من المرعز ويصطلون بنار الزبيل ويمارسون عبادة ساذجة ولا يعترفون الا بسلطة الآغا . وانحصرت الزراعة في بعض الاحواض او في السهول الدائرية الوبيلة جلها ؛ زد على ذلك ان لصوصية اكراد الجبال والشراكسة او مجرد عبث التطعمات بالمزروعات كانا يخمدان نشاط الفلاحين . وكانت الاراضي من جهة ثانية من حق كبار المالكين الذين يؤجرونها للمزارعين او يستثمرونها بواسطة الخدام ، حين لا تكون

موقوفة او ملكاً للدولة ؛ فكان الانتاج متدنياً بصورة عامة . وغذت صناعة الطنافس ، والمصنوعات المعدنية ، والمطرزات ، مع الجلود والحبوب والثمار والتبغ ، تجارة احتكرها الاروام والارمن واليهود في المرافىء البحرية . ورأت ازمير ، التي كانت تقاوم اوحال « هرموس » مقاومة عسيرة ، اقواما كثيرين آتين من مرافىء الشرق الادنى يتسددفعون في متيهة شوارعها الضيقة الكثيرة . وقد بلغ عدد الاروام ١٠٠ الف من اصل ٢٠٠ الف ، وقد استوطنوا ، كما في العصور القديمة ، السواحل الايجية والجزر المعتدلة المناخ التي سيطر اليهودالاسبانيون جزئياً على التجارة فيها . وكانت طرابيزون على الساحل الشمالي منطلق قوافل الجمال والخيول نحو ارمينيا وفارس التي كانت تسلك طريقا قديمة سلكها الجنويون من ذي قبل .

تميزت الاستانة بسحرها . وامام باب البوسفور العجيب هذا ، اكتفى التركي بالاستئثار بالراس الممتد بين القرن الذهبي وبحر مرمرة . فمن جهة ، وعلى الآكام التي قامت على احداها السراي واجيا صوفيا ، اسطنبول العثمانية ، بقصورها وجوامعها وحدائقها ومقابرها ومساكنها الخشبية السريعة الاحتراق : وهي تؤلف اختلاطاً من العظمة الصامتة والاهمال ؛ ومن جهة القرن الذهبي الاخرى ، غالاطا ومنحدرات بيرا حيث يتجمع « الفرنجة » اي الغربيون ؛ فكان اليونانيين والشرقيين والارمن واليهود احياؤهم حول المرفأ : يونانيو الفنار الذين مثلوا « صفوة الاروام » حول بطريركهم ؛ واليهود المتحدرون من اللاجئين الاسبانيين ؛ والارمن الذين عاش الكثيرون منهم عيشة يسار ورخاء . وجاشت المدينة بالحياة حول الخانات والاسواق التجارية في الشوارع القذرة والمتوخمة في الغالب ؛ كما نشطت بالتجارةالتي سيطر البريطانيون على نصفها . ولم يكن للدناءة الكبرى من وجود . وكانت حركة السير عسيرة : فما زال السور البيزنطي يحيط بالمدينة من جهة البر ؛ ولم يقم هناك فوق القرن الذهبي سوى ثلاثة جسور مركبة من سفن متلاصقة ، كما لم يوجد شيء يؤمن الانتقال السريع من اوروبا الى آسيا . وقد تراوحت تقديرات عدد السكان بين نصف مليون واكثر من مليون ؛ انها لمدينة غريبة ، جامعة من كل طوائف البشر وغامضة ومنكمشة على نفسها معاً ، مشابهة للتحف والسوق الدورية ، شائعة الصيت بذكرياتها وموقعها ، ولكنها عاجزة عن التأثير في الامبراطورية .

الى الشرق من هضبة الاناضول ، تنازعت تركيا وفارس وروسيا الارمن المختلطي الاصل ، المسيحيين جلهم على الرغم من تخلقهم بالاخلاق الاسلامية في طريقة حياتهم ، الذين عاشوا على اتفاق مع السلاطين ، لا بل نازعوا الفناريين مراكز مرموقة ؛ ثم سقطت اتشميادزين ، مقر الكاثوليكوس ، تحت سلطة القيصر الذي كان يعدهم بالاراضي وحرية العبادة ، فبدأت الهجرة باتجاه الشمال وسادت القلائق بالاستانة . حينذاك طمع الجيورجيون المتأثرون بالحضارة التركية ، والشراكسة ولا سيما الاتراك بالمنطقة الارمنية التي ما زالت تحت اشراف السلطان . وتاق الاكراد الذين طمحوا بالاستقلال وتكلموا لهجات مختلفة ودانوا باسلام وثني الطابع ، الى النزول الى الاحواض والسهول المجاورة لبلادهم الحرجية الوعرة : وكما تصرف الالبانيون حيال

مسيحيي مقدونيا ، تعدوا تكرارا على الارمن الذين تميزوا هم ايضاً بالسجس والتقلب . وكان مقدراً للمنطقة الوعرة التي تشرف على حوض الفرات ان تعرف في المستقبل مذابح بشرية رهيبة .

الى الجنوب من طوروس وكردستان يبدأ العالم العربي الذي يضم طوائف مسيحية ويهودية كثيرة . في هذا الهلال الخصيب الذي يحيط بالصحراء العربية السورية تسيطر الاثرة الاقليمية . فسوريا هي مقدونيا ثانية تضاف فيها الشيع الاسلامية المختلفة الى الطوائف المسيحية المختلفة . في كل مكان نرى البدوي والحضري وسكان الجبال والسهول او الواحات يتعايشون ويتجابهون . كما نرى علويي جبل النصيرية ودروز جبل الدروز يعيشون في عزلة ، بينما ينطلق الموارنة بجبل لبنان الوسطي وتظهر دمشق وحلب بمظهر العواصم العربية ، احداهما مثال المدينة الواحة والثانية سوق مرتبطة بالجبال الشمالية ، وكلتاهما محطتان عند حدود الصحراء . فقد تكلم « لورتيه » في كتابه « جولة حول العالم » (١٨٨٢) عن « دمشق البهية المبنية مساكنها بالقراميد المجففة تحت اشعة الشمس والمطلية بطلاء اصفر ذهبي ... والمروية بساتينها باقنية كثيرة ... » . وزرعت الحبوب والكرمة هنا وهناك ، اما في الاحواض المروية كسهل البقاع ، واما في المرتفعات المملية بعض الشيء كجبل الدروز . ولكن فقدان الامن والجفاف يتحالفان في ظل هذا الاهمال الذي يلحق الضرر بأحسن المرافىء . اما الشرطة والقضاء التركيان فيكتفيان بايجاد التفرقة بين الجماعات المختلفة وبالحد من توسع المذابح الدورية .

كان من الممكن الاستفادة من الجزيرة فيما بين النهرين ومن دلتا منطقة بابل القديمة ؛ ولكن ضفاف الفرات لم تستهو سوى جماعات حضرية قليلة تسكن اكواخاً قصبية حقيرة . فالملاحة شبه مفقودة بفعل الارياح العاصفة في الخليج الفارسي والاوحال التي تملأ مقره ؛ والحر شديد في بغداد ، التي لا يتعاطى سكانها تجارة الحبوب والتمور والاصواف فحسب ، بل النخاسة لحساب احرام العالم الاسلامي كله ايضاً ، ويلجأون صيفاً الى السراديب المزودة بمنافذ الهواء ؛ ويدخل في عداد هؤلاء السكان ٥٠ الف يهودي من بقايا السبي برعوا في التجارة ووفرت لهم المدارس بعد السنة ١٨٦٥ جمعية الاتحاد الاسرائيلي . اما البدوي فحاضر في كل مكان او على مسافة قريبة ، يضرب خيمته على ضفة الفرات ويجوب بورات الهلال الخصيب وكأنه السيد المطاع ؛ وهكذا فان قبيلة عنزه ، التي تضم ٣٠ الف فارس ، تقطع طريق الحج بين بلاد ما بين النهرين ونجد .

في اليهودية كما في سوريا ، ما تزال المدن والاديرة محصنة . الغور لا ينتج شيئاً بسبب افتقاره الى الري . ابن الصحراء يتوجه حيث يطيب له وينهمك في السلب والنهب ؛ ويفرض شيخه او اميره الخوة على الفلاحين او اهل المدن لمصلحة القبائل القوية . ويخضع لهذه الضريبة كثير من الحجاج ايضاً . وقد وصف لامارتين يهوديه خربة ، ولم ير في اريحا سوى اكواخ من الطين

الجفف وبناء لـن سوى « اثالي » . وفي السنة ١٨٧٥ ، اعتـبر « فوغويه » « انه يجب الكتابة بدموع الانبياء لوصف مثل هذا الجمال في مثل هذا الخراب » . وتأثر « غابريال شارم » في اورشليم بعظمة الاماكن وقذارة الشوارع وفقدان الامن فيها وتشابك الحقوق حول تلك اقل حجر والاستغلال الذي استهدف الحجاج الروس المساكين من قبل الاكليروس اليوناني وزعماء الطائفة اليهودية لذكرياتها الخاصة .

لم تكن الجزيرة العربية تركية الا بالاسم فقط . واذا اعترفت الحجاز بسلطة السلطان ، فمرد ذلك الى ان هـذا الاخير قد توصل بعض الشيء الى فرض احترام سلامة طريق الحج . والى الجنوب من مكة خضعت عسير ، المؤتمنة الى الاسلام منذ عهد قريب ، النفوذ الوهابي . وفي داخل الجزيرة العربية الواسع الاطراف، قامت في الشمال صحراء النفود التي تجتازها الطريق المؤدية من كربلاء الى حائل ، الصعبة والمهددة ابدا بهجمات رجـال قبيلة عنزه ، كما قامت في الجنوب صحراء اخرى تعرف بالربع الخالي ؛ وارتفعت بين هذه وتلك جبـال نجد ، معقل الوهابيين : ففي الرياض ، المدينة الحريصة على نقاوة العقيدة ، شيد الامير قصراً شبهه الرحالة « بالغرايف » بالسجن الانكليزي في « نيوغايت » . وتدرّت لندن البحرين في الخليج الفارسي ، وقد خضع لها ساحل شبه الجزيرة الجنوبي اكثر من خضوعه للاستانة . واختارت الحكومة البريطانية عدن المرفأ الوحيد الصالح للرسو في حضرموت وقربت اليهـا سلطان مسقط الذي تعاطى حتى السنة ١٩٠٢ نخاسة رابحة . ولم تكن عدن مستودعاً هاماً جداً فحسب ، بل كان من شأنها مراقبة اليمن التي كان مينآؤها ، الحديدة ، وخيماً . واشتهرت اليمن الشبيهة بلبنان أو مناطق الجزائر الجبلية بزراعة البن (مخا) ؛ وسحرت عاصمتها صنعاء ، القائمة على ارتفاع ٢٣٠٠ متر ، بحدائقها الغناء وجوامعها الثمانية والاربعين . وقد واجهت هذه المنطقة كلهـا بلاد الحبشة واشتركت في حياة المحيط الهندي الاقتصادية .

« الرجل المريض » : فشل التنظيمات والتدخل الاوروبي في تركيا

افتقرت حكومة الاستانة الى الوسائل اللازمة لحكم سكان على مثل هذا الاختلاف في رقعة واسعة الارجاء . ويكفي هنا التذكير بسير البريد الذي اسند الى قبيـلة تربية تقتني الجياد الاصيلة واقتضى له خمسة وثلاثون يوماً لنقل رسالة من العاصمة الى بغداد . ولمـا كانت السلطة الدينية التي يمارسها البادبشاه محدودة جداً ، فقد عولت الامبراطورية على اقطاعية عسكرية : السلطان هو القائد العام ؛ والتقسيمات الادارية تطابق الاقطاعـات ، والسنجق في الاصل راية يحملها البيك . وتسلم الضرائب الى الاقطاعيين انفسهم الذين اقطعـوا الاراضي ، الجفتلك ، بعد انتزاعها من المغلوبين على امرهم . فكانت نتيجة هذا الاختلاط بـين السلطة والملك فساداً وابتزازاً . تثقل وطأة الضرائب بتعهد الجيش ، والجيش قد فقد الكثير مـن صفاته العسكرية بسبب عدم انضباطه وافتقاره الى العتاد العصري . فهنالك اقاليم واسعة قد شقت عصا الطاعة : الجبال التي يحتمي بها العصاة ، ومواطن البدو الرحل . يضاف الى ذلـك

ان باشاوات كثيرين قد تصرفوا كما يطيب لهم التصرف . واخيراً ليس اقل التناقضات لفتاً للانتباه المركز الممتاز الذي اقامت منه بعض الجماعات · الفناريون والرياء الطائفتين الارمنية واليهودية في العاصمة ، والاجانب الذين اتاحت لهم « الامتيازات » مزاولة الاعمال التجارية بشروط مناسبة جداً . اما الحكومة التركية العاجزة فقد لجأت الى الحيل الآنية التي راوحت بين التسوية المعجلة (ويكفي آنذاك ان تسلم الطوامر) واستخدام القوة . انها « الرجل المريض » في نظر اوروبا التي تراقب احتضاره بكل انتباه .

ان ما عرف آنذاك بالمسألة الشرقية هو من ثم المسألة التي طرحها انحطاط الامبراطورية العثمانية . واذا حسب بعضهم في الخارج حساب فوائد التجزئة بينما آثر البعض الآخر الابقاء على الحوزة (التي من شأنها تجنيب مضاعفات شتى وتأمين مراقبة الموارد مراقبة شاملة توفر نتائج فضلى) ، فان الاوساط الاسلامية نفسها كانت مقتنعة بأن نقاهة المريض منوطة بتعالجه . ولما كان النظر مصروفاً عن العودة الى الشريعة القرآنية المشددة التي تستتبع رفض كل تدخل اجنبي ، فبقي أن يعرف ما اذا كان القيام باصلاح على غرار الاصلاح في الغرب لن يستعجل الحركات القومية ،وبالتالي المصير المرهوب. والحقيقة هي ان تركيا بدت عاجزة عن المحافظة على انظمتها القديمة وعن التطور تطوراً حقيقياً . الا ان الدول ، رغبة منها في ارجاء موعد التصفية النهائية ، قد تجر الى اطالة حياة عليلة .

عاصر سليم الثالث الثورة الفرنسية ونابليون وحكم حكما استبداديا على غرار بطرس الاكبر فحاول قبل سواه اعادة تنظيم الجيش ، ولكن الانكشارية الذين حالفهم الحظ اكثر من « « سترلتسي » جندلوه ، فنجم عن مقتله عهد اضطرابات استفاد الصرب واليونانيون منه لاعلان الثورة بينما اصبح باشا مصر محمد علي مستقلاً عمليا .

واذا أفلح محمود الثاني ، الذي عليه الاختيار، في التخلص من الانكشارية ، السجين ، فقد وجد نفسه في القضية اليونانية امام تحالف اوروبي وأمام مدعيات الباشا . وحين اضطر الى التخلي عن سوريا لصاحب الاقطاعة الخاضع له مبدئيا والعجوء مؤقتاً الى الحماية الروسية ، اخذ على نفسه التغلب على هذين الخطرين : اثار حفيظة المتمسكين بأهداب الدين بارتداء الزي الاوروبي وشرب المسكر والسماح بدخول البضائع الانكليزية معفاة من الرسوم وبيع عدن من بريطانيا العظمى واسناد امر تنظيم جيش جديد الى ضابطين بروسيين ، ثم أدركته المنية بينما الامبراطورية وكأنها تحت رحمة الباشا بعد انهزام جيوشه مرة اخرى .

في عهد عبد المجيد الشاب ، ورغبة منه في كسب الوقت وعطف اوروبا ، لخص رشيد باشا ، المستدعى من سفارة لندن ، في خطي شريف (١٨٣٩) او دستور غولخانه ، برنامج اصلاحات جريئة انطوى على بعض الضمانات القضائية وقمع التجاوزات الجبائية وتأسيس جمعية تمثيلية .ولكن ما ان ضمن له ميثاق المضائق حماية الدول الجماعية حتى آلت « التنظيمات » الى لا شيء تقريباً .

ولكن الباب الذي سانده الغرب في حرب القرم ، عقد قرضه الاول (بموجب « خطي همايون » في السنة ١٨٥٦) وسلم في الوقت نفسه بحرية العبادة والمساواة المدنية وحق الاجانب في تملك العقارات .

نشأت بعد قليل في المؤسسات المدرسية الاوروبية (فتحت كلية غالاطا العلمانية الفرنسية ابوابها في السنة ١٨٦٨) طبقة مثقفة اسست بعض الصحف وتمنت قيام اصلاحات جدية وطالبت بمراكز عمل بصورة خاصة . وعلى الرغم من استحداث بعض الوظائف العامة لأجل ارضائها ، فانها قد اشتكت من تبذيرات السلطان الطائشة وحملته مسؤولية افلاس يهدد ، كما حدث في تونس ومصر ، بجر البلاد الى حماية مالية غربية . وأمام الفوضى المنتشرة في الولايات البلقانية تسبب طلاب الحقوق والفقه في اندلاع ثورة في الاستانة واستقالة عبد العزيز . فاضطر خليفته عبد الحميد الى منح الدستور او القانون الاساسي في السنة ١٨٧٦ الذي تأسس بموجبه نظام برلماني . ولكن نفوذ منظمة « تركيا الفتاة » انهار حين خلع السلطان الجديد قناعه بعد ان ضمن حماية مؤتمر برلين . ولن يبقى من برنامج الاصلاحات سوى مشروع قانون مدني وضعته احدى اللجان بعد اعمال استغرقت ١٧ سنة .

ابتداء من السنة ١٨٨٠ ، بدا الرجل المريض وكأنه يستفيد من هدنة . ولكن ادارة الدين العثماني الباهظ عادت لمجلس دولي ، واسترهنت دخول الجمارك والضرائب وادارة حصر التبغ في سبيل عقد قروض جديدة . ومنحت في الوقت نفسه امتيازات كثيرة لاستثمار الخطوط الحديدية والمرافىء . والحال كان في نية الحركة الاسلامية الشاملة، على غرار الحركة الروسية المماثلة ، ارضاء قومية كان من شأن غزو رأس المال الاجنبي ان يكدرها . ولكن الامبراطورية العجوز لن تنجو من مصير محتوم : فليس باستطاعتها الاستعانة بأوروبا والتخلص منها في آن واحد .

فارس في عهد سلالة القجر

ان الغرابة هنا ، كما في الجزيرة العربية ، هي ان الصحراء تتوسط البلاد وان الحياة تتدفق في الاقسام الدائرية . فحول حوض وسطي يكاد يكون مقفراً ، كان على فارس ان تصون مناطق حدود وعرة المنحدرات يستهوي الانسان ثلاث منها بسبب غزارة الامطار فيها وتستهويه الرابعة بسبب موقعها الساحلي. ولكنها على الرغم من ذلك لا تسيطر سيطرة تامة على كتلة الجبال الشرقية الضخمة .

اهل الحضر اكثر سكانها عدداً ، ولكنهم تجمعوا في مساحات ضيقة : المناطق القزوينية الشبيهة بالمناطق الحارة التي يزرع فيها الارز وقصب السكر وشجرة التوت والتبغ ، وواحات الاقسام الدائرية التي تمر فيها الطرق الداخلية . فلاحين او مدنيين ، كان اهل الحضر هؤلاء فرساً واتراكاً وعرباً ويهوداً وأرمناً وزنوجاً ايضاً . فأين يجب من ثم تعيين مركز حقيقي ؟ لقد تبدلت الطوالع تبدلا سريعاً ، فكانت الاولوية تارة لاصفهان ، المواجهة لبغداد وشيراز ، التي

بلغت العظمة في عهد الصفويين ، واخرى لتبريز الواقعة على طريق البحر الاسود ، وثالثة لمشد ، المدينة المقدسة التي جعل منها ناصرشاه عاصمته على مقربة من البورات الطورانية ، ورابعة لطهران .

يجب في كل مكان ان يحسب حساب للبدو وانصاف البدو الذي يسرحون ويمرحون في تسعة اعشار المساحة العامة متأثرين بالمناخ الذي يدفع بهم من المنطقة الحارة الى المنطقة الباردة: اكراد ، وبلوش ، ولور ، وبختيار ، وتركمان ، بحسب المناطق . المدن والقرى محصنة بسبب فقدان الامن الشامل .

كان من ثم لطرق الاتصال الكبرى اهمية قصوى: الطريق الطورسية المؤدية من طرابيزون الى مشد مروراً بتبريز ، والطريق الشمالية الجنوبية المؤدية من رشت على بحر قزوين الى شيراز وبوشير على الخليج الفارسي مروراً بطهران وكوم واصفهان ، والطريق الكلدانيــة المؤدية من بغداد الى همذان ، وطريق كتا المؤدية من الهند الى مشد في الجهة المقابلة . وتتضح بالتالي صعوبة مسألة السيطرة على هذه الطرق المختلفة الاتجاهات وهذه المنافذ العديدة ، لا سيا وان المركز لا وجود له في اي مكان من حيث هو بالضرورة في احدى نقاط الاقسام الدائرية . ولذلك اقدم كل قسم بدوره على اعمال حربية تستهدف الفتح والتوسع . ففي اوائل القرن التاسع عشر نرى الحجر التركمان ، الآتين من حوض « اترك » يتركزون في طهران ويعيرون اهتمامهم فارس الشمالية المياّلة طبعاً الى الوقوف في وجه الروس القادمين عبر القفقاس وبحر قزوين ، فارس المسهمة في الدفاع عن الجبهة الاسلامية الشمالية .

عبثاً شن المؤسس « الآغا محمد » وخليفته « فتح علي » حرباً لا هوادة فيها على القيصرية : فقد تكررت الهزيمة في السنة ١٨٢٨ بمعاهدة « تركمانشاي » ، ثم تعرضت فارس لهجوم الافغان ففكرت بحماية انكلترا التي كانت تتطلع منذ ذاك التاريخ الى مرافيء الخليج الفارسي . ولكن الشاه اراد الاعاضة من خسائره الاقليمية في خراسان والقفقاس بفتوحات يحققها في الشـــرق؛ فتوفق الى جعل خراسان في مأمن من غارات تركمان طوران وصد خان « خيوا »، ولكنـــه أخفق في افغانستان .

أدرك نصر الدين ، الذي سيموت قتلا في السنة ١٨٩٦ ،ضرورة العـــدول عن المغامرات. يضاف الى ذلك ان التقدم الروسي في تركستان ازال الخطر التركماني ، وان انكلـــترا من جهتها سوت الخلافات حول الحدود الفارسية الجنوبية الشرقية لـوهلة استعاد الشاه بوجيهـــا سواحل الخليج الشمالية ، وبقي مبعداً عن الطرق المؤدية الى الهند . وأظهـــر نصر الدين شغفا كبيراً بأحوال الغرب . فقصد العواصم الاوروبية حيث اثرت شخصيته الفاتنة في النـــاس . ولكنه كان مضطراً لأن يحسب للتقاليد والآراء السائدة حسابها .

على من يجب الاعتماد لايجاد سلطة قادرة على تخليص فارس من وضعها المـــتردي يا ترى ؟

ASSURANCES
GÉNÉRALES
CONTRE
ASSURANCES, PRIMES, TONTINES,
ACTIONS ET SOUSCRIPTIONS.
GRINCHON et Compagnie
CAPITAL

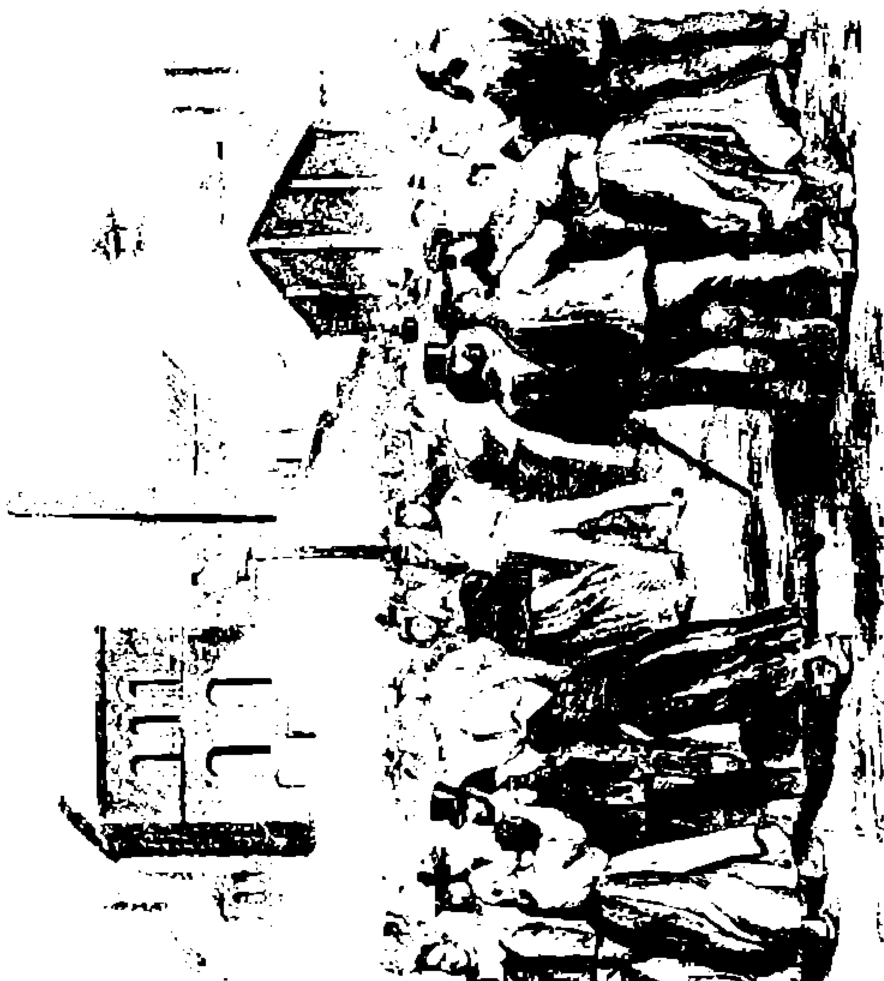

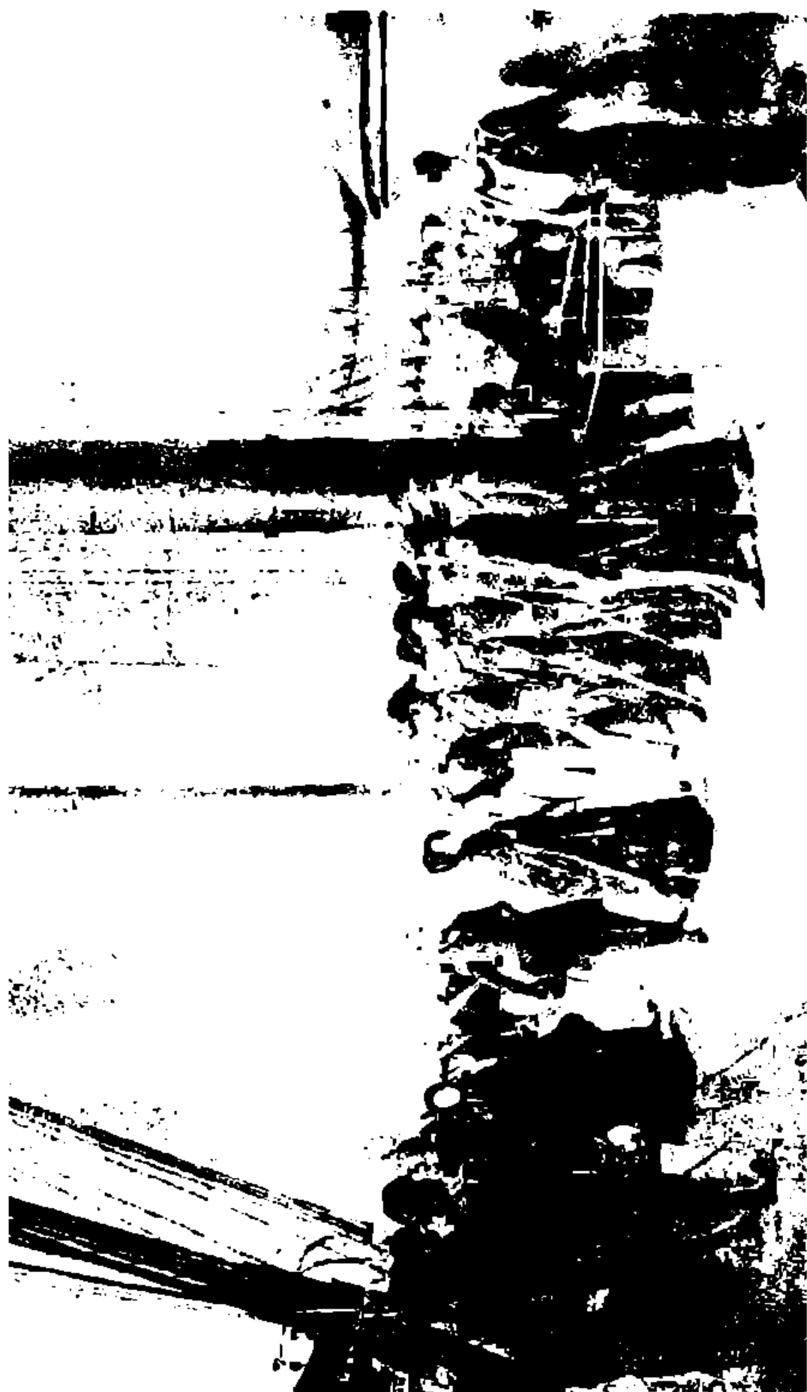

٢٥ - الزحمة في احد شوارع لندن .

يتمتع الاسلام الشيعي بقوة عظيمة ؛ وينجم نفوذه عن موقعه الغريب في قلب الاكثرية السنية : فانه يرتدي طابعاً شبه قومي على الرغم من أنه رقعته تشمل القسم الاكبر من بلاد ما بين النهرين الخاضعة للآستانة . ولكنه أبعد ما يكون عن الوحدة . واذا هو انطوى على نزعة صوفية معينة ، فانه لم يتوصل قط الى ملاشاة الشيع التي تجد في ايران حقلا مؤاتياً . زد على ذلك ان الكتمان حالة نفسية تسهل قيام الجمعيات السرية . فهكذا انتشرت الصوفية التي تدفع الى الاختطاف في العزلة وتشيع اكرام الاولياء في اوساط الشعب . وتأيدت في الوقت نفسه تأيداً دائماً النزعة الزردشتية الى رفض كل سلطة غير القبول الاجماعي . وسبق لنادر شاه ان واجه تبني دين من شأنه التوفيق بين كافة الاديان التوحيدية . ثم جاء الباب بدوره كنقذ ، ووجد نصر الدين نفسه ، عند توليه العرش ، امام حرب دينية واجتماعية حقيقية . وما البابية التي غلبت على أمرها في فارس بعد معارك دامية واضطهادات عنيفة سوى حركة اصلاحية انتهت الى الفشل .

لقد صمد زعماء المجتمع الذين وقفوا في وجه كل تغيير : المستفيدون من الاملاك الموقوفة الواسعة ، والاعيان المنتسبون الى كل الفئات الذين يديرون الحكم في خدمة الشاه ويعيشون في البلاد ، ولا سيا الحكام ، خلفاء المرازبة الحقيقيون . وقد عاد ثلثا الموارد للجيش والقصر .

تصرف الجيش ، الذي لم تدفع له اجوره بانتظام ، وكأنه في بلاد محتلة . وفي بلاط القصر ، اثار الشاه ، خليفة ملك الملوك ، اعجاب الجماهير بعظمته وكرمه الفائق ، ولكنه كان اسير الدسائس التي حيكت من حوله ، وقامت مهارة الحكم في نظره في التفاوض مع الحكام وزعماء القبائل. ونادراً ما أدرك الأمر هدفه اما لانه لا ينفذ واما لانه لا ينطوي على مزيد من القساوة . وعلى الرغم من ذلك فان مستوى حياة الفرس ، المشهورين بـذوقهم المرهف واستهوائهم الموسيقى والمسرح ومهارتهم في الصناعة اليدوية ، كان متدنياً جداً . فهي الحرف الصغيرة الكثيرة التي حافظت على شهرة الفروش والطنافس والمنسوجات الحريرية والمخملية ودباغة الجلود وصناعة تحويلها ، ولكن طبقة التجار جمعت الثروات بالمراباة ، والدلالين اشرفوا على كافة الصفقات وجماهير الشعب شكت من الاملاك الكبرى والاوقاف. وعادت القرية للملك اولاحدى العائلات الكبرى او لاحدى المؤسسات التقوية ؛ فكان هناك ملاكون سيطروا بهذه الطريقة على ألوف الفلاحين. وقد تاه هؤلاء تحت وطأة الاتاوات فلم يتجوا الا القليل ، واستخدموا السماد البشري ورووا الارض بواسطة النواعير ، وحتى بواسطة القرب المملوءة ماء. وما كان ملايين السكان الحسنة او السنة ليؤمنوا قط حاجتهم من المآكل ، وقد فتكت بعض المجاعات بألوف الضحايا (ويروى ان احداها قضت على نصف مشد) . وقد امتت الجمال والخيول مثل كل شيء . وجاء في كلام مأثور : « لو كان لدى الاوروبيين جياد شبيهة بجيادنا لما احتاجوا الى الطرقات » . وفي السنة ١٨٦٤ مد بين بغداد وبوصير السلك التلفرافي الذي وصله الاخوة سيمنس في عهد لاحق بخط لندن عن طريق تبريز. ثم منح الشاه رأسمالياً بريطانياً كبيرا هو البارون «جوليوس رويتر» (الذي

اشترى حاشية الامبراطور بالمال بهذه المناسبة) امتياز بناء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي ، وتأسيس عدد من المصارف ، وادارة الجمارك ، وحق استثمار الاحراج والمناجم ، مقابل ٤٠ الف جنيه استرليني ؛ ولكنه ما لبث أن ابطل العقد بعد حين . وحين افتقر الى المال بعد رحلاته الى اوروبا ، سلم غلة التبغ والاتجار به الى شركة « التعاونية الامبراطورية الفارسية للتبغ » مقابل ١٥ الف جنيه استرليني وربع الدخل السنوي ؛ ولكن احد المجتهدين النافذين دعا المستهلكين الى الاقلاع عن التدخين ، فاستعاد الشاه الامتياز مقابل دفع نصف مليون جنيه استرليني . ومنذ السنة ١٨٨٩ خضعت مالية البلاد في الواقع لمصرف فارس الامبراطوري ، الذي حصل على امتياز اصدار الاوراق النقدية . فوقعت فارس بدورها تحت سيطرة الرأسمالية الاوروبية .

الدولة الافغانية بين البريطانيين والروس

على نقيض فارس ، تتكون افغانستان من مجموعة جبال وسطية تحيط بها البورات . ومنطقة كابول فيها تثير الاعجاب بحدائقها الغناء وخمورها التي يذكر مذاقها بخمور جزيرة ماديرا ؛ اما غزنه التي حملت اسمها سلالة الغزنويين في القرن الحادي عشر فتدين بالشهرة لاقنية الري . ولكن طبيعة الارض وزعت السكان هنا وهناك وهنالك . وقد خضعت افغانستان زمناً طويلاً للسيطرة المغولية في الشمال والشرق ، والسلطة الفارسية في الغرب . وحتى في القرن التاسع عشر حاول الشاه السيطرة على هيرات ، وأمير بخارى السيطرة على تركستان ومنطقة بلخ(بختيار القديمة)؛ بينما شعرت قبائل المنحدر الشرقي بميل الى الدولة الانكليزية التي كانت مسيطرة على منافذ الوديان المنحدرة نحو الهندوس .

الأفغان سكان ارياف معظمهم رعاة او شبه بدو رحل يؤلفون خمسة الحادات قبلية مؤلفة بدورها من قبائل صغرى (يبلغ عددها ٥٠٠) يدير شؤونها خانات منتخبون وجمعيات تضم زعماء العائلات . ويقدم هؤلاء المحاربون الأشداء، القانعون المتحدرون ، الشرف الافغاني (نانجي بوختانا) على كل شيء ويطبقون فيما بينهم سنة « البدل » او الثأر . وتقوم في الشمال والشمال الشرقي منطقة باغستان المستقلة التي تقدم محاربيها البواسل لأمير كابول ولاعدائه دونما تمييز . وقد عجز الافغان السنيون أبداً عن ان يطردوا من جبالهم الـ ٦٠٠ الف شيعي المغوليي الاصل الذين يهاجرون راضين الى المدن حيث يقومون بأشغال شاقة . وهناك مليون « تاجيك» من أهل الحضر في هذه المناطق الشمالية وفي جوار هيرات : ولكن هؤلاء الذين تعاطوا الصناعة اليدوية والتجارة ما كانوا ليرضوا بالسيطرة القبلية .

ما هو في هذه الظروف شأن الامير المتربع على عرش كابول بقوة السلاح ؟ انه في حرب دائمة مع القبائل التي لا تعترف بسلطته ولا يستطيع هو اخضاعها .

بيد أن وجود بلاد افغانية متمتعة بالسيادة نظرياً كان نتيجة المخاصمة الانكليزية الروسية

في آسيا الوسطى . واذا منيت انكلترا في السنة ١٨٤٢ بفشل ذريع في ثغرة « كرد كابول » الرهيبة ، واذا لم ينقذ « روبرتس » حامية كندهار في السنة ١٨٨٠ الا بمسيرة غاية في الجرأة ، فان الدبلوماسية والرشوة قد نجحتا بالنتيجة في اسناد الحكم في كابول الى الامير عبد الرحمن الذي راق فيه التفوق البريطاني أمراً كبيراً . ولم تدفع بريطانيا العظمى بين مليونين وثلاثة ملايين لمحميها فحسب، بل ربطت بين البلاد ووادي الهندوس بطرق جيدة وبخطين حديديين يتجهان نحو ممري خيبر وخوجا . وأسهمت كذلك في صد الفرس ووضعت بلوتشستان تحت حمايتها فعززت بذلك هذه المواقع الامامية للهند .

إلا أنه استحال على امير كابول ان يستسلم كلياً للانكليز . فبما كان من نقمة مساعدة بطرسبورغ،فانها انطوت مع ذلك على فائدة كبيرة للأفغاني هي ضمان تحالف بديل عند الحاجة، لا سيما وان الضغط الروسي البعيد لم يبرز الا في عهد متأخر . ولكن الاستيلاء على مرو في السنة ١٨٨٤ قد فتح طريق هيرات أمام القائد كوماروف وكان مقدمة لاحتلال « بنجه » . ثم ما [illegible] الروس ان بلغوا بامير .

وكان لأفغانستان فائدتها احياناً : ففي السنة ١٨٩٥ حافظت على منطقة فاخان الضيقة التي تفصل بين الامبراطوريتين الاوروبيتين على ارتفاع اكثر من ٣ آلاف متر . ولكنها في الحقيقة دارت في فلك الهند .

خضوع الاسلام للروس

في الحوض الجاف الواسع الاطراف الذي دخله الاسلام الى الشمال من ايران وضعت الحرب المقدسة الروسية تحت السيطرة القيصرية زهاء عشرة ملايين مسلم .

اقامت طلائع العالم الاسلامي هذه بين روسيا الوسطى والسهل السيبري . فقد ألفت منذ ذاك الوقت على جانبي الفولغا مجموعة هامة تقدر بمليوني نسمة تنتسب الى الفرع التركي المغولي ولا يدخل في عدادها تتر القرم . فنمت « نجني – نوفغورود » عند حدود السلافيين الارثوذكس ، ولكن خازان ، عاصمة خانية الفرقة الذهبية بالامس ، قد شيدت المآذن منذئذ بين الكنائس . وبينما اعتنق الـ « شوفاش » المتحدرون من اصل فنلندي ، الدين المسيحي ، فقد مثل الاسلام ، ابعد الى الشرق في جبال الاورال ، الـ « بشكير » الذين اقلقوا القياصرة زمناً طويلا بجسهم وساندتهم لـ « بوغاتشيف » : أخذت البلاد ترتدي طابعاً روسياً في أواخر القرن ، ولكن البدو الرحل الذين استخدمت جمالهم في الحملات على فارس وتركيا قد بقوا اوفياء للخيمة وحليب الفرس المختمر .

وراء هذه المواقع الامامية ، انبسطت بورات صحراوية تحيط ببحري قزوين وارال وتكاد تكون خالية من السكان. ولكن حيثما كانت الحياةالبدوية ممكنة عاش بعض الرعاة من امثال الـ « كلموك » البوذيين عند الفولغا الاسفل ، ولا سيما القازاق الكرغيز ابعد الى الشرق .

وكان هؤلاء اراكاً مغولي الطابع متمسكين ابداً باعتقاداتهم الشامانية وبعبادة الاموات ، فمارسوا اسلاماً سنياً متساهلا . وقد شيد الروس فيما بينهم خطاً من المراكز المحصنة وضعوا فيها حاميات من قوزاق اورنبورغ والدون ، رغبة منهم في ضمان مؤازرتهم . أما القبائل الثلاث التي امتلكت ملايين الجياد والاغنام والابقار فقد تألفت من قبائل صغرى ، او «اول» تضم كل منها بين ٣٠ و ٢٠٠ خيمة . وكان قوام غذائها « عيرن » او الحليب الحامض ، والشاي ، واللحوم .

في القفقاس تغلب الروس بصعوبة على مقاومة السنيين والشراكسة الذين هاجر قسم كبير منهم الى تركيا . وقد خططت الطريق العسكرية الى منطقة ما وراء القفقاس عبر ممر « داريال » بين « اوسيت » الايراني الاصل المتميزين بمزيد من الاستعداد للخضوع . اما شيعو اذربيجان الذين يجوبون بورات « شروان » ويتطلعون الى ابناء بجدتهم في تبريز ، فلم يمنع الفاتحون السلافيون عن استخدامهم في سياستهم الفارسية . ولكن الفاتحين هؤلاء الذين نشروا الامن والسلام في الفسيفساء القفقاسية ، وباشروا استثمار ثرواتها ، قد اضطروا الى الاكتفاء بترويس المسؤولين الاداريين .

الى الشرق من بحر قزوين ، سيطرت على الوديان المنحدرة من القمم المرتفعة رطوبة كافية لان تجعل من كل منها مصراً اخرى . وغذّت مجاري المياه واحات واسعة الاطراف . وكانت مواطن الحرير والقطن هذه ، حيث ازدهرت في العصور القديمة سوغديانا وبكتريانا ومرجيانا ، مهيأة ابداً لقيام الامبراطوريات . فان سمرقند تعتز بضريح تيمورلنك ؛ كما ان بابر ، فاتح الهند ، هو ابن فرغانا . وقد تعززت حيوية الاسلام السني في بقاع عرفت بالامس حضارة يونانية ـ بوذية تتصف بالرقة . واذا استطاع الروس الاستقرار في « سميرتشه » ، او بلاد الانهار السبعة ، عند مدخل « زونغاريا » ، فانهم قد اصطدموا من جهة ثانية بدول اسلامية حسنة التنظيم في احواض « سيرداريا » و « اموداريا » و « مورغب » .

ان الاستيلاء على تركستان ، المدينة المقدسة ، وعلى طشقند ، قد قاد جيوش القيصر الى ابواب فرغانا . وقد خضعت هذه الاخيرة للصين حتى السنة ١٨٣٥ ، ثم اسست خانية كوكند التي ضمت اهل حضر واهل وبر ؛ فأقام فيها التاجيك والسارت علاقات طيبة بسمرقند وقشغر على الطريق التي تصل بين تركستان الشرقية وتركستان الطورانية . وبعد ان حارب الروس اصبح خان الاوزبك التركي المغولي حليفهم رغبة منه في التفرغ لصد اعتداءات بخارى ، ولكن فرغانا قد ضمت الى روسيا في السنة ١٨٧٦ .

اما بخارى ، اكبر الدول الاسلامية ، فارتضت قبل ذلك بالخضوع للسيادة الروسية . ولكن خانها نصرالله سار قدماً في تحقيق برنامج ينطوي على الكثير من الطموح . فقد جهز هذا الزعيم الاوزبكي الاخر جيوشاً دائمة وهاجم جاره زعيم خيوا ؛ ثم استولى على سمرقند وخوجند ، وطرد امير كوكند من فرغانا لفترة قصيرة ؛ لا بل انه فكّر يوماً بغزو افغانستان ، ولكن

دون اتفاق على ذلك مع الانكليز ؛ وقد اشتهر بالاضافة الى ذلك باضطهاده المسيحيين ووحشيته في قمع الحركات الثورية . ولكن ابنه لم يستطع الصمود في وجه الهجوم الروسي ، وبعد سقوط سمرقند ، مدينة الجوامع الـ ١٦٥ والمدارس الذائعة الشهرة ، ارتضى بأن يكون محمي القيصر ، وبأن يلغي الرق ويستقبل في جيشه مدربين روسيين . فقابل ذلك ، ومقابل التخلي عن منطقة طرفشان الغنية تمكنت بخارى ، الواحة المشهورة بجوامعها الـ ٣٦٠ وفنادقها الـ ٣٨ ، واسواقها الـ ٢٤ ، والمتميزة بأكثرية من التاجيك ، من الابقاء على مؤسساتها الاقطاعية .

خوجت خيوا من الوراء فسقطت بدورها . وقد تنازع الاوزبك والتركمان هذه الواحة وهذه السوق النخاسية الكبرى ؛ وهم السارت والتاجيك ، هنا ايضا ، من القوا الاكثرية ودفعوا الجزية للملك الذي ابقاه الروس كذلك في مركزه بالشروط نفسها .

وكانت مرو مركز خانية تركمانية ضمت ٢٤ قبيلة صغرى ، وانشئت فيها ٢٤ قناة للري . وقد صمدت فيها المقاومة التركمانية بعناد ولم تنهر الا في السنة ١٨٨٤ . فبات ممكنا حينذاك أن يمور الخط الحديدي المؤدي من « كراسنوفودسك » على شاطىء بحر قزوين الى فرغانا النائية دون أن يمر بصحراء تركستان الوسطى . ولن ينشأ خط حديدي مباشر بين موسكو وطشقند الا في السنة ١٩٠٥ .

نشر السلم الروسي الذي لم يتعرض تعرضاً يذكر للعادات المحلية ، مقتصراً على مراقبة الغاء الرق ومنع بعض تجاوزات القانون الجزائي وتوطيد حرية الاديان والتجارة ، وتاركا للمدن الاسلامية طابعها وشوارعها الضيقة القذرة وحياتها . وقد آثر الفاتح ان يشيد لموظفيه وحامياته ومهاجريه المستعمرين ابنية خاصة به ، فأسس طشقند جديدة توازي باريس مساحة وجهزها بدار كتب ومرصد ، ومرو جديدة ، وحيا اوروبيا جديداً في سمرقند . واشترى الحرير ، وأدخل نوعاً اميركياً من القطن ، وانشأ مصانع لحلج وباع مصنوعاته في بلاده . ولكنه لم يدخل اي تحسين على الري وتربية المواشي . وبعد أن تغلب على زعماء الاوزبك والتركمان ، لم يكترث قط لمكافحة الرياح البوارح والجراد والملاريا .

ان تركستان ، الغنية بذكرياتها وامكاناتها ، مدينة لمجيء الروس بأمنها ووحدتها الجزئية . ولكن مستوى الحياة فيها لم يرتفع ارتفاعاً يذكر .

مصر : ارض خصبة وفلاح بائس

في القرن التاسع عشر ، لفتت مصر انتباه اوروبا بعد حملة نابوليون . فتبارى رجال السياسة وعلماء الاقتصاد واهل العلم في تبيان موقع البلاد الهام وغنى كنوزها الاثرية التي نبشتها اعمال التنقيب ، وثروة تربتها الذائعة الصيت .

اذا استثنينا الطوائف المسيحية - الاقباط وسواهم - واليهودية ، رأينا ان الشعب المصري يتألف ، بنسبة تسعة اعشار ، من الفلاحين المسلمين الذين تتوقف معيشتهم على فيضان النيل

وهناك اقل من ٢٠ الف كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية (اي اقل من مساحة بلجيكا) من اصل ٦٠٠ الف ، ويمكن تقدير عدد السكان بمليوني نسمة في اوائل القرن التاسع عشر : فتكون الكثافة ٦٠ في كل كيلومتر مربع من المساحة الضيقة الصالحة للحراثة المتكونة من الدلتا والوادي والفيوم . وليست مصر من ثم سوى اكبر واحة في العالم . فالعهود تتوالى ولتستفيد من عمل المصري الشاق : والمصري يتحملها ولا يحب سوى ارضه . ولكن الارض ليست لمن يزرعها. فالاملاك الموقوفة تمثل اكثر من ربع المساحة المستثمرة ولا تنتج كثيراً . يضاف الى ذلك ان الملك ، بوصفه صاحب الارض ، يوزع الانصبة الاخرى لقاء جزية معينة ؛ وفي قطع الارض هذه المعروفة بالخراج يكون الفلاحون مسؤولين بالتكافل عن تأمين الاتاوات المفروضة وملزمين بدفع رسوم اضافية للري .

بعد مصادرة املاك المماليك، أمر محمد علي بمسح الاراضي مسحاً جديداً . فسجل كل قطعة، مدى الحياة ، باسم زعيم العائلة ، ولكنه احتفظ لنفسه بأملاك خاصة واسعة ووزع الاملاك الكبرى على ملتزمي جباية الضرائب و « شيوخ البلد » . وقد استهدف من وراء ذلك ان يضمن بعض المؤازرين بغية توسيع زراعة النباتات الصناعية الوفيرة الارباح . فأدى ذلك الى رأسمالية رسمية مارسها اقطاعي كبير .

لم يدخل بذلك اي تبديل على معيشة الفلاح . ولكن سعيد منحه حق التصرف بأرضه واسماعيل حق التملك الكامل لكل من يدفع مسبقاً الضرائب المتوجبة خلال عشر سنوات : واحتفظت الدولة لنفسها بحق الاستملاك دونما تعويض بحجة المنفعة العامة ، او بحق الاسترداد في حال التخلف عن تسديد الضريبة . وبالنظر الى تزايد عدد السكان بسرعة (ارتفع الى ثلاثة اضعافه خلال نصف قرن) ،تعاظم خطر تجزئة الاراضي ، وحين اقر مبدأ انتقال الملك بالوراثة بعيد السيطرة الفرنسية الانكليزية المشتركة على مصر ،حدث من جهة ان ٧٠٠ الف عائلة لم تملك اكثر من خمسة فدادين (يساوي الفدان ٤٥ آراً تقريباً)، ومن جهة ثانية ان ١١ الف شخص ملكوا اكثر من ٥٠ اي ما يوازي الضعف (لأن بعض الاملاك بلغت بضعة آلاف الفدادين ولا سيما مناطق الدلتا المكتسبة حديثاً) . ولكن المالك الاكبر كان الدولة التي احتفظت لنفسها بزهاء ٩٠٠ الف فدان . وأتاحت المراباة لجامعي الاراضي الخراجية توسيع ثرواتهم العقارية توسيعاً مستمراً. وحين اضطر خلفاء محمد علي للاستدانة ،انتقلت املاك الدولة عملياً الى رقابة الرأسماليين الاجانب . وهكذا فان روتشلد قد ارتهن ٤٢٦ الف فدان في السنة ١٨٧٨ مقابل قرض بلغت قيمته ٨ ملايين جنيه استرليني ونصف المليون .

الفلاح هو بالتحديد من يشقى . يعد الارض بواسطة مسحاة بسيطة او محراث بدون عجلة و مقلب، ويمهدها بعارضة خشبية بسيطة ايضاً هي « الزحافة » . اما معاونوه فهم الجاموس او

الحفر . ولكن العمل الاكبر هو عمل الماء ، اذ لا غلة بدون ماء . فيتوجب على الفلاح ان يشهد وقت حدوث الفيضان . اجل لقد تولى محمد علي امر استبدال طريقة احواض الاغتبار القديمة بأقنية الري الحديثة . ولكن الفلاح ملزم ، حتى في هذه الحالة ، بعمل جماعي شاق لا يعرف الكلل . فعليه ان يراقب الاحواض والاقنية ويصلحها احيانا ، ويتعهد السدود ، ويزيل كل ما يعيق جريان الماء ، ويرفع الماء حين يكون منخفضاً ، اما بواسطة زنبيل واما بواسطة الشادوف البدائي ، وكلها اعمال منهكة . فيجمع من ثم بين هؤلاء المساكين تضامن وثيق لا سيا وان اعمال التسخير من اجل المصلحة العامة ضرورة حيوية بالنسبة لهم . يزرع القمح والفول بعد الفيضان والذرة الصفراء والخضار والنباتات الصناعية والارز في الخريف. ولا يغادر الفلاح أرضه . فهنالك بيته المصنوع من مور مجبول بالتبن ، ويستخدم في صنعه زبل البقر مكان الملاط . لا كوة فيه سوى الباب ، وهو لا يضاء ولا يدفأ بسبب الحاجة الى المحروقات . ولكن السقف المغطى بالتبن غالباً ما تلتهمه النيران . ارضه الترابية مغطاة بالحصر وليس عليها بالاضافة الى ذلك سوى صندوق للملابس . المياه الصالحة للشرب نادرة ؛ والدين والفاقة يحرمان الحرة . قوام وجبة الطعام بصل ولفت وخيار وفول وعدس وأرز ، ولا سيا خبز الذرة الصفراء الذي ينقذ مصر من المجاعة . وجلي انه نظام غذائي نباتي قليل الفيتامينات ، لا يدخل فيه حتى حليب الجاموس . ويرتدي الفلاح قميصاً قطنية طويلة بسيطة ، ويكسو رأسه بكة تعرف باللبدة ، فيدعى بسببها بأبي لبدة . ويسير حافي القدمين او يحتذي البابوج احياناً . اما امرأته المحجبة فلا ترتدي سوى ثوب واحد ، ولكنها تكثر من الحلي اللامعة . رمد العيون والبلهرسية وضعف الدم الناجم عن الديدان الطفيلية امراض منتشرة تسبب اضراراً كبرى . الملاريا والكوليرا ينتشران بين حين وآخر ؛ وهناك بعض الاماكن الموبوءة بالطاعون . وينضم السفلس الوراثي الى الضعف العضوي للقضاء على نصف الاولاد الصغار . وعلى الرغم من كل ذلك يتزايد عدد السكان ويتزايد معه البؤس .

الفلاح مسلم بعيد عن التعصب ولا يفهم لغة القرآن . يزور ضريح الولي اكثر من الجامع البعيد . يحترم الدراويش ويتصف بروح التعاون. زد على ذلك ان شظف العيش لا يجعله شكساً : فانه يهوى الغناء ويستخدم الشبّابة والمزمار ويضرب الطبل . انه سهل الانقياد وراض بتدبير الله عموماً .

مطامع محمد علي وخلفائه
السيطرة البريطانية

شبه عمرو بن العاص الشعب المصري بالنحلة التي يحكم عليها الانسان بجني العسل من اجله . وسوف يتكلم الانكليز عن الضحية الدائمة لمنطق العصا . وفي اوائل القرن التاسع عشر جاء محمد علي الذي أراد بدوره استخدام البلاد لبلوغ اهداف كبرى .

اثرى في تجارة التبغ ، وكان امياً وفطناً وعادم الضمير . ثم اعترف السلطان بباشويته على

مصر فقتل المماليك على ايدي الباني‍ه، وما لبث ان أبعد الالبانيين السجين بدورهم . وجند بعد ذلك جيشاً من بين الفلاحين واسند امر تدريبهم الى بعض المدربين الفرنسيين وابتغى السيطرة على الشرق . وكان بصيراً وقاسياً فاقتبس عن اوروبا تقنياتها ودغدغ شغفها بالتاريخ المصري والآثار المصرية ، وسخر لمرض لتعاظم لا حدود له ارادة استبدادية على غرار بطرس الاكبر .

ما كان احد في الحقيقة لينكر ان العجز التركي أوقع البلاد في حالة يرثى لها. فالاسكندرية ليست آنذاك سوى ميناء صغير لا يتجاوز سكانه ٥ آلاف نسمة . ولما كان الباب قد احتفظ لنفسه بالمرفأ القديم القادر وحده على ايواء السفن ، فقد بقيت السفن الاوروبية خارجه معرضة للرياح العاصفة . وتعرض تجار الغرب ، المجموعون في مكان واحد ، لألف ظلم وظلم ؛ ولكن الفرنسيين تمتعوا مع ذلك ببعض الامتيازات . اجل كان من شأن عظمة الابنية الفاطمية والايوبية والمملوكية ان تترك اثراً عظيما في الناظر اليها : ٤٠٠ جامع بعضها اجلها في الاسلام ، جامعة الازهر الدينية الدائمة الشهرة ، المكتبة الغنية الضامة مخطوطات قديمة للقرآن ، كلية قصر العين الطبية . ويضاف الى هذه الابنية شوارع مليئة بالنضارة ، وتجار وصناعيون يدويون كثيرون؛ على ان اشكال النشاط قديمة العهد .

ان ما حلم به بونابرت ، وما نوى السانسيمونيون تحقيقه، قد رسمه محمد علي رسماً ايجازياً: برنامج اعمال كبرى خليق بالفراعنة . لم يبال بحياة الرعايا بل طلب منهم الاسهام في عمله وأراد ان يجعل من مصر ارضا توفر لصندوق ماله الدخول الوفيرة . عالج مسألة الري الرئيسية التي وجب برأيه ان تكون منظمة لا متروكة لأهواء الطبيعة . فنفذ جيش الفلاحين الزهيد النفقات تصاميم المهندسين الفرنسيين من امثال « لينان » و « موجيل » ، ونقل ١٠٤ ملايين متر مكعب من التراب ووضع مكانها ٣ ملايين متر مكعب من الحجارة المبنية . وعلى الرغم من التخلي عن مشروع سد عند الدلتا بعد جهود عشر سنوات ، اتسعت مساحات زراعة الحنطة والارز ، وأخذت البلاد ، بصورة خاصة ، تجني القطن المعروف بقطن « جومل »، وقصب السكر ، والنيلج والزيوت ، المعدة كلها للتصدير . ولكن شيخ البلد والمدير الاقليمي والكتبة الاقباط في الوزارات صرفوا الذهن والفطنة في تحصيل كل ما يمكن ببمه في الخارج من الفلاح . أما الارباح التي وفرتها النخاسة ، فلم تكن مستهانة ايضا .

أنفق قسم من الموارد على تجميل القاهرة وتنظيم الاسكندرية وبناء قناة تصل هذا المرفأ بشعبة النيل اليمنى . وكان الجيش والاسطول موضوع عناية واهتمام خاصين . ولكن أحلام التوسع العظمى لم تتحقق . وقد توفي الباشا شبه معتوه بعد أن سير مصر على طريق نهضة لم يستفد منها الشعب الذي عومل معاملة قاسية لم يعرفها من قبل ، ولن تتم الا في عهد الوصاية الاوروبية .

اذا صرف سعيد واسماعيل النظر عن مطامعها في سوريا والجزيرة العربية وقبرص (لأن مدعياتها استهدفت السودان وافريقيا الشرقية) ، فان احلام العظمة ما زالت تراودها. ولكن السلالة غرقت في الديون أثناء فتح قناة السويس التي أضفت على مصر اهمية جديدة. وقد برهن سعيد عن بعض التساهل الديني ، ومنع الرق - اقله مبدئياً - وحظر العقوبات الجسدية، وحد من تجاوزات شيوخ القرى ، ولكن التقدم الاقتصادي لم يفد الفلاح كما لم يبرر النفقات المفرطة : وقد اطردت هذه الاخيرة في عهد اسماعيل الذي حصل من السلطان على لقب الخديوي واعتقد ان ذلك يسهل له الاستدانة من اوروبا. اجل لقد اقرت بعض المشاريع المجدية (كبناء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة مثلا) . ولكن كم من انفاق مفرط خالف الصواب الى جانب ذلك ! ألم يفكر هذا الامير بأن تدرب جيوشه امام قصره في الاسكندرية على ارضية حديدية حتى لا يزعجه الغبار المتطاير ؟ فمن جهة خرجت بور سعيد من الرمال ، وظهر الغاز في المدن ، وتأسست صناعة سكرية ، ونمت زراعة القطن ، ومن جهة اخرى ابتز الموظفون المتدنية اجورهم اموال الفلاحين ابتزازا لم يسبق له مثيل في الماضي ، وبات افلاس الاموال العامة أمراً محتوماً .

بقيت مصر توفيق وعباس حلمي مرتبطة بالباب بروابط التبعية الاقطاعية ، ولكنها اصبحت في الواقع تحت رقابة البريطانيين الذين أقاموا ، بأمر « بارنغ » (اللورد كرومر) ، حامية عسكرية دائمة ، وأداروا الشؤون المالية ، واستولوا على الجمارك والشرطة والخدمات الصحية ، وأعادوا تنظيم الجيش لمصلحتهم . فأرسخ الفاتح من ثم سلطته في السويس واستطاع تبني سياسة القاهرة لحسابه الخاص في وادي النيل الاعلى .

أما الفلاح ، فالمسألة التي عنه هي معرفة ما اذا كانت احواله ستتحسن بفضل استثمار يتحقق بهمة ونشاط لم تعرفهما مصر من قبل .

الوصايات الثلاث في الجزائر وتونس وطرابلس

حين يتجه المرء المغادر مصر من واحة سيوا نحو الغرب ، يدخل في بلاد البربر الممتدة حتى الاطلسي .

نشأت عن الفتح التركي وصايات الجزائر وتونس وطرابلس ، بينما توفقت سلطنة مستقلة في مراكش الى تثبيت اقدامها تثبيتاً متفاوت القوة . ولكن هذه البلدان الاربع خضعت خلال القرن التاسع عشر ، الواحدة تلو الاخرى ، لسيطرة الدول الاوروبية .

ومن غرائب المناقضات ان وصاية طرابلس هي آخر ما خضع لها من بين الوصايات الثلاث. فبين دلتا النيل والمغرب تتصل الصحراء الكبرى بالمتوسط ، مما اسهم في نمو طرابلس المعتمدة في معيشتها على القرصنة وعلاقاتها بالسودان التي اتاها منها الجمالة ناقلو الذهب والعاج ومراكب قوافل العبيد . وطرابلس المتميزة باسواقها الناشطة ، قامت في مكان « اويا » القديمة وضمت حياً يهودياً هاماً وقذراً ، وعدداً كبيراً من المالطيين والطوارق والزنوج . وفي السنة ١٨٣٥ ، آثر

الطرابلسيون ، امام خطر قبيلة اولاد سليمان الحرابة ، التي بسطت نفوذها بين الساحل والا «فانم» التشادي ، استدعاء الاتراك ثانية ، لا سيما وان سلطتهم كانت سلطة اسمية فحسب . فبذل هؤلاء وسعهم في السيطرة على المناطق الداخلية ، واستولوا على واحتي غدامس وفزان ، ثم انشأوا ولاية بني غازي . وكان مقدراً لهذه الوصاية ، ربما بفضل فقرها بالذات ، ان تبقى عثمانية حتى السنة ١٩١١ ، تاريخ التدخل الايطالي المتأخر فيها .

بيد ان المغرب (جزيرة الغرب) الذي يضم الجبال القائمة بين المتوسط والاطلسي والصحراء لم يصلح يوماً لان يكون اطاراً لدولة واحدة . فكل ما في طبيعة ارضه ومناخه وطرائق المعيشة فيه قد اعده للتقسيم والتجزئة . وسوف يتوجب ان تفرض دولة اوروبية وجودها حتى تعرف افريقيا الصغرى هذه بعض الوحدة السياسية والادارية : فجاءت السيطرة من الخارج كما حدث في الماضي .

ما زالت الجزائر وتونس تعترفان بالخضوع للباب العالي . ولكن الموارد التي توفرها القرصنة كانت سائرة في طريق الزوال . فلم يكن « داي » الجزائر من ثم خاضعاً للمارونية القراصنة او « طائفة الرؤساء » خضوعه لفرقة الانكشارية او « الاوجاق » ، كما ان باي تونس قد استند الى البورجوازية التجارية ، اكثر البورجوازيات طابعاً عربياً في المغرب ، التي كان يهمها الاحتماء من غزوات البدو . فلقد بدا الحفصيون ثم الحسينيون في افريقيا امراء سلالات على بعض القوة . اما الداي ، الذي قال عنه مؤرخ اسباني انه « ملك عبيد وعبد رعاياه » ، فكان اداة في يد الجيش . فبالنظر الى توليه السلطة اما عن طريق الدسيسة واما عن طريق القوة ، ولما كان بالاضافة الى ذلك جاهلاً وتابعاً هواه ومقلقاً لجيرانه (ولذلك لن يمد له يد المساعدة لا باي تونس ولا الشريف المغربي في السنة ١٨٣٠) ، فلم يتمتع بسلطة كافية لنشر الامن والنظام في الجزائر .

تتميز الجزائر بالتنوع بسبب اتساع رقعتها . فمن الطبقة العسكرية التركية والنساء البلديات انحدر الـ « كولوغلي » الذين يؤمنون الحراسة في حصون المدن ويتملكون بعض البساتين ؛ يحتقرون البورجوازيين والصناعيين البدويين ويثيرون خوف وحفيظة سواهم . ويتعاطى المغربي او الاندلسي على العموم حرفاً تتطلب بعض الذوق ، بينما يتعاطى الزنوج ، المتكونون غالباً ، اعمال البناء المختلفة . ويزاول المزابيون ، المعتبرون كخوارج ، تجارة الاقمشة والمواد الغذائية ، ولكنهم نادراً ما يستقرون في مكان معين ، بل يعودون الى مزاب بقصد جمع الثروة . اما الاسرائيليون سكان المدن فيؤلفون جماعات مستقرة ، ويبلغ عددهم زهاء عشرين الف نسمة منهم ٦٠٠٠ في مدينة الجزائر نفسها و ٣٠٠٠ في قسنطينة ، وينحدر جلهم من اصل بربري ؛ ولكن عدداً كبيراً منهم ينحدر كذلك اما من اصل عبراني آرامي واما من اصل اسباني . ويتوجب عليهم ارتداء زي خاص والاقامة ، على العموم ، في احياء منفصلة . ويعانون من

المظالم وحتى من اعمال العنف . وهم فقراء الحال بصورة عامة ، ولكن بعضهم يتعاطون تجارة رابحة ويلعبون دور الوسطاء المفوضين مع الاجانب .

اما سواد السكان فيتألف من خليط من العرب والبربر الموزعين على غير تساو بين المدينة والريف . اجل ان المدينة ، التي تحيط بها الاسوار بصورة عامة وتشرف عليها القصبة وبعض المآذن ، تبدو وكانها مركز ثقافة عربية ؛ ولكن العنصر البربري متفوق في الاسواق . زد على ذلك ان المدن المعتبرة « حضرية » لا تتجاوز العشر عداً .

لا يزال التضاد قائماً بين البدوي الذي ترتبط حياته بانتقال القطعان من منطقة الى منطقة وبين الحضري او شبه الحضري . الجفاف عدو الجميع في كل مكان . والانسان يسيء مقاومته لانه غطي وقدري ولا يستخدم سوى محراث مزود بباسنة صغيرة بدون سكين ومقلب ، وكانه مجرد كلاب يجره الحمار او الحصان او الثور ؛ يحصد بواسطة المنجل ، وينظف الحبوب من التبن بواسطة المذراة ، ويجمع الحبوب في المطامير . اجل انه يعتني بحدائقه وبساتينه . ولكنه لا يتقن تربية المواشي ويجهل امر سكناها في الزريبة ويقدم لها الاعشاب التي تنبت بفضله تعالى . وغالباً ما يحدث ان تموت الابقار والاغنام جوعاً باعداد كبرى . وتسبب الحروب الاهلية والغارات بخسائر توازي تلك التي تسببها الكوارث الطبيعية . وباستطاعتنا كذلك ان نرد الى الفوضى والاهمال سوء الحالة الصحية في السهول الساحلية .

الف الناطقون باللغة البربرية مجموعات متراصة في جبال قابيلية واوريس وبين سنوسي منطقة تلمسن ، ولكن تعلمهم اللغة العربية وارتدادهم الى الاسلام لم يقضيا على عاداتهم القديمة . فقد قابل الشرع الاسلامي العادة المحلية : وهكذا فان قبائل قابيلية لا تخضع الا لقوانينها؛ وحتى اذا تجمعت العائلات المتصاهرة لتؤلف « الدوار » عند الرعاة و « القصار » في القرية ، فان هذين التجمعين لا يرتديان قط طابع الديمومة .

عجزت حكومة الوصاية عن تنشيط اقتصاد البلاد ، فلم تهتم الا بجمع الدخول . وقد تامنت لها الواردات بفضل الجمارك والمقايضات مع الخارج . وقد باع الداي الاصواف بواسطة يهود ليفورنو عقداً كبا يوازي ٣٠٪ ويرتفع حتى ٥٠ ٪ حين يضاف اليه كسب التجار ؛ وقد اشتري هكتولتر الحنطة من المنتج بسعر يتراوح بين ٣ و ٨ فرنكات ويبع بسعر يتراوح بين ١٨ و ٢٠ في اوروبا . اضف الى ذلك ان الضريبة تفرض على القبيلة « الرعية » بالتخلي للحكومة عن بعض الحصاد والماشية ؛ ولجمع هذه الضريبة على يد قبائل تعرف بالمخزن وتقوم بعملها مقابل تخفيض الرسوم المفروضة عليها وحتى اعفائها منها، وبمساعدة الحاميات العسكرية . واذا احتفظ الداي لنفسه بادارة منطقة مدينة الجزائر (ملكه الخاص) ، فقد فوض بسلطاته الى بعض البايات في مناطق وهران وقسنطينة وميديا . وبديهي ان الامور لم تجر بدون صعوبات . فان باي قسنطينة ، الكرغلي الحاج احمد ، قد لقي الاهانة والخوف في كبار

الاقطاعيين المدعين الانحدار من الفاتحين العرب (ارستوقراطية الدم الازرق)، ولكن الداي محمد بن عثمان لم يستطع اخضاع قابيلية (وسندوم الاسطورة القابيلية طويلا). اما في منطقتي وهران وتتري ، فقد ساندت فاس بعض الجمعيات التي تنازعت النفوذ فيها : فبينما نادت بعض الجمعيات الدينية المتميزة بروح ديموقراطية ، كجمعية الدركاوة ، بالثورة على السيطرة التركية ؛ برز في الارستوقراطية المتصوفة زعماء تاقوا الى تخطي النظام القبلي وسموا وراء السلطنة ، ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد القادر الذي سار على خطى الامراء العرب . وقد استغلت القوى الروحية الاستياء العام الناجم عن البؤس ، قبل ان يستطيع الفرنسيون الاستفادة من الخلافات. وان عبد القادر لمدين بقسط كبير من شعبيته الى الغاء الضريبة الدينية التي سبق ورفعت بها ثورة دركاوية . وجملة القول ان القبائل الرعايا كانت ترتقب اول فرصة للتحرر من نظام جائر . ثم جاء الفتح الفرنسي في وقته المناسب حين وجد السبيل ممهدا .

عمل الفرنسيين في الجزائر

بسبب جهل الاماكن والهجات ، خضعت الحملات الاولى على الجزائر لعامل الارتجال ، وساد الاعتقاد بان الاتفاقات مع الزعماء المحليين – احمد في منطقة قسنطينة وعبد القادر في منطقة وهران – ستكون كافية لضمان احتلال جزئي ؛ يضاف الى ذلك ان الرأي العام لم يكن مستعداً لتسليم بتضحيات كبرى . ولكن الحاجة مست بعد قليل الى حماية المهاجرين المستعمرين في منطقة التل ، كما مست ، امام عبد القادر الاريب والخطر ، الى الاستيلاء على كل شيء خوفا من فقدان كل شيء. فكانت الحرب الكبرى مع ما تخللها من غزوات واعمال عنف وقد تولى عملياتها ضباط تعودوا ظروف القتال في افريقيا . وسهل عمل الفرنسيين فقدان الروح القومية وفشل التعبئة الدينية ، اي الاختلافات بين المسلمين . واذا لم تتحقق التهدئة النهائية الا بعد مرور زمن طويل ، فان اضطراب السنة ١٨٦٥ وثورة السنة ١٨٧١ الخطيرة لم يكونا خطرا على السيطرة الفرنسية . وسوف يصبح بمقدور الاحتلال بعد ذلك التوسع تدريجيا في كافة المناطق الداخلية والسير على طرق القوافل عبر الصحراء .

اقتنع الجيش شيئا فشيئا بان الجزائر انما هي عمله وتحقيقه ، ومن جهة ثانية بان السلطة العسكرية وحدها قادرة على ابقاء فرنسا فيها . ولم يسلم « يوجو » يوماً بان راي المدنيين يجب ان يتقدم رأي العسكريين،وعارض استثمار البلاد على يد مهاجرين احرار في التصرف كما يطيب لهم التصرف ، او على يد رأسماليين يقتطعون منها او من دخول سكانها ما يطيب لهم اقتطاعه . وبالمقابل درج الفاتحون شيئاً فشيئا على تعيين او تثبيت الزعماء البلديين في مراكز المسؤولية مفوضين الى تدبيرهم امر جباية الضرائب ، فسهلوا بذلك استمرار نظام اقطاعي تناوله بالنقد المطالبون بنظام مدني .

لما كان الاستثمار الاسكاني قد بدا ممكناً منذ البدء ، فقد تقابل منذ البدء عالمان مختلفان

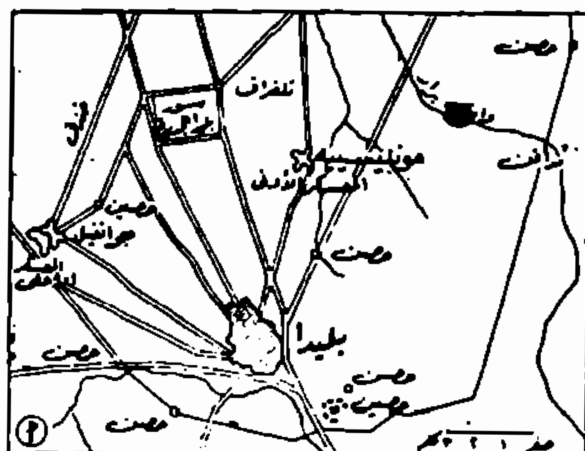

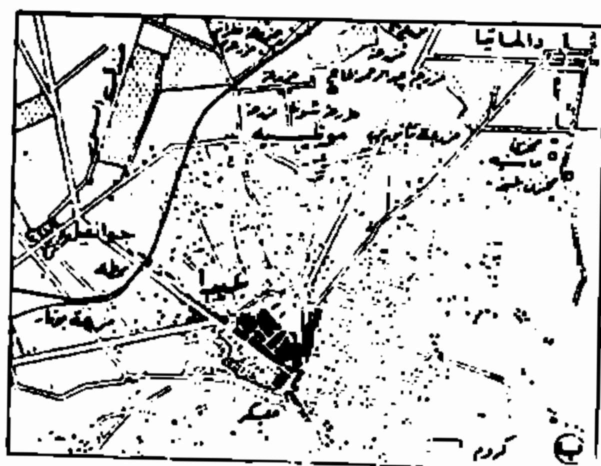

الشكل ٢٥ ـ مثال عن الاستعمار الاوروبي . بليدا ومنطقتها

أ ـــ بليدا في السنة ١٨٤٤ ، حين وضع الجيش يده عليها ،

ب ـــ بليدا في اوائل القرن العشرين بعد استيلاء الزارعين والكرامين لاراضيها .

(نقلا عن « ج. لرالك » في كتابه « استعمار المتيجه » ص ٢٤٩ و ٥٦٤) .

ولكن استيطان الفرنسيين لا يمكن ان يتحقق الا على حساب البلديين . والحال لم يفكر أحد بتمه « حتى ولا « بوجو » الذي كان يحلم بجنود فلاحين على غرار الرومان . فسارت الامور على غير هدى ، وفاقاً لحاجات الساعة او لاتفاق الآراء السائدة . وقد هاجر، اثناء الاعمال الحربية، بعض المساكين الذين أقاموا على مقربة من مدينة الجزائر ، وبعض المضاربين الذين اشتروا بغية تحقيق الارباح عند البيع ، وبعض هواة الاختبارات الزراعية الكبرى . ثم تسببت ازمة السنة ١٨٤٨ في هجرة عدد كبير من العمال ، وتبنى المجلس التشريعي مبدأ انزال الجنود في المنازل والاحياء الآهلة الذي يتيح اغتصاب اموال البلديين بموجب القانون . واذا أعرب نابوليون الثالث عن رغبته في حماية القبائل ، فان ذلك لم يمنع الامبراطورية الثانية من اطلاق حرية العمل للرأسماليين الذين حصلوا على امتيازات واسعة : هذه هي سانسيمونية الاشغال العامة الكبرى، التي توفرت لها وسائل مالية عظيمة ؛ ولكن سد « هبرا » قد انهار ، والشركة الجزائرية العامة أعطيت ١٠٠ ٠٠٠ هكتار دون اي تعهد من قبلها . فقترت همة صغار المهاجرين المستعمرين فترة من الزمن ، ولكنهم استعادوا التفوق ابتداء من السنة ١٨٧١ : فتوزع خلال عشر سنوات اكثر من ٤٠٠ الف هكتار . ثم بطؤ الاستعمار الرسمي . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان الاتجاه نحو توسيع الانصبة التي بلغ معدل مساحتها الى ٢٥ – ٤٠ هكتاراً ثم ٦٠ – ٧٠ هكتاراً ، ثم ٢٠٠ هكتار . فعاد الى الاملاك اعتبارها بعد أن تأمنت لها رؤوس اموال وفيرة وتقنية متكاملة : وبعد عهد الاستعمار الديموقراطي في اوائل عهد الجمهورية الثالثة دخلت البلاد مرحلة رأسمالية زراعية صادفت في الزمن توسيع الاسواق للمحاصيل الكبرى كالخمور مثلاً .

لم تتحقق لعمري تقديرات « بريفو – بارادول » بأن افريقيا الشمالية قادرة على استيعاب ١٥ الى ٢٠ مليون فرنسي حوالي السنة ١٩٣٠ . ويرد ذلك الى ان الجزائر لم توفر للاستعمار الاوروبي الظروف المؤاتية نفسها التي وفرتها له كندا او استراليا . وحتى السنة ١٨٥٦ ، كان من ارتفاع نسبة الوفيات بسبب الحميات وسوء الحالة الصحية ان عدد الموتى بين المهاجرين كاد يوازي عدد الداخلين الجدد منهم . ففي السنة ١٨٤٩ فتك وباء الكوليرا بالسكان فتكا ذريعاً . واننا نذكر هنا على سبيل المثل ان سكان « بوفريق » قد تجددوا ثلاث مرات . غير ان بعض التحسن طرأ بعد السنة ١٨٦٠ ، فتضاعف عدد الاوروبيين بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٧٦ . وكانت نتيجة مرسوم « كريميو » لمصلحة اليهود وقوانين تجنس الاجانب تكوين قومية جزائرية حقيقية، شبيهة بالقومية الفرنسية ، ولكنها تعي مصالحها الخاصة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاوروبية قد اقاموا في المدن اكثر من الارياف ، فشيدت احياء جديدة في مدينة الجزائر ووهران والمدن الرئيسية الاخرى . وأنجب الاسرائيليون اولاداً كثيرين ، وحرصوا على تعليمهم واعتمدوا الزي والعادات الاوروبية ؛ وتعاطوا تجارة العقارات، ولكنهم احرزوا النجاح في الصناعة اليدوية واتجهوا طوعاً نحو المهن الحرة .

الا ان عدد المسلمين ارتفع ارتفاعاً سريعاً جداً فبلغ ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ حوالي السنة ١٨٥٠ ؛ وحين تدنى حتى ٠٠٠ ١٠٠ ٢ في السنة ١٨٧٢ ، اعلن البعض ان الشعوب المتخلفة تنقرض امام الشعوب المتفوقة ؛ اما الحقيقة فان مرد هذا النقص هو انتشار المجاعة والتيفوس في السنة ١٨٦٧ واندلاع ثورة السنة ١٨٧١. فقد قفز عددهم الى قرابة ٣ ملايين في السنة ١٨٨١ والى ٠٠٠ ٨٠٠ ٤ من أصل ٠٠٠ ٥٥٠ ٥ في السنة ١٩١١ .

لم يتطور جمهور المسلمين تطوراً يستحق الذكر . ولم يستفد استفادة كبرى من مؤسسات الحماية والتربية ؛ زد على ذلك ان اول مستشفى بلدي لم يفتح ابوابه الا في السنة ١٨٩٤ . وقد فتكت الامراض بأعداد كبيرة منهم كل سنة ، لا سيما التدرن الرئوي والسفلس اللذان يبدو في الحقيقة انهما زادا انتشاراً منذ مجيء الفرنسيين . ولا شك في ان التعليم في المساجد والمدارس والزوايا كان دينيا فحسب ، ولكنه كان يتيح للأولاد تعلم القراءة؛ فجاء الاسياد الجدد واستولوا على الاوقاف وقضوا على هذه المؤسسات . ولم تعط تجارب المدارس العربية الفرنسية نتائج مشجعة . وبسبب عدم توفر الموارد والمدرسين لم تؤمن قوانين « فري » للمدارس العامة البلدية سوى بضعة آلاف من التلامذة ؛ اضف الى ذلك أن التعليم المقترح لم يوافق دائما الاوساط البلدية . واذا وفرت البلاد الفرنسيين حقلا غنيا للدرس والملاحظة وحصاداً وفيراً للمواضيع الادبية ، فان الفن الاسلامي ، بالمقابلة ، ما زال يتقهقر تقهقراً مطرداً : ارتسم اسلوب هندسي فرنسي جزائري للابنية العامة ومقاصف المهاجرين المستعمرين ، ولكن قصر احمد ، باي قسنطينة ، كان خاتمة الابنية البلدية بحسب النمط التركي الجزائري . اما الفنون الصغرى ، المزدهرة جداً من ذي قبل ، فقد تأثرت بزوال القرصنة ، ثم عرفت ازمة خانقة لا علاج لها بسبب المنافسة الاوروبية وارتداد البداوة الى الوراء . فالنجاحات التقنية تقضي على النشاطات القديمة قبل تحسين وضع المتخلفين . وهكذا فأن المجتمع الاسلامي قد قايض الطنفسة بالسرير الزهيد القيمة ؛ وحلت الشمعة محل السراج الخزفي ؛ وفقدت علب البارود المنقوشة مبرر وجودها حين اصبح من السهل شراء الفشك ؛ وهبط عدد الزوجات بفعل تبسيط اعمال المنزل ؛ فندرت في الوقت نفسه اليد العاملة اللازمة للحرف العائلية .

في المدينة عاش الكولوغلي والمغربي في ضيق ولم يتكيفا . اما البربر والعرب الذين اعتمدوا في معيشتهم على التيارات التجارية القديمة فقد خسروا الكثير بفعل الفتح الفرنسي الذي اوجد تيارات جديدة واسواقاً جديدة . فالتداول النقدي الوفير قد حل محل المقايضة واحدث انقلاباً في اسعار الحبوب والاصواف . وكيلت ضربة شديدة جداً لارستوقراطية الاشراف والزعماء والقادة الذين ثبتتهم فرنسا في البدء في سلطتهم ، والذين بلغوا ذروة نفوذهم في ظل « المملكة العربية » في عهد الامبراطورية الثانية ؛ فلم يفقد الزعيم القديم نفوذه فحسب ، بل فقد ثروته ايضاً بفعل الاقتصاد الجديد . وكان فقدان الاراضي بفعل تزايد عدد السكان اشد خطراً من كل شيء آخر. فقد خضع مليونا هكتار على الاقل لنظام القانون المدني. ولا عجب

من ثم اذا ما هاجر العديد من الرعاة خيامهم بسبب عجزهم عن تحسين تربية مواشيهم؟ ولا عجب كذلك اذا ما هاجر القابيليون بعد هزيمتهم في السنة ١٨٧١ وتعاطوا الاعمال المأجورة او المشاركات الزراعية . وغني عن البيان ان هذه المهاجرات قد فككت بيئة مغلقة كل الاقفال واسهمت في استرخاء الروابط العائلية . ولكن شطرا من السكان المسلمين تعود الاساليب الجديدة ، فأحسن العناية بالاشجار والمواشي ، وزرع البطاطا ، واستفاد من زراعة التبغ وبيع الاثمار . اما سوادهم الاعظم فما زال يعيش عيشة زرية .

يجب الاعتراف ، على الرغم من كل ذلك ، بأن الوجود الفرنسي قد اوجد بلاداً جزائرية جديدة . اجل ، ما زالت الاحوال سيئة في اوائل عهد الامبراطورية الثانية ؛ فالمهاجر المستعمر ، المفتقر الى الموارد ، يعيش في ضيق ويعاني من نظام حماية لا يسلم باعتبار المحاصيل الجزائرية محاصيل فرنسية ؛ وانتاج الحبوب في تقهقر مطرد ؛ ولم يزل خطر وهم مزروعات المناطق الحارة ، ولا سيما القطن ، الا في السنة ١٨٧٠ . ولكن القانون الجمركي الذي صدر في السنة ١٨٥١ مثل المستعمرة بالوطن الام . فتأسست شبكة مصرفية . وفي السنة ١٨٦٠ دشن اول سد لتخزين المياه . ويجدر القول هنا ان سدود التخزين ، التي فضلت بعناد على سدود الاسالة حتى السنة ١٨٨٧ ، قد خيبت الآمال . الا ان الانطلاقة باتت حقيقة واقعة عشية ازمة السنة ١٨٦٨ الرهيبة : فقد قابل تدفق المهاجرين الجديد تقدم سريع في توسيع المساحات المكرسة لزراعة الحنطة والبواكير وشجر الزيتون ؛ ودبت الحياة في التجارة بفضل الخطوط الحديدية والطرقات . وحوالي السنة ١٨٨٠ توسعت عملية القروض الزراعية وأدخلت الدراسات الآلية .

في هذه الاثناء أصبح اتفاق الظروف غير موافق لزراعة القمح التي مرّت في فترة توقف . زد على ذلك ان الجزائر اكتشفت مستقبلها في زراعة الكرمة . وقد برز الشغف بالزراعة الجديدة في اعقاب ازمة بيع اولى حصلت في السنة ١٨٩٣ ؛ فاحتلت الكرمة ٠٠٠ ١٥٠ هكتار في السنة ١٨٩٩ . وهكذا فعلى الرغم من عدم اهتمام المجتمع الاسلامي بالكرمة الا من أجل العنب فقط ، ضحّت البلاد بتربية المواشي واهملت الحبوب ، مع ان هاذين القطاعين حيويان جداً من وجهة النظر البلدية .

وفي عهد مبكر استرعت ثروات باطن الارض انظار الوطن الام والرأسماليين ؛ فدفع معدن الحديد الى تأسيس شركة « مُقتني الحديد » ؛ ثم بوشر في الجوار استثمار الفوسفات . فاسهمت هذه الصناعة الاستخراجية في موازنة المقايضات في منطقة تفتقر الى التجهيز وتستورد كافة الادوات المصنوعة تقريبا .

ولكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو معرفة ما اذا كانت فرنسا ستعتبر الجزائر كمجرد امتداد لاراضيها الخاصة . فان الجزائريين الفرنسيي الأصل والجزائريين المتجنسين ، وهم فرنسيون حقاً ، قد تمتعوا بحقوق المواطنية الفرنسية . ولكن ما هي حقوق المسلمين يا ترى ؟ ثم هل يقبل

الجزائريون بأن تدار شؤونهم في باريس ؟ لذلك فان تاريخ نظـــام الجزائر السياسي والاداري يفسر الصراع ، الدامي أحياناً ، بين النزعات المتنقلة ، دون ان تتغلب احداها ، في يوم من الايام ، تغلباً لا مراء فيه . اجل ان المسافة بعيدة بين « المملكة العربية » والنظـــام المعروف بنظام الارتباطات ، وبين نوع من الاستقلال الذاتي والتمثيل ؛ ولكن الاستقلال الذاتي لم يكن يوماً حكماً ذاتياً ، كما ان التمثيل لم يستهدف البتة الجماهير الاسلامية . وبعد ثورة السنة ١٨٩٨ الفاشلة ، المعادية لليهود والمطالبة بالاستقلال الذاتي ، ساد شيئاً فشيئاً نظام التفويضات الذي منح المهاجرين المستعمرين مزيداً من الحقوق والحريات وابقى البلديين في وضع اجتماعي متدن . اما هذه الحالة التي ارادها الجزائريون الفرنســيون ، وهم اقلية ناشطة وهيئة انتخابية كبرى ، فقد وافقت مصالح الحكام في الوطن الام .

الحماية الفرنسية على تونس

هل ستستفيد فرنسا من اختبارها في الجزائر حين تسمح لهـــا الظروف باخضاع وصاية تونس بدورها لسيطرتها ايضاً ؟

ان البايات الحسينيين الذين قامت بينهم وبين الفرنسيين ، جيرانهم منذ سقوط الجزائـــر ، علائق صداقة وحسن جوار ، كانوا مصمين في الوقت نفسه على مواصلة العمل الاصلاحي الذي بدأه الحفصيون . فبعد ان ألغوا الرق وحرروا اليهود ، حاولوا توسيع منطقة الاحتلال اوبلاد الترك ، واخضاع منطقة الانشقاق او « بلاد العرب» ووضعوا يدهم على مناطق طرق المواصلات واقطعوا مناصريهم بعض الاراضي ، واقاموا علائق طيبة اكثر استمراراً بينهم وبين البلدان المتوسطية الاخرى وشرعوا في تجهيز مرفـــأ تونس ، ومارسوا على العموم سياسة عطف على بورجوازية المدن ، ولكنهم سلكوا كذلك طريق الانفاق المفرط والاستقراض .اضف الى ذلك ان بعض الاجانب الاوروبيين والمسلمين ، كالخزندار اليوناني مصطفى والشركسي خير الدين ، قد حرضوهم على الاصلاحات والاشغال الباهظة الاكلاف . ولكن ميثاق السنة ١٨٥٧ الاساسي الذي استوحى اعلان حقوق الانسان وقضى باحداث مجلس استشاري يضم بعض الاعيان ، لم يمنع زيادة الضرائب والمجاعة ، بالاضافة الى وباء الكوليرا ،من تمهيد السبيل لازمة خطيرة «فان محمد الصدوق ، الذي لم يبق امامه سوى عقد القروض الجديدة والافلاس ، قد خضع لسيطرة بعض الدول التي حركها الدائنون الجازعون ورجال الاعمال الطماع . فاختار فـــرّي صيغة « السيد المحمي » المؤازر في ممارسة وظائفه . أي ان الادارة البلدية بقيت ، ولكن المقيم العـــام ، الذي تعينه فرنسا ، كان المشرف على كل شيء ، ووزارة الخارجية الفرنسية ، تمثل الوصاية القديمة في النطاق الدولي . وغني عن البيان ان الشراكة لم توجد المساواة بين الشريكين ؛ فلقـــد أمنت مصلحة الدولة الحامية التي لم يخضع مواطنوها لقوانين البلاد . أما ليوتي فيفاخر بنظـام « لا يلغي مناصب الحكام القدامى ، بل يتيح « استخدامهم » . وفي المؤتمر الاستشاري الذي تأسس في السنة ١٨٩٦ أمّن الفرنسيون لأنفسهم رجحان السلطة والنفوذ .

اكد كليمنصو أن الهدف الاول هو « فتح الوصاية اقتصاديا » ، وسلم فري بأن تونس يجب

« أن تعتبر ، حتى اشعار آخر ، مستعمرة لرؤوس الاموال » . والواقع هو أن الحماية قد استهدفت تنمية البلاد بدلالة المصالح الفرنسية . فشقت بعض الطرقات وربطت شبكة الخطوط الحديدية بالشبكة الجزائرية . ولكن فوسفات الساحل لم يسترع الانتباه الا في السنة ١٨٩٥ ، وخصصت قاعدة بنزرت العسكرية بالاعتمادات نفسها التي خصصت بها المرافىء الاخرى : فخلال السنوات الخمسة عشر الاولى لم يقدر أحد سوى الاهمية الستراتيجية والامكانات الزراعية في الولاية الافريقية القديمة . ولم يحل تسجيل الاراضي في سجلات الحكومة واصلاح الممتلكات الوقفية دون قيام املاك كبرى على غرار الـ « انفيدا » التي باعها خير الدين من الشركة المرسيلية. وقد لوحظ ، بعد مرور عشر سنوات على توقيع ميثاق الحماية ، ان الفرنسيين كانوا يمتلكون ٤٣٣ الف هكتار سجل ١١٦ الفاً منها على اسم ١٦ مالكاً فقط : فان صغار المهاجرين المستعمرين لم تستهوهم الاملاك الواسعة ، والبلديين خشوا عملية التسجيل . لا بل اصبحت الارض الزراعية نادرة بينما تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً . فمنذ السنة ١٨٩٠ عُمل بعقد المغارسة لزراعة شجر الزيتون . وكما حدث في الجزائر تقدمت زراعة الاشجار المثمرة على زراعة الحبوب ، لاسيما وأن الكرمة أخذت تنتشر بسرعة . ولكن البعض افضى ضجيجهم عدد الفرنسيين الزهيد (٢٤ الف مهاجر مستعمر او موظف يقابلهم ٧١ الف ايطالي ، على زهاء مليوني نسمة) ؛ وقد استحصلت روما في السنة ١٨٩٦ على بعض الامتيازات لرعاياها .

اذا عرفت تونس الهدوء ، فانها لم تتطور قط . فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياة فقر وحاجة ، بسبب تعرضه للمحول وتأثره بتقهقر الحرف الصغرى . ولكن نخبة بلدية محدودة تهذبت في المدارس الاسلامية وفي المعهد الصادقي الذي فتح ابوابه في السنة ١٨٧٥ . ودرست اللغة الفرنسية كلغة اجنبية في المدارس الفرنسية العربية ، ولكن هناك عدداً من المؤسسات الكاثوليكية والكليات العلمانية . اما الخدمات الصحية فغير مرضية .

يبرز التناقض في العاصمة بين الشوارع الجميلة في المدينة الجديدة وتيه الشوارع الضيقة القذرة التي تحيط بالقصبة وتصل بين المدينة العربية والاسواق وحارة اليهود . أمـا في الارياف حيث يعيش المهاجر المستعمر الغني حياة ترفه ، فلم يطرأ على المسكن اي تبدل : البدوي يعيش تحت خيمته ، والبيوت اكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والاعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسوّدها الدخان ويغزوها القمل والبراغيث والبق .

الامبراطورية الشريفية قبل التدخل الاوروبي

ان مراكش اكثر أجزاء المغرب عزلة وأقلها تأثراً بالاسلام . استخدمها الغزو العربي ممراً للانقضاض منها على اسبانيا ، ولكنها التفتت ابداً الى روابطها الشمالية بشبه الجزيرة الايبرية من جهة وروابطها الجنوبية بالصحراء الغربية من جهة اخرى . ومن تخوم الصحراء جاءت السلالات التي قاومت ، في منطقة فاس ومكناس ، حرب الاسترداد التي شنها الاسبانيون ،

اسبان «حصون الحدود» في سيرهم على تطوان .

هناك مغرب (مراكش) خارجية» على حدود الصحراء، منشأ القبائل العربية او المستعربة التي تسيطر على الواحات وغالباً ما تشن الغارات على السهول الاطلسية. فقد اقامت السلطنة رجالها الاوفياء في هذه الاراضي الجيدة وعودتهم الحياة البدوية. وأقامت هي نفسها بين الاطلس والريف حيث المدن الحضرية . الا ان الجبال المرتفعة تنتصب فوق السهول ، وتؤلف منطقة الانفصال التي تضم عظماء البدو المتحالفين رحضربي قراها المحصنة وقصورهــا المليئة بالمواد الغذائية . ويغلب فيها العنصر البربري لان الناطق باللغة العربية ، اذا مـا استثنينا بدو الجنوب ، ليس سوى مدني او مزارع من مراكش الاطلسية . والحال يكاد ينحصر افقهم في الجماعة الصغرى التي تنضم، كيفما تيسر ذالك ، الى القرية او القبيلة : وفي سبيل استمالتهم ، يجب اغراؤهم بجـاذب البارود (المعركة) او الغزو . وقد يمكن من ثم تحديد الدولة المغربية بما يلي : حماية عربية الطابع ، ذات حضارة مدنية مغربية اندلسية ، على بلاد بربرية لم تخضع اخضاعاً تاماً . ولعل القاضي والشرع الاسلامي لم يضطرا يوماً الى مسايرة العرف ، والاسلام الى مسايرة الوثنية المستقرة ، والحكم الى مسايرة صوفية زهدية توافق نزعة ديموقراطية خاصة ، كما حـدث في هذه البلاد .

السلطان مطلق السلطة نظرياً ويستند قوله الى اصله الشريفي اي الى كونه منحدراً من النبي . أما في الواقع ، فجيش القبائل الثاني المرتبط مصيرها بمصير السلالة العلوية ، والموزعة على النقاط الهامة (فاس الجديد مثلا ، على مقربة من فاس البالي ، المدينة الدينية والصناعية القديمة) ، هو ما يشكل قوة الحكم الفعلية الوحيدة . فكل سنة تدبر السلطة « الحركة » ، وهـي حملة عسكرية لا تستهدف القضاء على المنفصلين العصاة استهدافها ايجاد تسوية معهم بالتوفيق فيما بينهم . تسند اعمال الادارة والجباية الى القائد بتولية من السلطان ؛ وإذا كان القاضي ، الذي يعينه العلماء ، مرتبطاً بالشريف ، فان القاضي ، الذي يُختار من بين شيوخ القبائل ، يبقـى مستقلا . وتقوم سياسة السلطة بارضاء القبائل الوفية ، ومعاملة القادة بالحسنى بغية شق المنفصلين واضعافهم ، ومراعاة جانب الجمعيات الدينية . اجل لم يعد هناك من ازمات سلالية . ولكن العلويين لا يقوون الا على التقاليد بالمحافظة على الظواهر والعمل ليومهم .

ولا نعني بذلك ان هؤلاء الشرفاء كانوا خلواً من الصفات والقيم . فان مولاي حسن ، الذي عاصر الثورة ونابوليون قد آثر انكماش البلاد على نفسها . واعتمد مولاي عبد الرحمن على البريطانيين منذ ان واجه خطر الفرنسيين بعد غزوهم الجزائر، ولكن السلطة اضعفتها الثورات . وحين عجز محمد عبد الرحمن عن صد الغارات الاسبانية الا باللجوء الى خدمات لندن ، اضطر الى التخلي عن الكثير من حقوقه لاستمالة القادة ومقاومة هجوم جديد شنه الانفصاليون .

عندما اصبح مولاي حسن شريفاً في السنة ١٨٧٣ ، بدت المغرب التقليدية وكأن نهايتهـا قريبة جداً . وكيف يمكن ان يستمر استقلال بلاد عاجزة عن التخلص من أنظمتها البالية ؟

فان مؤتمر مدريد قد فرض عليها ، على الصعيد التجاري ، نظاماً دولياً يرغمها على معاملة كافة الدول معاملة الدولة المفضلة : فكان ذلك حرماناً لفرنسا وانكلترا من مركزهما الممتاز ، ولكنه كان في الوقت نفسه مثاراً للاطماع العديدة والمنازعات من اجل النفوذ فيها . والحال اصيبت السلطة بالنهكة في اعتثارها من « الحركات » أو الحملات العسكرية دون ان تفلح في اعادة تنظيم جيشها وتحسين ماليتها. وجل ما توصلت اليه ، بقدر امكاناتها ، شل نفوذ الاجانب التجاري بغية المحافظة على روح قومية متحذرة .

عندما تولى السلطة مولاي عبد العزيز في السنة ١٨٩٤ كانت الزراعة آخذة في التقهقر بفعل غزوات البدو وثقل الضرائب ، وكانت الصناعة اليدوية محافظة بصعوبة على تقاليدها الفنية الماضية ، كما أن التجارة ، التي أعاقها النقص في وسائل النقل ، وحالة المرافىء المتأخرة ، والاحتكارات ، واقفال الحدود ، والحاجة الى النقد ، كانت في حالة ركود . وكانت كل منطقة تعتمد في معيشتها على نفسها ، وكل حي وكل قرية بجزعان لسلامتها . ففي فاس ، التي شاهدها « ادمون دي اميسيس » نصف خربة ، لاحظ « شارل دي فوكو » ان «اليهودي ... يتنقل في «الملاح» بين الاقذار ويتعثر بالبقول النتنة ... »، ولكنه اضاف الى ذلك : «الاشياء الجميلة هي في المدينة العربية » . ولكن ما هي هذه الاشياء الجميلة ؟ جوامع وقصور وحدائق غناء تعيد الى الذاكرة عظمة دخلت في التاريخ ، بين اكواخ غير صحية وجداول تملأ مياهها جراثيم الحمى التيفية .فان طنجة ، المغربية واليهودية ، تعاني من تراكم الرمول في مينائها ، وليست كازبلانكا سوى مرفأ طبيعي خطر ، وموغادور يتزح عنها سكانها. وما هو عدد سكان المغرب يا ترى ؟ لقد تراوحت التقديرات بين خمسة ملايين والتي عشر مليونا .

اصبح الاستقلال رهناً بزوال المنازعات بين الدول ، يقضي عليه بتخلي لندن عن معارضة احتلال المغرب .

يتضح من ثم ان اوروبا اخضعت الاسلام في افريقيا الشمالية والشرق الادنى والشرق الاوسط على السواء . ولكن الاسلام لم يكن اوفر حظاً في مواقعه الامامية سواء في الهند ام في ماليزيا ام في الصين أم في افريقيا السوداء .

الفصل الخامس

بين خطي السرطان والجدي : حضارات افريقية واوقيانية

تأخر تطور المدنية ما بين خطي السرطان والجدي

على الرغم من امتداد شكل الحياة البدوية الراعوية بمبدأ الى الجنوب من خط السرطان (اذ نشاهده في هضاب الشرق المرتفعة وفي نصف الكرة الجنوبي) ، فان السكان ، ابتداء من السباسب والاحراج الملتفة الاشجار ، يعولون في معيشتهم على جني الثمار وصيد الاسماك والزراعة المتنقلة . وتساعد البيئة الطبيعية على نمو عوامل مرضية رهيبة : عوامل البلهرسيا وداء الخيطيات ومرض النوم . وهناك نطاق آخر لاشكال حياة بدائية ، اعني به اوقيانيا التي تمتاز من جهة ثانية بمناخ اكثر موافقة للصحة . وباستطاعتنا ان ندخل في ارخبيلات المحيط الكبير شطراً من الانسولند ، ولكن هذه الاخيرة عرفت في العصور القديمة اشكال حضارة اكثر تطوراً نشأت في الاصل في آسيا الجنوبية وشوهدت حتى في مدغشقر . وبينما تدخل الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر في الغرب اي في اميركا الحارة ، ففي الشرق ، اي في الارخبيل الآسيوي الكبير وفي المحيط الهندي ، لم يستول على الاراضي الاوقيانية ومناطق ما بين خطي السرطان والجدي في افريقيا الا في القرن التاسع عشر .

تقدم الاسلام والنصرانية في افريقيا

ان افريقيا ، القارة الرقعة والمتميزة بشواطىء تندر فيها المرافىء الطبيعية وانهار كبرى تعترضها الشلالات ، تفرض العزلة على الانسان بين الصحراء والغابة البكر . الا انها تتسع في نصف الكرة الشمالي حيث انبسطت منطقة بورية موازية لتلك التي تجاور المتوسط : هذه هي منطقة « الساحل » الجافة التي تمتد من مصاب نهر السنغال حتى البحر الاحمر وتغلب فيها تربية المواشي . ويتواجه فيها او بالاحرى يتداخل فيها عالمان : العالم الابيض والعالم الاسود ؛ من جهة البربر والعرب

والحاميون – سواء تأثر هؤلاء بالحضارة السامية أم لم يتأثروا – ، ومن جهة ثانية الزنوج السودانيون . « فبلاد السودان » هي بلاد السود في نظر العرب وتقابلها « بلاد البيضان » . وغالباً ما تنازع الساحل هذا الشماليون المقيمون وراء الصحراء والجنوبيون سكان السباسب . وتؤدي طرق القوافل التي تصل بين اواسط افريقيا والشاطىء المتوسطي الى تومبوكتو وكانو وكوكا حيث تنتهي كذلك المسالك المؤدية اليها من خليج غينيا. ولا وجود خارج هذه الطرق، بموازاة خط الطول ، وابعد الى الشرق ، سوى الطريق المؤدية من البحيرات الكبرى باتجاه النيل والبحر الاحمر .

يبدو الاسلام في هذه المنطقة وكأنه واسطة نقل الافكار والتجارة والانظمة السياسية . فقد اجتاز الصحراء مع القوافل ولم يتوقف الا عند تخوم السباسب والغابات ؛ وتسلق كذلك الهضاب الشرقية انطلاقاً من البحر الاحمر والمحيط الهندي . انه موجود حيث يسيطر النظام الراعوي(الأنه لم يتعرض للايمان بالارواح الذي دان به الحضريون المنعزلون في السباسب والغابات . يستخدم الجمل ، ولكن ما يكتشفه او يجده ثانية في السنغال وعند منعطف النيجر وفي تشاد هو الحصان، خير مساعد في اعمال الفتح. يهدي ويكيف ويكتسح وينظم الامارات والسلطنات السريعة الزوال . وينتزع من قلب القارة السوداء العبيد الذين يتّجر بهم .

بينما كانت لتجارة الفحم البشري توفر للمسيحيين وسيلة لاستثمار العالم الجديد ، كانت تغذي اسواق المغرب والشرق الادنى الكبرى ؛ وكانت من جهة ثانية بمثابة حافز التوسع الاسلامي وانتشار روح الحرب المقدسة معاً بين السنغال وزنجبار ، كما كانت توفر للاسلام مورداً ثميناً لسيطرته السياسية .انها لامبراطوريات اسلامية قوتها في عصبيتها الدينية، ولكنها امبراطوريات استرقاقية . وحين وافقت اوروبا الرأسمالية والانسانية على إلغاء الرق ، الذي لم تطو صفحته المخزية الا لتفتح صفحة الحسابات الاستعمارية من جهة ثانية ، قوضت الدول الاسلامية وألغت الرق معاً . ولكن الرقعة الواسعة التي انتزعت من القرآن بقيت في الحقيقة تحت سيطرته .

الصحراء الكبرى الاسلامية والنفوذ الفرنسي

ان الصحراء الكبرى التي تقارب مساحتها ٨ ملايين كيلومتر مربع لم تخل يوماً من السكان . فالبعض يجتازونها من طرف الى اخر والبعض الآخر يستقرون فيها . وهي شعوب افريقيا الشمالية الاسلامية التي كانت لها الغلبة فيها في النهاية بفضل تفوقها العسكري وعصبيتها الدينية وتنظيمها الذي اعدها للقيادة .

ان الصحراء الغربية التي تأثرت اكثر من سواها بالاسلام كانت نطاقاً مغربياً ، عربياً ،بربرياً، سيطر فيه سكان الواحات المغربية الجنوبية من الناطقين باللغة العربية ، اي برابرة تُوات وتافيلالة ، الرعاة المتنقلون الذين كانوا ينقلون ملح « تاوديني » الى تومبوكتو وينفذون احترام الامبراطورية الشريفية ؛ وان الشيخ « ماء العينين » ، النخاس المنتسب لزاوية «شنقيط »، سوف

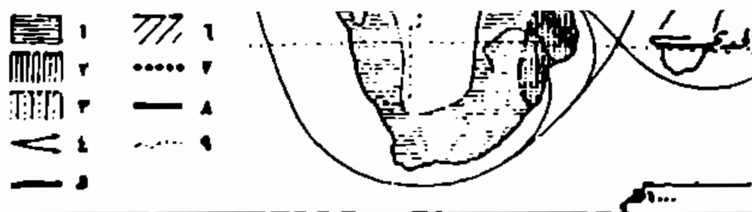

شكل رقم ٢٦ ـ افريقيا في القرن التاسع عشر

المعروفة حوالي السنة ١٨٧٠ ؛ ٢ ـ حدود مناطق النخاسة القديمة (باتجاه اميركا وآسيا ؛ ٣ ـ م
ة في النصف الثاني من القرن ؛ ٤ ـ الطرق البحرية النخاسة القديمة ؛ ٥ ـ طرق القوافل ؛ ٦ ـ من
لمساقين برا ؛ ٧ ـ حدود الاسلام ؛ ٨ ـ حدود توسع المسلمين التجاري ؛ ٩ ـ الحدود الاستعمارية

بلغ بقوة في وجه الفرنسيين ، اسياد السنغال منذ « فيدَرب » ، الذين سيستولون على تُوات في السنة ١٩٠٠ . اما في الشرق فقد اقام برابرة يتميزون ببشرة داكنة هم الـ « تيبو» او الـ « توبو» الذين تكلموا لغة سودانية وراقبوا طرقات طرابلس الغرب وفزان الى تشاد ونازعوا جيرانهم الطوارق « كل وي » منطقة العير وواحة بلما المشهورين بملاحاتها .

اما في وسط الصحراء فالسيد هو الطارقي ، الملثم الوجه، الناطق باللغة البربرية، المتغطرس، الوحيد الزوجة ؛ تنعم زوجته بحرية كبرى ؛ ويعرف هو القراءة ويعزف على الربابة . يؤلف الحادات حربية تشرف عليها طبقة من النبلاء ويدفع لها الجزية اصحاب الاخاذات والفداديون وتستخدم الارقاء العبيد في اعمالها . ولكل الحاد مرشده المتصوف . ولكن الاسلام ينحني امام وثنية لا تقبل التنازل عن عقيدتها ولا تعارض قيام علائق دائمة مع غير المؤمن . تسيطر جماعة الطوارق هذه على المسالك التي تؤدي من جنوبي منطقة وهران الى منعطف النيجر وتنازع شانبا المنطقة الرملية في جنوبي الجزائر – اعني بهم اعداءها الناطقين باللغة العربية – سلاسل الواحات التي تتناثر بين مجازات الاطلس الصحراوي وتيديكلت ، وقد تقدمت جنوباً حتى ادرار وضفاف النيجر حيث قوضت تومبوكتو وغاوو . ومارس هؤلاء البدو كلهم الغزو وتقاضوا « الغفارة » او الفدية . فلا عجب والحالة هذه ان يخيم الانحطاط على الواحة : تسلم تمورها وحبوبها وبقولها ودخنها (بشنة)؛ وغالباً ما لا يبقى لها شيء يذكر لاستهلاكها الخاص.

حاول الفرنسيون اخماد الفتن بالقضاء على اللصوصية ، ويجدر بأهل الحضر ان يشكروا لهم عملهم هذا . ولكن تحويل التجارة الى طرق اخرى وإلغاء النخاسة ألحق الضرر بالجميع . فان بعثة « فلاترز » ، التي هلكت كلها ، كانت ضحية الدسائس التي حاكها لها النخاسون . وقد اخفق « فورو » بادىء ذي بدء ولكنه توفق الى احداث ثغرة في جبهة الطوارق والحاق بـ « جولان – مينيه » و « لامي » في « تشاد » ، بينما اعترفت اتفاقية عقدت مع انكلترا بسيطرة فرنسا على كافة ارجاء الصحراء الكبرى . ومنذ ذاك الحين نادى بعضهم ببناء خط حديدي يصل بين افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية . وفي سبيل استتباب الأمن في الصحراء انشأ « لابرين » وحدات هجانة من الشانبا ، وفي السنة ١٩١٠ كان الاتفاق مع مرشد هوجر ، المعارض لمجيء الاتراك الى فزان ، فاتحة عهد التهدئة في الصحراء .

الشعوب الاسلامية في السنغال والسودان

قلب التدخل الاوروبي الوضع الذي أتاح للبدوي منذ القرون الوسطى استثمار الصحراء الكبرى . وكان مقدراً له ان يعطي نتيجة مماثلة في الساحل السوداني والسنغالي وفي السودان نفسه . ولكن القسم الاكبر من القرن انصرم قبل عهد الاستعمار . واذا كان الفرنسيون في قلب السنغال منذ الامبراطورية الثانية ، فانهم لم يدخلوا تومبوكتو الا في السنة ١٨٩٥ ، ولم يوقع على الاتفاقات الدولية التي حددت ممتلكات الدول الا في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٨ .

في المنطقة التي لا تعرف سوى فصلين متباينين ــ لا يجاوز فصل الامطار ستة اشهر والامطار المتساقطة مدرارا ــ نرى النباتات تستبدل سيماها الصحراوية بسيماء السباسب المشبعة والغابات القليلة الاشجار . هنا تسود تربية المواشي المتنقلة . ويستخدم الحيوان للنقل لا للزراعة التي تستلزم عملاً مرهقاً في تربة صحراء متحجرة . ويبدو الحضري مفتقراً الى التغذية بالنسبة للراعي الذي يعتمد في غذائه على الالبان . وعلى جوانب النيجر وفي تشاد يعيش بعض السكان من صيد الاسماك . ولا يزرع الارز الا حيث تتيح زرعه المياه . ويعير السوداني الراعي الملح اهمية كبرى . وتنتقل السلع من بلد الى اخرى بشكل مقايضة أو بواسطة الـ « كوري» ، وهي محارة وحيدة المصراع تقوم مقام النقد . وتعطي البلاد ذهبها المسحوق للحصول على بارود الاسلحة النارية والاسلحة النارية نفسها . وتقايض الجلود والاصواف بنسائج قطنية . أضف الى ذلك ان عدد السكان ، حوالي ١٩٠٠ ، لا يجاوز المليون في السنغال والـ ٤ ملايين في كافة انحاء السودان . ولا تتجاوز الكثافة من ثم ٢ و ٣ في الكيلومتر المربع : ولا عجب في ذلك بعد عهد توحيش طويل الامد مرده الفوضى المزمنة .

في هذه المساحات الشاسعة المفتوحة تتجانب افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ؛ ولكن التخليط بين النوعين متصل جداً . فان الـ « هَوسا » الذين تشبه لغتهم اللهجات البربرية ربما ينحدرون من أصل سوداني أو من أصل حامي طرأ عليه بعض التحويل بمعاشرة السودانيين . أما أصل الـ « فولبا » (أو « فولا ») فاكثر غموضاً أيضاً : فهم ساميون في نظر بعضهم ، أو حاميون في الارجح ، ولكنهم سود البشرة ويتكلمون لغة سودانية ؛ عاشوا حياة راعوية واعتنقوا الاسلام وتنقلوا ابدا من مكان الى آخر وتسللوا الى مواطن سواهم من سنغمبيا حتى تشاد و « اداموا » ، ولعبوا دوراً كبيراً في السباق الى السيطرة .

أسهمت النخاسة في صهر الشعوب وادت في الوقت نفسه الى نهكة البلاد . فقد دانت لها المجموعات السكنية الكبرى بأجمعها . وفي كوكا ، من اعمال بورنو ، حيث شاهد « بارث » حرما يضم ٧٣ غلاما و ٥٠ فتاة ، ابدى احد المراقبين في عهد لاحق ان الفتيان الذين تتراوح سنهم بين ١٠ سنوات و ١٥ سنة مرغوب فيهم جداً وان الفتيات البالغات يُبعن بـ ٢٥٠ و ٥٥٠ فرنكا . ويروي رحالة آخر ان النخاسين في قرى « فوتاجالون » يتصرفون مع الاسرى تصرف سائقي الثيران مع القطعان . ويعادل ثمن الحصان ثمن ١٥ الى ٢٠ شخصاً . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن النخاسة تفاقم خطرها في هذا الجزء من افريقيا بعد التدابير التي اتخذها الاوروبيون لمنعها في جهات المحيط الاطلسي . ومهما يكن من الامر فانها دعمت قوة الزعماء المطلقي السلطة من امثال « ساموري » في منطقة النيجر و « رباح » في « اواداي » . فان ساموري قد جند جيشاً من بين أبناء الاسرى ، الـ « سوفا » ، أو الانكشارية الجدد .

حجب الاسلام المعتقدات القديمة دون ان يحل محلها . فهنا لا يكاد رجل الدين يتميز عن ساحر القرية ، وقد اضطر في غير مكان ان يتخلى عن سلطته للشاعر الموسيقي المتنقل . ولما

كان الطقس الديني هو ما يؤمن التلاحم في المجتمع الاسود ، اصبح للجمعية الدينية شأنها الكبير . ولكن بينا حال كهان عبادة الارواح في اغلب الاحيان دون ارتقاء الزعماء المحليين (الشان في فورا يختاران عن قصد من بين العائلات المتنافسة) ، كان بمقدور الجمعية الدينية ان تثير حركات كبرى بين المؤمنين الذين يستجيبون لنداء الملهمين ، فيهبون للحرب المقدسة والسلب والنهب أيضاً . غبات كاهن عبادة الارواح حينذاك امير المؤمنين . واستمال بسهولة قبائل البدو المخيمة على جوانب الطرق التي تسلكها القوافل والحجاج والنخاسون . فحدثت من ثم تجمعـــات همت بعض الشعوب ، وليس لمعظم محاولات تأسيس الامبراطوريات ، بـــين الصحراء والسباســب ، مصدر آخر وتفسير آخر . فبين السنغال الاعلى وغامبيا حاول الزعيم الديني محمدو الامين قيادة الـ « ساراكولي » ، ومثل الحاج عمر السنغالي جمعية التيجانية الديموقراطية النزعة ؛ واذا هو بسط سيطرته على فوتاجالون على حساب القدرية، فان شيعة الموريين المتفرعة عن هذه الجمعية الاخيرة قد ثبتت اقدامها في « كاور » بقيادة « احمدو بامبا » ونسيبه « لات ديور » . فقاتل الفرنسيون هذا الاخير وردوا الحاج عمر نحو النيجر . ولكن هذا الفاتح ترك خليفة واصل سياسته وعمله هو ابنه احمدو الذي قاوم الفرنسيين حتى السنة ١٨٩٣ . وفي غضون ثلاثين سنة تقريباً اسس الساراكولي « ساموري توري » ثلاث أو اربع امبراطوريات : انطلق من اراسولو فحاول السيطرة على ضفتي النيجر فوق تومبوكتو وهدد كذلك البلاد الموسية الباقية على وثنيتها ولم يمن بالهزيمة الا في السنة ١٨٩٨ . والى الشرق من النهر الكبير ، انهارت الدول الهاوسية ، التي عرفت من قبل بعض الازدهار ، امام هجمات الفولبا بقيادة احد حلفاء الحاج عمر ، «عثمان دان فوديو » ، الذي اصبح شيخاً في كانو وامتدت سلطته حتى الكاميرون الحالية . ونعمت سلطتنا سوكوتو وكانو ببعض الاستقرار ، ويبدوا انها خضعتا لحكم عسكري استمر حتى الفتـــح الاوروبي : وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه المنطقة السودانية اكثر سكاناً وأقل بؤساً .

كان حوض التشاد ، على نقيض ذلك مسرح قتال وحشي : نزاعات من اجل النفوذ بـــين البورنو والكانم والباغيرمي الذين يتقاسمون الحوض ؛ ونزاعات من اجل طرقات القوافل والملح والاسرى ، ولا سيا الطريق التي تؤدي الى كوفرا ومصر وشرقي ليبيا عبر اواداي . وفي اللوحة التي رسمها « ناشتيغال » لاواداي ، يتكلم عن ازدهارها النسبي في كنف بعض الامراء العرب المطلقي السلطة الذين يهتمون بالمدارس والتجارة ، والنخاسة طبعاً . والحال كلما اقفلت طرقات الصحراء الغربية ، انتقل النشاط الى الطرقات المؤدية الى البحر الاحمر . فحين اضطرت القاهرة الى الكف عن تجارة العبيد ، تحولت هـذه الاخيرة نحو الطريق الرئيسية المؤدية من اواداي الى الخرطوم على النيل الاوسط عبر كوردوفان . وكانت ثورة الدراويش بمثابة جهد اخـير بذله منظمو القوافل بغية الاحتفاظ بخط المواصلات الاخير بالشرق الادنى . وكذلك ، فهو احد النخاسين ، رباح ، الذي جعل من اواداي حينذاك مركزاً لهـذه التجارة وتوفق مؤقتاً الى السيطرة على مناطق التشاد . ولن تخضع اواداي اخضاعاً نهائياً الا في السنة ١٩١١ .

شعوب المناطق الغنية

ما ان تظهر السباسب وتتكاثف الغابات ، حتى يصبح القطيع ، الذي يجزله المناخ ويتعرض للذباب الناقل مرض النوم ، غير كاف لتأمين معيشة الانسان . وعلى هذا الاخير ، بالاضافة الى ذلك ، مقاومة الملاريا والزحار ومرض النوم نفسه . ولما كان يغتذي بالاطعمة النباتية ، فانه يستهلك طحين الـذرة الصفراء وطحين المنيهوت وزيت النخيل ، ويجد في جوزة شجرة الكولا مادة منبهة .

لم يرتفع كل هؤلاء السكان فوق مفهوم المقاطعة الصغرى . ولكنهم تكلموا لهجات سودانية ، وقد اسس الغزاة الشماليون عدة ممالك دون ان يؤدي ذلك الى انتشار الاسلام .

وتقاسم الـ « موسي » والـ « اكانتي » حوض نهري الفولتا . وقد حكم الاولين ملك ذو سلطة دينية ، هو الـ « موغو ـ نابا » ، « سيد العالم » ، « ملك بلاد المختونين » ، الذي كان بمثابة مولى اخاذة الـ « ناكومسي » النبلاء الذين يقلدهم وظائف وزارية وادارية . اما ملك الاكانتي فيرأس مجلس الزعماء ولا يطاع حقاً الا في مقاطعته الخاصة كوماسي : قاتل اتحاد المقاطعات الصغرى الحرابة هذا الى جانب الـ « فانتي » ، سكان السواحل ، الذين ساندهم البريطانيون . وفي داهومي تعين السلطة الملكية زعماء القرى وتتصرف في جمعية « موكبوي » ، التي تضم الفتيان والشبان المدعوين لدور قيادي . ويجمع الارقاء من بين اسرى الحروب التي كانت مورداً كبيراً لشعب متأهب ابداً للقتال . فعلى كل محارب ان يأتي بأسير أو برأس جندي عدو مقتول . وتؤلف زوجات الملك والفتيات المكرسات لآلهة الحرب فرقة عسكرية من النساء .

اقام الاوروبيون ، منذ زمن بعيد ، العلائق مع زعماء هذه المناطق وملوكها . فكان هناك « شاطىء العبيد » و « شاطىء الذهب » و « شاطىء العاج » بالاضافة الى « بنين » التي اشتهرت بمنتجاتها الفنية واضاحيها البشرية الشنيعة . فالذوق الجمالي هنا كان متقدماً عليه في السودان . وقد تمت المصنوعات البرونزية والخزفية والاقنعة الخشبية والعاجية والمقاعد المنقوشة عن تقاليد قديمة في مهارة الصناعة البدوية .

الاستعمار الاوروبي في افريقيا الغربية ونشاده

ان فتح المنطقة الشاسعة الممتدة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا – وهو عمل تطلب اجراءً طويلاً – لم يكتمل الا حوالي السنة ١٩٠٠ . ولم تسوَ الخلافات على الحدود بين الدول الا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ . فسارت كل دولة قدماً لمنع سواها من تخطيها ، حتى ان الحدود الاقليمية تعكس تقلبات الاستيلاء . وقد ارتكبت اخطاء كثيرة .

رأى « فيدرب » ، على الرغم من واقعيته المأثورة ، ان ثروة المستقبل في السنغال هي القطن قبل فستق العبيد ، كما غرر نفسه بذهب بامبوك . وحاول تأمين الاتصال بالنيجر عن طريق الرمول الداخلية ، ولم ير الاهمية التي تنطوي عليها اسواق غينيا والشاطىء العاجي كقواعد انطلاق لبلوغ النهر .

في كافة انحاء الساحل وفي السودان الاوسط ، كما ذ
ن من مصلحة المستعمر الاعتماد على الفلاحين وحمايتهم
درب اول من سار على هذه السياسة التي تضحي بالبدو
رتياب بالرعاة المسلمين الذي يرد جزئياً الى القتال المر
ع المستعمرين جماعات الارساليات ، الكاثوليكية
سكان المخضمين . « انها لحرب صليبية حقيقية » ، كما
نجر » مدير الشؤون الافريقية » الى « خطر الاسلام
، يمكن ان تؤديها الخواص الاسلامية .

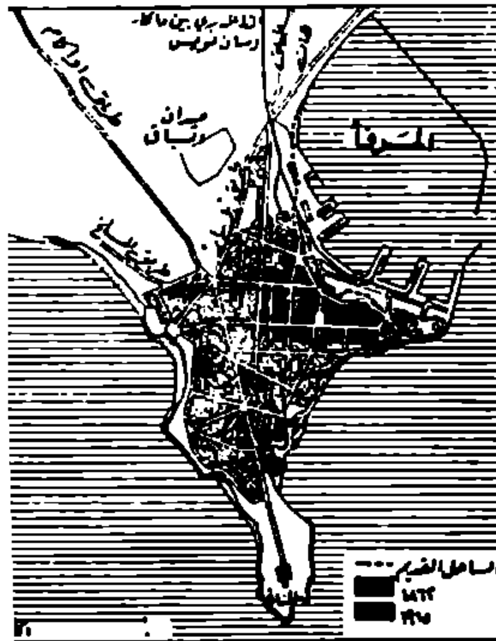

الشكل رقم ٢٢- نمو مدينة استعمارية : دكار
ق تصميم لسنة ١٨٦٢ مشروع الحاكم « بينيه - لابراد » . :
شارة الى المكان الملحوظ للسالن (م) وامتداد المدينة نحو ،
يل : وفي الجنوب يشير الحرف ح الى الحاكمية العامة) .
(نقلا عن تصميم أطلعنا عليها « ر. بلكيه » الاست
معهد الدروس العليا في دكار)

بلاً ، فقد فرضت عليهم واجبات ثقيلة : حرمان
لاجتماع ، ضرائب عينية وغرامات ، تسخير من اجـ
لخدمة العسكرية وفاقاً لمقتضيات الحاجة .

عاد للدولة المستعمرة امر رفع مستوى المعيشة بتوفير الامن والنظام وتوزيع المهام على اساس سليم . ولكن الجهود استهدفت المزروعات والمناجم التي يمكن ان تغـذي التجارة مع الوطن الام . وعلى هـذا الصعيد كان النجاح في الشاطىء الذهبي ونيجيريا البريطانيتين اسرع منه في المستعمرات الفرنسية المفتقرة الى التجهيز : فاحتلت الاولى مركز الصدارة في انتاج الكاكاو واستثمرت احراجها ومنغنيزها وماسها ؛ وسـجلت الثانية كمية كبرى من الاخشاب وزيت النخيل . وعلى نقيض ذلك آلت سيراليون الى الهبوط منذ الغاء النخاسة وعاشت جمهورية ليبيريا السوداء في ضيق على الرغم من جهود الكنيسة الميتودية . وكذلك عانت اقاليم غينيا والشاطىء العاجي وداهومي الفرنسية من نقص وسائل النقل ومن الافتقار الى الموانىء الحسنة التجهيز ومن تبدد اليد العاملة التي كانت تأنف من العمل المراقب .

واذا استفادت السنغال من فستق العبيد ومن التجارة مع السودان ، واذا حسنت دكار شوارعها الواسعة المحفوفة بالاشجار واعدت مناءها للملاحة الاطلسية الكبرى ، فان الداخل النيجيري ما زال متأثراً بويلات الحرب والجفاف ؛ وقد عقدت عليه آمال كبرى مجهولة . اما اقاليم تشاد فليست آنذاك سوى منطقة حدود عسكرية لن تعرف التهدئة الا في غد قريب .

وقد لوحظ ايضا ان ارتيابات الوطن الام قد ظهرت على الصعيد الاداري . فلم تكن السودان و « الانهار الجنوبية » في البدء سوى اقاليم ملحقة بالسنغال . كما ان « افريقيا الغربية الفرنسية » التي تكونت في السنة ١٨٩٥ ، ستعرف تغييرات كثيرة . اما « المناطق المنخفضة التشادية » فستلحق بافريقيا الاستوائية الفرنسية : وهكذا سوف تفك حلقات التماسك بين مختلف اجزاء المنطقة الساحلية لان وجود انكلترا والمانيا حتى مشارف البحيرة الافريقية الكبرى سيقوض وحدة الممتلكات الفرنسية .

في السودان النيلي : الاطماع المصرية والامبراطورية الدراويش

تتجه طرق دارفور واوغندا واثيوبيا كلها نحو مصر . ولكن من يسيطر على مصر لا يسيطر على النيل ، ومنذ القدم كان الحوض الأعلى محط انظار اسياد الدلتا رغبة منهم في ضمان سلامة البلاد ومراقبة فيضان النهر .

في القرن التاسع عشر ، نشاهد اثناء ولاية محمد علي وخلفائه توسعاً مصرياً جديداً في وادي النيل الاعلى . ولم يصطدم الباشا الا بمقاومة ضعيفة ترد الى انحطاط الممالك العربية – الشيخيات وسنار – في منطقة الشلالات الساحلية . ولكن الابتزازات الجبائية واحتكار التجارة وغزوات عملاء الباشا ما كانت لتسهل الاحتلال المصري ؛ فالنخاسون وحدهم هم من استفادوا من هذه التصرفات لان محمد علي شجع النخاسة واسس مدينة الخرطوم لهذه الغاية .

وطمع اسماعيل بدوره ببسط السلطة الخديوية على كافة انحاء افريقيا الشمالية الشرقية . وقد آزره في تحقيق مطامعه بعض الاوروبيين من امثال الرحالة « صموئيل باكر » ، والجنـدي

المبشر « غوردون » الذي انعم عليه بلقب باشا ، ورحالة آخر هو « شنيتزر » الـذي اعتنق الاسلام وحمل اسم امين باشا ، ولكنهم بذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبرى لم تكلل بالنجاح . فحين شعرت حكومة القاهرة بخطر الافلاس يحدق بها ، اضطرت الى التخلي عن الاستفادة من النخاسة والى عزل حاكم بحر الغزال الذي كان هو نفسه نخاساً. واصبح السودان النيلي من ثم مسرحاً لثورة مهدية هائلة كان سببها العصبية الاسلامية والغاء تجارة رابحة معاً . فصمد امين باشا عند النيل الابيض الاعلى ، في ولاية اكواتوريا التي ارغمه ستانلي بعد ذلك على الجلاء عنها لمصلحة بريطانيا العظمى على كل حال والكن سيطرة الخديوي انهارت ، وتعذر على الانكليز انقاذ غوردون في الخرطوم .

على غرار امبراطوريات السودان الغربي ، رأت امبراطورية الدراويش ، وليـدة الثورات والقبائل البدوية المتعصبة والنخاسين ، النور وماتت في فترة زمنية قصيرة جـداً . فقد عجزت عن استمالة السنوسيين والتغلب على مصر ، ولم تعرف بعض الراحة إلا بفضل انتصار احرزته على نجاشي الحبشة ، والخلاف الذي نشب بين هذا الأخير والايطاليين . وقـد عانت البلدان التي اخضعتها من الاوبئة والمجاعة واصابة كل تجارة بالشلل. أجل لقد بلغت الحركة اوادها . ولكن الانكليز ، الموجودين في مصر ، توفقوا اخيراً في السنة ١٨٩٨ الى تنظيم حملة كتشنر التي هزمت الجيش المهدي وقضت على المطامع الفرنسية في طريق الكونغو ـ البحر الاحمر. فاصبح السودان النيلي ، باسم الخديوي ، السودان الانكليزي المصري .

اثيوبيا ، نيوبوروس ومنليك

في وسط المنطقة الجافة التي تتصل بالبحر في افريقيا الشرقية ، تنتصب الجبال الاثيوبية وكأنها خزان مياه وملجأ جبلي . وقد جاءت الموجة الاسلامية تضرب شواطىء هذه الجزيرة المسيحية فعجزت عن غمرها

انها لبلاد غريبة التقسيم الطبيعي ، كل واد فيهـا يعيش في عزلة بقيادة زعيم . لا تسلّم بالتضامن إلا امـام خطر كبير مشترك . الارض ملك طبقة سيدة من الرؤوس سوداوية اللون ومختلطة الدم . يبرز بين حين وآخر رأس الرؤوس ، النجاشي ، الذي يتمتع بسلطة اسمية لا تجعلها فعلية إلا الحرب وحدها . ليس من فارق كبير بين خرافات هؤلاء المسيحيين القائلـين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وبين وثنية الا « غلا » جيرانهم . تعدد الزوجات منتشر وشبه شامل ، وكل حبشي ميسور يتصرف في عدد كبير من الخدام المنزليين .

البلاد تعتمد في معيشتها على مواردها القليلة ، ولكنها تجني الأرباح من مرور البضائـع التي تنقلها القوافل بين افريقيا الوسطى والمرافىء . وكان لنشاط الطرقات التجارية من ثم أثره في التاريخ السياسي . فبينا تقوم في مملكة امهرا مدينة غوندار ، ملتقى القوافل الهامة ، تنتهي الى تيغره المنتجات المنزلة الى البر في ماسوا ، والى شوا تؤدي طريق هرار . ولذلك تنافست هذه الرئاسات الثلاث تنافساً دائماً .

في اواخر القرن الثامن عشر ، اضعفت المنازعات بين الرؤوس طاقـــة الحبشي الهجومية فتراجع في كل مكان . ولكن نهضة تحققت في امهرا بفضل الرأس « كاسا » الذي نجح في إعادة جمع شتات الاراضي الاثيوبية وأعلن نفسه نجاشيـــاً باسم تيودوروس ووضع سلسلة نسب التي جعلت منه خليفة داوود ، ووجه رسائل الى القيصر يقترح عليه فيها ميثاقـــاً ضد الاسلام . وعندما استمان أحد منافسيه بالفرنسيين معترفاً لهم بحق الاقامة في اوبوك على شاطىء البحر الاحمر ، اعتمد تيودوروس على الانكليز . فكان ذلك منطلق التدخل الأوروبي .

عندما قاطع الانكليز على غير ترو ، عجز تيودوروس عن صد جيش بقيادة السير نابير وآثر الانتحار . فعقب ذلك عهد جديد من الاضطرابات استفاد منه الخديوي ، ثم الدول الاستعمارية للاستيلاء على الساحل الاريتري والصومالي . وحدث ان النجاشي الجديد ، « يوحانس » التغري الاصل ، قد لاقى حتفه في معركة ضد المهديين ، فوقع رأس شوا ، منليك ، بغية فرض نفسه ، معاهدة مع الايطاليين اعتبرتها روما بمثابة اعتراف بالحمـــاية . ولكن هزيمة « عدوه » في السنة ١٨٩٦ قضت على مطامع « كريسبي » .

بعد الاعتراف بالاستقلال الاثيوبي توصل النجاشي منليك بسرعة الى بسط نفوذ جيليه على سكان المناطق المتاخمة . الا أن اثيوبيا الكبرى التي حققها ما زالت محاطة بممتلكات الاوروبيين، ولذلك نراها تفاوض فرنسا في أمر ربط عاصمتها ، اديس ـ ابابا ، بالشاطىء بواسطة خـــط حديدي ينطلق من جيبوتي وبير بهرار . والواقع هو ان الجبـــال الاثيوبية لم تجتذب التيارات المصرية بل رفضتها .

افريقيا البانتوية ونصيب زنجبار

الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار تمتـــد البلاد البانتوية التي تختلف نماذجها البشرية ولهجاتها (١٨٢ على الأقل) اختلافاً بيناً عن نماذج ولهجات السودان وغينيا . ولكننا نرى هنـــا ايضاً ازدواجية المناظر الطبيعية وانواع المعيشة ؛ فمن جهـــة الحوض الكونغولي ، نطاق الاحراج والسباسب الكثيفة ، ومن جهة اخرى اطار من الهضاب الممتدة من افريقيا الشرقية حتى الـ « فلد » الجنوبي والصالحة لتربية المواشي .

ان البانتو الذين يقطنون منطقة الامطار الغزيرة بين خليج غينيـــا والبحيرات الكبرى لم يخالطوا قط سوى الزنوج البلديين المرتبعين الذين ربما دانوا لهم بالقوام الوسيط والوبر الكثير واللون الداكن . ولكن بانتو الغابات ، على نقيض هؤلاء الزنوج الذين كادوا لا يعيشون الا من القنص وجني الثمار ، ولا يستقرون في مكان وينامون حتى في الاشجار ، قـــد اقاموا في قرى مؤلفة من اكواخ مستطيلة قنصوا في جوارها الحيوانات وتعاطوا زراعة متنقلة ، واستخدموا أداة بدائية شبيهة بالعصا تتيح لهم طمر البذار واستخراج البطاطا في الارض المحرقة الضيقة . وجعل منهم الجوع اكلة تراب احيانـــاً ، كما ان الأمراض – الزحار ومرض النوم – فتكت بهم

فتكاً ذريعاً . وعلى مثل هذا الاقتصاد ، كان نظام المجتمع بدائياً . فلا حساب الا للتجمع العائلي وما يتبعه من زبن وارقاء . أما المسألة الكبرى فليست مسألة الارض بل مسألة اليد العاملة . ولم تضم الرئاسة الاقليمية سوى عدد محدود من القرى ، وهي تؤسس وتحل وفاقاً للحاجات الآنية ، كمملكة الـ « ماكوكو » عند الـ « باتيكي » ، مثلاً . وما كانت نشاطات بعض القبائل الخاصة ، كالنقل المائي ونقل المعادن ومعالجتها ، حتى ولا الاعتقاد بالارواح ، لتقوى على ايجاد سلطات سياسية اوسع امتداداً .

يسود الاعتقاد ان بانتو الغابات وليد التكيف. أما بانتو البورات فيجاور في الشمال الحاميين والعرب والاسلام ، وفي الجنوب البرتغاليين والبوير والبريطانيين الاوروبيين . ولعل نزوحه نحو نصف الكرة الجنوبي نتيجة تقدم الحاميين المسلمين ، الماساي والواهوما (هؤلاء هم « الآتون من الشمال ») ، الذين اقاموا بين البحيرات الكبرى والمحيط الهندي مصطحبين الثور ذا الحدبة والجمل ذا السنام . وبينما زالت من الوجود ممالك « لوانغو » و « لواندا » و « لوبا » في الحوض الكونغولي ، ولم تخلف مونوموتابا سوى ذكريات عظيمة ، ما زالت اوغاندا تؤلف اطار دولة اقطاعية الطابع .

جاء الـ « كافر » والـ « ماتابيلي » والـ « بازوتو » والـ « بلشوانا » يرعون ثيرانهم واغنامهم وماعزهم وحميرهم في مناطق خط الجدي بعد أن ردوا الـ « هوتنتو » والـ « بوشمان » الى الوراء . وكما حدث في السودان، تعاطوا زراعة الذرة البيضاء الى جانب تربية المواشي. وتنازعوا الطرق البرية والمائية فيما بينهم . وفي اعالي الزمبيز استقبل ليفنغستون استقبالاً حسناً في امارة تنظم غارات متكررة على جيرانها . وكان الـ « زولو » مهرة في استعمال الرمح والقوس والنبال محتمين بترس كبير من جلد البقر ، ولم يلبثوا أن قدروا فوائد الاسلحة النارية حق قدرها. وعند حدود « ناتال » و « فلد » اصطدموا بالبوير والانكليز الذين لم ينتصروا عليهم بسهولة .

كان الحدث الكبير ، من جهة المحيط الهندي ، التراجع البرتغالي امام هجوم عربي جديد صادف في الزمان تقدم الاسلام في داخل القارة الافريقية وانتقال النخاسة شطر الشرق . وقد برزت آنذاك قوة زنجبار التي نقل اليها امام مسقط عاصمته في السنة ١٨٤٠ . فظهرت مرة أخرى مميزات هذه الجزيرة الصغيرة الساحلية النادرة كموقع تجاري : وكان مقدراً لها ان تلعب، لحساب سلطنة اسلامية ، دوراً مماثلا لدور عدن وسنغافورة . فأدخل سكانها « السواحليون » المختلطو الدم (عرب وفرس وهنود وماليزيون) زراعة القرنفل . واهتمت كذلك بمحاصيل الداخل ومنتجاته ولا سيما النحاس والعاج . ولكن اعمال الارض ونقل المحاصيل تتطلب يداً عاملة وفيرة : وسوف تستحق زنجبار اسمها (زنج - بر أي بلاد العبيد) . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان النخاسة قد اتسعت هنا اتساعاً بعيداً بفضل بيع الاسرى في اسواق المحيط الهندي الأخرى . وتجمع الشهادات كلها على الخراب الذي خلفته في المنطقة الممتدة بين « اونيمي » و « كاتانغا » . وقد اشار ليفنغستون الى القرى الكثيرة التي احرقها النخاسون والى النساء

المشنوقات بسبب عجزهن عن اللحاق بالمواكب . والتقى ستانلي في طريقه الوف الخلائق المسارقة والمقطورة برقابها ؛ ووصف الزعيم البلدي باحثاً عنها في غاباتها وجامعاً اياها لحساب التاجر العربي ، على مثال « الشريف الانكليزي الذي يدعو ذويه لقنص ديك الخلنج او لاصطياد الغزال بواسطة كلاب المطاردة » ؛ واشار الى عملية سلب استهدفت ١١٨ قرية لم تسفر الا عن ٢٣٠٠ اسير . فأقفرت المنطقة على جانبي الطرق المؤدية من الساحل الى البحيرات الكبرى والحوض الكونغولي . وكانت النتيجة إبادة القبيلة و إفناء معظم السكان لسنوات طويلة .

بلغت زنجبار ذروة مجدها بين السنة ١٨٦٠و١٨٨٠ تقريباً . وقد بسط السلاطين حمايتهم على داخل البلاد حتى الكونغو والساحل البرتغالي ، وأقدم بعض الدول على عقد الاتفاقات معهم ، وبعض المؤسسات التجارية على تأسيس فروع لها في الجزيرة . الا ان إلغاء النخاسة ما لبث ان اصبح فعلياً وقرع ناقوس نهاية زنجبار المتجرة بالزنوج .

الاستثمار الاستعماري لافريقيا السالتوبة

منذ السنة ١٨٨٠ عمدت الدول الاستعمارية الى تقاسم افريقيا الوسطى وافريقيا الشرقية وافريقيا الجنوبية . فارتسمت نطاقات ثلاثة : نطاق فرنسي بلجيكي يضم مناطق الكونغو باتجاه الاطلسي، ونطاق انكليزي الماني بمحاذاة المحيط الهندي، ونطاق ثالث ابعد الى الجنوب يسيطر عليه الالمان ولا سيما البريطانيون.

لم يكن الاوروبي ليستطيع التفكير الا باستخدام عمل البلديين من اجل تحقيق مقاصده . وقد رغب في تبشير الزنجي بالانجيل وإنقاذه من الرق وإفهامه حسنات استثمار أرضه استثماراً مبنياً على العقل . ولكن ما هو السبيل الى إرغامه على مقايضة محاصيل بخسة الاسعار – المطاط مثلا – بالملح والنسائج المرتفعة الاسعار ، والعمل في المغارس وبناء الخطوط الحديدية ، ونقل الاثقال ؟ فهو اما يردد بدون انقطاع « مبامبي » (بلغ مني الجهد) و « كوركولو » (الرحمة) ، وأما يفر من العمل . وقد اعترفت جريدة التايمس في السنة ١٨٧٧ بأن « هذه الشعوب عنصر تصعب سياسته ... فهي تجهل الرغبات والحاجات المركبة التي تكون ما يدعى بالحضارة ، وان في ازعاجهم بدون داع في الحياة البربرية التي يعيشونها راضين وسعداء لمسؤولية كبرى » . اما « برازا » الذي حاول نهج سياسة تعاونية على غرار فيدرب ، فقد افتدى الارقاء وعقد الاتفاقات مع الزعماء ، وطالب بالحاح بان « تتحاشى الادارة العليا والتجارة العليا استغلال المستعمرة استغلالاً سريعاً ، ولما يعلم البلديون ما نريده منهم » . الا أنه لم يلق آذاناً صاغية ، كما لم تلق اذاناً صاغية نداءات ليفنغستون ايضاً . فقد تميز البلجيكيون والالمان بوحشيتهم . وندرج على سبيل المثل هنا ما أعلنه الدكتور بيترز : « يخضع الزنوج لدوافع أو لبواعث تختلف كل الاختلاف عما نخضع له نحن . اذا ما اعطيت الزعيم الزنجي ثوراً فانه يلبث ان يحاول سرقة كل قطيعي . واذا ضربته بالسوط ، فانه يسرع الى اعطائي بعض الماشية » . فاستخلص من ذلك النتيجة الطبيعية التالية : « اذا احسنت معاملة الزنجي ، اعتقد بأنك تخشاه . واذا اسأت معاملته ، اعتقد بانك متفوق عليه » . ولذلك فان الحجة الأخيرة غالباً ما كانت السوط

المصنوع من جلد فرس الماء الذي درج البرتغاليون على استعماله . وحين لا يكفي الضرب والغرامات والسجن ، تؤخذ الرهائن وتعتقل النساء والاولاد في المعسكرات . لقد سيطر على افريقيا الوسطى نظام استثماري لا يعرف للرحمة معنى .

استمرت مستعمرتا انغولا وموزامبيك البرتغاليتان في فقرهما وضيق عيشها ، وبقيت النتائج غير مرضية في المتلكات الفرنسية ، ولكن الكونغو البلجيكي والممتلكات الانكليزية الالمانية في افريقيا الشرقية عرفت نمواً اسرع حدوثاً. فقد انصرفت الدولة الحرة الى قنص الفيل اولاً، وانما توجب ايقاف التقتيل وحالة الجنس. ثم استثمرت الاخشاب الثمينة استثماراً وحشياً. وفي السنة ١٨٩٥ اندفع الناس وراء استخراج المطاط اندفاعاً جنونياً لم يدم سوى عشر سنوات تقريباً . ولكن عصر المناجم ارتسم في أفق كاتانغا و « اوالبه » . اجل كانت الشبكة النهرية ذات منفعة كبرى للمستعمرة ؛ ولكن ذلك لم ينسـ ستانلي من القول : « بدون خطوط حديدية لا تساوي الكونغو فلساً واحداً » ؛ فدشن في السنة ١٨٩٨ خط « ماتادي » الى « ليوبولدفيل » .

بنى الانكليز والالمان كذلك خطوطاً حديدية تنطلق من الساحل وتسير في طرق القوافل: واتجهت افكارهم الى شجرة البن والمطاط ، فأهملوا تربية المواشي ، ولم يهملوا العاج الذي كان يوفر لهم ارباحاً هامة . وتصرفت « الشركة ذات الامتياز » تصرفاً مماثلا في كلا جانبي الزمبيز : فبنت الخطوط الحديدية وعمدت الى قطع الاخشاب الثمينة واقتربت من كاتانغا وشرعت على حسابها في انهاض « اساكل » الموزامبيك .

وعلى الرغم من التجاوزات الكثيرة ، فان النظام الذي فرضه البيض قد ادخل المناطق الافريقية الممتدة بين خطي السرطان والجدي في طريق اقتصاد جديد .

مدغشقر في عهد الموفانز الفرنسي

ان مدغشقر أكثر انتساباً الى الاراضي المتناثرة في المحيط الهندي وحتى في المحيط الهادي منها الى افريقيا التي تؤلف هي جزءاً منها . وكان « وليم اليس » امين سر جمعية لندن التبشيرية ، وأحد الاختصاصيين في شؤون اوقيانيا ، بين الأولين الذين اشاروا في السنة ١٨٣٨ الى اوجه التقارب بين اللغة المالغاشية واللهجات البولينيزية (اسم النارجيل واحد) . أما « غرانديديه » ، الذي اتاح لنا بمؤلفاته معرفة البلاد معرفة جيدة ، فقد شدد في اواخر القرن على بعض اوجه التقارب بين سكانها وشعوب الهند الجنوبية . ولكن الواقع الذي سلم به الجميع هو ان معظم المفردات المستعملة عادة ماليزية المنشأ وباستطاعتنا التأكيد من ثم ان الـ « مرينا » ماليزيون يتميزون بقصر القامة والجسم النحيل والبشرة الزيتونية اللون ، أتوا بعد كل من سوام وحققوا التفوق.

تعرف المنطقة الغربية باسم « تحت الريح » ، وتتميز بالجفاف والتربة المتحجرة أو الكلسية واساليب الزراعة المهملة (تافي) وقلة الاشجار وتكاد لا تصلح الا لتربية المواشي وتشبه الفلد

الجنوبية : وهذا يفسر ظفر الوسا كالاف ، والقبائــل البدوية أو شب البدوية الأخرى التي تربي الثيران الحدبا . أما المنطقة الشرقية المعروفة باسم « في الريح » والمتميزة بالرطوبة ، فقــد حافظت على زراعات المنــاطق الحارة . وقد خلف العرب آثاراً في « سعيرالو » ، الى الشمال الغربي ، وفي المناطق الجنوبية الشرقية الآهــلة بال « تيمورو » (« الساحليون ») ؛ وكانت « دياغو - سواريز » ملجأ القراصنة ، وأسس الفرنسيون « فور - دوفين » في القرن السابع عشر . وتشتت ال « بلسيمساراكا » ، الخلاسيون في الغابات الساحلية وتعاطوا الصيد والزراعة وتربية المواشي واقتاتوا بالارز والاثمار والاسماك وسكنوا اكواخا من الخيزران ولم يلعبوا اي دور هام . اما ال « تسيميهتي » الذين اتقنوا الزراعة في جبال « تساراتانانا» فكانوا سائرين في معارج التقدم .

اشتهر بين السكان ال « بتسيليو » والمرينا سكان المرتفعات والاحواض حول «تاناناريف » و « فياناراتسوا» . احسن البتسيليو الزراعة وبرعوا في الصناعة اليدوية وضموا أربع طبقات : الاقطاعيين والاشراف والاحرار والفداديين ؛ وحين أخضعهم جيرانهم، اصبحوا اشبه بفداديي (« منتي ») المرينا . أما عند المرينا فقد اختلفت النماذج باختلاف الطبقة الاجتماعية : فال « اندريانا » او الاشراف زيتونيو اللون ، على غرار الهوفا أو الاحرار وعلى نقيض ال« منتي» والعبيد أو « انديفو » . الارز قوام التغذية ، وليس للثور الاهمية الــتي له في الغرب . البيت مصنوع من الخشب وحده في مدينة تاناناريف الملكية . وخلفت عبادات الارواح الكثيرة التي تتناول كافة اعمال الانسان آثاراً تذكّر بآسيا . وقام رب العائلة بوظيفة كهنوتية، وأدار مجلس القدماء (فوكون اولونا) شؤون القرية .

عدد سكان الجزيرة غير مرتفع ، وهو لم يتجاوز المليونين في الارجح (وان قدره بعضهم خطأً بثمانية ملايين) . ومرد ذلك الى انهم عانوا من سوء التغذية وامتحنوا بالملاريا في الشواطىء وبالبرص والطاعون وتعرضوا للزحار وذات الرئة ؛ ويبدو ان السفلس كان واســع الانتشار ، وسيتسع كذلك فتك داء الفرل بفضل التجارة الاوروبية .

الا ان دولة هوفية تأســت مستهدفة السيطرة على انحاء الجزيرة . فقد توفق « اندريانامبوا نيمبرينا » في اواخر القرن الثامن عشر الى جمع المرينا واخضاع البتسيليو وتشكيل جيش وجباية جزية منتظمة بواسطة مجالس القرى . وكانت الارض ملكاً له يوزعها اقطاعات (مناكلي)على الاشراف الذين يشركهم بالحكم ، فبنى سدوداً وطرقات . ووفرت له نفدادية والرق اليــد العاملة الضرورية . وقد صرح بما يلي : «يجب ان يكون البحر الحد الاخير لارزّاقي» ؛ وأرسل الحاميات العسكرية الى المناطق التي أخضعها .

برهنت ملكية تاناناريف عن بصيرة ثاقبة حقيقية فعرفت زمناً طويلاً كيف تستغل التنافس الانكليزي الفرنسي وتستفيد من خدمات الاوروبيين دون التسليم بشروطهم . واذا تفوقت

الارساليات البروتستانتية على الارساليات الكاثوليكية - (بلغ عدد البروتستانت ٣٠٠٠٠٠ على الاقل في السنة ١٨٩٥ مقابل ٧٠٠٠٠ كاثوليكي - لقد عقدت بالمقابل معاهدة مع فرنسا في السنة ١٨٦٢ . ولكن العهد الحاسم كان الفترة الممتدة من السنة ١٨٦٤ الى السنة ١٨٩٦ التي سيطرت عليها شخصية « رينيلاياريفوني » الذي برز من بين صفوف الشعب واصبح رئيس وزراء الملكة « رازوهيرينا » ثم بعلاً لـ «رانافالونا» الثانية و« رانافالونا» الثالثة. ففي السنة ١٨٦٨ ، بدا وكأن الدولة الهوفية سائرة نحو الـ « ميجي » ؛ ء . على غرار يابان « موتسو - هيتو » ، وبمساندة بريطانيا العظمى التي استعين بضباطها وخبرائها الفنيين : اعتماد البروتستانتية معتقدين دولة ، فتح مدارس توفر تعليما انكليزياً عرفيا ، احلال الموظفين الملكيين على الاقطاعيين ، جمع الاعراف السائدة في مجموعات كاملة ، ومنع الاجانب من امتلاك الارض . فانتشرت الاخلاق الاوروبية انتشاراً بطيئاً ، ونمت الصناعة اليدوية وتقدم التعليم . ولكن الفدادية والرق لم يزولا .

ما كانت الحكومة الهوفية في الحقيقة لتحرز الغلبة لو نشب نزاع مسلح بينها وبين دولة اوروبية اخرى، اذا لم يتدخل الانكليز لمساعدتها . والحال نشب هذا النزاع حين ارادت فرنسا وضع الـ « ساكالاف » تحت حمايتها . ففي السنة ١٨٨٥ ، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، اضطرت تاناناريف الى استقبال مقيم فرنسي . ولكن نظام الحماية اصطدم ببعض العقبات ، فتمت عملية « وضع اليد » بعد ذلك بعشر سنوات .

أزالت فرنسا نفوذ المرينا وواصلت في الوقت نفسه عمل الملوك الهوفيين وانتدبت غالياني الذي اعتمد سياسة أشبه بالاستبداد المستنير . فبعد ان استخدم القوة بغية اخضاع البلاد نهائياً عمد الى استخدام النخبة البلدية باخضاعها لسلطة موظفي الوطن الأم ؛ وألغى الرق ، ولكنه فرض خدمة خمسين يوماً في السنة للاشغال العامة (وهو فرض سيحوّل الى ضريبة) ؛ وراقب تعليم رجال الدين ، ولكنه قنع بأن تمد المدارس موظفين للدوائر ؛ والغى امتيازات الطبقات، ولكنه لم يقو على عزلة الفرنسي وحواجز المجتمع . وليس من شك في انه رغب في معالجة نقص وسائل النقل وحماية الجزيرة من الاستثمار العقاري على ايدي الشركات الرأسمالية الكبرى ؛ وانما نظراً لندرة رؤوس الاموال، لم يعد له استخدامها في قطع الاشجار والبحث عن الذهب وانتاج البن بالتفضيل على تحسين الماشية وتوسيع زراعة الارز . فاضطرت مدغشقر من ثم الى استيراد الارز والعدول في الوقت نفسه عن ابتياع سكر جزيرة «ريونيون » القريبة ونسائجها المفضلة على نسائج الرافيا. وانشئت مدينة على النمط الاوروبي تحت العاصمة القديمة ، ولكن العمران في المناطق الاخرى بقي في حالة يرثى لها . وبحسب الظواهر كان المفتش راضياً بنصيبه .

جزيرتان لتنجان السكر : موريس ريونيون

كانت « بوربون » و « جزيرة فرنسا » الجوهرتين الفرنسيتين في بحر الهند خلال القرن الثامن عشر في عهد « ماهيه دي لا بوردونيه » . وهما تشابهان جزر الانتيل الصغرى بطبيعة ارضهما البركانية ، ومناخهما الحر والرطب – في كل منهما منحدر في الريح وآخر تحت الريح – ، وارتفاع كثافة سكانها .

في السنة ١٨١٥ احتفظت بريطانيا العظمى بالجزيرة الاولى واعادت لها الاسم الذي اطلقه عليها الهولنديون اكراما لـ « موريس دورانج » . الا انها بقيت فرنسية اللغة والروح ، ودانت بنجاح مغارسها للادارة البريطانية ولضمان تصريف سكرها في أسواق الوطن الام ولوفرة اليد العاملة الهندية . الا ان فتح ترعة السويس قد ألحق الضرر بتجارة « بور لويس » .

أما مصير جزيرة ريونيون فكان أكثر تقلباً . فبعد الازدهار الذي عرفته بفضل بن « بوربون » ، وقرنفلها نزلت بها كارثتان : اعصار السنة ١٨٠٦ والحروب الفرنسية الانكليزية . الا ان ادخال قصب السكر اثناء الاحتلال البريطاني أتاح تجدد الازدهار فيها . فبينما تأخرت زراعة شجرة البن وانحصرت اخيراً في الهابط القائمة تحت الريح ، ازدهرت زراعةقصب السكر والونيلية في « مساكن » المنحدر المروي ، اعني بها تلك الاستثمارات الكبرى التي أدارها « القادة » . وقد انتج السكر بكميات كبرى على حساب المزروعات الغذائية والغابات . فتضاعف عدد السكان بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٠ . وانشئت طريق دائرية جديدة ، كما شرع في بناء خط حديدي دائري ايضاً ؛ وبنيت بعد حين خطوط خاصة صغرى لتؤمن الوصول الى الاملاك المدرّجة . ثم عانى قصب السكر من الحشرات الطفيلية ومنافسة السكر . فبدأ عهد انحطاط هذه الزراعة . وفشلت محاولة استحضار العمال الهنود الصينيين . فتضاءل حجم التجارة التي تعاطاها هنود من بونديشيري وعرب وصينيون ومؤسسات ابداع اقتصرت على بيع السكر من التجار في الخارج . فعم التشرد ، وعرفت بعض المناطق داء التهاب الاوعية اللمفاوية وزاد انتشار الملاريا ، فتدنى عدد السكان .

عهد المرسلين والتجار وصيادي الحيتان في الباسيفيكي

خلال القرن التاسع عشر ما زالت الجزر المتناثرة في المحيط الكبير معتبرة في نظر الاوروبيين وكأنها تؤلف عالماً خاصاً متميزاً بعزلته وغرابة نماذجه العنصرية : وقد تضاربت الآراء في اصول وتشابه « الزنوج الشرقيين » – الميلانيزيين والميكرونيزيين – و « البرابرة البيض » اي البولينيزيين ، على السواء . فقد تكلم كوك من قبل عن « فينيقيي العالم الشرقي » ؛ وتتبع بعضهم التزوحات البولينيزية انطلاقاً من مصر ، فطلعت احدى النظريات بأن هذه الشعوب انما هي بعض « اسباط اسرائيل التائهة » . ومهما يكن من الامر فان هذه الحضارات ، على الرغم

من انسجامها الكلي مع البيئة ، لم تكن لتتجاوز مرحلة الحجر المصقول [1] .

وصف الرواد المستكشفون جنة عدن حقيقية ، فقصد هذه المناطق بعدهم، وفي وقت واحد، رجال مقتنعون بأن هناك بشرية مستعدة لتقبل كلام المسيح واشخاص آخرون عللوا النفس باستثمار موارد الارض استثماراً سهلاً . اما الحكومات فوقفت موقفاً متحفظاً متحذراً ؛ فقد انتهى « غيزو » الى العدول عن سياسة الحمايات التي انتهجها امير البحر « دوبتي ثوار » : ولم يحتفظ الفرنسيون الا بـ « تاهيتي » . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان المرسلين البروتستانت كانوا تواقين الى ادارة شؤون البلديين بأنفسهم .

بدأ التوسع المسيحي في تاهيتي في السنة ١٧٩٧ بوصول الـ « دوف » الذي ارسلته الجمعية التبشيرية في لندن . ثم اسرع المبشرون ، في كل مكان تقريباً ، الى محاولة استمالة الزعماء والتأثير بواسطتهم على السكان . فاوصوا بتحطيم الاصنام والاقلاع عن الاعتقاد بقدسية الاشياء واكل لحم الآدميين والحروب ، ودعوا كذلك الى الاقلاع عن العري والوشم والرقصات الطقسية ، ونادوا بوحدة الزواج وعظموا فضول العائلة وفتحوا المدارس ؛ وهاجموا احياناً ، في بولينيزيا ، امتيازات النبلاء . وفي جزر كوك ، انشأت جمعية الارساليات رقابة تيوقراطية حقيقية ، جاعلة من « المساكنة خارج وثق الزواج » جرماً ، وحظرة الخروج من الاكواخ اثناء الليل . وفي « غامبيه » اشهرت السلطة العسكرية الفرنسية الاب « لافال » كمستبد « ضحكة » . فاهتدى بعض الزعماء خوفاً ، وارتد غيرهم احتياطاً . وفي اغلب الاحيان عمل البلدي بطقوس لم يدركها جيداً . أضف الى ذلك ان قدسية الاشياء قد استهدفت كبح غرائز شريرة تحررت الآن . فوهي تلاحم الجماعة وتشوش نشاط المجتمع . ولم تنس الارساليات من جهة ثانية واجبها في تأمين حاجاتها الخاصة ؛ فتعاطت التجارة وجنت الارباح من بيع الالبسة والادوات المعدة في الاصل لموعوظيها ، ولم تتوان عن جمع الثروات الطائلة عن طريق تجارة اللآليء .

تدفق على الجزر مغامرون مختلفون كثيرون. فقد خطر لاحد التجار الاميركيين من مقايضي الفراء بالحرير في الصين ان ينقل خشب الصندل ويعرضه على زبنه الآسيويين . واهتم تاجر آخر بـ « خيار البحر » الذي رغب فيه مترفو كانتون لمذاقه وخواصه الناعوظية . ثم لفت الانتباه عرق اللؤلؤ وعرضت المنائج القطنية والسكاكين والبنادق وعرق السكر ؛ وبلغ من بعضهم ان احتجزوا الرهائن الى ان تسلم الكميات المطلوبة. وعانت كافة الجزر التي تكثر صخور شواطئها تحت وجه البحر معاناة متفاوتة من الاصداف اللؤلؤية . ولم يندر ان استيق البلديون عنوة الى السفن لملء الفراغ الذي يتسبب فيه داء الخمر في صفوف البحارة . وقد استفاد ملوك بلديون كثيرون من جشع البيض : كملك هاواي الذي ارغم رعاياه على اهمال المزروعات الغذائية وقطع خشب الصندل ، فأحدث مجاعة في البلاد .

---

(١) « تاريخ الحضارات العام » ، المجلد الخامس ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٨ (الطبعة العربية) .

لم تكن زيارات سفن صيد الحوت للشواطىء أقل تسبباً في المصالب . فقد عمد بحارتهـــا الى المقايضة للحصول على المواد الغذائية الطازجة ، ولكنهم لم يمتنعوا عن اساءة معاملة السكان ، باغتصابهم النساء واختطافهم الرجال أو قتلهم اياهم . وهذا لك بعض المناطق ، كجزر « سوسيتيه » وفيدجي و « مارشان » و « كارولين » ، التي لم تنهض قط بعد الويلات التي حلت بها .

عهد التجارة والمناجم في اوقيانيا

بعد السنة ١٨٥٠ سادت اعمال السلب والنهب . فكان مضيق « توريس » بدوره مسرح اندفاع وراء الاصداف اللؤلؤية ، فاطلق عليه اسم مشؤوم هو « بالوعة الهادي » . ولكن اشكالاً استثمارية جديدة رأت النـــور ونمت نمواً عظيماً فاستتبعت اللجوء الشامل الى العمل الالزامي .

منذ السنة ١٨٣٥ ، لفتت جزر هاواي الانتباه بسبب السهولة التي توفرها لزراعـــة قصب السكر . فاشترت بعض الشركات الاميركية الاراضي واستحضرت عمالاً صينيين ويابانيـــين وفيلبينيين ، وبرتغاليين بعد حين . وولت جزر فيدجي كذلك وجهها شطر انتاج السكر بعد فشل زراعة القطن التي بنيت عليها الآمال اثناء الحرب الانفصالية .

ولكن اوقيانيا اعتبرت في الدرجة الاولى قادرة على انتاج جوز النارجيل ، وقد تكلـــم بعضهم عن حضارة النارجيل ، اذ ان هذه الشجرة تؤمن معيشة سكان الجزر ليس بتوفيرهـــا غذاء وشراباً كحولياً فحسب ، بل مواد بناء البيوت والمادة الخام التي يستخدمونها في صناعـة شتى الادوات ايضاً . وفي العديد من الجزر اعتاش البلديون من تقديم الجوز الى زعمائهم المتعاملين مع التجار . وبسبب نقص اليد العاملة في « ساموا » لجأت مؤسسة غودفروا الهامبورغية ، الى العمال الميلانيزيين والصينيين ، دون ان تحقق نجاحاً كبيراً على كل حال ؛ ولجأت جزر فيدجي الى جزر « سليمان » للحصول على اليد العاملة .

كانت الحاجة اشد إلحاحاً الى اليد العاملة لاستثمار باطن الارض . فبعد ان اكتشف صيادو الحيتان الفوانو في ألوف الجزر الصخرية ، العارية والمقفرة احياناً ، عمـــدت بعض الشركات الاميركية الى استخراج هذا السماد الثمين : وتوجب لذلك الاقتراب من الشاطىء عبر الصخور الناتئة فوق سطح البحر ، وتأمين العيش بمواد غذائية تستحضر مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر من هونولولو أو من « ابيا » ، ونقل اكياس السماد الى مكان رسو السفن؛ فوقعت ضحايا كثيرة جداً بين البولينيزيين لا سيا في جزر « فينكس » . وحوالى السنة ١٩٠٠ كثر الكلام عن الفوسفات في « نورو » و « اوقيان » حيث استحضر عمال يابانيون لاستخراجه . وبوشر في كاليدونيـــا الجديدة استخراج النيكل والكروم والكوبلت ، وقد اعاقه عداء الـ « كاناك » الذين لم يسلموا كذلك باستملاكات الاراضي للمهاجرين الفرنسيين من أجل زراعة شجرة البن وتربية المواشي ؛ وفي اعقاب ثورة خطيرة نشبت في السنة ١٨٧٨ ، طلب العمال الصينيون بواسطة بيوت القمار ومحاشش الافيون في هونغ - كونغ وكانتون .

تقويض المجتمعات القديمة وافقار اوقيانيا حتى التقسيم الإستعماري

لا يرد تأخر تقسيم الجزر الى انتظار تقدم وسائل المواصلات واقامة خطوط تجارية منظمة واكتشاف بعض الثروات ردّه الى ركود الاحوال التجارية الذي حرك المنافسة والمطامع بين السنة ١٨٨٠ و١٨٩٥. ففي السنة ١٨٥٠ كانت تاهيتي وحدها خاضعة لحماية، وحين قررت باريس ضم كاليدونيا الجديدة اليها وقفت اوستراليا موقفاً معارضاً. ولم يقدم البريطانيون بحماس على ضم جزر فيدجي. ورفض بسمارك مساندة مؤسسة « هانسمن » التي اقترحت عليه تأسيس مستعمرة في غينيا الجديدة. الا ان دخول المانيا الحلبة، عشية افلاس مؤسسة غودفروا في جزر ساموا، هو الذي استعجل عملية التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة. وكانت الدبلوماسية كافية لتنفيذ هذا العمل.

على غرار افريقيا ما بين خطي السرطان والجدي، عانت اوقيانيا الكثير من الويلات التي حلت وفتكت بسكانها. اجل ان في تقديرات الروّاد الاولين ما يثير الريبة؛ افلم يقدر كوك سكان تاهيتي بـ ٢٠٠٠٠٠ نسمة وسكان هاواي بـ ٣٠٠٠٠٠ – ٤٠٠٠٠٠ نسمة؟ ففي السنة ١٩٠٠ لم يجاوز سكان هذا الارخبيل الاخير الـ ١٢٥٠٠٠ نسمة، وما كان هذا العدد ليضم الا ٢٠٠٠٠ بلدي فقط. وليس من شك في ان اراضي كثيرة قد فقدت ثلاثة ارباع السكان، ان لم تفقدهم عن بكرة ابيهم وحين تتغلب النسبة فمعنى ذلك ان الهجرة تملأ الفراغ. فكما ان اوستراليا (اوستراليا وزيلندا الجديدة) قد اصبحت انكلوساكسونية بعد انقراض التاسمانيين والاوستراليين والموري، أو سيرهم في طريق الانقراض، كذلك جاء الخلاسيون والآسيويون يعيدون إعمار معظم الفراديس الصغيرة المدفنة على الاقفار.

أجل لم يكن تدني نسبة الولادات حدثاً جديداً بسبب تضافر الحروب واكل لحوم البشر والامراض على ايقاف انطلاقة ارتفاع عدد السكان. ولكن المهاجرين المستعمرين قد زادوا في الطين بلة. فقد قتلوا الاهلين أو انهكوهم بالاشغال الالزامية الشاقة او ابعدوهم بأعداد كبرى (من اجل استخراج الفوانو، اختطف البيرويون والشيليون نصف اهالي جزيرة « الفصح » وثلاثة أرباع اهالي جزيرة « نوكوليلي » في أرخبيل ا « اليس » ؛ وكادت ميلانيزيا تقفر كذلك بسبب حاجة اوستراليا الى اليد العاملة) . وباعوا الاسلحة قتالة ومشروبات روحية. واذا هم لم ينقلوا امراض السفلس والسل والتدرن الرئوي التي يرجح انها قديمة العهد في الجزر، فقد نقلوا الجدري والحصبة بكل تأكيد. وقد أورد « لوتي » انطباعاً بشرية في حالة الاحتضار بسبب ما كان لجرد مخالطة البيض، وما جاؤوا به من مصطلحات واعراف ورذائل، من اثر انحلالي فاسد وكان مقدراً كذلك ا « غوغين » « البدائي » الذي جاء الى تاهيتي يتوسل فيها « الانخطاف والهدوء والفن »، « غوغين » « البربري الذي حقد على حضارة مزعجة» ان يعاني الكثير من الواجبات الثقيلة المفروضة على البلديين ومن الصغائر الادارية.

« لم تلبث حيالي في « بابيت » ان اصبحت وقرأ يضايقني . كنت مرة اخرى في أوروبا – اوروبا التي اعتقدت بأنني حصلت على حريتي بغادرتها – وقد زادت على بشاعتها الاثرة الاستعمارية والتقليد المضحك السخري لأخلاقنا وطرائقنا ورذائلنـــا وألاعيبنا الحضارية الـــتي تثير الاستهزاء ... » . فأين نحن من الاسطورة التاهتية التي رواها بوغنفيل؟ لا بل هل كان حرياً بنا الاكتفاء بتوصية ديدرو : « تاجروا معهم ، واشتروا منتجاتهم ، واحملوا لهـــم منتجاتكم ، ولا تستعبدوهم » ؟

الفصل السادس

الهنـد وآسـيا الشرقيـة
أمام التوسـع الغـربي

« كنت اعتقد آنذاك بأن السيطرة الانكليزية مفيـدة بالنتيجة لأولئك الذين تبسط عليهم » .
(غاندي ، « اختبارات الحقيقة ») .

« املاق حضارة النبات » في آسيا

توزع نصف البشر على السهول - الكبرى والصغرى - من مناطـق الهند والشرق الاقصى في آسيا . لذلك كانت نسبة كثافة السكان مرتفعة في بعض هذه المناطق المعروفة بمناطق الرياح الموسمية . فنحن نعرف ، بفضل كتاب « احصاءات هندية » ان الكثافة قدرت في السنة ١٨٩١ بـ ١٥٣ نسمة في كل كيلومتر مربع من الاقاليم الخاضعة للادارة البريطـانية وبـ ٢٠٠ وحتى ٣٣٠ احيانا في الكيلومتر المربع حيث يتجمع ٦٧ ٪ من السكان في ٣١٪ من مجموع مساحة البلاد . ويمكن اعتماد الارقام والنسب نفسها في اليابان وجاوا وصين الولايات الـ ١٨ والمناطق الدلتاوية في شبـه الجزيرة الهندية الصينية . ويلاحظ من جهة ثانية ان ٢٢٢ مليوناً هندياً من اصل ٢٨٢ اقاموا في قرى لا يتجاوز سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة . وهذا يعني ان سواد الآسيويين من اهل الارياف .

تتألف طبقة الفلاحين هذه في الدرجة الاولى من اهل قرار يتعاطون الزراعة ولكنهم يحقرون - الا في اليابان - زراعة الغابات (لان الغابة نطاق بري) ويرفضون كل ما يذكر بالحيـاة الراعوية الخليقة بالبدو أو أشباه البدو في المناطق الجافة ، الذين تنعدم عنهم تقاليـد معيشية راسخة . ويلاحظ ان سكان اشباه الجزر يقرنون الجاموس والبقر الهندي في اعمال الحراثـة ويستهلكون زبدة مذابة ، ولكن سكان الهند لا يأكلون اللحوم . أما سكان آسيا الشرقية ، الذين يربون الطيور الداجنة والخنزير - الذي يحرمه الاسلام - فلا يعرفون كيف تحلب البقرة

ويفضلون الاسماك . فنحن من ثم امام « حضارة نبات » قوامهـــا غذاء من الحبوب والبقول وأمورات يكاد المعدن لا يدخل فيها : حضارة الارز الذي ينتج في كل مكان تقريباً ، وحضارة الحبوب الاخرى بعد ذلك ، وحضارة الخيزران الذي يستخدم استخدامات شتى . وبالاضافة الى ذلك ، اذا لم تجد تربية المواشي مكانا لها في هذا الاقتصاد ، فلأن هذا المكان ربمـا بـــدا كبيرا جداً .

يرتكز كل شيء الى العمل البشري المضني . فزراعة الارز ، الشاقة بحد ذاتها ، تتطلب عناية فائقة . ولما كانت الارض نادرة وعزيزة وموضوع نزاع عنيف ومثقلة بالضرائب والمرابات ومجزأة الى مــا لا نهاية له (على العائلة ان تكتفي بـ ١٥٠ آراً في الهند ، و ٥٠ في اليابان ، و ٢٥ في كوريا ، وتبدأ الاملاك الكبرى اعتباراً من ٣ هكتارات في دلتا تونكين) ، فلأن هذه الزراعة تصبح اشبه بعمل الحدائق الدقيق جداً الذي يتوخى الفلاح منه اكبر انتاج ممكن. ومهما يكن من مهارة الفلاحين، فان مثل هذا الصراع اليومي يخبىء المفاجآت ويجر خيبة الامل احيانا . وهناك الحاجة الى الاسمدة التي تجعل من الفضلات البشري مادة ثمينة في الصين . وهناك كذلك الصراع ضــد المياه التي تأتي بالفرين الخصاب ، ولكنهـــا تغمر الاراضي المزروعة (وفي اماكن كثيرة زاد قطع الغابات من خطر الفيضانات المخربة) : وقد حدثت ادهى كارثة في السنوات ١٨٥٠ – ١٨٥٣ حين انتقل نهر « هوانغ – هو » من مجراه الى مجرى « بي – تشي – لي » مبتلعاً الوف الضحايا ومخفياً مناطق كاملة تحت طبقة كثيفة من الرمول. وتسببت الاعاصير الدولية الهابة على السواحل والامواج المرتفعة المتلاطمة ، والزلازل في اليـــابان باضرار كبيرة أخرى دورية . ولكن مناطق الجدب القريبة في آسيا تترك أثرهـــا الرهيب ايضاً . فسنوات الجفاف سنوات مجاعة في الصين والهند . وربما بلغ عدد ضحايا الاولى ١٤ مليوناًفي السنة ١٨٤٩، وبين ٩ و ١٣ مليوناً في السنوات ١٨٧٧ – ١٨٧٩ بينما أتى الجراد بعد ذلك على مزروعات ١٣ ولاية من اصل ١٨ . أما في الثانية فقد نزلت البلية في مواعيد متقاربة : فقــد اماتت أكثر من مليون نسمة في منطقة « اوريسا » في السنة ١٨٦٦ و ٤ ملايين في هند الامراء في السنة ١٨٦٨ ، وفتكت بـ ٢٠٠ الف رأس ماشية في « راد جبوتانا » وحدهـــا ؛ وحلت بـ ٤١ مليوناً هندياً في السنة ١٨٧٧ وأودت بحياة زهاء ٤ ملايين منهم ايضاً ؛ ولكن الفاقة شملت ٧٧٤ الف كيلومتر مربع و ٧٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٥ ؛ وفي السنوات ١٨٩١ – ١٩٠١ هلك نصف الاولاد الذين لم تجاوز اعمارهم٥ سنوات في « بيرار » (وان بروكوفياف – وكان في سنه السادسة – ، الذي كان وقعُ ما حدث كبيراً عليه ، قد ألف حينذاك « القناص الهندي ») ، وفقـــدت المقاطعات المتحدة ٨٪ وولاية بومباي ٥٪ من سكانها . فلا عجب من ثم اذا ما توفق الفرنسيون ، في السنة١٨٥٩ ، الى تجويع هوّيه باحتلالهم دلتا ميكونغ حيث تتزود عاصمة « انـّام » بالارز ، واذا ما أمل كوربيه باستسلام حكومة بكين اثناء حملة السنة ١٨٨٤ – ١٨٨٥ باعتراض طريق القوافل الآتية من كانتون . كانت التغذية نباتية وبالتالي سيئة جداً . وان الفـــلاح في الصين

الجنوبية لم يستهلك الحنطة استهلاكه لـ « كلو - ليانغ » (نوع من الذرة البيضاء) ؛ كما ان فلاح الهند لم يستهلك الارز استهلاكه لجاورس أو لاصناف أخرى من الذرة البيضاء . واستهلكت كذلك البقول الجافة التي تحشو المعدة وتجنب اوجاعها . واعتبر الشاي ، على غرار الارز ، مادة بذخية احياناً. وقد استلزم هذا الغذاء المماثل ابداً ، العسير الهضم اجمالاً ، بعض التوابل وحساء البصل الصيلية وحصية هضم الاسماك الذاتي المعروفة عند الفيتناميين باسم نووك - نام . وكان من المجاملات الصيلية الدارجة طرح هذا السؤال : « هل تناولت الطعام ؟ » وقد وفر احتساء المشروبات الروحية وتدخين التبغ مزيداً من الانشراح ؛ كما وفر مضغ الفوفل والتنبل احتياجاً مستحباً . وقامت بين الهند والصين تجارة الافيون رابحة .

بالاضافة الى سوء تغذيته ، لم يتوفر للآسيوي مسكن مريح . وقد يحدث احياناً في الصين ان تذيب امطار الصيف الغزيرة جدران مسكنه المبنية بالطين الجفف. وغالباً ما التهمت النيران في اليابان المساكن الخشبية الجميلة . أما الملبس ، وهو عادي اجمالاً ، فقد منع في المنزل على العموم . وعاش شطر هام من السكان ، في المناطق الحارة ، مرتدين ثياباً رثة أو شبه عراة. وفي كل مكان شوهدت اعداد كبيرة من الزهاد والنساك والمتسولين . واذا كان البؤس من اسباب ارتفاع نسبة الولادات ، فانه يفسر في الوقت نفسه نسبة الوفيات المرتفعة ايضاً بين الاطفال وقصر الحياة . اضف إلى ذلك ان الأمراض التي يسهل انتشارها سوء التغذية وسوء التدابير الصحية تضم نتائجها الى نتائج المجاعة. فالكوليرا منتشرة ابداً هنا أو هناك في الهند : ويقدر بعضهم انها فتكت كل سنة بـ ٦٪ من السكان بين السنة ١٨٨٢ والسنة ١٨٩٠ ؛ ولكنها غالباً ما انتشرت في الشرق الاقصى ، وحتى في اليابان ، ايضاً . ولم يكن الطاعون أقل فتكاً ، بشكليه الدبيلي والرئوي : فقد هلك زهاء ٥٠٠ الف شخص سنوياً في الهند بين السنة ١٨٧٨ والسنة ١٨٨٧ ، و ٨٠١ الف في السنة ١٨٩١ و ٧٢١ الفاً في السنة ١٨٩٢ . وهو قد ظهر في الصين احياناً . وقد انتشر فيها انتشاراً واسعاً بعد الحرب الروسية اليابانية . وغالباً ما انتشرت كذلك اوبئة التيفوس والحمى التيفية والزحار والجدري . وسيطر الـ « بربري »(أو « كاكيه») على المناطق المنخفضة بين ماليزيا واليابان . وحوالي السنة ١٩٠٠ اصيب ١٣ الف شخص بالجذام في الهند وأكثر من ٥٠ الفاً في الهند الصينية ؛ ولكن الصين كانت المركز الأول لهذا المرض . ويعتقد بعضهم ان الملاريا تسببت في البنغال بوفيات تفوق كل ما تسببت به كافة الأمراض السارية الأخرى؛ يضاف الى ذلك انها كانت تعرّض الاجسام النزلة الوافدة . وهناك، الى جانب هذه الأمراض كلها ، حيات فتاكة كثيرة .

رغب كل الناس في البيع بسبب نقص الوسائل النقدية . فقد امتلأت الطرقات بالفلاحين المترددين على الاسواق.وعوضاً عن استهلاك المواد التي لا تباع باسعار مرتفعة ، كان الفقير يعرضها بغية الحصول على بعض المال . وقد صرف ذهنه وفطنته في انتاج مصنوعات مختلفة لا تخلو من الذوق السليم . فانصرفت بعض القرى ،كما في الكونغو ،الى انتاج المصنوعات الجلدية ، بينما انصرف

غيرها الى صناعة المذاري والسلال والخزفيات والحدادة والحياكة . وكادت كل الأشياء تصنع باليد دونما حساب للوقت الذي تستغرقه صناعتها . ومهما كان من ضآلة المكسب ، فانه كان يوفر دخلاً لا يستهان به . فهكذا أعد الشاي والتبغ وصنع الحرير في الصين واليابان ، وهكذا رأت النور المصنوعات القرويلية الكثيرة التي تم عن ذوق فني رفيع جداً . أما في المدن فقد تكدس العديد من الريفيين ، وتعرضوا الفاقة والامراض ، ولكنهم توفقوا الى الارتقاء احياناً بزاولة الأعمال التجارية . ويجب اخيراً ان يحصى بالملايين اولئك الذين استخدموا ، كالحيوانات، لنقل البضائع أو المسافرين بواسطة المركبات الخفيفة ذات العجلتين ، والنقالات الشراعية في الصين الشمالية ، والزوارق ذات المجاذيف .

استمرار حالة الفقر والنزوحات الآسيوية: حاجات الاستعمار الاوروبي وجاذب العالم الجديد

كانت آسيا منذ القدم مستودعاً بشرياً كبيراً ، ومن ثم منطلقاً لنزوحات كثيرة : نزوحات النواقل باتجاه اوروبا والمتوسط ، ونزوحات سكان اشباه الجزر والأرخبيلات باتجاه جزر المحيط الكبير ، ونزوحات الصينيين الى الفيليبين والجزر الماليزية. وخلال القرن التاسع عشر انقلبت الحركة في الجهة البرية ، ولكنها اتسعت على الطرقات البحرية ، في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه حركة انتشار الاوروبيين وفتحت ابواب اميركا على مصراعيها امام الهجرة . اجل لقد واصل الغرب السيطرة على الجماهير الآسيوية ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، اجتذب هذه الجماهير خارج مناطقها رغبة منه في معالجة حالة الفقر معالجة جزئية ، وجني مكاسب مهمة أيضاً . واذا لم يكن مرغوباً فيهم دائماً ولم يستقبلوا استقبالاً جيداً ، فقد توزع المهاجرون الآسيويون ، من عمال مقترين أو تجار مهرة ، اما على متلكات الدول الاستعمارية ، واما على مختلف مناطق الامريكتين . وعما إلغاء الرق ونقص اليد العاملة المحلية ما اتاحا لهم العمل بصورة عامة . ولما كان الهندي احد رعايا الامبراطورية البريطانية ، فقد بحث عن الاقامة في مستعمرات هذه الامبراطورية ما بين خطي الجدي والسرطان : في جزيرة موريس ، أو افريقيا الجنوبية ، أو في الساحل الغربي من افريقيا ، أو في غويانا او في جزر المحيط الهادي . ولما كان الماليزي خاضعاً من جهته لهولندا فقد طلبته للعمل في مغارس سورينام ، كما طُلب الفيتنامي ، الخاضع لفرنسا ، للعمل في حقول ومناجم كاليدونيا الجديدة . وهي اوروبا التي فتحت باب الهجرة الصينية الكبرى بفتحها المرافىء الخمسة في السنة ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين؛ وصادفت هذه الهجرة في الزمن عهد اضطرابات خطيرة في الامبراطورية السماوية . فمنذ السنة ١٨٤٦ ظهر العمال الآسيويون في كوبا والبيرو ، ثم تضخم السيل وصب في اشباه الجزر والارخبيلات القريبة في الجنوب الشرقي الآسيوي ، وفي جزر الباسيفيكي وشواطئه النائية . وما لبث ان اتجه شطر منشوريا بعد ان اعترض سبيله هنا وهناك . وظهر اليابانيون بدورهم في هاواي وكاليفورنيا واوستراليا ، على الرغم من نفورهم من مغادرة بلادهم

ولكن هجرة البؤس هذه لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من الجماهير الآسيوية . يضاف الى ذلك ان اكثرية المهاجرين قد سافروا على امل العودة وحافظوا على غريزة التضامن القومي .

قوة التقليد

ان جمود التقنيات ونقص الموارد يستتبعان ديمومة المؤسسات الاجتماعية التي تكرس بدورها التعلق بالماضي . فيصبح الرضى بتدبير الله الفضيلة السامية الاولى . وقد قال « لاوتسو » : « ان من يكون قنوعاً يكون سعيداً ابداً » .

وتدعم حياة الجماعات « الكلية القدرة » في تنمية هذه الذهنية . فالفرد الخاضع لطبيعة لا يقوى عليها بسهولة ، يشعر بأنه ضعيف ومتروك لقواه وحدها . وهو لا يعيش الا بدلالة العائلة وبحماية العفاريت المنزليين ، ولا يقدم شيئاً على الاحترام البنوي وواجباته نحو اقربائه . ففي اليابان يكون الشخص « مي – نين » ، اي غير انساني ، اذا لم يلق بالقربة التي ولد فيها . والمسكن الجماعي هو الطراز المألوف لأنه يستجيب لرغبات التعاون على العناصر والاعداء . ونجد روح التعاون هذه في العمل الذي يغار على امتيازاته في المدينة والارياف على السواء . لا بل ان معظم الطبقات الهندية المقفلة ترتدي طابعاً مهنياً .

ولسلطة الدين تأثير مماثل . أجل ان الديانة الهندية تمر في أزمة . فالبراهما المثقفون ليسوا على اتصال بالجماهير التي يحتقرونها ، وتتساهل الطبقات الدنيا مع وثنية غليظة جداً حين لا تشجعها تشجيعاً . ويتميز سواد الملايين الخمسة من النساك والكهان الذين ضمتهم الهند حوالي ١٩٠٠ ، واعني بهم الـ « يوجي » ، بخرافتهم وكسلهم . اما المعابد فتزدان بمشاهد هجرية ، والمؤمنون يمسحون اجسامهم بزبل الابقار أو يشربون بول الحيوانات ، والحجاج يعبّون مياه المنابع الملوثة التي تطفو عليها جثث الموتى ، ثم ينشرون الاوبئة حيث يمرون . لقد عززت الديانة الهندية الطبقات المقفلة وشجعت الزواج في إطار الطبقة الواحدة وجعلت من المرأة شخصاً متخلفاً وأقصتها الى الـ « زانانا » . ولكنها حالت دون التبدل .

لا تدفع البوذية قط كذلك الى العمل لانها تعتبر الوجود شراً وتوصي بالحزم في الكفر بالمسرّات الخادعة . تحمل على حياة التأمل والمحبة . أضف الى ذلك ان الشعب يكرم ارواح الطبيعة حتى في بورما وكمبوديا وسيام حيث تتفوق الفرع المعروف بـ « هينايانا » (المركب الصغير) ، وهو اقرب الفروع فلسفة الى فلسفة « غوتاما » غير الشخصية . وفي الصين تتفق بوذية الـ « ماهايانا » (المركب الكبير) – « فوكيو » في الصينية – مع سحر الـ « ين » والـ « يانغ » ، كما تتفق مع المبادئين الرسميتين الاخريين ، الـ « يوكيار » والـ « طاو – كيار » . وبينما تساعد الطاوية الانسان على تحمل المهانات ، تمتّن الكونفوشيوسية مبادىء الحكم البصير والضروري الذي تزيده السماء ويوافق التقليد . فلا حدود من ثم للسلطة الملكية لا في سيام ولا في كمبوديا . اما في اليابان فقد طابقت البوذية الخلق القومي : فان الـ « زن » الذي يرتدي طابعاً صوفياً ومشدداً ، يتصل بالشنتوية القديمة الشبيهة بمذهب الروحية الطبيعة والمنطوية على

عبادة الجدود والآلهة الحماة الكثيرين ، بينا تنادي الكونفوشيوسية ، خدمة للارستوقراطية ، بالتفاني في سبيل الميكادو ابن الاله وموزع الاعمال .

لم تنجح أية ديانة من الديانات الآتية من الغرب في تحقيق السيطرة والنصر. ففي الهند اصطدمت المسيحية بالطبقة المغلقة وبعقيدة الرهبة الكون الهندية وبالمواقع التي استولى عليها الاسلام ، ولم يجاوز تباعها المليونين في اواخر القرن التاسع عشر . وفي الشرق الاقصى اعتبرتهـا السلطات خطراً ، ولم تتأثر بها الجماهير تأثراً يذكر . أما الاسلام فقد استمر في تقدمه في السهول حيث بلغ مشايعوه ٦٠ مليوناً حوالى السنة ١٩٠٠. ولكنه لم يتألق لا بعلم فقهائه ولا بنقاوة ممارسته . ومع تجنبه عبادة الاوثان ، تأثر بالديانة الهندية وسلّم بأمور كثيرة للعادات والاعراف المحلية . واذا هو احتل المركز الاول في ماليزيا،فإنه لم يفلح هنا أيضاً في ازالة الطقوس الهندية وعبادات الارواح والحق الاندونيسي القديم .

انَّ آسيا هذه تنكمش على نفسها مقربية وكارهة الاجانب . ولا يعني موقفها هذا انهـا تريد حجب صورة مثيلة قد تخجل منها ، ولكنهـا تحتقر « البربري » في نحو حكمتهـا . فالأجنبي في نظرها كائن ادنى ، ونجس بصورة خاصة . والآسيوي يجيب الاوروبي والاميركي اللذين يدعوانه الى السير قدماً برفض تغيير حاله بالتطور .

الانحطاط الفني : الى الغرب

اكد اللورد « كورزون » في السنة ١٩٠٤ « ان السيطرة البريطانيـة في الهند اعظم ما حققه الشعب الانكليزي ... سيطرة العدالة التي وفرت الامن والنظام والحكم السليم للرابعة خمس الجنس البشري كله ... على ايدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين المحكومين او بقعة زبد بيضاء صغيرة جـداً في خضم محيط قاتم وصاخب ... » .

ولكن الشؤون الهندية ما زالت في السنة ١٨١٥ بادارة التاج وشركة من التجار معاً يرتبط الحاكم العام بكليهما ، وما زال كذلك وهم الامبراطورية المغولية قائماً . وسيدوم مثل هـذا الوضع الغامض حتى ثورة الجندين البلديين في الجيش البريطاني ، على الرغـم من النفوذ الذي ستتمتع به حكومة جلالته تدريجياً . انه لعهد امتد فيه الفتح البريطاني، بحسب اتفاق الحاجات الآنية ، وبدون تصميم ولا خطة ، الى كافة ارجاء شبه الجزيرة من جهة والى الاقاليم الشماليـة الغربية من جهة أخرى . وقد تحقق بفضل حروب دائمة ضد شعوب محاربة، اسلامية بأكثريتها، كالمهرات والغوركا والسيخ . فأثارت الفوضى والمجاعات والابتزازات على انواعها في انكلترا ردود فعل قوية في الأوساط الاصلاحية والمتشاركة التي نسبت كل ذلك الى الشركة . اجل ان مشروع « ماكولاي » التعليمي لتثقيف البلديين المعدين لتسلم الوظائف العامة يعود لزمان فتح خطوط الملاحة المنتظمة. ولكن نظام الهند لن يتبدل تبدلاً جذرياً الا في اعقاب ازمة خطيرة.

كان الحدث الحاسم من ثم الثورة التي اندلعت في اعقاب قرد الجندين البلديـين في الجيش

البريطاني في السنة ١٨٥٧ ، وكشفت النتائج من قلق عميق الجذور . فان إلغاء الرق نظريا في الارياف بغية اخضاع الفلاح لضريبة ثابتة ، وغزو قطنيات لانكشاير الذي وجه ضربة قوية الصناعة اليدوية ، وزوال يد امراء كثيرين عاشت بفريهم البلاطات والميارة ، وإلغاء الاضاحي البشرية والانتحارات الدينية ـ نظريا ايضا ـ الذي صادف في الزمن اعتياد اختراعات «شيطانية» كالتلغراف مثلا ، كل ذلك خلخل مجتمعاً محافظاً على التقاليد تناولته الدعاوة المسيحية من جهة والدعاة الوهابية المضادة والمقاومة الهندية من جهة اخرى . ثم جاء الاحجام عن تعيين خليفة للامبراطور المغولي الاخير ، والخوف من ارسال الفرق العسكرية الى القرم وخسائر الجيش البريطاني في هذه الحرب ، زيادة بالطين بلة . فثار بعض الجنود البلديين حين تسلموا البندقية الجديدة « انفيلد » التي كان فشكلها مدهونابشحم الخنزيركا يقولبعضهم او بشحم البقر كا يقول غيرهم . وقد أفضى الامتحان مضاجع المستعمر الذي استخلص منه درساً مفيداً .

بعد إلغاءالشركة بموجب وثيقتي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦١ ، لم يعد الحاكم العام، الذي اصبح نائب الملك ، ليرتبط الا بأمين سر دولة لشؤون الهند أطلق برلمان لندن يده فعين حاكمي مدراس وبومباي تعييناً مباشراً . وقد صدر التوجيه العام بعد ذلك عن الوطن الام ، ولكن ممثلي السلطة تمتعوا بحرية كبرى في اتخاذ القرارات اللازمة محلياً . فاحتفظ الانكليز لأنفسهم بكافة المراكز العالية وتخلوا للهنود عن الوظائف الثانوية في الادارة الاقليمية وفروع الادارة المركزية . وكان باستطاعة الهنود العمل في الادارة المدنية التي تتولى أعمال القيادة ، شرط احراز النجاح في امتحانات تجري في بريطانيا العظمى . واذا كان على الموظفين الاوروبيين معرفة لغات البلاد ، فقد كان من جهة ثانية على البلديين الموظفين في الادارة ان يدخلوا مدارس الثوبة تزرع التعلم باللغة الانكليزية . ويتضح من برنامج ماكولاي ان المدارس الابتدائية لم تضم ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، سوى ٤ ملايين تلميذ (نسبة الاميين بين الذكور ٩٠ بالمائة وبين الاناث ٩٩ بالمائة) ، بينما ضمت المدارس التكميلية والثانوية نصف مليون والجامعات اكثر من ٢٠٠ الف . ونظراً الى ان الضريبة العقارية هي التي تغذي الموازنة في الدرجة الاولى فكان ان الفلاح هو من يوفر المال لتعليم المثقفين الذين يتعاونون مع الدولة المستعمرة .

كانت الضرائب كلها توزع على الجماهير الريفية . وكان على هذه الاخيرة كذلك تأدية الرسوم غير المباشرة المفروضة على المشروبات الروحية والملح وتحمل ارتفاع الاسعار بصورة خاصة الناتج عن الرسوم الجمركية التي ألغيت لمدة وجيزة ثم ما لبثت ان فرضت مرة اخرى . ولكن تعهد الادارات العامة والجيش كان يستهلك اكثر من نصف الواردات .

ما زالت القوى العسكرية مؤلفة من عناصر بلدية يتولى قيادتها ضباط بريطانيون وتساندها فرق بريطانية . ولكن ثورة الجنديين البلديين أظهرت محاذير فقدان النسبة العددية بين البلديين والبريطانيين (كانت النسبة نسبة ١٠ الى ١) فخفض عدد البلديين . وانما صرفت العناية بالمقابلة الى اختيار الجنديين بالتفضيل من بين السيخ والغوركا والبلوتش وحتى من بين افغانيي الحدود

الشمالية ، ووضع الامراء البلديون تحت تصرف نائب الملك بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ رجل يتولى قيادتهم ضباط بريطانيون ويشاركون في المحافظة على الأمن ، ان لم يشاركوا في العمليات العسكرية الخارجية .

اذا نجح من ثم عدة آلاف من البريطاليين في ادارة امبراطورية واسعة ، فيجب الا ننسى ان الأجناس البشرية الكثيرة والمعتقدات الدينية المختلفة والطبقات الاجتماعية المقفلة واللغات المتعددة قد سهلت عمل المستعمر الذي عرف خير معرفة كيف يستفيد من هذا التنوع. فان الولايات التي اديرت مباشرة بمؤازرة موظفين بلديين كانت تحيط بالاقاليم التي استنسب الابقاء على ادارتها التقليدية . وشدت اسياد هند الامراء هذه مواثيق شخصية الى سيدهم الاكبر ، خليفة المغولي المعظم . فقد فازت فيكتوريا بلقب قيصرة الهند وبمين اخلاص اصحاب الاخاذات .

ناهز عدد هذه الولايات الـ ٧٠٠ وبلغت مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع (مقابل مليونين للولايات البريطانية) وسكانها بين ٦٠ و ٧٠ مليون نسمة فقط مقابل ٢٨٠ (في السنة ١٨٩٠) . لم تدفع كلها الجزية ولكنها اعترفت كلها ببعض الأنظمة المتناولة الاخلاق وتنفيذ الاشغال العامة وجمع الضرائب وحرية التجارة . واحتفظت لندن لنفسها بحق التدخل في حال العصيان . وقد اصاب اللورد « مايو » حين قال : « ان الابقاء على الامراء البلديين في مراكزهم لا ينتقص من سلامة الامبراطورية بل يزيدها قوة » . ولذلك لم يرَ الوطن الام ضيراً في امتداح اخلاص اولئك الراجاوات الذين لم يحفل تمسكهم الكلي بصيانة امتيازاتهم . ولكن تباينا مدهشاً يلاحظ بين هؤلاء الامراء: فالىجانب قوة وثروة ترافنكوروكوشين اللتين تقدر مدخولها السنوية بالملايين ، تظهر الولايات الـ ٨٨ التي تتألف منها منطقة كاتيافار بمظهر غير مرهق من الضعف والفقر . وقد راعت انكلترا بصورة خاصة شهامة سكان الجبال الشمالية المتربيين المتحكمين بالمسالك المؤدية الى ايران او التيبت،وصادقت امير كشمير السيخي الاصل وجندت من النيبال فرقاً مشهورة بقيادة مهراجا من الغوركا واكتفت بإقامة مركز حراسة على مقربة من بوتان التي يتولى الحكم فيها احد عظماء اللاما. وجملة القول انها دخلت تقليد الحياةالبطريركية والسلطة المطلقة الذي تتميز به كل سلطة قائمة . فاحتفظت من الماضي بما امكنها الاحتفاظ به .

انتشار الهند على ايدي البريطانيين

كان المسكون بزمام السلطة لا يختلطون بالسكان. وقد اقام الانكليزي في مدينته الخاصة التي وفرت له ظروف حياة شبيهة بها في الوطن الام . ففي كلكوتا برز الفرق الكبير بين « مدينة الطين » التي تكدس البلديون في أكواخها وبين « مدينة القصور » – ذات الطراز اليوناني الجديد – بحدائقها العامة الجميلة وشبكة اقنيتها . وبرز الفرق كذلك بين « المدينة السوداء » الغير المرتبة في بومباي ، وبين « مالابار هل» « موطن السلطة والاناقة والثروة » التي أقصي عنها أثرياء التجار الفارسيين أنفسهم . وقامت كذلك دلهي الجديدة قبالة عاصمة الاباطرة المغوليين القديمة . وجهزت مساكن صيفية

في الجبال .

إلا ان هذا البعد بين الحكام والمحكومين لم يمنع الاول من إثبات وجودهم بايجاد اقتصاد جديد يحترم أشكال النشاط القديمة ويوفر لها في الوقت نفسه فوائد هامة . فلقد استوردت الهند من قبل شطراً هاماً من مخزون الفضة العالمي لانها كانت تبيع أكثر مما تشتري إلى حد بعيد. ولكن السيطرة الاجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب : فالامراء أدوا ضرائب كبرى ؛ ووكلاء الشركة ، والموظفون من بعدهم ؛ قبضوا رواتب مرتفعة ؛ وجاءت البضائع المصنوعة في انكلترا ، تنافس المصنوعات الهندية بنجاح . فباتت الهند من ثم مدينة ؛ ووجب عليها عقد القروض لتسدد نفقات الوجود البريطاني ؛ واستثمر الوطن الام أمواله استثماراً رابحاً في أسواق حصل منها على منتجات متنوعة . اجل ان انخفاض سعر الفضة قد زاد من حجم الصادرات ، ولكنه زاد من ثقل الدين ايضاً . وهي الشركة البريطانية التي رفعت طبقة القرن مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين .

اعتبر اللورد لورنس بأنه اتى عملاً بطولياً بانتقاله من كلكوتا إلى دلهي في مدة اسبوعين فقط . ولا عجب في ذلك اذ ان أحد أعضاء مجلس العموم قد أكد في حينه « ان حكومتنا انكليزية واحدة مجهزة بطرقات مطروقة لا تتوفر للهند كلها » . ولكن شبكة صغرى رأت النور في عهد دلهوزي ؛ فسهل وجود « طريق الخرطوم الكبير » بين البنغال وبلجاب قمع الثورة الكبرى . فالخط الحديدي كان لعمري خير أداة للدولة المستعمرة : اذ ان الراحة والسرعة والاسعار المعتدلة قد جعلت من الخطوط ، التي بلغ طولها ٤٠٠٠٠ كيلومتر في السنة ١٩٠٠ ، أفضل شبكة خطوط حديدية في آسيا . وزودت المرافىء الكبرى بتجهيزات جيدة: فقد بني سد مثلا بين اليابسة والجزيرة القائمة عليها بومباي .

كان هنالك شغل شاغل آخر هو مقاومة المياه والجفاف معاً ؛ اذ ان السدود والخزانات والاقنية القديمة كانت غير كافية وفي حالة سيئة . فمست الحاجة إلى قناة توزيع في السهول الجافة . فأنشىء بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٨٥٥ ، على طول الف كيلومتر تقريباً ، الفرع الاول لقناة الغانج المعد لري ٦٠٠٠٠٠ هكتار . وأنشئت في عهد لاحق أقنية في البنجاب والسند املا من المسؤولين بأن تصبحا يوماً امصاراً جديدة . ولكن اقامة السدود في وجه المياه في دلتا انهار شبه الجزيرة وسع كذلك المساحات الصالحة للزراعة . وقد اكتسبت الهند بفضل ذلك مليونين ونصف المليون من الهكتارات . اما في البنغال الكثيرة الامطار فقد لوجب احتباس المياه . وفي دكان احتبست المياه وانشئت الخزانات . ودرست من جهة ثانية امكانية استخدام الانهار للملاحة . وليست المقاصد المدروسة وحدها ما املى هذه الاعمال بل الحاجة الماسة الى محاربة المجاعات في الدرجة الاولى .

لا شك في ان المستعمر رأى فائدته في التخفيف من بؤس الفلاحين ؛ ولكن ما هدف اليه

في الدرجة الاولى هو تكثير ربع الربيع ، الذي يمكن اضافته الى ربع الخريف ، لان الربع الاول يعطي الحنطة في الشمال الغربي وانتاج ارز ثانياً في المناطق الكثيرة الامطار : الا ان المواد الغذائية التي تستوقف الانتباه لا تغري السكان اغراء يذكر . فان المنتج الذي قد يصبح احد كبار مبارة القمح لا يحتاج الى مثل هذه الكمية لاستهلاكه . لقد مست الحاجة في المستعمرة الى السكر المتدني الاسعار ، ولكن رؤوس الاموال وظفت في مقاصب جزيرة موريس . ولذلك اعتبر الافيون اوفر نفعاً لان احتكاره يوفر للخزينة دخلا كبيراً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المضاربة التجارية قد تحولت الى الشاي والبن في الدرجة الاولى : اجل ان الهندي لايهوى قط هذه الاشربة ، ولكن بعض الشركات القوية استثمرتها في املاك واسعة واستخدمت لذلك يداً عاملة وفيرة العدد وصدرتها الى اوروبا : واذا ما تأخرت زراعة شجر البن بعد السنة ١٨٨٥ ، فان زراعة شجر الشاي قد تقدمت تقدماً حثيثاً .

ليس ادعى إلى الاسف من تأخر الصناعة البلدية امام مزاحمة المصنوعات الاوروبية . فبين السنة ١٨١٤ والسنة ١٨١٥ هبط عدد النسائج المبيعة من ١٢٦٦٠٠٠ إلى ٣٠٦٠٠٠ ،بينا ادخلت بريطانيا ٥١ مليون يارد بدلا من ٨٠٠٠٠٠ . وهبط عدد سكان داكا ، مدينة النسائج الناعمة ، من ١٥٠٠٠٠ الى ٣٥٠٠٠ . وكان هناك مادتان هامتان للنسج : القنب الهندي والقطن . فأفاد الاول ، الذي صنعت منه أكياس الارز ، ليس من الحبوب المصدرة من بورما وجاوا فحسب ، بل من محول المواسم في الهند نفسها . اما الثاني فقد ارسخ ، منذ زمن بعيد، شهرة البلاد ، وقد حققت الشركة ارباحاً طائلة ببيع النسائج القطنية العادية والنسائج الموصلية. ولكن انقلابا حدث منذ ان انتشرت الحياكة الآلية في لنكشاير . فأضطرت المستعمرة منذئذ الى بيع القطن الخام وابتياع الملابس . وعلى الرغم من قصر الالياف ودونية نوعها غزت شجرة القطن الاراضي السوداء حول بومباي بعد حرب الانفصال ، فاستهوت الفلاح الساعي وراء جمع المال واضرت بالمزروعات الغذائية . ثم نمت صناعة الغزل الآلي بدورها بفضل التجهيزات المستوردة من انكلترا على الرغم من مقاومة منشستر الشديدة : وكانت هذه الصناعة ملك تجار الرياء بينهم عدد كبير من الانكليز ، واشرف عليها اختصاصيون انكليز ايضاً . اما الفحم المعدني الذي استورد بحراً من ذي قبل ، فلم يلبث ان استخرج من جوار بومباي وكلكوتا ، وقد وفر الوقود للقاطرات الحديدية .

اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ارقام التجارة الخارجية ، بدت النهضة امراً لا جدال فيه : فالمقايضات ارتفعت الى ٣٥٠٠ مليون في السنة ١٩٠٠ ، مقابل ٧٠٠ عند الغاء الشركة . ولكن الرصانة الاقتصادية تبرز في بيع حبوب باكثر من ٢٦٠ مليوناً ، بينا كانت البلاد جائعة ، وقطن خام وملبوسات قطنية بـ ٣٠٠ مليون ، بينا هي اشترت نسائج بقيمة ٥٠٠ مليون .

تطور الهند الاجتماعي ويقظة الوعي القومي الهندي

لم يلبث سكان الهند ، الذين كانوا ١٠٠ مليون من قبل ، أن اصبحوا ٣٠٠ مليون يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة . انه لنمو مخيف بلغت نسبته ١٠٪ بين السنة ١٨٨١ والسنة ١٨٩١ مثلاً ، وستبلغ ١١٪ بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١١ ، وان تدنت الى ١٪ بين السنة ١٨٦١ والسنة ١٨٧١ ، والى ١،٦٪ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٩٠١ بسبب المجاعات الكبرى والاوبئة الفتاكة . ولم تقو لا مقاومة البلايا ولا التقدم التقني بصورة عامة على تدارك ارتفاع عدد السكان المتزايد . أضف الى ذلك ان حال الفلاح لم تتبدل . فطرائق الاستثمار وأدوات العمل بقيت بدائية ؛ وانواع الحيوانات لم تحسن(وقد اوصي الاوروبيون بألا يشربوا حليب الأبقار التي غالباً ما كانت مصابة بالسل) . ناهيك عن أن ثمن المساحة المزروعة فقط أعطى ريعين في السنة وعن ان ربع الاراضي الزراعية الجيدة والمهملة فقط قد أعيد استثماره . ولم تفقد البلاد ، بفعل الهجرة والصناعة، سوى نسبة ضئيلة من اليد العاملة؛ واذا تقاضى عمال المشاغل والمعامل اجوراً متدنية (٠،١٠ فرنك الى ٠،٧٥ للرجال ، و ٠،٣٠ الى ٠،٥٠ للنساء ، و ٠،١٠ للأولاد المتراوحة اعمارهم بين ٥ سنوات و ١٢ سنة) ، فان العامل الزراعي المياوم كان اسوأ حالاً . وقد اعترف اللورد كورزون في السنة ١٩٠١ بأن معدل الدخل السنوي لا يتجاوز ٣٠ روبية أي ما يعادل ٥٠ فرنكاً .

على الرغم من أن الارض كانت ملك الدولة وأن المزارع يستثمرها لقاء دفع اجارة معينة ، فقد تكونت املاك كبرى منذ ان اسندت الادارة المغولية الى بعض الفلاحين (زمندار والكدار) أمر جباية الرسوم وجعلت منهم كفلاء مسؤولين . وبعد ثورة الجندين البلديين صدرت سلسلة نصوص استهدفت تخفيف اعفاءات محتكري الاراضي . ولكن المستثمر الصغير (رايات واري) بات فريسة المرابي (ماروراري) بعد تقدم الاقتصاد النقدي . فصدرت نصوص أخرى تحدد حقوق الدائن وتعفي من مصادرة المعدات الزراعية . إلا ان الزمندار والتالكدار الاقطاعيين ، والمرابين على انواعهم ، قد سيطروا في الواقع على الفلاحين الذين كانوا ابداً تحت رحمة حصاد سيء .

سبق للورد بنتنك ان ثار على تضحية النساء المترملات وقتل الاطفال . ولكن « قانون الموافقة » الذي صدر في السنة ١٨٩٠ وحرّم الزواج قبل سن الثانية عشرة لم يعمل به قط ، واحجمت السلطات من جهة ثانية عن مساندة المصلح « مالاهاري » حين باشر حملته في هذا السبيل . وبغية تحسين حال الحجاج الذين كانوا يرتاحون من عناء السفر في الطرقات والساحات العامة ، فريسة التعب والجوع والمرض ، انشئت بعض المستشفيات ومحلات بيع المأكولات ؛ وتحقق تقدم آخر بفضل السكة الحديدية . ونزولاً عند طلب نقابات العمال وشطر من الرأي العام الانكليزي ، تقررت بعض التدابير لحماية العمال في السنتين ١٨٨١ و ١٨٩١ ، ولكن ارباب العمل لم يتقيدوا بها .

ان ما تفاخر به بريطانيا العظمى هو تحديدها قوانين الاحوال المدنية واصدارها قانوناً جزائياً اوروبي الطابع وإقرارها لجنة المحلفين في الدعاوى الجنائية وسماحها للهنود بالمطالبة بلجنة مختلطة من المحلفين في الدعاوى التي يكون الاوروبيون اطرافاً فيها . لا بل رغب اللورد ريبون في ايلاء القضاة الهنود حق محاكمة الاوروبيين ، ولكن هؤلاء عارضوا ذلك .

لا مراء في أن هذا العالم المبرقش قد احرز بعض التقدم في طريق الوحدة . فقد حدث بعض الانصهار بفضل اتساع وسائل المواصلات الجديدة والنشاطات العصرية . وظهر بعض التجانس بفعل اعتياد المنتجات الاوروبية . ولم تفرض اللغة الانكليزية نفسها في الادارة وعالم الأعمال فحسب ، بل ان لهجات أخرى قد أخذت في الانتشار ايضاً كالـ « غوجاراتي » في الغرب بفضل الفرس ، والهندوستاني (وكتابتها سريعة ممتادة) في كل مكان تقريباً ، والـ « اوردو » التي تقابل الهندوستاني عند المسلمين . وأخرجت الصناعة من الفل بعض العناصر المنحدرة من الطبقات الدنيا ، فانفتحت الطبقة المقفلة بتلطف طابعها الديني ، وارتفعت أو انخفضت بدلالة دورها المهني . وبفضل المدرسة توصل العديد من الهنود الى تولي الوظائف العامة التي تستهويهم أو الى مزاولة الاعمال التجارية التي توفر لهم الثروات ، وألفت طبقة المثقفين الجدد (بابو) ، المنحدرة من اصل وضيع على العموم ، الافكار الاوروبية وابتغت المساواة في داخل الادارة المدنية . وكان المرسلون قد اسسوا الصحيفة الاولى باللغة الوطنية : فباتت الصحف تعد بالمئات في السنة ١٩٠٠ ، وقد صدرت باللغة الانكليزية أو باللغات البلدية الرئيسية .

تفيدنا الاحصاءات وجداول ضريبة الدخل – التي أقرت في اواخر القرن – بأن كبار الملاكين العقاريين هم المعابد والاديرة والزمندار . فاذا مثلت الأجور نسبة ٣٠٪ من محصول الجباية ، فأن الدائنين والصيارفة وكبار التجار يؤمنون ثلث هذا المحصول ، ويحدد دخل ١٣٤٠ شركة مساهمة بـ ٥٧٥ مليوناً . وهكذا نمت الى جانب الراجا والنباب الذين اضربها الفتح الانكليزي والتطور الاقتصادي نسبياً ، رأسمالية بلدية ، عقارية وتجارية وصناعية معاً ، اخذت تعي مصالحها .

ولا عجب من ثم اذا ما استهدفت اعتراض المستعمرة سياسة انكلترا الجمركية وانتقد « العصرية » الجديدة ونظام الحماية المعكوس . فمنذ السنة ١٨٧٠ ، ارتسمت في الأفق حركة « سوادشي » التي هاجمت المصنوعات الانكليزية وعظمت الانتاج البلدي ، ولكن الاحرار المتشاريين ارادوا اطلاق حرية دخول المصنوعات الانكليزية الى الهند ومنحوا بالتفضيل امتيازات سياسية : فأقرت قوانين الحكم الذاتي المحلي التي بموجبها منحت المدن والنواحي ثم الولايات مجالس تنتخبها الادارة والاعيان ؛ ثم انشأت لندن في السنة ١٨٩٢ ، الى جانب نائب الملك ، مجلساً تشريعياً يعين اعضاؤه بناء على اقتراح الهيئات الكبرى كغرف التجارة والبلديات ويتمتعون بصلاحية درس الموازنة وطرح الاسئلة . أضف الى ذلك أن الحاجة قد مست الى مخالفة جمية ، معروفة باسم المؤتمر ، اجتمعت للمرة الأولى في بومباي في السنة ١٨٨٥ وطالبت بتولي

الهنود مراكز القيادة وبالمساواة القضائية وحرية الصحافة الكاملة ورقابة الموازنة الفعلية .

اعتقد البريطانيون زمناً طويلا بأن الاختلافات الدينية وتعلق الجماهير بالماضي وانضمام المثقفين الى سياسة التعاون المخلص ستشل انطلاقة حركة قومية بلدية . وقد هوي عدد من المثقفين الهنود الأدب الانكليزي : فنظم « مدهو سودان داتا » الاشعار على طريقة بايرون ؛ وحل « داتا » آخر اسم « دات » واصبح استاذ اللغات الهندية في جامعة لندن ونشر باللغة الانكليزية دراسات هامة حول حضارة بلاده . واشتهرت المدرسة الانكليزية الاسلامية التي اسسها السر سيد احمد خان في السنة ١٨٧٥ بانها تضاهي « اربعة جيوش » . وبذلت المحاولات كذلك في سبيل استغلال الاختلافات في داخل الديانة البراهمانية . فقد قوبل المتكلمون عن طرد الاجنبي، لأنه يدنس مياه الغانج ويمنع تضحية المترملات، بالمصلحين الذين استهوتهم الافكار الغربية . فلماذا التخوف من « براهما – سماج » ، « شيمة » رام موهام راي » ودبندرانات طاغور الذين تأثرا برسالة يسوع فنادیا بمذهب الفداء الشامل الذي من شأنه التقريب بين المسيحيين والمسلمين والبراهمانيين وبتحسين مصير المرأة والغاء الطبقات المقفلة ؟ وكيف يجوز التشكي من شيمة « اريا – سماج » التي عين لها الباندیت سارا سفاتي كذلك رسالة نبية هي تعليم الأخوة البشرية ، كائناً ما كان تعلقها بعادات الجدود ؟ ومن جهة ثانية لم تبد صوفية راماكرشنا وتلميذه « فيفا كاندا » ، اللذين لم يتمسكا بحرف العقيدة تمسكهما بحرارتها ، اشد خطراً من وضعية « غوز » الذي رغب كذلك في « وحدة الشرق والغرب » ، أو من تصوف « اني بزنت » . واذا كان رفض التعلق بالحياة أو اقله الزهد فيه قد تراجعا شيئاً فشيئاً امام المحبة الفاعلة، فيجب التهليل لمثل هذا التطور الذي حصل على مهل وعن غير قصد في الفكر الهندي .

بانتظار ذلك اصبحت المطالبات الهندية اعظم الحاحاً . ولا يعني ذلك ان المؤتمر الهندي قد حاد عن موقفه المتساهل : فالجماعات والاوبئة اقضت مضجع الفئات النافذة التي تسيطر عليه والتي لا تطالب قط الا بحقها في ان يقال : « انا مواطن بريطاني » . ولكن حركة اشد عنفاً تعاظمت منذ السنة ١٨٩٤ : فان « تيلاك » المنتسب الى طبقة براهمانية مقفلة ، والصحفي والخطيب اللاذع ، قد اسس جمعيات رياضية على غرار الا « سوكول » وطالب جهاراً بالاستقلال ودفع مناصريه الى الا « سوادشي » وحتى الى الاغتيال . وقد اعتقد نائب الملك كورزون في السنة ١٩٠٤ ان باستطاعته التأكيد بخيلاء : « ان مهمتنا عادلة وسوف تستمر » . ولكن ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة البريطانية .

بورما وماليزيا البريطانيتان

حصنت امبراطورية الهند من الجهة الشرقية بسلسلة من الممتلكات : جزر اندمان مع مينائها الطبيعي الكبير « بورت – بلير » واصلاحيتها الكبرى للهنود والمسلمين والبوذيين ؛ وجزر نيكوبار الغير الصحية ؛ وارخبيل مرغي الذي يتحكم ببرزخ « كرا » وساحل تناسريم ؛ وشبه جزيرة مالاكا وموقعها الهام سنغافورة ؛

واخيراً ساراواك الممتدة في طرف بحر الصين الجنوبي التي راقبها انكلترا منذ استيلائها على جزيرة لابوان : واضيفت الى ساراواك ، بورنيو الشمالية الانكليزية التي وليت عليهـا شركة ذات امتياز وراقبت ، بفضل سندكان ، الممر الكـائن بين الفيليبين الاسبانية والانـولند النيرلندية .

اذا ما نظرنا الى بورما من البحر لرأينا انها تضم دلتـا الايراوادي الكبرى المشهورة بزراعة الارز وساحلا غنياً بشتى انواع الاسماك. وجاورت البنغال من قبل مملكة بورنها اسـهاءالومبراء في القرن الثامن عشر ، ففرضت سيادتها على « اراكان » و « بيغو » و « تناسريم » وهـددت « اسام » . وبعد حملة عسيرة ثبتت شركة الهند اقدامها في اسام ومانيبور واستولت على اراكان وتناسريم . ثم احتلت ، دون ان تصادف مقاومة ، بيغو المشهورة بالكاد الهندي الذي يستخرج منه صباغ قاتم تصبغ به الاقمشة القطنية ، فتأسـت من ثم بورما البريطانية . فانكفأت مملكة بورما منذئذ الى الداخل ولم تتمتع بعد ذلك الا بكيان مؤقت ، اذ ان الاستكشافـات ألبتت اهمية المسالك المؤدية الى الميكونغ الاعلى والصين الجنوبية ، وغنى البلاد بالحجارة الكريمة وخشب التك : فكان الضم الذي حطم ، في السنة ١٨٨٥ ، محاولة«ميجي»واصطدام بمقاومة باسلة».

تضم بورما الجبلية ، بالاضافة الى الـ « شان » والـ « كاتي » والبيغوبين » عـدداً من القبائل الوثنية . وقد استطاع البريطانيون الاعتماد على البيغوبين والـ « كارين » للوقوف في وجه الكاتي عند الحدود الصينية والـ « كاين »الحرابين ؛ ولكنهم لم يحققوا التهدئة قبل توقيع اتفاقيات الحدود في السنة ١٨٩٣ . فوضعوا نصب اعينهم جعل الدلتا قادرة على تصدير الارز ؛ فمست الحاجة الى طلب يد عاملة اضافية اتوا بها من البنغال ؛فاصبحت رانغون من ثم احدى اهم اسواق الحبوب في آسيا الجنوبية . ونقل خشب التك الى « مولمين » بواسطة الانهر التي نقل من قبل الى ضفافها على ظهور الفيلة . وفي جوار « ماندلاي » استخرجت الحجارة الكريمـة وحفرت آبار البترول . وقد ابدى ليوتي هذه الملاحظة : « ما ان تحقق الفتح حتى بوشر العمل الجدي ؛ فبنيت ،انطلاقاً من المرافىء ، مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدة التي حاذت الايراوادي الى ابعد مـن ماندلاي وما لبثت ان اتصلت بكلكوتا . لم تضع دقيقة واحدة ، وقد طبقت الطريقة الادارية السليمة المتحنة على ايدي موظفين يعرفونها تمام المعرفة ولا يتلـون طريقهم ؛ فباستطاعـة المهاجر المستعمر ان يأتي بعد ان أعد له سريره » .

ان شبه الجزيرة المالايزية ، القليلة السكان ، لم تلفت الانتباه بثرواتها بقدر ما لفتته بمضارسهـا. فان استثمار النارجيل والتوابل قـد تحقق منذ اوائل القرن بواسطة عبيد بياعوت في جزيرة « بنانغ » ؛ ثم اتسعت زراعة قصب السكر وشجرة الشاي وشجرة البن ، فلجأ المسؤولون الى عمال هنود وسيلانيين . ثم تعرضت الاحراج لعملية نهب حقيقية . ولكن اهم حدث كان ظهور مناجم القصدير التي أمنت الشهرة لـ « مالاكا » . فتدخل البريطانيون حين حدثت الاضطرابات بين عمال المناجم الصينيين في « بيراك » ؛ وقضوا في الوقت نفسه على اعمال القرصنة المالزيـة

في تلك الجهات .

وكانت جزيرة «بنانغ» التي احتلت في السنة ١٧٨٦ ، قد أثرت اهتمام رافلز الذي سيعرف باسم ولنغتون ، فجددت « شركة الصهر المحدودة » تقنية التصدير في المعمل الذي كان الصينيون قد أسسوه فيها . ولكن سنغافورة فاقتها اهمية الى حد بعيد . فمنذ ان ابتاعها « رافلز » ، مثل شركة الهند ، من سلطان جوهور ، أصبحت قرية الصيادين هذه ، المحاطة بالمستنقعات والمياه ، سوقا لتجارة خارجية عظيمة تدفق عليها كل من تستهويهم التجارة ، والعمل في الزراعة والمناجم بموجب عقد اجار لمدة ثلاثمائة يوم . وفي السنة ١٨٦٩ احصى « لودوفيك دي بوفوار » في برج بابل هذا ١٠٠ الف صيني و٢٣ الف ماليزي و ١٥ الف هندي و ٧ آلاف جاواني و ٦ آلاف عربي وارمناً وفرساً ويهودا ، وبضع مئات من الاوروبيين فقط . وقد بلغ عدد سكانها ١٦٠ الف نسمة في السنة ١٨٩٠ . وكان الناس يتجولون فيها بواسطة الحافلة الكهربائية أو الـ « جنريكيشا » اليابانية ـ كرسي ذو عجلتين يجره العامل الآسيوي الذي يضنيه هذا العمل . ومنذ السنة ١٩٠٠ اكتشف مصدر جديد للثروة هو مغارس اشجار المطاط التي اجتذبت رؤوس اموال كبرى ويداً عاملة وفيرة . وبفضل هذه القاعدة البحرية ، راقبت بريطانيا العظمى مستعمرات المضائق القريبة من اليابسة وحلف الدول الماليزية الاسلامية المحافظة على سلاطينها وراجاواتها . فوطدت تفوقها ونفوذها بين المحيط الهندي وبحار الشرق الاقصى عند مداخل الارخبيل الاندونيسي الواسع الاطراف .

شعوب الانسولند

ان الارخبيل الذي اعادته بريطانيا العظمى لهولندا في السنة ١٨١٥ يجمع بين العالم الاوقيانوسي وآسيا معاً . وهو يقوم بين خطي السرطان والجدي ويؤلف الى الغرب جزءاً من منطقة الارياح الموسمية ويضم الى الشرق جزراً عديدة اكثر جفافاً . وتتجاور فيه مناطق مكتظة بالسكان ومناطق شبه مقفرة وتجانب حضارات زراعة الارز المتقدمة التي يتعاطاها اهل القرار حضارات الشعوب البدائية المتأخرة . وقد جاءه الاسلام من آسيا واقتطع فيه مناطق واسعة كثيرة السكان ، ولكن التأثيرات البراهمانية والبوذية القديمة قد طبعت روح البلدان الانسولندية ولغتها وفنها وتنظيمها بطابع لايطمس ولا ينطمس .

هنا كما في كافة انحاء آسيا القريبة ، تعاطى السكان البدائيون قطف الثمار والقنص والصيد . الا انهم تطوروا احياناً : ونورد هنا مثل الـ « كو ـ بو » في سومطرا الذين تحولوا الى زراعة الارز . ولم يختلف نوع معيشة بعض الشعوب الاندونيسية اختلافاً كبيراً : كالـ « باساب » في بورنيو مثلاً . ولكن معظم هذه الشعوب زاول اقله زراعة الـ « لادانغ » في الاراضي الحرجية المحرقة : هذا ما فعله الـ « داياك » في بورنيو الذين لم يؤمنوا معيشتهم من زوارقهم او من جمع محاصيل الغابات او من طحين نخل الهند ؛ وهكذا فعل كذلك الـ « باتاك » في سومطرا الذين اهتدى بعضهم الى الدين المسيحي على ايدي المرسلين اللوثريين . وانتشرت في معظم المناطق

الجبلية زراعة الـ « ساوا » المعول فيها على المياه المخزنة ، وقد نهضت بها الجواميس في الغرب والثيران في الشرق ، ولكنها استلزمت نقل الغراس ونزع الاعشاب المضرة ، ولبثت الفلاح في ارضه : فغالباً ما بني المسكن على الاوتاد وتحصنت القرية . وانتشرت كذلك في كل مكان تقنيات صناعة الخشب اليدوية وصناعة الخزف وصناعة المذاري والسلال ، واشتهرت شفار الخناجر المعروفة بالخناجر الماليزية وبجوهرات سلطنة « برونيي » في شمالي بورنيو .

الماليزيون هم الاندونيسيون المستوطنون الشواطىء الذين اختلطوا بالشعوب الاخرى وتطوروا بتأثير الحضارات الهندية والعربية والصينية ، والاوروبية اخيراً . اجل قد يحدث لهم ان يحبوا الارض ويعتنوا بزراعتها ، ولكنهم يؤثرون البحر والتجارة والصيد وحتى القرصنة ، ويتهمكون بشغف في المقامرة واللعب والمنبهات . ويلفت الانتباه انك تجد في جاوا وحدها الامثلة الثلاثة ، سوداني الغرب الذي يناقض بطبعه الخشن جاواني الوسط الهادىء الكسول ، بينا يبذل المادوري الشرقي ، اليابس الطينة ، مزيداً من الجهد في العمل .

ان الحضارة الهندية الفنية بذكرياتها قد عرفت الديمومة في وسط جاوا بابنيتها وشغل المعادن الثمينة والرقصات والمسرح « واجانغ » . وخلفت كذلك الطبقة المثقفة وروح الطاعة للراجا . وفي بالي حافظت الديانة البراهمانية على حرارتها التي جعلها الايمان المتأصل بالارواح اشد تحمساً وتهيجاً . وقد تمتع العرب ، على قلة عددهم، بنفوذ اكتسبوه من دين اصبح مسيطراً ومن مواهبهم التجارية . وقد وجدوا حتى في « المولوك » التي تصدر القرنفل والقرفة وجوز الطيب الى اوروبا . وهو اسلام غوجرات الذي انتشر في الجزر الكبرى . وكان له اشياعه المتعصبون في الجهة من أعمال شمال سومطرا وفي « بانجارسن » من اعمال جنوب بورنيو وفي لومبوك . وقد واصل بنجاح نسبي هدي الوثنيين . وأرسل الى مكة عدداً كبيراً من الحجاج وضم اليه المهاجرين الى الهند الاسلامية . وأقام سلطنات قاومت الاوروبيين مقاومة غير متعادلة . ولم يفت الهولنديين الاستفادة من هذه الامكانات .

ارتفع عدد الصينيين من ١٠٠ الف في السنة ١٨٠٠ الى ٥٠٠ الف في السنة ١٩٠٠ . وقد خشيهم الماليزيون ، وغالباً ما زاحموا العرب في التجارة، وكانوا وسطاء نافعين في اعين الهولنديين لاقامة العلائق بالامبراطورية الصينية ، فقتنوا املاكاً واسعة وباشروا استثمار باطن الارض باللجوء الى العمل الالزامي .

استعمار الهند الهولندية

ترك الهولنديون طوال رضاهم شركة الهند الشرقية « تحرث البحار » . وانما اكرهوا شيئاً فشيئاً على احتلال الجزر الكبرى والصغرى احتلالاً فعلياً . وعلى الرغم من ذلك فقد حصروا مجهودهم العسكري فترة طويلة ، الا انهم اضطروا بعد السنة ١٨٧٠ الى استباق دول ـ ألمانيا وبريطانيا العظمى في الدرجة الاولى ـ قد تنازعهم امتلاك الاقاليم التي لما يرفرف فوقها العلم الهولندي . اضف الى ذلك انهم أرغموا من جهة ثانية على جمع قواهم في سومطرا حيث

صادفوا خصوماً أقوياء . فان سلاطين اتجه ، في طرف الجزيرة الشمالي الشرقي ، قد دافعوا بعناد عن استقلال شجعه البريطانيون في البلاد . أما في جاوا فقد انتهى عهد الحروب منذ السنة ١٨٢٩ بخضوع سلطان « جوجيا كرتا » . وفي بورنيو ، حيث سبقت انكلترا هولندا من الجهة الشمالية ، لبثت هولندا اقدامها في شاطىء « بانجر ماسن » المشهور بفلفله وماسه ؛ ثم اخضعت بصعوبة المناطق الغنية بالذهب المعروفة بـ « الصينية » : ساميا ولنداك ؛ وان ما استهواها في بانجر ماسن هو الماس قبل الفلفل ؛ ولكن المناطق الداخلية في هذه الارض الكبرى بقيت نائرة ومطفرة . وكذلك لم يخضع الـ « طوراجا » في « السيليب » للادارة القائمة في « ما كاسار » الى الجنوب وفي ميناهاسا الى الشمال . وعلى الرغم من قرب بالي ولومبوك من جاوا ، فانها لم تخضعا نهائيا الا في السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٨ . ولم تسيطر هولندا الا سيطرة اسمية على جزر السوند الشرقية حتى اليوم الذي جرت فيه القسمة بينها وبين البرتغال التي احتفظت بشرقي تيمور . وما عادت هولندا لتهتم بـ « فلوريس » وسومبا وممتلكاتها في غينيا الجديدة . فان عالم البابر قد أخذ همة تجار امستردام الذين اكتفوا بالمكاسب التي ما زالت المولوك توفرها لهم ؛ وقد اقتصر الاحتلال عملياً على الجزر الصغرى الغنية بالتوابل : رنات ، باندا ، ولا سيما امبوان ، وتستثنى منها سيرام وهالما ـ هيرا الجبليتان والمغطاتان بالغابات . وفي الحقيقة انتقل مركز الثقل الاقتصادي نهائيا من المولوك هذه ، التي فقدت منزلتها ، الى الجزء الغربي من الانسولند ولا سيما جاوا .

اثناء الاحتلال البريطاني ، قاوم « رافلز » ، الحاكم بالوكالة ، الميثاق الاستعماري الاحتكاري وشجع التجارة الحرة واستبدل الضرائب بضريبة عقارية تحدد وفاقاً لمسح الاراضي .

بعد السنة ١٨١٥ توجب على الهولنديين بذل مجهود عسكري ومجهود مالي كبيرين . فعادوا من ثم الى الروح التجارية والاحتكار . ولم يكن المطلوب ان لا تكلف المستعمرات الوطن الام شيئاً فحسب ، بل ان توفي قسطها في اثرائه ايضاً . اضف الى ذلك ان « فان دن بوش » ، الذي كان على اتفاق مع الملك غليوم الاول ، لم يأت بجديد : فجدد هذا الاخير امتياز شركة الهند الشرقية وأعطاه شركة نيرلندية ذات امتياز ؛ وعمم نظام المزروعات الالزامية الذي لم يلغه الانكليز . فكان على الفلاح ان يعمل في الاراضي المخصصة لهذه المزروعات على ان يعفى من الضريبة العقارية . فبدا هذا البرنامج وكأنه مستوحى من الاستبداد المستنير وذهب بعضهم الى حد اعتباره برنامجاً يستهدف خير البشر .

لعل زراعة المناطق الحارة ، التي أدارها الاوروبيون وأعدوا منتجاتها للتصدير ، لم تعرف في أي مكان آخر مثل النجاح الذي عرفته . ولما كانت سياسة حكومة لاهاي لم تهدف الى تشجيع استعمار التوطين ، فهو الموظف من كان وراء نمو الاقتصاد الذي خضع لنشاط منتظم ومنطقي . فمن التطبيقات الموفقة للعلوم الطبيعية تحسين انواع البن وانتقاء اصناف القصب بغية

حابتها من طفيلي خفي الروائح ، وتبليد الكينا البوليفية بانتظار تبليد شجرة المطاط البرازيلية. وقد وفر البن والشاي والتبغ والنيلج والسكر والفلفل والقرفة ارباحاً طائلة (فائض بلغ ٨٣٢ مليون فلورين بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٧) . فكان للاختبار اثره حتى بعد ان استهدفه النقد : فان كتاب الانكليزي « موني » ، « جاوا » او كيف يجب ان تدار المستعمرة» الذي صدر في السنة ١٨٦١ ، قد أثار حركة في الرأي العام اللندني من اجل ادخال النظام الى جزيرة جامايكا السائرة في طريق الهبوط والى الهند التي طولب بزراعة النيلج فيها .

ولكن التجاوزات اصبحت فاحشة . فان الرواية التي نشرها « ادوارد دوبس - دكر » ، باسم « مولتاتولي» المستعار، وتحت عنوان « ماكس هافلار » ، قد وفر لها مجرد طنية واسعة في السنة ١٨٦٠ ، حين كانت المبادىء المعادية فرق آخذة في الانتشار . فمنذ السنة ١٨٤٣ باتت الهند النيرلندية تعاني من الجدب ، لا بل كانت السنتان ١٨٤٩ و ١٨٥٠ سنتين مرعبتين . ولم يعد ممكناً اخفاء ابتزازات زعماء القرى الذين اعتبروا وكلاء مسؤولين والذين حصلوا على اراض وراثية مكافأة لهم على خدماتهم ، اقطعهم اياها الموظفون الهولنديون مقابل اتقاضات ، ومتعهدو المغارس - الذين قد يكونون صينيين احياناً: فقد فرض ستّان وحتى ثلاثة يوم عملا، وصودر الاشخاص لاجل تجهيز الطرقات والمرافىء، واستمر في المطالبة بدفع الضريبة العقارية، وما زال الوكلاء البلديون ، المختارون من بين الاقطاعيين ، يلجأون الى الاقتسارات ويجبون بقايا ضرائب السنوات السابقة .

في هذه الاثناء حدثت الازمة الاقتصادية في اوروبا بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٤٨ . وبموجب ملحق لدستور هولندا الجديد انتزعت من التاج ادارة الشؤون الاستعمارية . فكان ذلك بمثابة انكار لنظام « فان دن بوش » . وقضت قوانين زراعية بالغاء الاعمال الزراعية الالزامية ، كما زالت الحقوق التفضيلية بفضل النظام الجمركي الحر . ولكن الدولة والشركة ذات الامتياز تواريتا بمجرد توار أمام بعض الشركات الرأسمالية التي لم تتخل ، من حيث المبدأ ، عن العمل الالزامي ، ولم تسلم به بادىء ذي بدء الا في زراعة الشاي والنيلج والتبغ والتوابل ، اعتباراً منها أن عدداً من هذه المنتجات اقل دخلا ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد خصصت مساحات اضافية لزراعة شجرة البن وقصب السكر وشجرة الكينا ، كما اتسعت زراعة التبغ اتساعاً عظيماً في سومطرا ؛ ثم انخفض انتاج السكر والبن بدورهما بسبب انخفاض اسعارهما . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان رؤوس الاموال اخذت توظف في حفر آبار البترول وفي مناجم القصدير ومغارس اشجار المطاط . وتحول الانتباه ، دون ان يتحول عن جاوا ، الى الاراضي الواسعة الاخرى التي اخذت امكاناتها الكبرى تبرز شيئاً فشيئاً .

ولكن الواقع الهام ما زال الاولوية الجاوانية . ففي الجزيرة البالغة مساحتها ١٣٠ الف كيلومتر مربع ، كان عدد السكان زهاء ٢٨ مليون نسمة مقابل ٥ ملايين في أوائل القرن : وربما يحمل هذه الكثافة جديرة بالاعتبار ان جزر الارخبيل الاخرى كانت شبه مقفرة . وقد

تباهى الهولنديون بالنتيجة التي عزوها الى ظروف صحية وغذائية دونها الظروف المتوفرة الهند . اما الحقيقة فهي ان جاوا ، المتوسطة المساحة ، كانت أفضل إعداداً لادارة حازمة ولتجهيز أوفر دخلا . أضف الى ذلك ان خبرة دائرة الشؤون المائية في هولندا قد ساعدت كثيراً على تجنب تجدد المجاعات الكبرى بفضل تحقيق مشروع ري عظيم . اجل لم يدخل المدرسة سوى أقلية ضئيلة ، ولكن التلقيح ضد الجدري قد اعتمد بنجاح،والكوليرا والطاعون قد كوفحا ببعض الجدوى ايضاً . ولا مراء كذلك في نفعية المستعمر ، ولكنه احترم النظام الاجتماعي جهد الامكان مكتفياً بالتوفيق بينه وبين حاجاته الخاصة . وعلى غرار البريطانيين في الهند ، احسن معاملة السلاطين الذين قبلوا بخدمته : ٤ فقط في جاوا ، ولا اقل من ١٤٣ في سومطرا . وقد ذكر « بوفوار » ان سلاطين جاوا اغا هم « رهائن عاجزة رفعها المستعمرون على قواعد مرتفعة بغية تمويه الميثاق المظلم الذي يربط ، بالقوة والمحبة معا ، بين العرق الاسود وأسياده الاوروبيين » . واحيط الوكلاء بالاحترام وأغدق عليهم المال ، ولكنهم كانوا عرضة للعزل ، وقد اختيروا من بين العائلات الكبرى بغية نقل رغبات البيض الى زعماء القرى الذين مارسوا السلطة الفعلية الوحيدة برقابة الموظفين الهولنديين .

ادار هذا الاستعمار عدد محدود جداً من الهولنديين لم يتجاوز ٦٠ الفاً مقابل ٣٠٠ الف صيني وزهاء ٣٠ مليون بلدي . وقد بقيت الدوائر والمخازن في باتافيا قريبة من المدينة القديمة والمرفأ . ولكن المدن المرتفعة ، ك « ولترفردن » المشهورة بمساكنها المحفوفة بالحدائق ، و « بويتنزورغ » حيث يقيم الحاكم العام ، قد وفرت لمواليد الوطن الام الرفاهية والصحة في منطقة استوائية المناخ .

نهاية السيطرة الاسبانية في الفيليبين

على نقيض الهولنديين ، حاول الاسبانيون ، في ممتلكاتهم الفيليبينية القديمة ، تمثيل السكان البلديين . فقد نجح اكليروس غيور وقوي في تبشير الـ « تاغال » اللطفاء . ولكنه تمثل على بعض السطحية في الواقع : اذ ان عدم اكتراث الشعب النسبي قد سهل عمل « الاب » الذي حاول من جهة ثانية حماية رعيته من الزعيم البلدي . وتميزت الادارة بالخمول والبلادة . فلم تقرر مدريد الاستيلاء على « منداناو » و « جولو » حيث سيطر الاسلام في اوساط الـ « موروس » (الذين يقابلهم الهنود) الا رداً على احتلال بورنيو وسيليبب احتلالا فعليا . وبقي داخل « لوسون » موطن الـ « ايفوغاوو » « المتوحشين » الذين برعوا في زراعة الارز في السطوح الترابية المتعاقبة .

تبدو الحياة في مانيلا مرحة وميسورة . ولكن التجارة ليست في ايدي الاسبانيين : فمنذ السنة ١٨١١ لا تتجه أية سفينة كبيرة نحو اسبانيا الجديدة ، بينما تنقل السفن الانكليزية والاميركية الـ « اباكا » (او قنب مانيلا) والسكر ، وتأتي بالارز والنسائج . وبالنظر الى تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً (بلغوا ٥ ملايين في السنة ١٨٩٠) ، يتفاقم الشقاء والضيقة .

وفي السنة ١٨٧٢ استلزم خطورة الاضطرابات إرسال قوى مسلحة اضافية . وفي عهد لاحق تسبب ثلاثة حصائد ماحلة متوالية في جدوبة وعوز خطيرين .

نشأت طبقة خلاسية انيقة تلمّ بالاسبانية ، لم تخف استياءها من تهامل الوطن الام وامتيازات الاكليروس . والحال نفت مدريد بدون تروّ الى لوسون بعض المنادين بالحرية والاباحيين والماسونيين ، الذين اسهموا في نشر فكرة محاربة الاكليروس . وفي السنة ١٨٩٦ ، اعلنت بعض الجمعيات السرية (« كاتيبونام ») ثورة شاملة لم تقمع بسهولة ؛ لا بل ان الثوار ، بقيادة اغينالدو ، لم يلقوا السلاح الا بعد الحصول على وعد ببعض الاصلاحات . وحين لم يتحقق الوعد المقطوع لهم ، تحولوا الى الاميركيين الذين ساعدوهم على طرد الاسبانيين . فخاب املهم مرة أخرى اذ ان الاميركيين رفضوا التخلي عن الارخبيل . فنشب آنذاك صراع جديد ضار ؛ ولكن الفيليبينيين هزموا في السنة ١٩٠٢ فاستبدلوا نيراً بآخر .

الدول السيامية

كان احد الشعوب الـ « تاي » ، اوفر حظاً من جيرانه بنجاته من الوصاية الاستعمارية . وهو مدين بهذه النعمة لموقعه الجغرافي في وسط شبه الجزيرة الهندية الصينية ، بين بورما الخاضعة للسيطرة البريطانية ، والجزء الشرقي من شبه الجزيرة هذه الذي احتلته فرنسا .

تنطبق سيام جغرافيا على حوض « مينام » الذي استوطنه الـ « تاي » ، واسسوا فيه عدداً من الممالك حول « كسينغماي » في الشمال و « افو - تيا » في الجنوب . ثم حدث ان هزم البورمانيون السياميين واخضعوهم ، فأسس هؤلاء إمارة جديدة مركزها بانكوك ، وباشرت سلالتهم الجديدة (سلالة شاكري) حركة توسعية باتجاه نهر ميكونغ وشبه الجزيرة الماليزية مخضعين في الوقت نفسه المنطقتين الجنوبيتين الجبليتين : مينام العليا وميننغ . وفي عهد مونغكوت اقفلوا حدودهم في وجه الارساليات التبشيرية المسيحية ، ولكنهم وقعوا معاهدات تجارية مع الدول الاوروبية وحاربوا فيتنام التي تقدمت بدورها نحو الغرب انطلاقا من الجبال الأنامية من اجل السيطرة على كمبوديا . وتوصلوا في فترة من الزمن الى السيطرة على دول لاوس . وبُعيد التدخل البريطاني في « بيغو » ونزول الفرنسيين في كوشنشين ، اختار « شولالونغكورن » ، الذي ربته امرأة انكليزية وعلّم اولاده في انكلترا ، الاعتماد نهائياً على لندن : فجهز بعض السفن الصغيرة بالمدافع وزود جيوشه ببنادق « موزر » . وحين اصر على الاحتفاظ بولايتي « باتبانغ » و « سيمرياب » الكمبوديتين تحت ملكية « بنوم - بنه » ، وراء الاعتماد على فرنسا . فاضطر الى التراجع في السنة ١٨٩٣ ، ولكنه احتفظ بنفوذ عريض الى الميكونغ عبر حوض « سيمون » .

لم يكن عدد سكان سيام مرتفعاً - ستة ملايين نسمة (اي بمعدل ١٠ في الكيلومتر المربع) - وقد شمل ثلثاً من التاي الودعاء والصبراء والحاملين والراغبين في الاحتفالات والدائنين ببوذية تنقي وسلطة الرهبان ، وثلثاً آخر من الصينيين ارباب الاعمال في بانكوك ، وثلثاً اخيراً من الاقليات البورمانية والماليزية واللاوسية المقيمة عند حدود البلاد . وكانت الدولة السيامية

ملكية بطريركية : فان الملك ، « سيد الاشخاص والممتلكات » ، يتولى الحكم مع طبقة من النبلاء ، بينا تفرض على جماهير الفلاحين اعمال السخير الملكية التي توازي شهرين أو ثلاثة اشهر عملاً . وقد صدّرت البلاد الارز وخشب التك . وافتقرت زمناً طويلاً الى الطرقات والخطوط الحديدية ، ولكن مؤسسة المانية جهزتها بشبكة تلغرافية . وقد تأمنت علائقها الاقتصادية بالخارج بواسطة سنغافوره .

فيتنام ولاوس وكمبوديا قبل التدخل الفرنسي

في الشرق ، كما في الغرب والوسط ، تبرز المضادة القوية بين الاراضي المنخفضة والجبال في شبه جزيرة الهند الصينية هذه التي تنازعها – كما يدل على ذلك اسمها – النفوذان الهندي والصيني . واذا كان النفوذ الاول قد اتسع في حوضي مينام وميكونغ في عهد الامبراطورية الخميرية ، فان ردة الفعل التي حدثت لمصلحة النفوذ الثاني توافق تقدم الفيتناميين على طول الساحل الشرقي وفي دلتا الانهر . اما التاي – سواء اعتنقوا البراهمانية ام لا – والبدائيين فقد احتموا بالجبال .

ان التجمعات البشرية الكثيفة في دلتا الانهر قد اعطت الشعب الفيتنامي ، المزدحم فيها ، تفوقاً لا جدال فيه . فحوالي السنة ١٨٩٠ قدرت كثافة السكان في تونكين بـ ٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي كوشنشين بـ ٣٠ ، وفي انام بين ٢٠ و ٣٠ ، وجاوم في البلدان الثلاث من الفيتناميين ، مقابل ١٠ فقط في كمبوديا و ٣ في لاوس ؛ وبلغت الكثافة بين ١٥٠ و ٢٠٠ في دلتا النهر الاحمر . اما في كمبوديا فقد ضم سهل « بنوم – بنه » ثلاثة ارباع سكان المملكة .

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وبينا كانت الدولة السيامية آخذة في التجدد في حوض مينام ،توطدت شيئاً فشيئاً اركان امبراطورية فيتنامية مرتكزة الى امتلاك تونكين في الشمال وانام في الوسط و كوشنشين في الجنوب . وقد نهض بهذا العمل « نغوين - انه » الذي حمل بعد ذلك اسم « جيا – لونغ » ، وكان اشهر ممثل لسلالة نغوين التي تولت الحكم في هويه . فطلب اسلحة من الفرنسيين من اجل تحقيق الوحدة ؛ ثم ولى وجهه شطر الصين ليلتمس منها التنصيب التقليدي وقبل منها باسم فيتنام (ومعناها بلاد الجنوب) واقتبس عنها مجموعة قوانينها وتنظيمها السياسي – الاداري وسخر النظام لاعادة بناء السدود في تونكين وانشاء الطرق وتخزين الارز . فتجبر ورفض هدايا لويس الثامن عشر ولكنه عرف الجميل فأكرم الفرنسيين الباقين في خدمته .

تربع من ثم على عرش فيتنام ملك مارس ، على غرار امبراطور الصين ، سلطة مستمدة من السماء ، وكان عليه ممارستها من اجل خير كافة رعاياه . ولكنه استند عمليا الى المثقفين المختارين عن طريق المباراة بين اولئك الذين حصلوا العلم في مدرسة تلقن الواجبات نحو العائلة والدولة . وأسهمت روح القانون ، الذي نشر في السنة ١٨١٢ ، في تحويل نشاط هذا الحكم

شطر التقليد الفلسفي والاخلاقي بالتفضيل على التجديدات التقنية . فاصبح واجــب الملكية المطلقة ، والحالة هذه ، ضمان حياة الجماعة المرتكزة الى زراعة الارز وعبادة الجدود .

استلزمت زراعة الارز المتنجة طاقة بشرية عظيمة ، اذ ان الصيد والصناعة اليدوية ما كانا ليوفرا سوى دخول محدودة وان كانت جليلة الفائدة . وقامت في كوشنشين ، المحتلة حديثـاً ، املاك كبرى كان مزارعوها (ناديان) المدينون تحت رحمة المرابين. وقد شد التضامن الضروري من أجل تنظيم العمل روابط الجماعة ، واتاحت التعاونيات (هوي) مواجهة الحاجات الملحة . وألف « ا » هو » او « ا » تو » الخلية العائلية التي تكتنف حياة الفرد في جميع مظاهرها ، ومـا زالت السلطة الأبوية اقوى سلطة حتى بعد ان حد منها قانون جيا - لونغ ؛ وقد جـاء في احد الامثال السائرة ان سلطة الملك تنحني امام العرف المحلي .

تحذر خلفاء جيا - لونغ من مخالطة الاوروبيين ، بدافع من حرصهم على صيانة مؤسسات امبراطوريتهم ، فانتهجوا سياسة اضطهاد المرسلين وحظروا المسيحية . وقد جاء في مرسوم السنة ١٨٣٣ ان « هذه الديانة مجموعة من الأكاذيب » . وجزم « تو - دوك » بدوره في السنة ١٨٥٠ بانها « ديانة فاسدة لانها لا تنطوي على واجب عبادة الانبياء المتوفين » . لذلك ارتدت حملة السنة ١٨٥٨ ، التي استهلت التدخل الفرنسي في شؤون بلاد يطلق عليها الغرب اسم انام ، طابع الحرب الصليبية .

لم يبق من الامبراطورية الخميرية القديمة سوى مملكة على بعض الصغر مقتصرة على منطقـة الميكونغ بين كوشنشين وشلالات « خون » . وبعد ان فقدت كوشنشين،اي منفذها الى البحر ، تعرضت هذه المملكة لغزو السياميين المتقدمين حتى « تونـلي - ساب » . ثم خضعت لسيطرة سيامية فيتنامية مشتركة عقبتها حماية سياسية حقيقية . ولم يتمكن الملـك « نورودوم » من التخلص من وصاية بانكوك الا بطلب حماية فرنسا .

بموجب حماية السنة ١٨٦٣ حق لفرنسا ان تمثل بمقيم عام في بنوم - بنه كما حصلت على حرية التجارة والتملك لمواطنيها وحرية العبادة والتعليم للكنيسة الكاثوليكية . ولم يطـرأ في الظاهر اي تبديل على التنظيم التسلسلي الذي يضمن تلاحم الدولة . ولكن هذه الاخيرة فتّ في عضدها بفعل خلافات العائلة الملكية ودسائس الزمانية التي توجب على السلالة مراعاة جانبها . ولم تتصف الحياة العائلية بصفتها الالزامية في فيتنام ، وقد حمل الفرد اسماً شخصياً . فتوزع السكان ، ولم تعرف زراعة الارز نشاطها في دلتا الانهر - آثر الكمبودي تربية الثيران والابقار الهندية ، والصيد في البحيرة الكبرى الغنية بالاسماك ، والقنص على الفيلة وترويضها . وتميزت البلاد في الدرجة الاولى بروح بوذية تأملية هي روح « المركب الصغير » . وقد وفر مثل هذه العبادة تعزية كبرى للمؤمنين . فان هذا الشعب الوديع والبليد والمولع من جهة ثانية بالرقص والمسرح والموسيقى قد انحنى دون مقاومة عنيدة امام الاحتلال الاوروبي .

اختلط « ا » مان » و« ا » ميو » بالشعبين الذين اتيا من الصين وعاشا حياة بدوية زراعية تعرف

« ه راي » ، وواصلوا اغاراتهم عبر الجبال المرتفعة خلال النصف الاول من القرن . وتجمعوا ، شان التاي ولا « موونغ » ، في الوديان اللاوسية حيث يزرع الارز بمزيد من السهولة. وقد توفرت لهؤلاء الأخيرين تقنيات اكثر تطوراً من تقنيات الجبليين الذين لحقوا بهم، او من تقنيات البدائيين (هؤلاء الـ « خا » هم انفسهم الـ « موي » الذين يتكلم عنهم الفيتناميون ، والـ « بنونغ » الذين يتكلم عنهم الكمبوديون، وقد انتشروا حتى في انام الجنوبية بين مجازة آي ـ لاو ، والـ « دونّاي »). وان ما ميز التاي والموونغ اجتماعياً هو التنظيم الاقطاعي الذي بموجبه زرع الاسياد ارزهم بتسخير الفلاحين وأخضعوا الحا لنظام الفدادية. اما التاي الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالروح البوذية وعاشوا في سهول الاحواض لمعيشتهم شبيهة بمعيشة الكمبوديين. واما المرأة فمنفتاحة وتحب التزين وتتمتع بحرية كبرى ، وتسكن مع زوجها في بيت اهلها .

ان تقسيم البلاد الطبيعي ليفسر تجزئتها الى امارات عجزت ابداً عن الاتحاد في دولة واحدة. وعلى غرار كمبوديا، تعرضت اللاوس لغزوات السياميين والفيتناميين معاً بسبب رغبة هؤلاء واولئك في الوصول الى الميكونغ الاوسط . ولكن نائب القنصل الفرنسي ، « اوغست بافي » ، توفق الى وصل تونكين ولاوس وادخال الميو والتاي الجبليين في منطقة النفوذ الفرنسي. فوضعت لاوس تحت الحماية الفرنسية في السنة ١٨٩٠ ، والحنت سيام في السنة ١٨٩٣ .

اوائل عهد الهند الصينية الفرنسية

في الوقت الذي تحررت فيه الضفة الشرقية لميكونغ الاوسط من السيطرة السيامية ، انجزت فرنسا تأسيس اتحاد هندو – صيني ضم تحت اسم الهند الصينية بلداناً وشعوباً غير متلاحمة .

توفق اميرالات الامبراطورية الثانية ، بوسائل محدودة جداً ، وبمناسبة حرب ضد الصين ، الى احتلال نصف كوشنشين ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة سقط النصف الثاني بدون قتال . ولم تستلزم الحماية على كمبوديا عملية عسكرية . ولكن الاستيلاء على انام وتونكين كان من الصعوبة بمكان : اذ لم يعتمد الامبراطور « تو – دوك » على مساندة الصينيين فحسب ، بل توجب على الجيش الفرنسي اجتياز مناطق جبلية وعرة والمحاربة في مناطق نائية قاسية المناخ مجهولة الموارد. فحتى بعد انحناء الصين ، وبعد اقامة الحماية في تونكين وانام، استمر القتال حتى السنة ١٨٩٦، عنيفاً ومضنياً ، في الجبال القريبة من الحدود الصينية ، ولم تتوقف المقاومة الا بعد ان طبق « غاليانى » ورئيس اركان حربه « ليوتي » خطة «بقعة الزيت». واقتضى من جهة ثانية قمع ثورة نشبت في شمالي انام . وحاولت كمبوديا نفسها القيام بثورة للتخلص من معاهدة حماية جديدة قاسية الشروط . وهكذا توصلت فرنسا ، بعد صراع ودبلوماسية استغرقا اربعين سنة ، الى السيطرة على امبراطورية اوسع مساحة من اراضيها ، يتراوح سكانها بين ١٣ و ١٤ مليوناً موزعين توزعاً غير متساو على انحاء الهند الصينية المختلفة .

لم يكن لفرنسا مذهب استعماري في آسيا . فحتى السنة ١٨٨٧ ، ارتبطت كوشنشين

وكبوديا بوزارة الحربية والمستعمرات ، وانام وتونكين بوزارة الخارجية . ولما كانت سياسة الحماية بواسطة الزعماء البلديين سياسة ذات خطورة حين تم الاستيلاء على كوشنشين ، عمد الاميرال « بونار » ، على نقيض سلفه الاميرال « شارنر » ، الى اعادة الادارة المحلية الى زعماء القرى . ولكن اندلاع الثورة اوقف الاختبار . فاتجه الاميرال « دي لا غارديير » حينذاك الى اعتماد طريقة الابقاء على السلطات البلدية وربطها بادارات فرنسية يشرف عليها حاكم يعاونه مجلس استشاري خاص . ولما كان القانون الفرنسي لا يطبق الا على الفرنسيين، ابقي على القانون المحلي بعد ان خففت العقوبات التي يفرضها. واتاحت اعمال المساحة توزيع الضريبة توزيعاً عادلاً، وتألفت بعض فرق الجيش الانامية . وفي السنة ١٨٧٩ ، بعد ان آلت الادارة الى المدنيين ، احتفظ الموظفون الفرنسيون بادارة الشؤون العامة يعاونهم الاعيان الاناميون . والغيت اعمال التسخير في الطرق ، وانما مست الحاجة الى تغذية الموازنة الاستعمارية باحتكار ادارة الافيون والمواد الكحولية وبواسطة الرسوم على تصدير الارز ؛ فحدثت بعض التجاوزات .

اصبحت الحماية اكثر تضييقاً في كمبوديا في السنة ١٨٨٤ . وحين فقد الملك حله المانع في تلك الارض ، لم يلبث ان اصبح في وضع مالي على بعض الصعوبة .

بوشر في الوقت نفسه تطبيق نظام الحماية على امبراطورية انام . فترأس المقيم العام في « هويه » مجلس الوزراء واشرف على ادارة دوائر الجمرك والاشغال العامة . ونعمت تونكين باستقلال اداري ، كما أقرت لها موازنة خاصة . وقد حاول « بول برت » ، الفيزيولوجي النابغة والكريم الاخلاق ، استمالة عواطف السكان . فأقام علائق ودية بالامبراطور الجديد « دونغ – خانه » المتحلي بالظرافة واللطف ، الذي قربه اليه ؛ ولكنه لم يتمكن من التغلب على عداء المجلس . وخفف من وطأة اعمال التسخير ، ووزع المساعدات المالية على الولايات التي خربتها الحرب ، واعفى من الضرائب المتأخرة ، واعاد بناء السدود . وكان علمانياً ، فاحترم العبادة البلدية وأوجب احترام الخربة الدينية . ورغب في التغلب على تقليدية المثقفين ، فأسس اكاديمية تونكينية لتنشئة معاوني الادارة الفرنسية وفتح مدارس فرنسية انامية على غرار المدارس المفتوحة في كوشنشين . وبعد محاولته تحقيق التهدئة في مناطق انام الشمالية والجنوبية ، توفي بسبب اصابته بمرض الزحار . وقد قاومه بعض المهاجرين المستعمرين والزعماء المحليين معاً .

في السنة ١٨٨٧ ، ورغبة في تخفيض النفقات وتنسيق نشاط الاقاليم غير المترابطة ترابطاً وثيقاً ، وجه « أتيان » ، ووزارة المستعمرات المرسوم القاضي إلى الـ « كي دورساي » ، فأنشأ البرلمان الفرنسي الاتحاد الهندي الصيني وأسند ادارته إلى حاكم عام. ثم ما لبثت الدولة المستعمرة ان ضمت إلى هذا الاتحاد مدن توران وهانوي وهايفونغ المحصنة الهامة . ولكن الافتقار إلى موازنة عامة شل عمل الحكام العامين الاولين الذين تعاقبوا تعاقباً سريعاً . الا ان « لانسان » ،

الذي آثر « على الحماية الماضية اللاامبالية والجائرة » « حماية امينة على احترام القوانين والاعراف والمعقدة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاداري في امبراطورية آنام » ، التمس محبة رعاياه او اقله ثقتهم : فأعفي من منصبه . وكان روسو اول من استحصل على قرض استعماري فسار بالهند الصينية نحو طريقة « دومر » الحازمة .

بوشر بادىء ذي بدء استثمار مناجم الفحم في « هونغاي » . ثم اكتشفت معادن مختلفة في تونكين لم تتوفر رؤوس الاموال لاستخراجها . ونقلت شحنة الشاي الاولى إلى فرنسا في السنة ١٨٩٤ . واذا كان صحيحاً من جهة ثانية ان الشبكة التلغــرافية قد انشئت وان سايغون نمت نمواً اوروبياً ، وان هايفونغ جهز ميناؤها ، فان هانوي ليست بعد سوى مجموعة من القرى المتجاورة التي تحتاج الى مجهود تجهيزي كبير . واذا فاقت صادرات كوشنشين وارداتها ، فان كفة الواردات في الميزان التجاري في انام وتونكين مـا زالت راجحة .

ويجب الاعتراف بان البؤس قد تعاظم بتزايد الكثافة وان الاعيان لم يلقوا سلاحهم الا ظاهرياً .

الامبراطورية الصينية القديمة

بينما انتهت امبراطورية الهند المغولية الى الانحلال في القرن التاسع عشر ، اعادت السلالة المنشورية بناء الامبراطورية الصينية ، اوسع الدول الآسيوية اطلاقاً الى حـــد بعيد . وقد ضُمت اليها ممتلكات خارجية واسعة – منشوريا ، منغوليا سن – كيانغ ، تيبت – امنت حمـــايتها من جهة بدو البورات ، فنامت بثقلها على مصائر الهنـــد الصينيـة ، وتدخلت في النيبال ، وعقدت مع روسيا اتفاقات تعترف لها بحـــدودها « آمور » ، وخط « سايــنك » ، والالتاي ، فكانت في الحقيقة « ارض الوسط » (تشونغ كوو) » او « الامـــبراطورية الكبيرة الخالصة » (تا تسنغ كوو) ، البالغة مساحتها ١١ مليون كيلومـــتر مربع ونصف المليون ، والمحمية من السماء . ومع ان شخصاً واحداً لا يستطيع تقدير عدد سكانها ، فبمقدورنا ان نحلها في المرتبة العددية الاولى (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة) .

وألفت كذلك أكبر مجتمع قروي في العالم ، منكب خير انكباب على العمل من أجل تأمين الغذاء اليومي في إطاري العائلة والقرية وفي كنف الجـــدود ، وناظر الى السلطة الامبراطورية الحامية كما الى شر لا بد منه . واذا لم يكن هناك من شعور قومي ، فان هذه الجماعات العقارية الكثيرة قد أحست ، بثقة وزهو ، بشعور انتمائها الى حضارة عـــريقة يكمن سر تفوقها في انها تعرف وتحفظ سر كل حكمة . يضاف الى ذلك انها استمدت قوتها من ضخامة عدد السكان نفسها . وأساغت الفاتح بالسهولة التي ازدردت بها بالاجنبي . وقــد عرفت البقاء بالرغم من الكوارث الطبيعية والثورات السياسية ، حتى ولو اوجبت عليها دفـــع الثقل ضريبة مهلكة البؤس والمرض والمجاعة .

على غرار معظم السلالات التي اختارتها الصين ، او بالاحرى قبلت بها ، شـــعرت السلالة

المشورية ببعدها عن الشعب وارتباطها به في آن واحد بميثاق محبة متبادلة. وقد عاش الامبراطور في بكين في المدينة المحرمة ، اسير عادات بروتوكولية مهيبة تحميه وتراقبه معاً « البيارق » التي تسيطر حامياتها العسكرية على الولايات. ولكنه « هوانغ - تي » ، اي انه يعرف الخير ويستطيع توفيره. ويكفيه التقيد بالاوامر المدونة في الكتب الكونفوشيوسية التي تقوم مقام الدستور ، شأن الاوامر القرآنية. ومن حيث لم تكن هناك طبقة اشراف وراثية ، عول على الامتثال في تعيين من يطلب منه خدمة السلطة اي تحديد الكلمة الواجب قولها والحركة الواجب القيام بها والعادة الواجب اتباعها : ابواب الامتحان مفتوحة للجميع وبمكنة افقر الناس ان يصبح نائب الملك. ولكن كبار الموظفين ، بالاضافة الى اختيارهم بنتيجة امتحان عن ظهر القلب ، وبدون اي شرط خلقي او ذهني، قد الفوا في الواقع هيئة مثقلة السلطات ، ملزمة بالشكليات الضيقة ، متمرودة نقل الاوامر ، ومسؤولة تجاه الرؤساء لا المرؤوسين. وعلى الرغم من واجب التجمل بالفضيلة ، لم يكن بالامكان تلافي الفساد. فكيف يؤمن الموظف معيشته ؟ لقد كان يتقاضى مرتباً ضئيلاً فاستغل نفوذه وقبض اجور خدماته وابتز اموال المكلفين. أضف إلى ذلك ان السلطة اعترفت ببيع الوظائف ، لا بل حددت اسعارها بمرسوم صدر في السنة ١٨٣٨.

بيد ان آفة الدولة وآفة الموظفين الكبرى كانت الفقر والافلاس. فلا عجب من ثم إذا سادت الفوضى سيادة مزمنة. واذا صح انها كانت دواء لتطلبات السلطات ، فانها لم تحم الفلاح من الاختلاسات ، بل تخلت عنه للاقتسارات. فيكفي ان يكون الامبراطور ضعيفاً او محاطاً بمعاونين فاسدين حتى تتسع وتنمو. ويبدو ان الاباطرة المنشوريين كانوا بدورهم ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ضحايا حياة البلاط الملأى بالدسائس الوحشية في معظم الاحيان. ولما كان الامبراطور يختار خليفته على هواه ، فقد اطلق العنان للمزاحمات وهو بعد في قيد الحياة ؛ وفي حال القصور الشرعي تنتهي السلطة إلى من يعرف كيف يضع يده عليها ، رجلا كان ام امرأة. لذلك ما زالت الاحبولة الحربية هي طريقة الحكم. فيستنتج من كل ذلك ان ظاهر النظام ليس الا وهماً خادعاً : ولا تستطيع شتى اشكال التهذيب المدروسة اخفاء التشويش الذي يشل الجهاز الحاكم.

وهنالك واقع خطير آخر : اعني به تدني عدد صغار الفلاحين الملاكين وانتقال الارض تدريجياً إلى ايدي ممثلي الادارة الذين يتعاطون المراباة اثناء جمعهم الضريبة واحقاقهم الحق. وكان من هزال الامن ان الكوارث الطبيعية والاضطرابات تعرض اراضي الجاعات لجشع الطامعين باحتكار الارض. اجل لقد حارب « كيان - يونغ » كبار الملاكين ؛ ولكن هؤلاء عادوا من بعده الى الهجوم بمحالفهم. تزايد عدد السكان الذي حد من مساحة الاملاك الصغرى ومن موارد كل عائلة. وزاد في الطين بلة ان نمو التجارة مع الخارج ادى الى انخفاض قيمة الاراضي : فاستفاد اثرياء التجار من ذلك وضاربوا على قيمة الـ « تايل » الفضي التي تختلف بين سنة واخرى وبين

منطقة واخرى ، وربحوا كذلك من بيع السلع التي يبيعها الفلاح - وهو غالباً ما يكون صناعياً يدوياً - في المدينة مقابل بعض النقود النحاسية (سابيك) ، دون ان يفضي ذلك إلى تقلص النشاط الصناعي من قيود تنظيمه الخانق. وقد نجم عن ارتقاء هؤلاء الاعيان والزعماء الريفيين تقوية الاثرة الاقليمية التي قاومت ابدا قيام سلطة مركزية على بعض القوة، بسبب اتساع مساحة الامبراطورية .

لا تقوى وحدة الحضارة لعصري على إلغاء التنوع . وفي صين الولايات الثانية عشر ، تختلف الصين الشمالية عن الصين الجنوبية . فان تربة الاولى الصفراء والخصابة لم تكفها مؤونة الجاعات بسبب جفافها وافتقارها الى الاسمدة ولفيضانات الانهر الكبرى المخربة احيانـــاً . وان هذه الصين التي لا تنتج حريراً جيداً ، والتي لا تنعشها الحياة البحرية قط ، عمدت ابداً الى مهاجمة المرتفعات الغربية ، وتطلعت الى « شان - سي » الغنية بالمناجم ، والمنحدرات التي يستطيع الاستثمار الريفي استثمارها ؛ صين معرضة لهجمات البدو ، اختارت السلالة المنشورية الاقامة فيها ، قريبا من منشوريا التي توفر لها جنود الحاميات العسكرية . ويقابلها صين حارة ورطبة وكثيرة النواتىء . وقد توفرت الشمال طرقات ومسالك تسير عليها العربة الثقيلة ذات العجلتين والنقالة الشراعية ؛ اما هنا فتوجب اللجوء الى الحمل المضني او الى الزورق الشراعي الذي امن المعيشة عن طريق الصيد والملاحة لعدد كبير عائم من السكان . وعاشت « هو - نان » في عزلة كارهة الاجانب ؛ وتوفرت لـ « تشي - كيانغ » مرافىء كثـيرة السكان والحركة ، ومنحدرات تغطيها اشجار الشاي ؛ وهناك « نغان - هوي » و « كيانغ - سو » و « فو - كيان » - ويطلق عليها اسم « الازهار العجيبة الثلاث » - التي تتعاطى كلها زراعة الارز والقطن وتربيـة دودة القز ؛ والى اقصى الجنوب قامت « كوانغ - تونغ » التي استفادت من الاحتكار الذي استحصل عليه تجارها وتعاملت مع الاوروبيين عن طريق « ماكاو » .

الى الغرب من المناطق الكثيفة السكان ، انتصبت مناطق الحدود الجبلية القليلة الكثافة . فقد ثبت الصينيون اقدامهم في حوض « سي - تشوان » الاحمر الاعلى الذي يشاع الكثير عن موارده المختلفة ؛ وامتدت حول هذا الحوض مناطق واسعة ما كان الصينيون ليشعروا فيها بأنهم في بلادهم حقاً : ففي قلب « كوي - تشيو » و« يونان » اللتين يجب اجتيازهما مروراً بـ « طريق العشرة آلاف سلم » لبلوغ تونكين ، يختلط الـ « لولو » والـ « ميار - تسو » والـ « تاي » بأبناء الامبراطورية السماوية الذين يكاثر بينهم الخـلاسيون ؛ وابعد الى الشمال تقد « كان - سو » و « شن - سي » اللتان تؤلفان حدود امكانات الزراعة الصينية وتصلحان لتربية المواشي كما في اليورات ، على الرغم من تربتها الرسوبية . اضف الى ذلك ان الاسلام استقر من جهة في كان - سو ، ومن جهة اخرى في يو - نان؛ ويبدو ان هذا التسرب المزدوج كان خطراً على بوذية وكونفوشيوسية الشرق الاقصى ، بينما وصل « الشياطين البيض » الى مداخل الصين عن طريق البحر وطريق سيبيريا في آن واحد .

دفاع الامبراطورية الصينية عن ممتلكاتها الخارجية

بين حملايا وسيبيريا خضع جزء كبير من آسيا الوسطى للصين منذ توسع السلالة المنشورية الجديد في القرن الثامن عشر . ولكن ما حدث هو ان بستاني السهل الاصفر اهمل هذه المساحات او تعرض لغزوات البدو النجانية . اضف الى ذلك ان هذه الاراضي كانت منطقة استعمارية في نظر اهل القرار الصينيين المعولين في معيشتهم على الحبوب والاسماك ، دونما اكتراث لتربية المواشي التي توفر الحليب فسيطرت هنا حضارة الالبان والخيام التي استخدمت الحصان والجمل والقطاس لاعمال النقل ؛ ولو فرضنا ان الصيني عرف ساكن هذه الخلوات بالحنطة والذرة البيضاء ، لاعدها لطعامه بزبدة نامية .

وكانت الصين موجودة في هضبة التيبت الشديدة البرد والمقفرة في ثلاثة أرباع مساحتها . فأرسلت اليها المقيمين او « امبوان » ؛ ونصّبت الـ « دالاي - لاما » ، زعيم أعظم طائفة بوذية تصلباً وتسلطاً ، الذي يملك الارض ويجبي العشر ويشرف على التجارة وبيع المعجزات والصلوات . وصدرت اليها الشاي والتبغ . وأدركت اشعاع اللاما الروحي على العالم البوذي : فضمنت راحة الحجاج الذين يسلكون طريقاً عنيفة تؤدي الى التيبت من « سي - تشوان » او من « كان - سو » ؛ وراقبت علائق التيبت بالهند بواسطة مجازات لاداك ونيبال وبوتان . الا ان الاتفاق بين الانكليز ودول مناطق حملايا قد أثار حفيظتها . وحين اضطر نائب الملك في الهند ، بعد زيارة موفد اللاما لبطرسبرغ ، رداً لزيارة بعض البوذيين الـ « بوريات » والـ « كلموك » الى التيبت ، الى الاستيلاء على سيكيم والقيام بمناورة عسكرية في لاسا في السنة ١٩٠٤ ، قبلت بكين ظاهريا باتفاق ينطوي على اقصاء كل دولة اخرى ، ولكنها عادت فاحتلت لاسا عسكريا منذ السنة ١٩١٠ . فكانت لها الكلمة الفصل مرة أخرى .

تناول الضغط الروسي مناطق الحدود الطويلة الممتدة بين بامير والآمور حيث كانت الامبراطوريتان متقابلتين وجهاً لوجه . ولكنه تقابل بعيد اتضحت معالمه بتوطد سلطة القيصر على سيبيريا وتركستان الغربية . فقد وصلت الاورال ببايكال ، بين البورات والـ « تايغا » ، وعبر الانهار الكبرى ، طريق الـ « تراكت » السيبيرية البالغة ١٦٠٠ كيلومتر طولا . وأسهم سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في نرتشنسك ، ومعتقل « تشيتا » الذي جهزه رجال ثورة كانون الاول ، والاندفاع الجماعي وراء البحث عن الذهب في الالتاي باتجاه الـ « لينا » و الـ « فيتيم » ، واستمرار نفي المجرمين السياسيين ، في توطين السلافيين الاولين بين الـ « تونغوز » والـ « بوريات » الرعاة المتشتتين بين منغوليا والدائرة القطبية الشمالية . وأسس القوزاق في الوقت نفسه الـ « فوريكوس » في نقاط عدة من الحدود وتعاطوا الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد . وفي مؤخرتهم وسع ألوف الفلاحين الفرتى ، باتجاه الشرق ، اراضي زراعة الحبوب التي تكمل الاراضي الاوروبية السوداء ، بينما انشئت المدن الكبرى المتميزة بمساكنها الخشبية وشوارعها الضيقة ، « اومسك » ، و « تومسك » ، و « كراسنويارسك » ، و « اركوتسك » ، التي ألفت

سلسلة من المحطات نحو الشرق الاقصى . وبعد ذلك امتدت اراضي شرقي بايكال الغنية بالمناجم والمواشي ، التي تتصل بالمناطق البحرية وأماكن صيد الاسماك فيها ، وحتى بالاسكا نفسها .
ومنذ السنة ١٨٩١ انشىء اطول خط حديدي في العالم بغية تأمين المواصلات في كندا الثانية هذه على غرار « الخط الكندي الباسيفيكي » ، فجاء يعبر عن تصميم روسيا القيصرية على التوسع قرب الممتلكات الصينية الخارجية ، اعني بها سن – كيانغ ومنغوليا ومنشوريا .

حرصت بكين على مراقبة طرق القوافل وطرق الغزو هذه . وان سي – كيانغ التي عرفت قديماً باسم « سرند » هي تركستان الشرقية التي اقام فيها الروس والتي تصلها بالغرب مجازات سهلة . فمن جهة تؤدي طريق الشمال (بي – لو) عبر زنغاريا وكولجا واوروم‌تشي ، الى « لان – تشيو » ؛ ومن جهة ثانية تمر طريق الجنوب (نان – لو) ، عبر « ترك – دافان » (مرفأ الحور) » في قشغر وتسير بموازاة التاريم الى ان تؤدي كذلك الى كان – سو وشن – سي .
وان هذه الطرق التي اقام على جوانبها الرعاة وأهل القرار تمر كذلك في عدد من الواحات .

في نان – لو تولى زراعة السهول الرسوبية الضيقة اكلة خبز الحنطة او الذرة الصفراء الفارسيو المنشأ والمولعون بالـ « بيلاف » – الارز المتبل بالفلفل الاحمر – : جماعات سارتية شرقية ، وجماعات سوغديانية اعتمدت لهجة تركية قريبة من لهجة الاوزبك السارتيه . وكان رعاة « التنطاغ » اتراكاً ايضاً . فتطلع هؤلاء واولئك نحو الغرب الذي ابتاعوا منه الحبوب والاسلحة والادوات وباعوا منه الاصواف والجلود والطنافس والبود . وقد سيطر على هذه المناطق اسلام غير متطلب ، اذ ان المرأة حرة ولا تستتر بالحجاب قط . وتجانبت المدينة الاسلامية والمدينة الصينية على غير تعامل . واحدق بهذه المناطق خطر خانات فرغانا . لذلك فرض اباطرة القرن الثامن عشر الجزية على زعماء القبائل هؤلاء . ولكن امتداد النفوذ الصيني كان سريع الزوال .

على غرار قشغاريا ، عانت زونغاريابريا الامرين من نتائج حروب الصينيين ضد المغول الغربيين ، المعروفين باسم « الوثنيين » ايضاً ، الذين ردوا في النهاية الى ما وراء الالتاي .
فأقيمت حاميات عسكرية صينية في كولجا وبي – لو ؛ ووطن كبار المسؤولين الصينيين في الجهة الشمالية من تيان – شان مغولاً من التوغورت الآتين من الفولغا ولا سيما من الـ « دونغان » الفلاحين والصناعيين البدويين المجتهدين ، ولكن المرتفعات بقيت مأهولة بالرعاة القازاق المسلمين والكلموك البوذيين . وما لبثت العلائق ان اقيمت بينهم وبين المراكز الروسية المبنية على طول نهر « ايلي » ، وان فتحت معاهدة كولجا ، التي ابرمتها بكين في السنة ١٨٦٠ ، ابواب الـ « بي – لو » امام التجارة الاجنبية .

كانت آسيا العليا الاسلامية في حالة هيجان شديد حين اقتربت جيوش القيصر منها . ففي السنة ١٨٦٢ ، اندلعت ثورة في قشغاريا لم يلبث ان تولى قيادتها زعيم دونغاني اسمه يعقوب الذي يبدو انه سعى وراء اطماع سياسية كبرى : اعتمد على خان كوكند الذي زوده بالاسلحة

والاعتدة» ويراسل سلطان الاستانة وحتى حكومة الهند، وابتغى تأسيس امبراطورية «الويلية» جديدة لعارضي الطريقين المؤديتين الى سن – كيانغ. فاحتل زونغاريا ثم سار قدماً نحو «بامير». فاعترف الروس به واستفادوا من الفرصة السانحة للاستيلاء على كولجا . ولكن الرد الصيني جاء عنيفاً منذ السنة ١٨٧٧ . فهزم يعقوب وقتل ، وتخلت روسيا عن كولجا بعد ان استحصلت على حق تعيين قناصل يمثلونها في بي – لو وتان – لو .فعمدت بكين ببراعة الى توطين جماعات منشورية وفلاحين آتين من وادي التاريم وتجاراً آتين من كان ـ سو وتركت القضاة المسلمين حق الفصل في الدعاوى ، ولكنها احتفظت لنفسها بملء كافة مراكز القيادة .

اذا احدث في جامعة كازان منبر لتعليم الصينية ، فانها قد علمت اللغة المغولية أيضاً . لقد ولى الزمان الذي كان فيه الفارس المغولي يمتطي حصانه الضليع ويتسلح بالقوس والرمح ويؤسس الامبراطوريات . فان القبائل (خوشوم)، المتضامنة او المتحالفة بقيادة امرائها الوراثيين ، تعيش حياة خشنة حول الاخبية (يورت) اللبدية المرتبة بشكل « آورل » متجرعة حليب الفرس الحمض او حليب النعجة الخاثر وبائعة الاصواف من الصينيين . وقد شجعت بكين البوذية التي اضعفت الروح الحربية بجعلها عدداً كبيراً من هؤلاء المتشردين على التبتل . فبات اللاماء في وجه المحاربين،خير اعوان الامبراطور الذي نصّب الخانات وأمدهم ببعض المساعدات المالية . وقتمت اديرة « اورغا » بشهرة عظيمة ، وقد اقام الـ « جيتو – تومبا » ، الذي كان مجسداً لبوذا ، على غرار الدالاي – لاما ، في دير « كورّن » . وقد مرت طريق الحجاج من التيبت الى منغوليا في « كوم – بوم » على مقربة من سن – تنغ حيث عاش رسول الجمعية اللاماوية . وكان لهؤلاء الرهبان فداديهم الذين يمنون بقطعان الماشية ؛ وقد بلغوا ١٠٠٠٠٠ في اورغا. وقد ارتدت طابع الاهمية نفسه طريق الشاي الكبرى التي تؤدي من بكين الى«قلغان» والى اورغا ايضاً ، ثم تنقسم الى فرعين احدهما باتجاه بايكال والآخر باتجاه كوبدو وحوض الاوبي . وقد ذهب المستعمرون الصينيون في تقدمهم حتى مشارف « غوبي » الجنوبية حول الاوردوس . ولكن روسيا لم تبق عادمة النشاط والحركة . فقد استخدمت البوريات المغوليين وادخلتهم في فرق القوزاق وساندت « خامبا – لاما » « كياختا » التابعة لاورغا وانشأت مصلحة بريدية بين هذه المدينة و « تيان – تسن » ؛ وحاولت استمالة امراء منغوليا الخارجية الخاضعين لنفوذ الاورغا ، ولن يقر لها قرار حتى يعلنوا استقلالهم عن بكين بعد سقوط المنشوريين في السنة ١٩١١ .

الا ان المجاز المنشوري الواسع قد استهواها اكثر من كل هذه المناطق . اجل لقد اعترفت به الصين في السنة ١٨٥٨ . ولكن هذا السهل الخصب لا يمكن ان يترك الى ما لا نهاية له لرعاة وقناصة مصرّين على موقفهم العدائي لا يستثمرون المناجم والغابات ويحيطون انفسهم بمناطق حدود مقفرة تجنباً لوقوع مراعيهم في ايدي الفلاحين الصينيين الطامعين في زراعة الـ « كاو – ليانغ » والذرة البيضاء والبسلّى،وحتى الحنطة . فشجع رفع القيود المفروضة على الهجرة

لتدفق المستعمرين الآتين من « بي - تشي - لي » ومن « شان - لونغ » . وسهلت الخطوط الحديدية التي بناها الروس هذا الغزو السلمي ايضاً . وفي السنة ١٨٩٥ اصبحت منشوريا لمصري موضوع تزاحم دولي منذ ان اخذت اليابان وروسيا تتنازعانها .

وفي بحار الباسيفيكي الساحلية اعتبرت الصين كذلك جزيرة فورموزا وشبه جزيرة كوريا منطقتين تابعتين لها . ففي فورموزا - اي - وان - قام صينيو فو - كيان شيئاً فشيئاً باستعمار الاراضي ، فدفعوا امامهم الـ « ايفوروت » والـ « هاكا » البرابرة الذين لجــأوا الى المرتفعات . وكانت « تشوسيان » ، « بلاد الهدوء الصباحي » ، مملكة خاضعة لسلطة بكين ، منعزلة جهد المستطاع ، تخشى المطامع اليابانية ، وتصبر على السيادة الصينية النائية : وقد بلغ سكانها بين ٩ و ١٢ مليون فلاح متكاسلين يكادون لا يحصلون على قوتهم الضروري ولا يمنون العنايـــة الكافية بطرقهم وجسورهم ، ويبيعون من الصين الـ « جن - سانغ » ،المقوي المشهور ، والورق الذي يستخدمونه لغايات كثيرة ، ويرغبون في الملابس الزاهية . وقد كتب « دو كروك » : « ان سيول لمعمل كبير لتبييض النسج لا تتوقف فيه تكتكة المضاجع قط ».واشتهرت البلاد بنسائها الانيقات الحريصات على العناية بشعرهن ، ورجالها القيد القحانيين . وكانت ملكية مطلقة خفف من وطأتها كبار المسؤولين المثقفين ثقافة صينية . وقاومت كوريا التبشير بالديانة المسيحية ، لا بل عمدت الى اضطهاد اوجب على الغربيين القيام بمناورات بحرية في مياهها الاقليمية . ولكن الخطر احدق بها ، بعد السنة ١٨٧٠ ، من جهة اليابان التي ارغمتها على السماح لها باستخدام ثلاثة مرافىء ، على الرغم من اعتراضات الصين . وان موقع كوريا وضعفها قد جعلاها ، كما حدث من ذي قبل ، فريسة اليابان ، او أية سلطة أخرى ، كلما عجزت الصين عن حمايتها .

تباشير التدخل الاوروبي في الصين واول أزمات الامبراطورية الصينية ثورات الـ « تيبنغ » والمسلمين

الضح انحطاط السلطة الامبراطورية في الصين في اوائـــل القرن التاسع عشر . ولعل ابتزازات كبـــار الموظفين وتجاوزاتهم والخفة والشنشنة العامة تفسر سوء حالة الطرق وخراب تحصينات المدن وفقدان الأمـــن ونقص الحبوب المتكرر في الشمال الذي جعل الحاجة اشد الحاحاً الى أرز المناطق الجنوبية . وكان كذلك لجشع كبار الملاكين العقاريين والتجار نصيبه في تفاقم سوء حالة الجماهير .

برزت منذ ذاك الحين مظاهر العداء لسلالة الـ « تسنغ » ، ولا سيما في الصين الجنوبية حيث كان نفوذ الاباطرة المنشوريين ضعيفاً وحيث تأسست جمعيات سرية كثيرة (الثالوث ، النيلوفر الابيض ، السراط المستقيم) اتخذت شعاراً لها : « لنقلبن التسنغ ونعيدن المنغ »، ولكنها لم تخف قط كراهيتها للاجنبي . الا ان تدخل الاجانب بالذات هو ما اثار الازمة ، والعون الذي تلقته بكين من هؤلاء الأجانب أنفسهم هو ما ضمن لها الخلاص .

بعد التنازلات التي سُلم بها لكراهية الأجانب ، ساءت العلائق بهؤلاء بسبب تحريم الدعاوة المسيحية (١٨١٤) ورفض التفاوض مع الدول الاوروبية على قدم المساواة . وقد شكى الأجانب من تزايد متطلبات جمعية الـ « كوهونغ » الحاصلة على احتكار التجارة في كانتون . وفي سبيل زيادة حجم مكاسبها ، حاولت شركة الهند الانكليزية ، التي كانت تشتري الشاي والخزف الصيني والحرائر والقطنيات الصفراء والصموغ ، تصريف الافيون في الصين على الرغم من المنع الذي استهدف هذا العقار . فاعترضت بكين ، واورد الامبراطور في احدى مذكراته في السنة ١٨٣٨ : « ان هذا الشعب (الانكليزي) الذي ليس لديه ما يؤمن به معيشته يسعى وراء استعباد البلدان الأخرى باضعاف سكانها اولاً ...) ، ولكن ما أقلق الحكام الصينيين اقلاقاً ماثلاً على الأقل هو انقلاب سعر المعدن الأبيض . فكان الرد من ثم على التهريب المطلق العنان الذي انصرف اليه الانكليز تحطيم صناديق الأفيون . فأفضى ذلك الى توجيه حملة عسكرية حاصرت كانتون ثم ضربت نانكين بالقنابل امام تصلب بكين. فوقعت في نانكين في السنة ١٨٤٢ اولى « المعاهدات غير المتساوية » التي فتحت خمسة مرافىء وألغت احتكار الكوهونغ واكرهت الصين ، بالاضافة الى ذلك ، الى التخلي عن جزيرة هونغ – كونغ ودفع تعويض حربي .

ألحقت « حرب الافيون » الضرر بالصين ، ووجهت في الوقت نفسه ضربة قاسية لنفوذ السلالة المنشورية التي أعطت الدول الأخرى حق حرية التجارة في المرافىء المفتوحة . ولكن غليان الشعب تزايد باطراد . فشكى المحافظون ، الذين تألموا في كبريائهم من الذل الذي لحق بالامبراطورية السماوية ، اتفاق السلطات المبيعة مع « البرابرة » ، تجار الأفيون والكتب المقدسة والبنادق ، وشاري العمال لمستعمراتهم . وبينما اخذ استيراد المصنوعات الاوروبية والاميركية يلحق أذى كبيراً بالصناعي اليدوي ، زاد خروج الفضة من البلاد في سوء حالة المزارعين والمكلفين الذين اضطروا الى إيفاء ما عليهم نقداً معدنياً اكثر ندرة . أجل لقد جمع تجار المرافىء الثروات ، ولكن واردات الحكومة هبطت حين توجب عليها دفع قيمة التعويض الحربي .

كانت حركة التايبنغ من ثم ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم اليهم معوزو المدن والملاحون والحمالون وعمال المناجم وحتى الافاقون والقراصنة والفارون من الجندية . ولكنها جرت وراءها ، في كل مكان تقريباً ، المثقفين والملاكين الطارجين والتجار المعادين لبكين . وشاعت بعض التنبؤات حول عودة المنغ وقص ثوار كثيرون ضفيرة الشعر التي فرضها التسنغ عربوناً للخضوع . وقد عرف الثوار باسم رجال « تاي – بنغ تيان – كوو » أي رجال « المملكة السماوية للسلم الاكبر » ، وهي جمعية تأسست في كوانغ – سي بين الفلاحين الـ « هاكا » ، الآتين من الصين الوسطى ، الواقفين في وجه الفلاحين المحليين الذين تساندهم بكين . فساروا وراء « هونغ هيو – شوان » الذي قرأ الكتاب المقدس وحفظ منه التوحيد وشمول مملكة الله .

وانتقدوا كونفوشيوسية كبار الموظفين الأنانية ، فحرروا المرأة وحرموا الأفيـون والميسر واعتمدوا روزنامة مستوحاة من الروزنامة الغربية ووضعوا نصب أعينهم تنمية التجـارة والصناعة ، ولكنهم نادوا كذلك بشيوعية زراعية بدائية واقتبسوا عن الصين القديمة الاولى بعض المؤسسات السياسية والعسكرية . ولن يلبث مثل هذا البرنامج ان يبعد عنهم العناصر المتمسكة بالتقليد .

الا انهم احرزوا في البدء نجاحاً ساحقاً . ففي أقل من سنتين ، انطلقوا من كوانغ – سي وهزموا اعداءهم في كافة اتجاه حوض يانغ – تسي ، واستولوا على هان – كعيو ثم على نانكين ونظموا حكومة تولت إعادة توزيع الاراضي لمصلحة جماعات الفلاحين وانشأت صناعة دولـة تنتج للمستودعات العامة المعدة لتموين جيش مبني على الخدمة العسكرية الالزامية . ولكن التايبنغ اخطأوا هدفهم بتفويتهم فرصة قلب الامبراطور الضعيف « هيان – فونغ » . ولعـل جنودهم انفوا من المخاطرة بنفوسهم في السهل الكبير . ولكن مهما يكن من الأمر فان سيرهم على بكين قد انتهى الى الفشل بسبب تأخره وسوء تنظيمه . ولم تحرز الثورة بعد ذلك تقدماً يذكر لانها ضعفت بفعل الاثرة الاقليمية التي اضاعت عليها الاهداف الواجب بلوغها، وامتعاض المثقفين والأغنياء الذين اخافتهم سياستها الاصلاحية المتطرفة، وامتعاض الفلاحين الذين اضطرت بدورها الى فرض ضرائب ثقيلة عليهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انها اعيقت في مؤخرتها، ابتداء من السنة ١٨٥٦ ، بثورة أخرى هي ثورة المسلمين في يونان التي اندلعت بين عمال مناجم كبريت الرصاص الممزوج بالفضة . وما لبث الاسلام الصيني بأجمعـه ، في كان – سو وسن – كيانغ ان انضم اليها .

ولكن بكين سوف تتمكن من الصمود . فقد ناصرها بادىء ذي بدء إقطاعيو هـو – نان الذين جندوا الجيوش ووقفوا في وجه التايبنغ ، ثم التف حولها كافـة كبار الموظفين الذين توحدوا امام الخطر ورفعوا علم الكونفوشيوسية . الا ان الوضع سيبقى متأزماً طالما هي لا تستطيع الاستعانة بالاجنبي . والحال استفاد هذا الاخير من الازمة ليفرض رقابة جمركيـة حقيقية ، ثم تعلل بخرق المعاهدات ليقوم بمناورة جديدة تثبت قوته . فاستولى الفرنسيون والانكليز على تيان – تسن ثم تقدموا حتى بكين حيث اجتاحوا « القصر الصيفي » . وقـد ارغمت الامبراطورية على فتح مرافىء جديدة ودفع تعويض حربي جديـد والتسليم بوجود ممثلي الدول في عاصمتها ، بينما حصل الروس على الولاية البحرية واسسوا فيها فلاديفوستوك على شاطىء بحر اليابان . فكان ان اللورد « إلجن » ، الذي سبق لوالده ان نهب الاكروبول في اثينا، والذي تأثر هو نفسه بكنوز القصر الصيفي ، كتب في صحيفته ان التجارة « تمارس في ظروف فاحشة بالنسبة الصينيين ومفسدة للاخلاق بالنسبة لمواطنيه » . وعلى الرغم من ذلك ، فان السيد الحقيقي لعلائق الصين بالعالم اصبح منذ ذاك التاريخ السير « روبرت هـارت » ، مفتش الجمارك البحرية العام . وجلي في مثل هذه الظروف ان « البرابرة » ما كانوا ليقفوا الى جانب

التايبنغ . يضاف الى ذلك ان تحولاً قد طرأ على موقفهم حين آثر المرسلون والرأسماليون استتباب النظام في ظل سلطة تخضع لرقابة شديدة . ثم ان نجاحات الثورة الاسلامية قد اخفت تلض مضاجعهم ، فتكون بينهم وبين بكين تضامن لم يكن لمصلحة نانكين . فتدفقت الاسلحة والمتطوعون على المعسكر الامبراطوري ، واشرف الاميركي « وورد » والماجور البريطاني غوردون – الذي سيشتهر باسم غوردون باشا – على العمليات العسكرية التي انتهت بسحق العصيان .

الا ان قمع الثورة الاسلامية سيتطلب سنوات طويلة . اجل لقد عقد من قبل اتفاق في يونان مع السلطات الامبراطورية ، الا ان القتال تجدد باشراف زعماء جدد حل احدهم لقب السلطان . وفي سن – كيانغ مضى يعقوب في المقاومة حتى السنة ١٨٧٧ . فاجتيحت ولايات كاملة ، ودمرت بعض المدن كـ « سو – تشيو » ونانكين ويونانفو . وكانت آثار الخراب لا تزال ظاهرة في يونان حوالى السنة ١٩٠٠ . وقد عقبت هذه الحروب مجاعة السنة ١٨٧٧ – ٧٨ الرهيبة التي جاءت ضغثا على إبالة .

فخرجت الصين من المحنة منهوكة القوى وخاضعة لوصاية تكاد لا تكون مقنّعة ، اعني بها وصاية الغرب .

نجاحات النفوذ الاجنبي الجديدة والأزمة الثانية في الامبراطورية الصينية

منذ السنة ١٨٧٠ حتى السنة ١٨٩٥ ، عرفت الصين هدوءاً نسبياً أتاح بروز رأسمالية بلدية وانتشار آراء الاصلاح والتجديد في الاوساط التي تعاملت مع « البرابرة » ورافقت بانتباه التطورات المدهشة التي كانت اليابان مسرحاً لها .

استمر التعاون بين الغرب وبكين في الحقل العسكري . وقد أقلق تفوق البيض المفوض « لي تساو – سن » ، فاستصدر منذ السنة ١٨٤١ ، ١٢ مجلداً من « حوليات الامم البحرية المصورة » . كما ان المدفعية المصرية احدثت انطباعاً عظيماً . فتجند بعض الشبان في الوحدات البحرية البريطانية او تلقوا دروسهم في سان – شامون والا « كروزو » ، بينما اسند نائب الملك في فو – كيان الى بعض ضباط البحرية الفرنسية امر بناء دار صناعة بحرية في فو – تشيو سوف يضربها « كوربيه » بالقنابل في السنة ١٨٨٤ . ونقلت مؤلفات علمية عديدة بعناية معهد أسسه القس الاميركي « و. أ. ب. مارتن » : فعلمت الاصول الدبلوماسية ، ولقن اللغات الاوروبية بعض موظفي وزارة الشؤون الخارجية – « تسونغ – لي – يامن » – التي انشأتها الامبراطورية بعد المعاهدة . ثم اخذ يسود الاعتقاد بأنه يكفي الحصول على سر التقنيات الغربية للعودة بالبلاد الى الاستقلال .

ولكن علاقة وثيقة جداً لوحظت بين اوساط الاعمال الاجنبية وبعض كبار الموظفين .

ففي السنة ١٨٦٢ ، عين لـنغ – كوو – فان، الذي لعب دوراً هاماً في الحرب ضد التايبنغ، عدداً من المهندسين البريطانيين ، واسس اول دار صناعة بحرية على النهر الأزرق في نانكين. وبعد مرور ثلاث سنوات بدأت « شركة « كيانغنان » لاعمال الاحواض والهندسة » عملها في شنغاي . وفتح « تشانغ – تسي – تونغ » ، حاكم هونان ، مصنعاً للغزل ومصنع حياكة آلية في « او – تشانغ » ، ثم دار الصناعة البحرية في « هان – يانغ » . وكان « لي – هونغ – تشانغ » مثال الموظف الفطن ، فأقام ، بوصفه ناظر التجارة ، علائق ودية بينه وبين رقابة الجمارك ، ولم يهتم بتأسيس دور الصناعة البحرية ومصانع الغزل فحسب ، بل بتشجيع شركة « الملاحة البحرية لتجار الصين » وانشاء خط بين تيان – تسن وشنغاي والاتفاق مع « شركة التلغراف الشمالية الكبرى» . فأدت مكاسب المقايضة الداخلية من ثم الى قيام مشاريع عصرية استمالت الرأسماليين الاوروبيين والاميركيين استمالة شديدة .

خضع هذا النشاط لسيطرة الانكليزية . ففي هذا العهد استطاعت منشتر الادعاء بالباس « الساويين » ، واحتلت لندن المرتبة الاولى كمستودع الشاي الصيني واحتلت مركز الصدارة في تجارة الجرائر التي اهتم بها « ارتشيبالد لتل » ، معهد الطريق للملاحة البخارية في « يانغ – تسي » الأعلى . وانطلقت هونغ – كونغ انطلاقة قوية وسريعة عانت منها كانتون وما كاو . فأصبحت أكبر مستودع للبضائع ومركزاً مصرفياً اشع في كافة انحاء الشرق الاقصى . وقد تولى مصرف « جاردين – ماتسون » ، ومصرف « هونغ كونغ وشانغاي » المرتبط بـ « مصرف شبه الجزيرة والشرق » ، البت بكافة المعاملات . وبفضل حسن ادارة حاكميها « هنري بوتنغر » ، مثلث الجزيرة ، التي لا تتجاوز مساحتها ٧٥ كيلومتراً مربعاً، بأحواضها وأرصفتها وابنيتها الكبرى، انتصاراً على الصخر الغرانيتي والحيّات والقراصنة . ثم انطلقت شانغاي بدورها . فانتشر نقدها « الـ « تايل » في كافة انحاء الصين . وتجاورت المؤسسات البريطانية والفرنسية والاميركية على طول رصيف جيل – بوند – قامت أمامه احواض السفن والمعامل . أما المدينة الصينية المحاذية فقد حافظت داخل أسوارها على حوانيتها المضاءة بمصابيح ورقية والمعرف عنها بمناور عمودية ، كما حافظت على قذارتها وروائحها النتنة . وبفضل نشاط الملاحة دبت الحياة في مياه النهر الازرق الوحلة بين شنغاي وهان – كيو ، المركز الصناعي الآخر الآخذ في النمو . واما تيان – تسن والمرافىء الشمالية فستنال في عهد لاحق قسطها من هذا النمو .

مائة وثلاثون مليوناً في السنة ١٨٤٢ ، واكثر من مليار في السنة ١٨٨٠ : ان هذه الارقام لخير دليل على لحاجات التجارة الخارجية . الا ان الميزان التجاري ما زال في عجز : فان شراء القطنيات والافيون والارز قد ضخم حجم الواردات تضخماً مفرطاً . اضف الى ذلك ان بكين قد عمدت الى صك كمية متزايدة من النقد الفضي لتتمكن من القيام بتعهداتها . وهبطت قيمة التايل الى نصف سعره بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٩٥ : فشجع ذلك عمليات التصدير ، ولكن البلاد استسلمت اكثر فأكثر الى الرأسمال الاجنبي عن طريق القروض وتوظيف الاموال .

ان الهجرة الى الصين ، المحدودة جداً بالنسبة لسكان هذه الاخيرة ، قد اصطدمت بعقبتين هامتين هما الفقر وكراهية الاجنبي . فان انشاء الخطوط الحديدية قد اعتبره العديد من الصينيين خرقاً للقدسيات : اذ ان التنين الصيني لن يغتفر لاولئك الذين يغرزون المسامير الفولية والمسامير المثناة في ظهره . وقد انتزع خط تبرعت به مؤسسة انكليزية في شنغاي لايصال هذا المرفأ بـ « اوسونغ » . ولعرض أحد بائعي الاراضي للضرب بالخيزران حتى الموت . ولم يباشر بناء خط بكين ـ تيان ـ تسن الا في السنة ١٨٨١ ، ولن يوصل بالشبكة المنشورية الا في السنة ١٩٠٧ .

نشبت نزاعات سنوية بين الحكومة الامبراطورية وبين هذه او تلك من الدول . وغالباً ما انحنت بكين أمام نفوذ التقليديين الذين ما كانوا ليرضوا بالتسليم بتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد . ولم يكن بالامكان تجنب الحرب مع فرنسا بصدد الهند الصينية . ولكن نتيجتها المؤسفة لم تهدىء الافكار . وان في الصور الدعائية الجدرانية التي تمثل الخنزير بي ـ سو مصلوبا ، وتعديات الجماهير على الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية ، والمظاهرات العدائية بمناسبة تدشين الملاحة البخارية على اليانغ تسي ، لدليلا على المشاعر السامة التي لم يحاول البلاط مقاومتها كما يتضح من تقارير السفارات .

حدثت الازمة الكبرى الثانية حين هزمت الصين في حربها الكورية ضد اليابان في السنة ١٨٩٤ ـ ٩٥ ، فأنقذها الاوروبيون مرة أخرى منتهزين الفرصة للاستفادة اكثر فأكثر على حسابها . وترد الازمة الى ان معاهدة الصلح ، حتى بعد اعادة النظر فيها ، قد قضت بالتخلي عن فورموزا ، واعطاء اليابان مركزاً ممتازاً في الحقل التجاري ، ودفع تعويض حربي كبير جداً . ولما كانت بكين عاجزة عن تسديد المبلغ المطلوب منها ، لم تستطع حرمان مقرضيها من الفوائد التي سلمت بها للمنتصر عليها. فأسرعت الدول الى اقتسام المغانم : هذا ما يعرف بتجزئة الصين . وعلى الرغم من اعتراضات اليابان ومن مناداة الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ، تخلت الصين عن بعض الاقاليم لقاء عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة،فأقامت روسيا والمانيا وبريطانيا العظمى في رأسي لياو ـ تونغ وشان ـ تونغ ، الاولى في بورت- ارثور والثانية في كياو ـ تشو والثالثة في اواي ـ هاي ـ اواي ، بينما أقامت فرنسا في حكوانغ ـ تشيو قبالة جزيرة هاي ـ نان . ورافق هذا الاقتسام نفوذ اقتصادي سريع الخطى : فتح مناطق واسعة للتجارة ،وانشاء مؤسسات صناعية كثيرة (بعد ان حصلت اليابان على هذا الحق) ، وبناء خطوط حديدية جديدة ، واستثمار المناجم . وبرز توسع الرأسمال الغربي عمليا بتأسيس ثمانية مصارف هامة يدخل في عدادها المصرف الروسي الصيني الذي اسهم الفرنسيون في تمويله والذي اهتم بصورة خاصة بالمواصلات بين سيبريا وبورت ـ ارثور عبر منشوريا ، فتميزت المعاملات التجارية وانتاج المصانع بالنشاط . ولكن الصناعة اليدوية انتهت الى الاضمحلال وميزان المقايضات بقي في عجز .

سلمت اوساط الاعمال وبعض المثقفين باضطرار الصين الى الاتفاق مع الاجانب ، فانتشرت

مؤلفات كانغ ـ يو ـ أواي التي أوصت باصلاح التعليم ، وطالبت باقتفاءأثر المستبدين المستنيرين ولا سيما بطرس الاكبر، واستهدفت مداراة كبرياء الصينيين بارشادهم الى الدور الذي باستطاعتهم ان يلعبوه في المستقبل على مسرح العالم . ونقد تشانغ ـ تشي ـ لانغ بالتمسك المفرط بالشكليات ونادى بدراسة التقليات .

وهكذا حدثت في السنة ١٨٩٨ المحاولة المعروفة بمحاولة المائة يوم ، اي فترة الاسابيع المعدودة التي فرض خلالها كانغ ـ يو ـ اواي المتمتع بثقة الامبراطور الفتي كوانغ ـ سو ، اصلاح الامتحانات ، وتبسيط الانظمة القضائية ، واحداث دوائر اقتصادية ، وتجديد الجيش ، ونشر الاخبار المتعلقة بالدول الاجنبية . ولكن الامبراطورة الام ، تسو ـ هسي ، قاومت المحاولة بمساعدة التقليديين والعسكريين المتشورين : فأرغمت الامبراطور على الاستقالة . أما الجماهير فلم تحرك ساكنا .

ما زالت هذه الجماهير متأثرة بالعداوة لكراهية الاجانب . فقد حققت شيعة « قبضة اليد » السلام والعدالة ، التي اعلنت عداءها لغزو البرابرة البيض ، نفوذاً متزايداً في كافة الولايات الشمالية . وقد شجعها الانقلاب الذي قامت به تسو ـ هي ، فأتت أعمال عنف كثيرة ، مخربة الخطوط الحديدية ، ومحرقة الابنية ، ومتعرضة للمبشرين والصينيين المعتنقين الدين المسيحي . وثارت بكين تلبية لندائها وحاصرت السفارات . فوجهت الدول ضد « الملاكين » جيشاً دوليا دخل العاصمة . ولم يتخلص البلاط من هذه الورطة الا بتسليمه ، بوساطة لي ـ هونغ ـ تشانغ، بحل الجمعيات المعادية للأجانب ، ومنع استيراد الاسلحة والاعتدة ، ودفع تعويض حربي ثالث قيمته ١٣٧٥ مليونا .

وجملة القول إن ازمة السنوات ١٨٩٤ – ١٩٠١ انتهت كما ابتدأت بذلة ومهانة . فمن اجل محاربة التايبنغ لجأت السلالة الى اوروبا واستسلمت لمشيئتها . اما الآن فبنا اعلنت عداءها للأجانب . وقد فقدت نهائيا كل امل حين سلكت الصين القديمة طريق الاصلاحات السياسية تحت ضغط القوى الاقتصادية والاجتماعية العصرية .

وجه اليابان القديمة الحبوب وارمتها

على غرار الصين ، خرجت اليابان نهائيا من عزلتها . وهو الاجنبي كذلك من أرغمها على فتح بابها . وانما توفرت هنا الشروط اللازمة لنهضة حقيقية .

تطيب الحياة فيها على ما يظهر . فان الارخبيل الذي ترتفع فيه الجبال ينعشه البحر بازميل امواجه . ويبسط عليه تآلف النور والرطوبة وتنوعات الارض زينة نباتات تلفت الانتباه باختلاف انواعها واريجها . ففي الجنوب يحمل الصيف منه احدى ولايات آسيا الحارة ؛ وفي الشمال ينزل الشتاء عليه ثلوج آسيا الباردة ؛ ولكن الربيع والخريف يستمران استمراراً كافياً لان يبقى المرج مزهراً ، ولا « مارا » ، التي يرتفع فوقها الا « فوجي » ساطعا ، مثاراً لسحر

العيون السامي . كما أن جواً بخارياً في اغلب الاحيان يقرب الآفاق ويحيط بسر غامض ووهم تخيلي المساكن الخشبية الصغيرة الواهية والانيقة والنظيفة ، والمعابد والاديرة والقصور المحفوفة بالاشجار ، وأعمال السكان . ويطيب لهؤلاء ، الذين لا يتصنعون قط ، البحث في كل شيء عن الناحية المضحكة وحتى الماجنة ؛ ويجدون لذتهم في النكات الغليظة ، ويولعون بالصور الهزلية والالقاب ، ويعبر فن الـ « تسوكي » ، واعني به تلك النقوش الهزلية الصغيرة التي يزينون بها الازرار ، عن الذوق اللطيف الذي يتحلى به شعب مرح ومرهف الحس ، كما تعبر عنه الصور المطبوعة على الخشب .

أجل ان الارض تتزلزل (تهدم ١٠٠ الف بيت وفني ٣٠ الف شخص فيما يبدو في السنة ١٨٥٥) ، وتجتاح الـ « تسونامي » السواحل (تسبب احد هذه التيارات البحرية المتلاطمة الامواج في مقتل ٣٠ الف نسمة في السنة ١٨٨٥) ، ويقابل بركان فوجي الهادىء بركان « أساما » الغضوب ، وتتلف الحرائق الاكواخ الخشبية (أحرق ٥٠ الف كوخ في شتاء السنة ١٨٨١ – ٨٢ وحده) . الا ان الاستعارات المفندة اقل من ان تعبر عن جميل الكائنات التي يسعدها السكنى في ارض « الشمس الشارقة » ، المباركة من الآلهة ، حيث يوجد كل شخص في مكانه ، ابتداء من الـ « ارشيتو تنو » ، « الاله الحي بين البشر » ، حتى اوضع الفلاحين الذين الذين ينتجون الارز ، مروراً بالـ « ساي – اي – تاي شوغون » ، القائد المنتصر على البرابرة ، وصاحب الفضل الاول في استقلال البلاد ، المصون بمساعدة الـ « دايميوس » العظام والـ « ساموراي » البواسل . وقد تعلقت اليابان بعاداتها ومؤسساتها التي اقتبست بعضها عن الصين من ذي قبل دون ان تخضع لها . ثم جاء الاوروبيون : فراقبتهم بفضول ، وربما فكرت باقامة العلائق معهم ولكنها اقصتهم حين خيل لها ان موجبات وجودها التقليدية مهددة بالخطر .

ان هذه العزلة المتوحشة حصرت « نيبون » في حضارة مرعليها الزمان لا يحجب عيوبها ما تنطوي عليه من جمال . ففي الارخبيل الصغير الذي تحتل الغابات والصخور ثلاثة ارباعه ، خاض ٣٠ مليون نسمة معركة قاسية لتأمين قوتهم اليومي . اضف الى ذلك ان الاجهاض وقتل الاطفال كانا علاجين مشينين حرمتها الانظمة واستخدما استخداما سهلا : وقد اشير الى هذه المالتوسية التي افضى اليها تزايد عدد السكان باسم « مابيكي » الذي يعني فن تخفيف الخضار .

ارتكز كل شيء الى زراعة غاية في التدقيق وغير كافية معاً . ووفر البحر الاسماك والاصداف والملح وحتى الاشنة التي استخرج منها نوع من السماد . ولكن الارز كان موضوع اعتبار تفضيلي . ولم تشكل الصناعة سوى تكملة لعمل الحقول ؛ وليس هنالك بالاضافة الى ذلك سوى مشاغل نادرة تصنع فيها الاسلحة والنقود . وقضى التنظيم الاجتماعي الشديد بأن تتوفر لكل شخص كمية المواد الاستهلاكية اللازمة له ، ولكنه شل كل نشاط ابتكاري

وعاد السلطة الشوغونية (باكوفو) امر توزيع الارز . وكان الفلاح موضوع تكريم ، ولكنه خضع لرقابة مزعجة . وبالاضافة إلى ان الاراضي كلها كانت ملك الاسياد ، وان طبقة الدايميوس النبلاء استوفت اتاوات عينية ، وان طبقة من المالكين غير المستثمرين قد تألفت واحتفظت بجزء من الحصيد فان هذا الحصيد دخل الاهراء العامة ، بعد احتفاظ المنتج بالكمية الضرورية لتأمين معيشته . وقد حظر ترك الاراضي الصالحة للزراعة مواتا ، واستبدال الارز بزراعة اخرى ، ومغادرة ارض المزارعة دون اذن صريح بذلك . ولكن على الرغم من سهر يبدو على الاحتفاظ بالطابع الدائم لارض المزارعة هذه ، فقد رهن الدايميوس اراضيهم المذخرة ، وزاد وضع المستثمر سوءاً .

سعت السلطة الشوغونية منذ زمن بعيد وراء ارغام الدايميوس على الطاعة : وقد كوفىء الامناء منهم به « كوكو » الارز . وحافظت طبقة المحاربين على امتيار حمل السيفين المعقوفين ، ولكنها الزمت بالخدمة وارغم اعضاؤها على الاقامة في يدو سنة بعد اخرى ، وترك الرهائن فيها اثناء غيابهم . وبسبب بطالتها اصبحت فاسدة الاخلاق وسريعة الغضب . واذا توفق « توكوغاوا » إلى اخضاع ارباب القصور في كوانتو – « بلاد الشرق » بالنسبة إ « فوجي » – فان السلطة السيدية قد حافظت على كل امتيازاتها تقريباً إلى الغرب من هوندو وفي « كيو – سيو » .

تفسر ندرة النقد ورقابة سوق الارز القوة المتزايدة التي تمتع بها التجار اصحاب الامتيازات والصيارفة او « شونين » (اشتقاقاً : رجال المدن) . وكان من جملة اسباب افقار البلاد استدراك خروج النقد ولم يكن مركز النشاط التجاري ناغازاكي ، حيث عقدت بعض الصفقات مع الخارج ، ويبدو نفسها على الرغم من قوة جمعية تجار الارز بالجمل فيها « فودازاشي » ، بل اوساكا التي لقبت بـ « خزانة مؤونة الامبراطورية » بالنظر إلى اهمية اهرائها العامة . وكان اعظم الشونين نفوذا « توايا » او وكلاء النقل البحري ، لان الارباح سلكت طريق البحر بسبب نقص حيوانات النقل وكثرة ضرائب المرور السيدية . وتعاطى بعض التجار تجارة النقد بأقراض الدايميوس من اثمان الارز المتجمعة لديهم . واستمروا في احتكار الاراضي وابتزاز اموال المزارعين. وقد ورد في نص يرتقي إلى السنة ١٨١٦ذكر « البورجوازيين الادنياء النسب » و « انسباء المرابين » بين مشتري الالقاب الشرقية . فثار فرار سكان الارياف الى المدن المخاوف الكثيرة لانه زاد من صعوبات التموين .

روّج ارتقاء اثرياء العاميين وضائقة النبلاء الفقراء الروايات والقصص والرسوم الشعبية الطابع ، البذيئة حيناً ، والهجائية حيناً آخر . وبينما استمرت « نو » او المأساة المقدسة في طريق الانحدار ، انقطع الادب والفن الى وصف الاخلاق بعرض الرذائل او بالاستهزاء بالانحرافات . فأبدع « ابكو » في وصف حياة الجماهير . واذا ما نظر التقليديون الى « هوكوزاي » الحازم نظرهم الى لمصور القذر ، فلانه ينتمي الى مدرسة « اوكيو – يي » المبتذلة ويرسم كل ما

بري ، حتى اكثر الحرف ضعة .

الا ان ردة فعل استهدفت الكونفوشيوسية التي اعتبرها موتووري مصدراً للاخلاق المتراخية . وعلى نقيض مدرســـة الـ « كنغاكوسا » التي ما زالت تطري تقشف الفلسفة الصينية ، رجعت مدرسة الـ « فاغاكوسا » إلى الاصول القومية واعادت الاعتبار لتعاليم الـ « شنتو » . وان موتووري ، الذي اسهم اكثر من اي شخص آخر في تكوين الـ « فابون » اي اللغة اليابانية المكتوبة ، قــد اشار بقوة ، في كتابه « كوجيكي » ، الى حقوق السلالة المتزوية في كيوتو والمتمسة بالصمت . ثم جاء « هيراتا » بعده يشيد بدوره بالعبادة الامبراطورية . وضمت المدرسة الجديدة عـدداً من مؤرخي الحوليات ، معاصري مؤرخي اوروبا الرومنطيقية وعلمائها الواسعي الاطـلاع ، الذين حاولوا ايقاظ الماضي المجيــد . وبينا نادى حزب الـ « ميتو » ، الذي كان يحث بصلة الى الـ « توكوغاوا » ، باصلاحات من شأنها بعث اليابان القديمة وفاقاً لتعاليم الفيلسوف « هودزيتا » ، مكنت شنتوية مدرسة « كاغوشيا » عند كبار الدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية ، ولا سيا « ساتسوما » و « شيوشيو » ، الحاقدين على بيدو ، الذين اقاموا علائق وثيقة بأوساط الاعمال في ناغازاكي . فنمت من ثم حركة عاطفة على إحياء الامبراطورية ، صادقة كانت ام غير صادقة في رغبتها في إنقاذ القيم الاساسية للحضارة القومية .

الا ان الظروف عاكـت السلطة الشوغونية اثناء عهد « تمبو » الذي يوافق النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن حيث ان كلفة المعيشة ارتفعت ارتفاعاً حثيثاً مطرداً ، فقـد قوبل تفضل البعض ، اكثر فاكثر ، ببؤس البعض الآخر . فبين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٤٠ ، تجددت المجاعات الكبرى التي حدثت في اواخر القرن السابق وتخللتها اضطرابات على جانب من الاهمية . فهاجم الـ « ساموراي » والشعب جماعة الـ « شونين » . وفي اوزاكا ، صب الثوار جام غضبهم على صيرفي موسر يدعى « ميتسوي » . فأصدرت بيدو اوامرها الى الفلاحين بالعودة الى اراضيهم ، ولكنها عبثاً حاولت قضاء وطرها من الاغنياء بواسطة نصوص تحــد من النفقات المفرطة ، وفرض ضريبة استثنائية ، والغاء ديونها الخاصة إلغاء جزئياً ؛ وعبثاً ألغت امتيازات جمــعيات التجار والتجارة الكبرى بغية تخفيض الاسعار عن طريق المنافسة : فقد ابطلت كافة التدابير حوالي السنة ١٨٥٠ امام مقاومة بيدو انى ضمت اوزاكا والدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية .

وجملة القول ان السلطة الشوغونية قد فقدت المزيد من اعتبارها حين جاء التدخل الاجنبي يعقد مهمتها ويخدم مصلحة خصومها .

فتح اليابان للاجانب وانهيار السلطة الشوغونية

كانت المقايضات العامة بين اليابان والعالم الخارجي عـادمة الاهمية . فقد خشيت بيدو خروج النقد وفرضت رسوماً جمركية مرتفعة . ولكن اعمال المهربين كانت آخذة في التوسع . الا ان نفوذ البيض قد افاد من الفضول للذي اثاره دخول اعوانهم الصـلبة وكتبهم . ففي

السنة ١٨١٠ اجازت الحكومة فتح مكتب ترجمة خرّج التراجمة وقراء المؤلفات الاجنبية . ومن هولندا أتي بالاحصنة والبطاطا وبالتلقيح ايضاً . وان اوغاتا الذي مارس هذا الاخير ، قد اسس مدرسة الطب في اوزاكا وصنع ملقط جنين بالاستناد الى رسم . وفي ناغازاكي ، فتحت مدرسة عنيت بتعلم اللغة الهولندية التجارية بصورة خاصة ، وفي يدو فتحت مدرسة اخرى عنيت بالتفضيل بالدروس العلمية . وفي السنة ١٨١٢ اهملت الروزنامة القمرية الشبيهة بالروزنامة الصينية . وفي السنتين ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ظهر التصوير وفاقاً لطريقة « داغير » وصناعة الثقاب الفوسفوري والزجاج . والى العهد نفسه يعود اول مصنع للبنادق والمدافع جهزه « ايغاوا » الذي انزل الى البحر سفينة بخارية مزودة بآلة ابتاعها من الهولنديين ، واكب على تحصين جون يدو . واعرب بعضهم عن اعجابهم بما اتاه الغرب . فتذوق الرسام « شيبا – كوكان » رسوم الهولنديين ونقوشهم النحاسية وقلدها . والف « متسوجولي – غنبو » كتابا شاد فيه بذكر الدول الاوروبية . وصودر كتاب « يازوو – دوكوغو » (مناجاة ريفي عجوز لنفسه) لمؤلفه « سوغيتا – غانباكو » الذي كان اول من كتب بحثاً في علم التشريح باللغة اليابانية . وقد صادقه الرسام « واتانابه – كازان » الذي يروى انه مات مسمماً لانه اسس جمعية غايتها نشر الافكار الاجنبية . واحرقت المخطوطة الاصلية للصحيفة التي نشر فيها آراء معادية للنظام القائم . ولكن هل باستطاعة اليابان ان تقوم بما عجزت عنه الصين وتقاوم مناورة عسكرية بحرية ؟

منذ زمن بعيد اخذ الروس يقتربون شيئاً فشيئاً ، مترددين الى شواطىء سيبريا الغربية ومقيمين في الكوريل ، ثم في ساكالين ، في المياه الغنية بالاسماك . وجاءت سفن بريطانية تطلب تمكينها من التموين . ولكن المرافىء اليابانية كانت توفر التسهيلات المغرية للاميركيين بصورة خاصة، على طريق الشاي البحرية . وبعد حرب الافيون اضطر الشوغون الى التخلي عن فكرة منع الـ « ربو – كيو » . فبلت واشنطن انكلترا وروسيا وارسلت الكومودور « بري » بتظاهر في خليج يدو وارغمت الباكوفو المذعور على فتح « هاكودات » و « وشيمودا » في السنة ١٨٥٤ . وعلى الرغم من وجود هذين الميناءين في اطراف البلاد ، فان الخطوة الاولى قد خطيت ، ووقعت اتفاقات مماثلة وتكميلية الاحت للدول ، بعد فترة قصيرة ، الوصول الى ناغازاكي ويوكوهاما ونيغاتا ، ولعهد مقيمين في ايدو واوزاكا ، وتعاطي التجارة مباشرة شريطة تحديد الرسوم المتوجبة . فاضطرت امبراطورية الشمس المشرقة بدورها الى توقيع معاهدات غير متساوية .

ادت هذه التنازلات الى تزايد كراهية الاجانب وثقلت وطأة الازمة الاقتصادية وعجلت ردة الفعل ضد السلطة الشوغونية التي دفعها « ايي ناوسوكي» الحاذق الى مصافحة يد الغربيين دونما وجل . فاستقبل نبأ المعاهدات بصورة عامة كاهانة تلحق بالبلاد . وخاف العديد من الصناعيين اليدويين والتجار من المنافسة وخافوا على امتيازاتهم . فلم يُنقد على الاجانب فحسب ، بل اقنع الدايميوس الامبراطور بالامتناع عن ابرام الاتفاقات ؛ ومن جهة ثانية أخذ دايميوس المناطق

الجنوبية الغربية على انفسهم إقفال مضيق « سيمونوساكي » . فكان الجواب قيام بعض السفن الحربية بقصف تحصينات المضيق بالقنابل ومراقبة الملاحة في مياه اوزاكا ، فأبرمت الاتفاقات وخفضت الرسوم الجمركية . فبدا عجز اليابان وكأنه غير قابل للمعالجة .

ولكن اليابان تعرضت لهزة اقتصادية ايضاً . فمن جهة تسببت الواردات في خروج النقد وألحقت ضرراً كبيراً بالصناعة البلدية ؛ ومن جهة ثانية ادت الصادرات الى ارتفاع سعر الحرير والقطن والحنطة . واذا علمت ان النسبة بين الذهب والفضة كانت نسبة ٨ الى ١ لا ١٥ الى ١ ، تبين لك ان المقايضة وفرت ارباحاً طائلة للأجانب الذين عمدوا الى اخراج الذهب . فحدث اندفاع حقيقي وراء ذهب اليابان ، تأثرت به كافة طبقات المجتمع تأثراً متفاوتاً . واختل الامن وسادت الفوضى ؛ فتعددت الافلاسات ، وجابت زمر الساموراي البلاد معتدية على الاشخاص والممتلكات. وتوفرت عناصر الحرب الاهلية بفعل استطاعة انصار الشوغون وخصومه الحصول على الاسلحة والاعتدة بواسطة الرأسماليين ، من أمثال ميتسوي ، الذين لم يتحمسوا لا لهذه الفئة ولا لتلك . ومن اغرب ما حدث ان الدايميوس الراغبين في الاصلاح الامبراطوري قد اضطروا ، في سبيل تحقيق غايتهم ، الى سلوك السبيل الذي اخذوا على « توكوغاوا » سلوكه . والحقيقة هي ان كل شيء آل الى احداث تبديل عميق. وهكذا اندلعت ثورة السنة ١٨٦٨ التي خرج الامبراطور الشاب موتسو هيتو في اعقابها ، بعد زوال السلطة الشوغونية ، من مقره في كيوتو وجاء يتولى الحكم في ييدو التي اطلق عليها اسم طوكيو (عاصمة الشرق) .

« ميجي » استلم النظام الجديد السلطة في جو البلبلة هذا ، ولم تتوفر له لا القوة العسكرية ولا الموارد المالية الكافية بمقاومة تدخل مسلح ممكن ، فلم يكن باستطاعته قطع علاقته بالدول . ومنذ السنة ١٨٦٨ ، حرص الميكادو على تمكين روعها حيال نواياه : الميجي يعني عهد الانوار ، وبالتالي عهد التعاون مع الدول المتطورة .

من هو بالضبط ذاك الذي سار باليابان في طريق التجدد يا ترى ؟ لقد تكلم بعضهم عن استبداد مستنير كان من شأنه ، باسم أجلّ تقليد وطني ، المحافظة على استقلال الامة بواسطة التغييرات الضرورية ، وضمان مقام سام لامبراطورية الشمس المشرقة بين الامم . ولا يجوز الانخداع بأهمية « ميثاق البنود الخمسة » الذي وافق عليه موتسو هيتو بغية « التعاون بين الحكام والمحكومين » . فالواقع هو ان بعض الاحزاب حلت محل غيرها رغبة منها في السيطرة بمساعدة بعض الرأسماليين الحذاق وفي كنف الاسم الامبراطوري الساحر . وقد استخدمت في الحقيقة ثلاث قوى : زعماء الحركة المنتسبين الى النبلاء والراغبين في اقامة النظام الجديد ، ورجال المال الحريصين على تطوير الاقتصاد ، وروح التضحية عند الجماهير .

يبدو ان حزبي ساتسوما وشوشيو قد تقاسما السلطة . فقد وجهت الامبراطور فئة محدودة

من المستشارين الاقوياء : وقد ألغت ما يعرف بالـ «جنرو» او قيادة المشرفين على انتقاء الموظفين (وسوف يتكلم الامير كيون عن : « امتحان الدماغ ») . وكانت هذه الخطة لوفد البعثات الى اوروبا للاطلاع على كل شيء ، فتعود وفي جعبتها مخططات جريئة لاعادة التنظيم . وكانت بدورها تفصل في كافة الامور ، لأنها لا تضع اي حد لامتيازات الميكادو الذي لا تميز مصالح الدولة عن مصالحه . وقد برز من بين كبار هؤلاء الموظفين اوكوبو توشيميشي ، و « ايتاغاكي» و « ايتو هيروبومي » . وعلى الرغم من أن الجنرو انبثق من الاقطاعيين ، فانه النغي اقطاعية اعتبرها بالية ووضعها في خدمة الامبراطور . ولن يكون هناك بعد اليوم سوى طبقة نبلاء الخدمة المدنية ، الشبيهة بالـ « تشين » ، التي ستمنح في المستقبل القابا شرفية بحتة وفاقاً للطريقة الاوروبية . واذا اصبح المزارعون اصحاب الاراضي التي يزرعونها ، فان مجموع اعباثهم الاميرية آل الى خزانة الدولة التي وضعت يدها بالاضافة الى ذلك على ممتلكات الجمعيات البوذية . فأتاح هذا الاصلاح الاجتماعي الواسع رفع الادارات العامة الى مصاف الادارات العصرية : تبديل الاقطاعات بالولايات ، تجنيد جيش عن طريق التقييد السنوي للشبان البالغين سن ابتداء الخدمة العسكرية ، احداث تعليم قادر على تخريج مسؤولين اكفاء . وقد اقتبس ذلك عن فرنسا والمانيا بسبب شهرة الاولى بمركزيتها والثانية بصفات موظفيها ، كما أتى من انكلترا أو اميركا بمعظم الفنيين والقسم الاكبر من الادوات والتجهيزات . ولكن هذا الهيكل المتين كان تحت رحمة وضع مالي واقتصادي سيء .

ما كان المشرفون على الميجي ليجهلوا أهمية المسألة الزراعية ، ولم يفتهم ان قمع ثورة الفلاحين ليس حلا لها . فان الحرب الاهلية قد أضرت باعمال الزراعة ، والثورة خيبت آمال سكان الارياف الذين باتوا احراراً في ان يزرعوا كما يطيب لهم الزرع ، ويشتروا ويبيعوا ، ويمتلكوا الاراضي التي كانوا يتصرفون فيها تصرف المستثمرين فقط ودون انقطاع ، والزموا بالخدمة العسكرية وبدفع ضريبة نقدية دونها الاتاوات القديمة أحياناً ، بصرف النظر عن الاتاوات التي ما زال يحق للملاكين غير المستثمرين فرضها على مزارعيهم . وفقدوا كذلك حقوق الانتفاع من الغابات التي ضمها الميكادو الى املاكه ، فكان هو وهؤلاء الملاكين غير المستثمرين اول المستفيدين من الاصلاح . أضف الى ذلك ان مجاعة السنة ١٨٧٠ – ٧١ الكبرى كانت اكبر دليل على سوء حال الزراعة . فان زارع الارز في قطعة الارض الصغرى التي يملكها ما كان ليستطيع تحسين ادواته وزيادة انتاجه : وان النظام الجديد قد سهل احتكار الرأسماليين للارض باقراره حرية بيع العقارات .

كان عهد الاتوار كذلك عهد امثال ميتسوي وميتسوبيشي والمؤسسات الخمس أو الست الكبرى ، التي ساندت الاصلاح الامبراطوري . فقد كانت طوكيو بحاجة اليها لاصلاح سوق النقد وتمويل المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة . وفي الوقت الذي عقدت فيه قرضا من لندن ضمنته بمحصول الجمارك ، لجأت الى القروض الداخلية وسمحت لبعض المصارف باصدار

اوراق نقدية . فأتاح لها التضخم النقدي وفاء ديونها ، ولكن المصارف الوطنية المستوحاة من المثال الاميركي ، ما لبثت ان ضاقت مقاليدها ، بينا ازدهرت المصارف الخاصة ، كمصرف ميتسوي مثلاً ، ووظفت ارباحها في المناجم وشركات الملاحة والمعامل. وكانت النتيجة انخفاض قيمة النقد الفضي الجديد ، « ين » ، واستمرار خروج الذهب .

والحال انفت الروح الساموراتية من التخلي عن الاقتصاد للرأسماليين . فبذلت من ثم في البدء محاولة تستهدف تنمية رأسمالية رسمية حقيقية . فأخضع النشاط لرقابة شديدة تمارسها الادارة التي سعت جهدها لتأسيس شركات بمساعدة صغار النبلاء الذين كان يهمها ان تنتزعهم من الفقر : وقد يؤلفون طبقة تجارية جديدة ، هي طبقة « شيزوكو » المتشبعة بالتعالم الكونفوشيوسية . فظهرت المبادرة الرسمية في كافة الاتجاهات : استثمار مناجم الفحم الحجري ، وانتاج المعادن والمنسوجات (انشيء اول معمل لحياكة القطن الآلية على يد أحد الاسياد وبادرات انكليزية في السنة ١٨٦٧ ، ولكن الحكومة اسست في السنة ١٨٧٢ معملاً نموذجياً لغزل الخيوط الحريرية تحت اشراف احد الفرنسيين) ، والزجاجيات ، والورق ، وصناعة الاسمنت ، ومد الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية الاولى . واتجه الانتباه بصورة خاصة شطر التسلح البري والبحري . ولكن ما لبثت الحكومة ان عدلت عن هذه السياسة التي اثقلت كاهل الموازنة وأثارت استياء اوساط الاعمال . وهكذا فقد عجزت شركة وطنية للنقل البحري عن منافسة شركة آل ميتسوبيشي ، كما ان آل ميتسوي استردوا اكبر مصنع لانتاج الورق واداروه لحسابهم .

والحقيقة هي ان الميجي قد تعرض بين السنة ١٨٧٣ والسنة ١٨٧٧ لامتحان عسير . فعلى الرغم من الاضطرابات الريفية ، وبلبة النقد المستمرة ، وعجز الميزان التجاري ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً بينا سهله التضخم وشجعته السلطة. ولكنه توسع عرّضته للخطر أزمة السنة١٨٧٣ العالمية . فان انخفاض حجم الصادرات والتباطؤ في بناء الخطوط الحديدية اثارا بعض القلق . وتعرضت حينذاك عدة مؤسسات حكومية للخطر . فحرض سايغو ، وزير الحرب المنتسب الى حزب ساتسوما ، والمولع بضرب السيف على الطريقة القديمة ، على القيام بعمل حربي إلهائي في الخارج ، ولكن الغلبة كانت لانصار السلام : فعدلت اليابان عن خوض غمار الحرب في كوريا . فانسحب سايغو من الوزارة مستاء واصبح زعيم معارضة قوامها الاشراف. وضمت هذه الاخيرة جهوراً كبيراً من الساموراي الذين اغضبهم الاصلاح العسكري واضرّ بهم تحويل جعالاتهم الى صكوك دخل متدنية القيمة تدفعها الدولة . وفي سبيل تهدئة هذا الهيجان ، تأسس مجلس شيوخ وغزيت كوريا لفترة قصيرة . ولكن النزاع الحاسم انفجر في السنة ١٨٧٧ ، حين حرض سايغو ساتسوما على العصيان بعد اعتراضه على حلهة السياسة الخارجية وإلغاء السيفين واعتاد الاوساط السياسية البزة الاوروبية . فكان ذلك آخر ثورة اقطاعية اقليمية الطابع . وقد اغتيل اوكوبو على أيدي رجال حزبه بالذات ، ولكن الميجي خرج منتصراً ، وانتصر معه الاستبداد البيروقراطي . وارجأ الميكادو الى السنة ١٨٩٠ إعلان النظم الدستورية .

خرجت السلطة الامبراطورية راسية القواعد من هذه الازمة . الا انها اضطرت لأن تحسب حساباً متزايداً لاوساط الاعمال . فتخلت للمشاريع الخاصة عن عدد من المؤسسات التي كانت قد انشأتها . وسارت في تصميمها على تعديل موازنتها ، بينما لم تزل قيمة الا ‌ ين » في انخفاض مستمر ، فاكتفت بتقديم المساعدات المالية لانشاء خطوط مواصلات جديدة ولتشجيع تأسيس المصارف المطلوب منها مساندة الصناعة والتجارة . فاستمر التحسن الاقتصادي على الرغم من الصعوبات المالية . وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ اتضح وجه اليابان الجديد اتضاحاً بيناً .

مظاهر اليابان المتناقضة قبيل توسعها

في السنة ١٨٩٤، وبفعل نزاعها مع الصين، دخلت اليابان المسرح العالمي دخولاً يلفت الانظار والانتباه . فقد دقت ساعة توسعها الاستعماري. وتميزت اذ ذاك بخليط غريب من الحضارة التقليدية والطرائق المقتبسة عن الغرب .

واذا ظهر فيها حزبان معارضان منذ السنة ١٨٨٠ ، فان احدهما ، حزب الاحرار (جيوتو) قد استند الى آل ميتسوي ، والثاني، الحزب التقدمي (كيشنتو) كان مرتبطاً بآل ميتسوبيشي . اما دستور السنة ١٨٨٩ ، وهو بمثابة تنازل للبورجوازية الكبرى الآخذة في التكوّن ، لم يول حق الاقتراع سوى نصف مليون منتخب، مختارين من بين المكلفين البارزين، ولم يتمتع الامبراطور، الذي يكون الوزراء مسؤولين امامه ، بحق تعيين اعضاء المجلس الاعلى فحسب ، بل بحق دعوة مجلس الممثلين ، المنتخبين عن طريق التصويت العام ، وحله ايضاً ؛ لا بل تمتع بحق تجاهل هذا المجلس بتوقيعه مراسيم لها قوة القانون وبحق الامتناع عن توقيع القوانين المقررة بالتصويت . وبالاضافة الى إشرافه الكلي على الجيش والاسطول والعلائق الخارجية ، حق له، بعد الاستئناس برأي الجنرو ، اتخاذ مقررات هامة جداً .

انه كان في السابق فوق الخصومات وفوق البشر ، اذا جاز التعبير . والدستور ينص صراحة على انه « نازل من السماء ، مكرم ومصون » ؛ ويضيف الى ذلك انه « لن يكون موضوع اي تأويل او نقاش » . كان في البدء يظهر علانية مرتدياً الثوب الصيني ؛ ولكنه حين اعتمد الزي الاوروبي لم يعارض عليه احد وبات السير على خطاه مظهراً من مظاهر الادب . وقضى العرف بالسجود في حضرته (والزم الاجانب أنفسهم بالركوع في الشارع عند مروره) ، ولكنه قد يسمح لاحد المستشارين أو احد الوزراء بالظهور امامه بالـ « كيمونو » والسيجار في الفم وحتى القبعة فوق الرأس . وتفقد محبة الوطن كل معانيها اذا لم تقترن بعبادة الاقنوم المقدس . وفرض الخط الشريف الصادر في السنة ١٨٩٠ (شوكونتو) ، الذي يحدد القواعد الاخلاقية للتعليم الابتدائي ، ان يكتسب الولد « الاعتزاز القومي والاخلاص للسلالة والتضحية للوطن». ويجدر الانتباه هنا الى ترابط هذه الصفات . والشعب الياباني ، الذي أنف من التجريد، بشغفه بالصورة ، كما ان الجماهير التي يسرها وجود الكائن المبارك من الله فيما بينها تشعر بقشعريرة صرعية . الا

ان الدولة توقفت في عهد الميجي عن رعاية الشنتوية ، والبوذية من قبلهـــا ، وتساهلت تساهلا فعليا حيال المسيحية . ويرد ذلك الى الرغبة في الحصول من الاجانب على ابطال « المعاهدات غير المتساوية » : وبما ان الشعب ، ولا سيما الحكام ، لم يقفوا سوى موقف اللامبالاة من رسالة المبشرين (لم يكن هناك سوى ١٠٠٠٠٠ مسيحي في السنة ١٨٩٠)، لم يكن للبادرة «الانتهازية» أية أهمية جدية من الناحية الاجتماعية .

ان استبداد الدوائر والعسكريين لم يتداول لعمري في موازنة الواردات والنفقات العامة الا مع المصالح الكبرى . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاحزاب تنازعت المراكز وغالباً ما ذكرت اعمال العنف الحكامَ بأن الشرف النيبوني لا يسلم ببعض التفاوضات المذلة مع الاجنبي. وقد حدث احياناً ان تعرض بعض كبار الزائرين للاغتيال . وفي ذلك الدليل على ان ذهنية الساموراي الفظة ما زالت تختبيء وراء ظواهر المؤسسات العصرية .

شكلت الكتابة العقبة الكأداء في سبيل نشر التعلم نشراً واسعاً بين الجماهير . فكل ما امكن تحقيقه في المدرسة الابتدائية هو معرفة واستنساخ ٥٠٠٠ حرف ضروري . ولذلك وجب صرف وقت طويل ومال وفير للارتقاء حتى مستوى المدارس التقنية والعليا التي تخرج كبار الموظفين وقادة الفكر .

ولذلك فان اقلية ضئيلة عرفت ما تدين به اليابان للغربيين . فكانت براعة التقليد اكثر موافقة في هذه الحالة ، لا سيما وان مخالطة الانكلوساكسون اسفرت عن نمو الجدارة العملية. فاليهم طلبت طوكيو الفنيين والاطباء والاساتذة، واليهم فوضت امر تثقيف طلابها؛ فانتشرت قوانينهم التي استطاعت الامرأة اليابانية بفضلها ، على غرار الرجل ، التقدم بدعوى الطلاق . واعترف بالحريات الفردية ، ونشأت صحافة انطلقت انطلاقة سريعة . لا بــل تناول البحث موضوع جعل اللغة الانكليزية لغة رسمية . وعلى اي حال ، فقد ترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والاقتصاديين والعلماء البريطانيين ترجمة زادت في صعوبتها لغة ظريفة تفتقر الى الوضوح . وقد سبق لـ « هيرانا » تلميذ مونووري ، ان اشاد بالاصلاح الامبراطوري في مؤلفاته التاريخية ؛ وجاء بعده « فوكوزاوا » ، الذي درس الفلسفة في انكلترا ونشر « شؤون غربية » ، فعلم التفصية في جامعة « كيو » وفي الصحيفة « جيجي » . وتبارى مع ناكامورا في ترجمة مؤلفات كثيرة . والى هذا التاريخ يعود انتشار « بنتهام » و « جون ستيوارت مــل » و « هربرت سبنسر » باستحسان المثقفين اليابانيين التفضيلي ، واقدام « تسوبوشي شويو » على ترجمة شكسبير .

وفتنت فرنسا اليابانيين بفكرها وقوانينها .فاستهوت مادية فلاسفة دائرة معارفها « نا كايه » الذي احب كذلك « روسو » و « كونت » . وسوف تعرف تشيلياته نجاحاً عظيماً دائماً . ولكن الالمان احرزوا تقدماً متزايداً بعد السنة ١٨٨٠ . فقد كان لانتصاراتهم العسكرية

وانضباطهم المدني وتحقيقاتهم التقنية اثر كبير في النفوس . فأرسلوا الى اليابان بدورهم الملوقين والاطباء والجراحين . ووفرت مؤلفات « لبست » التي ترجمت في السنة ١٨٨٥ - حين عاد « ايتو» من رحلة الى برلين وفيينا بمشروع دستور مقتبس عن الدستور الروسي - الحجج والادلة لانصار اقتصاد قومي خاضع لنظام الحماية . واعجب « كاتو هيرويوكي » بـ « هيغل » ومدرسته ولن يلبث « نيتشه » ان يستهوي اليابانيين .

الا ان هذا الاقتباس قد اضر في نواح عديدة بأصلية عبقرية الشعب . ففي القصة برزت النزعات نفسها التي برزت في اوروبا يرافقها استعداد طبيعي للرومنطيقية في مؤلفات « كودا روهان» ، ثم للواقعية في مؤلفات « شيازاكي توسون » و « تاهاما كاتاي » ، بينما انساق «موري اوغاي » ، مترجم « إبسن » و « سترنـدبرغ » ، وراء التقليد التصوفي . وبحث الشعر عن اشكال جديدة (شنتاي - شي) في مؤلفات « ياسادا » وشياراكي ، بينما صمم « اوشباي » و « شيكي مازواكا » على بعث الـ « تانكا » والـ « هاي - كاي » التقليديين . اما المسرح الذي حاول « شويو تسوبوشي » اصلاحه ، فقد عرض بعض مشاهد الامانة الزوجية والبسالة الابية وعرف المشدهدين الاجانب برقصات الـ « غيشا » ، ولكن ما انطوى عليه من علم سوف يحمل الميكادو في السنة ١٩٠٧ على ايفاد مؤلفين مشهورين لدراسة الفن المسرحي في باريس .

درس الرسامون قواعد رسم الاشياء كما يراها العين ، وسعوا وراء تمثيل نواتج الظل والنور ، واستوحوا الطبيعة وحدها لان تمثيل العري كان محرماً : ولكن لم يحظ منهم بالاعجاب والرضى في المعارض الدولية لا مصورو المناظر الطبيعية المشهورون من امثال « هيروشيجي » و «هوداء» و « كاواكوبو » ، ولا مصور الصور المنزلية « كيوزاي » من مدرسة « هوكوزاي » . واذا ما زال هناك بعض منتجي المصنوعات التزيينية المهرة وبعض المصورين المدنيين الموهوبين ، على طريقة « كاوانابي » و « شيبا يوما » ، وبعض النقاشين الاقوياء - ياسادي كيزاي بصورة خاصة - فان صناعة الاسلحة قد فقدت علة وجودها ، وصناعة الخزفيات قد عانت من سماجة ذوق الشارين الاجانب ، والبناء لم يعد يجد في الدين مصدر وحي ، فقلد الانماط الغربية المألوفة تقليداً أعمى في الحقل المدني . اما الـ « سامي - سن» (اعواد ذات ثلاثة اوتار) التي تصطحب الاغاني والرقصات ، فقد وجد المجتمع الرفيع ان عهدها قد ولى .

افض مضجع البعض فساد الاخلاق في اوساط الطبقات الحاكمة نفسها ، ولكن احتماء فضائل الجدود في الارياف ومحافظة هذه الارياف على سحرها لم يحملا الميجي على تحسين مصير سكان الارياف تحسيناً ملموساً . فالملاك الصغير ، المرغم على دفع ضريبة عقارية ثقيلة والمحروم حق الانتفاع من الاملاك المشاعية ، عاش حياة صعبة . وسواء كان جني الارز سيئاً أو انخفض سعر الحبوب ، اضطر الى رهن ارضه او الى بيعها . ولكن ٧٤ ٪ من املاك الفلاحين و٧١ ٪ من الاراضي المستثمرة لم تتجاوز الهكتار مساحة . فاشترى الافراد الاثرياء بأسعار بخسة . وبسبب ازدياد عدد السكان ، ارتفعت قيمة استئجار الاراضي الى ٥٠ وحتى ٦٠ ٪ من قيمة

المحاصيل ، فازدادت حالة المزارعين سوءاً على سوء . وتقاضت اليد العاملة الياومية ، التي استخدمها الملاك غير المستثمر اجوراً ضئيلة جداً (٠٫٠٨ بن – ٠٫٤٠ فرنك – حوالي السنة ١٩٠٠) . ثم تحولت الزراعة نحو النباتات الصناعية التي تفضل الارز ريعاً ، لا سيما وان الارز نادراً ما يسد حاجة الاستهلاك . يضاف الى ذلك ان الفلاحين غالباً ما باعوه واكتفوا بالخضار والاسماك . ولكن مهما كان من نشاطهم ومهارتهم في العمل ، فانهم ما كانوا ليعرفوا البحبوحة واليسار باستثمارهم اراضي تقدر بـ ١٢ آراً لكل عائلة تقريباً ، بعد ان حرموا دخل نول الحياكة الصغير ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الدخل الذي وفرته لهم تربية دود القز . فلا عجب والحالة هذه اذا ما هاجروا الارياف نحو المدن مهاجرة مطردة السرعة .

كانت اليابان من ثم مسرح ثورة في توزيع السكان . فلم تضم المدن سوى ٢٥ ٪ من السكان في السنة ١٨٩٠ : ولكنها ضمت اكثر من ثلثهم بعد مرور عشر سنوات . ولما كان مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع من ٣٠ الى قرابة ٤٥ مليوناً ، فان اكتظاظ الارياف بالسكان لم يتأثر تأثراً ملموساً بنمو المدن . وقد نجحت الحكومة في توطين ٨٠٠٠٠٠ نسمة – من فقراء الساموراي والجنود الفلاحين – في جزيرة هوكايدو الباردة المناخ التي تصلح لتربية المواشي اكثر من زراعة الارز . وشجعت السفر الى كوريا وهاواي وكاليفورنيا . ولكن اليابانيين انفوا من الهجرة ، وآثروا تعاطي نشاطات المدن .

على الرغم من ان مقر الميكادو القديم ، كيوتو ، قد بدا لـ « يوسكيه » وكأنه « فرساي خشبي ، متناسق ، كئيب ، محتضر ، خال من الحياة ... » فانه قد نما ، ونمت بجانبه ضاحية « اوزاكا » التي قامت فيها مصانع حياكة ومعامل خزف وميناولك . وعلى المتوسط النيبوني ، سارت اوزاكا قدماً في تقدمها التجاري وألفت مع « كوبيه » مركزاً كبيراً للنشاطات المحيطية والبحرية : فقبالة ابراج القلعة الشوغونية التي تشرف على شوارعها المرصوفة بالقراميد واقنيتها التي بنيت فوقها آلاف الجسور الصغيرة الحديدية ، قامت الابنية العامة التي اعتمد فيها المهندسون الطراز الاوروبي . وكانت يوكوهاما بالامس مجرد قرية لصيادي الاسماك ، فاصبحت مرفأ للعاصمة بفضل مياهها العميقة ، وجهزت بمصنع بحري ، واتاحت لها تجهيزاتها البحرية الأخرى استقبال اكبر السفن حمولاً . اما طوكيو التي تأسست في احد المستنقعات في القرن الثامن عشر فقد تقاربت احياؤها القديمة كما في المدن الصينية : الـ « سيرو » أو القصر الامبراطوري المحاط بالاسوار والخنادق ، والـ « سوتو – سيرو » مع الـ « يشكي » أو قصور اهل المقامات وكبار الموظفين ، والـ « يمدزي » الذي كان – كما شاهد « هوبنر » في السنة ١٨٧٧ – واختلاطاً من الشوارع المطروقة والمقفرة ، والحدائق ، والبساتين ، والمرزّات والرياض والمعابد » ، والـ « هونجي » حيث تجاور المستودعات العامة اماكن اللهو والنزهات . فقامت حول هذه الاحياء المساكن القرميدية والخشبية والمشاغل والمصانع . وقد عاش مليون نسمة في مساحة شاسعة (بين ٨ و ١٠ كيلومترات من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) . وطافت

المدينة ابدأ الزوارق الشراعية في البحر وال « جنريكيشا » ذات العجلتين في الشوارع ، ولكن خطوط الحافلة الكهربائية انشئت واستخدم الهاتف وانتشرت الاضاءة الكهربائية . واختلطت الازياء النيبونية والاوروبية . وما زال افراد المجتمع الرفيع يرتدون في منازلهم ال « جوبان » أي القميص القومية ، وال « كيمونو » اي الثوب الضافي الاهداب ، وفي الاحتفالات ال«كاوري» أي اللباس المثنى الذي لم يخل من التصنع . واذا ما ظهروا بالمروحة والمظلة ، وال « جيتا » (قباقيب خشبية) في أرجلهم ، فانهم قد ارتدوا كذلك السترة القصيرة والسترة الطويلة المشقوقة الذيل المقتبستين عن البورجوازية الغربية .وما زالوا مولعين بال« سونثو» وال«جودو» ، ولكنهم اخذوا يهتمون بال « كريكت » وكرة السلة ايضاً .

الى هذه المدن وضواحيها جاء سكان الارياف المعوزون يبحثون عن عمل يؤمنون به معيشتهم . فنشأت من ثم طبقة عاملة اضطرت الى الاكتفاء بأجور كادت لا تتجاوز أجور العمال الزراعيين المياومين . ففي طوكيو تكدست في غرف لا تزيد مساحتها عن مترين مربعين عائلات مؤلفة من أربعة أو خمسة اشخاص تتغذى بحساء وخضار مطهية تفيض عن حاجة التكنات والمستشفيات لا تدفع ثمناً لها اكثر من فرنك واحد في اليوم . وقد رافق ارتفاع الاجور حركة الاسعار حتى السنة ١٨٨٧ ، ثم توقف بعد هذا التاريخ ، فاضطرت النساء والاولاد الى العمل ايضاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان صناعيين كثيرين آثروا تقنية واسكان فلاحات شابات يخضعونهن لاقامة منفردة حقيقية .ولكن القاعدة التي اعتمدت هي عقد العمل لمدة ثلاث سنوات الذي لم يترك للعامل اية امكانية للاعتراض على شروط المعيشة المفروضة عليه . وصدرت في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ قوانين تمنع منعاً باتاً كل محاولة « تحالف »وتعاقبها عقاباً صارما .

في هذه الاثناء كانت بورجوازية الاعمال آخذة بالنمو . فبعد ان ورثت عن الدولة مشاريع عديدة ، حصلت على حق تأسيس شركات مساهمة . وهكذا توطدت سيطرة بعض المؤسسات الكبرى ، ال « زيباتسو »، التي استفادت من انخفاض ال « ين » لتحقيق احتكار واسع في نطاق الصناعة والتجارة بفضل وسائلها المصرفية . فكانت اليابان أسرع من روسيا نفسها في قطع أشواط التقدم ، وهي سوف تعرف رأسمالية الاحتكار في الوقت نفسه الذي سيعرفها فيه الغرب . وسوف توطد اوليغارشية الاثرياء هذه مراكزها بفضل الانطلاقة الشاملة التي ستعرفها اليابان بين السنة ١٨٩٥ والسنة ١٩١٤ .

ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان الارخبيل الياباني ، شأن الارخبيل البريطاني ، كان مضطراً الى التصدير لتأمين حاجاته . وقد عاني من تقيده بمعاهدات لا تتيح له مقاومة المنافسة الاجنبية مقاومة فعالة . يضاف الى ذلك ان صناعته الحديثة العهد جداً كانت مفتقرة الى الفنيين وبعض الخامات الهامة وحتى رؤوس الاموال . فحدث احياناً ان بيع الارز للتمكن من شراء القطن والحديد والآلات. وقد زاد من ضرورة معادلة الميزان التجاري ان البلاد مدينة للخارج. فهو مستوى الحياة المتدني وكد الفقراء ما أتاحا لحقيق النهضة .

أظهرت الموازنة العبء الثقيل الذي تمثله الضريبة العقارية في الواردات ، ودفع المتأخرات وتعهد القوى المسلحة في النفقات . ولكن التوسع بدا العديد من اليابانيين و كأنه حاجة ملحة. واذا لم تستهو المغامرة الرأسماليين ، فربما استهوت العسكريين الغيُر على امتيازاتهم . فتقرر في السنة ١٨٩٤ اختيار وزيري الحربية والبحرية بعد ذاك التاريخ من بين القادة وامراء البحر . وقد نشبت الحرب في السنة نفسها مع الصين . فهل يجب اعتبار هذه الحرب بمثابة عملية إلهاء؟ فمنذ انتخابات السنة ١٨٩٠ العامة تكوّن « حزب الشعب » ، المناوىء لرجال الجنرو ، الذي انتقد الادارة الحكومية ، ثم توسع نفوذه مرة أخرى في شهر آذار من السنة ١٨٩٤ : حين انضمت معارضة البورجوازيين لحزبي ساتسوما و شوشيو . وسوف يحقق الحماس الوطني مرة اخرى الوحدة حول العرش الامبراطوري ، وهي الحرب الظافرة التي ستدفع الثمن .

منذ السنة ١٨٨٩ اصدر كبلنغ حكمه الصائب في اليابانيين : « انهم رجال خشناء قصار القامة يعرفون اكثر مما نتصور » .

احرزت اليابان انتصاراتها الاولى في شهر حزيران من السنة ١٨٩٤ . وفي شهر تموز وقعت مع انكلترا اتفاقية تجارية أبطلت احدى المعاهدات غير المتساوية ، ثم رشحت لان تحتل مركزها بين الدول العصرية العظمى بفضل نظامها العسكري ونزعتها التوسعية .

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

قبل أن يخيم الظل على ملامح القرن التاسع عشر لاحت في الافق ملامح عصر جديد خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

الا أن ذلك لا يجيز الاعتقاد بأن كل شيء قد نيط بالكارثة التي أحس بها وخشيها وأعدها رجال هذا الجيل .

ما زال الاقتصاد الرأسمالي يمتلك قوة حقيقية ، ولكن نزعته الاحتكارية تعاظمت بعد أن باتت المنافسة أشد عنفا يوما بعد يوم ، فكانت تلك الايام أيام الدول الاستعمارية الكبرى . واذا ما وطدت البورجوازية مراكزها ، فان الطبقات الكادحة قد أحرزت بعض التقدم ورُشّحت الاشتراكية لخلافة فرضية ممكنة .

أشارت بعض الدلائل منذئذ الى ان اوروبا خلفت وراءها ساعات اولوية لا جدال فيها . اجل لقد جاء الاسهام السامي في الفتوحات التقنية والعلمية المستمرة والتجدد المدهش في الخلق الفكري والفني برهانا على ديمومة حيوية فكر قوي وحازم ؛ ولكن الارتيابات التي حامت حول قيمة النجاحات المحققة عبرت عن قلق يمت بصلة الى تأزم الخلافات الاجتماعية والدولية . وكي لا يحدث ما لا يرتق فتقه ، كان من الواجب ان يدوم السلم - مهما بلغ من وقتيته ، من حيث هو سلم مسلح .

الفصل الأول

وثبة جديدة الى الأمام

تكاثر البشر

لم يستمر ارتفاع عدد سكان العالم استمراراً فحسب ، بل ازداد ازدياداً مطرد السرعة . فارتفعت نسبة الزيادة السنوية بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ ارتفاعاً اسرع منه بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . الا ان هذه الزيادة ابطأت في اميركا الشمالية واوقيانيا ، بينما هي اتصفت بمزيد من الزخوف في آسيا واميركا اللاتينيةواوروبا . وانما يلفت الانتباه من جهة ان كندا كانت اكثر استفادة ، من حيث ان تقدم الولايات المتحدة كان محدوداً ، ومن جهة ثانية ان نسبة النمو الاوروبي ، اذا ما استثنينا روسيا الاوروبية ، ربما كانت اقل حجما كذلك (اذ ان نصيب روسيا وحدها كان ٣٤ مليونا مقابل ٨٧) .

اعار المعاصرون انخفاض نسبة الولادات اهمية كبرى . وقد برز هذا الانخفاض في كافة البلدان الاوروبية (باستثناء البلدان البلقانية) بما فيها روسيا ؛ وكان ملموساً جداً في البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار ، ولكنه لم يثر اهتمام مناطق الرياح الموسمية في آسيا ، ولا الهنود الاميركيين ، ولا الافريقيين في الارجح . واثار العديد من المراقبين بقلق - قرناً بعد مالتوس - الى الخطاط العرق الابيض ، وتخوفوا من « الغزو الاصفر » وتكلم « لرواـبوليو » عن « مسألة شيخوخة الامم الرهيبة » ونددد « بالوثبة الجديدة » اي « الابتعاد عن المعتقدات والتقاليد القديمة » . فيتضح من ثم كيف ان لهجة الاقتصاديين الاحرار تبدلت تبدلا بيناً : اخذوا يلمسون صلة بين نقصان المواليد وارتفاع مستوى المعيشة ، مستندين الى ان سوء التغذية وفقدان التدابير الصحية ربما يفسران قوة الوثبة الحيوية في الصين والهند مثلا .

وعلى أي حال فان زيادةالولادات على الوفيات ربما كانت اقل حجماً لو لم ترتفع نسبةالوفيات ايضاً : وهي ظاهرة تثبت توفر ظروف صحية وغذائية فضلى تجلت بصورة خاصة في اكثر

المناطق الاوروبية تطوراً وفي بلدان ما وراء البحار حيث حالت بعض الشيء دون خطر تزايد عدد السكان .

تبرز خريطة تصنيف الامراض في الكرة الارضية ، بوضوح مؤلم ، التضاد بين الرقعة الاطلسية الشمالية التي تكثر فيها الامراض الاجتماعية ،وبين الاقسام المتبقية من العالم التي ما زالت تضنيها إما الامراض الموضعية وامراض المناطق الحارة وإما الاوبئة الآسيوية الكبرى كالطاعون والكوليرا والجذام .

بدت من ثم معرفة حياة الافراد الطبيعية والعقلية وكان من شأنهـا تعزيز الآمال التفاؤلية المطلقة على الثقة العمياء بامكانات العلم . والكل يعلم ان اواخر القرن سجلت عـدداً من اعظم الاكتشافات اهمية في حقلي الطب والجراحة . فقد شرع « لويس لابيك » آنذاك ابحاثه حول الفيزيولوجية العامة للجهاز العصبي واجلى مدلول الـ *chronaxie* أو الوقت الفيزيولوجي الخاص بقابلية تحرك الاعصاب ، واتسع حقل السيكولوجية الاختبارية بفضل ابحـاث « ريبو » و « وورندت » و « بافلوف » و « ماخ » ، وبدأ « سغموند فرويد » يستكشف العقل الباطن ، ويكشف الاثر الجنسي في الامراض العصبية ، ويقترح الاستقصاء السيكولوجـي كأسلوب للمعالجة . وتنظمت في الوقت نفسه دراسة اضطرابات النشاط التصوري الخاص (التأثر المفرط ، الصرع) والامراض التي تؤثر على الحركة (*apraxie*) والحواس والكلام (*aphasie*) . وبينما حقق علم الاجنة نجاحات جديدة بفضل جهاز « شابري » ، جدد « توماس ـ هونت مورغان » علم الوراثة انطلاقاً من عناصر النواة الملونة في الخلية ، واكتشف « فونك » الفيتامينات،و « لند ستاينر»الفئات الدموية ، واستخلص «تيريون» و « تيربه » عن المناعـة بطريقة استئصال الجراثيم بدون استعمال مواد مضادة وذلك بالعودة الى تعاليم « باستور » . ومن الصين جاءت طريقـة المعالجة بوخز الابر .

تزوحات السكان الكبرى وتوسع المدينة

يلفت الانتباه ان الامم البيضاء في القارات الجديدة خشيت منذ ذاك التاريخ هجرة الملونين اليها ولا سيمـا الآسيويين منهم . وبالمقابلة لم يحدث ما يحد من الخلـل المسبب عن المهاجرين اليها من اوروبا . واذا استطاعت المانيا الحؤول دون نزوح مواطنيها ، فان بريطـانيا العظمى وايرلندا ما زالتا ترسلان الى البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحـار اعـداداً كبرى من المهاجرين الذين استوعبت كندا نصفهم .

الا ان اعظم موجة نزوحية سجلها التاريخ قد خففت في الحقيقة عبء اوروبا المتميزة بنسبة عالية جداً من الولادات في الارياف . فقد توجه فقراء شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية باعداد وفيرة الى البرازيل والارجنتين اللتين استقبلتا منهم اكثر من ٣ ملايين بـين

السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٣ (وقد نزل نصف مهاجري السنة ١٩١٠ الى البرفي دريو دي لابلاتا) وبلغ مجموع الايطاليين والسلافيين واليهود الذين نزحوا الى الولايات المتحدة ٠٠٠ ٦٠٠ ١٤ من اصل ٠٠٠ ٧٠٠ ٢٠ مهاجر ؛ واستقر بين ٦ و ٧ ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا .

اما تيارات الهجرة من بلدان تتوفر فيها اليد العاملة الى بلدان مجاورة تفتقر اليها فكانت اقل اتساعاً واكثر ارتباطاً بفصول العمل . وهكذا فان فرنسا باتت بلاد اغتراب لكافة شعوب البلدان المحيطة بها ، وقد تجاوز عدد الاجانب فيها المليون نسمة ؛ ولكن المانيا نفسها استقبلت عدداً من البولونيين ، كما قصد بعض المكسيكيين الولايات المتحدة .

أعيق الصُفر في توسعهم في المناطق المعتدلة المناخ التي يسيطر عليها البيض فتدفقوا على جزر وشواطىء الشرق الاقصى : استعمر الصينيون بأعداد كبرى منشوريا حيث نزح كذلك كثير من اليابانيين الذين لم يجدوا لهم مكانا في هوكايدو او هاواي ؛ وتقاطروا دون انقطاع الى الهند الصينية والانسولند . أما الهند فقد هاجر عدد ضئيل من سكانها الى المستعمرات الاوروبية في ما بين خطي الجدي والسرطان .

ان الذين لم تؤمن الاراضي الزراعية القديمة معيشتهم ثابروا على إحياء الاراضي الجديدة واستثمار المنجم ، ولكنهم خضعوا بالتفضيل لجاذب المهنة المدنية . فنمت المدن نمواً مطرد السرعة في كافة البلدان ؛ وقد شمل هذا النمو كافة المناطق . فبين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٠ ، قفز عدد المدن التي تجاوز سكانها الـ ١٠٠ الف نسمة من ١١٨ الى ١٨٣ في أوروبا (كان ٤٢ في السنة ١٨٥٠) ومن ٣٢ الى ٥٨ في الولايات المتحدة. ودخلت في عداد المدن الهامة التي قاربت المليون نسمة ، اذا لم تبلغ هذا العدد بعد ، ريو دي جانيرو وبوينوس ايرس ، كلكوتا وبومباي ، طوكيو واوزاكا وشنغاي وهان ـ كيو في الارجح . وان انقلاب ميزان القوى على حساب سكان الارياف ، الذي حصل في بريطانيا العظمى ، قد حدث آنذاك في المانيا والولايات المتحدة ، ولن يلبث أن يحدث في فرنسا واليابان .

فتوطد من ثم ، في اواخر القرن ، نفوذ القطاع المدني بقوة لم يعرفها في اي يوم مضى ، وكان تعبيراً عن نداء النشاطات الصناعية والتجارية الذي لا يقاوم .

تجدد النهضة الاقتصادية (١٨٩٠ - ١٩١٤)

ابتداء من السنة ١٨٩٥ لاحظ المعاصرون انقلاباً في حركة الاسعار العالمية ، التي اخذت في الانخفاض منذ السنة ١٨٧٣ ثم اخذت في الارتفاع . ويبدو ان ظاهرة الارتفاع لم تكن قصيرة الأجل ، اذ ان حركة تجدد النهضة قد استمرت استمراراً متواصلا. فاذا حددت نسبة الاسعار العامة بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٠ في السنة ١٨٨٧ ، و ٨٣ في السنة ١٨٩٥ ادنى نقاط الخط البياني ـ ثم ارتفعت الى ٩٥ في السنة ١٩٠٠ ، وبلغت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . اجل لسنا نلاحظ النسبتين ١٤٠ (١٨٧٠) و ١٤٥ (١٨٧٣) حتى ولا النسبة ١٢٠ (١٨٨٠)،

ولكن هذه العودة الى الارتفاع تبدو من الاهمية بمكان اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التزايد المظم في حجم السلع المعروضة . وتتعلق هذه العودة بأجور النقل البحري (أصبح نقل ١٠٠ سطيلو من نيويورك الى ليفربول يكلف ١٧،٦٠ فرنكاً في السنة ١٩١٣ بــدلا من ١٤،٦٠ في السنة ١٨٩٢) وبضائع استهلاكية كثيرة . وهكذا اذا ما حددت نسبة اسعار ٢٠ مادة غــذائية ضرورية في فرنسا بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين، لتبين انها كانت ٩٥ في السنة ١٨٩٢ وناهزت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . فقد ارتفع إنفاق العائلة العمالية بنسبة ١٠٪ تقريباً في باريس . وهي كلفة الكراء التي ارتفعت اكثر من كلفة الخبز أو اللحم ، على كل حال ؛ ويلفت الانتباه بصورة خاصة ارتفاع كلفة المعيشة في الفنادق العائلية .

والحال تثبت الاحصاءات توسع النشاط . فقد قدر مجموع اصدارات الاوراق المالية المنقولة بـ ٨٠٠ ١٩٧ مليون في السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٠ مقابل ١٠٠٤٠٠ بــين السنة ١٨٩١ والسنة ١٨٩٠ ، و ٦١٥٠٠ بين السنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وارتفــع حجم رؤوس الاموال التي وظفهـا البريطانيون من ٤٢ الى ١٠٠ مليار تقريباً بين السنة ١٨٩٣ والسنة ١٩١٤ ، والفرنسيون من ٢٠ الى ٦٠ ، والالمان من ٧ الى ٤٤ . وتضاعف تقريباً مجموع النقد الاجنبي الموجود في فرنسا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ (٤٠ ملياراً بدلا من ٢٠) . واستخدمت مؤسسات الولايات المتحــدة الصناعية والتجارية ١١١ ملياراً في السنة ١٩١٤ بدلا من ٤٨ في السنة ١٨٩٩ . وعلى الرغم من الاحتكار رجع المؤســات ارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم البلدان الرأسمالية الكبرى : فقفز بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ من ٣٣٦٦ الى ٩٤٣١ في فرنسا ، ومن ٢٩٧٣٠ الى ٦٠٧٥٤ في بريطانيا العظمى .

ارتفعت النسبة العامة للانتاج الصناعي من ١٠٠ في السنة ١٨٩٩ الى ١٧٥،٧ في السنة ١٩١٤ . واستُخرج ٥١٢ مليون طن فحماً حجرياً في السنة ١٨٩٠ و ١٣٤٠ في السنة ١٩١٣ ، كما استخرج ٩٨ مليون طن حديداً في السنة ١٨٩٠ و ١٤٥ في السنة ١٩١٣ . ولم تبلغ نسبة انتاج الوشائع النسجية ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر سوى ٤١،٥ للقطن و ٦١ للصوف و ٦٧ للكتان و ٥٩ للقنب و ٢٦ للقنب الهندي مقابل ١٠٠ قبيل الحرب العالمية .

وارتفع الانتاج الزراعي ارتفاعاً حثيثاً ايضاً . فالنسبة ١٠٠ في السنة ١٩١٣ قابلتها النسبة ٣٦ في الولايات المتحدة والنسبة ٢٧ في روسيا في السنة ١٨٩٠ . وازداد استهلاك الفرد الحنطة ازدياداً ملموساً : فبينما بلغ عدد سكان المانيا في السنة ١٩١٤ ٣٠ بالمائة اكثر منه في السنة ١٨٩٠ ، بلغت نسبة ارتفاع انتاج الحبوب ٨٠ بالمائة ؛ وقد بلغت هاتان النسبتان بالمقابلة ٢٥ و ٥٠ بالمائة في بلجيكا . واستهلك الاوروبيون مليون طن ونصف المليون من السكر في السنوات ١٨٩٨ – ١٩٠٠ و ٦ ملايين في السنة ١٩١٣ . وفي اليابان ارتفع استهلاك الاسماك بسرعة . اضف الى ذلك ان ألمانيا استخدمت أربعة أضعاف الاسمدة الكيميائية التي كانت تستخدمها ، كي تتمكن من مواجهة حاجاتها الجديدة .

وتضاعفت قيمة التجارة الدولية خلال ١٣ سنة بعد ان تضاعفت خلال ٣٠ سنة (٥٢ ملياراً

في السنة ١٨٧٠ ، و ١٠٤ في السنة ١٩١٠ ، و ٢٠٣ في السنة ١٩١٣) . وارتفع تصدير المصنوعات بالنسبة للشخص الواحد من ٥٢ فرنكاً الى ١٠٥ فرنكات في فرنسا ومن ٥٣ الى ١٢٥ في المانيا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ . وارتفع حجم تجارة الخيوط القطنية من ٤٣٣١ طنا الى ١١٩٨٦ بين هذين التاريخين نفسيهما .

فكانت النتيجة الراء لا منازع فيه قد يعطينا الدليل عليه تقدير الدخل القومي : ٣٦ مليارا في فرنسا في السنة ١٩١٣ مقابل معدل ٢٧ مليارا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٩ ، و ٦٠٠ في بريطانيا العظمى مقابل ٤٠٠ ، و ١٧٥ في الولايات المتحدة مقابل ٦٠ ، و ٥٠ في المانيا مقابل ١٧ . وقد ارتفع معدل الدخل الفردي في اميركا من ٣٥٧ دولاراً الى ٥٠٢ بين السنة ١٨٨٩ والسنة ١٩١٣ .

واذا تحقق احراز النجاحات في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الاوروبية نفسها (ومنها ايطاليا والنمسا وروسيا) ، فان الانطلاقة ارتسمت بصورة مفاجئة في العالم الجديد (كندا والمكسيك والبرازيل والارجنتين) وفي افريقيا (الجزائر ومصر) وفي آسيا (الهند والصين واليابان) . اجل لقد كانت السرعة متفاوتة ، ولكنها كانت شاملة .

ومما يلفت الانتباه ان النشاطات الزراعية ليست وحدها ما هبطت هبوطاً نسبياً في اكثر البلدان تطوراً ؛ فان القطاع الصناعي قد بات اقل تقدماً بعد اليوم ، من القطاع المعروف بالقطاع الثالث اي ذاك الذي يختص بتوزيع المنتجات وبالخدمات العامة . وقد لوحظت الظاهرة بوضوح منذ السنة ١٩٠٠ في الولايات المتحدة؛ ولكنها ما لبثت ان اصبحت محسوسة في شرقي الاطلسي ايضاً . وان في ذلك لدليلا على التبدل القريب ، العميق جداً ، الذي سيطرأ على توزيع المهام البشرية في الغرب .

اجل لقد جاءت ثلاث ازمات - في ١٩٠٠ و ١٩٠٦ ، و ١٩٠٧ ، و ١٩١٢ - تذكّر دونما رحمة بأن الاقتصاد العالمي ليس بأمن من الهزات ، حتى في مراحل تقدمه . الا انها لم توقف الوثبة العامة الثابتة . ولم يتردد بعضهم ، كـ « ملين » في فرنسا ، في تشهير « الافراط في الانتاج » و « الجنون الذي يدفع كافة البشر الى الانتاج اكثر فأكثر يوماً بعد يوم » . وقد فكر رئيس الولايات المتحدة ، « تافت » ، بالدعوة الى مؤتمر تكون مهمته ايجاد الوسائل الكفيلة بمقاومة ارتفاع كلفة المعيشة . ولاحظ آخرون بفرح شديد ازدياد الاستهلاك ، فكان موقفهم شبيهاً بموقف « جول سيمون » الذي قارن في السنة ١٨٩١ بين العصر الذي كان فيه والعصر الذي عرفه في شبابه ، فقال : « نحن اليوم قد ألفنا ملاذ » كانوا » .

أما أسباب تجدد النهضة العظيمة هذا فتفتح باب مجادلات كثيرة . فقد طاب للاقتصاديين الاحرار التشديد على دور المطابقة الجدير بالاعتبار بين تزايد عدد السكان من جهة ، وتزايد الطلب ومن ثم تزايد الانتاج والتبادلات من جهة ثانية ؛ وكان من شأن ذلك تخطئة مالتوس

مرة اخرى . وربما توجب كذلك أن تكون قدرة الجماهير على الشراء قد نمت نمواً كافياً لان يحدث انقلاب الاتجاه هذا ؛ ولكن ارتفاع الاجور الحقيقية ، خلال فترة الانحطاط السابقة ، بينما كانت الارباح الرأسمالية تتدنى تدنياً مستمراً ، قد تفسر ذلك . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان مكافحة الافراط في المنافسة بفضل اعادة تنظيم المؤسسات كان من شأنه كذلك ايقاف انخفاض الاسعار ، علة خمود المهمة ، واصلاح السوق ؛ وعندما تصبح قسمة الارباح اكثر مطابقة للعقل ، يتزايد توظيف الاموال .

ولكن مصادفة تجدد النشاط وتدفق المعدن الثمين معاً لم تفت انصار نظرية النقد الكمية . ففي السنة ١٨٩٥ ادرك « والراس » ان اثر ذهب الترانسفال في الاقتصاد المنحط سيكون اشبه بأثر منشط قوي . وفي الواقع ألقت اوستراليا الغربية وكولومبيا البريطانية وآلاسكا وافريقيا الجنوبية ، الواحدة تلو الاخرى ، في التداول ، كميات ضخمة من المعدن الاصفر . فبلغت الكميات المتداولة في السنة ١٩٠٤ اربعة اضعافها في السنة ١٨٨٥ . وقد انضمت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان الى معسكر المعدن الواحد ؛ ففرضت قاعدة الذهب نفسها . وكان من شأن ذلك اتساع التعامل بالدين ، وارتفاع اسعار الاوراق النقدية بسبب تجمع اموال الادخار في جيوب الافراد .

واستند بعضهم الى نظام الحماية . واعتبر سواهم ان حروب افريقيا الاستعمارية ومنازعات الشرق الاقصى ونشاطات التسلح قد كان لها دورها الفعلي في ايقاف انخفاض الاسعار والارباح ، كما حدث بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ ، لانها احدثت نزلاً في مواد الاستهلاك وقوضت الثروات : واذا كان للذعر الذي سببته هذه الاحداث تأثيره السيء على المصفق ، فان سد حاجات القوى المسلحة قد ثبت اسعار المواد الخام وسير الاعمال في المؤسسات العامة . اما الماركسيون فقد انتقدوا الاقتطاع الرأسمالي الذي شجعه التدني النسبي في الاسعار واعتبروا تطور النظام تطوراً عضوياً في اتجاه الاحتكارات دليلاً على انحطاط عضال . واعتبروا كذلك الظرف مواتياً لنشاط المأجورين .

من عصر البخار الى عصر الكهرباء

تظهر ارقام الانتاج انطلاقة استخراج الفحم الحجري العجيبة . لذلك ما زالت السيطرة الفحم الحجري في السنة ١٩١٤ . وقد وفر آنذاك للانسان ، بحسب بعض الاحصاءات ، ٨٧ بالمائة من الطاقة واكثر من ٩٠ بالمائة مع الخشب المتفحم ، بينما لم يوفر البترول والغاز سوى ٧ والقوى المائية ٢،٣ ؛ وبحسب احصاءات اخرى يجب الا ينسب اليه سوى ٧٥ بالمائة فقط من حيث ان الخشب وفر ١٥ بالمائة تقريباً . وسُير ٨٩ بالمائة من السفن بالفحم الحجري و ٨ بالمائة بالاشرعة و ٣ بالمائة بالبترول : فقد انتصر سخن الماء من ثم على المركب الشراعي قبل ان يغلبه المحرك الذي يدار باحراق البترول . لقد لوث منظر مناطق المصانع بدخان الفحم الذي تنفثه المداخن المرتفعة . فالا « ميدلندس » البريطانية والمنطقة الرينانية الوستفالية وحوض « سانت - اتيان » وحوض

بتسبورغ ، كلها بلدان سوداء نموذجية تتميز بها الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر المشرف على الانصرام ، اعني بها حضارة الفحم الحجري والحديد والفولاذ التي شوهت الطبيعة واذلت الانسان .

والحال ولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً اكثر بشاشة . اجل سوف تطلب مساهمة المنجم حتى بعد اكتشافها ، ولكن المهندس التفت الى الماء الذي ينحدر شلالات من الجبال ، فولدت الطاقة المائية هذا الفحم الآخر الذي اطلق عليه اسم لا يخلو من الظرافة هو الفحم الابيض . امنذ السنة ١٨٦٩ – سنة حصول « غرام » على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل – التي اعد فيها « برجيس » لمصنع الورق في « لانسي » شلالا يبلغ ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، ومنذ ان نجح « مارسيل ديريه » في نقل الطاقة للمرة الاولى الى معرض موتيخ – وقد اجري هذا الاختبار ، بعد مرور فترة قصيرة ، بين فيزيل وغرينوبل – اتاحت العنفة والدينم ، اللذان أحكما تدريجياً ، تحويل الطاقة المائية الآلية الى طاقة كهربائية . وقد لعبت العنفة المائية في مصنع انتاج الكهرباء بواسطة الماء الدور الذي لعبته العنفة البخارية في مصنع انتاج الطاقة الحرارية . وبينما صمم « فورنيرون » منذ السنة ١٨٢٧ العنفة المائية التي بلغ انتاجها ٧٠ بالمائة لم تتحقق العنفة الاولى الا بعد السنة ١٨٨٤ بفضل السويدي « دي لافال » والانكليزي « بارسونز » : اشتق نموذج لافال من عجلة برانكا التجارية الدافعة (١٦٢٩) وعرف بالعنفة المحركة او المتساوية الضغط ، بينما عرف نموذج « بارسونز » بالعنفة غير المتساوية الضغط ، وكانت هذه سريعة جداً وتلك اقوى منها الى حد بعيد ، ولكنهما اعطيا كلاهما انتاجاً مرتفعاً جداً (٩٠ بالمائة) . فأتيح من ثم انتاج الكيلواطات انطلاقاً من الاحصنة البخارية .

بدأ بالتالي عصر الكهرباء مع عهد هذا المحرك الجديد الذي كان بالنسبة للآلة البخارية التناوبية ذات المكبس ما كانته هذه الآلة بالنسبة لآلة « نيو كومن » الهوائية .

اما نقل الطاقة الكهربائية فقد استلزم تحويلا في التيار حققه « غولار » . فاذا زيد فرق الطاقة بين طرفي خط كهربائي عشرة أضعاف ، ازدادت الطاقة المنقولة مائة ضعف . ولكن خطر التوتر العالي والصعوبات التي انطوى عليها عزل الخطوط الناقلة حالت زمناً طويلاً دون النقل الى مسافات بعيدة . وفي السنة ١٨٩١ ، عجب الناس من ان « فرانكفورت » تمكن ، بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي (المعروف باسم مبتكره « تسلا ») ، من استخدام الـ ١٥٠٠٠ فولت المنتجة على الـ « نكار » على مسافة ١٤٠ كيلومتراً . ولذلك اقيمت مصانع الطاقة الحرارية من جهة على مقربة من المراكز البعيدة عن الجبال او الشلالات ، ومن جهة ثانية فكر الناس باقامة التجهيزات التي يمكن عزلها بسهولة على مقربة من الجبال والشلالات . وفكروا بادىء ذي بدء باستخدام اما مياه المنحدرات القوية واما الشلالات الطبيعية (كشلال نياغارا مثلا) ؛ ولكنهم لم يلبثوا ان أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية .

الا ان المصانع الحرارية ، التي كان تجهيزها سهلا ، قد انتجت تياراً مرتفع الكلفة ، في حال ان الفحم الابيض الذي يستلزم تجهيزات باهظة الاكلاف قد وفر التيار بكلفة دنيا . ولكن

الكهرباء ، على نقيض المنجم ، قد وزعت النشاطات ؛ وخلقت كذلك منظراً صناعياً جديداً لا يشوبه الدخان والغبار ، كان اكثر توافقاً والاطار الطبيعي ، ولم يخل من بعض العظمة حين تنتج الكهرباء من الماء . وقد حيا الامير كروبوتكين ، العالم والفوضوي ، مجيء هذه القوة المحررة .

استطاعت الساحرة ان تغمر بعطاياها بلداناً افقدها الفحم الحجري الحظوة : كاتالونيا ، سويسرا ، ايطاليا الشمالية ، سكندينافيا ، كندا ، وحتى اليابان . وقد اعتمدت اماكن عدة هذا المنبع الضوئي دون ان تعرف غاز الاضاءة من قبل ، كما بنت اماكن اخرى الخطوط الحديدية قبل ان تنشىء طرقات جيدة . ولكن ذلك استلزم الكثير من رؤوس الاموال والعديد من الفنيين. فحوالي السنة ١٩٠٠ دفعت اعمال الانارة الكهربائية الى تأسيس شركات مساهمة قوية تشرف اما على انتاج التيار واما على تقديم المواد . ولكن الاهتمام بزيادة الدخل دفع الى تجهيز اوفر المساكن ثروة او ارفعها مستوى معيشياً بامكانات خلاقة مستعجلة . ويلفت الانتباه ان اميركا الشمالية احتلت مركز الصدارة في انتاج الفحم الابيض ، اذ كان لديها في السنة ١٩١٠ سبعة ملايين حصان بخاري (انتج شلال نياغارا وحده منها اكثر من مليون) ، مخلفة وراءها فرنسا والمانيا وايطاليا (مليون واحد في كل منها) والسويد ونروج وسويسرا ($\frac{1}{2}$) . كما يلفت الانتباه كذلك ان بريطانيا العظمى ، التي نامت على غار اولويتها الفحمية ، لم تحتل آنذاك سوى مرتبة وضيعة ، لا سيما وانها افتقرت الى الشلالات السهلة التجهيز . ولكن الترتيب يتبدل اذا ما اخذت المصانع الحرارية بعين الاعتبار .

في الحقيقة لم يتوفر النور الكهربائي بعد الا لعدد ضئيل من البشر . اجل ان مصباح اديسون ، الذي استهلك في البدء ٤،٥ وات للشمعة الواحدة ، لم يستهلك سوى نصف وات بفضل استخدام التونغستين ابتداء من السنة ١٩١٣ ؛ ولكنه لم يتقدم بعد على مصباح « اوير » الغازي . وعلى الرغم من ذلك كان للارياف حتى الفيرة من المدن .

احتل المحرك الكهربائي مكاناً ضيقاً ، ولم يستلزم عناية كبرى ، وادير بسهولة ، واعطى انتاجاً بلغ وتجاوز ٨٠ بالمائة ، ولكنه اذا لم يستمد الطاقة من مراكم غير ثقيلة معبأة بشحنة تكفي لمدة طويلة ، فقد وجب ان يستمدها من التيار بواسطة خطوط ناقلة ممدودة فوق الارض او تحتها اذا استخدم الجر . ولذلك لم يستعمل بسهولة الجر الا على مسافات قصيرة : فسيرت بالكهرباء الحافلة البخارية او الحافلة التي تجرها الاحصنة منذ السنة ١٨٩٧ في لندن وفي معظم المدن الهامة من بعدها ؛ ثم اشتهرت وسيلة النقل هذه مدناً اخرى ؛ وقد فكرت بها العواصم الكبرى حين ارادت القيام ببناء الخطوط فوق الارض او تحتها ، كخط الـ « مترو » في باريس مثلاً . اما كهربة الخطوط الحديدية فسوف تنتظر تحسينات تقنية جديدة قبل ان يواجه استخدامها على نطاق واسع : ولكن لن يطلب منها سوى تسهيل تسلق المنحدرات القوية واجتياز الانفاق الطويلة .

على نقيض ذلك تكشف توزيع القوة المحركة عن مزيد من الافراء كلما اعتمدت هـــذه القوة في عمل ينجز في مكانه . فان استخدام الهواء والماء المضغوطين او الاسلاك الناقلة القوة الى مسافة بعيدة كان يستلزم تركيبات محدودة الانتاج بسبب الاحتكاكات المختلفة . وحلت كذلك محل التحويلات الآلية تحويلات كهربائية تحققت باستخدام الفينم في تسيير الآلة البخارية او العنفة المائية ، ما لم يكن التيار ناجماً عن التوزيع . وحدث ما هو اهم من ذلك ، اذ امكن تجهيز المثاقب والمقصات والفرائق والجسور الدائرة ، التي لا تستطيع السيور تحريكها بسبب انتقالها من مكان الى آخر ، بمحركات كهربائية . فبدا ممكناً بعد ذلك تسيير كل اداة صغرى ، وحتى كل آلة كبرى ، في المعمل وفي البيت ، دون ان تنبعث منها الحرارة والرائحة وحتى الضجة .

وانما اذا لم يستطع السلك بعد من نقل القوة المحركة الى مسافات طويلة ، فهو قد اجتازها لحمل رسائل الانسان واسماع صوته . فاتقن التلغراف والهاتف يوماً بعد يوم واتسعت شبكاتها . وحين اخترع كازلّي « بان تلغراف » (التلغراف الشامل) ، اعتقد الناس بامكانية نقل الصور كهربائياً . اما « كورن » الذي استخدم خاصيات السيليوم ، فقد حسن الطريقة في السنة ١٩٠٢ ، فحصلت « الوستراسيون » على احتكار براءة الاختراع في فرنسا . وفي تاريخ لاحق وضع جهاز بلين لنقل الرسوم الجامدة ، تحت تصرف الصحف والشرطة ، وسيلة إعلامية حاسمة وامينـــة .

وانما كان مقدراً لاختراع التلغراف اللاسلكي ان يثير الاعجاب اكثر من أي اختراع آخر ، لأنه جعل الكهرباء تبث عبر الفضاء اصواتاً واضحة سهلة الادراك بدون خطوط ناقلة . وقد جاء هذا الاختراع نتيجة لابحاث طويلة . فقد سبق لـ « ماكسول » ان لفت الانتبـــاه الى موجات توصل « هرتز » في السنة ١٨٨٦ الى كشفها بواسطة « عازل » والتقاطها في « رنانة » لا تتصل بأي سلك . وكان مقدراً لهذه الموجات الهرتزية ان يروضها «ادوار برانلي » و«اوليفر لودج » اللذان ابتكرا في آن واحد تقريباً من السنة ١٨٩٠ كاشفاً افضل هو « الملحم » البرادي ، و« بوبوف » الذي اخترع الهوائي اللاقط ، و « ماركوني » الذي عاد اليه فضل إرسال البرقية الاولى من انكلترا الى فرنسا في السنة ١٨٩٩ . وقد توفق لودج منذ السنة ١٨٩٤ الى تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً وفكر بمطابقة طول موجة المحطة اللاقطة على طول موجة المحطة الباثة . وسوف يكتشف بعد ذلك المصباح الالكتروني – مصباح علاء الدين الجديد – : مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائيين ، ومصباح « لي دي فورست » ذو الاقطاب الثلاثة ؛ وهما سوف يتيحان للموجات نقل الرسائل حتى اقاصي الارض .

بيد ان الساحرة التي نقلت فكر الانسان اما بواسطة السلك واما بدونـــه ، وساعدت الانسان منذ ذاك التاريخ على تسيير ادوات عمله وحتى على الانتقال ، قد أخذت تفعل في المادة نفسها وتحدث حركة ناشطة في تقنيات الكيمياء .

انطلاقة الكيمياء المثمرة

ان النطاق الشاسع الاطراف الذي وضعت الكيمياء يدها عليه خلال القرن التاسع عشر ، اخذت الصناعة تستثمره استثماراً واسعاً منذ السنوات ١٨٨٠ - ١٩٠٠ . لقد اهتم الرأسماليون والتقنيون في الدرجة الاولى بالمواد العضوية ، الكربون والهدروجين والاوكسجين والازوت . فحققوا منذئذ غاز الاضاءة والفحم المعدني المقطر ؛ ثم انشئت تجهيزات ضخمة اعطت كل يوم مزيداً من المنتجات الثانوية ، كالقار على انواعه والملونات والعطور والاسمدة والمتفجرات . وهو الفحم الحجري ماولد ابدا هـذه الصناعات الجديدة ، الوفيرة الارباح ، في الوقت نفسه الذي انتج فيه التيار الكهربائي . فلقد انتجت المانيا ـ بفضل منطقة الـ «رور» بصورة خاصة ـ في السنة ١٩١٠ ثلاثمائة مليون كيلوغرام من سلفات النشادر مقابـل ٦٥ مليوناً في السنة ١٨٩٠ (وقد حقق « فريتز هابر » آنذاك النشادر التركيبي) ؛ واعطت مصانع استخراج المعادن فيها ١٨٠٠ مليون كيلوغرام من خبث الحديد مقابل ١٠ ملايين . ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتدفئـة او للمحركات (زيوت ثقيلة وبنزول) وانواع حمض الفينول المستعملة في اعداد حمض البكريك وشتى انـواع السكرات . وكان التحليل بالمجرى الكهربائي قد سهل الى حد بعيد انتـاج ملح القلي والكلور والكلورات والكلورور والمنتجات الازوتية . فانتج بعد ذلك المواد الكلورية المزيلة الالوان (ماء جافيل) ومحلولات استخدمت لتبييض الاقمشة ومعجون الورق وتطهير مياه البواليـع . واختصر دباغة الجلود ووفر وسيلة لسقاية الادوات الفولاذية . واتاح كذلك طلياً بالنيكل جعل صفائح الرسوم المعدنية اكثر صلابة وصان القطع المعرضة للصدأ صيانـة فعالة . واتاح بالطريقة نفسها استخراج المنغنيز والقصدير والفضة والنيكل نفسه بفضل قدرته على التحليـل

ولعل اهم تحقيقاته معدن الالومينيوم . فقد كان هذا المعدن الجديد بالامس مجرد غرابة مختبرية ، ولكنه دخل نطاق التحقيقات العملية بفضل قابليته للتصفيح وخفته ومتانته : فقـد هبط سعر كلفة الكيلوغرام من ١٠٠ فرنك في السنة ١٨٧٠ الى فرنك واحد في السنة ١٩١٠ ؛ وقفـز الانتاج العالمي من ١٧٥ طناً في السنة ١٨٩٠ الى اكـثر من ٥٠٠٠٠ في السنة ١٩١٢ ، اذ ان انتاج البوكسيت - وهو اهم المعادن غير الخالصة المستعملة في صناعته - قـد تجاوز ٥٠٠٠٠٠ طن في هذا التاريخ الاخير .

وعلى نقيض ذلك نرى ان الكيمياء الصناعية وصناعة تنقية المعادن مجتمعتين ، استخدمتـا الفرن الكهربائي ، وتوفقتا بوجود التونغستين والنيكل والكروم الى ايجاد معادن مركبة جديدة ، اعني بها انواعاً خاصة من الفولاذ ضرورية لصناعة السيارات بصورة خاصة . واحدث « ألفرد ويلم » ثورة حقيقية في السقاية التي حققها في السنة ١٩٠٩ في « دورن » بواسطة الدورالومـين المركب من الومينيوم ونحاس وكميات صغرى من المغنيزيوم والمنغنيز والسيليسيوم . ثم وضـع « هنري له شاتليه » في السنة ١٩١٣ سنّة السقاية المزدوجة المتعلقة بتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة أخرى تحت تأثير الحرارة . وسيعرف الانتشار كذلك لحام المعادن بذاتها ، وهو لحـام

كهربائي بات ممكنـــاً بواسطة الاسيتيلين المستخرج من كربور الكلسيوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي ايضاً .

وعادت الكيمياء العضوية في الفترة نفسها ابرة بعض الصنائع الجديدة. وكان ريومور قد عبر عن يقينه بان الحرير الاصطناعي سيصير النور قريباً . فعرض « شاردونيـــه » في السنة ١٨٨٩ اول طريقة صناعية ، انطلاقاً من سلولوز القطن ؛ وقد توجب ازالة الازوت من الصنائع لجعلها غير قابلة الاحتراق . واستخدم « كروس » و « بيفان » و « بيدل » لب الاخشاب . وفكر « زيغري » و« اوربان » بتحليل السلولوز في ماء غال يحتوي بعض الامونيـــاك والنحاس ، واســوا في السنة ١٨٩٩ مصانع « غلانزستوف» . وفكر غيرهم كذلك بـ « كسانثات السلولوز . ولكن هذه الخيوط الحريرية الصناعية لم تقو على مقاومة الرطوبة مقاومة طويلة الامد . وقـــد انتج منها ١٠٠٠٠ طن في السنة ١٩١١ (نصفها في فرنسا) و ١١٠٠٠ في السنة ١٩١٣، وسارت المانيا على رأس هذه الصناعة، لأن الانتاج الفرنسي لم يتضاعف . ولاحت دلائل عصـــر المواد العجينية مع ظهور الـ « غالاليت » ، و الـ « باكيليت » التي امكن احلالها على صمغ اللك .

واذا لم يفكر احد بعد بصناعة المطاط التركيبي ، فان « ساباتيه » و « سندرنم » قد اثبتا ان مزج الاسيتيلين بالهدروجين بوجود النيكل من شأنه ان يعطي سائلاً شبيها بخلاصة البترول المكرر . والحال كانت تقنية المطاط والبترول تتقدمان تقدما حثيثاً بدلالة الحاجات الجديدة . وعلى نقيض الصمغ الهندي العجيني والعازل ، امكن استخدام المطاط ، الرخص والمرن ، في صناعة الانابيب والسيور والاحذية . الا انه توجب اخضاعه لعمليات مختلفة نخص بالذكر منها الكبرتة التي أشار بها « غوديير » لتغيير طبيعته : فان احماءه في البخار يزيـــل عنه كل قابلية التصاق ويصلبه دون أن يزيل عنه صفته المميزة . وكان اختراع المطاط لعجلات الدراجة قد ابرز دوره المحتمل في الآلات المتنقلة من مكان الى آخر ، وأثبت ميشلين ذلك في السنة ١٨٩١ بمناسبة السباق بين باريس وبرست : وكان ميشلين حفيداً لصانع كرات واختـــام وسيور من المطاط مقيم في « كلرمون ـ فران » ؛ وكان نسيبه بالمصاهرة « ماك انتوش » ، قـــد اكتشف قابلية ذوبان المطاط في البترول . ولن يلبث دور طوق المطاط أن يصبح دوراً أوليا : ففـــي السنة ١٨٩٥ ظهرت السيارة الاولى ، « البرق » ، التي صنعها « بوجو » مزودة بمحرك « دايملر » ومركبة على أطواق من المطاط الخالص بعناية ميشلين؛ ثم عمت هذه الطريقة بعد السنة ١٩٠٥ . فارتبط مصير المطاط منذئذ بمصير العجلة والسيارة ولم تعد شجرة المطاط البرية كافية لتموين المصانع التي تكبرت المطاط : فزرعت بعض الحبوب التي كان ويكهام قد جمعها في امازونيـــا وأسفرت عن نحو ٢٠٠٠ شجرة جميلة في حديقة « كيو » على مقربة من لندن ؛ ثم أرسلت هـــذه الاشجار الى سيلان . ولن تلبث مشاجر آسيا الجنوبية أن تتسع بسرعة : فمن أصل ١٢٤ الف طن انتجت في السنة ١٩١٤ لم يعط المطاط البرازيلي سوى ١٩ الفاً وقد عاد ثلاثة أرباع لاستهلاك الصناعي الولايات المتحدة .

وهي الولايات المتحدة كذلك ما سارت في الطليعة لجهة انتاج البترول . وان هذا السائل ، الذي اعتبر نهائياً كمصدر الطاقة ، قد عرف في روسيا باسم النفط وفي آسيا باسم الزفت وفي الغرب باسم البترول او « الزيت » . ولكن تكريره بعث الآمال في استخدامه كوقود للدفع الى الامام . وقد ابتكرت بالفعل مساخن قادرة على الحلول بجدوى محل الفحم الحجري في السفن . فزودت بها سفينتان في الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ كما زود بها يخت نابوليون الثالث . واخذ الروس يسيرون سفنهم في بحر قزوين وقاطرات خط « باكو - تفليس » بردي التكرير او « مازود » ، الذي كانت طاقته الحرارية ضعف طاقة الفحم الحجري . ثم ألح اتقان المحرك المسير بالغاز الاستفادة من غاز البترول . الا أن التقدم بقي بطيئاً حتى السنة ١٨٩٥ تقريباً . فقد كشف التكرير المتقن والمحرك المسير بانفجار الغاز آنذاك عن كل ما يمكن ان ينتظره الانسان من الوقود السائل . وارتفعت كمية البترول المستخرج من ٨ ملايين طن في السنة ١٨٩٠ الى ٥٦ مليوناً في السنة ١٩١٤ ، استخرج منها ٣٤ في اميركا الانكلوساكسونية وحدها . الا أن كميات البترول المكرر التي استهلكتها محركات السيارات والطائرات والغواصات لم تتجاوز ٦ ملايين طن ؛ فهي السفن التجارية والسفن الحربية مما اقتطعت حصة الاسد حتى قبل ان يثبت محرك « ديزل » افضليته على موقد بسيط للاحتراق الخارجي . ولكن التكرير ، بصرف النظر عما تستلزمه صناعة استخراج البترول ونقله من معدات واجهزة ضخمة ، استوجب عمليات تسخين وتصفية معقدة (طريقة الحمض الكبريتي ، ثم طريقة الانيدريد الكبريتي السائل منذ السنة ١٩١٠ ، وطريقة الـ « الكراكنغ » او التكرير بالحرارة المرتفعة تحت الضغط العالي ، في السنة ١٩١٢) . فهنا ايضاً ، تخطت الكيمياء الى حد بعيد مرحلة الانبيق لبترول الاضاءة [1] .

وما كانت السينما لتبصر النور كذلك بدونها اخيراً . فلا ريب في أن التصوير الشمسي كان نقطة انطلاق هذا الفن الجديد (في السنة ١٨٧١ بدأ مادوكس يستعمل « جيلاتينو - برومور الفضة) ؛ ولكن السلولويد الذي اخترعه الاخوان «هيات» ، وهو جسم صلب وشفاف وقابل الاحتراق وقادر على مقاومة العوامل الطبيعية ، قد اثبت أهليته لصناعة ورق التصوير السلبي (الذي اطلق عليه « ايستمان » اسم « ستريبنغ فيلم ») . ولم يبق بعد ذلك سوى اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق تركيب مراحل الحركة وبالتالي ايهام الناظر برؤية الصورة المتحركة. وقد اسهم في ذلك « رينو » في الدرجة الاولى ، و « ماراي » و « دمني » و « اديسون » من بعده . فاستفاد الاخوان « اوغست » و « لويس لوميير » من تجاربهم الطويلة وتوفقا في السنة ١٨٩٥ الى تحقيق اول عرض سينمائي امام جمهور من الناس . وعند ذلك جهز « جورج ميلييس»

---

(١) فهي قد لعبت دورها كذلك في صناعة الاسمنت المستعمل في البناء « الـ « باطون » الذي احدث ثورة في مستهل القرن العشرين .

اول « ستوديو » (مكان خاص للتصوير وتسجيل الصوت) ولجم في تحقيق تراقت الحساكي والسينما واهتدى الى بعض الاكتشافات ، كازدواجية الاشخاص . فولدت من ثم صناعة جديدة قامت على تعاون الكيمياء والآلية وضمت، في الولايات المتحدة مثلا ، شركات التصوير العامة كـ « اديسون » و « ايستان كوداك » .

من الآلة البخارية الى محركات الانفجار والاحتراق الداخلي ، ظهور السيارة والطائرة

لم يتوقف القرن التاسع عشر يوماً عن مواصلة تحسين الآلة البخارية. ولكن النتيجة لم تتحسن قط : فقاطرة القطار الحديدي مثلا لم تحقق سوى تقدم بطيء . اجل لقد بدا أن الملاحة تدخر مستقبلا على بعض اللمعان للسفنة البخارية . وانما بقيت الحاجة ماسة الى اختراع محرك يمكن تسييره اما بواسطة وقود سائل ، واما بخليط من الهواء والغاز ، ما دامت الكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقــل البعيد . فأعطت الصيغة الاولى محرك الاحتراق الداخلي : يدخل السائل مباشرة الى الاسطوانة حيث يولد الضغط القوي الاشتعال الذاتي . أجل لقد كان مفروضاً ان يتيح هذا المحرك الوفير الانتاج استخدام الزيوت الثقيــلة « المعدنية » والنزجة » كالمازوت و « زيت الغاز » . وعلى الرغم من ذلك فقد وجب انتظار السنة ١٨٩٣ لمشاهدة أول نموذج من هذا النوع – نموذج ديزل – يمكن استخدامه في الغواصة والسفينة والجرارة . وفي السنة ١٩١٢ امتحن في تسيير احدى القاطرات . الا ان استخدامه لن يعم الا بعد الحرب العالمية الاولى .

لعل « هويغنس » كان أول من فكر بمحرك الانفجار ، عندما اكتشف ان امتداد الغازات المتسبب عن احتراق البارود في اسطوانة ينتج طاقة آلية . وفي السنة ١٨٦٠ – وهـي سنة ابتكار الطريقة « المركبة » – توفق « جان – اتيان لنوار » الى تحريك مكبس باحداث انفجار خليط من الهواء وغاز الانارة بواسطة شرر كهربائي : ولكنه لم يبتعد بعــد عن مفهوم الآلة البخارية ، ولم يحقق سوى طاقة ضعيفة ، اذ أن آلته التي قطعت مسافة ١٨ كيلومتراً في ثلاث ساعات استهلكت مترين مكعبين في الساعة للحصان الواحد . واذا فكر « بو دي روشا » بعيد ذلك بالضغط ودور الاوقات المتساوية الاربعة ، فان « سيغفريد ماركوس » لم يعتمد البترول المكرر ولم يفكر بالآلة المغنطيسية الكهربائية للحصول على الشرر الا في السنة ١٨٧٥ .

سار الكونت « دي ديون » والميكانيكي « بوتون » على خطى « كونيو » وصنعا سيــارة بخارية تسير على الطرقات في السنة ١٨٨٣ . وبعد مرور سنتين سارت السيارات بالبنزين المكرر دون أن تتجاوز سرعة ٣٠ كيلومتراً في الساعة . فظهر بعد ذلك عدد كبير من النماذج الـــتي اقتبست اشكال معظمها عن العربات التي تجرها الجياد .

ثم تحقق تقدمان حاسمان ابتداء من السنة ١٨٩١ : ابتكر « فرنان فورست » المحـرك الرباعي الاسطوانات واخترع قبس الاشعال (بوجي) وزود جهاز اشباع الهواء بأبخرة البترول

المكرر بجهاز صغير ينظم دخول هذا البترول ؛ ولحق ارمان بوجو بسباق الدراجات بين باريس وبرست وعاد الى فالنتينيالتي انطلق منها . ثم ظهرت الدراجة البخارية بفضل دايلر الذي سير الدراجة العادية بمحرك غازي . وعلى طريق باريس – بوردو تلـــوق « الشّور » وشريكه « بانهارد » على البخار ، وحسن ميشلين طوق المطاط الذي صممه « دنلوب»واستخدمه«بوجو». واخترع « رينو » طريقة الجمع المباشر ، وجهز اول معرض للسيارات في ساحة الـ « انفاليد » . وفي السنة ١٩٠٠ ، ابان السباق بين باريس وتولوز ، « اقشعرت فرنسا جماء تأثراً ديموقراطياً ورياضياً » ، كما يروي « بول موران » . فترك الحصان للوصيين وروث الحصان والبغل للتوربين. وكان عدد السائقين في الطرقات العامة اقل من ان يسمح بنعتهم بالداعسين . وهم الشيوخ وحدهم من اعترضوا وطالبوا وزير الداخلية دون جدوى بمنع هذه الالعاب البهلوانية ، وقالوا بوجوب اعداد مقابر خاصة لسائقي السيارات على جوانب الطرق » . وبعد السنة ١٩٠٠ تحسن هيكل السيارة وتوازنها المطط ومحركها واجهزة نقل الحركة فيها ، واتضح شكلها الخارجي المميز . وفي السنة ١٩١٤ سارت السيارة بسهولة بسرعة ٧٥ كيلومترا في الساعة . وبلغ عدد السيارات مليونين استخدم قرابة نصفها في الولايات المتحدة التي اضطرت الى انشاء شبكةطرقاتبسرعة. اجل لقد تناول التجديد طرقات اوروبا ايضاً ؛ ولكن طرقات المشاة القديمةلم تكن معدة لسير العربات المزودة بالمحركات ، فاضطرت السلطات العامة الى تنظيم السرعة في المدن . ثم غُطيت الطريق بأحد مشتقات البترول المكرر وهو القار ، فمنع الغبار .

في أواخر القرن الثامن عشر توصل الانسان الى الارتفاع في الهواء بواسطة كرى ملأىبالغاز: المنطاد المملوء بالهواء الساخن ، والمنطاد المملوء بغاز الاضاءة . لقد كتب ميشليه : « انها لساعة نادرة ! لانهاية الفضاء تتسع شيئاً فشيئاً ... » ثم تميزت عمليات الصعود الى الجو ، بغية استكشاف الطبقات الجوية العليا ، بمزيد من المغامرة والجرأة . ففي السنة ١٨٧٤ ارتفع احد المناطيد الى علو ٨٧٠٠ متر ، فغاب اثنان من ملاحيه عن رشدهما ولم يستفيقا قط . وفي السنة ١٩٠١ ارتفعت المناطيد الى اكثر من ١٠ آلاف متر .

تحقق منذئذ المنطاد المسير : وقد فكر «ديبوي دي لوم» و «جيفار»بالدفع الآلي الى الامام بواسطة المروحة والبخار . واحكم « رينار » و « كربس » جهازاً يسير بالكهرباء ، فكانذلك حدثاً هاماً كرس له « فكتور هوغو » بعضأشعاره قبل ان تدركه المنية . فهل بالاستطاعـــة تزويد سفن جوية حقيقية بمحركات انفجار يا ترى ؟ لقد آمن الناس في المانيا بمستقبل ما هـــو أخف من الهواء ، وأسس الكونت « زبلين » في السنة ١٨٩٦ معامل انتجت سفناً جوية ضخمة : فان الـ « ساخسن » الذي سيبنى في السنة ١٩١٣ سيبلغ ١٤٠ متراً طـــولاً و ١٥ متراً قطراً ، وسيزود بثلاثة محركات قوة كل منها ١٧٠ حصانا وسيتسع لـ ٢٠ راكبا .

ولكن أليست اسطورة « ايكار » سوى خيال يا ترى ؟ فمنذ مشروع الطائرة الطوافة الذي

عرض على أكاديمية العلوم في السنة ١٧٨١ حتى طائرة فورلانيه المسيرة بالبخار التي اقلعت في السنة ١٨٧٨ ، قد انقضى قرن كامل تقريباً . وكم هم الذين تذكروا في هذه الاثناء رسوم « فنشي » او لم يتذكروها وحاولوا عبثاً الطيران على طريقة الطيور معرضين حياتهم للاخطار في اغلب الاحيان ؟ الا ان انصار ما هو اثقل من الهواء قد تعززت آمالهم بعد السنة ١٨٨٠ . وقد عبر « جول فيرن » عن هذه الثقة على لسان « روبور الفاتح » الذي تفوقت طائرته على المنطاد المسير . وللمرة الاولى توفق « كليمان ادر » الى الارتفاع عن الارض بوسائله الخاصة على « أيول » بواسطة محرك بخاري . وفي السنة ١٨٩٧ ، في « سالون » ، طارت طائرته « افيون » مسافة ٣٠٠ متر ، وكانت شبيهة بالخفاش ؛ ولكنها تحطمت بهبة ريح شديدة ، فكف « أبو الطيران » عن مواصلة تحقيق مشروعه . فتوجب اكتشاف محرك آخر .

اهتدى اليه ميكانيكيا دراجات هما الاخوان « رايت » : في السنة ١٩٠٣ ، وبناء على تعليماتهما ، قذف بها في الهواء بواسطة منجنيق في احدى ساحات اميركا أمام خمسة مشاهدين ؛ فارتفعت الطائرة الى علو ثلاثة امتار وقطعت مسافة ٢٦٠ متراً بفضل محرك انفجار خفيف الوزن جداً . وبعد مرور ثلاث سنوات قطع البرازيلي « سانتوس - ديمون » ، صاحب احدى المزارع الكبرى ، الذي استهواه المنطاد من قبل ، مسافة ٢٢٠ متراً على ارتفاع ٦ امتار فوق الارض . فكانت نتيجة هذه المآثر الحقيقية التي أثارت الحماسة ، استحثاث الابحاث . وتعاقبت الاحداث بعد ذلك بسرعة مطردة : في السنة ١٩٠٨ قطع « فارمان » الكيلومتر الاول في مدار مقفل ، وفاز « ولبور رايت » بكأس ميشلين الاولى بتحليقه في الجو طيلة ساعتين ونصف الساعة وقطعه مسافة ١٢٤ كيلومتراً ؛ وفي السنة ١٩٠٩ اجتاز « لويس بليريو » بحر المانش عند كاليه ؛ وفي السنة ١٩١٠ اجتاز « شافيز » جبال الألب ؛ وفي السنة ١٩١٣ اجتاز « غاروس » المتوسط . وفي السنة ١٩١٤ جاوز الرقم القياسي ألف كيلومتر مسافة و١٣ ساعة طيراناً ، و ٦ آلاف متر ارتفاعاً ، ومئتي كيلومتر في الساعة سرعة . فما ان الحرب العالمية الا ان تندلع لان البشر سوف يعرفون كيف يقاتلون في السماء .

نصيب التقنيات الحربية الكبير

ان تطبيقات العلوم الطبيعية والكيميائية ، التي هلل لها بعضهم ، قد اثارت المزيد من التحفظات لدى اولئك الذين استوقفهم بالتفضيل خضوع الانسان لعلم الآليات ووسائل التدمير الجديدة .

ولقد زعم بعضهم ان الفضل الاكبر في الانتاج بالجملة يعود الى الحرب الآلية ، وان الجراحة مدينة بنجاحاتها لساحات المعركة في الدرجة الاولى .

في اواخر القرن التاسع عشر بدأ عصر الفولاذ . فلا ارتياب بعد اليوم حول الدور الاولي الذي يلعبه القطار الحديدي وخطوطه الفولاذية في نقل القوى المحاربة والاعتدة . وهي اصناف الفولاذ المختلفة - ولا سيما الاصناف الخاصة - التي زادت من قوة الاسلحة وقوة الدرع : وقد

استفادت المدفعية والسفينة المدرعة من طرائق « بسمر » و « مارتين- سيمنس » . فتطورت مصانع الاسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بعد أن يسرت اعمالها الحروب التي نشبت بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ . فقام بعد ذلك ارتباط وثيق بينها وبين الحكومات وبين القيادات العسكرية العامة . واشتد هذا الارتباط كلما تطورت تقنيات الصناعة . فالبندقية ما زالت اوسع الاسلحة انتشاراً ، وقد تحسنت تحسناً مستمراً . فحلت محل البندقية « شاسبو » المزودة بابرة لاطلاق النار ، التي كانت ملكة العمليات الحربية البرية في السنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، البندقية المزودة بجهاز حشو وببارود لا ينبعث منه الدخان ، التي تطلق طلقات متواترة « من طراز « ليل » و « موزر » .

ولكن المهندسين الاميركيين ، « حيرام مكسيم » و « ب. ر هوتشكيس »، قد احكما السلاح الذاتي الذي اطلق « ريفاي » عليه اسم مدفع الرصاص والذي حال تركيبه الدقيق دون استخدامه استخداماً فعالاً خلال الحرب الفرنسية الالمانية . وبعد ذلك بزمن قصير ظهر المدفع الذاتي الحركة السريع الاطلاق الذي لم يلبث ان عُرف باسم المدفع الرشاش . وبالمقابلة زاد المدفع المفرض من داخله والمطوق من خارجه صلابة وبعد مرمى وقابلية حركة . وقد زوده الكولونيل « دي بانج » بصمام جعل حشوه من مؤخره اكثر فعالية . وزود كذلك بجهاز يمنع مفعول اندفاعه الى الوراء وبأجهزة تسديد تبيح الاطلاق غير المباشر. فبلغت سرعة القذائف المطلقة ، بعد اطلاقها مباشرة ، ٥٠٠ متر في الثانية . كما ان القذائف التي استطاعت المدفعية اطلاقها قد بلغت الطن وزناً .

لقد حدثت ثورة حقيقية في فن اطلاق النار . ففي السنة ١٨٧٠ ، نادراً ما استعمل غير البارود الاسود الذي يرتقي استخدامه الى اواخر القرون الوسطى : ففكر « برتلو » باستبدال مزيج الفحم والكبريت وملح البارود هذا بأول او كسيد الازوت السائل . ولكن الاميركيين كانوا قد استخدموا خلال الحرب الانفصالية بعض المواد المتفجرة المعول في تركيبها على بعض التيارات السريعة الانفجار. وبينما ولى «توربين » وجهه شطر البيكرات وحصل على «الملينيت» آثر « فياي » النيتروسلولوز المعروف باسم قطن البارود او القطن المتفجر ، و « نوبل » النيتروغليسرين الذي يعطي الديناميت . وقد اثبت هذا الاخير فاعليته بتدمير صخر تحت سطح البحر في مرفأ نيويورك وبالمساعدة على فتح نفق « غوتار » . ولجأ الارهابيون الايرلنديون اليه لنشر الذعر في انكلترا . ثم توفق « فياي » الى تسهيل استعمال هذه المواد في الاطلاق بازالة خاصياتها التحطيمية . فجاء من ثم البارود الذي لا ينبعث منه الدخان يضاعف قوة النار بحشوة محدودة منه .

استفيد من كافة الاستحداثات. فقد سهلت ساعة قياس الوقت الدقيقة تقدير المدفعيين لسرعة القذائف عند اطلاقها . وهو احد هؤلاء المدفعيين ، « كولين » ، من اعلن : « ان التلغراف قد بدّل ظروف الحرب تبديلاً كلياً باتاحته تولي القيادة من مسافات بعيدة » .

الا ان واحداً لا يعلم ما اذا كان الهجوم سيفضّل الدفاع . وقد مال معظم الاختصاصيين الى العمليات الطويلة ، وعمليات « الخنادق » و « الحصار » ؛ ويبدو ان اختبار الحرب في منشوريا كان حجة قاطعة من هذا القبيل . وفي السنة ١٩١٢ ، بينما امر القائد «دي برناردي» ، وفاقاً لنظريات قيادة الجيش الالماني التي اوصت بزيادة قوة النار والهجوم حتى الموت ، على ان يكتب : « يجب استفراغ الجهود بغية احراز النصر بالسرعة القصوى » ، اجاب الكولونيل « مونتانيه » : « النهكة هي ما سوف يقرر مصير المعارك » . ولكن القائلين بهذا الراي او ذاك قد حسبوا حساب النتائج المرعبة التي سيسفر عنها الاصطدام الاول . فتصرفوا من ثم بحيث يكون هذا الاصطدام قادراً على تأمين النصر الكامل .

أعيرت الاهتمام كذلك الاختراعات الجديدة في الحرب البحرية . فان اعتماد البخار كقوة محركة لم يبدل ظروف المعركة كما بدّلها ظهور التدريع والمتفجرات الازوتية في آن واحد تقريباً . وقد بدأ السباق بين هذه وذاك . فبيت السفينة المدرعة ذات الابراج التي بلغت سماكة فولاذ هيكلها حتى ٥٠ سنتمترا وعرفت قياسات لم تعرفها السفن من قبل : فحوالي السنة ١٨٩٠ تجاوز طولها ١٠٠ متر واتسعت لحمول ١٠ أو ١٥ الف برميل ولـ ٨٠٠ أو ٩٠٠ طن وقوداً ، وسارت بسرعة تتراوح بين ١٥ و١٧ عقدة . فكانت شبيهة بحصن بحري حقيقي وقادرة على الشروع في القتال من مسافة بعيدة تساندها الطرادات المدرعة والطرادات المحمية التي كانت اسرع سيراً وأقل قوة . ولم يكن اعداؤها نيران العدو فحسب ، بل الالغام وقذائف نسف السفن ايضاً . وقد اوحت قذيفة « وايتهد » ، الذاتية الحركة ، بفكرة السفينة النسافة السريعة التي زودت بأنابيب لرمي القذائف ، والتي اثبتت الحرب الروسية اليابانية مرونتها . ثم جاءت الكهرباء تتولى ادارة اجهزة الحركة والملائم وتطلق الالغام .

ثم تعاظم شأن الغواصة التي استلزمت مجموع اجهزة محكمة ارتبطت كذلك بأجهزة الحركة الكهربائية . فقد واصل القرن الجاث منذ ان توفق « فولتون » الى تغويص الـ « نوتيلوس » في السنة ١٨٠٠ . فسعى « برون » و « نوردنفلت » الى تحقيق جهاز يكون فيه الهواء مضغوطاً وتكون اقسامه الداخلية محكمة لا ينفذ اليها الماء . وفي السنة ١٨٩٩ ، ابتكر « لوبوف » الـ « نارفال » : و صممت هذه الغواصة بهيكلين رتبت بينهما الاثقال بغية اتاحة التغويص والعودة الى سطح الماء وسارت بواسطة آلة بخارية ؛ وادارت اثناء الغوص محركاً كهربائياً واستخدمت المنفاق والبركار الجيروسكوبي . ثم لم تلبث ان اعتمدت محرك ديزل . وكانت قادرة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الالغام ورمي القذائف فبدلت بدورها معطيات الستراتيجية البحرية .

كانت هذه الاخيرة موضوع دراسات كثيرة . الا ان كتاب الاميرال « ماهان » ، « اثر القوة البحرية في التاريخ » ، قد هيج الافكار ، والمنافسة الانكليزية الالمانية اسهمت اسهاماً

قوياً في تقدم التقنيات .

في السنة ١٩٠٥ ، وتحت تأثير الاميرال « فيشر » ، انزلت بريطانيا العظمى الى البحر الـ « دردنوت » ، المثال الجديد للسفينة المدرعة الكبرى ، الذي جاوز محموله ١٨٠٠٠ برميل : كان مزوداً بعنفات بخارية ومسلحاً بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ مليمترات و ٢٤ مدفعاً من عيار ٧٦ ، وقد استغني فيه عن المدفعية الثانوية . فكانت اسلحته من ثم خير اسلحة لمعركة يشارك فيها من مسافة بعيدة .

ثم اخذ الاميرال فيشر نفسه بعين الاعتبار فوائد البترول الفضلى ، فأمر باستبدال الفحم بالمازوت . فضوعفت دائرة العمل بوزن وقود متساو ، وزال الدخان . ولكن هذا التغيير كان في اولى مراحله فقط حين نشب نزاع السنة ١٩١٤ .

وكان مقدراً للحرب العالمية ان توسع بسرعة استعمال الوقـــود الجديد والآلات المسيرة بمحركات انفجار او احتراق داخلي .

تباشير ثورة علمية جديدة : الاشعاع الذاتي والنسبية

في الوقت الذي تكاثرت فيه النتائج العملية ، والرهيبة في اغلب الاحيان ، للاختراعات التي بدأ القرن وكأنه يملق عليها سمعه ، كانت تعد ثورة حقيقية في حقلي علم الرياضيات وعلم الطبيعة .

بينما كان القائلون بامكانات العلم الكلية يعتبرون العلم ، حوالي السنوات ١٨٨٠–١٨٩٠ ، معقداً على مبادىء متينة ، انهار بناء الحتمية ، الذي اعتبر كلاسيكياً ، في سنوات قليلة امام سلسلة من الاكتشافات غير المرتقبة . فبعد الاشعة المهبطية التي سلم بالعديد مـن النظريات حـول طبيعتها ، اكتشفت في آن واحد تقريباً – اواخر السنة ١٨٩٥ واوائل السنة ١٨٩٦ – الاشعة التي دل « رونتجن » عليها بالحرف X ، والاشعة التي عزاها « هنري بكريل » للاورانيوم والتي لن يلبث « بيير وماري كوري » ان يهتديا اليها (١٨٩٨) منبثقة بمزيد من القوة عن جسمين آخرين هما البولونيوم ولا سيا الراديوم . وهكذا ظهر الاشعاع الذاتي أو النشاط الاشعاعي .

اجل لقد وجد في الشعاع الذاتي كما في الاشعة المهبطية الكهيرب المعروف – دل عليه لورنز في السنة ١٨٩٥ كعنصر تركيب – والموجات الهرتزية واشعة X والنور نفسه؛ وانما اكتشف فيه كذلك إشعاع اطلق عليه اسم اشعاع « غاما » كما في اشعة X ؛ واخيراً حقق « روذرفورد » شخصية الاشعة « الفا » كنويات مؤلفة من كهيربات لذرات الهليوم . وهنا كان مثار الدهشة .

فما هي سنن الاشعاع يا ترى ؟ لقد لاحظ « لنار » ان اشعة ماوراء البنفسجي تنتزع بعض الكهيربات من المادة بينما لا تستطيع اشعة ما دون الاحمر ذلك . فكل جسم يبث مـن ثم اشعاعاته الخاصة بذبذباته الخاصة .

ثم جاء « ماكس بلانك » في السنة ١٩٠٠ يدلي بدلوه ايضاً، فانحصر صدور الطاقة صدوراً مستمراً وصاغ مبدأ جديداً مفاده ان الطاقة تبرز كذلك بشكل جزئيات تنبث عـن المادة

انبعاثاً غير مستمر ؛ أما قيمة هذه الجزئيات فنسبية التواتر .

وبعد انقضاء خمس سنوات اثبت « البير انشتاين » صحة هذه الثابتة بتطبيقها على مفعول الضوء والكهرباء الذي اوضحه هرتز في السنة ١٨٨٧ والذي يلخص بأن النور ينتزع بعض الكهيربات من المادة ؛ وهكذا يظهر ان « لنار » قد تثبت الشيء دون ان يستطيع تفسيره .

وهكذا نشأت في وقت واحد النظرية الذرية ونظرية النسبية ، وقد اتصل بالاولى علم الذرات والكهيربات الذي تختلف سنته اختلافاً كلياً عن سنن علم الطبيعة الكلاسيكي . فحدد « روذر فورد » الذرة في السنة ١٩١١ بأنها متكونة من كهيربات تدور حول نواة ؛ وابان ان تصنيف الاجسام وفاقاً لعدد الكهيربات يتبع استثناءات جدول اقترحه « مندليف » منذ السنة ١٨٦٩ . اما « بوهر » فقد شدد الكلام في السنة ١٩١٣ على الطاقة المنبعثة عن الكهيرب، بحسب نظرية الجزئيات ، شريطة ان يقفز من ذرة الى اخرى. فتكون هذه الطاقة من ثم غير مستمرة ، خلافاً للقواعد علم خاصيات التيارات الكهربائية ، وتتكون اما من جزئيات طاقة الضوء او اشعة ما وراء البنفسجي أو اشعة ما دون الاحمر أو اشعة ? ايضاً. ومنذ السنة ١٩٠٠، اي منذ « روذر فورد » و« سودي» عكف عدد كبير من العلماء - « موريس دي بروي » «ميليكان» ، « ج . - ج . طومسون » ، « ولسون » ، « استون » ، وسواهم - على قياس عناصر هذا الكون الجديد ، وحققوا تشابه الخواص ، بينها حدد « لنجفين » بدقة نظرية المغناطيسية .

وجاء علم الرياضيات ينصف ويدعم علم الطبيعة الجديد . فتخطى « فيتو فولتيرا » مرحلة المعادلات التفاضلية التي سبق لـ « هنري بوانكاريه » ان وجد لها اسلوباً عاماً ووصل الى المعادلات التكاملية ؛ ونقل التحليل الى الدالات التي كشف القرن التاسع عشر القناع عنها والتي تعمق في درسها هنري بوانكاريه نفسه و « وايرستراس » و « اميل بيكار » . وكانت جورج كانتور من جهته قد توسع في مفهوم اللانهاية انطلاقاً من مجموع الاعداد العادمة القياس ، مما قلقل مفهوم الاستمرار . وسيطبق « بير » بدوره نظرية المجاميع والدالات هذه ، كما ان « اميل بوريل » و « لوبيغ » سيحددان بعد ذلك خاصيات الدالات لعدة متحولات . اما نظريات الفئات التي طلع بها « غالوا » ، وتبناها « كوشي » و « كميل جوردان » من بعده ، فقد كملها اميل بيكار و « كارتان » ايضا . والحال كانت فئة « لورنز » مدخلا للنسبية المحصورة .

في هذه الاثناء كانت هذه النظرية آخذة في شق طريقها . فقد اثبت ميكلسون في السنة ١٨٨١ ان سرعة النور واحدة في كافة الاتجاهات . فكان اثباته هذا ملاحظة مدهشة اذ ان حركة المصدر الضوئي او حركة المراقب لا تغيران في الامر شيئاً . ثم انطلق انشتاين من هذا المبدأ ليثبت أن الزمان والفضاء ليسا مطلقين وان حجم جسم ما يتبدل بتبدل سرعته وان المادة نفسها ليست سوى شكل من اشكال الطاقة : فأدى ذلك الى انهيار الآلية الكلاسيكية كلياً بدورها والى استثبات نظرية الجزئيات في نطاق الاجسام المتناهية الصغر . وسوف يجمع

لويس دي بروي" في عهد لاحق بين الكهرب والموجـة وبؤس الآلية التموجية : ولكن «لان »كان قد أثبت في السنة ١٩١٢ طبيعة ٪ التموجية . وسينتقل انشتين من جهته من نسبية « محصورة » الى نسبية « شاملة ». انها لآفاق جديدة كل الجدة في طبيعة الكون بالذات خلّفت بعيداً وراءها نظريات كوبرنيك وغاليليو ونيوتن ولابلاس .

نمو الثقافة الشعبيا والرياضة

قليلون جداً هم الذين رافقوا تقدم العلم وقدروا اهميته . فما القول عن الجماهير التي "سدّ" بابه سداً محكماً بالنسبة اليها .

في نظر « دوركهايم »، « ان الانسان الذي يجب ان تحققه التربية فينا ليس الانسان كما صنعته الطبيعة بل كما اراد المجتمع ان يكون » . لذلك فقد فرض المجتمع ابداً مدرسة على مثاله . وقد عرف ذلك المحافظون والمجددون والثورويون على السواء . ولكن المسألة ازدادت خطورة يوماً بعد يوم لان الذين يطالبون بأن يكون لهم مكانهم في وليمة المعرفة قد تزايد عددهم تزايداً مطرداً .

الممت مطامع « هو » و « مارينوني » ومرتّصفة مرغنتالر » ثم سابكة « لانستون» تخفيض ثمن الكتاب الذي بات اكثر استهواء وأوفر حياة بفضل التصاوير والرسوم الزهيدة الكلفة . وصدر الكتاب المدرسي والقصة الشعبية بأعداد كبرى . ولكن الصحيفة ايضاً استفادت من النجاحات التقنية نفسها : فقد بيعت بـ ١٠٠٠ فرنك في فرنسا قبل حرب السنة ١٩١٤ . وأصبحت من ثم في متناول الجميع . وكانت أداة اعلام عظيمة ، فوفرت المعلومات والألاهي ؛ وقلبت الرأي العام ووجهته ؛ فراعت جانبها واستخدمتها السلطات العامة والمصالح الخاصة : وقد امست لعمري احدى اعظم القوى الاجتماعية . وطبعت الشباب المجلة الدورية المسلية : فأصدرت جمعية « اوفنسات » الباريسية مجلة « المدهش » التي خلقت مثال « الاقدام المطلية بالنيكل » ، و « الفتاة » و « الشجاع » و «الجدجد». وقامت الاكشاك في الشوارع والساحات الآهلة جداً حيث بيعت كميات كبرى من المطبوعات الزهيدة الثمن (روايات عاطفية وبوليسية وروايات مغامرات) .

استمرت الامية في التقهقر ، ولكن احداً لا يستطيع تحديد اهمية هذا التراجع بدقة . فان نسبة الاميين في الخدمة العسكرية التي هبطت في فرنسا من ١٤ الى ٤٪ بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ ، قد انحسرت الى ٢٪ في السنة ١٩١٤ ؛ ولكن مجندين كثيرين لم يحسنوا القراءة والكتابة . وبينما تزايد عدد الطلاب تزايداً مستمراً في الجامعات ، القديمة والجديدة منها ، انتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة . ففي انكلترا مثلاً كلف « قانون التربية » الصادر في السنة ١٩٠٢ الجمعيات التمثيلية تأمين نفقات التعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة ؛ وقد أملته رغبة في تسهيل انتقال التلامذة من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . اما في فرنسا وبلجيكا حيث ما زال الصراع على أشده بين العلمانيين والجمعيات الدينية ، فقد اعترف بوجوب

البقاء في المدرسة حتى سن الثانية عشرة او الرابعة عشرة ؛ وتواصل الدروس بعد ذلك اما في المدارس الابتدائية العليا واما في المدارس التقنية .

ارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الاساليب التربوية ، بعد أن أظهرت سيكولوجية الطفل فوائد التعليم المتفق واذواق كل عمر وامكاناته . فنادى « جون ديواي » وكرشنشتاينر و « ألفرد بينه » بالاساليب المعروفة بالاساليب الفعالة التي استنتجتها « ماريا مونتسوري » و « ديكرولي » من ملاحظات اجرياها على المتخلفين وغير الطبيعيين .

وكانت الشاغلة نفسها سبباً لقيام الكشفية : فقد رغب مؤسس هذه الحركة ، احد ضباط الجيش البريطاني ، « بادن - باول » ، في انماء بداهـة النشاط المفيد والميل اليه عند الولد ، عن طريق اللعب والانضباط المختار بحرية . وطمحت الكشفية بأن تكون مجتمع اولاد يخضع لقانون ادبي . وربطت بين سلامة الجسم وسلامة العقل . ويرد نجاحها الى حد بعيد بعد السنة ١٩١٠ الى حاجة الفرار نحو الطبيعة التي يشعر بها سكان المدن .

وللسبب عينه نرى أن الرياضة التي توفر فوائد الراحة والصحة معاً - العمال اليدويين ورجال الفكر على السواء - احتلت المرتبة الاولى في النشاطات الاجتماعية . اجل غالبا ما تفرض مباريات وحشية وتتطلب جهوداً ترهق الجسم . ولكنها تستهوي وتذهب بالعقل . فالملاكمة حدث هام في الولايات المتحدة . وأسماء مشاهير المصارعين اخذت تثير اهتمام الرأي العام في العالم القديم ؛ وباتت شعبية سالقي الدراجات المشاركين في سباق الدوران حول فرنسا تفوق شعبية معظم البرلمانيين في قصر بوربون وفي مجلس الشيوخ . فانتقلت مفردات انكليزية كثيرة *(tennis , rugby , football, basket - ball , base - ball)* الى لغات الشعوب الاخرى . وانتشرت الجمعيات الرياضية في العالم اجمع وعقدت فيما بينها علائق زادت وثوقاً يوماً بعد يوم . وفي فرنسا كرس « بيير دي كوبرتين » نشاطه ولبث التمارين الرياضية في التربية وأطلق فكرة اعادة الالعاب الاولمبية التي بعثت في السنة ١٨٩٦ في اثينا واشتركت فيها ١٣ دولة . فدخلت المباراة العصرية في التاريخ حين بعثت اولمبيا على نطاق عالمي .

واذا رسم « فرنيه » و « جريكو » فرسان السباق والجياد الاصيلة ، فان رياضة ركوب الخيل قد الهمت كذلك « مانيه » و « ديغا » بينما عالج « مونيه » و « سورا » المشاهد المائية بلذة . وسيطرت المدرسة التكعيبية بدورها على المواضيع الرياضية .

الانتاج الادبي الرفيع والنهضة المسرحية

فما القول عن الآداب الجميلة والفنون الجميلة التي انما تخاطب العقول الجميلة بحسب التقليد ؟

افضت « الحركة الرمزوية » التي ظهرت بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ - و « هي أغرب حركات القرن » كما يقول بارّيس - الى انحطاط الواقعيـة والطبيعية في فرنسا انحطاطاً نهائياً . واذا كان مقدراً لهذه النزعات ان تتفتح بعد ذلك في اوروبا واميركا ، ولا سيما في القصة ، فقد سيطرت العاطفة والغريزة في الشعر بفضل الرمزية

وتعددت المدارس في كل مكان تقريباً وتنوعت أساليب التعبير الذي يفسرهـا ليس فورة الافكار فحسب ، بل تزايد عدد الكتاب العائشين من قلمهم وتزايد عدد القراء ايضاً . وقد انصرف اصحاب الاذواق الرقيقة و «منحطو اواخر القرن» الى الاكثار من المعابد الصغرى بلذة خاصة ؛ فآثروا التمييز ، وحتى العزلة ، على التجمع .

أما الجيل الطالع والباحث عن نفسه فقد عبد الصدق والاعتراف الشخصي واستطاب التفكير بمسائل المصير البشري الكبرى . وقد شجع الازدراء بالمذهب العقلي الخدّاع انتقال العاطفة الدينية الى الهجوم ، ودفع الى التحليل الباطني والبحث في الوعي الغامض والمسائل الجنسية؛اضف الى هذا ان وصف البؤس الاجتماعي وصفاً عنيفاً وشجياً كان على الدوام موضوعاً جذاباً او مفيدا .

بعد السنة ١٩٠٠ استمرت افنان الشجرة الرمزية في الامتداد فوق اوروبا الشرقية ، فأزهرت في روسيا ازهاراً جيلا . ولكنها اخذت تذبل من جهة الغرب . فنظم بعض الشعراء المبتدعين شعراً طليقاً جدا او مدروساً جداً ؛ نذكر منهم « ابولينير » ، « بيتس » ، و جامس ، « هولز » ، « دهمل » ، و « جورج » ، « فرودنغ » . وطلع الايطالي « مارينتي » بمدرسة « المستقبل » في السنة ١٩٠٩ ، واسس مواطنه « اونغارتي » مدرسة « الحطامية » ؛ وقد ثأر كلاهما ، « كروشي » ، المؤرخ والفيلسوف العادي. ولاحت كذلك دلائل مدرسة استقبالية في روسيا . ولوحظت في اسبانيا حركة عرفت « بحركة السنة ١٨٩٨ » طالبت بعد الهزيمة في كوبا والفيليبين بفحص الضمير فحصاً متيقظاً ؛ وفي الوقت نفسه مشى « روبن داريو » على رأس « مدرسة عصرية » غنائية لم تلبث ان استهوت معظم بلدان اميركا اللاتينية . وبعد ان قدرت المانيا طبيعية « هوبتمن » و « سودرمن » التي وقفت في وجهها مدرسة الرومنطيقيين الجدد ، « باهر » ، و« هوفمنستاهل » ، و « شنيتزلر في النمسا » تذوقت « الانطباعية » الذاتية ثم – بعد السنة ١٩١٢ – « التعبيرية » التي انفلت من الوصف ولم تهتم الا بجوهر الاشياء . وسيطر الغنائيون والفرديون من بين « رجال السنة ١٨٨٠ » مدة طويلة في هولندا . واعتنق الغنائية كذلك مشاهير الشعر السكنديناڤي . اما النهضة الادبية التي حدثت من قبل بين البلطيق والادرياتيك وايجه ، فما زالت تثبت اقدامها ، ولا سيما عند البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين .

كان « ابسن » قد نقل الرمزية الى المسرح ؛ وقد عرفت مسرحيته « مترلنك » نجاحاً عظيماً جداً . ثم ظهر التطور نحو الصوفية في مؤلفات « كلوديل » و « هوبتمن » ، بينا أنتجت ، ارضاء للشاهدين المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم ، مسرحيات النظريات والمآسي الاجتماعية او السيكولوجية ، والمؤلفات المرتكزة الى التحليل العاطفي دون غيره . وحاولت الهزلة التملص من النسبة المثقلة بالفكاهة والتهكم : وقد اشتهر في هذا الحقل « كورتلين » ، « وتريستان برنار

و « اوسكار وايلد » وبرنارد شو. اما « بيرنديلو »، الذي انتقل من القصة الى المسرح وذهب في التأمل الباطني حتى النهاية ، فقد ابتغى اثبات صفة الوجود المنقلة .

توفر للمسرح من الوسائل الجديدة وبلغ من تنوع الالوان ما حال دون سيطرة اية نزعة او اتجاه . فمن جهة جعلت تقنيات الاضاءة للتمثيل الذي سمي وراء المشهد المظلم؟ ومن جهة اخرى حاول الاداء ، بردة فعل طبيعية ، اعادة الانتباه الى تمثيل الممثلين بالاستغناء عن التزيين المسرحي جهد المستطاع . فبعد « أدوارد ابيا » « جرص » « لونييه سو » في « مسرح العمل » ، و « كوبو » في مسرح « برج الحمام العتيق » ، و « انطوان » في « المسرح الحر » ، على التجديد الذي رأوا فيه رأي « ماكس رينهارت » مؤسس « المسرح الصغير » ، ورأي « ستانسلافسكي » مؤسس « المسرح الفني » وتلميذه « مايرهولد » . وان « مسرح « الطليعة » هذا قد اثار الاهتمام بتصميمه على الاتيان بشيء جديد على الرغم من تلمسه طريقه . وفي باريس احرزت التمثيليات الكلاسيكية والرومنطيقية مزيداً من النجاح بفضل ممثلين مشهورين بسحر فنهم من أمثال « مونيه – سولي » و « ساره برنار » . زد على ذلك ان هوى المأساة القديمة قد ظهر في اطار الابنية التي لم تقو الايام على تدميرها نهائياً . وبينما امسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً او حراً بتأثير من « ايزادورا دونكان » ، توصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي ومدرسة « دياغيليف » الى خلق مشاهد تأخذ بمجامع القلوب ، معيدتين الاعتبار في الوقت نفسه الى رقص الذكور ايضاً: انها لظاهرة جديدة للاعداء الشرقي الذي تمناه ومهد له الطريق من قبل « مالارميه » و « ديغا » وكيفه عبقرية « سترافنسكي » وسلمت به عبقرية « رافيل ».

اوائل ثورة موسيقية

لم تتوصل هيمنة « فاغنر » الى الاستقرار والرسوخ دون مقاومة، على الرغم من وضوحها ومن خدمة هوى الرمزية والنفوذ الالماني لها . فان ايطاليا كانت تفاخر بـ « فردي » وقد اسست المدرسة الواقعية الايطالية للادب والموسيقى ؟ وفي فرنسا عرف النغم كذلك ، على طريقة « غونو » ، نجاحاً ثابتاً راهناً . اضف الى ذلك ان الموسيقى الغنائية ما زالت اختيارية : ففي فيينا مثلاً نرى في عداد التمثيليات الغنائية المقررة « لوهنغرين » و « المشهورون » و « عايدا » و « مينون » وحتى الـ « هوغنو » . وظهرت مغنّاة « بوريس غودونوف » لـ « موسورغسكي » فريدة من نوعها بفضل اختصار اللحن الالقائي المؤثر في النفس واهمية اللهجات الشعبية . ولحق « براهمز » عبر الضوضاء الرومنطيقية « بالاشكال البيتوفنية » . وبشر « فرانك » بـ « عودة الى باخ » . نمى الشعور بأن كلاسيكية جديدة ستظهر في الافق : ولكن ظهورها قد تأخر .

فقد جرى حينذاك الحادث العرضي الذي اطلق عليه اسم الثورة الديبوسية . فاهتم « غبرييل فوريه » منذئذ بالعارض الزائل والافراط التوافقي الذي جعل موسيقاه تمت بصلة الى الاسلوب الانطباعي واشركه في الوقت نفسه بجمال الرمزية . وعلى غراره ، استوحى « كلود ديبوسي »

« فرلين » واحب « بودلير » وردد الى مجلس المالارميين : فوضع في السنة ١٨٩٢ « مدخل الى ظهورة احد آلهة الحقول» . واذا لم ينج فيه من السحر الفاغنري،فانه قد قاوم قول استاذ بإيروت بالسلم الملون،واذا لم يستوح « بوريس غودونوف » فقد اوثق الربط،على طريقة «موسورغسكي»، بين الغناء والكلام وفصل بين انواع الآلات الموسيقية المختلفة . وبموجب«المدخل» احتجب الخط وراء اللون ، وضحى اللحن بنفسه على مذبح توافق الاصوات، وملكت العاطفة نفسها خجلاً . وتأمن بعض الشهرة في السنة ١٩٠٢ ، بفضل « بلياس وميليزاند » ، لهذه التقنية الجديدة ، المقيدة والرقيقة والحالمة .

وفي لغة اكثر شهوانية وأشد قساوة اطال « رافيل » و « روسيل » و « فلوران شميت » عمر الديبوسية في فرنسا على الرغم من انهم لحظوهــــا . ففي عهد « البنيز » و « غرانادوس » و «مانويل دي فالا » ، اراد « موريس رافيل » ان تكون اسبانيا - بالاضافة الى الرقص والمشهد الفاتن - احد مواضيعه المفضلة : فالـ « لاهابانيرا » ، ورقصة الـ « بافان» و « القصيدة الاسبانية » و « الساعة الاسبانية » هي من أشهر ما انتجه صاحب الذوق الرقيق هذا .

اما الحقيقة فهي ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها الخالصة لم تلبث ان استنفدت مرادهـــا وتأثيرها . فبالاضافة الى ان ديبوسي نفسه قد أسهم في تحوير المدلول التقليدي لخاصة اللحن ، جرى البحث بالمقابلة ، في قلب « مدرسة المغنين » ، عن لون جديـــد عند « فنسان دندي » و « سكريابين » و « بيلا برتوك » و « ريشار شتراوس » (« الموسيقي الالماني العبقري الوحيد في ايامنا » كما قال عنه « رومان رولان » في السنة ١٩٠٥) . وسلك « اريك ساتي » طريـــق « التحير اللحني » وابتكر « ارنولد شونبرغ » سلما موسيقياً حقيقاً لا لحن فيه اقصي عنه كل ايقاع بارز . وبدت انكلترا ،حيث تأسس في السنة ١٩٠٩ « تحالف موسيقي»،وكأنها اهتدت الى سر الخلق المدفون في ارضها منذ وفاة « بورسيل » . وفي هذه الاثناء برزت مواهب « ايغور سترافنسكي » : فتعاقبت مؤلفاته ، « الطـــير الناري » و « بتروشكا » و « مسح الربيع » (وقد تكلم كوكتو عن « قبلة المسح ») ، التي الفت موسيقى متعددة الاصوات انطوت على رسم غاية في الجرأة والتنوع . وجاء بروكوفييف في السنة ١٩١٤ يدعم هجوم « البرابرة » هذا بـ « الملحق الغثري » .

سيقول سترافنسكي عن موسيقى الجاز انها « تقليد الفولكلور » . ولكن الفن الجديـــد ، الذي كان جامحاً حيناً وشهوانياً حيناً آخر ، لم يستطع التملص من واقعه : تحالف بين «البربري» و«البدائي» . فموسيقى الجاز هي إلى حد ما ، انتقام الزنوج ، في اميركا اولا ، بألحانها الروحية الدينية والحنينية وانغامها الصارخة المسرحية او المضحكة . ولكنها كذلك تكيف الموسيقى تكيفاً مدهشاً وفاقاً للاسلوب الضاج الذي تميزت به الحضارة الآلية .

وهي في كلا الحالين بعض الهزيمة لاوروبا القديمة .

الاتجاهات الجديدة في القرون العصرية
ردة الفعل ضد الانطباعية

تعددت الصالونات والمعارض . وتكاثر السماسرة والهواة . ودخلت اميركا المسرح بقابلية الجبابرة : فقد جمع « جون بيربونت مورغان » العاديات البيزنطية المنقشة بالميناً واواني الخزف الصيني ولوحات « رافائيل » و « رمبرانت » و « فراغونار » و « غاينسبورو » ودفع ۱۰۰۰۰۰ دولار ثمناً لاحدى لوحات « فرمير » ؛ ولكن مورغان وامثاله اشتروا ما عرفوا بوجوده عن طريق الاعلان . وانما حدث احياناً ان الولع كان نتيجة خداع . وربما صح ذلك في « مثل » لوحة « الجركي » ا « روسو » التي روجها « امولينير » و « سالمون » ؛ بحسب « فرنسيس كارلو » ، واستحسنها « غوغان » و « جاري » و « ريمي دي غورمون » . وعلى الرغم من ذلك فان « فان غوغ » لم يعرف لا النجاح التجاري ولا اهتمام الهواة الصامت ؛ ونقل « ماتيس » لوحاته إلى الصالون على عربات جرها بيده ؛ وتخلى « اوتريلو » عن لوحاته لبائعي الخمور في مونمارتر مقابل قطعة نقدية او قنينة نبيذ .

وفرض رودان « الصاخب » نفسه بفضل الطابع المنجم في النفس الذي طبع به القلق البشري . فهو قد ضحى بكل شيء على مذبح التعبير والرمز . وجملة القول انه بقي منعزلا بعض الانعزال . واما بورديل « الخلاق » فقد تقيد اكثر منه بمستلزمات الخط الهندسي ورجع الى الفن القديم الذي اوحى به علم الآثار . وهوي « مايول » الخطوط القليلة الانحناء التي سمى وراءها الاسلوب العصري . وقد برزت مواهب قوية في كل مكان تقريباً . « قولب » في المانيا ، و « ابشتين » في انكلترا ، و « وشتورسا » في بوهيميا ؛ ولكن النقاشة عانت من تعذر اشتراكها مع التصوير الذي ابتعد راضياً عن الفنون الاخرى وعن الجماهير ، ومع هندسة العمارة التي لم تسلك طريقها بعد ؛ وعانت كذلك من استعبادها لطلبات زبائنها .

دان الرسم بنجاحه للاعلان والبطاقة البريدية المصورة والجريدة . وقد تفوق الرسامون النكاتون في الرسم الاعدادي المباشر . واشتهر في التصوير الهزلي « كين » و « هاين » والاميركي « جيبون » والتشكي « موشا » و « كاران داش » و « فورين » و « ويليت » و « ستنلن » الذي امتدح اناتول فرانس « فنه المباشر والرصين » المتصف احياناً « بعظمة ورقة » . وتابع التصوير كذلك سيره بحزم في الطريق الاستقلالية التي بدت له وكأنها طريق الخلاص . وهذا ما عناه « ريمي دي غورمون» في الدرجة الاولى حين كتب في السنة ۱۸۹۹ : «ان الفن هدفاً خاصاً انانياً كله ... لا يتكلف برضاه اية رسالة ، لا دينية ، ولا اجتماعية ، ولا اخلاقية ... يريد ان يكون حراً ، ونكداً ، وغير معقول». فهل يعني ذلك انتصار ما هو مخالف الصواب يا ترى ؟

كان نفوذ الانطباعية كبيراً جداً ، وقد واصلت جولتها في اوروبا ، فكانت مصدر وحي في المانيا « فون اوهد » و « كورنت » ، وفي النمسا « كلمت » ، وفي السويد « زورن » ودخلت هنغاريا وروسيا بفضل « باستيان – له باج » . وانما حدث ما ازال بعض العطف

روسيا

عليها . ويرد ذلك الى ان طريقة « مونيه » قد حيّرت في النهاية اولئك الذين لم يرضوا ، على الرغم من كل شيء ، بالتضحية بالتأليف ورغبوا في تأثر اعظم قوة . « هي العين ما تأكل الرأس » كما سيقول « موريس دني » عن التصوير الانطباعي . واراد « بوفي دي شافان » « المزين الجدراني » لصورة الرمزية ، رصانة يستوجبها التصوير على الجدران ؛ ولشاهد رمزيته اكثر شهوانية عند « ألبير بسنار » ، واكثر غموضاً وتخيلاً عند « غوستاف مورو » . وانما أطلق اسم « الالف » على فنانين من أمثال « فانتين لاتور » كلفوا بالموسيقى الفاغنرية ، وأمثال « كاريير » اقصى اتجاههم الميتافيزيقي النشوة التصويرية ، واخضعوا جميعهم كل شيء لحياة المميقة ، وقد انحدروا بسهولة الى التجريد والغموض .

كانت طريقة « تجديد البنيان» عمل ثلاث شخصيات قوية في الدرجة الاولى : « سيزان » ، غوغان ، « فان غوغ » . استطاع الاول في البدء الاختلاط بالفئة الانطباعية : عجز عن القبض على الحركة ، على ما هو سريع الزوال ، فنادى بما هو دائم ومتين. فأعاد التصميم شأنه ، واهمل ما لا يهمه حتى ولو لم يبنه موضوعه ؛ وكان كاثوليكيا غير صوفي ، وعقلاً ذكياً شغفا بالعظمة البسيطة ، فحن إلى ما هو بدائي وتسلطت عليه فكرة الشمول . اما غوغان فقريب الشبه اليه من اوجه كثيرة : اطلق عليه الرمزيون اسم « التأليفي » ، لانه لم يحفظ من الحواس الا اهمها تاثيراً ؛ ولكنه لم يتوصل الى اشباع هواه البدائي الا بالعيش بين البدائيين الاصليين . واما فان غوغ ، الذي ادمن على السكر ومات ممسوساً ، بعد ان انجز معظم انتاجه بين السنة ١٨٨٧ والسنة ١٨٩٠ ، باذلا في عمله جهداً عنيداً متواصلا ، فقد اعتمد اصباغاً لامعة واعاد الى اللون كافة امكاناته .

ثم جاءت « الانطباعية الجديدة » التي افرغت مجهودها في التعبير عن الضوء والنور بلجوئها إلى طريقة « التجزئة » ، المزعومة علمية ، التي اعتمدها « سورا » و « كروس » و « سينياك » . وجاء « الشقر » بدورهم حوالي السنة ١٩٠٥ : « ديرين » ، « ماتيس » ، « روو » ، « وسوامنك » ولا سيما « فلامنك » الذي اعلن « ان التصوير انما هو المحبة » . وقد انتسب بعضهم الى غوستاف مورو والبعض الآخر الى غوغان وفان غوغ . اما في الحقيقة فلا يجمع بينهم سوى عداء مطلق للانطباعية والجاهاة بناهضة الثقافة . فهم انصار اللون الساخط في وجه اللون الساطع . ولكن ماتيس سعى وراء تحقيق نوع من « التوازن » ، وماركيه وراء الانصاف برقة خفية وعظمة ساذجة ومنطقية معا . وفي ايطاليا نبغت مدرسة « المستقبل » بالثورة حين ارادت التعبير عن ارتعاش السرعة العصرية . وعلى نقيض الانطباعية ايضاً ، اعتمدت التعبيرية التبسيط الذي بلغ حد التصوير الهزلي احياناً : وقد ظهرت في المدرسة الالمانية ، المعروفة بـ « الجسر » ، التي دانت بالكثير لـ « سيزان » والنروجي « مونخ » المؤثر في النفس الذي احيا « الفن الفني » .

يجدر لفت الانتباه هنا الى ان سيزان وسورا وغوغان ، وبصورة عامة كل معتمدي الرسم الايجازي ، قد اتجهوا بالرسم نحو التكعيبية . فقد اعلن ابولينير : « ان الهندسة بالنسبة

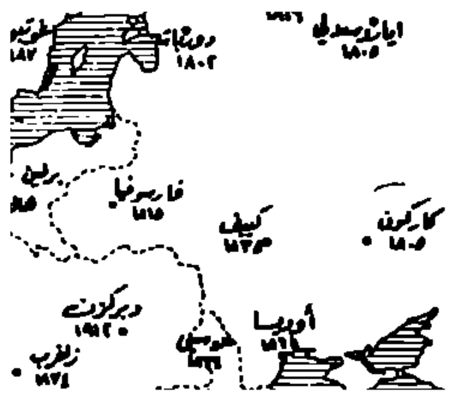
كازان
١٨٠٤
كاركوف
١٨٠٥
كييف
دوربات
١٨٠٢
فارسوفيا
أوديسا

الفنون التصويرية هي بمثابة الاجرومية للكتاب ، ، واعلن كذلك : « سيغدو التصوير العصري فناً جديداً كل الجدة وسيكون التصوير ، كما نظر اليه حتى اليوم ، ما هي الموسيقى للادب » . فالتكعيبية مطلقة ، اصلية ، قاطعة ، واكثر اقفالا من اي وقت مضى ، وتحدد بما يلي : « هندسة غنائية » . وقد جانبها كثيرون : فكانت اشبه بـ « ماتيس » تبسيطات الالوان ؛ وانتقلت من الحياة عند ديرين الى الاشكال المجردة حقا ، التي يجب ان توافق « الحقيقة بحسب الروح » ، عند « براك » ثم عند بيكاسو . فبموجبها تشابكت المسطحات والمكعبات والزوايا الناتئة ! وتذكر الصور المقصة كما يفصل الماس برسوم النقاشة الزنجية او البولينيزية . فان الاندلسي بيكاسو ، الذي اطلق عليه ابولينير اسم « عصفور بنين » ، قد جاء الى باريس في السنة ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالما اصبحت صوره هندسية بالتجريد . فكان ان بعضهم اكدوا مع الشاعر : « ليس المشابهة اية اهمية ، لان كل شيء يضحى في سبيل حقائق وحاجات طبيعية سامية يفترضها دون ان يكتشفها . فتغلب عدم الاستمرار في هذا الفن كما تغلب في موسيقى « سترافنسكي » .

وانما اذا كانت غاية التكعيبية اكتشاف جوهر الاشياء ، فانها قد مثلت من بعض الاوجه ، شاءت ام ابت ، مجهود تصوير نفسي بغية الاتفاق وجسارات الخطوط الهندسية التي ظهرت تباشيرها .

من الاسلوب العصري الى هندسة العمارة الاستتية

منذ اوائل القرن فرضت المدينة نموها المسيخ والفوضوي . ووجب انتظار السنة ١٨٨٠ حتى يبرز ويعم الاهتمام بالتجهيزات التجميلية في المدن : فبعد نابوليون الثالث وهوسمن ، اوصى البرليني « ستوبن » باحترام الماضي والارض ، وشدد الفييني « سيت » الكلام على التوافق الواجب بين الساحات والابنية ، وآثر الانكليزي « هارفارد » المدينة – الحديقة التي حققها « اونوين » في « لشوورث » في السنة ١٩٠٧ ، وفكر السكتلندي « جدس » بتنظيم المناطق التي تضم عدة مدن . وبينما كانت المانيا البلاد الاولى التي نظمت توسيع المدن ، اعطت البلدان الانكلوساكسونية الجديدة مثل « نظام الساحة » . وطلع « غارنيه » بفكرة الطرق المرتفعة وترتيب الابنية وفاقاً لزوايا معينة . واتاحت المؤتمرات والمعارض مقابلة هذه النظريات وقت اقرار تعلم يوجهها . ولكن تجميل المدن ابطأ في وعي واجباته العظيمة .

كانت بعض التحقيقات صدمة « للمتمدنين القدماء » : فقد طاب لـ « م. باريس » في كتابه (كوليت بودوش) اظهار التضاد بين « متز » القديمة ، « مدينة الروح » الروح الفرنسية القديمة ، العسكرية ، الريفية » ، وبين الابنية الالمانية : « محطة القطار الحديدي الجديدة (التي) يبدو كأنها تتباهى بعزتها الثابتة على خلق اسلوب امبراطوري عظيم » ، و « التي ليست سوى قطيفة او فطيرة عظيمة محشوة باللحم » ؛ والحي الجديد المعبر عن جنون العظمة (الذي) يضم الخانات الكبرى والمقاصف البورجوازية المثقلة بالنقوش الاقتصادية الصاخبة ، ويتطلع الى العظمة

والثروة » ، و « ليس سوى كذب وفوضى وافلاس عبقرية » .

ولم يلح الحديد كذلك نهضة هندسة العمارة : فالمبا كل المدنية الحية قد طليت حتى لا تتأكسد . اجل لقد عرف برج ايفل البقـــاء بفضل الرسوم المفروضة على الصعود اليه ؛ ولكن كثيرين لم يكفوا عن الانتقاد امام « الظل البغيض للعامود البغيض المصنوع من صفائح حديـــدية مثبتة بمسامير ضخمة » .

ولم يتوصل الاسلوب العصري ايضاً الى حجب فقر الابنية الرسمية او الابنية التي تعطي دخلا لمالكيها . فهو في تصميمه على تزيين وجه البناء بتقعيره او تحديبه ، كأنما يطيب له التهرب من الخطوط البسيطة التي بدا وكأن مواد البناء الجديدة تفرضها . الا انه جدد التزيين والورق الملون والفراش ؛ وكان مصدر وحي لمصنوعات الحديد المطرق الجميلة ؛ واعتمدت زخارفه الزهرية في الاعلان نفسه ؛ ولجأ اليه الزي النسائي باحكام الاكمام و « التنانير » في اعلاها وتوسيعهـــا في اسفلها بشكل نورات الزهر : فنعته الساخرون « بالاسلوب الخامل » و « المتموج » ، و « اسلوب الحرية » ايضاً الذي زعم في انكلترا انه مدين بالكثير الى ازياء ما قبل رافاييل .

هي الفنون التزيينية التي استفادت اعظم استفادة من « اسلوب السنة ١٩٠٠ » . وقـــد نظم اتحادها المركزي مظاهرة في مكان العرض . وفي معرض خريف السنة ١٩٠٣ ، خصها مهندس العمارة « فرانتز جوردين » بمكان فسيح . فأعطى تعليم « وليم موريس » و « وولتر كراين » ، مجددي الفنون التطبيقية ، ثماره آنذاك ؛ فتلفت اليها « فان دى فلد » الذي أسس مدرسة في « فيمار » ، واستعاض عن الرسم المزهري بالخطوط المموجة .

عبثاً اصدر « فيوليه له دوك » حكمه على التزيين النافل باسم العقل . وقد وجب ان يظهـــر الاسمنت المسلح مزاياه في الولايات المتحدة حتى ينطلق لمن يتصف بـ « العقلية » . فقـــد ألبس الاميركيون المبا كل الحديدية بزيد من الاسمنت والماء والرمل . ولم يقاوم بناؤهم النار فحسب ، بل كان انجازه سريعاً واقتصادياً ايضاً . وهو « وليم له بارون جني » من حقق البناء الاول في شيكاغو في السنة ١٨٨٣ ؛ ثم جاء دور نيويورك في السنة ١٨٨٩ . والغرابة التي تلفت الانتباه هي أن معهد الفنون الجميلة في باريس هو ما خرّج معظم مهندسي العمارة الذين حددوا بدقة ، شيئاً فشيئاً ، تقنيات ناطحات السحاب وسننها الجمالية . وهو « لويس سوليفان » ، خريـــج هذا المعهد ، من اقترح لمبنى الـ « اوديتوريوم » في شيكاغو اثبات الحجم العمودي ، ومن فرض نفسه في السنة ١٨٩٩ بمخازن كارسون الكبرى .

في السنة ١٨٩٤ استخدم « اناتول دي بودو » ، احد تلامذة « فيوليه له دوك » مادة البناء الجديدة في كنيسة مونمارتر القديس يوحنا الانجيلي . فانتصب في العاصمة الفرنسية ، بعد مرور خمس سنوات ، شدف بناء من الاسمنت المسلح . ومنذ ذاك التاريخ كان الـ « وركبوند » ، الذي رغب في توحيد الفن والصناعة وتكلم عن « اسلوب موضوعي » ، قد بدأ دعاوته . فوجههـــا

« لوس » في النمسا ، و « موزر » في سويسرا ، و « سانتيليا » في ايطاليا ، والاخوان « بريه » و « له كوربوزيه » في فرنسا . وقدم لها « فان دي فلد » مساعدة كبرى . فأصدروا حكماً على التقليد سواء كان كلاسيكياً مستعاراً او نهضة مستعارة او فنا قوطيا مستعاراً او اسلوب فرنسوا جوزف . ففرض الخط المستقيم نفسه ، لا سيما وقد املاه القالب الخشبي . والى ماكس كلنجر عاد الفضل في صرامة العري . وانتقلت البساطة الى لندن في « كوداك بيلدنغ » و « ادلايد هاوس » و « بوش هاوس » . وتركت مزيداً من التأثير مخازن ورتهايم الكبرى في برلين التي بناها « الفرد مسل » . وفاز الفنانون « المونيخيون » بأغلبية الاصوات في معرض الخريف في باريس في السنة ١٩١٠ . أفلم تؤالف التكعيبية العين يا ترى ؟ ولوجب من جهة ثانية التسليم بالواقع الواضح : لما كانت الجدران لا تحمل ثقل البناء ، اذ ان الهيكل الاسمنتي يقوم بذلك ، اتسع المجال في التركيب الهندسي للحاجات العصرية . فكان ان القرن التاسع عشر قد خلّف في النهاية وعوداً بأسلوب هندسي جديد حقاً يجمع بين المتانة وجسارة الخطوط وصرامتها .

الفصل الثاني

تجدد الحياة الصوفية والروحية في أوروبـــا

« هكل ما حل اسما في الفن او العـلم او الادب كان مغايرا للدين » .

(« بول كلوديل » ، ١٨٨٦)

« فأفضى بي الامر الى انني ازمريت في غالبي بذلك العلم الذي كان مبنا للنصاري » .

(« اندريه جيد » ، « الماجن » ، ١٩٠٢)

المنازعة حول قيمة العلم

عند الانتقال من قرن الى قرن ، بدت انطلاقـــة التقنيات العلمية وكأنها قادرة على تبرير الآمال الـــتي وضعها الانسـان الغربي في تحقيقات العبقرية البروميثية . لا بل ان مكاسب الثقافة توسعت توسعاً سريعـــاً ؛ واستفادت الآداب والفنون من مناخ مؤات . لذلك فقد عزم رينان ، قبل وفاته ، على نشر كتاب «مستقبل العلم » الذي اوحى « برتلو » اليه به في السنة ١٨٤٨ والذي يمكن اعتباره بمثابة وصية وضعية . واكثر برتلو نفسه من المجاهرة بإيمانه العميق بامكانات العلم ؛ وقد صدرت خطبه ومقالاتـــه المجموعة في كتابين : « العلم والاخلاق » (١٨٩٧) و « العلم والفكر الحر » (١٩٠٣) .وصدر في الفـــترة نفسها كتاب « احاجي الكون » ، ﻟ « هكل » . فقد اعلن برتلو ان « العلم هو ولي نعمة الانسانية » . وهو يطالب اليوم بادارة المجتمعات الفكرية والاخلاقيـة على السواء . وبفضله تخطو الحضارة العصرية خطوات مطردة السرعة . ومهما يكن من مزاعم محتقريـه ، فهو سائر في سبيله ، عففاً سنة العمل القاسية وخالقاً انسانية اخوية . « فمن معرفة الكون وتركيب الانسـان الطبيعي والاخلاقي معرفة ابعد عمقاً ، ينجم مفهوم جديد لمصير الانسان

لوجه المداليل الاساسية التضامن الشامل بين كافة الطبقات وكافة الامم ».

ولكن العلم نفسه بدا متخلخلا حتى في أسسه بفعل الثورة التي تعرض لها. « ظن خبيراً بقواه الفتية »، ووعد متكبراً بأن يعطي الكلمة الشاملة عاجلا ام آجلا » : هذا هو الكلام الذي اطلقه « رومان رولان » على لسان رفيق مضطرب »، رومان رولان نفسه الذي تكلم عن « زلزلة السنوات ١٩٠٠ وثورات الفكر التي قوضت واحرقت روح القرن (العشرين) الطالع». قلبت المفاجآت المدهشة مفاجآت اخرى أعظم اذهالا. بالامس استلزم كل مصباح يستخدم للاضاءة اشتعالا اجاجاً؛ أما اليوم فمصباح اديسون لم يعد يشتعل لأنه يرتكز الى مبدأ يمنع جذب الهواء. وبالامس اقعدت الداروينية التطور على الاستمرار؛ أما اليوم فقد عاد « دراش » و « وايسمن » و « دي فريز » الى فكرة التحولات الفجائية واعلنوا: « ليس من استمرار بين الانواع ». وفي الحقيقة لم يعد التفسير الآلي الكون ليقنع ويشبع الرغبات. ومنذ السنة ١٨٧٦، ابدى كيرشهوف بعض الارتيابات حيال قيمة النظام النيوتوني، وجاء ماك يخطّىء تعابير « الاتساع المطلق » و « الزمان المطلق » لانها لا تطابق شيئاً في النطاق الكمي : واقترح علم طبيعة يرتكز الى الظواهر دون غيرها؛ وقادت نظرية « الجزئيات » اميل بوربل الى التساؤل عما اذا لم يكن تفسير الظواهر تفسيراً احصائياً اكثر النظريات اقناعاً واشباعاً للرغبات، اميل بوربل نفسه الذي تعمق، مع « تشيبيشيف » و « هنري بوانكاريه » و « باشليه »، في درس حساب الاتفاق. وسوف يكون من ردة الفعل في أوساط علماء الطبيعة ان « لنين » سيتهمهم بالوقوع « في المثالية » عن طريق مذهب النسبية »، بسبب جهلهم الجدل ». وعلى أي حال فقد شدد الرياضيون على حاجتهم الى المبادىء الاساسية المسلم بها بدون برهان والى الحقائق البديهية السير في نظرياتهم. فقد قال أميل بوربل : « ان موضوعية العلم الكاملة ليست سوى اضغاث احلام؛ فعلمنا يقاس بقياسنا ». ومع العلم ان بوانكاريه لم يترك اي مكان للاتفاق، فانه قد اعتبر انه لا يمكن وضع اي شيء واضح مدقق وراء كلهي قوة او مادة، وبالتالي فان الاختبار يترك لنا حرية الاختيار ... يساعدنه اوانا على تمييز اسهل طريق يمكن سلوكها». وطالب له التذكير بأن « العلم لن يكون الا ناقصاً »؛ وان من يقول علماً يقول ثنوية بين العقل العارف والشيء المعروف ». وبعد ان يطرح هذا السؤال : « ما هو العلم ؟ » يجيب : « انه تبويب قبل اي شيء آخر، اي نوع من التقريب بين الاحداث التي تفرق بينها الظواهر ... » يجب الا نرى فيه سوى « نظام علائق ». وبالتالي اذا ما عين العلم حدوده، وخطأ الاوهام الخادعة، وطلب الينا التوقف عن اصدار احكامنا، فان الكثيرين يعتقدون بأنه يرتاب بنفسه. فيحدث انتقال من اليقين الى الاحتمال البسيط في نظر « بوترو » الذي شدد على كثرة العلوم وكثرة طرائقها. وقرت عين مذهب العملية بتأكيده ان العلم مجموع مصطلحات سهلة الاستعمال، او بالتفصيل أن السنن ليست كلها سوى سنن تقريبية. وسوف يتمكن برغسون من التأكيد ان الاستمرار الحقيقي لا وجود له الا في الوعي فقط لأن استمرار المادة ليس سوى استمرار متحرك.

لقد لوحظ مراراً كثيرة ان السنة ١٨٨٩ ، سنة احد المعارض العامة ، قد شاهدت صدور كتابين مما هما «محاولة في معطيات الوعي المباشرة» ورواية «التلميذ» التي اظهر فيها «بورجيه » كيف ان « المفكر الكبير » ذاك العقل الواعي » الذي كاد يكون عادم الانسانية بسبب قوة منطقه » يتضع وينمحق وينهار امام سر المصير المغلق » » وارتد في النهاية إلى الله . وقد نشبت معركة حقيقية في فرنسا بمناسبة مقال « برونتيير » » «بعد زيارة الفاتيكان » » وكتاب رينان » «مستقبل العلم». فان برونتيير » رفيق بورجيه » قد وجد امامه برتلو الذي كان من قبل مصدر وحي لرينان . واعلن برونتيير : افلاس العلم ! فهو احد اولئك الذين انتقلوا بالاستنتاج من قول « نحن لا نعلم » إلى قول « نحن لن نعلم البتة » . فأجاب برتلو عن ذلك بمجاهراته بعقائد العقلية . بيد ان « زولا » اعترف بأن العلم « لم يعد بالسعادة » بل بالحقيقة » » واضاف : « وللاكتفاء به يوماً » يقتضي الكثير من التضحيات ونكران الذات نكراناً مطلقاً وطمأنينة فكر قانع يبدو وكأنها لا تصادف الا عند نخبة معينة . ولكن بانتظار ذلك » انها صرخة يائسة تصدر عن الانسانية المتألمة ! » لذلك حاول بوانكاريه التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بتأكيده ان « الانسان لا يمكن ان يكون سعيداً بالعلم » ولكنه ... بدونه سيكون اقل سعادة ايضاً » . وفي الرسالة الحبرية التي وجهها لاون الثالث عشر في السنة ١٩٠٢ » خلص على الرغم من ذلك إلى عجز العلم « عن ارواء التعطش إلى الحقيقة » والإلهيات » واللانهاية التي تتطلع اليها برغبة شديدة ... » .

اكد المؤمن بامكانات العلم انه يمتلك مفتاح اليقين » وان النتائج المطلقة تتصف بركانة تكاد تكون جلية . وعلى عتبة عهد النسبية» بدت اعتقاديته وكأنها تشجع ردة الفعل اللاحتمية التي عقدت مع المذهب القائل بتفوق الايمان على العقل تحالفاً غريزياً .

سلمت التطورية اللاماركية بان التبدلات الناجمة عن البيئة تنتقل الى الذراري : وهكذا اعتقدت فئة من رجال الفكر » ضمت « كونت » وسبنسر » بتكامل الانسانية الفيزيولوجي والفكري معاً . اما التحولية فقد وجهت ضربة هائلة » بقولها بامتناع هذا الانتقال » لتفاؤل قرن تأمل الكثير من نمو افضل الميول . وانما ظهر ان النوع » اذا تم الانتقاء الطبيعي بأفضل فظاظة » لا يتعذر عليه الترقي فحسب » بل قد يتأخر في الواقع عضوياً ايضا . فافضى ذلك الى حل المالتوسية الجديدة الذي اقترحه علم تحسين النسل والذي يقضي بانتقاء طوعي ! وفي السنة ١٩٠٧ اجازت عدة تشريعات في الولايات المتحدة تعقيم بعض الافراد من ذوي العاهات. ثم الم يقترح « فاشيه دي لابوج» منذ السنة ١٨٨٨ الاستعاضة عن التوالد الحيواني والاختياري بالتوالد الموجه والعلمي ؟ » ...

الارتياب في تقدم النوع
رفض الحضارة العصرية
ودعوة الشرق الى اللاعنف

حام الشك في الوقت نفسه حول تفوق المبادىء التي طالب الغرب بالسيطرة باسمها . فهل يقتضي الاعتقاد ، بوجهها ، بالسلم الاجتماعي والسلم بين الشعوب ؟ لاشك في ان برتلو قد قام بوعد : « سيكتسب الانسان مزيــداً من اللطف والاخلاق لانه سيكف عن اعتياد التقتيل وافناء الخلائق الحية سبيلا للعيشة » . ولكن الجنرال « دي برناردي » ، حين اوضح ميزات « الحرب العصرية » ، لم يتردد كذلك في السنة ١٩١٢ في الجزم بمايلي : « المستقبل لـ « بروميتيه » وليس لـ « ابيميتيه » » .

بانتظار ذلك تمنع الشرق عن الانحناء امام نظام لم يمثل في نظره سوى ظواهر قوة مادية . فقد سبق الصوفية الروسية ان رفضت القيم المرتكزة إلى تقدم التقنيات . وقد أسهب تولستوي في تفسير العطلة على الجبل ، واصدر حكمه على بابل العصرية ، فأعلن هو ايضاً افلاس العلم وخص بلاده برسالة توفير النصر لثورة اخلاقية . فكتب في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ : « ما هو المطلوب منا يا ترى ؟ » بمقاومة تقسيم العمل المشؤوم ؛ ورفض الوضعية ، والفن للفن ؛ « والتندم على الغرب ، واقتلاع الكبرياء الذي تأصل فينا بالعلم ... » ، والاقلاع من ثم عن استغلال امثالنا في سبيل الاثراء ؛ والربط بين النشاط الفكري والعمل المادي . « انه لتعلم ساذج ، يعبر ، في نظر لينين ، عن عدم ادراك فلاح بطريركي بسيط» وبذكر « بصوفيات العالم الآسيوي » .

قال بعضهم ان التولستوية قد استمدت علمها الاخلاقي من الانجيل واستوحت البوذية على الصعيد الفلسفي . اجل لقد سحرت الهند بحكمتها . ولكنها حين قصدت هي نفسها اكتشاف الغرب ، لم تخف نفورها الشديد . فقد اغتم « فيفا كانندا » اغتماماً مؤلماً . ثم جاء ابن «دبندرانات» « رابندرانات طاغور » ، الشاعر والفيلسوف والمؤلف المسرحي والموسيقي ، فوقف موقفاً مناهضاً لمذهب التزمد ، ولكنه اصدر حكمه في الوقت نفسه على حضارة اقترفت ذنباً بايثارها النهضة المادية على التكامل الروحي والاخلاقي . واستسلم غاندي لافكاره في افريقيا الجنوبية حيث ذهب بدافع عن مواطنيه ضد الاوروبي : فقرأ روسكين ؛ وعرف تولستوي الذي اوحى بتشاؤم الروائي الياباني « هاسيفاوا فوتاباتاي » ؛ وجاهر بان الجمال يكمن في العمل اليدوي ورفض الاستسلام للغرائز العنيفة . وفي السنة ١٩٠٩ ناشد الهند « ان تنسى كل ما تعلمته منذ خمسين سنة » ، وذهب حتى النهاية في رفض التقدم كما يفهمه الغرب ، فأعلن : « يجب ان يتوارى عنا القطار الحديدي والتلغراف والمستشفيات والمحامون والاطباء ، الخ . » .

كان اللاعنف من ثم جواباً على العنف، مولد المجتمعات الجديدة – الذي اعتبره بعض علماء الاجتماع ، من أمثال « له دانتيك » و « له بون » و « ستيلمتز » ، ملازماً الجنس البشري ، على نقيض « دورخايم » الذي كان مقتنعاً بان تقسيم العمل يكبح الغرائز الوحشية . وكان على

اللاعلف هذا » في نظر المؤول فرانس، الابيقوري الذي اقلقه ثوران الاهواء القومية ، و «رومان رولان » المرهف الحس في تذوق الجمال ، ان يحب الى مساعدة العقل المستقل والكلف بالجمال .

التقليد الروحاني والتصوفي

العصر القرن مسألة ما هو ممتنع المعرفة على دور حيادي ، أو مجهول أحياناً ، ما دامت المعرفة تتناول العلائق بين الاشياء لحوق تناولها طبيعتها . فقد كان هناك علماء مؤمنون بامكانات العلم ، من امثال « تين » ، مثلوا العلوم الاخلاقية بالعلوم الطبيعية ؛ ولكن عقولا لاادرية كثيرة ، منذ كونت حتى بوانكاريه، قد سلمت بأن بعض المسائل ما زالت بعيدة المنال . والحال ، اذا كان صحيحاً أن العلم « لم يعد بالسعادة بل بالحقيقة » وان نسيان « هاجس اللانهاية » يقتضي كفراً بالذات لا يقوى عليه كثيرون ، لأدركنا حينذاك عجز المؤمنين بامكانات العلم عن اشباع رغبة اولئك الذين اعتبروا مسألة الاسباب الأولى والاسباب الغائية مسألة رئيسية ، حتى خارج الاعتقاد التقليدي . فلماذا يجب ربط مفهوم الواجب يا ترى ؟ هل يكفي القول ، كما فعل برتلو ، ان الاخلاق ليست منوطة « لا بالانانية ، ولا بالعصبية ؟ » فعلى افتراض ان العقل يفسر كل شيء ، يبقى عليه ان يفسر نفسه ، ونعود حينذاك الى درس المعرفة .

الا أن المصلحين لم يكونوا قلة في يوم من الايام . وسوف يقول بيغي : «روحانية » كوزين « الصيانية والحكومية على الاقل» . وبعد مرور نصف قرن سعى « بول جانيه» جهده ليثبت ان العقل يسمح بالفصل بين نطاقين ، نطاق الحتمية ونطاق حرية الارادة : بإيماننا بالحرية ، نجعل من أنفسنا أحراراً ونخلق الله بتصرفنا كما لو كان موجوداً . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان رينوفييه انطلق من نسبية تصوفية تجعل الفرد يستعذب المبادهة ، ولم يحد قط عنها حين سلم بالله مبدأ كل شيء .

وفي المانيا شوهدت كذلك عودة الى « كانت » : طالما ان الايمان يوفر « مزيداً من اليقين » اصبحت التمييزات الكانتية امراً واجباً . ثم برز تأثير شوبنهور قوياً ، وان متأخراً ، حين يقول : « لا يكون لدي ما يقلقني ، فان هذا بالذات ما يقلقني ! وقد اقام هذا الكانتي البرهان على تصميم على الحياة مخالف للصواب ، وعلى وجود نزعة غامضة وعمياء ومحدودة وثابتة » .

حوالي ١٨٨٠ - ٩٠ ، تفتحت لعمري الروحانية التي تمثلت ، منذ باسكال ومالبرانش ، بـ « مان دي بيران » في السنوات ١٨٠٠ - ١٨٢٠ . واعاد « رافيسون » الاولوية لعلم ما وراء الطبيعة ومهد الطريق امام البرغسونية . وفي نظر « لاشليه » ان الحقيقة الوحيدة هي الضمير ، من حيث ان الاشياء تعبر عن نشاط الفكر فقط . ويدخل « بوترو » في هذه الفئة بنظرية « عدم لزوم سنن الطبيعة » : في نظره ان « قابلية التحول هي القاعدة » . ولم يسبق ان وجه احد مثل الاتهام الشديد الذي وجهه الى مبادىء العلم الوضعي . وكان تأثيره عظيما على الفكر العلمي في اواخر القرن .

بالمقابلة انتصبت التصوفية الهيغلية في وجه الاختبارية والاعتقادية ، وغــزت البلدان الانكلوساكسونية . فلم يجد « هل غرين » ، في اوكسفورد ، فرقاً بين روح كل شخص والروح التي تبث ، من الداخل ، التطور الكوني . وشدد تلميذه برادلي والاميركي«رويس»بدورها، الكلام على ان وساطة هذه الروح الكونية وحدها تتيح التعاطف بين شتى الضمائر المتناهيــة . اما نظرية الظواهر التي طلع بها الالماني « هوسرل » ، والتي لم تكتف بمبدأ ديكارت « الفكر اذن انا موجود » ، بل ارادت بلوغ الذات اللانهائي الشامل ، فقد كانت « علم الضمير » وقادت الى علم المقولات السامي من طريق اخرى .

وعلى الرغم من ان « ليون برونشفيغ » قد قال بأولوية العلم، فقد انتهى هو ايضاً الى تصوفية لانهائية تعاكس الواقعية الاختبارية. وذهبت فلسفةعاملين من المجرد الى المحسوس، بينما سائرالكز فلسفة برغسون الى الاختبار المباشر المستعجل . ومن حيث هي فلسفة عقلية ، فقد ابرزت ، قبل اي شيء آخر ، وحدة الفكر وعينت براعثها المنطقية . واليها توجهت تأثيرات « هيغل » و « رينوفييه » و « لاشلييه » .

« ليس الشك بل اليقين ما يجعلنا مجانين». هكذا تكلم نيتشه قبــل ان يصبح معترها . وان هذا لشكل آخر من اشكال الاعتراض على القبول

تعظيم الشخصية

الســهل بمبدأ الايمان بامكانات العلم . انطلق من شوبنهور ، فحاول ابداً الانتصار على«عناء الحياة». وعندما خيبه « فاغنر » اتجه نحو زردشت الذي لعلم رسالة الانسان«القادر علىمواجهةالمخاطر» كيف يصل الى القوة ، اي كيف يرتفع فوق مفاهيم المحبة والمساواة غير المصيبة ، اذ ان المسيحية والديموقراطية مسؤولتان على حد سواء عن هذا « العناء » القنط . « طالما انا حي ، اريد ن تكون الحياة في نفسي وفي كل ما هو سواي ، فائضة ووافرة وحارة جهد المستطاع». وقد قدمت الرومنطيقيةالجديدة والوثنية الجديدة الارستوقراطية والتعويبيــة لتفسير المواضيع الكبرى : موت الله ، خرافة العودة الازلية ، خلق انسانية متفوقة . « احدى الحركتين غير شرطية ، تسوية الانسانية ، التماثل البشرية الكبرى . اما الحركة الثانية ، حركتي ، فهي على نقيض ذلك ، ابراز التناقضات والمهاوي ، والغاء المساواة ، وخلق كائنات كليــة القدرة » . فكان صدى الرسالة عظيماً جداً في اوروبا وحتى في يابان الساموراي . اما « كيركغارد » ، المسيحي القلق، فقد اقترح قاعدة سلوك تتيح للكائن ان يتحقق بكليته اذ ان الحقيقة ذاتيــة وخاصةوجزئية (وهذا الشعور المسرحي بالوجود قد كدر «اونامونو» و«ماشادو دي آسي »). وجاء نيتشه بدوره — وقد جمله بعضهم احد مصادر الفلسفة الوجودية — يعظم الـ « انا » ويعين للانســان مهمة التفوق ابداً على اعماله السابقة .

وان موضوع الشخصية ، التي تتفتح في الجهد المبذول ، قد طرقــه كذلك « براندس » و « ليليانكرون » و « جورج » و « دانونزيو »، لا بل ظهر عند « توماس مان » و « ريلكه»

ايضا . وبالحرص على القيم الموجودة في هذا القمر المكر الذي استكشفه فرويد استكشاف العالم » مثت « الجونية » بصلة الى النيتشية : وقد املت على اندريه جيد تحليلا صادقا حكل الصدق لنفسه وللآخرين . واقترح الكالفيني السيفيني فلسفة العمل المجاني في حاضر يجب التمتع به ، واوصى باعتماد الاقتسار ضد الاقتسارات : « يجب ان يكون الانسان طليقا من كل ناموس للاصغاء الناموس الجديد » . وقد قال بهذه الفلسفة « سوينبورن » و « مردث » و « وايلد » و « باتلر » و « هاردي » الذين طاب لهم تعثير المعجبين بالعصر الفكتوري المشرف على نهايته واهتدوا الى لهجات كبار الروائيين الروس العنيفة . وفي جوار هذه الفئة النشيطة قام « ودكند » و « شو » و « بنفانت » الذين رفعوا القناع ايضاً وانتقدوا المراءاة على اشكالها المختلفة انتقاداً مرا . وبدا شو بصورة خاصة اشبه بوليم جديد نافر من البشر قد لا يتأخر عن اطراء « اشتراكية غير اجتماعية » . اما ريشار ستراوس ، الذي تردد بين التشاؤم واكثر التصوفيات غطرسة ، فقد استوحى زردست ولحّن مؤلف اوسكار وايلد : « سالومه » .

الموقف العملي

اما الذين كان كافيا في نظرهم تحديد الافكار بوجه استخدامها « لجعلها واضحة » فقد ركنوا الى ما في المعرفة من فائدة ملموسة جداً . وكان هذا الموقف شبيهاً بالاختبارية من اوجه كثيرة . وبردة فعل كذلك ضد التطورية البشرية ، اتجه الفكر الانكلوساكسوني اتجاهاً شبه طبيعي نحو عملية الاميركيين وليم جايمس وديواي القادرة بوجب تحديدها نفسه على الدفع الى العمل : وقد اعتقد بعضهم باكتشافها في تعاليم ماركس نفسه الذي لم يفرض على نفسه مهمة تفسير العالم بل تحويله . واستعمل الانكليزي شيلر كلمة « الانسانية » للتعبير عن موقف يقوم بتوجيه البحث قبل اي شيء آخر نحو اهداف تتفق ومكانة الانسان . وقد مثل جميعهم ما هو حقيقي بما هو مفيد ، وسلموا واوصوا بكافة الاختبارات الانسانية ، بما فيها « الاختبار الديني » ، بنسبة قدرتها على تعيين الاعمال . وهي ظروف الحياة ما يفرض الكيان ، وليس الكيان ما يفرض ظروف الحياة ، ولكن العمل يسمو على الفكر ، بينما يرى الماركسي الذي بقي امينا لمذهب العقلية ، ان الفكر ، الملازم العمل ، يسمو عليه بالعلم . فللايمان بالله ما يبرره في احدى الحالتين ، وليس له ما يبرره في الحالة الثانية . فاقترح العمليون من ثم تعليماً تفاؤليا التقدم في احترام القيم العريقة في القدم . ويمكن ان يفسر ذلك تفسيراً مختلفاً : فالعملية تساعد على اعادة الحياة العاطفية ومحاربة الحتمية العلمية ، كما تساعد على ايجاد ماكيافيلية عمل حقيقية والسلوك بسهولة بوجب الضمير .

الثورة البرغسونية

بينما ارتأى العمليون ، شأن بورو وكثيرين سواه ، عدم لزوم السنن الطبيعية ، متمسكين بمفهوم الفاعلية ، قامت هناك فلسفة استوحت العاطفة وهدفت الى تخطي موقفهم بالسمو على الاختبارية والعقلية على السواء . فكأنما حدثت ، بحسب « له روا » ، منذ صدور كتاب « محاولة في معطيات الضمير المباشرة » (١٨٨٩) ، ثورة حقيقية

شبيهة بـ « الثورة الكانتية » او حتى بـ « الثورة السقراطية » ؛ فكانت « ثورة » على طريقة كوبرنيك » في نظر « وليم جايمس » الذي اعلن في السنة ١٩٠٧ : « لقد مات صنم المذهب العقلي . فقد قتله برغسون بضربة قاضية » . وعلل بيغي بقوله : « لقد حطم قيودنا » .

انها لعملية حدسية نوعاً ما : فالمقصود هو معرفة الـ « انا » لا بتحليل قد يشوهه بتفكيكه اياه ، بل بواسطة « استماع » الى الضمير نفسه ؛ لان الـ « انا » لايقع تحت قياس يعطي الزمان دون الديمومة . وهكذا فان باستطاعة الحدس وحده التمكين من اكتشاف الـ « انا الغامض » .

والحال لا تتميز ظواهر الضمير في تعاقبها، بل هي تتعاقب دون ان تتميز : هنالك جريان لا آخر له في هذه الديمومة ؛ هذا هو مد الحياة بالذات، هذا هو « الاندفاع الحيوي » . وفي كتاب « التطور الخلاق » الذي صدر في السنة ١٩٠٧ رفض برغسون الوجوب الآلي نهائياً . « لقد انقضى قرن كامل منذ اختراع الآلة البخارية ، ونحن بدأنا اليوم فقط نشعر بالهزة العميقة التي احدثتها فينا ... » . فـ « الانسان العارف » ليس فقط من ثم هو « الانسان العامل » . واذا الغريزة حددت الصعود نحو الاشكال العليا ، فالعقل يدفع اليها ؛ ولكن المستقبل يبقى غير معين ، وحرية الفكر كلية ؛ واذا ما بدت الحرية غير قابلة التوفيق مع سنن العلم ، فرد ذلك الى ان هذا الاخير لا يعبر الا تعبيراً ناقصاً عن الواقع ، الواقع غير المستمر ، اذ ان الاستمرار لا وجود له الا فينا ، في جريان الضمير الذي هو نوعية وديمومة .

كانت نظرية المعرفة ونظرية الحياة من ثم متلازمتين في مذهب يحل الانسان في اعلى سلم الكائنات ، لانه يمتلك الضمير الذي يتيح له الوصول إلى المطلق ، إلى الله نفسه . وفي السنة ١٩٠٥ ، اظهر برغسون « الحاجة الى فلسفة اقرب الى المعطيات المباشرة من الفلسفة التقليدية » . ولما كانت هذه الفلسفة معاصرة لنظرية الجزئيات ، فقد اعتقدت ان بمقدورها استخلاص حرية ارادة على مستوى بشري من لا حتمية الجزئيات . ورجعت البرغسونية عن الحكم الذي اصدره كانت وكونت على علم المعقولات ، فجددت السيكولوجية واسهمت اسهاماً رئيسياً في نقد الايمان المطلق بامكانات العلم .

النهضة الدينية

برزت غزوة ما هو مخالف للصواب ، كما في العهد الملكي بعد الثورة ، بضخامة عدد الاهتداءات الدوية ، التي كانت الكاثوليكية المستفيد الاكبر منها ، كما في السنوات ١٨٠٠ ـ ١٨٢٠ . ففي غضون القرن ، وجهت الكاثوليكية كلامها الى الجماهير بصورة خاصة ؛ اما اليوم فهي اكثر استمالة لاولئك الذين لم تشبع الوضعية رغباتهم ، وتقززت نفوسهم من الواقعية والطبيعية الادبيتين . ويرد ذلك الى اثر الرواية الروسية (روايات دوستويفسكي بصورة خاصة) التي روجها كتاب « فوغويه » في السنة ١٨٨٦ ، فوغويه الذي عرف الكثيرين كذلك بفاغنر والثالوث الشمالي العظيم : « ابسن » « بجرنسون » ، « ستريندبرغ » . ولكن تولستوي نفسه ابتغى الرؤية بناظري الفلاح الروسي ؛ شعر بالحاجة الى التألم بكل تواضع

الحميمي مع البؤساء . ومن جهة ثانية انتقل سترندبرغ من الالحاد والوقاحة الى الدين بقراءته مؤلفات سفندنبورغ : فنشر في السنة ١٨٩٧ كتاب « جهنم » ، الذي وصف فيه آلامه النفسية المبرحة ، واكتشف « طريقه الى دمشق » . واهتدى كذلك « لوغازارو » الذي قرّت نفسه من المدرسة الواقعية الايطالية ، و « هويسمنس » الذي تخلص بذلك من تسلط فكرة المرض على عقله ، والشاعر كوبيه ، والاشتراكي هوبتمن ، وجورجنسن الذي كان « فرلين » مصدر وحي له في كتاب « اهتداء » ، والناقد الادبي « برونتيير » الذي استهواه القرن السابع عشر الكلاسيكي والمسيحي في نظره ، وكلوديل ، وغوساير وآدي المتصلون بالرمزية . فقد كتب هويسمنس في السنة ١٨٩٥ : « بعد ان عرضت امراضي النفسية على كافة مستشفيات الافكار ، ذهبت في النهاية ، بنعمة الله ، الى المستشفى الوحيد الذي يضجعونك فيه ويعتنون بك ، الى الكنيسة » . ونذكر ايضاً اهتداء كان له صداه العظيم ، اعني به اهتداء بيغي ، عند الانتهاء من قضية « دريفوس » . فان بيغي هذا قد اعلن في السنة ١٩٠٠ : « سوف نقصي بحزم هؤلاء اللاهوتيين العائدين من روما الذين يوصوننا بانكار العلم والعقل ، والانقياد الدائم ، والصمت المتحذر والتوقيري » . وهو الذي كان اشتراكياً بالامس ، فنابذ الاشتراكية ، وجوريس وما اعتبره عداء للاكليروس وحبا للسلم بالعين ، بل متشؤومين ، لان مسائل الخطيئة والنعمة تسلطت على عقله . لذلك كان « مستقبل العلم » في نظره كتاباً غاية في المراوغة ، وتكبيا دائماً عن الحية ، وسوء ائتمان . فأصبح ، كما يؤكد « لويس جيليه » ، « ذاك الذي يوحي لي صورة القديس بولس الحية » .

التحق هؤلاء المهتدون اذن بجماعة المؤمنين . فهذا هو الراعي فرنسن ، الروائي الرقيق الذي ألّف « جورن اوهل » و « هيلينجلاي » ؛ وهذا هو الصوفي « فرنسيس طومسون » ، الذي يضاهيه رقة ؛ وهذا هو هيلير بلوك ، واضع المحاولات الحماسية ؛ وهذا هو « ليون بلوا » الذي اطلق على نفسه اسم « أفاق الرب » ، وكان جريئاً في ادعاء الرؤيا ، قادراً على كل بغض عنيف ، معذباً بالبؤس والالم . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المفكرين الكاثوليك اختلفوا على طريقة انعقاد الايمان انعقاداً افضل ، فشدد « اولّيه - لابرون » على دور الارادة ، بينما لجأ موريس بلونديل الى سمو الله لسد الفجوة بين الارادة وقدرة الضمير .

وبالمقابلة برز تجدد في الفن الديني . فان تاريخ القديسة جنفييف الذي رسمه « بوفي دي شافان » على جدران البانتيون ليس قط عمل فن مقدس ، ولا لوحة « المسيح والملائكة » لـ « مانيه » ، ولا لوحة « الصلب » لـ « سيزان » . وباستطاعتنا تعيين السنة ١٨٩٠ تاريخاً لنهضة هذا الفن الجلية بفضل لوحة موريس دونيس ، « السر الكاثوليكي » . ثم سار ديفاليير على خطاه ، واشار ليون بلوا منذئذ الى بلاغة « رورو » . وقبيل الحرب العالمية انتصبت ابنية العبادة الاولى المتميزة باسلوب جديد حقاً ، وبدأ باريليه يجدد فن صناعة زجاج الكنائس .

وكانت نهضة الموسيقى الدينية افضل ظهوراً ايضاً . وكان اصلاح الترتيل الطقسي نتيجة لنشر الانغام الغريغورية الذي اعاد الترتيل الكنسي معناه الصحيح . وجعل الوحي الصوفي من

تلامذة مدرسة « تيدر ماير » ' و « ويدور » و « فيرن » و « فرانك » مجددي الارغن : فعبروا بشكل بساطة عن اندفاعات تلوى متينة لا مواربة فيها . وفي « مدرسة المرتلين » عند « فنسان دندي » تسببت مأساة الحياة الداخلية في وضع مؤلفات اشد الحاما .

النزعة المحافظة ضد النزعة العصرية

سار موريس بلوندبل في الخط الاوغسطيني ' في حال ان الكنيسة التي انشغلت في عهد لاون الثالث عشر بخطر الايمان المطلق بامكانات العلم ' ساندت الحركة التومية الجديدة التي ابتغت الاستعاضة عن تأكيدات المثاليين الملوضة بتطبيقات العلوم العصرية ' ورغبت في تحليل نشاطات المسيحي الاجتماعية .

ولكن ما هو السبيل التوفيق بين التقليد والعصر ؟ لقد اعرب بعضهم مرة اخرى عن املهم ' في عهد « الانضمام » الى الثورة الفرنسية وبراءة « الاشياء الجديدة » ' وفي الوقت الذي اقتصر فيه « اوغست ساباتييه » اللاهوتي الكالفيني القدير ' المسيحية على حالة نفسية داخلية ورفض كل ما لا يمكن فرضه الا باسم سلطة خارجية وانتهى الى مسيحية بدون عقائد وطقوس ورؤساء . وعلى نقيض ذلك ' وفي مناخ عملي ' اخذت « النزعة الاميركية » التي نادى بها الاب « كلاين » ' بمجامع القلب ' لا بل ووجهت امكانية عقد مؤتمر التقريب بين الاديان . ولكن لاون الثالث عشر استقبح في السنة ١٨٩٩ موقف الاحبار في ما وراء الاطلسي آخذاً عليهم تضحية الفضائل السلبية على مذبح الفضائل الفاعلة . ولكن النزعة العصرية تسلطت بالرغم من ذلك على الطول في المعاهد والمؤتمرات الكاثوليكية التي حاولت النهوض بعلم عقلي للدفاع عن العقائد المسيحية ' يمكن من محاربة العقليين في عقر دارهم . فكانت مؤلفات مولو ولويس دوشين وألفرد لوازي الهادفة الى تفسير الكتاب المقدس نتيجة التأويلات التي ما كان رينان نفسه ليتبرأ منها في الارجح . وارتأت لاون الثالث عشر وضع حد لذلك برقيمه « الله العلي الشأن » الذي انكر كل خلاف بين اللاهوت والعلم . ولكن الفلاسفة « له روا » وبلوندبل والاب لابرتونيير قد اعتقدوا هم ايضاً بالاهتداء الى الله باندفاع الكائن وحده : فالتومية لم تشبع رغباتهم . وانتشرت في ألمانيا كاثوليكية جديدة ' هي شقيقة العصرية على الرغم من ان لاون الثالث عشر قد اصدر حكمه على هذه « النفسانية الجذرية » . وعمم الاب اليسوعي تيرل النزعة العصرية في انكلترا حيث احرزت « الكنيسة الشاهدة » نجاحات جديدة ؛ وقد انضم اليها مشايعون جدد في ايطاليا : وقد فسر فوغازارو هذه الرمزية ببراعة في رواياته . وحين اقصي لوازي عن المعهد الكاثوليكي في باريس ' اصدر السنة ١٩٠٢ كتاب « الانجيل والكنيسة » : فاتهم هذه الاخيرة بمناقضة روح الانجيل واعتبر رينان « المعلم الاول للعصريين الفرنسيين » . وبينما ذكر ليون الثالث عشر قبل موته « بأن العلم البشري لم يجب على المسائل الكبرى التي تتعلق بمصالحنا السامية » ' استصدر الديوان البابوي مرسوماً يعدد ٦٥ « خطأ رغم الحقبة حول العلوم المقدسة وتفسير الكتاب المقدس واسرار الايمان الرئيسية » .

في عهد بيوس العاشر وطدت النزعة المحافظة مواقعها. فان براءة السنة ١٩٠٧ نسبت الى النزعة العصرية انها « تجمع كافة الهرطقات » . وقد علق عليها اناتول فرانس ساخراً بما يلي : « يتعذر على الانسان ان يقدر حق قدرها حكمة البابا بيوس العاشر الذي اصدر حكمه على دروس تفسير الكتاب المقدس لأنها منافية للحقيقة المنزلة ووخيمة العاقبة على العقيدة اللاهوتية القديمة ومميتة للايمان » . ثم تناولت ردة الفعل كافة اشكال الكاثوليكية الحرة ، ولا سيما في فرنسا حيث بدا « الانضمام » قضية خاسرة منذ انفصال الكنائس عن الدولة . فهكذا صدر الحكم على مطبوعة «الاخدود» ؛ وهكذا حذرت براءة السنة ١٩١٢ الكاثوليك من اخطار العمل المشترك بين الطوائف الدينية على الصعيد الاجتماعي .

الا ان النزعة العصرية لم تفض إلى حركة هرطقية واسعة . فأمام انشقاق قليل الشأن عدديا، حافظت السلطة الروحية على مواقعها التقليدية التي بقيت جماهير المؤمنين متمسكة بها . وفي عهد بيوس العاشر ، الكاهن القديس الذي كرس نفسه للدفاع عن العقيدة بدون تساهل ، نرى الكنيسة الكاثوليكية ، التي كانت اقل حرصاً ظاهراً على تجديد الروح المسيحية منها في الماضي، تهدف في الدرجة الاولى الى ان تبقى خير معتصم في خضم الارتيابات والاضطرابات .

الثقافة والمادية امام التطور البشري

اذا سلمنا ، كما يسلم ماركس ، « بأن الآراء السائدة في زمن من الازمنة لم تكن يوماً سوى آراء الطبقة المسيطرة » ، فقد يجدر بنا معرفة ما اذا كانت ردة الفعل التصوفية والروحانية لا تبرز بالدرجة الاولى في الاوساط التي تقلقها « الاشتراكية العلمية » : استفادت البورجوازية من العلم ، فلم تأنف من الايمان بامكانات العلم المطلقة ؛ ولكن اليست الخشية من مادية معينة ، قد يحسن او يساء فهمها ، وتدل بحتمية تحصي بموجبها ايام النظام الاجتماعي القائم ، دافعاً لها لأن تعتصم بارجحية وعرضية قادرتين على انقاذ حرية الفكر وبالتالي على استحقاب المستقبل ؟ هذا ما ارتآه « رومان رولان» : « منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد ايام حزيران ١٨٤٨ التي سالت فيها الدماء غزيرة ، اخذت البورجوازية تفقد محبة ذاك التقدم الذي لم يتوقف قط من اجلها ، وذاك العقل ، الممتنع التبدل ، الذي بذلت جهدها بدون ترو في سبيل إرساخ سلطته . وهي الطبقات الصاعدة ، اي انباء البروليتاريا ومدارسها الاشتراكية ، من وضعت يدها عليها لحسابها » . وفي « اوهام التقدم » سوف يتولى جورج سوريل ، فيما يعنيه ، تقديم البرهان على ان التفاؤل القائل بامكانات العلم المطلقة انما هو انتاج بورجوازي ، ولحذير « الطبقة الصاعدة » من نظرية مجففة ، وفي الوقت نفسه ، وبصورة خاصة، انتقاد العلية ، وهي « التعبير الاخير الذي توصل اليه الفكر البورجوازي » . « ان هذه الفلسفة توافق موافقة كلية كل حديث نعمة يرغب في الانتماء الى عالم متساهل جداً ، بفضل دمالته ، وترثرته وقحة لجاحه » . وقال « جوريس » على طريقته الخاصة : « ليس بعد اليوم سوى طبقة واحدة تستطيع اعطاء الفكر شكلا اجتماعياً : هي البروليتاريا » . ولذلك حرص

ليبين على ابراز الاهتمام الذي يتوجب على هذه الاخيرة ابداؤه نحو تحقيقات العلم . ولقد سخر من « العاصفة » التي اثارها كتاب هكل « في البلدان المتمدنة » وعلل « اللامبالاة الاجتماعية الحقيقية » التي ينطوي عليها هذا المؤلف ابان « صراع المادية ضد التصوفية واللاادرية » . واثبت اسباب ازوراء الفلسفة في الفكر « الخالص » وحصر مهمتها في التبصر في ذاتها بدلاً من التبصر في الواقع ، خوفاً من ان يخطئها الواقع الاجتماعي . وفي رأيه ان الهرب امام نظرية المعرفة المادية قد ارتدى اشكالا مختلفة جداً ، لا سيما وانه يسهل جمع حلقات السلسلة التي تؤدي من النسبية العلمية الى العمليا ، الى التصوفيات الكثيرة والروحانية القائلة بتفوق الايمان على العقل . فالتصوفية ليست سوى شكل محض من اشكال مذهب تفوق الايمان على العقل ، الكلي القدرة ، الذي يعتمد على منظمات كبرى ولا يزال يؤثر على الجماهير تأثيراً مستمراً ، مستفيداً من اقل غوايات الفكر الفلسفي .

ولكن ما لا يمكن انكاره ، على كل حال ، ان المفهوم النفساني ، الذي احتفظ من جهة ثانية بانصار اقوياء ، قد الب في النطاق التاريخي عدداً كبيراً من خصوم الماركسية . اجل لقد امعن « ماكس وبر » النظر في العلائق بين « علم الاخلاق البروليتاني وروح الرأسمالية » وامسك عن « احلال تفسير مادي من طرف واحد محل تفسير روحاني... من طرف واحد ايضاً » ؛ ولكن « ديويسن » يجزم بأن « تأمل ومعرفة الاشياء الماضية لا وجود ولا ديمومة لها الا في الفكر المتناهي » ، و « روه » يضع في الحاضر « مركز رسم المنظور » ، و « توينبي » البرغسوني المقتنع ، سينتهي الى نوع من التاريخ اللاهوتي . اما « بندتو ـ كرونشي » فيعتبر ان التاريخ « يدخل في مفهوم الفن العام » ، وانه « روحاني » ، وان عليه اكتشاف الاندفاع الخلاق مرة ثانية ، كما اراده « فيكو » (الفن جدس خلاق ، وليس ، كما حدده « فرنسكو دي سانكتس » تلميذ هيغل ، « نتاجاً لاشعورياً من نتاجات روح العالم في فترة معينة من فترات وجوده) . وليس من تاريخ ، في نظره ايضاً ، سوى التاريخ المعاصر : « لأن موضوعه ، مهما بلغ من قدمه ، يعيش في فكر المؤرخ بهوى الحاضر نفسه » . فنحن من ثم امام تاريخ فلسفي ونسبي كان ردة فعل للتاريخ الوضعي الاسلوب والماركسي المفهوم .

رأى كرونشي في الواقع الاقتصادي نفسه عملا من اعمال الارادة . ولكن الاقتصاد السياسي ، فيما يعنيه ، يعيد التفكير في مسالة نفسها . فلما لم يعد الايمان بالتوافق ممكناً ، بحسب حلم المدرسة الحرة ، فقد فُرق بين الاقتصاد الخالص ، المجرد ، المنظور اليه نظرة توازنية خلوا من المغزى العملي ، وبين الاقتصاد النشيط الذي يستلزم الاختلالات ويخضع لحاجات الانسان اكثر من الاقتصاد الاول . وعاد العلماء الى كورنو ، فاسندوا برهانهم الى قوة آخر رغبة اشبعت : فأراد « الفرد مارشال » « الاهتمام بعواقب الانسان ... الانسان المركب من لحم ودم » . هذه هي نظرية القيمة ـ الفائدة التي جعلها الهامشيون مقابلة لنظرية القيمة ـ العمل الماركسية : وقد استنتجوها من المبدأ النفساني ، باعتبار انه « الانسان الاقتصادي » يعمل في اتجاه مصلحته المدركة

خير امراك . وهناك المدرسة الرياضية ، او مدرسة لوزان ، مع « جيفونز » و «والراس » و« باريتو » ، التي يؤول كل شيء فيها الى مسائل توازن تطرحها آلية المقايضة دون غيرها ؛ ومدرسة فيينا او « منجر » السيكولوجية التي واصل تعليمها « بوم ـ باورك » و « فون وايزر » اللذان يعتبران الجهد المبذول والتضحية المقبولة امرين جوهريين. فاعتقد شارل جيد في السنة ١٩١٣ ان بامكانه كتابة ما يلي : « لم يعد قط من اقتصادي يؤمن بأن القيمة ثمرة العمل ... فالرغبة هي سبب القيمة الاوحد ... » .

لقد خضعت مميزات الآليات الاقتصادية من ثم لجدل حام ، وساد الارتياب حول الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي . فلم يبق قط هنا سوى ارجحية بسيطة تخفف من تفاؤل الامس الذي وجه اليه ماركس والوقائع ضربات خطيرة .

الفصل الثاني

الدول الاستعمارية والحمى القومية
أعراض التقهقر الاوروبي

في الوقت الذي كانت فيه عوامل الحياة تتجدد باطراد ، أخذت اخطار مخيفة تتهددها باستمرار . فالاقتصاد الرأسمالي الذي ركبته حمى التوسع والانبساط يخضع لسنة الحشد والتجمع ويسعى دونما انقطاع الى توحيد السوق العالمية مع اثارته الروح الامبريالية التي اخذت تلهم الدول الاستعمارية الكبرى بعضها على بعض . وفي الوقت ذاته ، نشهد احتداماً كبيرا في المشاعر القومية التي أخذت تجيش وتضطرم في نفوس هذه القوميات او الاقليات المستضعفة . وهكذا أطل على العالم احتمال قيام حرب عامة واستبدت الفكرة الى حد بعيد بأذهان البشر وسيطرت على تفكيرهم اليومي .

الاقلية الرأسمالية تزداد بأسا وحولا وثرما

ساعدت الازمة المالية التي عانى منها العالم طويلا بين ١٨٧٣ - ١٨٩٥ في تكوين تكتلات صناعية ومالية . وبالرغم من رجوع العافية الى الناس واستئناف النشاط ، فلا يزال مسيطراً على النفوس الخوف من وقوع ارتكاسات تجر وراءها ركوداً جديداً في الاعمال وهبوطاً اكبر في نسبة الأرباح ومعدل المكاسب . فالازمات التي كان يتجدد وقوعها بصورة دورية كانت تأتي فعلها في مثل هذا المصير الذي لم يكن من السهل تفاديه . فالأزمة المالية التي وقعت عام ١٩٠٠ / ١٩٠١ تسببت بتكوين ٧٩ اتحاداً احتكاريا في الولايات المتحدة الاميركية . ففي سنة ١٩٠٩ ان ١٪ من المشاريع الانشائية كانت تستخدم ٣٠ بالمائة من مجموع اليد العاملة كما كانت تستعمل ٣٨ بالمائة عام ١٩٠٤ . وفي تلك الغضون ، وقعت أزمة ١٩٠٧ التي سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية

ارتفع عددها بين ١٨٩٦ - ١٩١٠ في المانيا وحدها من ٢٥٠ الى حوالي ١٠٠) وفي سنة ١٩٠٨ كان واحد في المائة من المشروعات الانشائية يستخدم ٣٩ بالمائة من اصحاب الاجور ويسيطر على ٧٧ بالمائة من القوى المحركة. وهذا التطور يبدو على شكل اوقع وصورة أفعل في النفس في بعض البلدان الاخرى كروسيا واليابان اللذين حاولا قطع المراحل بسرعة . وبالرغم مما بلغ من اتساع ورحب حركة المنافسة ، فقد بقيت مع ذلك، مرتبطة ، على اقدار مختلفة بأقلية من المحتكرين . ان نصف ثروة الولايات المتحدة الاميركية القومية هي في يد ٢٥ الف فرد من افراد الشعب الاميركي .

فسيولة الرأسمالية النقدية هي التي استطاعت أن تؤمن لحسابها مثل هذا الحشد . هنالك بعض المصارف الكبرى ، لا يزيد عددها خمسة او ستة على الاجمال ، هي التي تمسك بأزمة الدول الكبرى في اوروبا كما ان للولايات المتحدة الاميركية الخمسة الكبار *The Bib Fives* من هذه المصارف. فالبنك الاهلي الالماني يشرف على ٨٧ مصرفاً ثانوياً في البلاد كما كان يسهم في ادارة ٣٠ مصرفاً آخر ، عام ١٩١٠ . هنالك عدد لا يحصى من الاتفاقات والمشروعات ربطت ، بشكل آخر ، الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية . فالبعض منها اتبع الحشد الافقي (امثال : دورمان ، لونغ وبلدوين في الميتالورجيا او الصناعات الحديدية ، وبرادفورد دايرز في صناعة الاصباغ والالوان ، وشركة *Cable Makers* لدى البريطانيين ، كما ان البعض الآخر آثر الحشد الشاقولي او العمودي ، فانطلقت كروب من صناعة الحديد لشراء مناجم الفحم وتجارة الفحم والغاز ومشتقاته ، بينما بتصرف تيزين وستينز للتخصص بتجارة الفحم من استخراج وتسويق وتنفيق، وبنشيء في هذا السبيل شبكة من الخطوط الحديدية .ولم يقنع وليم هسكيث لفر، مؤسس شركة *Port Sunlight* و *sunlight* ان ينشيء امبراطورية له من فروع هذه الشركات في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . بل ابتاع له مزدرعات واسعة في افريقيا والفيليبين وانشأ فيها مصافي لتكرير البترول ، كما اهتم بانشاء مراكز لصيد السمك ، وانشأ صناعة المرجرين او السمن النباتي بحيث اصبح يتصرف بأكثر من مليون ليرة انكليزية عام ١٨٩٠ ، وبعشرين مليون عام ١٩١٣ .

ونشاهد منذ الآن التفوق الساحق الذي حققته في اليابان شركتان يابانيتان هما : المتسوبي والمتسوبيشي . وجبابرة المال على شاكلة مورغان وفندربلت وروكفلر ، سيطروا ايضاً على مرافق صناعة الميتالورجيا وعلى الطاقة الكهربائية وعلى صناعة البترول في اميركا . لا يمكن ان نغفل عن ذكر هذه الشركات العقارية الضخمة وشركات الخزن الكبرى وشركات التأمين على الحياة وشركات صنع الاسلحة . فقد وحد باسيل زهاروف الذي رفعه ملك انكلترا الى رتبة النبلاء بين شركة نوردنفلت وشركة مكسيم ، كما ضم ، فيما بعد ، مكسيم الى فيكرز ؛ ورئس البرت فيكرز اتحاداً دولياً من كبار رجال الاعمال من بعض الشركاء فيه بتلهم وتزني ، كما أن شنيدر وكروب يشرفان على اعمال شركات *Poutilov* و *Skoda* . والكرتل الدولي لصناعة

البارود وقع تحت اشراف اتحاد نوبل ودوبون دي نمور .

اما الارباح التي لا يزال بحثها العلمي في مرحلته الاولى ، فمعدلها يختلف نسبة بين سنة واخـــرى ، ومن قطاع الى آخر . فشركة دوبون مثلاً حققت ربحاً صافياً بلغ ٥٠ مليون دولار بين ١٩٠٢ - ١٩١٢ . وبفضل الطريقة المعروفة بارساء رأس المال نرى شركة صنع الفولاذ الاميركية ترفع رأسمالها من ٦١٧ الى ٧١٧ مليون دولار وتصدر اسهماً بـ ١٤٤ مليون دولار بعد ان امتصت شركة مناجم بحيرة سوبيريور البالغ رأسمالها ٩٢ مليون دولار وتطورت الى شركة جديدة رأسمالها ١٤٨ مليون دولار . ويعترف كروب بأن ارباحه بلغت ٢٠ مليوناً صافياً عام ١٩٠٣ و ٣٤ مليوناً عام ١٩١٣ - ١٩١٤ .

وراح فرقاء من أصحاب المصارف يخططون لهجوم نموذجي بعد ان اخذوا يتقاسمون فيما بينهم او يتنازعون في كل مكان ، المشروعات الاستثمارية ذات الاهمية . نحن نجهل الكثير من حوادث هذه المعركة ودقائقها وهي معركة خاضوها للسيطرة على الخامات الضرورية والاسواق العالمية . هنالك حرب صامتة كان من اهدافها السيطرة على التصدير ، وأخرى رمت السيطرة على الكبريت واخرى للتحكم بالتبغ دارت رحاها بين الشركات الاميركية والانكليزية . واحدى هذه المعارك الاكثر معرفة لدينا في دقائقها وتفاصيلها هي معركة النفط او البترول ، نشبت اول ما نشبت ، بين شركة ستندارد اوبل ورويال دتش شل من جهة ، وبين شركات نوبل - روتشلد . فوقائعها البارزة تدور حول نفط القفقاز وبين المناطق البترولية الجديدة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المكسيك والعراق وايران . واتخذت هذه الحرب شكل صراع بين الانكليز والاميركيين . وقد شعر الرأي العام بمثل هذا الصراع الواسع المدى بين الدول دون أن يتبين تماماً مداه ، وهو صراع ان لم يهدد السلام مباشرة في العالم فقد زرع مع ذلك الاضطرابات في كثير من الدول .

ضعف اوروبا في الاسواق العالمية

اخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الاوروبية الكبرى تشتد وتحتدم ، وهو وضع يمكن رده الى الصعوبات والعراقيل التي اعترضت سياستها التوسعية الامبريالية .

ويبدو ان اوروبا اخذت تتلمس بعض مواطن التأخر والضعف النسبي في مركزها ونشاطها. ففي عام ١٩١٣ كانت اوروبا تسيطر على ٨٠ بالمائة من مجموع النقل البحري وهي نسبة لا تعادل سوى ٤٢ بالمائة من مجموع حركة النقل في العالم، وهو معدل محترم الا انه آخذ بالتقهقر والهبوط تدريجياً، وهو ادنى من حصة اميركا الشمالية (٢٦ بالمائة) بالنسبة لفارق السكان بين القارتين. لا تزال بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها الممتاز في صناعة النسيج والحياكة ، الا انها عجزت كما عجزت المانيا نفسها عن الاحتفاظ بالاسبقية في انتاج الفحم الحجري والميتالورجيا ، وهي اسبقية صارت الى الولات المتحدة الاميركية التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً

اكبر وأبعد .

وأخذت اوروبا تفقد شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتفاء الذاتي وراحت تعتمد اكثر فأكثر كل سنة على اقطار اخرى في العالم ليس في الخامات التي هي بحاجة اليها فحسب بل ايضاً في المواد الغذائية التقليدية . ونلاحظ ان بريطانيا العظمى لم تعد تعول على محاصيلها الزراعية ، الا بنسبة ٦٠ بالمائة ، وان بلجيكا تستورد عام ١٨٩٠ نحواً من ٥٥ بالمائة من القمح و٧٥٪ بين السنوات ١٩١٠ - ١٩١٤ .

ان ٦٠ بالمائة من التبادل التجاري يقع في داخل اوروبا او بين هذه الدول والدول الاخرى في العالم . الا ان وضع اوروبا من هذه الناحية هو اقل من قبل لصالحها . والجدير بالملاحظة هنا التأخير الذي نلاحظه في موقف انكلترا التي كانت لتنتج ستة اضعاف مــا تنتجه الولايات المتحدة من الفحم ، عام ١٨٧٠، بينما انعكس الوضع بينهما عام ١٩١٣، اذ نقص انتاجهــا من هذه المادة الى الضعفين من انتاج اميركا . فاذا ما عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى الى عام ١٩١٠ بانتاجها الحديد ، فقد جاءت عام ١٩١٣ ، في المرتبة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والمانيــا . وبمجموع الحركة التجارية انخفض معدلها من ٢٣ بالمائة حوالي عام ١٨٧٥ ، الى ١٥ بالمائة عام ١٩١٣ ، وهبطت حصتها من النقل البحري الى الخمس بعد ان كانت الربع . ومن جهة اخرى بينما يأخذ الميزان التجاري في البلدان الواقعة الى الشرق من المحيط الاطلسي (هو ١٠ بالمائــة لالمانيا و ٢٠ بالمائة لفرنسا و ٣٠ بالمائــة لانكلترا) تسجل حركــة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعا كبيرا . واوروبا مدينة بما لها من قوة في ميزان المدفوعات لاستثماراتها العديدة في الخارج . فهي تحتفظ بثلاثة ارباع الثروة المنقولة ، بينما بريطانيا العظمى وحدها تبز الولايات المتحدة في حساب الثروات الوطنية . وقد تبين من عملية حسابية ان الفرد الواحــد ينفق في السنة ٢٣ الف فرنك بينما لا ينفق الفرد الانكليزي سوى ٢٠،٧٠٠ ، والفرد الفرنسي سوى ١٤،٥٠٠ فرنك . وهذا انما يعني انه اذا كانت اوروبا لا تزال تبــز سكان الولايات المتحــدة استهلاكاً في العام للمواد الاستهلاكية من اي نوع كانت ، فلا يزال الاميركيون في الطليعة بالنظر لعدد الفرقاء المتناولين . والشعور السائد في اوروبا هو ان ما تتمتع بـــه من مستوى اعلى في العيش ، يعود الفضل فيه لهذا التراث الذي خلفته لها العصور الماضية . ان اي تطور من هــذا الشكل من شأنه الا يساعد قط على قيام حالة من التفاهم بين الدول ولا السلام الاجتماعي .

استثمار اقوى البلدان الجديدة

لمــا كان تم تقريبا اقتسام كل الارض القائمة على كرتنا الارضية ، فلقــد انصرف الاستعمار اكثر فاكثر الى استثمار بطن الارض وثرواتها المخبوءة في هذه المستعمرات . فبين ١٨٩٠ - ١٩١٣، زاد طول شبكة الخطوط الحديدية التي انشئت في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية (٢٦٥،٠٠٠) كلم مقابل ٣٢٢،٠٠٠ كلم في المستعمرات وفي البلدان الاخرى المستقلة او المتمتعة بشيء من الاستقلال الاداري . فبينما

يرتفع ، في المدة نفسها، مجموع صادرات الدول الصناعية من ٢٢ ملياراً الى ٧١ مليار فرنك، زادت هذه الحركة ٢٤٪ داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المـــال ، و ١٤١٪ في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها اي اثر يذكر لهذا الرأس المال . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار معدل الزيادة في حركة المبادلات التجارية نرى ان الدليل ١ في عـام ١٨٩٥ ارتفع في اوروبا الى ٢ عام ١٩١٣ ، والى ٤٤٣ في الارجنتين ، والى ٤٨٠ في اليابان . فمن اصل ٢٢ دولة سجلت تجـــارتها الخارجية مليار فرنك واكثر عام ١٩١٣ هنالك عشر بينها ، باستثناء الولايات المتحدة ،تقع خارج اوروبا.

وقد تركز الانتباه حول الاقطار التي تستطيع تقديم الخامات والمواد الاولية او تصلح التجهيز الصناعي والتقني . ومن الامور التي لها دلالتها ان الولايات المتحدة رفضت اعطاء الفيليبين استقلالها بعد ان وعدتها به، في الوقت الذي انصرفت فيه لمد هذا الارخبيل وكوبا وبورتوريكو بما تحتاج اليه من عدة وعتاد وتجهيزات. وقد قبلت بلجيكا من جهتها ، هبة الكونغو الذي كشف عن غناه بفلزات الحديد وإنتاجه لها . وقد اتجهت اطماع الدول الكبرى الى المغرب وطرابلس الغرب حتى الى تركيا ، ولم يمتم شمالي افريقيا من جبل طارق الى قناة السويس ، ان وقع تحت احتلال الدول الاوروبية . كذلك اتجهت حركة التبادل التجاري في انكلترا بالاحرى ، نحو الهند وبـــلاد الدومنيون ومقاطعات افريقيا الاستوائية ودول اميركا الجنوبية ، بينما لم تسجل هذه الحركة مع دول القارة الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية سوى تقدم خفيف . وانصرفت جهـــود فرنسا الى ادخال تحسينات محسوسة على وسائل ووجوه استغلال امبراطوريتها الاستعمارية وهي سياسة قامت بخدمتها وتمهيد السبل لاحقاقها ، الجهود التي قام بها بعض رواد الاستعمار الفرنسي أمثال اتيين وجونار ودومر، كما اتجهت هذه الجهود لتقوية المصالح المصرفية والصناعية والتجارية. وهكذا اطلت علينا الجزائر كبلد تتوفر فيه محاصيل الكرمة وبواكير الفاكهة والمزيـــد من انتاج المعادن . وقد زاد انتاج البلاد من القمح مع بقاء المساحات الصالحة للزراعة على وضعها ، وادخلت وسائل جديدة على تخصيب التربة ورفع قدرتها الانتاجية . وقد جلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات الانظار الى تونس . وقد سار دومر قدماً في هذا المجال في الهند الصينية ولجأ الى فرض رسوم عالية على المشروبات الكحولية ، وعلى الملح لتغذية صندوق هـذا القطر الذي يتمتع باستقلال اداري ، كما عمد الى تنشيط حركة الانشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة . وقد لفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن بفضل السدود الكبرى التي اقيمت على النيل في الصعيد. وكان اهم من ذلك بكثير قدرة الهند والانسولاند الانتاجية،وهذا الدفع الاستعماري الذي شهده العالم في هذه الحقبة ، ساهمت به على اقدار متفاوتة كل من كندا واوستراليا وروسيا والصين والبرازيل . وهكذا برزت امام العـــين سمات الدول الاقتصادية العظمى التي تقاسمت فيما بينها اقطار القارات الخمس .

التطور التزامن للرأسمالية الدولية والقومية الاقتصادية

ومع ذلك فعندما ننظر الى النزعـــات القائمة نرى تضارباً قـــوياً بين السياسة التي ترمي الى توحيد السوق العالمية وبين السياسة التي تسعى الى تنشيط الحماية الجمركية .

فالى الـ ٦١ اتفاقاً دولياً-عقدتها الدول حتى عام ١٨٩٠ ، يجب ان نضيف ٦١ اتفاقاً دولياً جـــديداً تم توقيعها بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٠٨ اتفاقات اخرى جرى توقيعها بين ١٩٠٠ – ١٩١٠ وقد قامت عبر الحدود والسدود عـلاقات اوثق واوطد . فشركة *Ritchie* الانكليزية الاميركية لاستثمار مناجم النيكل في كندا ، اقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفي بلاد الغال وعلى مقربة من ك.ن . ومعامل الصلب في لنغواي تنضم الى معامل الصلب القائمة في روتشلنغ في ساربروك وتالت شركة *Thyssen* وشركة *Gelsenkirchen* امتياز استثمار فلزات الحديد في فرنسا ، وشركة دندل الفرنسية الالمانية لها معاملها الخاصة بصنع الحديد والفولاذ في مقاطعة اللورين ، ومصانع لاستخراج الكوك في الرومر ، ومصانع بوتيلوف وقعت تحت اشراف اصحاب معامل أسن وكروزو ، وتعمل معامل كروب سنيدرز وفيكرز على مد الدول القائمة فيها هذه المعامل والدول الاخرى ، بما تحتاج اليه من العتاد الحربي دونما تمييز فيما بينها. والرأسمال المال البلجيكي يسهم بشكل مخصوص في بناء شبكة المترو في باريس ، كما ان ٦٠٪ من فنادق الشاطىء اللازوردي يعود لشركات اجنبية . وبناء خط بغداد الحـــديدي تم بعد عـــدد من الاتفاقات الدولية يشترك في التوقيع عليها عدد من المصارف والشركات في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . والتضامن يبدو على اكمله في هذه المراكز الدولية التي تتحكم باسعار البضائع وبحركة البورصات في العالم . وبشيء من الاعتداد بالنفس ، راح الامين العام لجنة مناجم الفحم في فرنسا ، هو هنري بيير يهوف ، يصرح في حزيران ١٩١٤ قائلاً : « حلت سياسة المشروعات الاستثمارية محلاً مرموقاً وراء الحدود ، الى جانب السياسات الاخرى ، كسياسة المفاوضات الديبلوماسية والتنظيمات الكبرى ، ويبدو ان عبقرية السان سيمونيين والكوبدنيين عملت دوماً بزخم مدفوعة الى ذلك بالتفاؤل وحب السلام السير بالبشرية تحت قيادة وتوجيه نخبة من الاشخاص الدوليين ورجال الاعمال المتصفين بالدراية والحنكة . وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأمـــوال التي تشد العالم بعضه الى بعض تتالف من ملايين المودعين ومن كبار رجال المال المساهمين بعملية مسكونية باتساعها ، جماعية بالفعل لخير الانسانية الاكبر .

الا ان هنالك ، على كل حال ، ضغط مستمر على السلطات العامة والبرلمانات بحيث ان المنافسة الدولية لم تسبب اي اذى للنشاطات الوطنية . وهذه الغيرة ذات النزعة الخاصة التي افـــادت كثيراً من الازمات الطويلة التي اشتدت وطأتها بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، ومن الخوف من الحرب ، ومن الرغبة في التسلح لتأمين الســيطرة والاستعداد ، بقيت ناشطة بعد زوال الازمة وعودة الامور الى نصابها . فانتصار ولــــت ، على كوبدن ظهر واضح. صحيح ان بريطانيا العظمى رفضت الاخذ بالبرنامج الذي عرضته عليها عصبة اصلاح التعرفة الجمركية التي انشأها تشمبرلن . ونظام حرية

التبادل التجاري الذي اعتمدته وسارت عليه بعد ان ادخلت عليه تعديلات مستوحاة من نظام الدول الاكثر رعاية، معول معتبراً على اخراج الفكرة المرعية لاي دولة تعول على الخارج في امور معايشها ادهى مما تخشاه ارتفاع تكاليف العيش لديها. فمن ميلين الى بولوف ، ومن ماك كيلي الى وايت ، كان على النعرة الجزية ان تبيح للمزارعين والصناعيين المتضامنين بعضهم مع بعض ان يخضعوا المستهلكين للقوانين التي يخضع لها المتجرون ، الذين يرغبون في ان يكونوا بأمن من هبوط جديد في الاسعار ، مما يسبب لهم انخفاضاً في ارباحهم . والحماية الجمركية ذات النزعة الوطنية التي اصبحت كالاتفاق المهني ، شكلاً لا بد منه من اشكال الاقتصاد المنظم ، تعتبر بفضل استمرار الاخذ بها والعمل بموجبها ، الدليل القاطع على تحول النظام الرأسمالي الحر.

اسس السياسة الاستعمارية الوطنية

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية، وتصدر مثلها من معين القومية المتذرة ومن كره الاجنبي المتأصل في ابناء البلاد . بلغنا ، يؤكد ماك كنلي بصراحة ، عام ١٩٠١ ، هذه الدرجة من النمو الصناعي بحيث لا بد لنا من ايجاد اسواق جديدة للفائض من انتاجنا ، بعد ان تم لنا فائض يتحتم تنفيقه وتصريفه . وراح الفرد ملنر ، بعد ان قام باصلاح النظام المالي في مصر ، ورأس تكوين اتحاد جنوبي افريقيا ، يصرح ، عام ١٩٠٤ ، امام مجلس ادارة الرابطة المصرية البريطانية ، قائلاً : « انا رجل استعماري، امبريالي مائة بالمائة ». والحال نرى مواطنه الاقتصادي الحر هوبسن ينسب الى الروح الاستعمارية الذي يصفه دربو، عام ١٩٠٧ بأنه الخاصة الاكثر تميزاً والاكثر جدارة بالملاحظة التي برزت في اخريات القرن التاسع عشر، نطلقاً سياسياً – اجتماعياً واقعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد رأسمالي يخضع للروح القومية . وهذا القول يتفق تماماً مع الرأي الذي قال به لنين وهلفردنغ ومعظم فلاسفة الاشتراكية . ومهما يكن من الامر ، فقانون التضخم التاريخي كما ورد على لسان تارب الذي قال باجتذاب الكتل الكبيرة الكتل الصغيرة ، هذا القانون الذي عبر عنه عالم اجتماعي آخر، هو الاستاذ *Greef* ، احد تلاميذ *Corry* ، يجب ان يعمل لصالح الدول الكبرى ، التي جاءت على مقاييس « امبراطوريات كونية » . وقد رأى هاز رئيس رابطة الجامعة الجرمانية في الامر مرحلة ضرورية في حركة تطوير اي جهاز عضوي حي سليم .فهذا الاندفاع الحيوي يحتاج الى مدى حيوي هو *Lebensraum* .

ومن الطبيعي جداً ان تشهد كل سياسة استعمارية الارض والسماء عالياً « بأن الامبراطورية الانكليزية ، بما هي عليه من مساوىء وعيوب ، تتمتع بنفوذ بشري، تمدني ، مالا مثيل له في عالم اليوم » ، وبولوف نفسه يصرح قائلا : « يدعو الانكليز الى انكلترا عظمى ، ويدعو الفرنسيون الى فرنسا كبرى ، ومن حقنا نحن ايضاً ان ندعو لالمانيا كبرى » .

وفي سبيل الدفاع عن الوطن الام ، راح عدد من دعاة الاستعمار سوادهم من الفرنسيين يفكر باستغلال المستعمرات الواقعة وراء البحار . افلم يقترح ملكيور دي فوغويه ، عام ١٨٩٩،

حشد جيش من ١٠٠ او ٢٠٠ الف من هؤلاء الجنود البواســـل ، بين سنغاليين وسودانيين لا يعرفون للمنطق دوراً ولا الصفح محلا ؟ وقد كتب لويس سوبرليه ، عام ١٩١٢ ، قائلا : « على الزنجي ان يفهم ويدرك جيداً بان الدولة التي استقرت في داره وفرضت عليه سيادتها وسؤددها، هي سيدة مطاعة ، تبسط سيطرتها فوق السهول والاحراج والغابات ، هي اقوى واجد من كل ما تعاقب عليه وعرف من اسياد وخبر في ما مضى من سلطات حاكمة . فما من شيء يأخـــذ بمجامع قلبه ويؤثر فيه اكثر من اطلاعه على هذه الامجاد وهذه الانتصارات الحربية المجيدة التي سجلها كل من لويس الرابع عشر والجمهورية ونابوليون ، وهـــذه المعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مرأى منه »

« اني أقدم لكم هذه الامة المتشاوفة التي تدعي المسيحية ، العائدة اليكم بما هي عليه من ادران ووسخ ، ملطخة بالدماء ، مرضوضة ، فاقدة شرفها من اعمال القرصنة التي قامت بها في كياو – تشاو ، ومنشوريا وجنوبي افريقيا والفيليبين. فالفؤاد والحشا ملء بزمتها وجيوبهـــا منتفخة من الذهب الذي سلبته ، ولسانها يفيض رياء وكفراً . اعطوها ثياباً نظيفة وصابوناً ، ولكن اياكم والمرآة ، ابعدوها عنها » (مارك توين).

الدليل العرقي والعنصرية

لم يلبث مبدأ القوميات الذي استشرى الأخذ به في القرن التاسع عشر ان اتخـــذ مظهراً له فكرة العرق او العنصر ، هذه الفكرة التي لم يمـــد مدلولها ليقتصر على الجنس البشري ، بل تعداه الى شتى الفرق ليذوب في مفهوم الدولة او الدول . وهكذا اخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية ، وهي عروق مختـــارة او مصطفاة معدة لقيادة العروق الاخرى حتى راحت تعتقد ان مستقبل « الحضارة » مربوط، الى حد بعيد بقيام هذه العناصر المختارة وبالرسالة السامية المرسومه لهـا من قبل العناية الالهية. وفي الوقت ذاته اخذت الاوساط العلمية تتردد ، في ابداء رأيها، حول طبيعة العرق وجوهره ، وراح بعض الكيميائيين ، بدافع من الافكار الرجعية او بدافع من الغرض الشخصي يجعلون من العرقية حقيقة واقعية تتميز كلياً عن الدولة وعن الديموقراطية والطبقة الاجتماعية ، وغير ذلك من التجريدات المسلم بها اليوم .

بقي ان نعرف من هو لعمري العرق المختار. فقد سبق لغوبينو ان اقترح « العنصر الآري»، وجعل العنصر الارستوقراطي في الدرجة الاولى بشهادة اشتقاق الاسم . وهكذا شـــدد على المناقبية التي يتمتع بها الاوروبي الشمالي الفاتح او الغازي ، في الاصل ، وهـــذه النظرة تتلاقى والنظرة التي قال بها وعلم بولنفيليه ومونتلوزييه اللذان راحا ، منذ القرن الثامن عشر يشيدان بها الفرنك من حق صراح بهذه الميزة بوصفه محارباً نبيـــلا ، مؤهلا ليحكم العنصر الغالو– الروماني ، الذي غُلب على امره وبرهن عن دناءة وخساسة .

ولكن ما هو السبيل للتمييز ابين السكسوني والجرماني ، في اوروبا اليوم ؟ فبعد ان رحب

كل من كرايل وكنغسلي ومن بعدهما دلك وسيلي، وبعد ان غنى كبلنغ راح الاول يشيد بالمآتي والانجازات الحربية التي تمت على يد سكان الجزر ، سواء في قلب الشعوب القديمة او في سباسب اميركا وافريقيا واوستراليزيا العذراء .

تراثنا واسع رحب ومساحتنا واقرة

وروابطنا اقوى وامتن من هذه الحياة السريعة العطب (كبلنغ)

ومع ذلك فالاعتداد الاميركي لا ينقص بشيء عن تطرف الوطنية البريطانية وغلوها . فهما من أرومة واحدة . ولذا احتار هذان الاخوان المتنافسان ما اذا كان عليهما ان يمضي في تنافسهما الحاد للسيطرة على العالم او ان يتحدا معاً على حكمة وتعقل وفرض سيطرتهما عليه .

ومهما يكن ، فقد شدت بينهما رغبة واحدة بالمحافظة على نقاء الاصل عن طريق الامتناع عن مصاهرة ومخالطة العروق الملونة المعترف بانحطاطها ، فقد اخذا بصورة غريزية بمبدأ العرقية او العنصرية في هذه القارات الجديدة حيث يدعون انهم في ديارهم . فمن طريق الاستثناء او اقله عن طريق التمييز العنصري ، اخذوا يحمون من تطور الاسود والاصفر على السواء . فمن اجراءات فردية او جزئية اتخذت في كاليفورنيا وفي فكتوريا ، توصلوا الى سن تشريعات منهجية منها :قانون تحديد الهجرة ، في الولايات المتحدة وفي استرال آسيا تجاه الآسيويين والميلانزيين ؛ وقانون التربية الوطنية في مدينة الكاب وفي بريتوريا،هذا القانون الذي اخذ يحدد مناطق الزنوج الاصلية (فجعلها ١٢٪ فقط من مجموع هذه البلاد ، وهو قرار تبناه المحكمة العليا في واشنطون وتطبقه على الزنوج في الاتحاد الاميركي الذي يتسلح بشرط الجد البعيد او الارومة ويحتج بهذا الشرط ليحرم الزنوج من حقوق الانتخابات العامة ، مع الاحتفاظ شكلا ، بخرافة « المنافع المتساوية » . يجري كل هذا بصرف النظر عن ردود الفعل الجماعية البديهية او العنيفة ، والدوافع التي تملي على هذه الاشتراكية التي لا تنهض على اساس ، يقول بها الاستراليون، تنحصر في قانون جزيرة العمال الحادثة الذي صدر عام ١٩٠١ ، وهو قانون نم عن عقلية صالحة لظهور ما يعرف بالاشتراكية الوطنية .

وقد راحت المانيا تدعي ، من جهتها ، التفوق العنصري او العرقي ،واستشهدت في هذا السبيل بأرمينيوس وشارلمان والامبراطورية المقدسة والقوة المستعادة التي يعمل ريتشكه وسيل على شرحها وتفسيرها بأسلوب مشوق . فهي تستشهد بغوبينو لاثبات نظريتها هذه وتعمل على نشر مؤلفاته وآثاره المخطوطة . وفي هذا الوقت بالذات ، ينشر الكاتب الانكليزي هوستن ستيوارت تشمبرلن،عام ١٨٩٩«من جهة نظر الشعور الجرماني » كتابه الموسوم :« اسس القرن التاسع عشر» لحا فيه باللائمة على الدور الضار الذي قام به انسان البحر المتوسط كما يشجب التعاليم الدينية التي جاء بها ابن البابوية ، ويروح غليوم الثاني ينذر ، وهو برأس مجمع سنودس سان جان في ماريتبورج : « بالانقضاض على «المرمات» تأديباً لهم على رقاعتهم بحيث يجعلهم

حقاً » . ويطل نفسه باقناع انكلترا – رهبة او رغبة – باقتسام الرسالة التمدينية امام الخطر الاصفر والمنافسة الاميركية التي تزداد حدة وسورة .

ما هي الاسس التي ينهض عليها التفوق الانكلوساكسوني ؟ يتساءل ديمولين ومهما يكن فهنالك سبيل لنبذ الفكرة المغلوطة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيا بينها، كما يصرح الدكتور غوستاف لوبون الذي يرى التصالب او التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة . ويمتدح فاشيه دي لابونج فضائل « الانسان المستطيل الرأس، المعروف بحبه للسيطرة وبرغائبه الملحة » ويحذر من البورجوازي « هذا الفطر الطفيلي السام الذي ينمو في ظل المنصة ويرتوي من ولغ دماء النبلاء والكهنة » . والدعوة الى الغرائز الدفينة تجد صداها ، على الاجمال ، بين العاملين في الارض، وهي دعوة تتجلى عند بارس في قصته : « النشاط الوطني » . وعند بورجيه الذي يتبنى نظرية *Gobineau* و *Vereinigung* ويدعو الى بعث فضائل الاسرة ، وعند موراس الذي كان همه الاكبر الرجوع الى نظام ملكية لا مركزية نقابية ، وعند باسكولي واوناموتو . « لكن لدينا ، يقول بارس في كتابه : « الاكمة الملهمة » الشجاعة على استئناف السير على هذه الارض البدائية بجرأة وان نمشي، بالرغم من الظواهر الباردة بجرأة ملكة الحماس القاتمة » . فالكل ومن بينهم بيغي يشد العرق بالارض التي تغذيه وتمده وتعطيه اسباب البقاء والديمومة . فاذا ما احتج احدهم ، فعلى الفوضى الجشعة وعلى اشتراكية الصراع الطبقي . فالعنصرية تهيء السبيل امام ثأر اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها مع « البعث الاسباني » عام ١٨٩٨ ، وفرنسا المتعصبة ضد دريفوس ، معدة هي الاخرى لمهمة تمدينية جديدة سامية .

العرقية اللاسامية وظهور الصهيونية الدولية

قبل عام ١٨٤٨ قام المستشرق لاسن يضع الساميين تجاه الآريين . فغوبينو يرى من جهته ان « الآري المنحدر من صلب يافث يسمو ليس على اقوام السود والصفر فحسب ، بل ايضاً على ذرية سام . وقد زعم بعضهم ان اليهود، خلافاً للتعارف المألوف بين الناس، يؤلفون، بين شعوب اوروبا لعدم تزاوجهم الا فيا بينهم ، العرق الصافي الوحيد، وهو الذي يستطيع وحده بالتالي ان يسود ويحكم . وعبثاً راح رينان الذي لم يكن مع ذلك ،دوماً فوق الضغينات والاخذ بالوجوه، يهاجم هذا الرأي الذي انتشر وشاع بين الناس بفضل جهود بعض الدعاة أمثال ادوار درومون .

والحال ، هنالك دعاوة مناهضة للسامية كانت غافية تحت الرماد تنتظر من يبعثها ويوقظها . فالى الوراء من الغرب الاوروبي ، حيث كان العنصر اليهودي يتغلغل ويرسخ بفضل الروح التحررية البورجوازية وعرف ان يحافظ الى الشرق من على القارة ما اتصف به من حيوية ،حيث شكلت المجتمعات اليهودية العديدة أقليات تمسكت بشدة بتقاليدها وعاداتها، بالرغم مما تعرضت له من الاضطهادات والتضييقات واسطورة الذبيحة البشرية التي دعموا ان الطقوس التلمودية

نصت عليها واوصت بها ، كانت لا تزال تلقى اذناً صاغية وألسنة تتناقلها بالرغم من تلاشي نفوذ التلمود بين اليهود ، في الاوساط اليهودية .

من الاسباب التي ادت الى اشتداد حركة مناهضة السامية في الامبراطورية الالمانية والامبراطورية الاوستro ـ مجرية ، تزاحم اليهود اليها من بولونيا واوكرانيا . فاذا ما رأى الكثيرون في السامي، على الاجمال، مرابياً جشعاً لا امل باصلاحه ، فقد تبين بعضهم فيه لوروبا يتكالب على تقويض القيم المرعية وخلخلتها طمعاً منه بالصيد في الماء العكر . وصورة جانوس المزدوجة الوجه تذكرنا ملامح احدها بملامح روتشيلد كما ان ملامح الوجه الآخرتنم عن ملامح ماركس . ومن جهة اخرى ، فالحسد مفسدة ويقضي للأذى في هذه البلدان وهذه الاوساط حيث يلاقي النشاط اليهودي ، بفضل التساهل الديني الذي يسود هذه البلدان والاوساط ، التسهيلات اللازمة للنجاح . وهكذا أطلت حركة منافسة اليهودية واتخذت شكل مناهضة السامية والتصدي لها ، واتجهت ضد الاجيال المتحررة ، بحيث راح اشخاص امثال برينو ـ بارامول وارنست هاقيه، يرحبان بظهورها ويحملانها من المنافع التي طلعت بها الحضارة. فكيف نفسر الغنى والثراء الذي يرفل فيها اليهود ؟ أليسوا لانهم تفننوا في اساليب السرقة والابتزاز ؟ وكيف نفسر تجاحهم في الوظائف العامة ؟ فهم يحتلون عن غير استحقاق ، الوظائف التي يمارسونها . اما كفاءتهم العلمية والادبية والفنية فكثيرون ينكرونها عليهم ويشكون بوجودها، من بينهم درومون ، مثلا .

قد يصرح بيبل قائلا : « ان عداء السامية ليس سوى اشتراكية المتزمتين »، كما ان باستطاعة فورنييه ان يوضح قائلا : « لنا إلهنا ماركس ولنا شيطاننا الرجيم روتشيلد » . هنالك عدد من انصار فورنييه وبرودون وبلانكي ، ومن اعضاء حزب شعبيي الروس حتى وبين تلامذ غسد ينهمون الرأسمالية ، اليهودية في صميمها ، بينا يرى ماركس ان عبادة المال تؤلف حائلا دون تحرير اليهود وتحرير جميع الناس ايضاً . « ليسقط روتشيلد ، ليسقط اليهود » ، كانت تهتف باريس ، عام ١٨٨٠ ، وهو الهتاف نفسه الذي يحرك دوماً شفاه الفقير المعدم ضد الغني الذي انتفخت صناديقه . وراح المتشككون بالتقاليد يشغلون هذه الاحقاد ويحولونها ضد هذه الفئة المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك والظنون ، ويثيرون غضب الجماهير واحقادها ، ويذكون في النفوس البغضاء ضد العنصر السامي المعروف بشعوبيته وبعدم انتمائه الى اي وطن ، فيؤلبون الناس احزابا وعصائب تطالب باتخاذ اجراءات جذرية لصيانة المجتمع ، وبالتمييز العنصري ، والطرد ، واحياناً بالمذابح (وهكذا أطل علينا مثلا بشخص موراس فلسفة وضعية مضادة لليهود) . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء المنبوذين كلهم اغنياء . فاسمع ما يقوله هنا الكاتب الكاثوليكي المتحرر ، الاول لاروا ـ بوليو : « لا اعتقد قط انه يوجد على كرتنا الارضية عنصر شعب فريسة الاملاق والفقر المدقع مثله » ، كما ان بيني يصرح من جهته قائلا : عنصر الفقراء بين اليهود ؟ عددهم كبير، هم من الكثرة بحيث يتعذر عدهم او احصاؤهم، أراهم في كل

مكان » . وهذه البروليتاريا تزرع الخوف في نفس الغني ، يهودياً كان ام غير يهودي ، ولأنه يهودي وهذا ذنبه الاكبر ، والبروليتاريون الآخرون لا يطيقون منافسته لهم . فاذا ما راح اللاسامية يشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي اخذ يطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة وفي دواليب الاعمال ، وهو برنامج تبناه بحذافيره الحزب الوطني الالماني الذي شكله شونرير والذي مكن لويجر من الفوز بعمدة فيينا ، عام ١٨٩٥ ، فقد سنت انكلترا ، عام ١٩٠٥ ، قانون هجرة للاجانب الذي اوصد ابوابها دون الشرقيين المعوزين ، كذلك فعلت اوستراليا .

ومع ان حركة مناهضة السامية اخذت تمتد وتتسع في كل من النمسا والمانيا ـ مع ان بسمارك وغليوم الثاني يستخدمون رجال الاعمال من اليهود ويرعيان جانبهم ، والزعيم الوطني ترتشكيه يكتب : « اليهود هم مصيبتنا الكبرى - فروسيا هي التي تعلنها عليهم حرباً عواناً تتصف بالعنف والشدة بينما يحتفظ لفرنسا الجمهورية بعمل مشهود . أمر تلاقي الحلفاء ؟ فقد قابل فظائع كيشينيف وبياليستوك هيجان العواطف التي اثارتها قضية درايفوس . وعلى كل فبين الحادث الفردي الذي أثارته قضية الضابط الفرنسي وبين المأساة المشتركة التي وقعت في الشرق ، مأساة اليهودي البائس ، ليس من سبب مشترك الله في الظاهر . فالفضيحة الكبرى في نظر القرن التاسع عشر المتحرر هي : « القضية التي وضعت وجهاً لوجه النظام والحركة ، التقليد والعدالة . فالمبادىء الكبرى ، مبادىء عام ١٧٨٩ ، تعود فتتغلب وتفوز بالطبع ، ولكن بعد ازمة حادة طويلة خلفت وراءها ذكريات مريرة « الثورة الدريفوسية » ، كما يسميها جورج سوريل باسلوب غامض .

ولم تلبث نتائج هذا الدفع العنصري او الطغيان العرقي ان ظهرت دون تأخر . فيطل علينا « اليهودي التائه » الذي يمضي في سيره الموصول ، فنشهد هجرة من اقوى واشد الهجرات ينتقل معها اكثر من مليونين من يهود روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اثار قدوم هؤلاء البائسين ، في الرأي العام الاميركي ، ردات فعل ضد دخول عناصر غير مرغوب فيها ، البلاد الاميركية بحرية .

ولما كان في العالم شعب يهودي يتميز عن غيره من شعوب الارض ، فلتعد اليه ، على الاقل ، البلاد التي عاش فيها قديماً والتي ألف فيها وطناً قومياً له ! ومنذ عام ١٨٦٢ ، راح احد حاخامات مدينة تورن يدعى كاليشر ، يطالب بانشاء وطن قومي يهودي . وفي سنة ١٨٧٠ ، اي في السنة ذاتها التي تأسس فيه الاليانس الاسرائيلي ، انشأت هذه المؤسسة الاوربية ، في مدينة يافا ، مدرسة زراعية لتدريب طلائع المهاجرين اليهود الى فلسطين . واذ قام جريتز يضع كتابه الكبير : « تاريخ اليهود » ليعيد الى اذهان ابنا جلدته ، امجاد الشعب اليهودي وانجازاته عبر الاجيال . فاذا ما مكنت الهبات المالية التي قدمها ادمون دي روتشيلد الى « اصدقاء صهيون »

من تأسيس اول المستعمرات الزراعية في الاراضي المقدسة، فقد وقع اكثرهم،وفقاً لرغبة البارون دي هيرش ، تحت تأثير الدعوة بالذهاب الى العالم الجديد . وقد جاء الحكم على الضابط اليهودي دريفوس وانتخاب لويجر عمدة لمدينة فيينا حافزاً حاسماً في توطيد عزم الزعيم المجري ثيودور هرزل على نشر كتابه الموسوم : « الدولة اليهودية » ، محاولا بذلك ايجـــاد حل نهائي للقضية اليهودية، وهو كتاب صدر عام ١٨٩٦ .وبالرغم من مقاومة فريق كان يخشى من ان يتحول اليهود عن الرسالة التي عهد بها الى اسرائيل – هذا الشعب النبوي ، على زعم بيغـــي ، – كما يخشى من استغلال المناهضين للسامية ، لهذا الشعور القومي ، فقـــد اخذت الفكرة الصهيونيـــة بالانتشار والسريان في العالم . وهرزل الذي كان رسول هـــذه القضية ، والجاهـــد الاكبر الذي نهض بها دونما ملل ولا سأم ، عرف ان يضمن لقضيته انصاراً ومريدين متحمسين، من بينهم العالم الاجتماعي المشهور ماركس نوردو، والكاتب الاسرائيلي زنجويل. وعمل على عقد المؤتمرات ، واكثر من الصلات برؤساء الدول ومراجعهم ، وحاول ان يكسب لدعوته هذه عطف البابا والسلطان العثماني والامبراطور غليوم الثاني والحكومة البريطانية . ولما كان محولا في مسعاه بفكرة سياسية اكثر منها دينية فقد اضطر بعد ان ذاق مرارة الفشل واليأس، الى قبول عرض قدم اليه بمقترح انشاء وطن لليهود في اوغندا . الا انه بعد عام ١٩٠٠ ، طلعت علينـــا الدعوة (Alya او العَودة) الى فلسطين وانشاء الصندوق الوطني اليهودي في سبيـــل شراء فلسطين وانشاء مؤسسة تل ابيب وبعث اللغة العبرية .

الهيجان القومي في اوروبا
وأهم مناطق الخطر

في كتابه : مذكرات اوروبي ، يصف لنا ستيفان زويغ الضيق الذي اعتراه ، عندما حضر بوصفه يهودياً نساوياً ، في ربيع عام ١٩١٤ في احدى دور السينما في مدينة تورس حيث ظهر على الشاشة صورة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف ، والهياج الذي اثارته هذه الصورة بين النظارة والشاهدين « في تلك الصالة المظلمة علاها الصفير الداوي وارتفعت جلبة جهنمية وقرع الارض بالاقدام ... والكل يصيح ويعوي من نساء ورجال ، واولاد يشتمون ويلعنون كأنما لحقت بهم اهانة نكراء. فقد اعتراني الخوف وشعرت بالقلق في الصميم ، بعد ان تبينت الى اي حد بلغ تسمم مشاعر الجماهير وهياجها من جراء دعاية مغرضة مهيجة ، استمرت سنوات بكاملها » .

وهوس الحرب الذي تملك النفوس من جراء الحرب الالمانية الفرنسية (١٨٨٠ – ١٨٧١) ، وسباق التسلح ، هذا السباق الذي عجل في اندلاعها من جديد ، وهذه الاستنفارات المتتالية – هذا الهوس الذي لا معنى له بدون هذه الهيجانات الدورية – زاد احتدامه عن طريق وسائل الدعاية المعروفة ، اذ ذاك ، كالصحافة مثلا، بما فيها من الانباء المثيرة والمقال الاخباري المأجور والخدمة العسكرية والمدرسة وبرامـــج التعليم حيث لم تلبث دروس الجغرافية والتاريخ ان استحالت مظاهرات وطنية .وراحت منظمات ومؤسسات عديدة تأخذ على نفسها الاشادة بقوة الامة وتتغنى بأمجادها الوطنية . وبينها من له من النفوذ ومن بعد الشأن ما يؤثر على مقررات

الحكومات ومقرراتها الحاسمة ، اما عن طريق مناورات وأساليب خفية واما عن طريق التلويح بالمظاهرات الشعبية. فأحاديث الحرب والتبجحات الصارخة، هي من بعض هذه العملات الدارجة . فها هو غليوم الثاني يكتب بمناسبة المؤتمر الاول للسلام المعقود عام ١٨٩٨ : « لا بأس عندي من الاشتراك بتمثيل مسرحية السلام،الا انني احتفظ بخنجري الى جنبي لرقصة الفالس» ، كما راح يهتف وهو متجه نحو طنجه : « اليد على مقبض السيف والترس ممدود امامنا على الارض ، عسى ان نجيب Tamen او ليحدث ما يحدث ! » وها هو كليمنصو ، يصرح عام ١٩٠٨ : « انا مؤمن بالحرب وأومن ان ليس بالامكان تفاديها ... لن نأتي شيء يطلقها ، ويجب ان نمتنع عن الاتيان بأي شيء يفجرها . ولكن علينا أن نكون على اتم استعداد لها » . وبول كبون يصرح في السنة التالية لاحد مراسليه قائلا :تمسكي بالسلام لا يقل بشيء عن تمسكك به . ويقيني ان خير طريقة للمحافظة على السلام هو ان نكون اقوياء . كل بلد ثائر الاعصاب يذهب فريسة اول طارىء يدهمه ، اما اذا كان هذا البلد مدججاً بالسلاح ، وتنبض الروح العسكرية في عروق شعبه ويكون على استعداد لخوض المعركة ، فهو على يقين بفرض احترامه على الآخرين ، ويتجنب فظائع الحرب » . والمصير ذاته يتجلى لتيودور روزفلت «« الحرب وحدها تتيح لنا ان نتحلى بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة » . فخصوم دريفوس وقفوا منه هذه الموقف الصبر ، دفاعاً عن شرف الجيش ، وذلك عندما راحوا يعارضون اعادة النظر في قضيته .

والرومنطيقية الحديثة نفسها التي تشيد بفضائل العرق والتي كثيرا ما تفننت بموضوعات هي موضوع احترام الجميع وتقديسهم ، مثل : ارض الوطن ، الجدود ، العَلَم ، لا تتحمل هنا اي شك ولا ترضى بأية مداعبة او مزاح في هذا الموضوع . « فالارستوقراطية الفكرية » التي يكشف برونتيير عن امرها ، و« النقلية » او التعبد الملل الذي يبدو للأب ديدون ، و الغدر الذي ويدنه الوحيد الازدراء بالقوة والاستهانة بها ، هما عرضة لهجوم عنيف. هل الامر مرتبط بروح نقدية او برأي مستقل ؟ ولذا رضخ الكثيرون ولم يجدوا جوابا والتزموا الصمت . هنالك بالطبع مسيحيون مخلصون يشجبون الحرب . فقد نشأت جمعية مسيحية هي جمعية Gratry للدفاع عن السلام والمحافظة عليه بين الدول لم تلبث ان استحالت عصبة دولية سلبية كاثوليكية، تولى رئاستها البلجيكي اوغست برنائرت . الا ان « يقظة البطولة » التي يشيد بها رجل من عيار مارك سانييه ، لا يتحرج من قضية الضمير الا عملا بما هو عليه من قناعة مخلصة ؛ والعصبة المسيحية الديمقراطية الايطالية التي لم يلبث البابا بيوس العاشر ان شجبها ، تمنت من الصميم استئناف الجهاد ضد النمسا ، في سبيل تحرير تريستا وترانت . والاشتراكية التي رأت موجباً لتزكي نفسها بالقول : « ان العمال لا وطن لهم ، وهو قول ينم عن مزاج عاطفي ويؤلف رداً منافيا للواقع ، يؤذي جداً الجدل الناشب بين البورجوازيين الوطنيين الذين رأوا في الشيوعية عنصراً هداما للوطن » ، كما اعتقد جوريلس نفسه . وهكذا أعدت المأساة الدولية التي وقعت

عام ١٩١٤ .

« فباستثناء فرنسا ، لا يوجد في اوروبا دولة واحدة سلطتها وسيادتها هما صدى صادق لاماني كل الولايات وتعبير علوي عنها » . هذا ما نقرأه في مذكرة جورج لويس سفير فرنسا لدى برلين، وهذا ما يعترف به ياغوف وزير الخارجية الالماني ، عام ١٩١٣ . هنالك اقليات وطنية وفئات غريبة تنتفض وتتحرك في كل ناحية ومكان في اوروبا . صحيح ان مطالب كتلونيا لا يكمن فيها اي خطر على وحدة اسبانيا ، كما ان مطالب الفلاندر لا تؤلف اي تهديد لسلامة بلجيكا . الا ان موقف برشلونة يهيج اعصاب مـــدريد كما ان موقف مدينة غنت يزعج بروكـــل . وعبثاً يسعى البريطانيون الوصول الى اتفاق حبي مع ارلندا يؤمن لها مصالحها وسلامتها ، يحوز على رضى طلاب الاستقلال في دبلين وطلاب الانفصال في مقاطعة الولستر. فقد عجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن ايقاف الحـــركة الاستقلالية او الحد من المطالبين بوطن قومي لهم المعروفين باسم *Sinnfein* بحيث ان الحـــرب الاهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عـــام ١٩١٤ .

وبقيت الالزاس واللورين مثاراً القلق بين فرنـــسا والمانيا . فاذا لم تفكر الاولى بالركون الى الحرب لاسترجاع ولايتها السليب ، فقد برهنت الثانية عـــن نزق شديد لعجزها عن امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين المقاطعتين ، الذين لم يرضوا قـــط بالتنازلات الواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الالمانية ، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وادارتها... ودون ان نذهب بعيداً في شرقي المانيا ، فالحركة البولونية التي عرفت ان تصمد في وجـــه سياسة جرمنة البلاد كانت مثاراً لازعاج اولي الامر في برلين وبعث القلق في نفوسهم ... والاقلية الدنماركية في مقاطعة شلسويغ فشلت مساعيها للتحرر من السيطرة الالمانية كما ان النرويج تمكنت من زحزحة نير السويد عن رقبتها . ومهما بلغ من بطش وقوة الدولة التي كونهـــا بسمارك ، فهي تخشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستتجاوب في اراضيها من جراء اي وهن او اي ضعف يبدو عليها .

وعلى كل ، فالامبراطوريات الثلاث : الالمانية والروسية والاوستروهنغارية تتحسس الخطر الذي يتهددها من جراء الحركات والهزات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البحر البلطيكي والبحر الابيض المتوسط . ان تحرر الفنلندي والبلط والبولونيين والرومانيين من سكان بسارابيا انما يعني عند روسيا ، فقدانها اسواقها الغربية التي امتت التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الاكبر والرجوع بروسيا الى طابع آسيوي اكثر منه اوروبي . ثم ان بروز حركة سلافية دانوبية قوية لا تُدفع كان من شأنه ان يؤلف خطراً يهدد جدياً وجود الملكية الثنائية ، قبل ان يتحقق حلم وليست وبقيام اوروبا وسطى تمتد من بحر الشمال الى البحر الاسود . وهكذا قضت الضرورة ، يوماً بعد يوم ، بايجاد صيغة جديدة لتكون فدرالية الطابع او ثلاثية الاقنوم . والحال ان ادخال شريك جديد ، صربي - كرواتي على هذه الامبراطورية الثنائية ، سياسة

فوبلت بالعداء والتنكر من قبل الجمتاريين واليوغوسلافيين الذين يصلون لاستقلالهم الناجز . اما ضم البوسنه والهرسك فعملية زرعت الشك في قلب بودابست ، كما اثارت بلغراد وقضت مضاجعها . ففي انصراف آل هبسبورج لكبح جماح الجامعة الصربية ، خطر يتهدد مصيرهم، كما انه يجر المانيا الى المجازفة بحرب عالمية كبيرة .

من سخرية القدر الغاشم ان يرتبط مصير المدنية الاوروبية بهذه الاقطار البلقانية التي قال عنها بسمارك انها لاتسوى عظام جندي بوميراني واحد . فالاوفق من جميع الوجوه الابقاء على التركي في مكانه بدلا من انتزاع التنازلات الاقتصادية منه شيئاً فشيئاً . ومع ذلك فشبه الجزيرة « بتبلقن » ، وهذه الاختلافات والمشاجرات التي تنشب بين الشعوب المحيطة بمقدونية ، واطماعها في البحر الادرياتيكي وبحر ايجيه ولد بحرالق من الصعب احيانا حصرها والحد منها.

القوة الالمانية وسباق التسلح

كلف السلام اوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١، فقد تمتعت اوروبا بإمتياز قد تكون الوحيدة فيه باستثناء اليابان التي زاحمتها وحدها فيه وهي ان ارض دولها كانت تنتشرتها الثكنات العسكرية ودور الصناعات الحربية والاستحكامات، كما كانت دولها تكثر من حشد ادوات التقتيل واعتدة التهديم، وتاخذ بنظام الخدمة العسكرية بحيث يستعد للحرب ويتدرب على فنونها ، الملايين من الشبان .

وليس من شك قط ان توحيد المانيا تم بسرعة وبشكل عنيد ، فظ. فقد وصفها كلمر بأنها عملية بناء ضخم استخدم فيها السمنت بخشونة وسرعة ، وبأنها كانت سبب هذه المنافسة العسكرية الموصولة ، وهي منافسة قامت بين شعبين جاشت احشاؤهما بالعداء ، اثارها خوف الالمان من عملية ثأر على نطاق واسع يقوم بها الفرنسيون ، والخوف لدى الفرنسيين من غزوة المانية جديدة على فرنسا .

وهكذا استمر الصراع الفرنسي الالماني خلال فترة السلام، فسمم الاجواء وشحنها بالمخاوف والاراجيف. وعرفت الامبراطورية البسماركية ان تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر وايطاليا. وبذلك جعلت فرنسا في عزلة تامة . وهذا الحلف المقدس الجديد لم يتوقف عن التسلح وانتهى امره الى القطيعة والتفرقة فالانحلال . والحال ، فقد جاشت المانيا بين ١٨٨٥ – ١٨٩٠ التي كان ازدهارها الاقتصادي مثار الاعجاب والدهشة، بروح استعمارية وشرهت نفسها الى بناء امبراطورية استعمارية لها . فمع غليوم الثاني طلع علينا جيل من الالمان قدر عاليا الانجازات التي قام بها الرواد وتطلع الى القيام بانجازات اكبر واروع . كان لا بد للشعب الالماني الآخذ بالنمو والازدياد وان يشتري وبالتالي كان عليه ان ينتج وان يبيع اكثر فاكثر كل يوم . ولما كان فخورا بمآتيه وبما تم له من عدة وعتاد ، وبالسبق الذي حققه في مجال الصناعات الحديدية والكيميائية ، وبالمدن الجبارة التي قامت على ارضه ودياره ، وبثقافته الفنية والعلمية ، فقد راح ينظر شزراً الى الثروة الضخمة التي تمت لفرنسا ، والى عظمة الامبراطورية البريطانية ،وقد تشبع بفكرة حتمية الصراع

بتوزيع اعدل واقرب للمنطق ، للخامات والمواد الاولية في العالم ، وهو حق عرف ان يناله بعد فترة طويلة من القصور والعجز المشين، وبعد ان حقق مثل هذه النهضة العظيمة التي تمت له ، قام هنا في اوروبا الوسطى «شعب وقع تحت النير فطأطأ رأسه واقتصر وضعه على انضباط سلبي ، كما يقول فيه بيغي ، ومجتمع جندل لخضوعه لدولة هي ظل العناية الربانية على الارض، وطبقة من الموظفين المدنيين والعسكريين، وقدر عالياً قيمة النظام والبزة الرسمية وقد قل ما نمّ له من قوة العدد والتنظيم والقدرة على تأليف الشركات . وهذا المجتمع عرف جيل هؤلاء الاشتراكيين الذين ابطلوا فعالية الدولية كما قدّر عالياً هؤلاء الذين دافعوا عن العرقية او العنصرية فصقلوا لهذه الامة مرآة» ابرزت عند النظر اليها قسمات العنصر الالماني وصفاته المميزة. فقد فرض وافتخر على الاجنبي ذوقاً موسيقياً انبثق من المانيا ، وقد ارسل هذا الشعب هؤلاء التجار المتجولين الى جميع اقاصي الارض يرغّبون الناس ويدعونهم لشراء المصنوعات التي خرجت من يد النبوغ الالماني الخلاق ، ويحث تجارته في ان ينشروا العلم الالماني خفاقاً فوق جميع البحار كما دعا جيشه للاحتفاظ ببارودة جافاً وان يتكلم قيصره عالياً . « فالنوران اعترى دماغه ، كما يقول رومان رولان ، عام ١٨٩٩ . فعند نيتشه وشتراوس والامبراطور غليوم شيء من النيرونية التي يعبق بها الجو » .

وبخلاف الاميركيين الذين يهدرون مواردهم هدراً ، يتفنن الالمان من جانبهم ، بالافادة مما تم لهم من هذه الموارد ، ومع ذلك فاقتصادهم يبقى ضعيفاً ، وهناً . وعندما يعجز الالمان عن تأمين التوازن في حساباتهم عن طريق الاستثمارات الناجحة في الخارج ، يضطرون للمضي في التوسع بعد ان يخفضوا اسعار الكلفة الى الحد الادنى . ولذا عاشت البلاد دوما تحت كابوس تضييق اسواقها التجارية. وبما ان موقفهم السياسي *Weltpolitik* يضطر بريطانيا العظمى للوقوف الى جانب فرنسا وروسيا ، فالسباق على التسلح البري تضاعف بسباق بحري لم يقل احتداما وخطراً وكلفة عن الاول . فبينما تمد الدبلوماسية الالمانية الى الشانتاج احيانا والدعوة المكشوفة الى الحرب وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى المستعمرات الالمانية في الخارج ، وازداد الرايخ نرفزة بعد ان رأى نفسه محاطا من كل جانب . ان موقف المانيا الممتاز في قلب اوروبا جعلها في وضع ممتاز كذلك لبسط سيطرتها على هذا الجزء من القارة الاوروبية ، فهي تشعر بأن هنالك ما يحد من طاقتها من كلا الشرق والغرب على السواء ، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب هو الامبراطورية الاوسترو - هنغارية ، اذ دعاها ما سبب انهيارها ، او اذا ما جرت الى مغامرة كبرى وقف هذا الحليف الى جانبها حتى النهاية .

وهكذا رزحت اوروبا تحت وطأة التسلح ، وهي وطأة شديدة شعرت بثقلها ليس الدول التي ارتبطت بعضها ببعض بمواثيق دبلوماسية او عهود عسكرية فحسب ، بل ايضا دول اخرى مثل بلجيكا والسويد اللتان جزعتا جدا على استقلالها وسلامتها. فالاستعداد للحرب زادت نفقاته ثلاثة اضعاف بين ١٨٧٥ - ١٩١٤ ، في كل من المانيا وبريطانيا العظمى ، كما ازدادت ضعفين في فرنسا ، ومثلت ثلث الميزانية العامة في روسيا . اما ايطاليا فقد كادت تنفلق لفداحة هذه

التكاليف عندها . فبينا ترصد الموازنة العامة في فرنسا مليارا ونصف المليار للجيش وللاسطول الحربي ، فالبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتربية والتعليم ، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة في البلاد وللاسعاف العام ، قبل عام ١٩١٤ . ان بناء طراد واحـــد كان يكلف الدولة بين ٣٠ – ٤٥ مليون فرنك ، اذ ان الطلق الواحد يكلف ٤٠٠٠ فرنك (اي ما يوازي المرتب السنوي لموظف متـوسط) .

فالمبدأ القائل : اذا اردت السلم فاستعد للحرب ، فرض نفسه كمبدأ ساحر وبدا ان لا مناص منه ولا حيدة عنه لاوروبا هذه الطاعنة في السن . نحن امام انقسام تاريخي ولاشك . ولكن هل كان من المقدور ان يحول تنوع الطاقات الوطنية بين دول القارة في نهاية الامر هذا التنوع الذي كان وراء عظمة الحضارة الاوروبية دون تحقيق وحدتها السياسية التي وحدها تستطيع ان تحول دون الانقسامات الجغرافية الاخيرة المنذرة بانهيار محتوم ؟ فالمـانيا التي رشحت نفسها لرئاسة وقيادة تجمع اوروبي ، حلت نوعا ما ، بعد فارق ٧٥ سنة،محل فرنسا التي حاولت هي الاخرى تحقيق مثل هذا التجمع، وهي محاولة منيت بالفشل امـام الصخرة البريطانية، فمعاصرو غليوم الثاني والاميرال تربتز يستطيعون اكثر مما تم لمعاصري نابوليون،ان يضطلعوا بمهمات على مستوى عالمي . وانصار سياسة الـ *Weltpolitik* لن يعدموا وسيلة للنهوض بهذه السياسة ، ملوحين بالخطر الاصفر حينا ، وبالمنافسة الاميركية احيانا ، كما يحتجون ، من جهة ثانية ، بالعجز الذي نزل بالشعوب الاستعمارية القديمة والقصور الذي اصيبت به .ومع حرصهم على صيانة مصالحهم الاساسية والدفاع عنها ، فقد وقفوا الى جانب روسيا ، عام ١٨٩٥ ، لارغام اليابان ، على التخلي عـــن منشوريا والانسحاب منها وعملوا على تعيين قائد عام الماني لقيادة الجيش الدولي الذي عهد اليه اعادة نفوذ البيض الى العاصمة بكين. الا انهـــم نظروا الى الحلف المعقود بين انكلترا واليابان نظرهم الى خيانة مصالح اوروبا . وقد تجلت اطماعهم وبرزت بصورة اجلى واوضح في الوقت الذي اخذ فيه الاستعمار الاوروبي يصادف صعوبات جديدة .

ثلاث حوادث،تمثل لعصاب بها اوروبا : الحبشة ، كوبا ، منشوريا

تمثل الحقبة ١٨٩٤ – ١٩٠٤ اكثر واوفر حقب هذا العصر حروباً بعد الحروب والفتن الدامية التي وقعت في منتصفه ، اذ وقعت خـــلال هـــذه السنوات العشر معظم الحروب الاستعمارية . يجب ان نضع جانبا قضية كوريا التي انتهت بتقهقر اليابان امام تدخل المانيا وفرنسا وروسيا . صحيح ان بريطانيا العظمى انتصرت على الترانسفال بعد تضحيات كبيرة ، في الوقت الذي تابعت فيه فرنسـا تغلغلها في افريقيا السوداء باحتلالها جزيرة مدغشقر الكبيرة . الا ان الدول الاوربية خسرت ثلاث حروب خاضتها خلال هذه الحقبة ، فعجزت ايطاليا عن التغلب على الحبشة ، كما ان اسبانيا انهزمت في كوبا والفيليبين، وروسيا غلبت على امرهـا وانهزمت انهزاماً منكراً امام اليابان في منشوريا .

فانكسار ايطاليا في عدوة امام الاحباش يجب رده اصلا الى عدم تقدير الامور قدرها اللازم والى نقص جذري في الاستعدادات الضرورية . ومع ان هذا النصر حققته الحبشة امّن لها فترة من الهدوء والسلام ، فلم يستطع ان يوقف الحركة الاستعمارية في افريقيا . وقد اصيب المراقبون في اوروبا بدهشة كبرى لدى انكسار الاسبان امام الاميركيين . وقد ردد اناتول فرانس صدى تكهنات هؤلاء المراقبين ، في كتابه « التاريخ المعاصر » . اما هزيمة الروس فقد كان لها وقع دونه وقع الصاعقة ليس في الاوساط العالمية فحسب ، بل ايضاً سبب ثورة ضد نظام الحكم القيصري هزته هزاً عنيفاً دون ان تسقطه ، كما سببت منافسة حادة بين فرنسا والمانيا نشبت حول قطر لا يزال حراً في افريقيا ، هو المغرب ، واخيراً ضد الرايخ الولهلمي ، وتجمعاً انكليزياً فرنسياً روسياً ، جاءت اليابان تدعمه في آسيا .

هنا تكمن الاسباب الاصيلة لحادثين من اضخم الحوادث التي استهلت التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ والثورة البلشفية ، عام ١٩١٧

الدول الاستعمارية خارج اوروبا
بروز الولايات المتحدة الاميركية واليابان

حوادث الخيبة والفشل التي لحقت باوروبا في المجال الاستعماري ، اصابتها في هذه الاقطار والاصقاع التي اصطدمت فيها بهذه الدول الاستعمارية الفتية المنافسة لها . وهذا الفشل يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة الاميركية واليابان المتزامن ، بوصفها دولتين من الدول الكبرى الفائزة .

فبالرغم من الفوارق التي تباعد بين مجتمعيها ، والمفارقات التي تميز حضارة كل منهما ، فهنالك مع ذلك ، نظائر مشتركة بينهما اذا ما نظرنا الى سياستيها العالمية .

فالولايات المتحدة بلاد العجائب والغرائب المدهشة تؤلف بيئة حليمة منفتحة الى اكبر حد للنجاحات الفردية كما تكون ملاذاً يكن اليه كل من تعذر عليه العيش او اصيب بالضيم والحيف في العالم القديم . كل شيء فيها تم على عجل وبدا ضخماً جباراً وكل شيء فيها يدل على ان حضارتها امتداد لحضارة اوروبا الشيخة ، في الوقت الذي راحت فيه الاذواق والنماذج الاميركية تتحرر وتتسع وتتنوع .

واليابان القديمة ، بما لها من طابع غريب عجيب عرفت ان تسحر الشعراء والفنانين والهواة ، وبالرغم من هذا التحول الساحق الذي حققته حضارتها الصناعية فلسماتها المميزة لم تتغير ولم تتبدل وما زالت تفتن بسحرها الاخاذ واحدأمثل الكاتب هيرن ، والذي عُرف عنها وذاع خبره بين الناس شرقاً وغرباً هو رخص البضاعة اليابانية التي اخذت تنافس الى حد بعيد مصنوعات اوروبا واميركا في الاسواق الآسيوية ، والاسترالية .

ويشيد جوريس « بهذا القطب الرأسمالي الخانق » ملمحاً بذلك الى جمهورية آل كارنجي وآل فندربلت وبيار بونت مورغان وروكفلر . فالفردية الليبرالية مهدت السبيل لطلوع طبقة

متنقلة من كبار رجال الثروات الطائلة لم تعد تحسب حساباً للحاكم والنقابة والنظريات الثورية فتحت لها في الداخل اسواق تبز اوروبا باتساعها . وقد اطل علينا عهد من الامتداد والضخامة بحيث ان حركة التجارة الخارجية تضاعف حجمها بين ١٩٠٠ - ١٩١٤ ، وزادت ثلاثة اضعاف باتجاه آسيا . واستثمرت اكثر من ستة مليارات من الدولارات في الخارج وانشأت لها بالفعل امبراطورية في اميركا الوسطى والمحيط الهادي كما ان اميركا اللاتينية هي على وشك ان تصبح منطقة نفوذ لها وحدها بفضل سياسة الرابطة الاميركية . فمداخلاتها كتحكم لحل قضية منشوريا والمغرب تشير بالفعل الى ما بلغته من اشعاع عالمي ، كما ان سياسة « الباب المفتوح » التي اتبعتها في الصين وفي افريقيا الوسطى جاءت تناهض سياسة مناطق النفوذ التي سارت عليها الدول الاستعمارية الاوروبية واليابان . وهذه الرأسمالية المركزة تلعب دوراً بارزاً في طوكيو ايضا ، يشد من ازرها عدد من السكان يشكو الفقر ابداً في نماء وازدياد ، تشحذ الحاجة فيهم الاطماع. ولما كانت اليابان بأشد الحاجة للتصدير بأي ثمن لتأمين اسباب العيش للاهلين،فقد دخلت باندفاع وقوة لا تدفع عصر الاستعمار . فتحت ستار الدستور ، لا تزال احزاب الـ *Genré* تحكم البلاد باسم الميكادو وباسم النظام الاوتوقراطي المستبد الذي تسير عليه معتمدة فيه على الجيش والاسطول والبيروقراطية مبقية تحت قبضتها الجماهير العمالية . فبعد ان انتصرت على الصين وفازت بروسيا واصبحت حليفة لانكلترا وشريكة الإئتلاف الثلاثي في اوروبا ، احتلت نيبون (اليابان) فورموزا كما احتلت كوريا والقسم الجنوبي من منشوريا ، وأقامت لها علاقات تجارية وطيدة مع الهند والصين والهند الصينية واصبحت في آن واحد زبوناً للولايات المتحدة الاميركية تستورد منها وتصدر اليها ، زبونا من الدرجة الاولى ، وحاولت ان تكسب تجاريا على حساب اميركا ـ كل منطقة المحيط الهادي . لهذه الصين التي راحت فريسة الفوضى تسحرها بمالها من موارد وخامات ضخمة . فهي ان عملت على إيقاظ آسيا ، ففي سبيل طرد « البرابرة » البيض واخراجهم منها ، شريطة ان تعمل هي على استثمارها لوحدها .

طلائع الثورة الصينية

يؤلف انهيار الامبراطورية الصينية القديمة حادثا تاريخيا ضخما تتعدى نتائجه كل حساب . فمنذ الثورة التي قام بها اتباع الطائفة الدينية *taipings* ، عام ١٨٥٠ ، والصين تحاول البروز بصورة متجددة دون ان تحسن تحديد تقاطيع وجهها . هنالك قوى هادرة تعتمل في هذا الهيكل الصيني العتيق الضخم ، المتمسك بالتقاليد المستحكمة . فالرأسمالية حققت من جهتها نجاحات باهرة مربحة . فمنذ حادث البوكسر (الملاكمين) اخذت الصين تكثر من انشاء المصانع والشركات التجارية كما انشأت لها شبكة من الخطوط الحديدية ، ووثقت من الروابط التي شدت بين الطبقة البورجوازية التي اخذت تتكون والقوى وبين الاجانب الذين ضاعفوا من استثماراتهم في البلاد خلال عشر سنوات . ثم ان وجود « البرابرة البيض » ، من جهة ثانية كان بمثابة جرح بليغ يجرح من كبريائها . فقد

اخذت المتضادات والمفارقات تبرز اكثر فأكثر . هنالك صين قروية ، ريفية زراعية يجري اعتصارها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولما كان الميزان التجاري يتسع يوما بعد يوم ، والوحدة النقدية ال Tael تفقد من قيمتها الاسمية ، كانت تكاليف الحياة دوما في ارتفاع . ومن جهة اخرى ، فأزمة الشاي الناجمة عن انخفاض التصدير حلت الدمار والخراب الى الولايات الجنوبية بكاملها حيث كانوا يتخلصون بسهولة من المواليد الاناث . الا ان صين الاستثمارات وصين التجارة والاعمال الكبرى رفعت عالياً واجهتها البذخية ، فبدت مزيجاً غريباً من الروح الآسيوية ومن الروح الاوروبية ، كما بدت لنا في صورتها المثلى ، في مدينة شنغاي ، مثلاً ، كما رآها جان رود ، عام ١٩١٠ الذي يقارن بين هونغ كنغ ، مثال النجاح البريطاني في هذه الناحية من العالم ، وبين « كنتون » المريعة ، بقناتها القــذرة التي تغص بما يطرح فيها من النفايات والاوساخ فتزيد من سواد مياهها النتنة ... ومنازلها المتهدمة التي تغشاها طبقة لزجة من الاوساخ ، وهذه الارتال من المستعطين تقزز النفس لرؤيتهم ، يقابل في الطرف الآخر منظر أخاذ من السحر والتصنع .

وبعد ان احبطت حكومة الصين محاولة اصلاح استمرت مائة يوم عولت الادارة الامبراطورية على المباشرة باصلاح من طراز اسكندر الثاني : يتناول الوظائف العامة والامتحانات والحاكم والجيش . ومنعت منعاً باتاً محششات الافيون ، ووعدت بمد البلاد بدستور جديد . الا ان عجزها الواضح غل في يدها وعجزت عن تحقيق شيء من هذا . فهي لاتستطيع الاعتماد على الاجنبي ، كما انها تعجز عن محاربته وايقافه عند حده . فقد آلت حركتها هذه في نظر طلاب الاصلاح الى الانتقاص من كرامة البلاط والحط من هيبتها ، دون ان تتوصل الى اصلاح شيء .

قام بين المفكرين والتجار العاملين خارج الصين حركة ثورية رمت الى التخلص من الاسرة المنشوكية المالكة مسيداً ، ومن ال Meiji . فالانتصارات التي حققتها اليابان ، والثورة الروسية التي وقعت عام ١٩٠٥ ، بعثت فيها النشاط وحركت فيها الرغبة بعمل شيء ما للخروج من الوضع الزري الذي انحدرت اليه الادارة والبلاد، ووضعت لهذه الحركة منهجاً استمدت خطوطه الكبرى من المثل الانكلوسكسونية ، واضعة نصب اعينها : الحرية والديمقراطية واحلال نظام الاقتصاد الرأسمالي محل الوسائل البالية المتبعة في الانتاج . والدكتور سن – يات – سن الذي تلقى دروسه تباعاً في الكلية الاميركية ، في هونولولو ، ثم في كلية الملكة في هونغ كنغ، ثم انتقل الى كنتون قبل ان يقوم برحلة طويلة الى اميركا واوروبا طاف خلالها على الجاليات الصينية الكبرى المرافقة حول الامبراطورية السماوية ، دخل عضواً في عدد من الجمعيات السرية ثم انشأ ، هو نفسه « جمعية يقظة الصين » ، ودخل في عضويتها كثيرون من الصينيين ومن رجال الفكر ورجال المال والاعمال العاملين في مناطق الامتيازات الاجنبية او في اليابان وفي غير ذلك من المناطق والاقطار الآسيوية، وراحت تنادي بسيادة الشعب وبتوزيع الاراضي

الاميرية على المزارعين . وحاولت هذه الجمعية ان تجر وراءها الطبقات المتعلمة ، المتذمرة وان تقيم لها علائق مع الجماعات الوطنية في التونكين التي تقوم بأعمال المشاغبة ، ولم تكن بغريبة قط عن محاولة انقلاب في كوريا ضد الاحتلال الياباني الجائر . وساعدت سلسلة من ازمـات المجاعة وقحط المواسم المتعاقبة وبوارها على حمل جميع من يتأففون او يتذمرون لامر او لآخر على الوقوف موقفاً معاديا لبكين . وثار العمال العاملون على الخطوط الحديدية او العاملون في ترسانة هان - كيو ، كما تمرد قائد الجيش يوان - شي - كاي ،واعلن العصيان على الامبراطور . وهكذا وقعت ثورة عام ١٩١١ .

وعبثاً راح سن يات سن رئيس حزب الشعب باسم كومين - تانغ الذي رمى الى المناداة بنظام جمهوري ديموقراطي ، فلم يستطع ان يعتمد على الجماهير الامية البائسة . ولمـا كان صينيا من الجنوب فلم يستطع ان يكون اكثر من رئيس لجمهورية الصين الجنوبية ، ولم يلبث ان انسحب من الحياة العامة . فعادت السلطة الى يوان الذي ما كان بتخلص من الاسرة الحاكمة حتى راح يفرض نفسه على البلاد بأجمعها، وبعد ان امّن لنفسه ولاء بكين والجيش في الشمال اعاد تكوين وحدة البلاد لمصلحته الخاصة . وعرف ان يؤلب حوله كبار الموظفين وحكام الولايات وارباب التجارة واصحـاب الثروات والقوى الاخرى التي اشد ما كان يقلقها رؤية الفوضى في البلاد . وهكذا تمكن هذا الجندي الذي جاشت نفسه بالاطماع ان يجمع بين يديه وان يحتكر لنفسه السلطة في هـذه الجمهورية الناشئة . وهكذا فمصير هذه الصين الشاسعة الاطراف الغريبة الاطوار بقي لغزاً يحتار له العالم قبيل الحرب العالمية الاولى.

الحركات القومية خـارج اوروبا

بوادر ردة مضادة للاستعمار

فاذا ما تحركت الصين وتمطت،فلم يكن ذلك للمرة الاولى. ولم ينتظر فكتور بيرار نهاية الحرب الروسية اليابانية ، ليضع كتابه الموسوم : « ثورة آسيا » . وعلى الاثر توالى على الظهور فيض من المطبوعات والمؤلفات التي تعالج القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى والستراتيجية التي اثارتها انتصارات جيوش الميكادو والصدى الداوي الـذي احدثته والاثر البعيد الذي اطلقته في البلدان والاقطار المتصلة بالمحيط الهندي والمحيط الهادي، حتى في تركيا. فالمفكرون السياسيون ورجال السياسة من اليابانيين انفسهم لم يكتموا قط الآمـال المراض التي جاشت بها نفوسهم . فالمؤلفات التي وضعها المؤلف الياباني اوكاكورا بعنوان : « مُثل الشرق » و « يقظة اليابان » تؤكد بوضوح وحدة الآمال التي تجيش بها قـلوب الآسيويين . صحيح ان المؤسسات الاوروبية والاميركية لم يبد عليها مـا ينم عن خوف او مـا يشعر بقلقها ، الا ان حوادث الاضطرابات الفردية التي يكاد لا يشعر بها احد هنا او تتخذ لها هنالك طابعا مزعجا ، اخذ يتكاثر وقوعها ، شيئا فشيئا . فقد قامت حركات وطنية مناهضة للاستعمـار . فالفتح الياباني اقلق خواطر كثيرة في بلدان كثيرة وراح سكان هذه الاقطار يقومون بحركات رجعية

بدافع ما ينبض فيهم من بغض شديد لما هو اجنبي ، لم يكن مع ذلك ليتنافى بالضرورة مع الرغبة بإعداد محاولات اصلاح سياسية واجتماعية ، (وضع الصين خير شاهد على ذلك) ، كثيراً ما ارتدت شكل رفض لانماط الحياة الجديدة .

فحزب الاستقلال الذي غلب على امره في الفيليبين، عام ١٩٠٢ ، لم يستطع النهوض وراحت الولايات المتحدة تشدد من قبضتها على الارخبيل المذكور وتعمل بسرعة على مده بالاجهزة والاعتدة التي لا بد منها .

وفي الحين الذي اشتدت فيه مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان ، وهي مقاومة لم يتمكن اليابانيون من كبحها وكبها الا بعد عام ١٩١٠ ، اخذت بنكوك تعمل عكس ذلك تماماً ، وتسعى الى توسيع حرياتها بالاعتماد على طوكيو . فالسلام هيمن على شبه الجزيرة الهند الصينية. فلم يقم في وجه الحاكم الفرنسي العام دومر اي حركة مقاومة يحسب لها حساب ، بعد ان امعن في إذلال الامراء وحكام الولايات قبل ان يبدأ بتطبيق برنامج واسع من الاشغال العامة . وقد راح خليفته بول بو يحاول تحسين العلاقات بين المثقفين وبين الفرنسيين مع قيامه ببعض الاصلاحات الانسانية . والخطر الذي ذر قرنه بين التونكين عام ١٩٠٨ حيث قامت حركة تمرد لم تلبث ان قمعت بسرعة ، بقي يراود ذكره الاذهان ، لا سيا في هذه السنوات التي تلت رأساً ، المساعدة التي يمكن ان يلاقيها خصوم فرنسا، في كل من الصين واليابان. وقد استؤنف العمل الاستعماري بين شعوب هذه الاقطار دون ان يتنكر احد منها للفوائد الناجمة عن هذا العمل .

اما في الهند ، فاليقظة القومية أخذت تنشط وتحتدم بسرعة . فعلى اللورد كورزن الذي يذكرنا نشاطه بنشاط دومر في الهند الصينية ، أن يحسب حساباً لهذه الجماهير الوطنية التي تعمل فيها وتختمر قوى محافظة مشهورة بعدائها للبريطانيين ، وللذرائع والاساليب الاوروبية وطبقة من المثقفين تطمح بأبصارها الى التربع في الوظائف الكبرى ، وبورجوازية تساعدها الارباح التي تحققها في التجارة والصناعة الناشئة ، على تضخيم المطالب القومية .

فشبه الجزيرة الهندية ، كالصين نفسها، تفيض بهذه المفارقات والمتناقضات الحرية بالملاحظة . « فمدينة بمباي ، كما يلاحظ احد الاداريين الانكليز عام ١٨٩٩، مدينة صناعية عصرية حيث الصناعة الحديثة تأسر النظر بوجهها الكالح والمشع معاً. ففي بمباي احياء، منازلها واطية، غير صحية يتكدس فيها السكان على اشد ما بلغه تكديس السكان في المدن الاوروبية. فيها العديد من اصحاب الملايين الذين ساعدوا بهباتهم ومكارمهم الانسانية ، على تشييد الابنية الضخمة التي تزدان بها المدينة » . والتحقيق الذي أجرته لجنة من لجان العمل ، عام ١٩٠٧ ، يشهد عالياً بالفقر المدقع الذي تتخبط فيه البروليتاريا ، وينزل بالمصانع التي يُحلج فيها القطن حيث يعمل العمال من ١٧ — ١٨ ساعة في اليوم ، بأجر يتراوح بين ٢٥ — ٣٢ فرنكاً في الشهر الواحد ، كما يشير الى ان العديد من الاولاد ، بين السادسة والسابعة من اعمارهم يعملون ١٢ ساعة في اليوم

ويكسبون نصف هذا المبلغ في الشهر . إلام يؤدي نجاح حركة مقاطعة البضائع الانكليزية ياترى ؟ فقد تبدى لبعض المفكرين في الهند ، أمثال رابندرانات طاغور ان استغناء الهنود عن استعمال البضائع الانكليزية من شأنه ان يزيد استثمار الجماهير فداحة . اما فيما يتعلق بالاستقلال الذي يطالب به تيلاك والذي أقره المؤتمر الهندي عام ١٩٠٦ ، فهل يعني قيام دولة هندية تتطور على طريقة اليابان ، أو على الطريقة التي اقترح الاخذ بها غاندي منذ عام ١٩٠٧ ، اي اعلان المقاومة في وجه التقدم ، على اي شكل كان . وشجب التصنيع ، ومنع كل ما يولد الضجيج والرجوع بالبلاد الى المغزل . ومهما يكن ، فقد أطل على البلاد ، عام ١٩٠٨ ، عهد من الاضطرابات طلع اول ما طلع ، في البنغال ، لم تعمل على تهدئتها ولا على ادخال الطمأنينة الى النفوس القلقة ، الاصلاحات التشريعية الجديدة التي أجراها اللورد منتو ومورلي . صحيح ان المؤتمر بقي تحت سيطرة المعتدلين الذين يخشون دوماً الحركات الارهابية المتسمة بالعنف ، والحادث المهم هنا هو ظهور العصبة الاسلامية لجميع الهند التي جاءت ردف هي الاخرى المعارضة لوجود الاجنبي في البلاد . عاد غاندي الى الهند ، عام ١٩١٤ ، وسيعطي بفضل ما له من شخصية بارزة ، الحركة الوطنية في الهند ، قوة جديدة ، ودفعاً شديداً الى الامام .

من اهم اغراض غاندي والاهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه ، شد اواصر الوحدة بين المسلمين والهندوس . فهو لا يجهل قط ما للاسلام من اهمية وشأن كبيرين في آسيا وافريقيا . وقد لاحظ بعين ثاقبة الارتجاجات والهزات العنيفة التي واجه بها الضغط الاوروبي . وقد سلم المعتزلي خوده بخش « بأن القرآن يصح ان يكون دليلا ومرشداً للمؤمن لا ان يكون حجر عثرة او حائلا دون التطور الاجتماعي والادبي والقضائي والفكري » . كذلك ، شدد على إظهار المخاطر الكامنة تحت شعار بعض الفئات التي تدعى انها متطورة : « اخذنا عن الاوروبيين لباسهم وطريقة عيشهم حتى مساوئهم المعروفة من معاقرة الخمرة الى الميسر ، الا اننا لم نأخذ شيئاً من فضائل هؤلاء الاوروبيين » . هذا ما يتوجب معرفته لدى هؤلاء المعجبين بأوروبا . ولذا لم يتردد احد كبار ممثلي انكلترا في الشرق ، هو اللورد كرومر ان يكتب عام ١٩٠٨ قائلا : « لا سبيل الى اصلاح الاسلام . فالامر الذي يخضع للاصلاح لم يعد الاسلام ، بل شيئاً آخر ... لن يكون ممكنا كما يرجعون ان يصنعوا هميانا من الحرير القرمزي من اذن خنزيرة شرقية » . فهو يرى ان المصريين المتخلقين بأخلاق الاوروبيين فقدوا اسلامهم واصبحوا اوروبيين من ذوي اللاغقربات » . ولويس برران ، هذا المراقب الحصيف يذكر ، عام ١٩١٠ ، في كتابه الموسوم « السراب الشرقي » ملاحظاً : « ان ندرك ابداً هذا الغضب والحقد الذي يثيره في قلب سكان المدن الجزائرية ، من ابناء البلاد الاصليين ، الزاجب المترتب عليهم بافراغ سلة القمامة في ساعات معينة من النهار » .

فالمسلم اعتبر دوماً ، على اقدار مختلفة ، وجود الاوروبي في دياره ، ضرباً من الاهانة تصيبه في الصميم ، فهو لا يمكن ان يألف او ان يأنس الى وجود حكومة تدين بغير دينه ، كما يلاحظ موظف روسي عمل مدة طويلة في التركستان . فهو يصف بالجنون هذا السباق الى

المسلح الذي يسلم له غزاته ومستعمر ارضه وبلاده . « بلغت اوروبا اوج قوتها وبطشها » كما يؤكد يحيى صديق . وبالرغم مما حققت من امجاد وعظمة وقوة فهي اليوم اكثر انقساماً على نفسها واكثر عطباً من اي وقت مضى » . ولذا قام دوماً بحالة كون ، شعور بجامعة اسلامية تحمل المقت لما هو اجنبي غريب ، كثيراً ما برهن عن وجوده ، هنا او هناك ، بشكل او بآخر ، واحياناً بعنف شديد ... ففي الوقت الذي ارتدت فيه الحركة الوهابية الى تجسد ، فالمخوف يلي ظهور الحركة السنوسية التي تقوم بدعوة لا تقل تمد من ضفاف خليج سرتا الى مشارق النيجر ونهر الفانج . وقد احسنت الصمود في وجه الايطاليين في طرابلس الغرب . «وحسبت ايطاليا انها امام تركيا، كما يلاحظ هنوتو، فقد وجدت نفسها وجها لوجه مع الاسلام». فالطريقة السنوسية اختارت لها طرائق سرية تتصف بالفطنة والحذر ، وابت ان تربط نفسها بعجلة القسطنطينية عندما حاول السلطان عبد الحميد ان يرفع فوقها علم الخلافة . فالجامعة الاسلامية ، هذه الرابطة السياسية الدينية التي سبق لغبرييل شارم ان حذر ، منذ عام ١٨٨٣ ، من الاخطار التي تمثلها ، اتخذت سلاحاً لها وعدّة الترهيب ودهاء الدبلوماسية ، لم تتورع عن هدر دماء المسيحيين في ارمينيا وكريت ومقدونيا ، والسلطان الاحمر نفسه طوح به الغرور لاقامة علاقات مع اليابان ، بعد أن راح بعضهم يبشر مهدداً بقرب اعتناقها الاسلام بالجملة . وهنالك حركة تقارب ظهرت سنة ١٩١٢ ، بين المسلمين وبين الوطنيين من الهنود والصينيين . فتحت لتصرف الاسلام والمسلمين اكثر من ١٠٠٠ صحيفة اوروبية ، يخرج بعضها من القاهرة بالجملة ببغداد وطهران وامرتسار ، والبعض الآخر من القسطنطينية باتجاه بمباي او باتجاه معاكس ، فتصدر عن كلكوتا باتجاه ايران وتركيا ومصر .

وهذه الجامعة الاسلامية الحديثة ينتصب في وجهها قوميات فتية . فلم تستطع كبت النفور المستعصي بين الاتراك والعرب ، في قلب السلطنة العثمانية وراح جمال الدين الافغاني يشيد عالياً بحضارة العرب وشهدنا في لبنان بعثاً من دعاته رحلته الكبار خليل مطران وجبران خليل جبران . ويقوم الكاتب السوري الكواكبي يطالب بوجود الخليفة – خليفة المسلمين– في مكة المكرمة . وفي عام ١٩٠٥ ، اذاعت عصبة الوطن العربي من باريس نداءها المشهور ، في الوقت الذي راح فيه نجيب عازوري ينشر كتابه : « يقظة الامة العربية » . ونشبت في الحين ذاته ، في الحجاز وفي اليمن ثورة عجزت تركيا عن قمعها بالقوة .

وبعد ذلك بقليل قامت في الاستانة ثورة استبدلت النزعة الاسلامية التي قال بها عبد الحميد، والتي باءت بالفشل وقابلها الناس بالاعراض ، بحزب وطني تركي هو حزب تركيا الفتاة .

وحوالي عام ١٨٩٥ ، أطلقت علينا الجامعة الطورانية ، ظهرت اول ما ظهرت عند تتار روسيا ، اذ قام بعض اغنياء تجار باكو بدعم حركة تدعو لم شمل الجماعات الطورانية المتناثرة حلقاتها بين فنلندا ومنشوريا ، للوقوف في وجه القيصرية الروسية التي كانت تدعو وتعمل

« لترويس » هذه الاقوام . فقد ضم اول مجلس تشيلي روسي (دوما) عدداً محترماً من الاعضاء المسلمين كان لهم وقع مهيب في النفس اقلق خواطر اولي الامر في روسيا . فلم تتطور الامور ، من هذه الناحية ، الى ابعد من ذلك . الا ان اكشورا اوغلو ، احد تتار الفولغا، جاء الاستانة واسس فيها جمعية طورانية ، حيث قام احد مواطنيه المدعو احمد بك آغا ييف معاية ناشطة بين حملة الفكر من خصوم حكم السلطان عبد الحميد . وظهر اذ ذاك الى الوجود حـزب تركيا الفتاة عرف ان يكسب له اعضاء كثيرين في الاوساط التركية وفي صفوف الجيش ، مستغـلا الفشل الذي يليت به محاولات السلطان ومعرضاً بالتنازلات التي تخلى عنها الخليفة ظل. وراح هذا الحزب يتغنى بفضائل الشعب التركي المسلم البعيد عن التعصب ويجمع باقامته ، في وجـه العربي الذي وصفوه بالمتقلب والفوضوي ، حركة قومية متعصبة مستهجنة تسلمت مقاليد الحكم في البلاد بفضل جيش افراده من الرعايا والذميين ، اطلق عـلى لجنته الادارية اسم « الاتحـاد والترقي » ، اذ كانت تضم بين صفوفها ، مسيحياً ويهودياً ، وانتسبت بالمبادىء التي نادت بها الى اوغست كونت والى « فلسفته الوضعية الكاملة » ، وراحت تنادي «بالعثمانية » بحيث يصبح كل رعايا السلطنة دون اي تمييز عرقي فيما بينهم « عثمانيين » . الا ان الفشل جاء تاماً ، كاملا ، هنا ايضاً ، وذلك بفقدان تركيا طرابلس الغرب ، حيث تمثلت المقاومة وتبلور الصمود في وجـه الغازي المستبيح ، بالسنوسيين ، وبفقدان البلقان ، وبانفصال البلدان العربية تدريجياً من تركيا . وقد ظهر ان « الوطن العثماني » يجب ان ينتصر ، بعد امد وجيز على العثمانيين الاقحاح . ففـي الحين الذي راحت فيه انكلترا تظهر عطفها على العرب، كانت المانيا تؤيد الجامعـة الاسلاميـة الحميدية وتتظاهر بتأييد الحركة الوطنية التركية في الاستانة . وفي نهاية الامر ، لم يلبث حزب تركيا الفتاة ان دب سوء التفاهم بينه وبين الجامعة الجرمانية .

سقوط عبد الحميد عن كرسي السلطنة سبق بقليل سقوط الشاه محمد علي ، هذا الشاه المستبد في دولة راحت فريسة الفوضى المخزية . هنا حزب تركيا الفتاة وهناك حزب ايران الفتاة ، وقد تألف الاخير منها من لمم الاعيان ورجال الفكر وبعض المغامرين جـاؤوا من القفقاس ومن ارمينيا ومن بعض ائمة الشيعة . فتبريز تقف في وجه طهران. وقد راح الشاه فريسة هذا التقارب الذي تم بين الانكليز والروس ، فاضطر ان يجمع المجلس الوطني وان يعتزل الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب . الا ان الثورة التي تستجدي معونة المستشارين الاميركيين ، وتحاول لفترة قصيرة استمالة برلين الى جانبها ، لم تستطع الصمود امام التدخل المزدوج من قبل الروس والانكليز . فحوادث الفتن والاضطرابات لن ينتهي عهدها بسرعـة في ايران التي راحت فريسة الدول الاستعمارية المجاورة لها .

والحوادث الدامية التي وقعت عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في كل من تركيا وايران تردد صداهـا في القاهرة . فقد كان سبق اللورد كرومر ان غادر مصر بعد ان كان قد تولى ادارتها مـدة ٢٨

سنة، وعمل على تنظيمها وفقاً لمتطلبات المصلحة البريطانية. ولكن الروح القومية المصرية التي بدت طلائعها في ثورة عرابي باشا، لم تخمد جذوتها قط كما يلاحظ المستكشف شوابنفورث عام ١٨٩٥. فاذا ما رضي جناحها المعتدل ممثلا بالشيخ محمد عبده، شكلا من التعاون المؤقت، فقد راح يؤكد بصوت مصطفى كامل «المصريون لمصر ومصر للمصريين». ومع ذلك كان كامل يراعي جانب المحتل. وعندما توفي عاد الاضطراب الى البلاد واشتدت حركة المقاومة كما حدث في الصين والهند بفضل التطور الذي عرفته البروليتاريا الصناعية في البلاد. «ان كلا ضفتي النيل، كما يلاحظ لويس برران، عام ١٩١٠ – تزخر بالمصانع ومعامل السكر ومعامل نسيج القطن التي ترتفع سحائب مداخنها السود فوق عزب الفلاحين ومنازلهم المتخذة من اللبن». وجاء كتشنر واسرع الى تعطيل الجرائد الوطنية واخذ يلاحق احرار البلاد ويضيق على زعمائها الخناق. الا ان الملق الصحفي سمني راح يعترف بالحقيقة قائلا: «لسنا محبوبين في مصر». كما ان لوتي اخذ يتحسب قائلا: «مسكين هذا النيل، حقا مسكين... ما هذا الانحطاط الذي صار اليه! بعد هجمته السحرية التي امتدت عشرين قرناً نراه اليوم تتنقل على متن ظهره ثكنات وكالة كوك الطافية، ويغذي مصانع السكر ويجهد نفسه ليؤمن بما يفيض به من غرين خصب، المواد الاولية للمنسوجات القطنية الانكليزية».

حري بنا ان نلاحظ هنا ان الحركات الوطنية في العالم الاسلامي اخذت تستيقظ في هذا الوقت بالذات الذي بدا فيه ان الدول الاوروبية اخذت تقضم من جنباته وتقتضي فيه نهشاً وتقاسمه. فغزو الدول الغربية الضخم وقع في الوقت بالذات الذي تم فيه غزو المغرب، فالضربة تلو الضربة، اذ يحتل الايطاليون طرابلس الغرب، ويفرض الفرنسيون حمايتهم على فاس، ويفقد الاتراك كل ممتلكاتهم في اوروبا باستثناء تراقيا الشرقية، وبدر الاستانة وشبكة الوقوع بيد البلغار، وآسيا الغربية تتمخض بانقسامات وطنية وشبكة الوقوع. ألم ينشأ وطن قومي لليهود في فلسطين؟

والمقاومة في المغرب بدت عنيفة وطويلة، فتمركزت في جبال الاطلس وفي الريف وحدود الصحراء الكبرى. ومن الامور التي لها مدلولها هنا، مهما قل شأنها، ظهور الحركة الثورية لتونس الفتاة، التي ضمت بين صفوفها، عدداً من رجال الفكر وبعض الشيوخ مطالبة بتوسيع الحريات وتسبب ببعض حوادث العنف، اذ ان المقيم العام في تونس مسيو ألابتيت، والسكرتير العام السيد روي إستمرا في ادارة الحمية وفقاً للمبادىء والنصوص التي حددها كمبون وروى نفسها، وهو اتفاق راعى مصالح الاقلية الاوروبية في البلاد والدولة الحسينية المتعاقبة على الحكم. وفي الجو الهادىء الذي ساد الجزائر حيث ازدياد حركة الاسكان بين الفرنسيين لم تستطع، بالرغم من النسبة العالية التي سجلتها ان يزيل الفارق الكبير لصالح الاكثرية الاسلامية. واخذت ترتفع في تلك البلاد، منذ عام ١٩١٠ بعض الاصوات من بين الاوساط الوطنية

التي تخرجت ، هنا كما في تونس ، المعاهد المصرية على النهج الاوروبي. وقد اغتنم هؤلاء الشبان الجزائريون مناسبة تقديم مشروع الخدمة العسكرية ليطالبوا ، بالمقابل ، بالمساواة في الحقوق والواجبات امام الضرائب ، ونشر التعليم وتمثيلا اكبر في مؤسسات البلاد . أما اصحاب العمائم الذين تختار فرنسا من بينهم القضاة والاغاوات ، فقد رفضوا مشروع الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مدعين انهم انما يستجيبون ، في موقفهم هذا لمطلب الدفاع عن حقوق الاسلام .

صحيح ان افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية شهدت عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ انتفاضتين قامت بها تباعاً قبائل الـ *Hereros* وقبائل الـ *Hottentots* احتجاجاً منهم على الاستعمار البشع الذي استهدفوا له ، وعلى سياسة العنف والبطش التي راحوا فريسة لها ، وهي سياسة اخذت الى حد ما ، تراعي جانب ابناء البلاد والتي استأنف الاخذ بها ، منذ عام ١٩٠٧ امين سر الدولة درنبرغ . الا ان الزنجي مسلماً كان ام وثنياً ، لم يكن سواء في السودان او في مناطق الكونغو على اختلافها ، لم تكن اعتملت نفسه بعد « بالروح الافريقية » .

ومدغشقر لم تعرف سوى فتنة بسيطة وقعت عام ١٩١٣. وعلى عكس ذلك يجب ان نسجل هنا طلوع روح قومية جياشة في قلب افريقيا الجنوبية التي تعد مليوناً ونصف مليون من البيض واربعة ملايين ونصف من السودان والهنود . فالمنافسة الحادة الطويلة التي قامت بين البيض من بريطانيين وبويرز لتأمين السيطرة لجانب من الفريقين انتهت ، عام ١٩٠٢ بغلبة الـ *Uitlanders* على الروح القومية التي يمثلها الـ *Afrt Kanders* . الا ان الدومنيون الذي انشىءعام ١٩١٠نهض على الشعار المعروف : القوة في الوحدة . ان تضامن الفئتين وتوحيد موقفها تجاه سكان البلاد الاصليين عرف كيف يتغلب على وطنية الافريقيين ، وامّن قيام عهد من التعاون بينها وبين لندن نص على الدفاع عن حقوق البيض . وعلى غرار حادث شبيه بالحادث الذي وقع للولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال ، فما كادت تنتهي حقبة « التعمير والانشاء » حتى راح العنصر الوطني المغلوب على امره يعمل على ترسيخ وشائج العنصرية التي قال بها وعلى إظهار عدائه للرأسمالية . وقد قام فريق من البويرز يلتفون حول الجنرال هرتزوغ يطالبون باتخاذ اجراءات تؤيد التمييز العنصري والتشهير بفريق ارباب المناجم . وفي كانون الثاني ١٩١٤ ، تألف حزب وطني في جنوبي افريقيا لم يلبث بعض المغالين من عناصره ان اتفقوا مع غلاة الوطنية في ايرلندا ، خلال الحرب العالمية الاولى ، على شن هجوم مشترك ضد بريطانيا .

لا نرى في ما تبقى من اجزاء الدومنيون البريطاني من قوة طاردة شبيهة بالقوة التي تبعثها النزعة الافريقية في الكاب وبريتوريا . ولما كانت المطالب الاقليمية الكندية قد برزت على بعد متساو من لندن وواشنطون فلم تصب مصالح انكلترا الاستعمارية ،بأي اذى او ضرر يذكر، واوستراليا تعتمد على اتحادها مع البلد الام لتصمد في وجه التهديد الاسيوي . والحقيقة التي

لم يتطرق اليها اي شك هي ان هذه الشعوب أخذت تشعر بوجودها ، كما اننا نلاحظ عندها رغبة بأن تصبح امة معترفاً بها .

ولكي يحطم اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا قوة اتحادات العمال لجأوا الى عمال افريقيين لم يكن ليسمح لهم بذلك من قبل . وبعد حوادث اضرابات عنيفة وقعت عام ١٩١٣ – ١٩١٤ ، اقبل هؤلاء العمال على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة . الا انهم لم يلبثوا ان خضعوا هم انفسهم للتشنيع بالزنوج الخاضعين لوضع فيه نصف عبودية .

اما بلدان اميركا اللاتينية حيث اخذت الرساميل تتجمع ، فقد راح ارباب المال فيها يقيمون لهم علاقات ناجحة مع رجال الاعمال من الاوروبيين والاميركيين . لاشك ان العصا الضخمة التي اوح بها ثيودور روزفلت في اميركا الوسطى بعثت الريبة في النفوس وأبت الجامعة الاميركية ان تمهد الى « الولايات المتحدة الاميركية » سلطة بوليس دولي في المنطقة ، وهو مطلب وقف بوجهه بعناد رجل القانون الأرجنتيني المشهور داغو ، الا انه لم يقع شيء ضد سيطرة رؤوس المال الأجنبية . وحري بنا ان نذكر هنا مثل المكسيك . فالثورة التي انهت عام ١٩١٠ نظام حكم الرئيس بورفيرو دياز ، عجزت عن احقاق مطالب جماهير الفلاحين المحرومين من الاراضي ، كما عجزت عن إشباع مطالب البروليتاريا ، الناشئة ، هذه البروليتاريا التي اخذت تترعرع في احضان النقابية والاشتراكية ، ولارضاء البورجوازية المستنيرة بعض الشيء التي تمنت قيام نظام حر ، وهذه الحكومات الصورية او الوحشية التي تعاقبت على الحكم في البلاد كان عليها ان تراعي جانب واشنطون التي كانت دوماً على استعداد التدخل بشؤون البلاد .

وهكذا ، في مكسيكو كما في بريتوريا ، في القاهرة كما في نانكين ، لم تلبث ان برزت قسمات وجه هذه القوميات الوطنية التي تطمح ان تكون سيدة مصيرها . وهكذا فالحركة التي بدت طلائعها في اوروبا ، منذ القرن الثامن عشر ، اخذت تثير في القرن العشرين اهتمام بلدان القارات الخمس . فقد اصبح « التجمع البشري » في الوطن ، امراً عاماً ، شاملاً يشمل جميع المجتمعات البشرية بحيث ان فكرة الوطن لم تعد تستند ، كما يلاحظ جوريس ، على الاصول الاقتصادية وحدها ، ولم تعد « تنحصر في دائرة ضيقة هي من حق طبقة معينة ، لان اصولها تنبع من طبيعة الحياة البشرية » . وفي وسط هذا « التجمع البشري » ، راحت المشاعر الفردية « تتجمع وتنطلق ، عارمة بحيث ان « المستعمرين » و« المستعبدين » اخذوا يتذوقون طعم الكرى والنوم الهني عند ادنى درجات الصرح الشامخ ، ونشعر في صميمها بارتياح اكبر مما كنت تشعر به « في هذا العالم البراني الذي يجيش بالعداء العنيف ويتنزى بالقلق الصاخب » .

الفصل الرابع

الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي

العاملون على تأمين ضروريات العيش هم اكثر الناس افتقاراً لها، بينما هي تتوفر بسخاء للذين لا يعملون شيئاً في انتاجها.

(أناتول فرانس ؛ جزيرة البنغوين ، ١٩٠٨)

البروليتاريا ووضعها القائم في اواخر القرن

ان تحول النزعة الاقتصادية ، منذ عام ١٨٩٥ والانطلاقة الجديدة التي عرفتها حركة الانتاج والتبادل التجاري ، كل ذلك عاد بالخير العميم على الرأسمالية . غير ان الانتهاء من عملية اقتسام المستعمرات ، والمنافسة الحادة حول الخامات والمواد الاولية ، والسيطرة على الاسواق العالمية كل ذلك وقع في الوقت ذاته التي طلعت علينا اوليغارشية محتكرة شديدة البأس. ومن ثم، فقد اضطر اصحاب الاعمال للتخلي ، شيئاً فشيئاً، عن مواقفهم الفردية المتعذر بسطها التي لم يعد بوسعهم الدفاع معها عن مصالحهم . ففرنسا وحدها ، ارتفع عدد النقابات العمالية ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٤ ، من ١٠٠٤ نقابة او رابطة الى ١٩٦٧ ، كما ارتفع في الفترة ذاتها ، عدد الاعضاء المنتمين اليها من ٩٣ الف الى ٠٠٠ ١٠٢ .

والثابت ان دنيا العمل المأجور اخذت تتطور ، من الوجهة العددية تطوراً عظيماً . فالى فئات العمل المختلفة العاملة في الصناعات الصغرى والوسطى والكبرى يجب ان نضيف هنا فئة اخرى تعمل في القطاع الذي يمكن ان نسميه : « القطاع الثلاثي » حيث يعمل اصحابه في توزيع الحاصيل والانتاج وتأمين الخدمات العامة ، والذين يتمثلون بهؤلاء العمال الذين يرتدون الياقة المستعارة وربطة العنق والقبعة اللينة . وقد كانت نسبتهم في فرنسا ، عام ١٨٦٦ ، بنسبة ١٠ موظفين الى ٢٤٠ عامل ، فارتفع الى ١٤٥ عام ١٩٠٦ ، والى ١٢٠ عام ١٩١٤ . ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٩٥ – ١٩١٤ ، قدروا أرباب الاسر التي لا دخل لها سوى اجر رئيسها ، من ٨ – ١٢ مليون ونصف المليون ، وعدد الطبقة العمالية ، بحصر المعنى ، في الولايات المتحدة من ٥ – ٧ ملايين ، وفي روسيا من ٣ – ٤ ملايين .

فالازمة الكبرى التي نزلت باليد العاملة في بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الغربية والانكلوسكسونية خارج اوروبا انقشعت كربتها عن بعض مكاسب تمثلت في تحسين ظروف العمل التي كانت تكتنفها . فاذا ما استمر ارتفاع الأجر الاسمي ، خلال الظروف التي اطلت. (راجع الجدول المثبت صفحة ٩٠) فالأجر الفعلي أجبر لحقه بعض التأخر اذا ما نظرنا اليه من ناحية تكاليف الحياة . فالارتفاع في هذه التكاليف ، اختلف من بلد الى آخر ومن مهنة الى اخرى ، وبصورة ابرز واوضح ، في ايطاليا حيث الاجر كان اقل (كان الدليل الاسمي ٧٦ عام ١٩٠١ مقابل ١٠٠ عام ١٩١٣) وبدا زهيداً في انكلترا (الدليل ١٠٠ عام ١٨٨٠ ، مقابل ١٣٢ عام ١٩٠٠ ، و ١٤٣عام ١٩١٣) ، وتوقف في بلجيكا منذ عام ١٩٠٤ ، ثم عقبه حالة من الركود الفعلي (دليل ٨٩ عام ١٨٩٥ ، و ١٠٤ عام ١٩٠٤ ، و ٠٠ عام ١٩١٣) .

والمرافق الاكثر حظوة هي المناجم والميتالورجيا اللتان زاد الطلب عليها بصورة محسوسة . فعامل المناجم في الروهر كان يتقاضى ، عام ١٩١٠ ، ٦ ماركات عن كل طن فحم يستخرجه ، مقابل ٣ ماركات عام ١٨٩٧ . اما عامل مناجم الفحم في فرنسا الذي كان اجره ضئيلاً ، حتى ذلك العهد ، فقد حسنت اوضاعه وارتفع اجره (من فرنكين ، عام ١٨٥٠ الى ٣،٣٠ فرنكات عام ١٨٨١ ، ثم ٤،١٠ فرنكات عام١٨٩٥ ثم الى ٥،٤٠ فرنكات عام ١٩١١) اما عامل النسيج فقسمته ضئزى : فالاجرة التي كان يتناولها في معمل ورقان النسيج في مدينة غنت لم تكن توازي اكثر من ٦٣ ٪ من كلفة الانتاج ، عام ١٩١٣ ، مقابل ١٢ بالمائة عام ١٨٩٧ ؛ ومع ان انكلفة العامة تضاعفت قيمتها ، فقد امكن المحافظة على تكاليف الترضيب كما حوفظ على معدل الربح اذ اتاح إدخال التصفيح تأمين زيادة في الانتاجية .

فالاجر يبقى متدنياً جداً في معظم قطاعات العمل . فاذا ما أوضح التحقيق الذي اجري في فرنسا ، عام ١٩١١ ان النجار وصانع الاقفال والسكري يربح ١٠ فرنكات على الاقل ، في اليوم فعلى العمال المياومين ان يقنعوا بأجر يتراوح بين ٤ - ٥ فرنكات بينا تربح المرأة ما بين ٢ - ٣ فرنكات في اليوم ، وليس بنادر قط ان تقوم عاملات المنازل بعمل ١٥ ساعة لتربح ١،٥٠ فرنك . اما في آسيا ، فالارقام تهبط الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ يتناول الولد الياباني الذي يعمل في المصنع نصف فرنك و٢٥ سنتيا اذا ما عمل في مزارع الأرز .

بالاضافة الى هذا كله ليس ثمة عمل موصول او مستمر . هنالك ازمات بطالة مزمنة . وحركة النزوح او الهجرة بالجملة التي يقوم بها اليابانيون على نطاق واسع تشهد عالياً على الفقر العام الذي تتخبط فيها الجماهير .

حتى في هذه البلدان الاكثر أخذاً بأسباب التطور ، تبقى اليد العاملة في وضع مجحف جداً بالنسبة لرأس المال . فقد كان العامل في الولايات المتحدة ، عام ١٩١٤ ، يتناول من الدولارات ضعفي ما كان يتناوله منها عام ١٨٩٩ ، بعد ان ارتفع عدد العمال في البلاد ٤٠ بالمائة بينا اصاب الرأسمال من الربح ما يعادل الضعفين ونصف في عدد من الاستثمارات وزاد قليلاً عن قبل .

(فالدليل الاصلي ١٠٠ لعام ١٨٩٩ ، انتقل الى ١٣٦ في قطاع الاجور ، والى ١٧٠ في قطاع الارباح ، و ١٣٧ في الانتاج الصافي ، و ١١٦ في تكاليف المواد الاولية) . ففي الوقت الذي زاد فيه ربح المعدن الفرنسي ٢٠ بالمائة تضاعفت فيه ارباح شركات الاستثمار . فهل من يستغرب بعد هذا كيف ان ٨٥ بالمائة من الدخل القومي في انكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان يذهب الى جيوب ٥ بالمائة فقط من مجموع السكان ؟ ، وان ٢٥ مليونا في فرنسا لا يخلفون لدى وفاتهم اية تركة تذكر ، وان ١٢ – ١٣ فرد منهم يملكون ٣٠ بالمائة من الثروة العامة ، وان اقل من مليون يملكون ٧٠ بالمائة ، وان في الولايات المتحدة الاميركية بين ٢٠ – ٢٥ مليون من المكلفين منهم ٣٢٥،٠٠٠ فقط مسجلة اسماؤهم في سجلات ضريبة الدخل ، وان دخل منهم يزيد ١٥،٠٠٠ فرنك ، وان في المانيا ٣ ملايين يتمتع الواحد منهم بدخل يزيد على ٣٠٠٠ مارك في السنة (بينهم ٩٠٠٠ يزيد دخل الفرد الواحد منهم على ١٢،٥٠٠) ، وان معدل ما يصرفه العامل يتراوح بين ٧٠٠ – ٢٢٠٠ مارك) .

انتاجية اكبر وظهور التخصص التقني (او التيلورية)

للمحافظة على ارباحه وحرصاً منه على إنمائها ، راح رب العمل يدرس بعناية مشكلة قضية توزيع العمل في مصنعه والتخصص في كل وجه من نشاطاته . فلم يستطع يوماً ان يوحد نظرته الى العمال القائمين على تأمين الانتاج في معمله . فقد قسمهم الى فئات متميزة بين عمال مهرة وعمال ملقفين . كذلك لم يغفل قط عن ان العمل الفردي يختلف جودة واتقاناً بين عامل وآخر باختلاف ما هما عليه من اهلية ومراس واستعداد خلقي وتقنية مما يتوفر للواحد منهما . والشيء الذي فرض نفسه كنتيجة حتمية للتصنيع هو تدهور العمل الموصوف بـ التفني امام الآلة . ولهذا السبب نرى العامل نفسه يستنزل في مطلع العصر اللعنات والحرم على الآلة وعلى الذين استنبطوها بعد ان اتهما بالقضاء على المهارة التقنية اليدوية . والحقيقة التي لا مراء فيها هـو ان الآلة الميكانيكية اقتضت إعداد فئة خاصة من العمال المهرة المتخصصين يطلب اليهم إدارتها وتوجيه نشاطها . ليس مفروضاً في هؤلاء العمال ان يفقهوا دقائق سير الآلة في مجموعه وعمل كل قطعة على حدة . المطلوب منهم ان يكونوا مراقبين لعملها الفني المحض . وعلى هذا الاساس نرى عدد العمال غير المتخصصين يهبط من ٦٥ الى ٢٥ بالمئة بين ١٨٣٠ و ١٩١٠

فاذا ما ادركنا على وجهه الصحيح الدور الذي يلعبه التصنيع من هذه الناحية ادركنا الاثر الذي تتركه الآلة في رفع الانتاج ودفعه والتوفير الذي تتيحه من جهة اليد العاملة . ففي مناجم الفحم ، مثلا حيث يخف الانتاج وينقص كلما عمق الاستخراج ، جاءت الآلة ترفع من كميته المستخرجة . ولما كانت نسبة ارتفاع الاجر مرتبطة الى حد بعيد بتطور الآلة التي تزيد من الانتاج فقد ساد الرأي العام، الاعتقاد بأن تنظيم العمل تنظيما دقيقاً يراعى فيه الاختصاص والمهارة والمراس ، يعود النفع فيه على العامل ورب العمل معاً ، وقد اتخذت الشركات الاستثمارية الكبرى حجة منه وذريعة للتعويل عليه اكثر فأكثر ، اذ تستطيع معه اكثر مما

يستطيعه صاحب الورشة الواحدة ، تطبيق خير اساليب الاستثار واجراء وفيرات محسوسة في سعر الكلفة والانتاج ، وبيع المصنوعات بالتالي بسعر ارخص مع تحقيق ربح اكبر .

ولذا كان لا بد من توزيع العمال في المصنع حسبا تقتضيه طبيعة العمل ومقتضيات مصلحة التصنيع الآلي . ان تكييف العامل والفراغه وفقاً لحاجة التصنيع من شأنه ان يوطد فيه الثقة بينه وبينها . فالنظرية العلمية تبحث فكرة المنهجية في العمل والمصنع . فهي قضية تتعلق في صميم علم النفس التطبيقي . فبينا كانوا يعتمدون إختبارات الذكاء الكشف عن كفاءات العامل واستعداداته النفسية ، راح موتستربرغ وهو من تلاميذ روتتا الذي هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، يقترح عام ١٨٨٠ ، تطبيق علم النفس التقني على الصناعة .

الا ان المحاولة الاولى لتنظيم العمل تنظيا علمياً يجب ردها ، كما هو شائع المهندس تيلور . فقد اقترح على شركة بتلهم لصنع الفولاذ ، تحديد معدل الوقت الذي يقطعه العامل للقيام بحركة ما ، على ان يتولى قسم التخطيط في المعمل تحديد الوقت القياسي لصنع غرض ما قياسي *Standard* واوصى بالوقت ذاته بتنحية او إبعاد كل عامل لا يتقيد بالخطة المرسومة .

وهكذا نرى ان التيلورية لم تكن بحد ذاتها اساساً لتحسين ظروف العمل لدى العامل ، بل كانت تتوخى الوصول الى تسجيل اعلى انتاج يمكن عن طريق تطبيق الآلية الذاتية (الاوتوماتيكية) هذه الاوتوماتيكية التي تجعل من العامل قطعة من الآلة . فاذا ما جاءت الطريقة في مصلحة الرأسمالية فلم تلبث من ناحية ثانية ان احدثت ردة عكسية لدى اصحاب الاجور . وامر مجلس الكونغرس الاميركي في واشنطون القيام بتحريات حول الادارة العلمية في العمل . ولم يكن نقد هذه الطريقة بأقل حدة في اوروبا . فقد رأى فيها العالم النفساني ساخس «تنظيماً للجهد البشري» كما ان النقابي العمالي بوجيه استعمل هذا التعبير عنواناً لكتاب له يفضح هذه الطريقة التي تساعد على جعل العامل آلة ذاتية « بلهاء » .

وعندما راح فورد يخصص ، عام ١٩١٢ مكافأة للعامل المطيع الذي يستثمر وفره ويؤسس له عائلة ، لم يضع نصب عينيه ، من اقتراحه هذا ، هو ايضاً سوى تحسين وسائل الانتاج (فالدليل الأسمى للانتاج الذي كان ١٠٠ عام ١٩٢٩ ، لم يكن سوى ٢٧٣ عام١٨٦٩ و ٤٢ عام ١٨٨٩ ، و ٥٩٫٣ عام ١٩٠٩) .

وهكذا بدت العلاقات بين الانسان والآلة بشكل ابقى تابعية الانسان لمقتضيات الانتاج والسعي الوصول لتأمين المزيد من الربح وفقاً لمبادىء الرأسمالية .

المزيد من المؤلفات الاساسية

أطل علينا بعد جيل الرومنطيقية الاجتماعية أجيال عنت تباعاً بالواقعية والطبيعية ، وانصرفت بكليتها لدراسة اوضاع المساكن والبائسين ووصف ما يكتنفهم من اوضاع اجتماعية وصفاً موضوعياً قلما خلا من الشعورية او الاحساسية .

وقد انتشرت هذه النزعات الشعورية واستطال الاخذ بها حتى اواخر القرن ، ان لم يكن في فرنسا ، فانه في عدد كبير من البلدان الاوروبية الاخرى ، وقد كان الكاتب الفرنسي زولا ازء البالغ في هذا المجال امتد من سهول الفلاندر حتى مشارف البحر البلطيقي ، وظهرت هذه النزعة بوضوح عند لمان كرونتجن وكراين، كما ظهرت بوضوح عند نكس وريمونت وهوبتمان وقد غزت حتى تشيخوف في قضية « الموجيك » وتغلغلت في روايه زولا : جرمينال ، والارض بالأكران مختلفة .

نحن الذين اصطلحوا على تسميتنا سفلة
بلغت منا الروح التراق ، نحن الافاكون
أفضل لنا الف مرة ان نذهب هياكلنا العظمية
مع هياكل اولادنا وبناتنا فننسج أكفاننا بأيدينا
(هوبتمان ، الحائك)

وانفجرت الثورة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية . من شتى قلم كتاب امثال درايزر وأبتن سنكلر وهوايتلوك . اذ اخذوا بتحريك « النقالة » وبلغت روسيا مع كورولنكو وغوركي ، وكوبرين .

الا ان الرمة المثالية ليست بالضرورة هروباً من المشاهد المريعة. فقد وقف الى جانب المسكين : فرنسيس بما عُرف عنه من حنو وليون بلوا بقشريرة انما بروح مسيحية حقة ، والروح الناهضة للدين ولرجاله التي جاش بها هذا الاخير كادت تتصل بابانيز وزولا .

والكاتب التقليدي هو الذي يجر الى المعركة ويثيرها احتجاجاً على هذا الظلم الاجتماعي الذي يبدو من البورجوازية ، كتاباً امثال شو ويلز . وقد دفعت قضية دريفوس ، كاتباً فرنسيا هو جول رينار نحو الاشتراكية ، واخرجت من برجه العاجي اناتول فرانس ، هذا الكاتب الساخر المستهزىء الناعم الذي عالج او بحث اموراً جمة . بين هؤلاء الكتاب من يجعلنا نفكر بمسرح شعبي وبأغان شعبية ،فرومان رولان هذا الكاتب الرمزي الذي هو خير من يمثل الانسانية المسالمة يتوخى ان يترك لنا وصف عظام الرجال الذين تألموا وجاهدوا في سبيل رفع مستوى الحياة . فنحن امام طلع حقيقي من هؤلاء الشعراء والروائيين الاحقاق من ابناء الشعب لا يتورعون عن استعمال اللهجات الشعبية امثال شارل لويس فيليب ابن صانع القباقيب في مقاطعة البوربونية الذي كشف لنا قصته المعروفة بوبا دي مونبارناس، وجاره اميل غيومب ، ولنضع القصة : حياة احد البسطاء والخياطة مرغريت اودو التي صرفت ٢٠ سنة في كتابة روايتها « ماري كلير »، ثم بعض هذا الفريق الذي يمثل في فرنساء شلة الكتاب المتواضعين ، الدالين على انفسهم الثائرين خير من يمثلون جيل الادباء في فرنسا اذ ذاك . وغوركي الذي يبدو لنا اليوم بوهيمياً يصور لنا بعاطفة ملؤها الرومنطيقية مثال التائه البطل. فما اكثر الادلة والشواهد على الآلام الاجتماعية .

الهيئات العامة وروح التضامن وقضية « ديموقراطية مسيحية »

ومع ذلك فقد راحت الطبقات العامة تحتل يوماً بعد يوم ، محلاً اكبر في الحياة السياسية ، بعد ان افادت كثيراً من تطور الدول وتحولها نحو النظام التمثيلي الذي ارتضته البورجوازية المتحررة وساعدت على رواجه . فالتحرر السياسي سار وفقاً للمبادىء الداعية الى الفردانية ومتطلبات السيادة الوطنية بينما تنزع القوى الاجتماعية منذ ذلك الحين ، الى تنظيم نفسها عن طريق المواثيق الصناعية والجمعيات المهنية . فالى اي حد يا ترى يتمازج المواطن « المواطن المجرد » هذه المدنية الديموقراطية ، بهذا الانسان العالمي ؟

نرى ، قبل كل شيء ، ان النظام الاستبدادي او المطلق الذي استبدل في اليابان عام ١٨٨٩ بالنظام التمثيلي او الدستوري ، اخذ يتوارى تباعاً في كل من روسيا (١٩٠٥) وتركيا (١٩٠٨) وايران (١٩٠٩) ، والصين (١٩١١) . فالبلدان التي بقي فيها حق الاقتراع ، مدداً تقصر او تطول ، امتيازاً مقصوراً على اصحاب الثروات وحدهم ، استبدل بالاقتراع العام الذي اخذ يفرض نفسه في كل مكان. والتمثيل النسبي الذي عجل به في كل من بلجيكا وسويسرا والارجنتين، اخذ يلقى ارتياحاً ورواجاً لدى الفرنسيين .

ومع أن الرأي العام اخذ يهتم ، بفضل الصحافة على الاخص ، بنشاط الهيئات النيابية ، فحق الاقتراع الشعبي لم يكن ليعني قط اوليفيد ان المواطن اخذ يساهم ، اكثر فأكثر ، بتسيير القضايا العامة في البلاد . فقد بقيت هذه المساهمة اسمية أو نظرية ، في هذه البلدان التي لا يهتم فيها جمهور الناخبين ، جهلا منه او تكاسلا ، الاما ، لواجباته وحقوقه المدنية ، وهي مساهمة تأتي جانبية او غير مباشرة في معظم الحالات ، وكثيراً ما حدت منها أساليب الاخذ بالنظام التمثيلي ، والمؤثرات الشخصية والحزبيات ومداخلات ارباب المال. ومن جهة أخرى، فالخدمات العامة التي تتطور بسرعة تأخذ موظفيها من رجال « السلك » ، فاذا ما تغلغلت فيها الروح النقابية ، كما هي الحال في فرنسا على الاخص ، فالدوائر العامة هي بمأمن من التيارات السياسية . الا ان الدولة التي لا يزال فيها انصار النظام القديم يندّدون بشدة التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ترى باستمرار دورها ينمو ويزداد بازدياد الضغط الذي تمارسه الهيئات والمنظمات النقابية المختلفة الحسنة التنظيم .

ان اعادة النظر في الليبرالية الفردانية الصرف التي بوشر بها منذ جون ستيورات مل وزوفيه اشتدت حركتها تحت تأثير الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع السبنسري ومدرسة دوركهايم. فالترابط القائم بين البشر رأى فيه كثيرون نتيجة حتمية للقانون الطبيعي الذي يشد بعضاً الى بعض، اعضاء كل جنس من الاجناس الاحيائية. فبدلا من حقوق الانسان التي تراعي الى حد بعيد جانب الفرد ، راح ليون بورجوى يوصي العمل بالعقد ذات المفعول الرجعي المسلم به، والذي يقتضي قيام رابطة سابقة تشد الفرد الى المجتمع ، وذلك في بحثه الموسوم : « محاولة حول فلسفة التضامن » . يرسم لنا فيه الخطوط الكبرى لفلسفة اشبه ما تكون بالليبرالية المستحدثة التي

تبلتها الراديكالية الفرنسية . نحن امام علمانية إنسانية تفرض على « من ينعمون بالامتيازات » ، واجبا اجتماعيا عليهم ان يؤدوه باسم العدالة ، على ان يمنحوا المواطنين الاكثر حرماناً ، عوناً ضد العجز الطبيعي والاخطار الاجتماعية مع التعهد بتأمين منافع التربية الابتدائية للجميع على السواء . وقد تبنى مثل هذا البرنامج عدد كبير من الاحزاب المتحررة المحافظة الموجودة في البلدان السكندينافية والانكلوساكسونية ، وفي سويسرا وبلجيكا و « التقدميون » في الولايات المتحدة الاميركية .

ان نظرية من هذا الشكل تتفق تماماً والمسيحية الاشتراكية كما يتمثلها بعض البروتستانت . فالكاتب الفرنسي شارل جيد الداعية الى التعاون يعرض علينا نظرية تعاونية أساسها الاختيار الادبي والاداري . وقد عرض لنا ولفرد مونو القضية بوضوح كلي في كتاباته العديدة ولا سيما بكتابه المعنون : « نهاية المسيحية » . « فالمسيحية ترزح تحت وطأة حرم ثقيل لأنها تأخذ بالجدية اللازمة» العمل على محاربة البؤساء في العالم وازالة آثارهم» . فنظام الاجر المعمول به اليوم مقضي عليه امام محكمة العقل ومحكمة الضمير ومحكمة التاريخ» . اما ألمانيا، فتسيطر عليها روح انسانية رحبة تقود الحزب الوطني الاجتماعي الذي اسسه نومان اكثر منه حزب العمل المسيحي الاجتماعي المعروف بروحه المحافظة والناهضة السامية . اما في بريطانيا العظمى ، فالروح البروتستانتية هي التي تتنزى بالنزعات الفابية ونزعة الجمعية الفابية الانكليزية التي نشطت عام ١٨٨٤ والتي سعى اعضاؤها الى نشر المبادىء الاشتراكية بالوسائل السلمية .

وبالفعل فقد راحت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن طريقة تحد معها من حركة تجريد الطبقات من الروح المسيحية . ف « البراءة البابوية » التي صدرت عام ١٨٩١ شجبت بعنف ليس الكفر والروح المادية التي تطفو على التعاليم الاشتراكية ، فحسب بل ايضاً نزلت باللائمة على الرأسمالية التي تعمل على عزل العمال وجعلهم بغير دفاع عن حقوقهم في الوقت الذي وجدوا انفسهم واقعين تحت رحمة أرباب العمل الذين تجردوا من كل شفقة » راحوا فريسة الجشع ومنافسة جنونية لا حد لها » . رراحت تؤكد ان الطبقتين المذكورتين معدتين من قبل الطبيعة للعمل معاً بانسجام كلي ، وتذكر الدولة بأن عليها واجبات معينة نحو « اصحاب الاجور » ولوحي بتشكيل جمعيات اخوية مشاركة بين ارباب العمل والعمال ، وبعبارة اخرى، تأليف نقابات مختلطة تخضع « لادارة رائدها الحكمة » .

غير ان الكثلكة الاجتماعية اخذت تتأرجح بين روح محافظة ذات نزعة نقابية مناهضة لكل تعاون يقوم بين العلمانية وبين الحركات او التيارات التي تنتسب صورياً الى « الديموقراطية المسيحية » . فاذا ما راح الحزب الكاثوليكي ينتزع بنجاح من الحركة الاشتراكية جانبا من العمال الناخبين في بلجيكا وفي المانيا ، فالمسيحيون الاجتماعيون في النمسا راحوا يتخذون من محاربة السامية ذريعة لهم ، ومناهضة السامية التي تميزت بها بعض الاوساط الكاثوليكية في فرنسا هي التي تهدد بالخطر ، الفوز الذي يسم الحركة الديموقراطية المسيحية خلال قضية

درابلوس . الا ان الاب لومير اصطدم ، على غرار البير دي مون من قبل ، بالقضية المطالبة المحافظة وبعصبية ارباب العمل التي لا يهمها كثيراً ان ترتبط بروابط قانونية .

ولذا راحت البراءة البابوية التي صدرت عام ١٩٠١ ، توصي بالفصل بين العمل السياسي والنشاط الاجتماعي . ومنذ ارتقائه السدة البابوية ، راح البابا بيوس العاشر يدعو العمل الشعبي الكاثوليكي للامتثال لتوجيهات السلطة الكنسية ، بعد ان وافق على موقف الاسابيع الاجتماعية في فرنسا . وعندما راح مارك سانييه وألبون بعلنان عالياً موافقتهما على الغاء الاجر الرسمي وسيادة الشعب، راح الكرسي الرسولي يشجب « هذه النزعات المقلقة » حتى هذه الاتفاقات والمواثيق المعقودة بين عدة طوائف في قلب الاتحاد العمالي في المانيا، فقد نصحت بالتخلي عنها. اما في ما يتعلق بالانانية الانطوائية فعلى البراءة *Rerum Novarum* ان تذكر بالقواعد والمبادىء التقوية : « كالفقر ليس حطة او اهانة ؛ وعلى الانسان ان يتسلح بالصبر لما هو عليه من وضع » .

الضرائبية الديموقراطية وتطور التشريعات المالية

في اعتراف الليبرالية بضرورة المصالح العامة الدائمة اعتراف ضمني بحقوق الدولة باستيفاء ضريبة من افراد الشعب ، وفقاً لامكانيات الفرد وطاقته على الدفع . الا انه ظهر للكثيرين ان الضريبة المستوفاة يمكن ان تصبح بدورها اداة لتوزيع هذا الريع . وهذا التطور في مفهوم الضرائبية تم في الوقت الذي كانت فيه النفقات العامة ترتفع بسرعة في الدولة... وبالرغم من شجب الاشتراكيين الضرائب غير المباشرة باعتبارها اعتصاراً بغيضاً للأجور والدخل الصغير فقد استمرت تبهظ بثقلها الجماهير التي رزحت تحتها . ومن العسير جدا ان لايطلب من اصحاب الثروات القيام بمجهود اضافي في هذا المجال . من هنا اللجوء الى الضريبة على الدخل التي تأتي تصاعدية نوعاً ما والتي قبلت العمل بها بعض المقاطعات السويسرانية ، مع ضريبة إضافية تم فرضها في الوقت ذاته على رأس المال ، في كل من بروسيا وساكس، على غرار بريطانيا العظمى التي سارت في تجارتها على سياسة حرية التبادل التجاري . وقد اعترض معارضون على هذه الضريبة ونعتوها بانها تفتيشية ، اذ انها تفرض التثبت من صحة الريع المعلن عنه ، وهي ضريبة عادلة ، على عكس ذلك ، لانها تصاعدية ، يجيب انصارها ومعظمهم اشتراكيون او من محبذي الاشتراكية . وهكذا تم في انكلترا نوع من التحالف اطرافه الاحرار والعمال لاقرار ضريبة عام ١٩١١ تعرف بضريبة الدخل ، وفرض رسم معين على التركات ذي طابع تصاعدي وهي ضريبة تقع بكاملها على ارستوقراطية اصحاب الاملاك، ولهذا راح لويد جورج يصرح قائلاً : « دوق واحد يكلف ما يكلفه صنع دارعتين » . ومن المستحب الاستشهاد هنا بمثل اوستراليا التي « آثرت ان يكون لها مجلس شيوخ اعضاؤه من الكنغورو على ان يكون لها مجلس لوردات » . فالقانون البرلماني انقص من سلطة هذا المجلس ومهد الطريق امام تشريع اكثر تشبعاً بالروح الاشتراكية. اما في فرنسا، فالمعركة استمرت ١٢٩ سنة (فمشروع القانون الذي قدمه كايو للمجلس

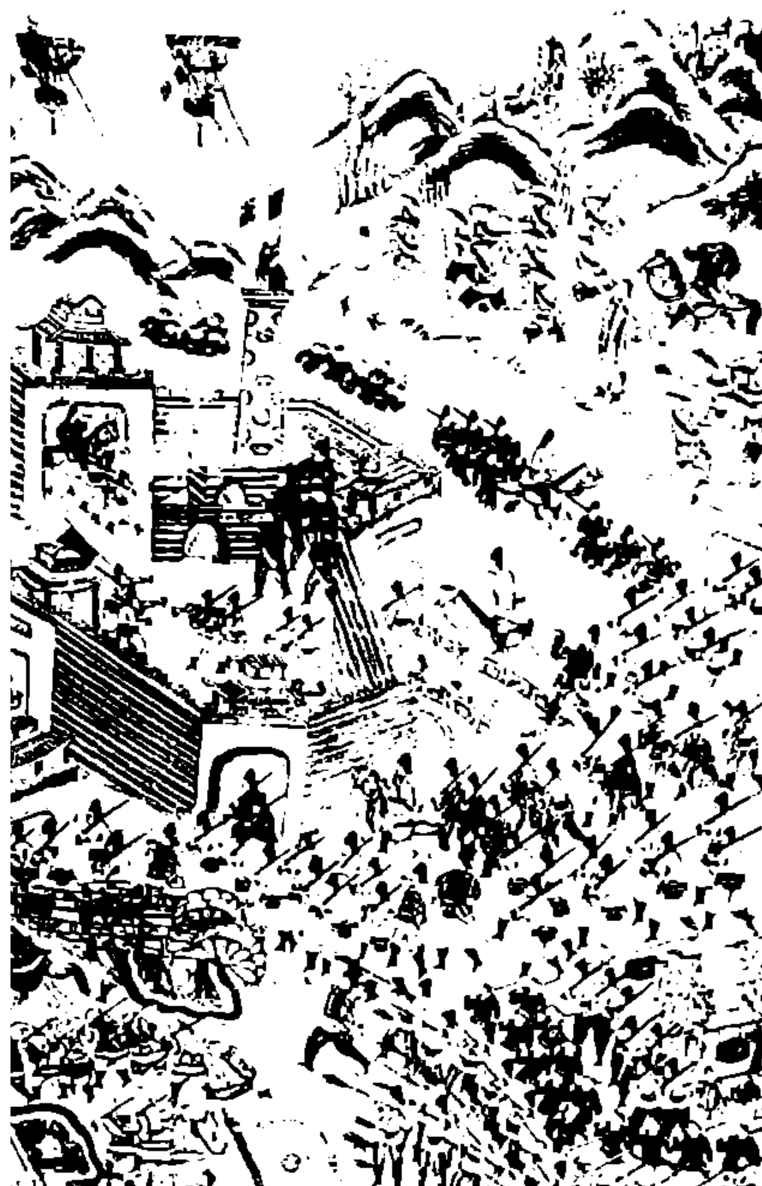

١١٠ ـــتين

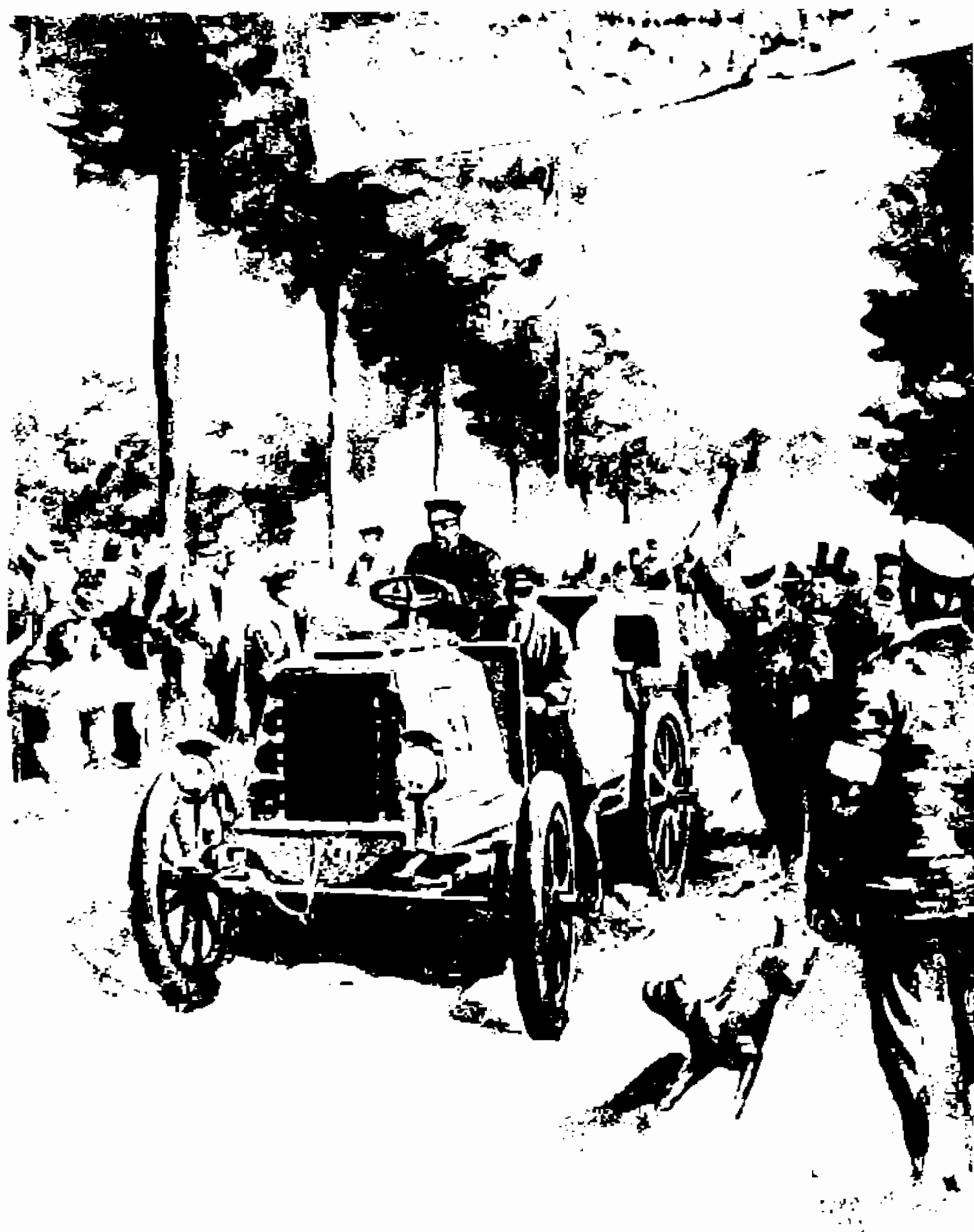

١٥ - انطلاقة السيارات الـ[illegible] ([illegible] ١٩٠١) .

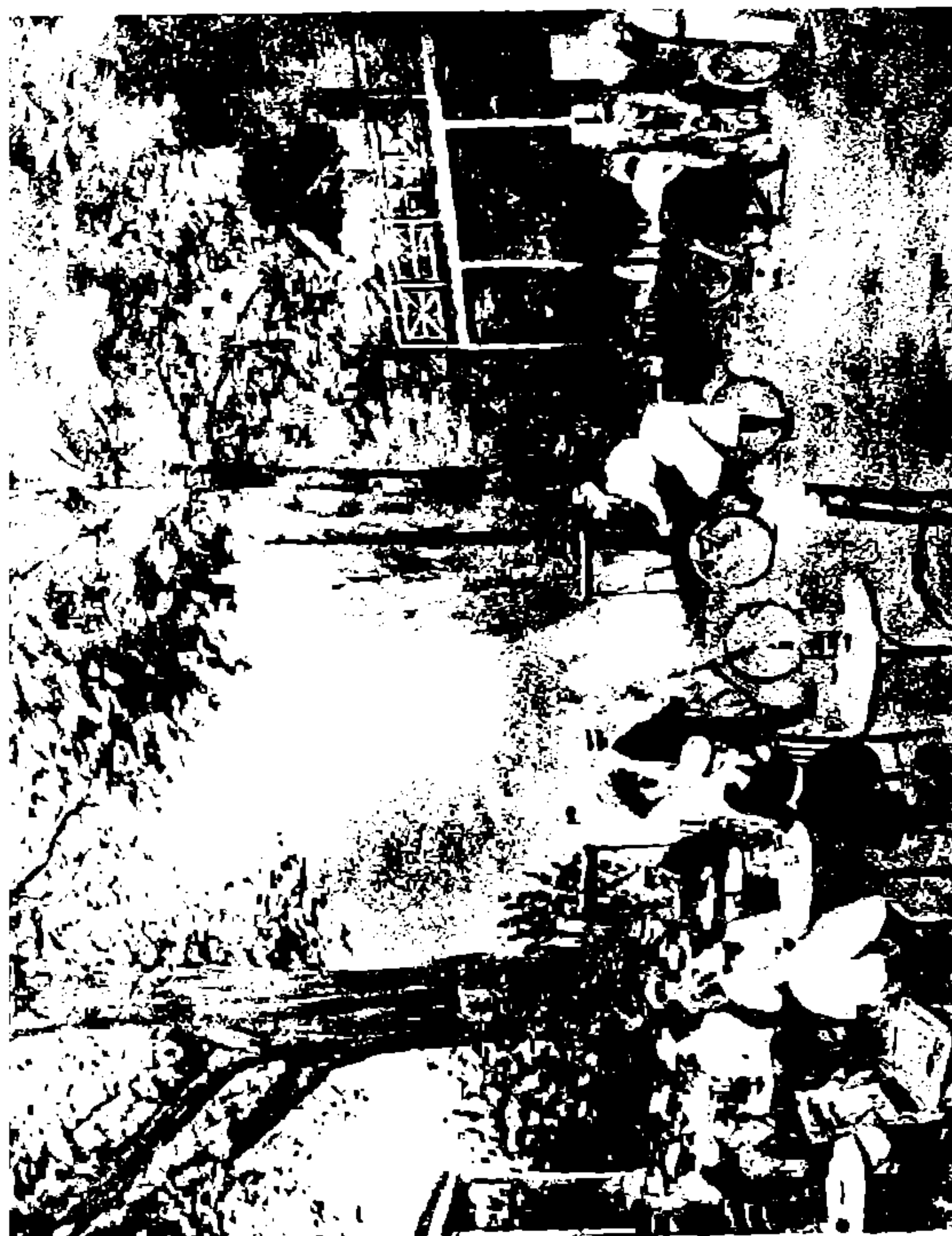

بشان الضريبة ، على الدخل ، وهو قانون صادف معارضة قوية في البرلمان ، ما كاد يمر في مجلس النواب حتى قام مجلس الشيوخ بدفنه الى عام ١٩١٤ . اما في الولايات المتحدة الاميركية وفي انكلترا في عهد بيل وكوبدن فالتخفيف من الرسوم الجمركية ، عام ١٩١٣ ، قابله فرض ضريبة الدخل .

اما في نطاق سياسة الاقتصاد التفصيلي حيث لا نلاحظ اي تأثير للحركة الاشتراكية ، فقد تطورت التشريعات ضد الاتحادات الاحتكارية *Trust* في الولايات المتحدة الاميركية التي بعد ان رأت خطراً يطل من « التباين » التصاعدي فقد امر الحزب الجمهوري الحاكم حل شركة ستاندرد أويل والشركة الاميركية للتبغ اللتين اعادتا تنظيمهما بشكل آخر . ولما عاد الحزب الديموقراطي الى الحكم من جديد عام ١٩١٢ ، عمد الديموقراطيون الى تشديد الاحكام المنصوص عنها في قانون شرمان الصادر عام ١٨٩٠ الذي جاء الاختبار يبرهن عن قلة جدواه واخذ الناس يتشككون في صلاحه .

ففي الوقت الذي لم تكن انطلقت فيه بعد في اوروبا ، حركة مناهضة الاتفاقات الصناعية ، راح عدد من الدول يحاول شراء شبكة الخطوط الحديدية في ارضها كلها او جزءاً منها ، وانتشرت من كلا جانبي المحيط الاطلسي عملية تأميم البلديات *Municipalisation* لمصالح المياه والغاز والنقل وجعلها خاضعة للبلدية إدارياً . ففي مدينة برمنغهام ، قام جوزف شمبرلين المعروف اذ ذاك بنزعته الراديكالية يوصي بفرض الضريبة التصاعدية ، وفرض ضريبة على الدخل ، وهي ضرائب تتيح جبايتها للبلدية تعمير مساكن شعبية .

وراح الاشتراكيون ينظرون ، تارة شزراً وطوراً نظرة رضى وارتياح ، الى هذا التطور الذي حققه التشريع الاجتماعي الذي هدف الى تلافي المساوىء الفاضحة التي رافقت ، في الماضي ، النظام الرأسمالي ، بقصد تحسين العلائق والروابط بين العمال وارباب العمل . الا ان تدخل القانون وتحكمه لم يقم على نظريات منهجية . فقد تباينت نصوص التشريعات الصادرة وتضاربت بين بلد وآخر باختلاف طبيعة التركيب الاجتماعي والمزاج الوطني في البلاد ، مع العلم ان التشريع في الولايات المتحدة الاميركية هو من اختصاص الولاية اكثر منه الحكومة الاتحادية .

والروح الفردية في فرنسا رأت نفسها ملزمة بمقاومة عنيفة ، هذا الالتزام الذي كان وقعه اخف في المانيا وبعض البلدان الانجلوسكسونية منه في فرنسا . فبلدان استراليا التي مثلت هنا دوراً رائداً وجاءت ابدأ في الطليعة ذهبت الى حد ضمان حد ادنى للاجر ، بينما انكلترا حيث اقر القانون المعروف بـ *Trade Board Act* المبدأ الذي اقترح الاخوة *Ebb* تعيين « حد ادنى وطني » ، اقتصرت تطبيقه على عمال المناجم لا غير . وتنظيم يوم العمل الذي قوبل بالاحترام على درجات مختلفة ، اخذ في الانتشار والتوضيح ، وان قصّر عن تحقيق مطالب العمال كلها : فلذا ما لبثت استراليا قاعدة العمل ثماني ساعات في اليوم ، منذ عام ١٨٩٠ – ١٨٩٣ فهذا

الاقتراح لا يطبق في انكلترا الا على العمل في المناجم ، وفي الولايات المتحدت الاميركية ، على عمال الخطوط الحديدية . اما تعطيل يوم الاحـــد ، فعادة دينية وصلتنا عبر الاجيال ، لم تشأ الروح الليبرالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الاعتراف بها كواجب او عادة ملزمة . ومع انه لم يعد من يرتاب او يشكك بشرعية الحركة النقابية في البلدان الصناعية - باستثناء اليابان نرى بين ارباب العمل فريقاً يشمئز كثيراً من رسوخ هـــذا الامر ويرفض التسليم للمنظمات العمالية حتى التكلم في المفاوضات باسم اصحاب الاجــور . ولذا حرصت حكومات البلاد البورجوازية دوماً على قبول العمل بهذه الطريقة او باخرى ، في مفاوضات التحكيم ، فهي تقترح بعض القواعد التي لا بد من الاخذ بها في عقود العمل وضمان الاجر وتأمين الامــور الصحية ، وراحت الدول الاوروبية ، على غرار المانيا ، تدرج في تشريعها العمالي نصوصاً معينة تؤكد الضمان في حوادث العمل الطارئة . ونظمت كل من انكلترا والنروج وبلجيكا الضمان ضـــد البطالة ، بينما اقتصرت فرنسا مساعدتها على الشرع ببعض المال لصندوق النقابة . وسار البريطانيون بعد الالمان بزمان ، في طريق إقرار الضمان الالزامي ، عندما سنوا ، عام ١٩١١ ، قانون الضمان الوطني . الا ان تلك التدابير الجزئية التي اقرها البرلمان الفرنسي لم تؤد قط الى تشريع عام خاص بالمرض وبالشيخوخة قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٩٠ ، بُذلت جهود كبير في سبيل وضع تشريع عام خـاص بالعمل . فالاهداف الاقتصادية كانت تسبق دوماً الاهداف الانسانية وتتقدمها. فقد رأى احد اعضاء مجلس بال المعروف بنشاطه الجم هو السويسري فراي في تخفيض معدل ساعات العمل ، علاجاً ضد اغراق الانتاج ، وقد اقر مؤتمر برن المعقود ، عـام ١٩٠٥ ، مبدأ تحريم الفسفور الابيض في صناعة عيدان الثقاب او الكبريت الا ان السويد أبت ان توقـع الاتفاق اذا تمنعت اليابان التي لم تحضر المؤتمر عن قبول مقرراته وتوقيعها. وتحريم العمل ليلا للاولاد والنساء اقتضى الوصول الى إقراره الكثير من الجدل والنقاش ، خلال هذه المؤتمرات التي تناولت بحث هـــذا الموضوع حتى عام ١٩١٤ . وقد وقعت بعض اتفاقات ثنائية ، مثلا بين فرنسا وبلجيكا ، وبـين ايطاليا والمانيا نصت على حماية العمال بين البلدان التي ترسل او تقبل اليد العاملة التي يمكن لهـــا استخدامها .

الاضطرابات الاجتماعية والهجوم الكبير التي جابت شبابه النقابية في كل من اوروبا واميركا

ازدادت اضطرابات العمل ومصادمات العمال حدة بين السنوات ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، وبرزت الحركة العمالية اكثر رهبة من الدولية الاشتراكية الثانية ، في هذا النشاط الذي جاشت به ، مثلا بهذه الاضرابات الواسعة العنيفة التي قامت بها وبهذه الاحتفالات الواسعة بعيد اول ايار ، تضخم الروح النقابية واستشراؤها .

فقد بدأ الاضراب والاعتصاب في اعين العمال خير الاساليب واسرعها للحصول على مطالبهم

والفوز بتحقيقها . فقد قام العمال في فرنسا وحدها عام ١٩٠٩ بأكثر من ١٠٢٥ إضراباً ، ونظموا في المانيا ١٥٣٧ اعتصاباً ، وفي انكلترا ٧٣٥ ، اشترك فيها اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ عامل وجرت اضطرابات في مناجم الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، و ١٩٠٢ ، و ١٩٠٣ ، ١٩١٢ ، و ١٩١٤ ، كما اخذ عمال مصانع الحديد يتحركون في هرج ومرج عام ١٩٠١ و ١٩٠٩ ، وعمال الخطوط الحديدية ، عام ١٩٠٤ و١٩١١ ، وعمال النسيج وصنع الالبسة عام ١٩١٠ ، و ١٩١٢ ، و١٩١٣ . اما ايطاليا فقد وقعت فيها ١٢٥٠ حركة اضراب بين ١٨٧٠ — ١٨٩٠ ، وحدث فيها ١٧٠٠ حركة اضراب بين ١٨٩٠ — ١٩٠٠ و ١٤٠٠ ، في سنة ١٩٠١ وحدها ؛ وهي انتفاضات وهيجانات رأى فيها جورج صاند « ملحمة » .

لنتصفح مذكرات نقابية مجاهدة هي الماما جونز التي ساهمت بنشاط في هذه المعارك العمالية التي وقعت في اميركا . فالوصف الذي تركته لنا عن هذه الاضطرابات شيء مزعج مقلق . ففي كولورادو ، عام ١٩٠٣ ، اعلن الاضراب في التاسع من تشرين الثاني ١٩٠٣ ، مطالبة بثماني ساعات عمل في اليوم ، وبتعيين مدقق اوزان من قبل العمال وللمطالبة بعملة فضية ونقد عيني بدلاً من بونات ... فلم يستخرج من المنجم اي قطعة فحم . فالبرد قارس في تشرين الثاني في الكولورادو واخذ الناس يشعرون بوطأة الاضراب ... اخيراً وجه انذار للعمال ... فالمعارك الحامية العنيفة وقعت حول *Creeple Greek* ، وتم طرد العمال من منازلهم التي كانت ملكاً للشركة ، فالتجأوا الى الجبال الموحشة بعد ان نصبوا خيامهم وسط زمهرير الشتاء الذي سقطت درجة الحرارة فيه الى ٤٥ درجة تحت الصفر . ولفوا أرجلهم بالثياب الرثة اتقاء لقرص الزمهرير ، وضمرت وجوههم بعد ان عضهم الجوع كالذئاب في الغابات . ، فاضطرهم الجوع وحده لاستئناف العمل في المصانع .

وفي اوروبا اتصفت الاضرابات في المناجم بكثرتها وشدتها . ومما يلفت النظر تطور التضامن الصناعي ، اذ تضامن عمال الروهر عام ١٩١٢ ، مع عمال الفحم في انكلترا ، مما افضى الى زيادة محسوسة في الاجور وتحسين اوضاع العمل لدى هذه الطبقة المحرومة .

فاذا ما اكثر العمال البائسون في روسيا من إظهار تململهم من الوضع الذي يرسفون فيه ، فالعمال العاملون في المناجم والموانىء البحرية في كل من المكسيك والارجنتين والشيلي ، اخذوا ، هم ايضاً يتململون بشيء من الحدة في التسعينات ووقعت بعض حوادث العنف في اليابان . فاضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩٠٠ صادف نصف نجاح . وفي عام ١٩٠٧ ، ظهرت لاول مرة المقاومة ضد شركات الفحم في افريقيا الجنوبية ، حيث تميزت السنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ بالحوادث العنيفة التي وقعت فيها .

والجديد في الامر هو دخول موظفي المصالح العامة الحلبة : ليس فقط عمال الفحم وبحارة الاسطول التجاري ، بل ايضاً عمال المناجم وعمال الشحن في المرافىء ، وعمال البناء .

والاضرابات في الريف ارتدت هي الاخرى ، بعض الاهمية . فقد هزت القلاقــل والاضطرابات روسيا واميركا الجنوبية وعلى الاخص اقطــار جنوبي اوروبا التي نزح عنها اهلها بعد ان وقعوا فريسة الازمة التي حلت بزراعة الكرمة . وقامت بالفعل فتن عديدة في الارياف الايطالية كما تكاثرت حركة الاضراب بين فئة *Braccianti*. في كل مكان من البرتغـال الى غاليـسيا، اخذ القلق يساور الفلاحين ويدفعهم الى حركة انتقال واسعة تحملهم الى مجاهل اميركا . وهنالك قطر آخر مشهور بأستثماراته الكبيرة هو انكلترا حيث تقوم بروليتاريا من المياومين تلحف بالمطالبة وتتشدد بها . ويقوم في فرنسا الكرّامون بعــدة حوادث من الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة : فقد ضاقوا ذرعاً بتصريف الكميات الضخمة من النبيذ والنبيذ المزغول ، التي انتجوها ، كما يطلق كلمو قيام هذه المظاهرات في مذكراته . « فقد اشترط رئيس الحكومة اذ ذاك (كليمنصو) ان يعود كل شيء الى الهدوء » وقد اكثر من ارسال الجيش الى المقاطعات الثائرة ، وسالت الدماء في ناربونا » .الا ان القائمين بأعمال الحصاد في حوض باريس والفحامين وجامعي صمغ الراتنج يرون انفسهم مدعوين للمظاهرات بدافع من البؤس الذي يتضورون منـــه .

وفكرة الاضراب العام الناشم الذي لا يقهر ، المنتصر ، الفكرة القوة التي لا تدفع ، هــذه الفكرة التي خطرت لجورج صوريل ، سارت طريقها في الاتجـاه المرسوم ، بالرغم من الفشل الذي منيت به المحاولة الاولى التي قامت في ايطاليا ، عام ١٩٠٤ . فبعــد ان نظر اليها الماركسيون نظرتهم الى شيء مستحيل ، إنتشرت الفكرة على الاخص ، بـين انصار الحرية واللاسياسيين .

« فمع ندرته في الغرب ، كما يلاحظ تروتسكي في مذكراته : « حياتي » ، فالاضراب السياسي هو الطريقة الناجحة المثلى في روسيا » . فالاضراب يجر وراءه نحو مليون رجل الى قلب الثورة ، عام ١٩٠٥ ، واكثر من مليون في النصف الاول من عام ١٩١٤ .

ومن الامور التي لها دلالتها الخاصة هنا هو وقوع الاجماع على اختيار اول ايار واتخاذ العلم الاحمر لدى الطبقة العاملة تأييداً لمطالبها الحقة . « يوم » ورمز ذو طابع دولي . « ومما هو ادعى من ذلك ، كما يلاحظ سان سيمون بمناسبة الاحتفال بأول ايار عام ١٨٩٠، هو هذا التفاهم الدولي بهذا الشأن من فوق الحدود ، والاتفاق على نص واحد للتعبير عن المطالب المشتركة ، وطريقة واحدة مشتركة للتعبير عن المطالب الواحدة المشتركة . نحن امام تحول عظيم للنظام الاجتماعي » . سجل عيد العمل ، والحق يقال ، فترة قصيرة الامد من البطولة : فقــد قامت عام ١٨٩١ ، مظاهرات شعبية حماسية وفتن في مدينة كليشي واطلاق العيارات النارية في مدينة *Fourmies* بفرنسا ، واصطدامات حامية في ايطاليا وفي فلورنسا وفي اسبانيا والجر ، واضطرابات حامية في شيكاغو وفي البرازيــل وحوادث في لودز وقعت عام ١٨٩٢ . هذه هي المناسبة التي راح فيها جان باتست كليمان يضع هذه الاناشيد الحربية :

هذه الرأسمالية التي تتكلم بلهجة السيد الآمر
لتجعل هذه اليقظة اليوم رداً حاسماً قائلين
لكل انسان محله تحت الشمس
لكل انسان حقه من الراحة والرفاهية

ثم هبط الحماس وخمدت جذوته . وعند حلول العيد في تاريخه المعين كل سنة لم يعد اول ايار يلهب الخيال ويرعب الطبقات ويسمر الخوف في قلوب الاثرياء. فالمسيرة التقليدية تسير سيرها العادي المألوف وتتجاوب الارجاء صدى نشيد الدولية ، هذا النشيد الذي وضعه اوجين بوتييه ، عام ١٨٧١ ، وقد يرتفع فيه احياناً العلم الاحمر الذي رأى فيه ابناء الكومون « رمز السلام والمساواة » ، وقوى الامن تسهر على الامن وتكبح جماح المتظاهرين وتجبرهم على التزام الانضباط ولن يلبثوا ان يتفرقوا من حيث جاؤوا . وقد علق المجلس الشيخ في اليوم التالي لاول ايار عام ١٨٩٢ قائلا . «كان عيد اول ايار هنا (في لندن) جميلا جداً ، اذ انه اصبح شيئاً من هذه الاشياء العادية التي تمر كل يوم او بالاحرى كل سنة . لقد ذهب رواؤه الاول وولى رونقه » . ونشرت الجمهورية الصغرى ، في اول ايار ١٨٩٥ ، قائلة : « في الامس الغابر كانت تقوم ثورات اما اليوم فتنظم مسيرات . في الامس كان لابد من جيش يكبح هيلج الجماهير وحماسها في الضاحية ، اما اليوم فبضعة انفار من قوى الامن تكفي لتشتيت بضعة الوف من المتظاهرين » . ما الفائدة لعمري من التظاهر في الشارع اذا كان لا بد من الانتهاء الى مثل هذه النهاية .

حاول زعماء الحركة النقابية مراراً ان يستغلوا عيد اول ايار . وبمناسبة الاحتفال به عام ١٨٩٦ ، وجه بلونيه نداء بأسم بورصات العمل ، وهو يرى ان على البروليتاريا ان تؤلف ، قبل كل شيء « جمعية عملاقة ، مدركة لمصالحها الحيوية عليمة بالوسائل والذرائع المحققة لها » . وراح مؤتمر العمال العام يحاول سنة ١٩٠٦ ، اثارة حماس الحركة لاجل تكريس العمل بثمان ساعات عمل في اليوم ، وذلك بالاستعداد وللاحتفال بعيد اول ايار بشكل مثير ؟ انه « لعيد فخم » بالحقيقة كما جاء على لسان ادوار فيّان ، ولكنه عيد لاغد له .

في هذه البلدان التي يشتد فيها الروح النقابية والاقبال عليها بحيث ارتفع عدد الاعضاء المسجلين فيها الى ٤ ملايين، كما هو الوضع في انكلترا ، ومليونين ونصف في المانيا ، ومليونين في الولايات المتحدة الاميركية ، عام ١٩١٤ ، يستنكف العمل السياسي تبنى برنامجاً اصلاحياً بصراحة :

فالحاد العمل الاميركي الذي يرأسه غمبرز يصطدم بمقاومة عنيفة لا تلين من قبل ارباب العمل الذين يسخرون بمنظمي الاضراب والسلطة القضائية لكسر حدة الاضراب . ولذا وضع نصب عينية تحسين وضع العمال باحترام اللعبة نفسها بتحقيق المزيد من المكاسب . الا ان حركة العمال

الصناعيين في العالم تبدو اكثر اخذاً بالاصول ، عام ١٩٠٥، وفي السنة نفسها يؤسس أبتن سنكلر الجمعية الاشتراكية الجامعية التي آلت رئاستها الى رجال لندن .

وفي المانيا راحت الحركة النقابية تنشق على نفسها نتيجة النزعات المختلفة والتيارات الفكرية التي هبت عليها : مسيحية ليبرالية لـ (هرش – دونكر) ، واشتراكية وراحت الفئة الاخيرة بزعامة ليجيان تنظم نفسها بيروقرطياً لا سيا وزعماء الحزب الاجتماعي الديموقراطي الماركسي لم يضعوا نصب أعينهم التضامن معها .

والحركة النقابية العمالية ساندت في بريطانيا العظمى كما في اساترالآسيا حزب العمال البريطاني . فقد شجعت العمل المباشر الذي اوصى باعتماده كل من فيلت وتوم مان في انكلترا ، ولاركن في إرلندا . فنظام العمل الذي إتبّته لا يختلف كثيراً عما كان متبعاً في بلجيكا والبلاد الواطية وفي النمسا حيث المنظمات الدينية الطابع تنبذ جانباً كل ما يشتم منه العنف .

اما فرنسا، فالوضع فيها على عكس ذلك، اذ ان الروح النقابية توصي بعدم الثقة بالاشتراكية السياسية : ماركسية كانت ، ام اصلاحية ، وبالقيام بعمل مستقل بتفق ومنهج اتحاد العمل العام الذي عد بين اعضائه نصف مليون عضو منتسب ، عام ١٩١٤ . وتحت توجيه رؤساء امثال بلوتيه وبوجيه وغريفويلز ومرهايم الذين ينتسبون نوعاً ما الى برودون وباكونين وجان غرايف والى المذهب الفوضوي ، اكثر من انتسابهم الى ماركس، وهو اتحاد كان يرمي « للتخلص من ارباب العمل ومن اصحاب الاجور معاً . وقد دعت الى ابعد من ذلك ، الى التوصية بالماطعة (buy cottage) رب العمل المعروف بعدائه ، والى اللجوء التصنيف تمييزاً لهم ، او الى اعمال التخريب ، كما يدعو بحزم الى اتحاد البروليتاريا في كل العالم ، وادعى لنفسه بانه « حزب العمال الحقيقي ». وبميثاق أميان الذي تم وضعه وتبنيه عام ١٩٠٥ ، راح اتحاد العمل العمام C. G. T) يؤكد رغبته في تزعم حركة « الصراع الطبقي .. بعيداً عن كل مذهب سياسي» . وقد ظهر تأثير المطالب التحررية ، بشدة في ايطاليا وفي قلب غرفة العمل والنقابات الزراعية ، كما ظهر الخارج باول لجربة يقوم بها ، اذ اعلن اضراب وطني عام وتشكيل منظمات مناضلة ؛ منها مثلاً : لجنة المقاومة ، والعمل المباشر ، والاتحاد النقابي . وراح لابريولا وليونيه يعملان على ترويج مؤلفات سوريل ويضمان جانباً المذهب الاصلاحي الذي تبناه اتحاد العمل العام الايطالي . وفي سنه ١٩٠٧، راح الفوضويون يعقدون مؤتمراً لهم في امستردام أقر* اقتراحاً قدمه مالاتستا يحبذ العمل النقابي المستقل . وقد ادى ذلك الى ظهور منظمة التضامن العمال في كتلونيا التي عرفت بموقفها المعادي للدين وللحرب معاً ، ثم في عام ١٩١١ ، الى تأسيس اتحاد العمل العام الذي وقف في كل اسبانيا ، موقفاً مناهضاً لاتحاد العمال العام ، الذي تأسس سنة ١٨٨٨ ، أي في هذه السنة بالذات التي تشكل فيها الحزب العمالي الاسباني . ونلاحظ مثل هذه السيطرة عند الايديولوجيا في اميركا اللاتينية .

وكان من حق الاختلاف والتباين بين هذه الفئات والمنظمات ما أفسد كثيراً عمل النقابية الدولية . فقد تألفت ضمن كل منظمة سكرتيرية وطنية ، منذ عام ١٨٨٩ ، وقام منها حتى عام ١٩١٤ ، ثمانية وعشرون سكرتيرية عامة ، منها ٢١ جعلت من برلين مركزاً أساسياً لها . وبالاضافة الى هذا كله ، فقد اتخذت تدابير خاصة لاعداد اجتماعات دورية يحضرها ممثلون عن هذه النقابات المركزية . وتأسس عام ١٩١٣ ، اتحاد نقابي دولي جعل من مدينة زوريخ مركزاً له .

ومهما يكن ، فسواء تعلق الامر بالكفاح ضد الرأسمالية او بموقف مناوئ العمال من الامة ، خلال الحرب ، لم يكن في وسع المنظمات العمالية ان تتجاهل ما الحركة الاشتراكية من عمل سياسي .

الدفع الاشتراكي وتركة ماركس

حققت الاشتراكية ، كالنقابية ، مكاسب جوهرية حتى في الولايات المتحدة الاميركية حيث لم يستطع مرشح الحزب ان ينال قسماً كبيراً من اصوات الهيئة الانتخابية . الا انه استطاع ان يؤمن لمرشحه ، في انتخابات الرئاسة ، عام ١٩١٢ نحواً من مليون صوت بينما عجز عن اعطائه ١٠٠،٠٠٠ صوت في انتخابات عام ١٩٠٠ . اما في اوروبا ، فقد قفز الحزب الاجتماعي الديموقراطي الالماني ، من ١،٥٠٠،٠٠٠ صوت الى ٤ ملايين ، بين ١٨٩٠ - ١٩١٢ ، وبلغ عدد اعضائه في هذا التاريخ بالذات المليون ، ونال الفرع الفرنسي للدولية العمالية ، عام ١٩١٤ ، نحواً من ١٠٣ مقاعد بقطع النظر عن الاشتراكيين المستقلين . وقد كان الفئات الاشتراكية ٧٩ مقعداً في المجلس النيابي الايطالي ، عام ١٩١٣ . ودخل حزب العمال في انكلترا الحلبة بحزم فنال ٢٩ عضواً في انتخابات ١٩٠٦ ، و ٤٠ عضواً عام ١٩٠٩ . ومقابل ضعف الحركة الاشتراكية في بلد كأسبانيا بالنسبة لعدد البروليتاريا فيها (عضو واحد في الكورتيس ، عام ١٩١٠) تقوم من جهة اخرى المكاسب السريعة التي حققتها المنظمات السياسية الاشتراكية الديموقراطية : كالحزب الاشتراكي الثوروي ، وحزب العمال والحزب الشعبي في روسيا ، وهي مكاسب كشفت عنها بسرعة ثورة عام ١٩٠٥ فقد نالت هذه الاحزاب مجتمعة ٤٠ ٪ من المقاعد في الدوما[1] الاولى . وكان لا بد من قانون الانتخاب الشديد الوطأة الذي اعلن عام ١٩٠٧ لتخفيض عدد ممثلي هذه الاحزاب في المجلس النيابي .

منذ الثورة الفرنسية ، عاد الى البلاد - م في مجموعهم من الطبقة البورجوازية - حق سن القوانين . فلم يقم حزب ما أصيل من الفلاحين . ولذا فظهور منظمات سياسية غيها تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالح طبقة اجتماعية معينة وتفرض على اعضائها التقيد بالتزام سلوك معين في الانتخاب ، كان له دوي كبير في الخارج .

صحيح ان الاشتراكية بـاعتناقها الحياة النيابية لم تتخل قط عن الاساليب التي سارت عليها ،

(١) الدوما هو مجلس النواب في روسيا قديماً .

ولم تتبذ ما عُرفت به من اعراف وعادات . فقد استمرت بعضها في البلدان الانكلوسكسونية «دون ان يكون لها فلسفة خاصة بها. فنحن امام حركة عمالية مشبعة بالروح النقابية الاصلاحية، لها اهدافها المبينة ومؤثراتها الاخلاقية الخاصة . « لا يمكن لنا ان نرتبط بهذه النظريات الاشتراكية المعمول بها في اوروبا، يصرح العضو العمالي الاسترالي وطسن . نحن نؤمن بالمبادىء الاساسية التي تنادي بها الاشتراكية . كل شيء يجري على مهل » . عظيم هو النفوذ الذي تلعبه الطوائف والجمعية الفابيانية لدى البريطانيين على حزب العمال . فعامل المعادن بورت، لا ينقطع عن الوعظ في الكنيسة الميتودستية او انتخابه عضواً في مجلس العموم . ويحدثنا زميله كير - هاردي عن تجلي الحقيقة الكبرى التي اعلنها السيد المسيح باذلاً حياته في سبيلها ، وهي ان لا سبيل لخلاص النفس الفردية انْ لم تخلص النفس الجماعية » . فمن رسكن الى وليم موريس الى وب الى رمسي مكدونالد ، فنقد المجتمع الرأسمالي لا ينتهي فقط بالدعوة للثورة والانتفاض على المستثمر . فهذا يضع نصب عينيه، في الدرجة الاولى ، مصلحة الامة الكبرى . « غايتنا الاولى هو الرأسمالية وليس ازالة طبقة اصحاب الاجور ، كما يؤكد الاخوة وب الذين يفكرون بجعل كل الناس موظفين يتناولون اجورهم من الدولة » . ان تأميم وسائل الانتاج والخدمات العامة يجب ان يفسح المجال لنظام اجتماعي عادل . ومهما يكن فوضع البروليتاريا لا يزول من العالم تدريجيا الا تحت تأثير تشريع سلمي ملائم. فكما ان حزب العمال البلجيكي الاصلاحي الصميم يكسب انصاره على حساب حزب الاحرار وينحاز مع ذلك اليه ضد الاكثرية الكاثوليكية ، يقدم حزب العمال اصواته الى حزب الاحرار برئاسة لويد جورج الذي اعاد اللوردات الى الصواب . اما في فرنسا ، فالاكثرية بين البرلمانيين الاشتراكيين في المجلس إضطرت، لاغراض انتخابية ، الى مساندة « كتلة اليسار » المعروفة بمناهضتها الروح الوطنية المشهورة بروحها الرجعية والدينية، وذلك نزولاً منها عند «نظرية اتحاد الاحزاب الاصلاحية» التي في مقدورها وحدها ، كما يؤكد هربر ، عام ١٩٠٨ ، ان تمد السبيل امام طلوع « السلام الاجتماعي » عن طريق التطوير المطرد للديموقراطية .

والامر الذي استأثر باهتمام الولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا العظمى هو غزو الماركسية لاوروبا الغربية ، الوقت الذي راحت فيه الفوضوية تتحصن وراء النقابية في الغرب. أو في قلب الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا . فقد عاش المجلس حتى عام ١٨٩٥ . « تجلى امامنا هذا الرجل كأنه نصف اله ، كما يلاحظ فنعرفيلد ، هذا الرجل العظيم الذي عرف ماركس وعمل معه » . فقد كان من نشاطه ان حال دون الانتفاع ، كما يجب ، بهذه النصوص الاساسية التي وضعها المعلم ، بدلاً من هذه المقتطفات النادرة التي قدمها لنا . فالطبعة الاولى لكتابه « الرأسمال » صدر منها ١٠،٠٠٠ نسخة ، لم تكن نفذت كلها بعد صدور الكتاب بـ ٢٥ سنة . فتعاليم المعلم حلت في طياتها شيئاً غريباً ، نوعاً من ايمان جديد أخذ بالانتشار . وكما ان طلوع العصر الجديد من شأنه ان يرسم امام الناظر علامات استفهام كبيرة ، راح تلاميذه

يتساءلون قائلين : « ان ماركس كالتوراة، كان يقول وهلم لبكتخت ، فالكل يفسره على هواه ويؤله تأويلا مضاداً للآخر » .

وقد سبق لانجلس ان استشعر بالخطر ، قبل وفاته اذ يقول : « نظرتنا ليست بعقيدة ، بل هي تعبير عن سير تطور ، وهذا التطور يفترض حدوث ادوار وعهود متتابعة » . وبدون ان ينكر اهمية المكاسب الديموقراطية التي تحققت فقد حذر من ان تنوص الاشتراكية في رمال الليبرالية البورجوازية . وفيما كان يؤكد ان « عصر الانقلابات المفاجئة والثورات تقوم بها اقلية واعية قد مضى وانقضى » فقد جعل من « دكتاتورية البروليتاريا التي لا بد من طلوعها شراً تركه البروليتاريا المنتصرة في صراعها من اجل تخفيف فوز الطبقات » .

ما لم نستنتج مع باريتو ان « تنبؤات ماركس وانجلس ليست بحقائق قط » ، ومع ليروى – بوليو ان الاشتراكية ليست الا خيمياء علم الاجتماع ، هنالك امكانية الخروج ببرنامج عملي من هذه التعاليم المقصورة على فئة خاصة . الا انه يجب قبل كل شيء الوصول الى تفاهم حول المعنى الصحيح للحكم بالموت الذي صدر في اعقاب محاكمة الرأسمالية . فاذا كانت الفاجعة وشيكة الوقوع ، تحتم علينا ان نكون على استعداد لمواجهة هذا الحادث الرهيب . اما اذا ما تأخرت ساعتها وجب علينا ان نعرف ما هو سبيل البورجوازية لتأخير سير عقرب الساعة . فاما ان تلعب الاوتوماتية الاقتصادية دورها او انه يُبرلغَ جداً في تحديد دورها (هنالك رائحة مذهب اللاحتمية في الجو) . ومهما يكن يجب فحص النصوص بدقة وتوضيحها على نور الايضاحات التي تقدمها الحوادث وفاقاً للمنهج ذاته .

ففي الوقت الذي تكشف فيه الفوضى بلسان كتاب امثال غرايف وركلو وكرمبولكين بأنها تربط الصراع ضد استثمار رأس المال بالصراع ضد اي اضطهاد او استغلال ، فهي تشدد دوماً على الحرية الفردية ، وتختار دوماً تردد ، جانب التعاون العفوي المتبادل، مع العلم انهم كثر عددهؤلاء الاشتراكيون الذين مع انتسابهم الى الماركسية يخضعونها للنظر والنقد ، تحدث جورج سوريل ، عام ١٨٩٨ ، عن ازمة الاشتراكية . وبعد ان انصرف لتحديد علم الاخلاق جعلها وفقاً لوجهة نظر برغسون ، في خدمة الاخلاقية الديناميكية وبصفق استحساناً لموقف جوريس الذي اندفع ، بالرغم من نصيحة غيسد له ، وراء معركة درايفوس . وبعد انتهاء « القضية » وامام عملية « التنظيف » يشتد انزلاق سوريل في الوقت الذي يعمل الفشل الذي مني به ، على ابعاد بيغي عن الاشتراكية .

غير ان الهجوم الداوي وقع عام ١٨٩٩ وفي المانيا بالذات ، قام بـه الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي بالرغم من استفحال شأنه الظاهر اخذ يصطبغ بطابع البيروقراطية . وينتقد برنشتاين في كتابه : « الاشتراكية النظرية » والاشتراكية الديموقراطية » ، المثالية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ونظريات التمركز ونظرية تقييم العمل ، والازمات والكتبة

المستحدثة ، ويطالب بإيلاء الثقة للنزعة الحرة نحو الخير . وبعد ان رفض الاخذ بنظرية الكارثة الخيرة التي تقول بها الماركسية البلانكية التي كانت تصلح لعام ١٨٤٨ راح يدلي ببراهينه على جدوى التكتيك الانتهازي . وقد تنطح كونسكي للرد عليه وروزا لكسمبورج محتجين على هذه الاقوال بالارقام ، موضحين مغالط التفسيرات المعطاة (من ذلك مثلا ان برنشتاين خلط بين اكتناز الثروات وبين حشد وسائل الانتاج في ايد قليلة) ، مع انه اعترف ، من جهة أخرى بفائدة الحركة البرلمانية ، وهو يتوقع « صراعاً طويلا مريراً » (الاصطلاح لكسمبورج) . وبعد هذا اوصى كونسكي ، في الاقتراح الذي عرضه على مؤتمر العقود في باريس ، عام ١٩٠٣ ، « بتنظيم البروليتاريا على غرار جيش مستعد للحرب الاجتماعية » ، وينبذ بعيداً ، وفقاً لرغبة غيد ، فكرة كل تحالف اشتراكي مع الاحزاب البورجوازية الاخرى . الا ان الوحدة لم تتم بدون جهد طويل .

وقد تصادم غيد وجوريس في فرنسا ، بعد أن اتجه جوريس في تفكيره نحو المصالحة التأليفية : « نحن إصلاحيون وواقعيون في الصميم وفقاً لطريقتنا بقدر ما نحن ثوريون في اهدافنا » . ومن جهة « الحياة الاقتصادية هي التي كانت في صميم مدار تاريخ الانسانية ، غير ان الانسان ، هذه القوة العاقلة يتطلع بأنظاره الى ملء الحياة الفكرية ويشرئب من كل جوارحه الى مشاركة العقل القلق ، المتطلع دوماً الى الوحدة والى هذا الكون الغريب... فالشجاعة هي في طلب المثل وتفهم الواقع .. اذ ان قيادة البشر وتوجيههم يقتضي له نور الفكر ... » اخلاقية الرجاء والشجاعة بقدر ما هي اخلاقية العدالة اولا واخيراً .

فاتباع الديموقراطية الاجتماعية لدى الروس ، بين منشفيك وبلشفيك ينقسمون على انفسهم عام ١٩٠٣ حول السلوك الذي يتوجب عليهم اتخاذه . فالاول من هذين الحزبين يحبذ قيام حزب يضم الجماهير ، بينما يحبذ الثاني حزباً نظامياً قوامه المركزية . فالأول يقول بالتحالف مع الاصلاحيين البورجوازيين ، بينما ينتقد الحزب الآخر بفائدة التعويل على طبقة الفلاحين .

ومن جهة اخرى فقد خسر الثورويون والاصلاحيون المرصعة في قلب الحزب الديموقراطي الاجتماعي الألماني ، وذلك عندما دعا مؤتمر الدولية المنعقد في امستردام عام ١٩٠٤ ، بصراحة المنظمات الاشتراكية الفرنسية الى الاتحاد وبعد ان امتثل جوريس للدعوة طلعت علينا المنظمة . G. F. I. O.

وفي هذه الغضون ، وقع حادث خطير احدث هزة عنيفة في قلب الحركة الاشتراكية كلها الا وهو نشوب الثورة في روسيا .

الثورة الروسية عام ١٩٠٥ واثرها في الحركة الاشتراكية

عام ١٨٧١ ، قامت الكومون في باريس ، وعام ١٩٠٥ وقعت ضد النظام القيصري ، ثورة الفلاحين والبحارة الروس ، فلقد اسقط في يد الدولية الاولى وعجزت عن انقاذ الكومون ، بينما شاهدت الدولية الثانية ، وهي عاجزة ، الحركة الثوروية تضطرم وتتأجج من بطرسبورغ الى مدينة اوديسا على البحر الاسود .

بعد ان جر الشعب الروسي ، إثر ازمة اقتصادية حادة قسراً منه وغصباً عنه ، الى حرب خاسرة ضد اليابان ، قام هذا الشعب واعلن الثورة التي جاءت ضربة قاصمة على النظام القيصري لم ينهض منها . وقد دار في خلد نيقولا الثاني انه « للحؤول دون قيام الثورة لا بد من ضربة قصيرة رابحة » . الا أن الحرب استمرت اطول مما اراده وزادت من اوصاب الشعب وآلامه . وجاءت الهزيمة فيها وصمة عار في جبين الشعب الروسي ، كما جاءت تحقيراً له وانتقاصاً من كرامته ومنزلته . فثورة الكومون في باريس جاءت نتيجة الحماس الوطني ، وقامت في وجه حكام بورجوازيين انتقدت عاليا قصورهم الفاضح وخيانتهم. اما في روسيا فلن يكن من ينكر او يتغاضى عن مساوىء الحكم القيصري المستبد . ومع ذلك فقد راحت البروليتاريا تجر اذيال الخيبة والفشل .

تطور الاقتصاد الرأسمالي في امبراطورية القياصرة على غرار التطور الذي عرفته فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فبينما يستمتع الاعيان والنبلاء في غربي البلاد بتقاليدهم المتحررة ويحكمون بمساعدة طبقة من اصحاب الاملاك الفلاحين ، كان القسم الشرقي منها لا يزال بعد بحاجة ماسة لمثل ثورة ٩٨ الفرنسية ومن جهة أخرى ، فالبورجوازية الروسية لا تتوفر لها بعد قوة العدد ولا الاستقلال الاداري (يكفي ان نشير هنا الى الدور الحاسم الذي لعبته الدولة ورأس المال الاجنبي في التنمية الاقتصادية) في الوقت الذي لقي فيه حشد المشروعات الانشائية بعض التضامن وتأييد الطبقة العمالية . ولكن ما هو الدور الذي لعبه سكان الريف ، يا ترى؟ ثم لو افترضنا عجز البورجوازية وفشلها واستيلاء بروليتاريا فقيرة معدمة على مقاليد السلطة والسيطرة على دولة طابعها نصف طابع الأجيال الوسطى،فهل في الأمر ما يرغب فيه او يرضى عنه من الوجهة الاشتراكية ؟

فقد دهش ماركس لأول وهلة من النجاح الباهر الذي حققته نظرياته وتعاليمه في روسيا . فقد هزئوا طويلا من هذا الشعب الذي « بقفزة مميتة مفاجئة وجد نفسه ضمن مملكة فوضوية ـ شيوعية ـ ملحدة . فالانكسارات التي توالت عليه لم تفاجىء لنين : كل حرب تشنها دولة متأخرة تلعب دوماً ، كما حدث ذلك مراراً عبر التاريخ ، دوراً كبيراً في تعجيل الثورة وتفجيرها ، بمثل هذه الافكار والتأملات واجه سقوط بورت ارثور بيد اليابانيين. الا انموقف الاشتراكية بدا هنا في غاية الدقة : « لا نستطيع الخروج فجأة عن الحدود البورجوازية للثورة الروسية » كما لاحظ رئيس الحزب البلشفيكي ، في الوقت الذي كان يستعد فيه للرجوع الى روسيا .

فقد جاءت الحوادث تثبت بصورة لا تدع مجالا للشك ، حدة الازمة وعجز الثوار : ماركسيين كانوا او شعبيين ، عن اسقاط النظام القديم . فقد وقعت ثورة قام بها الفلاحون وحدثت فتنة على يد البروليتاريا من سكان المدن ، واسعة ، وحركات عصيان وتمرد في الجيش والاسطول . من الحوادث البارزة ، اذ ذاك ، الأحد الأحمر الدامي الواقع فيه

٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، في بطرسبورغ ، وتمرد الطراد الذي يحمل اسم الامير بوتمكين ، وبيان ٣٠ تشرين الاول الذي اذاعه الامبرطور نيقولا الثاني بعد فيه البلاد بتشكيل حكومة دستورية ، ومعركة الشوارع في موسكو في كانون الاول . وقد خيل لبعض الماركسيين لمدة قصيرة ان سلطة شعبية ستطلع وتتولى الحكم من بين هذه الجماهير التي انتظمت صفوفها فجأة في السوفييت. فالشاب برونشتاين ، يقول تروتسكي ، شارك مشاركة فعالة في تشكيل مجلس السوفييت في بطرسبورج . اما لينين فقد رأى ان المحاولة مكتوب لها الفشل التام لافتقارها التنظيم . الا انها افادت كثيراً في ضرورة وضع خطة منظمة لكل ثورة او فتنة .

وقامت القيصرية بتجربة الدوما (المجلس النيابي) لاول مرة ، هذا النظام الهجين الذي فشل في اعادة الحكم الاستبدادي الى البلاد كما عجز عن اقامة وترسيخ بورجوازية ليبرالية ، كما عجز عن تأمين نجاح عملية الاصلاح الزراعي التي حاول ستوليبين القيام بها والتي رمت الى تشجيع الملكية الفردية في البلاد ، وما أدت الى تأمين الازدهار للانتاج الزراعي والصناعي الذي كان من شأنه ان حداً للاضطرابات الاجتماعية .

احدثت هذه الهزة ردة بعيدة المدى في الغرب . فاذا ما راح جوريس يتنبأ « بان تحرير الشعب الروسي سيلاقي نصيبه الكامل في قيام نظام عمل في البلاد تبرز معه البروليتاريا الروسية ، الى الطليعة بين صفوف البروليتاريا في اوروبا » ، فقد راح اناتول فرانس يصرح من ناحيته قائلاً : « مهما كانت نتائج هذه المحاولة الضخمة المريعة ، فقد لعب اتباع البروليتاريا ، منذ الان دوراً حاسماً في مصائر بلدانهم ومصير العالم . فالثورة الروسية هي ثورة عالمية » . وقد رد ارثر ماير على هذا القول في جريدة الفولوا قائلاً : « كل ثورة كبرى قامت في العالم زرعت حولها جرائم ضارة مؤذية ، الا ان الثورة الروسية لها جانبها الاحمر المرعب » ، ثم زاد قائلاً : « انا ضد ثورة مماكسة شاملة تستطيع وحدها تجنيبنا اسوأ الكوارث » . اما غليوم الثاني فقد اعرب للامبراطور نيقولا الثاني عن رأيه قائلاً : « ها هي روسيا تطوي صفحة جديدة من سفر تاريخها . . فالوسائل التي يجدر لها التذرع بها ، والذرائع التي يحمل اعتمادها ، والاشخاص الذين يدعون لتنفيذ هذه المهمة ، كل هذا سيترك اثره المباشر على الدول الاخرى الواقعة على حدودها » . ليس من ينكر قط ان الضربة التي نزلت بالنظام الاستبدادي القيصري كان لها صداها البعيد في آسيا حيث نفوذ الغرب كان اخذ يتغلغل اليها كما تغلغلت الرأسمالية الاستعمارية الى روسيا .

وقد جاء الحادث يكرس نهائيا انقسام الماركسيين الروس . وعلى ضوء هذا الحادث ، فقد رفض لنين ان لا يرى في مجلس السوفييت سوى « جهاز اداري ليس الا على شكل صالح لبناء المشتبك . فقد اولاهم دور « اجهزة الفتنة » على طريقة تروتسكي الذي بقي مصراً على رأيه وتفكيره في ان « السوفييت يؤلف جامعة عمال الروس التي يمكن لها ان تستلم » في المستقبل « امارة الجماهير الثائرة وتوجيهها » . لقد سبق لا لمجلس وكتب قائلاً : « ان اسوأ ما يمكن ان

بصيب زعيم متطرف هو ان يرى نفسه مجبرا لاستلام الحكم عندما لا تكون حركة تاريخية معينة التأكلها بعد ، بحيث يؤمن السيطرة الطبقة التي يمثلها » .وقد حلا لبلاخانوف واكسلرود دان ان يرددوا هذا التصريح مراراً . ولكن بخلاف هؤلاء المتشككين الذين لم يرضوا بمساهمة البروليتاريا في اقامة ديموقراطية بورجوازية ، وبعد ان اعادوا الى الاذهان الفشل الذي اصاب البابوفية الزراعية وبعد ان اتهموا بالتحول الى البلانكية ،توقع لينين، وهو اقوى يقينا واكثر ايماناًقيام « دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » في اعقاب ثورة بورجوازية بلاترتب على الديموقراطية البورجوازية دعمها قبل كل شيء . وفي مؤتمر براغ ، سنة ١٩١٢ ، حدد البلشفيك اكثر من اي وقت مضى مهمة تحقيق اطار ضيق وادارة صارمة تشرف على القوى البروليتارية ، اذ ان القضية لا تطرح على بساط البحث في اي مكان من اوروبا كما تطرح عندنا في روسيا » . وهذا الاضطراب الاجتماعي الشديد المتجدد النشاط قمّن فيه اليقين الوطيد بان ازمة فاصلة هي وشيكة الوقوع في الامبراطورية القيصرية ، فوجه من كراكوفيا ، عام ١٩١٣ – ١٩١٤ تعليماته الدقيقة بحيث تلاقي هذه الازمة لدى وقوعها ، حزباً ماركسياً مستعداً للعمل يستطيع ان يجر القوى الشعبية ويقودها بفضل ما له من قوة وما تم له من دهاء التنظيم .

وعلى عكس ذلك ،كانت الحركة الاشتراكية في اوروبا الغربية والوسطى تدفع عنها بمشقة ، هجمات الايديولوجيا الوطنية ومغريات الحركة الليبرالية . وليس في سبيل الشيطان راح لينين يستعرض في كتابه « المادية والنقد التجريبي » المحتوى البورجوازي لمذهب اللاحتمية العلمي والفلسفي . وتجهد جوريس في فرنسا ، بما اوتي من فصاحة وبلاغة ، على تحديد المثل الاعلى للاشتراكية التي تلهج دوماً بالاخوة والعدالة . وراح جورج سوريل من ناحيته يهاجم بعنف الديموقراطية البورجوازية ويدفع بمبدأ العلمية وينادي بتفسخ الماركسية وانحلالها ، ولم يعد يتوقع التحرر الا من « الشعور بما هو سام » و « بالاسطورة » وهكذا يرى نفسه الى جانب المتمسكين بالتقليد . وراح احد تلاميذه ، هو ادوارد برث يتحدث عن الفسق الديموقراطي ، ولم يتوان قط عن قرع جرس الحزن معلنا انتهاء حكم « الادباء » امثال بيني وانتهى الى الوقوف بجانبه ، عام ١٩١٤ . اما الاشتراكيون « المشائلون » فلن يتقاعسوا عن التعاون مع الجمهوريين الراديكاليين والمعتدلين . «فالبورجوازية تصفح بيسر للذين تهددوها عندما يتضح لها ان في مكنتهم الدفاع عنها وحمايتها » ، كما ألمع الى ذلك بوانكاريه في مذكراته . من الغريب جداً ، كما يلاحظ بول كبون من ناحيته ،ان رجاءنا الوحيد منوط في الاعتماد على آباء الاشتراكية امثال بريان او ملاران . فهم يدينون بوصولهم الى سدة الحكم لما اوتوا من فهم حاد وذكاء متوقد ... فلم يحبسوا انفسهم ضمن مدرسة خاصة ضيقة ، ولم تجش نفوسهم بروح حزبية،فهم قابلون التطور» .

وفي قلب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، كتب النصر في نهاية الشوط « للتبدلية » المحكوم عليها حسب الظواهر . فبعد ان رفض بيبل وشيدمان القول : « بأن سنة واحدة من الثورة امنت للبروليتاريا الروسية الغربية او الخبرة التي عجزت ثلاثون سنة من الصراع التمثيلي

تأميه ولو بشكل مصطنع « البروليتاريا الالمانية » ، وحلتها على رفض الاضراب العام ذات الهدف السياسي الذي اقترح اللجوء اليه روزا لكسمبورج .

غير انه لا يمكن للاشتراكية ان تبقى خالية البال امام تطور الاقتصاد الرأسمالي . فهلفرنغ، في كتابه : الرأس المال النقدي ، وروزا لكسمبورغ في كتابه الموسوم : حشد رأس المال ، يشددان على الضرورة المترتبة على رأس المال الاحتكاري بالسيطرة على مجالات غير رأسمالية، ليحافظ بذلك على وجوده وفقاً لمبادئه .فهذه المؤلفات الموضوعة اصلا باللغة الالمانية،ازلت القلق والاضطراب في قلب الديموقراطية الاجتماعية التي راحت قريبة تفكيرها بالمنافع والمكاسب التي من شأن الامبريالية ان تؤمنها للدول الصناعية . فهل تساعد هذه الامبريالية في نهاية المطاف ، على طلوع الاشتراكية ، وذلك برفع مستوى العيش في هذه الدول التي بلغت في تطورها الصاعد الى المستوى الاعلى،او انها تعجل في انتفاض الحرب وتقرب ساعة اعلانها لسقوط النظام البورجوازي ؟

الفصل الخامس

من السلم الى الحرب الأوروبية

عدم جدوى مقاومة العالم العمالي للامبريالية والحرب

علت الاشتراكية « الخيالية » نفسها بحلول سلام شامل في العالم ورؤية جميع شعوب اوروبا في جسم سياسي واحد مع احتفاظ كل منها باستقلاله الوطني كما عبر عن هذا الحلم المعسول سان سيمون واوغستين تياري ، منذ عام ١٨١٤ ، او بمجيء جمهورية الله كما تمنى ذلك قسطنطين بكور عام ١٨٤٤ .

ومنذ عام ١٨٤٨ ، راح الديموقراطيون الانسانيون امثال هوغو يرددون كلمة السر : الولايات المتحدة الاوروبية ، وعقدوا في هذا السبيل عدة مؤتمرات السلام . فقد تمنى بلانكي المعروف بروحه الوطنية إلغاء الجيوش المحترفة واستبدالها بأشبا شعبية ؛ وبرودون نفسه وضع كل آماله في النظام الفدرالي . أما موقف ماركس فقد كان مغايراً لهذا كله : فالحرب ، هذه الفكرة الملازمة النظام الرأسمالي ، سترتفع من هذا العالم بارتفاع هذا النظام والغائه الا انها قد تولد مجتمعاً جديداً . واذ خشي ماركس ، خلال الدولية الاولى من ان تغدو البروليتاريا ، في الغرب وفي ألمانيا هدفاً لعدوان مسلح من قبل الحكم القيصري المستبد، فقد نبذ جانباً فكرة نزع السلاح . الا انه عدل من موقفه بعد الفشل الذي منيت به الكومون . ولم يعد المجلس يتوقع ، بعد ذلك بطويل ، خيراً من اي حرب تقع في اوروبا « لدينا وسائل اسلم اسير قدماً » ، كما راح يؤكد عام ١٨٩٣ ، فوسيلتنا الكبرى وحيلتنا المثلى هي العمل الحازم الذي تمثله البروليتاريا، في بروزها الذي لا يرد .

وجاءت امثولة عام ١٩٠٥ . فالحرب في منشوريا كالحرب في جزيرة القرم انزلت الوهن في النظام القيصري . وفي مؤتمر امستردام ، عام ١٩٠٤ ، راح بلاخانوف يعانق المندوبين اليابانيين قائلا : « لو قيض للقيصر وربح الحرب على اليابان ، لبات الشعب الروسي هو الخاسر الاكبر

والمغلوب على امره » . وقد وجد هذا القول صداه في كلمة القاها ستولبين : « الحروب وحدها تضمن فوز الثورة » فبدون حرب تبقى الثورة عاجزة » . فالدرس يدعو الثوريين امثال لينين للتفكير جدياً في الامر .

وقد رفضت الاشتراكية في الغرب التسليم بالقول ان الحرب هي سبيل الخلاص . فقد « دلل جوريس على بطلان هذه النظرية » الثورية » . « ولا نريد ان نعرض ايماننا الوطيـد بتحرر البروليتاريا المتصاعد للقدر الفاشم الطالع من حبات النرد الدامية » .

ولكن أليست الامبريالية » من هذه الذرائع المثلى الكفيلة بتخفيف ضغط الطبقة العاملة على ارباب العمل ؟ فقد ذكر جيوليتي في «مذكراته» ،عام ١٨٩٣، « ان الرأي العام في ايطاليا ذُهل لهذه الفضائح المصرفية وان الطبقات الحاكمة كانت جد وَجِلة من جراء هـذه الاضطرابات الاشتراكية الطالعة » وسنحت فرصة استعمارية مثلى لصرف الانظار وتحويلها عـن الوضـع المتأزم » . ولذا راح سيسل رودس يكتب عام ١٨٩٥ بفظاظة قائلا : « أليست الامبراطورية هي قضية بطن » كما كنت دائماً اردد ؟ فاذا ما رغبتم في تجنب الحرب الاهلية » عليكم ان تصرفوا للاستعمار » . وهكـذا ندرك تماماً كيف ان برنشتين » رغبة منه في التوفيق بـين الامبريالية والماركسية » يبرر نزعات الرايخ الى المستعمرات . ثم ألم يلاحظ الجلس » منذ عام ١٨٥٥ » ان العمال الانكليز كانوا جد مرتاحين لعملية توسع وانبساط عادت عليهـم بتحسين مستوى العيش عندهم ؟

يبقى بعد هذا ان بقدر ما تعمل الامبريالية على ديمومة النظام الرأسمالي وتأمين استمراره » بقدر ذلك تعرض الاشتراكية على اصلائها حرباً عواناً لا هوادة فيها. اما السباق الى التسلح» فلا مبرر له على الاطلاق عندها » اذ ان النفقات الباهظة التي يتطلبها التسلح يقع عبؤها على الجماهير .
ففي فرنسا وايطاليا واسبانيا حيث النقابات تتحمس عميقاً لكلمة السر وتأتم بها » حرص الفوضويون من ناحيتهم على بث فكرتهم بوجوب القضاء على الجيش باعتباره اداة الفتح وعـدة الحرب » كما يجب » في نظرهم كذلك القضاء على الكنيسة والدولة وارباب العمل . فالدسائس يحبكون خيوطها تتخذ ذريعة لسن القوانين « المجرمة » من قبل المجالس الفرنسية . فبعد قضية دريفوس راح جانب كبير من الرأي العام في فرنسا يتقزز من موقف اركان الحرب في البلاد واقلقته القلاقل الوطنية » يتجه نحو مجافاة الروح العسكرية ومناهضتها ونحو الدعوة للسلام . واخذ فاكيه يعبر عن تذمره » عام ١٩٠٤ » قائلا : « يقتضي المعلم شجاعة كبيرة ليعبر عـن ولائه لفرنسا » .

والاضراب العام الذي اقترح باحكونين الدعوة اليه » احتجاجاً على الحرب » عام ١٨٦٨ » امام الدولية الاولى » بقي من هـذه المستحبات والاماني الاثيرة لدى النقابيـة الثورية . « فالديماغوجيا الفرنسية » التي يحبها يبغي تبني هذا الاقتراح وتعرضه على الحزب الاشتراكي

الموحد . « نحن لسنا بوطنيين ، يصرح هرفي ، ولا يمكن لنا قط ان نكون وطنيين ، طالما نحن اشتراكيون ». وجوهو ، السكرتير العام لاتحاد العمل العام ، يصرح في ٢٩ تموز ١٩١٤ قائلا : « الاضراب العام ... واجب يترتب على جميع العمال دونما تمييز ». وعند وقوع حوادث المغرب ، عام ١٩٠٩ اعلن عمال المرافىء في برشلونة الاضراب وحالوا بذلك دون ركوب وحدات الجيش البحر . وعلى أثر ذلك ، اطلقت النار على المجاهد الحر فرنسيسكو فرابر ، احد رواد المدرسة الحديثة .

غير ان الماركسيين لم يمتثلوا . فالروح العسكرية ، في نظر غيد ، ليست سوى نتيجة الرأسمالية : فليس من مبرر ، والحالة هذه لمحاربتها ومناهضتها منفردةً . واحسن من ذلك « هو ان الدول تمثل شيئا كبيراً في تطوير البشرية وتطورها . فهي تؤلف مرحلة من هذه المراحل التي يترتب على الاسرة البشرية ان تقطعها ، والدور الذي تلعبه هذه الدول الآن لن ينتهي امره غداً . وقد زاد جوريس على ذلك واخذ يوصي بتأليف « جيش جديد » يكون بشحمه ولحمه ديموقراطياً ، شعبياً ، « قادراً على الدفاع عن الوطن ويكون اعجز من ان يلحق أي أذى أو ان يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية » . فهو لا ينبذ من حب الوطن الا ما يغله من بغض وحقد . ولم يتردد بيبل قط عن الافصاح عن عزمه وعن استعداده لتناول بندقيته للدفاع عن المانيا اذا ما هوجمت .

ومهما يكن من الامر فان قادة الاشتراكية الفرنسية يخشون كثيراً من هذا الالتباس المفجع الذي يغشى موقف الدولية العمالية . لا شك ان « عقبة اللغة » جعل من العسير تبادل وجهات النظر الضيقة والمباشرة بين رؤساء الفئات الوطنية المختلفة . ففي رأي فندرفولد ، هذا العائق لم يكن موجوداً ، في الدولية الاولى ره اركان حربها ، الذين تألف سوادهم الاكبر من نازحين ومبعدين . وكثيراً ما ردد المجلس هذا الامر وتمه بأكثر من ١٧ لغة ولسان . وكان ماركس يكتب براحة دوفا فرق لديه ، الفرنسية والانكليزية والالمانية . . . اما في الدولية الثانية ، فالامر على عكس ذلك تماماً . فتعدد اللغات والالسن ، باستثناء بعض الشواذات النادرة — هو من نصيب الاعضاء اليهود، امثال تروتسكي وادلر وبلاخانوف..، ولذا لم يكونوا يتفاهمون عموماً.

والى هذا ، فلم يتخل ممثلو الاشتراكية الالمانية عن مشاعرهم المعادية للروس . ألم يُسر المجلس في اذن احد مراسليه ، في اثر توقيع الاتفاق الفرنسي الروسي قائلا : « اذا ما اعلن الروس الحرب علينا ، لحتم على الاشتراكيين الالمان مهاجمة الروس والفرنسيين وحلفائهم ، اينما كانوا ، بعنف شديد » واذ كان الالمان يخشون كثيراً الامبراطورية القائمة شرقيهم ، ابى افراد امثال ادلر وبوير ورينر ان يتصوروا احتمال او امكان انحلال الامبراطورية النمساوية المجرية . ومن ثم فالتعديلية وفقاً لنظرية برنشتاين كانت تركت اثرها عميقاً في الديموقراطية الاجتماعية التي كان انصارها ومؤيدوها بمثابة عرفاء حسني التدريب في خدمة القيصر ، بينما جعل بيغي من جوريس « داعية الجامعة الجرمانية وعميلا للحزب الالماني ».

ففي ظروف كهذه ، ليس من عجب قط ان تكون احتجاجات الدولية واعتراضاتها على التسلح مجرد مطالب افلاطونية . فقد اسقط مؤتمر شتوتغارت ، عام ١٩٠٧ ، اقتراحاً باعلان الاضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجعة والتي تختلف باختلاف ضراوة كفاح الطبقات والوضع السياسي العام » . وقد لوّحوا في مدينة بال عام ١٩١٢ ليس « بصورة هذا التعاون العظيم بين العمال في جميع ارجاء العالم فحسب ، بل ايضاً بالخوف المستحوذ على الطبقات الموجهة ، من جراء قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية » . كل شيء تم قبوله والتسليم به منذ ان غير جوريس رأيه قائلا: « اذا لم ينص الاقتراح عن طريقة معينة للعمل ، فهو لم يستثن أية طريقة على الاطلاق . وهكذا تعاقبت الاجتماعات وتوالت الخطب والاقتراحات . والصحيح هو ان المسؤولين عن الحركة الاشتراكية تركوا الامر مربوطاً بالقرار المتخذ . ولدى اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل في ٢٩ / ٣٠ تموز ١٩١٤ وقع الحاضرون نص محضر عدم وجود. فالحزب الديموقراطي الاجتماعي ، اذ اعتبر روسيا المسؤولة الاولى عن الحرب ، صادق على الاعتمادات المرصدة للدفاع عن الحضارة وعن الاستقلال « الالماني » ، وقد رأى روزا لكسمورج في هذا القرار « انهياراً لا مثيل له في التاريخ على مدى الاجيال » .

وعندما غادر جوريس بيت الشعب في بروكسل ، أسر في اذن فندرفلدت قائلا : « ما اشبه القضية بقضية اغادير . سنشهد ارتفاعاً وهبوطاً ولكن الامر سينتهي بتسوية في نهاية المطاف. امامي ساعتان قبل ركوب القطار لنذهب للتحف لنشاهد اسلافك الفلامان البدائيين».

«شعرت البروليتاريا ان مصير الانسانية ومستقبلها متوقف عليها في هذه الساعة الحاسمة...» كما راح يؤكد المؤتمرون المجتمعون في مدينة بال . ولم يُخفِ جوريس قط انه يضع امله الوحيد في « قطاع المصالح الاقتصادية والمالية » التي تلزم الشعوب بمراعاة مصالح بعضها البعض ، وفي تجنيب الكوارث التي تجرها الحرب معها». ومن جهته راح هآز احد اعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي الالماني يصرح ، عام ١٩١٢ ، بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكي ، امام المؤتمر المنعقد في خمنتز ، بأن الفئات الرأسمالية ، في شتى البلدان المترابطة والمتعاقدة دولياً فيما بينها ، ترى من الافيد والاصلح لها ان تقاسم الاسواق العالمية بدلا من ان تنهك نفسها في عراك دام لا يعرف احد ما ستكون نتائجه ، يهدد بالخطر كل المكاسب، وسيفضي التفكير بكاوتسكي الى وضع هذه النظرية التي يصفها لينين بأنها بلغت « منتهى الحماقة » ، وهي النظرية التي بموجبها ستتعاون الامبرياليات تعاوناً دولياً بحيث تتفادى الحرب .

وبانتظار ذلك ، وبسخرية من القدر العابث لتعتمد الاشتراكية الانسانية النزعة على الرأسمالية في مهمة انقاذ السلام بانقاذ نفسها.

اول « مؤتمرات السلام » . فشل التحكيم الدولي والدعوة الى نزع السلاح

«الرأسمالية لا ترغب في الحرب ، الا ان الفوضى التي تثيرها تحول دون تفاديها » ، هـذا ما كان يصرح به جوريس . ليس من شك قط ان بعض ارباب الاعمال لم تشعر بدنو الحرب كما لم تكن لترغب فيها ، بينا قامت بعض الاوساط الاخرى ، من حيث تدري او لا تدري بنشاط لا يخلو قط من خطر . يصف لنا اللول فرانس « القوى المالية » ، قوى هدامة للروح الوطنية والقومية ، ثم يكشف لنا ، من ناحية اخرى كيف ان كبار رجال الصناعة ينشطون لصنع المدافع وبناء البوارج الحربية غيرة منهم على الدفاع عن الوطن واستدراجاً للطلبات . ويطمئن كيون ، عام ١٩٠٠ الى ان الامبراطور غليوم الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله واستغلاله » . كذلك هو بضمن ما اليهود من نفوذ عظيم ... بيدهم السلم والحرب . فلا مجال للدهشة هنا ولا للاحتجاج . هذا هو الواقع القائم ، علينا ان نأخذه بعين الاعتبار . وبالفعل ، نرى مديراً يهودياً لاحد مصارف فرصوفيا هو جان دي بلوخ يشارك الى جانب الاقتصادي البريطاني فريدريك باسّي من انصار سياسة حرية التجارة ، والى الجهز الحربي نوبل في « صليبية السلام » التي من اجلها يؤسس نوبل جائزة خاصة ، «هل من الممكن الاعتقاد «امام هـذه الارقام الفلكية» المجازفة» باعلان الحرب؟» ، يتساءل الالماني نجارك عندما راح يلمح الى هذه الملايين التي تمثل قيمة السندات الدولية . والمعروف ان كل هزة سياسية او ضغط سياسي شديد كان يولد قلقاً او اضطراباً في الاسواق المالية . « انا آخذ على نفسي جانب الاوساط المالية الكبرى ، تدبروا انتم امر الدولية» كلاهما يريد السلام . فاذا ما ارادتا ذلك استطعنا إنقاذ السلام » ، كان يقول كلير لالبرت توماس خلال ازمة اغادير .

حاول الاشتراكيون تأمين الاخوة الانسانية بين البشر عن طريق الاشتراكية والديوقراطيون عن طريق الديموقراطية ، والمسيحيون عن طريق الكنيسة ، وانصار سياسة التبادل الحـر بالتجارة الحرة ، والفقهاء بالقانون . فالازمة الاقتصادية الكبرى عزاها العديدون من رجال الاعمال ، الى هذه الاخبار التي يأخذ الناس بترويجها باستمرار . وبمناسبة المعرض الدولي العام الذي اقيم عام ١٨٨٩ ، تأسس مكتب دولي ومكتب برلماني دولي عام لنشر فكرة التحكيم الدولي بين الشعوب . ودوى اذ ذاك صوت البابا ليون الثالث عشر في مجمع الكرادلة ، كما اجتمع في واشنطون مؤتمر الجامعة الاميركية . ولكن هـذا النشاط كله لم يخرج بشيء يلزم حكومات الدول الكبرى بالاتفاق

واخذت بعض موازنات الدول ترزح تحت وطأة اعباء التسلح الاوروبي . وهـذا الوضع يفسر لنا الاقتراح الذي تقدمت به روسيا عـام ١٨٩٨ ، في اعقاب الحرب الصينية اليابانية والحرب الاسبانية الاميركية . فموارد اوروبا لا تنهض باطماع القيصرية . وارسلت ٢٦ دولة الى مؤتمر لاهاي المعقود عام ١٨٩٩ ممثلين لها الى « اول مؤتمر دولي للسلم » . صحيح ان الفشل

كان كامناً ، لم يتمكن المؤتمرون سائره ،لهذه القرارات التي اتخذوها بشأن قوانين الحرب ، وبالتوصية التي اتخذوها بانشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي . فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين مبدأ السيادة الوطنية التي تعتصم خلفها كل دولة ، وتحديد التسلح « الذي اعتبر امراً مرغوباً به جداً لتأمين المزيد من الرفاهية للجنس البشري » . ألم يقدم غليوم الثاني للامبراطور نيقولا الثاني هذا الاحتجاج الحازم ، الشديد : « هل يمكنك ان تتصور ملكاً أو الرئيس الاعلى في الدولة يأمر بتسريح وحداته العسكرية ، هذه الوحدات التي كرستها اجيال متطاولة عبر التاريخ المديد ، لترفع على جدران دور الصناعة وفي ابهاء المعارض هذه الاعلام والبيارق المجللة بالامجاد، والتنازل،بهذا الشكل ، عن هذه المدن والحصون والقلاع للفوضويين والديموقراطيين؟» والمؤتمر الثاني الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في مكسيكو ، عام ١٩٠١ ، بدعوة من الولايات المتحدة الاميركية ، تخفيفاً منها للتأثير السيء الذي تركه فيها اصطدامها باسبانيا، لم يتمكن ، هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً الى التحكيم في كل مشكلة دولية يستعصي حلها .

قامت الحروب في الترنسفال والصين ، ومنشوريا ، ونزلت أزمة حادة في المغرب . وبناء على اقتراح تيودور روزفلت ، عقد عام ١٩٠٧ فقط مؤتمر دولي في اعقاب المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في الريو . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية تجر وراءها اميركا اللاتينية ، فقد حضر المؤتمر ٤٤ دولة . أعيد ولا شك تنظيم محكمة التحكيم . الا ان سلطتها التي تعوزها صفة الالزام والاستمرار ، تحد من آمالها وتقصرها على أقضية نادرة حول مشاكل وقضايا ثانوية ، اقتصرت على الجلوس في قصر منيف فخم تم تشييده بفضل هبة سخية قدمها كارنجي .وقد جرى تبني النص الذي يوصي بانشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي تجلس باستمرار ، غير ان تعيين القضاة الاعضاء بقي مجرد مشروع .ولذا راح القائد الاميركي هوميروس ليا يصرح قائلاً : « ان التحكيم الدولي يتجاهل تماماً ما للشرائع الطبيعية من تصلب لا يقبل الرحمة ... » اما الحد من التسلح فهو يصطدم بالاعتراضات ذاتها التي اصطدم بها عام ١٨٩٩ . لتكن راحتهم في الحرب » ، أخذ ينادي الصحافي وكهام ستيد. وبصعوبة كلية توصلوا الى إكمال التوصيات المتخذة عام ١٨٩٩، المتعلقة باعراف الحرب واخلاقها،وبالتخطيط لمؤتمر ثالث يعقد عام ١٩١٥، الذي كان سيلغى من جراء الفشل المرتقب ، الى تطوير الجامعة الاميركية التي اقتنعت ، حتى الآن بالنتائج التي طلع بها مؤتمر بونس ايرس، عام ١٩١٠ .

واذ ذاك ، أخذت الازمات تتعاقب آخذ بعضها برقاب بعض : من أزمة البوسنه الى أزمة المغرب ، الى أزمة طرابلس الغرب ومن جديد الى أزمة البلقان . فلا ايطاليا ولا الدول البلقانية فكرت بعرض اختلافاتها مع تركيا على محكمة العدل في لاهاي. فلا عجب والحالة هذه ان تغرق الدول في تسلحها وتغوص في إعداد العدة للحرب الى ما فوق أذنيها . وأخذ الجنرال هيرنجن وزير حربية المانيا ، يصرح امام مجلس الرايخشتاغ قائلاً : التجربة التي تمت لنا بعد الاتفاق

المعقود بشأن المغرب والكونغو ، عام ١٩١١ ، علمتنا ان حشد قواتنا المسلحة لم يؤلف رادعاً كافياً » .

وعبثاً راح مدير شركة *Hamburg - Amerika* الملاحية ، والمتمول الانكليزي كاسل يخططان عام ١٩١٢ ، لوضع حد لهذه المنافسة الحامية بين انكلترا والمانيا للسيطرة على البحار . وعندما وصل الكولونيل هاوس ، سكرتير الرئيس ولسن الى اوروبا ، في ربيع عام ١٩١٤ ، حاول دعوة برلين ولندن الى الجلوس حول طاولة مستديرة للمفاوضات وصولاً الى اتفاق بحري . فالقضية النمساوية الصربية التي نجمت عن مقتل ولي العهد الارشيدوق فرنسوا فرديناند ، في سيراجيفو وضعت حداً نهائياً لمحاولة تخفيض التسلح تخفيضاً جزئياً . وفي ٣٠ تموز رفضت المانيا الاقتراح الروسي بعرض المشكلة على محكمة العدل في لاهاي .

وقد بدا ان الجماهير اصابها الدوار فعطل فيها كل قوة على التفكير الصحيح حتى ان الجماهير في باريس توهمت انها ترى في ٢/٨/١٩١٤ ، كوكب المشتري منطاد زبلن يحوم في سماء العاصمة الفرنسية .

ساد صمت عميق هاجز او مشارك جو الكنيسة
وكتب النصر للنزعات القومية والامبريالية

من الجميل ان يحارب المرء ويداه نقيتان والقلب بريء وان يضحي بحياته
مرضاة للعدل الالهي (لويس جيليه الى رومان رولان ، في ١-٨-١٩١٤)

يتمنى الجميع هذه الحرب من الصميم وهم راضون بالتضحية بدمائهم على هيكلها
(رومان رولان : يوميات سني الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨)

الخـــاتمـــة

١

من رمن الاوروبيين ألقى عام ١٩١٤ ، نظرة متمليـــة على اطلس جغرافي الا ان يكون تملكه الزهو وان رتكض نفسه غبطة وحبوراً ، عندما تبين المدى البعيد الذي بلغت اليــه سيطرته الاستعمارية . فهذه السيطرة تمتد فوق القارة الاوروبية بكاملها وتغمر اوقيانيا تقريباً وتشرف على نصف آسيا وعلى ربع القارة الاميركية ، بحيث تضم مع اوروبا ٦٠ ٪ من مجـــموع مساحة الاراضي غير المغمورة ، كما تضم ٥٠ ٪ من مجموع سكان الكرة الارضية . فهـــو يعرف معرفة اليقين انه قلما يقوم على الارض قطر أو صقع لا ينتفع ، بوجه أو بآخر ، من نشاطه . فهو لا ينكر قط ما تمّ للولايات المتحدة الاميركية من بأس وقـــوة متصاعدة لا يرى فيها الآن أي خطر على نفوذه وسيطرته ، كما انه لا يخشى قط من ان تتمكن اليابان ، بمـــا تم لها من سؤدد وسلطان ، من إرغامه على الانسحاب والانكفاء من اقطار آسيا الشرقية . عندما يتكفف الى نفسه ويجاوز الشوط الذي قطعه في مضمار التمدن خلال قرن من الزمن يخرج من إلتفاتته هـــذه راضياً كل الرضى عن هذه النتائج التي سجلها ولسانه يردد قائـلا : الذي مضى وانقضى هو في الصميم ، قرن اوروبا . وعندما تنطّ الى خاطره تنبؤات ملطوس التشاؤمية ، تعاربـــه هزة بحبورية ، بأن حدثان الزمان جاءت تكذبها وتظهر بطلانها . فلم رزل يوماً هذه القارة بمثـــل ما رفلت به اذ ذاك من السكان ، اذ بلغ عددهم ٤٠٠ مليون بعد ان كانوا ٢٠٠ مليون ، عام ١٨١٥ كما انها لم تتمتع يوماً بمثل ما تتمتع به عام ١٩١٤ من مستوى عيش رفيع.

وما عسى ان تعتزم اوروبا تقديمه للعالم ؟ توحيده بحيث تتوفر للجنس البشري حياة افضل، وبحيث تستطيع هي ان تتحكم بالقدر الغاشم الذي قيض لها وفرة النسل وكثرة الناس في مثل هذه الرقعة الضيقة كما راحت تستذيق هذه الحضارة المرفهة . والحال ، فقد نهضت ، على خير وجه واوفر نشاط ، بالرسالة التي اضطلعت بها ، واوشكت ان تفرغ من عمليـــة استكشاف الكرة الارضية واقتسامها فيما بينها . فلم تعد البحار لتؤلف ، في القرن الثامن عشر ، عقبة تحد من مواصلاتها ، وتم لها منذ ذلك الحين اقتسام هذه القارات . فاذا ما توارت عن الانظار هذه الامبراطوريات الاستعمارية التي توصلت دول شبه الجزيرة الايبرية، الى انشائها، استطاع الغير من

هذه الامبراطوريات ان يوسع اصوله ويعرق في الارض . فالمغامرة الروسية ترتدي مقاييس اورآسيا كما ان السيطرة الفرنسية إتسمت بطابع عالمي . الا ان الانجازات الانكلوسكسونية التي اقتضت جهوداً جبارة تثير الفخر والاعجاب ،امنت للعرق الانكليزي امبراطورية استعمارية لم يعرف التاريخ لها مثيلا . من جهة انكلترا التي سيطرت على امبراطورية افترشت ۳۳ مليون كيلومتر مربع ، وضمت ٥٠٠ مليون نسمة ، ضمت في ما تضمنته اجزاؤها المقومة ، قارات بعرضها وطولها وسيطرت على معظم المواقع الستراتيجية الهامة ؛ ومن جهة ثانية ، الولايات المتحدة الاميركية، هذه الكتلة الضخمة التي تنعم بموارد لا حدّ لها ولا حصر : عملاقان جاءا على نسبة ما تم لهما من وسائل النقل الحديثة .

والمهم في هذه كله انتقال البضائع والافكار حتى والبشر ، اذا ما دعت الحاجة القصوى الى ذلك. وهكذا أخذت هذه الكرة الارضية تضيق على اهلها في هذا الوقت بالذات الذي أخذت تطل علينا هذه العوالم الفلكية والعوالم الأخرى المتناهية الصغر . ولم يكن في مقدور غوتيه ان ينتقل بأسرع ما تم لأرسطو . فاذا بالآلة البخارية تطلع علينا فجأة ، ولم تلبث ان طبعت العصر بطابعها ، كما يؤكد برغسن وأخذت في تصنيف جديد للمدنيات ، واضعة في المرتبة الدنيا هذه الكيانات الدولية التي لا تزال تعول في نشاطها الحياتي على العضل المفتول والهواء المتحرك . فالسيطرة ، والحالة هذه ، هي من نصيب هذه الشعوب التي تسيطر على هذا الشريط الجغرافي الضيق من الاراضي الغنية بالفحم الحجري ، الذي يمتد من بنسلفانيا الى الدونانز ، كما ستصبح بعد لأي قصير من نصيب البلدان التي افاضت عليها الطبيعة ، ثروات معدنية ، طاقة من الحديد والفولاذ ، أي المعمل الذي ينهض على المنجم ويعتمد عليه . كل هذا يضفي على العصر « رسالة » يوليها ميثال شفالييه طابعاً إلزامياً ، مصيرياً ، ربانياً ، وبعبارة أخرى ، صناعياً .

وبجمل القول وبكلمة واحدة : وفرة الانتاج ووفرة وسائل العيش والسكن وتنوع نماذج اللباس ، وانتاج المجموعات الذي يوجب التقيد بالكمية السوية وحشد القوى العاملة ! وقد خرج من احتياطي الريف في اوروبا تياران قويان في حركة الاغتراب : الاول النزوح الى المدينة والثاني : الهجرة باتجاه الاميركتين والاقطار الجنوبية الأخرى المعروفة باعتدال مناخها . وهكذا اطل على المجتمعات المدنية عهد من التطور الفاصل ، بينما برز في الريف سواء منه في اوروبا أو في هذه البلدان الجديدة ، مجتمعات ريفية اضافية تسهر على تأمين اسباب العيش المجتمعات الاولى التي تسلمت بنشاط وحماس قيادة العالم وتوجيهه . وقد برزت لندن ، بين عواصم الدنيا الكبرى : اكبر مرفأ واكبر مركز تجمع لرأس المال في العالم كله . فهي عاصمة أوسع وأغنى امبراطورية على كرتنا الارضية فالبضائع على انواعها تروح وتجيء في كل مكان مع تداول العملة بحرية وسهولة السيولة . فسياسة حرية التجارة التي نهجت نهجها عاصمة المال،قابلها في الطرف الآخر ، استقرار العملة . فالذهب يتدفق على اسواق اوروبا من منابعه الثرية : بونت موروغان ، ومن الجبال الصخرية والراند ، كما ان الاصفر الرنان يضمن نجاح المشروعات

الكبرى التي ينهض بها البيض ، في الوقت الذي تتدفق فيه على الهنـد وآسيا الصفراء عملات الفضة . والبركة ترفرف فوق رأس المال الآخذ بالتنافس لا يتهيب أية مغامرة ولا يرتد كليلا عن أي مشروع مهما ضخم ، فليس من يشك أو يتشكك بامكاناته وطاقاته التي لا حد لها .

فالحلم الذي راود العالم وعلله بطلوع حياة ملؤها الهناءة والسعادة اصبح تحقيقه على قـاب قوسين وادنى . فبعد ان تمت للانسان السيطرة على القوى الطبيعية العابثة وسخرها لخدمته ، نراه يزداد رفاه وعافية بعد ان راح يتقصى اسباب المرض وعرف كيف يمط حبل الحياة . فبامكان التربية والعلم الاتيان بالعجائب المدهشة والقضاء على الاوهام والمخاوف الصبيانية التي عشعشت في الاذهان . انظر الى الخدمات الجلى التي افاضها الورق والطباعة على الادارة الحكيمة المدبرة . والجريدة المسلية والكتاب المهذب ، والشعور المتزايد بالتضامن والتضافر بين الافراد والجماعات. كل هذا وما اليه اخذ بالازدياد ولن تلبث فكرة الحرب ذاتها ان تصدم ادب العصر ، بعد ان وثقت الروابط التي شدت الشعوب بعضاً الى بعض . فبينا تأخذ الآلة العبدة محلا لهـا اكبر في خدمة الناس لا تلبث ان تصبح العبوديات على انواعها ، اثراً بعد عين ، في كل من اوروبا واميركا ، كما اخذت القهقرى في المناطق الاخرى .

فانجيل الحرية ينتشر حاملا الى الجميع بشرى انفتاح الشخصية البشرية وازدهارها. فالحملون الجدد، وهذه الوجوه التي هي مـلء العين والسمع ، أطلت من بين صفوف السوقة في الامس ، وطلعت من بين ابناء الطبقة الثالثة ، ثم ابناء هذه الطوائف وهذه الجماعات التي رزحت طويلا تحت الضغط والاضطهاد كالبنائين الاحـرار ، والمشاقين واليهود ، اي من الفوا عصر روتشيلد وعصر ماركس ، هـذا العصر الذي كان اينشتاين خاتمته . والتسامح يسير جنباً الى جنب مع استثمار الطاقات والامكانات الخصبة . وهذا الايمان المبلّغ-مسيحيا كان ام علمياً - الذي يجيش به ربع العالم ، يعمل جاهداً ، على تهذيب وصقل الثلاثة الارباع الباقية . فجاءت روح جوريس بالتفاؤل « هذا التفاؤل الملكي » كما ينعته بيغي ، كما جاءت به روح روكفلر وهو يردد : « انا لست متشائما . لي كل الثقة بالانسان والاخوة الانسانية » .

وهذا لا يعني قط ولا يفيد مطلقاً ان الحضارة المشتركة تؤدي بالضرورة الابداع الفكري : فحرية الفكر تخصب الابتكارات والابداع العقلي والفني التي قد تعبر احياناً عن التوق الى الانفلات والانطلاق . فاوروبا لا تتخلى ولا تتقاعس في هذا المجال لانها تنشد الخلق وتصبو الى الابتكار والابداع في المجالات كلها . فالتجدد عندها لا ينقطع كما ان التنوع على اشده . فمنها إشتدت وشائج الرومنطقية ، بالقرن الثامن عشر من وجوه عدة ، فقد اطلقت ، بعد ان دارت ظهرها للحركة العقلانية ، مشاعرها واحاسيسها المتأججة ، قبل طلوع عصر البخار وبروز البورجوازية الرأسمالية . هذا هو مرض العصر بالنسبة للمصير الطالع.راحت الواقعية والطبيعية وركز نظرها على حضارة الحديد وحضارة الذهب ، في الوقت الذي سارت فيه العلمية قـدماً تشع على الناس املا ورجاء،كما راحت الفلسفة الوضعية،من جهتها تقترح على البشرية عبادة الذات.

الا ان المندية او ملعب النائية بقيت متمسكة بحقوقها . فبعد ان جرى إقصاؤها مدة عن المسرح ، عاودتها القدرة على التعبير من جديد ، وذلك عندما حدثت الردة اللاجبرية ، في هذا الوقت بالذات الذي وقع فيه تداعي التأكيدات المثالية .

وبالفعل فقد اخذت الحرية الفكرية في اوروبا تبدي عوارض الضعف في اواخر القرن الذي توقعت منه اوروبا ان يطلع عليها بما فيه شفاء غليلها واشباع اطماعها . فقد برز برغسون وانشتاين بعد افول نجم كلود برنار وبرتلو . كان من اللازم هضم واستمراء المكتشفات العلمية وتحديد المفهوم الصحيح للتطور .

٢

هذه الحضارة التي تبهى بها اوروبا وتفتخر ، لا يمكن ان تخفي ، بما لها من سحر وفتنة ، قسمات سحنتها الحربية، حتى في سنغافورة وفي هونغ كونغ حيث يتوارى الجندي وراء التاجر . فهي تمسك بهذه الجزيرة الصغيرة التي احتلتها غلاباً وتشكل دملا او خراجاً في قلب مدنية تلك البلاد الوطنية ، تتبرم منه وتضيق به ذرعاً . هنالك حضور مشترك – كما ينم عنه الوضع في كل من الهند وافريقيا – او في اميركا الشمالية وأستراليا ، حيث تجري تصفية « المتوحش » بكل بساطة . ففي رسائل امفاره، يبدو لنا كبلنغ ، المثال الاكمل لهذا المستعمر البريطاني الذي يتجافى الملونين ، ولا يتردد الا على ناديه المفضل ومجتمعه الاثير . صحيح ان الاوروبي يسخو في أعطياته ويرحب بكل مساعدة او مشاركة موالية كما يتمناها ويحدث عن مشاريعه الاستثمارية وعن الارباح المتدفقة التي يجنيها ، الا انه يشترط ، قبل كل شيء ، اساساً للنجاح ، الامتثال لتوجيهاته والعمل بها بكل دقة . ينشر لواء السلام ولا يتورع عن فرضه بالقوة . هو دوماً في حديث عما يجلب الخير للمستعمرة ، انما تجهيزها مربوط اصلا بمقتضيات مصلحته الخاصة . فاذا ما راح ينشر بشارة الانجيل وتعاليم السيد المسيح فلايمانه الوطيد انه يعمل على نشر مبادىء اخلاقية وادبية سامية . فاذا ما باع اصنافاً وسلعاً مصنوعة في اوروبا ، فلانه يعتقد بفائدتها للشاري وباهميتها له . يحز في نفسه ان يرى انه غير مقدر ، ويشعر بانه غير محبوب ، ولذا يروح ينعت الناس بالجحود ونكران الجميل . فاذا لم يعمل ، عامداً ، على نشر الامراض التي كثيراً ما عانى منها كالسفلس والتدرن الرئوي ، واذا لم يعمد ، عن سابق قصد وتصميم ، الى انهاك التربة ، فلم يجيء ركونه الى السخرة والعمل الاجباري وحرصه على الاتجار ، بالكحول عملا بغير وعي منه او شعور ، بل جاء إشباعاً لمطامعه الاشعبية . كم من هذه المدنيات التي وُصفت تافهة او متخلفة، هُدرت واستبيحت على مذبح الحضارة المتطورة ؟

وهذه الانقلابات الواسعة التي قام بها العرق الابيض لا يمكن ادخالها في رصيد حساب اوروبا . فالمستعمرات الاوروبية الجديدة لم تلبث ان وعت إصالتها . فقد شهد القرن التاسع عشر ، عن

كتب ، التطور السريع الذي اخذت بأسبابه الممتلكات الانكلوساكسونية ، فيأما تلعب الدور الذي ستلعبه فيا بعد كدول كبرى ، واضعة نصب اعينها مثال الولايات المتحدة الاميركية التي كانت بمثابة بوتقة لجنس من البشر ، عرف بروحه المغامرة وبجبروته ، توفر له من الخامات والموارد الاولية الطائلة ما جعله يعقد الآمال الطوال على تحقيق مستوى رفيع من العيش الكريم الهنيء ، دونه ما تم منه لاوروبا القديمة التي ترزح تحت وطأة كثافة عالية ، من السكان كا ترزح تحت تقاليدها المرعية . فمنذ عام ١٩١٤ ، سارت اميركا الشمالية في طليعة الركب الحضاري ، بنشاطها الصناعي الزاخر ، واخذت تشرئب باعناقها ، نحو القيادة والرئاسة . وبالرغم من ان الدومنيونات البريطانية الاخرى لم يتم لها ما تم للولايات المتحدة ، فقد راحت مع ذلك ، تنظر الى حكومة لندن نظر الند للند ، بينما اخذ يبرز من بين دول اميركا اللاتينية ما يبشر بقرب طلوع امبراطوريات جديدة كالبرازيل والارجنتين والمكسيك ، التي وان خشنت منها الملامس ، يدب فيها دم الشباب الحار . ومن رأس هورن الى ريو غراندبه دي نورته ، يبسم الحظ ، من هنا ومن هناك ، امام الخلاسي او امام الهندي الاحمر ، بعد ان دقت عنده ساعة الثأر والانتقام لنفسه .

اما العالم الاسود فهو في خنوعه واستسلامه يلثم اقدام المنتصر . وهذا الاسلام المنكمش ، لم يفقد شيئاً من ايمانه واماني ، وآسيا الشرقية التي لا تقل عنه انكماشاً وغموضاً ، تأبى هي الاخرى ، الخضوع والاستسلام لهذا البربري الابيض ، . لم تر قط من المغرب الى المحيط الهادي وشائج بمثل هذه المتانة كالوشائج التي شدت بعضاً الى بعض ، مدنيات تفخر بأمجادها الماضية وربما تم لها من ترف . كذلك لم تر قط ادلة اقطع وحججاً ادمغ على ما يقوم من تناقض مطلق بين عقليتين وذهنيتين لمفهوم الحياة . فالموقف يختلف تماماً عند مواجهة الغرب ، باختلاف المكان واختلاف الظروف . فالموقف يتراوح بين السلبية الصامتة ، نصف المستسلمة ، المستطية ، وبين الثورة المكشوفة . فيا هي اليابان ، ومثلها بنتصب امامنا ، تستمد من الحضارة الصناعية ومن التقنية ما تختبيان من امكانات وطاقات لتحسين وسائل الدفاع عن استقلالها الغالي . انه لدرس بليغ فيه كل العظة والعبرة ، اذ ان اسلحة الرقي والتطور ، ترتد في آخر الامر الى وجه من اتقنها وشحذها .

فالفوز بآسيا والفوز بالاسلام يقتضي له اساساً السيطرة على روح آسيا وعلى روح الاسلام والتصرف بها . ولكن ما العمل وها هي اوروبا منقسمة على ذاتها ، تتناوش دولها وتتهارش ، فأعمت الاحقاد قلوبها . فمها بلغ من تطور البروليتاريا فيها ، فهي اشبه ما تكون ضحية نظام يقوم على الظلم الاجتماعي : حرية غرارة ، كاذبة ، تحول دون توزيع المواد الغذائية ، توزيعاً عادلاً ، ضمن « المساواة » الاخرى ، التي نزلت بها — الكلمة للويس جيليه — فالروح القومية التي جاشت فيها ، غدت ، بالرغم من مرور مائتي سنة من السلام الموصول ، إلهامات ضارة ، بعد ان عجزت اية سيطرة من اي لون كانت : فرنسية او انكليزية او روسية او المانية ، عن ان تضع لها حداً ، وانزياح السيطرة الى المانيا التي اخذت تنمي سوء حظها وقسمتها الضئرى

لما تم لها من موقع جغرافي ، اثار ما هو اشد هولاً على السلام ، بعد ان خيم على القارة، وزرح على كلكلها ، شبح التسلح المضني ، المومن الذي مكنت له المدنية الصناعية . والحياز دول العالم الى المعسكرين القائمين في اوروبا ، الذي جاء نتيجة حتمية لاتساع رأس المال والروح الاستعمارية المستعصية ، يقدم لنا مشهداً لهذا العالم الذي يكافح ضد استعمار اوروبا، وهو كفاح جاء يخدم في نهاية الامر الروح الاستعمارية في اميركا واليابان معاً .

وهكذا نرى العالم نفسه امام رهنين فكيف السبيل الى رفعها ؟ وهكذا نزلت بالعقل الاوروبي ازمة اخذت بخناقه عند مطلع قرن جديد كل دلائلها تنذر بمصاعب جديدة .

« وهذه الهرطقات العصرية » ، « لا تزال الكنيسة ، ولا سيما الكاثوليكية منها ، تشجبها بعنف ، في المرتبة الاولى منها هذا الاعتداد الفاجر ، العاري من كل قيد ، على العقل البشري ، هذا الفجور المساوي لخطيئة الكبرياء . الا ان رفض الاخذ بالعنف ، وبعبارة اخرى ، المحبة ، محبة القريب وغير ذلك من هذه الروحانية ، التي اخذ المسيحي يتلمسها في الكتاب المقدس ، تؤلف شيئاً واحداً مع تعاليم الهند ، مع هذا الذي يسميه غاندي «*Ahimsa*» اي « اقصى حدود التواضع » . فبينا يتجه ، هذا الانسان – نيتشه – الى الحكمة القديمة ، هذا الرجل الذي يعلن على رؤوس الاشهاد « جدب القرن التاسع عشر الجذري » ، يتمنى لو يطلع علينا نموذج بشري اقوى واكمل ، اخذت اوروبا تطالب بحقوق الفكر ، بعد طغيان الروح المادية الجارف ، التي أسيء فهمها . وهل لفظ ، يا ترى ، الاقتصاد الحر ، كلمته الاخيرة؟فربابنة هذا الاقتصاد وكبار المساهمين فيه نظروا الى انفسهم نظرة ربان سفينة اشتدت العاصفة حولها . فاذا بالماركسية تطل وتنمو وتتسع ، واذا بصوت جوريس يجلجل ويطغو على صوت لينين مبشراً بطلوع مجتمع لا اثر فيه للطبقات .

صحيح ان نبوغ الغرب الخلاق لم يدال قط ولم يتب ، لا المركز الاجتماعية الفائقة ولا هذه الاستعدادات لحرب تحمل في طياتها الفناء والدمار . فأخذ ينقل الى اقصى حد هذه الاختراعات التي حققها في مجال الكهرباء والضوء ، كالمصباح الكهربائي والدينامو والسينما والتلغراف اللاسلكي ، ثم استنبط الغواصة والسيارة والطائرة ، ونفذ الى اسرار الذرة ، وانفتحت امامه اسرار الفضاء الزمني واسرار النسبية . وطلعت علينا ثورة جديدة في مجالات العلوم والتقنية بعد هذه الاكتشافات التي تناثرت حباتها طوال القرن التاسع عشر والتي كان من شأنها ان وطدت نفوذ اوروبا .

وما عسى ان يكون مصير اوروبا هذه عندما تندلع شرارة الحرب العالمية الاولى ؟ فراح بول فاليري يتساءل : « ابقي لنا اوروبا ، كما كانت دوماً لنا ، هذه اللؤلؤة الثمينة في عالمنا الارضي ، جوهرة هذه الكرة ، والدماغ النابض في هذا الجسم الجبار » . فنحن امام نوع من الاعجوبة ، لم نشهد لها مثيلاً منذ بضعة اجيال ، هذه الاعجوبة التي يمكن للقدر الغاشم، المهدد المزمجر ، ان يضع حداً لها .

لم يذكر في هذا الجدول سوى عدد محدود من المؤلفات التي اختيرت من كل ما هـــو حري باستيقاف انتباه القارىء الراغب في الاستزادة . ولم تذكر بصورة عامة المؤلفات الموضوعة بلغة غير الفرنسية . الا ان كتب الدراسة في معاهد التعلم العالي توفر مراجع اكثر تفصيــلا وعرضاً للاحداث اكثر توسعاً . ونقصد هنا بصورة خاصة :

LA COLLECTION «Clio» (Paris P.U.F.) t. IX, l'Epoque Contemporaine : I Restaurations et Révolutions(1815-1871), par J. DROZ, L. GENET et J. VIDALENC (2e édit; 1963); **La paix armée et la Grande Guerre (1871-1919)**, par P. RENOUVIN, E. PRECLIN et G. HARDY (2e édit., 1947).

LA COLLECTION «Peuples et Civilisations» (Paris, P.U.F.), dirigée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC : t. XV, **L'éveil des nationalités et le mouvement libéral** (1815-1848), par G. WEILL, 1930 (réed. F. PONTEIL, 1960); **Démocratie et Capitalisme** (1848-1860), par Ch. H. POUTHAS (2e édit; 1948); **Du libéralisme à l'impérialisme** (1860-1898), par H. HAUSER, J. MAURAIN, P. BENAERTS (2e éd., révisée et refondue par F. L'HUILLIER, (1952); **L'essor industriel et l'impérialisme colonial** (1878-1904), par M. BAUMONT (2e éd., 1949); **La crise européenne et la première guerre mondiale**, par P. RENOUVIN (4e éd., 1962).

LA COLLECTION «NOUVELLE CLIO» (Paris P.U.F.): **L'expansion européenne (1600-1870)**, par F. MAURO (Paris, 1964); **L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales** par J. B.

L'Histoire générale de la civilisation d' L'Amérique anglo-saxone de 1815 à nos jours par C. FOHLEN (L'homme (Paris, Colin, 1960) par Ch.

مؤلفات عامة

L'Essai sur la civilisation d'Occident. L'home (Paris, Colin, 1960) par Ch. MORAZE.

L'Histoire générale de la civilisation d'Colin, 1959) du même auteur.

L'Histoire générale de la civilisation d'Occident de 1870 à 1950. I. 1870-1914, par J. CHAPPEY (Paris, Presses Universitaires, 1950);

Les grands courants de l'histoire universelle par J. PIRENNE (Paris, Albin Michel) : IV de la Révolution Française aux Révolutions de 1830 (1951); V. de 1830 à 1904 (1953); VI (1955) et L'Histoire Générale Contemporaine du milieu du XVIII° siècle à la deuxième guerre mondiale par F. FONTEIL (Paris, Dalloz, 1951).

La terre et l'évolution humaine (Paris, Albin Michel, réed. 1949) par L. FEBVRE.

Les fondements de la géographie humaine, 3 tomes (Paris, Colin, 1943-1952) par MAX SORRE.

Principes de géographie humaine (Paris, Colin, 1922), par VIDAL DE LA BLACHE.

Nouvelle géographie universelle ,19 vol. (Paris, 1875-94), par E. RECLUS.

Atlas historique et géographie VIDAL DE LA BLACHE (Paris, Colin).

Atlas de géographie historique SCHRADER et CALLOUEDEC (Hachette).

Atlas du monde chrétien par A. FREITAG (Paris, Elsevier, 1959).

Nouvel Atlas historique par P. SERRYN, H. MARC-BONNET et BLASSELLE (Paris, Bordas, 1961).

التوسع الاوروبي

G. LE GENTIL, **Découverte du monde** (Collection «Pays d'Outre-Mer», P.U.F. 1954).

J. ROUCH, P.E. VICTOR et HAROUN TAZIEFF, **Histoire universelle des explorations** (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1956).

R. CLOZIER, **les étapes de la géographie** (Paris, P.U.F., 1942).

G. HARDY, **La politique coloniale et le partage de la terre aux XIX° et XX° siècles** (Paris, Albin Michel 1937).

B. DE VAULX, **En Afrique : Cinq mille ans d'exploitation** (Paris, A. Fayard, 1960).

J. STENGERS, **Belgique et Congo : L'élaboration de la Charte coloniale** (Bruxelles, la Renaissance du Livre, 1963).

H. BRUNSCHWIG, **l'Expansion Allemande outre-mer du XV° siècle à nos Jours** (Paris, P.U.F., 1957).

J. TRAMOND et A. REUSSNER, **Eléments d'histoire maritime et coloniale contemporaine** (1815-1914) (Paris, Société d'Editions géographiques, 1924).

A. SIEGFRIED, **Suez, Panama et les routes maritimes mondiales** (Paris Colin, 1941).

G. HANOTAUX et A. MARTINEAU, **Histoire des colonies françaises et de l'expansion française dans le monde**, 6 vols. (Paris, Plon, 1930-34).

توسع فرنسا

H. BLET, **Histoire de la colonisation française**, t. II et III (Paris, Arthaud, 1947-1950).

H. DESCHAMPS, **Méthodes et doctrines coloniales de la France** (Paris, Colin, 1953).
R. DELAVIGNETTE et Ch. A. JULIEN, **Les constructeurs de la France d'Outre-Mer** (Paris, Corréa, 1946).
H. BRUNSCHWIG, **Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, 1871-1914** (Paris, Colin, 1960).
J.P. FAIVRE, **L'expansion française dans le Pacifique entre 1800 et 1842** (Thèse, Paris, 1953).

تطور التقنيات

P. ROUSSEAU, **Histoire des techniques** (Paris, A. Fayard, 1956).
P. DUCASSE, **Histoire des techniques** (Paris, P.U.F., 1942).
VIERENDEEL, **Esquisse d'une histoire de la technique, 2 vols,** (Bruxelles, Vromant, 1921).
H. PASDERMADJIAN, **La deuxième révolution industrielle** (Paris, P. U. F., 1959).
LEWIS MUMFORD, **Technique et civilisation** (Paris, Ed. du Seuil, 1950).
P. DES ROUSIERS, **Les grandes industries modernes, 5 vols.** (Paris, Colin, rééd. 1930).
L. GUILLET, **Les étapes de la métallurgie** (Paris, P.U.F., 1942).
D. FAUCHER, **Le paysan et la machine** (Paris, Ed. de Minuit, 1954).
H. FAUCHER, **La houille blanche,** (Paris, Colin, 1946).
P. ROUSSEAU, **Histoire de la vitesse** (Paris, P.U.F., 1942).
L.M. JOUFFROY, **L'ère du rail** (Paris, Colin, 1953).
A. THOMAZI, **Histoire de la navigation** (Paris, P.U.F., 1942).
J. GODECHOT, **Histoire de l'Atlantique,** (Paris, Bordas, 1947).
R. CHAMBE, **Histoire de l'aviation,** (Paris, Flammarion, 1949).
G. WEILL, **Le journal,** (Paris, Albin Michel, 1934).
LO DUCA, **Histoire du cinéma,** (Paris, P.U.F., 1942).

التطور الاقتصادي والرأسمالية

J. MAILLET, **Histoire des faits économiques des origines au XXe siècle** (Paris, Payot, 1952).
J. A. LESOURD et C. GERARD, **Histoire économique XIXe et XXe siècles,** (Paris, Colin, 1963).
A. PHILP, **Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours** (Paris, Aubier, 1963).
J. FOURASTIE, **Le grand espoir du XXe siècle** (Paris, P.U.F., 1952).
J. LACOUR-GAYET, **Histoire du commerce, t. III, IV, V** (Paris, Spid, 1951-1952 - 1953).
H. ARDANT, **Les crises économiques** (Paris, Flammarion, 1948).
JOHAN AKERMAN, **Structures et cycles écolnomiques** (Paris, P.U.F., 1955-57, 2 vol; paru en Suède en 1944).

F. MAURETTE, Les grands marchés de matière première (Paris, Colin, 1940).
H. PEYRET, La lutte pour les denrees vitales (Paris, P.U.F., 1942).
H. PEYRET, La Bataille des trusts (Paris, P.U.F., 1943).
W. SOMBART, L'apogée du capitalisme, 2 vol. (Paris, Payot, 1932).
F. STERNBERG, Le conflit du siècle. Capitalisme et socialisme à l'épreuve de l'histoire (Paris, Club français du Livre, 1960).
J. HALPERIN, Les assurances en Suisse et dans le monde (Neuchâtel, La Baconnière, 1945).
M. AUGE-LARIDE, La révolution agricole (Paris, Albin Michel, 1955).

المسائل والآراء الاقتصادية والاجتماعية

L. CHEVALIER, Démographie générale (Paris, Dalloz, 1951).
M. REINHARD et A. ARMENGAUD, Histoire générale de la population mondiale (Paris, Monchrétien, 1961).
A. SIEGFRIED, Itinéraires et contagions. Epidémis et idéologies, (Paris, Colin, 1960).
H.A. CITROEN, Les émigrations internationales (Paris, Librairie de Médicis, 1948).
J. LAJUGIE, Libre-échange et protectionnisme (Paris, P.U.F., 1963).
G. LEFRANC, Histoire des doctrines sociales dans l'Europe contemporaine (Paris, Aubier, 1960).
E. HALEVY, Histoire du socialisme européen (Paris. Gallimard, 1948).
H. ARVON, Le marxisme (Paris, Colin, 1955).
A. CORNU, Karl Marx et Frederich Engels (Paris, P.U.F., 1955-58, 2 vols. parus).
A. PIETTRE, Marx et le marxisme (Paris, P.U.F., 1955-58.
H. CHAMBRE, De Karl Marx à Mao-Tsé-Tung (Paris, Spes, 1959).
J. DUCLOS, La Première Internationale (Paris, Ed. sociales, 1964).
A. KRIEGEL, Les Internationales ouvrières (Paris, P.U.F., 1964).
G. HAUPT, L'Internationale socialiste 1889-1914). Etude de sources. Essai bibliographique (Paris-La Haye, Mouton, 1946).
P. VAN DERESH, La deuxième Internationale 1889-1923 (Paris, Rivière, 1957).
Th. RUYSSEN, Les sources doctrinales de l'Internationalisme, t. III (Paris, P.U.F., 1961).
A. SERGENT et C. MANUEL, Histoire de l'anarchisme, 2 vols, (Paris, Le Portulan, 1956).
G. LEFRANC, Le Syndicalisme dans le monde (Paris, P.U.F., 1949).
E. DOLLEANS, Histoire du mouvement ouvrier, 3 vols. (Paris, Colin, 1936-1947-1954).
G. MARTIN, Histoire de l'esclavage dans les colonies françaises (Paris, P.U.F. 1948).
E. TERSEN, Victor Schoelcher, Esclavage et colonisation (Paris, P.U.F.,

1946).
R. AIGRAIN, Histoire des Universités (Paris, P.U.F., 1949).
H. VAN EFFENTERRE, Histoire du scoutisme (Paris, P.U.F., 1947).
B. GILLET, Histoire du sport (Paris, P.U.F., 1949).

التيارات الدينية والفلسفية

A. FLICHE, et V. MARTIN, Histoire de l'Eglise.
J. LEFLON, La crise révolutionnaire, 1789-1846 (Bloud et Gay, 1940).
DANIEL-ROPS, l'Eglise des Révolutions; I : En face de nouveaux destins (Paris, A. Fayard, 1960).
R. AUBERT, Le pontificat de Pie IX (Paris, Bloud et Gay, 1949-1952).
Ch. LEDRE, Un siècle sous la tiare : De Pie IX à Pie XIII (Paris, Amiot-Dumont, 1955).
H. MARC - BONNET, La papauté contemporaine (Paris, P.U.F., 1946).
H. MARC - BONNET, Histoire des ordres religieux (Paris, P.U.F., 1949).
J. M. SEDES, Histoire des missions françaises (Paris, P.U.F., 1950).
Mgr. DELACROIX et Collaborateurs, Histoire universelle des missions catholiques; t. III : Les missions contemporaines, 1800 - 1957 (Paris, Grund, 1958).
R. LAURENTIN et Dom B. BILLET, Lourdes, documents authentiques (Paris, Lethielleux, 1958, 4 vol.).
E. G. LEONARD, Histoire du protestantisme (Paris, P.U.F., 1950).
E. G. LEONARD, Histoire générale du protestantisme (Paris, P.U.F., t. III, 1964).
A. CHOURAQUI, Histoire du judaisme (Paris, P.U.F., 1957).
E. BREHIER, Histoire de la philosophie, t. II. (Paris, P.U.F., 1932).
P. DUCASSE, Les grands philosophes (Paris, P.U.F., 1942).
G. BOUTHOUL, Histoire de la sociologie (Paris, P.U.F., 1950).
A. BAYET, Histoire de la libre pensée (Paris, P.U.F., 1959).

الحركة العلمية

P. ROUSSEAU, Histoire de la science (Paris, A. Fayard, 1945).
S. F. MASON, Histoire des sciences (Paris, A. Colin, 1956).
R. TATON, et Collaborateurs, Histoire générale des sciences; t. III : La science contemporaine (Paris, P.U.F., 1961).
M. DAUMAS et Collaborateurs, Histoire de la science (Paris, Gallimard, 1957).
P. MARCHAL, Histoire de la géométrie (Paris, P.U.F., 1943).
O. BECKER et J. HOFMANN, Histoire des mathématiques (Paris, Lamarre, 1956).
M. BOLL, Les étapes de la mécanique (Paris, P.U.F., 1943).
P. COUDERC, Les étapes de l'astronomie (Paris, P.U.F., 1943).

P. GUAYDIER, Les étapes de la physique (Paris, P.U.F., 1950).
M. CAULLERY, Les étapes de la biologie (Paris, P.U.F., 1941).
E. MAY, La médecine, son passé, son présent, son avenir (Paris, Payot, 1958).
LECENE, L'évolution de la chirurgie (Paris, Masson, 1923).
J. CUEILLERON, Histoire de la chimie (Paris, P.U.F., 1957).
L. LEPRINCE-RINGUET, Grandes découvertes du XX' siècle (Paris, Larousse, 1956).

الحركة الادبية والفنية

Encyclopédie française publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. XVI t. XVII, Arts et littératures dans la civilisation contemporaine; t. XVIII, La civilisation écrite (Paris, Larousse, 1935-1939).
P. VAN TIEGHEM, Histoire littéraire de l'Europe et de l'Amérique, de la Renaissance à nos jours (Paris, Colin, 1941).
R. AYRAULT, La genèse du romantisme allemand (Paris, Aubier, 1960).
A. BEGUIN, l'âme romantique et le rêve (Corti, 1963).
R. M. ALBERES, L'aventure intellectuelle du XX' siècle, 1900-1950 (Paris, Albin Michel, 1959).
L. HALPHEN, Histoire et historiens depuiscinquante ans : 1867-1925, 2 vol. (Paris, P.U.F., 1927-1928).
P. LAVEDAN, Histoire de l'art: Les faits et les doctrines (Paris. P. U. F., Collection «Clio», 1944).
L. REAU, Histoire universelle des arts, t. III et V (Paris, Colin, 1936).
L. HAUTECOEUR, Histoire de l'art; t. III : De la nature à l'abstraction (Paris, Flammarion, 1959).
A. FOCILLON, La peinture aux XIX' et XX' siècles, (Paris, Lamens, 1927).
L. REAU, L'ère romantique, Les arts plastiques (Paris, Albin Michel, 1949).
E. DEKEYSER, L'Occident romantique, 1789-1850 (Skira, 1965).
P. COUTHION, Le romantisme (Skira 1961).
P. FRANCASTEL, L'impressionnisme, (Paris, Les Belles-Lettres, 1937).
M. SERULLAZ, L'impressionnisme (Paris, P.U.F., 1961); Le Cubisme, (Paris, P.U.F., 1963).
R. RAY, La peinture moderne (Paris, P.U.F., 1942).
LO DUCA, L'Affiche, (Paris, P.U.F., 1943).
E. VUILLERMOZ, Histoire de la musique (Paris, A. Fayard, 1949).
A. EINSTEIN, La musique romantique (Paris, Gallimard, 1959).
H. H. STUCKENSCHMIDT, Musique nouvelle (Paris, Corréa, 1956).
P. HUOT-PLEUROUX, Histoire de la musique religieuse, des origines à nos jours (Paris, P.U.F., 1957).
L. GUICHARD, La musique et les lettres au temps du romantisme (Paris, P.U.F., 1958).

التطور السياسي

Encyclopédie française, publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. X, **l'Etat moderne** (Paris, Larousse, 1935).

J. TOUCHARD et Collaborateurs, **Histoire des idées politiques**, t. II (Paris, P.U.F., Collection «Thémis», 1959).

M. DUVERGER, **Les partis politiques** (Paris, Colin, 1951).

G. E. LAVAU, **Partis politiques et réalités sociales** (Paris, Colin, 1953).

A. LATREILLE et A. SIEGFRIED. **Les forces religieuses et la vie politique** (Paris, Colin, 1951).

R. FUSILIER, **Les monarchies parlementaires, Suède, Norvège, Luxembourg, Belgique, Pays-Bas, Danemark** (Paris, Les Ed. Ouvrières, 1960).

العلاقات الدولية

P. RENOUVIN et J.B. DUROSELLE, **Introduction à l'histoire des relations internationales** (Paris, Colin, 1964).

J. DROZ, **Histoire diplomatique de 1648 à 1919** (Paris, Dalloz, 2ème Ed. 1959).

F. L'HUILLIER, **De la Sainte Alliance au Pacte Atlantique. Le dix-neuvième siècle, 1815-1898** (Neuchâtel Ed. de la Baconnière, 1954).

L. DE SAINTE-LORETTE, **L'idée d'une fédération européenne** (Paris, Colin, 1955).

M. N. DRACHKOVITCH, **Les socialismes français et allemand et le problème de la guerre (1870-1914)** (Genève, E. Droz, 1953).

E. CARRIAS, **La pensée militaire allemande** (Thèse, 1948).

J. U. NEF, **La route de la guerre totale** (Paris, Colin, 1949).

F. SCHNEIDER, **Histoire des doctrines militaires** (Paris, P.U.F., 1957).

H. COURSIER, **La Croix-Rouge internationale** (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا

Ch. SEIGNOBOS, **Histoire politique de l'Europe contemporaine. Evolution des partis et des formes politiques (1814-1914)** (Ed. 1924, Paris, Colin).

Ch. SEIGNOBOS, **Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe** (Paris, Rieder, 1938).

B. CROCE, **Histoire de l'Europe au XIXe siècle** (Paris, Plon, traduction H. BEDARIDA, 1959).

A. SAUVY, **L'Europe et sa population** (Paris, Ed. Internationales, 1954).

G. WEILL, **L'Europe du XIXe siècle et l'idée de nationalité** (Paris, Albin Michel, 1938).

P. HENRY, **Le problème des nationalités** (Paris, Colin, 1937).

H. CONTAMINE, **L'Europe est derrière nous** (Paris, A. Fayard, 1953).

H. HEATON, **Histoire économique de l'Europe**, t. II (Paris, Colin, 1952).

A. DEMANGEON, Le déclin de l'Europe (Paris, Colin, 1920).
A. DEMANGEON et L. FEBVRE, Le Rhin, problème d'histoire et d'économie (Paris, Colin, 1953).
F. PERROUX, L'Europe sans rivages (Paris, P.U.F., 1954).
F. PONTEIL, 1848 (Paris, Colin, 1937).
E. TERSEN, Quarante-huit (Paris, Club Français du Livre, 1957).
J. DROZ, Les révolutions allemandes de 1848 (Paris, P.U.F., 1957).

فرنسا

E. LAVISSE, Histoire de France contemporaine, t. IV à VIII par CHARLETY et SEIGNOBOS (Paris, Hachette, 1921).
P. GAXOTTE, Histoire des Français, t. II (Paris, Flammarion, 1951).
G. DUBY et R. MANDROU, Histoire de la civilisation française, t. II (Paris, A. Colin, 1958).
Ch. MORAZE, La France bourgeoise (XVIII^{e} - XX^{e} siècles) (Paris, Colin, 1946).
G. DUPEUX, La société française, 1789-1900 (Paris, A. Colin, 1964).
F. PONTEIL, La monarchie parlementaire (Paris, Colin, 1948).
Ph. VIGIER, La monarchie de Juillet (Paris, P.U.F., 1962).
A. DANSETTE, Louis-Napoléon à la conquête du pouvoir (Paris, Hachette, 1961).
M. BLANCHARD, Le Second Empire (Paris, Colin, 1950).
G. BOURGIN, La Commune (Paris, P.U.F., 1953).
J. A. FAUCHER, La véritable histoire de la Commune (Paris, Atlantic, 1960, 3 vol.).
H. GUILLEMIN, Les origines de la Commune (Paris, Gallimard, 1950-1960, 3 vol.).
P. BOUJU et H. DUBOIS, La Troisième République (Paris, P.U.F., 1963).
H. REMOND, La droite en France de 1815 à nos jours (Paris, Aubier, 1964).
P. COMBE, Niveau de vie et progrès technique en France, 1860-1939 (Thèse, Strasbourg, 1955).
G. P. PALMADE, Capitalisme et capitalistes français au XIX^{e} siècle (Paris, A. Colin, 1961).
L. DUNHAM, La révolutions industrielle en France (1815-1848) (Paris, Rivière, 1953).
GIRARD, La garde nationale 1814-1871 (Paris, Plon, 1964).
J. L'HOMME,La grande bourgeoisie au pouvoir 1830-1880 (Paris, P.U.F., 1960).
G. WORMSER, La République de Clémenceau (Paris, P.U.F., 1961).
J. HOURS, Le mouvement ouvrier français (Paris, Ed. Ouvrières, 1962).
G. LEFRANC, Le Syndicalisme en France (Paris, P.U.F., 1953).
R. DAVAL, Histoire des idées en France (Paris, P.U.F., 1953).
R. GARAUDY, Les sources françaises du socialisme scientifique (Paris, Ed.

Hier et Aujourd'hui, 1948).
D. LIGOU, Histoire du socialisme en France (Paris, P.U.F., 1962).
G. LEPOINTE, L'Eglise et l'Etat en France (Paris, P.U.F., 1960).
E. CARRIAS, La pensée militaire française (Paris, P.U.F., 1960).
C. DIGEON, La criseallemande de la pensée française, 1870-1914 (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا الشمالية والشمالية الغربية

L. CAHEN, L'Angleterre au XIXe siècle. Son évolution politique (Paris, Colin, 1924).
E. HALEVY, Histoire du peuple anglais, 5 vol. parus (Paris, Hachette, 1913-1946).
A. J. BOURDE, Histoire de la Grande-Bretagne (Paris, P.U.F., 1961).
J. CHASTENET, Le siècle de Victoria (Paris, A Fayard, 1947).
L. CAZMIAN, L'Angleterre moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1928).
B. VAN KALKEN, Histoire de la Belgique et de son expansion coloniale (Bruxelles, Office de Publicité, 1954).
J. DHONT, Histoire de la Belgique (Paris, P.U.F., 1963).
E. VAN GELDER, Histoire des Pays-Bas (Paris, Colin, 1936).
L. KRABBE, Histoire du Danemark (Paris, Klincksieck, 1950).
SVANSTROM et PALMSTIERNA, Histoire de Suède (Paris, Stock, 1944).
P. JEANNIN, Histoire des pays scandinaves (Paris, P.U.F., 1956).

اوروبا الوسطى

J. ANCEL, Manuel géographique de politique européenne. L'Europe centrale, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1937 - 1940).
P. BENAERTS, Les origines de la grande industrie allemande (Thèse, Paris, 1933).
H. LICHTENBERGER, L'Allemagne moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1908).
J. DROZ, Le romantisme politique en Allemagne, (Paris, 1963).
E. VERMEIL, L'Allemagne contemporaine, sociale, politique, culturelle (Paris, Aubier, 1953).
J. DROZ, Histoire de l'Autriche (Paris, P.U.F., 1947).
J. ANCEL, Slaves et Germains (Paris, Colin, 1939).
R. AUERBACH, Les races et les nationalités en Autriche-Hongrie (Paris, Alcan, 1917).
L. EISENMANN, Le compromis austro-hongrois de 1867 (Thèse, Paris, 1904).
E. TERSEN, Histoire de la Hongrie (Paris, Hachette, 1959).
G. DE BERTIER DE SAUVIGNY, Metternich et son temps (Paris, Hachette, 1959).

Ch. GILLIARD, **Histoire de la Suisse** (Paris, P.U.F., 1944).

اوروبا الجنوبية

P. GUICHONNET, **L'unité italienne** (Paris, P.U.F., 1961).
M. VAUSSARD, **Histoire de l'Italie contemporaine (1870-1946)** (Paris, Hachette, 1950).
J. HURE, **Histoire de la Sicile** (Paris, P.U.F., 1957).
P. HURE, **Histoire de l'Espagne** (Paris, P.U.F., 1947).
Ch. E. NOWELL, **Histoire du Portugal** (Paris, Payot, 1953).

اوروبا الشرقية والتوسع الروسي

A. MOUSSET, **Le monde slave** (Paris, S.E.F.S., 1946).
J. MEUVRET, **Histoire des pays baltiques** (Paris, Colin, 1934).
H. DE MONFORT, **La Pologne** (Paris, La Renaissance du Livre, 1947).
A. JOBERT, **Histoire de la Pologne** (Paris, P.U.F., 1953).
J. ANCEL, **Manuel historique de la Question d'Orient** (Paris, Delagrave, 1927).
R. R:STELHVEBER, **Histoire des peuples balkaniques** (Paris, A. Fayard, 1950).
M. DEVOS, **Histoire de la Yougoslavie** (Paris, P.U.F., 1955).
N. SVORONOS, **Histoire de la Grèce moderne** (Paris, P.U.F., 1953).
J. TULARD, **Histoire de la Crète** (Paris, P.U.F., 1962).
A. EMILIANIDES, **Histoire de Chypre** (Paris, P.U.F., 1962).
P. MILLIOUKOV, Ch. EISENMANN, Ch. SEIGNOBOS, **Histoire de Russie**, t. II et III (Paris, Leroux, 1932).
G. ALEXINSKY, **La Russie révolutionnaire** (Paris, Colin, 1947).
M. SEMIONOV, **La conquête de la Sibérie** (Paris, Payot, 1936).
L. HAMBIS, **La Sibérie** (Paris, P.U.F., 1957).
B. PONOMAREV et Collaborateurs, **Histoire du parti communiste de l'Union Soviétique** (Moscou, Ed. en langue étrangère, 1960).
H. LEFEBVRE, **Pour connaître la pensée de Lénine** (Paris, Bordas, 1957).

الامبراطورية الالمانية

A. DEMANGEON, **L'Empire britannique. Etude de géographie coloniale** (Paris, Colin, 1923).
J. J. CHEVALLIER, **L'évolution de l'Empire britannique**, 2 vol. (Paris, Ed. Internationales, 1930).
J. MAGAN DE BORNIER, **L'Empire britannique, son évolution politique et constitutionnelle** (Paris, Mechelinck, 1930).
H. GRIMAL, **Histoire du Commonwealth britannique** (Paris, P.U.F., 1962).
R. RUMILLY, **Histoire du Canada** (Paris, La Clé d'Or, 1951).

J. A. LESOURD, L'Union sud-africaine (Paris, P.U.F., 1963).
A. W. JOSE, Histoire de l'Australie (Paris, Payot, 1930).
A. HUETZ DE LEMPS, Australie et Nouvelle Zélande (Paris, P.U.F., 1954).

اميركا

P. CHAUNU, l'Amérique et les Amériques (Paris, Colin, 1964).
Ch. B. CLOUGH, Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique depuis la guerre de Sécession (Paris, P.U.F., 1953).
H. U. FAULKNER, Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique (Paris, P.U.F., 1958, 2 vol.).
J. NERE, La guerre de Sécession (Paris, P.U.F., 1961).
M. J. BUTCHER, Les noirs dans la civilisation américaine (Paris, 1958).
F. L. SCHDELL, Histoire de la race noire aux Etats-Unis du XVII° à nos jours (Paris, Payot, 1959).
O. W. LARKIN, L'art et la vie en Amérique (Paris, Plon, 1952).
H. S. COMMAGER, L'esprit américain (Paris, P.U.F., 1965).
P. CHAUNU, Histoire de l'Amérique latine (Paris, P.U.F., 1964).
A. SIEGFRIED, Amérique latine (Paris, Colin, 1934).
R. S. COTTERIL, Histoire des Amériques (Paris, Payot, 1946).
V. ALBA, Le mouvement ouvrier en Amérique latine (PaPris, Ed. Ouvrières, 1953).
G. FREYRE, Maître et esclaves (Paris, Gallimard, 1952).
P. MONBEIG, Le Brésil, (Paris, P.U.F., 1954).
Ch. MORAZE, Les trois âges du Brésil. Essai de politique (Paris, Colin, 1954).
J. TOUCHARD, La République argentine (Paris, P.U.F., 1952).
Ch. AUBRUN, L'Amérique centrale (Paris, P.U.F., 1952).
F. WEYMULLER, Histoire du Mexique (Paris, P.U.F., 1954).
E. PEPIN, Le panaméricanisme, (Paris, Colin, 1938).

العالم الاسلامي

H. MASSE, L'Islam (Paris, Colin, 1930).
L. GARDET, La Cité musulmane: Vie sociale et politique (Paris, 1954).
L. STRODDARD, Le nouveau monde de l'Islam (Paris, Payot, 1923).
X. DE PLANHOL, Le monde islamique. Essai de géographie religieuse (Paris, P.U.F., 1957).
G. NIGEON, Manuel d'art musulman, 2 vol. (Paris, Picard, 1927).
R. FURON, La Perse (Paris, Payot, 1938).
R. DOLLOT, L'Iran, Perse et Afghanistan (Paris, Payot, 1951).
G. HANOTAUX, Histoire de la nation égyptienne, t. VI-VII (Paris, 1935-36).
M. CHRETIEN, Histoire de l'Egypte moderne (Paris, P.U.F., 1951).
Ch. A. JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord (Paris, Payot, 1952).

Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Algérie contemporaine** (Paris, P.U.F., 1964).
J. KLEIN, **La Tunisie** (Paris, P.U.F., 1949).
J. GANIAGE, **Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861 - 1881** (Paris, P.U.F., 1959, thèse).
E. F. GAUTIER, **Un siècle de colonisation : Etude au microscope** (Paris, Alcan, 1930).
A. AYACHE, **Le Maroc** (Ed. sociales, 1966).
R. MONTAGNE, **La civilisation du désert** (Paris, Gallirmard, 1946).
R. CAPOT-REY, **Le Sahara français** (Paris, P.U.F., 1953).
V. MONTEIL, **Les musulmans soviétiques** (Paris, Ed. du Seuil, 1957).
J. P. ALEM, **L'Arménie** (Paris, P.U.F., 1959).
E. E. RAMSAUR, **The Young Turks. Prelude to the révolution of 1908** (Princeton, University Press, 1957).

اسرائيل والحركة الصهيونية

C. ROTH, **Histoire du peuple juif** (Paris, Ed. de la terre retournée, 1948).
A. CHOURAQUI, **L'Etat d'Israël** (Paris, P.U.F., 1955).
J. COHEN, **Le mouvement sioniste** (Paris, Ed. de la terre retournée, 1946).
A. CHOURAQUI, **Théodore Herzl inventeur de l'Etat d'Israël** (Paris, Ed. du Seuil, 1960).
Chaim WEIZMANN, **Naissance d'Israël** (Paris, Gallimard, 1957).

افريقيا السوداء وعالم ما بين خطي الجدي والسرطان

P. GOUROU, **Les pays tropicaux**, (Paris, P.U.F., 1941).
H. LABOURET, **Histoire des noirs d'Afrique** (Paris, P.U.F., 1946).
R. CORNEVIN, **Histoire des peuples de d'Afrique noire** (Paris, Berger-Levrault, 1960).
R. CORNEVIN, **Histoire du Togo** (Paris, Berger-Levrault, 1959).
R. CORNEVIN, **Histoire du Dahomey** (Paris, P.U.F., 1965).
D. PAULME, **Les civilisations africaines** (Paris, P.U.F., 1953).
H. DESCHAMPS, **L'éveil politique africain** (Paris, P.U.F., 1952).
RICHARD-MOLARD, **L'Afrique occidentale française** (Paris, Berger-Levrault, 2ème éd., 1952).
H. DESCHAMPS, **Les religions de l'Afrique noire** (Paris, P.U.F., 1960).
E. REVERT, **Les Antilles** (Paris, Colin, 1954).
A. YOU, **Madagascar, Colonie française** (Paris, Société d'Editions géographiques, 1931).
H. DESCHAMPS, **Histore de Madagascar** (Paris, Berger-Levrault, 1960).
A. TOUSSAINT, **Histoire de l'Océan Indien** (Paris, P.U.F., 1961).
Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Océanie** (Paris, P.U.F., 1942).
D. L. OLIVER, ***Les îles du Pacifique. L'Océanie des temps modernes à nos jours*** (Paris, Payot, 1952).

آسيا : الهند والشرق الأقصى

P. MEILE, **Histoire de l'Inde** (Paris, P.U.F., 1951).

R. PALME DUTT, **L'Inde d'aujourd'hui et de demain** (Paris, Ed., sociales, 1957).

M. K. GANDHI, **Expériences de vérité ou autobiographie** (Paris, P. U. F., 1950).

Ch. ROBEQUAIN, **Le monde malais** (Paris, Payot, 1946).

J. BRUHAT, **Histoire de l'Indonésie** (Paris, P.U.F., 1958).

LE THANH-KHOI, **Histoire de l'Asie du Sud-Est** (Paris, P.U.F., 1959).

P. FISTIE, **Singapour et la Malaisie** (Paris, P.U.F., 1960).

GONNARD, **La colonisation hollandaise à Java** (Paris, Thèse, 1905).

E. DENNERY, **Foules d'Asie** (Paris, Colin, 1930).

P. GOUROU, **La terre et l'homme en Extrême-Orient** (Paris, Colin, 1947).

P. RENOUVIN, **La question d'Extrême-Orient** (Paris, Hachette, 1946).

A. MASSON, **Histoire de l'Indochine** (Paris, P.U.F., 1950).

A. MASSON, **Histoire du Vietnam** (Paris, P.U.F., 1960).

LE THANH-KHOI, **Viet-nam, histoire et civilisation** (Paris, Ed. de Minuit, 1955).

A. DAUPHIN-MEUNIER, **Histoire du Cambodge** (Paris, P.U.F., 1961).

A. DUBOSCQ, **l'évolution de la Chine** (Paris, Bossard 1921).

E. HOVELACQUE, **La Chine**, (Paris, Flammarion, 1923).

G. MASPERO, **La Chine**, 2vol. (Paris,Flammarion, 1923).

G. MASPERO, **La Chine**, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1925).

R. GROUSSET, **Histoire de la Chine** (Paris, A. Fayard, 1946).

G. DUBARBIER, **Histoire de la Chine moderne** (Paris, P.U.F., 1949).

LA MAZELIERE, **Histoire du Japon, t. III, IV, V** (Paris, Plon, 1908).

R. BERSIHAND, **Histoire du Japon des origines à nos jours** (Paris, Payot, 1959).

F. LEGER, **Les influences occidentales dans la révolution de l'Orient: Inde-Malaisie-Chine, 1850-1950** (Paris, Plon, 1955).

S. SCHRAM et H. CARRERE D'ENCAUSSE, **Le marxisme et l'Asie, 1853-1964** (Paris, Colin, 1965).

K. M. PANNIKKAR, **L'Asie et la domination occidentale du XVe siècle à nos jours** (Paris, Ed. du Seuil, 1956).

L. AUBERT, **Les maitres de l'estampe japonaise** (Paris, Colin, 1922).

G. WILLOQUET, **Histoire des Philippines** (Paris, P.U.F., 1961).

مـــراجـع عربيـــة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية رأت « دار منشورات عويدات » في بيــروت تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالبيبليوغرافيـــا الشرقية والتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية إعداد قائمة ببليوغرافية « بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالمين ١٨١٥–١٩١٤ وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه والعاملين في مجالاته في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فعسى ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة مـــا يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتفتيش .

اوروبا ـــ التاريخ الحديث

حداد ، جورج مرعي – تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة ١٧٨٩ – ١٨١٨ حلب المطبعة الوطنية ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص ، مع صور – خريطة .

رايلـكر ، انطون – الوجه الاقتصادي لاوروبا ، ترجمة جابر عمر – بغداد ، دار المعرفة ١٩٥٢ ، ٣٢٣ ص .

شكري ، محمد فؤاد – الصراع بين البورجوازية والاقطاع (١٧٨٩ – ١٨١٨) ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٣ مجلدات .

الفلكي ، محمود صالح – التكتلات الاقتصادية الغربية : نشأتها ، انظمتهـا ، اغراضهـا المباشرة ، اهدافها البعيدة – القاهرة ، دار النشر للجامعيـــات المصرية ١٩٦٢ ، ١٢١ ص ، مراجع ص ١١٧ .

فيشر ، هربرت البرت لورنس - تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١ ، ٦٦٩ ص - خرائط .

قاسم ، محمد - تاريخ القرن التاسع عشر وما يليه من حوادث حتى نهاية الحرب العظمى - القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، ٣٥٦ ص ، صور ، خرائط .

هيروفيل ، هوبير - اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط . ترجمة نهاد رضا - بيروت ، منشورات عويدات ١٩٦١ ، ١٨٧ ص .

قاسم ، احمد واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث والمعاصر - القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ٢٥٦ ص - صور ، خرائط .

هيز ، كارلتون جوزف - الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي - بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٠ ، ٢١٩ ص .

روسيا

أنور الكيراي ، يوسف - كارثة القرم الاسلامية في الاتحاد السوفياتي - القاهرة ، مطبعة الصاوي ، ١٩٥٠ ، ١٨٢ - خرائط .

سليم قبعين - سياحة في روسيا - مصر .

نخلة قلفاط - تاريخ روسيا الحديث - بيروت ، ١٨٨٦ - ١٨٨٨ ، في اربعة اجزاء .

امين الشميل - الوافي : فصل في تاريخ المسألة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ ، في كتابين يقعان معاً في ٦ أجزاء ، طبع الثاني منها فقط .

حقي العظم - ضفاع بلفنا (في حرب الروس مع الدولة العثمانية) سنة ١٨٧٨ دمشق ، مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) ١٤٣ ص مع خريطة .

المقتطف - دولة الروس أو ثلثمائة سنة على بيت رومانوف ، مجلد ٤٢ (١٩١٣) ، ص ٣١٣ و ٤٧٦ ، و ٥٦٨ .

البلقان - تركيا - الحرب البلقانية - اليونان

ابن حبيب ، الحسن - درة الاسلاك في دولة الاتراك - دمشق ١٩٦٧ مجلدان .

الايام ، جريدة (يوسف نعمان معلوف) ، اسرار يلدز او العقد الثمين في تاريخ اربعة سلاطين نيويورك ، مطبعة الايام ، ١٩٠٠ ، ٣٣٧ ص مع صور .

بيهم ، محمد جميل – العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . مراسلة لـشرح دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة – بيروت المطبعة الوطنية ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ .

... فلسفة التاريخ العثماني – بيروت ، مطبعة صادر ، ١٩٢٥ – ١٩٥٤ ، مجلدان .

جودت ، احمد – تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا – بيروت ، مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨ هـ .

جياكوليس ، ليودور – اليونان : شعبها وارضها . ترجمة محمد امين رستم – القاهـرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

العقاد، سليم – تاريخ الحرب البلقانية المصورتين الدولةالعثمانية ودول الاتحاد البلقاني–القاهرة مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .

حلم ، ابهم – التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية – القاهرة، مطبعة ديوان عموم الاوقاف ١٩٠٥ ، ٢٥٤ ص .

خانكي ، عزيز – الذكرى المئوية لواقعة نزيب (٢٤ يونيه ١٨٣٩ – ٢٣ يونيـه ١٩٣٩ – القاهرة ، ٣٨ صفحة .

دروزة ، محمد عزة – تركيا الحديثة – بيروت ، مطبعة الكشاف ١٩٤٦ ، ٣٥٥ صفحة .

البستاني ، يوسف افرام – تاريخ حرب البلقان الاولى بين الدولة العالية والاتحاد البلقاني ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ ، ٢٢٧ صفحة – خريطة – صور .

الريس، محمد ضياء الدين – تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير للخلافة (١٧٧٤ – ١٩٢٤) – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٠ (يشتمل على تاريخ مصر وتركيا والشام والعراق وجزيرة العرب منذ اواخر القرن الثامن عشر الى العصر الحاضر) .

سامسون، عزرا صموئيل – تاريخ مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية – الاسكندرية مطبعة جرجي غرزوزي ، ١٩١٠ ، ١٠٤ صفحات.

شاكر ، علي – القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان – القاهرة ، مطبعـة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ ، ١٩٤ ص .

صفوت ، محمد مصطفى – مؤتمر برلين ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية – القاهرة ، معهـد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ .

... محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس – القاهرة ، معهد الدراسات العربيـة العالية ١٩٥٨ ، ٦٢ صفحة .

كامل ، مصطفى – المسألة الشرقية – القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٨٩٨ ، ٣٥٢ ص .

ايطاليا ـ النزاع الايطالي في الحبشة (١٨٩٥ – ١٨٩٦) مأخوذ عن التقرير الايطالي المرفوع الى عصبة الامم ، ترجمة رستم درويش – ٣٢ ص .

المانيا

جمال الدين ، فوزي ـ من بسمارك الى هتلر (للتلاميذ وتلميذات السنة الرابعة بالمدارس الثانوية بالسودان). – امدرمان ، مكتبة الحرية ١٤٠ ص .

العقاد سليم – غليوم الثاني . ترجمته الشخصية والسياسية – القاهرة المطبعة العصرية ، لا . ت. ١٨٦ ص .

الاستعمار

رياض ، زاهر – استعمار القارة الافريقية واستقلالها – القاهرة ١٩٦٦، ٣٣٣ص - خرائط مراجع ص . ٣٢٦ – ٣٣٣ .

... استعمار افريقية– القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ / ١٦١ ص – صور – خرائط – مع مراجع .

الشهابي الأمير مصطفى ـ محاضرات في الاستعمار ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، جزآن .

حربي ، محمد ـ تاريخ العصر الحديث : مصر ـ الولايات المتحدة ـ الاستعمار الاوروبي ـ القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص ـ صور ـ خرائط .

عبده ، علي ابراهيم ـ اضواء على المنافسة الدولية في اعالي النيل ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ ، ٢٠١ ص مراجع ص ١٩٧ ـ ٢٠١ .

... المنافسة الدولية في اعالي النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) ـ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ٣٩٨ ص ـ خرائط ـ مراجع ص ٣٨١ .

الغزالي ، محمد ـ الاستعمار : احقاد واطماع ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٠ .

فهمي ، عبد العزيز – الاستعمار عدو الشعوب – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣ ، ١٩٢ ص .

لينين ، ف. ا ـ الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية ، ترجمة راشد براوي ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ٢٠٨ ص .

محمد ، محمد عوض ـ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ـ القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ ، ١٦٤ ص .

نكروما ، كوامي ـ الاستعمار الجديد ، آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدي القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦ ، ٣١١ ص .

افريقيا

ابو المجد ، صبري – ثورة افريقيا – القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٦٠ ٢٩٨ صفحة .

حمدان ، جمال – افريقيا الجديدة . دراسة في الجغرافية السياسية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ ؛ ٤٠٧ ص ، خريطة .

رفلة ، حبيب – الجغرافية السياسية لافريقيا مع دراسة شاملة للدول الافريقية سياسياً واقتصادياً وجغرافياً ؛ طبعة ثانية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ٩٦٦ ، ٦٧٢ ص – خرائط .

سافيدج ، كارين – قصة افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ، ترجمة راشد البراوي – القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ٢١٠ صفحات – صور . خرائط .

سيمون ، انتوني – حول افريقيا . ترجمة احمد حمزة ومحمد الخولي ـ القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، لا . ت ، ١٩٤ ص

الصقار ، فؤاد محمد ـ التفرقة العنصرية في افريقيا – القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩٦٢ ، ٣١ صفحة .

طاهر ، احمد ـ افريقيا في مفترق الطرق ـ القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ ، ١٩٩ صفحة .

العقاد ، صلاح – المغرب العربي والاستعمار الفرنسي الى التحرر القومي ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، لا . ت . مراجع .

عودة ، عبد الملك ـ السياسة والحكم في افريقيا – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩ ، ٥٧٥ صفحة ـ مراجع ص ٥٥٧ – ٥٧٥ .

نكروما ، كوامي ـ الوجدانية : فلسفة وعقيدة التحرر والتطور خصوصاً بالنسبة للثورة الافريقية ، ترجمة كريم عزقول ـ بيروت ، ١٩٧٤ ، ٢١٩ ص .

السويس

ابو السعود ، جمــال سليان – قناة السويس : ماضيها وحاضرها ومستقبلها – القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٦ ، ٢٦٥ ص .

براوي ، راشد – المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس – القاهرة مكتبة النهضة المصرية ٩١٥٢ ، ٢٣٢ ص .

حرب ، محمد طلعت – قناة السويس – القاهرة ، مطبعة الجريدة ، ١٩١٠ ، ١٤٠ ص .

الحفناوي ، مصطفى – قصة قناة السويس ، القاهرة – مطبعة نخيمر ١٩٥٨ – ١٦٥ صفحة مع صور وخرائط .

... قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة – القاهرة ، ١٩٥٢ ، ٣ اجزاء .

خاكي ، عزيز – قناة السويس :نبذة تاريخية ومالية – القاهرة ، المطبعة العصرية ، لا . ت . ٥١ ص .

رشوان ، عبدالله – المركز الدولي لقناة السويس ونظائرها – القاهرة ، مطبعة حجاري ، ١٩٥٠ ، ٤٣١ صفحة .

الشاعر ، يحيى – قناة السويس بين ادارتين . دراسة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، قانونية – بيروت ، الجامعة اللبنانية ١٩٦١ ، ٣٦٣ ورقة – خريطة .

شفيق ، احمد – قناة السويس معجزة القرن التاسع عشر – القاهرة مطبعة حوليات مصر السياسية ، ١٠٣ صفحات .

الشناوي ، عبد العزيز محمد – الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتي قناة السويس وابريد الجديدة – القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٣ص .

... السخرة في حفر قناة السويس – الاسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٥٨ ، ٣٧٦ ص – خرائط .

شونفيلد ، هيو جوزف – قناة السويس ، ترجمة احمد خاكي – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ١٨٣ ص – خريطة .

صبري ، محمـــد – كتاب القناة : اسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨ – القاهرة ، دار القاهرة ١٩٥٠ ، ٩٦ ص .

صفوت ، محمد مصطفى – انكلترا وقناة السويس ١٨٥٤ – ١٩٥١ – الاسكندرية مطابع رمسيس ١٩٥٢ .

... مسألة قناة السويس – القاهرة ، دار الشرق ، ١٩٥٧ ، ٣٢٤ ص .

غالي ، بطرس – قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ – ١٩٥٧ – الاسكندرية مطابع البصير ١٩٥٨ ، (نص بالفرنسي والعربي) .

غلاب ، محمد السيد وآخرون – السويس – القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ ، ٣٠٧ ص .

قناة السويس : حقائق ووثائق (مع الاتفاقات والمعاهدات والبيان الثلاثي) – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ٢٨٠ ص – صور .

البحر المتوسط والبحر الاحمر

الجمل ، شوقي عطاالله – الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر ١٨٦٣–١٨٧٩ جمعها وحققها ورتبها واعدها للنشر ، مع دراسة تحليلية ... – القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩ ، ١٣١ ص .

خانكي ، جميل – امراء البحر في الاسطول المصري ، من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مصر ، ١٩٤٧ ، ١١٣ ص ، صور .

... تاريخ البحرية المصرية – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٨ ، ٤٩٢ ص ، صور .

رفعت ، محمد – تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية – القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٠ ، ٥١٤ ص – خرائط .

ضرار ، محمد صالح – تاريخ السودان والبحر الاحمر واقاليم البجة – بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٦ ، ١٦١ ص – صور .

فزللة ، حبيب ، جزيرة رودوس جغرافيتها وتاريخها وآثارها – القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ٩١ ص مع خرائط وصور .

يحيى ، جلال – سواحل البحر الاحمر – الاسكندرية ، المكتبة الافريقية ١٩٦٠ ، ١٢٨ ص .

الولايات المتحدة الاميركية

برايس ، جيمس – المؤسسات والنظم الاميركية . نظرات تأملية في طبيعتها ، ترجمة أنيس صايغ ، مراجعة ابراهيم داهر ، بيروت الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ٣٧٥ ص .

بنيه ، ستيفن فنسنت – اميركا ، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد – القاهرة ، مكتبة الولايات المتحدة الاميركية للاستعلامات – ١٩٤٥ ، ١٩٠ ص .

بيرلنجم ، روجير – آلات صنعت امة ، ترجمة احمد عبد الرحمن حمود – القاهرة، مكتبة الآداب . لا.ت – ٢٣٢ ص .

جيمس ، برسثون – ملحمة اميركا الشمالية ، ترجمة جورج فاعي – بيروت ، المدرسة الشرقية لا.ت – ٢٠٨ ص .

الحناوي ، كمال الدين – الاستراتيجية في الحرب الاهلية الاميركية – القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٢٠٠ ص – خرائط .

زيادة ، فرحات – تاريخ الشعب الاميركي – برنستون ، مطابع جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص – صور – خرائط .

سيرز ، ارل شيلك – حضارة العالم الجديد من عصر الاستكشاف الى عصر الذرة . فصول تاريخية أسهم في اعدادها ٦٠ استاذاً جامعيا – بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٥٨، ٣٨٤ ص، صور .

صبري ، محمد – تاريخ العصر الحديث ، مصر ، الولايات المتحدة – الاستعمار الاوروبي – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص – صور خرائط .

صروف ، فؤاد – مشاهد العالم الجديد – القاهرة ، مكتبة العرب ١٩٢٥ ، ١٦١ ص .

فؤاد ، احمد عبد الجيد – امريكا في الشرق الاوسط – القاهرة ١٩٥٤ .

ليسني ، دان – الثورة الاميركية : دوافعها ، مغزاها ، ترجمة سامي ناشد – القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ مجلدان .

ماير ، فكتور – معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجبار – القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٢ .

هاملتن ، الكسندر – الدولة الاتحادية : اسسها ، دستورها ، ترجمة جمال محمد احمد بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ ٦٨٨ ص .

كوسولاس ، ديفري – مفتاح التقدم الاقتصادي ، ترجمة محمد ماهر نور – القاهرة، دار الفكر العربي ، لا . ت ١٣٢ ص .

كويل ، دافيد – النظام السياسي في الولايات المتحدة ، ترجمة توفيق حبيب – القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ ، ٣٢٠ ص .

كلاو ، شيارد – الاساس الاقتصادي للحضارة الاميركية ، ترجمة احمد حلمي حجاج – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ ، ١٩٩ ص .

ويرنت ، جون فيليب – الرخاء بدون تضخم . ترجمة حسن عمر ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، لا . ت ، ١٨٠ ص .

جدول زمني مقارن

١٨١٥ ـ ١٩١٤

١٨١٥ ـ اختتام مؤتمر فيينا . نهاية نابليون . الحلف المقدس
١٨١٦ ـ قصف مدينة الجزائر وطرابلس الغرب تأسيس جمعية ارساليات فرنسا ورهبانية اوبلات مريم بلا دنس والجمعية المريمية . الدكتور لاينك يدشن طريقة الفحص بالقرع ـ هولر يضع كتابه : تجديد العلوم السياسية . ماجندي يضع : مختصر الفيزيولوجيا ـ غريلبرزر يؤلف روايته : الجدة وهوفمان ، رحيق الشيطان ، وروسيني : حلاق اشبيليا .
١٨١٧ ـ تحرير التشيلي ـ الشروع باعمال ترعة بحيرة ايريه ـ اختراع البارون درايس للدراجة المسماة باسمه : « درايسينة » ـ اسرة روتشيلد تقيم في باريس ـ ريكاردو يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي ـ وكارل ريتر كتابه : الجغرافيا ـ وستيلر : هنداتلاس ـ لامنيه يضع كتابه : محاولة حول اللامبالاة في امور الدين ـ وت. مور : لالا روخ .
١٨١٨ ـ وافدة التيفوس في اوروبا ـ اختراع الستركنين ـ فيكا يتوصل لصنع صنف من الاسمنت يشبه الاسمنت المسلح ـ جيفروا سانت هيلار ينشر كتابه : فلسفة علم التشريح ـ وكيتس ينشر : انديميون ـ وشيلي : ثورة الاسلام ـ تأسيس اكاديمية الفنون الجميلة في هافانا على يد ج.هـ. غرماي احد تلاميذ دافيد .
١٨١٩ ـ تأسيس جمهورية كولمبيا ـ احتلال البريطانيين لمدينة سنغافورا ـ المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند ـ بدء العمل بالاتحاد الجمركي الالماني Zallverein ـ اول سفينة تجارية لاسافانا تقطع المحيط الاطلسي ـ تأسيس جمعية مرسلي بال ـ تأسيس شتاين جمعية دراسة التاريخ الالماني ـ شوبنهوير ينشر كتابه : العالم بين التصميم وبين التحيز ـ جوزف دي مستر يضع كتابه : حول البابا ـ و. سكوت ينشر روايته : ايفنهو ـ و غريلبرزر : صافو ـ وجيريكو : طوف المدوزا ـ وثورنفلدس : اسد لوسرن .
١٨٢٠ ـ دخول جمعية الفحامين فرنسا ـ اتفاق ميسوري ـ مذكرات ماك آدم التقنية ـ فيربرن يضع نولا جديدا للحياكة ـ وتوماس الارثموميتر ـ اختراع دي لارو لاول مصباح للانارة ـ اورستد وآمبير يكتشفان الظاهر الكهردينامية وادافو يتوصل الى توليد المغنطيسية من الكهرباء ـ هكمان يقوم باول محاولة للتخدير في الطب ـ المرسل والعالم الهندي كاراي ينشىء

مؤسسة تعنى بدرس المدنيات الهندية والاوروبية دراسة مقارنة ـ لامارتين يضع : تأملات شعرية ـ وشلي : بروموثيه محررا ـ و . و . ارفنغ : كتاب الرسوم ـ ولامب : محاولات ايليا .

١٨٢١ ـ ثورة اليونان ـ استقلال البيرو وتحرير فنزويلا ـ موت نابليون في جزيرة سانت هيلين ـ البابا بيوس السابع يحرم جمعية الفحامين ـ فرينل يشرح نظرية تموجات النور وسيبيك يكتشف الكهربائية الحرارية ـ تأسيس معهد الوثائق (مدرسة الشارت) والجمعية الجغرافية البارسية ـ سان سيمون يضع كتابه : النظام الصناعي ـ منزوني يضع كتابه : الخامس من شهر مايو ـ و . مولر يضع كتابه : المالي الاغريق ـ ت . كونسي يضع كتابه : اعترافات آكل الافيون ـ كونستابل يضع روايته : عربة التبن لجتاز المخاضة ـ وبر يضع : الفريشلتز .

١٨٢٢ ـ استقلال البرازيل وتحرير الاكوادور ـ اتجاه انكلترا الليبرالي في الامور الاقتصادية ـ المجاعة في ارلندا ـ تأسيس الجمعية العاملة لتنشيط الصناعة الوطنية في البلاد الواطية ـ تأسيس مجمع انتشار الايمان ـ شمبليون يفك رموز الخط الهيروغليفي ـ اول اجتماع تعقده جمعية علماء اللغة الالمانية ـ ج.ب. فوربيه يضع كتابه : النظرية التحليلية للحرارة ـ بوشكين يضع روايته : اسير القفقاس ـ ديلاكروا ينشر روايته : قارب دانته ـ بيتهوفن يضع لحنه : قداديس على مفتاح ر ـ وشوبرت يضع : السنفونيا غير المنجزة .

١٨٢٣ ـ رسالة الرئيس مونرو ـ شركة للملاحة البخارية على الفولغا ـ اول منارة دوارة تعمل بعدسة ـ نيبس يشير الى مبادىء التصوير الفوتوغرافي ـ منشبالتش يضع ديوانه : اغان واناشيد ـ بتهوفن يضع : السمفونية التاسعة مع القورس .

١٨٢٤ ـ هزيمة اسبانيا عند اياكوشو (البيرو) ـ المجاعة في الدكن الهند ـ تأسيس جمعية المرسلين الانجيليين في باريس ـ سادي كارنو يضع كتابه : تأملات حول قوة النار المحركة ـ كولار يضع : ابنة سلافا ـ وغريلبرزر : اوتوكار ـ اول معرض بريطاني في صالة باريس ـ افتتاح الناشنال غاليري ـ ديلاكروا يضع : مذابح اسيو .

١٨٢٥ ـ بناء الخط الحديدي بين ستوكتن ودرلنغتن باشراف ستيفنسن ـ رحلة الاترابرايز باتجاه كلكوتا ـ روبرتس يخترع النول المتحرك ذاتيا في حياكة القطن ـ شفروي وغاي لوساك يخترعان الشمعة المصنوعة من الستيارين ـ اولى منشورات اوغست كونت ـ ماكولي يضع كتابه : محاولات ـ الريون يضع : جزيرة السعادة ـ تيجر : سافافريتيوف ـ جوزي ماريا دي هيريديا : اشعار ـ دافيد دانجيه : قبر الجنرال فوا

١٨٢٦ ـ مؤتمر بناما ـ البريطانيون يغزون اسام ـ اول رحلة للسفينة رد روفر بين كلكوتا وهونغ كونغ ـ البابا ليون الثاني عشر يحرم الماسونية ببراءته الرسولية ـ اولى مذكرات آبل ـ مذكرة لوبتشفسكي حول الهندسة اللااقليدية ـ الموسوعة الجرمانية التاريخية ـ هاين يضع : ديزلبلدر ـ ليوباردي يضع : فرسي ـ ف . كوبر يضع : آخر الموهيكان ـ بلو يضع : غابات المنطقة الحارة ـ بيتهوفن يضع : الرباعيات الاخيرة .

١٨٢٧ – موقعة نافارين البحرية – سيفن يخترع المرجل الانبوبي – مرجل بركنز – فورنيرون يضع اول طوربين مائية – وهلر يحلل عناصر الماء لاول مرة – اوهم يضع قانونه المعروف – رحلة رينه كاييه – هوغو يضع : مقدمة كرومويل – منزوني يضع : الخطيبان – فيروس مارلي يضع : الوادي المسحور – انغر يضع رسمه المشهور : تاليه هوميروس .

١٨٢٨ – تحرير المشاقين في انكلترا – تاسيس حزب العمال في فيلادلفيا – رحلات منتظمة تقوم بها سفينة رد رولر بين ليفربول ونيويورك – وهلر يتوصل لاول مرة الى صنع البول التاليفي – محاضرات غيزو حول تاريخ الحضارة الاوروبية في كلية فرنسا – اول كونسرتو لشوبين في فيينا – اوبير يضع : Muette Von بورتيشي

١٨٢٩ – تحرير الكاثوليك في انكلترا – عودة التيفوس الى اوروبا من جديد – اولي بؤسس منتصرة نيوهرموني – ستيفنسن يضع قاطرته : الصاروخ – برايل يخترع كتابته النافرة للعميان – انطوان بيكربل يضع او بطارية (او حاشدة كهربائية) – هوغو يضع ديوانه الموسوم : الشرقيات – روسيني يضع روايته : وليم تل .

١٨٣٠ – استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر – فتن وثورات في اوروبا – استقلال بلجيكا – تاسيس شركة استراليا الجنوبية – ظهور وباء الهيضة في اوروبا – بناء الخط الحديدي بين منشستر وليفربول – بلاكوربس ومادلاي يخترعان النول الدائم الحركة – تيمونيه يخترع ماكينة الخياطة – كوشي يصوب نظرية المتغيرة الخيالية ووظائفها – خنافة التشريح المقارن : كوفييه ضد جوفروا سانت هيلار – كونت يضع : دروس الفلسفة الوضعية – معركة هرناني – ستاندال يضع : الاحمر والاسود – فرجلاند يضع : الخليقة والانسان والمسيح – ديلاكروا يضع : الاستحكام او الحرية تقود الشعب كلرو يضع : كاتدرائية شارتر – برليوز يضع : السمفونية الغريبة .

١٨٣١ – كبح الثورة البولونية – مازيني يؤسس : ايطاليا الفتاة – عمال الحرير يثورون في مدينة ليون – المجاعة في ايرلندا وفي روسيا – محرر هاربسون – دال نغرو ينشيء اول محرك كهربائي كما يخترع ماك كورميك اول حاصدة ميكانية – اكتشاف الكلوروفورم على يد ليبيغ وسوبيران – اكتشاف فرادي لتاثير Induction رحلة داروين البحرية على ظهر السفينة بيكل – تاسيس الجمعية البريطانية لترقية العلوم وتطويرها – ميشليه يضع : المدخل الى التاريخ العام – بوشكين يضع : يوجين اونيغين – دوميه يضع : غرنتوا – وميربير يضع روايته : روبرت المغربت .

١٨٣٢ – اعادة تنظيم الرهبانية البندكتية على يد غيرانجيه – براءة Mirari Vos للبابا غريغوريوس السادس عشر – اختراع سوفاج للدفاش – غالوا يخلف لنا قبل وفاته نظرية الفئات – دولاي يهاجم هندسة اوقليدس – لينو يضع ديوانه : قصائد – متشيافتش يضع كتاب : الامة البولونية – سلفيو بلليكو يضع : سجوني – رونبرغ يضع روايته صيادو . . . – ا . كلدرون يضع : مشاهد اندلسية – لار يضع روايته : رسائل الهتار

المسكين .

١٨٢٣ ـ المجاعة في الدكن الهند ـ بدء حركة اكسفورد ـ طلائع جمعية القديس منصور دي بول ـ قانون غيزو بشأن التعليم الابتدائي ـ الغاء الرق في المستعمرات الانكليزية ـ اوين يضع كتابه الاتحاد العمالي ـ وجريدة « الشمس » بنحاسنين ـ التلغراف الكهرمغنطيسي اختراع غوس وويبر ـ وايكفيلد يضع : انكلترا واميركا ـ ليال : مبادىء اولية في علم طبقات الارض ـ غوتيه ـ فوست الثاني ـ بلزاك : اوجين غرانديه ـ انفر : رسم برلن البكر ـ جورج سنو يستعمل لاول مرة في واشنطون : اولى الصفات المدنية

١٨٣٤ ـ فتن في باريس وليون ـ قانون الفقراء في انكلترا ـ الاتحاد الوطني للعمال في الولايات المتحدة ـ اول تريك عند اليوبرز ـ ج.ب. دوماس يكتشف روح الخشب (الكحول المثيلي) ـ جاكوب بركنز يخترع طريقة للحصول على البرد الصناعي ـ اختراع صباغ الانيلين على يد رونج ، مسن نطران الفحم ـ لامنيه يضع كتابه كلمات مؤمن ـ منشيكنس يضع كتابه : السيد تادبيه ـ وغوغول يضع : طاراس بولبا ـ ودوميه : شارع ترانسنونان .

١٨٣٥ ـ اسبانيا ترضخ لقانون الزيارة ـ الاتراك في طرابلس الغرب ـ فرنسا تتحرر من حماية الصين ووصايتها ـ تأسيس وكالة تاس للانباء ـ غوردون بنيت يصدر جريدة نيويورك هيرلد ـ اختراع اول سكة من الفولاذ في الولايات المتحدة الاميركية ـ مورس يجري اول تجربة للتلغراف البرقي ـ بيرو يخترع جهازا للطباعة على القماش يحمل اسم « بروتين » د . ستراوس يضع كتابه : حياة يسوع ـ تكفيل ينشر كتابه : الديمقراطية في اميركا ـ واندرسن : قصص وحكايات ـ ولونروت يضع روايته : كالفالا ـ وكراسنكي : الكوميديا غير الالهية ـ وف . هالفي يضع رقصة اليهودية .

١٨٣٦ ـ جكسون يعارض انشاء البنك المركزي ـ تأسيس شركة شنيدر وشركاه ـ تومسن يضع : دليل متحف كوبنهاغن ـ فاج يصدر : الغازية الوطنية الالبرية ـ تأسيس جريدتي : الصحافة والعصر ـ دكنز يضع روايته : اوراق بكويك ـ بلاتسكي يضع : تاريخ بوهيميا ـ تولشيف ينشر : قصائد مرسلة من المانيا .

١٨٣٧ ـ اضطرابات في كندا ـ ثورة ضد متسوي في اليابان ـ المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند ـ رحلة دومون دورفيل الى انتاركتيك ـ تدشين خط سان جرمين آن لاي ـ تأسيس جمعية الحجل القديم ـ جاكوبي يحقق عملية التلفنة ـ مورس ، ستاينهل و ويتستون براءة اختراع التلغراف البرقي ـ شاسل يضع كتابه : لمحة تاريخية في اصول طرائق الهندسة وتطورها ـ ميشليه يضع كتابه : تاريخ الثورة ـ ولامنيه كتابه : سفر الشعب ـ كارلايل : الثورة الفرنسية ـ وشافاريك : تاريخ الصقالبة القديم .

١٨٣٨ ـ بدء اضطرابات الوالقين ـ كوبدن يؤسس رابطة القانون المضاد لزراعة الذرة ـ بريطانيا العظمى تستولي على عدن ـ المجاعة في بمباي ـ رحلات السيريوس والغرايت وسترن ـ اختراع هول السطحي واختراع

تاسمث وفرنسوا بوردون للمطرقة ـ بسل يقيس لاول مرة بعد النجمة من الارض ـ شيلدن يطلع بنظرية الخلايا النباتية ـ اولى ابحاث بوشيه دي برث حول عصور ما قبل التاريخ ـ داند دانجيه يضع كتابه : هوغو .. وس . روخ : نصب دورر في نورمبرغ .

١٨٣٩ ـ خطة دورهام في كندا ـ عهد الاصلاح في اليابان ـ انشاء البريد البري نحو الهند ـ غوديير يحقق كلفنة المطاط ـ اراغو يعرف باول صور فوطوغرافية على طريقة داغير ـ مؤتمر بيزا العلمي ـ لويس بلان ينشر كتابه حول تنظيم العمل ـ وانجلس : رسائل من وادي وبير ـ ورانك : المانيا في عصر الاصلاح الديني ـ وستاندال : لاشارتروز دي بارما ـ ولنغفالو : هيبريون وليرمونتوف : الشيطان .

١٨٤٠ ـ الحكم الذاتي لكندا ـ تاسيس حزب يطالب بالغاء الرق في الولايات المتحدة الاميركية ـ حرب الافيون ـ البريطانيون يستولون على زيلاندا الجديدة ـ ازدهار النخاسة في زنجبار ـ طلائع رواج الفوافنو ـ ظهور فولاذ « بول » ـ تاسيس خط كونارد ـ اول بندقية اميركية متعددة الطلقات ـ استعمال الطابع البريدي في انكلترا ـ لفنغستن يشرع برحلاته الاستكشافية ـ كابه يضع قصة : رحلة الى ايكاريا ـ وبرودون كتابه : ما هي الملكية ـ وليبغ : الكيمياء المطبقة على الزراعة ـ وسانت بوف : بورت رويال ـ وموسيه : الليالي ـ وفريلدزور : دير تروم ، ابن لوين ـ واندرسن : كتاب رسوم بدون رسوم ـ وفت : البنثيون الشعري ـ وشومان : ليدر .

١٨٤٢ ـ معاهدة نانكين ـ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ـ دستور ولاية نوفيل نقابة المعدنين في انكلترا ـ تاسيس ال Punch ـ تاسيس توماس كوك لاول وكالة للسفر ـ قانون جول ـ ليست يضع كتابه : النظام الوطني للاقتصاد السياسي ـ وفيورباخ : كنه المسيحية ـ وامرسن : محاولات ـ وغوغول : النفوس المائتة .

١٨٤٢ ـ معاهدة نانكين ـ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ـ دستور ولاية نوفيل غال الجنوب (استراليا) ـ صدور جريدة لندن المصورة الاخبارية ـ لوز يحصل على شهادة اختراع صنع السوبر فوسفاط ـ رينوفييه يضع كتابه : دليل الفلسفة العصرية ـ وسو : اسرار باريس .

١٨٤٣ ـ استيلاء الفرنسيين على مقر عبد الكريم ـ البريطانيون في ناتال ـ تريك البوبرز الجديد ـ ظهور الدعوة السنوسية ـ بدء دعوة الباب ـ لاكوردير يعيد النشاط الى الرهبنة الدومنيكية ـ فربور يضع اول آلة كاتبة ـ بدء استخدام صمغ المطاط في الصناعة ـ بوتا يقوم بحفرياته في خرسباد ـ مذكرة ش. هرميت حول الدالة الاهليليجية ـ مول يكتشف بروتوبلازما الدم ـ كيركيغارد يضع كتابه : واما ... واما ـ وج.س.مل يضع كتابه : المنطق ـ وماكولي : محاولات في النقد والتاريخ ـ وجيوبرتي : أولية الايطاليين المدنية والادبية ـ ورسكن يضع : المجلد الاول من رسامي العصر ـ وهوغو : البرغراف ـ وبو ينشر : الجعل الذهبي ـ وواغنر : السفينة الشبح ـ المهندس لابروست يباشر بناء مكتبة سانت جنفياف في باريس .

١٨٤٤ ـ ثورة عمال النسيج في سيليزيا ـ تعاونية « الرواد العدول » في روشدايل ـ مزيني يؤسس اوروبا الفتاة ـ كلر يخترع الورق المأخوذ من رب الخشب كما يخترع فالواي الليتولايوم ـ مورس يصل واشنطون ببلطيمور هاتفيا بعد ان اخترع لويس بريفيه جهازا له وجه ساعة ـ ظهور بندقية درايز التي تشحن من المؤخرة ـ لاسن يباشر باصدار : تاريخ الهند ـ لوستل يضع كتابه : اليهود ملوك العصر ـ وكلرليل : الماضي والحاضر ـ بيتوفي ينشر ديوانه : قصائد ـ وطوبفر يصدر كتابه : اسفار معوجة ـ و ا. اوجيه : الشوكران ـ واسكندر دوماس : الفرسان الثلاثة .

١٨٤٥ ـ المجاعة في ارلندا ـ انكلترا تولي اليهود حق الانتخاب ـ هلمان يخترع مشطا ميكانيكيا ـ ارساء كابل تحت نهر الهدسون ـ رحلة السفينة Chipper Rainbow ـ هو يدخل تحسينات هامة على آلة الخياطة ـ وليم بارسونز دي روس يكتشف لاول مرة مجرة حلزونية الشكل ـ ا. دي همبولدت يصدر كتابه : الكسموس (الكون) ـ و م. ستزنر : الوحيد وخاصيته ـ و ف. انجلز : اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا ـ دزرائيلي . سبيل ـ و واغنر : لوهنغرين .

١٨٤٦ ـ المجاعة والازمة تلم باوروبا ـ الغاء الرسوم المفروضة على القمح في انكلترا ـ ظهورات العذراء في ساليت ـ الصين تتساهل مع الكاثوليك ـ اعمال اركسون في قناة ترولهاتن ـ هو يدخل الاسطوانة المتحركة على الطباعة في فيلادلفيا ـ رايت يخترع القوس الكهربائي ـ زايس ينشىء مصنعه للاجزة البصرية في اينا ـ لوفرنيه يكتشف الكوكب عطارد بطريقة حسابية ـ قانون ويبر الخاص بعلم النفس ـ برودون يضع كتابه : نظام المتضادات الاقتصادية ـ ماركس ينشر كتابه : بؤس الفلسفة ـ هرزن : على من الذنب ؟ ـ وهاليس : الفلسفة الاساسية ـ وميشليه : حول الشعب ـ وميريميه : كارمن ـ وجورج صاند : مستنقع الشيطان ـ تأسيس المدرسة الفرنسية في اثينا ـ وبرليوز : هلاك فوست .

١٨٤٧ ـ المجاعة والازمة والطاعون في اوروبا ـ ظهور آفة ارمداد الكرمة ـ اكتشاف الذهب في كاليفورنيا ـ الروس يدخلون فرغانة ـ المؤتمر الدولي العمالي في لندن ـ مذكرة يضعها سمبسن حول خصائص الكلوروفورم المخدرة ـ كروب يتوصل الى صنع مدفع من الفولاذ ـ هلمبولتز يصدر كتابه : حول الابقاء على الطاقة ـ بوشيه دي برث : الاثار الكلتية والسابقة للطوفان ـ ايمرسن : قصائد ـ ا. برونتيه : مرتفعات هورليفان ـ وغونزكوف : اوربال اكوستا ـ واراني : تولدي ـ وورد : يقظة نابوليون ـ متحف التصوير في ميونيخ .

١٨٤٨ ـ الثورات تنشب في اوروبا ـ ماركس وانجلس يصدران : بيان الحزب الشيوعي ـ الانتخاب العام في فرنسا ـ الغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية ـ الغاء رق الارض في اوروبا الوسطى ـ انتهاء الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك بشأن التكساس ـ البريطانيون يستولون على البنجاب ـ جمعية لروح القدس ورهبانية قلب مريم الاقدس ـ ماريتوني يصنع مكبس مجاوبة ذات اربع اسطوانات ـ صنع الزجاج والاسلحة في اليابان ـ وبرستراس يضع كتابه : مساهمة في نظرية التكامل الابليانية ـ

كلود برنار يكتشف عمل الكبد في توليد الغليكوز ـ ج. س. مل يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي ـ وشاتوبريان : مذكرات من وراء القبر ـ وتاكراي : معرض الاباطيل ـ د. س. روستي يؤسس : الرابطة السابقة لرفائيل ـ ورانيت : العرس الليلي ـ وبلوي : القنطور واللاييت .

١٨٤٩ ـ ردة فعل عامة في أوروبا ـ الغاء قانون الملاحة في انكلترا ـ اكتشاف الذهب في استراليا ـ المجاعة في الصين ـ تأسيس اتحاد الكنائس الانجيلية الحرة في فرنسا ـ اختبار فيزو حول سرعة النور ـ دكنز يضع روايته : دافيد كوبرفيلد ـ ورسكن : مصابيح الهندسة السبعة ـ وكوربيه روايته محطمو الحجارة .

١٨٥٠ ـ اتفاق كاليفورنيا ـ البرازيل يوافق على حق الزيارة ـ نهاية طريقة فان دن بوش ـ اعادة السلطة الدينية الكاثوليكية الى انكلترا ـ التصديق على قانون فلو ـ رحلة بارث الى السودان : ولفنغستن الى افريقيا الجنوبية ورحلة ماك كلور الى الممر الشمالي الغربي ـ ارساء اول كابل بحري في مضيق كاليه ـ انتهاء الاشغال لاقامة الجسر الحديدي فوق مضيق مينيه وفقا لتصميم روبرت ستيفنسن ـ مطرقة المعدن لاستخراج الفحم في المناجم ـ عرض اول قاطرة بخارية ـ البيانو الميكانيكي ـ كبرتة الكرمة في مكافحة مرض التعفن ـ فوكو يخترع المرآة الدوارة والقوس الكهربائي ـ بستيا يضع كتابه : التناسق الاقتصادي ـ ا. باريت برونتغ يضع : اناشيد ـ وهوثورن الرسالة الارجوانية ـ وكوربيه : الدفن في اورنانس ـ وروستي : البشارة ـ وميريون : الجسر الصغير ـ وليست : مازيبا .

١٨٥١ ـ ظهور الكوليرا من جديد في اوروبا ـ الجوع في روسيا ـ بدء ثورة التايبنغ في الصين ـ معرض لندن في صالة كريستال بالس ـ قانون مباني السكن في انكلترا ـ ال بورن يجهزون السفينة حمالايا بالدفاش ـ أول فرن على الغاز في المطابخ ـ بدء الطابعة المتحركة في الطباعة ـ انشاء وكالة رويتر للاخبار ـ اختبار هزاز فوكو ـ اعادة رهبنة الاوراتوار ـ حركة رجعية مضادة للمسيحية في فيتنام ـ كونت يصدر كتابه : نظام الفلسفة الوضعية ـ ملفيل يضع روايته جولي دك ـ وواغنر : اوبرا ودراما : ورسكن : الحركة السابقة لرفائيل وحجارة البندقية ـ فردي يضع روايته : ريغولتو .

١٨٥٢ ـ اعتراف الانكليز باستقلال الترانسفال وضمهم البيغو ـ انزال اول سفينة ناقلة للفحم الى البحر في انكلترا ـ اول ترامواي في نيويورك ـ تدشين محلات بون مارشيه في باريس ـ تأسيس مصرف التسليف العقاري والتسليف على المنقول ـ فرانكلاند يضع نظرية التكافؤ ـ هـ. سبنسر يضع كتابه : مبادىء علم النفس ـ السيدة بيتشر ستو : معزل العم توم ـ لكونت دي ليل : قصائد قديمة ـ تيوفيل غوتيه يضع كتابه : مصنوعات الميتا والكاميه ـ تورغنيف : حكاية صياد ـ اسكندر دوماس الابن : غادة الكاميليا ـ ت . روسو : الخروج من غابة فونتنلو ـ بلطار : نساء الهال الوسطى في باريس .

١٨٥٣ ـ تدخل الاميركيين والروس في اليابان ـ الفرنسيون يحتلون كاليدونيا الجديدة ـ تخطيط لشبكة الخطوط الحديدية في الهند ـ المجاعة في دكن الهند وشمال غربي الهند ـ هوسمان محافظ مقاطعة السين ـ ارساء

الكابل البحري في بحر الشمال وقناة الشمال ـ برونيل يعمل على بناء الخط الحديدي الشرقي ـ استعمال الفولاذ المذاب ـ صنع الساعات بالجملة ـ ب. غراتري يضع : فلسفة معرفة الله ـ غوبينو ينشر كتابه : حول عدم المساواة بين الاجناس البشرية ـ مومسن يضع كتابه : تاريخ الرومان ـ جوكاي يصدر روايته : نابات مجري ـ تامايو بي بوس : فرجيني ـ الكسندري : دوبناس ومضمت ـ وليست : اغاني مجربة .

١٨٥٤ ـ حرب القرم ـ فيدهرب حاكم عام على السودان ـ عقيدة الحبل بلا دنس ـ تاسيس الارساليات الافريقية في ليون ـ نفق سمرينغ ـ اول سفينة معدنية تبنيها شركة كونارد ـ اول معمل لنسيج القطن يقام في مدينة بمباي ـ اوليس يخترع مصعدا يتحرك بالماء ـ ريمان يصدر كتابه الفرضيات الاساسية في الهندسة ـ م. برتلو يضع مبادىء الكيمياء الحرارية ـ سانت كلير ديفيل يعزل الالومنيوم بواسطة الصوديوم ـ تينسن يضع روايته : هجوم الكتيبة الخفيفة ـ جيرار دي نرفال : بنات النار ـ و ا. اجويبه : صمر السيد بوادبه ـ فيوليه لو دوك يضع : المعجم الفلسفي للهندسة الفرنسية .

١٨٥٥ ـ ثورة المسلمين في الصين ـ هزة ارضية عنيفة في اليابان ـ المجاعة في روسيا ـ معرض في قصر الصناعة في باريس ـ ظهور السفينة الحربية المدرعة ـ برتلو يتوصل الى اختراع الكحول الصناعي ـ له بلاى يصدر كتابه : عمال اوروبا ـ وبوخنر : قوة ومادة ـ بيوفيل غوتيه : رواية الومباه ـ وفريتاج : له وعليه ـ هـ. تورو : وولدن ـ و. هويتمان . فشاير ـ بلوي : جسد ولنشتاين ـ رحلة راشيل في اميركا .

١٨٥٦ ـ مؤتمر ومعاهدة باريس ـ وافدة التيفوس في الشرق ـ حملة برتن وسبك الى بحيرات افريقيا الوسطى ـ بسمر يعرف المحولة التي اخترعها ـ لويس شاتليه يبني الفرن ذات المصباح ـ هـ. و. بركنز يتوصل لصنع ملون الانيلين ـ اكتشاف الاموناك ـ اكتشاف انسان نيندرتال ـ ج. كلر يضع روايته : روميو وجوليت في القرية ـ سلتيكوف تشلشدرين يضع : رسم تفرسي للولاية .

١٨٥٧ ـ ازمة اقتصادية ـ ثورة السباى في الهند ـ اجراءات لتحسين وضع الفلاح المصري ـ مباشرة الاشغال في نفق سنيس ـ اول معمل لنسيج الجوت في البنغال ـ باستور يضع مذكرة حول الاختمار اللبني ـ ابحاث كيرتشوف وبنزات حول التحليل الطيفي للنور ـ هرزت بوس الكولوكول ـ فلوبير يضع روايته : مدام بوفاري ـ وبودلير ديوانه : ازاهير الشر ـ وابس : اولاف للجكرانز ـ وراندرع : سنغوالا ـ وكورو : اغنية ريفية ـ وميليه : اللاقطات .

١٨٥٨ ـ الغاء شركة الهند الانكليزية ـ الحملة الفرنسية الانكليزية الى الشرق الاقصى : معاهدة تينسن ـ الروس ينزلون على ضفة نهر العامور اليمنى ـ قانون المصارف المساهمة في انكلترا ـ محاولة ارساء كابل بحري في قلب المحيط الاطلسي ـ ظهورات العذراء في لورد ـ تاسيس اكاديمية لومبة ـ كيكوله يكتشف الكربون الرباعي التكافؤ ـ فيرشوف يضع كتابه : دروس حول الباتولوجيا الخلوية ـ وواغنر يضع : سيغفريد .

١٨٥٩ ـ حرب ايطاليا ـ احتلال فرنسا لمدينة سايغون ـ الروس يضعون حدا لمقاومة الزعيم القفقاسي شامل ـ بدء الاعمال في شق قناة السويس ـ كوزا كسبودار الامارات الرومانية ـ فتح اول بئر بترولية في بنسلفانيا ـ دوربان يبني أول سفينة حربية مدرعة ـ بلانتيه يخترع المختبر الكهربائي ـ اكتشاف مغارة اورنياك التي تعود الى عصور ما قبل التاريخ ـ داروين يضع كتابه : أصول الانواع ـ وماركس : نقد الاقتصاد السياسي ـ ومسترال : ميراي ـ وبنسون دي ترايل : انجازات روكمبول ـ وواغنر : تريستان وايزولت ـ وغونو : فوست .

١٨٦٠ ـ الحملة الفرنسية على سوريا ولبنان ـ الحملة الفرنسية الانكليزية على بكين ـ معاهدة بكين ـ المعاهدة التجارية بين فرنسا وانكلترا ـ اتحاد النقابات العمالية في انكلترا ـ تأسيس الاليانس الاسرائيلي العام ـ بناء المتروبولتن في لندن ـ سبيك وغرانت عند منابع نهر النيل ـ اختراع الماكينة المركبة ، ومحرك لونوار المفرقع ، وجهاز هوغ الناقل للبرقيات ـ استخدام الشافية الماسية ـ قانون فخنر في علم النفس ـ مؤتمر الكيميائيين في كارلزرو للوصول الى نظرية مشتركة حول التركيب الذري ـ م. برتلو يضع كتابه : الكيمياء العضوية المبنية على التاليف ـ تدشين مسرح الفولي برجير في باريس ـ لابيش يصدر قصته : رحلة السيد بريشون ـ جورج اليوت : الطاحون على الفلوس ـ اوستروفسكي : العاصفة ـ وداوس دكر (مولتاولي) ماكس هافلار .

١٨٦١ ـ بدء حرب الانفصال في الولايات المتحدة ـ الغاء رق الارض في روسيا ـ المناداة بمملكة ايطاليا ـ صنع اول ظهر على طول السفينة ـ ميشو يتوصل الى صنع دراجة بدواسة ـ فيليس يدخل تحسينات على زنبرك الساعات ـ بروكا يضع نظريته الخاصة بالتمركزات الدماغية ـ كورنو يضع كتابه : بحث حول ترابط الافكار الاساسية ـ و ج. اليوت يضع روايته : سيلاس مارنر ـ وبكل : تاريخ الحضارة في انكلترا ـ وهيبل : نيبلنجن ـ ودستويفسكي : تذكارات بيت الموتى ـ ومداخ : مأساة الانسان ـ غارنييه يباشر بناء الاوبرا في باريس ـ تمثيل تونهوسر في باريس يثير الهيجان .

١٨٦٢ ـ حرب المكسيك ـ احتلال فرنسا لمدينة اوبوك ـ المعاهدة الفرنسية اللفاشية ـ الثورة في كنفاريا ـ انشاء ترسانات بحرية في نانكين ـ قانون همستد في الولايات المتحدة الاميركية ـ ازمة حادة في بروسيا : تعيين بسمارك ـ انشاء السوكول في بوهيميا ـ تأسيس الجمعية العامة للعمال الالمان على يد لاسال ـ معرض لندن ـ فولو يقدر سرعة النور ـ بو دى روشاس يعرض نظرية الدورة ذات الازمنة الاربعة ـ هوغو ينشر روايته : البؤساء ـ بوميالوفسكي ينشر روايته : مولولوف ـ وكاربو : اوغولين وبنوه ـ فيوله ـ لو ـ دوك ينتهي من ترميم قصر بييرفون .

١٨٦٣ ـ الثورة البولونية ـ روبرت هار يعين مفتشا عاما للجمارك في الصين ـ معاهدة هويه واعلان الحماية الفرنسية على كمبودجيا ـ الغاء الرق في مقاطعة غويانا الهولندية ـ اكتشاف مناجم الماس في جنوبي افريقيا ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات ذات المسؤولية المحدودة ـ مؤتمر العلماء الكاثوليك في مونيخ بناء لاقتراح دولنجر ـ رينان يضع : حياة

بسوع ـ برطو يحقق اختراع الاستيلان الصناعي ـ يوناس يخترع الآلة الخائطة المطرزة ـ لونولر يخترع جهازا يعمل على البترول ـ طريقة سلفاي لاصطناع السودا ـ بناماول منارة كهربائية في راس هيف ـ هلمهولز يضع : بحث فيسيولوجي حول الوسيقى ـ لتريه يباشر وضع معجمه : قاموس اللغة الفرنسية ـ جول فرن يضع روايته : خمسة اسابيع في منطاد ـ ماتيه يضع روايته : الفطور على العشب .

١٨٦٤ ـ حرب في سبيل الدوقيات الدانماركية ـ تصفية فتح القفقاس ـ تأسيس الجمعية الدولية للعمال ـ اعتراف فرنسا للعمال بحق الاضراب ـ اتفاقية جنيف : تأسيس الصليب الاحمر الدولي ـ البراءة البابوية Quantor Cura والسيلابوس او فهرس الكتب المحرمة ـ اخترع فرن ملولن ـ الفرد نوبل يخترع النتروغليسرين ـ كلوسيوس يضع : نظرية الحرارة الميكانيكية ـ هكسلي يصدر كتابه : مركز الانسان في الطبيعة ـ بيير لاروس يباشر نشر معجم القرن التاسع عشر الكبير ـ وفوستل دي كولانج : المدينة القديمة ـ وتنيسن : انوخ اردن ـ وتولستوي : الحرب والسلم ـ دوستويفسكي : رجل المغاور ـ اوفنباخ : هلن الجميلة ـ ا. توماس : العزيزة .

١٨٦٥ ـ الغاء الرق في الولايات المتحدة الاميركية ـ بدء حرب براغواي ـ الاتحاد التلغرافي الدولي ـ الاتحاد اللاتيني (النقدي) ـ الاعتراف القانوني في فرنسا بقيمة الشك او التحويل ـ اصدار أوراق نقدية صغيرة في فرنسا من القطع الصغير بقيمة ٥٠ فرنكا الورقة الواحدة ـ بارنوم : الدجالون في العالم ـ قانون مندل ـ حراقة بنسن ـ كلوسيوس يعطي الصيغة الانتروبية للديناميكية الحرارية ـ لستر باخذ باستعمال التطهير ـ مونييه يتوصل لصنع الاسمنت المسلح ـ كيكوليه يحدد صيغة البنزين ـ كلود برنار يضع كتابه : المدخل لدراسة الطب التجريبي ـ فرنز مولر Fur Darwin تاين يضع كتابه : فلسفة الفن ـ الاخوة غونكور : جرميني لاسرتو ـ سوينبرن : اطالنتا في كاليدون ـ انترودي كواتتال : اناشيد عصرية ـ مانيه : اولمبيا .

١٨٦٦ ـ الحرب النمساوية الالمانية : معركة سادوفا ـ تبني البندقية ذات الابرة وبندقية شاسبو ـ الازمة الاسبانية الشيلية ـ الروس في طشقند ـ الارهاب في روسيا ـ المجاعة في الدكن الهند ـ الباخرة مدينة باريس ذات الدفاش تجتاز المحيط الاطلسي بتسعة ايام ـ أرساء اول كابل بحري في المحيط الاطلسي ـ نوبل يكتشف الديناميت ـ هيكل يضع كتابه : مورفولوجيا عامة ـ فرلين يضع : اناشيد زحلية ـ زولا يصدر روايته تريز راكين ـ دوستويفسكي : الجريمة والقصاص ـ أوفنباخ : الحياة في باريس ـ سميتانا : الخطيبة المباعة ـ فوكوزاوغا : اشياء الغرب .

١٨٦٧ ـ الاتفاق النمساوي المجري ـ اعلان كندا دومنيون ـ شراء الولايات المتحدة لالاسكا ـ معرض باريس ـ تدشين نفق البرينر ـ حق الاضراب وحق الاتحاد النقابي في بلجيكا ـ تدخل بريطاني في الحبشة ـ رحلة دودار دي لاغريه وفرنسيس غرنييه في الصين الجنوبية ـ سقوط نظام الشوغونا في اليابان والمباشرة بصناعة النسيج الميكانيكي فيها ـ المجاعة في روسيا ـ

مؤتمر النقد الدولي ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات المساهمة ـ ماركس يضع كتابه : راس المال ـ (المجلد الاول) ـ اختراع مكبح وستنغهوس ـ اختراع مكبس ماربنوني الدوار ـ شولز ودنسمور يخترعان الالة الكاتبة ـ أونو لانجن يخترع جهاز الغاز ـ باستور يدرس ظاهرات اجتماد النبيذ ـ ابسن يضع روايته : بيرجنت ـ ومنزل : الاحد في قصر التويلري ـ وداغنر : رؤساء المغنين في نورمبرغ .

١٨٦٨ ـ بدء العصر الجديد (عصر الانوار) في اليابان ـ الثورة في كوبا ـ المجاعة في الهند ـ الكوليرا في الجزيرة العربية ـ ظهور فيلوكسيرا الكرمة في فرنسا ـ تأسيس جمعية الاباء البيض او مرسلي افريقيا على يد الكردينال لافيجري ـ اول مؤتمر لنقابات العمال في انكلترا ـ مؤتمر السلام والحرية انشاء الكلية الفرنسية في غلاتا ـ رحلة رختهوفن الى الصين ـ جنسن ولوكيير يكتشفان غاز الهليوم ـ دوبلكس يخترع الدبلكس في التلغراف البرقي ـ اختراع الكرو ـ مانيون . ا. دوديه ينشر كتابه : الشيء التافه ـ وموسورغسكي : بوريس غودونوف .

١٨٦٩ ـ افتتاح قناة السويس ـ الانتهاء من بناء أول خط حديدي عبر الولايات المتحدة الاميركية لنشيء نظام فارس (شفاليه) ، عمل ـ مجمع احرار اليهود في ارلندا ـ تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي في المانيا ـ الولايات المتحدة الاميركية تنشيء نظام فارس (شفاليه)، عمل ـ مجمعاحرار اليهود في لايبزيغ ـ ميج ـ موريس يتوصل الى صنع السمن النباتي ـ الاخوة هيات يخترعان السلولويد ـ برجيس يتوصل الى استخدام اول شلال في جبال الالب ـ غرام يخترع الدينامو لتوليد التيار المتصل ـ مكسويل يشرح نظريته حول كهرطيسية النور ـ مندلييف يضع لائحة العناصر البسيطة ـ كوربيه يعرض رسومه في برلين وليبل يحذو حذوه في باريس ـ سيزار فرانك يضع كتابه : التطويبات .

١٨٧٠ ـ الحرب الفرنسية الالمانية ـ اعلان عصمة البابا ـ ظهور الجمهورية الفرنسية الثالثة ـ اعلان روما عاصمة لايطاليا ـ فرنسا تعترف ليهود مدينة الجزائر بالجنسية الفرنسية ـ قتل الاجانب في تيانسن ـ القانون الزراعي الخاص بالمزارعين في ارلندا ـ سيمانس يخترع فرنا كهربائيا ـ روكفلر يؤسس شركة ستاندار اويل ـ حفريات شليمان في طروادة ـ نيومن يضع كتابه : اجرومية الموافقة ـ ن. ريبو يضع كتابه : السيكولوجيا الانكليزية المعاصرة ـ ولين يضع كتابه : حول الفهم والادراك ـ وفرنشسكو دى سنكتس : تاريخ الاداب الايطالية ـ وفنتين ـ لاتور : مرسم مانيه في باتنيول .

١٨٧١ ـ تأسيس الامبراطورية الالمانية ـ ثورة الكومون في باريس ـ معاهدة فرنكفورت ـ قانون الضمانات في ايطاليا ـ الدستور القانوني لاتحاد العمال في بريطانيا العظمى ـ قانون « الجوف الخاوي » في البرازيل ـ اجراءات في صالح الفلاح المصري ـ ثورة بلاد القبيلي في الجزائر ـ الغاء نظام الاقطاع في اليابان ـ المجاعة في ايران ـ سويس يشرع بنشر كتابه : وجه الارض ـ رينان يصدر كتابه : الاصلاح الفكري والادبي ـ وفرانك : الفداء .

١٨٧٢ ـ بدء الكولتور ـ برنامج ايسناخ اجتماعي ـ الغاء الرق في كوبا ـ اضطرابات وقلاقل في الفيليبين ـ اليابان يعترف بالحرية الدينية ـ اول خط حديدي في اليابان ـ السفينة « تشالنجر » تقوم بتطوافها حول الارض ـ ماريتوني يعطي الصورة الاخيرة للروتاليف ولضابطة الهامش الميكانيكية ـ باكلاند يتوصل لاول مرة لصنع اللدائن المعروفة باسم بكليت ـ جول فرن يضع روايته : دورة حول العالم بثمانين يوما ـ اختراع غريبالدي ـ كورنو يضع كتابه : خواطر حول سير الافكار والاحداث في العصر الحديث ـ وبرانديس ينشر كتابه : تيارات الادب الكبرى في القرن التاسع عشر ـ وسولتيكوف : الاخوة غولوفييف .

١٨٧٣ ـ الازمة الاقتصادية ـ اعلان الجمهورية لاول مرة في اسبانيا ـ « الصليبية باتجاه الشعب » في روسيا ـ سكوباليف في خيفا ـ فرنسيس غارنييه في هانوي ـ الاصلاح العسكري في اليابان ـ المجاعة في الدكن ـ احادية المعدن في النقد في كل من المانيا والولايات المتحدة الامبركية ـ فان در والز يوضح نظرية تمدد الغاز ـ وندت يصدر كتابه : مبادىء علم النفس المرضي ـ ورمبو : فصل في الجحيم ـ وتولستوي : انا كارنين .

١٨٧٤ ـ السباعية العسكرية في المانيا ـ البريطانيون في جزر فيجي ـ تأسيس الاتحاد العام للبريد ـ ظهور النادي الالبي الفرنسي ـ اختراع المضاعفة في التلفون الكهربائي ـ بوترو : حول امكان حدوث نواميس الطبيعة ـ مونيه : انطباع ، الشمس المشرقة ـ استعمال كلمة « انطباعية » لاول مرة ـ مارك تواين يصدر : العصر الذهبي ـ ومانيه : كأس الجمة الطيب ـ ورينوار : المحفل ـ وبوفي دي شافان يرسم افاريز البانثيون ـ وغريك يصدر : بيرجنت .

١٨٧٥ ـ برازا في الغابون ـ انكلترا تبتاع من خديوي مصر ما له من اسهم في قناة السويس ـ انكلترا تصدر القانون الخاص بالعمال وارباب العمل ـ اتحاد الاحزاب العمالية في مؤتمر غوتا في المانيا ـ تأسيس الكلية الانكليزية الاسلامية في الهند ـ م. برتلو يحقق التاليف الكيميائي ـ لمبروزو يصدر كتابه : الرجل المجرم ـ وتين يصدر كتابه : اصول فرنسا العصرية : النظام القديم ـ اليزيه ركلو يضع كتابه : الجغرافيا العامة الجديدة (المجلد الاول) ـ مارك توين : توم سوير ـ بيزيه يضع : كارمن .

١٨٧٦ ـ طلائع مجاعة هائلة في الدكن ـ ضم الروس لمقاطعة فرغانة ـ اتفاق تشه ـ فو ـ تأسيس الجمعية الدولية الافريقية في بروكسل ـ معرض فيلادلفيا ـ اول رحلة تقوم بها السفينة فريغوريفيك ـ بل وغراي يضعان اول تلفون يعمل على الكهرباء ـ اكتشاف الديفان ـ بورا يقوم بنجاح بالعملية القيصرية ـ كوخ يبحث اسباب مرض الجمرة ـ مالارميه يصدر كتابه : كيف يقضي اله الحقول الاصيل ـ زولا يضع كتابه : المغلق ـ وفرشليكي : اناشيد ـ وفاتزوف : علم وضلا .

١٨٧٧ ـ حرب البلقان والقفقاس ـ انكلترا تضم اول جزء من الترانسفال ـ ثورة سايغو في اليابان ـ سقوط ياقوب في آسيا الوسطى ـ المجاعة في الهند ، والصين الشمالية والبرازيل ـ اضراب عمال مناجم الفحم في الولايات المتحدة ـ توماس وجيلكريست يخترعان المحول الكهربائي ، شارل غرو واديسن الحاكي ، ودابنو البراكسينوسكوب ـ بورسل وفلراند يدخلان

تحسينات هامة على فرن مارتن – فرنسا تتبنى مدفع باتج – ليبرمان يصدر كتابه : البافير .
١٨٧٨ – مؤتمر برلين يضع حداً للحرب في الشرق – البابا ليون الثالث عشر يشجب تعاليم العصر الكفرية ببراءته Quod Apostaloci – تأسيس جيش الخلاص – نوردنسكولد يجتاز الممر الشمالي الشرقي – تأسيس أول مكتب للهاتف في مدينة نيو هافن – رابر يتوصل الى تركيب النيلة صناعيا – لافال يخترع النابذة في فصل القشطة من الحليب – انجلس ينشر كتابه Anti Duhring – وكاردوتشي : اناشيد بربرية – وكيلر : اخبار من زوريخ – برنر جونز يعرض في باريس اثره الرائع : فيفيان ومرلين الساحر – بناء التروغاديرو .
١٨٧٩ – الرجوع الى سياسة الحماية الجمركية في المانيا – خلع الخديوي اسماعيل في مصر – خلق جمهورية الترانسفال – حرب افغانستان – حرب المحيط الهادي – براءة البابا ليون الثالث عشر للدفاع من تعاليم القديس توما الاكويني – مؤتمر الجغرافيا التجارية في بروكسل – المجاعة في الصين – تأسيس تلغراف كولدج في لندن – سوان وادیسن يخترعان المصباح المنير بالفراغ – باستور يكتشف مبدأ التلقيح – اختراع انابيب كروكس – ارنست سيمنس ينشىء أول قطار كهربائي – رحيل السفينة جانيت باتجاه القطب – هنري جورج يصدر كتابه : رقي وفقر – ومسبرو : دراسات مصرية – ولافيس : ابحاث حول تاريخ بروسيا – ترايتشكه يصدر : تاريخ المانيا في القرن التاسع عشر – وابسن : بيت الشعب – وسترندبرغ : الغرفة الحمراء – وكابوانا : تشياستنا .
١٨٨٠ – اجراءات ضد الرهبانيات وقوانين التعليم في فرنسا – مؤتمر مدريد حول المغرب – الحرب الاولى بين الانكليز والبوير – نفق سان غوتار – بناء الخط الحديدي عبر القفقاس – تأسيس شركة قناة بناما – تنظيم تروست نوبل – تحسين مدوس الدراجة – عربة طابعة تسير على خط حديدي في الولايات المتحدة – ايبرت يكتشف باسيلوس التيفوئيد – تين : فلسفة الفن – ج. تمسن يضع : مدينة الليل والهوى – رودان يضع : المفكر .
١٨٨١ – قتل القيصر اسكندر الثاني – مذابح اليهود في اوكرانيا – بدء الحماية الفرنسية في تونس – انشاء الكلية التشيكية في جامعة براغ – مؤتمر الفوضويين في لندن – براءة البابا ليون الثالث عشر حول نشأة السلطة المدنية – قتل بعثة فلاترز في الصحراء الكبرى – بناء الخط الحديدي عبر جبال الاندلس وفرع الخط الحديدي بين بكين ولبنسن – انارة القطار بالكهرباء على خط لندن – برايتن – تأسيس شركة اديسن الكهربائية – باستور يجري اختباراته حول اللقاح ضد الجمرة – اختبار ميكلسن حول سرعة النور – هنري بوانكاريه : حول نظرية الدالات الوكشية – ت. ريبو : امراض الذاكرة – فوغزارو يضع روايته : مالمبرا – وفرغا : مالافغليا – وماشادو دي اسيس : براز كوباس – واوسبانسكي : قدرة الارض – وريتوار يضع روايته : فطور البحارة .
١٨٨٢ – عقد الحلف الثلاثي – تدخل انكلترا في مصر – الايطاليون في الارترية – تأسيس مدينة ليوبولدفيل – طرد اليهود من روسيا – منع هجرة العرق

الاصفر الى كاليفورنيا ـ قبول الموتين في الجسم الطبي في الولايات المتحدة الاميركية ـ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ـ تأسيس الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية ـ توزيع النور الكهربائي في نيويورك للعموم ـ تأسيس حكر ستاندرد اويل ـ كوخ يكتشف باسلس التدرن الرئوي ـ تسلا يخترع المنوبة الكهربائية ـ ديبريز يحقق لاول مرة نقل الطاقة الكهربائية في معرض مونيخ ـ بيك يضع روايته : الغربان ـ فلورس : الراهب الاثم ـ المهندس سدبل يبني مخازن البرنتان في باريس ـ واغنر يضع : برسيفال ـ الرباع الاول لفوريه .

١٨٨٣ ـ اول قانون للضمان الاجتماعي يصدر في المانيا ـ حرب التونكين ـ تدخل فرنسا في مدغشكر ـ الحركة المهدية في السودان ـ تأسيس الجمعية الفابية في انكلترا ـ ظهور الحزب الماركسي في روسيا ـ الاخوة تساندييه يصنعون منطادا مسيرا ، ودبون وبولون عربة بخارية تسير على الطرق ـ اديسن يكتشف « ظاهرة اديسن » التي تفضي الى المصباح الالكتروني ـ والبارون جني يبني أولى ناطحات السحاب في شيكاغو ـ كليبس يكتشف باسلس الدفتريا ـ نيحلي يضع كتابه : الميكانيكا الفيسيولوجيا للتطور ـ ونيتشه يصدر كتابه : هكذا تكلم زرادشت ـ وسورات يضع : الحمام .

١٨٨٤ ـ قانون ناكيه حول الطلاق في فرنسا ـ الاعتراف قانونا بالنقابات في فرنسا ـ الثورة في كمبودجيا ومعاهدة حماية جديدة ـ حرب الصين ـ مؤتمر برلين الاستعماري ـ فردون في السودان ـ تأسيس الجنوب الغربي الافريقي الالماني ـ اكتشاف الذهب في الترانسفال ـ المجاعة في روسيا ـ الاستيلاء على مرو ـ تطور الحركة النقابية في بريطانيا العظمى ـ انشاء احتكار دولي للخطوط الحديدية ـ بارسنز يبني طربين بخارية ومرجنثالر يخترع اللينوتيب ـ فيل يدخل تحسينات على « البارود بدون دخان » ولووبين على الناسفة ـ الاخوة رينار يبنون منطادا ـ سينوبوس يضع كتابه : تاريخ الحضارة ـ هويسمانز : بالمقلوب ـ ولرفا ـ الخيالة الريفية ـ افتتاح صالون : « المستقلين » ـ ماسينيه : مانون .

١٨٨٥ ـ اتفاقة برلين بشأن الرق وانشاء دولة الكونغو المستقلة ـ فرنسا تعلن الحماية على مدغشكر ـ معاهدة تينسن الثانية وتوكيد الحماية الفرنسية على التونكين ـ انكلترا تضم بورما الى ممتلكاتها في آسيا ـ عقد اول مؤتمر هندي ـ تأسيس اول حزب للعمال في بلجكا ـ نشر الجزء الثاني من كتاب راس المال ـ اختراع الحاصدة ـ الرابطة ، والرشاش مكسيم ـ باستور يشفي ولدا عضه كلب مسعور ـ دملر وبنز يصنعان عربة تسير على البنزين ـ اول رحلة علمية يقوم بها الامير البر ، امير موناكو ـ زولا يضع روايته : جرمينال ـ وبجرنسن : الى ما وراء القوى ـ بناء متحف استردام الوطني لوبترل ـ فان غوه يضع : آكلة البطاطا .

١٨٨٦ ـ اضرابات في بلجيكا ، وبريطانيا العظمى والمانيا والولايات المتحدة ـ مظاهرات اول ايار في الولايات المتحدة ـ تشكيل حلف العمل الاميركي ـ تأليف شركات مشارطة في كل من الكونغو ونيجيريا ـ بناء خط حديدي عبر كندا ـ العثور على الذهب في استراليا الغربية ـ انشاء فبركة حديثة للحرير في كنتون ـ اختراع المنفخ الكهربائي لصناعة الزجاج ـ هول وهيرولت

بتوصلان لصنع الالومينيوم بالتحليل الكهربائي كما توصل هرتز الى اكتشاف الموجات الكهرطيسية ـ استمان يخترع جهازا سينماتوغرافيا ـ ـ جان فاليس يضع روايته : الثائر ـ ودرومون كتابه : فرنسا اليهودية ـ و ج. تارد : الاجرام المقارن ـ ورمبو : الاضاءة التزيينية ـ ولوتي : صياد ايسلندا ـ وبالاماس : اغاني بلادي ـ ولويس سوليفان اقام اوديتوريوم شيكاغو ـ وبارتولد : الحرية تضيء العالم ـ وفنسان دندي : سمفونية جبلية .

١٨٨٧ ـ أول مؤتمر يعقده ممثلو الامبراطورية البريطانية ـ الحكم الفرنسي البريطاني المشترك على جزر هيبريدس الجديدة ـ انشاء الاتحاد الهندي الصيني ـ الغاء الرق في كوبا ـ الدكتور زامنهوف يضع لغة الاسبرنتو ـ اكتشاف طريقة سيندةاللعب ـ انطوان بوسالمسرح الحر ـ رتشردسن يشيد مخازن مارشال فيلد في شيكاغو ـ موباسان يصدر روايته : الهورلا ـ ولوتي : مدام كريزنتام ، وكبلنغ : قصص بسيطة من الروابي ـ دانتزيو : المراثي الرومانية ـ تشيخوف : اخبار مضحكة .

١٨٨٨ ـ فانسن في فرينلاند ـ أول قرض فرنسي لروسيا ـ تأسيس حزب العمال في سكتلاندا ـ الغاء الرق في البرازيل ـ براءة البابا ليون الثالث عشر حول الحرية البشرية ـ تدشين معهد باستور في باريس ـ هدفيلد يضع الفولاذ بالمنغنيز ـ فورست يخترع محركا يعمل على البنزين ـ ظهور البنوماتيك (الهواء المضغوط) واستعماله في الدراجة ـ لمبروزو يضع كتابه : الرجل النابغة ـ ونيتشه : المسيح الدجال ـ وباريس : تحت نظر البرابرة ـ روسني الاب يضع : الخيموس ـ وسترندبرغ : الدانتون ـ وسودرمان : الشرف ـ روبن وداريو : آزور ـ لوكن : الرؤية بعد الخطاب : أو يعقوب والملاك ـ رمسكي كورساكوف : شهرزاد .

١٨٨٩ ـ مؤتمر حول الرق في بروكسل ـ سقوط الامبراطورية في البرازيل ـ اعطاء اليابان دستورا جديدا ـ اول مؤتمر لرابطة الشعوب الاميركية ـ موجة اضرابات في اوروبا ـ معرض باريس : برج ايفل في الشان اليزيه ـ تأسيس الدولية العمالية الثانية ـ تأسيس شركة : جنرال الكتريك ـ تشييد اول ناطحات السحب في نيويورك ـ اديسون يخترع آلة سينماتوغرافية ، واستمان الشريط التصويري من السلولويد ، وشاردونيه : طريقة لصنع الحرير الاصطناعي ، وهللريث : حاسبة كهربائية ـ براون سيكوارد يوضح وظيفة الغدد ذات الافراز الداخلي ـ غويو يضع كتابه : الفن من الوجهة الاجتماعية ـ وبورجيه يضع روايته : التلميذ ـ وكبلنغ : اول كتاب حول الادغال ـ ييتس : اسفار اولسن ـ ج. هوبتمان : قبل الفجر ـ غوكن : المسيح الاصفر ـ فان غوغ : رسم الرجل المقطوع الاذن ـ رتشرد شتراوس : الموت والتجلي .

١٨٩٠ ـ مقايضة زنجبار بهليغولند ـ اتفاقات استعمارية افريقية ـ مؤتمر العمل الدولي في برلين ـ افلاس بنك بارينغ والازمة الاقتصادية ـ تأسيس شركة رويال دوتش ـ اللورد بنتنك يصدر في الهند قانون التسليم ـ تعرفة ماك كنلي ـ قانون شرمان بخصوص احادية المعدن في العملة ـ القطار السريع امبير ستايت تزيد سرعته على ١٠٠ كيلومتر في الساعة ـ برانلي ولودج

يخترعان كشافا لجهاز التلغراف اللاسلكي ـ لافال يبني طوربينا جديدا يعمل على البخار ـ ادر يرتفع على ظهر الابول ـ ماراي يخترع الكرونوفوتوغراف ـ المحاولات الاولى لتزفيت الطرق ـ ماهان يصدر كتابه : تاثير القوة البحرية على التاريخ ـ و. جيمس : مبادىء علم النفس ـ ب. فاليري يصدر كتابه : نرسيس ـ و س. جورج : اناشيد ـ ومسكاني كتابه : الخالة الريفية ـ وموري اوغاي : الراقصة ـ ومونيه '

١٨٩١ ـ الرسالة البابوية Rerum Novarum حول الوضع الشري ـ تأسيس الاكداس ـ و م. دنيس : السر الكاثوليكي ـ وبورودين : الامير ايغور . المكتب الدولي للسلام في برن ـ المجاعة في روسيا واجراءات معادية للسامية ـ الشروع ببناء الخط الحديدي عابر سيبيريا ـ نقل الطاقة الكهربائية الى مسافات بعيدة لاول مرة ـ فوربست يخترع محركا من ٤ اسطوانات ـ بافلوف يدرس رد الفعل المشروط ـ الدكتور دوبوا يكتشف انسان قردجاوا المنتصب القامة . ـ ا . واللد ضم رواته : جريمة اللورد ارثر سافيل ـ كونين دويل : مغامرات شارلوك هولمز ـ س. لانجرلوف : ساغا كوستابرلنغ ـ مونيه ينشر كتابه : الحوريات ـ فرويدنغ: قثارة واكوردبون ـ وودكاند ـ يقظة الربيع ـ وررونو : الحلم .

١٨٩٢ ـ الاتفاق العسكري الفرنسي الروسي ـ حكومة مالين وسياسة الحمايه الاقتصادية ـ اضرابات في الروهر وفي صناعة التعدين في الولايات المتحدة ـ القوانين الاسترالية الخاصة بالمصالحة والتحكيم ـ التوسيع من صلاحيات المجالس التشريعية في الهند ـ مواسو يخترع فرنا كهربائيا ـ لورنتز يكتشف الكهيرب والالكترون ـ هـ . بوانكاريه يضع كتابه : المناهج الحديثة في دراسة الميكانيكية الفلكية ـ ا. وايزمان يصدر كتابه حول الوراثة والانتخاب الطبيعي ـ وهوبتمان : الحياكة ـ وشارنتيه : انطباعات من ايطاليا .

١٨٩٣ ـ تأسيس حزب العمال المستقل في انكلترا ـ كيردوف ينشىء اتحاد الفحامين ـ الفرنسيون يحتلون الداهومي ـ والاميركيون جزر هاواي ـ الحبر الاعظم لبون الثالث عشر يعيد تنظيم رهبانية البندكتيين ورهبانية الترابست ـ اختراع محرك ديزل ـ ماري يكتشف الكشاف السينمائي ـ اول مطبخ كهربائي ـ ج.جرايف : المجتمع الجديد والفوضى ـ بلوندل يصدر كتابه : العمل ـ وكبلنغ : البحار السبعة ـ دوركهايم : حول انقسام العمل الاجتماعي ـ برادلي يصدر كتابه : بين المظهر والواقع ـ وفرلين : مراث ـ ج.م دي هريديا : الاسلاب ـ اناتول فرانس : مشوى الملكة بيدوك ـ كورتلين : السادة الموظفون الاداريون ـ س. فرانسج : مافي : ابنة الازقة ـ ديبوسي : تمهيد لبعد الظهر عند احد الحيوانات ـ فوكين : اغنية راعوية من تاهيتي .

١٨٩٤ ـ الحرب الصين ـ اليابانية ـ غاندي وتأسيس المؤتمر الهندي في ناتال ـ التشريع حول التحكيم الالزامي في زيلندا الجديدة ـ تكوين الحلف العمالي الارجنتيني ـ نشر المجلد الثالث من كتاب راس المال لانجلس ـ رو يكتشف مصلا ضد الدفتيريا ـ كما يكتشف يلرسن باسيلس الطاعون الدملي ـ اونز ينشىء مختبرا للتبريد ـ ابحاث فولتيرا حول المعادلات الصحيحة ـ ليون بورجوا يصد كتابه : التضامن ـ وجورجنسن :

التحول ـ ورودين : بورجـوا كاليه ـ وايـا : اخراج الدراما الواقرية ـ ا.دي بوديـه ، يشيد كنيسة يوحنا الانجيلي في حي مونمارتر .

١٨٩٥ ـ فشل مشروع وطني قومي لارلندا ـ فتح قناة كيتيل ـ الحملة الفرنسية على مدغشقر ـ تأسيس مستعمرات روديسيا ـ التهافت على المناطق في افريقيا الوسطى ـ حرمان فنلندا من استقلالها الداخلي ـ مذابح الارمن في لاستانة ـ دستور الاتحاد العام للعمال في فرنسا ـ الفرد نوبل يؤسس عند وفاته الجائزة التي تحمل اسمه ـ ابحاث برن ولوراتتز حول الكهيرب ـ بوبوف يضع قارية (هوائي) للتلغراف اللاسلكي ـ بوجو يسير مركبة على عجل يعمل بالهواء المضغوط ـ الاخوة لوميير يصنع جهازا للسينما ـ رنتجن يكتشف الاشعة السينية ـ هرزل يضع كتابه : الدولة اليهودية ـ دوركهايم يصدر كتابه : قواعد الطريقة الاجتماعية ـ فيرهيرن يضع كتابه : المدن ذات المجسات ـ ج.هـ. ويلز : جهاز لاستكشاف الزمن ـ وث. هاردي : جود المجهول ـ فوغزارو : العالم القديم الصغير ـ تولستوي مملكة الظلام ـ وسينكفتش : الى اين ؟ ـ فان غرونتجن : قبضة من الكائنات البشرية ـ بروز مدرسة مونتربال الادبية

١٨٩٦ ـ الحملة الايطالية على الحبشة ـ المجاعة في الهند ـ ضم مدغشكر الى فرنسا ـ تأسيس مصانع زبلين ـ فورد يبني اولى سياراته ـ اولى الالعاب الاولمبية في اثينا ـ مساهمة مركوني في اختراع التلغراف اللاسلكي ـ كروبوتكين يصدر كتابه : الفوضى : فلسفتها ومثالها الاعلى ـ و ا. ريكلو : الفوضى ـ واناتول غرانس : التاريخ المعاصر ـ وبلاكو ابانيز : الارض الملعونة ـ وروبن داريو : النثر الدنيوي ـ بكاسو يضع : المستعطي .

١٨٩٧ ـ حرب تركيا واليونان ـ الالمان ينزلون في كياو ـ تشاوين ـ المجاعة في البنغال ـ تأسيس الحركة الصهيونية في مدينة بال ـ اكتشاف مناجم الذهب في الكلندايك ـ طيران على متن طائرة ـ لاغستن يدخل تحسينات ملحوظة على المونوتيب ـ هنري بكيريل يكتشف الطاقة الاشعاعية في الراديوم ـ فرنسا تتبنى مدفع عيار ٧٥ للجيش الفرنسي ـ غليوم الانفار والفولاذ مع النيكل ـ لندن تسير الترام الكهربائي ـ م.ا.س. بلوك يصدر كتابه : حرب المستقبل ـ ا. ساباتييه مدخل الى فلسفة الدين من خلال علم النفس والتاريخ ـ برونشويغ يصدر كتابه : كيفية الحكم ـ وبرللو : العلم والاخلاق ـ ولانغلوا وسنيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية ـ باريس يصدر قصته : من لا اصول لهم ـ وجيد : الاغذية الارضية ـ س. موم : ليزا لامبث ـ ر. م. ريلك : متوج الاحلام ـ سترندبرغ : جهنم ـ تشيخوف : الموجيك ـ انجال غانيفيه : المثال الاسباني .

١٨٩٨ ـ الحرب الاسبانية الاميركية ـ كتشنر يهزم المهدية ـ قضية فشودا ـ المحاولة الاصلاحية لمدة ١٠٠ يوم في الصين ـ الروس يحتلون بورت ارثور ـ قضية دريفوس في فرنسا ـ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ـ المجاعة في روسيا ـ اقرار استعمال اللغتين في بلجيكا ـ بيير ومدام كوري يكتشفان الراديوم ـ سنتوس ـ دومون يبني منطادا ـ لويس رينو يخترع الوصلة المباشرة ـ اول معرض للسيارات في باريس ـ روستان يصدر

كتابه ـ سيراتودي برجراك – برنارد شو : تمثيليات مسلية ومزعجة ـ سترندبرغ : طريق دمشق ـ ابانيز ـ الاستحكام ـ وبشيني : حياة البوهيمي .

١٨٩٩ ـ حرب الانكليز والبوبرز ـ اول مؤتمر للسلام في لاهاي ـ الطاعون في مصر وفي سنغافورا ـ المجاعة في الهند ـ برانلي وماركوني يؤمنان اول اتصال بالتلغراف اللاسلكي ـ لوبوف ينزل اول غواصة الى البحر ـ تأليف المجلس الدولي-الدائم لاستكشاف البحر في كوبنهاغن ـ الحبر الاعظم البابا ليون الثالث عشر يقف موقفا مناهضا للنزعة الاميركية الدينية ـ لويس سوليفان يبني مخازن كلرسن الكبرى في شيكاغو ـ برنشتاين يصدر كتابه : الاشتراكية النظرية والديمقراطية الاشتراكية العملية ـ فاشيه دي لابوج يضع كتابه : الآري ودوره الاجتماعي ـ هيكل : اسرار الكون ـ تولستوي : القيامة ـ وبنمس : الريح بين القصب ـ ريمي دي غورمون : استتيكا اللغة الفرنسية ـ رافيل يضع كتابه ـ الرقص الوقور للاميرة المتوفاة ـ اول منزل يقام في باريس بالباطون المسلح .

١٩٠٠ ـ معرض باريس ـ ثورة البوكر والحملة التأديبية على الصين ـ س ن . بات .س يؤسس الحزب الاشتراكي الصيني ـ الفرنسيون يحتلون تشاد يضع نظرية الكم ـ الانتفاع بمادة الغالاليت Galalite لصنع ـ اضراب عمال المناجم في اليابان ـ المجاعة في السنغال .م. بلانك اللدائن ـ لاندستاينر يكتشف فئة الاحمر الدموي للرسم ـ لوكبير يصدر كتابه : التطور اللاعضوي ـ س.فرويد : تفسير الاحلام ـ موراس : بحث حول الملكية ـ كوتسكي يصدر كتابه : الماركسية وناقدها الاكبر برنشتاين ـ ج. ربنار : شعرة الجزر ـ شارل لويس فيليب : بوبو مونبارناس ـ برناردشو : تلاميذ الشيطان ـ درايزر فيليب : كاري ـ ظهور النزعة : الفوفية في الرسم ـ المؤتمر الدولي الاول للموسيقيين في باريس ـ شاربنتييه لويزا ـ بتشيني : لاتوسكا .

١٩٠١ ـ تأسيس رابطة الدومنيون الاسترالي ـ تعديل بلات بشان كوبا ـ مؤتمر جامعة الدول الاميركية في مكسيكو ـ انشاء الصندوق الوطني اليهودي ـ انشاء شركة فولاذ الولايات المتحدة ـ الاضراب الكبير في ايطاليا ـ انشاء المكتب الدولي للعمل في بال ـ البراءة البابوية Graves de Communi ـ لوازي يضع كتابه : الانجيل والكنيسة ـ روثر فورد يوضح طبيعة اشعاع الراديو ـ هـ.دي فريز : نظرية التغيرات ـ فرويد : علم طبائع الامراض العقلية في الحياة اليومية ـ توماس مان : آل رودنبروك

١٩٠٢ ـ التحالف الانكليزي الياباني ـ اخضاع الفيلبين للاميركيين ـ الخط الحديدي عبر سيبريا يصل فلاديفستوك ـ الغاء الاتجار بالعبيد في زنجبار ـ مؤتمر برلين الاستعماري ـ انشاء امانة سر دولية نقابية ـ بلوليه : تاريخ بورصات العمل ـ البابا الثالث عشر يشكل لجنة للدراسات الكتابية ـ مذكرة فريد هولم حول المعادلات الصحيحة ـ هنري بوانكاريه يصدر كتابه : العلم والحدس ـ ب. كروسي : الاستتيكا باعتباره علم الاحساس وعلم اللغة العام ـ اندريه جيد يصدر كتابه

الفاسق – غوركي : الاغوار – آزورين : الارادة – ديبوسي : بلياس وميليزاند .

١٩٠٣ – التخلي عن مشروع قناة بناما – الثورة في مقدونيا – المانيا تحصل على امتياز خط بغداد الحديدي – مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي في لندن : الاصطدام بين البلشفيك والمنشفيك – مذابح جديدة لليهود في روسيا الجنوبية – المؤتمر الصهيوني – كورن يدخل تحسينات على طريقة ارسال الصور بالكهرباء – طيران الاخوة رايت – تأسيس محلات فورد – تسيولكوفسكي يصدر كتابه : درس الفضاء بالاجهزة المبنية على التجاوب الرجعي – زولا : الحقيقة – ر. رولاند : حياة بيتهوفن – كنراد : العاصفة ابانيز : الكاتدرائية – رابمونت : الفلاحون – افتتاح صالون الخريف في باريس

١٩٠٤ – بدء الحرب الروسية اليابانية – عقد الاتفاق الودي . سن – يات سن يؤلف حزب الكومنتانغ – محاولة اعلان الاضراب العام في ايطاليا – مؤتمر الدولية الاشتراكية في امستردام – وضع الحق القانوني بايعاز من البابا بيوس العاشر – فلامنغ يخترع القنديل الكهربائي الثنائي القطب – بلتزر يتوصل لصنع القران (النيلون) – روما رولان يصدر تباعا : جان كريستوف والفجر – سويريز : حول وفاة اخي – ولغيومسين : حياة ساذج – وهوبرت كرايتز : الخبز الاسود – وبيرندللو : المرحوم متياس باسكال – ولولسورتي : فريسو الجزيرة – لافكاديو هيرن : اليابان ، ومحاولة تبرير – فكتور بيرار : طريق آسيا – وبوتشيني : مدام بترفلاي .

١٩٠٥ – انتهاء الحرب الروسية اليابانية – الثورة في روسيا والحركة الرجعية فيها – ازمة المغرب الاولى – وقوع الانفصال بين السويد والنروج – الغاء آخر مقاطعة للهنود الحمر في الولايات المتحدة – انشاء حزب الوطن العربي – فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا – مؤتمر برن حول التشريع العمالي – انزال الدردنوط الى البحر – مذكرات انشتاين حول تأثير الضوء الكهربائي ونواميس النسبية – هنري بوانكاريه : قيمة العلم – فرويد : النظرية الجنسية – لافيس : لويس الرابع عشر – الان : خواطر – برنشتاين : الزوبعة – ظهور التكعيبة في فن الرسم – سترافنسكي : سمفونيا مي بيمول – بيلا بارتوك : النتيجة الاولى – مانويل دي فالا : الحياة القصيرة .

١٩٠٦ – مؤتمر الجزيرة حول المغرب – مؤتمر الشعوب الاميركية في الريو – القحط في روسيا واصلاح ستولوبين الزراعي – اتفاقية روما حول مراكز البريد الدولية – طيران سنطوس دومون – قانون العطلة الاسبوعية في فرنسا – البراءة الرسولية Vehementer برغسون ينشر : التطور الخلاق – اختراع تفاعل واسرمان – ابتن سنكلر : الادغال – ادي : قصائد جديدة – تكسون : بل الفاتح – بادن باول : الكشافة للاولاد – شيمازاكي توزون : المخالفة .

١٩٠٧ – المؤتمر الثاني للسلام في لاهاي – تشكيل الائتلاف الثلاثي والاتفاق الروسي الياباني – انشاء محكمة عدل لاميركا الوسطى – البراءة البابوية

Pascendi ـ تأسيس جمعية فراتري لتوطيد السلام بين الشعوب ـ غاندي يتبنى سياسة Satyagrapha بغية تنظيم المقاومة السلبية ـ الازمة الاقتصادية ـ المجاعة في الهند وفي الصين ـ اضراب عمال مناجم النترات في الشيلي ـ تأسيس شركة شل ـ تجربة التصوير الملون على يد لومبير ـ لي دي فوريست يخترع القنديل الثلاثي القطب ـ هوغ يضع كتابه : بحث في الجيولوجيا ـ هاملن : محاولة حول العناصر الاساسية في التمثيل ـ اونامونو : قصائد ـ هوايتلوك : دورة القبان ـ غوركي : الام ـ هارغاوا فوتباتيه : دون المتوسط ـ تاهاما كتاي : الغطاء ـ النزعة الى التربة لغزو كندا ـ شوانبرغ : سمفونيا الحجرة .

١٩٠٨ ـ ضم بلجكا للكونغو وضم البوسنه والهرسك الى النمسا والمجر ـ ثورة تركيا الفتاة ـ اختراع الريح الصدرية ـ ج. سوريل : تأملات حول العنف ـ دانونزيو : صحن الكنيسة ـ رافيل : امي الاوزة .

١٩٠٩ ـ الثورة في تركيا وبلاد فارس ـ أزمة البوسنه ـ الهيجان في برشلونا وتنفيذ حكم الاعدام بفرابر ـ اضرابات في الارجنتين ـ بيري يبلغ القطب الشمالي ـ بلاريو يجتاز مضيق المانش بالطائرة ـ ولم يطلع علينا بالدور الوميين ـ بيكلاند يوضع خصائص راتنج الفينول ـ الفورمول (الباكليت) ـ لنين يضع كتابه : المادية والنقد التجريبي ـ اندريه جيد : الباب الضيق ـ باريس : كوليت بودوش ـ بلوى : دم الفقير ـ مرغريت أودو : ماري ـ كلير ـ مايترلنك : العصفور الاخضر ـ بوردبل : هيراكليس النبال ـ بيكاسو : المرأة والمندولين ـ دياغيليف والباليه الروسية في باريس ـ

١٩١٠ ـ انشاء دومنيون جنوب افريقيا ـ اليابان تضم كوريا ـ مؤتمر شعوب امريكا في بونس ايرس ـ اضراب عمال مناجم الفحم وقانون التقاعد العمالي في فرنسا ـ الحكم على بيون ـ سقوط الملكية في البرتغال ـ شافيز يجتاز جبال الالب ـ ماري كوري تعزل الراديوم ـ سلك تنغستين الذي وضعه كولدج يتيح للتصوير صنع مصباح يعمل بسلك تنغستين ـ هابر يتوصل الى الامونيا الصناعي ـ ظهور طريقة اللزوجة ـ توماس هونت مورغان يجدد علم الوراثة وبوجين بالايون يحقق التناسل العذري الصناعي ـ هلفردنغ يضع كتابه : الرأسمال النقدي ـ نورمان انجل : الوهم الاكبر ـ وجوريس : الجيش الجديد ـ الاب سرتلانج يضع كتابه : القديس توما الاكويني ـ وبيغي : سر محبة جان دارك ـ ستافنسكي ودياجيليف : عصفور النار .

١٩١١ ـ الثورة في الصين ـ الازمة المراكشية ـ الايطاليون في طرابلس الغرب ـ الفتنة الزراعية في زاباتا ، المكسيك ـ ازمة سياسية في بريطانيا العظمى ـ امندسن يبلغ القطب الجنوبي ـ فونك يكتشف الفيتامينات ـ راذرفورد يوضع خصائص الذرة ـ ا. و ج. بريه يبنيان مسرح الشان اليزيه ـ بيكاسو : الطبيعة الميتة ـ سترافنسكي : بتروشكا ـ لاشتراوس : فارس الوردة ـ بيلا بارتوك : قصر بارب بلو .

١٩١٢ ـ الحرب البلقانية ـ يوان شي ـ كاي ، سيد الصين ـ اعلان الحماية الفرنسية على المغرب ـ مجلس العموم يصوت على الوطن القومي ـ التشريع حول الضمان في بريطانيا العظمى ـ ازدياد الهيجان الاجتماعي

في روسيا ــ مؤتمر الدولية الاشتراكية في بال ــ ر. لكسمبورغ يضع كتابه : تجمع رأس المال ــ تيلور : مبادىء الادارة العلمية ــ ظهور طريقة فورد للعمل ــ كاروس يجتاز البحر المتوسط ــ لاين يوضع طبيعة الاشعة السينية ــ هس يثبت حقيقة ظاهرة التاين ــ دوركهايم : الاشكال البدائية للحياة الدينية ــ اناتول فرانس : «الآلهة العطشى ــ الان فورنييه : مولن الكبير ــ كلوديل : البشارة لمريم ــ برنارد شو : بجمليون ــ بابيني : رجل انتهى ــ مارينتي : منتقيات مستقبلية ــ رافيل : دافني وكلويه ــ سوينبرغ : بييرو المعتوه .

١٩١٣ ــ الحرب البلقانية ــ قوانين الحرب في كل من المانيا وفرنسا ــ مجلس اللوردات يرد مشروع الوطن القومي في ارلندا ــ التشريع الاميركي ضد الاحتكار ــ المؤتمر العربي في باريس ــ لا شاتليه يوضع قانون سقاية الفولاذ الثنائية في عملية الكربنة ــ هابر يتوصل الى تركيب الامونياك الصناعي ــ فرويد : يصدر كتابه : الطوطم والتابو ــ هوسرل : فلسفة مبحث الظاهرات ــ باريس : الاكمة الملهمة ــ مارتن دوغار : جان باروا ــ بروست : بحثا عن الوقت الضائع ــ هيمون : ماريا شبدلين ــ شارل لويس فيليب : شارل بلانشار ــ بيراندلو ــ منزل الآخرين ــ طاغور ينال جائزة نوبل ــ جان كوبو : تأسيس كولميه القديمة ــ ج. ابولينير : رسامو التكعيبة ــ سترافنسكي : تكريس الربيع .

١٩١٤ ــ الازمة الاوروبية ــ الاضطرابات في الاولستر ــ الانتهاء من شق قناة بناما ــ هـ. ن. رسل يبسط نظرات جديدة حول تطور النجوم ــ اونابل : العطش بوردبل : السنور المحتضر ــ بروكوفيف حاشيه سكيثية ، والبط الصغير الرديء .

فهرست الاعلام

ث

ج

ح

ر

ز

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصّـــــوَر

٢٦ – دخول غاريبلدي الى نابولي .
٢٧ – الساحة الحمراء في موسكو ، في السنة ١٨٤٤ .
٢٨ – برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .
٢٩ – سنغافور في السنة ١٨٦٠ .
٣٠ – دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية ، (١٨٦٥) .
٣١ – مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .
٣٢ – مدينة بوينوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمرك .
٣٣ – اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .
٣٤ – سوق لبيع العبيد في مدينة الجزائر .
٣٥ – دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .
٣٦ – حمامات الغانج المقدسة .
٣٧ – دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ – هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .
٣٨ – مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .
٣٩ – مصائب الحرب : النزوح عن (سان – كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .
٤٠ – الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٢ .
٤١ – الافسنتين .
٤٢ – اخراج الفرش من بيت الرهن .
٤٣ – كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرناندو) (١٨٨٥) .
٤٤ – عظمة البورجوازي وانحطاطه .
٤٥ – انطلاقة السيارات المتسابقة (باريس – برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .
٤٦ – متنزه الدراجة في غابة بولونيا .
٤٧ – حفلة راقصة في (طاحونة الطلعة) .
٤٨ – النزهة الباريسية .

فهرست عام

القسم الأول

بين الاستمرار والتغييرات المحتملة في مطلع العصر

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسع الاوروبيين العالمي

القسم الثالث

الحضارة الاوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

القسم الرابع

الحضارات خارج اوروبا

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

انتهى المجلد السادس، ويليه المجلد السابع والأخير
العهد المعاصر

زدني علماً

٧١ـ فن تخطيط المدن

٧٢ـ علم النفس التجريبي

٧٣ـ أصول التوثيق

٧٤ـ دينامية الجماعات

٧٥ـ تاريخ الهرطقة

٧٦ـ فلسفة التاريخ

٧٧ـ سوسيولوجيا الصناعة

٧٨ـ الماركسية بعد ماركس

٧٩ـ معرفة الذات

٨٠ـ تاريخ الطيران

٨١ـ التعليم المبرمج

٨٢ـ السلطة السياسية

٨٣ـ سوسيولوجيا الحقوق

٨٤ـ الخطوط الأولى لفلسفة ملموسة

٨٥ـ مدخل إلى التربية

٨٦ـ معرفة الغير

٨٧ـ القيمة

٨٨ـ عظمة الفلسفة

٨٩ـ الإنسان الأول

٩٠ـ اللحظة العدمية المتعالية

٩١ـ الجمالية الماركسية

٩٢ـ تاريخ بابل

٩٣ـ الفلسفة والتقنيات

٩٤ـ جغرافية العالم الصناعية

٩٥ـ فلاسفة إنسانيون

٩٦ـ الحرب الأهلية

٩٧ـ أصل الموحدين الدروز

٩٨ـ من الرأي إلى الإيمان

٩٩ـ التسويق

١٠٠ـ دفاعاً عن الأدب

١٠١ـ الذين يحضرون غيابهم

١٠٢ـ الجماعات الضاغطة

١٠٣ـ الأسطورة

١٠٤ـ التوفير والتثمير

١٠٥ـ الإحصاء

١٠٦ـ الوظيفة العامة

١٠٧ـ الكلام

١٠٨ـ النظام السياسي والإداري في بريطانيا

١٠٩ـ الثقافة الفردية وثقافة الجمهور

١١٠ـ توظيف الأموال

١١١ـ الأدب الألماني

١١٢ـ المحاسبة التحليلية

١١٣ـ النظام السياسي والإداري في فرنسا

١١٤ـ الأمومة والبيولوجيا

١١٥ـ الحريات العامة

١١٦ـ قانون الفضاء

١١٧ـ تلوث المياه

١١٨ـ النقد الأدبي

١١٩ـ النظام السياسي والإداري في الاتحاد السوفياتي

١٢٠ـ التلوث الجوي

١٢١ـ النسبية

١٢٢ـ السوريالية

١٢٣ـ حلول فلسفية

١٢٤ـ التلفزيون الملون

١٢٥ـ مدخل إلى الإقتصاد

١٢٦ـ الأخلاق والحياة الاقتصادية

١٢٧ـ مناهج علم الاجتماع

١٢٨ـ استطلاع الرأي العام

١٢٩ـ موحدة الوجود العقلية

١٣٠ـ الأدب الإيطالي

١٣١ـ المذاهب الاقتصادية

١٣٢ـ الفن التكعيبي

١٣٣ـ التربية الجنسية عند الولد

١٣٤ـ فلسفة القانون

١٣٥ـ الطفولة الجانحة

١٣٦ـ الرواية البوليسية

١٣٧ـ النقد البنيوي للحكاية

١٣٨ـ تاريخ الجزائر المعاصر

١٣٩ـ الكوميديا

١٤٠ـ تاريخ علم الآثار

١٤١ـ السيكولوجيا الصناعية

١٤٢ـ الدولة

١٤٣ ـ البحث العلمي
١٤٤ ـ المجتمع الصناعي
١٤٥ ـ التوجيه التربوي والمهني
١٤٦ ـ الجوع
١٤٧ ـ التخفيض النقدي
١٤٨ ـ القانون الدولي
١٤٩ ـ الدراما والدرامية
١٥٠ ـ صراع الطبقات
١٥١ ـ الامبريالية
١٥٢ ـ الاستعارة والمجاز المرسل
١٥٣ ـ علم الدلالة
١٥٤ ـ البنيوية
١٥٥ ـ الاتجاهات الأدبية الحديثة
١٥٦ ـ جغرافية الاستهلاك
١٥٧ ـ معايير الفكر العلمي
١٥٨ ـ تاريخ الحساب
١٥٩ ـ الياس أبو شبكة
١٦٠ ـ آراء في السعادة
١٦١ ـ تقنية السينما
١٦٢ ـ العقل والنفس والروح
١٦٣ ـ علم النفس الاجتماعي
١٦٤ ـ الطاقة
١٦٥ ـ مناهج التربية
١٦٦ ـ آداب الهند
١٦٧ ـ الوحدة والديموقراطية في الوطن العربي
١٦٨ ـ جغرافية السكان
١٦٨ ـ التقمص
١٦٩ ـ حقوق الطفل
١٧٠ ـ أينشتين
١٧١ ـ السدود
١٧٢ ـ تقنية الصحافة
١٧٣ ـ الإنسان
١٧٤ ـ الأدب الصيني
١٧٥ ـ نظريات الفلسفة
١٧٦ ـ اللامركزية السياسية والإدارية في العالم
١٧٧ ـ الفكر العربي
١٧٨ ـ طبيعة الميتافيزيقا
١٧٩ ـ الخدمة المدنية في العالم
١٨٠ ـ التربية المستقبلية
١٨١ ـ تاريخ الحضارة الأوروبية
١٨٢ ـ حقوق الإنسان الشخصية والسياسية
١٨٣ ـ المحاسبة
١٨٤ ـ سيكولوجيا الذكاء
١٨٥ ـ الاقتصاد في المغرب العربي
١٨٦ ـ فولتير
١٨٧ ـ التاريخ الدبلوماسي
١٨٨ ـ الطبقات الاجتماعية
١٨٩ ـ من الكندي إلى ابن رشد
١٩٠ ـ الاستعمار الدولي
١٩١ ـ مدخل إلى السوسيولوجيا
١٩٢ ـ الحركة النقابية في العالم
١٩٣ ـ المحاسبة في النظرية والتطبيق
١٩٤ ـ الأدب اليوناني
١٩٥ ـ تاريخ علم النفس
١٩٦ ـ الفوضوية
١٩٧ ـ المورفولوجيا الاجتماعية
١٩٨ ـ الآليات الزراعية الحديثة
١٩٩ ـ التسويق السياسي
٢٠٠ ـ الفلسفة الشرقية
٢٠١ ـ الاسترخاء
٢٠٢ ـ بحوث في الرواية الجديدة
٢٠٣ ـ المواقف الأخلاقية
٢٠٤ ـ مع الفلسفة اليونانية
٢٠٥ ـ أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى
٢٠٦ ـ الجريمة
٢٠٧ ـ الأسواق المالية في العالم
٢٠٨ ـ المراهقة
٢٠٩ ـ الكندي
٢١٠ ـ الصحة العقلية
٢١١ ـ ميزان المدفوعات
٢١٢ ـ الوسائل السمعية والبصرية
٢١٣ ـ البنزين

منشورات عويدات ٩١٩ / ١٩٨٧

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME VI

LE XIX^e SIÈCLE

L'APOGÉE DE L'EXPANSION EUROPÉENNE
(1815-1914)

par

Robert SCHNERB
Professeur honoraire de Première Supérieure
Docteur ès Lettres

QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٦

القرن التاسع عشر

تأليف

روبير شنيرب

أستاذ فخري في الدراسات العليا
دكتوراه دولة في الآداب

هذا المجلد من خمسة اقسام، يتصدّرها مدخل توضيحي.

القسم الأول من سبعة فصول، حول سكّان اوروبا، والعناية بالارض فيها، والتقنيات الجديدة في الصناعة والنقل، والدفع الرأسمالي والبورجوازي، والحركة الرومنطيقية وعودة الشرعية الى اوروبا، والحركات القومية والنضالية العمالية، وبروز الذات الاميركية في الإستعمار.

القسم الثاني من تسعة فصول، حول الحروب القومية في اوروبا والحرب الإنفصالية في الولايات المتحدة، وعصر الإيمان بإمكانات العلم، واستكشاف الأرض وانتشار المثل الاوروبية، وارتفاع عدد السكان وفتح المحاصيل الحيوانية والنباتية الكبرى، والعبقرية الصناعية، وانطلاقة وسائل المواصلات في عهد البخار، وانطلاقة الرأسمالية في الغرب، والإستعمار الأوروبي ونشأة السياسات التوسّعية الكبرى.

القسم الثالث من ستة فصول، حول المدينة ودفعها الشديد، واستقلال الذوق الفني، وتطوّر الريف، والمدينة بين القوى المحافظة والقوى الإشتراكية، والدول الأوروبية بين المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط، ويقظة الصقالبة في اوروبا الشرقية.

القسم الرابع في ستة فصول: في المجتمعات الشمالية التاعسة، وتقدم الإنكلوساكسونية، والأيام الصعبة في اميركا اللاتينية، والعالم الإسلامي، وحضارات افريقيا واوقيانيا، والتوسع الغربي اللاحق الهند وآسيا الشرقية.

القسم الخامس في خمسة فصول: وثبة الى الأمام، تجدّد الحياة الروحية في اوروبا، اعراض التقهقر الاوروبي، الإرتكاسات العالمية والدفع الإشتراكي، فالإنتقال من السلم الى الحرب الاوروبية.

يقع هذا المجلد في ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير مجلد بالقماش الفاخر ومزود بـ ٢٩ رسماً وخريطة وفيه ٤٨ لوحة ترافق النص الى جانب جدول زمني مقارن وجدول بالاعلام والأماكن.

تاريخ الحضارات العـ

منشورات عويدات - بيروت - باريس

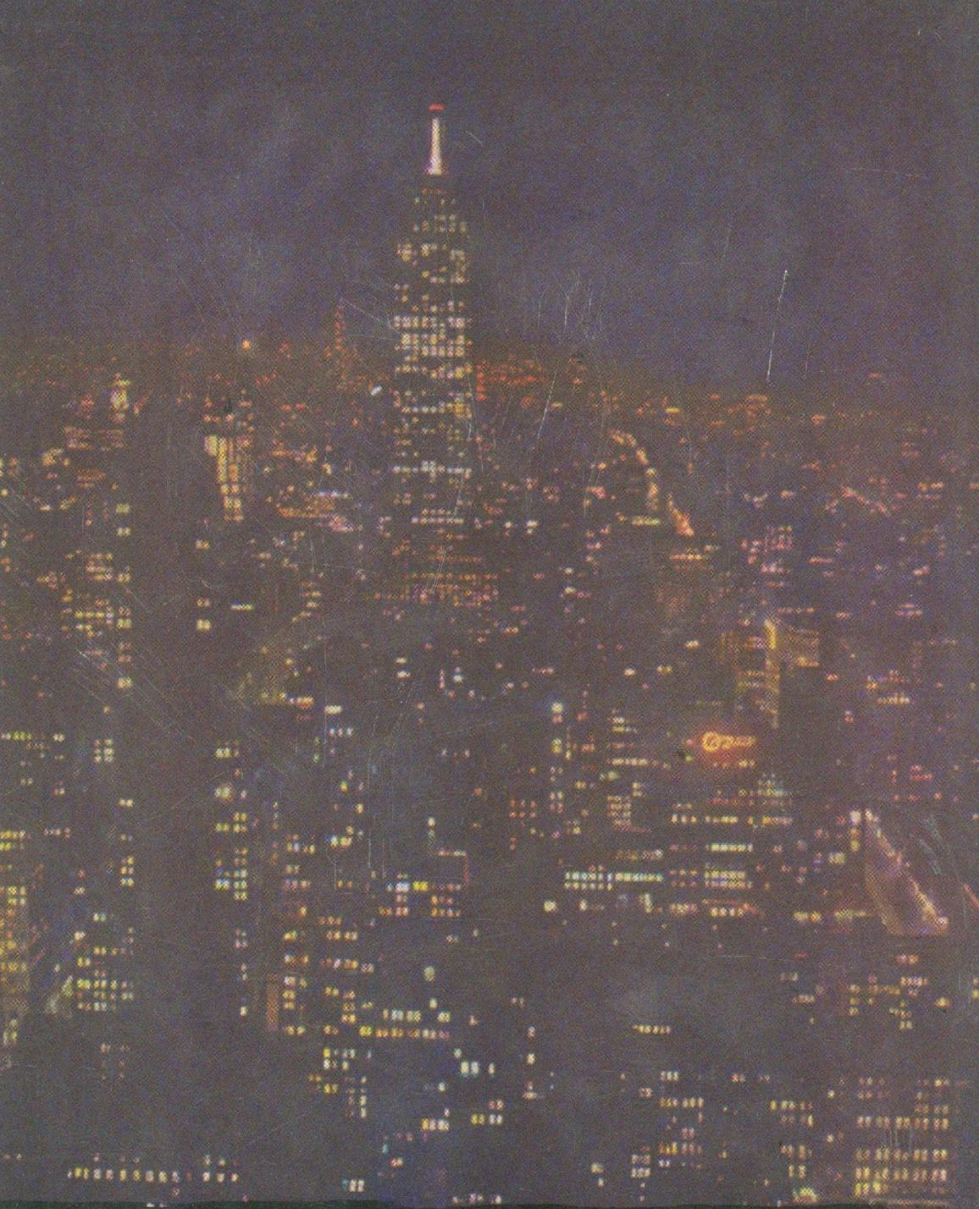

تاريخ الحضارات العام

العهد المعاصر

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي — أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون
و
إرنست لابروس — أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد السابع

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

العهد المعاصر

بحثاً عن حضارة جديدة

تأليف

موريس كروزيه

مفتش للمعارف العام في فرنسا

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر   فريد م. داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مدخل

تؤلف الحقبة التاريخية التي انتهت عام ١٩١٥ ، في رأي كينز : «حقبة مدهشة من جهة التطور الذي حققه الانسان » ، كما بلغت فيها الثروة التي سجلها العالم الليبرالي والرأسمالي » . ففي الوصف البليغ الذي رسمه لنا هذا العالم الاقتصادي المشهور بيان مفصل لهذه التطورات التي تحققت والتي تتمثل ، على الوجه الامثل ، في ازدهار الدول ، وفي هذا الغنى والبحبوحة التي توفرت للأفراد وبهذا الشعور العام بالطمأنينة . فالعالم كله يبعث الى اوروبا الغلال والمحاصيل التي تضن بها عليها حقولها ، كما ترسل اليها المحاصيل الاستوائية النادرة التي لم تكن لتخطر على بال احد في الامس القريب وهذه المحاصيل والغلال التي يؤلف وجودها اليوم ، علامة من علامات البذخ والرفاه . كذلك فتح العالم ابوابه على مصراعيها امام المصنوعات التي باستطاعة المصانع الاوروبية وحدها توفيرها له . فبرزت لنا صورة عالم مزدهر منفتح بحيث لم يبق من الحواجز المعيقة سوى ظلّها ، وحيث تتوافد وتسير بحرية مطلقة ، الناس والبضائع والسلع ورؤوس الاموال ، والافكار ، وحيث بلغت حركة الانتاج والتجارة ، في اوروبا ، سدرة المنتهى ، وسجلت أعلى مستوى عرفه تاريخ البشرية جمعاء .

وهذا الموطن الاسطوري للثروة السابغة ، وهذه « الجمهورية المثالية » التي يصفها لنا كينز ، هي ابعد من ان تمثل العالم القديم حتى ولا اوروبا باجمعها . بل هي صورة قسم من اوروبا «اوروبا السائدة المسيطرة » ، ممثلة ببعض اقطارها الواقعة الى الغرب او في القلب ، والتي يؤلف كل منها مشعلا من « مشاعل الحضارة الاوروبية » . والدول التي اطلت حديثاً على العالم في الخارج ، كالولايات المتحدة الاميركية واليابان ، هذه الدول التي تطمع في ان تكون لها حصتها في المشروعات الاستثمارية الكبرى ، هي من حفيدات اوروبا ومن تلميذاتها النابهات بعد ان اقتبست منها : مناهجها وطرائقها ومثلها واساليب عيشها . وعلى نسبة ما تمثلته من الطابع الاوروبي استطاعتنا تمثيل هذا الدور الذي لعبته اوروبا من قبل .

وهذه السيطرة التي تمت للرجل الابيض – او بالاحرى لفريق منه – وهي سيطرة لا تعدو

مع ذلك ، القرن السادس عشر ، اعترفت بواقعها الشعوب التي دارت في فلكها ، بعد ان تناسى الناس اصولها الحديثة امام ما شهدته من التطورات المدهشة التي حققتها في القرن التاسع عشر والنجاحات الهائلة التي سجلتها . وبفضل هذه السيادة وفي سبيلها امكن ، على ما يبدو ، تحقيق الوحدة في كوكبنا الارضي هذا . فالنظام الاقتصادي والسياسي الذي مكّن لهذه النجاحات هو من المتانة والصلابة بحيث تحدّت كل خطر . فالمشاعر التي تشد الناس الى الماضي واصحاب النظريات الخيالية والثورية التي قــال بها فريق صغير ، هي التي اخذت تنتقص من قيمة الرأسمالية الليبرالية والديموقراطية النيابية التي لم يشكّ مع ذلك ، احد بالمستقبل الزاهر الذي سيطل عليها .

وبعد ذلك بأربعين سنة ، وفي اعقاب حربين عالميتين وازمة اقتصادية ، لم يشهد التاريخ من قبل مثل هذا الاتساع او الشمول الذي اتخذته لها ، تغير الوضع بغيره تماماً . فالازمة التي تمخض عنها العالم منذ مطلع القرن ، والتي انفجرت مدوية عام ١٩١٤ ، هزّت اوروبا من اساساتها . وهذه الحرب الاهلية التي اكتوت اوروبا بلهيبها المحرق مدة اربـع سنوات ، والثورة الروسية التي نشبت عام ١٩١٧ ، كل ذلك وما اليه ، انزل « بالنظام الليبرالي الرأسمالي »، هزات لم يعرف له معها استقراراً بعد . والمحاولات العديدة التي بذلت لاعادة الوضع القديم الى ما كان عليه ولبعث العصر الذهبي الى الوجود ، والرجوع بالانسانية الى لذة العيش والطمأنينة التي نَعِم بها العالم قبل ١٩١٤ ، باءت كلها بالفشل . وقبل ان يرزح العالم من جديد تحت ضغط الازمـة الاقتصادية التي اطلت عليه عام ١٩٢٩ ويُبتلى بعقابيل الحرب العالمية الثانية ، بـدا انحـلال اوروبا أمراً لا مرد له ولا محيص عنه وكذلك النظام الذي كان اساس قوة اوروبا وسيطرتها . وإطلالة الاسبوع الاسود على وول ستريت في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٩ كانت نذيراً بتـدهور النظام الرأسمالي ، وبذلك قضي تماماً على هذه الاحلام المعسولة التي راودت خيال رجال السياسة كما راودت خيال رجال الاعمال وكلهم يهفو الى طلوع عهد جديد من الطمأنينة مطلا النفس بمستقبل زاهر بسام. وفي هذا الوقت بالذات تطل علينا حكومات وانظمة جماعية عبثت ساخرة، بكل المبادىء الليبرالية ، هذه المبادىء التي كانت الركن الركين لحضارة الاوروبية منـذ القرن الثامن عشر .

والحرب العالمية الثانية التي دهمت العالم قبل ان يستعيد قواه الخـائرة في اثر الازمة الاقتصادية التي نزلت به ، حملت معها هذه النظم الفاشستية كما استفحل معها انقسام العالم محاور واحلافاً ، كما راحت بلدان كثيرة استبيحت باحتها تشرئب باعناقها الى الاستقلال متلمسة الحرية أينما هبت . فالقارة الآسيوية بأسرها تنفض عنها نير الدول المستعمرة واستخـلاص بقايا

الامبراطورية من الاوروبيين بعد ان عاثوا بها وعبثوا، ولن يمضي كبير وقت حتى تستعيد حريتها السليب . وبلدان اميركا اللاتينية التي كانت تعول على الولايات المتحدة ، زادت نفرة من الدولار الاميركي ومن استعلاء اصحابه .

فالحقبة تؤلف ازمة تجعل كل مكتسبات الحضارة تهتز وترتجف امام ثورة عارمة لا مثيل لها ولا نظير . وقد ارتدى العالم وجهاً جديداً ليس في المجال السياسي والاقتصادي فحسب ، بل ايضاً في مجالات العلم والفن والفكر . وهي ثورة عميقة هزت عنيفاً النظريات الفيزيائية وطلعت علينا بكشوف علمية تأخذ بمجامع القلوب ، وتساعد على إعادة النظر في البنيان الفلسفي القائم. فرجال الفن والكتاب يبحثون عن اشكال وصيغ جديدة تساعدهم على فهم وتفهم كل معضلات العصر ومنجزاته ، كما تفلسف لنا ، باسلوب جديد ، الوشائج والاواصر الجديدة ، التي تشد الانسان الى نفسه والى العالم .

وهكذا تم للإنسان نجاحات علمية وفنية قادرة على تغيير اوضاع الحياة وظروفها ، وشرائط الحروب واصولها ، فتضع لاول مرة في التاريخ تحت تصرف البشر ، إذا ما ارادوا ذلك ، الوسائل التي تساعدهم تماماً ، على التغلب على الويلات التي اناخت منذ القدم ، على صدر الانسانية ، وأرزحتها .

القسم الأول

أفـــول أوروبـا

الكتاب الأول

أوروبا تفقد وضعها الممتاز

كل قوة مصيرها الفناء . فالقدرة على توجيه التاريخ ليست من الهبات الثابتة . واوروبا التي تسلمت هذه الهبة من يد آسيا منذ نحو ثلاثة آلاف سنة ليس ما يضمن لها الاحتفاظ بها الى الابد والاستئثار بها الى ما لانهاية له .

لافيس – ١٨٩٠

الفصل الأول

السيطرة الاوروبية قبل الحرب العالمية الاولى

في سنة ١٩١٣ لم تكن سيطرة اوروبا على العالم لتقوم على قوتها العسكرية ، واساطيلها الحربية ، وقواعدها البحرية ، وتفوقها في عتادها العسكري ، وكثرة جيوشها وحسب ، بل كانت ، علاوة عما ذكرنا ، قائمة على تفوقها المادي والتقني الذي جعل منها « مصنع » العالم ، وعلى تفوقها المالي الذي جعل منها مصرفه ، وتفوقها الفكري المعترف به في العالم بأسره .

تضخم السكان في اوروبا

يكن تفوق اوروبا المادي اول ما يكمن في ثروتها البشرية . لا تعدُّ اوروبا سوى ٤٦٠ مليون نسمة من أصل ١٨٠٠ مليون ، م مجموع سكان الكرة الأرضية (٢٦ ٪) . ورغم ذلك ، فإن معدل نمو سكانها ، ظل دائماً مرتفعاً : المانيا تزداد ٨٥٠ الف نسمة في السنة . والثنائي المؤلف من النمسا والمجر ٢٥٠ الفاً . والامبراطورية الروسية ما يزيد على المليونين . ولهذا السبب كانت الهجرة الأوروبية أهم هجرة في العالم . وقد أسهمت في توطيد وتطوير الدول « البيض » الجديدة ، التي نشأت فيما وراء البحار ، كالولايات المتحدة ، ودول الدومينيوم ، والأرجنتين والبرازيل ، هذه الدول الجديدة التي راحت تستقبل كل سنة ٤٥٠ ألف مهاجر بريطاني و ٤٠٠ الف مهاجر إيطالي ، ومئات الألوف من فلاحي أوروبا الوسطى والشرقية ، الذين ازعجهم البؤس في أوطانهم . وفضلاً عن ذلك فإن عدداً ضخماً ، لا يقل دون شك عن ٧٠٠ الف فلاح روسي ، كان يغشى كل سنة القارة الآسيوية ، ولا سيما المناطق الواقعة فيما وراء جبال الأورال .

وزيادة في تبيان الدور الذي تلعبه اوروبا في بلاد ما وراء البحار، يلزمنا الى جانب ذكرنا من ارقام ان نضيف ايضاً ، جميع أولئك المهاجرين ، الذين ينزحون عن اوطانهم ، الى حين ، ليعملوا في استثمار المشاريع الاقتصادية التي كا قبل « تديرها اوروبا لمصلحة اوروبا » .

طاقة اوروبا الصناعية والتجارية

انقسم العمل في العالم انقساماً عموديا ، وذلك لمصلحة اوروبا ، ولا سيما اوروبا الغربية التي اصبحت اهم مركز صناعي في العالم ، على الرغم من سرعة تطور الصناعة في الولايات المتحدة . ذاك ان بريطانيا والمانيا وفرنسا مجتمعة ، تملك وحدها ٧/١٠ ما تملك اوروبا كلها من طاقة إنتاجية ، وقدرة على العمل الموصوف *Travail qualifié* . وتوشك هذه الدول الثلاث ان تحتكر وحدها ، صناعة السلع الجاهزة *Fabrication des produits manufacturés* ، اذ انها تنتج منها ما يوازي ٦٢٪ من مجموع الصادرات العالمية . وهي كذلك أهم الدول المستوردة للمواد الخام والمواد الغذائية . ففرنسا تستورد منها ٨٠ ٪ والمانيا ٧٦ ٪ وانكلترا ٧٥ ٪ من مجموع مستورداتها . وفي مقابل ذلك ، تصدّر فرنسا من منتوجاتها المصنّعة ما يوازي ٦١ ٪ من مجموع صادراتها ، والمانيا ٧٥ ٪ ، وبريطانيا ٨٠٫٥ ٪ .

ان الولايات المتحدة وإن أصبحت الاولى بين الدول المنتجة للفحم الحجري ، والفولاذ ، والصلب ، فإن السلع الجاهزة التي تصدرها الى الخارج لا تساوي سوى ٣٣ ٪ من مجموع صادراتها ، واسطولها التجاري لا يغطي سوى ١/١٠ من مجموع تجارتها الخارجية . أما الصفقات التجارية الدولية ، فان حصة اوروبا منها ، هي بمثابة حصة الاسد ، إذا قيست الى حصة اميركا (١٤ ٪) والى حصة آسيا (١٠٫٦ ٪) .

اما في الحقل التجاري ، فاوروبا هي الوسيط الذي لا مفر منه ، بين بلدان العالم بأسرها : فانها تسيطر على وسائل النقل وتملك وحدها الخبراء ودور التجارة المتخصصة الملمّة بكل حاجات السوق العالمية وسائر إمكاناتها . وتملك فوق ذلك شركات الضمان ، والمصارف التي تحيط إحاطة تامة بحركة المشاريع الكبيرة في العالم اجمع . فلا عجب اذن ، ان تلعب لندن اولا ، ثم أمستردام ، وأنفرس ، وفرنكفورت ، وفيينا وباريس ، دور الحكم في التجارة العالمية ، وان يكون لها الكلمة الاخيرة في دنيا الاقتصاد .

طاقة اوروبا المالية

ان اوروبا هي السوق الوحيدة - او تكاد - لعدد لا بأس به من المواد الاولية كالصوف والفحم والنحاس والقصدير ، والممونة العالم بالسلع المصنوعة الجاهزة جديرة بأن تفرض على تلك المواد والسلع الاسعار التي تريد ، وبأن تستوفي ، لقاء خدماتها في شحن تلك البضائع ، وتامينها وتسهيل معاملاتها المصرفية ، جعالات *Commissions* هي في الحقيقة موارد ، ان تكن غير مرئية ، فانها ذات شأن كبير . اما الموارد التي تسهم ، على افضل وجه ، في تقويم ميزان اوروبا التجاري وجعله في الوضع الاكثر ملاءمة لمصلحتها ، فإنها بلا شك ، تلك الموارد التي تطلّ عليها من توظيف رؤوس اموالها في الخارج . ان المؤسسات المصرفيّة ، وبيوت المضاربات المالية ، التي منها تتزود الحكومات والافراد بما تحتاج اليه من الديون الطويلة الاجل ، لا توجد في سوى متاجر اوروبا الكبرى . ان نشاط نيويورك لا يزال مقصوراً على تمويل الاميركيتين : الشمالية والجنوبية .

وحدها اوروبا ، قادرة على بذل رؤوس الأموال الضرورية لفتح منجم ، او مدّ سكة حديدية ، او إنشاء مصنع ، في اي جهة من جهـــات الكرة الأرضية . إنها ، والحق يقال ، مصرف العالم بأسره . ثلاث دول اوروبية تقتسم فيما بينها ٨٣./ٰ من مجموع التمويلات الخارجية، موزعة على هذا النحو : ٤٥٪ لبريطانيا العظمى ، ٢٥٪ لفرنسا ، ١٣٪ لألمانيا . اما الولايات المتحدة فتأتي في المؤخرة مع ٥٪ لا غير . ان ربع الثروة القومية البريطانيـــة ، وسدس الثروة الفرنسية ، لينتقلان بهذه الطريقة الى الخارج ، فيتحولان الى ادوات السيطرة الاقتصادية ، ويشقّان الطريق للتجـــار ، ولاصحاب الاختصاص والمهندسين الذين بتوليهم ادارة المشاريع الاستعمارية الكبرى، يحولون البلاد الرازحة تحت وطأة الديون الى بلاد تستورد من اوروبا السلع الجاهزة ، وتصدر اليها المواد الأولية .

اوروبا ذات السيادة

ان الدول الدائنــة *Créanciers* ، المسيطرة على الاسواق ، لا تمثل ، كما ألمنا الى ذلك ، اوروبا بأسرها . ان دول اوروبا الغربية « المتمتعة بشتى الامتيازات هي التي تكوّن ، على حـــدّ تعبير فر . بيرّو ، أوروبا المسيطرة » في مقابل « اوروبا المسودة *Passive* ذات الزراعة المتأخرة » والصناعة التي لا تزال في مهدها . ان قطبي هذه الدول المسيطرة هما : بريطانيا العظمى والمانيا ، وتأتي فرنسا في المرتبة الثانية ، لوفرة رؤوس اموالهـــا ، ثم تليها الدول الصغيرة ذات الصناعات الراقية كبلجيكا وسويسرا ، او تلـك الـتي أثرت بفضل مستعمراتها ، كالبلاد المنخفضة (هولندا) . ومن الشائع ان لنـــدن هي « محور الاقتصاد العالمي ». ومردّ ذلك الى سوقها النقدي، وهو اشد الاسواق اتساعاً ورخصاً ، والى وسائل نقلها البحري ، التي تملك انكلترا اكبر نصيب منها . وتحتل الليرة الاسترلينية مكان الصدارة في العملات الدولية مخلفة وراءها ، الى ابعد مـــدى ، الفرنك والدولار . ان تفوق انكلترا في المـكانة ، والعملة ، والاسعار ، هو الذي يجعل منهـــا ، سيدة التجارة العالمية . اكثر من ذلك . ان الدول الصناعية الاخرى التي اخذت ، بعد لأي ، تتصل اتصالا مباشر مع عملائها فيما وراء البحار ، ان تلك الدول نفسها لا تجد سبيلاً الى ذلك الا عن طريق انكلترا ، وبفضل وساطتها .

اما منافستها ، المانيا ، فانها ، بسكانها الذين يعدون ٦٧ مليوناً ، الاولى بين دول اليابسة . لقد دعيت « بفردوس» التقنية والتنظيم . واحرزت تقدماً صاعقاً يعود الفضل فيه الى ما تنتجه سنوياً من الصلب *Fonte* (١٣ مليون طن مقابل ١٠ اطنان لبريطانيـــا العظمى) والفولاذ والحديد (١٢,٥ طنّاً مقابل ٧,٥٠ اطنان لبريطانيا العظمى) والفحم الحجري (١٩٠ مليون طن) في السنة . كما يعود الى احتكارها لبعض الصناعات ، كصناعة الاصباغ مثلاً، والى تنظيم سياستهـا في مجال التوســع المصرفي والتجـاري ، تنظيماً جعل منها مركز التجارة الخارجية لاوروبا الوسطى ، والبلدان المجـــاورة لنهر الدانوب .

اوروبا المسودة

في مقابل هذا العدد الضئيل من الدول المسيطرة ، تقوم البقية الباقية من بلدان العالم وفي مقدمتها اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية ، وسكانها أهل فلاحة متخلفون، وهم ، يشقون جاهدين ، في سبيل عيش بائس ، زري ، تحت امرة كبار الملاكين ، المتغيبين ابداً عن املاكهم . أما الصناعات في هذه البلدان جميعاً فلا تزال في عهدها البدائي ، ومن النوع القائم في المستعمرات . ، وهي تنشأ ، في الغالب ، بفضل رؤوس اموال اجنبية : فرنسية والمانية وبلجيكية . وتحت اشراف مهندسين أجانب . وقد يتولى الاجنبي احياناً الإشراف على ادارتها كذلك . إن اعظم هذه الدول الشرقية، وأريد بها الامبراطورية الروسية المترامية الاطراف ، لا تملك سوى صناعة مبتورة ناقصة . واذا كانت هذه الامبراطورية تحتل المقام الاول بين الدول الممولة *Créanciers* الصين، فالفضل يعود الى رؤوس الأموال الفرنسية ، التي تتوسل بها حكومة باريس ، لحمل القيصر الروسي على البقاء حليفاً لفرنسا . على ان العلاقات التجارية التي تربط اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية باوروبا الغربية لا تختلف في جوهرها عما هي عليه بين اوروبا ،صاحبة النفوذ والسلطان ، وسائر بلدان العالم الأخرى : انها في كلا الحالين ، علاقة مبادلة مواد أولية ، بمصنوعات جاهزة .

العالم الواقع تحت السيطرة الاوروبية

للدول الصناعية الدائنة ، سيطرة اقتصادية *Monopole* تامة على الدول غير الاوروبية ، ما خلا الولايات المتحدة ، واليابان ، والى حد ما الممتلكات البريطانية . فآسيا وأمريكا اللاتينية ، وافريقيا ، تخضع اجمالاً لنظام شبه استعماري ، اما المستعمرات بحصر الكلام ، فان الدول الصناعية المذكورة ، تديرها بنفسها وتستثمرها استثماراً مباشراً .

الصين

وخير مثل يقدم للدول غير الاوروبية ، الواقعة تحت سيطرة الدول الاوروبية الدائنة ، انما هو الصين ، هذه البلاد الشاسعة ، التي جعل منها الاوروبيون ، كما يقول صون يات سان ، شيئاً هو دون المستعمرة *Hypocolonie* . ان الدول الثمانية عشرة الموقعة على المعاهدات التي فتحت طريق الصين لأوروبا ، تتمتع بامتيازات تضمن لهم وضعاً متفوقاً بالقياس الى الصينيين انفسهم . وتتلخص هذه الامتيازات في الأمور التالية وهي: حق التجارة في الموانيء الثماني التي تنص عليها المعاهدات، حق الترافع في المحاكم القنصلية دون المحاكم الوطنية الصينية ، عشرون منطقة حرة ، هي في الحقيقة عشرون مستعمرة ، داخل الاراضي الصينية ، حق اقامة حاميات عسكرية في بعض مناطق من البلاد ، حق الافضلية في التعامل التجاري ، تعرفة جمركية أحرى بها ان تكون ضريبة مالية لا شأن لها ، حق الاعفاء من الضرائب ، حق الرقابة على بعض المرافق العامة ، كالموانيء البحرية ، والجمارك ، وجباية ضريبة الملح ، على ان يتولى ادارتها مديرون غربيون . يضاف الى ذلك جميعه ، ان المصارف الاجنبية التي تمول التجارة الخارجية ، وتضطلع بمهمة الوسيط بين الحكومة والاسواق المالية الخارجية ، لمنح القروض ومد السكك الحديدية ، ودفع التعويضات (اليابان مثلاً سنة ١٨٩٨

او بعد حرب البوكسر)، تفرض شروطاً عالية لا تعرف الرحمة ، من شأنهـــا ان تضاعف قيمة القروض ثلاث مرات زيادة عما هي في الاصل .

ان عدم استقلال الصين استقلالاً اقتصادياً يجرها الى الخضوع التـــام لسياسة الاوروبية ، ويجعل اهلها أحطّ منزلة من الأجانب . وذلك ليس في مناطق النفوذ الاوروبية وحسب ، بل وفي طول البلاد وعرضها . ومن شواهد ذلك ، تلك الارساليات المسيحية التي قلّما ترعى حرمة التقاليد القومية ؛ والشركات الاجنبية التي تدفع للمواطنين اجوراً أدنى بكثير من اجور عمالها وموظفيها . وبديهي ان خروج الجمارك من يد السلطة المحلية ، يعيق تصنيع البـــلاد ، كما ان امتياز الاجانب في حقهم بالجوء الى محاكمهم الخـــاصة ، يحول دون تمكن السلطات من قمع الظلم ، وقطع دابر الفساد (كل اوكار تعاطي الافيون ، يديرها الاجانب) . وبديهي كذلك ان انشاء مناطق النفوذ ، يهيء البلاد التفسخ وانفصال اجزائها بعضها عن بعض .

الشرق الادنى

ان وضع تركيا ومصر لا يختلف في شيء عن وضع الصين ، فيما عدا بعض مظاهر أقل غلظة وسماجة . فالشركات الاجنبيـة هي التي ، في كلا البلدين : تركيا ومصر ، تنشيء وتستغل الموانيء والقطر ومصلحة التلفون ، وتولّد الكهرباء والغاز وتقوم بتوزيعها ، وهي التي تستثمر موارد البلدين الطبيعية ، كالفحم الحجري والرصاص والزنك والكروم ، وموارد السكك الحديدية : « فما خلا سكة حـــديد الحجاز التي أنشئت لنقل الحجاج ، ولا تعود على البلاد بأي نفع آخر » فان جميـــع السكك الحديدية التركية تملكها الشركات الأجنبية . فضلا عن ان ٨٠ ٪ من وسائل النقـل البحري في تركيا يعود كذلك الى هذه الشركات . اما منابـع البترول ، والأموال العامة ، فتقع كلهـا تحت رقابة المصارف الاجنبية ، ولا تنتج البلاد سوى المواد الأوليّة .

اما مصر ، فان زهاء نصف ثروتها الوطنية تعود الى الاجانب وبخاصة الى الفرنسيين منهم والبريطانيين ، الذين يشغلون المراكز الأولى في الادارة العامة ، ويهيمنون على شركة قنـــاة السويس ، وبنك مصر المركزي ، والصناعات والمتاجر الضخمة . وعلى غرار تركيا ، تخضع مصر لنظام الامتيازات الاجنبية ، الذي يضمن للأوروبيين العصمة المنزلية ، والمنعة القضائية ، وعدم الخضوع لشرائع الدولة ، ولا سيا ما كان منها متصلاً بجباية الضرائب والرسوم الجمركية . للمحاكم الأجنبية وحدها صلاحية النظر في قضايا الأجانب، المدنية والجزائية ، وقضايا الاحوال الشخصية ، وهي الناشئة بين اجانب منتسبين الى دولة واحدة ، وفي القضايا الجزائية وهي التي يؤلف الاوروبيون طرفاً فيها . واما الدعاوى المختلطة ، فالمحاكم المختلطة هي التي تنظر فيها بمقتضى تشريـع خاص ، مستوحى من الشرع الفرنسي .

امیرکا اللاتينية

ان لاوروبا ، هنا ، شريكة في المغانم ، هي الولايات المتحدة . « ان اميركا الجنوبية هي في حقيقة الامر ، مستعمرة اميركية اوروبية » . ان رؤوس الاموال الاجنبية الصرف ، هي التي تملك وتستغل ثروة البلاد المنجمية ، ومرافقها العامة ، والصناعات القليلة القائمة فيها . ولما كان اقتصاد هذه البلاد ، مبنيا على تصدير بعض المنتوجات الصناعية ، فانه سريع العطب والانهيار . يمثل الكاوتشوك والقهوة ٩٠٪ من صادرات البرازيل ، والقهوة ٥٣ ٪ من صادرات كولومبيا ، والقصدير ٧٧ ٪ من صادرات البيرو ، والسكر ٧٧ ٪ من صادرات كوبا ، والمصنوعات الناجمة عن تربية المواشي ٨٤ ٪ من صادرات الاوروغواي ، ومنتوجات النفط ٧٤ ٪ من صادرات فنزويلا ، واصناف النيترات ٧٥ ٪ من صادرات الشيلي . ان التصدير أمر لا محيص عنه ، لتستطيع البلاد وفاء ما يترتب على ديونها من فوائد . فإن يضعف ، انهار اقتصادها كله ، جارفا معه العملة الوطنية والحكومة في آن معاً . ولما كانت الحكومة لا تملك الايدي العاملة في البلاد ، ولا وسائل التأثير على المصارف ، فقد لزمها ان تصدع بأمر هذه المصارف ، وان تتركها وشأنها توجه حياة البلاد الاقتصادية ، الوجهة الملائمة لمآربها الشخصية . ونخلص من هذا الى ان العميل الاجنبي هو الذي يحفز أو يقيد حركة الانتاج في البلاد ، ويحدد أسعار السلع على انواعها . ان الارجنتين و السادسة بين الممتلكات البريطانية » هي الصورة النموذجية للدولة التي تتمتع باستقلال إسمي . ولكنها في الواقع شبه مستعمرة لدولة صناعية : كل ما فيها من مصانع الغاز ، وسكك حديدية ، وقطر ، ومستودعات جبارة للتبريد ، ومعامل للعلبات ، ملك بريطانيا . والمراكب الانكليزية ، دون سواها ، هي التي تنقل الى اوروبا ، وخاصة الى بريطانيا العظمى ، صادرات الارجنتين الزراعية من حنطة ولحوم وجلود ، وهي التي كذلك تحمل الى الارجنتين المنتوجات الصناعية الضرورية ، وفي طليعتها السلع المصنوعة في بريطانيا .

المستعمرات الاوروبية

لا نزاع في ان للدول الاوروبية الكبرى ، مجالا أوسع ، لبسط سلطانها الاقتصادي على مستعمراتها ، واستغلال مواردها الطبيعية ، ومجهودات سكانها على وجه يكون اشد ملاءمة لمصالحها الذاتية . ان اقتسام الدول الاوروبية لافريقيا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، لم يسبقه مخطط مرسوم ، وإنما ارتجل على عجل ، نتيجة للملابسات التي رافقت بعث البعوث الدينية الى تلك الاصقاع ، وغير ذلك من المناسبات والمواءمات الدولية . ولذلك كانت الحدود الفاصلة بين مختلف المستعمرات ، مجرد خطوط جغرافية ، يمليها العبث المطلق احياناً ، واحياناً اخرى كان يكتفى باتخاذ درجات العرض والطول حدوداً لتلك المستعمرات دون اي اعتبار للفوارق العرقية ، او الفوارق الطبيعية . واذا بها تفرق بين الشعوب ، او تجمع بينها ، دون أي مسوّغ من منطق او عرف . وهكذا تكوّنت تلك الامبراطوريات الاستعمارية المترامية الاطراف . فالامبراطورية البريطانية مساحتها توازي ١٨٠ مرة مساحة بريطانيا العظمى ، والامبراطورية البلجيكية ٨٠ مرة مساحة

بلجيكا . والامبراطورية الهولندية ٦٠ مرة مساحة هولندا . والامبراطورية الفرنسية ٢٠ مرة مساحة فرنسا . وسيطرت روسيا على آسيا الوسطى بالاضافة الى سيطرتها على سيبيريا . ان الدول الثلاث : روسيا وبريطانيا وفرنسا ، تسيطر وحدها على اكثر من نصف مساحة الكرة الارضية ، وعلى اكثر من ثلث سكانها . اما نظام استغلال هذه الممتلكات، فهو نظام المقايضة . ويقوم بتصدير اكثر ما يستطاع من المواد الخام ، في مقابل استيراد المنتوجات الصناعية . ورؤوس الأموال الاجنبية لا تستخدم الا بسبيل انتاج المواد الاولية . واما عوائد هذه الاموال فقلما تستثمر في البلدان التي انتجتها . وهكذا لم تجر اية محاولة لتصنيع هذه البلدان . لقد بقيت جافا ، في الهند النيرلندية ، « المستعمرة النموذجية » كما يدعونها ، مرغمة على زراعة القهوة حتى سنة ١٩١٤ . وكانت اسعار المواد الاولية تحدد في امستردام . وأما في الهند الصينية فقد خلقت سياسة الامتصاص *Assimilation* — ومن نتائجها انشاء الوحدة الجمركية في ١٨٩٢ — سوقاً ذات امتياز للصناعة الفرنسية ، مع تبادل بالمثل غير كامل . ذلك ان الشاي والقهوة والبهار الوارد الى فرنسا ، كان خاضعاً للرسوم الجمركية . وكان من جراء ذلك ان تدهورت تجارة الهند الصينية مع البلدان الآسيوية التي كانت السوق المثلى لمنتوجها من الارز . وهنا كذلك نجد ان تمويل المشاريع الوطنية *Investissement* يكاد يكون معدوماً . فهو لم يظهر الا سنة ١٩١٠ في مشاريع استثمار الغابات وزراعة القهوة ، وخاصة في زراعة شجر المطاط *Hévéas* . وهكذا تمثل المواد الاولية في سنة ١٩١٣ (٩٥٪) من صادرات الهند الصينية ، والمنتوجات الصناعية ٧٠٪ من استيراداتها .

الهند

اهتم البريطانيون في الهند في تنمية الحاصلات الزراعية المعدّة للتصدير : كالقمح ، والقطن ، والافيون ، والقنّب الهندي . منعت الرسوم الجمركية ، بادىء ذي بدء ، قيام صناعات النسيج والتعدين ، ثم راحت تزرع العراقيل في سبيل تطورها . ان طغيان الآلات الصناعية الغربية ، هذا الطغيان الذي قضى على الصناعات والحرف الوطنية الصغيرة ، والتزام التجار الهنود بقصر استيرادهم على المنتوجات الصناعية البريطانية دون سواها ، — وهو التزام لا يخدم سوى مصالح المرابين ، والملاكين الكبار البريطانيين — كل هذا قد حمل جماهير الفلاحين ، وقد حلّ بهم الدمار ، على النزوح الى افريقيا الشرقية والجنوبية ، حيث عوملوا معاملة العبيد ، مما أهاب بغاندي الى رفع صوته ، بالاحتجاج والتهديد . ان ٩٠٪ من التجارة الخارجية يتم مع دومنيون الامبراطورية البريطانية . وتمثل موارد رؤوس الأموال البريطانية الموظفة وتقدّر بـ ٣٩٠ مليون ليرة ، وفوائد الديون العامة ، والالتزامات البيتية *Home Charges* ، وهي الرواتب التي تدفعها الهند للموظفين القدماء ، اجل ، يمثل كل ذلك ما يزيد على ثلاثين مليون ليرة يترتب على الهند ان تدفعها سنوياً لانكلترا . واخيراً ، ان الهند هي التي تحملت اعباء (مال ورجال) الحملات التي شنتها بريطانيا في نهاية القرن التاسع عشر على السودان والحبشة . وعلاوة على ما سبق ، تسهم الهند بجزء من نفقات الاسطول البريطاني ،

الرابط في البحر المتوسط ، ونفقات القنصليات البريطانية في بلاد العجم .

تفوق اوروبا في العلم والتقنية

ان سيطرة اوروبا تقوم ايضاً على تفوقها ، غير المنازع ، في المجالات الفكرية . ففي اوروبا هذه نشأت التيارات الفكرية ، والاكتشافات الأشد خصوبة التي برزت في هذه القرون الأخيرة . ومن مختبرات اوروبا ، وجامعاتها ، يخرج الاطباء الذين يضمون الحواجز دون اجتياح الكوارث وتفشي الأوبئة . والتقنيون والمهندسون الذين يحققون الأعمال العظيمة ، ويغيرون وجه البسيطة . فلا عجب ان يُسعى اليها بحثاً عن اسرار عظمتها وفعاليتها. فالطلاب ، من كل صوب ، يتدفقون الى الجامعات البريطانية ، والالمانية ، والفرنسية والبلجيكية .. والكتب المدرسية التي تلقن اوليات العلوم لمن لا يستطيعون دخول الجامعات المذكورة ، من طلاب المدارس الثانوية او العليا ، انما هي كتب مترجمة عن الفرنسية او الالمانية . بعثات يابانية وصينية ، وتركية ... تفد الى اوروبا لتطلع على الاساليب العلمية لتكوين الدولة العصرية . وثمة ، من ناحية ثانية ، بعثات عسكرية المانية او فرنسية ، وأخرى بحرية بريطانية ، تكلّف تنشئة الجيوش الوطنية ، وتثقيفها ، واحياناً تكوين ملاكاتها . وكم من دول تحاول ان تحاكي المؤسسات التمثيلية الاوروبية . فاذا روسيا في سنة ١٩٠٥ ، وتركيا في سنة ١٩٠٨ ، والصين في سنة ١٩١٢ ، تتجه كلها شطر مبادىء التساهل والليبرالية وحتى الديموقراطية ، وهي المبادىء الركائز ، في الانظمة السياسية الاوروبية . ومن جهة ثانية ، نجد دعاة الاصلاح من الوطنيين الشباب ، يستلهمون الأمثلة التي يقدمها لهم تاريخ اوروبا : فاذا بطرس الاكبر ، وكوّسون ، ومزّيني وكافور وبسمارك ، يصبحون المثل التي يقتدى بها ، ويترسم خطاها . ويصير الفكر الحر ، وليد الثورة الفرنسية . ومثله الفكر الوضعي ، مصدر إلهام لدعاة الاصلاح الصينيين ، في مطلع هذا القرن ، والضباط الاتراك زعماء جمعية الاتحاد والتقدم ، والقادة المناضلين في البلدان البلقانية .

الاخطار التي تهدد السيادة الاوروبية

اذن ، في عام ١٩١٤ ، والرأسمالية في أوج انتصارها ، نجد اوروبا التي جمعت سلطان العلم ، وسلطان القوة ، تسيطر على العالم اجمع سيطرة كاملة. لقد أنشأت بفضل خبرائها ورؤوس أموالها، «جمهورية تجارية دولية» ، تعمل تحت شعار بريطانيا ، ولكنها في الواقع تخدم مصالح البيض أجمع » (أ . هاليفي) . ان استقرار العملات ، وسهولة انتقال رؤوس الأموال والرجال ، وتعدد وسائل النقل السريع ، والتوسع الاقتصادي الذي ما برح في ازدياد منذ نهاية فترة الانحطاط الممتدة من سنة ١٨٧٣ — ١٨٩٥ ، كل ذلك قد أوحى بالثقة المطلقة في فاعلية نظام ، قليلون هم الذين يأذنون لأنفسهم بالشك فيه .

مع ذلك ان اوروبا هذه ، اوروبا الأزمنة السعيدة ، التي يبعث الكاتب كينز ذكراها بشوق وحنان ، نراها مهددة بالفوضى المتزايدة في العلاقات الدولية ، وبالمنافسات التي تدفع الدول الامبريالية الى التناحر فيا بينها : ان المانيا ، اكبر دولة اقتصادية في العالم القديم هي وحدها

الدولة التي لا مستعمرات لها . وهي ترفض ان تنظر الى هذا الوضع كوضع ناجز ، لا تبديل فيه . وفي اوروبا كما في خارجها ، تتناحر الدول العظمى ، تناحراً يشتد او يضعف تبعاً للاحوال ، وكل منها ، يأمل ان يستفيد من الصعوبات الداخلية التي يلاقيها البعض منها ، في ايرلندا ، وبولونيا الالمانية والروسية ، وفي مقاطعة ألزاس ولورين، وفنلندا ، وبين الأقليات السلافية او اللاتينية في الدولة المؤلفة من النمسا والمجر ، وفي كل مكان تشتد فيه النزعات القومية بازدياد الشعور الوطني في الجماهير الشعبية .

ومن جانب آخر ، برز لأوروبا مناقسون أجبرها تقدمهم في شتى المجالات ، على اعترافها لهم بحق المساواة : فهي لم تجد بدأ من اخذها بعين الاعتبار نفوذ الولايات المتحدة في القارة الاميركية ، ونفوذ اليابان في الشرق الاقصى . وبالرغم من ذلك ، فان أوروبا لا تجد بعد في كل هذا ما يهددها او يثير قلقها . أنى لها ذلك ، واسواقها لا تزال على حالها من التوسع والانتشار .

الاضطراب الاجتماعي

ان بوادر القلق التي تبرز احياناً في سنة ١٩١٤ ، لا تصدر عن النظام المستتب في القرن التاسع عشر لمصلحة اوروبا الاقتصادية ، بل عن الاضطراب الاجتماعي المتزايد يوماً بعد يوم . منذ سنة ١٩٠٥ بدأت الاضرابات الكبيرة ، ذات الطابع الثوري ، تنفجر في كل من انكلترا ، وفرنسا ، وايطاليا . وكل سنة راحت مظاهرات اول يوم من ايار تؤكد قوة النقابات العمالية ، المتصاعدة . على ان القائمين بهذه المظاهرات لا يزالون ، في مجموعهم ، قلة ضئيلة ، موزعة كما يلي : مليون نقابي في فرنسا اي من ١٢ الى ١٣٪ من مجموع الطبقة العاملة . اما عمال المناجم ، وهم اكبر العمال عدداً ، فلا يتجاوزون الـ ٣٣٪ من مجموع العمال النقابيين . وتتضخم الارقام في البلدان المصنعة تصنيعاً اشد : اربعة ملايين في بريطانيا العظمى ، وما يقرب من هذا العدد في المانيا . ان سلطان الماركسية اخذ هو ايضاً بنمو ويتوثق . وقد أوصى بالدولية الثانية التي ضمت اليها الاحزاب الاشتراكية . العمال يمثلون ٢٨٪ من اعضاء المجلس النيابي في المانيا ، و ٢٥٪ في النرويج، و ٢٠٪ في بلجيكا ، و ١٧٪ في فرنسا ، و ١٠٪ في ايطاليا ، و ٩٪ في البلاد المنخفضة . يشغل حزب العمال البريطاني ٦٪ من مقاعد مجلس العموم . ولكنه في سنة ١٩١٠ نال ٤٢ ٠/٠ من مجموع الاصوات . وبالرغم من كل هذا ، فاننا لا نجد قط دولة ، يخشى حكامها ، بجد ورصانة ، انهيار النظام السائد . امـا في روسيا ، حيث لم يعمل الا النزر اليسير لمعالجة اسباب القلق الحتم، منذ ان أخمدت ثورة ١٩٠٥، فان النظام السائد هناك ، يبدو مهدداً تهديداً حقيقياً .

ان الحرب التي انفجرت سنة ١٩١٤ ، كانت بداية انهيار هذه السيادة ، حتى لم يبق لها أثر بعد مرور اربعين سنة على انفجار هذه الحرب . على حين ان الثورة التي ساعدت هذه السيادة على اشتمالها في روسيا ، قد اخذت منذ ذلك الحين تبدل تبديلاً كاملاً ، تطور الحركة العمالية ، ومعطيات المعضلة الاجتماعية .

الفصل الثاني

الحرب العالمية الاولى تزعزع أركان البناء

هذه الحرب هي اول حرب خاضت غمارها ، في آن واحد تقريباً ، اهمّ دول العالم . فالحروب *Les Conflits* التي نشبت حتى الآن ، بما فيها حروب نابوليون ، لم تكن في الواقع الا حروباً اوروبية . كذلك لم يتهيأ لاوروبا ان تتحالف وتقف معاً صفاً واحداً في وجه فرنسا إلا في فترة ما بين ١٨١٣ و ١٨١٥ . ان الدول التي اشتركت في حروب القرن التاسع عشر ، كانت تمتاز بطابعها الزراعي ، فلم يُمسّ اقتصادها قط ، او لم يُمسّ الا مسّاً رفيقاً ، لا سيما وان تلك الحروب قد جرت في حيز محدود من الزمان والمكان . اما الدول التي اشتركت في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ فانها على عكس ذلك ، دول صناعية وتجارية ، راحت وهي في غمرة الحرب تحول قدرتها على على الانتاج الى تقوية صناعة الاسلحة وتطويرها ، وتعبىء الجيوش ومعظمها من سكان الاقاليم ، مما يؤدي بالضرورة الى تقلص السكان وبالتالي الى نقص المؤن والاغذية . وهكذا توقفت حركة المبادلات التجارية ، وأصيب بناء الاقتصاد العالمي اصابة خطيرة .

ولم تكن إصابة البناء السياسي أخف وطأة . فلم يبق من سبيل للحكومات المختلفة ، وقد فوجئت بحرب طويلة الامد ، ومشاكل جديدة متنوعة ، لم تتأهب من قبل لحلها ، إلا ان تلجأ الى « سوابق » لا تتلاءم والوضع الجديد الذي صدمها ، او ان ترتجل الحلول ارتجالا ، وفيها كثير مما يقيد المستقبل ويثقله .

اذا استثنينا الدول ذات النظام الملكي ، نجد ان سائر الدول الاوروبية كانت تأخذ بمبادىء تراها ثابتة ، لا تقبل الجدل . من هذه المبادىء نذكر الحكم المدني ، والديموقراطية البرلمانية التي تضمن لممثلي الشعب حق الرقابة على اعمال الحكومة والادارة العامة ، واحترام الحريات الفردية الاولية . ثمة اخيراً الحرية الاقتصادية التي كادت تكون مطلقة من كل قيد وحدّ . في مثل هذه الحقبة من الليبرالية المنتصرة ، والازدهار العام لم يكن يظهر ما في ضعف الدولة من

خطر يهدد المصالح القومية العامة .

على ان الحرب من شأنها أن تقضي على هذه المبادي والعادات ، وعلى كل تقدم وازدهار. فهي ، بحجة انها تقوي السلطة والنظام ، تنزع الحرب الى الغاء او تخفيف رقابة المجالس النيابية . وتقدم سلامة الدولة على حقوق الافراد والدفاع عنها . ودعم القوى الاجتماعية ، وتقوية نفوذها ، هذا النفوذ الذي كانت الانظمة الديموقراطية تعمل على اضعافه والحد من نشاطه .

١ — تنظيم الاقتصاد الحربي

ان هذا التنظيم ، هو الذي قضى على ما ألفه الناس من عادات وما درجوا عليه من تقاليد وآراء موروثة . فلم تلبث أجهزة الانتاج ، وهي اجهزة دقيقة معقدة ، ان تعطلت فجأة فالتزمت كل حكومة ان ترتجل اجراءات ثورية ، وان تتولى بنفسها ادارة الاقتصاد الوطني ، او تضعها تحت سلطتها لتتمكن من إمداد الجيوش بالمعدات والمؤن ، وتأمين اسباب العيش للمواطنين . لقد اضطرت كل دولة لسبب افتقارها الى وسائل النقل البحري ، والحصار المفروض عليها من جانب اعدائها ، الى ممارسة ما يعرف بسياسة الاكتفاء الذاتي ، الذي أتى على نظام توزيع العمل ، كما يمارس ايام السلم .

مشكلة التعبئة

منذ الاشهر الاولى للحرب ، برزت مشكلة تموين الجيوش بالرجال والعتاد على اثر الخسائر الفادحة التي منيت بها الجيوش . هذه الخسائر قد جاوزت من بعيد كل التنبؤات . اذ سرعان ما افرغت المستودعات ، ونفذت المؤن المعبأة ، عند الدول المحاربة كلها ما عدا روسيا . لذلك اضطرت هذه الدول الى استباق مواعيد التجنيد المحدّدة لكل فئة من الفئات الشعبية ، واستنفار من تأجل استنفارهم الى وقت لاحق ، واستعادة المسرّحين من الجنود القدامى ، والتوسع في تعبئة جيوش المستعمرات ، والاستعانة بالفرق الاجنبية . وقد اضطرت بريطانيا نفسها وهي الدولة الوحيدة التي تتألف جيوشها من المتطوعة الى فرض الخدمة العسكرية الاجبارية ، وذلك في شهر أيار من سنة ١٩١٦ عندما تبين لها ان طرقها المألوفة في استنفار المتطوعين ، بالترغيب والترهيب ، لم تعد تكفي لحشد ما تحتاج اليه من الجيوش .

تزويد الجيوش بالاسلحة والاعتدة الحربية

الى جانب التعبئة ، تقوم مشكلة تزويد الجيوش بالاعتدة الحربية : فالجيوش بحاجة الى سلاح وكسوة وغذاء. لم تكن الدول تتوقع حرباً طويلة الامد ، فلم تفكر في التحضير لصنع الاعتدة الحربية ، ظناً منها ان ما تختزنه من مدافع كاف لكسب المعركة . واكتفت ان وجهت اهتمامها لتوفير المؤن ، وما به يحافظ على ما لديها من المعدات الحربية . فلم يمض شهر ايلول من سنة ١٩١٤ ، حتى شعرت كل الجيوش المتحاربة بالحاجة الملحة الى السلاح والذخائر .

وكان من أعقاب احتلال المانيا للمناطق الشمالية ، والشمالية الشرقية من فرنسا ، انها فقدت ٤٠٪ من فحمها ، و٩٠٪ من مناجم الحديد التي تملكها ، و ٩٥ فرنا عاليا من افرانها الخمسة والعشرين بعد المئة . على انها بدءاً من نيسان ١٩١٧ اخذت تنتج ما يسد حاجاتها الى الذخائر عيار ٧٥ . اما بالقياس الى الاسلحة الثقيلة والمعدات الحربية الجديدة ، فقد اضطرت كلّ من فرنسا وبريطانيا العظمى الى خلق الاجهزة القادرة على صنع هذه الاسلحة والمعدات والى تصميم نماذجها الاولى . فوضع لهذا الغرض ، في ايار ١٩١٦ ، برنامج عام ، تبدل مرتين متواليتين على الاقل ، تبعا لتبدل رأي القيادة العليا بحيث ان الجيوش الفرنسية لم تنل نصيبها من تلك الاسلحة الثقيلة والمعدات الجديدة الا في شهر آب ١٩١٨ ، اي قبل ثلاثة اشهر فقط من توقيع الهدنة . اما في بريطانيا ، حيث يقوم مصنع وولفيتش للأسلحة ، وهو مصنع عفى الزمان على اجهزته وادواته، فقد اقتضى ان يقوم الكولونل ريبنتون في صحيفة «التيمس» واللورد نورث كليف في صحيفة « الديلي مايل » باعنف الحملات الصحفية واشدها تشهيرا بالمجزرة البشرية التي كانت تلتهم الجنود المنفذين الى الميدان ، عزلاً من كل سلاح يدفع عنهم غمرات الموت ، لكي تنشط الحكومة الى انشاء وزارة للعتاد الحربي عُهد بها الى لويد جورج . اما روسيا فكان عليها ان تضاعف مشترياتها من البنادق والمدافع والذخيرة تبتاعها من الولايات المتحدة واليابان وان تنمي انتاجها . ومع ذلك لم تتوفر لها حاجتها من القذائف *Obus* الا في تشرين الثاني ١٩١٥، وحاجتها من المدافع الرشاشة الا في مطلع ١٩١٧ . ومن ثم راحت صناعة الحرب تمتد الى كل مكان مستأثرة بالقسط الاوفر من موارد البلاد وبكل ما فيها من يد عاملة . في هذا السباق الدائم بين المعسكرين، يبدو تفوق المانيا واضحاً جلياً. لقد أسرعت في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمضاعفة انتاجها الحربي وراحت منذ ١٩١٧ تصنع كل شهر ألفي مدفع وتسعة آلاف رشاش ، في مقابل ٢٠٠ رشاش كانت تنتجها ١٩١٣ .

مشكلة اليد العاملة

بيد ان هذا الانتاج الحربي الضخم قد أثار مشكلة جديدة لم تكن متوقعة . أريد بها مشكلة اليد العاملة، والتزود بالمواد الاولية ، وتنظيم هذا الانتاج تنظيماً تعجز عنه المبادرة الفردية . فكان لا بد من العثور على من يعمل في الصناعات الحربية ، مكان ملايين الشباب المجندين للقتال بحيث تؤمن حاجة الجيوش الى السلاح. من هنا مست الحاجة الى تعبئة حقيقية اقتصادية. على ان المانيا كانت الدولة الوحيدة التي لجأت الى التشغيل الاجباري. فأنشأت في الخامس من كانون الاول سنة ١٩١٦ شرعة العمل الوطني الاضافي للرجال المتراوحة اعمارهم بين ١٧ و ٦٠ سنة . اما انكلترا ، فان برلمانها قد صوّت على قانون ، يسمح بالعمل في المصانع الحربية بموجب عقود خاصة ، ويتيح لغير اصحاب الاختصاص ان يتولوا وظائف العمال الاختصاصيين على الرغم من تصدي النقابات العمالية لهذا التعديل الذي اجري في نظام توظيف العمال . وتعالت الاصوات والصيحات من كل صوب تدعو النساء ، وعمّال المستعمرات، وأسرى الحرب، والاخصائيين على جبهة القتال، للعمل في المصانع الحربية.

واستخدمت المانيا كل اولئك الذين اجلتهم عن بلادهم من بلجيكيين ، وبولونيين وفرنسيين . وكانت في سنة ١٩١٨ تعد مليونين من الذين أرجئت خدمتهم العسكرية الى وقت لاحـــق ، نصفهم فقط كان اهلاً لهـذه الخدمة . وهكذا وجد الرايخ نفسه في وضع مستهجن ، غريب . اذ بينا كانت جبهاته الحربية بحاجة الى الجنود ، كانت المعدات من كل نوع تفيض عن حاجته ، وهي في اتم اهبة العمل .

الدولة تتولى بنفسها ادارة الاقتصاد الوطني

مـــع قيام الحصار وانعدام المواصلات البحرية ، يصبح تنظيم الاقتصاد الوطني اقوى سلاح في تقرير المصير . ولذا كان لا بد للسلطات العامة ، في كفاحها ضد هـدر القوى عبثاً ، وفوضى الانتاج ان تنظم المبادرات الفردية ، وتعطيها الوجهة الصحيحة . وانتهى الامر أخيراً بان تولت الدولة نفسها ادارة الاقتصاد الوطني في سائر ميادينه .

ان راتينو هو اول من لفت الحكومة الالمانية الى ضرورة السهر على مخازن المواد الاولية ومستودعاتها . لقد عهدت اليه الحكومة بادارة « قطاع المواد الاولية للحرب » ، واطلقت يـده في مصادرة ما كان منها مخزوناً ، وقسمته بـــين المصانع وتوزيع طلبـات الحكومة على شتى المعامل والورش . ان المانيـــا في سنة ١٩١٦ هي اول دولة انشأت لنفسهـا مـــا يدعي بالـ *Zwangwirtsehaf* . لقد زوّد « مكتب الحرب » *L'office de guerre* ، بالسلطات المطلقـة ، للفصل في قضايا صنع المعدات الحربية ، وقضايا الاستيراد والتصدير ، وفرض الرسوم على السلع الممنوعة ، والمحاصيل المختلفة . ولم تلبث سائر الدول ان اقتدت بألمانيا ، من قريب او بعيد . فراحت تشتغل اسرى الحرب وتدفـع لهم اجور عملهم ، وتستعيـــد من جبهة القتـال الجنود التقنين اليها قبل موعد خدمتهم العسكرية ، او تهـددّ من تقاعست عن ارسالهم اليها حـــين يضربون عن العمل . كما انها اخذت تحدد الاسعار ، وتصادر المصانع ، وتشرف على صنع النماذج الاولى المعدة للدفاع الوطني ، وتتحكم بوسائل النقل في البر والبحر، وتبيح او تحرّم الاستيراد والتصدير ، وتنظم زراعة الاراضي المهملة ، وتزود رجال الصناعـة برؤوس الاموال الـلازمة لإنشاء مصانع جديـــدة لصنع المعدات الحربية ... وفي الجملة نجد ان حرية التجارة والانتاج والعمل قد ضيقت حدودها ، ونظمت تنظيماً دقيقاً .

إن مثل هذه الادارة كانت تقتضي عدداً ضخماً من الموظفين ، والمجالس الادارية ، واللجان المختصة . فكان في فرنسا ، عند توقيع الهدنة ما لا يقل عن ٢٩١ لجنة ادارية ، منها ثمانون لجنة ملحقة بالوزارة الحربية وحدها ، فضلاً عن المجالس المحلية والاقليمية . ان هذه المصالح كثيراً ما كانت تتشابك ، ويقوم بعضها بذات العمل الذي كان يقوم به بعضها الآخر . امـا في المانيا ، فان «المكتب الرئيسي للمجهود الحربي» – ومهمته الإشراف على سائر نواحي التجارة الخارجية – كان يعدّ اكثر من اربعة آلاف موظف ، ويكوّن اعظم منظمة تجارية في العالم . ان لاصحـاب المهن الحرة من تجار وصناعيين كانوا يشكلون ، تحت وصاية الدولة ، شركات حقيقية لاحتكار

مشترى المواد الاولية الضرورية لهم، التي كانوا يتقاسمونها فيما بينهم.

المشاكل المالية — منذ بداية العمليات الحربية، اتخذت كل الاجراءات المعروفة، والتي من شأنها ان تحول دون وقوع اية ازمة مالية: فمدّد أجل استحقاق السندات التجارية والمصرفية، وفرض نظام التعامل بالعملة الورقية، بدلاً من الذهب. ومع ذلك فقد اضطرت سائر الدول الى الأخذ بسياسة القروض الداخلية والخارجية. اما مصدر هذه القروض فكان انكلترا ثم الولايات المتحدة. ونلاحظ من جهة ثانية، ان قيمة المشتريات الخارجية التي كانت تفوق كثيراً امكانات الدفع، كانت تزيد على التوالي عجز الميزان التجاري لمصلحة البلدان المحايدة، ومصلحة الولايات المتحدة. لقد خشيت فرنسا مراراً كثيرة كما خشيت بريطانيا ان يبلغ بها العجز الى وقف مدفوعاتها، ولا سيما في سنة ١٩١٧. لم تحلّ الأزمة الا بدخول اميركا في الحرب. وهكذا ارتفعت الديون العامة في فرنسا من ٣٢ ملياراً الى ١٧٣ ملياراً. وفي المانيا – بسبب القروض الداخلية – من ٥٠٠٠ مليون مارك الى ستين ملياراً. ان الرقابة التي فرضت على اخراج الذهب من البلاد، والعمليات المصرفية، بالإضافة الى العون الاميركي المالي، كل ذلك قد ساعد على حفظ التوازن بين الليرة الانكليزية والفرنك الفرنسي من جهة، وبين الدولار الاميركي من جهة ثانية، دون ان يتمكن من وقف تدهور اسعار هاتين العملتين بالنسبة الى العملات المحايدة، وبالتالي الى وقف ارتفاع اسعار المعيشة.

مشكلة الغذاء — كان على الحكومات كذلك ان تؤمن الغذاء لشعوبها. فقد هبط الانتاج الزراعي في كل البلدان، لسبب نقص اليد العاملة بين الرجال، ونقص الحيوانات، والأسمدة. وأوشك تأمين الغذاء للسكان المدنيين ان يكون هو نفسه معرّضاً للخطر. ان المانيا تمسها الحاجة الى الخيول والاعلاف: ان احسن كتائبها المقاتلة لا تملك في سنة ١٩١٨ سوى ٨٠ ٪ مما كانت تزود به سابقاً. منذ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ اخذ مكتب البطاطا ومكتب الحبوب يقنن استهلاك الخبز والطحين والبطاطا. ثم تناول التقنين اللحم والمواد الدهنية. ثم أدخل على صنع الخبز مواد غريبة ليس لها حظ كبير من القدرة على التغذية. للمرة الاولى في تاريخ البشرية، اخضع شعب بعدد ٦٧ مليون نسمة لنظام بطاقات التموين. وسارت سائر الدول على هذا النهج ذاته، ولكن دون ان تذهب بعيداً فيه. لقد ضيقت انكلترا حدود استيراد السلع الكمالية واحتكرت استيراد السكر، واخذت تشجع انتاج القمح الوطني الذي ازداد ٦٠٪ وانتاج البطاطا الذي ازداد ٤٠٪. وهي قد فرضت الرقابة على دخول السلع الغذائية في البلاد، واشترت كل انتاج كندا من الجبنة المصدرة الى الخارج، وكل القمح الاوسترالي، والـ *Bacon* الاميركي، وراحت اخيراً تصادر كل غلة البلاد من الحنطة والجبنة، والبطاطا، وتحدد لها الاسعار. وهكذا انتهت الحكومة الى الاشراف على ٩٤٪ مما كان يستهلك في البلاد. وفي كل مكان، بما في ذلك البلاد المحايدة، انشئت الـ *Cantines*، والمآوي المختلفة لعمال المصانع، وطلاب المدارس الخ... وفي كل مكان مست

الحاجة الى السلع الغذائية والمحروقات ، واليد العاملة ، وارتفعت الاسعار على الرغم من ارتفاع الاجور ، ونقصت القوة الشرائية ، مما زاد في عسر المعيشة للجزء الاكبر من السكان .

٢ – المشكلات السياسية والاجتماعية خلال الحرب

الاتحاد المقدس

قاست الشعوب مريراً من التجربة القاسية التي ابتليت بها : فالهواجس التي راودت يوماً خواطر الطبقات الموجهة حول ما عسى ان يكون الموقف الذي ستقفه الطبقات العاملة في حال انفجار حرب ، اثبتت انه ليس ما يبررها ولا تنهض على اساس قط . فقد ادّى نفوذ الاكليروس الارثوذكسي عند الشعوب الصقلبية، ونفوذ الاكليروس الكاثوليكي ، في الامبراطوريات المستبدة وفي كل من النمسا والمجر ، والولاء الصادق شبه الاجماعي الذي تمتعت به ، الى التفاف الجماهير الشعبية حولها . فالمقدرة التي استطاعت معها روسيا تزيين الحرب ، في نظر رعاياها من الروس ، بمثابة حملة دفاع عن السلافية ، وظهور المانيا مظهر دولة محاربة لنظام قيصري شديد الكراهية ، في نفوس الليبراليين والاشتراكيين ، حالا دون ظهور اية معـــارضة للحرب في كل من روسيا والمانيــــا حيث اقر مجلس الريشستاغ بالاجماع التدابير والاجراءات التي رأت الحكومة فرضها بهذه المناسبة . اما الفرنسيون فقــــد كان شعورهم العــــام انهم راحوا فريسة عدوان لا مبرر له ، فقرروا ، بالاجماع ، الدفاع عن بلادهم ، والدفاع عن الحق والعدالة بعد ان ديسا بالاقـــــدام . اما في انكلترا فقد راح بعض حزب العمال وبعض دعاة السلم من حزب الاحرار يحاولون التصدي لاعلان الحرب . الا ان كل معارضة او احتجاج من قبل الرأي العام ، على الحرب ، ارتفع بعد الاعتـداء على حياد بلجيكا . وهكذا أطل علينا في كل مكان « الاتحـــــاد المقدس » ، وسرعان ما تناسى الناس التهديدات باعلان الاضراب العام ، كما تناسوا تلك المقررات التي سبق للمكتب الدولي الاشتراكي فاتخذها في ٢٩ تموز (يوليو) . وهكذا اقبل الناس على التجنيد والحشد العسكري في جو من الحماسة الملتهبة ، وبدا من صلابة الاتحاد الوطني في الداخل وشدة تماسكه بحيث ان التدابير التي رُؤيَ قبل الحرب اتخاذها كتدبير وقائي احترازي للتخفيف من هياج العناصر الثورية ونقمتها الغاضبة (منها مثلاً ، في فرنسا ، تسجيل اسماء الاشخاص المقترح توقيفهم ، في السجل B) ، بقيت حبراً على ورق ولم تنفذ . وهكذا تبنت الشعوب وجهة نظر حكوماتها وعيونها مغمضة .

الا ان الاوضاع لم تلبث ان تغيرت بسرعة . فلأول مرة يشارك ملايين من المواطنين بعملية حشد وتجنيد عامة انتزعوا من بين أسَرهم ومن اعمــــالهم ، في حرب ضروس أكول ، طويلة شاقة ، وكل طبقــات المجتمع – وليس الطبقـات السفلى وحدها – أخــذت تهجس بالحرب ، وخضعت عن طيبة خاطر ، لمآسي ولامتحانات شديدة لم تخطر يوماً لها على بال . فالحرب الدائرة رحاها بتضرس بويلاتها وتمرك بثفالها المحاربين وغير المجندين على السواء . فالكل يهجس بالمصير الغامض الذي يتهدد العاملين في خطوط الدفاع الاولى من ابناء الوطن ، ويهتم بالمصاعب

المادية التي تحف بالعيش وبصنوف الحرمان الذي لن يلبث ان يلف المحاربين لفاً . فلم ير الانسان يوماً بمثل ما يمر به المحاربون من اخطار وتجارب قاسية، لاسيما بعد ان تركزت الحرب وتمركزت على جبهات معينة ، وقفوا معها وجهاً لوجه مع عدو ماكر متربص . فقد وقفوا على خط النار في شتاء ١٩١٤ – ١٩١٥ واحتفروا لهم خطوطاً طويلة من الخنادق والدهاليز المتصالبة المتشابكة تلبإن عمقاً ، يتعرضون معها باستمرار ليس لقصف داو مصمّ وللاشتباكات اليدوية ، فحسب ، بل ايضاً للبرد القارص والمطر المتواصل . وقد تعطلت وسائل تموينهم وراحوا فريسة الهوام والحشرات القارصة اللاسعة تعيث بينهم وتعبث في اجسامهم ، فحرمت عيونهم لذة النوم وهم في حراسة موصولة وعسس لا ينتهي ، يفترشون اذا ما نعموا ببعض الراحة ، ارضاً تخترقها المياه ويغوصون في الوحل حتى الركب . « هؤلاء الجنود الذين رأيتهم عائدين هذا الصباح ، ليسوا بالحقيقة ، سوى كتل متراصة من الوحل الكثيف » ، كما يصرح الجنرال مستر ، بعد اشتباك عنيف مع العدو . وشيئاً فشيئاً يأخذ الوضع بالتحسن ، وتقوم شبكة من الاتصالات ربطت الجبهة بالمؤخرة ، يسّرت « لصخرة الحساء » ، من الصفوف الاولى ، بما امكن ، من بعض الاطعمة الساخنة ، كما ان استبدال الطلائع يؤمن للجنود المرهقين بعد بضعة ايام من السهر المضني والحرب في الخطوط الامامية ، احتمال اخذ بعض الراحة لهم في الخطوط الخلفية ، والاستمتاع بشيء من الراحة والهدوء في القرى والدساكر القائمة في الوراء .

ففي القطاعات المشتعلة يرى الجندي نفسه دوماً عرضة لتوتر اعصاب مستمر . فالمؤن والذخائر لا تصل في مواعيدها ، والقصف يستمر في دويه رامياً الى تحطيم شبكة المواصلات ودك الخنادق والملاجيء ، حيث تحدث القنابل الضخمة عند انفجارها فجوات فاغرة تجعل من ساحة الحرب حقلاً من فوهات البراكين لا تلبث ان تصبح بركاً من الماء والوحل . ففي قطاع فردون ، شهد الناس ، لاول مرة ، قصفاً مشبعاً هدّاماً يأتي في بضع ساعات ، على فرق بكاملها ، ويقتل في اقوى الفرق وافرسها ، كل قدرة على الهجوم ، كما يحصد افراد الجيش حصداً بالمئات والألوف . ولذا كان لا بد من تأمين استبدال الوحدات المرهقة باخرى طازجة ، وهي عمليات مكلفة لان المؤخرة تتلقى ، هي الأخرى ، نصيبها من هذا القصف الهادر ليل نهار .

والموت أبداً يتلصص على فريسته في كل لحظة حتى في هذه القطاعات التي لا يأتي والبلاغ الحربي على ذكرها إلا لماماً » . ففي اواخر عام ١٩١٥ كان الجيش البريطاني قد خسر ثلث أفراده ، أي ٢٧٣,٠٠٠ و ١٦,٠٠٠ ضابط ، كما ان الجيش الفرنسي كان قد سجل في التاريخ نفسه ٥٩٠,٠٠٠ قتيلاً ، و ١٦,٠٠٠ ضابط ، والجيش الألماني ٦٢٨,٠٩٠ قتيلاً و ٢٠,٠٠٠ ضابط . ثم انطلق عام ١٩١٦ الحملات الضخمة ، فكلفت معركة فردون المانيا وحدها ٣٣٦,٠٠٠ قتيل وفرنسا ٣٦٢,٠٠٠ قتيل ، ومعركة السوم كلفت بريطانيا ٤٢٠,٠٠٠ قتيل انكليزي و ٢٠٠,٠٠٠ فرنسي . فعلى الجبهة الغربية وحدها ، عطلت الحرب ، في هذه السنة ، اكثر من

مليوني جندي وجعلتهم غير صالحين للحرب . وكلفت حملة الدردنيل الحلفاء غالياً جـداً إذ اقتضت البريطانيين ٢١٥,٠٠٠ قتيل ، والفرنسيين ٢٧,٠٠٠ من مجموع ٧٩,٠٠٠ اشتركوا في هذه الحملة . أما روسيا ، فقد بلغت خسائرها في السنتين الاوليين من الحرب ٣,٨٠٠,٩٠٠ بين جريح وقتيل ومفقود ، مع العلم ان الجيش الروسي ، بلغ معدل خسارته بعد ذلك ، مليوناً من الجنود ، في كل فصل بين قتيل وجريح ، الى جانب ٥٠٠,٠٠٠ من الاسرى .

فالعذابات التي تجرعها الجندي ، والمخاطر العديدة التي تهددت حياته أدخلت تغييراً جذرياً على حياته بحيث اصبح يختلف كلياً عما كان عليه عام ١٩١٤ . ومع انه بقي على شجاعتـه البطولية ، فقد زايله كل وهم وغرور . فدى تعاطفه ومقاسمته الشعور يقتصر على رفاق السلاح الملازمين له وعلى صغار الضباط الذين يتقاسم معهم الخطر الواقف لهم بالمرصاد . فهـذا الفريق الذي يعيش معه باستمرار في الخندق هم بالفعل المحاربون الصادقون . وهذه الحماسة التي جاشت بين ثناياه عند اندلاع شرارة الحرب ، حل محلها تسليم مرير بالامر الواقع ، بعد ان حلب أشطر الدهر وتوالت عليه عوامل الخسف والفشل . وبعد هذا التنكر او النفرة الـتي اقامتها حوله ، هذه الاقاويل والترترات التي غذتها صحافة ثرثارة وهؤلاء « الاغرار الذين يجهلون كل شيء عن الحرب والذين يرغبون له مع ذلك ، المضي فيها على حسابه هو ، وبأساليب اكل عليهـا الدهر وشرب » ، كما يؤكد لنا ذلك ج . نورتن كرو ، وبعد هذا الاعياء واحياناً الشعور بعدم جدوى هذه الاضاحي التي تبذل بدون حساب ، وهذه الآلام المبرحة التي يتحمل غصصها .

المؤخرة

هذه المؤخرة ، تعيش ، هي الاخرى ، ظروفاً صعبـة . فقد تجرعت ، هي كذلك ، مرارة القصف الجوي وعانت طويلاً ، مباشرةً او مداورة ، من عقابيل حرب الغواصات والحصار البحري الذي فرضته .

ان افتقار البلاد لليد العاملة جذب إليها عمالاً من الخارج من رجـال ونساء . ففي المصانع الحربية نسوة يعملن في خرط القنابر وتركيبها وتعبئتها ، كما ان المرأة في الريف ، اخذت تضم يدها الى يد الاولاد والشيوخ ، في حراثة الارض وتأمين الغلال . وقد زيدت الاجور بصورة عافها العدل والمساواة ، وفقا لنوع الصناعة ولون العمل . ففي كل من انكلترا وفرنسا ، اخذت النقابات العمالية تتعاون مع الحكومة ، الا ان الاسعار اخـذت ترتفع بينما انخفضت الطاقة البشرية . ولذا رأت الحكومات نفسها مضطرة للاخذ بالتقنين . ففرضت المانيا ، منـذ عام ١٩١٦ ، مزج الدقيق بـ ٣٥٪ من نشا البطاطا للعامل الذي حدد استهلاكه اليومي ١١٠٠ غرام ، مع ٢٨٠ غراماً من اللحم ، و ٩٠ غراماً من الدهن والشحم . اما الحليب فاحتفظ باستعماله لبعض المستهلكين ، كما وضعت في التداول مواد بديلة للزيت والعسل . وفي سنة ١٩١٨ على أثر المواسم البائرة التي عرفتها البلاد عام ١٩١٦ و ١٩١٧ ، جرى تخفيض في معـدل الحصة المخصصة للفرد وذلك من ٢٢٠ الى ١١٦ غراماً من الدقيق في اليوم الواحد ، وإلى ١٨ غراماً من اللحم و ٧ غرامات من الشحم . إلا أن عدم كفاءة المادة الشحمية والتحويل في الغـذاء على

الوان قليلة المادة الغذائية ، واشتداد الحاجة الى الصابون والمواد المطهرة الاخرى ، كل ذلك وما اليه ، ساعد في انتشار الأوبئة الجارفة ، ومع هبوط معدل المواليد بنسبة ٤٠ بالمئـــة ، ارتفع معدل الوفيات بين السكان المدنيين ، من ١٤ بالمئة عام ١٩١٦ الى ٣٧ بالمئة عام ١٩١٨ .

وامور التغذية في الامبراطورية النمساوية المجرية هي اسوأ من ذلك بكثير . فان لم تعرف المجر ظلم الحرمان ، فالجوع اخذ يفتك بالسكان في المناطق الجبلية او الصناعية القائمة في النمسا . وقد عرف أفراد الجيش اياماً في الأسبوع ، لا يتناولون فيها لحماً على الاطلاق . والتقنين الشديد المرزح للجسم ، والوضع الصحي المتردّي باستمرار في البلاد ، عوامل اخرى تركت اثرهـــا المخلخل على وحدات الجيش وعلى الاهلين في المؤخرة . اما عند الاتراك ، فقـــد هبط معدل الوجبة الغذائية عند الجندي الى ٢٥٠ غراماً في اليوم الواحد .

وقررت فرنسا كذلك ان تجعل حصة الفرد من السكر كيلوغراماً واحـــداً في الشهر كما حددت استهلاك الخبز للفرد الواحد من ٢٠٠ — ٦٠٠ غرام بحسب عمر المستهلك. وقررت تحديد استهلاك الحليب والفحم والزيت والتبغ كما قننت استهلاك الغاز والكهرباء ، ومنعت في ربيع عام ١٩١٧ ، اكل اللحم مرتين في الاسبوع وبدون حلوى . وفي انكلترا جرى تقنـــين الزبدة والقهوة ، كما حدد استهلاك اللحم والسكر والخبز للجمهور ، وتسببت انكلترا عام ١٩١٨ في نشوب اضطرابات في مدينتي روتردام وامستردام .

تقييد الحريات العامة

وهذه العذابات التي تجرعها الناس صنوفاً والواناً ، والثروات الضخمة التي جمعها « مستفيدو الحرب » الذين انشأوا صناعات حربيـــة أو تعهدوا تأمين توريدات الجيوش ومهماتها ، والشعور المتزايد باللامساواة الاجتماعيـــة ، كل ذلك أدى ، في الدول المتحاربة ، الى نشوب أزمة سياسية واجتماعية حرجة .

فقد اشتد الخلاف في المجال السياسي بين الحكومات والجماهير الشعبية التي تمـــد الجيش بالمحاربين . فقد طرحت ضرورات الحرب بشكل عنيف ، مشكلة الدفاع عن الحريات المدنية والسياسية . فالاجراءات التي رؤي اتخاذها في اوقات السلم والتي وُضعت موضع التنفيـذ ، زمن الحرب ، هي واحدة تقريباً في كل البلدان المتحاربة . فقد أدت الى تجنيد الافكار في كل مكان، كاعلان حالة الطوارىء اي إلغاء الحرية الشخصية ، وانشاء المحاكم العسكرية ، والمراقبـــة المسبقة على الصحافة ، وغـــير ذلك من الاجراءات التعسفية كالسخرة والمصادرة ؛ وكلها اجراءات أولت المسؤولين عن السلطة التنفيذية ، صلاحيات واسعة . فقد ادى الحـد من حرية الصحافة الى الغاء مراقبة الرأي العام لشؤون الدولة ، والى تعطيل الانتخابات النيابية جزئيـاً (باستثناء انكلترا) . ففي الامبراطوريات العسكرية حيث نشاط الحكومـــة لا يتوقف على

البرلمان ، تتمتع السلطة التنفيذية « بملء السلطة » . أما في فرنسا ، فالعمل بالمراسيم الاشتراعية مكن الحكومة من تعليق القوانين ، ومن الحد منها . وفي انكلترا ، أمنت « القرارات المتعلقة بالدفاع من الدومنيون » للحكومة ، تعديل القوانين المعمول بها ، على شرط فحصها والتدقيق بها من قبل مجلس العموم . وفي سويسرا المحايدة نفسها حول المجلس ، الاتحاد العام « صلاحيات غير محدودة » لضمان امن البلاد ، ولصيانة نشاطها الاقتصادي .

والحاجة الملحة أحياناً لاتخاذ اجراءات سريعة ليس في مصلحة الدولة المحاربة الاعلان عنها ، ساعدت هي الأخرى ، على تجريد البرلمانات من بعض صلاحياتها الاساسية التي تتمتع بها : فقد اضطرت الحكومة للحد من دورات هذه البرلمانات والاستعانة بالرقابة لكبت اصوات الناقدين. ومع ذلك ، فالبلدان التي تتمتع بنظام برلماني ، كثيراً ما كان اعضاء النواب فيها يتلقون من افراد الجيش العاملين في الجبهة او من الضباط ، رسائل يتظلم فيها مرسلوها من سير الحرب ومن طريقة توجيه الاعمال الحربية ، كما كانوا يشجبون فيها تجاوز الحكومة ، ومغالط رجال الادارة وهفواتهم . ان توجيه اعضاء البرلمان الاسئلة الى الحكومة في انكلترا ، واقرار الاعتمادات الحربية بالتصويت ، كانت وسائل رادعة للحكومة . وفي فرنسا كذلك كانت الاسئلة الموجهة الى الحكومة والى اللجان السرية التي جرى تشكيلها عام ١٩١٦ كافية الى جانب لجان المراقبة ، محاولات صادقة تمكن البرلمان من تمثيل دوره وتأمين اصلاح التجاوزات في كل ما يتعلق بتموين الجيوش وتأمين حسن سير الصناعات الحربية والمراقبة . وكثيراً ما كان النواب يلاقون معارضة او مقاومة عنيفة لم يكن في وسعهم دوماً التغلب عليها . وهكذا اطلت على البلاد « دكتاتوريات حرب » جمعت ملء السلطة في ايد قلة . ففي المانيا نرى « فريق الدوسكور » الذي تشكل من هندنبورغ ولودندورف ، هو الذي يملي ارادته وتعليماته ، على الوزراء والمستشارين . وفي انكلترا ، هي اللجنة الحربية المؤلفة من خمسة اعضاء برئاسة لويد جورج ، وفي فرنسا « لجنة حرب » ايضاً مؤلفة من خمسة اعضاء برئاسة كليمنصو ، وهي لجنة تقوم باعمال مجلس الوزراء ، وتحكم بالفعل كما تشاء .

ومن جهة اخرى ، فالانضباط الذي فرضته ضرورات الحرب ، ساعد على تقوية سلطة « النبلاء » التي راح تطور الديموقراطية يقص من جناحها ، ليس سلطة العسكريين الذين يغارون على امتيازاتهم العسكرية ويشتبكون باستمرار مع رجال الحكم من المدنيين الذين لم تكن كلمتهم دوماً هي الكلمة الفصل فحسب ، بل ايضاً مع الطبقة البورجوازية التي تمد الجيش وحدها ، بما يلزم من أعتدة وملاكات ، ومن ضباط عاملين وضباط الاحتياط ، كذلك محاربة الافكار الضارة بالدفاع الوطني وملاحقة « الانهزاميين » ، وهي اعمال ونشاطات تصدت ، ليس فقط لكل تصرفات القيادة او الحكومة ، بل ايضاً لكل رأي يحمل في طياته خطراً يهدد الاتحاد المقدس ، او يتناول بالنقد ، البنيان الاجتماعي او يتعرض لمزاولة السلطة الادارية في المصنع او يتصدى للحريات الدينية .

نهاية الاتحاد المقدس

والى التظلم من حد للحريات العامة وتجاوزات السلطة ، يجب ان نضيف هنا الاشمئزاز الذي استحوذ على الناس ، منذ عام ١٩١٥ ، من جراء بعثرة موارد الدولة وهدرها جزافاً ، والوقوف في وجه سياسة متابعة الحرب باعتبارها سياسة خرقاء ، لا طائل تحتها ، عاجزة عن تحقيق نصر نهائي حاسم . وهذه النزعات والبدوات التي ظهرت على اشكال شتى في الاوساط المطالبة بالسلام ، في انكلترا وفي اوساط بعض رجال المال والاعمال من الانكليز والالمان والفرنسيين ، ولدى بعض محترفي السياسة امثال كايو وبريان واللورد لاندسدون(الذي قدم استقالته من الوزارة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ، والذي نشر ، عام ١٩١٧ ، بياناً يطالب فيه ببدء مفاوضات الصلح) ، والفريق الآخر العامل مع الكونت كارولي في البرلمان المجري ، وارزبرجر وجانب من حزب الوسط الذين حملوا مجلس الريشستاغ ، على اتخاذ قرار بالمباشرة بمفاوضات السلام ،وفريق من حزب العمال المستقلين من طلاب السلام ضم بين صفوفه : ماكدونالد وسنودن وجويت . هذه الحركة تلتقي والمعارضة التي قام بها الاشتراكيون في القارة اخذ ساعدها يشتد ويقوى بتفاقم العذابات والآلام والشعور بالملل والسأم ؛ أضف الى ذلك عمل اشتراكيين روس لاجئين الى سويسرا ، وايطاليين غضبوا لدخول بلادهم الحرب، وفرنسيين والمان عقدوا في زيمروالد ، في ايار ١٩١٥، مؤتمراً دولياً خرجوا منه باحتجاج على الاتحاد المقدس ، وطالبوا بعقد « صلح لا ضم فيه ولا تعويضات حرب » . واخذت هذه النزعة تشتد وتقوى . ففي المانيا راح ليبخنخت مع عشرين من زملائه يطالبون بعقد صلح لا غالب فيه ولا مغلوب ، وأسسوا من بينهم حزب اقلية مستقلا . وعُقد في كينتال مؤتمر دولي ثانٍ في نيسان ١٩١٦ ودعا العمال للعمل على فرض هدنة في الحال ؛ وهذه الفكرة التي جاءت تدغدغ آمال عدد كبير من المحاربين والعمال الذين احتفظوا بولائهم لعقيدتهم المثالية السابقة ، اخذت تشق طريقها الى اوساط اشتراكية عديدة ، والى الاوساط النقابية (كاتحاد العمال الفرنسيين للمعادن بزعامة ميرهايم) ، كما راح الوزراء الاشتراكيون الفرنسيون يستقيلون من صفوف الحكومة . وراح ليبخنخت يؤسس في المانيا ، حزب سبارتاكوس بوند . وفي النمسا والمجر برزت بشكل واضح مقاومة القوميات . وفي روسيا اخذت البورجوازية المستنيرة التي آلمها كثيراً ما شهدت من اندحار الجيوش الروسية والتجاوزات المخجلة ، والفساد المسيطر على البلاط الامبراطوري وعلى الادارة معاً ، فتحاول هي الاخرى ان تتولى تأمين توريدات الجيش والمصنوعات الحربية ، عن طريق « اتحاد زمستوف » او عن طريق « اتحاد المدن » بالتعاون مع الدوما . الا ان القيصر امر بحل الدوما ، وبذلك حصل تقاطع تام بين البلاط وبين البورجوازية . ومنذ عام ١٩١٦ ، اخذ الوضع طابعاً ثورياً .

اضرابات وحركات تمرد

كان للثورة الروسية دوي عظيم بين الشعوب التي عيل صبرها واستنفذت قواها . فقد رأى فيها بعضهم مثالاً يجب السير على منواله تشجيعاً لهم في تعطشهم للسلام واحياناً للسلام بأي ثمن كان . فالمؤتمر الاشتراكي الذي

عقد في ستوكهولم قوّى الامل في النفوس وحمل الناس على الاعتقـــاد بان السلام ممكن تحقيقه . ولذا رأينا رؤساء الهيئات النقابية الذين ساهموا في إقامة الاتحـــاد المقدس تغمرهم الحركات الجماهيرية . ففي المؤخرة كما في الجبهة قامت مظاهرات تعبر بوضوح عنهـا الروح المسيطرة على الأذهان والمستبدة بالنفوس : من اعتصابات ارتدى بعضها طابعاً ثورياً لا يدع مجالاً للشك ، وحركات تمرد وحركات فرار من الجندية .

فقد انفجرت في المانيا اضرابات في ربيع عام ١٩١٧ ، في المعامل والمصانع التي تعمل لامور التموين في كل من برلين وليبزيغ ودوسلدورف ، كما قام مثل هذه الحركات في فرنسا في كل من باريس وسانت أتيين بالرغم من القانون الذي يحظر الاضرابات كما يحد من حرية التسريح في المعامل . وفي بريطانيا العظمى ، راحت هيئات عمالية ، منتدبة تقف في وجه اتحادات العمال التي اتهمت بالتواطؤ مع الحكومة ، فقبلت بالتنازل عن حقها في الاضراب وسلمت بوقف تنفيذ القوانين التقاعدية ، وراحت هذه الهيئات تحاول إثارة الاضرابات في المناجم ودور الصناعات الحربية ، فيستجيب لها اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ عامل . وحدثت في ايطاليـــا نفسها اضطرابات خطيرة في آب وايلول ، في كل من ولايات تورينو وجنوى وألكسندريا . وفي كانون الثـاني (يناير) ١٩١٨ ، عادت الاضرابات للظهور بشدة وعنف. الا ان التشويش بقي يخض النفوس. فقد كانت هذه الاضرابات تجديداً للثورة ودعوة صريحة اليها .

والعجز في تأمين ما يلزم من المهمات والذخائر ، والتقليل الى ادنى حد من المأذونيات العسكرية ، وخساعة بعض القادة ، والدعوة الناشطة الى السلام ، ومثل التآخي بين الجنود الالمان والروس ، والبراءة التي اصدرها البابا بندكتوس الخامس عشر حول عدم جدوى هذه المـذابح والاثر الشديد الذي كان لها بين الدول المتحاربة ، كل ذلك ادى الى حركات تمرد وعصيان بين صفوف الجيـوش .

فالفشل الذريع الذي اصيب به الهجوم الذي امر به الجـنرال نيفل في ١٦ نيسان ، ترك وراءه الخيبة المريرة والحقد الضغين بين وحدات الجيش الفرنسي ، فاشترك بعض قطاعاتها بهذا العصيان ورفضت وحدات بكاملها القيام بعملية استبدال في الخطوط الامامية ، وعدم الانصياع والامتثال للأوامر الصادرة ، وكلها حركات استمرت بضعة اسابيع في منطقة سواسون . كذلك وقعت حوادث عصيان مماثلة في صفوف الجيش الايطالي ، وتكاثرت بين وحداته حوادث الفرار من الجندية .وقد حدث مثل هذا العصيان بين صفوف وحدات رجال الاسطول في عرض البحار ، في شهر آب ، كما رفضت فرقة رماة البحر الالمان التوجه لقمع حركة العصيان هذه . وعبثاً حاولت القيادة العليا الحد من الدعاية للسلام وذلك بنقلها الوحدات الثائرة الى خطوط القتال وبفرض الرقابة على المراسلات في الجبهة . وكذلك الجيش النمساوي المجري الذي خلخلته المنافسات الداخلية والعصبيات القومية بين الاقليات الوطنية من جراء الدعاوة التي عمل الحلفـــاء على بثها بين صفوفهم ، وعودة الاسرى النمساويين من روسيا ، بعـد ان جرى الافراج عنهم في اعقـاب

الثورة البلشفية ، وتأثير نقص المواد الغذائية بين صفوف الجيش الأمر الذي ادى الى فرار اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ جندي من صفوف الجيش النمساوي في الداخل ، عام ١٩١٨ فألفوا من بينهم عصابات عُرفت باسم « للاحتياطي الاخضر » ، عاثت في البلاد نهباً وسلباً ، في ما تقوم به من اعمال لصوصية . وانسجاماً مع الحركات العمالية ، وقعت حوادث تمرد وعصيان بين الوحدات البحرية العاملة في الدانوب ، واخرى محاربة ، فأخذ بعضها بالانسحاب من الجبهة محدثة فيها فجوات كبيرة . وفي الجيش البلغاري رفضت وحدات عديدة ، قبل نيسان ١٩١٨ ، القيام بالهجوم ، كما تعددت حوادث الهرب من صفوف الجيش ، اسوة بما كان يجري في صفوف الجيش التركي ، إذ وسجلت حوادث الفرار هذه ، نحواً من ٥٠ ٪ من الجيش التركي في العراق وفي فلسطين ، حيث رأت فرقتان شركسيتان نفسها عاجزتين عن تقديم اكثر من ٢٥٠٠ جندي للوقوف في وجه الهجوم الذي شنه الجنرال ألنبي ، فوقع كل الجيش التركي الرابع بكامله اسيراً في قبضة الفرقة القادمة من الصحراء . اما الجيش الالماني ، فالظاهرة المهمة التي تم عن مخاوفه تقوم في العدد الكبير من الاسرى (٣٥٠،٠٠٠ في تموز وتشرين الثاني ١٩١٨) . إلا ان حركة التمرد امتدت الى اسطول الغواصات . ووقعت حوادث تخريب ، كما حاول بعض البحارة الاستيلاء على نسافة والهرب بها الى النرويج ، كما وقع عصيان للأوامر بركوب البحر . وفي ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، رفع البحارة في مرفأ كييل العلم الاحمر وانضموا في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) الى باقي وحدات الاسطول . وهكذا لم تلبث لوبيك وهمبورغ وكوكسهافن وبريمن ان وقعت جميعها بين ايدي البحارة والعمال الثائرين . وفي ٧ تشرين الثاني اعلن كورت إيسنر الجمهورية في بافاريا . وفي ٨ منه ثارت كل من كولوني ودوسلدورف وشتوتغارت وماينس ، فانهارت المانيا برمتها .

وهكذا ادى انقباض النفوس الناجم عن المذابح الهائلة والعذابات المريرة والشعور بعدم جدوى التضحيات الذكية التي بُذلت ، وقسوة الحظ الغاشم والقسمة الضيزى ، الى حركات تمرد وانتفاضات عنيفة جلبت نهاية الامبراطوريات العسكرية ، كما هزت من الاساس الدول الليبرالية التي بفضل ما شعرت به من نشوة الظفر ، وظروف الحياة المادية الأكثر حظاً ساعدت طبقاتها الموجهة في تهدئة الخواطر ، كما ان القضاء على الاضرابات الدامية التي نشبت بعيداً عنها والتي سام المنتصرون على كبتها ، كل ذلك استطاع ان يعيد الأمن الى نصابه وتأمين استتباب السلطة الشرعية ، وهي محاولات باءت ، مع ذلك ، بالفشل في روسيا .

الفصل الثالث

عملية ترسيخ صعبة وقلقة

(١٩١٩ـ ١٩٢٠)

بعد الانهيار السريع الذي أصيبت به ألمانيا فأفقدها السيطرة ، بدا نصر الحلفاء كاملاً ونهائياً ، وهو نصر أدّى الى تدمير خصوم الديموقراطية القدامى ممثلين بهذه الملكيات العسكرية التقليدية ، كما ادى الى زحزحة الطبقات الاجتماعية الرجعية التي تعتمد على الجيش والكنيسة . فجاء هذا النصر المبين « معلماً من معالم الثورة الفرنسية الكبرى » . ولم يبق في اوروبا من ذلك كله سوى نزر نزير من الملكيات ، بينما الشكل الغالب لمعظم النظم والحكومات التي طلعت في اعقاب الحرب توّاً كان النظام الجمهوري الذي يكرس مبدأ سيادة الشعب ،هذاالمبدأ الذي يعترف به الجميع . « والحرب دفاعاً عن الحقوق » تنتهي بانتصار القوى الليبرالية بعد ان زال من الوجود ، على ما يبدو ، معظم خصومها المعدودين .

ومع ذلك ، فالعالم لا يزال ابعـــد ما يكون عن الاستقرار والتهدئة التي ينشد ، اذ لم تنته الحرب في كل مكان ولا تزال اعمال مقاومة قائمة بين قوميات متباغضة ، كما ان خطر التهدم الاجتماعي تلبّس الوانا من الاشكال والنبوس. فهنالك عند المغلوبين على امرهم ثورات تضطرم في كل من المانيا وهنغاريا،واضطرابات اجتماعية خطيرة تنغص الحياة على المنتصرين، والحياديين، على السواء .

فالقلق لا يزال يستبد بالجميع ، والكل يخشى من امتداد التيار الثوري البلشفي . ولذا اقتضى الدول التي خرجت منتصرة من الحرب ، سنتين كاملتين في محاولة جاهدة لاعادة السلام القديم الى عرابه وإرساء السلام على قواعد جديدة .

١ — الاضطراب السياسي والاعمال العسكرية الجديدة

الثورة في المانيا

انهزام حلفاء المانيا وانسحابهم من الحرب ، وضع المانيا في وضع يائس اذ رفض ولسون التعارن مع حكومتها ، كما ان حركة تمرد الاسطول الالماني وقيام اول التشكيلات العسكرية ، اجبر غليوم الثاني على

اعتزال الحكم والاستقالة . وقام ايبرت الزعيم المعتدل لحزب الاشتراكي الديموقراطي يؤلف حكومة ائتلافية مع « الحزب المستقل » . فالجماهير بقيت مصعوقة في شبه جمود كأن على رأسها الطير ، بينما أنهارت الى الحضيض احزاب اليمين والطبقات الموجهة . فالعناصر الثورية الناشطة تألفت من الهيئات العمالية بعد ان انضم اليها الجنود والبحارة فأثاروا في البلاد الفتن والاضرابات . والفئات الوحيدة التي كان في مقدورها الوقوف في وجهها والصمود ، تتألف من حزب الاشتراكيين الديموقراطيين برئاسة ايبرت ، الذي همه ان ينشيء في البلاد نظاماً ديموقراطياً برلمانياً وهيئة للاركان . ولم يلبث الفريقان ان عقدا اتفاقاً سرياً منذ التاسع من تشرين الثاني للحؤول دون الثورة البلشفية ، وللعمل على انتخاب مجلس تأسيسي بأسرع ما يمكن . وتمكن الجيش القديم ان يصفي بسرعة كلية كل حركات التمرد والعصيان التي وقعت في جنوبي البلاد وغربيها ، بعد ان تفاقم خطرها في الروهر على الاخص وفي برلين . واستطاع لوبسكيه ان يقمع بشدة « الاسبوع الاحمر » الذي قام في برلين ، في كانون الثاني ١٩١٩ مما ادى الى قتل بضع مئات بين صفوف المتمردين ، كما جرت تصفية كل من ليبخنخت وروزا لكسمبورغ . فكان هذا القمع فشلاً نهائياً للثورة الشيوعية التي حاولوا القيام بها . الا ان الاضطرابات بقيت تقلق الأمن في بافاريا حيث تم قتل كورت ايستر ، وفي همبورغ وبريمن ، وفي الساكس والروهر وبجدبورغ والسار. واضطر المفوضون الثلاثة المستقلون ان ينسحبوا من الحكم في كانون الاول كما رأى حزب الاشتراكيين الديموقراطيين الذي ألف اعضاؤه اقلية في مجلس الريشستاغ ان يدعوا الى مشاركتهم في الحكم الكاثوليك والديموقراطيين وهكذا امكن السيطرة على الثورة الاشتراكية والسياسية في المانيا.

الثورة في هنغاريا

الثورة في هنغاريا تختلف نوعاً واتجاهاً عن الثورة في المانيا ، ولها مدلول خاص. فقد قامت على اكتاف أقلية صغيرة واستلام الشيوعيين السلطة الفعلية مما اضفى عليها طابعاً مميزاً . فبعد انهيار جبهات الحرب، واستقالة الامبراطور الملك شارل ، قام الكونت كارولي ، الرئيس الليبرالي للمعارضة ، يعلن الجمهورية. وقد أدى احتلال الحلفاء للبلاد ، والبؤس المخيم عليها ، والبطالة المتفشية بين اوساط العمال تشحذ المشاعر القومية التي أثارتها المطالب الجغرافية من قبل التشيكوسلوفاكيين والرومانيين واليوغوسلافيين ، الى حركات من الفتن والاضطرابات واعمال اللصوصية ضد كبار الملاكين. فقد شدد الحزب الشيوعي قبضته ونفوذه في المدن وتسلم رئيسه بيلا كون الحكم في شهر آذار (مارس) بوصفها حركة وطنية مناهضة للاتفاق وحلفائه ، وحركة اجتماعية مناهضة لكبار الملاكين العقاريين، اخذت حكومة الكومون الهنغارية بتأميم وسائل الانتاج والملكيات الكبرى والوسطى واسندت ادارتها الى تعاونيات اشتراكية ، والمؤسسات الصناعية والتعدينية ، ومؤسسات النقل التي يعمل في الواحدة اكثر من ٢٠ عاملاً ، والمخازن الكبرى والمؤسسات المصرفية والتأمينية والمؤسسات التربوية ، وعهدوا بإدارة كل مؤسسة جرى تأميمها الى «مفوض

للانتاج ، يجري انتخابه من قبل العمال يساعده في عمله الاداري « لجنة مراقبة » ومكاتب توزيع المهمات » و « مكاتب اقتصادية في المحافظات » . الا ان الحصار والنشاطات المضاده للثورة التي تمت بتوجيه حكومة الاميرال هورتي والكونت بثلن ، وهي حكومة قامت تحت رعاية الجيش الفرنسي ، اضعفت كثيراً الحركة الثورية . وفي تموز ١٩١٩ قام الرومانيين بهجوم على بودابست للقضاء على النظام الشيوعي الملحد الذي قام فيها وسحق الفرق الحمراء ، وقاموا بنهب البلاد خلال احتلالهم لها . وانتصرت الحركة المضادة للثورة بزعامة الاميرال هورتي الذي الغى الجمهورية وفرض على البلاد الهول الابيض ، وبذلك عاد النظام الى هنغاريا كما اعيدت الى كبار الملاكين العقاريين .

الاضطرابات الاجتماعية

هذه الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية التي مزقت اوروبا لم تكن وقفاً على البلدان المغلوبة على امرها كروسيا وألمانيا وهنغاريا . فقد تمخضت بمثل هذه الاضطرابات بعض الدول التي خرجت من الحرب منتصرة وبعض الدول الحيادية الاخرى . فالسخط الذي ولدته في النفوس اربع سنوات متصلة من الحرمان والعذابات كان عارماً يجيش في النفوس ، يستشيط ويستفحل بالتطلع الى الثورة الروسية والرغبة في عضدها ومساندتها لتقوى وتصمد في وجه الثورة المضادة التي تدعمها الدول الغربية ، خشية من ان « سلام الحق » الذي لقوا في سبيله ما لقوا من حروب وعنت وعذاب لا تفشله الحكومات التي تنتصب في وجه المبادىء التي اعلنها ولسون بحيث تخيب الآمال التي غذّوها خلال هذه السنوات العجاف من العمل الشاق والانضباطية العسكرية الآمرة لتحقيق نصيب اكبر « من الرفاهية والحرية » . فارتفاع الاسعار الذي بلغ عام ١٩١٩ نحواً من ١٤٢ ./. مما كانت عليه عام ١٩٢٣ ، في انكلترا ، و ٢٥٦ ./. في فرنسا ، و ٢٦٦ ./. في ايطاليا زادته الثورة ضد النظام البورجوازي احتداماً . فالسنوات ١٩١٩ و ١٩٢٠ تميزت بجيشان الاحقاد الدفينة في القلوب ، وبهذا الفشل الذي منيت به المثل الاجتماعية التي تاقت الى العدالة والسلام بكل جوارحها ، وهي مثل كانت تغذي الآمال التي رفرفت على سني الحرب .

وقد ارتفع عالياً عدد اعضاء الاتحادات النقابية في كل مكان ، فقفز هذا العدد في بلجيكا من ١٢٠ الف عام ١٩١٣ الى ٧٢٠ ٠٠٠ عام ١٩١٩ . كما ان الاتحاد العام للعمل عدّ بين اعضائه ١ ٨٠٠ ٠٠٠ عضو في فرنسا والاتحادات العمالية في انكلترا ارتفع عدد اعضائها من ٤ ملايين عام ١٩١٥ ، الى ٦٠٠ ٧٤٠ ٨ عام ١٩٢٠ اي بزيادة ٧٠ ./. عن سنة ١٩١٧ ، والف اتحاد الحرف عصبة متماسكة قوامها التحالف بين المدنّين وعمال مناجم الفحم وعمال النقل كما ادخلت تعديلات اساسية على تشكيلها الداخلي . وطابع كفاح الطبقات الذي برز خلال الاضرابات التي قامت عام ١٩١٢ – ١٩١٣ ، اشتد واستبد اكثر فاكثر . ولكي تتمكن الدولة من التغلب على اضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩١٩ اضطرت للجوء الى قوى الجيش .

اما في فرنسا ، فقد راحت دعاوة خبيثة تسمم افكار العناصر النقابية التي ألفت اقلية

آنذاك ، في البلاد والتي كانت تطالب باتخاذ تدابير فعالة ، محاولة إقناعها بان الثورة « ممكنة وهي آتية لا محيص عنها ولا مرد لها في انحاء اوروبا كلها » . وقد تميز عيد اول ايار عام ١٩٢٠ باضراب عام عن العمل وباشتباكات دامية مع قوى الامن وقعت في المدن الصناعية الكبرى . وفي حزيران ، اعلن الاضراب ٢٠٠٠٠٠ من عمال المصانع و ٨٠٠٠٠ من العاملين في الصناعات الكيماوية ، و ٥٠٠٠٠ من العاملين في التعدين . وقد ابى زعماء اتحاد العمال العام في فرنسا ، كما في انكلترا ، توسيع هذه الحركة كما رفضوا استغلال هذه الفرصة السانحة لاعلان اضراب عام يرمي لاستلامهم مقاليد الحكم ، اذ لا ثقة لهم قط بوحداتهم غير المهيأة والتي تفتقر في الصميم الى النظام ، لاستلام الحكم والاحتفاظ به . وعندما راحت نقابة عمال النقل العاملين على الخط الحديدي بين باريس وليون ومرسيليا تعلن الاضراب العام ، عمدت الحكومة المنبثقة من هيئة التكتل الوطني ، الى التشهير بهذه الحركة ووصمها بانها محاولة ثورية وتشكلت « اتحادات وطنية » لتحل محل المضربين ، ودعت الى الخدمة العسكرية مواليد ثلاث سنوات . وفي اواخر نيسان ١٩٢٠ ، قام اضراب عام كان له بعض الاثر على الحياة الاقتصادية دون ان يخلخلها ، نظرت اليه الحكومة نظرها الى مؤامرة ضد سلامة الدولة وامرت بتوقيف رؤساء الاتحاد وسوقهم الى السجن كما اصدرت محكمة السين حكماً يلغي نقابة العمال العامة . وهذا الفشل مُنيت به الحركة النقابية زادها انقساماً على نفسها وكانت نذيراً بانقسامها على شاكلة الحزب الاشتراكي نفسه، اذ راحت اكثرية اعضاء الحزب تعلن في اجتماع لهم عقدوه في مدينة تورس، انضمامهم الى الدولية الثالثة ، الامر الذي حمل اليأس الى قلوب العمال وحمل الكثيرين منهم على الخروج من صفوف الاتحاد .

اما في ايطاليا حيث لم تلق الحرب اية شعبية ،فقد ازدادت الطبقات بؤساً وشقاءً بعد انتهاء المعارك ، وفي اثر التضخم المالي وارتفاع الاسعار الجنوني وخيبة الأمل التي احدثها في النفوس مؤتمر الصلح ، الامر الذي ادى بالتالي الى تأمين سيطرة الاشتراكيين المتطرفين في الحزب الاشتراكي فنالوا ١٧٥ مقعداً من اصل ٥٠٠ مقعد في انتخابات عام ١٩١٩ . وقد تكاثرت في السنوات ١٩١٩ و ١٩٢٠ المظاهرات ذات الطابع الثوري ، منها مثلاً اضرابات العمال الزراعيين في ولايات نوفارا وبارما ، واحتلال الاملاك الواسعة ، وطلب المباشرة بتوزيعها ، والاضراب العام الذي اعلنه ٢٠٠٠٠٠ من عمال الصناعات الحديدية ، في نابولي وميلانو وبيومبينو ، وعمال النسيج في مدينة كوزم ، وعمال دور الصناعات الحربية في ترسانة انسالدو في جنوى (احتلال مصانع الفا روميو في ميلانو . ومنه انتقلت العدوى الى ١٨٠ معملاً من المعامل الخاصة بالصناعات الحديدية ، ساهم باحتلالها اكثر من ٦٠٠٠٠٠) وقد اخذ يبرز الميدان ، عام ١٩٢١ عمل « القمصان السود » هذه المنظمة الضيقة النطاق التي نظمها وسهر على ادارتها كبار المالكين ورجال الاعمال والصناعة والحكومة ، وهي منظمة لم تلبث ان استشرت واستبطرت وهيأت للحركة الاشتراكية في ايطاليا هزيمة نكراء دونها بكثير هزيمة

الشكل ١ - الحدود الجديدة والمقاطعات المتنازع عليها بعد الحرب العالمية الأولى .

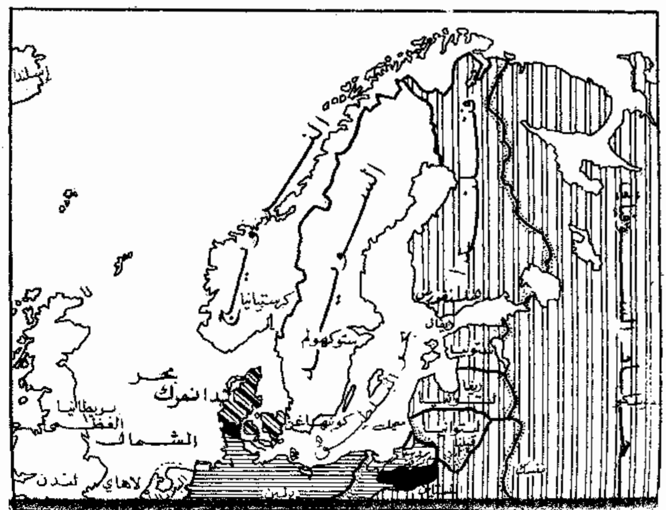

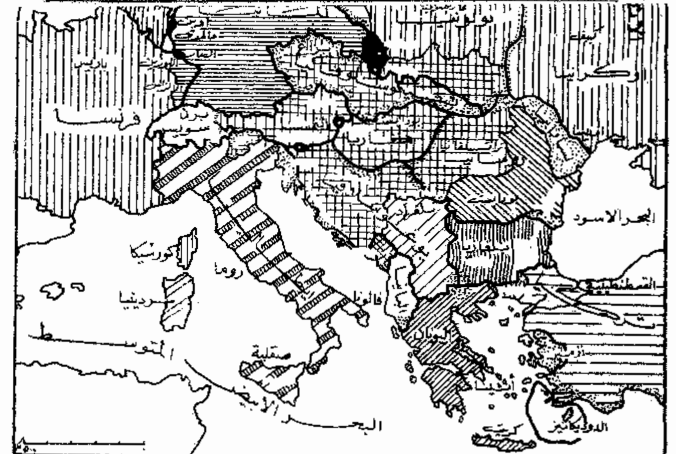

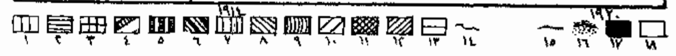

في عام ١٩١٤ : ١ - فرنسا ، ٢ - المانيا ، ٣ - النمساوهنغاريا ، ٤ - ايطاليا ، ٥ - بلجيكا ، ٦ - الدانمارك ، ٧ - روسيا ، ٨ - رومانيا ، ٩ - بلغاريا ، ١٠ - صربيا ، ١١ - الجبل الاسود ، ١٢ - اليونان ، ١٣ - تركيا ، ١٤ - حدود ١٩١٤ ، ١٥ - الحدود الجديدة عام ١٩٢٠ ، ١٦ - المقاطعات المتنازع عليها عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، ١٧ - اراضي خاضعة لاستفتاء شعبي ، ١٨ - اراض لم يلحقها اي تعديل .

« كلمريتو » المشهورة .

وقد عرفت اسبانيا الحيادية ، هي « الاخرى » ازمة ثورية بين ١٩١٩ – ١٩٢٠ قوامها الثالوث البلشفي : البؤس وغلاء المعيشة والفوضى السياسية في البلاد . فنشبت في اسبانيا سلسلة متصلة الحلقات من الاضرابات قام بها العمال الزراعيون في ولاية الاندلس . كما قامت اضرابات عمالية اخرى في ولايات : كتلونيا وفي المقاطعات الصناعية الواقعة الى الشمال الغربي من البلاد. وفي سنة ١٩١٩ اعلن الاتحاد العام للعمال ، وهي منظمة نقابية فوضوية تعد ٣٠٠٠٠٠ عضو الاضراب في الشركة الكهربائية الكندية في سابا ديل ، عقبته حالة من الفوضى والبلبلة قمعها الجنرال مارتينيز بالدم ، فطبق على العمال قانون التهرب من خدمة العلم .

التدخل ضد روسيا

اما الخطر الاجتماعي الادهى الذي يضفي على هذه الحركات والانتفاضات العمالية طابعاً مقلقاً ،فيتمثل ، على أتمه ، في قيام روسيا الاشتراكية، وفي الخوف من امتداد عدوى هذا النظام الخطر،الامر الذي حمل دولاً كثيرة على إصلاء هذه الثورة حربا لا هوادة فيها مع انه لم يكن احد ليتوقع لها الديمومة والاستمرار . ومنذ عام ١٩١٧ ، راح الحلفاء بدافع منهم للابقاء على الجبهة الشرقية ، ضد المانيا يرسلون ، منذ عام ١٩١٨ ، تحت ستار الدفاع عن العتاد الحربي الذي كدسه الاميركيون والحلفاء في اوكتجالسك ومورمانسك وفلاديفوستوك ، حملات عسكرية الى هذه المراكز الحربية . وقد راح الحلفاء يردفون بعون سريع ، كل حركة مضادة للنظام البلشفي ، اينما طلعت او لاحت : في سيبيريا وجنوبي روسيا او في بلدان البلطيق واخيراً في أثر الحرب البولونية الروسية التي وضعت حداً لماهدة ريغا بعقد السلم عام ١٩٢٠ . وقد استطاعت روسيا الثورة ان تصمد بنجاح امام خصومها ولذلك انقذت نفسها وضمنت بقاءها لتزرع الخوف ولتثير الشكوك في النفوس . وقد استبدلت الحكومات سياسة التدخل المسلح المباشر التي منيت بالفشل ، سياسة فرض نطاق الحجر الصحي الذي رمت من ورائها الى عزلها وابقائها ضمن الحجر الصحي الى ان تسقط من نفسها . وفي البلدان البلطيقية حيث راح الألمان يحاولون الاحتفاظ بسلطتهم تساندهم الارستوقراطية الالمانية في هذه المقاطعات ، اخذ الجنرال غولتز يشكل كتائب حرة لم يلبث ان انضم اليها الجنود الالمان الذين تم تسريحهم من الخدمة العسكرية، مما حدا بالحلفاء الى التدخل وراحوا يسلحون الكتائب الليتوانية ، فاضطرت الوحدات الالمانية ، في نهاية الأمر الى الانسحاب من هذه المقاطعات ، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ .

٢ – اعادة السلام

المبادىء العامة

بدت المحاولة الالمانية التي هدفت الى انهاء عهد طويل من السلام بقصد تحقيق توسع جغرافي واسع النطاق ولبسط سيطرتها على اوروبا جمعاء ، خروجاً على كل المبادىء التي اصطلحت الحضارة المتعاقبة على اعتبارها قضايا ثابتة كرّستها

العرف وأقرها التقليد البشري ، تقوم على احترام حياة الأفراد والحق وتجنب اللجوء الى القوة في حل المشكلات القائمة بين المتنافسين . فالحرب الدفاعية التي خاضتها الديموقراطيات ضد الامبراطوريات القائمة في وسط اوروبا كانت بمثابة « حرب العدالة » . وبعبارة اخرى صليبية ضد العنف والعدوان في سبيل إنقاذ الشعوب التي ترسف في الذل والعبودية ، ولاقامة سلام وطيد الاركان وإنشاء مجتمع دولي تتساوى فيه حقوق الشعوب وتصان اسوة بالحقوق الشخصية ضمن المجتمعات القومية .

وقبل ان تضع الحرب اوزاوها حرص الرئيس ولسون في خطبه الرنانة وفي رسائله الى مجلس الكونغرس الاميركي ، حرصاً شديداً على ان يحدد لبلاده الاهداف التي تنشدها من دخولها غمار الحرب ، والاسس التي يجب ان يقوم عليها سلام دائم وطيد . وقد احدثت خطبه هذه والمبادىء التي حددها دوياً عظيماً في الرأي العام العالمي ، وقطعاً لاسباب المنازعات التي شجرت بين الشعوب والدول خلال القرن التاسع عشر والتي جاءت الحرب الاخيرة تظهر مـا يكمن تحتها من مخاطر . رأى ان يطبق الأخذ بمبدأ احترام مطالب القوميات الوطنية في هذه الامبراطوريات التي لا تزال تضرب هذا المبدأ بعرض الحائط ، والاعتراف ، بالتالي ، باستقلال هذه الشعوب التي لا تزال تعاني من الاحتلال الاجنبي لهـا والقضاء على كل مبرر لسياسة الضم القومية والقضاء بالتالي على الدبلوماسية السرية التي تفرض على الشعوب الخاضعة لسيطرتها حروباً يجهلون اسبابها ومسبباتها ويلزمونها بها وهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وتأسيس عصبة لجميع الأمم تتولى فض جميع الاختلافات وحل المشكلات التي تنشب بين الشعوب والدول ، وبذلك تصبح الاحلاف والاتحادات الدولية اموراً تافهة لا معنى لها ولا ما يبرر الاخذ بها قط ، واقامة سلام يبنى على العدالة حتى لمن كتبت عليهم الغلبة . هذه هي المبادىء العامة التي حلم بتحقيقها الرأي العام العالمي وراحت الولايات المتحدة الاميركية تضغط بنفوذها على الشعوب لتبنيهـا والسير عليها — عن غير رضى منها وبعد كل تحفظ — هذه المبادىء التي تضمنها ميثـاق الهدنة الذي وقعته المانيا بعد ان ارغمها الحلفاء على الركوع .

وهذه المبادىء طُبّق بعضها جزئياً بينما بقي البعض الآخر منهـا حبراً على ورق . فالدول المنتصرة عللت النفس باستغلال نصرهـا المبين وشطب الامبراطوريتين الروسية والالمانية من خريطة العالم ، ولو لأمد قصير ، وبزوال الامبراطورية النمساوية المجرية والسلطنة العثمانية توطيداً منها لسيطرتها على العالم ، بحيث يتاح لها اعادة اقتسام المستعمرات والبلدان التي احتلتهـا هذه الامبراطوريات وراء البحار ، وبذلك يتم لاوروبا وضع تبقى معه الدول المغلوبة على امرهـا ، مهيضة الجناح ، مستضعفة ، كما تجعل من المستحيلات قيام حرب جديدة .

معاهدات ١٩١٩ – ١٩٢٠

فالمعاهدات التي تم الوصول الى عقدها ، عام ١٩١٩ – ١٩٢٠ جاءت بمثابة تسوية وفقت بين المبادىء التي نادى بهـا ولسون والمبادىء الاخرى التي قامت بهـا الدبلوماسية الاوروبية القديمة ممثلة خير تمثيل في شركائه

بالمفاوضات . فبانشائهم الدول القومية وتحريرهم الشعوب المستعبدة في أوروبا الشرقية واوروبا الوسطى ، رمت الدول المنتصرة في الحرب الى قطع دابر الخلافات الناشئة عن مطالب القوميات. وهكذا أطل على الوجود وقـــام تحت الشمس ست دول مستقلة جديدة طلعت من بين حطام روسيـــا والنمسا والمجر بينا جرى توسيع ثلاث دول اخرى توسعاً كبيراً (هي رومانيـــا ويوغوسلافيا واليونان) ، كما نالت كل من فرنسا وايطاليا تعويضاً لها ، اراضي لها اهميتها الخاصة من الوجهتين الاقتصادية والستراتيجية . وعلى الاجمـال فالحدود الجغرافية التي رسمتها معاهدات عـــام ١٩٢٠ ، تحقق ، في مجموعها ، المطالب الوطنية ، والأماني القومية. فالأقليات القومية اصبحت أقل بكثير من الوجهة العددية مما كانت عليه عام ١٩١٣ ، وان لم تزل كلياً . فقد أُخذ بعين الاعتبار ،عند تعيين الحدود الجديدة ، بعض مقتضيات رؤي مراعاتها اخذاً ببعض الحوافز الاقتصادية والستراتيجية والعرقية التي جعلت من المتعذر إنشاء دول قومية صرفة . وكانت من نتائج هذه النظرة البديهية الخروج على مبدأ تقرير المصير، هذا المبدأ الذي كان من الأسس التي قامت عليها المعاهدات الجديدة . ألم يكن من الواجب ، تأميناً لاستقلال هذه الدول الجديدة وضمـاناً لحياة كريمة لشعوبها ، التوقف ملياً عند ما يؤمن سلامتها ويصون كيانها سيـــاسياً واقتصادياً وذلك بتأمين الموارد المعدنية والخامات اللازمة وطرق مواصلات معينة والمرفأ اللازم لتقنية اقتصادها وتأمين مواصلاتها وغير ذلك من مستلزمات كل استقلال ؟ افلم يكن من الواجب مراعـــاة مشاعر أكثرية السكان في هذه المناطق التي تتشابك فيها المصالح وتتماظل بين اكثرية واقليات عرقية تتصالب عندها الاهداف وتتنافر؟ وهكذا استطالت فواصل الحدود في اوروبا الوسطى بحيث ارتفعت من ٦٠٠٠ كلم الى ١٣,٠٠٠ كلم ، منها ٤٠٠٠ كلم لتشيكوسلوفاكيـــا وحدها . وقد رؤي الاستبقاء ، ضمن هذه الحدود ، على بعض الاقليات القومية تناوحت نسبة افرادها بين ٢٠ ــ ٣٥ بالمئة من مجموع السكان ، كما ان خط الحدود الفاصلة في بعضها بدا يتعارض والمنطق السليم ، لا بل بدا مخالفاً للعقـــل السليم ، كما يبرز هذا الوضع على اتم صورة في كل من مدينة فيومي وزارا وتيشن والاربج الاعلى وسيليزيا وفي مقاطعة بانات (بين يوغوسلافـــيا ورومانيا) وفي مقدونية ، وفي المضيق البولوني حيث ترى الحدود تباعد بين امكنة ومصانع واسواق تجارية بالرغم مـــما يجمع بينها من روابط وأواصر تشدها بعضاً الى بعض ، وبذلك قامت بين السكان نزعات ومطالب لا حدّ لهـــا ولا حصر . والعبث بمبدأ القوميات الذي ضُرب بتطبيقه عرض الحائط اثار في نفوس الالمان أحقاداً مريرة بعد ان استهانت المعاهدات المعقودة بمصالحهم وداستها بشكل ذريع (اذ خسروا اراضيهم و ١٢ ./٠ من مجموع السكان) ، ولا سيمـا المجر اذ فقدوا ٧٠ ./٠ من اراضيهم ونصف سكان بلادهم ، والاتراك بعد ان انتزع منهم ٤ ./٠ اراضيهم .

ولما كان المنتصرون في الحرب يمثلون القوة العسكرية والسياسية ، فقد رموا الى بقاء المغلوبين على امرهم في عجز مدقع ، اقصرتهم عليه شروط نزع السلاح وشروط اقتصادية اخرى . فقد

نصت المواثيق المعقودة على تجريد المانيا المسؤولة الاولى عن الحرب، من كل سلاحها ، كما نصت على تخفيض عدد جيوشها ، وحظر عليها العمل بالخدمة العسكرية الاجبارية، ونصت على احتلال ضفة الرين اليسرى لمـدة ١٥ سنة ، كما قضت بهدم رؤوس الجسور المحصنة على ضفة النهر اليمنى . فاذا ما احترموا وحدتها ، فقد رأت نفسها ملزمة التخلي عن اراضيها التي لا تقطنها اكثرية المانية كالألزاس واللورين او جزء من سيليزيا العليا بشرط إجراء استفتاء فيه، وعن الاراضي البولونية التابعة لها بما في ذلك دانتزيج ومستعمراتها عبر البحار، واخيراً مناجم السار على ان يقرر سكان هذه المقاطعة مصيرهم في استفتاء شعبي عام، بعد ١٥ سنة ، واتخذت إجراءات شبيهة لهذه مع بلغاريا وتركيا وهنغاريا والنمسا . فاقتطعت من جسمها عدة أقليات المانية وهنغارية . كـما اتخذت إجراءات احترازية للحؤول دون انضمام النمسا الى المانيا .

اما الاحكام الخاصة بالشؤون الاقتصادية ، فقـد جُردت الدولة المغلوبة على امرها ، الى جانب مستعمراتهـا ، من اساطيلها التجارية ، وفُرضت عليها تعويضات لم يجر تحديدها في وقت كانت فيه اوضاع التجارة الخارجية مضعضعة لا بل منهارة بالفعل .

« وهذا الظلم القرطاجي الجائر » ألم يكن بالفعل لا خيّراً ولا ممكناً ولا عملياً ؟ الم يكن « تحدياً للعدالة والشفقة وللعقل السليم » كما اكّد ذلك كينز بصدق وحرارة ، فساعد كثـيراً على تشكيك الرأي العام الانكلوسكوني كما ساعد على عدم تطبيقه وتنفيذه . الم يكن بالرغم مما علق به من شوائب ، اقل الحلول سوءاً ، وكان قابلا للتنفيذ ، على كل حال ، كما دلل على ذلك ببراهين قاطعة اتين منتو ؟ ومهما يكن . فقد كان القصد من ابقاء المقهورين على امرهم ولمدة طويلة ، اعجز من ان يتصدوا للمنتصرين او ان يزاحموهم على الاولوية في العالم .

امـا روسيـا التي تجاهل مؤتمر السـلام وجودها رسمياً ، فقد حرص الحلفاء على ان ينشئوا حولهـا ، عزلاً لها عن العالم ، حجراً صحياً تـألف من جمهوريات صغيرة الحجم ، مثل فنلندا (٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة) واستونيا (١,٢٥٧,٠٠٠ نسمة) وليتونيا (١,٩٠٠,٠٠٠ نسمة) بينهم ٢٥ ./. مختلفو العرق ، وليتونيا التي تضم مليونين بينهم ١٢ ./. من عروق مختلفـة . وكلها جمهوريات اقتضى لهـا بضع سنوات لتنظم شؤونها ؛ ومن جمهوريات متوسطة الحجم ، أمثال بولونيا (التي تعد بين سكانها دخيلا من اصل ثلاثة اصليين) ورومانيا التي ضمت اراضي روسية الاصل والطابع كانت من قبل تابعة لروسيا البيضاء « اوكرانيا وبساراببا » . وفي قلب اوروبا وشرقيها ، قـام عدد من الدول السلافية ، منها على الاخص تشيكوسلوفاكيا وبولونيا المتحالفتين مع فرنسا القابعة على ضفاف نهر الرين. كل هذه الكيانات تحيط بالرين إحاطة السوار بالمعصم وتراقبه عن كثب .

عصبة الامم وحماية الاقليات

طرأ على المبادىء الولسونية ، في المجالين السياسي والجغرافي ، تعديلات جذرية ، بينما راح جانب كبير من معاهدات الصلح ، هو الجانب الخاص بمنع انفجار حرب جديدة ، كان تطبيقاً لها وتنفيذاً ، هذا الجانب المتعلق بميثاق عصبة الامم . فانطلاقاً من المبدأ القائل : « ان كل حرب تنفجر تصيب المجتمع البشري بكامله ، فقد ترتب على هذا المجتمع ان يتخذ من الاجراءات ما يصون سلام الامم » . فقد عُهد الى لجنة خاصة مؤلفة من ٩ اعضاء بينهم خمسة دائمون ، هم الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا واليابان ، مهمة اتخاذ الاجراءات الاقتصادية والعسكرية ، ضد كل دولة تعلن الحرب على الاخرى . وقد نص الميثاق على امور كثيرة منها نزع السلاح من كل الدول واعادة النظر في المعاهدات « التي تصبح غير قابلة للتنفيذ » ، وعلى انشاء مكتب دولي للعمل ، واخيراً وليس آخراً ، مراقبة المستعمرات الالمانية القديمة والأقطار المنفصلة عن تركيا ، التي تولت مهمة الانتداب عليها وتهيئتها للاستقلال ، الدول المنتصرة . والنص المذكور نص موجز عام ، ناقص ، عبارته مبهمة على العموم ، ركيكة ، لا يستجيب كثيراً لاماني دعاة السلام (فهو يحترم مبدأ السيادة الوطنية ولا يحظر بصورة جازمة اللجوء للحرب ولا ينص على استعمال بوليس دولي للمحافظة على الأمن في الحال) . إلا انه نص طيّع يستجيب لاتخاذ اجراءات تالية . وفي نطاق خاص هو نطاق حماية الاقليات ، فقد نص الميثاق على إجراءات دقيقة الغرض منها معالجة المشكلات الناجمة عن ادماج اقليات قومية في صلب الدول الجديدة . فقد نص على وجوب احترام هذه الاقليات واوجب معاملتها على قدم المساواة مع باقي رعايا البلاد ، دون اي نظر للعرق واللغة والدين ، لا سيما في كل ما يتعلق بالوصول الى الوظائف العامة وحرية استعمال لهجاتهم الخاصة وحرية معتقدهم والتعليم بلغتهم الام . فعصبة الأمم التي تضمن تطبيق كل هذه الحقوق هي الهيئة الصالحة للنظر في كل طلب يشكو من مخالفتها وعدم التقيد بها ، والقيام بالتحقيقات اللازمة .

وبالفعل ، فعصبة الأمم التي كان من المفروض فيها ان تصبح اداة صالحة في المجال الدولي ، لم تلبث ان استحالت اداة تغليب وتسليط بين ايدي الدول المنتصرة التي تؤلف الاكثرية في مجلس التسمة ، وفي الجمعية العامة (صوت لكل دولة عضو) . فولايات الدومينيون وانكلترا تؤلف كتلة من ستة أصوات ، بينما تلتف دول اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية المتحالفة فيما بينها وتعتمد عسكرياً واقتصادياً على فرنسا وتقف الى جانبها. أما الولايات المتحدة الاميركية فقد رفضت الانتساب الى عصبة الامم بعد ان رفض مجلس الشيوخ الاميركي التصديق على مشروع معاهدة فرساي ، بينما حظر على روسيا وألمانيا والدول الأخرى المغلوبة ، التقدم الى العصبة بطلب الانتساب .

مؤتمر واشنطون

بعد ان أعاد الحلفاء السلام الى اوروبا ، رأوا ان يعيدوه الى الشرق الأقصى ، ليوقفوا عند حد ، تصاعد النفوذ الياباني الذي أخذ يهدد جدياً،

مصالح الدول الاوروبية والولايات المتحدة في المحيط الهادي . فقد اغتنمت اليابان من جهة ، الفوضى الضاربة اطنابها في الصين ، واستغلت ، من جهة ثانية ، حرية التصرف التي اضطرت انكلترا وفرنسا التخلي لها عنها ، لتستولي على تركة المانيا في هذه الاصقاع ، وذلك باستيلائها على تسانغ تاو وتشانتونغ وعلى الجزر الالمانية المتناثرة في المحيط الهادي . فقد تمكنت من ان تفرض على الصين مطالبها المؤلفة من ٢١ مطلباً ، وهي مطالب يؤمّن لها تحقيقها ، امتيازات ومنافع اقتصادية وسياسية ، وبذلك وضعت الصين برمتها تحت ولايتها . وبالاتفاق المعروف باتفاق لانسنغ إيشي المعقود بين اليابان والولايات المتحدة ، اعترفت لها الأخيرة بمصالح اليابان الخاصة في الصين . ثم انتهى بها الأمر في آخر المطاف بمناسبة الثورة الروسية ، الى احتلال سيبيريا الشرقية حتى حدود بحيرة بيكال ، كما ان مؤتمر السلم أقر لها بكل الامتيازات التي نالتها على حساب الصين ، واستطاع مؤتمر واشنطن الذي دعت إليه الولايات المتحدة ان يفرض حدوداً على اليابان: حدوداً للتسلح واحترام سيادة الصين واستقلالها وسلامة اراضيها، والتنازل عن الامتيازات التي نالتها كما تنازلت عن مقاطعة شانتونغ ، واخلاء سيبيريا والاعتراف بالباب المفتوح . ان تحالف انكلترا وولايات الدومينيون الى جانب الولايات المتحدة ، جعل سياسة الولايات المتحدة تشيل على السياسة اليابانية ، وأمن التوازن بين القوى هذا التوازن الذي اختل بدافع الحرب في الشرق الاقصى على حساب الجنس الابيض .

٣ ـ اعادة النظام ـ الاصلاحات السياسية والاجتماعية

بعد ان امكن تجنب الثورة وتم توطيد السلام ، اصبح من الضروري ان توضع الحرب بين حاصرتين ، وذلك بإعادة المؤسسات الليبرالية الى الوجود ، والعمل على تعميمها ، بتقديم التنازلات للطبقات الشعبية بحيث تتحول بانظارها عن الدرس الروسي وما فيه من عبرة وعظة .

الاصلاحات السياسية

كان من شدة نفوذ المنتصرين وما لهم من سطو شديد واثر عميق في النفوس ان راح المغلوبون على امرهم والدول التي أطلت حديثاً على الوجود تترسم ما للدول المظفّرة من نُظم ومؤسسات . فقد زال النظام الملكي من المانيا وطأطأت السلالات الملكية فيها برأسها الى الأرض امام طغيان الحركة الشعبية واستبطارها . فهنغاريا وحدها بقيت على النظام الملكي ولو خلا العرش من صاحبه امام رفض جيرانها لهذا النظام . فكل الدول الجديدة : من بولونيا الى تشيكوسلوفاكيا ، الى الدول البلطيقية رفضت النظام الملكي نظاماً لها . ولم يقم في اي مكان من يشكو او ينتقص من نظام الاقتراع العام . فانكلترا تبنته منذ عام ١٩١٨ وحذت بلجيكا حذوها عام ١٩١٩ بعد ان تخلت عن نظام تعدد الاصوات الذي عملت به من قبل. فالعمل الدستوري الضخم الذي تم في اوروبا في هذه الحقبة، تميز بالنظام البرلماني الذي ساد وكرّس المبادىء الفردية التي قالت بها الديموقراطيات التقليدية : تغلّب حقوق الفرد الحر على حقوق الدولة وحقوق الفئات المجتمعية الأخرى . فالدستور الذي

إرتضته تشيكوسلوفاكيا ، عام ١٩٢٠ ، والدساتير التي ارتضتها لها كل من بولونيا ويوغوسلافيا ، عام ١٩٢١ ، كلها مستوحاة من القانون الاساسي الفرنسي . ففي كل من المانيا والنمسا نرى دساتير جامعية اي يتولى وضعها مشترعون يحاولون « عقلنة » السلطة وذلك باعطائهم النظام الديموقراطي فيها شكلاً او صيغة شرعية اكثر وضوحاً مما هي عليه الدساتير المعمول بها في كل من انكلترا وفرنسا لتأتي منسجمة مع مطلب العرف والتقليد . وقد استوحت بعض البلدان دستور سويسرا الذي يفسح المجال للمبادىء الشعبية وللاستفتاءات الشعبية (بروسيا وبادن وبافاريا واستونيا) ومعظم هذه الدساتير تقر عالياً بتقدم المجلس المنتخب على السلطة التنفيذية (بافاريا – هس – بادن) كما اوجب البعض منها انتخاب الرئاسة العليا بالاقتراع الشعبي (المانيا – فنلندا) .

الاصلاحات الاجتماعية

ففي الحين الذي راحت فيه الحكومات تكبح بشدة الاضطرابات الاجتماعية عمدت هذه الحكومات جاهدة ، على تحقيق بعض المطالب التي طالما طالبت المنظمات النقابية بتحقيقها . فقد اقرت فرنسا نظام العمل ٨ ساعات في اليوم كما اقرت قانون الاتفاقات الجماعية التي لم تكن مع ذلك ملزمة والتي لا تهم سوى ٧٫٥ ٪ من مجموع اصحاب الاجور العاملين في عالمي التجارة والصناعة ، الا انها تشريعات لها معناها ومغزاها بالنسبة لعددها (٥٧٥ اتفاقاً جماعيا في عام ١٩١٩ و ٣٤٥ في عام ١٩٢٠) وقد امتاز بعضها بما له من طابع قومي مفرّد . واقرت بلجيكا قانون الثماني ساعات عمل في اليوم ، والضريبة التصاعدية على التركات ، والضريبة النوعية او الفرعية على الدخل الفردي . واقرت انكلترا المنظمات المهنية والشركة المعروفة *A. S. E.* حق عقد اتفاقيات جماعية تعترف بشرعية ممثلي نقابة عمالية في مصنع ، وجعل استشارتهم إلزامياً في كل تعديل لمناهج تنظيم العمل وللجان المصانع . وفي سنة ١٩٢٠ ، اقر قانون العاطلين عن العمل وهو قانون يستفيد منه ١٢ مليون عامل في القسم الاكبر من القوة العاملة الذي يفرض بصورة الزامية التأمين ضد البطالة ، وهو قانون جرى تبنيه اثناء الحرب في مصانع الذخيرة .

قوانين الاصلاح الزراعي في اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية

شكلت المشكلة الزراعية في البلدان الواقعة في شرقي اوروبا ، القضية الكبرى التي تهدد النظام الاجتماعي فيها . فوجود املاك واسعة للغاية تعود ملكيتها ، في الغالب ، الى ارستوقراطية المانية او هنغارية او الى الكنيسة ، ووضع التابعية الذي يرسف فيه المزارعون الذين لا يكون تحت تصرفهم في الغالب سوى قطعة ارض صغيرة ويخضعون فيه لوضع نصف أرقاء عليهم سخرة ثلاثة ايام عمل في الأسبوع تسديداً لقيمة ايجار الارض ، كل ذلك كان مثاراً لقلق عميق في المجتمع زاد من حدته ازدياد عدد السكان في تلك البلاد . وتفاديا لثورات الفلاحين ولتوزيع الاملاك كما حدث في روسيا ، راحت الدول الحديثة العهد تضع تشريعات جديدة عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ ترمي من ورائها الى الاصلاح الزراعي . فقد امت تشيكوسلوفاكيا كل ارض زراعية تزيد مساحتها على

١٥٠ هكتـــار او على ٢٥٠ هكتاراً مهما كان نوع الارض ، وذلك لقـــاء تعويضات معينة باستثناء ذراري اعداء الامة التشيكية . وهكذا امكن توزيع ربع مساحة الارض الصالحـــة للزراعة في البلاد بين المزارعين . وقـــد صادرت الحكومة في يوغوسلافيا ، منه عـــام ١٩١٩ (واقر دستور فيدوفدان الصادر عام ١٩٢١ هـــذا الاجراء) املاك الطبقة الارستوقراطية الاسلامية في مقاطعة البوسنه واملاك نبلاء المجـــر والكروات . وفي رومانيا ، أقر ، بمناسبة الانهيار الذي حصل في روسيا عام ١٩١٧ ، مبـــدأ القيام باصلاح زراعي تناول املاك الوقف والاملاك الكبيرة الاخرى ، والقوانين الزراعية التي وضعت عـــام ١٩١٨ و ١٩١٩ ، ادخلت العمل بالاصلاح الزراعي في مختلف انحاء البلاد ، وهو اصلاح جـــاء اكثر جذرية في مقاطعة بسارابيا (المتاخمة لروسيا) منها في المقاطعات الاخرى . وفي بولونيا حيث يتمتع كبار الملاكين بنفوذ قوي ، وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الروسي يقترب من فرصوفيا في تموز (يوليو) ١٩٢٠ اخذ قانون خاص صدر في بضع ساعات لا غير ، يحدد ظروف وكيفية القيام باصلاح زراعي . ومثل هذه الاجراءات المتسمة بالاعتدال والمتعلقة ، بالعقارات الكبرى ، اتخذت في فنلندا (قانون كاليو ، عام ١٩٢٢) ، واكثر جـــذرية منه القانون الذي صدر في استونيا حيث ٩٦٫٠/٠ من الاملاك الكبيرة جرت مصادرتها وتأميمها ، وفي لتونيا حيث لم يسمح للملاك بحيازة اكثر من ٥٠ هكتاراً ،وفي ليتوانيا حيث كانت مساحة بعض الاطيان تزيد على ١٠٠٠٠ هكتار ، فاذا بقانون عام ١٩٢٢ يوزعها حصصاً من ٥٥ هكتاراً ، فاستفاد من هـــذا التوزيع ٥٥٠٠٠ اسرة ومعظمها اراض تخص الكنيسة الروسية ، او كبار الاشراف الذين نالوها من القياصرة .

كل هذه القوانين التي صدرت تحت التهديـــد بالثورة توصي بتعويضات على اصحابها تختلف سماحة ، :هي تعويضات لم تطبق الا جزئيـــاً وببطء كلي خلال السنوات التالية . فالاصلاح الزراعي لم يكن جذرياً الا في هـــذه البلدان التي لا اثر للارستوقراطية الوطنية فيها امثـــال يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واستونيا، او كما هي الحال في رومانيا ، حيث راح الحزب الحاكم يحاول ان يدك الى الاساس نفوذ الحزب المعارض الذي يعتمد الى حد بعيد ، على كبار الملاكين العقاريين . ففي بولونيا وهنغاريا حيث المشكلة كانت تبـــدو اكثر حـــدة وتعقيـــداً ، وقفت الارستوقراطية تعارض كل حركة اصلاحية بوشر بها ، وذلـــك عنـــد زوال كل خطر بالثورة او نشوب حرب . ولهذا احتفظت البلاد بالوضع الزراعي الذي كانت عليـــه من قبـــل .

وهكذا أعيد السلام والنظام الى هذه البلدان . كما بدا انه لا شيء هنالك يمنع العودة الى التوازن ، والى تنمية الاقتصاد الوطني والنهوض به بأسرع مـــا يمكن ، هـــذا الاقتصاد الذي جعل من اوروبا ، قبل عام ١٩١٤ محور العالم وقطبه الاكبر .

٤ ـ رصيد الحروب

رصيد الحروب في اوروبا مثقل مرزح . أفلم تفقـــد اوروبا بضعة ملايين من الشباب الريان

وتارك وراءها خراباً يباباً ، مهيضة الجناح ، موزعة ، تكمن فيها اسباب منازعات قد تنفجر بين لحظة واخرى ، فاختل توازنها بنوع مفجع في وقت قام فيه عبر البحار منافسون لها اشداء أثروا بسرعة واشتد منهم الساعد المفتول .

الخسائر البشرية والمادية

الخسائر في الارواح جسيمة جداً . فقد سجلت المانيا ٠٠٠ ٨٢٦ ١ قتيل اي ١٢.٠/٠ ممن هم بين الخامسة عشر والخمسين كما سجلت فرنسا ٠٠٠ ٤٠٠ ١ قتيل اي ١٤.٠/٠ ، وانكلترا ٠٠٠ ٧٤٤ قتيل اي ٧ بالمائة ، وبلغ مجموع ما خسرته مع مستعمراتها ٠٠٠ ٩٥٠ ، بينما خسرت الولايات المتحدة ٥،٥ بالمائة اي ٠٠٠ ١١٥ . اما فيما يتعلق بالبلدان الاخرى فعلينا ان نقنع بتقديرات عامة منها ٠٠٠ ٧٠٠ قتيل لايطاليا ، و ١،٢٥٠،٠٠٠ قتيل للنمسا والمجر ، و ٣٧٠،٠٠٠ منها للصرب . اما روسيا فيقدر عدد القتلى بـ ١،٧٠٠،٠٠٠ قتيل في الفترة التي كانت فيها حليفة للحلفاء ، ونحواً من ٥ ملايين للفترة الواقعة بين ١٩١٤ – ١٩٢٠ والى هذه الخسائر في الارواح ، يجب ان نضيف الخسائر التي تكبدها السكان المدنيون من جراء الغزو والاوبئة الوافدة والتقنين الشديد في وسائل التغذية ،والمجاعة والنقص في معدل المواليد . ويمكن ان نقيم للنقص العام الذي اصاب الرجال بين العشرين من عمرهم والاربعين ، نتيجة مباشرة للحرب بـ ١٦ بالمائة في فرنسا وفي المانيا ، و ٧ بالمائة في بريطانيا العظمى . اما تكاليف هذه الحرب فتختلف كلياً عن تكاليف الحروب السابقة . فالخراب الذي لحق البلدان التي كانت مسرحاً للمعارك الحربية ، والخراب الذي نجم عن عمل الغواصات سجل ارقاماً فلكية . ويعتري المرء الدوار بمجرد ما تقع عليها العين . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، فرق ارتفاع الاسعار ، فقد بلغ معدل كلفة الحرب في فرنسا ٣٢ بالمائة من مجموع الثروة الوطنية ، و ٢٢ بالمائة من الثروة الوطنية في المانيا ، و٣٢ بالمائة في انكلترا، و ٢٦ بالمائة في ايطاليا و ٩ بالمائة في الولايات المتحدة الاميركية . كذلك يجب ان نقيد في قسم الديون في حساب اوروبا : انهاك وسائل النقل واجهزة المصانع التي براها الاستعمال الحد الاقصى ، بعد ان دهكت طاقتها وتعذر تجديدها او صيانتها بصورة مرضية ، ونقص ملحوظ في الطاقة الاقتصادية .

هنالك نقص ، ليس فقط في الانتاج وفي المواليد بل ايضاً اغراق الدول الحاوية بالديون إذ اضطرت هذه الدول للاستدانة او التخلي عن قسم كبير من مخزون الذهب فيها (نصف هذا المخزون في فرنسا واكثر من النصف بقليل في ايطاليا و ٢/٦ في النمسا والمجر ، ناهيك عن التنازل عن قسم هام من استثماراتها في الخارج . والموازنات الوطنية هي في عجز مستمر . فقد بلغت واردات الخزينة في فرنسا عام ١٩٢٠ عشرين ملياراً مقابل ٤٦ ملياراً النفقات ، بينما لا تغطي الواردات في ايطاليا ثلث نفقاتها العامة ، وفي هنغاريا لا تغطي سوى ٥٢ ./. . وفي النمسا ٢٢ ./. ، وفي بولونيا ٢١ ./. . فبامكان انكلترا وحدها ان تؤمن التوازن في موازنتها العامة .

فدين اوروبا الخارجي جعلها في تابعية الولايات المتحدة الاميركية التي امست اقوى الدول مالياً في العالم .

تحول التجارة الاوروبية والدولية

فقد انقلبت اوضاع الاقتصاد الاوروبي العامة كما اضطربت ايما اضطراب التيارات التجارية شبه المستقرة التي كانت سائدة عام ١٩١٣ . وقد وقفت هذه التغييرات عند الحد الادنى في اوروبا الوسطى ، بعد ان اضطرت المانيا وحلفاؤها والبلاد التي احتلتها ، امام الحصار البحري الشديد الذي فرضته عليها الدول الحليفة ، ان تضع وارداتها في صندوق مشترك فحققت بذلك وحدة اوروبا الوسطى . غير ان الدول الغربيـة التي توفرت لديها امكانات التموين في الخارج ، استبدلت متعهدي توريداتها ، في منطقتي الدانوب وروسيا ، بمتعهدين في كندا والولايات المتحدة الاميركية والارجنتين ، في الوقت الذي توقفت فيه عن تصدير منتوجاتها الصناعية . فقد ادّت الحرب الى حدوث شلل كبير في الحركة التجارية الداخلية في اوروبا ، ونقلت الى ما وراء البحار مصادر تموين اوروبا ، فأوجدت بذلك تيارات جديدة ومجاري للمبادلات لم تكن قائمة من قبل في الحركة التجارية ، في هذه الفترة التي ركد فيها نشاطها الانتاجي . وقد أثّرت هذه البلدان وجعلت من رصيدها السلبي رصيداً موجباً ، واستبشاراً منها بارتفاع الاسعار ، راحت تنشط حركة الانتاج فيها ، فانشأت صناعات دقيقة تسد مسد العجز الذي اصاب حركة الانتاج في اوروبا . ولذا كانت اليابان والولايات المتحدة اكثر الدول التي افادت بالأكثر من هذه التطورات الطارئة التي لم يكن في وسع احد ان يتنبأ ما اذا كانت وقتية او نهائية .

اوروبا المستضعفة والمنقسمة على نفسها

فالبنود الاربعة عشر التي اقترحها ولسون لاعادة بناء اوروبا على اسس جديدة ، لم تحترمها المعاهدات ، كما رأينا ، الاحترام اللازم . فقد كان لطلوع دول جديدة ان « تبلقنت » اوروبا ، إذ قامت بين دولها الحواجز ، وعدلت فيها الحدود واوجدت فيها دولاً مستضعفة الجانب تفتقر جذرياً للخامات والمواد الأولية التي لا بد منها لاي استقلال اقتصادي نسبي ، كما ان وحدتها القومية كانت سريعة العطب لما قام فيها من عديد الاقليات القومية الزاخرة بالنشاط . وقد توافرت نقاط الاحتكاك ليس في داخل هذه الدول فحسب ، بل ايضاً بين الواحدة والاخرى: بين بولونيا وتشيكوسلوفاكيا مثلاً على قضية تيشن ، وبين ايطاليا ويوغوسلافيا بشأن فيومي وسلوفيليا ، وبين بولونيا وليتوانيا بشأن فيلنا ، وغير ذلك (راجع شكل ١ص ٤٠ – ٤١).

وبين الدول المنتصرة نفسها اشتدت المنافسة وتضاربت المنافع والمشارب الخاصة . فلم يرق لانكلترا ولا لايطاليا رؤية الحاميات الفرنسية على ضفاف الرين والتفوق العسكري الذي تمتعت به فرنسا في القارة حيث بدت كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا من الدول التوابع لها الدائرة في فلكها . وخارج اوروبا عبر البحار نرى الدول الامبريالية تتشاحن فيما بينها حول الاستئثار بالقسم الاكبر من التركة العثمانية والالمانية التي عاد معظمها لفرنسا واليابان ولانكلترا ، بالرغم

من الاحتجاجات التي ارتفعت في كل من البرتغـال وبلجيكا التي نالت رواندا اورندي ، وايطاليا التي اضطرت ان تقنع بارض جوبالاند وتصحيح حدودهـا الصحراوية في طرابلس الغرب . ان توزيع بترول الشرق الأوسط والسيطرة على سوريا ، واقتسام مناطق النفـوذ جعل الدولتين الكبيرتين اللتين استفادتا اكثر من غيرها من الحرب ، تنتصب الواحـدة في وجه الأخرى .

والمانيا المهيضة الجناح التي "مسخت مسخاً راحت تشكو من الحلفاء الذين استغلوا ثقتهـا واسترخصوا نواياها بعدم احترام « العقد » الذي وقّعته عندما اعربت عن رغبتها في التفاوض في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ ، واطمئنانهـا الى بنود ولسون الاربعة عشر . فقـد تحملت ، والحقد يقضم احشاءها ، معاهدة فرساي ، كما راحت تتمرّد وتتنمّر ضد « التطويق » العازل الذي اوجدوه حولها ، كما انها لم تستطع ان تسلى ولا ان تتعزى عن اقتطاع منطقة السار وسيليزيا العليا ودانتزيغ عنها ، ناهيك عن التعويضات القاصمة المفروضة عليها . والنمسا ولا سيما هنغاريا وتركيا وبلغاريا التي تثاقلت عليها جميعاً الضربات والويلات ، لم ترضخ قط للحيف الذي وقع عليها فاقتطع بعض اعضائها وفصلها عن مقاطعـات معظم سكانها من صميم مواطنيها ورعاياها . أما ايطاليا ، فلا تريد ان تتعزى ولا ان تنسى المعاهدات المعقودة معها سراً عـام ١٩١٥ ، والتي لم يحترمها الحلفاء ولم يتقيدوا بنصوصها . فلم تلبث ان انضمت سريعاً الى جانب المهزومين نكاية بحلفائها وتشفياً منهم .

وروسيا التي عُزلت جانباً وكانت باستمرار موضع مظنة وتشكك من قبـل الجميع ، تعرضت ، هي الأخرى ، للبتر والقطع في بعض مقاطعاتها لم تقبل به ولم تسلم به كأمر واقعي . فالاقتسام الجديد للعالم تم بمعزل عنها ورغماً منها . وقد جهزت نفسها ، بعد تجارب وامتحانات مريرة قاسية ، بجهاز سياسي واقتصادي يناهض ويعارض المبادىء العامة التي ارتضاها له العالم اجمع . وهكذا سنرى العالم المنقسم على نفسه شطرين متنافسين يأخـذ في تطوره ، في عـداء وخصومة متصلين .

وهكذا بدا السلام في نظر الكثيرين ، منذ عام ١٩٢٠ ، بعيداً كل البعد ، عن العـدل والاستقرار . فهنالك مشكلات عدة باتت تنتظر الحل المرتجى او جرى حلها بصورة ملفقـة او بشكل هزيل . وهذا الوضع العام الذي اتينا هنا على وصفه يهدد بالفشل ، احتمالات نهوض اوروبا وإنهاضها ، في الوقت الذي اخذت فيه سيطرتها على العالم ترتج وتترجح .

ازدهار الولايات المتحدة الاميركية

لم تتكلل جهود الحلفاء بغار النصر إلا بفضل تفوقهم العـددي والحصار البحري الذي فرضوه على المانيا ، فحال دون وصول ليس فقط السلاح والعتاد الحربي اليها ، بل ايضاً زيوت الشحم والمطاط والبنزين ولا سيما المواد الغذائية على اختلافها . وبدخول الولايات المتحدة الحرب ، تم للحلفاء التفوق العـددي بنزول فرقها الى ساحة الوغى ، وامكنهم إحكام الحصار البحري عليها وجعله أداة فعالة لم تلبث ان

ظهرت نتائجها الحاسمة . ان الفضل في تحقيق الانتصار الحربي يعود بالدرجة الأولى للجيشين الفرنسي والانكليزي ، مع العلم ان القوة العسكرية برزت على اتمها في الدولة الكبرى الواقعة عبر البحار والتي عادت عليها الحرب بثروات طائلة ،فاصبحت بالتالي القوة الكبرى في كرتنا الارضية . واوروبا التي فقدت الملايين من أبنائها ، وحُدّ من طاقتها على الانبساط ، تولاها الضعف وأخذ منها الوهن كل مأخذ فاضطرت ان تتقاسم والولايات المتحدة الاميركية ، السيطرة على العالم .

الثورة الروسية

هنالك حادث جديد جلل وقع عام ١٩١٧ ، له أهميته الكبرى يتمثل في الثورة الروسية . فبعد ان خفقت عن كاهل المانيا مخاطر ومخاوف كثيرة وعبء الحرب على جبهتين ، بدا عليها ، في مطلع الامر ، الوقوف الى جانب الامبراطوريات المركزية ، في وسط اوروبا ، وبذلك تمكنت المانيا من تحقيق الانتصارات الباهرة الداوية على الحلفاء في ربيع وصيف عام ١٩١٨، إلا ان نتائجها جاءت في نهاية الامر ، تخدم قضية الحلفاء . ان سقوط القيصرية ، وفـّر للرئيس ولسون كل الامكانات لوضع بنوده الاربعة عشر ولاظهار الحرب بمثابة صليبية تقوم بها الديموقراطيات . كما انها زعزعت في القواد الاتراك، العزم واوهنت فيهم الرغبة في المضي في الحرب اذ لم يعودوا يرجون شراً على عاصمتهم القسطنطينية من المطامع الروسية ، كما سهلت من جهة اخرى عملية فرار الفِرَق السلافية من الجيش النمساوي المنغاري ، وشجعت احزاب المعارضة في المانيا ، والحزب المستقل فيها على الأخص ، ليقوموا بدور حاسم في إزالة النظام الامبراطوري . وعلى غرار الثورة الروسية انطلقت الثورة الالمانية باضرابات واسعة وتحركات تمرد في الجيش والاسطول . أما في النمسا والمجر ، فقد جاءت الثورة تتسم بطابع الثورة الاجتماعية والقومية . فقد كان للثورة بين وحدات الجيش الروسي نتيجة اخرى لها أهميتها الخاصة . فبعد الفشل الذي مُنيت به الاشتراكية الدولية عام ١٩١٤ ، جاءت الثورة درساً بليغاً كما جاءت تشجيعاً للجماهير العمالية التي بدت ، لفترة قصيرة ، متفسخة لا قوام لها ولا كيان .

تداعي النظمات الاشتراكية

فالعذابات والآلام التي تجرعها المحاربون ومن هم في المؤخرة على السواء ، أدت بهم الى الجمع، بصورة عفوية ، بين النظام الرأسمالي والحرب ، كما انها حملتهم على الاعتقاد بأن هذه الحرب لم تكن حربهم « هم » . ومن جهة اخرى ، فقد سجل نفوذ الطبقات الموجهة التي لم تعرف على السواء ، كيف تتفادى هذا الصراع وكيف تختصره ، ولا كيف تقتصد من حيوات الافراد ولا كيف تصونها ، هبوطاً ذريعاً ، في وقت عادت الحرب ، على هذه الطبقات بثروات طائلة وبارباح سابغة ومغانم عامرة بينما جلل السواد العديد من الاسر وجللها بسحائب من الحزن الباري والاسى القتال . والفترة الاولى من الحرب ، التي سيطرت فيها الروح الوطنية والاتحاد المقدس على كل نزعة وشعور طبقي او عنصري ، لم تلبث ان عقبتها رجمة عارمة من الحرب الطبقية ، زادتها مرارة وعلقما ، اربع سنوات متصلة من البؤس والشقاء . وقد وعت الطبقات الطليعة هذا الواقع المرير، وبعث

فيها احتمال عدوى الثورة خوفاً عميقاً تبلور عن رغبة او امنية قوية تدك معـالم الدولة الجديدة حيث خرجت الاشتراكية لاول مرة في التاريخ ، من دنيـا الفكر او التخيل الى دنيـا الواقع المتحيز . فقد تحطم اتحاد العالم الابيض ، ومنذ الآن لم يبق على الارض حياديون بوعي ومعرفـة او بغير وعي ومعرفة . وهكذا اصبحت الثورة الروسية مثالاً للخوف والكره عند هذا الفريق من الناس ، ومناط الامل المرجى لدى الفريق الآخر . وهما حزبان سيتقطبان الحكومات والاحزاب ومشاعر الافراد ، بين جذب ودفع ، وكر وفر .

خلخلة الليبرالية الاقتصادية والسياسية

والحرب لم تخلخل الانظمة الاجتماعية فحسب بـل صدمت في الصميم ، الانظمة الاقتصادية المعمول بها . فقد عزف الناس عن المبادىء التي ارتضتها الليبرالية الاقتصادية وقد ثبت بالدليل ان المناهج الاشتراكية التي توحيها الاوضاع القائمة ، هذه المناهج التي نبذها الناس باعتبارها خيـالية حاملة معها الدمار والخراب للبلاد التي تعمل بها وتسير عليها ، هي الوحيدة التي تفيد وتؤمن خلاص الشعوب. ففي المجال السياسي بدا تفسخ الامبراطورية النمساوية المنغارية وتحرير القوميات المستعبدة للنظام القيصري والعثماني ، وانهزام الملكيات العسكرية « والروح العسكرية الالمانية » تبدت وكأنها انتصار حـاسم من الانتصارات الحربية . إلا ان « دكتاتورية الحرب » عرّضت للخطر الانجازات التي حققتها الليبرالية الديموقراطية في العصر الماضي، كما ان الاذى الذي نزل بالليبرالية السياسية لحساب السلطة التنفيذية ، ألف سابقة خطيرة كثيراً ما استوثقوا بهـا ووصفوها فيـا بعد دواءاً شافياً وعلاجاً مستطاباً لجميع المشكلات الاجتماعية . وكل بذور المؤسسات والحركات التي ستطلع خلال السنوات الثلاثين التي تلت انتهاء الحرب ، في المجالات السياسية والاقتصادية لتبث ،جذورها العميقة خلال هذا الصراع .

ومع ذلك ، فالحقبة التي امتدت من ١٩٢٠ الى ١٩٢٩ ، كانت « حقبة الاوهام » ، خُيل فيهاالناس،الرجوع بيسر إلى المؤمل لديهم والمرتجى عندهم ،اي إلى الوضع الذي كانت عليه الأمور من قبل . الا ان انسحاب الولايات المتحدة وضعف روسيا الآني حالا دون رؤية التغيير ات التي تعتمل بها النفوس وتتهيأ عميقاً في الطبقات المجتمعية، منذ مطلع القرن ، فجاءت الحرب تبرزها وتجلوها وتطلقها من عقالها .

الفصل الرابع

فشل محاولة إعادة الاستقرار الاقتصادي

« فقدت اوروبا الصولجان الاقتصادي والسياسي بعد ان استأثرت ، برهة وجيزة ، بأسبقية صناعية عابرة خلفت وراءها ازدياداً مستمراً في السكان » .

رنيه دومون

تميزت الحقبة التي سبقت الحرب بقليل،بتطور موصول في الاقتصاد العالمي بالرغم مما احاق بها من أزمات عابرة ، بينما كانت الحقبة التي اطلت عام ١٩٢٠ ، بعد ان توقف الازدهار ، بصورة وحشية ، مفاجئة، حقبة ركود عام اختلفت مدى واتساعاً ودفعاً باختلاف البلدان التي تمرست بها ،ادمت اوروبا وخلخلتها في الصميم . وهذا الإنتاج الصناعي الذي تميزت به البلدان الاوروبية الصناعية الست ،الكبرى الذي تتراوح معدل تطوره السنوي ، من ١٨٨٠ – ١٩١٣ بين ٢،٥ – ٣ بالمئة ،هبط بحيث تراوح بين ١،٤ بالمئة وبين ٠،٨ بالمئة .فقد صعب على اوروبا ان تتخلص بيسر من التضخم المالي الذي غرقت في لجحه ، وفوضى النقد التي تخبطت فيها ، وعجزت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلتها عن سعة ، من ان تعيد الى اقتصادها ، ما كان عليه من قبل من زخم ودفع وبطش ، ولم تستطع كذلك ان تتخذ يداً من الثورة الصناعية الثانية التي وقعت اذ ذاك ، وان تكيف نفسها والاحوال الجديدة للسوق التجارية ، وان تعيد الى سابق عهدها ، تيارات التبادل التجاري التي كانت سبب ثرائها وثروتها . وهكذا وقفت حيالها عاجزة لا تبدي ولا تعيد في وقفة المصير المحتوم والحظ المقسوم .

١ – ازمة عام ١٩٢٠ واضطراب النقد

ازمة عام ١٩٢٠

اشتدت الحاجة كثيراً، في اعقاب الحرب ، الى الخامات والمواد الاولية والمحاصيل الغذائية والملابس ، وذلك لاشباع الملايين من الجياع واكساء الملايين من مسرحي الحرب،واكفاء هذا الفريق الضخم من الناس الذي منهم التقنين

الأسر ، من تجديد ملابسهم وتجديد مخزونهم بعد ان استنفذوه ، واعــادة بناء المصانع المتهدمة وتجهيزها ، وربط مــا تقطع من وسائل النقل وطرق المواصلات ، والتعويض عن الاساطيل التجارية التي غارت في أغوار البحار ، واستبدال العتاد المنهوك . فالصناعة الاوروبية التي عملت للحرب تحولت فجأة الى صناعات تعمل لايام الســلم ، وكلمة السر عندها : الانتاج بكثرة وبازدياد تلبية للمطالب الآنية الملحة ، مستعينة ، في هذا المضمار ، بالدول التي لديها المحاصيل اللازمة . فكان على اليـابان والولايات المتحدة ، وكندا والبرازيل والأرجنتين ، ان تلبي ليس فقط حاجات البلدان التي اعتادت ان تمتار منها خلال الحرب ، بل ايضاً المانيا ودول اوروبا الوسطى التي حال الحصار البحري المفروض عليها طويلاً ، دون تموينها ، لتجد نفسها الآن مفتقرة الى كل شيء . والاسعار التي سجلت ارتفاعاً موصولاً خلال الحرب لاشتداد الطلب والتي هبطت بفضل توقف دولاب الحرب ، اخذت ترتفع من جديد بسرعة اكبر تنفق والحاجات التي لا حد لها ولا حصر . فقد تضاعفت الاسعار اربع مرات فيما يتعلق بالبترول والحبوب وزادت ثلاث اضعاف اسعـار الحرير ، كما ان اسعار القطن ارتفعت هي الاخرى ٥٠ بالمئة . وهكذا نشطت حركة الاستيراد في اوروبا ، بينما بقيت حركة التصدير فيها متدنية للغـاية وبذلك طرأ عجز فاضح على ميزان المدفوعات ، في الوقت الذي راحت فيه بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تلغيان ، فجأة ، اتفاق التضامن والتكافل المعقود بين مالية الدول الحليفة ، فامتنعتا عن تسهيل عمليات التسليف التي أتاحت ، الى ذلك الحين ، تأمين المعادلة بين الدولار والعملات الاخرى . فالاعتمادات الخاصة ، والسلفات التي قدمتها المصارف لتعزيز المبيعـات وتنشيطها في اوروبـا كانت اعجز من ان تعوض عن هذه القطيعة ، مما ادى الى نشوب ازمة حادة لا ترحم اصابت جميع البلدان على السواء .

ان انهيار العملات الاجنبية – فارتفع الدولار في سنة واحدة من ١١ الى ١٧ فرنكـاً ، ومن ٨ الى ٢٨ ليرة ايطالية ، ومن ٨ الى ١٠٠ مارك الماني ، كما ان الليرة السترلينية هبطت ٢٧ بالمئة من قيمتها – ادى الى هبوط ملحوظ في الطلب ، اذ فقدت اوروبا كل قدرة او وسيلة للشراء ، فانخفض من جراء ذلك استيراد الحبوب الى النصف ، جاراً وراءه هبوط البن والسكر والنحاس والقصدير والخرصان (الزنك) والحرير الياباني . وهذا الهبوط ادى بدوره الى هبوط كبير في اسعار الشحن ، والى عرقلة حركة بناء السفن والصناعات الحديدية . كذلك هبط انتاج الصلب في انكلترا الى اقل من نصف إنتاجه ، وانتاج الولايات المتحدة الى الربع ، كما امتدت الازمة الى الصناعات الميكانيكية وصناعة النسيج ومناجم الفحم والبترول والبناء . وجاء هبوط الاجور قاسياً فتكاثرت حوادث البطالة والتوقف عن العمل ، وانكمشت المصارف عن التسليف ، ووقع عدد كبـير منها في الفوضى والبلبلة ، كما هبطت اسعار الاسهم الى الحضيض . الا ان الامور اخذت بالانتعاش قليلاً في سنة ١٩٢٢ بعد ان خلفت الازمة وراءها آثاراً باقيات ، لا سيما في اوروبا ، حيث ادى التضخم المـالي الى فوضى نقدية ذريعة .

هذه الطمأنينة وهذا الاستقرار اللذان استمتعت بها الصناعة والتجارة ، في اوروبا ، خلال القرن التاسع عشر ، حل محلهما عدم استقرار في النقد والعملات بدّل كثيراً من العادات المرعية وغيّر من الاعراف المعمول بها وزاد من صعوبة نهوض الاقتصاد فيها . فانكلترا وحدها تبذل جهوداً جبارة لتؤمن استقرار نقدها حتى انها تمكنت ، بفضل كبار رجال المال الذين يقفون الى جانب الاكثرية الحاكمة فيها من اعادة التعادل بين الجنيه والدولار ، وقد بذلت عام ١٩١٩ جهوداً قوية لاستهلاك دينها وتأمين تعادل ميزانيتها والامتناع عن كل تضخم في النقد . فالجنيه التي هبطت قيمتها بحيث اصبحت تساوي ٣،٢٠ دولارات ، عام ١٩٢٠ ، اخذت تساوي ، عام ١٩٢٣ ، ٤،٧٠ دولارات ، وفي سنة ١٩٢٥ امكنها تأمين التعادل مع الذهب . وهكذا اصبح في مكنة الجنيه « ان تنظر الى الدولار بأنسان عينه » ، وبذلك استعادت لندن مركزها واصبحت بالتالي اكبر سوق مالية في العالم.

وعجزت الدول الاوروبية الاخرى عن ان تعيد نقدها الى المستوى الذي كان عليه قبل الحرب . فقد كان عليها ان تثبته وان تتغلب على النتائج التي افضى اليها تضخم النقد . واشتدت الازمة ، على الاخص ، في بلدان اوروبا الوسطى . فقد شهدت المانيا ، وهي عاجزة ، هرب رؤوس الاموال بعد ان آل الحكم فيها الى الاشتراكيين واستيراد مقادير هائلة من وراء البحار ، وتخلخل اسواقها الداخلية ، من جراء فقدانها بعض المقاطعات واحتلال الحلفاء للبعض الآخر فتدحرج المارك هاوياً الى الحضيض . فالثقة التي كان يتمتع بها فقدها تماما والمضاربون الاجانب الذين اقبلوا على شرائه عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، اخذوا يبيعونه ، فجاء الهبوط خاطفا ، « بحيث استحال تتبع خط سير انحداره » . فبعد ان كان معدل المارك الذهب الشهري يساوي ٤٥،٦٩ مارك ورق ، في كانون الثاني ١٩٢٢ ، اذا به ، يهبط الى ٤٢٨٢ مارك في كانون الاول ١٩٢٣ ، ويهبط من ٦ مليارات في تشرين الاول الى ٥٢٢ مليار مارك في تشرين الثاني ، والى ١٠٠٠ مليار في كانون الاول . اما الاسعار فكانت ، ترتفع وتقفز صعداً بين ساعة واخرى ، والمخازن لا تسعر سلعها الا على اساس الدولار او الفرنك او المارك الذهب . وقد امكن ايقاف الازمة في خريف ١٩٢٤ ، بانشاء مارك الرايخ .

وراحت الدول في وسط اوروبا وشرقيها ، تعمل هي الاخرى ، على اصلاح نقدها ، في الدول البلطيقية ، عام ١٩٢١ و ١٩٢٢ ، وفي النمسا حيث ثبت الكرون عام ١٩٢٢ واستبدل بالشلن عام ١٩٢٤ ، وفي بولونيا حيث لم تلبث الـ ٨٠٠ مليون مارك ورق التي كانت في التداول ، عام ١٩١٨ ، بدون تغطية ذهب ، فأصبحت ١٧٨،٠٠٠ مليار عام ١٩٢٤ . وبهذا التاريخ ، نزل الى التداول الزلوطي الذي جعل على اساس الفرنك الذهب ، وكان يستبدل بمعدل زلوطي واحد مقابل ١،٨٠٠،٠٠٠ مارك ورق . ثم جاء دور هنغاريا التي وضعت في التداول البنغو ، ثم دور تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٢٥ . اما ايطاليا التي كانت غارقة في الدين ، فقد خاضتها معركة حادة بفضل سياسة حازمة في تخفيض حجم النقد المتداول وبفضل قرض اخذته من الولايات المتحدة الاميركية قيمته ١٠٠ مليون دولار استطاعت معه تسجيل فوز الليرة

الايطالية عام ١٩٢٦ .

وكانت فرنسا آخر الدول الكبرى التي تبتت نقدها المتضعضع بعد ان توالت عليه تقلبات لم يستطع الاستقرار معها على حال . فبقطع النظر عن فقدان الفرنـــك الفرنسي ٤/٣ قدرته الشرائية خلال الحرب ، فالفضل في استمراره في التداول يعود لمساندة العملات الحليفة الاخرى له . وللاعتقاد بـــأن « البوش » هم على استعداد لدفع التعويضات ، فقد راحت فرنسا تمول عملية إعادة تعمير المقاطعات الفرنسية التي اناخت عليها الحرب بكلكلها ، عن طريق تضخم النقد وعن طريق قروض اوصلت الدين العمومي فيها الى ٢٩٤ مليار فرنك عام ١٩٢١ ، مقابل ٣٢ مليار ، عام ١٩١٤ . ان استمرار العجز في الموازنة ، واحتلال مقاطعة الرومر ، ســـاعدا كثيراً المضاربات على الهبوط ، مما ادى الى ارتفاع سعر الدولار بحيث اخذ يساوي ٢٠ فرنكاً عام ١٩٢٣ ، والليرة الانكليزية ٨٥ فرنكاً . وعندمـــا وصل الى البرلمان الفرنسي عام ١٩٢٤ ، اكثرية نيابية لوحت بفرض ضريبة على اصحاب رؤوس الاموال ، احدث ذلك موجة من الذعر فهربت رؤوس الاموال الى الخارج ، وأقبل الناس على شراء النقد الاجنبي ، كما ان الاقبال على قبض السنـــدات على الخزينة وسندات الاعتماد الوطني ، تجاوز بكثير المدفوعات . وقامت مضاربة ببيع مكشوف للفرنك كان من شأنها ان جعلت الجنيه الانكليزي تساوي عام ١٩٢٦ نحواً من ٢٤٠ فرنكاً ، والدولار ٤٩٫٣٢ . واستقـــالت وزارة هريو من الحكم عنـــد تهديد مصرف فرنسا بوقف مدفوعاته ، تاركاً مهمة تشكيل الحكومة لبوانكاريه الذي قلب الوضع رأساً على عقب ، فأعاد الجنيه الى ١٢٦ فرنكاً والدولار الى ٢٥٫٥٢ فرنكاً . وفي حزيران ١٩٢٨ كان فرنك بوانكاريه ثابتاً منذ ١٨ شهراً ، كما كان خمس مرات ادنى من المستوى الذي كان عليه في شهر جرمينال ايام الثورة الفرنسية .

التضخم المـــالي وتنائجه المستمرة

سبب التضخم المالي حركة واسعة بين اصحاب رؤوس الاموال بحثـــاً عن ملجأ لها تأوي إليه تكون معه بعيدة عن « التفتيش المالي » ، كما تكون بمعزل عن القلق وعدم الاستقرار . فقد اوجد عند اصحاب رؤوس الاموال وعيـــاً راحوا يبحثون عن قِيَم عينية (صور ــ تحف فنية) وسبائك من الذهب وعملات قوية ، او الى ايداع اموالهم دولاً وبلداناً حيث تصبح بمعزل عن كل خضة او رجة كسويسرا مثلاً . وهذا الظعن في العمـــلات تستسلم له رؤوس الاموال ، لم يلبث ان ضعضع للسوق المالية ، وكثيراً ما حال دون تأمين الاستثمارات الوطنية .

وأدى التضخم المالي ، من جهة اخرى ، الى إشـــاعة الفوضى في توزيع الثروات وذلك بتخفيف الضرائب الناجمة عن قروض الدولة الخاصة ، حتى ولو أدى ذلك الى إلغائها لا سيما الديون الزراعية التي يعقدهـــا المزارعون برهن . وقد تسبب هذا الوضع عن إفلاس الدائنين وأصحاب الدخل وأصحاب الاطيان وكبار الملاكين والتجار الذين عجزوا عن تجديد مخزونهم ، واصحاب الاجور الذين لم تكن مرتباتهم تزداد وترتفع بنسبة ارتفاع اسعار الحاجيات . فقد

فقدوا جانبـــا كبـيراً من القدرة على الشراء . وهكـذا نرى كيف ان التضخم المالي ادى الى هبوط محسوس في مستوى عيش اصحاب الاجور ، كما ادى الى هبوط عدد كبير بين الطبقات الوسطى الى مستوى البروليتاريا بينـما ساعد اصحاب رؤوس الاموال على استثمار ثرواتهم ، والمصدرين على النهوض بحركة التصدير ، لا سيما في هذه المشروعات الاقتصادية الكبرى بعد ان ساعد كثيراً على تمركزها وعقلنتها .

واخيراً وليس آخراً ، فالظروف التي تمت فيها شروط تثبيت النقد أمنّت العملات القومية سيطرة نقدية حقيقية تجلت نتائجها فيما بعد . فقد نالت انكلترا، في مؤتمر جنوى ، عام ١٩٢٢ تبني الذهب قـاعدة العملة الاجنبية ، بحيث يمكن النقد الثابت ان يقوم مقـام الذهب في المعاملات وان تؤلف تغطية نقدية احتياطية . وهكذا يستخدم مخزون الذهب ليس فقط تأميناً لنقد البلدين بـل ان الدولة التي تبني نقدها على اساس الدولار او الجنيه الاسترليني تجد نفسها مشدودة الى هاتين الدولتين ، وتبقى شاءت أم أبت ، مرتبطة بالبلدان الانكلوسكسونية .

٣ — ازدهار الدول الواقعة عبر البحار

ان المصاعب التي عانت منها اوروبا وتضرست بها يجب رد بعضها الى التغييرات التي وقعت خلال الحرب في التوزيع الجغرافي للمحاصيل الطبيعية ، والبعض الآخر الى هذه النجاحات التي حققتها بعض الدول الواقعة عبر البحار بعد ان تمكنت من انشاء صناعة ضخمة قوية في ارضها، وتوسيع الصناعات التي كانت قائمة فيها من قبل ، وبذلك اوصدت في وجه اوروبا اسواقهـا الخـاصة ، واخذت تنافسها في الاسواق التي كانت اوروبـا تمتدها حتى الأمس القابر .

الولايات المتحدة الاميركية

كانت الحرب امام الولايات المتحدة ، فرصة ذهبيـة للاثراء ولتحقيق ثروات فلكية . فقد كانت هذه البلاد الاهراء التي أمدّت الحلفاء ، خلال الحرب ، بما يحتاجون اليه كما اخذت تمد كل الدول التي خاضت غمـار الحرب فيما بعد ، على السواء . فقد وجدت الدول الاوروبية فيها بديلاً للمنتوجات التي توقفت عن إنتاجها ، كما راحت اميركا توسع انتاجها للمواد الغذائية والمصنوعات الاخرى تلبية للطلب الذي اشتد عليها . والفائض الذي أدّى اليه ميزانها التجاري جلب لهـا من رؤوس الاموال ما أتاح لها تسديد جانب كبير من الديون المترتبة عليها ، كما مكنها من ان تصبح دائنة بدورها. فقد قرضت اوروبا ٣٠٠٠ مليار فرنك ، عام ١٩١٩ ، وحلـّت محـل الدائنين الاوروبيين في تمويل بلدان اميركا الجنوبية . وحلت الأزمة التي اشتدت وطأتها عام ١٩٢٠–١٩٢٢، معهـا البطالة والافلاسات العديدة كما سببت انكماشاً خانقاً في النقـد . الا ان الوضع لم يلبث ان عاد طبيعياً ، بعد لأي قصير . والانتاج الذي جامت تعضده حالة جركية شديدة ، ازداد بصورة

غريبة . ففي سنة ١٩٢٣ ، تستثمر الزراعة في اميركا ١٦ مليون هكتار اكثر مما كانت تستثمره عام ١٩١٤ ، وزاد مردود الأرض ٢٥ ٪ بفضل التحسينات التقنية التي أدخلت على مناهج الزراعة . وسجلت الصناعة من ناحيتها ، تطوراً اوسع واضخم . فالدليل الاسمي ارتفع من ٧٣ في المئة ، عام ١٩٢٢ الى ١١٠ ، عام ١٩٢٩ ، وذلك بفضل زيادة الطاقة المحركة وبفضل المكننة التي أخذت تحل محل اليد العاملة . وارتفاع انتاج الصُّلب من ٣١ مليون طن عام ١٩١٥ الى ٤٢ مليون طن ، عام ١٩٢٩ ، وارتفع الفولاذ هو ايضاً من ٣٢ مليون طن الى ٥٤ مليون ، والاسطول التجاري العامل في عرض البحار ارتفع ، بفضل مؤازرة مشروعات بناء السفن ، من مليون طن ، عام ١٩١٣ ، الى ١١ مليون طن عام ١٩٢٩. فليس من عجب بعد هذا ان تغرق البضائع الاميركية ، والحالة هذه ، اسواق العالم وتطرد الاوروبيين من الاسواق التي كانت بين ايديهم . ففي كل مكان تتقدم تجارتهم على التجارة الانكليزية في كل مقاطعات الدومنيون البريطاني وفي اقطار اميركا اللاتينية ، وبلدان الشرق الاقصى واندونيسيا بينما تعمل الرسوم الجمركية الجديدة المفروضة ، على ابعاد كل منافسة في الاسواق الداخلية . كل هذه الصادرات لا تمثل سوى جانب ضئيل من الانتاج الاميركي الضخم الذي يستهلك معظمه في الولايات المتحدة نفسها . فتم لها من جراء ذلك ان تبزّ بعيداً الارباح المحدودة التي تجنيها اوروبا حيث كلفة الانتاج باهظة .

واصبحت الولايات المتحدة ، مع انكلترا ، مركزاً لمصارف العالم . فقد بلغ ميزان فائض حسابها مبلغاً تجاوز ٧٠٠ مليون دولار ، خُصص جزء كبير منه في انشاء استثمارات جديدة في الخارج . فبينما لم تكن المصارف في اميركا لتعدّ عام ١٩١٣ سوى ١٢ فرعاً في الخارج ، فقد ارتفع عدد هذه الفروع ، الى ٢٣٨ فرعاً عام ١٩٣٠ ، موزعة على ٣٨ بلداً مختلفاً . وبأقل من ٣ مليارات دولار ونصف استطاعت اميركا ان تنشىء لها فروعاً وان تشتري لها اسهماً في معظم الشركات الكبرى في الخارج ، وان تشارك في شركات توصية ، وقرضت اكثر من ٥ مليارات دولار لحكومات مختلفة ولبعض المدن الكبرى .

اليابان

وعلى شاكلة الولايات المتحدة الاميركية وغرارها، فتحت الحرب في اوروبا، امام اليابان ، امكانات ربح ، لا يمكن تصورها ، سواء أتمثلت في طلبات للاسلحة او للمواد الغذائية ، من اي جنس كانت ، جاءتها من حلفائها او من الدول المحايدة لاسيما من بلدان الشرق الاقصى . وقد عرفت صناعتها كما عرف اسطولها كيف يفيدان ، في غياب منافسيها من الاوروبيين ويحققان تطورات جذرية . فقد ارتفع انتاجها الصناعي ٧٨ في المئة وتضاعف انتاجها من الفولاذ ، كما زاد انتاجها من الحديد ثلاثة اضعاف . وصناعة القطنيات فيها إذ زادت الربع ، كما تضاعف حجم اسطولها التجاري العامل على البحار ، وايراد اجور الشحن ارتفع من ٤٨ مليون ين ، عام ١٩١٣ ، الى ٣٨٢ مليون ين ، عام ١٩١٩ . والمنسوجات اليابانية وجدت لها موطىء قدم في هذه الاقطار الواقعة الى الجنوب الشرقي من

آسيا وفي اوقيانيا . ولأول مرة في تاريخها المعاصر اصبح الميزان التجاري في اليابان موجباً بعد ان كان سلبياً . ولأول مرة في التاريخ لم تشعر اليابان بأي عسر مالي في تسديد مدفوعاتها في الخارج . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اتاحت لها مبيعاتها توفير امكانات واسعة في اسواق لندن ونيويورك . وقد كانت اليابان لا تشعر بالازمة القصيرة التي ظهرت عام ١٩٢٠-١٩٢٢ ، اذ بقيت معظم الصناعات التي رأت النور عندها ، خلال الحرب ، ناشطة تعمل على ملء طاقتها . والهزة الارضية التي دكت معالم طوكيو ويوكوهاما ، عام ١٩٢٣ ، وأودت بحياة ١٠٠،٠٠٠ ضحية ، تسببت في هبوط الين وأوهنت الوضع المالي في البلاد حتى سنة ١٩٢٦-١٩٢٧ ، الا انها لم تحل دون تقويته ولا دون توسيع في التطورات التي حققتها من قبل. وقد ازداد ثلاثة اضعاف عدد انوال الحياكة فيها بين ١٩١٣-١٩٢٩ ، ومثّل تصدير المنسوجات القطنية فيهـا نصف ما كانت تصدّره منهـا مقاطعة لانكشير . واصبحت الهند المشترية الاولى لهذه المنسوجات كما اصبحت الولايات المتحدة الاميركية اكبر سوق للحرائر اليابانية التي مثلت ٣٦ في المئة من صادرات هذه الدولة . والصناعات المعدنية والكيميائية فيها ، سجلت ازدهاراً عظيماً كما يشهد على ذلك ارتفاع استيراد المعادن غير الحديدية والمواد الاستهلاكية . اما المواد نصف المشغولة او نصف جاهزة التي عرفت صناعة اليابان الاحتفاظ بحق إكمالها ، فقد بلغت ٥٠ في المئة من وارداتها بعد ان كانت ٢٥ في المئة عام ١٩١٠ .

ان وفرة اليد العاملة ورخصها وتنظيم صناعة غاية في المركزية والتجهيز التقني والفني ، وازدهار التجارة ، كل هذه العوامل جعلت من اليابان منافساً يحسب له حساباً في كل من اوروبا واميركا ، لا سيا في الشرق الاقصى .

تصنيع البلدان الجديدة

تصنيع البلدان الجديدة ظاهرة اخرى من الظاهرات الاقتصادية في العالم ، بعد الحرب ، يجب ردها لاسباب قريبة في طبيعتها من الاسباب التي أدت الى بعث الازدهار في اليابان والولايات المتحدة . فقد اكثرت البرازيل من الاستثمارات الصناعية ، وطورت بعيداً انتاجها من الفحم ومن الطاقة الكهربائية المائية ، ومصانع الحياكة والنسيج (٣٠٠ مصنع ضمت معاً اكثر من ٢،٥٠٠،٠٠٠ نول ، عام ١٩٢٩) مما ساعد هذه البلاد على التصدير . والارجنتين ، التي كانت تمتلك ، حتى ذلك الحين ، صناعة ناشطة تساعدها على التصدير ، كما تمتلك صناعة صغيرة قادرة على سد حاجات الاسواق المحلية من البضائع المستهلكة – مصانع حرفية ، وغيرها من المشروعات الصناعية الصغيرة التي يملكهـا الاجانب – انشأت مصانع ضخمة للاحذية والخردوات والخيش المستعمل في صنع الاكياس اللازمة لشحن الحبوب . كذلك اخذت بتصدير انتاجها من البترول ، وهي حركة اقتصادية استمرت في نشاطها بالرغم مما حدّت منه اقلية من اصحاب الاملاك الضخمة تمسكت بسياسة حرية التجارة ونزعت الى انكلترا .

وقد كانت الحرب باعثاً على النشاط الاقتصادي في الدومنيونات البريطانية ، التي همها منذ

زمن بعيد ، ان تراعي مستقبل صناعاتها الناشئة وتأخذ بيدها برفق ، كما همّها على الأخص تأمين : « نضجها الاقتصادي » . وقد اعتاضت كندا عن خاماتها بإنتاج مواد مشغولة كالدقيق ورب الورق ، والخشب المنشور والمعادن وغير ذلـــك من الاصناف الجاهزة الصنع . واصبح ميزانها التجاري إيجابياً كما ساعدها على تسديد جـــانب من دينها الخارجي وساعدها ، في الوقت ذاتـه ، على تصنيع البـلاد ومكننتها . اما اتحاد جنوبي أفريقيا ، فلم يحقق مثل هذه الانجازات الباهرة ، الا ان اقتصاده القائم على تعرفة جمركية عالية ، لم يعد ليعتمد كلياً ، على استخراج الخامات الثمينة (الذهب والماس) وعلى تصدير الاصواف والجلود . فقد تنوع هذا الاقتصاد وتلوّن ، وتضاعفت قيمة الانتاج الصناعي بين ١٩١٣ - ١٩٢٤ ، ووجد قسماً كبيراً من استهلاكه الداخلي في اسواقه المحلية . اما اوستراليا وزيلاندا الجديدة ، فقد كان لبعدهما عن باقي اطراف العالم ، وعدم توفر اسباب النقل لديها ، ما ألف حائلاً دون تصدير انتاجهـــما الضخم من لحوم الغنم والبقر ، ومن الصوف والقمح ، هـــذا الانتاج الذي احتجزته انكلترا لنفسها عام ١٩١٥ - ١٩١٦ . وقد انشئت دور صناعة لبناء السفن في مقاطعة غال الجنوبية ، كما انشئت فيها افران صهر ضخمة لمصانعها . وقد رأى جانب كبير من هذه الصناعة النور خلال الحرب ، حرصت الدولة على الاحتفاظ به وسيجت حوله بفرض رسوم وتعريفات جمركية ، عالية بحيث مثلت البضائع المصنوعة محلياً ، عام ١٩٢٩ ، ثلث الانتاج العام في البلاد .

وفي آسيا ، استطاعت الصين ، بالرغم مما ابتليت به من حروب اهلية مرزحة ان تزيد خمسة اضعاف طاقتها على انتاج صناعتها القطنية . أمـــا الهند ، فقد كانت الدولة التي حققت اكبر الانجازات في هذا المجال . فصناعة الحياكة واستخراج المعادن وتأشيبها التي كانت لا تزال بعد في المهد ، قبل عـــام ١٩١٤ ، سجلت تطوراً عظيماً منذ ذلك الحين . وتوفيراً لنفقات الشحن الباهظة ، وتأميناً لتموين جبهـات القتال في الشرق وفي العراق ، وصموداً في وجه غزو اليابان للأسواق الهندية ، انشئت في الهند صنـاعات جديدة جاءت التعرفة الجمركية ، تدعمها وتسيج حولهـا (٣٣ بالمئة ، معدل الرسوم على المصنوعات الحديدية ، عام ١٩٢٤) . وقد بقي جانب من هذه الصناعات على نشاطه بعد الحرب ، لا سيا بعد الاعتراف باستقلال الهند الجمركي ، هذا الاستقلال الذي وضع حداً للامتياز الذي تمتعت به المنسوجات القطنية ، في مقاطعة لانكشير . وقد زاد عدد مغازل النسيج في الهند ، بين ١٩٢٠ - ١٩٢٩ ، اكثر من ٣٣ بالمئة ، بينما هبط معدل استيراد المنسوجات القطنية في انكلترا ، الى النصف .

٣ - الثورة الصناعية الثانية والتطور الاقتصادي

ساعدت الحرب على تطوير التقنيات التي تم اكتشافها قبل عام ١٩١٤ كما وسعت كثيراً من نطاق تطبيقها العملي . و قد أطلت تقنيات و كشوف جديدة بعد الحرب مكنت من تحقيق

منتوجات وادّت الى وضع طرائق ومناهج جديدة ساعدت على الانتاج بمقادير هائلة . فكانت الولايات المتحدة الاميركية اكثر الدول التي افـادت من هذه الكشوف الجديدة مما ساهم في تعجيل الانحطاط الاقتصادي في اوروبا .

الكهرباء ومحرك الاحتراق الداخلي

احدث انتشار هذه التقنيات وتطبيقها على نطاق واسع ثورة هارمة يمكن مقارنتها ، من هذه الناحية ، بالثورة التي اطلقها اختراع البخار في القرن التاسع عشر ، بدّلت تماماً من مقومات الاقتصاد ومن طاقة الانتاج . ان استخدام مساقط المياه الوطنية المنتظمة ، بالاضافة الى المساقط العالية والمتوسطة زاد من الطاقة الكهربائية المولدة كما اردف من جهة اخرى ، التقدم الذي حصل من جراء ربط المصانع الواقعة في المرافيء او القائمة على مقربة من مناجم الفحم او الليغنيت (ضرب من الفحم الحجري) الواقعة بالقرب من مساقط المياه الواحد بالآخر بحيث امكن اجراء تخفيض في نفقات الانتاج وتكييف أتم للانتاج وفقاً للحاجات العارضة والطلب المتزايد. ففي مقدور الكهرباء ، في وقتنا هذا ، ان تنافس الفحم الحجري بنجاح كقوة محركة صالحة لكل الصناعات كما في مقدورها تحقيق مكننة اصغر المزارع وأبعدها عن المجتمعات .

وعملية المكننة هذه اولت المحرك الكهربائي نشاطاً حاسماً لوسائل الانتاج الجديدة ولا سيما لاستعمال الحزام الناقل ، اي للعمل المسلسل ، هـذه الطريقة التي كان فورد اول من استعملها ولجأ اليها في معامل صنع السيارات التابعة له ، قبل عام ١٩١٤ ، وهي طريقة أدّى اقتباسها بالتالي ، الى الانتاج بالجملة والى تخفيض كلفة الانتاج ، كما سهلت تقييس عدد كبير من المنتوجات ولا سيما قطع الغيار ، وهي طريقة كان من بعض نتائجها التقليل من العمل اليدوي وقصره على بعض وجوه الاصلاح والصيانة .

والمحرك ذو الاحتراق الداخلي الذي يعمل على البترول ، انتقص من شأن الفحم اكثر مما انتقصت منه الكهرباء . فقد سهل عملية توزيع جديدة للصناعة ، كما اوجد امام المناطق التي لم يدخلها التصنيع بعد ، فرصة افضل لاقتسام العمل وتوزيعه ، اذ انه يساعد على نقل اليد العاملة ونقل البضائع والسلع ، كما يساعد على تشييد المصانع بالقرب من المجتمعات السكانية المستهلكة اكثر من تخفيفه الضغط على هذه المجتمعات . فباستبدال الحصان بالشاحنة امكن تحقيق وفر في مساحة الارض التي كانت تُزرع علفاً من قبل للماشية ، كما انه اقتصد بالوقت نفسه من اليد العاملة . والطيران الذي ساعد على تحقيق تطور مدهش ، اوجد ، هو الآخر ، صناعة يمكن ان تقارن ، من بعض الوجوه ، بصناعة السيارات .

وهكذا ساعدت الكهرباء والمكننة على تنظيم الانتاج العلمي وتقعيده على اصول تقنية ، كما زادت من طاقة الانتاج سواء في المجال الصناعي وفي مجال التوزيع .

فدخلت الاسواق مصنوعات جديدة وطرق تقنية جديدة في صنعها وذلك بفضل التطورات التقنية التي ادخلت على الصناعات الاستخراجية وتأشيبها وعلى الصناعات الكيماوية، كالاخلاط

غير الحديدية والفولاذ الذي يصدأ والألومنيوم المشغول بكلفة منخفضة في الفرن الكهربائي الذي حل محل الفولاذ ، ومعادن أخرى استعملت عنصراً من عناصر الخلط والمزج، واستعمال اللحام الذاتي ، ومضاعفة طاقة الافران ، وافران الصلب العالية واختراع جهاز السحب المتتابـــع ، واكتشاف انواع من السمنت الخاص ، واختراع الوف اشكال المصنوعـات الكيماوية والتأليفية (بواسطة الآزوت والمكربنات) ، وتحسن طرق تقطير البترول وتصفيته الذي اصبح كالفحم ، مصدراً لحاصيل ومنتوجات فرعية ، والمنسوجـــات الصناعية كالريون الذي عرفت صناعته ازدهاراً كبيراً والداثن الصناعية، وغير ذلك . كل هذه الاختراعات ساعدت على احداث بلبلة في مراتب الخامات الكلاسيكية ، وفي توزيع مراكز الانتاج المعروفة قبـل الحرب واحدثت فيها تغييراً عظيماً . كل هذا جعل من المستحيل الرجوع الى الوضع الذي ساد من قبل .

التطورات الاقتصادية

فالبلاد المعروفة بنشاطها العارم كالولايات المتحدة والمانيا مثلاً ، هي التي عرفت ان تستفيد ، قبل غيرها من هذا الوضع . ولما كانت هذه الوسائل والذرائع الفنية الجديدة يقتضي لها رؤوس اموال ضخمة كما تتطلب تأمين خامات متنوعة بعضها من المواد النادرة ، فقد رأت معظم الدول ألا تقتبس منهـا سوى تلك التي تأتي بفائدة مباشرة محسوسة كتوفيرها المحروقات مثلاً ، كانتاج الطاقـــة الكهربائية ، والتنقل بالسيارات او بالسفن التي تدار بالمحركات او سفن الصهاريج ، وكذلك صناعة المطاط والمصنوعات الكيماوية . اما في القطاعات الاخرى ، فقـــد حالت اهمية رؤوس الأموال الضرورية لاستيراد الاجهزة والمعدات الفنية ، وفداحة التعريفات الجمركية التي تحتمي وراءها الصناعة التقليدية حرصاً منها على اسواقها الداخلية ، دون اقتباس هذه الاعتدة على نطاق واسع . وهكذا فأساليب تنظيم العمل التي اقترحوا وضعها موضع التنفيذ والاقبال عليها كل من تيلو وفورد قبل الحرب ، وتقييس الانتاج ، تُحيل بها على غير نظام واستواء ، وبعد تأخر ملحوظ في الدول الصناعية الكبرى ، بعد ان ادخلت تعديلات هامة على الاوضاع الحيقة بالاقتصاد ، وذلك بتعجيل المشروعات وتركيزها في محاور او مراكز معينة .

بين المقايسة والتقعيد

أتاحت الادارة العلمية اي الاخـــذ بمبدأ التقعيد ، الانتقال من طور الصناعة التجريبية او الاختبارية الى طور الصناعة العلمية ، فتم بهذا ادخـــال أساليب تنظيم العمل التي قال بها وعلم فريدريك ونسلو تيلور ، على مشاريع الاستثمارات ، بعد أن جرى تحسينها بإدخال طريقة التنظيم العلمي التي اقترح الاخذ بهـــا بيـدو والتي أمنت ، في وقت واحد ، وفراً في الخامـات والجهد البشري ، وتحسيناً في مردود الانتاج ، وفي الكلفة العامة والانتاج بالجملة والتقعيد . ومبدأ التقعيد هذا سجل تقدماً ملحوظاً على يـــد اللجنة المعروفة بلجنة هوفر بعـد ان عُهـد اليها النظر في امور ، الهدر والتلف في في الصناعة ، في كل قطاع من قطاعات الاختصاص الصناعي ، فاقصرت الانتاج على عدد محدد

من النماذج والعينات . فشكل القناني مثلاً جمل من ٢١٠ – الى ٤ ، والصوف من ٦٦ الى ٤، وعجلات الهواء من ٢٨٧ الى ٣٢ . وهكذا بين ١٩٢٥ – ١٩٢٩ ، زادت الطاقة الانتاجية في الولايات المتحدة الاميركية ٣١ بالمئة في صناعة السيارات ، و٣٥ بالمئة في صناعة التعدين ، و ٢٨ بالمئة في صناعة المنسوجات القطنية ، بينما انخفضت كلفة اليد العاملة بمعدل ٢٥ بالمئة في كل قطاعات النشاطات الصناعية . وعملية التنظيم العلمي في الانتاج تحققت كذلك، على نطاق واسع في المانيا ، تحت إشراف الدولة ومؤازرتها عام ١٩٢٥، عندما راحت تشكل لجنة خاصة عهدت اليها مهمة توحيد النماذج وعينات الاجهزة الآلية وتوزيع الادارة الى قطاعات صناعية ، ودرس الشروط وظروف العمل الاداري والعلمي في مشاريع الاستثمارات . وعلى هذه المبادىء جرى دمج عدد من الاستثمارات وإفراغها بعضاً ببعض ، كما جرت تصفية عدد آخر منها ، وبذلك امكن تحقيق وفر كبير في اليد العاملة ٢٠/. في حوض الروهر الفحمي . وارتفعت الطاقة الانتاجية في المانيا عام ١٩٢٨ الى ٤٠ بالمئة بالرغم من فقدانها المناطق الصناعية الواقعة في السار وسيليزيا العليا . اما في فرنسا ، فالتنظيم العلمي للانتاج على النمط الاميركي ، دخل قطاع صناعة السيارات على الاخص ، والصناعات الحديدية الاخرى ، وذلك عندما راح اندريه سيتروين يُدخل في اعقاب الحرب رأساً ، تعديلات هامة جداً على معامله في جافيل ، ويتبنى طريقة السلسلة في تركيب سياراته المعدة للطبقة الوسطى من الناس.وباستثناء هذا المجال، لم ترَ شيئاً يدخل ، من قريب او بعيد ، قطاعات الصناعة الفرنسية الاخرى ، كما حدث في الصناعة الالمانية والاميركية في مجال الصناعات الحديدية . فالتنظيم العلمي للانتاج، انما اقتصر على تنظيم العمل وإدخال التخصص الى اقسام المصانع والاكثار من لجان البحث العلمي والتخطيط والاتفاقات الخاصة بالمبيعات وغير ذلك . فالمستوى الفني في الصناعة الفرنسية بقي على الاجمال متدنياً للغاية .

في مجموعة البلدان الصناعية الكبرى التي اتينا على ذكرها هنا والتي كان بالامكان الاستشهاد معها بالسويد وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا « معامل باطا » لم يظهر امام بريطانيا العظمى حيث الروح الفردية الابوية والخوف من تعقيد مشكلة البطالة فيها أخطر ، الى عام ١٩٢٨ مشروع عصرنة عتاد مصانع الانتاج وتنظيمه العلمي فيها .

وهكذا يصح التأكيد ان الإقبال على العصرنة والتنظيم العلمي للانتاج كان ضعيفاً على الاجمال، في اوروبا ، اذ ان ضعف الاسواق الداخلية فيها وضعف طاقتها على الاستيعاب حالت دون اقبال دولها على تجهيز صناعتها بعدة واجهزة انتاجية ضخمة يصعب استيعابها ويحول دون تشغيلها كاملاً ، كما ان الاتفاقات المعقودة بين المنتجين للحد من المنافسة صانت من افلاس عدم المصانع الهامشية السيئة التجهيز .

الاتفاقات الوطنية والدولية

تحمّل ضعف الاسواق وضعف التسويق ارباب الاستثمارات الكبرى المتنافسين، على الوصول الى اتفاقات فيما بينهم بدلاً من الاسترسال في مزاحمة حادة ، الامر الذي حدا بهم تدريجياً الى عقد اتفاقات وطنية واخرى دولية اخذ عددها يتكاثر بعد عام ١٩٢٥ ، وهو تاريخ سجلت فيه حركة الإنتاج تعادلها مع ما كان عليه انتاجها قبل الحرب ، بعد ان تبينوا الاضرار التي ستلحق بالجميع من جراء منافسة حادة . وقد وضعت خطط للوصول الى تحديد كمية الانتاج ، وتقنية صفقات المبيعات واقتسام مناطق التصدير ، اشتركت فيها دور صناعية من بلدان مختلفة . ومنذ سنة ١٩٢٦ ، طلع في فرنسا مكتب الصناعات الحديدية ، وعقبه ظهور مكتب توسيع مناجم الشمال ومقاطعة با دي كاليه ، والمكتب الفرنسي للآزوت ، وغيرها ، كما ظهر عدد كبير من التكتلات الصناعية في المانيا ، لها الأهداف ذاتها . اما في المجال الدولي ، فقد تأسس عام ١٩٢٦ ، حلف الفولاذ الذي ضمّ في عضويته منتجي الفولاذ من الالمان والفرنسيين والبلجيكيين والسار واللكسمبورغ ، وهو حلف انضم اليه ، عام ١٩٢٧ كل من النمسا وتشيكوسلوفاكيا . وراحت لجنة ادارية خاصة تحدد في كل فصل من فصول السنة كمية الفولاذ التي يسمح للفريق الوطني انتاجه . والحلف الاوروبي للالومينيوم ،وشركة انتــاج النحاس التي هيمنت على ٩٠ بالمئة من انتاج النحاس ، والاتحاد الفرنسي الالمــاني البوتاس ، وغير ذلك من التكتلات والاحلاف التي بلغ مجموعها ٢٠٠ حلف بينهــا ٤٨ للحديد والفولاذ ، و٤٧ للمنتوجـات الكيماوية . والستــاندرد اويل وكتلة ي. ج. فارين ، وسيمنس – هلسكه وكروب من جهة اخرى ، والجنرال الكتريك والـ ي. ج فارين ، ودوبون دي نمور وغيرهم ، من جهــة اخرى ، عقدت فيما بينها اتفاقات لتبادل شهادات المنشأ (او لتعطيلها لدى الاقتضاء) ولتوزيع الاسواق فيما بينها .

التفاوت في الانتاج

كان من بعض نتائج هذه الترتيبــات التي اتخذت والتسويات التي صيرَ اليها ، هذا التباين في مستوى الانتاج لدى عدد كبير من الدول المنتجة . فقد زاد الانتاج الزراعي زيادة كبيرة في البلدان الجديدة . فبلغت نسبته من القمح ٢١٥ بالمئة في كنــدا و ١١٩ بالمئة في الولايات المتحدة الاميركية ، و ١٦٥ بالمئة في الارجنتين و ١٧٢ بالمئة في اوستراليا . اما انتــاج الحرير فقد بلغت نسبة الزيادة فيه ٢٠ بالمئة ،وفي القطن والصوف ٢٥ بالمئة وتضاعف عدد نصوب البن في البرازيل وحدها كما ان المحصول العــالمي من البن تجاوز ١٤ مليون شوال في العالم ، ومحصول البطاطا ارتفــع فيها من ١١٤،٠٠٠ طن عام ١٩١٣ ، الى ٨٣٠،٠٠٠ طن عام ١٩٣٠ ، وزاد انتاج السكر ، عام ١٩٢٩ ، مليوني طن عن الاستهلاك العالمي . وتمكنت الدول الاوروبية ليس من معادلة انتاجها قبــل الحرب فحسب ، بل ايضاً تجاوزته بمراحل ، وهي في حمى رسوم جمركية عالية . ومعدل الانتاج زاد على نسبته قبـــل الحرب في كل قطاعات الانتاج الصناعي ، كما زادت سيليزيا العليا انتاجها من الفحم ستة اضعاف وكادت المانيا تحقق معادلة انتاجها قبل الحرب بالرغم من اقتطاع بعض اقاليمها الغنية بالفحم ،

وانتاج العالم من الصب الذي كان بمعدل ٦٦ مليون طن ، عام ١٩١٠ ، تجاوز ٩٨ مليون طن ، عام ١٩٢٩ ، وارتفعت فرنسا الى المرتبة الاولى بين الدول المنتجة للحديد في اوروبا ، وحل انتاجها للصب المرتبة الثانية . كما كانت بين الدول الرئيسية في تصدير المحاصيل نصف الجاهزة او الجاهزة كليا ، كالسيارات .

الا ان هذا التقدم لم يأت على قياس او وتيرة واحدة . فقد رأت بعض البلدان إنتاجها يزداد ويرتفع بينما نرى دولاً أخرى هي من الدول المهمة ، في تأخر وهبوط وأخرى في تقدم بطيء . ان حركة إعادة بناء اوروبا لم تنته الا في سنة ١٩٢٤ ، كما ان معادلة الدخل القومي في سنة ١٩١٣ ، تم تحقيقها في عام ١٩٢٥ . وتجاوزت هذه الزيادة ٣٠٪ في اوروبا بين ١٩٢٦ — ١٩٢٩، الا انها بقيت ادنى بكثير بالنسبة لمعدل الانتاج في الولايات المتحدة الاميركية . والصناعات التي عرفت ان تفيد بالاكثر من هذا التطور التقني ، هي التي سجلت اكبر معدل في هذه الزيادة ، كالصناعات الكيماوية وانتاج المصنوعات الكهربائية ، والمحركات وصناعة الاسمنت ، والمحاصيل الكيماوية والسيارات ، وهو مجال بقي انتاج اوروبا فيه متواضعاً . وعلى عكس ذلك ، فصناعة المنسوجات القطنية والمصنوعات الحديدية وبناء السفن ظلت تشكو من التخلف في التجهيز التقني ، لا سيما وان الطاقة الانتاجية في هذه الصناعات لم تستثمر الا بصورة جزئية .

٤ — بلبلة الاقتصاد العالمي

ان الاحوال الجديدة التي طرأت على استخدام اليد العاملة وتحكمت بالاسواق التجارية وتداول البضائع ورؤوس الاموال ، والضعف الذي طبع قوة اوروبا الانتاجية كان من بعض نتائجها الحتمية هذا الركود الذي لازم التجارة العالمية فخلخل علاقاتها وتبادلها بين اطراف العالم الأخرى واحدث في اقتصادها تفككاً يكاد يكون كاملا .

مشكلات الناس وقضاياهم

فالفوران الديموغرافي الذي طبع القرن التاسع عشر ، استمر ولو وئيداً كما ان انخفاض معدل الوفيات بفضل التقدم الذي حققه العلم عوّض ، الى حد بعيد ، الخسائر التي سببتها الحرب ، كما عوّض نتائج الهبوط العام في معدل المواليد . ومن جهة اخرى ، فقد استمر عدد السكان يزداد ويرتفع في انحاء اوروبا الشرقية والجنوبية ، فازداد عدد السكان فيها ٣٦ مليوناً ، بين ١٩١٣—١٩٢٨ ، بعد ان ارتفع هذا العدد من ٤٩٨ مليوناً الى ٥٣٤ مليوناً ، بينما ارتفع عدد سكان الولايات المتحدة من ٩٢ مليوناً الى ١٢٠ مليوناً .

تيارات الهجرة بين الدول الاوروبية

والحال ان قسماً محترماً من هذا الفائض السنوي للسكان في اوروبا وجد طريقه الى الاغتراب والنزوح خارج اوروبا . هنالك زهاء مليونين من الاوروبيين كانوا قد نزحوا عن اوطانهم وديارهم ، عام ١٩١٣ ، بحثاً عن عمل لهم في بلد من بلدان اوروبا او غادروها الى ما وراء البحار . وحركة النزوح هذه بدت

ملحة ، بعد عام ١٩١٨، إذ ان جانباً معتبراً من سكان اوروبا كانوا يهيمون على وجوههم بحثاً عن وطن جديد يأمنون اليه ، او عن وسيلة لكسب أوَد العيش . فاللاجئون الروس توزعوا في جميع انحاء اوروبا ، وفي بلدان الشرق الاقصى ، في اعقاب الثورة التي اندلعت عام ١٩١٧ والحروب الاهلية التي تلتها وقد قدّر كوليشر عددهم بنحو ١٬١٥٠٬٠٠٠ ، لم يعُد منهم الى وطنهم الأم سوى ١٣٣٬٠٠٠ ، كما ان معظم النازحين عن اوطانهم التي غُلبت على امرها ، عادوا تباعاً الى بلادهم . فألمانيا استقبلت ٧٠٠ الف الماني نزحوا من بولونيا و ٢٥٬٠٠٠ نزحوا من المقاطعات البلطيقية ، و ١٢٠ الف من مقاطعتي الالزاس واللورين ، ناهيك عن الالمان القادمين من المستعمرات الالمانية في ما وراء البحار .

وتحركات السكان وهجراتهم تهز هنغاريا فتستقبل ٤٠٠٬٠٠٠ مجري قدموا من ترنسلفانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، كما ان بلغاريا تلقت ، هي الاخرى ٢٠٠٬٠٠٠ لاجيء نزحوا عن تراقية ومقدونية ودوبرودجه ، وتركيا واليونان ، وقد ألّف البلدان الاخيران مجالين كبيرين لحركة تبادل السكان تميّزا بطابع خاص . فقد نصت معاهدة نويي صراحة على تبادل السكان بين اليونان وبلغاريا مع حق الاختيار والتعويض عن الاملاك التي يخلفها النازحون وراءهم . فالـ ٧٠ الف بلغاري الذين فروا امام الهجوم الذي قام به الحلفاء واليونان ، يجب ان يضاف اليهم ٥٣ الف جرى تبادلهم مع ٤٦ الف من اليونان الذين اضطروا للنزوح عن المقاطعات البلغارية . وقد أدّت هزيمة الجيوش اليونانية في ازمير ، عام ١٩٢٢ ، الى نزوح ٩٠٠٬٠٠٠ يوناني من آسيا الصغرى ، و ٢٥٠٬٠٠٠ يوناني عن تراقية ، كما حملت ألوف اليونانيين على مغادرة القسطنطينية . وفرضت معاهدة لوزان المعقودة عام ١٩٢٣ وجوب مقايضة ١٩٠ الف يوناني بقوا في آسيا الصغرى بـ ٣٨٨٠٠٠ مسلم نزحوا بدورهم عن الاراضي اليونانية .

وهنا تطل علينا فئة جديدة من جماعة فاقدي اوطانهم او جماعة من لا وطن لهم ، معظمهم من قدامى رعايا النمسا وهنغاريا الذين لم يحصلوا على رعوية ما في أي من هذه الدول التي طلعت من بين حطام هذه الامبراطورية المتهدمة ، والنازحين عن تركيا (من الأرمن والاشوريين) ، وهؤلاء اللاجئون السياسيون الذين خرجوا من الاتحاد السوفياتي ، عام ١٩٢٠ ، او من ايطاليا ، عام ١٩٢٦ ، او من المانيا ، عام ١٩٣٣ ، بعد ان جردتهم تشريعات خاصة صدرت بحقهم ، من الرعوية التي كانوا يتمتعون بها باعتبارهم غير مرغوب بهم .

توقف الهجرة الى ما وراء البحار

برزت في الولايات المتحدة بعد الحرب ، نزعة قديمة نزعت الى الحد من التسهيلات الممنوحة للدخول بحرية اليها ، بعد ان دخلها ، عام ١٩١٨ وحدها ، اكثر من ٨٠٠٬٠٠٠ مهاجر . فهاجس البطالة ومشكلتها الحادة ، وهذه القومية المهتاجة من مسلك الاميركيين من اصل الماني وموقفهم المعادي ، خلال الحرب ، والاحتقار العنصري لهذه الجماهير البهم غير المصقولة القادمة من بلدان شرقي اوروبا وبلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والرغبة الجامحة في الحفاظ على الطابع الانكلو-

سكسوني في البلاد ، والخوف من تسرب الشيوعية وتغلغلهـا بين الاميركيين ، والازمة الاقتصادية الضاربة اطنابها ، اذ ذاك ، كل هذه العوامل وما يتصل بها من اعتبارات من قريب او بعيد ، أدّت الى إقرار القانون الذي صدر عام ١٩٢١ فحد من نسبة المهاجرة اذ جعلها على اساس ٣٪ من جنسيات المهاجرين الاجانب الذين دخلوا الولايات المتحدة ، حتى عام ١٩١٠ ، وهو قانون كان الكونغرس الاميركي يجدد اقراره سنة بعد سنة ، حتى عام ١٩٢٤ . وفي هذه السنة اصدر قانوناً نهائياً خفضت بموجبه النسبة الى ٢٪ واتخذ أساساً لها الاحصاء العام الذي جرى سنة ١٨٩٠ ، اذ كانت النسبة الكبرى من المهاجرين الى الولايات المتحدة ، في تلك السنة ، من بين بلدان اوروبا الغربية او الشمالية . فقد كان المعدل المتدني للهجرة الى اميركا من نصيب البلدان الاوروبية التي تشتد فيها حركة المواليد . اما البلدان الاميركية الاخرى ، فقد جاء تحديد الهجرة اليها اقل قسوة او اكثر مكراً . فقد راحت مناطق كثيرة في كندا تفضل استقبال مهاجرين من البلدان الاوروبية الشمالية او الغربية وسويسرا ، وهي تدابير وإجراءات جاءت تحمي مصالح البريطانيين وغيرهم من بلدان اوروبا الغربية .

من الطبيعي ان تبقى بلدان اميركا الجنوبية ، ولا سيما البرازيل والارجنتين ، ابوابها مفتوحة على مصرعيها امام المهاجرين . فقد استقبلت البرازيل منهم اكثر من ٨٤٠,٠٠٠ بين ١٩٢٠ — ١٩٣٠ ، كما جاء الارجنتين اكثر من ١,٤٠٠,٠٠٠ مهاجر ، معظمهم من الاسبان والطليان والبرتغاليين. الا ان الظروف المعاشية غير المستقرة فيها حملت نصف هذا العدد من المهاجرين على مغادرة البلاد الى غيرها . وامام اشتداد البطالة في بريطانيا العظمى ، سنت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٢ « قانون الاسكان في الامبراطورية » نص على تقديم مساعدة للمهاجرين . الا ان نتائج هذا القانون جاءت غير مرضية اذ رفضت معظم بلدان الدومنيون التقيد بأحكامه وأصرت على الا تقبل سوى المزارعين ، وانكلترا لا يسعها تصدير غير عاطلين عن العمل ، ولذا لم يهاجر سوى ٢٠٢,٠٠٠ من المهاجرين الذين تلقوا مساعدات .

والبلدان الاخرى التي بقيت مفتوحة الابواب امام المهاجرين هي المانيا التي كانت تستقبل مزارعين موسميين كانوا يأتونها موسمياً، من بولونيا، وفرنسا بعد ان اشتدت عليها وطأة الحرب فأوجدت فيها النقص في معدل المواليد ، ازمة حادة لليد العاملة . فقد امها بين ١٩٢٠ — ١٩٢٨ ، اكثر من ١,٦٠٠,٠٠٠ عامل من الخارج بين ايطاليين وبولونيين (معظمهم يعملون في المناجم) وسويسريين وبلجيكيين عمل معظمهم في الزراعة .

« فالطريقة المطلوبة الانتقائية التي من شأنها ان تؤمن تنويع وتلوين عيون الشباك على اساس من العرق او الاصل في القادمين ، والتي طرحها اكبر قطب جذب للهجرة مثلاً في الولايات المتحدة الاميركية ، عادت على اوروبا بنتائج مهمة ، إذ ادخلت البلبلة على تيارات هجرة اليد العاملة وزادت من مصاعبها ، لا سيما من نقص اليد العاملة المزمن ، وجعلت من هذه القضية عاملاً في عدم الاستقرار الدولي .

العراقيل في وجه التبادل التجاري : القومية الاقتصادية

وهذه الروح القومية المتشيطة تحد من حركة اليد العاملة وتنقلاتها كما تحدث تشويشاً لا بل شللاً في انتقال البضائع وتبادل السلع . ان انقسام اوروبا الى ٣٨ وحدة سياسية احدث البلبلة في اقتسام مصادر القوة وتوزيعها : كالفحم والحاصيل الاستخراجية والطاقة ، كما باعد بين الصناعات المتممة بعضها لبعض والتي سبق لها فكانت الباعث الاكبر على تأمين الازدهار والرواج لهذه النظم الاقتصادية التي اصبحت اليوم اعجز من ان تتكيف وهذه الاطر الوطنية الضيقة . ثم ان تطور الروح الوطنية ، والعصبية القومية ، والحذر المتبادل بين الدول والشعوب ، والمنافسات الحادة بين الدول القديمة والجديدة ، حمل كل واحدة منها الى شيء من الانطواء على الذات كما دفعها الى الاعتزال والانكماش على نفسها . فالرغبة في توفير مصادر الطاقة لها ، والتعويل على الغير بأقل قدر ممكن ، وتجربة الحرب الاخيرة والدرس البليغ الذي اتخذته منها ، كل ذلك أثبت بشكل لا يترك مجالاً للشك ، ان اكثر الدول التي في وسعها ان تصمد وان تستمر في صمودها هي تلك التي تستطيع ان تكفي نفسها بنفسها . وهاجس الاقتصاد السياسي الذي يقوم عليه كل استقلال سياسي ، والخوف الضاغط الذي يولده في النفس تضخم النقد ، كل هذه العوامل وما اليها حملت الدول المعنية ، على التحصن وراء رسوم جمركية حدّت كثيراً من نشاط التبادل التجاري وشجعت إنشاء صناعات تعمل في ظروف مصطنعة قليلة المردود والعطاء تكون معها بأمن من كل منافسة . فالعالم كله سار على خطى الولايات المتحدة في اعتمادها سياسة جامحة من الحماية الجمركية ، حتى انكلترا نفسها ، موطن سياسة حرية التبادل التجاري في العالم . وقد تخلت انكلترا ، منذ عام ١٩١٥ ، تدريجياً عن هذه السياسة ، خلال الحرب ، اولاً بحجة عدم ابهاظ رصيد مدفوعاتها الذي شكا دوماً العجز ، واحتفاظاً منها بقدرتها على الشحن في سبيل المجهود الحربي ، كرسوم وقائية ، مؤقتة على الكماليات ، كالافلام السينمائية والسيارات والآلات الموسيقية ، وكلها تدابير وإجراءات كانت تُتخذ لسنة ثم يجدد العمل بها سنة بعد سنة . وبعد سنة ١٩١٩ ، اخذت تبرر سلوكها بدوافع اقتصادية اكثر منها سياسية او مالية : والقانون المالي الذي كرّس معاملة الدولة الأكثر رعاية الدول الاعضاء في الامبراطورية ، خفض الرسوم الجمركية الى السدس للدول الاعضاء في الكومنولث ، على بعض الحاصيل (كالبن والشاي والكاكاو والسكر والبنزين) ، وثلث الرسوم المفروضة بموجب قانون ماكينا الصادر عام ١٩١٥ . وتطل علينا عام ١٩٢١ ، مرحلة جديدة مع قانون حماية الصناعات الذي يعتبر اول تدبير صريح على الحماية الجمركية ذات مفعول واسع الذي هدف لصيانة الصناعات الرئيسية من الإغراق المالي في الدول المتدهور نقدها . من هذه القوانين قانون المواد الصبغية الذي يحظر استيراد الصبغيات وقد تضمن قائمة الاصناف المحظور استيرادها والاصناف الاخرى التي يخضع استيرادها لرسوم مختلفة كالحرير الخام والدانتيلا

وورق التغليف والادوات المنزلية المصنوعة من الميناء ، والزيوت والهيدروكربونات ، وغير ذلك .

وعلى غرار الدومينيون ، سارت دول اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية الموصوفة بدقة وضعها وضعف جانبها فرغبت ، هي ايضاً ، في ان تقوم فيها صناعات لا غنى لها عنها تحميها من تطاول الغير ، برسوم جمركية منفّرة . وهكذا نرى دول العالم اجمع تتحصن ضمن حواجز جمركية تحول بالطبع دون تحرك البضائع ونقلها اذ انها ترى نفسها عرضة لرسوم جمركية هي اعلى بكثير مما كانت عليه عام ١٩١٣ ، إذ بلغت احياناً ٤١ بالمائة من قيمة البضاعة في اسبانيا ، و ٣٧ بالمائة في الولايات المتحدة الاميركية ، و ٣٢ بالمائة في بولونيا ، و ٢٩ بالمائة في الارجنتين ، و ٢٧ بالمائة في اوستراليا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا و ٢٣ بالمائة في يوغوسلافيا ، و ١٨ بالمائة في فرنسا ، و ١٦ بالمائة في الهند . وبالرغم من ارتفاع الانتاج في كل مكان، لبثت المبادلات التجارية محدودة ومحصورة .

الجديد في توزيع الاستثمارات في الخارج

واخيراً وليس آخراً ، فقد اصيبت اوروبا بالعسر والفقر بعد ان فقدت الكثير من استثماراتها في الخارج . فالثورة الروسية ، والثورة في الصين ، والحرب الاهلية التي اشتدت فيها ادت للقضاء على جانب كبير منها ، كما ان الغنى الذي رفلت فيه بعض بلدان اميركا الجنوبية ،مكنتها من شراء بعض هذه الاستثمارات واصبح ما سلم منها اقل مردوداً وعطاءً ، ناهيك عن ان النزعة نحو الاستقلال التي جاشت بها معظم البلدان ذات الاقتصاد نصف الاستعماري ، خلقت جواً من عدم الاستقرار لا تطمئن اليه هذه الاستثمارات . ومن جهة اخرى ، فقد ضعفت الى حد كبير طاقات اوروبا الصناعية ؛ بعد ان احتلت اميركا المرتبة الاولى من حيث الطاقة الصناعية ،كما انهبوط كلفة الصناعة فيها مكنتها من فرض شروطها على التصدير وإقصار المصدرين الاوروبيين على معدل من الربح ، ادنى من المتعارف عليه، الأمر الذي حد كثيراً من قدرتهم على الاستثمارات في الخارج، كما ان « الواردات غير الملحوظة » ، لم تَعُد تؤمن موازنة حساب المدفوعات ، وفقاً لما كان عليه الأمر قبل عام ١٩١٤ . وهكذا هبط كثيراً فائض رؤوس الأموال التي يمكن التصرف به . ولندن التي كانت تستثمر في الخارج ، اكثر من ١٦٠ مليون جنيه استرليني بين ١٩٠٧ – ١٩١٣ ، لم تعد تستثمر اكثر من ٤٧ مليوناً بين ١٩٢٠ – ١٩٢٧ . وبقيت فرنسا بين الدول الكبرى الدائنة في الخارج غير ان استثماراتها تكاد لا تزيد عن نصف ما كان لها منها ، عام ١٩١٣ . والربح الذي تجنيه لا يزيد على ٢،٥ في المائة من ربحها في تلك السنة . وعلى عكس ذلك نرى الولايات المتحدة الاميركية التي لم تكن استثماراتها عام ١٩١٣ تمثل سوى ٥ – ٨ بالمئة من مجموع الاستثمارات الدولية ، فقد ارتفعت خمسة اضعاف منذ عام ١٩١٣ ، وسوق السندات الاجنبية في نيويورك تتداول ضعفي ما تتداوله سوق لندن . والسوق المالية الاميركية المتسمة اساساً بالطابع المحلي عام ١٩١٣ ، اخذت تشع الآن ، الى جميع اطراف العالم ؛ ان ٤٧ بالمئة من استثماراتها هي وقف

على دول اميركا اللاتينية لا سيا على جزر البحر الكرايبي وكوبا والارجنتين والشيلي ، و ٢٧ بالمئة على كندا والارض الجديدة ، و ١٨ بالمئة على اوروبا .

وهذا التقهقر تسجله اوروبا في هذا المضار اضعف كثيراً من وسائل العمل لديها وحد من توجيه النشاط الاقتصادي في البلدان النامية ، كما أثر على سياستها التجارية ، وآخر نشاط تيار التصنيع فيها وعمل الحد منه ومن تأمين التنسيق بين رؤوس الأموال التي تصدرها وبين منتوجاتها الصناعية . كذلك سجل نفوذها السياسي تقهقراً آخر لحساب الولايات المتحدة الاميركية التي قامت بتقديم قروض لكل من بولونيا وايران . مما حمل مصارف بولونيا وايران على الاستعانة بمستشارين ماليين وفنيين اميركيين راحوا يشجعون بالطبع ، تغلغل تجارة بلادهم في تلك الاقطـــار .

التيارات التجارية الجديدة –

كانت اوروبا اعجز من ان تستعيد المركز التجاري الذي كان لها في العالم ، قبل عام ١٩١٣ ، إذ جاء « انتاجهـــا ... يتراكب مع انتاج آخر يقع خارج اوروبا ، استثمر نشاطاً بدافع من الحرب ومن الاسعار المرتفعة التي حظي بها خلال الحرب وبعدها رأساً » . فقد عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى في التجـــارة المالية ، الا ان حصتها انخفضت بصورة محسوسة فأصبحت ٥٢،٥ بالمئة مقابل ٦٣ بالمئة عـــام ١٩١٣ ، بينما ارتفعت حصة اميركا الشمالية من ١٤ الى ١٧ في المائة . وحصة آسيا ارتفعت هي الاخرى ، من ١٠،٦ بالمئة الى ١٤ بالمئة . وهذا التأخر يبرز في كل من الدول الصنـــاعية الكبرى : في بريطانيا العظمى اذ انخفض فيها من ١٣،٩ بالمئة الى ١٠،٨ بالمئة ، وفي المانيا حيث هبط من ١٣،١ الى ٩،٢ بالمئة ، وفي فرنسا حيث هبط من ٧،٢ بالمئة الى ٦،١ بالمئـة ، بينما ارتفع في الولايات المتحـــدة من ١٣،٣ بالمئة الى ١٥،٨ بالمئة ، وفي اليابان من ١،٧ بالمئة الى ٣ بالمئة .

والبلدان المنتجة اقامت جميعها ، خلال الحرب ، إتصالات مباشرة مع زبائنهـــا وفازت باستقلالها التجاري . فعملية التوزيع والعمولة وهما من اسباب إثراء انكلترا ، أخذا في الزوال. فالاصواف الاوسترالية والنيوزيلندية وافريقيا الجنوبية ومقاطعات البلاتا اخذت تبـاع مباشرة الآن ولم تعد سوقها قائمة في لندن . والصناعة الاوروبية صعُب عليها التكيف ومقتضيات الاسواق المستوردة : فهي تضع تحت تصرفها المعادن والمنتوجات الكيماوية والمنسوجات بينما هي بحاجة الى الآليات ووسائل النقل . وقد أقفلت في وجه اوروبا منافذ كانت مفتوحة على مصراعيها من قبل ، بينها مثلاً الولايات المتحدة الاميركية حيث الرسوم الجمركية التي فرضت بموجب قانون فورني أصاب على السواء البضائع التي يمكن لهـــا انتاجها ، وعملياً كل إنتاج الصناعات المعدنية والنسيجية ، بينما ضاقت منافذ اخرى واستدقت ، كالارجنتين مثلاً والبرازيل اللتين لم تعد تعولان على اوروبا بأكثر من ٦٤ في المئة و ٥٠ في المئة من وارداتها ، مقابل ٨٠ و ٦٧ في المئة في عام ١٩١٣ .

فاذا ما انعمنا النظر ملياً في توزيع صادرات اربع دول كبرى من بين الدول المصدّرة الواقعة وراء البحار ، نجد ان صادرات الارجنتين والبرازيل الى فرنسا ، بين ١٩١٣-١٩٢٥ هبطت الى الثلث في الاولى والى النصف في الثانية ، كما هبطت الى النصف والى الربع في انكلترا . والصادرات الكندية الى بريطانيا لم تعد سوى ٢/٤ مما كانت عليه من قبل ، وكذلك صادرات مصر التي لم تعد تمثل سوى ٢/٣ ، بينما كادت الولايات المتحدة تضاعف وارداتها من الارجنتين ، وضاعفت اكثر من مرتين وارداتها من البرازيل ، وزادت مستورداتها من مصر مرتين ونصف . وصادرات بريطانيا من الفحم « احد دعائم الاقتصاد البريطاني » الى دول البلطيق ، انخفض الى الربع امام منافسة الفحم البولوني ، والى النصف في آسيا ، والى اقل من الثلث في الشيلي . اما صادراتها القطنية الى الشرق الاوسط ، فقد سجلت هي الاخرى تراجعاً ملحوظاً يبلغ الثلث ، بينما حلت صادرات اليابان والصين والهند عليها . وفي نطاق المحروقات والوقود ، انخفضت صادرات اوروبا من الفحم بينما ارتفع استيرادها من البترول .

والسوق الداخلية في اوروبا تتراخى عراها ، هي الاخرى ، بعد ان تعطلت تماماً حركة التبادل مع روسيا . وعندما عادت الإتصالات معها لم يكن من الممكن الوصول الى الرقم الذي سجلته سنة ١٩١٣ . وعندما امكن لأوروبا الشرقية ان تستأنف ، عام ١٩٢٥ ، سيرتها السابقة من التصدير ، قبل الحرب ، وجدت الاسواق في الغرب تحتلها مصنوعات مستوردة من وراء البحار . وبعكس ذلك ، لم يَمُد إنتاج اوروبا الصناعي ليجد ، بين هذه الاقطار ، سوى سوق محدودة الطاقة والمصادر تحميها تعريفات جمركية عالية ورسوم باهظة ، وحاجات اوروبا الغربية التي كانت تلبيها ، عام ١٩١٣ ، بنسبة متساوية ، بلدان اوروبا الشرقية ، والبلدان الاخرى الواقعة عبر البحار ، بعد ان تبدلت هذه النسبة وتعدلت ، لتصبح ١٨ في المئة للفئة الاولى ، و ٨٢ في المئة للفئة الثانية .

٥ — الهبوط المستمر

ان تحول مراكز الانتاج والتطورات الجذرية التي لحقت بها وحطت من شأنها ، حالا دون نهوض التجارة العالمية ، وافضيا بالتالي الى انخفاض مزمن عضال فركود ، في الاقتصاد الاوربي وعدم تكيفه والمقتضيات الجديدة ، فأدّيا الى انكماش ملحوظ في اسواق الخامات بعد ان كانت اوروبا ، سوقها الفضلى . وهذه البلدان التي فقدت الكثير من طاقتها الشرائية أخذت بأسباب التصنيع تحت ستار من الحماية الجمركية المتفرة الامر الذي ادى الى هبوط ملموس في الصادرات الاوروبية ، لا سيما في المنسوجات والاصناف المشغولة ، بينما اخذت الولايات المتحدة الامريكية ، التي كانت تمد زبنها بكثير من مهمات التجهيز ووسائل النقل ، تنزع الى زحزحة اوروبا في هذه الاسواق .

انكفاء النظم الاقتصادية

فالجهود التي بذلت في سبيل اعادة تنظيم الصناعة ، والاهمية التي اولتها كل من فرنسا وانكلترا لامبراطوريتيها الاستعمارية ، كانت اعجز من ان تحقق الآمال التي راودت هذا الفريق الذي حلم ، عام ١٩١٩ ، بعودة اوروبا الى المراكز القوية التي كانت لها قبل عام ١٩١٤ . ان دول اوروبا الرأسمالية تجد نفسها في حركة انكفاء كلية بالنسبة اليها كان عليه وضعها، قبل الحرب. فبالرغم من الزيادة الملحوظة التي حققتها الصادرات الامريكية ، فالحجم الاجمالي الذي تمثله المنتوجات المشغولة في التجارة العالمية ،بين ١٨٧٠-١٩١٣ والذي كان زاد ثلاثة اضعاف بقي تقريباً ثابتاً، اذ ان الانخفاض تناول على الاخص بلدان اوروبا وروسيا ، الدول الكبرى الثلاث التي تهيمن مع الولايات المتحدة الامريكية ، على التجارة الدولية .

فالوضع الممتاز الذي نعمت به بريطانيا اخذ يتردى وظهرت عليه اعراض الضعف والمرض اثر ما اصيبت به صناعة التعدين عندها ، من تأخر وتقهقر ، وكذلك حركة التصدير التي هبطت ، عام ١٩٢١ ، الى ٤٩ ، باعتبار دليل ١٩١٣ مساوياً ١٠٠ ، وبعد ان سجل ارتفاعاً عام ١٩٢٥ بلغ ٧٥، عادت فهبطت عام ١٩٣٢ الى ٤١٪ . ومستوى الحياة لم يعد ممكناً المحافظة عليه الا بواسطة ريع رؤوس الاموال المستثمرة في الخارج ، كذلك فرنسا ، فقد سجل اقتصادها هبوطاً محسوساً اذ ان العجز في ميزانها التجاري كان اكبر بكثير مما كان عليه عام ١٩١٣ . فاذا ما بقي ميزان المدفوعات لديها ، عام ١٩٢٩ ، عند المعدل الذي سجله بين ١٩١٠ – ١٩١٣ ، فالفضل في ذلك يعود اصلا ، الى الزيادة في الارصدة الناتجة عن حسومات النقد بعد هبوط قيمة الفرنك . وفي عام ١٩٢٧ ، وهي سنة تثبيت الفرنك ، اخذت الزيادة تتناقص تدريجياً . وريع رؤوس الاموال المستثمرة في الخارج مثل بين ١٩٢١ – ١٩٣١ مبلغاً اقل ٥٦ بالمئة مما كان عليه في الفترة ١٩١٠ – ١٩١٣ ولا تغطي سوى ٧٢ بالماية من النقص التجاري في تلك الفترة ، بينما كان يمثل قبل عام ١٩١٤ مبلغاً يزيد ١٣ بالمئة عن هذا النقص.

مثل المانيا

والمانيا التي جاءت مع الولايات المتحدة ، في طليعة الدول التي قامت بتنظيم الانتاج العلمي وعملت دوماً على تحسينه ، حلت في المرتبة الثانية بين الدول الصناعية. ومع ذلك، فلم تستطع هذه الدولة الاحتفاظ بمرتبتها في مجال الاقتصاد العالمي، إذ مثّل انتاجها ٤٠ بالمئة من مجموع انتاج اوروبا عام ١٩١٣ ، فلم يعد يمثل سوى ٢٩ بالمئة من هذا الانتاج ، عام ١٩٢٩ ، وسوى ١٧ بالمئة من الانتاج العالمي ، فهبطت الآن الى ١١٫٣ بالمئة .

وبعد أزمة المارك التي تخبطت فيها وعانت منها الامرين ، قاست كثيراً من نفاد رؤوس الأموال لديها . ان بناء مصانع جديدة وعصرنة عتادها وتجديده الذي اقتضاها اموالاً كثيرة ، وسعر الفائدة العالي (حتى ١٨ بالمائة) كل ذلك جذب بالطبع اليها رؤوس الاموال الأجنبية التي تمثلت ، في بادىء الامر ، بقروض قصيرة الامد ، الا انه جرى منذ سنة ١٩٢٦ ،

تسديدها او تجميدها بشروط باهظة جداً ، وراحت المانيا تعقد قروضاً طويلة الامـــد بلغت ٤ مليارات مارك ، عام ١٩٢٤ ، بمعدل سنوي يساوي ١،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مارك ، خـــلال السنوات التالية . وراحت المدن والمؤسسات العامة فيها كالصناعات الخاصة ، تكثر من سندات الاصدار ، تحقيقاً لازدهار سطحي توصلت الى تحقيقه بواسطة نزع ملكية الطبقات المتوسطة وتخفيض اجمالي للاجور الحقيقية عن طريق تضخم النقد ، من جهة ، وبواسطة قروض ضخمة جديدة ، من جهة اخرى ، جعلت البلاد مرتبطة بتبعيتها للاجنبي . وهكذا لم تلبث الفوائد المترتب دفعها ان اصبحت عبئاً ثقيلاً إذ بلغت ١٦٦ مليون مارك عام ١٩٢٤ ، و ١٢٥٥ مليون مارك ، عام ١٩٢٩ .

وقد حدث فيها بالفعل نوع من التضخم الصناعي . فهذا العتـــاد الضخم الذي تجهزت به البلاد ، لا يمكن له ان ينتج ، في احسن الحالات ، الا اذا اشتغل بمـــلء طاقته ، اي الا اذا اتسعت امامه اسواق التصريف ورحبت مجالات التسويق . والحال ، هنالك فارق شاسع بين طاقة الرايخ الاقتصادية ، والاسواق الصالحة للاستيعاب ، ولذا شهدت البلاد ازدهاراً مصطنعاً سريع العطب ، اي غير مستقر وقابل للتجريح في بلاد تعاني مريراً من بطالة تضخمت صفوفها فبلغت المليون من العاطلين ، اي انه يضم عـدداً كبيراً ليس له القدرة على الشراء والاستهلاك . والطاقة الانتاجية لهذا العتاد زادت بالفعل من حدة البطالة بحيث اقبـل على سوق العمل اعداد ضخمة من الشباب ولدوا قبل عام ١٩١٤ ، في وقت كانت فيه حركة المواليد في البـلاد ناشطة الغاية . وهكذا ، استبدلت المانيا يداً عاملة رخيصة لديها بوسائل للإنتاج وعدة كلفتها غالياً ، اذ ابتاعتها بأموال اقترضتها من الخارج بفائدة عالية .

الأزمة الزراعية

من الظواهر المربكة والمزعجة معاً لتفكك الاقتصاد العالمي استمرار الازمة الزراعية التي نجمت عن الافراط في الانتاج ، في هذه البلدان ذات الانتاج الواحد . فازدياد المخزون من الانتاج الزراعي وتضخمه المتزايد ، وهبوط الاسعار التي افضى اليه ، جاء ضغثاً على إبالة ، على مجموع المبادلات التجارية .

ان ارتفاع الأسعار بين ١٩٢٠ – ١٩٢٩ ، جاء نذيراً بالخطر . فبين ١٩١٩ – ١٩٢٨ انخفض سعر القمح الى ٢/٣ في كنـــدا ، والى النصف في الولايات المتحدة كما انخفض سعر الذرة الى ٤/٥ والارز الى ٣/٨ والقطن الى ٢/٥ . فالبلدان الزراعية المصدرة الكبرى للحبوب والتي يتوقف توازن ميزانها التجاري على السوق العالمية ، وجدت نفسها عرضة لذبذبة الأسعـــار وتقلباتها ، وهو بالفعل ، وضع بلدان اوروبا الوسطى على الاخص ، واميركا اللاتينية حتى ووضع كندا نفسها . فزراعة القمح التي نشطت في بريطانيا خلال الحرب عادت القهقرى من جديد اذ لم تعد البلاد بأكثر من ١٥ بالمئة من استهلاكها المحلي ، حتى فرنسا نفسها حيث الانتاج الزراعي هو في احسن حماية جمركية ، فمنافسة محاصيل المستعمرات والبلدان الاجنبية ، فازت في نهاية المطاف وتحكمت بالاوضاع . فسعر الارض العالي وثمن العتاد التقني يرزح المزارعين في كل من

بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة ، بالديون الثقيلة ، بحيث ان ٤٢./. من الارض الزراعية كانت مرتهنة ، عام ١٩٢٩ ، مقـــابل ٢٨٪ سنة ١٨٩٠ . ومستوى العيش متدنٍ جداً في الولايات المتحدة لدى نصف العـــاملين في الارض ، هذه الفئة التي لم تعد تنتج سوى ١١٪ من المحاصيل الزراعية التي تدخـل الاسواق التجارة ، إذ ان إنتاج الوحدة من مجموع ريعهم لم يكن يعادل ، سنة ١٩٣٠ ، سوى ٦٠٠ دولار من المواد الغذائية ، بما فيه المواد المعدّة للاستهلاك في المزرعة . ولما كان المزارعون يمثلون ربع مجموع عدد سكان البلاد ، فهم لايمثلون سوى ٨،٨٪ من رجهة الدخل القومي عام ١٩٢٧ ، مقابل ١٦٪ عام ١٩١٩ .

ففي ازمنة الحرب وازمات التضخم المالي ، يمكن لطبقة المزارعين التي تنال اعلى نسبة من القتلى والجرحى في الجيش ، ان تحسن اوضاعها بصورة مؤقتة إذا ما عرفت ان تفيد من ارتفاع اسعار المواد الزراعية ، (لقلتها اذ ذاك) ، لإيفاء ديونها . ولكن ما ان يعود النقد الى الاستقرار من جديد ، حتى يسوء وضع المزارعـــين من جديد ، من جراء ارتفاع معدل الفائدة وهبوط الأسعار . ولذا راح المزارعون يطالبون بحماية الدولة لمصالحهم ، قبل ان تدهمهم ازمة عام ١٩٢٩ وتنوء بكلكلها عليهم .

ففي كل مكان تقف التعريفة الجمركية الى جانب الصناعة على حساب الانتاج الزراعي ، وفي كل مـــكان يبيع المزارع غلاله بالسعر الدولي ، بينما نراه يبتاع حاجياته المشغولة في الاسواق المحليـــة ، بأسعار تجعلها الرسوم الجمركية ، عالية . ومن جهة اخرى ، ان ارتفاع مستوى العيش يفضي الى الهبوط في استهلاك الحبوب على حساب اللحوم والألبان والخضروات الطازجة والفراريج ، بينما الاقبال عـــلى المنسوجات الاصطناعية يخفض من اسعار الملبوسات القطنية والحريرية .

مثل فرنسا

ادى التضخمّ المـــالي في فرنسا إلى تنقية الوضع المالي الذي أحاط بالمزارعين ، إذ ساعدهم على التخلص مما يرسفون فيه من ديون ، بينما بقي الانتاج باستثنـــاء النبيذ والبطاطا ، على اسعار ادنى من معدلها عام ١٩١٤ ، في حين كانت المواسم اطيب مردوداً نوعاً ، ولم يجر تجديد قطعان الماشية باستثناء قطعان البقر . فالاستثمارات الصغرى هي في تـــأخر مستمر ، والتشريع الخاص بتعويضات الحرب ، والترخيص لاصحاب الاملاك في المقاطعات التي نهكتها الحرب بالتنازل عن تعويضاتهم ، كل هذه العوامل قوت النزعة الى توحيد المزارع . فالاحصاء الزراعي الذي اجري عام ١٩٢٩ ، يساعدنا على تكوين فكرة صـادقة عن فرنسا التي بقيت البلاد المثـلى للاستثمارات الزراعية الصغيرة ، بينما هي ابعد ما تكون بـــلداً من الملكيات الصغرى . فالابحاث الدقيقة التي قام بها أتيين فايل رينال أثبتت بشكـل لا يدع مجالاً للشك ان ٧٣٪ من الاستثمارات كانت مساحتها اقل من ١٠ هكتارات ، بينما ٩،٦٧٪ تمثل نصف المساحة المزروعة . فاذا ما وضعنا جانباً بعض المحافظات الاستثنائية ، كمحافظة السين والواز مثلاً ، حيث ٤٪ من الاستثمارات الزراعية تمثل نصف مساحة الاراضي

المستثمرة ، فان ٢٤ - ٢٥ ٪ من المستثمرين في المحافظات الاخرى ، يتصرفون بمساحات تساوي مجموعتها مساحة الاراضي الباقية مع الآخرين .

فالنزوح من الريف الى المدينة ، كان بالاحرى وقفاً على اصحاب الاجور والفلاحين والمزارعين ، اي من نصيب هذه الطبقة من أفراد الشعب التي تتضرس اكثر من غيرها ، بارتفاع اسعار الحاجيات الصناعية ، بينما هي تعاني اكثر من غيرها ، من ركود اسعار المواد الزراعية . اما الذين يبقون على ولائهم للأرض ويتصرفون للاعمال الزراعية ، يستثمرون اراضيهم مباشرة (٧٥٪ من المستثمرين عام ١٩٢٩) ، الا ان سوادهم الاكبر يتألف من صغار المستثمرين ، ويمارسون في منطقة باريس ، استثمارات ذات طابع رأسمالي ويجنون بالتالي محاصيل طيبة . فالريف ، يشكو هنا ايضاً ، انزعاجاً واقعياً ويلتمس حماية فعالة من الدولة .

الفائض من اليد العاملة

ادهى الاعراض البادية على تقهقر قوى الاقتصاد الرأسمالي الآخذة دوماً بالتأخر والتراجع ، هي بدون منازع ، الباثر المهدور من اليد العاملة في البلاد . فلاول مرة في تاريخ الحضارة ، تطل على البشرية ازمة من البطالة المزمنة ظهرت اعراضها منذ عام ١٩٢٠ في اميركا ، لم تلبث ان امتدت جذورها الى اوروبا . فقبل عام ١٩١٤ ، كانت البطالة حادثاً فردياً لا يؤبه له حتى في هذه الازمات العنيفة القصيرة المدى ، اذ لم تكن البطالة تتناول اكثر من ١٠ ٪ من مجموع اليد العاملة . والحال ، فمنذ عام ١٩٢١-١٩٢٢ ، لم يكن معدل العاطلين عن العمل في بريطانيا العظمى وهو ٢،٤ ٪ ليزيد قليلاً عما كان عليه هذا المعدل في السنوات التي سبقت الحرب قليلاً ، فاذا به يرتفع فجأة الى ١٥ في المئة ، وبعد ان مرت الازمة لم يعد يسجل اقل من مليون عامل عاطل عن العمل (الشكل ٢) . وهذا الوباء المعدي هدد كل قطاعات العمل ، بدون تمييز . الا ان وطأته تثاقلت ، بالأخص ، على الصناعات القديمة المأرقة وتركزت في المناطق والاحواض الفحمية (شكل ٢) . فقد عدت الولايات المتحدة الاميركية ١،٤٠٠،٠٠٠ عاطل عن العمل ، عام ١٩٢٠ ، وهو عدد ارتفع عام ١٩٢١ ، الى ٤،٧٥٠،٠٠٠ عامل (اي ١٤،٢ في المئة) من مجموع الشغيلة في تلك البلاد ، من جراء الازمة ، مع زيادة مليونين عام ١٩٢٤ ، و ١،٨٥٠،٠٠٠ عام ١٩٢٨ .

اما في المانيا حيث لم يزد معدل البطالة فيها ، عام ١٩١٣ ، على ٢،٥ في المئة فقد هبط الى ١،٩٠ في المئة عام ١٩٢٢ . الا انه اخذ منذ عام ١٩٢٤ يبلغ ١٤،٧ في المئة حتى وصل ، عام ١٩٢٦ ، الى ما يوازي ١٨،٣ في المئة ، اي نحو مليونين من العاطلين عن العمل ، ليهبط فيما بعد ، بحيث بقي ١،٥٠٠،٠٠٠ عامل عاطلين عن العمل في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٣،٦ في المئة عام ١٩٢٩ ، اي في ابان ازدهار البلاد الاقتصادي .

ولم تنجح في معالجة هذا الوضع كل الوسائل التي بذلتها الحكومات التي اضطرت ان تتحمل اعباءً مالية ثقيلة . فانكلترا التي جعلت تعويض البطالة يتسع بحيث شمل ، منذ عام ١٩٢٠ ،

كل العمال ، اصبح التعويض العامل يتراوح بين ١٥ و ٢٠ شلن في الأسبوع ، ولم يلبث بالتالي ان اصبح عبئاً ابهظ عاتق مالية الدولة وموازنة بعض المدن ، كمدينة بلاكبورن حيث ٥٢ ٪ من مجموع ٥٦٬٠٠٠ عامل ، هم عاطلون عن العمل ، او مدينة بوزنلي حيث ٤٢ ٪ من مجموع ٤٧٬٠٠٠ عامل . والبطالة التي تقمل فطها الموهن في العامل وتقتل فيه العزم ، تتـــال على الاخص من هؤلاء الشبان الذين لم يجـــد بعضهم عملاً منتظماً ، ناهيـــك عن نتائجها الوخيمة على موازنة الدولة فترزحها ، وعلى الموازنات الخاصة الاخرى التي يترتب عليها مد يد المساعدة لنسبة كبيرة من السكان ، عاطلين عن العمل .

ضعف النظام الاقتصادي

لا شك بأن البطالة في انكلترا ، بما لهـــا من صفة الاستمرار وبما عُرفت به من حدة ، هي التي استأثرت ، في الاكـــثر ، باهتمام اكبر بالاقتصاد وحملتهم على محاولة تفسير هذه الظاهرة وقلـقتها وردّها الى مسبباتها . فقـد ردّوها مجتمعين او منفردين ، تارة الى السياسة المتبعة لاعادة تقييم الجنيه الاسترليني ، هذه السياسة التي «ضحت بالانتاج مقابل الاحتفاظ بسبق التبادل التجاري » ، وحافظت على المستوى العـــالي للاسعار بالنسبة للمصدرين الاجانب الذين افادوا كثيراً من التضخم المالي ، ومنهم من ردها الى عجز ارباب العمل او عدم اهليتهم للافلات من عاداتهم الفردية والتحرر ممـــا يرصفون فيه من اعراف واساليب تقليدية، وفشلهم في التكيف مع مقتضيات الانتاج الجديدة ومشروط المنافسة الدولية ، واخيراً وليس آخراً، تعلل بعضهم بالسياسة الاجتماعية التي رمت الى ان تجعل العاطل عن العمل « من اصحاب دخل اجتماعي » ، فقتلت الاعـــانة التي يتلقاها من الحكومة فيه كل رغبة بالسعي وراء العمل . فاذا ما امكن الاخذ بهذه التعليلات المتناقضة فيا بينهـــا ، وتطبيقها على بريطانيا العظمى ، فلا يصح لعمري اطلاقها على البلدان الأخرى التي تختلف اوضاعها التقنية والاجتماعية والمالية ، اختلافاً كلياً عما يكتنف بريطانيا من هذه الاوضاع ، مع ان هذه البلدان تضرست بالمساوىء والمآسي ذاتها ، كألمانيا مثـــلاً ، والولايات المتحدة الاميركية حيث تميز ارباب العمل في كل منها بديناميتيتهم العارمة ، وحيث تمت ادارة المصانـــع ، بتنظيم علمي دقيق للعمل وحيث كانت اليد العاملة لا تفي بحاجة الاولى منها ، كما كانت ، تفيض عن حاجات الثانية ، وحيث تُرك المتعطل عن العمل وشأنه ، لا سند له الا ما يتلقاه من مصادر خاصة ، كما هي الحال في الولايات المتحدة ، او كان يتلقى بعض المساعدة من صندوق الدولة ، كما هي حاله في المانيا .

وقد ردّ بعضهم إتساع ظاهرة البطالة هذه واستمرارها الى الفقر الذي نزل باوروبا . فليس من شك قط ان ما بُليت به هذه القارة من فواصل عازلة ، وما شهدت من فوران القوميات السياسية والاقتصادية فيها ، وانتشار التقنيات الجديدة ، كل ذلك وما اليه حال ، الى حـــد بعيد ، او أخّر ، على الاقل ، الرجوع الى حلقة المقايضات التي رسمتها الحركة التجارية قبل عام ١٩١٣ . وهذه البطالة الموصولة الحلقات ، تطل علينا في بعض البلدان النامية ، وفي الولايات

المتحدة الاميركية ، بالرغم مما يتمتع به اقتصادها من ازدهار عظيم ونشاط عارم .

فاذا ما قصّرت كل هذه الشروح والتحليلات عن افهامنا مدى هذه الظاهرة والمقومات التي

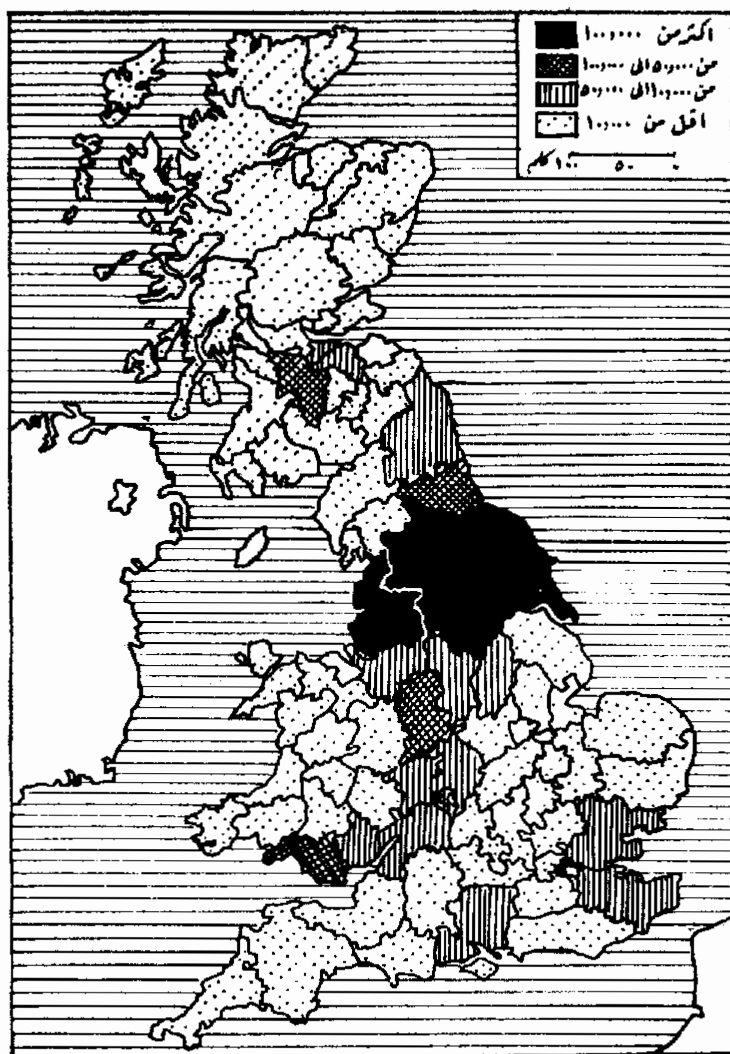

مراكز البطالة في انكلترا عام ١٩٢٨

شكل ٢

تنهض عليها فلسفتها ، أفما نكون هنا امام بطالة من طابع خاص لا تتأتى قط عن الذبذبات الدورية التي تنزل بالانتاج ، بل عن تغييرات جذرية راسخة نزلت بالاقتصاد العالمي ? بعض هذه التغييرات التي دللنا عليها يتمثل في انحطاط اوروبا بالذات ، هذا الانحطاط الذي يجب رده الى

فقدان التوازن السريع العطب الذي جاء في مصلحة عدد صغير من الدول الاثيرة، هذا التوازن الذي قام على توزيع العمل توزيعاً يتناقض والتوزيع الجغرافي للثروات الطبيعية في العالم. ويطلع علينا بعد ذلك المركزية والتنظيم العلمي الدقيق للانتاج، فاستبدلا المنافسة الحرة « برأسمال يتألف من وحدات ضخمة ومن احتكارات مستبدة غاشمة »، تحدوها نزعة عارمة الى زحزحة، ان لم نقل الى ربط هذا السديم من المشروعات الصغيرة بعجلته الصاخبة. فهذه الشركات الكبرى التي تقود الاقتصاد وتوجهه الآن وتتحكم به، لا يمكن لها ان تزدهر وان تنشط الا مع مكننة في غاية الدقة من الاتقان، لها من الدهاء ومن الطاقة ما تؤمن معه انتاجاً بالجملة ضخماً، يتعاظم حجماً وقدراً وشأناً باستمرار، له من طاقة الانتاج ما ليس في وسع الاسواق الوطنية المحدودة القدرة الاستهلاكية، استيعابه. وهذا الانتاج الضخم، لم يعد بالامكان تصريفه في فتوحات جديدة، اذ ليس ثمة من أراض تُفتح وتستثمر، كما في الماضي، ولا في البلدان النامية التي هي من ضعف الطاقة وصغر الوسائل ما لا يستطيع معه قط ان تصبح اسواقاً رائجة.

هنالك، والحالة على ما وصفنا، تضادٌ قائم بين طاقة منتجة آخذة بالامتداد والتوسع المستمر، وبين سوق ضيقة المجال، قصيرة المدى، سواء بسواء، مع سكان بلد او قطر آخذين بالنمو المطرد، في نظام اقتصادي ينهض على الربح، نظام يحاول ان يخفض معدل الكلفة باحلال الآلة اكثر فاكثر، محل الانسان، نظام يقوم احد اركانه باستثمار البلدان الواقعة عبر البحار في وقت تأخذ فيه هذه البلدان تطالب باستقلالها الناجز.

وهذه التناقضات لم تظهر بعد، بوضوح، لما لازمها من مصاعب وصاحبها من مشكلات كما برزت بجلاء للأوروبيين، فاعتبروها عهداً من الرخاء، لدى مقارنتهم لها بالمصائب التي انهالت على العالم في فترة السنوات العشر التالية. ففي اواسط العشرينات فقط، قطع رجال الاعمال ورجال السياسة، كل أمل لهم بالرجوع تلقائياً « الى الحالة العادية او الطبيعية للاعمال »، اي الى التوسع المستمر فيها. واذ ذاك، راحت لجنة بلفور، في انكلترا، عام ١٩٢٤، ومؤتمر جنيف الدولي المعقود عام ١٩٢٧، ولجنة التحقيق الالمانية سنة ١٩٢٩، تحاول، كلا من جهتها، البحث، عما يعيد النشاط الى التجارية العالمية. ان انتباههم تسمر بنوع خاص، على مشكلة تداول النقد، (الامر الذي ادى الى اتباع سياسة انكماش النقد مما زاد الطين بلة والبطالة تعقيداً) وليس الى توسيع الاسواق الداخلية والخارجية. وهكذا بقي التشويش قائماً بين ١٩٢٦ – ١٩٢٧ وبدت بالتالي، في الافق، علامات احتقان السوق العالمية. فالطاقة الصناعية زادت قوتها ٥٠٪ منذ عام ١٩١٣، والانتاج الزراعي سجل زيادة لا تنقص عن هذا المعدل بشيء والعرض زاد بدوره على الطلب. فالنظام بأجمعه اصبح تحت رحمة هزة جديدة ستأتي اعنف وادهى من الهزة التي وقعت عام ١٩٢٠.

الفصل الخامس

البحث السياسي والاجتماعي

« جاء التكالب على السلطة والاستئثار بها بما لم يسبق له مثيل من قبل في كل ما شاهدنا من نزاعات ، نتيجة محتومة لازدياد سلطة الدولة التي طالما دعيت ، لدواع اقتصادية ، الى التدخل في شؤون المنظمات القوية اقتصادية كانت ام عمالية ، او بروليتارية والتي كان في مقدورها ان تجر الى الخراب ، هذه او تلك من المنظمات المذكورة . فلم يعد الامر وقفاً فقط على عمل القوى الاقتصادية ... »

لوسيان فيفر

اسوة بما حدث في اعقاب الثورة الفرنسية وحروب الامبراطورية ، راحت الرغبة العامة في السلام والخوف من ثورة على غرار الثورة الروسية ، يشجعان العالم الرأسمالي على اقامة نظام محافظ . وهكذا دخلت الديموقراطية في أزمة حادة في هـذا الوقت بالذات الذي راح فيه خصومها التقليديون – الملكيات العسكرية – تنهار الواحدة تلو الاخرى . ولم يكتفِ انه لم يقع اي إصلاح جذري، بل راحت الطبقات العليا تشدد من قبضتها على السلطة ومن احتكارها لها ، مما ادى في الواقع الى ردة قوية ضد المبادىء التحررية التي طلع بها القرن التاسع عشر .

١ – القوى المحافظة

اثر الثورة الروسية

في الوقت الذي كهربت فيـه الثورة الروسية جانباً محترماً من الطبقة العمالية ، اثارت هواجس الطبقات الموجهة . فكما حدث بين ١٧٨٩–١٨٠٠ ، راح النازحون عن روسيا يروون العجائب والغرائب عن الفظـائع والاستباحات ويصفون بعبارات ملؤها الاسى والاسف ، الفتن والاضطرابات والمآسي التي وقعت ، بعـد ان جسّموها وضخموها وشوهوها ، بما نشروا عنهـا في الصحافة وانشأوا حولها جواً من النفرة

والهلع ، غــوا فيه – من قريب او بعيد – كل من يُشتَمّ منه ميلٌ اليهـــا او حدبٌ عليها . فالأقاصيص المروية حول « الهلــع الاحمر » والمعلومات التي لا تُصدق التي روّجوها عنهـــا « كتأميم المرأة » ، أوجدت بين الناس حالة من « الهستيريا الجماعية » ترى صورة عنها في ما قصّه لنا عنها فوساتر ريا داليس عندما يصف لنا الجلسات التي عقدتها لجنـــة التحقيق في مجلس الكونغرس الاميركي حول الدعاوة الشيوعية ، عام ١٩١٩ : «هؤلاء الشهود الذين كانوا على شيء من التحفظ والحذر في آرائهم ، كما يقول ، لم يدعوا الشهادة ولا من رَغِبَ في الاستماع اليهم » . فالنداءات الى « الثورة العالمية » ، والمطالبة « بجمهورية دولية للسوفيات الشغيلة » ، كل هذه الشعارات غذّت في الناس « الرعب الأكبر » . فالدور الذي لعبته الدولية الثالثـــة التي اطلقت هذه الشعارات اصبح يشار اليه بالبنان ، في كل فتنـــة يقوم بها العمال ، وفي كل مطلب اصلاحي يلوحون به امام الانظار .

الروح القوميـــة

وهذا الهلع وجد حليفاً له وشريكاً في هذه الروح الوطنية التي تجلت نابضة جياشة ، سواء في هــذه الدول الحديثة العهـــد بالاستقلال التي ألفت بمظاظة كل اثر لسيطرة الاجنبي – عن طريق نزع الملكية او الإبعاد او تنفيذ معاهدات الاقليات تنفيذاً جزئياً – او في تلك الدول التي غُلبت على امرها ، فاعدها لجولة ثانية تثأر فيها لشرفهـــا ، او عند الدول المنتصرة نفسها حيث يلقى ترحيباً حاداً لدى كل المحافظين التقليديين ولدى الاغنياء الهلعين .

امـــا الولايات المتحدة ، فقد تلبّست الردة فيها مظهر روح قومية بروتستانتية ، بيوريتانية ملتزمة ، رذلت كل ما هو غريب ، وكل ما ليس باميركي مائة بالمائة : الملونين واليهود والكاثوليك والاشتراكيين والملحدين ، على السواء . وهذه الروح تَمُجّ كل ما ليس بفكر اميركي وتتجسم على أمثل مـــا تكون ، في منظمة ككلوكس كلان الـــتي بُعثت من جديد في جنوبي البلاد والغرب والغرب الجنوبي ، بعـد ان لقيت تعاطفاً كبيراً وراقت لمنطق صغار التجار وصغار البورجوازيين وصغار المـــلاكين ، فأثارت في البلاد هيجاناً ضد الزنوج ، في المدن الصناعية في الشمال ، كما تركت اثرها في التشريعات الرامية الى تحسين النسل والمحافظة على الجنس التي ظهرت في ١٦ ولاية من الولايات الاميركية ، للحد من عمل الفئات التي تعمل على فساد العرق الاميركي وإفساده ، كما تـدخلت في قوانين الهجرة والاغتراب ، عام ١٩٢١ وعام ١٩٢٤ . وهذه الروح التي سيطرت على البلاد تفسر لنا كيف صدر قانون تحريم المشروبات الكحولية (قانون فولستيد عام ١٩١٩) الذي حظر تدريس نظرية التطور والارتقاء في المدارس الرسمية في بعض الولايات (تنسي ، كنتـاكي ، فلوريدا) ، كما كانت هذه الروح بالذات وراء سياسة العزلة التي رفضت اقرار معاهدة فرساي وابعدت الولايات المتحدة عن عصبة الأمم .

امـــا في فرنـــا ، فالروح الوطنية التي استبطرت قبل الحرب وجاشت في النفوس توّاقة للثأر ، تطرب لرؤية العلم والجيش ، والتي تتمثل خير تمثيل برابطة المواطنين ، وبالعمل الفرنسي ، اخــــذت تنتشر وتوسع حلقاتها بين رجال الفكر الفرنسيين وبين رجال السياسة ، يغذيها في

النفوس ، نشوة النصر والغبطة لامتلاكها امبراطورية استعمارية تضم من الطاقات والموارد ما يدهش ويبهج ، يدغدغها الحلم الذي يحول في روع البعض برؤية فرنسا تضم مائة مليون نسمة ، والشعور بأن ثمرة النصر ذهبت جزافاً وراحت بدداً بفعل نفوس غريبة اجنبية مسودة، وفريق أخرق أهوج من الساسة الفرنسيين ، كما ان الخوف من الثورة البلشفية بعث في صفوف اليمين الذي يجيش بعاطفة قومية غلابة، عذراً لاحتكار مفهوم « الوطن » ضد هذه الحركات التي يبعثها اليسار المتهم بضلوعه مع الدولية الثالثة . وهذه الروح القومية يلتف حولها رجال الاكليروس والجيش الذي أصبح نفوذه اقوى من أي وقت مضى ، والطبقة البورجوازية العليا ، وتتغلغل في صفوف هذه الطبقة من ابناء الشعب التي جعلتها الاضرابات المتكررة تتعاطف مع اليمين ، كما ان الحركة النقابية ذاتها والجمعيات المهنية والمطالب العمالية التي تنزع الحد من سلطة رب العمل المطلقة في المصنع ، والدخول في مفاوضات معه على اساس التساوي ، وكل الذين يستجيبون الشعارات المضادة للديموقراطية ، او المعارضة للروح البرلمانية او المعادية للموظفين الذين يعتنون النقابات وكل ما يمت الى الاشتراكية بسبب ، وخيبة الامل التي سببتها معاهدات الصلح ، وموقف المانيا ، والصعوبات التي أثارتها قضية دفع التعويضات ، كل هذه العناصر عملت على التفاف جانب كبير من الرأي العام حول برنامج عام هدف الى الاكثار من التسلح وجمع الاحلاف والوقوف موقف الحذر من عصبة الامم ، واعتماد سياسة التشدد والحزم « والتقيد بتطبيق نصوص المواثيق » والمعاهدات المعقودة التي تنص على انضباط وطني آمر يعتمد على تسلسل اجتماعي والدفاع عن القِيَم الوطنية .

اما في المانيا ، فقد لقيت الروح الوطنية مغذّياً لها وموقظاً، في قسوة الشروط وصرامة الاوضاع التي فرضتها عليها معاهدة فرساي ، وفي هذه الروح الالمانية المتكبرة المستطيلة التي تصاغرت امام الخسف الذي نالته في الحرب ، واضطرارها للنزول عند رغبات شعوب طالما نظرت اليها من علٍ باستخفاف وازدراء ، كالبولونيين مثلاً ، والمادة ٢٣١ من معاهدة فرساي التي تُرغِم المانيا على الاعتراف بمسؤولياتها في إطلاق شرارة الحرب كما ارغمتها على الاعتراف باستعمالها أساليب بربرية وذرائع وحشية في النهوض بها . وقد وجدت هذه الروح غذاء لها في هذه المساعي الجاهدة التي قام بها فريق من الفرنسيين للقضاء على وحدتها بافتعالهم إثارة حركات انفصالية ، وفي السياسة التي انتهجها بوانكاريه بتطبيقه المعاهدات المعقودة نصاً وروحاً ، وباحتلال فرنسا لفرنكفورت والروهر ، وسياسة الاحلاف التي اتبعتها فرنسا متهمة اياها بضرب نطاق حولها يسهل معها التحكم بها ، وهذا الجيش « الذي لم يُهزم » بل راح ضحية طعنة خنجر في الظهر ، فحاولت المعاهدة الحد من قوته وبطشه ، والذي يحاول بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، الحفاظ على تقاليده الجيدة والبقاء حياً قوياً بعد ان يكثر من وسائل التمويه والتعمية والتضليل ، وحول فرقة البلتيكوم التي تتألف من متطوعين احرار أولاً ثم حول تشكيلات عديدة شبه عسكرية قامت وراء مظاهر غرارة ، فراحت الروح

والوطنية الالمانية تغذي النفوس بروح الثأر كما تغذي فيها روح العداء لجمهورية وعار بنت الثورة « التي فرضها الاجنبي » والتي وقّعت في معاهدة فرساي الظالمة . ومقابل فريق من رجال السياسة ، لا مكانة لهم ولا شأن ، راح الجيش من جهته ، وارباب الصناعة الضخمة من جهة اخرى ، يشجعون المنظمات القومية التي تجتذب اليها انصار الملكية الذين كان عددهم كبيراً وخصوم الشيوعيين ، واعداء السامية ، والوطنيين المناهضين للديموقراطيين ، وهذا العديد من الهيئات الشعبية ، حتى ومجلس الجمهورية للرايخ ، وهب على البلاد تيار فكري غامض المعالم يتميز بمعاضدته للرأسمالية والسامية والليبرالية والروح الفردية والماركسية تبلور حول فريق من الكتاب وعلماء الاقتصاد الذين يحنون الى ذكريات الماضي الذي انقضى ويُعرضون عن حاضر يبعث الانقباض والاسف في النفس ، امثال ورنرت سمارت ، رسول الاشتراكية الالمانية ، واوزوالد شبنغلر ، صاحب الكتاب المشهور : « غروب الغرب » او مولر فان دن بروك الذي طلع علينا ، في كتابه الموسوم : « الرايخ الثالث » الصادر عام ١٩٢٣ ، بنظرية صفاء الدم او العرق ، والجهاد ومحاربة الرأسمالية الدولية واليهود ... وكلها مبادىء تبناها كتاب « كفاحي » الذي ظهرت طبعته الاولى ، عام ١٩٢٥ ، والذي لقي من الرواج واصاب من الانتشار والشيوع ما جعل منه خطراً مداهماً .

وفي ايطاليا اتخذ التيار القومي الذي جرّ الامة الى الحروب رغماً عنها ردّة جديدة وارتدى نشاطاً زاخراً من جراء خيبة الامل التي سببتها له معاهدات السلم . فقد كانت ايطاليا احدى الدول التي عادت عليها الحرب بفوائد ومكاسب جمة ، منها مثلاً : ضم تريستا ومقاطعة استريا وترانت فتمت بذلك وحدتها الجغرافية بانضمام اكثر من ٢٠٠٠٠٠ الماني واكثر من ٥٠٠٠٠٠ كرواتي وسلوفيني واحتفظت لنفسها بجزر الدوديكانيز التي يقطنها يونان ، كما كرّست المعاهدة زوال منافستها اللدود وعدوتها الكبرى : النمسا والمجر . وقد ساءها جداً عدم تطبيق الاتفاق المعقود ، عام ١٩١٥ الذي تعهد لها باعطائها دلماتيا ، وعدم مشاركتها باقتسام تركة السلطنة العثمانية ، والامبراطورية الاستعمارية الالمانية . وقد وجدت الروح القومية الايطالية امامها فرصة ذهبية لاستغلال الحقد الحقين المتجمع في القلوب من جراء ارتفاع الاسعار واشتداد البطالة في البلاد ، والقلق الاجتماعي الناجم عن الاضرابات والاعتصامات ، والاضطراب البادي على ارباب العمل من تصرفات البروليتاريا المنظمة . واذ ذاك اي سنة ١٩١٩ ، استبدلت كتائب العمل الثوري التي رأت النور عام ١٩١٥ اسمها باسم كتائب المعركة الايطالية ، فاجتذبت اليها متطوعي غبرييل دانونزيو ، واخذت بشن هجمات تأديبية ضد النقابيين والاشتراكيين ، والكاثوليك الشعبيين ، وبالتواطؤ مع الحكومة والجيش جاءت بموسوليني الى الحكم .

وفي اليابان حيث ينعم قادة الجيش بنفوذ قوي ، قامت منظمات وطنية ذات نزعة حربية زادت هذا النفوذ رسوخاً ووطدته . من هذه المنظمات : جمعية الحشد الشعبي ، والجمعيات المناهضة للرأسمالية يعضدها صغار الضباط الذين يعودون الى اصل وضيع ويفقهون جيداً ما

يعني عندهم ضغط كبار الملاكين وشركات الاحتكار على أسرهم وعوائلهـــم ؛ والمنظمات السرية الطابع الاخرى كمنظمة « التنين الاسود » ومنظمة الاحتياطي وغير مما ظهرت اذ ذاك، فعمل اعضاؤها دعاة لمُثل الفروسية والبطولة النابعة عن البوشيدو وعن عبادة الوطن العميــــاء التي غذتها في النفوس الحروب المظفرة التي قادوها ضد الصين وضد الروس ، والايمان بأن « التينو » او الامبراطور هو ابن الالهة ، والاعتقاد الراسخ في النفوس بأن اليابان هي محور العــالم ونقطة الدائرة فيه . وفي احتقارهم الشامل لاعضاء البرلمــان الذين لا سلطة لهم ولا شأن ، وللاحزاب المتفككة ، وللسياسيين الغارقين في الفساد والافساد ، راحت الهيئات والمنظمات تصفي بالقتل كل من تعتبرهم خونة (وهكذا تم اغتيال الرئيس هارا عام ١٩٢١ لأنه وقّع اتفاق واشنطن ، وراحت تغذي في القلوب والنفوس مثــــالية تقول بالجامعة اليابانية ، على غرار الجامعة الجرمـــانية .

العنصرية او العرقية

تنوعت مظاهر هذه الروح القومية المعادية وتلونت اهدافها. من مظاهرها الرئيسية مثلاً : العرقية او العنصرية التي تنطوي على عداء ازرق جذري للاجناس السفلى الغازية . وقد برزت هـــذه النزعة في الولايات المتحدة الاميركية حيث لف التمييز العنصري كل الملونين ، في اي قطاع كانوا من قطاعات البلاد حتى في نقـابات العمال التي حُظر عليهم دخولها كاعضاء والانتســاب اليها ، وبصورة اخف ضد اليهود ، وهي نزعة امتدت الى اميركا الجنوبية حيث اشتد التمييز العنصري بين البيض وبين سكان البلاد الاصليين، الذين تم حشدهم وتجميعهم في اماكن فقيرة ، بينما احتفظ بأطيب الارض وأجورها للبيض . وعلى هذه السياسة العنصرية سارت كل من اوستراليا وزيلاندا الجديدة اللتان اغلقتا منافذهما وابوابهما دون كل هجرة اسيوية اليها (اوستراليا البيضاء) ، لا تلين الا بصعوبة كلية لكـــــل هجرة غير انكلوسكسونية .

من اشكال هذه العنصرية وألوانها ايضاً مناهضة السامية ، وهي نزعة ارتكضت بها احشاء اوروبا الوسطى كما جاشت بها اوروبا الشرقية حيث يكثر نسبياً عدد اليهود لا سيا في المصارف والتجارة والاوساط الفكرية والمهن الحرة . وراح صغار البورجوازيين والاوساط الاكليركية يتهمون اليهود « بتجسيد الرأسمالية الحديثة في ابغض مظاهرها » ، كما اتهموهم بلعب دور حاسم بين الاحزاب الثورية . ففي بولونيا ورومانيا حيث الدول الكبرى فرضت على هذه البلاد إعطاء الجنسية البولونية والرومانية لليهود بصورة آلية تلقائية، كثيراً ما نرى مَن بيدهم الربط والحل في هذه البلاد يخالفون القانون ويتجاوزون احكامه في مـا يتعلق باليهود . فيوسعون لهم من أسباب العنف والتنغيص حتى المذابح بالجملة . وفي المانيا حيث لا يمثل اليهود سوى نسبة ضئيلة في السكان حتى بعد دخول ١٠٠،٠٠٠ يهودي اليهـــا من الليتونيين والبولونيين والاوكرانيين ، فما زالت دعاوة ماكرة بغيضة تنتشر ضـــدهم لا سيا في اثر نشر بروتوكولات حكماء صهيون ، تجعلهم مسؤولين عن كل الملذابات التي تتنامى منها البلاد ، كما تعزو اليهم تدبير مؤامرات ودسائس في

أطفاء ضد المجتمع الالماني . وقد استدم الحقد على الاخص ضد هؤلاء اليهود الذين نزحوا اليها من الشرق الذين يتفردون عن سواهم بلغتهم ونمط عيشهم ولا سيا ضد صغار التجار منهم . والامر يجري على الوتيرة ذاتها في فرنسا حيث مناهضة السامية تؤلف منذ حوادث درومون ودرايفوس، احد المواضيع التي تغذي الدهماء وطنية .

دور الكنائس

وهذه الروح القومية التي اخـذوا يُرددُونها ، اصطفر فأكثر ، الى مصالح المحافظين والمصالح الاقتصادية الكبرى بدأت حركة تقارب من الكنيسة . فالبابوية التي تميزت بموقفها الحيادي التام في الحرب ، والتي ظهر عليها الجزع من احتمال انكسار المانيا والنمسا والمجر ، اخذت منذ عام ١٩١٩ ، تواجه مشكلات حادة . ان انفجار الملكية المزدوجة – وهي الدولة الكاثوليكية المثلى – وضم اقليات كاثوليكية الى دول اكثريتها تتألف من الارثوذكس (رومانيا ويوغوسلافيا) ، لم يعوّض عنه قط بعث دولة بولونيا الكاثوليكية . وبالاضافة الى ذلك ، ان طلوع دولة جديدة ، معروفة بعدائها المكشوف للعقائد الدينية ، زاد كثيراً من هواجس البابوية ومخاوفها فراحت تحاول تكييف نفسهـا مع الظروف الجديدة عن طريق تقوية مركزيتها ، وذلك بنشرها الحق القانوني الذي باشرت بوضعه عــام ١٩٠٤ . فالتوحيـــد الذي اجرته في الليتورجيا ، وفتح المزيد من الاكليريكيات والمعاهد الوطنية في روما ، ومحاولة تحقيق الاتحـــاد مع الارثوذكس والانكليكان بواسطة طائفة « الاونيات » ، كما جاء في البراءة الرسولية (كنيسة الله) الصادرة عام ١٩٢٣ والتي تؤلف نداء اليوم بهذا المعنى ، وعقد اجتماعات دورية بين رجال اللاهوت ، من ارثوذكس وكاثوليك ، في وهلر ، وبين كاثوليك وانكليكان ، في مالين ، عام ١٩٢١ ، و١٩٢٦ ، وتقوية نفوذها بواسطة العمل الكاثوليكي الذي ينزع الى انشاء احزاب طائفية في كل بلد ، والى تنشيط العمل الرسولي بواسطة العلمانيين في الاوساط التي ينتمون اليها او يعملون فيها . واخيراً اخـــذت تتقرب من الحكومات ، وراحت تتعاون معها وتعقد معها معاهدات تحالف . وهذه الفئة من البورجوازية التي اخذت على نفسها ، قبل عام ١٩١٣ ، الدفاع عن امتيازات الدولة ، خففت من غلوائها ضد الكنيسة فوضعت جانباً القوانين التي تتعلق بالكنيسة وعزفت عن فكرة فصـــل الدين اساس السياسة التي رسمتهـــا للمستقبل ، وجاءت تدلل عن استعدادهـــا التـــام و التخلي النـــاجز عن العلمنـــة التشريعية ، التي عمـــل بهـــا ووضعت موضع التنفيـــذ ، منذ عهد تقريباً .

والبابا بيوس الحادي عشر الذي عمل سنتين سفيراً بابوياً في بولونيا عند تأسيس هـــذه الدولة وخلال حربها مع روسيا ، والذي بعثت فيه تجربته هذه وخبرته الواسعة ، الرعب من البلشفية ومن الافكار الثورية التي تحملها ، استنّ سياسة عقد معاهدات بين الكنيسة والدول التي تضمن للكنيسة إمتيازات جزئية ومنافع محترمة . فعقد ١٥ معاهدة دينية ثنـــائية الطرف ، بين ١٩١٩ – ١٩٢٩ تمّ عقدها بين ليتونيا وبافاريا، وبولونيا وفرنسا وليتوانيا وتشيكوسلوفاكيا ،

والبرتغال وايطاليا ورومانيا . وعلى الاجمال ، تكرس هذه المواثيق ، ولو بصورة ضمنية على الاقل ، بعض احكام الحق القانوني ، كما ان بعض هذه المعاهدات يحمل النص الحرفي للحق القانوني . وتوجب اعتماده والتقيد به لدى الاقتضاء ، و « يرجع الى نص الحق القانوني بالذات في كل شرح او تفسير يعود للمؤسسات الدينية » فالاساقفة يسميهم البابا بعد استشارة شكلية للحكومة المختصة فتقطعهم الدولة ملكاً كنسياً بشكل وقف او بشكل معاش تدفعـــه لهم الدولة ، وتُعفى مباني العبادة من كل رسم ، وكذلك الاكليريكيات والاسقفيات كما يُعفون من الخدمة العسكرية ، وتؤمن لهم الدولة كل سلطة في سبيل تنفيذ أحكام المحاكم الروحيـــة الصادرة بحق الاكليريكيين الذي يجري ، لسبب من الاسباب ، فصلهم من الخدمة او طردهم من السلك ، كما تعترف السلطة الزمنية ، بعقود الزواج التي تعقدها الكنيسة وبكل مـا يترتب على هذه العقود من تبعات قضائية ومسؤوليات كنسية ، وتأمين حرية التعليم الديني مع مراقبة الاساقفة للتربية الدينية والادبيـــة في المدارس الرسمية ، وحق تأليف الجمعيات والرهبانيات الدينية ، الخ. وقد رأت هذه السياسة تمامها وإكمالهـــا بإعادة التمثيل الفرنسي بدرجة سفير لدى الكرسي الرسولي ، وكما تمت المصالحة مع الدولة الايطالية بعقد معاهدة اللاتران ، عام ١٩٢٩ ، هذه المعاهدة التي اعادت ايطاليا الى الله كما اعادت الله الى ايطاليا ، كما انهـــا اعترفت بدولة الفاتيكان . فالدولتان الاوروبيتان اللتان ذهبتا بعيـــداً في سياستهما المناهضة للاكليروس ورجاله ، اتتا بالدليل القاطع على التنكر لهذه السياسة وعلى شجبها .

وتمثل الكنيسة في اميركا ، سواءٌ أكانت بروتستانتية ام كاثوليكية ، قوة محـــافظة لا يستهان بها وتتعاطف ، الى حد بعيد ، مع الحكومات الشرعية في اوروبا ، لا سيما مع الفاشية ثم تعاطفت ، فيما بعد ، مع نظام فرنكو في اسبانيا وسالازار في البرتغال ، وهذه الكنائس تحرص على الظهور بتمسكها الشديد بالقوميـــة الاميركية وعثالية تنبذ كل حركة اصلاحيـــة اجتماعية يشتم منها مجافـــاة اميركا او تخرج عن الطابع الاميركي او تمس من قريب او بعيد ، نظاماً سياسياً يقوم على مبدأ الكسب المشروع .

ازمة الديموقراطية الليبرالية

ان تعاظم نفوذ المؤسسات النظامية القائمة ضمن طبقة العمال والقوة التي حققتها الثورة الشيوعية المعـــدية ، أدّت الى تطورات جذرية داخل النظام الديموقراطي الليبرالي . فطالما تعاقب على الحكم احزاب محافظة مهما كان شكلها ولونها ، متفقة فيما بينها رأياً ونظراً حول المبادىء الاساسية العامة ، اي حول البنيان الاساسي للمجتمع البشري ، كان من الطبيعي جـــداً ، وأم الحق ، ان تتنـــاوب هذه الاحزاب على الحكم دون ان تخشى الواحدة منها اية مفاجأة او ان توجس شراً من موقف الاخرى التي تحل محلها في الحـــكم ، بأن توجـــه ضربة قاصمة لنظام الملكيـــة . اما الآن ، ولم يَعُد امامنا حزبان من نوع او جنس واحد، بل نحن امام طبقتين متعاندتين متضادتين، اما الآن، ولم تعد الطبقة العمالية لتقنع بإصلاحات جزئية تحققها تدريجياً ، بل تحـــاول ان توسع مفهومها

للديموقراطية ولمبادئها العامة بحيث تطال المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، وان المطالبة باصلاح اجتماعي يمكن ان يتم بقوة متنامية . فالوضع الجديد وما يكتنفه من احتمالات مزعجة يؤلف خطراً يهدد في الصميم النظام الاجتماعي القائم ... فالتوتر اخذ يشتد ، كما ان الطبقة الحاكمة ازدادت تصلباً في تحفظها وتخوفها ، للوقوف في وجه كل اصلاح يتناول الاساس . فهـــذه الهيئات تتخلى عن الاساليب التقليدية التي اتبعتها لترغم الحكومة على انتهاج سياسة تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالحها . ففي بلد هو موطن النظام البرلماني الامثل ، راح عضو اشتراكي معتدل ، هو هارولد ج. لاسكي ، يتساءل ، بعد ان وعى حقيقة هـــذا التناقض ، ما اذا كان بالامكان ، التوفيق بين الحركة العمالية التي ترمي الى ادخال تطوير جذري على الهيئة الاجتماعية وبين النظام البرلماني الذي تتنافى طبيعته وهذا التطور . ومن جهة اخرى ، فالمشروعات الاستثمارية الضخمة التي تشرف او تهيمن على الصناعات الرئيسية لها من القوة والطاقة وفيها من سرعة العطب ما لم يكن لها من قبل ، اذ ان ازدهار هـذه المشروعات يتوقف، قبل كل شيء، على السياسة الاقتصادية التي تنتهجها الحكومة ، والتي تستطيع ان تشجعها كما تستطيع ان تحد منها عن طريق التشريعات الجركية والضرائبية والاجتماعية . والنظرية الليبراليـــة التي كانت تتمنى من قبل ألاّ تتدخل الدولة في الشؤون الاجتماعيـة والقضايا الاقتصادية ، عفا امرها الآن ، اذ اصبح من اللازم ، اليوم ، وضع الدولة في إطار مصالح الطبقـات المتحكمة وابقائها في هذا الإطار ، لاستثمار هذه المشروعات ولمراقبتها عن كثب .

تقوية شؤون المشروعات الكبرى

تحت تصرف المشروعات الكبرى ومصالحهـــا الرئيسية اليوم ، امكانات عمل لم تكن لتتوفر لها من قبل على هذا النحو من القوة .

وبين الهيئات الضاغطة ، الهيئات الوسيطة التي تدافع عن مصالح اعضائها لدى الحكومات وهي هيئات قوية النفوذ بفضل ما لديها من وسائل التأثير والاغراء ، وبفضل ما لهـــا من قوة في الانتخابات ، باعتبارها المرجع الاخير الذي تعتمـده الادارات العامة عندمـا تود الحصول على معلومات فنية دقيقة ، لوضع تعريفات جركية جديدة ، او لتحديد اسعار الحاجيات– وكلاهما مشكلتان لعبتا دوراً كبيراً في السنوات الاخيرة . وهذه الاقلية (الاوليغارشية) التي تتحكم بالشؤون الاقتصادية العليا « لا توجس شراً على مصالحها ولا تخشى بأساً من الدولة ، لما بينهـــا وبين الدولة ، « من اواصر وروابط حميمة (بعضها يلسم الى حد بعيد) بالسرية والخفية» لا سيما، كما جاء في تعليق السيد ج. بيرو ، « والصحافة بأجمعها تقريباً باستثناء من احتفظ منها ببعض الجرأة والشجـــاعة ، تقع مباشرة او مداورة تحت اشراف هذه القوى التي طالما نعتوها : « بالاخويات الاقتصادية » .

تنظيم الاحزاب وتطور عناصر التنفيذ فيها

وزاد الديموقراطية البرلمانية ، ضعفاً على ضعف ، التطور الذي لحق بالاحزاب ، وهذه الاجراءات التي اتخذت ، خـــلال الحرب ، لتقوية العنصر التنفيذي الضالع بمسؤولياتها ، والتوسيع من نطاق صلاحياته ، اي نقل السلطة

الفعلية التي تتمتع بها الهيئة الانتخابية ، الى البرلمان على ان يتخلى عنها للحكومة ، وهو اسلوب اخذ يزداد ويتسع . فالتنظيم الحزبي اخذ يرتدي طابعاً يتسم بالتصلب ويتلبس بالمركزية، وبذلك يضعف تأثير المناصرين على من بيدهم دفة الامور ، بينما يصبح من بيدهم العنصر التنفيذي ، على عكس ذلـك ، كلي القـدرة والسلطـة : ففي بريطانيا مثـلا ليس من امـل قـط للمرشح المنفرد بالنجـاح او لتجـديد انتخـابه وبعـد ان يجري انتخابهم ، يخضع النـواب ، ومعظمهم نكرة يعينهم رؤساء الحـزب او اللجان المختصة ، عن طريق الاختيار ، في معظم الاحوال ، الانضباطية صارمة ، آمرة تراقب ، عن كثب ، حضورهم الجلسات ، وتصويتهم (بواسطة حامل السوط في مجلس العموم) وبـذلك يصبحون آلات اوتوماتيكية في عملية التصويت ، ورئيس حزب الاكـثرية في المجلس يصبح بصورة اوتوماتيكية ، بحكم الاكثرية التي تسانده ، رئيساً للحكومة ويرتبط مصـيره بمصير المجلس ، اذ لا يمكن قلبه الا عن طريق انتخابات جـديدة . فحق حل المجلس لم يعُد يلعب في عملية تحكيم يشتد حولها الخلاف بين الحكومة والمجلس بل يجب الرجوع فيها الى استفتاء شعبي أو اجراء انتخابات عامة في ظروف ملائمة للأكثرية . وفي المانيا ، يأتي تنظيم الاحزاب اقـل مرونة وطواعية منها في دول اخرى . فنظام التمثيل النسبي الكامل يعطي كل حزب عدداً من النواب يتناسب وعدد ناخبيه ، في المجلس ، وعدداً من الوزراء ، يتناسب وعدد نوابه ، وفي الرابع ، عدداً من الوظائف الادارية يتناسب واهمية الحزب . وهكذا نرى الحكم فيها يتقاسمه، في الواقع ، عدد من الهيئات والمنظمات المتنافسة تتمثل بمندوبين تختارهم ليتولوا باسمها ، مراكز في الحكم والوظائف الادارية . والمرشحون للانتخابات يجري انتقاؤهم نهائيا من قبـل لجان إدارية ، تتدخل في كل قضية هامة تعرض للبحث ويتحتم القطع بها ، في مفاوضات سرية تخضع للمساومات وللمناقشات المحتدمـة . ان عدم توفر اكثرية ثابتة يؤمن النفوذ للمصالح الاقتصـادية الكبرى الكلية القدرة كما يقوي جانب ادارة تبقى امينـة وتستجيب لتقاليد السلطة المرعية .

ومن جهة اخرى ، فالمشاكل المعقدة التي يترتب على الحكومات البت فيهـا ، والاضطرار لاتخاذ الحلول المرتجاة ، ومركزية التسهيلات التي توفرها الطـائرة والتلفون والراديو للاعلان ولنقل الاوامر والتعليمات، كل ذلك وسع كثيراً منذ الحرب من نطاق تبعاتها. فالمجلس والهيئات الاستشارية التي عليها ان تواجه الحلول التي تقتضيها مشكلات تقنية حادة ، كثيراً ما حال دون اعطاء الحل السريع المرتجى ، اذ ان تثاقل الآلة وضعف مردودها كان من بعض نتائجه انتقـال سلطة القطع او الجزم . وهكذا نرى جانباً كبيراً من سلطة المجلس الاساسية تنتقل امـا الى ايدي الادارة ، وامـا الى العنصر التنفيذي في الحزب ، بعد ان قويت سلطته بمجرد اعتماده المتزايد على الخبراء الذين يتحكم بهم .

ففي بريطانيا العظمى تركزت السلطة التنفيذية ، بالفعل ، بين يدي قلة ضئيلة من الوزراء ، عندما يكون على رئاسة الوزارة شخصية قوية ، كما كانه لويد جورج مثلاً . فهو الذي يتخذ في

الغالب القرارات للتوقع اتخاذها . ان تشعب هذه المسؤوليات وتعقدها وتشابكها المربك قضى بأن يحيط نفسه بعدد من الدوائر والمصالح تؤلف نوعاً من امانة سر الدولة ، تتألف من خبراء وفنيين يتولون درس المشكلات العارضة التي تدخل ضمن اختصاص وزارة ما من الوزارات ، تولى رئيس الوزارة استقلالاً واسعاً عن زملائه في الحكم ، الامر الذي سوّغ للقانوني البريطاني المشهور رمزي موير ان يتكلم عن « دكتاتورية الوزارة » في انكلترا .

اما في فرنسا ، فقد وسعت السلطة التنفيذية ، من نطـــاق سلطتها ، بالرجوع الى المراسيم الاشتراعية ، بعد ان يخول المجلس الحكومة، سلطة التشريع في موضوع او مواضيع لا تستطيع او لا ترغب الاكثرية تحمل مسؤوليته . ففي عام ١٩٢٤ و ١٩٢٦ ، خُولت وزارة بوانكاريه، اتخاذ الوسائل التي توفر على البلاد مليار فرنك، عن طريق الاصلاحات المالية في البلاد، وتبسيط المعـــاملات الادارية بمراسيم اشتراعية يقرها مجلس الوزراء . وهكذا يتخلى البرلمان عن صلاحيـــاته للوزراء ، اي للحكومة ، والمراقبة التي يجريها فيما بعد تأتي ضعيفة ان لم نقل لا تأثير لها .

الادارة العامة وتفوذها المتصاعد

وهكذا فالدول التي تتخبط في خضم المشكلات التي خلفتها الحرب وراءها ، نرى الادارة فيهـا تتخذ المزيد من النفوذ وعظم الشأن ، من جراء تزايد مداخلات الدولة وتعقد تنفيذ القوانين ، الامر الذي يفرض قيام هيئة من الموظفين المتخصصين والتقنيين المجربين . والحال ، فالادارة العليا تؤخذ من بين الطبقات الموجهة عن طريق الاختيـار المعلل . وهكذا نرى في انكلترا مثـلاً انه لم يعد من الممكن أخذ كبار موظفي الادارة الا من خريجي الجامعات الارستوقراطية : كأيتن واكسفورد وكمبريدج . اما الباقون فيؤخذون من بين الطبقة البورجوازية العليا بحيث تستطيع البلاد ان تصون مـا عرفت به من روح محافظة تمد المعاهد الرسمية العليا على تغذيتها والترسيخ لها في النفوس . وفي فرنسا ايضاً ان اعضاء الهيئات الادارية العليا ، كالتفتيش المالي ومجلس شورى الدولة الذي يلعب دوراً كبيراً في اعداد القوانين وفي تفسيرها وشرحهـا وتطبيقها عن طريق المذكرات الادارية العامة ، يؤتى بهم عادة من المعين نفسه اي من اوساط البورجوازية العليا ، كما ان عـدداً كبيراً من موظفي هذه الفئة ينتقلون للعمل في المصالح الخاصة . ولم يجر اختيـار هؤلاء الموظفين عن طريق صلاتهم العائلية او عن طريق صداقات خاصة ، للدفاع عن مصالح الطبقـات الحاكمة . تضامناً مع طبقتهم او احتراماً لتقـاليد فئتهم . فهم يقعون ، من حيث يدرون او لا يدرون ، تحت ضغط الهيئات الاقتصادية المعنية ، اذ منها يستمدون ، على الغالب ، المعطيـات الفنية التي يحتاجون اليها ويعتمدون عليها في تخطيطهم .

الرأي العام والصحافة

في إطار الحضارة الديموقراطية حيث الجماهير مثل هذا الدور العظيم الشأن ، فالمصالح التي تحرك الأحزاب وتوجه الحكومات ، هي نفسها المصالح التي تحرك الرأي العام، عن طريق الصحافة . فالجهاد الذي قامت بأمره الصحافة

خلال القرن التاسع عشر لتأمين ما تحتاج اليه من حرية لم يكن سوى عراك ضد السلطات العامة يرمي للدفاع عن حرية هذه الصحافة ، من تعديات الحكام . وقد ظهر خطر آخر على الصحافة ، منذ عهد بعيد ، جاء هذه المرة من « ارباب المال » الذين يتوفر لهم وحدهم ، خارج الحكومة والاحزاب القوية ، موارد جَسيمة لا بـــد من توفرها لإنشاء وســائل إعلامية يُرغب فيها . « فصناعة الرأي العام » ، اصبحت اليوم ، صناعة كغيرها من الصناعات القائمة ، وبذلك أصبح أرباب الجرائد ، رجال اعمال تعيش اعمالهم وتزدهر من الاعلانات توزعها الشركات التجارية ، والصناعية الكبرى . والحال ، فالجريدة تكلف اكثر مما تدرّ على صاحبها . فالجريدة التي تباع بفلس (بني) في انكلترا والتي لا تدر على الناشر سوى ½ الفلس ، تكلف بالفعل ، ما لا يقل عن فلس وربع . ولذا وجب ان نبعد عن الجريدة كل ما من شأنه ان ينفّر المشتركين ويقصي عنهـــا الاعلان ، اذا لم تشأ الادارة ان تتعرض لصعوبات ومشاكل مالية . وهكذا يتحدد استقـلال الصحيفة ، إلا ان تأثير الفئات الضاغطة او الفئات المؤثرة مع تأثير الإعلان ، يلحقان بعض الضعف بهذا الاستقلال . فعملهم الموهن او المعطل يقوم على الأخص ، بالاحتفاظ ببعض الاخبار او بالتقليل منها ، حتى إذا ما رفضت الجريدة الانصياع لرغبة هذه الفئة ، حرمت من الاعلان فيها فتقل مواردها ويتهددها الافلاس . وهذا ما أصاب بالفعل صحيفة « شاتها توغا » الاخبارية ، التي ناصرت وماشت مشروع وادي تنسي ، والتي اقفلت أبوابها عام ١٩٣٩ بسبب قطع الشركات الكهربائية الخاصة ، الاعلان عنها ، لمعارضتها لمشروع الرئيس روزفلت .

وهـــذه الصناعة – صناعة الصحيفة – كغيرها من صناعات العصر ، تتمركز وتنزع الى الاحتكار والتخصص . هنالك اتحادات احتكارية تملك : الجرائد اليومية والاسبوعية ، كما تملك الجرائد المصورة واحياناً جرائد ذات لون سياسي معين . ففي كل البلدان تؤلف الصحافة عملية تجارية كبرى . فهي تحتل في انكلترا المرتبة الثانية عشرة بين الصناعات البريطانية ، اي انها تأتي قبل بناء السفن . فـالدايلي نيوز في نيويورك تسحب مليون نسخة وربع المليون من كل طبعة تصدرها اي ما يوازي سحب كل صحف نيويورك مجتمعة . ففي عام ١٩٣٠ ، كانت عشر جرائد يومية بريطانية، تسحب ٩ ملايين نسخة،منها مليونان لصحيفة الدايلي هيرالد والدايلي اكسبريس . وجرائد يوم الاحد كجريدة نيو يوز اوف ذي وارلد ، والشعب ، كانت تطبع ٣٫٧٥٠٫٠٠٠ و ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسخة وكل صحافة انكلترا موزعة بين سبع فئات جبارة، منها فئة هرمزورث باسم اللورد نورثكليف واخيـــه اللورد روثرمور ، وفئة اللورد كروز وفئة اللورد كمسلي وفئة وستمنستر التي تضم ٣٦ صحيفة ، وصحف المقاطعات التي تشرف عليها أسر تونتري وبيرسن ، وفئة اودهامز التي تتعهد نشر جرائد حزب العمال . وعلى نسبة مختلفة ، هنالك مثل هــــذا التركيز في البلدان الأخرى . ففي كل بلد ، تملك الاستثمارات الكبرى مباشرةً ، جرائدها ولهـــا تأثير حاسم على الاتجاهات والتيارات السياسية، حتى ولا ســـيما على الجرائد ذات الطابع الاخباري . وتشذّ عن هذه القاعدة الصحافة اليسارية المتطرفة ، اشتراكية كانت ام شيوعية

وجريدة التيمس التي تولاها بعد وفاة صاحبها اللورد نورثكليف عام ١٩٢٢ ، الميجور أستور الذي عرف ان يؤمن لها استقلالها بوضعها تحت اشراف خمسة امناء . وفي المانيا يقوم الاحتكار الذي يتألف من شيرل واولشتاين رستينز ... ، وهذا الاخير كان يشرف ، عام ١٩٢٠ ، على ٦٠ صحيفة ووكالة اخبار ، وعلى دار نشر ، وغير ذلك من المؤسسات .

اما في الولايات المتحدة بين ١٩١٠–١٩١٢ ، فالجرائد اليوميـــة التي كان سحبها يزداد ١٢٥ ٪ ، هبط ٣١٫٨ ٪ ، كما ان نسبة الجرائد التي تقوم فيها الصحافة على المنافسة ، هبطت ، في الفترة ذاتها من ٥٧ الى ٥٫٧ ٪ كما انها اختفت او انقطعت في ٩٤٫٣ ٪ من المدن التي كانت تصدر فيها ، اذ ان ١٤ من مالكي الصحف يشرفون على عدد من الجرائد يمثل ٢٥ ٪ من مجموع السحب اليومي . وهنالك ٥٦ سلسلة غالباً ما تكون مرتبطة بمحطات إذاعية ، تمثل رؤوس اموال ضخمة . ففي سنة ١٩٤٠ ، كانت سلسلة هيرست تقدر بـ ٩٠ مليون دولار .

وهذه النزعة تبرز ايضاً في بريطانيا . اذ ان ٤٧ ٪ من جرائد الصبـــاح التي كانت تصدر بين ١٩٢٠ — ١٩٤٥ ، و ٢٥ ٪ من الجرائد المسائية ، اختفت وزالت من الوجود . فمن اصل الجرائد اليومية التسع عشر التي كانت تصدر في لندن عام ١٩٣٩ ، كان ١٢ منها فقط لا تزال مستمرة في صدورها ، عام ١٩٥٥ . كذلك في فرنسا ، حيث كان يصدر ٢٣٨ جريدة يوميـــة عام ١٩٣٩ ، فلم يبق منها على الصدور ، عام ١٩٥٣ ، سوى ١٦٤ جريدة لا غير . وفي باريس تناقص الى النصف عدد الجرائد اليومية في الفترة الواقعة بين ١٩٣٩ — ١٩٥٥ ؛ وفي المقاطعات هبط عـــدد الجرائد من ١٧٧ جريدة الى ١٢٣ ، وعلى هـــذه النسبة او المعدل ، قس باقي انحاء العالم .

والاضطرار دوماً الى تخفيض نفقات اصدار الصحيفة وتأمين استمرار صدورها على نطـــاق تجاري واعلاني رابح ، يستدعي حتماً انتهاج وحدة المظهر والمحافظة عليه . وهكذا تكونت وكالات المراسلين وسلاسل توزيع مقالات قياسية ، يجري إعدادها وفقاً لمخطط معين ويقتضي ظهورها فرية! من المحررين بعقلية او ذهنية معينة ، وهي مقالات يجري التقاطها بعض الاحيان بالجهـــاز اللاقط او المسجل للاخبـــار اللاسلكية عن بُعد ، وهي طريقـــة تقتصد كثيراً من نفقات اصدار الصحف . « ثم تتجه الصحيفة للصدور بنموذج معين ، من القارىء العادي ، اذ ان عدداً كبيراً من الصحف ينشر المقالات ذاتها والاخبار ذاتهـــا والريبورتاجات ذاتها ، والصور ذاتها والرسوم الهزلية ذاتهـــا ، والتعليقات ذاتها . وهي مركزية تؤذي حرية الصحافة في الصميم ، كما تؤذي الاستقلال في الخبر .

اما في المجال الفكري ، فالمكان المخصص للاعلان والذي يأخذ احيـــاناً نصف الصحيفة في الجرائد الاميركية ، فالرغبـــة في ارضاء الجمهور الذي يفتش في جريدته ، عن وسيلة التسلية والترفيه اكثر منها جريدة اخبار موضوعية ، ولذا فهي تخفض من الحيز المخصص للأخبـــار والمقالات العامة لتفسح مجالاً اكبر للأخبار المثيرة ، بعد ان يمن قـــلم التحرير في تشويهها وفي

اختصارها لتصبح من هذا اللون المرغوب فيه (ان جرائد اللورد نورثكليف ، نشرت بين ١٩١٧ – ١٩٢٢ ، خبرية مقتل لينين ٣٧ مرة) كما انها كانت تحرص على اخبار الجرائم والفظائع والاخبار التي تثير الفضول بين الناس ، والروايات البوليسية المسلسلة ، والصور الهزلية المتتابعة ، واخبار الألعاب والملاهي ، ومشكلات البريدج والشطرنج والكلمات المتصالبة » . وضرورة استباق الغير على نشر الخبر المثير ، في اخبار طارجة تضطر الصحيفة الى نشر نصوص شوّشت او حُرّفت عن قصد عند نقلها ، او اخبار سابقة لأوانها لا تلبث الحوادث ان تكذبها (من ذلك مثلاً عدد خاص اصدرته احدى الجرائد الباريسية ، يوم ٩ ايار ١٩٢٧ ، حول وصول نتجسر وكولي الى القارة مع انهما ضلاّ في البحر وماتا) .

فكما ان الصحافة هي مشروع استثمار صناعي وتجاري يتجه من الكبار ولا تمثل في اي مرحلة من مراحلها ، اي دور تربوي او اخباري نزيه ، فالصحافة التي تتجه من الصغار والتي راحت تزداد اهمية وشأناً ، تخضع ، هي الأخرى ، لاعتبارات تجارية . فهي تدعو لتمجيد القوة والبطش ، وتتدح السوبرمان وروح اللصوصية والمغامرات . فعملها المخلخل للأخلاق لا ينقص بشيء عن أثر الصحافة العاطفية او الشعورية التي تصدر بعدد كبير من النسخ (٤ ملايين نسخة في الاسبوع ، خلال عام ١٩٥٥) ، فتنتشر في المحيط النسوي ، ادباً مخلخلاً ، شديد التأثير على المشاعر والعواطف البشرية .

ولذا فالوصف الذي تركه لنا سيغفريد ، عام ١٩٢٧ ، عن الصحافة الاميركية لم يفقد شيئاً من قيمته للآن ويمكن اطلاقه ، وتطبيقه على العالم اجمع :

« حشو الدماغ ، هي عملية موصولة في الولايات المتحدة . اذ ان لارباب المال من الوسائل المتنوعة ، والقدرة ما يمكنهم من اظهار الرأي العام بالشكل الذي يريدون ، فيخفون عنه ما لا يرغبون في كشفه له ويتجهون به الى الموقف الذي يريدونه له من موضوع معين ، وبذلك يوقعونه في شباك لا منجاة له منها بحيث لا يعود يشعر بأي ازعاج قط » .

والطابع الرأسمالي الذي يطبع هذه الصناعة ، والتأثير الذي تتركه الصحافة بفضل الاعلان والدعاوة التي تبثها ، بحيث لا يستطيع الافلات منها ، والمساعدات التي تتلقاها تضطر السواد الاعظم من الجرائد على التزام جانب المتزن والمحافظ وهو تأثير يتلبس الضغط والاكراه ، مع اشتداد الصراع الطبقي واهمية القضايا المطروحة للبحث .

في الولايات المتحدة

في الولايات المتحدة الاميركية حيث قامت المشروعات الكبرى على اسس دقيقة من التنظيم ، وحيث يسام الناخبون ولا سيما الفقراء منهم على قدر ضعيف جداً ، كثيراً ما يقل عن ٥٠٪ ، وحيث جماعة الناخبين مطواعة وجاهلة ، فتنظيم الانتخابات واختيار المرشحين ، في المرحلة الاولى يتم على يدي قلة من الناخبين الثانويين . فالدور المهم الذي يمثله موجهو الحملة الانتخابية وزعماء الاحزاب ، يسهل كثيراً عمل المنظمات الثرية الناشطة التي هي دوماً على استعداد كلي لدفع الثمن محافظة منها

على ما تنعم به من امتيازات ومنافع ، ورغبة منها في انهائها . ان وضع ولاية ديلاوير حيث تسيطر اسرة دوبون دي غور، ومثلها ولاية مونتانا الواقعة برمتها تحت مراقبة شركة انا كوندا لتعدين النحاس ، ليس بالوحيد . فالاغنياء الاعضاء في هذه الشركات هم الذين يتحملون نفقات الحملة الانتخابية، ويمولون صندوق الحملة لدى كلا الحزبين المتنافسين . ففي حملة انتخابات الرئاسة عام ١٩١٢ و ١٩٢٨ ، ســاهم في تمويل الحملة : ملون اغنى اغنياء الولايات المتحدة ، و ج . د. روكفلــر وايريني دوبون دي غور والفرد سلون وشركة جنرال موتورز وهارفي فايرستون ودومنيك غودريتش وغيرهم. ففي عام ١٩٢٨ ، كان عـــدد الذين حبذوا ترشيح الرئيس هوفر للرئاسة ٨٧٪ من الاسماء الواردة في قاموس الاعلام (من هو) في اميركا .

والكونغرس الاميركي يتعرض لضغط من قبل اصحاب المصالح المنظمة ، ليس فقط ابان حملة الانتخابات فحسب ، بل بصورة دائمة ، وذلك عن طريق الفئة الضاغطة المكلفة بعملية الضغط هذه . ولعدم وجود حزب العمال في البلاد يقوم بهذا الضغط النقابات العمالية التي كان ضغطهــا خفيفاً قبل « النهج الجديـــد » اذا ما قورن بضغط اصحاب المشروعات الاستثمارية الكبرى. ونرى صورة واضحة من هذا كله ابان عهد الازدهار الذي رفرف على البلاد بين١٩٢٢ـ ١٩٢٩ . فالحزب الجمهوري الذي يتولى الحكم، آنذاك ، يسند رئاسة مختلف الدوائر الرئيسية ، الى كبار ممثلي المصالح الكبرى ولا سيما الى ملون إذ يعينه وزيراً للمالية الذي فرض على البلاد سيـــاسة تخفيض الضرائب على الثروات الضخمة ، (بحيث ان مجموع ضريبة الدخل انخفض من ٥٥ بالمئة ، عام ١٩١٩ الى ٥٠ بالمئة عام ١٩٢١ ، والى ٢٦ بالمئة في عام ١٩٢٩ .

في بريطانيــا

تعطف بريطانيا ، في نظامها الانتخابي على المحافظين. فمن جهة، يرمي الاقــتراع الأحادي المنصبّ على مرشح واحد ، في دورة واحـدة ، الى إعطـــاء الأكثريات البرلمانية الناجمة عن اقليات انتخابية ، فرصة تولي السلطة ، كما ان توزيـع المقـاعد النيابية على بعض الجامعات ، وعلى علـّة الجيب في مـــا يسمى عندهم « السيتي » ، او يوقف على عـــل تجاري ، والاقتراع المتعدد ، وحق اقتراع النسـاء الذي أُقرّ عام ١٩١٧ لمن هـــن فوق الثلاثين (ولم يخفض الى ٢١ الا في سنة ١٩٢٨) ، كل هذه المظاهر الشكلية ، هي في غالبيـــة الأحوال ، لصالح حزب المحافظين في وجه حزب الاحرار وحزب العمال المنقسمين، بحيث باءت بالفشل كل الاقتراحات التي تقدموا بها لوضع حد لهذه الشواذات. وهكـــذا فمصادر السلطة لم تتغير قط بالرغم من التغييرات التي طرأت على البلاد . ففي انتخابات ١٩١٨، نال المحافظون الذين التفوا حول لويد جورج ، ٤٨ ٪ من الاصوات واستأثروا بـ ٦٨٫٣٪ من المقـاعد . اما في انتخابات عام ١٩٢٢ ، فقد نالوا ٣٨٫١ بالمئة من الاصوات و ٥٦ ٪ من المقـاعد . وفي سنة ١٩٢٣ ، كان من جراء خسارة المحافظين ٥٫٥ ٪ من اصوات المقترعين ان افقدهم ٨٦ مقعـــداً في مجلس النواب ، اي ١٤ ٪ وربح حزب العمال ٥٫١ ٪ من الاصوات عـاد عليهم بـ ٥٣ مقعداً في المجلس (٨٫٦ ٪) . وقـــد طرأ تغير معاكس في

انتخابات عام ١٩٢٤ ، اذ ان النسبة المئوية لاصوات المحافظين البالغة ٤٧ ٪ اعطتهم ٦٨٪ من المقاعد بينما نال حزب العمال ٣٤٪ من الاصوات و ٢٥,٦ ٪ من المقاعد . وعلاوة على ذلك، ان اختيار أعضاء المجالس ، في بريطانيا ، يتم من بين الطبقة الارستوقراطية او من بين ممثلي المصالح المالية ويتمثلون فيها بمعدل كبير ، اذ ان اكثر من ٪ نواب المحافظين كانوا ينتمون الى اسر تحمل القاب شرف متوارثة ، وهم على الاجمال ، من خريجي المعاهد العليا الموقوفة على النبلاء (امثال ايتون وهارو) وهما أعلى المعاهد التربوية في انكلترا ومن اكثرها اقتصاراً على النبلاء ، اذ قدمتا بين ١٩١٨ – ١٩٣٩ ، ما معدله ١٧,٥ ٪ و ٧,٠ ٪ من مجموع التمثيل النيابي). ان ٧٠ نائباً من اعضاء مجلس العموم ، عام ١٩٣٥ ، هم اعضــاء في ٦٥٠ مجلساً ادارياً ، بينما الـ ٤٥٠ عضواً في مجلس اللوردات ، في فترة مـا بين الحربين يتوزعون كما يلي : ٢٧٢ هم من مديري شركات مُختلفة ، و ١٠٦ يمثلون ٦٩ شركة تأمين ، و ٦٦ يمثلون ٤٢ مصرفاً و ٤٩ يمثلون الترسانات البحرية .

فهل من عجب ، بعد هذا ان يكون « معقل الرجعية » – السيتي – الذي شُهر به لويد جورج من قبل وفضح امره، وراء سياسة الانكماش المالي والرجوع الى عيار الذهب، هذه السياسة التي اقرتهـا حكومة المحافظين ، بعد ان قضت على الاضراب العام الذي وقع عام ١٩٢٦ ، وجعلتها تقرر ، عام ١٩٢٧ القانون الذي صدر لمحاربة الروح النقابية ، واكثرت من الامتيازات لرجال الصناعة وعارضت معاهدة واشنطون التي جعلت يوم العمل ٨ ساعات ووقفت وحدها في جنيف تنعم النظر في اقتراح رمى الى جعل اسبوع العمل ٤٠ ساعة .

فالانتخـابات التي افضت الى فوز الحكومة الوطنية ، عام ١٩٣١ ، امنت للاستثمارات الرأس مالية الكبرى في البلاد ، عهـداً من الطمأنينة لم تنعم بمثله منذ عام ١٩١٤ ، اذ لم يبق لحزب العمال من شأن يذكر بعد الهزيمة النكراء التي اصيب بها والانقسام القتال الذي آل اليه . فمنذ الآن وصاعداً ، كل المراكز الاساسية ، هي وستبقى لامد طويل ، في ايدي ممثلي المصالح الكبرى . فاتحـاد الصناعات البريطانية هو الذي اخذ برسم سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها الحكومة ، كما يضع هذا الحزب نفسه الخطوط العامة لهذه الاتفاقات الدولية التجارية التي تدخل فيها طرفاً الحكومة البريطانيـة ، والتي عقدت مع فرنسا ويلعب دوراً بارزاً في اللجنة الاستشارية الجمارك التي من بين صلاحياتها تعديل التعريفات الجمركية دون الرجوع الى البرلمان. كذلك اخـذت هذه اللجنة، توسع، اكثر فاكثر، بعد عام ١٩٣٢، من نطاق هذه التعريفات، وترسم سياسة مساعدة الصناعات والاعفاءات من الرسوم (٣٠ مليون استرليني في سنة) . فلا عجب ان تزداد الارباح التي قدرها كولن كلارك ، عام ١٩٢٩ بـ ٣١,٦ ٪ من الدخل القومي في البلد الام ، و ٣٩,٢ ٪ عام ١٩٣٢ ، ليصبح في سنة ١٩٣٥ ، ما معدله ٣٤,٥ ٪ .

في فرنسا

ان وجود هذا الحشد الكبير من صغار المستثمرين والمهنيين وصغار التجار والصناعيين الذين يؤلف المجتمع الفرنسي ، هو وراء عدم استقرار السياسة الفرنسية واتجاهها المستمر نحو اليمين . في هذا الصراع التقليدي بين اتحاد احزاب اليمين واتحاد احزاب اليسار ، كانت الطبقات الاجتماعية سر قوة اليسار ، الا ان الاوضاع الجديدة التي أطلت على الحياة الاقتصادية ، جعلها حياة قاسية صعبة . فمواجهة لقوى اليمين التقليدي المعتمد دوماً على الكنيسة والمستند الى كبار الموظفين والنبلاء والبورجوازية الصناعية العليا والاوساط المالية والمصرفية ، انصرفت جهود الفلاحين وصغار الملاكين ، والمستثمرين وهؤلاء الصناعيين والتجار الصغار والمتوسطين للمحافظة على استقلالهم الشخصي والاقتصادي . فهم يشجبون بشدة الروح الثورية بالذات التي تجيش في صدور كبار رجال الاعمال : كالمركزية والتنظيم العلمي الدقيق للانتاج وانشاء مشروعات استثمارية متعددة الفروع والوكالات وغير ذلك ، ويرغبون الى الحكومة ان تحميهم من المنافسة الاجنبية . الا انهم من جهة ثانية هم محافظون ولا يحبذون كثيراً المستجدات ويعارضون وضع تشريع اجتماعي يعتبرونه سخاءً في غير محله وتبذيراً لا مبرر له . ولذا فليس من السهل لديهم ان يتحالفوا مع طبقة عمالية تتشدد في مطالبها وتلحف فيحدث من جراء هـذا ضعف في امكانيات العمل لدى اليسار المعروف الذي كان يتألف من تحالف الطبقات الوسطى ومن العمال بقصد مهاجمة « الكبار » والدفاع عن « الصغار » . وهكذا لم يعد اليسار متجانساً امام اليمين الذي نجح بيسر في تأليب كل احزاب البورجوازية . وعندما تأخذ الاجراءات المتخذة ضد رأس المال بتهديد التوازن في صلب الموازنة ومعدل القطع او الدخل ، وعندما يخشون « محكمة التفتيش الاميرية » ، وعنـدما تلوح في الافق خطر الاضطرابات العمالية ، تعمد آنئذ الطبقات الوسطى التي تتألف منها صفوف الحزب الراديكالي، الى الانحياز لجهة اليمين ، فالأكثرية التي صوتت مع اليسار ترى اليمين يعود الى الحكم . وهكذا فالمحالفات الانتخابية التي تمت عام ١٩٢٤ و ١٩٣٢ ، و ١٩٣٦ تتحطم عنـدما يتعلق الامر بتأليف الحكومة . الا ان الراديكاليين الذين يؤلفون الجناح اليميني في كل اكثرية يسارية والجناح اليساري في كل اكثرية يمينية ، يدخلون فعلاً في كل حكومة يجري تشكيلها .

وهكذا تتجلى امامنا واضحة ، اسرار التغييرات التي تطرأ على السياسة الفرنسية ونفهم كيف ان اليمين الذي كان يستبعد من قبل ، في كل حكومة تشكل ، هو الذي كان يتولى الحكم خلال معظم هـذه الفترة ، مع مجلس الكتلة الوطنية التي انتخبت عـام ١٩١٩ ، والتي تألفت من ٤٣٧ عضواً من احزاب اليمين من اصل ٦١٣ عضواً ، ومن المجلس الذي تم انتخابه عام ١٩٢٨ بأكثرية من اليمين ، حتى ومع مجلس كتلة اليسار الذي انتخب عام ١٩٢٤ ، عنـدما راحت المصارف في البلاد ترفع عام ١٩٢٥ ، جـدار الفضة في وجه حكومة هريو وجاءت بيوانكاريه الى الحكم .

وبالرغم من الازمات الوزاريـة التسع عشر التي وقعت خلال السنوات العشر الاخيرة ،

تبرز للعيان صفة الاستقرار . فالانتخابات التي جرت عام ١٩١٩ تحت وطأة الخوف « من الرجل الحامل سيفاً بين اسنانه »٬ وفي ظل نظام تمثيلي نسبي هجين ، تقارب من احزاب اليمين قسم من الراديكاليين الذين اقلقتهم الاضطرابات العمالية ، بينما انقسم اليسار على نفسه وفي عام ١٩٢٤، امّن القانون الانتخابي الذي جاء باكثريتين : الاكثرية المطلقة والمعدّل الاكبر الى احزاب اليسار ، اكثرية مجلس النواب ، مع ان اتجاه اصوات اليمين نحو اليسار لم يزد على ٠٫٧/ لا غير ، كما ان تشكيل الحزب الشيوعي حول عن التجمع اصوات اقصى اليسار . واعادت الانتخابات التي جرت عام ١٩٣٠ التعادل تقريباً بين الكتلتين ، اذ نالت احزاب اليسار ٥١٫٦٣ بالمئة من الاصوات ، بينما نالت احزاب اليمين ٤٨٫٣٧ ٪ ، اذ كان بين الذين صوتوا لليسار مليون مقترع من بين الشيوعيين ، وهي نسبة لم تأت بكبير فائدة ، اذ لم ينل الحزب الشيوعي اكثر من ٢٫٣ ٪ من المقاعد لقاء ١١٫٣٨ ٪ من اصوات المقترعين . ان احتفاظ اليمين بمرشحيه أمن نجاح ٦٧ نائباً من احزاب اليمين او من الوسط في الانتخابات ، في الدورة الانتخابية الثانية ، كما ان ٤٠٠٫٠٠٠ من المقترعين عادة للحزب الراديكالي ، تمردوا على ما عرف من انضباطية تقليدية في الحزب الراديكالي الجمهوري ، اذ إلتفّوا ، في الدورة الثانية ، حول مرشحي الوسط ، وامنوا بهذه الحركة نجاحهم .. وهذه النسبة التي عادلت ٥ بالمئة من الاصوات هي التي لعبت دوراً حاسماً وجعلت كفة الميزان تميل نحو اليمين .

كثيراً ما عرفت المصالح المركزية الكبرى ان تفرض ارادتها اما رأساً او بالمداورة وذلك لتحكمها بمقاليد الحياة الاقتصادية في البلاد ، واحياناً بالاغراء . وقد اتضح من تحقيق اجري عام ١٩٣٢ « ان ٩٠ شخصية تحتل ٧٣٥ مركزاً ادارياً ، في عدد من الشركات صاحبة الشأن ، منها ٢٧٧ في شركات التأمين والضمان و ١٨٠ في المصارف المالية ، و ٥٤ في ادارة شبكة الخطوط الحديدية ، حظيت بمقاعد في المجلس النيابي » . ويلاحظ ج . بيرو بكل دقة ، ان معارضة الحزب الراديكالي الاجراءات الاشتراكية ورفضه تبنيها يجب ردها ، في الدرجة الاولى الى « عجزهم عن مجابهة القوى المصرفية الكبرى دون ان يعرّضوا للخطر ، متانة الفرنك » . ثم اضاف قائلاً : « ان العداء الكامن » الذي يحمله هذا الحزب عندما طُرِح على بساط البحث امر تأميم شركات التأمين « ككا لحصن منيع من حصون الرأسمالية الكبرى ... انما يدل على ان كل شيء قد دبره المعنيون بالامر في حينه ، للحؤول دون اتخاذ قرار بهذا الشأن » . وقد فرضوا ارادتهم بعد نشوب الازمة الكبرى ، عن طريق الابقاء على معادلة الذهب ، لمدة طويلة ، بعد هبوط سعر الدولار والجنيه الاسترليني ، وعن طريق سياسة انكماش مالي صارمة ، والصمود في وجه اسعار الصناعات المتكتلة كصناعة الفلزات والمعادن والمحاصيل الكيماوية ، بعد ان وصل الى الحكم حكومة الجبهة الوطنية للوقوف في وجه هذه الاصلاحات الاجتماعية ومشروعات مكافحة الغش في الضرائب وجبايتها ، وتأسيس ديوان مراقبة القطع وتهريب رؤوس الاموال الى الخارج واختزان النقد الذي سيفضي في نهاية الامر

الى سقوط الفرنك ، وبارتفاع اسعار المصنوعات المتكتلة الذي افضى الى تفشيل سياسة مقاومة انكماش النقد . وقد امتنعت المصارف من شراء سندات الخزينة التي اصدرها فنسان اوريول وبلوم ، عام ١٩٣٧ ، كما فعلت مع هريو عام ١٩٢٥ ، وفي سنة ١٩٣٨ ، فرض مجلس الشيوخ وجوب الرجوع الى الاساليب المالية « التقليدية » بعد ان تولى مقدرات وزارة المالية جورج بونيه وبول رينو .

ايطاليا تستعين بعدم الشرعية

في ايطاليا حيث ضعف التجربة الديموقراطيــــة أدى الى شل النظام النيابي ، وحيث الأزمة المالية أفضت الى ثورة عارمـــة قام بها معاً الفلاحون والعمال ، رأت الطبقات الموجهة التي أسقط في يدها ، ان تستعين بالقوة والعنف، محافظة منها على سيطرتها واختارت لها نظاماً دكتاتورياً . فالانتخابات الأولى التي جرت في تشرين الثاني ١٩١٩ على أساس الاقتراع النسبي سجلت فوزاً حاسماً للحزب الاشتراكي الذي نال ١,٨٠٠,٠٠٠ صوت وفاز بـ ١٥٧ مقعداً ، وللحزب الشعبي الكاثوليكي الجديـــد الذي تأسس بموافقـــة الكرسي الرسولي وتشجيعه ، على يد راهب يدعى دون لويجي ستورزو الذي نال ١,١٠٠,٠٠٠ صوت و ٩٩ مقعداً . وهكذا توفرت للاشتراكيين وللحزب الشعب اكثرية كبرى وقفت في وجه احزاب اليمين والوسط التي كان لها ٢١٥ مقعداً في مجلس النواب . إلا أن مشاريع الاصلاح الزراعي التي وضعها الحزب الاشتراكي ، والاضرابات المتكررة ، واحتـلال العمال للمصانع بعد ان عجزت حكومة نيتي عن الوقوف بوجههم ، كل هـــذه العوامل سببت القلق للبورجوازية الصناعية ولكبار الملاكين . ولما أسقط في ايديهم استنجدوا بموسوليني الذي عرض عليهم مشروعه الديماغوجي الذي تميز بعدائه للرأسماليين وللتأميم وعرف بروحه الوطنية، فأخذ على نفسه شل حركتهم ثم القضاء على خصومهم بالشدة والعنف . وراح الحزب الفاشستي الصغير يحشد حوله لميماً من الأنصار والمغامرين والعاطلين عن العمل واخذ يشن بهم حمـــلات تأديبية ويقوم بأعمال اشعال الحرائق والقتل ويرتكب ضد أصحاب الأجور والفلاحين أعمـال وحشية فظة وضد المنازل الشعبية والبلديات المعروفة بروحها الاشتراكية ، ومنظمات العمـــل والتعاونيات ، الأمر الذي أدى الى قتل العشرات وإصابة عـــدد يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ شخص ، ونهب بضع مئات من البيوت بمؤازرة الجيش النظامي والبوليس والحكومة التي كانت تتولى عزل او نقل الموظفين الذين يقاومون هذه الاعمــــال . فعمت بذلك الفوضى صفوف الاحزاب والنقابات العمالية، ثم كشف عن طابعه الرجعي عندما راحت النقابات الفاشستية تعمل ليس لتحطيم الاضرابات فحسب بل ايضاً تحاول الغاء الاتفاقات والعقود المتعلقة بالاجـــور ، وغير ذلك من هذه الارتباطات الجماعية الخاصة بالعمل .

وقد انضم الفاشيست الى الكتلة الوطنية التي تألفت من المحافظين والأحرار وكبار الملاكين العقاريين . وفي تموز وآب ١٩٢١ طُلب الى عمال مناجم الفحم الذين أعلنوا الاضراب ، الرجوع عن اضرابهم والعودة الى العمل تحت طائلة التعرض للضرب بالهراوات . والموجة الاخيرة من

تهديم منازل العمال في اكثر من ١٥٠ محلة ، مهدت الطريق أمام موسوليني « بالسير على روما » ثم راح يتفاوض مع زعماء الحزب البورجوازي والأسرة المالكة ، بينما امده الجيش بالاسلحة والعتاد الحربي وكلفه الملك بتشكيل حكومة جديدة .

في المانيا

شهدت المانيا في اثر أزمة ١٩١٨ – ١٩١٩ ، احزاب اليمين تشدد من قبضتها وتستولي على الحكم . تألفت الحكومات الاولى من الاحزاب التي شكلت « حلف ويمار » ، اي من الاشتراكيين والوسط والديموقراطيين ، تحت سيطرة الحزب الاشتراكي .. ولم يلبث هذا الحزب ان فقد تباعاً رئاسة الحكومة كما فقد اهم الوزارات في الحكم . فالكاثوليك ، منذ ١٩٢٠ ، والديموقراطيين منذ ١٩٢٢ ، يتوالون على الحكم في البلاد وتوصلوا في نهاية الشوط ، الى التخلص من الاشتراكيين الديموقراطيين . وهذه النجاحات التي حققتها احزاب اليمين ظهرت للعيان بوضوح ، عندما توفي عام ١٩٢٥ ، الرئيس ايبرت ، وراح حزب اليسار يوزع اصواته بين المرشح الشيوعي لرئاسة الجمهورية تلمان (الذي نال اكثر من مليون صوت) وبين الكاثوليكي ماركس (الذي نال ١٣,٧٠٠,٠٠٠ صوت) . الا ان كل الاحزاب العمالية تكتلت واعطت اصواتها (١٤,٥٠٠,٠٠٠) للمرشال المسن هندنبرغ ، من أشد انصار الملكية في المانيا الذي يجسم في شخصه الروح العسكرية البروسيانية ، والذي كان همه الأكبر إعادة تسليح الرايخ . إلا انه لم يلبث ان اصبح ألعوبة بين يدي حزب اليمين . وتعاقب على الرايخ ، بين ١٩٢٠ – ١٩٣٠ ، سبع عشر حكومة قامت على أساس تحالف بين الاحزاب . إلا ان ما اصابها من عجز ومن انقسام ، والدسائس التي حيكت حولها ، وتكالب الاحزاب بعضها ضد بعض ولا سيما حزب الوسط الكاثوليكي الذي بعد ان كان لمدة طويلة حليف الاشتراكيين ، داعياً لتوطيد الديموقراطية في البلاد ، أخذ يتقرب من الوسط ، عودة منه للعمل بالنظرية العقائدية ، مما أدى الى الانتقاص من قيمة النظام البرلماني ، وخلخلة هذا النظام « الغليظ الخالي من كل عقيدة» . وبعد عام ١٩٢٨ ، واستحالة حصول الحكومة على اكثرية تعضدها وتساندها ، أطل علينا نظام حكم رئاسي . فعلى غرار المقاطعات المستقلة إدارياً التي تتمم كل واحدة بحكومتها الخاصة وبرئاستها الخاصة ، عرفت المانيا ٧٠ وزارة مختلفة ، و ١٩ مجلساً نيابياً ضمت جميعها ٢١٤٨ نائباً ، تميزت كل منها بخصومات ضيقة صغيرة على غرار ما كان يجري في المانيا .

فمنذ عام ١٩١٩ ، وبالتعاون مع العسكريين المتسترين ، أخذت « الاقطاعية » التي توجه الاقتصاد الألماني» أي هذا الفريق من رجال المال والصناعة وكبار الملاكين العقاريين تحول دون إدخال أي تعديل أو تغيير على قوانين التملك المعمول بها في البلاد ، والعمل على صيانتها من كل عبث . وسيطر كبار الملاكين على الغرف الزراعية في البلاد وعلى المجالس الزراعية وعلى اتحاد المزارعين الرئيسي . فحالوا دون تنفيذ القانون الذي صدر عام ١٩١٩ والذي يجيز للدولة استملاك ٢/٣ الاملاك الكبيرة في هذه المقاطعات التي تعود ١٠ بالمئة من اراضيها الزراعية

ملكيتها لاكثر من ٥٠٠ شخص من سكان البلاد . وفي المانيا ، اكثر من اي بلد آخر ، باستثناء الولايات المتحدة الاميركية ، نرى كبار رجال الصناعة ينضمون الى كتلتين كبيرتين تسيطر على هذه الشركات العملاقة كما يصفها راتينو التي تتألف من *Konzern* يجمعون بين ايديهم القسم الاكبر من الثروة الوطنية ويضعون أنفسهم بمأمن من سلطة الحكومة ليفرضوا عليها سلطتهم . فقد عارضوا تطبيق القانون الذي نص، عام ١٩١٩ ، على القيام بتضحيات وطنية من ثرواتهم ، ووقفوا في وجه مجالس الشركات التي تألفت عام ١٩٢٠ ، وعارضوا قانون الثمان ساعات عمل ، وابطلوا مفعول الاحكام والقرارات الصادرة عن محكمة التكتلات التي انشئت عام ١٩٢٣ ، للاشراف على الاتفاقات الصناعية ، وابطال عقودهم وانظمتهم لدى الاقتضاء . فهم الذين سيطروا على مجلس الرايخشتاغ « بصورة مستترة ولكن مطلقة » عن طريق « الحزب الوطني الالماني » وريث حزب اليمين الزراعي والعسكري القديم ، وحزب الشعب الذي كان يرأسه شترسمان وكلاهما يمثلان مصالح الصناعة الضخمة ، والذي تميز الأخير منهما باسلوب أقل تعنتاً مما عرف به اقصى اليمين ، وبذلك يقترب من الحزب الديموقراطي ، هؤلاء البورجوازيون الملتفون حول الجمهورية ، هذا الحزب الذي ينعم برعاية ارباب المال من اليهود ، بزعامة راتينو دورنبرغ ، والجرائد الكبيرة النفوذ ، امثال برلينر تاغبلات والفرنكفورتر زايتونغ وهذان الحزبان الليبراليان من اليمين والشمال ، هما المسيطران الحقيقيان على كل مجالس الرايخشتاغ . الى اليمين وقف الوسط وحزب الشعب البافاري اللذان يضمان بصعوبة كانت تزداد اكثر فاكثر الطبقات الاجتماعية المتباينة فيما بينها ، وهما حزبان كاثوليكيان في الصميم ، قيادتهما بورجوازية ويتبعان سياسة انتهازية ، آخذان بالتقهقر إذ سقطت نسبة اعضائهما من ٢٥ بالمئة قبل الحرب، الى ١٩٫٧ بالمئة عام ١٩١٩ والى ١٦٫٦ بالمئة عام ١٩٢٤ ، والى ١٣٫٨ بالمئة عام ١٩٣٣ . أما الاحزاب الاشتراكية صاحبة الاكثرية والمستقلة التي كانت تنال ٤٥٫٥ بالمئة من اصوات المقترعين عام ١٩١٩ الى ٣٠ بالمئة قبل الحرب ، فقد الفت ، منذ عام ١٩٢٢ ، الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي كان يحظى بتأييد ٢٠٫٥ بالمئة من اصوات الناخبين عام ١٩٢٤ بينما كان الشيوعيون ينالون ١٢٫٦ بالمئة. وارتفع المعدل ، سنة ١٩٢٨ ، الى ٢٩٫٨ بالمئة بينما هبط معدل الشيوعيين الى ١٠٫٦ بالمئة (شكل ٣) .

ازمة الديموقراطية في اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية

لم تكن لدول اوروبا الوسطى والشرقية ، في الظاهر ، سوى واجهة ديموقراطية بعد ان اشتدت عندها المنازعات القومية والانشقاقات المذهبية ، واشتد الصدام بين جماهير الشعب البائسة وبين الطبقة الموجهة الجشعة الضحلة الثقافة ، تقوم على الادارة والحكم فيها طبقة من الموظفين الفاسدين الخشني الطباع . وقد استقر في ذهن هذه الدول ان الحريات الديموقراطية لا بد لها ان تحترم القوى الهدّامة العاملة من الداخل ، وان حرية الصحافة والاجتماع ، غير المقيدة ، والانتخابات الحرة تؤلف سلاحاً خطراً بين ايدي اعداء البلاد في الداخل والخارج.

فلا عجب ، والحالة هذه ان تشيح الحكومات بوجهها عنها فتتجاهلها ، وان وُجدت عبثت بها وعملت في النهاية على قتلها .

وبالفعل ، فلم يستقم الامر للنظام الديموقراطي في هذه البلاد ، خلال هذه المدة ، وان عمل فيها يوماً فبصورة سيئة . ولذا سيطر عليها وضعٌ من نظام المراقبة الشديدة واعلان حالة الطوارىء ، واستبداد قوى الأمن ، وتحكمت فيها وسيطرت ادارة حكومية لها ملء السلطة والصلاحية ، كما ان اكثرية السكان الساحقة كانت على مستوىً متدنٍ جداً من التربية الصحيحة .

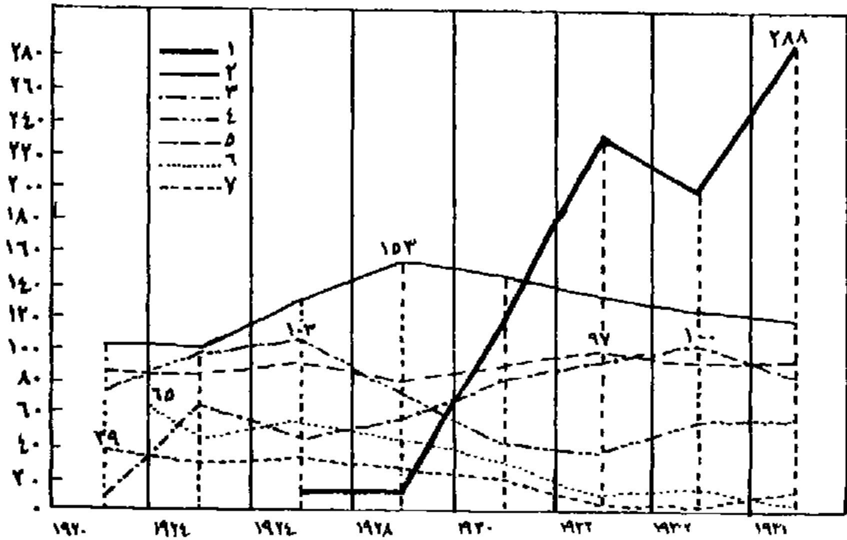

شكل ٣ـ عدد ممثلي الاحزاب في مجلس الرايشتاغ .

١ ـ الحزب الوطني الاشتراكي ، ٢ ـ الحزب الاشتراكي الديموقراطي، ٣ ـ الحزب الشيوعي ، ٤ ـ حزب الوسط وحزب الشعب البافاري، ٥ ـ الحزب الوطني الالماني، ٦ ـ حزب الشعب ، ٧ ـ الحزب الديموقراطي.

كل هذه العوامل شوهت النظام الديموقراطي وحالت دون قيام نظام سَوِيّ كما حالت دون تطور اي نظام ديموقراطي ، اذا ما وُجد ، تطوراً طبيعياً . ولم تعرف معظم هذه البلدان يوماً معنى للانتخابات الحرة . ففي رومانيا، كما في دول اميركا اللاتينية ، يشرف على الانتخابات ويقوم بها الحزب الحاكم ، وبذلك يؤمن له اكثرية ساحقة في المجلس التمثيلي ، وباستطاعة اي حزب ، في مثل هذه الظروف والاوضاع ، ان يؤمن له الفوز بعشر مقاعد او بـ ٣٠٠ مقعد في البرلمان حسبما يكون في الوزارة او في صفوف المعارضة .

٢ – ضعف الاحزاب الاشتراكية والشيوعية المعارضة

لم يكن من العسير لمصري ، على القوى التقليدية المحافظة ، ان تفرض نفسها وان تسيطر على الاوضاع ومقدرات البلاد ، على ما ترى فيها من ضعف المعارضة الاشتراكية وانقسامها على نفسها .

فالحركة الاشتراكية التي اخــذت تنمو ويستفحل امرها منذ مطلع القرن والتي بات فوزها ، عام ١٩١٩ ، امراً لا يمكن تجنبه والحؤول دون تحقيقه عما قريب ، عجزت تماماً مع ذلك ، عن تحقيق الاهداف التي رسمتها لنفسها ، بل امكن زحزحتها بيسر في هذه البلدان التي سيطرت عليها او كادت . والفشل الذي مُنيت به ، لا يمكن بوجه من الوجوه ، ردّه الى عزوف الطبقات العمالية عنها ، فقد عرفت ، على عكس ذلك ، ان تكتسب باستمرار ، المزيد من المريدين والانصار والمتعاطفين معها . الا انها راحت تشكو الضعف المُقعِد ، للانقسام على نفسها ، من جهة ، بين اشتراكيين وشيوعيين ، ومن جهة اخرى لعجزها عن تحقيق الاصلاحات الدستورية التي حاولت القيام بها في نطاق الديموقراطية التمثيلية .

الانشقاق

فالانفصال الذي وقع خلال الحرب ، بين العناصر الاصلاحيــة في قلب الحركة الاشتراكية التي ألفت من ضمنها كتلة التفّت حول الحكومة ، وبين العناصر الاخرى التي بقيت على ولائها للدولية والثوروية ، اكتمل بشكل نهائي في اثر الحوادث التي جاءت في اعقاب الحرب تواً ، ولا سيا في اعقاب الثورة الروسية .

فالاحزاب الاشتراكية والنقابات العمالية انقسمت على ذاتها بوجــه عام متأرجحة بين النزعتين الرئيسيتين ، بحيث اخذنا نرى يميناً ينزع ، اكثر فاكثر ، الى الاعتدال ، فاذا مــا ادّعى الماركسية وانتسب لها ، فهو يتنكر لكل حركة ثورية ويمد يده لكل سياسة «قومية» ، ويرضى بالتعاون مع الاحزاب البورجوازية ، او يتقيد ، في اضعف الايمان ، باللعبة البرلمانية ، ويقنع ببرنامج تأميم واسع يُطبّق على مراحل ، ولو جاء ناقصاً مبتوراً ؛ ونرى من جهــة اخرى ، يساراً شيوعياً او نزّاعاً للشيوعية ، بقي على ولائه لمبـــادىء الصراع الطبقي ، يملك النفس بالاستيلاء على الحكم بواسطة البروليتاريا ، عن طريق ثورة شاملة . الا انه اعجز من ان يحقق هذه الثورة بالقوة . ولما كان ينقص الحزبين المذكورين قاعدة شعبية كافية ، فلم تر فيها الرأسمالية خصمين رهيبين يُخشى شرهما .

الاحزاب الاشتراكية

اما في المانيــا ، فالصراع بين الاشتراكيين الديموقراطيين وبــين شيوعيي المستقبل ، انفجر منذ التاسع من تشرين الثاني ١٩١٨ ، بين وزارة إيبرت – هاز – شيدمان وبين لجنة برلين الثورية . والحلف الذي تم عقــده بين إيبرت وهيئة الاركان ضبــا ، اتاح لنوسك ، ان يطفىء ، في الدم ، كما رأينــا ، الحركات السبارتاكية او الثورية . فمنذ الآن وصاعداً – باستثناء الحادث الذي أدّى الى تحقيق وحــدة

اشتراكية قصيرة الأمد ، ضد الانقلاب الذي قام به كاب - لوتوتز ، في ايار ۱۹۲۰ - تبقى المعارضة قائمة بين الحزبين الكبيرين في الحركة العمالية . ومنذ ذلك الحين ، تخلى الاشتراكيون الديموقراطيون عن برنامج ارفورت ، هذا البرنامج الذي وُضِع بايحاء كارل ماركس ، واقتصرت مطالبهم على حل التشكيلات والمنظمات العسكرية الى جانب اضفاء الطابع الاشتراكي على الصناعات الرئيسية في البلاد ، كالمناجم والصناعات الكهربائية . فقد كان همهم ، بالدرجة الاولى ، الحفاظ على مصالح اعضاء الحزب في اطار الرأسمالية ، ولم يعودوا سوى عنصر من هذه العناصر التي يتألف منها التحالف الحكومي ، تحت ادارة زعماء بورجوازيين هم اعضاء في حزب الشعب او الحزب الديموقراطي ، حزبي رجال الصناعة ، او من اعضاء الوسط الكاثوليكي . الا ان قوتهم الانتخابية لم تضعف قط وعرفوا ان يحافظوا على ما لها من شأن ونفوذ عظيمين ، إذ حققوا فوزاً باهراً في انتخابات عام ۱۹۲۸ ، وزادت اصوات مناصريهم ثلاثة اضعاف ، في الانتخابات البلدية ، ونالوا ما يقرب من ثلث المقاعد في انتخابات الرايشستاغ ، الا انهم كانوا أعجز من ان يستأثروا بالحكم وحدهم . وفي قلب الحلف الكبير الذي انضموا اليه ، اصارهم حلفاؤهم الى الفشل وظهر عجزهم المزمن ، عندما سنحت الفرصة ، لانشاء حركة شعبية للدفاع عن الديموقراطية .

وقد عرفت الحركة الاشتراكية ، في فرنسا ، المصير ذاته ، اذ انقسمت على نفسها في المؤتمر الذي عقدته في مدينة تور ، عام ۱۹۲۱ . الا اننا نرى هنا اكثرية ساحقة (۳۲۰۸ مندوبين مقابل ۱۰۲۲ مندوباً) تقترع على الانضمام للحركة الشيوعية وتحافظ على جريدة « الاومانيته » - الأنسانية - التي سبق لجوريس وانشأها . وقد ألفت الأقلية ما عُرف منذ ذاك الحين ، بالحزب الاشتراكي الموحد (S.F.I.O.) ، تحت ادارة ليون بلوم وبراك وبول بونكور ورينو ديبل . وصحيفتهم : لو بوبيلير - لم تكن تعد ، عام ۱۹۲۱ ، سوى ۲۲۲٥ مشتركاً لا غير ، وقد ارتفع هذا العدد الى ٦٣٠٠ ، عام ۱۹۲۳ مع ان الحاجة تبدو ملحة الى ۱٥٠٠٠ مشترك لتتم للجريدة المذكورة موارد تؤمن لها الاستقلال المالي . ومع ذلك فالحزب اخذ ينمو ويزداد . فقد عدّ ۳۹٠٠٠ مشترك ، عام ۱۹۲۱ ، و ٦٠٠٠٠ عام ۱۹۲٤ ، وفي انتخابات عام ۱۹۲٤ التي عقد خلالها محالفات له مع الحزب الراديكالي في عدد من الملحقات ، بلغ ما ناله من الاصوات مليوناً وربع المليون ، وبفضل طريقة الاقتراع التي ساعدت التحالف بين تكتل اليسار ، نال في الانتخابات العامة ١٠٤ مقاعد في مجلس النواب . الا انه عجز عن استلام الحكم وتقاعس عن الاشتراك فيه عندما عرض عليه الحزب الراديكالي ذلك . فمساندته لهذا الحزب لم تعد عليه بتحقيق اي إصلاح ذي شأن .

اما حزب العمال ، في انكلترا ، الذي بقي في مجموعه تقريباً على ولائه للدولية الثانية ، فقد وجد نفسه ، في اعقاب الحرب ، تحت قبضة الفابيين . فقد سبق لسدني ويب ان وضع برنامجاً أقره الحزب في المؤتمر الذي عقده في شباط ۱۹۱۸ ، بعنوان : « العمل والنظام الاجتماعي

الجديد » ، من مطالبه الرئيسية تحقيق « حد أدنى حياتي » ، عن طريق اتخاذ اجراءات وتدابير عامة تتعلق بالصحة والتربية ومحاربة البطالة ، والعقود الجماعية وتأميم شبكة الخطوط الحديدية ، والمناجم والقوة الكهربائية . فالانتخابات التي جرت في كانون الأول ١٩١٨ ، أعطته ٢٬٢٤٤٬٠٠٠ صوت وأمّنت له ٦١ مقعداً بقوا لا حول لهم ولا طول امام ٥٣٥ مقعداً نالها التحالف الذي سيطر عليه المحافظون . وقد واتى الحظ هذا الحزب في إثر التفسخ الذي أصيب به حزب الاحرار ، فأصبح معه حزب العمال الحزب الثاني في بريطانيا . وقد نال في انتخابات ١٩٢٢ نحواً من ١٥٩ مقعداً . ونال ١٩١ مقعداً في انتخابات عام ١٩٢٣ وأخذ ٤٬٤٠٠٬٠٠٠ من أصوات المقترعين ، ولاول مرة في تاريخ انكلترا يؤلف احد أعضاء حزب العمال في كانون الاول ١٩٢٤ ، هو رمزي ماكدونالد ، اول حكومة عمالية في تلك البلاد . ولما كان حزب العمال من أحزاب الاقلية ، فلم يستطع البقاء في الحكم إلا بالتعاون مع حزب الاحرار الذي لم يستطع الحكم ، هو الآخر ، بدونهم ، فاضطر بالتالي للتخلي عن برنامجه المتسم مع ذلك بالاعتدال وبانتهاج سياسة ليبرالية تراعي الواقع . ومشروع الموازنة الذي وضعه سنودن لم يكن بأقل طمأنينة واعتدالاً من أي مشروع موازنة من وضع حزب المحافظين ، ولهجة رئيس الوزراء في معالجته قضايا السودان ومصر هي لهجة حزب الاحرار ذاته . وعدد الاصوات التي نالها في انتخابات عام ١٩٢٤ زاد نحواً من مليون صوت إذ تجاوز ٥٬٤٨٧٬٠٠٠ . والفشل الذي آل اليه الاضراب العام الذي أعلن سنة ١٩٢٦ ، كان من بعض نتائجه الاولى تسجيل تقهقر ملموس في اعضاء الحزب إذ انخفض عدد المسجلين في سجلاته الى النصف . الا ان انتخابات عام ١٩٢٩ سجلت له انتصاراً كبيراً إذ نال ٨٬٣٦٤٬٠٠٠ صوت وأعطته ٢٨١ مقعداً . ومع انه جاء في عداد أحزاب الاقلية في المجلس نسبياً ، فقد كان مع ذلك أكبر حزب فيه ، وهكذا استطاع ان يستأثر بالحكم وبالسلطة في البلاد ، عام ١٩٣١ . وبالرغم من المطالب المعتدلة التي تضمنها برنامجه والنمو المطرد الذي عرفه ، فلم يكن باستطاعة حزب العمال في انكلترا ان يلعب دوراً بارزاً أو أن يوازن ، بصورة جدية نفوذ المحافظين في البلاد .

اما في ايطاليا حيث كشفت انتخابات عام ١٩١٩ عن وجود حزب اشتراكي قوي ونشيط إذ ربح ١٬٨٤٠٬٠٠٠ صوت ونال ١٥٧ مقعداً ، فقد انقسم على نفسه في مؤتمر ليفورنو الى اشتراكيين وشيوعيين . وقد أفضى الهجوم المضاد الذي قام به الفاشيست بمؤازرة قوى الحكومة الى هدم كلا الحزبين معاً . وبالرغم من الملاحقات والاضطهادات التي استهدفوا لها ، لم يستطع الاشتراكيون والشيوعيون ، بالرغم من الحماسة والنشاط الذي ابداه غرامشي وطغلياتي ان يصلوا الى توحيد عملهم حتى بعد مقتل ماتيوتي سكرتير الحزب الاشتراكي البرلماني على يد الفاشيست ، وبعد التظاهر بالانسحاب من الاكثرية ، انقطع الجميع للنشاط السري او الخفي فأصبحوا ابداً عرضة للتوقيف والابعاد الى الخارج ، ثم النزوح عن البلاد حيث يأخذ كل من الحزبين بعقد مؤتمراته العامة .

وفي اليابان حيث لا تشريع ينتظم العمل ولا ضمانات اجتماعية ، ولا تحديد لساعات العمل في اليوم ولا أثر لراحة أسبوعية (عطلة يومين في الشهر لا غير) ، انفجرت الاضرابات بكثرة ، بعد عام ١٩٢٧ ، وأخذت الحركة العمالية فيها تتطور بتؤدة ، بالرغم من ضغط الامن العام فيها ومضايقاته ، وبالرغم من القوانين التي صدرت عام ١٩٢٥ و ١٩٢٨ ، وفي هـــذه السنة بالذات أتاح العمل بأحكام قانون الاقتراع العام، لثلاث اشتراكيين، الدخول الى المجلس الاسفل. فالحركة لا تزال بعد ضعيفة . ومع ذلك فهي آخذة بالتطور الصاعد والتقدم ، إذ ارتفع عـــدد حزب العمال سنة ١٩٢٨ من ٣٥٠،٠٠٠ الى ٧٥٠،٠٠٠ عام ١٩٣٥ . إلا ان الردة العسكرية جـــاءت عنيفة إذ نصت الاوامر التي صدرت عام ١٩٢٩ ليس بحل النقابات العمالية فحسب ، بل أيضاً ، بحل الجمعية الصناعية الوطنية .

الاحزاب الشيوعية

ليس في وسع الشيوعيين ، أينما كانوا ، ان يلعبـــوا دوراً بارزاً في اي برلمان او في الحياة السياسية في اي بلد ، بالنظر لمـا كانوا عليـــه من انعزالية وانكماش على النفس وبالنظر لما قام بينهم وبين الاشتراكيين من ضغن وخصومة ، إلا عن طريق النقابات العمالية التي لهم في صفوفها نفوذ كبير جعل لتصرفاتهم بعض التأثـير . فتمثيلهم في كل من انكلترا وفي الولايات المتحدة الاميركية ضعيف جداً . أما في المانيـــا ، فالحزب الشيوعي فيها يجد تعاطفاً لدى الجناح اليساري للحزب المستقل ، ولدى كل هؤلاء الذين خابت آمالهم من التعاون الذي قام بين الاشتراكيين الديموقراطيين وبين الاحزاب البورجوازية. فالحزب الشيوعي كان المحرض الأكبر والباعث الاول للحركات الثورية التي نشبت عـــام ١٩٢٣ في مقاطعات الساكس ـ تورنج وهمبورغ وفي الروهر . الا ان اعمال القمع التي استهدفوا لها نزلت بهم سريعاً ، لا رحمة فيها ولا هوادة . ومع ذلك ، فقد نال مرشحهم تالمان لرئاسة الجمهورية ضد هندنبورغ ، أقل من مليون صوت بقليل في انتخابات عام ١٩٢٥ . وهذه الحيوية التي جاش بهـا الحزب لهـــا دليلها القاطع ومدلولها الدافع في الانتخابات العامـــة التي وقعت عـام ١٩٢٤ و ١٩٢٨ حيث بلغت النسبة التي سجلها من أصوات المقترعـــين له تباعاً ، كما رأينا ١٢،٦٪ و ١٠،٦٪ .

والحزب الشيوعي الفرنسي من جهته ، عدّ ١٣٠،٠٠٠ عضو عام ١٩٢١ ، إلا انـه انقسم واقتطع من عضويته الفئات الفوضوية والانتهازية ، وأبنـاء العشيرة الحرة (الماسونيين) ، ولم يكن له عام ١٩٢٥ سوى ٤٠،٠٠٠ عضو لا غير . واذ ذاك جرى تنظيمه على أسس جديدة ، هدف منها قبل كل شيء ، ليس الى العمل الانتخابي فحسب ، بل ايضـــاً الى تنشئة العناصر الناشطة لنشر الحزب ومبادئه ولتدريب الخلايا العاملة بين صفوف الانصار والمريدين وتأهيلهم للإعلام والدعاوة . فالخلايا تنتظمها حلقات ثانوية تلتف حول حلقات رئيسية تؤلف بدورهـا المحادات وهو تنظيم فيه كثير من المرونة والطواعية ، تشد الأعضاء بعضـاً الى بعض وتؤلبهم وفقاً للمصالح المادية التي تجمعهم بحيث يرتبط الناس ببعضهم البعض على اسس متينة قوية . وتشد

هذه الوحدات روابط شاقولية تجعلهم في مأمن من المراقبة ، ومفاجآت قوى الأمن ، والانتقال بسهولة الى العمل السري والنشاط الخفي . ويجهد الحزب بنشاط ليؤلب حوله الاشتراكيين المجاهدين ويكشف لهم ما هم عليه رؤساؤهم من تواطؤ مع الطبقة البورجوازية فيكرر ، بكل مناسبة، عرضه بتشكيل جبهة موحدة معهم، وهي عروض طالما اعرض عنها الحزب الاشتراكي وضرب بها عرض الحائط . فنال الحزب في انتخابات عام ١٩٢٤ اكثر من ٨٧٥،٠٠٠ صوت و ٢٦ مقعداً في المجلس النيابي الفرنسي ، اي اقل من نصف المعدل الذي كان يؤمنه لهم توزيع نسبي والعودة الى نظام الدائرة في الانتخابات العامة للحد من احتمالات نجاحهم في عملية اقتراع لاحقة افقدهم المزيد من الاصوات في انتخابات عام ١٩٢٨ . فقد نال الحزب ١٤ مقعداً ، سجل ١،٠٦٤،٠٠٠ صوت . والصراع الانتخابي كان حاداً . فقد رفض الشيوعيون اعطاء اصواتهم لزعماء الحزب الاشتراكي في الانتخابات التكميلية فكان موقفهم المتصلب هذا سبباً في سقوطهم . وهذا الانقسام الذي باعد بين الحزبين أمّن نجاح انتخاب عدد من المحافظين في كثير من المقاطعات وضمن لهم اكثرية ملحوظة في المجلس النيابي . وخيبة الامل التي شعر بهما كثيرون من جراء هذا الموقف والعواقب الوخيمة التي أدى إليها ، تساعدنا على فهم ازمة العدد التي عرفها الحزب اثر الاستقالات وحركة الانسحابات التي جرت عام ١٩٢٠ و ١٩٣٠ . أما في البلدان البلقانية فالاحزاب الشيوعية هي محظورة في كل من هنغاريا ورومانيا .

الانقسام النقابي

وبالمقابل ، ونتيجة منطقية لهذا الضعف الذي نزل بالاحزاب السياسية العمالية ، نرى الوهن والضعف ذاته يدب الى الحركة النقابية ، من جراء هذه الانقسامات والفشل الذي تسببه في الانتخابات العامة . ومع ان الحزب حقق في أخريات الحرب مكاسب سريعة وكبيرة ، فقد جاء الهبوط سريعاً والانهيار عميقاً . وقد كان التباين بين النقابات ورؤسائها وتضارب الآراء حول الموقف الذي يجب وقوفه بالنسبة للثورة الروسية والسير على منوالها عند الاقتضاء ، والانقسام الذي افضى إليه الخلاف بين الاشتراكيين والشيوعيين أدى بالتالي الى انشقاق النقابات على بعضها فبتنا نرى نقابات متضادة متعاندة . وقد نجم ، عن ذلك ، في هذه الحقبة التي تميزت بارتفاع عام في الاسعار وفي الأرباح ، والتي كان من المعروض ان تستجيب مبدئياً لمطالب اصحاب الأجور ، رأت طبقة العمال نفسها فيها مشلولة وعاجزة عن المطالبة بحقوقها والحصول على نصيبها منها .

وفي المانيا ، راحت النقابات العمالية تقف ، منذ تشرين الثاني ١٩١٨ الى جانب الاشتراكيين الديموقراطيين ، حؤولاً منها دون الثورة العنيفة ، بعد ان تعهدوا لها بإدراج مبادىء الاشتراكية في صلب الدستور . الا ان القوانين التي صدرت عام ١٩١٩ ، أقصرت العملية على تشكيل هيئات اقتصادية بين الصناعات الاستخراجية وبين العاملين في الطاقة الكهربائية ، وصناعة البوتاس ، وتأمين نوع من الاستقلال الاداري لها تحت اشراف الدولة. وبعد محاولة الانقلاب التي قام بها كاب ، وتدخل النقابات باعلان اضراب عام انقذ الجمهورية من الانهيار ، راحوا

يحاولون القيام باصلاحات جاء على ذكرها البرنامج الذي وضعته الرابطة العامة النقابات . الا ان المجلس الاقتصادي الذي عهدت اليه الحكومة مهمة درس هذه المطالب ، سيطر عليه كبار رجال الصناعة ، فتولى ثلاثة منهم وضع صيغة اتفاق جعل منهم اسياد الموقف . فمن بين الوعود المسجلة في الدستور ، الحق النقابات بتمثيل العمال ايضاً وانشاء سلسلة متماسكة تتألف من مجلس العمال العاملين في المصانع ، والمجلس الاقتصادي ، فقد تحقق فقط إنشاء منظمة العمال العاملين في المصانع . الا ان قانون ثمان ساعات عمل الذي صدر عام ١٩٢٣ تم إلغاؤه بالفعل عام ١٩٢٣ . وهكذا فالنقابات التي كانت تتمتع ، منذ عام ١٩٢٠ ، بموقف متين جداً عادت القهقرى . ان تدهور المارك وتضخم النقد وموافقة الاشتراكيين على مخالفة القوانين الاشتراكية اي البطالة ، كان السبب في الهبوط المظم في عضوية النقابات اذ نقص عددهم الى اقل من النصف مما زاد في سلبية الطبقة العمالية امام الاقتراحات التي تقدم بها ارباب الاقتصاد الالماني .

وفي فرنسا ادى فشل الاضرابات عام ١٩٢٠ الى إضعاف الحركة النقابية . فمن اصل المليوني عضو المسجلين في *C. G. T.* هبط العدد الى ٦٠٠،٠٠٠ ، في اواخر عام ١٩٢٠ ، ثم انقسمت الحركة على نفسها . وفي شهر كانون الاول ١٩٢١ ، اخذت العناصر الثورية تؤلف نقابة مستقلة تحت اسم *C.G.T.U.* اي النقابة العامة لاتحاد العمال ، كما ان النقابة العامة للعمال التي اربكها هذا الانقسام واضعفها ، لم يزدد عدد اعضائها الا ببطء كلي وبمشقة . وقد اقتضاها عشر سنوات من الجهد الموصول ليرتفع عدد اعضائها عام ١٩٢١ ، الى ٣٧٣،٠٠٠ ، والى ٧٣٦،٠٠٠ ، عام ١٩٣٠ ، ومعظم الاعضاء الجدد من الموظفين ومن عمال المناجم وموظفي مراكز البريد الذين ألفوا في نهاية الامر ربع الاعضاء المسجلين . فجرّ انتماؤهم للحزب تعديلات هامة في اساليبه وبرامجه ومناحي تفكيره . وبعد سنة ١٩٢٢ ، اخذت النقابة العامة للعمال تتخلى شيئاً فشيئاً عن عادة الرجوع الى الاضرابات . ووسائل العمال المثلى لديها ، لم يعد العمل المباشر ، وهي الطريقة المحببة لدى النقابة العامة لاتحاد العمال ، بل الضغط على السلطات العامة والمفاوضات الرسمية ، والمناقشات النيابية التي أجادت استعمالها . فالرغبة في تأمين الطمأنينة والاستقرار في العمل تتغلب عندها على الرغبة في تحقيق اصلاحات دستورية . فهي توجه جهودها لتحقيق الاتفاقات والتحكيم . فهي تعتمد اصلا « طريقة الحضور » وتحاول جهدها في ايجاد « روح نقابية بناءة » ، ولذا رأت من مصلحتها التعاون مع الحكومة ومع الاحزاب بغية تطبيق القوانين الاشتراكية المعمول بها كقانون ٨ ساعات عمل في اليوم ، والضمان الاجتماعي على انواعه ، كما تشارك في اعمال مكتب العمل الدولي *B. I. T.* ، وفي اعمال عصبة الامم ، ومع المجلس الاقتصادي الوطني الذي تم انشاؤه عام ١٩٢٥ . وبجمل القول ، ان القسم الاكبر من العمال العاملين في الصناعة ، بقي بعد اليأس الذي انتابه منذ عام ١٩٢٢ على اثر الفشل الذي لحق بحركة الاضرابات ونشأ عن الانقسام ، بقي في معزل من جهود نقابتي

للعمل العامتين .

كان من نتائج الخسف الذي لحق الحركة العمالية في البلدان السكندينافية حيث لم تسجل الحركة اي انقسام نقابي ، ان وضع الحركة تحت رحمة خصومها . ففي الولايات المتحدة التي شهدت فشل المحاولات المبذولة لتحقيق حزب للعمال ، وحيث نال مرشحو الحزبين الاشتراكي والشيوعي لرئاسة الجمهورية ٢٦٧،٠٠٠ و ٤٨٢ صوتاً فقد شهدت سنة ١٩١٩ وحدها ٣٦٠٠ اضراب يقوم بها اكثر من ٤ ملايين عامل ، وهي اضرابات قلما لقيت نجاحاً او إقبالا في الصناعات الفولاذية حيث امر ارباب العمل بتركيب رشاشات في نوافذ المصانع وضربوا حولها حواجز من الاسلاك الشائكة المكهربة . ثم جاءت سنة ١٩٢٠ ، وجاءت معها حركة انكماش النقد والبطالة ، وهجوم أرباب الصناعة على الاتفاقات الجماعية وعلى النقابات العمالية . وقد اصدرت المحاكم ، ومن بينها المحكمة العليا ، أحكاماً مختلفة على البعض من هذه النقابات وأعلنت الاضرابات عملاً غير قانوني ، فلا عجب ، والحالة هذه ، من ان يصاب الاتحاد العام للعمال (*A.F.L.*) بالقهقرى وينسحب منه أكثر من ٤،٥٠٠،٠٠٠ من اعضائه المسجلين مع ان نشاطه اتسم دوماً بموقف معتدل رمى ابداً للتوفيق . وقد توصل أرباب العمل ، في بعض الصناعات للتخلص من كل تنظيم عمالي ، كما توصلوا أحياناً ، الى تأليف نقابة يكون امرها بين أيديهم .

وفي انكلترا اخذت الحركة العمالية الاتحادية تعاني ، هي الاخرى ، من بعض المشكلات الحادة ، ولا سيما من هذه المشكلات التي تثيرها الصناعات الاستخراجية ، وتثيرها البطالة . ان طريقة استخراج الفحم البالية وتكاليف الانتاج العالية أدّى الى جانب الوضع الزري الذي يتسكع فيه العمال ، الى تأليف لجنة خاصة تعرف عندهم بلجنة هنكي ، كان بين الاقتراحات التي تقدمت بها ، تأميم المناجم ورفع الاجور . وقد رد العمال عام ١٩٢١ على اغلاق المعامل والمصانع في وجه العمال ، باضراب عام ، باء بالفشل الذريع ، بعد ان رفض عمال مناجم الفحم، الانضمام الى العمال المضربين . وأطل الصدام من جديد ، عام ١٩٢٥ ، وطلب أرباب العمل أخيراً اجراء تخفيض في الأجور وزيادة ساعات العمل في اليوم . وأمام هذه المطالب ، قرر اتحاد العمل العام الاضراب الشامل ، فأدخل الرعب في قلب البورجوازية البريطانية . إلا ان الاضراب أخذت تضعف حدته بعد تسعة ايام ، والغي القرار بالاضراب العام، واستمر المعدنون خمسة أشهر في موقفهم يحاولون عبثاً الحصول الى نتيجة مرضية . وراحت حكومة المحافظين ، تستغل « اسوأ فشل تصاب به الحركة العمالية في تاريخها » لتقر قانون عام ١٩٢٧ حول النقابات ، فاعلن عدم شرعية اي اضراب عام او اي اضراب يُعلن تضامناً معهم . وقد أدى هذا الفشل، هنا ايضاً ، الى هبوط في عضوية النقابات في وقت جاء فيه الاستمرار في الاضراب ينشيء وضعاً غير ملائم لتحقيق المطالب العمالية . وهكذا بعد ان أسقط في يدها وأصيبت بالشلل والعجز ، اضطرت الحركة العمالية ان تخضع لسياسة المحافظين .

المنظمات الدوليـــة

عمد خصوم الرأسمالية ومناوئوها ، بعـــد الانقسام الذي ابتلوا به والمنافسة الحادة التي نشبت بينهم في كل بـلد ، وانشطارهم الى احزاب عمالية والى نقابات متخاصمة متنابذة ، الى بعث المنظمات الدولية التي كانت قائمة قبـل عـــام ١٩١٣ . ان اهم الاحزاب الاشتراكية هي التي قامت في المانيـــا (مليون عضو) وفي النمسا (٧٠٠،٠٠٠) والسويد (١٣٠،٠٠٠) وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا (٢٥٠،٠٠٠) اي مـــا يوازي مجموعه ٦،٠٠٠،٠٠٠ عضو بما فيه الانصار والمتعاطفون مع الحزب من الأحزاب الاخرى: كالاحزاب الاشتراكية البلجيكية والانكليزية ، والفوا من مجموعهم الدولية الثانية . أما الدولية الثالثة الكومنترن ، التي تألفت عام ١٩١٩ في موسكو ، فقد تألفت من الأحزاب الشيوعية . الا أن بعض الاحزاب الاشتراكية ، كالحزب السويسري ، وحزب العمال المستقل في انكلترا والحزب الاشتراكي المستقل في المانيـا رفضت ، بادىء الامر ، الانضمام الى هـــذه أو تلك من المنظمات الدولية وفضلت ان تشكل وحدها الاتحاد الرابع المعروف باتحـــاد فيينا او المنظمة الدولية الثانية ، وقـــد باءت بالفشل محاولات التوحيد بين هذه المنظمات التي سعوا إليهـــا في كل من مؤتمرات برلين وفيينا وهمبورغ ، عام ١٩٢٣ ، وفي نهـاية الأمر بقيت منتصبة وجهـــاً لوجه : الدولية الثانية والدولية الثالثة .

وهذه الانقسامات وما أدت اليه من منافسات حـــادة في مجال النقابية الدولية ، قابلهـــا التحالف الدولي النقابي الذي ضم في صفوفه النقابات الاصلاحية وجمع عـام ١٩٢٩ نحـــواً من ١٤ مليون عضو ، منهم ٣،٦٠٠،٠٠٠ في انكلترا ، و ٦٠٠،٠٠٠ في فرنسا ، وأحصت النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبلجيكا والمكسيك مجتمعة أكثر من نصف مليون عضو في كل منهـــا ، وهي على اتصال وثيق باحزاب الدولية الثانيـــة ، وكلها تتعاون مع مكتب العمـــل الدولي (B. I. T.) ومع السكرتيرية العامة لمنظمة العمل الدولي (O. I. T.) وهي منظمة يشترك في اعمالها ونشاطاتها ممثلون عن الحكومات ورؤساء النقابات العمالية وممثلو أرباب العمـــل . وتنتصب أمامها المنظمة الدولية النقابية التي اعيـــد تشكيلها في موسكو عام ١٩٢١ وعرفت بتعاونها العام مع الدولية الثالثة ، ومن بين الهيئات المنتسبة اليها النقابات السوفياتية ، والاتحاد العام للنقابات العمالية (C. G. T. U.) الفرنسية .

وهكذا نرى في كل المجـالات ، الحركة الاشتراكية تنقسم الى قسمين يفرغان جهـــدهما ويكرسان قواهما في محاربة الواحدة الاخرى ، كل طرف منهما يحـــاول السيطرة على الطبقات العمالية ، مضعفاً الواحد منهما الآخر .

الخلاصـــة

تنصرف أهم الدول في العالم التي تولى الامر فيها ، في هذه الفترة الواقعـــة بين ١٩٢٠ - ١٩٢٩ ، حكومات محافظة ، الى إعادة تنظيمها السياسي والاشتراكي في ظروف قاسية غير متكافئة وعلى اقدار متباينة من التوفيق والنجاح . وكل هـــذه الدول شهدت عن كثب الادوار التي قطعتها حركة التصنيع والمكننة وبالتـالي التطور الديموغرافي

وحركة تكاثر السكان بين الطبقات العاملة ، سواء في الريف أو في المدينة وطابع التركيز الذي ميز المشروعات الاستعمارية ، وقبضة الطبقات الموجهة على اجهزة الحكم . فالولايات المتحدة وحدها بين هذه الدول هي التي عرفت ان تفيد ، الى حد بعيد من هذا الازدهار الموصول البارز العيان بينا كانت بريطانيا العظمى تمر في أزمة مستمرة بعيدة الغور . وبين هذين الحدين والنهايتين القصويتين ، عرفت البلدان الاخرى حياة مضطربة لا استقرار فيها ولا سكون ، كما عرفت فترات منقطعة من الازدهار تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك عجز الوسائل والاساليب التي استخدمها الانسان وسخرها لاعادة البناء ، والعطب السريع الذي يستهدف لها هذا البنيان . وهذا الوضع وسرعة العطب الذي يتعرض له ، سيكون من شأن أزمة ١٩٢٩ الحادة ان توضحها وتبرزها بجلاء العيان .

الفصل السادس

بعث الحياة الفكرية والفنية

« أخذ الانسان يدرك نفسه ويفهم حقيقته كحادث طارىء زائل في هذا الوجود ، كما اخذ يدرك بأنه مرحلة مؤقتة في عالم متحول متطور باستمرار » .

ج. ر. بلوك

في الوقت الذي شهدت فيه اوروبا تقلص سيادتها وزوال سيطرتها المادية ، كانت هذه القارة مسرحاً لنشاط فكري عـــارم طرح على بساط البحث من جديد – كنتيجة منطقية لهـــذه الكشوف العلمية التي تم الوصول اليها منذ مطلع القرن – كل المبادىء التي قامت عليها المعرفة العلمية وما الى ذلك من تيارات ونظريات فلسفية . وكان من بعض نتائج الجائحة الكبرى التي مثلتها الحرب العالمية ، وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي ان زادت البلبلة والغموض اللذين بعثتهما في النفوس ، النظريات العلمية والفلسفية الجديدة . والوعي الصادق لهـــذه التغييرات الجذرية التي وقعت في العـــالم ، برزت ، على درجات وانساب متفاوتة من الوضوح ، في كل مجالات الفن والفكر ، إرادة جامحة للتجدد والبعث . فنحن امـــام ثورة حقيقية تتناول كل مظهر من مظاهر التعبير .

كان مطلع القرن العشرين حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، مشبعاً بروح من التفـــاؤل العقلاني الذي تركـــه في النفوس ، القرن الثامن عشر وبعض القرن التاسع عشر ، وهو تفاؤل يظاهره ويؤيده العلم المتطور ، بأن الانسان لن يحكم فيما بعد الا وفقاً لمعلومات ولمبادىء عقلانية ، اي علمية . ومع ذلك فقبل عام ١٩٢٤ ، شك كثيرون بهذه العقلانية وهـــذه التفاؤلية ، في القرن التاسع عشر بشخص كيركيغارد ونيتشيه فاهتزا من الاساس . وتبدو في الافق ازمـــة هوجاء تهدد بالدمار والخراب ، ليس تراث فنْت وكونت الفلسفي فحسب ، بل ايضاً هـــذه الانسانية نفسها المتحدرة الينا من عصر الانبعاث في القرن السادس عشر .

١ — الجو الفكري الجديد

الثورة في العلوم الفيزيائية

جاوز العلم بعيداً، في بضع سنوات، النظريات القديمة التي قامت على تعاليم اقليدس ونيوتن والتي عليها نهض البنيان العلمي. فقد سبق العالم الرياضي الالماني هلبرت الذي سيطرت تعاليمه الى ان وافاه الاجل المحتوم، عام ١٩٤٣، على العلوم الرياضية، بعد وفاة هنري بوانكاريه، ان قال بوجود كون له من المقاييس ما لا يُحَدّ، وترك لنا «نظرية المجموع»، هذه النظرية التي طرحت على بساط البحث من جديد، أسس الرياضيات. وهكذا أطلّت علينا «علوم منطقية جديدة» تدعي بأنها تخطت بعيداً العلوم التي وضعها ارسطو.

وبرزت هذه النظريات الجديدة في الوقت الذي تطور فيه علم الفيزياء وطلع علينا بنظرية النسبية التي قال بها اينشتاين وعلّم، فنقضت من الاساس، المبادىء المطلقة التي تقول بها هندسة اقليدس وعلم الميكانيك كما وضعه نيوتن. فاذا ما طبّقنا على الحركات نظرية اينشتاين التي أقصرها حتى الآن على الحركات السوية المستقيمة الاتجاه، فقد رأى في ظاهرة الجاذبية شكلا من القصور الذاتي بينما رأى فيها نيوتن خاصية من خصائص الاجسام. فنظرية الفضاء الزمني التي قال بها اينشتاين افسحت المجال لهندسة تقوم على اربعة ابعاد اذ دخل الزمن بعداً رابعاً. والثورة التي تمت في المجال الذري ليست باقل خطراً وشأناً. فقد سلم العلم العقلاني في القرن التاسع عشر بالديمومة وباستمرار المادة. والحال، فسلسلة الاختبارات العلمية، التي قام بها تباعاً علماء اعلام من عيار كروكس وجان برّين، ورنتجن و ج. ج. تومسن وبيكريل وبيار وماري كوري وماكس بلانك ونيلز بوهر، قد قضت تماماً على هذا الوضوح المزدوج وادخلت الاضطراب والتشويش الى دنيا الفيزياء. ففي عام ١٩٢٤، انشأ لويس دي بروبل بالتعاون مع شرودنجر علم الميكانيكا التموجية. وجاء الاخير منها بالدليل القاطع على ان الميكانيكا التموجية هي نفسها الميكانيكا الكمّية التي قال بها هيزنبرغ. وبقطع النظر عن ان الموجة والجُزَيْء، هما شيئان ينفي احدهما الآخر، فهما يلتقيان متحيزين في الواقع. فالميكانيكا الكمية تجلب عنصراً جديداً من البلبلة على الفيزياء. فقد قال هايزنبرغ بنظريته اللامحدودية بعد ان اضفى عليها مدلولاً رياضياً واضحاً بقوله انها «نسبة عدم اليقين او الشك» الذي ينفي مبدأ المطلق الذي لم يتنكر له احد، هذا المبدأ الذي يقول بالحتمية المطلقة للظواهر. فكل علماء الفيزياء ليسوا على اتفاق رأياً حول هذا الموضوع. فايزنبرغ وبوهر يسلمان بمبدأ اللامحدودية الجذرية على مستوى الفيزياء الذرية، بينما يقتصر لويس دي بروبل على تفسير احتمالي، في الوقت الذي يلازم اينشتاينُ ولانجنين جانب الحتمية.

الثورة في الفلسفة

هذه النظريات العلمية والجدل العلمي الذي اشتد حولها كانت نواة لنظريات جديدة حامت حول العلم وتناولت مشتملاته وحدوده. ان تقهقر التجربة او الاختبار كعنصر اثبات بعد ان كانت للآن الاداة الوحيدة

الموصلة لليقين لصالح النظريات الرياضية (كنظرية الميكانيكا التموجية) ، افضى بالعلم الى الاسمانية التي قال بها هنري بوانكاريه . فالعلم لا يعرف شيئاً ولا في مقدوره ان يتوصل الى معرفة شيء عن كنه الاشياء وجوهرها . فكل ما يستطيعه هو تحديد الروابط والنسب الموجودة بين الاشياء بالنسبة لبعضها البعض . وهذه الاسمانية العلمية غارقة في جو حيث النظريات الفلسفية المثالية المختلفة والتي تجعل من الانسان عقلاً منطقياً ورياضياً وتزرع في النفس القحط وعدم الشفقة ، لم يجر تكييفها كما يجب لتتلاءم مع مجتمع تثير فيه الرأسمالية العاتية والبروليتاريا التي تنهض على العدد والنفوذ ، مشكلات اجتماعية تزداد ضغطاً يوماً بعد يوم . وهذه اللامبالاة التي تبديها الفلسفة المثالية تجاه القضايا والمشكلات الواقعية ، تفسر لنا النجاح الذي تلاقيه النظريات الفلسفية اللاعقلانية : كالذرائعية الاميركية التي حملها برغسون الى اوروبا . وفلسفة العمل او السلوك هذه « تفتح نافذة على اللامعقول واللامنطقي» الذي يشدد بنوع خاص ، على الدور الاساسي الذي يلعبه اللاوعي . وبالمقابل تقوم في المانيا ثورة فكرية سريعة وعميقة الجذور الى جانب الفلسفة الظاهراتية التي قال بها هُوسِّير وعلم : فالحقيقة لا يُبْلَغ اليها لا بالتجربة او الاختبار ولا باليقين العقلي ، بل بشيء من المشاهدة او الاكتناه من نوع خاص يساعدنا على تبيان قوامها .

وأزمة العلم هذه والتي زادتها حرجاً على حرج ، الفلسفة الحتمية ، قد هزت من جذورها العميقة الفلسفة العقلانية القديمة . فقد قام مع برغسون وجايمس واونامونو ، تيار لاعقلاني اخذ يقوى ويشتد شيئاً فشيئاً ، تيار شوهد في المانيا خلال الحرب وبعدها ، اردفه ماكس شولر بمنهج هُوسير الظاهراتي ، فيما يتعلق بالمشكلة الادبية ، اذ اقام في وجه عالم حيث لا عمل مطلق ولا هدف اسمى ، نظاماً دقيقاً من القيم في القمة او الذروة منه معرفة اله شخصي مسيحي. وهذا التيار اللاعقلاني يعرف في الثلاثينيات مع هايدغر ، انتشاراً حاسماً من المظاهر التي تلبسها وبرزت معها الوجودية .

هايدغر

القسم الجوهري او الاساسي من فلسفة هايدغر ظهر في المانيا ، خلال هذه السنوات التي سبقت مباشرة وصول هتلر الى الحكم ، وذلك في مؤلفاته « الوجود والزمن » الذي صدر عام ١٩٢٥ ، وكتابه الآخر « كنت وقضية الميتافيزيقا » الذي صدر عام ١٩٢٩ ، و « ما هي الميتافيزيقا » الذي صدر عام ١٩٣٠ . وبواسطة هذه المؤلفات وعن طريقها اطلت الوجودية على الحياة وتغلغلت بين الملأ العلمي ولقيت ما لقيت في العالم ، من آذان صاغية وافكار واعية . فقد انبعثت من رومنطيقية شمالية مع فلسفة « الضنك او الكرب » التي قال بها كيركيغارد ، ثم انتقلت الى اوساط المفكرين والادباء مع هذا الجو الذي خلقته الازمة العلمية ، وعلى الاخص مع هذه الفوضى التي اجتاحت المانيا في فترة ما بعد الحرب والتي تميزت بهذه المجاري الفكرية التي تقول بالنسبية ، وقالت بعدم مقدرة الانسان للوصول الى واقعية الحقائق العلمية والى كل ما له قيمة ما ، وهو تيار وجد صداه الداوي في فلسفة

بارث اللاهوتية ، هذا اللاهوت اللاعقلاني ، لاهوت قانون الايمان المجرد من كل يقين فكري ، وهكذا طلعت فلسفة هايدغر تعبيراً صادقاً عما كانت عليه الحياة الفكرية في المانيا : اللاعقلانية المثالية .

ولما كانت هذه الفلسفة تنهض اساساً على المبدأ القائل بان العالم البشري يخلو تماماً من معيار القيم المطلقة ولا معيار له سوى المعيار الذي يعطيه هو نفسه ، فقد نقل الى المجال الفلسفي المعايير والمقاييس التي استخدمها في المجالين الادبي والفني منذ مطلع القرن والتي راحت الحرب تركيها وتبررها . منها إطلالة مبدأ الخلف او المحال لأول مرة . وان وجودنا ينهض على أرضية من العدم او اللاوجود، وان « الفلسفة ليست سوى الانشغال بما يسبب الكرب واليأس » . فعلى الانسان والحالة هذه ان يخلق بنفسه قواعد سلوكه ومعايير القيم التي يعترف بهما ، بينما نرى كارل ياسبرس الذي يعتبر مع هايدغر خير ممثل للوجوديه متحرراً من اليأس والخلف عن طريق اعتقاده بالله .

ازمة العلوم البشرية : السيكولوجيا وعلم الاجتماع

اضطر كل من علم النفس وعلم الاجتماع ان يعيدا النظر ، من الأساس ، في المناهج التي اعتمداها حتى الآن وسارا عليها . ففي مجال علم النفس تجاوز التفكير البشري بمراحل ، الاستبطان الذي لم يعد من العلم بشيء ، كما تجاوز بعيداً علم النفس الطبيعي . وطريقة الشكل او (الجشطلل) ، وعلم النفس التجريبي او الاختباري الذي حاول الروس تشييده على ضوء الانعكاسات المشروطة التي قال بها بافلوف ، وسلوكية الاميركيين ، وطريقة الروائز التي جروا عليها في فرنسا والمانيا ، كل هذه الطرائق السيكولوجية ، قد كسفتها طريقة التحليل النفساني الذي وضعها فرويد في هذه المؤلفات التي اصدرها قبل الحرب وبعد عام ١٩١٧ والتي لقيت رواجاً عظيماً ولا سيما في اميركا تاركة اثراً عميقاً في الأوساط الأدبية والفكرية والفنية ، وبين علماء الاجتماع والاحيائيين . فقد شدد فرويد على اللاوعي او اللاشعور خصوصاً مدلاً على ان المصابي هو انسان « مكبوت » (من جراء الصعوبة التي يلاقيها في استحضاره لبعض الصور البديهية) . فاللاشعور هو المكان الذي تتجمع فيه المكبوتات التي تسبب الامراض ولا سيما هذا النوع من الكبت المتعلق بالجنس ، إذ ان الاصابة غالباً ما يكون منشؤها ، الأمور المتعلقة بالحياة الجنسية في المريض . ان ادق الاعمال التي نأتيها ، والافكار التي تجول في خاطرنا هي مرتبطة ، بغير وعي منا ، بقوة لاشعورية قد يعود اصلها احياناً الى الطفولة الاولى. فهذه الحياة الخفية المستترة التي يحياها بمعزل عن الحس الواعي ، هي التي تحرك العالم وتقوده بالفعل . اما علم الاجتماع الذي اتخذ في اثر هربرت سبنسر ذريعة للبحث عن النواميس التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية باعتبار ان التاريخ ليس سوى تطور البشرية في خط سوي ، فهو يطبّق في دراسات هذه المجتمعات ، الاكتشافات السيكولوجية ، الكبرى التي وقعت في مطلع هذا التاريخ ، كما انه يوجه الانتباه الى قضايا جديدة حرية بالدرس والبحث . فعلماء الاجتماع ، ولا سيما الاميركيون منهم يرون المجتمع

حولهم ، في تطور موصول . فالمدن تنشأ كالفطر ، وتطل علينـــا ، عن طريق الهجرات ، شعوب جديدة ، كما نشاهد عن كثب اختلاط العروق والسلالات البشرية ، ويولون اهتمامهم الاول لتفهم الحقيقة كما تبرز في حياة المدن بكل ما لها وفيها من حيوية عارمة ، والكشف عن العوامل التي تتحكم بالتطورات الاجتماعية ، وما عسى ان تكون عليه المسلّمات العددية التي تربط ما بين هذه الظاهرات وتشدها بعضاً الى بعض . وقد برز من هـــذه المناقشات السياسية والجدليات الاجتماعية ، نظريات عديـــدة حاولت ان تربط بين تسلسل الامور وبين كَلَف الشمس او الاحوال الجوية المسيطرة ، كما تحاول ان ترى في العروق البشرية العوامل الاصيلة في تكوين هذه المجتمعات البشرية ، من ذلك مثلاً علم الاجتماع الصوري الذي قال به تونيز بعـــد ان تجاهل مادة الحياة المجتمعية ونظريات باريتو الذي لقب بحق « كارل ماركس البورجوازية » ونيارسكي الذي طلع علينا بنظرية اللامساواة الضرورية ، و « علم الاجتماع الشامل » الذي قال به ماكس ويبر الذي بعد ان ميّز في دراسته الرموز او الانماط اربعـــة « انواع من العمل » ردّ كل شيء الى « سلوك الفرد الشعوري » . ونظرية دلثي الذي يسيطر كليـاً على التيار الذي يضع العلوم الطبيعية وجهاً لوجه مع العلوم الانسانية .

أما في فرنسا ، فقـــد ربطت مدرسة دوركهايم بين عـــلم الاجتماع وبـين الاثنوغرافيا او الاثنوبولوجيا الوصفية . وراح دوركهايم يشدد ، بعكس ليفي بروهل الذي شدد بدوره ، في القسم الاول من آثاره العلمية ، على التعارض القائم بين المنطق وما قبل المنطق (ميزة البدائي غير المتحضر) على استمرار او ديمومة هـــذه الروابط ، الأمر الذي ينقض من الاساس نظرية تفوق الابيض على الملوّن ، بينما يحاول موسّ ان يثبت لنـا « ان الواقع الاجتماعي الكامل » لا يجد ملء مدلوله الا إذا دخل بنياناً اجتماعياً كاملاً . وهكذا نرى ان علم الاجتماع يتجـه نحـو « الجماعات » الـتي تتألف من الفئات الاجتماعيـة . وهـذا ما يسميه سورركين : الديناميكا الاجتماعية الحضارية للجماعات . وهكذا ينزع علماء الاجتماع الى التخفيف من شأن العوامـل الاجتماعية الخارجية (كالمناخ مثلاً) ، وللادراك المتصاعد بان اثر هذه العوامل ليس بالضرورة قاطعاً ، وبأن المجتمع البشري ليس مجرد طبائع سيكولوجية فردية متجاورة او متلاصقة ، وان هنالك « وعي اجتماعي » . ومع ذلك ، فالسيكولوجيا الاميركية التي تجاهلت باستمرار النظرية التي قالت دوماً بفئات مميزة واقعية ، تحمل عميقاً اثر الأزمة الكبرى . فسوروكين يقع في وجه نظرية ماركس ، نظرية الطبقة الاجتماعية ، هذه النظرية التي تقول بان الشعور الطبقي انمـا ينشأ في الذهن ، من مجرد تصور الدور الذي يمكن لفئة مجتمعية ما ان تلعبه في وسطهـا الاجتماعي ، وليس من وعي الاحداث الاقتصادية والاجتماعية المتصلة بهذه الفئة . فهو يرى ان « الطبقة » التي تتألف ، في نظره ، من عناصر ناشطة ، كثيرة الحركة ، لا يمكن لهـا ان تؤلف فئـة مضادة لاخرى . وبهذه الذهنية ، ومناهضة منه للايديولوجيا الماركسية ، راح العـالم النفساني ج . ل . مورينو يضع نظريته في التحليل النفساني الاجتماعي الذي يرغب في ان يطبق على التصادم

الفئوي ، تقنية التحليل النفساني حلاً منه للمشكلات الفردية (في كتابه « من سيبقى » الذي صدر عام ١٩٣٤) ، وذلك لانقاذ العالم من المشكلات التي تباعد بين ارباب العمل والعمال ، هذه المشكلات التي لا تخرج عن كونها امراضاً اجتماعية عارضة لا بد من معالجتها معالجة سيكولوجية .

وهكذا يرقى علم الاجتماع ببطء كلي الى مرتبة علم مستقل يُعنى بالمجتمعات البشرية ويترك اثره الظاهر على العلوم البشرية الاخرى : على الاقتصاد مع فرنسوا سيميان ، وعلى التاريخ ، مع مارك بلوك ، فعلم التاريخ يفيد الى اقصى حد من عمل علماء الآثار وعلماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع فيوسع من نطاق افقه ويعمل على تجديد او عصرنة معلوماته حول الحضارات التي سلفت والتي نرى انفسنا في جهل مطبق عنها : كالاتروسك مثلاً والصين القديمة والسومريين والحضارات الأخرى التي تقدمت كولمبوس . وهو يؤثر ان ينصرف الى تحليل الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والظروف التي اكتنفت حياة الناس في الماضي السحيق .

سدد التطور العلمي ، ولا سيما تطور العلوم الانسانية ، ضربة قاسية للعقلانية وللحتمية : فقضيا معاً على العقل الشامل والقيا ضوءاً جديداً على مفهوم النسبية وعلى الدور الذي يلعبه اللاشعور ، وشدّدا على الدور الذي تلعبه القوى الخفية اللاعقلانية التي تحرك الانسان وتوجه نشاطه . هذا الموقف اللاعقلاني عاد بفائدة ملحوظة على العقائد الايمانية وعلى التقريرية في بعض ملامحها ، مع انه انطلق ، في بدء الامر ، في كل المجالات ، ولا سيما في مجالي الادب والفن ، ردة فعل صاخبة ضد التقاليد التي اصبحت موضوع شك في الوقت الذي اخذت فيه تجربة الحرب وما بعد الحرب ترسخ في قلوب الناس ونفوسهم التشاؤم والقلق .

٢ – الثورة الادبية والفنية

عندما يدور الحديث عن الادب والفن لا تعود الاشارة الى الزمن لتكفي او لتفي بالغرض ، اذ ان تجدد وسائل الاعراب عن المشاعر النفسية يتم في جو يجيش بالثورة والغليان هو على اتصال وثيق بالثورة العلمية والفكرية .

المناخ الجديد

اول ما يطالعنا في هذا المجال منذ بزوغ القرن ، روح ثورية تهب في وجه الملأ البورجوازي « المثقف » غير المتفهم والمتخلف في براعث فخره ومباهاته ، وضد الاعراف الاكثر رعاية وقبولا لدى الرأي العام. وتحاول الموسيقى من جهتها التملص من هوس التلوين والميلوديا اللانهائية الواغنرية ، كما يذهب فن الرسم بدوره للبحث عن البيان التصويري والتعبير عن الحجوم بعد ان ادارت التعبيرية لها ظهرها واعرضت عنها اعراضاً كلياً . واخذ الكتاب بردة عنيفة ضد واقعية زولا بحيث يكونون لهم رؤى جديدة عن العالم . الا ان حركة التسارع التي اتخذتها حركة التطور التي ألمّتْ بحضارتنا المادية ، والدوي الذي احدثته

في العالم الكشوف العلمية الحديثة ، والتغييرات الجذرية ، التي تحمل هي الاخرى سمات النسبية : ليس بعد من سلّم او معيار قائم بذاته ولا من فضاء قائم بذاته ، ولا من ابعاد قائمة بذاتها ، ولا قواعد للقريض بحد ذاته . وهذه الثورة في وجه نواميس بدت فجأة وكأنها إصلاحية صحبتها ولازمتها ردة فعل ضد « الواقعية » وضد موضوع المدلول العام الذي « خُيّل للجميع انه قائم بذاته بينا المعنى او المفهوم الذي نوليه اياه ينبع من سريرتنا نحن. فكل صاحب فن او موهبة من رسام الى شاعر الى موسيقار الى كاتب اخذ يعي ، اكثر فاكثر ، بان عليه ان يستنبط طريقته التعبيرية الخاصة ، ولغته الخاصة لينقل لنا الصورة التي تبدو له عن العالم . وهذه الذهنية تفسر لنا ما للفن الزنجي من اثر عميق اذ من بعض حسنات هذا الفن ان يأخذ وئيداً بيد الفنان الى دنيا الفن التشكيلي الجديد عنده ، كما يبين مـا في الآداب الشعبية ، على انواعها من سحر وفتنة واغراء ، وعنها يصدر ريان مترعاً مانويل دافالا وجورج إينسكو ، وبيلا برتوك وفيلا لوبوس .

والميزتان اللتان تسمان الادب والفن الحديثين هما العمومية او الشمول والاممية . فتحت التنوع القومي والامزجة الفردية المتباينة ، نرى الثورة ذاتها تهب في وجه مجتمع بورجوازي متعصب لقوميته وفعال في تفاؤله ، وشعوراً مشتركا بتأجيج ثورة عميقة في قلب الانسان وفي صميم العلاقات التي تشده الى العالم . ففي البحث عن صور جديدة ، هنالك ليس ردة فعل ضد ما هو رسمي او ضد ما هو موافق فحسب ، بل ايضاً البحث عن انسانية جديدة حيث لا اثر قط لهذا الكائن العقلاني ، كما يراه المذهب العلمي راضيا ، واثقاً بنفسه ، المتشاوف في خيلاء انه سيد العالم حيث يسود اللامعقول واللاخلقي (في المفهوم البورجوازي للكلمة) ، له حق الرعوية ، بل ايضاً حيث الانسان الذي تحرر من معبوداته واوثانه ، وحصل على العلم الجديد اخذ يعي ما أوتي من حرية خالقة ، مبدعة بالنسبة لعالم الكائنات بحيث ان في الوقت الذي تبدو معه متحكمة بالقضايا والمشكلات الخاصة بالطبع ، نحن بالفعل نكون امام محاولة للتعبير عن الانسان الجديد الذي اطلّ علينا وعن مشاعره الجديدة ، وعلاقته الجديدة بالكون ، وهي محاولة تطبع في الصميم كل مآثر هذه الحقبة . والفن لم يعد يفرق بصورة مصطنعة ، بين مشكلات المبنى والمعنى او المحتوي والمحتوى . فهو يبحث بالاحرى عن صيغة تصلح للتعبير عن المحتوى البشري .

الحرب وما بعد الحرب

هذا التقاطع المزدوج مع الصورة القديمة للاشياء ، ومع هذا المجتمع الذي يتناقلها ، اضفى على الفن وعلى ادب ما بعد الحرب ، السمة البارزة التي تميزها وتفرّدها ، كانت الحرب في نظر الكثيرين ، حادثاً جهنمياً وشروداً للعقل السليم عن محجة الصواب تحت ستار المحافظة على القيم الروحية والوطنية من وراء الحفاظ على مصالح وَسِخة .

فالسأم الشامل والردة العامة بعد هذه السنين المديدة من الضغط المرهق التي وجدت تعبيراً

لها في هذه الاضطرابات الاجتماعية التي انفجرت والمطالب السياسية التي انهالت ، يقابلها ، من الجانب الادبي والفني ، هذا الاختمار العام في الافكار الذي زرع الشك في كل ما اصطلح عليه المجتمع وتبنّى من تقاليد واعراف ، ويبرر احياناً بفجور ما نشاهد من حمى الاندفاع نحو الملذات دونما تمييز او خيار ، وحمى التكالب على التحرر والانعتاق التي جاشت بها طبقات المجتمع على اختلافها . وهذا الغليان الشامل لم يهدأ الا بعد عام ١٩٢٥ ، عندما بدا للجميع بارقة أمل بالوصول الى الاستقرار المنشود .

عند المنتصرين

بعد ان هدأ هزيم المدفع المدّوي ، وبعد ان وضعت الحرب اوزارها ، راح الجميع يحاولون تناسي كابوس الخنادق الذي اناخ بكلكله على الصدور . فتحت ستار شفاف من التفاؤل واللامبالاة عند البعض ، نرى بوضوح ما يسامر افكار الناس وقلوبهم ، في هذه الحقبة ، من قلق او اضطراب وتشاؤم ، يتجليان على اتم شكل بالتهرب بجميع الوسائل مما يرهق ويقلق ، وبالرغبة في التمتع بلذات « الحياة المادية » والتحرر من الاعراف والمحرمات . وفي هذه الاثناء أطل علينا عاطين بشهرة واسعة ج. كوكتو وهنري دي مونترلان وآلدوس هكسلي،واعجاد اندريه جيد المشبوهة الذي رأى ان العمل لا قيمة له الا في مجانيته ، أي خالياً من كل معنى إنساني (راجع كتابه : « اقبية الفاتيكان ») . وراحت الشبيبة البورجوازية تلتهم كتابه الآخر : « قوت الأرض » المنشور عام ١٨٩٧ الذي لم يُبع منه خمسمائة نسخة في خمس وعشرين سنة لما فيه من دعوة الى نبذ ورذل كل القواعد باستثناء الركض وراء اللذة . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر التحليل النفسي الذي جاء ظهوره تبريراً أو تزكية لحركة التحرر من كل قاعدة أدبية فحظي باوسع رواج في العالم كله . في هذه الحقبة بالذات نشرت مؤلفات مارسيل بروست فعادت على صاحبها بالمجد الأثيل (بحثا عن الزمان الضائع ١٩١٣ — ١٩٢٨) وكتاب جويس« اوليس ، الذي ظهر عام ١٩٢٢ ، اللذان يدخلاننا بما فيهما من استبطان دقيق، الى مرحلة جديدة من معرفة الانسان لنفسه معرفة جديدة . الا ان الرأي العام رأى فيهما دعوة سافرة للقضاء على المتوارث من الأفكار والمبادىء الاخلاقية . ولهذه الاسباب ، كان اندريه جيد القائد الروحي لهذا الجيل كما رأينا كيف ان الفرداني الاهوج الذي على شاكلة هكسلي وبيراندلو يمثل التنافر العميق الذي يتخبط فيه الانسان في وسط عالم هو الآخر مصاب بالتفكك والتنافر ، انما يدل على ان معظم الناس يتصرفون بصورة اوتوماتيكية خالية من الصدق ، وبان هنالك دوماً تعارض فاضح بين نوايا الانسان وبين مواقفه وحقيقة تصرفه .

هنالك كذلك كل هؤلاء الذين يحدو بهم القلق الى الهرب : «الهرب هو الكابوس او الفكرة المستبدة لهؤلاء الذين تلهج قلوبهم بالتحرر وتشرئب نفوسهم الى الحرية » . فالانسان يهرب من ذاته بعد ان هرب من الله ... يهرب ليقع في الغرور وفي هذه الخزعبلات التي تخفي ، ولو لفترة قصيرة ، ما هي عليه النفس من جوع وفقر (بابيني) . فريق تقوده خطاه وهو هارب الى

الكلاسيكية الحديثة حيث لاوزن الا للجمال الصوري . فالشعر المجنح هو الشعر الكاذب الذي يخلو من كل معنى ومن كل محتوى انساني حيث تحف بكلمة متناغم هالة من اللاعقلاني ومن العاطفي ، وهما المجالان اللذان يسرح فيهما الشعر المهفهف ويمرح . وقصة « La Jeune Parque » كأختها : « الارض المفقودة » لأليوت ، هما متزامنتان تماماً وتعبران بما فيهما من يأس ومن عجز ، عن ايمان انسان العصر ، بعجزه وقصوره ، وعن رفضه للمجتمع الذي يحيق به . فهي كالموسيقى الصافية صدى للعبارة القائلة : « نحن الحضارات على يقين الآن باننا صائرات الى العدم » ، هذه العبارة التي جاءت على لسان بول فاليري . فهذا الانسان الذي لم يعد ليهتم بشيء او يلتذ بشيء ، يتخذ من الجمالية ملجأ له ومتكئاً لان الحضارة الغربية القائمة على نظرية تفوق الابيض وتفوق العرق الابيض الذي يستبيح لنفسه ترف الفردانية هي الآن في سبيل الزوال . وهناك من يتلفت باتجاه الكشف عن عالم نسيجه من الخيالات والمرئيات (كوكتو وجيرودو) ، باحثين عن تغير المناظر في الرحلة لاجل الرحلة او بحثاً عن عوالم مجهولة (فالاميركيون يهربون من اميركا ويقصدون اوروبا ، والكاتب الشيلي بابلو نيرودا ومالرو يتوجهان نحو الشرق الاقصى) او يهربون باتجاه الخطر والعمل على شاكلة سانت اكزوبيري او نحو مغامرات الروح : الفكر الثابتة والسريالية .

خلافاً لما هو مسلم به عادة كسفت هذه المؤثرات تلك التي تركتها وراءها شخصيات بارزة على غرار رومان رولان . « ان ضمير ... النفس الغربية التي لا تزال ترجو وتؤمن بالرغم من الاجتياح الذي تعرضت له » وشال نفوذ السياسي على نفوذ الادبي ، وروجه مارتن دي غار الذي رسم لنا في روايته : آل تيبو (١٩٢٢ – ١٩٣٩) المظاهر التقليدية لمجتمع يحتضر ، وكلاهما من الروائع الاثيرة التي خلفها لنا الادب الفرنسي في هذه الحقبة ، وبرنانوس وفرنسوا مورياك اللذان حررا القصة الكاثوليكية من الادب التقوي برسمها اناساً مسترسلين في الاثم واحياناً ثائرين في وجه ديانة متمسكة تمسكاً اعمى بالشكليات . هذا الجو المشبع بالمجانية وبالهروب نجده كذلك في الرواية الانكلوسكسونية ، مع الكتاب الاميركيين من « الجيل الضائع » (سنكلير لويس الذي اعطانا بابيت) وسكوت فتزجيرالد وهمنغواي ودرايزر وجون دوس باسوس يهملون جانباً وينبذون عالما منصرفاً بكليته نحو الاستمتاع بالملذات المادية ، وينصرفون الى نقد الحياة الاميركية نقد العائد من اوهامه بعد ان زالت الغشاوة عن عينه ، او الذين يؤلهون العاطفة البهيمية أو يغرقون مع هنري ميلر في عبادة حقيقية للجنس . أما الكتاب البريطانيون ، وبينهم عدد بارز من مشاهير وشهيرات الروائيين امثال فرجينيا وولف وكليانس داني ومارغريت كندي وروزاموند لهمان ، فهم يصفون لنا مجتمعاً رفيهاً وحيوات مترعة ، عابثة ، بواقعية لا تتحرج من مواجهة الحقائق المرة كما لا تتحرج قط من التعرض للشكلات المحرمة العائدة للملكة فكتوريا ، واحياناً باحرج عبارة مع د. هـ. لورانس او يسلقون بألسنة حداد عالماً يتخبط في الفوضى كما فعل ألدوس هكسلي .

المسرح

اما المسرح الذي كان يؤلف عام ١٩١٤ آخر معقل للمذهب الواقعي وللذوق في في سنة ١٩٠٠ ، فقد جرى بعثه من جديد مع المؤلفين المسرحيين الجدد ومع المخرجين الذين تمكنوا من احداث ثورة في دنيا التمثيل . فهؤلاء المؤلفون المسرحيون امثال كوكتو وجيرودو وكلوديل الذين تعبر شاعريتهم « دونما حسيب او رقيب » عن « مآسي الحياة البشرية » ، وبيرانديللو الذي تنتصب امامنا من خلال مسرحه المتشائم ، هذه الخصومة القائمة باستمرار بين نيات الانسان ومشاعره وبين واقع سلوكه وتصرفاته . كل هؤلاء المؤلفين يسيرون على الدروب التي عبّدها جاك كوبو في مسرح فيو-كولومبيه عندما خفض الديكور الى أدنى حد ممكن ، واولى حركات الممثل بعد ان جردها من كل ما يشوه روح المؤلف ويمسخها ، ما يلزم من قناعة وبساطة ، كما فعل دولان في مسرح الأتلييه وجوفيه في الأثينيه وبيتوف في مسرح الماثورين ، وباستقلال اوسع ، باتي في مسرح مونبارناس .

حول الدادية

هذا مذهب جديد في الفن جاء بعد لقاء تمّ ، سنة ١٩١٥ ، في نيويورك ، بين الرسام الفرنسي مارسيل دوشان والاسباني فرنسيس بيكابيا وعمدوه بهذا الاسم في مدينة مونيخ ، تريستان تزارا في ندوة خاصة بالمبعدين السياسيين من مختلف البلدان ، ثم تركز ، منذ عام ١٩١٩ في باريس ومنها انطلق : البيان دادا ، هذا البيان الذي التف حوله واجتمع تحت شعاره فريق من الفنانين والشعراء الاحداث الذين يرون في الحرب القضاء على كل القيم المقدسة ، وعفاء كل المواقع المكتسبة وفشل « النخبة » الذين اتحدوا ليقوموا بالمذابح والقضاء على العلم الذي يشحذ عدة القتل والابادة ، وعلى الفلاسفة الذين يسمون دوماً لتبرير هذه الاضاحي وتذكية الاسباب الدافعة اليها ، وعلى الفن الذي يحتفظ بروائعه الفنية لمصلى المريدين . والثورة التي تختلف عن الثورة التي قامت قبل ١٩١٤ ليست جمالية فحسب ، فهي تجيش بهموم اجتماعية عندما تقع العين على التزييف المفجع الذي استنزف دم الغالب والمغلوب على السواء ، وعندما تتبين خواء اهداف الحرب (وهي اهداف لا تتعدى تعديل الحدود واقتسام المستعمرات بعد ان تكون الانسانية دفعت مثل هذا الثمن الباهظ) . فهم يرون في هذا كله انهيار النظم القائمة ولا سيما انهيار كل الحضارة . وقد عبر بول فاليري خير تعبير عن هذا كله عندما كتب قائلاً :

« بعض آلاف من الكتاب والفنانين الشباب لقوا حتفهم في هذا الصراع الدموي . فنحن امام مرأى انهيار حضارة اوروبا وبيدنا الدليل القاطع على عجز المعرفة البشرية عن انقاذ اي شيء ما ، وعلى اصابة العلم اصابة مميتة بعد ان رأى حماه وحرمه ينتهك من جراء التطبيق الوحشي والجهنمي لاختراعاته ، وعلى هذه المثالية التي قلما خرجت منتصرة والمثخنة دوماً بالجراح ، خيبة الواقعية بعد ان غلبت على امرها واثقل كاهلها بالجرائم والذنوب ، ومزيء على السواء بالجشع والتجرد ، واختلطت العقائد وغام مفهومها مع الزمن ، اذ كنا نرى الصليب ينتصب في وجه الصليب ، والهلال يقارع الهلال ، وهؤلاء المتشككين انفسهم ، بعد ان صارعتهم الاحداث الفاجئة وصرعتهم الذين يتلاعبون بتفكيرنا وافكارنا تلاعب الهر للفأرة . فقد اضاع هؤلاء المتشككون شكوكهم لتعاودهم من جديد ثم يعودون ليفقدوها من جديد (ازمة الفكر ، ١٩١٩) .

وطلع عام ١٩٢٠ فيلهب فيهم العدمية ويطلع علينا بمحو الدادية خلال هذه التمثيليات وهذه المعارض ، وهذه المظاهرات المخجلة التي تقتل في الصميم كل القيم ولا سيما الجمالية منها .

« ما من رسامين ولا من ادباء ، ولا من موسيقيين ولا من حفارين ، ولا من ديانات، ولا من جمهوريين او ملكيين. ولا من امبرياليين ولا من فوضويين ، ولا من اشتراكيين ولا من بلاشفة ولا من سياسيين ، ولا من بروليتاريين ولا من ديموقراطيين ، ولا من بورجوازيين ولا من ارستوقراطيين ، ولا من جيوش ولا من امن عام ، ولا من اوطان ... كفاية من هذه السخافات والحاقات . لم يعد شيء . لم يعد شيء ، شيء ، شيء ، ولا شيء ... »

اما في المانيا ، فالحركة تلقى ترحيباً مزدوجاً للهزيمة التي انتهت اليها وللأزمة الاجتماعية التي نشبت اظافرها فيها ، فلم تلبث ان ارتدت طابعاً سياسياً . فهي بعكس ما كانت عليه في فرنسا ، فنية اكثر منها ادبية وأقل مركزية . فئة في برلين مع الرسام الهزلي للبورجوازية والروح العسكرية الالمانية هو جورج غروز ، وفئة كولوني اكثر جذرية على الصعيد الاجتماعي مع بارغيلد وماكس ارنست وهانز آرب ، وفئة في هانوفر مع الرسام الشاعر كورت شويترز .

السوريالية

من هذا الاضطراب الفوضوي أطلّ علينا مذهب السوريالية، أخصب التيارات الفنية التي طلعت علينا في منتصف هذا القرن . هو « العزوف عن كل مناحي الفكر والحس التي اعتمدتها الانسانية الكلاسيكية ، في سبيل الرجوع الى الصدق ، وفي سبيل « تفادي اثر العقل المشوّه » ، وراح يستثمر اللاشعور . وفي سنة ١٩٢٤ نشر بريتون « البيان السوريالي » وفتح له « مكتباً للأبحاث السوريالية » . وفي سبيل تغيير المناظر واستبدالها بأخرى ، راح يقترح استخدام الوسائل الاوتوماتيكية للخط وترك الحبل على الغارب للفكر لكي يجلو نفسه ويبرز ذاته ، كما يقترح اللجوء الى التنويم المغناطيسي لوصف الاحلام التي لا تقع تحت مراقبة العقل وتدنينا من الواقع احسن بكثير مما يفعله العقل . ولم يمض كبير وقت حتى انقسمت الحركة على نفسها الى شطرين : تألف الاول من هؤلاء الذين يبحثون عن الثورة « بين الافكار » كما تشكل الثاني من هؤلاء الذين يتقربون، ولو لأمد قصير، من الشيوعيين بعد الذي شهدوه من تصلب البورجوازية ، عام ١٩٢٥ .

يتمثل هذا المذهب ، في الشعر ، بشخص أيلوار الذي يُعدّ مع اراغون وروبرت دسنوس خير من يمثل هذه الحركة ، كما انه اكبر شاعر بالفرنسية عرفته هذه الحقبة لما أوتي من خصب في الصور ، ولما جاء به من المقارنات المفاجئة التي تعد بحق قوام الصدمة الشعرية ، ومن لباقة فنية ليست وليدة اي عنصر شعري او قريض مصطنع (كالقافية والبحر) ومن سهولة المحتوى مما لا يقع في نطاق المعقلاني . والحركة التي أثرت عميقاً في الشاعر الاسباني الكبير فدريكو غارسيا لوركا ، ذاعت كثيراً وشاعت خارج فرنسا ، منذ عام ١٩٣٠ ، بعد ان اشتد منها الساعد بانضمام عناصر جديدة اليها كالشاعر رنيه شار والمخرج السينمائي بونويل ، والرسام سلفادور دالي الذين اوغلوا في هذا المذهب درساً واستبحاراً ، وألحقوا بعض التغييرات

في معناه . والسوريالية التي اعتمدت حتى الآن التحليل النفساني اخــذت ترى في اللاشعور مصدراً لكل شاعرية وينبوعاً لكل إلهام شعري . وبعد ان عوّل دالي على تحليل مرض عقلي معروف هو مرض « جنون الاضطهاد » رغب ان ينصرف الفن الى استثمار ليس مجال اللاشعور فحسب ، بـل ايضـــاً مجال الهاجسية او الاستحوانيـــة وبعض اشــكال الهـذيان . وهكذا اطلت السوريالية على مشارف العنـــدية التي تنبو عن كل رقيب لتفضي تدريجياً الى الفوضوية .

وضع الادب لدى المغاوبين على امرهم

يختلف الجو هنا عنه لدى المنتصرين : فهو مليء بالثورة والفوضى والارتباكات والتضخم المـــالي . ففي مجتمع ممزق ومضطرب ، فالجو الذي اتخذته التعبيرية في البلاد المنتصرة من الدادية والسوريالية لا يمكن ان يدوم طويلاً بهذا الشكل النقدي الذي يميزه . عليه ان يكون ايجابياً وبناءً . ومن جهة اخرى ، فالوقت سواء لدى العامة او لدى الفنانين ليس الذي يتلهى فيه الناس ولا يصلح فيه الفن للفن . ففي البلدان الجرمانية وحدها دون سواها ، تبقى هذه الروح الطُّلَسْمَة التي كان من طباعها المميزة قبل الحرب ، انصرافها الى البحث . فالموجة التعبيرية حلت محلها حركة من الحاسبة الذاتية الايجابية باتجاه المستقبل . فنحن امام واقعية جديدة . وطلعت في طول البلاد وعرضها مذاهب وعت تماماً متطلبات المدنية التي ستشاد في المستقبل ، والاهتمام البالغ بالشكل او القوام ، اذ من المطلوب « بناء عالم جديد من حطام الماضي » . فالنفوذ الذي تمتع به هتريخ مان الممثل الاكبر لعقلانية القرن التاسع عشر ، قد اخذ بالانحطاط والهبوط بينا بقي نفوذ اخيه توماس أشد واظهر ، لما كان عليه من تشاؤمية عميقة الجذور . والجديد الذي ظهر على أتم صوره في البلاد ، هو التمرد ضد تأليه الدولة ، وجاذبية الفوضى والشعور بالتعاسة البشرية ، بعد ان غمرتها قوى غاشمة لا تعرف الرحمــــة ، كطلبة القدرة ، روح تجلت على خير وجه في مؤلفه « الفرد دوبلن » الذي يمور بالعنف والمرارة . اما اثر فرانز كافكا الذي لم يظهر مطبوعاً كاملاً الا بعد وفاته ، عام ١٩٢٤ ، ففيه الوصف الرمزي لعالم تتحكم به قوى خفية هـــائلة تطحن الانسـان طحنـــاً . من بين ابرز الآثار الفكرية الاقل شأناً التي ظهرت تحت علامة (الوضع الجديد) يجمل ان نذكر هنا الاثر الدبقي الذي خلفه برتول بريخت ولا سيما مسرحيته : « اوبرا بأربع نحاسات » (١٩٢٨) .

الرسم

لا يمكن لفن الرسم ان يأتي تعبيراً وصافاً للانسـان في مثل هذه الحقبـة ، العنيفة المعقدة حيث تتبدل ظروف الحياة وصروفها بسرعة متزايدة الا في انقـــلاب شامل تطل معه صيغ وصور جديدة لتعبر عن العلائق الجديدة التي تربط بين الفرد ونفسه وبينه وبين العالم . وبيكاسو الذي يلقي ظلاله على هذا الجيل بما أوتي من نبوغ خلاّق ، يبرز خير ممثل له بما فيه من قدرة على التجديد . فقد عدّل بعد الحرب من مذهب التكعيبية ، واولى الالوان والاصباغ اهمية خاصة بعـــد ان عوّل كل التعويل على الازرق والاحمر والاخضر (الطالبة —

ارلكان – القيثارة – والعنب) . ولم يلبث ان وقع تحت تأثير السوريالية مع انه بقي خارج ندوتها .. واخذ منذ عام ١٩٢٢ ، يرسم لنا شخوصاً رمزية شوهاء ، واشكالاً من المسوخ اتت بمالم يصدم العقل ويثير الضحك . وهو تعبير عن عالم تتقاذفه الامواج وتتلاعب بـه الارياح . وفي سنة ١٩٣٧ ، اعطانا في ما تحفنا من روائعه الفنية ، ما بلغ معه ذروة التعبيرية التصويرية في هذه الحقبة (غرنيكا) .

اما ماتيس ، فقد اخذ ، بعد عام ١٩١٩ يخفف من فنـــه ، فاصبح اكثر جاذبية برسومه « اودَالِـسك » وكذلك خوان غري ، ودي ديران ودي دوفي ودي براك الذي قطع كل صلة له مع التكعيبية ، واضفى سحراً اكبر على رسوم الاشياء الطبيعية الميتـة وعلى صوره العري ، وعلى مناظره . اما فرنان ليجيه الذي طلع علينا خلال الحرب بمشاهد الحضارة الصناعيـــة وبحقيقة اجتماعية تنبض بالحياة ، فيكرس فنه الاحتفاء بهـــذه الانسانية الجديدة ، مع ايلائه اهتماماً خاصاً للقوام الهندسي الذي يراعي ، بنجاح تام النسبة بين الصورة الجدارية والجـدار ، ويستعمل ادوات الرسم ذاتها موضوعات تصويرية ويبسط ما للالوان من قوة تعبيرية . ان حسه للمدى التصويري وتحسسه ما يتحمله الموضوع في هذا المدى ، ترك أثره العميق على فن الاعلان ، فارتفع به من الواقعية .

اما السـوريالية ، فقد التفّت حولها هذه الفئات وابرزت في مجال الرسم خير دليل على ما لها من قيمة عالية في الحركة الفنية . وهذا لا يعني انها تتمتع بجمالية وبتقنية خاصتين بها ، بل على العكس من ذلك ، هو تجاهل لكل ما خيّل للانسان ، حتى الآن ، انه خير ما يحمله في ذاتـه بحيث تنبجس جاذبية شاعرية تصويرية هامة ترمي لايجـــاد تغيير كامل في المناظر والارتفاع بالمشاهد او بالناظر الى العالم من وراء الواقع اليومي . واول معرض للسوريالية ظهر عام ١٩٢٥ جمع آثار ماكس ارنست وهانز آرب وميرو وبيكابيا وغيرهم من الفنانين الذين وقعوا تحت تأثير السوريالية ، امثال كلي وشيريكو .

وفي اعقاب عام ١٩٣٠ ، ظهرت تحت تأثير الفنانين الالمان والروس واليهود الذين فروا من اوروبا الوسطى ، معالم الفن التجريدي في فرنسا وفي الولايات المتحدة الاميركيـة . وتأسس في باريس « ندوة الفن التجريدي » ، عام ١٩٣٢ . وسيراً منهم مع التيار العلمي المعاصر القوي الذي يقول بان ليس من طبيعة بشرية تلقاها الانسان دفعة واحدة وبان تحت الظواهر البـارزة العيان تكمن حقيقة متحركة ، أخذ الرسامون التجريديون يحاولون خلق آثار فنية لا نرى فيها شيئاً يمت الى « الطبيعة » والى الحياة اليومية بل يكون باستطاعتها ان توحي للانسان مواقف ومشاعر فيها من الشمول ما كان في مقدور « الطبيعة » ايحاؤه حتى الآن . وهـذا التيار هو التيار الفني الوحيد الذي تجسم او تحيز حول آرب وكالدر وديلوناي وموهولي – ناجي وفدريان وشويتزر وفي انكلترا حول بن نيكلسون .

الموسيقى عرفت الموسيقى في هذه البلدان التي خرجت منتصرة من الحرب ما عرفه الادب والرسم من تنوع في الذرائع والميول . فالمدرسة الواغنرية صُفّي امرها

وجسّد ستراففسكي ردة قسوية للنيوكلاسيكية وتغلب الشكلية بينما يمضي كل من رافيل وروسل في « الثورة التي اطلقها ديبوسي » . والفئة المعروفة « بفئة الستة » التي كان اريك ساتي قطبها ونقطة الدائرة فيهـا ، راحت تقف في وجه « تعبيرية ديبوسي » . ونشأ عام ١٩٣٦ ، حول اوليفيه مسّيان فئة « فرنسا الحرة » كما راح خـارج فرنسا كل من مانويل دي فالا والبرازيلي فيلا لوبوس وبيلا بارتوك يستلهمون التقاليد الفولكلورية في بلادهم . الا ان الجديد البارز الذي عم اوروبا باجمعها ، فهو موسيقى الجاز الذي استهوى عدداً كبيراً من الناس دون ان يترك مع ذلك اثراً كبيراً في الموسيقى الغربية التي اختلف عنهـا اختلافاً كبيراً حال دون تمثله واستمرائه . طلع هـذا اللون الموسيقي الجديدي من اغوار فولكلور الملونين ، في اوساط اورليان الجديدة ، ثم اخذ ينتشر في جميع انحاء الاتحاد الاميركي ويثبت قوته دون ان يفقد شيئاً من طابعه الشعبي باعتباره موسيقى جياشة تحرك في النفس الحنين الى الوطن . فكثر انصاره ومريدوه في اوروبا مع كنغ اوليفر ولا سيما مـع لويس ارمسترونغ . بحماسته الحارة (جدد فيه النموذج النيو اورلياني بعد ان لقحه بالمونوديا تنشد بصوت مـع البوق) وجرشوين مع اغنيته (القصيدة الخضراء) . عرف الجاز في اعقاب ١٩٣٠ تطـوراً عميقاً اذ راح يتكيف اكثر فاكثر ، مع حياة البيئة والمجتمع وتسارع الوزن . وزاد من بحثـه عن تجربته حـول الانسجام الفني بحيث اخذت موسيقى الجاز تتطور بسرعة تذكرنا اكثر بالسرعة التي ميزت التطور التقني منها تطور القوالب او الصيغ الموسيقية . وهكذا فالطراز (*Swing*) الذي قام على خدمته عدد من الموسيقيين الاقوياء ، وعدد كبير من الاوركسترات المتجانسة التي رأت النور ، بلغ بعضها مقاييس الاوركسترات السمفونية مع ديوك ألنغتن الذي توصل الى مساوقة ومزاوجة اوركسترية تفيض فناً وغنى .

وتابعت النمسا ، في المجال الموسيقي ، ثورتها التي كان سبق لشونبرغ فأطلقها قبل الحرب بقليل ، وراح تلاميذه : البان برغ (الذي انجز «*Woszek*» عام ١٩٢١) وانطون ويبرن . والى شونبرغ يعود الفضل في استنباط المسلسلة الصوتية الاثني عشرية احـدى ابرز منجزات العصر والتي لم يباشر باستثمار ما تخفيه من طاقات كامنة الا جيل عـام ١٩٤٥ . ان استنباط المسلسلة في الموسيقى هو من بعض نتائج رفض « طبيعة » مجهزة بقوانين محددة ومفروضة من الخارج ، هذا الرفض الذي وصل في دنيا الرسم الى التجريد الهندسي ، بعد ان اسقط تدريجياً الموضوع او المضمون . هي هذه الحركة بالذات التي حملت الانسان على ان يبدع في الموسيقى كما ابدع في الرسم ، قواعده الخاصة وعالمه الخاص به .

أطلت علينا ، قبل عام ١٩١٩ ، مستجدات تقنيـــة مهدت السبيل امام الثورة التي انفجرت في هذا المجــال . فالمشكلات الجديدة التي كان على المدن الكبرى مواجهتها ، والتي اختلفت بطبيعتها عن المشكلات السابقة : كارتفاع اسعار الارض ، وضيق المساحات القابلة للاستثمار ، والامور الاخرى المتعلقة بالنقل العـــام والمواصلات ، والتجديد في نموذجيـــة المباني والعمارات ، المصانع والمدارس والمستشفيات ، والمطالب العصرية الاخرى التي يجب توفرها وتحقيقها (كالتدفئة المركزية وتكييف الهواء ، والتبريد والاضاءة الكهربائية ، والمصاعد) ، كل هذه القضايا اقتضت لهـــا حلولا عجزت عن تأمينها في الماضي ، الذرائع التي عوّل عليها الانسان من قبل . ومن جهة اخرى ، فقـد طرأ على شروط البناء ومستلزماته ، تطورات عديدة تناولت مواد البناء (مزج المعـــادن الخفيفة كالالومينيوم والدائن والمواد التشكيلية ، والخشب المضغوط) ، والاساليب الجديدة ، كانتاج المصانع لبعض المواد المعمارية الجاهزة بعد ان كانت تُصنع من قبـــل في الورشة (كالابواب والنوافذ وحجارة البناء ، والطوب ، وكتل الاسمنت والاعمدة)، وكلها مهيأة للاستعمال حالا ، بحيث ان البناء استحال الى عملية تجميع هذه المواد الجاهزة وتركيبها في اماكنها المعدة لها . وفي مجال الانجازات المتواضعة ، فقد توصلوا الى صنع منـــازل جاهزة لا يستغرق تركيبها في اماكنها سوى بضع ساعات . والتعويل اكثر فاكثر على الاسمنت المسلح والفولاذ ، مكن من تحويل كل ثقل البنـــاء على الهيكل المصنوع من سلسلة من العواميد والجسورة المتشابكة وكلها من الاسمنت المسلح . وبذلك يفقد الجدار اهميته باعتباره عمود ، وقد يستقل تماماً عن المكان الذي تقوم فيه الاعمدة . وقد يكتفى منه بحاجز زجاجي او تقوم فيه فتحات واسعة جداً . وقد عرف المهندسون ان يتخذوا لهم بدأ من كل هذه المواد والادوات الجديدة ليعودوا القهقرى الى هذه البساطة والى البناء المعقول وبطابقة البناء الى اقصى حد مع الاهـــداف الموضوعة له . وهذا بالذات ما يعرف « بالفن الوظائفي » الذي عبرت عنه خير تعبير نكتة لكوربوزييه عندما وصف المنزل « آلة للسكن » .

فكل الحركة الهندسية منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً ، وقعت تحت تأثير ميس فان در روه ، وولتر غروبيوس ولوكوربوزييه ، وغروبيوس تولي منذ عـــام ١٩١٩ ، على ادارة مؤسسة بوهاوس دي ويمار التي انتقلت عام ١٩٢٥ الى ديسو ، فكانت هذه المؤسسة في وقت واحـد مدرسة للصنائع والفنون واكاديمية للفنون الجميلة . فيها يدرك الطالب الوحدة التي تسيطر على العنصر العقلاني النقي بلائم بانسجام واتساق ، بين الهندسة والرسم والحفر ويتجاهل تمامـــاً التمييز القديم بين ما يدعى العناصر البنائية والعناصر التزيينية ، والانسجام التام مع مقتضيات الحضارة الصناعية التي عرفت كيف تُدخل الفن على احقر المواد وأخسّها واكثرها اتصالا بالحياة اليومية . والبوهاوس الذي تشده الى التكعيبين والى ممثلي الفن التجريدي مثلاً بالحركة المعروفة بـ *Merz* وبالدادية ، والفن التجريدي الذي تمثله مجلة « *Styl* » وبقيـادة المهندس

دوسبرغ والرسام وبييت موندريان يحدث تأثيراً كبيراً . فالدروس فيه يُعطيهـا فريق من كبار الفنانين المشهود لهم بالتفوق في اختصاصهم والذين يخضعون لنظامية بنّاءة بينهم : بول كلي وكندنسكي وفيننجر ، والمجري موهولي ناجي . وهذه السيطرة تتمتع بهـا الهندسة الالمانية قضت عليها الحركة النازية اذ امرت باغلاق البوهاوس بعد ان شجبت هـذا « الفن المنحط » الذي طلع به اليهود والشيوعيون ، بما يتصف به من عقلانية مفرطة ودولية جامحة ، وبضلوعه بذكريات جمهورية ويمار ، مما يجعـل المرء يشك بولائه للدولة الالمانية وللفوهرر . والمهندس الاميركي فرانك لويد رايت الذي يتمتع اليوم بشهرة عالمية ، يحاول جاهداً تأمين الانسجام والمساوقة الى اقصى حد ، بين المباني التي يشرف على تشييدها ، وبين المكان او المحيط الذي يقوم فيه البناء ، وبين طبيعة المواد المستخدمة في البناء .

اما المهندس لوكوربوزييه فالنفوذ الذي يتمتع به يعود ، قبل كل شيء الى مؤلفاته النظرية والى هذه العمارات الناعمة الخفيفة التي تستمد اشكالها الهندسية من التكعيبية ، والتي يبدو عليها الانفصال او الانقطاع عن الارض ، وهو نفوذ وتأثير يشتد في الخارج حيث له العديد من التلاميذ والمريدين اكثر منه في فرنسا بالذات حيث بقي في شبه عزلة .

السينما ومقتضياتها الاقتصادية والتقنيـة

لم تصبح السينما فناً قائماً بذاته له اخصائيوه ومتخصصه الا بعد الحرب العالمية الاولى ، فخضع منذ هذا التاريخ لقوانين وقواعد وضوابط في الاخراج ، كما خضع لمقتضيات تجارية تُرزحه كلما تطور هذا الفن وتعقد وتشعب. والسينما مشدودة اكثر من اي فن آخر ، الى القوة الاقتصادية التي تعمل في انتاج الفيلم واخراجه وتوجد النظارة الذين ان اقبلوا عليه جاءت عملية الاخراج عملية ناجحة أمنت مردوداً طيبـاً . ولهذا السبب لم تلبث العملية ان وقعت بسرعة فريسة الاحتكار من قبل اتحادات احتكارية جبارة بما لها من طاقات مالية ، منها في الولايات المتحدة الاميركية : الشركة السينمائية . التي تشدها الى شركة إيستمان كوداك روابط متينة ، التي لا تسلم بواكير افلامها الا لاعضاء الاتحاد ، وهي تشرف على سلسلة من الصالات السينمائية متصلة الحلقات. وفي المانيا يقوم الاتحاد المعروف بـ U. F. A. وشركة بافاريا وكلاهما شركتان ضخمتان هما موضوع اهـتمام مصالح ماليـة واقتصادية قوية ، امثال : ستينز ، وفاربن والـ A. E. G. ، وفي فرنسا : باتيه غومون .

وفي سنة ١٩٢٧ ظهرت السينما الناطقة ، أو الصائتة التي تستنزف صناعتهـا رؤوس اموال ضخمة ، فأدت التعديلات التقنية على الاخراج الى تغيير جذري في الاجهزة والعتاد المستعمل له. وبعد ان حاولت الشركات الكبرى الاغضاء عن هذا الاختراع الجديد ، رأت نفسها مرغمـة لرعايته وتشجيعه ، اذ راحت شركة بل للتلفون وربيبتها شركة وسترن الكتريك ، تؤسـان شركة الكتريكال برودا كت التي تمتعت وحدها بحق توزيع شهادة فيتافون . « وبواسطـة الشركات الكبرى للتجهيزات الكهربائية ثم المصرف الاميركي المعروف بمصرف روكفلر–مورغان الاشراف النهائي الكامل على صناعة السينما في اميركا » . ومنذ عـام ١٩٢٣ اخـذت تتوزع

به انكلترا بين ١٩٣٥ – ١٩٣٧، هل جاء نتيجة تخفيض قيمة الجنيه الانكليزي او العودة بالبلاد الى نظام الحماية الجمركية ؟ وما عسى ان يكون على العموم ، من التأثير الذي احدثه هذا العامل المضاد لطبيعة الاقتصاد الذي يتمثل في التسلح ؟

النكسة والتسلح

ولكن هذا التحسن الطارىء لم تتوفر له عناصر البقاء والاستمرار اذ قد ظهر في اواسط عام ١٩٣٢ ، لا سيما في نطاق الصناعات التي تعمل على توفير الحاجيات الانتاجية ، عوارض انكفاء وتقهقر الى الوراء، يمكن مقارنتها بالعوارض التي بدت عام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ . ففي اوروبا ، حيث تمثل نفقـــات التسلح جانباً هاماً من موازنات دولها ، فالنكسة فيها هي اقل عمقاً منها في البلدان التي لم تندفع نحو سياسة التسلح هذه، كالولايات المتحدة الاميركية والدول الصغرى في اوروبا ، وكندا حيث لا تمثل اقتصاديات الحرب سوى جانب ضئيل من اقتصاديات البلاد . فالنشاط الاقتصادي في الولايات المتحـدة هبط ٣٧ ٪ بالنسبة لما كان عليه عام ١٩٢٩ ، وتجاوز عدد العاطلين عن العمل فيها ، عـــام ١٩٣٨ ، عشرة ملايين عامل ، والعودة الى انفاق مبالغ ضخمة على الانشاءات العامة فشل في احداث اي تحسن في الوضع الاقتصادي ، اذ ان عدد العمال العاطلين عن العمل ، عام ١٩٣٩ ، يزيد على تسعة ملايين عامل . فالحرب وحدها هي التي « صفّت » الازمـــة ، اذ اقتضت استيعاب اليد العاملة بأسرها . فمنذ عام ١٩٣٧ ، اصبح التسلح الذي لم يكن الى ذلك الحين سوى حافز بسيط من الحوافز الاقتصادية بدا وكأنه السوق الكبرى لاستيعاب الانتاج الصناعي بحيث اصبح « العماد الوحيد » لمعظم البلدان الصناعية الكبرى . والامر واضح جلي في نشاط معظم البلدان الاوروبية التي لم تنغرق بعد في التسلح ، كبريطانيا العظمى مثلاً ، حيث النشاطات الاكثر ازدهاراً هي التي تتمثل في صناعة بناء السفن ، وصناعة المحركات والطيران بينما احتدمت البطالة في صناعة النسيج واستخراج الفحم . والدور الرئيسي الذي تلعبـــه حاجات الجيش ومقتضيات التسلح، أَفَلَم يبرز واضحاً في تصريح لوزير الدفاع البريطاني الذي صرح عـــام ١٩٣٧ بان انكلترا لن تعرف ازمة جديدة قبل خمس سنوات . وسعر الخامات مرتبط بحاجات الدفـــاع . وفي سنة ١٩٣٨ ، انخفضت اسعار الحبـــوب واسعار لحم الغنم والمنسوجات والكاكاو ، بينما ارتفعت اسعار المعادن على اختلافها .

فالتسلح هو وحده وراء ازدهار انتاج المواد الاولية . الا ان هذا الانتاج كانتاج المـــواد الزراعية يصعب ضبطه والتخطيط له، بحيث ان المخزون الدولي اخذ منذ عام ١٩٣٨ ، يتضخم بصورة لا تخلو قط من الخطر . ففي هذا التاريخ بالذات كان مخـــزون المطاط يزيد ٥٢ ٪ على مخزون عام ١٩٢٩ ، كما ان مخزون الصوف زاد ٦٥ ٪ والحرير الخام زاد ٢٣ ٪ والنحاس الخام زاد مخزونه ٤٥ ٪ ، وزاد ٢٢٧ ٪ مخزون النحاس المكرر . فمخزون التصدير وحده كان دون مستوى عام ١٩٢٩ ، ومخزون القطن هو اعلى بكثير من مخزون أسوأ سنة من سنوات الازمة المالية ، بينما مخزون القمح بلغ ٣٢ مليون طن ، مقابل ٢٩ في عـــام ١٩٢٩ . فهو ضعف

تعد نحواً من ٣٠ صالة سينمائية .

ففي الوقت الذي قوّت فيه الضائقة المالية من قبضة المصارف على صناعة السينما وفنها ، بعثت فيها ، من جهة اخرى ، تجديداً كثيراً ما كان مثمراً في المخرجين والممثلين . ان عدداً كبيراً من الافلام التي صدرت في هذه الحقبة تبرز ، شأنها في ذلك شأن الرواية ، الازمة وردة الفعل التي احدثتها ، والاتجاهات الاجتماعية والسياسية والمطالب التي تتسم بالالحاف احياناً منها مثلاً : ليس من جديد في الجبهة الغربية – اضواء المدينة – الازمنة الحديثة – الدكتاتور – عنب الغضب ... والموضوع الاجتماعي يوحي كذلك الى بابست الافلام التي قام باخراجها مثل: اوبرا بأربع نحاسات – فاجعة المنجم ، والى لانغ ، الافلام التي اخرجها ، منها مثلاً : وصية الدكتور مابوز الذي منعته النازية ، وافلام ديداو . وعندما تسلم هتلر السلطة العليا في البلاد اتجهت السينما في عهده ، جهة الدعاوة . فقد جرى تطهير الستوديوهات من اليهود والماركسيين والاحرار . وباستثناء الفيلم : انتصار الارادة ، والفيلم الاخباري الآخر : آلهة الستاديوم ، من اخراج ليني ريفنشتول ، أصيبت في الصميم ، كغيرها من الفنون الاخرى والنشاط الفكري الالماني .

وفي فرنسا ، كما في المانيا ، مهدت السينما الناطقة السبيل امام السينما الوطنيـــة . فالعصر عصر رنيه كلير العظيم (تحت سطوح باريس – المليون) ثم تطلع علينا سلسلة الافلام التي تتزيّى بنتائج الازمة العالمية كما تنضح بالهواجس السياسية والاقتصادية والاجتماعية (١٤ تموز– لنا الحرية) . ويظهر التطور على أتمه ، مع جان رينوار عندما يعمل مع بانيول الاختصاصي الضليع بتصوير الجماهير في مقاطعة بروفانس فيعطينا : طوني ، هذا الفيلم الذي يعالج قضايا هموم اليد العاملة النازحة ، ثم افلام من وحي الماركسية (الحياة لنا – الوهم الكبير – المارسيلياز – الوحش البشري) ... والوحي ذاته نجده لدى جان فيدر في الفيلم : السوق الخيرية الضخمة ، حتى لدى دوفرييه (العصر الجميل) . والى جانب هذه الافلام الاجتماعية ظهر نوع جديد يُشابه من قريب ، لون افلام رعيان البقر واللصوصية في اميركا ، وهي تنزع لوصف « البيئة » ، والتي تتزيّى بواقعية مريرة وبائسة امثال فيلم بابيه موكو لدوفرييه . وفي هذا اللون من الافلام المتشائمة الواقعية ، يبرز الفنان مارسيل كارنيه (ومساعده الامين جاك بريفير) بالفيلم الذي اخرجه بعنوان : رصيف بروم – وفندق الشمال ... بعد ان اتسمت تشاؤميته بطابع اسطوري خلال الحرب بالفيلم : زوار المساء (١٩٤٢) وقبيل الحرب الاخيرة برزت الصناعة السينمائية الفرنسية ابرز فناً واتقاناً منها لدى هوليوود التي اتسمت افلامها بطابع متوسط جداً جعلت ستروهايم يصفها مازحاً مباسطاً : هذا الجهاز الجبار لاخراج النقانق .

الكتاب الثاني

الأنهيار الاقتصادي ونتائجه

الفصل الأول

الانهيار الاقتصادي

تتميز الأزمة الاقتصادية التي وقعت عام ١٩٢٩ عن كل ما تقدمها من أزمات اقتصادية، في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين . فقد كان لها من العنف والعمق والشمول ما أفضى الى انحلال النظام الاقتصادي وشله تماماً كما أدّت الى افلاسات عملاقة ، في عالم تهتز منه العمد والاركان ، ووضعت النظام الرأسمالي وجهاً لوجه مع مشكلات لم يستطع السيطرة عليها بشق المرائر وبعد تعديلات أساسية أدخلت عليه .

١ – انفجار الأزمة وامتدادها الى أقصى المعمور

دورة الازمــات الاقتصادية

خبر القرن التاسع عشر ، العديد من هذه الأزمات ونظر اليها نظرته الى امراض ملازمة النمو والتطور لا يلبث معها ما يساعده على تصحيح الاوضاع بيسر وبصورة تلقائية ، وذلك باستقطاعه المشروعــات التي تشكو العسر او تلاقي المصاعب ، ثم يعود الازدهار وتعود العافية الى النشاط التجاري والوضع الاقتصادي بأجمعه . وهذه النظرة المشبعة بالتفاؤل التي اعتاد ان يلقيها على الازمات التي لم يكن من الممكن تفاديها والتي ثبتت فائدتها في نهاية المطاف ، اخــذ الماركسيون يطالبونها بالقول ان تقارب حدوث هذه الأزمات وتوالي وقوعها بعنف الواحدة منها بعد الاخرى ، عجلت كثيراً في حركة تركيز المشروعات وتمركزها كما أبرزت مــا تتصف به هذه الاستثمارات من نزعة عارمة الى الاحتكار ، وان التطورات التي ألحقتها بالهيكل الاقتصادي حتمت وقوعهــا وجعلتها أكثر تواتراً وأكثر ضراً وأذىً ، ليس فقط لمصالح الكادحين المأجورين ، بل أيضاً للمصلحة العامة .

فقد سبق لعلماء الاقتصاد وظنّوا بوقوع أزمات دورية عقبتها حقب من الازدهار ، ارتفعت خلالها الاسعار وقلت حوادث البطالة وازدادت الارباح ، وحقب من الانهيار الاقتصادي تتسم

بسمات عكسية . ومع تضارب الآراء بينهم حول مدد هـــذه الدورات والاسباب الموجبة لها نقدية ، مالية هنا ، واقتصادية هناك وسياسية هنالك ، فقد سلموا مع ذلك ان دورات قصيرة الامد (من ٤ — ٨ سنوات) عقبتها دوماً دورات اطول مدى واوسع شمولاً ، تراوح معدلها بين ٤٠ — ٧٠ سنة . فالازمة التي كشرت عن انيابها عام ١٩٢٩ ، كانت في زعمهم النهـاية الطبيعية ، لحقبة طويلة الامد وان ما اتصفت به من عنف استثنائي وتعقيد وتشابك وطول امد ، يجب ردّه هنا الى تجمع اسبابها الخاصة مع الاسباب الاخرى التي هي وراء كل أزمـة قصيرة ، ومهما يكن من الامر ، فقد برّت بخطورتها ، اية ازمة من هذه الازمات « العالمية » التي عرفها التاريخ الحديث ، حتى تلك التي وقعت منها عام ١٨٥٧ ، والتي نظر اليها الكثيرون آنذاك ، بأنها أعنف أزمة عرفتها البشرية عبر تاريخها المديد ، هـذه الازمة التي طلعت هي الاخرى ، اول ما طلعت ، في الولايات المتحدة الاميركية ، وامتـدت عقابيلها الى كل من انكلترا وهمبورغ والى كل بلدان اوروبا الشمالية والغربية .

لازمة ١٩٢٩ من الاتساع والشمول ما ليس له مثيل

امتازت الازمة الجديدة عن مثيلاتها في الماضي ، بعـدة سمات فرّدتها وطبعتها . فإعادة البناء الاقتصادي ، وإعادة تجهيز العالم صناعياً في أعقاب ازمة ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، بحيث تجاوز الانتاج العام معدله لعام ١٩١٣ ، لم يتم إلا بعد التغلب على صعوبات كبيرة . ثم ان ازمـة ١٩٢٩ لدى انطلاقها ، لم يسبقها كغيرها من الازمات الماضية ، ارتفاع عام في الاسعار والارباح والاعمال . فقد وقعت ، على عكس ذلك ، في فترة من انخفاض الاسعار وهبوطها وفي عالم بدت على القطاع الزراعي فيه ، عوارض خطيرة من الركود والهبوط ، وفي عالم قد يتجاوز عدد العاطلين فيـه عن العمل ، العشرة ملايين عاطل ، في عالم معظم الدول الاوروبية فيـه رأت نفسها اعجز من ان تصل الى ما كانت عليه تجارتها الخارجية قبل الحرب العالمية . وهذه الازمة تتميز ، من جهة اخرى عن الازمات التي شهدها القرن التاسع عشر ، بما تم لها من شمول واتساع ، وهو شمول يفسره لنا القطاع الرأسمالي الذي كان يتأثر وحده في الازمات السابقـة ، بينما نراه يسيطر الآن على البلدان الصناعية الكبرى . وهكذا نرى ان النظام المالي بأسره اهتز من اساساته . ففي الحين الذي كانت فيه الزراعة ، في القرن التاسع عشر تكاد لا تتأثر ، وكانت الازمة الكبرى الاخيرة التي وقعت خلال الربع الاول من القرن العشرين ، انها كانت ازمة اوروبية على الاخص وألمت بنوع خاص ، بغلال الحبوب ، فأزمة عام ١٩٢٩ كانت صناعية زراعية في آن واحـد وتأثر بنتائجها كل قطاع من قطاعات الاقتصاد في البلاد ، فانقضّت على الولايات المتحدة الاميركية ، وعلى اوروبا وعلى البلدان نصف الاستعمارية والاستعمارية على السواء ، كما تضرس بها كل قطاع من قطاعات الحياة الاجتماعية . فالازمات الاقتصادية السابقة لم تمرك بثقالها سوى العمال وارباب العمل ، بينما احتفظ المزارعون والموظفون واصحاب الايرادات بدخلهم سالماً غير منقوص ، بل كثيراً ما كانوا ينعمون ، من جراء انخفاض الاسعار في الوقت الذي كانت فيه مدّخراتهم

تساعد على تصفية الازمة . اما ازمة ١٩٢٩ ، فقد اخذت بتلابيب كل فئات المجتمع وأصابت في الصميم دخل كل الطبقات ، مباشرة او مداورة عن طريق هبوط سعر النقد ، إذ أصيبت كل العملات بالهبوط والانهيار ، كما تسببت عن حسومات محسوسة في المداخيل والمرتبات . فالعمال لم يعودوا وحدهم فريسة البطالة ، بل وقع فريسة لها ايضاً كل من موظفي المكاتب والادارات وصغار الصناعيين وصغار التجار والعمال المهنيين الذين اضطروا الى اقفـال متاجرهم والبحث عن عمل يستطيعون معه تأمين اودهم وأود ذويهم .

نقطة انطلاق الازمة : الولايات المتحدة

انفجرت الازمة يوم « الجمعة الاسود » في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٩ ، وعلى حين غرة وفي غفلة من الجميع ، وابتدأت بأزمة بورصة . صحيح ان اسعار اسهم النحاس والصب والفولاذ اخذت بالهبوط منذ ايار ، كما اخذت تهبط في الفصل الثاني من هذه السنة ، أرباح صناعة السيارات ، وبقيت في هبوطها التدريجي في الفصل الثالث ايضاً ، بالرغم من تحسن المبيعات ، فقد استمر العجز في تقهقر موصول . وهـذه الدلائل والاعراض التي لم تكن لتخفى على الناس ، صحبتها ضجـة مدوّية من جراء افلاس المصرف الانكليزي هاتري الذي كان يستثمر فوتوماتون ، مما أدى الى رفع الحسم في بورصة لندن ، وعودة جانب من رؤوس الاموال الانكليزية الى البلاد، والى بيع السندات والاسهم الاميركية من قبل المضاربين الانكليز . وفجأة وقعت معاملات مالية نهار الاثنين الواقع فيـه الحادي والعشرون من تشرين الأول ١٩٢٩ ، ليعاد بيعها ، نهار الخميس بعروض كبيرة بأي سعر كان ، تناولت نحواً من ١٣ مليون سهم . ولم يفد شيئاً تدخل ستة من اكبر مصارف بادرت للشراء ، ايقافاً منها لحركة الهبوط الجارف ، في تهدئة الهلع العام الذي دب في القلوب، وفي ٢٩ تشرين الاول بيع اكثر من ١٦ مليون سهم ، فازداد الهبوط اكثر فاكثر بحيث هبط دليل الاسهم الصناعية ، في منتصف تشرين الثاني من ٤٦٩ الى ٢٢٠ .

وهكذا فالازمة الصناعية التي اطلت على الناس لن تلبث ان ازدادت حرجاً بعد الانهيـار المالي والهلع الذي سعر الخوف في القلوب ، فأصار الى الفشل الذريع ، كل محاولة كبح او تقييم ، لا سيما والعناصر الضرورية للتثبيت كالاستهلاك الى اقصى حد وزيادة القيَم ، اختفت بسرعة ، كما ان عدداً كبيراً من حملة الاسهم الذين لم يدفعوا إلا جزءاً ضئيلاً من قيمتها ، وجدوا انفسهم فجأة مديونين ، عدا عن ان عدداً كبيراً منْ التجار ومن أرباب الصناعة الذين اخـذوا سلفات على ما لهم من اعتمادات مصرفية اساسها الاسهم التي يحملونهـا ، رأوا اساس هذه الاعتمادات يضيع ويختفي . كذلك توقفت تماماً صفقات البيع بالتقسيط ، وأُجلت او أُلغيت طلبـات التوصية وتراكم الانتاج والتجهيزات . كل هـذا الاستنزاف الضخم انزل الرعب في طول اميركا وعرضها .

وبعد انهيار الاسعار في البورصة أطلت ازمة الانتاج الصناعي ، فازدادت حرجاً يوماً بعد يوم . فقد تداعت بسرعة كلية ادلة الانتاج على اقدار وانساب حسب الصناعات وهبطت الى

ادنى مما كانت عليه في السنة الماضية . فصناعة السيارات اخذ انتاجها منذ تشرين الاول يهبط بحيث بلغ معدل هبوطها في الاشهر الثلاثة التالية الى النصف . واستمرت الازمة في تصاعد متدرجة ، بحيث اتصلت في النصف الثاني من عام ١٩٣٠ ، بكل قطاعات الصناعة ، فانخفض انتاج الصلب ، اذ ذاك ، الى النصف . وفورد الذي اضطر الى اعتماد خمسة ايام عمل في الاسبوع، في ربيع عام ١٩٣٠ عاد فأنقصها الى ثلاثة ايام عمل في آب . وهبطت كذلك واردات السكك الحديدية والتجارة الخارجية بالرغم من اعتماد التسعيرة القصوى لحماية التجارة التي أقرها قانون هولي سموت . وأدت البطالة الى انخفاض كبير في دخل الطبقة العمالية العام . وفي ربيع عام ١٩٣١ ، اجريت تخفيضات على الاجور بنسبة ١٠ — ٣٠ ٪ وازدادت اتساعاً في الصيف والخريف من تلك السنة .

الازمة تبلغ اوروبا وكل ارجاء العالم

كان من جراء الذعر المالي الذي اصيبت به نيويورك ان قضى تماماً على كل حركة تسليف لأوروبا . وتوقف تماماً خروج الدولار من البلاد بعد ان اخذت اميركا باستثماره وتوظيفه على نطاق واسع في الخارج منذ عام ١٩٢٢ ، مع العلم ان اقتصاد اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية ، ولا سيما المانيا ، لم يكن ليقف على قدميه الا بواسطة المساعدات الاميركية . وابتداءً من تشرين الاول ، اعلن افلاس بنك بودين للتسليف في النمسا ، وراحت الحكومة النمساوية تحاول تعويمه بواسطة بنك التسليف النمساوي . الا ان الانتخابات الالمانية العامة التي وقعت في ١٤ ايلول ١٩٣٠ والتي تميزت بأول نجاح حققته الحركة النازية في البلاد ، ومعارضة الحكومة الفرنسية والايطالية لمشروع الاتحاد الجمركي بين النمسا والمانيا اقلقت الاوساط المالية واخذت تسحب اموالها . وفي ايار ١٩٣١ توقف بنك التسليف النمساوي نفسه عن الدفع وهبطت اسهمه ٢ ٪ من قيمتها الاسمية . واذ ذاك حدث اندفاع على المصارف في كل اوروبا الوسطى مما ادى الى سلسلة من الافلاسات . والمصارف السويسرية والهولندية والاميركية التي كانت قد وظفت رؤوس اموال جسيمة لآجال قصيرة في المانيا (اكثر من ١٢ مليار مارك) حاولت سحبها واستعادتها الى البلاد . وامام اشتداد حركة السحب هذه ، نالت الحكومة الالمانية من الرئيس هوفر ، في ٢٠ حزيران ١٩٣١ ، امراً بتأجيل وفاء الدين لسنة في كل ما يتعلق بتعويضات الحرب ، وهو تدبير عجز عن اصلاح الوضع المالي في المانيا حيث استمر سحب الودائع الاجنبية والوطنية على اشده . وقد جرّ افلاس شركة قطن الشمال في برمن عن ٢٠٠ مليون مارك الى افلاس مؤسسة دانات المالية وانهيار الوضع المالي بكامله . واذ ذاك قرر المستشار الالماني برونِنغ إقفال كل المصارف ومؤسسات التوفير والتسليف الاخرى . وعندما استأنفت هذه المؤسسات نشاطها في شهر آب ، بقيت كل الاعتمادات والارصدة الاجنبية في المانيا مجمدة واضطرت ان تنزل عند قرار جديد بتأجيل وفاء الديون .

هبوط سعر الجنيه

واخذت المصارف التي تعاني من صعوبات مالية تنهار الواحدة بعد الاخرى في كل من ريفا والنمسا ورومانيا ويوغوسلافيا ، وفي فرنسا (مصرف اوستري ومجموعة مصارف اوكتاف همبورغ) . وراحت الدول تحاول حيناً إعادة تنظيمها كما حدث في كل من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، وفي ٢٤ ايلول ١٩٣١ ، لم تبق فاتحة ابوابها سوى بورصات نيويورك وباريس وبراغ ، وموجة الافلاسات هذه لم تتكرس حدتها الا في ربيع عام ١٩٣٢ . إلا ان النازلة المالية لم تقف عند هذا الحـــد . فقد اهتزت انكلترا من أساساتها أمام الخسارة الجسيمة التي لحقتهـــا من جراء افلاس بنك التسليف الدولي وتجميـــد رؤوس الاموال الموظفة في المانيا وفي اوروبا الوسطى ، اذ عجزت المصـــارف البريطانية عن سحب ودائعها في الوقت المناسب (٧٣ مليون جنيه لآجال طويلة ، و٩٠ مليون جنيه لآجال قصيرة) ، مما ألحق هزة عنيفة بحركة القطع . وراح عـــدد كبير من الاجانب القلقين على اموالهم ومدخراتهم يحولون ما لديهم من جنيهات الى ذهب أو فرنكات أو فلورين أو دولارات ، بحيث رأى بنك انكلترا نفسه يفتقر كلياً الى رصيد كافٍ من الذهب . وحركة سحب رؤوس الاموال هذه أخذت شكلاً خطيراً بالرغم من تقديم مصرف فرنسا له اعتمادات قيمتها ٥٠ مليون جنيه ، وفي ٢١ تشرين الاول تخلت الحكومة الانكليزية عن قاعدة الذهب . وهذا التخلي من قبل الانكليز عن تعادل الجنيه الليرة الذهب بعد ان ضحت انكلترا ما ضحت في سبيل الاحتفاظ بهذا التعادل،زاد الوضع سوءاً، إذ أدى الى انهيار فظيع في الاقتصاد النقدي العالمي . وهبط الجنيه في بضعة ايام الى ٣٠٪ من قيمتها الإسمية بالنسبة الى سعرها الماضي ، كما ان هذا الهبوط سبب هبوطاً مالياً لدى ٣٠ بلداً نقدها مرتبط بالنقد الانكليزي ، كالبلدان السكندينافية والدومينيون (باستثناء اتحاد جنوبي افريقيا و كندا) والبرتغال والسيام ومصر وبوليفيا ، حتى وفي اليابان في كانون الاول ١٩٣١ . وراح عدد كبـير من الافراد والمؤسسات الاقتصادية التي لها جنيهات انكليزية ، والبيوتات التجارية في كل البلدان الـتي ترتبط بعقود محررة بالجنيه الانكليزية ، ومصارف الاصدار التي كانت حولت جانباً كبيراً من ودائعها الى ليرات انكليزية ، وفقاً لقاعدة الذهب التي اصابتها خسائر محسوسة : فقد اصاب بنك فرنسا خسارة تقدر بملياري فرنك ، وبنك البلاد الواطية ثلاثين مليون فلورين ، وبنك بلجيكا ٦٥٠ مليون فرنك بلجيكي .

وهكذا باستثناء فرنسا التي لحقتها الازمة عام ١٩٣١ ، كل دول العـالم تضررت بها منذ عـــام ١٩٣٠ .

الازمة في الدول الجديدة

تضررت هذه البلدان بنتائج الازمة من الخارج ، بعـــد ان تأثرت عميقاً بالهبوط المفاجيء في صادراتها ومن جراء توقف رؤوس الاموال من الخارج . ففي كندا هبط سعر القمح من ١٢٤ سنتا عام ١٩٢٩ الى اقل من ٦٠ عام ١٩٣١ ، وزاد الطين بلة قحط موسم الحبوب في الغرب ، في سنة ١٩٣١ فقضى على

الموسم قضاءاً تاماً في مليونين من الهكتارات الزراعية . وراح كبار المزارعين يصرفون عمالهم ويستغنون عن الجرارات الزراعية لغلاء الوقود اللازم لها فيعودوا الى الاستعانة بالحصان . والمردود العام للمزارعين الكنديين الذي كان عام ١٩٢٧ – ١٩٢٨ نحواً من ١٨٠٠ مليون دولار هبط في سنة ١٩٣٣ – ١٩٣٤ الى اقل من ٨٠٠ مليون دولار ، كما هبط الدخل الصافي من ١٥٠٠ مليون دولار الى اقل من ٥٠٠ مليون . ودليل المحصول الزراعي هبط بنسبة ٢/٣ بينما لم يهبط الدليل العام للاسعار الى ادنى من الثلث . والقدرة الشرائية عند المزارعين هبطت الى الصفر . وعندما اخذت الاسعار تعود الى الارتفاع بعد عام ١٩٣١ ، بقيت في معدل هزيل اذا ما قيست بكلفة النقل ونفقات الخزن والعمولة التي لم تكن لتسمح بأي عصر او ضغط . وقيمة الارض الزراعية في السهل حيث بلغ سعر الهكتار ٢٥٠ دولاراً عام ١٩٢٨ ، هبط الى ١٢،٥ دولار حتى في هذه الظروف التي تشجع على البيع . والانتاج الحرجي هبط الى ادنى من الثلثين هو ايضاً كما ان انتاج المناجم الذي كان ٣١١ مليون دولار ، هبط الى ١٨٣ مليون دولار عام ١٩٣٢ ، ثم عاد وارتفع الى ٢٧٣ مليون دولار عام ١٩٣٤ .

وفي اوستراليا ونيوزيلاندا اخذت تهبط ، هي الاخرى ، اسعار الصوف منذ آب ١٩٢٩ وازداد الهبوط انحداراً حتى مطلع عام ١٩٣٣ . ومع ان حجم الصادرات من الصوف والقمح والغنم والبقر والسكر والارز زاد بشكل ملحوظ واحياناً تضاعف مرتين وثلاثاً ، فان قيمة هذه الصادرات لم تكن تمثل عام ١٩٣١ – ١٩٣٢ سوى ٥٥ ٪ من قيمتها لعام ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، ورافق حدوث الازمة في جنوبي افريقيا حدوث اطول جفاف عرفته تلك البلاد خلال السنوات الستين الاخيرة من تاريخها مع تعرض قطعان الغنم فيها لامراض وافدة ، مما ادى الى هبوط ذريع في اسعار الذرة والصوف والمحاصيل الزراعية الاخرى . واستخراج الماس هبط الى ٥٠٦،٠٠٠ قيراط اي ١/٩ محصول البلاد منه عام ١٩٢٧ . والمنجم الاول الواقع على مقربة من بريتوريا جرى سدّه واقفاله . ولم يبق للاتحاد من منجاة سوى انتاجه من الذهب .

وشعرت الهند من جهتها بشدة وطأة الازمة اكثر من غيرها من هذه البلدان التي عانت منها الامرين اذ ان ٣/٤ السكان فيها يعولون على تصدير الخامات والمواد الاولية بعد ان هبطت اسعار هذه المواد الى اقل من النصف . فبين ١٩٢٨ – ١٩٢٩ و ١٩٣٢ – ١٩٣٣ ، هبطت قيمة الصادرات من ٣٣٩٠ مليون روبية الى ١٣٥٠ مليون كما انخفض الاستيراد الى النصف ، بينما الفوائد المترتبة على القروض والنفقات العامة غير المجدية بقيت على حالتها كالمعتاد .

راجتازت البرازيل ازمة جديدة في زيادة انتاجها من البن اعنف واثقل من تلك الازمة التي مرت عليها في مطلع القرن ، كما ان افتقار البلاد الى مساعدة المصارف الاجنبية الكبرى سبب انهيار الاسعار في بورصة نيويورك ، اذ هبطت من ٢٣ سنتا الى ٨ سنتات .وقد جر هبوط الجنيه وراءه الى الافلاس الذريع ، عدداً كبيراً من المزارعين ، والى نزع اليد عن ملكية

الاراضي المرهونة واستخلاصها من ايدي اصحابها . اما الجزر المنتجة السكر في اميركا الوسطى والبحر الكرايبي ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، مثل هذا الهبوط ، كما ادى الى فقدان الكثيرين لاملاكهم بعد ان نزعت من حيازتهم. والارجنتين التي يقوم ازدهارها على بعض المحاصيل الزراعية ، فقد تكدست فيها محاصيل الحبوب واللحوم وغصت بها المستودعات والعنابر الخاصة ، وانخفض بالتالي سعر البيزو كما هبطت قيمة الارض ، الامر الذي اضطر معه عدد كبير من الملاكين الى رهن املاكهم والتقدم الى السلطات المعنية بطلب تأجيل وفاء الديون بعد ان استحال عليهم الوفاء في المواعيد المضروبة له .

٢ – مظاهر الازمة

الازمة الصناعية

فاذا ما قارنا بين دلائل الانتاج الزراعي وبين دلائل الانتاج الصناعي في العالم لظهر لنا ان الانتاج الزراعي بين ١٩٢٩ – ١٩٣٣ ، قلما تغير ولو لحقه بعض النقص الطفيف بينما نقص الانتاج الصناعي ١٥ ٪ من معدله العام .

فالمظهر البارز للازمة يتبلور على اتمه في هذا الانكماش المظيم الذي جاء اشد بكثير من اي انكماش مماثل وقع في الازمات السابقة ، (المانيا من ٣٩ ٪ الى ٦ ٪) من الانتاج الصناعي الذي بلغ ادنى دركاته في تموز ١٩٣٢ ، اذ سجل ٣٨ ٪ ادنى من المعدل المسجل في حزيران ١٩٢٩ . ثم أطلت حركة ارتفاع بعد ان رسمت خطاً متكسراً بين هبوط وارتفاع لتستمر في الصعود في الخريف . وقد جاء هذا الانكماش اعنف واشد في البلدان الصناعية (اوروبا المصنعة والولايات المتحدة الاميركية) اكثر منه في بلدان اوروبا الزراعية واليابان ، وهكذا نرى ان اكبر خسارة وقعت تمركزت على الاخص في مساحة ضيقة نسبياً ، اذ ان ٣/٤ الانتاج الصناعي في العالم ، كان عام ١٩٢٨ ، موزعاً على اربع دول كبرى هي الولايات المتحدة الاميركية (٤٤،٨ ٪) والمانيا (١١،٥ ٪) والمملكة المتحدة (٩،٢٦ ٪) وفرنسا (٧ ٪) . وتملك هذه الدول مع الخمس التالية : بلجيكا – هولندا – سويسرا – النمسا – كندا ٨٠ ٪ من الانتاج الصناعي ، بينما يتقاسم الباقي كل من الاتحاد السوفياتي وايطاليا واليابان والهند واسبانيا والسويد وبولونيا والارجنتين ، وهي دول يبرز عليها بالاكثر الطابع الزراعي . واكبر خسارة سجلت في هذا المجال ، وقعت على الولايات المتحدة (٩٠ ٪) من مجموع الانتاج في البلدان الصناعية الاخرى ، وهو انهيار لم يسبق له مثيل من قبل حتى في ازمات الحروب ، اذ لم يزد عن ٣٠ ٪ في الدول المتحاربة في اوروبا .

المزارعون والوضع الحرج الذي تخبطوا فيه

لما كان الانتاج الزراعي (ولا سيما انتاج المحاصيل الغذائية) لم يتغير الا قليلاً ، فالازمة في هذا القطاع كانت اقل انتشاراً وأقل استواء منها في القطاع الصناعي . فقد ارتدت طابع ازمة خانقة تأثرت بها اسعار المصنوعات بعد ان بلغ المعدل الوسط للهبوط في الولايات المتحدة ٥٧ ٪ ، من حزيران ١٩٢٩ الى كانون الاول ١٩٣٢ . وكان من نتائج انكماش القدرة الشرائية في المدن ان تسبب عن انكماش مماثل في الريف ، وتكشف بالتالي عن انكماش في استهلاك المواد المشتراة . فأينا تكاثرت الاستثمارات الزراعية ، نرى تلك المجتمعات تعود الى «الاقتصاد الاستهلاكي» . فهي تعول في معايشها على انتاج المزرعة دون ان تكترث بمقايضتها بالمواد المصنوعة . والبلدان التي سبق لها ووجهت اقتصادها الزراعي وجهة تخصص معينة معدة للأسواق العالمية، والتي زهد فيها هذا الاجنبي وامتنع عن استيرادها ، فالفائض من هذا الانتاج كان في وضع يدعو للأسف الشديد . والبلدان التي تعول على التصدير الزراعي خاصة هي هذه البلدان بالذات التي تضرست بالأكثر من اي فئة اخرى من السكان . وهذا شيء ملموس في الولايات المتحدة واليابان وبولونيا وهنغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والارجنتين وكندا .

ففي كل هذه البلدان ، اضطر المزارعون لاجراء تخفيضات محسوسة في استهلاكهم للآلات والاسمدة والاعتدة الزراعية ، ولغير ذلك من المستهلكات الزراعية ، مما زاد في حرج بطالة العمال العاملين في الصناعة (في الولايات المتحدة الاميركية اكثر من مليوني عاطل عن العمل) . ومن جهة اخرى ان تعذر تجديد الاعتدة الزراعية واجراء اصلاحات ضرورية في المباني كان من بعض نتائجه هبوط ملحوظ في ثمن المزارع وقيمتها .

واخيراً وليس آخراً ، فهذه الازمة التي حدّت من حركة نزوح السكان في الريف باتجاه المدينة ، قد تسببت في ازدياد حركة العرض في اليد العاملة في الريف ، اي ان الحركة أدت الى نقص في الاجور جاء محسوساً وعلى نسبة كبيرة ، بحيث ان تطور الاقتصاد الاستهلاكي شجع المزارعين على صرف العمال المأجورين ، والاستعاضة عنهم باعضاء الاسرة . وهكذا فالبطالة في المدن تسببت الى حد كبير ، في البطالة في الريف .

وقد اشتدت وطأة الازمة بالاخص على الاستثمارات التي ترزح تحت الديون ، كما هو الوضع في سويسرا مثلاً (٥١،٨ ٪ من رأس المال المستثمر) ولا سيما الاستثمارات الصغيرة في هذه البلدان التي سبق لها وقامت باصلاح زراعي في الداخل . ولما كان يستحيل على المزارعين وفاء الفوائد المترتبة على ما عقدوا من ديون ، فقد اضطروا الى الاستدانة من جديد . وهكذا تراكمت الرهونات ورزحت الممتلكات تحت اعباء جديدة في كل من بولونيا وهنغاريا (٤٠٪) وبلغاريا (اكثر من ٥٠ ٪) والمانيا . وفي الولايات المتحدة تحولت ملكية ألوف المزارع الى المصارف الدائنة ومعاملات الحجز التي اجريت خلال الضائقة المالية انتهت كلها بتملك شركة

ماتروبوليتن الضمان على الحياة لأكثر من ۷۳۰۰ مزرعة . وفي ولاية مونتانا وحدها ، امتلكت الشركة المنفقة ، عام ۱۹۳۷ اكثر من ۱۵٫٦ ٪ من مزارع الولاية بعد ان ألقت عليها الحجز . وفي ولاية أيوا ۱۱٫۹ ٪ . وقصة صغار المزارعين هؤلاء في اوكلاهوما الذين انتزعت المصارف الدائنة مزارعهم المرتهنة واصبح اصحابها مرابعين بعد ان كانوا اسياداً لها ثم انتهى امرهم بالطرد عندما راحت هذه المصارف تضم المزارع الصغرى بعضها الى بعض ، ترويها لنا رواية « عناقيد الغضب » . فليس بغريب قط ان يرى ۲۹ ٪ في عام ۱۹۳۹ ، انفسهم مرغمين على تسديد الاقساط المترتبة عليهم بالعمل في الخارج . والوضع الذي احاط بالمرابعين في الجنوب الشرقي من البلاد كان ادهى واقسى مما اتينا على وصفه ايضاً ، وعلى هذا قس وضع المزارعين ولا سيما من يعمل منهم في مواسم خاصة او يتزحزحون في مواسم خاصة عن مناطقهم في سبيل العمل في الخارج .

اجور وبطالة

تسببت الازمة في قيام بطالة كثيفة بين صفوف العمال لدى عدد كبير من البلدان بعد ان تثاقلت وطأتها على الفئات والمجتمعات العمالية في القطاع الصناعي ، لتنتقل منه فيما بعد الى القطاعات الاخرى . فالبطالة لا تصيب كل الحرف بالسواء ، فصفوف العاطلين عن العمل كانت اكثف بين عمال المناجم وصناعات التحويل والبناء منها في قطاعي الزراعة والنقل (باستثناء الولايات المتحدة الاميركية ، حيث الانكماش بلغ أشدّه) بينما لم يعانِ القطاع التجاري كثيراً .

فانكلترا وحدها احتفظت باجور كانت مرتفعة نسبياً . فقد اتاحت القوانين الصادرة في الولايات المتحدة رفع هذه الاجور ، كما ان وصول الجبهة الشعبية الى الحكم في فرنسا تميز بحركة إنعاش في اجور العمال . فجاءت الازمة النقدية تفسد عليهم الفوائد التي تم لهم تسجيلها . وفي ايطاليا ، هبطت اجور العمال العاملين في المجال الزراعي بين ۱۹۲۸ — ۱۹۳٤ ما نسبته ۳۰٪ في كل من مقاطعة اميليا ، و ۳۲ — ٥۰٪ في مقاطعة لومبارديا . ومنذ عام ۱۹۳٥ ، مع تطور صناعة النسيج وسياسة الاكتفاء الذاتي ، اصبحت الدولة الايطالية اكبر مستخدم للعمال في البلاد . فنتج عن ذلك ارتفاع في معدل ربح العامل بالساعة ، ولم يلبث هذا المعدل ان عاد الى نسبته عام ۱۹۲۸ ، الا انها بالفعل كانت ادنى ، لان ساعات العمل لدى العامل كانت اقل مما كانت عليه عام ۱۹۲۸ . وارتفعت الاجور كذلك في المانيا ، بمعدل ١٤٪ بين ۱۹۳۳—۱۹۳۹ الا ان ارتفاع تكاليف الحياة في البلاد ، والحسومات العديدة التي تعرضت لها الاجور ، اعادت النسبة الى ما كانت عليه من قبل . وبالرغم من هذا الارتفاع ، ومن ازدياد العمل ، فقد بقيت اجور العمال والمرتبات الموزعة عام ۱۹۳۸ في المانيا ، اقل مما كانت عليه على العموم سنة ۱۹۲۹ .

ومع ان النشاط الصناعي كان في هذا التاريخ على خير ما يكون من الازدهار ، فعدد العاطلين عن العمل لم يكن لينقص عن ۱۰ ملايين في العالم ، مع العلم ان هذا العدد ارتفع الى

ثلاثة اضعافه ، بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ . فاذا ما اضفنا الى هذا العـــدد ، عـدد العاطلين جزئيا والعاطلين غير الملحوظين لبلغ عدد العاطلين عن العمل ٤٠ مليوناً تقريباً . وعـدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة، عام ١٩٢٩ الذي كان يتراوح بين ١،٥٠٠،٠٠٠ و ٢،٥٠٠،٠٠٠ ، ارتفع عام ١٩٣٢ الى رقم تأرجح بين ١١ مليوناً و ١٢ مليونا ونصف، وفي عام ١٩٤٠ لن يهبط هذا العدد الى اقل من ٧ ملايين . فالحرب العالميـة الثانية وحدها هي الـتي استطاعت ان تضع حداً لهذا الوضع المحزن . وفي المانيا بلغ عدد العاطلين عن العمل ٣،٨٠٠،٠٠٠ في عام ١٩٣٠ ، و ٥ ملايين بعد هذا التاريخ بشهرين ، و ٥،٢٠٠،٠٠٠ عام ١٩٣٢ . وكان في تشيكوسلوفاكيا ٤١،٦٠٠ عاطل عن العمل عام ١٩٢٩ فاذا بهذا الرقم يرتفع الى ١٠٥،٠٠٠ ، عام ١٩٣٠ ، والى ٥٥٤،٠٠٠ عام ١٩٣٢ . وعدّت النمسا ١٩٠،٠٠٠ عاطـــل عن العمل سنة ١٩٢٩ ، فارتفع العدد عام ١٩٣١ الى ٣٠٠،٠٠٠ ، ليبلغ ٣٧٨،٠٠٠ عام ١٩٣٢ . فهذه البلدان الثلاث التي تضم معاً ٨٧ مليون نسمة منهم ٦٢،٥٠٠،٠٠٠ صالحون للعمل، لحقت البطالة بـ ٦،٥٠٠،٠٠٠ عامل مع عائلاتهم . وعدت البطالة في ايطاليا ، عـــام ١٩٣٢ اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ عاطل عن العمل حسب الاحصاءات الرسمية ، بينما كان اكثر من نصف عدد العمال هم عاطلون عن العمل باستمرار او قسماً من وقتهم . وارتفع عدد العاطلين في انكلترا من ١،١٤٢،٠٠٠ (٩،٧٪) عام ١٩٢٩ الى ٢،٦٦٣،٠٠٠ ، في كانون الثاني ١٩٣١ (٢١،٥٪) لتبلغ نسبتهم ٢٢٪ عـــام ١٩٣٢ من بينهم ٣١،٧٪ يعملون في المباني الجديدة ، و ٢٨،٣٪ في الصناعات الاستخراجية ، و ٢٨،٥٪ في الصناعات الحديدية . وفي فرنسا ، ارتفع عدد العمال العاطلين ، من ١٠،٠٠٠ عاطل ، عـام ١٩٢٩ ، الى ٣٠،٨٠٠ عام ١٩٣٢ . ومن الملاحظ ان عدداً كبيراً من العمال الاجانب اضطروا للعودة الى بلادهم بعد ان تضاءلت وسائل العمل في فرنسا . وارتفع هذا العدد في شباط ١٩٣٨ الى ٣١٢،٣٨٦ . والى البطالة في المجال الصناعي يجب ان نضيف عـــدد العاطلين عن العمل في المجال الزراعي ، وهو رقم يستحيل تحديده .

طرأ على الازمة ابان اشتدادها عوامل جديدة غير مسمفة . ففي الطور الاول منها قـــام توازن مطلق بين نشاط الانتاج الصناعي وبين تطور حركة البطالة ، ولوحظ ان تناقص الانتاج بنسبة ١٪ انما يعني نصف مليون جديد من العاطلين عن العمل. اما في الطور التالي فقد تعطلت هذه النسبة واختل هذا التوازن. فالبطالة لا تخف بنسبة حدة الانتاج الصناعي (راجع شكل ٤ ص١٤٠) ومرد ذلك ان ملايين من العمال الجدد بين صفوف اليد العاملة اصبحوا الآن صالحين للعمل ، في الوقت الذي مكن التطور التقني للصناعة من زيادة حجم الانتاج بعدد اقل من العمال . وعلى الاجمال ، فقد سجلت البطالة اعلى ارقامها عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، وفي بعض البلدان ، عام ١٩٣٤ (امثال فرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ) بينما تباينت كثافة البطالة بين بلد وآخر . فقد كانت نسبة البطالة في المانيا ٤٣،٧٪ بين العاطلين تمامـــا عن العمل بين العمال النقابيين ، و ٢٢،٦٪ يعملون ساعات مخفضة و ٣٣،٧٪ يعملون بصورة منتظمة كل اوقاتهم . ومن غرائب

الامور ان تقع المين على حرفة او مهنة نصف عمالها المؤهلين يعملون بانتظام . وهـــذه النسبة جاءت ادنى ايضاً في اليابان (اقل من ١٠٪) وفي بولونيا وتشيكوسلوفاكيا (من ١٠ — ١٥٪)، وفي بريطانيا وبلجيكا (من ١٥ — ٢٠٪) ، وهـــذا المعدل نفسه في كل من كندا والسويد والولايات المتحدة (٢٠ — ٢٥ ٪) . وكان المعـــدل اعلى من ذلك في كل من النمسا وهولندا (٢٥ — ٣٠٪) وفي كل من النرويج والدانمارك (٣٠ — ٣٥ بالمئة) . وهكذا نرى ان التفاوت كان كبيراً بين الدول . وعلى هذا قس ايضاً البطالة بين مختلف العناصر والعروق البشرية . فقد

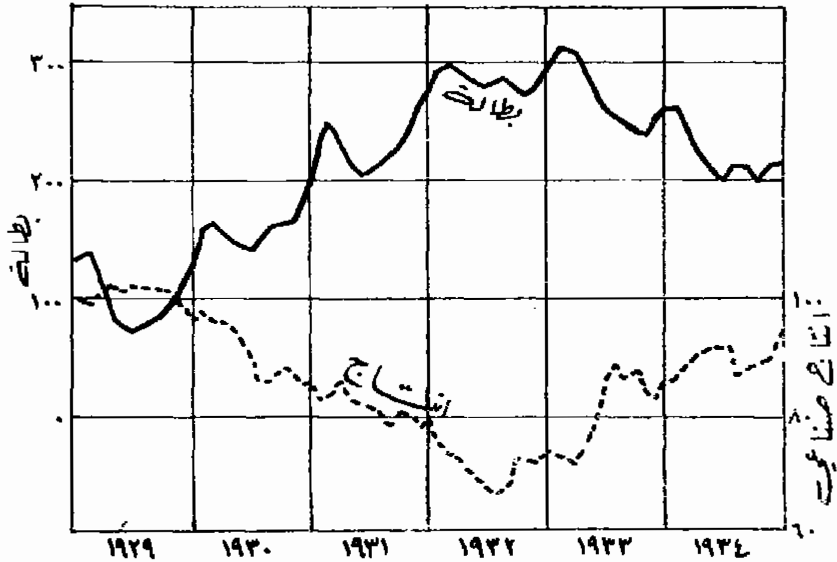

شكل ٤ ـ الانتاج الصناعي والبطالة في العالم بين ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤ .
(الدليل ١٠٠ عام ١٩٢٩)

نزلت البطالة بالملونين اكثر منهم لدى البيض ، في الولايات المتحدة الاميركية . فالعبيد كانوا آخر من يدخلون العمل واول من يصرفون من الورشات والمصانع .

ولكي نقيّم البطالة كما يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار ليس الحوادث الرسمية فحسب بل ايضاً حالات بعض الاسر التي كان كل افرادها او جلهم يجدون لهم عملاً مأجوراً . والحال فليس ثمة اية احصاءات نستطيع معها تبيين او تحديد الاوصاب والآلام المادية التي شعر بها ابو الاسرة وزوجته واولاده من جراء وجودهم عاطلين عن العمل .

الجوانب النقدية

تسببت الازمة في كل مكان بعملية تصفية جماعية للاستثمارات القصيرة الاجل ، كما ادخلت التشويش والبلبلة ، في الوقت ذاته ، على نظام المدفوعات بين الدول .

ان انكماش الاسواق الذي اصاب الجميع برذاذه ، وانخفاض عام للاسعار في كل اطراف العالم ، كان من شأنه اقصار الدول المستدينة على وضع يستحيل عليها معه وفاء التزاماتها وما يترتب عليها من فوائد متراكمة ، كألمانيا وبلدان اوروبا الوسطى والدول البلقانية وجمهوريات اميركا اللاتينية . ولذا ، اضطرت هذه البلدان لاعلان تأجيل وفاء ديونها والى اجراء تخفيض في عملاتها ، مكبدة بذلك الدائنين الوف الملايين . وامام هذه الاجراءات والتدابير التعسفية التي اطال العمل بها مكتب مراقبة القطع واجراءات تأجيل دفع الديون ، كان من الطبيعي جداً ان يتردد الدائنون في تكرار معاملاتهم المالية هذه . فرؤوس الاموال التي كانت حتى الآن تستثمر في هذه البلدان المتخلفة في تطورها الاقتصادي، اصبحت الآن ترقد في صناديق اصحابها، وجمدة او مشغلة لآجال قصيرة او في مضاربات نقدية . فالخوف من مصلحة الضرائب ، ومن تخفيض سعر العملة وتحويل السندات الى عملات ، جعل ذلك أدى الى تنفير هذه الأموال وتهريبها ، لا يلوي اصحابها على شيء . فلم تر قط من قبل مثل هذا التجمع لرؤوس الاموال الهاربة .

واخيراً وليس اخراً فانفجار الازمة كان من بعض نتائجه المباشرة ، هبوط تدريجي في الاسعار، وهو هبوط لم يكن الحد منه والتصدي له الا بإصدار قرارات تخفيض سعر العملات ، بين ١٩٣١ و ١٩٣٣ ، بينما استمر هبوط الاسعار في الدول المحافظة على قاعدة الذهب ، الى سنة ١٩٣٥ . وقد بلغ هذا الهبوط مستوى لم يسبق له نظير في تاريخ العالم الاقتصادي : فبلغ ٣٦ بالمئة من الاسعار في التجارة بالجملة لدى انكلترا ، و ٣٧ بالمئة في الولايات المتحدة ، و ٣٤ بالمئة في المانيا ، و ٥٠ بالمئة في هولندا ، و ٤٩ بالمئة في فرنسا (تموز ١٩٣٥) .

الاقتصاد العالمي يتخبط في فوضى محزنة

وهذه البلبلة والاضطرابات التي خلخلت الانظمة التقدمية ، جرّت وراءها الانهيار الكامل للنظام التجاري في كل اطراف العالم . فالاسهم التي جرى تبادلها بين ١٩٢٩ – ١٩٣٤ كانت في تقهقر ملحوظ . فالأسعار بالذهب انخفضت ٥٦ ٪ وحجم المبادلات الذي بلغ نهايته الصغرى عام ١٩٣٣ ، هبط ٢٥،٥ ٪ .

وقد كان في شبه المستحيل أي بحث عن اسواق جديدة تمتص رؤوس اموال جديدة ، والبضائع الجديدة كانت عملية اشق بكثير مما كانت عليه في الماضي بالنظر للتصنيع المعظم الذي حققته الدول الواقعة عبر البحار (كالولايات المتحدة واليابان) ، وبالنظر لأوضاع روسيا والحرب الأهلية التي قامت في الصين ، وقد راح بعض رجال الاقتصاد يقترحون توسعاً موجهاً في كل من افريقيا وبلدان اوروبا الشرقية ، فتكشفت النتيجة عن محاولة اتصفت بالفوضى الزرية

ويدعوة « النجاة بنفسه اقتصادياً والهرب لكل من أمكنه ذلك » . والكل يسعى للخروج من المأزق وتدبر أمره بحسب طاقاته . وهذا الصراع يقوم به الفرد ضد الجميع ، البحث عن أسواق عالمية جديدة لن يلبث ان يصبح ، شيئاً فشيئاً ، غير ذي أثر ، وكان من بعض نتائجه العامة التخلي عن سياسة حرية التبادل والركون الى الحماية الجمركية المتطرفة ، وتعميم اجراءات الدفاع عن النفس ، والانزواء ضد البضائع وضد الناس ، وضد عملات البلدان الاخرى ، واحتدام المنافسة الدولية في المجال التجاري . وقد برهنت سياسة كل فرد لنفسه على عدم جدواها بالمرة لاتجاه الجميع الى الاجراءات والتدابير الواحدة ، بعد ان نسي الناس او تناسوا الترابط الوثيق الذي يشد بصورة لا تنفصم ، الاسواق النقدية الكبرى وأسواق الخامات والمواد الاولية بعضاً إلى بعض . وهكذا اخذ الاقتصاد العالمي بالتراخي والانحلال والانقسام الى كتل قومية واستعمارية تدير الواحدة منها ظهرها للأخرى . فانكلترا تنطوي على مستعمراتها وعلى الدومنيون، وفرنسا تنكمش على امبراطوريتها الاستعمارية، والمانيا ودول اوروبا الوسطى تتطور نحو سياسة الاكتفاء الذاتي والاعتصام وراء الحماية الجمركية . اما في الولايات المتحدة الاميركية « فالخطة الجديدة » تتجه بالضرورة نحو السوق العالمية او الداخلية . وبعكس ما كان يحدث في الازمات السابقة ، فعودة الاعمال إنما تمت عن طريق تطور الاسواق الوطنية او القومية الخاصة وليس عن طريق توسع الاسواق الخارجية . فالاسواق الداخلية الوطنية هي التي تستهلك القسم الادنى من زيادة الانتاج .

بلغ حجم التجارة العالمية ، عام ١٩٣٦ نحواً من ٨٥،٥ ٪ من المعدل الذي سجلته سنة ١٩٢٩ ، بينما قيمته بالعملة الذهب لم تكن لتزيد على ٣٧،٣ ٪ من اصل المبلغ الذي سجله من قبل . والحركة التجارية في اميركا تأثرت اكثرمما تأثرت به الحركة التجارية في اوروبا. فقد انخفضت نسبة حصتها من التجارة العالمية من جراء زيادة الرسوم الجمركية المنفرة عندها . وهكذا استطاعت اوروبا زحزحة التفوق الذي حققته الولايات المتحدة خلال الحقبة الماضية. ولا يتصورن احد ان الوضع قد انعكس تماماً . والزيادة في الصادرات الأوروبية جاءت نتيجة اتفاقات عقدتها الدول على قاعدة الدول الاكثر رعاية ، ولا سيما بريطانيا العظمى مع بلدان الدومنيون، والصادرات نحو الامبراطوريات الاستعمارية الفرنسية والانكليزية، والاتفاقات الثنائية التي توصلت المانيا الى عقدها مع بلدان اميركا الجنوبية وبلدان اوروبا الوسطى . وهذا التحسن كان مع ذلك أعجز من ان يوقف الانحدار الذي اصاب اوروبا لأن صادرات الدول الكبرى الثلاث لم تستطع بلوغ المستوى الذي كانت عليه عام ١٩٢٩ .

أما البلدان المتخلفة ، وهي هذه البلدان الواقعة عبر البحار او البلدان الزراعية في اوروبا الشرقية التي تأثرت عميقاً بهبوط أسعار المواد الاولية ، فقد اخذت تعمل بنشاط اكبر مما عرف عنها في الماضي ، للنهوض بعملية تصنيعها ، وللتخفيف من استيراد المنتوجات الصناعية المشغولة .

وعندما تمت الرجعة ، وعاد النشاط الى سابق ازدهاره ، بقيت الحركة متواضعة يحدّ منها سياسة الاكتفاء الذاتي التي اخذت بها معظم البلدان ، والاقتصـــاد الموجه للحرب والتنافر المتزايد بين الاسعار في الداخل وأسعار المواد المعدة للتصدير التي سارت عليها كتلة الدول القائم نقدها على قاعدة الذهب ، كهذه الدول (المانيا مثلاً) التي تحاول ان تحـافظ ولو بصورة مصطنعة ، على استقرار عملتها . كل هذه البلدان تعتمد سياسة إغراق الاسواق بشكله التقليدي المتعارف (المانيا) او بشكل إغراق نقدي ضمن كتلة دول الدولار او كتلة الساترليني او كتلة دول الفرنك او كتلة دول الين . فالسوق العالمية ضيقة هي : « فقد قامت فيا مضى وما تبقى منها لم يعد سوى سوق السيطرة » كما يقول ل . لورات .

الفصل الثاني

تدخل الدولة
ونتائج الأزمة الاقتصادية

تدخل الدولة يفرض نفسه بنفسه

لم يكن في وسع الدول المعنية ان تقف مكتوفة اليدين لا تبدي ولا تعيد امام المشكلات التي تتخبط فيها والمصاعب التي تعانيها مشروعات ضخمة يعمل فيها احياناً عشرات الألوف من العمال ، والاتحاد المالي الذي آلت اليه معظم المصارف فهدد بخطر مستطير ودائع المودعين لديها والعـائدة لغالبية السكان الساحقة من مودعين ورجال الصناعة ، والخطر الذي أطلّ مع الازمة النقدية والبطالة المتدهورة منها . وهكذا خلافاً لما سبق وجرى في الازمات الاقتصادية الماضيـة التي تركت معالجتها لتفاعل « القوى الطبيعية » ، شهدنا تدخلاً مباشراً من قبـل الدول وهو تدخل اخذ يزداد ويستفحل نشاطاً يوماً بعد يوم . فاستلمت بيد من حديد شؤون اقتصادها الوطني ، واتخذت في هذا السبيل ، الاجراءات التي يقتضيها الوضع والتي كان من شأنها ان تحد من نشاط رأس المال الخاص في هذا المجال . وهذا الرأسمال المسيطر الموجود لدى اتحادات الشركات الكبرى او تحت تصرف التكتلات الاقتصادية العملاقة من عامة وخاصة يعمل علانية او في الخفاء،قد ألحق ضرراً كبيراً بالاقتصاد الحر وضيّق عليه الانفاس . وهؤلاء المنتجون الذين عُرفوا للآن بحرصهم على استقلالهم وصيانته من كل تدخل من جانب الدولة ، اخذوا هم انفسهم يتجهون اليها طالبين حمايتها والتدخل لاتخاذ مايصون مصالحهم . .من ذلك مثلاً لجنة هاريمان التي عينتها غرفة التجارة في الولايات المتحدة الاميركية بعد ان اخذت تطالب ، منذ تشرين الاول ١٩٣١ ، بوضع « خطة وطنية شاملة تضبط معها الانتـاج والتصدير » و « التنسيب بين القضايا الاقتصادية » ، عن طريق مجلس وطني . وقام عام ١٩٣٢ ، احد اعضاء المجلس الاقتصادي في الرايخ هو الدكتور هرمان بوخر يصرح على رؤوس الاشهاد بأنه مضى الى حيث لا رجعة « عهـد حرية التصرف وحرية المرور ، وهذه الروح الفردانية التي لا حد لها ولا نطاق » . وراحت الحكومات من جهتها وعلى اختلاف نزعاتها وألوانها تعمل وتسعى ليس لانقاذ النظام الرأسمالي فحسب بل خوفاً من ان تكسب لشعوبها بجروح لا تستطب وضربات مميتة . ولهذا راحت الدولة توسع كثيراً من

نطاق عملها خلال هذه السنوات ليس باتخاذها الاجراءات والتدابير العامة فحسب ، بل ايضاً بفرض الضرائب والرسوم الجمركية وفرض نظام التقنين والقيام بنفسها بأشغال ضخمة في البلاد ، كما اتخذت ترتيبات نقدية واستنت قوانين اجتماعية واضافت الى هذا كله سلسلة من المداخلات الخاصة كمساعدة المشروعات التي تعاني الصعوبات ويتهددها الخطر ، والتشريعات المشجعة او القاضية بتأليف التكتلات والاتفاقات ومن بينها الركون الى التأميم ، وتوجيه الانتاج في بعض المجالات ، وفي البلدان المنتهجة سياسة الاكتفاء الذاتي في كل قطاعات الحياة الاقتصادية .

وهكذا وضعت الدولة كل نفوذها لتأمين تنظيم النشاط الاقتصادي بعد ان ألحقت به وادخلت عليه تشويشاً ، اباحية الاستثمار الحر فكادت تجره الى الفوضى التامة . فقد حاولت جاهدة تحقيق تنظيم الاسعار والتحكم بها وترويضها ، ومعالجة المصاعب التي يلاقيها الانتاج بعد ان تضخم واستشرى واستبطر ، وباثارة الطلب وتشجيع الإقدام عليه . وقد اضافت الى هذه الذرائع الاقتصادية الطابع ، وسائل اخرى تدخل في صميم السياسة كتحديد النفوذ الثابت لبعض الهيئات الاستثمارية الكبرى (تأميم البنك الاهلي في فرنسا وبعض المصانع الحربية) ، وتأمين بعض الخدمات للمواطنين ، بكلفة ادنى (كالتشريع الخاص بالبضائع الشعبية في الولايات المتحدة الاميركية) ، وادخال الطمأنينة وتوفيرها للجميع ، ومختصر القول انماء قدرة الامة وزيادة طاقتها في حالة حدوث حرب وغير ذلك من التدابير . كذلك اتخذت الدولة نفسها ، في كل مكان تقريباً الاجراءات ضد البطالة ، وتوجيهه ، وضد الشيخوخة والمرض ، وحلت اخيراً محل الجهود الفردي في القطاعات التي لا حول لهذا الجهود ولا طول لتأمين الفعالية المرجوة .

سياسة الحماية الجمركية

اولى وسائل التسييج حول المنتجين كان التفكير بفرض رسوم جمركية تحمي السوق الداخلية وتصونها من المزاحمة الاجنبية . وقد جاء هذا التدبير فورياً في هذه البلدان التي يسيطر عليها جو من تقاليد الحماية ألفته الجماهير لم يلبث ان فرض نفسه حتى على هؤلاء الذين كانوا مستمسكين ، ولو بشكل متراخ ، بسياسة التجارة الحرة او الباب المفتوح . ومنذ عام ١٩٣٠ ، راحت الولايات المتحدة الاميركية ، اكثر دول الارض اخذاً بسياسة الحماية ، تقوي من وسائل الحماية عندها ، وذلك بفرض التعريفة الجديدة المعروفة بتعريفة هاولي سموط . وفي السنة ذاتها حذت حذوها كل من فرنسا وكندا وايطاليا واسبانيا ، ولم تلبث ان نسجت على منوالها ايضاً كل من الهند والارجنتين ، والبرازيل والصين ، ولا سيما انكلترا التي بعد ان استكملت تطورها في هذا المجال ، اعلنت سياسة الحماية التجارية الكاملة . فمنذ تشكيل الحكومة الوطنية برئاسة مكدونالد ، هذه الحكومة التي اطلت على انكلترا اثر الانتخابات العامة التي أجرتها عام ١٩٣١ ، اقر مجلس العموم قانون التعرفة الجمركية على الاستيراد (غير العادي) . وهو قانون يتيح لوزير المالية ان يفرض لستة اشهر رسوماً جمركية تبلغ احياناً ١٠٠ ٪ من قيمة البضاعة على الاستيرادات غير العادية

والكاليات) وعلى المصنوعات المشغولة وفي شباط (فبراير) ١٩٣٢ فرض القانون الخاص برسوم الاستيراد ، نظاماً جمركياً متماسكاً كلياً . وهكذا رأت انكلترا نفسها مسلحة لتعقد سلسلة من المعاهدات التجارية ولتؤلف نوعاً من الاتحاد الجمركي ، مع بلدان الدومنيون، عن طريق اتفاقات اوتاوا .

واخذت سياسة الحماية الجمركية تتسع وتشتد في السنوات التالية ، اذ اخذت كل دول العالم تلغي الواحدة منها تلو الاخرى ، المعاهدات والاتفاقات التي تنص على الدولة الاكثر رعاية كما راحت تشن حرباً جمركية على بعضها البعض اخذت تقسو وتشتد . وهكذا نرى معامل الحماية ترتفع تباعاً في فرنسا من ١٧،٨ بالمئة عام ١٩٣٢ ، الى ٢٩،٤ بالمئة عام ١٩٣٥ ، وفي المانيا من ٨،١ بالمئة عام ١٩٢٩ ، الى ٢٩،٢ بالمئة عام ١٩٣٧ ، وفي ايطاليا من ١١،٩ بالمئة الى ١٩،٤ ، حتى في انكلترا نفسها ارتفع هذا المعامل من ١٩،٣ بالمئة الى ٢٣،٣ بالمئة بين التاريخين المذكورين . الا انه كان من نتيجة هبوط الاسعار المتواصل ان عجزت الرسوم الجمركية عن تأمين الدفاع المطلوب ، فعمدت الحكومات ، اذ ذاك ، الى وسائل انجع وافضل الحماية بفرض الحظر على الاستيراد ولا سيما الاعتصام بسياسة تقنين الاستيراد هذه السياسة التي كان من شأنها ان تحدد الكمية المستوردة من هذا الصنف او ذاك . وعلى مثل هذه السياسة سارت فرنسا على الاخص منذ عام ١٩٣١ .

سياسة الانكماش المالي

الى جانب تدابير الحماية ، اخذت الحكومة بسياسة تعويم المشروعات التي تعاني بعض الصعوبات ، وتأمين هامش الربح عن طريق تخفيض اسعار الكلفة . والوسيلة التقليدية المتبعة هنا هي سياسة الانكماش المالي ، اي التقليل من وسائل الدفع وتخفيض الاجور ، وتضييق عمليات التسليف المصرفي الامر الذي تضطر معه البيوتات الصناعية الى تصفية مخزونها كما تضطر بالنهاية الى تصفية المشروعات الهامشية ، والمحافظة على ميزان المدفوعات عن طريق خفض النفقات العامة وزيادة الضرائب .

الا ان سياسة الانكماش المالي تبقى أعجز من ان تؤمن الدعم المالي الذي كان يتم من قبل بصورة اوتوماتيكية ، وذلك بسبب الاهمية المتزايدة لرأس المال المحدد في المشروعات وبسبب التكاليف العامة التي لا يمكن ضغطها او عصرها، ولا سيما الاتفاقيات الصناعية التي باستطاعتها الصمود في وجه هبوط الاسعار . والامر يبدو بوضوح في المانيا حيث تهبط الاسعار غير المتكتلة ٥٥ بالمئة بين ١٩٢٩-١٩٣٣ ، بينما الاسعار التي يفرضها التكتل الاحتكاري تبقى مستقرة ولا تهبط في آخر الامر الا بنسبة ٢١ بالمئة مع هذا الانكماش المالي في مثل هذه الاوضاع والحالات ، كان قليل الاثر ، ضعيف الجدوى كما ان تخفيض الاجور جاء متفاوتاً بين فئة واخرى .

اما موازنة الدول فقد كان من الصعب جداً ضغطها وعصرها في الوقت الذي اخذت فيه تؤثر عليها جدياً جباية الرسوم المالية ، وترزح تحت وطأة الاعانات . فمساعدة البطالة وتعويم

الاستثمارات التي يتهددها الخطر ، والتدخل في الاسواق مساعدة للمنتجين بواسطة اعانات توزع بمثابة تشجيع للانتاج او التقليل منه . وقد امكن للدولة تخفيف الضرائب عن طريق اتفاقات المقاصة او المعاوضة ، وذلك تجنباً ، قدر المستطاع ، لتحويل العملات الصعبة . وقد فرضت في المانيا ، عام ١٩٣٦ ، عقوبات قاسية حتى عقوبة الموت ، على من يحاول تهريب امواله للخارج او يبقيها خارج البلاد . كل هذه التدابير أبقت الاسعار في مستوى أعلى من مستواها في البلدان التي تسير على سياسة الانكماش المالي وتثير الصعوبات والعراقيل في وجه عمليات التصدير . وهكذا راح الدكتور شاخت يحاول اختباراً اعتبره بديلاً لسياسة الانكماش ، منها مثلاً « الماركات المسجلة » او « الماركات السياحية » التي لم تختلف قيمتها في المانيا عن قيمة

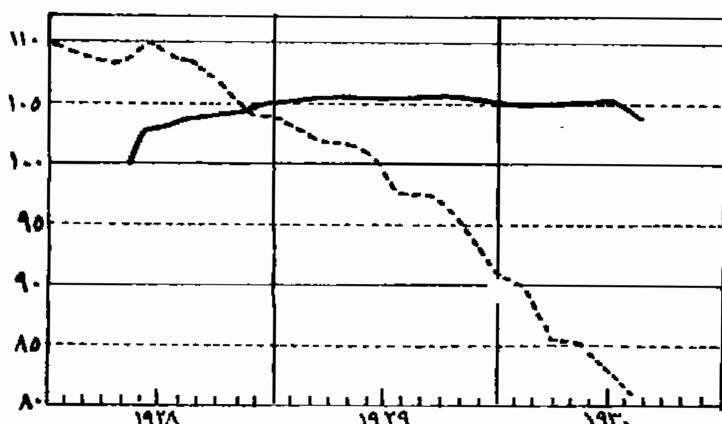

شكل ٥ - سعر الاحتكار وسعر المنافسة في المانيا بين ١٩٢٨ - ١٩٣٩

المارك العادي بينما كانت تشترى في الخارج بسعر ادنى من السعر العالمي ، ولشاريها الحق بالحصول على شكات محررة بالمارك تقبضها المصارف الالمانية داخل البلاد بسعرها الرسمي . وتكوّن هذه العملات الاجنبية التي دفعت بالمقابل لها في المصارف الاجنبية ، عملة احتياطية للتبادل تفيد في استهلاك الديون المجمدة . وهذه الطريقة الدقيقة للغاية يقتضي لها بالطبع محاسبة معقدة للغاية ، انما كانت تتيح استهلاك الديون تدريجياً ويسهل المشتريات من الخارج دون نقل او انتقال العملات وبدون ان تتعرض العملات الوطنية لقيود القطع وتطوراته ، كما انها ساعدت على التموين بالخامات وتأمين عملية التسلح ، وسهلت من جهة اخرى ، تأمين استقرار النقد في الداخل . وهكذا قل عن المارك (*Aski*) الذي لم يكن يصرف الا في شراء بضائع المانية . اما تمويل الاشغال الكبرى في الداخل ، فقد تأمن اما بسندات على الخزينة او بسحوبات خاصة من قبل متعهدين خصوصيين معتمدين لدى الاسواق العامة ، تعتمدها الحكومة وتضمنهم . اما في ايطاليا ، ففي

ايار (مايو) ١٩٣٥ ، الفت الحكومة ادارة خـاصة لم تلبث ان اصبحت وكالة وزارية لمكتب القطع والعملة الصعبة . الا ان انشاء مكتب القطع لم يحل قط دون هبوط سعر الليرِ في تشرين الاول ١٩٣٦ ، ودون التضخم المالي فيما بعد .

والحكومات التي لم تؤسس فيها مكتباً لمراقبة القطع ، لم تكن اقل احترازاً من غيرهـا واهتماماً بتطورات نقدها . فقد انشأت بريطانيا العظمى مكتباً خاصاً لامور القطع تمكنت معه من توجيه هبوط الجنيه بحيث تبقى له الاسبقية على الدولار في كل معاملات التصدير ، بعـد ان اتخذت ، عام ١٩٣١ ، الاجراءات اللازمة لذلك . وفي الولايات المتحدة الاميركية ، انتهجت الحكومة سياسة من التدابير النقدية عرفت معها ان « توجه » الدولار .

عملية انقاذ المشروعات التي تعاني الضيق

من بين المهمات الكبيرة الـتي كان على الحكومات المضطلعة بمسؤولياتها مواجهتها ، مهمة إنقاذ مشروعات الاستثمار الكبرى التي تعاني الضنك ويتهددها الخطر . فقد انشأت الحكومة الاميركية ، منذ عام ١٩٣٢ ، الوكالة المالية للتعمير (*R. F. C.*) التي عهدت اليهـا بمهمة تسليف الاعتمادات اللازمـة للمصارف ولشركات التأمين والتسليف الزراعي . وما كادت تظهر حكومة الديموقراطيين حتى راح عدد من الولايات في الاتحاد يعلن تأجيل وفاء الديون على اراضي الولاية ، واغلاق مؤسسات التسليف. وعندما تسلم الرئيس روزفلت مهام الادارة في الرابع من آذار ١٩٣٣ لم يكن في البلاد مصرف واحد فاتح ابوابه . فعمد ، قبل كل شيء ، الى منع تصدير الدولار للخارج . واتخذ قراراً عاماً بتأجيل وفاء الديون ، وعمد الى تنزيل قيمة الدولار ، وانشأ مراقبـة على المصارف . وقانون طوارىء المصارف أولى وزير المالية حق تعيين مراقب مالي موقت على كل مصرف وطني يعاني بعض الصعوبات ، مع تخويل هذا المراقب الصلاحيات الكاملة لاعادة تنظيمه بشرط موافقـة ثلثي المساهمين او موافقة ٧٥ ./ من اصحاب الودائع فيه .

واضطرت الحكومة الفرنسية ، من جهتها ، الى تعويم بعض المؤسسات الماليـة التي تعاني صعوبات كبيرة ، بضمانها سلامة المبالغ المودعة فيها والتي تعود للالوف من المودعين في مصرف الالزاس واللورين والمصرف الاهلي للتسليف . وقد كانت الحكومة ، المقـد الاول لشركات العامة عبر الأطلسي ولشركة النقل الجوي . وهذه السياسة التي قامت على تأميم الخسائر انتهجتها المانيا هي الاخرى ، بعد ان اضطرت الى ان تضمن الودائع المصرفية . وتجنباً لانهيار عـام في النظام المصرفي في البلاد ، اشترت قسماً كبيراً من اسهمها . وفي ايطاليا فتحت وزارة الماليـة اعتماداً خاصاً للشركة الصناعية المالية الايطالية ، التي بادرت في الحال الى انقاذ مؤسستين للاعمال المصرفية في البلاد ، هما بنك التسليف والبنك التجاري . وفي الوقت ذاته عمدت الحكومة الى تشكيل المعهد الصناعي للتعمير (*I. R. I.*) الذي حاكى من قريب المعهـد الاميركي المعروف (*R. F. C.*) هوفر والمصرف العقـاري الايطالي (*I. M. I.*) مهمتها اصدار سندات بضمانة الحكومة بقصد تصفية المؤسسات التي يترصدها الخطر ، او لتسليف الاعتمادات الطويلة الاجـل

أو قصيرة الاجل للمؤسسات التي تنعم بالعافية . واكبر مثل على بعض الاعمال التي قام بها هذان الميدان : عملية انقاذ الشركة الكهربائية المائيـة في مقاطعة (البيامونت S I P) بعد ان هبطت قيمة اسهمها من ٣٦٩ ليرا في شبـاط ١٩٢٥ الى ٢١ ليرا في ٣١ كانون الاول ١٩٣٢ ، ومعهد البناء الصناعي اعاد الى اسهمه القيمة الاسمية التي كانت لها عند الاصدار ، وحولها الى شركات اخرى طرحت في التداول اسهمـاً ضمنت الحكومة فوائدها . وفي بلجيكا اضطرت الحكومة الى مد يد الانقاذ الى مصرف العمل والى مصارف آخر .

سياسة المساعدات المالية والتوطيد

استعملت كل حكومة الاموال العامـة كما استعملت كل سلطتها الادارية لتقديم مساعدات ماليـة الهدف منهـا تشجيع المؤسسات الانتاجيـة التي تعاني من الصعوبات ، او « لدعم الاسواق » بالحؤول دون مزاحمة بعض المنتوجات الاجنبية لها .

وفي سبيل دعم المزارعين وتوفير قوة شرائية لهم شبيهة بالقوة التي كانت لهم أثناء الحرب ، عمد الرئيس روزفلت الى اصدار قانون التنسيب الزراعي المعروف بالحروف الثلاثة (A A A) وبموجب هذا القانون ، انشىء المكتب الزراعي الذي اتخذ اجراءات حازمة ، منها مثـلاً تخفيض المساحات الزراعية الخاصة وبعض المحاصيل (التبغ والقطن) وذبح الماشية ، واجبـار الولاية على دفع مكافآت تشجيعية للمزارعين برسم تعويضات لهـم تقتطع من الصناعات التي تجري عليها أول تحويل (فدفعت مصانع الطحين رسماً معيناً على القمح) . ودفعت في انكلترا مبالغ لمربي الماشية ، ولمنتجي الحليب (بشكل توزيعـات بسعر مخفض لاولاد المدارس) ، ولمنتجي الشوفان والشعير . وفي فرنسا ، اشترت الدولة كل الكحول المستخرجة من النبيـذ الفائض عن الاستهلاك المحلي ، وخصصت عـلاوة صيانة للمزارعـين الذين يخزنون محاصيلهم من القمح ، ودفعت ، عام ١٩٣٥ ، تعويضات للكرّامـين الذين اضطروا لاستبدال نصوبهم ، ومكافآت لمصدري الزبدة والمنتوجات الراتنجية .

مسلك الحكومة بشأن الاسعار والاجور

لم يتسم تصرف الحكومة في مجالات الاسعار والاجـور بذات الطابع . ففي الولايات المتحدة الاميركيـة ، انصرف نشاط الحكومة الى تنقية السوق الداخلية الضخمة قبل ان تهتم بتأمين اسواق جديدة لها في الخـارج . ولذا حرصت قبل كل شيء ، على رفع الاجور واسعار المواد الزراعية بحيث تتوفر للمزارعـين وللعمال القدرة الشرائية اللازمة ، وبالتالي اتخاذ الوسائل التي تؤمن انتاجية طيبـة للمشاريع الاستثمارية . وحاولت فرنسا من جهتها عن طريق الاتفاقات المعروفـة باتفاقات ماتنيون ، بعث النشاط في الحركة الاقتصادية بتقوية القدرة الشرائية ، وبحرصها على الا يفسد ارتفـاع الاسعار الغاية من رفع الاجور والمرتبات . امـا في المانيا التي كان يهمها ، قبل كل شيء ، تشجيع حركة التصدير ، فقد حرصت حكومتها ، على تأمـين الاستقرار ، للمارك الالماني ،

وبالتالي تأمين الاستقرار للاسعار والاجور . فقد جرى تثبيت الاسعار فيها على معدل سنة ١٩٣٢ ، وراحت الشركة الغذائية تفرض رسوماً عالية على المبيعات وتؤمن حاجة المستهلكين عن طريق الزامهم استلام حاجتهم من المواد الغذائية باسعار محددة . وحاولت الحكومة الايطالية ، من جهتها ، تحويل المستهلكين عن استهلاك اللحوم والخضروات والثمار الطازجة والزيت، اي كل هذه المواد الغذائيةالتي اما لا تفي بالحاجة او انهيتوجب استيرادها من الخارج، او انها تصلح للتصدير ، وتؤمن بالتالي قطعاً نادراً للبلاد . فقد انصرف جل عنايتها في هذا المجال الى توجيه انظار المستهلكين للسمك والاجبان والنشويات. وجرى في فرنسا، عام ١٩٣٧ تحديد اسعار بعض المنتوجات الزراعية .

معالجة البطالة

انكى الزرايا واشدها هولاً ووطأة على الاطلاق البطالة . فالى جانب هذا الفريق من العمال المحظوظين نسبياً الذين استمروا في عملهم ، هنالك ملايين منهم عاطلون عن العمل كلياً او جزئياً او بصورة متقطعة . ولذا نراهم عرضة للهواجس والهموم والبؤس التي تنتابهم ليل نهار . فوسائل الاسعاف التقليدية كالضمان ضد البطالة ، والتأمين الخاص او العام التي كانوا يعولون عليها عادة في المرحلة الاولى من مراحل الازمة ، لم تلبث ان اصبحت عاجزة عن بعث الطمأنينة في النفوس . ولذا كان لا بد من توزيع تعويضات بصورة منتظمة وفقاً للنظام المعمول به في انكلترا ، هذه التعويضات الخاصة اساساً من الحسومات المقتطعة من اجور العمال الى جانب هذه المساعدات المالية التي تدفعها خزينة الدولة مما يوازي تقريباً نصف مرتب العامل او اجره قبل انقطاعه عن العمل . وبالنظر لوفرة البضائع المكدسة في العنابر ، على اختلاف انواعها التي لم تكن لتفسح استخدام عمال عاطلين عند المباشرة بانتاج بضائع جديدة، لا يمكن تصريفها، فقد لجأت الحكومات الى اجراءات طالما لجأت اليها من قبل لامتصاص البطالة وتشغيل العاطلين عن العمل ففي كل بلدان العالم، وفي جميع القارات على السواء ، تفتح ورشات عمل لشق الطرقات وانشاء الاوتوسترادات ، وبناء الخزانات والسدود والمساكن الشعبية وقد بلغ قيمة المبالغ التي صرفتها الدول على هذه الاشغال عام ١٩٣٣ — ١٩٣٤ نحواً من ٦٠ ./. من مجموع موازناتها . وفي المانيا ، عام ١٩٣٧ ، كان ٧٢،٦ ./. من الانشاءات والمباني على حساب الدولة . وخصصت انكلترا ١١٥ مليون جنيه لبناء مساكن شعبية وتشكلت في الولايات المتحدة الاميركية ، تحت ادارة هاري هوبكنز وكالة خاصة عُرفت باسم وكالة النهوض بالاشغال ، كان من اهم اهدافها ، استخدام العاطلين عن العمل (بمعدل ٣ — ٥ ملايين عامل) وتدفع لهم اجور تأمينية ادنى قليلاً من الاجور المألوفة ، انما كانت تفي لتأمين حياة كريمة . وتبقى مساعدات التأمين وقفاً على اصحاب العاهات والشيوخ وغير المؤهلين الذين لا يمكن الانتفاع بهم .

وهكذا نرى ان عودة الامور الى مجاريها الطبيعية انما تمت ، في المرحلة الاولى ، بواسطة

مؤسسات الدولة ، كما ان هذه المؤسسات قامت بالمهمة نفسها ولو بصورة مستورة . وفي سبيل العاطلين الجدد ، انشأت الولايات المتحدة مخيمات عمل (١٥٠٠ مخيم) ضمت بين ١٩٣٣ - ١٩٤٠ نحواً من ٢،٥٠٠،٠٠٠ عامل استخدموا في تجفيف المستنقعات واعمال توسيع الطرقات وغير ذلك من الاشغال العامة . وفي المانيا استغرقت الانشاءات العمرانية عدداً كبيراً من العمال . واخذ هذا العدد بالهبوط والتناقص من ٥،٥٧٩،٠٠٠ عام ١٩٣٣ ، الى ٤،٧٣٣،٠٠٠ عام ١٩٣٣ ، والى ٢،٦٥٧،٠٠٠ عام ١٩٣٦ . وجاءت خطة السنوات الاربع التي وضعت لتطوير انتاج المعدات الحربية السريع والكثيف تمكن معامل الصناعة الثقيلة التي لم تكن تستغل سوى ٣٠ ٪ من طاقتها الانتاجية ،من ان تمتص البطالة كلياً في البلاد. وسياسة الاكتفاء الذاتي التي فتحت اسواقاً جديدة للصناعات الكيماوية والميكانيكية ، عملت هي الاخرى في الاتجاه ذاته .. كذلك انشاء مصلحة العمل الالزامي ، ثم في آخر المطاف العودة الى سياسة الخدمة العسكرية العامة سنة ١٩٣٥ .

والصناعة الحربية اتاحت لايطاليا هي الاخرى ، ان تمتص قسماً كبيراً من العاطلين عن العمل . وفرنسا لم تتخذ اجراءات حاسمة بهذا الصدد الا عندما استلمت الجبهة الوطنية الحكم في البلاد . وكان من نتائج العمل باسبوع الاربعين ساعة عمل ان انخفض عدد العاطلين عن العمل في البلاد ، وذلك بنسبة ١٣٫٣ بالمئة بين ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ، ولم يخرج الامر عن كونه ، في الواقع ، سوى تدبير مخفف ، وليس امتصاصاً كاملاً اذ ان البطالة الجزئية بقيت قائمة في البلاد ، وقد كان هنا تأثيره الظاهر القانون الذي فرض الخدمه العسكرية ، وبذلك ازداد الجيش ١٠٠،٠٠٠ جندي ، كما ان استخدام ادارة السكة الحديدية لـ ٨٠،٠٠٠ عامل اضافي وتقوية الصناعات الحربية خففت كثيراً من وطأة البطالة . وهكذا ان عجز الاشغال العامة ، بعد سنة ١٩٣٤ عن استئصال البطالة في البلاد ، وتطور العلاقات الدولية ، كل هذه العوامل وجهت الدول الكبرى وجهة الصناعات الحربية التي جاءت تكمل الدور الذي لعبته الاشغال العامة وتحل محلها . ومنذ عام ١٩٣٦ ، اخذت الاعتمادات المرصدة في موازنات هذه الدول تفوق بكثير الاعتمادات الاخرى . وهذه الصناعات كانت بالفعل وراء عودة النشاط الصناعي ، عام ١٩٣٤ والتي حالت دون وقوع نكسة اقتصادية عام ١٩٣٨ . وبالفعل ، فالبلدان التي على غرار المانيا انفقت كثيراً على تسلحها ، شهدت في هذا الوقت بالذات زيادة ملحوظة في نشاطها ، بينما الولايات المتحدة والدول الاخرى التي اتجه اقتصادها وجهة السلام عرفت نكسة محسوسة .

تنظيم الاقتصاد

وتدخلت الحكومات ايضاً لتنظيم الانتاج والمبادلات التجارية . فقد انشأت حكومة الولايات المتحدة ، في هذا المجال ، مراقبة لم نر اشدّ منها في كل الدول الحرة ، فاتخذت عدداً من الاجراءات تحدد معها الاصول والقواعد الخاصة بتأليف رأس المال ، وتعيين المحافظين والمديرين ومراقبة اعمال المصارف التجارية . فالمصارف التي تريد فيها

قيمة الودائع على مليون دولار ، رأت نفسها مضطرة للتأمين عليها في حلقة المصارف الاتحادية للاحتياطي . وللمصارف المنتسبة للاتحاد وحدها حق بالاسهم . وأخضع اصدار اسهم جديدة لقوانين بغية الحؤول دون تصريف السندات المشبوهة او المزورة او تلـك التي لا رصيد فعلي لها .

وحاولت الحكومة في فرنسا ، منذ عام ١٩٣٦ ، الحؤول دون تخفيض سعر الخمور وذلك بحصر قسم من المحصول في المزرعة . واتخـذ التدبير نفسه عام ١٩٣٤ لمحصول القمح . وحظر القانون من زيادة زراعة الكرمة اكثر من ١٠ هتكارات ، كما حظـر ري الكرمة وسقايتها ، وبيع تقاوى قمح ذات مردود طيب ، وفرض تغيير طبيعة الفائض من هذا المحصول وحظر من انشاء معامل جديدة للسكر . وانشىء عام ١٩٣٦ مكتب القمح الذي اخذ ينظم مبيعات هذا الصنف ويحـدد من اسعاره . وتدخلت الحكومة في سويسرا في صناعة الساعات والصناعة الفندقية والتطريز . واصبحت الزراعة في انكلترا اكثر المجالات تنظيماً وتقييداً مع القوانين التي صدرت عام ١٩٣٣ ، وهي قوانين حددت السعر الادنى للحليب والكمية التي يمكن التصرف بها ، كما حددت المساحة التي يمكن زرعها بطاطا . وتدخلت الدولة لتنظيم الصناعات الفحمية والقطنية ، والصلب والورش البحرية . وفي البرازيل ، امرت الحكومة الاتحادية بحـرق ٢٦ مليون شوال من البن الذي لم يمكن تصريفه او بيعه .

ففي المجال الصناعي في الولايات المتحدة الاميركية ، شكل قانون النهوض بالصناعة الوطنية (N R A) الصادر في ١٦ حزيران ١٩٣٣ ، والقوانين الاخرى التي تنظم « المنافسة الشريفة » والتي رمت الى مكافحة البطالة ، احـدى المراحل الاقصر والاقرب الى الكمال لتجربة الاقتصاد الموجه التي عرفها العالم ، اذ ذاك .. فقد فرضوا اتفاقات ضمن كل حـرفة او مهنة ، كما سمحوا بقيام اتفاقات بين مهنة واخرى فحالت القوانين المحرّمة للتكتلات التجارية دون القيام بمثلها حتى الآن .. وفي ايطاليا راحت مكاتب الاحتكارات بمراقبة دقيقة حول عدد من الصناعات ذات المنفعة العامة . وقد صدرت ، عام ١٩٣٢ ، قوانين ايطالية واخرى المانية عام ١٩٣٣ ، جعلت التكتلات التجارية إلزاميـة في كلا البلدين . وفي فرنسا حيث كان قانون العقوبات المدني مضاداً للتكتلات الاحتكارية ، فقد فرضت المراسيم الاشتراعية ، التي صدرت عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ، قيام تكتلات مهنية ، بين مصائد الاسماك والمطاحن وتجارة الخردوات، وسكة الحديد والطرقات ، او بين الخطوط الحديدية ، والترع المائية . كذلك حظرت الدول ، لمدة عشر سنوات ، إنشاء مصانع احذية جديدة ، وتوسيع الانشاءات القائمة فيهـا كما حظرت عـام ١٩٣٦ ، انشاء مخازن جديدة موحـدة الاسعار ، والاسواق النقالة على الشاحنات عام ١٩٣٧ .

وعلى هذا قس ايضاً الاتفاقات الدولية . فقد سعت الحكومات المعنية جهدها لانجاح مثل هذه الاتفاقات التي تنظم انتاج المطاط ، عام ١٩٣٤ ، والسكر ، مع الخطـة المعروفة بخطة

سأديرون التثبيت الموضوعة عام ١٩٣١ ، والاتفاقات الخاصة بالخشب المنشور، عـام ١٩٣٦ ، والاتفاق الآخر الخاص بالتصدير ، عام ١٩٣١ ، الذي استطاع ان يخفض عام ١٩٣٣ ، انتـاج هذا الصنف الى ثلث انتاجه عام ١٩٢٩ . وهكذا طلع علينا بين ١٩٢٩ – ١٩٣٢ ، إثنان وخمسون اتفاقاً دولياً ، معظمها اتفاقات اقليمية عقدت بين دول الاتفاق الصغير . من ذلك مثلا اتفاق اوتاوا بين انكلترا ودول الدومنيون .. وبينها هذه الاتفاقات الثنائية العديدة التي عقدتها المانيا . وفي عام ١٩٣٦ ، عقدت الدول الـسكندينافية مع بلجيكا وهولنـــدا ولوكسمبورغ ، هدنة جمركية في مدينة اسلو .

وهكذا نرى الدول تنزع الى تشكيل تكتلات اقتصادية ، فأطلت علينا في المجالين الوطني والدولي صورة مسفة للتخطيط الاقتصادي لا تزال بعد غائمة في الاذهان وغير مكتملة القسمات حتى في هذه الدولة بالذات التي عرفت بتمسكها بسياسة حرية التبادل التجاري كالولايات المتحدة الاميركية . فالاقتصاد ولا سيما الريفي منه خضع للتخطيط الى حد بعيد . فكيف الامر بتلك البلدان التي لم تكن رسخت فيها بعد اصول هذه السياسة واعرافها . فلا عجب والحالة هـذه ان يأتي عمل الحكومة فيها اعمق توجيهاً واوسع مراقبة .

تطور القطاع العام

ونشط القطاع العام للعمل بنسبة ما اصيب به القطاع الخاص من عجز وقعود . فشمرت الحكومات عن سواعدها وتولت بنفسها القيام بالاعمال والنهوض بالمسؤوليات التي لم يسبق لهـا ان غرست بها من قبل . وهكذا برزت للعيان مشروعات حكومية جديدة وشركات اقتصادية مشتركة بينها وبين الشركات الخاصـة . فقد خصت الحكومة الفيدرالية جانباً كبيراً من نشاطها للقطاع العـام ليس بشرائها اسهماً ممتازة في بعض المصارف فحسب ، بل ايضاً بإنشائها عدداً من المؤسسات الحكومية التي لم يكن لها من وجود ، من قبل للتسليف العام ، في هذه القطاعات بالذات التي اهملتها المصارف من قبل. فقد وسّعت من نطاق تصرف المصرف الفدرالي في المجال الزراعي ومصارف التسليف لأجـل قصير واوجدت مصارف التسليف العقاري في الداخل لتمويل المساكن الشعبية وانشائها وشركة الرهونات الفدرالية الزراعيـــة لتسهيل معاملات التسليف مـــع الرهن ، ومصرف التصدير والاستيراد لتمويل اعمال التجارة الخارجية . ولعل امثل صورة لهذا النشاط في القطاع الخاص تبرز في مشروع استثمار وادي تنسي الذي كان مشروعاً عظيماً تقوم بـه الدولة لتطوير منطقة أهمل شأنها الى ذلك الحين . وقد أدى ترويض النهر وكبح جماحه الى جعله صالحاً للملاحة وتوفير القوى الكهربائية والمياه اللازمة للري بفضل سلسلة من السدود الضخمة .

وملأت الدولة في فرنسا الفراغ والعجز الذي وقعت فيه رؤوس الاموال ، وذلك بالاشتراك مع رجال المال واصحاب الـــثروات الخاصـة لانشاء شركات اقتصادية مشتركة . وبفضل مساعدتها المالية هذه التي جاءت مباشرة او مداورة،طلعت في البلاد شركات احتكارية«مختلطة» منها مثلا الشركة الوطنية للرون (١٩٣٣) وشركة *S N C F* التي أنشئت عام ١٩٣٧ برأس

مال بلغت حصة الدولة منه ٥١ بالمئة ، وشركة الرين للقوى المحركة، وشركة البترول الفرنسية. وابرمت الدولة اتفاقات مع منتجين في القطاع الخاص محتفظة لهم ببعض الارباح على المبيعات (٣٢ بالمئة) كالمكتب الوطني للازوت . واصبحت الدولة في عداد الصناعيين عندما امت بعض الصناعات الحربية (١٩٣٦) . وتبدو مساهمة القطاع العام بشكل ابرز ايضاً في مجال التسليف ، وتتميز بزيادة حجم التسليف القومي الزراعي ، والمصرف الوطني للتجارة الخارجية للتسليف البحري . وانشأت عام ١٩٣٦ الصندوق الوطني للاسواق الذي اخذ على نفسه تأمين تسهيلات مصرفية لاصحاب الاسواق العامة ، ومصلحة الحوالات البريدية التي بلغت قيمة الودائع التي تقلتها ٤٣٥ مليارا واصبح بالتالي مصرفاً عملاقاً للتحويلات المالية ، ومصرف التسليف الوطني وهو مصرف حقيقي متخصص في التسليف المتوسط والطويل الأجل في التجارة والصناعة ، وصندوق الودائع والامانات الذي اصبح تحت تصرفه عام ١٩٣٨ ، اكثر من ١٠٠ مليار فرنك ، فكان معاً شركة تأمين ومصرفاً وشركة رسملة الفوائد . وقامت في انكلترا شركات مختلطة ساهمت الدولة في تأسيسها ، منها مثلاً شركة المواصلات والنقل البريطانية عام ١٩٣٣ ، وشركة الاذاعة البريطانية عام ١٩٣٧ .

اما في البلدان ذات الانظمة الدكتاتورية او الجماعية حيث يشتد عمل الدولة ويقسو بعنف ليرتدي شكل مراقبة دقيقة للاقتصاد الوطني ، فالارتباط الوثيق بين الحكومة ورجال المال ، حال دون بروز اي شأن للقطاع العام . ففي المانيا مثلاً تؤلف مشروعات الدولة اصلاً ٩٣ بالمئة من الخدمات العامة (P. T. T.) ومن الخطوط الحديدية ، وتوزيع المياه والغاز والكهرباء . ومما هو ادهى من ذلك بكثير هو ان المؤسسات الاكثر مردوداً وعطاء فقد أعيدت الى القطاع الخاص عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ . والدولة التي كانت عام ١٩٣٣، المساهم الاكبر في المصارف الكبرى ، عمدت عام ١٩٣٧ ، الى تصفية مساهمتها في هذا القطاع ولم تبق بين يديها وتحت سيطرتها مباشرة ، سوى الشركات الاستخراجية كشركة هيبرنيا التي كانت ملكاً للدولة في سنة ١٩١٤ ، وشركة هرمان غورنغ التي كانت تضم شركات استخراجية وصناعية اعتبرت إذ ذاك قليلة الربح (مناجم حديد فقيرة) وشركة V I A G التي تمثل مساهمة الرايخ في عدد من الشركات الخاصة ، ومصانع توليد الكهرباء . ومصانع الألومينيوم ومعامل الصناعات الميكانيكية .

سياسة الاكتفاء الذاتي

ادت القومية الاقتصادية الى سياسة الاكتفاء الذاتي بهذه الدول التي تفتقر الى احتياطي الذهب في صناديقها ، وكانت عاجزة عن القيام بالتزاماتها المالية لدفع الديون المترتبة عليها (ديون مجمدة) ، كما كانت عاجزة عن الحصول على قروض جديدة في وقت حرمتها سياسة الحماية الجمركية المتشددة التي جردتها من كل وسائل الوفاء الممكنة . وهكذا نزعت كل من دول المانيا وايطاليا واليابان الى تشكيل وحدات منها منعزلة عن باقي اجزاء العالم، محاولة ان تؤلف من ذاتها مراكز اقتصادية، تتضارب

اساليبها بصورة جذرية مع مبادىء الرأسمالية التقليدية ، لا سيا مع حرية التجارة القائمة على أساس الذهب .

ولما كانت هذه الدول أعجز من ان تدفع ثمن المواد والخامات المستوردة بالعملات النادرة ، فقد حاولت جاهدة ان تستغني عنها وذلك بتشجيعها الانتاج الوطني في بلادها او بمبادلة هذه المواد المستوردة بالبضائع التي تصنع عندها .. وقد كان لندرة العملة الصعبة ، والخوف من فكرة الحصار البحري التي لا تزال ذكرياته المريرة عالقة في الاذهان ، ان حمل كلاً من المانيا وايطاليا على اتخاذ اجراءات تقصد كل عملية استيراد للمواد الغذائية والخامات من منشأ زراعي . والتنظيم الذي خضعت له الزراعة في المانيا شجع على تأمين مواسم طيبة من الخرطل (بديلاً عن القمح المستورد)، وخيوط الغزل من انتاج البلاد كالقنب والكتان، والسكر وتحسين عروق الماشية، واستمرت في ايطاليا محتدمة ناشطة ، المعركة في سبيل القمح التي ابتدأت عام ١٩٢٥ . فقد وضعت رسوم جمركية عالية على الاستيراد وزيدت كثيراً مساحة الأراضي المستصلحة للزراعة، لا سيا في الجنوب وفي الجزر الايطاليـة ، مما أدى الى اعتماد سياسة غلاء الخبز (ضعفي سعره العالمي) ونجحت سياستها في هذا المجال الى حد بعيد . كذلك اخذت في تشجيع الزراعات نصف الاستوائية كالقطن وما شاكل .

وفي المجال الصناعي نشط كثيراً استثمار الموارد الطبيعية التي كانت مهملة للآن لما هي عليه من فقر (مناجم الحديد) ، او تلك التي تستثمر بشكل مرض (النحاس) وتضافرت الجهود لتنشيط استثمار مناجم الرصاص والتحري عن البترول او البحث عن بديل له كالوقود المستخرج من الفحم الحجري ، والمطاط الصناعي (بونا) والجلد الصناعي والمنسوجات الاصطناعية (كالحرير الصناعي واللانيتال) ، ومواد التشحيم . وهـذه الصناعات الجديـدة التي امدت البلاد بخامات وطنية ، تنعم بتمويل الدولة لها ، بالرغم من التكاليف العاليـة التي تتطلبها ، وكثيراً ما تكون من جنس ادنى بكثير من المواد الطبيعية .

كذلك اخذوا بتنظيم مكافحة التلف والسرقة في المعادن المستوردة من الخـارج . فقد فرضوا ان يستبدل النحاس بالالومينيوم في الاسلاك الكهربائية كما فرضوا جمع الحدائد العتيقة والنفايات على اختلافها التي يمكن صهرها وصبها من جديد والاستفادة منها بشكل من الاشكال، والقصدير والكروم والنحاس .

التجارة الخارجية في البلدان المعتمدة سياسة الاكتفاء الذاتي

كذلك خضعت التجارة الخارجية لتنظيمات مقيتة إذ كانت المموّل الاول لمد البلاد بالخامات التي لا بد لها منها في أمور التسلح وفي إنتاج مواد صناعية في تصديرها تأمين العملات الصعبة، فقد اخضعت هذه التجارة لاجراءات خاصة من التقنين وإجازات مسبقة للاستيراد والتصدير ، ولاحكام مختلفة أدّت الى انشاء عملات من نماذج مختلفة والتفنن في وسائل توفير أسباب النقد اتينا على ذكرها، وبفضل هذه التدابير أمكن الوصول الى سياسة من الاغراق التجاري مكنّت

من تصدير منتوجات شعبية يبعث في الخارج بأدنى من اسعارها في الداخل تحت ستار مصنوعات جاهزة . وهكذا اتاحت اتفاقات تبادُل ومقايضة عقدتها الحكومة الالمانية ان تؤمن لها عن طريق مبادلة البضائع المصنوعة ، ما تحتاج اليه من المحاصيل والحبوب والتبغ والفاكهة ولحم الخنزير التي لم يكن بالامكان تصريفها في البلاد المنتجة لها ، كبلغاريا واليونان وهنغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا وتركيا . وأولى التحكم بالتجارة الخارجية الحكومة الالمانية موقفاً قوياً في كل مفاوضات تقوم بها في المجال التجاري إذ مكنتها من ان تشتري بالجملة كل ما يُعرض للبيع من هذا الصنف او ذاك . فلم نر قط في النظام الرأسمالي الحرّ بلداً يتمتع بمثل هذا الموقف المتين المطمئن الذي وقفته المانيا تجاه دول صغرى ، تعاني على درجات مختلفة ، من وضع اقتصادي مهلهل . وهكذا اصبحت المانيا المتعهد الاكبر والزبون الاهم لهذه البلاد . فبين ١٩٣٤ — ١٩٣٨ ، ارتفعت صادرات ألمانيا الى بلغاريا من ٢٢ الى ٥٨ ./٠ ، والى اليونان من ١٩ الى ٣٢ ./٠ . والى يوغوسلافيا من ١٦ الى ٥٠ ./٠ ، والى تركيا من ١٥ الى ٥٢ ./٠ ، والى هنغاريا من ٢٠ الى ٤٨ ./٠ كما ان حركة الاستيراد في المانيا ارتفعت ، في هذه الفترة من ٣٠ الى ٦٣٫٥ ./٠ من بلغاريا ، ومن ٨٫٥ الى ٥٠ ./٠ من يوغوسلافيا ، ومن ١٣ الى ٤٧٫٥ ./٠ من تركيا ، ومن ٣٢ الى ٥٠ ./٠ من هنغاريا ... وهكذا نرى كيف ان كل هذه البلدان التي وجدت السوق التي هي بحاجة اليها لتصريف انتاجها ، وقعت بحكم الضرورة في تابعية شديدة للرايخ الثالث وأصبحت مدى حيوياً ومنطقة نفوذ له . وقبل الحرب بكثير ، كانت هذه البلدان قد اصبحت من توابعه الاقتصادية .

والطريقة ذاتها اتبعت مع اميركا اللاتينية : اتفاقات مقايضة والمارك أسكي يفضي الى النتائج ذاتها . فبين ١٩٣٢ — ١٩٣٧ ، زادت الصادرات الالمانية الى بلدان اميركا اللاتينية اربعة أضعافها ، واصبحت المانيا بعد سنة ١٩٣٦ اول متعهد للبرازيل والشيلي والثاني في البيرو وبوليفيا وفنزويلا والمكسيك وغواتيمالا .

وسارت كل من ايطاليا واليابان على الخطة ذاتها ولا سيا ايطاليا بعد عام ١٩٣٥ ، بعد ان شعرت بوطأة العقوبات التي اتخذت ضدها بعد ضمها للحبشة ، وبعد ان تبينت ما هي عليه اوضاعها الاقتصادية والنقدية من وهن وضعف . فقد تألف فيها إذ ذاك ، عشر هيئات تقاسمت فيما بينها التكتلات الصناعية المختلفة ، وعملية تقنين الاستيراد ، كما أرغم المصدرون على التخلي عن ديونهم في الخارج لمعهد القطع الوطني . وقامت مراقبة شديدة على القطع . واقتصرت مساعدة الحكومة على رجال الصناعة ، بعد أن اطمأنت للخطط والتصميمات التي وضعوها ، ولقيت استحساناً عندها . فحظرت الدولة الاستثمارات في بعض المجالات والقطاعات ، وأصبح الاقتصاد الوطني بالفعل اقتصاد حرب وكانت الدولة زبونها الاكبر ورب العمل الاكبر ، إذ أن معظم الصناعات تعمل من قريب أو بعيد لحسابها .

وعقدت اليابان من جهتها ، عقوداً واتفاقات مماثلة . فقد تعهدت تجاه العراق بشراء كمية

محازمة من انتاجه الوطني تساوي ٢٥ ٪ من قيمة صادراتها اليه ، كما تعهدت بشراء كل محصوله من القطن . ونص الاتفاق الذي عقدته مع الهند على ان تبيعها ٣٢٥ مليون ياردة من المنسوجات القطنية مقابل كل مليون طن من القطن الخام تشتريه منها. وحاولت في الوقت ذاته ان تنشيء لها امبراطورية تؤمن لها الاكتفاء الذاتي ، تألفت من منشوريا والصين التي أخذت تنظم احتلالها تدريجياً منذ عام ١٩٣٧ .

تركيز الاستثمارات وتجميعها

كان من جراء النتائج التقنية لهذه الاجراءات المالية موجبات سياسة الاكتفاء الذاتي ، ان شجعت الضائقة المالية على تركيز الاستثمارات وحشدها وعلى انماء قوة التكتلات الاحتكارية . وخسرت الرأسمالية من حدة طابعها التنافسي لتصبح أكثر فأكثر احتكارية . فقد تألف في انكلترا مثلاً كتلة الحديد البريطاني وكتلة الفولاذ البريطاني ، وأصبح تحت اشرافها أكثر من ٢٠٠٠ مصنع وشركة فرعية وذلك بعد ان عقدت عام ١٩٣٥ ، اتفاقها المعهود من الكتلة الدولية للفولاذ . « تبنّت » أي احتفظت لنفسها كل السوق الداخلية ، وحددت الاسعار وعينت حصص الانتاج ونسبها ، وراقبت مشروعات التوسع التي تضعها شركاتها في المستقبل . وهكذا بطلت كل منافسة لها وانعدمت ، وتم لشريكاتها الثماني عشر التحكم بثلثي انتاج بريطانيا من الفولاذ. وفي الوقت ذاته ، طلعت علينا التكتلات الاحتكارية للمصنوعات الكيماوية بظهور شركة الصناعة الكيماوية الامبراطورية ، والاونيلفر والكورتولدس والشركة الامبراطورية للتبغ وشركة مصانع سيمنت بورتلا ودنلوب « والست الكبار » التي راحت تنتج ٩٠ بالمئة من مجموع السيارات الخاصة و ٨٠ بالمئة من وسائل النقل التجاري .

كان عدد المؤسسات الصناعية في ايطاليا ، عام ١٩٣٧ ، اقل بـ ٥٠٠٠ عما كان عليه عددها عام ١٩٣٤ ، يعمل فيها ٥٠٠،٠٠٠ عامل اكثر مما في السابق . فالمشروعات الصناعية التي تعد اقل من ١٠ عمال والتي كانت تمثل ٧٥ بالمئة من هذا المجموع ، لم تعد تمثل اذ ذاك ، سوى ١٠ بالمئة لا غير من مجموع الانتاج في البلاد ، كما لم تعد تمثل سوى ١١ بالمئة من مجموع العمال . فعملية تركيز المصانع سارت جنباً الى جنب وعملية تركيز رؤوس الاموال . ففي عام ١٩٣٦ ، كان اقل من ١ بالمئة من الشركات الايطالية المغفلة يؤلف ٥٠ بالمئة من مجموع رأس المال والاسهم ، وأكثر من ٨٠ بالمئة من هذه الشركات لم يكن ليشكل سوى ٨ بالمئة من مجموع رأس مالها . ودليل الشركات المغفلة يشير بوضوح الى ان ١٢٨ من الشركات الكبرى تملك نصف مجموع رأس المال التابع لهذا النوع من الشركات .

وفي اليابان ، كان ٦٥ بالمئة من الشركات اليابانية ، عام ١٩٢٩ ، تعود ملكيتها لـ ٧٠٠ شركة ينتمي معظمها لاتحادات تجارية كبرى ، وقد كانت تمثل ١٥ بالمئة من مجموع الشركات اليابانية . اما في اواخر عام ١٩٣٩ ، فقد كان ١٤ اتحاداً تجارياً كبيراً يهيمن على ٦٣ بالمئة من رأس المال المدفوع لهذه الشركات ، و ٧٥ بالمئة من مجموع الودائع المصرفية . وفي هذا التاريخ

بالذات، كانت ١١٢ شركة تحت اتحاد ملسوي، عدا عن ٧٠ شركة اخرى تقع تحت اشرافه غير المباشر . وكان اتحاد ملسوي يملك ٩٠ بالمئة من النفط الطبيعي، و ٩٢ بالمئة من مجموع الحديد، و ٧٠ بالمئة من الرصاص، و ٧٥ بالمئة من الكبريت، و ٣٠ بالمئة من الاسلحة، و ١٠٠ بالمئة من الحمض الاسليكي، و ٦٥ بالمئة من البترول، و ١٠٠ بالمئة من السلوليد، و ٩٠ بالمئة من الورق، و ٤٠ بالمئة من الصوف الصناعي، و ٥٠ بالمئة من الجمة والسكر، كما كان يراقب ٤٠ بالمئة من تجارة البلاد الخارجية . اما تروست متسوبيشي، فقد امتد اشرافه الى اربعة قطاعات رئيسية ودور الصناعة البحرية وصناعة الزجاجيات والتصدير والكحول، كما ان حصته من الانتاج في ٢٤ قطاعاً آخر كانت تتراوح بين ٢٠–٥٠ بالمئة من المجموع . وبعد عام ١٩٣٣، رسمت حركة التركيز الصناعي هذه خطاً لم يسبق اليه في اي بلد من بلدان العالم، سوى في القطاع الزراعي، حيث هبط عدد المنتجين للحرير من ٧٦٧٦، عام ١٩٢٥ الى ٥٣٢٤ عام ١٩٣٦، مع زيادة في الانتاج تزيد قليلاً عن الانتاج الصناعي . واتحاد تجار الاسمدة الكيماوية الذي انشىء عام ١٩٣٢، اخرج من السوق التجارية ٥٠٠ بائع بالمفرق، كما غابت عن الانظار بضع مصارف (فلم يبق منها عام ١٩٣٩، سوى ٣٣٩ مصرفاً مقابل ٢١٦٠، في عام ١٩١٢ .

وفي المانيا، حيث كانت حركة التركيز سجلت دوراً عظيماً من التطور قبل عام ١٩١٤، فقد شاهدنا ظهور اتحادات تجارية كبرى بحيث بلغ عددها ٣٠٠٠ اتحاد عام ١٩٢٩، ضمت شركات من جميع الالوان والنشاطات . وتكاثر في الوقت ذاته، عدد المصارف . وفي سنة ١٩٢٤، انضم مصرف دارمستادت والمصرف الوطني بحيث الفا معاً مصرف دانات . وفي سنة ١٩٢٩، انضم البنك الالماني الى مصرف دسكونتو . والقانون الذي صدر عام ١٩٣٣، بشأن ضرورة التكتلات التجارية عجّل كثيراً في عملية التركيز هذه، وزادهـا نشاطاً وقوى نفوذ الـ (*Konzerns*) في قلب هذه التكتلات . وقد تناقص عدد المؤسسات التجارية بين ١٩٣٢–١٩٣٧ نحواً من ٣١٥٩٨ وحدة اي ٩ بالمئة، في وقت ازدادت فيه بشكل ملحوظ الاستثمارات وعدد العمال الذين ادخلوا الى العمل . وفي سنة ١٩٣٩ كانت ١٩٥ شركة تجارية، اي ٣،٦ بالمئة من مجموع الشركات، تملك ٥٨ بالمئة من مجموع رأس المال والاسهم . وكانت الصناعة الكيماوية في البلاد، عام ١٩٣٨، تعد ٢٥٨ شركة بلغ رأسمالها الموزع اسهماً ١٩٢٤ مليون مارك، مقابل ٤٦٤ شركة عام ١٩٣٢ بذات رأس المال . وشركة سيمانس التي تهيمن على الصناعة الكهربائية توسع نشاطاتها بحيث تضم الكبلات (الاسلاك) والفراموفونات والصناعات الحربية، كما هيمنت شركة بونا على الصيدلة والادوات المنزلية، واحتكرت شركة باتسمان صناعة اجهزة تصفيح المعادن وصناعة الدراجات واستخراج الفحم الحجري . والصناعة السينمائية آلت الى يد شركتين كبيرتين هما *U.F.A* وتوبيس وشركة ا. ج فارس الصناعية التي كانت تستخدم عام ١٩٣٩ نحواً من ٢٥ بالمئة من مجموع الشغيلة العاملين في الصناعة الكيماوية

الالمانية ، كانت تملك ٣٣ بالمئة من الرأسمال الاسمي الموظف في هذه الصناعة بقطع النظر عن فروعها الاخرى القائمة في سويسرا والسويد ، والعقود التي ابرمتهـــا مع الشركات الاجنبية ، كشركة ستاندارد اويل في نيوجرسي وغيرها .

والشواهد على سياســـة التركيز الصناعي في الولايات المتحدة الاميركية اكثر من ان تحصى بعد ان خضعت هذه الشركات للانصهار والتقوية من قبـــل اتحاد ارباب العمل بعـد ان رأت تشجيعاً من القوانين المرعية . ففي مجال صناعـــة السيارات وشركات الانتاجية الكبرى : فورد والجنرال موتورز والكريسلر التي كانت تنتج ، عـام ١٩٢٠ نحواً من ٧١ بالمئة و ٨٣ بالمئة من مجموع الانتاج ، عام ١٩٣٠ ، ارتفع انتاجها عـــام ١٩٣٨ ، الى ٩٠٪ . أمـــا الشركات الكبرى لانتاج الفولاذ ، فقد ارتفع انتاجها ، عام ١٩١٩ من ٥٥ بالمئة الى ٦٤ بالمئة من مجموع الانتاج العـــام ١٩٣٩ . وفي قطاع تجارة المواد الغذائية ، كانت خمس شركات كبرى ، مع فروعها المختلفـة تملك ٧٪ من حركة الأعمال ، عام ١٩٢٢ ، فارتفعت حصتها عام ١٩٣٩ الى ٢٤ بالمئة ، كما ان اربع شركات اخرى كانت تصنع ٧٧ بالمئة من اطارات السيارات . ونفس هـــذا العدد من الشركات كان يعطي ٧٣ بالمئة من انتاج و ٩١ بالمئة من انتـاج الآلات الكاتبـــة ، و ٧٥ بالمئة من الاصواف ، الخ . ومن بين الـ ٥٠٠,٠٠٠ شركة موجودة في اميركا عام ١٩٢٩ ، كانـ ١,٠ بالمئة منها يحقق ٥٠ بالمئة من مجموع الارباح الصافية ، كما ان اقل من ٤ بالمئة من الشركات الصناعية كانت تحقق ٨٤ بالمئـــة من مجموع الارباح العامة . وفي الصناعة ، كان ١ بالمئة من هذه المؤسسات يشغّل ٥٠٠ عامل فاكـثر ويستأثر وحده بـ ٤٨ بالمئـــة من مجموع اليد العاملة في الصناعـة . وفي نظر ستوب لم تكن بضع مئات بل بالأحرى بضع عشرات من هذه الشركات الكبرى او « شركات المراقبة » . كانت تملك القسم الأكبر من ثروة الشركات المختلفة .

وفي بلد انفتحت آفاقه على الصناعة من عهد قريب ، كالارجنتين مثلاً نرى التركيز الصناعي يجري فيه على نطاق واسع . ففي عام ١٩٣٩ ، كان نصف اليد العامـلة في الصناعة تقريباً يعمل في ١,٨ بالمئة من هـــذه الشركات . ومنذ عام ١٩٣٥ ، كان ٤,٣ بالمئة من هذه الشركات يستخدم ٦٥,٥ بالمئـة من العمال . وفي حقل الكهرباء ، كان ٦٦ بالمئة من العمال يعملون في ٢,٧ بالمئة من الشركات المعنية بهذه الصناعة .

وفي فرنسـا حيث عدد الشركات الصغرى لا يزال هو الذي يطبع النشاط الصناعي في البلاد ، فقد نشطت النزعة نحو التركيز الصناعي ، إلا ان الأزمة اناخت بكلكلها على هذه المؤسسات التي كان لهـا بعض الشأن ، اكثر من الصغرى بحيث ان تيـــار التركيز بقي ضعيفاً اذا ما قارناه بما يجري في البلدان الأخرى ذات الاقتصاد المتطور . وبالمقابل فسياسة الاتفاقات التي لم تنشط كثيراً في قطاع المنسوجات القطنية ، او فشلت

تماماً في صناعة الحرير ، سجلت نتائج ملحوظة جداً في حقل المصنوعات الحديدية التي بذلت جهداً طيباً في تحسين عتادها واجهزتها التقنية . ففي سنة ١٩٣٢ ، جدد وكالة صناعة الحديد في فرنسا ، عتادها كما أنشئت وكالات أخرى للخرصان والحديد المصفح . وعقدت اتفاقات ، عام ١٩٣٤ بين العاملين في انتاج الصلب ، كما عقد اتفاق عام بين منتجي الصلب والفولاذ .

والظاهرة نفسها تبدو بوضوح في الصناعة الكيماوية التي قطعت خطوات حاسمة في مجال التركيز والتجمع الصناعي ، في الصناعات الميكانيكية ، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥ ، وفي صناعة السيارات ، وفي الصناعات الأخرى التي فرض عليها القانون تحقيق مثل هذه الاتفاقات كصناعة الأحذية ، عام ١٩٢٦ ، وصناعة السكر عام ١٩٣٥ .

النتائج

وكان بعض نتائج هذه الأزمة المالية ان حفزت الدولة على التدخل في المجال الاقتصادي ، وهو تدخل لم يسبق ان حدث مثله من قبل ، فتجاوز بعيداً ، باتساعه وشموله ، ما سبق وظهر من نشاط مماثل في هذا الصدد . وهكذا أطل علينا في كل البلدان ، مهما كان نظام الحكم فيها استبدادياً أو ليبرالياً ، اقتصاد موجه ، برز اثره في كل القطاعات ، متوسلاً الى ذلك ، بأساليب وذرائع تكاد تكون متماثلة وان تباينت منها الاشكال والمظاهر الخارجية ، حسبما تكون المصالح المعنية المنظمة تمارس اولاً نفوذاً حاسماً ، وفقاً للظروف السياسية والاجتماعية المسيطرة على هذه الدولة أو تلك . فالسياسة التوجيهية ليست مضادة بحد ذاتها للرأسمالية ، بل على عكس ذلك . فكثيراً ما توطدها وتشد من ازرها ، لا تمس بشيء التركيب المجتمعي وكيانه القائم . ولم نر قط ان مراقبة الحياة الاقتصادية في الدولة وتثبيت الاسعار الجبري ، والحد بصورة تضيق أو تتسع من « الاستثمار الحر » قد انتقصت بشيء من مبدأ الملكية الفردية ، او ان يمهد السبيل او ان يحقق اشتراكية الدولة . ومذهب التدخل الموسوم بطابع المحافظة ، لانقاذ الاقتصاد المعرض للخطر ، تسلح بكل الاجراءات حتى ما ظهر منها بأنها ثورية متطرفة .

الا انه اذا كان باستطاعة بعض البلدان الغنية بما لديها من احتياطي النقد وبما تزخر به من الخامات الوافرة وتهيمن على مناطق رحبة تسرح فيها وتمرح ، ان تجد مصلحتها في بعض هذه التدابير والاجراءات دون ان تضطر لادخال تعديلات او تغييرات جذرية في تركيبها الاقتصادي ، فالدول الاخرى التي لم تتوفر لها مثل هذه الشروط والأوضاع ، رأت نفسها مضطرة لسلوك طريق كان لا بد ان يفضي بها الى سياسة الاكتفاء الذاتي . فمن دول الفئة الاولى ، مثلاً ، الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا التي كانت تمتلك ، عام ١٩٣٧ ، ٨٠ في المئة من مخزون الذهب في العالم كما كانت تهيمن على اسواق رحبة في الداخل او في مستعمراتها الواسعة الاطراف ،

ومع سويسرا والسويد والارجنتين وبلجيكا والبلاد الديموقراطية امتلك هـذا المجموع المتحكون من هذه الدول التجار ، ٩٢ في المئـة من مخزون الذهب ، بينما حصة اليابان والمانيا وايطاليا منه لم تكن لتتجاوز ٥ في المئة ، وان اثنتين من مجموع هـذه الدول الثلاث لم يكن لهـا بالفعل ممتلكات او مستعمرات عبر البحار . فاذا مـا كانت عاجزة عن الحصول على الحاجيات التي كانت تفتقر اليها حتى تدفـع اثمانها ، كالخامات والمحاصيل الغذائية والمصنوعات ، فقد كان عليها امـا ان تطور انتاجها الصناعي او ان تبحث لها عن مواد بديلة او ان تخضع لسيطرتها الاقتصادية والسياسية البلدان المنتجة للمواد التي هي بحاجة اليها اما البلدان الاخرى في العـالم ، سواءا أوقعت في اوروبا الوسطى او اوروبا الشرقية او في آسيا وفي اميركا الجنوبية ، فقد كانت في وضع قلق مزعزع . وهكذا تسببت الازمة الاقتصادية عن تغييرات جذرية في البنيان الاقتصادي لدى قسم كبير من دول العالم ، وأزكت المنافسات وزرعت بذور اصطدامات جديدة .

الفصل الثالث

الدول وجهاً لوجه مع الأزمة

١ ـ الحلول الوطنية المختلفة

ادت الازمة الى اضطرابات عميقة تباينت نوعاً وكماً هزت الاوضاع الاقتصادية في كل دول العالم ، كما احدثت ردات فعل لم يخف طابعها العام ، الفوارق التي قامت بين دولة وأخرى، كما ان وسائل معالجة الازمة للتخلص منها لم تعط في كل مكان النتائج ذاتها . فلكل بلد والحالة هذه ، طابع خاص يختلف باختلاف طبيعة « التجربة » التي عانتها وكانت مسرحاً لها والطريقة التي سلكتها الازمة في تطورها عندها .

الولايات المتحدة الاميركية : النظام الجديد

ان الاجراءات التي اتخذها الرئيس هوفر في مجال الانكماش المالي وتركه للهيئات والمؤسسات المحلية والمنظمات الخيرية ، مهمة معالجة الازمة كما ترى وفشلها في تدبير الامر ، والتدابير الاخرى التي اتخذها لمواجهة البطالة ، وفشل سياسته الزراعية التي اغضبت الولايات الشمالية الغربية ، المعروفة بوقوفها عادة الى جانب الحزب الجمهوري ، كل هذه العوامل ، مهدت الطريق لفوز الحزب الديموقراطي ، عام ١٩٣٢ . وعندما تسلم فرانكلين د . روزفلت مقاليد الحكم في البلاد ، في اذار ١٩٣٣ ، كانت الضائقة المالية في البلاد قد بلغت منها الأوج . ففي الحين الذي قرر فيه اتخاذ التدابير السريعة لانقاذ المصارف التي تعاني العسر ، بتقديم السلفات اللازمة لها وللمؤازرة المزارعين الذين كانوا في وضع مفجع للغاية ، وخرج من هذه التدابير بخطة شاملة ترمي الى تحقيق اصلاح وطني عام . وهذا لا يعني قط ان القرارات التي اعتمدها قامت على مبادىء بديهية او انها استندت الى خطة موضوعة من قبل في كل جزئياتها ، بل على عكس ذلك ، مرت عليها سلسلة من التغييرات اوحتها الظروف والاوضاع القائمة او ردة فعل الاوساط الاميركية وغالباً بدون اي تنسيق فيما بينها . فلم توضع في اي وقت ما ، خطة شاملة تتناول الاقتصاد الاميركي في مجموعه . فالمستشارون والخبراء الذين جمعهم حوله فألفوا هيئة الخبراء كما تألف من

رجال القانون وعلماء الاقتصاد على مثال ألفن هانس الاستاذ في جامعة هارفرد وأحد اتباع مذهب كينز الذي كان له تـأثير كبير على سياسة الحكومة حول الاعتمادات الكبرى المرصدة لاعادة الحياة والنشاط الى الاقتصاد الاميركي ، والنشاط الى المؤسسات الخاصة التي تعمل على تأمين البضائع الاستهلاكية وبالتالي على تأمين الانتاج . كذلك ضمت هيئة الخبراء هذه بين صفوفها رجال اعمال وصحفيين . وسياسة التدخل هذه عُرفت عندهم باسم « النظام الجديد » الذي حدد روزفلت نفسه بأنه « مفهوم جديد لواجبات الحكومة ومسؤولياتها نحو الاقتصاد العالمي » ، وهي سياسة لا تختلف بشيء عن سياسة اشتراكية دافع عنها الرئيس في خطابه الانتخابي الذي القاه في ١٤ تشرين الاول ١٩٣٦ ، فشدد قائلاً : « هي ادارتي التي اتفقت على نظام الربح الخاص وعلى سياسة المشروعات الحرة واوقفتها عند حافة الانهيار بعد ان بلغت شفا هار حيث اوصلها هؤلاء بالذات الذين يحلو لهم تخويفكم الآن » .

فالخطة الجديدة انما هدفت الى اعادة التوازن بين التكاليف والانتاج ، وبين حياة المدن والريف وبين الاسعار الزراعية والاسعار الصناعية ، كما هدفت الى تحريك السوق الداخلية وتنشيطها ، السوق الوحيدة التي لها اهميتها ، وذلك عن طريق مراقبة الاسعار والانتاج ، واعادة تقييم الاجور والطاقة الشرائية لدى الجماهير ، اي لدى المزارعين والعمال ، وضبط ظروف العمل (رفع الاجور وتخفيض ساعات يوم العمل ، وغير ذلك من التدابير) . وهذا هو بالذات ما تهدف اليه الاجراءات التي اوجبت مراقبة المصارف وتنظيمها ومراقبة نشاط البورصة ، وعملية تخفيض قيمة الدولار مرتين : في ايار وتشرين الاول ١٩٣٢ ، وقانون تعديل الادارة الزراعية الذي افسح المجال امام تخفيض بعض الزراعات ، وقانون العودة الى الوضع السليم (R. A. A.) ، وهذه السلسلة من القوانين ، التي نصت على تخفيض ساعات العمل في اليوم ، ورفع المرتبات والاجور ، وحددت المنتهيات القصوى كما حددت الانتاج منعاً لكل منافسة او لكل مزاحمة غير شريفة . « فالغرض » الذي رمت اليه هذه الخطة ، يقول روزفلت ، هو تطمين الصناعة بتحقيق ارباح معقولة وتطمين العمال بالحصول على اجور مرضية . وكذلك قل عن القوانين الاجتماعية التي فرضت التأمين والضمان ضد البطالة ، ورسمت الحد الادنى للارباح خلال اربعين ساعة عمل في الاسبوع ، بواسطة قانون العمل الذي صدر عام ١٩٣٨ ، وشجع تشييد مساكن شعبية رخيصة ، والحرب ضد المساكن الزرائب . ومن هنا جاءت هذه الاعمال الانشائية الكبرى تقوم بها الدولة ، وقانون قدامى المحاربين الذي اوجب توزيع اكثر من مليارى دولار ، للمحاربين القدامى ونشط الى حد بعيد ، تنفيق المواد الاستهلاكية .

والخطة الجديدة قوبلت بنقد عنيف من قبل المحافظين الذين هالهم تضخم الموازنة ، كما هالهم من جهة اخرى ، التجاوز على حقوق الولايات وامتيازاتها والتشجيع المعطى للنقابات العمالية ، وكل الاجراءات التي جاءت في مصلحة اصحاب الاجور . وعندما اعلنت المحكمة العليا ، في ايار ١٩٣٥ ، عدم شرعية قانون N.R.A الصادر في كانون الثاني وقانون AAA لحقوق

الولايات ، امكن مع ذلك الحفاظ على سياسة الانقاذ هذه بفوز روزفلت بانتخابات الرئاسة لعام ١٩٣٦ . وامام خطر استهداف المحكمة لمحاولة اصلاح جذرية تنزل بها ، اضطرت المحكمة العليا للرضوخ والاعتراف بحق حكومة الاتحاد تنظيم التشريع الاجتماعي في البلاد . فقد اقرت بشرعية قانون العلاقات الوطنية الصادر عام ١٩٣٥ ، هذا القانون الذي ضمن حرية العمل للحركة النقابية ، اسوة بالقانون (N R A و A A A) وقانون حماية التربة الذي اعاد تحت ستار حماية التربة ، احكام قانون العلاقات الوطنية (N R A) . كذلك رفض النظر في الدعوى المقدمة من قبل الشركات الخاصة ضد مشروع سلطة وادي تنسي ، عام ١٩٣٦ .

النتائج

ما عسى - ان كانت نتائج هذا الجهد ؟ فالاصلاح جاء على غير استواء تشوبه مساوىء عديدة ، وبدا ناقصاً في مجالات عديدة ، كما انه تم ، خلافاً لما جرى في عدد من البلدان ، بمعزل عن أي سياسة تسلح . ففي عام ١٩٣٩ ، لم تكن الاعتمادات المخصصة لامور التسلح لتزيد على ١ بالمئة من مجموع الموازنة العامة ، كما ان خط الانحناء الذي رسمه الانتاج الصناعي جاء متكسراً . ففي اذار ١٩٣٣ ، عندما تسلم الرئيس مقاليد الحكم ، كان الدليل المسجل ٤٩،٦ بالمئة ثم اخذ يرتفع ليبلغ ٨٤ بالمئة في تموز ، ثم عاد وهبط في آب واذ ذاك جرى تخفيض الدولار للمرة الثانية واضيفت الى سياسة التضخم المالي سياسة الامتصاص التدريجي . فالتقدم جاء بطيئاً طيلة عام ١٩٣٤ ، وفي الشطر الاول من عام ١٩٣٥ ، اذ لم يكن عدد العاطلين عن العمل في حزيران من هذه السنة ليقل عن ١٢،٥٠٠،٠٠٠ عامل . وحركة العودة الى الوضع الطبيعي اخذت تنطلق من هذا التاريخ ، اذ ارتفع دليل الانتاج الصناعي من ٧١،٤ ./٠ في ايار ١٩٣٥ ، الى ٧٩،٨ ./٠ في تشرين الاول ، والى ٨٧،٤ ./٠ في كانون الاول والى ٩١،٦ ./٠ في ايلول ١٩٣٦ ، والى ٩٩ ./٠ في اذار ١٩٣٧ . وقد وقعت ردة عكسية في هذا الوقت بالذات ، اذ كان دليل الانتاج الصناعي ، في ايار ١٩٣٨ يوازي ٦٤ ./٠ الا ان العودة الى سياسة الامتصاص جعلته يرتفع الى ٨٩ في كانون الاول . وبدا اذ ذاك ان الوضع قد استقر على الاجمال بالرغم من انه لا يزال في البلاد ٩ ملايين من العاطلين عن العمل ، كما ان اسعار البضائع ظلت هي الاخرى آخذة بالهبوط .

ارتدت الازمة في الولايات المتحدة الاميركية طابع ثورة فعلية كما اثرت عميقاً في الرأي العام الذي شعر بانه على شفير الهاوية . « فلربما كانت هذه الازمة الحادث الوحيد في تاريخنا الذي احدث تغييراً جذرياً في تاريخنا الوطني » كما يؤكد غيرارد ، كما ان هذه الازمة انطبعت ذكراها طويلاً في نفوس الاميركيين . فقد اتاحت من الوجهة السياسية ، لحكومة الاتحاد ، بسط نفوذها وتدخلها في مجالات كانت محرمة عليها حتى ذلك الوقت ، وذلك في ما يعود للحالة الاجتماعية ، كما ان الخطة الجديدة امنت للروح النقابية الحرة تحقيق نجاحات حاسمة . فقد الزم قانون واغنر ، ارباب العمل ، الاعتراف للعمال التابعين لهم ، بحرية تنظيم نقاباتهم (وهذا انما يعني نهاية

المنشأة المفتوحة» اي رفض استخدام المصنع والمتجر للعمال النقابيين واللانقابيين على السواء، ونهاية سيطرة العمال المطواعين واجبارهم على مناقشات ظروف العمل مع العمال انفسهم تحديداً للاجور بالاتفاق فيما بينهم . وقد انشئت محكمة وطنية للفصل في المشكلات الناشبة بين العمال وارباب العمل ، مع مراعاة الحق النقابي والعمل على تشجيع الملاقات الجماعية بين ارباب العمال والنقابات . ومع ان قرارات هذه المحكمة لا تكتسب الصفة الالزامية ، فقد تمكنت من ان تحل بين ١٩٣٥ — ١٩٤٥ ، بفضل النفوذ الادبي الذي تتمتع به ، اكثر من ٣٠،٠٠٠ قضية . ومع ان هذا التشريع دخل اميركا بعد اوروبا بمدة طويلة ، فقد قوّى من نفوذ العمال في المجتمع الاميركي .

بريطانيا العظمى

جاءت الازمة في بريطانيا اقل فداحة وفظاظة منها في اي بلد آخر . فالوزارة العمالية التي وقف حزب الاحرار الى جانبها وساعد بذلك على كبح جماحها ، حاولت عبثاً تجاهل الخطة التي وضعها حزب العمل الدولي (*I.L.P.*) بعنوان : اشتراكية هذا العصر ، وطبقت مع وزير المالية سنودن سياسة تخفيض النقد . فقد ارغمتها الازمة ، تحت ضغط الخوف الذي ما فتئت صحافة المحافظين تغذيه في النفوس ، لتأليف حكومة اتحاد وطني شددت بدورها من سياسة تخفيض النقد وادت الى تحقيق وفر بلغ ٧٠ مليون جنيه في صلب مشروع الموازنة ، عن طريق تخفيض تراوحت نسبته من ١٠ — ٢٠ ٪ من مرتبات الموظفين وتعويضات العاطلين عن العمل وعن طريق تخفيض مدة المخصصات الى ٢٦ اسبوعاً في السنة . والانتخابات العامة الجديدة التي جرت سنة ١٩٣١ في جو مشبع بالتدهور المالي امنت فوز حكومة وطنية قضت تقريباً على كل معارضة لحزب العمال . ومع ان هذه الحكومة هي برئاسة احد اعضاء حزب العمال السابق ، فالبلاد تخضع لحكومة محافظة موالية للمبادىء الليبرالية يرعاها وزير المالية ، اذ ذاك ، نفيل تشمبرلين . وتخفيض قيمة الجنيه في ايلول ١٩٣١ قبل ان تعمد اية حكومة الى تخفيض قيمة نقدها في الخارج ، ادى الى تحسين ملحوظ في حركة الصادرات ، اذ عرفت بريطانيا وحدها ان تفيد لبعض الوقت من الاعانة الخاصة بالتصدير التي اعتمدتها . وهكذا توقف الانتاج عن الهبوط الذي كان اخذ يعانيه ، ولا سيما في قطاع الصناعات الجديدة ، والصناعات الكيماوية والكهرباء وصناعة السيارات ، كما اوقفت حركة البطالة ، ونشطت حركة التصدير وسجلت بعض الارتفاع في صادراتها الى افريقيا الوسطى ومصر ، كما سجلت زيادة محسوسة في التصدير الى الهند واليابان .

وامكن على اثر هذا النشاط إعادة مخزون الذهب . وعودة البلاد الى سياسة الحماية الجمركية ، واتفاقات اوتاوا التي عقدت عام ١٩٣٢ (وهي اتفاقات جاءت في صالح بلدان الدومنيون اكثر منها في صالح انكلترا نفسها) فأتاحت للحكومة سبيلاً اكبر للتدخل في الشؤون الاقتصادية : كمراقبة الواردات الزراعية والحد منها ، والرسوم الجمركية التي رمت الى تشجيع الصناعات الرئيسية في البلاد بجعلها اكثر مردوداً وأوفر ربحاً ، وتخصيص مساعدات

مالية لهذه الصناعات التي لم تسيج حولها الرسوم الجمركية كما يجب، والى الحد الذي كان متوقعاً، كالنقل وحركة الانشاءات البحرية ، وتأمم وسائل النقل في لندن ، عام ١٩٣٣ ، والنقل الجوي بدمج شركات الطيران الانكليزية تحت اسم شركة الخطوط البريطانية عبر البحار، عام ١٩٣٩ ، وعقد معاهدة تجارية ترمي الى تشجيع تصدير الفحم الحجري ، والجهود المبذولة لتشجيع الصناعات الجديدة وتشجيع حركة بناء المساكن الشعبية . ومختصر الكلام، فالبطالة التي بلغت الذروة عام ١٩٣٣ (٢٢ بالمئة من مجموع اليد العاملة في البلاد) ، اخذت تهبط تدريجياً لتبلغ ١٢ بالمئة عام ١٩٣٧ ، وهو عدد لا يزال يبز المعدل الذي كانت عليه البطالة عام ١٩٢٩ ، الا ان عدد السكان ازداد بنسبة ٣٠٥ بالمئة (راجع شكل ٦) . وقد حدث بالرغم من انخفاض حركة التصدير ازدهار اقتصادي محسوس في الداخل ، عاد بفائدة كبرى على الصناعات التي تؤمن الاستهلاك الداخلي وحركة البناء . وسجلت انكلترا اذ ذاك ، ارتفاعاً في المستوى العام للحياة لدى السكان ، وعرفت ان تفيد كثيراً من هبوط اسعار المواد الغذائية والخامات والمواد الاستهلاكية المترتب عليها استيرادها من الخارج ، كما تحسنت ظروف تموينها كثيراً في الوقت الذي حلّت فيه مشكلة السكن في البلاد . والنسبة بين اسعار المواد المصدرة التي جرى تخفيضها الى الثلث ، وبين اسعار الواردات التي انخفضت ١٠٪ في المائة ، اصبحت اكثر ملاءمة طيلة هذه الفترة بكاملها (شكل ٦) . والميزان التجاري كان ايجابياً عام ١٩٣٥، وبعد ذلك اختل هذا الميزان مع انه لم يصل الى ما كان عليه الوضع عام ١٩٣١ .

وهكذا ، ومع ان رصيد الموازنة كان واطياً ، فلم يتوقف يوماً ، وانتفت كل زيادة منذ عام ١٩٣٠ ، واخذ منذ عام ١٩٣٥ يظهر نقص مستمر ، كما ان الاستثمارات في الخارج هبطت هي الاخرى بحيث وصلت الى درجة الصفر ، عام ١٩٣٧ . وجاء هذا الهبوط دليلاً جديداً على ان البلاد آخذة بالافتقار . وتأخر الوضع الاقتصادي ، كما سبق لكينز وتنبأ به ، وقع ، عام ١٩٣٨ ، اذ سجلت البلاد خروج مبالغ كبيرة من الذهب كما سجلت هبوطاً في قيمة الجنيه . لم تدم هذه الحركة طويلاً ، اذ ان تأزم الوضع الدولي حمل الحكومة على تقوية سلاحها مما ادى الى نشاط حركة الاعمال في البلاد . وهكذا نرى ان انكلترا في عام ١٩٣٩ لم تكن استطاعت ، شأنها في ذلك شأن الولايات المتحدة وفرنسا ، ان تجد الدواء الشافي والعلاج الناجع للأزمة التي تعاني منها . والبطالة العامة بقيت مستبدة بالبلاد كما بقيت صناعات التصدير تتألم وتتسكع في هبوط مزمن . وقد بقي التوتر الاجتماعي محتدماً . فكان على المحافظين ، ان يواجهوا الآن معارضة اشد من جانب العمال الذين نالوا في انتخابات عام ١٩٣٥ ، ما يوازي ٣٨٫٤ بالمئة من مجموع الاصوات وهو اكبر معدل سجلوه حتى الآن .

فرنسا

ففي الحين الذي حافظت فيه الولايات المتحدة ، منذ عام ١٩٣٢ ، وبريطانيا العظمى منذ عام ١٩٣١ ، على الحكومة ذاتها بعد ان تباينت سياستها بالطبع تجانساً وتماسكاً مع انهـا انبثقت من مبادىء لم تتغير كثيراً في هذه المدة بالذات ، فقد مرت

فرنسا ، في الفترة نفسها ، بعدة تجارب واختبارات متناقضة .

فاقتصادها لم يتأثر بالازمة الدولية الا في عام ١٩٣١ . ومنذ عام ١٩٣٣ ، بدت اسعار المواد المعدة للتصدير اعلى بكثير عندها من اسعار هـــذه المواد في الخارج . فالسوق الوحيدة المفتوحة امامها هي سوق الامبراطورية الفرنسية . وهكذا هبط الدخل الوطني ٢٠ بالمئة ، كما ان اسعار الجملة هبطت ، هي الاخرى ، ٤٤ بالمئة ، واسعار الفرادي او المفرق ٢٩ بالمئة وأطل من جديد العجز في الموازنة وفي الدين العام . وهذا الاضطراب الاقتصادي والمـــالي طرح على بساط البحث متانة النقد الفرنسي . فمنذ عام ١٩٣٤ ، اخذت تهرب من البلاد مبالغ ضخمة

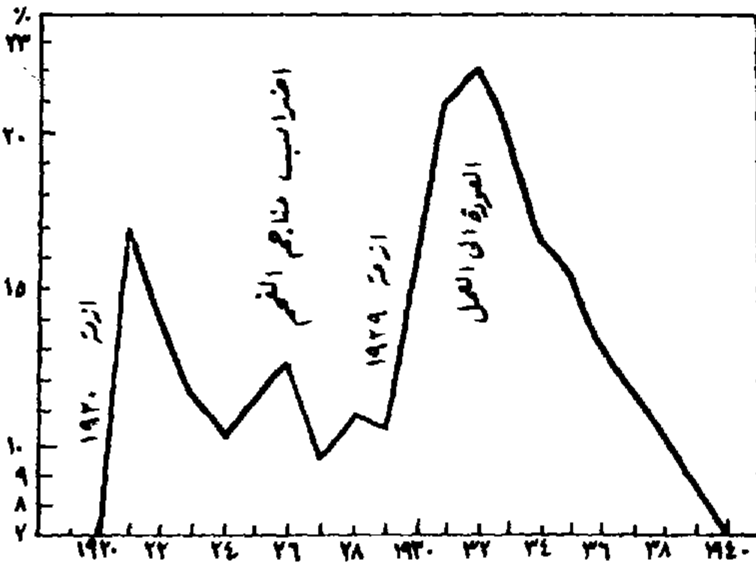

شكل ٦ ـ التغييرات الطارئة على حركة البطالة في بريطانيا بين ١٩٢٠-١٩٤٠ .
(الى اليسار : معدل العاطلين عن العمل)

من الذهب في الوقت الذي حدث فيه هيجان من قبل الاحزاب وتكتلات اقصى اليمين التي تُعِد ضد الاكثرية اليسارية التي جاءت بها انتخابات عام ١٩٣٢ ، ثورة ٦ شباط (فبراير) . وعادت هذه المبالغ الى البلاد بعد ان شكل دومرغ وزارته ومعه عادت السلطة الى احزاب اليمين . وعادت حركة هرب الاموال عودتها الاولى ، عـام ١٩٣٥ . ومصرف فرنسا الذي يعبر قيامه عن وضع بلد يتألف معظم سكانه من اصحاب الدخل ، وقف يعارض عملية تخفيض الفرنك ، سيراً مع الحركة التي قامت بها انكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، الامر الذي ادى الى هبوط كبير في حركة التصدير ، اذ ان الاسعـــار الفرنسية بقيت أعلى بكثير من

الاسعار في البلدان التابعة لكتلة الجنيه . واعتمدت حكومة لافال سياسة شديدة لتخفيض سعر الفرنك ، معتمدة في ذلك على المراسيم الاشتراعية الخاصة بمعالجة البؤس (تخفيض ١٠ بالمئة من نفقات الدولة العامة) مع سياسة صارمة ضد المالطوسيانية او تحـــديد النسل التي ادت بدورها الى تحديد الانتاج الزراعي والصناعي . ولهذا لم تشارك فرنسا بعودة الانفراج العـام الذي عم العالم بين ١٩٣٣ – ١٩٣٧ . فقد جاءت في المرتبة الدنيا في سلم ارتفاع دليل الانتاج في العالم وحركة الانتاج عندها بين ١٩٣٣ – ١٩٣٧ ، بدت زهيدة للغـــاية ، اذ لم تزد عن ٤,٣ بالمئة ، بينما بلغ هذا المعدل ١٠٠ بالمئة في المانيـــا ، و ٧٤,٤ بالمئة في اليابان ، وسقطت وحدها بين دول العـــالم الى ادنى من مستوى عام ١٩٣٣ ، بينما نهضت كل الدول الاخرى وتحسنت فيها الاوضاع ، واستمر انتاجهـا الصناعي يتراوح بين ٨٢ – ٨٣ بالمئة مما كان عليه عام ١٩٢٨ . وازداد عدم التوازن سوءاً واضطراباً وشكل هبوط الانتـاج الزراعي كارثة . وهكذا وجدت البلاد نفسها وجهاً لوجه مع هبوط اقتصادي فريع .

الجبهة الوطنية

ان الفشل الذي بليت به سياسة تخفيض النقد ، والبؤس الذي سببته هذه السياسة في جميع اطراف البلاد ، كان وراء نجاح الجبهـــة الوطنية في انتخابات عام ١٩٣٦ النيابية ، التي نص برنامجها الاقتصادي على اتخـــاذ اجراءات ترمي لبعث الحركة والنشاط في الحياة الاقتصادية ورفع القيمة الشرائية للفرنك . وعندما تولت حكومـة بلوم مقاليد السلطة في البلاد انفجرت غضبة الشعب بعد ان كظمها طويلاً من قبل . فالصعاب التي أدت إليها الازمة ، منذ عام ١٩٢٩ ، اتاحت لارباب العمـل بنعمة « الحق الالهي » ان يهملوا بمساعدة الحكومة في السنوات السابقة ، كل تشريع يتعلق بالعمل (الاتفاقات المشتركة ، والضمان الاجتماعي) ، وان يفرضوا سلطتهم ومشيئتهم العليـــا بضربهم كشحاً عن المطالب العمالية ، واللجوء بصورة اعتباطية الى صرف العمال وطردهم . وهؤلاء العمال الرازحون تحت البؤس ، اخذوا ، بعد ان بلغ اليأس منهم في هـــذه السنوات الاخيرة ، كل مبلغ ، يتنفسون الصعداء عندما رأوا في الحـكم ، وهم لا يصدقون عيونهم ، حكومة تتفهم الى حد بعيد ، المآسي التي يتسكعون فيها والتي يعانون منها الأمرين ، فتدافع عن مصالحهم المشروعـة : وعلى ضوء هذه الامور ، ندرك جيداً ، ما وقع من حوادث احتلال المصانع وحركات الاضرابات الـــتي ادت في حزيران ١٩٣٦ ، الى اتفاقات ماتنيون ، في المؤتمر الذي عقـده المنتجون الفرنسيون الذين يمثلون ارباب العمل في فرنسا . وفي بضعة ايام لا غير أقرّت القوانين التي جاءت توضيحاً واعترافاً رسمياً بهذه الاتفاقات . فالاجور زيدت من ٧ – ١٥ بالمئـــة وتقرر دفع الاجور في الاجازات ، وشرع بمفاوضات حول اتفاقات جماعية مع المنظمات الاكثر تمثيلاً للحركة العمالية ، كما ضمن حق تأليف النقابات ، وتعيين انتخاب ممثلين في كل مؤسسـات العمل التي يزيد عدد العمال في الواحدة منها على عشرة عمال . وصدر أخيراً قانون يحدد ساعات العمل في الاسبوع بأربعين ساعة عمل الامر الذي ادى الى امتصاص جانب من العاطلين عن العمل . إلا ان معارضة بعض

أرباب العمل لهذه الاجراءات القانونية وصمودهم في وجه تطبيقها ، ادخل القلق على أصحاب الثروات ، فأخذت رؤوس الاموال بالهروب الى الخارج ، كما اخذوا في الادّخار ، إذ ان زيادة الاجور ، والاجازات المدفوعة وتخفيض ساعات العمل في الاسبوع كل هذه ادت الى زيادة في كلفة الانتاج وترك اثره ظاهراً على اسعار المبيع . والزيادات الجديدة التي لحقت الاجور لم يلبث ان عقبها ارتفاع في اسعار تكاليف الحياة ، كما ان التشويش والقلق اشتد بين الناس وساورتهم المخاوف . وفي ايلول ١٩٣٦ ، بلغ من ارتفاع الاسعار بعد الاصلاحات الاجتماعية ان انقطعت حركة التصدير تماماً . وجاء تخفيض قيمة الفرنك متأخراً جداً كما جاء معدل التخفيض عالياً ، بحيث ان رؤوس الاموال المهربة لم تعد الى البلاد خوفاً من هبوط جديد في الاسعار ، كما ان مبالغ جديدة جرى تهريبها خارج البلاد . وبدلاً من ان يوسع ارباب الاعمال اعمالهم واشغالهم ، راح فريق من ارباب الصناعة ورجال الاعمال والتجار يحولون مدخراتهم ورأس مال عملاتهم الى سبائك من الذهب او الى دولارات . واذ رأت السلطة نفسها عاجزة عن معالجة الامر وأسقط في يدها ، قررت حكومة بلوم « التمهل » اي التوقف في عملية الاصلاحات الاجتماعية ، ولم تلبث ان انهزمت عندما تقدمت من المجلس بالموافقة على اعطائها حق استصدار المراسيم الاشتراعية مكافحة منها للمضاربات المالية .

« فتجربة بلوم » اصيبت بالفشل في معظم قطاعاتها لانها عجزت عن تأمين الاصلاحات الاساسية التي كان من شأنها ، لو تمت ، حرمان خصومها ، مما لديهم من وسائل التأثير على الاعتماد والتسليف وبالتالي على النقد . فقد جاء اصلاح مصرف فرنسا ناقصاً ، كما لم تجر أية مراقبة على المصارف والمؤسسات المالية وعلى عمليات القطع في البلاد . اما مراقبة الاسعار فقد جاءت بدائية وكذلك وسائل التنفيذ التي اخذت بها ، ولذا لم يكن لها من اي تأثير . والاسعار التي فرضتها الاحتكارات بقيت جامدة قائمة كما صمدت في وجه تخفيض قيمة النقد .

وعادت حكومة شوتان التي خلفتها الى سياسة التضخم المالي التقليدية ، اي الاستلاف من مصرف فرنسا بحيث تستطيع الحكومة مواجهة التزاماتها . وقد حدث في حزيران ١٩٣٧ تخفيض جديد في قيمة الفرنك بعد ان أخذ يدوّر في فلك الستراليني ، وخسر ٤١،٥ بالمئة من قيمته الأصلية .

ومن جهة اخرى حدث منذ ١٩٣٨ ، مع وزير المالية الجديد بول رينو ، تحت ستار عملية « تطويع » ردة فعل قوية ضد القوانين والتشريعات الاجتماعية التي صدرت عام ١٩٣٦ ، والعودة الى سياسة الانكماش المالي ، وحصر اعتمادات الموازنة العامة ، والذي تسبب عن الاضراب العام الذي وقع في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٨ ، والذي كان من فشله ان اضعف الحركة العمالية وأثر عليها الى حد بعيد . وسياسة نزع السلاح كانت اذ ذاك ضاربة اطنابها ، كما ان دليل الانتاج الصناعي كان قد ارتفع من ٧٦ بالمئة عام ١٩٣٨ الى ٨٧ بالمئة عام ١٩٣٩ .

وهكذا فقد مر الاقتصاد الفرنسي طيلة الضائقة الاقتصادية في فترة من الركود والجمود بينا كانت في الدول الاخرى فترة تميزت بالنشاط والديناميكية (شكل ٧) . ان ارتفاع الاسعار الفرنسية حرمت المنتوجات الزراعية من اسواق تفي بحاجتهـــا : فالقمح والنبيذ والشمندر السكري محاصيل شكلت فرط الانتاج والحماية الجمركية التي همها المحافظة على الوضع القـــائم

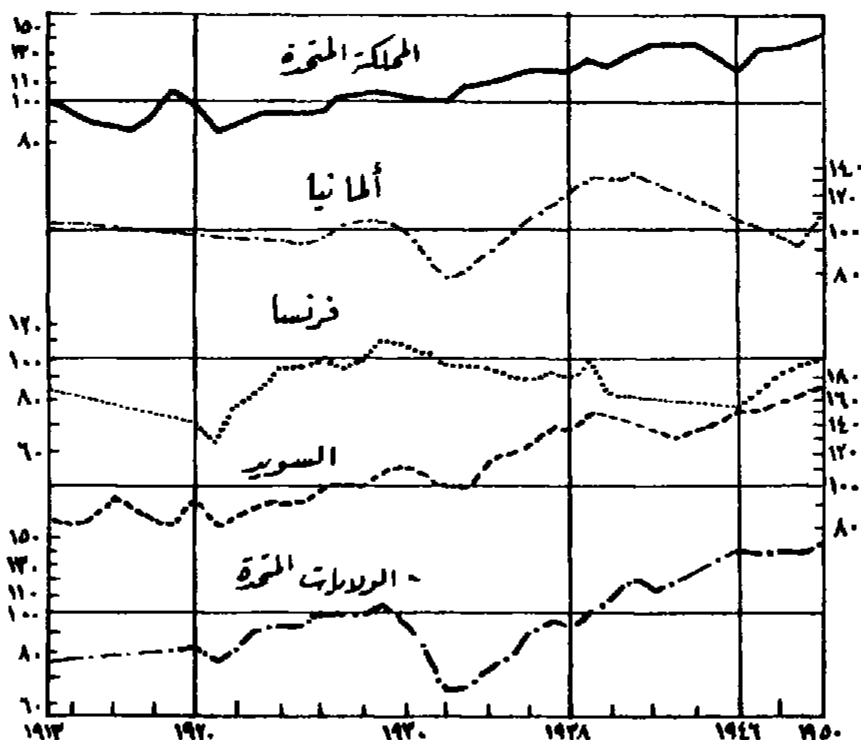

شكل ٧ ـ الدخل القومي للفرد في المملكة المتحدة ، ألمانيا ، فرنسا ، السويد ، الولايات المتحدة

بين ١٩١٣ ـ ١٩٥٠ (١٠٠ ـ المعدل لعام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٩)

وحالت دون مقايضة البلاد الفائض من انتاجها الزراعي بما تحتاج اليه من مواد زراعية اخرى، والاسعار الدارجة هي بالفعل عالية جداً بالنسبة للأسعار العالمية وان كانت واطيـــة بالنسبة لاسعار الكلفة . والطحين والقمح واللحوم والمحاصيل الزراعية الاخرى هي في فرنسا اغلى منها في هولندا وانكلترا والسويد وبلجيكا . وغلاء ثمن المنتوجات الصناعية التي لا غنى للمزارعين عنها تحد كثيراً من امكانيات الربح بتصدير المحاصيل الزراعية كما تحول دون تجهيز المزارعين

بالاعتدة والتجهيزات التقنيـــة . فالمكننة لا تفي بالغرض كما ان الاساليب الزراعية وانماطها رديئة للغاية . وهكذا بقيت قائمة ، مرعية الجانب وسائل استثمارية متخلفة جـداً ، تعمـل في ظروف حياتية قاسية وتنتج في ظروف مرزحة ، « فالزراعة في فرنسا هي من هذه القطاعات المتخلفة عن ركب الحضارة وسير الزمن ضمن اقتصاد يشكو الضعف والجمود » . أما الصنـاعة الفرنسية على اختلاف مظاهرها ، فهي تعاني ، منذ عام ١٩٣٠ ، وضعاً مزيلاً من الانحطـاط الموصول من جراء ضعف انتاجية العمل ، اذا مـا قيست بالولايات المتحدة وبالمانيـا ، باستثناء الصناعات الحديدية والمطاط والكرتون (المقوى) . فالمستوى التقني ، والتركيز الصناعي ادنى بكثير منه في البلدان الصناعية الاخرى . والتجارة الخارجية ، تأخرت هي الأخرى وأصيبت أكثر مما أصيبت به هذه المرافق في الدول الاخرى . فقد كانت تمثل ، عام ١٩١٣ ، نحواً من ٧،٧ بالمائة من مجموع التجارة العالمية ، بينما لم تعد تمثل ، عـام ١٩٣٧ ، سوى ٥،١ بالمـائة وهو تأخر بلغت نسبته ٣٨،٨ بالمائة ، بينما لم يبلغ هذا التأخر في انكلترا سوى ٨ بالمائـة وارتفعت الزيادة في الولايات المتحدة الاميركية ٣ بالمائة . والنقص في الميزان التجاري كان افـدح من ذلك وأدهى ايضاً . فبينما كان يمثل ١٦،١ بالمائة من مجموع الصـادرات ، عـام ١٩٢٩ ، إذا به يهبط الى ما نسبته ٥،٧ بالمائة عام ١٩٣٨ . اما ميزان المدفوعات ، فالزيادة التي تميز بها في الماضي ، حل محلهـا نقص ملحوظ في الدخل السياحي ، وفي ريع الخدمـات ولا سيما ريع الأموال المستثمرة في الخارج . ان خروج رؤوس الأموال الضخمة التي فرت الى الخارج لم تكن استثمارات منتجة بل مجرد عملية مضاربات مالية . فالأرصدة الفرنسية في الخـارج ، التي بلغت قيمتها ١١٠ مليارات فرنك ، عام ١٩٣٧ ، هي في الغالب ، دون قصيرة الاجل . وفي حماية من الرسوم المنفّرة وعمليات التقنين التي جاءت تحمي ليس فقط فروع الصناعة الآخذة بالنمو والتطور بل كل الصناعات على اختلاف انواعها ، راحت الهيئات المالية والصناعية تقصر كثيراً من حركة الانتاج ومن الاستثمار ، على امكانيات الامتصاص والتنفيق المباشرة المتوفرة للسوق المحلية التي كانت من الضيق والضعف يحول دون تحقيق ارباح كبـيرة . فقد اعتمدوا سياسة مالطوسية تقوم على الا كتفاء الذاتي والانطواء التي لم تستهدف لا فتح اسواق جديدة في الخـارج لها ، ولا العمل على توسيع وترحيب السوق الوطنية . أما بشأن صغار التجار ، فقــد تضخم عددهم كثيراً دون أي اعتبار او نسبة للكميات المبيعة .

وهذا التأخر الاقتصادي جاء نتيجة سياسة مستوحاة من الروح المحافظة في هـــذا النظام الاجتماعي الذي حرص على ان يحافظ على البنيان الاقتصادي والاجتماعي القائم في البـــلاد . فالابقاء على الاستثمارات الصغيرة والمتوسطة الهامشية ، إذ عجز عن منافسة الشركات الكبرى كما عجز عن دفع اجور عالية ، اتاح من جهة ثانية للتكتلات الاحتكارية التي تستطيع وحـدها تأمين انتاج بكلفة ادنى من البضائع التي تنتجها المحلات الاولى ، ان تفرض رسوماً على المبيع تؤمن لها ارباحاً ضخمة .

كان للازمة في المانيا ، نتائج مروعة بالنسبة للوضع الحرج الذي احاط باقتصادها نتيجة لحركة التصنيع الآلي ولضخامة رؤوس الاموال التي وظّفت بفوائد عالية ، ولا سيا بالنسبة لتابعيتها ولتمويلها ، الى حد كبير ، على الاستثمارات الاجنبية الضخمة التي بوشر بها منذ عام ١٩٢٥ . وهذا التوازن الضعيف الذي حققته لم يلبث ان هوى عندما هبطت الاسعار العالمية وعندما جعلت الازمة الناشبة من الصعب جداً ، على الصناعة الألمانية ، الحصول على اعتمادات تسليف جديدة سواء من خزينة الدولة او من اسواقها المحروقة .

المانيا

فالانتاج الصناعي المبني على دليل ١٠٠ لعام ١٩٢٩ ، هبط من ١٠٧ ، عام ١٩٢٩ الى ٥٨,٥٪ في آب ١٩٣٢ ، كما هبط انتاج الفحم من ١٦٣ مليون طن الى ١٠٤ ، والحديد من ١٦ مليون طن الى ٥,٧٠٠,٠٠٠ ، وارتفع عدد العاطلين عن العمل في المانيا من ٩٩٤,٠٠٠ الى ٥,٥٧٩,٠٠٠ ، كما هبطت الاجور الى نصف معدلها ، وسجلت الصادرات هبوطاً بلغ ٤٥٪ من قيمتها ، و٦٢٪ من حجمها ، رغم سياسة الأغراق التي تمشت عليها الحكومة . والتجأ المستشار برونغ الى الوسائل التقليدية في معالجة الوضع ، كتخفيض قيمة النقد ، ومراقبة الارصدة واقتطاعات ضخمة في صلب الموازنة ، وهبوط الاسعار ، ورفع نسبة الحسومات وإعادة تنظيم حركة التسليف وتخفيض اجور العمال ومرتبات الموظفين ، والغاء رسوم الحماية الجمركية . فقد حصل في مؤتمر لوزان في حزيران من عام ١٩٣٢ ، على إلغاء تعويضات الحرب . الا ان عنف الحركة واحتدامها والأوصاب التي مرت بها الطبقات العمالية بعد ان تضرست بالبطالة ، والتطرف الذي اخذت تنزع اليه ، زاد كثيراً من عدد انصار الحزب الشيوعي العاملين على اثارة الاضطرابات الاجتماعية . واذ رأت الطبقات الوسطى نفسها مهددة بالحركة البروليتارية ، فلم تر الطبقات الموجهة واصحاب الصناعة الضخمة لها منجاة وخلاصاً الا في حل فاشي او دكتاتوري. واذ ذاك قبض الحزب الوطني الاشتراكي في كانون الثاني ١٩٣٣ ، على السلطة في البلاد في وقت كان فيه التدهور المالي بلغ الحضيض . فالمهم ، في الدرجة الاولى ، اعادة الحركة والنشاط الى الاقتصاد الوطني عن طريق فتح منافذ واسواق جديدة ، ومحاربة البطالة . لم يكن هنالك ، في بادىء الامر خطة موضوعة منظمة . فالخطة الرباعية الاولى التي اطلقوا عليها اسم خطة الخدمة ، لم تكن في الحقيقة سوى سلسلة من الاجراءات المتخذة لمعالجة البطالة في البلاد . ووضع في خريف ١٩٣٦ الخطة الرباعية ، الثانية المعروفة « بخطة الانتاج » . فرمت الى تأمين عهد الحكومة المطلقة ، والدكتاتورية تحت سلطة غورنغ الذي طلع بالفكرة ، وهي عبارة عن ادارة عملاقة جبارة تعمل على تنظيم الوضع الاقتصادي في الاساس . فالدولة هي ، عند الانطلاق بالخطة ، الزبون الوحيد وستبقى فيا بعد الزبون الرئيسي . وهي المصرف الرئيسي وتحتكر كل منافذ التجارة الخارجية . فبدون ان تؤمم الاستثمارات الكبرى او ان تديرها بنفسها ، فهي تتولى ادارة الاقتصاد باعطائها التوجيهات التي تراها لازمة ، وبمراقبتها الاسعار والاجور بعد ان حددتها ، وبتوجيه الاعتماد وحركة التسليف . ولاول مرة في التاريخ نشهد اقتصاداً رأسمالياً

يخطط له في وقت السلم . وكان من تحالف الحزب مع الرأسمال الضخم ، ان حال دون استعمال العلاج الذي يوسع من نطاق السوق الداخلية بزيادة القوة الشرائية لدى المجتمعات السكانية ، اي رفع المرتبات . ولذا اعتمدت الحكومـــة سياسة الاشغال الضخمة ولا سيما انشاء شبكة الاوتوسترادات ، وسياسة التسلح ، وخلق مصلحة « العمل الالزامي » ، وتسليف الدولة مالاً للزوجين الجديدين ، اذا ما تعهدت الزوجة بالانقطاع عن العمل خارج منزلها ، والى انشاء منظمة نقابية جديدة . فالانتـــاج استعاد بسرعة قدرته المنتجة . فقد حقق منذ عام ١٩٣٦ ، معدل عام ١٩٢٩ ، وتجاوزه عام ١٩٣٩ بنسبة ٣٣٪ ، وجرى امتصاص البطالة تدريجياً . ففي عام ١٩٣٨ ، لم يبق عاطلاً عن العمل سوى المسنين وغير المؤهلين .. فقد برزت في الطليعـــة مصالح الانتاج (المواد الاولية ، والطاقة) ومصالح الاستثمار والتوظيف (البناء) ، فاخـذت تنمو وتطرد وتتسع ، بينما ازداد انتاج المواد الاستهلاكية ١٣٪ عن معدله لعام ١٩٢٨ ، واصبح يفي تقريباً بحاجات السكان الآخذ عددهم بالازدياد ونفقات التسلح الضخمة الباهظة ، بحيث ان مستوى عيش السكان المدنيين ، بقي كما هو تقريباً دون اي تغيير . وهكذا بفضل حافز الطلب العام ، أصبحت المانيا الدولة الوحيدة التي امّنت العمل لليد العاملة في البلاد ولجهازها الصناعي الضخم . وبما هو احسن من ذلك وافضل ، افتقار البلاد للمزيد من اليد العاملة الكفوءة ، وللمزيد من العمال المزارعين ، وهي ظاهرة برزت منذ عام ١٩٣٥ .

اليابان — ارتدت الأزمة العالمية في اليابان مظاهر مختلفة تعارضت مع الكثير من المظاهر التي سجلناها لها في البلدان الصناعية الاخرى . فقد كانت الازمة فيها قصيرة والقت بكلكلها على القطاع الزراعي الا انها كانت اعجز من ان تحد من نشاطات عدد كبير في قطاعات الصناعة وحركة التصدير . وعلى الاجمال ، فقد كان اثرها ضعيف الوقع على البلاد واصابها من جانبين معاً : تخفيض في حركة التصدير نتيجة للهبوط الذي اصاب التجارة العالمية ، كما ان هبوط الاسعار ادى الى خراب العاملين في القطاع الزراعي . فقد الحق هبوط « الازدهار الاميركي » ضرراً محسوساً في القطاعات الاكثر تعرضاً للتجريح في اقتصادهـا القومي ، وأدى الى هبوط في سعر الحرير الخام (٥٠٪ عام ١٩٣٠) وفي صادراتها من المنسوجات القطنية (٢٧٪ عام ١٩٣٠) كما ادى الى انهيار عدد كبير من المزارعين وفرض البطالة على عـدد من مصانع النسيج والحياكة حيث تعمل الفتيات اليابانيات .

واشتدت الازمة فيها بعد عام ١٩٣١ ، اثر رفع معدل الرسوم الجمركية في الهند وحركة المقاطعة التي برزت في الصين . وجاء اخيراً تخفيض العملة اليابانية في الوقت الذي كان فيه الين تقريباً على سعره لعام ١٩٢٦ فبـــدا عالياً بالنسبة للدولار ، مما ادى الى هبوط في الاسعار بلغ معدله ٣٥ ٪ ، بين نيسان ١٩٢٩ وتشرين الاول ١٩٣١ . وجاء هبوط اسعار الارز ثالثـــة الاثافي في خراب الفـــلاحين الذين رأوا انتاجهم يهبط الى ٤٣ ٪ ، الا ان انكماش الانتاج الصناعي كان ابعد من ان يكون له الاتساع ذاته والاستمرار ذاته الذي نراه يحل في المنتوجات الزراعية ، فالهبوط لم يتجاوز ٨،٤ ٪ ، ومنذ عام ١٩٣٢ ، ارتفع الدليل الى فوق ما كانت

عليه عام ١٩٢٩ ، واستمر في تصاعده بحيث بلغ ١٧٣ عام ١٩٣٧ (مع الملاحظة ان ١٠٠ هو دليل عام ١٩٢٩) . وسبب ذلك هو ان حزب منسيتو الذي عاد الى الحكم في صيف ١٩٢٩، سارع الى اعتماد السياسة التقليدية التي كانت دوماً تعتمد تخفيض قيمة العملة ، مما ادى الى اقالته من قبل الجيش الذي تسلم الحكم . وفي عام ١٩٣١ ، عمدت الحكومة العسكرية الى حظر أخراج الذهب من البلاد وتخلت عن قاعدة الذهب ، وخفضت سعر الين ثلثي قيمته واعتمدت سياسة الانكماش المالي التي قضت بزيادة الاعتمادات الخاصة بالجيش والاسطول . وقد تضاعف دين الحكومة ، بين ١٩٣١–١٩٣٧ ، وارتفعت اسعار الحاجيات بالجملة حتى انها بلغت مستواها لعام ١٩٢٩ ، ودليل اجور العمال الذين يعملون في مصالح الجيش والتسلح ، ارتفعت بين ١٩٣١– ١٩٣٦ ، من ٩١ الى ١٤٠ ٪ (باعتبار دليل ١٠٠ الحد الوسط بين ١٩٣١ – ١٩٣٥) ، بينما اسعار المنسوجات القطنية والحريرية بقيت ادنى مما كانت عليه عام ١٩٢٩ ، اما الازدهار فقد كان من نصيب الصناعات الثقيلة والصناعات الحديدية والميكانيكية والكيماوية والانشاءات البحرية (عدد العمال العاملين في هذه الصناعات على اختلافها يمثل نسبة لم تلبث ان ارتفعت من ٢٥ الى ٤٠ ٪ ، في أواخر عام ١٩٣٧ . وفي عام ١٩٢٩ كان عدد العمال العاملين في هذه المصانع ٨٢٥،٠٠٠ ، فارتفع عددهم ، عام ١٩٣٧ ، الى ٢،٢٥٠،٠٠٠ ، وساعد على هذا الارتفاع الضائقة التي نزلت في القطاع الزراعي اذ اجبرت عمالاً كثيرين على النزوح من الريف الى المدن بحثاً لهم عن عمل . وارتفع انتاج الفولاذ الخام من ٢٥٠،٠٠٠ طن عام ١٩٢٩ ، الى ٥،٥٠٠،٠٠٠ طن عام ١٩٣٦ ، كما تضاعف انتاج البلاد من الحديد ، وازداد كذلك انتاجها من الفحم الى اكثر من الثلث . والحزب العسكري الذي يتولى الحكم في البلاد ويوسع من نطاق سلطته على الحكومة بعد العصيان الذي وقع في شباط ١٩٣٦ ، تابع بنشاط محموم ، تصنيع منشوريا كما واصل تأييد تغلغل الجيش في الصين ، حيث عادت الحرب المكشوفة الى الظهور عام ١٩٣٧ . وفي اليابان ، كما في المانيا وفي ايطاليا ، نحن امام اقتصاد موجه للحرب ، فيخضع المشروعات والاستثمارات الخاصة للاعتبارات الستراتيجية ، ويوسع ، يوماً بعد يوم ، من اشراف الحكومة على حركة القطع وعلى التجارة الخارجية وحركة التسليف بعد ان وُجّهت نحو الصناعات الحربية ، ونحو الاستهلاك والاسعار والمبيعات .

فاليابان هي الدولة الاستعمارية الوحيدة التي تشجع التصنيع في مستعمراتها في الخارج بتأمين التنسيق التام مع صناعاتها . ومما لا شك فيه قط ان الاقتصاد الحربي الذي كان الدواء الناجع للأزمة في الوقت الذي بقيت فيه القطاعات الاقتصادية الاخرى تحت الضغط ، حتى اقتصاد الولايات المتحدة الاميركية نفسها ، تحيطه اليابان بعنايتها الكبرى وتوسع من نطاق اقتصادها، مما ادى الى تسجيل ارتفاع محسوس في الدخل القومي . وقد عملت التجارة دوماً على سد العجز في الميزان التجاري ، عن طريق الخدمات المتنوعة ، والأسطول التجاري الذي ارتفع حجمه الى ٤،٥٠٠،٠٠٠ متر مكعب ، اصبح الآن الاسطول

الثالث في العالم . والاستثمارات الضخمة التي قامت بها الدولة والقطاع الخاص ، لم تتوقف سوى فترة قصيرة ، واستمرت في ارتفاعها حكما ارتفعت طلبات السلطات العامة .

البلدان ذات الاقتصاد الزراعي

ان تدابير الحماية التي لجأت اليها كل الدول وتسلحت بها ، وتطور الانتاج الزراعي في كل من انكلترا والمانيا وايطاليا ، ادخل الخلل والبلبلة على السوق الدولية ، وتسبب بانخفاض هام في المشتريات لدى الدول المصدّرة لها ، كما تسبب ، بالمقابل ، بانخفاض في شراء المنتوجات المصنوعة في البلدان المعروفة باقتصادها الزراعي ، اذ كانت عاجزة عن مواجهة اثمانها . واخذت هذه البلدان تشعر اكثر من كل وقت مضى بتابعيتها ، وتتألم من فقدان المنتوجات المصنوعة . ولذا راحت تقبل على التصنيع بهمة ونشاط . فقد تمكنت بما لديها من اعتمادات نادرة ، وبواسطة مقايضة انتاجها ، عملا بسياسة المقايضات التي دشنتها المانيا ، وتوفر يد عاملة رخيصة في البلاد ، ان تستدرج رؤوس الاموال . كل هذه العناصر وما اليها اتاحت لها تأمين الاجهزة والاعتدة الآلية التي تساعدها على خلق الصناعة فيها . وهكذا راحت المانيا تطور صناعاتها الغذائية كما تطور صناعة تركيب الآليات واجهزة الراديو بعد ان فرضت رسوماً جمركية عالية على الاجهزة الجاهزة التركيب . وفي عام ١٩٤٠ ، كان باستطاعتها تقريباً ان تكتفي نفسها بنفسها في عدد كبير من المصنوعات المشغولة . واخذت الشيلي في تنظيم صناعتها ، سعياً منها وراء مزاحمة النترات الصناعية ، وتطور اجهزتها وعتادها في سبيل تطوير الطاقة الكهربائية المائية ، بواسطة اعتمادات حصلت عليها من بنك التصدير والواردات في واشنطون ، قدمها لشركة التصدير الشيلية التي تأسست عام ١٩٣٩ . وفي الهند وتركيا والبرازيل ، حققت صناعة النسيج تطورات عظيمة وبذلت مثل هذا المجهود ، كل من بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية ، كما سُجّل تقدم محسوس في كل من رومانيا واليونان ، وبولونيا وهنغاريا . ففي كل بلدان اوروبا او البلدان الواقعة وراء اوروبا ، جاء الاقبال على شراء الآليات الجاهزة خلال عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، دليلاً قاطعاً على هذا العزم الصادق في النهوض بسياسة التصنيع ، وتوفير القوى المحركة ، وتأمين اسس الاستقلال الاقتصادي الذي ادى في بعض الدول الى الدكتاتورية الفعلية .

وقد جاءت النتائج بليغة في لغتها . فالبلدان التي لا يزال لها انتاج مرتفع نسبياً خلال الازمة والتي زادت نسبتها نسبة عام ١٩٢٩ ، هي هذه الدول الزراعية التي اعتصمت بسياسة التصنيع . فالارقام البيانية او القياسية لصناعة النسيج عام ١٩٣٧ ، هذا النموذج بالذات لانتاج الحاجيات الاستهلاكية ، بلغ ٢١٦ في ليتوانيا و ٢٠٥ في الشيلي و١٧٦ في فنلندا و١٦٣ في السويد ، ١٥٤ في النرويج (مع العلم ان ١٠٠ هو الرقم البياني لعام ١٩٢٩) .

٢ – الوضع الاقتصادي بين ١٩٣٧ – ١٩٣٩

ضعف الابلال ووهنه

جاءت نتائج هذه الجهود غير متكافئة ، كما رأينا بالنسبة لجميع البلدان ، باستثناء فرنسا . فالازمة التي ظهرت عـــام ١٩٢٩ ، اخذت تحتدم وتشتد حتى عام ١٩٣٢ ، ثم طرأ بعض التحسن على الوضع العـــام ، مع بعض التقلبـــات ، تتسع او تضيق في بعض البلدان ، وبعض الارتكاسات هنا وهناك تتباين شدة وحدة . وفي عام ١٩٣٦ ، امكن تسجيل المعدل الذي كان عليه الانتاج عام ١٩١٣ والعودة الى النشاط المألوف ، عاد سيرته الاولى ، والتوازن بين مختلف قطاعات الانتاج من جهـــة ، وبين الاسعار بعضها ببعض يتضح اكثر فاكثر كما ازداد استهلاك البضائع المخزونة ، وخفت حـــدة البطالة كثيراً كما تحسنت كثيراً ارضاع العمال . الا ان المصانع لا تعطي سوى ثلثي طاقتهـــا ، أشباعاً منها لحاجات السوق المحلية . واخذت ترتفع منذ عام ١٩٣٣ ، اسعار الخامـــات التي اشتد حولها الطلب ، وازداد حجم التجارة العالمية . وارتفعت منذ مطلع عام ١٩٣٥ قيمتها على اساس قاعدة الذهب ، الا انها بقيت ٢٠ ٪ دون قيمتها عام ١٩١٣ . فتجارة الحاجيات المشغولة كانت اقل تقدماً من جهة الوزن ، نتيجة محتومة لظاهرة التصنيع في البلدان الجديدة ، وامور التغذية التي كانت اقل تطوراً من حيث قيمتها من جراء سياسة الاكتفاء الذاتي التي سارت عليها البلدان الكبرى الصناعية .

والتوازن بدأ يقع بين طاقتي الشراء المتممة الواحدة للاخرى : طاقة البلدان الزراعيـــة وطاقة البلدان الصناعية . والعودة الى الوضع الطبيعي بدت ظاهرة واضحة لاسباب تقدمية كما هي الحال في بعض البلدان : كاليابان والبلدان الـسكندينافية والشيلي وبريطانيا العظمى . وقد بدت هذه العودة ظاهرة واضحة ، ولو اقل اتساعاً ، في كل من المانيا وايطاليا بدافـــع من الانشاءات العامة فيها ومقتضيات التسلح ، كما جاءت ضعيفة جداً او لا اثر لها البتة في بعض البلدان كفرنسا حيث لعبت اسباب مقاومة الانكماش المـالي دوراً كبيراً ولمدة طويـلة .

وللخروج من هذه الضائقة استعملت المحاولات والوسائل والذرائع ذاتها وان تباينت حماسة واسلوباً بين بلد وآخر ، ولا تزال الافـكار تتضارب الآن حول انجع هذه الوسائل التي حملت ضمنها عوامل التحسين وامثلها . فهل يعود لعمري فضل الابلال من هذه الضائقة للولايات المتحدة بعد الأجراءات التي اتخذتها وأدت الى تخفيض قيمة الدولار ، أو الى سياسة الانشاءات الكبرى والتدابير العديدة الرامية لرفع القوة الشرائية لدى الجماهير الشعبية ، بعـــد أن ضحت الدول بسخاء بهذه المبالغ الضخمة ؟ والعودة باسعار المواد الزراعية ، بين ١٩٣٣ – ١٩٣٥ هـل يجب رده يا ترى ، الى تخفيض قيمة الدولار او الى سياسة التقليل من المحاصيل والحد من الانتـــاج التي فرضتها الدولة وساهمت الاحوال الجوية على تحقيقها ؟ وهذا الازدهار النسبي الذي نعمت

به انكلترا بين ١٩٣٥ – ١٩٣٧ ،هل جاء نتيجة تخفيض قيمة الجنيه الانكليزي او العودة بالبلاد الى نظام الحماية الجمركية ؟ وما عسى ان يكون على العموم ، من التأثير الذي احدثه هذا العامل المضاد لطبيعة الاقتصاد الذي يتمثل في التسلح ؟

النكسة والتسلح

ولكن هذا التحسن الطارىء لم تتوفر له عناصر البقاء والاستمرار اذ قد ظهر في اواسط عام ١٩٣٧ ، لا سيا في نطاق الصناعات التي تعمل على توفير الحاجيات الانتاجية ، عوارض انكفاء وتقهقر الى الوراء ، يمكن مقارنتها بالعوارض التي بدت عام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ . ففي اوروبا ، حيث تمثل نفقـات التسلح جانباً هاماً من موازنات دولها ، فالنكسة فيها هي اقل عمقاً منها في البلدان التي لم تندفع نحو سياسة التسلح هذه ، كالولايات المتحدة الاميركية والدول الصغرى في اوروبا ، وكندا حيث لا تمثل اقتصاديات الحرب سوى جانب ضئيل من اقتصاديات البلاد . فالنشاط الاقتصادي في الولايات المتحدة هبط ٣٧ ٪ بالنسبة لما كان عليه عام ١٩٢٩ ، وتجاوز عدد العاطلين عن العمل فيها ، عـام ١٩٣٨ ، عشرة ملايين عامل ، والعودة الى انفاق مبالغ ضخمة على الانشاءات العامة فشل في احداث اي تحسن في الوضع الاقتصادي ، اذ ان عدد العمال العاطلين عن العمل ، عام ١٩٣٩ ، يزيد على تسعة ملايين عامل . فالحرب وحدها هي التي « صفّت » الازمـة ، اذ اقتضت استيعاب اليد العاملة بأسرها . فمنذ عام ١٩٣٧ ، اصبح التسلح الذي لم يكن الى ذلك الحين سوى حافز بسيط من الحوافز الاقتصادية بدا وكأنه السوق الكبرى لاستيعاب الانتاج الصناعي بحيث اصبح « العماد الوحيد » لمعظم البلدان الصناعية الكبرى . والامر واضح جلي في نشاط معظم البلدان الاوروبية التي لم تغرق بعد في التسلح ، كبريطانيا العظمى مثلاً ، حيث النشاطات الاكثر ازدهاراً هي التي تتمثل في صناعة بناء السفن ، وصناعة الحركات والطيران بينما احتدمت البطالة في صناعة النسيج واستخراج الفحم . والدور الرئيسي الذي تلعبه حاجات الجيش ومقتضيات التسلح ، أفلم يبرز واضحاً في تصريح لوزير الدفاع البريطاني الذي صرح عـام ١٩٣٧ بان انكلترا لن تعرف ازمة جديدة قبل خمس سنوات . وسعر الخامات مرتبط بحاجات الدفـاع . وفي سنة ١٩٣٨ ، انخفضت اسعار الحبوب واسعار لحم الغنم والمنسوجات والكاكاو ، بينما ارتفعت اسعار المعادن على اختلافها .

فالتسلح هو وحده وراء ازدهار انتاج المواد الاولية . الا ان هذا الانتاج كانتاج المـواد الزراعية يصعب ضبطه والتخطيط له ،بحيث ان المخزون الدولي اخذ منذ عام ١٩٣٨ ، يتضخم بصورة لا تخلو قط من الخطر . ففي هذا التاريخ بالذات كان مخزون المطاط يزيد ٥٤ ٪ على مخزون عام ١٩٢٩ ، كما ان مخزون الصوف زاد ٦٥ ٪ والحرير الخام زاد ٢٣ ٪ والنحاس الخام زاد مخزونه ٤٥ ٪ ، وزاد ٢٢٧ ٪ مخزون النحاس المكرر . فمخزون القصدير وحده كان دون مستوى عام ١٩٢٩ ، ومخزون القطن هو اعلى بكثير من مخزون اسوأ سنة من سنوات الازمة المالية ، بينما مخزون القمح بلغ ٣٢ مليون طن ، مقابل ٢٩ في عـام ١٩٢٩ . فهو ضعف

التصدير العالمي المتوقع . وقد اشترت جانباً من هذا المخزون الحكومات التي همها ان تنشىء عندها احتياطياً للحرب ، الا ان تراكم هذا المخزون لم يكن سوى ذريعة، لم يكتب لها النجاح دائماً . فقد افادت في تفادي سقوط مفاجىء للاسعار بعض الوقت .

الاقتصاد العالمي والقلق الذي يعانيه

فالنقاهة كانت قصيرة الامد وسريعة العطب . فالاضطرابات الداخلية التي اقامت بعض البلدان واقعدتها انقطعت باستثناء فرنسا . الا ان خطر تأزم الوضع السياسي الدولي ازداد تفاقماً . ولذا لم تصد المبادلات الدولية الى سابق نشاطها المعهود . فمنذ ادنى نقطة وصلت اليها الازمة عام ١٩٣٢ ، ازداد الانتاج بصورة ملحوظة في جميع المجالات ، الا ان الاستهلاك لم يرسم مثل هذا الخط السوي . فالطلب بقي دون المرض بكثير ، مع ان مستوى العيش لدى غالبية السكان في العالم ، كان دون مستواه ، عام ١٩٢٩ ، كما ان تراكم المخزون بعد ذلك بعشر سنين بقي في مستودعاته ليس من يشتريه في البلدان التي كانت من قبل في عداد الدول المصدرة له .

وهكذا استمرت البطالة من جراء تضخم اليد العاملة بطلوع اجيال جديدة من العمال ، ولدت قبل عام ١٩١٤ وبعد الحرب ، في إثر عقلنة الصناعة ومكننة الزراعة ، وفي اعقاب هذه السياسة التي أدت الى الإقلال من اليد العاملة الى اقصى حد في وسائل الانتاج ومعداته ، كما جاء هذا الاستمرار نتيجة حتمية لجمود اوركود قسم من الاجهزة المنتجة . فاذا ما كان ٢١,٩٪ من العمال لا يزالون بدون عمل ، عام ١٩٣٢ ، فالنسبة بقيت عالية جداً عام ١٩٣٨ ، اذ كانت ١١,٤٪ . وهكذا نرى انه بالرغم من عودة جانب كبير من العمال الى العمل ، فعدد العاطلين عن العمل بقي عام ١٩٣٧ ، اعلى منه في عام ١٩٢٩ . وهكذا يمكن لنا ان نتساءل ما اذا كان النظام الاقتصادي اصبح الآن عاجزاً عن تأمين العمل لكل العمال الذين يستطيعونه .

الاقبال على الاتفاقات الثنائية

كثيراً ما عمدت الدول الى عقد اتفاقات ثنائية قصيرة الأجل ، غالباً بشكل مقايضات، لتأمين ما تحتاج اليه من محاصيل وغلال لا تنتج مثلها . فقد حل محل المبادلات المتعددة الجوانب التي الفها الانسان من قبل طريقة المبادلات الثنائية ، فاقتصرت المبادلات مع الخارج على مقايضة المواد المنتجة اقليمياً او محلياً . ففي الوقت الذي كانت فيه الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا مثلاً توطدان علاقاتها بمستعمراتها ، راحت الدول التي لا مستعمرات لها في الخارج ، كالمانيا مثلا تحاول ان تنشىء لها مجالاً حيوياً تعتمده في توسيع حلقة امتيازها من اوروبا الوسطى واميركا اللاتينية ، بينما راحت الدول الشارية تنشىء فيما بينها تيارات من المبادلات تتناول المحاصيل الاضافية . فاستيراد بريطانيا من مستعمراتها ارتفع بين ١٩٢٩ و ١٩٣٧ من ٢٩,٤٪ الى ٣٩,٤٪ كما ان صادراتها الى مختلف مستعمراتها ارتفعت في المدة ذاتها من ٤١,٤٪ الى ٤٤,٣٪ . اما فرنسا فالارقام

النسبية هي ١٣ و ١٧٪ (بين ١٩٢٨ – ١٩٣٨) في ما يتعلق بالاستيراد و ١٨ – ٢٧٪ للصادرات . وهكذا نرى العالم متجزئاً او متوزعاً بين كتل شبه موحدة بعضها بوجه البعض ، كتلة الاسترليني و كتلة الين والكتلة الالمانية ،وضمن هذه الكتل تشتد روابط التبادل التجاري وتقوى . فقد انهارت القواعد التي قامت عليها المبادلات المتعددة الجوانب كما زال عهدها وانقطع .

انحسار اوروبا

فحركة انحسار اوروبا وانكفائها التي ابتدأت في اعقاب الحرب اخذت تشتد وتقوى . فقبل عام ١٩٢٠ ، لم يكن هذا الانحسار سوى حركة نسبية . فاوروبا تتطور بسرعة اقل من السرعة التي يتطور فيها باقي اقسام العالم . اما الآن فهناك انحسار قائم في عدد من القطاعات الاقتصادية . فنصيب اوروبا من هذا من الاقتصاد العالمي لم يعد ليتجاوز ، عام ١٩٣٧ ، ٣٩,٥٪ . فقد انخفض فيها انتاجها لمادتي الحرير الخام والصوف ، مع ان هذا الانتاج يزداد ويتضخم في جميع انحاء العالم ، بينما بقي انتاجها للفحم الحجري على معدله المعروف . وفي الصناعات الحديدية ، لم تعد اوروبا لتنتج سوى ٤٢,٥٪ من مجموع انتاج الصب في العالم ، (مقابل ٥١٪ في عام ١٩١٣) ، و ٤٠,٩٪ من الفولاذ او الصلب ، مقابل ٥٠,٧٪ في عام ١٩١٣ ، ونصيبها من الالومينيوم تناقص كما تناقص كذلك انتاجها من النحاس المعد للصب (١٠,٥٪ ، مقابل ١٤,٦٪) .

واستئناف العلاقات الخارجية في العالم بين ١٩٣٢ – ١٩٣٧ ، يجب ردّه الى القارات الاخرى اكثر من رده الى اوروبا .

والتجارة الاوروبية لم تعد تمثل ، في سنة ١٩٣٧ ، سوى ٤٥٪ من مجموع التجارة العالمية لعام ١٩٤٩ ، والنكسة التي وقعت عام ١٩٣٨ جعلت هذا المعدل يهبط الى ٤٠٪ . ولهذا كانت حركة الجزر هذه حركة مطلقة تم عن حرج الوضع بعد ان شال هبوط الصادرات على الواردات .

وهذا لا يعني قط المزيد من الاستقلال لاوروبا في المجال الاقتصادي ، بل انما يعني المزاحمة الشديدة التي تلقاها تجارتها ومصنوعاتها في الاسواق العالمية . فلا عجب والحالة هذه ان يقع ميزان مدفوعاتها في عجز متصاعد . فبعد ان توقف دفع الفوائد والارباح ، تناقص ريع الاستثمارات الموظفة في الخارج ، كما ان اجور الشحن هبطت هي الاخرى من جراء التناقص التدريجي في حمولة الاساطيل التجارية في اوروبا بعد ان تضاعف اسطول اميركا التجاري ، وزادت طاقة الاسطول الياباني ثلاثة اضعاف ، منذ عام ١٩١٣ ، وتناقص حجم التجارة العالمية عن معدله عام ١٩١٣ .

وهكذا نرى ان الازمة سددت ضربات قاصمة لمركز اوروبا . فبعد ان اقصيت خلال الحرب من اسواقها المعروفة لصادراتها ، فقد عجزت عن ان تستعيد كل الاسواق التي فقدتها كما ان الازمة الاقتصادية كانت لها ضربة جديدة ازلتها بديونها في الخارج . والى هذا يجب ان

نضيف التراجع النسبي الذي لحق بإنتاج الفحم فيها امام سيطرة البترول النامية الذي كانت اميركا وآسيا اكبر منتجين له . وازدهار صناعة المعادن غير الحديدية التي كانت اوروبا تفتقر اليها (باستثناء الالومنيوم) ، واخيراً وليس آخراً الخسارة المالية التي لحقت اوروبا في تصفية الحرب والخروج منها ، والاستعداد للحرب القادمة ، ابتداء من سنة ١٩٣٣ . اضف الى ذلك بهاظة الدين العام والضرائب التي ضخمت اسعار المنتوجات ، في وقت كان فيه جانب كبير من الاجهزة الصناعية والعتاد التقني عندها يعمل للتسلح بدلاً من ان يعمل للتصدير .

قضايا الخامات والاسواق التجارية

لم يعد البحث عن الخامات والأسواق وقفاً على الأفراد والخاصة من أرباب الصناعة والتجارة ، يسعون كل من جانبه لما فيه نفعه ومصلحته بل آل الأمر إلى مؤسسات متكتلة وإلى حكومات اضطرت أمام افتقارها الى عملة دولية ثابتة والى انعدام وسائل الابراء التقليدية ، أن تبحث لها عن مناطق تموين تكون منسرباً لتجارتها النامية ومنفذاً لها . هذا هو بالذات الوضع الذي تشجبه كلمة مأثورة لموسوليني عندما يميز بين « دول بروليتارية ودول بلوتوقراطية » (ثرية) ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلاد الواطية التي تعول بنسبة جاءت عام ١٩٣٦ ، في انكلتر ٤٨،٥٪ من المواد الغذائية ،و ٣٨ بالمائة من الخامات الضرورية لها ، وفي فرنسا ، عام ١٩٣٧ بمعدل ١٨ بالمائة و ١٢ بالمائة وفي بلجيكا والبلاد الواطية مقادير كبيرة من الربح والنقد المالي . وبين الدول الاخرى « الراضية » الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي اللذين يملكان في أراضيها الشاسعة ، مع كثافة ضئيلة من السكان نسبياً ، كل ما تحتاجان اليه من الخامات تقريباً ، بينها الاولى منهما هي أكبر منتج للمواد الأولية في العالم .

وبين الدول الراضية او غير القانعة تأتي اليابان ، مع انها تملك امبراطورية استعمارية واسعة ، وقد وجدت في منشوكو وفي الصين الداخلتين في مداها الاقتصادي الحيوي ، الفحم والقليل من البترول وفول الصويا والقمح . إلا أن كل المستعمرات اليابانية لم تكن تعطي اليابان سوى ١ — ٢ من مجموع ما تستهلكه ، و ١٠/١٠٪ استيرادها كانت تؤمنه من الهند (٤،٢٤ بالمائة) ،ومن الولايات المتحدة الاميركية (٤٦،٩ بالمائة) . أما ايطاليا ، فقد كان عليها أن تواجه ، أسوة باليابان ، المشكلات التي فرضتها عوامل نموها الديموغرافي وجهودها لتصنيع البلاد ، فالنضال في سبيل القمح لم يوفر لها سوى نتائج متقطعة وضعيفة . ان جدب المواسم سنة ١٩٣٦ اضطرها لاستيراد ربع حاجتها للمواد الاستهلاكية لعام ١٩٣٧ كما أن مواردها من اللحم والزبدة لم تكن تسد حاجتها ، وكذلك النسيج(باستثناء القنب والحرير) ، والمنتوجات الصناعية (باستثناء البوكسيت والكبريت) . ان اشرافها على آبار البترول في البانيا وتقوية استثمارها لمواردها الطبيعية ، والسياسة الجماعية التي اعتمدتها ، كل ذلك لم يوفر لايطاليا سوى استقلال نسبي . ففي عام ١٩٣٧ ، كان استيرادها للمواد الأولية يؤلف ٥٤ بالمائة من مجموع استيرادها ، كما أن

استيراد المتوجبات نصف الجاهزة مثل ٢٠ بالمائة ، ومساهمة الامبراطورية الاستعمارية التي أنشأتها من عهد قريب لم يكن بوسعه قط أن يحررها من هذا العبء .

وتأتي المانيا في طليعة الدول « غير القانعة » أو غير الراضية . ان اتجاه البلاد نحو الدكتاتورية والتنظيم الشديد الشكيمة للاستهلاك ، استطاعا أن يؤمنا لها ، منذ عام ١٩٣٧ ، أن تكتفي نفسها بنفسها تقريباً من الوجهة الغذائية . وفي مجال الخامات ، هي أوفر حظاً من ايطاليا ومن اليابان . فهي من كبار البلدان المنتجة الفحم والبوتاس والليفيت والملح ، وفيها من المنغنيز ما يفي ، الى حد كبير ، بحاجاتها (٦٠ بالمائة) ، والرصاص ٣٢ بالمائة ، والخشب والغرافيت ٧١ بالمائة ، فهي مضطرة لاستيراد ٩٠٪ حاجتها من النحاس وثلثي حاجتها من الحديد . واستطاعت صناعتها الكيماوية أن تؤمن لها بديلاً (عن البترول) بهدرجنة الفحم الحجري والليفيت . ومع انها ضمت اليها عام ١٩٣٨ كلاً من النمسا ومقاطعة السوديت اللتين أمنتا لها جانباً من حاجتها للمواد الغذائية وبعض الخامات الاخرى ، فقد زادتا ، مع ذلك ، من همومها كما زادتا من العجز الذي تعاني منه . واضطرارها للخامات ، ريثما يتم تنظيم صناعتها وتأمين التنسيق فيما بينهما وبين صناعات الرايخ ، ووضع خطة كاملة في هذا الصدد .

وهنالك دول أخرى اعتبرت نفسها غير راضية وإن لم تبد اعتراضات رسمية في هذا الشأن ، وكانت هي الاخرى قلقة جداً لافتقارها للخامات . كان هذا هو بالفعل وضع بولونيا التي كان عليها أن تستورد القطن والأصواف والخرضوات والجلود الخام والنحاس ، مما كان يؤلف معاً ثلث استيرادها عام ١٩٣٢ ، في الحين الذي اشتد فيه الضغط الديموغرافي . وفي مثل هذا الوضع تقريباً تسكعت البرازيل ورسفت ، اذ بالرغم مما لديها من موارد احتياطية ضخمة ، كان عليها أن تغذي صناعاتها التحويلية باستيرادها المستمر الفحم والبترول بينما تفتقر اصلا للقمح .

في وسط هذا النقاش والجدل الذي قام حول الخامات ، كانت الدول غير القانعة تتعلل قبل كل شيء فيما تتعلل به من حجج ، افتقارها لوسائل الدفع . « ان المانيا تحتاج لمواد أولية تدفع ثمنها بالمارك الألماني » كان يردد أحد خبرائها في علم الاقتصاد ، هو الدكتور شاخت ، منذ ١٩٢٦ ، وان « المانيا لا تستطيع حل المشكلة إلا بانتاجها هي نفسها للمواد الاولية الضرورية لاستهلاكها ، على أرضها وفي دارها بالذات » . هذا هو السبب بعينه الذي يحدو بالدول المفتقرة للخامات ، للمطالبة بإعادة توزيع المستعمرات توزيعاً عادلاً . وهذا لا يعني قط أن المستعمرات التي لم تكن تعطي مجتمعة سوى ٣ بالمائة من مجموع الخامات ، كان باستطاعتها أن تفي بحاجات دولة واحدة من الدول غير الراضية ، إنما إعادة توزيع المستعمرات قد يكون فيه حل لقضية العملات الصعبة أو النقد النادر .

وقضية الخامات المرتبطة بتوزيع المستعمرات التي تطالب بها كل من المانيا وايطاليا واليابان

وبولونيا ، ترتبط بسبب وثيق بقضية الاسواق التجارية . كل هذه البلدان ترى نفسها مرتبطة باسواق أجنبية في كل ما يتصل بتموينها بالمواد الاولية وبتصريف انتاجهـــا أيضاً . ان توسع صادرات اليابان بواسطة سياسة الاغراق التجاري التي سارت عليها مثلاً في منسوجاتها ، مكنتها من تصريفها باسعار تقل من ٤٠-٧٠ ٪ عن أسعار المنسوجات الاوروبية ، الامر الذي حمل الدول الاخرى على فرض رسوم حماية عالية والاخذ بسياسة التقنية والاجـــازة المسبقة . ففي دول كألمانيا وايطاليا مثلا تستطيعان الحد من نتائج سياسة الاغراق التجاري والوقوف في وجهها بصورة فعالة ، فالاسواق الخارجية لم تكن تصلح سوقـاً التنفيق الا باعتماد اساليب ووسائل نقدية معقدة ، او بواسطة عقود واتفاقات ثنائية تلبسط في وضعها من قبـــل . ولعل ابسط الحلول واقربها مثالاً كان ولا شك الحصول على اراض جديدة . وهذا ما حمل اليابان على التطلع نحو الصين بقصد بسط سيطرتها وفرض الحكر على اسواقها الضخمة . وحاولت المانيـــا من جهتها ايجاد منطقة نفوذ اقتصادي وسياسي لها في اوروبا الجنوبية والشرقية ، وفي اميركا اللاتينية كما راحت ايطاليا من جهتها تنشيء لها مثل هذا المدى الحيوي في اوروبا الوسطى وفي البلقان ، وفي الشرق الادنى .

النتيجة

وهكذا نرى كيف ان الازمة دفعت بالعالم نحو « اقتصاد معقد » جـاء حركة عكسية ضد النظام القائم على التوزيع الدولي للعمل وعلى حرية التبادل التجاري. ولذا رأى ان يوجه اقتصاده القومي نحو الاستقلال الذاتي . فنظرية الاقتصاد القومي والرغبة في تأمين الاستقلال السياسي ، والحاجة الشديدة الى القطع النادر والعملات الصعبة والاستعداد لحرب جديدة وشيكة الوقوع ، كل هذه العوامل مجتمعة ، تضافرت معاً لتعجيل عملية مكننة الدول التي لم تتمكن بعد ولم تتصنع ، وعلى حمل الدول الاخرى لتحقيق استقلالها الذاتي في كل ما يتعلق بأمور التموين والتجهيز بالمواد الغذائية والخامات . فكل الشرائـــع والاساليب التي استخدمت في هذا السبيل ادت الى عزل الدول او مجموعات الدول ، كما ادت بالتالي الى انكفاء ذريع في الحركة التجارية العالمية . وبدلاً من عقد الصفقات الحرة بين الشاري والبائـع ، وخلافاً لناموس العرض والطلب ، اخذت المقايضات تلعب دوراً هاماً في هذا المجال . فالحكومات هي التي تتفاوض وتساوم بعضها مع بعض ، فحلت بذلك محل الخـاصة والافراد ، وفرضت عليهم ارادتها ووجوب التقيد برغبتها العليا ، حتى ان البعض من هــــذه الدول عمدت الى سياسة الاحتكار الشامل او الجزئي للتجارة الخارجية . وعلى كل حال ، ففي عام ١٩٣٩ الذي اندلعت فيه شرارة الحرب العالمية الثانية ، لم تكن الازمة الاقتصادية انقشعت غيمتها وارتفعت كربتها بعد ، ولا يزال العالم يرى قسماً من عتاده واجهزته جامداً لا يعمل ولا يتحرك ، كما يرى الملايين من العمال العاطلين عن العمل يتعذر بل يستحيل دمجهم في دوامة الانتـاج . فهم يؤلفون بالفعل جيشاً قائماً وليس جيشاً احتياطياً من العاطلين عن العمل . فالبنيان الاقتصادي العالمي مخلـع ، مقعد ، اكثر من اي وقت مضى .

الفصل الرابع

الأزمة

ونتائجها الفكرية والاجتماعية

نحن في وقت تنتصب فيه بورجوازية فولتريانية تقليدية مستمسكة بفلسفة « الاتولر » ، لتدافع عن المواقف التي تحتلها ضد مبادىء حداثتها . فاذا بها تنقلب فجأة لتقف الى جانب الذين يعاوضون التقليد بحرية الضمير ويعاوضون المذهب الفلسفي على التحليل الموضح ، والشك محل اليقين .

ر . م . البيريس

١ – نتائج الديموغرافيا

السكان

ان الاهمية التي ارتدتها الازمة وطول مداها واتساع البطالة وازدياد مشكلات الحياة تعقيداً وابهاماً ، كل هذه الامور بعثت في النفوس النزعات القديمة التي تقول بنكوص او تقهقر معدل المواليد ، بينما فقر التغـــذية بين اولاد العاطلين عن العمل كان عاملاً في تأخر نموهم وتكاملهم كما كان من العوامل التي زادت من نســـبة الوفيات . فعقود الزواج (باستثناء فرنسا) لم يهبط معدلها الا قليلاً ولمدة وجيزة ، مع ان « الاجيال العجاف » التي وُلِدت خلال الحرب ١٩١٤–١٩١٨ ، بلغت سن الزواج ، كما ان معدل المواليد تناقص في البلدان الصناعية شأنه في البلدان الزراعية .

فنمو السكان الذي كان معدله في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر ١٢ ٪ في انكلترا لم يعد ، بين ١٩٣٠–١٩٤٠ ، سوى ٤،٥ ٪ . وهبطت النسبة كذلك في السويـــد من ٧ الى ٣،٥ ٪ ، وفي سويسرا من ١٣ الى ٤ بالمئة ، وفي المانيـــا من ١٤ الى ٩ بالمئة ، وفي فرنســا من ٢ الى ١ بالمئة . والمعدل الاجمالي التناسل الذي كان بين ١٩١١ – ١٩١٤ ، في جميع بلدان اوروبا الشمالية والغربية ١،٤ بالمئة هبط الى ٠،٩ بالمئة عام ١٩٣٣ . والحركة السكانية

لا تحافظ على معدلها او انها لا ترتفع قليلاً الا عن طريق انخفاض معدل الوفيات الذي هبط بين ١٩٢٥ – ١٩٣٥ ، من ١٧٤ في الالف ، الى ١٥٧ في الالف في فرنسا ، ومن ١١٩ الى ١١٨ في الالف في المانيا ، ومن ١٧١ الى ١١٧ في الالف في انكلترا . والفرق بين المواليد والوفيات اصبح ٢٣٣,٠٠٠ في المانيا ، عام ١٩٣٣ و ١٢٢,٠٠٠ في انكلترا ، عام ١٩٣٥ . امــا في فرنسا ، فلتسجل السنة نفسها عجزاً بلغ ١٨,٠٠٠ . ويمكن ان نلاحظ في جميع بلدان اوروبا الشمالية والغربية التي تأثرت اكثر بالأزمة ، منطقة عقر واسعة ، حيث تعجز حركة المواليد عن تجديد السكان باستثناء البلاد الواطية . وهـــذا العقر يبرز على اشده في المدن الكبيرة (جنيف ، فيينا ، مونيخ ، فرانكفورت على الماين ـ همبورغ ـ برلين ، الخ) حيث معدل الانجاب يهبط الى ٥ بالمائة .

وفي الولايات المتحدة ، جاءت الأزمة بالنتائج ذاتهـــا في الحركة السكانية . فالسكان الذين ازداد عددهم ١٧ مليون نسمة بين ١٩٢٠ – ١٩٣٠ لم يزدد عـــددهم سوى ٨,٨٩٤,٠٠٠ بين ١٩٣٠ – ١٩٤٠ . فمعدل النمو هبط ، والحالة هذه من ١٦,١٪ الى ٧,٢٪ وهو ادنى رقم سجله النمو السكاني في البلاد منذ عام ١٨٨٠ . ولعل سبب ذلك يعود لتقييد حركة الهجرة الى البلاد تقييداً شديداً ، كما ان عدد الذين غادروا البلاد ، زاد ٤٠٠,٠٠٠ فالزيادة ليست ، والحالة هـــذه ، سوى حصيلة فائض المواليد على الوفيات لا غـــير .

حتى في هذه البلدان المعروفة بنمو السكان وتكاثرهم السريع ، فقد اصيبت الحركة الديموغرافية بالهبوط . ففي بولونيا حيث كان معدل الزيادة يتراوح بين ١٣ و ٢٠ بالالف وفقاً للولايات ، بين ١٩٢٦ – ١٩٣٠ ، إذ بهذا المعدل يهبط من ١٤ – ١٠ في الالف بين ١٩٣٣ – ١٩٣٨ . ونمو السكان في اليابان ، بلغ الذروة ، عام ١٩٢٠ ، إذ سجلت الزيادة ٣٦,٢ بالالف. فقد هبطت هذه النسبة الى ٣٠,٨ بالألف عام ١٩٣٨ .

نحو تشجيع الانجاب

رد الناس في البلدان الليبرالية ظاهرة البطالة الى « تزايد عدد السكان» بحيث بدا لهم ان الحد الادنى من الأولاد هو خير دواء لتفادي هـــذا الداء الوخيم . ولقد رأينا مؤتمر الكنيسة الانكليكانية المعقود في لمبث ، عـــام ١٩٣٠ يوصي بتحديد النسل . أما الحكومات الدكتاتورية ، التي تهتم كثيراً بالوضع الذي يسببه نقصان النسل في مقدرة البلاد الحربية ، فقد راحت تبذل جهداً طائلاً لعكس الاوضاع ولتأمين زيادة الانجاب والمواليد في البلاد . فمنذ عام ١٩٢٧ ، راح موسوليني يدشن « معركة المواليد » . فقـــد زين الناس ان تفوق ايطاليا وعظمتها في العالم انما يقومان ، قبل كل شيء ، على نسبة عدد سكانها ، وراح يتخذ بعض الاجراءات والتدابير التي تساعد على نمو السكان وتكاثر الانسال والولدان بين الأسر الايطالية : كتخفيض الضرائب ، والتسليف بقصد الزواج ، والمخصصات العائلات الكبيرة ، وتفضيلها على غيرها في التوظيف والسكن ، وتوزيع الاوسمة ، وتخفيض الرسوم على التركات وغير ذلك . وهكذا ارتفع عدد السكان في ايطاليا من ٤١,٢٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٠ ،

الى ٤٤٠٠٠٠٠ في عام ١٩٤١ ، وهي زيادة جاءت اكبر في ايطاليا الجنوبية ، المعروفة بتأخرها وبؤسها الاجتماعي، منها في ايطاليا الشمالية الشديدة التصنيع والمديدة المدن .

ومنذ ان استولى النازيون على الحكم في المانيا ، اتخذوا على شاكلة ايطاليا والفاشية فيها ، تدابير واجراءات للحد من « الانتحار القومي » ، وللحد من هبوط حركة المواليد في « هذا الشعب الذي لا فتيان ولا احداث عنده » . وهكذا ارتفع معدل المواليد من ١٤٧ في الالف ، عام ١٩٣٣ الى ٢٠٤ في الالف عام ١٩٣٩ .

تباطؤ مركزية المدن

استمرت الحركة في المدن وان بدت عليها نزعة ملموسة الى التباطؤ والتمهل . فقد حدث في السنوات الاولى من الازمة ، وفي الولايات المتحدة الاميركية واليابان ، على الاخص ، حركة ارتداد بين السكان من المدن الى الريف . واخذ العاطلون عن العمل يغادرون المدن ليسكنوا مع عائلاتهم وأسرهم في الريف ، واخذ البعض في انكلترا ، اثر استمرار بعض الصناعات التقليدية في تدهورها ينزحون مع اسرهم من هذه « المناطق الموبوءة » بالبطالة في الشمال ومقاطعة بلاد غال ، باتجاه لندن والمنطقة الوسطى حيث تنشط الصناعات الجديدة . وصدر عام ١٩٣٤ في انكلترا قانون بتشجيع تيار الهجرة والنزوح بين العاطلين . ومع ذلك ، فلندن الكبرى التي زادت ٢٧ بالمئة بين ١٩٢١ — ١٩٣١ ، لم يزدد معدل نموها سوى ١٩ بالمئة خلال السنوات العشر التالية .

وحركة النزوح والانتقال في داخل الولايات المتحدة تميزت بهجرة الزنوج من الولايات الجنوبية نحو الولايات الشمالية ، كما راح السكان العاملون في المرافق الزراعية ينزحون من الوسط نحو الغرب تفادياً للقحط الذي يتعرضون له بعد جدب موسم ١٩٣٤ الذي تضرسوا به . والاحصاء الذي جرى عام ١٩٤٠ ، اوضح لاول مرة كيف ان معدل نمو السكان في المدن والريف جاء بنسبة واحدة اي في حدود ٧ بالمئة بالمقارنة مع السنوات العشر السابقة حيث كان نمو السكان بمعدل ٢٧,٣ بالمئة في المدن ، و ٤,٤ بالمئة في الريف. ومدن الجنوب والغرب هي التي سجلت اعلى نسبة من النمو ، بينما المدن الواقعة الى الشرق بقيت على وضعها او سجل بعضها هبوطاً طفيفاً (فيلادلفيا ٠,٨ بالمئة وكليفلاند ٠,٢ بالمئة) .

فقد استمرت حركة النزوح من الريف الى المدن بالرغم من التدابير والاجراءات التي اتخذتها السلطات المسؤولة للحد منها او للحؤول دونها . وهذا التأكيد لا يصح اطلاقه على الجزر البريطانية فحسب حيث لم يعد سكان الريف يمثلون سوى ٢٠ بالمئة من مجموع السكان ، عام ١٩٣٠ ، بل ايضاً على المانيا وايطاليا . فسكان الريف كانوا يؤلفون ٣٥ بالمئة من مجموع سكان المانيا عام ١٩٢٥ ، فاذا بهذه النسبة تهبط الى ٣٢,٨ بالمائة عام ١٩٣٣ ، والى ٣٠,١ بالمائة عام ١٩٣٩ ، بالرغم من التشريع الذي هدف الى تشجيع الملكية الصغيرة موطداً بذلك العلاقة بين الارض والانسان . فقد انخفض عدد العاملين في الزراعة، بين ١٩٣٣ — ١٩٣٩ الى ١٠ بالمائة وجاء الهبوط في ايطاليا بمعدل ١٠ بالمائة لا سيما بين العمال المياومين وصغار الملاكين ، مع ان الهجرة حدّ منها او منعت تماماً ، من جراء الاجراءات التقليدية التي اتخذتها البلدان التي يتجه

اليها تيار الهجرة او من قبل التشريع الفاشي .

فالحركة لا تقتصر بالطبع على اوروبا . فالبرازيل تشهد تطوراً كبيراً في مدنها الرئيسية كالريو وساوباولو (٦٠ بالمائة) وبلو هوريزنته . والهند شهدت ارتفاعاً كبيراً في سكان مدنها الكبرى . فقد ارتفع عدد سكان هذه المدن من ٤٦ مليوناً الى ٦٢،٣٠٠،٠٠٠ ، في عام ١٩٤١ كما ارتفع عدد المدن التي يزيد عدد سكان الواحدة منها على ٢٠ الفاً ،من ٣٧٣ الى ٤٧٤ مدينة ، كما ارتفع عدد المدن التي تجاوز عدد سكان الواحدة منها الـ ١٠٠،٠٠٠ من ٣٦ مدينة الى ٥٧ . وشهدت المدن الكبيرة تطوراً ملحوظاً في امتداد رقعتها السكنية يتراوح بين ٢٠ — ٨٠ بالمائة . فقد تضاعف عدد سكان كوابور خلال عشر سنوات (من ٢٤٣،٠٠٠ — ٤٨٧،٠٠٠ . واحمد آباد زادت ٩١ بالمائة وكلكوتا ٧٩ بالمائة ، ودكا ٥٣ بالمائة ، ودلهي ٥٠ بالمائة وكراتشي ٤٥ بالمائة وهلم جرّا) . وفي اليابان كان ٤٣ بالمائة من سكان البلاد يقطنون مدناً يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، فارتفع هذا العدد ، عام ١٩٤٠ الى ٥٠ بالمائة ، بينما هبط عدد سكان الريف من ٥٤ بالمائة ، عام ١٩٢٠ الى ٤٥ بالمائة عام ١٩٤٠ .

الهجرات

قد تتمثل اخطر نتائج الازمة على الأخص في توقف الهجرة بصدد ان اخذت حركتها تتباطأ منذ العقد السابق . فقد اقتصر تيار الهجرة ، بين ١٩٢٩ — ١٩٣٩ ، على بضع مئات الألوف من المهاجرين . وما هو ابلغ من ذلك ، ان عدد النازحين في بعض البلدان يزيد عدد الداخلين اليها ، كالولايات المتحدة مثلا حيث جاءت نسبة النازحين ، بين ١٩٣٢ — ١٩٣٥ ، تشيل كثيراً على نسبة القادمين اليها . وخلال السنوات العشر الأخيرة ، لم يبلغ عدد القادمين اليها ٣٠ بالمائة من الحصص المحددة رسمياً الا في سنة ١٩٣٩ ، اذ بلغت فيها نسبة القادمين ٤٠ بالمائة من هذه الحصص. وعلة ذلك انه طُلب من كل طالب هجرة عام ١٩٣١ ان يبرز شهادة تثبت قدرته المالية على العيش فيها دونما عمل، وهو شرط يرحب بهجرة الاغنياء اليها او قدوم من يستطيعون التمويل على اصدقاء لهم فيها ، وهو قانون اوصد ابواب اغنى البلدان مورداً واقواها في العالم ، في وجه المعرضين لطغيان النازية واستهدفوا لبطشها . وفي كندا الغيت التشريعات المشربة بالحرية ، وفُرضت عام ١٩٣١ ، قيود قاسية حتى على الرعايا البريطانيين ، فالمزارعون وحدهم ، باستثناء البريطانيين ، يقبلون دونما شرط . وهكذا ، فمعدل المهاجرين الذين كانوا يدخلون البلاد ، بين ١٩٢٠ — ١٩٣٠ ، البالغ ١٢٢،٠٠٠ في السنة هبط الى ٢٧،٠٠٠ عام ١٩٣١ ، والى ١١،٠٠٠ عام ١٩٣٥ ، ليرتفع قليلا الى ١٧،٠٠٠ عام ١٩٣٨ . وسارت على هذا النهج كل من الارجنتين والاوروغواي ، واتخذت فيها اجراءات مشابهة . وحاولت البرازيل، منذ عام ١٩٣٤ ، ان تقف في وجه المهاجرين القادمين من جمهوريات اميركا الوسطى واميركا الشرقية ، واقتصر الدخول اليها على المزارعين دون سواهم . ومجمل القول ، ان المعدل السنوي للمهاجرين في اوروبا بين ١٩٣٥ — ١٩٣٩ هو ادنى من ٥٠،٠٠٠ ، الا ان هذا المعدل عاد وارتفع عام ١٩٣٩ الى ١١٠،٠٠٠ ، يقابله ١،٥٢٧،٠٠٠ ، عام ١٩١٨ . وفلسطين

وبعدها فتحت ابوابها على مصراعيها لتيار قوي موصول من مهاجري اليهود المضطهدين في المانيا . فقد دخلها ٩١،٠٠٠ مهاجر يهودي بين ١٩٣٠ – ١٩٣٤ ، و ٦١،٠٠٠ عام ١٩٣٥ ، بحيث بلغ عدد اليهود فيها ، عام ١٩٤٠ ، الى ٤٧٥،٠٠٠ ، بينما لم يكن عددهم فيها عام ١٩٣٠ سوى ١٦٧،٠٠٠ ، وهو اقصى ما قدرت هذه البلاد استيعابه منهم في تلك الفترة . وبقيت فرنسا الدولة الرئيسية في اوروبا التي تستقبل وفود المهاجرين الا انها وضعت في النهاية حداً لهذا التيار . فقد استقبلت عام ١٩٣٠ ، اكثر من ٢٢٢،٠٠٠ ، كما انها سدت ابوابها في وجه البولونيين .

وقد تأثر بهذه التدابير الزاجرة والاجراءات التقييدية على الأخص ، تلك البلدان التي كانت معيناً لا ينضب للهجرة كبولونيا وايطاليا اللتين الفتا اقوى مراكز الاغتراب في اوروبا . فقد هبط في الاولى معدل النازحين من ١٩٣،٠٠٠ بين ١٩٢٦ – ١٩٣٠ ، الى ٤٦،٠٠٠ ، بين ١٩٣١ – ١٩٣٥ ، ثم عاد فارتفع الى ١٢٩،٠٠٠ عام ١٩٣٨ . اما ايطاليا التي نزح منها ٨٧٣،٠٠٠ مهاجر عام ١٩١٣ ، و ٢٠١،٠٠٠ عام ١٩٢١ ، فلم يبارحها ، في الفترة الواقعة بين ١٩٢١ – ١٩٣٠ ، سوى ٥٢٩،٠٠٠ ، وهو عدد هبط الى ١١٨،٠٠٠ بين ١٩٣٨ – ١٩٤٠ ، نتيجة للاجراءات التي اتخذتها الحكومة منذ عام ١٩٢٨ للاحتفاظ بسكان البلاد او بالاحرى استعداداً لفتح افريقيا الشرقية .

ومن نتائج الازمة في القطاع الديموغرافي ومن عقابيلها المؤسفة ، طرد اليهود من الرايخ الثالث . فقد كان في المانيا ، عام ١٩٣٣ ، نحواً من ٥٠٠،٠٠٠ يهودي ، بينهم ١٠٠،٠٠٠ من يهود اوروبا الشرقية . فالاجراءات الرسمية القاسية التي تعرضوا لها منذ ربيع عام ١٩٣٣ ، ونغصت عليهم الحياة ، والعنف الذي ذهبوا فريسة له ، حملهم على الهرب الا ان تصفية املاكهم قوبلت بصعوبات وتعقيدات شتى لم يبق لهم بعدها سوى ١٠٪ من ثرواتهم . فمن ١٩٣٣ الى ١٩٣٩ ، استطاع ٢٢٦،٠٠٠ تقريباً من اليهود مغادرة الرايخ . فاذا ما اضفنا الى هذا العدد « غير الآريين » والمهاجرين السياسيين لبلغ عدد الذين نزحوا عن البلاد ٤٠٠،٠٠٠ تقريباً توجه معظمهم الى فلسطين ، كما توجه ٢٧ ٪ منهم الى الولايات المتحدة الاميركية ، و ١٧،٠ ٪ الى بلدان اميركا الجنوبية ، و ١١،٠ ٪ الى فرنسا .

وفي اسبانيا حيث حطمت الازمة الحياة الاقتصادية والسياسية في البلاد ، فقد احدثت الحرب الاهلية فيها تيارات قوية للنزوح عن البلاد . فقد كان لتقدم القوات المغربية ولقصف المدن الكبرى في المناطق التابعة للجمهورية ان حمل اكثر من مليونين من السكان كانوا استقروا عام ١٩٣٨ ، في المنطقة الواقعة تحت سيطرة الجمهوريين ، ثم اضطرهم زحف الكتائب الاسبانية التابعة للجنرال فرنكو ، لهجرات جديدة . وعندما تم عام ١٩٣٩ فتح مقاطعة كتالونيا ، دخل اكثر من ٤٥٠،٠٠٠ اسباني ، بينهم ٢٢٠،٠٠٠ من وحدات الجيش الجمهوري الى فرنسا حيث استقر ٢٠٠،٠٠٠ منهم نهائياً ، وغادر ١٥ الفاً منهم الى اميركا اللاتينية . ويقدر العارفون ان

اسبانيا خسرت عام ١٩٣٩ اكثر من ٧٠٠٠٠٠ بين قتيل ومهاجر .

ان اهمية القضايا الديموغرافية ، التي اثيرت منذ الحرب العالمية الثانية ، والتي زادتها الازمة الاقتصادية تعقيداً وتشابكاً ، لا يصح الانتقاص من اهميتها . فسياسة تعقيد الهجرة التي سارت عليها الولايات المتحدة الاميركية وحذت حذوها فيما بعد ، الدول الاخرى، اوجدت في اوروبا وضعاً ازداد تعقيداً يوماً بعد يوم ، كما حالت الدكتاتورية ، لدى هذا الفريق ، والحماية القاسية لدى الفريق الآخر ، دون تبادل المحاصيل كما حالت دون تبادل الناس .

٢ – تأثير الأزمة في البنيان الاجتماعي

أثارت الازمة في كل البلدان ، انكفاءً في الدخل القومي كما احدثت فيهما حركة توزيع من جراء التغييرات العميقة التي اوقعتها في البنيان الاجتماعي . فقد وسعت ، على الاجمال ، من نطاق الفروق الاجتماعية ، كما عملت في تسميم العلاقات بين هذه الطبقات وزادتها خصومة ومنافسة .

بين طبقات عليا وطبقات دنيا

ادى هبوط الاسعار الى زيادة القوة الشرائية العملة ، كما ادى الى إعادة تقييم الديون والحقوق المكتسبة والاملاك العقارية .

فقد عادت بالنتيجة بفائدة على اصحاب الدخل وعلى الموظفين (في حال عدم اخضاع مرتباتهم للتخفيض) ، وعلى اصحاب الاملاك . فكل هؤلاء الذين استطاعوا الاحتفاظ بمواقعهم ، أفادوا كثيراً من كلا الهبوط كما انهم حققوا بعض الوفر . فقد حصل ، أقله في مطلع الازمة زيادة في الوفر المدّخر ، إلا ان المدّخرين الصغار منهم والمتوسطين على السواء ، ما لبثوا ان استهلكوا بسرعة مدّخراتهم ، حتى اذا ما كادت تتحسن الاسعار وترتفع انقلب وضعهم رأساً على عقب وذابت ثروتهم .

أما اصحاب رؤوس الاموال الضخمة ، فسقوط الاسهم في البورصة ونقصان الاحتياطي لدى الشركات ، والتضييقات التي تعرضت لها مشروعات الاستثمارات او توقفها الموقت فقد كبدهم كل ذلك خسائر باهظة ولو لفترة قصيرة . ومنذ عام ١٩٣٣ بالذات ، ومع عودة الاشغال واختفاء عدد كبير من الاستثمارات الصغيرة ، طلعت على الشركات الكبرى ، في معظم الحالات فرصة لتحسين اوضاعها . فقد اناخت الازمة بكلكلها على صدر الطبقات الصغرى والوسطى اكثر مما اناخت على الطبقة البورجوازية العليا . جاء تأثير الازمة على الطبقة المتوسطة متقلباً ، الا انها انتقصت كثيراً من وضع اصحابها على الاجمال وعملت على افقارهم . فرجال الصناعة ، الصغار منهم والمتوسطون ، واصحاب المهن الرازحون تحت الدين او يعملون بأجهزة واعتدة قديمة العهد ، وقد قست عليهم الحياة ، هم الذين استهدفوا اكثر من سواهم للاختناق وضيق التنفس من جراء التقييدات الرسمية القاسية ، ومزاحمة شركات الاستثمار الكبرى المتكتلة . ففي

يطاليا ، مثلاً نرى ان معظم الشركات الـ ٥٠٠٠ التي زالت من الوجود انما كانت شركات تشغّل الواحدة اقل من ١٠ عمال.وعلى هذا قس ايضاً المانيا وبريطانيا العظمى. وقد تحول وضع شطر كبير منهم،فامسى بعضهم منتجين مستقلين والبعض الآخر من اصحاب الوظائف الكبيرة أو من متوسطيهم ، ومن تبقى ، عاش عيشاً نكداً قاسياً . فاصحاب المهن وصغار التجار راحـــوا يبحثون لهم عن وظائف في الادارة او يتحولون الى وكلاء متجولين .

ومعظم اصحاب المهن الحرة كالمحامين والاطباء والصحفيين ، يعيشون في قلق مستمر . فهم يتزاحمون على زبن فقراء قعد بهم الدهر ، يحاولون التخفيف من حدة المنافسة بالحـد من وصول اعضاء جدد للمهنة . ففي ايطاليا ، لم يُقبل في سلك المحاماة اكثر من ٢٠٠ من خريجي حمـلة شهادة الحقوق . ومما لا شك فيه قط ان هذا الوضع جعل فريقاً من صغار التجار ومن اصحاب الحرف الصغيرة ومن رجال الفكر اكثر حساسية للدعاوة المناهضة للسامية التي نفخ في ريحها ابواق قوية في كل من اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية .

بين المزارعين والعمال

والعاملون في القطاع الزراعي تـأثروا اكثر من غيرهم من فروق اسعار المواد الصناعية والمحاصيل الزراعية ، بعـد ان راحوا فريسة هبوط الاسعار فقضمت من دخلهم الصافي ، بينما النفقات التي يستهدفون لهـا (شؤون التغذية ، والضرائب والديون المصحوبة بالرهن) لم يكن في مستطاعهم عصرها او ضغطها . فحيثما نعموا بحماية جمركية كافية ، فقد وجدوا انفسهم يتمتعون بشيء من الضمان نوعاً مـا . اما في البلدان الزراعية الطابع ، فقد اصيب المزارعون فيها في الصميم ، بعد ان اضطروا للتقليـل من شراء الملابس والبترول كما امتنعوا عن شراء اعتدة واجهزة ميكانيكية جديدة. والفلاح المسكين الذي لا يستطيع تـأمين تنفيق محصوله الا في السوق الداخلية ، فقد كان عرضة الشكوى والتذمر اكثر من سواه ، اذ ان الملاك الكبير كان يقبض رسم مكافأة تشجيعية من قبل الدولة ، على كل ما يصدره .

اما الطبقة العمالية ، فقد رأت نفسها ، هي الأخرى ، عرضة ليس للحرمـان من الأمور المادية فحسب ، بل استهدفت ايضاً للهوان والهبوط الاجتماعي.فقد اصابتها الازمة مادياً ولاسيما سياسياً . فحطمت مـا كان لها من وحدة متماسكة وذلك بوقوف المستمرين في العمـل ضد الذين لا يجدون لهم عملاً . فقد خلقت طبقة دنيا في صميم البروليتاريا ، هي طبقة العـاطلين عن العمل ، وعطلت ضمن الطبقة العمالية ، الحركة القديمة التي كانت ترمي معها للمساواة بين الجميع. وبسرعة كلية حولت الازمة « توزيع العمل الى توزيع البؤس والشقاء » .

وبعد ان اصابها هبوط الاجور في الصميم ، وبعد ان رأت نفسها متقسمة على ذاتها وروعت، وحطمتها البطالة ، لم يعد في مقدور هذه الطبقة اجبار ارباب العمل على تقديم تنازلات والقبول بتقديم ترضيات لها . ان مـا آلت اليه المنظمات العمالية من ضعف ، في الولايات المتحدة الى عهد الخطة الجديدة ، والقوة التي تمتع بها ارباب العمل في فرنسا ممثلة بهذه الاتفاقـات الجماعية التي تم

الوصول اليها ، قبيل الازمة ، والتي لم يستفد منها سوى ٤ بالمائة من العمال ، ووجود جيش من العاطلين الاحتياطيين لدى ارباب الصناعة ولدى الفائض من سكان الريف، والغاء كل تشكيلات عمالية في المانيا وفي ايطاليا وفي اليابان ، كل هذه الاعتبارات والعوامل ، جعلت ارباب العمل يملون شروطهم ويفرضونها فرضاً على العمال .

اما العمال المنقطعون كلياً عن العمل ، فقد قطعت لهم مساعدات محسوسة في انكلترا . ثم في الولايات المتحدة الاميركية . وقدمت لهم الاستثمارات الكبرى ، في المانيـا ، في عداد الاجراءات التي اتخذتها في سبيلهم ، اجوراً متدنية . اما في فرنسا ، فحالتهم فيها لم يطرأ عليها اي تحسن يذكر ، الا بعد عام ١٩٣٦ ، وبقي وضعهم ، في كل مكان ، يترجح بين وضع متقلقل سريع العطب ، ووضع يائس بائس .

فكيف يستطيعون الى العيش سبيلا في هذه الفترة التي بلغ فيها الشقاء الذروة في العنف؟ لاسيا في هذه البلدان التي لا اثر فيها لتنظيم يذكر للاسعاف ، في بودابست مثلاً ، حيث نجد ، في سنة ١٩٣٢ ، نحواً من ١٨٥,٠٠٠ عامل من اصل مليون (اي ١٨ بالمـائة) يتلقون بعض العون المالي ، وفي فرصوفيا حيث ٨ بالمائة من العمال يتناولون بعض المساعدات من الاسعاف العام . وبواسطة اشغال عابرة يقوم بها العاطل عن العمل او زوجته (كالاشغـال المنزلية والغسيل) وتربية الاطفال والتجارة الصغيرة بدون ترخيص في الاسواق ، والخدمات الصغيرة ، وبيع الملبوسات العتيقة والاثاث، او تأجير زاوية في غرفة او أسرّة وبعض الديون والصدقات. وكثيراً ما لم تتغلب بعض الاسر على خطر الفناء والابادة الا بفضل تضافر اعضائها ، يمولهم الشخص الذي يجد لهم عملا او بعض افراد الاسرة الذين بقوا في الريف . فالحيـاة المشتركة في الاسرة هي وحدها التي عرفت ان تحقق بعض الارباح الضئيلة التي يوفرها الجميع ، وهي التي انقذت الاسرة من فناء محتوم . كذلك يجب ان تأخذ بعين الاعتبار هـنا مهنة الاستعطاء وتعاطي البغاء ، كما يجب ان نأخذ مورداً آخر ، يؤمنه العمل الاسود، اذ كان الوفـر من العمـال العاطلين ، على استعداد ليعملوا اي شيء لقاء أجر زهيد ما . اما الذين لا طـاقة لهم على العيش في جو من البؤس والشقاء، فقد صرموا حبل حياتهم بالانتحار تخلصاً من البؤس الذي يتسكعون فيه . فقد بلغ عدد الذين انتحروا في هنغاريا ، بين العاطلين عن العمل ، عـام ١٩٣٣ ، ثلاثة اضعاف عددهم عام ١٩٢٩ ، اي ٧٥٠ منتحراً مقابل ٢٤٠ .

٣ — الحركات والاحزاب العمالية

الحركة العمالية خلال الازمة

بعثت الازمة الميل الى الثورة كما شحذت الاحقاد بين الطبقات . فقد تباين اثرها بين المنظمات العمالية : فأدى الهبوط الاقتصادي، في بادىء الامر الى تخفيض محسوس بين اعضاء النقابات، كما حد من نشاطها وحلت المنظمات

القائمة في البلدان التي لم تقع تحت نظام دكتاتوري على ان تتطور باستمرار . والبلدان التي تضررت بالاكثر بهذه الازمة ، سجلت الحركة النقابية فيها تقهقراً كبيراً . فقد جاء انهيارها ، في المانيا ، مباغتاً وصادعاً ، اذ فقدت النقابات الحرة اكثر من ٨٠٠٠٠٠ من اعضائها المنتسبين ، اي ١٦ بالمائة من مجموع اعضائها المسجلين ، في عام ١٩٣٠ و ١٩٣١ ، كما عادت ففقدت في اواخر سنة ١٩٣٢ ، اكثر من ٥٠٠٠٠٠ ، ومن بين ٣٦٠٠٠٠٠ عضو الباقين ، نرى ٤٤ بالمائة منهم في عطلة مستمرة ، بينما ١٢٠٠٠٠٠ منهم يعملون بانتظام . وهكذا نرى ان قواها النشيطة هبطت الى ربع ما كانت عليه عام ١٩٢٩ . والوضع بين النقابات الكاثوليكية لم يختلف كثيراً عما ذكرنا . وهكذا نرى ان المنظمات العمالية في الرايخ قد سحقتها الازمة قبل ان يسحقها النظام النازي الجديد . وكان من عنف الازمة وضراوتها في النمسا ان خفّضت عدد الاعضاء المنتسبين الى النقابات نحواً من ٣٠ بالمائة مما كان لها من اعضاء بين ١٩٢٩ — ١٩٣٢ ، وخسرت النقابات في انكلترا خلال هذه الفترة ٢٦٫٣ بالمائة من مجموع اعضائها . وعلى هذا قس ايضاً : كندا والهند واوستراليا ونيوزيلاندا . فقد تطورت الامور فيها على هذا النحو .

وعلى عكس ذلك فقد تطور عدد العمال المنتسبين الى النقابات العمالية في هذه البلدان التي لم تتجاوز فيها البطالة حداً معقولاً (سويسرا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا) او تلك البلدان التي عرفت فيها النقابات العمالية ان تحافظ على ما تم لها من شأن ونفوذ ، وبقيت الحلقة الموصلة بين الحكومات والعاطلين عن العمل بفضل مساهمتها في ادارة ضمان البطالة وتأمين استمرارها ، وهذا هو بالذات وضع البلدان السكندينافية وبلجيكا والبلاد الواطية . وتطورت الحركة النقابية في فرنسا ، عن طريق الذي خضع له بالفعل ، الفريق الذي جمع المستخدمين والموظفين ، اي هذه المهن التي بقيت على الغالب بمعزل عن البطالة .

وفي المانيا كما في ايطاليا حيث الطبقة العمالية حُرمت من نقاباتها وصار دمجها في جبهة العمل وفي الحركة المهنية ، رأت نفسها مضطرة بعد ان حرمت من كل وسيلة التعبير عن مشاعرها ، التسليم والخضوع مرغمة لما رسم لها .

وكذلك قل عن اسبانيا . فالاتحاد العام للعمال الاشتراكيين فيها الذي عرف ازدهاراً كبيراً ، والنقابة المعروفة بـ *N.C.T.* الفوضوية الاتجاه والنزعة قُضي عليهما تماماً من قبل الثورة العسكرية التي قام بها فرنكو بعملوات الاصلاح الزراعي والاصلاحات الاجتماعية التي قامت بها حكومة الجمهورية ، جرت تصفيتها دونما رحمة .

الولايات المتحدة الاميركية

منذ مطلع عام ١٩٣٣ ، انخفض في الولايات المتحدة الاميركية ، عدد اعضاء اتحاد العمال الى مليوني عضو ، بعد ان جاءت الخطة الجديدة تمهد الطريق للطبقة العمالية لتنظم ذاتها بشكل نهائي . فقد تحرر العمال من وجوب انضمامهم الى اتحادات الشركات ، وهي نقابات قامت ضمن عمال المشروعات الاستثمارية الخاضعة لارباب العمل ، فقد ترك لهم الخيار بالانضمام الى النقابات التي يرغبون فيها ، ولذا

اقبلوا زرافات ووحدانا على تسجيل انفسهم في الاتحاد العمالي القديم المعروف باسم A F L الذي ارتفع عدد اعضائه الى ١,٥٠٠,٠٠٠ عضو . واخذت الاضرابات تترى بكثرة ، اذ وقع ١٧٠٠ اضراب عـــام ١٩٣٣ ، حملت البلاد خسارة ١٧ مليون يوم عمـــل ، ووقع ٢٠٠٠ اضراب عام ١٩٣٥ كلفت البلاد ٢٥ مليون يوم عمل .

وجاء انتصار روزفلت ، عام ١٩٣٧ على المحكمة العليا تشجيعاً للحركة العمالية . فقـــد وقع ٤٧٥٠ اعتصاباً عندما جرى تعيين الشكل الجديد للاضراب ، وهو الانقطـــاع عن العمل والقعود في المصنع مما ادى الى اضاعة ٢٨ مليون يوم عمل . وقعت هذه الاضرابات بشـــكل هذه الذهنية المعروفة عن الطبع الاميركي المتسمة بالعنف، والوحشية التي خلقتها « لجـــان المواطنين الأحرار » المعارضة للروح النقابية ، وقوى الحرس الخـــاص ومحطمو الاضرابات ، وحراس المصانع الخاصة بتشجيع من السلطات والشرطة بغض النظر عن تصرفـــات ارباب العمل ، والضغط الذي قام به الوسط الاجتماعي ورجال الدين (راجع في ذلك فيلم تشارلي شبلن : العصر الحديث) . وتسبب الحرس الوطني في شيكاغو بقتل وجرح ما يقرب من مائة عامل ، عـــام ١٩٣٧ في اجتماع لهم عقدوه في الهواء الطلق .

واحدث تهافت اعضاء كثيرين على الانتماء الى النقابات القديمة ازمة بين العمـــال وادى بالتالي الى انشقاق اتحـــاد العمال الى شطرين عام ١٩٣٧ ، اذ قام في وجه اتحـــاد A F L الذي يضم العمـــال الفنيين من كل حرفة ، اتحـــاد آخر تألف على الاخص من اللانظاميين في كل حرفة برئاسة جون ل. لويس ، رئيس نقـــابة المعدّنين ، تشكلت اللجنة العامـــة للتنظيم الصناعي (C I O) التي تؤلف اتحادات مستقلة قامت بضم العمال في صناعة المطاط والفولاذ والسيارات ، فاصبحت بعدد اعضائها اقوى شأناً من الاتحـــاد المعروف A F L ، مع ان لويس اعترض على الاضرابات بالقعود في المصانع وشجبته لجنـــة التنظيم الاجتماعي . وهذا الانقسام لم يوقف الحركة ، اذ ان الاتحادين المذكورين ، ضما معاً ، عام ١٩٣٩ نحواً من ٨ ملايين عضو .

في فرنسا — تم تأليف اتحاد النقابات العمالية خلال فتنة السادس من شباط . فامام الخطـــر الذي واجهها معاً قام الاتحادان المعروفان بتنظيم الاضراب العام الذي اعلنوه في ١٢ شباط وبعد مداولات استمرت طيلة اذار ١٩٣٦ ، تم توحيدهما في اتحاد عام . والنجاح العظيم الذي حققته الجبهة الوطنية جاء فوق ما كان متوقعاً ، وبعث الآمال في صفوف العمال وفي نفوسهم ، لا سيا ولاول مرة تشكلت حكومة في فرنسا اشتراكية الطابع والنزعة . وقد بدا للجميع ان الفرصة جد مؤاتية لتحقيق الاصلاحات الجذرية التي تتيح لهم تحقيق مطالبهم . فبعد حقبة من الضغط والكبت استمرت عشر سنوات ، انفجر في البلاد هيجان عام تجـــاوز الأطر النقابية من خلال سلسلة الاضرابات التي تكاثر وقوعها منذ اواخر ايار . فالفشل الذي آلت اليه الاضرابات التي أعلنت من قبل وفقاً للاسلوب المعروف حمل العمال على احتـــلال

المصانع ، وهي طريقة اعتمدها المضربون في ايطاليا عام ١٩٢١ ، انما دون ان يحاولوا الاستيلاء على الادارة الفعلية . فالاحتلال المصحوب باللاعنف اسلوب من اساليب الضغط على ارباب العمل في اطار النظام الرأسمالي . وقد كان من نتائج هذه الحركة التي عمت فرنسا ان احدثت تطوراً عظيماً في عدد المنتسبين الى النقابات ، اذ ارتفع عددهم من مليون الى خمسة ملايين في الاتحـــاد المعروف بـ C G T اي الاتحاد العام للعمال ، عام ١٩٣٧ ، كما ان النقابة العمالية الاخرى المعروفة ب C F T C التي لم تكن تعد سوى ١٥٠،٠٠٠ عضو ، عام ١٩٣٥ ، ارتفع عـدد اعضائها ، عام ١٩٣٦ ، الى ٧٧٩،٠٠٠ عضو ، كما ان اعضاء نقابة الصناعات الكيماوية ارتفع عددهم من ٤٠٠٠ الى ١٩٠،٠٠٠ ، ونقابة الرسامين والتقنيين ، من ٥٠٠٠ الى ٧٩٠٠٠ ، ونقابة المدنيين من ٥٠،٠٠٠ الى ٧٧٥٠٠٠ . اما المهندسون والتقنيون الذين بقوا حتى الآن على هامش الحركة النقابية ، فقد راحوا يتكتلون بدورهم . ان الاقبال على عقد الاتفاقات الجماعية (٢٤ اتفاقاً عام ١٩٣٤ ، و ٢٥٣٦ اتفاقاً عام ١٩٣٦ ، وحوالي ٧٠٠٠ اتفاق عام ١٩٣٨) يدل بوضوح على وجود نقابات لها شأنها . فانفجار الاضرابات التي واجهت رغبة ارباب العمل بالثأر بعد ان عادوا من الهلع الذي استحوذ عليهم في شهر ايار ، وارتفاع تـكاليف الحياة بحيث حـــرم العمال الفوائد والامتيازات التي نالوها ، وجمود الحركة الاقتصادية ، وفشل محاولة « التوفيق » وعدم امتصاص البطالة في البلاد ، كل ذلك سبب التهافت على الانتهاء الى النقابات وارتفاع عدد اعضائها . وهنالك عوامل اخرى اخذت تنسحب من عضوية النقابات بعد تحقيق الاهـــداف المباشرة كما أن الوحـــدة التي تمت بشق النفس تحطمت هي الاخرى . والموقف الذي ترتب وقوفه من الحرب الاهلية الاسبانية زمن هتلر وسياسته وضع وجهاً لوجه « النقابيين الخلص » من فوضويين ودعـــاة سلام باي ثمن المعارضين لكل صمود في وجه الفاشية التي من شأنها ان تتسبب عن حدوث حرب ، مع انصار الصمود الشديد الذين اخذوا يطالبون بعقد اتفـــاق وطيد مع الاتحاد السوفياتي . وهكذا اخذت بالذوبان على درجـــات مختلفة ، التشكيلات النقابية . فقد انسحبت من الاتحـــاد العمالي C G T خمسة ملايين عضو عـــام ١٩٣٧ ، و ٢،٨٥٤،٠٠٠ عام ١٩٣٩ ، وهزيمة مونيخ اتاحت الفرصة امام ارباب المصالح المالية الكبرى لتحطيم الحركة العمالية ، بعد ان ردوا الضعف الذي تلـكم فيه البـــلاد الى تخفيض ساعات العمل في اليوم . والمرسوم الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٨ والذي يشار اليـــه في كل التشريعات العمالية ولا سيما قانون الاربعين ساعة عمل في الاسبوع ، كان سبباً في الاضراب الذي اعلن في ٣٠ ت ٢ ، الا انه باء بالفشل التام في نتيجة الامر . وفي داخل الحركة العمالية ، تابـع المناضلون معارضتهم بعد ان انشقوا بين انصار اتفاقات مونيخ وبين المعارضين لها . وقبيـــل الحرب بقليل ، هبط عـــدد الاعضاء المنتمين الى اتحاد C G T الى ما كان عليه عـام ١٩٣٦ ، ومنذ ايلول ١٩٣٩ ، طرد الاتحاد من صفوفه ، اعضاء الحزب الشيوعي الذين دخلوا غمار العمل السري .

وقد تغير خلال السنوات العشر الاخيرة كثير من معالم الحركة العمالية ومظاهرها فبينما كانت ايطاليا الدولة الوحيدة التي تخلت عن النقابية الحرة منذ عام ١٩٢٩ ، فقد سار في اثرها منذ هذا التاريخ ، كل من المانيا والبرتغال ، واسبانيا وفرنسا واليابان ، وفي وجه الدول الدكتاتورية ، لم يعد الاتحاد النقابي الدولي الذي نقل مركزه عام ١٩٣١ من برلين الى باريس ، يتلقى طلبات انتساب الا من اوروبا الغربية واميركا الشمالية . فهبط عدد اعضائه الى ٤٫٥ مليوناً ، بينما كان عدد اعضائه عام ١٩٣٠ نحواً من ٢٢،٧٠٠،٠٠٠ ، ثم هبط الى ٩ ملايين عام ١٩٣٣ ، بعد القضاء على الروح النقابية الالمانية . والاتحاد مدين بهذا الرقم الى انضمام الاتحاد العمالي الاميركي والاتحاد العمالي في المكسيك .

مناهضة الرأسمالية

كان من عنف الازمة وخلخلة التوازن الذي احدثته ، والفرق الشاسع بين الانتاج الصناعي وبين ملايين العمال العاطلين عن العمل والعمال الذين لا تكفي اجورهم بأودهم وأود اسرهم ، وزيادة الانتاج الزراعي ، وهؤلاء الملايين من الجياع وملايين المزارعين الذين يتسكعون في البؤس ، ان جعل الناس يتشككون في شرعية وقانونية النظام الرأسمالي الذي اقتصر شجبه حتى الآن على شجب نظري او فكري اقتصر على بيئة محدودة انحصرت ضمن خبراء في الاقتصاد ، ودعاة ثوريين ومجاهدين . وقد ارتفعت اصوات الاستنكار حتى في هذه الاوساط المعروفة بروحها المحافظة تشجب هذا الوضع وتستنكره ، معتمدة في ذلك على دوافع ادبية واخلاقية ، منها مثلاً القول بان الخسائر التي سببها الانهيار الاقتصادي لم يتضرر بها هؤلاء الذين كانوا بالفعل مسؤولين عن هذا الانهيار . اما الدعايات الفاشية ، فقد انطلقت من ابواق كثيرة في العديد من البلدان ، تثير احقاد الجماهير وتلهب حفيظتها ، وتحرض الطبقات الوسطى ، اجتذاباً لها واعتناقاً لقضاياها والمطالب التي طالما اعربت عنها . وقد هاجم موسوليني ، في مناسبات عدة « النظريات القديمة التي تقول بها الرأسمالية الليبرالية » وبين ما هي عليه من عجز وخواء . وكتاب « كفاحي » لهتلر يفيض بالوعيد والتهديد معلناً استعداده لالغاء كل المداخيل والواردات التي لا تأتي عن الجهد الناصب ، كما هدد بتأميم المناجم والكهرباء ووسائل النقل والصناعات الحديدية الكبرى والمصارف كما توعد بتأميم كل المخازن الكبرى ، وتحظير مشترى الاراضي لكل من ليس على استعداد للعمل فيها . و « الكتائب » الاسبانية تعلن من جهتها عالياً رذلها للرأسمالية ... لا يجوز قط ولا من المحتمل ان تعيش جماهير ضخمة من الناس في البؤس والشقاء بينما يغرق قلة من الناس في التنعم بالملذات . مما لا شك فيه ان مثل هذه التصاريح الدلوية وهذه الوعود المعسولة لم توضع قط موضع التنفيذ . ان كلاً من موسوليني وهتلر وفرانكو الذين وصلوا الى الحكم على اكتاف الرأسمالية ، اضطروا ان يهادنوا وان يصانعوا . فهذه التصاريح تشهد عالياً على الرغبة بتحقيق مطالب الطبقات الوسطى وامانيها التي يخشى عليها من التحول الى البروليتاريا، والى طبقة العاطلين عن العمل ، عن طريق برنامج غوغائي ، غامض الحدود توجه مناهضة

الرأسمالية فيه ضد الاجنبي وضد اليهود ولا يسبب ضرراً لأحد .

حتى في الولايات المتحدة الاميركية التي هزتها الضائقة العنيفة من اساسها ، اقله في السنوات الاولى منها ، انفجرت المؤلفات والمجلات صاحبة النظريات القديمة منها والمستجدة : كالجمهورية الجديدة ، والامة ، وجرائد اليسار واقصى اليسار التي تأخذ على نفسها الدفاع عن الحرية الفردية ، وعن اللاجئين السياسيين والاقليات ، وعن الحق النقابي وحق الاعتصاب ، الا انها ترفع صوتها عالياً بالنكير ضد الرأسمالية . والحظوة المتصاعدة التي صادفتها افكار انصار الاقتصاد الموجه بين افراد التعلم والاوساط الدينية والابسكوبالية والمتوديست ، والموقف « الدفاعي » الذي وقفه المناضلون عن النظام ، كل ذلك يوضح ، بأجلى صورة ، الازمة التي تعرضت لها الرأسمالية في هذه الحقبة بالذات .

ولأول مرة في التاريخ ، نرى الطبقات العمالية والريفية في اميركا تهب للوقوف صفاً واحداً في وجه النظام الاقتصادي المعمول به في البلاد . فالمعركة لم تبق في المجال النظري او التجريدي . وردة الفعل التي قامت بها الطبقات الوسطى ضد الرأسمالية ، ظهرت على اشدها في الولايات الشمالية الغربية على الاخص التي اشتهرت في الماضي بمعارضتها وصمودها في وجه رجال المصارف ورجال الاعمال في الولايات الشرقية . وخلال هذه الضائقة المالية والأزمة الاقتصادية التي اخذت بخناق البلاد ، راح اتحاد المزارعين وجمعية البطالة الزراعية يطالبون في نيسان ١٩٣٣ بتبني النظام النقدي ذي المعلتين وبطالبة القانون باعتراف مبدأ حق الزراعة بسعر امنى يتعادل ونفقة الانتاج ، وتنظيم الاضرابات ، ورفض نقل محاصيلهم الى الاسواق . وتفتحت الازمة في كندا عن ظهور حزب اشتراكي جديد هو اتحاد الكومنولث الفيدرالي (C.C.F.) الذي تسلم مقاليد الحكم والادارة المحلية في ولاية ساسكتشوان ، ووضع له برنامجاً مستوحى من الروح العمالية والمسيحية لتأميم وسائل الانتاج ، كما ادى الى تأسيس الحزب المعروف بالحزب الاجتماعي التسليف الذي سيطر بدوره على ولاية ألبرتا ، في عام ١٩٣٥ ، وعارض بعنف الحزبين التقليديين القائمين في هذا الدومنيون .

تسرب الافكار الاشتراكية والشيوعية وتغلغلها

كان من نتائج اتهام الرأسمالية والطعن عليها ، انتشار الروح الاشتراكية والشيوعية . فقد ازداد الناس اعتقاداً وايماناً ان قضايا التنظيم والاشراف الدقيق الذي تتطلبه زيادة الانتاج ، لا يمكن حلها دون اصلاح المجتمع إصلاحاً جذرياً يتناوله من الاساس ، فقد كثر اهتمام الناس في هذه الحقبة واشتد فضولهم للتعرف الى الايديولوجيا الاشتراكية والشيوعية على السواء ، كما راحت الطبقات الشعبية تتململ واخذ جانب كبير من حملة الفكر يديرون ظهورهم لليبرالية الاقتصادية وينتجهون بشيء من الارتياح نحو النظريات والاحزاب المرتبطة بالماركسية والشيوعية بسبب وثيق ، كل ذلك خوفاً من الفاشية والهتلرية ، وعملاً بردة فعل بدرت منهم ضد الرأسمالية المسؤولة الى حد بعيد عن البؤس الذي يسيطر اليوم على العالم والفوضى الاقتصادية التي يتسكع فيها العالم

اليوم . واخــذت تظهر في جميع بلدان العالم طبعات جـديدة وشروح وتعليقـات وتفسيرات يصدرها اصحاب هذه النظريات ومفكروها ، ولا سيا لنظريات كارل ماركس وانجلز ولينين .

ان تجربة « الجبهات الشعبية » لقيت تشجيع المؤتمر السابع الذي عقده الكومنترن ، عام ١٩٣٥ واستحسانه في كل من فرنسا واسبانيا والشيلي والمكسيك كما طربت للنجاح الذي حققته الاحزاب العمالية . ففي عام ١٩٤٠ ، دخل مجلس النواب في الشيلي ٤٠ نائباً شيوعياً (مقابل ٤ عام ١٩٣٠) ، و ١٧ في البرازيل ، و ١٢ في كوبا ، و ٦ في كوستاريكا . وبدت عليها بوادر الانقسام على نفسها حول الاشخاص وتطور الفئـات التروتسكية الصغيرة ، جرى انتخابهم من بين العمال ورجـال الفكر وضباط الجيش امثال لويس كارلوس برسلس ، رئيس الحزب الشيوعي في البرازيل الذي كان من قبل ضابطاً في الجيش وماريا تيغي في البيرو .

جاءت انتخابات عام ١٩٣٦ في فرنسا تشهد عالياً على التطور المظيم الذي حققـه الحزب الاشتراكي في تلك البـلاد . فبينا لم ينل الحزب المذكور في انتخـابات عام ١٩٣٢ سوى ١،٩٦٤،٠٠٠ صوت ، فقد نال في انتخابات ١٩٣٦ ، نحواً من ١،٩٥٥،٠٠٠ صوتاً ، اي بخسارة طفيفة ذهبت للحزب الاشتراكي الجديد ، وهي خسارة عوضها عندما وقع الانفصال بينـه وبين الشيوعيين . اما الدول الصغيرة التي رست فيها اسباب النظام الديموقراطي واعرقت فقد جاءت الازمة فيها تشد من جانب الاشتراكية . فالحزب الاشتراكي يشترك بالحكم مع الراديكاليين في الدانمارك ، ويعود الى الحكم في السويد ، واستطاع الحزب ان يؤلف حكومة متجانسة في النرويج عام ١٩٣٥ ، وفي فنلنـدا حيث كان الحزب الاشتراكي اقوى الاحزاب طراً . وعلى الاجمال ، رأت الأحزاب الاشتراكية او العمالية ، حيث لا تزال بعد قائمـة ، نفسها تنمو وتتطور بانضمام اعضاء جدد اليها ، في الفترة الواقعـة بين ١٩٢٩ - ١٩٣٩ . فقد تراوحت الزيادة في فرنسا ، بين ١١٩،٠٠٠ و ٢٧٥،٠٠٠ ، وفي النرويج من ٥٣،٠٠٠ الى ٨٢،٠٠٠ ، مع فرق بسيط مع عام ١٩٣٧ (٨٩٠٠٠) ، وفي السويد من ٢٣٥،٠٠٠ الى ٤٨٧،٠٠٩ . وقد بقي الحزب على وضعه في انكلترا وتقهقر في سويسرا من ٤٤،٠٠٠ الى ٣٤،٠٠٠ .

اما الاحزاب الشيوعية فقد حققت نجاحاً باهراً في فرنسا وفي المانيا . ففي فرنسا ، انتقل الحزب في انتخابات عام ١٩٣٦ ، بعد ان خرج من عزلته ودخل الجبهة الشعبية من ٧٩٦،٠٠٠ وهو عدد الاصوات التي نالها عام ١٩٣٢ ، الى ١،٥٠٢،٠٠٠ ، وربح ٦٠ مقعداً . وفي المانيا حيث تسببت الازمة بمفارقة جديرة بالملاحظة تمثلت من جهة في سلبية الجماهير العمالية في المعامل كما يشهد على ذلك العـدد الضئيل للاضرابات التي اعلنت بـين ١٩٢٩ و ١٩٣١ ، وهي ١٢٠٤ اضرابات مختلفة استجاب لها ٦٣٧،٠٠٠ عامل ، (بينا وقع في فرنسا ٣٦٠١ اضراب اشترك فيها ١،٠٠٨،٠٠٠ عامل) ، كما تتمثل من جهة اخرى براديكالية الجماهير وعقلنتها السياسية . وقـد خسر الحزب الاشتراكي بـين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ نحواً من ١،٣٨٨،٠٠٠ صوت بينما

ربح الحزب الشيوعي في المدة نفسها ٠٠٠،١٣٨٤ صوت ، وزاد عدد اعضائه في المجلس على مائة عضو .

تطور الاشتراكية

ليس من ينكر التطور الذي خضعت له الاحزاب الاشتراكية . وجاء هذا التطور ينزع ، اكثر فاكثر ، نحو الاصلاح ، واخذت تبتعد عن الماركسية بعد ان تبنت نداءات ثورية ، اخذاً بلعبة الديموقراطية البرلمانية . فقد تبنّوا وعضدوا مشروعات اصلاحية لم تختلف كثيراً عن التصاميم التي جاءت بها الخطة الجديدة التي وضعها ف. د. روزفلت ، اي الاصلاحات المباشرة ضمن نطاق الرأسمالية . كل هذا جاء نتيجة حتمية لهذه التطورات التي خضعت لها الاحزاب من الداخل بمجرد انحياز العناصر الفتية الناشطة نحو الشيوعية ، كما جاء هذا نتيجة لدخول عناصر بورجوازية صغيرة الى صفوفها ، من موظفين ومستخدمين وعمال يعملون في الدوائر الادارية .

وجاء طلوع الفاشية والهتلرية يقوي هذا التطور وينميه . ان رسوخ الدكتاتورية بمثل هذا اليسر ، انما جاء دليلاً على ما كانت عليه الطبقة العمالية المنقسمة على ذاتها والاشتراكية من ضعف ووهن ، وعجزهما عن الوقوف بوجهها والصمود لها ، هذا ان لم تقف الى جانبها وتشد من أزرها عناصر عديدة من الطبقات الوسطى التي انطوت على العداء لها والكره لعقيدتها . وقد راح العديد من الاشتراكيين يستنتجون من الوضع القائم حالياً ، مع اقتناعهم ان الجماعية ظاهرة سابقة لأوانها ليس من الممكن لا بل من المستحيل حدوث تطور عنيف كامل في وقت قريب . لا بد قبل كل شيء من وضع حد لهذه الازمة الاقتصادية الخانقة ، اذ ان البؤس بعينه هو باعث اليأس والقنوط في النفوس ، وهو الذي يدفع بشطر كبير من الطبقة العمالية نحو الشيوعية، كما يدفع بالشطر الآخر نحو الفاشية . ولذا راح عدد من فلاسفة الاشتراكية ومفكريها يحاولون اعادة النظر في الماركسية ، تكييفاً لها مع الاوضاع الاجتماعية الجديدة، ومن بين هؤلاء المفكرين دي مان البلجيكي الذي راح في كتابه الموسوم : « ما وراء الماركسية » الذي صدر عام ١٩٢٧ ، يركز على نظرية تبتعد كثيراً عن الماركسية بعد ان طرح جانباً قولها بالمادية التاريخية . فهو يرى ان لا قاسم مشترك في الطبقة العمالية ، اذ ان العامل الاشتراكي ليس سوى « رأسمالي مكبوت كل همه ان يصبح بورجوازياً » . اما في المجال العملي فالمهم النضال ضد الرأسمالية الطفيلية التي تعيش على الحكر ، مستقطبة كل الذين يخشون المصير الى صفوف البروليتاريا ، كالتجار ورجال الصناعة الذين لا يزالون يتمتعون ببعض الاستقلال ، وأصحاب المهن والمزارعين والموظفين . يجب قبل كل شيء الابتعاد قدر المستطاع ، عن أي اضطراب أو قلق من شأنه ان ينكأ الجرح ويزيد طنبور الاقتصاد ضجيجاً وصخباً، وتفادي كل محاولة تأميم الملكية العقارية ، والتعويل على العاطفة القومية التي هي حقيقة واقعية ، ودعم سلطة الدولة في وجه كل من يحاول الانتقاص منها . ولتحقيق مثل هذا الحشد والتجمع في وجه التكتلات الكبرى ، يجب الا تنظر الى هذه القضايا من وجهة النظر العمالية ، بل

علينا ان نحاول التوفيق بين مصالح البروليتاريا والطبقات الوسطى . امـــا التأميم فيجب ان يقتصر على الصناعات الكبرى والمصارف التي لا تخرج عن كونها احتكارات قائمة . امـــا مؤسسات القطاع التنافسي التي تستهدف لخطر وقوعها تحت سيطرة التكتلات العارمة ، فيجب ان توضع فقط تحت اشراف الدولة .

كان لافكار هنري دي مان ولنظرياته تأثيرها البالغ على الاحزاب الاشتراكية في الخارج ، لا سيا على الحزب الاشتراكي الفرنسي . وقامت عصبة بقيادة رينوديل وماركيه ومنتانيون وديات ، هؤلاء المؤسسون الحقيقيون للاشتراكية الحديثة ، تتبنى هذه الافكار ، كما يستدل من العنوان الفرعي لكتاب : « نظام سلطة ، امة » المثبت على صفحة عنوان كتابه الآنف الذكر ، والمنشور عام ١٩٣٣ . فهم يعارضون « الجمودية والحتمية » التي انتهى اليها قدامى الحزب برئاسة ليون بلوم ، وحاولوا ان يجتذبوا الى هذه الاشتراكية الوطنية ، الحزب الراديكالي الذي يمثل الطبقة الوسطى ، والحزب الشيوعي نفسه الذي صرح رئيسه ليون بلوم بان برنامج ديات « صفقه » ، ومع ذلك تبنى سياسة اصلاحية والائتلاف الحكومي الذي الفه مع الراديكاليين ، اجبره على التخلي عن الاصلاحات البناءة الواردة في برنامج الحزب والاخذ بسلسلة الاصلاحات الضحلة النتائج ، كردة فعل لمكتب القمح وتأميم مصرف فرنسا ، اذ ان الضغط الذي تعرض له من الجناح المسالم في حزبه ومن اعضاء الحزب الراديكالي جعله يلتزم جانب عدم التدخـــل في اسبانيا ، واخيراً « التهدئة الخـائنة » التي أقرت بها اتفاقات مونيخ ، فكانت الضربة القاضية القاطعة العناصر التي بقيت على ولائها لمبادىء الحزب التقليدية .

اسباب هذا التطور الاصلاحي

ففي فرنسا وما شاكلها من الدول الليبرالية ، الاصلاحات البناءة التي تمنيها العقيدة الاشتراكية انما تقتضي افراغاً جديداً كاملاً للنظام الاقتصادي السياسي في البلاد ، وبعبارة اخرى ثورة فعلية اشتراكية . وقد كان عدد كبير من اعضاء الحزب الاشتراكي ، ولا سيا بين رؤساء الحزب قد احجموا عن تحقيقـــه خشية منهم اذكاء الازمة اشتعالاً ولعميم البؤس الذي جرته ، كما اوجسوا ان يعرضوا لخطر البلاد ، بينا كانت الحكومات الدكتاتورية تتنمر وتستأسد . ومن جهة اخرى لما كان الحـزب لا يعتمد في المجلس على اكثرية فعلية ، وتلمساً منه للمؤازرة الاحزاب القائمة الى جمعية (الاحرار في انكلترا وبلجيكا ، والراديكاليون في فرنسا ، فقد رأى نفسه مكبلاً من جراء تحالفه هـذا ، ولم يفكر اعضاؤه بالوقوف امام تقلبات الاكثرية البرلمانية . ولئلا يمهدوا السبيل امام الشيوعية ، انكفأوا عن مراكزهم عندما راحت الطبقات الموجهة التي تسيطر على الادارة العليا والمصارف والصحافة والصناعات الاساسية يزرعون الرعب وينفّرون اصحاب رؤوس الاموال ، داعين الى نبذ القوانين الاشتراكية الجديدة والتخلي عنهـــا . وهكذا ، ففي كل بلد تسلمت فيه الاحزاب الاشتراكية مقاليد السلطة ، تراهم يضطرون التخلي عنها مصانعة لخصومهم . وعلى مثل هـــذا كان الوضع في بريطانيا العظمى ، اذ اضطر مكدونالد ، عام ١٩٣٢ ، الى تشكيل حكومــة

ائتلاف وطني ، ووضع فرنسا مع حكومة بلوم . ونظر الحزب الديموقراطي الاشتراكي في المانيا ويماو المحتضرة ، الى سياسة برونتغ التي اعتمدت « الانكماش النقدي » كشر ادني » ولم يجاريها . وفي بلجيكا ، اضطر الحزب العمالي البلجيكي بقيادة دي مـان وسباك المعتدلين التخفيف من غلوائه والجوء الى المصانعة امام الضغط الشديد الذي مارسته النقابات العماليـة والتعاونيات (لا سيما شعبة مدينة غانت العمالية) الذين الفوا اهم مناصريه ومعاونيه ، وعندما دخل فان زيلاند ، مع وزرائه الخمسة ، حوالي عام ١٩٣٥ ، الحكومة الائتلافية التي الفهـا الكاثوليك لم يحاول هنري دي مان ، الذي كان وزيراً للاشغال العـامة اذ ذاك ، العمل على تطبيق برنامجه . ولذا ادت الانتخابات النيابية التي وقعت في بلجيكا ، عام ١٩٣٦ الى خسارة الحزب الاشتراكي ١١٢،٠٠٠ صوت اي ١/٧ الاصوات التي نالوها ، بينما تمكن الشيوعيون من مضاعفة اصواتهم (اذ ارتفع عدد مناصريهم من ٧٧،٠٠٠ الى ١٤٤،٠٠٠) فكانت هـذه الانتخابات تجربة قاسية عليهم اذ اضعفتهم وجعلت اليأس يدب الى قلوب المؤيدين ممن اولوهم الثقة . افلا نستطيع بعد هذا ان نُطلق هنا على المحاولات الاشتراكية المختلفة التي وقعت في ايطاليا ، قبيل ١٩٢٢ ، وفي المانيا وفرنسا ، الحكم الذي اصدره ا. هالفي حـول الاشتراكية البريطانية ، في عـام ١٩٢٩ – ١٩٣١ ، اذ قـال : « لم تأت شيئاً في سبيل استبدال النظام القائم على الربح ، مـع انهـا جعلت احياناً من المستحيل تطبيق هـذا النظام تطبيقاً حسناً » .

٤ – الازمة الاقتصادية وتأثيرها على الفكر

عَكسَ طابع الحياة الفكرية والفنية ، منذ عام ١٩١٨ ، صورة مجتمع قلق متأرجح عصيّ التأثر على اضمحلال المبادىء التقليدية ، اذا ما وقعت العين على ما يثير المشاعر ويلهب العاطفة وحاولت تجاهل واقع الحرب والمشكلات التي خلفتها، كما ينم عن القلق الذي يخامر الافكار ، على العموم .

وقد حدث منذ ١٩٣٠ ، ما بدّل الجو تحت تأثير الضائقة المالية والظواهر المنبئة العاصفة التي تتجمع في الافق ، جاء التغيير بنسبة السرعة التي راحت فيهـا الازمة تؤيد النزعات التي اخذت تبدو شيئاً فشيئاً للعيان ، منذ عام ١٩١٨ . فقد سددت ضربات صادعة للايمان بتطور مادي وديموقراطي يكون خير ضامن للسلام العالمي ، هذا الايمان الذي لطف كل اجواء القرن التاسع عشر .

الجو الجديد

كتب رومـان رولان الى غاندي ، عـام ١٩٢٨ ، قائلاً :

« من المهم ان نترك الشبيبة ، التي ستنوء تحت وطأة نصف القرن الذي انقضى ، وثيقة صريحة يمكن ان

يتخبطا قاصمة في هذه الحياة . ها هو ذا تلوح في الافق ، مشكلات ماثلة لن تلبث ان تنقض عليها وتنزل بهــا . ليس لدي اي شك قط في ان عهداً من الدمار سيطلع عما قريب وستحل بنا حروب عالميةتضؤل حيالها كل ما عرف الماضي من امثالها التي تشبه لعب الاطفال: الحرب الكيماوية التي تفني الامم وتدمرها تدميراً ».

وجاء في يوميات رولان ، بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣١ ما يلي :

« بعد ١٢ سنة من التلمس والتردد وصلنا الى هذه النتيجة ، وهو ان بقاء الوضع الاجتماعي القائم اليوم في الغرب (بالمعنى الشامل ، بما فيه اميركا) حتى حدود روسيا على حاله ، لمن الأمور المستحيلة » .

في هذه الاثناء ، وقعت أزمة ١٩٢٩ . فمنذ سنة ١٩٣١ ، والرؤى التي تجلت بوضوح امــام العقول النيرة والبصائر النافذة ، وأمام اهل الحجى ، هي بؤس البروليتاريا والتهديد المتواصــل بالحرب . أضف الى ذلك ، هؤلاء الذين يردون هذا الشقاء وهـــذه التهديدات الى حضارتنــا الصناعية ، والذين يرفعون عقيرتهم عالياً احتجاجاً منهم على طغيان التقنيات وعلى كبرياء العــلم الفاجر ، وعلى سحق الفرد ، والذين يطعنون على حضارة الغرب برمتها . ان قسماً من النخبـــة الفكرية ، تتجه من الماركسية ولا تقف تصوراتها والاحلام التي تهدهدها عنـــد مشروعات اصلاحية بسيطة . فالكل يحكم بالموت على الحضارة القديمة التي نهضت على الفردانية البورجوازية. فالكل يشعر في الصميم ، بأسف او بدون اهتمام ، انهم أمام نهاية العالم .

وخلافاً لما حدث في العشرينيات ، نرى الآثار الفكرية تأخذ جانب الالتزام ، والنظريات الفكرية تتجه ، على اختلافها صوب حل المشكلات الحيوية ، الحسية ، الواقعية ، ولم يعــد يطل علينا فلسفات وتجريدات فكرية محضة . ان واقع العالم الخارجي يفرض نفسه ويستبد بالتفكير ، موضوع حساس انطلق من أزمة الحتمية ومن نقد المعرفة المتعمقة ، يشحذها التحليل النفساني ونظرية النسبية المطبقة في كل مجالات الفكر ، هو هـــذا العالم غير المعقول اخذ بالانتشار الآن تحت ظواهر مختلفة ؛ ادبية وفنية وفلسفية . وفي هذا الجو المشبع بالتشاؤم ، أخذ الانسـان يعي نفسه اكثر فاكثر ، باعتباره فرداً حراً بان يبتدع القيم وان يضفي على المرئيات والاحداث ما يشاء من معان وافكار ، كما أخذ يعي ، اكثر فاكثر ، وضعه الزائل ودعوته للعزلة وللفنـاء ويندب فراغ الحياة البشرية من كل معنى . وعلى شاكلة الادباء ، شارك الرسامون (كوكوشكا ومارك شاغال وبيكاسو) في هذا الصراع ضد الايديولوجيا الفاشية ، بمـــا وضعوا من رسوم رمزية وتاريخية مثيرة .

الرواية الاميركية وتأثيرها

لم يتم للولايات المتحـــدة الاميركية بعض من كبار الكتاب ومشاهير حملة الاقلام ، ما تم لها منهم في مثل هذا الزمن . فقد نال سنكلر ، عــــام ١٩٣٠ ، واوجين اونايل ، عام ١٩٣٦ ، جائزة نوبل للادب . والرواية الاميركية تهيمن على هذه الحقبة وتلؤها ، بما تم لها من فن وقدرة على تنويع المشاهد من جميع الزوايا استجابة لمطلب الفن السينمائي ومتطلباته . فالقصص لم يعد عبداً اسيراً السرد في صيغة الحاضر او الماضي . ان استحضار حوادث الماضي وبعثها ، واحـــلام المستقبل تمازج مع لحمة

الحاضر . ونجحت القصة على الاخص في ما فشلت بتحقيقه ريشة مارتن دي غار وجول رومان، اي دمج القصة الروائية في تاريخ العصر ، وذلك باضفاء غلالة من الرمزية على بطل الرواية . حتى المدرسة الادبية في الجنوب التي هامت بالشعر اكثر منها بالواقع المتحيز ، اخذت هي الاخرى ، تصف لنا مع فولكنر ، نهاية حضارة .

فالمدرسة الرومانسية في الشمال التي اخذت تنزع آنياً الى الماركسية وتصطبغ بنزعة شعبية ، اخذت تكثر ، بعد ١٩٣٠ ، من انتقاد الظلم الاجتماعي. فدوس باسوس يساهم في روايته « الجماهير الجديدة » ويمر ، تحت تأثير الظرف القائم من نظرية البطل الحر ، البارز ، الى نقد اجتماعي مرير . والثلاثية التي وضعها بعنوان : « الولايات المتحدة الاميركية » والتي تتركز حول قضية ساكو – فانزتي التي صرعته ، تنتهي بمشهد « امتين » متجابهتين : امة المستثمرين وامة المستثمَرين. وهمنغواي في روايته : « الحصول او عدم الحصول – ولمن تقرع الاجراس » (١٩٤٠) يقص علينا قصة اسبانيا الجمهورية التي كان احد المدافعين عنها . والجيل الجديد على الاخص ومن بينهم ج . شتاينبك واوسكين كولدويل، وجيمس ت . فيرويل الملقب بـ « زولا الاميركي » يعبر عن نزعة جديدة هي النزعة : « الطبيعية الجديدة » ، ينحرف بعد عام ١٩٣٧ عن النزعة الماركسية بتأثير من الالتزامية الشاملة التي اخذت تمتد في جميع انحاء الولايات المتحدة . والى جانب هؤلاء ، برز الروائي الزنجي ريتشرد رايت الناطق باسم بني جلدته . اما يوجين اونايل فهو يهيمن على المسرح بمسرحياته التي يرسم لنا فيها صورة عن ضعف الانسان وعجزه امام عالم وامام مجتمع معاديين .

وبريطانيا التي اناخت عليها الازمة بكلكلها منذ عام ١٩٣٠ ، قامت بردة فعل اشبه بالردة التي وقعت في الولايات المتحدة في مجالي القصة والمسرح . يرافقها نقد اجتماعي ماركسي النزعة وتيار سوريالي مع دافيد غسكوني و رولاند بنروز ، و و. هـ. اودن،الذين عالجوا في كتاباتهم القضية المزدوجة الا وهما البؤس الاجتماعي وعلاقات الفرد بالمجتمع . وهنا ايضاً نرى النزعة الماركسية تتحول عن الصدد : فالشعراء والكتاب الروائيون ينسحبون من الكفاح الى جانب الشيوعيين . وبالمقابل نرى جملة من الآثار الفكرية ترفض رفضاً باتاً المدنية الصناعية المتصاعدة ، مع ألدوس هكسلي ومورغان (بروايته) وكاتبين آخرين اعتنقا الكثلكة هما افلين روغ و غراهام غرين، وكذلك إليوت في مسرحه الذي اخذ يتجه اكثر فاكثر نحو الماضي .

وفي فرنسا نرى الطابع ذاته يسم الادب الرومانسي والمسرح ، ويبدو ان الكتاب يهتمون فيها بالاكثر بالوجودية الالمانية وبالحوادث التي تقع في ما وراء الحدود المتصلة بها . فالآثار العسكرية التي تأثرت بالحادث تبرز على الاخص الروايات المتعلقة بالثورة خاصة ممثلة برواية « اجراس بال» و « احياء اراغون الجميلة » و « الوضع البشري[1]» و « الأمل » لمالرو، ولاسيما مسرح جيرودو وروايته « حرب طروادة لن تقع » ، هذه المسرحية التي ظهرت عام ١٩٣٦ ،

١ – صدرت هذه الرواية عن منشورات عويدات . الناشر

ومسرحية « إلكترا » التي ظهرت عام ١٩٣٧ حيث التوكيد على سخف مصير الانسان وعلى حريته المطلقة . والعزلة او الانطوائية هي من هذه الادواء التي لا تستطبب بحيث يصبح وجود الفرد خطراً على الحرية . وفي مسرحيته « الحلقة السرية » ، يذهب سارتر الى اقصى حدود هذا اليقين عندما يؤكد ان « الجحيم هو الآخرون » . ويستمر جيد في تأكيده فردانيته الصميمة الداعية الى الفوضوية (عودة الاتحاد السوفياتي ، عام ١٩٣٦) . ويحاول جول رومان في آخر المطاف الى بعث الحياة الجماعية في مجتمع يغمره التفاؤل ويتحسر عليه (منذ ١٩٣٢ ، في رواياته « قوو الارادة الطيبة ») .

وجملة القول ، ان العصر لا يأنس الى البحث عن الجمالية المجردة الا في الرسم (مع ردة فعل تجريدية) ، والآثار التي برزت تتنزّى بالالتزام حتى عندما تنبع من مثالية تتضح بالحياد الايجابي .

الماركسية وتجديد العقلانية

فالوجودية اي « الدعوة الى السأم ، الى الموت ، الى القلق » ليست في نظر الجميع شرحاً مقنعاً لمصير الانسان. فالماركسيون يرون ان شقاء البشرية المعاصرة وآلامها لا يمكن ردها الى العلم او التقنيات ولجوهر الانسان نفسه ، بل لشطط الرأسمالية المحتضرة وتجاوزاتها . فالايديولوجيا الماركسية التي رحّبت بكل ما يمثل رغبة صادقة في مقاطعة الطبقة البورجوازية ، اخذت تتضح معالمها وتتبلور ، والفت جبهة واحدة تقف في وجه اللاعقلانية على مختلف اشكالها وصورها كالسوريالية والبرغسونية والسيكولوجية الاتباعية ، بحيث تصبح المنافحة عن حلبة العلم وعن نظرية الانسان العلمية (ففي سنة ١٩٣٩ ظهرت في باريس مجلة « الفكر ») . فالعلم يعدنا بتحليل مرضي لاصول الانسان وبتحليل للمجتمع حيث تبدو منافسة الطبقات بعضها لبعض المحرك الحقيقي التطور وتفسر لنا التاريخ المعاصر . فهو يولي الانسان القدرة على تحويل العالم بحيث يتلاءم ومعارفه وبحيث ينسجم ومطالبه التي تنمو باستمرار . والعلم الماركسي الذي يؤكد وحدة العلوم الطبيعية والعلوم البشرية يعد الانسان بنظام كامل حيث يمكن للانسان ان يركز وجوده الفردي وان يعي تطور العالم ويسهم به ، كما يعد الانسانية بمستقبل ملؤه السعادة . فهو متفائل في الصميم إذ كل الشرور الحاضرة سترتفع وتزول في مجتمع شيوعي حيث تكون له المرتبة الأولى .

نقد العلم وفكرة الرقي

في الجهة الثانية من هذا الصراع الفكري ، يقوم هؤلاء الذين يحملون العلم والتكنولوجيا مسؤولين معاً عن الشرور والويلات التي تنزل بالبشرية فهم يشهّرون ، في آن واحد ، بعجز العلم العقلاني عن الوصول الى الحقيقة ، كما يعترفون بما له من قوة هائلة على تغيير هذا العالم . وهذه النظرة تتجسد بأتم صورها في شخص غبرييل مارسيل أحد تلامذة برغسون الذي يرفض التسليم بالحضارة الصناعية وبالعلم . فبعد ان ارتدّ واعتنق المسيحية ، فقد حاول أن يستبدل الوسائل الكفيلة بتأمين المعلومات الطبيعية ،

بالايمان والرجاء المسيحيين . الا ان تحرزه من السلم البشري تصحبه تشاؤمية عميقة حول معنى تطور الحضارة ، اذ بنسبة ما تتطور الحضارة الصناعية ، فهي تخلق العراقيل أمام الايمان الذي وصل الينـا من السلف الكريم . فنحن أمام حركة انكفاء وتقهقر ، يترتب علينا معها ان نتسلق بثبات المرتقى الذي انحدر منه الفكر الحديث خلال هذين القرنين .

فكل العنـــاصر المحافظة التي تعي بصورة غامضة النتائج الاجتماعية التي يؤدي اليها تطور الصناعة الضخمة عاجلاً أم آجلاً تثير في أثره وتتكيف به واذ ذاك يتكاثر النقد وتتوالى المطالع التي سبقت وارتفعت عالياً ، خلال القرن التاسع عشر ، شاجبة بشدة الآلية والتقنية ، فتشرك في ازدرائها العلم والعقل معاً . ومنذ عام ١٩٣٠ ، برز جورج دوهاميل في كتابه : « مشاهد من الحياة الأخرى » كالناطق باسم هؤلاء الذين يرغبون في الدفاع عن الفردية ضد دكتاتورية « الآلة » ، الذين ينزلون باللائمة على الحضارة الآلية هذه « السلعة الهـــائلة » ، « حضارة الحشرات » هذه التي ستفضي في نهاية المطاف ، إلى امتصاص الجماعة الفرد ، والتي ستلتهم كلياً كنه الحضارة الحقيقية : التنوع والصفة .

ولما كانت الآلة شراً في ذاتها وتحمل في طياتها المصائب والويلات ، أفلا يتوجب ، والحالة هذه «تكبيل بروموتيه الجديد» وتقييد «هذا الجرم الحقيقي» ليس « لانه عدو الفكر » فحسب ، بل ايضاً لانه مسبب البطالة والبؤس ، بتحويل الاجور إلى حصص وأسهم رائجة . ولعـــل واحداً من أنشط المثـــابرين لشجب التطور التقني ، هو جوزف كايو الذي يشهّر عالياً « بالتقنية المجرمة » مصدر الفوضى الاقتصادية وباعثة عدم التوازن الخلقي » . هي هـــذه الاختراعات التقنية الكبرى بالذات التي جلبت البطالة لعشرين مليوناً من العمال العاطلين . ان درس سد كمبس والعبرة المستمدة منه تؤيد ذلك وتثبته حسب زعمه . الى أي كارثة سيؤول بنـاء محطة كهربائية ، مركزية عندما تأخذ بالانتاج يديرها ٢٥ عاملاً بعـــد ان طوحت ورمت في البطالة ١٢٠٠ عامل كانوا يعملون في معامل كمبس ، دون أن يؤول هذا كله الى أي تخفيض في سعر الكهرباء . فهـــو قلق ، مهموم ، يجزع لسطوة وسيطرة « البدائيين » الممثلين بهؤلاء التقنيين . « فالى أي مخاطر لا تستهدف ، والى أي رزايا لا تتعرض الشعوب ، اذا لم تسارع النخبة للتدخل بسرعة للحد من طغيان الحضارة الصناعية » .

الحرفية الجديدة

هذه الايديولوجيا اللاتقنية ، التي ترتبط وثيقاً بالحنين إلى الماضي وبالعودة إلى « القيم الروحية » تجد متنفساً طبيعياً لها في هـــذه النظريات والآراء التي تكون النقيض لهـــذه الفردانية الليبرالية ولهذا النظام القانوني المنحدر الينا من الثورة الفرنسية الكبرى ، هو بالفعل الحرفية الحديثة التي ترغب في تنظيم الانتـــاج ، وفي القضاء على النزاع الطبقي عن طريق تنظيم المهن او الحرف بعد تحويلها الى هيئات وسيطة تستطيـــع الهيمنة على فردانية أرباب العمل والصمود في وجه العمال في وقت واحد . هي نظرية قديمة سبق ونادى بها دونما جدوى بعض الكاثوليك المناهضين للديمقراطية ، وللنظام الجمهوري

معاً ، من اتباع دي لاتور دي بان الذي صوبت الأزمة الانوار اليه فجأة وأثارت حوله فضول كل هؤلاء الذين يرفضون التعرف بالاشتراكية ، والذين يبحثون ، مع ذلـــك ، عن علاج للفوضى التي يتخبط فيها النظام الليبرالي . هم في الغالب شبان من مثقفي الكاثوليك يبسمون للفاشية ، والذين يبشرون بهذه المثالية الابوية المهنية . وبالفعـــل ففي كل مكان ارتفع فوقه نظام الحرفية ، أي في هذه البلدان الواقعة تحت النظام الدكتاتوري ، لم يكن هـــذا النظام تنظيماً حراً ينسق مصالح الجميـع ، بل أداة طيعة في أيدي القوى الكبرى المتحالفة مع السلطة الدكتاتورية لتـــأمين مصالحها الخاصة : ايطاليـــا الفاشية ، وبرتغال سالارز ، ونمسا دلفوس ، واسبانيا فرنكو . فلم يتحقق في أي مكان الادارة الذاتية ، لأصحـــاب المصالح حتى لجموع أرباب العمل .

تمجيد الحرفية

نكاد نجد لدى جميع الدعاة للحرفية من فرنسيين والمان وايطاليين محاولات تمجيد لها وتقييم لمنظمات العمل القديمة على اختـــلاف مظاهرها كالمهنية والمزارعية . ففي المانيا ، سلطوا الأنوار نحو آثار الاقتصادي الكاثوليكي آدم مولر المنافح الأكبر عن النظام الاقطاعي والداعية له . وفي كل من فرنسا وايطاليا سلطت الادوار على جورج دوهاميل وكايو وجيـــنا لبروزو مزيرو الذين يمجدون « النوع » الذي لا يمكن ان يتـــلاءم مع « الكم » ، « العمل الاثير الذي هو في صميم ذوق العرق او الجنس . « على العالم ان يتجه وجهة فرنسا نحو الصناعة الزراعية والمهنية ، التي تستمين في تجويد عملهـــا ، بادوات دقيقة تيسر الكهرباء استخدامها ... » « ان أغلى المصنوعات او المصوغات في وقتنا هذا هي التي لا تخرج من المصانع الكبرى ... » . كل بلدان العالم تبذل اليـوم جهوداً طيبة في تنظيم الحرف بمساعدة الحكومات المعنية . فقد تأسس في فرنسا : الاتحاد العام للحرفية ، كما قام في ايطاليا : الاتحاد الفاشي المستقل للمجتمعات الحرفية ، وقامت في بولونيـــا جمعية عرفت بالغرف الحرفية . والدعوة إلى الحرفية ، انما تستهدف إلى جانب مهاجمة المكننة ، إنقـــاذ « طبقة اجتماعية تقع بين رأس المال وبين أصحاب الاجور » و « احياء كل مـــا اضطر الانسان للتخفف منه والعزوف عنه » . في اندفاعه نحو الاستمتاع المهين : « كالروح العائلية ، والروح الحرفية ... واحياناً الروح الدينية ... » فبعث الحرفية الى الوجود يعتبر عنـــد الداعين له علاجاً للازمة التي يتخبط فيها العالم الرأسمالي ، من شأنه أن يجنب الصناعة الضخمة والمكننة المخاطر التي تتهددها دون أن تمس بشيء البنيان الاجتماعي القائم . هـــذا هو بالذات الموضوع الاثير للدعاوة التي يقوم بها الحزب الوطني الاشتراكي في المانيا ، هذا الحزب الذي يكتسب الفلاحين في وجه الاستثمارات الضخمة المصنعة ويعبىء العمال الشباب في وجـه التقنية التي تذل الانسان وتسخره كالآلة وتؤدي به إلى البؤس والشقاء بحيث يجب تدريـــع الشبيبة الالمانية ضد عمل خالٍ من الروح الذي يقضي شيئاً فشيئاً ، على النفس البشرية ، ويهبط بالروح

الى درك الآلة او الجهاز الآلي . ولذا انصبت الاجراءات الأولى الحرية بالملاحظة والاهتمام التي اتخذها النظام ، على تنفيذ الاشغال الكبرى « بالربش والجرفة والمعول والمنكوش » .. « كل الاعمال يجب أن تتم عن طريق القوى البشرية بنسبة ما يمكن الاستغناء عن الصفات الآلية . وحيث يكون من أثر العمل البشري زيادة الاثراء غير المتناسب » . ففي صناعة الزجاجيات ، في مقاطعة التورنج ، حظرت الحكومة استخدام الآلة الميكانيكية في نفخ الزجاج ، ففي هذا توفير « العمل والخبز لعدد كبير من العمال » .

في كل بلدان العالم ، جرت محاولات لبعث العمل اليدوي بعد ان جرى تحديـــد استخدام بعض الآلات . فالتشريعات التي صدرت في عهد روزفلت حدّت من استخدام محولات بسمر كما حددت المدة التي يمكن خلالها تشغيل بعض ادوات الحياكة ، كما ان عـــدداً من البلديات في اميركا اوجبت تنفيذ بعض اعمال الحفر ونقل الاتربة بالربش والمعول . ففي انكلترا وفرنسا ، جرى إتلاف آليات لنسيج القطن والكتان . فارباب العمل والعمال (عمـال الموانيء وصانعي البراميل ومدحرجيها) وقفوا في وجه استخدام سفن الصهاريج في نقـل الخمور من الجزائر بعد ان اتضح للجميـع « ان التطور التقني يكوّن منافسة غير مشروعة » .

كل هذه المواقف على اختلافها ، تشهد عاليـا على القلق والانزعاج الذي يسببه التطور الآلي والذي يبدي النظام الاقتصادي حياله عجزه التام عن تلافيه . « يترتب الآن تحرير الانسان من نتائج هذا الرقي المادي الذي لم يلاق بعد توازنه مع الرقي الفكري والادبي » كما صرح بذلـــك ب. فلاندان رئيس مجلس الوزراء .

فباستثناء الماركسيين ، قليلون جداً هم الكتاب والفلاسفة الذين بقوا على ولائهـــم لفكرة الرقي والتطور . وعندما يعلن اندريه جيد عن ايمانه الوثيق « بالقوى التي يعتبرونهـــا ضارة ومؤذية والتي يمكن ان تصبح بدورها عوامل قوة ورقي » ، ثم يقرر العودة الى هذا الموضوع في كتابه : الاغذية الجديدة ، يبقى في شبه عزلة ، ويثير بين اصدقائه هذه الشفقة والحسرة عندما يرون كاتباً يهتم مثله بدقائق الامور ، يتجرأ ان يتفوّه بشأن الرقي المادي « بمثل هذه التأكيدات الضخمة التي تكاد تكون بدائية » . ففي نظر الفكر البورجوازي ، هذا المثال الذي تبنته النخبة في فرنســا ، منذ القرن الثامن عشر ، اصبح الآن « عقيدة بالية » ، وقيمة مهملة يتمسك بهـــا « الفكر البدائي » .

اعادة النظر في الايديولوجيا الاقتصادية

شجعت الازمة التعجيل باعادة النظر في البنيان الاقتصادي وخلخلة المبادىء والنظريات التي كانت سائدة بشأنه في مطلع هذا القرن . ان عبرة الحرب العالمية الاولى والقضايا التي طرحتها على بساط البحث ممـــا يتصل بالنقد والتجارة الخارجية وتنظيم الانتاج القومي وتوجيهه والدروس المستمد من تاريخ الاتحـــاد

السوفياتي ووضعه حيث قام وترسخ نظام مضاد للرأسمالية ، كل هذه العوامل ، ارغمت علماء الاقتصاد على توجيه ابحاثهم ودراساتهم وجهة اكثر واقعية مما عملوا في الماضي ، وعلى اعادة النظر في النظريات الكلاسيكية على ضوء الوقائع المعاصرة . ان عدداً لا يستهان به من المعطيات او المسلمات التي اعتمدها الاقتصاد التقليدي اصبحت الآن قابلة التجريح بعد ان اتضح بجلاء ان الاقتصاد الحر لم يكن ، كما كانوا يظنون ، اقتصاداً تتوازن معه تلقائياً المصلحة العامة ومصلحة المنتجين الخاصة ، وان المالطوسيانية الاقتصادية اصبحت من الأمور المصطلح عليها ، كما ان الحرية التضامنية كانت تشجع على الاحتكارات على حساب اصغر الاستثمارات وعلى حساب المستهلكين على اساس اتفاقات يعقدونها فيما بينهم ، تفادياً او بالأحرى تخلصاً من المنافسة .

فالضائقة المالية الكبرى التي قضت بالتخلي تدريجياً عن هذه الليبرالية المشبعة بالتفاؤل ، قضت بإنشاء مصلحة او ادارة خاصة بالاقتصاد ، ومراقبة فعالة تحمي المجتمع من جشع المحتكرين ومن المنتوجات الفرعية . فاتسع الافق امام رجال الاقتصاد ورحب واخذوا يهتمون على الاخص بظاهرات اختلال التوازن وبالازمات بحثاً عن الوسائل التي تؤول الى تقنية النشاط الاقتصادي . وفي الوقت ذاته ، وضعت تحت تصرفهم ادوات جديدة للتحليل في القياس الاقتصادي الذي يساعد على الوصول الى الحقائق والوقائع بصورة ادق وانجع كما تساعد على التنبؤ والتحكم وبالتالي بتطور الانماء . ومن جهة اخرى ، فالاقتصاد الماركسي وانجازاته في الاتحاد السوفياتي ، وانتفاء الازمات في « البلدان الاشتراكية » اصبح موضوع دراسات دقيقة . فالماركسية لما تعد لتبدو البعض هرطقة او نشوزاً عن طريق العام . فقد لقيت المزيد من الاهتمام والتحليل ، والتعليق والتفسير من قبل هذا الفريق بالذات الذي لا ثقة له فيها ولا ايمان بفعاليتها او من قبل الذين يوجسون خيفة من نفوذها (اميل جيمس) .

وهكذا برزت للوجود نظريات جديدة حول الربح والاجور والفائدة وطبيعة النقد والاسعار في نظام اقتصادي خاضع لمنافسة ناقصة وللاحتكار من قبل قلة من المحتكرين ، وقد اخضعت لتحليل دقيق النظريات التي تقلف للازمات الاقتصادية « ولدوراتها » بعد ان راحوا يحاولون تحديد اسبابها ومسبباتها (قلة الاستهلاك ، تأخر في رفع معدل الاجور ، حركات التسليف ، الغلو في تصنيع الانتاج) ، والبحث عن العلاجات اللازمة لها . وينصح هؤلاء باللجوء الى التخطيط الكامل مع اعتماد اصلاحات شتى تتناول صميم البنيان الاقتصادي ، والمراقبة الشاملة والتوجيه البسيط للاقتصاد ، مع مراقبة القطاع المصرفي والصناعات الرئيسية . وفي وجه انصار التدخل انتصب انصار الليبرالية التي لا تزال ناشطة « كل مساويء نظامنا الحيلة يجب ردها اصلا لتدخل الدولة » كما يؤكد (روب) ولكن الليبرالية تختلف كثيراً عن الصورة التي بدت منها في مطلع القرن ، ليبرالية مستحدثة بالاحرى تستلهم نظريات ولتر ليبان (المدينة الحرة) وتتصدى لمراقبة الدولة دون ان تتشبث بالعودة الى حرية التجارة المطلقة ودون ان تستثني كل مظهر من مظاهر تدخل الدولة .

ج. م. كينز

في هذه الازمة المطبقة ، وفي الوقت الذي ارتدت فيه علاقات الحكومات ومداخلاتها طابعاً تطبيقياً دون اعتماد اي نظرية علمية متينة ، نشر كينز ، عام ١٩٣٦ كتابه المشهور : نظرية عامة للتوظيف والفائدة والنقد ، كان له من حسن الوقع والتأثير ما حمل بعضهم على وضعه الى جانب كتاب آدم سميث المعنون : « غنى الامم » ، او الى جانب « النداء » الشيوعي . ويرى سوفي ان كينز هو منقذ او مخلص النظام الرأسمالي بعد ان تخلت نظريته عن بعض وجوه الاكراه والقسوة في الحرية دون ان تستهدف من ناحية اخرى ، السقوط في وجوه الاكراه التي تعتمدها الجماعية او النظم الدكتاتورية . ومع انه كثيراً ما يدنينا من كارل ماركس ، فكينز ليس من خصوم الرأسمالية . فهو لا يرمي قط لقلب هذا النظام عن طريق اصلاحات تتعرض لتركيبه او بنيانه في الصميم . بل يهدف الى تحسين عمله : كحرية الاستثمار واحترام الملكية الخاصة ، كما انه لا يوصي لا بالاقتصاد الموجه ولا بالتخطيط . « فالثورة التي اتى بها كينز ، تقوم في تدليله القاطع على ان النظريات الكلاسيكية لا تصلح الا لمجتمع تنتفي منه الاضرابات والاعتصابات وان المهم في الامر هو الانتاج وليس التسويق او الانفاق او التنفيق . فالمظاهر الاقتصادية يجب النظر اليها ليس من الوجهة الفردية في نطاق المشروع الاستثماري الخاص بل من الوجهة الاقتصادية الاجمالية اي في مجملها او كليتها ، في نطاق النشاط الكلي او الشامل . ففي التفسير الخاص للعالم الاقتصادي الرأسمالي يوضح لنا كينز ان هنالك الآن توازناً في نقص العمل وان هذا التوازن ليس بعارض كما انه ليس باختياري او رضائي ، بل انما هو حصيلة عدم تكافؤ في نفقات الحاجيات الاستهلاكية . وعدم التكافؤ هذا هو الذي يحد من التوظيفات وبالتالي من الاستثمارات . وللخروج من الازمة ، فالعلاج التقليدي الذي يعتمد تخفيض الاجور لا يجدي نفعاً ، بل يقتضي بالاحرى العمل على تشجيع الطلب بحيث يكف المدخرون عن الادخار غير المجدي ، ويحملهم على توظيف اموالهم ، والتخلي كلياً عن عبادة العجل الذهبي او قاعدة الذهب طالما مارسوها وانصرفوا اليها ، وذلك بطرحهم المزيد من النقد في التداول ، وباعتماد سياسة التسليف الطويل الاجل ، وبتخفيض نموذجي لمعدل الفائدة والتوظيفات العامة والاشغال الكبرى مما يؤول بالنتيجة الى توزيع جديد للدخل ويثير بدوره طلبات جديدة . وهكذا يتاح للاقتصاد الخروج من الجمود الذي يرسف فيه . فالحماية الجمركية من شأنها ان تؤول ، اذ ذاك ، الى زيادة في الدخل القومي والى رفع مستوى التوظيف حتى ولو ادى الامر الى استثمارات تكلف غالياً ويأتي مردودها بالطبع عالياً . وهذه النظرية « تزكي بصورة متجانسة ، الى حد كبير ، سياسة تدخل الحكومة » . فقد اتاحت انقاذ الرأسمالية والارباح التي تحققها « بتجنيبها البطالة او بالحد منها » كما يقول ج. مارشال . ومع انها تمثل وضعاً خاصاً الى حد كبير (هو وضع بريطانيا العظمى) ، فهي تحوي الكثير من عوامل التشويق كما « استعملت منطلقاً لهذه التيارات الفكرية التي انطلقت منذ ذلك الحين » .

(ا. جيمس) .

التعرض بالاذى لبعض المبادىء الليبرالية التقليدية

رأينا كيف ان الليبرالية المستحدثة تختلف اصلاً عن الليبرالية الكلاسيكية التي كانت تتوسل الى الدولة المحافظة على النظام وصيانة الأمن ، والامتناع على الاخص ، عن كل تدخل ، في الحياة الاقتصادية . وفي هذا دليل قاطع على ان عدداً من الافكار والمبادىء القديمة التي اعتبرت للآن « لا تمس » ، اصيبت ، في نهاية الامر ، في الصميم .

من هذه المبادىء ، قبل كل مبدأ آخر ، فكرة الملكية او الحيازة « ففي الاستعاضة عن بعض الجدران او عن بعض اجهزة المصنع برزمة من الاسهم » يقتل التطور الرأسمالي « كل معنى لفكرة الملكية الخاصة التي اخذت تفيد ، اكثر فأكثر ، معنى الخدمة الاجتماعية » كما يؤكد شمبتير . هذه هي الحجة التي يتذرع بها مناصروها لتبرير الربح كما يتذرع بها خصومها الذين يطالبون بإخضاعها للمراقبة من قبل المجتمع . فالنصوص القانونية العديدة التي تحد منها او تقصرها او تنسخها احياناً ، تحاول ان تستبدل المعنى القديم للمالك الذي له ملء الحرية بالتصرف بملكه كما يشاء ، بالمبدأ القائل بأن الاستثمار هو مصلحة اجتماعيـــة ، وبأن « رب العمل » لا يستطيع التصرف به على هواه او حسبما تقتضيه مصلحته الخاصة ومنفعته الذاتية ، فيخفض من انتاجه ويتوقف عن تأمين حصته من الانتاج وفقاً « للحاجات المشتركة » . فالقوانين التي تنظم العطلة الاسبوعية او الاسبوع الانكليزي ، كما يقولون ، واسبوع الاربعين ساعة عمل ، والاجازة المدفوعة ، وحوادث العمل والضمان الاجتماعي ومندوبين يمثلون الموظفين ، تحد من سلطته التي كانت من قبل مطلقة .

كذلك صاحب حرية التعاقد تغييرات جذرية . فقد كان التعاقد ، فيما مضى ، افرادياً لا يربط سوى الفريقين المتعاقدين ، ولم يكن بوسع الشارع تغيير مضمونه . اما اليوم ، فالعقد موجَّه هو وجماعي . فالقانون وضع فوق حرية الجانبين المتعاقدين مراعاة حقوق الشخصية البشرية . فهو يقف الى جانب الافراد « الضعاف اقتصادياً » : كالعمال والمستخدمين والمديونين والمستأجرين والزبائن ، ويعين التزاماتهم بينما يزيد من حقوق الاقوياء : كأرباب العمل والدائنين واصحاب الأملاك ، ليس في وقت تحرير العقد فحسب ، بل ايضاً طيلة استمرار العقـــد : كتخفيض الايجارات ورسوم المزارعة وسعر المحلات التجارية وطول يوم العمل وتنظيم شروط تجديد العقد ، وتبقي مستأجراً في محله بالرغم من إرادة صاحبه ، وتلزم بالتقيد بنصوص الاتفاق حتى من كان معارضاً أو معادياً له ، والاتفاقات الجماعية التي تعقدها المنظمات النقـابية وأرباب العمل والعمال « الأكثر تمثيلاً » .

وفكرة الأجر دخل تعدي على معناه وفحواه . فقد انقلب المعنى رأساً على عقب من جراء القوانين التي تنظم التعويضات العائلية والضمانات الاجتماعية . فالعامل لم يعد يتناول أجره عن العمل الذي يؤديه فقط ، وأجره هذا لم يعد مرتبطاً بقانون العرض والطلب ، إذ ان قسماً منه يدخل في صميم تعويض الأسرة . والعقود الجماعية تأخذ بعين النظر الحد الأدنى للمرتب اذ لم يعد الأمر محصوراً فقط بعامل الانتاج بل بالعنصر البشري أيضاً .

١ – لينين يتكلم الى الشعب في ١٩١٧ من على منبر مقام في ساحة بتروغراد .

٢ — خندق في ١٩١٧.

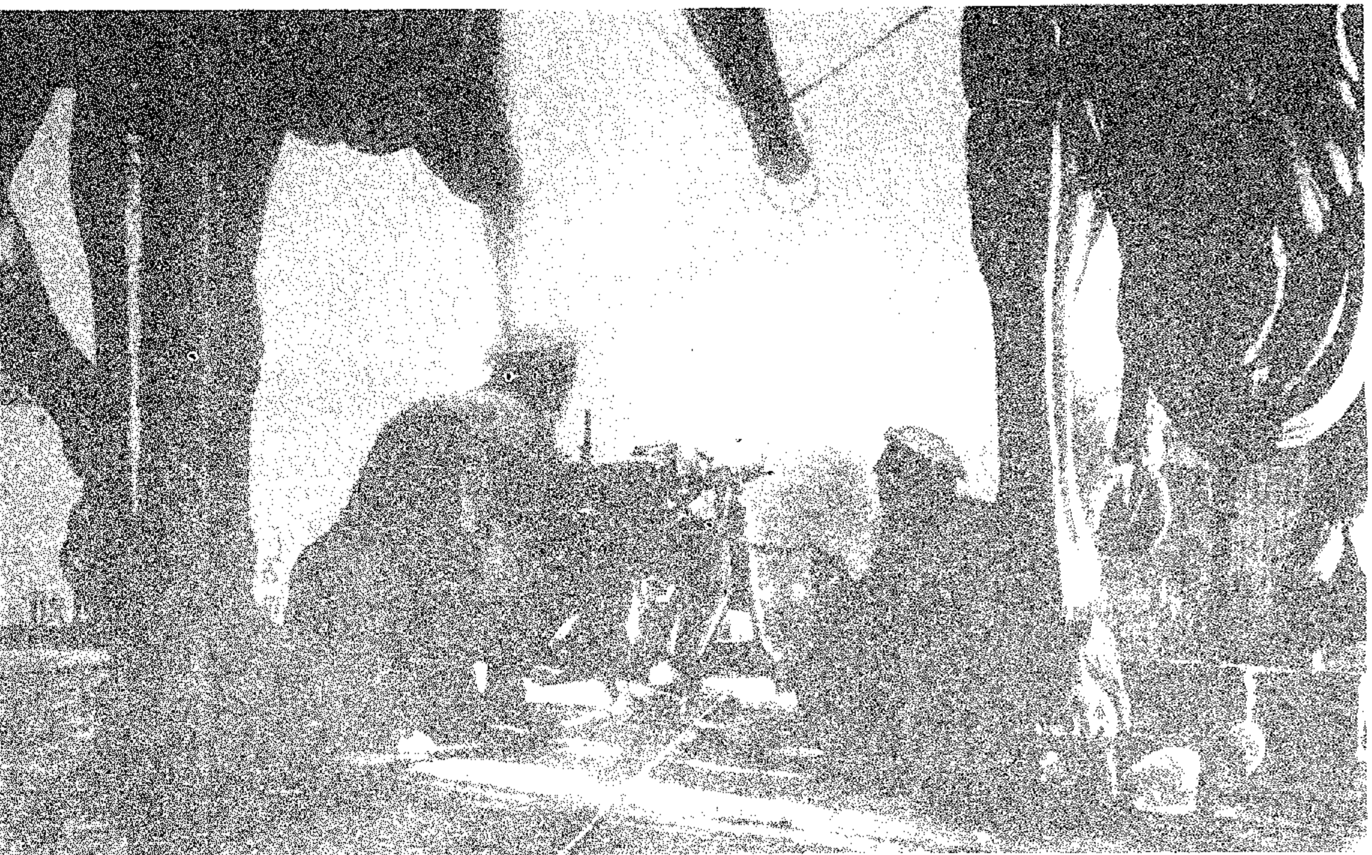

٣ — قمع الفتنة السبارتاكية في برلين في السنة ١٩١٨ .

٤ – توقيع معاهدة باريس مع ألمانيا في قصر فرساي ، في ٢٨ حزيران ١٩١٩

٥ — مصفق باريس . جلسة السوق اليومية للاموال المنقولة .

٦ — بيكاسو ، « غرنيكا » .

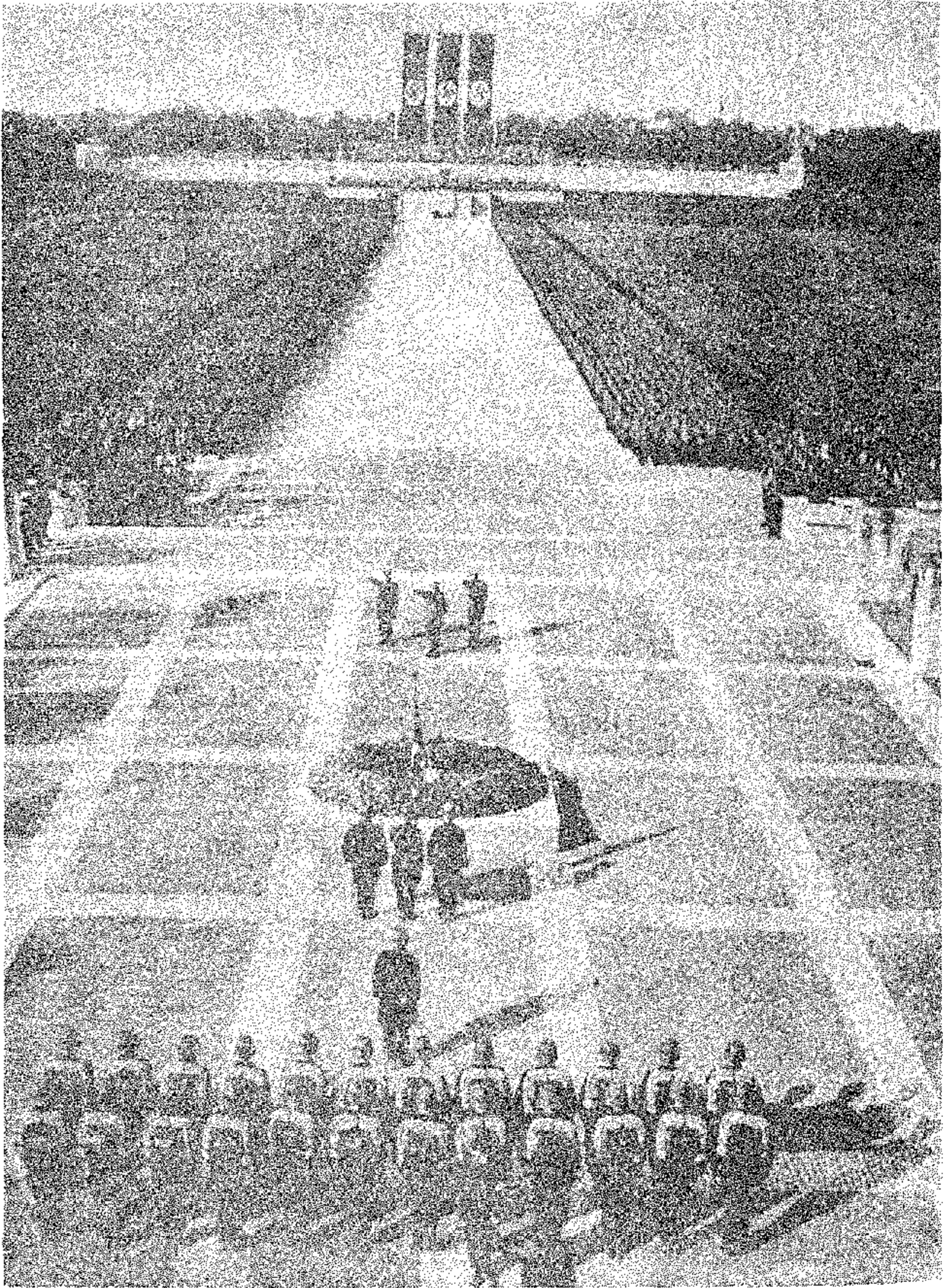

٧ — مهرجان نازي في نورمبرغ . مؤتمر الحركة الوطني في ١٩٣٨

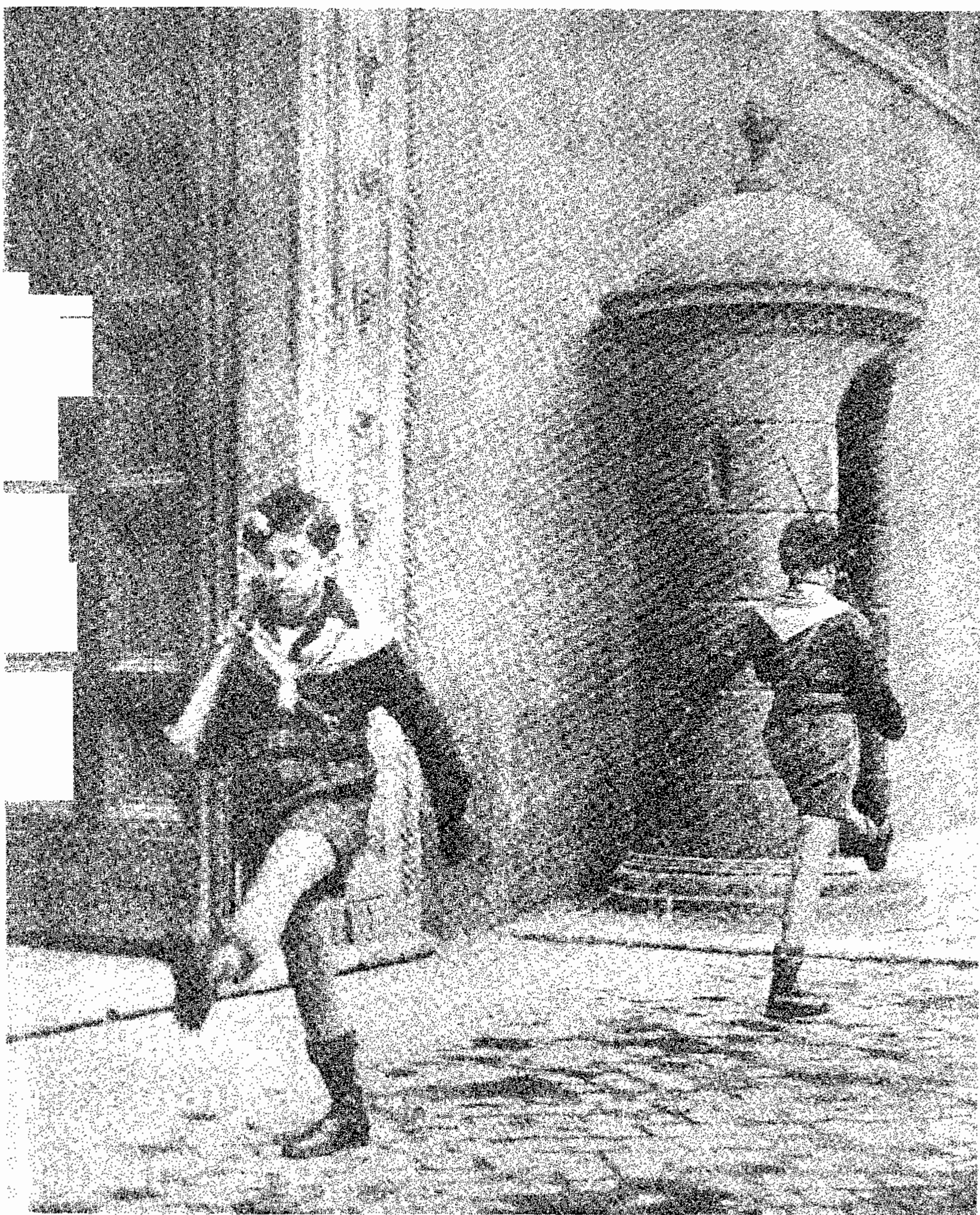

٨ — حارسان من الـ « باليلا » في روما. نموذج من الروح العسكرية التي خلقتها الفاشستية في الشبيبة

٩ -- معسكر الابادة في « بوكنوولد » كما اكتشفته الجيوش الحليفة الظافرة .

١٠ - المرفأ الصنعي لانزال الجيوش في « آرومانش » .

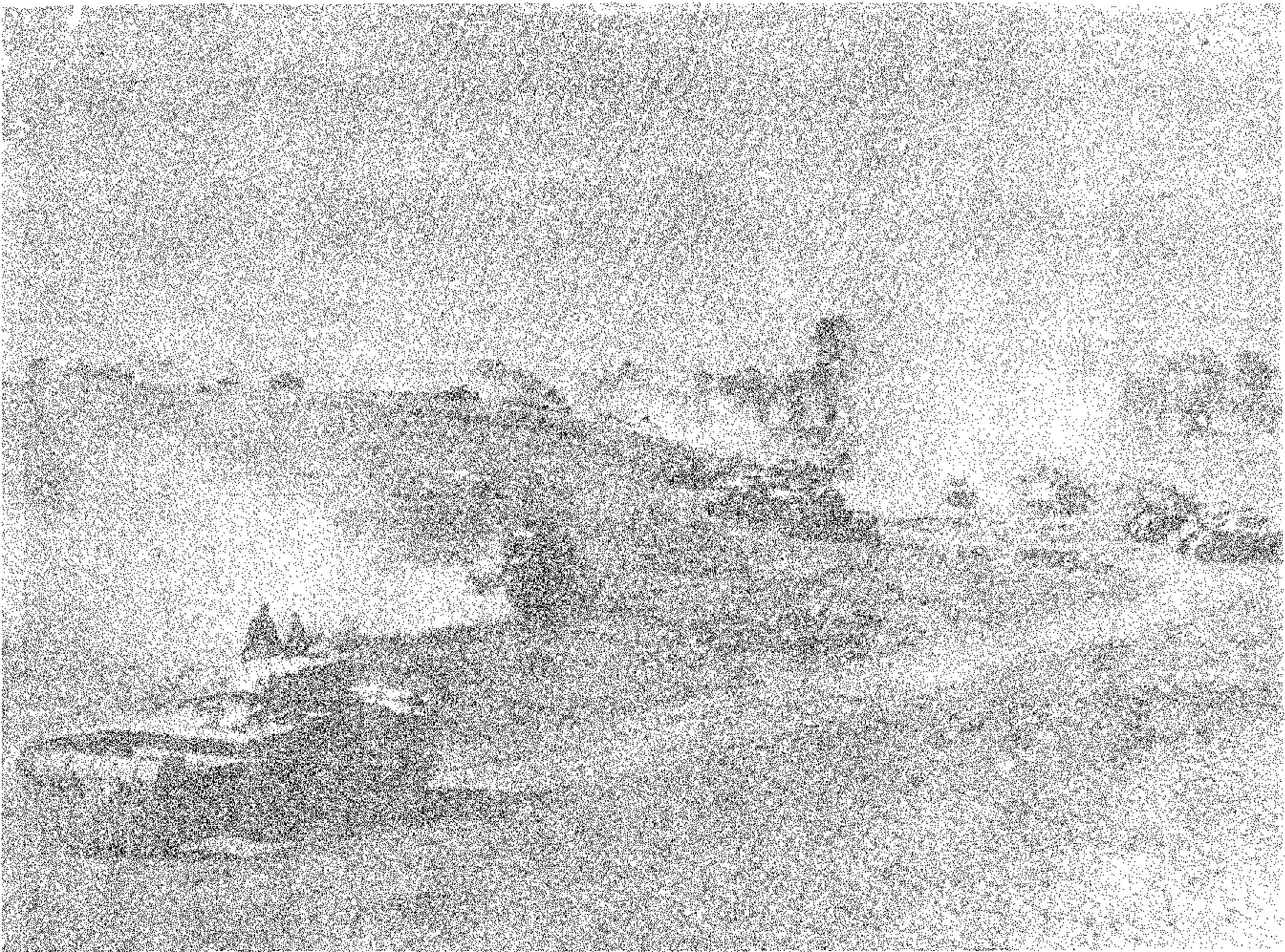

١١ — الدبابات الكندية تهاجم أسلحة مدرعة ألمانية مطوقة في منطقة آلنسون في آب ١٩٤٤ .

١٢ – مرفأ « الهافر » الذي دمرته الغارات الجوية في ١٩٤٤ .

١٣ – تحرير باريس ، آب ١٩٤٤ .

١٤ — مؤتمر يالطا : روزفلت ، وشرشل ، وستالين ، مجتمعون في القرم ، في ١١ شباط ١٩٤٥ .

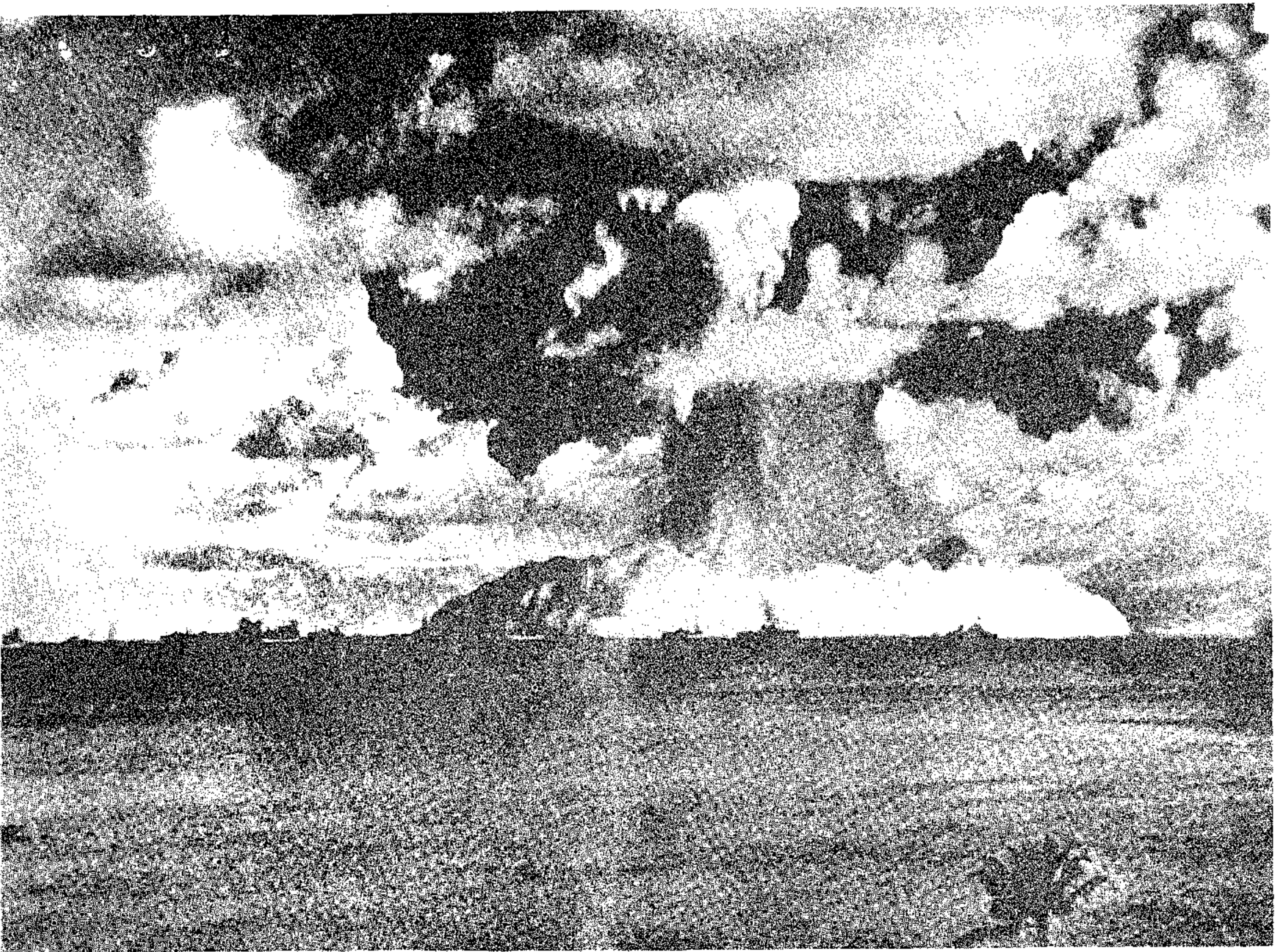

١٥ – انفجار قنبلة ذرية في بيكيني . حزيران ١٩٤٦ .

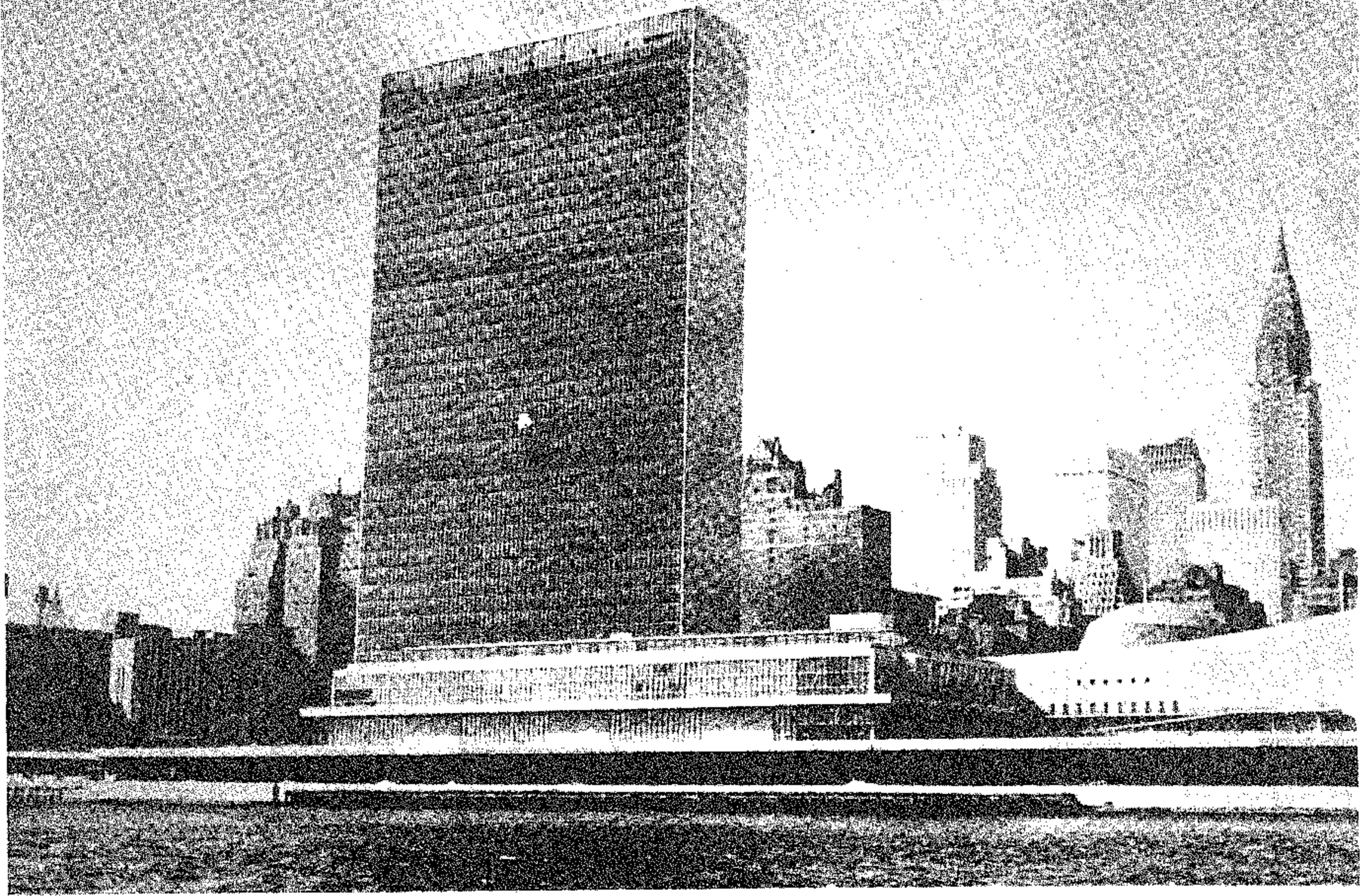

١٦ - قصر منظمة الامم المتحدة في مانهاتن (نيويورك)

الفصل الخامس

الأزمة ونتائجها السياسية

الفاشية ليست سوى الرأسمالية تتنكر لاصولها الليبرالية بحيث تكيف البنيان الاجتماعي للانتاج مع الاوضاع التي تكون فيها الفكرة الليبرالية قاضية على الفكرة الرأسمالية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .

« هـ . لاسكي »

١ – تقهقر الليبرالية وأزمة الديموقراطية البرلمانية

زعزعت الازمة الاقتصادية النظم السياسية من أسسها ولا سيا النظام البرلماني الذي كان يرجى له أن يؤدي انتصار الحلفاء عام ١٩١٨ وخروجهم ظافرين من الحرب كما كان متوقعاً ، إلى توطيده وترسيخه أكثر فأكثر . الا ان التقهقر أخذ مع ذلك يدب إلى الليبرالية اينما كانت كما ان صلاحيات السلطات التنفيذية رَحُبت واتسعت هي الأخرى .

ساعدت الأزمة بالفعل على زوال الظروف والأحوال التي مكنت من قبل لسير النظام البرلماني سيراً سويّاً ، اذ ان اتساع البطالة في العالم وانخفاض القدرة الشرائية ، والخراب الذي نزل بالطبقات الوسطى وبسكان الريف ، زادت من احتدام الصراع الطبقي كما ازدادت إلحافاً المطالب الاصلاحية التي تبناها وأخذ ينادي عالياً بها انصار العاملين للاصلاح . ألم يكن ليوجس المرء خيفة على الحريات السياسية ، ولا سيا على حرية التجمع من ان تسيء الجماهير استعمالها بعد أن أخذت تهفو إلى حقوق جديدة وتطمع في تحقيقها ؟ هذه الحريات التي تهدد التسلسل الاجتماعي خطيرة هي ولذا كان لا بد من قتلها أو أقله اغفالها وتجنبها . وفي سبيل إنقاذ الملكية او الحيازة ، راح قسم من الطبقات الموجهة يتنكر لليبرالية وينضم للثورة المضادة بسهولة أكبر بعد ان كشفت الازمة عن عجز الديموقراطية النيابية وقصورها في حل مشكلات الساعة .

ان الاستئثار بالسلطة اي توفير الوسيلة التي تحمل الخصم مسؤولية خسارة الاشياء الضرورية او المصيرية ، هو المفهوم العالق التخلي عن النظام البرلماني من قبل الدول التي كانت تلتف وراءه راضية » ، كما يقول لوفيفر . ففي عام ١٩٣٣ ، لم يعد قائماً على وجه الأرض أي نظام ليبرالي باستثناء الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا ودول الدومنيون ، وفرنسا وهذه الدول الصغرى الواقعة الى الشمال الغربي او الى الوسط من القارة الاوروبية ، وبلجيكا ، والبلاد الواطية وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا والبلدان السكندينافية .

تقوية مقام الرئاسة في الولايات المتحدة الاميركية

حتى في هذه الولايات المتحدة الاميركية المعروفة بضعف حكومتها المركزية ، فقد أتاحت الأزمة للرئيس الاميركي ان يقوّي من سلطاته إلى حد بعيد . ان الاعتراف للرئيس ، في الخطة الجديدة حق توزيع مساعدات على سبيل الهبة أو المؤازرة بلغت قيمتها ثلاثة مليارات دولار عام ١٩٣٩ ، دونما قيد أو شرط ، مكّن السلطة الاتحادية من ان تفرض ارادتها على الولايات لا سيا في ما يتعلق بالشروط والكيفية التي ترى صرف هذه المساعدات والتعهد من قبل الولاية المستفيدة بالتزام بعض القواعد والتقيد بالاصول والتدابير التي تتعلق بوضع العمال او بالخدمة العامة . وهكذا تمكنت الحكومة الفدرالية من وضع يدها على أراض وممتلكات كانت ترجع من قبل للولايات . وانشأ الرئيس روزفلت مصالح ودوائر جديدة امتدت صلاحياتها إلى عدد من الولايات وأنشأ مؤسسات تشترك الحكومة الفدرالية بادارتها مع ولايات أخرى (مشروع سلطة وادي تنسي) وكثيراً ما استحالت الولاية إلى مأمور تنفيذ لسياسة الاتحاد . ولم تعد وظيفة الكونغرس الوحيدة ، منذ ذلك ، تحديد السياسة العامة للدولة . فهو يوسع عن طريق مشاريع القوانين ، من الاختصاص التشريعي للسلطة التنفيذية . « فالتفسير الثنائي » للتعديل العاشر للدستور الاميركي الذي كان يمنع السلطة الاتحادية من التدخل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية المحتفظ بها للولاية ، قد وضع جانباً منذ عام ١٩٤٣ ، عندما اعترفت المحكمة العليا بشرعية القوانين الاتحادية حول علاقات العمل والضمان الاجتماعي وتنظيم سوق الفحم والاسواق الزراعية . وفي سنة ١٩٤١ ، على اثر الغاء كل التشريع القديم ، لم يبق من املاك تعود للولايات لا تستطيع الحكومة الاتحادية ان تطالها . وكان الرئيس هو المستفيد الاكبر من توسيع السلطات الاتحادية، مهما بلغ من حرص مجلس الكونغرس على تشديد مراقبته على السلطة التنفيذية .

في بريطانيا العظمى

اشتدت وطأة الازمة في انكلترا وطن النظام البرلماني الاصيل . فقد اخذت البلاد ، في المجال التشريعي ، إسناد صلاحية التشريع لبعض الدوائر التابعة للسلطة التنفيذية ولبعض وزراء التاج . فالقانون الذي فرض عام ١٩٣٢ الرسوم على الاستيراد ، ترك لوزير المالية حرية الاعفاء او زيادة هذه الرسوم . والقانون الآخر الذي صدر عام ١٩٣١ ، على المحاصيل الزراعية فوض الى الوزير المسؤول سلطة

فرض رسوم مانعة على المحاصيل التي يرى منعها او التقليل منها . والقانون الصادر في عام ١٩٣١ ، بشأن التوفير لا يشير من قريب او بعيد الى الوفر الذي يجب تحقيقه . فعلى الوزراء ان يحددوها كل في ما يتعلق بوزارته . كذلك القانون المتعلق بالبطالة ، فهو يعهد بهيئة خاصة من الموظفين الاداريين وليس بالسلطات المحلية مهمة توزيع الاعتمادات المخصصة للتوزيع على المحتاجين . ولعل القانون الاكثر تعبيراً لظاهرة الابتعاد عن المبادىء الليبرالية هو قانون الاغراء على التمرد والتحريض عليه الذي صدر عام ١٩٣٥ الذي يمنع بكل شدة محاولات الاغراء والتحريض على العصيان او على التمرد ، فرمى الى حماية افراد الجيش من الدعايات المغرضة والدعاوة للسلم بأي ثمن . فهو ينص على امكان إصدار مذكرات استنابة على بياض التي لم يكن اصدارها يُعد عملاً مشروعاً او قانونياً ، منذ نحو ١٥ سنة مضت . كذلك يطل العمل ، في ايرلندا الشمالية بالامر للشول منذ عام ١٩٣٥ .

والاحتراز من بعض المؤسسات او من بعض النقاد ظهر جلياً بين جميع الاحزاب ، فقد قام افراد امثال ونستون تشرشل وسدني ويب يلاحظون ان البرلمان لا يستطيع الاهتمام ، كما يلزم ، بالقضايا الاقتصادية واقترحوا بان يتولى امر الاعتناء بمثل هذه الامور هيئة خاصة تتألف من خبراء مستقلين ينتخب افرادها من بين جميع الاحزاب ، وليس من بين اعضاء المجلس النيابي .

في فرنسا

اما في فرنسا ، فقد ادت الازمة الى إضعاف النظام البرلماني ، فآل الامر الى شلل عام عطل او خلخل الانظمة الدستورية في البلاد . فالقاعدة التقليدية للسياسة الفرنسية التي تقول ان الاتجاه الى اليمين في تشكيل الحكومات يقضي عند الشعب على الخوف من اليسار ، لا تزال قائمة . فكتلة اليسار تفوز مرتين بنجاح في الانتخابات العامة ١٩٣٤ و ١٩٣٦ . وقد تمكن اليمين من طردها من الحكم عام ١٩٣٤ و ١٩٣٨ . وفي سنة ١٩٣٤ فسخ الراديكاليون تحالفهم مع الاشتراكيين برفضهم مشروع مراقبة القطع ، كما وقفوا ، عام ١٩٣٨ في وجه كل مشروع يرمي لتأميم التسليف او يقترح اصلاحات جذرية ، بعد ان ادخلوا على القوانين الاخرى التي سبق للجبهة الشعبية ان أقرّتها ، تعديلات جعلتها غير ذي جدوى . ولما كان للقضايا المالية والاجتماعية اهمية قصوى ، فقد احتدم حولها صراع الاحزاب التي اخذت تقف منها موقفاً متصلباً يتفق ومبادئها ، والامتناع عن المساومات التي تهدد بحرب اهلية .

فالنجاح الذي حققه الحزب الاشتراكي في انتخابات ١٩٣٢ ، ولا سيا انتصار الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ ، ادخلت القلق الى نفوس الطبقات الموجهة ، في الحين الذي كان فيه فوز الانظمة الدكتاتورية في كل من ايطاليا والمانيا يدعو للاحتذاء بها والنسج على منوالها . والحال ، فبعد انتخابات عام ١٩٣٢ التي اعطت المجلس النيابي اكثرية تشبه الاكثرية التي نالها التجمع عام ١٩٢٤ اخذ عدد من « الاعيان » المتربصين بالازمة المالية ، والذين كانوا يعيشون تحت كابوس الامثولة الروسية ، يفقدون كل ثقة باللعبة البرلمانية بعد ان كانوا رضخوا لها واستسلموا لها مسايرة ،

فراحوا ينضمون كأسلافهم عام ١٨٤٨ ، الى هذا الفريق الذي كان يقترح قيام حكومة قوية تكبح من جماح زعماء « الحركة » وتأخذ دونما خوف او وجل بسياسة حازمة تدافع عن مصالحهم ، لا تتغير دورياً مع الانتخابات ومعارضة العمال ، ولا تكون في كل مرة موضوع بحث ونظر .

فتقاليد اليمين الفرنسي ، وموقفه العدائي من النظم الديموقراطية والجمهورية لها عروقها القديمة . ان تفاهة بعض رجال السياسة ، والاعمال المريبة التي يأتونها في المجالات السياسية والمالية ، غذت في النفوس نفرة من النظام البرلماني اعترت افراد الشعب من قبل ، فراحوا يذكونها في صدور الشبيبة البورجوازية والمنظمات القومية : كالشباب القومي وعصبة القوميين الذين كان برنامجهم الغامض الوقوف الى جانب السلطة التنفيذية وعت بسبب وثيق الى التيار الاستقلالي البونابرتي . اما الفئة الاكثر تصلباً من هذه كلها بالرغم من قلة عدد اعضائها ، فكانت فئة « الاكسيون فرنسيس » التي كانت تعمل وفاقاً لبرنامج سياسي معين هو اعادة الملكية الى فرنسا . والى جانب المؤسسات القديمة التي كانت تنادي على اقدار وانساب متفاوتة، من التصريحات العنيفة الداوية ببرنامج اساسه المحافظة في الحقلين السياسي والاجتماعي، أطل عدد من الاحزاب والهيئات السياسية الجديدة ، منها عصبة جورج فالوا ، والفرنسية ، والتضامن الفرنسي ، الذين لم يكن عدد اعضائها مجتمعين ليتجاوز بضعة آلاف ، الا انها كانت فاشية الطابع والصبغة في تنظيماتها شبه العسكرية وتفكيرها ودعوتها الى استعمال العنف . أما حزب « صلبان النار » الذي تألف من قدامى المحاربين والحاملين اوسمة حربية ، اعترافاً بأعمال البطولة والتضحية التي قاموا بها ، ويلقى مساعدة مالية من مؤسسة كوتي ومن ارنست مرسييه ، فقد انصرفت للعمل منذ عام ١٩٣١ ، فارتفع عدد اعضائها ، عام ١٩٣٢ من ١٥ الفاً الى ٣٥ الفاً ، الى ان ارتفع الى ٦٠ الفاً عام ١٩٣٣ ، وتكوّن حوله تشكيلات فرعية ، كأبناء الصلبان النارية ، والتجمع القومي للمتطوعين الوطنيين . كل هذه الفئات والاحزاب اخذت تكثر من المظاهرات المضادة للروح البرلمانية . وفي ٦ شباط ١٩٣٤ واستغلالاً منها للهيجان الذي اقام الشعب الفرنسي لفضيحة ستافسكي المالية ، وتعبيراً عن عدم ارتياحهم لعجز الحكومة وعدم تجانسها ، قام بمظاهرة اتجهت نحو مبنى المجلس النيابي ، انتهت بفتنة ، عقبها اصطدام دام مع البوليس ، الامر الذي أدى بالحكومة ، بعد انقسامها على نفسها ، وبعد عدم اطمئنانها لموقف بعض الموظفين المدنيين والعسكريين ، قدمت استقالتها ، وتخلت عن الحكم للسيد دومرغ رئيس الجمهورية الاسبق الذي الف وزارة ارتكزت قاعدتها بوضوح على اليمين ، مع المارشال بيتان ولافال وفلاندان . فهذه الوزارة والوزارة الاخرى التي عقبتها برئاسة لافال سارت على سياسة انكماش مالي استمرت سنتين . واخذت الاحزاب التي استندت اليها تزداد نفوذاً ، اهمها حزب صليب النار الذي ضم اكثر من مليوني عضو . ولم تلبث هذه المنظمة ان اتخذت طابعاً شبه عسكري على مثال الحزب الفاشي ، بينما بقي برنامجه غامضاً اذ لم يخرج عن كونه

حزباً عينياً ، ينزع الى فرض السلطة كما هي تقاليده المرعية . ولم يعد الصراع ليقتصر على المجال السياسي والاجتماعي . ورغبة في عدم إضعاف « قوى النظام » العاملة في القارة ، تخلى اليمين عن سياسة الحزم والتشدد حيال المانيا ، وهي سياسة طالما حبذها واوصى باتباعها ، كما تخلى عن مشروع الاتفاق الفرنسي الروسي وانطلقت من جديد الروح الوطنية المتعصبة ضد بريطانيا. وما عتم ان اعرب الحزب عن رضاه وارتياحه لمهاجمة ايطاليا الحبشة ولمساعدة الدول الفاشية لفرنكو وللاتفاقات التي عقدت في مونيخ .

والتهديد الذي تمثله هذه الأحزاب ، لم يلبث أن انعكس أثره في التجمع وتوطين الرأي بين الأحزاب والهيئات اليسارية : كالحزب الراديكالي والحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي والاتحاد العمالي العام ، ورابطة التعليم ورابطة حقوق الانسان الخ ، ليؤلفوا من بينهم لجنة متابعة وتوعية قوامها مفكرون من خصوم الفاشية ، أخذت تمهد للاتصالات وعقد الاتفاقات بين هذه الفئات ، مما أدّى الى عقد ميثاق وحدة عمل والى انشاء جبهة شعبية فازت بانتخابات ١٩٣٦ . وكان من شدة وجوم الطبقة الموجهة وأصحاب الشأن في البلاد أمام تشكيل حكومة ذات ميول اشتراكية يعضدها حزب شيوعي قوي أن أخذ زعماؤها يميلون أكثر فأكثر نحو حلول بالقوة . وعلى الأثر ظهرت من جديد تجمعات فاشية الطابع ، منها على الأخص الحزب القومي الفرنسي (P.P.F.) الذي تألف عام ١٩٣٦ بسعي من العضو الشيوعي السابق دوريو الذي تلقى مساعدات ضخمة من رجال الصناعة ومن الحزب الفاشي الايطالي . ومن هذه الأحزاب ، الحزب المسمى « كاغول » ويشار اليه بالأحرف C.S.A.R. وهو عبارة عن جمعية سرية نعمت بحماية بعض الدوائر العليا في الحكومة والجيش . وأقامت هذه الجمعية علاقات مباشرة لها مع الحزب الشقيق الآخر بعد أن أمده بالمساعدة ، وفي سبيله قام بعض اعضائه بقتل الأخوة روزلي .

وهذا الصراع الذي تجاوز حدة وعنفاً كل ما سبقه من عراك في الفترة السابقة حال ، ليس دون القيام بأي محاولة اصلاح للنظم والمؤسسات الفرنسية فحسب ، بل زاد عمل الحزب سوءاً في الوقت الذي استمر النظام في تطوره الوئيد الرامي لتعزيز السلطة التنفيذية . وهكذا أخذت شخصية رئيس الوزارة تبرز بوضوح من بين الوزراء بعد أن خلط بينهم الدستور الفرنسي الصادر ، عام ١٨٧٥ . ولأول مرة اعترف له القانون الصادر في ٣ كانون الأول ١٩٣٤ ، بوجود متميز ، كما خصه بخدمات وأدوار ادارية دائمة وقفاً عليه دون سواه . وبعد أن أصبح بالفعل رئيساً للحكومة أخذ رئيس الوزارة يمارس حقه بتأمين الانسجام والترابط بين مختلف الوزارات واللجان الوزارية المشتركة والتي ارتبطت صلاحياتها بعمله . كذلك أنيط به الاشراف على اللجنة الاقتصادية واللجنة المتوسطية العليا ، واللجنة العسكرية العليا ولجنة الشؤون الاسلامية ؛ والمراسيم الاشتراعية بنوع خاص التي تتجلى فيها السلطة التشريعية عن بعض صلاحياتها تسهيلاً لعمل السلطة التنفيذية ، لم تلبث أن أصبحت أداة كثيراً ما تكرر اللجوء اليها لاعداد

مشروعات القوانين ، بحيث تفرض على البلاد تدابير واجراءات لا تحظى كثيراً بتأييد الشعب لها . ومنذ عام ١٩٣٣ ، ولا سيما منذ ١٩٣٧ ، تكرر مراراً طلب التسلح ببرامج اشتراعيــة بشأن التشريعات الاقتصادية المعدة لتأمين التوازن في موازنة الدولة ، والدفاع عن الفرنك ضد المضاربات المالية ، وكبح التعديات على أموال الدولة ، ومراقبة الاسعار والاصلاح الاقتصادي . وبعد سنة ١٩٣٤ ، تمت معظم الاصلاحــات الكبرى في البـلاد عن طريق المراسيم الاشتراعية . فقد عملت الحكومة بهذه المراسيم بين ١٩٣٧ – ١٩٣٩ ، ثلاثــة عشر شهراً على ٢٦ شهراً .

الدول الليبراليـة الاخرى

هنالك بـلدان ودول أخرى بقيت على ولائهـا لحرية التجارة تركت فيها الأزمة الاقتصادية أثراً ظاهراً في سياستها.

فمع استمرار العمل بالنظام البرلماني في بعض البلدان ، فقد قامت فيها ، بالرغم من ذلـك أحزاب فاشية بعضها ضعيف يدعو للسخرية برئاسة موسلي في انكلترا ، مثــلاً وبعضها انشط وأقوى ، كما في بلجيكا حيث أسس شاب كاثوليكي هو ليون دقريل منشيء جريـــدة أسبوعية بعنوان « ركس » اشارة بذلك الى المسيح الملك كما أنشأ حزباً « ركسياً » أخـــذ على نفسه مهاجمة « حكومة الفاسدين » ، كما أخذ ينشر بين الملأ ، صوفية الزعيم ، واستأنف العمـــل بأساليب الدعاوة مردداً : « الظفر الركس » ، منادياً بالشعارات التالية : مناهضة الرأسمالية . مناهضة الاشتراكية . مناهضة الليبرالية ، كما راح يطالب بتأسيس نظام يرتكز عـلى الأسرة والمهنة ، مع هيئات ومجالس مهنية ، وسلطة تنفيذية قوية ، ومجلس نيـابي له صلاحيـات ضيقة للغاية . وبعد أن جمع أنصاره من رجال الفكر الكاثوليكي وتحالف مع القوميين الفلمنكيين الذين كانوا حصلوا على حق « فلمنكة » التعليم في مقاطعة الفلاندر ، فقد كتّب له الكتائب من سكان الريف ومن بين العمـال الكاثوليـك ، وحصـل في انتخـــابات عام ١٩٣٦ عـلى نحو ١٢ بالمئة من مجموع أصوات الناخبين وعلى ٢١ مقعداً . وأخذ يحبـــذ سياسة موالية للدكتاتوريات .

وعرفت سويسرا نفسها تجمعات فاشية هي الأخرى ، تألفت منهـــا « جبهة وطنية » ، بمساعدة عدد من الضباط « العمل على البعث الوطني » ومكافحة الشيوعية ، وأخذ ينادي بنهاية الديموقراطية والنقابية . ونال عام ١٩٣٥ ، ستة مقاعد في مجلس مقـــاطعة زوريخ ، وانتخب رئيسها مستشاراً وطنياً . الا ان نشاط النازية في سويسرا بعث هزة في الرأي العام ، والغضب الذي سببه ضم النمسا الى الرايخ وضم المانيا مقاطعة السوديت اليهـا ، جعلت النواب النازيين يفقدون مقاعدهم في انتخابات عام ١٩٣٥ ، و ٣٠٠٠٠ صوت عام ١٩٣٩ ، مع فقدان ٣ مقاعد في البرلمان . وفي النرويج ، اتحد الفلاحون المدينون للوقوف في وجه البيع القسري للاراضي . وفي عام ١٩٣٣ ، جرى التجمع الوطني ، يسمى كويسلنغ . وفي فنلندا قامت حركة وطنية في لابوا ، ذات طابع فاشي زرعت الاضطراب في البلاد ، بين ١٩٢٩ – ١٩٣٢ .

٢ – الدكتاتوريات الفاشية

قبل وقوع ازمة ١٩٢٩ الاقتصادية ، كان النظام البرلماني ، في عدد من الدول الاوروبية ، قد انهار تماماً ، لتقوم مقامه نظم دكتاتورية . فمنذ عام ١٩٢٣ ، اقام الجنرال بريمودي ريفارا في اسبانيا دكتاتورية عسكرية، ولن يلبث ان قام الجنرال كارمونا لجربة مماثلة في البرتغال عام ١٩٢٩ ، بعد ان استولى على مدينة لشبونة على يد الجنرال غوميز دي كوستا ، وعرفت بلغاريا نفسها لبضع سنوات ، نظاماً دكتاتورياً بزعامة تسانكوف (١٩٢٣ – ١٩٢٦) ، كما اجتازت اليونان ، عام ١٩٢٥ ، مع الجنرال بنغالوس ، فترة مماثلة عقبها نظام شبه برلماني . واخيرا قام الجنرال بلسدسكي بانقلاب عسكري في بولونيا ، افضى به الى تولي زمام الامر في البلاد ، مع استبقاء حكومة ذات مظهر برلماني . الا ان كل هذه النظم لم تكن سوى دكتاتوريات من طراز قديم ، بينما نظام الحكم الذي قام في ايطاليا ، منذ عام ١٩٢٢ اتصف بميزات عديدة جديدة ، جعلت منه اول مثال يسجله القرن العشرون لثورة معاكسة حقيقية . فقد اقتضى له بضع سنوات من التجارب والتطبيقات قبل ان يضع نهائيا فلسفته ، وقبل ان يوضح صفاته المميزة . فمع وقوع الازمة الاقتصادية فقط ، ولا سيما بعد سنة ١٩٣٣ ، عندما استولى الحزب الوطني الاشتراكي على السلطة في المانيا ، اخذت الدكتاتورية الفاشية ، تؤلف الظاهرة الكبرى الاولى الليبرالية ، كما تمثل في التاريخ المعاصر حدثاً له مدلوله العالمي اذ ان الصورة الموسولونية لهذه الدكتاتورية كانت الصورة الاكثر نسخاً وتقليدا في العالم .

الفاشية

هذه النظم الفاشية التي فجّرتها الازمة في كل مكان في العالم تقريباً جاءت كلها على منوال الدكتاتورية الالمانية والايطالية ، تقتبس عنها في معظم الحالات ، مظاهرها الخارجية وتدين لموسوليني ولهتلر بالشكر والولاء . وقد برزت حركات اتسمت كلها بالطابع الفاشي ، وان اخفت في الباطن ، اوضاعاً اجتماعية وتباينت عنها واختلفت .

أصولها

السمات المميزة للواقع الفاشي ، يمكن استنتاجها من درس الحوادث التي وقعت في ايطاليا حيث قامت الحركة ، ومن ثم في المانيا ، المسرحين الرئيسيين لها . برزت الفاشية بأوضح وجوهها ، في بلدين « كان مطروحاً على بساط البحث في كل منها مشكلة اجتماعية ومشكلة قومية حادة » ، بلدين راحا ، الى حد بعيد ، فريسة للاضطرابات والقلق الاجتماعي من جراء ما عاناه من حدة البطالة والصراع الطبقي ولعدم استقرار النقد فيها . فقد شهد كلا البلدين ثورة شعبية حركت من الأعماق ، الجماهير الهائلة ، بعد ان ضمنا الى مطاليبها القومية والاجتماعية ما شعرتا به من ذل الانتقاص الوطني، ومن وضع اقتصادي اعتبرته لا يطاق، ومن نظام سياسي اعتبرتاه عاجزاً في الاساس وفاسداً في الصميم . ومما لا شك فيه قط ان الحركة وجدت مسعفاً لها ، افتقار كلا البلدين لتقاليد ديموقراطية عريضة ، سواء منهما لدى الشعب

الايطالي او في المانيا ، حيث عجزت خمسون سنة من نظام تمثيلي ، عن ترسيخ مثل هذه التقاليد وتوطيدها في البلاد ، وحيث تصارعت الاحزاب ، وحيث عجزها وافتقارهـا الى النفوذ كاد يؤدي بالبلاد ، الى الخراب . وفي مثل هذا الجو المؤاتي ، ليس من عجب ان تساعد الازمة ، بعد ان نشبت في ايطاليا منذ عام ١٩٢٠ ، وفي المانيا ، منذ عـام ١٩٢٩ ، على انكاء الصراع الطبقي باثارتها ردة فعل ، دفاعاً عن الامتيازات والمكاسب المهددة .

القوى

تساعدنا نظرة ناعمة محللة ، الى العناصر الـتي تؤلف القوى التي تعتمدها كل من هاتين الدكتاتوريتين ، على تكوين فكرة اصـح ، وفهم ادق ، للطابع الذي ارتدته الحركة . تتألف هذه القوى من عناصر متباينة ، اوسعها قاعدة ، وامضاها عزمـاً ، العناصر المستمدة من الطبقات الوسطى . ففي ايطاليا هذه التي تعاني بين ١٩٢٠ – ١٩٢٢ ، من ازمة اقتصادية حادة ، في الوقت الذي كان يعقد فيـه مؤتمر روما عـام ١٩٢١ ، فمن اصل الـ ١٥٠ الف عضو المسجلـين في الحزب الفاشي ، نجد ١٨ الف بينهم من الملاكين و ١٤ الفاً من التجار ، و ٤ آلاف من الصناعيين ، و ١٠ آلاف من اصحـاب المهن الحرة ، و ٢٢ الفاً من المستخدمين (بينهم الثلث من الموظفين) ، ونحـو من ٢٠ الفاً من الطلاب ، أي ما يوازي مجموعه ٩٠ الفاً ليسوا بعمال ، بينما الباقون يعملون في مرافق الزراعـة (٣٧ الفاً) و ٢٤ الفاً يعملون في المدن ، معظمهم عاطلون عن العمل او مستخدمون في المصالح العامة . ونرى النسبة ذاتها تقريباً ، عام ١٩٣٠ اذ ان ٢٥٤ من أصل ٣٠٨ من زعماء الحركة الفاشية الايطاليـة ، طلعوا من صفوف البورجوازية الصغرى .

وفي المانيا حيث تعاني البلاد في الفترة ١٩٣٠ – ١٩٣٣ ، من بطالة مقعدة ، وحيث نكاد لا نجد ٢,٥٠٠,٠٠٠ شخص يملك الواحد منهم ثروة ادناها لا يتعدى ٥ آلاف مارك رايخ ، اي في بلد صارت فيه الطبقة الوسطى الى وضع البروليتاريا ، لا يختلف الوضع هنا كثيراً عنـه في ايطاليا . واخذت الاشتراكية الوطنية تجمع انصارها ومؤيديها من بين صفوف الطبقـة البورجوازية الصغرى ، والمستخدمين والموظفين واصحاب المهن الحرة ، ورجال الفكر المنبوذين وقدامى الضباط ، وصغار الملاكين ، ومتوسطي رجال الصناعة والتجار ، والعمال العاطلين عن العمل . والدليل القاطع على ان الطبقة العمالية لم تعضد الحركة ، يظهره عـام ١٩٣١ من خلال الانتخابات للجان المصانع وهيئاتها ، حيث مرشحو الحزب ، لم ينالوا سوى ٥,٠ بالمئة من اصوات المقترعين ، بينما نالوا ٤٧,٥ بالمئة في الانتخابات لمجلس الرايشستاغ ، بعـد ذلك التاريخ ، ببضعة اشهر ، اي في تموز ١٩٣٢ ، كانت اصـوات البروليتاريا في صف اصوات صغار العمال . فالفاشية اذاً ، كما يتضح جلياً هي ثورة انفجرت من صميم الطبقـات الوسطى . فتكونت من هذه العناصر بالذات المكونة من صغار البورجوازيين او من البورجوازيين (بروليتاريا الياقة المكوية) ، والبروليتاريا الفكرية او العقلية الذين انزلوا منزلة البروليتاريا أو كانوا على وشك الصيرورة إليها بعد لأي قصير ، فثاروا ضد النظـام القائم . وتمسكاً بشرف

طبقتهم رفضوا التسليم باي تبديل جذري للمجتمع ، هذا التبديل الذي هدف الى تحقيقه ، كل ما في الاشتراكية والشيوعية . ومع ان بعض العناصر كانت تتناول اجوراً ادنى من اجور العمال فقد كانوا يشعرون مع ذلك ، بأنهم من طبقة اخرى ، او من طبقة أعلى مرتبة ، كما اعتبروا خطأ من شأنهم اجتماعياً وطبقياً ان ينزلوا منزلة العمال . والى هذه العناصر يجب ان نضيف هنا هؤلاء الشبان من ابناء الطبقة البورجوازية الذين لا عمل لهم ولا امل لهم بالعثور على عمل ، ولا سيما الطلاب منهم و « طبقات السن » الذين ضحت بهم الازمة وسدت في وجوههم كل المنافذ اي هؤلاء المنبوذين في كل الطبقات » . كذلك يجب ان نضيف الى هذا الملم ، عدداً كبيراً من صغار الملاكين الذين رزحوا تحت الدين ، ومحاربين قدامى لم يجدوا لهم عملاً في ايطاليا ، بين ١٩٢٠ — ١٩٢٢ ، او الذين عادوا من الحرب لا مهنة لهم ولا حرفة ، فتطوعوا في القناصة أو في هذه العصائب العسكرية التي مارت بها المانيا ، فرأى اعضاؤها ، في الحزب النازي ، مغامرة بطولة ، وبينهم عدد كبير لم يتأثروا بالبؤس الاقتصادي الذي اناخ على البلاد . بل اوجسوا خيفة من ان يخسروا مرتباتهم او « سعادتهم الاجتماعية » ووضعهم ، وان ينزلوا الى دركة الكادحين من رجال الصناعة ، والمساعدات التي قررت تقديمها المصالح الكبرى ضد الاشتراكية وضد الشيوعية ، لم تصل للحزب إلا بعد ذلك بكثير ، أي عندما حقق له بعض الشأن في البلاد .

ان إنعام النظر في تطور الحركة النازية في المانيا يرينا بوضوح مقدار ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بتقلبات الحياة الاقتصادية في تلك البلاد ، هذه التقلبات التي تبرز صورتها في حركة البطالة وما آلت اليه من وضع مفجع . فعدد الانصار والاصوات التي ينالها الحزب يزداد بنسبة ازدياد معدل العاطلين عن العمل (شكل٨، ٢١٨) ففي شهر أيار ١٩٢٤ ، أي مباشرة بعد تجربة التضخم المالي المرعبة ، نال الحزب قرابة مليون صوت (٦،٦ ٪) وما كادت المانيا تتخطى الأزمة بعد ذلك مباشرة في كانون الأول من السنة ذاتها حتى هبط المعدل الى ٣ ٪ ؛ وفي أيار ١٩٢٨ ، عهد « الازدهار » هبط هذا المعدل الى ٢،٦ ٪ . واذ ذاك تطل الازمة العالمية ، فاذا بالمعدل يرتفع في ايلول ١٩٣٠ ، الى ٦،٤٠٧،٠٠٠ صوت(١٨،٣ ٪ ليبلغ في تموز ١٩٣٢ ، نحواً من ١٣،٨٠٠،٠٠٠ (٣٧،٣ ٪) . كل هذه الاصوات جاءته من بين صفوف الأحزاب البورجوازية غير الكاثوليكية : كالشعبيين والحزب الاقتصادي والحزب الديموقراطي والوطنيين ، بينما الأحزاب الوسطى والحزب الشعبي البافاري (كاثوليك) ، والأحزاب الاشتراكية والشيوعية بقيت ثابتة صامدة بصورة تدعو للدهشة .

الدعاوة وشعاراتها

جاء هذا التجمع مضاداً في الصميم للروح البرلمانية كما جاء الى حد ما ضد الرأسمالية ، الا انه ضد البروليتاريا في جوهره . فالايديولوجيا الفاشية والنازية تستمد بعض شعاراتها ونداءاتها من صميم مطالب الطبقة العمالية بعد ان جردتها من طابعها الدولي والبروليتاري الذي يسمر الخوف في القلوب .

« فالاشتراكية أعجز من أن تؤمن العدالة للناس ان لم تسبقها عدالة بين الشعوب . فعلى العمال الالمان ان يعترفوا وان يعلموا انه لم يسبق لهم ان بلغوا مثل هذا الدرك من الرق والعبودية الذي اصارتهم اليه الرأسمالية الاجنبية والذي فيه يرسفون اليوم ... وهذا الصراع في سبيل تحريرهم ، هو حرب أهلية بعينها نقودها ضد البورجوازية العالمية ... »

هذا ما كتبه مولرفان دن بروك . وبعد ان تبنى غوبلز فكرة شبنغلر نراه يكتب :

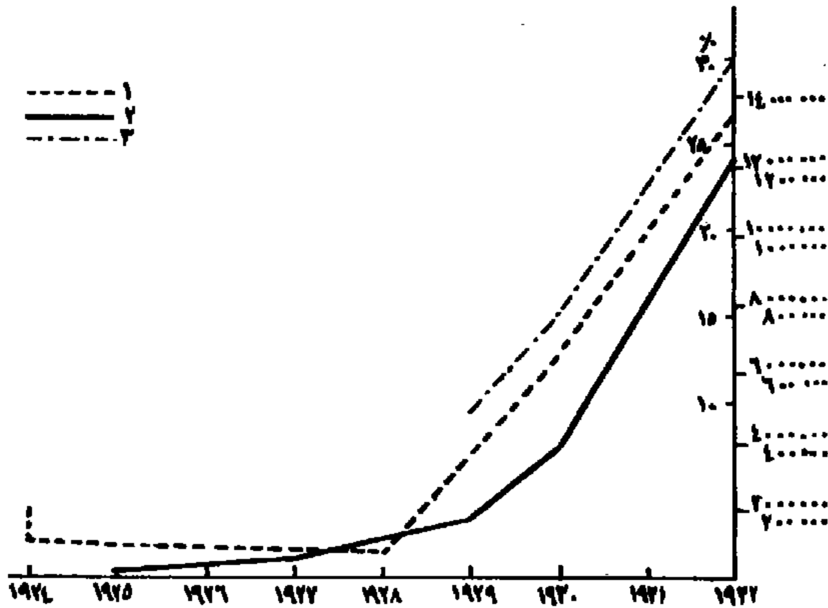

شكل ٨ ـ كشف بياني مقارن بازدهار وتطور الحزب الوطني الاشتراكي الالماني مع تطورات الازمة الاقتصادية حسبما تعبر عنها ارقام البطالة

١ ـ عدد الناخبين ، ٢ ـ عدد الاعضاء ، ٣ ـ نسبة العاطلين عن العمل .

« اشتراكيتنا هذه ، هي التي جاش بها ملوك بروسيا والتي ألهبت خطى الفرسان التوتونيين ... اشتراكية الواجب » . فالروح المناوئة للرأسمالية في الفاشية ، تتلاءم تماماً وهذه الأماني الغامضة التي تجيش بها صدور الطبقات الوسطى . فهي تتجه ضد المصرف ، وتستبدل الصراع الطبقي بالكفاح ضد الرأسمالية الأجنبية ، ضد « الثراء الأجنبي » . وهذه الدعاوة يرجى لها ان تضع حداً لهذه الشرور التي تعاني منها مختلف الفئات الناقمة لتعليلها بوعود مبهمة غير محدودة ، وأحياناً متضاربة ، الا انها تعمل مجتمعة على تفادي انهيار اجتماعي وهو سبب النقمة والخوف الذي بعثته المذركسية . وهذا يتفق تماماً بما لحظه لوسيان فيفر عندما كتب :

« فالأمر لا يقتصر في هذه القيادات على الروح للضادة النظام البرلماني . فهنالك الروح المضادة النقابية » ومثلها الحرفية ، هذه الصورة المسوخة للروح النقابية (أقله من بعض وجوهها) . هنالك المظهر الخداع « الرجوع الى الحرفية » . هنالك سياسة اقتصادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بانهيار نظام متفسخ مهلهل عن طريق اغلاق البلدان الجديدة والانتاج المفرط للأجهزة الداعية الى أقصى حدود الدهاء » .

ومختصر القول، فالفاشية هي في الأساس حركة رجعية مضادة العمالية، قامت على اسطورة القضاء على الصراع الطبقي : فالاجراءات التي عمدت اليهـا في بادىء الأمر تجرد العمال من سلاحهم وتحيلهم الى وضع من الدونية لا خروج لهم منها أمـام أرباب العمل ، وذلك بالقضاء على الأحزاب وعلى النقابات العمالية .

ظروف وصولها للحكم

قوة الفاشية تكمن أصلاً في الحزب الذي خضع لتنظيم جديد أساسه البزة والانضباطية والتدرب العسكري والاستعراضات والحشود المتواترة بحيث تسيطر بالقوة . في خدمتها أجهزة داهية من الدعـاوة الماكرة أساسها الصحافة والراديو والسينما ، كل هذا الى شيء من إيقاع الرهبة والتجسس والرقابة الشديدة . فلم تكن مشكلة الحزب الحصول على الحكم . ففي ايطاليا كما في المانيـا توصلت الحركة الى السلطة بصورة شرعية ، وسيطرة الحزب على السلطة انمـا جاءت نتيجة سلسلة من تواطؤ السلطات : كالقضاة والشرطة والادارة والجيش الذين غضوا النظر عن مخالفـات الحزب وتجاوزاته ، كما ان هندنبرغ نفسه استدعى هتلر لاستلام مقاليد المستشارية في المانيا ، وعن طريق هذا الدستور الذي طالما هاجموه ورجموه تقلدوا مقاليد الحكم بشكل تحلى بسـلـء الشرعية . ففي كلا البلدين اضطرت الحركة لدخول الصراع مع المنظمات العمالية التي انهكها الصراع الطويل بين الاشتراكيين وبين الشيوعيين ، وقضوا عليها قضاء مبرمـاً تحت ستار الحكومة الشرعية .

العقيدة

العقيدة الفاشية هي « مزيـج من التراكيب والألفاظ الثـورية الطابع » وأفكار صغار البورجوازيين يجمعهـا خلاط نصفي الثقافة وتعتبر ان الكفاح أمر ملازم للحياة . فالحزب هو ميليشيا مدنية في خدمة الأمة التي هي في حالة حرب مستمرة تناضل ضد الذين يحاولون خنق هذه الأمة ، فهو يحارب في سبيل تأمين السلطة للشعب وتوطيدها ، وهو ينبذ جانباً النزعة السلمية واللاعنف ، ويكن الاحتقار لما تدعوه « الديمقراطية العاجزة » . ففكرتها العائدة للقرن الثـامن عشر التي ترى السعادة والازدهار شيئاً واحداً . وقد أعلنها روزنبرغ مدوية على رؤوس الاشهاد : « لم نعد أمـام صراع طبقة مع طبقة أخرى، والعقيدة الدينية ضد عقيدة أخرى، بل صراع الدم ضد الدم، والعرق ضد العرق والشعب ضد الشعب » . لا مكان قط لحقوق فردية تتعـارض ومصلحة الدولة وحاجاتها بعد أن أصبـح الفرد خاضعاً لها بالكلية . كذلك في المجال الاقتصادي ، كل البنيان الاقتصادي يجب أن يخضع لمراقبـة الدولة ، كالتوسع في التسليف والاسعار وتثبيت القطع

وغير ذلك . وفي المجال الديني يجب على الدولة أن تسيطر هنا أيضاً مع انه سبق الفاشية وأعلنت عالياً ان الدولة الفاشية تنظر الى الدين نظرتها إلى أسمى مظاهر الفكر . فهو ليس موضوع احترام فقط ، بل يجب الدفاع عنه ، كما ان النازيين أعلنوا من جهتهم : الحرية التامة لكل العقائد والأديان في الدولة . فعلى الدولة أن تراقب كذلك كل نشاطات الفكر .

ومن مميزات النظام الفاشي طابعه اللاعقلاني . فهو يستثير بالمشاعر والعواطف ويغذي في الجماهير الحماسة بصورة مستمرة . وقد شدد توماس مان على « ترنح الثورة الهتلرية » . فالناطقون باسمها ، يتكلمون كمن أوتوا النبوءة . « ليس هو العقل الذي شطر الشعر إلى أربعة أقسام وأنقذ ألمانيا من كربتها ، بل ايمانها » كما يصرح هتلر أمام كتائبه . والعقل قد يكون نصحكم بعدم الالتفاف حولي . انما الايمان وحده هو الذي استمعتم الى صوته . زعيم الحزب معصوم عن الخطأ . له ملء المعرفة والعلم . فعبادة الدوتشه أو الفوهرر والتسليم الكامل لارادتهما هي القاعدة المطلقة ! أفما نصت المادة الثامنة من وصايا الميليشيا الفاشية على ان الحق هو دوماً الى جانب موسوليني ، كما نصت المادة العاشرة « على ان حياة الدوتشه هي أثمن من كل شيء » . فهتلر هو المختار من الله وله شخصية مكرسة وموضوع عبادة حقيقية . فهو أشبه ما يكون « بمسيح في السياسة » . آمن ، وطع ، وحارب ، هذه هي كلمة السر عند الشبيبة الفاشية .

الحزب ودوره الرئيسي

يعتمد نظام الحكم ، في كل مكان ، على حزب وحيد أوحد يجسّم رغبات الدولة ويمثل أماني النخبة . فهو يتألف أصلاً من عدة فئات تتميز بانضباطيتها وتخضع لارادة زعيم الحزب أو الدوتشه المطلقة الذي يوزع الوظائف ويعين الرؤساء. فالحزب يمثل الدولة ، ويتولى أعضاؤه كل نشاط في البلاد ويشرف على توجيهها ، كما تخضع له منظمات شبه عسكرية يواجه بها خصوم الحزب وأعداءه ، منها مثلاً : فرقة الهجوم (S. A.) وسرية الدفاع (S.S.) في المانيا ، ومنها الميليشيا في ايطاليا ، والكتائب البرتغالية ، والكتائب الاسبانية . ويعلق أهمية قصوى على إعداد الشبيبة وتهيئتها وتوحيد تفكيرها ، ويراقب نظام التعليم الذي تخضع له ويكتتبها في كتائب خاصة . هنالك منظمات نسائية ومنظمات طلابية ، ومنظمات للفلاحين وأخرى للعمال تنظم فراغهم قبل العمل وبعده كجبهة العمل والنقابات الفاشية ، ثم الحرف ، ويخضعونها لنشاطات رياضية وثقافية بحيث لا يشذ أحد عن الطوق ولا يخرج عن الصدد المرسوم ولا يخرج عن نفوذ الحزب .

كل النشاط الثقافي او الفكري يقع تحت اشراف الحزب فيضع تحت مراقبته المباشرة اجهزة الاعلام والراديو والسينما والصحافة والمسرح والادب ... كذلك انشأ الحزب في البلاد رقابة صارمة ، والغى كل صحافة معارضة او حيادية ، ويوحي اليها بالموضوعات التي يجب ان تعالجها وبالطريقة التي يجب ان تعالج بها . والحزب وحده يسيطر على الشرطة الخاصة بالنظام بعد ان

اولاه سلطات واسعة جداً . فيستعمل اعنف الاساليب ومنهـــا الضرب لانتزاع الاعترافات والاقرارات وارغام المتهمين على الاعتراف بما عليهم ان يعترفوا به ، ويرسل الى مخيمات الاعتقال كل من يرى وجوب اعتقاله . والقوانين النازية كالقوانين الفاشية ، عام ١٩٢٦ ، تلاحق بعنف كل حركة شاردة او مشبوهة ، وكل ظاهرة عدائية . فقـــد جرى في المانيا ، بين ١٩٣٣ – ١٩٣٨ ، توقيف اكـثر من ٢٣٥،٠٠٠ شخص وجرت ملاحقتهم القانونية لمعارضتهم نظـــام الحكم . كما ان المحكمة الخاصة في ايطاليا للدفاع عن الدولة لم تكن تتقيد بأي شكل من اشكال القانون ، اذ كان بامكانها ان تصدر احكاماً لا تقبل الاعتراض على اعمال او مخالفات تبقى فيها الظنة او الشبهة غامضة ، مبهمة ، كالاتهام مثلاً بعمل جماعي من شأنه ان يخدش الشعور الوطني. فقد بلغ مجموع السنين التي حكمت بها المحكمة على ٣٠٠٠ ظنين ، ٢٤،٤٥٨ سنة .

ومحافظة على نقاء الحزب ، وتخليصاً له من الفاترين او الخصوم المتنكرين ، نزع الحزب ، منذ توليه السلطة الى عملية تطهير عامة ، واحتفظ منذ ذلك الحين ، بحق العضوية والانتساب اليه ، للشباب الذين جرى تدريبهم بعد ان اطمأن اليهم . اما الهيئات والمنظمات شبه المستقلة القائمة الى جانب الحزب : كالمشاريع الائتمانية الكبرى ، والكنائس والجيش ، فقــد اخضعها للمراقبة وازال كل خطر عن طريق اقطاعها انعامات مادية وادبية ، بعد ان أفهمت جيداً ان الحزب وحده يستطيع ان يكبح وان يمنع عنها اي اعتداء من قبل اعدائها التقليديين المعروفين وهم : الاشتراكيون والشيوعيون .

افراغ الشبيبة وقولبتها

حرصت كل الاحزاب الفاشية على تمجيد القوة وعلى اعتماد سياسة عامة سداها النفوذ ولحمتها البطش والبأس ، مما يفترض اعتمادها على جيش قوي ، لجب ، وبالتـــالي على شعب مفتول العضل ينمو ويزداد بسرعة ، كما يفرض السهر على نقـــاء العُرق والاصل : كالتخلص من اليهود ونبذهم بعيـــداً عن جسم الامة السليم ، وفقاً لقوانين نورمبورغ التي حظرت كل زواج او عقد زواج بين اليهود و « الآريين » ، وتعقيم الضعفاء والمرضى المصابين بمرض عضال ، والمجرمين في جميع انحـــاء المانيا ، وتشجيــع الاهلين على الاخصاب والانسال في كل البلدان . وهؤلاء الاطفال الذين تود الدولة ان تراهم بأكبر اعداد ممكنة ، تعنى الدولة عناية خاصة بتنشئتهم وتربيتهم . فهم ملك الدولة وعلى الدولة ان تؤمن صَبتهم وافراغهم وتنشئتهم بحيث يصبحون رجـــالاً اقوياء ، اشداء ، يزخرون بالقوة والصحـــة والنشاط والاستعداد للامتثال والطاعة . فالتربية الرياضية التي تستهدف الطبـــاع والاخلاق ، يجب ان تحتل مكانها البارز في عملية التربية والتعليم ، هـــذه التربية التي يجب ان تزرع في نفوس النشء ، عبادة الابطال وروح البـــذل والتضحية في سبيل الوطن . وقد جرى تنقية الهيئـــة التعليمية فلم تعد لتعدّ في صفوفها اي يهودي ، كما نبذ منها الماركسيون وخضعت لمراقبة دقيقة . فالتعليم والدعاوة ، عاملان متلازمان في كل عملية تنشئة . فالعقيدة النـــازية يجب ان تغرس في نفس الطالب الابتدائي ، وكذلك في ايطاليا .

« على المدرسة ان تكون ذات طابع فاشي . ولا يعتقدن احد قط انه يمكن الاستهداف الشطط او المغالاة في هذا المجال . انا احب التطرف في كل ما يتصل بالفاشية ... يتعلل بعضهم ان الجغرافيا والرياضيات ليست علوماً سياسية بطبيعتها ... يضع كلمات ، نبرة صوت ، تلميح بسيط ، رأي معلل ، واحصائية يستشهد بها الاستاذ في معرض الحديث من على منبر التدريس ، تكفي لاثارة الشك او للدخول في السياسة . لهذه الاسباب كلها ، فمعلم الرياضيات له دور يلعبه في المجال السياسي ويجب ان يكون فاشياً ... » كما صرح موسوليني ، عام ١٩٣٣ .

والبيولوجيا كانت تدرس في المانيا باعتبارها علم العنصرية او العرقية ، من وجهة الدور الذي مثلته عبر التاريخ السلالات الشمالية . فالتاريخ يرتكز اساساً على المعاني التي تدور بها كلمات : العرق ، الشعب ، الرايخ ، الزعيم . فالى جانب المدرسة ، يعتمد الحزب في افراغ الشبيبة على مجموعة من المنظمات التي تعمل في نطاق تربية الشبيبة من بينها المنظمات الرياضية والكشفية التي تتناول الولد من ابن ثمان سنوات وتتخلى عنه وهو في الرابعةعشر لمنظماتأخرى تتم عمل الاولى وتكمله : كالخدمة الالزامية للعمل وبعد الثانية عشرة يؤول امره الى منظمة *Mocidade* في البرتغال والى جبهة الشباب ، في اسبانيا .

آراء هتلر ونظرياته

فخلافاً لموسوليني الذي خلق الحركة الفاشية وأسسها بعد ان تولى مقاليد الحكم في بلاده ، كان هتلر عندما تولى مستشارية الرايخ قد سبق له وضع برنامجاً كاملاً وخطة واضحة وتحت تصرفه كتائب منظمة وعدد مهيء من الاداريين المدربين على استعداد تام للعمل بمنأى من التطبيق التجريبي والارتجال .

فالمبادىء التي قال بها وعلم عبّر عنها عالياً في *Hofbrau Haus* عام ١٩٢٠ وفي البرنامج الذي اعلنه وتألف من ٢٥ بنداً او نقطة محددة ، كما عبر عن مشروعاته مفصلا في كتابه «كفاحي» الذي وضعه وهو في سجن لندسبرغ ، في اثر محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها في مونيخ عام ١٩٢٣ فنظريته العالم تنهض على نظرية الدم او العرق وهي نظرية دان بها لغوبينو ولهوستن ستيوار وتشمبرلن وبول دي لاغارد هذه النظرية التي سبق لمولر فان دن بروك ، وعرضهابتبسط ، عام ١٩٢٢ في كتابه حول الرايخ الثالث ، تقول يوجد عرق بشري اعلى او اسمى هو العرق الآري الذي يتحتم بقاؤه نقياً بعد تنقيته من هذه العناصر التي حاولت ولا تزال إفساده . لا سيما العنصر اليهودي الذي كان دائماً وابداً خمير فساد وافساد .

وفي المجال السياسي اتخذ موقفاً معارضاً من المبادىء التي نادت بها وعملت الثورة الفرنسية الكبرى : هذه الايديولوجيا الليبرالية التي فرضت فرضاً علىٰ جمهورية ويمار من قبل الحلفاء الذين خرجوا منتصرين من الحرب العالمية الاولى ، واقتصارهم اياها على وضع من التبعية والذي كان لزاماً « ايقاظ الشعور القومي » وبعثه في النفوس . ألم يكن شعار القمصان السود وهتافهم الحربي : « استيقظي ياالمانيا » ، ودعوة الشعب الالماني الى ان ينبذ جانباً الفردية والليبرالية التي لا تقترج قط والعقلية الالمانية ، وكلها انظمة عقلانية تخلو من الطبيعة ، اذ ان المساواة والحرية هي مطالب مناقضة للعقل ، مخالفة للمنطق ومضادة للطبيعة البشرية ، فالانسان ليس معزولا

فهو حلقة موصلة جميع الاجيال بعضها ببعض. فمهمة الدولة المضادة لليبرالية والمضادة للاحزاب والمضادة للمساواة ، القائمة على الترابط المسلسل ،هي المحافظة على وحدة الدم ، ووحدة اللغة ، والرجوع الى التقاليد الالمانية النوع والى كل ما انبثق من الشعب وصدر عن الشعب ، وتأمين المدى الحيوي الذي هو بحاجة ماسة اليه والذي يقتضيه تطوره ونموه . فمصدر السلطة لا يكمن في اكثرية من الافراد بل في الشعب نفسه ، في الشعب ككل ، الذي يجد ملء تعبيره الكامل في الزعيم او الفوهرر ، هذا الزعيم الذي هو تعبير لارادة الشعب والناهض بحقوقه .

اما اعداء الشعب فهم ، في الخارج روسيا وفرنسا ، وفي الداخل : الماسون ، واليهود والديموقراطية الاشتراكية التي استخدمها والتي جعل منها كارل ماركس اليهودي، اداة لافساد المانيا والقضاء عليها . وفي المجال الاقتصادي ، ينزل هتلر باللائمة على الاحتكارات وعلى الاثرياء المتخمين « هؤلاء الاجهزة الآلية التي لا نفس لها ولا روح » ، ويعلن مناصرته للفلاحين وللطبقات والملكية الخاصة . وبمختصر القول فالشعب الالماني هو شعب *Ohne Raum* يجب ان يمتد وان يتوسع نحو الشرق والجنوب والغرب من اوروبا .

وصوله الى السلطة

كل هذه الافكار : من ازدراء للديموقراطية ولما تمثله، واليأس الذي تبعثه معاهدة فرساي ، والمناهضة للرأسمالية والسامية والتي تقول بالعنصرية او العرقية وتطمح الى الدكتاتورية ، ليست بافكار جديدة . فقد سبق لشبنغلر ولمولر فان دن بروك ان عبر عنها كل من شمدت وعثمان سبان وكل دعاة الرابطة الجرمانية . وقد عرف هتلر ان يعرضها بعنف وحماس وقوة بحيث تعبر عن مخاوف وعن احقاد وعن المشاعر التي جاشت في صدور الجماهير الالمانية . وقد لاقى كتابه رواجاً منقطع النظير . فقد كان بيع منه ، حتى نيسان ١٩٤٠ ، ستة ملايين نسخة بعد ان ترجم الى معظم لغات العالم : « فهو يمثل اكبر نجاح سجلته دار نشر في العالم حتى الآن » وقد جرى تعميم هذه الافكار والمبادىء وسكبها من قبل فلاسفة النازية ، امثال غوبلز وداريه وروزنبرغ امثلهم جميعاً ، وقام بتلاوتها على الجماهير المتألبة وشرحها من قبل خطباء مفوهين يفيضون بلاغة وعاطفة وحماسة ، التفت حول الحزب وناصرته ، كما قامت منظمات القمصان السود التي تولى هملر رئاستها منذ عام ١٩٢٩ بمهاجمة العمال المضربين والاشتراكيين والشيوعيين وخاضوا معهم معارك واشتباكات دامية . فمنذ ١٩٢٧ ، عد الحزب بين صفوفه ٧٢،٠٠٠ عضو ، والمؤتمر الثالث الذي عقده الحزب في نورنبرغ اكثر من ٣٠،٠٠٠ من كتائب الصاعقة بقمصانهم السود . وارتفع عددهم ، عام ١٩٢٨ الى ١٠٩،٠٠٠ كما ازداد بمثل هذه النسبة عدد المناصرين .

فالبرنامج المعروض يشبع مطالب الطبقات الوسطى التي رأت في النازية حماة للنظام وللأمن من « الهول الاحمر » كما زين لصغار التجار الامل بقرب زوال المخازن والمحلات التجارية ذات السعر الواحد والتي لها فروع عدة في البلاد ، كما علهم بزوال التعاونيات كما لوح امام انظار المهنيين ورجال الصناعة بحرب سياسة التأميم ومهاجمة الرأسمالية وعلق الامل

في نفوس المزارعين بالتخفيف من اعباء الديون التي يرزحون تحتها ، وبشر العاطلين عن العمل الذين طالما دفعوهم لمشاكسة العمال الذين لا يزالون في عملهم « بامتيازات ماركسية » ووعدهم بتدبير عمل لهم . وهاجم بعنف كلي اليهود الذين يحتكرون المصارف والمخازن الكبرى في البلاد والذين يتحكمون بالبورصة، وبالمحاماة والمهن الحرة . فليس من عجب ان تتضخم صفوف الحزب ويشتد ساعده يوماً بعد يوم ، فقد عدد في صفوفه ، عام ١٩٣٠ ، نحواً من ٣٨٩٠٠٠ ، وفي نيسان ١٩٣٢ ، اكثر من مليون ، وفي عام ١٩٣٣ ، اكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ ، كما ازدادت عدداً وقوة المنظمات شبه العسكرية بما يقرب من هذا المعدل . وقام الحزب برئاسة غوبلز بدعاية جبارة اغرقت البلاد بفيض من الجرائد والنشرات التي توزع كالمطر الهتان ، ونظمت دورات مناوبة حتى في اصغر وادق المجتمعات، واكثر الحزب من عرض قوته وبطشه ، ومن المظاهرات الجماهيرية ، والرحلات ومن خطب الفوهرر الذي اخذ يقنع الجميع بان في مقدوره وحده ان يضع حداً لهذا الوضع المفجع الذي صارت اليه الامة من جراء عبث الحاكمين .

المانيا هذه التي عاشت الفترة الواقعة بين ١٩٣٠ – ١٩٣٣ حقبة من الفواجع وشهدت صراعاً مريراً بين الاحزاب بحيث راح كل حزب يكتتب كتائبه الخاصة للحرب والنزال ، كالجبهة الحمراء في الحزب الشيوعي ، « والانتيفا » لعصبة مكافحة الفاشية ، والجبهة الحديدية التي ضمت المنافحين عن النظام القائم والعاملة الى جانب العلم الالماني (نحو مليونين من الاعضاء) ، والـ *Stahlhem* المرتبط بالحزب القومي الألماني ، برئاسة هوجنبرغ رئيس المجلس الاداري لمصانع كروب الخاصة بالفولاذ ، والمسيطر على جانب كبير من صحافة البلاد ، ولا سيما الجبهة السمراء للحزب الوطني الاشتراكي اقوى هذه الاحزاب وانشطها . فالنظام القائم يفتقر كلياً للسلطة ولا قوة له ، والانتخابات العامة عجزت عن اعطاء اكثرية ثابتة ، ولذا راح المارشال هندنبورغ يحلم بوزارة لا رأي للبرلمان في قيامها وبقائها . وبالاعتماد الى المادة ٤٨ من الدستور ، كانت معظم المقررات التشريعية منذ عام ١٩٣٠ ، تصدر بشكل مراسيم (فقد صدر عام ١٩٣٢ ٥٩ مرسوماً بشأن خمسة قوانين اقرها المجلس) . وهكذا نرى ان النظام الليبرالي والبرلماني كان قد زال بالفعل من البلاد قبل ان يصل هتلر الى الحكم . وفي انتخابات تموز ، نال الحزب النازي ١٣,٨٠٠,٠٠٠صوتاً و ٢٣٠مقعداً في مجلس الرايشستاغ (شكل٣، ص١٠٨) ، وبالرغم من خسارة الحزب ٣٤ مقعداً في انتخابات تشرين الثاني ، فقد كان بامكانهم ان يعطلوا كل حركة في حكومة برونتنغ ويشلوها تماماً ، كما كان باستطاعتهم ان يشلوا « حكومة البارونات » التي ألفها فون بابن . وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ، وبعد ان رفض هتلر مراراً وبعد مفاوضات غامضة ، خلف هتلر دون إهراق اي نقطة دم ودون اطلاق اي عيار ناري ، المستشار شليخر ، على كرسي المستشارية في البلاد .

فهو السيد المطلق في الحكم . وألغى بشطحة قلم كل الحقوق التي نص عليها دستور ويمار ، وراح المستشار وفقاً للسلطات العامة التي اعطيت له في ٢٤ من اذار ، يرسم القوانين الجديدة ،

والخذ من حريق مجلس الرايشستاغ ذريعة لاتخـــاذ الاجراءات الشديدة ولتزويد البوليس بصلاحيات واسعة لمهاجمة خصوم النظام وتوقيفهم وسومهم اشـــد المعاملات قسوة وعنفاً ، وارسالهم الى مخيات الاعتقال . ومع ذلك ، فقـــد ادت الانتخابات التي وقعت في ٥ آذار ، بالرغم من حوادث التوقيف والتهديد والترويع الى ٢٢٨ نائباً للحزب النازي مقابل ٣٥٩ نائبـاً غير نازيين ، فقد نال الاشتراكيون والشيوعيون ١٢ مليون صوت . ومع ذلك فالصراع بقي على احتدامه الشديد ، فصدرت الاوامر بالغاء الاحزاب وحظرت النقابات العماليـة ، كما اسقطت حقوق اليهود واعلنوا غير صالحين قانوناً وفقاً للبند الثالث من القانون الصادر في ٧ نيسان ، كما جرت تصفية الشيوعيين والنقابيين ، وأزيل من البلاد كل اثر للمطالب والنزعات الاقليمية . وجرت تنقية الإدارة العامة ووقعت باكلها تحت اشراف إدارة الحـــزب النازي ولم تلبث ان انصهرت بها ، كما اجبر كل الموظفين في آذار ١٩٣٤ على الانضمام لعضوية الحزب بعـد ان جرى تنظيمه من جديد بحيث كان له اعضاء في اصغر القرى والدساكر . وبعـــد مقتل روهم في ٣٠ حزيران أعيد تنظيم فرقة الصاعقة التي كان يرأسها . وما كادت تقبض روح هندنبورغ في ٢ آب ١٩٣٤ حتى كان الحزب والبلاد بامرها في قبضة الفوهرر .

النظام الجديد

زينت دعاوة الحزب الوطني الاشتراكي العنيفة للناس الآمال وعللتهم بقرب وقوع ثورة . الا انه لم يحدث شيء من ذلك بعد ان آلت السلطة الى هتلر فلم يخطر له قط على بال مس التركيب الاجـــتماعي في البـلاد حتى ولا التعرض بشيء للمصالح الكبرى التي سهلت له الوصول الى السلطة العليا . فمنذ مطلع عام ١٩٣٣ ، اخـذ يعلن « انتهـاء عهد الثورة والازمات الذي استمر خمسة عشر سنـــة » ، مدخلاً بذلك الطمأنينة لأصحاب هذه المصالح . وفي هذا السبيل تنحّى عن الجناح اليساري الاشتراكي في الحزب الذي كان بقيادة الاخوة شتراسر كما تخلص من العناصر المقلقة الطموحـــة ومن طغمة المتآمرين الذين كانوا يطمعون بان يروا تحت تصرفهم ، في « اعقاب الثورة الثانية » الثروات المختزنة لدى كبار المزارعين وفي المصارف ولدى رجال الصناعة . وفي ٢٠ حزيران ، يأمر هتلر نفسه باعتقال روهم زعيم هذا الفريق من رجال الصاعقة ،خصوم التسلسل الاجتماعي وخصوم عقلنة النظام وينفـــذ الحكم بقتله في الحال. وقد جرت إذ ذاك تصفية كل هؤلاء الذين كان ولاؤهم موضع شك وارتياب او كان بامكانهم ان يتزعموا حركة عصيان وتمرد امثال غريغور شتراسر او الجنرال فون شليخر وجرى تنفيذ حكم الموت فيهم .

التوحيـــد والمركزية

جرى بسرعة تطبيق مجموعـــة من التشريعات الدقيقـة سبق لفلاسفة الحزب ان اعدوها من قبـــل . فقد جرى في المجــال السياسي توحيد الرايخ واعلان المركزية بعـد ان ألغي التنظيم الفدرالي وأزيلت من الوجود كل معالم النزعات والمطالب الاقليمية وإلغاء مجلس اللاندتاغ ونقلت الصلاحيات التي كان يتمتع بها

للحكومة المركزية وتوحدت المصالح العامة بعد إلغاء الوزارات والحكومات الخاصة بالمقاطعات والولايات واستبدلت الادارة بأشخاص يتمتعون بثقة الحزب .

وحل محل النظام النيابي نظام زعامي. فالفوهرر المستشار يتمتع بسلطة شخصية لا حدّ لها. فارادته هي التعبير بالذات عن روح الشعب الالماني ولا يعلو عليها أي قانون أو دستور تعمل به البلاد . فهو لم يتلق السلطة من احد ولا يتقاسمها مع أحـد . فهو يجمع في شخصه السلطة التشريعية والسلطة القضائية . فالقانون الجديد الذي يتعارض مع القانون الكلاسيكي ، حرر القاضي من اعتماد حرفية النص والتقيد بها ، إذ يكفي ان يأتي قضاؤه او حكمه منسجماً مع « الشعور الطبيعي » للشعب الالماني . كذلك أعيد النظر في قانون الجزاء بصورة جذرية ، وجرى التشديد على العقوبات . وقسا التشريع بنوع خاص على الجرائم التي تمس او تتعرض بشيء الى « ما فيه خير الأمة الالمانية وصلاحها » ، والخيانة (بما فيه نشر الاخبار التي تفتري القول على الحكومة والجرائم الاخرى ضد العرق او الدم) .

بين النازية والمسيحية

في المجال الديني ، حل العداء ضد الوسط الكاثوليكي ومحاربة السامية (ما المسيحية سوى ديانة يهودية) وعبادة الماضي الجرماني ، الحزب النازي على اتخاذ موقف معادٍ من المسيحية ورجال الدين ، والى بعث الطقوس الوثنية ، او بعبارة اخرى ، الى جرمنة المسيحية . وراحت المسيحية الجرمانية تُطهّر العقيدة المسيحية من العقائد غير الآرية . واستهدفت الكنيسة الجاهدة للاضطهاد وجرى توقيف عدد من القساوسة بينهم نيمولر . ومع ذلك فقد شجبت النازية المذهب المادي والشيوعية على السواء، وكان من بين التدابير الاولى التي اتخذتها، حل المؤسسات المناهضة للدين واعادة التعليم الديني الى المدارس في بروسيا. ولذا راحت الكنيسة الكاثوليكية تعلن رضوخها، كما راح الأساقفة يشجبون المنشورات التي صدرت من قبل ضد النازية، وعقدت الحكومة في تموز ١٩٣٣ معاهدة دينية مع الكنيسة نصت على الاعتراف بالدولة الوطنية الاشتراكية . وحظر على الكهنة ورجال الدين التدخل بالسياسة ، وفرض على الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قِبَل البابا تأدية قسم الولاء للدولة قبل المباشرة بوظائفهم . والمهم في الامر كله هو ان المنظمات والهيئات الخيرية والتعليمات والاخويات لم يؤت على ذكرها بحيث ان الاختلافات كانت تنشب من جديد كلما جرى علمنة احدى المدارس او احد المستشفيات ، كما ان الملاحقات التي تجر اليها المخالفات التي يأتيها رجال الدين ومتاجرتهم بالقطع النادر وتهريب رؤوس الاموال الى الخارج او بعض الشطط في الاخلاق، كانت موضوع دعاية فاجرة من قبل السلطة . والمرسوم البابوي الذي صدر عام ١٩٣٧ ، اعلن على رؤوس الاشهاد بان العرقية مذهب يتناقض والآداب المسيحية .

النازية والحياة الفكرية

« ان الثورة التي قمنا بها ، هي ثورة شاملة جمعاء، تناولت جميع الحقول والمجالات وقطاعات الحياة العامة ، وقلبتها ظهراً لبطن ورأساً على عقب » اخذ يصرح غوبلز . فالادب والفن وقسما كثيرها من نشاطات الحياة في

المانيا تحت نفوذها ، وحرص النظام بكل ما يملك من قوة على بث فلسفة جديدة للجمالية الفنية . فالليبرالية والمذهب العقلي لا يعطيان سوى آثار يصعب على الشعب تفهمها ، كما يفضيان الى فن شعوبي لااخلاقي . وعلى عكس ذلك تماماً ، فالمثالية « الشمالية » للفن تقوم اصلاً على « الاعتقاد الراسخ » بأن الدّم والارض يكوّنان كنه المجتمع الالماني ... وان « الفن في انطلاقه ليس من القضايا الجمالية بل هو في الصميم قضية بيولوجية » . فعلى الفنان ان يعبر عن العرق ، عن الأمة ، عن المثال الجمالي الجرماني ، كما عليه ان يصقل روح الشعب ويجعلها تمي العناصر المقومة لوحدتها ولقوتها . فالنظام يعارض والحالة هذه كل حركة تصير او تحـديث . وراح الحزب يقوم بعملية تطهير شاملة في المكتبات فينتزع من بين مجموعاتها ليس آثار الكتّاب الاشتراكيين والشيوعيين واحرار الفكر ويجعلها طعماً للنار والحريق فحسب ، بل ايضاً آثار كتاب كبار غيرهم امثال انشتاين وفرويد وويلز وجيد حتى جاك لندن ... كل الآثار الفنية التي انجبتها الكتاب البلاشفة والشعوبيون ، فانتزعت من المتاحف والمجموعات الفنية العامة ، كما جرى تنظيم معارض نقالة « للفن الفاسد الذوق » من وضع بورباخ وكورنث وكاندنسكي وكلي وكوكوشكا ولمبروك والمزء من اصحابها . كذلك من غير المرغوب فيها آثار الرسامين الايطاليين المحدثين ، والانطباعيين الفرنسيين امثال مانيه وسيزان وفان غوغ . وقد بيعت آثار كثيرة بالمزاد العلني في صالات لوسرن او أحرقت .

وقد احيطت بالتشجيع والتقييم العالي الآثار الشعبية اي تلك التي تعبر عن « روح الشعب » وقصص البطولة ، لا سيا قصص الحروب . واستطاع المسرح وحده ان يخلق او يبتدع شكلاً اصيلاً من هذه المسارح التي اقيمت في الهواء الطلق حيث جرى تمثيل المسرحيات الشعبية التي يشارك الشعب بتمثيلها في الاغـاني والاناشيد التي تقوم بها الجوقة . كل مظاهر الفكر على اختلافها تخضع لمراقبة المكتب المعروف بـ .R. K. K وفروعه السبعة الاخرى التي على كل من يعنى بأمر الفكر ان ينتمي الى واحـد منها ، وهكذا اصبح المسرح احدى مصالح الدولة يراقب الفوهرر منها المحتوى والاخراج والتوزيع . والفن الالماني الاسمى ، الموسيقى ، يخضع من الآن فصاعداً للمعهد الموسيقي الألماني . فما من نوطة واحدة يمكن لها ان تدوي في الجو الا باذن من هذا المعهد . فالفنان ورؤساء الفرق الموسيقية (اكثر من خمسين بينهم برونو ولتر) والكتاب (بينهم توماس مان وواسرمان ودوبلن وريمارك) والعلماء ، جرى تنحيتهم جانباً عملاً بالتمييز العنصري او السياسي واضطروا لمغادرة البلاد .

العمل الاقتصادي هدف النشاط الاقتصادي القضاء على البطالة قبل كل شيء والى تأمين استقلال المانيا اقتصادياً بحيث تكتفي نفسها بنفسها . وبعـد الاتفاق الذي عقده هتلر ، عام ١٩٣٢ ، مع كبار رجال الصناعة الثقيلة امثال هوجنبرغ وكيردوف وتيسن ومع شاخت (ممثل جبهة هارزبرغ) ، لم يحاول النظام الجديد شيئاً من شأنه ان يمس

حقوق الملكية او ليزيد من الطاقة الشرائية لدى الفلاحين والحرَفيين وصغار التجار – باستثناء تخفيضه معدل الفائدة – ولدى العمال ايضاً .

طبقة الفلاحين

التشريع الزراعي لم يمس بشيء الملكية العقارية الضخمة (فقد عدت البلاد عام ١٩٣٨ نحواً من ٧٠٠٠ استثمار عقاري تزيد مساحة العقار الواحد على ٥٠٠ هكتار) فقد هدف الاصلاح المذكور ، محافظة منه على تركيب البلاد الاجتماعي ، الى توطيد اسس الملكية الصغيرة بتأمين ارتباط الفلاح بالأرض عن طريق انشاء ملكيات عائلية لا تخضع للتجزئة ولا للتحويل ولا للمصادرة يكون بالاستطاعة توريثها لواحد من ابناء الاسرة . وصاحب الحيازة الذي تعرف الارض باسمه يجب ان يكون من العرق الآري الصرف ، و فلاحاً حقيقياً ، اميناً) ويخضع لسلطة خاصة تتمتع وحدها بصلاحية قرار التصرف بقسم من الارض ، والسماح بتأجيرها لمدة لا تتجاوز ثلاث سنوات او لعقد قرض بشأنها . وقد كان في البلاد ، عام ١٩٣٨ ، نحواً من ٦٧٣٬٠٠٠ قطعة ارض او مزرعة بهذه الاوصاف ، تكوّن معاً ٣٢٪ من مجموع الاراضي الزراعية . وقد تسبب انشاؤها بعدد لا يحصى من الدعاوي والاختلافات بين افراد الاسرة الواحدة كما نجم عن هذا الوضع تعقيدات لا تحصى حالت دون ارتهان الارض او الاستلاف كما حالت دون تغيير صاحب الحيازة مهنته او تعاطي مهنة اخرى .

وتأميناً لأسباب تموين البلاد في حالة تعرضها لحصار بري او بحري ، تألفت في الرايخ مؤسسة ضمت بين اعضائها كل الذين يعملون في مصالح التموين : كالفلاحين المزارعين ومقدمي التقاوى وتجار الأسمدة والاجهزة الزراعية ومربي المواشي والجزارين وشركات التسليف الزراعي ، والتعاونيات واصحاب المطاحن ومعامل السكر ومصانع المواد الغذائية والمطبات على اختلافها . وقد وزعت الى زراعيات محلية وزراعيات اقليمية . ويرأس كل زراعية رئيس او فوهرر ، ويأتي في رأس السلم فوهرر الفلاحين الالمان الذي يترتب عليه اتخاذ التدابير التي تؤمن احسن مردود واطيب مواسم واحسن اصناف . وقد أدت التدابير التي اتخذت لتنظيم الاسواق ولتحديد الرسوم على الغلال عند جني المواسم ، الى تأمين الاكتفاء الذاتي بنوع عام في جميع انحاء المانيا . الا انه لم يجر تقييم المحاصيل الزراعية كما ان زيادة الانتاج لم تفض الى زيادة الأرباح بحيث لم يكن باستطاعة المزارعين تأمين تجديد اجهزتهم الزراعية او صيانتها كما عجزوا عن تأمين صيانة مبانيهم . ثم ان الغاء نقابات العمال الزراعيين الذين استثنوا من ضمان البطالة ، وتخفيض الاجور ، والتنظيم الدقيق الذي خضع له اصحاب الاملاك ، كل ذلك لم يضع حداً للقلق الذي كان يتحكم فيه المزارعون ، كما يشهد على ذلك حركة النزوح من الريف الى المدن بالرغم من التدابير الزجرية التي اتخذتها السلطة بهذا الشأن ، كمنع تشغيلهم في المدن ، ووسائل ابعادهم ، وارجاعهم .

الصناعة

وسياسة الاكتفاء الذاتي ، سار عليها الحزب كذلـك في القطاعين الصناعي والتجاري وأدت الى استثمار اشمل واوسع لموارد البلاد وان جـاء اقل مردوداً وربحاً كما ادت الى زيادة كبرى في المواد البديـلة وازدهارها ولكن لفائدة المشاريع الكبرى والمؤسسات الاستثمارية ، عن طريق حصر عمليات التسليف المالية (لهذه الشركات التي لها القدرة على « الوفاء ») ، وبفضل القانون الذي اوجب التكتلات الاحتكارية . وقد قنعت مشاريع الاستثمار الصغرى والحرفية بمظاهر خداعة من الاستقلال كما انه لم يطرأ اي تغيير عـلى حق التملك ، الا ان التحديدات التي فرضت (كتحديد الاسعار ، وحظر رفعهـا) اصابت الاستثمارات الهامشية اكثر منها الاستثمارات والمشاريـع الكبرى التي جاء قانون ١٩٣٣ يقوي من شأنها على حساب التكتلات الالزامية ولا سيما على حساب المصـارف (التي تحتكر سوق الاعتماد المالي) والتي تسيطر على النظام الاقتصادي والغرف التجارية . وقد انشأت براءة العمل الصادرة عام ١٩٣٤ ، الى جانب وزارة الاقتصاد الوطني ، المجلس الاقتصادي الالماني . وقـد وُزّع الاقتصاد عمودياً ، الى ست اقسام او فئات ، خضع كل واحد منها لتقسيم آخر ميز بين فئـات رئيسية وفئات ثانوية مهنية ، كما وزع أفقيـاً الى ١٨ غرفة تجارية توزعت مناطق البلاد المختلفة ، ألحقت بهـا ٩٠ غرفة صناعية وتجارية عمليـة ، تعمل كلها على مبدأ الفوهرر او الزعيم الذي يأتي على رأس كل فئة او قسم من هـذه الفئات والاقسام . وكانت مهمة هذه الغرف التجارية والصناعية النظر في امثل الوسائل وخير الذرائع التي تؤول الى تحسين الانتاج وتطبيق القرارات التي تتخذها الحكومة في هذا المجال ، لا سيما ما تعلق منها بالخطط الرباعية . ولذا اخذت تتكاثر ، منذ عام ١٩٣٦ ، حوادث الافلاسات بين صفوف الصناعيين المهنيين ، بحيث هبط عددهم في البلاد الى ١٠٤٠٠٠ ، بين ١٩٣٦ — ١٩٣٨ . وفي اذار ١٩٣٩ ، صدر قرار جعل كل الحرفيين الذين « ينصرفون لعمل غير ملائم» اوه لا يتفق ومؤهلاتهم » ، عرضة لاستبدال نشاطهم بآخر . وبعد ذلك ببضعة ايام صدر قرار آخر الغيت بموجبه كل مشروعات الاستثمار التي لا يسجل نشاطها التجاري حـداً ادنى ، كما الزم كل من خسر عمله من جراء هذا القرار ، الانضمام الى المشروعات الكبرى والعمل فيهـا ، قبل اول نيسان ١٩٣٩ . اما العمال الذين حُرموا من نقاباتهم او من اتفاقاتهم الجماعية ، فقد حـال تثبيت الاجور دون ادخال اي تحسين الى اوضاعهم . فقـد جرى تحطيم النقابات من الاساس وأرغم الاعضاء المنتمون اليها الانتساب الى جبهة العمل ، هذه المؤسسة الوحيدة الالزامية التي تتألف من اتحادات ومن فئات مهنية لكل منها فوهررها الاعلى ويأتي في رأس السلم الدكتور لي الذي كان عليه ان « ينظم العلاقات التي تشد الرأسمال الى العمل بمـا فيه المصلحة المشتركة » . وذوو الخبرات ممن هم موضوع ثقة في قلب كل مهنة او حرفة الذين يكلفون التوسط في حال نشوب اختلاف او صعوبات ما ، فقد كانوا ينتقون من بين اعضاء الحزب النازي ، من اصل لوائح من المرشحين يعدها ارباب العمل بعد الاتفاق مع رئيس الخلية صاحبة العلاقة .

النازية الفاشية الايطالية

مع ان الفاشية كانت أطول عمراً من النازية ، فلم تتوصل قط الى مـــا بلغته من المتانة والقوة المطلقة زميلتها وحليفتها النظام النازي . فقد رأيا النور في ظروف متشابهة وفي اثر انتفاضة الشعور القومي المجروح في كبريائه ، وأثر ودة عنيفة ارتكضت بها الطبقات الموجهة ضد المخاطر التي تبعثهـا الاشتراكية . فقد كانت الفاشية في تطور دائم وتحول مستمر . « نحن الفـاشيين ، كان موسوليني يصرح ، عام ١٩١٩ ، ليس لنا عقيدة مرسومة من قبل . فعقيدتنا هي الواقع القائم » . وعلى شاكلة هتلر ، فقد كان صنيع نفسه ، « حنكته الأيام وعركته وتركته اعجز من ان يحدد الثورة التي يتزعمها » . ان طموحه الى السلطة وكبرياءه الجامح وعزمه السيطرة على المجتمع الذي نبذه ، جعله يلجأ الى كل الوسائل ويستغل كل المناسبات التي تساعده على تحقيق أمانيه ، دون اي اهتمام او اكتراث بالمبادىء الكلاسيكية . وهذا ما يفسر لنا مغالطاته الكثيرة وتراجعاته المتكررة . وباطلاً يتبجح مدعياً انه تلميذ نيتشه وباريتو وسوريل ، فهو انتهازي "فرَصي" في الصميم . وعندما تم له الاستيلاء على السلطة ، لم يكن احد يعرف ما الذي سيأتيه فيما بعد ، اذ لم تكن الفاشية بعد سوى حركة احتجاج واسعة تحاول ان تحافظ ، بشكل ديماغوجي ، على حق الحيازة والنظام والملكية. ولم يستطع قبل مسيرته المظفرة ان يؤلف له وزارة فاشية الا بعد دخوله روما بسنة واحدة ، عـــام ١٩٢٤ ، بعد ان تمت له اكثرية عارمة في المجلس النيابي بفضل العنف الذي اعتمده والقانون الانتخابي الذي جاء يعضد اكثر الأحزاب قوة ونفوذاً . وبعد ذلك بسنتين ، اي في سنة ١٩٢٦ ، توصل الى طرد الاحزاب المعارضة في المجلس واعلنها رسمياً غير شرعية . وهكـــذا نرى ان استئثاره بالسلطة اقتضى له اربع سنوات لكي يرسخ النظام الذي وضعه ويوطده في البلاد ، بعد ان امّن مراقبة الصحافة ، ونظم الحرفية تنظيماً قاسياً ، وتحّى جانباً خصومه السياسيين . والمؤسسة النوعية الوحيدة الجديدة التي طلع بها ، تتبلور في المجلس الفاشي الاعلى ، وهو عبارة عـن مجلس استشاري لتأمين الانسجام والتنسيق بين الحزب والحكومة . وفي هذا الوقت بعينه اخذ موسوليني يقع اكثر فاكثر ، تحت تأثير الزعماء الوطنيين امثال : كوراديني ورُكو وفدرزوني وأصبح منذ ذلك الحين حامي الدولة والجيش والنظام الملكي ، حتى والكنيسة . والمقال حول « الفاشية » الذي ظهر في الموسوعة الايطالية تولى وضعه وكتابته الكاتب جيوفاني جنتيلي ، فيلسوف الفاشية ، ووقعه موسوليني ، وفيه تعريف دقيق بالنظام واهدافه .

الدولة النقابية

والنقابية التي هي من اخص مميزات اثره والتي جعل منها ، اول رئيس دولة في اوروبا ، ابرز خصائص الفاشية التي اسسها ، لم يُعمل بها الا متأخراً فظهرت المؤسسات وعُمِل بها بعد ان اتصف النظام بهذه الصفة بوقت طويـــل . والفكرة مستمدة من نظرية التعاون الطبقي التي المع اليها البابا في براءته *Rerum Novarum* فهي تهدف للقضاء على الصراع الطبقي في المجتمع عن طريق دمج مصالح

كل الفئات في صلب البنيان الدولي بحيث تتمكن من الاشراف عليها والتوفيق فيما بينـــها . والمقصود من هذا ليس تأميم المشاريع الاستثمارية بل بالاحرى اشراك العمال في ملكيتها ، في ارباحها وفي ادارتها ، واستبدال التمثيل الشعبي التقليدي القائم على المقاطعات بتمثيل آخر اقتصادي الطابع والسمة ،خليق بالتعبير عن مصالحمعينة واضحة بدلاً من مجموع انتخابي وهمي. وتم تنظيم هذه المؤسسات تدريجياً مع ازدياد التفاهم بين الدوتشيه وارباب الصناعة وثوقاً وتوطيد سلطته في البلاد . واولى مظاهر النقـــابات الفاشية تمثلت في الحلف الوطني للحرف النقابية وكانت مختلطة ، اذ كان المطلوب كما تقتضي الحركة الوطنية احلال تعاون الطبقات بعضها مع بعض محل تصارعها وتخاصمها . فالاتفاقات التي عقدت في قصر شيغي وقصر فيدوني مع ارباب العمل عام ١٩٢٣ و ١٩٢٥ ، ألغت هذه الهيئات واستبدلتها بنقابات فاشية احتفظ الصناعيون مقابلها بهيئتهم الخاصة : « تحالف الصناعيين » الذي اعترف به رسمياً وقد ألغي حق الاضراب كما الغيت لجـــان الاستثمار المنتخبة ، وأنشئت عـــام ١٩٢٦ وزارة النقابات التي اسندت الى ج. بوتاي ، كما ان قـــانون روكو خلق « الدولة النقابية » . وبطل العمل بالنقابات المختلطة وحل محلها هيئات او فئات عمالية وهيئات من ارباب العمل وخولت الحق باستيفاء اشتراكات من جميع ابناء المهنـــة ، المسجلين منهم وغير المسجلين ، كما خولت سلطة وضع تنظيمات ادارية تلزم الجميـــع . وهكذا وقعت المنظمات العمالية تحت تابعية الحزب الفاشي الا انه لم يتم دمجها بعد في التشكيل الحكومي .

وجـــاء ميثاق العمل عام ١٩٢٧ يقر مبدأ التنظيم على أساس تعاون الطبقات . ولم ينشأ المجلس الوطني للنقابات الا في سنة ١٩٣٠ الذي ضم اعضاؤه ممثلين عن ارباب العمل وعن العمال ، واخيراً ظهرت عام ١٩٣٤ النقابات التي كان وجودها من قبل حبراً على ورق وعددها ٢٢ نقابة تألفت كل منها من ممثلين عن المنظمات الخاصة بالصناعة والزراعة ، والتجارة ، وهنالك عنصر ثالث يتألف من ممثلي القطاع العام ، اي من موظفي وزارة النقابات. وتوج التنظيم ، عام ١٩٣٨ بتشكيل « غرفة الحزائم والنقابات » التي حلت محل المجلس النيابي . وقد تكونت هذه الهيئة بالفعل بضم هيئتين سابقتين معاً ، هما: المجلس الوطني للنقابات والمجلس الوطني للحزب الفاشي ، وقد هيمن عليها العنصر السياسي وشد من قوتهـــا اذ اناط بها تطبيق الاجراءات والتدابير التي تتخذها الحكومة ، بينما اقرارها نهائياً يبقى بيد الدوتشيه ، بينما يلمتع فيها ارباب العمل بنفوذ قوي اذ ان ممثلي العمال ليسوا سوى موظفين في النقابات الفاشية جرى تدريبهم في معاهد خاصة محفوظة المقاعد فيها للشبان من الطبقةالبورجوازية .اما ارباب العمل فقد مثلهم ممثلون عن القطاع الصناعي وممثلون عن اصحاب الاملاك وكانت لهم فيه الكلمة المسموعة والرأي الفصل ، لا سيما وعلاقاتهم الخاصة بزعماء الحزب الفاشي وثيقة جداً . وهكذا فالتعايش بين العناصر المضادة للديموقراطية : الأقلية الممثلة للاستثمارات الكبرى والاقلية الادارية على الوجه الامثل .

هنالك كما نرى ، « هوة سحيقة بين الروح النقابية وبين الواقع المتحيز في ايطاليا » فالنقابية

رمت في الاساس الى ان تكون البديل للتأميم . والحال ، فالدولة ، في ايطاليا تسيطر على الحياة الاقتصادية سيطرة تكاد تكون شاملة، الأمر الذي مكن ج بيرون ان يلاحظ قائلا : و القضية برمتها هي مجرد تمثيل لبق يخفي وراءه سلطة سياسية تمارس دكتــاتورية مطلقة على المصالح الكبرى وعلى الفكر ، اقل منها طريقة تلقائية التنظيم للمصالح الاقتصادية ». فالواجهة النقـابية تخفي بشكل مفضوح سيطرة المصالح الكبرى .

السياسة الاقتصادية والاجتماعية

والسياسة الاقتصادية والاجتماعية تتميز بالواقع بصفات عدة منها الارتجال والتنسيب مع مقتضيات الحال ، والتظـاهر العلني . فمعركة القمح عام ١٩٢٥ ومعركة الليرة عام ١٩٢٦ ، والجهود الذي بذل في سبيـل تصنيـع البلاد ، بعد عام ١٩٣٠ ، وسياسة التسليح ، وبعد عام ١٩٣٥ الجهود الحربي ، وكلها احداث تتعاقب دونما توقف تقريباً ، بذلت جميعاً نهوضاً بسياسة الاكتفاء الذاتي في المجال الاقتصادي . فقد جاءت النتائج غير متكافئة وغير سوية . فسياسة الاكتفاء الذاتي في الحقـل الزراعي التي دشنها موسوليني مع معركة القمح عندما قبض بيده على المحراث في رابعة النهـار وهو متخفف اللباس ، زادت الأرض الزراعية ٣٥٪ وقد جاءت هذه الزيادة في اراض لا تصلح كثيراً لمثل هذه الزراعات ، وعلى حساب تربية الماشية والفاكهة . وعملية استطلاع بطائح مقاطعة البونتن التي استنفدت مبالغ طائلة، لم تؤد الى نتائج متكافئة مع المبالغ الضخمة التي تطلبتها عملية الاستصلاح ولم يستفد منها غير ١٩٠٠٠ مزارع . وفي المقابل لم يعمل شيء يذكر لحل المشكلة الرئيسية ، مشكلة المزارعين الذين لا اراض لهم . فالاجراءات التي سبق واتخذت قبل عـام ١٩٢٢ في سبيل الفلاحين كحماية المستأجرين من العبث بحقوقهم ، ومن زيادة معدل الايجارات وفي سبيل توزيع العقارات الكبرى التي تمثل ثلث مساحة الارض الزراعية ، صُرف النظر عنها واهمل امرها . وعلى عكس ذلك ، فقد اخذ يلوح نوع من الاقطاعية الحديثة مـع سيطرة نظام مزارعة يرمي الى ربط الفلاحين المزارعين بالارض . وصدرت براءة بتنظيم هذا الشكل من المزارعة ، وتحدد انواع عقود الاستثمار في الحين الذي كان فيه العمال الزراعيون يفقدون تدريجيـاً المكاسب التي سجلوها منذ عام ١٩١٩ : ثمان ساعات عمل في النهار ، والتأمين ضد البطالة ، كما اخذت تدرج عادة دفع المرتبات عيناً . ومن يحاول منهم ان ينزح من الريف الى المدينة بحثاً عن عمل او مورد رزق كان يجري طردهم وارجاعهم الى منازلهم بالقوة .

اما العمال فقد اخذ وضعهم القانوني يتغير . فبراءة العمل كبراءة الـ *mezzadaria* لا تأتيان قط على ذكر القانون الذي ينص على ثمان ساعات عمل ، كما انه لم يتخذ اي تدبير فعال تجـاه المخالفين للقوانين الجارية المفعول من ارباب العمل او ضد حق البطالة .

مدى نفوذ الفاشية وحدودها

والفاشية كالنازية ، لم تحاول قط تغيير المجتمع الايطـالي . فقد قنعت من الامر بتوطيد وتقوية الطبقات الموجهة التي سادت بها ازمة ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، وقد عجز موسوليني في ان يحمل الجماهير تجيش بروح الحرب . فهـذا

الوضع من الضغط والاثارة المستمرين على الشعب ، لم يتمرس به سوى قلة من الناس : الشباب ، ولفترة قصيرة . فالسواد الاعظم من هذا الشعب الصابر ، العامل بقي يلسكم في حياة قاسية مستسلمة . فالازمة زادت الناس سأماً ومللا : فقد غاص الفلاحون والعمال في البؤس واليأس بحيث رفرف على النظام جو مشبع بالشك وبعدم الانضباط ايضاً. فبعد عام ١٩٣٣ ، نرى اقل من نصف الاولاد ينخرطون في التشكيلات الفاشية على اختلاف انواعها ، بعد ان اعرض عنها العمال والفلاحون . فالطبقات الموجهة وحدها توجه اولادها شطر هذه المنظمات لانها المفتاح الذي يفتح امامهم ابواب الوظائف الادارية والمهن الحرة . ومن جهة أخرى ، ان اشراف الحزب على البلاد ، حتى على الاعضاء المسجلين فيه لم يبلغ قط من القدرة ما بلغه النظام النازي في المانيا . وقد حدث في وقت مبكر جداً تراخ امتد من اعلى السلم الاداري الى اسفله ، كما ان الفساد اخذ يدب في صفوف الحزب وكثرت مساوىء الادارة .

فطالما عرفت الفاشية ان تشدد من قبضتها على الفقراء والمساكين وعرفت ان تصون المكاسب والمنافع وحققت انتصارات سهلة في المجالات الدبلوماسية ، فقد حظيت برضى الطبقات الموجهة وحظوتها ، وقد حرص فريق من بينها ان لا يتورط بعيداً معها ، وبقيت متحفظة للغاية لأن دستور عام ١٨٤٨ لم يجر الغاؤه رسمياً ، وهكذا فقد انتصب دوماً في وجه موسوليني نظام ملكي كامل غير منقوص . فالملك الذي عرض نفسه للنقد باستدعائه موسوليني للحكم وبموقفه المشبوه من مقتل متيوتي ، قد ارتضى بواقع السلطة الثنائية وسلم بها ، الا انه بقي مع ذلك ، في نظر عدد كبير من الايطاليين ، ولا سيما في نظر الارستوقراطية الغنية الشديدة البأس ، الرئيس الحقيقي للبلاد ، وكذلك في نظر كبار ضباط الجيش ، والدبلوماسيين ، وفي نظر كل العناصر التقليدية التي لا تزال تنعم بنفوذ قوي في البلاد . وهذه الطبقة المتشككة والمحتقرة للفاشية واحياناً معادية لها ، عرفت ان تحافظ على البعد الذي يفصل بينها وبين الحزب . اما طغمة الاكليروس فقد اخذت تأتي بالدليل تلو الدليل على رضاها عن الفاشية (ألم يحيي بيوس الحادي عشر منذ عام ١٩٢٦ ، في موسوليني ، رجل العناية الالهية) كلما توفرت لديه امارات الرضى والحظوة ممثلة باعادة تعليق الصليب في المباني الرسمية ، واعادة التعلم الديني الى المدارس الرسمية ، ولا سيما بعد عقد اتفاقات لاتران التي اعترفت للكنيسة بمركز ممتاز . ولذا راح رجال الاكليروس من جميع الطبقات والدرجات ، وجريدة الفاتيكان الرسمية : الاوسرفاتوراه رومانو ، يؤيدون بقوة مشروعات الدوتشيه ، لا سيما حرب فتح الحبشة والتدخل المسلح في اسبانيا . الا ان الكنيسة احتفظت لوحدها بالمنظمة الوحيدة التي لا تخضع لمراقبة الفاشية ، اعني بها « العمل الكاثوليكي » . وما عتمت هذه المنظمة ان اصبحت محور معارضة سياسية حيث اخذت تظهر للوجود أطُر الحزب الشعبي الذي حل وضحي به عام ١٩٢٢ . وعندما اعلنت الحكومة حل منظمات الشبيبة والمنظمات الطلابية ، رد البابا على ذلك برسالة عنيفة شجب فيها وندد عالياً بهذه الروح الوثنية التي تجيش بها الدولة الفاشية ، كما ان البابا احتج ، عام ١٩٣٨ على التشريعات المضادة للسامية (مع انه كان سبق لجريدة شيفلتا

كاثوليكا ان اثنت عاليــــا على التدابير الاولى التي اتخذتها) . ومن نافل القول ان تعاون الاكليروس مع الدولة لم يفتر قط .

المارضة في الداخل والخارج

والمعارضة الـتي انهكتها ملاحقات البوليس وتحرياته الشديدة ، والانشقاق المؤسف الذي تعرضت له بعد مقتل متيوتي ، ارغمتها على السكوت أو على اللجوء الى التستر والتخفي . والمعارضة الوحيدة التي بقيت قائمة – دونما خطر – تنحصر في مجلس الشيوخ حيث كان باستطاعة بعض الشيوخ التكلم بحرية ورفع عقيرتهم عالياً ، كما انحصرت في مجلة النقد حيث حافظ كروتشيه على تقاليد الفكر الحر . فالمعارضـــة الصامتة كانت منحصرة في الاوساط الجامعية والاساتذة الذين أدوا عام ١٩٣١ ، باستثناء ١١ استاذاً منهم يمين الولاء للنظام الفاشي ، مع وجود بعض خلايا تركز فيها الفكر الحــر ، وبعض زعماء حزب الشعب . الا ان هذه « الهجرة » في الداخل لم يكن لها أي شأن كما انها لم تحـاول قط ان تلعب اي دور . اما المناضلون ، فبعضهم – وهم الشباب – يعملون في الخفاء والسرية في جميع انحاء ايطاليا ، يطاردهم البوليس ، ويوزعون الصحافة المعبرة عن المقاومة من بينها مثـلاً جريدة كارلو روسلي ، وينتهي بهم الامر عاجلا ام آجلا الى يد البوليس الذي يسيمهم العذابات الاليمة او يرسل بهم الى معسكرات الاعتقال في اقاصي ايطاليا او الى الجزر الموحشة في البحر التيرنـّي ، حيث قضى العديدون منهم امثال انطونيو غرامشي ، ومنهم من يفر ناجياً بنفسه الى الخارج ، ليعمل في الخفاء ، امثـــال دون ستورزو وفرنسيسكو نيتي ، والكونت سفورزا ، وبيترو ننـّي ، وجيوزيب سراغات وفيليب طوراتي الذين الفوا في باريس « التمركز اللافاشي » وكارلو روسلي اخيراً الذي نظم الحركة المعروفة بحركة : « العدالة والحرية » ، واضعـــة نصب اعينها تعاليم الاشتراكية الليبرالية . وقد لقيت نجاحاً كبيراً في صفوف رجـال الفكر ونجحت بتأسيس خلايا كثيرة لها في ايطاليا ، وهي خلايا لم تلبث ان صفاها البوليس الواحـــدة بعد الاخرى بحيث اصبح التأكيد انه بعد عام ١٩٣٦ قضي تماماً على مناهضة الفاشية ذات النزعـــة الليبرالية . وفي سنة ١٩٣٤ ، اخذ الشيوعيون الايطاليون ، في المنفى ، يتقربون من الاشتراكيين وعقدوا مع بيترو ننـّي ، في آب من تلك السنة اتفاقاً خاصاً ينص على وحـدة العمل المشترك . ثم ان مساهمة اللاجئين الايطاليين باعداد كبيرة في الحرب الاسبانيـــة ، شددت من موقف الشيوعيين الذين ألفوا الطوابير الدولية برئاسة شخصيات شيوعية ، باستثناء راندولفو بتشياردي ، قائد فرقة غاريبالدي ، واخـــيراً وليس آخراً مقتل الاخوة روسلي ، عام ١٩٣٧ فانزل ذلك ضربة قاصمة بالمعارضة غير الشيوعية في ايطاليا .

٣ ـ انتشار الأنظمة الدكتاتورية في أنحاء اوروبا

في اوروبا الوسطى

جاءت الازمة الاقتصادية في اوروبا الوسطى بتغييرات اساسية وتسببت بانهيار عام لكل ما تبقى فيها من اثر للانظمة الديموقراطية البرلمانية، التي رأت النور في اعقاب الحرب العالمية الاولى. وتشيكوسلوفاكيا بقيت وحدها امينة للنظام البرلماني لما كان عليه تركيبها الاجتماعي وتقاليدها الادارية من مماثلة وتشابه لمؤسسات اوروبا الغربية. وكل البلدان الاخرى التي سيطرت عليها ديموقراطية صورية دبت اليها عدوى النظام الايطالي والالماني.

كان من الصعب جدا في هذه البلدان الزراعية الطابع التي رزحت تحت واقع الازمة، ابقاء جماهير الفلاحين البائسة والبروليتاريا الصناعية التي تراصت صفوفها وتكاثفت على اثر الازدهار الصناعي الذي عرفته مؤخراً، مسترسلة في خضوعها واستسلامها. فالاصلاحات الزراعية لم تدخل اي تحسين يذكر على اوضاع الفلاحين والمزارعين اينما وقعت وحيثما تمت، فبقوا يرسفون في يأس مميت، بعد ان ناؤوا تحت وطأة الضرائب وثقل الديون المتراكمة عليهم، في الوقت الذي جعلهم فيه هبوط المحاصيل الزراعية عاجزين تماماً عن شراء بعض ضرورات العيش من المدينة. فاوروبا الوسطى واوروبا الشرقية تكتظ بالسكان، والسواد الاعظم من السكان اي ما يتراوح بين الثلثين والثلاثة الارباع من هؤلاء الفلاحين يملكون مزارع لا تفي بأودهم وأود ذويهم. كما ان معظمهم يحتاج الى العمل، اذ ان اليد العاملة الفائضة في هذه القرى تتراوح بين ثلث السكان ونصفهم. وطبقة الفهماء في هذه البلدان، التي تعود جذورها الرئيسية الى الطبقات الفقيرة او الى الطبقة البورجوازية الصغرى والمتوسطة، تعد بين صفوفها الكثيرين ممن يعانون من البطالة. والطبقة العمالية نفسها التي تتضخم صفوفها وتنمو باستمرار، تشكو من بخس الاجور كما ان البوليس يلاحق بوحشية كلية وفظاظة، كل شكل من اشكال النقابات اذ يرى فيها خلية محتملة من خلايا البلشفية، كما تميز بالعنف قمعه لاعتصاب عمال مناجم الفحم في وادي جيو، عام ١٩٢٩، وورش الخط الحديدي في غريفتلسا من اعمال رومانيا، والاعتصاب العام الذي اعلن في فولا، من اعمال اليونان. وقد نجم عن هذا الوضع احتدام العنف بين طبقات المجتمع المتصارعة بعد احتدام التنافس بين القوميات المستاءة. فلا عجب، والحالة هذه ان تقلق الخواطر بين الملاكين ورجال الأعمال والحكومات الرجعية من جراء الهدير المتصاعد من هذه الاوساط التي يتأكلها الحقد والبؤس. فالحل الوحيد، في نظرهم، التغلب على المصاعب الاقتصادية التي يتربصون بها، وعلى الضغط الاجتماعي الذي يرزحون تحته، يقوم في تقوية سياستهم المحافظة. وهكذا طلعت في تلك البلدان، أنظمة دكتاتورية شكت من الضعف والهزال في وجه معارضة ناشطة.

الاحزاب الفاشية

قامت الى جانب الاحزاب القديمة التي انقسمت على نفسها امام الضائقة الاقتصادية الى فئات تناصر الدكتاتورية واخرى تطالب بتحقيق اصلاحات ديموقراطية جذرية ، احزاب جديدة طلعت من بين الدهماء اخـذت تنسج على منوال الفاشية والهتلرية بعد ان تبنت مناهجها ونظم عملها . وقد اشتد ساعد هـــذه الاحزاب لا سيا في هذه الاقطار التي تقوم فيها اقليات يهودية قوية تتمتع ببعض النفوذ والشأن : كبولونيا وهنغاريا ورومانيا ، لا سيا في هذه البلدان بالذات حيث اخذ عدد حمــلة الشهادات العليـــا وخريجي الجامعات يزداد ويتعاظم ، وقد تناقصت امامهم ان لم نقل سُدّت، منافذ الرقي الاجتماعي التي توفرت من قبل واخذوا يشعرون ، اكثر فاكثر ، بزاحمـــة اليهود لهم على المهن الحرة . فقد ألفت هذه الشبيبة المستنيرة الصفوف الأولى للحزب الوطني الراديكالي (نارا)؛ و « معسكر الاتحاد الوطني » بقيادة الكولونيل كوك واخـذوا يطالبون بدكتاتورية عنصرية تأخذ على نفسها تطهير البـــلاد من اليهود ويقطع دابرهم من الاساس مع دابر الديموقراطيين . كذلك شهدت هنغاريا طلوع « الصلبان ذات الأسهم » كما شهدت رومانيا « الحرس الحديدي » يجمع اعضاءه ومناصريه من ابناء الطبقة نفسها وتحدث دوياً قوياً بين صفوف الفلاحين والعمال . والحركتان تسجلان المزيد من الانصار والمريدين بين الفلاحين اثر حملة قوية مطالبتـين بالاصلاح الزراعي ، شاجبتين بعنف وقوة اصحاب رؤوس الاموال ولا سيما اليهود . وكلمة السر عنـــد الحرس الحديدي : « لكل انسان فدان من الأرض » والذي عرف ان يجتذب الى صفوفه العمال العاملين في هذه الصناعات الجديدة الذين نزحوا من عهـــد قريب من الريف ، ولم يلبث معمل مالاكسا الكبير للاسلحة في بوخارست ان اصبح قلعة الحرس الحديدي في البلاد . وعلى شاكلة ما تم في كل من المانيا وايطاليا ، فقد تلقوا تبرعات ومساعدات ضخمة من ارباب الصناعة ومن احزاب اليمين ، كما ان الادارة والمحاكم احاطوهم بالكثير من مظاهر العطف .

النظام الدكتاتوري في النمسا

اما النمسا فقد احتدم الصراع فيهـــا واشتد بين الاشتراكيين المسيطرين على فيينا تساندهم منظمة خاصة من الميليشيا افرادها من العمال ، وبين الكاثوليك اصحاب الامر والسلطة برئاسة المستشار دولفوس ، يشـــد من أزرهم ميليشيا خاصة بقيــادة الامير ستاهرنبرغ . وفي اذار عام ١٩٣٣ ، اصـــدر المستشار دولفوس قراراً بتأجيل انعقاد البرلمان ، وامر بحل الحزب الشيوعي والحزب النازي وفرض على البلاد دكتاتورية . وقد اصبحت الميليشيا التي تسانده ، البوليس الرسمي في البلاد ، فقمعوا بشدة فتنة اطلقها الاشتراكيون في فيينا ، بعد معركة حامية دامت ثلاثة ايام بطولها (شباط ١٩٣٤) . وخلافاً للدكتاتوريات المجاورة لم تكن الحركة التي قامت بها حركة جماهيرية ولم تمن الحركة بأن تولي الحكم في البلاد إطار جديد من الحكام، اذ ان وحدات الميليشيا تألفت صفوفها من رجال النظام القديم . فالحكومة القائمة برئاسة دولفوس الكاثوليكي وخلفه شوشنيغ ، هي حكومة شرعية في الصميم ومضادة للجماهير . وهذا النظام الدكتاتوري الجديد الذي تقاسمته

نزعة فاشية ممثلة بالميليشيا ، وقدامى العسكريين والارستوقراطية القديمة ورجال الاكليروس ، ونزعة مضادة للفاشية تدعمها البورجوازية اليهودية التي توجس شراً من الفتنة الاشتراكية ومن المذابح النازية ، بدت عليه معالم الضعف . والدستور الجديد الذي استلهم فيه واضعوه ايديولوجيا كاثوليكية صرفة ، وضع الدولة تحت سلطة « الله العلي المعظم مصدر كل حق وسلطان » . وهو لا ينص على انتخابات ولا على استفتاءات ، بل يؤسس دولة اساسها النقابية .

فليس من عجب بعد هذا ان يستفحل أمر النازية في ظل هذا النظام وفي مثل هذه البلاد المعروفة بعدائها الشديد للسامية ، حيث الشباب والعمال وكل هؤلاء الذين يكتمون في صدورهم حقداً دفيناً لكل حكومة مسيحية اشتراكية ترتكز على الارستوقراطية وعلى الرجال العسكريين من الملكية الماضية ، هم على اتم استعداد للأخذ بعهود ووعود التجدد . وفي ٩ اذار ١٩٣٨ ، وتحت كابوس الغزو وخطر الاجتياح ، حاول المستشار شوشنيغ أن يقوم باستفتاء عام ، في سبيل الحفاظ على « نمسا حرة ، مستقلة ، اشتراكية ومسيحية » . فقد سبق السيف العذل ، إذ وقع بعد ذلك بثلاثة أيام ، ضم النمسا إلى الرايخ .

في بولونيا وهنغاريا

أعلن دستور عام ١٩٣٥ في بولونيا ، في اثر وفاة بلسودسكي عام ١٩٣٥ نظاماً دكتاتورياً ظاهراً ، إلا انه لقي معارضة عنيفة من مجموع السكان الذين تبعوا كلمة السر لدى أحزاب المعارضة وامتنعوا عن الاشتراك « بالانتخابات الميتة » ، التي اشترك فيها ٤٧ ٪ لا غير من مجموع الناخبين . جرى الغاء ١٣ ٪ من أصواتهم . وقد اعتبر ثلثا الناخبين معارضين . ومع ذلك ، فموت المارشال ترك المجال حراً امام كتلة الزعماء في الجيش الذين يشددون على الدكتاتورية بدون دكتاتور ، مع انتهاجهم سياسة تفاهم مع هتلر .

أما في هنغاريا ، فحزب المحافظين استمر بالحكم منذ عام ١٩٢٠ يدعمه النبلاء وأرباب الأعمال ، الا انه اخذ ينزع الى الفاشية بعد عام ١٩٣١ عندما حل على رأس الحكومة الجنرال كمبوس قائد المنظمة الارهابية المعروفة بمنظمة « الجر المستيقظين » محل الكونت بثلن . وقويت النزعة واشتدت اكثر فاكثر مع خلفه المالي إمردي الذي تأثر كثيراً بحزب الصلبان ذات الاسهم .

في اوروبا الجنوبية الشرقية والشمالية

ومنذ كانون الثاني ١٩٢٩ ، اصدر الملك اسكندر امراً بحل المجلس ووقف العمل بدستور فيدوفدان ، واعطى يوغوسلافيا عام ١٩٣١ دستوراً استبدادياً ، جعل الوزراء مسؤولين أمام الملك وحده . وبعد وفاته عام ١٩٣٤ ، خفف بولس الوصي على العرش من قبضة النظام دون ان يعيد الى البلاد الحريات المدنية والسياسية . وتألفت في البلاد نقابات *Jugoras* عام ١٩٣٥ ، على شاكلة النقابات الفاشية بيزاتها الرسمية .

اما في بلغاريا ، فقد انشأ الملك بوريس ، في اثر الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال جورجييف (٢٩ ايار) ادى الى حل المجلس وحل الاحزاب في البلاد ، دكتاتورية ملكية . ومع ذلك بقيت المعارضة قوية . وبالرغم من عنف البوليس وفظاظته والعذابات التي سامها ، وبالرغم من الفساد والخلع ، كان ثلث النواب الذين انتخبوا ، عام ١٩٣٨ ، من رجال المعارضة .

وفي رومانيا ، طُرِدَ حزب الفلاحين من الحكم بعد ان استأثر به منذ عام ١٩٢٨ ، وذلك في اثر القلق الذي ساد البلاد من جراء الازمة المالية . وانتهز الامير كارل هذه المناسبة للعودة الى بلاده ، ١٩٣٠ ، ويخلع ابنه عن العرش ويوسع حكمه وسلطته تدريجياً وبعد ان نجح في شباط ١٩٣٨ ، بنسف الاحزاب التقليدية في البلاد ، انشأ على المكشوف بمساعدة حكومة اتحاد وطني برئاسة البطريرك ميرون كريستيا ، دكتاتورية ذات دستور مسيحي لانيابي ، الغى الاحزاب السياسية كما الغى النقابات العمالية ، ولم يبق قائماً سوى حزب جديد المعروف بجبهة البعث القومي الذي جاء تشكيله على غرار الحزب الفاشي ببزته الرسمية ، كما استعمل المصطلحات والتراكيب الفاشية .

اما اليونان التي اشتدت عليها قبضة فنيزلوس منذ ١٩٢٧ ، فقد أعيدت الملكية اليها ، عام ١٩٣٥ ، وكان الجمهوريون والملكيون على توازن فيما بينهم ، في البرلمان . ولما تكررت فيها حوادث الاضرابات التي دعا اليها الشيوعيون ، اتخذ الجنرال من ذلك ذريعة لحل المجلس وانشاء دكتاتورية ، كما اعلن في البلاد الاحكام العرفية وقد حاكى النظام الجديد بقسوته ، والعنف الذي قمع به الاضطرابات النماذج الدكتاتورية التي نسج على غرارها ، بتأسيسه كتائب *Neolaia* اشبه ما تكون بفرقة الصاعقة في النازية وبدعاية شخصية تحيي « مؤسس الحضارة الهيلنية الثالثة » .

وقام النظام الدكتاتوري في بلدان البلطيق ، في استونيا مثلاً ، عام ١٩٣٣ ، حيث حُل البرلمان والغيت الاحزاب ، وفي ليتونيا كذلك حيث لم يلبث أولمانيس ان اصبح ، عام ١٩٣٤ ، فادونيس او الفوهرر .

في اوروبا الجنوبية : برتغال سالازار

شهدت دول شبه الجزيرة الايبرية هي ايضاً قيام دكتاتوريات. فالجنرال كرمونا الذي اصبح رئيساً للجمهورية بعد ان طرد الجنرال غوميز داكوستا الذي استأثر بالحكم اثر حركة انقلابية قام بها عام ١٩٢٦ ، سلم مقاليد الحكم في البلاد الى سالازار استاذ الرياضيات في جامعة كوامبره الذي اخضع البلاد لنظام دكتاتوري من جنس معين . فقد كان كاثوليكياً متزمتاً تتلمذ على شارل مورّاس فحاول اخضاع البلاد وحكمها وفقاً لمعطيات السيلاّبوس او جريدة التعاليم المحرمة التي تحظر من اي تنازلات الليبرالية والاشتراكية والديموقراطية . وبصفته رئيساً لنظام حكم محافظ في الصميم ، واعتماداً منه على الجيش والكنيسة ، هدف سالازار للدفاع عن الحضارة المسيحية التي تتهددها تعاليم

عصرنا هذه وفلسفاته الناشزة : كالشعوبية والشيوعية والاشتراكية ، وكل ما من شأنه ان يمس بأذى « العقول والعقائد الاساسية » ويحمل النفوس تتشكك « بالحقائق الخالدة » . وأنشأ الدستور الجديد الذي نشر عام ١٩٣٣ ، انشأ « دولة جديدة » نقابية ، مناهضة للديموقراطية والنظام البرلماني . فالدولة البرتغالية هي في الصميم ، دولة مسيحية ، قومية تقوم على الاسرة والحرفية والادارة البلدية ، تلغى منها الاحزاب والماسونية . فالبلاد تتخلى عن نظام الانتخابات العامة وتعتمد بديلاً عنه نظاماً حرفياً او مهنياً يتصدى للروح الطبقية ويحاول ان ينظم البلاد بعد ان رزحت تحت وطأة الضائقة المالية . فالتعليم بيد الكنيسة في جميع مراحله ، و « قانون العمل » فيها، هو صدى قريب لبراءة العمل في ايطاليا : نقابات عمالية وحيدة ، غير ملزمة تمثل مجموع العمال ، ونقابات ارباب العمل ، بعضها إلزامي ، يعهد اليها بتحديد الحد الاعلى للاسعار،يكونون بحكم وظيفتهم وسطاء المنتجين،فيسهلون بيع محاصيلهم ويفصلون في الاختلافات الناشبة . ويتألف من الفئتين تحالفات مهنية واتحادات ، تعمل تحت اشراف الدولة ، على تأمين الانسجام في المجال الاقتصادي . وهذا النظام النقابي هو أقل خضوعاً في البرتغال للسلطة التنفيذية منه في ايطاليا . هنالك مجلس نقابي استشاري يبدي رأيه في مشروعات القوانين التي تعرض عليها ثم تحال امام مجلس وطني يتألف من ٩٠ عضواً ينتخب لاربع سنوات . وتعمل الدولة على استفتاء الرأي العام بعملية اقتراع عام يحرم من التصويت فيه كل من يجهل القراءة والكتابة الا اذا دفعوا ضريبة معينة ، وذلك بتقديم لائحة موحدة من المرشحين « للاتحاد الوطني » بحق الناخبين فقط شطب اسم من لا يرغبون فيه . والوزراء مسؤولون امام رئيس الحكومة وحده الذي يبقى مسؤولاً امام رئيس الجمهورية ، وهذا الاخير ينتخب بواسطة استفتاء شعبي لمدة سبع سنوات وتتمتع السلطة التنفيذية بحق رفض اي مشروع قانون اقره المجلس الوطني كما تتمتع بحق حل المجلس المذكور .

اسبانيا

تمخضت اسبانيا بحركة اختبار سياسي واسعة في هذه الحقبة من تاريخها الحديث حيث ازدهرت الفنون والآداب بكتبة وفنانين لمعوا في سماء البلاد ، أمثال ميغال اونامونيو واورتيغا دي غاست والشعراء خوان رامون خيمنيس وفريدريكو غارسيا لوركا والموسيقار الشهير مانويل دي فالا . وكان من جراء الضائقة الاقتصادية ان زاد الناس تأففاً من نظام الجنرال بريمو دي ريفارير الدكتاتوري ، ولم تلبث الحركة الجمهورية فيها ان طغت بعد ان اشتد ساعدها إثر الاضطرابات الاجتماعية العنيفة التي هزت البلاد واشاعت الفوضى فيها في نيسان ١٩٣١ . وتعاقبت على الحكم في اسبانيا ، بين ١٩٣١ — ١٩٣٦ ، حكومات ذات ميول متضاربة : تناوحت بين تحالف اليسار بعد ان انقسموا الى اشتراكيين شيوعيين ، وجمهوريين بورجوازيين ، واشتراكيين معتدلين الذين اقروا مجتمعين ، دستوراً ديموقراطياً علمانياً ووضعوا مشروعاً لاصلاح زراعي شامل . الا ان عملية الاصلاح هذه اعترضتها صعوبات جمة اخرت تطبيقها الامر الذي حمل الفلاحين على الثورة واخذوا يحتلون الاراضي . وجاءت

النتائج تخيب الآمال مما ادى في انتخابات عام ١٩٣٤ الى دخول المجلس اكثرية رجعية ساحقة تمثلت في اتحاد اليمين المستقل بقيادة جيل روبلس وتوجيهاته ، والفت كتائب ميليشيا عرفت عندهم بالاحرف J. O. N. S. كانت تنتزي بالمبادىء الهتلرية والنازية ، مناهضة للماركسية وذات مطالب قومية (ضم طنجة وجبل طارق) كما أدت الى ظهور الكتائب الاسبانية بقيادة خوزه ابن بريمو دي ريفيرا . وحاولت الحكومة المستندة الى احزاب اليمين خلال سنتين انتهاج سياسة انكماش مالي ، كما سعت جهدها لالغاء التشريعات الزراعية وتعديل نصوصها بانشاء ملكية عائلية ،على الطريقة الالمانية ، لا تجزأ ولا تنتقل الا للارملة او لاحد البنين ، ولا يجوز بصورة من الصور تأجيرها او رهنها ولا بيعها (الا لعائلة اخرى تكون مؤهلة هي ايضاً لتسلم هذه الحيازة) . الا ان هذه السياسة التي اتسمت بالرجعية ، وقمع الاضطرابات العمالية التي وقعت في مقاطعة استوريا، بالدم والنار على يد الفرقة الاجنبية وفرقة المغاربة والطيران، كل ذلك ساعد على تشكيل جبهة شعبية في البلاد . ولما كانوا تلقوا درساً بليغاً من انهزام الاشتراكيين في فيينا ، ومن الامثولة الفرنسية التي حدثت في باريس في السادس من شباط فقد تكتل الاشتراكيون والشيوعيون ودخلوا الانتخابات العامة في ١٦ شباط ١٩٣٦ كتلة واحدة أدت بهم الى فوز مبين لاحزاب اليسار التي ربحت ٢٦٥ مقعداً، منها ٨٨ للاشتراكيين و ١٥ للشيوعيين مما الح للجمهوريين العمل بنشاط لتحقيق مشروع الاصلاح الزراعي فجرى تمليك ٧٥,٠٠٠ مزارع في مقاطعة استرامادور . وقد حمل هذا الفوز الطبقات الموجهة والجيش والاكليروس لاستعمال العنف، وراح الكتائبيون والفاشيون بقيادة زعمائهم خوسيه انطونيو بريمو دي ريفيرا وكالفو سوتيلو ينظمون انفسهم حربياً ويستعدون للقتال . وترأس الجنرال فرنكو حركة ثورية نشبت في ١٨ تموز ، فجاء انقلاباً كلاسيكياً أعد بكل اعتناء . الا انه لقي مقاومة شعبية مفاجئة لم تكن في الحسبان . فقد تمكنت الجماهير في برشلونة ومدريد من تجريد الجند من سلاحهم . ولم يستطع الضباط ، بعد ان تخلت عنهم وحداتهم الا الاحتفاظ بقسم ضئيل من البلاد بمساعدة الفرقة الاجنبية وكتائب المغاربة وبعض المقاطعات والجزر ، ومناطق اراغون ونافار الجبلية وقشتالة وغاليسيا ، وراح الفلاحون والعمال في كل مكان يتسلحون ، بعد ان انضم اليها ٤/٥ رجال الاسطول وعدد كبير من افراد الجيش بتواطؤ مع احرار البورجوازيين . وهذا الصدام بين شقي اسبانيا : شق شعبي متحرر يعضده الكاثوليك الكتلونيون والباسك، وشق ثان يعضده رجال الدين والضباط تشد ازرهم ايطاليا الفاشية والمانيا الهتلرية ، لم يلبث ان استحال الى حرب اهلية دامية هوجاء .

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه الأعمال الحربية ، اخذت الحكومة الجمهورية في المناطق الخاضعة لنفوذها تقوم بإصلاحات جذرية : فوسعت من نطاق الاصلاح الزراعي كما اخذت في تطوير الملكية الفردية الصغيرة . فقد اممت في مقاطعة كتلونيا كل مشاريع الاستثمار التي يزيد عدد العمال في الواحدة على مائة عامل ، بينما اعيدت الاملاك الى اصحابها في المناطق التي سيطر

عنيها الوطنيون . واخذت الدولة بعد هزيمة الجمهوريين بتنظيم البلاد على غرار التنظيم المعمول به في النظام الفاشي . فقد برهن الزعيم فرنكو على انه عسكري فطن ، عنيد وكاثوليكي لجيش نفسه بالبغض للماسونيين والشيوعيين . فهو يتمتع عن طريق الجيش والبوليس والادارة والمحاكم بسلطة لاحدود لها اتخذ منها اداة لتصفية الثورة واجراء مذابح في صفوف مناوئيه اثناء المعارك وبعدها ، كما ارسل الى المعتقلات مئات الالوف من الخصوم . فقد صرح منذ عام ١٩٣٧ قائلاً : « ان اسبانيا لتحذو حذو النظم الدكتاتورية كايطاليا والمانيا ، وستعمد الى تبني الهيئات النقابية وبذلك تضع حداً نهائياً للمؤسسات الليبرالية التي سممت الشعب » . وهو في ذلك انما يعتمد على القوى التقليدية في اسبانيا : الكنيسة الاسبانية التي وضعت عام ١٩٣٧ في رسالة راعوية عامة ، الحركة الانقلابية « استفتاء مسلحاً » ، والتي احتفلت عام ١٩٢٩ « بانتصار الصليبيين » والجيش والبوليس اللذين يستنزفان لوحدهما ، نصف موازنة الدولة ، وكذلك « الكتائب » التي انصهرت فيها ، عام ١٩٣٤ وحدات الجونز . وان انضم الحزب الكارلي المعروف بروحه الرجعية الى الحزب اصبح قانون الحزب عام ١٩٢٧ ، « مصدر الوحي والقانون للحكومة الاسبانية » . والكتائب هذا الحزب الاوحد الذي انصهرت فيه الدولة يعدها بالمنصر الحكومي والاداري ، كما يضع تحت تصرفها بوليس امن سري ، يوجه الصحافة والدعاوة والتعليم ومنظمات الشباب والنقابات العمودية في هذه « الدولة الوطنية النقابية » ، وبذلك تتم لها السيطرة على الطبقة العمالية .

وهكذا خضعت اسبانيا لنظام دكتاتوري يختلف في وجوه عديدة عن النظامين الالماني والايطالي لوقوعه تحت قبضة الحزب اكثر منه تحت قبضة الجيش، وبروحه الاكليركية البارزة وبروحه الوطنية التي لم تكن تهتم كثيراً بالتوسع الخارجي ، وبسيطرة المصالح الزراعية دون الصناعة الكبرى . وقد جاء هذا النظام في طبيعة البلاد والعقلية الاسبانية اكثر منه في صنويه الآخرين .

في باقي انحاء العالم

اما البلدان المرتبطة بغيرها والتي تأثرت عميقاً بالازمة فقد انفعلت هي الاخرى بالمبادىء الفاشية . ففي بلدان اميركا اللاتينية حيث، تكاثرت حوادث الانقلاب السياسية والثورات ، قامت حركات اخذت كثيراً من ملامح الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا . من ذلك مثلاً « العمال التكاملي » في البرازيل وقمصانه الخضراء مع شارة خضراء على الساعد تذكرنا بالصليب المعقوف « والقمصان الذهبية » في المكسيك بادارة الاكليروس الذي ينعم بعطف الجنرال فرنكو ، و « الحزب الوطني للأمن العام» المعروف بعدائه للسامية .. وقام في الارجنتين :الحزب الوطني الاشتراكي في الارجنتين كما قامت منظمات تسير على هذا المنوال في كل من البيرو والشيلي وكولومبيا وبناما .

العالم الرأسمالي عام ١٩٣٩

العالم الذي شهد انفجار الحرب العالمية الثانية يختلف كل الاختلاف عن هذا العالم الذي روع، قبل ذلك ، بخمس وعشرين سنة ، بالحرب العالمية الاولى .

فمنذ عام ١٩١٤ ، اشتد التطور الذي بدت معالمـــه تلوح في الافق سرعة ،واخذ يحمل من الرأسماليه المتنافسة في القرن التـاسع عشر ، رأسمالية اكثر احتكاراً ، تحت سيطرة قبضة من الشركات الكبرى وثقت علاقتها بالرأسمال المصرفي لتسيطر سيطرةتامة على الانتاج وعلى الاسواق التي تشرف عليها هذه الشركات . وقد كان من تمركز رأس المال بيد قلة من الناس ، ومن انضام رأس المال المصرفي الى الرأس المال الصناعي ان غير كثيراً منتقنية الرأس المال المصرفيوالوسائل التي يعتمدها . فالشركة المغفلة حلت محل الشركة الاسمية ذات الطابع العائلي ، و « الاتفاقات » المبرمة حلت محل المنافسة ، وسياسة الحماية الجمركية التي اخذت تشتد وتقسو اكثر فاكثر ، والتي انتقل امرها من يد الحكومات الى بعض هيئات اقتصادية مهددة ، حلت محل مبدأ حرية التجارة . كذلك حل محل رأسمالية ترغب في التوسع، رأسمالية تميل الى الانكماش او الانطواء وشابه شيء كثير من الملطوسية الاقتصادية ، التي باستطاعتها وحدها - في اوقات البحبوحة - المحافظة على ارتفاع الاسعار عن طريق لجم وسائل الانتاج ، والتخفيف من طاقتها حسبما ترى.

وعندما وقعت الازمة ، اضطرت حكومات الدول الرأسمالية التدخل مباشرة . وسياسة التدخل التي ميزت الحقبة المنصرمة والتي لم يكن لتظهر الا لماماً ، وفي بعض قطاعـات خاصة ، حل محلها ، منذ عام ١٩٣١ ، توجيه عام للاقتصاد الوطني هدف الى استغلال القوى الانتاجية تحت تصرفه،استغلالاً اكثر عقلانية،كما حرص شديدالحرص علىتفادي الخضات والهزاتفيتطوير الانتاج ، مستعينة على ذلك بوسائل مختلفة : كالتضييق والمناصرة ، والاشغـــال الكبرى ، ومراقبة المؤسسات الصناعية والمبادلات التجارية، وسياسة التسلح . والروح الوطنية الاقتصادية المتزمتة ، كل هذه الوسائل ادت الى خلق تيار من المقايضات المغلقةبين النظم الوطنيةللاقتصاد. وهذه السياسة سارت عليها ونسجت على منوالهـــا كل الحكومات ولا سيما الدول ذات النظم الدكتاتورية ، وعلى الاخص المانيا ، وطبقوا مبادئها بصورة منهجية .

غني عن القول ان الازمة التي انفجرت في الولايات المتحـدة ، عام ١٩٢٩ ، سددت ضربة قاصمة للحركة الاقتصادية في العالم اجمع واشرتها ،الامر الذي احدث حركة انتفاض ويقظة في

اقتصاديات كل الدول التي تجيش بالقومية ، وهيأت ، كما حدث في المانيـــا السبيل لظهور هتلر واستلامه السلطة في البلاد، كما ادت الى الجهود التي بذلتها البلدان الديموقراطية الحد من مساوئها، استنفذت قدراً كبيراً من طاقات تلك الدول وقدراتها كان بامكانها استخدامها الصمود التحديات التي تعرضت لها ، وهكذا مهدت الضائقة المالية الكبرى ، الى حد كبير ، الطريق امام انفجار الحرب العالمية الثانية .

القوى السياسية كما نراها موزعة

وهذا التغيير لم يقتصر على البنيان الاقتصادي بـل اصاب ايضاً توزيع القوى السياسية واجرى فيها تبدلاً جذريـــاً . فالدول الكبرى في العالم عند اعلان الحرب العالمية الاولى ، كانت : الولايات المتحدة والمانيا وبريطانيا العظمى وفرنسا وتأتي دونها درجة ومرتبة : النمسا والمجر واليابان وروسيا وايطاليا . والنظم الديموقراطية التي كانت تستند في اكثر الاحايين الى تقاليد قديمة ، كانت مزدهرة كل الازدهار ، في الولايات المتحدة وبريطانيـــا العظمى وفرنسا والدول السكنديناقية والدول الصغرى الواقعة الى الغرب من اوروبا . اما في ما عدا هذه البلدان ، فقد كانت هذه النظم تطلع وتأخذ بالتطور كما هي الحال في المانيا حتى وفي روسيا القيصرية .

اما في عام ١٩٣٩ ، فالصورة تختلف كلياً عما كانت عليه عـــام ١٩١٤ والوضع اصبح غيره تماماً . ففي منزلة الدول الكبرى ، تـــأتي الولايات المتحدة في الطليعة ، حتى ان قوتها بزت بكثير اية دولة أخرى ، سواء أكان بانتاجها الصناعي او بمستوى العيش الرفيـــع الذي حققته في بلادها . فهي ارسخ دولة اجتماعياً ، كما انها رأس المال العالمي ومحوره الصناعي والمـــالي الاكبر . وتأتي المانيا في المرتبة الثانية من حيث القوة، ولكن وراء الولايات المتحدة بمراحل ، يتبعها من قريب الاتحـــاد السوفياتي الذي يبز قوة وقدرة اليابان ، وحتى بريطانيا العظمى وفرنسا .

وقد كشفت الازمة في المجالين الاجتماعي والسياسي المتناقضات والمفارقـات التي احاطت بالديموقراطية البورجوازية ، هذا التعبير السياسي للرأسمالية الليبرالية : هذا التناقض القائم بين السلم الاجتماعي وقوى الانتاج ، والتناقض بين سيادة الجماهير السياسية وبين السيطرة الاقتصادية التي تمارسها اقلية متميزة . فالبطالة الجماهيرية الدائمة ، هذه الظاهرة الجديدة التي لم يعرفها القرن التاسع عشر ، وعدم المساواة المتزايدة في توزيع دخل المجتمع ، وتركز السلطة الاقتصادية في عدد من البيوتات آخذاً ابداً في الهبوط والنقصان ، زادت في حدة المتنـــاقضات الاجتماعية . وراحت الجماهير ، بعد ان احسنت تنظيمها ، تحاول تطبيق مبادىء الديموقراطية في المجـــالين الاقتصادي والاجتماعي . ولاول مرة ، قامت حكومات اشتراكية او يدخلهـــا اشتراكيون وبذلك كسروا الطوق وابطلوا الحكر الذي فرضته الطبقات الموجهة على الحكومة . والحال ، « فكل نظام ديموقراطي يحتاج ، ليقوى ويرسخ في المجتمع ، الى نظام اقتصادي يأخذ بالتوسع والامتداد » .

والحد الذي بلغه توسع الاقتصاد الرأسمالي لم يعد ليسمح للطبقات الموجهة القيام بتنازلات جديد التي عملت حتى الآن ، على تهدئة المتذمرين بعد ان رفعت من مستوى عيش الطبقة العمالية . « فمبادىء المجتمع الرأسمالي أصبحت اعجز من ان تؤمن الرفاهية الشاملة التي تقتضيها الديموقراطية »(هـ. لاسكي) . فالاستيلاء على السلطة كان له اهمية كبرى في هذا الصراع القائم بين الطبقة السائدة والطبقة المسودة . وإذ ذاك انقطع التيار الذي كان يغذي المؤسسات الديموقراطية . ففي بريطانيا العظمى وفي دول غربي اوروبا حيث كان الوضع الاقتصادي أقل تعرضاً للخضخضة ، استمرت هذه المؤسسات تعمل ضمن اطارها الرأسمالي ، مع تعرضها للشك والجدل واصابتها بالضعف عن طريق تقوية السلطة التنفيذية . أما البلدان الاخرى ، وفي اقوى البلدان الاوروبية صناعياً ، أي في المانيا بالذات التي اصيبت اكثر من غيرها من الهزيمة في الحرب ومن الازمة ، ومثلها ايطاليا واوروبا الوسطى والشرقية ، اخذت الطبقة الحاكمة ترى انه لا سبيل للبقاء والحفاظ على الحياة الا بالتخلي تماماً عن هذه المؤسسات الديموقراطية . فالثورة الفاشية المضادة قضت تماماً على منظمات الطبقة العمالية القائمة ، واعتمدت سياسة محمومة تدعو للتسلح ولبسط سيطرتها الامبريالية ، كان من شأنها تعقيد المشكلات القائمة بين الدول وبين الشعوب . والنجاحات الباهرة التي حققتها سياسة اليابان في آسيا انزلت الوهن في مراكز الدول الاستعمارية ، بينما ادت ، من جهة ثانية ،الى خلخلة النظم الاجتماعية التي قامت عليها الطبقة الحاكمة في الصين . كذلك اخذت الحركات الوطنية المطالبة بالاستقلال تنشط وتستفحل سواء في الهند او في مستعمرات فرنسا وانكلترا وهولندا .

ومع ان النظام الرأسمالي لا يزال معمولاً به في القسم الاكبر من الكرة الارضية ، فقد اخذ يشكو الضعف وتبدو عليه امارات الوهن . ونجم عن هذا الوضع المزيد من الاصطدامات الاجتماعية التي اتخذت لها مكاناً مرموقاً واصبحت عنصراً هاماً من عناصر السياسة الخارجية واخذت تلعب دوراً بارزاً في العلاقات الدولية . ففي الوقت الذي راحت فيه الشعوب تدخل حرب عام ١٩١٤ ، راضية مرضية ، نجد الطبقات المسؤولة – التي نراها منقسمة فيما بينها عام ١٩٣٩ ، ينتابها الشك والخوف من عدم اقرار الجماهير الشعبية لخططها السياسية . فخلف الصراع الناشب بين البلدان الفاشية والبلدان الديموقراطية البرلمانية يطل علينا شبح الامبراطورية القيصرية حيث قامت ، منذ نحو ٢٢ سنة ، دولة اشتراكية تجاهلت الازمة التي تضرس بها الجميع والتي لها من التأثير البالغ على الطبقات الحاكمة وعلى سكان المستعمرات ما يجعلها مفزعة للجميع .

القسم الثاني

العالم السوفياتي

« بينما يتراجع النظام الاقتصادي والسياسي الحر في البلدان الرأسمالية ، نراه يزول كلياً في سدس اليابسة حيث كانت الثورة الروسية أولى مراحل تحول اساسي في المبادىء الاجتماعية لحضارة الغربية » .

هـ . لاسكي

كانت اهم نتائج الحرب العالمية الاولى الثورة الروسية - « اعظم حدث تاريخي منذ الاصلاح ... » - لانها حطمت وحدة العالم التي كانت شبه محققة في السنة ١٩١٣ . فتحت قيادة الدول الاوروبية الكبرى والولايات المتحدة ، اضطرت كافة الدول « المتخلفة » اقتصادياً وعسكرياً ، طوعاً او كرهاً ، الى اعتماد نظام اقتصادي واجتماعي واحد ، وتبني مثل عليا واحدة وطرائق تفكير واحدة وتقنية واحدة . ثم جاءت السنة ١٩١٧ تحدث انفصاماً مفاجئاً . فمنذ هذا التاريخ اخذت تتكوّن في وجه عالم النظام الحر والرأسمالي طريقة جديدة كل الجدّة ، تختلف مبادؤها الاساسية كل الاختلاف ، ستتطور وفاقاً لقواعدها الخاصة . فقد انطلقت روسيا البلشفية من اقتصاد فردي بدائي لتتحول الى دولة صناعية وعسكرية من المرتبة الاولى . وقد استطعنا - في الصفحات السابقة - تقدير التأثير الذي كان للدولة الروسية الجديدة على تطور العالم الرأسمالي : تأثير ايجابي محدود نسبياً اذ انه ارغم على انكماش وعزلة اصبحا تامين في بعض الاحيان ، واذ ان تدخلاته المباشرة وغير المباشرة قد انتهت في النتيجة الى فشل ، وتأثير سلبي عظيم جداً بافقاده توازن العلائق بين الدول ؛ فلم يسهم هذا « الفراغ » السياسي والاقتصادي في تشويش نظام المقايضات والانتاج فحسب ، بل ميزان القوى بين الدول ايضاً ، كما زاد من حدّة التوتر بين هذه الدول وبين الطبقات الاجتماعية في كل منها .

الفصل الأول

الثورة الروسيّة

انهار النظام القيصري خلال ايام معدودة بفعل ضربات حركة تلقائية لم يلعب الثوار في اعدادها ، في البدء ، سوى دور محدود . فما لبثت الملكية الدستورية التي رغب زعماء الثورة الاولون في تحقيقها ان افسحت المجال لجمهورية بورجوازية تدين بالنظام الحر انهارت بدورها ، بعد اشهر قليلة ، بفعل وهن هذا النظام وافلاسه ؛ فأقدم الحزب البلشفي حينذاك على تأسيس دولة اشتراكية .

١ – النـــار في البيت

يفسّر سرعةَ حدوث هذا الانهيار انحلال النظام القيصري انحلالاً كلياً . فان امبراطورية نقولا الثاني ، المرتكزة الى الضغط على القوميات الخاضعة لها والى سيطرة ارستوقراطية قليلة العدد ، قد تعرضت لهزة عنيفة بفعل الهزيمة والمحاولات الثورية في السنة ١٩٠٥ ؛ ولم يتيسر توطيد السلطة الا بفضل عملية قمع حازمة سهلتها مساعدة مالية فرنسية ؛ ولكن المنازعات الداخلية استمرت في كافة المستويات ؛ وقد زادت الحرب من حدتها وجعلتها صعبة الاحتمال .

المنازعات الاجتماعية والقومية

ان سياسة الترويس ، التي اعتمدتها الحكومة والكنيسة الارثوذكسية والجيش ، لا حيال القوميات الغريبة فحسب ، بل حتى حيال الاوكرانيين ايضاً ، قد ثقلت وطأتها منذ ١٩٠٥ – ١٩٠٦ واقامت في وجه النظام الشعوب الموحدة الرأي ، فتسببت في كل مكان بنشأة أحزاب قومية انفصالية الميول . كما ان تزايد عدد السكان قد ضاعف « سعار الارض » بين الفلاحين بينما أدى نمو الصناعة الكبرى الى قيام طبقة عمالية وفيرة العدد سهّل تجمّع الصناعات ، في صفوفها ، ولادة وعي طبقي . أضف الى ذلك ان البورجوازية ، القليلة العدد

نسبياً ، لم تكن راضية بل كانت تشكو من تجبر الادارة وفسادها وعجزها ، ومن نظام بال يتجاهل صوالحها ويقيم العقبات في طريق تقدمها .

ثم جاءت الحرب تزيد من حدّة منازعات القوميات والطبقات . فالبولونيون ، الذين خاب املهم بسبب نكث العهود المقطوعة لهم في بيان الغراندوق نقولا ، ولّوا وجههم شطر النمسا والمانيا ، والفنلنديون وسكان البلدان البلطيقية لم يخفوا ميولهم الألمانية او الثورية ، بينما افضى تشويش الاقتصاد والمحن الشعبية والهزائم الى تفاقم الاختلافات بين الفلاحين واصحاب الاملاك ، وبين العمال والبورجوازيين ، وبين الجنود والضباط .

الحكومة المؤقتة والبورجوازية

اذن انهار النظام شيئاً فشيئاً بدون مقاومة تقريباً تحت ضغط العمال والجنود الثائرين ، اذ ان مستلمي زمام السلطة ـ باستثناء بعض اجهزة الشرطـــة — قد تخلوا عنه . فشكل المتمصرون تلقائياً ، كما في السنة ١٩٠٥ ، مجلساً (سوفيات) مؤلفاً من مندوبي العمال والجنود ترأس لجنته التنفيذية احد المنشفيك و « كرنسكي » الذي كان اشتراكياً ثورياً . وشكلت الـ « دوما » من جهتها ، حكومة مؤقتة برئاسة الامير « لفوف » وزير الداخلية .

كانت نتيجة ذلك انزوال الملكية ، التي كان البورجوازيون والاشراف القائلون بالنظام الحر راغبين في الابقاء عليها بغية اعادة الانضباط العسكري والنظام الاجتماعي ، افسح المجال لنظام ثنوي تقابلت فيه حكومة موقتة « شرعية » تمثل بورجوازية الاحرار دون ان تتمتع بالسلطة اللازمة ، ومجلس السوفيات النشيط والقوي الذي يضغط عليها ويتعاظم تأثيره بقيام مجالس السوفيات حتى في اصغر القرى . فحققت الحكومة المؤقتة اصلاحات ادخلت الى روسيا الحريات الكلاسيكية التي تنعم بهـــا الدول الغربية : استقلال الكنيسة الارثوذكسية ، تعيين المحلفين في المحاكم ، مجالس ادارية محلية منتخبة بالاقتراع العام ؛ وحددت ساعات العمل بثمان في اليوم ، ولكنها تشبثت بمبدأ « روسيـــا واحدة ممتنعة التجزؤ » ولم تعترف الا باستقلال بولونيا ، وواصلت الحرب ، وأرجأت الاصلاح الزراعي وتقربت من الطبقات الحاكمة القديمة . فسهل موقفها هذا نجاحات حزب البولشفيك الذي استمال الشعب ببرنامجه الاصلاحي العاجل : سلم ، حرية القوميات ، انتزاع الاراضي من مـــالكيها وتأميم الارض والمصارف والمشاريع الكبرى ، رقابة عمالية على الانتاج . فجاءت ثورة تشرين الاول ، التي كانت درن ثورة آذار إراقة للدماء الى حد بعيد ، تسقط حكومة كرنسكي ، الذي تخلى عنه كافة من كان يعتبرهم أنصاره ، والسكان يشاهدون ما يحدث بلا مبالاة .

طليعة اعمـــال الحكومة البلشفيكية

اخذ كافة المعارضين ، انصار الحكومة المؤقتة ومقاوموها ، والاشتراكيون والضباط يجمعون شملهم . ورفضت لجنة انقاذ الوطن والثورة ، المؤلفة من بعض اعضـــاء مجلس بتروغراد البلدي ، ولجان اخرى مماثلة تأسست في المدن الهامة ، الاعتراف بحكومة لينين . فلم يكن

الحكومة الجديدة أية وسيلة عمل في مثل هذا الجو من الفوضى الغريبة . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، تصرفت بحزم وجرأة احبطا تدابير خصومها المتحالفين . فاتخذت بسرعة ، على التوالي ، تدابير كثيرة بالغة الاهمية : نداء الى المتحاربين من اجل صلح مستعجل ، التخلي مجاناً عن الاراضي للفلاحين ، وفي كانون الثاني من السنة ١٩١٨ ، المناداة بـ « اعلان حقوق شعوب روسيا » الذي اعدّه ستالين مفوض الشعب الجديد للقوميات ، والذي بني على « سياسة تحالف حرّ وصادق بين شعوب روسيا » ، ثم « نداء الشعوب الاسلامية العمالية في روسيا والشرق » ، وصهر مجالس سوفيات الفلاحين وسوفيات العمال والجنود ، واخيراً حل الجمعية التأسيسية المنتخبة في تشرين الثاني بعد ان اقرت قانوناً زراعياً . وحل الحزب بمناضليه محل كل الموظفين الذين بذلوا جهدهم لشلّ نشاطه ، مزيلاً بذلك كل ما كان من شأنه اطالة بقاء جهاز الدولة القديم وتقاليده . وفي تموز من السنة ١٩١٨ تبنى المؤتمر الخامس لمجالس السوفيات دستوراً يكرس النظام المعمول به منذ عدة اشهر . فكان دستور كفاح احظى البروليتاريا ، السند الرئيسي للنظام : تمثل لـ ٢٥٠٠٠ نسمة من سكان المدن مقابل تمثل لـ ١٢٥٠٠٠ نسمة من سكان الارياف ، اقتراع عام على عدة درجات يتيح معرفة المنتخبين معرفة فضلى ، حرمان الفئات المثلبة فيها بتعلقها بالنظام القديم من حق التصويت : النبلاء ، اعضاء الاكليروس ، ارباب العمل ، السياسيون القدماء . واسندت السلطة الى مجالس عدة تتفاوت شأناً وتؤلف هرماً يرتكز في قاعدته الى مجالس سوفيات المدن او القرى المنتخبة وحدها بالاقتراع المباشر ؛ وفي القمة ، المؤتمر الاعلى الشامل لمجالس السوفيات الذي ينتخب لجنة قومية تنفيذية يفوض اليها بكافة سلطاته في الفترات الممتدة بين دورات التئامه وتعين مفوضي الشعب الذين تسند اليهم السلطة التنفيذية . هذه هي « جمهورية مجالس سوفيات مندوبي العمال والفلاحين والجنود » ، ولكنها ابعد من ان تكون ثابتة الاركان اذ انها اجتازت ازمة رهيبة تخللتها حرب اهلية وحرب خارجية ولم تنته الا في السنة ١٩٢٢ .

بوادر التدخل الاجنبي

لم يواجه مفوضو الشعب الصعوبات المادية الكبرى الناجمة عن تشوّش الاقتصاد وانهياره ، وانحلال الجهاز الحكومي والاداري ، ومعارضة الطبقات الحاكمة القديمة والاطر الاجتماعية القديمة فحسب ؛ بل توجب عليهم مجابهة حرب اهلية رهيبة نهضت بها عناصر مسلحة ساندها الحلفاء القدماء ، وحتى حرب خارجية حقيقية أيضاً .

فمنذ ان انتقلت السيطرة الى العناصر العازمة على عقد الصلح ، وقفت الحكومات الحليفة منها موقفاً عدائياً . وبموجب معاهدة « برست – ليتوفسك » التي اقتطعت من روسيا اكثر اراضيها سكاناً وثروات طبيعية ، احتل الالمان اوكرانيا الغنية بالحنطة حيث ساندوا حكومة « سكورا بادسكي » الانفصالية ؛ وانزلوا كذلك في فنلندا جيوشاً ساعدت القائد « مانرهايم » على سحق الحكومة البلشفيكية التي كانت قد تولت الامور فيها ؛ ولبوا نداء الجمهورية المنشفيكية

التي تأسست في جيورجيا باسراعهم في ارسال الجيوش اليها، بينا كان الاتراك يدخلون القفقاس وباكو ويحتلون اذربيجان ويقومون بدعاوة طورانية شاملة في تركستان وحتى في القرم. فكان ان الامبراطوريات الوسطى قد سلخت بذلك عن الاراضي الروسية طريدة تمتد من فنلندا الى قزوين فوضعت ايديها على خير الاراضي واوفر المناجم والصناعات ثروة وبترول روسيا القديمة .

احتج الحلفاء على هذه « الخيانة » وسعوا لاعادة حكم يدخل روسيا الحرب مرة اخرى ويعيد انشاء جبهة في الشرق ، ويضع حداً للدعاوة البلشفيكية في الخارج ويعترف بالديون التي عقدتها الحكومة القيصرية ويحترم الممتلكات الاجنبية . فكان هذا منطلق سياسة التدخل التي تحولت تدريجياً ،بعد هزيمة المانيا ، الى سياسة حرب مباشرة تستهدف اسقاط النظام الجديد . وقد تميزت هذه السياسة اما بانزال جيوش حليفة في الاراضي الروسية ، واما بمساعدة «الروس البيض» المحافظين على اختلاف ميولهم ، والاشتراكيين الثوريين والمنشفيك ، انصار النظام القديم وانصار النظام البرلماني الحر ، وانصار القوميات ومعارضي استقلالها ، الراغبين جميعاً في إعادة وحدة روسيا ، بارسال الاسلحة والتجهيزات والاموال والبعثات العسكرية اليهم .

احتل البريطانيون مراكزهم على شواطىء بحر قزوين ، واقاموا حكومة منشفيكية – اشتراكيـة – ثورية في اشكباد واستولوا على مرو . وفي الشمال انزلوا جيوشاً في مورمانسك واركنجلسك بغية اهابة الجيوش الالمانية الموجودة في فنلندا . وفي الشرق انزلت جيوش يابانية الى البر في فلاديفوستوك بحجة تجميع الجيوش التشيكوسلوفاكية المؤلفة من جنود فارين او من اسرى حرب قدماء ينسحبون نحو شاطىء المحيط الهادىء للذهاب الى فرنسا والاشتراك في الحرب .

الحكومات الناهضة للحكومة البلشفيكية

في الوقت نفسه الذي ابتدأ فيه هذا التدخل المباشر ، ساعد الحلفاء مناهضي الحكم البلشفيكي الذين تنظموا في الداخل ولا سيا في الولايات الدائرية . فقامت ولايات ثائرة مستقلة قلّصت الى حد بعيد الاراضي الخاضعة خضوعاً فعلياً لسلطة حكومة موسكو(شكل ١١) : ثورة « سافنكوف » في « ياروسلاف » في شهر تموز ، تنظيم جيش مناهض للحكم البلشفيكي في اراضي قوزاق الـ « دون » بقيادة « كورنيلوف » و « الكسياف » من بعده ، قيام حكومة « بيضاء » في اركنجلسك ؛ وفي الوقت نفسه اوقف الجنود التشيكوسلوفاكيون انسحابهم وعادوا واتجهوا شطر الغرب واحتلوا سامارا وقازان . وفي ايلول تألفت في « أومسك » حكومة اشتراكية ثورية . ثم أتاح عقد الهدنة في ١١ تشرين الثاني تدخل الحلفاء بنشاط وقوة : نزلت جيوش فرنسية في « اوديسا » ، وفي شهر كانون الاول من السنة ١٩١٨ استولى جنود فرنسيون وبولونيون ويونانيون على طريدة ساحلية حول البحر الاسود يناهز

عرضها ١٥٠ كيلومتراً . ومن جهة أخرى قلب بعض ضباط سيبيريا حكومة اومسك ونادوا بالاميرال « كولتشاك » « رئيساً اعظم لروسيا » ؛ ولتحقق توحيد النضال ضد البلشفيك : فان دنيكين الذي خلف « الكسياف » في قيادة جيوش « كوبان » اعترف بسلطة كولتشاك . وقد كتب كليمنصو في ٢١ كانون الاول : « ان مخطط عمل الحلفاء يستهدف محاصرة البلشفيك اقتصادياً وتنظيم الامن على ايدي العناصر الروسية » . فنفذ البرنامج في اوائل السنة ١٩١٩ وخلال الاشهر الاولى منها ؛ ففي الشرق توفق الاميرال كولتشاك ، بمشورة القائدين « جانين » و « نوكس » ، الى ارغام البلشفيك على الانسحاب نحو الفولغا . وتوفق القائد « يودنيتش » ، الذي جهزه البريطانيون بالاعتدة ، الى الاستيلاء على بسكوف وبلوغ مشارف بتروغراد ، كما ان دنيكين هدّد موسكو بفضل فرقة فرسانه المختارة ؛ ولكنه منذ اواخر السنة ١٩١٩ ارتد الى الوراء امام الفرسان الحمر وتخلى عنه القوزاق كما تخلى الاستونيون عن يودنيتش . وفي اوائل السنة ١٩٢٠ كان الانسحاب عاماً . فقد ارغمت جيوش كولتشاك على الهرب سيراً على الاقدام او بواسطة المزالج الى سيبيريا ، وقتل الاميرال رمياً بالرصاص منذ شهر شباط . كما ان دنيكين، الذي حل « رانجل » محله ، قد عاد بجيوشه الى القرم التي سيجلو عنها في شهر تشرين الثاني . وجاء التهديد الاخير من بولونيا التي قامت بهجوم في اوكرانيا ، فاستولت على كييف في شهر نوار ، ولكن جيوشها رُدّت الى الوراء وغزيت بولونيا وهددت فارصوفيا ، فأنقذها هجوم معاكس في شهر آب ووقّعت في شهر تشرين الاول الخطوط الكبرى لمعالجة الصلح التي ستعقد في « ريغا » . وفي اوائل السنة ١٩٢١ توقفت الحرب الاهلية والحرب الخارجية وابيدت الجيوش البيضاء او نفيت ، وفي السنة نفسها سقطت جمهورية جيورجيا المنشفيكية التي كان الحلفاء قد اعترفوا بها اعترافاً قانونياً . وحين جلا اليابانيون ، تحت ضغط البريطانيين والاميركيين ، عن الولاية البحرية في شهر ايلول من السنة ١٩٢٢ ، انهار الحكم الابيض في جمهورية الشرق الأقصى التي اعيدت اراضيها الى الوحدة الروسية .

فشل التدخل

اذن حالف النصر الحكم البلشفيكي. أما اسباب نصره فكثيرة ومتنوعة . فالحلفاء الذين حاربوه توخوا اهدافا متناقضة احيانا ، كما ان الرئيس ولسون ، الذي عارض كل تدبير من شأنه النيل من وحدة الاراضي الروسية قد كبح بصورة دائمة جماح القائلين بوجوب التدخل . اضف الى ذلك من جهة ثانية حوادث العصيان والفرار في وسط الجيوش التي ملت الاستمرار في الحرب ، ووقوف العمال الفرنسيين والبريطانيين موقفاً عدائياً صريحاً من هذه السياسة : اعتراضات الاتحاد العام للعمل والحزب الاشتراكي الفرنسي ، واعمال الشغب والاضرابات في المدن العمالية الانكليزية ، وتبني حزب العمال هذا الشعار : « لا تمسوا روسيا » . واقتضى اخيراً إرسال جيوش الى الهند ، وايرلندا ، ومقاومة الثورة الهنغارية ، كما ان الاضطرابات في المانيا والخشية من اعراض الحكومة الالمانية عن توقيع معاهدة الصلح قد حدت بالحلفاء الى الفطنة والحكمة . زد على ذلك ان الحملة العسكرية تستلزم ، كي

تكون مجدية ، ٤٠٠٠٠٠٠ رجل لم تكن تعبئتهم لهذه الغاية موضوع بحث . واخيراً اقتنع انصار إعادة بناء اوروبا في اسرع وقت ممكن ، ومنهم العديد من رجال الاعمال البريطانيين ، بانها عملية مستحيلة اذا ابقيت روسيا على انفراد . وكان من شأن مساعيهم النافذة من اجل إعادة العلائق الاقتصادية بكافة البلدان ان ضعفت سياسة التدخل . فتخلى الحلفاء من ثم عن التدخل المباشر ، وجلوا عن اوديسا والقفقاس ، واعتمدوا سياسة الحجر الصحي .

هزيمة الثورة المعاكسة

اما مناهضو البلشفيكية الروس ، فكانوا هم ايضاً ضعفاء ومنقسمين : فالى اليسار مثل اعظم قوة شعبية شأناً الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك ، ولكنهم اماطوا الاصلاح الزراعي باقتراع جمعية تأسيسية. والى اليمين حيث عدد الضباط الشباب لم يكن مرتفعاً ، كانت القوة الى جانب عناصر اليمين واقصى اليمين : كبار الملاكين ، وكبار الموظفين ، ولا سيما الضباط ، وجلهم ملكيون ، الذين لم يتراجعوا عن اعمال العنف في سبيل إزاحة خصومهم واقامة حكومات دكتاتورية . وهو هذا الموقف الهجومي تتقفه الطبقات الحاكمة القديمة ما حدا بالطبقات الشعبية الى الالتحاق بالبلشفيكية . ففي الاقاليم الخاضعة للحكومات المناهضة للبلشفيكية استعاد الملاكون الاراضي التي انتزعت منهم وحاولوا استعادة سلطتهم على « فلاحيهم » ، وكان العمال المشتبه ، دون برهان ، بميولهم البلشفيكية ، موضوع مراقبة وعرضة للتوقيف ، فافتقرت من ثم هذه الحكومات الى مرتكز شعبي ، ولم تتمكن في يوم من الايام من تعبئة جيوش على بعض الأهمية ؛ لا بل انفجرت ثورات قروية هائلة ، حين تألفت وراء جيوش كولتشاك ودنيكين زمر انصار ميالة الى مجالس السوفيات او زمر فوضوية فقط كزمر « ماكنو » في اوكرانيا ؛ وجاءت القوميات اخيراً تقف في وجه سياستهم التوحيدية . فان انتصارات يودنيتش الاولى قد احرزت بفضل مساعدة الاستونيين ، ولكن حين رأى هؤلاء ان انتصاره سوف يخضعهم مرة اخرى للسيطرة الروسية ، احبطوا هجومه الذي انتهى الى الفشل ؛ وللسبب عينه تخلى قوزاق الدون وكوبان و « ترك » عن كراسنوف ودنيكين؛ وفي اوكرانيا وقف السكان منهم موقفاً عدائياً دائماً، ولم يقاوم «بتليورا» البلشفيك مقاومته لمناهضيهم . زد على ذلك ان غطرسة القادة وجهلهم وتحكمهم وتقصيرهم ، وما سيطر على اداراتهم وقياداتهم العسكرية من فوضى وتبذير وفساد ، كل ذلك قد ابعد عنهم السكان ، لا سيا وقد ظهروا لهم وكأنهم عملاء الاجنبي . فالهجوم البولوني بصورة خاصة وغزو اوكرانيا قد اثارا شعوراً وطنيا متأججا انضم بتأثيره الى الجيش الأحمر القائد بروسيلوف ، القائد العام الاخير للجيش القديم ، والعديد من الضباط القيصريين .

وفي وجه « البيض » المنقسمين ، انتصرت الحكومة البلشفيكية بفضل عزم لينين ومعاونيه وذكائهم ؛ وان سلطتها المسلم بها قد اعطت الجيوش التي قامت بعملياتها في مثل هذه المساحات الشاسعة وحدة عمل عجز خصومها عن تحقيقها . وقد طمأنت سياسة السوفيات الاتحادية القوميات وسياسة الحكومة الزراعية الفلاحين ، بينا انطوى برنامج البيض على العودة الى

والوحدة» وعلى إعادة الاراضي الى مالكيها السابقين ، وبدا النظام الجديد اخيراً وكأنه الذائد عن حياض الوطن ضد حلفاء الاجنبي. وقد دعم هذا الموقف المعنوي القوي تنظيم الجيش الاحمر الذي تـألف ، في صيف السنة ١٩١٨ ، من جنود قدمـاء وعمال شباب وفلاحين استلم زمام قيادتهم ضباط من بينهم او من الجيش القديم نفسه . فان هؤلاء الجنود والفلاحين الذين سبق لهم ، منذ اشهر قليلة ، وولوا الادبار عن الجبهة الالمانية ، ولاذوا بالفرار ، ورفضوا القتال ، قد قبلوا بان يجندوا مرة اخرى حين ادركوا اهمية هـذا الصراع ضد عودة قوى الماضي . ولا عجب بعد ذلك اذا ما ارتفع عدد افراد القوى المسلحة من ٠٠٠ ٣٥٠ في تشرين الاول من السنة ١٩١٨ الى ٠٠٠ ٥٠٠ ١ في ايار من السنة ١٩١٩ . وحين اقترب يودنيلش من بتروغراد وبلغت جيوش دنيكين « اوريل » حمل عمال المصانع السلاح وتجندوا وعبأ الحزب الشيوعي في اوكرانيا ٩٠٪ من عماله وارسلهم للاشتراك في القتـال . فكان الجيش الاحمر متفوقاً عدداً ومناقبية ، وقد استفاد بالاضافة الى ذلك من مركزه الوسطي ، اي من قـدرته على المناورة في الخطوط الداخلية ، ومن وسائل نقل فضلى .

نتائج التدخل والحرب الاهلية

انتهت الحملة على البلشفيكية الى الفشل اذ ان القوى الحليفة كانت اقـل عدداً من ان تلعب دوراً حاسماً ، و « الحكومات » المساعدة ، الحديثة ، والمؤلفة تأليفاً صنعياً في بعض الاحيان ، قد برهنت عن عجزهـا . فهي لم تتقدم يوماً من السكان الا ببرنامج ملكية دستورية يكتنفه الغموض ، بينما نم سلوكهـا عن تصميمها على اعادة النظام الاجتماعي القديم .

اطال التدخل امـد الحرب الاهلية وزاد في تفشي الفوضى الادارية واغرق البلاد ، ولا سيا اوكرانيا وسيبيريا ، في بلبلة لم تسمع بها اذن من قبل. فكانت نتيجة الحرب الاقتصادية والحرب الخارجية ، طيلة ثلاث سنوات ، مزيداً من السلب والتقتيل والنهب والبؤس والدمـار في كافة الاراضي الروسية .

اختار المهزومون المنفى : فان الروس البيض على اختلاف نزعـاتهم ، وبناهز عددهم المليوني نسمة بين ارستوقراطيين وضباط وصناعيين وتجار وممثلي طبقات الاحرار وافراد جيوش راانجل وكولتشاك ، ورجال فكر ، واشتراكيين – ثوريين ، وجيورجيين واوكرانيين ، قـد اقاموا في منشوريا والصين وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وكافة انحاء الشرق واميركا، وفرنسا بنوع خاص ، متكيفين جهد المستطاع وفاقاً لظروفهم الجديدة ، وغـارقين احياناً في اسوأ حالات البؤس . وقد انقسموا سياسياً الى فئات متعادية حمّل بعضها البعض مسؤولية فشل الثورة المعاكسة وتبادلت تهم الخيانة ، ولكنهم ، على الرغم من ذلك ، اثروا على الحكومـات وعلى شطر من الرأي العام في البلدان التي لجأوا اليها ، تأثيراً كبيراً وطـد العداء ضد روسيا البلشفيكية .

لذلك تركت الحرب الاهلية اثرها العميق حتى بعد زوال الدمار الذي خلفته وراءها . فان سياسة التدخل وتأثير المهاجرين على الحكومات قد اثبت للسوفيـات تصميم العالم الرأسمالي على

قلب نظامهم بكل وسيلة ممكنة ، وهذا هو مرد حذرهم امام كل تكتل وخوفهم من التطويق والحصار الذي سيرافقهم ابداً . وبسبب عزلتهم التي فرضها عليهم نظامهم الاجتماعي الجديد وحصار اعدائهم الحاقدين المحيطين بهم ، سيصادفون صعوبات جمة في اعادة الحياة الى اقتصادهم، وسوف يعوج تطورهم الداخلي الى حد بعيد بفعل اضطرارهم الى تجهيز وابقاء آلة حربية قوية مستعدة لمواجهة كافة التهديدات ، وبفعل حرصهم على ملاشاة كل معارضة من شأنها اضعاف طاقات الامة وعزمهم على الدفاع عن النظام . وليست بعض مميزات الدكتاتورية سوى نتيجة التدخل الحليف وفعله .

٢ - الشيوعية الحربية والسياسة الاقتصادية الجديدة ١٩٢١ - ١٩٢٤

اقتضى عشر سنوات لانتقال النظام البلشفيكي من الاقتصاد الرأسمالي الى الاشتراكية . فالطبقات الحاكمة القديمة لم تفقد قوتها الاقتصادية والسياسية فحسب ، بل زالت بعظمها من الوجود مادياً . وصودرت اراضيها ومصانعها وكل الرأسمال الاجنبي . فبدت الظروف من ثم مؤاتية لمراقبة وادارة الانتاج والسيطرة على مفاتيح الاقتصاد والمصارف ووسائل النقل . ولكن روسيا كانت اكثر البلدان الاوروبية تخلفاً في حقل الصناعة ، من حيث ان المزاوعين كانوا يمثلون ٨٠٪ على الاقل من مجموع السكان (نسبة اوروبا الغربية حوالي السنة ١٨٠٠) ، والطبقة العمالية ، التي كانت الركن الركين للحزب البلشفيكي ، لم تمثل سوى اقلية ضئيلة ، واذا وقف ملايين الفلاحين في وجه « البيض » ببسالة ، فهم لم يفعلوا ذلك من اجل السوفيات، بل لانهم كانوا عالمين بأن هزيمة البلشفيك سوف تفقدهم الارض التي حصلوا عليها .

مرحلة الانتقال التي تكلم عنها لينين

ولذلك ادرك البلشفيك الحاجة الى مرحلة انتقالية تؤمن ازالة الخراب الذي تركته الحروب الخارجية والحرب الأهلية وتمهد الرأي العام لبناء الاشتراكية .

خلال اشهر الثورة الاولى . اشبعت التدابير المتخذة ، على الفور ، رغائب الفلاحين والعمال والجنود ، ولكن واحداً منها لم يرتد طابع الاشتراكية او الشيوعية المميز ؛ فقد نادى بالكثير منها بعض البورجوازيين الراديكاليين . فلم يواجه لينين من ثم - على الفور - اشتراكية وسائل الانتاج وانتزاع املاك الرأسماليين ، بل رقابة الدولة عن كثب على مراكز الاقتصاد الاساسية ، أعني بها المصارف ، فان هذه الأخيرة سوف تؤمم ، كما ستؤمم شركات التأمين والشركات الاحتكارية (سكر ، بترول ، فحم حجري ، صناعة المعادن) ، ويرغم الصناعيون والتجار على الاتحاد في نقابات والتخلي عن السر التجاري ، ويجمع السكان جماعات استهلاكية . ولم يكن المقصود من ثم برنامجاً اشتراكياً ، اعتبر سابقاً لاوانه ، بل نظاماً انتقالياً معداً لأن يؤدي الى الاشتراكية التي لا يمكن تحقيقها ما لم يستطع العمال تأمين المشاريع بأنفسهم ، وما لم يع سواد

السكان « الحاجة الملحة الى ثورة اشتراكية » .

وزاد من عزم لينين على السير في طريق الفطنة هذه اعتقاده بأن من شأن الثورة الاوروبية الشاملة وحدها ان تتيح لروسيا تحويل النظام الرأسمالي الى نظام اشتراكي . وهو المخطط الذي تعتمده الطبقة الرأسمـــالية ، كما لفت الانتباه الى ذلك ، ما ارغمه على الشروع في اصلاحات اقتصادية عميقة الجذور قبل ان ينوي القيام بها . فان هـــذه السياسة كانت تفترض تعاون الطبقات المتملكة ، والموظفين القدماء ، والفنيين البورجوازيين . والحال رغبت كل هذه القيادة الاقتصادية وسواد المثقفين في جعل كل حكم مستحيلا وارغام رجال النظام الجديد على الانسحاب، فقاطعت النظام . لذلك كان من الصعوبة بمكان تنفيذ التدابير المقررة خلال الاسابيع التي تلت الثورة والمتخذة بعد ذلك في قانون العمل الذي صدر في السنة ١٩١٨ : فرض العمل على كافة المواطنين(« من لا يعمل لا يأكل »)،رقابة عمالية على الصناعة ، تأميم المصارف والارض والتجارة الخارجية ، تنظيم تعاونيات استهلاكية ، مصادرة الاملاك الكبرى دون تعويض ، الغاء حق الملكية العقارية ونقله الى الدولة ، نقـــل حق التمتع بالأرض الى أولئك الذين يحرثونها بأيديهم وتحريم كل عمل زراعي مأجور . ونص القانون على تأليف لجان زراعية من صغار الفلاحـــين ومتوسطيهم تكون مهمتها مراقبة التقسيم .

الا ان تلف الآلات وسوء حالة وسائل النقل قد حالا دون استثمار الارض استثماراً معقولاً ومنظماً، وأرباب العمل الذين ما زالوا يمتلكون مشاريعهم ساندوا الحركات المناهضة البلشفيكية وأثاروا ارتياب العمال الذين اتهموهم بالتخريب . وعلى الرغم من تدني عدد سكان المدن الكبرى الى أكثر من نصفه في بتروغراد ، و٤٥٪ في موسكو ، و٣٣٪ في عواصم اربعين ولاية ، فان تموينهم وتموين الجيش قد اثارا شجونا كبرى كادت تقضي على النتائج المرتقبة من التدابير المتخذة. وان الحكم الجديد، الذي حرم من آلة جباية الضرائب القديمة ، لم يستطع تمويل المدن والجيوش الا عن طريق المصادرة في الارياف . فلمـــا كان تموين المدن مؤمنـــاً من قبل بفائض انتاج الاملاك الكبرى ، افقد توزيع هذه الاخيرة أسواق المدن ٣/٤ القمح الذي يرد عليها . لذلك توجبت المصادرة .

اما الانتاج الصناعي فقد تـــأخر تأخراً محزناً : ففي السنة ١٩٢٠ لم يبلغ انتاج الحديد المصبوب سوى ٢،٤٪ من معدله في السنة ١٩١٣ ، وانتاج الفولاذ سوى ٤٪ ، وانتاج معامل القطن سوى ٥٪ ، وانتاج معـــامل السكر سوى ٨،٥٪ ؛ ولم توازِ قيمة البضـــائع المصنوعة المسلمة للاستهلاك سوى ثمنها في السنة ١٩١٢ . وكانت نتيجة التعبئة وفقدان العديد من العمال ابان الحرب، وتزوح الكثير من الجياع الى الارياف ، انخفاض عدد العمال ٢٤٪ بالنسبة للمجموع، و ٣٧٪ في اعمال الخطوط الحديدية ، و ٢٤٪ في أعمال البناء .

شيوعية الحرب

في مثل هذه الظروف اعتمدت التدابير التي تميز ما دعي بـ « شيوعية الحرب » . فقد استهدفت هذه الاخيرة « تنظيم الاستهلاك والانتاج تنظيماً دقيقاً ملزماً في بلاد محاصرة » ، ولكنها احدثت في نظام الاقتصاد تغييرات نهائية . فهناك اولاً تأميم كافة المشاريع التي تستخدم خمسة عمال على الاقل ، اذا كان لديها محرك واحد ، وعشرة عمال في الحالات الاخرى . وهذا يعني انتزاع ملكية الصناعة الكبرى ومعظم المشاريع الصغرى والمتوسطة ، واستبدال مجرد الرقابة العمالية بالادارة العمالية ، واسناد ادارة كل مشروع الى مدير تعينه النقابات ويعاونه مجلس عمالي منتخب ، وتنظيم انتاج كل فرع من فروع الصناعة الى ادارات مركزية . فأحدثت حينذاك ادارة حصر الحبوب الرسمية و « لجان الفلاحين الفقراء » المكلفة محاربة النفوذ السياسي الذي كان للزراعيين الميسورين من اصحاب الماشية والمعدات والمحرضين على العصيان والمقاومة ، ومصادرة مخازن الحنطة من الفلاحين الاثرياء . واسندت الى هذه اللجان كذلك مهمة توزيع البذار والتجهيزات الزراعية ، وتحديد الاسعار والاجور ، ومراقبة التعاونيات والاسواق . واخذت تنتظم اخيراً ، كلياً او جزئياً ، مزارع جماعية للانتاج والاستهلاك لم يجاوز عددها ، في السنة ١٩٢١ ، ١ ٪ من كافة الاستثمارات القروية .

الا ان الحرب التي عاثت فساداً ، منذ ست سنوات ، في اغنى الاراضي الزراعية (اوكرانيا) ، لم تخلف فيها سوى الخراب والدمار ؛ فتوجب اللجوء الى فائض انتاج الفلاحين المتوسطين والفقراء والاقتطاع من مؤنهم العائلية ، مما اثار استياءهم وجعلهم يثورون على اعمال المصادرة وينكفئون على انفسهم ؛ فاحجموا عن انتاج كميات تفوق ما يستلزمه استهلاكهم الشخصي ، لا سيما وقد استحال عليهم الحصول على الادوات المنتجة في المصانع والبترول والصابون التي كانوا بحاجة اليها ؛ وانخفضت المساحات المزروعة من ثم ٣٠ ٪ ، ولم يبلغ محصول السنة ١٩٢٠ سوى ثلثي محصول السنة ١٩١٧ ونصف محصول السنة ١٩١٣ . وبعد ان تخلص الفلاحون ، بفضل هزيمة البيض ، من خطر فقدان الارض وعودة النظام القديم ، وقفوا آنذاك من الحكومة موقفاً معادياً . وبلغ اخيراً من زيادة التضخم المالي أن هذه الاخيرة حاولت جهد المستطاع الحد من دور النقد بتنظيمها ، بين العمال ومستخدمي الدولة ، طريقة معادلة مجانية للخدمات المتمثلة ببطاقات خاصة تؤمن المقايضة والدفع عيناً دون ان توقف ، من جهة ثانية ، تيار التضخم وارتفاع الاسعار الجنوني ؛ فدفعت الاجور عيناً ، وسار النقد ، الذي تزايد انخفاض قيمته يوماً بعد يوم ، في طريق التلاشي والزوال .

وهكذا امسى الاقتصاد السوفياتي اقتصاداً طبيعياً ، بفعل تفكك المجتمع والقضاء على القوى المنتجة وندرة المحاصيل واليد العاملة . ولكن مقاطعة خطيرة قامت بين الارياف والمدن ، فصرف النظر عن شيوعية الحرب .

السياسة الاقتصادية الجديدة

في الوقت الذي انتهت فيه الحرب الأهلية ، وجه النداء الى المبادهة الشخصية من اجل اعادة بنــاء الاقتصاد ؛ فاستبدلت المصادرات بالضريبة العينية ، وشجعت نهضة الصناعة الصغرى الضرورية لتمكين الفلاحين من تنمية انتاجهم ، واعيدت معها الرأسمالية الى حد ما . انه « انكفاء استراتيجي » لم يكن سوى حيلة مؤقتة ، لان جزءاً من تدابير شيوعية الحرب سيعتمد مرة اخرى وسوف يصبح عنصراً اساسياً من عناصر الخطــة الخمسية (تأميم ، رقابة الصناعة ، تعبئة العمل) ؛ ولكن تدابير اخرى تتعلق بالشؤون المالية والنقد قد صرف النظر عنها نهائياً . ووضع نظام اقتصاد مختلط صادرت الدولة بموجبه قطاعاً هاماً يشمل وسائل النقل والمصارف والتجــارة الخارجية والصناعة الكبرى والمتوسطة . وقد استخدمت مشاريع الدولة هذه من جهة ثانية ٨٤،٥ ٪ من مجموع اليد العاملة انتجت ٩٢،٤ ٪ من الانتاج النقدي ، بينما انتج اقل من ١٥ ٪ من اليد العاملة المأجورة ٢،٧ ٪ منه في التعاونيات ، ووفرت المشاريع الخاصــة — ولا سيما التغذية والجلود — ٤،٩ ٪ من قيمة البضائع بواسطة ٢ ٪ فقط من العمــال . فيتضح من ثم ان القطاع الصناعي الذي بقي حراً كان ضيقاً جداً .

ان السياسة الاقتصادية الجديدة التي اصبحت سارية المفعول في شهر اذار من السنة ١٩٢١ كانت في جوهرها تنازلاً للفلاحين والمنتجين الذين مست الحاجة الى ترغيبهم في الانتاج . فقــد خففت وطأة الضرائب ، وكان للفلاح ، بعد تسديدها ، ملء الحرية في بيــع باقي حصيــده في الاسواق ؛ وعُمل مجدداً ، في الوقت نفسه ، بالاقتصاد النقدي ؛ وأُلغيت المقـايضات المباشرة الالزامية ، وأجيز لصغار الصناعيين اليدويين — على غرار الفلاحين — بيع مصنوعاتهم بحرّية ؛ واعاد مصرف الدولة ، الذي تأسس في تشرين الاول ، الحسابات الجارية ، والغي تحديد المبالغ المالية الممكن اقتناؤها ، وأجيز انتقــال الاراضي بالارث ، وحظّر بيع العقـارات وسمح بتأجيرها ، واجيز اخــيراً استخدام العمال المأجورين . وفي السنة ١٩٢٤ استبدلت الضريبــة العينية بالضريبـــة النقدية ، وأوقف تيــار التضخم باصدار نقد جــديد اطلق عليــه اسم « تشرفونتز » .

وانسجاماً مع مبادىء السياسة الاقتصادية الجديدة ، لم يعد قانون العمل ، الصادر في السنة ١٩٢٢ ، مبنياً على الزاميـــة العمل (التي يؤكدها دستور السنة ١٩٢٥ مع ذلك) ؛ فهو قد اوقف العمل بها بالنسبة لشطر كبير من السكان، ملغياً « عملياً ان لم يكن قانوناً » احد المبادىء الاساسية التي عمل بها في الفترة السابقة ، وعاد الى بعض مفاهيم الاقتصاد الرأسمالي ، فاعتـــبر عقد العمل بمثابة عقد بيــع لطاقة العمل ، وحددت الاجور باتفاقات جماعية تعقــد بين النقابات وارباب الاعمال ، وواجه القانون حداً ادنى من المكافأة وحمـــاية العامل معاً ونص في الوقت نفسه على دفع الاجور عن ساعات العمل والقطع المنجزة .

اما الجدة الكبرى في السياسة الاقتصادية الجــديدة فكانت في محاولة تنشيط انتــاج المواد

الاستهلاكية وتنمية » استقلال ومبادهة » مشاريع الدولة ، بحيث تصبح مسؤولة عن ادارتها الخاصة وتؤمن سيرها بمواردها الخاصة ، وقد واجهت تجميع هذه المشاريع في اتحادات تعتمد الطرائق نفسها . وفي اواخر السنة ١٩٢٢ كان هناك ٤٢١ اتحاداً خارج صناعة الفحم الحجري والبترول ضم ٣٨٠ منها ٨٤٠٠٠٠ عامل ، وكان اعظمها شأناً اتحاد صناعات النسيج في « ايفانوفو — فوسنسنك » الذي ضم ٥٤٠٠٠ عامل ، واستخدم ٢١ اتحاداً اكثر من ١٠٠٠٠ في الاتحاد الواحد . وبات اتحاد الدولة الشكل الرئيسي لتنظيم الصناعة في الدولة السوفياتية .

النتائج

بفضل هذه التنازلات تقدم انتاج الزراعة تقدماً سريعاً . وعلى الرغم من الجفاف الذي قضى في السنة ١٩٢١ على محاصيل اوكرانيا ومناطق الفولغا الوسطى ، متسبباً في حدوث مجاعة رهيبة ، فقد ارتفعت المساحات المزروعة من ٦٣ مليون هكتار في السنة ١٩٢٢ الى ٨٢ في السنة ١٩٢٣ ، و ٨٧ في السنة ١٩٢٤ ، و ٩٤٤٠٠٠٠٠ في السنة ١٩٢٧ . وتحسن الدخل ، وارتفع عدد الماشية من ٤٦ مليوناً في السنة ١٩٢٢ الى ٦٢ في السنة ١٩٢٥ . وبفضل حصادي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ الوفيرين كاد الانتاج يبلغ مستواه في السنة ١٩١٦ . وتفسر سرعة هذه النهضة بالطابع البدائي للزراعة الروسية : فلم تمس الحاجة لا الى رؤوس اموال ، ولا الى آلات ، ولا الى طرائق معقدة ، بل اغري الفلاح الروسي بعودة التجارة الخاصة ، فعاد الى محراثه الخشبي ومنجله . فكان تحسن مصيره من ثم عظيماً جداً اذ ان السياسة الاقتصادية الجديدة قد مكنته من بيع محاصيله بسعر مرتفع ، وقانون الفلاحين الصادر في السنة ١٩٢٢ ضمن له اقتناء الارض ، واستقرار النقد التدريجي حماه من عودة التضخم الذي كان هو اولى ضحاياه ، فرأى نفسه بعد حصاد السنة ١٩٢٢ الوافر ، الذي اتاح تصدير بعض المحاصيل ، على خير ما يرام منذ الثورة .

كان حدوث نهضة على مثل هذه السرعة امراً مستحيلاً في حقل الصناعة . فقد دمر العديد من المصانع أثناء الحرب واهملت الآلات وصدئت وبقيت دون استعمال . وكانت الحرب الاهلية قد شلت العمال ، فهلكت اكثر عناصر الطبقة العمالية نشاطاً واعظمها وعياً اجتماعياً في ساحات المعارك ، او وزعت على الادارات الجديدة للاشراف عليها . وكان عدد كبير من العمال قد تشتتوا في الأرياف وعادوا مجدداً الى صفوف الفلاحين التي كانوا ينتسبون إليها منذ زمن قريب . أضف الى ذلك ان طلب المواد الاستهلاكية المتزايد واستعادة التجارة الخاصة واقتصاد الكسب نشاطهما قد دفعا بصناعة المواد الاستهلاكية الى الامام ، ولكن الصناعة الثقيلة بقيت مصابة بالشلل . وارتفع الانتاج — مع بقائه متأخراً جداً — ، ففي الصناعات الريفية او اليدوية بلغ ٥٤٪ من مستواه في السنة ١٩١٢ ، وفي الصناعات الصوفية ٥٥٪ ، وفي الصناعات الكتانية ٧٢٪ ، وفي صناعة القطن ، الذي لم تأت مادته الخام الا من تركستان طيلة اكثر من سنتين ، ٥و١٥٪ فقط ؛ وفي الصناعات الاستخراجية ٣٦٪ ، وفي البترول ٣٩٪ ، وفي صناعة استخراج

المعادن التي تعتبر انطلاقتها ضرورية جداً لتصنيع البلاد لم يبلغ سوى ٧٪ في السنة ١٩٢٢ . وفي السنة ١٩٢٣ لم يستمد مجموع الصناعة سوى ٣٤٪ من طاقتها . وجملة القول ان الزراعة بلغت ٣/٤ انتاجها قبل الحرب بينا لم تبلغ الصناعة سوى ١/٤ انتاجها فقط .

يرد ذلك الى ان السياسة الاقتصادية الجديدة لم تستلزم ، اكراماً للعامل ، تنازلات شبيهة بتلك التي استفاد منها الفلاح . فان طرائق المحاسبة الجديدة التي فرضت على الصناعة ، والزام المشاريع بان تكتفي نفسها بنفسها قد حرماها من اعتمادات الدولة المالية ، بينا ارغمتها الحاجة الى دفع الاجور عيناً على تصفية مخزوناتها في السنة ١٩٢١ باسعار منخفضة نسبياً ، ادنى من اسعار الانتاج . ولذلك عمدت المشاريع ، للتخفيف من الأعباء الملقاة على عاتقها ، الى تسريح شطر من المستخدمين ، فارتفع عدد العاطلين عن العمل من ١٥٠ الفاً في تشرين الاول ١٩٢١ الى ٦٥٠ الفاً في كانون الثاني ١٩٢٣ و ١,٢٤٠,٠٠٠ في كانون الثاني ١٩٢٤ ، لا سيا في منطقتي موسكو وبتروغراد . وتدنى عدد النقابيين من ٨,٤٠٠,٠٠٠ في تموز ١٩٢١ الى ٤,٥٠٠,٠٠٠ في تشرين الأول ١٩٢٢ ولم يرتفع ثانية الى ٥,٥٠٠,٠٠٠ الا بعد مرور سنة كاملة .

ولم تلبث ان برزت نتائج اخرى للسياسة الاقتصادية الجديدة سبق للينين ان ارتقبها منذ السنة ١٩٢١ .

« اذا نحن تكلمنا عن التجارة الحرة ، فهذا يعني تشجيع الاحتكارات ، كما يعني استبدال الاقتطاعات العينية بالضرائب ان طبقات المحتكرين ستغدو اقوى واعظم شأناً منها من ذي قبل » .

والواقع هو ان ازدهار الزراعة عاد بالفائدة على اثرياء الفلاحين وقد شوهد في الارياف تميز متزايد مطرد بين الاثرياء والفقراء . فقد هبط البعض الى دون المستوى الضروري للحفاظ على استقلالهم ، واضطروا الى تأجير اراضيهم وسواعدهم لمن هم اوسع ثروة منهم ؛ ومنذ السنة ١٩٢٣ استخدم ٤٠٠,٠٠٠ فلاح و ٦٠٠,٠٠٠ عامل مأجور ، وفي السنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ كان هناك ٥,٨٠٠,٠٠٠ عامل زراعي ، واتسعت هجرة الفلاحين الفقراء الى ما وراء الاورال أو الى المدن حيث رفعوا عدد العاطلين عن العمل .

وفي الصناعة قضت الحاجة الى الانتاج المجدي بنقل الادارة الى « اختصاصيين » ينتسبون الى الطبقات الحاكمة القديمة ، فاعطوا صلاحيات واسعة تتناول الاستخدام والاجور والتسريح. أما التجارة الداخلية ، واعني بها شراء الاتحادات والتعاونيات الخامات التي تحتاج اليها وتوزيع ما يصنع منها ، فقد كانت حرة وسيطر عليها (بنسبة ٨٣٪ في اوائل السنة ١٩٢٤) رجال الاعمال السابقون وجماعات جديدة ايضاً من المضاربين والمغامرين الذين فرضوا وجودهم وتسللوا الى التعاونيات التي امسى بعضها مجرد مشاريع خاصة . وقد انفق هؤلاء دون حساب وحققوا ثروات طائلة هربوا منها قسماً الى الخارج . ويروي « كراسين » ان موسكو استعادت وجه ما قبل الحرب بعلبها الليلية ومقاهيها ومقامرها وبغاياها وسائقي سياراتها العمومية وخدام مقاهيها الذين حيوا زبائنهم من جديد بلقب « بارين » .

أزمـة المقص

واخيراً اشتد التوتر بين الصناعة والزراعة الذي لم تتوفق السياسة الاقتصادية الجديدة الا الى اخفائه بظواهر كاذبة فترة من الزمن . وفي اواخر صيف السنة ١٩٢٣ انفجرت أزمة المقص . فان التفاوت بين الاسعار الزراعية والاسعار الصناعية ، الذي اعتقد المسؤولون بانهم تمكنوا من ايقافه ، قد ازداد بروزاً يوماً بعد يوم . فكانت اسعار الجمل والمفرق للمنتجات الصناعية ، في شهر تشرين الاول ، ١٨٧ و ١٨١ ٪ بالنسبة لمستواها في السنة ١٩١٣ ، واسعار الجمل والمفرق للمحاصيل الزراعية ٥٨ و ٤٩ ٪ . وعلى نقيض الازمات السابقة التي كانت منذ السنة ١٩١٧ ازمات حاجة وعوز ، فالمخازن آنذاك كانت ملأى والحصاد وفر فائضاً هاماً من المحاصيل الزراعية . فليست علة الازمة من ثم نقصاً في الانتاج بل استحالة تأمين مقايضة المنتجات الصناعية والزراعية . فالفلاحون ، على الرغم من حاجتهم ، كانوا عاجزين عن ابتياع المنتجات الصناعية الباهظة الثمن . ومن جهة ثانية برز قلق العمال باضرابات واسعة انفجرت تلقائياً في الصناعة الثقيلة . فبات لزاماً إعادة الرقابة على اسعار الجمل ولا سيما المفرق التي سلمت من الرقابة بفعل وجودها في ايدي التجارة الخاصة ، وتخفيض عدد الوسطاء ، فألقي القبض على الوف المضاربين والمغامرين وأبعدوا عن موسكو . وفي أواخر السنة ١٩٢٣ خفت حدة أزمة المقص . ففي سنتين متواليتين اتاح حصاد وفير تصدير كميات هامة افضى الى رفع الاسعار الزراعية في الوقت الذي ادى فيه تقلص الديون والتدابير الرسمية المتخذه لمراقبة الاسعار الى تخفيض الاسعار الصناعية. ولكن الانتاج الصناعي في السنة ١٩٢٣ لم يبلغ بعد سوى ضعفه في السنة ١٩٢٢ (اسوأ سنة منذ الثورة) ، والصناعة الثقيلة ، اكثر قطاعات الاقتصاد صعوبة ، لم تجاوز ٣٤ بالمائة من مستواها في السنة ١٩١٣ .

في السنوات التالية ، واصل الانتاج الزراعي تقدمه ، ولكنه لم يبلغ في السنة ١٩٢٧ الا ٧٢٧ مليون قنطار ، اي اقل من انتاج السنة ١٩١٣ بـ ٤٠ مليوناً ، بينما ارتفع عدد السكان ١٠ ملايين نسمة وبلغت نسبة الارتفاع ٣ ملايين نفس كل سنة ؛ وفي السنتين ١٩٢٨ و ١٩٢٩ استقر الانتاج حوالي هذا الرقم بسبب حد الفلاحين من نسلهم بعد ان لمسوا ان الحبوب لا توفر لهم كسباً وفيراً . وبات تموين المدن اكثر صعوبة يوماً بعد يوم بسبب نقص الحبوب المرسلة الى الاسواق التي لم تجاوز ١١٪ في السنة ١٩٢٨ (مقابل ٢٥٪ في السنة ١٩١٣) . فتكشفت السياسة الاقتصادية الجديدة من ثم عن عجزها عن تنمية الاشكال الزراعية الانتاجية ، وباتت البلاد على « ابواب المجاعة » . وزادت حدة التفاوت الاجتماعي ، فاكترى الفلاحون الميسورون مزيداً من الاراضي واليد العاملة وجمعوا بين ايديهم استخدام الأرض ووسائل الانتاج . ففي السنة ١٩٢٧ كان لدى ٦ ٪ من الاستثمارات الزراعية ٥٨٪ من الحبوب المعدة للتجارة ، وكانت الاستثمارات « الفقيرة » سائرة نحو الزوال . فتكونت بسرعة من ثم بورجوازية قروية كانت خطراً على النظام بمصالحها الاقتصادية ونزعاتها الايديولوجية .

في سبيل استمالة هذه الطبقة اضطرت الحكومة الى رفع سعر شراء القمح كل سنة ، جساعلة حياة سكان المدن وتوازن الموازنة ، وبالتالي تصنيع البلاد ، اشد صعوبة سنة بعد سنة ، فبات الكولاك ، بفضل المخزونات التي كدسوها ، قادرين في السنة ١٩٢٨ على تجويع المدن . امسا الانتاج الصناعي ، اذا استثنينا الطاقة الكهربائية ، فلم يحقق سوى نتائج متوسطة ، وكانت الصناعة الثقيلة متأخرة بصورة خاصة . واذا اخذنا تزايد عدد السكان بعين الاعتبار ، رأينا استهلاك الفرد ينخفض في كافة الحقول بالنسبة للسنة ١٩١٣ ، ونقص البضائع يتزايد اكثر فاكثر ، واسعار الكافة ترتفع ارتفاعاً كبيراً (اعلى منها في الاسواق العالمية بمرتين ونصف على الرغم من ان الاجور كانت اكثر تدنيا) بسبب دروس المعدات وبعثرة المواد الخام والنفقات الادارية . ولم يكن الوضع المالي احسن حالاً : فالدولة لم تستطع سد عجزها الا بقروض عقدتها بفوائد مرتفعة جداً لدى الكولاك الذين تعاظم تأثيرهم الاقتصادي بفعل ذلك، وباصدار اوراق نقدية خفضت قيمة الروبية ، وبالتالي قيمتها الشرائية .

« السياسة الاقتصادية الجديدة » الدبلوماسية

وخاب كذلك الامل في الحصول على رؤوس الاموال من الخارج. فبموازاة السياسة الاقتصادية الجديدة في الداخـل ، اعتمدت سياسة اقتصادية جديدة في السياسة الخارجية . ومع ارتجاء لينين نجاح الثورات البروليتارية الخارجية ، فانه تدارك ان روسيا اعجز من ان تتطور داخلياً وتواجه حرباً خارجية في آن واحد ؛ كما ادرك اهمية كسب الوقت بالنسبة لها ؛ وهذا مـا جعله يوقع في « برست ليتوفسك » « معاهدة تلسيت » التي عيره خصومه بها . ومع ان حروب التدخل قد اثبتت له بطلان ارتجاء المساعدة من البلدان الرأسمالية ، فانه قد سعى لاعادة العلائق الطبيعية بالدول الاخرى الى حالها . وقد تحددت هذه السياسة الاقتصادية الجديدة بالمفاوضات التجارية مع انكلترا في ١٩٢٠ – ١٩٢١ ولا سيا بمعاهدة « رابالو » في السنة ١٩٢٢ – التي حطمت حصار الدول لروسيا – وبمعاهدات الصداقة والحياد التي عقدت مع البلدان المجاورة ، وبالاسهام في المؤتمرات الدولية المنعقدة باشراف جمعية الامم ، الخ . ولكن هذه الجهود لم تضع حداً العداء الذي استهدف روسيا ، حتى في آسيا ، حيث عقدت معاهدات مع تركيا وايران وافغانستان تخلت فيها روسيا عن « المعاهدات غير المتساوية » وعن الامتيازات التي كان الحكم القيصري قد حصل عليها ؛ وهي معاهدة السنة ١٩٢٣ مع « صن يات صن » وحدها ما اتاح لروسيا ان تلعب دوراً ناشطاً خارج حدودها . ثم اعترفت معظم الدول الكبرى والصغرى بحكمها في السنتين ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، ولكنها بقيت منعزلة عملياً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان فشل محاولة الثورة البلشفيكية في المانيا في السنة ١٩٢٣ ، بعد ازمة الرور ، قد جاء دليلا على ان الآمال في اندلاع الثورة في اوروبا كانت سابقة لاوانها .

فقد اثبت الاختبار من ثم ، على الصعيد السياسي والصعيد الاقتصادي معاً ، ان الاتحـاد السوفياتي يجب الا يعتمد الا على نفسه .

تخطئة
السياسة الاقتصادية الجديدة

خلال السنوات التي شكلت، منذ مرض لينين، ما عرف بفترة الخــلو، بين السنة ١٩٢٣ والسنة ١٩٢٩، أعدّ، تحت تأثير مصاعب السياسة الاقتصادية الجديدة في الداخل وفشل السياسة الاقتصادية الجديدة الدبلوماسية، الحل الذي سيقرّر اعتماده، اعني به حل « الاشتراكية في بلاد واحدة ».

ان عداء الحكومات والطبقات الحاكمة، التي اعتبرت السياسة الاقتصادية الجديدة بمثابة اقرار بالضعف، والخطوة الاولى التي خطاها « كلب اوروبا الكَلِب » نحو « العودة الى العقل »، والمساعدة والحماية اللتين توفرتا للمهاجرين، والحملات الصحفية المستمرة، وذكريات حرب التدخل، وضعف الاحزاب الشيوعية الخارجية الذي خيب الآمال، كل ذلك يفسر وقوف الحكم السوفياتي الدائم، طيلة هذه الفترة، موقف الحذر من العالم الرأسمالي، وكابوس الخشية من التحالف المناهض له الذي تخيل له قيامه في كل يوم. وفي كافة مجموعات الوثائق الدبلوماسية السوفياتية ما يثبت هذه الحالة النفسية. فقد ظُنّ بمشروع « داوز » انه يعدّ « جبهة متحدة من الدول الرأسمالية ضد الاتحاد »، وباتفاق لوكارنو انه يطلق أيدي المانيا في الشرق « لمواصلة سياسة تطويق الاتحاد السوفياتي ». وفي السنة ١٩٢٧ اثر قطع العلاقـــات الدبلوماسية بين بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي، ومقاطعة « تشان كاي تشك » الشيوعيين الصينيين قتلاً وجزعاً كبيرين، فصرح ستالين ان « المسألة الهامة اليوم هي خطر حرب استعمارية جديدة » ؛ وقد اضاف الى ذلك قوله : « ان التعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي والبلدان الرأسمالية، الذي قام حتى الآن، قد دخل في التاريخ ».

توقفت السياسة الاقتصادية الجديدة الى انهاض الزراعة واستمالة الفلاحين الى النظام الجديد والدفع بالصناعة الى الامام ؛ ولكنها تسببت في قيام طبقة قروية ميسورة وبورجوازية مؤلفة جزئياً من أعضاء الطبقات الحاكمة القديمة لعبت دوراً متزايد الاهميـــة في الحياة الاقتصادية. فلم يتأخر بناء الاشتراكية فحسب، بل ارتسمت في الافق عودة النظام البائد المخوفة. بينما اتضح ان الطبقة العمالية التي قامت بالثورة وكانت خير حماتها لم تستفد استفادة تذكر من النظام الاقتصادي ؛ واخيراً كانت الصنـــاعة الثقيلة، المعول عليها في بناء مجتمع اشتراكي مستقل ومزدهر، اعجز من ان تتقدم، في اطار السياسة الاقتصادية الجديدة، تقدماً هاماً وسريعاً، بسبب افتقارها الى رؤوس الاموال في الدرجة الاولى.

انعكست كافة هذه المتناقضات في تضارب الاتجاهات داخل الحزب الشيوعي نفسه حين افقده موت لينين زعيماً كبيراً اعترف بفضله كافة الاعضاء. وبعد سبع سنوات في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة وجد الاتحاد نفسه امام مأزق ؛ فانطلاقة الزراعة اعاقتها تجزئة الاراضي وفقدان المعدات العصرية، والمنتجات الزراعية والصناعية لم تتوفر للاسواق الداخلية، وتدني الصادرات هدد بالحد من استيراد الخامات الضرورية، والتوتر بين المدن والريف زادت

حدثه ، وروسيا عجزت عن توفير رؤوس الاموال التي كانت بحاجة اليها لتنمية اقتصادها ، لذلك اضطر النظام السوفياتي الى التخلي عن السياسة الاقتصادية الجديدة خوفاً من ان يرغم على اعادة نظام رأسمالي صرف ، وان يرغم من ثم على الزوال . لذلك فرضت اعتبارات السياسة الداخلية والخارجية هذه ،التبديل الذي اقره المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي حين شرع في تنفيذ الخطة الخمسية الاولى .

الفصل الثاني

الارتقاء الى مصاف الدول الاقتصادية الكبرى
الانكماش والتنظيم الاقتصادي الجديد

١ – الخطط الخمسية

هي الاسباب العملية ، لا الاسباب النظرية ، ما فرضت سياسة الخطط الخمسية : المنفذ الوحيد الذي كان امام الحكم السوفياتي للخروج من مأزق السياسة الاقتصادية الجديدة ، وهو حل متأخر وشبه ميؤوس منه يفسّر طابعه الجذري منذ البدء .

اثبتت الاملاك الصغرى المألوفة انها غير خليقة بزيادة الانتاج والطاقة الانتاجيـــة ، ولن يكون خليقاً بها سوى استثمارات زراعيـــة رسمية كبرى او تعاونيات تستخدم آلات متقنة وتعتمد طرائق علمية . وكي توضع في تصرفها معـــدات عصرية وفيرة ، من جرارات وحاصد وهرّاسات واسمدة كيميائية ، وكي يؤمن كذلك استقلال البلاد ، يقتضي صناعة قوية ولا سيا في حقل استخراج وانتاج الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسوف يتيح استخدام الآلات في الزراعة تزايد الانتاج بيد عاملة اقل عدداً ، فيتحول العمال الذين يستغنى عنهم الى الصناعة ، ويمكن اذ ذاك رفع مستوى الجماهير القروية والمدنية ، وازالة الاختلافات جزئياً بين المدن والارياف ، وجعل الانسان سيد الانتاج لا مقيدا بقوانين الاسواق التجارية .

اعداد الخطة

هذا هو البرنامج الذي اتجـــه اليه الحزب الشيوعي خلال السنتين ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ؛ فقد وقف ستالين موقفاً عدائياً صريحـــاً من الاقتصاد القروي الصغير في شهر تشرين الثاني من السنة ١٩٢٩ بمقـــاله الشهير ، « سنة الازمة الكبرى » ، الذي برر التصنيع وحلله . وسوف يبدأ حينذاك الاختبار الكبير الاول للتخطيط المعد « لان يحدث ،

على مستوى قارة وفي اطارها ، انظمة اقتصادية جديدة » . وسينفذ التصنيع والتأميم لمصلحة الجماعات في وقت واحد ، وفاقاً لتصميم واضح مدروس بكل دقة . وقد سبق ، منذ سنوات عدة ، ان بوشر جمع وثائق احصائية ، وان وضعت برامج اقتصادية لهذا الفرع او ذاك من فروع الصناعة ، وان اسند منذ السنة ١٩٢٠ الى لجنة الكهربة الروسية الشاملة (غويلرو) ، ومنذ السنة ١٩٢١ الى لجنة مجلس العمل والدفاع (غوسبلان) اعداد تصميم شامل واحد ؛ وقد استمرت هذه الاعمال والدروس حتى بعد ان افضى اعتماد السياسة الاقتصادية الجديدة الى ارجاء كل تخطيط .

ما ان تقرر « العدول عن حافز المنافسة الرأسمالية » ، حتى عمد الغوسبلان ، بالاتفاق مع لجان التصميم المؤلفة في المناطق (اوبلبلان) والدوائر (رايبلان) والمدن (غوربلان) وخلايا المشاريع ، الى مباشرة عمل مراجعة الدروس السابقة وتنسيقها . فلم تكن الخطة الخمسية الاولى من ثم مرتجلة ارتجالاً ، اذ ان اعدادها الفطري استغرق سبع سنوات واعدادها التقني استلزم سنتين .

بعد اقراره « شمول التصميم كافة النشاطات الصناعية » ، اتخذ الحكم السوفياتي قراراً ثانياً بالغ الاهمية : حصر الجهود في القطاعات التي تتحكم بكافة القطاعات الاخرى : الطاقة ، الصناعة الثقيلة ، صناعات المواد الانتاجية التي سوف تتيح ، في المستقبل ، زيادة المواد الاستهلاكية بسرعة ، واضعاً بذلك رفع مستوى معيشة السكان في المرتبة الثانية . « وبعد مدة طويلة اثبت هذا البرهان انه ينطوي على مزيد من الفطنة والفعالية » (الاب شامبر) ، ولكن الصعوبات التي اصطدم بها كانت عظيمة جداً : وفي الدرجة الاولى الافتقار الى رؤوس الاموال واحجام العالم الرأسمالي عن الاقراض ، الذي جعل استيراد التجهيزات بكميات كبرى امراً مستحيلا . فتوجب البحث من ثم عن الوسائل الضرورية لبناء صناعة قوية في الموارد الداخلية دون غيرها ، وتطوير الاقتصاد في استقلال اقتصادي حقيقي . وتوجب كذلك ، من جهة ثانية ، تحقيق تصنيع سريع وتأميم زراعي معا ، اي احداث ثورة اجتماعية عميقة في هذا الحقل . واخيراً ، في الفترة التي تلت السنة ١٩٣٠ ، فرض خطر الحرب ومستلزمات الدفاع خطوة سريعة جديدة في التصنيع وتحويرات غير مرتقبة في التصاميم الجاري تنفيذها . ولكن هذا التنفيذ قد غير شكل العالم في سنوات معدودة ، ففي غضون عشر سنوات جعل من بلاد متخلفة دولة اقتصادية عظمى ، وقلب في الوقت نفسه نظام المجتمع السوفياتي رأساً على عقب .

الخطة الخمسية الاولى
١٩٢٨ - ١٩٣٢

لحظت الخطة (بياتيلتكا) ان مجموع الانتاج سيضاعف ، ولكن من حيث هي استهدفت تصنيع البلاد ولاسيا تنمية الصناعة الثقيلة بنوع خاص ، فقد توجب ان ينتقل نصيب الصناعة من ٦٠٠ ٨ مليون روبية الى ٨٠٠ ٢٥ اي بزيادة ٣٠٠٪ ، ونصيب الكهرباء من ١٠٠٠ مليون الى ٥٣٠٠ مليون اي بزيادة ٥٣٠٪ ؛ اما نصيب الزراعة فلن ينتقل الا من ٠٠٠و٧٠٠و٢٨ الى ٠٠٠و٩٠٠و٣٨

أي زيادة ٣٦ ./. فقط . وقـد اختلفت نسبة الزيادة في كل فرع من فروع الصناعة : ٣،٣ في وسائل الانتاج ، و ٢ فقط في المواد الاستهلاكية ، وعلى صناعة التعدين ان تزيد طاقتها الانتاجية ثلاثة اضعاف ، والصناعة الكيميائية خمسة اضعاف ، وصناعة مواد البناء ثلاثة اضعاف ونصف الضعف ، وصناعة انتاج المحروقات الجامدة ضعفين ونصف الضعف . وسوف ينتقل عدد عمال الصناعة من ١١ الى ١٦ مليوناً . وسوف يؤمن التمويل ، الذي سيستلزم ٨٠ مليار روبية ، من زيادة قيمة العمل القومي : كل سنة تقتطع الموازنة ٣٠٪ من الدخل القومي لتوظف في المشاريع ، وتضاف الى ذلـــك القروض التي يؤمنها التوفير وزيادة الصادرات على الواردات الضرورية بغية التمكين من شراء الادوات اللازمة من الخارج (سيتوجب تصدير خمسة الى ثمانية ملايين طن حبوباً) .

يجب ان يحقق هذا التصنيع في اطار الوحدات الاقتصادية الكبرى : المشاريع والمناطق . وسوف يكون للمصانع الجديدة اتساع وطاقة اهم المصانع الاميركية : محطة دنيبر الكهربائية ، المجموعات التعدينية في ماغنيتوغورسك وكوزنتسك وكريفوي – روغ وزابورويه ، ومصانع الجرارات في ستالينغراد ، ومصـــانع الآلات الزراعية في روستوف ونيجني – نوفغورود ؛ وسوف تنشأ مراكز صناعية جديدة واستثمارات منجمية جديدة في الشرق ، في الاورال وآسيا ، بعيداً عن العواصم والحدود ، في ماغنيتوغورسك وكوزنتسك وقاراغندا ، الخ ...

تحقيقها

كان تحقيق هذه الخطة الاولى ناقصاً وغير متساو وتميز بتوقفات فجائيـــة وصعوبات غير مرتقبة نجمت اما عن حصاد سيء ، واما عن الازمة العالمية التي خفضت حجم وقيمة التجارة الخارجية الى مستوى متدن جداً . وجاء النقص في اليد العاملة ، المؤهلة وغير المؤهلة على السواء ، ووسائل النقل للتجارة المتزايدة ، يزيد في الطين بلة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان نتائج السنة الاولى ، التي فاقت كل التقديرات ، قد ولدت تفاؤلاً عظيماً حمل على الاسراع في تنفيذ الخطة واطلاق صيغة «تحقيق الخطة في اربع سنوات» ؛ ولكن سرعان ما توجب التخلي عن هذه الصيغة امام الاستياء الذي اثاره الاسراع في التأميم وانتزاع الملكية وانخفاض مستوى المعيشة الذي فرضه هذا المجهود . وخلال السنة الثانية انتهت بعض القطاعات الهامة ، كالفحم الحجري والفولاذ والحديـــد المصبوب ، الى عجز جسيم بالنسبة للتقديرات ؛ ولكن الوضع تحسن خلال السنة الثالثة حين بوشر العمل في بعض المصانع الكبرى ، وحين ادت زيادة الانتاج الزراعي ، بفضل استخدام الآلات ، الى جعل التموين اسهل منالاً . وجملة القول ان النتيجة النهائية انطوت على بعض التفاوت : اذا ما تحقق مشروع صنع الآلات بنسبة ١٨١،٢٪ ، والتجهيز الكهربائي بنسبة ١٣٦./. ، وانتاج البترول بنسبة ١٠٢٪ ، فان استخراج الفحم الحجري لم يحقق الا بنسبة ٨٦./. والفولاذ بنسبة ٥٧./. والحديد المصبوب بنسبة ٦٢./. والصوفيات بنسبة ٣٤٪ (نتيجة لابادة المواشي) ، والسكر بنسبة ٣٢ بالمائة . اما الاموال الموظفة ، فاذا بدا انها وظفت ١٠٠./. بالارقام المطلقة ، فان ارتفاع الاسعار الذي بلغ ٣٢ بالمائة

(بينا قدّر انها ستنخفض بنسبة ٢٣ ٪) قد كذّب كافة التقديرات .

الخطتان الخمسيتان الثانيــة والثالثة

بينا ضحي بكل شيء في الخطة الخمسية الاولى على مذبح ما اعتبر جوهرياً : الصناعة الثقيلة وزيادة المساحات المزروعة ، عــلى حساب فروع الانتاج الاخرى : الصناعة الخفيفة ، وسائل النقل محاصيل الزراعة ، الخ . ، تميزت المرحلة التالية بتخطيط كافة قطاعات الاقتصاد تخطيطاً اكثر تساوياً على الرغم من ان بعضها قد اعير اهمية خاصة . يضاف الى ذلك ان تحقيق الخطة قد اصبح اكثر سهولة بفضل اعتمادات اكثر وفرة وتمويل اكثر تيسراً .

في آخر الخطة الثانية (١٩٣٣ — ١٩٣٧) ازدادت الصناعة الثقيلة ، منذ السنة ١٩٢٨ ، ٦٫٩ اضعاف والصناعة الخفيفة ٣٫٩ اضعاف . وبــلغ تحقيق الخطة العام ١٠٢ ٪ ، ولكن التوزيع كان على بعض التباين : ١٠٧ ٪ في صناعة الاحذية و ١٠٤ ٪ في صناعة السكر ، ١٠٠ ٪ في صناعة تصفيح المعادن و ١٠٤ ٪ في صناعة الفولاذ ، و ٩٦ ٪ في الكهرباء ، و ٩١٪ في الحديد المصبوب ، و ٨٩ ٪ في استخراج الفحم الحجري ، و ٦٤ ٪ فقط في صناعة القطنيات و ٤٦ ٪ في صناعة الصوفيات . أما الخطة الثالثة المطلوب منها إنماء صناعات التخصص ، ولا سيا الصناعات الكيميائية ، فكان مقدراً لتقدمها ان يكون اعظم سرعة من تقدم الخطتين السابقتين ؛ ولكن الحرب العالمية الثانية اوقفت تحقيقها الذي ربما كان بلغ ٧٠ ٪ في السنة ١٩٤١ على الرغم من ارتفاع النفقات العسكرية ارتفاعاً كبيراً (منذ السنة ١٩٣٦) .

النتائج في السنة ١٩٤٠

حين ادخل الهجوم الالماني الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية ، كان التصنيع واقعاً راهناً والتأميم الزراعي امراً منجزاً عملياً ؛ فألغيت التجارة والصناعة الخاصة ، واضطربت كافة علائق الدولة الصناعية : لقد غــدا الاتحاد الدولة الاقتصادية الثالثة في العالم والثانية في اوروبا ، وغدا الدولة الثانية في العالم في حقل انتاج الحديد والبترول والذهب ، والثالثة في حقل انتاج الطاقة الكهربائية والحديد المصبوب والفولاذ والقطن ، والرابعة في حقل انتاج الفحم الحجري ومحركات السيارات ، الخ . ولعل خير مثل على هذا التطور انطلاقة الكهربة التي قفزت من انتاج ٢٥٠٠ مليون كيلو وات ساعة في السنة ١٩٢٨ الى ٤٠ ملياراً في السنة ١٩٣٨ . وقد انتجت هذه الطاقة معامل حرارية واسعة ، ومعامل مائية ايضاً لأن اهمها معمل الدنيبر السفلي الذي انشىء بين السنة ١٩٢٧ والسنة ١٩٣٢ والمعد لتسيير ٩ عنفات بقوة ١٠٠٫٠٠٠ حصان ، وحدث الشيء نفسه في صناعة المطاط — الشبه المعدومة حتى هذا التاريخ — التي سدّت نصف الحاجــات ، وقد استخدمت النباتات الصمغية المبلدة وانتجت المطاط التركيبي .

وحُسّنت وسائل النقل تحسيناً عظيماً ، ولكنها ما زالت احد عوائق الاقتصاد الرئيسية . وحسنت كذلك شبكة الأقنية والانهر بقنــاة البلطيك — البحر الابيض التي فتحت في السنة ١٩٣٣ ، وقناة موسكوفا — فولغا التي انجزت في السنة ١٩٣٧ وجعلت من موسكو مرفأ نهرياً

كبيراً ، ولكن وسيلة النقل الرئيسية كانت السكك الحديدية. فقد انجزت اعمال كبرى جددت الخط الحديدي عبر سيبيريا بين اومسك وتشليابنسك ، والخطوط الحديدية بين موسكو ولينينغراد والـ « دونباس » ، وبين اركانجلسك وموسكو ، وأعيد بناء الخط الحديدي بين موسكو وخاركوف، وتحقق خط «تورکسيب» وخطوط الاورال - كوزنتسك ، وقاراغندا - بالكاش ، والاورال - قاراغندا ، ووضع اخيراً مشروع خط ستراتيجي من شأنه تسهيل استثمار وادي الـ « آمور » الاسفل بغية ربط بايكال بالمحيط الهادي ، هو خط بايكال - آموروسكي - ماجيستر ال .

الميزات الجديدة لهذه الانطلاقة الصناعية

تبدل وجه هذه الصناعة تبدلاً كبيراً لا لأن اهميتها المطلقة قد ازدادت الى حد بعيد فحسب ، بل لأن نظامها وتوزيعها الجغرافي قد انقلبا رأساً على عقب ايضاً. فان صناعة انتاج المواد الاستهلاكية التي كانت في السنة ١٩١٣ ضعف صناعة مواد الانتاج والتي ما زالت في السنة ١٩٢٩ تفوقها بنسبة ٥٠ بالمائة ، لم تبلغ في السنة ١٩٤٠ سوى ٦٧ بالمائة منها اذ ان نسبة الزيادة قد بلغت ٢٢ في مواد الانتاج و ٦٫٥ فقط في المواد الاستهلاكية . وزاد الانتاج الزراعي ٥٧ بالمائة بالنسبة للسنة ١٩١٣ (٣٢ بالمائة للحبوب ، ٩٨ بالمائة للشمندر السكري، ٢٨١ بالمائة للقطن)، ولكن الانتاج الصناعي زاد بنسبة ٧١٤ بالمائة . أما مركز الاتحاد في التجارة العالمية ، الذي كان ابداً محدوداً ، فقد تضاءل اكثر فاكثر : بعد ان تدنى الى ١٫٤ بالمائة من التجارة العالمية ، ارتفع الى ٢٫٣ بالمائة في السنة ١٩٣٢ ثم عاد فهبط الى ١٫٣ بالمائة في السنة ١٩٣٧ ، وكان ذلك نتيجة الازمة العالمية وتزايد الاستهلاك الداخلي الذي لم يترك للتصدير سوى ٠٫٨ بالمائة من الانتاج القومي مقابل ١١٫٦ في السنة ١٩١٣ . وهناك تبدل آخر يظهر تطور النظام الاقتصادي في البلاد ، اعني به تزايد نسبة المنتجات المصنوعة في الصادرات ، التي ارتفعت من ٢٩٫٤ بالمائة في ١٩٠٩ - ١٩١٣ الى ٦٨٫١ بالمائة في السنة ١٩٣٢ ، وفي الوقت نفسه تزايد نسبة استيراد الخامات .

ويزيد في أهمية هذه الانطلاقة انها صادفت في الزمن الأزمة الاقتصادية الدائمة التي ثقلت وطأتها على العالم الرأسمالي ، حين هبط فيه الانتاج بسرعة وبشكل محسوس لم يعرفها من ذي قبل . ففي السنة ١٩٢٨ بلغ الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة ٤٤٫٨ بالمائة من الانتاج العالمي ، وفي المانيا ١١٫٦ بالمائة ، وفي بريطانيا العظمى ٩٫٣ بالمائة ، وفي روسيا ٤٫٧ بالمائة ؛ وفي السنة ١٩٣٢ تغيرت النسبة في كل من هذه الدول كما يلي : ٣٤٫٤ ، ٨٫٩ ، ١١٫٣ ، ١٣٫١ بالمائة . ويتضح من ذلك ، خلال السنوات العشر الممتدة بين اوائل الازمة والحرب العالمية الثانية ، ان العالم الرأسمالي لم يستطع بلوغ مستوى الانتاج في السنة ١٩٢٩ الا بصعوبة كبرى ، بينما رفع الاتحاد السوفياتي مستواه مرّات عدة . وبينما لم تبلغ اليابان والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، خلال عهد انطلاقتها الكبرى ، سوى نسبة زيادة سنوية تقارب

٥ بالمائة ، حقق الاتحاد السوفياتي بين السنة ١٩٢٨ والسنة ١٩٤٠ زيادة ١٣ — ١٤ بالمائة سنويا ، اي ضعفين وثلاثة أضعاف واربعة أضعاف نسبة الزيادة الطويلة الأجل في البلدان الرأسمالية . وان مقارنة هذا الرقم بارقام اوروبا الغربية التي كان معدل الزيادة فيها ٣٫٥ بالمائة بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩٢٩ ، وبرقم اوروبا جمعاء (باستثناء الاتحاد السوفياتي) بين السنة ١٩١٣ والسنة ١٩٣٨ ، حيث تراوح معدل الزيادة بين ١٫٤ و ١٫٧ بالمائة ، لدليل على ان هذا التقدم كان بالغ السرعة .

احرز التقدم بفضل اعداد الاختصاصيين بتعليم تقني تأسست مدارس كثيرة بغية توزيعه ، والاستعانة باكثر من ٢٠٠٠٠ فني واختصاصي اجنبي ، الماني او اميركي — من امثال « هيو كوبر » الذي وضع التصاميم لسدّ الدنيبر — ، وتنظيم العمل تنظيماً عقلياً جعل عامل المناجم « ستاخانوف » يستخرج اكثر من ١٠٠ طن فحماً حجرياً (مقابل معدل ٦٫٥) في يوم عمل واحد ، و « المنافسة الاشتراكية » التي دفعت ، في كافة فروع الصناعة ، الى ضرب ارقام إنتاجية قياسية .

لم يتوقف الاتحاد السوفياتي من ثم في مراحل الثورة الصناعية . فحتى ذاك التاريخ لم تحقق البلدان الزراعية تصنيعها الا ببطء ولم تتوفق الى ذلك الا بالارتباط مالياً بالدول الرأسمالية المتقدمة ؛ اما الاتحاد السوفياتي فقد بات في السنة ١٩٣٩ الدولة الصناعية الثالثة في العالم دون ان يضحي بشيء من استقلاله لمصلحة الدائنين الأجانب، وبات لديه الآن المرتكز الصناعي المتين اللازم لكل دولة عسكرية . الا ان مستوى الانتاج بالنسبة للشخص الواحد ما زال ادنى منه في البلدان الصناعية الأخرى الى حد بعيد : ٣٫٤ مرات اقل منه في الولايات المتحدة، ٢٫٧ اقل منه في انكلترا ، نصفه في المانيا ، ادنى منه قليلاً في فرنسا .

وقامت الجدّة الكبرى اخيراً في الطابع النظامي والشامل الذي ارتداه تدخل الدولة في الاقتصاد .

فحتى ذاك التاريخ أقرت بعض انواع الرقابة خلال الحرب وبذلت الجهود في كافة الدول المحاربة لتوجيه الاقتصاد ، ولكن هذه الرقابة وهذه الجهود لم تكن سوى حيل فرضتها الظروف وقد اهملت منذ توقف الأعمال الحربية . وحين اقدم الاتحاد السوفياتي على تنفيذ الخطة الخمسية الأولى ، كان هو الدولة الاولى التي تتولى ، عن قصد وتصميم ، وفي ايام السلم ، رقابة مجموع نظامها الاقتصادي وإعادة تنظيمه . فاعطى بذلك مثلاً سارت عليه دول كثيرة فيما بعد . يضاف الى هذا ان الهدف هنا لم يكن تنسيق نشاط اقتصاد بلاد في إطار النظام القائم فحسب ، بل تحويله كلياً وتبديل النظام الاجتماعي باكمله .

٢ – تحول قارة

ادى التصنيع والتأميم الى تحول عميق في الشكل الطبيعي « الجزء السادس من العالم » الذي يؤلفه الاتحاد السوفياتي ، فقد انقلب توزيع الكتل البشرية وتوزيع مراكز الانتاج رأساً على عقب ، بينما تبدلت طرائق الانتاج نفسها ايضاً .

الانطلاقة الديموغرافية

على غرار الولايات المتحدة التي يبرز فيها التضاد الكبير نفسه بين سكان قليلي العدد نسبياً وموارد وفيرة ومتنوعة ، استطاع الاتحاد السوفياتي الاستفادة في وقت واحد من انطلاقة ديموغرافية عظيمة الشأن ومن تقدم اقتصادي سريع الخطى . فقد قدر عدد السكان بـ ١٤٥ مليوناً في السنة ١٩١٤ (في حدود ما بعد الحرب) ، فبلغ في السنة ١٩٢٦ ، عند الاحصاء الاول ، ١٤٧ مليون نسمة . وقدرت الخسائر بالارواح الناجمة عن الحرب ، والاوبئة – لا سيما التيفوس – وسوء التغذية والمجاعة في ١٩٢١ – ١٩٢٢ ، ومذابح الحرب الاهلية ، والهجرة السياسية ، بـ ١٥ الى ٢٥ مليوناً . ومنذ نهاية الحرب الاهلية ، اصبح الازدياد سريعاً على الرغم من الوفيات الناجمة في ١٩٣٢ – ١٩٣٣ عن المجاعة الكبرى التي فتكت فتكاً ذريعاً بسكان اوكرانيا ومنطقة الفولغا الاسفل وبعض انحاء سيبيريا الغربية . فارتفعت زيادة الولادات بالنسبة الوفيات ، في القسم الاوروبي ، من ١٩،٣ ٪ في السنة ١٩٢٣ الى ٢٤ ٪ في السنة ١٩٢٤ ؛ وبلغت ١٩ ٪ في مجموع انحاء الاتحاد في السنة ١٩٣٠ ، ثم ارتفعت الى ٢٠،٥ بالمائة في السنة ١٩٣٨ . وقد بلغ عدد السكان ، في السنة ١٩٣٩ ، ١٧٠ مليون نسمة اي بزيادة ٢٣ مليوناً منذ السنة ١٩٢٦ ؛ واتصفت الزيادة بمزيد من السرعة عند الاعراق غير الروسية حيث تحسنت الظروف الصحية تحسناً كبيراً ؛ كما اتصف هؤلاء السكان اخيراً ، في السنة ١٩٣٩ ، بنسبة عليا من الشباب ، اذ ان الذين كانوا دون العشرين من سنهم بلغوا آنذاك ٤٥،١ بالمائة .

حركات انتقال السكان

كانت حركة الانتقال عظيمة جداً ، شبيهة بها في الولايات المتحدة بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٢٠ ، او في انكلترا خلال القرن التاسع عشر . اجل ان هذه الحركة لم تترك اثراً يذكر خلال الحرب ، ولكن ما ان شُرع في تنفيذ سياسة التصنيع حتى بدأت عملية توزيع السكان توزيعاً نظامياً . فقد كان الهدف استثمار الموارد الطبيعية استثماراً منظماً وصوابياً ، وفي مكان وجودها ، اذا امكن ذلك ، بغية الحد من نفقات النقل ، وتقريب المصانع من مراكز انتاج الطاقة والمعادن الطبيعية ، وانشاء مراكز صناعية جديدة في داخل البلاد بعيداً عن مناطق الحدود ، وتوزيع مراكز الانتاج توزيعاً اكثر تساوياً . لذلك وُجِّه الفلاحون الكثيرون ، الذين لم تعد الارياف بحاجة اليهم بعد اعتماد الآلات ، نحو المناطق الغنية بالموارد غير المستثمرة او المستثمرة جزئياً ، او نحو نقاط قريبة من خطوط المواصلات ، ولا سيما خطوط المواصلات المائية .

الإعمار

منذ السنة ١٩٢٦ حتى السنة ١٩٣٩ ، اي خلال ١٢ سنة ، انتقل ٢٣ مليون نسمة ، على هذا النحو ، من الارياف نحو المدن . وقد حدث قبل ذلك ، اي بين السنة ١٩٢٣ والسنة ١٩٢٧ ان ارتفع عدد المدن التي تضم اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ، من ٢٢ الى ٣١ ، ثم ارتفع في السنة ١٩٣٩ الى ٨٢ ضم ٤١ منها اكثر من ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة ، وبين السنة ١٩٢٧ والسنة ١٩٣٩ قفز عدد سكان المدن من ٢٦ ٣٠٠ ٠٠٠ الى ٥٥ ٦٠٠ ٠٠٠ ، اي ما يوازي ٣٢،٨ بالمائة مقابل ١٧،٩ بالمائة ،بينما تراجع عدد سكان الارياف من ١٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠ الى ١١٤ ٦٠٠ ٠٠٠ ، اي من ٨٢،١ الى ٦٧،٢ بالمائة ، وفي السنة ١٩٣٩ كان خمسا سكان المدن فلاحين استقروا فيها منذ اقل من ١٢ سنة . وللمرة الاولى في تاريخهـــا ، بلغت روسيا درجة التطور التي مرت بها اوروبا الغربية منذ زمن بعيد : كانت المدن المستفيد الوحيـد من زيادة عدد السكان . ففي ١٢ سنة استوطن موسكو زهاء مليوني نسمة (٤ ١٣٧ ٠٠٠ في السنة ١٩٣٩) ، وارتفع عـــدد سكان اقليمها بنسبة ٧٤ بالمائة ، وبلغ عـــدد سكان لينينغراد ٣ ١٩١ ٠٠٠ نسمة . واستقبلت منطقة الحديد والفحم الحجري في اوكرانيا الشرقية ، مـع مدينتي خاركوف ودنيبر وبتروفسك الصناعيتين ، اكثر من مليوني شخص جديد ، وارتفع عدد سكان ماريوبول من ٦٣ ٠٠٠ الى ٢٢٢ ٠٠٠ نسمة ، وسكان ماكيافكا من ٧٩ ٠٠٠ الى ٢٤٠ ٠٠٠ ؛ كما ارتفع سكان اقليم ستالينو بنسبة ٩١ بالمائـة ، وسكان اقليم فوروشيلوفسك بنسبة ٣٧ بالمائة ، وخـلال ١٢ سنة ارتفع عدد سكان ٩ مدن في هذه المنطقة الى ثلاثـة اضعافه ؛ وقفز عدد سكان خاركوف من ٤١٧ ٠٠٠ الى ٨٠٠ ٠٠٠ ، وسكان روستوف من ٣١٨ ٠٠٠ الى ٦٣٠ ٠٠٠ . وفي الشمال ، قفز عـدد سكان مورمانسك من ٨ ٠٠٠ الى ١٠٠ ٠٠٠ نسمة . ولم تنحصر المدن السريعة النمو في اوروبا وحدها ، اذ ان المراكز الصناعية الجديدة في آسيا قد عرفت نمواً سريعاً جداً ايضاً .

وتغير مظهر المدن القديمة ، اذ انها فقدت احـــد أدوارها القديمة الرئيسية ، اعني به دور السوق التجارية ، بفعل زوال التجارة الخاصة ؛ فاحيطت بمدن تابعة حين قامت الصناعة في ضواحيها ، والا عاشت في ضيق وتأخرت . اما المدن الجديدة التي نشأت على مقربة من الخامات فكانت مدناً – مصانع استخدم كافة سكانها في المشاريع الصناعية . ونجم عن ارتفاع عـــدد السكان حركة بناء واسعة لم تتوفق الى حل « ازمـــة إسكان » حادة جداً ؛ وكانت الابنية الجديدة امّا مساكن – مدناً عمالية كبرى احياناً ، او بيوتاً فردية صغرى احياناً اخـرى ، وفاقاً لمواد البناء المتوفرة – واما مساكن جماعية وابنية عـــامة باعداد كبرى : مدارس ، مستوصفات مجانية ، دور توليد ، مستشفيات ، امكنة اجتماع ، قاعات لعب ، مسارح ، ملاعب ، نواد رياضية . وتشابه السكان في كل مكان ، فكانوا عمالاً او موظفين لا يميز بينهم لا نوع المعيشة ولا الزي .

وفي الوقت نفسه الذي اعمرت فيه بورات الفولغا الاسفل وصُنّعت ، استقرت قبـــائل

البدو الرحل ، ولم يستمر في حياة البداوة ، في السنة ١٩٣٥ ، سوى ٤٥٠٠٠٠ من اصل مليونين او ثلاثة ملايين عائلة بدوية : ففي قازاخستان نقص عدد سكان الارياف اكثر من مليون نسمة بفعل زراعة المراعي والتصنيع ، بينما ارتفع عــدد سكان المدن من ٥٠٠ ٠٠٠ الى ١٧٠٠ ٠٠٠ . وتحولت كذلك قبائل الـ « واروت » في الالتاي والـ « بوريات — المغول » ، البدو او شبه البدو ، والكرغيز والكالموك الى رعاة ينتقلون مع الفصول من مكان الى مكان ويسلكون مسالك ثابتة . وما لبث هؤلاء ان استقروا وتحضروا تدريجياً ، حيثما انشئت المروج الصنعية واستثمرت الغابات والمناجم .

تحول مظهر البلاد

تبدل ظاهر البلاد نفسه تبدلاً عميقاً . مظهر الحقول اولا ، التي تمتد الى ما لا نهاية له في كافة الاتجاهات دون اثر للحدود ، والتي حلت محل فسيفساء الطرائد القديمة المحدّدة تحديداً دقيقاً ، بعد ان اتاح انشاء تعاونيات الانتاج زراعة مئات الهكتارات زراعة متماثلة في وقت واحد ؛ وغير الاقتصاد الزراعي الجديد طابع القرية ؛ فالمجموعة السكنية ، المؤلفة من بيوت عمال التعاونيات وما يحيط بهــا من حظائر وحدائق ، منفصلة عن ابنية الاستثمار التي باتت جماعيــة : المطامير والزرائب والسقائف والمخازن التعاونية والمستوصفات المجانية وقاعات الاجتماع والمدارس تتجمع حول مستودع المياه . وامتدت المساحات المزروعة التي ارتفعت من ١٠٥ ملايين هكتار في السنة ١٩١٣ الى ١١٣ في السنة ١٩٢٨ و ١٤٠ في السنة ١٩٣٨ .وان تصريف المياه والري والاحتياطات المتخذة للحؤول دون ضياع التربة وغزو الرمول قد وفرت للزراعة اراضي بائرة ومهملة : ٤ ملايين هكتار من المستنقعات المجففة في بيلوروسيا ومنطقة لينينغراد وموسكو وسيبيريا وكوبان ، حيث تحولت الى مرزّات ، وفي منطقة بحــر ازوف حيث تحولت الى بساتين . ووفر الري مساحة مماثلة . واتاح تحسين التربة وتقدّم فن الزراعــة استثمار الاراضي استثماراً افضل : اتسعت زراعة القطن في روسيا الجنوبية والارز في الشمال وفي آسيا الوسطى . وادت دروس معهد ليسنكو للانتاج النباتي حول اختصار فترة نمو النباتات المزروعة الى امتــداد الزراعات حتى المناطق القطبية حيث زرعت في شبه جزيرة « كولا » ، في ما وراء الدائرة القطبية ، الحنطة والاشجار المثمرة والبقــول . وادخلت زراعات جديدة (البطنّي الصيلية الى اوكرانيا) ، ووسعت في كل منطقة الزراعات الاكثر ملاءمة لطبيعة الارض والمناخ : احتــل دوّار الشمس مساحات شاسعة في اوكرانيا وكيرغيزيا والقرم ، وزراعة البقــول والاشجار المثمرة في تاجيكستان . ولم تحتل شجرة الشاي ، في السنة ١٩١٣ ، اكثر من الف هكتار ولم تنتج اكثر من ٢٠٠٠ قنطــار ، فاحتلت في السنة ١٩٤١ اكثر من ٥٠٠٠٠ هكتار وانتجت اكثر من ١٤٥٠٠٠ قنطار . وادخلت الى تركانيا واذربيجان ، من آسيا الوسطى والمكسيك ، نباتات برية تنتج المادة الصمغية التي يصنع منهــا المطاط . اما القطن الذي لم يزرع في السنة ١٩١٥ الا في ٨٢٥٠٠٠ هكتار ، و ٩٧١٠٠٠ هكتار فقط في السنة ١٩٢٧ ، فقد احتــل

٠٠٠ ٥٠٠ ٢ هكتار في السنة ١٩٤٠ بفضل بنـــاء السدود الكبرى على الـ « فاتحه » وتنظيم مياه الـ « كورا » والـ « اراكس » ونجاح زراعة القطن « البعلية » على ضفاف البحر الاسود .

نظـــام الصناعة

ارتكز تنظيم الصناعة الجديد الى تأسيس اتحادات تضم بعض الوحدات الصناعية على الصعيد الافقي ، بلغ عددها ٦٤٠ في السنة ١٩٤٠ وادارت ٥٧٣٠٠٠ مؤسسة ، ووحدات صناعية كبرى توحّد على الصعيد العمودي المشاريـع المترابطة النشاطات ؛ هذه كانت « جبابرة » الصناعة : « وحدة » ماغنيتوكورسك التي تأسست في السنة ١٩٢٧ عند لحف « ماغنيتنايا غورا » ، جبل المعدن الحديدي الادبس اللون ، وانتجت في السنة ١٩٤١ مليوني طن فولاذاً ، وتوفرت لديهـا افران الحديد المصبوب ومصاهر الحديد وآلات تصفيح المعادن ومعامل المواد الكيميائية ومعامل انتاج الكهرباء ، الخ . ، ووحدة كونراد على مقربة من بحيرة بالكاش التي استثمرت معـــدن النحاس الطبيعي المكتشف في السنة ١٩٢٨ ، وانتجت ، بالاضافة الى النحاس ، كبريتور الكربون والحمض الكبريتي ، الخ ؛ ووحدة « ميكويان في موسكو » للحوم التي استخدمت ٠٠٠ ١٠ عـــامل وامتدت فروعها المختلفة على طول ٤٣ كلم ؛ فقد جزر فيها ٠٠٠ ١٠ حيوان في اليوم ، وصنع فيها الآحين ، والمواد الصيدلية ، والمواد المجردة عن الماء ، والغراء ، الخ . واستلزمت هــــذه الوحدات مصانع جبارة خاصة ، كمصنع كراماتورسك الذي انتج الآلات وامتد على مساحـة ١٠ كلم [٢] ، ومصنع موسكو للاجهزة الكهربائية « الكتروسيل» الذي استخدم ٠٠٠ ١٠ عامل وامتد ، مع المدينة العمالية ، المتسعة لـ ٠٠٠ ٢٠ شخص ، على مساحة ٥ كلم [٢] . وان الوحدة الصناعية المزدوجة « اورال – كوزنتسك » التي جمعت بين حديد الاورال الطبيعي وفحم كوزباس الحجري اتاحت للمنطقتين الكبريين اللتين تفصلها مسافة ٠٠٠ ٢ كيلومتر تبادل المعدن والفحم وتنمية مركزين ضخمين لصناعة التعدين .

الا ان تبدلاً ارتسم عند الشروع في المشروع الخمسي الثالث ، فلم يعد « الجبار الصناعي » ليعتبر خير مثال للتنظيم ، بل بدا من الافضل ، عـلى الصعيد الاقتصادي والصعيد الاجتماعي معاً ، توزيـع المؤسسات الصناعية على كافة انحاء البلاد وتقسيمها الى مراكز صناعية اكثر عدداً وادخالها في الوقت نفسه في مجموعة اقليمية واسعة .

تحول مراكز الانتاج

ان البحث عن مناجم جديدة غنية والتصميم على نقل مراكز الانتاج الى الشرق قد ادخلا تغيراً كبيراً على الاهمية النسبية للمراكز المنجمية والصناعية . اجل ما زالت منطقة دونباس تتقدم تقدماً مستمراً ، وقد بقيت اهم منتج للفحم الحجري ، ولكنها ما عادت لتنتج سوى ٦٠ ./· من الفحم الحجري السوفياتي مقابل ٨٧ ./· في السنة ١٩١٣ ؛ ومرد ذلك الى تقدم هذا الانتاج في مناطق آسيوية مختلفـة : منطقة كوزباس التي كانت تنتج اقل من مليون طن في السنة ١٩١٣ وباتت تنتج اكثر من ٢٠

مليوناً في السنة ١٩٤٠ ، وحوض قاراغندا الذي بوشر استثماره قبل الحرب ، ثم توقف ، ثم تجدد في السنة ١٩٣٠ ، والذي بلغ انتاجه ٥ ملايين طن في السنة ١٩٣٨ ، وحوض الاورال الذي انتج اكثر من ٥ ملايين طن ، وحوض « بتشورا » الذي انتج ٣ ملايين .

ويصح هذا القول كذلك في البترول الذي ارتفع انتاجه ، بين السنة ١٩٢٩ والسنة ١٩٤٠ ، من ١٤,٤٤٧,٠٠٠ الى ٣٥,٥٠٠,٠٠٠ طن ، والذي لم يعد ينبع في المنطقة القفقازية وحدها بعد ان افضى استثمار بترول « باكو الثانية » ومنطقة « فولغا ـ الاورال » ومنطقتي « امبا » و « تفتيباد » الى خفض نسبة انتاجها من ٩٥ بالمائة في السنة ١٨٣٥ الى ٨٠ بالمائة في السنة ١٩٤٠ .

وتحول استخراج الحديد بفعل اكتشاف واستثمار مناجم جديدة غنية جداً في الاورال (ماغنيتوكورسك) وشبه جزيرة كرتش ، ولا سيا في منطقة كورسك ، في آسيا الوسطى ، وفي منطقة « خوريا » الجبلية ، فبات حوض كريفوي ـ روغ لا ينتج سوى نصف الحديد السوفياتي . وتقاسمت منطقة الاورال ومنطقة كونراد و « الملك » قرب طشقند انتاج النحاس .

وانتقلت الصناعات النسجية تدريجياً كذلك نحو مناطق انتاج الخامات ، اي نحو آسيا الوسطى حيث يزرع القطن ، ونحو آسيا والقفقاس واوكرانيا الجنوبية حيث ينتج الصوف ، ونحو الشمال الغربي حيث يزرع الكتان ؛ وانتقلت صناعة الجلود من الوسط نحو مناطق جزو المواشي وتربيتها ، وصناعة التبغ نحو الجنوب ، في جيورجيا ، على مقربة من مواطن زراعة التبغ .

آسيا السوفياتية

لعل التغييرات الكبرى حدثت في آسيا الروسيا (ثلث اسيا) وعالم المناطق المتجمدة الشمالية . وكانت في آسيا نتيجة سرعة الاعمار وتنقل السكان وتطور طرائق معيشتهم . فقد استقبلت سيبيريا ١٠ ملايين شخص لم يكونوا ، كما في اوائل القرن ، موظفين ، وعسكريين ، وفلاحين جاؤوا لاعمار الارياف ، بل كان معظمهم عمالاً اتوا ـ هنا كما في آسيا الوسطى التي استقبلت ٥ ملايين مهاجر ـ للعمل في المناجم والمصانع . وفي مناطق الشرق الأقصى حيث بلغ عدد السكان ٣ ملايين نسمه في السنة ١٩٤٠ ، ارتفع هـذا العدد الى خمسة اضعافه منذ السنة ١٩٢٣ ؛ وارتفع عدد سكان اقليم « خاباروفسك » بنسبة ١٣٦ بالمائة . ونشأت بعض المدن بسرعة خاطفة : ارتفع عدد سكان « تشليابنسك » ، خلال ١٢ سنة ، من ٠٠٠ ٥٩ الى ٠٠٠ ٣٠٠ نسمة ، وعدد سكان ماغنيتورسك من بضع مئات الى ٠٠٠ ١٥٠ .

وفي القفقاس عجّل التخصص الاقتصادي ، والتصنيع حول باكو وتفليس ، وري مزروعات القطن في الشرق وفي الغرب ، وادخال المزروعات التخصيصية (شجرة الشاي ، والكرمة ، والتبغ والحمضيات) ، في تفكيك الوحدات الاقليمية القديمة ولا سيا في الحياة الراعوية ؛

وتقلصت الحياة البدوية ، هنا ايضاً ، لتحل محلها طريقة الانتقال بالمواشي الى المراعي الجبلية . وارتفع عدد السكان بنسبة ٥٠ بالمائة بين السنة ١٩٢٦ والسنة ١٩٣٩ ، ولكن عدد سكان المدن تضاعف بينما لم يرتفع عدد سكان الارياف ارتفاعاً يذكر . وصنّعت كذلك ارمينيا المهملة والمتمزلة نسبياً ، بفضل احتياطيها الهام من طاقة توليد الكهرباء من القوة المائية .

اما في آسيا الوسطى فهي منطقة قازاخستان ما عرفت اعظم تطور . فان ثروة باطن ارضها التي تشمل ، بالاضافة الى بترول امبا ، وفحم قاراغندا ونحاس بحيرة بالكاش ، الرصاص والخارصين والقصدير والمنغنيز والكروم والموليبدين والذهب ، اجتذبت العمال الى « بورة الجوع » القاسية المناخ شتاء وغير الصالحة الزراعة والمقفرة حتى هذا التاريخ ، فنمت مدن – مصانع جديدة نمواً سريعاً جداً : بريبالكاش ، كارساك – باي ، تشمكنت ، قاراغندا ، جزكازغان ، بينما تضاعف عدد سكان العاصمة « الما – آتا » . واتاحت الزراعة غير المروية الزراعة حول الوحدات الصناعية ، واخذت المنطقة الجنوبية التي التفت من قبل سلسلة من الواحات المتشتتة ، تتحول كلها الى منطقة مروية متصلة ؛ وفي « اوستراليا السوفياتية » هذه حوّلت نباتات الكلأ البدو الرحل الى تعاونيين يربون الماشية ، ولكن عدد سكان الأرياف تدنى بنسبة ٣٠ بالمائة . وبات باستطاعة آسيا السوفياتية ، التي لم تنتج في السنة ١٩٢٨ سوى ٦,٦٠٠,٠٠٠ طن فحماً حجرياً ومليون طن فولاذاً ، انتاج ٥٧ مليوناً و ٦,٥٠٠,٠٠٠ في السنة ١٩٤٠ ، اي ٣٤,٣ ٪ من فحم الولايات المتحدة الاميركية و ٣١,٦ بالمائة من فولاذها .

على الرغم من ارتفاع عدد السكان في هذه المنطقة ، منذ السنة ١٩٢٦ حتى السنة ١٩٣٩ ، بين ٢٥,٦ بالمئة و ٤٥,٧ بالمئة ، بحسب الجمهوريات ، فان هذا الارتفاع لم يحصل الا في المدن بصورة خاصة ؛ فبلغ هذا العدد ثلاثة اضعافه في تاجيكستان واكثر من ضعفه في تركمانستان و ١٥٠ ٪ في ازبكستان ؛ واصبحت هناك عشرة مدن جاوز سكانها ٥٠,٠٠٠ نسمة ، مقابل ٦ في السنة ١٩٣٦ ؛ ومنذ السنة ١٩٢٦ ، ارتفع عدد سكان « تشارجوي » بنسبة ٤٠٠ بالمائة ، وعدد سكان «فرونزيه» واشقباد ٢٥٠ بالمائة ، وطشقند قرابة ٢٠٠ بالمائة . وانميت المزروعات المروية بفضل السدود والاقنية . وساعد بناء خط توركسيب المعد لتصريف القطن نحو الشمال وتموين البلاد عن طريق سيبيريا ، على تسهيل التخصيص الذي جعل المساحة المزروعة قطناً في الجمهوريات الاربع ترتفع من اقل من نصف مليون هكتار الى مليون ونصف المليون . وتقدمت الصناعة النسجية ولاسيما صناعة الصوفيات والقطنيّات في اشقباد وفرغانا وستاليناباد وخوجند وتشارجوي وكيروفاباد وطشقند . وبات مجموع آسيا الوسطى منذئذ المركز الاول في الاتحاد لتعدين المعادن غير الحديدية .

بلدان المنطقة المتجمدة

امـا بلدان المنطقة المتجمدة ، فقد استفادت من مجهود منظم انتهى ، بفضل العزم العنيد ، الى خلق مراكز نشاط ما كان احد ليحلم بها من قبل . وكان استثمارها وتطويرها ثمرة اتعاب « معهد المنطقة المتجمدة »

و « مصلحة استكشاف الطريق البحرية الشمالية » التي استخدمت منذ السنة ١٩٢٢ عدداً كبيراً من علماء طبقات الارض ، وعلماء النبات ، وعلماء الحوادث الجوية ، والملاحين ، وعلماء آخرين كثيرين ، وزودتهم بالطائرات والبواخر المعدة لتحطيم الجليد ، فتوسعت بفضل استكشافاتهم معرفتنا للمنطقة القطبية وللقطب نفسه (بابانين) . واجتازت الـ « سيبيرياكوف » منذ السنة ١٩٣٢ ، والـ « تشليوسكين » منذ السنة ١٩٣٣ ، الجاز الشمالي الشرقي في رحلة واحدة ، فعُرفت مواطن الموارد المنجمية وأنشئت تحت سطح الارض (بغية تجنب اضرار الجليد في فصل الشتاء) مصانع لتوليد الكهرباء انتجت مليون كيلوات في شبه جزيرة كولا حيث اتاح اكتشاف فلوروفوسفات الكالسيوم في جبل « خيبني » تنمية صناعة هامة لانتاج الفوسفات . فقامت في هـــذا « الجو القمري » وفي هذه المنطقة الباردة مدينة صناعية تضم ٤٠,٠٠٠ نسمة ، هي كيروفسك ، التي انتجت الفوسفات والمعادن غير الحديدية . وعلى الشاطىء غدت مورمانسك مرفأ كبيراً ، وقد انشئت فيها ، بفضل خط لينينغراد - مورمانسك وقناة البلطيق - البحر الابيض ، منطقة صناعية عاشت من استثمار المناجم ، وصناعات خشبية وسلولوزية ومصانع لبناء السفن ، ومصانع لحفظ الاسمـــاك . وادى جهود العلماء الروس العنيد في توسيع نطاق المزروعات الغذائية أكثر فأكثر نحو الشمال الى نتائج هامة جداً، فبات الملفوف والجزر والبصل والبقول تنتج منذئذ ، في ما وراء الدائرة القطبية ، بكمية كافية لسدّ الحاجات المحلية . وانبتت البقول في مدافىء منشأة تحت الارض تنار بكهرباء تنتجها مراوح هوائية مثبتة فوق سطح الارض (لذلك قيل : « عواصف الشمال تنبت البقول ») . والى الشرق باتت اركانجلسك التي ضمت ٢٨١,٠٠٠ نسمة في السنة ١٩٣٩ (مقابل ٣٥٠٠٠ في السنة ١٩١٣) مركزاً صناعياً كبيراً ايضاً . وفي آسيا الشمالية ، عند الـ « ياقوت » الرحّل ، وفي اقصى الشمال الشرقي ، عنـــد الـ « كمشدال » والـ « تشوكتش » اخذت في الترعرع حضارة شمالية جديدة بفضل تعاونيات ضمت مربي الايليات والبقريات وساعدت على استقرار السكان ، ومحطات اشتاء انشئت على الشاطىء بغية اعداد النقل ، خلال فصل الشتاء الطويل ، الذي لا يمكن تأمينه الآ خـــلال اسابيع معدودة والذي يجري منـــذ السنة ١٩٣٥ بدون محطـــات اشتاء بين مورمانسك وفلاديفوستوك عن طريق المرافىء على مصاب الـ « اوب » و « ينيسايي » و « لينا » .

الفصل الثالث

قلب الأنظمة

في السنة ١٩١٨، كتب لينين ما يلي:

« الاشتراكية هي الغاء الطبقات . ولإلغاء الطبقات يقتضي أولاً قلب مالكي الأراضي والرأسماليين . لقد نفذنا هذا الجزء من المهمة ، ولكنه ليس سوى جزء وليس أصعب ما علينا تنفيذه . ولالغاء الطبقات يتوجب علينا ثانياً تحويل كافة العمال والفلاحين الى « عمال » ... »

كان « التوقف » ، الذي شكلته السياسة الاقتصادية الجديدة ، خطراً يهدد بالقضاء على النتائج الأولى التي حققتها ثورة تشرين الأول ، لأنه اتاح قيام طبقة المحتكرين البورجوازية المدنية وطبقة الكولاك الريفية ؛ ولكن هذه النتائج اصبحت نهائية بفضل سياسة التخطيط والتصنيع وتأميم الأرياف .

١ - النظام الاقتصادي الجديد

ليس هناك ما يشبه استثمار « القارة السوفياتية » ، من حيث اتساعه ، سوى استثمار القارة الاميركية ، ولكنه يختلف عنه ببعض المظاهر الاساسية . فهو اولاً عمل الدولة بدالة تصميم وضعته هي ، لا عمل افراد بدالة السعي وراء كسب مرتقب . واعطيت الأولوية لانتاج مواد التجهيز بحسب مفهوم معين للصالح العام ، ونظم الانتاج في مجموعه دونما اهتمام لدخل الافراد ولطاقتهم على الشراء . واخيراً اختلف النظام القانوني للملكية اختلافاً جذرياً : فبينما ارتكز الاقتصاد الرأسمالي الى الملكية والمبادهة الشخصيتين ، ارتكز الاقتصاد السوفياتي الى الملكية والمبادهة العامتين .

الملكية الاشتراكية والملكية الفردية

الغى الحكم السوفياتي الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وحول الى ملكية الدولة الارض والغابات والمناجم والمصانع والمصارف ؛ والى جانب هذا القطاع العام، سمح باستمرار قطاع خاص قوامه بعض استثمارات ، اما جماعية كالتعاونيات ، واما خاصة وفردية ، زراعية أو صناعية ، ترتكز

الى العمل الشخصي والتنافي واستثمار عمل الغير ؛ وقوامه كذلك الملكية الخاصة الـتي يحققها المواطنون بدخول عملهم . لذلك كان لحق الملكية الخاصة عند مواطني الاتحـاد السوفياتي دور « استهلاكي » في جوهره ، وهو يقوم باستخدام دخـل العمل والتوفيرات الممكن تحقيقهـا للاستحصال على مواد الاستهلاك والرفاهية : المساكن ، الادوات المنزلية الخ . فباستطاعـة الفرد « استثمار معمل صغير شريطة الا يستخدم فيه اي عامـل ، اي ان لا يحقق كسباً بفضل عمل شخص ثالث » ؛ هذه هي حال الحرف الصغرى ، كحرفة الحداد وحرفـة الاسكاف ، أو بعض التجارات الصغرى .

والملكية الشخصية « لا تشمل الا المواد التي تستخدم لسد الحاجات الفردية او العائلية » ؛ فوظيفتها ، كما حدّدها دستور السنة ١٩٣٦ ، هي سدّ حاجـات الفرد الشخصية وحاجات عائلته وتمكينه من بلوغ حياة ثقافية رضية . وحق ارث مواد الاستهلاك الشخصي والانتـاج الفردي من ثم حقيقة راهنـة ، فـ « المسكن والدخول والتوفـير وثمرة العمل والاقتصاد البيتي الاضافي وأدوات المنزل والأدوات الشخصية والترفيهيه » تدخل في هـذه الملكية الشخصية .

تأميم الأرياف

كان الهدف منه إعادة تنظيم الزراعة وفاقاً لأسس جديدة ، اعني بهـا ضم ملايين الاستثمارات الخاصة التي كانت تتناول مئات ملايين قطع الارض الصغرى على العموم ، والتي كانت تؤلف عائقاً في طريق تنمية زراعـة منظمة . ففي شهر كانون الاول من السنة ١٩٢٧ قرر المؤتمر الخامس عشر للحزب « الانتقـال الى الهجوم الاشتراكي » ضد الاقتصاد الفردي ، وتنمية القطاع الاشتراكي الذي لم يضم في السنة ١٩٢٨ سوى ٣٣٠٠٠ تعاونية تنتمي اليهـا ٣٧٠٠٠٠ عائلة (١,٥ بالمائة من الاستثمارات القروية) و ٤٠٠٠ مزرعة رسمية مثالية تضم ٦٠٠٠٠٠ عامل وتوفر بمجموعها بين ٣ و ٤ بالمائة من الانتاج الزراعي . وعند البدء بتنفيذ الخطة الخمسية الاولى ، دُفع بتنظيم التعاونيـات دفعاً سريعاً الى الامـام منـذ السنة ١٩٢٩ ، فاوفد ٢٥٠٠٠٠ عامل الى الأرياف بغية تشجيع تاسيسها وتسيير « محطات الآلات والجرارات » التي ستؤجر الفلاحين معداتها . ونجحت عملية التأميم لمصلحة المجموع ، التي منحت الفلاحين المنضمين الى التعاونيـات حق الاولوية في بيع الدولة حاجاتها ، نجاحاً كبيراً مطرداً ، ولا سيا في المناطق التي يزيد انتاجـها عن طلب السكان : اوكرانيا ، منطقة الفولغا الاسفل ، شمالي القفقاس ، القرم ، المناطق المجـاورة لموسكو ؛ وفي الوقت نفسه تعزز الهجوم على الكولاك : ضريبة تصاعدية ، مصادرة ممتلكاتهم ، نفي . وخلال شتاء ١٩٢٩ – ١٩٣٠ تقدمت عملية التأميم تقدماً ناشطاً ، وإنما برزت بوادر استياء كثـيرة . فطمأن ستالين الفلاحين في مقاله « النجاح ينفخ في رأسنا » ؛ فسمح للفلاحـين بالانسحاب من التعاونيات التي انخفض عددها – المتفاوت تفاوتاً كبيراً بحسب المناطق – الى نصفه بصورة عامة ؛ ثم تجدد التقدم في السنة ١٩٣١ ولم يتوقف بعد ذلك : فارتفع عدد المشاريع المؤممة من

٢٣٫٦ بالمائة في السنة ١٩٣٠ الى ٥٢٫٧ بالمائة في السنة ١٩٣١ ، و ٧١٫٤ بالمائة في السنة ١٩٣٤ ، و ٩٠٫٥ بالمائة في السنة ١٩٣٦ ، و ٩٦٫٩ بالمائة في السنة ١٩٤٠ .

في غضون هذه السنوات الاولى حدد التشريع شروط الاستثمار الجماعي : عمل بالقبالة بغية ارغام الكسالى على الانتاج، منع تأميم الابقار والحيوانات الداجنـــة الاخرى ، حق البيع في الاسواق حين تقدم التعاونية ما هو مطلوب منها . وفي السنة ١٩٣٥ صدر « نظـــام الشركة التعاونية الزراعية » : التعاونية حق التمتع الدائم بالأرض التي تملكهـا الدولة ، ولكل عضو حق تملك بيته وبستانه او مبقلته (بين ١/٤ هكتار وهكتار) وامتلاك بقرة او عدة عنزات . فلم يشمل التأميم من ثم المساكن والمواشي الصغيرة والحديقة القريبة من المساكن . وقد اختلفت التعاونيات اختلافاً كبـــيراً ، فاستثمرت بين ٥٠٠ و ٣٢٠٠ هكتار وضمت بـــين ٦٠ و ٢٠٠ عائلة .

اما المزارع المثالية الـ ٤٠٠٠ فمشاريع زراعية تملكها الدولة وتخضع لنظام شبيه بنظام الصناعات . وهي تؤلف استثمارات كبرى اذ ان مزرعة مثالية لزراعة الحبوب قـــد تبلغ بين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ هكتار ، ومزرعة مثالية لتربية المواشي قـــد تبلغ ٢٠٠٠٠ هكتار وتمتلك عدة آلاف من المواشي . كما انهـا تقوم بأعمال تخصيصية (قطن ، حنطة ، اغنـــام ، حليب وزبدة ، الخ.) وتعتمد الآلات المتوفرة لديهـــا ، وتؤلف اتحادات بحسب تخصصها . وقد ارتفعت مساحتهـــا من ٠٠٠ ٧٠٠ ١ هكتار في السنة ١٩٢٨ الى ٠٠٠ ٢٠٠ ١٣ في السنـــة ١٩٣٠ والى ١٦ مليوناً في السنـــة ١٩٣٦ ، ثم تدنت الى ٠٠٠ ١٠٠ ١٢ في السنـــة ١٩٣٨ (٨٫٩ بالمـائة من المساحات المزروعة مقابل ١٢٫١ بالمائـة) ، حين وزعت الحكومة اراضي بعضها على التعاونيات المجاورة ، فهبط عددها من ثم من ٤٣٣٧ في السنة ١٩٣٢ الى ٣٩٦١ في السنة ١٩٣٨ ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وضع العمال اخذ يشبه وضع التعاونيين حين منحوا حق تملك قطعة ارض صغيرة .

تنظيم التعاونيات

تحتل التعاونية من ثم المركز الاول بـين اشكال الاستثمار الزراعي . فهي تمتلك ، جماعياً ، الارض وابنية الاستثمار والآلات والماشية وكل ما ليس ملكاً شخصياً لعضو التعاونية كما حدده النظام . وفي داخل التعاونية يعدّ قواعـــد العمل مجلس الادارة المنتخب وتتبناها الجمعية العامة . ويقوم الاعضاء بعمل مشترك ، ولكن الريع يوزع عليهم بنسبة العمل الذي يأتيه كل منهم ؛ اما وحدة القيـــاس فهي « يوم العمل » الذي يوافق عدداً معيناً من الآرات المحروثة او كمية معينة من الحب المدروس . وقـد قسمت كافة الاعمال الزراعية الى سبع فئات عودلت بأيام عمل توجب على كل عضو تأمين حدّ ادنى منها يتراوح بين ٦٠ و ١٠٠ وحدة . وتجمع الآلات الزراعيـــة ، التي هي ملك الدولة ، في محطات الآلات والجرارات بمعدل واحـدة لثلاثين تعاونية تقريباً ، وتوضع بتصرف هـــذه التعاونيات مقابل فريضة عينية او نقدية .

يسلم الريع جزئياً للدولة التي تحدد قيمته وفاقاً لسعر تقرره ، ويخصص جزء من هذا الثمن لمكافأة خدمات محطات الآلات والجرارات ، وجزء آخر لشراء البذور اللازمة للتعاونية وجمع حبوب احتياطية ، ويوزع الباقي على الاعضاء بحسب ايام عملهم . فيستفيد عضو التعاونية من ثم من مكافأة عمله في الاستثمار الجماعي ومن انتاج الأرض والماشية الذي يعود له شخصياً والذي يستطيع بيعه بسعر حر اما في السوق واما في التعاونية ، ومن اجر العمل الذي قد يقوم به اما في القرية واما في المدينة .

التنظيم الصناعي

الدولة تملك وسائل الانتاج والمقايضة : المناجم والمصانع ووسائل النقل والمصارف ، كما تملك الارض ، وتسند ادارتها الى جماعات خاصة تنفذ موجبات الخطة . فالاقتصاد في هذا الحقل اشتراكي كله ، ان من حيث التملك وان من حيث اشكال الاستثمار .

اعداد الخطة

تتناول الخطط كافة نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الاتحاد . وقد بنيت كل خطة على دراسة دقيقة لكافة الموارد المستثمرة او الدفينة التي وضع بها جدول منظم ، ولحالة القوى الاقتصادية وامكانات نموها ، وهي تعد بالاتفاق مع الاقتصاديين والاختصاصيين في مختلف الحقول ، فهي « خطة ابعادية » ، اي انها ترسم برنامجا لفترة طويلة الاجل (٥ سنوات)– الطريقة الوحيدة لتحقيق تغييرات هامة في الانظمة– ، ولكنهاتنطوي في الوقت نفسه على خطط قصيرة الاجل (سنوية بصورة عامة) تعين الاهداف العملية الواجب بلوغها في آخر كل من السنوات الخمس ، او حتى في آخر كل فصل ، آخذة بعين الاعتبار الامكانات الجديدةالتي ترتسم خلال الاعمال ، بحيث يصبح التكييف الدائم امراً ممكناً .

فالحكومة ترسم التوجيهات والـ « غوسبلان » ، وهو مجرد جهاز فني استشاري ، يحدد مهام كل فرع من فروع الصناعة ، ثم تدرس اجهزة التخطيط الدنيا هذه المشاريع ، فترفع ملاحظاتها او مقترحاتها ، « التي ليست مجرد كتب بالموافقة » ، الى الـ « غوسبلان » الذي ينقح المشروع الشامل النهائي . حينذاك يؤمن صغار الموظفين تنفيذه تحت اشراف ورقابة الادارات المتخصصة المعروفة باسم « غلافكي » .

تعين الخطة كميات ونوعيات المنتوجات الاستهلاكية والتجهيزية المفروضة على كل فرع من فروع الانتاج وعلى كل دائرة اقليمية ، وطريقة توزيعها ، والنسبة الممكن تصديرها ، وتنطوي كذلك على نصوص خاصة بالتعلم بسبب الحاجة الماسة الى التقنيين والعمال الاكفاء ، وتحاول مراعاة النسبة بين تخصصهم وكفاءتهم وبين حاجات العمل .

ولما تعذر الاعتماد على قروض خارجية هامة لتوفير الاموال اللازمة عول في تمويل الخطة على فائض العمل القومي بشكل ضريبة على قيمة الاعمال ، وضريبة على الارباح ، وضريبة استهلاك ، ويرد ذلك الى ان القروض الخارجية واحتياطي الذهب والبلاتين (بضع مئات ملايين الروبيات) وزيادة دخل الصادرات بالنسبة الى الواردات (بضع عشرات الملايين) لم

تمثل سوى مبلغ زهيد جداً . فضحي من ثم برفـــاهية السكان على مذبح رفاهية اجيال المستقبل .

سير الخطة لكل مشروع مخططه الفني ومخططه الخاص المرتكز الى هذا المبدأ : « كل زيادة انتاج يجب ان يقابلهاتدني مستوى اسعار البيع بالتفصيل وزيادةحجم الاجور» .

وتتمتع المشاريع باستقلال حقيقي ومحاسبة مستقلة ، وتتصرف باموالها المتداولة الخـــاصة ، ولها محاسبتها الخاصة وحسابها الجاري في المصارف ، وتسدد ديونها ، فيا بينها ، بعمليات تقييم ومقايضة . ويجب ان يؤمن سيرها ارباحها دون ان تحتاج يوماً الى مساعدة مالية . ولكل منها مدير تعينه السلطة العليا او تعزله عند الاقتضاء ، ويتحمل مسؤولية نشاط مصنعه اداريـــاً وجزائياً. وينص قانون الجزاء على عقوبات صارمة يتعرض لها المهندسون والمديرون والمراقبون الفنيون المسؤولون « عن عمل تخريبي ضد الثورة ، او عدم تنفيذ واجبـــات معينة عن قصد وتصميم ، او اهمال مقصود في تنفيذها » ، وكذلك عن مخـالفات « النظام الاداري المرتكبة دون قصد مناهضة الثورة ، التي تزعزع مرتكز الدولة الاداري وطاقتها الاقتصادية » . فيتضح من ثم ان العقوبة تتناول سوء الادارة والاهمال وسوء النية والانتاج الدوني .

باستطاعة المصانع ومجموعات المصانع والاتحادات والوحدات الصناعية الحصول على اعتمادات قصيرة الاجل من مصرف الدولة ، وعلى اعتمادات طويلة الاجل ، لتموين الاعمال الكبرى ، من المصارف الخاصة : مصرف الصناعة ، ومصرف الزراعة ، ومصرف التجارة ؛ وهنالك ايضاً مصرف الاشغال العامة .ويكرس كل مشروع محصول بيع منتوجات مصانعه لدفع ثمن الخامات المشتراة والطاقة التي احتاج إليها عند الاقتضاء ، ولصيانة معداته ، ولدفع الضرائب والاجور وأقساط التأمينات الاجتماعية (وهي على عاتق المشاريع لا على عاتق الاجراء) وفقاً لنسبة مئوية تختلف باختلاف الصناعات ويبلغ معدلها بين ٦ و ٩ ٪ من الاجور .

وباستطاعة المشاريع من ثم — ومن واجبها — اذا ما احسنت ادارتها تخفيض أسعار الكلفة المقدرة في تخطيط الـ « غوسبلان » وتحقيق بعض الادخارات . وقد جاءت النتائج مختلفـــة باختلاف الصناعات ، ولكن اسعار الكلفة كانت في السنة ١٩٣٧ ادنى على العموم منها في السنة ١٩٣٢ بنسبة ٣٢،٥ ٪ في الصناعة الثقيلة ، و ٤٠ بالمائة في صنع الآلات ، و ٣٣ بالمائة في صناعة الفولاذ و ٣٢،٤ ٪ في استخراج الفحم الحجري .

موازنة الدولة هي ما يؤمن رؤوس الاموال والمساعدات بواسطة المصارف الخاصة ؛ فتمويل الاقتصاد من ثم يرتكز بمعظمه لا الى الادّخار الخاص الفردي بل الى الادخار الجماعي والالزامي اذ ان اكثر من نصف واردات الموازنة يصرف في هذا السبيل ؛ وتؤمن هذه الواردات الضريبة على مجموع المعاملات (٥٠ بالمائة في السنة ١٩٣١ و ٧١،٤ بالمائة في السنة ١٩٣٨) والضريبة على ارباح مشاريع الدولة (بين ٦ و ٨ بالمـائة من الواردات) ، والقروض من صناديق التوفير والقروض العامة (٦ بالمائة في السنة ١٩٣٧) .

اما الصناعة اليدوية فـــلا تلعب بعد اليوم سوى دور ثانوي ، اقله الصناعة اليدوية الفردية ، ولكن هنـاك صناعة يدوية تعاونية يؤلف فيها الخياطون والحذاؤون والحلاقون تعاونيات انتاجية ؛ اجل لا يخضع عملها لمخطط انتاجي ولكن نشاطها مراقب (لجهة نسبة الخامات الموزعة بنوع خاص) كي لا تتحول الى مشاريع رأسمالية تستخدم الاجراء .

التنظيم التجاري

التنظيم التجاري مخطط ايضاً ويتميز بالغاء الرأسمال التجاري الغاء كلياً . والتجارة الداخلية امـــا في ايدي الدولة واما في ايدي التعاونيات . الا ان تجارة الدولة لم تمثل في السنة ١٩٢٩ سوى ١٣ بالمائة من عدد المخازن و ٢٠ بالمائة من مجموع المعاملات التجارية ، فارتفعت هذه النسبة في السنة ١٩٣٧ الى ٧٤ بالمائة بفضل انضمام المئات من تعاونيات المستهلكين المدنيين . وابقي قسم هام من التجارة الريفيــة (١٥ بالمائة من تجارة التفصيل) للسوق التعاونية ٬– « سوق بدون تجار » –التي ارتدت طابع الفردية والمنافسة ، من حيث ان الباعة هم المنتجون انفسهم ، يصرفون في السوق المحلية المواد الغــذائية التي يحق لهم التصرف بها بحرية وبسعر يحدد بحرية ، ولكنه يكاد لا يختلف عن سعر مخازن الدولة باستثناء ايام الحاجة والفاقة .

كائناً من كان مالك المشروع التجاري ، الدولة او المشروع المؤمم او التعاونية ، فان البيع والشراء في اطار التخطيط كانا حرّين وكان ممكناً ان يوفرا الارباح او يجرا الخسائر . فهنالك من ثم سوق تنافسية . والكل يدفعون ضرائب على الارباح ومجموع المعاملات التجارية ويوظفون فوائد مالهم .

« لا تستطيع تكوين فكرة عن النظام التجاري السوفياتي الا بتأمل النظام التجاري في مدينة فرنسية صغرى وفرعيها « كوب » و « بوتين » (« ج. ررموف ») .

في تجارة الدولة تحدد الاسعار في الخطة وتكون الزامية للمشاريع البائعة والمشارية . وهي تتكون من حاصل عناصر ثلاثة : سعر الكلفة ، والضريبة على مجموع المعاملات ، والمبالغ التي تدخل في الاموال المعدّة التجميع(الفوائد المدفوعة للمصارف ، الكراء ، الخ.) ، ويضاف اليها زيادة تجارية . وكان من شأن عدم الحاجة الى نفقات الاعلان وضآلة اعباء الفوائد وانعدام المزاحمة في منطقة بيــع واحدة وضآلة عــدد المستخدمين العاملين في التجارة ، ان نفقـــات التوزيع لم ترفع الاسعار الا بنسبــة ٧ الى ٨ بالمائة تقريباً . ولما كان سعر الجمل وحده خاضعاً للتخطيط ، فكلما كانت نفقات الادارة قليلة تدنت أسعار بيع التفصيل وزادت الارباح. ولمـــا كان لمستخدمي المخزن نصيبهم من الارباح ، كان من مصلحتهم حصر كلفة التوزيع ؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الارباح التي حققتها الاجهزة التجارية كانت زهيدة جداً: ٢٢و. بالمائة في السنة ١٩٣٤ ؛ و ٦٤ ،.بالمائة في السنة ١٩٣٦ .فالتجارة السوفياتية هي تجارة لا تعمل « من اجل الربح بل من اجل المستهلكين» (بتلهايم). وفي السنة ١٩٣٤ اسند الى مفوضتين – تجارة داخلية وصناعة المواد الغذائية – مهمة الاشراف على التوزيع وتحديد الاسعار ورقابة مؤسسات

البيع بالتفصيل وادارة مخازن الدولة، مخازن البيع بالجمل ومخازن البيع بالتفصيل. وتأمن تموين منطقة معينة بجهاز خاص (تورغ) ، متخصص او غير متخصص ، يتمتع في اغلب الاحيان بالاستقلال المالي ويوزع المنتوجات بواسطة فروعه في المنطقة . وهناك بالاضافة الى ذلك مخازن كبرى ومخازن عامة للتغذية . والى جانب شبكة اجهزة الدولة هذه ، تمثّل تجارة البيع بالتفصيل في الارياف بمخازن تعاونية (سلبو) في القرية ومجموعات تضم بعض المخازن التعاونية الصغرى (ريزوبوز).

التقنين

تميزت سنوات التخطيط الاولى بنقص كافة المنتوجات تقريباً ؛ فاضطرت الحكومة الى الالتجاء الى التقنين كي تتمكن من تأمين السلع الضرورية لكل شخص . وقد اعتمد التقنين في موسكو في السنة ١٩٢٨ ، ثم شمل المدن الكبرى ، واخيراً شمل كافة انحاء الاتحاد السوفياتي ، وطبّق على كافة السلع المعتادة ، شرط التسجيل الالزامي في مخزن معين عرف باسم « المخزن المقفل » . وغالباً ما قامت ، الى جانب هذه السوق القانونية ، سوق غير قانونية ، غض النظر عنها حيناً وتعرضت لمكافحة قاسية حيناً آخر ، ارتكزت في معظم الاحيان الى المقايضة واستعمال الحلي والذهب والنقد الاجنبي . وبغية مكافحتها مكافحة فعّالة ، تأسست في السنة ١٩٣٢ سوق قانونية ثانية شملت مخازن عرفت بـ « المخازن التجارية » سمح بالشراء منها دون تسجيل ودون تقديم بطاقات ، ولكن بأسعار اعلى منها في المخازن المغلقة بصورة ملموسة ؛ وحين زال التقنين في السنة ١٩٣٥ ، لم يبق ما يميز بين السوقين . فكان هنالك في آن واحد ثلاث حلقات تجارية تختلف الاسعار فيها بعض الاختلاف : تعاونيات المشاريع او القرى (افضلها) واسعارها ادنى من اسعار التجارة العادية بنسبة ١٠ الى ١٥ بالمائة ، سوق التعاونيات الانتاجية المقتصرة على المواد الغذائية ، سوقا مخازن الدولة ذات الاسعار الحرة ومخازن الدولة ذات الاسعار القانونية المحددة . ولكن المواد الاستهلاكية لم تنتج يوماً بكمية كافية لسد كافة الحاجات نظراً لتزايد عدد السكان تزايداً اسرع من تزايد انتاج المواد الاستهلاكية ، مما ادى ، حتى بعد زوال التقنين في السنة ١٩٣٥ ، الى استمرار التباين بين العرض والطلب ، والى مساس الحاجة مساساً دائماً الى الاحذية ، والمنسوجات ، ولا سيما الألبسة . ولذلك عمدت الدولة الى الحد من طلب المستهلكين اما برفع اسعار البيع بالتفصيل وتخفيضها واما باللجوء الى السوق المزدوجة .

التجارة الخارجية –

اما التجارة الخارجية فقد أممت دون ان يترك فيها اي مكان للمبادهة الخاصة . فوزارة التجارة الخارجية هي ما تعد مخططات التصدير والاستيراد وتراقب نشاط « الوكالات التجارية المركزية » المتخصصة في تصدير بعض المنتوجات او الادوات ، التي يجب ان تجري بواسطتها كافة العمليات التجارية . ولا توجد وكالات تجارية خاصة بكل بلد الا التجارة – بشروط معينة – مع الشرقين الادنى والاقصى . فان هذه الوكالات ، التي تتمتع بالاستقلال المالي ، ممثلة باستمرار في الخارج بعملاء ، عرفوا باسم « الممثلين

التجاريين » ، يسهل معاملاتهم المالية مصرف الدولة او مصرف التجارة الخارجية او المصارف السوفياتية المؤسسة في الخارج (مصرف التجارة الروسية في لندن ، المصرف التجاري لاوروبا الشمالية في باريس ، الخ.) او المصارف الاجنبية التي تفتح الاعتمادات للمستوردين السوفيات ، واخيراً القروض الطويلة الاجل التي تعطيها بعض الحكومات الاجنبية للشراء من بلدانها (تشيكوسلوفاكيا في السنة ١٩٣٥ ، بريطانيا العظمى في السنة ١٩٣٦) .

صعوبات التطبيق

لم يكتمل مثل هذا التنظيم دفعة واحدة وبدون صعوبات جدية احياناً، ولم يتح الاختبار اصلاح اخطاء السنوات الاولى الا تدريجياً. فاشتراكية الصناعة قد تحققت عملياً خلال فترة الخطة الخمسية الاولى ، اذ هبطت حصة القطاع الخاص الى ٠،٥ بالمائة في السنة ١٩٣٢ بعد ان كانت ٥،٦ بالمائة في السنة ١٩٣٠ . اما تأميم الزراعة فكان اقل سرعة الى حد بعيد وقد اصطدم بمقاومات عنيفة من قبل الفلاحين الذين تعرضوا لتدابير قسرية وتسببوا في تأخير الانتاج وانقاصه احياناً ، ولا سيا في حقل تربية المواشي . وهي « محطات الآلات والجرارات » ، الموقع الستراتيجي الرئيسي للدولة في الارياف، ما سهلت تحقيق هذا التأميم بفضل رقابتها على الزراعة وعملها التنسيقي.

اصطدم تنفيذ الخطة الصناعية بصعوبات من نوع آخر اكثر تعقيداً الى حد بعيد ، فهي قد استلزمت تنسيقاً وثيقاً بين الخطط الجزئية المترابطة : خطة التمويل ، والتجهيز ، واليد العاملة ، والطاقة ، ووسائل النقل ، الخ. ، وكان ضرورياً ، كل سنة ، ان تصحح الخطة السنوية الخطة الابعادية وتكيفها وفاقاً للمتطلبات الجديدة والنتائج المحققة . والحال كان الكثير الكثير من اقسام الخطة الاولى قد رسم « تقديرياً » دون معرفة كافية بالشروط العامة لتنفيذها ، وانطوى تخطيط اسعار البيع بالجملة على عيوب كثيرة احياناً لانه لم يترك اي مجال لارباح المشاريع ، فحدث تشويش جزئي بين فروع الاقتصاد المختلفة مما ادى الى الفشل احياناً .

اضف الى ذلك من جهة ثانية ان تطبيق الخطة الاولى قد جرى بسرعة فائقة ادّت الى نهكة المستخدمين وخلق المعدات ، فبرزت عيوب في المصنوعات نجمت عن استثمار سريع وتقديرات خاطئة للموارد ، وحاجة الى المستخدمين الاختصاصيين او المعدات الضرورية ، وسوء توزيع في الاموال (بين مصانع غزل القطن ومصانع حياكته مثلاً) ، وعجز في بعض مراحل التنفيذ (ولا سيا في وسائل النقل) ، وسوء تقدير للحاجات . الا ان الخطة الخمسية الثانية توفقت الى ازالة هذه الصعوبات جزئياً . وحينذاك تعززت اللامركزية في هذه البلاد التي قامت احدى نقاط الضعف فيها في نقص وسائل النقل ، وفضّلت مصانع اكثر تواضعاً ودخلاً على المصانع « الجبارة » الاولى . وكانت هناك صعوبة اخرى غير مرتقبة : فخلال الخطة الخمسية الاولى ، بلغ التجاوز في خطة اليد العاملة نسبة ٥٠ بالمائة ، مما ادى الى تجاوز كبير في خطة الاجور تسبب في مزيد من التشويش بين ازدياد حجم الدخول الاسمية وزيادة حجم المواد الاستهلاكية المتوفرة في السوق التجارية .

بيد ان اجهزة التخطيط تكاملت تدريجياً يوماً بعد يوم ، ففي اوائل الخطة الخمسية الثالثة تيسّر تكييف التنظيم وفاقاً لقاعدة تتطور تطوراً دائماً ، ولانت اساليب ادارة الاقتصاد كما يثبت ذلك توسع الحاسبات المستقلة والتموّل الذاتي وانخفاض مساعدات الدولة . فان المشروع الذي اعتبر في الاصل « كمجموعة مهام حسية واجبة التحقيق » قد اخذ يتحول شيئاً فشيئاً الى مجموعة تدابير اقتصادية تضايق متطلبات الشخص اكثر فأكثر .

ولم يرسم تخطيط استخدام اليد العاملة بطريقة استبدادية بعد اليوم ، فقد كان حساب الاجور التفاضلي كافياً لاجتذاب اليد العاملة نحو فروع الصناعة الخاسرة ، كما اتاح تقدم المدارس والدروس التقنية التغلب على الصعوبات التي صودفت في البدء بسبب يد عاملة جاهلة آتية من الارياف وعاجزة عن تطبيق التقنيات الجديدة .

الاتحاد السوفياتي في الازمة الاقتصادية العالمية

بينما كانت الدول الاخرى غارقة في الازمة الاقتصادية الخطيرة التي ابتدأت في السنة ١٩٢٩ ، خلّص التخطيط واشتراكية الاقتصاد الاتحاد السوفياتي من نتائج الازمات الكلاسيكية : البطالة ، هبوط الاسعار ، تضخم الانتاج . فان الاقتصاد الروسي قد عمد – خلال اسوأ سنوات الازمة – الى توظيف رؤوس اموال كبيرة جداً ، واستخدم مزيداً من العمال وزاد انتاجه زيادة كبرى حين كان هذا الانتاج آخذاً في الهبوط في كافة البلدان الاخرى . وفي العالم اجمع لم تجد منتوجات الزراعة والصناعة من يشتريها ، لا لأن الحاجات كلها كانت مشبعة ، بل بسبب عدم توفر طاقة الشراء الكافية للاستحصال عليها ، فالبطالة كانت نتيجة استخدام التقدم التقني والتنظيم اللذين خفضا عدد الاجراء ، فحدّا من عدد المستهلكين ، وأدى هذا الحد بدوره الى تفاقم البطالة . اما الاتحاد السوفياتي ، الذي توفرت له موارد عظيمة في ارضه وباطن ارضه ، فقد تمكن في آن واحد من تحسين تقنياته وانتاجيته واستخدام كافة عماله ورفع مستوى الاستهلاك تدريجياً .

في الحقل الصناعي احرز الانتاج تقدماً عظيماً ، ففي السنة ١٩٣٢ ارتقى الاتحاد السوفياتي الى المرتبة الثانية بين البلدان الصناعية ، ويبدو ان هذا الارتقاء كان سريع الزوال ، لان المانيا تفوقت عليها بسرعة مرة اخرى بفعل نشاط صناعات التسلح ، إلا ان روسيا توفقت في السنة ١٩٣٩ الى احتلال مرتبة القوة الكبرى الثالثة بصورة نهائية ، قبل بريطانيا العظمى وفرنسا ؛ وقد بلغ انتاجها آنذاك ٤٪ انتاج المانيا .

هل يعني ذلك ان الازمة العالمية لم تترك انعكاساً على تطور الخطط ؟ ان الأزمة قد شوشت تشويشاً خطيرا النتائج المقدّرة للخطة الخمسية الاولى باهباطها الصادرات الى ما دون المعدل المرتقب او المرتجى ؛ فبات لزاماً ، من اجل استيراد معدات التجهيز الضرورية ، اللجوء الى احتياطي الذهب والنقد الأجنبي ، وعلى الرغم من ذلك بقيت المعدات المستوردة دون تقديرات الخطة . لذلك فان الحصة المقدرة للتجارة الخارجية في الخطة الخمسية الثانية قد خفضت تخفيضاً

هاماً لا بالنسبة للسنوات السابقة فحسب بل بالنسبة للسنة ١٩١٣ التي لم يُبلغ سوى ½ مستواها. فاضطر الاقتصاد السوفياتي من ثم الى الانعزال اكثر فاكثر والاتجاه نحو مزيد من الاستقلال عن التجارة الخارجية ؛ ففي السنة ١٩٣٩ بلغ من هبوط هذه الاخيرة انها لم تمثل سوى ١٫٠٣ بالمائة من التجارة العالمية بينما بلغ الانتاج الصناعي ١٢ بالمائة (في السنة ١٩١٣ : ٤ بالمائة من الانتاج الصناعي ، و ٣ الى ٤ بالمائة من التجارة العالمية) .

عبء التسلح

في حقول اخرى ، زادت الازمة العالمية من حدة التوتر بين الدول فتركت اثراً عظيماً في تطور الاتحاد السوفياتي . فمنذ ان اصبحت النازية سيدة المانيا ، اتضح الخطر الذي خشيه الاتحاد السوفياتي ابداً . وكانت النتيجة الطبيعية لتعزيز الاقتصاد الحربي الالماني ارغام الاتحاد على بذل مجهود عسكري عظيم . وعلى نقيض ردود الفعل الضعيفة والبطيئة في الدول الغربية امام الخطر الالماني ، عمد الاتحاد السوفياتي دون تأخر الى زيادة نفقاته العسكرية ؛ ومنذ السنة ١٩٣٥ بلغت هذه النفقات ثلثيها في المانيا الى ان بلغت خمسة اسداسها في السنة ١٩٤٠ ، اي ان المجهود السوفياتي كان مساوياً للمجهود الالماني ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار طاقة الاتحاد الصناعية .

لا شك في ان الأموال الطائلة التي استلزم توظيفها انتاج الاسلحة هذا ووجوب تخزين كميات كبرى من المنتوجات الغذائية والمواد الخام ، لمواجهة حرب محتملة، وتعزيز الجيش الاحمر بانتزاع ملايين الشبان من الصناعة والزراعة ، قد زادت صعوبات تنفيذ الخطط . وعلى نقيض هتلر الذي جمع جنود جيشه وعمال مصانعه الحربية من بين ملايين البطالين ، اضطر الاتحاد السوفياتي الى جمعهم من بلاد لم يكن فيها بطّال واحد. وكانت النتيجة تأخراً في انتاج مواد الاستهلاك(عينت الخطة الخمسية الثالثة الهدف الواجب بلوغه في السنة ١٩٤٢ في حقل المنسوجات بمستوى ادنى من المستوى الذي قدرته الخطة الثانية في السنة ١٩٣٧) . وبلغ من نقص اليد العاملة ان التدابير قد اتخذت لاستقرارها وتأمين تعبئتها : منذ السنة ١٩٣١ عقدت اتفاقات مع المزارع المؤممة لتقديم عدد من العمال بأجر محدد لفترة تتراوح بين ستة اشهر واثني عشر شهراً؛ وفي السنة ١٩٣٨ بلغ عدد مثل هؤلاء العمال ١ ٥٠٠ ٠٠٠ ؛ وفي هذه السنة نفسها، وبغية الحد من ابطال العقد من طرف واحد ، وضعت « بطاقة » تدون فيها ظروف انتهاء الاستخدام الاول . ونظمت الاجازات المدفوعة وخدمات الضمان الاجتماعي ؛ وفي حزيران من السنة ١٩٤٠ ، تحولت الصناعة الى انتاج المعدات الحربية ، وحدد يوم العمل بثماني ساعات بدلا من سبع ساعات ، وحظرت مغادرة العمل بدون اجازة . ونُظم في شهر تشرين الاول – بغية اعداد مسؤولين يشرفون على الاعمال – « احتياطي عمل » يضم بين ٨٠٠ الف ومليون شاب تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة، يلحقون بمدارس فنية حيث تتعهدهم الدولة وتعلمهم وتدربهم على نفقتها ؛ وكان عليهم بعد ذلك العمل طيلة اربع سنوات في احد المصانع او احد المشاريع ، فيعفون بالمقابلة من كل واجب عسكري. يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المفوضيات الصناعية

منحت صلاحيات مطلقة لنقل العمال والفنيين الى حيث تمس الحاجة اليهم .

الدخل القومي

اتاحت انطلاقة الانتاج الصناعي وزيادة الدخل القومي مواجهة هذه النفقات العسكرية الباهظة. وقد قدر « كولين كلارك » ارتفاع الدخل القومي للشخص العامل الواحد من ١١٧ في السنة ١٩٢١ الى ٢٩٠ في السنة ١٩٢٨ ، و ٣٧٩ في السنة ١٩٣٧ ، وهو ارتفاع اسرع منه الى حد بعيد في الدول الأخرى ، وان بقيت النسبة في هذه الدول اكثر ارتفاعاً (للسنة ١٩٢٨ والسنة ١٩٣٦ أو ١٩٣٧ ، ١٠٩٠ و ١٢٧٥ في بريطانيا العظمى ، ٢٩٣ و ٣٣٧ في اليابان ، ٦٧٥ و ٧٤١ في المانيا) ، في حين هبطت في الولايات المتحدة من ١٥٥٧ الى ١٤٨٥ وفي فرنسا من ٧٢٩ الى ٦٤١(في السنة ١٩٣٤). وعلى الرغم من هذه النجاحات الجبارة فان الاتحاد السوفياتي كان في السنة ١٩٤٠ ابعد من ان يدرك منافسيه .

اذا كان هدف الاشتراكية « تأمين اشباع حاجات المجتمع المادية والثقافية المتزايدة تزايداً دائماً بتنشيط واتقان الانتاج الاشتراكي ابداً على اساس تقنية رفيعة » (ستالين) ، جاز لنا القول ان هذا الهدف لم يتحقق تحققاً كاملاً قبل السنة ١٩٤٠ وان توزيع المنتجات مع مراعاة اذواق المستهلكين لم يكن ممكناً في يوم من الايام ، وذلك بسبب الاخطار الخارجية وارتفاع عدد السكان والفرق المتعاظم بين الاجور المتزايدة ومواد الاستهلاك التي لم يرتفع حجمها بالنسبة نفسها .

٢ – النظام الاجتماعي الجديد

تحديد الاجور

ليس شكل البلاد المادي ما تحول فحسب ، بل المجتمع ايضاً . فان الاقتصاد السوفياتي ، الذي لم يكن بعد اقتصاداً شيوعياً ، لم يحاول تطبيق المبدأ القائل : « من كل شخص بحسب طاقاته الى كل شخص بحسب حاجاته » . والى ان يمكن تحقيق مجتمع يتقاضى كل شخص فيه اجره عينا ودون اي تحديد سوى حاجاته ، يجرى توزيع مواد الاستهلاك بدالة القيمة الاجتماعية التي ينطوي عليها العمل المؤدى للجماعة . وقد سبق للينين ان لفت الانتباه الى ما يلي:

« الزعم باننا سنجعل كافة البشر متساوين فيا بينهم كلام اجوف وبلاهة اغباء » ؛ ثم قال ستالين موضحاً : « المساواة في كافة حاجات الحياة الخاصة بلاهة برجوازية رجعية خليقة بشيع النساك القديمة ، لا بمجتمع اشتراكي منظم تنظيماً ماركسياً ، لاننا لا نستطيع ان نفرض على الناس ان تكون لهم حاجات واحدة وأذواق واحدة وان يعتمدوا في حياتهم الشخصية معياراً معيشياً واحداً » .

فعدم المساواة في مكافأة العمل هو من ثم القاعدة ، وسلم الاجور غايته تشجيع الانتاجية والمساعدة على ترقية العمال . وقد قال ستالين في السنة ١٩٣١ :

« لن تتحقق زيادة الانتاج الصناعي الا بوضع سلم للدخول يبرز الفوارق بين العمل الاختصاصي والعمل غير الاختصاصي ، وبين العمال المتمرنين والعمال المبتدئين » .

ولكن الاجر ، خلافاً لمفهومه في الاقتصاد الرأسمالي ، اي « ثمن طاقــة العمل المبيعة في سوق العمل » ، هــو « نتيجة توزيــع القسم القابل الاستهلاك من الدخل القومي بنسبة العمل الذي ينجزه كل شخص » . ويجري هذا التوزيــع بناء على « مخطط اجور » يوازن بين حجم الاجور الموزعة في كافة حقول الاقتصاد وبين حجم – وثمن مبيع – المواد الاستهلاكية : يحدد « مال الاجور » لكل صناعة ولفروع الاقتصاد المختلفة بدالة عدد العمال في كل منهــا ، ومستواهم التقني ، وانتاجيتهم ، والصعوبات الخاصة التي قد تعترضها ، وينفذ العمل بعد ذلك بين المصانع بواسطة اتفاقات جماعية ، اما عامة (معقودة بين الوزارات او الادارات المركزية الصناعات المختلفة وبين النقابات المحلية) ، وامــا محلّية (معقودة بين الاجهزة والنقابات المحلية) ، توزع في كل مشروع الاموال المخصصة لعماله . وتعقد هذه الاتفاقات لمدة سنة ، اي انها تدخل في صلب الخطط السنوية وتعدّل بدالة تقديرات السنة . امــا موظفو ومستخدمو الادارات الذين يتقاضون اجورهم مباشرة من موازنــة الدولة ولا ينتسبون لمؤسسات تتمتع بالاستقلال المالي ، فهم الوحيدون الذين لا تشملهم العقود الجماعية .

عناصر الاجر

يتألف الاجر من ثم من عــدّة عناصر : الاجر الاســاسي ، المكافآت ، الاجر الجماعي . ويؤلف « الاجــر الاسمي الاساسي » الحد الادنى اللازم للمعيشة ويؤمن لكل شخص سبل الحصول على المنتجات والخدمات الضرورية له . هذا هو اجر القبالة الذي اصبح هــو القاعدة منذ السنة ١٩٣١ (٨٠ ./. في السنة ١٩٣٥ و ٩٠ ./. في بعض الصناعات) . ويختلف هذا الجزء من الاجر لا بحسب كمية ونوعية العمــل المنجز فحسب ، بل بحسب طبيعــة الاعمال (المتفاوتة مشقة وظروفاً صحية) والكفاءة الشخصية وحاجات اليد العاملة ايضاً ، بحيث يُجتذب العمال نحو فروع الصناعة المفتقرة اليهم . ويتوزع العمال على ثماني فئات اولاها فئة العمال المبتدئين العاديين واخيرتها فئة العمال الاكفاء جداً ، ففي سنوات الخطة الاولى كانت النسبة بين هاتين الفئتين القصويين نسبة ١ الى ٢،٨ ، وفي السنة ١٩٣١ اتسعت الفوارق بين الفئتين وارتفعت النسبة الى ٣،٦ (في فرنسا : خمس فئات كانت النسبة بين درجتيها القصويين نسبة ١ الى ١،٧٠) . وبصورة عامة كاد متوسط الاجر الاسمي يتضاعف خلال كل من الخطط الخمسية ، مرتفعا من ٩٢٩ روبية في السنة ١٩٢٩ الى ١٥٧٩ في السنة ١٩٣٣ ، و ٢٩٠٠ في السنة ١٩٣٧ ، و ٤٠٦٧ في السنة ١٩٤٠ . اما الاجر الحقيقي فلم يسلك الطريق الصاعدة نفسها ، وربما بدا ، كما يقول بتلهايم ، ان ارتفــاع الاجر الحقيقي كان بنسبة ٢٥ ./. بينما ارتفعت اسعار البيع بالتفصيل الى اربعة اضعافها خلال الفترة نفسها . كما يبدو ، بعد السنة ١٩٣٧ ، ان هذا التحسن اصبح اكثر ظهوراً وانه ربما بلغ ٣٠ ./. .

يضاف الى هذا الاجر الادنى مكافأة انتاج حين يتخطى العامــل المستقل او الفريق الذي

ينتسب اليه المعدل المحدد ، وهي مكافأة تصاعدية بحيث يتضاعف الاجر ، كما في المناجم مثلاً ، اذا بلغت نسبة تخطي المعدل ١٠ بالمائة ، ويرتفع الى ثلاثة اضعافه اذا بلغت ٢٠ بالمائة ، الخ . وهناك طريقة اخرى للمكافأة تأخذ بعين الاعتبار نوعية الانتاج ، بحيث ترتفع المكافأة اذا كانت هناك نسبة معينة من القطع المنتجة « غاية في الجودة » . ويضاف اليه كذلك مكافآت اقدمية تستهدف استقرار اليد العاملة ، قد تبلغ ١٥ بالمائة بعد مرور ٥ سنوات ، و ٣٠ بالمائة بعد مرور ١٥ سنة . وباستطاعة العمال اخيراً تقاضي حصة من ارباح المشروع الذي يعملون فيه . وكان هذا التوزيع سهلاً في التعاونية الزراعية او المصنع اليدوي ، ولكن عمال الصناعة الثقيلة استفادوا منه اما بشكل فوائد يقدمها لهم المشروع وتدخل في الاجر الجماعي ، واما بشكل مكافآت فردية تحدد قيمتها النقابات نفسها . ففي الحقيقة يشمل الاجر قسما لا يُقبض نقداً ، هو « الاجر الجماعي » المتساوي للجميع الذي يكفي الانتساب الى جماعة للاستفادة منه . الا انه ينطوي على الرغم من ذلك على بعض التفاوت لأن هنالك ، الى جانب الاجر الجماعي الذي هو واحد في كافة انحاء الاتحاد ، « اجر المشروع الجماعي » الذي تغذيه ارباح المشروع . ويشمل هذا الاجر معاش التقاعد في سن الخمسين ، وبعد عشرين سنة عملاً للنساء ، وفي سن الخامسة والخمسين وبعد خمس وعشرين سنة عملا للرجال ، وهو مساو لنصف الاجر الاخير ، وقد يبلغ الـ ٦٠ بالمائة في بعض فروع الاقتصاد ، والعناية الطبية المجانية ، والمعالجة الوقائية ، وخدمات الامومة ، والتعويضات العائلية منذ السنة ١٩٣٦ للعائلات التي تضم سبعة اولاد على الاقل (لثلاثة اولاد منذ السنة ١٩٤٤ ، حين اقرت في الوقت نفسه منح ولادة) ، واجازات الامومة ، والاجازات المرضية ، والملاجىء النهارية للاطفال ، والمخيمات الصيفية ، والتعاونيات ومحلات بيع المأكولات والمشروبات ، والاجازات (بين ١٢ و ٤٨ يوم عمل بحسب طبيعة العمل ، مع اضافة تتراوح بين اسبوعين و ٣٦ يوماً للحرف الشاقة : عمال المناجم وعمال مصانع الفولاذ والتعدين ، وبين ٢٤ و ٤٨ يوماً للعمال المثقفين ، و ٤٨ يوماً للهيئة التعليمية) ، والنوادي والمكتبات والمسارح والملاعب الرياضية ، الخ . وان هذه الفوائد ، التي كانت في السنوات الاولى نظرية اكثر منها حقيقية ، تمثل في السنة ١٩٤٠ زهاء ٣٠ بالمائة من الاجر الاسمي ، وسوف تزداد اهمية يوماً بعد يوم ، حتى اذا ما مثلت ١٠٠ بالمائة من الاجر يكون المجتمع الشيوعي قد تحقق .

اما اجور مستخدمي التجارة والمكاتب وصغار الموظفين فقد حددت بالاستناد الى قواعد الاعمال المأجورة الاخرى نفسها ، ولكن معدلها ادنى من معدل اجور فئات العمال الاخرى ، ففي السنة ١٩٣٩ كانت تتراوح بين ١٠٠ روبية شهرياً لادنى البائعين اجرا شهرياً و ٢٠٠ الى ٣٠٠ روبية لمدير المتجر او المكتب ، وكان يضاف اليها مكافآت نسبية لمدخول المبيعات .

وحددت اجور المهندسين والمستخدمين الفنيين استناداً الى القواعد نفسها التي حددت بموجبها

اجور العمال ، مع سلم تصاعدي ومكافآت انتـــاج قد تضاعف الاجر الاسمي . وعلى العموم تقاضى المستخدم الفني المبتدىء اجراً يفوق اجر العامل الاختصاصي . فاذا تقاضى العامل غير الماهر ١٠٠ ، فان العامل يتقاضى بين ١٠٠ و ٣٧٠ ، ورئيس العمال بين ١٥٠ و ٤٠٠ ، والمهندس المبتدىء بين ٢٠٠ و ٦٠٠ والمهندس المدرب بين ٣٠٠ و ١٠٠٠ ، ومـــدير المشروع الصغير بين خمسمائة و الف ، ومدير المشروع الكبير بين ٨٠٠ و ٢٠٠٠ ، اي بنسبة ٢٠ الى ١ . وحـددت اجور العلماء والمهندسين المشتغلين في المختبرات استناداً الى القواعد نفسها ايضاً وبالنسبة عينهـا مع امكانية تقاضي مكافآت تعادل الفوائد التي يمكن ان يجنوهـــا ، في البلدان الاخرى ، من براءات الاختراع، فتتراوح مرتباتهم من ثم بين المعدل ٤ والمعدل ٢٥ الاستثنائي (بالنسبة للعامل غير الماهر) . وبصورة عامـــة « يمتاز وضع الفنيين عن وضع اقرانهم من الاجـــانب » (ج. روموف) . أما مرتبات كبار الموظفين والقادة ، وهي ادنى من مرتبـات ارفع الفنيين رتبة ، فتبلغ المعدل ٢٥ بالنسبة للمستخدم المبتدىء ، ويصل بعض كبـــار الموظفين الى المعدل ٣٠ . وتفرض على الاجور ضريبة تصاعدية متفاوتة تمثــل ٢١ بالمائة من مرتب موظف اعزب يتقاضى ١٢ الف روبية .

اما ذوو « المهن الحرة » ، من اطباء ومحامين ، فموظفون ايضاً، وهم يتقاضون مرتباً يوافق ، فيما خص الطبيب ، خمس ساعات عملاً ويختلف باختلاف المكان وقيمة الشخص الذي قـــد يتقاضى عدة مرتبات (في عدة مشاريع معاً مثلاً) ويقبض بعض المكافآت .

الفئـات الاجتماعيـــة

منذ ثورة تشرين الاول تأكد الهدف الاخـير للحزب الشيوعي وهو خلق مجتمع بدون طبقات . فقد شُرع في تصفية الطبقات المتسلطة منذ تشرين الاول بالقضاء على قوتها السياسية ، ثم قضى نزع الملكية قسراً على طبقـة الملاكين العقاريين والبورجوازية الكبرى ، واخيراً وجه الانتصار على مناهضي الثورة ، خلال الحرب الأهلية ، ضربة قاضية لكل ما تبقى منها . بيد ان تصفيتها لم تكن في السنة ١٩٢٨ لا كاملة ولا نهائية لان السياســـة الاقتصادية الجديدة اتاحت لبورجوازية جديدة من المحتكرين والكولاك ان تبرز الى الوجود بسرعة ، فلم يتبدل نظام المجتمع السوفياتي من ثم تبدلا نهائيـاً الا بفضل سياسة التخطيط . ففي السنة ١٩٢٨ كان العمال والمستخدمون يمثلون ١٧ بالمائة من المجتمع ، وفلاحو التعاونيات الزراعية ٣ بالمائة ، والمستثمرون الفرديون والصناعيون اليدويون غير المنتسبين الى التعاونيات ٧٣ بالمائة ، والعناصر البورجوازية (محتكرون وكولاك) ٥ بالمائة، وباقي السكان (الجيش والطلاب وذوو المرتبات ، الخ .) ٢ بالمائة . وبعد انقضاء عشر سنوات اصبح ٩٠ بالمائة من السكان عمالاً ومستخدمين(٣٥ بالمائة)وفلاحين(٥٥ بالمائة)يشتغلون في قطاع الدولة الاشتراكي وفي التعاونيات الزراعية، ولم يمثل المستثمرون الفرديون والصناعيون اليدويون آنذاك سوى ٦ بالمائة ، وتلاشت الفئة البورجوازية ، وارتفعت نسبة العناصر المختلفـــة ، من

طلاب وجيش ، الخ. ، الى ٤ بالمائة. فالفئتان الاساسيتان من ثم هما العمال والفلاحون، ويجب ان يضاف اليهما فئة ثالثة هي فئة المثقفين . وقد خفت فوارق ما قبل الثورة بين هذه الفئات الثلاث ، ولكن بعضها ما زال قائماً . وقد نجمت في الدرجة الأولى عن وجود شكلي ملكية : ملكية الدولة وملكية التعاونيات . فالعمال يشتغلون ، بصورة حصرية ، في اطار مشاريع الدولة (مناجم ، معامل ، مصانع ، محطات الآلات والجرارات ، مزارع نموذجية كبرى ..)، ويكافأون على اتعابهم بشكل اجور ، بينما يقوم الفلاحون ببعض عملهم في اطار ملكية التعاونيات الجماعية (التعاونيات الزراعية) وبالبعض الآخر في اطار الملكية التي يتمتعون بها شخصياً ، ويكافأون على اتعابهم باجور عينية او باجور نقدية توفرها لهم مدخول تعاونياتهم ، ويكلونها بالمواد الزراعية التي تنتجها اراضيهم الخاصة . وكانت نتيجة ذلك — بين العمال والفلاحين — اختلافات في العقلية وفي مستوى التقدم التقني والثقافي . فمن العمال ، الذين اشتركوا منذ البدء في النضال الثوري ، وتنظموا نقابات منذ ابعد من ذلك ، قد استسهلوا النظام الاقتصادي الجديد ، بينما حافظ الفلاحون على مثالية وسيكولوجية صغار الملاكين . الا ان الفوارق خفت حدتها مع الاجيال الطالعة : فان العمل في التعاونية الزراعية قد خلق فيما بينها ذهنية مشتركة بين العمال والفلاحين ، واسهم اعتماد الآلات بصورة خاصة في تبديل مفهوم الفلاح تبديلا جذرياً ، اذ انه قد قرّب العمل الزراعي من العمل الصناعي بالتجهيزات التقنية المشابهة اكثر فاكثر التجهيزات الصناعية ، وبادخال الاساليب والمعارف العلمية . وفي السنة ١٩٤٠ كان اعتماد الآلات في العمل الزراعي قد احرز تقدماً عظيماً : فقد بلغت نسبة اعتماد الآلات في اعمال الحقول (حراثة ، إسلاف ...) ٦٦,٦ بالمائة في زراعة الحبوب الربيعية ، و ٨٢,١ بالمائة في الزراعات الخريفية، و ٥٢,٤ بالمائة في البذر الربيعي و ٥٣,٤ بالمائة في البذر الخريفي ، وفي هذا التاريخ ايضاً ، جُمع ٤٢,٦ بالمائة من الحبوب و ٧٧,٦ بالمائة من الشمندر بواسطة الآلات . وكما يلاحظ ذلك « هنري اردان » ،

« يفرض ارتفاع المعدل العام لانتاج الحنطة ، من ٧ قناطير في الهكتار قبيل الحرب العالمية الاولى الى قرابة ١٢ قنطاراً قبيل الثانية ، ارتفاع مستوى الفلاح التقني ارتفاعاً يلفت الانتباه » .

وهكذا اصبح عدد كبير من الشبان الفلاحين فنيين مهرة فتمثلوا اكثر فاكثر بالعمال بفضل ثقافتهم وظروف عملهم . وأخذت تتلاشى الفوارق بين سكان القرية وسكان المدينة .

وتألفت الفئة الثالثة في المجتمع السوفياتي من العلماء والفنيين والاساتذة والاطباء والبياطرة، الخ . وقد أسهم التعليم الابتدائي الالزامي ، والمدرسة الوسيطة المؤلفة من ٧ الى ١٠ صفوف ، والتعليم العالي ، اسهاماً كبيراً في زيادة أفرادها ، كما ان دروساً قد اقيمت في المشاريع الكبرى والتعاونيات الزراعية بغية اتاحة الفرصة للعمال والفلاحين ، في اية فترة من حياتهم ، لتوسيع معارفهم العلمية وتمكين كفاءتهم المهنية . فارتفع عدد الطلاب في التعليم العالي من ١١٢٠٠٠ في السنة ١٩١٤ الى ١٧٦٠٠٠ في السنة ١٩٢٩ و ٦٥٧٠٠٠ في السنة ١٩٤١ . واذا ما استندنا الى

الارقام الواردة في احصاء السنة ١٩٣٧ ، كان في الاتحـاد آنذاك ١٧٥٠٠٠٠ رئيس للمشاريع والمؤسسات الادارية والمعاهد الثقافية، الخ.بينهم ٣٥٠٠٠ مديرلمشاريع صناعية، وكان هناك من جهة ثانية ٢٥٠ الف مهندس ومهندس معمـاري ، و ٨١٠ آلاف فني متوسط الاختصاص في الصناعة . كما كان هنالك ايضاً ٨٧٢ الف عالم اقتصادي واحصائي ، و ٥٨٢ الف رئيس تعاونية زراعية ومدير مزرعة لتربية المواشي في الحقل الزراعي،و ١٩ ألف مدير مزرعةنموذجية ومحطة آلات وجرارات ، و٨٠ألف مهندس زراعي و ٩٦ الف فني متوسط الاختصاص في الزراعة ، فيكون المجموع زهاء ٥ ٪ من السكان المتعاطين عملاً من الاعمال .

ودون ان يكون هناك مجال الكلام عن قطاع ثالث ليس اقل اهمية منه في البلدان الاخرى، فمن الثـابت اطراد نمو فئة الفنيين والاداريين وكل من لا يأتي عملاً يدوياً . فهل يسعنا القول والحالة هذه اننا امام بورجوازية جديدة في طريق التكون ، او امام « طبقة حاكمة » تتألف من كافة المسؤولين عن ادارة الاقتصاد الذين قد يميلون الى جمع السلطة السياسية بين ايديهم ؟ ام اننا امـام عناصر من الطبقة العمالية والقروية يقومون اليوم بوظائف اقصوا عنها في ظل العهد القديم،ويحتفظون باتصال وثيق بالبيئة التي انحدروا منها، وأنواع المعيشة نفسها وطرائق التفكير نفسها والمثل العليا نفسها ؟ كل ما يسعنا قوله ان الكثيرين من هؤلاء « المطوقين بطوق ابيض » ابعد من ان ينتسبوا الى الفئات التي تتقاضى الاجور المرتفعة وان تسلسل الاجور والتمييز بين الوظائف لا يبدوان منتهين الى استتباع تمييز بين مستويات المعيشة وارتفاع الحواجز المماثلة لها في البلدان الرأسمالية .

مستويات المعيشة

فالفرق في الاجور من ثم كبير جداً بين فئات العمال المختلفة ، وفاقاً لكفاءتهم ومنحة الانتاج والاقدمية التي يتقاضونها ، وبين الصناعات، وبين المـدن الكبرى والصغرى ، ولكن الفرق في المستويات ، كما يلاحظ ذلك « م. سوفي » اقل بروزاً بفعل وجود حركتي بضائع احداهما تتيح الحصول بأسعار معتدلة على الكميات التي تقابل الحد المعيشي الادنى ، والثانية التي لا يمكن الحصول فيها على البضائع نفسها الا بسعر اكثر ارتفاعاً الى حد بعيد ، وبفعل ندرة المنتجات « البذخية » ايضاً .

ونظراً الى نقص العقارات المبنية بسبب الدمار الذي تركتـه الحرب وتزايد سكان المدن ، كانت المساحة الموضوعة بتصرف العائلة الواحدة محدودة بنسب تختلف باختلاف المناطق والمهنة، اي ١٢ م٢ للعامل العادي ، و ١٦ م٢ للعامل المحكم ، و ٣٠ م٢ للمهندس . واختلف السعر الاساسي للمتر المربع باختلاف الاجور بحيث لا يتجاوز ١٠ بالمائة لأفضل الاختصاصيين ، اي بين ٤ و٨ بالمائة على وجه متوسط . وتثبت مؤلفات « ررموف » والموازنات النموذجيـة التي وضعها ان الكلفة ضئيلة نسبياً فيما خص الكراء والتدفئة والاضاءة والانتقـال ، وان المواد الضرورية للتغذية تحـافظ على مستوى متوسط ، ولكن الاسعار ، فيما خص المنتجات غير الضرورية ، ترتفع ارتفاعاً عظيماً ، اما الملابس فباهظة الاثمان . ونادراً ما يتناول العـامل

وجبة الطعام الممول عليها خارج محلات بيع المأكولات في المشاريع ، وتختلف كلفتها باختلاف وضعه المادي . و « بمقدور العامل ان يعيش حياة محترمة اذا ما تقاضى ٦٠٠ روبية ، وحياة كريمة اذا ما تقاضى ٩٠٠ روبية » (ج. روموف) . وان المقـــارنات المجراة بين مستويات المعيشة السوفياتية والفرنسية تسمح بالاستنتاج (المقبول في السنة ١٩٥٣) ان مستوى معيشة عامل الصناعة السوفياتي ادنى بقليل من مستوى عامل الصناعة الفرنسي (١٠ بالمائة تقريباً) وانه يوافق العزّاب ولا يوافق العائلات ، ولكن المساعدات غير المباشرة المقـــدمة للعائلات الكثيرة الافراد تعيد التوازن الى حاله .

الفصل الرابع

النظام السياسي الجديد

منذ ثورة تشرين الاول حتى الحرب العالمية الثانية ، خضعت روسيا لثلاثة دساتير متعاقبة – ١٩١٨ ، ١٩٢٤ ، ١٩٣٦ – قلبت التنظيم القديم واقامت دولة جديدة ، اتحادية ، متعددة القوميات لاوحدوية ، ديموقراطية لا استبدادية ، ولكنها مبنية على مدلول للديموقراطية يختلف كل الاختلاف عن المدلول التقليدي .

ترد مميزات النظام ، في مرحلة الانتقال هذه نحو الشيوعية الكاملة ، الى الظروف التاريخية التي بني فيها وتوطد وتما . فمنذ ان اوضح لينين في السنة ١٩١٧ وضع الاتحاد على حقيقته : « ان جمهورية الاتحاد السوفياتي حصن يحاصره الرأسمال العالمي .. لذلك كان من حقنا ومن واجبنا تعبئة كافة السكان لمواجهة حرب محتملة » ، اعتبر الاتحاد نفسه وكأنه يعيش تحت خطر الحرب الدائم . وهذا ما يفسر بعض مواقف حكوماته ، كالتخلي المؤقت عن بعض الاهداف ، والدكتاتورية وتطبيقها الواقعي على الظروف غير المرتقبة الناجمة عن اتفاق الظروف الاقتصادية او السياسية العالمية . فالمؤسسات المعتمدة هي من ثم اختلاط ابتكارات اوحتها المبادىء الماركسية اللينينية وتمهد الطريق لتحقيق الشيوعية ، ومؤسسات مؤقتة فرضتها الظروف ويجب ان تزول حين يُبلغ الهدف .

١ – الاطار السياسي

الدولة المتعددة القوميات

كان احد مواطن الضعف في الامبراطورية القديمة الجور الذي عانت منه القوميات غير الروسية الخضعة لنظام روسيا الكبرى المركزي ، مضطهد تقاليدها ولغاتها واديانها . لذلك اسهمت هذه القوميات اسهاماً ناشطاً في الازمة الثورية ، وقد اثار تردد الحكومة المؤقتة حركات انفصالية شجعها الاجانب تشجيعاً متفاوتاً ، الالمان اولا والحلفاء من بعدهم . فكانت مسألة القوميات من ثم غاية في الاهمية ، على الصعيد النظري والصعيد العملي على السواء . وكان لينين ، قبل الحرب بزمن بعيد ، قد دافع عن

مبدأ حق الشعوب بحرية تقرير مصيرها ، لان من شأن هذا الحق وحده ان يفضي الى « انصهار حر وطوعي » . ولكنه كان مقتنعاً بأن تحقيق الاشتراكية يستلزم دولة مركزية السلطة ، فلا يمكن من ثم ان يكون النظام الاتحادي سوى وسيلة لوقف موجة الانفصالية التي خلفتها الثورة، او « احد اشكال الانتقال على طريق الوحدة » . ومنذ السنة ١٩٢١ ، اشار ستالين ، مفوض شؤون القوميات ، الى وجه حل المسألة :

« في الحقيقة تنحصر المسألة القومية ... في إزالة تأخر القوميات(اقتصادياً وسياسياً وثقافياً)الذي ورثناه عن الماضي بغية السماح للشعوب المتخلفة باللحاق بروسيا المركزية من الجهة الدولية والثقافية والاقتصادية » .

منذ نهاية ثورة تشرين الاول ، اذاع مجلس مفوضي الشعب « ميثاق امم روسيا » الذي اعترف بمساواة شعوب روسيا وسيادتها وحقها في تقرير مصيرها ، بما فيه حق الانفصال ، وإبطال الامتيازات الممنوحة لبعضها ومبدأ حرية نمو الاقليات القومية والعنصرية . ومنذ هذا التاريخ اعار الحكم البلشفيكي الفئات الاسلامية انتباهاً خاصاً ، فوجّه الى كافة مسلمي روسيا والشرق إعلام يطمئنهم الى ان معتقداتهم وعاداتهم و « مؤسساتهم ... القومية ... والثقافية هي بعد اليوم حرة ومصونة » . واتُّخذت في الحال تدابير تستهدف ازالة آثار الاستعمار ، فأقصي المهاجرون القوزاق المستعمرون عن مناطق اورنبورغ وسميرتشيه وقازاخستان واقليم الجمهورية التشلشينو– انغوشيه ، واعترف باللغات البلدية لغات رسمية في الجمهوريات المستقلة استقلالاً اداريا ، وتأسست جامعة عمال الشرق في موسكو ، كما تأسست فروع لها في اشكباد وطشقند وباكو . ثم كلما توطدت السلطة السوفياتية المركزية وتراجع التدخل الاجنبي، تحولت القوميات التي كانت قد اعلنت استقلالها الى « جمهوريات اشتراكية سوفياتية » وانضمت الى « جمهورية مجالس السوفيات الروسية الاشتراكية الاتحادية » التي تأسست في السنة ١٩١٨ ، وارتبطت جمهوريتا اوكرانيا وروسيا البيضاء ، وجمهوريات اذربيجان وجيورجيا وارمينيا – التي اتحدت والفت جمهورية ما وراء القفقاس الاتحادية – الى الجمهورية الروسية لتؤلف معها ، في السنة ١٩٢٢ ، « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » المنفتحة لكل دولة ترتدي طابع جمهورية اشتراكية سوفياتية . والى هذه الجمهوريات الاربع انضمت جمهوريتا اوزبكستان وتركمانستان في السنة ١٩٢٤ وجمهورية تاجكستان في السنة ١٩٢٩ . وفي السنة ١٩٣٦ سيكون هنالك ١١ جمهورية متحدة بعد انضمام جمهوريات قازاخستان وكرغيزيا وجمهوريات اتحاد ما وراء القفقاس الثلاث (الذي حُلّ) و ٢٢ جمهورية و ٩ مناطق مستقلة استقلالاً ادارياً و ١٢ اقليماً قومياً.فاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية هو من ثم دولة اتحادية تألف منجمهوريات اتحادية تضم داخل اراضيها جمهوريات واقاليم مستقلة استقلالاً ادارياً . وقد قامت فيها كلها المؤسسات نفسها،وكان لكافة سكان الاتحاد ، الى اية منطقة انتسبوا ، الحقوق نفسها والواجبات عينها .

دولة اتحادية ولكنها على كثير من المركزية

ان هذا الاتحاد ، المنشأ على النحو المذكور منذ السنة ١٩٢٤ والمحدد في دستور السنة ١٩٣٦ ، قد نُظّم على غرار كافة الدول الاتحادية في العالم : حكومة اتحادية تمسك بزمام السلطة في الشؤون المشتركة التي يتولاها مفوضون (ثم وزراء) الشؤون الخارجية والتجارة الخارجية ، والحرب والبحرية ، والنقل ، والبرق والبريد ، وادارة الدولة السياسية ، والخطط الخمسية بما فيها اعداد الخطة والاشراف على تنفيذها . وبقي في ايدي الحكومات المحلية : القضاء والادارة الداخلية ، والتعليم العام ، والصحة والخدمات الاجتماعية ، وكلها شؤون قد تصدر بها للحكومات المذكورة توجيهات عامة من الاتحاد .

اجهزة الحكم هي : مؤتمر سوفيات الاتحاد الذي ينعقد اقله مرة كل سنتين ، لجنة الاتحاد المركزية التنفيذية (تسيك) وقد اصبحت مجلس السوفيات الاعلى ، التي ينتخبها المؤتمر وتجتمع مرتين في السنة وتتألف من مجلسين متساويين في الحقوق ، مجلس سوفيات الاتحاد (المنتخب بنسبة سكان كل جمهورية او اقليم) ومجلس سوفيات القوميات الذي يمثل ـ بعدد متساو من النواب – الجمهوريات المتحدة (٥ نواب ثم ٢٥ لكل منها) والجمهوريات المستقلة استقلالاً ادارياً (١ ثم ٥ لكل اقليم) ، على اساس مجلس لكل جمهورية او اقليم ، مما جعل العنصر السلافي اقلية . وينتخب المجلسان رئاسة مجلس السوفيات الاعلى المؤلف من ٢٧ عضواً (مكتبا المجلسين و ٩ اعضاء آخرين ينتخبهم المجلسان) ، وهي اشبه برئاسة دولة جمعية تمارس بالفعل الوظائف الحكومية بتفويض صلاحيات مجلس السوفيات اليها تفويضاً دائماً خلال الفترات التي تفصل بين دورة وأخرى وتشبه امتيازاتها امتيازات رئيس الولايات المتحدة . اما مجلس مفوضي الشعب ، او « سوفنار كوم » ، فمرتبط برئاسة مجلس السوفيات الاعلى وبمجلس السوفيات الاعلى .

فالنظام الاتحادي السوفياتي ، من ثم ، « يتعلق بالاجهزة اكثر من الاختصاصات » اذ ان صلاحيات الحكومة الاتحادية واسعة جداً وصلاحيات السلطات المحلية محدودة . وان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية هو في الواقع دولة يغلب فيها طابع المركزية على الرغم من ان لكل دولة دستورها واجهزتها الخاصة .

ان هذا النظام الاتحادي المحدود اتاح للقوميات المحافظة على لغتها وتقاليدها الثقافية ، ومكّن من اجراء الاختبارات المحلية في الحقل الاجتماعي ودرجات التعلم الثلاث التي ارتبطت (باستثناء التعلم العالي) بالجمهوريات . وبفضل اتساع الاراضي وكثرة المهام الملقاة على عاتق السلطات العامة ، تمتعت الاجهزة المحلية بحرية عمل كبرى . ولذلك فان النظام الاتحادي « يرتبط بسياسة متلاحمة وحاذقة ، وحازمة اذا اقتضى الامر ، انطوت على احترام القوميات وتنميتها » (ر . بنتو) .

انطلاقة القوميات

حيال هؤلاء السكان انتهج النظام الاستعماري القيصري ، تسانده الاقلية المستأثرة بالاراضي ، اما سياسة تمثيل حيث استقر المستعمرون السلافيون بأعداد كبرى ، واما سياسة لامبالاة واهمال حين يكون هؤلاء السكان منعزلين .

منذ الايام الاولى وجد النظام الجديد حلا للمسألة الزراعية – وهي شغل الجماهير الشاغل – وعمل كذلك على ازالة التفاوت في التطور الفكري والاقتصادي ، وضمـــان تطور السكان الفكري في اطار كل ثقافة من الثقافات القومية ، والمحافظة على لغتهم وعـــاداتهم المحلية ، بينما سعى على الصعيد الاقتصادي لانهاض الاقاليم المتخلفة . وقد اعلن ستالين في السنة ١٩٢٥ مايلي:

« بروليتارية في مضمونها وقومية في شكلها ، تلك هي الثقافة الانسانية الشاملة التي تسير نحوها الاشتراكية . فالثقافة البروليتارية لا تلاشي الثقافة القومية بل تقدم لها مضمونها » .

ولذلك فقد شجع تطور القوميات الثقافي بتأسيس المدارس والصحف وبطبع الكتب باللغة الام ؛ وبمقدار بلوغها درجات معينة من الوعي ، تُرقى الى مرتبة الاقليم المستقل اداريا (هـذه هي حال الشركس في السنة ١٩٢٨) او الجمهورية المستقلة استقلالاً اداريا (« الـ موردف ») او الجمهورية الاتحادية (تاجكستان).وحين يسمح المستوى الفكري بذلك « تبلـد »الاقاليم» فتحل اللغة المحلية محل الروسية في الادارة والقضاء والمدرسة ، ويزداد عـــدد البلديين في الوظائف الادارية تزايداً مطرداً . وتلقن الدروس ، التي كانت تلقن من قبل باللغة الروسية في الجامعات ، بلغة روسيا الصغرى ولغة روسيا البيضاء واللغة الجيورجية في كييف ومنسك وتفليس . وتحل الاسماء التاريخية القديمة او القومية محل الاسماء الروسية : فـ «ايكاترينوغراد» تصبح ماركستادت عند المان الفولغا وتحمل عاصمة تركانستان اسم اشكباد القديم . وتُبتكر كتابة واحدة عنـد اكثر القوميـــات تخلفاً وبعداً ، التي لم تكن لغاتها سوى لهجات لفظيـــة . وتوضع قواميس واجروميات لاستعمال الكاريليين الذين لم يكن لهم لغة مكتوبة . وللمرة الاولى في التاريخ تنشر كتب باللغة البورياتية ، واللغة الراكاسية (لغة اتراك التاي) . وتجمع المؤلفات الشعبية المنقولة في كتب وتترجم الى اللغة الروسية كما تترجم الى اللغات القومية مؤلفات الادب العالمي الكبرى، وتولد آداب قومية عند هذه الشعوب التي لم تعرف الكتابة نفسها حتى ذاك التاريخ والتي تنتج مؤلفات تستحق الاعتبار ، كسيرة جانسي كيمونكو ، المكتوبة بقلمه «على ضفاف السوكباي» حيث يصف المؤلف معيشة اخوانه ، الـ « اوديغه الرحـــل » ، القناصين والصيادين في اقصى سيبيريا الشمالية الشرقية . وتنشأ المسارح باعداد كبرى وتشجع الفنون البلدية . وهكذا تنطلق الآداب السوفياتية غير الروسية انطلاقة كبرى ، الادب الارمني بفضل اسحاقيان ، والأدب القازاخستاني بفضـــل « اوازوف » و « جبول جابابيف » ، والادب الجيورجي بفضـــل « لورد كيبانيانزه » ، والادب التسفي بفضل « سليمان ستالسكي » ، والادب الكاراكلباكي بفضل « كوربانباي » ، والادب الاوزبكي بفضل « نافوي » ... ووضعت كتب مدرسية في السنـــة ١٩٣٦ باللغات البلدية الثلاثة عشر لاستعمال القوميات الثلاثة عشر في المناطق المتجمدة الشمالية .

واسست في هذه المناطق مراكز ثقافية تضم مـدارس ومستشفى وفرع طب بيطري .. كما اعتمد فيها تعليم متنقل لمرافقة البدو الرحل ، « الاخبية الحمراء » .

وفي اذربيجان ، حيث لم يوجد سوى ١٨ مدرسة قبل السنة ١٩١٣ ، احصي ٢٠٠٠ مدرسة في السنة ١٩٤٠ ، واصبح هناك ٦٦ معهداً للابحاث العلمية واكاديمية علوم في باكو ، واصبح عدد تلامذة المدارس في جيورجيا ٨٠٠ الف بعد ان كان ١٥٧ الفا، واصبح عدد المدارس في جمهورية اجيرستان (باتوم) المستقلة استقلالاً ادارياً ٢٥٠ مدرسة لـ ١٦٠ الف نسمة . وفي اوزبكستان تدنت نسبة الاميـين من ٩٧ - ٩٨٪ الى ٣٢٫٢٪ في السنة ١٩٣٩ . وكانت لكل من طشقند وسمرقند جامعتها التي ضمت ١٢ معهداً و ٤ كليات في الاولى، و ٥ معاهد و ٥ كليات في الثانية، وارتفع عدد التلامذة في الجمهورية من ١٧ الفا الى اكثر من مليون ؛ وفي كيرغيزيا كذلك ، تدنى عدد الاميين بين السنة ١٩١٤ والسنة ١٩٤٠ من ٩٨٪ الى ٣٠ ٪ . وارتفع عـدد التلامذة من ٨ آلاف الى ٣٢٧ الفا ، وتأسست جامعـة في «فرونزيه» . واصبح في قازاخستان ٦٠ الف طالب وزهاء ٢٥٠ صحيفة باللغة القازاخستانية مقابل صحيفة واحدة في السنة ١٩١٣ .

كانت نهضة الحضارات القومية وسيلة لمكافحة الأمية ، ولكنها كانت كذلك وسيلة لرفع مستوى الشعوب غير الروسية وتأمين المساواة في قلب الاتحاد تأميناً فعلياً .

حل المسألة الاستعمارية

يعود الفضل في الدرجة الأولى الى تنمية اقتصاد هذه الجمهوريات بتحويلها من مستعمرات الى جمهوريات متشاركة ترتكز المساواة في الحقوق فيها الى أساس اقتصادي متين بفضل سياسة اللاحصرية الصناعية التي تمشت عليهـا الخطط ، ولا سيا الخطة الثالثة منها. فقد رافق المجهود الجبار الذي بذل لرفع المستوى الفكري والثقافي فيها تنمية اقتصادها التي هي شرط تحقيقه الاكبر .

رضع تأميم الأراضي حداً للحقد الذي تولد بين البلديين والمستعمرين الروس ؛ وكان للتصنيع كذلك دور اكثر فعالية بصهره السكان ، وبخلقه حاجة كبرى لليد العاملة ، وبدفعه البلديين الى التحصيل العلمي : هندسة ، ادارة ، فن ، وبتسهيله تقدم الرفاهية وارتفاع مستوى المعيشة . ولم تعد هذه الاقاليم مناطق استثمار استعماري لتزويد الوطن الام بالخامات ؛ فقد اخذت تحوّل منتجاتها اكثر فاكثر يوماً بعد يوم، واتاحت لها الخطوط الحديدية الجديدة استثمار كافة مواردها. وكان نموها اسرع منه في اوروبا ، كما ان الاموال الموظفـة فيها كانت اضخم منهـا في الجزء الاوروبي من الاتحاد الى حد بعيد . ففي السنة ١٩٣١ ، لم تبلغ زيادة موازنة الجمهورية الروسية الا ٣١٪ بالنسبة للسنـة ١٩٣٠ ، بينما ارتفعت موازنة اوزبكستان بنسبـة ٦١٪ وموازنة تركمانستان بنسبة ٨٧٪ وموازنة تاجيكستان بنسبة ١٠٨ ٪ . لذلك عرفت كل هذه البلدان «تحولاً يسبب الدوار بسرعته » جعلها تدخل اقتصاد الاتحـاد نهائياً على قـدم المساواة . فاستطاع « ج. باراكلو » ان يكتب ما يلي : « اثبت اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ان مسألة القوميات قابلة الحل على صعيد المساواة الاقتصادية » ، واضاف الى ذلك قوله « انه ادى لسكان

المناطق المتجمدة الشمالية والقفقاس ، خلال ربع قرن ، خدمة اجل من تلك التي اداها البريطانيون الهند اثناء احتلال دام قرابة قرنين » .

اذا تحققت المساواة بين الافراد ، فالواقع هو ان المساواة بين الثقافات واللغات كانت نظرية اكثر منها حقيقية لان العنصر الروسي قد حافظ ، في الحياة الاقتصادية والسياسية ، على تفوق عددي ودور قيادي امنا لغته مركزا مسيطراً ، هو مركز الثقافة العلمية والتقنية ، يضاف اليه انها كانت الرابطة اللازمة بين كافة القوميات ولغة التعلم الالزامية في المرتبة الثانية بعد اللغة الام .

تطور النظام السياسي

انبثق التنظيم السياسي للاتحاد السوفياتي من الفكر الماركسي واللينيني ، ولكن مصادره الايديولوجية اقدم عهداً ، نجدها عند جان جاك روسو في الدستور الجبلي (١٧٩٣) ، وعند سان – جوست وبابوف ، وعند كل اولئك الذين شدّدوا على الطابع الخادع الذي ترتديه المساواة النظرية في الحقوق التي تنادي بها الديموقراطية السياسية وانتهوا الى ان هذه المساواة لا يمكن ان تكون فعلية الا اذا انتقلت السلطة الاقتصادية من ايدي بعض الافراد الى ايدي الدولة ، اي الى ايدي الجميع . وهي الاشتراكية وحدها ما تستطيع تحقيق هذه المساواة فعلياً ، لانها « تبقي على كافة الحريات السياسية ، ولكنها تزيل الحريات الاقتصادية المزعومة » التي ليست سوى « وسائل سيطرة في ايدي اقليات مقتدرة » . «وهي تضمن حرية الجميع بحماية الضعفاء ، وتضمن المساواة بتأمينها للجميع المساواة في الامكانات على الاقل » .

كيف تُحقق الاشتراكية وشرطها اللازم ، المجتمع بدون طبقات ؟ لقد اشار لينين الى ذلك في كتابه « الدولة والثورة » الذي وضعه في ايام ثورة تشرين الاول وعرض فيه بقوة المبادىء التي ستطبق . على البروليتاريا ان تقوم بثورة عنيفة وتستولي بنتيجتها على آلة الدولة (جيش ، شرطة ، وظائف ادارية) وتتحول الى طبقة مسيطرة ، اي تفرض دكتاتوريتها ، وليست هذه الاخيرة غاية في حد ذاتها بل وسيلة فقط يتوقف عملها حين تزول الطبقات القديمة صاحبة الامتيازات وحين تتوطد الاسس الاقتصادية للاشتراكية . هذا هو النظام الذي أقره ، في عهد شيوعية الحرب ، دستور السنة ١٩١٨ ، دستور النضال الذي وضع اسس الاقتراع العام ، ولكنه حرم الطبقات الحاكمة القديمة ومؤيديها من حق الانتخاب ، واعطى بروليتاريا المدن ، وهي دعامة النظام الرئيسية ، تمثيلا اوفر عدداً من التمثيل الذي اعطاه سكان الارياف . وتنتخب مجالس المندوبين (المدنية) على درجتين ومجالس المندوبين الريفية على ثلاث درجات مجلس مندوبي كافة المناطق الروسية الذي يعين بدوره اللجنة المركزية التنفيذية ، التي تؤلف الـ « سوفناركون » . وبعد الانتصار ، وحين تأمن انضمام السكان غير الروس ، اسس دستور السنة ١٩٢٤ دولة اتحادية لها مجلسها الاعلى المؤلف من مجلسي القوميات والاتحاد ولجنتها المركزية الادارية ورئاسة مجلسها الاعلى ، ولكنه أبقى على النظام الانتخابي غير المتساوي .

ومرد ذلك الى ان الأهمية العددية والاقتصادية لجماهير الفلاحين الذين وقفوا موقفاً حذراً من التأميم ، وعزلة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المحاط ببلدان معادية قد فرضتا على النظام عدم الثقة بكل من لم يعلن اخلاصه الصريح له . وبصورة خاصة كان التصنيع السريع المشروع فيه ، *بالنسبة للنظام* ، مسألة حياة او موت ، ولا يمكن تحقيقه الا بتضحيات كبرى يفرض بذلها على الشعب بكليته وتستلزم سلطة مركزية حازمة . وقد احسن « هارولد لاسكي » إظهار منطق الطريقة المتبعة التي افضت الى الابقاء على الدكتاتورية وتعزيزها :

« كان من الواجب ، في هذه البلاد الواسعة الآهلة بأكثرية قروية امية ، ان يفرض على السكان نظام تستطيع الدكتاتورية وحدها تأمينه ... وربما كان الاقضاء عن استمرار وجود طبقة كبرى من الكولاك المعادين التدابير التقنينية التي استلزمتها سياسة التصنيع خطراً كبيراً عتوماً على هذه السياسة . وكل من يتذكر الثمن الباهظ الذي دفعته اوروبا الغربية لثورتها الصناعية وقرأ ما اثارته من اعتراضات عنيفة يستطيع تكوين فكرة عن طابع الجسامة الذي ارتدته محاولة الزعماء السوفيات . ولست اعتقد ان تحقيقها كان ممكناً ، بعد اقرارها ، بوسائل ديموقراطية . فان حكومة ترضى بالخضوع لانتخاب شعبي ثان على اساس التضحيات التي فرضها البلشفيك ، ستقصى كلياً ، بدون اي ريب ، عن السلطة ؛ وبالنظر الى الهدف المطلوب تحقيقه ، كان الحقل الداخلي ، بصرف النظر عن غيره ، يستلزم اعتماد الدكتاتورية » .

وليس من باب الاتفاق من ثم ان تصادف الخطط الخمسية في الزمن دكتاتورية ستالين والحزب الشيوعي .

بعد مرور اثنتي عشرة سنة ، ارسخ نجاح الخطط ، وتصفية الكولاك والمقاومات الرأسمالية الاخيرة « اركان النظام ارساخاً نهائياً » ، واتاحا له ادخال نصوص جديدة في دستور السنة ١٩٣٦ : اصبح الاقتراع شاملاً بالفعل ومتساوياً للرجال والنساء بعد سن الثامنة عشرة ، دون اي استثناء لاي شخص ، وتماثلت الحقوق الانتخابية في المدن والارياف ، وبات الاقتراع سرياً ومباشراً لانتخاب نائب عن ٣٠٠ الف نسمة لمدة ٤ سنوات ، واعطي الناخب حق طلب عزل النائب « خادم الشعب » ، اذا لم يسلك بمقتضى وكالة ناخبيه . وقدمت الترشيحات على لائحة واحدة تضم « الشيوعيين وغير الحزبيين » والمنظمات الاجتماعية وجمعيات العمال » .

عدد الدستور اخيراً الحقوق الاساسية المعترف بها للمواطنين وواجباتهم : الحق في العمل ، الحق في الاستراحة ، الحق في الضمان المادي في سن الشيخوخة وفي حالة المرض والعجز عن العمل ، الحق في التعليم ، مساواة المرأة ، مساواة المواطنين دون تمييز في القومية او العرق ؛ حرية المعتقد ، وكافة الحريات السياسية ، حرية التعبير عن الرأي ، وحرية الصحافة ، وحرية الاجتماع . اما الواجبات فهي احترام الدستور وقانون العمل و « الواجب الاجتماعي » و « نظام الحياة في المجتمع الاشتراكي » ، وحماية الملكية الاجتماعية وارساء قواعدها ، والخدمة العسكرية للدفاع عن البلاد .

الحزب الشيوعي

نحن في الحقيقة امام « مجتمع ديموقراطي تحكمه دكتاتورية » ، هي دكتاتورية الحزب الشيوعي . فان المادة ١٢٦ من دستور السنة ١٩٣٦ حين تعدد المنظمات الاجتماعية التي يحق للمواطنين السوفيات تأسيسها او تنميتها بحرية : النقابات المهنية ، الاتحادات التعاونية ، الجمعيات الثقافية ، المنظمات الرياضية ، الخ. ، انما تكرس امتياز الحزب باعلانها ان « اكثر المواطنين وعياً في الطبقة العمالية وطبقات الفئة الاخرى تتحد في الحزب الشيوعي الذي هو طليعة العمال » . وتوافق « دكتاتورية البروليتاريا » التي يمارسها الحزب الواحد المذهب الماركسي الذي ليست الاحزاب السياسية في نظره للتعبير عن نزعات ايديولوجية ومفاهيم عقلية ، بل عن نزعات جماعات ذات صوالح اقتصادية هي الطبقات ؛ وان زوال هذه الاخيرة ، الذي يجر وراءه زوال كل خصومة اجتماعية، يجعل من النافل قيام احزاب متميزة . وتبررها كذلك متطلبات مرحلة الانتقال الراهنة نحو الاشتراكية : فطالما لم يبن المجتمع بدون طبقات ، اي طالما يوجد هناك خطر انبعاث الطبقة البورجوازية ، فان الطبقة العمالية التي استولت على السلطة لا تستطيع الاحتفاظ بها ، ما لم تنتزع – بسلطة مستبدة – من الطبقات صاحبة الامتيازات وسائل العمل الكثيرة التي توفرت لها منذ قرون وقرون .

فما هي وظيفة الحزب ؟ انها في الدرجة الاولى اختيار الخاصة الجديدة التي سوف تؤول اليها زعامة الامة ، واعدادها لوظيفتها القيادية . وهي في الدرجة الثانية رقابة اجهزة الدولة وبعث نشاطها واستثبات ولائها . وهو الحزب اخيراً ما يبقي المسؤولين على اتصال دائم بالجماهير : فبواسطة خلاياه وفروعه الكثيرة يطلعهم على حالة الرأي العام وردود فعله ويتحاشى بذلك ان يبتعد النظام عن الشعب . اضف الى ذلك انه يؤمن ، في كل وسط من اوساط الشعب ، تعميم التوجيهات الصادرة عن المراجع العليا ويشرح معناها وضرورتها للجماهير .

اختيار اعضائه

الحزب الشيوعي هو من ثم « العنصر الاساسي الاول في قاعدة النظام السياسي الروسي » . وقد تميزت لجماحاته بتعاقب ارتفاع وتدني عدد اعضائه تعاقباً دورياً ، بفعل حرص رؤسائه المسؤولين على ان يقصوا عنه ، بين حين وآخر ، العناصر غير المرغوب فيها التي تمكنت من التسلل اليه . ففي السنة ١٩١٧ ، حين خرج من الخفاء ، كان عدد اعضائه ٨٠ الفاً ، وفي شهر آب من السنة نفسها ارتفع هذا العدد الى ٢٤٠ الفاً وبعد ثورة تشرين الاول ، اطرد ارتفاع هذا العدد الى ان بلغ ٢٧٠ الفاً في شهر آذار من السنة ١٩١٨ ، ولكن مؤتمره الثامن المنعقد في شهر آذار من السنة ١٩١٩ اوجب « اعادة تسجيل الاعضاء » فكان ذلك بمثابة عملية تطهير اولى ؛ ثم نُظّم في آخر السنة « اسبوع الحزب » اي اسبوع اختيار ناشط رفع عدد الاعضاء الى ٣٠٠ الف في شهر آذار من السنة ١٩٢٠ ، والى ٧٣٢٥٢١ في شهر آذار من السنة ١٩٢١ بينهم ٤١٪ من العمال ، و ٢٨,٢٪ من الفلاحين ، و ٣٠,٨٪ من المستخدمين . واندس بين الاعضاء « بعض صغار البورجوازيين وسواهم ممن لا يؤمنون بالروح الشيوعية » ، و « الوصوليين » ، و « العناصر البيروقراطية » من عادمي

الاستقامة » والمترددين » والمتشيك » والمتنعين » والخاتلين » ؛ وفي السنة ١٩٢١ اجريت عملية تطهير جديدة خفضت العدد بنسبة ٢٥ بالمائة تقريباً ، وحدد المؤتمر الحادي عشر للحزب ، في شهر آذار من السنة ١٩٢٢ ، شروط الانتماء التي ميزت بين الصناعيين اليدويين والفلاحين الذين لا يستثمرون عمل الغير ، وبين الجنود والعمال المنتسبين الى اوساط الفلاحين والعمال، وبين غيرهم من المواطنين . ففيا يعني الفئتين الاوليين يقتضي توصية من ثلاثة اعضاء من الحزب وتدرج ثلاث سنوات ، وفيا يعني الفئة الثالثة ، توصية من خمسة اعضاء وتدرج خمس سنوات . وبعد وفاة لينين حدثت حركة انتماءات هامة جداً ؛ فارتفعت نسبة العمال في السنة ١٩٢٥ الى ٥٧,٩ بالمائة وارتفع عدد كافة الاعضاء الى اكثر من ٨٠٠ الف . وقــد عدّلت آنذاك شروط انتماء العمال الصناعيين المتعاطين عملاً جسمانياً مأجوراً : فاكتفي بتوصية من عضوين من الحـزب ويتدرج سنة واحدة ، كما اكتفي لانتماء العمال غير الصناعيين ، والجنــود المنتسبين الى اوساط العمال والفلاحين بثلاث توصيــات وتدرج ثلاث سنوات . وفي السنة ١٩٢٧ ضم الحزب ١١٤٧٠٧٤ شخصاً ، وفي السنة ١٩٢٩ ، مليونا و٥٠٠ الف ، وفي السنة ١٩٣٠ ، مليونا و٦٧٧ الفا ، وفي السنة ١٩٣٣ ، مليونين و ٥٥٥ الفا ، وبلغت نسبة العمال آنذاك ٦٨,٢ بالمائة . وارتفع كذلك عدد النساء : ٨,٢ بالمائة في السنة ١٩٢٤ و ١٥,٩ بالمائة في السنة ١٩٣٢ ، كما ارتفع كذلك عدد المواطنين من غير الروس . ثم اجريت عملية تطهير جديــدة في السنة ١٩٣٤ والسنة ١٩٣٥ ، ولا سيا بعد مقتــل كيروف ، فتدنى عدد الاعضاء الى ٢٣٥٨٠٠٠ في السنة ١٩٣٥ ، والى مليون و ١٩٢ الفا في السنة ١٩٣٨ ، ثم ارتفع الى مليونين و ٣٠٦ الاف في السنة ١٩٣٩، والى ٣ ملايين و ٤٠٠ الف تقريباً في السنة ١٩٤٠ . وفي السنة ١٩٣٩ عدل المؤتمر الثالث عشر للحزب شروط الانتساب مرة اخرى : فقد اتاح توطد اركان النظام وزوال الطبقــات الحاكمة القديمةاعتمادنظام واحد للانتماء حل محل التمييز بين الفئات بحسب وضع المرشحين الاجتماعي: بتوصية من ثلاثة اعضاء مضت عليهم ثلاث سنوات في الحزب ويعرفون المرشح في مركز عمل مشترك منذ سنة على الاقل ، وتدرج سنة واحــدة . وبالنظر الى زوال خطر تسلل « عناصر الافساد » ويقظة العناصر القديمة ، حظرت منذئذ التطهيرات الجماهيرية وتولت منظمات الحزب عملية اختيار المرشحين .

يتميز المرشحون المختارون تميزاً يلفت الانتبــاه بفتوتهم ؛ فبحسب احصاء السنة ١٩٢٧ كان عمر ٢٥٫٣ بالمــائة من الاعضاء دون الـ ٢٥ سنة ، وعمر ٨٥٫٨ بالمائة دون الـ ٤٠ . ولذلك فقد نيطت مسؤوليات كبرى بالشبيبة ؛ والدليــل على ذلك ان ٥٦ شخصاً من اصل ١٢١ انتخبهم المؤتمر الخامس عشر للحزب اعضاء في اللجنة المركزية ، اي ٤٦٫٣ بالمائة ، كانوا دون الـ ٤٠ سنة ، و ٩٠ ، اي ٧٤٫٤ بالمائة ، كانوا دون الـ ٤٥ ، و ١٠٥ اي ٨٦٫٨ بالمــائة ، كانوا دون الـ ٥٠ . وبعد عملية التطهير الكبرى في ١٩٣٦ — ٣٨ التي تناولت عدداً كبيراً من قدماء الحزب ، سدّت الفراغات بالجيل الجديد ، ثم ارتفعت نسبة الشباب في مؤتمر الســنة ١٩٣٩ ،

اذ ان ٩٥٫٤ بالمائة من المندوبين كانوا دون الـ ٣٥ سنة ، و ٨١٫٥ بالمائة دون الـ ٤٠ و ٩٧ بالمائة دون الخمسين ؛ وتولى الوظائف القيادية عدد كبير من موظفي الحزب الذين انخرطوا فيه بعد موت لينين . وهو جيل ما بعد الثورة هذا ما ارسخ نفوذ ستالين .

اما المستوى الثقافي فقد ارتفع تدريجيا . ففي السنة ١٩٢٧ ، كان في الحزب ٠٫٨ بالمائة فقط ممن تابعوا دروسهم العليا ، و ٦٣٫٨ بالمائة ممن تابعوا دروسهم الثانوية ، و ٢٦٫١ بالمائة ممن تلقوا دروساً خاصة ، و ٣٫٤ بالمائة من الاميين . وقد تعذر آنذاك وجود عدد كاف من الاعضاء القادرين على تولي مهام ادارية او قيادية ، في حين زادت الحاجة اليهم بسبب التصنيع . ففي السنة ١٩٢٨ كان ٨٩ بالمائة من مدراء مشاريع الدولة اعضاء في الحزب ، ولكن ٢٫٨ بالمائة فقط من بينهم كانوا قد تلقوا تعليماً عالياً ، و ٧٨٫٦ بالمائة تعليماً ابتدائياً عالياً . وكان ٧٠ بالمائة منهم عمالاً رفعوا الى مراكز قيادية . وفي السنة ١٩٣٩ عدل نظام الحزب تعديلاً ملحوظاً ؛ فاستقبل الحزب بأعداد كبرى افراد طبقة المثقفين الجديدة ، اي الفنيين والمهندسين والعلماء الكثيرين الذين افتقر اليهم تحقيق الخطط الخمسية ، فارتفع مستوى المؤولين الثقافي ارتفاعا كبيراً .

تنظيمه

ابتداء من السنة ١٩٢٥ ، وكلما توطد نفوذ ستالين ، امين سر الحزب منذ السنة ١٩٢٢ ، اتضح التنظيم وتعزز . فمنذ السنة ١٩٢٥ ، ضمّ الحزب عدداً من الاجهزة لا يقل موظفوها عن الخمسة والعشرين الفا ؛ وفي المقدمة الـ « بوليتبورو » (المكتب السياسي) المؤلف من ٩ ، ثم من ٢٥ عضواً تتضمنهم اللجنة المركزية المؤلفة من عدة فروع اهمها الـ « اورغرابيرو » اي فرع التنظيم الذي يعنى بتعيين ورقابة مختلف مسؤولي الحزب ، والمفوضيات ، والنقابات ، والتعاونيات ؛ ويمد كذلك التوجيهات في كافة المسائل المتعلقة بنظام الحزب ، وتعنى فروع اخرى بالدعاوة (اجيتبروب) ، والصحافة ، والنساء ، الخ . وتحت تأثير الاحداث : تنفيذ الخطة الخمسية الاولى ، ثم انطلاقة الاقتصاد بفضل نجاحات التصنيع والتأميم ، واخيراً الحاجة الى اصحاب الكفاءات بعد عملية التطهير الكبرى التي عقبت موت كيروف ، أعيد التنظيم تكراراً بحيث تعاقب اقرار اللاحصرية وما تستتبعه من انشاء فروع ذات اختصاص يوافق كل منها قطاعاً خاصاً من الحياة الاقتصادية (١٩٣٠ ، ١٩٣٤ ، ١٩٤٨) واقرار العودة الى التوحيد والمركزية (١٩٣٩) .

ان تنظيم الحزب — على غرار تنظيم الحكم — اشبه بهرم ذي ٤ او ٥ درجات مختلفة . فتحت تنظيم الاتحاد العام تقوم تنظيمات كل من الجمهوريات ، وتنقسم هذه بدورها الى وحدات اقليمية (اوبلاستي) . اما الجمهورية الروسية ، وهي اوسعها طراً ، فتنقسم الى ٨ تنظيمات اقليمية (كراي) تضم وحدات اقليمية ودوائر (اوكروغ) . وتقسم كل وحدة اقليمية الى وحدات صغرى (على اساس المدن والنواحي) ، وتتألف المدن الكبرى بدورها من عدة وحدات صغرى . وفي ادنى درجات الهرم تقوم التنظيمات الابتدائية للمصانع (٢٥٠٠٠٠ تقريباً) ، ومحطات الآلات والجرارات ، والمزارع السوفخية ، والمزارع التعاونية ، والوحدات

العسكرية ، الخ . ، التي يبلغ متوسط اعضاء كل منها اقل من عشرين . اما التنظيم العام فواحد من اعلى الى اسفل : مؤتمرات ، لجان ، امانات سر . وكما ان ارفع جهاز في الحزب هو المؤتمر الروسي الشامل ، كذلك لكل من الجمهوريات مؤتمرها ولجنتها المركزية وامانة سرها ، المنظمة على غرار اللجنة المركزية في موسكو ، وللوحدات الاقليمية مؤتمر حزبها ولجنتها وامانة سرها ، وللمدن والنواحي مؤتمر ولجنة وامانة سر تنتخب موظفي مكتبها . والمهام واحدة في اطار الدائرة الانتخابية : تقديم وتثبيت مسؤولي الدرجات الدنيا ، رقابة تنفيذ مقررات الحزب ، دعاوة ، اعداد المنتمين الجدد .

يرتكز الحزب الى « المركزية الديموقراطية » التي يحددها نظامه كما يلي : « انتخاب كافة اجهزة الحزب القيادية ، من ادناها مرتبة الى اعلاها ، علائق منتظمة بين هذه الاجهزة وتنظيمات الحزب ، انضباط كلي وخضوع الاقلية للأكثرية ، إلزامية مقررات الاجهزة العليا بالنسبة للأجهزة الدنيا » .

فهو يضم من ثم اكثر المواطنين نشاطاً الذين يطلب منهم اخلاص مطلق وتيقظ دائم ، ويفرض عليهم ان يكونوا في كافة الحقول مرشدين لمواطنيهم . فدوره في حياة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية دور رئيسي لأنه هو ما يؤلف العنصر الجوهري لوحدة الاتحاد ، انه يلاشي النزعات الى الابتعاد عن المركز الناجمة عن التنظيم الاتحادي وتجزئة السلطة بين مئات آلاف الدوائر الاقليمية والمهنية التي قد تؤلف كل منها ، مع مجلسها المنتخب ، جمهورية صغرى منعزلة . واخيراً يتولى شطراً هاماً من الوظائف الادارية والحكومية اعضاء من الحزب ، بحيث ان الحزب ، « بفضل وحدته ومركزيته ، قد يستطيع ابدا ترجيح وجهات نظره على آراء لا يمكن ان تكون الا آراء محصورة » (دوفرجيه) . وتؤلف الـ « كومسومول » المؤسسة الرئيسية لاعداد اعضاء الحزب .

الكومسومول والرواد

على غرار كافة الاحزاب الثورية ، علق الحزب البلشفيكي آماله على الشباب الذي له المستقبل . وحين انعقد ، في تشرين الاول من السنة ١٩١٨ ، المؤتمر الاول لجمعية الشباب الشيوعية (كومسومول) ، كان عدد اعضاء هذه الجمعية ٢٢٥٠٠ ، وفي تشرين الاول من السنة ١٩١٩ ، تمثل في المؤتمر الثاني ٩٦ الف شاب اشترك عدد كبير منهم في الحرب الاهلية في فرق الاصطدام ، وفي السنة ١٩٢٠ ، ارتدت الحركة طابع حركة جماهيرية حين بلغ اعضاؤها ٤٨٠ الف عضو تقريباً حدد لهم لينين مهمتهم : « بناء المجتمع الشيوعي » . الا ان انتهاج السياسة الاقتصادية الجديدة ، التي بدت للعديد من الشبان وكأنها استسلام الاشتراكية ، والبطالة ، وصعوبات الحياة المادية ، ولدت خيبات امل كانت نتيجتها تدني عدد اعضاء الحزب الى ٢٤٧ الفا في السنة ١٩٢٢ ؛ ثم ادى تحسين ظروف المعيشة والتدابير المتخذة لمصلحة العمال الشبان وتنظيم مدارس المصانع الى رفع العدد الى مليون في كانون الثاني من السنة ١٩٢٥ ، والى مليونين في السنة ١٩٢٧ قبيل الخطة الخمسية الاولى . ثم

ولدت هذه الاخيرة ، بفعل ضخامة المشروع والدعوة الى التضحية ، موجة حماس وحمية في صفوف هؤلاء الشبان. فهم من قدموا الوف العمال الذين حققوا «الجبابرة» : مصانع الجرارات في ستالينغراد ، وسد دنيبروغ ، والمصانع الجديدة في الاورال وسيبيريا ، وهم من انعوا استخراج الفحم الحجري من مناجم الـ « دونتز » حين كادت الحاجة تمس اليه ، وهم من توجهوا بالآلاف الى الارياف للاسهام في عملية التأميم وتصفية الكولاك ولتأسيس التعاونيات الزراعية واعداد موظفي ادارات محطات الآلات والجرارات ، وهم من الفوا فصائل الاصطدام التي تنافست في خدمة الاشتراكية وقدمت معظم منظمي العمل من العمال . وهم من تواقدوا على مؤسسات التعليم التقني الحديثة واصبحوا مسؤولي الصناعة الجديدة والدولة الجديدة . وفي السنة ١٩٣١ جاوز عدد الكومسومول المليون الثالث ، وفي السنة ١٩٣٦ المليون الرابع . حينذاك وسعت المنظمة اطار الاختيار ، فاستقبلت الشبان دونما نظر الى منشأهم ، فاصبح عدد اعضائها تسعة ملايين في السنة ١٩٣٩ و ١٦ مليوناً في السنة ١٩٥١ .

اختير الكومسومول من بين « الرواد الشبان » (بين ٩ و ١٥ سنة) وخضعوا لتنظيم مماثل لتنظيم الحزب . فنحن هنا ايضاً امام هرم تقوم في اسفله منظمات المصنع ، والمزرعة الجماعية ، ومؤسسة التعليم ، والناحية ، والمدينة ، والاقليم ، والجمهورية ، والاتحاد . اما نشاط المنظمة فهو في الدرجة الاولى تثقيف الاعضاء والشبان غير المنتمين تثقيفاً سياسياً ، والرياضة ، والاعداد العسكري ، والاسهام في تنفيذ اوامر الحكومة ، والتربية الاجتماعية والثقافية . فعلى الكومسومول ان يكون في كل مكان قدوة ومثلاً للشبان الآخرين ، وان يذهب الى حيث ترسله منظمته . وعليه ، في المدرسة او المصنع ، ان يكون عاملاً ممتازاً ومدرباً لرفاقه ومساعداً لرؤسائه . وعليه ان يتثقف حتى يصبح انساناً كاملاً ، وان يكون في الحياة المدنية والحياة العسكرية على السواء مثلاً مشعاً بالتفاني والانضباط .

٢ - «الانسان اعز رأسمال»

ان احد الاهداف الاولية التي سعى وراءها النظام الجديد هو رفع مستوى السكان مادياً وثقافياً ، فبذل النظام البلشفيكي من ثم نشاطاً عظيماً في حقول الصحة والتربية الشعبية والثقافة المتأخرة .

الصحة العامة

تناول مجهود تجهيز البلاد بالمؤسسات الصحية تأسيس المستوصفات ودور التوليد والمستشفيات ومستشفيات التدريب ... التي امحت ، بالاضافة الى مجانية الخدمات الطبية ، تخفيض نسبة الوفيات بسرعة الى ١٥ ٪ اي الى نسبتها في فرنسا ، وتناولت كذلك تأسيس المصحات ودور المعالجة والراحة الشيوخ والعجزة والنقه . وكانت الطفولة موضوع عناية خاصة : ملاجيء للاطفال ، استشارات طبية للحبالى والرضع ،

واجازات الحبالى لمدة ٣٥ يوماً قبل الوضع و ٢٨ يوماً بعده في مؤسسات الدولة ومشاريعها ، ولمدة شهر قبل الوضع وشهر بعده لنساء التعاونيات الزراعيـــة ، ادت كلها الى تخفيض نسبة الوفيات بين الاطفال ، وساعدت حدائق الأطفال وتشجيع الالعاب الرياضية ، وانشاء الملاعب الرياضية الكثيرة على تنمية متناسقة .

العائلة وتحرر المرأة

بموازاة هذه التدابير التي لم تفضل من حيث النوعية خير ما اتخذ منهـــا في اكثر الدول الغربية تقدماً ، كما يقـــول لاسكي ، وانها « ما تحقق يصعب تصوره في اي مجتمع رأسمالي » ، قامت العائلة على اسس جديدة . فمنـذ الثورة ، نرى العائلة التقليدية ، المبنية على دونية المرأة وعلى طابع الزواج الديني الممتنع الانفساخ وسلطة الاب المطلقة ، تنهار بفعل علمنة الزواج وزوال سلطة الزوج المطلقة . وقد حددت ، حيال الاولاد، حقوق الرعاية والتمثيل ، وواجبات العناية والتربية والتعليم . وبرز مفهوم جديد للعلائق بين الزوجين التي بنيت على المساواة الكلية بينهما ، وشرعية الزواج الواقع المعفى من كل تسجيل والطلاق برضى الطرفين او بناء على رغبة احدهما المعلنة ، وابطال التمييز بين الاولاد الشرعيين والاولاد غير الشرعيين . واستهدف قانون صدر في السنة ١٩٢٠ حـــول « حماية صحة المرأة » منع الاجهاض في الخفاء باجازة الاجهاض تحت شروط معينة . وهكذا تحررت المرأة والاولاد من وضعهم القانوني الدوني ، بينما خففت ملاجىء الاطفال ، وحدائق الاطفال ، ومحلات البيع من العمال في المشاريع ، والمطاعم النقابيـــة والتعاونية ، وتبييض الانسجة الصناعية ، الخ . ، من اعباء ام العائلة وحررتها من عبوديات الحياة المنزلية ، وذلـــك نتيجة لسعي المسؤولين وراء تحقيق المساواة المطلقة بين الجنسين التي ينص عليها القانون . وهـــذا ما اتاح للامهات تمثيل نسبة كبرى – اكثرية احياناً – في الصناعة (حتى الثقيلة منها حيث بلغت هذه النسبة ٥٠ ٪) ، والعمل في مهن تعتبر في البلدان الاخرى محصورة في الرجال (ميكانيكي القاطرة الحديدية مثلا) ، وممارسة وظائف قيادية في المزارع التعاونية (٢٠ ٪ من وظائف المدراء اسندت الى النســاء) او المصانع او المجالس على مختلف مستوياتها . وفي البلدان الآسيوية بصورة خاصة ، كان تحرر المرأة ، « المظلومة على ايدي المظلومين » كما قال لينين، ثورة وضعت حدا لعزلتها ولارتداء الحجاب ، وفتحت امامها ابواب المدارس والجامعات والمصانع والحياة العامة . لا بل ان التدابير الكثيرة التي حسنت وضع المرأة الحبلى او ام العـــائلة ، واستقرار المجتمع عند تنفيذ الخطط الخمسية الذي استلزم يدا عاملة نسائية وفيرة وزيادة الطاقة البشرية ، قد استوجبت اتباع سياسة تشجيع الولادات والعائلات التي برزت منذ السنة ١٩٣٦ بمنـــع الاجهاض الا تحت شروط معينة ، وبتدابير استهدفت ارساخ وثاق الزواج بالحد من عـــدد الطلاقات وتكررها (مُنِع الطلاق بناء على رغبة زوج واحد وارتفعت نفقات الاجراءات) ، وبفرض عقوبات صارمة على من يتخلى عـــن عائلته او يمتنع عن دفع النفقة المترتبة للام والاولاد .

التعلم

بذلت الجهود لزيادة عدد السكان ولخلق شبيبة قوية ونشيطة ، كما بذلت الجهود لتعليمها ايضاً . في السنة ١٩١٣ ، كانت نسبة الاميين بين ٧٥ و٨٠٪ ، وحتى ٩٧٪ بين شعوب آسيا غير الروسية ؛ ومنذ السنة ١٩٤٠ ، اختلف الى المدارس الابتدائية والثانوية ٣٢ مليون تلميذ ، فهبطت نسبة الاميين الى ثلاثين بالمائة في اكثر المناطق تخلفاً . وقد هدفت المؤسسات الدراسية « لخلق الظروف البشرية الضرورية لقيام المجتمع الشيوعي »، إذ ان على المدرسة ضمان « تحقيقات الثورة السياسية والاجتماعية » ، ولا يجوز لها ان تكون « لا خارج الحياة ولا خارج السياسة » . وان في هذه الصيغ لدليلاً على الاهمية المعترف لها بها والاهتمام الذي اعاره النظام المسائل التربوية ، « الجبهة الثالثة » ، « الجبهة التربوية » ، التي كانت موضوع احدى قصائد « ماياكوفسكي » . وارتبطت التربية ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الذي اوجدته الثورة ؛ فالانسان ليس لا صالحاً ولا شريراً عند ولادته ؛ وهو المجتمع ما يكوّنه ويكون مسؤولاً في النهاية عما ينتهي اليه . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تفاوت الاجور ، التي هي نسبية لكمية ونوعية العمل المؤدى ، لا يمكن الاعاضة منها الا اذا كانت هنالك « المساواة عند نقطة الانطلاق » ، اي الا اذا تمكن كافة الاولاد من تنمية معارفهم واستعداداتهم على قدم المساواة . ولذلك اعلن الدستور ان « لمواطني اتحاد الجمهوريات الاشتراكية الروسية الحق في التعلم » ؛ لهم الحق في ان يتعلموا بلغتهم الام، وهي الوسيلة الوحيدة لتأمين المساواة الفعلية للقوميات ، ولاتاحة بروز الكفاءات، ولتوزيع التعلم في اسرع وقت ممكن دونما اضطرار لتعلّم لغة اجنبية .

تؤمن المساواة عند نقطة الانطلاق مدارس كثيرة جداً وسهولة دخول الجميع،في اي وقت ، الى التعلم العالي . فابواب المدرسة مفتوحة في كافة درجات التعلم ، وتتوفر تسهيلات عديدة — ولا سيا التعلم بالمراسلة الذي استفاد منه ٦ ملايين شخص في السنة ١٩٤٠ — للوصول الى المعاهد والكليات بأعداد كبرى عن غير طريق المدارس. فتقوم وحدة التعلم من ثم في روح البرامج والكتب المدرسية الواحدة في كافة انحاء الاتحاد المستوحاة من التعلم الماركسي-اللينيني في تفسيرها العالم والعلائق البشرية .

من بين اكثر النظريات التربوية بياناً ولفتاً للانتباه تلك التي طلع بها « ماكارنكو » : كان مديراً لاصلاحيتي احداث مجرمين ، فاستخلص من خبرته مذهباً تعليمياً في مؤلّفه المشهور « القصيدة التربوية» . لقد اقتنع ماكارنكو بان البيئة الحسنة التنظيم تأثيراً فاعلاً قوياً على الفرد ، فـ « يبوسة طينة الولد كلام محال » ، وليس من اولاد مطبوعين على الجريمة ، واولاد يستحيل اصلاحهم ، وهي الجماعة التي يكون منخرطاً فيها ما تكيّفه بالمنافسة التي تثيرها والرقابة التي تمارسها ، وهذا يفسر اهمية الجو العائلي الذي يصنع الولد على صورته . فالتربية تستهدف تدريب الاولاد على ان يحلوا بانفسهم المسائل التي تواجههم في الحياة اليومية ، وان يوفقوا بين الحرية الفردية والتقيد الضروري بموجبات الجماعة . ويشدّد ماكارنكو من ثم على الصلة التي

يجب ان تقوم بين التربية والحياة . فعلى العائلة والمدرسة ومنظمات الشبيبة ان تضع نصب اعينها تحقيق تفتح الفرد ، اذ ان الوالدين لن يستطيعا الى ذلك سبيلا الا اذا فكروا ابداً بتأثير مثلهما على ولدهما . وعلى المربي ان يكون متطلباً جداً ، على ان يوفق في الوقت نفسه بين متطلباته وامكانات الولد . وكلما طلب من الولد بذل مجهود جديد ، شعر الولد بتعاظم الثقة الموضوعة فيه.

فنحن من ثم امام تربية تتنكر النظام التقليدي الصارم ، لكنها تربية لا يعتريها وهن ، « تتطلب ابداً اقصى ما يستطيع الولد اعطاءه ، ولكنها لا تضن بالابتهاجات التي غالباً ما يسع الولد اعدادها بنفسه » ، وتؤول الى « اقامة بفرح يسيطر على كافة مستويات وجوده» (هـ. فالون) .

التعليم نظري وعملي ويشمل علوماً وفنوناً شتى ، ويجمع بين العمل الفكري والعمل اليدوي. وهو علماني تتولاه الدولة التي تحدد التوجيهات العامة ، والزامي ومجاني في مدرسة السنوات السبع (التعليم الابتدائي و ٣ سنوات من التعليم الالزامي) بين سن السابعة (بعد حديقة الاطفال) والرابعة عشرة . ويُلقن باللغة القومية ، على ان تعليم اللغة الروسية الزامي . وتليه اما ٣ سنوات دراسة تنهي التعليم الوسيط الكامل في مدارس العشر سنوات ، واما التعليم المهني . ويقود كلا التعليمين ، بعد التقدم الى امتحان ، الى تعليم الدرجة الثالثة ، جامعات ومعاهد . وبعد ذلك يلتحق الراغبون في البحث العلمي او التعليم بدروس « المرشحين » (في السنة ١٩٤٠ بلغ عدد الطلاب في التعليم العالي ستماية وعشرين الف طالب) .

الثقافة الجديدة : الواقعية الاشتراكية

كانت الثورة قد تسببت في هجرة عدد من الكتاب والفنانين والعلماء ، ولكن الكثيرين الذين لم يهاجروا اسهموا في تجدّد الحياة الفكرية بعد الحرب الاهلية . فقد اتجه مجهود النظام الجديد ، منذ البدء ، الى انزال الثقافة الى مستوى الشعب بمكافحة الامية والجهل ، وبتعميم التعليم على كافة الطبقات ، وبتأسيس كليات عمل (رابفاك) تستقبل العمال وتوزع عليهم تعليماً سريعاً ، وبالاكثار من دور الكتب واعادة طبع المؤلفات الكلاسيكية الكبرى . وكانت النتيجة ان شغف المعرفة المظيم الذي سيطر على العمال وانتشار التعليم هذا لم يلبثا ان خلقا جمهوراً وفيراً اختلفت متطلباته كل الاختلاف عن متطلبات جمهور النظام القديم . وطالما بقيت الحكومة على الحياد بين النزعات المختلفة والفئات الفنية والادبية التي تقاسمت الكتاب والفنانين . وكان معظم هؤلاء اتباعاً لمدرسة الرمزية او مدرسة المستقبل ، وانضم بعضهم ، من امثال ماياكوفسكي والرسام بونين ، بصراحة الى البلشفيكية ، ولكن كثيرين غيرهم بقوا منعزلين عن هذا الجمهور الجديد بفعل مناشئهم ونزعاتهم الادبية ولغتهم المقفلة وفرديتهم . امـا الـ (برولتكولت) ، او الثقافة الشعبية ، فقد استقطبت كتاباً ماركسيين حاولوا خلق ادب بروليتاري .

في السنة ١٩٢٩ ، دعي الكتاب ، الاعضاء في الجمعية الروسية للكتاب البروليتاريين ، الى الاشتراك في معركة التخطيط ، وفي السنة ١٩٣٢ ، انضموا كلهم الى جمعية الكتاب السوفيات التي اسندت اليها مهمة « دعم قاعدة السلطة السوفياتية » والاشتراك في الصراع الى جانب

البروليتاريا بغية اعداد ادب اشتراكي .

بينما شدّد في التعلم على الماركسية والمادية الجدلية ، وبقي بعض المستقلين من امثال «فيدين» على وفائهم للأدب السيكولوجي ، اخذ الادب الجديد على عاتقه ، بحسب امنية لينين ، ان يصبح « مرآة وعي الامة » . وهكذا صدرت مؤلفات تأثرت تأثراً بعيداً بـ « غوركي » ، وانتسبت الى ما عرف بعد السنة ١٩٣٢ بـ « الواقعية الاشتراكية » التي ألفت مذهباً رسمياً حقيقياً . فأمام عظمة تطور المجتمع والانسان الذي شاهده الكاتب ، توجب على هذا الاخير تحليل الواقع وإظهار الانسان في حزبه وعمله ، وطرح المسائل الانسانية الناجمة عن كل ذلك ومساعدة القراء على حلها والتخلص مما يحملونه في انفسهم لمجاراة العالم المادي الآخذ في التطور. والادب الجديد واقعي لأنه يغوص في الواقع ويصف « الانسان من حيث هو عضو في المجتمع »، بعيدا عن عبادة الذات ، وعن « عذابات رجال الفكر المترددين » ، ولذلك فانه يلاشي ابتذال الحياة اليومية ويمجد البطل الفرد ، وبطولة الجماهير المغفلة التي تصارع وتقدم نفسها ضحية للدفاع عن الوطن او لبناء عالم جديد ، وكل من تتحول حياتهم الى معركة ضارية يشتركون فيها بكليتهم من اجل تحقيق الاشتراكية . هذه هي حال « فورمانوف » الذي يصف بطولة « تشاباييف » (١٩٢٣) المغوار ، وحال « الكسي تولستوي » في « الف وتسعماية وثمانية عشر» وحال « سيرافيموفيتش » في « السيل الحديدي » ، وحال « فادياف » في « الهزيمة » (١٩٢٧)، وحال ايفانوف (« الانصار » ، « القطار المصفح رقم ١٤ - ٦٩ ») ، وحال «ماياكوفسكي» الذي اصبح بفضل قصائده النضالية («مائة وخمسون مليوناً»)وشعره الغنائي، «الشاعر المحامي عن حقوق الشعب » بالذات. وهذه حال « نقولا اوستروفسكي » الذي تظهر رواية سيرة حياته بخط يده ، « وسُقِيَ الفولاذ » (١٩٣٢) ، ما هي حياة التضحية التي يعيشها احد اعضاء الحزب . وتبرز مأساة انحلال المجتمع القديم ونشأة اخلاق جديدة في المصنع والعمل ، في كتاب « الاسمنت » (١٩٢٥) لـ « غلادكوف » ، ومأساة ملاشاة الكولاك وتأميم الاراضي في « الاراضي المحياة » (١٩٣٦) لـ« شولوكوف » الذي وصف كذلك الحرب الاهلية عند قوزاق الـ « دون » في « الدون الهادي » . ووصف كاتاييف تأسيس وحدة ماغنيتوغورسك الصناعية.

هو الاهتمام باعطاء الجماهير الشغفة بالمعرفة والتعلم فناً وادباً يسهل تمثلها ولا يبتعدان عن التقاليد القديمة ما يفسر كذلك المجادلات الكتابية المتكررة التي تناولت الادب المقفل والفن المجرد والموسيقى العسيرة : مهاجمة طابع التمسك المفرط بالشكليات في فن « بيكاسو » او فن « ماتيس » ، ومهاجمة بعض مؤلفات « بروكوفياف » و« شوستاكوفيتش » ، ثم التخلي ، بعد السنة ١٩٢٨ ، عن قوانين هندسة العمارة العصرية التي حظيت بمزيد من التقدير والعطف في السنوات الأولى للثورة، والعودة الى نمط كلاسيكي- جديد عادم الرشاقة وعلى شيء من الابتذال.

انما انتج الفن الجديد اشهر روائعه في الموسيقى والسينما بفضل « سرج بروكوفياف » و« ديمتري شوستاكوفيتش » و« ارام خاتشادوريان » و« ديمتري قبالفسكي » .

كان لينين قد كتب ما يلي : « السينما ، اعظم الفنون شأناً في نظرنا » ؛ فقد بذل الاختصاصيون مجهوداً كبيراً لكي يجعلوا منها الفن الشعبي بالذات . فحرصوا في الدرجة الاولى على ان يبعدوا عنها كل ما ليس طبيعياً ، فكانت مدرسة الـ « كينو غلاز » (السينما العين) التي رفضت كل اخراج وابتغت ، قبل اي شيء آخر ، تصوير الحياة على حين غرة ، « ومباغتة الانسان في وسطه الاجتماعي وفي حياته » . وكان لهذه النظرية تأثير كبير على كافة العاملين في حقل السينما بلفتها الانتباه الى اهمية اختيار وجمع المشاهد واستنادها الى الواقع . وقد تميز في هذه السينما غير الناطقة اربعة مبتكرين عظام : « ايزنستاين » الذي حقق الرائعة السينمائية السوفياتية الاولى في « المدرعة بوتمكين » ، وبودوفكين الذي انتج « الام » المقتبسة عن رواية غوركي ، « نهاية سان بطرسبرغ » ، و« عاصفة على آسيا » ، الفيلمين الاجتماعيين اللذين يتوصل فيهما الابطال شيئاً فشيئاً الى « رؤية واجبات الطبقة التي ينتسبون اليها رؤية واضحة » ، و« دوفجنكو » في « الارض » ، و« فرتوف » الذي انتج ، في اوائل عهد السينما الناطقة ، رائعته « اغاني لينين الثلاث » . وبعد هذه الفترة الاولى التي سيطرت فيها السينما السوفياتية على كافة السينمات الاخرى ، كانت السنوات الاولى للسينما الناطقة سنوات جمود وجدب ، الى ان حدثت في السنة ١٩٣٤ ، بفضل المبتكرين الاخوين فاسيلياف ، مخرجي « تشاباييف » ، فيلم الحرب الاهلية ، نهضة غاية في التألق كرسها انتاج الافلام التاريخية : « بطرس الاكبر» لـ « بتروف » ، و« اسكندر نوسكي » لايزنستاين .

القضاء ان المبادىء نفسها التي استوحيت في التعليم استوحيت في ادارة القضاء (باستثناء الجرائم السياسية) الذي يسمو عليه الى حد بعيد في الدول الاخرى بمفهومه الواقعي والانساني .

فقد اظهرت الدراسة التي قام بها « هارولد ج. برمان » حول القرارات المتخذة في المحاكم السوفياتية ، طابع الابوة والحماية الذي يرتديه القانون السوفياتي . وقد يشبه جو محاكمة جنائية سوفياتية – بحسب المؤلف الذي هو اميركي – جو محاكم الاحداث الاميركية ، كما قد يشبه جو محكمة مدنية جو محاكم المصالحة العائلية . ومرد ذلك الى ان القانون يعتبر الجريمة وكأنها صورة البيئة الاقتصادية التي حدثت فيها : فالمجرم من ثم ضحية المجتمع اكثر منه عدوه ، والسجن يجب ان يكون مكان تربية جديدة لا مكان عقاب . وهذه الاراء ، التي لم تكن خاصة بالحقوقيين السوفيات والتي بشر بها القاضي براندس في الولايات المتحدة ، هي ما عمل بها في نظام المحاكم الجزائية والاصلاحيات . والمقصود في الدرجة الاولى هو اعادة تربية المحكوم عليهم ، و« تبديل طبيعتهم ، بحسب تعبير غوركي ، وتنمية الخصال التي تتسم بقيمة اجتماعية عند الافراد » . وتتحقق اعادة التربية هذه بفضل اسهام المحكوم عليهم اسهاماً ناشطاً في الاعمال المفيدة اجتماعياً ولا سيما اعمال الانتاج الوفير التي تساعدهم من جهة على فهم الاساليب الاشتراكية في تنظيم العمل (المنافسة الاشتراكية ، المعاونة التقنية ، النقاش حول الانتاج)

وتوفر لهم من جهة ثانية تربية مهنية تعدهم لاحتلال مركز مفيد في المجتمع بعد الخروج من السجن.

يذكر القانون الجزائي ثلاثة اشكال « للعمل الاصلاحي » (حل هذا التعبير محل تعبير العمل الشاق في السنة ١٩٣٣) : عمل دون حرمان الحرية ، عمل مع تحديد الاقامة ، عمل مع حرمان الحرية في معسكرات العمل . وتنطبق العقوبة الاولى على الاحكام التي لا تتعدى السنة وتنفذ على العموم في مكان العمل العادي او في دائرة محددة الشعاع بالنسبة لمركز الاقامة . وتنفذ عقوبة الاحكام المتراوحة بين سنة وثلاث سنوات في « مراكز الاعتقال العادية » او في معسكرات العمل ، والعقوبة التي تتعدى ثلاث سنوات في معسكر عمل اصلاحي يقوم في منطقة بعيدة من مناطق اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ؛ وهناك اخيراً « تحديد اقامة مع عمل اصلاحي » لعزل المحكوم عليه عن بيئته السابقة . ويتقاضى المحكوم عليهم الاجر نفسه الذي يتقاضاه العمال التعاقديون المساوون لهم جدارة وكفاءة وانما يحتفظ لهم بنسبة ٥ الى ١٥٪ من هذا الاجر ، ويخضعون لشروط العمل نفسها .

٣ – الديموقراطية الحرة والديموقراطية السوفياتية

الرأي الحر والنظام السوفياتي

كان من نتيجة انقسام العالم الى معسكرين انقسام الرأي ايضاً بحيث لم يبق على الحياد سوى نزر قليل من الناس امام المؤسسات السوفياتية والنظام السوفياتي ؛ وغمّضت المجادلات ما قد نتوصل اليه من معرفة بها وما قد نعطيه من تفسير لها ، الا ان مؤلفات علماء الاقتصاد والحقوقيين واصحاب النظريات في العلوم السياسية ، على اختلاف اتجاهاتهم ، تتيح استخلاص مميزاتها النوعية الاساسية .

هو مفهوم « الحرية » ما تدور حوله الانتقادات الموجهة للنظام السوفياتي .

بتأسيسه الحزب الواحد ، الذي يسيطر عليه رجل واحد لا يتميز عن الدولة التي يمسك هو بمراكزها الحساسة ، ويستحيل انتقاد سياسته العامة ، وينحصر فيه حق تقديم المرشحين لانتخابات قد يعتبر الامتناع عن التصويت فيها اعلان معارضة ، ويحتكر كافة وسائل التعبير والدعاوة ، وتؤول فيه المجالس الى مجرد مجالس للتسجيل ، لم يترك النظام السوفياتي لمواطنيه سوى حرية ظاهرية وصورية ، بحيث ان الديموقراطية ليست سوى خديعة . وليست الحرية الفكرية والادبية ما قضي عليها من ثم فحسب ، بل الحياة المادية نفسها التي تعرضت للخطر بفعل ملء سلطة الدولة السوفياتية ، المالكة الوحيدة والمنتجة الوحيدة والموزعة الوحيدة للمواد الاستهلاكية . وبالفعل زادت اشتراكية وسائل الانتاج من قوة الدولة زيادة عظمى ، وجعل منها تخطيط الاقتصاد سيدة حياة كافة سكان الاتحاد . وحتى في الحقل الزراعي ، الذي ابقي فيه على « قطاع حر » ، وانعم فيه على المزارع الجماعية « بالتمتع تمتعاً دائماً » بالارض التي تستثمرها ، توفرت للدولة وسيلة تأثير غير مباشرة وحاسمة على الفلاحين ، لان الجرارات

والمعدات الآلية الضرورية الاخرى بقيت ملكاً لها ، وكانت هي التي تحدّد شروط استعمالها في التعاونيات الزراعية . وجملة القول ان «كسب المعيشة منوط بالرأي المستقيم» . لا بل ان أهمية دور الشرطة ، وقوتها ووسائل عملها ، وتمثيل كل معارض بـ «عدو الشعب» ، قد خلقت هلماً حقيقياً ، شبيهاً به في البلدان الفاشستية ، يضع النظام السوفياتي في عداد الانظمة الاستبدادية . فالمواطن ليس حراً ، وكرامته تمتهن في كل وقت لانه اصبح آلة في ايدي سلطة تضحي به دونما اية مراعاة للروح الانسانية الاولية ، ولا يتمتع باية حرية من الحريات المعتبرة ضرورية ، ولا سيما حرية الاجتماع والصحافة والقول ، الخ .

النظام السوفياتي والفاشستية

ان تمثيل النظام السوفياتي بالانظمة الفاشستية على هذه الصورة يعارضه العديد من اصحاب النظريات في العلوم السياسية . ففي الدرجة الأولى ، كما اثبت ذلك «دوفرجيه» ، تختلف مصادر وحيها الفلسفي اختلافاً اساسياً . فالماركسية تبدو وكأنها مذهب عقلي وعلمي يرتبط بفلسفة الانوار والايمان بالتقدم . وهي تعلم ان الانسان ، اذا هو لا يولد لا صالحاً ولا شريراً ، يستطيع ان يتحسن بزوال النظام الرأسمالي ، وان الغد سوف يصبح ، بفضل قيام الاشتراكية ، افضل من اليوم ، ولا سيما افضل من الامس . وفلسفتها متلاحمة الاجزاء ، تعطي «تفسيراً شاملاً ومتناسقاً للكون» يحمل على التفاؤل حقاً . اما فلسفة الفاشستية فتشاؤمية . العصر الذهبي قد ولى ، والانسان المطبوع على الشر يجب ان يخضع لرؤساء لا يطلب منهم تأدية حساب للجماهير المحتقرة والعاجزة ، التي يتوجب عليها الامتثال للقررات المتخذة دون ارادتها. فامام التعاليم الفاشستية التي تستند الى الابتفاءات الغريزية المخالفة الصواب التي هي ارستوقراطية في جوهرها ، نرى ان النظام الشيوعي صوابي ومحب للمساواة في مبادئه وفي اهدافه .

اما تركيب الحزب الواحد فينطوي على خلافات جوهرية . فاذا استمانت الاحزاب الفاشستية بالطبقات الشعبية ، خلال فترة الاستيلاء على السلطة ، واذا هي افلحت في ضم جماهير عمالية وقروية هامة ، فان سياستها تكون محافظة بعد استلام زمام السلطة ، وقد استندت اكثر فاكثر ، في الدرجة الاولى ، الى الطبقات المتوسطة والغنية . ثم ان انتخاب المسؤولين ، في حياة الحزب الداخلية ، قاعدة قانونية في الحزب الشيوعي ، بينما يعين المسؤولون في الاحزاب الفاشستية من قبل السلطة العليا . اما دور خلايا الحزب ، فبينما هو ازداد شأناً في الاتحاد السوفياتي الى جانب الدولة وفي داخلها ، وازداد النقاش فيها حدّة ، نرى ان تأثير الجماعات الحزبية المنظمة في ايطاليا والمانيا قد تضاءل بسرعة كلية .

ونرى أخيراً ان الاختلاف عظيم جداً في اختيار اعضاء الحزب ايضاً . فقد وقفت الاحزاب الفاشستية موقفاً حذراً من اللامباليين والعادمي النشاط الذين لم يلتحقوا بها قبل استلام السلطة ، ورفضت كل طلب انضواء جديد (في السنة ١٩٢٥ في ايطاليا ، وبعد السنة ١٩٣٣ في المانيا) ، باستثناء انضواء الشبان الذين كانت تعدّهم في جماعات الـ «باليلا» والطلائع والـ «هتلر جوجند» .

اما الحزب الشيوعي السوفياتي فقد عرض المواطنين ثقته وفتح ذراعيه لا الكومسومول فحسب، بل لكل مواطن تتوفر فيه شروط تقدم الطلب والتمرس التي خففت تخفيفاً مستمراً ، لا سيا في السنة ١٩٣٩ . لذلك ابتعدت الاحزاب الفاشستية عن الامة والفت طبقة مغلقة ذات امتيازات، بينما وسع الحزب الشيوعي يوماً بعد يوم عملية اختيار خاصته . ويرد ذلك الى ان دور الحزب قد نُظر اليه نظرة مختلفة في كل من النظامين . ففي البلدان الفاشستية ، تسلم النظام السلطة بفضل ردة فعل الطبقات المتوسطة والبورجوازية امام خطر البروليتاريا . وعلى الرغم من ان الكلام تناول « الثورة المستمرة » احياناً ، فان وظيفته كانت وظيفة محافظة حقاً . والغاية المنشودة هي تمكين التركيب الاقتصادي والاجتماعي الراهن ، والابقاء عليه بعد اصلاحه . وعلى الحزب ان يراعي المصالح الكبرى والجيش الذي تنخرط فيه جماهيره المنظمة والمسلحة . ويفسر هذا التطور الرجعي سرعة التنفيذ ، وطرد او تقتيل العناصر البروليتارية وانصار « ثورة ثانية» محتملة . اما في الاتحاد السوفياتي فوظيفة الحزب هي المساعدة على تطوير المجتمع والاقتصاد والحؤول دون التوقف والجمود بشحذ العزائم ومقاومة التبارد واللامبالاة وشرح الحاجة الى الاصلاحات والتضحيات . وعلى الرغم من ان الدستور السوفياتي لم يخص الحزب الشيوعي بمركز كبير فان دوره قد تعاظم يوماً بعد يوم ، والانتماء اليه قد سهّل تسهيلاً مستمراً .

يفسر هذا الاختلاف كذلك طابع السياسة الخارجية في كل من النظامين . فبينما رفض الحزب الفاشستي تحقيق تطور داخلي ووجه الطاقات القومية شطر الفتوحات الخارجية ولم يحافظ على النظام الا بسياسة نفوذ لحمتها الاستفزازات وسداها اعمال القوة ، استخدم النظام السوفياتي كافة موارده وطاقاته في تطوير المجتمع والاقتصاد وانتهج سياسة مسالمة لأنه كان بحاجة الى الهدوء لتحقيق هذا التطوير. اضف الى ذلك اخيراً ان الدكتاتورية السوفياتية لم تظهر يوماً بمظهر نظام سياسي نهائي يحل ، « لمدة الف سنة » ، محل الديموقراطية الفاسدة . فهي وسيلة لا غاية ، وقد صرحت بانها انتقالية ومعدة للتواري حين تزول الاخطار الداخلية والخارجية ، وحين ينهي النظام مرحلة الاشتراكية الحالية التي هي « طور الشيوعية الادنى » ويدخل « طوره الاعلى » الذي تتلاشى فيه الدولة وتنتهي الى الزوال .

الديموقراطية السوفياتية

هل ان النظام السوفياتي « مثال الديموقراطية الحقة » ام انه « دكتاتورية لا وجود للحرية فيها «في الحقول الهامة » ؟ ان السيد « فيديل » ، بعد تحليله المستفيض لحجج الخصوم والانصار قد خلص الى القول :

« من العبث البحث في مفهوم الديموقراطية بالذات عن المقياس الذي يتيح اصدار الحكم في الرأيين المتقابلين . فكلاهما صحيح من وجهة نظر الديموقراطية فقط . وكلاهما يتولد عن الاندفاع نحو الحرية الذي هو المعنى العميق لكل ابتناء ديموقراطي » .

واضاف الى ذلك قوله :

« ان تنويتها وتضادهما يعزيان حكلياً الى تنوية مفاهيم العالم التي تتكسران عبرها ... وان مقياس صحتها او

بطلاتها ... يفتح الباب امام فلسفة اساسية ومذهب يتناولان الكون ».

يمكن ان نجد ايضاح المعنى السوفياتي لكلمة الديموقراطية في شرح ستالين لدستور السنة ١٩٣٦ :

« ما هي الديموقراطية ؟ ان الديموقراطية في البلدان الرأسمالية ، حيث توجد طبقات متخاصمة ، هي بالاختصار ديموقراطية الاقوياء ، وديموقراطية الاقلية الحاكمة . اما في الاتحاد السوفياتي فالديموقراطية هي ديموقراطية العمال ، اي ديموقراطية الجميع ».

وفي شرح احد الحقوقيين السوفيات :

« ان البلاد التي يبطل فيها استثمار الانسان للانسان ، والتي تتوفر فيها المساواة السياسية ، والاقتصادية ايضاً ، لكافة المواطنين ، والتي لا تعلن فيها الحريات الديموقراطية رسمياً او قانوناً فحسب ، بل تؤمن عملياً بالظروف المادية للحياة الاجتماعية ، والتي ليست مساواة الشعوب فيها كلمة كاذبة ولا تزول فيها صداقتها ، ان هذه البلاد قد قطعت لعمري شوطاً بعيداً على طريق الديموقراطية . فالديموقراطية قبل ان تكون مبدأ سياسياً من مبادىء الحكم هي نظام اقتصادي اجتماعي يحدد واقع النظام السياسي ، ولا يمكن ان تتحيز الديموقراطية الا في مجتمع خال من الطبقات يوجد وحده ظروف تفتح الفرد ».

تظهر هذه النصوص ان الاتحاد السوفياتي يشدد على « الشروط الموضوعية للحرية ». ويلقي بعض الضوء عليها الحديث الذي نقله « وندل ولكي » المنافس الجمهوري الفاشل لـ « ف. د. روزفلت ». فهو قد لفت في السنة ١٩٤١ نظر رئيس مصلحة في احد المصانع السوفياتية الى انه لا يمكن ان يكون حراً حقاً ما دام يعترف بانه لا يستطيع لا التعبير ولا الدفاع عن آراء غير آراء الحكومة ، فسمع منه الجواب التالي :

« انك لا تفهم مني ، ايها السيد ولكي . انا اتمتع بحرية لم يعرفها ابي وجدي قط . فلم يسمح لهما بتعلم القراءة والكتابة ، وكانا عبدين مرتبطين بالارض . وحين كانا يصابان بمرض لم يكن هناك مستشفى للاعتناء بهما . انا اول شخص في سلسلة جدودي الطويلة استطاع التعلم والتقدم والوصول الى نتيجة ما . هذه هي حريتي . ولعلك لن تعترف بأنها الحرية . ولكن يجب ألا تنسى اننا ما زلنا في اول عهد نظامنا . فسوف يأتي يوم نتمتع فيه نحن ايضاً بالحرية السياسية ».

وكما يلاحظ « م. س. ستلنغ – ميشو » ، الذي ننقل عنه هذه النصوص ، ان « الحرية » ، في نظر السوفيات ، تقوم في جوهرها في الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي ، في « التحرر من الاستثمار ». وهكذا فان المعسكرين يقصدان خدمة حرية الانسان ولكنهما ينفذان قصدهما بطريقتين مختلفتين . فبزوال الطبقات زال مبرر تعدد الاحزاب ، اذ ان زوال كل مصلحة طبقية يستتبع آلياً زوال الخلافات السياسية . ولذلك لا تشمل حرية تأسيس الشركات الاحزاب السياسية ولا تتعلق الا بالمؤسسات الاجتماعية . وكذلك فان حرية الرأي واقع راهن ، ولكنها لا تبرز بقيام الاحزاب السياسية . ان المناقشة حامية في داخل الحزب وحول المسائل التي يواجهها نشاط الحزب . وانما تُنتقد ادارة الحكام والموظفين في خلايا المشاريع والنقابات والصحف ، وطبيعي في النهاية ان تنصاع الاقلية لقرار الاكثرية كما هي الحال في كافة

الديموقراطيات الاخرى . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الديموقراطية موجودة هنا في نطاق هي قريبة عنه في البلاد الرأسمالية : في التعاونيات الزراعية ، في المصنع ، حيث لا يتولى ادارة المشروع مالك واحد حر التصرف في عمله وقادر على ايقاف استثماره وحتى اقفاله اذا استصوب ذلك . والرقابة العمالية هنا رقابة فعلية وتمارس في كل آن ، لا سيما وان انتفاء مفهوم الكسب يسهّل البحث عن الخير العام ؛ فيصبح الاضراب في مثل هذا التنظيم امراً غير وارد لا يمكن تصوره . وهو هذا المبدأ نفسه ما وضع في ايدي الدولة كل اجهزة الدعاوة : التعليم ، والكتب ، والصحافة ، والسينما ، والاذاعة ، التي تشرف عليها ، في البلدان الرأسمالية ، الصوالح الخاصة سيدة الاقتصاد .

فهل ان النظام السوفياتي كما كتب « هـ. لاسكي » ، ليس سوى مجتمع ديموقراطي تحكمه دكتاتورية ؟ على هذا السؤال يجيب انصاره ان الدكتاتورية كانت ولا تزال حاجة ملحة . افلا يعترف فلاسفة الديموقراطية باستحالة تجنب فترة تكون فيها الدكتاتورية امراً ضرورياً ؟ وقد شدد « جون مولتون موري » على :

« ان اشتراكية مصادرة الاملاك الشاملة والحكومة البرلمانية ... امران متناقضان لسبب بسيط هو ان التبدلات في النظام الاجتماعي ترتدي طابعاً من الصرامة لا تستطيع معه ، من الوجهة البشرية ، توقع تسليم الاكثرية بها ، حتى اذا جمعت مثل هذه الاشتراكية حولها اكثرية برلمانية » .

ويلاحظ « ف. غوغيل » :

« ان الديموقراطية لم تقم في اي مكان ... حتى في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، بدون منازعات وبدون اقصاء بعض الفئات الاجتماعية عن الحياة السياسية اقصاء مؤقتاً على الاقل » .

كان من شأن حرية النقابات والاضراب من اجل تحسين الاجور كلما تزايد الانتاج ان يعرضا للخطر تنفيذ الخطط الخمسية ، ولا سيما تقدم الصناعة الثقيلة على المواد الاستهلاكية ، اي المستقبل كله .

النظام « متلاحم ومتماسك منطقياً انطلاقاً من المقدمات الماركسية » ، كما يلاحظ ذلك حقوقي آخر ، هو « مارسيل والين » ، الذي يضيف الى ذلك قوله: « من الصعب عدم الاعتراف بان الماركسي قد يكون حسن النية عندما يدعي بانه ديموقراطي » . فالمسألة تتناول في النهاية مفهوم العالم في نظرنا ، والماركسية تقترح ، في وجه المذاهب الحرة ، مذهباً كاملاً يستطيع ، كما يعتقد ممثلوها ، حل « كافة المناقضات بين كل شخص والاشخاص الآخرين، بين الفرد والمجتمع، ويكون اتحاداً في الحق والسعادة » .

« قد تنفي الديموقراطية الماركسية عن نفسها صفة احتكار السلطة، لان احتكار السلطة هو استعباد الانسان للاهواء والصوالح الخاصة . ولكن المجتمع الماركسي احتكاري حقاً لان شيئاً ما هو انساني ليس غريباً عنه . انه تفسير كامل وحي للانسان والعالم » . (ج. فيديل) .

٤ – قوة النظام والمعارضة

تحقق تدعيم النظام بفضل احراز الاقتصاد الجديد نجاحات شاملة اتاحت تحسن مستوى معيشة المواطنين تحسناً تدريجياً، وبفضل جمع كافة السلطات في ايدي الحزب الواحد والحكومة التي لا يتميز الحزب عنها والتي توفرت لها كافة الوسائل اللازمة لمراقبة كل نشاط عدائي وقمعه بصرامة . وتحقق كذلك بفضل انتهاج سياسة كريمة حيال القوميات ازالت كافة آثار النظام القديم الاستعماري بتأمينها المساواة الفعلية بين الحاكمين القدماء والمحكومين القدماء . ولكن هذه العوامل ما كانت لتخلق امة سوفياتية وتضمن المستقبل لو لم تشترك معها عوامل اخرى ، وبخاصة التوجيه الماركسي اللينيني في التعليم والصحافة والاذاعة والسينما ، ودأب هذه الاجهزة على استمالة السكان الى النظام وعلى اقناعهم بانهم يعيشون في ظل نظام اكثر موافقة من النظام القديم ، مهما كانت الاخطاء وخيبات الامل الناجمة عنها ، وعلى حملهم على الدفاع عنه ضد الهجمات الداخلية والخارجية ووعدهم بمستقبل افضل اكيد .

الانسان الجديد

ابتدع النظام البلشفيكي انساناً جديداً . فعلى غرار الثورة الفرنسية من ذي قبل ، فتحت الثورة الروسية ، بتوسيعها قواعد المجتمع ، حقل عمل فسيحاً وغير مُؤمّل امام المواهب والقابليات. وحررت الطاقات الجديدة ، المهملة والمكبوتة حتى ذاك التاريخ ، الكامنة في شعب يجاوز المائة مليون نسمة عداً ، والمؤلفة احتياطياً كبيراً من « الاهليات لكافة المهام الممكنة » . فليس زعماء الثورة ، لينين وتروتسكي وستالين ومولوتوف ... وحدهم من كان مقدراً لهم بدونها ان يبقوا « منفيين حزانى » او « متآمرين مغمورين » ، ومن كشفت الظروف كفاءاتهم القيادية ، او قادة الجيش والضباط الادنون وصفوف الضباط والجنود العاديون والعمال ، الذين اصبحوا في وقت قصير قادة الجيش الاحمر الشبان ، بل عدد كبير من الافراد الموزعين على كافة انحاء البلاد الذين « اكتشفوا قدرتهم على النشاط الخلاق الذي لم تسمح الظروف السابقة بافتراض وجوده ... فمنذ السنة ١٩١٧ ، ربما لم توجد قرية واحدة في الاتحاد السوفياتي لم تنتج ، في اطار حاجاتها الخاصة ، احد امثال «هامبدن» القادرين على الاهابة بها الى بذل جهود لم تكن تتصور قدرتها عليها من ذي قبل» (هـ. لاسكي) .

ان الانسان السوفياتي الجديد ، المختلف كل الاختلاف عن الفلاح الروسي القديم ، قد تكوّن في اثناء معارك الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي ، وخلال سنوات الجهود الطويلة التي فرضتها اعادة اعمار البلاد وتحقق الخطط الخمسية . واتجهت التربية التي اكتسبها بفضل المدرسة والكومسومول والجيش الاحمر والصحافة والسينما والاذاعة والادب الى تنمية الشعور فيه بان « المجتمع الجديد لا يمكن ان يبنى الا باتحاد كافة طاقات الشعب الحية » ، وبان «نمى الانسان

الشخصية مرتبطة بالازدهار الاجتماعي ، وبان الشخص لا يستطيع الافادة افادة كلية من قابلياته المختلفة الا في المجتمع فقط » .

منذ السنة ١٩٣٦ ، تألفت اكثرية الشعب السوفياتي من اناس لم يعرفوا قط النظام القديم أو لم يحفظوا عنه سوى ذكرى بعيدة ، وترعرعت في هذا الجو الحماسي الذي خلقتـه الثورة ، مقتنعة بان الحياة الجديدة لن تكون الا اكثر جمالاً يوماً بعد يوم واوفر ارضاء يوماً بعد يوم ، ولم يثر المستقبل مخاوفها ، ولا سيما من زيادة الانتاج ، لانها على يقـين بان المستقبل سوف يكون افضل سنة بعد سنة . وسيظهر الاثر العميق للتربية الاخلاقية السوفياتية هـذه في الحرب ضد المانيا وفي سنوات اعادة بناء البلاد الصعبة .

الجيش الأحمر

بغية مواجهة الحرب الأهلية والتدخل الاجنبي ، توجب على النظـام الجديد انشاء جيش مخلص وقوي . وكان عليه ، في هـذه المهمة ، ان يتغلب على الصعوبات نفسها التي قامت في وجـه الثورة الفرنسية . ففي شهر تشرين الأول من السنة ١٩١٧ ، حلّ محـل الجيش القديم ، السائر بخطى سريعـة في طريق الانحلال ، جيش اشتراكي اختير افراده عـن طريق التطوع : « جيش العمال والفلاحـين الاحمر » المؤلف من « عناصر الطبقات الجدّة والمنظمة ، المتأثرة اكثر من غيرها بالروح الطبقية » . فجاءت النتائج مخيبة للآمال ، ان لجهة عدد المتطوعين (اقل من ٣٠٠ ٠٠٠ في شهر ايار من السنـة ١٩١٨) ، وان لجهة الانضباط . لذلك ادخل تروتسكي اصلاحات حازمة منذ شهر اذار من السنة ١٩١٨ : انشاء سلطة عسكرية مركزية ، خدمة عسكرية الزامية وقيد اسماء الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية ما بين السنة ١٩٢١ والسنة ١٩٢٥ في المناطق الغربية التي يهددها الجيش الابيض . وأبطل انتخاب الضباط منذ صيف السنة ١٩١٨ ، وانزلت عقوبات صارمة بالفارين والمتمردين. واخيراً بذلت جهود كبرى لاستخدام قادة الجيش القيصري القديم ريـثما يتوفر للجيش الاحمر اعداد ضباط يمحضهم ثقته الكاملة . الا ان الحكومة ، التي لم تفتر دقيقة واحدة باخلاص هؤلاء الضباط ، عينت في مختلف الوحدات مفوضين يمثلون النظام رغبة منهـا في استدراك الخيانات واعمال التخريب ، وتربية الجندين الجدد تربية سياسية . واسندت ادارة العمليات الحربيـة للقيادة ؛ ولكن الاوامر والتقارير يجب ان تحمـل توقيع المفوض . واستدعي كذلك صفوف ضباط الجيش القديم (٢١٥٠٠٠) الذين رفعوا الى رتب ضباط ، وانشئت مراكز تدريب تعلم، خلال اشهر معدودة ، ضباط الغد المنحدرين من عائلات عمالية قروية. فارتفعت نسبة الشيوعيين بين الضباط من ٥٤ ٪ في السنة ١٩١٩ الى ٦٥٪ في السنة ١٩٢١ . وضُمت الى الوحـدات ، ولا سيما وحدات الاصطدام ، فرق جديدة هامة من الجندين الشيوعيين . وهي هـذه الوحدات، مع المفوضين والضباط الشيوعيين ، ما الفت ، بحسب تعبير تروتسكي ، « طائفة شيوعية جديدة من الساموراي عرفت ، بدون اي امتياز طبقي ، كيف تموت وعلمت الآخرين كيف يموتون من اجل قضية الطبقة العمالية » . وحـين قضى البلشفيك ، في ربيع السنة ١٩٢١ ، على الجيوش

البيضاء وارغموا الحلفاء على الانسحاب ، كان قد برز جيل جديد من القادة العسكريين المحنكين ضم ضباطاً قدماء (شابو شنيكوف ، كامنيف ، توكاتشفسكي) او صفوف ضباط قدماء (فوروشيلوف ، تيموشنكو ، بلوشر ، بوديَنّي ، ايجوروف) ، او مدنيين (فرونزيه) . اما الضباط المتحدرون من اصل قروي وعمالي ، الذين اتوا اعمالاً بطولية خلال الحرب الأهلية ، فقد حصلوا في الاكاديميات العسكرية الدروس التي اتاحت لهم بلوغ الرتب العليا ، ولم يبق في الخدمة ، في السنة ١٩٣٠ ، سوى عدة مئات من ضباط الجيش القديم (١٠٪ من الضباط مقابل ٧٨٪ في السنة ١٩١٨) ؛ وفي السنة ١٩٣١ كان ٥١٪ من الضباط اعضاء في الحزب الشيوعي . وارتفعت هذه النسبة الى ٦٨،٣٪ في السنة ١٩٣٤ . ومنذ السنة ١٩٢٨ ، كانت هذه حال ٥٣،٦٪ من قادة الفرق ، و ٧١،٩٪ من قادة الفيالق و ١٠٠٪ من قادة الجيوش . وقد قلل تزايد العنصر الامين هذا في المراتب العليا من شأن دور المفوضين الذي انحصر في تربية المجندين السياسية والمعنوية . ولكن سلطتهم توسعت مجدداً في اعقاب عملية تطهير كبار الضباط ، التي اجريت في السنة ١٩٣٧ ، ورفع في الوقت نفسه ضباط الصف الثاني ، الاوفياء للحزب والواقفون على التقنيات العصرية ، الذين احتلوا المراكز الشاغرة الهامة .

الشرطة والقضاء السياسي

كانت الحكومة السوفياتية ، وهي حكومة ثورية تحدق بها الاخطار من الداخل والخارج على السواء ، اعجز من ان تستمر وتنتصر بدون دكتاتورية ، وكانت هذه اعجز من ان تقوم بعمل مجد بدون مساعدة شرطة ناشطة تمارس رقابتها في كافة الاوساط وفي كافة انحاء البلاد . وهو ستالين من شرح هذا الوضع ، في السنة ١٩٢٧ ، لوفد من العمال الاجانب :

« نحن بلاد تحيط بها الدول الرأسمالية . واعداء ثورتنا في الداخل هم عملاء رأسماليي كافة البلدان ... ، بحاربتهم نحارب العناصر الرجعية في كافة البلدان ... ، وما دام هناك تطويق رأسمالي ، فسوف يكون هناك مخربون ومنفذو اعمال جانبية وجواسيس وارهابيون آتون من وراء حدود الاتحاد السوفياتي لخدمة دوائر التجسس في الدول الأجنبية ... لا ، ايها الرفاق ، يجب الا ترتكب الاخطاء التي ارتكبها الثوار الباريسيون في السنة ١٨٧١ . ان جهاز الشرطة السياسية في الدولة ضروري للثورة وسوف نبقي عليه لارهاب اعداء البروليتاريا» .

نظم جهاز الشرطة السياسية (.G.P.U ، ثم .O.G.P.U ، ثم .N.K.V.D — اي مفوضية الشعب للشؤون الخارجية — في السنة ١٩٣٤) في السنة ١٩٢٢ في اعقاب الثورة الاهلية ، ومارس نشاطه في اثناء السياسة الاقتصادية الجديدة ضد انصار النظام القديم وممثلي الطبقات الحاكمة القديمة ، وضد « السياسيين » : المنشفيك ، والاشتراكيون الثوريون ، والفوضويون. وعند البدء بتنفيذ الخطط الخمسية ، تناول نشاطه المحتكرين والكولاك وكافة مقيمي العقبات في طريق التصنيع والمنسوب اليهم « تخريب » الانتاج : كاختصاصيي الصناعات الغذائية الـ ٤٨ الذين ادينوا في خريف سنة ١٩٣٠ ، ومهندسي « الحزب الصناعي » في موسكو الذين حوكموا في شهر كانون الاول وعفي عنهم في السنة التالية . وحتى اوائل السنة ١٩٣٥ انزلت العقوبات

الصارمة : كالحكم بالموت الذي ابقي عليه في الشؤون السياسية ، والنفي الى معسكرات المناطق المتجمدة وسيبيريا ، بمناهضي الثورة من محتكرين وكولاك بصورة خاصة ؛ امـــا المعارضون الخارجون من صفوف الحزب فقد استفادوا من قانون غير صارم شبيه بالقانون « السياسي » في السجون الغربية ، ولكن هذه المعاملة زالت بعد مقتل كيروف الذي يبدو انه زاد من حـــذر ستالين .

المعارضة

كان النظام مقتنعاً بان الرأسمالية مصممة منـذ السنة ١٩١٧ على تقويض الدولة الاشتراكية الجديدة ، ثم ايد مخاوفه هذه التدخل الاجنبي والمساعـدة المقدمة للمهاجرين ومشاريعهم من قبل الحكومات الاجنبية وتهديدات الصحافة والعديد من الشخصيات العسكرية والمدنية الاجنبية ، فرأى طبعاً في كافة مظاهر المعارضة والمؤامرات و« اعمـــال التخريب » اثر التدخل الاجنبي . فاتهم كل معارض بانه متواطىء مع الاجنبي واداة في يديه ، وهذا ما يفسر ضراوة المنازعات والقمع الذي لم يعرف للرحمة معنى .

ان زوال معظم الطبقات الحاكمة القديمة لم يقض على كل معارضة . فان بعض ممثليها ممن بقوا في الارض السوفياتية قد ظهروا علانية مرة اخرى خلال سنوات السياسة الاقتصادية الجديدة، ولكنهم ما لبثوا ان تواروا امام المحتكرين . اما معارضة الكولاك والمقاومة الريفية في اوائل عهد التأميم فكانتا اعظم شأناً الى حد بعيد . وقد تميزتا بثورات مسلحة قمعت دونمـا صعوبة بتدابير التوقيف والنفي ، وبمقاومة انشاء التعاونيات الزراعية (كما يصفها شولوكوف في روايته « الاراضي المحياة ») في العلن او في الخفاء ، وبتخفيض مساحة اراضي زراعـة الحبوب ، ولا سيما بمجزرة المواشي التي ربما قضت بين السنة ١٩٢٩ والسنة ١٩٣٣ عـــلى نصف الخيول و٣٠ مليون ماشية كبرى و١٠٠ مليون خروف ، مما سيستلزم عشر سنوات لبلوغ ارقام السنة ١٩٢٩ مرة اخرى .

المعارضة في داخل الحزب

وقامت هناك معارضة اخرى ، شديدة الخطر على النظام ، هي التي تكونت في داخل الحزب اثناء مرض لينين في اصعب ايام السياسة الاقتصادية الجديدة. فان الخلاف الذي طالما نشب منذ السنة ١٩١٧ بين تروتسكي ولينين قـــد اتسع خرقه حين هاجم تروتسكي السياسة الاقتصادية الجديدة وكأنها استسلام امام الرأسماليين، ثم بعد وفاة لينين حين تجابه الرأيان المتناقضان حول توجيه سياسة الاتحاد : الرأي التروتسكي القائل بالثورة المستمرة ، والرأي القائل بالثورة الاشتراكية في بلاد واحـدة ، الذي دافع عنه ستالين . وخلال خمس سنوات قاوم ستالين « ثالوث » تروتسكي وزينوفياف وكامنيف ؛ فتجابه الجناحان في اجهزة الحزب المختلفة والصحافـــة والمؤتمرات الى ان قرّر النصر الستاليني تحقيق الاشتراكية في بلاد واحدة ، ومن ثم ، التخلي عن السياسة الاقتصادية الجديـــدة ، وتأميم الارياف ، والتصنيع بواسطـة الخطط الخمسية . فنفي تروتسكي الى « الما آتا » واقصي اخيراً عن الاتحاد السوفياتي في شهر كانون الثاني من السنة ١٩٢٩ . وفي السنة ١٩٣٠ قضي كذلك

على معارضة بوخارين اليمينية المعادية لتأميم الارياف . ومنذ ذلك التاريخ لم تبرز المعارضة الا بأعمال التخريب وسلبية الاختصاصيين الذين كانوا يتحسرون على النظام القديم ، والذين بقوا على اتصال باوساط الهجرة .

المقاومة الدينية والقومية

في حقلين آخرين – تشدهما الروابط في اغلب الاحيان – اصطدم النظام بين آن وآخر بمعارضة عنيفة جداً : الحقل الديني وحقل القوميات . لقد كانت الكنيسة الارثوذكسية حليفة السلطة المطلقة ، فقد فقدت بسبب الثورة امتيازات فخرية ومادية كثيرة ؛ واذا هي استعادت حقها في اختيار بطريرك ، فانها قد فقدت ممتلكاتها ودورها السياسي وخشيت خطر حكم ينادي بالالحاد رسمياً ؛ فاستهلت ، في اثناء ولاية البطريرك تيخون ، صراعاً عنيداً ضد النظام الجديد ، وحرمت الزعماء الشيوعيين وحاربت سياستهم بعزم وقوة . فأجاب النظــام بفصل الكنيسة عن الدولة فصلاً مطلقاً ، وبعدد من التدابير التي زادت اكثر فأكثر من عزلة الكنيسة وأقصتها عن كل حياة سياسية : اقرار الحالة المدنية ، وحرمان الكهنة من الحقوق المدنية ، وفي السنة ١٩٢١ ، حظر تعليم الشبيبة تعليماً دينياً ، الا بصفة خاصة ، وتعليم مضاد للدين في المدارس والكتب المدرسية ، والغاء كل ادب ديني ، واقفال مراكز التعليم الكنسي ، ومصادرة ادوات العبادة ... ولم يسمح عملياً الا بالاحتفالات الدينية . فقد طورد الرهبان والكهنة والقي القبض عليهم ، بحجة مخالفة منع التعليم في اغلب الاحيان . وفي السنة ١٩٢٥ ، تأسست « عصبة الملحدين المناضلين » التي استهدفت دعاوتها الناشطة نشر احتقار الدين وتقويض سلطة الكنيسة التسلسلية . وتولت بعض المتاحف اللادينية ، والصحافة ، والاعلان ، مهاجمة الظلامية والخرافات الدينية ، ونشر التعاليم المادية . وعلى غرار ما حدث اثناء الثورة الفرنسية ، قاطع شطر من الاكليروس كافة القوى المناهضة للثورة وأسس « الكنيسة الحية » التي سمح لها بعقد ثلاثة مجامع . وفي السنة ١٩٢٧ اخيراً ، أوصى رئيس الاساقفة سرجيوس رعاياه بالوقوف موقفاً مخلصاً من الدولة وأمر باقامة الصلوات من اجل البلاد والحكومة . فأتاحت هذه المصالحة للكنيسة ان تعيش كمؤسسة خاصة في ظل حرية الضمير التي ينادي بها الدستور . اجل لقد استمرت الدعاوة المضادة للدين، ولكن قوتها تضاءلت كلما تضاءل الخطر على الثورة وكلما اعربت الاجيال الجديدة المؤمنة عن موالاتها ؛ ثم اعاد دستور السنة ١٩٣٦ الحقوق المدنية للاكليروس ؛ ويشير احصاء يعود الى السنة ١٩٤١ الى وجود ٣٠٠٠٠ جمعية دينية مختلفة ، و ٨٣٣٨ مكان عبادة مسموحاً بها منها ٤٢٢٥ كنيسة ارثوذكسية (مقابل ٤٦٤٥٧ في السنة ١٩١٧)، و ٨٧٦٥ كاهناً ارثوذكسياً وشماساً (مقابل ٦٦١٧٠) ، و ٣٨ ديراً (مقابل ١٠٢٦) .

بينما كان السبب الرئيسي للنزاع مع الكنيسة الارثوذكسية تحالف الكنيسة مع الطبقات الحاكمة القديمة ، كان السبب الرئيسي للنزاع بين الحكومة السوفياتية والسكان المسلمين التحالف الوثيق بين المسلمين والحركات القومية المحلية ، وتناول الاصلاحات العصرية التقاليد الدينية

بصورة حتمية بسبب ارتباط الحياة المدنية والحياة الدينية ارتباطاً وثيقاً . فعولج الوضع في البدء بمزيد من المداراة، وتأخرت العلمنة عنها في اوروبا ، وبقي التعلم القرآني مسموحاً به حتى السنة ١٩٢٨ : لم تؤمم الممتلكات الوقفية الا في هذا التاريخ . وكانت نتيجة المقاومة التي جمعت بين القوميين الانفصاليين من ذوي النزعات الطورانية الشاملة وبين العناصر الدينية في جمعيات مناهضة للثورة تحت الستار الديني (شورى الاسلام) اثارة نزاع على جانب كبير من الخطورة، فردّت الحكومة بقوة بتشجيعها الدعاوة المضادة للدين : سخر المسرح والسينما من اولياء الاسلام ومن الاعياد الدينية ، ثم ابدت عصبة « الله – زيسلاف » ، وهي احد فروع عصبة الملحدين التي تأسست في السنة ١٩٢٥ ، نشاطاً كبيراً وواسعاً جداً ، فاقفل ٨٠٠٠ جامع والمدارس القرآنية في الجمهوريتين التترية والبشكيرية ، و ٥٠٠ جامع في مناطق القفقاس الشمالية ؛ وطورد الخاتنون . وفي السنة ١٩٣٨ ، بدت الحركة الطورانية الشاملة مشلولة ، وماشى الدين الروح العصرية وبات اكثر مرونة ، وسلّم على ما يبدو بمنع تعدد الزوجات وزواج القصّر ، وبحرية النساء في الخروج من منازلهن ؛ فتوقفت من ثم الحملة الهادفة الى محاربة الدين الاسلامي ، والدعاوة المضادة للدين . الا ان التقاليد والعادات الموروثة عرفت البقاء بالرغم من القانون واستفادت من حلم سلطات محلية كثيرة : فما زال تعدّد الزوجات ، وارغام القاصرات على الزواج ، وارتداء الحجاب ، واقامة النساء في الحرم ، اموراً غير نادرة ، بينما استمرت الروح القومية .

الدعاوى الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٨)

ان المعارضة السياسية او القومية – اقله في اوروبا – لم تظهر قط بعد السنة ١٩٣٠ (تاريخ دعوى الانفصاليين الاوكرانيين في كييف) ، على الرغم من استمرار وجود الفئات المنظمة في داخل الحزب حتى السنة ١٩٣٤ . ولكن ذلك لا يعني زوالها ، كما تؤيد ذلك عمليات التطهير المتكررة التي لم تقص الفاترين والفاسدين والعجزة فحسب ، بل اعداء الفريق الحاكم ايضاً .

كان مقتل كيروف الذي صادف في الزمن فترة تأزم دولي على جانب كبير من الخطورة ، مثاراً لسلسلة من الدعاوى امام المحاكم العسكرية رفعت على زينوفياف وكامنيف من « مركز لينينغراد » في السنة ١٩٣٦ ، ثم على راديك وأحد عشر معارضاً آخر في شهر كانون الثاني من السنة ١٩٣٧ ، ثم على سبعة قواد والمارشال توكاتشفسكي في تموز ، واخيراً على بوخارين وريكوف وياغودا في شهر آذار من السنة ١٩٣٨ . وقد اتهموا كلهم ، بدرجات مختلفة ، بانهم عملوا بالاتفاق مع عملاء الاجنبي اما على اغتيال ستالين وكبار الزعماء الآخرين ، واما على تمهيد الطريق لهجوم مسلح على الاتحاد السوفياتي ، واما على اعداد انقلاب عسكري . فأجريت خلال هاتين السنتين عملية تطهير عام تناول عدداً كبيراً جداً من المسؤولين وكبار الموظفين ، ولا سيا في الهيئة الدبلوماسية والادارة الاقتصادية والجيش ومحاكم الحزب ؛ وقد احدثت

الأحكام الصادرة بالطرد من الحزب والتوقيف والاعـدام جواً رهيباً من الضعضعة والقنوط ، وفوضى خطيرة في كافة الادارات والمصالح ؛ وبعـــد عزل « اياجوف » اعتمدت تدابير تهدئة اصلحت الاخطاء والظلامات المرتكبة ، فأخـــلي سبيل اكـــثر من ٦٠٠٠ ضابط ومهندس وموظف ، أو اعيد لهم اعتبارهم .

الخـلاصـة

هكذا قام في الاتحاد السوفياتي ، خلال سنوات ما بين الحربين ، عـالم جديد يختلف عن باقي الانسانية . ففي ظروف مادية غاية في الصعوبة ، وفي وسط كون معاد كان يرتقب ويرجو كل يوم نهاية النظام ، بنى البلشفيك – دون اية مساعدة خارجية – دولة اقتصادية من المرتبة الاولى . فكان الهدف المعين للشعب السوفياتي تعويض خسارة الوقت والتساوي بأعظم الدول: الولايات المتحدة ؛ اجل ما زالت المسافة كبيرة ، في السنة ١٩٣٩ ، بـين الجبارين ، ولكن سرعة النمو بعثت اعظم الآمال لمستقبل قريب . فأوجه الشبه بـين البلدين كثيرة : الثروة نفسها وتنوع الموارد الطبيعية نفسه ، وتدني نسبة كثافة السكان نفسه ، وحضارة جماهيرية واحدة يحركها الايمان بالتقدم العلمي والتقنية المبنية على العقل ، و « ثقة غير محدودة واحدة في فاعلية تأثير الانسان على البيئة » .

وهو هذا التقدم غير الاعتيادي ما يفسر نفوذ الاتحاد السوفياتي في العالم اجمع على الرغم من الحصار الذي فرض عليه ، وعلى الرغم من عزلته وانكماشه على نفسه ؛ وهو ما جعل منه نظيراً للولايات المتحدة التي اصبحت زعيمة الدول المتمسكة بالرأسمالية والحرية السياسية .

ان المبادىء التي يعمل بوحيها ويبثها ليست جديدة ما دامت ترقى في معظمها الى كارل ماركس ، ولكن الاتحاد السوفياتي هو ما اخرجها من حقل النظرية ليجعل منها قوّة سياسية ، وما جعل تفسير الكون الوارد في الفكرة الماركسية والحلول التي تقترحها امـام متناقضات العالم الرأسمالي تنتشر انتشاراً جديداً .

منذ السنة ١٩١٧ ، لم يعد نقد الديموقراطية الحرة نقداً ايديولوجياً امراً يستهان به ، بعد ان انتزع قناعة عقول كثيرة ومصلحين كثيرين . فان مفهوم الاقتصاد المخطط ، الذي اعتبر خيالياً لفترة طويلة ، قد فرض نفسه على علماء الاقتصاد والسياسيين . وهكذا طرحت المبادىء والامثلة مسائل جديدة وادخلت على انظمة الدول الحرة تعديلات عميقة . وفي العلائق الدولية لم يكن تأثير الاتحاد السوفياتي اقل شأناً . فان استخدام الدعاوة الرسمية ، واحتكار التجارة الخارجية ، قد ارغما الدول المقابلة على اعتماد وسائل مماثلة او تعديل طرائقها التقليدية .

ولم يكن اقل شأناً كذلك تأثير الاحزاب الشيوعية الوطنية التي بدّل نشاطها ظروف حياة الدول الغربية وتطورها السياسي تبديلاً عميقاً احياناً . وكان هذا التأثير مباشراً وغير مباشر .

افلم يلاحظ ان حركة فاشستية كانت تولد ابداً في كل بلاد يوجد فيها حزب شيوعي قوي ؟ اولم تعزز الخشية من الاتحاد السوفياتي ، في بعض الاوساط ، الوعي الرأسمالي ؟ اولم تدفع هـــذه الاوساط الى الوقوف موقفاً متساهلاً من الحركات الفاشستية ؟

في الواقع تطور العالمان المختلفان كل على حدة دونما تخالط تقريباً . فمن جهة ، اشمئزاز ووجوم ودهشة لرؤية قيام واستمرار ونمو نظام اقتصادي وسياسي مبني على مبادىء تعتبر متنافية والنظام الطبيعي ، وخاطئة ، وحتى غير معقولة ؛ وجزع امام هذا الاستقرار وهــذه القوة المتزايدة النمو من جانب الدول الرأسمالية . ومن جهة ثانية ، قناعة في الاتحاد السوفياتي بأن انحطاط الرأسمالية المحتوم تستعجله الازمات ، وبان اشتداد هذه المتناقضات وتزايد عدم القرار يولدان الاضطرابات ويهددان السلم تهديداً اكثر خطورة يوماً بعد يوم . وجاءت عمليـة التطهير الكبرى (١٩٣٦ – ١٩٣٨) ، التي تناولت بصورة خاصة القادة العسكريين والمدنيين المعروفة اسماؤهم واشكالهم خارج الاتحاد السوفياتي ، تعزز فقدان الثقة بدولة بغيضة وتحدث انطباعاً بان الاتحاد السوفياتي اقل قوة وركانة مما يعتقد الناس . وهو الخطر المشترك وحـده ما سوف يزيل هذا الاختلاف جزئياً بعد السنة ١٩٤١ .

القسم الثالث

العالم المنقسم

تناثر الأمبراطوريات الاستعمارية

الكتاب الأول

الحرب العالمية الثانية

لم تضعف اوروبا بفعل تأخرها الاقتصادي وحركات التحرر الآخذة في النمو بين الشعوب المسودة فحسب ، بل ضعفت كذلك بفعل الانقسامات العميقة التي اقامت الدول بعضها في وجه بعض . فان الخلافات التي برزت بين المنتصرين في مؤتمر الصلح قد استمرت وتفاقمت حين ادى رجحان كفة الانعزالية الاميركية الى اعراض الولايات المتحدة عن كل تعاون دولي فعلي . وازداد « سوء التفاهم الودادي » بين فرنسا وبريطانيا العظمى في المسائل المتعلقة بالشرق ومسائل التعويضات ونزع الاسلحة على السواء . فعزز هذا الانشقاق موقف المطالبين باعادة النظر : المستائين منهم كايطاليا ، والمهزومين ، ولا سيما المانيا التي توفقت ، على مراحل ، الى تصفية التعويضات ، واستعادت مركزاً من المرتبة الاولى في الدبلوماسية الاوروبية بفضل معاهدة « لوكارنو » .

لم تمس هيئة الامم محكمة الرقابة العالمية التي حلم بها الرئيس ولسون ، ولم تكن سوى جهاز اوروبي في الدرجة الاولى ، تسيطر عليه الدول الكبرى ، ولا سيما فرنسا وبريطانيا العظمى ؛ وقد برهنت عن عجزها في اقامة التعاون العام التلقائي ضد التعديات . وبقي نشاطها محصوراً في المسائل الصغرى ، بينما عولجت كافة المسائل الهامة بمعزل عنها عن طريق مفاوضات مباشرة بين الدول الكبرى . لذلك فان تقسيم الكرة الارضية ، الذي تحقق في معاهدتي السنة ١٩١٩ والسنة ١٩٢٠ ، والذي ما لبثت ايطاليا والاتحاد السوفياتي والبلدان المهزومة ان اعترضت عليه ، لم يرتد طابع الديمومة .

فمنذ السنة ١٩٣٠ ، شقت الطريق امام الفاتحين ، وخُلق « وضع قابل الانفجار » بفعل ادعاءات اليابان وايطاليا اللتين استندتا فيها الى كثافة سكانها المطردة الارتفاع ، وادعاءات الشعب الالماني الآخذ في الاختناق في رقعة ضيقة جداً . وقد يسر نجاحات هذه الدول نفور الحكومات من تنظيم الامن الجماعي والتسلح بتعاون دولي ضد التعدي ؛ وبرزت حينذاك مثل هذه الاشعرة الشعبية : « العقوبات تعني الحرب » ، « ويجب « حصر النزاعات » لا توسيعها . ومن جهة ثانية ، رأى شطر هام من الرأي العام ، في الدكتاتوريات العسكرية ، عاملاً اساسياً من

عوامل مقاومة الاتحـــاد السوفياتي ، وكانت مناهضة موسوليني وهتلر البلشفيكية واحداً من اعظم عنـــاصر نفوذهما ؛ يضاف الى ذلك اخيراً ان الخوف من تحول ايطاليا والمانيـــا الى الشيوعية ، والرغبة في تحاشي استياء اليابان التي قد تهدّد مستعمراتهم الآسيوية ، حملا خصوم هذه الدول على مراعاة جانبها وتجنب تكبيدها هزائم معنوية من شأنها اسقاط حكوماتها .

وهكذا نجحت اعمال القوة اليابانية في منشوريا والصين ، واحتـــلال ايطاليا لاثيوبيا ، والتدخل الجرماني الايطالي في الحرب الاهلية الاسبانية ، وضمّ النمسا (انشلوس) وتجزئـة تشيكوسلوفاكيا (الشكلان ٩ و١٠) . وبالمقابـــلة تفكك جهاز التحالفـات الذي انشأه المنتصرون ، وعُزلت تشيكوسلوفاكيا ، فأسرعت بلدان اوروبا الوسطى والشرقية الى انتهاج السياسة التي توافقها : ابتعدت رومانيا ويوغوسلافيا وبولونيا عن فرنسا وولت وجوهـــا شطر ايطاليا والمانيا ، بينما عادت بلجيكا الى انتهاج « سياسة خارجيـــة بلجيكية بحتة » . ثم جاء استسلام مونيخ الذي تخلى لهتلر عن بوهيميا ، الحصن الامامي للدفاع الروسي ، يقلب التوازن الاوروبي لصالح المانيا ، وينحر الامن الجماعي ، ويقضي في المهـــد على التحالف المرتسم بين انكلترا وفرنسا والاتحاد السوفياتي . فكان مقدراً للحرب العالمية الجديدة ، التي اندلعت بعـد مرور خمس وعشرين سنة على الحرب الاولى ، ان تستعجل التطور الذي ابتدأ في السنة ١٩١٤ .

الفصل الأول

الحربان العالميتان

« لقد حدث لي مرتين ، في حربين مختلفتين ، يفصل بينهما اكثر من عشرين سنة ، ان سمعت ضابطين من حاملي الشهادات يقولان عن التعليم الذي تلقوه : « ان المدرسة الحربية خدعتنا » .

« مارك بلوك »

طوال فترة الخمس وعشرين سنة هذه ، استوطن القلق والجزع قلوب البشر ؛ ومرد ذلك الى ان الحرب تسلطت على العقول : الحـــرب التي خيضت بين السنة ١٩١٤ والسنة ١٩١٨ ، وذكرى فظاعاتها وآلامها ، والخشية من تجددها ، وتجددها بالفعل في السنة ١٩٣٩ . فقد كان من شأن ضخامة عدد المجندين الواقفين في وجه العدو بحكم الخدمة العسكرية الالزاميـة التي اصبحت شاملة حقاً ، وانقلاب ظروف الحياة الذي عانت منه كافة طبقات المجتمع وكافـــة بلدان العالم ، واتساع مدى الخسائر في الارواح والثروات التي يمنى بها المنتصرون والمهزومون على السواء تقريباً ، ان الحرب لم تعد ، في حياة الشعوب ، حدثاً عابرا يستعاد النشاط والعافية بعده بسرعة متفاوتة ، بل ارتدت طابع كارثة وطنية لا تسدّ ثلمتها . وطيلة ما بين الحربين ، غدت قلقلة الاقتصاد ، واضطراب العلائق الدبلوماسية ، وعنف الادعاءات القومية وحدّة المنازعات من اجل ايجاد الاسواق ، والعداء بين العالم الرأسمالي والعـــالم السوفياتي ، توتراً ديبلوماسياً شبه دائم دفع بالدول الى تكريس شطر هام من مواردها لاعداد العدة للحرب ، والى تطبيق اخر ما توصل اليه العلم والتقنية في تعليم جيوشها وتجهيزهـــا . ولذلك حدثت في « فن الحرب » واساليب المعركة واستخدام الاسلحة تطورات عميقة غيرت وجـــه المعركة البرية والمعركة البحرية تغييرا كليا . وقد اسهمت محاولة الدول الفاشستية البائسة فرض هيمنتها على العالم في طبع الحرب العالمية الثانية بطابع الحرب الشاملة ، الضارية ، التي تجاوزت تجـاوزا بعيدا كل ما شوهد من ذي قبل .

١ - فن الحرب والعدد الحربية خلال الحرب العالمية الاولى

منذ السنة ١٨٧١ لم تحدث نزاعات تقابلت فيها جيوش الدول الكبرى . فلم تتوفر من ثم لاركان حربها ، المسؤولة عن اعداد وادارة العمليات ، خبرة حربية شخصية باستثناء خبرة الغزوات الاستعمارية في بعض البلدان . وقد استوحيت مفاهيمها من درس النزاعات الاخيرة في افريقيا الجنوبية ومنشوريا والبلقان ، والاختراعات التي طورت عدد الحرب ، وطورت من ثم ظروف المعركة . وكان الكل مقتنعين بان الحرب لا يمكن ان تطــــول ، وبان النصر سيحرز بمعارك طاحنة قصيرة . فاعدوا العدة من ثم لمثل هذه الحرب . وقد قال غليوم الثاني في شهر آب من السنة ١٩١٤ : « سوف نعود الى ديارنا في عيد الميلاد » .

الا ان الحرب التي اندلعت في هذا التاريخ قد دامت اربع سنوات ظهرت خلالهــا اسلحة جديدة وظروف معارك غير مرتقبة ارغمت اركان الحرب على اعادة النظر كليا في مفاهيمها واساليبها . فتطور الجيش ووجه المعركة من ثم تطورا كبيرا خلال العمليات ، وكانا في السنة ١٩١٨ مختلفين اختلافاً كبيرا عنهما في السنة ١٩١٤ .

مفهوم المعركة في السنة ١٩١٤

للمرة الاولى ، ستتجابه الدول الكبرى – باستثناء بريطانيا العظمى – بجيوش وطنيــة استند في تأليفها الى مبدأ « الامة في حرب » . فان هذه الجيوش المعبأة بحكم الخدمة العسكرية الالزامية ، أتاحت ارسال أعداد كبرى من الجندين الى خطوط القتال في حين زادت التحسينات التقنية من قوة النار . لقد اصبح اطلاق النار اكثر دقة وتواصلا بفضل استعمال البارود B (وقد حل محــل البارود الاسود) الذي لا ينشر دخاناً، ولا يوسخ جدران المدافع الداخلية، فيتيح من ثم رماية سريعة، وبفضل استعمال بندقية تطلق طلقات نارية متواترة ، وبفضل استعمال المدفع الرشاش . وكان من شأن هذا الاخير منع كل تجمع عسكري كثيف حتى مسافة ٢٠٠٠ متر ، ومن شأن البندقية الفرنسية (ليبل » ان تصيب الهدف على مسافة ٨٠٠ متر ، وامتدت فاعلية المدفع من عيــار ٧٥ حتى مسافة ٥ كيلومترات ، والمدفعية الثقيلة الالمانية حتى ١٢ كيلومترا . وفي منطقة المعركة هذه المتراوح عمقها بين٦ كلم و ١٢ كلم ،وجب ان تتوزع القوى كي لا تؤلف هدفاً سهل الاصابة؛ وان يطبق « فراغ' ساحة المعركة » الذي سبق للبوير ان حققوه ، وان ينتشر المشاة ويطلقوا النار بتواتر ويتقدموا الى الامام تباعاً على ان يمددوا بين تقدم وآخر الى الانبطاح ارضاً واستخدام الملاجىء الطبيعية او حفر ملاجىء فردية بواسطة الادوات التي ينقلونها . وقد بوشر استخدام ثورتين تقنيتين حديثتي العهد : فمن جهــــة ، محرك الانفجار الذي اتاح نقــــل وتوزيع الجيوش برا بمزيد من السرعة وجمع المعلومات جوا بواسطة الطائرة او المنطاد المسير ، ومن جهة ثانية ، التلغراف اللاسلكي والهاتف اللذان اتاحا الاتصالات السريعة .

قواعد استخدام الاسلحة

في المانيا تمخضت قيــــادة الاركان العامة ، المشبعــــة بتعاليم « مولتكه » و« شليفن » ، بمــــذهب متلاحم يتفق والحرب المرتقبة على جبهتين وظروف النزاع ضد الجيش الفرنسي الذي توفر له المدفع الممتاز من عيار

الشكل ٩ ـ توزع الالمان في تشيكوسلوفاكيا بين ١٩١٨ و ١٩٣٩

١ ـ اكثر من ٩٠ ٪ ، ٢ ـ بين ٧٠ و ٩٠ ٪ ، ٣ ـ بين ٤٠ و ٧٠ ٪ ، ٤ ـ بين ٢٠ و ٤٠ ٪ .

٧٥ والتحصينات القوية التي شيّدها « سيريه دي ريفيير » . فان الوضع يفرض نصراً سريعــاً وحاسماً على فرنسا ، والقضاء على العدو سوف يتحقق بهجوم ضـــار يستلزم مناورة تطويقية وهجوماً جانبياً . لذلك شدّدت انظمـــة المشاة الموضوعة في السنة ١٩٠٦ وانظمة الخدمة في الارياف الموضوعة في السنة ١٩٠٨ ، على الروح الهجومية وضبط وقوة اطلاق النار ، وعلى عامل المفاجأة الاساسي . وانما النصر حليف الفريق الذي يتغلب على نار الفريق الآخر بمزيـــد من السرعة ؛ فيجب ان تسيطر على اعمال المشاة فكرة واحدة : « الى الامام ، هجوماً على العدو ، مهما كان الثمن » ... « ويقوم الهجوم باطلاق النار على العدو من اقرب مسافــة . وفي الهجوم بالسلاح الابيض يتكرّس النصر على العدو » . فسلاح المشاة هو من ثم السلاح الرئيسي لانـــه وحده « يتغلب على المقاومة الاخيرة . انه يحمل عبء المعركة الرئيسي ويقدم اسمى التضحيات » .

بيد ان هذه الانظمة تعترف « بحتمية المراحل الهجومية » التي يفرضها اقتصاد القوى قبـل العودة الى الهجوم . ولذلك وُجّه تعليم الضباط والجنود نحو الاعداد الدقيق لاستخدام طبيعة الارض والاعمال في الارياف ؛ وتحقيقاً لهذه الغاية اعتمدت عدّة ملائمة كاملة : عتاد متحرك يستخدم بالجملة ، كالمدافع القصيرة من عيار ١٠٥ و٢١٠ لاجل تدمير التحصينات (الاحت مادة المليذيت خرق عقود مبنية تبلغ المتر سماكة) ، والمدافع الطويلة البعيدة المدى والمـدافع الثقيلة من عيار ١٥٠ لاجل ضرب مدفعية العدو .

اما في فرنسا ، فان « فوش » ، الذي عـــلم « ان معركة خاسرة هي معركة نعتقد باننـا خسرناها ، لان المعركة لا تُخسر معنوياً » ، والكولونيل « دي غرانميزون » ، قـد نوّها بتفوق السلاح الابيض وروح « الهجوم على الرغم من كل شيء » . وان اراء الكولونيل دي غرانميزون ، التي هي نقيض تعاليم الحرب المنشورية ، قد اعتُمدت في التعليمات حول سلوك الوحدات الكبرى والخدمة في الارياف ، التي وضعت في شهري تشرين الاول وكانون الاول من السنة ١٩١٣ . وبصدد سلاح الفرسان ، جاء « ان الهجوم على صهوة الحصان وبالسلاح الابيض هو اسلوب العمل النظامي العادي » . اما سلاح المشاة فهو السلاح الرئيسي ... الذي [يمكن القول] عن سيره الى الامام حتى الالتحام بالعدو انه حاسم ومحتم » ... وفي هذا القول تأكيد لتفوق الحركة بالنسبة الى النار ، ولتفوق العدد بالنسبة الى العتاد . فتصبح المدفعية من ثم سلاحـاً تكميلياً ، ويهمل اطلاق النار واستخدام الادوات ، وتعتبر مفاهيم السلامة وتوزيع الجيوش على مسافات مختلفة من الجبهة اموراً ثانوية .

وقد لخص القائد « هير » هذه الآراء كما يلي : « سوف تكون الحرب حرباً قصيرة الامـد ، تنتقل فيها الجيوش بسرعة وتلعب فيهـا المناورة دوراً رئيسياً : سوف تكون حرب حركة . وسوف تكون المعركة في جوهرهـا نزاعاً بين سلاحي المشاة ... يجب ان يكون الجيش جيش مجندين كثيرين لا جيش عتاد ... لن تكون المدفعية سوى سلاح ثانوي ... وقد يكون التلبك بمدفعية وفيرة دون اية جدوى ... »

الشكل ١٠ ـ التغييرات الاقليمية في اوروبا بين ١٩٢٣ و ١٩٣٩.

١ ـ عودة السار الى المانيا (١٣ كانون الثاني ١٩٣٥) ، ٢ ـ المنطقة غير المحصنة التي احتلتها المانيا ثانية (٧ اذار ١٩٣٦) ، ٣ ـ ضم النمسا (١١ اذار ١٩٣٨) ، ٤ ـ ضم السوديت (٣٠ ايلول ١٩٣٨) ، ٥ ـ استقلال سلوفاكيا (١٤ اذار ١٩٣٩) ، ٦ ـ اقامة محمية بوهيميا ـ مورافيا (١٦ اذار ١٩٣٩) ، ٧ ـ ضم ميمل (٢٢ اذار ١٩٣٩) ، ٨ ـ احتلال ايطاليا لألبانيا (٧ نيسان ١٩٣٩) .

المبادهة في ايدي الالمان

حين اندلعت الحرب ، ارتكب كافـــة القادة العسكريين من ثم الاخطاء نفسها بتقديرهم قوّة الهجوم اكثر من قوّة الدفاع الى حـد بعيد . وبعـد حين ، تكيفوا بحسب الظروف الجديدة غير المرتقبة . ولكن فريق هندنبورغ – لودندورف – هوفمن هو ما احسن التكيف قبل سواه . فهم الالمان من استلموا زمام المبادهة استلاماً شبه دائم تقريباً، في ما يتعلق بالعمليات وبالعتاد على حدّ سواء: مبادهة حرب الخنادق واحكام تقنية التحصن وراء الخنادق في الجبهة التي بلغت درجة من الكمال لم يعرفها اي جيش آخر . اساليب القصف المتواصل الشامل الذي يمحق مواقع العدو الدفاعية ، ثم القصف القصير المركز على نقطة واحدة الذي يتيح فتح ثلمة في الجبهـة . وكانوا السابقين في استخدام الاسلحة الجديدة (باستثناء الدبابة) : الغازات السامة ، قاذفات اللهب ، قاذفـــات الالغام . كما انهم اتقنوا استعمال المدافع الرشاشة والغواصات ، واستخدموا الطائرات قبل غيرهم لقذف القنابل .

الشكل الجديد للحرب في الغرب الخنـــادق

بعد الهزيمة الالمانية في معركة المارن الـتي اوقفت محـــاولة اندفاع جانبي والتفـــاف استهلت بنجاح في بلجيكا في شهر آب من السنة ١٩١٤ ، وبعد فشل « السباق نحـو البحر » بغية بلوغ « كاليه» ، استقرت الجيوش المنهوكة في خنادق محفورة على عجل . وقد بـدا استقرار الجبهة هذا للقيادة الألمانية وسيلة اقتصادية توفر لها حرية العمل في الشرق حيث كانت تنـــوي التوصل الى نتيجة حاسمة ؛ ولذلك سوف يرتدي تنظيم الجبهة طابع الديمومة بحيث لن يتمكن اي من الخصمين المتحاربين ، طيلة اربع سنوات ، من اختراقها ؛ وستصبح الجبهة مجموعة كامـلة من التحصينات الممتدة على طول اكثر من ٧٠٠ كلم بين بحر الشمال والحدود السويسرية لن يطرأ عليها في بعض النقاط اي تبدل حتى السنة ١٩١٨ . فتغلبت النار على الحركة ولم تكن الحرب بعدئذ سوى « صراع يائس ضد المدفع الرشاش » وضد المدفعية . واتصلت الخنـــادق العميقة والمتوازية والمعوجة الخطوط (بغية تأمين الحماية الجانبية والافادة جهـــد المستطاع من طبيعة الارض) بممرات ضيقة وطويلة ، وتقدمتها شباك من الشريط الشائك ؛ وانشئت فيها « مراكز صغرى » للمراقبة وملاجىء عميقة ، وزودت بعدد وفير من المدافع والمدافع الرشاشة . فألف المجموع حصوناً حقيقية . وانشيء وراء الخط الاول ، القريب من خطوط الاعداء ، خط ثان ، وخط ثالث احياناً بغية درء انهيار الجبهة بتوزيع القوى على مسافات مختلفة من الخط الاول .

كانت نتيجة هذه الحرب الموضعية ثورة في الفن العسكري . في العـدة الحربية اولاً : فقـد توجب ، حتى عند الألمان الذين كان لديهم مدفعية ثقيلة سريعة الاطلاق من عيـار ١٠٥ و ١٥٠ و ٢١٠ ، قادرة على قذف القنابل وفاقاً لخطوط مختلفة الانحناء ، الاكثار من استخدام مدفعيـة الخنادق : مدافع لقذف القنابل وفاقاً لخطوط منحنية جداً ، مدافع لقذف القنابل الصغـيرة ، مدافع خاصة بالخنادق ، الخ . ، بينما اصبح المدفع الرشاش ، القادر على ضرب الزوايا الميتـــة

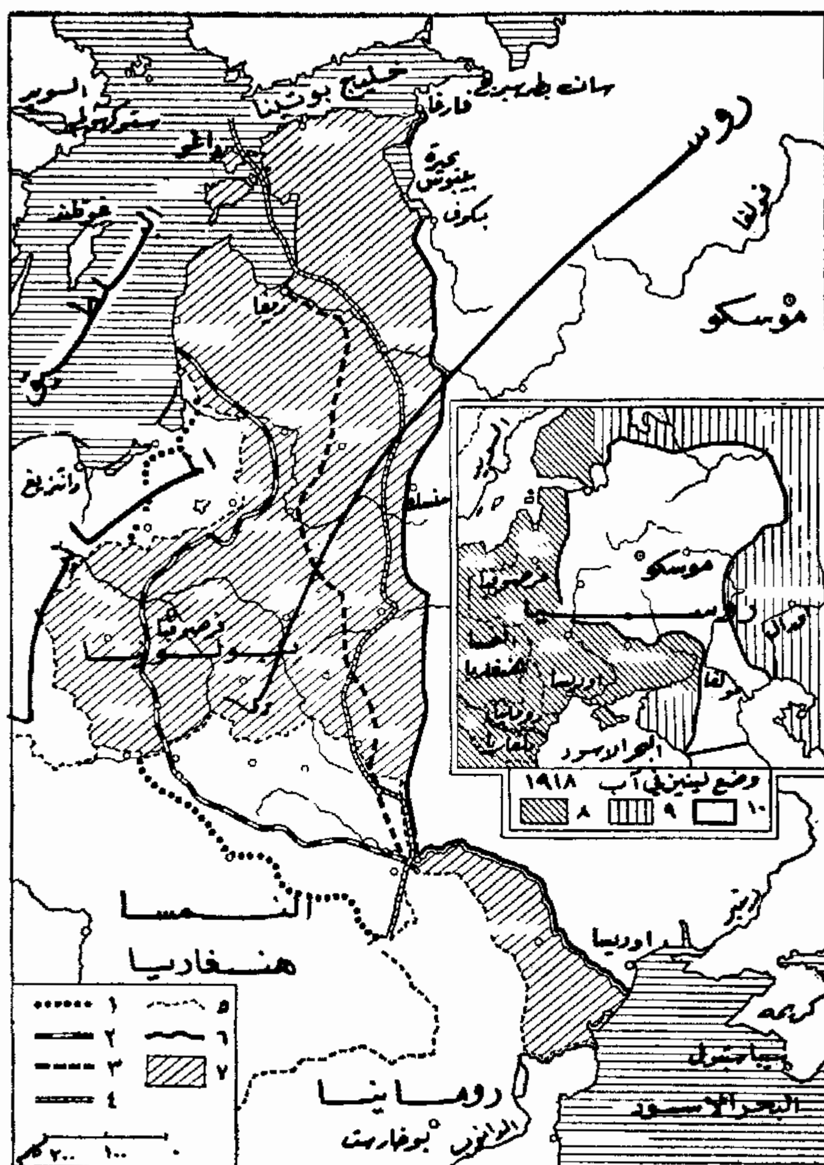

الشكل ١١ - الجبهة الشرقية ، ١٩١٤ - ١٩١٨

١ - اقصى تقدم روسي ، ٢ - الجبهة في نيسان ١٩١٥ ، ٣ - الجبهة في ايلول ١٩١٥ ، ٤ - الجبهة عند وقف اطلاق النار في السنة ١٩١٧ ، ٥ - حدود ١٩١٤ ، ٦ - حدود ١٩١٧ الجديدة ، ٧ - اقاليم خسرتها روسيا ، ٨ - اقاليم تحت نفوذ الماني في آب ١٩١٨ ، ٩ - اقاليم تحت نفوذ حليف، ١٠ - اقاليم تحت سلطة حكومة موسكو .

ضرباً فاعلاً بقذائفه والحؤول دون اجتياز منطقة معينة امام الخطوط ، مع القنبلة الصغيرة ، خير سلاح دفاعي في ايدي المشاة .

بيد ان القيادة الفرنسية ، التي لم تسلم بسهولة بتنظيم اجهزة دفاعية شبيهة بأجهزة الالمان ، فقد تكيفت مرغمة بحسب هذه الظروف الجديدة المناقضة لتعاليمها . وقد عندت وقتاً طويلاً في العودة، باسرع وقت ممكن ، الى « الحرب في الارض المكشوفة » . ورغبة منها في تجنب « تواني الجنود » والمحافظة على روحهم الهجومية ، و « تهديد العدو بخطر دائم » ، وابهان جنوده ابهاناً متواصلاً — هذا هو المقصود بتعبير « القضم » — ، قامت طوال السنة ١٩١٥ بهجمات محلية كثيرة طاحنة من اجل الاستيلاء على اهداف لا أهمية حقيقية لها في اغلب الاحيان : كمركز مراقبة أو جزء من خندق ... ، لم تستهدف المناورة ولا المفاجأة ولم تسفر الا عن خسائر فادحة في الارواح لا يبررها مبرر ، لا سيما وان الحاجة الى الذخائر لم تكن لتسمح بضرب العدو بالقنابل ضرباً كافياً وفعالاً . وهكذا كانت « نوتردام — دي — لوريت » و « بواله برتر » ، واكمة الـ « ايبارج » ، وقمة « هارتمنسويلركوبف » ، ومنطقة « سواسون » والـ « ارغون » (التي زرعت بالالغام) ، وتل « فوكوا » ، وغابة « غروري » ، مسرح نزاعات دامية ، عقيمة ومثبطة ، طوال أشهر كاملة .

محاولات الهجوم في الغرب في السنوات ١٩١٥ و ١٩١٦ و ١٩١٧

امام هذه التحصينات القوية في الجبهة الغربية ، بات من الضروري التوصل الى نتيجة حاسمة ، اما على ساحة معركة اخرى — حاول الالمان البحث عنها في الشرق ، ولن يجدوها الا في السنة ١٩١٧ (الشكل ١١، ص٣٣٥) ، وبحث الحلفاء عنها فترة من الزمن في الشرق — ، واما بواسطة « منفذ » استخدمت من اجل فتحه اما اسلحة جديدة : كالغازات السامة ، والدبابة ... ، من شأنها اذهال العدو ، واما بسحق مركز العدو بالقنابل ، الذي يفترض تفوقاً عظيماً في الوسائل . وعلى اية حال ، توجب تحطيم هذا الدرع الدفاعي ، وفي سبيل ذلك تطورت العدد الحربية وفن الحرب . وقد اقنعت مجازر الشتاء باستحالة هجوم المشاة دون اعداد دقيق ، ودون ان تسبق المدفعية تقدمهم وترافقه . ولكن توزيع النجدات على اماكنها ، وتنظيم نقاط الانطلاق وتجهيز الخطوط الخلفية ، تتطلب اسابيع عدة ولا يمكن ان يغرب امرها عن مراكز رقابة العدو ودوائر استخباراته . يضاف الى ذلك ان الضرب بالقنابل طيلة ايام عدة بغية تقويض تحصينات العدو لا يترك اي مجال لعامل المفاجأة ، واذا تم الاستيلاء على خطه الامامي ، اصطدم المشاة المهاجمون بخط ثان سليم وتوجب عليهم القيام بالاستعدادات الطويلة والباهظة النفقات نفسها . وهذا ما يفسر الفشل الذريع الذي انتهت اليه الهجمات الحليفة في منطقة « ارتوا » في اشهر آذار وايار وايلول ، وفي منطقة « شامبانيا » في شهري شباط وايلول من السنة ١٩١٥ .

حين قام « فالكنهاين » بهجومه على « فردان » ، في السنة ١٩١٦ ، لجأ الى اساليب جديدة

لتحقيق عامل المفاجأة : اخفاء النجدات والمعدات في غابات المنطقة الكثيرة ، ضرب عنيف جداً بالقنابل لفترة قصيرة (٩ ساعات عوضاً عن عدة ايام) يتولاه اكثر من الف مدفـــع ، قنابل مدفعية على الخط الاول ، قنابل من العيار الثقيل ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٨٠ ، ٤٢٠ على الخط الثاني ، هجوم ٦ فيالق معاً على جبهة لا تتجاوز ٧,٥ كلم طولاً . لقد كان لنجاحات الالمان وقع كبير في النفس ، ولكنها انتهت الى الفشل ، اذ ان القيادة الفرنسية نجحت في تأمين وصول النجدات والذخائر والمؤن الكافية بفضل تنظيم النقل بالسيارات على « الطريق المقـــدسة » . ويغلب ان القوى استبدلت تكراراً ، فقد اوهن ٦٦ فيلقاً بين شهري شبـــاط وتموز ، ولكن الهدف المطلوب لم يُبلغ : فالجبهة الفرنسية لم تتصدع ، واذا كانت الخسائر الفرنسية فادحــة ، فانها لا تكاد تتجـــاوز خسائر الالمان الذين حسبوا انها ستكون اعلى من خسائرهم بمرتين ونصف المرة .

اما الهجوم الفرنسي البريطاني على الـ « سوم » ، في شهر تموز من السنة ١٩١٦ ، فقــد ابرز مرة اخرى دور المدفعية المتفوق : ليس دور المشاة بعد اليوم سوى احتلال الارض التي استولى عليها المدفع والدفاع عنها. فزيد من عدد المدافع البعيدة المرمى لمقابلة هجوم مدافع العدو بمثله ، ومن المدافع الثقيلة لاجل حرب الخنادق ، واتقن تعيين مكان المدفعية بواسطـــة الصوت ، والرقابة البرية والرقابة بواسطـــة المناطيد المقيدة . ونظم جهاز كامل للاتصالات والتحويل استطاعت المدفعية بفضله ، ليلاً ونهاراً ، وكلما طلب المشاة منهـــا ذلك ، تركيز نيرانها على الاهداف الهامـــة وتوجيه ضرباتها على الفور الى مدافع العدو لاسكاتها ، واطالة عملية قصفها الخاصة .

وزود سلاح المشاة بمعدات اضافية تساعده على « الدرع » (خنادق ومدافع رشاشة وشريط شائك) الذي جعل الدفاع عملية رابحة منذ سنتين : مدافع خفيفة ، مـــدافع لقذف اللهب ، مدافع من عيار ٣٧ ، مدافع هاون . كما زوّد بقنابل صغيرة تقذف بواسطة البندقية (V. B.) ، وببنادق رشاشة ، ومدافع رشاشة بلغت اربعة اضعافها من ذي قبل . وعلى الرغم من تــدني عدد افراد هذا السلاح بالنسبة للاسلحة الاخرى (من ٧١ الى ٥٠ ./.) ، فان تزايـد الاسلحة الذاتية الحركة قد زاد قوة نار المشاة زيادة عظيمة .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اعداد عملية الهجوم وتنفيذها قد ساعدهـــا الرقابة الجوية واجهزة معقدة للاتصال والتحويل بواسطة الهاتف والتلغراف اللاسلكي ولوحات تعيين المسالك والاسهم النارية ، التي امنت الاتصال بين المشاة والمدفعية والقيادة . واتاح التصوير من الجو ، الذي احكم في السنة ١٩١٥ ، تعييناً مسبقاً لنقاط الارتكاز الواجب تدميرها على جبهة الهجوم ، كما ادارت الطائرات عملية اطلاق النيران وراقبت نتائجها . وكانت نسبة المدافع مرتفعة جداً : فقد اقتضى هجوم ١٦ نيســان من السنة ١٩١٧ مدفعاً خفيفاً ومدفع خنادق لكل ٢٣ جنـــدياً ومدفعاً ثقيلاً لكل ٢١ .

بيد ان هذه الاستعدادات ، على غرارها في السنوات السابقة ، لم تكن لتخفى عن البصر . فقد اقامت القيادة الالمانية جهازاً دفاعياً مؤلفاً من ٣ او ٤ خطوط موزعة على مسافة ٥ او ٧ كيلومترات من الجبهة ، في ارض غير متساوية تكثر فيها الوديان والغابات . وقد سيطرت جواً في القطاع المهاجم ، فاستطاعت من ثم منع او مضايقة ادارة عملية القصف والرقابة ، وتعيين مراكز المدافع الفرنسية بسهولة . لذلك فان الضرب بالقنابل طيلة ثلاثة اسابيع من اجل شق طريق في الشريط الشائك ونيران المدفعية بالجملة طيلة خمسة ايام ، لم تحل دون انتهاء هذا الهجوم الى فشل ذريع دام .

تقدم الاسلحة الجديدة

وهكذا فبقدر زيادة المدفعية التي اصبحت سيدة ساحة المعركة من حيث كثافتها ومرماها وقوتها التدميرية ، تحسنت التحصينات كذلك واثبتت اجهزة خنادقها وممراتها الطويلة الضيقة قدرتها على مقاومة كل هجوم . فبدت المناورة وكأنها مستحيلة وتحتم ان لا تكون المعركة سوى هجوم الى الامام يحاول الامتداد الى الجناحين. وبالمقابلة تطور شكل الجيوش . فان الفيلق الفرنسي في السنة ١٩١٨ يختلف عنه كثيراً في السنة ١٩١٤ : ضم في السنة ١٩١٤ ١٠٠٠٠ جندي راجل ، مسلحين بـ ٩٦٠٠ بندقية و ٢٤ مدفعاً رشاشاً ، فاصبح يضم ، في السنة ١٩١٨ ، ٤٣٠٠ جندي راجل مسلحين بـ ٢٣٠٠ بندقية و ٤٢٠ سلاحاً حربياً آخر . وارتفعت قوة نار مدفعيته الى اربعة اضعافها، وقد استغني عن الاسلحة غير الجديرة بالبقاء وحلت الطائرة والسيارة محل سلاح الفرسان الذي اقتصر دوره على الاشتراك في المعركة على غرار سلاح المشاة ، وبالمقابلة احكمت انواع اسلحة جديدة ازدادت اهميتها يوماً بعد يوم : الاسلحة الذاتية الحركة . وقنابل الغاز او الايبريت ، التي من شأنها جعل مناطق واسعة غير صالحة للسكنى ، والطيران والدبابات بصورة خاصة . فقد استخدمت الطائرة منذ السنة ١٩١٤ للمراقبة والاستكشاف وادارة عملية القصف ، ثم اصبحت سلاح مطاردة منذ ابتكار الـ « فوكر » التي اتاحت اطلاق نيران المدفع الرشاش عبر محيط المروحة ؛ ومنذ السنة ١٩١٧ نشبت معارك ، لا بين طائرات منفردة ، بل بين اسراب يضم كل منها حتى ٥٠ او ٦٠ طائرة . وفي السنة ١٩١٨ اخذت الطائرات تهاجم تجمعات الجيوش على الارض . وحلت طائرات قصف خطوط المواصلات والمطارات والمستودعات محل المناطيد منذ صيف السنة ١٩١٥ ، ولكن النتائج ما زالت متوسطة بسبب ضآلة عدد الطائرات المشتركة في مثل هذه العملية (٤٠ في اقوى غارة على لندن) . وانتقلت السيطرة على الجو بالتناوب من معسكر الى آخر بحسب تقدم التقنية : فكانت في ايدي الالمان حتى السنة ١٩١٦ ثم في شهر ايار من السنة ١٩١٧ ، وفي ايدي الحلفاء ابان معارك فردان والسوم ، ثم في السنة ١٩١٨ . اما الدبابة التي جمعت بين النار والحركة ، فقد استخدمت استخداماً صوابياً للمرة الاولى في شهر تشرين الثاني من السنة ١٩١٧ . فبدون اعداد مدفعية ، قذف الجيش البريطاني في قطاع « كمبريه » بدباباته الـ ٣٨١ وكأنها مدفعيات مدرعة باغتت العدو وشقت الطريق امام

سلاح المشاة عدثة في الخطوط الالمانية جيبا بقياس ١٢ كلم طولا و ٩ عرضاً . اجل ان الهجوم الذي شن على جبهة ضيقة جداً لم يؤد الى انهيار تحصينات العدو، ولكنه اثبت امكان الاستيلاء، بواسطة الدبابات، على عدة خطوط متعاقبة دون اعداد مدفعية وبخسائر طفيفة نسبياً . وهكذا اعدت الطريقة التي سوف تضمن نصر الحلفاء في السنة ١٩١٨ .

كانت احدى نتائج استخدام هذه الاسلحة الجديدة اشتداد الحاجة الى الجندين . فهي قد ارغمت القيادة على تخصيص عدد متزايد منهم لخدمات الداخل او المؤخرة : فان الدبابة التي تشترك في المعركة بجنديين والطائرة التي تطير بملاحها ومطلق مدفعها الرشاش تفترضان على التوالي ٤٦ و ٦٠ رجلا في المؤخرة لاصلاحها وتعهدهما وتموينها والاعاضة منها .

معركة السنة ١٩١٨

لم يعد هناك من جبهة شرقية بعد الثورة الروسية وانسحاب الجيش الروماني . فكان من ثم لدى هندنبورغ ولودندورف ، في وجه ١٨٠ فيلقاً فرنسياً – بريطانياً وبلجيكياً، ١٩٨ فيلقاً سيحاولان بواسطتها شق طريق لها في الجبهة الغربية . فاعد الهجوم على ضوء دروس معركتي كمبريه وريغا ، حيث اختبرت بنجاح الطريقة الهجومية الجديدة التي نادى بها الكولونيل « بروشمولر » والتي بموجبها تسحب خيرة الفيالق من الجبهة الى مناطق بعيدة في المؤخرة . وتسند اليها مهام المناورة وتجهز بعتاد جديد، وتعوّد طرائق التسلل : على فرق الهجوم امتحان النقاط الضعيفة واختراقها والالتفاف حول النقاط المحصنة التي سوف تقهرها الخطوط التي تليها . ومن الطبيعي بعد ذلك ان يؤدي احكام عمل المدفعية في الكتمان ، وتجميع المدافع بالجملة في مراكز معينة ، واطلاق قنابل الغاز بوفرة – مما يقصر فترة الاعداد على ساعات قليلة – ونقل الجيوش من جبهة الهجوم تحت جنح الظلام كي لا يثار انتباه العدو ، واستخدام اسراب كثيفة من الطائرات تقذف بقنابلها ، من علو منخفض ، محطات السكك الحديدية ، والمطارات ، ومؤخرة الجبهة وتهاجم المشاة والمدفعية بمدافعها الرشاشة ، الى مباغتة العدو والسماح بفتح المنفذ والافادة منه .

استعد الحلفاء من جهتهم الى صد الهجوم مستفيدين من المثل الالماني : اتقان استخدام الاسلحة الذاتية الحركة ، انشاء نقاط ارتكاز على مسافات مختلفة من الجبهة ومراكز مقاومة في داخل كل خط . ولم يكونوا آنذاك ليعتبروا دفاع الخط الاول امراً ضرورياً كما في السنة ١٩١٥ ، بل ارتأوا تجميع معظم الجيش في خط متوسط (بين ٣ و ٤ كلم الى الوراء) او في الخط الثاني (بين ٦ و ٧ كلم) . فهنا يكون خط الصمود الذي سوف يصطدم به المهاجمون بعد ان تكون نقاط المقاومة ، المتروكة في الخنادق الاولى ، قد فرقت بينهم . ولا يزال الحلفاء يستبعدون امكان فتح منفذ في الجبهة : فاذا نجح العدو في اختراق الخط الاول ، فانه لن يلبث ان يصطدم بجبهة جديدة معززة يستحيل اختراقها .

الا ان هذه الثقة امتُحنت امتحاناً عسيراً في ربيع وصيف السنة ١٩١٨ (الشكل ١٢، ص ٣٤١) . لقد رُدت قوات الحلفاء الى الوراء اربع مرات متوالية بهجمات سريعة ضارية جعلت الالمان على قاب

قوسين من النتيجة الحاسمة بفضل مدفعيتهم السريعة الاطلاق ومهارة ضباطهم في استثمار عامل المفاجأة وفي استخدام سهولة تحرك معداتهم. ففي الحادي والعشرين من شهر آذار ، وبعد قصف بقنابل الغاز والقنابل الداخنة دام اربع ساعات ونصف الساعة ، فتحت ثلمة بطول ٨٠ كلم عند نقطة التقاء الجيوش البريطانية والفرنسية ، لم تسد الا بكل صعوبة ؛ وفي التاسع من ايلول شن هجوم جديد في الفلاندر ، فوصل الالمان الى مسافة ١٦ كلم من اميان و ٦٠ كلم من كاليه ، وجعلوا ربع الجيش البريطاني عاجزاً عن القتال . وفي السابع والعشرين من شهر ايار ، بعد ضرب دام ثلاث ساعات بقنابل ١٢٠٠ « بطارية » مدفعية ومئات مدافع الخنادق ، وعلى جبهة يبلغ طولها ٦٢ كلم بين سواسون و « رَيمس » ، تقدم ٢٠ فيلقاً مسافة ٢٠ كلم وسيطرت على جسور الـ « اين » ؛ وقد اشترك في هذه المعركة ثلث الجيش الفرنسي ، الذي اوهن جزئياً ، وفقدت معدات كثيرة ، وواجه الجنرال « بيتان » انكفاء عاماً . وفي الثامن من حزيران ، شن هجوم جديد الى الشرق من « نوايون » على جبهة طولها ٧٤ كلم ، اوقف عند خط « شاتو تياري » — « مونديديه » . وفي كل مرة استفاد الجيش الالماني من عامل المفاجأة واستطاع الاستيلاء على جيوب عميقة في الخط الحليف . ولكن المفاجأة لم تلعب اي دور في الهجوم الجديد الذي شن في الخامس عشر من شهر تموز بين « شاتو تياري » ؛ والـ « ارغون » : فقد اخلي الخط الفرنسي الاول بغية تجنب نيران مدافع الهاون واحتل معظم الجيش مركز المقاومة ، وصدرت الاوامر لفرق الاحتياط في المؤخرة بالتأهب . فقبل ان تفتح المدفعية الالمانية نيرانها القوية ردّت المدفعية الفرنسية على النار بنار كثيفة جداً ، وانتهى الهجوم الالماني على طول ٤٠ كلم من جبهة شمبانيا الى الفشل .

اوهنت هذه الهجمات فرق لودندورف الاحتياطية . فقد رسم الخط الالماني جبهة غير منتظمة تألفت من جيوب يسهل شن الهجمات الجانبية عليها ؛ ومنذ الثامن عشر من شهر تموز تحولت المبادهة الى ايدي الحلفاء الذين استخدموا عدداً كبيراً من الدبابات ، الاداة الحاسمة في ستراتيجية التفكيك الجديدة ؛ وفي ليل ١٧ — ١٨ ، وبدون اعداد مدفعية ، ادى استخدام الدبابات بالجملة الى فتح ثلمة عرضها ٥٠ كلم وعمقها ١٠ كلم في خط العدو الى الجنوب من « سواسون » . ومنذئذ اضطر الجيش الالماني ، الذي ارغم على الوقوف موقف الدفاع وعانى من حاجته الملحة الى الجنديين ، للتراجع امامَ سلسلة من الهجمات السريعة ، المتكررة ، التي لم تستهدف اي منها التوصل الى نتيجة حاسمة ، ولكنها شنت في قطاعات متباعدة فمنعت لودندورف من ان يستخدم فرقه الاحتياطية الضئيلة وينقلها الى ميدان المعارك . وفي الثامن من شهر آب ، « يوم حداد الجيش الالماني » ، حدثت مفاجأة تامة ؛ فان نقل الجيوش تحت جنح الظلام ، ودوريات الطائرات المستمرة التي منعت كل رقابة ، واحكام نيران المدفعية التي وضعت في اماكنها دون اثارة الانتباه ، واستخدام القنابل الداخنة التي اعمت الرقابة البرية والمدافع المضادة للدبابات ، واستخدام ٤٥٦ دبابة على جبهة طولها ٢٣ كلم ، قد جعلت الحلفاء يحرزون نصراً كاملاً . وابتداء من شهر ايلول شن هجوم عام بشكل كاشة ارغم الالمان على

الجلاء عن الشاطىء البلجيكي والانسحاب الى خط « هيرمن » دون ان تتصـــدع جبهتهم . ولكن الجبهات الشرقية انهاوت في ذاك التاريخ ؛ فطلب الاتراك والبلغار والنمساويون وقف

الشكل ١٢ ـ الجبهة الغربية بين ١٩١٥ و١٩١٨

١ ـ اقصى تقدم الجيش الالماني (ايلول ١٩١٤) ، ٢ ـ جبهة الجيش الفرنسي في ايلول ١٩١٤ ، ٣ ـ جبهة الحروب الموضعية ، ٤ ـ الجبهة في تموز ١٩١٨ ، ٥ ـ الجبهة في تشرين الاول ١٩١٨ ، ٦ ـ الجبهة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ٧ ـ ارض احتلها الحلفاء بعـــد الهدنة ، ٨ ـ منطقة جعلت محايدة بعرض ١٠ كلم ، ٩ ـ اقاليم تقرر اجراء استفتاء فيها .

اطلاق النار ، وسلّمت المانيا بالواقع فطلبت وقف اطلاق النار قبيل هجوم كان مقرراً شنه على جبهة اللورين في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني .

٢ – المفاهيم الستراتيجية
وفن الحرب اثناء الحرب العالمية الثانية

المذاهب الستراتيجية بين الحربين

حين نشبت الحرب مرّة اخرى بعد مرور احدى وعشرين سنة ، كانت المانيا اكثر تقدماً على اعدائها منها في السنة ١٩١٤ ، بفضل تعزيز تسلّحها ثانية منذ السنة ١٩٣٣ . ولكن هذا التفوق المادي كان دون الدعاوة التي احاطته بها اهمية ؛ وقد تخلف الحلفاء عنها في نطاق المفاهيم الستراتيجية بصورة خاصة .

المذهب الفرنسي

كانت النتيجة الكبرى المستخلصة من الحرب العالمية الاولى قوة الجبهة المتصلة التي تدافع عنها نيران قوية تطلقها المدفعية والاسلحة الذاتية الحركة ، اذ ان الهجمات الامامية بواسطة وسائل على جانب كبير من الاهمية قد برهنت وحدها عن قدرتها على تصديعها . الا ان بطء التقدم ، بعد كل تصديع ، كان يتيح للمُدافع سدّ الثلمة المفتوحة وانشاء جبهة جديدة وراء الخط المتصدع . لا بل وضع جدول بياني حدد العمق الممكن بلوغه بنصف طول جبهة الهجوم . اجل لقد أسهمت الاسلحة الجديدة ، كالدبابات والطائرات التي ازداد شأنها ازدياداً مطرداً ، في تحسين ظروف العمليات : فان الدبابة ، التي اعتبرت « عشاً متنقلاً للمدافع الرشاشة » ، كانت ترافق سلاح المشاة وتشق امامه الطريق او تسانده في تقدمه بتدميرها الاسلحة الذاتية الحركة ، وكان الطيران يستكشف مراكز دفاع العدو وحركاته ويحول دون قيام طيران العدو باية مهمة استطلاعية . واذا هزمت المانيا في السنة ١٩١٨ فمرد ذلك افتقارها الى الرديف الضروري لسد الجيوب التي احدثتها الهجمات الحليفة .

الى هذا الاختبار ارتكزت الستراتيجية الفرنسية التي لم تجر اية محاولة ، منذ السنة ١٩١٨، لتجديدها او تبديلها . فان الاقتناع بمناعة الجبهة المتصلة وبالاهمية الاولية لقوة النار وبتأثير طبيعة الارض « الاستبدادي » على كل مناورة ، قد حملت اركان الحرب على انتهاج ستراتيجية دفاعية بحتة . ولما كان نصر السنة ١٩١٨ قد احرز على ايدي دول متحالفة ، فكان على فرنسا الاحتفاظ بموقف دفاعي في وجه قوات المانيا المتفوقة والدفاع عن سلامة ارض الوطن طيلة الفترة اللازمة لان يعبىء حلفاؤها الوسائل القوية التي تتيح الانتقال الى الهجوم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اختبار المعركة القديمة الذي ابعد كل فكرة مناورة هجومية ، قد جرّ الى نوع من الحصرية في عمل اركان الحرب التي تعوّدت تطبيق انظمة ثابتة والتدخل في اصغر التفاصيل وانتزاع كل مبادهة من المسؤولين عن التنفيذ . وبالرغم من ان دبابات السنة ١٩١٨ البطيئة والسريعة العطب قد اصبحت حصوناً سريعة الحركة ومزودة بالمدافع والتلغراف اللاسلكي ، فان المهمة التي اسندت اليها ما زالت مهمة سلاح في ايدي المشاة يحتاج الى حماية

المدفعية . وبدالة هذه المبادىء نظم الجيش الجديد ودرّب ، وشيّدت بين السنة ١٩٢٩ والسنة ١٩٣٩ التحصينات القوية الثابتة بين « بال » و« لونغويون » .

اما الطيران الذي اصبح سلاحاً مستقلاً في السنة ١٩٢٨ ، فقد عانى في تنظيمه من المنازعات بين المدارس المختلفة ومن تردد التعليم . فان آراء الجنرال الايطالي « دوهيه » الذي اعتبر الطيران « القوة الدفاعية الحاسمة » القادرة ، بغاراتها الكثيفة ، على تدمير طاقة العدو الحربية ومن ثم على احراز نصر سريع بمفردها ، قد وقعت في نفوس القادة العسكريين الفرنسيين موقعاً جيلا ؛ واخيراً انشئت في السنة ١٩٣٦ وحدات جوية مستقلة ، وصممت نماذج طائرات جديدة كثيرة ؛ الا ان فرنسا لم تمتلك في السنة ١٩٣٩ الا عدداً قليلا من قاذفات القنابل؛ اجل كان لديها طائرات مطاردة ذات فعالية كبرى ، ولكن عددها لم يكن كافياً . فبقيت الطائرة من ثم مساعداً للجيش البري ولم تعتبر سلاح معركة (وقد كتب المارشال بيتان : « ان العمل المباشر للقوى الجوية في المعركة باطل ووهمي ») . ولم يكن هناك طيران هجوم انقضاضي ولا طائرات لنقل الجيوش جواً . اما انكلترا فقد توفر لديها طيران ستراتيجي من قاذفات القنابل قادر على مهاجمة الاهداف الصناعية الالمانية ، ولكنها افتقرت ، على غرار فرنسا ، الى طائرات قادرة على تقديم المساعدة للوحدات البرية .

المذهب الالماني

ان قيادة الاركان الالمانية التي اختلف نشاطها عن « الجمود الفكري » الذي اتصفت به قيادتا الاركان الفرنسية والبريطانية قد استخلصت دروساً اخرى من هزيمتها في السنة ١٩١٨ . فقد ارتكز مذهبها الى الحاجة الى هجوم سريع من شأنه مفاجأة العدو محلياً بقوى متفوقة ، في اضعف مراكزه ، ومنعه بعد ذلك من توطيد جبهته ؛ فيجب من ثم مباغتته بضرب سريع وقوي بغية القضاء عليه . ويجدر بالتالي الاستفادة جهد المستطاع من وسائل النقل الآلية ، التي توازي سرعتها خمسة اضعاف سرعة الوسائل القديمة وتتيح مرونة كبرى في المناورة وسرعة في تجميع القوات في مركز الثقل ؛ ويكفي من ثم لتحقيق تفوق ساحق على جبهة ضيقة ، في النقطة الحاسمة ، وفتح ثلمة فيها ، وتوسيع هذه الاخيرة ، والاندفاع نحو الداخل قبل ان يكون للعدو مجال للمقاومة . وبعد اجتياز الثلمة المفتوحة ، يستغل النجاح استغلالا منظماً باندفاعات جانبية تحمي جناحي الوحدة المتقدمة . وسوف تسند هذه المهمة المزدوجة الاساسية الى الدبابات . وان هذا الفن الحربي الجديد ، الذي احكمه « غودريان » منذ السنة ١٩٢٩ ، واوضحه في مقال داو (*Achtung Panzer*) في السنة ١٩٣٧ ، يستلزم جمع الدبابات في وحدات كبرى – فيالق ووحدات مدرعة – تتوفر لديها كافة الاجهزة التي تتيح لها الاندفاع اندفاعاً مستقلا الى مسافات بعيدة امام الجيوش، واثارة الفوضى في صفوف العدو ، وتحقيق انهيار مقاومته بالمباغتة وسرعة الحركات ، ومنعه من جمع شمله في مركز انكفاء. هذا هو فن الحرب الجديد (*Blitzkrieg*) الذي سيضمن لالمانيا انتصاراتها الداوية بين السنة ١٩٣٩ والسنة ١٩٤٢ .

اما الطيران فقد اسندت اليه ايضاً مهمة هجومية ؛ فان اسرابه الكبرى المستقلة ، تنقــل الفوضى الى قلب بلاد العدو ، ولكنها ، في الدرجة الاولى، تتعاون تعاوناً وثيقاً والقوات البرية، لا بالاستكشاف والرقابة وكتمان سر المنطقة المهاجمة فحسب ، بل بالحلول محـل المدفعية باعداد الهجمات عن طريق قذف القنابل بالجملة ، وبالتعاون والمدرعات والمشاة بالانقضاض والقاء القنابل على جيوش العدو . والحقت المدفعية المضادة للطائرات بالجيش الجوي الذي يعمل بالاتفــاق مـع الجيوش البرية ، وتطورت تطورا عظيمـــاً . واخيرا اعيرت الاتصالات الكهربائية اللاسلكية اهتماماً خاصاً لأن الاتصال السلكي لا يليق بسرعة الحرب الصاعقة ؛ فـــان التعاون بين الاسلحة والاتصال بالوحدات المندفعة بعيدا وراء خطوط العدو منوطان بتقدمها ودقتها على السواء .

المفهوم الفرنسي لاستخدام الدرعات

لم تكن هذه الآراء وهذه الاستحداثات مجهولة خارج المانيا ، ولكن الجهود التي بذلت لابرازها ذهبت مع الريح . فان انشاء جيش مناورة قوي ، مؤلف من ٧ فيــالق مدرعة ، الذي اقترحه القومندان ديغول في كتابه ، « نحو جيش محترف » ، الصادر في السنة ١٩٣٥ ، قد صرف النظر عنه اجمـــالاً باعتبار انه « مناقض لمنطق التاريخ » . ولم يستخلص احد مغزى امتحان الحرب الاسبانية ، « المختبر النازي » الحقيقي الذي احكم فيه الالمان استخدام قاذفة القنابل الانقضاضية والمدفـــع الرشاش والاتصال بين الدبابات والطائرات ، ودور المدن او القرى المستخدمة كنقــاط مقاومة منعزلة قادرة على الدفاع عن نفسها في كافة الاتجاهات والصمود في وجــه تطويق كامل ؛ ولم يستوقف نظـــر المراقبين سوى فشل الدبابات في عمليات « غوادالاجارا » و « برونيته » ، دون ان يأخذوا بعين الاعتبار الاساليب الجديدة التي ظهرت في معــارك اراغون وكاتالونيا منذ السنة ١٩٣٨ والتي كانت الظواهر الاولى لفن الحرب الجديد .

بيد ان فرنســا اخذت تنشيء ، في خريف السنة ١٩٣٨ ، فيالق مدرعة مـــا زالت تختلف اختلافا كبيرا عن مثال البانزر . فان الفيلق المدرع بقي سلاحـــا من اسلحة المشاة ، ولم يكن استخدامه ممكنا الا في اطار وحدة مشاة كبرى ، وكان سلاحـــا للهجوم المعاكس معدا لسد الثلمات في الجبهة ، اي لاحراز نجاح محدود. ولم يزود لا بوسائل استكشاف ولا بوسائل دفاع ضد الطائرات والدبابات، ولا بفرق مشاة ومدفعية تنقل بالسيارات. وكان عاجزا عن العيش وخوض المعركة مستقلا ، بينما كان البانزر سلاحا سريع الحركة ترتبط به كافة الاسلحة الاخرى .

القوات المتقابلة في شهر ايار من السنة ١٩٤٠

في وجه الدبابات الالمانيـــة الـ ٢٧٠٠ ، امتلكت فرنسـا ٢٣٠٠ تضاف اليها الدبابات البريطانية ، اي زهاء ٣٠٠٠ . وفي النطاق الجوي ، كان لدى الالمان، في اوائل شهر ايار من السنة ١٩٤٠ ، بين ٧٠٠ و ٨٠٠ طائرة مطاردة (٧٠٠ لدى الفرنسيين والبريطانيين) و ١٢٠٠ قاذفة قنابل (مقابل ١٥٠ الى ١٧٥) و ٤٠٠ طائرة انقضاضية (*Stuka*) . فيكون المجموع

٢٦٠٠ طائرة مقابل ١٧٠٠ طائرة فرنسية وبريطانية قد لا توازيها سرعة واستقلالاً ، ولكنها انزلت بالالمان، خلال معارك السنة ١٩٤٠ ثلاثة اضعاف خسائرها . فلم يكن الجو من ثم خاليا كما اعتقدت الجيوش البرية التي تأثرت تأثراً قوياً بنشاط الطائرات الانقضاضية ، بينما كانت الطائرات الفرنسية موزعة ، و « ذائبة الى اللانهاية » (« سانت – اكزوبيري ») بين الوحدات البرية في الجبهة . ولم يكن في الحقيقة من تفوق « ساحق » للقوات الالمانية الا في نطاق الدفاع ضد الطائرات (٩٣٠٠ قطعة مقابل ١٦٠٠) ، وقاذفات القنابل الانقضاضية والسلاح المنقول جواً التي لم يجهز بها لا الجيش الفرنسي ولا الجيش البريطاني . وبالمقابلة كانت المدفعية الفرنسية متفوقة عدداً ونوعية – ولكنها كانت معدة لحرب جامدة (ولذلك كان معظمها يُجر بواسطة الجياد) ، وكان الاسطول البريطاني متفوقا على الاسطول الالماني تفوقاً اعظم منه في السنة ١٩١٤ الى حد بعيد .

ولكن الجيش الالماني لم يخل من نقاط ضعف خطيرة بسبب اعادة تنظيمه بسرعة كلية . فقد افتقر الى الضباط – ولا سيما الصغار منهم – والفرق الاحتياطية المدربة ، وسلم عتاده المتفاوت النوعية الى مجندين تعوزهم الخبرة ، ثم الى « الجدار الغربي » الذي انشىء على عجل لسد الطريق في وجه هجوم يشن من الغرب ، لم يكن في الواقع على جانب كبير من الركانة . ولعل نقاط الضعف هذه تفسر مخاوف القيادة الالمانية الخطيرة وقلة حماسها وثقتها في السنة ١٩٣٩ ، على الرغم من « الخدعة » الهتلرية .

٣ – تطورات التسلح
والاستحداثات في فن الحرب

خلال العمليات الحربية ، سيطر على ظروف المعركة البرية رجحان دور السلاح المدرع والطيران . وفي البحر اصبح الطيران العنصر الاساسي في المعارك ، التي عرفت منذئذ بـ « الجوية البحرية » ، وحتى في الصراع ضد الغواصات . وان كافة الابحاث التي اجريت ، والتي افضى بعضها الى اختراعات هامة جداً ، قد استهدفت اما تحسين هذه الاسلحة واما توفير دفاع فعال ضدها . فتكيف فن الحرب من ثم بحسب التطورات التقنية التي طرأت على الدبابة والطائرة ، وبحسب الوسائل الجديدة المكتشفة لاتقائها . وكانت النتيجة ادخال تغييرات على تنظيم الجيش وتجهيزه وظروف الحرب نفسها .

تطور الاسلحة المختلفة

مما الدبابة والطائرة ما طبعتا الحرب العالمية الثانية بالطابع الذي يميزها كلياً من الحرب العالمية الاولى : السرعة القصوى في تحرك الجيوش . وبينما كادت الجبهة الرئيسية تكون ثابتة بين السنة ١٩١٥ والسنة ١٩١٨ ، استعادت الحركة في السنة ١٩٣٩ تفوقها على النار ، واعادت وسائل النقل السريع الى الحرب عاملي

المباغتة والسرعة اللذين قد تلاشيا من ذي قبل . فقاذفة القنابل ، والجيوش المنقولة جـواً والوحدات الآلية الكبرى قد اعادت تقييم عامل المباغتة . وكان باستطاعة الدبابات المسلحة بمدافع من عيار ٥٠ و ٧٥ و ٨٨ و ٩٠ ان تسحق الآن نقاط الدفاع في طريقها وتتلف الاسلحة الآلية التي كانت توقف ، فيما مضى ، سلاحي الفرسان والمشاة ، بينما تهاجم قاذفات القنابل الامدادات وتدمر المواصلات والقوافل المتوجهة الى ميدان المعركة وتفكك الوحدات قبل وصولها الى مراكزها في الجبهة ، وتجعل استخدام قوات الاحتياط الستراتيجية امـراً مستحيلاً . وهو عامل المفاجأة هذا ما اتاح للاقوى الافـادة من تفوقـه واحراز كافـة الانتصارات الحربية .

بدالة هذا المركز الرئيسي الذي احتلته الدبابة والطائرة ، تطور تجهيز وتنظيم الاسلحة الاخرى . فامام الدبابات التي اصبحت سيدة ميدان المعركة تسلح سلاح المشاة التقليدي اسلحة ذاتية الحركة متزايدة القوة والفعالية (المدفع الرشاش الصغير ، والبندقية الذاتيـة الحركة) ومدافع هاون خفيفة وثقيلة ، واخيراً اسلحة لالقاء القذائف ذات الحشوة المجوفة التي اتاحت للمشاة مجابهة الدبابة على مسافة قريبة . وزود سلاح المشاة كذلك بمدافع رشاشة مضـادة للطائرات مثبتة في القسم الامامي من الشاحنات للدفاع عن القـوافل . وتحسنت الاتصالات تحسناً عظيماً ، فبات المذياع وسيلة الاتصال الاعتيادية حتى مستوى قـائد الفصيـلة . وزود اخيراً بالآليات ، ففقد كافة حيواناته ، باستثناء الوحدات الجبلية التي احتفظت ببغالها .

وتدل وفرة مدافع الهاون وتزويد وحدات المشاة بالمدافع على المركز المتعاظم اهمية الذي احتلته اسلحة الاطلاق المنحني المتزايدة على حساب الاسلحة الذاتية الحركة .وقد برزت افضلية المدفع القصير على المدفع الطويل ، التي اتضحت منذ ما بين الحربين ، في كافـة العمليات الحربية . فمنذ السنة ١٩٣٩ سلح الفيلق الالماني بـ ١١ مجموعة مدافع قصيرة مقابل مجموعة مدافع طويلة واحدة ، وفي آخر الحرب لم تسلح الفيالق المدرعة الالمانية والاميركية سوى بمدافع قصيرة . اما التطورات الهامة التي طرأت على المدفعية فهي نقلها الآلي ، اذ ان المدافع المجرورة جراً قد استبدلت اكثر فاكثر بمدافع مثبتة على اسناد تتحرك آلياً ، وظهور المدفـع الذي لا يندفع الى الوراء . فخف بذلـك وزن المدفـع وسنده ، وبات بمقدور المظليين والمغاوير استخدامه ، ولكن المرمى اصبح ادنى مسافة وتعيين الموضع اسهل منالاً .

اما سلاح الهندسة فقد تعاظم دوره جداً في المعركة . فهو لم يعد يعمل منفرداً ، وقد الحقت وحداته ، التي ارتفع عدد افرادها ارتفاعاً كبيراً ، بوحدات المشاة والمدفعيين ، وغالباً ما تقدمتها لاستكشاف المسالك ، ونزع الالغام او زرعها تحت نيران العدو ، وتركيب الجسور . وتولت صيانة او شق الطرق، ومهدت ارض المطارات بالجرافة . وقد زودت كذلك بالآليات

والمعدات القوية المختلفة .

الدبابة

تنتظم المعركة حول الوحدات المدرعة الكبرى وبدالتها ؛ ولكن النجاح ليس منوطاً بها وحدها ، اذ انه يستلزم السيطرة على الجو ايضاً ؛ فهو من ثم تنسيق الهجوم بين الدبابة والطائرة ما اتاح انتصارات الالمان العظيمة في بولونيا وبلجيكا وفرنسا (الشكل ١٣ ، ص ٣٤٩) والبلقان وافريقيا في المرحلة الاولى من الحرب ، وانتصارات الحلفاء ابتداء من السنة ١٩٤٢ . وهو الجيش الالماني من ثم ما نُسج على منواله وما عيّن الطرائق في البدء ، بسبب نجاحاته الجديرة بالاعتبار . وقد سبق ورأينا ان البانزر كانت وحدة تستطيع التصرف باستقلال واسع ؛ وقد ضمت فرقة استكشاف مؤلفة من كافة الاسلحة : فصائل مدافع رشاشة سيارة ودراجات بخارية ، وفصائل مدافع مشاة ومدافع مضادة للدبابات ، وفصائل من سلاح الهندسة والمخابرات . ثم لواءين يضم احدهما ٤٨٨ دبابة ويتألف الثاني من رماة ينقلون في السيارات وفرقة مدافع سيارة من عيار ٧٥ ومدافع مضادة للدبابات من عيار ٣٧ ، وفوج من سائقي الدراجات البخارية مع مدافع رشاشة ، ومدافع هاوين من عيار ٨١ ومدافع من عيار ٣٧ ، وفرق صغيرة مسلحة بمدافع مضادة للطائرات والدبابات وفرق من سلاحي الهندسة والنقل وفرقة مدافع تجر جراً من عيار ١٠٥ ، وفوج مخابرات ، ووحدات سيارة في المؤخرة تؤمن تموينا منتظماً ؛ فكان بامكانها ، بالاتفاق التام مع سلاح الطيران الموجود ابداً فوق ساحة المعركة ، ان تحقق عامل المفاجأة . وقد اتاحت لها سرعتها ومرونة مناورتها فتح ثلمات عميقة والقيام بعمليات تطويقية .

خلال الحرب ، تقابلت وتوازت التحسينات الدفاعية والتحسينات الهجومية : ازدياد تصفيح الابراج (حتى ٢٠٠ مم في القسم الامامي) ، وعيار المدافع : ٧٥ و ٨٨ و ١٠٥ و ١٥٠ ... ، ومن ثم وزن الدبابة : مارك ٦ (٦٥ طناً) ، فردينان (٧٠ طناً) ، شرمن الاميركية (٣١ طناً) ، شرشل (٣٥ طناً) ، كونيغستيجر وجاغدبانثر (٦٨ و ٤٦ طناً) ، برشنغ (٤٣ طناً) وجوزف – ستالين (٥٠ طناً) ، « ارهب سلاح مجنزر حققه اي من المتحاربين » بمدفعه البالغ ١٢٢ سم طولاً ومدفعيه الرشاشين تحت البرج .

الا ان الدبابة قد اخضعتها حقول الالغام (التي كانت متصلة على طول ١٤ كلم امام موسكو وتخللتها اغوار ضد الدبابات) . فلكي تتمكن من التقدم ، يجب نزع الالغام – تحت نيران العدو – من الممرات الضيقة التي ستسلكها ، واكتشاف الالغام بواسطة كاشف مغناطيسي واخراجها من الارض ، وقد بقي ذلك عملية خطرة حتى السنة ١٩٤٤ حين ظهرت دبابات شرمن المزودة بجهاز يكنس الالغام (حتى تلك التي لا يكشفها الكاشف العادي) على مسافة عدة امتار امام الجنازير . ولكن اهم ما تعرضت له هو نيران المدافع الكثيفة التي حققها الروس ولا سيا المدفع « كوستيكوف » (الذي اسماه الالمان « ستالينورجيل » والروس « كاتيوشا ») المركب على جنازير ، الذي يطلق في آن واحد ١٦ او ٢٤ قنبلة من عيار ١٥ كيلوغراماً ،

وبصورة خاصة الـ « بازوكا » ، الابتكار الاميركي العظيم ، الذي كان اول سلاح فردي مضاد للدبابات في ايدي المشاة . فحتى ظهوره لم تبرهن كافة الاسلحة المستخدمة ، كالمدافع من عيار ٢٥ و ٣٧ ، والبندقية الروسية المضادة للدبابات من عيار ١٤ ، الخ. ، عن فعالية كافية امام تزايد سماكة تصفيح الدبابات ، بما ارغم تدريجياً على زيادة عيار – ومن ثم وزن – المدافع المضادة للدبابات : فعند الانكليز انتقل العيار من ٥٧ الى ٧٦ ، وعند الالمان من ٥٠ الى ٧٥ و ٨٨ ، دون ان يمكن ذلك المشاة من الدفاع عن انفسهم بوسائلهم الخاصة . اما البازوكا فأنبوب بسيط من الحديد المصفح يطلق من على الكتف او على الخاصرة فيقذف قنبلة ذات حشوة مجوفة قادرة على خرق سماكة ١٠ الى ١٢ سم من الحديد . وهي هذه الحشوة المجوفة ما اتاحت انقلاب الموقف وما شكلت منذئذ ارهب عدو للدبابة . وتتألف في جوهرها من مادة متفجرة ، تلتصق مغنطيسياً بجدار البندقية ، قادرة على ان توجه الى الحديد المصفح غازاً ملتهباً بسرعة تبلغ ١٥٠٠٠ م في الثانية ينفذ الى الداخل . وابتكر البريطانيون كذلك من جهتهم الـ « بيات » . كما ابتكر الالمان ، في السنة ١٧٤٤ ، الـ « بانزرشريك » من عيار ٨٨ مم القادر على اختراق سماكة ١٦٠ مم من الحديد المصفح على مسافة ١٠٠ م بواسطة قذائفه المجنحة ، و « البانزر فوست » القادر على اختراق سماكة ٢٠٠ مم من الحديد المصفح على مسافة ٥٠ متراً. ومهما بلغ من قوة تصفيح الدبابات وقوة اسلحتها ، فقد اصبحت اصغر وحدات المشاة ، بعد اليوم ، مزودة بأسلحة فعالة ضدها .

انحطاط الدبابة

وحتى قبل ظهور هذه الاسلحة الجديدة في ساحة المعركة ، اخذت اهمية الدبابة تتدنى شيئاً فشيئاً . فمنذ السنة ١٩٤٢ ، عاد الالمان الى اساليبهم القديمة : لم تعد الدبابة اداة اختراق مستقلة ، بل اصبحت مرة اخرى سلاحاً مواكباً. وقد اوضحت مذكرة صادرة عن قيادة اركان الجيش « ان مهمتها هي تسهيل تقدم المشاة » . وتطور من ثم تأليف البانزر . فبينما ضمت هذه الوحدة في السنة ١٩٤٠ فرقتين من الدبابات مقابل فرقة من المشاة ، انعكست النسبة في السنة ١٩٤٣ : فرقة من الدبابات مقابل فرقتين من المشاة . والدبابة بحاجة الى حماية المشاة ولا سيما الى حماية المدفعية التي حلت محل الطائرات الانقضاضية ، وهذا هو الدور الذي اسند الى المدافع السيارة اي الى فصائل المدفعية التي نظمها الالمان في السنة ١٩٤٣ .فالبانزر الرابعة التي طلب اليها انقاذ فون بولوس في السنة ١٩٤٢ لم تضم سوى ١٩٠ دبابة . وفي السنة ١٩٤٤ لم تضم فيالق البانزر الاربعة التي اسندت اليها مهمة قطع خطوط مواصلات الجيش الاميركي الثالث في « مورتين » سوى ١٢٠ دبابة فقط . وتفسير ذلك ان هشاشة الدبابة امام قنابل الطائرات والالغام والاسلحة الذاتية الحركة قد ظهرت بكل وضوح. ثم جاء المدفع الذي لا يندفع الى الوراء والطاردات التي تقذف القنابل تستعجل انحطاطها . فهم المشاة ونازعو الالغام من شكلوا وراء جبهة العدو رقبة الجسر التي انطلقت منها الدبابات البريطانية الى المعركة ، لا من اجل فتح ثلمة بل من اجل المطاردة . واصبحت

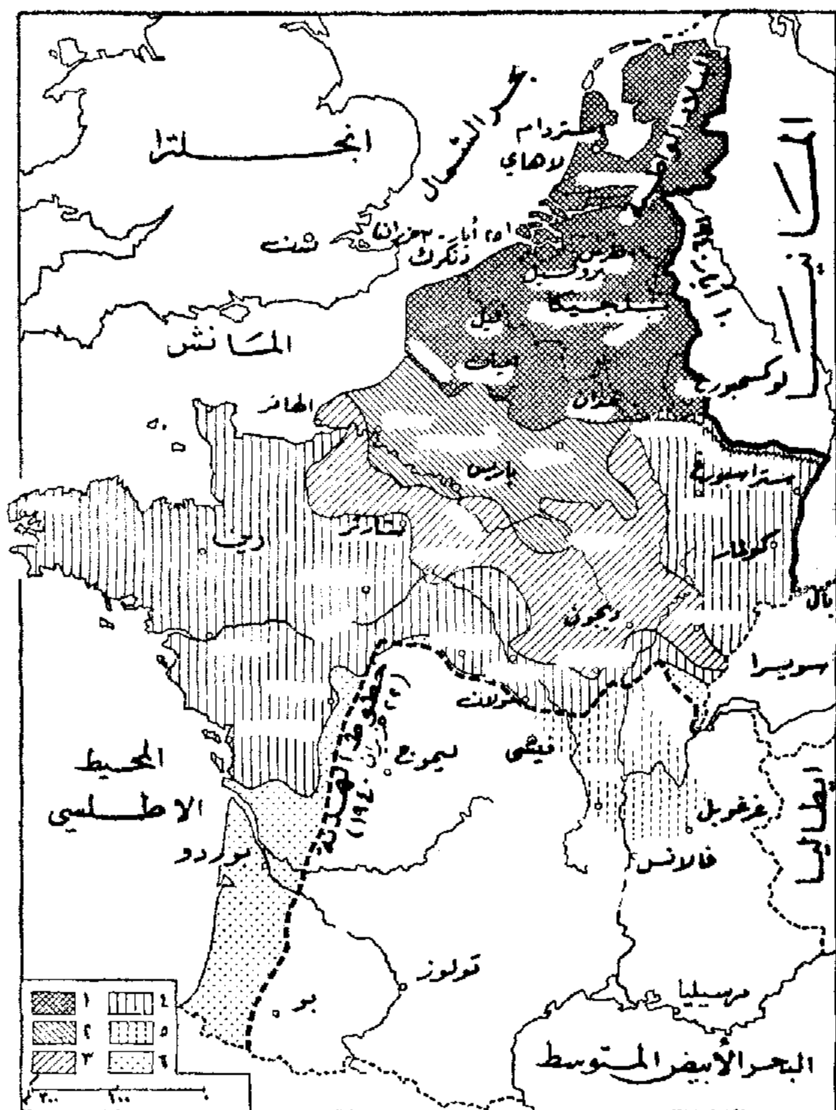

الشكل ١٣ ـ الحرب في الغرب في السنة ١٩٤٠

١ ـ التقدم بين ١٠ ايار و ٤ حزيران ، ٢ ـ التقدم بين ٥ حزيران و ١٤ حزيران ، ٣ ـ التقدم بين ١٥ حزيران و ١٧ حزيران ، ٤ ـ التقدم بين ١٨ حزيران و ٢٥ حزيران ، ٥ ـ اندفاع العناصر المتقدمة ، ٦ ـ منطقة اضافية احتلها الالمان .

المدفعية مرة اخرى السلاح البري الحاسم لانها تشق الطريق امام الدبابات . وهـــذا ما يفسر كثافة المدافع التي استخدمتها منذئذ فرق المدفعية الروسية .

وهكذا اعتمد كافة المتحاربين ، منذ صيف السنة ١٩٤٣ ، حلولاً متشابهة جداً لاستخدام دباباتهم : فان الفرقة المدرعة السوفياتية والبانزر الالمانية والفرقة المدرعة البريطانية قد ضمت عدداً محدوداً من الدبابات (زهاء ٢٥٠) تساندها مدفعية سيارة هامة وسلاح المشاة . ومن جهة ثانية ، ظهر في كافة الجيوش ميل الى جمع مجندين من كافة الاسلحة في وحدة جديدة اصغر من الفيلق وقادرة على التوفيق بين النار والحركة . وهم الاميركيون من سبقوا سواهم الى تطبيق هذه اللاحصرية ، بينما توصل الالمان الى النتيجة نفسها بزيادة عدد الفيالق التي تدنى عـــدد افرادها وعدد دباباتها تدنياً مطرداً . فكانت الجـــدة عند الاميركيين في احلالهم ، في مستوى الفرقة ، وحدة الاسلحة المتآلفة التي احلهـــا الالمان في مستوى الفيلق والروس في مستوى الفصيلة . فاصبحت الوحدة الحربية الاميركية ، القادرة على القيام بعمليات مستقلة ، وحـــدة « قيادة المعركة » – المؤلفة من فوج دبابات خفيفة ومتوسطة وفوج رماة ينقلون في الشاحنات ومجموعة مدافع سيارة من عيار ١٠٥ – يفصل الفيلق اليها مجموعـــة استكشاف مؤلفـــة من سيارات مصفحة ودبابات خفيفة ، ومدافع سيارة مجنزرة .

الطيران

كما رأينا بصدد الدبابة ، تحسنت الطائرات تحسناً مطرداً طيلة ايام الحرب، وتحسنت بالمقابل وسائل مقاومتها ؛ ولكن بينما اتضح يوماً بعد يوم ان الدبابة اعجز من ان تعمل بمفردها وانها في الواقع ســـلاح هش ، وصعب الاستعمال ، ومعرض لاخطار كبرى ، لعب الطيران دوراً حاسماً مطرد الاهمية؛ وفي حين لم يستطع اي من الاسلحة الاخرى الاستغناء عنه ، برهن هو عن ان باستطاعته الاستغناء عن سواه اذ انه ربح وحـــده معارك بحرية وحتى جوية بوحداته المنقولة جواً والمنزلة بواسطة المظلات .

جاءت تحسينات الطيران نتيجة نوعين من التقدم : فمن جهـة ازدادت قوته المحركة ازدياداً عظيماً منتقلة من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ وحتى الى ٥٠٠٠ حصان (*Me* – ٣٢٣) ؛ ومن جهة ثانية ازدادت قوة ناره بفضل ازدياد عدد وعيـــار وسرعة اطلاق نار المدافع الرشاشة (من ٦ مم الى ١٢,٥ و ١٣,٥) والمدافع (٣٧ ، ٤٠ ، وحتى ٧٥ مـم قنابل متفجرة) واطلاق الصواريخ .

وهي المانيـــا ، هنا ايضاً ، ما يعود اليها فضل الابتكار في المرحـــلة الاولى من الحرب باستخدامها الطائرات الانقضاضية المطلوب منها « احداث الفراغ في ميـــدان المعركة والسماح لوحدات الهجوم باختراق صفوف العدو دون التعرض تعرضاً كبيراً لنيرانه ». فقد قامت مئات الطائرات بضرب العدو وتفريغ متفجراتها وكنس ساحة المعركة بطيرانها المنخفض ومهاجمة القوافل على طول الطرقات وتدمير الجسور ومراكز المدفعية الثقيلة وضعضعة المجندين غـــير المتمرنين على الحرب بالدوي الجهنمي الذي تحدثه الطائرة اثنـــاء انقضاضها ، فتحطم الاعصاب

وتشل الدفاع . ولكن كلما اكتشف سر طريقتها الحربية ، نرى فعاليتها ، الكاملة في بولونيا وحتى في الغرب في شهر ايار من السنة ١٩٤٠ ، تتدنى تدنياً محسوساً خلال المرحلة الثانية من معركة فرنسا على السوم والاين في شهر حزيران من السنة ١٩٤٠ ، واكثر فاكثر في السنوات التالية. وان طائرات «لايتننغ» و «موستنغ»وثندربولت الانكلوساكسونية و «ستور موفيك» السوفياتية سوف تستخدم بدورها هـذه الطريقة نفسها في اوروبا وافريقيا ، وفي الغرب كما في الشرق .

كانت معركة انكلترا المعركة الجوية الحاسمة الكبرى الاولى في الحرب. فان ٣٠٠٠ طائرة، ثلثها مطاردات من طراز *Me* ١٠٩ و *Me* ١١٠ لحماية قاذفات القنابل ، قد وجدت أمامها ٥٤٠ طائرة مطاردة من طراز *Spitfire* و *Hurricane* انقذت البلاد من الغزو بمساعدة سلاح الدفاع ضد الطائرات واجهزة الرادار . ومنذ ذلك التاريخ اخذ تفوق الحلفاء يتعاظم وانتقل اليهم زمام المبادهة في الحرب الجوية .

الغارات الجوية الستراتيجية

حوّل الانكلوساكسون مجهودهم الرئيسي الى الغـارات الجوية الستراتيجية . فقد كان المقصود تدمير طاقة العدو الصناعية والاقتصادية والعسكرية بضرب المراكز الصناعية الالمانيـة الكبرى . ولذلك جهز الانكليز طائرة قادرة على قذف عدة اطنان من القنـابل خلال هجوم واحد : بلنهايم ٤ ، — افرو لنكستر ، افضل قاذفات القنابل في السلاح الجـوي البريطاني ، ولنغتون ، هاليفكس ٦ ، وموسكيتو التي كانت خير طراز ناجح . واحكم الاميركيون « القلعـة الطائرة » المسلحة بـ ١٣ مدفعاً رشاشاً ثقيلاً ركبت بحيث لا يبقى اية زاوية ميتة . فقد بلغت سرعتها ٤٨٠ كلم وتراوح مداها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ كلم وفاقاً لوزن محولهـا . ثم انتجت القلعة الطائرة الجبـارة التي استخدمت في المحيط الهادي . وكان لدى الاميركيين « ليبراتور » و « ماروودر » ايضاً .

ومع السرعة والمحمول والمسافة ، ازداد ايضاً وزن القنابل القابلة الانفجـار : ١٨٠٠ كيلوغرام، ثم ٣٦٠٠ ، و٥٥٠٠، و١٠٠٠٠ بالاضافة الى الصواريخ والقنابل المحرقة الفوسفورية. وقد جهزت كافة الطائرات بالرادار ، واستخدمت نظام « جي » (*Gee*) وطريقة « لوران » (*Loran*) اللذين اتاحا ارشاد الطائرات عبر الاطلسي او فوق المانيا ، ونظام « اوبو» (*Oboe*) (١٩٤٣) الذي اتاح للسائقين معرفة مركز وجودهم مع فارق ٥٠ متراً تقريباً وسلوك الطريق المرسومة امامهم على شاشة مضاءة ، و'نبّه السائقون حين يقتربون من الهدف وحين تأزف ساعة القاء قنابلهم . واستخدمت في السنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤ العلبة « جن » (*Gen*) التي عرضت امام اعينهم على شاشة الرادار ، حتى على ارتفاع شاهق وعبر الغيوم الكثيفة ، صورة صحيحـة للارض التي يطيرون فوقها . وبغية جعل المدافع والمطاردات والانوار الكاشفة تخطىء هدفها استخدمت « النوافذ » (*Windows*)، وهي اشرطة صغيرة من الورق المفضض تحدث موجات عكسية تشوّش اجهزة الرادار الالمانية . وقامت بالغارات عدة مئات من الطائرات التي كانت تتقدمها طائرات تلقي قنابل ملونة وقنابل مضيئة .

بينا تخصص الطيران الجوي البريطاني بالغارات الليلية ، هـاجم الطيران الستراتيجي الاميركي نهاراً ، ولكن الخسائر كانت فادحة - اذ ان متوسط عمر قاذفة القنابل لم يجاوز ١٦٠ يوماً حينذاك - حتى ظهور طراز الـ « موستانغ » الذي قلب الستراتيجية الجوية رأساً على عقب في اواخر السنة ١٩٤٣ . ومنذ هذا التاريخ اصبح التفوق الاميركي في المعركة النهارية تاماً : ففي ٣٠ كانون الثاني من السنة ١٩٤٤ هاجمت مدينة فرانكفورت ٨٠٠ قاذفة قنابل ، تخفرها ٧٠٠ مطاردة ، ولم تفقد سوى ٤٤ طائرة . ولكن هذه الغارات بالجملة لم تسفر من جهة ثانية عن نتيجة كبرى ، لانها لم تدمر سوى جزء يسير من الانتاج الصناعي الالماني .

بات الجيش الجوي من ثم وفير العدد جداً ، واستلزم عشرة اضعافه على الارض : ٢٥٠٠ جندي لسرب مؤلف من ٢٤ « لنكستر » يضم ٢٥٠ طياراً . واستلزم كذلك موارد ضخمة . فكل غارة من الغارات التي اشتركت فيها ١٠٠٠ طائرة ، والتي ابتدأت في شهر ايار من السنة ١٩٤٢ ، وتعددت ابتداء من السنة ١٩٤٣ استهلكت بضعة ملايين ليتر من البنزين ، والقي فيها ٦٠٠٠ طن من القنابل . وان غارة الثاني من شهر شباط من السنة ١٩٤٥ عـلى برلين ، التي قامت بها ١٥٠٠ قلعة طائرة تخفرها ٩٠٠ مطاردة ، قد استهلكت ١٦ مليون ليتر من البنزين.

الطيران التكتيكي

على صعيد الطيران التكتيكي الذي اشترك في المعركـة البرية ، نرى ان تفوق سلاح الجو الالماني ، الذي ما زال حاسماً على الجبهة الشرقية في شهر حزيران من السنة ١٩٤١ ، قد تلاشى في السنة ١٩٤٣ امام الوف طائرات المطاردة من طراز « ميغ » وطراز «ياك » ؛ فان هذا الاخير ، المسلّح بمـدفع من عيار ٢٠ مم ومدفعين رشاشين ثقيلين وستة صفوف من صواريخ يزن كل منها ٢٥ كيلوغراماً ، كان سلاحاً رهيباً جداً، على غرار طائرة الستورموفيك ، المسلحة بمدفعين من عيار ٣٢ ومـدفعين رشاشين ثقيلين و٨ صفوف من الصواريخ، التي تهاجم بسرعة ٤٠٠ كلم في الساعة، انقضاضاً او على ارتفاع منخفض جداً، الدبابات والمؤسسات الصناعية واستخدام الانكليز الهوريكين والـ « سبتفاير » من اطرزة مختلفة ، والـ « تيفون » التي حسّنت واصبحت الـ « تمبست » ، التي بلغت سرعتها ٧٠٠ كلم في الساعة وكانت احدث طـائرة مطاردة خلال الحرب . وكان لدى الاميركيين الـ « مارودر » والـ «تندربولت» ، اللتين بلغت سرعتهما ٧٠٠ كلم في الساعة ايضاً وامكن تجهيزهما بالصواريخ والـ « دوغلاس - A - ٣٦ - انفادر » التي استخدمت للمرة الاولى في السنة ١٩٤٥ ، وكانت اسرع الطائرات طراً وافضلها تسليحاً . ولكن منذ السنة ١٩٤٥ ظهرت الطائرة النفاثة الاولى التي استعيض فيها عن محرك الانفجار بعنفة احتراق تنفث بسرعة الى الوراء غازاً محترقاً يدفعها في الاتجاه المعاكس. وكانت هذه الطائرة الجديدة اخف وزناً واصغر حجماً اذ ان طريقة دفعها الى الامام قد اتاحت الاستغناء عن قطع كثيرة، من جملتها المروحة ، وبلوغ سرعة ٩٠٠ كلم في الساعة . وكان « هنكل » قد اجرى تجربة ، منذ السنة ١٩٤١ ، على طائرة نفاثة ، ولكن قراراً طائشاً اصدره الفوهرر قد اخر استخدامها حتى السنة ١٩٤٣ حين ظهرت الطائرة *Me* ٢٦٢

وفي هـــذا التاريخ استخدمت الـ « غلوستر متيور » التي بلغت سرعتها ٩٧٠ كلم في الساعـة وكانت اولى الطائرات المشتركـة في عمليات حربية في شهر آب من السنة ١٩٤٤ ، باسقاطها صواريخ « V 1 » والـ « قامبير » التي بلغت سرعتها ٨٧٠ كلم في الساعة . ومن الجهة الالمانية . كانت طائرات الـ « ناتر » (ثعبان) ، بالاضافة الى الـ ٢٦٢ Me والـ ١٦٢ He ، متفوقـــة بسرعتها على كافة الطائرات الحليفة ، ولكن استخدامها جاء متأخراً ، فلم يكن لها تأثير على العمليات .

استُخدم هذا الطيران التكتيكي اسراباً كثيفـة ، في مصر اولا حيث سهلت الف مطاردة وقاذفة قنابل هجوم الجيش الثامن وتجاوزته في تقدمه وحالت دون التموين الالماني بحراً . وهو هذا الطيران ما اعد وساعد عمليات انزال الجيوش في صقلية و « سالرن » و « انزيو » ونورمنديا (الشكل ٦٤،ص٣٦٠) ففي اليوم المحدد، انقلب وضع السنة ١٩٤٠ لصالح الحلفاء،اذلم تصادف ٦٠٠٠ طائرة ، نصفها من المطاردات القاذفة القنابل ، امامها سوى ٩٠٠ مطاردة المانية . وفي اعظم معارك تقويض الجبهات شأناً ، في « سان — لو » ، اغـارت طائرات الـ « ثندربلت » ، كل دقيقتين او ثلاثة ، بالقنـابل الفوسفورية ، ثم المتفجرة ، على خطوط العدو الاولى . والقت ٣٠٠ طائرات ٧٠٠٠ طن من القنابل في « منديل الجيب » هذا البالغ ٩ كلم طولاً وكيلومترين عرضاً ، وفتحت الثلمة التي اندفعت فيها جيوش الجنرال « باتون » . وقـد اسندت الى الطيران وحده مهمة حماية جناحيه . ونشرت طائرات الـ « تمبست »والـ « ثندربلت » والـ «موسكيتو» الذعر في كافة الطرقات . فاشتركت في المعركة بكثـــافة وبسرعة مدهشة وصدت الهجمات المعـــاكسة ، كما في « مورتين » في السادس من آب وفي الآردين في شهر كانون الاول من السنة ١٩٤٤ .

الجيوش المنقولة جواً

كان من اهم مستحدثات الحرب استخدام المظليين والجيوش المنقولةجواً استخداماً واسع النطاق . فاتاح ذلـك بلوغ الهدف الذي سمت وراءه الستراتيجية منذ عهد قديم : مهاجمة العدو من الوراء بقوات هـامة . وفي السنة ١٩٣٩ لم يكن هناك من وحدات مظليين الا في الاتحاد السوفياتي وفي المانيـا ، ولم يفكر الحلفاء بانشاء وحدات مماثلة بدورهم الا بعد الفتوحات الالمانية . وتحسنت كذلك المعدات اللازمة من طائرات نقـل وطائرات هوائية متطورة ، فاتاحت نقل عدد متزايد من الجنود والمدافع والعربات والدبابات. الا ان استخدام المظليين والنقل بواسطة الطائرات الهوائية لم يتسع اتساعاً كبيراً الا منذ غزو جزيرة « كريت » . فحتى ذاك التاريخ اقتصر هذا الاستخدام على انزال مجموعـات صغيرة من الجنود البواسل وراء الخطوط للقيام بعمليات تدمير او باحتلال نقاط هامة رئيسية: المطارات، كمطار اوسلو ، والجسور الهامة على الـ « موز » والرين في هولندا وبلجيكا ، وجسور قناة الملك « البير »، وحصن « ابَن — امايل » . وليس من يشك في اهمية هذه العمليات التي يقدم احتلال النروج مثالاً على نجاحها التام ، ولكن عدد الجنود المشتركين فيها ما زال محدوداً . اما احتلال

كريت – المركز الستراتيجي الهام جداً – فقد استلزم وسائل اعظم شأنـــاً الى حد بعيد : ١٢٣٠ طائرة منها ٥٣٠ Ju – ٥٢ تحميها مطاردات وطائرات انقضاضية ؛ ٧٣٠٠ مظلي (فقد ٤٠ ٪ منهم) واكثر من ٢٠٠٠٠ جندي نقلوا جواً. وفي اواخر السنة ١٩٤٢ ظهرت الوحدات الحليفة الكبرى المعدة للنقل الجوي ، التي اشتركت في كافة العمليات الهامة : في صقلية ، في رقبة جسر سالرن ، في نورمنديا حيث انزلت من الجو ثلاثة فيالق وراء الخطوط الالمانية في « سانت ـ مار ـ اغليز » و « بايو » وفقدت ٥٠٪ من افرادها ، وعلى الرين الذي سبق اجتيازه انزال ١٤٠٠٠ من المظليين والجنود المنقولين جواً (فيلقان) مع ٧٠٠ سيارة و ١٠٠ مدفـــع وذخائرهم التي نقلتها ٣٠٠٠ طائرة و ١٣٢٦ طائرة هوائية .

الاسلحة الذاتية الاندفاع

ان تفوق الحلفاء الجوي الساحق دفع الالمان الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ اهدافهم . وكان ذلك منطلق تقنية ثورية تستخدم اسلحة ذاتية الاندفاع قد يقودها او لا يقودهـــا ملاحون . فمنذ السنة ١٩٤٢ احكم الالمان في « بينموند » ، في جزيرة « اوسدوم » ، اسلحة يوشر درسها منــــذ السنة ١٩٣٧ هي الـ V ١ (اسلحة الانتقام : *Vergeltungswaffe*) و V ٢ . وكانت الـ V ١ صواريخ تبلغ سبعة امتار طولا تسيرها قوة اندفاع عكسي وتحمل طنـــا من المتفجرات . وكانت تطلق في قواعد خاصة ثابتة ، حتى مسافة ٢٥٠ كلم . ولكن الطيران والمدفعية المضادة للطـــائرات اللذين كانا مزودين بأجهزة رادار للتصويب آلياً وبأنابيب مسيّرة تطلق صواريخ تعمل عملها حين تمر على مسافة دون الـ ٤٠ متراً ، قد تغلبا بسهولة عليها ؛ فلم يبلغ الهدف سوى ربعها ودمرت قاذفات القنابل قواعد اطلاقها او ازالتها كليـــاً . اما الـ « V ٢ » ، فكانت اعظم خطراً : فهي صواريخ سديمية تبلغ ١٤٠٥ م طولاً وتزن ١٣٠٥ طناً ، كانت تطلق اطلاقاً يكاد يكون عمودياً بواسطة جهاز خاص ، فتبلغ ارتفاع ٥٠ كلم ، وحين تصل الى الارض مسيّرة بسرعـــة ١٣٠٠ متر في الثانية ، كان يستحيل سماعها ، مما جعل الدفاع ضدها محالاً وجعلها تترك وراءهـــا دماراً وخراباً كثيراً . ولكن ٦٠٠ طائرة من سلاح الجو البريطاني ضربت بالقنابل تجهيزات بينموند في السنة ١٩٤٣ مما أخر اطلاقها وحال دون تعريضها نصر الحلفاء للخطر .

الحرب البحرية
منذ السنة ١٩١٤ حتى السنة ١٩١٨

طرأت على الحرب البحرية تغييرات كبرى ايضا ، فتبـــدل وجه المعركة البحرية تبدلاً كلياً . وان تبدلاتها خلال الحرب العالمية الاولى لا تقارن بتبدلات الحرب البرية . فامـــام اسطول بريطاني ، كان على العموم اكثر من ضعفي اسطولها ، وقفت المانيا موقفاً دفاعياً ، ولم تستلم المبادهة الا في عهد متأخر في نطاق حرب الغواصات الخاص .

قامت في البدء ببعض غارات سريعة على شواطىء « نورفولك » و « يوركشاير » . وكانت اكبر عملية ، بعد معركة « دوغر بانك » ، في اوائل السنة ١٩١٥ ، عملية « جتلند » في شهر ايار من السنة ١٩١٦ ، حيث ارغم الاسطول الالماني على الانحناء امام الانكليز والانزواء في

مراقبه على الرغم من المهارة في المناورة التي برهن عنهـا اسطول الاميرال « فون سبي » في « كورونيل » و « فالكلند » منذ اواخر السنة ١٩١٤ .

وهاجمت السفن التجارية الحليفة بسفن قرصنة اتقن امدادها بالمؤن والمعلومات ، ولكنها دمرت بسرعة . وفي السنة ١٩١٦ ظهرت مرة اخرى بعض السفن الشراعية او التجارية التي ما كان احد ليشك في هويتها : « سيدلر » ، و « مو » و « وولف » (التي بقيت ٤٥١ يوماً في البحر) ، ولكن مآثرها لم تؤثر قط على مجرى الحرب . الا ان الاستحداث الالماني الهام على الصعيد البحري كان في اتساع مدى استخدام الغواصات التي هاجمت بدون تبصر وبدون سابق انذار ، ابتداء من السنة ١٩١٧ ، كافة السفن التي تصادفها في المياه البريطانية . وقد استخدمت المانيا غواصات كثيرة مسلحة بمدافع من عيار ٨٨ ، يقودها ضبـاط مهرة جداً في الهجوم بالمدفع و « الطوربيد » ، قادرة على القيام برحلات طويلة جداً (حتى ١٠٠ يوم) لمراقبة الملاحـة ، انزلت بالحلفاء خسائر كبرى وهددت تموين الجزر البريطانية بالخطر : ففي شهر نيسان من السنة ١٩١٧ ، أغرقت سفينة من كل اربع سفن تغادر الارخبيل .

ردّ الحلفاء بزيادة انتاج السفن المعدة للاعاضة من الحمول المدمر ؛ وألفوا قوافل تحميها المدمرات واكثروا من سفن الاستطلاع ومطاردة الغواصـات ، وشجعوا تركيب اجهزة اللاسلكي ، وسلحوا السفن التجارية وزرعوا الالغـام في الممرات البحرية التي تركها الالمـان مفتوحة في جون « هليغولند » وبحر الشمال ، وضربوا قواعـد الغواصات في « زيبروغ » و « اوستند » وعرقلوا الحركة فيها ... ومنـذ اواخر السنة ١٩١٧ ، زال الخطر وبلغ من الخسائر الالمانية (دمرت ١٩٩ غواصة) ان اولى بوادر الثورة ظهرت بين البحارة الذين قتـل منهم عدد كبير جداً .

اما « امثولة الحرب » فكانت ان الطائرات والالغـام والغواصات قد اثبتت انها اسلحـة رهيبة بالنسبة للسفن السائرة فوق سطح الميـاه . وان الغواصة بصورة خاصة استطاعت ان تلعب دور سفن القرصنة القديمة وتفرض حصاراً فعـالاً . فبدت من ثم اهمية السفن الحربيـة متدنية جداً : انها تستهلك كميات كبرى من الوقود كما انها معرضة ابداً لخطر الالغام والطائرات والغواصات ، فلم يمكن ابقاؤها وقتاً طويلاً في البحر ، بل اقتصر دورها على القيـام بالغارات او منع غارات سفن الاعداء . الا ان الجهود المبذولة بين الحربين قد اتاحت اصلاح بعض هـذه النواقص : فان انشاء قوة خفر من الطائرات والسفن الصغرى المضـادة للغواصات ، وتعزيز دفاعها ضد الطائرات ، ولا سيا زيادة حمولها ، وتحسين آلاتها وزيادة سرعتها ، واخيراً امكانية تموينها في عرض البحر بفضل المازوت ، قد اتاحت لها البقاء في البحر طيلة اسابيع عدة والعمل في نطاق اوسع منه في ما مضى . وعزز الطيران واسندت اليه مهمة الاستكشاف وقذف القنابل والنسف ، ولكن اليابانيين وحدهم فكروا بالنسف الانقضاضي . ومن جهـة ثانيـة ، كانت

البحريتان الاميركية واليابانية وحدها قد بنتا عـدة حاملات طائرات ، وهي سفن اعتبرتهـا الدول الاخرى مليكة وسريعة العطب .

معركة الأطلسي

والحال ابرزت معركة النروج فجأة اهمية الغطـــاء الجوي ، فاقتضى ذلك – كما رأينا – اعـــادة نظر شاملة في المفاهيم ، وتوزيعاً جديداً للقوات ، والجوء الى اساليب قتال جديدة . فبات السلاحان الاوليان ، منذئذ ، الغواصـــة والطائرة .

في الغرب اقتصرت « معركة الاطلسي » بالنسبة للبريطانيين ، اذا ما استثنينا مراقبـــة وتدمير بعض الوحدات الالمانية السطحية الكبرى (بسمارك) ، على مطاردة غواصات العدو التي حاولت قطع مواصلات الارخبيل باتجاه العالم الاخرى .

وخلافاً لما حدث في الحرب العالمية الاولى ، لم تعد الغواصة للستطيع المهاجمة بالمدفع لانهـا لم تستطع الظهور على سطح البحر دون خطر . فان الامبرالية البريطانية قد استخدمت جهـازاً كاشفاً يبث موجات فوق الصوتية يتيح صداها ، الذي يعكسـه الجسم الموجود في ميـاه البحر ، كشف هذا الجسم وتحديد مكانه . فتقذفها الطائرات ومطاردات الغواصات والمدمرات حينذاك بسيل من القنابل . وخفرت القوافلَ البوارجُ والحراقات والمدمرات ؛ وامتّنت حماية السواحل بالالغام ، وراقبت طائرات قيادة الشواطىء البحر رقابة دائمة . أمـــا الغواصات الالمانية التي كانت في السنة ١٩٤٠ عمارات يتراوح وزنها بين ٥٠٠ و ٨٠٠ طن ويبلغ شعـاع نشاطها حتى ثلاثة اسابيع، فقد تحسنت وبات باستطاعتها بلوغ ٢٠٠ متر عمقـــاً ؛ وفي السنة ١٩٤١ ظهرت غواصات تزن ١٥٠٠ طن ويبلغ شعاع نشاطها ٢٠٠٠٠ ميل (٣٧٠٠٠ كلم) ، يمكن استخدامها حتى في المحيط الهنـــدي في ما وراء الـ « كاب » . وقـــد اعتمدت طريقة سرب الضراء (*Rudeltaktik*) : ما ان تكتشف الغواصة قافلة ما حتى تنبه اليها القيادة في قرنسا التي توجه اليها كافة غواصات المجموعة (١٥ او ٢٠) ؛ وقد آثرت العمل في « الكوة السوداء » في الاطلسي حيث تستحيل الرقابة على الطائرات . ولكن الدفاع تحسن وتكامل ، فتزايد شعـاع نشاط الطائرات واتاح الجهاز الكاشف آنذاك ليس معرفة مكان وبعد الغواصة فحسب ، بل عمقها عن سطح البحر ايضاً ، واستطاعت الطائرات المزودة بالرادار واجهزة الكشف الضوئي البقـاء على اتصال بالغواصة بعد غوصها بفضل الكاشف المغنطيسي . وجهزت السفن بشباك تقيها من خطر الطوربيد ؛ وفي شهر آب من السنـــة ١٩٤٣ استخدمت للمرة الأولى القنبلة الحائمـــة المسيرة . واستخدمت بعض سفن القوافل كحاملات طائرات ، وزودت بجهاز يطلق في آن واحد ٢٤ صاروخاً تنفجر عند اصطدامها بالهدف.وفي أواخر السنة١٩٤٣ ظهر الـ«سكويد»،مدفع الهاون المحكم الذي يسدده الجهاز الكاشف ، ويطلق ثلاث قنابل كبرى في آن واحد. وباتت الطائرات بصورة خاصة ، بعد ان طال شعاع عملها ، وزاد عددها ، قادرة الآن على سد «كوة الاطلسي». وقد استخدمت قنابل محشوة بمادة متفجرة عظيمة الفعاليـــة (*Minol*) . وخفرت القوافل

المتزايدة أهمية (٧٠ ، ٩٠ سفينة) خطراً قوياً ، وفتكت الطائرات المجهزة بماكسات الرادار قوية فتكاً ذريعاً بالغواصات التي تحاول الاستفادة من ظلام الليل الصعود الى سطح الماء . وقد اعطت هذه التدابير مفعولها : فان الخسائر التي بلغت ٨٠٠٠٠٠ طن في شهر تشرين الثاني من السنة ١٩٤٢ قد هبطت الى ٩٦٠٠٠ طن في شهر حزيران من السنة ١٩٤٣ ، ودمرت ١٧ غواصة المانية . ومنذ شهر كانون الثاني من السنة ١٩٤٣ ، اخذت مصانع السفن الانكلوساكسونية تبني سفناً جاوز محمولها الخسائر الى حد بعيد . ومنذ ذاك التاريخ ، اختل التوازن نهائياً ، في البحر والجو على السواء ، لمصلحة الحلفاء . ففي اواخر السنة ١٩٤٣ ، بلغ عدد الغواصات الالمانية والايطالية المدمرة ٤٧٥ ، وهبط محمول السفن المغرقة في شهر ايار من السنة ١٩٤٤ الى ٢٤٠٠٠ طن ، بينما ارتفعت الخسائر في الغواصات ارتفاعاً مطرداً . ففي شهر كانون الثاني من السنة ١٩٤٥ ، لم يبق في عرض البحر سوى ٦٠ غواصة فقط (الشكل رقم ١٥) .

الا ان ظهور الـ « شنورشل » في ربيع السنة ١٩٤٤ ، اي حين تعرضت الغواصة لضربات حاسمة ، قد احدث ثورة في ظروف الملاحة تحت سطح الماء . فقد تألف من انبوب عازل للهواء يرتفع فوق الغواصة الغائصة ؛ واتاح تأمين الهواء النظيف الضروري للحياة في الغواصة تحت سطح المياه ولسير المحركات واخراج الهواء الفاسد وغازات الاحتراق ؛ فاستطاعت الغواصة من ثم النجاة من رادار الطائرة والاحتفاظ بسرعة تكاد تعادل سرعة سفن خفر القافلة والبقاء تحت سطح الماء طيلة اسابيع عدة . ولكن الاوان قد فات ، في هذا المجال ايضاً ، اذ ان الاختراع الجديد لم يستطع قلب الموقف لصالح المانيا .

بينما نسبت الغواصات لنفسها ٥٠ ٪ من محمول السفن المغرقة والطيران ٣٥ ٪ ، لم يعد للالغام سوى ٦ — ٧ ٪ ، بالرغم من ان حرب الالغام قد عرفت نشاطاً عظيماً متزايداً . فلم تستخدم الالغام الكلاسيكية المتزايدة القوة فحسب ، بل الالغام المغنطيسية منذ السنة ١٩٣٩ ، والالغام السمعية في السنة ١٩٤١ ايضاً ؛ كما استخدمت الالغام الضغطية التي تنفجر تحت تأثير المياه التي تحركها السفن ، والتي اتاح لها تركيبها ان تعمل سمعياً ومغنطيسياً وضغطياً . ولكن الايطاليين توفقوا منذ كانون الاول ١٩٤١ ، بغية الوصول الى السفن في المرافىء والدوران حول شباك الحماية او المرور من تحتها والاقتراب من الهدف بجهد المستطاع ، الى استخدام طوربيد يسيّره رجلان تنزلها الغواصات قرب الهدف ، والى اصابة مدرعتين وناقلة بترول في مرفأ الاسكندرية نفسه . وفي اواخر الحرب استخدم الالمان الطوربيد « ماردر » المؤلف من طوربيد يحمل ملاحاً يقذف بطوربيد متفجر حين يصبح على مسافة قصيرة من الهدف، واستخدم اليابانيون الطوربيد « كايتن » الانتحاري الذي يسيّره الملاح حتى الهدف وينفجر معه ؛ وفي سبيل بلوغ الغاية نفسها انتج المزيد من غواصات الجيب التي قد تبلغ سرعتها ٢٢ عقدة تحت المياه ، فبنى البريطانيون الـ «مدجت » (وقد استخدمت احداها في ضرب الـ « تربيتز » في احد الخلجان الضيقة) وبنى الالمان الـ « سيهوند » .

اذا ما قورنت حرب الغواصات في الحرب العالمية الثانية بحرب الغواصات في الحرب العالمية الاولى ، لاتضح انها كانت اقل فعالية واقل ارضاء للألمان : فانهم قد اغرقوا متوسط المحمول الشهري نفسه تقريباً ، ولكن عدد السفن المغرقة اقل منه بنسبة النصف بسبب تزايد محمولها ، وكانت الخسائر الألمانية فادحة جداً .

المعركة في المحيط الهادي

تختلف وجه المعركة في الهادي اختلافاً كلياً ؛ فقد توفرت هنا للطرفين وسائل العمل نفسها ، وكانت السيادة هنا للاسطولين الجوي والبحري . فبعد النجاحات العظيمة التي احرزها اليابانيون في الاشهر الاولى من الحرب (بيرل هاربور، وتدمير الـ« برنس اوف وايلز » والـ «ريبلس» بواسطة الطائرات الانقضاضية)، سمت الطائرات والغواصات الاميركية الى تدمير سفن تموين الجيوش اليابانية الموزعة على كافة انحاء آسيا الجنوبية الشرقية والارخبيلات ، موقعة بها خسائر ما لبثت ان ارتقت حجم الكارثة . وقد استعاد الاميركيون سيطرتهم على المحيط الهادي بفضل سيطرتهم الجوية .

ان المعول عليه بعد اليوم ، اكثر من عدد السفن المسلحة بالمدافع ، هو عدد حاملات الطائرات والطائرات المنقولة ، لأن النتيجة الحاسمة تنتزعها هذه او تلك . وقد ارتفع عدد الطائرات المشتركة في المعركة ارتفاعاً مطرداً : ١٨٠ طائرة يابانية مقابل ١٤٤ طائرة اميركية في معركة بحر المرجان ، و ٣١٢ طائرة يابانية مقابل ٣٠٥ طائرات اميركية في معركة جزر « مدواي » ، و ٤٩٨ طائرة يابانية مقابل ٨٢٠ طائرة اميركية في جزر « ماريان » . وفي شهر ايلول من السنة ١٩٤٤ ، في معركة الفيليبين الثانية من اجل الاستيلاء على جزيرة « لايت » التي انتهت بتدمير الاسطول الياباني ، كان لدى الاميركيين ١٢ حاملة طائرات يدخل في عدادها ست حاملات كبرى ، و ١٨ حاملة طائرات خافرة ، و ١٢٨٠ طائرة ، مقابل ٤ حاملات طائرات لدى اليابانيين و ٦٠٠ طائرة في المطارات ، اي مجموع ٧١٦ طائرة . وكانت الجدّة الهامة ، من جهة ثانية ، مدى وعدد المعارك البحرية الكبرى التي تصادمت فيها اساطيل قوية والتي لم تعرفها الحرب العالمية الاولى قط. فقد تقابلت اساطيل ضخمة بمقدورها البقاء في البحر طيلة اسابيع عديدة ، كما في عهد السفن الشراعية، ولكن بصورة غير منتظرة. فلا تدور المعارك النهارية على مسافة ١٠ او ١٥ كلم كما كان مرتقباً، ولا تدور المعارك الليلية على مسافة ٥٠٠ او ١٠٠٠ متر : دارت ١٣ معركة نهارية كبرى على مسافات تتراوح بين ٣٠٠ و ٧٠٠ كلم ، ودارت ٦ معارك ليلية ، بحيث لم تصل المدرعات الى مرمى المدفع ولم تلعب الدور الذي كان متوطاً بها من ذي قبل . وفي المعركتين الحاسمتين في حرب المحيط الهادي : معركة مدواي في حزيران ١٩٤٢ ، ومعركة الفيليبين الاولى في حزيران ١٩٤٤ ، لم تشترك اية مدرعة كبرى الا بمدافعها المضادة للطائرات . اما في الليل فقد نشبت المعركة ، بفضل الرادار ، بواسطة المدفع والطوربيد ، على مسافة ١٥ كيلومتراً . وباستثناء حاملة طائرات واحدة اغرقها المدفع ،

دمرت ٤٠ حاملة طائرات اثناء الحرب بفعل الطائرات او الغواصات . اما المدرعات الاميركية والانكليزية والالمانية الـ ٢٤ التي دمرت ، فقد غرق ٩ منها في معارك بحرية و ٥ فقط بفعـــل المدافع بينها ٣ اصيبت بالطوربيد ايضاً .

لذلك فان تأليف الاساطيـــل في السنة ١٩٤٥ يوضح تدني دور المدرعة الكبرى التي لم تعد « السفينة الحربية الرئيسية » المعهودة . ليست بعد اليوم سوى سفينة تابعة اعظم نفعاً بمدافعهـا المضادة للطائرات منها بمدافعها الضخمة . فان الاسطول الذي كان يستعد ، في شهر آب من السنة ١٩٤٥ ، لتنفيذ عملية « اولمبيك » (النزول الى اليابان) قد ضم ٢٣ مدرعة كبرى و ٢٦ حاملة طائرات حربية و ٦٤ حاملة طائرات خافرة . وبينما كانت النسبة بين فئتي السفن نسبة ٩ الى ٤ ، فقد انتقلت الى نسبة ٢٫٣ الى ٩ . لقد اصبحت حاملة الطائرات محور كافة العمليات .

العمليات البرمائية

من المظاهر المميزة لهذه الحرب ايضاً عـــدد واتساع العمليات البرمائية التي جاوزت المئة واختلفت اهمية ، فاقتصر بعضها على اعمال المغاوير واتسع بعضها الآخر ، كعملية « اوفرلورد » في نورمنديا ، التي انطوت على انزال ٧٥ فيلقاً وتموينها . لقد برهنت حملة الدردنيل الفاشلة واخفاق انزال الجيوش على ساحل الفلاندر خلال الحرب السابقة ، على ما يبدو ، على استحالة نجاح انزال جيوش بالقوة على ساحل منيع التحصين . ولذلك لم يكن اي من الجيوش معداً لمثل هذه العمليات . الا ان اخفاق انزال الجيوش الحليفة في النروج ، والنجاح الألماني المقابل ، واجهاض خطة « سيلو » لانزال الجيوش في انكلترا ، ونجاح احتلال كريت الباهر على يد جيوش وبواسطة معدات نقل معظمها جواً ، قد اثبتت ان شرط النجاح هو امتلاك معدات نقل وانزال معدة خصيصاً لهذه الغاية ولا سيما امتـلاك غطاء جوي يتيح « اقتراب » وحدات الهجوم . وبعد السنة ١٩٤٢ اجريت عمليات انزال الجيوش الكبرى الحاسمة في افريقيا واوروبا والمحيط الهادي : وقد ناهز عددها الستين – ١٠ في اوروبا وافريقيا ، و ٥٠ في المحيط الهادي – وتحسنت خلالها المعدات والاساليب . ففي الدرجـــة الاولى تأمنت الحماية بالطيران ومدافع الاسطول الضخمة . واستخدمت للنقل زوارق بامكانها الجنوح على بضعة امتار من الشاطىء او القيام برحلة طويلة في عرض البحر : زوارق ذات طبقتين مسطحة القعر لا تدخل كثيراً في الماء وتنفتح فيها مصاريع ضخمة تنتقل عليها السيارات والدبابات . وسفن كبرى قادرة على نقل زوارق انزال صغرى مختلفة الحمول (اكثر من ٤٠ نموذجاً) : ناقـــلات دبابات ، زوارق هجوم ، سيارات برمائية ، ودبابات ، الخ . ولمـــا كانت عملية الانزال في « دياب » قد اظهرت المخاطر التي تنطوي عليها محاولة الاستيلاء على احد المرافىء ، فقد تقرر ، لعملية الانزال في نورمنديا ، اختيار ساحل لا مرفأ فيه ، يكون من ثم اقـل تحصيناً ، وانشاء خمسة مرافىء اصطناعية ، ثلاثة منها للسفن الصغرى واثنان للسفن الكبرى ، مع ما يستلزمان من ارصفة ثابتة متوازية مؤلفة من سفن قديمة مهملة مثقلة في قعرها بالاسمنت المسلح والفولاذ ، وارصفة عائمة (من الفولاذ) تستطيع زوارق الانزال الاقتراب منها .

واذا كثرت العمليات البرمائية في المحيط الهادي . فلأجل رد اليابانيين الى الوراء انتهج الاميركيون خطة انزال نظامية كان الهدف منها تجاوز معظم المواقع البحرية حيث وزع اليابانيون اكثر من ٦٠٠ ٠٠٠ جندي بغية الاستيلاء على قواعد توصل الاميركيون ، انطلاقاً منها ، بفضل تفوقهم الجوي والبحري ، الى ملاشاة تأثير الارخبيلات او الجزر الصغيرة المنعزلة الباقية وراءهم او الى اخضاعها . وبعد الانتصارات البحرية الكبرى في شهري ايار وحزيران من السنة ١٩٤٣ في بحر المرجان وفي مدواي ، اقصى هذا الهجوم المعاكس اليابانيين عن غينيا الجديدة وجزر سليمان ، ولم عن « رابحول » في بريطانيا – الجديدة ؛ واتاحت سلسلة جديدة من القفزات الاستيلاء على جزر جيلبرت ومارشال والماريان (سايبان) وغوام ؛ واخيراً تم الاستيلاء على الفيليبين بعد النصر الحاسم في جزيرة « لايت » في شهر تشرين الاول من السنة ١٩٤٤ . واتاح الاستيلاء على ايفوشيا ضرب طوكيو والمرافيء والمراكز الصناعية اليابانية بالقنابل . وفي اشهر نيسان وايار وحزيران وتموز اتاح الاستيلاء على اوكيناوا رقابة الحركة التجارية بين الصين الجنوبية واليابان . ومنذ ذلك التاريخ حوصر الارخبيل وأخضع لضرب كثيف بالقنابل توّجه في السادس من شهر آب من السنة ١٩٤٥ القاء القنبلة الذرية الاولى على هيروشيا التي دمرت ٦٠ ٪ من المدينة وأودت بحياة ١٥٠ ٠٠٠ نسمة . وفي التاسع منه القيت القنبلة الثانية على ناغازاكي .

تولت كل عملية انزال قوة تكتيكية مستقلة مؤلفة من حاملات طائرات ومدرعات وسفن حربية صغيرة وناقلات جيوش . وكانت السيطرة الجوية هنا ايضاً الشرط الاولي الضروري للنجاح . فهي طائرات افريقيا الشمالية ما أمنت نجاح عملية الانزال في صقلية ، ثم في سالرنو وانزيو . ومن انكلترا جاءت ألوف الطائرات التي كانت بمثابة « مظلة » لأسطول الانزال في نورمانديا . وهي حاملات الطائرات ومطارات الجزر في المحيط الهادي ما امنت لكل فيلق ١٢٠ طائرة اعتبرتها القيادة ضرورية لنجاح عملياته .

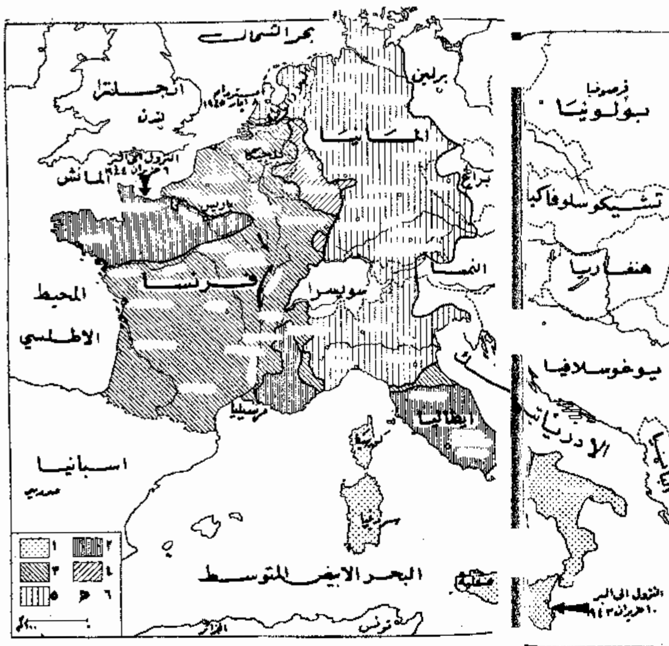

الشكل ١٤ – الحرب في الغرب : حزيران ١٩٤٤ – ايار ١٩٤٥ .

١ – اقاليم مستردة قبل النزول الى نورماندیا ، ٢ – اراض مستردة في ٢٨ آب ١٩٤٤ ، ٣ – ارا
مستردة في ٣١ كانون الاول ١٩٤٤ ، ٤ – المرقف في ٢٦ آذار ١٩٤٥ ، ٥ – المرقف في ٨ ايار ١٩٤٥
٦ – جيوب ما زالت تحت سيطرة الجيش الالماني في ٨ ايار ١٩٤٥ .

الأنصار والسكان ، يصبح بمقدور الانصار تنظيم جبهة حقيقية وراء العدو وارغامه على التجمع في بعض النقاط كالمدن وخطوط او عقد المواصلات ، ومهاجمة مراكزه الضعيفة ، واضعاف معنوياته ، وجعل الاتصال بين وحداته وتموينه غير مستقرين ، الى ان يسمح تجهيز القوات اللازمة بتطويقه وابادته . وان هذه الاساليب التي حالت دون تمكن اليابانيين من السيطرة على معظم الاراضي الصينية قد اعتمدت في كافة البلدان المغزوة . فأحدثت حرب الأنصار من ثم ثورة حقيقية في مفاهيم الحرب الكلاسيكية باشراكها في المعركة جماهير كبيرة من المدنيين المسلحين ، العاملين باتصال مختلف وثوقه مع الجيوش النظامية . وباتساعها وضعت دول المحور امام مسائل غير مرتقبة على جانب كبير من الخطورة . وقد اتخذت اشكالاً اختلفت باختلاف جريانها في فرنسا ، او روسيا ، او بولونيا ، او البلقان ، او المناطق الكثيفة السكان ، او المناطق الصحراوية ، او الغابات المتلبدة ... وفي كل مكان – باستثناء الاتحاد السوفياتي – وقفت الحكومات المؤلفة في المنفى او الحكومات الحليفة موقفاً حذراً من هذه الثورات الشعبية المؤدية الى تسليح جماهير اعتبرت شيوعية لم تكن الحكومات لتضمن في المستقبل الاشراف عليها وانكر المستشارون العسكريون المحترفون فعاليتها . وهنا يكمن سر التباطؤ والتردد في تزويدها بالاسلحة من الجو، وسر الجهود المبذولة لعرقلة او ايقاف نشاطها، مما ادى احياناً الى منازعات داخلية وخيانات .

في البلقان وبولونيا

في اوروبا ، اتسعت حرب العصابات في البلقان أولاً . ففي اوروبا ضمت جيوش تيتو ، منذ آخر السنة ١٩٤١ ، الوف المحاربين – ١٥٠٠٠٠ في السنة ١٩٤٣ – وحررت اقاليم واسعة ؛ وفي اليونان تنظمت حركة التحرير الوطني التي ألفت بعد ذلك جيش التحرير الوطني . وفي البانيا تنظمت جيوش الانصار بقيادة انور خوجه . ولكن هذه الجماعات المتميزة بارتفاع عددها ونشاطها الفعال ضد الغازي كانت بقيادة الشيوعيين ، فقاومتها جماعات محافظة اقل عدداً حالفت الالمان انفسهم أحياناً : كجماعات ميخالوفتش، وجماعات الكولونيل زرفاس، والـ « بالي كومبتار » الالبانيين . ولكن الانصار البلقانيين ارغموا زعماء ثلاثين فيلقاً ايطاليا وبعض الفيالق البلغارية وجيوش باقليك الكرواتية وبعض الجيوش الالمانية احياناً على البقاء في البلقان .

وفي بولونيا ، حيث تشكل منذ السنة ١٩٣٩ جيش سري لمقاومة الألمان والروس معاً ، كان الانقسام عميقاً ايضاً بين الشيوعيين وخصومهم . وبعد السنة ١٩٤١ ، أثار نشاط العصابات السوفياتية في بولونيا الشرقية التي استولى الاتحاد السوفياتي على بعض أراضيها ، مسألة الحدود الشائكة . ولذلك كان التعاون ضد الألمان محدوداً . فقد دخلت العناصر الشيوعية في جيش « برلنغ » الذي حارب في اطار الجيش الأحمر ، بينما قامت العناصر المرتبطة بحكومة بولونيا في لندن ، بمعزل عن الجيش السوفياتي ، بنشاط أدى الى تدمير فرصوفيا .

في روسيا أمر ستالين ، في نداء وجهه في شهر تموز من السنة ١٩٤١ ، باعتماد خطة « الارض المحرقة » ، وفي الوقت نفسه بتشكيل جماعات من الانصار في المناطق المحتلة . فلسنا هنا ، كما في غير مكان ، امام فلاحين مسلحين باسلحة عادية يرتجلون تنظيمهم ، دون ارتباط بالحكومات او ضدها أحياناً ، بل امام مدنيين منظمين ، قادرين على العمل كتائب صغيرة منفردة او مجتمعة ، وحتى مع الجيش النظامي ، وخاضعين لقادة هم ممثلو الحكومة الشرعيون المختارون على العموم من بين رؤساء التعاونيات الزراعية او اعضاء الحزب الشيوعي او ضبـــاط الجيش . وينضم اليهم أحياناً عدد من الجنود المحاصرين الذين نجحوا في الافلات من قبضة الالمان . وقد ساعدتهم مساعدة كبرى ندرة خطوط المواصلات والمسافات بين القرى ، واتساع الاحراج والمستنقعات والمنـــاطق الوعرة، التي يستحيل اجـــلاؤهم عنها الا باستخدام فرق عسكرية كبرى ، مما اتاح لهم تأليف جماعات وثابة اخذت منذ شهر آب من السنة ١٩٤١ تهاجم قوافل التموين وتخرب الخطوط الحديدية وتدمر الجسور وتمنع الالمان من دخول مناطق واسعة في البلاد . فأرغمت القيادة الألمانية على ترك فيالق كاملة في المؤخرة لحماية قوافلها والتجرد لعمليات انتقامية : كاعدام الرهائن وتدمير القرى اللذين زادا من عطف السكان على الانصار وحملا الرجال الأصحاء على الالتحاق بعصابات الجوار هرباً من الاخطار المحدقة بهم . وهكذا تشكل جيش عظيم ، مؤلف من جماعات ، قـــد تضم عدة مئات ، بل عدّة الوف من الاعضاء ، « زودت من الجو » بالاسلحة (والمدافع احياناً) والذخائر والادوية ، وكانت على اتصال لاسلكي بالقيادة المركزية لحركة الانصار ، وتلقت منها التعليمات ونقلت اليها المعلومات . وقـــد ساعدت الانصار النساء والاولاد ، كتلك الكومسومول الصغيرة « زويا » ، البالغة من العمر ١٧ سنة ، التي حكم عليها بالموت شنقاً بتهمـــة احراق مستودع ألماني ، وكنساء واولاد الانصار الـ ١٠٠٠٠ المختبئين في « دياميس » اوديسا ، الذين أمنوا لهم مؤنهم بانتظام واتاحوا لهم ، طيلة سنتين ونصف السنة ، الصمود والحيلولة دون اعمال تخريبية كثيرة حين كان الجيش الأحمر يقترب من المدينة ، والاسهام مع هذا الجيش في تحرير مدينتهم .

في فرنسا ، بدأت حرب العصابات منذ السنة ١٩٤١ حين تشكل الجيش السري وأعيد تباعاً تنظيم الحزب الشيوعي الذي والت منظمته العسكرية ، « المتطوعون والانصار الفرنسيون » ، اعتداءاتها على الالمان . ثم اتسعت الحركة حين انضم اليها شبان كثيرون مهددون باخطـــار شتى رغبوا في الحياة السرية وتأسيس جيوب مقاومة عززهـــا احياناً بعض الجنود الفارين من الجيش الالماني . ولكن جيوب المقاومة التي نظمت في جبـــال الالب والجورا والسلسلة الوسطى افتقرت الى الاسلحة ، لان الحلفاء ، جهلا منهم او تجاهـــلا ، لم يزودوها من الجو الا باسلحة غير كافية ومتأخرة ، فجاء القمع الذي تولته الجيوش الالمـــانية غاية في القساوة والوحشية : ففي هضبة الـ « غليار » ، وفي شهري شباط واذار من السنة ١٩٤٤ ، لم يخضـــع ١٢٠٠٠ الماني ، مع الطائرات والمدفعية ، جيب المقاومة المنظم فيها الا بعد ١٨ يوماً . وتوجب

على الالمان ارسال ثلاثة فيالق ضد جيب المقاومة في الـ « اين » ، وفيلقين ، احدهمـا مدرع ، ومظليين ، للقضاء على جيب المقـاومة في فركور في شهر تموز من السنة ١٩٤٤ ثم توحدت الحركات المختلفة بعد قيام المجلس الوطني للمقاومة الذي اسند الاشراف عليها الى لجنة عمل هي الـ « كوماك » . واثناء معركة التحرير ادت هجمات جيوب المقـاومة على الخطوط الحديدية ، بالاتفاق مع هجمات الطيران الحليف ، الى عرقلة في سير القطارات الحديدية استتبعت تأخيراً في نقل الجيوش الالمانية بلغ خمسة ايام احياناً . وفي بريتانيا ساهمت جيوب المقاومة مساهمة فعالة مع المظليين الاميركيين بتنظيفها المنطقة بعد فتح ثلمة افرانش . والى الجنوب من الـ « لوار » ، وفي الجنوب الشرقي ، حالت اعمالها دون انسحاب ٣/٤ القوات الألمانية . وقد اسرت ٢٥٠٠٠ جندي في الجنوب الغربي و ٤٢٠٠٠ في الجنوب الشرقي. وقد قدرت فعالية عملها بفاعلية زهاء عشرين فيلقاً .

في ايطاليا

منذ اعلان الهدنة التي عقدها المارشال « بادوليو » مع الحلفاء ، نزع الالمـان الاسلحة من الجيش النظامي في ايطاليا واسروا اكثر من ٦٠٠٠٠٠ . ولكن بعض الوحدات بادرت طوعاً الى المقاومة : في بيومبينو ، وكورسكا ، وسردينيا، والدوديكانيز ، وكورفو وكيفالونيا .. ، والف العديد من الجنود الذين فروا من الاسر جمـاعات انصار في « بيمون » ، ومنطقة البندقية حيث توحد خصوم الفاشستية الايطـاليون والسلوفينيون ، وفي اميليا وليغوريا انضموا الى جماعات العمال والفلاحين الذين رفضوا الحرب الى جانب الالمان ، فلم يستطيعوا-هرباً من انتقام حكومة سالو الفاشستية الجديدة - الا رفع علم المقاومة . وامتدت الحركة الى منطقة الـ « مارش » في اواسط ايطاليـا ، وتوسكانه ، ولاسيوم ، والـ « ابروز » ، وراء الخطوط الالمانية . ثم احكمت خطة الانصار وتكاملت : تسلل ، انسحاب فجائي ، وتفرق ، ثم مباغتة جديدة وتفرق جديد ، وتشكيل وحدات سريعة الانتقال تهاجم الالماني في كل مكان وترغمه على تشتيت قواته اكثر فاكثر . وفي ايطاليا الشمالية بلغ عدد الانصار ٨٠٠٠٠ في شهر حزيران من السنة ١٩٤٤ بالرغم من الارهاب البوليسي وعمليات « الشراذم السوداء » الانتقامية الدامية . وبذلت المساعي للاعاضة من « حرب العصابات » بمنظمة ذات شأن ، بغية توحيد القائمين بها في قوة عسكرية . فانشئت « قيادة عامة » كان الجنرال « كادورنا » مستشارهـا العسكري . وقد اوجد اتفاقا « برشلونيت » و « فريول » تعاوناً وثيقـاً بين المقاومة الفرنسية والانصار السلوفينيين شمل تبادل المعلومات . وهكـذا وضعت اسس « دولية الانصار » التي ضمت في حروب العصابات كافة خصوم النازية والفاشستية في كافة البلدان ، اذ ان بعض الفارين من الاسرى الانكليز والاميركيين والاوستراليين والروس والتشيكوسلوفاكيين قد انخرطوا في صفوفهم . وقد تسلم بعض هؤلاء الاجانب زمام قيادة جماعات الانصار . وكما في الخـارج ، حارب الايطاليون الى جانب السوفيات واليوغوسلافيين والالبانيين واليونان والفرنسيين .

في صيف السنة ١٩٤٤ ، لم تعد اعمال الانصار هجمات فجائية او اعمالاً تخريبية فحسب بل

معارك حقيقية كمعركة « مونتيفيورنو » بين « ريجيو » و« مودينا » حيث صمد ٨٠٠٠ نصير في وجه ثلاثة فيالق المانية مزودة بمدفعية قوية ودبابات وقاذفات لهب ثم انسحبوا بعد قتل ٢٠٠٠ الماني . وفي اواخر الصيف كانت هناك مناطق محررة فعلاً في ايطاليا الشمالية : الوديان العليا في البييمون و« مونفرا » ، وجزء من لومبارديا ، و« جمهورية توريليا » بين جنوى وبليزانس في ليغوريا ، ومدن الابنين الرئيسية بين بارم ومودينا في اميليا ، وكارنيا ، ومنطقة واسعة في الـ « فريول » ، ولكن الهجوم الحليف على الخط القوطي قد فشل وفقد معه الأمل بتحرر ايطاليا الوسطى كلها في وقت قريب . فكان ان الأنصار ، الذين تخلت عنهم القيادة الحليفة واشارت عليهم في شهر تشرين الثاني بـ « التسرح » ، قد سحقوا وتفرق شملهم . ولكنهم تنظموا مرة اخرى في السهل اثناء شتاء ١٩٤٤ – ١٩٤٥ . فتجدد القتال في شهر آذار من السنة ١٩٤٥ وتم الاستيلاء مرة اخرى على المناطق المحررة من قبل . وفي شهر نيسان اندلعت الثورة الوطنية . واثناء تقدم الحلفاء هاجم الانصار الجيوش الألمانية المنسحبة في الابنين وانقذوا جنوى من التدمير . ثم ثارت ميلانو وتورينو وتحررتا . وفي الثامن من شهر ايار ، حين توقفت العمليات الحربية في اوروبا ، كان عدد القتلى من الانصار قد بلغ ٤٦٠٠٠ وعدد الجرحى والمشوهين ٢١٠٠٠ ، يضاف اليهم ٣٠٠٠٠ ايطالي قتلوا في حروب العصابات خارج بلادهم .

الـ « وهروولف »

اهتم الالمان بدورهم بتنظيم العصابات حين احدق خطر الغزو ببلادهم . ومنذ شهر نيسان من السنة ١٩٤٥ طُلب الى الرجال المتميزين بمهارة وخبرة وشجاعة نادرة ان يستعدوا لمثل هذه الحرب . فكان ذلك الـ « وهروولف » المطلوب منها مواصلة القتال في جيوب المقاومة في الالب ، ولكن نشاطها لم يكن ذا شأن عملياً .

بعض مظاهر الحرب الخاصة الحرب في روسيا

ان العمليات التي جرت في كل الفصول وفي كل المناخات ، طيلة خمس سنوات تقريباً ، قد ارتدت ، كما هو طبيعي ، مظاهر مختلفة كل الاختلاف . لا بل ان ظروف المحاربين نفسها ، وقد تميزت ابداً بالقساوة ، كانت كذلك مختلفة جداً .

في روسيا ارتدى القتال طابعاً بالغ الفظاعة بفعل الظروف الطبيعية وشدة عناد الطرفين المتحاربين . وكان اتساع الرقعة الروسية وندرة خطوط المواصلات كافيين لتطلّب جهود لاحد له من المحاربين ومعداتهم (الشكل ١٧ ، ص٣٨٦ – ٣٨٧) . فان ندرة القرى والثكنات ، واخطار رجال العصابات الذين يخرجون فجأة ، وفي كل وقت ، من الغابات ليهاجموا المنفردين والمفارز الصغرى والقوافل ، قد اوجدت عند الغازي حالة عصبية متوترة وسببت له مشقات غير اعتيادية . وجاء المناخ يزيد في الطين بلة : ففي الصيف الغبار والمسيرات المنهكة تحت اشعة الشمس المحرقة ، دون ماء في أغلب الاحيان ، وفي الربيع والخريف الامطار التي تحول الارض الى بحيرات وحول يصعب السير فيها ، لا يقوى سوى الحصان على اجتيازها وتأمين تموين غير مؤكد وغير كاف ، وتحول الطرقات وراطاً ومستنقعات يغوص الانسان فيها فلا يستطيع التقدم ، وفي

فصل الامطار القرّ الذي يجمد الدم في عروق الالمان المفتقرين الى الملابس الدافئة وحتى القفافيز احياناً ، ويعطل الاسلحة الذاتية الحركة ويجمـــد البنزين والزيت ، والخريف الذي يخفض الحرارة الى ٤٠ — او ٥٠° — ، والعواصف الثلجية التي يجب خوض معارك ضارية اثناء هبوبها ضد عدو لا يمكن على ما يبدو تصور جلده وطاقته على مقاومة العذاب وهمته القصاء في القتال.

ويضاف الى الدمار الذي يخلفه الالمان اثناء تقدمهم ، التخريب الذي يأتيه السوفيات بانتهاجهم خطة « الارض المحرقة » ، ثم ذاك الذي يخلفه الالمان - بصورة منظمة — اثنـــاء تراجعهم وانسحابهم .

فقد كتب « بولفوي » في اوكرانيا في السنة ١٩٤٣ :

« الارض كلها منطقة صحراوية . فبدافع نوع من البغضاء الجنونية احرق الالمان القرى احراقاً شاملاً ، وقطعوا اشجار البساتين ، واتلفوا المزروعات ومحوا كل اثر لاقامـــة الانسان . وفي المزارع ، جمعوا المحاريث والآلات الحاصدة والآلات القاصة ونسفوها بالمتفجرات » .

وفي المعارك الرهيبة التي خاضها الطرفان المتحاربان استخدمت جيوش واعتدة لم يشاهـــد مثل كثافتها وقوتها في اي بلد آخر . ففي شهر تموز من السنة ١٩٤٣ ، وصف احـد الصحفيين الالمان معركة بيالغورود كما يلي :

« بلغ عدد الدبابات المشتركة في المعركة في آن واحد حوالي ٢٠٠٠ دبابة ، وحمي وطيس المعركة طيـــة ثلاثة اشهر وثلاث ليال ... سار في المقدمة الاختصاصيون الذين شقوا الطريق امام الدبابات وسط حقول الالغام ، وسارت وراء الدبابات مدافع الهجوم . فتحت الدبابات الهجوم واطلقت نيرانها الى مسافات بعيدة . واضطر رماة القنابـــل تكراراً الى القفز من على الدبابات لتطهير الحقول من القناصة الروس المختبئين بين المزروعات والاعشاب . واكتشفت مدافع رشاشة تارة الى اليسار وطوراً الى اليمين ، وحتى في المؤخرة احياناً . ومن اعـــالي الجو انقضت الطائرات ، واطلقت المدفعية نيراناً جهنمية متواصلة وارتدت المعركـة طابعاً من العنف لا يتصوره انسان ، والليل لم يوقفها . واضيء السهل الواسع الاطراف اضاءة عزفـــة بوميض الانفجارات ، وارتسمت في السماء خطوط مفجمة تاركها القذائف المتشابكة وراءها ..» .

في الشرق الاقصى

في الشرق الاقصى لم تجر العمليات الحاسمة بحراً وجواً فحسب ، بـل براً ايضاً . وقد ارتدت في كل مكـــان طابع الضراوة القصوى . ففي الغابة والدغل ، حيث كانت شاقة جداً بفعل المناخ الوخيم ، توجب احباط المكائد اليابانيـــة الكثيرة ، ومعرفة المسالك في وسط الآجام، ومواجهة الاحابيل والنيران المطلقة من كل صوب، وفي اغلب الاحيان ، من الاشجار التي برع اليابانيون في تسلقها والاختباء فيها والتعلق بغصونها ، والتسلل الى الخطوط حيث تبلغ « فرقهم الانتحارية » مجموعات المدفعية وتنسفها بالمتفجرات التي تقضي عليها وعلى المدفعية معاً . فنجم عن كل ذلك توتر عصبي لا يطاق وتعب مضن . واستمات اليابانيون في المقاومة ولم يخلفوا سوى عدد ضئيل جـداً من الأسرى : جنود جرحى او مرضى عاجزين عن القتال . ففي اوكيناوا قتل ١١٠٠٠٠ ياباني ولم يقع في الاسر سوى ٧٤٠٠ جندي. وفي شهر تموز من السنة ١٩٤٤ ، افنيت حامية جزيرة تينيان الصغيرة في ارخبيل الماريان ، قرب

سايبان ، حيث استخدمت قنابل النابالم للمرة الاولى ، افناء تاماً ، وكانت مؤلفة من ٩٠٠٠ رجل . وفي بورما كانت النسبة ٦ اسرى مقابل الف قتيل . وفي كل مكان قاوم المدافعون حتى الموت هجوم الدبابات وقاذفات اللهب والمدفعية الثقيلة والطائرات . وحين انزل الطيران الاميركي بالاسطول والطيران اليابانيين خسائر لا تعوض ، ظهرت « الطائرات الانتحارية » (كاميكازيه) التي يلقي ملاحوها بانفسهم مع طائراتهم على الاهداف المهاجمة ، و« القنابل الانتحارية » (باكا) ، الشبيهة بالصواريخ ١ V ، التي يقودها حتى الهدف ملاحون ينفجرون معها . وشكل الاسطول من جهته وحدة « كاميشيو » من الطرابيد الانتحارية التي يوجهها رجل او رجلان الى الهدف ، وزوارق محملة بالقنابل او الطوربيد تهاجم بها السفن ، وحتى سباحين يحملون مواد تنفجر عند اصطدامها بالسفن الاميركية .

الحرب ضد المدنيين

هوجم السكان المدنيون هجوماً مباشراً ومنظماً . فخلال الحرب العالمية الاولى عانوا من حرب الغواصات ، والحصار ، والاقتسارات المختلفة التي استهدفت سكان المناطق المحتلة ، والخرق الصريح للاتفاقات الدولية حول العمل الالزامي في صناعات الغازي الحربية او في اعماله التحصينية . اما اليوم فقد عانوا مباشرة من قنابل الطائرات . ومنذ قبل السنة ١٩٣٩ ورجحه احتمال قصف المراكز الصناعية الكبرى والعواصم بالقنابل . وارتقبت خسائر مرتفعة في الارواح (في انكلترا ٦٠٠ ٠٠٠ قتيل مدني وضعفهم من الجرحى في الايام الستين الاولى)، مما حمل الحكومات على وضع مخطط لاجلاء السكان باعداد كبرى عن المدن الكبرى بغية تلافي الذعر واختلال نظام الادارات العامة : وبصورة خاصة اجلاء تلامذة المدارس والاولاد الصغار وامهاتهم . فمنذ شهر ايلول من السنة ١٩٣٩ اجلا في بريطانيا العظمى اكثر من مليوني شخص بينهم ١ ٥٠٠ ٠٠٠ طفل مع امهاتهم . وفي فرنسا اجلي سكان مدينة ستراسبورغ كلهم وعدد كبير من الالزاسيين واللورينيين ، وتلامذة كثيرون من مدارس باريس ، الخ .

وحين حدث الغزو ، حدث ما يشبه « الخروج » حين هرب ملايين الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين هائمين على وجوههم ، تلقائياً وبدون نظام ، في طرقات تهاجمها الطائرات الانقضاضية بمدافعها الرشاشة ، ودون موارد كافية احياناً . فاستقبلت مقاطعات فرنسا الغربية وحدها ٩٠٠ ٠٠٠ لاجيء توجب اعالتهم واسكانهم . وتسبب التقدم الالماني في الاتحاد السوفياتي في مشاهد السكان الهاربين نفسها . وفي السنة ١٩٤٥ عرفت المانيا بدورها هذه الصفوف الطويلة من الهاربين الذين عرقلوا السير على الطرقات وتركوا على شفاف الـ « اودير » « جثث الشيوخ والنساء والاطفال » رغبة منهم في السير بمزيد من السرعة باتجاه الجنوب .

احدثت كافة الدول ، لمواجهة خطر القصف بالقنابل ، مصالح « دفاع » سلبي دائمة استخدمت مئات الالوف من الاشخاص(٤٠٠ ٠٠٠ في فرنسا ، ١ ٢٠٠ ٠٠٠ في انكلترا)الذين كلفوا الاهتمام بفتح الملاجيء منذ بداية اطلاق صفارات الخطر ، واطفاء الحرائق ، ومساعدة

الجرحى، وتقديم العون لمن حرمتهم القنابل من مساكنهم ومن كل ما يملكون. ولكن الخسائر، على بعدها عن التقديرات ، كانت فادحة : في انكلترا ٦٠٠٠٠ مدني قتيل و٢٠٠٠٠٠ جريح وبيتان مدمران او متضرران من كل ٧ بيوت ، و٩ من كل ١٠ في وسط لندن . وان القصف المتواصل الذي اخضعت له المانيا قد حول عدداً من المدن الكبرى ، كـ « كارلسروه » وشتوتغارت ومونيخ وبرلين ودرسدن الى حقول انقاض ، واتت الحرائق الهائلة على عدة كيلومترات مربعة من مدينة همبورغ . وعانت اليابان كذلك ، حتى قبل قنبلتي هيروشيا وناغازاكي وضحاياهما الـ ٢٠٠٠٠٠ ، من تدمير الابنية والخسائر المرتفعة في الارواح خلال الغارات الكثيفة على طوكيو والمدن الصناعية .

الفصل الثاني

النظام الأوروبي والآسيوي الجديد

طيلة سنوات عدة ، احتل القسم الأكبر من اوروبا وقسم هام من آسيا ، واديرا واستثمرا على أيدي المنتصرين في الحرب الصاعقة : الألمان واليابانيين الذين أزالوا الحدود (الشكل ١٨) وأعلنوا عن رغبتهم في اقامة « نظام جديد » وايجاد « نطاق ازدهار مشترك » يكون ضمانة للرفاهية والسلم . وكان هذا الشعار معداً لاخفاء استثمار الموارد والبشر الذي تستلزمه آلتهم الحربية . الا ان المنتصرين استطاعوا ، الى جانب هذا الاستثمار ، تخطيط تطوير اقتصادي واجتماعي مبنياً على العنصرية والمبادىء « الفاشستية » .

١ – النظام الجديد الألماني

النظام الجديد

بموجب الاتفاق الثلاثي ، الذي عقد في شهر أيلول من السنة ١٩٤٠ بين المانيا وايطاليا واليابان ، والذي وصف بـ « الميثاق المظم للنظام الجديد » ، قبلت اليابان بسيادة المانيا وايطاليا في اوروبا من اجل اقامة نظام جديد ، واعترفت لهـا حليفتاها بالمهمة نفسها في آسيا . فماذا كان المقصود بهذا النظام الجديد يا ترى ؟

ان خطب بعض الوزراء الالمان ، ومقالات الصحف وكتب الصحافيين النازيين تكاد لا تعطي اي ايضاح بهذا الصدد ، لا سيا وان الآراء قد تبدلت بتبدل احوال الحرب .

امـا بحسب المبادىء الايديولوجية الواردة في « كفاحي » فقد كان المقصود ايجاد مناطق حيوية مؤلفة من عدد معين من « المجالات الكبرى » المستقلة سياسياً واقتصادياً والمرتبطة باتفاقات ثنائية ، لمصلحة بعض الامم الجديرة بذلك . فتقام قبل كل شيء آخر وحدة اقتصادية بادارة ألمانيا تحل محل النظام الحر الفوضوي تخطيطاً مركزياً وتقسيماً دولياً للعمل ، ما امكن التقسيم ، شبيهاً بذلك الذي نظمته الاتفاقات الثنائية المعقودة بين الـ « رايخ » وبلدان اوروبا

الجنوبية الشرقية قبيل الحرب . وبصورة عـامة ، يستغنى عن تصنيع قسم من اوروبا غير الالمانية ، وتحتكر المانيا معظم الانتاج الصناعي في ارضها ، وتقـدم اوروبا الشرقية والغربية المنتوجات الغذائية والاعلاف . وحين خيضت الحرب ضد روسيا فُسّر احتلال الاقاليم الشرقية بأنه وسيلة للمحافظة محافظة دائمة على المجال الحيوي لاوروبا الكبرى التي تديرها المانيا ؛ ولم تكن مهمة النظام الجديد محاربة البلشفية فحسب، بل ضم هذه الأقاليم الى اوروبا واقامة « سور من الفلاحين » فيها بواسطة كل من يأتي لاستعمارها والاستقرار فيها. وتستمر الدول الصغرى في هذه المجالات الكبرى تحت ادارة شعب قائد تخضع له بحكم الطبيعة . ولكن اللهجة تبدلت بعد هزيمة ستالينغراد . فقد صرف النظر عن القيادة الالمانية في اوروبا وعن تنظيم الاقاليم الشرقية ، واقتصر الكلام على الدفاع عن اوروبا ضد الخطر البلشفيكي والمطامع الاقليمية السوفياتية . ولن يبنى النظام الجديد على القوة بــل على الحرية ، وسوف تكون الدول الصغرى والوسطى والعظمى متساوية فيما بينها .

نجاح العنصرية

اما هتلر فلم يحدد في يوم من الايام ما يقصده بالنظام الجديد . ولم يوضح قط ما يمكن ان تنتظره الدول المغلوبة من تسوية الصلح النهائيـة ، ولم يسلّم قط بعقد معاهدة صلح تستوفي شروطها القانونية ؛ ولم يخف قط تصميمه على ضم كل اقليم يمكن تمثيله بالرقعة الالمانية . وكان أول عمل تلقائي قام به بعد هزيمـة فرنسـا الاسراع الى ضم شطر كبير من اراضيها الى الرايخ ، ثم قرر ارجاء هذا الضم املاً منـه بأن تساعده فرنسا المهزومة على محاربة انكلترا . وفي اواخر السنة ١٩٤٠، رسم مخططاً يقضي بتقسيم الامبراطورية البريطانية بين ايطاليا ، واليابان ، والولايات المتحدة ، والمانيا (في افريقيا الوسطى) ، ثم عاد الى مشاريعه التوسعية القديمة في الشرق ، حين لم يحصل على العــون الاسباني الضروري . ففي الشرق ، سوف تصبح المناطق البلطيقية المضمومة الى الرايخ منطقة استعمار للمستعمرين الالمان والدانماركيين والنروجيين والهولنديين . وسوف تصبح اوكرانيا دولة حليفة ، والقفقاس دولة اتحادية يعين فيها مفوض سام الماني . وكل ما ليس المانياً ، كالحلفاء والتوابع والشعوب الخضعة، يجب ان يؤول الى وضع دوني ، وضع سكان الامبراطورية الاستعمارية الاوروبية للرايخ الالماني الاعظم . وبهذه الروح نفسها ، اعتبر زمناً طويلاً ان الشعب الالماني وحــده هو ما يجب ان يسمح له بحمل السلاح . ولم يسمح الا في المرحلة الاخيرة من الحرب باستخـدام اسرى الحرب من قوميات الاتحاد السوفياتي غير الروسية والجنــود المنتمين الى الأحزاب المتعاونة والالمان . ولكنه لم يقل قط كلمة واحدة تسمح لحلفائه بالاعتقاد بأنه يعتبر مصيرهم مماثلاً لمصـير الشعب الالمــاني . لقد عوملت الشعوب النيرلندية والفلمنكية والسكنديناقية معامـلة دونها معاملة الشعوب الاخرى ، لأنها اعتبرت فروعاً من العنصر الجرماني ومعدّة للتمثيل . اما في الشرق ، فان الشعوب السلافية، التي هي شعوب متخلفة ، فمصيرها المعلن هو الاستعباد والإبادة . ويجب ان تستثمر المحميات لمصلحة المانيا دون غيرها، وسوف يُبقى السكان الاصليون في ادنى مستوى

عقلي ممكن ، وسوف يكون الارهاب سبيل الحكم : « ان الجيوش التي يمكننا الاستعانة بهـا لتوطيد سيطرتنا على الاقاليم الشرقية لن تكون كافية بسبب اتساع هذه الاقاليم ... (فيجب) على الدولة المحتلة ان توحي الارهاب القادر وحده على إزالة كل رغبة في المعارضة عند السكان ».
ففي المنطقة الغربية من بولونيا المضمومة الى الرايخ ، التي بلغ سكانها ١٦٠٠٠٠٠ نسمة ، بينهم ١٢٠٠٠٠ الماني فقط ، اقصي كل من ليس المانياً ، اي البولونيون واليهود ، الى الشرق في شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، والحق اقتصاد هذه الأقاليم باقتصاد الرايخ . وان الجزء الذي الف « الحاكمية العامة » كان مجرد بلاد استعمارية لم يحدد نظامها قط . وقد اوضحت التعليمات التي اعطاها غورنغ ان « كل الخامات والادوات الممكن استخدامها في الاقتصاد الالماني » يجب الاستيلاء عليهـا . وان « المشاريع التي لم تكن جوهرية للمحافظة على ادنى مستوى معيشي كاف للسكان يجب ان تنقل الى المانيا او ان تستثمر لمصلحة المانيا » حيث هي موجودة . وقد استهدفت التدابير التي اتخذها الحاكم العام « فرانك » وهلر القضاء على اليهود والطبقة البولونيـة المثقفة : فالغيت كافة مؤسسات التعليم العالي ، ولم يحتفظ للبولونيين الا بالتعليم الابتدائي والتقني . وعلى الصعيد الاقتصادي ، عريت البلاد واستثمرت لمصلحة الالمان وحاولت سلطات الاحتلال الحـد من ارتفاع عـدد البولونيين واضعاف العرق بسوء التغذية . كما حاولت في الوقت نفسه جرمنـة بعض مناطق ولاية « لوبلين » بواسطة المستعمرين الالمان . ومنذ خريف السنة ١٩٣٩ نقل عمال بولونيون كثيرون الى المانيا ، وبلغ عددهم زهاء المليون في شهر آب من السنة ١٩٤٢ .

في الـ « اوستلند » والاقاليم السوفياتية الاخرى ، انتهج الالمان السياسة الفظة نفسها ، الا في الجمهوريات البلطيقية الثلاث التي كان الاتحاد السوفياتي قد ضمها في السنة ١٩٣٩ والتي عومل سكانها معاملة اقل سوءاً لأنهم اعتبروا انسباء في العرق . اما روسيا البيضاء واوكرانيا فقد عانتـا من مصير اشبه بمصير بولونيا . فقد الفت اوكرانيـا « مفوضية المانية » لم يسند الى الاوكرانيين فيها سوى ادارة شؤون القرى والنواحي . واحتل الالمان كافة المراكز الادارية المتوسطة والعليا . وان روزنبرغ ، وزير الاقاليم الشرقية المحتلة ، الذي كان راغباً في اقامـة دول تكون بمثابة صمام امان بين الرايخ والاتحاد السوفياتي ، والذي سعى وراء تشجيع قومية اوكرانية ، قد اصطدم بمفوض الرايخ ، « اريك كوخ » ، الذي جاهر بأنه لا يسعى وراء إقامة « اوكرانيا حرة » بل وراء « تشغيل الاوكرانيين لمصلحة المانيا » . وقـد قال في كييف في الخامس من آذار ١٩٤٣ .

« لم آت الى هنا لاشيع السعادة ، انما جئت لاساعد الفوهرر ... لسنا هنا لنأتي بالمن، بل لايجاد قواعد النصر. نحن عرق اسياد عليه ان يتذكر ابـداً بان أوضع عامل الماني يفضل الف مرة سكان هـذه البلاد اجتماعياً وبيولوجيـاً » .

فاستهدفت سياسته من ثم اضطهاد المثقفين الاوكرانيين اضطهاداً منظماً بغيـة حرمان الشعب من قادته ، والقضاء على مظاهر القومية الاوكرانية واستثمار الفلاحين ما امكن الاستثمار لمصلحة المانيا . واراد روزنبرغ إعادة حق تملك الارض وتطبيق « النظام الجديد الزراعي »

بتحويل التعاونيات الانتاجية الى مزارع اقليمية وتعاونية ، ولكن كوخ ، الذي كان يتوخى ملء اوكرانيا بالاستثمارات الالمانية الكبرى التي تستخدم اليد العاملة المحلية المأجورة ، أسس شركة خاصة استثمرت هذه المزارع الاقليمية الجديدة كما تستثمر المزارع النموذجية الكبرى .

في محمية بوهيميا — مورافيا حيث سبق لهتلر ان قرر تمثيل نصف السكان — بتشتيت العمال التشيكيين في مناطق الرايخ المختلفة بنوع خاص — وابعاد النصف الثاني ، ولا سيما العناصر « المغولية » (؟) ورجال الفكر ، اقفلت الجامعات التشيكية لمدة ثلاث سنوات منذ شهر تشرين الاول من السنة ١٩٣٩ . وجُرمنت المدارس الثانوية وحتى الابتدائية تدريجياً . ومن جهة ثانية سهلت غارات الطائرات الحليفة على المانيا جرمنة البلاد بدفعها العديد من الالمان الى نقل مشاريعهم الى بوهيميا حيث تمتعوا بحق الحصانة الدولية .

وفي الشرق خضعت كافة القضايا الجنائية ومعظم القضايا المدنية ، التي اشتركت فيها فئات الالمان المختلفة ، من مواطنين ، و« رجال دولة » ، والمان اصيلين او منحدرين من اصل الماني ، لاحد القضاة الالمان وللقانون الالماني . كما ان النظر في بعض المخالفات المرتكبة ضد السلطة المحتلة وقراراتها والحزب النازي والمنظمات الملحقة به ، قد حصر في المحاكم الالمانية مهما كانت قومية المتهم المدعى عليه . وانحصرت صلاحية المحاكم المحلية في القضايا المدنية بين الاطراف غير الالمانية وفي القضايا الجنائية ، واحتفظ للمحاكم الالمانية بحق اعادة النظر في احكامها .

« امبراطورية الـ .S. S »

في الواقع لم يوضع قط مخطط شامل ومتناسق لتنظيم اوروبا الالمانية تنظيماً نهائياً . فقد رسمت توجيهات كبرى عامة جداً :

ابادة اليهود ، ابعاد « الماركسيين » : شيوعيين ، واشتراكيين ونقابيين احرار ، والقضاء على المبادىء الديموقراطية والنقابية ، واعادة تنظيم الاقتصاد الاوروبي لمصلحة الرايخ بحيث يؤمن لشعب الالماني دور قيادة ممتاز في وسط الشعوب المستعمرة المقتصر نشاطها على الزراعة فقط . واذا ما انتُهجت سياسة شاملة ما فان الفضل في انتهاجها يعود الى ادارة الـ .S. S (مصالح الامن) . فقد الفت هذه الادارة دولة ضمن الدولة ولم تخضع لقوانين الرايخ وحتى لانظمة الحزب ، وكان لها تسلسلها الاداري الخاص و« دوائر أمنها » المستقلة ، فكانت السيدة المطلقة على الشعوب الخضعة . ففي كافة البلدان المحتلة اشرف على الشرطة احد كبار ضباط الـ .S.S الذي كان واثقاً من ان الكلمة الاخيرة ستكون له حين تنشب الخلافات بينه وبين السلطات المدنية والعسكرية المحلية . اما رئيسها هملر ، الذي كان رئيساً لـ « هنترب » (ومكلفاً الدفاع عن « الدم والارض والعرق ») ، فقد عين في السنة ١٩٣٩ واعطي صلاحيات مطلقة واسندت اليه مهمة تنظيم استعمار البلدان المحتلة ، اي امكانية اعادة رسم خريطة اوروبا الديموغرافية والعنصرية . وفي السنة ١٩٤٢ اعطي صلاحية الاشراف على الجماعات القومية الجرمانية في الدانمارك والنروج وهولندا وبلجيكا ، وحق الرقابة ، لا على المنظمات النازية الميول فحسب ، بل على ادارات الرايخ الرسمية في هذه البلدان ايضاً . وتحت اشرافه قامت ادارة الـ .S. S

بارساخ السيطرة الألمانية سياسياً واقتصادياً بتوطينها ، في نقاط مختارة ، الأقليات الألمانية المشتتة في اوروبا ، التي اعيدت الى الرايخ : في الاراضي البولونية المضمومة ، والـ « وورتلند» ، والالزاس – لورين ، واللوكسمبورغ ، وسيليزيا العليا ، وكارنيول العليا ، وستيريا السفلى . واجتهدت ادارة الـ .s .s كذلك في اعادة الجماعات المرغوب فيها عنصرياً الى « الشراكة الجرمانية » : الالمان المنصهرون في الشعب التشيكي والشعب البولوني وانسال المهاجرين الى السويد من الالمان ... وقد عبأت من بين هذه الجماعات « جنود الاصطدام في النظام الجديد » : الـ *Waffen s. s.* . ولم تصرف النظر عن هذا التجنيد المرتكز الى اعتبار عنصري ، مستعينة بالعناصر غير الجرمانية التي استثمرت خوفها من البلشفية ، الا بعد معركة ستالينغراد .

الابادة

ان النظام الجديد ، المبني على تفوق العرق الجرماني واستثمار اوروبا على أيدي « شعب السيادة » واحتقار واستعباد كل ما ليس المانياً ، قد اقتضى ، بالاضافة الى ذلك ، القضاء « الطبيعي » على كل من يعتبرون خطراً طبيعياً أو ادبياً على الرايخ الثالث . وكي يتأسس تأسيساً راسخاً « لألف سنة » ، كان من الضروري القضاء على كافة أعدائه بدون شفقة .

بين الالمان ، عقّم غير « الاجتماعيين » والمنحطون والمتوهون والفاسدون جنسياً ؛ اما « الهراطقة » الماركسيون أو الاحرار فقد سجنوا وأعدموا الحياة . ففي المعسكرات التي اعتقلوا فيها لم تلبث المعاملات السيئة وسوء التغذية والعمل المضني ، التي اخضعوا لها ، ان حطمتهم معنوياً وجسمانياً وقادتهم الى الموت . واما اليهود الذين كان القضاء عليهم فكرة متسلطة على مخيلة هتلر فقد قمعوا بقوانين نورمبرغ في السنة ١٩٣٥ ، المكملة بمراسيم السنتين ١٩٣٧و١٩٣٨ التي حكمت عليهم بالموت البطيء . وأثناء الحرب اشتدت هذه السياسة وتناولت فئات اجتماعية وقومية اخرى ، كالنور والسلافيين عموماً وكافة الشعوب المعتبرة متخلفة . فبالاضافة الى التدابير المعدة للحيلولة دون تكاثرهم : كالتعقيم والاجهاض وفصل الرجال عن النساء ، لم يتراجع هتلر امام تقتيلهم ، كما شرح ذلك لـ « روشننغ » :

« اذا كان بوسعي ارسال نخبة الشعب الالماني الى جحيم الحرب دون اية شفقة على اهراق الدم الالماني العزيز ، فليس من شك في ان من حقي القضاء على ملايين الاشخاص المنتسبين الى عرق متخلف يتكاثر تكاثر القمل والبراغيث والبق وغيرها من الهوام » .

اهملت من ثم ، اكثر فاكثر ، اساليب الموت البطيء ، واعتمدت طرائق اسرع نتيجة تطبيق مخططاً منظماً للابادة . فبينما فرغت مدن المانية كثيرة من طرد اليهود الباقين فيها متباهية « بخلوها من اليهود » ، طبقت على يهود البلدان المحتلة قوانين نورمبرغ . وخلال اسابيع الحرب البولونية الثلاثة ، قتل افراد الـ .s .s واعـداء السامية البولونيون ٢٥٠ ٠٠٠ شخص منهم ، وصودرت ممتلكاتهم ، وعينت لهم حصص غذائية زهيدة جداً ؛ وزربوا في احيائهم او نقلوا الى المانيا لتأدية اعمال الزامية . ومنذ شهري ايار وحزيران من السنة ١٩٤٠ عانت الجماعات اليهودية

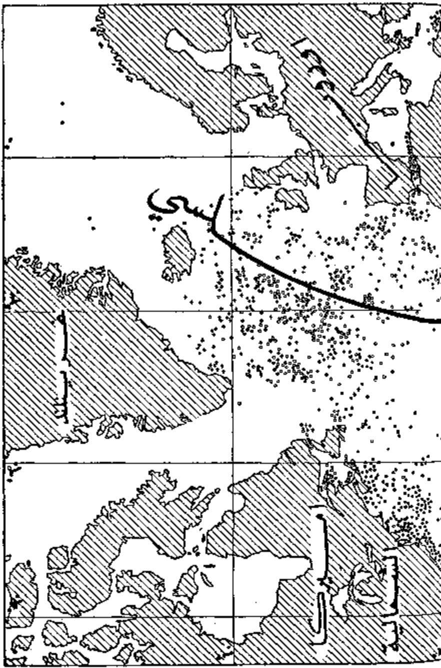

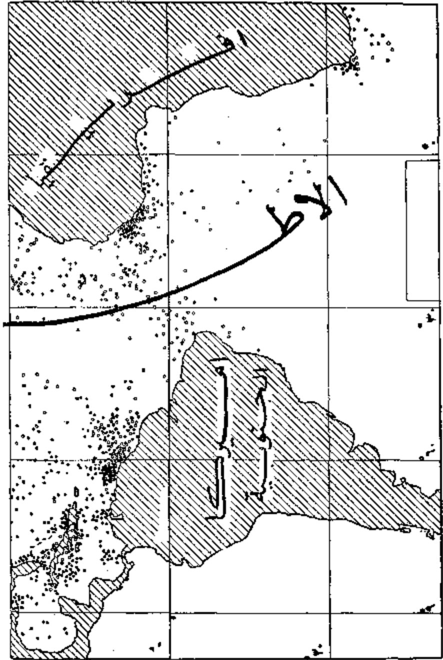

الشكل ١٥ - توزيع السفن التجارية المغرقة في الاطلسي

١- بين ١٥ اذار ١٩٤١ و ١ كانون الثاني ١٩٤٢

٢- بين ١ كانون الثاني ١٩٤٢ و ٣١ تموز ١٩٤٢

٣- بين ١ آب ١٩٤٢ و ٣١ أيار ١٩٤٣ .

في الدانمارك والنروج وهولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ وفرنسا بدورهـا من المصير نفسه ، ويدخل في عدادها الوف اللاجئين الالمان والنمساويين الذين وقعوا في ايدي النازيين . وعرفت الدانمارك وحدها تشريعاً خفيف الوطأة ضد الساميين بفضل معارضة الملك . اما في فرنسا فقد عمل بنظام شبيه جداً بالنظام الالماني . وفي كل مكان اتخذت التدابير المعـادية للسامية على الصورة التدريجية نفسها : نفي اليهود اللاجئين ، فرض غرامات ثقيلة وتبرعات الزامية على الآخرين ، مظالم شتى جعلتهم يؤولون الى حال البهائم المطاردة ، مصادرة الممتلكات الخاصة والمؤسسات الثقافية ، حرمان من الحصص الغذائية العادية . وبعد الهجوم على الاتحاد السوفياتي، اشتدت الاقتسارات والمظالم ، واعتبر استعجال ابادة اليهود امراً واجباً للوصول الى « حل نهائي » للمسألة اليهودية . فأحدثت للقضاء عليهم فرق خاصة مجهزة بشاحنات غاز تتيح لها ابادة ضحاياها باعـداد كبرى . وانشىء المزيد من معسكرات الاعتقال التي جهزت بغرف غاز وافران احراق في « تريلنكا » و « مايدانيك » و « بوكنوولد » ... ولا سيا في « اوشويز » حيث امكن اماتة ٢٠٠٠ شخص بالغاز دفعة واحدة في مدة نصف ساعة ، وتنفيذ العملية نفسها اربع مرات في اليوم. ففي غرف الغاز هذه هلك ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ ضحية بينا مات٠٠٠ ٥٠٠ من الحرمان وشظف العيش .

في معارك اوكرانيا وبسارابيا ، حيث اشترك الرومانيون في حركات شعبية ضخمة ضد اليهود ، مات اكثر من مليوني يهودي قتلاً . وكان العمل الاخير تدمير احياء اليهود . ولكن يهود « لودز » قد نجوا من الابادة بسبب الحاجة الى اليد العاملة في مصانع النسيج . امـا في فارصوفيا حيث ما زال هناك ٠٠٠ ٤٠٠ يهودي في السنة ١٩٤٢ ، فقد اندلعت ثورة يائسة حين اراد الالمان ، في كانون الثاني من السنة ١٩٤٣ ، تصفية الـ ٠٠٠ ٤٠ يهودي الباقين على قيد الحياة . فاقتضى لهم ٤٢ يوماً من المعارك الضارية لابادتهم . وهكذا بين السنة ١٩٣٩ والسنة ١٩٤٥ ، مات قتلاً اكثر من ستة ملايين يهودي (عـاد ٦٠٠ يهودي هولندي من اصل ٠٠٠ ٩٠ منفي ، اي اقل من ٠،٧ ٪ . وعاد ٢٨٠٠ يهودي فرنسي من اصل ٠٠٠ ١١٠ ، اي ٢،٥ ٪) .

« معسكرات الموت »

ان تدابير الابادة المنظمة هـذه استهدفت « اعداء » الرايخ الآخرين ايضاً . فالعذابات والعمل الالزامي وسوء التغذية (بين ٦٠٠ و ٧٠٠ وحدة حرارية في اليوم في بوكنوولد) ، والاعدام للعاجزين عن العمل ، كانت المصير الذي ينتظر الماركسيين والمقاومين والسلافيين والمظليين الحلفاء والاسرى الفارين . وقـد نفذت هذه الابادة المنظمة في معسكرات الاعتقال التي مرّ فيها زهاء عشرة ملايين ضحية، زال اثر القسم الاكبر منها ، ولا سيا خلال الاشهر الاخيرة من الحرب – اذار و نيسان ١٩٤٥ – اذ نظمت في كل مكان تقريباً عمليات تقتيل واجلاء بالجملة في ظروف وحشية رهيبة . فقـد تعرض المعتقلون لعبودية مطلقة ، ولم يكن لهم من ملاذ يقيهم مظالم الـ « كابوس » – رؤساء

فرق اختير جلهم من بين الالمان المحكومين وسعوا جهدهم لاذلالهم واساءة معاملتهم - واقتقروا الى الغذاء واللباس ، واخضعوا لنظام قاس ، وارغموا على القيام بأعمال شاقة وخيمة في المعامل والمصانع ، فماتوا ضعفاً او ضرباً ، وحكم على المرضى والسقماء منهم بالموت في غرفة الغاز او فرن الاحراق حيث كانوا يختفون دون ان يتركوا اي اثر . وقد وصف لنا الحياة في المسكرات الشهود الذين عادوا من هذا « الجحيم المنظم » ؛ وليس سوى التضامن والحياة الداخلية القوية ما انقذ اولئك الذين اتاحت لهم قوتهم الجسمانية والمعنوية احتمال العذاب والعناء ؛ الا ان النضال السري الذي استطاع « السياسيون » - ولا سيما الشيوعيون - من كافة الجنسيات ، المنظمون في الخفاء ، القيام به ضد اسيادهم الـ « S.S. » وعملائهم محكومي الحق العام ، من اجل قبض زمام الامور في المعسكرات (امانة السر ، رقابة المرضى ، رقابة التجمعات) ، قد ساعد على انقاذ حياة العديد من المعتقلين .

ابتداء من السنة ١٩٤١ ، لم يعد الهدف الرئيسي للمعتقلات ابادة اعداء الرايخ فحسب ، بل اصبح لها هدف اقتصادي ايضاً . فان اليد العاملة الاجنبية التي لم تفلح ادارة العمل الالزامي وجهود « سوكل » ، المفوض العام لليد العاملة ، في احضارها الى المانيا ، قد تعززت بمئات الالوف من العبيد الذين وجهتهم الـ « غستابو » نحو ١٥ معسكراً كبيراً : «داشو» ،«وفونغام» ، و« موتوزن » ، و« رافنسبروك » ، ... ، واكثر من ٩٠٠ معسكر ثانوي . فاستخدموا بصورة خاصة في المعامل المنشأة تحت الارض ومعامل المنتجات الكيميائية ، دون تحديد لمدة العمل ، حتى النهكة التامة . واسندت الاعمال الى الرجال الاقوياء دون غيرهم ؛ اما الشيوخ والنساء والاولاد فقد سيقوا مباشرة الى غرف الغاز . واستخدم بعض الاسرى للاختبارات الطبية : فقد اختبر بعض اطباء الـ S.S. فيهم تأثير الضغوط المنخفضة على الطيارين المحلقين على ارتفاع عظيم ، او تأثير التجمد على الغريق . ولقح بعض السجناء والسجينات الاصحاء بجراثيم الامراض ، كالتيفوس والسرطان والملاريا ، المرغوب في مراقبة تطورها ، واختبرت فيهم ادوية جديدة (جربت مؤسسة « باير » مخدراً في ١٥٠ يهودية قضين كلهن) ، واستخدم الرجال والنساء على الارانب لاجراء الاختبارات : « احدثت قروح والتهابات بحقن منتجات بترولية تحت الجلد . وقتل التوائم بغية « تشريحهم » واجريت اختبارات تشريح اشخاص احياء . ومن لم يمت بهذه الطرق حقن بالفينول النقي في القلب .

لجميع هذه الاسباب كان عدد الوفيات مرتفعاً جداً ؛ ففي رافنسبروك كانت نسبة الوفيات ٢٤٪ في السنة ١٩٤٣ ، فارتفعت الى ٦٠٪ في السنة ١٩٤٥ ، وزادت ارتفاعاً في الشهرين الاخيرين . ومن المعلوم اليوم ان الجيوش البريطانية ، حين دخلت الى معسكر «برغن - بلسن» ، « قد شاهدت مستودعاً ضخماً للجثث يضطجع فيه ، بين ٣٣٠٠٠ جثة نتنة تنتشر منها الروائح الكريهة و١٠٠٠٠ مصاب بالتيفوس يلفظون انفاسهم الاخيرة معانين عذابات العطش » .

استثمار البلدان المحتلة

احتل استثمار البلدان المحتلة (الشكل ١٩) مركزاً هاماً في اقتصاد الحزب النازي . فحين امكن استخدام الطاقة الصناعية في البلدان المحتلة المساعدة على بلوغ اهداف الحرب الالمانية ، ابقي على الانتاج ، لا بل عززا حياناً ؛ اما اذا استحال ذلك فيضحى به : فان الصناعات النسجية والزجاجية المتوفرة في المانيا قد اوقفت، وحين توجب توزيع المواد الاولية على الصناعات ، كان للصناعات القائمة في الارض الالمانية حق الأولوية في استلام نصيبها من هذه المواد والمعدات واليد العاملة . وفي كافة الاراضي التي سقطت تباعاً في ايديهم ، اتخذ الألمان التدابير الأولية نفسها : تعمد الدوائر التابعة لمصاحـــة الحرب الاقتصادية ، والمرافقة جيوش الغزو ، الى لاستيلاء على مخزونات المواد الأولية والمنتجـــات المصنوعة واعادة تسيير المصانع . وكانت تتخذ بعد ذلك تدابير مختلفة باختلاف البلدان المحتلة ومركزها المستقبل في « النظام الجديد » ، موزعة الى اربع فئات : البلدان المضمومة او المنوي ضمها الى الرايخ : الالزاس –لورين ، اللوكسمبورغ ، محمية بوهيميا – مورافيا ، سيليزيا العليا البولونية . البلدان الاستعمارية : حاكمية بولونيا العامة ، البلدان البلطيقية . المناطق المحتلة في اوروبا الغربية . فرنسا حكومة فيشي .

الصناعة

في بلدان الفئة الاولى ، اخذ الالمان عن عاتقهم الاشراف المباشر على الحيـــاة الاقتصادية ؛ الا ان التشيكيين قد احتفظوا ، في المحمية المعتبرة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، بنصيب غير مستقل من الادارة. وحدث الشيء نفسه في بلدي اوروبا الجنوبية الشرقية، صربيا واليونان ، حيث شكلت حكومات صورية . وفي الحاكمية العـــامة والاراضي الشرقية المحتلة : الدول البلطيقية ، وليتوانيا ، وروسيا البيضاء واوكرانيا ، حيث لم يقم اي جهاز حكم ذاتي ، ادير الاقتصاد كما لو كان جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد الرايخ ، فاسندت الى شركات تتمتع بحقوق احتكارات رسمية وترتبط بالمشاريع الالمانية الكبرى ، مهمة استثمار الموارد في الاطـار الذي تعينه سلطات الرايخ . اما في البلدان المضمونة ، فان الصناعات قد الحقت باقتصاد الرايخ الحاقاً مباشراً وكلياً ، وقد عزز بعضها حين كان من شأن بعدهـا ان يجعلها في مأمن نسبياً من الغارات الجوية : كانت هذه حال مصانع سكودا ومصانع الاسلحة في « برنو » ومراكز سيليزيا العليا البولونية ، حيث انمي استثمار الفحم الحجري وانشئت مصانع بنزين تركيبي . وامــا في البلدان الاستعمارية فقد اقتصرت الصناعة على انتاج المواد الاولية والحاصيـــل الضرورية لتموين القوات المسلحة والحاجيات الضرورية جداً لحاجات السكان .

في الاقاليم التي لم تكن لا معدة للضم الى الرايـــخ ولا معتبرة منطقة استعمارية : البلدان السكندينافية ، وبلجيكا ، وهولندا ، وفرنسا ، وايطاليا الشمالية بعـد ايلول ١٩٤٣ ، ابقيت ادارة الاقتصاد في ايدي السلطات المحلية التي كانت تتلقى من الالمان توجيهات عـــامة ؛ وقد انشئت الى جانب كبار موظفي الادارات المحلية دوائر المانية غالباً ما اقامت في الابنية نفسها لمراقبة تنفيذ التدابير المتخذة .

استخدمت كافة الصناعات القادرة على توفير الاسلحة والعمل لمؤسسة « تودت » او لحاجات الرايخ ؛ فلمصلحة هاتين الفئتين الاخيرتين اقتطعت نسبة عليا من انتاجها ، كما في فرنسا مثلاً :

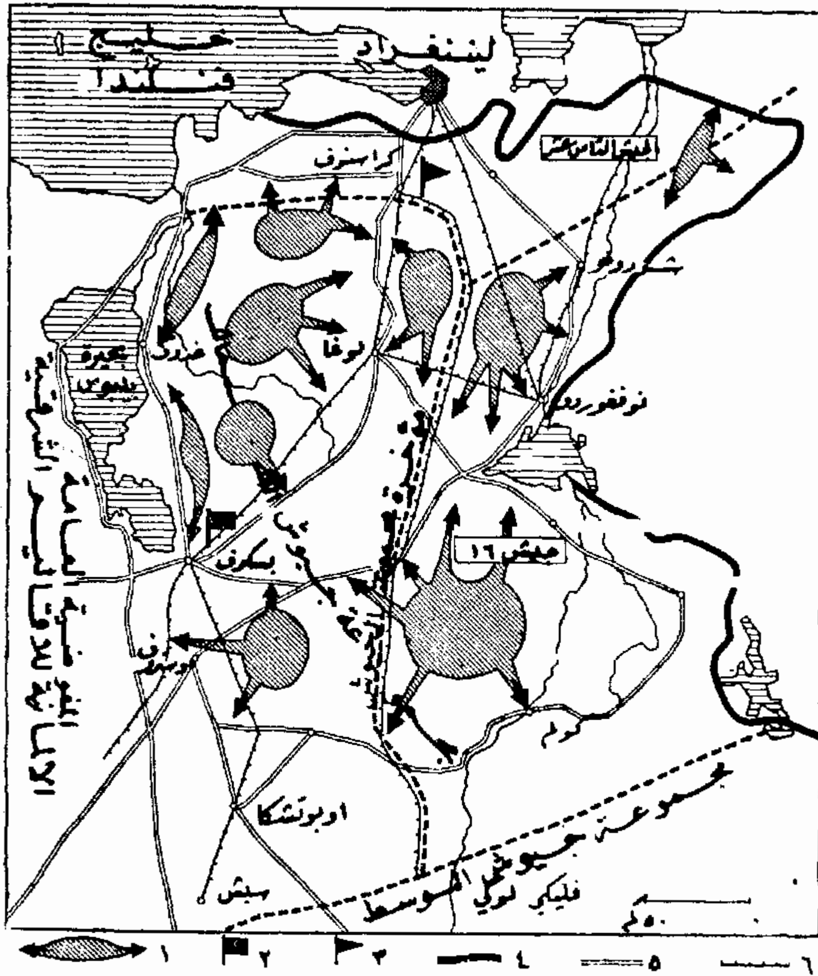

الشكل ١٦ ـ مناطق تحت سيطرة العصابات وراء الجيوش الالمانية في الشمال في كانون الاول ١٩٤١ .

١ ـ مناطق تحت سيطرة العصابات واتجاهات هجماتها ، ٢ ـ مركز قيادة مجموعات الجيوش ، ٣ ـ مركز قيادة الجيش ، ٤ ـ الجبهة ، ٥ ـ طرقات ، ٦ ـ خطوط حديدية .

٧٥ ٪ من الالولومينيوم والنحاس ، ٨٠ ٪ من البترول ، ٤٠ ٪ من البوكسيت ، ٣٨ ٪ من المطاط ، ٥٩ ٪ من الصوف ، ٥٣ ٪ من القطن ، ٦٧ ٪ من الجلد ، ١٠٠ ٪ من الادوات الدقيقة ،

٩٠ ٪ من انتاج مصانع الطائرات ، ٧٥ ٪ من انتاج مصانع السفن ، ٧٠ ٪ من السيارات ، ٤٥ ٪ من الاجهزة الكهربائية واجهزة الراديو ، الخ . وقد توفرت للالمان وسائل ضغط لا تقاوم . فانهم قد اشرفوا على كافة مصادر التموين بالمواد الاولية ، بحيث كان كل مصنع لا يريد اقفال ابوابه مضطراً لاستلام المواد الاولية منهم ، واجازات الاستيراد والتصدير عند الحاجة ؛ واشرفوا كذلك على كافة المصارف ، فكان من ثم بوسعهم رفض الاعتمادات الضرورية ؛ وقد اتاحت المبالغ الطائلة التي وفرتها لهم ضرائب الحرب اخيراً عرض اسعار مرتفعة جداً للؤن التي كانوا بحاجة اليها . وفي حال الرفض ، كان المصنع يتعرض لخطر تفكيك آلاته ، كما تتعرض المعدات غير المستعملة لخطر المصادرة والنقل مع العمال الى المانيا .

الاستيلاء على المشاريع

في الوقت نفسه اتسعت المساهمات الصناعية الالمانية اتساعاً كبيراً جداً في كافة انحاء اوروبا: فقد بسطت المصارف والمصالح الحكومية والمشاريع الخاصة سيطرتها على مؤسسات اجنبية كثيرة، ولاسيما في البلدان المضمومة وبلدان اوروبا الجنوبية الشرقية ، بالشراء والمصادرة والحجز . وكثرت المصادرات بصورة خاصة في الأراضي السوفياتية حيث اعلن الرايخ نفسه خليفة الدولة السوفياتية، ومن ثم صاحب كافة المتلكات . وقد انتقلت هذه الأخيرة الى الشركات الاحتكارية التي اسستها الدولة الالمانية ، والمؤسسات التعاونية للصناعيين الالمان المتصرفين تصرف عملاء للرايخ . وأجّرت بعض المصانع لمؤسسات ألمانية كبرى : مانسمان ، سيمنس ... وفي الحاكمية العامة صودرت كذلك ممتلكات الدولة البولونية القديمة ، وصودرت في كافة المناطق المحتلة ، كما هو طبيعي، ممتلكات اليهود و « اعداء الرايخ » .

في اوروبا الغربية انتهجت المانيا طريقة المشتريات « العادية » ، ولكن مركزها المسيطر غالباً ما فرض المعاملات والصفقات التي ترغب فيها ؛ فاقدمت على مشتريات مساهمات ، حتى في المشاريع المتوسطة الاهمية ، في الدانمارك وهولندا . واتخذت التدابير لرفع يد الفرنسيين والبريطانيين عن اموالهم الموظفة في اوروبا الجنوبية الشرقية : فقد ارغم اصحاب الاسهم المالية على بيعها بالسعر الذي يحدده الالمان ، والا تعرضوا لمصادرتها منهم . وهكذا اضطر مصرف « ميرابود » للتخلي عن الاشراف على مناجم « بور » للمصرف البروسي . وأسس الالمان كذلك شركات مختلطة كان لهم فيها الحصة الكبرى ، وارغموا المغلوبين على الانضمام الى الاتحادات الالمانية (اتحاد الزجاج ، واتحاد الاسمنت) . وانتهجوا كذلك طريقة مشترى المؤسسات المصرفية المستفيدة استفادة كبرى من المشاريع الصناعية ، فحققوا بذلك الاشراف على عدد من المصارف الكبرى في المحمية والبلدان البلطيقية وبوغوسلافيا وبولونيا وهنغاريا وهولندا .

حدث في البلدان المحتلة ان ادارة الزراعة والتموين التي انشئت منذ اوائل الحرب قد عززت وماثلت على العموم الادارة القائمة في المانيا . رقابة الزراعة

فقد اخضعت اوروبا البرية كلها لقانون تحديد المساحات الواجب زرعها والحبوب الواجب بذرها والكميات الواجب تسليمها للتموين . وانشئت في كل مكان مؤسسات تعاونية بلدية ، مستوحاة من المؤسسات الالمانية ومكلفة تنفيذ اوامر السلطة المحتلة : التعاونية القروية في فرنسا وبلجيكا والـ « بوند سامبند » في النرويج ... ونظم التقنين بحسب المبادىء الالمانية : تقنين مطلق تناول الحنطة والطحين والحبوب واللحوم والحليب والمواد الدهنية ، والبطاطا احياناً ، باسعار تختلف باختلاف المستهلكين . وكان التقنين اشد قساوة في الدانمارك واكثر فعالية في اوروبا الشمالية والشمالية الغربية منه في فرنسا وايطاليا . وفي كل مكان كانت نسبة النخالة في الطحين مرتفعة ، وبلغت ٩٠ ٪ احياناً ، الامر الذي استتبع تحضير خبز صعب الهضم كريه المذاق ؛ وفرزت الكثأة عن الحليب ، وحدد استهلاك اللحوم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ظروف الزراعة لم تلبث ان ساءت ، وان تعذر العناية بالمعدات الزراعية واستخدام الاسمدة الكيميائية (ولا سيا بعد تزول الحلفاء في افريقيا الشمالية) قد خفض المحاصيل بحيث هبط الانتاج الزراعي – كما في الحرب العالمية الاولى تقريباً – بنسبة ١٠ ٪ عموماً في المرحلة الاولى من الحرب ، و ٢٥ ٪ حين وضعت الحرب اوزارها . اجل لم يبلغ معدل النقص النظري في كمية الوحدات الحرارية اكثر من ربع مستواها في السنة ١٩٣٨ ، ولكن الفلاحين استمروا في التغذي كما قبل الحرب ، ولما كانت الحصص التي اعطيت للقائمين بالاعمال الالزامية اكبر حجماً ، فقد ناء النقص بوطأته على سكان المدينة من غير العمال ، والمستخدمين والاولاد والشيوخ ، حين لم تتوفر لهم موارد كافية لشراء موادهم الغذائية من السوق السوداء ؛ فاضطر ملايين الاشخاص من ثم للاكتفاء باقل من ٢٠٠٠ وحدة حرارية في اليوم ، اي اقل من ٣/٤ او ٢/٣ الكمية في السنة ١٩٣٨ ؛ وقد حصل النقص في الدرجة الاولى في المواد الدهنية والبروتينات الحيوانية ، وفي الدرجة الثانية في مركبات الهيدروكاربير والبروتينات النباتية . وفي كل مكان ، باستثناء الدانمارك ، كانت الحصص غير متساوية ، واقل منها في المانيا . ففي بولونيا استلم سكان المدن اقل من نصف الحصص الموزعة في المانيا على الفئات المماثلة من المستهلكين . وفي السنتين ١٩٤١ و ١٩٤٢ انخفضت هذه الحصص لمعظم السكان في منطقة اثينا ـ البيريه الى ٦٠٠ – ٨٠٠ وحدة حرارية متسببة في حوادث وفاة كثيرة بفعل الخور .

كان لكل ذلك نتائجه الطبيعية على صحة السكان : انخفاض وزن الجسم مع تأخر في نمو الاولاد ، وخراعة ، واضطرابات معوية ، ووذمات الجوع في اكثر المناطق اصابة . وارتفعت نسبة الوفيات بين الاطفال ، كما ارتفع عدد المصابين بالتدرن الرئوي : الا ان الخسائر في الارواح كانت على العموم اقل منها في الحرب العالمية الاولى بصورة محسوسة .

العمل الالزامي

استخدمت اليد العاملة في البلدان المحتلة محلياً ، إما في بنـــاء التحصينات (سور الاطلسي ، سور ليغوريا بين طولون ولاسبزيا) في اطـار مؤسسة « تودت » التي شغّلت زهاء ٧٠٠٠٠٠ عامل اجنبي ومسؤول المـاني في شهر ايار من السنة ١٩٤٣ ، وإما في المصانع الحربية العاملة لمصلحة المانيـا التي توصلت في السنة ١٩٤٤ الى انتاج ٢٥ - ٣٠ ٪ من الاسلحة الالمانية وتشغيل زهاء ٣ ملايين عامل ، واستخدمت كذلك خارج الرايخ .

وفي معاملة العمال الاجانب ، استوحت السلطة الالمانية مبدأ تفوق العرق الالماني :

« انا لا اكترث البتة لما يحدث للروسي او التشيكي ... ولا اهتم لازدهار حياة الامم او لموتها جوعاً الا بنسبة حاجتنا الى استعبادها لمصلحة « ثقافتنا » والا فليس لها في نظري اي شأن . واذا مـــا سقطت ١٠٠٠٠ امرأة روسية منهوكة من حفر خندق مضاد للدبابات ، فان ذلك لا يعني الا بنسبة انجاز حفر الخندق لمصلحة المانيا » .

هذا ما قاله هملر في اجتماع ضم قادة الـ S.S. في باريس في شهر تشرين الاول من السنة ١٩٤٣ . لذلك فان طرائق اختيار العمال ، وظروف المعيشة ، وظروف الاستخدام قد استوحت مبدأ التفريق العنصري . ففي ادنى المراتب كان اليهود الذين انتهجت حيالهم سياسة الابادة بصرف النظر عن الخدمة التي قد يستطيعون تأديتها . وفي المراتب التالية ، يأتي « الشرقيون » ، الروس الذين احتلوا مركزاً ادنى من مركز البولونيين والبلطيقيين ، ثم عمال الدول الغربية ، وقد احظي بينهم الهنغاريون والداغاركيون والفلمنك ، ثم الفرنسيون والهولنديون ، وقد احلوا فوق العمال الايطاليين والبلغاريين والرومانيين والاسبان الذين كانوا دونهم تخصصاً واسماً . وانطلاقـاً من الاعتبار العنصري نفسه ، كان مسكن وغذاء الاجانب دون مسكن وغذاء الالمان .

اعتمد العمل الالزامي منذ اوائل الحرب في الدول الشرقية ، ورافقه توقيف عائلات الفارين واختطاف الرجال من الشوارع والمنازل والكنائس ، بينما تأخر اعتماده في الغرب الى ان ساءت حالة اليد العاملة في السنة ١٩٤٢ . وقد لجأت السلطات الالمانية في البدء الى الاقناع : وعـــد بأجور مرتفعة وسهولة في التنقـل من مركز الى مركز ، وظروف معيشة مغرية ، وفي فرنسا ، وعد بتحرير اسير مقابل ثلاثة عمـــال متطوعين . ثم لجـــأوا الى ضغوط غير مباشرة : إلغاء مساعدات البطالة ، سحب بطاقات الاعاشة ، اقفال المصانع بغية توسيع نطاق البطالة ، حجز الأجور . ومنذ السنة ١٩٤٢ اوجب العمل في بلجيكا وهولندا على الرجال المتراوحة اعمارهم بين ١٨ سنة و٥٠ سنة وعلى البنات المتراوحة اعمـــارهن بين ١٨ سنة و٣٥ سنة . ولم ينج من العمل الالزامي حتى شهر آب من السنة ١٩٤٣ سوى الداغارك « الحمية النموذجية » . وفي هذا التاريخ اي بعد سقوط موسوليني ، ارغم العمال في ايطاليا على العمل الالزامي كما في البلدان الاخرى .

خضعت معاملة العمال لما جاء في برنامج سوكل لتعبئة العمل في ٢٠ نيسان من السنة ١٩٤٢ : « سوف يعامل كافة الرجال ويؤمن لهم غذاؤهم ومسكنهم بحيث يعطون اعلى انتـــاج بأدنى الاسعار » . فكان العمال الاجانب يجمعون في مساكن خشبية جماعية تفتقر الى التدفئة والتجهيز

الصحي اللائق ، ويتناولون الغذاء في محلات خاصة بهم ، عاجزين عن شراء الاطعمة في السوق بسبب احتفاظ قادة المعسكرات ببطاقات اعاشتهم .

الاستثمار المالي

في الحقل المالي ، تحقق استثمار البلدان المحتلة باعتماد تقنيات مختلفة تحتفظ بظاهر الشرعية : غرامات مختلفة ، وإلزام ببيع الذهب والنقد النادر وبعض الاوراق المالية الاجنبية، واصدار كميات كبرى من النقد الورقي الالماني تتداولها البلدان المحتلة ويستحيل تبديلها بالاوراق النقدية التي يصدرها مصرف الرايخ ، ومصادرة الذهب من مصارف الاصدار في البلدان المحتلة ، وفرض اتفاقات مالية مضرة بمصالح المغلوبين : اقرار سعر قطع متدن جداً بالنسبة للمارك الالماني (في فرنسا ٢٠ فرنكاً لكل مارك مقابل ١١ في السنة ١٩٣٩) ، ايجاب تحمل نفقات احتلال مرتفعة جداً تحدد بحيث تتيح لا تعهد الجيوش فحسب بل مشتريات اخرى كثيرة ايضاً . ففي فرنسا مثلاً ، باستثناء العتاد الحربي ووسائل النقل ، دفع الالمان ثمن كل ما استولوا عليه . وامنوا وسائل الدفع بمجرد الاستفادة من اتفاقية وقف اطلاق النار التي حمّلت فرنسا عبء نفقات تعهد جيوش الاحتلال ؛ فاستوفوا بذلك مبالغ طائلة تفوق حاجات هذه الجيوش . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاتفاقات المالية قد أفادت منها المانيا وحدها لانها لم تسلم المغلوبين شيئاً مقابل كل ما يقدمونه لها ، فأرغمت الحكومات من ثم على تحمل ما تنفقه هي في بلدان هذه الحكومات .

جاءت النتائج بصورة عامة وبالاً على البلدان المحتلة : فمن جهة اقتطع الالمان حصة مطردة الزيادة من الانتاج ، ومن جهة ثانية وسعوا حجم وسائل الدفع ، فخلقوا بذلك وضعاً تضخمياً . وتسبب ارتفاع النقد المتداول ، وما رافقه من نقص في السلع ، في اتساع نشاط السوق السوداء التي شجعها الالمان لانها اتاحت لهم الحصول على البضائع التي كانوا بحاجة اليها بالاضافة الى الكميات المحددة في الاتفاقيات والعقود الخاصة ؛ ولجأت مكاتب الشراء في بعض المصالح الكبرى (البحرية ، الطيران ، مؤسسة تودت ...) الى خدمات كبار التجار للحصول على كافة البضائع المتوفرة .

الحكومات التابعة التعاون

كانت نتيجة الطابع القومي للحرب الالمانية ، التي تعذر معها البقاء على الحياد ، في العلائق بين الغالب والمغلوب ، تعزيز موقفي المقاومة والتعاون المتناقضين تعزيزاً لم يسبق له مثيل . فقد اثار النظام النازي نفسه ، والعصبية والوحشية اللتان عومل بهما السلافيون ، واليهود ، واللاتين المعتبرون متخلفين عنصرياً ، والماركسيون والديموقراطيون المعتبرون اعداء خطرين ، مقاومات ضارية شجعها الانكلوساكسون والسوفيات وجهزوها من الخارج .

في كافة البلدان المحتلة ، حيث اعترفت المانيا بالحكومات او شكلتها كما يطيب لها ذلك ، جرّت هذه الحكومات ، مسيرة أو مخيرة ، الى انتهاج سياسة تعاون اقتصادي وسياسي وحتى عسكري مطرد الوثوق . فبعد ان استغلت في البدء النقمة الشعبية على الحكام السابقين الذين

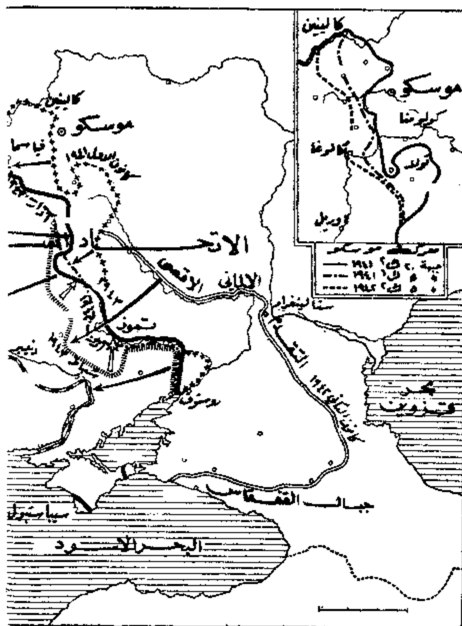

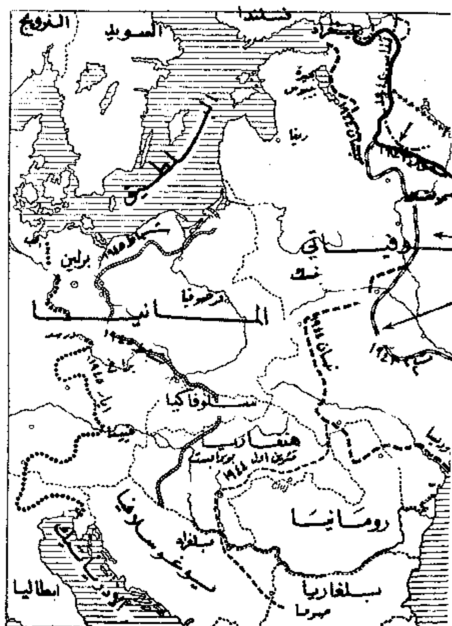

الشكل ١٧ - الحرب في الشرق ١٩٤١ - ١٩٤٥

اعتبروا مسؤولين عن الهزيمة ، لم تلبث ان ظهرت على حقيقتها : مطية للاجنبي ؛ ولذلك اشتدت المقاومة كلما طالت الحرب ، وتضاءل خط الالمان في احراز النصر ، وثقلت من جهة ثانية وطأة الجور والاستغلال على الشعوب .

اذن « تعاونت » الحكومات التابعة وبعض سكان المناطق المحتلة مع الالمان – اي ساعدت آلتهم الحربية ونظامهم الجائر . وكانت فئات « المتعاونين » كثيرة ومتنوعة . فكان هناك اولئك الذين دخلوا ، منذ قبل السنة ١٩٣٩ ، وبدافع من ميولهم الفاشستية او مطامعهم الشخصية ، في خدمة دول المحور ، وساعدوها اثناء فتح بلادهم وبعده ؛ ويتمثلون خير تمثل بـ « كويسلنغ » . والى جانب هذه الفئة يمكن افساح مكان لـ « مثل فلاسوف » ، القائد السوفياتي الذي اسر في السنة ١٩٤٢ وحاول ان يجمع الفارين واسرى الحرب حول بيان وضعه في سمولنسك اعلن فيه ان « روسيا الجديدة » المحررة من ستالين والبلشفية ، سوف « تطهر من اليهود » وتعيد الملكية الخاصة ، الخ. فعبئت افواج من المتعاونين في المعسكرات حيث كان الروس مخضعين لخطة ابادية ، وبالتفضيل بين الاوكرانيين والجيورجيين وتتار القرم ومسلمي القفقاس وآسيا الذين تمثل بعضهم في الوحدات البوليسية التي تولت العمل في صربيا وفرنسا .

وهناك اولئك الذين كانوا ينتمون الى اقليات قومية او الى قوميات تابعة فقالوا بشرعية كل تحالف يساعدهم على قطع اوصال الدول التي يخضعون لها ، وتحالفوا مع المحور على رجاء تحرير امتهم الخاصة : وهذه حال السلوفاكيين والـ « اوستاشي » الكرواتيين ، والاقليات الرومانية واليوغوسلافية والتشيكوسلوفاكية . وهناك اولئك الذين ساروا وراء حكومتهم حتى الهزيمة وتوقيع اتفاق وقف اطلاق النار (اليونان ، يوغوسلافيا) والذين اقتنعوا بعد ذلك بأن المحور كسب الحرب فتعاونوا مع الالماني ظناً منهم بانهم ربما استطاعوا حماية مواطنيهم بانتهاج سياسة تصالح واتفاق مع الظافر ؛ وهذه حال الجنرال « نديك » في بلغراد . ولكن هؤلاء « المترقبين الانتهازيين » لم يلبثوا ان ارغموا على تحديد موقفهم على صعيدين هامين لم يسمح لهم تجنب الوقوف الى جانب العدو فيهما : مكافحة المقاومة وتقديم اليد العاملة للآلة الحربية الالمانية . وهناك اخيراً اولئك الذين استمروا في عدائهم للغزاة ، ولكنهم باتوا اكثر قلقاً وجزعاً يوماً بعد يوم امام نمو حركات المقاومة بادارة رؤساء جدد ، بجهولين ، ثوريين ، فساعدوا الغزاة حرصاً منهم على السلامة الاجتماعية . وقد خشوا في صميم فؤادهم من ان يؤدي نصر ساحق يحرزه الانكلوساكسون ولا سيا الاتحاد السوفياتي ، الى تدمير السور القائم في وجه البلشفية الذي يمثل ، في نظرهم ، بالجيش الالماني .

لذلك يمكننا القول بصورة عامة ان التعاون على مفارقاته المختلفة ، الطوعي ، والمعلن ، والمتردد ، والخائر ، قد استند في معظمه الى العناصر المحافظة في البلدان المحتلة .

فرنسا فيشي في شهري ايار وحزيران من السنة ١٩٤٠ ، انحنت فرنسا ، التي اغرقها الغزو وجلاء السكان عن منازلهم في خضم تشوش حقيقي ، امـــام الحكومة التي ألفها المارشال بيتان ؛ فأقدم البرلمان التمثيلي، دون صعوبة ، وبدافع ادراكها عدم شعبية النظام البرلماني ، وخوفها من عنف الدعاوة المعادية للجمهورية التي حملتها وحدها مسؤولية الكارثة ، وتأثير بيار لافال ، على اقرار مبدأ اعادة النظر في القوانين الدستورية ، واعطيا المارشال بيتان – بـ ٥٦٩ صوتاً مقابل ٨٠ معارضاً – صلاحيات استثنائية لاعـــداد دستور جديد .

« الثورة القومية » فكان ما ينتظر فرنسا ، تحت سلطة بيتان، نظاماً جديداً ، دكتاتورية رئاسية تعيد الى الذاكرة دكتاتورية الامير الرئيس في السنة ١٨٥٢ . وعاد معه الى الحكم « الاعيان » الذين سيطر اجـــدادهم على الجمعية الوطنية المنتخبة في السنة ١٨٧١ ، والذين اقصتهم « الطبقات الاجتماعية الجديدة » – البورجوازية الصغرى والطبقـــة العمالية – طيلـــة الجمهورية الثالثة . فكان ان الملاكين العقاريين ، والضباط المحترفين ، وكبار الموظفين ، والاكليروس ، والاشراف الريفيين ، وكل الذين تولوا ادارة المقاومة الاكليريكية الرجعية في عهد الجمهورية الثالثة وحاولوا اسقاطها بمناسبة ازمات « الحركة البولونجية » وباناما وقضية دريفوس ، اتحدوا مع ممثلي المصالح المالية والصناعية المعادين لتشريع الجبهة الشعبيـــة الاجتماعي ، بغية الاستيلاء على الحكومة والادارات ؛ وقد ساعدهم مساعدة قوية كبار الموظفين واعضاء « الهيئات الكبرى » الذين الاموا وحدهم النظام الجديد حـــكم البلاد . وقد اغتبطوا بتخلصهم من رقابة البرلمانيين الذين احتقروا عدم كفاءتهم وعجزهم ، ورقابـــة نقابات العمال والموظفين ، فاداروا البلاد ادارة مطلقة بالروح الابوية التي اشتهرت بها « الثورة القومية » .

ثم حدثت عملية تطهير شديدة تناولت موظفي الادارات البلدية والموظفين المشتبه بتعلقهم بالمبادىء الجمهورية : اليهود ، البناؤون الاحرار ، الاشتراكيون ، المدافعون عن المدرسة العلمانية التي ألقيت عليها مسؤولية اضعاف الروح المدنية والوطنية . وارتجلت ادارة جديـــدة اسندت اعمالها الى عناصر مختلفة غير منسجمة ، بل الى جمهور من « الصخّابين والموّاشين » ، كما يصفها رئيس غرفة المارشال ، « هـ. دي مولين دي لابارتيت » .

كان قوام النظام الجديد السياسي والاجتماعي الذي حلم به هؤلاء الموظفون ، ولا سيا بطانة المارشال حيث سيطر رجال اقصى اليمين ، تطبيق مبادىء اليمين التقليدية : محاربة « العقائـــد الباطلة » التي ظهرت في السنة ١٧٨٩ ، اقصاء الآراء الديموقراطية ، محاربة الفردية والنظام الحر والماركسية ، الصراع الطبقي (« انما الشعب تسلسل عائلات ومهن ومسؤوليات ادارية وعائلات روحية ») ، واحياء مجتمع تسلسلي مبني على مبادىء سلطة الرئيس (« يجب ان تكون الدولة استبدادية وتسلسلية ») ، وتنظيم مهني تعاوني ، واحترام القيم العائلية التي لا يستطيع المحافظة عليها سوى مجتمع بطريركي وقروي ومجتمـــع صناعيين يدويين . فحل شعار « العمل ، العائلة ،

الوطن » محل الشعار الجمهوري « حرية ، مساواة ، اخوة » . وكما حدث بعيد ثورة السنة ١٨٤٨ وفي أيام « النظام الأدبي » ، استند الحكم الى الدين لمحاربة فوضى الافكار والتعاليم الخطرة . وقدمت له الكنيسة مساندة فعالة بصوت الكردينال « جرلييه » : « بيتان هو فرنسا وفرنسا هي بيتان » ، واعلن الراعي بوغنر ، رئيس الكنيسة البروتستانتية من جهته ان ليس هناك سوى واجب واحد : « السير وراء المارشال » .

وقد نفذ هذا البرنامج : زوال اسم « الجمهورية » ، اعطاء سلطة شخصية (« نحن ، فيليب بيتان ... ») للمارشال الذي ادعى لنفسه بالسلطة التشريعية حتى تشكيل المجلسين الجديدين . إلغاء كافة الانتخابات في القرى التي يجاوز عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة ، وحل اتحادات العمل . تنظيم الحرف على اساس تعاوني على يد لجان تنظيم الصناعة (التي يديرها كبار الصناعيين) ، والاتحاد العمالي وميثاق العمل . وابطال التشريع المتعلق بالجمعيات الدينية ، وتقديم المساعدات المالية لمؤسسات التعليم الدينية . والغاء دور المعلمين الابتدائية ، ومحاولة ادخال التعليم الديني في برامج المدرسة الابتدائية (« لقد ولى عهد المدرسة بدون اله ») . والعمل بالتشريع المعادي للسامية المستوحى من قوانين نورمبرغ : فأقصي اليهود عن الوظائف العامة وعن بعض الحرف ، وانشئت مفوضية عامة للشؤون اليهودية وابطل قانون كريميو . وحُلت كافة الاحزاب السياسية وطورد الحزب الشيوعي (كان هناك ٣٠٠٠٠ شيوعي في السجون في شهر ايار من السنة ١٩٤١) .

تطور النظام

اتفق رجال الثورة القومية على محاربة النظام البرلماني ومقاومة المبادىء الديموقراطية والاشتراكية . وقد اقتنعوا كلهم بأن نصر المانيا اكيد وقريب وان مقاومتها امر مستحيل . ولكنهم شكلوا فئات ذات مصالح ومطامع متناقضة . ففي فيشي تفوق ممثلو اليمين القديم الوطني والمحافظ والكاثوليكي ، تلامذة « شارل موّراس » ، واعضاء الحزب الاشتراكي الفرنسي الذين لم يكونوا ضد الانكليز فحسب بل ضد الالمان ايضاً ، واستندوا الى « جوقة المحاربين » . ووقف في وجههم بعض العناصر المنحدرة من اليسار ، من امثال محبي السلم القدماء والاشتراكيين الجدد كـ « مرسيل ديا » الذي سيؤسس « التجمع القومي الشعبي » ، والنقابيين المحبي السلم كـ « جورج ديولين » ، وبعض الشيوعيين القدماء كـ « جاك دوريو » الذي طرد من الحزب في السنة ١٩٣٤ ثم اسس الحزب الشعبي الفرنسي في السنة ١٩٣٦ ، وضموا جهودهم الى جهود بعض الفئات اليمينية ، كـ « الكاغولاد » واللجان السرية للعمل الثوري ، المطالبة بتعاون وثيق مع المانيا . واسسوا جوقة معادية للبلشفية (لن تضم يوماً اكثر من ٣٠٠٠ متطوع) للمحاربة الى جانب الالمان في الاتحاد السوفياتي . وقامت في حقلي المصارف والصناعة الثقيلة عناصر المانية الميول ذات نفوذ قوي قالت بالتعاون الاقتصادي الفعلي : « بارنو » ، من مصرف « وورمس » الذي سيمسي مندوباً عاماً للعلائق الاقتصادية الفرنسية الالمانية ، و « لوهيدو » ، صهر « رينو » ، الذي سيمسي مندوبا عاماً للتجهيز الوطني ،

و « بيشو » مدير الجمعيات الصناعية التعديلية ، الذي سيمسي وزيراً للداخلية ، الخ . فحدث في جوار المارشال بين هذه النزعات صراع من اجل النفوذ والاستيلاء على السلطة من احداثه الخطيرة إبعاد لافال في ١٣ كانون الاول ١٩٤٠ ثم عودته الى الحكم في نيسان ١٩٤٢ .

هو لافال من مثل في الحقيقة سياسة التعاون الوثيق التي كانت في نظره الوسيلة الوحيدة للتخلص من نتائج الهزيمة او أقله لتخفيف وطأتها . وكانت باكورة هذه السياسة ، التي نمت اكثر فاكثر كلما تزايدت المتطلبات الالمانية ، اجتماع هتلر بالمارشال في « مونتوار » . « وان بين فيشي ١٩٤٠ الوطنية والمحافظة وفيشي ١٩٤٤ المتعاونة والفاشستية تسلسلاً صارماً ... وتضامناً سلبياً ضد النظام المبطل » (هوفمان) .

فان استمرار الحرب في روسيا وهزائم المحور في افريقيا قد جعلت نصر المانيا النهائي امراً مشكوكاً فيه جداً . وباتت المقاومة اشد نشاطاً ، والقمع اكثر وحشية بادارة « بيشو » ، وزير الداخلية ، مع محاكمه الخاصة ومجلس « غاشاه العرفي » ، ومحاكم الدولة في ليون وباريس . واشتد القمع حين اصبح « دارنان » اميناً عاماً للمحافظة على الامن في كانون الثاني ١٩٤٤ ، فقدم للالمان مؤازرة الميليشيا والمحاكم العرفية الخاضعة للرقابة البوليسية . ومن جهة ثانية عزز نزول الحلفاء في افريقيا الشمالية واحتلال كافة اراضيها موقف التعاونيين الفرنسيين : كان ذلك نهاية فيشي الثورة القومية التي خسرت الامبراطورية ، فاقدم اسطولها على اغراق نفسه ، وتضاءل نفوذها في البلاد ، فلم يبق للالمان اية مصلحة في الابقاء على حكومة مستقلة وهمية . واكتفوا بالابقاء على شبكة الموظفين والادارات التي يستغلون بواسطتها البلاد . ومنذ اواخر السنة ١٩٤٣ سيطر « التعاونيون » الباريسيون نهائياً على فيشي ، فدخل دارنان وهنريو الوزارة التي ضمت « كاثالا » و « دي برينون » و « آبيل بونار » و « بيشلون » و « ماريون » ، الخ . واصبح « ديا » اخيراً وزيراً للعمل . فانتهجت سياسة تعاون كامل ، ولكن البلاد كانت في حالة حرب اهلية غير معلنة و والاوساط المحافظة التقليدية – ولا سيما البورجوازية الكاثوليكية التي استمالها نفوذ المارشال – اصبحت ترقبية على غرار الدهاة والمتجذرين . فكان ذلك ، قبل النزول في نورمنديا والتقدم الحليف ، نكبة نزلت بالتعاونيين .

الدول المحتلة الاخرى

ان الدول الصغرى في اوروبا الشمالية الشرقية ، التي احتلت دون اعلان حرب في اعقاب غزو صاعق ، قد لاقت ، مع بعض الفارقات ، المصير الذي لاقته فرنسا . فان التصريحات الاولى الرسمية حول ابقاء واحترام المؤسسات التقليدية والوعود باحترام نظامها السياسي والاقليمي ، والتأكيد بأن الاحتلال لا يستهدف سوى حمايتها من غزو الفرنسيين والبريطانيين القريب الوقوع ، لم تلبث ان تلتها تدابير يقصد منها اما ضمها فوراً الى الرايخ العظمى ، واما لتجزئتها بالذات ، وتستهدف في كل مكان استثمار مواردها استثماراً منظماً . وبالرغم من ان الحكومات اللاجئة الى بريطانيا العظمى كانت لاشعبية في بعض هذه البلدان (حكومة بييرلو ، الحكومة النروجية) ، ومن ان الرأي العام قد اتصف ببعض

الشكل ١٨ - اهم التغييرات الاقليمية الطارئة بين ايلول ١٩٣٩ و ١٩٤١

١ - اقسام بولونيا (معاهدة موسكو ، ٢٨ ايلول ١٩٣٩) ، ٢ - اقاليم فنلندية تخلىعنهـا في معاهدة موسكو (١٢ اذار ١٩٤٠) ، ٣ - الدول البلطية المضمومة الى الاتحاد السوفياتي (حزيران ١٩٤٠) ، ٤ - التخلي عن بسارابيا وبيكوفين الشماليا للاتحـاد السوفياتي (٢٨ حزيران ١٩٤٠) ، ٥ - بلغاريا تضم الباشطراً من الدوبرودجـا (ايلول ١٩٤٠) ، ٦ - هنغاريا تضم اليها ثلثي ترانسلفانيا (٢٩ آب ١٩٤٠) ، ٧ - هنغاريا تضم اليهـا الـ « بنات » ، ٨ - بلغاريا تحصل على مقدونيا الصربية واليونانية وجبهة بحرية

الاضطراب ، فان الموقف كان اكثر جلاء منه في فرنسا حيث استمر مع حكومة فيشي وهم الحكومة المستقلة . ولم تلبث المقاومة السلبية ، ثم الناشطة ، ان تنظمت دون ان تتبرأ منها الحكومة الشرعية . وفي كل مكان لم تفلح الفئات التعاونية والحكومات الصورية في استمالة سوى جزء لا شأن له من السكان .

حلت النقابات والاحزاب السياسية باستثناء الحزب النازي المحلي : ففي بلجيكا اقصى الالمان « دغريل » الذي اسس الجوقة الفالونية وحارب في روسيا ، وعضوا تفتهم حزب « اصدقاء الرايخ » . كما عضوها « موسير » رئيس الحزب الوطني الاشتراكي في هولندا ، وكويسلنغ رئيس الحزب الوطني في النرويج، الذي شكل الحكومة في السنة ١٩٤٢ ، الخ . وهكذا عين « التعاونيون » في كل مكان في المراكز الادارية الهامة .

الا ان الدانمارك شذت عن القاعدة واستفادت من بعض المراعاة لأن حكومتها الشرعية لم تغادر البلاد ولأن المانيا ارادت ان تجعل منها « محمية نموذجية » . فقد سبق للملك ان اصدر اوامره بعدم مقاومة الغزو واعترف بواقع الاحتلال ، وان اعترض عليه . ورغبة منه في الحيلولة دون قيام حكم عسكري او استيلاء النازيين الدانماركيين برئاسة « كلوزن » على السلطة ، لم يتراجع امام بعض التنازلات : اتفاق مالي مضر بمصالح الدانمارك ، سحب الحاميات الدانماركية من « جتلند » ، انضمام الى ميثاق مكافحة الشيوعية ، الخ .. ولكن الدستور الدانماركي لم يبطل ابطالا صريحاً ، فنجا اليهود من الابادة والجور واستمرت الادارات المركزية والمحلية في عملها .

٢ – المقاومات

« المقاومة »

بينما لم يكن « التعاونيون » في كافة البلدان المحتلة سوى طائفة قليلة العدد ، تنظمت مقاومة الغازي – السلبية او الناشطة – واتخذت اشكالاً مختلفة بحسب الاوقات والازمنة واستهوت اعداداً كبرى من السكان تزايدت يوماً بعد يوم كلما اتضح لهؤلاء هدف الصراع على حقيقته .

على غرار التعاون ، تميزت المقاومة بمفارقات كثيرة ، وببعض الصفات المشتركة ايضاً : نقمة شديدة على الغازي كانت فورية عند البولونيين والصرب والتشيكيين واليونان والسكنديناقيين ، وفي اوروبا الغربية حيث كانت وطأة الجور ثقيلة بصورة خاصة ، واكثر تأخراً عند السلوفاكيين والكرواتيين الذين بدا لهم النصر الالماني وكأنه سوف يحقق استقلالهم ، واقل حرارة عند الرومانيين والهنغاريين . ومن جهة ثانية اتسمت المقاومة بسرعة في المناطق الحرجية والجبلية حيث سهل احتماء المتمردين ، وحيث لم يكن بوسع الالماني مطاردتهم بسبب افتقاره الى الجيوش اللازمة . فكانت يوغوسلافيا والبانيا واليونان وجبال الألب والاحراج البولونية ، من هذا القبيل ، اكثر موافقة لمقاومة ناشطة من تشيكوسلوفاكيا حيث

كانت السهول مكتظة بالسكان وحيث اهل الجبل باكثرية المانية . واتضح بسرعة اخيراً ان حركات المقاومة لم تحارب الالمان فحسب ، بل حاربت من اجل بلوغ أهداف خاصة ، من اجل تنظيم اجتماعي وسياسي هو نقيض النظام الذي كان قائماً قبل الغزو .

لا ريب في انه يصعب تحديد النزعات السياسية التي سيّرت الداخلين في المقاومة . وإنما يبدو جلياً — من مطالعة الصحف الصادرة في الخفاء — ان الأكثرية الساحقة ابتغت تبديل النظام الاقتصادي والاجتماعي تبديلاً جذرياً . فان كافة البرامج التي وضعتها وحدات المقاومة المختلفة في الغرب قد وعدت بادخال اصلاحات ديموقراطية على النظام السياسي ، وبخاصة على النظام الاجتماعي والاقتصادي ، ولا سيما بتأميم الصناعات الرئيسية . أما في اوروبا الوسطى والشرقية ، فقد طالب المقاومون باصلاح زراعي جذري ومصادرة املاك كبار الملاكين قبل كل شيء . وحين غزا الألمان الاتحاد السوفياتي اصبح الوضع اكثر تعقيداً : فقد برز الخلاف بين معلقي الآمال بتحريرهم على الانكلوساكسون وبين متوقعيه من الاتحاد السوفياتي . فبصورة عامة كانت العناصر المحافظة اشدّ ميلاً للانكلوساكسون ، وكان كافة المتطلعين الى الاتحاد السوفياتي تواقين الى اصلاح النظام ، ولكن المطالبين بمثل هذه الاصلاحات لم يتجهوا كلهم نحو الاتحاد السوفياتي ، كما ان انكليزيي الميول لم يواجهوا ، بمجرد ميولهم ، احياء النظام القديم . وفي بولونيا بقي العديد من انصار الاصلاحات اوفياء لعدائهم التقليدي للروس ، بينما مالت اكثرية المقاومين في يوغوسلافيا واليونان ، مهما كانت نزعاتهم السياسية والاجتماعية ، الى الشعب السلافي المعظم .

الا ان تعاظم نفوذ الشيوعيين في حركات المقاومة ، وتعاظم نشاطهم من ثم ضد احتمال احياء النظام القديم ، قد اسهما في حمل بعض اشياع التنظيم السابق وبعض المخلصين لحكومات المنفى على الالتفاف حول الالمان لانهم اعتبروا الشيوعيين اخيراً اعداء ادهى خطراً من الالمان (اليونان ، يوغوسلافيا ، بولونيا) . وانما اعرضت الطبقات الحاكمة عن المقاومة في البلدان التي كان فيها التأثير الشيوعي كبيراً . ويرد الخلاف الى سبب آخر هو ان انتقام العدو قد استهدف الفلاحين الميسورين او الأثرياء بصورة خاصة . ولم ينظر هؤلاء من ثم بعين راضية الى نشاط المقاومين الشيوعيين . فتعاون البعض عليهم وحملوا السلاح الى جانب القوات المحتلة لمنع اعمال التخريب . وقد انفجرت نزاعات مسلحة منذ السنة ١٩٤١ في يوغوسلافيا ، ومنذ السنة ١٩٤٣ في اليونان وبولونيا ، بين الوطنيين والشيوعيين . وفي اوكرانيا ايضاً ، انفجرت هذه النزاعات بين الالمان ، والوطنيين الاوكرانيين المعادين للسوفيات ، والانصار الشيوعيين الاوكرانيين الذين كانوا في حربهم على اتصال بالجيش الاحمر . وكلما اقترب النصر الحليف انتهى الصراع من اجل الاستيلاء على السلطة بعد وقف اطلاق النار الى التقدم على الصراع ضد الالمان: وقد شوهد ذلك في اليونان حيث حاربت قوات « زرفاس » القوات الشيوعية ، وفي يوغوسلافيا مع حركة ميخالوفيتش ، وفي اوكرانيا مع القوات الاوكرانية المعادية للسوفيات ، وفي ألبانيا حيث

جرّت الـ « باتي كومبتار » الى دعم المجهود الحربي الالماني المائل الى الزوال .

حكومات النفى

ساعدت المقاومات الداخلية وشجعتها وادارتها ونسقتها من الخـــارج اجهزة لجأت الى لندن وكان بعضها حكومات شرعية افلتت من الغازي.

نظمت كافة هذه الحكومات في محطة الاذاعة البريطانية برامج اذاعيـــة شجعت الشعوب المخضعة ، وبثت الاخبار وعلقت عليها ، ووجهت الى المقاومين التعليمات و« الرسائل الشخصية » وجمعت معلومات عسكرية او سياسية مفيدة للقيادات والحكومات الحليفة ، وجنـدت جيوشاً اشتركت في العمليات العسكرية ، وألقت من الجو اسلحة ، وضباطاً ، ومغاوير لتولي اعمـــال التخريب في البلدان المحتلة . ومن جهة ثانية غالباً ما كانت علاقتها بالمقاومة الداخلية غير وثيقة ، وغالباً ما انقسمت هي على نفسها بسبب المنافسات والدسائس ، واختلاف نزعاتهـــا المحافظة والثورية ، فانقطع الاتصال بينهـا وبين السكان الذين دفعت بهم آلامهم الى الحـــلول الجذرية . ووقفت موقفاً حذراً من الحركات الطوعية التي لم تكن تحت اشرافها . فالكل يعلم اليوم ان « جان كافاييس » الذي ذهب الى لنـــدن في شهر شباط من السنة ١٩٤٣ قد عاد منها متقزز النفس من « ذهنية المهاجر » و« روح المعبد » اللتين لمسهما في الأشخاص القليلين الدائرين في فلك الجنرال « ديغول » . وقد نجم عن كل ذلك سوء تفاهم ، ونزاع ، حـــاد احياناً ، كما حدث في يوغوسلافيا واليونان ، وحتى بين الجيوش ، كما يتضـــح ذلك من تمرد الأسطول والجيش اليونانيين في مصر .

وبرزت كذلك مقاومة خارجية ايطالية قبل السنة ١٩٤٣ ، نهض بها «الفارون» المهاجرون منذ السنة ١٩٢٤ الى جنيف ونيويورك ولا سيما باريس ، الذين توحدت قواتهم خـــلال الحرب الاسبانية . وفي السنة ١٩٤١ تأسست في تولوز « لجنة تجمع ضـــد الفاشستية » من ممثلي الحزب الشيوعي ، وبخاصة « نيني » و « ساراغات »و« سيلفيو ترنتين » و« نيتّي » وفي نيويورك اذاع الكونت « سفورزا » بيان النقاط الثماني « من اجل ايطاليا بعد الفاشستية » ، وكذلك عملت الجمعية المازينية في نيويورك ولجنة « ايطاليا الحرة » بنشاط الى جانب الحلفاء من اجـل اعداد التحرير .

رأى المقاومون عددهم يتزايد كلما ثقلت وطأة الاحتلال واصبح النصر الالماني مريباً . فكم من متعاونين خاضعين للألمـــان او متحمسين لهم اصبحوا ترقبيين في السنة ١٩٤١ ثم اصبحوا مقاومين بعد السنة ١٩٤٢ . لقد تجمع المقاومون الأولون كما هو طبيعي من بين الأحزاب اليسارية التي كان الألمان والحلفاء على السواء يحاولون القضاء عليها : الشيوعيين ، الاشتراكيين ، الاحرار . ثم انضم اليهم ممثلون عن البورجوازية اليمينية اوفيـــاء للقيم التي دافعت عنها ، في ما مضى ، القومية والحقد على المانيا الخالدة». وتزايد عددهم بعد انزال الجيوش الحليفة في افريقيا الشمالية واحتلال المنطقة الجنوبية .

على نقيض فرنسا حيث حاربت الحكومة المقاومة ، اتسمت الحركات في الدول الاخرى المحتلة ، وغالباً ما حظيت بتشجيع وهدي السلطات الاجتماعية . فكاثرت من ثم في كل مكان اعمال التخريب والاعتداءات على الألمان والتعاونيين. وقد تجلت من جهة ثانية بطرائق مختلفة . ففي بلجيكا رفضت الكنيسة قبول تقدم مرتدي البزات السياسية لتناول القربان المقدس والسماح برفع الأعلام السياسية في بيوت العبادة . واعترضت على ترحيل العمال الى المانيا وعلى الزام القصّر بالعمل ايام الآحاد . وقاطع الطلاب الاساتذة التعاونيين الذين يعينون في الجامعات . واعلنوا الاضراب استنكاراً لقانون العمل الالزامي ، طيلة سنة كاملة ، قبل تسجيل اسمائهم في الجامعات . وأعلنت محكمة التمييز الاضراب كذلك اعتراضاً على توقيف بعض قضاة محكمة الاستئناف . وبين شباط وايار ١٩٤٣ ، أعلنت اضرابات كبرى في لياج (٦٠٠٠٠ مضرب)، و « شارلروا » ، و«لالوفيير» و«مون» ، و«فرنييه» ، ضد ترحيل العمال بالجملة الى المانيا .

لم تكن المقاومة أقل تصلباً وعناداً في اللوكسمبورغ . ففي احصاء تشرين الأول ١٩٤١ ، وبالرغم من منع الادعاء بجنسية لوكسمبورغية « مزعومة » وبلغة « لتزبورجيش » لم يكن لهما من وجود في يوم من الأيام ، تعصب ٩٦ ٪ من سكان المدن و٩٩ ٪ من سكان الارياف للجنسية اللوكسمبورغية واللغة الـ (لتزبورجيش) ، مما تسبب في ترحيل عدة ألوف من السكان وابطال الاحصاء . وفي شهر آب أعلن اضراب عام كان اول اضراب أعلن في بلد محتل . وفي السنة ١٩٤٣ تنظم الحزب الوطني اللوكسمبورغي الذي قام باعمال تخريبية كثيرة . وفر من الجيش اكثر من ٥٠٠٠ شاب لوكسمبورغي ورُحِّلت بين ١١٠٠ و١٢٠٠ عائلة الى بولونيا ، وفي الأشهر الأخيرة شكل ألوف المقاومين عصابات مسلحة في احراج الآردين .

في هولندا اصطبغت المقاومة بلون سياسي اقل بروزاً . ففي شهر شباط من السنة ١٩٤١ ، اعلنت اضرابات لمدة ثلاثة ايام في امستردام ثم شملت المدن الاخرى . وادان الاكليروس الكاثوليكي والبروتستانتي ، من على منابر الكنائس ، اضطهاد اليهود وترحيل العمال الى المانيا . وفي شهري نيسان وايار ١٩٤٣ اعلنت اضرابات جديدة حين تقرر حجز كافة قدامى صفوف الضباط الهولنديين في معسكرات اعتقال المانية . وفي ايلول اعلن مستخدمو السكك الحديدية وعمالها اضراباً عاماً .

في الدانمارك تنظمت المقاومة ، بعد تشتت طويل ، بفضل « مجلس الحرية » الذي تألف في شهر آب من السنة ١٩٤٣ من ممثلين عن كافة الاحزاب الناشطة ؛ وقد ركز كافة الجهود على الصناعات الحيوية التي تخدم المصالح الالمانية وعلى وسائل النقل ؛ ففي ٢٤ حزيران ١٩٤٤ مثلاً قام ٧٠ وطنياً في مرفأ كوبنهاغن الحر ، بتخريب مصنع للمدافع الرشاشة والمدافع المضادة للدبابات والبنادق ذات الاطلاق المتواتر تخريباً كاملاً ، وكان الوحيد من نوعه في الدانمارك .

الشكل ١٩ – اوروبا الهتلرية

١ – المانيا ، ٢ – اقاليم تابعة و« محميات » ، ٣ – اقاليم محتلة تحت ادارة المانية ، ٤ – اقاليم محتلة مستقلة ادارياً ، ٥ – ايطاليا واقاليم تحت ادارة ايطالية ، ٦ – دول تابعة للمحور ، ٧ – اقاليم فرنسية احتلتها ايطاليا (حتى تشرين الثاني ١٩٤٢) ، ٨ – حدود اوروبا في عهد السيطرة الهتلرية ، ٩ – حدود معاهدات ١٩١٩ – ١٩٢٠

وفي النرويج كانت اعمال المقاومة الاولى من مآثر رئيس المحكمة العليا ، « بال برغ » ، اعلى قضاة الدولة ، واسقف اوسلو ، حبر الكنيسة اللوثرية ، « برغراف » ، اللذين اسسا « جبهة الوطن » السرية . فانتشرت « الجبهة » في كافة انحاء البلاد واصدرت زهاء ٣٠٠ صحيفة غير شرعية ونظمت ادارة مهاجرة الى السويد او انكلترا استفاد منها ٥٠٠٠٠ شخص . وفي شباط ١٩٤٢ استقال اساقفة النرويج السبعة ومعظم الرعاة . وعرقلت المصالح الادارية اعمال قيد الشبان العمل في المصانع الالمانية ؛ ففي كانون الاول ١٩٤٣ ، اوقف ١٥٠٠ طالب من طلاب جامعة اوسلو — المقفلة — و ٦٥ استاذا بسبب اعتراضهم على فرض الاختبارات السياسية من اجل تسجيل اعمالهم في الجامعات .

في اوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية

ان نظام القوة والجور الذي اخضع له السكان ليقسر نشاط وعنف حركة المقاومة التي نمت في كافة انحاء الارض البولونية . فان تقليد المقاومة القديم الذي يرقى الى عهد الانقسامات ، والمهارة في التنظيم السري التي انتقلت من جيل الى جيل ، قد اتاحا ، منذ خريف السنة ١٩٣٩، بناء جهاز سري ضخم كان بمثابة حكومة حقيقية على اتصال وثيق بحكومة المنفى ، بفضل الاحزاب السياسية الاربعة الرئيسية : الحزب القروي ، الاشتراكيين ، الوطنيين الديموقراطيين، الديموقراطيين المسيحيين . واعيد تأليف جيش بري (ضم ٣٨٠٠٠٠ رجل في السنة ١٩٤٤) . وزاولت السلطة الادارية « مندوبية حكومية » ضمت عملاء لكل منطقة ، وادارات بمثابة وزارات ، و « تمثيلا سياسياً » سرياً ضم ممثلين عن الاحزاب الاربعة . ومهما بدا ذلك غريباً فقد استمر ، بعد اقفال مؤسسات التعليم الثانوي والعالي ، في توزيع العلم في الخفاء بحسب التقليد البولوني وفي اجراء الامتحانات . وطبعت صحف سرية ووزعت ، واستمر العمل في بعض مصانع الاسلحة والذخائر . وارتدى الصراع ضد العدو طابع ارهاب ووحشية لا يعرفان للرحمة معنى .

تجزأت يوغوسلافيا بعد حرب لم تدم سوى ايام معدودة ؛ فبينا حظيت كرواتيا بعطف الايطاليين والالمان ، وتقاسمت الدول المجاورة اشلاء الدولة القديمة ، اخضع ما تبقى منها اي صربيا ، لنظام جاء ثقيل الوطأة . ولكن القسم الاكبر من البلاد قفري وجبلي ، وعرف البقاء هنا ايضاً تقليد مقاومة قديم جداً ضد تعسف الاجنبي . فقد نجحت بعض وحدات الجيش المهزوم ، بقيادة الكولونيل ميخالوفيتش ، في الالتجاء الى الجبال . وكان لدى الشيوعيين اليوغوسلافيين من جهتهم ، بقيادة تيتو الكرواتي منظمة قوية وواسعة الانتشار . ولكن الخلاف لم يلبث ان ذر قرنه بين الفريقين : فقال فريق ميخالوفيتش بالتقليد المركزي الصربي ، الارثوذكسي والملكي ، بينا قال فريق تيتو بنظام اتحادي وديموقراطي يحقق اصلاحات عميقة . فاستمال الشيوعيون بنشاطهم وحيويتهم كل من رغب في محاربة الالمان والاوستاشي ، بينا خشي فريق ميخالوفيتش (تشتنيك) من انتقام الالمان الوحشي وتعاون مع الكرواتيين والانصار

الشيوعيين مع حكومة الانقاذ الوطني الخاضعة للالمان التي اسسها الجنرال « نديك » في بلغراد ومع الايطاليين المعسكرين في الجبل الاسود .

بفضل سرعة حركتهم ومهارتهم في المناورة نجح الانصار في الافلات من الهجمات المختلفة التي شنت عليهم ، لا بل جمعوا في « بيهاك » ، في تشرين الثاني ١٩٤٢ ، (جمعية تحرير يوغوسلافيا الوطنية المعادية للفاشستية) – افنوج – التي تبنت مبدأ اتحاد يوغوسلافي . وفي ١٩٤٣ اشتركت قوات ميخالوفيتش جهاراً في عمليات الهجوم الالماني الرابع على الانصار ، والعملية البيضاء » ، فاوقف الحلفاء عنها حينذاك كل مساعدة مادية وحصروا مساعدتهم كلها في تيتو . وعند الاستسلام الايطالي ، كان هذا الاخير قد نجح في الاستيلاء على « دالماتيا » باستثناء « سبليت » وعلى مخزونات هامة من الاسلحة الايطالية فتوطدت سلطته على اسس متينة ؛ وفي السنة ١٩٤٣ قرر مجلس التحرير الوطني ان مسألة الملكية سيسويها الشعب بعد تحرير البلاد .

وكانت اليونان المحتلة كذلك مسرح منازعات غامضة بين عدة قوات مختلفة ومتنافسة ومنقسمة على نفسها : الحكومة اليونانية في المنفى مع انصارها ، المقاومة الداخلية غير الشيوعية (أدَس) وأكَّا ، واخيراً الحزب الشيوعي اليوناني والمنظمات التي يشرف عليها

المقاومة الايطالية

في ايطاليا ، زال نفوذ الحكم الفاشستي زوالاً كلياً بفعل عجزه عن اعداد الحروب وتسييرها ، وبفعل فساده ودسائس تكتلاته المختلفة . وفي الحقل الاقتصادي ارتدى الوضع طابع البلبلة . ففي شهر آذار ١٩٤٣ حددت حصة الفرد من الخبز بـ ٢٠٠ الى ١٥٠ غراماً (نصف الحصة الالمانية) . ثم ان نقص الخامات والفحم الحجري والبترول قد خفضت انتاج الصناعة الى ٤٠ او ٦٠٪ من امكاناتها الاولى ، فأقفلت عدة مشاريع ابوابها او ضمت الى المشاريع الالمانية الكبرى . فاحرز مناوئو الفاشستية تقدماً ملموساً : ارتفع عدد الشيوعيين والاشتراكيين في جنوى وميلانو وتورينو ، وانضمت الاوساط الجامعية الى مناوئي الفاشستية ، وبات شطر كبير من البورجوازية انكليزي الميول ، فصدرت صحف سرية في كل الجهات . وفي ربيع السنة ١٩٤٣ ، انفجرت اضرابات في تورينو تطالب بـ « الخبز والسلم والحرية » ، وفي مؤسسة كابروني في ميلانو ، وفي مصانع بيرللي وفيات – مينافيوري . ومنذ السنة ١٩٤٢ عقد تحالف بين الاحزاب السرية : الشيوعيين ، والاشتراكيين ، والديموقراطيين المسيحيين ، وحزب الوسط اليساري الصغير الذي سيدعى الديموقراطيين العمال ، واليسار المازيني الذي سيؤلف (حزب العمل) . وحدد التحالف هدفا له قلب موسوليني وعقد الصلح . وكان البلاط والعائلة المالكة على اتصال بهم وعلى علم بما يدبر . ومن جهة ثانية فكر عدد من كبار المسؤولين الفاشستيين المستائين ، كـ « شيانو » (وبوتاي) و (غراندي) بفاشستية تدين بالحرية بدون موسوليني . وفي ٢٥ تموز ١٩٤٣ قرر المجلس الفاشستي الاعلى بالتصويت المطالبة باعادة كافة الصلاحيات الدستورية الى التاج . فاوقف موسوليني وحل محله

المارشال « بادوليو » الذي دخل في مفاوضات سرية لوقف اطلاق النـار . الا ان موسوليني ، الذي حرره هتلر ، قد اسس حكماً وطنياً فاشتياً أمسى في كانون الاول (الجمهورية الاجتماعية الايطالية) التي لم تكن اكثر استقلالاً من الدول التابعة الاخرى .

تميزت المقاومة الايطالية بفعالية خاصة على الرغم من انهـا ناضلت في ظروف صعبة بسبب تصرفات بادوليو الخرقاء ومناورات الحلفاء الخادعةوعدم ادراكهم الذي جعل الالمانيستفيدون من فترة الـ ٤٥ يوماً الثمينة التي انقضت بين سقوط موسوليني ووقف اطلاق النار لاحتلال روما وتثبيت اقدامهم في كافة انحاء البلاد . ولكن المقاومة عبأت الامة في حركة وطنية عامة ، في موجة عارمة من الحماس للعدالة والحرية مثلتها بـ (ثورة ثانية) اشتركت فيها هذه المرة الطبقة العماليـــة وشطر من القرويين ، على نقيض الثورة الاولى التي قامت على اكتاف سكان المدن البورجوازيين .

لم ترتد هذه المقاومة الطابع نفسه في كل مكـــان : فقد كانت اقل نشاطاً في ايطاليـــا الجنوبية وايطاليا الوسطى حيث ادارتها الاحزاب الديموقراطية المعتدلة في لجنة التحرر الوطني التي يشرف عليها الحلفاء الانجلوساكسون والحكومة الملكية منهـا في شمالي الابنين حيث تشددت احزاب اليسار — حزب العمل والشيوعيون بنوع خاص — في تصميمهـــا على تحقيق « ديموقراطية تدريجية » وتجديد البلاد تجديداً كاملاً . وكان لجيوش الانصار فيها ، على العموم، لون سياسي وصريح جداً ، اقله عند القادة الذين لم يفرضوا قط اعلان الاخلاص للملكية . ففي اودية جبال الالب ، وفي ليغوريا ومنطقة البندقية الجولية ، تمكنت بعض جماعات المقاومين المسلحين من تأليف وحدات محاربة حقيقية . وقد الفت لجـان لتحرير وطني اقليمية ومحلية ، ولجان مصانع ، واحياء ، واخيراً لجنة التحرير الوطني العليـا التي ضمت ممثلين عن الاحزاب الخمسة الرئيسية . فجمعت كل هذه اللجان الاموال والمؤن للانصار وشجعت الصحف السرية ونظمت اعمال التخريب ، والاضرابات (في ميلانو في كـانون الاول ١٩٤٣ واذار ١٩٤٤ ، وفي تورينو في حزيران) وحتى الاضرابات الثورية في جنوى وميلانو في شهر نيسان ١٩٤٥ . وهكذا كانت كافة المدن الهامة في ايطاليـــا الشمالية في قبضة الوطنيين قبل وصول الجيوش الحليفة .

المقاومـة الألمانيـة

في المانيا، افضت قوة تنظيم الحزب النازي وقوانينه، والفظاظة التي لجأ اليها في تشتيت كل من يقف حجر عثرة في سبيله قبـــل استيلائه على السلطة وفي قمع كل معارضة ، والنجاحات الباهرة التي احرزتها سياسته الخارجية ، الى ملاشاة كل بادرة معارضة صريحـة . اجـل مازال للشيوعيين الموجودين في السجون او في معسكرات الاعتقال او في المنفى ، بعض الخلايا المنتشرة في البلاد ولكن نشاطهم كان مشلولاً شللاً تاماً . وآل الديموقراطيون والاجتماعيون الديموقراطيون الى العجز نفسه . وأزيل كذلك المعارضون معارضة مبدئية . وقد جاز للعناصر المحافظة وحدها ، على نطاق محدود جداً ،

مخالفة نظام الحكم بعض المخالفة : القـــادة والديلوماسيون الذين اقضّت مضجعهم جسارة المشاريع الهتلرية فاقصوا عن مراكزهم ، والاشراف الريفيون الذين ابتعدوا عن أسياد المانيـا الجدد ، مفتاظين من فـادهم ومن دناءة الحكم وبهيميته ، والمسيحيون وعظـام الاسياد الملكيون والاحرار ، والكنائس التي لم تهددها مبادىء فلاسفة النازية فحسب ، بل سيطرتهم على الشبيبة والتهجمات الصريحة وغير الصريحة على اعضائها والجمعيات المنتمية اليها . ولكن المقاومـة لم ترتد سوى طابع فردي : اعتراضات الراعي « نيمولر » الذي دافع عن « الكنيسة المعترفة » ، أو اسقف « مونستر » ، الكونت « غـالن » . ومنذ السنة ١٩٤١ ، اعترض بعض الاساقفـة – حاذين حذو اسقف فريبورغ – في رسائلهم الراعوية عـــلى مصادرة الاديرة (التي حوّلت الى مستشفيات) واقفال المدارس وإلغاء صحف الاسقفيات ومخالفة الاتفاقية المعقودة مع الفاتيكان وتعقم المرضى الزمنين والمعتوهين وقتلهم . ثم حدثت بعض المبـــادرات كتوزيع مناشير « الوردة البيضاء » على طلاب مونيخ بواسطة كريستوف بروبست و هانس و صوفي شول في السنـة ١٩٤٣ ، ولكنهـــا مبادرات افراد او جماعـات صغرى أعجز من ان تقوم بعمل فعال .

من هذه الاوساط خرجت ، منذ السنة ١٩٣٩ ، المقاومة الالمانية المحـــدودة التي بلغتنا اخبارها : فقد حاكت المؤامرات واتصلت بالمصالح السرية الحليفة . وكلما طالت الحرب – التي لم يرض عنها الشعب قط – وثقلت اعباؤها وتزايدت الغارات الجوية الانكلوساكسونية وبدت الهزيمة النهائية اكيدة ، ابتعدت جماهير السكان عن الحكم . ولكن هـذه الجماهير كانت اعجز من ان تبدي اي نشاط بسبب ضغط السلطات ، ولا وجود للمنظمات التي كان باستطاعتها استثار استيائها . فليس سوى الجيش المتمتع بالقوة ما قد يستطيع القيام بعمل ما . وقد كان عدد كبير من القادة معادين للنازية :رئيس الاركان السابق(بك)، والمارشال(فون وتزلبن)،و(اولبرخت)، و(هالدر) ، و(فون ترشكوف) و(اوستر) . وكانوا على اتصال بامير البحر (كاناري) الذي كان يسهّل نشاطاتهم ويبررها ، بالاتفاق مع (فون كلوجه) و(رومل) ومعظم كبـار القادة الآخرين . واشترك في المؤامرة بعض كبار الموظفين المدنيين السابقين والحـاليين : (غوردلر) الذي كان حاكم مدينة ليبزيغ ثم مفوض مراقبة الاسعار ، ووزير الماليـة البروسي (بوبيتز) ، و(جيزفيوس) احـد موظفي الـ (ابوهر) ، والجنرال (س. س. نيبي) رئيس الشرطـــة الجنائية ، والكونت (وولف فون هلدورف) ، مدير شرطة برلين ، وبعض الديلومـاسيين من امثال (اولريخ فون هاسـل) ، و(فون وايزاكر) ، و(ورنر فون دير شولنبورغ) الذي كان قد تزوج من ابنة الاميرال فون تربيتز ، و(اريك كوردت) ، الخ . فقد كان كل هؤلاء محافظين ملكيين يمثلون المانيا ما قبل السنة ١٩١٤ ، على غرار اعضاء (جمعية كريزو) التي يعود الفضل في تأسيسها إلى (هلموت فون مولتكه) ، حفيد شقيق مارشال السنـــة ١٨٧٠ ، و(بيتر يورك فون وارتنبورغ) ، ورئيس الكنيسة اللوثرية (اوجين جرستنماير)، الخ. ، الذين شكلوا النواة

الاساسية للمقاومة ، واتصلوا ببعض الزعماء الاشتراكيين الديموقراطيين (ميرندورف وتيودور هوباخ) وربما بالحزب الشيوعي السري ايضاً . فتوصلوا في صيف السنة ١٩٤٤ الى الاتفاق على برنامج مشترك وعلى الوزارة التي سوف تتولى السلطة بعد اقصاء هتلر . الا ان الحاجة كانت ماسة الى حل القادة – المقتنعين منذ زمن بعيد بضرر الفوهرر – على فرض وقف العمليات ، وازالة هتلر وغورنغ والمقربين اليها . فاصطدم المتآمرون بتردد ضمائرهم ، وبعين اخلاصهم لهتلر ومخاوفهم ، واحترافهم الطاعة ، وقد قيل ان اخفاقهم دليل على استقامة المحافظين الالمان الشخصية وعجزهم السياسي . وكان من الواجب ، في الحقيقة ، ان تحدث موجة عصيان عميق الجذور تشمل جنود الجبهة والطبقات الشعبية ، ولكنها لم تحدث . واخفقت كذلك محاولة الكولونيل (فون ستوفنبرغ) قتل هتلر في ٢٠ تموز . ولكنها ادّت الى عمليات قمع ضارية تناولت كافة المشتبه بهم دون تمييز (اوقف ٧٠٠٠ اعدم منهم ٥٠٠٠ او عذّبوا حتى الموت) .

لعل المتآمرين كانوا على اتصال بالحركة المعادية النازية (المانيا الحرة) التي تكونت في الاتحاد السوفياتي في اعقاب معركة ستالينغراد وتمثلت بلجنتين: اللجنة الوطنية المؤلفة من قدامى اللاجئين السياسيين ، ولجنة الضباط من اسرى الحرب . اما اللجنة الاولى التي كان نائب رئيسها الكونت (فون اينسيدلن) ، ابن حفيد بسمارك ، فقد أسسها شيوعيون يدخل في عدادهم الكاتب (اريك واينرت) ، والعامل في صناعة استخراج المعادن (ولهلم بيك) . واما اللجنة العسكرية فقد ترأسها الجنرال (فون سيدليتز – كارسباخ) واشترك في عضويتها ٢٤ قائداً انضم اليهم ، بعد اخفاق محاولة العشرين من شهر تموز ، الجنرال « فون ارنيم » والمارشال « فون باولوس » . وقد انحصر نشاط اللجنتين في معسكرات اعتقال اسرى الحرب ، والجنود الالمان الذين امكن الاتصال بهم بواسطة الاذاعة ، والصحف ، والمناشير التي كانت تلقى فوق الخطوط داعية اياهم الى ايقاف القتال .

القمع الالماني جاء القمع وحشياً ومتعدد الاشكال ، وقد تولته قوات الرايخ البوليسية المختلفة : غستابو ، ابوَهر ، *S.D.* ، امن عام ، استخبارات ، بالاتفاق مع قوات الشرطة في الحكومات التابعة ، مستخدمة كافة وسائل الضغط الممكنة : وبصورة خاصة مصادرة اجهزة الراديو اللاقطة ، منع التجول ، توقيف الرهائن ونفيهم ، تعذيب ، اعدام ، وتقتيل .

لم تلبث الوسائل الشرعية ان اهملت لان المحاكم العادية قد برهنت عن عجزها عن معاقبة المسؤولين عن اعمال التخريب الموجهة ضد الجيش ، ولأن هتلر – الذي استشهد بمثل هوفر وشلاجتر – قد انف من استخدامها خوفاً من ان يظهر المحاكمون بمظهر الشهداء . فلجأت السلطات بسرعة الى توقيف الرهائن . ومنذ السنة ١٩٤١ قرر الجنرال (فون ستولبناغل) اعتبار كافة الأسرى المحتجزين لدى السلطات الفرنسية كرهائن . ثم شمل مبدأ المسؤولية الجماعية عائلات المشتبه بهم وطبق للمرة الأولى حين حدوث مجزرة (ليديس) في شهر حزيران من السنة ١٩٤٢ . وفي

هولندا اوقف ٤٦٠ شخصاً ممن لعبوا دوراً هاماً في الحيـاة العامـة واعتبروا مـؤولين ، تحت طائلة الاعدام ، عن « دسائس اللاجئين الى لندن » . وفي بولونيا اصدر الحاكم العام فرانك أمره بقتل ١٠٠ عضو من اعضاء المقاومة رمياً بالرصاص مقابل كل الماني يعتدى عليـه ويقتل . وأصدر كيتل في ايلول ١٩٤١ امـــراً باعتبار كل عمل مقاومة صادراً عن الشيوعيين وباعـدام ٥٠ – ١٠٠ شيوعي مقابل كل جندي الماني قتيل ؛ واخـــيراً صدرت الاوامر في كانون الاول بابعاد كل متهم لا يحكم عليه بالموت الى المانيا ، حيث لن يعرف شيء بعد ذلك عن مصيره . وفي تموز ١٩٤٤ ، بعد نزول الحلفاء في نورمنديا ، صدر قانون اشدّ قساوة يقضي بقتل « الارهابيين» والمخربين في مكان اعتدائهم بالذات .

في كافة الاقاليم المحتلة ، نقلت حالة الطوارىء السلطة القضائيـــة الى محاكم خاصة (مجالس عرفية) برئاسة ضباط من الـ .S. S تصدر احكاماً سريعة ، غير قابلة للاستئناف ، دون استماع الى محامي دفاع ، وتقضي احكامها اما باعدام المتهم واما بتسليمه الى الغستابو . واعتمدت احيانا تدابير لـ « مكافحة الارهاب » و « مكافحـة التخريب » ، اي جرائم قتـــل انتقامية يكون ضحاياها المقاومون او المشتبه بهم ويكون ابطالها افراد الـ .S. S او النازيون المحليون .

واخضع الوف الوطنيين من ابطال اعمال المقاومـــة أو من المشتبه بهم فقط بسبب آرائهـم السابقة ، او من الرهائن الابرياء الموقوفين في احدى عمليات الخطف السريعة ، لعذابات برعت الشرطة النازية في تنويعها . وقد اعتمد « التعذيب الاعدادي » منـذ زمن طويل ضد مقاومي النظام ، الا انه اصبح مرعي الاجراء رسمياً بموجب مذكرة اصدرها هملر في ١٢ حزيران ١٩٤٢ ونصت على استخدام « الدرجة الثالثة » : حرمان من الغذاء والنوم ، تمارين مضنية ، جـلد ، عقوبة المغطس، تعذيب كهربائي ، الخ . ، لانتزاع اعترافات بعض فئات المساجين « كالشيوعيين والماركسيين و « شهود يهوه » والمخربين والارهابيين ، واعضاء حركات المقاومـة ، والعمـلاء الاجانب المنزلين من الجو والعناصر المعـــادية للمجتمع ، والفارين البولونيين والسوفيـات من الجندية » . فقتل عشرات الوف التعساء شنقاً او رمياً بالرصاص او ضربت اعناقهم بالفـأس أو ماتوا اثناء التحقيق ؛ وجرت اعدامات بالجملة كما حدث في « فوس اردياتين » (حيث قتل ٣٥٠ رهينة ايطالية رمياً بالرصاص) ، وشنت هجمات انتقاميـــة افنت سكان مدينة او سكان قرية بأجمعهم ، بمن فيهم الاولاد والنساء ، كالهجمات على « ليديس، وكراكيافالس » (٧٠٠٠ قتيل)، و « اورادور – سور – غلان » ، وآسك ، ومرزابوتو ، الخ. وقد رُحّل المنفيون في ظروف فظيعة مستهجنة ، مكدّسين في قاطرات نقل البهائم ، عاجزين عن الحركة ، محرومين طيـــلة سبعة ايام متعاقبة احياناً من الغذاء والماء ، فكانت الوفيات بينهم مرتفعة جداً :

« كنا ٢٥٢١ عند مغادرتنا « كومبيانيه » فمات منا ٩٨٤ في الطريق ، ولم يعد منا من الاسر سوى ١٨١ فقط » .

هذا ما كتبه احد منفيي قافلة الثاني من تموز ١٩٤٤ . ولكن نسبة الناجين هنا أعلى من المعدل العام .

٣ – النظام الياباني الجديد

النظام الياباني الجديد

ان التوسع الياباني ، الذي ابتدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر وازدادت سرعته بعيد الحرب العالمية الاولى ، قد استوحى – على غرار التوسع الالماني – الايمان بتفوق العرق ، وبعض الشواغل الاقتصادية والاجتماعية ؛ واستهدف بسط السيطرة اليابانية على القسم الشرقي من القارة الآسيوية بكليته وعلى ارخبيلات « البحور الجنوبية » .

آسيا الشرقية الكبرى

شجعت النجاحات الالمانية في اوروبا الحزب العسكري الياباني ، ففرض في النهاية سياسته التوسعية على الاسطول والامبراطور . ومنذ شهر تموز ١٩٤٠ تحدد ما يجب ان تكونه « منطقة الازدهار المشترك في آسيا الشرقية الكبرى » : لطرد اليابان من الشرق الاقصى الدول الاستعمارية : انكلترا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، هولندا ، وتزيل تأثيرات الفلسفة المادية الغربية ، وتتطور الشعوب المحررة على الصعيدين السياسي والاقتصادي بهداها . ويقام حينذاك (نظام جديد) تدخله الصين والهند الصينية وتايلندا وماليزيا والهند النيرلندية ، وبحكم الطبيعة ، المناطق الخاضعة لنفوذ الياباني كالـ (منشوركو) . فأتاحت الغارة على الاسطول الاميركي في (بيرل هاربور) ، في ٨ كانون الأول ١٩٤١ ، وتدمير طيران الفيليبين ، تحقيق

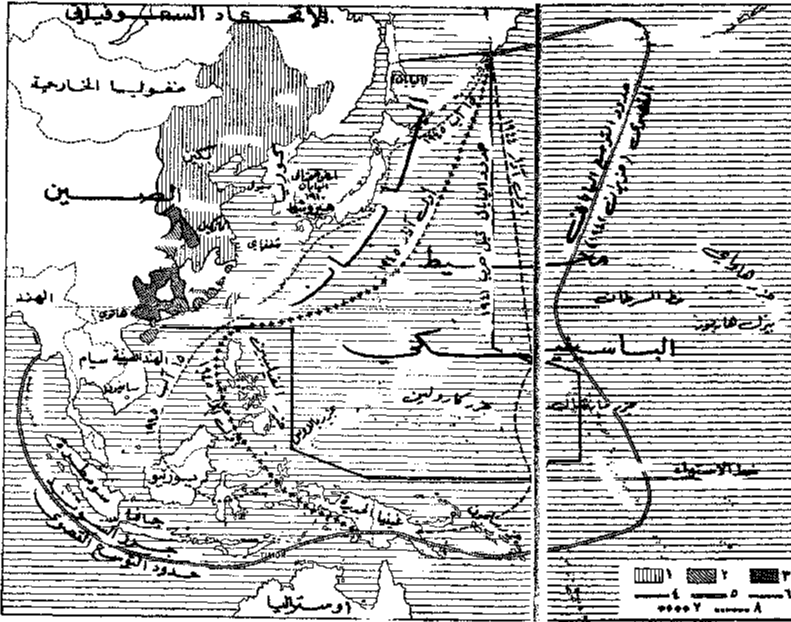

الشكل ٢٠ – الحرب في الشرق الاقصى

اراض صينية احتلتها اليابان : ١ – في اول ايلول ١٩٣٩ ، ٢ – في تموز ١٩٤٣ ، ٣ – في شباط ١٩٤٥ حدود الامبراطورية اليابانية : ٤ – في السنة ١٩٣٩ ، ٥ – حين توسعها الاقصى ، ٦ – في اول اذار ١٩٤٤ ، ٧ – في اول آذار ١٩٤٥ ، ٨ – في ١٥ آب ١٩٤٥ .

فتوحات عظيمة خلال اسابيع قليلة : الفيليبين ، بورنيو البريطانية ، ماليزيا ، هونغ – كونغ ، وايك ، غوام ، انسولندا . وكانت الهند الصينية قد سقطت في ايديهم ، فانضمت تايلندا الى اليابان وارسلت جيوشاً تشارك في غزو بورما الذي عزل الصين عزلاً تاماً . وكانت خسائر الحلفاء فادحة : بالاضافة الى البوارج الحربية المدمرة او المعطلة ، و ٢٠٠٠٠٠ طن من السفن التجارية ، و ٣٠٠٠٠٠ اسير أو قتيل ، وإضرار لا تسد ثلمته بنفوذ البيض ، وفقدان امبراطورية آهلة بـ ٤٥٠ مليون نسمة وغنية بالخامات الهامة جداً ، وانفجار حماس فريد من نوعه بين الشعوب المستعمرة . وكان من شأن سرعة وسهولة هذه الفتوحات ان شجعت القيادة اليابانية على محاولة توسيع محيط دائرة دفاعها حتى ميدواي وجزر سليمان ، وحتى كاليدونيا الجديدة ، وجزر ساموا وجزر فيدجي اذا امكن ذلك ، وفي الشمال حتى الجزر الاليوسية ، بغية ملاشاة شأن آلاسكا من جهة ، وشأن اوستراليا وزيلندا الجديدة من جهة اخرى . وعلى الرغم من فشل هذه المحاولات فشلاً جزئياً ومن ايقاف التقدم الياباني في صيف السنة ١٩٤٢ ، فقد امتدت آسيا الشرقية الكبرى من منشوريا الى غينيا الجديدة والفت منطقة شاسعة الأطراف يستطيع النظام الجديد ان يقوم فيها (الشكل ٢٠) .

حكومات الشعوب الخضعة

تجلت رسالة اليابان ، قبل أي شيء آخر ، كرسالة ثقافية تستهدف المحافظة على التأثيرات التقليدية الاجتماعية والدينية واقصاء التأثيرات الاجنبية . ففي كل مكان سعت اليابان جاهدة الى تقوية المثل المتسلطة على المجتمع الآسيوي : سلطة رئيس العائلة ، معنى تضامن الدم الواحد ، عقيدة مسؤولية الجماعة ، تبعية الامرأة . وفي الصين ومنشوكو حاولت احياء الكونفوشيوسية ، وفي سيام وبورما شجعت البوذية وتعزيز الروابط بالطوائف البوذية اليابانية . وفي ماليزيا واندونسيا جاهرت بالاحترام نفسه للاسلام ، وفي الفيليبين للكاثوليكية، التي هي دين سلطة ، وان كانت غربية ؛ وحافظت على علائق صداقة بالفاتيكان ، اذ ان الدعاوة المضادة للغرب استهدفت التأثيرات الاميركية اكثر من ارث رومـا واسبانيا . وعن اليابان يجب ان تقتبس الشعوب المحتلة مثلها الادبية والروحية ، ويجب ان تكون لغتها اللغة الثانية للجميع ، وان تكون الاعياد الوطنية اليابانية (عيد مولد الامبراطور ، وعيد تأسيس الامبراطورية) أعياداً وطنية في كل مكان ، وان تسلط الاضواء على تجانس العرق بين اليابانيين والفيليبينيين والماليزيين والسياميين .

ان التنظيم السياسي لآسيا الشرقية الكبرى كان في الواقع بسيطاً جداً : تتولى اليابان القيادة ، وعلى الدول التابعة المرتبطة بها ارتباطاً سياسيـاً وثيقاً ان تسهم في تكوين دائرة الازدهار المشترك . وسوف تقسم الاقاليم المحتلة الى ثلاث فئات : الاقاليم التي سوف تضم الى اليابان بسبب اهميتها الستراتيجية بغية المحافظة على تفوق اليابان البحري والعسكري : هونغ – كونغ ، سنغافورة ، بورنيو ، غينيا الجديدة ، تيمور ؛ الدول التي تحكمها اليابان حكماً مباشراً وقد تمنح استقلالاً محدوداً : الدول الماليزية ، الاتحاد الاندونيسي ؛ وأخيراً البلدان

الحليفة : منشوكو ، الفيليبين ، الصين ، الهند الصينية ، سيام ، بورما ، التي سوف تستقبل حاميات عسكرية يابانية في النقاط الستراتيجية وتوقع معاهدات تحالف عسكري .

في الحقل الاقتصادي، خطأت اليابان الاقتصاد الاستعماري المبني على نظام المغارس ورفض انشاء الصناعات ، ووعدت بالازدهار المشترك والاستقلال الاقتصادي : ان كل قطاع من قطاعات دائرة الازدهار المشترك سوف ينتج مايتناسب وامكاناته ويحصل من القطاعات الاخرى على ما يفتقر اليه . وكان الهدف في الحقيقة تنظيم البلدان المحتلة بحيث تحصل منها على الخامات التي تحتاج اليها وتبيع مصنوعاتها منها . ويبدو ان هناك خطة اقتصادية طويلة الاجل قد وجهت: تكون اليابان ومنشوكو ، وكوريا، والصين الشمالية الى حد ما ، مركز انتاج الفولاذ والحديد والمواد الكيميائية والآلات على اختلاف أنواعها، وتوفر آسيا الجنوبية الشرقية الخامات، وتصنع الانسجة والمطاط : وتنشأ فيها صناعات خفيفة لاستخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها . ولكن حاجات اليابان يجب ان تتقدم حاجات الدول الاخرى ، ويجب ان ينحصر التنظيم الاقتصادي في اليابانيين ، اذ ان مؤسساتها التجارية وشركاتها الملاحية تشرف على معظم النشاطات المالية والتجارية في كافة بلدان كتلة الـ « ين »، والتخطيط الاقتصادي منوط بالوزارة اليابانية لآسيا الشرقية الكبرى .

طيلة استمرار العمليات الحربية ، خضع الاقتصاد في الواقع لحاجات القوات المسلحة المحاربة واملاء تطور العمليات المعاكس . ففي كل مكان تكررت الوقائع نفسها : منذ السنة ١٩٤٣ ، شلت الحركة التجارية بسبب الخسائر الفادحة في الاسطول الياباني بفعل الغارات الجوية وهجمات الغواصات؛ وكانت نتيجة تزايد حاجات قوات الاحتلال الى الغذاء واليد العاملة ، والتضخم المالي الذي اقتسمه اليابانيون ، والنقص العام في المصنوعات التي كانت تستورد من اوروبا او اميركا ، وندرة المواد الغذائية في المدن والبلدان التي تعودت الحصول عليها من الخارج ، ضيقاً وحرماناً وتشويشاً عاماً في الاقتصاد ، وبالتالي استياء بين السكان .

المقاومة

في كل مكان اصطدم النظام الجديد الياباني – على غرار نظام الالمان ، وللأسباب نفسها – بالصعوبات عينها وانتهى الى فشل يكاد يكون تاماً . فقد استقبله السكان – باستثناء الصينيين – بعطف ، ولكنه ما لبث ان صدمهم واثار استياءهم : عواقب الحرب ، والاحتلال، والصعوبات الاقتصادية والحرمانات ، وخصوصاً عواقب الفظاظة والعجرفة اللتين عاملهم بها الجنود والضباط المدللون الذين غالباً ما انزلت بهم عقوبات جسدية فاعتقدوا بجواز كل شيء لهم حيال السكان المدنيين . يضاف الى ذلك ان تأجيل تنفيذ الوعود بالاستقلال خيب آمال الوطنيين الذين رفضوا ابداً تمثيل مصالحهم القومية بمصالح اليابان والقبول بأن يصبحوا مجرد اعوان توابع . والحقيقة هي ان معظم الذين سلمهم اليابانيون زمام الحكم، كـ « سوكارنو »، و «هاتا»، و « لوريل » ، و « باماو » ... لم يكونوا تعاونيين على طريقة كويسلنغ : آمنوا بالوعود المقطوعة

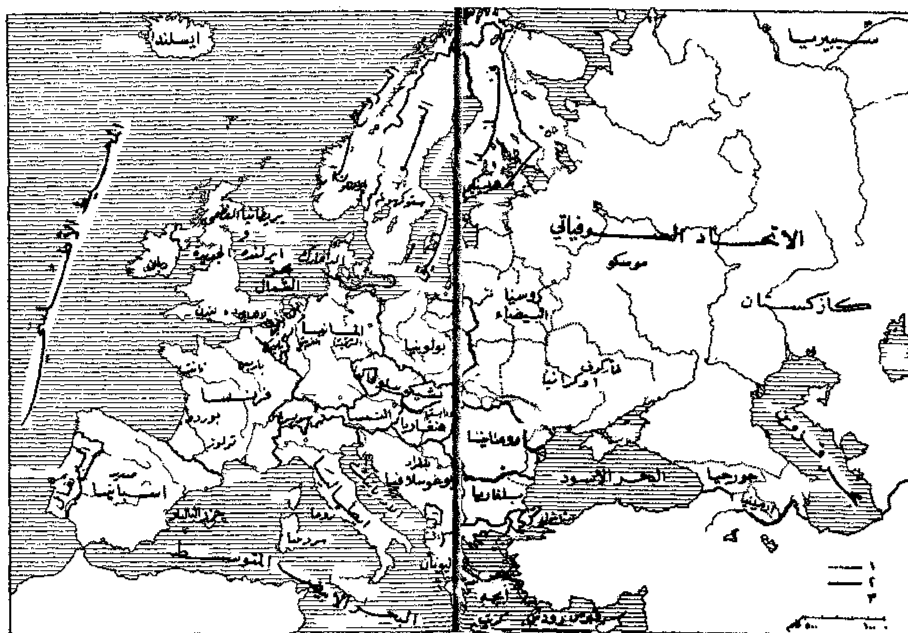

شكل ٢١ - اوروبا في السنة ١٩٦٥

١ - حدود ١٩٢٠ ، ٢ - الحدود الحالية ، ٣ - عواصم الدول .

بالاستقلال، ولكنهم ما ان استثبتوا عدم خلوص النية حتى استعدوا للاستفادة من هزيمة الغزاة. ففي اندونيسيا وسيام وبورما والهند الصينية استخدم الوطنيون اليابانيين ضد الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ، ثم انقلبوا عليهم .

الهند الصينية

في الهند الصينية ، اتصف الموقف بالتناقض ؛ فان اليابان التي نشطت دعاوتها ضد السياسة التوسعية والاستعمارية الغربية قد تركت الفرنسيين امر حكم البلاد بسبب افتقارها الى جهاز فني كاف تحله محلهم . فقد كان بقدور الفرنسيين وحدهم المحافظة على النظام وتنمية الانتاج في هذه البلاد التي كانت ضرورية لمواصلاتهم مع الجنوب والهند والتي كانت توفر لهم منتجات ثمينة . وفي شهر آب ١٩٤٠ ، اعترفت حكومة فيشي بتفوق اليابان سياسياً واقتصادياً في الشرق الاقصى ومنحتها امتيازات اقتصادية في الهند الصينية ، وقواعد جوية وبحرية مقابل وعد الحكومة اليابانية باحترام السيادة الفرنسية . ولكن تطلبات الحكومة اليابانية لم تقف عند حد : وضع اليد على منتجات المناجم ، ربط القرش باليَن ، المساواة بين المشاريع الفرنسية واليابانية ، الخ ، وقد اخذت في الوقت نفسه تمهد السبيل لاقصاء الفرنسيين بتشجيع العناصر البلدية المعادية الشيوعية كشيعة الـ « كاوو داي » . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وجود الجيوش اليابانية ، وغطرسة الظافرين – العسكريين والمدنيين المتوافدين على السواء – الذين استطابوا اذلال البيض والظهور بمظهر انصار الاستقلال الاسيوي، قد اضعفا نفوذ الفرنسيين اضعافاً خطيراً . وفي ٩ اذار ١٩٤٥ ، قلب اليابانيون الادارة الفرنسية واعتقلوا الفرنسيين الذين استطاعوا ابقاءهم وانشأوا « اتحاد تونكين الوطني » ؛ فاعلن امبراطور انام ، « باو – داي » ، وملك كمبوديا من بعده ، ابطال معاهدة الحماية الموقعة في السنة ١٨٨٤ ، واستقلال البلاد استقلالاً تاماً ، ووعدا بالتعاون مع اليابان ، في حين ان المقاومين الـ « فيات منه » رفضوا الانحناء امام اليابانيين وعززوا الصراع ضدهم ؛ وبعد استسلام اليابانيين اعلنوا استقلال فيتنام .

اذن انتهت خطة احتلال الشرق الاقصى التي وضعها العسكريون اليابانيون الى الفشل ، وغمر النصر الحليف فكرة آسيا الشرقية الكبرى ؛ الا ان نجاح الحركات القومية التي ساعدتها اليابان مساعدة كبرى ، ولا سيا بمثلها وباثارة نقمتها على سياستها التوسعية ، قد قوّض الامبراطوريات الاوروبية الاستعمارية . ومن هذا القبيل يمكن القول ان اليابان لم تخض غمار الحرب عبثاً .

الخلاصة

تسببت الحرب العالمية الثانية بخراب ودمار دونهما ما تسببت به الحرب الاولى ، اذ انها على نقيض الاولى كانت شاملة بعدد القوات المتجابهة في آن واحد ، وباتساع وشمول ميادين العمليات الحربية ، وبتعبئة كافة طاقات وموارد الدول المشتركة فيها ايضاً . لقد كانت الحرب العالمية الاولى حرباً بين الدول الاوروبية من حيث ان نصيب اليابان فيهـا لم يكن بذي شأن وتدخل الولايات المتحدة فيها جاء متأخراً ومحدوداً . اما في الحرب الثانية فقد تدخلت هاتان الدولتان تدخلاً كلياً وتدخل معها القسم الاكبر من العالم الآسيوي ، في الوقت الذي كانت فيه اوروبا مسرحاً للعمليات الكبرى .

لم يكن تدمير الآلة الصناعية ، التي ما كان العدو ليستطيع بدونها مواصلة القتـال ، دون تدمير الجيوش اهمية . لذلك أمعن المتحاربون في مهاجمة القطاع المدني حيث تتجمع هذه الطاقة الصناعية . فقد عانت كافة الدول المحاربة – باستثناء الولايات المتحدة – من الغارات الجوية الكثيفة ، ولا سيا بريطانيا العظمى واليابان . اما الاتحاد السوفياتي والمانيا حيث قاتل ملايين الرجال ، فقد جعل منها القصف الجوي والقصف البري ومعارك الشوارع وخطة « الارض المحروقة » والتدمير المنظم اثناء الانسحاب ، مسرحاً لدمار شامل رهيب .

ولكن بينما قامت في السنة ١٩١٨ ،الى جانب الدول الظافرة ، الولايات المتحدة، وانكلترا، وفرنسا ، دول هامة اخرى، وحتى من المرتبة الاولى – يدخل في عدادها المانيا وروسيا بالرغم من افول نجمها الى حين – ، ففي السنة ١٩٤٥ ، سيطرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بطاقتها العسكرية والاقتصادية ، وتلتهما انكلترا من مسافة بعيدة . اما اوروبا الغربية، المخربة والمقطعة الاوصال ، فليست بعد اليوم مؤلفة الا من دول ثانوية آلت الى وضع دوني . وفي آسيا لم تعد اليابان المغلوبة على امرها سوى ارخبيل صغير مكتظ بالسكان ، تحتله الجيوش الاميركية ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بسياسة الولايات المتحدة . وفي كافة انحاء منطقة « الازدهار المشترك » التي سيطرت عليها خلال سنوات قليلة ، حرك انهيار الامبراطوريات الانتفاضات القومية البلدية تحريكاً حاسماً ، وانبأت الحركة التي انتشرت في العالم الاسلامي بهجوم شامل على الامبراطوريات الاستعمارية .

الكتاب الثاني

العالم الحرّ الجديد

« في معظم المواسم راقبت الدوائر الاميركية ردود فعل الاقتصاد وتقدم التسلح قبل توزيع القروض ومراقبة استخدامها . فجعلت المساعدة الاقتصادية من الدول الاوروبية شريكات معدمة بالمال ، وجعلت منها المساعدة العسكرية حليفات متصورة. وكانت الولايات المتحدة ، في الواقع ، حامية اوروبا الضعيفة » .

« خي دي كاربوا »

« ان خير حقل للحرية هو السلم ، وان كافة انظمة الحرب ، وحتى انظمة الحرب الباردة ، صائرة حتماً الى الحصرية والاستبداد والتحكم » .

« وولتر ليبان »

الفصل الأول

انقسام العالم واختلال توازنه

على غرار الحربين العالميتين تتميز الفترتان اللتان تلتهما بخلافات هامة . ففي اعقاب الحرب العالمية الاولى مباشرة سرّحت الجيوش تسريحاً شاملاً في كافة البلدان وتوقف انتاج الاسلحة . لا بل حين حدثت الازمة الاقتصادية العالمية لم يفكر احد قط بمعالجتها بتنشيط الصناعات الحربية. ولم يشاهد اقتصاد دولة كبرى يكرّس ، في وقت السلم ، معظم طاقته الانتاجية لصناعات الاسلحة ، لأول مرة في تاريخ البشرية ، الا حين استلم النازيون الحكم في المانيا ؛ فاكتفت حينذاك الدول المهددة الاخرى – باستثناء الاتحاد السوفياتي – بتنشيط صناعة مماثلة على نطاق أقل اتساعاً .

فقدان الثقة بين الحلفاء

اما بعد هزيمة المانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، فلم تُنقص الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي طاقتها الحربية الا انقاصاً جزئياً ؛ فأبقت كلها على جيوش قوية وصناعات حربية هامة ، وواصلت ابحاثها المحمومة في نطاق الاسلحة الجديدة . ثم أفسح نزع الاسلحة الجزئي والوقتي هذا المكان لتسلّح جديد واسع النطاق ؛ لا بل ان الحرب قد اشتدت عنفاً وشمولاً خلال النزاعات المحلية التي اندلعت ، ولا سيما خلال حرب كوريا ، حيث فاقت ضراوة القصف ضراوة الحرب العالمية في اوروبا .

يرد ذلك الى ان العالم قد انقسم انقساماً عميقاً الى كتلتين ، قرّب بينهما الخطر المشترك الى حين ، وفرقت بينهما خلافات النظام الاقتصادي والاجتماعي ، والاهواء والمصالح. فقد حل محل نظام التوازن المتعدد الاطراف الذي كان مركزه اوروبا نظام توازن بين طرفين اثنين هما دولتان كبريان غير اوروبيتين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؛ وقد عزز هذا التوازن الجديد ان هاتين الدولتين كادتا تحتكران الاسلحة الذرية. فقد افضى النصر السوفياتي ، وانشاء ديموقراطيات شعبية في اوروبا الشرقية والوسطى ، ثم انتصار ماوتسي تونغ في الصين بعد سنوات قليلة ، الى توسيع « معسكر الشيوعية » توسيعاً مدهشاً ؛ ومنذ السنة ١٩٤٣ ، كان الاثر الذي تركته

الانتصارات الروسية وتجلي قوة الدولة العسكرية وركانة النظام الذي وصف بالهشاشة منذ زهاء ثلاثين سنة ، ضربة هائلة للمجتمع القديم اقضت مضجع الدول الانكلوساكسونية . ولنتذكر هنا مساعي ونستون تشرشل من اجل توجيه « الجبهة الثانية » ، التي طالب بفتحها ستالين ، نحو « بطن اوروبا الرخيّ » – حوض الدانوب – ونصائحه الى ايزنهاور ببلوغ برلين قبل السوفيات . ولنتذكر كذلك حسن الثقات المسؤولين والديلوماسيين الانكلوساكسون ومراعاتهم للحكومات والشخصيات المحافظة في كافة البلدان : حكومة فيشي ، حكومة بادوليو ، حكومتي اليونان ويوغوسلافيا الملكيتين ... ، وترددهم حيال « المقاومة » ، فيتضح لنا ان الثقة بين الحلفاء ، حتى قبل نهاية الحرب ، ابعد من ان تكون تامة . فان السيطرة الاقتصادية والسياسية التي حسبت الولايات المتحدة انها ستفرضها بدت محدودة ومعترضاً عليها منذ السنة ١٩٤٥ ، في الوقت الذي أدت فيه احلام الاصلاح العميق التي حرّكت « المقاومة » في كافة البلدان الى القاء الذعر في الطبقات الحاكمة وحملها على الانضمام الى المعسكر الاميركي .

منذ نهاية العمليات العسكرية في اوروبا وآسيا ، اشتد الحذر المتبادل وتراكمت في كلا المعسكرين بوادر سوء التفاهم والشكوك والشكاوى ؛ فاشتدت من ثم الخلافات بين الحلفاء وأفضت خلال سنوات قليلة الى نزاع ارتدى في كافة الحقول – باستثناء حقل الاسلحة – طابع حرب حقيقية ؛ هذه هي الحرب الباردة التي رافقها انقلاب غريب في التحالفات والتي ميزت فترة ما بعد الحرب الثانية ؛ بدأت في السنة ١٩٤٧ ، ولم تبد بوادر الانفراج الاولى الا في السنة ١٩٥٣ . وكانت نتيجة الخلاف بين الدولتين الكبريين اشتداد الانقسامات في داخل كل بلاد : فان انصار وخصوم النظامين قد تمادوا وعبأوا كافة طاقاتهم ودخلوا في صراع لا هوادة فيه وفرضوا على الجميع تحديد موقفهم دون ان يتركوا لاحد امكانية البقاء على الحياد او التردّد . وخارج اوروبا حاول كل معسكر توسيع منطقة نفوذه وتعزيز مراكزه مما اثار في كل مكان منازعات تحوّل بعضها ، في آسيا ، الى حروب محلية محدودة . وقد ارتبطت المسائل السياسية والمسائل الاقتصادية ارتباطاً وثيقاً في هذا الاستعداد لحرب عالمية ثالثة يعتقد كل طرف او يتظاهر بالاعتقاد بان الطرف الآخر قادر على اعلانها وخوضها ؛ فطُبعت كافة مظاهر الحضارة المعاصرة بطابع جديد من التقلقل المتزايد ، واشتد في الوقت نفسه التوتر القديم .

تأسيس الامم المتحدة

سار تفكك التحالف من ثم بخطى سريعة . وبغية سدّ فراغ جمعية الامم التي برهنت عن عجزها في الحيلولة دون نشوب الحرب ، أقر الثلاثة الكبار في « يالطا » انشاء منظمة دولية جديدة حدّد مؤتمر سان فرنسيسكو في السنة ١٩٤٥ دستورها في « ميثاق الامم المتحدة » . ولم يكن الهدف منها « المحافظة على السلام والامن الدولي » فحسب ، بل اقامة تعاون دولي يفرض احترام حريات البشر الاساسية دون تمييز ويشجع التقدم الاجتماعي ايضاً . وبموجب هذا الميثاق ، يقوم ، الى جانب جمعية عامة ليس لها سوى دور استشاري – درس المسائل والتصويت على التوصيات –

جهاز اساسي هو مجلس الامن الذي تنتخبه . ويخضع هذا الاخير لسلطة الدول الكبرى دون غيرها اذ ان اعضاءه الـ ١١ يضمون خمسة اعضاء دائمين (الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، الصين ، الاتحاد السوفياتي) يتمتع كل منهم بحق النقض : فكل خلاف بين اثنين منهم يؤدي من ثم الى شل عمل المجلس . وقد اسندت الى هذا الاخير مهمة تسهيل تسوية الخلافات سلمياً ، واتخاذ مقررات مؤقتة فورية اذا ما بدا نزاع وشيك الحدوث ، والنظر في الشكاوى المرفوعة اليه . وضمت منظمة الامم المتحدة كذلك مجلساً اقتصادياً واجتماعياً ارتبطت به اجهزة عدة كالـ « اونسكو » الذي اسندت اليه مهمة التعاون الثقافي والعلمي ؛ وقامت كذلك منظمة العمل الدولية ومجلس الوصاية الذي انتقلت اليه اختصاصات جمعية الامم المتعلقة بالمناطق المشمولة بالانتداب ، ومجلس القضاء الدولي ، وامانة السر .

زاولت المؤسسة اعمالها مزاولة غير ناجحة بسبب الخلافات التي قامت بين الدول الكبرى منذ البدء ، وفي معظم المنازعات، وبسبب استخدام حق النقض الذي لجأ اليه ، بصورة خاصة، الاتحاد السوفياتي المنعزل امام تحالف الدول الاخرى . وغالباً ما بدت منظمة الامم المتحدة وكأنها اداة في ايدي الولايات المتحدة – كما كانت جمعية الامم وسيلة السيطرة في ايدي انكلترا وفرنسا قبل السنة ١٩٣٩ – ولا سيما بعد السنة ١٩٤٩ حين بقيت عضوية المجلس الدائمة الخاصة بالصين في ايدي حكومة فورموزا .

الحرب الباردة

تكرست القطيعة بعد خطبة الثاني عشر من اذار ١٩٤٧ التي عبّرت عن « رأي ترومان » . فقد اعلن الرئيس الاميركي تصميم الولايات المتحدة على الحلول محل انكلترا في تقديم المساعدة العسكرية للحكومة اليونانية ضد العصابات الشيوعية ولتركيا ، واوضح ان هدفه هو « كبح » الشيوعية والنفوذ السوفياتي في هاتين البلادين .

« لن نبلغ اهدافنا ... ما لم نكن مصممين على مساعدة الشعوب الحرة على الاحتفاظ بمؤسساتها الحرة ووحدتها القومية بمقاومة الاعمال العدوانية التي تحاول فرض انظمة غير ديموقراطية . وليس ذلك سوى اقتناع صريح بان الانظمة غير الديموقراطية المفروضة على شعوب حرة باعتداءات مباشرة او غير مباشرة تقوض ركائز السلم الدولي وتقوض بالفعل نفسه ركائز امن الولايات المتحدة ... فاني اعتقد بان سياسة الولايات المتحدة يجب ان تبنى على مساعدة الشعوب التي تقاوم محاولات الاقليات المسلحة او الضغوط الخارجية لاخضاعها » .

وأبان وزيره « دين اتشسون » بمزيد من الوضوح ، بعد ذلك بشهرين ، انه ينوي حصر المساعدة الاميركية في الدول التي تقر الولايات المتحدة نظامها السياسي والاقتصادي .

« ان تدابير مساعدة واعادة بناء (البلدان التي خربتها الحرب) لم تنبثق عن روح انسانية الا جزئياً . فان مؤتمركم قد اجاز ، وحكومتكم تنتهج ، سياسة مساعدة واعادة بناء هي اليوم بمثابة قضية من قضايا المصلحة الوطنية ... وبما ان الطلب العالمي يفوق قدرتنا على تلبيته ، فاننا سوف نحصر مساعدتنا في البلدان التي ستكون المساعدة فيها اكثر فعالية لبناء عالم مستقر سياسياً واقتصادياً ، بمساعدة الحرية الانسانية والمؤسسات الديموقراطية وتشجيع سياسة التجارة الحرة وتعزيز سلطة الامم المتحدة . وبديهي ان هذا التدبير يفرضه الصواب ... ولذلك

فان الشعوب التي تسعى للمحافظة على استقلالها والمؤسسات الديموقراطية والحريات الانسانية في وجه الضغوط غير الديموقراطية الداخلية او الخارجية سوف تستفيد من المساعدة الاميركية قبل سواها » .

كانت النتيجة الفورية لمشروع « مارشال » الذي نظم هذه المساعدة تدعيم الكتلتين وتوسيع

شكل ٢٢ ـ اوروبا المقسمة

١ ـ بلدان انضمت الى مشروع مارشال ، ٢ ـ ديموقراطيات شعبية مرتبطة بالاتحاد السوفياتي بمعاهدة فرصوفيا ، ٣ ـ « الستار الحديدي » ، ٤ ـ ارض الاتحاد السوفياتي ، ٥ ـ بلدان بقيت خارج الكتلتين ، ٦ ـ بلدان غير تابعة لاوروبا .

ملاحظة ـ اسبانيا لم تكن منضمة الى مشروع مارشال .

الهوة التي تفصل بين العالم الشيوعي والغرب . فقد انصرفت السياسة السوفياتية الى توثيق الروابط بين دول الشرق هادفة من وراء ذلك الى خلق ما يشبه مشروع مارشال في الشرق

وجعل الكتلة الشرقية ، ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، مستقلة استقلالاً تاماً عن الغرب .

منذ هذا التاريخ نظر كل من الكتلتين الى كل قرار يتخذه الطرف الآخر كما الى عمل هجومي يستلزم جواباً ، واعتبر كل جواب بدوره تهديداً يجب ان يستتبع استمدادات دفاعية جديدة . وهكذا استمر الخلاف وازدادت الشكوك . واقتنع كل طرف مخلصاً بان اعماله دفاعية بحتة ، وبأن اعمال الطرف الآخر هجومية . فكان من الغرب ، الذي اعتبر الاتفاقات الاقتصادية وانشاء مكتب الاعلام الشيوعي (كومنفورم) بادرة هجومية شيوعية ، ان اسرع في وضع الخطط لتحالف سياسي وعسكري متين : حلف بروكسل بين بريطانيا العظمى وفرنسا ودول البنلوكس (بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ) ، ومعاهدة الاطلسي الشمالي التي وقعتها اثنتا عشرة دولة انضمت اليها اليونان وتركيا في السنة ١٩٥٢ .

الميثاق الاطلسي

بينما كانت المعاهدات المعقودة في اعقاب الحرب معاهدات ثنائية موجهة ضد اعتداء الماني محتمل الوقوع فحسب ، تجاهل هذا الميثاق كلياً امكانية اعتداء الماني ؛ فقد وجه بوضوح ضد الاتحاد السوفياتي ، وان لم يرد فيه اسم هذا الاخير . وجاء في مادته الرابعة ما يلي : « سوف تتشاور الاطراف كلما بدا ، في رأي احدها ، ان سلامة اراضي احد الاطراف او استقلاله السياسي او امنه عرضة للخطر » . وجلي ان هذه التعابير المبهمة لا تعني الهجوم المسلح على احدى الدول الحليفة فحسب ، بل استلام زمام السلطة من قبل اكثرية تعطف على الشيوعية . فالميثاق الاطلسي يكمل من ثم مشروع مارشال ، وتصبح المساعدتان العسكرية والاقتصادية مظهرين مختلفين لمساعدة واحدة . وقد قدمت مساعدة عسكرية للبلدان الاوروبية الموقعة على الميثاق واليونان وتركيا وايران وكوريا والفيلبين ايضا . وانشئت « منظمة معاهدة الاطلسي الشمالي » (اوتان) التي ضمت قيادة اركان مشتركة تشرف على عمليات المجموعات الاقليمية الخمس . وتوجب على كافة الدول الموقعة تعزيز تسلحها والتحاق بشريكاتها على الصعيد العسكري والصعيد الاقتصادي على السواء ؛ فعززت جيوش دول الحلف ووحدت معداتها واساليب قيادتها وقتالها . وانصرف الحلفاء بصورة خاصة الى اعادة انشاء جيش الماني قوي اعتبر السبيل الوحيد لاقامة حاجز فعال في وجه هجوم سوفياتي محتمل الوقوع .

ذروة الحرب الباردة

بصرف النظر عن الرأي النافذ القائل بشن حرب وقائية قبل زوال التقدم الاميركي في حقل الاسلحة الذرية ، اعتمد التحالف الاطلسي سياسة « احتباس » و « توزيع قوى » انطوت على امتلاك اسلحة قادرة على اهابة الاتحاد السوفياتي و « بناء حاجز عسكري وبوليسي وسياسي » في وجهه ولكن انصار السياسة الهجومية و « تحرير » البلدان التي تؤلف الديموقراطيات الشعبية ، واعضاء « الكتلة » الصينية التي تدافع عن شان كاي شك وتطالب لمصلحته بمساعدة عسكرية ومالية متزايدة ،

قد احرزوا نجاحات هامة في انتخابات السنة ١٩٥٢ . فنجم عن ذلــك تصلب سياسي تشهد عليه الاعمال الاولى التي قامت بها الادارة الجمهورية في الصين وكوريا والمانيا . الا ان السياسة الاميركية اضطرت التسليم بـ «التعايش السلمي» ، والعدول عن التدخل مباشرة في حرب الهند الصينية وكبح مبادهات فورموزا الحربية والدخول في حوار جديد مع الشرق .

الاستراحة السريعة الزوال

ان حلفاء الولايات المتحدة ، ولا سيا بريطانيا العظمى ، قــد راقبوا مبادرات الحكومة الاميركية بتردد . فمنذ السنة ١٩٤٩ امتلك الاتحاد السوفياتي القنبلة الذرية ولن يلبث ان يمتلك القنبلة الهيدروجينية ؛ وكان من الواضح ان حرباً عالمية جديدة لن تهدد باحداث أضرار لا يمكن تلافيها والقضاء ، بكل مـــا للكلمة من معنى ، على أمم كاملة فحسب ، بل ستكون دول اوروبا الغربية ، ولا سيا بريطانيا العظمى ، القاعدة الجوية الاميركية الرئيسية ، من بين الدول الاولى التي ستعاني من ويلات الحرب . يضـــاف الى ذلك من جهة ثانية ان تجدد القوة الصناعية الالمانية واليابانية لن يلبث أن يخلق منافسة تجارية خطيرة ، بينما سيهدد تسلح المانيا بقيام حرب انتقامية ضد بولونيا والاتحاد السوفياتي . وفقد اقصاء الصين عن منظمة الأمم المتحدة شيئاً فشيئاً ما يبرره كلما توطد نظام حكمها وأقدم عدد متزايد من الدول ، ومنها بريطانيا العظمى ، على الاعتراف رسمياً بحكومتها. وأخيراً ردت الصعوبات الاقتصادية في اوروبا الغربية ، جزئياً ، الى قطع العلائق التجارية اما بالصين واما بدول اوروبا الشرقية ، وقد استدعت مصالح هامة في اوروبا ، وحتى في اميركا ، اعادة المقايضات الى سابق حالها . ثم ان نجاحات سياسة الحياد في الدول الاوروبية ، ولا سيا في فرنسا ، قد حملت أنصار سياسة القوة على التفكير ، كما ان السباق الى التسلح قد زاد الخطر والحذر بدلاً من ان يساعد على ازالتهما؛ فبدا أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم ان التعايش السلمي دون غيره بين العالمين هو الحل الوحيد الممكن اذا اريد تجنب حرب عالمية ثالثة . وجاء موت ستالين في الخامس من آذار ١٩٥٣ يمهد السبيل امام انفراج مرتسم في الأفق . وكانت اولى الظواهر الهامة لهذه الحالة النفسية ، مؤتمر جنيف الذي انعقد في السنة ١٩٥٤ ، والذي سلكت فيه دولتان هامتان من دول الغرب ، هما بريطانيا العظمى وفرنسا ، سلوكاً مستقلاً عن الولايات المتحدة ، ففاوضتا الصين الشعبية في موضوع الهند الصينية ، على قدم المساواة .

بيد ان الانفراج أخرته الارتيابات والمخاوف التي اثارها في الدول الغربية النفوذ السوفياتي في آسيا الشرقية ولا سيا في الشرق الأوسط ، اذ بدا وكأنه على كف عفريت بسبب تدخل الاتحاد السوفياتي المسلح في هنغاريا ؛ ولكنه بات ضرورة ملحة حين هددت الحملة الفرنسية البريطانية على قناة السويس في تشرين الاول ١٩٥٦ ، لا بنشوب حرب محدودة ، بل بنشوب حرب عالمية . وقد صادف للمرة الاولى ان اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على فرض ايقاف العمليات العسكرية . وفي الوقت نفسه أدت النجاحات التي احرزها الاتحـــاد السوفياتي في حقل الصواريخ العابرة القارات الى اقامة « توازن ارهاب » جعل اخطار الافناء

في حرب ذرية اكثر فاعليــــة في النفوس . فخفت منذئذ حدة الخلافات و « ذاب الجليد » ، ممـــا افضى الى قيام رئيس الحكومة السوفياتية بزيارة الولايات المتحدة في شهر ايلول من السنة ١٩٥٩ .

منذ هذا التاريخ ، ميّـز دخول الدول الآسيوية والافريقية الحديثة منظمة الامم المتحدة ، بصورة مؤثرة ، الوحدة العضوية لكرة لا تستطيــع اية دولة من دولها الوقوف موقف لامبالاة من سواها . فلم تعد احداث اوروبا وحدها ما ترتدي طابع الاهمية العالمية ، بل هي احداث بحر الكراييب (كوبا) واحداث افريقيا (الكونغو وحتى حرب الجزائر) ايضاً ما ارغمت كل دولة على تحديد موقفها وهددت السلم العالمي بالخطر . لا بل قــام اتصال وثيق بين القضايا الاوروبية وقضايا الانحاء الاخرى من العالم – ولا سيا العالم الباسيفيكي – التي كادت تحتل المرتبة الاولى . ومن جهة اخرى كان للانفراج اثره في التفاف العالم حول الكبيرين المتوازنين : فاتجهت الروابط في داخل كل كتلة الى الارتخاء ، لا بل ان الازمة الصينية السوفياتية ايقظت عند بعض الدول الغربية الامل بأن تستفيد منها لاضعاف الكتلة المنافسة . وعلى اية حـــال ، فان جو « الحرب الدينية » او الصراع الذي لا يكفّر عنه بين الخير والشر كما تصوره عضو مجلس الشيوخ « ماك كارتي » و « جون فوستردالس » قد تبدل ، وتطورت الكتل واتجهت نحو فقدان طابعها السياسي : فان الباكستان مثلاً ، وهي احدى موقعي المعاهدة المركزية ، واحـد اعضاء ميثاق بغداد بعد ذلك ، قد تعاونت مع الصين ، الصديقة ان لم تكن الحليفة ، على الاتحـاد الهندي . وان هـذا الموقف الاستقلالي تقفه الدول الحديثة ، التي غذت عصبية قومية متصلبة بغية تعزيز تلاحمها الداخلي ، ليعيد الى الذاكرة العصبية القومية القديمة في الدول الغربية الحريصة على ان لا تتخلى عن عظمتها السالفة ، وعلى صيانة او احياء نفوذها المتفوق في ما وراء البحار ، اقـــله في الحقل الاقتصادي . وليس هذا التضاد بين عالم يسلك فيه الميـــل الى التدويل طريقه في الدول المتطورة (التي تعي ان التكتلات السياسية او الاقتصادية وحدها قابـلة الحياة والتقدم) وبين عالم يضم عدداً كبيراً من الدول الصغيرة المتنابذة والاقليميات الاقتصادية المضرة ، بأقل مغايرات امامنا هذه الصواب .

ظروف الحرب الجديدة

واخيراً ، أدى وجود الاسلحة النووية الى تبديل توازن القوى تبديلاً عميقاً وخلق ظروف جديدة كل الجدة في العلائق بين الدول . لقـــد انحصرت هذه الاسلحة عملياً في ايدي الكبيرين دون غيرهما ، فأوجدت « توازن ارهاب » اثبت فعاليته حين ارتسم في الأفق خطر نزاع بالغ الاهمية بمناسبة انشاء قواعد للصواريخ السوفياتية في كوبا . فحتى ذاك التاريخ ، استخدمت في الحروب المندلعة منذ السنة ١٩٤٥ الاسلحـــة « الكلاسيكية » ، اي الاسلحة التي استخـــدمت خلال الحرب العالمية الاخيرة ، والحرب بين اسرائيل وجيرانها ، وحروب كوريا والهنـــد الصينية والجزائر وفيتنام الجنوبية ... ولكن الابحاث العلمية لم تتوقف منذ نهاية الاعمال الحربية – على نقيضها في ما بعد الحرب العالميـــة

الاولى ـ وتوصلت الى نتائج حاسمة . فان الطاقة التدميرية قد ازدادت ازدياداً يكاد يكون غير محدود ولا يتصوره عقل : ان القوة التدميرية للقنابل الحاليـة توازي الف ضعف بالنسبة لقوة قنبلة هيروشيما (وقد قدرت قوتها بـ ٢٠٠٠٠ طن من الـ ت. ن. ت.) التي كانت خاتمة الحرب العالمية الثانية . والحـال لم تستخدم هذه الاخيرة اجمالاً سوى قنابـل زن ١٠ اطنان من الـ ت. ن. ت. كحـد اقصى ، لا تتناسب كذلـك وقنابل الـ ٥٠ او ١٠٠ ليرة في الحرب الكبرى ! وفي الوقت نفسه بلغ مرمى المدافع ١٥٠ ميلاً ومدى الطائرات بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ ميل ، ومدى الصواريخ ٨٠٠٠ . فليس بعد اليوم مركز واحد آهل بالسكان بمنأى عن الاسلحة النووية المطلقة من البر او من الغواصات . وباستطاعة هذه الاسلحة احراق مساحات تبلغ عـدة كيلومترات مربعة ، وتلويث الجو والمياه ، ويمكن ان يبقى اثر اشعاعاتها القتال طيلة اشهر عدة في مساحات قد تبلغ ٥٠ ضعفاً بالنسبة للمساحات المحرقة . فارتكز الدفاع منذئذ الى مبـدأ ابتكار ما يصعب ابتكاره : يجب ايجاد « قوة دفاعية » تكون قدرتها الثأرية كافية لاهابة من قد يفكر بالاعتداء ومنعه من المخاطرة بالاقدام على نزاع مسلح . وتستلزم هـذه القوة ، بالاضافة الى كميات كبرى من الاسلحة النووية ، محاولة تحقيق السيطرة في الجو ، وإنشاء شبكـة رادار للمراقبة والاتقاء ، وتكوين مدفعية قوية مضادة للطائرات ، وصواريـخ مسيّرة ، وطائرات تعترض سبيل الطائرات المهاجمة ، وتشتيت مستودعات الاسلحة والمصانع ومراكز التموين ومراكز القيادات ، وحفر ملاجىء فسيحة للسكان . وبالاختصار ، نفقات باهظـة تفوق كل تصور توقر كاهل موازنات بعض البلدان الغنية جـداً وتعجز عن تأمينها موازنات كافة البلدان الاخرى .

اشتداد اختلال التوازن الاقتصادي والسياسي في العالم

احدثت الحرب انطلاقة لا سابقة لها في الانتاج . فان المشاريـع التي كانت مقفلة الابواب او كانت ابعـد من ان تستخدم طاقتهـا الانتاجية الكاملة اخذت تعمل مجدداً وتنتج ما أمكنها انتاجـه ، وانشئت مصانع جديدة ومعامل جديدة ، لا في الولايات المتحـدة وكندا فحسب ، بل في البرازيل والارجنتين والشيلي وافريقيا الجنوبيـة واوستراليا واسبانيا وتركيا والسويد والدول المحتلة في اوروبا الوسطى التي كانت اقل تعرضاً للغارات الجوية ايضاً. وانمى الاتحاد السوفياتي من جهته طاقته الانتاجيـة إنماء كبـيراً . وفي الوقت نفسه تحسنت الاساليب وارتفع الانتاج ارتفاعاً عظيماً ربما بلغ ٢٠٪ .

كانت النتيجة ان اختلال الاقتصاد العالمي ، الذي برز جيداً بعد الحرب العالميـة الاولى ، قد تعاظم بفعل هذه الزيادة الكبرى في الانتاج . فحرصت الدول الصناعية اكثر من أي وقت مضى على حماية سوقها الداخلية والبحث عن اسواق خارجية . وسوف تتصف المنافسة الدولية والصراع من اجل هذه الاسواق بمزيد من الحدة لا سيما وان البلدان التي افقرتها الحرب كانت اكثر حاجة الى التصدير منها قبل الحرب لتسديد اثمان مستورداتها ، والحصول على الدولارات،

وتوظيف الاموال في المشاريع الضرورية . وهو تدخل الحكومات المتيقظ وحده ما حمى هذا الاقتصاد من الازمات التي كانت تهدده . والحال اعتمد شطر من العالم اقتصاداً اشتراكياً يجنبه الحلقة الاقتصادية القديمة ويقلل من ثم من الاسواق المحتملة . وليست روسيا وحدها ، كما في السنة ١٩١٨ ، ما كانت معزولة أمام عالم حر ورأسمالي . ففي السنة ١٩٤٥ ، كانت هنالك ، من جهة ، كتلة الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية ، التي ستنضم اليهـا بلاد الصين الشاسعة في السنة ١٩٤٩ ، ومن جهة ثانية عالم رأسمالي اعيته ثورة الشعوب المستعمرة وحركة تحرر الشعوب المسودة . ففي آسيا بنوع خاص نمت الحركة القومية نمواً سريعاً غير منتظر وفازت بالاستقلال . وفي افريقيا انهارت الامبراطوريات الاستعمارية . لقد رفض العالم بصراحة الانحناء ابداً أمام سلطة اوروبا والولايات المتحدة .

وهكذا فان هذه الفترة قد شاهدت تقهقر اوروبا وانحطاط النظام الحر الاقتصادي والسياسي اللذين برزا منذ السنة ١٩١٤ ، لان جو الحرب الباردة وانقسام العالم الى كتلتين لم يكونا موافقين لمبادىء الحرية . وفي الوقت نفسه ابرزت تصفية الامبراطوريات الاستعمارية واستقلال الشعوب الملونة والانسحاب من السويس ، نهاية هيمنة دول تولت منذ خمسة قرون امر استعمار الكرة الارضية . لا بل هددت مرتكزات ازدهارها بالذات .

الفصل الثاني

الولايات المتحدة

اصبحت الولايات المتحدة ، بعد الحرب العالمية الاولى ، اعظم دولة في العالم ، فبات بمقدورها ، بعد السنة ١٩٤٥ ، فرض نفوذ متفوق ساحق، لا بل هيمنة حقيقية، على كافة الدول الاخرى المضعفة او المخربة .

تضم الولايات المتحدة ٧ ٪ من سكان الكرة الارضية وتحتل ٧ ٪ من مساحة الارض ، ولكن دخلها القومي يفوق ثلث الدخل العالمي ، وينتج سكانها ، الذين كانوا ١٥١ مليوناً في السنة ١٩٥٠ واصبحوا ١٩٠ مليوناً في السنة ١٩٦٣ ، ٦٠ ٪ من مصنوعات العالم بأسره ، اي اكثر من المليارى نسمة الموزعين على كافة انحاء العالم الاخرى . ومثّل احتياطيها من الذهب والنقد النادر ٧٨ ٪ من الاحتياطي العالمي في السنة ١٩٥٧ (باستثناء الاتحاد السوفياتي) . وهي تمتلك في كل قطاع اقتصادي نسبة انتاج مئوية تتيح لها تحديد الاسعار وسن القانون في السوق العالمية ، بينما يتعذر على الدول الاخرى الاستغناء عن مساعدتها المالية للقبول بشروطها في الحقلين الاقتصادي والسياسي . وفي اعقاب الحرب ، التي لم تكن بالنسبة لها سوى « امتحان ثانوي » اذا ما قورنت بالازمة الكبرى ، مارست « زعامة » لا جدال فيها على العالم الحر .

تزايد الانتاج

بصورة عامة ، تعاظمت الطاقة الصناعية خلال الحرب في كافة الدول المحاربة — وحتى في المانيا التي عانت ما عانت من الغارات الجوية — وفي الدول التي حافظت على حيادها . ولكن الولايات المتحدة امتلكت طاقة صناعية ضخمة دونها طاقتها في اعقاب الحرب العالمية الاولى . فان انتاجها الصناعي في السنة ١٩٤٥ كان ضعفه في السنة ١٩٣٩ . وقد تحققت هذه النتيجة باستخدام الآلة الانتاجية واليد العاملة استخداماً كاملاً وبانشاء مصانع او استثمارات جديدة كبرى . فقضي على البطالة قضاء تاماً ، اذ هبط عدد البطالين من ٩٤٨٠٠٠٠ في السنة ١٩٣٩ الى ٦٧٠٠٠٠ في السنة ١٩٤٤ . لا بل ارتفع عدد العمال ارتفاعاً عظيماً على الرغم من رفع عدد القوات المسلحة ، بفعل استدعاء النساء والفتيان والكهول الذين عادوا الى المصانع ، بينما انخفض عدد عمال الزراعة . وبالاختصار ارتفع عدد

العاملين في المشاريع المدنية المختلفة من ٠٠٠ ٧٥٠ ٤٥ في السنة ١٩٣٩ الى ٥٤ مليوناً في السنة ١٩٤٤ .

عند نهاية الحرب ، كان انتاج الولايات المتحدة ٦٨٤ مليون طن من الفحم الحجري (نصف الانتاج العالمي) ، و ٢٤٤ مليون طن من البترول (الـ ٢/٣) ، واكثر من نصف الانتاج العالمي من الكهرباء . وكانت الصناعة الاميركية مجهزة لانتاج ٩٥ مليون طن من الفولاذ، ومليون طن من الالومينيوم ، و ٢٠ مليون طن من السفن ، و ٠٠٠ ١٠٠ طائرة ، و ٠٠٠٠ ١٢٠ طن من المطاط التركيبي . وكان لديها اكبر اسطول تجاري (يوازي محوله ثلاثة اضعاف محول اسطول المملكة المتحدة) والطيران التجاري الوحيد الذي يضم ٠٠٠ ١٥ طائرة .

العودة الى احوال ما قبل الحرب

طرحت نهاية العمليات الحربية وتسريح جزء من القوات المسلحة وتوقف جزء من صناعات الاسلحة مسألة العودة الى احوال ما قبل الحرب . فهل سيؤدي الافراط في تجهيز البلاد الى قيام أزمة اقتصادية جديدة وانتشار البطالة مرة اخرى ؟ كلا فان المخاوف من حدوث ذلك لم تتأيد ؛ وقد تمت العودة الى احوال ما قبل الحرب بسرعة ودون اثارة صعوبات كبرى . فان الصناعات الحربية الهامة (السفن والطيران والالومينيوم والآلات) قد خفضت تخفيضاً كبيراً ، ولكن هذا التخفيض قد اعاض منه ازدياد نشاط فروع صناعية اخرى ، وبصورة خاصة فروع صناعة المواد الاستهلاكية التي انميت من اجل تلبية حاجات السوق الداخلية والخارجية . فحافظت نسبة الانتاج على مستوى واحد تقريباً : ١٧٠ في السنة ١٩٤٦ ، ١٨٧ في السنة ١٩٤٧ ، ١٩٢ في السنة ١٩٤٨ ، ١٧٥ في السنة ١٩٤٩ . واتاح التقدم التقني انماء صناعات جديدة : المنتجات الكيميائية والالياف التركيبية ، والمصنوعات البلاستيكية ، وانواع الوقود السائل (انطلاقاً من الغاز الطبيعي) واجهزة التلفزة ، والمأكولات المجمدة... وانطلقت الخدمات العامة (غاز، كهرباء ، هاتف) كذلك انطلاقة عظيمة جداً . وزادت الابحاث العلمية والتقنية مختبراتها ، على غرار مصالح الدولة الاتحادية والولايات .

بالرغم من انتشار البطالة مرة اخرى ـ ارتفع عدد البطالين من ٠٠٠ ٠٧٠ ١ في السنة ١٩٤٥ الى ٠٠٠ ١٢٤ ٢ في السنة ١٩٤٧ ، ثم الى ٠٠٠ ٣٩٥ ٣ في السنة ١٩٤٩ ـ فان الانتاج نفسه ، وان انخفض بالنسبة لارقام الانطلاقة الكبرى في ايام الحرب ، قد حافظ اجمالاً على مستوى رفيع جداً اذا ما قورن به في السنوات الاخيرة من فترة ما قبل الحرب ؛ فقد بلغ تقدمه التدريجي ، بين ١٩٤٥ و ١٩٤٩، معدله خلال القرن التاسع عشر، واتاح ارتفاعاً محسوساً في مستوى المعيشة العام . واذا قورن الانتاج الاميركي بالانتاج الاوروبي (باستثناء الاتحاد السوفياتي) ، لاتضح انه مثل ١٥١٪ منه في السنة ١٩٤٧ و ١٣٥٪ في السنة ١٩٤٨ ، في حين لم يمثل سوى ٧٦٪ في السنة ١٩٣٧ .

خطر الازمة
في السنة ١٩٤٩

يرد هذا الوضع الممتاز في السنوات الأولى من فترة ما بعد الحرب الى اسباب عدة : امكن الاحتفاظ بالقدرة الانتاجية بفضل ارتفاع عدد الاميركيين وبفضل « ارجاء طلب » المواد الاستهلاكية التي حرم منها السكان في سنوات الحرب . فبيعت من ثم اعداد كبرى من السيارات والادوات المنزلية واجهزة الراديو اللاقطة . وشيدت مساكن كثيرة . وسهلت هذه المبيعات والابنية وفرة وسائل الدفع الناجمة عن التوفيرات الجبرية المحققة خلال الحرب وسرعة زيادة حجم الاعتمادات المفتوحة للاستهلاك . ويجب ان يضاف الى انطلاقة التجارة الداخلية هذه الدور الذي لعبته التجارة الخارجية . فقد كانت الولايات المتحدة قادرة وحدها آنذاك على ان توفر للسوق العالمية المواد الاولية ، والآلات الضرورية لاعادة بناء اوروبا ، والمواد الغذائية التي تحتاج اليها اوروبا وآسيا .

الا ان الاتجاه انقلب في السنة ١٩٤٩ وارتسم في الافق تأخر اقتصادي ناجم عن تحسن الانتاج الزراعي والصناعي في الدول الاوروبية وتدني الطلب في الاسواق الداخلية . فانخفض انتاج الصناعات الاساسية . واشتدت بصورة خاصة الازمة الزراعية بفعل تعاقب المحاصيل الجيدة التي استتبعت انخفاض الاسعار انخفاضاً محسوساً جداً . فبلغ عدد البطالين زهاء ٤ ملايين شخص وجاوز الـ ٤ ٥٠٠ ٠٠٠ في اوائل السنة ١٩٥٠ .

التدابير المتخذة
لايقافه

هو تدخل الدولة والعودة الى سياسة التسلح ما اوقف خطر الازمة . لقد عمل الرئيس بمشورة خبرائه الاقتصاديين واستخدم صلاحياته للتأثير تأثيراً سريعاً وفاعلاً على الاقراض (بواسطة الخزانة العامة ودائرة الاحتياط الاتحادي) وعلى الدخل القومي (بسياسته الجبائية) . فتمكن من ثم من ايقاف الازمة بتنظيم المبيعات بالدين (تخفيض الآجال الى ١٥ او ١٨ شهراً ، ايجاب دفع ٢٠٪ من قيمة السلع عند البيع ، و ٣٣٪ من قيمة السيارات) ، وبزيادة معدل احتياطي المصارف بالنسبة للودائع ، مما يحد من امكاناتها الاقراضية ، وبمراقبة الرهونات المعقودة من اجل بناء المساكن ، وباعتماد سياسة اعمال كبرى او بتخفيض الضرائب ، وبمنح المزارعين قروضاً وفيرة بشراء الفوائض المخزونة او بفتح الاعتمادات ، وبضمان المساواة التي قامت قبل السنة ١٩١٤ بين الاسعار الزراعية والاسعار الصناعية لمساعدة « سعر المساندة » . واخيراً بالاكثار من طلبات البضائع المعدة للدول المقررة مساعدتها في اوروبا وآسيا .

وبغية الابقاء على ما يشتريه من الولايات المتحدة الاجانب المفقرون ، والمفتقرون الى النقد النادر ، والعاجزون عن التصدير ، رفعت الحكومة — او مصرف التصدير والاستيراد — قيمة القروض ، وحتى الهبات ، اي انها « امدت المشترين المحتملين بقيمة مشترياتهم » . ومنذ السنة ١٩٤٨ زادت اهمية الهبات وتدنت اهمية القروض : فان الدول التي قد تدفعها البطالة والاضطرابات الاجتماعية الى اعتماد خطة اشتراكية ، وتكون محالفتها ضرورية للولايات المتحدة بغية اقامة « نظام دفاع اميركي » في وجه الاتحاد السوفياتي : الصين ، الفيليبين ، كوريا ،

اليابان ، تركيا ، ايطاليا ، فرنسا ، النمسا ، اليونان ، المانيا ، قد استفادت بموجب مشروع مارشال من قروض لا تسدد ، وسلع مجانية ، وقروض طويلة الاجل .

ثم ان النهضة الاقتصادية ، التي بدأت قبل انفجار الحرب ، قد تعززت بعد السنة ١٩٥٠ بفعل الحرب الكورية واعادة تسليح اوروبا الغربية . فقد اجريت تعبئة صناعية واقتصادية جديدة خزنت المواد الستراتيجية الطابع . وارتفع انتاج الفولاذ (١٩٥١ = ١٠٣ ملايين طن) وأعيد فتح بعض المصانع المقفلة في السنة ١٩٤٥ ، كمصانع المطاط التركيبي ، والمطاط التركيبي ، والطيران . وفتحت مشاريع ومعامل جديدة . وجرت نهاية الحرب الكورية في السنة ١٩٥٣ الى تأخر اقتصادي جديد . فرفع هبوط الانتاج الصناعي مرة اخرى عدد البطالين الى زهاء ٤ ملايين في شهر آذار من السنة ١٩٥٤ . ولكن الابقاء على ميزانية عسكرية مرتفعة (٦٤,٪ من الميزانية الاتحادية في السنة ١٩٥٨) ، وتوسع حركة بناء المساكن بفضل توسيع القروض مقابل رهن العقارات ، وانطلاقة صناعة السيارات بصورة خاصة (٨ ملايين سيارة في السنة ١٩٥٥) والمبيعات التقسيطية التي بلغت ٦٢ مليار دولار في السنة ١٩٥٥ ، وزيادة تعويضات البطالة وتخفيض الضرائب ، كل ذلك قد اوقف حركة الهبوط .

وهو تدخل الدولة كذلك ما مكن الاستهلاك وحال دون انفجار ازمة جديدة عند نهاية الحرب، ولكنه لم يحل المسألة التي طرحها ابداً الفرق الكبير بين حجم انتاجي ضخم والامكانات الاستهلاكية التي لم توازه قط.فان الطاقة الانتاجية الصناعية التي ارتفعت بنسبة ٥٥,٪ بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥٣ ، وربما بلغت ، في السنة ١٩٥٥ ، ١٩٠٪ من مستواها في السنة ١٩٤١ ، كانت ابعد من أن تستخدم كلها ، ولا سيا في انتاج المواد الاستهلاكية : فهي لم تبلغ سوى نسبة ٧٥٪ في صناعة السيارات وصناعة اجهزة التلفزيون ، و ٥٠ بالمائة في صناعة الأدوات الكهربائية المنزلية ، و ٣٠ بالمائة فقط في الصناعة القطنية بفعل انطلاقة المنسوجات الاصطناعية بصورة خاصة . وفي بعض الحقول الهامة ، كالمنسوجات والملابس ، لم يرتفع الانتاج عملياً منذ السنة ١٩٤٧ ، فشملت البطالة ٢,٥٦٤,٠٠٠ عامل . وفي السنة ١٩٥٤ جر حجم المبيعات التي توفر دخول المشترين لمدة طويلة ، وحجم القروض مقابل رهن العقارات، الى تدني معدل الصفقات وتكديس المخزونات . وفي هذه الاثناء ارتفعت قيمة الأموال الموظفة في الصناعة ارتفاعاً مطرداً، فزادت الطاقة الانتاجية، وبالتالي المخزونات التي لن ينقصها سوى ارتفاع عدد المستهلكين وقدرتهم على الشراء .

التوسع الاميركي

كانت الولايات المتحدة « دار صناعة الديموقراطيات » ، فوفرت لكافة الحلفاء،بموجب قانون الاعارة والتأجير،الاسلحة والمنتجات الضرورية للحرب. ولكن البلدان المدينة لم يتوفر لديها ، لتسديد ديونها ، لا دولارات ولا ذهب بكمية كافية ، ولا سلع . يضاف الى ذلك انها كانت كلها بأمس الحاجة الى رؤوس الأموال من اجل الحصول على المواد الغذائية والمواد الأولية والأدوات الضرورية . فأتاحت هذه الظروف

الولايات المتحدة ، بفضل تفوقها المالي الساحق ، احتلال مراكز من المرتبة الاولى في العالم غير الشيوعي .

وبغية تسهيل المقايضات ، اضطرت الولايات المتحدة الى منح قروض للبلدان صاحبة العلاقة بواسطة مصرف التصدير والاستيراد ، وبعد السنة ١٩٤٧ ، بواسطة مشروع مارشال الذي لحظ هبات (٨٠ بالمائة اجمالاً) وقروضاً طويلة الاجل (٢٠ بالمائة) . فارتدى التوسع الأميركي في جوهره من ثم طابعاً مالياً ، وزاد انفاق الأموال في الخارج بعد السنة ١٩٤٩ بواسطة النقطة الرابعة التي أقرها الرئيس ترومان من أجل تنمية المناطق المتخلفة عن طريق انفاق اموال اميركية خاصة .

وهي الصناعة البترولية والمنجمية (معادن غير حديدية) بصورة خاصة ، وصناعة المطاط والصناعات الكيميائية ما اجتذبت رؤوس الأموال الأميركية : في كندا – حيث اشرفت على انتاج النيكل والبترول والفولاذ والالومينيوم والكتان الحجري – واميركا اللاتينية ، ولا سيما البرازيل ومنطقة الكرايبيب (امتصت القارة الاميركية من ثم ٢/٣ الاموال الموظفة) والبلدان الاوروبية (٢٠ بالمائة) وممتلكاتها الافريقية بصورة خاصة ، والشرق الادنى . وفي الشرقين الادنى والأوسط اللذين يملكان ٢/٣ احتياطي البترول في العالم ، ساعدت الدولة الاميركية الشركات الاميركية ، ستاندرد اويل ، وسوكوني فاكوم ، وارامكو ، على حصر واقصاء المصالح البريطانية في العراق وايران والكويت ومصر والمملكة العربية السعودية ؛ وفي اميركا الجنوبية اشرفت الولايات المتحدة على ثلثي الانتاج وثلاثة أرباع التكرير في فنزويلا .

وفي الحقل الجوي ، حيث وقفت الولايات المتحدة موقف الدفاع عن «حرية الاجواء المطلقة» ، اي عن حق التحليق فوق اراضي الدول الموقعة اتفاقات دولية ونقل المسافرين والبضائع اليها ، بصرف النظر عن نقاط الانطلاق والوصول ، أمنت شركات الطيران الاميركية اتصالات مباشرة بكافة بلدان العالم الحر .

مشروع مارشال

ان مشروع مارشال الذي اوحته دوافع انسانية والتصميم على الدفاع عن مفهوم معين للحياة تهدّده الشيوعية ، قد كان كذلك افعل وسيلة لبسط وتدعيم النفوذ الاميركي في العالم واحدى ادوات توسعها الكبرى . فان هذا المشروع المعد لان يمد البلدان الاوروبية ، عن طريق القروض او الهبات ، بالدولارات الضرورية لانتعاشها الاقتصادي ، قد دخل في حيز التنفيذ في السنة ١٩٤٨ ، بعد انشاء منظمة التعاون الاقتصادي الاوروبية التي ضمت ١٦ دولة غربية . واشترط القانون بعض التدابير « لحماية الاقتصاد الاميركي » : على كل دولة ان تتعهد باستخدام المساعدات الاميركية لتعديل موازنتها وتمكين نقدها ، والتعاون مع الدول الاخرى الداخلة في المنظمة ، وتسهيل نقل الخامات الضرورية (الكروم ، التونغستين ، الانتيموان ، الخ .) الى الولايات المتحدة . واخضع استخدام المساعدات لمراقبة دقيقة تتولاها ادارة التعاون الاقتصادي – باشراف بعض رجال الاعمال –

التي حق لها مراقبة الادارة المالية والاقتصادية في الحكومات المستفيدة. وفرض القانون على هذه الاخيرة اتفاقات ثنائية تمكن اميركا من الحصول على الخامات النادرة والستراتيجية التي تنتجها اراضيها الاقليمية والاستعمارية والتي تشجع توظيف الاموال الاميركية الخاصة في هذه الاراضي. ثم برز هذا الطابع المتدل التجرد حين انصهر مشروع مارشال في المشروع المعروف بـ «مشروع الامن المتبادل» وارتدى بعد السنة ١٩٥٢ طابعاً عسكرياً بصورة خاصة.

اتاح تطبيقه للحكومات الاوروبية إعادة بناء اقتصادها بالوسائل الحرة الكلاسيكية دونما حاجة الى اللجوء الى النظام الموجه والتخطيط اللذين يتمينان على كل اقتصاد متقهقر. فاستطاعت الولايات المتحدة من ثم نشر مبادئها الاقتصادية والسياسية في البلدان التي كاد البؤس وفقدان الامن فيها يتسببان في اثارة اضطرابات اجتماعية ويهددان من ثم مراكز نظام الحكم الرأسمالي بتضييق نطاق ممارسة النظام الحر بانتقال هذه البلدان الى معسكر الشيوعية؛ واستطاعت كذلك تصريف مخزوناتها من المحاصيل غير المبيعة وحل مسألتها الزراعية الخطيرة جزئياً. وأفادت اخيراً من تدعيم تفوقها الاقتصادي، اذ ان القروض والهبات الموفرة للبلدان الاوروبية قد ربطت هذه الاخيرة بالدولة المقرضة.

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حق رقابة استخدام الاموال الذي أولاها إياه قانون مساعدة الدول الاجنبية، قد اتاح للسلطات الاميركية الاشراف على المشاريع الصناعية وابداء الرأي في ملاءمتها وجانب اهميتها (اقتضى عرض مشروع مونّيه عليها)، فتدخلت في انفاق الاموال العامة وتمكنت من مقاومة انشاء مشاريع قد تعيق مشاريع مواطنيها. ولم تشمل مراقبتها السياسة الاقتصادية فحسب، بل ميزانيات الدول، اي سياستها المالية ايضاً؛ فاتاحت لها من ثم التدخل تدخلاً مستمراً في السياسة العامة للدول المساعَدة. ولما كانت المساعدات «قابلة الابطال حين لا تتفق ومصلحة الولايات المتحدة الوطنية»، فقد كانت منوطة بانقياد الحكومات.

واخيراً، كانت نتيجة منع تصدير «المواد الستراتيجية» الى الدول الشرقية اشبه بانصدام العلائق التجارية بين الشرق والغرب وزيادة ارتباط الغرب اقتصادياً بالولايات المتحدة.

الازمة الزراعية. ان القطاع الزراعي، وهو موضع الضعف في الاقتصاد الاميركي، قد استمر في التأخر اكثر فأكثر؛ فقد تدنى قسطه في الدخل القومي الى ٧,٢٪ في السنة ١٩٥٠ والى ٥,٦٪ في السنة ١٩٥٥؛ وفي السنة ١٩٤٧ لم يعمل فيه سوى ١٩٪ من مجموع السكان، وفي السنة ١٩٦٢ ٧,٧٪ فقط. الا ان الحرب وفترة ما بعد الحرب قد اعطتا الزراعة ازدهاراً حقيقياً. فان الانتاج، الذي حرّكه طلب داخلي وخارجي متزايد، قد أدى في الزراعة الى استخدام المزيد من الآلات والاسمدة والمواد المبيدة الحشرات وطرائق لتحسين الاصناف. فارتفع عدد آلات كثيرة الى اربعة اضعافه خلال عشر سنوات. ولكن حركة تجميع الاستثمارات، بالمقابلة، كانت آخذة بالاتساع، بحيث ان المزارع الضامنة

أقل من ٤٠ هكتاراً ، التي كانت تمثل ١٣،٥ ٪ من المساحة المزروعة في السنة ١٩٤٠ ، لم تمثل سوى ١١،٤ ٪ منها في السنة ١٩٤٥ وأقل من ١٠ ٪ في السنة ١٩٥٥ ، بينما ارتفع معدل مساحة الاستثمارات من ٧٠،٤ هكتاراً في السنة ١٩٤٠ الى ٨٨ في السنة ١٩٥٤ ، والى ١٢٨ في السنة ١٩٩٤ . وهبط عدد الاستثمارات الزراعية من ٠٠٠ ٨٩٥ ٥ في السنة ١٩٤٥ الى ٠٠٠ ١٧٤ ٣ في السنة ١٩٦٤ . وقد انتج زهاء ٨٠ ٪ من كافة المحاصيل الزراعية ٧،٣٣ بالمائة من المزارعين ، بينما لم ينتج الثلثان الآخران سوى ٢٠،٥ بالمائة . واذا ما تطلعنا في ملكية الارض ، لتبين لنا ان ٧٣ بالمائة من المزارعين كانوا ملاكين في السنة ١٩٥٠ مقابل ٦١ بالمائة في السنة ١٩٤٠ ، ولكن ١،٩ بالمائة من بينهم يملكون اكثر من ٤٠ بالمائة من الارض الصالحة للزراعة ، و١٣ بالمائة يملكون ٦٥ بالمائة ، بينما لا يستثمر ٦٩ بالمائة من بينهم سوى ١٧،٨ بالمائة . وانما قامت في الجنوب والجنوب الشرقي بصورة خاصة الاستثمارات الصغرى الحقيرة حيث اقتصرت المزرعة على كوخ خشبي بسيط ، والقوة المحركة على بغلة واحدة ، بينما قامت في الغرب الاملاك الكبرى المصنمة ، « المصانع الريفية » ، حيث يدفع استخدام المزيد من الآلات الى تجميع الاملاك لانه لا يعطي انتاجاً كبيراً الا في الاستثمارات الكبرى. فعجّل ذلك في تقهقر المزارع التي لم يبلغ رقم مبيعاتها السنوية ٢٥٠٠ دولار . وكانت النتيجة ان الثورة التقنية التي بدأت منذ السنة ١٩٣٠ ، وتحسين طرائق الاقراض ، والتمويل والتجارة ، « أدّت الى رأسمالية زراعية جديدة و قوية ، محكوم عليها بتوسع مستمر ، لا يفيد منها سوى عدد مطرد الانحصار من الافراد والمشاريع » (ج. غوتمن) . ومنذ السنة ١٩٦٤ ، أنتج ٣ بالمائة من المزارعين ثلث قيمة كافة الانتاج الزراعي المعد للتجارة .

استمر الانتاج من ثم في الارتفاع ، ولكن على الرغم من ازدياد الاستهلاك الداخلي والصادرات ، ازدادت مخزونات الحبوب كل سنة ، فبلغت ١٥ مليون طن في السنة ١٩٥٢ ، و٢٤ في السنة ١٩٥٣ ، و٣٨ في السنة ١٩٦١ ، فأصبح الوضع عسيراً لان المخزونات العالمية الفائضة عن الحاجة تتكدس سنة بعد سنة .

بغية معالجة هذه الازمة العميقة ، الناجمة عن تضخم الانتاج ، فكر بعضهم بتحسين التغذية القومية . وهذا ما استهدفه مشروع قانون « ايكن » في السنة ١٩٤٨ ، الذي اقترح ان تؤمن لكل مواطن حصة سنوية اساسية تضمن « الصحة الكاملة » ، وان ينظم كذلك التصدير الى مئات الملايين من سكان الكرة الارضية الذين تعنى بهم منظمة التغذية (فاو) . ولكن مشروع قانون ايكن قد رُفض في السنة ١٩٤٩ ، وكان التصدير المجاني عرضياً وغير ذي اهمية . فحد من الازمة الزراعية بتدخل مستمر من قبل الدولة التي اعتمدت سياسة مساندة الاسعار (٧ مليارات دولار في السنة ١٩٥٥) : قروض ، شراء الفائض ، تعويضات عن تخفيض مساحات زراعة الحبوب ، التي لم يفد منها سوى كبار المزارعين ومتوسطيهم . ومنذ السنة ١٩٥٠ انخفضت الدخول الزراعية انخفاضاً مطرداً منتظماً . فبلغت في السنة ١٩٥٥ ادنى مستواها

منذ السنة ١٩٤٢ ، بالرغم من ان الانتاج قد بلغ رقماً قياسيا ، وهبطت قوتها الشرائية بنسبة ٣٤ ٪ منذ السنة ١٩٤٨ .

تدخل الدولة المتزايد

يتضح من ثم ان تدخل الدولة كان مستمراً في كافة الحقول . وعلى الرغم من ارتفاع الاسعار خلال الحرب وسهولة تحويل المصانع العسكرية حالت ذكرى الازمة الكبرى دون العودة الى النظام الحر القديم . وقد اعرب « قانون الاستخدام » الصادر في السنة ١٩٤٦ عن شاغل الاطمئنان الذي سيطر على كافة الافكار : كل حكومة ملزمة ببعض الواجبات حيال المواطنين . عليها ممارسة صلاحياتها للابقاء على « حد اقصى من الاستخدام والانتاج والقوة الشرائية . فدولة النظام الحر خلال العشرينيات قد دخلت التاريخ ، ونحن اليوم امام « نظام اقتصادي يرتكز الى مبدأ الحرية ، ولكنه لا يستتم ولا يتسع ولا يقوّم عيوبه الا بالافادة من نظام تدخلي قوي » (د . فوشيه) . لقد تعود المتعهدون والنقابات العمالية الاعتماد على الدولة ، على غرار المزارعين الذين ما كانوا ليستطيعوا العيش بدون مساعدتها . وقد رفضوا كلهم نظاماً موجها يكون بمثابة تخطيط ملزم ويحرم المتعهد من حق التقرير ، ولكنهم طالبوا جميعهم بتدخل يسهل التسليم به . ان الادارات الاقتصادية في الدولة غالباً ما تكون مسندة الى صناعيين وصيارفة مقتنعين بان صوالح الاعمال وصوالح الامة تتطابق مطابقة تامة (« ان ما هو صالح لـ « جنرال موتورز صالح لاميركا ») . يضاف الى ذلك ان هناك بداية تخطيط اعلامي : فقد ضمت معظم المشاريع الكبرى دوائر تخطيط معدة في الدرجة الاولى لدور اعلامي . اما تخطيط السياسة الاقتصادية فقد تحقق في « التقرير الاقتصادي » السنوي الذي يضعه الرئيس ويوضح الاهداف التي يفرضها اتفاق الظروف (الاستخدام ، نسبة الزيادة ، الاسعار ، ميزان المدفوعات ...) والتي اضيفت اليها ، في وقت متأخر ، اهداف يفرضها نظام الدولة وتتعلق بالصحة والتربية الوطنية .

ان هذا الدور تقوم به الدولة في الحياة الاقتصادية ليس الدور الوحيد الذي رأته يتعاظم ويتسع . فان ميزانية الدولة الاتحادية التي بلغت ٣ مليارات دولار في السنة ١٩٢٩ قد ارتفعت الى ٤٢ ملياراً في السنة ١٩٤٨ حين اخذت موازنة السلم العسكرية تتزايد تزايداً فقط ، كما ان نفقات الاتحاد العامة التي مثلث ٩,٩ بالمائة من الدخل القومي في السنة ١٩٢٩ ، قد مثلث ٢٥,٨ بالمائة في السنة ١٩٥٥ . وانشئت ونظمت نهائياً في السنة ١٩٤٩ هيئة موظفين ينعمون بنظام خاص . وفي هذا التاريخ ارتفع عدد الموظفين الاتحاديين من ٥٧٠٠٠٠ في السنة ١٩٢٩ الى اكثر من مليونين ، وجاوز مجموع العاملين في مصالح الخدمة العامة الستة ملايين . وكان لدى الدولة احتياطي مدني وعسكري من الممتلكات المنقولة يساوي اكثر من ٢٧ ملياراً ويشتمل على مليون وسيلة نقل واكثر من ١٠٠ مشروع صناعي وتجاري . فألفت « اوسع مشروع مستقل في العالم » بحسب تعبير لجنة « هوفر » .

فلا عجب ، والحالة هذه ، اذا ما زادت سرعة التطور الذي سبقت الاشارة اليه والذي

اتجه اكثر فاكثر الى احلال العمل الاتحادي على العمل المحلي ، واذا مـــا حل « نظام اتحادي جديد » ، يحول الولايات الاعضاء الى وكلاء تنفيذ سياسة الاتحاد ، على النظام الاتحادي التقليدي. وقد تأيدت السلطة الاتحادية نهائياً منذ ان ابطل التفسير الثنائي التعديل العاشر الذي سبق وغيره قرار المحكمة العليا في السنة ١٩٣٧ . وكان ان هذه الاخيرة ، التي غالباً ما تعدت صلاحياتهـا الاساسية للوقوف في وجه الكونغرس ، لم تعد منذئذ سوى محكمة تنحصر مهمتها في تأويل القوانين وابداء الرأي في مطابقتها للدستور .

امام هذا الطغيان ، اكتفى مجلسا الكونغرس بالتصويت على القوانين - الاطر ، مما افضى الى تعزيز السلطة الرئاسية المطلقة التي لم يتوفق لا حق مجلس الشيوخ بالنقض ولا الرقابة اليقظى الحد منها كما من قبل. ومن اجل مقاومة اتساع صلاحيات الرئيس هذه « ودكتاتورية » ف.د. روزفلت الذي اعيد انتخابه في السنة ١٩٤٤ للمرة الرابعة ، اقر في السنة ١٩٤٧ التعديل الذي حظر اعادة الانتخاب للمرة الثالثة والذي اصبح ساري المفعول في السنة ١٩٥١ .

نظام المجتمع :
ضعف الطبقة العمالية

كانت نتيجة الازدهار العام ، على الرغم من تأخر الانتـــاج في السنة ١٩٤٩ ، والسنتين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، والقوانين الاجتماعية الموروثة عن « النهج الجديد » ، ابقاء القوة الشرائية في مستوى على بعض الارتفاع . الا ان التفاوت الاجتماعي ما زال كبيراً جداً ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار وارتفـــاع مستوى المعيشة الذي جعل دخل الـ ٣٠٠٠ دولار في السنة ١٩٥٨ مجاوراً للفقر . فان نسبة الدخول المئوية التي لم تبلغ ٢٠٠٠ دولار والتي كانت ٦٤ بالمـــائة في السنة ١٩٤١ قد هبطت في السنة ١٩٤٨ الى ٢٦٫٥ بالمائة ، والى ١٤٫٩ بالمائة في السنة ١٩٥٧ . أما الدخول التي جـــاوزت ٥٠٠٠ دولار ، والتي لم يحصلها سوى ٤ بالمائة من السكان في السنة ١٩٤١ ، فقد حصلها ٢٦٫٥ بالمائة منهم في السنة ١٩٤٨ و ٣٤ بالمائة في السنة ١٩٥٤ (٤٤ بالمائة من مجموع الدخول). فيتضح من ثم ان عدد الفقراء الذين يحصلون اقل من ٢٠٠٠ دولار تدنى كثيراً، ولكن ارتفاع كلفــة المعيشة قد ثقلت وطأته عليهم . فان ٫/١ السكان قد عاشوا عند حدود الفقر ، وبقي عدد الاغنياء ضئيلا نسبياً ؛ وما زال التفاوت كبيراً جداً في مستويات المعيشة ، على الرغم من تضاؤله منذ ١٥ سنة ، لا سيا وان معظم الدخول المتوسطة والمرتفعة هي دخول العائـــلات التي ما كانت لتبلغ هذا المجموع لولا عمـــل عدد من اعضائها (الـ ٣/٢) . وان الـ ٦٥٠٠٠٠٠ شخص الذين امتلكوا اسهم الشركات المغفلة مثلوا اقل من ٧٪ من مجموع السكان البالغين وتقاضى ربعهم اكثر من ١٠٠٠٠ دولار وحصّل ١ بالمائـــة منهم ٤٢ بالمائة من مجموع الرباح . و« يبدو ٢٫٠ - ٣٫٠ بالمائة من الاميركيين ، كحد اقصى، تقاسموا الفوائـــد المالية التي وفرتها الاعمال الكبرى » (و. رايت ملز) . زد على ذلك ان تفاوت الدخول الظاهرة قـــد ازداد بفعل شتى اشكال المكافآت غير الخاضعة للضرائب او الخاضعــة لرسوم ادنى من رسوم الدخول ، ولا سيا بفعل قوائم النفقات التي يتقدم بها مسؤولو الادارات ، والفوائـــد العينية

(سيارات المشروع ، الاجازات المدفوعة ، الرحلات ، محطـــات الاستحمام ، الاشتراك في النوادي الخاصة ، شراء البنزين بموجب بطاقات) ، التي يجب ان يضاف اليهـا طريقة التمويل الذاتي ، التي انقضت ، ولا ريب في ذلك ، الرباتح المدفوعة الخاضعة للضريبة ، ولكنها اتاحت توزيع الأسهم المعفاة منها ، بصرف النظر عن التهرب من الضرائب « الذي سهّله تعقيـد غريب في التشريع ومهارة خبراء الجباية » .

كانت نتيجة كل ذلك مجتمعاً يختلف كل الاختلاف عن مجتمع اوروبا بنظامه وايديولوجيته ؛ فقد بدت القوى النقابية وكأنها تتمتع بقدرة عظيمة ، وضمت اعداداً كبرى ارتفعت من قرابة ٩ ملايين عضو الى قرابة ١٥ مليوناً . اما في الواقع فانهـا لم تضم سوى ٢٥ ٪ من العمال وكانت اعجز من ان تعادل خصومها . اجل لقد نظمت الاضرابات وفازت احياناً برفع الاجور الذي اعاد الاجور الحقيقية بعد ان كاد ارتفاع الاسعار يفقدها قيمتها ، ولكن تدخلاتها في الحيـــاة السياسية كانت متفاوتة الفعالية : ففي السنة ١٩٤٨ اوعزت النقابات بالتصويت للرئيس ترومان ؛ اما في السنة ١٩٥٢ فلم توعز بانتخاب المرشح الديموقراطي ، ولكنها بالمقابل قامت بدور حاسم في فوز الرئيس كندي في السنة ١٩٦٠ . ويرد ذلك الى ان الحركة النقابية في هذه البلاد ، التي ليس فيها لا حزب اشتراكي (٠٠٠ ٨٠ صوت في انتخابات السنة ١٩٤٤ ، اي ١٢٥ ،٠ بالمائة من المقترعين) ولا حزب شيوعي ، بقيت منقسمة بين الحادين لم ينصهرا في اتحاد واحد الا في السنة ١٩٥٥ وبين النقابات المستقلة ؛ انها « حركة نقابية مصلحية ، يديرها موظفون نقابيون يتقاضون اجوراً مرتفعة تشبعوا من مبادىء الحرية وبقوا اوفياء لأحلام المهاجرين الاول الذين اعتبروا الارتقاء الاجتماعي شأناً فردياً : اعتبروا صوالح التجارة والعمل متكاملة واعتبروا التعاون بينهما ضرورياً ؛ فلم يحاولوا سوى تحقيق فوائد جزئية خاصة وبلوغ اهداف قصيرة الاجل ، بل نفروا من مبدأ الصراع الطبقي .

على ان في الولايات المتحدة طبقات ، ولكن الوعي الطبقي نادر الوجود . فان ازدهـــار البلاد العام ، ونظام التقاعد ، والتأمين على الحيـــاة الذي افاد منه اكثر من نصف الاجراء ، والتأمين ضد البطالة ، والاجازات المدفوعة ، وتحديد مدة العمل الاسبوعي بقرابة اربعين ساعة ، وقيام الاتفاقات الجماعية التي أمنت ، في العديد من المشاريع ، ضد المرض ، وحوادث العمل ، والعمليات الجراحية ، وتوفر المتاجر التعاونية ، ودور التوليد ، والمكتبات ، والمدارس احياناً ، وإقدام شركتي فورد وجنرال موتورز على تعيـــين اجر سنوي ادنى مضمون — وكان من شأن مثلهما هذا ان امتد الى مؤسسات اخرى — ، وارتفاع الاجور الذي غالباً ما عقب ارتفاع كلفة المعيشة ، واخيراً بعض التجانس في اشكال الحياة والملبس ، وفقـــدان وسائل التعبير الخاصة بالطبقة العمالية ، كل ذلك قد اسهم في خلق مناخ غير ملائم لنشوء الصراع الطبقي . ويجب ان يؤخذ بعين الاعتبار كذلك التطور الذي حدث في المجتمع الاميركي بفعل ارتفاع عدد المنتمين الى « الطبقة المتوسطة » . فان طبقة صغار اصحاب المشاريع المستقلين في حياتهم والعـــاملين

لحسابهم ، ولا سيا فئة اصحاب المشاريع الريفيين المستقلين ، قد هبطتا عدديا امام توسع حركة تجميع المشاريع ؛ وبالمقابلة احرز القطاعان الثاني (٢٦ بالمائة في السنة ١٩٥٠) والثــالث (٥٧ بالمائة في السنة ١٩٥٣ مقابل ٤٠ في السنة ١٩٢٠) نجاحاً وتقدماً كبيرين . كما ان عدد المستخدمين ، والعمال الاختصاصيين واعضاء المهن الحرة ، كان آخذاً في الارتفاع بينما كان عدد العمال غير الاختصاصيين آخذاً في التدني . اجل لقـد كان العديد من « ربط العنق البيضاء » اجراء ولم يفضل مستوى معيشتهم مستوى معيشة العمال ، وغالباً ما كان عملهم ، بفعل استخدام الآلات ، شبيهاً بعمل عمال المصانع ، ولكن هذه العناصر المتزايد عددها يوماً بعد يوم قــد ألفت ما يشبه بورجوازية صغيرة تحرص على اعتبار نفسهـــا متميزة عن الطبقة العمالية بذهنيتها وغوع معيشتها . لذلك فان شطراً كبيراً من البروليتاريا قد ارتبطت شخصياً بالطبقات المتوسطة ولم تصطبغ بأية صبغة من الذهنيـة البروليتارية ، بينما خفف ارتفاع مستوى المعيشة من حـدّة العداء لأصحاب الامتيازات .

على ان تصلباً لا يمكن انكاره قد حدث في موقف الطبقات الاجتماعية . فان سهولة الانتقال من طبقة الى أخرى ، التي كانت كبيرة نسبياً في اوائل القرن ، والتي اتاحت الامكانات المتشابهة بفضلها ارتقاءات كثيرة وسريعة ، قد تضاءلت تضاؤلاً كبيراً . كما ان الدرجـات الوسيطة قد تكاثرت بينما تضاءلت امكانات الوصول الى المراكز القيادية . فقد احتـل المزيد من الوظائف العليا في الصناعة اناس متخرجون من معاهد مهنية او معاهد هندسة او جـامعات . وانتمى نصف ارباب الصناعة الى الطبقة العليا . وبلغت النسبة بين رجـال السياسة اكثر من الثلث ، وبات انتقال الوظائف بالوراثة امراً كثير الوقوع يوماً بعد يوم (٥٧ بالمائة بين ارباب الصناعة ، مع العلم ان هذه النسبة اكثر ارتفاعاً في المهن الحرة)، والارتقاء العمودي ابطأ منه في ما مضى، وانحصرت التغييرات الوظيفية في الانتقال من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا . ووفر الصناعيون وارباب المهن الحرة ، الذين الفوا ١٠ بالمائة من السكان ، ٧٠ بالمائة من رؤساء المشاريع . فتتضح من ثم النزعة الى تأليف طبقات مغلقة شبيهة بها في اوروبا ، على الرغم من ان الثروة مـا زالت هنا ، اكثر من اوروبا ، الطابع المميز للطبقة .

اميركا الاخرى

كان هناك من ثم اميركـا محجوبة ، « اميركا الاخرى » ، التي وصفهـــا « ميكائيل هارنغتون » والتي تمثل بين ٢٠ و ٢٥ بالمائة من السكان تقريباً. ان اميركا غير المنظورة هذه هي اميركا الفقراء الذين « لا وجه ولا صوت » لهم ، ولا ينتسبون الى اية نقابة او جمعية اخوية ، وليس لهم اية « كتلة » تدافع عنهم ، ويتجاهلهم رجال السياسة ، ويتضورون جوعاً ، ويفتقرون الى مساكن لائقة (١٢ مليون مسكن من اصل ٥٥ مليوناً اعتبرت في السنة ١٩٥٦ غير صالحة للسكنى) ، ويعيشون دون مستوى المعيشة العادي . لقد تألف هذا « العالم السفلي » من العمال الاتفاقيين ، والعمال غير الاختصاصيين ، ومهاجري الزراعة الفصليين ، و « المزارعين » الكثيرين الذين يعيشون حياة بائسة في استثمارات ضيقة جـداً او ينزحون الى

المدن (٥٠٠ ٠٠٠ ١ غادروا مزارعهم في الابلاش خلال ١٠ سنوات)، وعمال بعض « المناطق المتأخرة » (عمال المناجم في الشمال الغربي الباسيفيكي ، وفرجينيا الغربية ، ومنسوتا) ، والطاعنين في السن المضطرين للاكتفاء بمساعدة الحادثة حددت ، منذ السنة ١٩٥٩ ، بـ ٧٠ دولاراً في الشهر بعد سن الـ ٦٥ ، وبعض الاقليات العنصرية : البورتوريكيين ، والمكسيكيين، والزنوج بصورة خاصة . فقد تعاطى هؤلاء الاعمال الدونية واكثر المهن قذارة واقلها دخلا ، وعاشوا في احياء مقفلة شبيهة بالاحياء اليهودية القديمة (في « هارلم » بلغت نسبة الوفيات بين الاطفال ٤٥،٣ بالمائة في السنة ١٩٥٩ ، بينما هي لم تبلغ ١٥،٤ بالمائة في اوخم احياء البيض) . فهم من يعانون من البطالة قبل غيرهم واكثر من غيرهم ، لانهم اول من يسرّحون في ظروف الازمات .

نجمت هذه البطالة عن التقدم التقني ولم تنخفض منذئذ الى اقل من ٤،٣ بالمائة (رقم السنة ١٩٥٤ الذي بات عادياً) . وفي السنة ١٩٥٨ بلغت ٥،١ بالمائة (رقم التأخر الاقتصادي في السنة ١٩٤٩) ، وفي السنة ١٩٦١ ، ٧ بالمائة . وفي اواخر السنة ١٩٦٥ انخفضت الى ٤،٤ بالمائة من مجموع اليد العاملة . فلم يحلّ « المجتمع الميسور » من ثم مسألة اشباع الحاجات الضرورية الاولية لمجموع المواطنين .

التطور المحافظ المتزايد

وهكذا تألفت طبقة موجهة ضئيلة العدد سيطرت على الحياة الاقتصادية وقامت منذ نصف قرن بدور متزايد الاهمية في ادارة البلاد السياسية . فكما قدمت الدليل على ذلك مؤلفات « ر. رايت ملز » (النخبة المسيطرة) ، انحدر اوفر الاميركيين ثروة (اولئك الذين يملكون اكثر من ٣٠ مليون دولار)، بنسبة متزايدة ، من الطبقات العليا : ٦٨ ٪ في جيل السنة ١٩٥٠ ، مقابل ٥٦ ٪ في جيل السنة ١٩٢٥ و ٣٩ ٪ في جيل السنة ١٩٠٠ . وحدث الشيء نفسه في وظائف الحكومة الاتحادية الهامة : فبين الشخصيات الـ ٥١٣ التي شغلتها منذ السنة ١٧٨٩ حتى السنة ١٩٥٣ ، لاحظ ملز ان ٦٠ بالمائة انحدروا من اوفر عائلات البلاد ثروة (وهي تمثل بين ٥ و ٦ بالمائة من عدد السكان) وان ٥ بالمائة فقط انحدروا من عائلات العمال وصغار التجار والفلاحين المتواضعين . وقد تكامل امتزاج ادارة الاعمال بالادارة الحكومية تكاملاً متزايداً . ومع عودة الجمهوريين الى الحكم في السنة ١٩٥٢ تألف اكثر من نصف موظفي الادارة الاخيرة من رجال جاؤوا مباشرة من الاوساط المرتبطة شخصياً ومالياً بالاعمال الكبرى واختيروا بالتعيين لا بالانتخاب ولم يسبق لهم قط ان تعاطوا السياسة . لقد اصبحت الدولة والاقتصاد ، اكثر من اي وقت مضى ، في ايدي الطبقة نفسها .

فلا عجب والحالة هذه اذا ما تعززت النزعتان الانتهازية والمحافظة واذا ما اهملت روح « النهج الجديد » او حوربت . فان المعارضة العنيدة التي صادفها ف.د. روزفلت وبعض مستشاريه لدى بعض المصالح الكبرى والقوى المحافظة ، قد استعادت كل قوتها بعد موت

الرئيس . وتشهد المؤلفات الادبية على زوال حظوة هذه « اليسارية » التي احرزت ذاك النجاح العظيم في الثلاثينيات ؛ وهي تعكس تشوش الرأي العام امام زعزعة النظم التقليدية ؛ فحتى في الاوساط الجامعية والفكرية برزت حركة مناهضة التقدمية عمت الرأي المضاد للمساواة الذي قال به ادباء ومؤرخون من امثال « ت.س. اليوت » و « ارنولد توينبي » ، ودلت على حنين الى حقيقة ثابتة وشغف بما هو مخالف للصواب اذاعتهما كافة وسائل التعبير : السينما ، والراديو ، والتلفزة ، والصحافة طبعاً . فنجم عن ذلك ازدراء حقيقي بالقيم الفكرية في حقل التعليم ، وحذر عميق من كل روح نقدية ورفض البحث في الآراء المقبولة . وهكذا تمادى تأثير جوهريي القرن التاسع عشر ، واولئك الذين ايدوا في العشرينيات عداء الـ « كوكلوكس كلان » لليهود والكاثوليك وتحريم تعليم فلسفة التطور ؛ واولئك الذين قاوموا النهج الجديد الذي سار عليه ف.د. روزفلت بعد السنة ١٩٣٠ ثم اصبحوا انصاراً نشاطاً للماكارتية و « مطاردة الساحرات » ، قبل ان يصوتوا لمصلحة « ب. غولدووتر » ويؤيدوا نشاط « جمعية جون بيرتش » . وهكذا وجد جو عزز الانتهازية كما ابان ذلك دافيد ريسمن (الجمهور المهمل) ، واحترام السلطات الاجتماعية ، والروح القومية ، والاعتقاد بان الطريقة الاميركية في الحياة اعلى شكل حضاري وبأن الذين يتجادلون فيها يكونون « غير اميركيين» اي خونة بالقوة يجب على قوى الامن مراقبتهم .

على الصعيد الداخلي ، كانت الغلبة لسياسة ثورة اجتماعية : انه انتقام ارباب الاعمال من التشريع الاجتماعي الروزفلتي الذي اقره قانون « فاغنر » في السنة ١٩٣٥ ؛ فالغي هذا القانون بمشروع قانون « هارتلي – تافت » الذي حد من ممارسة حق الاضراب في النشاطات القومية الصالح واعطى الرئيس حق تحريمه في الصناعات الرئيسية . ومن ظواهر هذه الحالة النفسية ، في السنة ١٩٥٢ ، اقرار قانون الهجرة (قانون ماك كارن ـ وولتر) الذي ادخل المزيد من الصعوبات على قوانين الهجرة السابقة ، اي على هجرة سكان اوروبا الشرقية والجنوبية . ولكن السلطات الاتحادية بذلت جهوداً تهدف الى تحسين وضع الزنوج – الذين بلغ عددهم ١٧ ٣٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٥٧ – كما يدل على ذلك قرار المحكمة العليا في ١٧ ايار ١٩٥٤ الذي جعل قبول الزنوج الزامياً في كافة المدارس ، ولكنه اصطدم بمقاومة ضارية وظافرة عملياً ابداها السكان البيض في الولايات الجنوبية (قضية « لتل روك ») . بيد ان الزنوج خرجوا من سلبيتهم ولجأوا الى المظاهرات السلمية والعصيان المدني بغية الفوز بالمساواة الممنوعة عنهم – بالرغم من ورودها في التعديل الرابع عشر للدستور – ووضع حد للتمييز العنصري في المؤسسات ووسائل النقل العامة ، والمدارس والجامعات ، والاحياء المقفلة التي يعيشون فيها . وتوصل عناد الرئيسين كنيدي وجونسون الى اقرار قانون وفر لهم ضمانات هامة لاحترام حقوقهم المدنية (اب ١٩٦٥) ، ولكنه اثار موجة جديدة من اعمال العنف والتقتيل التي استهدفت القائلين بالغاء التمييز ، وعيل في الوقت نفسه صبر الزنوج . ثم تخلي عن سياسة اللاعنف حين بدا انها

انتهت الى الفشل ؛ فبرزت حركة « الزنوج المسلمين » الذين قاموا بهجوم معاكس متنصلين كلياً من الثقافة الغربية اليهودية – المسيحية . وكان لهذه الحركة ، بالرغم من قلة عدد الناهضين بهـا ، جانب قوي على الجماهير السوداء التي تخلت اكثر فاكثر عن انقيادهـا كما تشهد بذلك انفجارات الهيجان الحربية والدامية في ديترويت (١٩٤٣) وهارلم ولوس انجلوس في تموز ١٩٦٤ وآب ١٩٦٥ .

الحيـاة السياسيـة

يضاف الى ذلك ان نطاق المجادلات السياسية اصبح اكـثر انحصاراً يوماً بعد يوم . فان تدخل الدولة ، وتوجيهها للحيـاة الاقتصادية ، ودور النقابات ، والتدابير المتخـذة لتوطيد الدخول الزراعيـة ، اي كافـة الاستعدادات التي اعتبرت ثورية في زمن النهج الجديد ، لم تكن لتثير منازعة جدية من قبـل الجمهوريين منذ ان استمالوا اليهم شطراً من الطبقـات المتوسطة والعمالية المتخلقة بالاخـلاق البورجوازية ، وشطراً من الزنوج ايضاً . اما الحزب الديموقراطي فلم يتقدم من المنتخبين ، منـذ فشله ، بأية فكرة جديدة حقـاً . فكانت المسائل الـتي تناولتها المناقشات مسائل ظرفيـة : التعريفات الجمركية ، تأثير التجارة الكبرى ، مناهج السياسة الخارجية ؛ فكانت النتيجة إعادة انتخاب الرئيس ايزنهاور في السنة ١٩٥٦ بـ ٥٧٫٢٨٪ من الأصوات، بينما هو لم يفز الا بـ ٥٥٫٤٪ منها في السنة ١٩٥٢ .

بيد ان فوز كنيدي باكثرية ضئيلة في السنة ١٩٦٠ بدا وكأنه احدث تغييراً في حياة البلاد السياسية . فان الآمال التي بعثها اسلوب ادارته الجديد ، وتأليف وزارته التي ضمت – كما في عهد روزفلت – عدداً كبيراً من رجال الفكر واساتذة الجامعـات ، وبرنامج « الحـدود الجديدة » الذي انطوى على اصلاحات عميقة بغية ازالة بؤس « اميركا الاخرى » ، والحزم الذي اعتمده الرئيس في مقاومة ملوك الفولاذ والقائلين بالتمييز العنصري في الجنوب رغبة منه في الدفاع عن الزنوج ، قد زالت كلها بزواله . واذا استفاد خليفته ج. لندن جونسون من اكثرية استثنائيـة تشهد بوجود تيار حربية قوي بمثابة ردة فعل التيار الفاشستي الطابع الذي تزعمه منافسه « باري غولدووتر » ، فانه قد عاد الى انتهاج سياسة محافظـة في الداخل (باستثناء ما يتعلق بحقوق الزنوج) وسياسة تدخل في الخارج تعيد الى الذاكرة عهد « القضيب الطويل » .

فهل كان تجديد الحياة السياسية امراً ممكنا يا ترى ؟ ان النظام الانتخابي الذي يشوه التعبير عن الرأي ، والمؤسسات نفسها قد ساعدت بقوة على الجمود . فان عدد « كبار الناخبـين » ، لا يطابق ، عند انتخاب الرئيس ، عدد الاصوات المجموعـة : في السنة ١٩٣٦ جمع روزفلت ٩٨٪ من المقترعين بـ ٦٢٪ من الاصوات . وفي السنة ١٩٦٠ فـاز جون كنيـدي على منافسه بـ ٥٠٫١ فقط من المقترعين ، باكثرية ٨٤ صوتاً من اصوات كبار الناخبين . وفي السنة ١٩٦٤، فاز « ج. لندن جونسون » ، باكثر من ٦٠٪ من المقترعين ، بـ ٤٨٦ صوتاً من كبـار المنتخبين مقابل ٥٢ صوتاً لمنافسه . وساد انتخاب اعضـاء المجالس التشريعية وانتخاب الممثلين كذلك

تباين كبير جداً: فان الاصول المحددة في السنة ١٩٢٩ تسد آلياً توزيع المقاعد في مجلس الممثلين على الولايات بدالة التغييرات الديموغرافية الطارئة في الاحصاءات العشرية ، ولكن تقسيم الدوائر في كل ولاية – وهو من اختصاص السلطة المحلية دون غيرها – متباين جداً ومؤات – كما في اوروبا – للمناطق الريفية التي لا تقيم فيها سوى اقلية ضئيلة جداً ؛ وهكذا فان المناطق الآخذة بالاضمحلال تتمتع بنفوذ كبير جداً بالنسبة للمناطق الآهلة بالسكان (في كونكتكت نجد دائرة صغرى تضم ١٩١ شخصاً ودائرة كبرى تضم ٨١٠٠٠) . وقد استتبع تساوي عدد الشيوخ بين الولايات ، بصرف النظر عن عدد سكانها ، رجحان كفة اقل الولايات سكاناً في مجلس الشيوخ : فان آلاسكا التي لا يمثلها سوى نائب واحد تتمثل بشيخين على غرار ولاية نيفادا التي يبلغ سكانها ٢٨٥٠٠٠ نسمة ، وولاية نيويورك التي تضم ١٧ مليوناً. وفي مجلس الشيوخ كما في مجلس النواب تقوم بالدور الأساسي اللجان الدائمة حيث يقضي العرف بان يكون الرئيس ، الذي يتمتع بصلاحيات شبه مطلقة ، لا منتخباً من قبل زملائه ، بل اقدم عضو بين اعضاء اللجنة . فهو من ثم ممتنع العزل عملياً ومستقل عن الذين يجدد انتخابهم بين دورة واخرى ، ويحتل المراكز الشاغرة زعماء الاحزاب . فنحن من ثم امام حكم شيوخ يمارسون نفوذاً راجحاً لانهم احرار في تعجيل المناقشات أو تأخيرها الى ما لا نهاية له . واذا ما اضفنا الى ذلك ان النفقات الانتخابية باهظة وتجاوز مليون دولار لمجلس الشيوخ ، لاتضحت لنا الفائدة الكبرى التي يمكن ان تجنيها من هذا الوضع الفئات النافذة التي باتت مؤسسات رسمية والتي تدافع بكافة الوسائل (الحملة الصحفية ، الافلام ، الاذاعة ، وحتى الرشوة) عن صوالح الدول الاجنبية (كتلة الصين الوطنية ، كتلة تشومبي) ، وصوالح التكتلات الاقتصادية (كتلة السكر) .

وأثر التأثير نفسه نفوذ آخر حذر الرئيس ايزنهاور مواطنيه منه في خطابه الوداعي الذي القاه في كانون الثاني ١٩٦١ : « في مجالسنا الحكومية يجب ان نحترز من النفوذ الكبير جداً الذي يتمتع به العسكريون والصناعيون ... فيجب الا نسمح البتة لهذه القوة المزدوجة ان تمس حرياتنا الديموقراطية » . وجلي ان هذه الكلمات تشدد على المكانة الكبرى التي يحتلها الجيش اليوم في بلاد لم يكن لها قبل السنة ١٩١٧ سوى نواة جيش لا اهمية لها . فان الحرب الباردة ، وفقدان الاستقرار العالمي ، والدور النافذ الذي تقوم به الولايات المتحدة منذ السنة ١٩٤٥ ، وتدخلاتها الكثيرة في « العالم الحر » ، وقواعدها البحرية والجوية وبعثاتها العسكرية الموزعة على كافة القارات ، ودورها البوليسي في مقاومة الشيوعية او ما يعتبر شيوعياً ، والسباق الى التسلح النووي ، والدفاع عن المصالح الاقتصادية حيثما بدت مهددة بخطر الاصلاحات الاجتماعية ، كل ذلك يفسر اهمية الجيش الذي يخص بميزانية ضخمة يغذي قسم منها دعاوة ناشطة جداً ومتعددة الاشكال غالباً ما ترتدي طابع التخويف والوطنية المتطرفة .

يضاف الى ذلك اخيراً ان اهمية طلبيات الدولة في حياة المؤسسات الصناعية ، التي يعمل معظمها للدفاع الوطني ، تحمل هذه المؤسسات على التأثير على الادارة واقامة العلائق بالسلطة العسكرية من اجل الحصول على الطلبيات ، خصوصاً بواسطة العديد من كبار الضباط والقادة

المتقاعدين الداخلين في خدمتها ، وعلى تغذية الحملات التي تظهر اميركا وكأنها مهـددة بخطر التخريب ، ومن ثم تغذية الروح الوطنية والوطنية المتطرفة وذهنية المحافظة السياسية .

الهبوط الاقتصادي الاخير والتوسع الجديد

هدّد هـذا الاستقرار الخطر الناجم في تموز ١٩٥٧ عن ظهور ازمة اقتصادية جديدة ، هي الثالثة واخطر ازمة منـذ السنة ١٩٤٥. فان التوسع الذي اتاح منذ السنة ١٩٥٣ ارتفاعاً متواصلاً في الدخل القومي والاموال الموظفة ، ومن ثم في الطاقة الصناعية ، قـد أفسح المكان حينذاك لركود واضح المعالم جداً عقبه تأخر بارز منذ تشرين الاول : فلم يبلغ ارتفاع الاستهلاك القومي سوى ١ بالمائة ، وهو رقم لا يوازي الحاجات الناجمة عن التزايد السنوي (الذي يبلغ ٠٠٠ ٧٠٠ ٢ شخص) في عدد السكان ، وتدنت ارباح الشركات بنسبة ٣ - ٤ بالمائة عنها في السنة ١٩٥٦ ، وانخفضت مبيعات المخازن الكبرى ، وتكدست المخزونات ، وانخفض معدل الانتاج الصناعي بنسبة ٩ بالمائة في كانون الثاني ١٩٥٨ عنه في كانون الثاني ١٩٥٧ ، وتواصل الغاء الاستثمارات الزراعية الهامشية ، واستمر عدد المزارع في التـدني ؛ واخيراً ارتفع عـدد البطالين في نيسان ١٩٥٨ الى ٠٠٠ ١٩٨ ٥ ، اي ٧٫٦ بالمائة من اليد العاملة الموجودة في البلاد ، وهو رقم لم يُبلغ قط منذ ١٩٤٢ . وكانت اكثر الصناعات تأثراً بالازمة صناعة الفولاذ حيث هبطت نسبة طاقة الانتاج المستخدمة الى ٥٣ بالمائة في شهر آذار من السنة ١٩٥٨ ؛ وتأخرت كذلك تأخراً بيّناً الصناعات الكيميائية (المنتجات العجينية) وصناعات الاجهزة المنزلية الكهربائية ، وصناعة مواد البناء ، بينما استمرت كلفة المعيشة في الارتفاع . وقد أدّت حدّة اعراض التقهقر هذه الى ظهور « شبح فقـدان الثقة الاقتصادية » ، وتطلبت عـلاج « المرسّخات الآلية » التي باتت كلاسيكية : تدخل الدولة بواسطة تعويضات البطالة ، وزيادة القروض من اجل تأمين حاجات الدفاع الوطني ، والاعمال الكبرى ، وخطط التجهيز ، والمساعدات لتشييد الابنية ...

انفرجت الازمة ، وفي السنة ١٩٦٠ ، دخلت الولايات المتحدة، التي احرزت أقل تقدم بين الدول الصناعية الكبرى منذ السنة ١٩٥٣، في طور ازدهار عظيم لم تعرفه منذ السنة ١٩٢٩ . فان معدل الانتاج الصناعي الذي ارتفع بنسبة ٤٫٩ بالمائة خلال السنوات ١٩٦١ - ١٩٦٣ قد ارتفع الى ٧ ٪ في السنة ١٩٦٤ و ٨ بالمائة في تموز ١٩٦٥ . ولم تعرف البلاد قط، منذ ١٩٢٣ - ٢٧ ، فترة نمو متواصل على مثل هذا التمادي . وكان ذلك نتيجة سياسة تدخلية تمشت عليها ادارة كندي التي استهدفت النمو والمحافظة على نسبة نمو مرتفعة بتنشيط التجارة الخارجية وضمان العمل لكافة السكان . وشجّع توظيف الاموال في الصناعة بسلسلة من التدابير المالية والنقدية وبتخفيف الضرائب ، الخ . ، في الوقت الذي زيدت فيه زيادة محسوسة المساعـدة الاقتصادية للدول غير النامية . فبلغت التجارة الخارجية في السنة ١٩٦٤ مستوى قياسياً اذ بلغ الرصيد الدائن الصافي ٧ مليارات دولار . الا ان ميزان المدفوعات قد بقي في عجز بفعـل النفقات الحكومية والعسكرية واطراد اخراج رؤوس الاموال الخاصة الموظفة في الخارج، ولا سيما في بلدان السوق

المشاركة (هولندا ، بلجيكا ، المانيا ، فرنسا) ؛ وهكذا فقد انشأت فروع الشركات الاميركية اكثر من ٣٠٠٠ مصنع نافست الشركات الأصلية نفسها احياناً في العالم وحتى في الولايات المتحدة . وهي الاتجاهات نحو التضخم المالي المتسببة عن ارتفاع الأجور والنفقات غير المنتجة، و تسلح ، مكافآت تخفيض المساحات الزراعية » ، ما يهدد قيمة الدولار المعتبر اليوم ذا قيمة مرتفعة على العموم .

ما تزال الولايات المتحدة أقوى دول الكرة الارضية ولكن مركز الهيمنة الذي احتلته بعيد النصر الحليف آخذ في التضاؤل يوماً بعد يوم . فان النجاحات التقنية التي حققها الاتحاد السوفياتي قد ارغمتها منذ اليوم على إعادة النظر في سياستها الخارجية التي أضحت دفاعية . واذا ما أضيفت هذه النجاحات الى تجدد بناء اوروبا الاقتصادي ، فانها تهددها – في اجل بعيد – بصعوبات شبيهة بصعوبات البلدان القديمة .

الفصل الثالث

اوروبا الغربيـــة واليـابان

حين وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، كانت اوروبا الغربية في حالة يرثى لها . فان اقتصادها كان اكثر تلفاً وزعزعة منه بعد الحرب السابقة ، وهبط معدل الانتـاج الصناعي في فرنسا وبلجيكا وهولندا الى ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ بالمائة من مستواه قبل الحرب ، وفي المانيا الغربية الى ٣٤ بالمائة . وتدنى انتاج الحبوب ، واتلف اكثر من نصف وسائل النقل او اصيب باضرار كبرى . وفي بعض المناطق عرفت اوروبا المجاعة ، وفي كل مكان تقريباً عرفت بؤساً حقيقياً . وانفدت المخزونات والمؤن . وخلال ست سنوات لم تجدد اية آلة ولم يشيد اي بناء ، بـل على نقيض ذلك درست كافة الآلات بسرعة بينما اقفلت اسواق اوروبا التقليدية وتعودت انحـاء العالم الاخرى الاستغناء عنها . واخيراً تبدل نظام المقايضات تبدلاً عميقاً بحيث ان الدول ، التي كانت من قبل دائنات العالم ، اضطرت لتصفية اموالها في الخارج واستدانة مبالغ طائلة : لقد انتهت الى الافلاس .

قبل السنة ١٩٤٠ ، لم يكن تفوق الولايات المتحدة ساحقاً بعد ، وبالرغم من ان اوروبا لم تعد سوى المركز الصناعي الثاني في العالم ، فانها قد بقيت المركز التجاري الاول . ففي السنة ١٩٤٥ كان الانهيار كاملا في الحقل التجاري والمالي ، وعلى الرغم من اعادة بناء سريعة ، فان تأخرها سيزداد يوماً بعد يوم . ويرد ذلك في السنة ١٩٤٥ ، الى ان البيئة التـاريخية التي بنيت فيها قوتها قد تغيرت في اتجاه اكثر معاكسة لها منه بعد السنة ١٩١٨ . وليست روسيا وحدها بعد اليوم ما اخذت تتخلص من نفوذها الاقتصادي كما في اعقـاب الحرب العالمية الاولى ، فاوروبا الشرقية جمعاء وجزء من اوروبا الوسطى لم يعودا مستودعاً لحاجاتهـا من المنتجات الغذائية والمواد الاولية . ومنـذ السنة ١٩٤٩ ، اصبح الصين الشاسعة الاطراف ، والمستعمرات المتحررة ، كالهند واندونيسيا ، سياسة اقتصادية لا تهتم الا بمصالحهـا الخاصة . ولم تعد هذه البلدان مدينة لاوروبا ، لا بل رغبت كلها رغبة متزايدة الوضوح في استخدام خاماتها الخاصة وتنظيم نقلها البحري وغيره . وغالباً ما صادرت الحكومات رؤوس الاموال الاجنبية وابطلت

امتيازات المشاريع الاجنبية . وفي مناطق ما وراء البحر التي ما تزال خاضعة، وفي آسيا وحتى في افريقيا، وفي بلدان الشرق الاوسط النصف مستعمرة ، هددت الحركات القومية المكاسب التي تحققها اوروبا من استثمار الثروات الطبيعية . اما تفوق الولايات المتحدة الاقتصادي فقد اصبح ساحقاً .

الحاجات المتناقضة

كان لزاماً اعادة بناء كل شيء في اوروبا ؛ والحال خلفت الحرب إرثاً ثقيلاً لا تناقضت ردود فعل الرأي العام حوله تناقضاً لا شعورياً . فمن جهة اثارت وطأة الاقتصاد الموجه ، والتقنين الذي فرضه « اقتصاد الحاجة » ، استياء كبيراً لا في اوساط الصناعيين بسبب الحد من سلطتهم في عملهم وفي أوساط التجار فحسب ، بل في أوساط المستهلكين الذين تضايقوا في عاداتهم وحرموا مما يرغبون في ابتياعه أيضاً . فكان هناك من ثم توق شامل الى العودة الى الحرية ، والغاء الرقابات الادارية المختلفة والتحديدات . وبرزت في الوقت نفسه رغبة مماثلة في العودة الى الحرية الفردية ، الى حرية الفكر والتعبير التي عطلت في البلدان الخاضعة للنازية ، والتي حددت تحديداً متبايناً في البلدان الحرة بفعل الرقابة والتشريع الحربي . فبدا النظام الاقتصادي الحر والنظام السياسي الحر من ثم متضامنين ، ولكن الفوضى الاقتصادية والاضطراب السياسي اللذين قادا المانيا ، قبل السنة ١٩٣٣، الى النازية وقادا الدول الحرة، بعد السنة ١٩٣٩ ، الى الهزيمة ، قد خلقا رغبة في نظام اقتصادي وسياسي لا تكون فيه المصلحة الشخصية القاعدة السائدة ؛ واظهر اختبار الأزمة والحرب ان المنافسة الحرة غير المحدودة والسعي وراء الكسب غالباً ما يضران بالمصلحة الوطنية، وان قوة الدولة وحدها قادرة على استثمار كافة موارد البلاد في سبيل المصلحة العامة ، وان هذه الاخيرة تقضي بأن تسند الى الجماعة رقابة قطاعات الاقتصاد الرئيسية . وأثارت ذكرى ضائقة العمال والفلاحين ابان الازمة الرغبة في نظام يؤمن العمل للجميع ويبعد عن الناس كابوس الخوف وعدم الاطمئنان ؛ « العمل للجميع في مجتمع حر » ، هذه كانت الصيغة التي توجز نظرية «بفردج» الذي أحدثت خطته ، وقد أقرها البرلمان البريطاني في ايام الحرب ، دوياً عميقاً جداً . وعلى الصعيد السياسي طالب كل من فكر بالاصلاحات الواجب ادخالها على النظام البرلماني بسلطة تنفيذية قوية قادرة على فرض الاخضاع أمام المصالح الكبرى ، وباعادة تنظيم الاحزاب ، وتجديد البشر والاساليب تجديداً كاملاً .

وهكذا وجدت في البلدان المحررة حديثاً على ايدي « المقاومة » رغبات في نظام شبيه بالاشتراكية لا يتفق كثيراً والنظام الاقتصادي الحر ، وفي تنظيم لا تكون فيه الديموقراطية شكلية فحسب . اما في الواقع فسيكون فشل هذه الابتغاءات كاملاً ، لأن اعادة بناء اوروبا ستتم في اطار النظام الاقتصادي والسياسي القديم .

١ — التطور الاجتماعي

النزوحـــات البشريـة في اوروبـــــا

انضاف الى الدمار المادي الذي خلفته الحرب، والخسائر الفادحة بالارواح التي سببتها، مثار آخر للصعوبات، هو تجدد النزوحات البشرية التي لم تبلغ قط مثل هذا الاتساع منذ قرون العهـــد الميلادي الاولى ، والتي غيرت وجه اوروبا تغييراً هاماً (الشكل ٢٣) .

إبان العمليات الحربية بالذات ارغم مـــلايين البشر على النزوح بفعل النفي (البولونيون ، اليهود ، الاوكرانيون، الروس) ونقل اسرى الحرب والعمال للقيام بالاعمال الالزامية ، وسياسة « الارض المحرقة » واخلاء المناطق من السكان اخلاء منظماً. ومن جهة ثانية، انتهت الاتفاقات التي عقدها هتلر في السنة ١٩٣٩ مع ايطاليا والاتحاد السوفياتي الى نقل الاقليات الالمانيـــة في التـــيرول والبلدان البلطيقية... الى الرايخ . ثم اقصى الالمان عن الالزاس — لورين اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ فرنسي ، وادى دخولهم البلدان البلقانية الى فرار العديد من اليوغوسلافيين ويوناني اقليمي مقدونيا وتراقيا الذين ضمتها بلغاريا الى اراضيها واحلت فيها مستعمرين بلغاريين محلهم. وفي رومانيا كذلك نزح ٢٠٠ ٠٠٠ روماني عن ترانسلفانيا الشمالية و١١٠ ٠٠٠ عن دوبرودجا الجنوبية ، بينا نزح ١٦٠ ٠٠٠ مجري عن ترانسلفانيا الجنوبية . وقد قدّر « كوليشر » باكثر من ٣٠ مليون اوروبي، يدخل في عدادهم المدنيون الفارون امام الغزو ، عدد المنقولين والمشردين والمنفيين بين تاريخ اندلاع الحرب واوائل السنة ١٩٤٣ . وبعد ذلك جر انسحـــاب الجيوش الالمانية معه اللاجئين الالمان من « الشرق » ، وروسيا البيضـاء ، والبلدان البلطيقية ، وبولونيا (١١٠٠ ٠٠٠) ، وبلدان جنوبي شرقي اوروبا ، لانهم كانوا يخشون انتقـام الشعوب التي تسلطوا عليها واستغلوها . وقد تم الجلاء اثناء انسحاب الجيوش ، في ظروف صعبة جداً ، في الثلـــج والزمهرير ، سيراً على الاقدام او في شتى وسائل النقل ، صفوفاً طويلة على الطرقات . فهذا مـا حدث فعلاً لـ ٣٥٠ ٠٠٠ الماني كانوا في القرم واوكرانيا واجلوا الى بولونيا الغربية وما لبثوا ان نزحوا نحو الغرب امام التقدم السوفياتي . وهذا ما حدث كذلك لـ ٢٠٠ ٠٠٠ المـاني كانوا في رومانيا ، وللألمان الذين كانوا في يوغوسلافيا ، وهنغاريا ...

لم يكن النزوح بسبب الحرب من نصيب الالمان وحدهم . فان الكاريليين — وربما بلغ عددهم ٢٥٠ ٠٠٠ — الذين فروا الى فنلندا في السنة ١٩٣٩ خلال الحرب الفنلندية الاولى ، قد عادوا في السنوات ١٩٤١ — ١٩٤٣ الى كاريليا اثناء الحرب الثانية ، ثم فروا مرة اخرى في السنة ١٩٤٤ . وارغم كذلك عشرات الوف الفنلنديين والنروجيين الى الابتعاد عن ميادين المعارك في لابونيا. ولجأ اسوجيو استونيا و ٦٥ ٠٠٠ انغري الى السويد وفنلندا. واضطر كذلك الى الفرار نحو الغرب الفلاحون الاوكرانيون والروس الذين ما كانوا ليستطيعوا البقاء في مناطق الحدود ، و « المتعاونون » مع الالمان الذين خافوا من تأدية الحساب ، والرومانيون الذين استوطنوا

ترانسلفانيا حديثاً ، ورومانيو بوكوفينا وبسارابيا ، وربما بلغ مجموعهم ٧٠٠ ٠٠٠ . وكذلك في الغرب دفعت الجيوش الحليفة المتقدمة امامها الألمان المقيمين في البلدان المحتلة و « المتعاونين » الفرنسيين والبلجيكيين والهولنديين ...

اوقف سيل اللاجئين الآتين من الغرب بسرعة . اما سيل اللاجئين الآتين من الشرق فلم يكن من اليسير ايقافه . فان ملايين الالمان الفارين من الشرق قد لحق بهم سيـــل آخر . وفي مؤتمر بوتسـدام تخلى الحلفاء كلياً عن سياسة حماية الاقليات التي انتهجت في معاهدات ١٩١٩ — ١٩٢٠ والتي أمكن تقدير مدى فشلها . وقادهم الخوف من مطالبة ايطاليا بالاقاليم الايطاليـة اللغة والسكان ومن انبعاث الحركة الجرمانية الشاملة الى اعتماد سياسة تقضي بان ينقل الى المانيا الالمان الموجودون في بولونيا (٣ ٥٠٠ ٠٠٠) وتشيكوسلوفاكيا(٢ ٥٠٠ ٠٠٠) والنمسا وهنغاريا . فنقل زهاء ٩ ٥٠٠ ٠٠٠ لاجيء لا موارد لهم تقريباً الى المانيا التي انخفضت مساحتها بنسبة ٢٥ بالمائة . وعقـــدت اتفاقات بـــين الاتحـــاد السوفياتي ورومانيا ويوغوسلافيـــا وتشيكوسلوكيا وهنغاريا بغية تبادل اقلياتها او اقله تسهيل عودة مواطنيها . ومن جهة ثانية احتل قرابة مليوني تشيكي وسلوفاكي الاقاليم التي غادرها الالمان . ووطنت بولونيا في الاقاليم الالمانية التي استولت عليها في الغرب ، وكانت شبه خالية من السكان ، ٣ ملايين فلاح بولوني ، بينما استقبلت اكثر من مليون بولوني من الاقاليم الواقعة الى الشرق من خط كورزون التي اصبحت سوفياتية ، وانتقل زهاء ٧٠٠ ٠٠٠ اوكراني بغية استيطان اوكرانيا .

في يوغوسلافيا غادر استريا اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ ايطالي ، واجريت مفاوضات مع هنغاريا لتبادل السكان ؛ وبالمقابل وصل ٢٠ ٠٠٠ يوغوسلافي من مقدونيا و ١٠ ٠٠٠ من بلغاريا . وفي الاتحاد السوفياتي ، استوطن الجمهورية القومية الارمنية ٦٠ ٠٠٠ ارمني جاؤوا من مختلف انحاء الشرق الاوسط ، ولكن الـ ٤٠٠ ٠٠٠ الماني المقيمين في جمهورية الفولغا المستقلة قد نقلوا بتدبير اتخذته السلطات حرصاً منها على سلامة البلاد ، واتخذت التدابير نفسها بعد الحرب في اربع جمهوريات مستقلة تقيم فيها اقليات غير سلافية بسبب تعاونها والالمان : تتر القرم ، الكلموك ، التشتشين — انغوش ، الكبرد البلقار (وقد بلغ مجموعهم ٥٦٠ ٠٠٠ شخص تقريباً) الذين نقلوا الى آسيا الوسطى وحل محلهم فلاحون روس . وهم الفلاحون الروس كذلـك من استوطنوا الاقاليم المحتلة او المستردة في الغرب ولا سيما بروسيا الشرقية القديمة .

ارتدى معظم هذه التنقلات ، التي ربما تناولت ٢٥ مليون شخص ، طابعاً نهائيـــاً ؛ وبدّلت تبديلاً كلياً خريطـــة توزيع الاعراق في اوروبا الوسطى والشرقية التي لم تتبدل منذ اواخر القرون الوسطى . فنقلت بعيـــداً نحو الغرب حدود استيطان السلافيين ، من روس وبولونيين ، على حساب الفنلنديين والبلطيقيين ولا سيا الالمان ، وحـــدود اليوغوسلافيين بعض الشيء على حساب الايطاليين . وكانت النتيجة ان المستعمرات الالمانية في اوروبا الشرقيـــة والجنوبية الشرقية، التي كانت تؤلف جالية مزدهرة وناقلة من ٣ ٥٠٠ ٠٠٠ الماني بين البلطيق

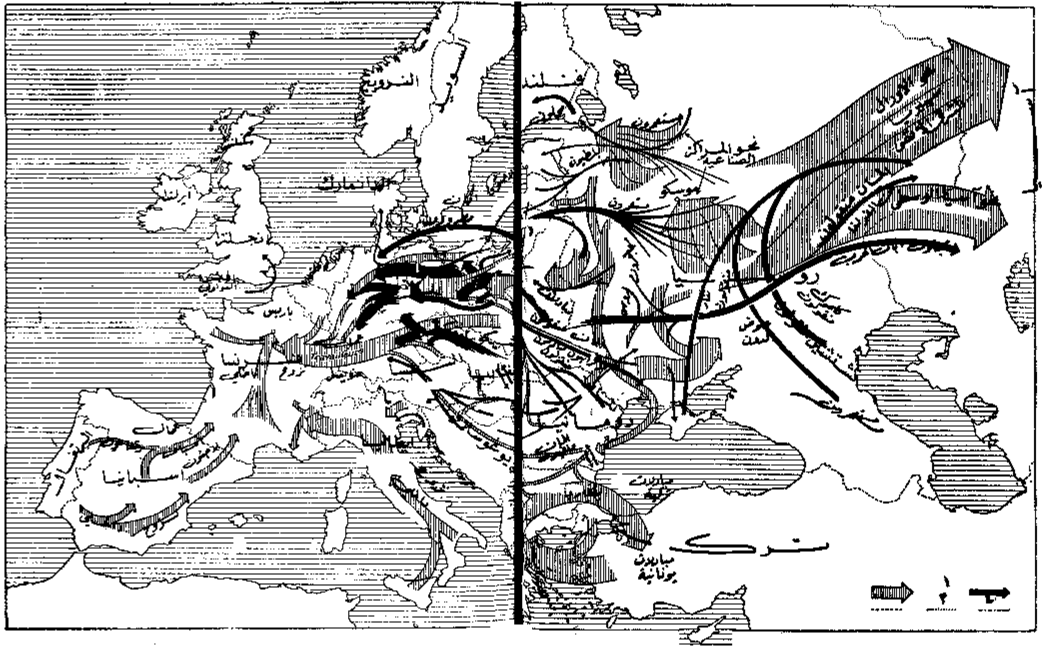

الشكل ٢٣ ـ النزوحات[redacted]ورية بين ١٩١٨ و ١٩٥٠

١ ـ نزوحات بين الحربين العالميتين ، ٢ ـ نزوحات خلال [redacted]ب العالمية الثانية ، ٣ ـ حدود ١٩١٨ ، ٤ ـ حدود ١٩٤٦ ، ٥ ـ حدود بين قسمي ألمانيا .

والبحر الأسود وبين الكربات والفولغا ، والتي يعود تاريخ بعضها الى القرن الثاني عشر ، قد صفيت تصفية نهائية خلال سنوات معدودة .

تجمع العدد الأكبر من هؤلاء اللاجئين (١٠ ملايين) في المانيا الغربية ، وقد أثار وجودهم مسائل صعبة من حيث التكيف وفاقاً للبيئة الجديدة والحياة الاقتصادية . وتوجب ان يؤخذ بعين الاعتبار كذلك « اللاجئون » او « الاشخاص المرتحلون » الذين ما زال بعضهم في النمسا وايطاليا وبريطانيا العظمى . فهؤلاء يؤلفون جمهوراً ينيف على المليون شخص نزحوا مخيرين أو مكرهين منذ السنة ١٩٣٩ : اسرى حرب لم يعودوا الى بلدانهم ، عمال مدنيون من غير الألمان ساروا على أثر الجيوش الالمانية ، لاجئون من بعد الحرب ، وقد جاء معظمهم من اوروبا الشرقية : بولونيون « سبق ان انخرط منهم ١٦٠٠٠٠ في جيش اندرز » ، بلطيقيون ، اوكرانيون ، يوغوسلافيون ... من المتعاونين والالمان ، او اعضاء الطبقات الحاكمة القديمة ، الذين لم يرغبوا في العودة الى بلادهم بعد ان اصبحت شيوعية ، او اليهود الخائفين من اعداء السامية ، الخ . لقد تعهدتهم منظمة الامم المتحدة التي اصطدمت بمقاومة الدول الراغبة عن قبول المهاجرين ، فشكلوا طيلة سنوات عدة عنصراً يثير القلق والارتياب في اوروبا المضطربة والمنقسمة .

مسألة الهجرة الاوروبية

لقد زالت امكانية المهاجرة . وهناك في اوروبا اربع بلدان عجزت عن تأمين المعيشة لسكانها الزائدين عن طاقتها الاسكانية : اليونان ، ايطاليا ، المانيا الغربية ، هولندا . وقد بلغ مجموع هذه الزيادة في اوروبا وحدها بين ٣ و ٤ ملايين شخص لا يجدون مكاناً لهم في اقتصاد بلادهم ويرتفع عددهم كل سنة بفضل زيادة الولادات على الوفيات . وكانت المهاجرة داخل اوروبا محدودة وغير ذات شأن . الا ان المهاجرة الى ما وراء البحار ، التي توقفت عملياً منذ السنة ١٩٣٠ ، قد استؤنفت مجدداً في السنة ١٩٤٧ . فسافر كل سنة ، بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥١ ، زهاء ٤٦٠٠٠٠ شخص ، جلهم من « الاشخاص المرتحلين » ، بفضل القانون الخاص بهؤلاء الذي سمح في السنة ١٩٤٨ بدخولهم الى الولايات المتحدة دونما تقيد بالانظمة المرعية . الا ان منظمة اللاجئين الدولية التي كانت تشرف على تسفير « اللاجئين المرتحلين » قد الغيت آنذاك ، ولم يسمح قانون ماك كارن – وولتر ، الذي عمل به في اواخر السنة ١٩٥٢ بقبول سوى ١٥٤,٠٠٠ مهاجر سنوياً ، اي قرابة ٣٠,٠٠٠ في السنة من البلدان الاوروبية المكتظة بالسكان ، ولكن عدد المهاجرين بلغ ٢٥٣,٠٠٠ في السنة ١٩٥٨ التي انتهى فيها العمل بقانون استثنائي لمساعدة اللاجئين .

بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥١ قبلت كندا بدخول ٧٦,٠٠٠ مهاجر في السنة ، أما اوستراليا التي بدلت سياستها حيال المهاجرة تبديلاً كلياً ، فقد استقبلت ٥٣,٠٠٠ مهاجر اتوا من اوروبا ، ولكن الافتقار الى الاموال والصعوبات الاقتصادية قد ادت الى تخفيض هذا العدد

منذ السنة ١٩٥٢. ولم تستقبل منهم دول اميركا اللاتينية، البرازيل والأرجنتين وفنزويلا والشيلي، سوى عـدد ضئيل جداً. ففي كُل مكان اصطدم اتساع الهجرة الاوروبية بعراقيل خطيرة: خوف من فقدان التوازن الاجتماعي والعنصري في بلاد المهجر، رقابة سياسية شديدة جـداً، تعذر استيعاب المهاجرين في المؤسسات الراهنة، حاجة الى الاموال التي تتيح ادخالهم في اقتصاد البلدان غير النامية، لان بـلدان المهجر باتت ترغب في المتخصصين في الادارة والاعمال لا في اليد العاملة. ولم يبق هناك سوى تيار هجرة واحد، ولكنه محدود بطبيعته الدينية، اعني به تيـــار هجرة اليهود الى دولة اسرائيل. وربما قدر بـ ٤,٥٠٠,٠٠٠ شخص عدد الذين غادروا اوروبا بين السنة ١٩٤٦ والسنة ١٩٥٢. وبالمقابلة ادى تحرر المستعمرات الى عودة زهاء مليوني فرنسي وبلجيكي الى اوطانهم.

النظـام الاجتماعي

كاد نظام المجتمع لم يتغير قط، لا بل ازداد التباين بين المستفيدين من اجور ودخول محدودة ثابتة من جهة، وبين المنتجين والمشرفين على توزيع السلع من جهة اخرى. وزاد التجمع الصناعي وتقدم التصنيع نسبياً من اهمية المشاريع التي تقدمت تقدماً كبيراً، ولا سيما بفضل تقدم الاسعار على الاجور. ويصح هذا القول في فرنسا حيث ارتفع عدد الاجراء بعض الارتفاع ـ منتقلاً من ٦٢ الى ٦٤٪ من السكان العاملين بين ١٩٤٦ و ١٩٥٤ — ولكنهم تقاضوا اجوراً تمثل ابداً النصيب نفسه من الدخل القومي، بينما ارتفعت قيمة المواد الاستهلاكية وطالت مدة العمل. اما ارتفاع الاجر الاجتماعي بالنسبة للاجر المباشر (الذي هبـــط من ٨٦٪ من المجموع في السنة ١٩٣٨ الى ٧٧٪ في السنة ١٩٥٣) فقد ادى الى توزيع اجور موافق لارباب العائلات على حساب العمال الآخرين. «وتمثل الطبقة العمالية عملهـا وكأنها تعاونية كبرى معدة لان تتيح لأقل العمال حظوة تربية اولادهم».

ويصح هذا القول كذلك في ايطاليا: امـــام طبقة غنية جداً وقليلة العدد، يعيش جمهور الشعب حياة فقر متدنية المستوى جـــداً. فالصناعيون والملاكون العقاريون الذين أفادوا من ارتفاع الاسعار ومن التضخم، والارستوقراطية التي ما زالت، بفضل قاعدتها العقارية المتينة، القوة الرئيـسية في المجتمع (اذ ان العائلات النبيلة القديمـــة لم تحتفظ في اي بقعة من اوروبا، باستثناء اسبانيا والبرتغال، بامتيازاتها الاجتماعية والاقتصادية مثل هـذا الاحتفاظ الكـــلي) يؤلفون طبقة عليا تستفيد من نظام جبائي خفيف الوطأة جداً (لا تمثل ضريبة الدخل سوى ١١ بالمائة من المداخيل، وهناك مجال واسع للغش). اما الطبقات المتوسطة التي افلسها التضخم المالي فقد انفقت اموالهـا المدخرة، وسدت في وجه ابنائها سبل العمل. فهناك بطالة حاملي الشهادات لان المهن الحرة ووظائف الدولة كانت في زحمة من اهلها، بالرغم من ضآلة الرواتب التي كانت ادنى منها في السنة ١٩٣٨ بصورة جلية. وفي المناطق الجنوبية، عـــاش المجتمع الريفي بأجمعه، من ملاكين صغـار (١,٥٠٠,٠٠٠ عائلة في اراض تتراوح مساحتها بين نصف هكتار و٥ هكتارات) ومزارعين وعمال زراعيين، في جو يسيطر عليه القلق وعدم الاطمئنان.

وأتاحت سرعة ارتفاع السكان للملاكين التوفق أبداً الى استخدام عمال بأجر ادنى من الاجر القانوني. وكثيراً ما شوهد هنا اولئك« العمال» الذين ينتظرون سحابة ايام كاملة في شوارع القرية وساحتها مجيء احد المستثمرين ليختار بينهم واحداً او اثنين بسبب حاجته الى « يوم عمل » كان اجره ١٥٠ ليراً في السنة ١٩٥٤ !

كان البؤس من ثم شديداً جداً . وفي السنة ١٩٥٣ اظهر التحقيق الذي اجرته لجنةفيغورلتي البرلمانية ان مستوى معيشة ربع السكان تقريباً (١١ مليون نسمة) كان متدنيا او متدنيا جداً، اي ان نصفهم كان يعيش في الاكواخ الخشبية او المغـاور او المراتب او السقائف ، والنصف الآخر في ابنية مكتظة بالسكان ؛ وان ٥٠٪ كانوا يرتدون الخراق والرثاث ، واكثر من ٥٠ ٪ لم يستهلكوا لا لحوماً ولا سكراً ولا نبيذاً ؛ وان هذه الفئة البائسة لم تؤلف سوى ٦ بالمائة من سكان ايطاليا الشمالية،ولكنها جاوزت نصف سكان الجنوب ونصف سكان الجزر .

وفي المانيا حيث استهدفت سياسة الوزير اهرارد توظيف الاموال بفائدة مرتفعة جـداً وتنشيط حركة الصادرات ، ابقيت الاجور متدنية جداً بحيث ان ٦٤ بالمائة من السكان تقاضوا في شهر ايار من السنة ١٩٥٠ اجراً لم يبلغ ٢٥٠ ماركاً في الشهر وتقاضوا ٣٥,٦ بالمائة من مجموع الدخل ؛ وان ١ بالمائة من العمال و ١٥ بالمائة فقط من المستخدمين تقاضوا اكثر من ٤٠٠ مارك في الشهر ، بينما تقاسم ٣,٢ بالمائة من السكان ١٦,٥ بالمائة من مجموع الدخـل بدخول شهرية تفوق ١٠٠٠ مارك . زد على ذلك ان المانيـا الغربية لم تعرف اي اصلاح زراعي ، اذ ان بضعة آلاف هكتار فقط قد اعيد توزيعها ، وان حل « المشاريع » الكبرى التي تتحمل قسطاً كبيراً من مسؤولية وصول هتلر الى الحكم ، لم يؤد الا الى انقـاص التجميع الصناعي العمودي . وان الرغبات المترددة في تأميم الصناعات الاساسية لمصلحة المجموع في القطاع البريطاني ، التي ابداها حزب العمال في السنة ١٩٤٥ ، قد اصطدمت بالمعارضة الاميركية . فسرعان مـا عاد المسؤولون القدماء عن الاقتصاد الى مراكزهم القيادية ، وما استعاد الملاكون القدماء ممتلكاتهم . واستؤنفت عمليتا التجميع والصهر ، ولا سيما في الصناعات الفولاذية حيث شجعتها ادارة الوحدة الاوروبية للفحم الحجري والفولاذ .

في بريطانيا العظمى ، اعتمدت سياسة اجتماعية متلاحقة تؤمن للجميع حداً ادنى من الدخل وتضمن العمل لكافة السكان وتوفر الخدمات الاجتماعية ، كخدمات الضمان الاجتماعي والادارة الصحية ، كما اعتمدت بصورة خاصة سياسة جبائية صارمة فرضت ضرائب تصاعديةعلى الدخول الكبرى والمتوسطة ، فأدت هاتان السياستان الى الحد من التفاوت الاجتماعي حداً اقوى منه في اي بلاد غربية كبرى .

ان دخول رأس المال الذي مثلت في السنة١٩٣٨ ٢٢,٦ بالمائة من مجموع الدخل ، لم تعـد لتمثل في السنة ١٩٥٠ سوى ١٤ بالمائة قبل اقتطاع اية ضريبة . وارتفعت الدخول المختلطة (اي دخول الذين يعملون ويديرون في الوقت نفسه رأسمال استثمارهم : التجارة ، المشاريع الزراعية ،

الصناعيون اليدويون ، المهن الحرة) من ١٢ الى ١٢٫٣ بالمائة . اما دخول العمل ، واعني بها الاجور والمرتبات التي تضاف اليها « الدخول الاجتماعية » : الضمان الاجتماعي ، التعويضات العائلية ، معاشات الشيخوخة والتعويضات عن حوادث العمل ، والمساعدات المرضية ، فقد ارتفعت من ٥٩٫٧ بالمائة الى ٦٦٫٧ بالمائة . فقد حدث من ثم انخفاض كبير في دخول رأس المال (٣٠ بالمائة) ، وزيادة في الدخول المختلطة ، وزيادة كبرى في دخول العمل (٢٦ بالمائة). فهل يعني ذلك ان الحكومة العمالية قد قامت والحالة هذه « بثورة صامتة » واعادت النظر في توزيع الدخول ؟

قطعاً لا ، اذ ان معظم الخدمات الاجتماعية المشتركة الجديدة قد امنتها زيادة الضرائب المفروضة على الطبقات الفقيرة ، في حال ان الثروات الطائلة بقيت طائلة . لا بل ان جمع الاملاك في ايد قليلة العدد قد بات اكثر بروزاً منه في عهد لويد جورج الذي احتج عليه بحدة . فقد قدّر في السنة ١٩٤٧ بأن ١ بالمائة من السكان البالغين كانوا يملكون نصف الثروة القومية ، و ١٠ بالمائة يملكون الـ ٤/٥ . لقد حققت حكومة العمال « الدولة المزدهرة » ، وتوقفت حسب تعبير كروسمن ، « الى تحديد المرحلة الاخيرة من مراحل قرن تخللته اصلاحات المجتمع الرأسمالي وتنظيمه ، ولكنها لم تفتتح قط عهد الاشتراكية » .

انطلاقة

القطاعين الثاني والثالث

ما زال التفاوت الاجتماعي بارزاً على العموم شأنه في العهود السالفة ، ولكن تطورات الاقتصاد استتبعت توزيع السكان توزيعاً جديداً بين مختلف قطاعات النشاط ، وتحول النظام الاجتماعي تحولاً تدريجياً .

منذ زمن بعيد ، أدى اعتماد الآلات في الأرياف الى نزوح واسع مطرد السرعة الى القرى ، في البلدان القديمة التصنيع ، كالولايات المتحدة ، كما في البلدان القليلة التطور اقتصادياً ، كبلدان اوروبا الشرقية حيث كان اكتظاظ الأرياف بالسكان سبباً هاماً من اسباب البؤس الشديد . اجل لا يرد هذا النزوح الى اعتماد الآلات دون سواه ، اذ ان استثمار المستعمرات قد رحل عن الوطن الام الى المستعمرات جزءاً من انتاج المواد الغذائية او الخامات الصناعية النباتية الأصل ، بينما جمع من المستعمرات جزء من اليد العاملة اللازمة للأعمال الشاقة ، او غير الصحية ، او البالغة الصعوبة . الا ان انكماش القطاع الاول (زراعة ، احراج ، صيد) ، بحسب تصنيف « كولن كلارك » ، قد لوحظ في كافة البلدان ، بينما اتسع القطاعان الثاني (الانتاج الصناعي ، المناجم ، النقل) والثالث (كل ما تبقى) . ففي الولايات المتحدة زاد عدد المستخدمين بنسبة ٤٠٠ بالمائة بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩٤٠ ، بينما لم يرتفع عدد العمال الا بنسبة ٢٧٥ بالمائة . وفي فرنسا كان هناك ١٠ مستخدمين مقابل ١٤٥ عاملاً في السنة ١٩٠٠ ، ومقابل ٧٦ في السنة ١٩٣١ ، ومقابل ٤٧ في السنة ١٩٤٨ . وهبطت نسبة السكان العاملين المستخدمين في القطاع الاول ، بين السنة ١٩٢٠ والسنة ١٩٤٠ ، من ٢٦٫٣ بالمائة الى ١٧٫٦ بالمائة (وحتى الى ١٦ بالمائة في السنة

١٩٥٠) في الولايات المتحدة ؛ ومن ٦٫٨ بالمائة الى ٤٫٨ بالمائــة في بريطانيا العظمى ؛ ومن ٤٠٫٣ بالمائة الى ٢٨٫٨ بالمائة في السويد ؛ ومن ٤١٫٥ بالمائة الى ٣٥٫٦ بالمائة في فرنسا . امــا القطاع الثاني فقد تأخر بعض الشيء في الولايات المتحدة : ٣٣٫٤ بالمائة و٣١٫٤ بالمائة (وهبط الى ٢٦ بالمائة في السنة ١٩٥٠ ، وفي بريطانيا العظمى : ٤٥٫٧ بالمائة و٤٥٫٥ بالمائــة ، بينا استمر في التقــدم ببطء في البلدان التي لمــا تصنـّع سوى تصنيع محدود كالسويد (٣٠٫٨ و٣٥٫٦ بالمائة) وفرنسا (٣٠ و٣٠٫٩ بالمائة) . واما القطاع الثالث الذي استقبل كل من ليس له عمل في عمل الارض او في المصنع ، فقد انتقل من ٤٠٫٣ بالمائة الى ٥١ بالمائــة (و٥٧ بالمائة في السنة ١٩٥٠) في الولايات المتحدة ، ومن ٤٥٫٧ الى ٤٩٫٧ بالمائة في بريطانيا العظمى ، ومن ٢٨٫٩ بالمائة الى ٣٥٫٦ بالمائة في السويد ، ومن ٢٨٫٥ الى ٣٣٫٥ بالمائة في فرنسا .

يرد ذلك الى ان تقنيات الانتاج تستتبع احداث وظائف عديدة ذهنية الطابع . ويشمــل هذا القطاع الثالث من جهة ثانية نشاطات عديدة منتجة بصورة غير مباشرة من حيث انهــا تحسن ظروف العمل : التعليم ، الخدمات الطبية والاجتماعية ، الخدمات العامة ، المصارف ... او توجهها : الفنيون ، موظفو ادارة المشاريع ، وكذلك النشاطات التجارية و« الخــدمات » ، كالتمثيليات مثلاً ، وجهازاً اعلانياً موزّعاً ايضاً (غالباً ما يكون طفيلياً ، ولا سيا في فرنسا) يفرضه الانتاج الكبير ، الذي يجند لخدمة صغار التجار الكثيرين جــداً جمهوراً من الجوالين التجاريين والوسطاء والمعلنين . ويجب ان ندخل فيه كذلك ابنـاء الوطن الام الذين يقيمون في المستعمرات حيث يمارسون وظائف ادارية وتوجيهية .

رأت كافة البلدان من ثم اتساع قطاعها الثالث وانكماش قطاعاتهــا المنتجة . وتوقف نمو الطبقة القروية والعمالية عددياً بينا ارتفع عدد المنتمين الى الطبقات الاجتماعية في حين انها لا تنتج انتاجاً مباشراً .

ليس من الصعب استخلاص النتائج السياسية لاتساع القطاع الثالث وانخفاض عدد عمــال القطاع الأول انخفاضاً نسبياً. فان تحليل السلوك السياسي الذي يسلكه هؤلاء «الاطواق البيضاء» مستخدمين كانوا ام موظفين مرؤوسين ، يكشف القنــاع عن طابع التناقض في ردود فعلهم : فهم بورجوازيون صغار انتهازيون يجانبون في عملهم الطبقات الموجهة التي يحلمون بالتشبه بهــا ، أو أقله بتشبه اولادهم بها ، ويقتبسون ازياءها ، ويقرأون صحفها ، وبها – أقله في المشاريــع الخاصة – ترتبط ترقيتهم ، فيرغبون في الانضمام الى الطبقة المسيطرة ، ولكنهم في الوقت نفسه عمال مستغلون واصحاب مطالب يمكن مقارنتهم بالعمال من حيث تدني اجورهم (وهي ادنى من اجور العمال اليدويين في اغلب الاحيان) وظروف العمل التي فرضهــا عليهم اعتماد الآلات المتزايد . لقد دخلوا صفوف البروليتاريا باعداد كبيرة بفعــل التطور الاقتصادي والتقني ، فشعروا انهم بورجوازيون صغار تارة وعمال تارة اخرى . فنحن لعمري امام بروليتاريا حقيقية، ولكنها خلو من الوعي الطبقي ، وسريعة التأثر بسبب ضعف تربيتها السياسية وميولها الى نفوذ

الصحافة الكبرى . وهي تقوم بدور سياسي متعاظم يوماً بعد يوم وتسلك الاتجاه المحافظ نفسه الذي يسلكه الصناعيون اليدويون وصغار التجار الشاعرون شعوراً غامضاً بانهم ضحية التطوّر الاقتصادي .

٢ – التطور الاقتصادي

عرف اقتصاد « المشروع الحر » ، بصورة عامة ، منذ السنة ١٩٤٥ ، انتشاراً سريعاً تخللته بعض الازمات حدثت في السنة ١٩٤٩ حين انجزت عملية إعادة البنـــاء ، وفي السنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣ حـــين توقف الانتاج الوفير الذي اوجبته الحرب الكورية وطرأ التأخر الاقتصادي الاميركي .

التطور العـــام

خلافاً لما حدث في القرن التاسع عشر أو في الفـترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لم يعرف العالم ، منذ السنة ١٩٤٥ ، ازمات كـــبرى خانقة ذات طابع دوري . فخلال هذه السنوات العشرين تقدم الاقتصاد تقدماً متفاوت السرعة ماراً بمراحل توسع وتأخر ، على ان مراحل التـــأخر كانت « فترات توقف في الارتفاع ، لا فترات هبوط حقيقية . وفي رأي « جان مارشال » ان علماء الاقتصاد يعتبرون ان الازمـــات الكبرى الشبيهة بأزمة السنة ١٩٣٠ والازمات التي تدوم ثلاث سنوات واكثر لم تعد ممكنـــة الحدوث » . ويرد ذلك الى التطور العميق الذي طرأ على الانظمة العامة للاقتصاد الغربي .

ان المحافظة على النظام العام ، والحرص على تجنب الازمات الاجتماعيـــة وتوزيع الدخل القومي على مختلف الفئات الاجتماعية ، قد فرضا على الحكومات واجب تأمين العمل والرفاهية للجميع بواسطة اقتصاد يختلف توجيهاً وتخطيطاً وينمو نمواً منتظماً . فعليها من ثم مراقبة تغير الفرص عن كثب واستخدام « المثبتات » . زد على ذلك من جهة ثانية ان ذوي العلاقة : فئات المستخدمين ، ونقابات العمال والمستخدمين ، وجمعيات المزارعين ، قد تضامنوا وألفوا تكتلات قوية النفوذ ، وبات بوسع الشركات الكبرى ، التي ألفت اتحادات واسعة ، والتجمعات الماليـة التي كانت تشرف على مشاريع كثيرة ، التأثير على الحكومـــات تأثيراً قوياً . وكان لدى المشاريع والحكومات كلها دوائر مراقبة متخصصة تحلل يوماً فيومـــاً وضع الاسواق وتراقب الميزان التجاري ، وتوجه الاقتصاد ، كما كان بمقدورها ان تلجأ على الفور الى عـــدد من هـــذه المثبتات . وفي كل مكان – باستثناء المانيا الاتحادية ، حيث لم يسيطر سوى التخطيط الخاص – انتهجت التخطيط انتهاجاً متفاوتاً . فحتى في الولات المتحدة ، كما سبق ورأينا ، حيث تمتع الاحرار الجدد بنفوذ قوي وشنوا هجمات معاكسة قوية على كل تدخل ، استخدمت الحكومـة الاتحادية ، في لجنة مستشاري الرئيس الاقتصاديين ، وفي لجنة البيان الاقتصادي المختلطـة لدى الكونغرس ، خبراء كثيرين اسندت اليهم مهمة درس الفرص . واخـــذت بريطانيـا العظمى بدورها رسمياً بالتخطيط في السنة ١٩٦٥ .

في عداد هذه المثبتات يدخل تحديد القروض الممنوحة لهذا الفرع أو ذاك من فروع النشاط (هذه هي احدى وسائل محاربة التضخم المالي بتخفيضها الارباح وبارغامها المستخدمين على رفض زيادات الأجور) ، وتصدير الذهب او النقود الاجنبية ، ورفع الرسوم الجمركية بغية توقيف انخفاض سعر النقد الذي ينجم عن العجز في الميزان التجاري . يضاف الى ذلك تشجيع توظيف الاموال بتخفيض الضرائب ، والمحافظة على مستوى الاسعار بالمكافآت والتخزين ، وتحديد بعض الانتاجات ، والتأثير على التوسع اما بزيادة واما بتخفيض النفقات الادارية والثقافية الرسمية والنفقات المتعلقة بالقطاع المؤمم . واستطاعت المشاريع المجموعة من جهتها ان تقاوم الانخفاض مقاومة احدى بانتهاج خطة آخذة بالانتشار ، اعني بها اللجوء الى ادخار شطر هام من الارباح والى التمويل الذاتي . أما الاجراء فكانوا بمأمن نسبي من هبوط هام يطرأ على مستوى معيشتهم بفضل الفوائد التي أمنتها لهم القوانين الاجتماعية : الاجازات المدفوعة ، معاشات التقاعد ، تحديد الاجور بموجب اتفاقات جماعية ، الاجر غير المباشر المتقاضى عن طريق الضمان الاجتماعي والتعويضات العائلية ، وتعريفة الحد الادنى ، الخ.

استلزم هذا الجهاز المعقد عدداً كبيراً من الخبراء الاكفاء ، القادرين على ان يؤمنوا تأميناً فعالاً مراقبة دقيقة على مختلف فروع الاقتصاد : الاقراض ، الانتاج الزراعي والصناعي ، اهمية اليد العاملة نوعاً وكماً ، وضمان تنسيقها ونموها المتوافق . والحال تمتع هؤلاء « الرؤساء الفنيون » ، الذين اصبح دورهم رئيسياً في المجتمع المعاصر ، بنفوذ عظيم (تفسره كفاءتهم وخبرتهم) على الحكومات التي اضطرت ، شاءت ام أبت ، الى العمل بآرائهم وتنفيذ مقرراتهم .

العوامل الجديدة

ارتدت هذه الانطلاقة طوابع جديدة ترد الى التغييرات الطارئة على التوزيع الجغرافي للمنتجات الكبرى وعلى نظام التجارة العالمية. فنحن نرى من جهة ان الدول المنتجة المواد الاولية الاساسية :(الهند، اوستراليا ، كندا ، الارجنتين) قد خفضت صادراتها لان استهلاكها قد ازداد بازدياد عدد سكانها وحاجات تصنيعها . كما ان الدول المستوردة المواد الاولية والمواد الغذائية قد خفضت استيرادها على كل حال لانها اخذت تنشط الانتاج الداخلي ، ولان التحسينات التقنية اتاحت اما توفيرها اكثر من ذي قبل واما استخدام منتجات اخرى بديلة. ونرى من جهة ثانية ان التجارة العالمية توزعت قطاعات متباينة الحصرية : لقد حدث انفصال يكاد يكون تاماً بين البلدان الشيوعية والبلدان الرأسمالية ، بينما اصبحت المقايضات في داخل كل كتلة ناشطة جداً ؛ كما حدثت انفصالات – اقل عمقاً ، ولكنها على جانب كبير من الاهمية – بين المناطق النقدية المختلفة : مناطق الدولار ، والسترليني ، والفرنك الفرنسي والبلجيكي ، والفلورين ، والاسكودو وبلدان الاتحاد الاوروبي للمدفوعات . فتألفت ٣/٤ الصادرات العالمية تقريباً في السنة ١٩٥٣ من مقايضات في داخل مناطق المقايضة الثلاث الرئيسية : البلدان الشيوعية ، منطقة الدولار ، منطقة الاتحاد الاوروبي للمدفوعات ؛

وجرى ٥٪ المقايضات بين المناطق الثلاث ، ومثل الـ ٥٪ الاخير تجارة انحاء العالم الاخرى.

اعادة البناء

سهّل اعادة البناء واقع مزدوج هو ان قسماً كبيراً من الصناعة انتج قبل الحرب انتاجاً اقل من طاقتها الى حد بعيد، ولا سيا في الصناعات الثقيلة والمنجمية، وكذلك في الصناعات التي تغذي التصدير : المواد الكيميائية، الصوف، الخ. وان الطاقة الصناعية قد ازدادت في كل مكان بين السنة ١٩٣٩ والسنة ١٩٤٥ ، حتى في المانيا حيث اقتطعت التعويضات – التي تمثل ٥٪ من طاقتها الانتاجية – من الصناعات الجهزة خير تجهيز التي لم تتضرر بفعل الغارات الجوية ؟

وقد جرت بأسرع مما كان منتظراً وفي وقت اقل منه بعد الحرب السابقة ، بالرغم من ان التدمير كان اكثر تخريباً وشمولاً . يضاف الى ذلك ان تحويل الصناعات الحربية قد كان ايسر مما امكن تصوره . فمنذ آخر السنة ١٩٤٨ – اي اقل من اربع سنوات بعد توقف العمليات الحربية – استطاعت اوروبا الغربية بلوغ مستوى انتاج ما قبل الحرب . وفي أواخر السنة ١٩٤٩ بلغت مستوى الصادرات نفسه .

هو تدمير ودروس معدات النقل ما اثار اكبر الصعوبات في عملية اعادة البنـاء . ففي السنة ١٩٤٧ نفسها ، ما زالت قاطرات ومقطورات السكة الحديدية ادنى عددا منها في السنة ١٩٣٩ بنسبة تتراوح بين ١٠ و ٢٥ بالمائة ، وما زال محول الاسطول النهري سوى ٤٪ محوله ما قبل الحرب . اما خسائر الاسطول التجاري فكانت اكثر فداحة ايضاً : ٢٤ مليون طن من اصل ٤٤ ، ولم يعض منها جزئياً سوى ابتياع السفن وبناء السفن الجديدة . فان الاسطول الاوروبي قد انخفض في السنة ١٩٤٥ الى ثلثيه في السنة ١٩٣٩ . فكان من ثم على عملية اعادة البناء تحمل عبء ثقيل هو دفع اكلاف الشحن للاسطول الاميركي . واخيرا كانت الابنية الخاصة والعامة قد دمرت بنسبة ٢٠ بالمائة في المانيا ، و ٦ الى ٩ بالمائة في بلجيكا ، وهولندا، وفرنسا ، والمملكة المتحدة ، و٥ بالمائة في ايطاليا. فلا عجب من ثم اذا ما كانت آثار الحرب في هذا القطـاع ، الذي يمثل اموالا ضخمة ، اكثر عمقاً واطول ديمومة ، لا سيا وان توقف حركة البناء ابان الحرب قد اضاف الى الخراب حاجة اخرى. فكان عدد المساكن الواجب تشييدها ٥٠ مليون مسكن، اي ١٦ بالمائة من مجموع المساكن العام .

لقد يسرت اعادة البناء القروض والهبات التي قدمتها الولايات المتحدة ولا سيا تنفيذ مشروع مارشال ، والطلب الذي اوجدته الحرب الكورية ونفقات التسلح . وقـد اعيقت في بعض البلدان بعدم استقرار الاسعار وبالتضخم المالي الذي لم يوضع له حد في فرنسا الا في السنة ١٩٥٢ بعد تخفيض الفرنك في السنة ١٩٤٦ والسنة ١٩٤٩ الذي رفع قيمة الدولار من ٤٣,٦٠ في السنة ١٩٢٩ الى ١١٩,١٠ ، ثم الى ٣٥٠ فرنكاً ، وفي ايطاليـا حيث ثبت سعر الليرفي السنة ١٩٤٧ بـ ٠,٥٪ من قيمته في السنة ١٩٣٨ . وفي المانيا الغربية حيث اتاح الاصلاح النقدي للاقتصاد ان ينطلق في السنة ١٩٤٨ من اسس سليمة .

كانت اعادة البناء اكثر تباطؤاً عند المهزومين ، في المانيا واليابان اللتين ابدى المنتصرون رغبتهم في اقتلاع جذور قوتها العسكرية . واذا كانت المشارع المعدة اثناء الحرب لجعل المانيا دولة زراعية بحتة لم تعد واردة ، فان التصميم على نزع الاسلحة منها ومن اليابان قد حمل على اقرار تخفيض طاقة انتاجها الصناعي بنسبة ٥٠ بالمائة من مستواها في السنة ١٩٣٨ : فليس بعد اليوم من صناعة بنزين ومطاط تركيبي ، ومن مواد مشعة ، وقد خفضت الصناعة الكيمائية الاساسية الى ٤٠ بالمائة (من مستواها في السنة ١٩٣٦) ، وانتاج الفولاذ الى ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ طن . وان معدل الانتاج الصناعي الذي كان ٣٣ (بالنسبة لمستواه في السنة ١٩٣٨) في السنة ١٩٤٦ ، لم يبلغ سوى ٥١ في شهر حزيران من السنة ١٩٤٨ . وفي اليابان لم يبلغ في شهر آب من السنة ١٩٤٧ سوى ٤٠٫٥ بالمائة من مستواه في ١٩٣٠ – ١٩٣٤ . ولكن النهضة بدأت في ١٩٤٧ – ١٩٤٨ حين قررت الولايات المتحدة تحويل المهزومين الى حلفاء على الاتحاد السوفياتي ودشنت « التطور العكسي » الذي اعاد تسلح من نزع سلاحهم واعاد لهم طاقتهم الصناعية وعززها .

تقدم الانتاج الصناعي

منذ منتصف السنة ١٩٥٠ حتى اواخر السنة ١٩٥٢ ، ادى تجدد التسلح الى ارتفاع الانتاج بسرعة ؛ ولكن الهبوط حدث منذ السنة ١٩٥٢ ، حين اتضح ان العمليات العسكرية في كوريا سوف تبقى محدودة . الا ان الازمة التي حدثت في الولايات المتحدة في ١٩٥٣ – ١٩٥٤ لم تؤثر تأثيراً يذكر على الاقتصاد الاوروبي الذي دخل ، بعد السنة ١٩٥٣ ، مرحلة توسع على نطاق كبير . اما اليابان فقد بلغت منذ السنة ١٩٥١ ، بفضل الحرب الكورية ، مستوى انتاجها في السنوات ١٩٣٠ – ١٩٣٤ . فان ضعف المراقبة وسخاء الاقراض قد شجعا انتاج المواد الاستهلاكية ، ولا سيما السيارات ، وتشييد الابنية ، وتوظيف الاموال . فليس ثمة من تأخر الا في الصناعات النسجية التي تراجعت امام الخيوط الاصطناعية وامام اقفال الاسواق التدريجي في افريقيا والشرق الادنى حيث كانت منافسة اليابان والهند ناجحة بفعل تدني الاجور فيهما . اما زيادة الانتاج الصناعي والزراعي والمنجمي بين السنة ١٩٤٠ والسنة ١٩٥٤ فقد جاوزت ٤٠ بالمئة كمّاً ، وكانت منذ السنة ١٩٤٨ اسرع في اوروبا الغربية منها في الولايات المتحدة ، وانما عوض عنها جزئياً بارتفاع عدد السكان وبتباين تقدمها ، من حيث ان جزءاً كبيراً من اوروبا الحرة قد ضم مناطق غير نامية كايطاليا الجنوبية واسبانيا والبرتغال واليونان . يضاف الى ذلك انها اختلفت باختلاف البلدان ، فكانت اكثر تباطوءاً في فرنسا مثلاً حيث لم ترتفع بين السنة ١٩٢٩ والسنة ١٩٥٤ الا بنسبة ١٨ بالمائة ، بينها ارتفعت بنسبة ٦١ بالمائة في بريطانيا العظمى ، و ٧٠ بالمائة في ايطاليا ، و ٨٦ بالمائة في المانيا ، و ٩٩ بالمائة في هولندا (و ١١١ بالمائة في الولايات المتحدة) . وكانت نهضة المانيا الغربية سريعة جداً منذ السنة ١٩٤٨ : فان معدل انتاجها الصناعي قد انتقل من ٧٩ في هذا التاريخ الى ١٥٠ في السنة ١٩٥٢ والى ١٧٦ في السنة ١٩٥٤ ، كما ان نصيبها من

الانتاج الصناعي الاوروبي ، الذي كان بنسبة ٢٠ بالمائة في السنة ١٩٣٨ ، وهبط الى ٨ بالمائة في السنة ١٩٤٧ ، قد ارتفع في اواخر السنة ١٩٥٠ ، فاحتلت الاسواق الخارجية مرة اخرى ، وبات المارك احد اقوى نقود اوروبا. وهي الصناعات المدنية والميكانيكية (٦٠ بالمائة) ، والصناعات الكيمياوية - بما فيها مصافي البترول - ما احرزت اكبر تقـدم وما بلغت اعلى الارقام بالنسبة لمستواها قبل الحرب ؛ وتضاعف انتاج الكهرباء خلال عشر سنوات بينما استقر انتاج الفحم الحجري وارتسم فيه اتجاه نحو التراجع .

بعد السنة ١٩٥٠ ، تواصلت انطلاقة الانتاج الصناعي بسرعة : فان معدل التقدم السنوي ، في العقد السادس ، قد اختلف في اوروبا بين ٧،٤ بالمائة في المانيا الغربية و ٢،٥ بالمائة في المملكة المتحدة ، و ٦ بالمائة في النمسا وايطاليا ، وبين ٤،٢٥ و ٥،٢٥ في سويسرا وهولندا وفرنسا ، وبين ٣ و ٣،٧٥ بالمائة في النروج والسويد والدانمارك وبلجيكا. ولكن السنة ١٩٦١ التي رأت اقتصاد الولايات المتحدة يخرج من الازمة وينطلق انطلاقة جديدة ، تشكل نهاية التقدم السريع في صناعة بلدان اوروبا الغربية . وقد اختلف التطور باختلاف البلدان : فاحتفظت المانيا الغربية وحدها بمعدل تقدمها المرتفع (٧ بالمائة في اوائل السنة ١٩٦٥) ، بينما لم يبلغ معـدل تقدم فرنسا سوى ٣،٣ بالمائة فقط ، بفعل خطة الاستقرار وتحديد القروض وتجميد الاسعار . اما التقدم الايطالي فقد طرأ عليه هبوط كبير بفعل الازمة التي حدثت في اعقاب الانتخابات التي كانت نتائجها مؤاتية لـ « منفذ الى اليسار » : ارتفاع الاسعار ، تهريب رؤوس الاموال ، عجز في ميزان المدفوعات . فكان ذلك نهاية « المعجزة الايطالية » التي ترد في الدرجة الاولى الى وفرة اليد العاملة الضئيلة الاجـور ، وكانت النهضة في السنة ١٩٦٥ بطيئة ومترددة . اما بريطانيا العظمى ، التي كانت عنصر الاختلال الرئيسي في مدفوعات اوروبا الغربيـة ، فكان معدل الزيادة فيها ابطأ منه في كافة الدول (٢،٤٥ بالمائة) ، وميزان مدفوعاتهـا في عجز ، ونقدها مهدداً ابداً .

يرد هذا الوضع الى تدني الطلب من خارج اوروبا ، بحيث اصبحت زيادة الاستهلاك آنئذ العامل الاول بين عوامل التقدم . ولكن العائق الرئيسي كان الحاجة الى اليد العاملة (ولا سيا المتخصصة) قبل نقصان الطاقة الانتاجية لانها هي كانت السبب الاول في ارتفاع الاجـور والاسعار الزراعية ، الذي لم يلبث ان بلغ نسبة عالية في المانيا وايطاليا وجاوز تقدم الانتاجية الى حد بعيد . فقد صادفت في الزمن زيادة في الاحتياط النقدي ، واسهمت من ثم في زيادة التضخم . ومع ارتفاع الانتاج احرز تجمع المشاريع تقدماً سريعاً جداً ، بغية مواجهة المنافسة في الدرجة الاولى ، في البلدان التي تحققت فيها فكرة السوق المشتركة تحققاً بطيئاً . وقـد تم التجمع عن طريق الانصهار ، وانشاء فروع مشتركة ، واقامة علائق مالية على جانب كبير من التعقيد : زهاء ٩٠٠ علاقة بين المشاريع الفرنسية المئة التي جاوز رأسمالها مليار فرنك في السنة ١٩٥٨ (تمثل ٦٠ بالمائة من امـوال الشركات المسعرة اسهمها في المصفق والمستخدمة

٠٠٠ ٧٠٠ عـامل) ، و ٦٧٧ بين المصارف التجارية الفرنسية الاثني عشر وحدها ... ثم اتسعت الحركة . فتحقق بين السنة ١٩٦١ والسنة ١٩٦٤ مائتا انصهار بين المشاريع الصناعية الكبرى الـ ٥٠٠ في المانيا الاتحادية. وفي السنة ١٩٦٤ حقق ٠،٣٤ بالمائة من المشاريع (الصناعية والتجارية) الفرنسية ٥٠،٩ بالمائة من مجموع المبيعات ودفعت ٥٤،٩ بالمائة من الاجـور . وبالرغم من ذلك كان التجمع في اوروبا اقل تقدماً منه في الولايات المتحدة ، اذ ان اهم مشروع الماني لم يأت في السنة ١٩٦٤ الا في المرتبة التاسعة والعشرين في لائحة المشاريع الصناعية العالمية الكبرى ، واهم مشروع ايطالي في المرتبة الثامنة والثلاثين ، واهم مشروع فرنسي في المرتبة الخمسين .

نجم عن ذلـك انخفاض سريع في عدد مشاريع الصناعة اليدوية المستقـلة والمؤسسات الصناعية المستخدمة اقل من ٥٠ اجيراً. وفي فرنسا ،حيث نعلم ان المشاريع الصناعية والتجارية الكبرى اقل عدداً واقل شأناً منها في الولايات المتحدة او في المانيا ، لم يرتفع ، بين احصاءي السنة ١٩٥٤ والسنة ١٩٦٢، سوى عدد المشاريع المستخدمة بين ٥٠ و٢٠٠ اجير (١و١٥بالمائة) واكثر من ٢٠٠ اجير (١٢ بالمائة)، بينما زال من الوجود ٠٠٠ ٨٤ مشروع صناعـة يدوية و٠٠٠ ٤٣ مؤسسة صناعية تستخدم بين اجير وعشرة اجراء .

الوضع الزراعي

كان التقدم بطيئاً بصورة عامة بعد السنة ١٩٤٩ حين بلغ الانتـاج الزراعي مستواه قبل الحرب. فان المعدل السنوي الذي بلغ ١٠ بالمائة بين السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٩ قد هبط بعد ذلك الى ٧ بالمائة ثم الى ٢ بالمائة (في ١٩٥٢ – ١٩٥٣) . فتكاد الزيادة توازي من ثم زيادة مجموع عـدد السكان ، بالرغم من ان المساحـة المخصصة للانتاج الزراعي قـد انخفضت منذ السنة ١٩٣٨ بنسبة ٢ – ٣ بالمائة . وقد اعاض تحسن الانتاج من انخفاض المساحات المزروعة بفضل استخدام المزيد من الاسمدة ومن الآلات الزراعية (جرّارة لكل ٢٠ هكتاراً من الأراضي الزراعية في المملكة المتحـدة وسويسرا ، ولكل ١٤٠ هكتاراً في فرنسا ، و٢١٠ هكتارات في ايطاليا) ، ولكن الاموال الموظفة في الزراعة كانت اقل شأناً الى حد بعيد من الاموال الموظفة في قطاعـات الاقتصاد الاخرى : ٠،٧٥ بالمائة في المملكة المتحدة، ٠،٤٢ بالمائة في المانيا، ٠،٣٥ بالمائةفي بلجيكا، ٠،٣٤ بالمائة في فرنسا ، ٠،٠٣ بالمائة في ايطاليا ، واستقر الانتاج في مستوى لم يتبدل تبدلاً يذكر . الا ان تنظيم الزراعة الاوروبية ، المتباين تقدماً ، غالباً ما اعاقه عجز العمال عن شراء ما يريـدون ، ووجود ملايين صغار الملاكين الذين كانت املاكهم اضيق من ان تؤمن لهم طيلة ايام السنة عملاً منتجاً ، والذين افتقروا الى الاموال اللازمة لتنظيم استثمارها ، فحدوا من الانتاجية والتقـدم الاجتماعي .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الزراعة الغربية لم تضمن الازدهار الا لجزء من مزاوليها. فبالاضافة الى قلة العمل ، وبالتالي الى قلة الاستخدام ، اللذين ولدا بؤساً حقيقياً احياناً ، ليس

من شك في وجود املاق لا جدال فيه بين الفـــلاحين ، ناجم عن الفرق الكبير بين الدخول الزراعية والدخول الصناعية وعن انخفاض اسعار البيع بالجمـــل . ومرد ذلك الى ان نصيب الزراعة الاجمالي في البلدان الصناعية ذات الدخل القومي المتزايد ، اخذ في التدني يوماً بعد يوم (هبط من ٣٥ الى ١٢ بالمائة من الدخل القومي في فرنسا بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩٦٠) ، بحيث انخفض معدل مستوى معيشة الفلاحين انخفاضاً كبيراً بالرغم من انخفاض عـــددهم انخفاضاً كبيراً ايضاً . وقد افضى هذا الانخفاض في مستوى المعيشة بالنسبة له في المدينة الى انحدار طبقي حقيقي والى امتعاض عام سببه « شعور بالحرمان والحيف والاهمـــال وعدم الاطمئنان للغد » .

فلا عجب والحالة هذه اذا ما اتسعت حركة الهجرة الريفية : فان نسبة العمل الزراعي بين الذكور ، التي انخفضت في النصف الاول من القرن العشرين في كافة البلدان (بمعدل ٥٢ بالمائة في بلجيكا و٤٨ بالمائة في السويد، و٤٦ بالمائة في انكلترا ، و٤٠ بالمائة في سويسرا وهولندا والمانيا الغربية ، و٣٠ بالمائة في فرنسا) ، قد استمرت في الانخفاض ، اذ ان فرنسا قد « حرمت » بين السنة ١٩٥٤ والسنة ١٩٦٠ من اكثر من ١/٤ فلاحيها ، ولا تزال « تحرم » من ٥٠٠٠٠ فلاح تقريباً في السنة ، كما ان المانيا الغربية «حرمت» من ١٦،٤ بالمائة ، وهولندا من ١١،٧ بالمائة ، وايطاليا من ١٠ بالمائة ، وبلجيكا من ٥ بالمائة ، الخ .

تجلى هذا الامتعاض احياناً باضطرابات وانفجارات استياء عنيفة تستهدف ارغام الدولة على التدخل لمصلحة الفلاحين الراغبين في التوصـــل الى وضع اجتماعي يعادل مستواه مستوى الفئات الحرفية الاخرى المماثلة. وبهذا الصدد شجعت الانظمة الانتخابية الغربية الدوائر الريفية، حتى القليلة السكان منها، لان وجود طبقة قروية راضية عنصر من عناصر استقرار المجتمع وديمومته. لذلك تنبهت الحكومات، بصورة عامة، الى تلبية مطاليبها : فهذه كانت الغاية في المانيا الاتحادية من « المشروع الاخضر » الذي اقر في السنة ١٩٥٥، والمشروع الاخضر الايطـــالي (١٩٦١) ، والقانون الزراعي السويسري الاساسي (١٩٥١)، وكافة التشريعات الفرنسية منذ السنة ١٩٦٤ ، الـــتي يمكن مقارنتها ، من اوجه عديدة ، بالتدابير التي سبقت الاشارة اليها في الولايات المتحدة .

في اليابان تحققت اصلاحات اقتصادية اساسية بغية جعل تنظيم الانتاج الزراعي والصناعي في متناول الجميع . وكان أهمها الاصلاح الزراعي الذي فرضته السلطات الاميركية في السنـــة ١٩٤٦ . ففي هذا التاريخ كان ٦٤٪ من سكان الأرياف يعملون في أراض مكتراة جزئياً او كلياً ويدفعون كراء يبلغ نصف الحصيد او اكثر من نصفه . وكان الهدف من الاصلاح وضع حـــد لبؤس هـؤلاء المكترين باعطائه اولئـــك الذين يزرعون الارض امكـانية امتلاكها . فاضطر الملاكون الذين لا يقيمون في اراضيهم الى بيعها من الحكومة بأسعارها في السنة ١٩٣٩ ، اي ان هذه الاراضي انتقلت الى الحكومة بما يشبه المصادرة والاستملاك . ولم يسمح للفلاحين بامتلاك

اكثر من سبعة أكرات ونصف ولغير الفلاحين من اكرين ونصف ، باستثناء « هوكايدو » حيث سمح بامتلاك اربعة اضعاف هذه المساحات . وتمكن المكترون من الحصول على هذه الاراضي اما بدفع ثمنها ، واما بدفع فائدة سنوية توازي ٣٫٢٪ من ثمنها طيلة ٣٠ سنة . وحددت بدلات الكراء بحيث لا تجاوز ٢٥٪ من محاصيل الأرز و ١٥٪ من محاصيل الزراعات « البعلية » . وصادف تطبيق الاصلاح صعوبات كثيرة بفعل معارضة بعض الوزراء الذين عرقلوه (خصوصاً في تسجيل انتقال الملكية) ولا سيما معارضة الملاكين السابقين الذين غالباً ما اشرفوا على عمليات اللجان المحلية وخوفوا المشترين . ولكن ٧٠٪ من المستثمرين الريفيين ، مقابل ٣٦٫٥٪ في السنة ١٩٤٥ ، اصبحوا منذ السنة ١٩٤٩ يملكون ٨٢٪ من الارض الزراعية مقابل ٥٤٫٢٪ . وبالرغم من هذه النتائج ، فان اكثر من ٦٠٪ من الفلاحين كانوا يستثمرون في السنة ١٩٥٦ حقولاً لا تبلغ مساحتها الـ « شو » (١٫٢٤ هكتار) . ولذلك اعتمدت منذ السنة ١٩٤٩ سياسة تحديد النسل التي نجحت في تخفيض معدل الولادات (الذي كان ٣٤٫٣ بالألف في السنة ١٩٤٧) الى ١٨٫٥ بالألف في السنة ١٩٥٦ ، بينما تدنى معدل الوفيات من ١٤٫٦ الى ٨ .

اما في ايطاليا الوسطى ، وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية ، فلم يحقق اصلاح واسع بغية تسوية المسألة الزراعية ، بالرغم من استيلاء فلاحي كلابريا وصقليا ، في السنة ١٩٤٩ ، على املاك كبرى ، وبالرغم من الاضرابات العامة التي اعلنها العمال ، الذين ينتظرون في شوارع القرى من يستخدمهم . ولم يطبق سوى قانون خاص عمل به في منطقة « سيلا » ، هو قانون « سترالشيو » الذي اتاح استملاك ١٠٠٫٠٠٠ هكتار ، وقانون خاص آخر عمل به في صقليا . فبلغ مجموع الاراضي الموزعة حتى هذا التاريخ ٥٠٠٫٠٠٠ هكتار ، ومجموع المستفيدين من هذا التوزيع ٩٠٫٠٠٠ عائلة .

الاستخدام

لم ينقطع الاستخدام عن التقدم ، وقد أتاح تشغيل الجماهير الغفيرة التي هاجرت الارياف الى المدن . لقد زالت آفة البطالة في البلدان الصناعية الكبرى باستثناء بلدان اوروبا الجنوبية . لا بل لوحظت في كثير من البلدان حاجة كبرى الى العمال الاختصاصيين . ففي ايطاليا حيث استقر عدد البطالين زمناً طويلاً حول رقم الـ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ (بطالة كلية) ، اي ١٠٪ من اليد العاملة ، وحول نسبة مماثلة من البطالين الجزئيين ، هبط هذا العدد الى ١٫٧٠٠٫٠٠٠ في السنة ١٩٦٠ والى ١٫٢٠٠٫٠٠٠ في السنة ١٩٦٤ . وفي المانيا الاتحادية هبط عدد البطالين من ١٫٨٠٠٫٠٠٠ في السنة ١٩٥١ الى ١٫٣٠٠٫٠٠٠ في اواخر السنة ١٩٥٤ والى الصفر منذ السنة ١٩٦٠ . لا بل جاءها منذ السنة ١٩٦٤ اكثر من مليون عامل اجنبي (٣٥٠٫٠٠٠ ايطالي ، والعديد من اليونانيين والاسبان والاتراك والبرتغاليين وسكان الدول المتاخمة) . ويصح هذا القول في سويسرا ايضاً حيث يوجد عامل اجنبي من كل ثلاثة (٢٧١٫٠٠٠ في السنة ١٩٥٥ و ٩٠٠٫٠٠٠ في السنة ١٩٦٤) . لذلك باتت نسبة البطالة ضئيلة جداً : ٠٫٥٪ في المانيا ، ٠٫٨٪ في هولندا ، ١٫٢ بالمائة في فرنسا ، ١٫٤ بالمائة في المملكة المتحدة ، ٢٫٩ بالمائة في ايطاليا .

وبالمقابلة ارتفعت الاجور الاسمية .

الانبعاث التجاري

استلزم الانبعاث التجاري تكيفاً جديداً عسيراً، ولكن تقدمه كان سريعاً بالرغم من العراقيل الكثيرة التي أقامتها في طريقه الرقابات ، والانظمة النقدية ، والتعريفات الجمركية. ففي السنة ١٩٥٥ جاوزت التجارة العالمية ، بنسبة ٥٠ بالمائة ، مستواها في السنة ١٩٤٨ (وستين بالمائة ، مستواها في السنة ١٩٣٨) . الا ان اوروبا الغربية خسرت جزءاً كبيراً من دخل الاموال الموظفة في ما وراء البحار والمقدرة في ١٩٥٠ — ١٩٥١ بـأكثر من خمسمئة مليون دولار في السنة ١٩٣٨ . وان هذا الدخل ، الذي كان يمثل ٣٢ بالمائة من حجم الصادرات في السنة ١٩٣٨ ، لم يمثل سوى ٩ بالمائة فقط في ١٩٥٠— ١٩٥١ . وأضيف الى هذه الخسائر عبء تسديد الديون الجديدة المتراكمة اثناء الحرب . فحتى البلدان التي توفرت لديها اموال احتياطية بفضل صادراتها في انحاء اخرى من العالم (كبريطانيا العظمى وخصوصاً البلدان التي لم تتضرر تضرراً كبيراً من الحرب كبلجيكا وسويسرا والسويد) قد اصطدمت بصعوبات كبرى نجمت بصورة خاصة عن استحالة تحويل كافة النقود تقريباً ، باستثناء الدولار والفرنك السويسري .

اذن كانت مسألة سد هذا العجز الكبير في ميزان المدفوعات على جانب كبير جداً من الخطورة . فان اوروبا الغربية ، باستثناء ايطاليا ، لم تستفد من المساعدات المخصصة للبلدان الفقيرة ، بحيث لم تؤمن المدفوعات الا بانفاق احتياطي الذهب او الدولار ، اوبفضل القروض التي منحتها الحكومة الاميركية : اعني بها القروض المعدة لدفع قيمة « فائض» المخزونات الحربية المتروكة في اوروبا ، او ثمن السفن المعروفة بـ «سفن الحرية». والحال كانت الحاجة الى معدات التجهيز والمواد الغذائية كبيرة جداً ، والموارد اللازمة لدفع قيمة هذه الواردات المتزايدة اخذة في التناقص ، وتقدم الانتاج الصناعي مؤدياً ، كما هو طبيعي ، الى انقاص الفوائض المعدة للتصدير ؛ كما ان الاسطول التجاري قد خسر جزءاً كبيراً من محموله ، والتقنين الغذائي قد منع السياحة من استعادة اهميتها القديمة ، والجزء الاكبر من الأموال الموظفة في ما وراء البحار ، ولا سيما في اميركا الشمالية ، قد صفي حسابه . وهكذا كانت اوروبا الغربية ، اقله خلال السنوات الاولى ، مدينة للولايات المتحدة ، حتى في حقل الخدمات . اما العلائق باوروبا الشرقية ، التي كانت في البدء متوقفة توقفاً تاماً ، فلم تتجدد بعد ذلك الا على نطاق ضيق ، بسبب الدمار الذي خلفته الحرب فيها وحاجات اعادة بناء هذه البلدان وادخال الاصلاحات الزراعية من جهة ، واتجاه تيارات التجارة الجديدة نحو الاتحاد السوفياتي ، من جهة ثانية . ثم كادت تنقطع انقطاعاً كلياً حين اشتدت الحرب الباردة .

« هوة الدولار »

وهكذا ازداد العجز في المبادلات بين اوروبا الغربية ومنطقة الدولار . فارتفع من ٧٠٠ مليون دولار في السنة ١٩٣٨ الى ثلاثة آلاف وخمسمئة مليون في السنة ١٩٤٦ والى خمسة آلاف وسبعمئة مليون في السنة ١٩٤٨ قبل

خص الولايات المتحدة وحدها .

وزاد تأخر صادرات المنتجات الاساسية من بلدانما وراء البحار من هذا الارتباطبالولايات المتحدةلان معظم الواردات الاوروبية التي حلت محلها قد ابتيعت من منطقة الدولار (٣٠ بالمائة اكثر من السنة ١٩٣٨) .

كادت الصادرات الاوروبية تتضاعف بين السنة ١٩٤٨ والسنة ١٩٥٤ ، بفضل المانيا والسويد بصورة خاصة ، ولكنها ما كانت لتزيل اختلال التوازن ، اذ ان اوروبا ما كانت لتستطيع زيادة وارداتها من الدولارات باستغنائها عن المنتجات الاميركية في اوروبا او في انحاء منطقة الدولار الاخرى . أما بريطانيا العظمى وفرنسا فقد حققت صادراتها اعلى ارتفاع (٨٥٪ بين السنة ١٩٣٨ والسنة ١٩٥١) في منطقة السترليني او في منطقة الفرنك اي في مستعمراتها في ما وراء البحار ؛ ولكن القضية كانت ، في الدرجة الاولى ، قضية توظيف اموال من اجل تنفيذ خطة تجهيزية او انفاق عسكري (ماليزيا ، الهند الصينية) . واذا تدنى العجز فليس ذلك بفضل الحصول على الدولارات بل بفضل القروض التي قدمتها المشاريع الخاصة والحكومة الاميركية والمصارف المرتبطة بها ، وبفضل ارتفاع نفقات القوات الاميركية المتمركزة في اوروبا وطلبات بلدان ما وراء البحار . ولكن المقصود هنا هو مساعدة مرتبطة بالوضع السياسي والعسكري لم تفلح سوى في «اخفاء» عجز دائم بلغ زهاء ٤٠٠ ٢ مليون دولار في السنة ١٩٥٤ و ٤٠٠ ٣ مليون في السنة ١٩٥٥ . فان اطراد ارتفاع صادرات الولايات المتحدة (خصوصاً صادرات البترول والقطن في اعقاب أزمة السويس واقفال الترعة) ، وتباطؤ انتاجها الصناعي الذي خفض مشترياتها من المواد الاولية واحدث تدنياً جلياً في اسعارها ، ورفضها تخفيض تعريفاتها الجمركية ، قد ادت في السنة ١٩٥٧ الى انفاق كميات كبرى من احتياطي الذهب والدولارات في بلدان كثيرة — البلدان المنتجة الخامات والبلدان الصناعية على السواء — وزادت من عجزها التجاري وفرضت على البعض منها تدابير تقييدية واكرهتها على استدانة مبالغ باهظة من صندوق النقد الدولي . تلك هي الازمة الاميركية في السنة ١٩٥٨ التي كان اثرها على التجارة الاوروبية غير ذي شأن ، وذاك هو انخفاض سعر المواد الأولية التي اتاحت وحدها للاقتصادات الاوروبية ان تجدد مخزوناتها من النقد النادر وتستعيد مكاناً اكبر في التجارة العالمية .

مشاريع توحيد اوروبا الغربية

من اجل تنظيم اقتصادات اوروبا تنظيماً صواباً ، ومن اجل تنسيقها تنسيقاً اكثر فاعلية ، ومن اجل تأليف قوة ثالثة تكون على قدر كاف من الركانة والازدهار لتعيش مستقلة عن الكتلتين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، نشأت الحركة الهادفة الى توحيد دول اوروبا غير الشيوعية . فان « حركة اوروبية » تأسست في لاهاي وترأسها و . تشرشل ول. بلوم وسباك وغاسبري اقترحت في السنة ١٩٤٨ انشاء « اتحاد اوروبي » مع جمعية استشارية تكون نواة لبرلمان الغد الاوروبي؛ الا ان المشروع أثار معارضة البريطانيين المتمسكين بعلائقهم بالمتلكات ولم يؤد الا الى انشاء

« مجلس اوروبا » الذي عين مركزه في ستراسبورغ ولم تتوفر له اية وسيلة عمل . ولما كانت الوحدة السياسية وحتى « الدستورية » صدمة كبرى للمشاعر القومية ولا سبيل الى تحقيقها ، فقد فكر محركوها بالتوصل الى خلق جو مؤات بتحقيق وحدة اقتصادية تضع حداً لاضطراب الاقتصاد الدولي الناجم عن نظام الحماية والاكتفاء الذاتي وعن القيود المفروضة على انتقال السلع ، والبشر (بايقاف الهجرة) ، ورؤوس الأموال . وكان المقصود جعل اوروبا « سوقاً واحدة » تمكن من توزيع العمل توزيعاً صوابياً وتوزيع الصناعات توزيعاً جديداً من شأنه تحسين الانتاجية وتوفير فوائد الانتاج الكثيف . ويفترض هذا التحول ، في كافة المناطق الموحدة ، ان تنتقل السلع واليد العاملة ورؤوس الأموال بحرية . ولكن اقتصادات اوروبا المنقسمة هذه كانت عرضة ومسرحاً للمنافسة . فان اقرار حرية التبادل بين الدول الاوروبية قد يعني بالنتيجة تقويض اقتصاد عدد كبير من الدول والمناطق . وهكذا طرحت مسألة المناطق الفقيرة التي تتعرض لان تمسي اكثر بؤساً اذا تركت الحرية لنشاطات السوق ، كما حدث في ايطاليا بعد التوحيد اذ رأى الجنوب ، وقد كان ضحية الشمال الذي يفضله تجهيزاً ، ان صناعته تقهقرت بسرعة لانها لم تعد محمية بالحواجز الجمركية . فبدون تدابير تحمي مناطق اوروبا الجنوبية التي يكثر فيها الفلاحون ، قد يزداد الفرق بين مستويات النمو الاقتصادي في المناطق الاوروبية ذات الدخل المرتفع والمناطق ذات الدخل الزهيد .

اتضح من ثم ان مشروع انشاء وحدة جمركية واسعة ، الذي حظي بعطف الاميركيين ، كان مشروعاً خيالياً ، وقد اهمل واستعيض عنه بفكرة انشاء وحدات جمركية ضيقة النطاق ، ولكن المفاوضات ، هنا ايضاً ، اظهرت صعوبات يستحيل التغلب عليها ، ولم تنته اية محاولة الى نتائج عملية ، باستثناء اختبار وحدة البنلوكس (١٩٤٨ - ١٩٤٩) « التي تعتبر نجاحاً اذا ما قورنت بالمحاولات العديدة الفاشلة في مناطق اخرى » : فقد كان انتقال اليد العاملة محدوداً جداً ، وانتقال رؤوس الأموال محصوراً جداً ، والمبادلات التجارية ، على الرغم من تزايدها ، قليلة جداً بسبب اختلاف الانظمة في البلدان الداخلة في الوحدة : زراعة بلجيكية متقدمة معدة لتغذية بلاد مصنعة واسعار مرتفعة ، وزراعة هولندية موجهة نحو التصدير . وصناعة بلجيكية تهددها المنافسة الهولندية . وخيبت الآمال كذلك الوحدة الجمركية الفرنسية الايطالية في السنة ١٩٤٩ ومحاولة الوحدة السكندينافية في السنة ١٩٥٠ .

خطة شومان ، السوق المشتركة والأوراتوم

اكتفي آنذاك بصيغة اكثر تواضعاً هي صيغة « وحدة القطاعات » ، ولا سيا القطاعين اللذين لم تؤد حرية التجارة فيهما الى نتائج ثابتة : صناعات الفحم الحجري والفولاذ (خطة شومان، في شهر ايار ١٩٥٠)، والزراعة . فقد أسست خطة شومان «وحدة الفحم الحجري والفولاذ» وانطوت على مقاصد سياسية بعيدة اذ كان مفروضاً فيها ان تهيء لاتفاق فرنسي الماني يكون بمثابة خطوة اولى نحو اوروبا موحدة سياسياً ؛ وقد استهدفت بادىء ذي بدء ايجاد تضامن

اقتصادي فرنسي الماني يجمعها في وحدة اوسع نطاقاً الدول التي تتجمع فيها صناعـات الفحم الحجري (الفرنسية والبلجيكية والالمانية واللوكسمبورغية) في رقعة ضيقة نسبياً ، والتي تحول فيها عوائق الحدود دون استخدام الموارد الطبيعية استخداماً صوابياً . فانخرطت فيهـا من ثم المانيا وفرنسا وايطاليا والبنلوكس؛ اما بريطانيا العظمى فقد اعرضت طوعاً عن الانخراط فيها.

أسندت الى « سلطة عليا » الصلاحيات الضرورية لتنظيم السوق المشتركة والاشراف عليها ، وتنسيق توظيف الأموال ، وتمويل او ضمان المشاريع المرغوب فيها ، والحؤول دون قيـام اتحادات مهنية او اية اتفاقات اخرى احتكارية الطابع ، ومن جهة ثانية ، لاتخاذ التدابير الجدية في حال ازمة او حاجة .

في الحقل الزراعي ، اصطدمت شتى خطط « الاتحاد الاخضر » التي حاولت توحيد اسواق اوروبا الغربية توحيداً تدريجياً ، فيما يتعلق بعدد من المحاصيل الزراعية، بصعوبات كبرى مختلفة، اذ ان الحكومات كانت كثيرة الاهتمام بان تضمن لطبقة فلاحيها دخلاً ثابتاً كافيـاً لم تتخل ، حفاظاً عليه ، عن جزء من مهامها لمصلحة جهاز دولي .

خطيت الخطوة الحاسمة في شهر آذار من السنة ١٩٥٧ حين وقعت في روما المعاهـدات التي انشأت الـ « اوراتوم » (من اجل اشتراك الاعضاء في مصادر الطاقة النووية) ولا سيما « الوحدة الاقتصادية الاوروبية » او « السوق المشتركة » التي تخطت الوحدة الجزئية التي حققتهـا وحدة الفحم الحجري والفولاذ . وكانت الغاية من السوق المشتركة التوصل ، خلال ١٢ او ١٥ سنة ، الى إقامة وحدة جمركية مع تعريفة خارجية واحدة وحرية انتقال كاملة ، داخل الوحـدة ، للاشخاص ورؤوس الأموال والخدمات ؛ وسن قوانين وانظمـة تتوافق والسياسات التجارية الموحدة تدريجياً . وقد سبق لوحـدة الفحم الحجري والفولاذ ان اظهرت في نطاقها الخاص الفوائد الجلى الناجمة عن انشاء نطاق اقتصادي واسع : الملاءمة بين التعريفات الجمركية وظروف النقل ، تنظيم العمـل الصناعي ، تأسيس شركات كبرى (عن طريق الصهر) قادرة وحدها على جمع رؤوس الاموال الضخمة التي تستلزمها معـدات واجهزة متقنة ، تنسيق السياسات التجارية . الا ان التقسيم الدولي للعمل لما يكن متقدماً .

اصبحت الوحدة الاقتصادية الاوروبية سارية المفعول في السنة ١٩٥٩ ، بعـد ان اصبحت العملات الاوروبية الرئيسية قابلة التحويل ، وبعـد ان اطلقت حرية (٤٠ الى ٩٠٪ من) المبادلات الاوروبية الداخلية . وفي الوقت نفسه دشن مؤتمر بروكسل مرحلة ثانية بتبني ميثاق زراعي كان منطلقاً لمفاوضات طويلة معدّة لان تنسق اوضاعا مختلفة كل الاختـلاف (كانت الاسعار الزراعية الالمانية اعلى من الاسعار الفرنسية بنسبة ٢٥٪ ، وقد احتلت فرنسا مركزاً مسيطراً بعد ان باتت مصدّرة كبرى للمحاصيل الزراعية، الخ.) .وانضمت الى السوق المشتركة اخيراً اليونان وتركيا و١٨ جمهورية افريقية وملغاشية . اما بريطانيا العظمى التي لم تبال بكـل هذه المساعي ، ولم تؤمن بان الوحدة الاقتصادية الاوروبية سوف تعرف البقاء ، واعاقها « ثقل

امبراطوريتها » ، قد انشأت في السنة ١٩٥٩ ، في وجه الوحدة الاقتصادية الاوروبية (اوروبا الدول الست) ، جمعية اوروبية للمبادلة الحرة ، او « اوروبا الدول السبع » (مع السويد والنرويج والدانمارك والبرتغال وسويسرا والنمسا) التي لم توجد سوى مجرد تعاون جمركي .

في اواخر السنة ١٩٦٢ برزت فوائد السوق المشتركة بارتفاع في المبادلات بين الدول الست بنسبة ٩٣ بالمائة خلال خمس سنوات ، وتقدم صناعي كبير ، وتدني البطالة ، ان لم يكن زوالها كليا . الا ان الصعوبات المتكاثرة كادت توقف تطور المؤسسة . ويرد ذلك الى ان اوروبا مقتصرة على الدول الست ، تكون منطقة الزور قطبها الرئيسي ، بعثت الخوف من ان توفر الوحدة الناجزة لالمانيا الاتحادية مركزاً مهيمناً في اوروبا الغربية ، لا سيما وان التوحيد الاقتصادي يستتبع حتما قيام سلطة سياسية تتقدم كافة الحكومات في الدول الموحدة ، كما هو « منطق الاحداث » (ج ويلر) ؛ هذا كان موقف الذين قالوا غير ما قاله الجنرال ديغول ومشايعوه : « اوروبا الاوطان » . وكان من شأن انضمام بريطانيا العظمى الى السوق المشتركة ان يعيد التوازن ، او اقله التوازن السياسي ، ولكن هذا الحل قد طرح جانبا بمعارضة رئيس الحكومة الفرنسية طلب الانضمام الذي تقدمت به (كانون الثاني ١٩٦٣) . واخيراً انتهت المفاوضات بين الدول الست من اجل تنظيم تحويل السياسة الزراعية المشتركة الى الفشل (تموز ١٩٦٥) ، بينما كانت تعد معارك جديدة حول « جولة كندي » ، اي مفاوضات من اجل تخفيف الحواجز الجمركية الذي اقترحته الولايات المتحدة . فقد أقر الكونغرس بالفعل مشروع « قانون التوسع التجاري » الذي اعطى الرئيس صلاحيات واسعة للتفاوض في موضوع تخفيض التعريفات. ويبدو اليوم تخلي الولايات المتحدة عن مذهب حماية الصناعة ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار تفوق صناعاتها والوسائل المالية المتوفرة لديها ، غير متفق والغاية التي نشدها مؤسسو السوق المشتركة : ايجاد « قوة اقتصادية ثالثة » مستقلة عن « الكبيرين » .

٣ – تراجع الديموقراطية الكلاسيكية

في السنة ١٩٤٥ ، خرج المبدأ الديموقراطي ظافراً من الصراع ضد الانظمة « الفاشستية » في المانيا وايطاليا واليابان . فلم تثبت الفكرة الديموقراطية قوتها الاشعاعية فحسب باجتذابها المزيد من الدول ، بل اثبتت الانظمة الديموقراطية فعاليتها وتفوقها عملياً حتى في النطاق الذي بدا فيه خصومها على خير استعداد ، اي في نطاق تسيير الحرب . ففي كافة بلدان العالم – باستثناء اسبانيا والبرتغال والارجنتين – تسلّمت الاحزاب الديموقراطية السلطة ووضعت خططاً لإصلاحات معدّة لتجديد اصول الدولة وتقنيتها ولتحديد حقوق الانسان الاجتماعية . الا ان تحالف المقاومين قد اضطر الى مماشاة اكثر اعضائه اعتدالاً ، فلم تتناول الاصلاحات المحققة من ثم سوى المؤسسات السياسية العليا ، دون ان تحدث اي تبديل في المؤسسات الاجتماعية الدنيا ؛ واقرت دساتير جديدة ، ولكن السلطة بقيت في ايدي الطبقات الحاكمة القديمة .

بيد ان خطط الاصلاحات العميقة هذه ، الهادفة الى وضع حدّ للتناقض المتمثل « بمجتمع متساو قانوناً وسياسياً ، ومتسلسل السلطات اقتصادياً واجتماعياً » ، قد اثارت لدى الطبقات الحاكمة ارتيابات زاد من شدتها ان تعاظم قوة الاتحاد السوفياتي وقيام الديموقراطيات الشعبية قد جسّدا خطر نفوذ الشيوعية على الطبقات العالية التي كانت الضحايا الرئيسية للحرب والاحتلال. وبدا زوال الفاشستية ، التي اعتبرها شطر كبير من البورجوازية ، قبل الحرب وخلالها ، اضمن خط دفاع ضد اخطار انتشار البلشفية ، وكأنه ترك هذه البورجوازية دون دفاع . وامام سيل المطالبات الاجتماعية واخطار التأميم بالجملة ، اعيت الحيلة الطبقات الحاكمة ، فأعربت بمزيد من القوة ، خلال سنوات ما بعد الحرب ، عن ميولها المحافظة والتسلطية وعدائها الحركات التقدمية والشيوعية . وقد شجعها في هذا التصلب الدعم الذي جاءها من الحكومات الانكلو ساكسونية التي انتهجت على الدوام نهجاً محافظاً جداً : دعم حتى الساعة الاخيرة للملكية التي اعتبرت عنصر استقرار في ايطاليا ويوغوسلافيا ، اعادة الملكية الى اليونان ، مراعاة ورعاية للدكتاتوريات الاخيرة التي عرفت البقاء في اوروبا الغربية (البرتغال ، اسبانيا) ، مساعدة وتشجيع للأحزاب المحافظة في كافة البلدان بوجه عام .

الدساتير الجديدة

باستثناء بلجيكا ، وهولندا ، والنرويج ، والسويد ، والمملكة المتحدة (حيث خفض مفعول حق النقض في مجلس اللوردات من سنتين الى سنة) ، عدّلت كافة مؤسسات دول اوروبا الغربية الحرة في السنوات التي عقبت الحرب . فان الدساتير السارية المفعول بعد السنة ١٩١٩ والممارسة الدستورية في كافة الدول الاوروبية قد اتجهت الى جعل النظام البرلماني نظاماً « صوابياً » يعين شروط الاستقرار الحكومي . الا انه في كل البلدان – باستثناء انكلترا – تلاشى او تفكك بفعل الازمة ، « موهناً بدسائس متوسطي الذكاء ومؤامرات المفسدين » ؛ ولذلك اعد كافة وطنيي البلدان المشتركة في المقاومة مشاريع عدة انطوت كلها على الفكرة المشتركة التالية :

« تكوين طبقة حاكمة جديدة ، وحكام جدد ، يحلون محل الطبقات التي اتضحت دونيتها وعدم جدارتها في تسيير الشؤون قبل السنة ١٩٣٩ ، والتي اقدم شطر كبير منها على مماشاة الحكومات التي تعاونت والنازية . لقد اجمعت الآراء على الاحتفاظ بالمبدأ الانتخابي والتصويت العام ، ولكن الكثيرين ميزوا بين الديموقراطية والنظام البرلماني ... فالنظام البرلماني ليس الشكل الوحيد والناجع والضروري للديموقراطية ... ليست هاتان الكلمتان ، بأي شكل ، متعادلتين او متماثلتين » (ليون بلوم).

ان النظام الذي مكّن عندهم كان نظاماً على الطريقة الاميركية يضمن السلطة التنفيذية صلاحية واسعة ومستقلة . ولذلك فان النصوص الاساسية التي تضمنتها الدساتير الجديدة (فرنسا ١٩٤٦ ، ايطاليا ١٩٤٨ ، المانيا الاتحادية ، ١٩٤٩) قد جعلت المؤسسات اكثر فعالية رغبة من واضعيها ، كما اعتقدوا ، في ضمان الاستقرار الحكومي لمدة معينة وتعزيز سلطة رئيس الحكومة الذي هو رئيس الاكثرية ايضاً . وسهّلت هذه النصوص ممارسة حق حل المجلس

ووضعت اصولاً استهدفت الحدّ من الازمات الوزارية (في فرنسا : تولية رئيس مجلس الوزراء بالاقتراع العلني والاكثرية المطلقة ، احتمال الحل اذا حدثت ازمتان خلال ١٨ شهراً) . وفي ايطاليا ، اقتضى للتصويت على اقتراح بعدم الثقة، ان يحمل الاقتراح تواقيع عشر اعضاء المجلس وان لا يطرح الاقتراح على المناقشة قبل انقضاء ثلاثة ايام على تقديمه ؛ وفي المانيا الاتحادية ، لا تُسقِط الوزارة سوى اكثرية « بناءة » : « لا يحق للمجلس الاتحادي ان يعبر عن عدم ثقته بالمستشار الاتحادي الا بانتخاب خليفته بأكثرية الاعضاء وبدعوة رئيس الاتحاد الى اعفاء المستشار الاتحادي من مهامه » ... « ويجب ان تمر ٤٨ ساعة بين تقديم الاقتراح بعدم الثقة والتصويت عليه » . وباستثناء المانيا الاتحادية اتضح في كافة البلدان ان هذه النصوص لم تكن ذات فعالية كبرى .

اتساع دور الدولة في الحقل الاقتصادي

اتسعت مهام الدولة في كافة الحقول . ففي السنوات التي عقبت التحرير ، سنّت قوانين اقتصادية توجيهية كثيرة دونها سياسة التدخل في سنوات الازمة . وليس المقصود هنا التدابير المؤقتة التي استلزمتها مرحلة العوز والحاجة ، كالابقاء على التقنين الغذائي ، وتوزيع المواد الاولية ، وتحديد الاسعار ورقابتها ، ورقابة التجارة الخارجية وحركات النقود النادرة ، وتنظيم الاجور ، حتى ولا تدخل السلطات العامة بغية « اعادة النظام الى الاجور » اي بغية تنظيم ارتفاعها (ارتفعت سبع مرات في فرنسا بين السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٨) ، بل تدابير هامة جديدة ونهائية كالتأميم واعداد الخطط الاقتصادية .

هكذا ولدت اشكال جديدة للملكية العامة اقامت في البلدان الغربية نظام اقتصاد مختلط حيث شوهدت مؤسسات غير مؤممة تستثمر قطاعاً هاماً من النشاط الاقتصادي غير الخاضع للملكية الخاصة . هذه هي حال « التعاونيات العامة » البريطانية (الفحم الحجري ، الكهرباء ، وسائل النقل العام ، الغاز) و« المؤسسات العامة الاقتصادية » الايطالية : « ادارة المعادن الايطالية » و« ادارة الهدروكاربور الايطالية » التي اسسها انريكو ماتيي ، ومصرف ايطاليا ، والمعهد الوطني لاعادة بناء الصناعة ، الذي احتل المرتبة الرابعة بين المؤسسات الاوروبية الكبرى واشرف على قطاعات واسعة من الاقتصاد الوطني (نقل الركاب، بناء السفن، الصناعات الميكانيكية ، الفولاذ ، اربعة مصارف كبرى ، « اليطاليا »، شركة « اوتوسترادا » ، الاذاعة ، الخ .) وشطر كبير من صناعة الفولاذ في النمسا ، و « كهرباء وغاز فرنسا » ، ومصانع رينو في فرنسا ، ومصانع آردال للالومينيوم و « موراپ – رانا » للصب في النرويج ... فقد خضعت كافة هذه المؤسسات لانظمة خاصة ، وتمتعت بالاستقلال المالي ، وكانت لها موازنات مماثلة لموازنات المشاريع الخاصة ، ونجت ، اقله نظرياً ، من التدخل الحكومي .

التأميمات

ادى عجز الاقتصاد الرأسمالي عن التغلب على الازمة والبطالة وعن اعداد الحرب اعداداً فعالا ، ومن ثم عن صيانة الاستقلال الوطني ، والنمو العظيم في الانتاج الذي حققه الاقتصاد البريطاني المراقب خلال الحرب ، على نقيض ركوده قبل الحرب ، الى القناعة بان اعادة البناء بعد الحرب وتحويل الصناعات الى اقتصاد ايام السلم لا يمكن ان يتركا للمبادرة الخاصة ، وبأنها يجب ان يخضعا لتخطيط الدولة وتوجيهها اقله في القطاعات الرئيسية .

وكانت هنالك بواعث اخرى قامت بدورها ايضاً : كالموقف الذي وقفه في البلدان المحتلة عدد كبير من اعضاء الطبقات الحاكمة الذين تعاونوا مع المحتلين وعملوا في خدمة آلتهم الحربية ، فنقلت مصانعهم الى اسم الدولة واشرك العمال في ادارتها . يضاف الى ذلك ان الالمان اسهموا خلال الاحتلال في مشاريع كثيرة واشرفوا على معظم المشاريع الكبرى ؛ فاصبحت هذه الملكيات الالمانية ، بعد التحرير ، املاك دولة ايضاً ؛ وهكذا تحقق تأميم قطاع هام .

واخيراً بدا من الضروري ضمان ادارة اكثر فعالية منها في السابق . وكان ذلك باعث تأميم الصناعات القديمة المتقهقرة كصناعات الفحم الحجري البريطانية حيث برهنت الملكية الخاصة عن عجزها عن توظيف الاموال اللازمة وتحقيق اعادة التنظيم الضرورية لزيادة الانتاج . وهي الرغبة في تنظيم ادارتها ما حمل على تأميم المصارف الفرنسية الكبرى التي كثرت في ادارتها الوظائف المزدوجة ، وما حملت على تأسيس مثل « معهد الصناعة الوطني » في اسبانيا و « المعهد الوطني لانماء الصناعة » في ايطاليا اللذين اسهما إسهامات واسعة في عدد من المشاريع .

يجب اخيراً ان نضيف الى ذلك الاقتناع بخطر الاحتكار الخاص بسبب التجاوزات التي قد تنجم عن اثره السياسي . ففي بريطانيا العظمى ، ولا سيما في فرنسا ، ما زال الناس يتذكرون السنوات الاخيرة التي نجحت الرأسمالية المالية فيها في احباط محاولات الاصلاحات الاجتماعية التي قامت بها الحكومات اليسارية ؛ وهو هذا العداء للاحتكارات ما دفع الى تأميم السكك الحديدية البريطانية وشركات الضمان والمصارف الكبرى في فرنسا ، والخدمات العامة (غاز ، كهرباء) في البلدين .

لم تجر في اي مكان ، من جهة ثانية ، محاولة تأميم كامل ، وباستثناء حالات الاحكام ، دفعت التعويضات لاصحاب المشاريع المستملكة . اذن اجريت تأميمات صناعات رئيسية . ليس في الديموقراطيات الشعبية فحسب ، بل في بلدان اخرى عديدة . ففي السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٦ قضى عدد من الاحكام والقوانين الفرنسية بتأميم مصانع رينـو ، وشركة محركات « غنوم ورون » ، والنقل الجوي ، ومصرف فرنسا ، ومصارف الودائع الاربعة الكبرى ، والمصرف الجزائري ، و ٣٤ شركة ضمان ، وانتاج وتوزيع الكهرباء والغاز ، ومصانع الفحم

الحجري . وفي النرويج امت المناجم والجـــزء الاكبر من الصناعة الكهربائية – التقنية . وفي بريطانيا العظمى اقدمت الحكومة العمالية بين السنة ١٩٤٦ والسنة ١٩٤٩ على ثماني عمليات تأميم كبرى تناولت : مصرف انكلترا ، الاسلاك والاتصال اللاسلكي ، الطيران المدني ، مصانع الفحم الحجري ، النقل الداخلي ، الكهرباء ، الغاز ، وفي السنة ١٩٥١ ، الفولاذ .

الخطط

وفي كل الدول ، من جهة ثانية ، تدخلت الدولة في الاقتصاد بتخفيف الضرائب، واستئجار المصانع ، وتسهيل الاقراض او تقييده . واسندت الابحاث المتعلقة بالطاقة النووية وبناء منشآت تحليل الذرة ، التي تستلزم اموالا طائلة ، الى ادارات رسميـــة في انكلترا وفرنسا والمانيا . وبرز تدخل الدولة كذلك في رسم الخطط الخاصـة ، كخطط وصل الشبكات الكهربائية ، والخطة الشاملة للاقتصاد الوطني . ففي انكلترا حيث لم ترسم خطـة شاملة ملزمة تنفذ طيلة سنوات عـــدة ، كانت السياسة الاقتصادية ، بالرغم من ذلك ، منسقة ومخططة : في السنة ١٩٤٨ اعلنت خطة موضوعة للسنوات ١٩٤٨ – ١٩٥٢ كان الهـدف منها اعلام الأمة بالمهام الاقتصادية الواجبة التحقيق وابراز ما يمثل بينها مركز الأولوية ، على ان تستخدم الحكومة صلاحيتها الرقابية من اجل توجيه الصناعيين نحو تحقيقها . واعتمدت هولندا بعد الحرب خطة ثمانية يستغرق تنفيذهـــا اربع سنوات كان من المنتظر ان تعيد ، في السنة ١٩٥٠ ، مستوى المعيشة الى ما كان عليه في السنة ١٩٤٠ ، وتصلح ما هدمته الحرب ، وتعوض خسارة دخول الأموال الموظفة والتجارة مع المستعمرات الاندونيسـية السابقة ، وخسارة تجارة الترانزيت مع المانيا . ورسمت ايطاليا الخطة المعروفة بـ « خطة فانوني » المعدة لايجاد ٤ ملايين وظيفة او استخدام . الا انها لم تتوفق حتى السنة ١٩٦٠ لا الى ازالة البطالة ولا الى ادخال اي تعديل على الفرق المعظم بين الدخول في الشمال والدخول في الجنوب .

بالإضافة الى هذه الخطط الجزئية التي فرضتها الظروف ، اعتمد تخطيط قيامي طويل الاجل في ثماني دول غربية : فرنسا والنرويج أولا ، ثم هولنـــدا والسويد وفنلندا والبرتغال واليونان وتركيا ، ثم ايطاليا (١٩٦٥) وبلجيكا والمملكة المتحدة . لقد اختلفت هذه الخطط الجديدة فيما خص هدفها وطرائقها ، ورسمت ابدأ بالاتفاق بـــين القطاع الخاص والدولة ، وانطوت في جوهرها على تقديرات تتناول معدل الزيادة ، وعلى نصوص بيانية غير الزامية معدة لان توجـه او تنظم تطورات الانتاج ، وتوزع الموارد والاعتمادات المالية في اطار النظام الرأسمالي . فكان المقصود منها لعمري « تنظيماً مخططاً » وتخطيطاً محافظاً يوطد النظام القائم، لا تخطيطاً حقيقياً كما اريد تحقيقه في مستوى المشروع او في البلدان الاشتراكية .

في فرنسا ، انشأ « جان مونيه » في السنة ١٩٤٦ « لجنة التخطيط » الـتي تمخضت في السنة ١٩٤٧ بخطة وطنية « للتجهيز والتجديد وفقاً لمتطلبات العصر »، كانت اوسع خطـة في اوروبا الغربية ، ووضعت في السنة ١٩٦٥ خطة خمسية خامسة .

توظيف الأموال

بات دور الدولة رئيسياً في حقل توظيف الاموال بصورة خاصة . ففي السنة ١٩٣٨ خصص ٥٪ فقط من موارد الموازنة الفرنسية للتوظيف في المشاريع . وارتفع هذا الرقم الى ٢٩٪ في السنة ١٩٤٦ ، و ٤٠٪ في السنة ١٩٤٩، ولكن تزايد ارتفاع الاعتمادات العسكرية جعله يهبط الى ٣٠٪ في السنة ١٩٥١ . فمن اصل الـ ١٢٠٠ مليار الموظفة في الاقتصاد الفرنسي في فرنسا في السنة ١٩٥٠ ، جاء ٧٤٩ ملياراً (٦٢٪) من الأموال العمومية بشكل اعتمادات واعانات مالية ، وتعويضات عن اضرار الحرب ، وخصوصاً بشكل قروض منحها صندوق التجهيز والتجديد وفاقاً لمتطلبات العصر . وعلى نقيض ما حدث قبل الحرب ، كان دور اصدارات الاسهم والسندات غير ذي شأن ، ودور التمويل الذاتي اكثر اهمية (٢٥٪) ، ولكن شطراً كبيراً من رؤوس الاموال المتوفرة للانتاج قد تأمن باللجوء الى الاموال العامة .

مثل سويسرا

في سويسرا ، ادخل التعديل الدستوري على الدستور في السنة ١٩٤٧ « بنوداً اقتصادية » جديدة أناطت بالصلاحية الاتحادية تشريع العمل والضمان الاجتماعي ، وسمحت لها بنقض حرية الصناعة والزراعة من اجل المحافظة على التوازن الاقتصادي في البلاد واستدراك الازمات الاقتصادية والبطالة . والحال كانت السلطة الاتحادية قد عززت وسائل تأثيرها على سلطات الولايات بالاعانات المالية التي منحتها اياها بشكل اعفاء من بعض الضرائب؛ فاصبحت بعض الولايات ، التي تألف ٢٠ بالمائة من مواردها من هذه الاعانة ، خاضعة لها ، شأن الولايات بالنسبة للدولة الاتحادية في الولايات المتحدة .

اتساع الوظيفة العامة

ومن ظواهر توسع سلطة الدولة هذا الارتفاع التدريجي ، الذي سبقت الاشارة اليه في الولايات المتحدة ، في عدد الموظفين في كافة البلدان ؛ فالنسبة في انكلترا اعلى منها ، بشكل ظاهر ، في فرنسا حيث ارتفع العدد الى ثلاثة اضعافه منذ السنة ١٩١٤ ، كما هي الحال في سويسرا حيث ارتفع عدد موظفي الادارة المركزية الى اكثر من خمسة اضعافه بين السنة ١٩١٣ والسنة ١٩٤٩ ، وارتفع عدد الموظفين الاتحاديين ، في الوقت نفسه ، بنسبة ٣٧ بالمائة ، وموظفي الشؤون الخارجية الى ثلاثة اضعافه ، وموظفي الاقتصاد العام الى عشرة اضعافه ، وموظفي البرق والبريد والسكك الحديدية الى اربعة اضعافه .

تدخل الدولة في الحقل الاجتماعي

سياسة الازدهار والرفاهية

ان التدخلات التي دفعت بعض الحكومات – وحكومة المانيا البسماركية قبل سواها – ، قبل الحرب العالمية الاولى بزمن طويل ، الى ولوج الحقل الاجتماعي ، قد تكاثرت منذ السنة ١٩١٨ ، وباتت مألوفة اثناء الازمة الكبرى . وجاءت الحرب العالمية الثانية ، التي عبأت كافة طاقات الدول المتحاربة ، تحتثها احتثاثاً حاسماً ، حتى في الولايات المتحدة حيث لم تقو المقاومة التي تعرضت لها سياسة « النهج الجديد » ، على عرقلة اتساعها .

لم تتدخل الحكومات تدخلاً شبه دائم ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في العلائق بين

المستخدمين والمستخدّمين ، وفي تحديد الاجور الدنيا وشروط العمل (المدّة ، الاجازات المدفوعة ، الخ) فحسب ، بل كان الابتكار الكبير بعد الحرب اعتماد انظمة حماية اجتماعية تستجيب لهاجس الضمان والاستقرار الذي تسلط على كافة الطبقات الاجتماعية . اما اسباب ذلك فكثيرة . فهناك ذكرى الازمة الكبرى والبطالة المزمنة ، والتصميم على تأمين العمل الكامل بدافع النظام الاجتماعي وتمكين الاقتصاد وضمان الفاعلية ، والسياسة المالية السليمة والحرص على توفير المزيد من الرفاهية والاطمئنان للطبقات الفقيرة ومقاومة المرض مقاومة فعالة باتقائه اولا وبمعالجته ثانياً في افضل ظروف ممكنة ؛ وهناك اخيراً سياسة اتجهت الى تعديل توزيع الدخول بالمساواة بين الاعباء الاجتماعية بحيث تتحمل الموازنة ، اي الامة بكاملها ، الاعباء التي كانت فردية من ذي قبل : العلاجات الطبية ، تقاعد الشيخوخة ، الضمانات الاجتماعية بوجه عام . فالضمان الاجتماعي بمفهومه هذا يفوق من ثم كل مفهوم تقليدي للضمان الذي لم يؤمن على بعض الاخطار المعينة سوى عدد من السكان فحسب . وهو لم يعد مرتبطاً بعقد العمل بل ارتكز الى مبدأ التضامن القومي : على الامة ان تؤمن رفاهية الجميع . وخلال الحرب ، اي منذ السنة ١٩٤٢ ، اعتمدت بريطانيا العظمى ، التي عانت اكثر من غيرها من فقدان الضمان الاجتماعي والاستقرار الاقتصادي ، المبادىء التي وضعها السير وليم بفردج في التقرير التاريخي الذي ارتبط به اسمه . ومنذ السنة ١٩٤٥ ، رسمت معظم الدول خطط ضمان اجتماعي استوحته استيحاء متفاوتا .

بالامكان ربط النظام البريطاني بالنظام الذي تديره الدولة ويشمل كافة السكان والاخطار كما في الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية . وقد أقرت بين السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٥٦ قوانين عدة تؤلف كلا كاملاً ومتلاحما : تقاعد شيخوخة يبلغ ٣٢ شلنا في الاسبوع ، تأدية كل او بعض النفقات الطبية (معالجة ، ادوية ، استشفاء) ، على ان يؤمن التمويل بواسطة الضريبة . فاستتبع النظام تأميم المستشفيات وبلبلة المهنة الطبية ، اذ اخضع الطبيب لقانون شبيه بقانون الوظيفة العامة . وبديهي ان ثمن هذا الاجراء كان مرتفعا جداً : فقد مثل ١٥ ٪ (٦٩٣ مليون سترليني) من موازنة ١٩٥٣ .

وقام في السويد كذلك نظام كامل لضمان شيخوخة يضاف الى تقاعد الاجراء (الذي يضمن دخلاً يوازي ٢/٣ معدل الاجور خلال سني العمل الاخيرة الـ ١٥) ، وتعويضات عائلية ، وتعويضات سكنى وتدفئة ، وتنظيم صحي فعال وزهيد الكلفة ، وطبابة مؤممة عملياً اذ ان ٨٠٠ طبيب فقط من اصل ٥٠٠٠ كان لهم مجموع زبن خاص .

وهناك دول اخرى ، كالولايات المتحدة مثلاً ، لم تسلم بالضمان الالزامي الا لبعض الفئات وبعض الاخطار (البطالة ، الشيخوخة) ، على ان توفر الاموال اللازمة اشتراكات العمال وأرباب العمل ؛ لذلك فان الاجر المباشر وغير المباشر لم يختلف على العموم بالنسبة للدخل القومي ، ولا يصح الكلام هنا عن اعادة توزيع الدخول لمصلحة الاجراء . واعتمدت

فرنسا في السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٦ نظاماً وسيطاً قضى بانشاء«صناديق» مختلفة واجهزة مستقلة بحسب الفئات الاجتماعية المختلفة ، اذ ان ذوي الدخول قد رفضوا الاختلاط بالاجراء . على ان الاستفادة من الضمان الاجتماعي كانت محصورة في البدء في القطاع الصناعي والتجاري ، والتمويل امنه الاجراء دون غيرهم،وانتفاع فئات الاجراء المؤمنين الاخرى من الفوائد نفسها قد تم بعد ذلك تدريجياً .

وهو هذا الحرص نفسه ما دفع الحكومات الى الحلول محل المبادهات الخاصة من أجل حل مسألة السكنى . فان كافة الدول قد واجهت هذه المسألة بعد الحرب بسبب تزايد سكان المدن والدمار الذي خلفته الحرب واكتظاظ الاحياء القديمة والاحياء المرتجلة بسكان عاشوا فيها في ظروف يرثى لها صحياً واخلاقياً، مما جعل حركة البناء الواسعة فوق وسائل وامكانات الافراد. لذلك ، وحتى في الولايات المتحدة، حيث معظم الناس يقيمون في المدن وحيث كثيراً ما ينتقل السكان من مدينة الى اخرى ، بنيت بعض الوحدات السكنية بمساعدة الاموال العامة : قيام الحكومة الاتحادية ببناء مساكن زهيدة الثمن ، منح قروض من أجل البناء او سلفات من اجل احداث الخدمات الجماعية (ماء ، بواليع ، طرقات ...) . وفي بريطانيا العظمى كذلك ، اكثرت الحكومة من القروض المباشرة ، والمساعدات المالية للسلطات المحلية من اجل تشجيع البناء .

التعليم

في حقل التعليم اخيراً، اضطرت حتى اكثر الانظمة تشجيعاً للمبادهة الخاصة ، لمواجهة اقبال عظيم على التعليم في كافة درجاته ، هو احد الطوابع المميزة لـ « حضارة الجماهير » . لقد ولى زمن المفاهيم القديمة التي كانت تحصر التعليم في نخبة محدودة العدد تنتسب الى الطبقات الحاكمة ، وتخصصها بمنح تعليمية قلما يخصص بها سواها ، ولا توفر لباقي السكان سوى تعليم ابتدائي. الم تتبن الامم المتحدة مبادىء حق « الجميع بالتساوي وبحسب استحقاقهم » في التربية والتعليم العالي ؟

لقد فرضت مستلزمات المصلحة الوطنية ، هنا ايضاً ، رقابة شديدة ، وتعليماً الزامياً أخّرت فيه السن القصوى جهد المستطاع : يجب اعداد اجيال متعلمة قادرة على استساغة التقنيات والعلوم العصرية . يجب ان يربى المزيد من النحاتين والاطباء والمهندسين والفنانين والاساتذة . فأبرزت هذا الاتجاه ثورة حقيقية في بريطانيا العظمى احدثها قانون بتلر الصادر في السنة ١٩٤٤ الذي اطال مدة الدراسة حتى ١٥ سنة منذ السنة ١٩٤٧ وحتى ١٦ سنة حالما يصبح ذلك ممكناً ، ووفر التسهيلات للوصول الى التعليم العالي . اما الشبان الذين لن يواصلوا تحصيلهم ، فسوف يتلقون حتى سن الثانية عشرة دروساً تكميلية خاصة مدة يوم او يومين في الاسبوع .

اعلنت الحرب على الامية (٨٠ ٪ في الشرق الادنى ، بين ٥٠ و ٧٥ ٪ في اميركا اللاتينية ، بين ٩٠ و ٩٥ ٪ في افريقيا السوداء) في كافة البلدان بتعليم الاولاد في المدرسة الابتدائية

والفتيان بطرائق التربية الاساسية المختلفة . فمن الواجب ان يضع تنظيم التعليم بتصرف كل فرد وسيلة إنماء كفاءاته خير إنماء : تكاملت الاساليب التربوية الجديدة بأبحـــاث سيكولوجيي الطفولة ، فسعت الى تنمية قوى المبادهة والملاحظة والتفكير عند الاطفال بواسطة تعلم مباشر وحسي وفردي يضيف الى الثقافة العامة ثقافة مهنية . ووضعت فرنسا منـــذ السنة ١٩٤٤ ، بفضل ابحاث لجنة « لانجفين – فالون » اسس اصلاح في هذا الاتجاه حال الظرف السياسي دون وضعه في حيز التنفيذ .

شروط نشر الفكر والاعلان

اذا كان التعليم الذي تتولاه الدولة او المؤسسات الخاصة لا يخـــلو من الغرض احياناً ويفرض على الاولاد والفتيــــان رأياً قومياً وطنياً ، او سياسياً (لنفكر مثلاً بالايمـان التي فرضتها بعض الولايات في الولايات المتحدة على اعضاء الهيئة التعليمية) ، او معتقدياً ، فان الوسائل الجديدة لنشر الفكر قـــد اصبحت صناعة عظيمـة وظفت فيها رؤوس اموال هامة ؛ فان الاعـلام بأشكاله المختلفة : الصحافة ، والاذاعة ، والتلفزة ، ومستوياته المختلفة : وكالات الصحافة ، المطابع ، الاعلان ، المبيع ، قد خضع من ثم ، شأن كافة الصناعات الاخرى ، لقوانين الكسب والتجمع ، عوضاً عن ان يكون وسيلة لا مثيل لها للتربية ونشر الثقافة . « ان اهميـة رؤوس الاموال اللازمـة للحصول على المعدات العصرية الضرورية لاصدار صحيفة كبرى قد جعلت من امكانيـة التعبير وقفاً على عدد ضئيل من الناس ... لقد خلفت صحافة الاحزاب والافراد وصحافة الرأسمالية » (ب. لازاريف) . فأصبح الاعلام من ثم ، اكثر منه قبل ٢٥ سنة خلت ، احتكاراً في ايدي المصالح الكبرى او حكومات اوفر البلدان ثروة .

وكالات الاعلام

لما كانت الصحف كلها عاجزة بامكاناتها الخاصة عن تحمل اعباء النفقات التي يستلزمها في العالم الحالي استقصاء الاخبار ، فهي وكالات الاعلام ما توفر للصحافة ٣/٤ الاخبـار التي تنشرها . وبين الـ ٧٥ وكالة التي ترتدي اهميـة عظيمة ، ترتدي ست فقط طابعاً عالمياً وتوزع على كافة انحاء الكرة الارضية الاخبار الدولية ، وهي : وكالة « رويتر » البريطانية ، ووكالة الصحافة الفرنسية ، ووكالة تاس السوفياتيـة ، وثلاث وكالات اميركية ، « الصحافة المشتركة » وهي اكبر وكالة في العالم وتؤمن الاخبار لأربعة آلاف صحيفة ، و « جمعية الصحافة المتحدة » و « دائرة الاخبار الدولية » . فيجب ان تتوفر لهذه الوكالات موارد عظيمـة لتتعهد مراسليها في الخـارج ، وتقتني وسائل الاتصال السريعـة الضرورية ، ونقل الاخبار في اسرع وقت ممكن برقيـاً او بواسطة التلغراف اللاسلكي ، او بواسطة التلغراف اللاسلكي الآلي التسجيل . فمن اين تأتي هـذه الموارد يا ترى ؟ ان رويتر اتحاد دولي في ايدي الصحف الاقليمية البريطانية وصحف بعض الممتلكات ؛ وترتبط كلياً بالدولة وكالتان : وكالة الصحافة الفرنسية التي هي جهاز تؤمن موارده الاشتراكات والاعتمادات التي يقرها البرلمان – مديرها تعينه الحكومة الفرنسية التي من حقهـــا عزله من منصبه ايضاً –

دو كالاتي ٩ اما الوكالات الاميركية الثـلاث ، المسيطرة على اكبر قطاع ، فانها مشاريع خاصة . وهكذا فان ٨١٫٧ ٪ من سكان العالم يطلعون على اخبار الاحداث بواسطة وكالات اجنبية توزع كذلك على العالم اخبار بلدانها .

ان ارتباط معظم سكان الارض بالدول التي تنتسب اليها وكالات الاعلام العالمية الست قد استتبع بالضرورة مساوىء خطيرة ؛ فمن الطبيعي ان تترك المصالح والآراء المقبولة في الدول الاربع التي تملك هذه الوكالات اثرها في طريقة نشر الاخبار ، وبطء او سرعة نقلها ... وعدم نقلها . أما الوكالات الوطنية ، فلا تجد اية واحدة منها في صحافة بلادها الموارد الكافية لان تتوفر لها موازنة مستقلة . فتضطر من ثم الى الحصول على المساعدات المالية من الموازنات العامة او السرية في بلدانها او من مقرضي مال آخرين .

أما بصدد الصحافة حيث – كما رأينا – ما زال التجمع يتزايد يوماً بعد يوم ، فان التفاوت بين البلدان ليس اقل شأناً : فان ست بلدان فقط توفر ٣/٤ الانتاج العالمي من ورق الصحف ؛ اما المعدات الآلية ، فان صناعتها محصورة في بعض الدول : كندا ، الولايات المتحدة ، اوروبا الغربية والشمالية ، الاتحاد السوفياتي ، اوستراليا ، زيلنــدا الجديدة ، التي تملك وحـدها ، بدرجات مختلفة كل الاختلاف ، الوسائل الاعلامية المادية الموافقة .

الاذاعـة والتلفزة

ان الاذاعة ، التي اصبحت خـلال ٢٠ سنة « احـد العوامل الاساسية للحضارة المعاصرة » ، جاءت تكمل الصحافة وتحـل محلها في اغلب الاحيان كوسيلة للإعلام . فهي تتيح الوصول حتى الى الاميين والى المناطق التي تحول صعوبة المواصلات دون وصول الصحافة بسهولة اليها . وكان دورها عظيماً خـلال الحرب العالمية الثانية ؛ فقد كانت آنذاك اداة دعاوة وإعلام من الدرجة الاولى تسدّ في الدول المحتلة مسدّ صحافة لا يثق احد بها . فأصبحت من ثم وسيلة مألوفة للاعلام واللهو زاد انتشارها يوماً بعد يوم . وهي في بعض البلدان ، كالولايات المتحدة مثـلاً ، مشروع تجاري خاص يوفر الاعلان فيها موارد الشركات التي تملك وتستثمر محطـات الارسال . « تبيع المواقيت » من الشركات المعلنة . وهنا ايضاً تتدخل سنة التجمّع . فهناك ٢٦٣٦ محطة اميركية مجازة تملك نصفها اربع شبكات رئيسية . والاذاعة في بلدان أخرى مصلحـة من مصالح الدولة التي تشرف عليها وتراقبها مراقبة متفاوتة الكتمان .

ولكن نوعية برامج الاذاعة والتلفزة ضحية العدد ، كما في الصحافة . فهي البرامج المبتذلة ، تلك التي تتوجه الى المثقفين « ثقافة ابتدائية فقط » ، ما تحظى بالمزيد من الشعبية . وقد لفت الانتباه تكراراً في الولايات المتحدة الى ما تتركه الاذاعة والتلفزيون من اثر سيء على الاخلاق، اذ ان اعمال العنف التي تشاهد في البرامج ربما كانت ، مع السينما ، سبب تزايد الاجرام بين الفتيان في هذه البلاد .

اما التلفزة فقد احرزت تقدما كبيراً ان من حيث التحسينات التقنية وان من حيث سرعة

الانتشار : ففي ١٩٦٠ بلغ عدد المحطات المرسلة في الولايات المتحدة ٦٠٠ مقابل ١٤٥ في السنة ١٩٥٣ ؛ وفي السنة ١٩٤١ ، كان هناك ٥٠٠٠ محطة لاقطة ، فارتفع هذا العدد في السنة ١٩٦٥ الى ٧٣ مليوناً من اصل الـ ١٧٣ مليوناً الموجودة في العالم. وقد وفر هذا التقدم ٦٨٩ مليون دولار من ريع الاعلان في السنة ١٩٥٥ (وهو رقم ارتفع الى اكثر من ثلاثة اضعافه خلال ثلاث سنوات) ؛ وسيطرت على التلفزة كذلك بعض الشبكات القوية ، اذ على الرغم من ان القانون يحظر امتلاك اكثر من ٥ محطات مرسلة، فان اربع شبكات تسيطر على كافة الشبكات الاخرى. وقد تأيد دور التلفزة كسلاح للدعاوة بين الجماهير بشهادات واستبارات كثيرة ؛ ففي الحقل السياسي بنوع خاص ، كان تأثيرها حاسما خلال الانتخابات الاميركية منذ السنة ١٩٥٢ ، اذ ان اسعار الاستئجار (بين ٥٠ و ٦٠ الف دولار للشبكة الواحدة ولمدة ½ ساعة) قد اظهرت ضعف الحزب الديموقراطي بالنسبة لمنافسه .

العودة الى الماضي

ان الاحزاب والمصالح المحافظة ، التي نبذت في السنة ١٩٤٥ بسبب اتهامها بالتعاون والفاشستيات، قد نجحت ، بسرعة متفاوتة ، في استعادة مركزها المسيطر كلما خفت وطأة الفاقة واشتد الخوف من الاتحاد السوفياتي . ففي فرنسا وايطاليا تألفت في ايام التحرير حكومات اتحاد وطني ضمت الحزبين الشيوعي والاشتراكي وبعض الاحزاب الجديدة : الحركة الجمهورية الشعبية في فرنسا ، والديموقراطية المسيحية وحزب العمل ، والاحرار في ايطاليا . وفي ايطاليا ، اتفق الحزبان اليمينيان ، الديموقراطيون المسيحيون والاحرار ، منذ اواخر السنة ١٩٤٥ ، وتوفقا بمساندة السلطات الحليفة الى قلب الحكومة التي يرأسها « فروشيو بارّي » ، احد زعماء حزب العمل. فانتقلت رئاسة الحكومة الى « السيد غاسبري » ، زعيم الديموقراطيين المسيحيين . وفي السنة ١٩٤٧ حدثت المطلقة الكبرى. فقد حدثت في تلك السنة التعبئة الكبرى ضد الشيوعية في كافة انحاء العالم الغربي : في بلجيكا وفرنسا وايطاليا اقصي الشيوعيون عن الحكم ، وانقسمت القوى اليسارية ، وتخلى الاشتراكيون، – باستثناء اكثرية الحزب الاشتراكي بزعامة « ننّي » – عن فكرة تحقيق المدينة الاشتراكية، واكتفوا اكثر فاكثر بتكييف النظام الرأسمالي بسياسة اصلاحية تستهدف تأمين العمل للجميع والضمان الاجتماعي ، وانضموا الى سياسة المعتدلين الكاثوليك . وكلما ارتسمت خطوط الحرب الصليبية بمزيد من الوضوح ، قضت الحاجة الى استخدام اشد العناصر عداء للاتحاد السوفياتي بتسلم زمام السلطة والمراكز الهامة في الادارة لاقوى الاحزاب نزعة محافظة ، حتى لتلك التي تعاونت والنازيين ، ومراكز الادارة في المانيا الغربية للنازيين القدماء انفسهم . وتعزز هذا الاتجاه في السنة ١٩٤٨ بالذعر الذي اثاره استيلاء الشيوعيين على السلطة في تشيكوسلوفاكيا ، وباشتداد الحرب الباردة . ففي ايطاليا اعتمدت حكومة غاسبري ولا سيما الوزير « شلبا » سياسة صارمة لمحاربة تضخم ورق النقد وابقت ، دون اي تغيير تقريباً ، على تشريع ومؤسسات الفاشستية . واستمرت منظمة الصناعيين ، التي بقيت عملياً كما كانت في ظل النظام السابق ،

في التأثير تأثيراً عظيماً على الحكومة. ولم يجر قط بحث في التأميم كما حدث في فرنسا وبريطانيا العظمى. وارجئت كافة الاصلاحات التنظيمية، ولا سيما الاصلاح الجبائي والاصلاح الزراعي. ومنذ السنة ١٩٤٨ اعيد كافة الموظفين الفاشستيين السابقين تقريباً، حتى الكبار بينهم، الى وظائفهم. وفي اليابان استلم زمام السلطة اولئك الذين كانوا يتولونها قبل السنة ١٩٣٩، وقد «طُهّر» معظمهم في السنة ١٩٤٥، لا بل لوحق بعضهم (هاتوياما) قضائياً كمجرمي حرب.

في فرنسا تعاقبت تحالفات ظهر اتجاهها اليميني يوماً بعد يوم، ويبرز هذه الظاهرة تطور الديغوليين الذين انتقلوا من المعارضة الى الحكومة بينما خرج منها الاشتراكيون. فلم يؤد ذلك الى الغاء التأميمات المحققة في السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٦، ولكن المشرفين السابقين على المشاريع المؤممة وممثلي مصالحها غالباً ما عينوا في مجالس ادارتها وحتى في مراكز المسؤولية فيها الى جانب ممثلي الدولة، بحيث لم تتغير الطرائق قط.

رجحان نفوذ المحافظين

كانت نتيجة الحركة العسكرية التي اطاحت بالجمهورية الرابعة قيام «ملكية» حقيقية استثنائية الطابع اعطت السلطة التنفيذية امتيازات عظيمة. فمن جهة استبقي لرئيس الحكومة نطاق خاص به، ولا سيما ادارة السياسة الخارجية والشؤون العسكرية والاقتصادية. ومن جهة ثانية قيّد نشاط البرلمان التشريعي الذي آل دوره، بحسب تعبير بعض اساتذة الحق الدستوري، الى دور «تمثيلي» بحت: اعطاء «الاولوية»، في جدول اعمال المجالس، للمشاريع التي تتقدم بها الحكومة، اخضاع تقديم مشاريع تعديل القوانين والاستجوابات لنظام شديد ملزم، تخفيض عدد اللجان الدائمة التي كانت تقوم بدور هام جداً في عهد الجمهوريتين السابقتين، حصر صلاحية اعداد الموازنة في الحكومة دون غيرها. ثم ان واقع قيام المركز الذي تصدر عنه المقررات الهامة فوق الحكومة نفسها، والسلطة الواسعة التي تتمتع بها كبار الموظفين، قد افضيا عملياً الى انتزاع كل سلطة اشراف حقيقي من البرلمان. وانتهج النظام الجديد بالمقابلة سياسة جبائية عاطفة على المصالح الكبرى بالغاء الرسوم المفروضة على ربائح المساهمين وارباح الشركات، وبتخفيض الرسوم على انتقال الارث، في حين انه فرض رسوماً ثقيلة على عدد متزايد الارتفاع من الاجراء، اذ ان معدل الضريبة التصاعدية على الاجور لم يعدل تعديلاً يذكر.

في المانيا، نشاهد بعد السنة ١٩٤٧ توقف العمل بحظر جمعيات التجار والصناعيين وحظر النازية الذي لم يكن ذا فعالية هامة كما يظهر ذلك، بعد انقضاء عشرين سنة على انهيار النازية، اكتشاف العديد من مجرمي الحرب – الناجين من العقاب – في وظائف هامة احياناً.

في بريطانيا العظمى، أُلغي تأميم الفولاذ والنقل البري منذ عودة المحافظين الى الحكم. وبعد ان بقي حزب العمال بعيداً عن الحكم طيلة ١٢ سنة، احرز في السنة ١٩٦٤ فوزاً انتخابياً هزيلاً (بأكثرية ٣ اصوات) جعله رهين حزب الاحرار القليل العدد. فاصطدم منذ تأليف الحكومة بأزمة مالية خطيرة جداً وبانخفاض مقلق في سعر الاسترليني قيدا حريته في العمل،

وارغماه على اتخاذ تدابير تقشفية لم يرض عنها الشعب ، كان الاجراء اهم ضحاياها ، ومنعاه من تحقيق برنامجه . واصطدمت بصعوبات مماثلة حكومة « الوسط اليساري » الايطالية التي تألفت في السنة ١٩٦٠ ، بعد ازمة وزارية دامت شهرين ، بفضل اتفاق حزب « ننني » الاشتراكي وحزب الديموقراطيين المسيحيين . الا ان خروج رؤوس الاموال ، وارتفاع الاسعار السريع ، والازمة الاقتصادية ، قد نجحت – بفعل تأثير الجناح الايمن في حزب الديموقراطيين المسيحيين وتأثير الكنيسة ومنظمة الصناعيين – في شل هذا التحالف وفي مقاومة كافة مشاريعها الاصلاحية باستثناء تأميم الطاقة الكهربائية .

طُهّرت الادارات العامة من العناصر الشيوعية او العناصر اليسارية المعتبرة « شيوعية متسترة »، بالرغم من النصوص الدستورية التي تضمن المساواة في الحقوق دونما تمييز في المعتقد أو الرأي ، ومن مبادىء ميثاق الامم المتحدة واعلان حقوق الانسان الذي أقرته الجمعية العمومية للامم المتحدة في السنة ١٩٤٨ . وأدى انشقاق القوى النقابية ، الذي حدث في السنة ١٩٤٨ (فرنسا) والسنة ١٩٤٩ (ايطاليا) الى اضعاف احدى القوى القادرة على الوقوف في وجه سياسة مكافحة التضخم المالي وعودة العناصر الحاكمة السابقة الى الحكم .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الحركة النقابية الغربية – باستثناء الاتحادات الايطالية والفرنسية الكبرى التي يسيطر عليها النفوذ الشيوعي – قد اصبحت « نقابية موحدة » تهدف الى الحصول على الفوائد المادية عن طريقة التعاقد في اطار النظام الرأسمالي . فهي مرتبطة بالاحزاب الاشتراكية التي ازداد تطورها الاصلاحي نحو التعاون بين الطبقات ، كما يتضح من موقف الحزب الاشتراكي الفرنسي وموقف الاحزاب السويدية والنمساوية ، ومؤتمر الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني في « باد – غودسبرغ » (تشرين الثاني ١٩٥٩) الذي دافع عن « الملكية الخاصة لوسائل الانتاج » و « حرية تأسيس المشاريع » ، ومؤتمر حزب العمال في « بلاكبول » حيث نادت اقلية يمينية بالتخلي عن التأميمات . واخيراً من مذكرات مؤتمر الاتحاد الدولي الاشتراكي في تل ابيب في شهر نيسان ١٩٦٠ . ثم الم يشكل « بيترو نني » نفسه، في السنة ١٩٦٦ ، تطوره نحو المطالبة المعتدلة بالاصلاحات بسعيه من اجل صهر حزبه مع حزب ساراغات (الحزب الاشتراكي الايطالي) وبالمناداة ، على غرار ساراغات ، بـ « اشتراكية خلو من الصراع الطبقي » ؟ زد على ذلك ان الاحزاب الاشتراكية في البلدان ذات العلاقة المباشرة بتصفية الاستعمار لم تختلف قط عن المحافظين في قمع الحركات الاستقلالية سواء في اندونيسيا ، ام في الكونغو البلجيكي ، أم في مدغشقر وافريقيا الغربية ، ام في الهند الصينية والجزائر . ويجب ان لا نغفل هنا الحملة الفرنسية البريطانية على بورسعيد والسويس .

تطور المانيا

كان من المقرر ، في فكر الظافرين ، ان تخضع المانيا واليابان ، الخاضعتان لاحتلال الحلفاء وادارتهم – وقد خلت الاولى من كافة اجهزة الدولة – لفترة طويلة من الوصاية الضرورية لازالة الطابع النازي عنها وجعلها ديموقراطيتين . الا انه استحال

ابعاد سبعة ملايين نازي مع عائلاتهم عن كل نشاط ، كما ان السلطات المحتلة افتقرت الى العدد اللازم من الموظفين الاختصاصيين لمواجهـــة كافة الاعباء ، فاضطرت من ثم الى استخدام كافة « الفنيين » الذين كان الكثيرون منهم نازيين او نازيي الميول . ثم جاءت الحرب الباردة والحرب الكورية ، كما سبق ورأينا ، تدفعان الى التخلي عن استئصال النازية ، باعتبـار ان النازيين خير حلفاء لـ « محاربة مبادىء الشيوعية والاشتراكية » .

ان عملية استئصال النازية التي بوشر تنفيذها بأساليب اختلفت باختلاف القطاعـــات قد فشلت من ثم في كل مكان . وابرز مثل على ذلك مثل القطاع الاميركي حيث توجب على كافة الالمان البالغين اكثر من ١٨ سنة ان يجيبوا على عـــدد من الاسئلة في السنة ١٩٤٦ ؛ فتبين ان ٠٠٠ ٥٠٠ ٣ ، اي ٢٧ ٪ من المجيبين ، نازيون . فصدرت قوانين عفو متعاقبة خفضت هـذا العدد الى ٠٠٠ ٣٧٣ ٢ ، ثم الى ٠٠٠ ٩٠٠ ، ثم الى ٠٠٠ ٢٣ مجرم كبير ، واخيراً الى ٠٠٠ ١٨ برّىء اعظمهم مسؤولية .

شوهد من ثم في كافة الحقول رجوع القوى القديمة والتقليدية الى مراكزها الاولى : فالتعليم على كافة مستوياته في ايدي اكثر العناصر نزعة محافظة ، وجمعيات المحـاربين القدماء اخذت في الانتشار من اجل الدفاع عن شرف الجيش الالماني والـ S.S. . وباستثناء « ادب الدمار » الذي وصف آلام الحرب والاسر ومشاق وضغائن فترة ما بعد الحرب ، انحصرت النجاحات الادبية في مؤلفـــات (كـ « ذكريات » لغودريان ، و « اسئلة » لـ « ارنست فون سالومون ») تؤيد نفوذ التقاليد القومية الراسخ ، « الشرف » ، والبطولة . وعلى غرار الادب ، عبّرت الصحافة الكبرى احياناً عن بعض الحنين الى النظام المنهار وعن عدائهـا للمهاجرين من مقاومي النازية ، ولا سيما اليهود ، ولـ « مجرمي » اعتداء العشرين من تموز ١٩٤٤ .

تطور اليابان

سلكت اليابان في تطورها الطريق نفسها . فمرت اولاً ، بين السنـة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٧ ، في مرحـلة تحول ديموقراطي : فقـــد نادى « اعـــلان حقوق » بحرية المعتقد وحرية الصحافة والمساواة التامة بين الاعراق والاجناس . واقصيت العناصر الرجعية عن المراكز الهامة في الادارة ، والمؤسسات الاقتصادية ، والصحافة . وظهرت الاحزاب مرة اخرى ، ولا سيما الاحزاب اليســارية . وللمرة الاولى اصبح الحزب الشيوعي شرعياً ، واعلن في شهر اذار من السنة ١٩٤٦ دستور جديد تمخضت به اعمال تمهيدية كثيرة ، بالرغم من نفور الحكومة من تبديل جوهر النظام القائم . وبموجب الدستور الجديد ، لم يعد الامبراطور ، الذي تخـــلى بصراحة عن فكرة الدخول في حرب ، سوى رمز الدولة ووحدة الشعب ، وقيّدت صلاحياته . وكان الجهاز الرئيسي للحكم « المجمع » المؤلف من مجلسين هما الامينان الوحيدان على الوظيفة التشريعية والسلطة . وكان لمجلس الممثلين المنتخبين وحـده حق اعداد الموازنة ، وكان اعلى من مجلس المستشارين ؛ وكان على هؤلاء ان يعلنوا موقفهم من كل قانون يقره الممثلون خلال مدة ٦٠ يوماً ، وفي حال الرفض ، حق للممثلين فرضه باكثرية الثلثين . وحددت بدقة صلاحيات مجلس الوزراء المسؤول ؛ فوجب ان يكون كافة الوزراء مدنيين وان

يكون نصفهم اعضاء في المجمع . وهو رئيس الوزراء ، الذي ينتخبه المجمع ، من بعينهم . وكان استقلال القضاء مضموناً . واتخذت التدابير من اجل حماية حقوق الانسان والحريات الرئيسية ، ولا سيا المساواة بين الجنسين ، والحريات النقابية ، ومنع التوقيفات التعسفية . واصلحت وسائل عمل الدكتاتورية ، واصبحت قوى الامن لامركزية ، ورفعت عنهـا سلطة وزير الداخليـة ، ووضعت قوانين جديدة : القانون المدني المبني على المساواة بـين الأفراد والحرية الفردية ، الذي احدث ثورة في المجتمع القديم بابطاله النظام العائلي التقليدي ، ونص على تقسيم الأرث بالتساوي ، واجاز الطلاق ؛ والقانون الجنائي الذي عُدّل . وكان اصـلاح التعليم كذلك احد شروط التحول الى الديموقراطية . وقد استوحى المبادىء المناقضة مناقضة مطلقـة للمبادىء المقبولة حتى ذاك التاريخ . وطهرت الهيئة التعليمية من عناصرها العسكرية والمتطرفة الوطنية ، ومنع التدريب العسكري منعاً باتاً . كما منعت الكتب القديمة الموضوعة لتعليم الاخلاق والتاريـخ والجغرافيا . واشهرت براءة امبراطورية المفهوم الخاطىء لالوهية الامبراطور والتفوق العنصري للشعب الياباني المدعو لحكم العالم ، وفقد الـ « شنتو » طابعـه الرسمي . وبني التعليم على حرية رأي الهيئة التعليمية ، واعطيت المبادهة الفردية اهمية خاصة . وأقر التعليم الالزامي حتى سن التاسعة ، والتربية المشتركة ، ونظام متلاحم الأجزاء يوجب قضـاء ٦ سنوات في المدرسة الابتدائية ، و ٣ سنوات في التعليم الثانوي الادنى ، و ٣ سنوات في التعليم الثـانوي الأعلى ، و ٤ سنوات في الجامعة . وغدت المراقبة لامركزية ، واسندت ، كما في الولايات المتحـدة ، الى ادارات مدرسية محلية تنتخبها الجماعة . ووضع تشريع للعمل ، واستحدثت وزارة العمـل ، وأقرت الحرية النقابية والتأمين ضد البطالة والحوادث ، وحدد يوم العمل بثماني ساعات ، وفرض دفع الاجور نقداً ، كما أقرت قوانين الضمان في المنـاجم ... وبموازاة تنفيذ الاصلاح الزراعي حلت الـ « زيباتسو » مع ٥٠ جمعية صناعية وتجارية و ٦٧ جمعية لتوظيف الاموال ، واقصيت العائلات الكبرى عن كل وظيفة ادارية ، وحظر تأليف الاتحادات .

في السنـة ١٩٤٨ ، انقلبت هذه السياسة على غرارها في المانيا وللاسباب عينها ، واستهلت عملية تطهير معاكس بينما أعيدت الحقوق السياسيـة والمدنيـة لـ ٢٠١٠٠٠ شخص من اصـل الـ ٢٢٠٠٠٠ الذين تناولهم التطهـير . فطُرد الصحفيون والاساتـذة والموظفون والنقابيـون المناضلون اليساريون ، ثم اتخذت بعض التدابير ضد العمال : حظر الاضراب العام في السنة ١٩٤٧ ثم حظر كل نوع من أنواع الاضراب وكل مطالبة جماعية في القطاع العـام في السنة ١٩٤٨ . ولم يجدد القانون القاضي بمنع تأليف الاتحادات الذي انتهى العمل به في السنة ١٩٤٩ ، فاتيح للاتحادات السابقة استعادة نشاطها . وفي السنة ١٩٥١ اخيراً أجاز الجنرال ردجواي للحكومة اليابانية اعادة النظر في كافة القوانين الصادرة في ظل الاحتلال . وهكـذا استعادت الاحزاب اليمينية التي لم تُقص قط عن السلطة ، والسلطات الاجتماعية التي لم تفقد قط نفوذها ، والـ زيباتسو ، كل قوتها الاقتصادية والسياسية .

لجميع هذه الاسباب كانت اعادة البناء الاقتصادي في اليابان موفقـة وسريعـة ، فجاءت « معجزة » على غرار المعجزتين الالمانية والايطالية . فمنذ السنة ١٩٥٤ ، بُلغ مستوى انتـاج السنة ١٩٣٩ ، ومنذ هـذا التاريـخ ، وبفضل وفرة رؤوس الاموال (وجلها اميركي المنشأ) واليد العاملة الاختصاصية ، وقوة ميل السكان (١٠٠ مليون نسمة) الى الادخار، تقدم الدخل القومي بمعدل ٥،٦ بالمائة في السنة . وبحسب تقليد الميجي ، قدمت الدولة مساعـدة عظيمـة الشركات الخاصة الكبرى التي مازال يقوم الى جانبها قطاع مستقل يضم عدداً كبيراً من المشاريع الهامشية الصغرى المجهزة تجهيزاً دونياً . وقد الف عمال هذا القطاع الـ ١٠ ملايين جيشاً صناعياً احتياطياً جليل الفائدة معداً للدخول في الاتحادات .

ازمة النظام الحر

اذن خابت آمال المقاومين في الحقل السياسي والحقـل الاقتصادي على السـواء . « انتظرت الشعوب وامّلت طيلة ليال عديدة غير منجمرة . المقاومون كلهم – فرنسيين كانوا ام بلجيكيين ، يونانيين ام يوغوسلافيين ، ايطاليين ام بولونيين ـ انتظروا التحرير ـ الثورة الذي قدروا انه لن يطرد الخونة فحسب ، بـل سوف يؤسس ديموقراطية جديدة ايضاً » (مركين – غترفيلش) .

لم تؤسس هذه « الديموقراطية الجديدة » في اوروبا الغربية . ولم تصهر الدولة صهراً جديداً شاملاً في اي بلد من بلدان الغرب ؛ ولذلك تفاقمت ازمة النظام البرلماني المفتوحة منـذ السنة ١٩٣٩ . لقد تلاشى التقسيم القديم بين السلطتين التنفيذية والتشريعية تلاشياً تامـاً . فاذا كان هنالك حزب واحد ، كما في تركيـا حتى السنة ١٩٤٦ ، فان واقع السلطة بجميع اشكاله في ايدي زعماء الحزب ؛ واذا كان هنالك حزبان ، كما في البلدان الانكلوساكسونية ، فـان الحزب المنتصر يؤلف الحكومة التي يكون رئيسهـا في الوقت نفسه زعيم الاكثرية ، وان السلطتين التنفيذية والتشريعية تكونان مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً ، ويستحيل عمليـاً على المجلس اسقاط الحكومة . وهذا ما حدث في بريطانيا العظمى : ففي الحالين دكتاتورية حزبية حقيقية . امـا اذا كانت هنالك احزاب متعددة، فتقوم تحالفات معرضة للتفكك بين احزاب مختلفة ،وتكون الحكومة ضعيفة ويسيطر عليها الجمود ، لان كل مبادرة من مبادراتها قد تهدد بنسف التحالف . وهي غالباً ما تسقط ، فتحاول البقاء بتخفيض عدد ممثلي خصومها . وهذا هو الهـدف من الاصلاحات الانتخابية المعدة لا الى ضمان خير تمثيـل بل اقصاء عناصر الاقليات عن المجالس وضمان اكبر عدد ممكن للاكثرية. تلك كانت الغاية من القانون الانتخابي الالماني في السنة ١٩٤٩ : يُختار ٢/٣ اعضاء المجلس بموجب لوائح فردية باكثرية الاصوات ، ويختار الثلث الآخر بالاكثرية النسبية : يُسلّم كل منتخِب بطاقتين ، احداهما لانتخاب مرشح بموجب اللائحة الفردية، والثانية لتعيين حزب سوف يتمثل في المجلس بنسبة عدد الاصوات التي يفوز بهـا ؛ واعطى القانون الانتخابي الفرنسي الصادر في أيار ١٩٥١ مجموع مراكز الدائرة الانتخابية للوائح التي تحصـل على اكثرية الاصوات ، على ان لا يؤخذ بالاكثرية النسبية الا في حال وجود مرشحين منفردين . امـا

القانون الايطالي الصادر في السنة ١٩٥٣ ، فقد اعطى اللوائح ٦٤٫٥٪ من المراكز ، اذا فازت بأكثرية الاصوات. وقد اسفر القانون الفرنسي عن النتيجة التي سعت وراءها الاكثرية التي اقرته: فان احزاب الوسط المتحالفة قد فازت في عدد كبير من الدوائر الانتخابية بالاكثرية المطلقة على حساب الحزبين المطرفين ، تجمع الشعب الفرنسي والحزب الشيوعي ، اللذين جاء تمثيلها دون اهميتها الحقيقية في البلاد . وكان من جهة ثانية ان القانون نفسه قد خيب في كانون الثاني ١٩٥٦ آمال المستفيدين السابقين منه بتيسيره فوز الاحزاب الشيوعية . اما في ايطاليا فلم تعط النصوص النتيجة المتوخاة منها اذ ان الحزب الديموقراطي المسيحي لم يحصل على الاكثرية المطلقة .

ذهبت القوانين الانتخابية الفرنسية الصادرة في السنة ١٩٥٨ الى ابعد من ذلك : فقد قسمت البلاد تقسيماً موفقاً امن للمناطق الزراعية تمثيلاً كبيراً على حساب سكان المدن ، بحيث « اقتضى معدل ٢٢٠ ٢٨٨ مقترعاً لانتخاب نائب شيوعي و٧٣٣ ٤٧ لانتخاب ممثل للحركة الجمهورية الشعبية و١٩ ١٧١ لانتخاب ممثل للاتحاد الوطني الجمهوري ». اما الهيئة الانتخابية لمجلس الشيوخ فقد تمتع فيها الاعيان الريفيون بتفوق ساحق جعل التصويت تصويتاً محصوراً حقيقياً .

سلطة الاختصاصيين

ان التطور الذي برزت معالمه قبل ١٩١٤ قد ازدادت سرعته في كافة البلدان الحرة ، بريطانيا العظمى وممتلكاتها، فرنسا ، ايطاليا ، البلدان السكندينافية ، المانيا الاتحادية. فشوهد تراجع مستمر في الرقابة البرلمانية على السلطة التنفيذية، وبالمقابل تزايد نفوذ الاختصاصيين والخبراء الذين اكتظت بهم الادارات والأجهزة الفنية الشبه حكومية .

يرد ذلك الى الطابع الفني المتعاظم في المسائل المطلوب حلها من الحكومات ، خصوصاً في الحقول المالية والاقتصادية والعسكرية ، والمكان الذي احتلته التقنيات الحسابية في اقرار العمليات العسكرية والتجارية والصناعية والبحث عنها (التي تفرض لغة رياضية لا يدرك معناها سواد الموظفين السياسيين) قد اضفيا اهمية متصاعدة على الخبراء والاختصاصيين . فان الصعوبات المالية والتقنية التي تعترض الموازنة من الضخامة والاهمية بحيث ان الادارة التي تضعها – مديرية الموازنة في فرنسا – تكلف طبعا الاشراف على كل النشاط الاداري ، وبالتالي على كل النشاط السياسي . ويصح القول نفسه في مستلزمات الدفاع الوطني الذي يحتاج اليوم الى استخدام كافة موارد البلاد . فليس من ثم اية مسألة اقتصادية او مالية او سياسية ـ بما في ذلك التعليم والتربية المدنية ـ لا تخضع ، حتى في ايام السلم ، لبعض الرقابة من قبل الاركان العامة .

الا ان عدد هؤلاء الاختصاصيين محدود . فقد قدر « م. دبريه » بـ ٧٠٠ او ٨٠٠ عدد الشخصيات النافذة حقا في فرنسا: موظفين مدنيين (منتسبين الى الهيئات الكبرى)وعسكريين، ورجال سياسيين (يناهزون المئة) يحتلون مراكز وزارية، ومستشاري حكومة (اقتصاديين، علماء) . وقدر « ف. م. ج. ولسون » هذا العدد في بريطانيا العظمى وحدها بـ ٣٥٠ يدخل في عدادهم زهاء خمسين رجلاً سياسيا كحد اقصى.فاذا اضفنا الى ذلك ان امر تحرير مناشير وانظمة

الادارة العامة المعدّة لتوضيح كيفيات تطبيق القوانين متروك ابــدأ لصغار الموظفين الذين يستطيعون الانحراف بسهولة عن مقاصد المشترع ، لرأينا الدور المحدود جداً المتبقي للهيئات المعنية ديموقراطياً .

الاختصاصيون اكثرية بين هذه الشخصيات النافذة القليلة العـدد . ويتخرج معظمهم في فرنسا من مدرسة الـ « بوليتكنيك » ومن « معهد الادارة الوطني » ، وفي انكلترا من « المدارس العامة » التي ينتسب معظم طلابها الى الطبقتين البورجوازيتين العليا والمتوسطة (وينتسب ٦٥٪ من طلاب معهد الادارة الوطني الى فئتين : فئة الصناعيين وارباب المهن الحرة ، وفئة كبار الموظفين) . وينتمي هؤلاء الموظفون الكبار الى الطبقة الاجتماعية نفسها التي ينتمي اليها ارباب الاعمال ، وغالباً ما تجمع بينهم الثقافة الواحدة وأواصر القربى ، والطرائق والآراء المشتركة . وكثيراً ما يقوم بين هذين العالمين تبادل الموظفين (ولكن على نقيض الولايات المتحدة حيث ارباب الاعمال « يعيرون » الحكومة موظفيهم الاختصاصيين) . فهما يؤلفــان « الاقطاعية الاقتصادية والادارية والعسكرية الجديدة » التي اشهرها « جورج غورفيلش » ، و « نخبــة السلطة » غير المسؤولة والكلية القدرة التي سبق لـ « رايت » ان اشار اليها في الولايات المتحدة ، والتي انتزعت عملياً من الزعماء السياسيين زمام الامور وباتت « تهدد بابتلاع الدولة » . فنشأ عن هذا التقارب بين « نظرية اولوية ارباب العمل ونظرية اولوية بيروقراطية الدولة » (ج. بيردو) « استبداد مستنير » قد يكون — في افضل الاحوال — مجدياً وفعالاً ، ولكنه غير مسؤول لأنه هو من يعين معظم ممثليه .

استمرار تدني الرقابة البرلمانية

اضطر البرلمانيون المنتخبون اكثر فأكثر الى التخلي عن بعض صلاحياتهم للجنة التشريعية والسلطة الادارية بالتصويت على « قوانين مبدئية » ومراسيم اشتراعية (١٦٠ في ظل وزارة لانيال، ١٣٠ في ظل وزارة منديس — فرانس ، ١٦٥ في ظل وزارة ادغار فور) ، حيث يترك تفصيل الانظمة لمقررات خـبراء الادارة . واذا كان من المغالاة القول ان « بريطانيا العظمى دكتاتورية مستترة في ايدي الادارة الدائمة » فبإمكاننا التأكيد ان نفوذ الادارة في كافة دول اوروبا الغربية يجـاري نفوذ الهيئات المنتخبة وغالباً ما يشله .

اما السبب في ذلك فهو ان رقابة اعمال البيروقراطية تصبح وهماً خادعاً كلمــا توسعت المصالح الحكومية . فان انكلترا وسويسرا والولايات المتحدة تعرف هـذا الوضع ، والدول الاخرى ، كفرنسا مثلاً ، حيث تُسقَط الحكومة بسهولة ، تعرفـه معرفة فضلى ايضاً . وان طريقة « الاسئلة » والاستجوابات التي يلجأ اليها النواب التنبيه الى تجاوزات الادارة ، ليست مجدية قط لأن وزيراً تسانده الاكثرية غير ملزم بالإجابة . فالادارة العليــا ، المسيطرة سيطرة شبه مطلقة على كافة دوائر الدولة ، والمستيقنة من عدم المسؤولية وغير القابلة العزل ، تشل عمل الوزراء والنواب على السواء . وينبثق معظم مشاريع القوانين عن دوائر الوزارات و« المصالح »

فليست المجالس النيابية من ثم سوى جمعيات تبحث فيها هـــذه الاقتراحات . أليس جديراً بالملاحظة ان المجلس النيابي الفرنسي كان غريباً عن فكرة وإعداد الخطتين الاوليين التجديد والتجهيز وفاقاً لمقتضيات العصر بالرغم من اهميتها بالنسبة لمستقبل البلاد ؟ وتصبح المناقشات نفسهـــا شكليات لا طائل تحتهـــا بسبب تصلب مواقف الاحزاب التي تتبنى مبـــدئياً وجهة نظر لا تقوى أية مناقشة على تغييرها . فلم تعد المناقشات من ثم وسيلة فعالة للوصول الى الحقيقة .

يرد ذلك الى ان المقررات الهامة تتخذ في داخل الاحزاب لا في الجمعيـات . ولكن تطور هذه الاحزاب العام يزيد اكثر فاكثر من تصلبها . فمركزية السلطة المتزايدة في الاحزاب تحد من نفوذ الاعضاء على المسؤولين . ولم يعد اختيار المسؤولين لماوتيهم سراً خفياً ، لا بل قـد يحدث احياناً ان تنص الانظمة الاساسية على شرعية هـذا الاختيـار . ولذلك فان الاعضاء اصبحوا يخضعون اكثر فاكثر لنظام ملزم صارم . والبرلمانيون انفسهم ملزمون بطاعة تحولهم الى آلات انتخابية يسيرها رؤساؤهم .

على غرار « التكتلات » الاميركية اخيراً ، التي قيل عنها انها « الحكومة غير المنظورة » ، برز اكثر فاكثر تأثير « الجماعات الضاغطة » الفعّال . فهي تؤثر على الرأي العام (لأنها توصلت الى الاشراف على كافة الصحف تقريباً) وعلى الاوساط البرلمانية أو الحكومية بالتهديد بالامتناع عن انتخابها مرة اخرى وتمويل الاحزاب السياسية ، وبتقديم مشاريع القوانـين أو مشاريع تعديل القوانين ، وبالاسئلة الخطية او الشفهية التي يوجهها الى الوزراء النواب المتفانون في خدمتها وبالمساعي المنطوية على التهديد وحتى بالعمل المباشر : عرقلة السير في الطرقات العامة ، إقامـة الحواجز في الشوارع ، اضرابات المنتجين ... وهي متعددة الاشكال : جمعيات محاربين قدماء (الجوقة البريطانية) وجمعيات مهنية كالاتحاد الوطني للمستثمرين الزراعيين ، والاتحاد العام لكرّامي الجنوب ، والمعهد التقني الفرنسي الشمندر الصناعي ، والاتحاد الوطني لمالكي وسائل النقل البري ، واتحاد الصناعة البريطانية ، وجمعية صانعي الجعة ، وجمعية المزارعين الوطنية ، الخ . ؛ وقد سيطرت كلها على فئات برلمانية معروفة او مستترة يؤثر نشاطهـا على استقلال السلطات العامة والمنتخَبين . فنجحت من ثم في عرقلة نشاط المؤسسات البرلمانية .

تجسد السلطة

لم يستطع البرلمان التكيف وفاقاً للظروف الجديدة الناجمـــة عن واجب حل المسائل بسرعة وفي كل مكان ، فلم يعد من ثم المصدر الوحيد للسلطـة الحكومية . فقد اضطرت هذه الاخيرة – كي تكون فعـالة – الى التمركز والتوحد في ايدي عدد من الرجال او في ايدي رجل واحد احياناً . ففي هذا الاخير – الذي قـد يكون مجرد رمز او رئيسـاً فعلياً – تجسدت السلطة . فكانت النتيجة ان ضرب عرض الحائـــط بفصل السلطات شيئا فشيئا ، لا بل كاد البرلمان في بعض البلدان يفقد دوره في رقابة السلطة التنفيذية الذي كان رئيسياً في القرن التاسع عشر .

الشكل ٢٤ ـ خريطة الاتفاقات الغربية في سبيل المساعدة المتبادلة في السنة ١٩٥٥

ليست ظاهرة تجسد السلطة ظاهرة جديدة ، ولكن وسائل عمل قوية جـداً برزت حين طرأ هذا التأخر على المجالس التمثيلية . فان الاذاعة والتلفزة والسينما قد قربت المسؤولين من الجماهير الشعبية ، وجعلت اسماءهم وصورهم مألوفة ، وساعدت على ان تتكون حولهم اسطورة استثبعت المشايعة العاطفية ، اي عاطفة اعجاب او تقدير نحو « المنقذ » ، نحو « الرجل الذي لا بديل له » . وان تجسيد السلطة هذا ، الذي استفادت منه الحكومات الدكتاتورية قبـل الحرب ، لم يخل دائماً من عبادة الشخصية ، لانه ينطوي على تملق للرجـال العظام الذين حذرهم ديموقراطيو القرن الاخير لأسباب وجيهة كثيرة .

الخلاصة

اذن واجهت العالم الرأسمالي والحر ، بعد الحرب ، صعوبات مردها وجود عالم شيوعي عرف نهضة صناعية واسعة وتحرر الشعوب المستعمرة ، ولكن مردها كذلك متناقضات داخلية ليس أقلها شأناً فقدان التوازن بين القوة التي تتولى ادارته وقوة الدول التي يتألف منها . فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب دون خسائر مادية وبشرية هامة ، وبطاقة صناعية واحتياط مـالي متزايدين ، فاستطاعت ، بفضـل تفوقها الاقتصادي والمالي الساحق ، ان تفرض زعامتها باستغلالها ، بصورة خاصة ، الخوف من الثورة الاجتماعية المسيطر على الطبقات الحاكمة في اوروبا. وأدى النفوذ الاقتصادي والمالي الذي عناه مشروع مارشال بعد السنة ١٩٤٨ ، ثم الارتبـاط بالميثاق الاطلسي في الحقل العسكري في السنة ١٩٤٩ ، والاشراف على القوات المسلحة (ومن ثم على الموازنات) ، والحرب الباردة ، الى توسيع الهوّة بين اوروبا الغربية واوروبا الشرقيـة ، واستمرار ارتباط الغرب اقتصادياً بالولايات المتحدة الاميركية – بالرغم من نهضته الاقتصادية . فهل كان ذلك تمهيداً لـ « امبراطورية الاميركية » التي حلم بها « بورنهام » ، المبنية على السيطرة الاقتصادية والمالية ، وشبكة متصلة الحلقات مؤلفة من ٩٠٠ قاعـدة عسكرية بحرية وجوية موزعة على كافة القارات ، واحـلاف عسكرية قوية تحـاصر الاتحاد السوفياتي وحلفاءه (الشكل ٢٤ ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥) والشبيهـة بالامبراطورية البريطـانية في القرن التاسع عشر ؟

ان هذا التفوق الاميركي قد خلف في الحقيقـة التفوق الذي حققته بريطانيا العظمى في القرن السابق ، ولكنه اختلف عنه بعض الشيء . فبينما كان التفوق البريطاني يمثـل اوفر الحضارات حرية واكثرها تقدماً في ذاك العهد ، وساعد الحركات التحررية والديموقراطية على المؤسسات المحافظة المسيطرة على البر الاوروبي ، استندت الولايات المتحدة الى القوى المحافظة في العالم التي تقاوم حركات التحرر القومي والاجتماعي . وهكذا فان الزعامة الاميركيـة ، التي

لساند النظام الرأسمالي المتخلخل في كل بلاد، تعرضه لخطر بعيد الاجل بابقائها في مراكز السلطة القوى التي تحول دون تحقيق الاصلاحات الضرورية .

لا ريب في ان تحسن العلاقات الدبلوماسية منذ السنة ١٩٥٧ ، والتقدم الذي احرزه الاتحاد السوفياتي ، ونهضة الاقتصاد الاوروبي ، وتعاظم النزعات الحيادية البارزة في العالم الثالث التابع ، قد اضعفت هذه الهيمنة الاميركية وشجعت قيام سياسة داخلية ذات طابع حر في الولايات المتحدة . وانما ازداد في الوقت نفسه، في الحقل الاقتصادي ، تجمع المشاريع الذي عزز قوة الشركات الكبرى ووسائل تأثيرها على الحكومات؛ وفي الحقل السياسي ، توطدت بالمقابلة معاقل الحكومات المحافظة في الدول الغربية . فان الاحزاب اليسارية — حتى اكثرها اعتدالاً — آلت في كل مكان الى العجز او وقفت موقف الدفاع .

الفصل الرابع

الفكر والفن والحياة الدينية
في فترة ما بعد الحرب الثانية

ان انتصار السنة ١٩٤٥ ، الذي عقبه على الفور تأزم دولي جديد ، لم يتسم كآخر الحرب العالمية الاولى بالاسترخاء على الصعيدين الفكري والفني . فهو لم يولد لا تفاؤلاً ولا غروراً حيال المستقبل . وان ادب هذه الفترة قد « أنف من العواطف النبيلة » ، وحرص على ان يكون واضحاً ويتجنب الاكاذيب والصور الخادعة على السواء . « لقد اختبر الانسان » على مقياس العالم ، قوته المادية وفشله الاخلاقي » ؛ ولا يمكن اعتبار توسع الحضارة المادية تقدماً او تأخراً : « انه النتيجة الطبيعية للنشاط البشري ، التي اصبحت ضرورية بفعل تزايد سكان الكرة الارضية وتزايد متطلباتهم » . انتهت الحرب ولكن مسائل اخرى تستوجب الحل ، وفي مقدمتها بناء السلم :

... « ان نهاية الحرب تعني نهاية « هذه » الحرب فقط . ليس المستقبل مضموناً : نحن لا نؤمن بنهاية الحروب ... وانما يجب ان نراهن . فحين تضع الحرب اوزارها تترك الانسان عارياً ، وغير مفتقر مدركاً اخيراً انه لا يمكنه الاعتماد الا على ذاته » .

(ج. - ب. سارتر)

تعلم الانسان تعيير عقله ، وعرف ما يمكن ان ينتظره منه وما لا يمكن ان يؤمله : الاطلاق، والكمال ، والمثالية ، وكل المقولات التي خلت من معناها والتي اعاض منها بالقيمة والنسبية ... لذلك تخشن الحس في كافة الحقول ؛ وبات الارتياب والتشكك بعد ذلك يحومان حول كل مذهب مقفل يبدو في الظاهر نهائياً .

١ - الفكر وفنون الادب

ج.- ب. سارتر

لقد سيطر على كل فترة ما بعد الحرب هذه ج. - ب. سارتر - البعيد عن اوهام سلفه « هايدغر » - الذي عرض اسس فلسفته في « الوجود والعدم » (١٩٤٣) . ففي هذا المؤلف نرى الانسان في جوهره محكوماً عليه بحرية مطلقة

وغير معقولة معـاً ، وبالعيش في عزلة وانفراد . ولا معنى لحياة كل انسان الا ذاك الذي يعطيها اياه ، وليس للاحداث نفسها من حقيقة ومعنى سوى مـا يعزوه اليها « ذاك الضمير الزائل على غير هدى الذي هو الانسان » ؛ ومن هذه الزاوية وهـذا المنظور ، تفقد المعرفة العلمية والموضوعية قيمتها كحقيقة ، ولا يبقى لها سوى قيمة وجودية . ولكن هناك شيئاً آخر في فكرة سارتر ؛ ان عدم التقدم لا يستلزم بالضرورة انحطاط البشرية ، فانما هو انعدام مفهوم عام وموضوعي للتاريخ ، ويعود لكل انسان تحديد هذا التاريخ ، وتاريخ الماضي ، والتاريخ الذي يعيشه ، والتاريخ الذي يستشعره . « اذا كان كل شيء جـائزاً ، فلا شيء سواء ، حتى السواء نفسه » . وفي الواقع ، ان ما يبرز في « الوجود والعدم » ، هو المهارة في الجدل عـلى صعيد الاسلوب الفلسفي : الانسان منفرد وليس منفرداً قط . انه حر ، ولكن « في وضع معين » . واذا صرفنا النظر عن الآراء الماركسية ، فان هـذا المفهوم للانسان وللعمل الانساني الذي يعبر عنه هو بالنشر والطي مفهوم ما بعد الحرب : انعدام اي نظـام سام ، انعدام اي فعـل ايمان . ولكن القلق امـام غير المعقول لا يجوز ان يستحيل الى يأس ، انه يقود الانسان الى اختيار واضح للعمل ، الى تولي امر مصيره الخاص و لوضع الذي هو ملقى فيه .

النسبية والعقل

تكاملت علوم الانسان ، بعد ازمة اوائل القرن ، واصبحت علوماً مختلفة عن علوم الطبيعة ؛ وباتت كلها ، ولا سيما علم الاجتماع الذي احرز اكبر تقدم خلال السنوات الـ ٣٥ الاخيرة ، تعلمنا نسبية شاملة بما فيهـا نسبية العقل البشري .

كانت هذه النسبية حصيلة كل الحركة الفكرية في اوائل القرن التي اجتهدت في احتقار العقل كدالة للحقيقة وافضت ، عبر علم الظواهر ، الى رفض العقل العاقل بواسطة الوجودية . فقد سبق لـ « هايدغر » ، في العشرينيات ، ان جاهر بازدرائه الشامل لكل المعارف التي قد تنبثق عن العلم : « ان ضبط اي علم لا يوازي ركانة علم ما وراء الطبيعة » . ان علم ما وراء الطبيعـة والعلم على طرفي نقيض : فهو يبحث عن الوجود في اختبار عاطفة الانسان وتأثره . ومنـذ الثلاثينيات رغب عـلم الظواهر في ان يكون معرفة الانسان فقط ، وهي معرفة ناقصة في جوهرها كما يعرف علم الظواهر ذلك . فهو يضاعف من ثم ، بوصفه الظاهرة ادق وصف ممكن ، كما تبدو للضمير الناقد ، نتائج علم تحليل النفس . وينطلق هذا الاخير ، من جهته ، من تحليل اعماق العقل الباطن لتقديم الدليل على عـدم موضوعية اكثر الافكار صوابية في الظاهر : وهو يجد مصادر هذه الافكار في غريزة الجنس على غرار « فرويد » ، او في طلب العظمة ، على غرار أدلر ، او في الامثلة الرمزية ، الشاملة والثابتة في طبيعتها ومغزاها على السواء ، لعقل باطن جماعي أيانه .« يونغ » .

تبنى علم الاجتماع مدلول العقل الباطن هذا ، فأثار ابحاثاً كثيرة : علم اجتماع المعرفة ، الذي

ابتغى تحديد المغازي الخفية اللاشعورية للافكار المعبر عنها . ومنذ ماركس الذي طلب له ان يرى في افكار الانسان انعكاساً لطبقته الاجتماعية ، تعددت واختلفت تحولات الافكار الى غير جوهرها ، ولكنها انطوت كلها على ان الافكار ليست سوى مجرد حصيلة عقل خالص : تصدر عن شعور او عن ردة فعل يحدثها موقف معين ، فهي نسبية بفعل منشأها . ويظهر تحليل النفس في مدلوله الواسع (البحث عن المصادر اللاشعورية للافكار) ان تعريضه ليس سوى احتمال من جملة الاحتمالات .

ويبدو تحول الفلسفة في حقل علم الاخلاق ماثلاً للعيان : فبعد ان جعل نسبياً ككل شيء آخر ، استحال قيام مذهب اخلاقي متلاحم ، صوابي ، يمكن تعليمه . وحين يقترح « كامو » ، في « اسطورة سيزيف » ، علماً أخلاقياً معيناً ، فهو يعترف بعجزه عن تبرير بنائه الا بالحاجة الى جعل الحياة جديرة بأن تعاش . ولعل سارتر نفسه ، بتأجيله تكراراً نشر كتاب « بحث في الانسان » ، يعترف بعجزه عن اقتراح علم اخلاقي مبني على أسس ركينة . « ان مدلول استحالة العالم يبدو مثبتاً اثباتاً نهائياً في الفلسفة» ، ويرد ضمناً في كل مؤلف فلسفي». ولا يتخلص المؤمن منه الا « بقفزة » في الايمان ، كما يقول كامو ، ولكنه يسلم بالفاصل الكبير بين قدرة الفكر البشري واثبات وجود الله ، ويزعم في الوقت نفسه بأنه يكمل بفعل الايمان حركة انعكاس الفكر على الانسان والعالم .

وهناك قطاع من قطاعات البحث بات توسعه ذا شأن كبير بالرغم من حداثة عهده ، واصبح له في العهد المعاصر اهمية ومغزى خاصان ، اعني به قطاع تاريخ العلوم : ففي الوقت الذي يفقد فيه العقل ، في الفلسفة والعلوم البشرية، قيمته كمصدر للحقيقة ، لا يسعنا سوى مشاهدة تحقيقاته في حقل العلوم وتطبيقاتها التقنية . فالعقل البشري يعي هنا فعاليته وركانة مساعيه . وهو يؤثر على مدلول الحقيقة مدلول « المعرفة الدانية »(باشلار)؛ وليس موضوع الكلام ، على كل حال ، العودة الى الايمان الكلي بامكانات العلم أو الى التفاؤل المطلق الذي جوهر بـه في أواخر القرن التاسع عشر : فان نمو العلم ليس نمواً خطياً دون اخطاء وتراجعات ، ومن الضروري تحليل المعرفة العلمية تحليلا نفسياً ؛ فان صوراً كثيرة شبه اسطورية وأمثلة كثيرة تتسلط على الضمائر وتتسرب خلسة الى براهين علمية مزعومة . وانما قام غاستون باشلار بتحليل العناصر الاربعة (ماء وهواء وتراب ونار) تحليلا نفسياً رغبة منه في تبيان هذه الامثلة .

التغلب على أزمة الحتمية

من جهة ثانية تغلب العلم المعاصر على الازمة النظرية التي برزت في أوائل القرن : فان ظهور علم الطبيعة النووي مع تطبيقاته الرهيبة (القنبلة الذرية ، القنبلة الهيدروجينية) ، وتأسيس علم كيميائي عقلي مبني لا على وصف اختباري لخصائص الاجسام كما في السابق ، بل على معرفة التركيب الذري الذي يعين هذه الخصائص ، قد اعادا للعقل اطمئناناً كان قد فقده . وان النظريات المحيرة التي رأت النور في اوائل القرن قد مكنت من ادراك الظواهر ادراكاً جديداً ، ولا سبيل لانكار حقيقتها بحجة

انها بالغة الجرأة او متناقضة : لقد اثبتت صحتها، ولكن عقل العالم قد تحول بسببها تحولاً كلياً. لا بل انه في تحول دائم ، إذ أن النتائج الجديدة تخلق مسائل جديدة، وتعتبر هـذه التجددات منذئذ شرط التقدم بالذات .

تسير أزمة الحتمية نفسها في طريق الحل . فان خطوات العلم الذري الاولى (تفجير الذرة في السنة ۱۹۳۸) كانت تأكيداً كافياً بان العلم ما زال يتمتع ببعض القدرة على صعيد الذرة . ولكن الابحاث الأخيرة التي قام بها الفرنسي « ج. - ب. فيجييه » والاميركي « دافيـد بوم » قد اثبتت ان نظرية عدم تحديد الظواهر على الصعيد الذري كان مردها الى ادخال مبدأ ضمني وغير ضروري مسلم به دون برهان البرهنة : ليس عدم التحديد الموضوعي الظواهر ما اثبت ، بل الحدود الراهنة لقدرتنا على معرفة هذه الظواهر فقط . فتبقى نسب الارتياب التي يقول بها « هايزنبرغ » مقبولة عملياً ، وانما لم يعد لها المعنى النظري الذي كان يعزى اليها . فان انشتاين لم يستطع قط التسليم بعدم الحتمية . ولكن « لويس دي بروي » نفسه اعلن في السنة ١٩٥٢ ان ابحاث فيجييه وبوم قد قادته الى اعادة النظر في التفسير الاحتمالي الصرف لعلم الآليات التموجي الذي سبق له وسلم به منذ عشرين سنة وانه يواجه امكانية حل حتمي من شأنه وضع حـد «لمأساة علم طبيعة الاجسام الصغرى المعاصر ... اكتشاف ثنوية الموجات والجسيمات » .(«هل يبقى علم الطبيعة الكمّي غير حتمي ؟ ») .

المدلول الجدلي للعلم

من جهة ثانية ، ولّى زمان فلسفة العلوم القديمة بدورهـا ايضاً : انبثقت عن موقف فلسفي تأملي صرف ، فتحولت الى مذهب عقلي اعتدالي اعتبرت الاشياء فيـه بسيطة وثابتة ، والمعرفة سجينة مقولات مقبولة كأنها ازلية . فجاءت سرعة تقدم العلم والتقنيات بعد السنة ۱۹۳۰ ، والصعوبة القصوى التي اتصف بها العمل العلمي ، تظهر ان نشاط العقل يبرز بشكل آخر مختلف جداً . وهو المنطقي « كافاييس » من برهن ان العلم ليس مستقلاً عن موضوعه ، وان ليس هناك من عقلية بحد ذاتهـا ، بل ان عقلية العلم قائمة في بنائه الاجمالي : ان نسبية العلم هذه انقذته من مخالفة الصواب اذ انها لم تأته من ضعف تركيبه ، بل من طبيعته الجدلية في جوهرها التي تجعله لا وجود له الا في الجهد الذي يبذله للسيطرة على موضوع حقيقي .

في هذا الافق الجدلي نفسه توجد فلسفة العلوم التي طلع بها « ج. باشلار » : انها تعطي تاريخ العلوم كل معناه ، لأن « العقل يتكوّن بتبصره في العـالم ، ولأننا نكتشف من خلال توسع الآراء العلمية شروط تطبيق الفكر على موضوع ما ، والاخطاء الواجب تجنبهـا في المستقبل ، وتولد الافكار العلمية الراهنة » . فلا عجب من ثم اذا ما طلب ج. باشلار الى العالم ان يتملك كل ماضي العقل ، اي كل ماضي علمه ، وفي الوقت نفسه كل حاضر التقنية («العقلية التطبيقية» ١٩٤٩) ، وهذا جديد كله : « المجهود العلمي ليس مجرد تأمل في الموضوع ، انه التحام بالمادة ، ومعرفة هذه المادة ممتنعة الانفصال عن القدرة عليها » . وهكذا يبرز مدلول جدلي للعلم هو

على ملتقى « عقلية تطبيقية » و « مادية متهذّبة » ، يقابل بها باشلار المادية الفلسفية الفليظة (« المادية العقلية ») .

اذن هو مدلول الجدل ما يبدو جوهرياً في الفلسفة المعاصرة. وقد اتاح إحكامه بعلم الظواهر (خصوصاً بشكله الوجودي مع سارتر) خلال العقود المنصرمة استخدامه استخداماً شاملاً . اجل لا يعرف الانسان قط سوى فكره الخاص ، لا واقع الاشياء ، ولكنه يكتفي طوعاً بهذا التأكيد شرط الاعتراف بصحة تفكيره في بعض الظروف . « هو تضامن الانسان الفاعل والموضوع المادي، وهو تضامن الفرد والمجتمع في الزمان والمكان ما يتيحان التبصر جدلياً في العلم وحياة الفرد في المجتمع » .

علم الاجتماع

اما بصدد حجم الابحاث ، فهي مدرسة علم الاجتماع الاميركية لعمري ما تفوقت تفوقاً كبيراً على سواها ، حتى في فرنسا حيث لا يزال مركز الدروس الاجتماعية مديناً للأبحاث الاميركية. وتسيطر على هذه المدرسة مؤلفات « ر. بندكت » ، و « م. ميد » ، و « ر. لنيتون » الذين يقاومون الفكرة التطورية ، و « بيتيريم ا. سوروكين » الذي يرى ان المجتمعات البشرية تنمو ، لا في اتجاه تقدم قد يكون تحسناً ، بل « بموجات ودورات نسقية » . ولكن اتجاه بعض ممثليها ، ممن يعتبرون المجتمعات مجرد آليات ، الى اقتصار ابحاثهم على درس وقائع تفصيلية كثيرة وعلى « اختبار كاذب » بصرف النظر عن كل تفكير فلسفي ، وعلى التعبير عن « صورة الواقع هذه » بصيغ حسابية ، ينطوي على خطر الافضاء الى « مرض الاختبار » و « جنون الكم » الفارغين والعقيمين حقاً .

ارتبط علم الاجتماع الفرنسي منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بعلم الشعوب ، ونما تحت تأثير « مارسيل موس » وتلميذه « ليفي – شتراوس » باتجاه درس الهيئات الذي يعتبر ان التحليل البحت في علم الاجتماع لا يمكن ان يؤدي لأية نتيجة ، لأن كل عنصر لا مغزى له سوى في مجموع هو فيه ضروري وقابل التغير بدالة كافة العناصر الاخرى .

ان لـ « كلود ليفي – شتراوس » الفيلسوف والعالم باصول الشعوب واخلاقها تأثيراً يتخطى جمهور مستمعيه في كلية فرنسا الى حد بعيد . فان مؤلفاته « دوائر الانقلاب الحزينة » ، و « الفكر البائر » ، و « النيء والمطبوخ » ، و « الوثنية المعاصرة » ، وسواها ، قد جعلت الكثيرين يألفون افكاره وأسلوبه . وبالفعل ، فتح علم الانسان التركيبي آفاقاً جديدة أمام العلوم البشرية التي اعطاها اسلوباً يخالف التحليل الجدلي على الطريقة الماركسية الذي يقول به سارتر ، وربما كان « ليفي – شتراوس » – في رأي « جان لاكروا » – آخذاً في بناء الفلسفة « الاكثر إلحاداً عنفاً في أيامنا هذه » .

بصورة عامة تسود علم الاجتماع المعاصر روحٌ نسبية شاملة : ليس بعد اليوم من تسلسل مجتمعات، وليس من تفوق للبيض وحضارتهم. وتمنع فكرة الشخصية الاساسية التي ترافقها فكرة « التجميع الثقافي » فكرة تسلسل القيم أو التقدم التاريخي ، فكل مجتمع ينمو نمواً خاصاً به .

واذا حول المجتمع الغربي كل جهده المنطقي نحو العلم والتقنيات ، فقد حولته مجتمعات اخرى نحو الدين ، او النسب ، وأسست في هذه الحقول مذاهب معقدة جداً . لقد زال تعبير «المجتمع البدائي» من اللغة العلمية . فنحن هنا أمام توسع مفهوم الانسان ، ونشأة انسانية تعترف بسمو انسانية القيم الغريبة عن الغرب . وهذا لعمري حدث غريب وهام جداً في الوقت الذي يتجه فيه مثال الحضارة الغربي الى الانتشار في العالم كله والى قلب مجتمعات كاد الجمود يسيطر على تنظيمها منذ آلاف السنين رأساً على عقب .

السيكولوجيا و «العلائق البشرية»

تقدمت السيكولوجيا تقدماً هاماً في الحقل العملي بنوع خاص. فالطب النفساني الاميركي قد نوّع طرائقه بغيـة تطبيقها على الاضطرابات العقلية المختلفة ، لاجئاً الى المزيد من الاختبارات والاسئلة الدقيقة . ومن جهة ثانية اتجهت السيكولوجيا المختبرية ، خصوصاً بعد السنة ١٩٣٠ ، نحو طرائق تقدير انفعـالات الفرد النفسية ومسائل التوجيه المهني . فقد استخدمت أولا من قبل حكومـة روزفلت في اطار «النهج الجديد» ، ثم من قبل المشاريع الكبرى التي وضعتها في خدمة تنظيم وسائل الانتاج ، الذي كان في الواقع تنظيم استثمار الانسان بالانسان والآلة . وبعـد ان اثبتت اختبارات عـدة ان تحسين الانتاجية هو دالة عوامل سيكولوجية واخلاقيـة ، فبات لزامـاً ، لا تحسين ظروف العمل المادية فحسب ، بل الجو نفسه الذي تنمو فيـه الحياة المهنية . هـذا هو مذهب قياس الظواهر الاجتماعيـة لـ «العلائق البشرية» ، المنبثق عن الاختبارات المجراة في السنة ١٩٢٧ في مصنع «كهرباء الغرب» في «هوثورن» — أحـد احياء شيكاغو . وقد كان هذا المذهب منطلقاً لابحاث جامعية كثيرة حول «العلائق البشرية» في الصناعة ، وحول السيكولوجيا الاجتماعية التطبيقيـة ، وحول دراسات سلوك فريق العمـل والوكالات التي تقدم للمشاريع سيكولوجيين اختصاصيين . وجر عجز رؤساء المصانع الكبرى عن معرفة من يستخدمونهم معرفة جيدة الى اعتماد تقنيات سيكولوجية اخرى : اختبارات الشخصية : التوازن التأثري ، الصدق (بواسطة الـ «بوليغراف» ، اي جهاز كشف الا كاذيب) ، النزاهة ، التي اضيفت الى الاختبارات الكلاسيكية المقتصرة على درس الحركات الانعكاسيـة لمراكز الحواس والدلائل الطبيعية على الكفاءة .

كان دور هؤلاء «المهندسين البشريين» الذين درسوا «حركات» الجماعـات ـ بحسب روح سوروكين ـ والسيكولوجيـا العمالية ، معرفة العمال شخصيـاً (حتى باسمائهم ...) ، وتوجيههم ، وكسب ثقتهم ؛ وكان على المسؤولين من جهتهم الابتعاد عن كل غطرسة او تصرف استبدادي ، وعلى «المعلم» ان يكون مرشداً . فالمطلوب هو حث المستخدم والعامـل على الانتاج اكثر فاكثر وذلك باقناع المستخدمين والعمال بان المشروع يؤلف نظاماً اجتماعياً تترابط عناصره بعضها بالبعض الآخر ، وبث محبة المصنع في العامل بخلق روح التضامن ، وبالخدمات الاجتماعية ، وصحف المصانـع التي تخلق روحاً جماعية ، وتنظيم المحـاضرات ، والنوادي

والنشاطـــات المختلفة ، والمباريات الرياضية ، والاعيـــاد « العائلية » ، واستشارات العمال والمستخدمين في امر تنظيم العمل ، ومراعاة حق الأقدمية في المؤسسة مراعـاة كبرى . ويجب ان يؤدي زوال الاستبداد الى اثارة الانطباع في العامل بان كرامته محترمة وفضله معترف به .

في الواقع ، وجد اختصاصيو درس الانفعالات السيكولوجية ، وهم رجـــال بحث علمي ومستشارون صناعيون للادارة التي تثيبهم في وقت واحد ، في وضع مشتبه قلـل من سلطتهم وتأثيرهم . فان التـــدابير المتخذة بناء لمبادهتهم بدت للعمال وكأنها بوادر مـــذهب « ابوة سيكولوجية » ، واعتبرت « احساناً ممنوحاً مفروضاً » ، لا اعترافاً بـ «حق»؛ وقد نظر اليهـــا المستخدمون والعمال بحذر لانها تستهدف ، في رأيهم ، ابعادهم عن منظماتهم السياسية الخاصـة وعن نقاباتهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تقنيات الاستقصاء السيكولوجية الاجتماعية قد اعتبرت جاسوسـية تشجع الوشاية والرقاء،وتستهدف القضاء على حركات المطالبة بالحقوق وابقاء العامل في حالة خضوع دائم .

المميزات الجديدة للابداع الفني

في هذا الحقل توزعت الطاقات توزعاً جديداً . فان مدرسة باريس قد عرفت البقاء، ولكن النهضة لم تحدث على غرارها عشية الحرب العالمية الاولى . ولم تعد باريس المركز الوحيد لاجتذاب الفنانين الشبان . وفي هذا الحقل كما في غيره برزت قوة الولايات المتحدة الجديـدة ، ومما جعلها تزاحم باريس مزاحمة ظافرة توزيع المنح التعليمية (على الاجانب والمواطنين الاميركيين على السواء) . فقـــد نازع متحف الفن العصري في نيويورك متحف باريس باكورة المعـارض الكبرى . واذا ما احسنت اميركا منقذة وفادة الفنانين والكتاب ، فانها حرصت كذلـك على تهذيب شخصيتها الخاصة ؛ فقد اصبح هنالك سوق داخلية على بعض الاهمية وعزة وطنية جعلتا اثرياء الاميركيين والمتاحف يؤثرون شراء اللوحات المعاصرة الاميركية .

من جهة اخرى ، وسعت الحياة الفكرية والفنية آفاقها توسيعاً عظيماً . فقد اخذت البلدان السكندينافية والشرق الاقصى واميركا الجنوبية توفي قسطها للشؤون الثقافية ، لا باهتمامها بالفن والادب في الغرب التقليدي بل باسهامها في هذين الحقلين اسهاماً خاصاً مميزاً . وبالمقـــابلة بحثت فرنسا والولايات المتحدة في الشرق الاقصى عن تقنيات ومصطلحات من شأنها تجديـد تقنياتها ومصطلحاتها او توسيع حقل بحثها .

علم الفنان ، شأن الكاتب ، بأنه يدخـل حضارة جديدة لا يمكن ان يعتمد الانسان فيها الا على نفسه . واذا ما زال الملحن والرسام والنقاش يعيشون من ثورة اوائـل القرن (التي تمادت فيما يعني الموسيقى ، حتى في العشرينيات بفضل ابتكار التقنية التوافقية) ، فان البحث ما زال متواصلاً بنشاط . فكل شكل من اشكال الفن بحث عن لغته الخاصة وتحرر من كل شاغل ادبي . وقد شوهدت تصفية عامة للمذهب التعبيري (اقله في الجيل الذي بلـــغ سن الرشد في السنة ١٩٤٥) وتقتح الفن التجريدي . فلا مبرر بعد اليوم لأن يفرغ الفنان نفسه في قوالب صنعهـا

الآخرون اذ انه لم يعد ليرى في السلم الموسيقية او في الموضوع الطبيعي المطلوب منه تمثيله سوى مصطلح من جملة المصطلحات ؛ فالمتوالية التوافقية ليست اقل « طبيعية » من السلم الموسيقية ، والموضوع الطبيعي ليس اقل تحكماً من اي ابتكار تصويري . فالتصميم على عدم التشكيل في الفن التصويري وعلى كتابة المتوالية التوافقية في الموسيقى ، « لرغبة في اعطاء شكل لما هو دون اي شكل وتحييز وجود شيء جديد كلياً » . والتعبير عن تأثر خـــاص بالفنان يُدخل بعض الذاتية والسيكولوجية معا في الحقـــل الجمالي ، كما يقضي على استقلاله وشموله ، فيجب من ثم العزوف عنه . وليس المقصود بعد اليوم ذاك الجمال « الخالص » والخلو من الروح ، الذي نادى به ستراقنسكي وفاليري في العشرينيات، بل جمالاً يكون اشبه « ببيئة » يحتـاج اليها الانسان كما يحتـاج الى الهواء الذي يتنشقه .

هذا هو نقيض علم سنن الجمال التقليدي ؛ وفي الوقت نفسه ، توسع البحث الفني توسعـــا كبيراً واصبح نسق تطوره اكثر سرعة بفعل المواد الجديدة التي توفرهـا الصناعة المعاصرة دون انقطاع . ويلمس هذا الاسهام خصوصا في حقل النقاشة حيث جارت المادة البلاستيكية الحديد والحجر والاسمنت ... ، وفي حقل الموسيقى حيث جاء العلم الالكتروني يجدد امكانات الفرق الموسيقية والآلات الموسيقية .

الفنون التصويرية

نادراً ما ينحصر الفنانون في تقنية خاصة ؛ فالرسام قـد يكون نقاشاً كـ « ارب» و «بفسنر» وقد يمارس فن صناعة الخزفيات كما فعل بيكاسو في « فالوريس » او يمارس فن جمع القطع الزجاجية على الطريقة القديمـة كـ « ليجيه » ، او فن صناعة المدبجات كـ « لورسا » ... وبالمقابلة قد يصبح مهندس العمارة رساماً (لـه كوربوزييه) او نقاشاً (المنغاري « ا. بيوتي » ، والاسباني « ادواردو شيليدا ») ؛ وان في تنوع حقول نشاطهم لدليلاً ، لا على عمق وحدة المسائل ، وروح البحث التي تحرك الفنانين فحسب ، بل على اهتمامهم بالتوفيق التام بين الانتاج والمسكن البشري ويخلق، اطار يتجاوب ويتكامل فيه التفصيل التزييني واللوحة والخط الهندسي .

عبر عن الرسم التجريدي في فرنسا، منذ السنة ١٩٤٦ ، في « صالة الوقائع الجديدة » (حيث نجد مرة اخرى « هربين » ، وبفسنر ، وارب و « ظليز » و « دل مارل »)؛ وفي السنة ١٩٥٤، فتحت اول صالة النقـــاشة التجريدية التي ضمت اناسا مختلفين بقومياتهم ومنتجاتهم الفنية ، من امثال الاميركيين « كالدر » و « داي شنابل » ، والدانماركي « روبير جـاكوبـسن » والاسباني شيليدا ، والايطالي « فرانشينا »، الى جانب « ارب » وبيوتي و« اندريه بلوك »و« ن. شوفر» و « جيليولي » و « ستاهلي » .. وعشية الحرب كادت النزعة « الهندسية » وحدهـا تقريبا ان تكون ممثلة على هذه الصورة ؛ ولكن وفرة المنتجات والنجاح الذي صادفه ، على غير انتظار ، هـــذا الشكل التجريدي الذي بلغ عهده الكلاسيكي ، منذ « كاندنسكي » و « لاريونوف » و « ديلوناي » و « موندريان » في الرسم ، و « برانكوزي » و « غونزاليس » في النقاشة ، قد

تركا انطباع تمسك مفرط بالشكليات يراعي وكأنه تلد بالملح ؛ ولذلك تحول الجيل الطالع نحو دروس الواقعية المفرطة ، فبرز تفتح نزعة واقعية مفرطة تجريدية (« بولياكوف » ، « ديرول » ، ...) « قد تبدو ، بازدرائها ، اقل ظاهريا ، بالتركيب والشكل المحدد تحديداً واضحا (البقعية) وكأنها عودة الى مادة بسيطة جداً واقل ما تكون اعداداً وروحانية » . واستوحى بعض الاميركيين ، ولا سيما « طوبي » و « طوملن » و « كلين » و « الكوبلي » وستاموس ، الخ . ، وبعض الفرنسيين ايضا من امثال « هارتونغ » و « بوت » و « ماتيو » و « سولاج » و « شنايدر » ، الخط الصيني او الياباني في الشرق الاقصى . اضف الى ذلك ان الاتصالات تعددت بين الخطاطين اليابانيين والرسامين الغربيين (في السنة ١٩٤٥ ، عرض منتجات الخطاطين اليابانيين المصريين في متحف الفن المصري في نيويورك ، عقبه عرض مماثل في متحف الفن المصري في باريس) .

اثارت هذه النزعات ردة فعل واقعية : عمم « بازين » (تطبيقات على الرسم المعاصر) فكرة التجريد ، فأبان ان كل رسم تجريدي من حيث انه لا ينقل موضوعه بل « يستخدمه كنقطة انطلاق للابداع التصويري » . فلا مبرر من ثم لان ينحصر في ما هو غير تمثيلي : بمقدوره انتقاء مواضيعه حيث يجدها . ويجيز بازين لنفسه ، استناداً الى هذه الملاحظة ، ان لا يبقى واقعياً ، على نقيض « سنجييه » و « مانسييه » و « بينيون » و « استيف » و « لابيك » و « له مول » . وقد استهدف هؤلاء الاخيرون التعبير لا عن الشعور فحسب بل خصوصاً عن التأثير الذي يتركه الشعور ، فأفضى بهم هذا الاهتمام بالتعبير الى تشويه الموضوع والاستغناء عن الكثير من مظاهره بحيث يفقد هويته .

يبدو ان الجدة الهامة في هذا النصف الثاني من القرن العشرين هي ولادة « فن الابتعاد عن الشكل » الذي انما هو « فن تعبير داخلي ووحي ، يغوص مباشرة في اعماق الوجود ويبرز المسوخ والاشباح واختراعات المخيلة العجيبة ، بكل حرية وحتى بسخرية من اشكال التعبير السابقة » . وكان تأثير بولوك وهارتونغ كبيراً جداً على هذا الاتجاه الخصاب الذي سلكه « فوتريه » و « وولز » وخصوصاً « جان ديبوفيه » .

الموسيقى

ان تقنية المتوالية التوافقية التي ابتكرها « شونبرغ » لم تأخذ بالانتشار بين الملحنين الشبان الا بعد السنة ١٩٤٥ . فقد وفرت دليل القائم للخط الموسيقي ، واصبحت من ثم الالحان التوافقية الاثنتا عشرة القاعدة الاساسية للابحاث في الخط الموسيقي واجتذبت الملحنين الشبان الجسّارين ، طلاب معهد الموسيقى في باريس و« ماسيان » وليبوفيتز . الا ان الموسيقى التجريدية التي ابتكرها الفرنسيون «بيار بوليز » و«موريس له رو» و« اندويه هودير » ، والبلجيكي « هنري بوسور » ، والالماني « ستوكهوزن » ، لم تصادف النجاح نفسه الذي صادفه التجريد التصويري . ويجب ايضاً ان تؤخذ بعين الاعتبار الصعوبات التقنية التي يتوجب على الملحن تذليلها عند كل خطوة في هذا الحقل الجديد ، والتي تجعل من

التلحين التوافقي نظاماً شاقاً غير مضمون النجاح . فالمؤلفات هي بعد اليوم من صعوبة الاداء بحيث تتراجع الفرق الموسيقية امام عدد التمارين الضرورية، باستثناء فرقة اذاعة مونيخ للمؤلفات السمفونية وفرقة اذاعة باريس حيث تُحيا بعض الحفلات الموسيقية . وباتت الظروف من ثم غير ملائمة لانتشار موسيقى مستصعبة لا يتعودها الحس في وقت قصير .

بانتظار تحقق الثورة الموسيقية التي تعدها مؤلفات «ابلر» و « ايمرت » في « بون » وكولونيا » بواسطة الموسيقى الالكترونية ، تبدو الالحان التوافقية الاثنتا عشرة الآن وكأنها اغنى مذهب موسيقي بامكانات المستقبل ، وانما يجب الاعتراف بأنها مجرد اصطلاح . فلا عجب والحالة هذه اذا ما اثارت اعتقادية الملحنين الشبان ، ثم اعتقادية المدرسة التقدمية (التي تستوحي « الواقعية الاجتماعية ») ، منذ السنة ١٩٤٧ ، مقاومة عدد ضئيل من الملحنين الذين يؤلفون فريق « الزودياك » . وبهذه الصفة يتميز الفريق (موريس اوهانا ، ستانسلاس سكروفلشفسكي ، سرجيو دي كاسترو) في الدرجة الاولى برفض المدارس والمذاهب وبتصميم على الاستقلال التام .

في حقل موسيقى الجاز ، شوهد اثناء العمليات الحربية ما يشبه العودة الى اسلوب «اورليان الجديدة » مع ارمسترونغ و « سيدني بيشيه » ، وانما ظهرت في آخر الحرب اشكال تحيي لغة الجاز او قد تستطيع على الاقل احياءها : اسلوب « بي – بوب » اولاً الذي اشهره جلسي وباركر ؛ ثم الاسلوب « البارد » ، في عهد متأخر .

السينما بعد الحرب . استفادت السينما ، اكثر من اي شكل آخر للتعبير الفني ، من تقدمات التقنية ، وارتدت طابع حضارة الجماهير التي تميز العصر . وقد اتجهت نحو اعطاء المشاهد صورة اقرب الى واقع الابعاد الثلاثة بواسطة « السينما البارزة» اما بتحقيق صورة مجسامية، واما بالشاشة البانورامية (سينراما ١٩٥٢ ، سينماسكوب ١٩٥٣) ، وبالسينما الملونة التي تحققت بفضل طرائق مختلفة (تكنيكولور ، اغفاكولور ، سوفكولور ، روكولور ، الخ.) . ولكن الحدث الاساسي كان ، في الدرجة الاولى ، ظهور المدارس الوطنية ، ولا سيما في البلدان التي استيقظ فيها الوعي القومي والتي فازت بالاستقلال وحرية التعبير . فمنذ السنة ١٩٤٥ ، انبعثت سينما ايطالية اسست « واقعيتها الجديدة » مدرسة في العالم كله ، بينما اخذت دول اوروبا الوسطى ، بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبلغاريا ، تنتج افلاماً قومية معدّة لارضاء رغائب زبن يتزايد عددهم تزايداً مطرداً . وليس بعد اليوم سوى افريقيا – باستثناء مصر التي توزع الافلام على الشرق الادنى – وزنوج اميركا (اذ ان البيض يشرفون على انتاج الافلام « الزنجية ») من هو محروم من التعبير السينمائي . وهي السينما اليابانية بصورة خاصة ما حققت اسرع تقدم في كمية (٣٥٠ فيلماً في السنة ١٩٥٤) ونوعية انتاجها . فبينما اخذت الاتحادات الخمسة الكبرى ، التي تشرف على معظم مراكز التصوير السينمائي وصالات السينما، تكثر من انتاج الافلام التجارية ، والافلام الساموراتية المنتحلة التاريخ (على ان بعضها من الدرجة الاولى : « راشومون » ، « باب الجحيم » ،

« الساموراي السبعة ») ، اتاحت احدى المنظمات التعاونية ، بفضل مساعدة النقابات وعطف الجمهور ، لبعض المنتجين من امثال « كينوشيتا » و « كوروساوا » ، انتاج افلام تتميز بالواقعية الجديدة (« اوكاسان » ، « ابناء هيروشيما » ، « كزهرة الحقول » ، « لو علمت الطيور » ...) احتلت المرتبة الاولى في العالم . وبعد الهند ، التي تستطيع انتاج ٣٠٠ فيلم في السنة (كلكوتا المدينة الطاغية ، اباراجيتو ، باثر بنشالي ، ...) ، والصين منذ السنة ١٩٤٩ ، وتركيا (٥٠ فيلماً في السنة)، اخذت ايران وباكستان وسيلان واندونيسيا وتايلاند وبورما تنتج بعض الافلام . وفي اميركا اللاتينية ، تحتل المركز الاول السينما المكسيكية التي تسيطر على العالم الاسباني بفضل المخرج السينمائي لويس بونويل ، وممثلين موهوبين من امثال بدرو ارماندارز (ماريا كندلاريا ، ١٩٤٢ ، لوس اولفيدادوس ، ١٩٥٠ ، فيريديانا ، ١٩٦١) ، ولكن السينما الارجنتينية والسينما البرازيلية الناشئتين اخذتا تنتجان افلاماً طريفة .

نجم عن ذلك تراجع السينما الهوليوودية بالرغم من قدرتهـا المالية التي جعلت اتحاد « ارثور رانك » البريطاني الكبير تحت سلطتها المطلقة ، والفوائد المالية التي وافقت لهـا عليها بعض البلدان (اتفاقات « بلوم — بيرنز » في السنة ١٩٤٦) . وزاد في خطورة هذا التراجع انحطاط فني يرد اما الى نظام « مطاردة الساحرات » الذي ابعد عن اميركا او حرم من العمـل بعض المخرجين والفنانين الجيدين من امثال « تشارلي تشابلن » الذي انتـج « لايملايت » في اوروبا (١٩٥٢) ، واما الى انتشار التلفزة . فيبدو ان المرتبة الاولى في انتاج الفيلم ، التي استأثرت بها هوليوود منذ السنة ١٩٠٨ ، تنتقل شيئاً فشيئاً الى اليابان التي تتبعها عن كثب السينما الهندية والسينما الصينية (٢٠٠ فيلم في هونغ — كونغ وحدها) ؛ وتأتي بعد ذلـك السينما الايطالية (١٤٠ فيلماً)والسينما الفرنسية(١٠٠ فيلم في السنة ١٩٥٥). وفي اوروبا كانت السينما الايطالية المنتصرة الكبرى في فترة مـا بعد الحرب بفضل مخرجيها « روبرتو روسليني » و « فيتوريو دي سيكا » و « لوتشينو فسكونتي » و « فدريكو فليني » و « ميكلنجلو انطونيوني». اما السينما الفرنسية التي حافظت اثناء الاحتلال ، وفي ظروف صعبة ، على انتـاج يتصف بخير نوعية (« زوار المساء » ، « العودة الدائمة » ، « بونكارال » ، « الغراب » . .) ، فقـد استطاعت مقاومة سيل الافلام الاميركية بفضل افـلام ذات قيمة كبرى (« السكوت من ذهب » ، « ابواب الليل » ، « رصيف الصاغة » ، « أحق الحق ») تعالج المسائل الاجتماعية : عقوبة الاعدام ، اجرام الشبان ، مآسي الحياة اليومية .

بين المخرجين البارزين في السنوات الاخيرة ، من امثال « باردم » الاسباني (« اهلا وسهلا يا سيد مارشال » ، « موت راكب دراجة هوائية ») ، و «فاجدا »البولوني («قنال» ،« رماد وماس») ، و بوندارتشوك الروسي (« حين يمر اللقلق » ، ١٩٥٨) يمكن الجزم بأن الاسوجي انغمار برغمن ، الى جانب فليني («عذوبة الحياة» ، ١٩٦٠) ، قد برهن في ما اخرجه («بسمات ليلة صيف» ، ١٩٥٦ ، «الخاتم السابع» ، ١٩٥٧ ، «على عتبة الحياة» ، ١٩٥٨ ، «قر التوت الافرنجي

البري» ١٩٥٩)هو اقوى واغرب شخصية وانه يعبر بمزيد من النبوغ والقوة عن قلق العـــالم الحاضر و«شؤم»الحياة . وفي فرنسا ظهرت في السنة ١٩٥٨ ، الى جـــانب كلير و كلوزو و «بكر» و بشون و كليان و تاتي» موجة جديدة بالغة الاختلاط برز فيها ، الى جانب كلود شابرول ، فرنسوا تروفو ، وآلان رونسيه (هيروشيما حبيبتي ، ١٩٥٩ ، وخصوصا « السنة المنصرمة في مارينباد » الذي هو خير فيلم تجديدي في ايامنا)، ومارسل كامو(اله الموسيقى الزنجي ، ١٩٥٩) .

القصة في فرنسا

في فرنسا ، كان تأثير القصة الاميركية في الثلاثينيات عظيما جـــداً . اما ما اكتشفه الجمهور فيها ، من خـــلال الطرائق التقنية الجديدة ، فهو الرؤيا الخيالية المطبقة على العالم الذي يعيش فيه : صورة يذوب فيها الفرد في الواقع الاجتماعي، تحركها حياة نابضة ، يزداد نسقها بفعل التطورات المادية . واكتشف فيها كذلك مثالا جديداً للموضوعية ، لا موضوعية القرن التاسع عشر الصنمية ، بل تلك المنبثقة عن عالم زالت منه كل قيمة سامية وكل مركز اسناد مطلق .

يبرز هذا التأثير في مؤلفات سارتر منذ السنة ١٩٤٥ . فهو في « طرقات الحرية » (١٩٤٥) يتخلى عن وجهة نظر الضمير الفردي ، الذي اكتفى به حتى هذا التاريخ ، بغية ايقافنـــا ، بشكل خيالي ، على كيفيـــة نظره الى التاريخ المعاصر . ومنـــذئذ حوّل نظره الى الواقع الاجتماعي ، ولكن ميوله اليسارية تركته في موقف المنادي بالحرية الذي يرى في تطرف هـــذه الجهة وتلك شططاً يجب تجنبه . ولم يؤمن بحل جذري ونهائي للمسائل المطلقة ، وانما شدّدت مؤلفاته آنذاك على نسبية كل عمل انساني (الايدي القذرة ، ١٩٤٨) ، وتجدده الدائم ، دون تقدم يذكر ، بسبب جاذبية الحتميات الاقتصادية والاجتماعية (اتفاق الظروف الصعبة، ١٩٤٦).
اما كامو فقد حاول ، بُعيد الحرب ، ان يلقن الناس علماً اخلاقياً جديداً : لا ريب في ان العالم والحياة البشرية مُحالان (الغريب ، اسطورة سيزيف ، ١٩٤٢) ، وانما يمكننا الاعتقاد بعدد ضئيل من القيم ، كالوضوح والصدق اللذين يجعلان هـــذه الحياة الهشة ممكنة ومقبولة (الطاعون ، ١٩٤٧) . ويبدو الانسان مثقلاً بمصير لا يتحكم به ولن يتحكم به البتة ، ولكن له القدرة على رفض هذا المصير ، والثورة على الظلم والكذب ، « وهي قيم يستمر واقعهـــا حين يزول تبريرها بحسب علم المعقولات » .

ولكن مفهوم العالم هذا ، الخالي من التعزية ، الذي يقترحه علينا الكتاب عشية الحرب ، ما زال جميلاً جداً ؛ فهو ما يزال يفترض وحدة البشر حول قيم اساسية . ولكن الحرب الباردة قضت على هذا الوهم الخادع الاخير اذ ان المفردات التي تعبر عن القيم اختلفت منذئذ معـــانيها باختلاف المعسكر الذي تنتمي اليه . ولذلك فان تأثير كامو ، الذي كان كبيراً جداً في اعقاب الحرب ، قد تدنى بسرعة كلية . فعدل عن مقاومة فساد العالم ، وباتت رسالته سلبية تماماً : ليس للانســان بعد ذلك سوى رفضه الوضع الراهن (الانسان الثائر ، ١٩٥١) ، وليس بوسعه

سوى الجاهرة بثورته ما دام كل عمل مشوباً بالفساد . وكانت هذه كذلك رسالة انويل الذي كان موضوعه الوحيد المطالبة بحرية لا هدف لها (انليغون) .

يضاف الى ذلك ان سارتر ، تحت تأثير الاحداث ، قد تخلى عن اسلوبه في المؤلفات التي اصدرها في اعقاب الحرب . فقد كانت مقاومته للحرب ، التي امحلته الصراع الايديولوجي تدريجياً ، اشدّ إلحاحاً من مذهب اخلاقي او اسلوب ادبي . لذلك قل انتاجه الادبي (الشيطان والله) كلما عالج المسائل السياسية ، فانطلق سارتر من تحقيقه اليائس لعدم جدواه ، وانقذ الانسان من عزلته ... بحمله على العمل .

عرفت القصة السيكولوجية البقاء مع ذلك ، ولكنها غالباً ما اصبحت نقدية او هجائية ، متباهية باحتقارها القيم الاخلاقية او مبينة بالاحرى انها غير موجودة بالنسبة لاي شخص (مارسيل ايمه) . وبلغ من عدم اهتمام الروائي بالواقع الاجتماعي انه لم يتردد في الانتقال الى عالم خيالي تماماً . وتناول الوصف المحبة بكافة اشكالها وانحرافاتها وافراطاتها ، وغالبا ما يكون البطل لواطياً ، رغبة من الكاتب في الاستهزاء بالانظمة القائمة . ولكن شتان ما بين هذا الجو وجو التعثير الذي اكتنف اعتراف « جيد » في العشرينيات : فليس المقصود بعد اليوم الاستسلام للفجور والطيش لان الحرب قد انتهت .فلم ينبثق ادب هذه الايام من ردة فعل لسنوات الحرب القاسية فحسب ، بل من طرح مسألة الحالة الانسانية طرحاً جديداً ؛ لا بل ليس المجتمع بعد اليوم ما يثير المسألة ، بل الانسان الملقى في الكون دون ان يدرك سبباً لذلك ، والمستعد اكثر من اي يوم مضى للاعتقاد بان ليس هنالك من سبب . ولذلك فان القصصيين المعاصرين يصفون عالماً خالاً لا قيم فيه .

لا يختلف الجيل الادبي الطالع بهذا الصدد عن الاجيال السابقة ، ولكنه ، على نقيضها ، ينحرف عن « التاريخ » وعن النزاعات الحقيقية التي تمزق البشر او تثير الاختلاف فيما بينهم . هذه هي « مدرسة مقاومة القصة » التي لا تكترث بالسيكولوجيا والحياة الداخلية وترفض الحياة في الحاضر . اما مقصدها فهو وصف عالم حيادي ، او « واقع مادي بحصر المعنى » خلو من مغزاه التاريخي ، او عوالم صغيرة مقفلة « منفصلة عن كون ليس للزمان ولا لحركة التاريخ تأثير عليه ويكاد الانسان يكون غائباً عنه » . هذه هي الملامح المشتركة بين كتّاب يختلفون اختلافاً بيناً من جهة اخرى : « آلان روب – غرييه » الذي يبدو وكأنه مقدم الصف ، ناتالي ساروت ، مرغريت دورا ، ميشيل بوتور ، كلود اوليبه ... ونجد رفض الدسيسة نفسه والتصميم على بناء مسرح عار وطاهر في تمثيليات « يونسكو » (بانتظار غودو ، الكراسي ، المغنية الصلعاء الرأس ، وحيد القرن) ، وصموئيل بكت (وهو قصصي ايضاً) ، وأداموف .

القصة الاميركية

في الولايات المتحدة ايضاً اختلفت حال الكاتب عنها في العشرينيات . وليس المقصود بذلك انه فاز باجتذاب مزيد من القراء ، ولكنه كان مشغل الفكر بجو الانقياد المحيط به ، فسر ابطال الثورة القدامى انفسهم (همنغواي ، دوس

باسوس ، ستاينبك) في النهاية بان يعيشوا في مجتمع يجعل حياتهم مريحة . وقد تأثرت مؤلفاتهم بهذا المناخ الجديد ، وانحنت باخلاص امام غريزة الحياة الاجتماعية المتجلية في كل مكان . ولكن الشبان يبعثون الينا مع ذلك ، من بلادهم او من بلاد المنفى التي اختاروها، بصورة عالم او جيل اعمق تأثراً الى حد بعيد منها في العشرينيات . فالذين اشتركوا في الحرب كان اختبار الحرب قاسياً عليهم: الظلم ، وعدم جدوى التضحيات ،هي الذكريات التي احتفظوا بها عنها . امـــا اوروبا التي اكتشفوا فيها حضارة اوسع حرية على صعيد الاخلاق وصعيد الافكار فقد اخذت روحهم المحافظة وجعلتهم يستشفون امكانية التحرر من المحرمات الجنسية والعنصرية،ولكنهم، على الرغم من اعجابهم بها ، قد احتقروها ورفضوها . وقد خضع بعضهم (بورنز ، بولز ...) لجاذب ايطاليا وافريقيا الشمالية ، رغبة منهم في البحث عن اختبارات جديدة ، ولكن حياة بطلهم تنتهي بالفشل او بالموت الناجم عن شتى الافراطات . وتبرز خيبة الامل نفسها عنـد رسامي الارستوقراطية الاميركية التي لم تبحث عن علاج في المنفى والتي يسيطر عليها الخوفمن الحرب والشيوعية والازمة الاقتصادية ؛ وانقلب الشبان على جيل الاباء الذين لم يعدوهم الاعداد الحسن للحياة في العالم المعاصر . وتتجلى في هذه القصص سيكولوجيا معقدة ورقيقة تنم عـن التحليلالنفسي بالاضافة الى تأثير هنري جايمس وسكوت فتزجرالد. فهي تنم عن الميل الكحول والانتحار ، وعن تسلط الحياة الجنسية الذي يتضح بوفرة الرموز الجنسية نفسها كما عند المنفيين (جون فيلبس ، فردريك بوشنر ، وليم ستايرون) ، وعن فلسفة الفشل نفسها والعجز عـــن امساك الانسان بزمام حياته وانتهاج علم اخلاقي والسير وراء هدف (جون كلي) .

بيد ان الشمال والجنوب مـا زالا مختلفين ومتناقضين ، الشمال صناعي ومدني ، والجنوب نزوع الى الاحلام التي تغمر بالشعر اكثر الكائنات حرماناً وكافة القباحـات . ولكن الشمال تخلى عن القصة الاجتماعية التي انتشرت في الثلاثينيـات وعن جو الثورة الذي رضي عنه . فقد اقتصرت واقعيته الآن على وصف الزوايا المظلمة في المدن الكبرى ، كنيويورك وشيكاغو حيث تتململ اقليات عنصرية ، بولونية (نلسون الغرف) ، او يهودية (شاوول بلو) ، تسهم في ما تنطوي عليه الحياة الاميركية من تشويش وفوضى . وقد تكلـم بعضهم في هذا الصدد عن انبعاث قصص المغامرات : مزيد من المغامرات غير المألوفة ،ابطال عاطفيون لا دين ولا شريعة لهم ، السجن والبيت المقفل لبيئة اعتيادية ، والملاكمـة كرياضة مفضلة . وميل طبيعي الى المشاجرة والجريمة التي لا تخضع لاي حكم ادبي . وفي المسرح ابرز المؤلفون – واشهرهم ادوارد البي (من يخشى فرجينيا وولف ؟ ، ١٩٦٣) – انعدام مغزى العالم بتشديدهم على بعض الملامح الاميركية المميزة .

القصة الايطالية

في فترة ما بعد الحرب برز في ايطاليـا ادب سالت الدكتاتورية الموسولينية دون ظهوره ، وكانت في الوقت نفسه مصدر وحيـه : نقد عنيف للنظام ورسم واقعي وبؤس البلاد . وانتفض هذا الادب كذلك ، تحت تأثير بيارو

غوبتّي وانطونيو غرافشي ، ضحيتي الفاشستية ، الاول فيلسوف سياسة تقدمية والثاني فيلسوف ماركسي مبدع قوي ، على دكتاتورية حنادية كروتشي الذي خلط ووفق بين التعابير المتناقضة بدلاً من ان يتخطاها ، فأفضى به الامر الى فجور حقيقي « يبرر اكثر الشرور جلاء باسم غايات التاريخ البعيدة الغور ، كما برر التفاؤل اللاهوتي الزلزال الذي ضرب لشبونة بأن الغاية منه تكوين عالم افضل » . وامام « فلسفة الامر الواقع هذه ... او الحتمية التاريخية التي تبرر وتقدس كافة الاحداث » ، بحث العديد من الكتاب الايطاليين في الماركسية عن درس واقعي ، او عن وسيلة لتمكين البشر من التحكم بتاريخهم . ويغلب على الظن ان هذا ما يفسر اهتمام هذا الادب الجديد بالمسائل الاجتماعية . فان هؤلاء الكتاب الذين اشتركوا كلهم اشتراكاً فعلياً في مقاومة الفاشستية قد استوحوا مشهد الوقائع الاجتماعية ، وبؤس المساكين والظلم الذي تعرضوا له ، بينما هم وصفوا فساد البورجوازية ودونيتها بجفاء وقساوة . وقد ارتبطوا في عملهم ارتباطاً وثيقاً بفناني السينما والمخرجين (زافاتيني وفيتوريو دي سيكا) ، فاقتبسوا في اغلب الاحيان تقنياتها : مشاهد متعددة ، صور آنية مثيرة تعرض على التوالي دون تلاحم يذكر . وان هذه الواقعية الجديدة التي تبرز في الافلام الكبرى كـ « شيوشيا »و« سارق الدراجات» و« معجزة في ميلانو » ، هي كذلك واقعية قصص كارلو ليفي (توقف المسيح في ابيولي) وايليو فيتوريني (حديث في صقليا ، ١٩٣٨ ، السمبلون يطرف بعينه للفريجوس ، ١٩٥٠) ، اللذين يصيدان الى الذاكرة فظاعة بؤس الفلاح الصقلي ومأساة الجوع في العائلات العمالية ، وقصص شيزاريه زافاتيني ، واينياسيو سيلوني الذي كتب القسم الاكبر من مؤلفاته في سويسرا حيث اختار له مقاماً ، وفاسكو براتوليني الذي استعمل في « يوميات العشاق المساكين » طرائق مدرسة التعبير الاجتماعي الفرنسية في وصف الحياة يوماً بعد يوم في احد شوارع فلورنسا ، والذي وصف في « بطل معاصر » (١٩٤٨) ، على غرار سيلفيو ميشيلي (الخبز الجاف ، ١٩٤٥) وكارلو كوشيولي (الامل العسير ، ١٩٤٧) صراع الانصار في المقاومة وفي اعقاب الحرب . ومع هذا الاخير ، من جهة ثانية ، ومع غوليلمو بترولي (العالم سجن) ، وشيزاريه بافيزيه ، والبرتو مورافيا ، والامير دي لمبدوزا ، تعود القصة السيكولوجية الى الظهور وتصف عالماً وثني الاخلاق بطبيعته ومتمسكاً بأهداب الايمان التقليدي .

انكلترا ومحاولات التجديد في البلدان الانكلوساكسونية

ان فترة ما بعد الحرب لم تحدث فيها نهضة فكرية شبيهة بها في فرنسا وايطاليا . ففي الثلاثينيات كان الادب الانكليزي « مجنَّداً » ، وعبّر بروح متسامحة على بعض العمالية عن قلق عهد شاهد ، باضطراب وعجز ، نشأة النازية وتحقيقاتها ، والحرب الاهلية الاسبانية ، والعدوان الايطالي على اثيوبيا ، والازمة الكبرى والبطالة . اما الجيل الطالع الذي حارب في الشرقين الادنى والاقصى ، وفي افريقيا الشمالية واوروبا ، فقد انثنى عن المسائل الراهنة ؛ واذا ما قورن بالجيل الذي تألق ما بين الحربين ، فانه يبدو على بعض الإعتام ويحافظ من جهة ثانية على التقليد

الطبيعي بحصر المعنى : فسمع جورج اوروك وانغوس ولسون ، بقيت القصة وفية التقليد الكلاسيكي في القصة الفكتورية ، وخفيت عليها محاولات تجديد الالوان والمواضيع في البلدان الاخرى . ولم يشذ عن القاعدة سوى المؤلفين المسرحيين : ت. س اليوت وجون وايلنغ ، ولا سيالورنس دوول (جوستين ، بلشصّر ، كليا) . فان فنــه في سرد القصة على مراحل متعاقبة تبرز في النهـــاية ، بشكل مؤثر في النفس ، اللوحة التي يرسمها لمجتمع متحرك ومتلون جداً ، يضعه في المرتبة الاولى بين القصصين البريطانيين .

الا" ان جيلاً غير متلاحم ومختلف العادات من الكتاب قدظهر في البلدان الانكلوساكسونية : « الشبان الساخطون » البريطانيون و « الجيل الضارب » في سان فرنسيسكو الذين جمعت بينهم الثورة على النظام القائم والمحرّمات الجنسية والرثاء البورجوازي والتمثل الاجتماعي والاخلاقي . فقد دفعتهم مقاومتهم لمجتمع لا يعرفون ولا يستطيعون الانصهار فيه الى الاكثار من الانكارات والتحديات : ارتداء ثياب غير لائقة ، فظاظة ، حياة تشرد ، عــدم احترام للمرأة التي انحصر تقديرها باهليتها او عدم اهليتها الـ « فراش » ، عداء الثقافة الجامعية المتمسكة بالشكليات وغير المطابقة للحياة ، وحق لكل ثقافة . وانضاف الى هذا الاعجاب المعكوس ، الذي صدر احياناً عن سابقيهم ، عدم اكتراث تام بكل عمل سياسي او اجتماعي . فهم ضــد « اكاذيب المحافظين ووعود الاشتراكيين الكاذبة» . ولم يكن عداؤهم للطبقات الحاكمة مبنياًمن ثم على وعي طبقي،او حتى على مفهوم مقبول العالم ، بل كان حلاً شخصياً بحثوا عنه لمواجهة صعوباتهم ، بحث بعضهم عنه في الاختطاف الصوفي الذي يلغوه بواسطة العقاقير ، والبعض في ايديولوجية دينية طُلبت في آسيا ، والبعض – وهذه حال « الضاربين » بصورة خاصة – في العودة الى الطبيعة الوحشية، في بلدان لما تتأثر « بحضارة الاعمال » . اما هؤلاء « المتمردون بدون سبب » فهم ، بدرجـات متفاوتة ، من انصار مــذهب الفردية اليائسين او الثائرين الذين يأبون ان يصبحوا « اعضاء المؤسسة» . وقد تحلى بعضهم بنبوغ حقيقي ، كما هي حال مقدم صف « الضاربين» ،جاك كيرواك (في الطريق ، ١٩٥٥) ، وامع « الشبان الساخطــين » ، كنغزلي اميس (جيم المحظوظ) ، وجون واين ، المؤلف المسرحي ، وجون اوسبورن (تطلــع الى الوراء ساخطاً ، ١٩٥٦)، والقصصي كولن ولسون ، وجون براين .

المانيـــا

في المانيا لم يعكس الادب فقط المسائل الاجتماعية ، بل رافق الجيـــل الطالع الذي تؤلف قصصه حول احـــداث الحرب وما بعدها « ادب الدمار » الذي شاركه اياه ايضاً كتاب الجيل السابق (باستثناء هرمن هس) من امثال اريك ماريا رمارك (جزيرة الامل) وارنست اريك نوت (الماضي العاري) وهتريخ بول (وصــل القطار في الوقت المحدد) ، وارنست فيشرت (ابناء جيرومين) الذي رسم اللوحــة التاريخية السنوات العشرين الاخيرة في قرية صغيرة من اعمال بروسيا الشرقية ، وارنست فون سلمون (الاسئلة المطروحة) ، وارنست جونكر ، وفرانز ورفل . امــا مؤلفات النمساوي روبرت

موزيل التي لم تعرف حقاً ولم تقدر حق قدرها الا بعد صدور كتاب «الانسان الخالي من الصفات» في السنة ١٩٥٢ ، فقد اشهرت ، على غرار مؤلفات هرمن بروخ (المتوهشون) ، مسؤولية انانية ورثاء البورجوازية في الازمات السياسية . وفي الجمهورية الديموقراطية الالمانية ارتهن الأدب بمزيد من الجلاء لوزير الثقافة فيها، الشاعر جوهنس ر. بشر ، والقصصيين ارنولد زويغ ، وانّا سغرز، ولودفيك رن ، وبودو اوس ، وبصورة خاصة لأعظم كاتب الماني معاصر ، برتولد برخت الذي ادار مع امرأته هلن هيجل جريدة «برلينر انسامبل» حيث استطاع اخيراً اختبار نظريته حول « المسرح الملحمي » . وتشكل مؤلفاته كلها انتقاداً لسوء تنظيم المجتمع . وتقترح على البشر – وعلى الألمان بصورة خاصة – كوناً ذا قيمة نسبية لا ابطال فيه ولا قديسين ، بل حياة بشرية هي نضال من اجل تغيير « وضع هذا المجتمع الهش والمؤقت » (الأم الشجاعة واولادها ، روح القديسة تشوان الطيبة ، الدائرة الطبشورية القفقاسية ، الخ .) .

٣ – الحياة الدينية

ان الحياة الدينية في البلدان ذات النظام الديموقراطي الحر تعبر كذلك عن القلق الناجم عن الانتقال الى حضارة جماهيرية ، وعن حضارة احتكرت طبقة حاكمة قليلة العدد فيها توجيه الافكار والميول وتوجيه الحياة الاقتصادية والسياسية .

تكاثر الشيع

تسبب قيام مثل هذه الحضارة ، ورفض الطبقات الشعبية التسليم بانقياد بحالة خضوعها وتبعيتها ، والاعتراض على فقدان المساواة بشتى اشكاله ، في خلق مناخ اشبه بمناخ النكبة يسوده الشعور بالزوال والفناء. هذا هو سبب تكاثر المبدة المتسولين (الفقراء) والعرافات والمنجمين وانتشار شيع دينية وفلسفية عديدة : بعضها صوفي النزعة من وحي بوذي او هندي ، وبعضها الآخر – نشأ معظمها في افريقيا الشمالية – مرتبط ارتباطا قريبا او بعيداً بالمسيحية وقائل بعقيدة دينية غامضة وساع لأن يبعث في اعضائها او في بيئتها معنى الأخوة ووحدة المصالح اللتين كادت تقضي عليهما الحضارة الصناعية الصادمة الانسانية . وقد انتشرت شيع الفئة الاولى بصورة خاصة في الاوساط البورجوازية والارستوقراطية التي تشعر بأنها ابعدت عن محيطها الطبيعي في الحضارة الجديدة وتغذي ، عوضاً عن ذلك ، ابتغاءات روحانية غامضة : فاتجهت نحو حضارات تنتظر منها الخلاص لانها لا تقوى على ترجي مستقبل قابل الحياة في مجتمع لم تعد تجد فيه محلها . فبقيت الحياة الفكرية فقيرة وغير متطلبة ، وحقّر المنطق (الغربي) لمصلحة صوفية كاذبة ادعي بأنها شرقية . اما شيع الفئة الثانية فقد انتشرت بصورة خاصة بين الوضعاء وصغار البورجوازيين واصحاب الدخول السنوية والمستخدمين... الذين وفرت لهم بيئة بشرية قادرة على ان تستجيب لحاجاتهم العاطفية (المعرفة المسيحية ، مسيح مونفافيه ، شهود يهوه ، مجيئيو اليوم السابع ، الخ .) .

الكنيسة الكاثوليكية

امــا الكنيسة الكاثوليكية فقد ادركت منذ عشية الحرب العالمية الاولى ، بوضوح تدريجي ، المسائل التي اثارهــا ظهور قوى جديدة في العالم ، وحاولت التكيف بحسبها على كل صعيد . فمنذ السنة ١٩٤٦ لم تعــد الاكثرية ايطالية في مجمع الكرادلة ، فبات « مجلس شيوخ » الكنيســة « صورة لشمول الكنيســة » اكثر وضوحــاً . وفي الحقل الفكري ازيل الخطران اللذان هدداها ، الخطر الخــــارجي واعني به الايمان المطلق بامكانات العلم ، والخطر الداخلي واعني به الروح العصرية : الاول بفعل التيار الفكري الذي نما خارج الكنيسة على كل حال والذي سبق لنــــا واستعرضناه ، والثاني بفعل توضيح المسائل التي اثارها تفسير الكتاب المقدس واللاهوت المتقدي . فقد صدر في السنة ١٩٤٢ رقيم بابوي ، هو « الرقيم المنقذ » ، دعا مفسري الكتاب المقدس من الكاثوليك الى ان يلجــأوا « بفرح شديد » الى كافة الموارد التي تضمها منجزات العلوم الكتابية المختلفة تحت تصرفهم . ومن جهة ثانية تقدم العمل الراعوي على العمل العلمي : نهضة طقسية حول الرهبان البندكتيين في « ماريا لاش » افضت الى ازمة الطقسية ، وفي السنة ١٩٤٠ الى انشقاق حقيقي بين الاكليروس الالماني والاكليروس النمساوي اللذين سيوفق بينهما رقيم « وسيط الله » في السنة ١٩٤٨ . وتُرجم كتاب القداس الى اللغة العامية ، واحتفل بالقداس الحواري بموافقة الكرسي الرسولي في السنة ١٩٤٣ ، وترجم كتــاب الفروض الكهنوتية ترجمة حديثة ، فاتاح كل ذلــك للمؤمنين الاشتراك في كافة الصلوات الطقسية . ومنذ قبل السنة ١٩٤٠ كان الكتاب المقدس موضوع اهتمام المؤمنين ، فقامــت جمعيــــات كتابية رعائية ، ونشرت تراجم عديدة طوعية للكتاب المقدس : ترجمة « ماردسو » وترجمة « ليل » وترجمة « اورشليم » بين التراجم الفرنسية . وعاد الفضل في شرح الكتاب المقدس للمؤلفات البروتستانتية التي اعتمدت في بعضها الاساليب العلمية . فعرضت العقائد والمواضيــع الدينية الكبرى ، لا من زاوية الازل ، بل بصورة حسية وبحسب ظهورهــــا التاريخي ، اذ ان المسيحية ليست عقيدة فحسب ، بل تاريخاً ايضاً ، اي تاريخ « الاقتصاد التدريجي الذي بواسطته اخذ الله الانسانية في حالتها البـــدائية ورفعها شيئاً فشيئاً ... الى ان جعلها قادرة على تقبل الكلمة المتجسد » . واستوحت كتب اللاهوت للاكليريكيين وكتب تلقين التعليم المسيحي كذلك مصادر الايمــان استيحاء اكثر مباشرة . واثرت الوجودية في الوقت نفسه على الفكر المسيحي واسهمت في حمل اللاهوت على الاهتمام بالانسان الحـي المتورط في العالم .

الكنيسة والمجتمع

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المسيحيين اكتشفوا انهم لا يعيشون في مجتمع مسيحي بل في مجتمع علماني تفقد فيه الكنيسة تأثيرهـــا ونفوذها اكثر فاكثر كل يوم . ولذلك لم تواجه مسائل الرسالة والتبشير في بلدان الرسالات التقليدية حيث تنشأ الاسقفيات الجديدة بحسب مقتضيات الحاجة والظروف (في السنة ١٩٤٦ عين اول كردينال صيني ، وفي السنة ١٩٥٣ كردينال هنــــدي ، وفي السنة ١٩٦٠ كردينال ياباني واول كردينال زنجي) ، ويعين المزيد من الكهنة البلديين ، وحيث قام الاب « لاب » في

الصين والاب مونشانين في الهند بمحاولات تبشيرية جديدة – صادفت مقاومة كبرى على كل حال - بغية جعل الاساليب اكثر فعالية . فاذا مـا زال الواجـب التبشيري يستهدف « خلاص غير المؤمنين » ، فانه يبدو وكأنه التعبير عن المحبة التي حلت اكثر فاكثر في صميم الحياة الروحية المسيحية . ووجهت في البلدان المسيحية القديمة كذلك بعض المسائل التبشيرية : تشييد العديد من الكنائس في ضواحي المدن الكبرى ، ودرس منظم لتطور ظاهرة زوال الروح المسيحية ، واستحداث طرائق تبشيرية جديدة : في السنة ١٩٤١ تأسست « رسالة فرنسا » بغية توفير الكهنة للارياف التي اضمحلت فيهـا الروح المسيحية ، وانشئت في الوقت نفسه اكليريكية مشتركة بين كافة الابرشيات الفرنسية في ليزيو تخرج منها اكثر من ٤٠٠ كاهن ؛ وفي السنة ١٩٤٣ تأسست جمعيـة « الاخوة المرسلين الى الارياف » ، وفي السنة ١٩٤٤ « رسالة باريس » التي انتسب اليها الكهنة العمال .

وفي الوقت نفسه الذي نما فيه العمل الكاثوليكي منذ السنة ١٩٣٠ ، نضجت بين العلمانيين فكرة « لاهوت الحياة العلمانية » – وكان المقصود منها تقديم البرهان على عدم وجود حاجز منيع بين الحياة الدينية والحياة العلمانية ؛ فيجب التدخل في الحقل المهني والنقـابي والسياسي والفكري بغية جعل المجتمع مطابقاً للمسيحية في روحه ومؤسساته . وتأسست كذلك جمعيات كهنة علمانيين مكرسين لخدمة الرعايا بمساعدة الكاهن على الاحتراس من عزلة النسق الاداري المطرد . « ان الكهنوت والحياة العلمانية وظيفتان كنسيتان لانهما في خدمـة حياة الكنيسة الذاتية . فلا الكهنة من ثم في خدمة العلمانيين ولا العلمانيون في خدمة الكهنة . انهم كلهم في خدمة الكنيسة » .

جرّ هذا التصميم على العمل شطراً من الرأي العام المسيحي الى الانخراط بعزم في المجتمع العلماني حيث رضي بالنضال الى جانب الملحدين من اجل الدفاع عن قيم انسانية بحتة هي من هذا القبيل بالذات ذات اهمية كبرى للمسيحي . هذه كانت ، عند اشتداد الازمة ، في فرنسا ، نزعة مجلّة « الروح » التي تأسست في السنة ١٩٣٢ والتي شرح مؤسسها موقفهـا المستمد من مذهب الشخصية القائل بان القيمة المركزية هي الشخص البشري بكليته : « امام الازمة ... قال الماركسيون : ازمة اقتصادية كلاسيكية ، ازمة نظام . اجروا عملية جراحية للاقتصاد ، يتعافى المريض . فرد علماء الاخلاق على ذلك بقولهم : ازمة الانسان ، ازمة الاخلاق ، ازمة القيم . غيروا الانسان ، تشفَ المجتمعات ... » فاقترح مونييه ، في وجه هذين الحلين ، حلاً هو ثورة زمنية بحصر المعنى مبررة باختيار الوسائل . وعشية الحرب العالمية الثانية ظهرت جماعات اخرى يسارية الميول ، كجماعة اتحاد المسيحيين التقدميين التي اقترحت تعاوناً حازماً بين اعضائها والحزب الشيوعي .

عقب اندفاع الكنيسة هذا نحو العالم انكفاء رسمي على الاقل . فان النجاحات التي احرزها الاتحاد السوفياتي ، وتوسع نفوذه حتى اوروبا الوسطى ، والحرب الباردة قد قوّت اتجـاه

البابوية العنيف العداء « الشيوعية الملحدة » ، وافضت الى تصلب الكنيسة في كافة الحقول : ادانة الاشتراكية والشيوعية برقيمي السنة ١٩٣١ والسنة ١٩٣٨ ، وتدابير اخرى كثيرة : قـــرار (١ تموز ١٩٤٩) بحظر كل عمل ينفذ بالاتفاق مع الحزب الشيوعي (حتى قراءة صحفه) ، انكار اختبار الكهنة العمال ثم منعه منعاً نهائياً (١٩٥٩) في اعقاب مساع عديدة قامت بهـا الاوساط القائلة بالوحدة الشاملة ، حل الاجهزة والجمعيات المتعطفة على هذا الاختبار : « قتوة الكنيسة » و « الخمسة عشر » ، والعطف على مشروع توحيد الدول الاوروبية الست وبعض الدول الاوروبية التي تلعب الاحزاب الديموقراطية المسيحية فيها دوراً سياسياً هاماً جـــداً ، وتحذير الكردينال اوتافياني الرسمي بصدد علائق رجال الدولة الغربيين والشرقيين (٧ كانون الثاني ١٩٦٠) ، ورسالة الاحبار الايطاليين الجماعية ضد العلمانية في نيسان التالي ، وتدخـل السلطات الكاثوليكية في الانتخابات الصقلية (١٩٥٩) والازمة الوزارية الايطالية (شباط — نيسان ١٩٦٠) ، والمواقف العدائية الصريحة من الاحزاب الاشتراكية (حتى المعتدلة) التي وقفتها صحيفة « الرقيب الروماني » في اوائل السنة نفسها . ويجب ان يرد الى هـذا الموقف المتصلب نفسه رقيم « الجنس البشري » (١٩٥٠) الذي يضع حداً للحرية الفكرية ويشهر خطر « التاريخية » ، والايعاز بتعزيز التهذيب النظري في تعليم الاكليريكيين ، وانتقاد الاكاديميـة البابوية اللاهوتية لاراء الاب « تايار دي شاردين » اليسوعي .

تأثرت فرنسا اكثر من غيرها بفعل ردّة الفعل هذه لانها كانت على رأس حركة التجديـــد الأساليب والفكر . اما في المانيا فقد احرز « الكاثوليك اليساريون » بعض التقدم حتى السنة ١٩٤٩ ، وجزم بعضهم بان حق الادارة المشتركة يدخل في الحق الطبيعي ويجب ان يعترف به كما يعترف بحق الملكية . ولكن الاحبار تراجعوا تراجعاً واضحاً بالنسبة لهـذا الموقف وتمسكوا بوجهات نظر المناشير البابوية دون ان يتدخلوا البتة في المنازعات الاجتماعية .

الحيوية الدينية

الا ان الاحصاءات الدينية ، التي تكاثرت في فرنسا بنوع خاص ، قد اظهرت مدى تأثير ظروف الحياة العصرية على الكنيسة . فاذا تحققت نهضة دينية بين بعض فئات المفكرين — وهم دونهم عدداً وشأناً في الفترة السابقة — ، فقد تجلى زوال العاطفة الدينية في الجماهير العمالية ، وكانت هذه الظاهرة ملموسة في المـــدن الصناعية ومناطق الزراعات الكبرى على السواء .

ارتبطت هذه الظاهرة ببروز حضارة جديدة «مرتكزة الى التقدم التقني» ،

« حين تحدث ، تصطحب ... مركباً من التقدم التقني (الذي هو خير بحد ذاته) والمادية ايضاً : انها تنقـــل الاثنين معاً . ويرافق هذه الحضارة من جهة ثانية نظام اجتماعي هو الرأسمالية الحرة التي يكمن عيبها العميق في ان المصنع لم ينشأ لخير عماله وبحبوحتهم ، بل لفائدة رأس المال في الدرجة الاولى ؛ وهو بذلك يتسبب في ضغط يضر بالحياة الروحية . ولا ينجم هذا الاضرار عن العمل الصناعي بل عن تقديم المال على الانسان . وترافق هذه الحضارة كذلك ثقافة جديدة مستندة الى العلوم الوضعية : تفضي الى نشأة مثال جديد من البشر ليست انسانيتهم ، المشبعة بالتقنية ، ضد الاكليروس بالضرورة ، ولكنها وضعية بالطبيعة » (الكاهن القانوني « ف. بولار ») .

وقد أيد هذه الملاحظة «غابريال له برا»:

« ان للبخار والكهرباء تأثيراً مذيباً على ممارسة اعمال التقوى لم تحرز الفلسفة والتاريخ مثل نجاحهما في اتجاهه . وانما فقدت الكنيسة الكثيرين مؤمنيها بفعل اضطراب الاخلاق المشتركة، لا بفعل اضطراب الافكار الارستوقراطية والمشاعر الشعبية » .

ان تسلط المال « الذي ووجهت معه كافة المسائل من زاوية الانتاج فقط » ، وتأثير الرفاهية والتخلق باخلاق البورجوازية ، والتحرر الذي نجم عن ذلك حيال السلطات الاجتماعية ، وتداخل المدن والارياف بواسطة الخدمة العسكرية ، والسهولات المتزايدة في المواصلات (« هي الدراجة ما ازالت الروح المسيحية من رعيتي ») ، «والصحافة العاطفية» التي زينت الحس ...قد اشهرت من قبل الاكليروس الذي اعتبرها سبب زوال الروح المسيحية هذا . وقد تبدلت اجهزة الاتصال والتأثير : « فلا مجال بعد اليوم للكلام عن انتقال العقيدة الكاثوليكية آلياً » . وافضت ابحاث علم الاجتماع الديني في ايطاليا الى النتائج نفسها . فقد اجري تحقيق في السنة ١٩٥٣ ، بحسب طريقة استفتاءات «غالوب»، بين سكان غالارات في ولاية فاريز الصناعية ، كشف القناع عن تطور هام في الآراء حول نقطتين اخلاقيتين وقفت الكنيسة بصددهما حتى تاريخه موقفاً متصلباً جداً : هل الاجهاض سائغ شرعاً ؟ وهل الطلاق شر هو ؟ فحيال النقطة الاولى كانت الاجوبة سلبية بنسبة ٣٨٪ فقط ، وحائرة بنسبة ٢٦ ٪ ، وحيال النقطة الثانية لم تبلغ نسبة خصوم الطلاق سوى ١٢ ٪ في السنة ١٩٥٣ بعد ان بلغت ٥٣٪ في السنة ١٩٤٨ .

واظهرت التحقيقات الجراة بين المؤمنين في مناطق وخورنيات مختلفة كل الاختلاف خطاً منحنياً عاماً ، وان الكثير من الممارسات الدينية « سريع الزوال خارج بيئته الطبيعية ولا اثر له تقريباً على الحياة » . ففي البرتغال ضمت اسقفية لشبونة ٣٢٠ كاهناً مقابل ١٤٠٠ ٠٠٠ مؤمن في السنة ١٩٣٠ ، وضمت ابرشية فارو في اقصى جنوب البلاد ٨ ٪ فقط من المؤمنين المتممين واجباتهم الدينية . وفي اسبانيا لاحظ الاب بيرو في السنة ١٩٣٣ ان ٥ ٪ من السكان يقومون بواجبهم الفصحي في خورنيات كثيرة من ابرشيات كوانكا وطليطلة ومدريد وان المدن تضم « اعداداً كبيرة من السكان الوثنيين كلياً » . وفي باريس اظهرت بعض التحقيقات الجراة في السنة ١٩٥١ ان ٢٣ ٪ يحضرون القداس في خورنية سان جرمان دو بريه ، و١٩ ٪ في خورنية سان ـ سفرين و٢٠ ٪ في خورنية سان ـ سولبيس ، و٢٢ ٪ في سان بيير دي نوبي ، و٦ ٪ في سان ـ ابيوليت دي بوتو . وان الخورنيات الجيدة تضم ٢٠ ٪ من متممي واجباتهم الدينية، والخورنيات الشعبية ١٠ بالمائة فما دون، والخورنيات العمالية اقل من ٦ بالمائة. وفي مرسيليا تبلغ نسبة من يحضرون القداس في سن الرابعة عشرة فما فوق ٥,١٠ بالمائة ، وفي ليل ١٩,٥ ٪ وفي غرينوبل ١٤ بالمائة ، وفي تولوز ١٠,٨ بالمائة . وفي بلجيكا يبلغ معدل حاضري القداس في ايام الآحاد ٥٢ بالمائة في الولايات ، و٢٦,٣ بالمائة في بروكسل ، و٣١,٧ بالمائة في انفرس . وفي المانيا الاتحادية حيث تم ٥٤ بالمائة من الكاثوليك واجباتهم الفصحية في السنة ١٩٤٩ ، يحضر

القداس ٢٩،٤ بالمائة منهم في كولونيا ، و٢٦،٥ في مونيـــخ ، و٢٢،٧ في همبورغ . ويختلف السلوك الديني باختلاف المهن المتماطاة . « هو النظام المهني ما يحدّد تتميم الواجبـات الدينية » (الكاهن القانوني ف. بولار) ، كما نرى خير مثل على ذلك في منطقة لنس المنجمية : ان متممي واجباتهم الدينية من الذكور يبلغون ٢،٥٥ بالمائة بين عمال الاعماق ، و٥،٥١ بالمئـة بين العمال خارج المناجم ، و٢٢ بالمائة بين موظفي الادارة ، و٦٥،٣ بالمائـة بين المهندسين ، و٤٩،٦٣ في البورجوازية .

في ايطاليا اظهر التحقيق الذي اجراه مركز الدروس ، « الحيـــاة في المسيح » ، في السنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ ، « اهمالاً متزايداً وعنيفاً في اوساط الجماهير ، ولا سيا العمالية والمدنية منها ، للواجبات الاساسية في الحيـــاة المسيحية » . ففي بعض الخورنيات ما زال ٨٠ — ٩٥ ٪ من الرجال يحضرون القداس في منطقتي البندقية والـ « مارش » . ولكن هـذه النسبة تنحدر الى ٢٠ — ٣٠ ٪ في خورنيات اخرى من توسكانا واومبريا وليغوريا حيث لا تشمل هذه النسبة سوى رجل واحد مقابل ٢٠ امرأة . وفي بعض خورنيـات ابرشية فولتيرا ، لا يحضر قداس يوم الاحد سوى ٥ ٪ من السكان في السنة ١٩٥٢ . وفي روما لا يتجاوز عدد متممي واجباتهم الفصحية الـ ١٠ ٪ ، وفي ميلانو تتراوح هذه النسبة بين ٢،٥ و ١٧ ٪ ، وقد تدنى عدد المناولات فيها بنسبة ٣٠ — ٥٠ ٪ بين السنة ١٩٣٨ والسنة ١٩٤٨ .

في البلدان المختلطة الاديان ، يشهد بتدني تأثير الكنيسـة ارتفاع عدد الزواجات المختلطة التي استتبعت انحرافات معتقدية كثيرة في هولندا ، والولايات المتحدة (٢٥ — ٣٠ ٪) ، والمـانيا حيث ادى تدفق اللاجئين منذ السنة ١٩٤٥ الى تصدع وحدة الكتلة الكاثوليكيـــة البافارية والرينانية ، وحيث ارتفعـــت نسبة الزواجات المختلطة من ١١،٣ ٪ من عدد الزواجـــات الكاثوليكية الى ٢٨،٢ ٪ في السنة ١٩٤٩ .

واصطدم اختيـار الاكليروس واعداده بصعوبات كبرى . ففي فرنسا نري ان معدل الترقية الى الدرجات الكنسيـة (اي النسبة بين الترقية الى الدرجات المقدسة خلال خمس سنوات متوالية ومجموع عدد الشبان بين سن الخامسة والعشرين والتاسعة والعشرين) ، الذي هبط منذ قانون الفصل من ٥١،١ بالألف الى ٣٦ بالألف في السنوات ٩ ١٩ — ١٣ ، قد حافظ على هذه النسبة تقريبا حتى السنة ١٩٢٩ ، ثم ارتفع ببطء الى ٤٩،٥ في السنوات ١٩٤٠ — ١٩٤٧ وهبط مرة اخرى الى ٣٩ بالألف في السنوات ١٩٥٠ — ١٩٥٥ . فالنقص من ثم في تزايد مطرد ، اذ ان عدد الكهنة العاملين الذي بلغ ٠٠٠ ٥٦ في السنة ١٩٠٤ ، اي ١٣،٥ بالمائة قد هبط الى ٠٠٠ ٤٦ في السنة ١٩٢٩ ؛ وهبطت النسبة الى ٩،٧ بالألف في السنة ١٩٤٦ بما فيها ٣٥ ٪ من الستينيين. اجل لقد ارتفع عدد الاكليروس القانوني من ٠٠٠ ١٣ الى اكثر من ٠٠٠ ١٤ ، ولكن النقص العـــام واقع ثابت ، وقد حدثت الظاهرة نفسها في كافة البلدان تقريباً ، حتى تلك المشهورة بحيويتها الدينية كهولندا وبلجيكا واسبانيا ودول اميركا الجنوبية . وفي ايطاليا نفسها هبط عـــدد

الاكليروسيين الذكور من ٩٢٠٠٠ في السنة ١٨٨١ الى ٦٨٠٠٠ في السنة ١٩٢١ والى ٥٨٠٠٠ في السنة ١٩٥٣ . وفي المانيا تجاوزت نسبة هبوط الدعوات الكهنونية منذ السنة ١٩١٤ الـ ٢٠ ٪ .

مجمع الفاتيكان الثاني

كان تزايد اللامبالاة والابتعاد عن الدين في العالم الغربي ، ونمو سكان العالم المطرد الذي قلل يوماً بعد يوم من اهمية الكاثوليك النسبية ، باعثاً على التئام مجمع الفاتيكان الثاني في السنة ١٩٦٢ . فقد كان البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرون ، بفضل بعثاته الدبلوماسية في الشرق وفي اوروبا ، على بينة من المسائل التي تطرحها مخالطة الاقليات الدينية في البلدان التي تتعايش فيها طوائف مسيحية كثيرة والصعوبات التي يصادفها الكاثوليك في المجتمعات المتحولة تحولاً عميقاً الى العالمية ، فحدّد لأعمال المجمع اتجاهاً واضحاً جداً نحو اصلاحات عميقة تستهدف انفتاح الكنيسة انفتاحاً عاماً على العالم وتجدد نشاطها والتوفيق بينها وبين المجتمع الذي خلقتــه ثورات القرن التاسع عشر السياسية والثورة الصناعية . ورافقت هذا العزم الرغبة في الابتعاد جهد المستطاع عن الاعراف والوسائل التي تعيق حوار وتفاهم الكنيسة مع المسيحيين من غير الكاثوليك ، وحتى مع غير المؤمنين . فنحن من ثم امام مشاريع اصلاح تناقض ، اسقيحاء ، ما تضمنه الـ *Syllabus* منذ قرن خلا . ويبدو ان البابوية قد اقتنعت باستحالة المحافظة على مواقفها التقليدية اذا استندنا في حكمنا على الرقيم « السلام في الارض » الذي اصدره البابا يوحنا الثالث والعشرون قبيل وفاته ، في الفترة الفاصلة بين الجلستين الاوليين . فهو يؤيد صراحة اعلان حقوق الانسان الذي تبنته منظمة الامم المتحدة في السنة ١٩٤٨ ، ويشدد بالحاح على وسائل اقرار السلام بين البشر ، ويعلن امكانية التعاون في الحقول الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع من يستوحون « التعاليم الزائفة » التي يدينها في الوقت نفسه . ويشدّد كذلك رقيم خلفه بولس السادس ، « الام والمعلمة » ، على شرعية سياسة تأميم وسائل الانتاج والمقايضة .

ويبرز هذا الاتجاه كذلك احداث أمانة سر من اجل الوحدة ، والدعوة للاشتراك في المجمع التي وجهت الى مراقبيــن تنتدبهم الكنائس البروتستانتية والكنيسة الانكليكانية والكنيسة الارثوذكسية (بينهم روسيان) ، والى علمانيين وعلمانيات من الكاثوليك . وقد تأيد بأكثرية المطالبين بالاصلاح بين آباء المجمع الـ ٢٣٠٠ بادارة كرادلة ينتسبون الى اكثر البلدان تطوراً : المانيا ، هولندا ، انكلترا ، فرنسا ، بلجيكا ، الولايات المتحدة ، يساندهم العديد من الاحبار الايطاليين واحبار العالم الثالث . فأفضت المناقشات ، الحادة احياناً ، التي اثارتهــا معارضة اساليب الادارة البابوية التي تعرضت لانتقادات شديدة ، ومناورات المرقلة ودسائس الاقلية المحافظة ، الى اقرار عدد من المشاريع العامة المتعلقة اما باصلاح الليتورجيا وتيسير فهم الرموز والطقوس (بالاكثار من استخدام اللغات الوطنية والتخلي عن لغة الفلسفة المدرسية) ، واما بالمشاركة الاسقفية التي اعترف بسلطتها المطلقة ونبوعها من حق الهي ، واما ببعث خدمة الشماس

الانجيلي الدائمة التي يمكن اسنادها لرجال متزوجين ، واما بالوحي (وهو اكثر حرية من اساليب مجمع الايمان الى حد بعيد) ، واما بالحركة المسكونية في روح متعطفة على الطوائف المسيحية غير الكاثوليكية ، واما بادانة العداء للسامية . الا ان الحماس الاول عقبه بعض خيبة الامل حين انتهت الجلسة الاولى (تشرين الثاني ١٩٦٤) . وقد نجمت عن جو الدسائس والمقاومات الخفية الذي خلقته الاقلية ، لا سيا اثناء مناقشة مشروع القرار رقم ١٣ بصدد علائق الكنيسة بالعالم العصري ، والحرية الدينية التي طالبت الاكثرية في سبيلها باعلان لا لبس فيه . ويرد تعوق الاعمال وتردد المجمع ساعة الشروع باتخاذ المقررات الحاسمة الى اسباب عدة اهمها الحرص على مراعاة ظروف بعض الشعوب الكاثوليكية التي ما زال نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي متخلفاً جداً ، وشخصية البابا الجديد ، وربما حرص بولس السادس على استمالة المحافظين الى الحركة الاصلاحية مقابل بعض التنازلات .

البلدان البروتستانتية

في البلدان التي يدين اكثر سكانها بالبروتستانتية ، برز الضعف نفسه في العاطفة الدينية . ففي بريطانيا العظمى مثلاً لم يعقب الحرب العالمية الثانية تأخر شبيه به بعد السنة ١٩١٨ ، وانما يقدر ان ٥٪ على الاكثر من الانكليز و ٢٠٪ من الاسكتلنديين يسهمون اسهاماً متفاوت النشاط في اتحاد مذهبي ما ؛ وان عدد الطلاقات الذي بلغ ٧٦٢١ في السنة ١٩٣٨ قد ارتفع الى ٧٦٤ ٤٠ بعد مرور عشر سنوات ، ووهنت التقاليد الدينية ، وزال عن واجب الانقطاع عن العمل في ايام الآحاد الطابع الالزامي . ولعل ذلك يرد الى علمنة التعليم كما اثبت ذلك التحقيق الذي اظهر فتور العاطفة الدينية بين طلاب التعليم الثانوي في السنة ١٩٤٥ ، والى عدم تأثير الكنائس بالظواهر الاجتماعية (تحقيق اجري في السنة ١٩٤٢ بين مشيخيي اسكتلندا) . وقد رافق فتور الايمان هذا في الكنيسة الانكليكانية ارتداد الى الكثلكة الانكليزية : فاحييت بعض اشكال الحياة الرهبانية وبعض الاحتفالات والطقوس الكاثوليكية : صور القلب الاقدس والقديسين والعذراء في الكنائس ، سجود ، رسم اشارة الصليب ، قداديس مع تكريس القربان ورفعه ، صلوات من اجل الموتى ، عبادة القربان المقدس ، عفة الكهنة ، اعتراف . وقد تأيد تدني تأثير الكنيسة القائمة ، من جهة ثانية ، بالهزيمة النكراء التي منيت بها في السنة ١٩٢٧ في قضية « كتاب الصلاة » الذي رفض البرلمان ترجمته المنقحة بروح طقسية .

كان تأثير غير الانكليكانيين ، الذي برز في انكلترا خصوصاً بين الطبقات المتوسطة والشعبية ، قوياً جداً في الولايات المتحدة على الرغم من ان ٤٨٪ فقط من سكانها اعلنوا انتماءهم الى كنيسة ما في السنة ١٩٢٩ . وانما يجب القول بأن الـ ٧٧ مليون اميركي الذين عُرفوا بلا مبالاتهم كانوا مع ذلك بروتستانتيي الثقافة والميول . وبين البروتستانت المحصين ، انتسب زهاء الـ ٩/١٠ (٨٨٪) الى ثماني كنائس هامة وتوزع الباقون على ٢٥٧ شيعة معروفة رسمياً ، تشعبت كلها الى الجماعات مختلفة كثيرة تبتديء بأرسخ المؤمنين ايماناً قوياً ، الذين يفسرون الكتاب

المقدس تفسيراً حرفياً دون أقل تحفظ ، وتنتهي بالاحرار الذين يحصرون جهدهم في العمل الاخلاقي والاجتماعي .

قاومت الكنائس البروتستنتية ، بصورة عامة ، على غرار الكنيسة الكاثوليكية ، اتجاه ما قبل الحرب نحو اعتبار المسيحية لا كنمط حياة كما اعتبرت من ذي قبل ، بل كمجموعة تعاليم . وهكذا برز على الصعيد اللاهوتي ، في قلب الكنيسة الانكليكانية ، اتجاه نحو اعادة اثبات الوحي واعادة مزيد من السلطة اليه . وكان تأثير « كيركيغارد » و« بارت »، المعتبر خليفته، جلياً في هذه النهضة المتقدية التي سلطت الاضواء على « المسيح السيد والمخلص الوحيد »، والمبرر بفعل النعمة الالهية وحدها ، وفي الاهتمام الجديد الذي اعيرته الاسرار ، والاهمية المتعاظمة المعطاة للكنيسة والخدمة الروحية التي اثارت ندرة الدعوات الراعوية بين الذكور بصددها مسألة نوقشت تكراراً هي مسألة الخدمة النسائية، ومسألة دور العلمانيين في الكنيسة، واهتماماً متزايداً بطقوس قد تضر احياناً بالوعظ الذي بدا من الضروري اعادة اثبات أهميته .

الحركة المسكونية

ان اختلاف الشيع والتسميات الكثيرة قد دفع الكنائس المتشعبة عن الاصلاح ، منذ زمن بعيد ، الى القيام بجهود توحيدي ، على الصعيد القومي والصعيد الدولي ، بغية تجنب ازدواجية العمل في حقل الرسالات التبشيرية التي احرزت نجاحات مدوية في البرازيل وبلدان اميركا الجنوبية الاخرى ، وافريقيا الجنوبية الوسطى ، والانسولند وآسيا . فعلى الصعيد القومي تأسست جمعيات او كنائس بغية تحقيق هذا التوحيد في المانيا ، والولايات المتحدة حيث ضمت « الكنيسة الميتودية » ثلاث كنائس ميتودية مختلفة ، وكندا بنوع خاص حيث توحد الجمعيون والمشيخيون والميتوديون . وعلى الصعيد الدولي وجه رئيس اساقفة كنتربري منذ السنة ١٩٢٢ « نداء الى عموم المسيحيين » ، وفي ١٩٢٥ ، التأم في ستوكهولم المجمع المسكوني ، « حياة وعمل » ، الذي تخلف عن حضوره الكاثوليك وحدهم ؛ ثم التأم في السنة ١٩٢٧ مجمع لوزان، « ايمان ونظام » ، الذي حضره ٥٠٠ مندوب عن ٩٠ كنيسة . ولكن الحركة المسكونية توقف عملها في السنة ١٩٢٨ في اعقاب الرقيم ، « نفوس الموتى » ، الذي رفض مصافحة اليد الممدودة وتصلب في تمسكه بمبدأ استحالة الخلاص خارج الكنيسة الرومانية . وبعد الحرب العالمية الثانية ، عقد مجلس الكنائس المسكوني الذي تقرر تأسيسه في السنة ١٩٣٨ ، جلسته الاولى في امستردام في شهر ايلول من السنة ١٩٤٨ ، وقد اشترك في أعماله مندوبون رسميون عن معظم الكنائس البروتستنتية والانكليكانية وبعض ممثلي الكنائس الارثوذكسية الشرقية ؛ فأقر تأسيس هيئة دائمة ، وانعقاد جمعية كل خمس سنوات ، وتعيين جهاز اداري ، هو المجلس العام للكنائس ، ولكن اتفاقاً معتقدياً واحداً لم يتحقق بين الكنائس .

الا ان ذلك لم يحل دون استمرار الخلافات ؛ فالكنائس « الكاثوليكية » الاتجاه اي تلك التي تشدد على حقائق الايمان والسلطة الكنسية التسلسلية والاسرار ، قد ألفت منذ زمن بعيد

« التحالف الدولي للايمان الرسولي والنظام » ، بينما تجمّعت الكنائس التي تخشى العودة الاحتمالية الى الكنيسة الرومانية في « المجلس الدولي للكنائس المسيحية » و « جمعية الدفاع عن البروتستانتية المهددة بالخطر » .

امام نجاحات الاسلام ، واستقلال الدول المستعمرة التي غالباً مـا رفضت نفوذ الغرب السياسي ونفوذه الديني في وقت واحد ، وامام نجاحات الشيوعية ايضاً ، بدا انقسام المسيحيين مؤسفاً جداً ، ولكن معارضة الكنيسة الارثوذكسية (على وجه غير واضح ومطلق) والكنيسة الكاثوليكية اللتين تعتبر كل منهما انها الكنيسة الحقيقية الوحيدة ، قد حالت دون اي تقارب . بيد ان الرقيم المنشور في السنة ١٩٤٤ ، الذي سلم بالزواج الذي يعقده الكهنة الارثوذكس ، ووعد الشرقيين بانهم لن يرغموا قط على تبني طقوس اللاتين ومؤسساتهم ، لا بل منع انتقال الشرقيين المتحدين الى الكنيسة الرومانية ، كان خطوة خطتها الكنيسة الرومانية نحو الكنائس الشرقية ، ولكنه لم يترك اصداء تذكر . الا ان المجمع الفاتيكاني (باعترافه علناً بان اخطاء ومظالم قـد ارتكبت بحق المسيحيين الشرقيين « المنفصلين » (لا « المنشقين » كما دعوا في الماضي) ، ورحلة بولس السادس الى الشرق ولقاءه بالبطريرك اثينوغوراس ، قد غيرا هذا الجو .

اما من الجهة البروتستانتية ، فقد بقيت روما على موقفها من الحركة المسكونية : فهي لم تتمثل في امستردام ، واذا هي تمثلت في السنة ١٩٥٢ في مجمع « الايمان والنظام » الذي التأم في لوند ، فقد بدا تحديد عقيدة انتقال السيدة العذراء في السنة ١٩٥٠ تعبيراً عن رفضها كل تسوية واثار معارضة البروتستانت الاجماعية . الا ان المجمع الفاتيكاني قد حاول هنا ايضاً خلق جو جديد ومدّ يده تكراراً للبروتستانت : فروقبت اعماله بشغف كبير وعطف حقيقي ، ولكن بتحفظ عززته بعض المقررات (اعلان مريم اماً للكنيسة) ؛ ولعل خير ايجاز لهذا التحفظ ما قـاله الراعي بورغيه : « لقد نزع الثلج من جوار قصر « كانوسا » وزين مدخله بالزهور ، ولكن كانوسا ما زال كانوسا » .

الكتاب الثالث

العالم الشيوعي

في السنة ١٩٤٥ ، كان الاتحاد السوفيـاتي الدولة المسيطرة في البر الاوروبي الآسيوي ، اذ ان منافستيه الرئيسيتين قد هزمتا وازيل خطرهما : في الشرق ، اليابان ، وفي الغرب ، المانيا ، المستظهرَة والمجزأة . فعندما وضعت الحرب اوزارها ، كانت جيوشه قـد بلغت قلب اوروبا الوسطى واقامت في بلغاريا ، ورومانيـا ، وجزء من يوغوسلافيا والنمسا ، وهنغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبرلين وجزء كبير من المانيـا . وفي كافة هذه البلدان المحتلة تألفت حكومات من منظمات التحرير ما لبثت ان حولتهـا الى ديموقراطيات شعبية ؛ وبعد السنة ١٩٤٨ ، الحدت هذه الاخيرة اتحاداً وثيقاً فيما بينها ومع الاتحـاد السوفياتي ، بينما اقتبست مؤسساتها عن مؤسسات الاتحاد . وفي هذه الاثناء ، افضى انتصار جيوش ماو – تسي – تونغ الشيوعية في الشرق الى طرد حكومة تشان – كاي – شك من البر في السنة ١٩٤٩ . وهكذا تألفت ، في اقل من خمس سنوات بعد توقف العمليات الحربية ، كتلة برية متراصة تمتد من ضفاف نهر الايلب حتى المحيط الهادي وتضم اكثر من ٩٠٠ مليون نسمة تختلف فيهـا اصول المعيشة والنظام الاقتصادي والاجتماعي اختلافاً كلياً عنها في العالم الغربي والاميركي . وكادت هـذه الكتلة ، اقله حتى السنة ١٩٥٦ ، تعيش خارج التيارات التجارية والايديولوجية في انحاء العالم الاخرى ولا تتصل به تقريباً .

الفصل الأول

الاتحاد السوفياتي

ان الاتحاد السوفياتي هو الدولة الوحيدة بين الدول الاوروبية التي طورتها الحرب اقل من سواها : فان اعادة بنائها وانماءها قد انجزا بحسب اصول ما قبل السنة ١٩٣٩ نفسها والتخصيص نفسه ، على الرغم مما لحق بها من تخريب هائل ، دون مجافاة للماضي ودون قطع سياق الحقل الاجتماعي والحقل السياسي . لقد عاشت مرحلة استقرار وهدوء لم تعرفها قط قبل الحرب ؛ ولم تعان من الانقلابات العميقة التي عانت منها اوروبا الوسطى والشرقية ، ولا من الاضرابات السياسية والاجتماعية التي كانت فرنسا وايطاليا مسرحاً لها .

ظروف اعادة البناء والانطلاقة الاقتصادية

كانت اعادة البناء هنا ايضاً اسرع منها بعيد الحرب العالمية الاولى . فقد اقتضى ثماني سنوات آنذاك لبلوغ مستوى انتاج ما قبل الحرب، بينما كانت اربع سنوات كافية بعد السنة ١٩٤٥ لبلوغ هذه النتيجة ، على الرغم من فداحة الخسائر (ربما ٢٠ مليون نسمة) وحجم الابنية المدمرة (٦٠ مليون متر مربع للسكنى وجب اعادة بنائها)، وألوف المصانع المخربة ، والمناجم المعطلة الانتاج ، وطرق المواصلات المفككة . الا ان صعوبات اعادة البناء قد تزايدت بفعل عزلة الاتحاد السوفياتي المالية . فعلى غرار ما حدث عشية الحرب العالمية الاولى ، وجب تحقيقها بدون مساعدة رأس المال الاجنبي . وبينما تدفقت رؤوس الاموال الاميركية على اوروبا الغربية بعد انتهاء العمليات الحربية ، توقف العمل باتفاقات الاعارة والتأجير مع الاتحاد السوفياتي وتوقف استيراد السلع الاميركية توقفاً فجائياً . يضاف الى ذلك اخيراً ان الظروف الدولية وتأزم العلاقات بين الحلفاء السابقين قد دفعت الاتحاد السوفياتي الى ابقاء قوة مسلحة كبرى تحت السلاح ، والابقاء على صناعة هامة للتسلح ، لا سيا في حقل الاسلحة الجديدة والسلاح الذري بنوع خاص (في الاتحاد السوفياتي فجرت القنبلة الذرية الاولى في شهر ايلول من السنة ١٩٤٩) ، والانصراف الى سباق تسلح كانت نفقاته اثقل منها قبل السنة ١٩٤١ . فاستهلكت اعادة البناء من ثم شطراً هاماً من الانتاج الجديد ، في حين ابعدت صناعة الاسلحة ، عن ترميم البلاد

الاقتصادي ، جزءاً من اليد العاملة . وقد سهلها – خلافاً لما حدث في السنة ١٩٢١ – توفر العديد من الاداريين ، والفنيين ، والمهندسين ، والعمال الاختصاصيين ، المتعودين طرائق الاقتصاد المخطط ، الذين لم يحتاجوا الى ارتجال اساليب العمل والادارة . وساعدتها كذلك التعويضات التي دفعها المهزومون او فرضت على المناطق المحتلة : تفكيك مصانع ، نقل آلات الى الاتحاد السوفياتي ، تسلم جزء من الانتاج المنجمي او الصناعي .

الخطط الخمسية الاخيرة

بينما اتخذت بعض التدابير بغية تشجيع النسل وسد الفراغات الهائلة التي تركتها الحرب ، وبينما جعل التشريع الخاص بحماية العائلة معاملات الطلاق اكثر صعوبة واعاد للزواج معناه وقيمته ، كانت اعادة البناء المادية سائرة بخطى حثيثة . وحين انتهى تنفيذ الخطة الخمسية الرابعة في السنة ١٩٥٠ ، بلغت نسبة الانتاج الصناعي ١٧١ (١٠٠ في السنة ١٩٤٠) ، وبلغ انتاج الفحم الحجري ٢٥٠ مليون طن ، وانتاج الفولاذ ٢٧ مليوناً ؛ وكان الانتاج اعلى منه في السنة ١٩٤٠ بنسبة ٦٠ ٪ في صناعة الآلات ومعدات التجهيز ، وبنسبة ٨٠ ٪ في صناعة المواد الكيميائية . اما انتاج المواد الاستهلاكية فكان ادنى منه في الخطط السابقة ، باستثناء الصوفيات والقطنيات . ومن ميزات الخطة الرابعة انطلاقة الصناعات الاساسية في الشرق السوفياتي ، فقد احدثت في قازاخستان وسمرقند وطشقند صناعات كثيرة : مصاهر حديد ، ومصانع فولاذ ومصانع آلات . وبالرغم من ان المراكز الصناعية القائمة في الغرب قد رممت ووسعت ، فان انتاجها لم يرتفع الا بنسبة ١٥ بالمائة بينما بلغ ارتفاع الانتاج الاجمالي في الاتحاد السوفياتي ٤٨ بالمائة ؛ وهكذا فان مركز الثقل في الاقتصاد السوفياتي قد استمر في الانتقال بشكل متزايد الوضوح نحو الشرق : فهي مناطق كوزباس وقازاخستان والاورال والاحواض السيبرية التي وفرت منذ السنة ١٩٥٠ اكثر من نصف الفحم الحجري والفولاذ ؛ وارتفع كذلك اكثر فأكثر انتاج البترول في « باكو الثانية » بين الاورال والفولغا ، التي احتلت المركز الانتاجي الاول في السنة ١٩٥٢ ، وفي آسيا الوسطى والشرق الاقصى .

ولكن الاتحاد السوفياتي واسع الارجاء وسكانه موزعون على غير تساو ، بسبب وجود مساحات كبرى يجعلها انخفاض الحرارة او الجفاف غير صالحة للاستثمار والاستيطان ؛ فان ٤٨ ٪ من السكان يعيشون متجمعين في ٦ ٪ من الارض ، ولا يعيش في ٣/٢ المساحة سوى ٦ ٪ من مجموع السكان . والحال يرتفع عدد هؤلاء السكان بنسبة ٣٠٠٠ ٠٠٠ في السنة ، اذ انه ازداد بنسبة ٢٤ مليون نسمة بين السنة ١٩٤٨ والسنة ١٩٥٦ ، فجاوز في السنة ١٩٥٩ الـ ٢٠٨ ملايين . وطرأت الزيادة على سكان المدن في الدرجة الاولى (٤٨ بالمائة من مجموع السكان في السنة ١٩٥٩ ، و ٥٢ بالمائة في السنة ١٩٦٣) ؛ وارتفع عدد المدن الكبرى الضامة اكثر من ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة من ١١ في السنة ١٩٣٩ الى ٢٥ في السنة ١٩٦٢ ، وارتفع عدد سكان بعضها بسرعة استثنائية بسبب اتساع حركة النزوح عن الارياف : فان غوركي وكويبيشيف

وساراتوف قد زادت بنسبة الثلث ، وسفردلوفسك واومسك وتشيليابنسك قد تضاعف سكانها تقريباً ، وارتفع عدد سكان نوفوسيبيرسك من ٣٠٠٠٠٠ نسمة الى ٤٠٠٠٠٠ بين الحرب الاولى والحرب الثانية ، وبلغ ٩٨٢٠٠٠ في السنة ١٩٦٢ (الشكل ٢٥) . فتوجب من ثم تعزيز الزراعة واستثمار المساحات التي لما تستثمر او اسيء استثمارها . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، اعدّت في السنة ١٩٤٨ ، بعض المشاريع لاستحداث طرائد حرجية واسعة تسير بمحاذاة الوديان من الشمال الى الجنوب وتقف حاجزاً في وجه الرياح التي تهب من آسيا الوسطى وبحر قزوين على روسيا الجنوبية . وزرعت اشجار اخرى كثيرة ثبتت التربة وحالت دون انجرافها. وشيدت على الدون والدنيبر والفولغا سدود كبرى رفعت مستوى مياه الانهر وكوّنت وراءها خزانات واسعة للمياه ، فأتاحت انتاج الطاقة الكهربائية وتغذية اقنية الري بالماء ، وتأمين ري البورات الجنوبية وتحويلها الى اراض زراعية . ووفرت المعامل الكهربائية على الفولغا في كويبيشيف (١٩٥٦) وفولغوغراد ، وعلى الدنيبر في كاشوفكا (١٩٥٥) ، ٥٠ مليون طن من الفحم الحجري واتاحت القناة التي حفرت بين الدون والفولغا ، بالاضافة الى دورها الهام لجهة المواصلات – اذ انها ربطت بين البحار الروسية الخمسة – ، ري كافة اراضي منطقة روستوف وفولوغراد . وبوشرت في آسيا كذلك اعمال انشاء معمل كهربائي في براتسك على الـ « انغارا » واعمال حفر قناة تركانستان الكبرى التي ستصل بين كراسنوفودسك على بحر قزوين وبين بحيرة ارال وتؤمن ري كل القسم الغربي من قراخوم .

اما الخطة الخمسية الخامسة التي بوشر تنفيذها في السنة ١٩٥١ وتحققت بنسبة ١٠٣ بالمائة ، فقد انصرفت الى رفع مستوى الانتاج الصناعي الى ٧٠ بالمائة ، اي بمعدل ١٢ بالمائة في السنة ، و ١٣ بالمائة لمواد الانتاج : استخراج المعادن ، معادن غير حديدية ، بترول ، كهرباء ، و ١١ بالمائة لمواد الاستهلاك .

الا ان الخطة الخمسية الرابعة ، التي نفذت كلياً ، لا بل تخطيت في انتاج مواد التجهيز ، قد بقيت دون الهدف المحدد لانتاج المواد الاستهلاكية (٩٥ بالمائة) والزراعة (٨٤ بالمائة) ؛ وفي السنوات الاولى من تنفيذ الخطة الخمسية الخامسة حصل كذلك تأخر محسوس في هذين الحقلين كان نتيجة الحرب الكورية والحظر المفروض بسببها اللذين افضيا الى نقصان رؤوس الاموال والخامات النادرة . ولذلك عدّلت الخطط منذ السنة ١٩٥٢ بغية زيادة انتاج المواد الاستهلاكية وتحسين نوعيتها ، بحيث تتحقق تنمية صناعات المواد الاستهلاكية بمزيد من السرعة دون ان يطرأ اي تغيير على نظام الصناعة . وقد ظهر هذا الاتجاه في الخطة السادسة الموضوعة للفترة ١٩٥٦ – ١٩٦٠ ؛ فقد اعطت الاولوية ، على غرار سابقاتها ، الصناعة الثقيلة ، مع مراعاة الصناعات الاخرى : زيادة المواد الانتاجية بنسبة ٧٠ بالمائة والمواد الاستهلاكية بنسبة ٦٠ بالمائة . زيادة انتاج الحديد المصبوب بنسبة ١٥٠ بالمائة ، ومضاعفة انتاج البترول والطاقة الكهربائية ، وكذلك اللحوم والحليب والبطاطا . وزيادة انتاجية الصناعة بنسبة ٥٠ بالمائة

على الاقل ، وانتاجية المزارع النموذجية بنسبة ٧٠ بالمائة ، وزيادة الاجور الحقيقية بنسبة ٣٠ بالمائة واجور اعضاء التعاونيات الزراعية بنسبة ٤٠ بالمائة . اما الجدة العظمى فهي الاهمية الكبرى (اكبر منها في السابق) المعطاة للبحث العلمي ، والمكننة والآلية اللتين ستتيحان زيادة الانتاج بنسبة أعلى الى حد بعيد من زيادة اليد العاملة التي نقصت على كل حال بفعل إطالة مدة الدروس حتى ١٦ سنة . وبالفعل تحقق في المدن والمراكز الريفية التعليم الثانوي الموزع على عشرة صفوف ، واتسعت شبكة المدارس المسائية والدروس بالمراسلة . فتخرج مليون حامل شهادة من المدارس الثانوية والعليا في السنة ١٩٦٠. ومنذ السنة ١٩٥٧ تابع مليونا طالب دروس التعليم العالي .

الزراعة

في الحقل الزراعي لم تبلغ النتائج تقديرات الخطط الخمسية . اجل لقد ارتفع عدد محطات الآلات والجرارات من ٦٠٠٠ في السنة ١٩٣٩ الى ٩٠٠٠ في السنة ١٩٥٥ ؛ وخطت مكننة الاعمال الزراعية المختلفة خطوة كبرى الى الامام : حراثة ، بذر ، حصاد ؛ وبات عدد الخبراء الزراعيين مرتفعاً جداً . ومن جهة ثانية حسنت طرائق الانتقاء واتساع المساحات المروية الحاصيل المختلفة ولا سيا القطن والشمندر السكري. الا ان نسق زيادة الانتاج الزراعي كان ابطأ من ذاك الذي قدر له ، فلم يبلغ سوى ٢ – ٣ بالمائة اي ما يقارب معدل زيادة السكان : ويرد ذلك الى قساوة شتاء السنة ١٩٤٦ والجفاف الكبير في الفترة ١٩٤٦ – ١٩٤٩ الذي تسبب بنكبة دونها النكبة التي تسبب بها جفاف السنة ١٩٢١، والنقص المزمن في الاكلاء الذي زاد النقص في الحبوب من خطورته. يضاف الى ذلك ان السياسة التي استهدفت حصر مساحات زراعة الحبوب وتوسيع مساحات زراعة الاكلاء، وزيادة الانتاج بتحسين التقنيات والدورات الزراعية المدروسة قد اسفرت عن نتائج خيبت الآمال ، مما حمل الخطة الخمسية الخامسة على اعادة الاولوية لتوسيع مساحات زراعة الحبوب . فزادت هذه المساحة اكثر من ٢٥ مليون هكتار بين السنة ١٩٥٠ والسنة ١٩٥٧ ، وجاءت الخطة السادسة تحقق زيادة ٣٦ مليون هكتار من الاراضي الجديدة التي لم تحرث قط من ذي قبل ، في سيبيريا وقازاخستان . واستتبعت المكننة من جهة ثانية تجميع التعاونيات الزراعية في وحدات كبرى . فانخفض عددها من ٢٥٢٠٠٠ في السنة ١٩٥٠ الى ٧٨٩٠٠ في السنة ١٩٥٧ . وقد استلزم اتساع مساحات المزارع التعاونية هذا اسناد ادارتها الى فنيين . فمنذ السنة ١٩٥٣ اختير اكثر من نصف مديري التعاونيات من بين الزراعيين المتخرجين من المدارس الثانوية والعليا ، وعين مهندسون زراعيون للعمل ابداً في محطات الآلات والجرارات . وبموازاة هذا التطور، تجدر الاشارة الى تعاظم دور المزارع النموذجية لا في اراضي قازاخستان وسيبيريا الاستعمارية فحسب ، بل في الاراضي الزراعية الفقيرة في روسيا الاوروبية ايضاً التي تأثرت بالهجرة الريفية . فقد ارتفع عددها من ٤٨٥٧ في السنة ١٩٥٣ الى ٥٠٩٩ في السنة ١٩٥٦ .وقد تضاعفت مساحتها منذ السنة ١٩٥٠ وتضاعفت في الوقت نفسه المساحة المخصصة لزراعة

الحبوب (٥١ مليون هكتار في السنة ١٩٥٧ تمثل ١/٤ الاراضي الصالحة للحراثة في الاتحاد السوفياتي) .

اما تربية المواشي فلم تتقدم تقدماً كبيراً بصورة عامة ؛ فان اللحوم والحليب والصوف قد انتجت بكمية غير كافية . لا بل ان الابقار قد انخفض عددها منذ السنة ١٩٤٨ . فاتخذت من ثم ، منذ السنة ١٩٥٣ ، سلسلة تدابير تهدف الى زيادة الانتاج : رفع اسعار محاصيل تربية المواشي ، زيادة مساحات زراعة الاكلاء (بنسبة ١٦٦ بالمائة بين السنة ١٩٥٣ والسنة ١٩٥٦) ، سياسة منسقة لتسمين المواشي ... ، مما ادى الى ارتفاع عدد المواشي وتحسين نوعيتها بين السنة ١٩٥٣ والسنة ١٩٥٧ .

مستوى المعيشة

بسبب الافضلية المعطاة للصناعة على الزراعة ولانتاج المواد التجهيزية على المواد الاستهلاكية ، وبسبب ابتلاع حاجات اعادة البناء والتسلح لجزء كبير من الانتاج ، لم يتح ارتفاع مستوى الانتاج احياناً حتى العودة الى مستوى المعيشة السابق . الا ان تقنين المواد الغذائية والمصنوعات الاستهلاكية ، الذي فرض ابان الحرب ، قد ألغي في الحقل الغذائي في اواخر السنة ١٩٤٧ حين قضى اصلاح نقدي بتنظيم الاسعار تنظيماً شديداً واتاح وضع حد لازدواجية قطاع المخازن « التجارية » والقطاع المقنن . وقد طرأت من جهة ثانية سلسلة انخفاضات في عهد لاحق (سبعة انخفاضات عامة وبعض الانخفاضات الخاصة في عدد من المصنوعات) تقابل ارتفاع اسعار المواد الاستهلاكية ، وقد اختلفت باختلاف السلع ، ولكنها بلغت ، بحسب تقديرات روموف ، ٢٥ و٣٠ وحتى ٥٠ و٦٠ بالمائة.

وتحسنت الأجور بشمول « الاجر المشترك » اي الفوائد المختلفة التي يحصل عليها كل عامل بصرف النظر عن عمله . فقد منح قانون السنة ١٩٤٤ تعويض ومكافأة ولادة ابتداء من الولد الثالث (وليس من الولد السابع كما في السنة ١٩٣٦) ، وفي السنة ١٩٤٧ أقرت بعض التعويضات للامهات — العازبات . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ارتفاع الاجر الحقيقي (٢٠ بالمائة لصغار الاجراء ، و١٥ بالمائة للعامل الاختصاصي ، و١٠ بالمائة للمهندس) قد تحقق بسرعة نسبية اذ امكن التأكيد في شهر تموز من السنة ١٩٥٣ « ان بمقدور المواطنين السوفيات شراء ضعف ما كانوا يشترونه في السنة ١٩٤٧ » . ولعل الطاقة الشرائية زادت بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥٣ ، بحسب تقديرات روموف ، بنسبة ٧٨,٥ بالمائة للعامل ، و٧٨ للعامل الاختصاصي ، و٥٧ بالمائة للمهندس ، و٥٠ بالمائة للفلاحين.

مقارنة بالبلدان الرأسمالية

لا مناص والحالة هذه من مقارنة هذه الطاقة الاقتصادية بطاقات بلدان « المشروع الحر » . فاذا ما نظرنا الى الخط البياني المنحني الذي ترسمه انطلاقة صناعة اساسية في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لاستمال الا يسترعي انتباهنا انتظام نمو انتاج الاتحاد السوفياتي والتقلبات البارزة في انتاج الولايات المتحدة (الشكل ٢٦) ؛ ويرد انتظام نمو الاقتصاد السوفياتي الى انعدام الازمات ، كما قد ترد

سرعته الى مستوى الانطلاق المنخفض جداً وتوفر تقنية متقدمة جداً اتاحت للاتحاد السوفياتي ان يستخدم دفعة واحدة ادوات جديدة وطرائق مضمونة النتائج . فحتى السنة ١٩٤٧ ، اي في مرحلة « البناء الاشتراكي » ، بلغ المعدل السنوي في تقدم الانتاج الصناعي ٢٠ بالمائة ، وبين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥٠ ، ٢٣ بالمائة ، وفي السنة ١٩٥١ ، ١١ بالمائة ، ومنذ السنة ١٩٥٢ ، ١٠ بالمائة . اي ان المعدل العام كان ١٧,٥ بالمائة ، بينما كان ٤,٥ بالمائة في الولايات المتحدة . وعلى الرغم من ذلك ، ما زال الفارق كبيراً بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . ففي السنة ١٩٥٣ ، كان معدل الانتاج ، المعتبر ١٠٠ في السنة ١٩٤٧ ، ١٢٩ في الولايات المتحدة و٢٦٦ في الاتحاد السوفياتي ، ولكن هذا الاخير لم ينتج آنذاك سوى ٣/١ الانتاج الاميركي من الفولاذ ، و٥ بالمائة من انتاج السيارات و١٠/١ انتاج الجرارات ، و٣٣ بالمائة من الفحم الحجري ، و١٤ بالمائة من البترول و٢٥ بالمائة من الكهرباء المولدة من القوة المائية ، بصرف النظر عن الغاز الطبيعي . وربما بلغ مجموع الدخل القومي غير الصافي ـ بحسب تقديرات مختلفة ـ ١٨ – ٣٦ بالمائة من الدخل الاميركي غير الصافي . ولكن الفارق يتجه نحو النقصان ، والتأخر يتلاشى سنة بعد سنة .

الحياة الفكرية

ان الظروف الخاصة التي عاش فيها الاتحاد السوفياتي منذ السنة ١٩١٧ ادت الى قيام صلة اكثر وثوقاً منها في اي مكان آخر بين الحياة الفكرية والفنية من جهة ، وبين الظروف السياسية والدولية من جهة اخرى : ادب وفن رومنطيقيان وعارمان بالقوة اثناء المرحلة « الثورية » في العشرينيات ، ثم اثناء العمل بالخطط الخمسية ؛ اما المذهب الذي نال الحظوة فهو « الواقعية الاشتراكية » التي اتجهت شطر تمجيد نشاط الانسان في العمل اي في المصنع والتعاونية الزراعية . وقد عزز هذا الاتجاه منذ السنة ١٩٣٨ الخطر الالماني الذي وجه الافكار نحو ايقاظ الشعور القومي ، والعودة الى امجاد الماضي ، والاشادة بذكر الملوك والقادة ورجال الدولة الذين صنعوا روسيا العصرية بمقاومتهم السيطرة الاجنبية ؛ وهكذا فان روايات « ألكسي تولستوي » وموسيقى بروكوفياف وافلام ايزنستاين قد عظمت بطرس الاكبر « وايفان الهائل » و « اسكندر نوسكي » وسوفوروف . واوحت الحرب مؤلفات ادبية كثيرة تمجد الوطنية السوفياتية التي وحدت بين احترام ماضي روسيا القومي واحترام روسيا الجديدة الشيوعية . فمنذ السنة ١٩٤١ وضع « ايليا اهرنبورغ » كتاباً يتجلى فيه عداؤه للالمان : « سقوط باريس » ؛ وكانت حراجة وضع الاتحاد السوفياتي في السنة ١٩٤١ والسنة ١٩٤٢ مصدر وحي لشعراء كثيرين من امثال سيمونوف وسوركوف ، والمؤلفات ليونوف وكازاكيفيتش (الكوكب) واوفيلتشكين وبولفوي (رجل رجل) ، ومجدت افلام بطولية المدافعين عن موسكو وستالينغراد والمنتصرين في برلين ، بينما الف شوستاكوفيتش سمفونيتيه السابعة والثامنة ، والف شولوكوف ، الذي بلغ الشهرة بكتابه « الدون الهادىء » (١٩٢٨ – ٤٠) ووصف فيه سنوات الحرب الاهلية العشر من خلال

الشكل ٢٥ – نمو المدن في الاتحاد السوفياتي ١٩٢٦ – ١٩٥٩

تزايد سكان المدن الرئيسية في الاتحاد السوفياتي من ١٩٢٦ الى ١٩٥٩

(احصاء ١٥ كانون الثاني ١٩٥٩)

	١٩٢٦	١٩٥٩
ألما آتا	٤٥ ٣٩٥	٤٥٥ الفاً
باكو	٤٥٣ ٣٣٣	٩٦٨ الفاً
دنيبروبتروفسك	٢٣٦ ٧١٧	٦٥٨ الفاً
غوركي	٢٢٢ ٣٥٦	٩٤٢ الفاً
اركوتسك	١٠٨ ١٢٩	٣٦٥ الفاً
ايفانوف	١١١ ٤٦٠	٣٣٢ الفاً
كراغاندا	صفر	٣٩٨ الفاً
كازان	١٧٩ ٠٢٣	٦٤٣ الفاً
خاباروفسك	٥٢ ٠٤٥	٣٢٢ الفاً
خاركوف	٤١٧ ٣٤٢	٩٣٠ الفاً
كياف	٥١٣ ٦٣٧	١ ١٠١ ٠٠٠
كويبيشيف	١٧٥ ٦٣٦	٨٠٦ آلاف
لينينغراد	١ ٦٩٠٠٦٥	٣ ٣٠٠ ٠٠٠
لفوف(١٩٣١)	٣١٦ ١٧٧	٤١٠ آلاف
مانيالوغورسك	٣٠ ٠٠٠	٣١١ الفاً
ماكايفكا(١٩٣٩)	٢٤٢٠٠٠	٣٥٨ الفاً
منسك	١٣٤ ٨٠٣	٥٠٩ آلاف
موسكو	٢٠٢٩٤٢٥	٥ ٠٣٢ ٠٠٠
نجني تاغيل	٣٨ ٨٤٩	٣٣٨ الفاً

	١٩٢٦	١٩٥٩
نوفوسيبيرسك	١٢٠ ١٢٨	٨٨٧ الفاً
اوديسا	٤٢٠ ٨٦٢	٦٦٧ الفاً
اومسك	١٦١ ٦٨٤	٥٧٩ الفاً
اوفا	٩٨ ٥٣٧	٥٤٦ الفاً
بيرم	١١٩ ٧٧٦	٦٢٨ الفاً
ريغا(١٩٣٩)	١٠٢ ٠٠٠	٢٨٢ الفاً
روستوف	٣٠٨ ١٠٣	٥٩٧ الفاً
سراتوف	٢١٩ ٥٤٧	٥٨١ الفاً
سفردلوفسك	١٤٠ ٣٠٠	٧٧٧ الفاً
طشقند	٣٢٣ ٦١٣	٩١١ الفاً
تبليسي	٢٩٤ ٠٤٤	٦٩٤ الفاً
تشيليابنسك	٥٩ ٣٠٧	٦٨٨ الفاً
تشيتا	٦١ ٥٢٦	٣٠٥ الف
تولا	١٥٥ ٠٠٥	٣٤٥ الفاً
فولغوغراد	١٥١ ٤٩٠	٥٩١ الفاً
فورونيج	١٢١ ٦١٢	٤٥٤ الفاً
يروسلاف	١١٤ ٢٧٧	٤٠٦ آلاف
يريفان	٦٤ ٦١٣	٥٠٩ آلاف
زيدوي	٥٥ ٧٤٤	٤٣٥ الفاً

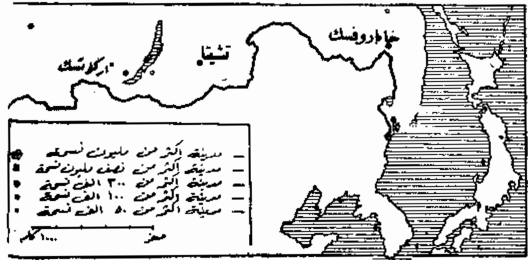

لحياة الفلاحين والجنود الوضعاء ، كتابه « حاربوا من اجل الوطن » (١٩٤٣) الذي استعاد فيه ذكرى الانسحاب من الدون في السنة ١٩٤٢ . اما بعد السنة ١٩٤٥ فهي الحرب الباردة وخطر السلاح الذري ما اثارا حذر السوفيات من الحلفاء السابقين ، فبات لزاماً ان تبقى قوات البلاد على استعداد لمقاومة الحرب الوقائية التي خيّل لهم ان الاميركيين يعدونها : فنجم عن ذلك عداء التأثيرات الفكرية الآتية من البلدان الرأسمالية ، خلق حـالة نفسية « سبارتية » تقاوم كل تراخ وكل تمويه . وهو جدانوف ، امين سر الحزب بين السنة ١٩٤٦ والسنة ١٩٤٨ ، من تولى هذا النضال ضد الوطنية الشائعة وضد المثالية ، وضد التشبه بالاجنبي ، وضد « التمسك بالشكليات » . وقد وُجِّه اللوم الى الشاعرة اكاتوفا والهجاء سوشلنكو لانهما اعطيا فكرة خاطئة عن العالم السوفياتي ، والى شوستاكوفيتش بسبب تشاؤمه . واستمر الفن في انحرافه عن الاتجاهات الجديدة المخصابة التي ظهرت في اوروبا الغربيـة . واتصف الادب بالتفاؤل واعطاء القدوة الصالحة ولم يترك مكاناً كبيراً لتحليل المشاعر الشخصية : الحب ، والطمع ، والحسد ، والبخل . وطارد الانانية والاخلاق السهلة ، واطرى النخوة الوطنية والحياة الجماعية والبطل السوفياتي واعادة البناء وجمال الارض الروسية في مؤلفات غالينا نيقولانينا ، وفيرا بانوفا ، وبابنسكي (الجواد المكوكب) الذي وصف تجدد العمل في احدى تعاونيات كوبان الزراعية ، واجاييف (بعيداً عن موسكو) .

بعد النصر الشيوعي في الصين وزوال الاحتكار الاميركي للقنبلة الذرية ، عرف عالم الكتاب والفنانين بعض الراحة والاطمئنان ، وتلاشى جـو التعبئة الفكرية : فألف بروكوفييف سمفونيته السابعة وشوستاكوفيتش لحنه المسرحي الديني« غناء الغابات» ، وكلاهما نشيد لروح السلم والعمل السلمي ، وأخذ مؤتمر الكتاب السوفياتيين المنعقد في السنة ١٩٥٤ يناقش مسائل النقد الادبي والمسرحي دونما نظر الى الناحية العقائدية . واتصفت مقاومـة التقليد الاعمى والانقيادية الستالينية بمزيد من الحرية حيال « الواقعيـة الاشتراكية » ،وتجلت بمزيد من الاهتمام بالمؤلفات الغربية (او اقله برغبة حقيقية في التعرف الى الفن المجرد والرسم غير التمثيلي) ، وطالبت بحرية الابداع الفني واكدت ضرورة « تسهيل تفتح روح المبادهة والافكار والمخيلة الشخصية » . وتجلت كذلك بالمناقشات الحامية في اوساط الفنانين والكتاب امام لوحـات فالك ونيكونوف ، وقصائد افتوشنكو التي كانت احداها موضوع سمفونية شوستاكوفيتش الثالثة عشرة (١٩٦٣) ، ومؤلفات بوريس باسترناك ، ورواية اسكندر سولجنتسين حـول المعسكرات الستالينية .

سبق لهذه الحرية ، التي نمت بعد وفاة ستالين بنوع خاص ، ان ظهرت ابان الحرب في الحقل الديني . فقد ضمن دستور السنة ١٩٣٦ حق ممارسة العبادة ، ثم حصلت الكنيسة الارثوذكسية في السنة ١٩٤٥ ، بسبب اخلاصها للعهد القائم، على حق عقد مجمع انتخب البطريرك ألكسيوس.

ومنذ ذلك الحين لم يسمح للاكليروس بعضوية الجمعيات الدينية فحسب ، بل ألزم بان يكون المسؤول الرئيسي فيها .

الاتحاد السوفياتي منذ المؤتمر العشرين المؤسسات

لم تتبدل المؤسسات تبدلاً يذكر بعد السنة ١٩٤٥ ، ولكنها عرفت ، منذ وفاة ستالين تغييرات عميقة في سير حركتها ، ولا سيا بعد انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في شهر شباط من السنة ١٩٥٦ ، واذاعة تقرير خروتشوف (وثيقة اتهامية حقيقية ضد الدكتاتورية) ، ونشر وصية لينين . فحُطمت « عبادة الشخصية » واتخذت

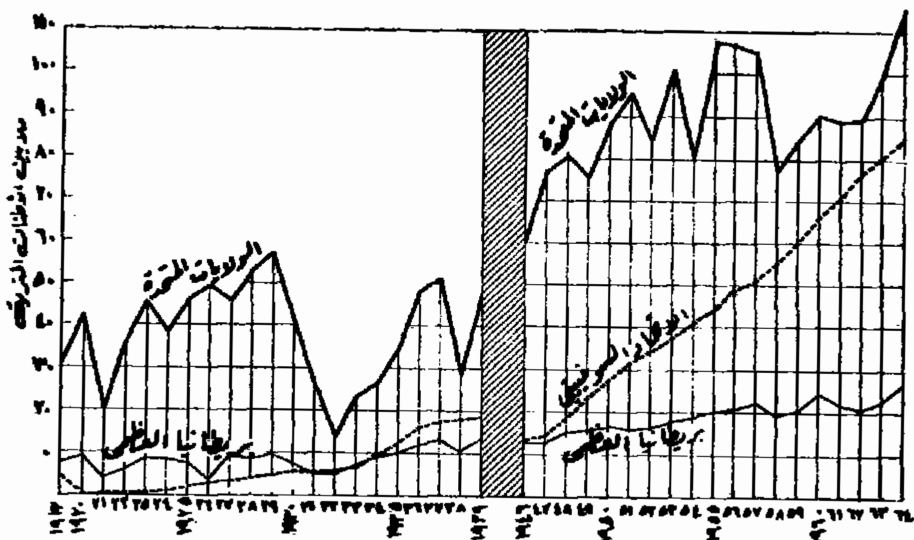

الشكل ٢٦ - انتاج الفولاذ الخام في الاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بين ١٩١٣ و ١٩٥٥

الحكومة شكل ادارة مشاركة تعزز في السنة ١٩٦٤ حين أقصي نيكيتا خروتشوف القوي الشخصية عن الحكم . واذا ما سلمنا ، مع جورج غورفيتش ، «بأن الطابع الحصري للانظمة الشيوعية مرده ... الى طابع التخلف او نصف التخلف في البلدان التي قامت هذه الانظمة فيها » ، فان التحول الراهن الى الحرية انما يقابله تطور اقتصادي يسمح اليوم بتخفيف الضغوط، وتلبية بعض المطالب ، والكف عن التضحية باليسار على مذبح القوة وبالاستهلاك على مذبح التجهيز ؛ فقد توفرت من ثم الشروط اللازمة لقيام نظام ديموقراطي وحر . اجل لم تفقد الدولة شيئاً من مقومات وصايتها : فهي ما زالت سيدة الجيش وقوى الأمن ، والحياة الاقتصادية ايضاً،

اذ انها تتصرف في الموارد الانتاجيـــة . واحتفظ الحزب من جهتـــه بمراكز القيـادة وبادارة القطاعات الرئيسية ، ولكن اساليب جديدة في الحكم والادارة خلقت جواً جديداً كل الجدة . فان الغاء عدد من الوزارات الاتحادية ، وزيادة مهام مجالس العمال ، ونقل مصالح كثـــيرة من موسكو ومن عواصم الجمهوريات المختلفة الى مراكز الانتاج ، كل ذلك قد احدث يقظة حقيقية في الحياة العامة . وبفضل تعاظم استقلال المجالس الذاتي ، بات باستطاعـــة المواطنين الاسهام مباشرة في ادارة الشؤون المحلية ، بينا دعي المجلس السوفياتي الاعلى ، من جهتـــه ، لمناقشة وتعديل مشاريع القوانين التي يتقدم بها الحزب . وتسترعي الانتباه هنـــا ظاهرة لا تخلو من المغزى ، هي تعاظم شأن احدى المؤسسات منذ المؤتمر الثاني والعشرين ، مع انهـا ، بالرغم من قدمها(١٩٢٢)، لم تقم منذ زمن بعيد بأي دور بارز ، اعني بها الـ بروكاتورا ، التي فوّض إليها مراقبة شرعية عمل الأجهزة الادارية او القضائية (وزراء ، مشاريع ، مؤسسات مختلفة) على مختلف مستوياتها . فان النائب العام ، الذي يعين لمدة سبع سنوات ، مستقل عن وزير العـدل وعن الحكومة ولا يرتبط الا بالمجلس السوفياتي الأعلى في الاتحـــاد السوفياتي ، وعليه تنبيه المجلس الاعلى الى مخالفة القانون التي يرتكبها هذا الجهاز أو ذاك .

أنكرت الاساليب البوليسية واعيد الاعتبار الى ضحاياها كما اعيد الى الشعوب الشركسية ، الـ كابارد – بلكار والـ تشتشين – انغوش ، والمان الفولغا الذين كانوا قـــد نقلوا الى سيبيريا . والغيت النصوص التي تفرض عقوبات جزائية على من يتغيب عن العمل او يتركه دون اشعار سابق ، ورفعت الاجور المتدنية (بنسبة ٣٣٪) ،وحدّ بعض الشيء من المكافآت، وحـدد يوم العمل مرة اخرى بسبع ساعات في السنة ١٩٦٠ ، واعيد تنظيم المعاش والتقاعد ؛ ويجب ان يضاف الى هذه التدابير الاسراع في بناء المساكن ، ولا سيا البناء الذي يتولاه الافراد بمساعـدة الدولة والمشاريع ، وتوسيع شبكة المؤسسات المدرسيـة والمؤسسات التي تعلوهـا ، وتوزيع النشاط الصناعي على المناطق خدمة للجمهوريات المتحدة . وبذل مجهود هام جداً بغيـة تحسين مستوى معيشة الفلاحين تحسيناً سريعـاً : تخفيض الضرائب على دخول مزارعي التعاونيـات الشخصية ، ورفع اسعار المواد الضرورية من جهة ، وزيادة كمية المواد الاستهلاكية في الاسواق من جهة ثانية ، وزيادة القيمة المالية للوحـدة الحسابية التي تستخدم قاعـدة لمكافأة الاعمـال الزراعية ، الـ «ترودودن».

اصـــلاح الاقتصـــاد

كانت التغييرات العضوية في النظام الاقتصادي اعظم اهمية وابعد خطورة من حيث النتائج . فاللجان النقابية المنتخبة للمشاريع قد اتسعت مهامها واعطيت حق ابداء رأيها في المرشحين لمراكز الادارة ، ووجب استشارتهـا قبل اي تسريح . واخيراً حصلت على المزيد من النفوذ للجمعيات الانتاجية الدورية التي تضم اداوة وعمـال كل مشروع بغيـة مناقشة المسائل المتعلقـة بهم . وكان التصنيع المخطط ، الذي استهل منذ زهاء ثلاثين سنة ، قد اخضع لتنظيم مركزي ناجع في السنة ١٩٢٩ ، ولكنه افضى

بسبب تجاحاله بالذات ، الى تعدد الوزارات الصناعية (٣١ في السنة ١٩٥٥) وتشابك صلاحياتها ، فنجم عن ذلك توان وازدواجية وتبذير وفصل عمودي صارم بين القطاعات المتكاملة . فأدى الاستياء من هذه الحصرية البيروقراطية ، الثقيلة الوطأة والباهظة الاكلاف ، حين توجب ادارة ٢٠٠ ٠٠٠ مشروع صناعي و ١٠٠ ٠٠٠ مشغل في انحاء البلاد المختلفة ، الى الغاء معظم هذه الوزارات في شهر ايار من السنة ١٩٥٧ والاعاضة منها بـ ١٠٥ اجهزة(سوفنار كوز) حصرت صلاحياتها في الاقاليم(٧٠ في الجمهورية السوفياتية الاتحادية الاشتراكية الروسية، ١١ في اوكرانيا، ٩ في قازاخستان ، ٣ في اوزبكستان ، ٢ في كرغيزيا ...) واشرفت على كافة مشاريع اقليمها وليس على هذا الفرع او ذاك من فروع الانتاج كما في السابق . وكان الهدف من هذه اللاحصرية ، عن طريق التقسيم الاقليمي الصوابي للعمل ، التقريب بين الادارة الاقتصادية والمشاريع، واتاحة قيام مزيد من التناسق والاختصاص ، وتسهيل التموين ، وتحقيق وفر هام في النقل ، واستخدام اليد العاملة استخداماً افضل ، لا سيما وقد اخذت الحاجة تمس اليها . وقد خضع كل سوفنار كوز لاشراف لجنة يعاونها مجلس اقتصادي وفني ، وعمل تحت رقابة الـ «غوسبلان» الذي لم يعد جهازاً ادارياً بحتاً بل حصرت مهمته بعد اليوم في مطابقة التخطيط بتنسيقه الخطط في الجمهوريات والمناطق . ووفرت له دوائر الاحصاء الموحدة الموضوعة تحت تصرفه واموال المصرف المركزي التي يوزعها كافة الوسائل الضرورية للقيام بمهمة الادارة هذه .

واقر في شباط وحزيران من السنة ١٩٥٨ تدبيران ليسا دون هذه التدابير اهمية ، اعني بهما نقل ملكية معدات « محطات الآلات والجرارات » الى المزارع التعاونية في مدة سنة واحدة — وكان الهدف من ذلك، كما في الحقل الصناعي ،ازالة البيروقراطية من الزراعة واستخدام المعدات خير استخدام — وإلغاء التسليمات الإلزامية المفروضة على المزارع التعاونيـة . وقد استجاب هذان التدبيران لرغبات الفلاحين وسهلا زيادة الانتاج . ووسعت كذلك صلاحيات مديري المزارع التعاونية لجهة حرية التقرير بصدد نظام الانتاج وحجمه ، وتوزيع الاراضي والعمال ، ومكافأة اليد العاملة، وذلك بمنع اجهزة الدولة والحزب المحلية ، في شهر آذار من السنة ١٩٦٤، من التدخل في تفاصيل الانتاج . ووصل اخيراً إلغاء المزارع التعاونية المتدنية الانتاج ، باعتبار انها اصغر من ان تفيد من التقدمات التقنية . فلم يبق سوى ٦٧ ٠٠٠ مزرعة في السنة ١٩٥٩ معدل مساحة الواحدة منها ٢ ٢٠٠ هكتار ، وقد اعتمد الكثير منها نظام مكافآت اعتبر ضمانة ثابتة تقرب بين ظروف عمل المزارع التعاوني وظروف عمال الصناعة . وزيد كذلك عدد المزارع النموذجية التي توازي انتاجيتها ثلاثة اضعاف انتاجية المزارع التعاونية ، فارتفع من ٥ ٨٠٠ في السنة ١٩٥٨ الى ٨ ٢٨١ في كانون الثاني من السنة ١٩٦١ . وقد بلغت مساحتها في هذا التاريخ ٢٧ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية .

الخطة السبعية
١٩٥٩ - ١٩٦٥

كانت نتيجة مرونة طرائق التخطيـط واستحالة تحقيق الخطة الخمسية السادسة التي لوحظت في السنة ١٩٥٧ احـلال خطة سبعية للفترة ١٩٥٩ – ١٩٦٥ محل الخطط الخمسية . وكانت الخطة الجديدة محصورة (تناولت ٣٠٠ صنف فقط مقابل ٥٠٠٠) وهدفت الى السماح لكل مشروع بتجديد برنامجه الصناعي لفترة اطول مدى . وقد وضعت وفاقاً لاصول سابقاتها نفسها ، ولكنهـا ابتغت نموا اقل سرعة (٧ بالمائة للدخل القومي بدلاً من ١٠ بالمائة) وشددت على اولوية اعادة تجهيز السكك الحديدية ، والصناعات الكيميائية ، والطاقة (ولا سيما البترول والغاز) ، والاسمنت ، والمعادن غير الحديدية. وبذل مجهود خاص (مسمى ٢,٥ التقدم) لزيادة الانتاجية (٨ بالمـائة في السنة ١٩٥٩) بغية تلافي النقص في اليد العاملة ، الناتج عن دخول بعض الطبقات القليلة العدد في الحيـاة العامة . وكان مقدراً للمناطق الشرقية من الاتحاد – التي استفادت من نزوحات داخلية هامة جداً – ان تنتفع اكثر من سواها من هذه الانطـلاقة : مضاعفة الاموال الموظفة في قازاخستان وسيبيريا حيث ستبلغ المسمّى ٢,٧ . وبفضل المراكز الصناعية الجديدة والهـامة في كوستانايسك و بافلودار – اكيباستوز و اتشنسك – كرانويارسك وبراتسك تايشت ، انتجت المنـاطق الشرقية في السنة ١٩٦٥ نصف الفحم الحجري والفولاذ والاسمنت والطاقة الكهربائية في الاتحاد. فقد استمر الانتـاج الصناعي من ثم في تحقيق تقدمات كبرى ولكن سرعته اخذت تخف منذ السنة ١٩٦٠ : فان معدل الزيادة الذي لم يبلغ قط ١٠ بالمائة (على غراره في السنوات السابقة) قد اخذ يتدنى تدنياً منتظماً ؛ فبلغ ٧,١ بالمائة في السنة ١٩٦٤ بالنسبة للسنة ١٩٦٣ (وكان في اوروبا الغربية بين ٤,٥ بالمائة ، وفي بريطانيا العظمى اقل من ٢ بالمائة) .

اما الانتاج الزراعي ، الذي زاد بنسبة ٥٠ بالمـائة بين السنة ١٩٥٣ والسنة ١٩٥٨ ، فما زال مع ذلك مركز الضعف الحقيقي في الاقتصاد السوفياتي . فاذا كانت زراعة القطن اكبر نجـاح حققته هذه الزراعة ، فان انتاج الحبوب وتربية المواشي لم يحققـا سوى نتائج متوسطة جداً . وقد بقيت الانتاجية السنوية للفلاح السوفياتي متخلفة جداً عن انتاجية المزارع الاميركي (التي ربما بلغت ثمانية اضعافها بحسب تقدير رينه ديمون) ، كما ان معـدل انتاج السنوات ١٩٥٨ – ١٩٦٢ – ١١ قنطاراً في الهكتار – ضئيل جداً بالنسبة لزراعة متقدمة المكننة لا يزال يعمـل فيها ٣٨ بالمائة من السكان العاملين الذين لا يستفاد من ثم من بعضهم استفادة كافية . اما في حقل تربية المواشي فقد بقي عدد البقريات على حاله وحليب الابقـار غير كاف ، بحيث تعذر تنفيذ خطط تسليم اللحوم والحليب والزبدة . ويرد ذلـك الى ان اراضي بائرة كثيرة ، حولت الى اراض زراعية الى الشرق من الاورال ، لم تكن خصبة التربة . وكانت معرضة بالاضافة الى ذلك لنقص المياه وانجراف التربة وظروف جوية غير مؤاتية (كارثة الجليد المبكر في السنة ١٩٦٣) . فأرغم الفشل الذي انتهت اليه محاولة حل مسـألة الانتاج بتوسيع المساحـة المزروعة وخيبة الامل التي سببها توسيع مساحة زراعة الذرة الصفراء المعدة لتربية المواشي (وقد جـاوزت

هذه المساحة عشرة اضعافهـــا بين السنة ١٩٥٣ والسنة ١٩٦٢ ، اذ ارتفعت من ٣ ٥٠٠ ٠٠٠ هكتار الى ٣٧ مليوناً) على البحث عن زيادة الانتاج باستعمال المزيـــد من الاسمدة ومبيدات الحشرات . وهذا هو سبب الاولوية المطلقة التي اعطيت في المشروع الجديد لتوظيف الامـوال في الصناعات الكيميائية (التي قُدمت على الصناعة الثقيلة والنفقات العسكرية) . وفي الوقت نفسه ، زيدت اعتمادات الدولة للري والاعمال المائيــة ٥٠ ٪ في السنة ١٩٦٥ بالنسبة للسنة ١٩٦٣ . وارتسم كذلك جهود هام في اتجاه اساليب التخطيط وادارة الاقتصاد . اجل لقد سبق ورأينا ان اجماع الانتقادات الموجهة لجهاز اداري فضفاض ولاساليب تنظيمية جامـدة ومترددة وبيروقراطية عادمة الجدارة احياناً ، قد ادت الى تخفيف وطأة الرقابـــة ، والى اللاحصرية التي اعترفت للمشاريع باستقلال ذاتي في موضوع اختيار العمال وتحديد الاجور . ولكن مدرسة كاملة من علماء الاقتصاد من امثال ترابزنيكوف وارزوماتيان وليبرمان قد نادت بالعودة الى فكرة الكسب وتقدير دخل المشروع ، وشدّدت الكلام على اهمية تعيين الاسعار واوصت باستخدام بعض الحوافز (مكافآت ، غرامات ، ضرائب) المعدة لحل المشاريع على العمل في اتجاه يوافق الاقتصاد العام ، وتحقيق ارباح تتيح توظيف اموال جديـــدة ، وإقامة علائق مباشرة بين الميّارة والزبن بغية مطابقة الانتاج على الطلب ومن ثم تحسين نوعية السلع المعروضة للبيع .

التغييرات الطارئة على المجتمع

تطور المجتمع السوفياتي تطوراً سريعاً جداً ، وتبدل توازن الطبقات الاجتماعية تبدلاً كليـــاً منذ السنة ١٩٤٥ . فان سكان المدن الذين زادوا زهاء ٨٠ مليون نسمة منذ اربعين سنة قد جاوزوا ٥٥٪ من مجموع سكان البلاد؛ كما ان عدد عمال المصانع ومستخدمي المكاتب الذي كان ٤٤ مليوناً في السنة ١٩٥٣ قـــد زاد بنسبة ٧٠ بالمائة خلال اثنتي عشرة سنة ، فبلغ ٧٥ مليوناً في السنة ١٩٦٥ . اما الفلاحون الذين تدنى عددهم بفعل الهجرة الريفية التي دفعت نحو المدن بـ ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فـلاح بين السنة ١٩٥٦ والسنة ١٩٥٩ ، فقد حدث نقص مليون في عدد عائلات المزارعين التعاونيين بينهم (٦ بالمائة من الاستثمارات الزراعية) . فأقام العديد من اعضاء هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة في المـدن منذ جيلين او ثلاثة وتلقوا تعليماً ثانوياً جعلهم اهلاً للوقوف على اسرار المسائل التقنية ، « فتحـــلى هذا الجيل برباطة الجأش التي يعطيها التعليم » . وكان اكثر تطلبـاً لجهة الحرية والرفاهية واقل استعداداً من الجيل السابق لتحمل الوصاية البيروقراطية . وبرزت في الوقت نفسه فئة تمثـــل ٢٢ بالمائة من كافة الاجراء (وهي نسبة تكاد توازي نسبة المزارعين التعاونيين) ، وتتألف من فنيي ومستخدمي الاقتصاد (١١ مليوناً مقابل مليونين في السنة ١٩٤٠ ، تلقى ٦٠ بالمائة منهم تعليماً عالياً) والمعلمين والمربين (٦ ملايين) ، والاختصاصيين في البحث العلمي (٢ ٥٠٠ ٠٠٠) ومستخدمي دوائر الصحـــة (٤ ملايين) ، والموظفين الاداريين (١ ٨٠٠ ٠٠٠) . أوليس محتملاً والحالة هذه ان تصبح طبقة المثقفين هذه المؤلفة من الفنيين والموظفين ، والمتعاظم شأنها

في حياة كافة المجتمعات الصناعية ، طبقة حاكمة من الفنيين المستقلين الذين يفرضون مقرراتهم وتنتقل صلاحيتهم الادارية بالوراثة ؟ فان السبيل الوحيد للارتقاء الاجتماعي في مجتمع يستحيل فيه جمع رأس مال ينتج الدخول ، هو التعليم العالي الذي يفتح باب الوظائف الهامة ؛ والحال ينتسب ٦٠ بالمائة من الطلاب الحاليين الى هذه الطبقة . ولكن الدولة السوفياتية والحزب اللذين واجها هذا الخطر قد اخضعا مديري المزارع التعاونية والمصانع ورؤساء دوائر التخطيط لرقابة اعضاء الحزب العشرة ملايين ورقابة الادارة الذاتية لذوي العلاقة ؛ وهذا كان احد اهداف اللاحصرية الاقتصادية التي طلع بها خروتشوف . وتوجب كذلك التوفيق بين متناقضات متطلبات العقيدة الهادفة الى إلغاء كل تفاوت بين العمل الفكري والعمل اليدوي (بنشر الثقافة نشراً واسعاً جداً) وندرة المراكز الهامة المتوفرة نسبياً (التي تفرض الحد من التعليم العالي) : بين السنة ١٩٥٤ والسنة ١٩٥٧ تعذر على اكثر من ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ تخرجوا من المدرسة الثانوية الانتقال الى التعليم العالي والمدارس التقنية . اما الحل القليل الجدوى الذي اعتمده اصلاح السنة ١٩٥٨ فقد قضى بفرض فترة تمرين على العامل اليدوي قبل دخول التعليم العالي .

كانت من ثم نتيجة ازالة « الصبغة الستالينية » ارتياحاً داخلياً حقيقياً ، دون ان تتعرض مع ذلك لمبدأ دكتاتورية البروليتاريا او تدخل اي تغيير على نظام المجتمع . ووفرت كذلك ارتياحا خارجيا استعجل تحسن العلاقات بين الدول في العالم. وقد أسهم كذلك في هذا الارتياح اعتراف المؤتمر العشرين بشرعية استخدام كل أمة طرائقها الخاصة للوصول الى الاشتراكية ، حتى عن الطريق البرلمانية ، بواسطة تقارب دائم – لا مؤقت كما كان تقارب الجبهات الشعبية – مع الاحزاب التقدمية الاخرى ، والموافقة على السياسة الخارجية الحيادية التي تمشى عليها عدد من الدول الآسيوية والافريقية وحتى الاوروبية ، والحرية التي تركت للاحزاب الشيوعية القومية في الاتصال فيما بينها اتصالاً مباشراً .

الفصل الثاني

الديموقراطيات الشعبية في أوروبا الوسطى والشرقية

ان اوروبا الوسطى والشرقية تؤلف ، مع الشرق الاقصى ، الجزء من العالم الذي امتحن ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بأعمق ثورة شاملة . فعلى غرار ما حدث في روسيا في السنة ١٩١٧ ، تقوّضت العروش ، وشُتتت الارستوقراطية القديمة ، وعاقت الملكية الاقطاعية ، وأُلغيت الامتيازات ، وتلاشى السياسيون القدماء الذين اقصوا او نُفوا او حكم عليهم بالموت ؛ وتفسخت الاحزاب او تحولت واخيراً زالت من الوجود : ان الطبقات الحاكمة السابقة كانت تتطلع الى لندن وباريس وواشنطن وروما لتتلقى منها التوجيه الفكري او الاقتصادي ؛ اما بعد السنة ١٩٤٥ فانما استنزل الوحي من موسكو ؛ « لقد قضت الثورة في عقد واحد على عادات وتقاليد الف سنة » .

الوضع في السنة ١٩٤٥

الى الشرق من الخط الذي بلغه الجيش السوفياتي في اوروبا الوسطى ، دخلت سبع بلدان في منطقة احتلاله ونفوذه : تشيكوسلوفاكيا ، بلغاريا ، رومانيا ، هنغاريا ، يوغوسلافيا ، البانيا ، تمثل ٠٠٠ ٩٠٩ كم² مساحة و ٧٠ مليون نسمة سكاناً ، يجب ان يضاف اليها القسم الشرقي من المانيا . وكانت تختلف اختلافاً كبيراً ، إن لجهة النظام الاجتماعي او لجهة الوضع المادي الراهن . فان تشيكوسلوفاكيا لم تعان مادياً ما عاناه سواها من ويلات الحرب ؛ وكانت اقل تعرضاً للغارات الجوية ، فتعززت طاقتها الصناعية بنقل بعض الصناعات الالمانية اليها . اما بولونيا والمانيا الشرقية ورومانيا وهنغاريا فقد كانت مسرحاً للمعارك الضارية والنهب والتدمير . وخرّبت سلوفاكيا ويوغوسلافيا والبانيا تخريباً كاملاً بفعل حرب العصابات والعمليات الثأرية ، وعوملت معاملة قاسية . ولم يسلم نسبياً من الأذى سوى بلغاريا في الجنوب الشرقي . ففي كل مكان اتى الالمان اعمال عنف وابادة رهيبة : قتل ٦ ملايين بولوني نصفهم من اليهود ، ابادة حملة الشهادات العليا

ابادة منظمة (اكثر من نصف الاطباء مثلاً) ، نفي اكثر من ٢٠٠٠٠٠ تشيكي وقتل ٢٨٠٠٠ رهينة رمياً بالرصاص ، نفي مئات الالوف من الهنغاريين ، ابادة ٥٠٠٠٠٠ يهودي مجري . وهكذا فقدت بولونيا ويوغوسلافيا ٢٠ و ١٧ ٪ من سكانها . وان الاضرار التي قدرتها لجنة التعويضات بـ ١٠٧٤ دولاراً للشخص الواحد في فرنسا ، قد قدرت بما يقارب ضعف هذا المبلغ في بولونيا (٢١١٨ دولاراً) ويوغوسلافيا (١٨١٣) . وهكذا ففي كل مكان اقتصاد مقوّض ، وحاجة تكاد تكون كلية الى المواد الضرورية ، بما فيها المواد الغذائية ، وخطر مجاعة عامة ، وتضخم مالي مفرط لا مثيل له في التاريخ (في السنة ١٩٤٦ ، سوف يرمز الى الـ «بنغو» بعدد يضم ٢٧ صفراً ! وسوف تبدّل السترلينية بمليون«لاي» في السنة ١٩٤٦ بعد ان كانت تبدل بـ ٣٢٠٠٠ في السنة ١٩٤٥) ، ونفقات احتلال مرتفعة جداً ، وتعويضات يجب تسديدها ؛ وجملة القول ان الوضع كان يائساً حقاً .

الى هذه الصعوبات تضاف الصعوبات الناجمة عن تغيير الحدود ونقل السكان . فان بولونيا قد انكمشت مساحتها بنسبة ٢٠٪ بفعل فقدانها الاقاليم الشرقية ، وعلى الرغم من حصولها على سيليزيا وجزء من براندبورغ وبومرانيا وبروسيا ، فان عدد سكانها قد تدنى الى ٢٤ مليون نسمة ، اي ان نسبة التدني بلغت اكثر من ٣٠٪ من عدد سكانها ؛ ولكنها بالمقابلة باتت متجانسة عنصرياً ولم يبق فيها اقليات عملياً . وفقدت تشيكوسلوفاكيا من جهتها منطقة روثينيا واكثر من ٣ ملايين نسمة ، بينما اصبحت مساحة هنغاريا موازية لها في السنة ١٩٣٧ ؛ واقتطع من رومانيا ١/٥ مساحتها : بساربيا وبوكوفينا ودوبرودجا ، و ٢٢٪ من سكانها ؛ أما بلغاريا فقد ضمت اليها منطقة دوبرودجا ، وضمت الى يوغوسلافيا منطقة البندقية الجولية مع «فيومه» وجزر الادرياتيك .

اضطر معظم هذه الدول (بولونيا ، بوهيميا ، رومانيا) من ثم الى القيام باستعمار داخلي حقيقي ، وتخفيف حدة المنازعات القومية والاجتماعية بازالة فوارق النمو الاقتصادي (بين بوهيميا وسلوفاكيا مثلاً ، وبين صربيا القديمة والجبل الاسود) ، وتجديد مختلف اجهزة الانتاج ، ولا سيما وسائل النقل التي يجب ان توافق البناء الاقليمي الجديد في الدول ، وتحسين وضع طبقات الفلاحين التي باتت بائسة بفعل ندرة العمل وضآلة الانتاج ، ووضع حد لارتباطها الشبيه بالارتباط الاستعماري بالنسبة لرؤوس الاموال الغربية ، وضمان استقلالها الوطني .

حكومات الاحزاب المتحدة

في سبيل مواجهة هذه الاعباء ، تألفت منذ التحرير حكومات اتحاد (الجبهة الشعبية ، الجبهة القومية الديموقراطية،الاتحاد الوطني المعادي للفاشستية ، جبهة الوطن ...) ضمت ، في وجه الطبقات الحاكمة السابقة التي تشوهت سمعتها بتعاونها مع الالمان وتدنى نفوذها بسبب سياستها ، كافة عناصر السكان التي قاومتها. وقد اختلفت الاحزاب التي اشتركت فيها بأسسها الاجتماعية وايديولوجيتها واهدافها البعيدة ، ولكنها اتفقت حول برامج قصيرة الاجل بوشر تنفيذها على الفور : تطهير

ومعاقبة العناصر الفاشستية والتعاونية ، اصلاحات اجتماعية عن طريق توزيع الاراضي العائدة ملكيتها للالمان والتعارنيين والملاكين الذين هاجروا البلاد ، رقابة الطاقة الاقتصادية عن طريق تأميم الصناعات .

الا ان تقسيم الاملاك الكبرى بواسطة لجان شعبية قروية ، وتأميم الصناعـــات قد زادا في حينهما من خطورة الصعوبات الاقتصادية والمالية : فقد ارتدى التضخم المالي طابــع الكارثة ، واستولى الجزع على الاحزاب غير الاشتراكية المعادية للاصلاحـــات العميقة . وحدثت آنذاك ظاهرة كلاسيكية في الفترات الثورية ، هي انضمام انصار النظـام المغلوب على امره الى صفوف الاحزاب المعتدلة في التحالف الحكومي والتأثير عليها . وقد سبق للشيوعيين ان اختبروا ذلك في روسيا بعد السنة ١٩١٧ مع المنشفيك والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الديموقراطيين ، فشاهدوا حدوث الظاهرة نفسها في فرنسا وايطاليا اثنــاء الانتخابات التي اعطت المزيد من الاصوات لحزبي الوسط ، الحركة الجمهورية الشعبية والحزب الديموقراطي المسيحي . وكان لأثر الحرب الباردة التي قامت بين حلفاء الامس دور حاسم جداً ، لانها جعلتهم اكثر تنبهاً لانبعاث معارضة قد تنجح في إعادة السلطة للاحزاب البورجوازية ؛ وهكذا فان المعارضة ، شاءت أم أبت ، قد ارتدت طابع المقاومة للسوفيات ولقيت تشجيعـاً ومساعدة من الحكومـات الغربية او بدت وكأنها تلقاها .

يضاف الى ذلك ان الاحزاب الشيوعية قد استمالت العديد من الاعضاء. ففي تشيكوسلوفاكيا ارتفع عدد هؤلاء من ٥٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٤٥ الى ١ ٣٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٤٧ . وفي بولونيا من ٣٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٤٥ الى ٨٠٠ ٠٠٠ . وفي رومانيا ارتفع هـذا العدد الى ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٤٧ ، وفي هنغاريا الى ٧٥٠ ٠٠٠ . فتعاظم نفوذها وقوتها في كل مكان .

قيام النظام الشيوعي تدريجيا

في مثل هذا الجو تطور الوضع الداخلي في هـذه الدول : فقد اشتد الصراع بين الاحزاب ، وافضى خطر انتهـاء السلطة مرة اخرى الى التأثيرات السابقة المعادية للاصلاحات ، الى تصلب الاحزاب الشيوعيـة والاتحـاد السوفياتي الراغب في ان لا يرى بعد اليوم على حدوده حكومات تناصبه العداء . ومنذ السنة ١٩٤٥ حتى السنة ١٩٤٨ ، وفي كل بلد من هذه البلدان ، اقصيت الاحزاب المعارضة تدريجيـاً وتحولت حكومة الاحزاب المتعددة الى نظام يكاد يكون بكليته تحت اشراف الشيوعيين . الا ان التشديد على الاصلاحات الاجتماعية الجذرية قد استتبع في البدء انقساماً في قلب كافـة الاحزاب الديموقراطية بين العناصر المتمسكة بالاصلاحات التي انجرّت الى اللحاق بالحزب الشيوعي ، والعناصر التي خشيت هذه الاصلاحات واتجهت شطر العناصر الرجعية : فتصدعت من ثم كافة الاحزاب القروية والديموقراطية . واقصي زعماء جناحها الايمن المعادي للاتحـاد . وعرفت الاحزاب الاشتراكية - الديموقراطية المصير نفسه . فان الفئـة العاطفة على الاحزاب الغربية التابعة للدولية الثانية والمنحرفة عن الماركسية ، قد اقصيت بينما الفت الاكثرية مـع

الحزب الشيوعي « جبهة ديموقراطية » . واضطر الزعماء المعتدلون اما الى الانسحاب واما الى مغادرة البلاد . ومنذ ذاك الحين ، وبعد ان احرزت «الجبهة الديموقراطية» النصر في الانتخابات اكملت الحكومة المنتصرة العمل الثوري ، فوسعت التأميمات والجزت تطهير العناصر المعادية . اما الاحزاب القروية والبورجوازية فقد انضمت الى معارضة اغضي عليها ولكنها اصبحت اكثر صعوبة يوماً بعد يوم . ومنذ اوائل السنة ١٩٤٨ ازيلت كل معارضة علنية في كافة بلدان اوروبا الشرقية ، بينما فر زعماء المعارضة او القي القبض عليهم .

الفت الجمهوريات الست ويوغوسلافيا جمهوريات شعبية . ففي تشيكوسلوفاكيا وبولونيا انتخب رئيس جمهورية يتمتع بصلاحيات واسعة . وفي البلدان الاخرى حل محل الملوك مجلس اعلى تنتخبه الجمعية من بين اعضائها ويمارس وظيفة رئيس الجمهورية جماعياً . واصبح لكل جمهورية مجلسها التشريعي المنتخب بالاقتراع العام ، باستثناء دولة يوغوسلافيا الاتحادية التي قام فيها مجلسان . وكانت المبادىء الاساسية واحدة في كافة البلدان : مساواة أمام القانون وفي الثقافة ، وحق في العمل والضمان الاجتماعي . وتولى الادارة المحلية هرم من المجالس شبيه به في الاتحاد السوفياتي ، وكان النظام القضائي كذلك شبيهاً به في الاتحاد السوفياتي ايضاً ، وهو الحزب الشيوعي ، المنظم على غرار الحزب البلشفيكي ، وفاقاً لمبدأ « المركزية الديموقراطية » ، ما كان القوام الاساسي للنظام .

الجمهورية الديموقراطية الألمانية

اختلف وضع القطاع السوفياتي في المانيا، حيث يقيم زهاء ١٧ مليون الماني ، اختلافاً ملموساً عنه في تحليلنا اعلاه ؛ فان هذا القطاع ، الذي خربته الحرب والغارات الجوية كما خربت بولونيا تقريباً ، قد اخضع لاحتلال صارم . فقد وضع السوفيات يدهم فيه ، بحجة التعويضات ، على اجهزة كثيرة حصلوا عليها بتفكيك آلات المصانع ، وعلى كميات كبرى من السلع واعداد وفيرة من المواشي ؛ وأسسوا شركات سوفياتية مساهمة — اكثر من ٢٠٠ شركة استثمرت عدداً من المصانع والصناعات الرئيسية ، وقدرت ارباحها بين السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٨ بـ ٢٥ بالمائة من مجموع انتاج القطاع السوفياتي . وبالرغم من ذلك ، تحقق الاصلاح الزراعي ، وتناول تأميم المشاريع الصناعية على انواعها ، في السنة ١٩٤٨ ، ٣٥ — ٤٠ بالمائة من مجموع المصانع ، ومثلت الشركات السوفياتية المساهمة ٢٥ — ٣٠ بالمائة ، والصناعة الخاصة ٣٠ — ٣٥ بالمائة .

وتألف بالمقابلة ، على الصعيد السياسي ، في السنة ١٩٤٦ ، الحزب الاشتراكي الموحد بانصهار الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي ، والاتحاد المسيحي الديموقراطي ، وحزب ديموقراطي حر ؛ وسمحت السلطة العسكرية السوفياتية بالانتخابات في البلديات ، ثم في البلاد كلها في السنة ١٩٥٠ . ومنذ السنة ١٩٤٧ انعقدت في كل سنة « مؤتمرات الشعب » التي تمثل مختلف الاتجاهات في القطاع . واتسعت الهوة تدريجياً بين الألمانيتين ، فقوبل كل تدبير غربي لتنظيم المانيا الغربية على نحو استقلال ذاتي بتدبير مماثل له في الشرق . وفي تشرين الاول ١٩٤٩ ، اخيراً ، أعلنت

الجمهورية الديموقراطية الالمانية التي اعادت لها السلطات السوفياتية الشركات المساهمة السوفياتية الثلاث والثلاثين الاخيرة التي كانت قد احتفظت بها ، وتخلت لها عن صلاحياتها الحكومية في السنة ١٩٥٣ . فبات منذ ذلك الحين دخول الكتلة الشرقية امراً ميسوراً ، وقد تحقق بسرعة .

الا ان الجمهورية الديموقراطية الألمانية لم تسر ، على الصعيد السياسي ، في طريق تطور الجمهوريات الديموقراطية الشعبية نفسه : فقد جرى الانتخاب في ظل نظام القائمة الواحدة ، ولكن مبدأ تعدد الاحزاب ما زال سائداً . فقد تعاون حزب الاتحاد الديموقراطي المسيحي والحزب الحر الديمقراطي مع الحزب الاشتراكي الموحد ، وقامت في البلاد احزاب اخرى كالحزب الوطني الديموقراطي والحزب القروي الديموقراطي .

الاصلاح الزراعي في الديموقراطيات الشعبية

اخذ الاقتصاد يستعيد بعض نشاطه في الوقت نفسه الذي بوشر فيه اجراء اصلاحات عميقة في النظام ، وفي الدرجة الاولى الاصلاح الزراعي الذي طالما طولب به ، والذي ارجىء ابداً او تحقق تحققاً جزئياً فقط . وقد قطع الاصلاح المراحل التي قطعها في الاتحاد السوفياتي تقريباً : توزيع الارض على الفلاحين ، وضع نظام للمقايضات بين المدن والقرى بواسطة تحديد الرسوم وانشاء مخازن تعاونية رسمية وتعيين نسبة المواد المفروض تسليمها ، تصفية الكولاك، وتأميم الزراعة . وقد بلغ مجموع الاراضي المستملكة ٢٠ مليون هكتار وزع ١٢ مليوناً منها على اكثر من ٣ ملايين عائلة قروية .

وانما كانت المسألة على مزيد من الصعوبة والالحاح في هنغاريا حيث لم ينفذ اي إصلاح حقيقي بين الحربين . فمنذ السنة ١٩٤٥ بلغت الاملاك التي لم تجاوز ٨ هكتارات ٦٥ بالمائة من الارض الزراعية (مقابل ٣٢ بالمائة في السنة ١٩٣٥) ، وفي السنة ١٩٤٧ ، انجز الاصلاح ، وجاوزت الاراضي المصادرة مساحة ٣ ملايين هكتار . فاحتفظت الدولة بالغابات والمراعي ، ووُزعَ ما تبقى على ٦٤٢٠٠٠ عائلة . وبالرغم من ان منطقة الاملاك الكبرى في بولونيا قد ضمت الى الاتحاد السوفياتي ، فقد صودر ٣ ملايين هكتار في السنة ١٩٤٧ في بولونيا الوسطى والغربية . فاحتفظت الدولة بمليون هكتار من الغابات ووزعت الباقي على ٤٠٠٠٠٠ شخص من صغار الفلاحين . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار اراضي الولايات الغربية الجديدة ، يكون هناك مليون فلاح قد استفادوا من توزيع ٦ ملايين هكتار . ووزعت اراضي المليوني الماني المقصين عن تشيكوسلوفاكيا واراضي الهنغاريين والالمان والمتعاونين السلوفاكيين في سلوفاكيا على ٢٥٠٠٠٠ مالك جديد . وفي البانيا حيث كان ثلث الاراضي الخصبة ، قبل السنة ١٩٤٠ ، من ملك ٢٠٠ شخص من كبار الملاكين ، وزعت منذ السنة ١٩٤٥ كافة الاملاك التي تجاوز ٢٠ هكتاراً (او ٤٠ هكتاراً اذا ما اعتمدت فيها طرائق «تقدمية») . وفي رومانيا انتزع ١٤٤٠٠٠٠ هكتار من طبقة كبار الملاكين التي برزت مرة اخرى الى الوجود بعد اصلاح السنة ١٩٢١ ، ووزعت على ٦٠٨٠٠٠ فلاح . وفي يوغوسلافيا ، وزع الـ ٤٠٠٠٠٠ هكتار المصادرة من الاقلية الالمانية

في فوجفودينا وسلوفينيا على ٥٠٠٠٠ فــلاح من المناطق المتخربة ، كما ورع مليون هكتار مستملك على ٢٦٠٠٠٠ عائلة اخرى . وفي بلغاريا ، حيث كانت الاملاك الصغرى واسعــة الانتشار ، وُزّع الـ ٢٣٠٠٠٠ هكتار ، التي انتزعت في السنـة ١٩٤٨ من الكنائس والاديرة والاملاك التي تجاوز ٢٠ هكتاراً ، على ١٢٨٠٠٠ عامل زراعي . وفي المانيا الشرقية اخيراً، حيث بلغت الاملاك الكبرى ٣٦ بالمائة من الارض الزراعية ، صودرت كافة ممتلكات النازيين ومجرمي الحرب والاملاك التي تجاوز ١٠٠ هكتار . فوزع اكثر من مليوني هكتار تمثـل ٢٣ بالمائة من المساحة الزراعية ، على ٥٤٤٠٠٠ فلاح .

وجملة القول ان طبقة الاشراف الريفيين قد صفيت نهائياً وما عادت لتلعب الدور السياسي الذي لعبته حتى ذاك التاريخ .

التأميمات

في البلدان التي احتلها الالمان او تحالفت معهم ، وضـع المحتلون يدهم على المشاريع والمؤسسات الهامـــة ، اما مباشرة بمصادرة ممتلكات الدولة (البولونية ، التشيكية) واليهود ، واما بصورة غير مباشرة بواسطة شركات المانية . ومنـذ التحرير ، انتزعت هذه المشاريع من واضعي يدهم عليها ، بدون اي تعويض ، ثم سنّت قوانين نظمت ووسعت التدابير المعدة لوضع مفاتيح الاقتصاد تحت اشراف الدولة . فمنذ السنة ١٩٤٥ أممت تشيكوسلوفاكيا المصارف وشركات الضمان والمناجم ومصانع الاسلحة والذخائر ومعظم الصناعات الحديدية والكيميائية وكافة المؤسسات التي يعمل فيهـا اكثر من ٤٠٠ شخص . وفي السنة ١٩٤٨ ، خفض هذا العدد الاخير الى الـ ٥٠ . وشمل القانون البولوني الصادر في السنــة ١٩٤٦ كافة الممتلكات الالمانية دونما نظر الى اهميتها وطبيعتهـا ، وكافة مؤسسات المناجم ، والمواصلات، والطاقة ، والتسلح ، والسكر ، والنسيج، والطحانة ، وكافة المؤسسات التي يعمل فيها اكثر من ٥٠ شخصاً ، باستثناء صناعات البناء . فبقي في اواخر السنة ١٩٤٨ ، ٦ بالمائة من الصناعات في ايدي المؤسسات الخاصة . وفي يوغوسلافيا امّمت منـذ السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٤٦ المؤسسات التي عملت لمصلحة الالمان ، اي كافة المؤسسات تقريباً . اما في البلدان العدوة القديمة ، حيث استولى السوفيات على الممتلكات الالمانية ، فقد تقررت التأميمات تدريجياً في عهد اكثر تـأخراً . ففي هنغاريا امّمت المناجم منـذ السنة ١٩٤٦ ، ثم المؤسسات الكبرى لاستخراج المعادن ، وفي السنة ١٩٤٨ اممت المصارف وكافة المؤسسات التي يعمـل فيها اكثر من ١٠٠ شخص . وفي رومانيا سن قانون في حزيران ١٩٤٨ اممت بموجبه كافـة المؤسسات المرتدية طابعاً على بعض الاهمية . وفي بلغاريا اممت منذ السنة ١٩٤٦ شركات الضمان ، والمناجم الهامة وصناعة وتجارة التبغ والكحول بالجمل، وفي السنة ١٩٤٧ اخيراً،اممت عملياً كافة المؤسسات، باستثناء مؤسسات الصناعة اليدوية . وفي المانيا الشرقية ، اتخذت تدابير متوالية امم بموجبهـا ٧٧ بالمائة من الانتاج الصناعي .

وهكذا لم تكن الصناعات والمصارف مؤممة وحدها في اواخر السنة ١٩٤٨ ، بـل التجارة

ايضاً ، اذ ان التجارة بالمجمل كانت مرتبطة بمخازن الدولة او التعاونيات التي تشرف عليها الدولة وتراقبها . ففي بولونيا لم يبق سوى ٢٫٥ بالمائة من التجارة في ايدي المؤسسات الخاصة ، وكانت التجارة بالمفرق نفسها آخذة في التقهقر بسرعة . وقد اديرت كل هذه المؤسسات وفاقاً لمبدأ الاستقلال الاداري المعمول به عند السوفيات .

الشروع في التخطيط

ان الاصلاحات الزراعية والتأميمات ، بقلبها نظام الاقتصاد رأساً على عقب ، شقت الطريق امام تخطيط من شأنه اتاحة توجيه كل النشاط توجيهاً عاماً وفاقاً للمثل الذي اعطاه الاتحاد السوفياتي منذ السنة ١٩٢٩ . الا ان الخطط الاولى اختلفت عنها في الاتحاد السوفياتي لان العملات لما تعرف الاستقرار ؛ فلم يكن المقصود بعد تحويل النظم الاقتصادية والاجتماعية تحويلاً كلياً ، بل في الدرجة الاولى الانتاج بسرعة واعادة البناء وبلوغ مستوى ما قبل الحرب في اقرب وقت ممكن ، دونما اهتمام بالدخول . وكانت هذه الخطط برامج انتاج وتوظيف اموال ، لا خططاً اقتصادية حقيقية . زد على ذلك من جهة ثانية ان كل بلاد تصرفت بمعزل عن غيرها قبل « منعطف » السنة ١٩٤٨ ، وهذا ما يعرف بعهد الخطط القصيرة الاجل : سنتان في تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ، ثلاث سنوات في بولونيا وهنغاريا . وهي يوغوسلافيا وحدها ما وضعت في السنة ١٩٤٧ خطة لمدة خمس سنوات . وحتى السنة ١٩٤٨ في المانيا الشرقية ، والسنة ١٩٥٠ في رومانيا ، لم توضع في هذين البلدين سوى خطط سنوية او نصف سنوية ذات طابع تقني بحت . ووظفت كافة البلدان اموالها في الصناعة واعادة بناء المساكن بنسبة اعلى منها في الزراعة الى حد بعيد : ٣٦ و ٣٥ ٪ مقابل ٧ ٪ في تشيكوسلوفاكيا ، ٣٩ و ١٨ ٪ مقابل ١٣ ٪ في بولونيا ، ٣٢ و ٢٢ ٪ مقابل ٩ ٪ في هنغاريا ، ٤٥ و ٢٨ ٪ مقابل ٦ ٪ في بلغاريا . ووظف القليل الباقي في وسائل النقل . فكانت التضحية المطلوبة من السكان عظيمة جداً ، وكان معدل الاموال الموظفة اعلى منه في اوروبا بشكل ملموس . وقد قدر في بولونيا بـ ٢٠ بالمائة من الدخل القومي غير الصافي ، وبـ ١٦ بالمائة في تشيكوسلوفاكيا ، و ٩ بالمائة في هنغاريا ، و ٧ بالمائة من الدخل القومي الصافي في بلغاريا . وتقدم انتاج مواد التجهيز على انتاج مواد الاستهلاك ، وكلما كانت البلاد اكثر تخلفاً كان الفارق كبيراً بين الانتاجين .

من الطبيعي ان نجاح هذه الخطط لم يكن متساوياً . فان الخطة الهنغارية الثلاثية قد تحققت كلياً ، وتحققت الخطة البولونية بنسبة ٨٥ بالمائة ، والخطة البلغارية كلياً في المنتجات الصناعية ، وبنسبة ٧٠ بالمائة فقط في الزراعة ، والخطة التشيكوسلوفاكية بنسبة ادنى بقليل . اما الخطة اليوغوسلافية التي كانت اكثر طموحاً ، فربما لم تبلغ ٥٠ بالمائة من اهدافها . وقد انتهت ابحاث جان ماركزفسكي الى الاستنتاج ان الاستهلاك الخاص الاجمالي في هنغاريا في السنة ١٩٤٩ ، الذي كان ادنى منه بعض الشيء في السنة ١٩٣٨ ، قد كان مع ذلك اعلى بنسبة ٥٠ بالمائة منه في لسنة ١٩٤٦ – ١٩٤٧ ، وانه جاوز في بولونيا استهلاك السنة ١٩٣٨ ، وزاد عنه بصورة

ملموسة في تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا . وعكلها نتائج جديرة بالملاحظة اذا ما فكرنا بان الاحداث السياسية قد حرمت هذه البلدان من القروض الاجنبية التي كانت معتمدة عليها ، وان الظروف الجوية كانت معاكسة في السنة ١٩٤٧ ، وان تأميم الزراعة قد استتبع تأخراً في الانتاج ، وان يوغوسلافيا اخضعت لحصار اقتصادي مكدر منذ السنة ١٩٤٨ .

توحد الديموقراطيات الشعبية

رأينا أعلاه ان التأميات قد امتدت اكثر فاكثر خلال السنتين ١٩٤٦ – ١٩٤٧ ، بموازاة تبدل انظمة الحكم وتعاظم نفوذ الاحزاب الشيوعية الوطنية : وذلك نتيجة للمنطق الضمني للثورات الاجتماعية التي لا يمكن ان تنجح بدون دكتاتورية ، ونتيجة كذلك لتأزم العلائق الدولية الذي تجلى في الحرب الباردة ، وبصورة خاصة لرفض الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية لمشروع مارشال .

كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة المتصرفة في اعتمادات مالية وفيرة ، ففرضت تقديمها للدول الاوروبية شريطة وضع برنامج اقتصادي عام تراقبه لجنة ادارية يسند اليها امر توزيع الاعتمادات . الا ان الاتحاد السوفياتي اعتبر هذا المشروع محاولة تهدف الى عزله واستمالة الدول الفقيرة الآخذة في النهوض في اوروبا الوسطى الى المعسكر الاميركي بغية فرض رقابة اقتصادية عليها تحول دون استمرار الثورة القائمة . فرفضت يوغوسلافيا وبلغاريا العرض الاميركي . ثم حذت حذوهما الديموقراطيات الشعبية الاخرى في شهر تموز من السنة ١٩٤٧ حين اتضح عداء الاتحاد السوفياتي للمشروع .

ولكن تكوين كتلة اقتصادية غربية من المنضمين الى مشروع مارشال قد هدّد بعزل الديموقراطيات الشعبية التي تستلزم اعادة بنائها وتصنيعها واردات كبرى وتعجز هي عن تأمين الاموال اللازمة لها الا بصادراتها والقروض الاجنبية . ففي سبيل دفع هذا الخطر قوبل مشروع مارشال بمشروع مولوتوف ؛ ووقع الاتحاد السوفياتي مع هذه البلدان المختلفة اتفاقات تجارية طويلة الاجل استكملت بمعاهدات تجارة وملاحة ، ومنح قروض ، وتقديم خرائط ومشاريع واجهزة ، وارسال فنيين . وكما تأسس الكومنفورم بغية تنسيق النشاط السياسي بين الديموقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي ، تنظم في كانون الثاني ١٩٤٩ مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ، الـ « كوميكون » الذي اسند اليه امر تنسيق سياساتها الاقتصادية ؛ وفي السنة ١٩٥٠ انضمت اليه الجمهورية الديموقراطية الالمانية بينما بقيت يوغوسلافيا على حدة ، بعد ان ابتعدت عنها الديموقراطيات الشعبية الاخرى في حزيران ١٩٤٨ . فسوف تتيح هذه الاتفاقات والكوميكون وضع خطط طويلة الاجل في كل بلاد وتناسقاً بين الاقتصادات وتعاوناً اكمل فيما بينها وتوحداً يجعلها اوثق تضامناً بعضها بالبعض الآخر . الا ان ما تنبأ به مولوتوف حين عرض مشروع مارشال ، اي انقسام شطري اوروبا ، قد اصبح اكثر عمقاً من اي وقت

مضى . فقد نشبت حرب اقتصادية ادت الى ايقاف المبادلات ايقافاً يكاد يكون كلياً بين بلدان الشرق وبلدان الغرب . وتمتع رئيس الولايات المتحدة بحق مطلق في رقابة الصادرات لاسباب تتعلق بالامن ، وكان باستطاعة ادارة مشروع مارشال حظر تصدير بعض المواد الاوليــة الى البلدان الغربية حين يمكن تحويلها الى بعض الادوات التي قد ترسل الى احدى الدول الشرقية . وفي شهر كانون الاول ١٩٥١ نشرت لائحة بعدة مئات من المواد الاولية والمنتجات الستراتيجية المحظر تصديرها الى البلدان الشرقية . ومن الطبيعي ان الاقراض قد حظر على المصرف الدولي لاعادة البناء والتنميــة ومصرف الاستيراد والتصدير . وبالمقابلة تعززت العلائق التجـارية بين الديموقراطيات الشعبية ، واصبح نصيب الاتحاد السوفيــاتي ، الذي شكّل « سوقـاً واسعة تكاد تكون مسعورة » ، عظيماً جداً ، شبيهاً بنصيب المانيـا في اوروبا الشرقية قبل السنـة ١٩٤٠ .

الخطط الطويلة الأجل وتوطيد الكتلة الشيوعيــة

لقد استحال ، والحالة هذه ، وضع خطط طويلة الاجل . ولمـا كان قـــد تحقق انهاض بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، بوشر فيها تنفيذ بعض الخطط منذ السنة ١٩٤٩ ، ثم في بولونيـا وهنغاريا ورومانيا في السنة ١٩٥٠ ، وفي المانيا الشرقية في السنة ١٩٥١ . وكانت هذه الخطط خمسية في كل مكان باستثناء بولونيا حيث كانت ستّية . وقد وضعت خلال السنوات ١٩٤٩ — ١٩٥١ التي ازدادت خلالها حدة الحرب الباردة . فاعدت في كل بلاد على ضوء اختبار التخطيط السوفياتي، واعاد النظر فيها خبراء روس ساعدوا على تنسيقها . وعين هؤلاء للزراعة معـــدل زيادة سنوية يفوق اعلى المعدلات المعروفة من ذي قبل : ٨ بالمائة في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ، و ١١ بالمائة في بلغاريا . وكذلك في الصناعة حيث عين لبولونيا ورومانيا وبلغاريا معدل ١٧ بالمائة، ولتشيكوسلوفاكيا ١٤,٦ بالمائة ، ولهنغاريا ٢٦ بالمائة . وقد شكلت الاعتمادات المخصصة لهذه الغاية ، والتي بلغت ٢٣ بالمائة من الدخل القومي غير الصافي، عبئاً ثقيلاً جداً ، اذ ان دولاً قليلة، كالنروج والسويد، قد حققت معدلات اكثر ارتفاعاً . وهي الصناعات الاستخراجية والفولاذية والميكانيكية مـــا احتلت المركز الاول وابتلعت معظم الاعتمادات ، وتأتي بعدهـا الصناعات الكيميائية . وتأتي الصناعة الخفيفة والزراعة بعيداً وراء الصناعة الثقيلة .

الا ان دولة واحدة من هذه الدول ما كانت لتستطيع — على غرار الاتحـاد السوفياتي أو الولايات المتحدة — ان تكتفي نفسها بنفسها . ولذلك فقد استتبع التوفيق بين الخطط توسعاً عظيماً في المقايضات بينها وبين الاتحاد السوفياتي ؛ وهكذا توطدت كتـــلة الديموقراطيات الشعبية . فمنذ قبل السنة ١٩٤٨ ، كانت تجارة الاتحاد السوفياتي الخارجية مع رومانيا وبلغاريا واسعة جداً . ثم جاءت المعاهدات الموقعة في السنة ١٩٤٨ تزيد من نصيبه ؛ ولكن خير مثل تقدمه لنـــا تشيكوسلوفاكيا التي كانت تصدر سلعها في النصف الاول من السنة ١٩٤٧ الى سويسرا والسويد وهولندا في الدرجة الاولى ، ولا يحتل الاتحاد السوفياتي سوى المرتبة الرابعة

بين زبائنها ، بينما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وسويسرا مائراتهـــا الرئيسيات . ومنذ توقيع معاهدة التجارة في شهر كانون الاول ١٩٤٧ ، جهزها الاتحاد السوفياتي بالحبوب والخامات والقروض التي اتاحت لتشيكوسلوفاكيا شراء خامات اضافية : استورد منها الآلات والمواد الكيميائية والالبسة والسكر . فارتفع نصيب الاتحـاد السوفياتي من التجـــارة التشيكوسلوفاكية بنسبة ١١ — ١٦ بالمائة . وحدث الشيء نفسه في بولونيا التي منحها الاتحـاد السوفياتي قرضاً بقيمة ٤٥٠ مليون دولار اتاح لها شراء تجهيزات الصناعات الفولاذية والنسيجية والكيميائية . فارتفعت المبادلات من ثم ارتفاعاً عظيماً : ارتفعت من ١٧ بالمائة في السنة ١٩٤٨ مع بولونيا الى ٣٣٫٢ بالمائة في السنة ١٩٥١ ، و ٦٧٫٥ بالمائة في السنة ١٩٥٢ . ومن ١٥ بالمائة مع تشيكوسلوفاكيا في السنة ١٩٤٨ الى ٣٢ بالمائة و ٧٢ بالمائة . ومن ١٨ بالمائة مع هنغاريا الى ٣٨ و ٧٢ بالمائة . ومن ٢٣ بالمائة مع بلغاريا الى ٣٤ و ٨٩ بالمائة . ومن ٣٣ بالمائة مع رومانيا الى ٨٢ بالمائة في السنة ١٩٥٢ . ومن ٤٠ بالمائة في السنة ١٩٤٩ مع المانيا الشرقية الى ٨٦ بالمائة في السنة ١٩٥٢ . والحال ، زادت تجارة كافة هذه البلدان زيادة كبرى ، ربمـا باستثناء تجـارة رومانيا : مرتين بين ١٩٣٨ و ١٩٥٢ في بولونيا ، ومرة ونصف المرة في تشيكوسلوفاكيا . وبالمقابلة تدنت نسبة العلائق التجارية بالدول الغربية تدنياً سريعاً بعد السنة ١٩٤٨ ، ولن تعود الى الارتفاع الا في السنة ١٩٥٤ .

يتضح من ثم ان حصار المواد الستراتيجية الذي ضربته الولايات المتحدة ، والحاجة الى المال للمبادلة ، لم يحولا دون تصنيع هذه البلدان ، ولكنهما ارغماها على ان تنتج بسعر مرتفع جداً مواد التجهيز التي كان من الطبيعي ان تستوردها في الظروف الطبيعية ، وذلك على حساب مستوى معيشة السكان .

المجتمع الجديد

كانت نتيجة الاصلاحات الزراعية والتأميمات القضاء على قوة الطبقات الحاكمة السابقة اقتصادياً وسياسياً : الاشراف الريفيين ، كبـــار الملاكين ، الصناعيين ، التجار الماليين . وأدت الخطط الخمسية الى تبديلات أخرى في نظام المجتمع القديم .

الفلاحون

في كافة هذه البلدان تدنى معدل السكان الريفيين بالنسبة للسكان العاملين من الذكور . وقد هبط هذا التدني في بولونيا من ٥٣ بالمائة في السنة ١٩٣١ الى ٤٩ بالمائة في السنة ١٩٥٣ ، وفي تشيكوسلوفاكيا من ٣٣٫١ بالمائة في السنة ١٩٤٠ الى ٢٨ بالمائة في السنة ١٩٥٣ ، وفي هنغاريا من ٥١ بالمائة الى ٤٤ بالمائة ، وفي يوغوسلافيا من ٧٦ بالمائة الى ٦٦ بالمائة وفي رومانيا من ٧٨ بالمائة الى ٧٢ بالمائة (في السنة ١٩٥٠) . ولكن حياة الارياف بصورة خاصة قـــد انقلبت رأساً على عقب بزوال الاملاك الاقطاعية الكبرى وبقسمة الاراضي بين صغار الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً ، وفاقاً للمبدأ القائل ان « الارض ملك يمين من يحرثها » . وقد أدت هذه الاصلاحات الى توزع الارض املاكاً

صغيرة جداً (اقل من ٥ هكتارات) ، عادمة الدخول اقتصادياً وتقنياً ، استحال معها تجديد الزراعة على مستوى الفرد وتحسين الانتاج . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الفلاح قد بقي فقيراً جداً ، فعجز مرة اخرى عن تعاطي زراعة مجدية وكان معرضاً لان يخضع لفلاحين ميسورين عليه ان يستعير منهم الماشية وادوات العمل . فاذا اراد المسؤولون تجنب زوال هذه الاملاك الصغيرة بسرعة ، كما حدث ذلك بعد اصلاحات العشرينيات ، وتحسين حال الفلاحين، وجب عليهم وضع المعدات تحت تصرفهم ، وتنظيم عملهم وتعليمهم طرائق فعالة . فمنحت قروض مختلفة الاجل من اجل بناء وتحسين أبنية الاستثمار او تأمين سير العمل الزراعي ، ووزعت مزارع الدولة البذار المنتقى ، واحدثت محطات آلات وجرارات ، وادخلت زراعات جديدة ، ولا سيما بعض الزراعات الصناعية .وتأسست بصورة خاصة تعاونيات مختلفة الانواع، ابتداء من الشكل البدائي ، حيث تنظم الحراثة والزراعة وحدهما بالاشتراك ، حتى المزرعة التعاونية حيث تجري قسمة المحاصيل بحسب كمية عمل كل شخص . ولكن ملكية الارض تبقى خاصة في كافة الحالات ، وغالباً ما يحافظ على نظام المساحة القديم . الا ان هذه التعاونيات ، التي تستفيد من القروض ، وهبات الحيوانات والمعدات ، والمستشارين الزراعيين الملحقين بمجموعة من القرى ، قد باشرت نشاطها على نطاق ضيق ، اي في مساحة محصورة وبعدد محدود من الاعضاء . ثم تقدم الاستثمار الجماعي واتسعت المساحات المستثمرة بفضل تأسيس محطات الآلات والجرارات ، وتعميم الطرائق التقدمية بواسطة مزارع الدولة . ففي تشيكوسلوفاكيا مثلاً انشئت في السنة ١٩٥٠ اربعة انواع من التعاونيات التي طبق فيها استثمار جماعي متزايد : استخدام اليد العاملة والآلات والحيوانات بالاشتراك للاعمال الموسمية الهامة ، ثم زراعة الارض بالاشتراك وقسمة المحاصيل بنسبة الاراضي المزروعة ، وفي مرحلة ثالثة تربية الماشية بالاشتراك وقسمة المحاصيل بنسبة كمية ونوعية العمل المؤدي . وفي مرحلة اخيرة مكافأة العمل وحده .

اصطدمت حركة تأميم الزراعة بتمسك الفلاحين بتقاليدهم الفردية ، وفي معظم الاحيان بجهلهم وعدم خبرتهم في ادارة التعاونيات ، بحيث كان تقدمها بطيئاً نسبياً واضطرت الحكومات في السنة ١٩٥٣ الى كبح الاندفاع ، الطائش احياناً ، الذي كان يدفع الى ابتكارات سابقة لأوانها ، بتشديدها على الطابع الطوعي الذي يجب ان يكون شاملاً . ففي السنة ١٩٥٥ شمل قطاع الاستثمار المشترك (املاك الدولة والتعاونيات) ٣٠ بالمئة من المساحات الزراعية ، وفي بولونيا لم تضم التعاونيات سوى ٢٠٠ ٠٠٠ عضو يستثمرون ١ ٨٠٠ ٠٠٠ هكتار ، اي ٦،١٠ بالمائة تقريباً من المساحة الزراعية ، فلم يشمل قطاع الاستثمار المشترك من ثم ، مع مزارع الدولة ، سوى ٢٠ بالمائة فقط من هذه المساحة ؛ وفي تشيكوسلوفاكيا ، كان الاستثمار المشترك اكثر تقدماً وضم اكثر من ٧٠٠٠ تعاونية ، فشمل زهاء ٣٠ بالمائة من الاراضي الزراعية . وفي بلغاريا شمل التأميم ٦١ بالمائة من الاستثمارات و٦٠ بالمائة من الاراضي الزراعية ؛ وكان في

رومانيا ، في التاريخ نفسه ، ٢٠٠٠ تعاونية تضم ١٨٠٠٠٠ عائلة وتشمل ٩,٤ بالمائة فقط من الاراضي الزراعية . وفي المانيا الشرقية ، حيث بوشر تنفيذ التأميم في النصف الثاني من السنة ١٩٥٢ ، ادارت ٥٠٠٠ تعاونية ٣٠ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية .

قلبت هذه التغييرات حياة الفلاحين بالذات « الذين لم يأتوا من قبل عملاً كافياً ، واقاموا في مزارع لم تكفهم لتأمين معيشتهم ، فكانوا مرغمين على البحث عن موارد اضافية في اعمال غير ثابتة وزهيدة الاجور . ولنتذكر هنا التشريع الهنغاري واليوغوسلافي الذي عمل به حتى السنة ١٩٤٥ ومنع استخدام الآلة الحاصدة والرابطة « بغية توفير العمل للحصادين » . أو لم يقدر بعضهم ان « ١٨ بالمائة من الفلاحين البلغاريين ، و٢٠ بالمئة من الفلاحين الرومانيين ، و٢٤ بالمائة من الفلاحين البولونيين ، و٢٨ بالمائة من الفلاحين البلغاريين ، و٣٥ بالمائة من الفلاحين اليوغوسلافيين، و٥٠ بالمائة من الفلاحين السلوفاكيين، وحتى ٨٦ بالمائة من الفلاحين الروتينيين، لم يجدوا لهم عملاً في قرام ؟ لقد شاهد الناس فجأة معدات عصرية حين انشئت محطات الآلات . فأوحت لهم هذه المشاهدة عالماً جديداً تعبر عنه هذه الملاحظة التي ابداها لـ « رتيه ديمون » فلاح سلوفاكي استخدم آلة حاصدة للمرة الاولى : « لو اشتريتها قبل عشر سنوات لطال عمري عشر سنوات ، ولشعرت باني في مقتبل العمر ، ولكنت تمكنت من الشرب حين اكون ظمئاً ... هؤلاء الشبان سوف يستخدمون هذه الآلات بينما عملت ابداً بساعدي : ليس ذلك عدلاً » . الا ان هذه الآلات التي وفرت المشقة على الناس قد اثارت بمزيد من الالحاح مسألة اكتظاظ الارياف بالسكان التي لم يكن لها من حل سوى التصنيع . فنقلت منذئذ جماهير ريفية كبيرة الى القطاع الصناعي، مما استنزف احتياطي اليد العاملة الزراعية في بعض الاماكن. ولكن الفلاحين ، في مرحلة الانتقال هذه ، كانوا « الضحايا المؤقتة لهذا التوزيع الاجتماعي الجديد » : فقد توجب بناء المصانع دون التمكن في الوقت نفسه من بناء المساكن اللازمة ، ولم ينقل كذلك الى الصناعة عدد اكثر فاكثر اهمية من الفلاحين الا بصورة تدريجية . وفي هذه الاثناء ، بقي انتاج الحبوب متدنياً بسبب افتقار الاستثمارات الى التجهيزات وتقسيمها الى اجزاء صغرى ، مما حال دون سرعة ادخال الزراعات الصناعية الجديدة وتنمية تربية المواشي .فتأخر من ثم تحسين مستوى المعيشة وتزايد التفاوت بين الصناعة الآخذة في الاتساع وبين الركود الزراعي . وهكذا فقد زال العمال الزراعيون ...وتمثل اجراء الدولة بعمال المصانع بوضعهم الاجتماعي . فليس في الارياف بعد اليوم سوى ملاكين ينضم صغارهم الى التعاونيات .

العمال

كانت نتيجة تحول هذه البلدان الزراعية الى بلدان صناعية ارتفاعاً كبيراً في عدد العمال . فباتت الطبقة المحتقرة والمريبة في نظام الحكم السابق قوة كبرى وطبقة موجهة في نظام الحكم الجديد . وقد بلغت زيادة عددهم نسبة عالية : ففي هنغاريا تضاعف عددهم بين السنة ١٩٤٥ والسنة ١٩٥١ ، وجاوز المليون . وفي بولونيا ارتفع عددهم من ٩١٣٠٠٠ في السنة ١٩٣٨ الى ٤٢٠٠٠٠٠ في السنة ١٩٥٢ . وفي رومانيا بلغ

١٨٠٠٠٠٠ مقابل ٥٠٠٠٠٠ في احسن احوال مـــا قبل الحرب ، وبالرغم من ذلك مست الحاجة بالحاح الى اليد العاملة في هذه البلدان التي كانت في مـــا مضى مكتظة بالسكان . وهم العمال الاختصاصيون من مست الحاجة اليهم بصورة خاصة لان الكثيرين منهم قد استخـدموا في المصالح الادارية او السياسية بسبب الثقة التي اوحوهـــا لنظام الحكم . فتوجب اتخاذ بعض التدابير في تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا لتشجيع النسل وتوسيع التعليم التقني . واتخذت تدابير مماثلة لما في الاتحاد السوفياتي تهدف الى زيادة الانتاج: منافسة بين المصانع من اجل خير انتاج، لقب « عامل الاصطدام » او « بطل العمل » ، اعزاز العمال الستاكانوفيين الذين يسهمون بنشاط في زيادة الانتاج وتبسيط العمل ، اوسمة ، مكافآت مالية ، التخصص في انتـاج القطع ، اجور مرتفعة جداً للساعات الاضافية ... تحديد الاجور بالاستناد الى الاهليـة ، اللجوء المتزايد الى اليد العاملة النسائية ، نظام مشدد للعمل بغية مقاومة عدم الثبات والتغيب .

من اجل هذه الجماهير القروية والعمالية ، البائسة والاميــة بنسبة مرتفعة احياناً (٢٣ بالمائة في رومانيا وبولونيا ، ٣٢ بالمائة في بلغاريا ، ٤٥ بالمائة في يوغوسلافيا ، ٦٥ بالمائة في البانيا) ، لحظت الخطط مجهودا كبيرا للتجهيز الصحي وبناء مؤسسات مدرسية كثيرة لكافـة الاعمار ، ودور كتب ، الخ ... فألغي كل « عدد مقفل » وزيد عدد التلامـــذة والطلاب زيادة كبرى ، واستقبلت مدارس المشاريع والمدارس التقنية وكليات العمل والعمال والفلاحين الذين تعـذر عليهم في صباهم تحصيل العلم اللازم لشغل وظائف قيادية .

الحل المعتمد للمسائل الوطنية

رأينا ان احدى نقاط الضعف في دول اوروبا الوسطى والشرقية قبل السنة ١٩٤٥ كانت انعدام التجانس العنصري والمنازعات القائمة بين الاقليات القومية والاكثرية المسيطرة . فنجم عن هـــذا الوضع قلق عميق في نفس كل شخص ، وحين تولت النازية الحـــكم في المانيا ، خلق هـذا الوضع جو حرب اهلية قابلة تصلب البلدان المهزومة السابقة .

اختلف وجه الدول التي اعيد النظر في حدودها بعد النصر الحليف اختلافاً كبيراً جداً عنه في السـابق ، لا من حيث الشكل الجغرافي فحسب ، بل من حيـــث الشكل العنصري ايضاً ، بفعل انتقال او نقل الاقليات العنصرية . وحيث ما زالت هنـاك عناصر مختلفة ، اعتمد التنظيم الاتحادي – كما في يوغوسلافيا الجديدة مثلاً – او منحت منطقة الاقليات بعض الاستقلال الذاتي الاداري : كما حدث لسلوفاكيا داخل الدولة التشيكوسلوفاكية . أما في الدول الاخرى فقـد حلت المسألة بسهولة اذ ان الاقليات الباقية في هذه الدول كانت ابعد من ان تمثل الكتل المتراصة الكثيرة العدد التي كانت موجودة فيما قبل الحرب . فلم يقف في تشيكوسلوفاكيا سوى بضعة مئات الالوف من الالمان والهنغاريين بين سكان البلاد البالغين ١٢ مليون نسمة . وفي بولونيا وهنغاريا لم تجاوز الاقليات العنصرية نسبة الـ ٥٪ . وكانت اقل الدول تجانساً رومانيا التي ليست رومانيـة الا بنسبة ٨٥,٧٪ بسبب ضمها ٩,٤٪ من الهنغاريين و ٢,٢٪ من الالمان وأقليات عنصرية اخرى .

وكان الحل الذي اعتمد في هذه البلاد حكومة مركزية ووضع اللغات على قدم المساواة في الادارة والمدارس الوطنية حيث توجد الاقليات في البلاد. أما الادارات المحلية فقد تألفت من الهنغاريين في الاقاليم الهنغارية ومن ممثلين عن القوميتين في الاقاليم المختلطة . وللمرة الاولى في التاريخ قامت في « كلوج » جامعتان احداهما هنغارية والثانية رومانية .

التنظيم المدني الجديد

على غرار ما حدث في الاتحاد السوفياتي ، ادت الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الى قيام تنظيم مدني جديد : زالت الطبقية وزال معها التميز الاجتماعي ، « فامتصت المدينة ضواحيها » . زال التدخل العقاري ، فامكن تشييد المزيد من الابنية في المساحات المتوفرة ، وتشييد مجموعات كبرى تحيط بها مساحات واسعة خضراء . فأطلت بيوت كل مجموعة على ساحات كبرى اعدت فيها اقسام خضراء وحدائق للاطفال ؛ وتألفت وحدة الاقامة الرئيسية من مجموعات سكنية متقاربة توفر فيها كل ما هو ضروري لـ ١٠٠٠٠ او ١٥٠٠٠ شخص الذين يقيمون في دائرة شعاعها ٥٠٠ متر تقريباً : مدارس ، مخازن ، مستوصفات ، سينما ، منتديات ... وشيدت في الحي – مجموعة من وحدات الاقامة – ابنية عامة من الدرجة العليا : مؤسسات التعلم التقني والثانوي ، المستشفيات ، مراكز الادارات ... فعلى هذا الشكل شيدت المدن الجديدة ، كـ « نوفاهوتا » التي نشأت قرب كراكوفيا وبلغ عدد سكانها ٦٥٠٠٠ نسمة في السنة ١٩٥٤ ولم يلبثوا ان بلغوا ١٥٠٠٠٠ ؛ وعلى هذا الشكل اعيد بناء المدن القديمة كفرصوفيا وبودابست حيث شيدت ، الى جانب الاحياء القديمة التي رممت بحسب النمط التقليدي ، احياء جديدة تتميز بشوارعها العريضة وحدائقها الكبرى وساحاتها العامة .

محاربة المعارضة

ان عملية الاقصاء التدريجي التي تناولت معارضي تطور الحكم الجديد نحو الشيوعية قد انتهت في السنة ١٩٤٨ ؛ فبعد هذا التاريخ لم يبق من مكان لمعارضة شرعية قادرة على إعادة النظر في الاصلاحات الزراعية والتأميمات . ولم يبق للطبقات الموجهة القديمة من امل الا في النشاط السري والتدخل الاجنبي . فتوجه انصار نظام الحكم السابق بأنظارهم الى المؤسسة القائمة الوحيدة ، اعني بها الكنيسة الكاثوليكية ، « لا سيما وان الكاثوليكية غالباً ما ارتدت شكل اكليروسية على ارتباط وثيق بالارستوقراطية العقارية في هذه البلدان التي سيطر عليها اقتصاد زراعي ونظام متخلف » (م. دوفرجيه) . فان كبار رجال الاكليروس المنتسب بعضهم الى الطبقات الممتازة – والمتضامن معها – قد كانت اقوى سند لحكم الاميرال « هورتي » في هنغاريا وحكومة الكولونيلات في بولونيا والملوك الدكتاتوريين في يوغوسلافيا ورومانيا ؛ وكانوا حريصين على الاحتفاظ باملاكهم الواسعة واحتكارهم المدرسي .

ومنذ السنة ١٩٣٩ ، بصورة خاصة ، ايدت الكنيسة انفصال سلوفاكيا وبوهيميا الذي حققه المطران « تيزو » بعد اجتماع مونيخ ، وأيد رئيس اساقفة « زغرب » ، المطران « ستيبيناك » ،

نظام الحكم الذي اقامه « انتي بافليك » في كرواتيا ؛ فان هذا النظام الاخير « قد مثل بأجلى صورة وطنية الاكليروس الكرواتي المتطرفة التي لم تسلم بقيام الدولة اليوغوسلافية » (فختو). وفي السنة ١٩٤٥ ، اعترض الكردينال « مندزنتي » على اعلان الجمهورية الهنغارية « المخالف للدستور الهنغاري الالفي » . وحين ادخلت الدساتير الجديدة ، المتبناة بعد السنة ١٩٤٥ ، الاصلاحات التي اقرتها دساتير الدول الغربية منذ زمن بعيد : فصل الكنيسة عن الدولة ، الحالة المدنية والزواج المدني ، اعلن الاحبار معارضة شديدة جديدة تميزت بمزيد من القوة عندما طبق الاصلاح الزراعي على املاك الكنيسة . فاحتج الكردينال مندزنتي ورئيس اساقفة براغ ، « بيران » ، ورئيس اساقفة بولونيا الجديد ، « وسفزنسكي » ، ورفض الفاتيكان كل تنازل . وكما اوضح ذلك « فرنسوا فختو » .

« كسبت الكنيسة ،بموقفها هذا المعادي للشيوعية مزيداً من الشعبية ... فاصبحت الكنيسة محط شكاوي وآمال الملاكين الذين سلبت املاكهم والموظفين الذين عزلوا من وظائفهم ، وصغار البورجوازيين الذين سيطر عليهم الخوف، والفلاحين الذين شعروا بالخطر يهدد املاكهم ... وقد شجعت هذه الشعبية الفاتيكان وحملت الاساقفة على الوقوف موقفاً متزايد الحزم يوماً بعد يوم . »

الا ان بعض الكهنة انتظموا في جمعيات رغبت في الاتفاق مع الحكومات وعطفت على الاصلاحات الاقتصادية المحققة . فكان الوضع شبيهاً بذاك الذي تسبب في ايام الثورة الفرنسية بنزاع خطير بين الحكومة والكنيسة وبانشقاق في داخل الكنيسة نفسها . وفي السنة ١٩٤٨ ، كانت علمنة المدارس وتأميم ممتلكات الاكليروس (الذي اعطي مرتباً بالمقابلة) في هنغاريا وبولونيا بمثابة اعلان حرب . فاوقف الكردينال مندزنتي وحكم عليه بالسجن المؤبد في السنة ١٩٤٩ . ثم جاء دور رئيس اساقفة براغ في تشيكوسلوفاكيا الذي حرم جمعية الكهنة المتعاونين مع الحكومة . وفي السنة ١٩٥١ اوقف خليفة مندزنتي ايضاً مع عدد من الأساقفة والكهنة . وقطعت المفاوضات بين السلطات الكنسية والحكومات البولونية والهنغارية والتشيكوسلوفاكية وذلك ، كما يبدو ، تحت ضغط الكرسي الرسولي الذي تميز موقفه المعادي للشيوعية بمزيد من الحزم (اعلن الحرم في شهر تموز ١٩٤٩) . بيد ان هذه المفاوضات انتهت في السنة ١٩٥٠ الى اتفاق مع بولونيا حيث استاء السكان، بالرغم من ايمانهم العميق ، من استمرار البابوية في رفض الاعتراف بالحدود الغربية الجديدة المعينة لبولونيا .

تحول السنة ١٩٥٣

اعطت سنوات تنفيذ الخطط الاول النتائج المرتقبة . فان الاهداف المحددة للصناعات الثقيلة قد تخطيت الى حدّ بعيد ، ومعدل زيادة الدخل القومي قد بقي مرتفعاً جداً: ٩,٥ بالمائة في تشيكوسلوفاكيا ، ١٠,٢ في المانيا الشرقية ، ١٢,٢ في بلغاريا ، ١٢,٦ في بولونيا ، ١١ في هنغاريا ، اي انه جاوز معدل الارتفاع الطبيعي في عدد السكان مجاوزة كبرى . فللمرة الاول نجحت الحكومات الجديدة في اوروبا الوسطى والشرقية ، حيث اخفقت حكومات النظام السابق ، في التغلب على عدم التناسب بين ازدياد

السكان وازدياد الموارد . فان هذه الاخيرة ستزداد بعد اليوم اكثر من السكان .

ولكن تقدم الصناعة الثقيلة على انتاج المواد الاستهلاكية والزراعة قد افقد التوازن بين الانتاج الصناعي الذي تضاعف في خمس سنوات (١٩٤٨ — ١٩٥٣) وبين الانتاج الزراعي الذي لم يجاوز مستواه في السنة ١٩٤٠ الا بنسبة ١٠ — ٣٠ بالمائة . ويرد ذلك الى ان الانتاج الزراعي قد تدنى بنسبة تجاوز الـ ١٠ بالمائة . وقد افضى نزوح الشبان الى المدينة ، وهم اكثر السكان انتاجية ، قبل ان يعاض منه بمعدات آلية كافية ، الى نقصان وسائل الانتاج في الارياف وزيادة طلب المنتجات الزراعية والمساكن في الاوساط المدنية والصناعية . فنجمت عن ذلك صعوبات في تموين المدن بالمواد الغذائية والمواد الاولية الزراعية المنشأ اثارت الاستياء وازّمت العلائق بين العمال والفلاحين .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان نقص انتاج المواد الاستهلاكية شجع السوق السوداء واخمد نشاط الفلاح الذي بات عاجزاً عن تأمين المنتجات التي يحتاج اليها . وتأممت الأموال اخيراً في هذه البلدان المفتقرة الى رؤوس الأموال عن طريق الاقراض الذي جعلها تسير بخطى سريعة نحو التضخم المالي . وعبثاً حاولت بعض الاصلاحات النقدية اصلاح الحال ، فان الاجور الحقيقية قد تدنت تدنياً محسوساً بصورة عامة بالنسبة لمستواها في السنة ١٩٥٠ . فكانت من ثم نتيجة الخطط المفرطة الطموح والمفتقرة الى الدرس ، والاموال غير الكافية الموظفة في الزراعة ، وسياسة الاسعار التي ضحت بالزراعة ، وتدني مستوى المعيشة ، قلقاً عُبّر عنه في ١٧ حزيران ١٩٥٣ ، في برلين الشرقية وبعض المدن الصناعية في الجمهورية الديموقراطية الالمانية ، بثورة عمال مستائين من الازمة الغذائية وقوانين العمل المتزايدة التي قيّدوا بها .

ومن جهة ثانية ، ارتدى التشديد المفروض على الاقتصاد اخطر طابع في البلدان الزراعية التي خضعت لتصنيع قوي وسريع . وفي بولونيا كما في هنغاريا ، كان عبء الاموال الموظفة (وقد خصص معظمها للصناعة الثقيلة) ثقيلاً جداً . فان بولونيا قد كرست لها ١٩٫٤ بالمائة من الدخل القومي في السنة ١٩٥٣ ، وهنغاريا ٢٤٫٥ بالمائة (مقابل ٨٫٨ بالمائة في الجمهورية الديموقراطية الالمانية) ، اي اكثر مما استطاع الاتحاد السوفياتي تكريسه لها في خطته الخمسية الاولى . وفي سبيل وضع حد لهذا القلق ، حدث حينذاك تبدل في السياسة الاقتصادية ، وذلك بالعودة الى مبادىء السياسة الاقتصادية الجديدة ، اي الى اقتصاد انتقالي . فمنذئذ — ودون اهمال اولوية الصناعة الثقيلة — زيد نصيب المواد الاستهلاكية وانتجت بمزيد من السرعة . انه لاتجاه جديد تأيد بخطب مالنكوف وخروتشوف وميكويان في السنة ١٩٥٣ والسنة ١٩٥٤ ، وتجلى في الديموقراطيات الشعبية بعدم زيادة الاعتمادات المخصصة للصناعة الثقيلة وزيادة الاعتمادات المخصصة لصناعة المواد الاستهلاكية والبناء والزراعة ، ورفع الاجور الحقيقية ، وتشجيع الزراعة : ازالة التمييز تدريجياً بين التعاونيات والاستثمارات الفردية ، رفع قيمة مكافآت الانتاج ، تخفيض الضرائب ، تخفيض التسليمات الالزامية .

ازمة تشرين الاول ١٩٥٦ في بولونيا وهنغاريا

ان هذه المقررات، التي رافقتها بعض التدابير السياسية، واصلاح القضاء والشرطة ، وتخفيف الانظمة الادارية ، وإعادة الاعتبار لضحايا الحكومات « الستالينية » ، واصلاح البيروقراطية ، وتخفيف وطأة التخطيط العقائدي في المجال الفكري ، قد اتاحت لمختلف البلدان الشيوعية تحسين وضعها الاقتصادي وتدشين عهد نظام حر شامل . ففي تشيكوسلوفاكيا وجمهورية المانيا الديموقراطية ، اللتين كانتا اكثر البلدان تطوراً ، كما في رومانيا وبلغاريا اللتين كانت اقلها تطوراً ، امكن حل مسائل التكيف بسهولة نسبية . اما بولونيا وهنغاريا فقد كانتا مسرح احداث مؤثرة . فهنا لم تفض التدابير المتخذة الى ازالة كل عدم توازن اقتصادي ، لا سيما وان التعديلات المتكررة المدخلة على الخطط قد زادت مظاهر فقدان التوازن بروزاً ؛ ولم تفض كذلك الى تخفيف حدّة الاستياء الشعبي . ويرد هذا الاخير الى اسباب عديدة ؛ فهناك ، بالاضافة الى مستوى المعيشة المتدني جداً ، حذر الجماهير التي حيرتها ترددات قادة الحكم الجديد وانقسامهم الى « ستالينيين » و « مطالبين باعادة النظر » في السياسة السابقة ، والتي لم تتعود الانضباط وحياة المصنع، كما هي حال مئات الوف العمال الجدد المنتسبين اما الى طبقة صغار البورجوازيين وصغار التجار والصناعيين اليدويين ، واما الى طبقة الفلاحين . ويجب ان يؤخذ بعين الاعتبار كذلك هزال الاحزاب الشيوعية التي يفسر نموها المظم باقبال الاعضاء الجدد (ارتفع عدد اعضاء الحزب الهنغاري من عدة آلاف الى ٩٠٠٠٠٠) الذين كان بعضهم « طلاب وظائف » ، او انتهازيين، او عناصر غير وطيدة العقيدة، وتضعضع المسؤولين امام بيروقراطية غير ذات جدوى وحكم مستضعف سائر في طريق الانحلال، واخيراً نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتأثير العداء التقليدي للروس الذين كان احتلالهم ثقيل الوطأة .
فبدأ الانفجار الشعبي في بولونيا في شهر حزيران ١٩٥٦ بالاضرابات الدامية التي اعلنت في بوزنان ، والهجمات على الابنية العامة ، وبوادر العداء العنيف للجيوش السوفياتية والاتحاد السوفياتي ، ولكن زعيماً شيوعياً كبيراً ، هو « غومولكا » ، لم يلبث ان ألف منذ تشرين الاول حكومة وطنية بولونية ايدتها انتخابات ظافرة في كانون الثاني ١٩٥٧ ، ونجح في اقناع الاتحاد السوفياتي بسحب جيوشه وأعاد الهدوء الى البلاد .

اما الازمة الهنغارية فكانت اكثر خطورة الى حد بعيد : كانت حرب الشوارع عنيفة جداً ، واغتيل عدد كبير من المدافعين عن نظام الحكم ، وتألفت وزارة برئاسة « ناجي » حولتها التعديلات المدخلة عليها شيئاً فشيئاً الى حكومة بحسب صيغة السنة ١٩٤٥ . فحلت مقرراتها الاولى التعاونيات الزراعية واعادت المشاريع الخاصة في التجارة الصغرى والصناعة الصغرى ، واعلنت حياد البلاد ، وتركت انطباعاً بأن الحركة الشعبية والعمالية اخذت في الانهيار اكثر فأكثر امام العناصر المقصاة منذ السنة ١٩٤٧ وامام انصار الحكم السابق ؛ فجاء التدخل السوفياتي حينذاك يسحق الثورة .

في اعقاب هذه الاحداث الجسيمة ، تبنت البلادان تدابير تكاد تكون متماثلة : التخلي عن

تأميم الزراعـــة ، وفي هنغاريا ، الحرية في شراء الاراضي (٢،٥ هكتار) مباشرة ، تخصيص الفلاحين بمزيد من الآلات ومواد البناء ، الغاء النظام القاضي بتسليم الدولة جزءاً من منتجاتهم ، زيادة الطاقة الصناعية (بجعل المشاريع القائمة عصرية ، واستحداث مشاريع جديدة احياناً) . اما نظام ادارة الاعمال فقد عدّل باخضاع الاقتصاد للامركزية شبيهة ، الى حد ما ، بتلك التي تحققت في الوقت نفسه في الاتحـــاد السوفياتي : فأعطى مزيداً من الاستقلال للمشاريع الاشتراكية ، تاركاً لها حرية اختيار اساليب ووسائل تحقيق الاهداف الاساسية التي لم تحدد الخطة العامة سواها . والغيت في هنغاريا المجالس العمالية المقتبسة عن المجالس اليوغوسلافية ، بحجة ارتدائها طابعاً سياسياً في الدرجة الاولى ؛ اما في بولونيا فقد ابقي على هـــذه المجالس ، ولكن صلاحياتها قد قيّدت في شهر نيسان ١٩٥٨ بالتدبير الذي ضمها ، مع الممثلين النقابيين وخليّة الحزب ، الى « مؤتمر الاستقلال العمالي » الذي يمارس نوعاً من الشراكة في ادارة الاعمال مع رؤساء المشروع . وفي البـــلدان الاخرى ، لم يتوقف تأميم الاراضي قط ؛ ففي السنة ١٩٥٩ بلغ ما تناوله ٩٥ ./· من الاراضي الزراعية في بلغاريا ، و ٨٢ ./· في تشيكوسلوفاكيا ، و ٧٥ ./· في البانيا ، و ٦٤ ./· في رومانيا ، و ٤٧ ./· في الجمهورية الديموقراطية الالمانية . ثم عمل به ثانية في هنغاريا (حيث تناول ٣٠ ./·) ، وبصورة بطيئة جداً في بولونيا ، بواسطة الجمعيات الزراعية (الضامة ٠٠٠ ٦٠٠ فلاح - اي مزارع واحدمن اصل ٦ - في شهر كانون الاول ١٩٥٩) ، التي تتلقى المساعدات المالية وتتمتع بحق الاولوية في شراء المعدات الزراعية .

فبصورة عامة - اذا ما استثنينا بولونيا ، نرى ان كافة الديموقراطيات الشعبية ذهبت بعيداً في تأميم الاراضي وشرعت في جميع الاستثمارات الصغرى المتوسطة في وحدات زراعية كبرى وفرت لها تدريجياً كافة التجهيزات العصرية .

الوضع في السنة ١٩٦٦

بعد خضوعها عشرين سنة للنفوذ الشيوعي ، تطورت بلدان اوروبا الوسطى والشرقية من ثم تطوراً عميقاً . فهي مع محافظتها على وحدة المبادىء الماركسية سلكت « الطرق المختلفة نحو الاشتراكية » التي توافق حاجاتهـا الخاصة المميزة . فبلغ اقتصادها في كل مكان معدلات مرتفعة جداً : بلغ الانتـــاج الصناعي في تشيكوسلوفاكيا ثلاثة اضعافه بالنسبة الى انتاج ما قبل الحرب ، وفي بولونيا بلغ في السنة ١٩٦٣ تسعة اضعافه بالنسبة الى انتاج السنة ١٩٣٨ واربعة اضعافه بالنسبة الى انتاج السنة ١٩٥٠ ؛ وفي الجمهورية الديموقراطية الالمانية تضاعف هذا الانتاج وبلغ معدل الزيادة ١١،٧ بالمائة بـين السنة ١٩٥٠ والسنة ١٩٥٧ ، وحتى ١٢،٣ بالمائة في السنة ١٩٥٩ . فغدت بولونيا الدولة الصناعيـــة الخامسة في اوروبا منذ الاكتشاف الذي اتاح لها تحويل « ذهبهـا القاتم » ، اي الفحم الحجري غير المتكامل المتوفر لديها بكميات كبرى ، الى وقود لتنقية المعادن (١٩٥١) . وان هـــذه البلدان التي عرفت قبل السنة ١٩٣٩ بطالة أليمة ومهاجرة واسعـــة في صفوف العمال ، عانت آنذاك من حاجة حقيقية الى اليد العاملة ، باستثناء بولونيا حيث عمل معظم الفلاحين في املاكهم

الصغرى . أما الأمية فقد قهرت عملياً والكفاءة المهنية تحسنت . وعرفت رومانيا في السنة ١٩٦٤ اعلى نسبة في ارتفاع عدد السكان (٨ بالمائة) ، وتجاوز الدخل القومي ضعفه (٢,٧ بالمائة) في السنة ١٩٣٨ . وعلى الرغم من ان نجاحات الزراعة — على غرارها في الاتحاد السوفياتي — قد بقيت دون نجاحات الصناعة بشكل ظاهر ، فان مستوى المعيشة قد تحسن تحسناً ملموساً في رومانيا ، وفي الجمهورية الديموقراطية الالمانية ، ولا سيما عند سكان الارياف ، وفي بولونيا حيث لم يعد استهلاك المواد الغذائية دون اعلى المستويات في اوروبا الا بنسبة ١٠ — ٢٠ بالمائة . ووفرت السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي انتهجتها الجمهوريات الشعبية لكل مواطن ولوج ابواب العلم والارتقاء الاجتماعي وآفاق تقدم عظيم . فأسهمت من ثم في « ازالة معظم الفوارق الاجتماعية القديمة والعميقة ، ولكن الاولوية المعطاة للانتاج الصناعي وضآلة انتاجية العمل قد أخرتا تحقق تقدم يفي بالحاجات » .

الا ان خوداً في التقدم ، شبيهاً به في الاتحاد السوفياتي ، قد برز منذ السنة ١٩٦٣ . ومرد ذلك الى ان سير التخطيط والتوزيع لم يعد هنا ليوافق متطلبات الاقتصادات المعقدة التي اخذت تواجه مسائل الاعتماد والانتاج المنوّع . وهذا ما يفسر اصلاحات ادارة الاعمال والتخطيط ، وليونة الرقابة الحكومية ، والاعتراف للمشاريع بتحقيق الارباح ومطابقة برنامجها على طلب الزبائن .

الكوميكون

ومن جهة ثانية ، تم تصنيع الديموقراطيات الشعبية ، منذ السنة ١٩٤٥ ، بصورة فوضوية في اطار كل دولة ، على الطريقة السوفياتية ، اي باعطاء الاولوية للصناعة الثقيلة . ففي كل بلاد وجدت من ثم مصانع يفوق انتاجها حاجات البلاد وطاقاتها الحقيقية وتنتج دون اي اعتبار للدخول التي يجب ان توفرها . وهو لعمري وضع محال وخطر في ظل نظام الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على المواد الستراتيجية اثناء الحرب الكورية والذي بقي معمولاً به جزئياً .

وحين تأسس في السنة ١٩٤٩ ، رداً شرقياً على مشروع مارشال ، مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (كوميكون) ، لم يلعب لمدة طويلة سوى دور محدود في درس مشاريع التنسيق وخطط مطابقة الانتاج ؛ فهو الاتحاد السوفياتي ما منح القروض ، وسهل بين الديموقراطيات الشعبية المبادلات التي تمت بشكل اتفاقات ثنائية على مقايضات يحدّد اجلها بسنة واحدة . الا ان ازمة السنة ١٩٥٦ في بولونيا وهنغاريا ، وتوقيع معاهدة روما في شهر آذار ١٩٥٧ ، الذي جعل من المجلس الاقتصادي الاوروبي حقيقة راهنة ، ابرزا الحاجة الملحة الى اعتماد تدابير حسية . فتقرر منذ السنة ١٩٥٨ مد انابيب لنقل البترول بين الاتحاد السوفياتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والجمهورية الديموقراطية الالمانية ، وتنسيق وتوحيد انتاج بعض المصنوعات الكيميائية والصفائح المعدنية والأنابيب ؛ وفي السنة ١٩٥٩ تم الاتفاق نفسه حول تجارة القطن والفواكه والبقول ؛ وفي السنة ١٩٦٠ ، تم الاتفاق بين بولونيا والجمهورية الديموقراطية الالمانية

من اجل زيادة انتاج الفحم الحجري البولوني ، وبين تشيكوسلوفاكيا ورومانيا من اجل بنـاء معمل لانتاج الطاقة الكهربائية يغذيه الغاز الطبيعي الروماني ، وتوحيد بعض شبكات توزيع الطاقة وجعل مركز تنظم التوزيع في براغ ، الخ . وفي السنة ١٩٦٢ قطع مؤتمر موسكو المرحلة الحاسمة بتقريره تنسيق الخطط الطويلة الاجل والتوفيق بين السياسات الوطنية على اساس « التقسيم الاشتراكي الدولي للعمل » . فاستلزم التنظيم لجاناً دائمة ، ودائرة تخطيط، وامانة سر ، ولجنة تنفيذية يكون كل عضو فيها متحكماً بالقرار المطلوب اتخاذه ، لأنه يتمتع بحق النقض .

وجلي ان تحقيق مثل هذه الوحدة قد اثار صعوبات جمة : صعوبات تنسيق شتى السياسات الزراعية والخطط المختلفة الآجال والافتقار الى النقد القابل التحويل ، الخ . وشعرت بعض الدول بصعوبة الخروج من قومية ضيقة (بولونيا ، ولا سيما رومانيا) ، فرفضت التضحية ببعض الصناعات التي اوجب التخصيص التضحية بها ، وأسفت على هذا الارتباط الالزامي بالدول الاشتراكية الاخرى ، وطالبت بحرية كاملة في الاتجار مع الدول الغربية ، وتمنت ان تعمل الوحدة « لا ككل تنصهر فيه الاجزاء ، بل كمجموعة اقتصادات وطنية مستقلة » . وانما على الرغم من هذه الاختلافات ، سار التعاون في طريقه : ففي السنة ١٩٦٤ تأسس مصرف على مثال « الاتحاد الاوروبي للمدفوعات » اسندت اليه مهمة تمويل مجموعات المشاريع الكبرى ؛ وبعد مرور اشهر معدودة ، أسست تشيكوسلوفاكيا وبولونيا وهنغاريا ، التي انضمت اليها بلغاريا والجمهورية الديموقراطية الالمانية والاتحاد السوفياتي ، جهاز « المعادن المشتركة » الذي ارتدى طابع التخصص في انتاج الانابيب والمصنوعات الفولاذية الاخرى ، واستهدف تنسيق الدروس والمبادلات وبرمجة الانتاج ، اللذين سيليح تحقيقهما تنسيق التجارة الخارجية وتأسيس مشاريع مشتركة . ويجب الاشارة كذلك الى سلسلة التدابير المتخذة منذ السنة ١٩٦٣ لتنسيق النقل في مختلف البلدان بغية تجنب انزال وتحميل البضائع (الداخلة الى الاتحاد السوفياتي او الخارجة منه) ، وانشاء استثمار محطة دولية لشاحنات البضائع ، وإقرار مشروع ضخم لاستثمار الدانوب الاسفل ابتداء من الحدود النمساوية – التشيكية بواسطة ١١ محطة لتوليد الكهرباء تبلغ طاقتها ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٧ كيلوات في الساعة ، تتيح بالاضافة الى إنتاج الكهرباء ري ٠٠٠ ٥٠ كيلومتر مربع وجعل معدل عمق النهر ٣٫٦٥ م .

عمل الكوميكون بعد المجلس الاقتصادي الاوروبي وقصد تحقيق اهداف تختلف كل الاختلاف عن اهدافه ، واستخدم اساليب ووسائل مختلفة . ولكنه استوحى الحرص نفسه على التوحيد والتنظيم . وحقق نتائج ذات قيمة في كافة الحقول ما عدا الحقل الزراعي . وباستطاعته اليوم الاسهام اسهاماً فعالاً في اعادة الوحدة الى الكتلة الشيوعية بعد ان زعزعها النزاع الصيني السوفياتي .

الفصل الثالث

يوغوسلافيا

ان الظروف التي عاشت فيها يوغوسلافيا اثناء الحرب تفسر طابع تطورها الخاص في المرحلة التي عقبتها . فالبلاد حققت ثورتها ابان الصراع بالذات ؛ ولذلك كانت ثورتها امراً واقعاً حين توقفت الاعمال الحربية ـ في الوقت الذي بدأت فيه في بلدان اوروبا الوسطى والبلقانية الاخرى. وكان لدى تيتو جيش شعبي كثير العدد تعود الحرب وخضع لنظام سياسي مرن وقوي، وحظي بنفوذ وشعبية كبيرين حصل عليها في المعركة من اجل تحرير البلاد الذي كان لليوغوسلافيين انفسهم اليد الطولى في تحقيقه . ولكن عداء حكومة المنفى في لندن ، والجنرال ميخايلوفيتش ممثلها في البلاد ، الذي لم يتعاون مع الايطاليين والالمان فحسب ، بل اعلن الحرب على الانصار ايضاً ، قد اعطى المعركة من اجل التحرير طابع صراع ثوري ضد ممثلي الطبقات الحاكمة القديمة والحكومة الملكية .

النظام السياسي الجديد

تكونت الدولة الجديدة اثناء الحرب بالذات . فمنذ اواخر السنة ١٩٤٢ ، مثّل جيش تيتو أقوى قوة محاربة والقوة الفعالة الوحيدة في الصراع ضد الغازي ؛ وفي كل مكان – حتى في المناطق المحتلة – تألفت لجان شعبية للتحرير من ممثلين انتخبتهم الفئات الوطنية المحلية استلمت زمام السلطة فور انسحاب الالمان . وفي تشرين الثاني ١٩٤٢، التأمت جمعية ثورية تضم الممثلين المنتخبين المنتسبين الى كافة المعتقدات والاديان والاحزاب والفئات المعادية للفاشستية ، عرفت بـ « المجلس المعادي للفاشستية لتحرير يوغوسلافيا الوطني »، الذي كان الجهاز الموجه للصراع ،دون ان يكون برلماناً او حكومة ؛ فاختارت المجلس الذي اسندت اليه السلطة التنفيذية ومهمة البت بالمسائل الاقتصادية والسياسية. الا ان الدولة لما تنظم تنظيماً جديداً ، بناء على اشارة صريحة من الاتحاد السوفياتي الذي خشي من ان يخلق اعتماد التدابير الثورية بعض المتاعب مع الحلفاء الغربيين . وفي السنة ١٩٤٣ قرر مجلس التحرير ، الذي اصبح « الممثل الاعلى للسيادة اليوغوسلافية » ، ان البلاد سوف تنظم تنظيماً اتحادياً يجمع بين الشعوب المتساوية في الحقوق في صربيا وكرواتيا وسلوفينيا وبوسنيا –

– هرزيغوفينا والجبل الاسود . واقر بالتصويت القوانين الدستورية الثورية الاولى التي انتزعت كل سلطة من الملك الموجود في المنفى واعدت قيام الجمهوريات الشعبيـة الست التي سيؤلف اتحادها الدولة اليوغوسلافية . ولم يتخذ أي تدبير شامل بصدد القاعدة الاقتصادية المقبلة التي ستتمشى عليها البلاد . ولم تقرر مصادرة المصانع والاملاك ، حين قررت ، الا اذا كانت هذه المصانع والاملاك ملك الغازي او المتعاونين معه . الا ان المساحة القصوى للأملاك ، في الحقل الزراعي ، قد حددت بـ ٢٥ هكتاراً ، باعتبار ان حركة التحرير قد ارتكزت في جوهرها على طبقة صغار الفلاحين الفقراء. وفي كانون الثاني ١٩٤٦ ،أعلنت الجمهورية الاتحادية اليوغوسلافية بواسطة الجمعية التأسيسية التي فازت الجبهة الشعبية فيها بـ ٧٢٥ ٠٠٠ ٦ صوت مقابل ٠٠٠ ٧٠٧ للمعارضة . وهكذا ازيلت الملكية الصربية المنشأ التي كانت منذ السنة ١٩١٩ العقبة الرئيسية في سبيل المساواة بين القوميات والتي ساندت على الدوام اقوى العناصر نزعة محافظة في المجتمع السابق . وقد اعطيت الدولة الجديدة دستوراً اتحادياً : ست جمهوريات شعبية ، وفي اطـار جمهورية صربيا اقليان مستقلان استقلالاً ذاتياً توجـد فيهما اقليات قومية : فوجفودينا التي يستوطنها الهنغاريون والسلوفينيون والرومانيون ، وكيروفو – ميتوهيجا التي يستوطنها الالبانيون . وكان لكل جمهورية جمعيتها ودستورها . واحتفظت الحكومة الاتحادية بالدفاع الوطني والسياسة الخارجية والمالية الاتحادية والخطط الاقتصادية العـامة والعلائق التجارية والمواصلات . وتألفت « الجمعية الشعبية » ، كما هي الحال في كل نظام اتحادي ،من مجلسين هما « المجلس الشعبي » المنتخب على أساس ممثل لكل ٠٠٠ ٥٠ نسمة ، و « مجلس القوميات » الذي تنتخبه الجمهوريات والاقاليم والمناطق . وتنتخب الجمعية الشعبية مجلساً اعلى يمارس رئاسة جماعية ومجلساً تنفيذياً .

النهضة المادية

تركت الحرب البلاد مخربة تخريباً كاملاً ، وأفقدتها زهاء مليوني نسمة لاقوا حتفهم وزهـاء ٠٠٠ ٦٠٠ من العناصر الغريبة ، ولا سيما من الالمان ؛ وقد هلك ١/١٠ السكان القرويين . وقـدرت الاضرار بـ ٥٠٠ ١٠ مليون دولار (١٩٣٨) تكاد تمثل زهاء اربعة اضعاف الدخل القومي في هذه السنة . وانتشرت المجاعة لا في المناطق الجبلية الجنوبيـة الغربية التي لم تنتج قط مواد غذائية كافية لسد حاجاتها فحسب ، بل في اغنى مناطق سلوفينيا وصربيـا الشمالية ايضاً . فتوجب على منظمة اغـاثة اللاجئين تغذية اكثر من ثلث السكان ، وقدمت لهذه الغاية اكثر من ٠٠٠ ٦٠٠ طن من المواد الغذائية .

كما حدث في الديموقراطيات الشعبية الاخرى ، تحقق اصلاح زراعي صادر في السنة ١٩٤٥، لقاء دفع تعويض ،تناول كافة الاملاك التي تزيد مساحتها عن ٣٥ هكتاراً من الاراضي الزراعية . فباتت الاملاك التي لا تبلغ مساحتها ٥ هكتارات تمثل ٧٥ ٪ من مساحة البلاد ، وتلـك التي تتراوح مساحتها بين ٥ و ١٥ هكتاراً تمثل ٢٢ ٪ ، والاملاك التي تتجاوز ١٥ هكتاراً ٣ ٪ فقط . ومن جهة ثانية صدر في السنة ١٩٤٦ قانون سوف يعـدل في السنة ١٩٤٨ أممت

بوجيه كافة فروع النشاط الصناعي ، والموارد المنجمية ، ومصادر الطاقة . واممت كذلك التجارة الخارجية ، ثم ٨٨ ٪ من التجارة التفصيلية ، واممت الـ ١٢ ٪ الباقية بدورها في السنة ١٩٤٨ . ولكن نهضة الصناعة تقدمت تقدماً بطيئاً جداً . ففي السنة ١٩٤٦ لم يبلغ الانتاج سوى ٥٠ ٪ من انتاج ما قبل الحرب .

وخلافاً لما حدث في الديموقراطيات الشعبية الاخرى التي لما تضع سوى خطط لسنتين او ثلاث سنوات ، بوشر في السنة ١٩٤٧ تنفيذ خطة خمسية (١٩٤٧ – ١٩٥١) . فقد نهضت يوغوسلافيا من ثم على الفور بخطة طويلة الاجل معدة لانهاض المناطق المتخلفة : الجبل الاسود ، بوسنيا ، مقدونيا ، بغية الحد من التفاوت الاقتصادي بينها وبين الجمهوريات الاخرى. وكان المقصود تحقيق تنمية سريعة للطاقة الصناعية التي يجب ان تبلغ خمسة اضعافها بمعدل زيادة سنوية خيالية يجب ان يبلغ ٣٧ ٪ ، خصوصاً في انتاج المناجم وانتاج الطاقة الكهربائية والصناعة الثقيلة .

يجب ان تكون الاعتمادات الملحوظة مرتفعة جداً : في السنة ١٩٥١ بلغت ٢٧,١٥ ٪ من الدخل القومي السنوي . ويجب ان يتضاعف عدد العمال الصناعيين ويصبح ٧٥٠ ٠٠٠ . اما نجاح هذه الخطة التي استلزمت اموالاً طائلة بسبب كلفة تجهيز المناطق المتخلفة ، فكان رهين استيراد بعض المصنوعات الجاهزة وبعض الخامات : آلات وتجهيزات مختلفة للصناعة ، تجهيزات كهربائية ، فحم حجري ، بترول ، منسوجات ، مطاط ... واقتصرت الصادرات على المعادن والمنتجات الزراعية .

الا ان الخطة اليوغوسلافية كانت اقل الخطط نجاحاً في الديموقراطيات الشعبية . فان معدل الزيادة المقرر لم يتحقق في يوم من الايام : في الحقل الزراعي انتهت الخطة الى فشل ذريع ، وفي الصناعة لم تبلغ سوى ٥٠ ٪ من اهدافها فقط .

اما اسباب هذا الفشل فعديدة : الحاجة الى اصحاب الكفاءات لادارة كافة المشاريع المؤممة ، الحاجة الى اليد العاملة الاختصاصية في الصناعة ، بطء انتشار التعاونيات : ١٣٠٠ في السنة ١٩٤٨ تعمل في ٣,٨ ٪ فقط من المساحة الزراعية ، استياء الفلاحين العاجزين عن الحصول على المصنوعات التي يحتاجون اليها . ويجب القول بصورة خاصة ان المصانع الكبرى ، ومحطات انتاج الطاقة الكهربائية التي انجزت ، وطرق المواصلات التي حسنت شبكتها ، لم تستخدم استخداماً يتناسب وطاقتها الانتاجية ، لان الخامات الضرورية لاستخدامها قد انتجت او استوردت بكميات ضئيلة بسبب قلة التصدير .

عزلة يوغوسلافيا

وهكذا كانت الخطة في طريقها الى الفشل حين حدثت القطيعة بين يوغوسلافيا وبين الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية الاخرى ، وحين اقصيت يوغوسلافيا عن الكومنفورم . اما الحجج التي استند اليها لتبرير هذا القرار فكانت الاتجاه القومي العام ، والموقف المعادي للسوفيات ، والتنظيم البيروقراطي

الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذي لا يقوم سوى بدور ثانوي الى جانب الجبهة الشعبية المؤلفة من عناصر غير متجانسة ، وخصوصاً السياسة الاقتصادية غير المعتدلة التي تسرعت في تأميم الصناعة والتجارة المتوسطتين وتصفية العناصر الرأسمالية في طبقة الفلاحين ، فعرضت النجاح للخطر وشقّت « الجبهة الاشتراكية الموحدة ضد التوسعية » . وعقب قطع العلائق الاقتصادية القطيعة السياسية ، واستتبع تغييرات عميقة في تطور الخطة الخمسية المترددة منذ قبل القطيعة . لقد عوقبت يوغوسلافيا بسبب عدم انقيادها الذي عزلها في « الشرق » ، فقطع عنها البترول الالباني والروماني والآلات التشيكية ، وفي السنة ١٩٤٩ هبطت مبادلاتها مع الاتحاد السوفياتي الى ثمنها في السنة السابقة . وكانت يوغوسلافيا مصممة على متابعة تنفيذ خطتها ، فطلبت حكومتها من الدول الغربية المعدات التي تحتاج اليها . ولكن تجارتها الخارجية شلت شللاً تاماً بسبب هبوط صادراتها التي كان تصريفها في الغرب اصعب منه في الشرق ، وتوقف استيراداتها من الفحم الحجري والاسمدة والبترول والحديد المصبوب ومعدات التجهيز . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان البلاد اخذت تنتج المزيد من الاسلحة (ابتلعت ميزانية الحرب ٢٠٪ من الدخل القومي) . وقد قال « ف. برّو » عن الخطة اليوغوسلافية : « خطة لا يمكن، في احسن الاحوال ، الا ان تكون فشلاً محدوداً ، انتهت الى فشل ذريع » . الا ان التأميمات تواصلت بين السنة ١٩٤٨ والسنة ١٩٥٠ ، بموجب قانون اقر في السنة ١٩٤٨ ، واسرع في وضع وسائل الانتاج والمقايضة في خدمة الجماعة ، فارتفع عدد التعاونيات من ١٣٠٠ في السنة ١٩٤٨ الى ٧٢٦٢ في السنة ١٩٥١ استثمرت ٢٥٪ من الاراضي الزراعية .

ثم ان يوغوسلافيا التي تقرّبت من جيرانها الجنوبيين وعقدت معاهدات دفاع متبادل مع اليونان وتركيا قد عدلت سياستها . فتوقفت عن تقديم المساعدة لعصابات « ماركوس » و« الأنس » التي لم تلبث انهزمت هزيمة منكرة امام الجيوش الملكية اليونانية ، وتقربت من الدول الغربية ، التي فتحت لها اعتمادات انقاذ ووسعت علائقها التجارية معها . وفي خريف السنة ١٩٥٠ ، اخذت يوغوسلافيا ، بفضل الاعتمادات الغربية ، تحوّل تجارتها الخارجية . ففي السنة ١٩٥١ ، اشترت الولايات المتحدة وكندا ١٥٪ من صادراتها مقابل ٢٪ في السنه ١٩٤٦ ، وباعت منها ٣٩٪ من وارداتها مقابل ٣٪ فقط قبل خمس سنوات خلت . الا ان الصعوبات الاقتصادية ما زالت على جانب كبير من الخطورة، فاعادت الحكومة النظر في سياستها الزراعية ، وغضت الطرف عن ارتفاع الاسعار ، بينما ابقت الاجور على حالها تقريباً ، ولكن الانتاج لم يسجل ارتفاعاً يذكر بالنسبة لمستواه قبل الحرب الا في الصناعة الثقيلة . وبعد سنوات التكيف العسير بين السنة ١٩٥٠ والسنة ١٩٥٢ ، لم يبلغ مستوى انتاج السنة ١٩٤٩ الا في السنة ١٩٥٤ ولم يجاوز الا في السنة ١٩٥٥ .

الطريقة اليوغوسلافية

ابتداء من السنة ١٩٥٠ ، اخذ يبرز الى الوجود تنظيم سياسي مميز ، شيوعي وماركسي في جوهره ، مختلف عن النظام السوفياتي . فان الحاجة الى تغيير نظام اقتصادي مشوّش والنزاع المتمادي مع الاتحاد السوفياتي قد دفعا بالحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، خلال فترة الانتقال ، الى ايجاد طريقة جديدة لتطبيق الماركسية تختلف اختلافاً كلياً عن طريقة حلفائه السابقين .

كان الهدف من هذه الطريقة ازالة رأسمالية الدولة والبيروقراطية التي ترافقها ، واشراك الجماهير اشراكاً دائماً في « بناء الاشتراكية » ، ونقل مهام الدولة – في بلاد غير متجانسة آخذة في تكوين وحدتها – الى اجهزة مستقلة استقلالاً ذاتياً . فلم تحتفظ الدولة الا بالشؤون الخارجية ، والجيش وامن الدولة . وانتقل كل ما تبقى من الادارة الى اجهزة منتخبة في كل جمهورية اتحادية ، والى لجان شعبية في التقسيمات الادارية الصغرى تتخذ القرارات وتراقب الادارة بحصر المعنى . وانما تستثبت السلطة المركزية شرعية اعمال هذه الاجهزة واللجان ، دونما اهتمام لملاءمتها ودون ان تكون موافقتها المسبقة ضرورية .

وتقرر الشيء نفسه في الحقل الاقتصادي : اسندت ادارة المشاريع الى مجالس عمالية ينتخبها المستخدمون وتعين لجنة ادارة . وقد ألفت مشاريع عديدة « تجمعاً اقتصادياً اعلى » تختار ادارته ، التي تعينها الدولة ، مدراء كل مشروع . ويهتم المجلس العمالي ولجنة الادارة بحماية العمل وتطبيق الخطة ، وميزان الدخل ، والتدابير الآيلة الى تحسين الانتاج . وهي « لجنة الاقتصاد الوطني » ، التي تألفت بموجب دستور السنة ١٩٥٣ ، ما تضع « الخطط العامة » التي ترسم الخطوط الكبرى التي تضع لجان الادارة والتجمع ، بحرية ، خطط وحداتها بالاستناد اليها . وتوزع ارباح المشروع الصافية (اي الدخل غير الصافي بعد ان تحسم منه الضريبة والأجور والأموال المستهلكة والفوائد) بين الدائرة الصغرى (الضريبة العقارية) والجمهورية والاتحاد (الضريبة على الارباح) و« صندوق العمل » الذي يمنح العمال علاوة على أجورهم . فليس استقلال المشاريع من ثم مقيداً إلا بالرقابة على شرعية اعمالها والرقابة الجبائية ورقابة المصرف الدائن . ولا تشترك الدولة لا في تحديد الأجور ولا في مراقبة تنفيذ الخطة .

يتضح من ثم ان دستور السنة ١٩٥٣ المعدّل قد حدّ ، ما امكن الحد ، من تدخل السلطة المركزية باقراره « حكماً ذاتياً » ادارياً حقيقياً على مستوى الدائرة الصغرى والقضاء والجمهورية المتحدة التي يدير مصالحها الجماعية الشعب نفسه ، وحكماً ذاتياً اجتماعياً اذ ان المنتجين يديرون مشاريعهم . وقد ادخل على دستور السنة ١٩٤٦ تعديل واحد هام : ضم مجلس القوميات الى المجلس الشعبي واحلّت محله جمعية المنتجين التي تنتخبها الفئتان الكبريان : العمال والفلاحون ، بنسب غير متساوية على كل حال (ممثل لكل ٣٠٠٠٠ عامل ، وممثل لكل ١٥٠٠٠٠ فلاح) . وهناك ، تحت هذه المجالس ، بضع مئات من اللجان الشعبية في الاقضية والمدن ، التي تنتخب بالتصويت العام ، وبضعة الوف من المجالس التي ينتخبها عمال المشاريع الصناعية والتجارية ، وعمال التعاونيات الزراعية ، وتؤلف كلها شبكة ادارية لامركزية واسعة تضمن البروليتاريا لها فيها مركزاً

مسيطراً . ونص دستور السنة ١٩٦٣ على ان واحداً – باستثناء الماريشال تيتو – لا يمكن اعادة انتخابه مرتين متواليتين للمركز الواحد ، مما يفرض حركة دورية سريعة في كافة اجهزة الدولة .

تحول الحزب الشيوعي في السنة ١٩٥٢ الى « عصبة الشيوعيين » ، والجبهة الشعبية الى « التحالف الاشتراكي للشعب العامل » ؛ فاصبحت مهمة الحزب منذئذ لا التدخل في تفاصيل النشاط السياسي والاقتصادي (الذي انيط بالتحالف) بل اعطاء التوجيهات وتسيير هذا النشاط بتثقيف الجماهير الشعبية .

الازمة الاقتصادية الراهنة

ان تأخر النمو الاقتصادي الذي لوحظ منذ السنة ١٩٦١ قد افسح المجال لتحسن ملموس في اواخر السنة ١٩٦٢ وفي السنة ١٩٦٣ (ارتفع معدل النمو العام من ٥ بالمائة الى ١٢ بالمائة تقريبا) . ولذلك فقد بوشر تنفيذ الخطة السبعية الجديدة (١٩٦٤) في جو من التفاؤل ايدته زيادة الانتاج الصناعي وازدهار المشاريع ، ولكنها لم تلبث ان تعرضت لخطر تضخم مالي سريع الخطى وارتفاع مفرط في الاسعار . ويفسر هذا الوضع فقدان التوازن بين الصادرات والواردات، وتزايد الاموال الموظفة بسرعة وعلى غير انتظام، وتزايد الاستهلاك الداخلي بفعل ارتفاع الاجور والرواتب والشراء بالدين. الا ان الافتقار الى النقود النادرة اللازمة لتأمين الاستيرادات الضرورية من الخامات والمصنوعات قد ارغم الحكومة على تجميد الاسعار في شهر آذار ١٩٦٥ وتخفيض قيمة الدينار في شهر تموز ، اي على انتهاج سياسة تقشفية تهدف الى اكراه المشاريع على اعادة تنظيمها وزيادة انتاجيتها والاستغناء عن الاعانات المالية التي تدفعها الدولة (باستثناء المناطق الفقيرة كمقدونيا والجبل الأسود) بغية جعل الانتاج قادراً على مزاحمة غيره في الأسواق الدولية . فلم تستلزم الازمة من ثم تدخل الدولة بشدة مرة اخرى ، وانما اتجه الاصلاح الى تطبيق قوانين اقتصاد الاسواق تطبيقاً فعالاً .

في الحقل الزراعي شمل قطاع الملكية الاجتماعية ١١٨٠٠٠٠ هكتار ، اي ١١,٤ بالمائة فقط من المجموع. وقد تألف من مزارع وطنية في الاستثمارات الكبرى التي صودرت ، ومزارع عمل (موازية للمزارع التعاونية السوفياتية) ، وتعاونيات زراعية من الطراز العام ، هبط عددها من ٧٢٦٢ في السنة ١٩٥٠ الى ١٢٠٠ في السنة ١٩٥٤ ، ثم عاد فارتفع الى ٢٣٠٠ وحدة في السنة ١٩٦٣ ضمت ١٣٠٠٠٠٠ عضو . اما القطاع الخاص ، فقد تألف من استثمارات صغرى – حددت الاملاك الفردية بـ ١٠ هكتارات بغية الحؤول دون ظهور الكولاك مرة اخرى – يبلغ معدل مساحتها ٤,٢ هكتارات في الوحدة، ولم يجاوز اكثر من ثلثها الهكتارين وجلي انه نظام لا يساعد على تحقيق الاصلاح العصري ، وقد زاد من سوئه اكتظاظ الارياف بالسكان الذي استتبع بطالة ريفية حقيقية متفاوتة الظهور احياناً ، بالرغم من هجرة ريفية هامة . فنجم عن ذلك انتاجية متدنية واستهلاك ذاتي مرتفع (٣/٤ الانتاج الزراعي) . وهكذا كان

معظم الاراضي خاضعاً لنظام زراعي قديم جداً في بلاد تشكو من العجز في منتجات اساسية كثيرة .

هنالك من ثم ، والحق يقال ، « طريق يوغوسلافية » نحو الشيوعية هي نظام تسوية بين التخطيط المركزي والمفصل الشبيه بالمثال السوفياتي ، وبين اللامركزية الفعلية المتحققة بالادارة الصناعية الذاتية و « المزاحمة الاشتراكية » مع توزيع الارباح والابقاء على الدخل العقاري .
انه لعمري « نظام شيوعي حر » مميز ، اعاد منذ وفاة ستالين العلائق التجارية بالديموقراطيات الشعبية ، شريكاته الطبيعيات في التجارة . فيوغسلافيا دولة شيوعية تخلت عن مبادىء الاقتصاد والديموقراطية الحرة ، ولكنها ترفض الانضمام مرة اخرى الى الكتلة التي يؤلف الاتحاد السوفياتي عنصرها الموجه ، وتنتهج سياسة « حيادية » تتمتع بنفوذ حقيقي في دول آسيا وافريقيا الحديثة الاستقلال ، وقد تكون ـ بحسب الظروف ـ موافقة الكتلة الشرقية حينا والكتلة الغربية حينا آخر .

الفصل الرابع

الصين تمسي شيوعية

انتقلت الصين الى المعسكر الشيوعي في السنة ١٩٤٩ ، ولكن انقلاب التوازن بين الكومنتانغ والحزب الشيوعي الصيني ، الذي سوف يؤمن نصر هذا الاخير ، قد حدث اثناء الحرب بالذات .

الحرب الاهلية

في السنة ١٩٢٠ ، كانت الصين غارقة في فوضى هائلة شبهها بعضهم بالفوضى التي عرفتها فرنسا في ايام الشركات الكبرى . فقد كانت البلاد فريسة الـ « توكيون » ، اسياد الحرب ، الذين تصرفوا في كل ولاية تصرف الملوك المستقلين ، وحاول كل منهم تعزيز جيشه وموارده ، وحالف جيرانه تارة وخاصمهم تارة اخرى ؛ وكانوا كلهم على علاقة بالحكومات الاجنبية التي منحوها شتى الامتيازات ، واحتفظوا لأنفسهم بحصيلة الضرائب في ولايتهم ، وأودعوا ارباحهم بعض المصارف الاجنبية احتياطاً لادبار الزمان بهم ؛ فكانت حكومة بكين وحكومة كانتون ، والحالة هذه ، مفتقرتين الى القوة والموارد .

كانت نتيجة ذلك عدم امن وبؤساً شاملين – الا في الامتيازات الاجنبية ، ملاجىء الطمأنينة الاخيرة – أدّيا الى نقص عام في نسبة الولادات وزيادة هائلة في نسبة الوفيات بين الاطفال . فانتقلت القرى الى المواقع الدفاعية ، وتوقفت اعمال صيانة سدود « يانغ – تسي » و « هان » والقناة الامبراطورية و « هوانغ – هو » ، فانهارت السدود وغمرت بالمياه مساحات كبرى من الاراضي الزراعية . وجاءت البلبلة التي احدثتها الحرب الاهلية تضيف نتائجها الى نتائج علتين تقليديتين هما بؤس البلاد واكتظاظها بالأهالي : تقسيم الارض المفرط ، ازدياد وطأة الدخل المدفوع لكبار الملاكين ، استحالة استخدام كل هذه اليد العاملة في صناعات المدن . فنزح العديد من الفلاحين الى منشوريا . وأمست الهجرة نهائية بعد ان كانت موسمية . وكان عدد المهاجرين ٤٠٠ ٠٠٠ في السنة قبل السنة ١٩٢٦ ، فبلغ المليون في السنة ١٩٢٧ ، و ٥٤٦ ٠٠٠ في السنة ١٩٢٨ ... وقد ذهب سوادهم سيراً على الاقدام ناقلين ما يملكونه على العربات ، فكان نزوحهم مسيرة مجاعة يموت فيها الكثيرون على قارعة الطريق . فكان ان

عدد سكان منشوريا قد ارتفع ، بين السنة ١٩٢٢ والسنة ١٩٣٠ ، من ٢٢ مليون نسمة الى ٣٠ مليوناً . وطلب غيرهم العمل في مغارس ماليزيا واستثماراتها المنجمية . وقد بلغ عدد المهاجرين ٣ ملايين بين السنة ١٩١١ والسنة ١٩٢٧ ، استقر نصفهم في ماليزيا .

الصين الجديدة

العمال

الا ان الصين الاقطاعية القديمة ، صين اسياد الحرب ، مع جماهيرها القروية الخاضعة لسيطرة الملاكين المقاربين ، كانت آخـذة في التحول . فان صناعات جديدة قد نمت في ظل الحرب ، كالصناعة الثقيلة ، واستفادت الصناعات القـديمة (قطنيات ، مطاحن ، تبغ ، اسمنت) من تدني اجور اليـد العاملة . وتأسست مدن جديدة . وغدت هانكيو وشنغاي وتيانتسين مراكز صناعية كبرى ، وضمت طبقة عمالية متجانسة ، قد تبلغ المليوني شخص ، عاشت فيها حياة مختلفة عن حياة الفلاحين ، ولكنها حافظت على علائق وثيقة بطبقة الفلاحين . وكانت الاجور متدنية ويوم العمل طويلاً (١٢ — ١٥ ساعة) ، وعدد النساء والاولاد المستخدمين مرتفعـاً ، ووضعهم شبيهاً بوضع البروليتاريا البريطانية والفرنسيـة في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، وقـد ساعد على قيام منظمات عماليـة ، قامت باضرابات متتابعة ومتكاثرة ، وبلغ عدد المسجل منها رسمياً في شنغاي ٤٧ منظمة .

البورجوازية الوطنية

غالباً ما حظيت هـذه الاضرابات بمساعدة ومساندة البورجوازية الوطنية — التجار وصغار الصناعيين — التي كانت هي ايضاً ضحية امتيازات الاجانب . فان رؤوس الاموال التي جمعها التجار بوفرة في المرافىء ودخول الملاكين المقاربين قد ساعدت نمو صناعات ومصارف صينية بحصر المعنى . ومنذ السنة ١٩١٩ ، جاوز عدد صنانير الحياكة القطنية في المصانع الصينية عدد الصنانير نفسها في المصانع الاجنبية . اجل لقد بقي الاميركيون والاوروبيون واليابانيون اسياد الصناعة الثقيلة ، ولكن رؤوس الاموال الصينية قد حققت السيطرة في الصناعات الخفيفة . وكانت هذه الرأسمالية الوطنية بحاجة الى النظام وتوحيد البلاد والى اصلاح اداري وقضائي على الطريقة الغربية ، واستلزمت وضع حدّ للامتيازات التي يفيد منها الاجانب بالاستناد الى « معاهدات غير متساوية » . ولذلك فهي قد اسهمت في حركة الاستقلال الوطني الموجهة ضد الـ « توكيون » والتجار الاجانب . واستخدمت الموجة الوطنية التي حركت الفلاحين والعمال ، متقربة في الوقت نفسه من الملاكين المقاربين ، وحتى من الاوروبيين والاميركيين حين تنطوي الموجة القروية او العمالية على خطر محدق (في كانتون في السنة ١٩٢٤ ، وفي شنغاي في السنة ١٩٢٧) .

الثورة الثقافية

يعتبر المثقفون القوة المحركة لتطور الصين . فقد نمت بينهم ، كما نمت بين العملة ، وطنية صينية حية كانوا هم دعاتها النشاط . لقـد ولد تعليم ديموقراطي على كافة المستويات : تعددت الجامعات ، وازال اصلاح اللغة والكتابة العراقيل

التي كانت تعترض تثقيف الجماهير الشعبية . هذا هو « اصلاح اللغـة العامية » ، « الـ باي – هوا » وقد اصبح الزامياً في السنة ١٩٢٠ – الذي اعرض عن اللغة الادبية الكلاسيكية واعتمد اللغة اليومية ، المستعملة منذ قبل ذلك في ادب المهازل والروايات المألوف ، بعد ان اعطاهـا شكلاً كتابياً . وفي الوقت نفسه ، اتاحت « طريق الالف حرف » ، المبنية على استخدام اكثر الحروف استعمالاً ، التغلب على اهم الصعوبات التي انطوت عليها الكتابة الصينية وتعليم القراءة بسرعة . ثم جاء النجاح كاملاً حين نشر كتاب « هو – شو » ، « موجـز في تاريخ الفلسفة الصينية » ، الذي اثبت امكانية استعمال الاسلوب الجديد في المناقشات المجردة .

مهدت هذه الاصلاحات السبيل لثورة ثقافيـة كانت بمثابة نهضة حقيقية . فقد نشرت ترجمات عديدة مؤلفات الغرب الكبرى ومكتشفاته العلمية ، وهاجمت روايات واقعية ومؤلفات انتقادية النظام السياسي والاجتماعي السابق . كما هاجمت تنظيم العـائلة البطريركية ، والمعتقدات الدينية ، ولا سيما الكونفوشيوسية « غير الصالحة للحياة العصرية » و « المنافيـة للجمهورية » ، والمسيحية .

الحركة الوطنية

ان الحركة الوطنية التي ارادت استقلال البـلاد ووحدتها وتجديدها العصري قد ضمت في عمل مشترك العناصر الناشطة في المجتمع الجديد : البورجوازية الرأسمالية ، البروليتاريا العمالية ، المثقفين . هـذه هي « حركة الرابع من نوار » (١٩١٩) – يوم اعتراض الطلاب من معاهدات الصلح – التي كانت اعلاناً للثورة الوطنية . وكان تأثير الثورة الروسية عظيماً جداً على كل حـال ، بالمثل الذي اعطته ، وبتعليمها ان على الصين ، اذا ارادت التقدم ، القضاء على الرأسمالية الاجنبية ، وبالمساعدة الفعـالة المباشرة التي قدمتها . وبالرغم من انه لم يتعصب للشيوعية ، فان سن – يات – شن ، الذي اعـاد تنظيم الكومنتانغ ، قد اوفد تشانغ – كاي – شك الى موسكو للاشتراك في دورة تدريبية ، وتعاون مع الحزب الشيوعي الصيني . ووقع على اتفاقات تتخلى روسيا بموجبها عن المعاهدات غـير المتساوية وترسل الى الصين مدربين عسكريين ومنظمين سياسيين . وانمـا نجح الكومنتانغ في استعادة الصين الشمالية وهزم اسياد الحرب بواسطة الجيش الذي دربوه وتولى قيادته الضباط الذين اعدوهم .

وقفت الحركة الوطنية الصينية بحزم في وجه الدول الاوروبية التي اثبتت ، في السنة ١٩١٩ في فرساي ، وفي ١٩٢٠ – ١٩٢١ في واشنطن ، انها لا تريد لا مساعدة الصينيين على بناء صين مستقلة سياسياً واقتصادياً ، ولا التخلي عن امتيازات المعاهدات غير المتساوية . وحين تعددت الاحداث الدامية في مراكز الامتيازات ، رد الصينيون بمقاطعة التجارة البريطانيـة . فاضطر المرسلون والتجار الانكليز – وقـد كانوا اكثر الاجانب تعرضاً للخطر لأن مصالح انكلترا الاقتصادية والسياسية في الصين كانت اعظم شأناً من مصالح سواها – الى الجـلاء عن الداخل نحو المرافىء .

١٧ — مركز روكفلر في نيويورك .

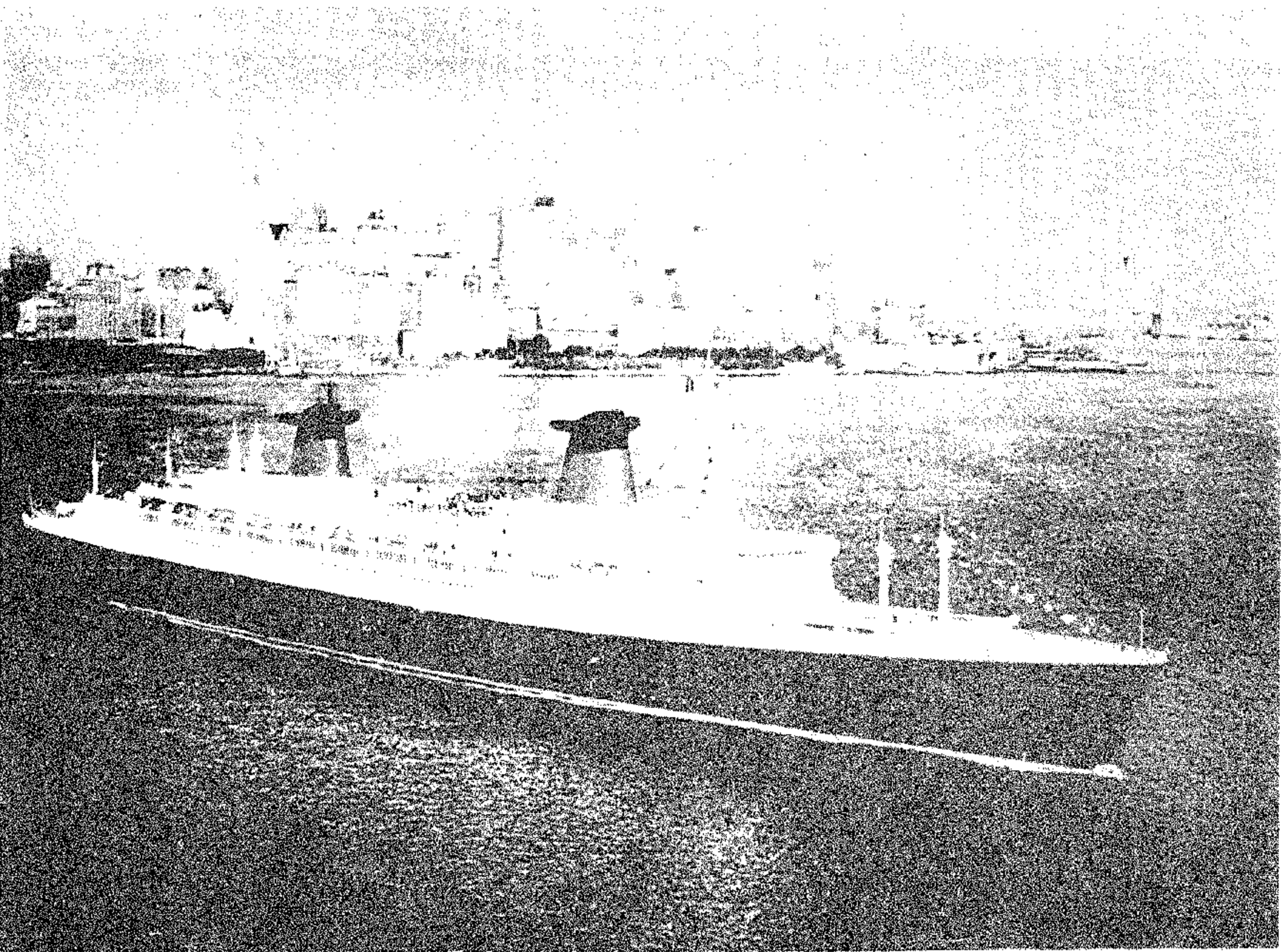

١٨ — الباخرة فرنسا التي انزلت الى البحر في السنة ١٩٦٠ .

١٩ — مخزن اميركي كبير على مقربة من « ديترويت » .

٣٠ - شبكة طرقات عصرية في لوس انجلوس : هاربور فريواي .

٢١ – الساحة الحمراء في موسكو ١٩٥٤ . في الوسط ضريح لينين .

٢٢ – جامعة موسكو . منظر لموسكو التي يشرف عليها بناء الجامعة الرائع .

٣٣ ـ مجاعة ١٩٥٣ في الهند .

٢٤ – المهاتما غاندي يحيط به تلاميذه .

٢٥ — ماوتسي — تونغ يخطب في جيوشه .

٢٦ – شنغاي : مدرسة في الهواء الطلق . الحزب والشبيبة .

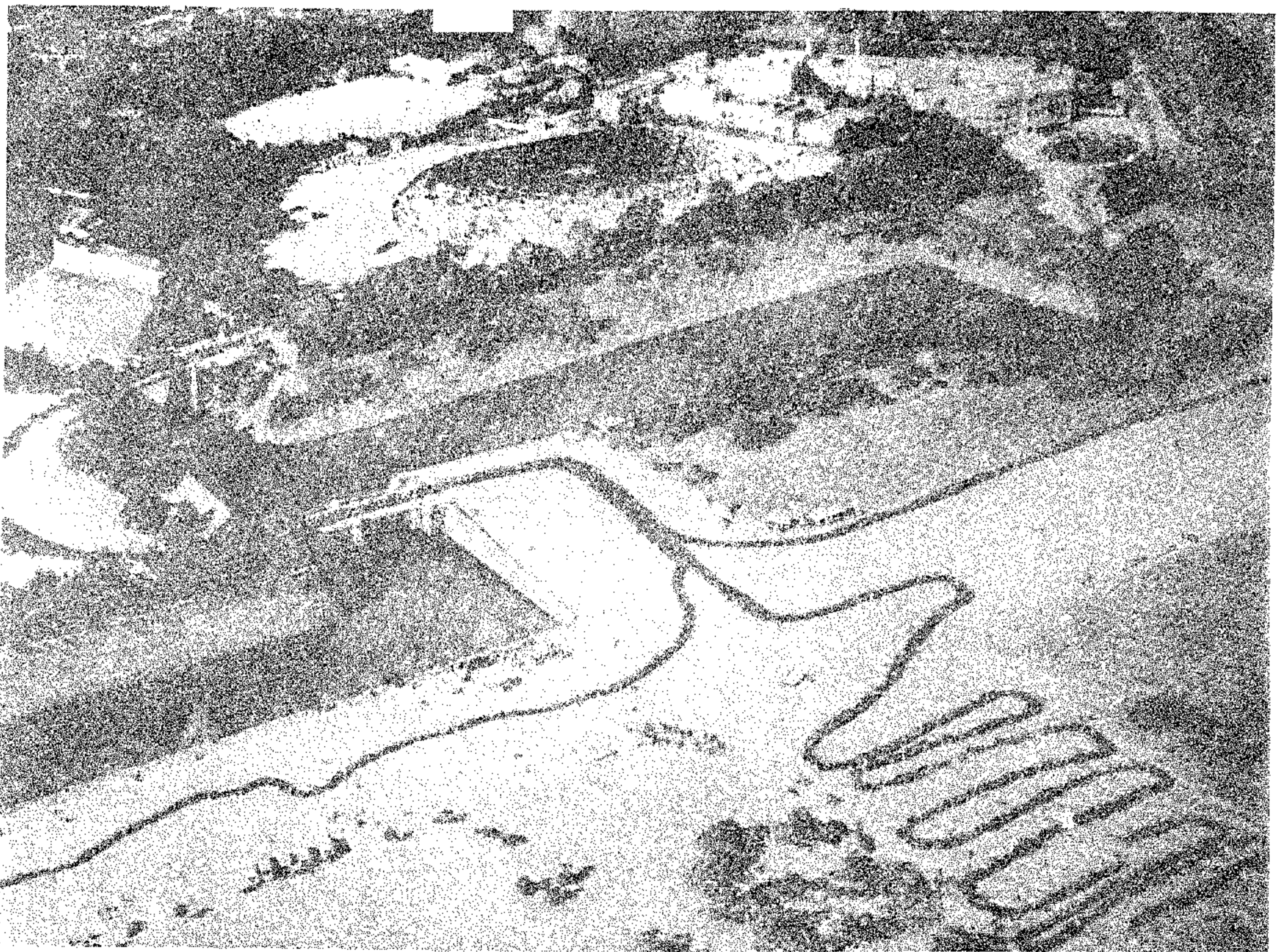

٢٧ – عرض الجماهير امام امبراطور اليابان بمناسبة رأس السنة .

٢٨ – عيد الحصاد في مزرعة جماعية .

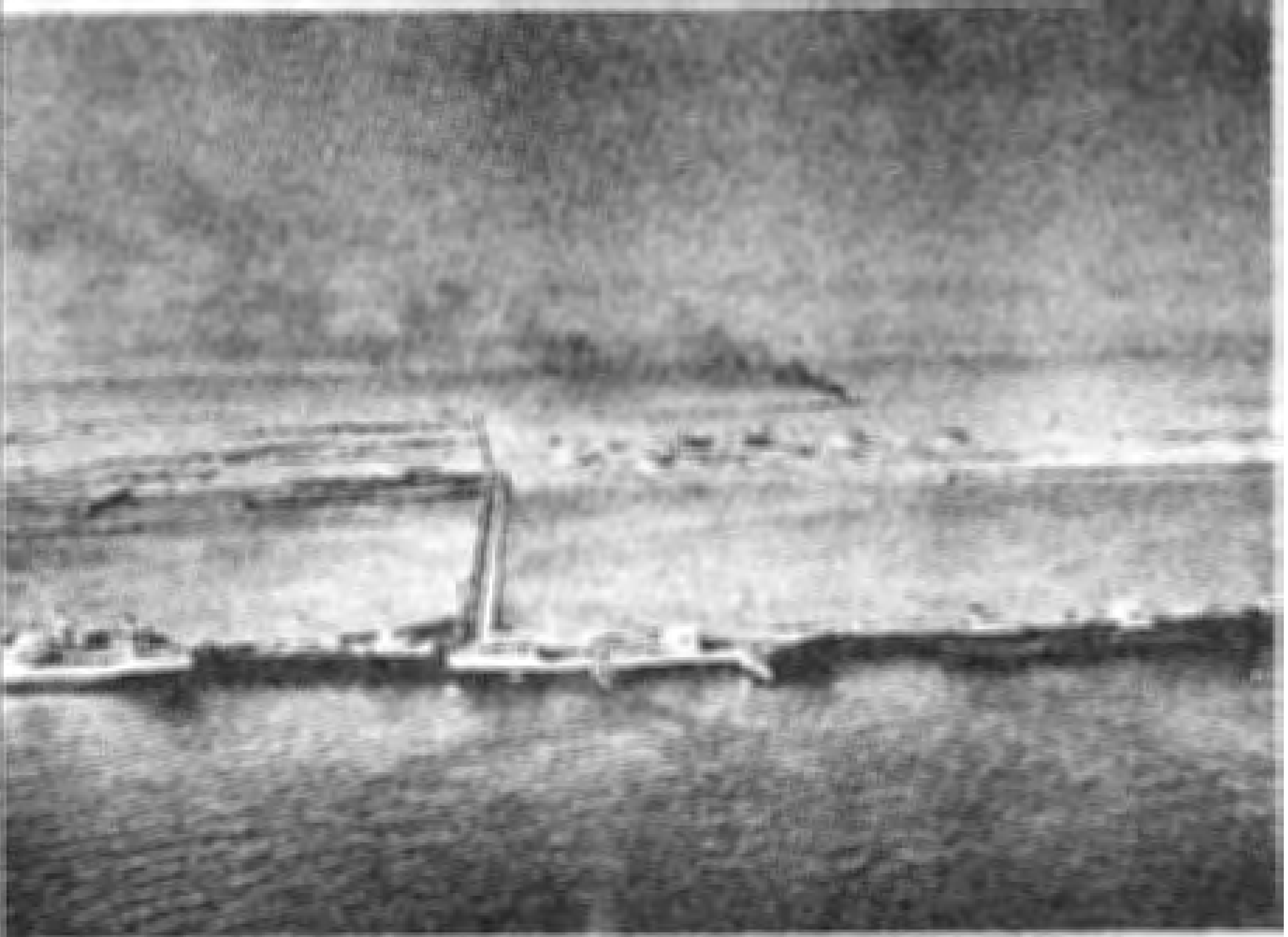

٢٩ – مرفأ بترولي في العراق .

٣٠ – رباط : المدينة الاوروبية والمدينة البلدية .

٣١ — ارلكين وكولومبين ، بريشة بابلو بيكاسو . متحف لينينغراد .

٣٢ – تلامذة في « طوغو » . التعلم مفتاح التقدم .

ارتداؤها طابع العداء للمسيحية

ارتبطت الحركة المعادية للمسيحية ارتباطاً وثيقاً بهذه الحركة الوطنية . فبينما كانت هذه الحركة من قبـل وقفا على القوى المحافظة التقليدية ، قادتها آنذاك العناصر الثورية والوطنية ، اي الطلاب والعمال . لقد فُرّق حتى ذاك التاريخ بين المسيحية كدين وبين المرسلين حملة « الغزو الثقافي » . وان عمل المرسلين ، الذي غالباً ما ارتبط في الماضي بالتدخلات المسلحة الاجنبية ، قد اعتبر منذئذ لا كـ « طليعة التوسعية » فحسب ، بل كدعاوة لافكار باطلة مناهضة التقدم ايضاً . وطولب بارجـاع « حق التعليم » الذي يجب ان يعاد للصينيين. فوضعت الحكومة في السنة ١٩٢٦ ، رغبة منها في تحقيق هذه الامنية ، مدارس المرسلين تحت إشراف حكومي ، وقررت الا يكون المديرون اجانب بعد اليوم وان يكون التعليم الديني اختيارياً . وفي اثناء المظاهرات خرّبت املاك الارساليات واعتدي على المرسلين بالجرح والقتل ، فاضطر عدّة آلاف منهم الى الجلاء عن داخل البـــلاد ؛ فكان الرد على هذه الاصطدامات « سياسة السفن الحربية » التي اطلقت نيران مدافعها على مدن الساحل انتقاماً . وقد صادفت الحركة في الزمن فـــترة التحالف بين الكومنتانغ والحـزب الشيوعي ؛ الا ان عنفها قد تضاءل حين اتجه تشانغ اتجاهاً يمينياً وانفصل عن العناصر العماليـة والشيوعية .

اصلاحات الكومنتانغ

بعد وفاة سن ـ يات ـ سن ، في السنة ١٩٢٥، انتهت حكومة الكومنتانغ ، التي استعادت سيطرتها على كافـــة اجزاء الصين تقريباً ، الى منابذة الحزب الشيوعي الذي كان يطالب باصلاح زراعي عميـــق والذي اقضت نجاحاته مضاجع جامعي الثروات من التجار . وكان ان جنـــاح الكومنتانغ الايمن الذي كان لصهري تشانغ ، « ت. ف. سونغ » و « هـ. كونغ » ، تأثير كبير عليه ، والذي حظي بتأييد الجيش الظافر ، قد تقرب من الاجانب في شنغاي . فحرّم الحزب الشيوعي وقتـــل اعضاؤه المقبوض عليهم بعشرات الالوف ، ولاذ المستشارون الروس بالفرار . واستولى تشانـــغ على هان ـ يانغ و هانكيو ؛ فبدا الحزب الشيوعي وكأنه قضي عليه قضاء تاماً .

اعترفت الدول الكبرى بتشانغ وساندته انكلترا والولايات المتحدة ، فتولى القيـام بعمل عظيم تناول التصنيع وتجديد الاقتصاد والادارة بحسب مقتضيات العصر : احـــداث الطرق والسكك الحديدية ، تنمية الصناعات ؛ ولكنه لم يحاول اي اصلاح اجتماعي . واعلن ابطـال المعاهدات القديمة عند انتهاء مدة العمل بها . فتخلت بلجيكا وايطاليـا والدانمارك والبرتغال واسبانيا عن امتيازاتها كما تخلى عنها مهزومو السنة ١٩١٨ بين ١٩٢١ و ١٩٢٥ . واسترد استقلاله الجمركي والرقابة على مصلحة الجمارك البحرية والضريبة على الملح . وفي السنة ١٩٣٠ تخلت انكلترا عن اقليم واي ـ هاي ـ واي . الا ان محاولة إعادة التنظيم هـذه قد اعاقها التدخل الياباني من اجل احتلال الصين قطعة وراء قطعة .

١ – مصير الكومنتانغ

حكومة تشانغ كاي ـ شك منذ السنة ١٩٣٧

الا ان وحدة المقاومة الصينية ضد الياباني قد تحققت مرة اخرى في السنة ١٩٣٦ . فان الشيوعيين – بالرغم من الحرب التي شنها حكم الكومنتانغ عليهم طيلة اكثر من عشر سنوات – قد وقفوا الى جانب تشانغ كاي – شك حين توقيفه في « سيان » لانهم اعتبروه خير من يتولى مقاومة الغازي . ووافق تشانغ على الجبهة الموحدة التي عرضوها عليه ، واخذ على نفسه اعادة تنظيم الجيش الذي سوف تنضم اليه القوات الشيوعية ، والوقوف بعزم في وجه اليابان . فاعتمد الجيش فن الحرب الشيوعي : التخلي عن بعض الاراضي بغية كسب الوقت . واستمر الصراع بالرغم من استسلام مونيخ الذي قضى على الامل بتدخل اوروبا ، وبالرغم من الهزائم. فانتقلت الحكومة الى تشونغ – كنغ بعد انتقالها الى هانكيو . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اليابان ، التي استمالت اليها رجال الاعمال وعدداً كبيراً من الوطنيين المعادين للبيض في الدرجة الاولى ، والتي الفت حكومة صينية صديقة في نانكين ، قد اعتبرت ، بين السنة ١٩٤١ والسنة ١٩٤٣ ، ان الولايات المتحدة هي عدوها الاول . واكتفت بالنقاط التي احتلتها ، ولم تقم ، ضد مقاومة بدت لها غير منظمة ، سوى بعمليات معدة لإشاعة الذعر : قصف جوي ، وغارات سريعة على ارض العدو تستهدف القتل والنهب .

ربما اسهم خمود الحرب اليابانية هذا في التبديل الذي طرأ على سياسة حكومة الكومنتانغ. فان هذه الحكومة التي اثبلت بين السنة ١٩٢٧ والسنة ١٩٣٧ «انها خير حكومة عصرية وانافذة عرفتها الصين » قد ارتدت طابعاً آخر . لقد كانت في نانكين تحت تأثير التجار ورجال الاعمال في المرافىء ، المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بكبار الملاكين العقاريين . فحافظت من ثم على النظام الاجتماعي القديم في الارياف دون ادخال اي تغيير عليه ، ولكنها حققت بعض الاصلاحات : نشر قانون جزائي ومدني جديد ، توحيد النقد ، اعادة تنظيم اعمال المصارف . وقد بذل مجهود كبير لاقامة حكومة عصرية موحدة . اجل لقد تحقق التجديد العصري لمصلحة الطبقة الوطنية العليا ، وانما اصبح هناك تجديد عصري . اما في تشونغ – كنغ ، اي في قلب احدى اكثر الولايات تخلفاً في البلاد ، فكان الجو مختلفاً . فان الحكومة هنا كانت بعيدة عن العناصر القوية التي من شأنها الضغط عليها : الجماهير الشعبية والطلاب . فليست السيطرة لنفوذ صيارفة شنغاي بعد اليوم،بل للملاك العقاري المحافظ الذي«يفسر شعار الحرب مقاومة واعادة بناء، بأنه مقاومة للاصلاحات الاجتماعية وتدعيم لمركزه»(فيربانك).اما عناصر الاصلاح فقد شلت نشاطاتها، ولا سيما ان اكثرها نشاطاً كان على خط القتال.واقصي الاحرار والشيوعيون عن الادارة،وعطلت صحف المعارضة ، وراقبت قوى الامن كتب المثقفين والاحرار الذين هاجروا باعداد كبرى الى هونغ – كونغ وسنغافوره او التحقوا بالجاليات الصينية في جنوبي شرقي آسيا . وقطعت

العلائق مع الشيوعيين ، ولم يُطوَ ذكر نجاحاتهم في الحرب ضـــد اليابان فحسب ، بل نظّم « حصار طبي » حول جيوشهم - الثامن والرابع - التي لم تستلم بعد ذلك معدات صحية ومواد صيدلية . وزال بصورة خاصة طابع القوة والعنف عن الحرب ضد اليابان. فلم يوضع اي مخطط لتعبئة طاقات البلاد ، ونقلت المصانع الى الداخل دون مخطط شامل ودون تنظيم عـام ، ولم تفرض رقابة على القطع والمؤسسات المالية ، فلم يلبث التضخم المالي ان ظهر بمظهر الكارثـة ، واطلق العنان للمضاربة في المواد النادرة غير المحددة .

ورافق الفساد التهاون والتقصير . وتسبب التبذير وسوء الادارة في موت ملايين البشر في الجيوش المفتقرة الى المؤن والملابس والعتاد ، وفي السكان المدنيين الذين فتكت مجاعات السنة ١٩٤٣ بثلاثة ملايين منهم في هونان وكوانتونغ وشي - كيانغ . وزادت في الطين بـلة سرقة اموال الخزينة ، والمتاجرات التي استفاد منها القـادة العسكريون والموظفون والوزراء - وفي طليعتهم صهر القائد العام بالذات ، ت . ف . سونغ ، وزير المالية ، ثم وزير الشؤون الخارجية ورئيس مجلس الوزراء . فابتيعت العقارات المبنية في القطاعات الممنوحة للاجانب ، والاراضي و « القيم المضمونة » كالمواد الصيدلية ، والآلات ، والاقمشة ، ولم يبلـغ الجيش شيء من « المصنوعات المرسلة اليه (بموجب قانون « الاعارة والتأجير ») . فكل هذه المصنوعات بيعت في طريقها الى الجيش بواسطة الوزراء وحكام الولايات او حتى الضباط انفسهم » . وقد ادانت الشهادات الاميركية والبريطانية نظام الحكم الذي شبهه الجنرال « ستيلوَل » بالنازية: «حكومة مماثلة .. ولصوصية مماثلة .. » ومال قادة الجيش طبعـاً الى الاحتفاظ بالاعتدة الحربية ... « يعدون بشن الهجوم ، ثم يتراجعون ؛ .. يصدرون الاوامر ، ثم يعزون الى المرؤوسين بعدم تنفيذها » . « يدفع قادة الجيش مرتبات الجيوش كما يطيب لهم الدفـع .. ولا يُجنّد سوى المساكين المفتقرين الى المال او الى حماية النافذين » .

وفي الحقل العسكري شوهد الارتجال نفسه والفوضى نفسها . فالجيوش ضعيفة لأن الحكومة لا تريد تسليح الفلاحين خوفاً من الشيوعية ، والقيادات تستند الى العناصر المعروفة بميولهـا المحافظة ؛ وحدث ما هو ادهى من ذلك كله حين تجددت الحرب الاهلية في السنة ١٩٣٧ ؛ فمنذ السنة ١٩٤١ استبقى تشانغ ، بغية محاربة الشيوعيين ، العتـاد الحربي الحديث الذي شُحنه اليه الحلفاء . وقام ما يشبه هدنة ضمنية مع اليابانيين وجرت اتصالات غير رسمية بين ممثلي تشانـغ وممثلي وانغ تشنغ واي ، رئيس الحكومة الموالية لليابان في نانكين ، وتوقفت محطتا الاذاعة عن التهاجم . ولم يواصل الحرب ضد اليابانيين ، بالاضافة الى الشيوعيين ، سوى الطيارين الاميركيين الذين ينطلقون من القواعد الصينية لالقاء القنابل على اليابان ، وهذا مـا حمل اليابانيين في السنة ١٩٤٤ على شن هجوم ادى الى الاستيلاء على هذه المطـارات ، وعلى التقدم في شي - كيانغ ، وهونان الغنية ، فتشتت الجيوش مرة اخرى ، وكان الاندحـار العسكري تاماً . « فلم يبق من الصين الحكومية ، في اوائل السنة ١٩٤٥ ، سوى دولة اقطاعية صغرى » .

وضع الحزب الشيوعي بين ١٩٢٨ و ١٩٣٥

محق الحزب الشيوعي بعد مجازر كانتون وشنغـاي وهانكيو وحملات تشانغ في السنتين ١٩٢٧ و ١٩٢٨ ، فانصرف الى اعادة تنظيم صفوفه ببطء تحت اشراف ماو – تسي – تونغ و « شوته » في المعاقل التي احتفظ فيها ببعض الجماعات المسلحة عند حدود هونان و كيانغ – سي والى الجنوب من هانكيو. وفي اواخر السنة ١٩٢٩ ضم حوالي ٦٢٠٠٠ جندي زود ٤٠٠٠٠ منهم بأسلحة نارية . فأقصي جباة الضرائب وكبار الملاكين عن الاقاليم التي كان يحتلها الشيوعيون ووزعت الارض على الفلاحين . فوجه تشان كاي – شك ضد جيش الحزب الشيوعي سلسلة من « حملات الابادة » التي تخللتها الهزائم والانتصارات غير الحاسمة . اما الحملة السادسة التي ضمت ٤٠٠٠٠٠ جندي و ٤٠٠ طائرة ، والتي اعدتها بعثة الجنرال فالكنهوزن الالمانية ، فقد حققت في السنة ١٩٣٣ النتائج الهامة الاولى : في تشرين الاول ١٩٣٤ قررت الجيوش الشيوعية الجلاء عن كيانغ – سي والانسحاب غرباً الى « سو تشوان » . فبدأت حينذاك « المسيرة الطويلة » ، التي تعتبر اغرب احداث هذه الحرب : طيلة سنة كاملة ، انسحب ١٣٠٠٠٠ رجل وامرأة وولد سيراً على الاقدام ، بمعدل ٤٠ كيلومترا في اليوم الواحد ، معرضين كل ساعة لغارات الطائرات ، مكثرين من المسيرات الليلية بغية النجاة من هذه الهجمات ، ومن المناورات الالهائية بغية التمكن من عبور الانهار ، تاركين وراءهم العتاد والمرضى والجرحى وضحايا البرد والجوع ، مقاتلين في سبيل اجتياز الخطوط المحصنة ، قاطعين سلاسل جبال يبلغ ارتفاعها ٥٠٠٠ متر (تاهسويه سان) . وفي ٢٠ تشرين الاول ١٩٣٥ اخيراً ، استقر الناجون الـ ٢٠٠٠٠ في شمالي شنسي حيث كانوا في مأمن من حصار كامل بسبب وجود الصحراء من ورائهم ، وحيث توجب عليهم تجديد كل شيء (الشكل ٢٧) .

« الديموقراطية الجديدة »

هنا ، في ينان ، وضع ماو تعاليم « ديموقراطية الصين الجديدة » التي نشرها في السنة ١٩٤٠ . وقد قادته قوة العنصر القروي الصيني الى بناء الحركة الشيوعية على اساس قروي لا عمالي اسوة بالاحزاب الشيوعية الاوروبية. فسوف تكون المرحلة الاولى للثورة الشيوعية « الديموقراطية الجديدة » التي ستحول المجتمع القديم الاقطاعي الطابع ، بمساعدة الاتحاد السوفياتي ، الى مجتمع ديموقراطي مستقل . وسيحكم هذه الدولة تحالف عدة طبقات ثورية ، لأن البورجوازية الصينية ، على غرار البورجوازية الفرنسية في السنة ١٧٨٩ – كانت ثورية جزئياً . وخلال فترة الانتقال هذه ، ستخضع الصين لنظام لن يكون لا بورجوازياً فحسب ، ولا بروليتارياً فحسب ، بل حكماً ديموقراطيا مركزيا مبنيا على انتخابات (يحق للجميع الاشتراك فيها) يختار بموجبها اعضاء سلسلة جمعيات شعبية ابتداء من جمعيات القرى حتى المؤتمر الوطني . وعملاً بمقررات الكومنتانغ المتخذة في السنة ١٩٢٤ ، يتوجب على الدولة ، منذ هذه المرحلة الاولى ، ان تضع يدها على النشاطات الاحتكارية : المصارف الكبرى ، الصناعات الهامة ، ووسائل النقل. وبغية

ستدرك محاولات الانتقام التي قد يقوم بها الرأسماليون وكبار الملاكين العقاريين، سوف تصادر املاك هؤلاء وتوزع على الفلاحين الذين يحرثونها . وقد اراد ماو ابداً ان يتصرف تصرف وريث مبادىء « سن » التي تخلى عنها نظام الكومنتانغ، ولم تكن فكرته من ثم مجرد انعكاس الفكرة السوفياتية ، بل اخذت بعين الاعتبار التقاليد الصينية ونظام المجتمع الصيني الخاص والظروف السياسية الراهنة .

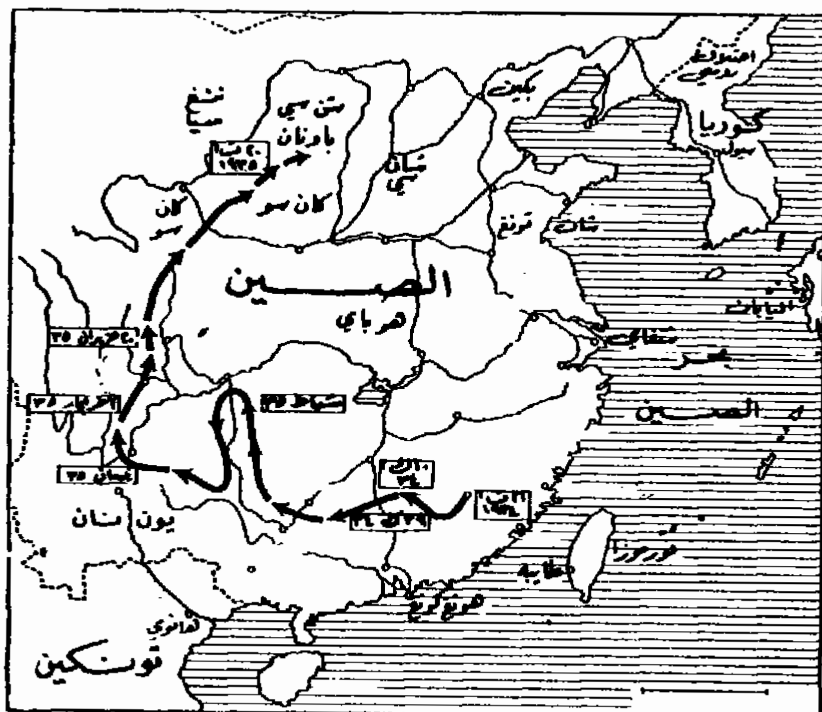

الشكل ٢٧ ـ مسيرة ماوتسي ـ تونغ الطويلة (٢١ تشرين الاول ١٩٣٤ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٣٥) .

في حرب الصينيين ضد اليابان ، اعتمد الشيوعيون فن حرب العصابات الخاص بهم ، واقاموا في الوقت نفسه حكومات ديموقراطية . ونُظّم الجيش (الجيش الثامن في منطقة شنسي و « الجيش الرابع الجديد » في منطقة يانغ – تسي الاسفل) تنظيماً ديموقراطياً ؛ فقبل كل معركة ، يُطلع الجنود على الوضع وهدف المناورة ، وبعد كل معركة يجري التعليق على العمليات العسكرية امامهم . وقد انشئت ، بالاضافة الى الجيش النظامي ، « فرق شعبية غير نظامية » ، بلغ عدد المنخرطين فيها زهاء المليونين ، حاربت بأزياء ريفية وبقذائف يدوية من صنع افرادها انفسهم . وكان الانضباط مثالياً ؛ فللمرة الاولى يجند جيش صيني من غير سفلة السكان ،

ويتألف من جنود يساعدون الفلاحين الذين هم منهم ويعيشون فيما بينهم ، ويدفعون لهم ثمن ما يأخذونه منهم ، ولا يعتدون على ممتلكاتهم ولا يعاملونهم بفظاظة . فكانت النتيجة ان الجماهير الشعبية قد تأثرت للمرة الاولى بالدعاوة السياسية ، بعد ان كانت تقف في هـــذا الحقل موقفاً سلبياً تقليدياً .

وكانت النتيجة كذلك ان الوضع في الارياف اصبح اشد صعوبة على الفلاحين يوماً بعد يوم . ولم ينجم ذلك عن « ويلات الحروب » التي كانوا هم اولى ضحاياها : عنف واستلاب ، وتدمير وتقتيل فحسب ، بل عن التضخم المالي المفرط الذي استتبع انهيار النقـد . فكل من توفر له المال وبحث عن « قيم حقيقية » اخـــذ يشتري الاراضي ، حين اضطر الملاك الصغير المدين الى البيـع ؛ وارتفع من ثم ثمن الارض ، فقفز معدل سعر ٧٥٠ آر في المرزات من ٥٤ دولاراً صينياً في السنة ١٩٣٧ الى ٢٥٠٠ في السنة ١٩٤١ ؛ وهكذا نشأت طبقـــة جديدة من كبار الملاكين العقاريين المضاربين الذين لا يكترثون حتى بزراعة الارض . وحذا حذوهم العديد من الاسياد الاقطاعيين ، بحيث تبسط النظـــام الاجتماعي في الارياف الصينية وبرز التضاد بين من يملكون الارض ومن يزرعونها دون ان يملكوها .

تخلت حكومة ينان مؤقتاً عن برنامج مصادرة الاراضي وعن الصراع الطبقي رغبة منها في ان تسهم الطبقات صاحبة الامتيازات في النضال الوطني. واكتفت بتخفيض قيمة ضمان الارض وفائدة الديون (١٠ ٪ كحد اقصى) ، وجعلت عقد الضمان إلزامياً ، وحدّدت الضريبة بحيث لا يتجاوز معدلها ١٥ ٪ من الريع . واستغنت عن المجالس بتنظيم انتخابات اكتفت فيها بثلث المقاعد . وشجعت قيام التعاونيات التي يعمل فيها الجنود والفلاحون معاً ، رغبة منهـــا في ان تسد كل منطقة حاجتها من المواد الغذائية ، ومن القطن اذا امكن ذلك . فقامت وحدة مطلقة بين الجيش والسكان الفلاحين . وأدى التعاون بين القرى المتجاورة في مقاومة غارات اليابانيين وفي الاعمال الزراعية الى تنمية روح التضامن وتولد وعي قومي تعزز يوماً بعـد يوم . فكانت سياسة الحكومة ، بصورة عامة ، سياسة حريصة على المصالح الشعبية ، وانسانية حتى حيـــال الاسرى اليابانيين الذين يخلى سبيلهم او يهذبون تهذيباً جديداً على ايدي « عصبـــة تحرير الشعب الياباني » ، فاستهوت احراراً كثيرين من اعضاء الحزب الشيوعي الصيني . ولم يجتذب التنظيم الشيوعي بفعاليته ونزاهته ونشاطه في محاربة العدو الياباني طبقة الفلاحين فحسب ، بل الطلاب ايضاً الذين تدفقوا كالسيل على جامعة ينان المعادية لليـــابان وانضموا الى الحزب الشيوعي ، والاحرار الذين ارغمهم نظام تشونغ – كنغ البوليسي على الفرار الى ما وراء البحار ايضاً . وقد ألف هؤلاء في هونغ –كونغ، في السنة ١٩٤١ ، « اتحاد الاحزاب الديموقراطية » الذي سيصبح « عصبة الصين الديموقراطية » في السنة ١٩٤٥ والذي تقرب من الحزب الشيوعي الصيني .

يتضح مما تقدم التضاد الكبير بين هذه « الجمهورية السبارتية » التي تحارب اليـــابانيين بعزم وبين حكومة تشونغ – كنغ المتميزة بضعفها وفسادها وجمودها .

الحرب الاهلية (١٩٤٥-١٩٤٩)

ان النزاع بين الحكومتين ، الذي نشب قبل نهاية الحرب بزمن بعيد ، قد شمل البلاد بأجمعها منذ توقيع الهدنة . وقد توخت كل منها احتلال ما امكن من الاراضي ومن النقاط الستراتيجية . فتمكن الشيوعيون ، بفضل سيطرتهم على الصين الشمالية ، احتلال أم منطقة صناعية ، هي منشوريا غير البعيدة عنهم ، في ربيع السنة ١٩٤٦ . وتلقت حكومة تشونغ ـ كنغ المساعدة العسكرية والاقتصادية من الاميركيين الذين نقلت طائراتهم واسطولهم ثلاثة جيوش وطنية الى الشمال والشرق ، ومساعدة القادة والحكام والموظفين الذين كانوا قد تعاونوا مع اليابانيين وحاربوا الشيوعيين تحت امرتهم . ولكن الجيوش الشيوعية التي لفتت الانظار بحسن قيادتها وتدريبها ، وتسلحت بعتاد الجيش الياباني وعتاد الجيوش الوطنية الذي استولت عليه ، اصبحت الآن قادرة على التخلي عن حرب العصابات والشروع بعمليات كبرى حتى ضد جيوش تفوقها عدداً وتسلحاً .

ساء وضع تشانغ اكثر فأكثر . فقد رفض القيام بالاصلاحات العميقة التي اشار عليه بها الاميركيون ، وتأثر اكثر فأكثر بنفوذ العناصر الرجعية . ثم تكاثرت الاعمال المغايرة للقانون، وتعرض الاحرار لقمع بوليسي متزايد العنف . ولعل السياسة المنتهجة حيال الولايات المتحدة كانت ، قبل تفاقم الحكم الدكتاتوري والفوضى الاقتصادية والبؤس الناجم عن التضخم المالي – كان الدولار الاميركي يعادل ٢٠ دولاراً صينياً في السنة ١٩٤١ ، فبات يعادل ١٢ مليوناً في السنة ١٩٤٨ – العامل الحاسم في انفراد القائد العام . فبموجب معاهدة « الصداقة والتجارة والملاحة » الموقعة في ٩ كانون الاول ١٩٤٦ ، استفادت الولايات المتحدة من حق التوقف لجيوشها ، وقواعد بحرية وجوية ، وحق جنودها وموظفيها بالتصرف وكأنهم في بلادهم ، والمساواة مع الصينيين لتجارها وصناعييها، وحق الاشراف على تعريفة الاسعار وتنظيم الجمارك، وامتيازات هامة جداً كشركة الطاقات الكهربائية في شنغاي ، والسكة الحديدية بين كانتون وهانكيو ، ومناجم الفحم الحجري ، ومصانع السكر والاسمدة ... وعين مستشارون اميركيون في الوزارات المختلفة. لا بل اعطيت اللجنة الصينية الاميركية المختلطة لادارة صندوق التجهيز واعادة البناء ، في السنة ١٩٤٨ ، حق رقابة الصناعة والمناجم والمواصلات . فكان ذلك عودة النظام نصف الاستعماري الذي توحدت في وجهه الامة. ولم تعد الحرب ضد الوطنيين من ثم حرباً اهلية ، بل حرب تحرر وطني ، على غرار الحرب ضد الحكومات الموالية اليابانيين منذ السنة ١٩٣٩ .

ردّت الانتصارات الشيوعية الوطنيين الى الوراء : حملة سريعة ، « تجلية فريدة من نوعها في التاريخ العسكري العالمي » ، بدأت بسقوط « موكدن » (٨ تشرين الثاني ١٩٤٨) وانتهت بسقوط كانتون في ١٥ تشرين الاول ١٩٤٩ ، اي بمعدل ١٠ كلم في اليوم ، تستحق بعض معاركها ، « التي تعتبر نماذج حقيقية للستراتيجية والفن الحربي ... ان تدرس بعناية من قبل

ضباط الدول الغربية » (الجنرال شاسين) . انهـــارت مقاومة جيوش تشانغ في منشوريا ، فهرب الكثيرون من الجندية ، والتحقت فرق كاملة مع اسلحتها بالجيش الشيوعي الذي استولى على كميات كبرى من الذخائر والاعتدة الحربية وعلى مصانع كثيرة للسفن ، واستسلم العديـد من الحكام الوطنيين ، كحـاكم منطقة تيانتسين – بكين التي انضم ٢٥ فرقة منهـا الى الجيش الشعبي . ففي اواخر نيسان لم يعد هناك مقاومة وطنيـــة منسقة ، وفي تشرين الاول اعلنت الجمهورية الشعبية الصينية .

٢ – الصين الجديدة

النظام الاقتصادي الجديد

في هذه البلاد التي يبلغ سكانها (تقديرات السنة ١٩٥٨) ٦٥٦ مليون نسمة ، اي ربـــع سكان الكرة الارضية ، بينما لم يبلغوا في الارجح سوى ٤٧٥ مليوناً في السنة ١٩٣١ ، يعيش ٥٠٠ مليون (٧٧ ٪) من الزراعة ، ولا يتجاوز ٤١ ٪ منهم سن الثامنة عشرة . فيغلب من ثم طابع الشباب على السكان الذين يتزايدون تزايداً عظيماً(١٥ مليوناً في السنة). اما مستوى المعيشة فمتدن جداً. وبحسب مبادىء « الديموقراطية الجديدة » ، اعتمدت حكومة مـــاو ، حتى السنة ١٩٤٩ ، برنامجاً لم يكن شيوعياً بكليته في المناطق الواقعة تحت سلطته ؛ فكان نظام الحكم انتقالياً : تحالف بين صغار الفلاحين والمثقفين والعمال وصغار الملاكين والبورجوازية الوطنية (التي لم تتعاون مـــع الكومنتانغ واليابانيين) ، وانتخابات بالاقتراع العـــام لمجالس البلديات والاقضية والاقاليم والمناطق ، واشتراك كافة الاحزاب والطبقات في الحكم ، واصلاح زراعي وتأميم النشاطات الرئيسية ، مع الاحتفاظ بقطاع حر كبير ، يُبقى فيـــه على كل مشروع لا يرتدي طابعاً احتكارياً . فهو في الاصل نظام اقتصاد مختلط يعمل فيه ، في آن واحد ، قطاع حر وقطاع اشتراكي التنظيم ، وقام فيه قطاع ثالث ، هو قطاع التعاونيات .

في المناطق المحررة تحققت الاصلاحات تدريجياً ؛ فقد جرت الانتخابات ، وعمل الحزب الشيوعي الصيني بفطنة : بالمثل والايحاء و « التفسير » . وهكذا فان الاصلاح الزراعي قـــد جرب في البدء على نطاق ضيق في بعض القرى ولم يشمل المناطق كلها الا بعد نجـاح التجربة . وقد اتاح النقد الذاتي ورقابة الصحافة اصلاح الاخطاء وتجنب الخرق . وعين مسؤولون لنشر التعليم في ادنى درجاته بكافة الوسائل ، وقد طلب احياناً الى المرسلين الاوروبيين تعليم الفلاحين الكتابة والقراءة والحساب . وفرض الشيوعيون انفسهم بالمثل اولاً : « بساطة الملبس ، والغذاء ، شرف الحياة الخاصة ، التأثير ، النزاهة ، قمع التجاوزات . « اجمع الاجانب المقيمون في الصين على اطراء سلوك الشيوعيين المثالي ... واثرت في نفسهم بساطة الموظفين والجنود ونزاهتهم ... لقد زالت السرقات والمحسوبيات والاختلاسات التي رافقت ممارسة الادارة والقضاء منذ قرون طويلة » (بريو) .

الاصلاح الزراعي

ان اول اصلاح اساسي اجري في هـــذه البلاد التي تعتبر، بفضل سكانها الريفيين، الدولة الزراعية الاولى في العالم، هو الاصلاح الزراعي الذي تناول مساحة توازي مساحة فرنسا مرة ونصف المرة. وقد افضى الى « اعظم عملية توزيــع زراعي في التاريخ ».

لم تستهدف التدابير المتخذة ابان الحرب سوى زيادة الانتاج وتحسين وضع الفلاحين دون ادخال اي تغيير على نظام الارض القانوني. ومنذ السنة ١٩٤٦ صودرت امـــلاك الاسياد والاملاك الفائضة عن حاجــة اثرياء الفلاحين ووزعت على الفلاحين، وفي السنة ١٩٤٧، عمل بقانون زراعي في كافة المناطق التي يحتلها الشيوعيون. وبعد قيـــام الجمهورية الشعبية، عمل بقانون ٢٨ حزيران ١٩٥٠ الذي اعطى مزيداً من الحريات لان الوضع الاقتصادي كان حرجاً. وقد ادت الحرب الاهلية، وقنابل المدفعية، والمجاعات، واهمال صيانة السدود الى تخفيض الانتاج تخفيضاً اثار القلق والذعر. وكان لزيادة الدخول القروية اهمية اولية اذ انها الشرط الاساسي لتحقيق التصنيع: فان قدرة الفلاحين المتزايدة على الشراء سوف تفتح الاسواق امام الصناعة، كما ان ادخاراتهم، التي يسرها الغاء الكراءات المرتفعة، سوف توظف اخيراً في الصناعة. وكذلك سوف يصدر فائض الانتاج الزراعي بغية الحصول على النقد النادر الذي يتيح شراء المعدات التجهيزية. فالواجب يقضي من ثم بحماية اقتصاد « الفـــلاح الثري »، الذي ينتج للاسواق التجارية اكثر من سواه. وانطلاقاً من هـــذا المبدأ، لم تصادر منذئذ سوى ممتلكات الملاكين العقاريين في الارياف، اي ممتلكات اولئك الذين يعيشون من عمل الاجـــراء او من فوائد كراءاتهم، واراضي الجماعات الدينية والاوقاف التقوية التي تحملت الحكومة الاعباء الاجتماعية المطلوبة منها. فاحتفظ الفلاحون الاثرياء (الذين يحققون ٢٥ ٪ من دخولهم من « الاستثمار ») بالاراضي التي يزرعونها، ولم يفقدوا سوى تلك التي يؤجرونها. وبقيت الاحراج والبحيرات ومغارس الشاي الكبرى، والمشاتل، والمزارع النموذجية، ملكاً للدولة. فكانت هـــذه التدابير مرحـــلة نحو النظام الشيوعي، يجب ان تدوم طالما لا تستخدم الآلات في الزراعة استخداماً كافياً لاعتماد طرائق الاستثمار الجديدة على نطاق واسع. اما المستفيدون من الاصلاح فكانوا الفلاحين الفقراء، والاجراء، والفلاحين المتوسطين احياناً، ولكن التوزيــع لم يكن متساوياً، اذ ان مصالح الانتاج قد روعيت مراعاة كبرى. فان نصيب من يملـــك المواشي والادوات ويحسن الزراعة كان اكبر من نصيب سواه.

التأميمات

ان التصنيــع، شأنه في كافة البلدان المتخلفة، هو شرط الاستقلال وتحســـين مستوى المعيشة، وهو حاجة اشد الحاحاً في بلاد مرتكزها الزراعة بفعل تزايد سكانها تزايداً مطرد السرعة. لقد أدى الحرص على تنمية الانتاج تنمية سريعة، ومراعاة جانب « الرأسماليين الوطنيين »، والافتقار الى مديري الاعمال والفنيين، الى قيـــام اقتصاد مختلط واعتماد سياسة مصادرة وسائل الانتاج بصورة بطيئة وتدريجية، وابقي على رأسمالية

خاصة معينة وغض الطرف عن « كسب عادل » . ولم تؤمم سوى المصارف والمشاريع الرئيسية التي كان معظمها ملك يمين رجال حكم الكومنتانغ ـ الم تشرف العائلات الاربع الكبرى، تشانغ، وكونغ ، وسونغ ، وشن ، على ٥٠ بالمائة من الصناعة النسجية ، و ٦٥ بالمائة من الكهرباء ، و ٣٥ بالمائة من استخراج الفحم الحجري والرصاص ؟ ولم يمثل القطاع المؤمم في السنة ١٩٥٢ ، سوى ٥١ بالمائة من مجموع الانتاج الصناعي ، وفي النصف الاول من السنة ١٩٥٥ ، سوى ٦٢،٣ بالمائة . فما زال هناك من ثم قطاع خاص في الصناعات الغذائية والنسجية ـ ٠٠٠ ١٣٠ مشروع تقريباً ـ مثل ، في السنة ١٩٥٢ ، ٤١ بالمائة من الانتاج ، وفي النصف الاول من السنة ١٩٥٥ ، ٢١،٧ بالمائة . وما زال هناك اخيراً ، بالاضافة الى قطاع الصناعة اليدوية ، الذي ابقي عليه استدراكاً لكل بطالة ، والتعاونيات الريفية والقروية ، قطاع مشترك يسهم فيه الرأسمال الخاص والدولة ، بشكل كراء ابنية وثروات وطنية ، كالمناجم والملاحات التي يستثمرها الملتزمون من بين الافراد بصورة عامة . أما التجارة ، فقد بلغ نصيب اجهزة الدولة والاجهزة التعاونية منها ٨٩ بالمائة بالنسبة لمجموع تجارة الجملة في السنة ١٩٥٥ ، وكانت التجارة الخارجية وقفاً على اثنتي عشرة شركة رسمية تشرف على الواردات والصادرات بواسطة الاجازات .

القطاع التعاوني

نما القطاع التعاوني نمواً كبيراً في الصناعة الصغرى والصناعة اليدوية ، وفي الزراعة ايضاً حيث يتوجب على التعاونية ان تؤمن ، دون صعوبات ، انتقال الملكية الخاصة الى الملكية الجماعية . اما الصيغ المعتمدة فكانت اكثر مرونة منها في ديموقراطيات اوروبا الشرقية : تتألف اولا فرق مساعدة متبادلة موسمية الاعمال المشتركة في مواعيد الحصاد والزرع ، ثم تصبح هذه الفرق دائمة وتتحول الى تعاونيات انتاج . ولكنها « نصف اشتراكية » لان ايراد الارض عرف البقاء والدخل توزع بين كراء الارض المستثمرة والعمل . فهي تختلف عن المزارع التعاونية بهذا الفارق اولاً، وبأبعادها الصغرى ثانياً. فقد شملت التعاونيات الزراعية في اول عهدها ٦٠٠ هكتار من الارض الزراعية، اما هنا فلا تضم التعاونية سوى بعض العائلات ـ قرابة العشرين ـ وقدراً عائلاً من الهكتارات، وتتيح من ثم اعتماد تقسيم العمل وتطبيق التقنيات العصرية تطبيقاً افضل، والاستفادة من ملايين الهكتارات التي تمثلها الطرائد الضيقة الفاصلة بين قطع الارض الفردية ، وتنشيط اعمال الري ، والسدود ... ، و « تلاشي الفردية في مستوى العمل اليومي وفي اطار محدود » ، وتؤلف مدرسة يتعلم فيها الفلاحون العمل الجماعي . فكانت النتائج المحققة مشجعة جداً ، اذ ارتفعت نسبة العائلات القروية في التعاونيات الى ٩٠ بالمائة في السنة ١٩٥٥ . وتعتبر التعاونية اشتراكية وتصبح مزرعة تعاونية حقيقية حين يزول الايراد العقاري وتوزع الارباح الصافية بنسبة العمل المؤدى فقط . ففي اواخر السنة ١٩٥٥ ، كان هناك ٠٠٠ ٢٦٠ تعاونية من هذا الطراز ضمت ٥٦ بالمائة من العائلات القروية . وفي منتصف السنة ١٩٥٦ لم يبق سوى ١٠ ملايين عائلة قروية من اصل ١٢٠ مليوناً ، خارج النظام الجماعي . ومن المفروض ، في المستقبل ، ان تنمو

التعاونيات وتلسع بحيث تصبح مساحتها موافقة للعمل الآلي والجرارات . ولكن هذه الأخيرة لن تخرج من المصانع باعداد كبرى الا في المرحلة الاخيرة من الخطة الثانية . وهكذا . فان التعاونية ، على نقيضها في الديموقراطيات الشعبية الاخري ، قد تقدمت الجرارات في هذه البلاد ، و « تقدم الاصلاح الاجتماعي الاصلاح التقني تقدماً كبيراً » (رنيه ديمون) . وقد ساعدت مزارع الدولة ، والمحطات الاختبارية ، ومراكز الابحاث الزراعية التي تعمم التقنيات العصرية ، وتأسيس مصرف الصين الزراعي (١٩٥٥) ، الذي وزع قروضاً لآجال قصيرة أو طويلة ، وتعاونيات الاقراض ، على تحسين الانتاج ورفع مستوى المعيشة. اضف الى ذلك الاعمال المائية: السدود التي تحمي من الفيضانات ، والتحريج الضروري لبلاد لا تبلغ مساحة احراجها سوى ٥ بالمائة من مساحة اراضيها ، واعمال الري ، واستصلاح ٣٠ مليون هكتار من الاراضي البائرة في الشمال الشرقي والشمال الغربي وجبال الجنوب الغربي .

تمارس الدولة رقابة تنسيقية على هذا الاقتصاد المركب المنطوي على اشكال نشاط مختلفة جداً . فمن حيث هي سيدة التجارة الخارجية ومالكة الصناعات الرئيسية ومصادر الطاقة ، تتوفر لديها وسائل عمل قوية تضاف اليها سياسة مالية تتيح لها التأثير بصورة فعالة على الاستهلاك والانتاج على السواء . وتستفيد اكثر الصناعات نفعاً من القروض وتخفيف الاعباء الجبائية وطلبيات الدولة . وتوفر هذه الاخيرة بالتخطيط الطويل الأجل ايضاً . فان الخطة الخمسية الاولى قد استهدفت ، على غرارها في الديموقراطيات الشعبية الاخرى ، تحويل هذه البلاد الزراعية ، المتخلفة تقنياً ، الى بلاد صناعية ؛ وقد شددت من ثم على تنمية الصناعة الثقيلة والمواد الانتاجية : فحم حجري ، طاقة ، فولاذ ، آلات . وبالرغم من الحاجة الماسة الى الاختصاصيين على مختلف درجاتهم،ومواجهة بعض الصعوبات (الحاجة الى الفحم الحجري بصورة خاصة) ، وقلة الاماء والريع بسبب سوء الاحوال الجوية والفيضانات في السنة ١٩٥٦ ، فقد تخطيت الاهداف المرسومة لها . وان النجاحات المحققة في الصناعة ، ولا سيما الصناعة الفولاذية والكيميائية ، وسرعة نمو شبكة وسائل النقل (بفضل الجسر العظيم الذي بني فوق الـ « يانغ – تسي » في ووهان واتسع لخط حديدي وطريق واسعة) والشروع في بناء سد « سانمن » الكبير (على الـ « هوانغ هو ») الذي سوف يضع حداً لفيضانات النهر ويزود بالطاقة المراكز الصناعية الكبرى في المنطقة الوسطى ، لتشاهد على هذا التطور الذي جعل من الصين منذ اليوم الدولة الصناعية الثانية في آسيا ، بعد اليابان . واخيرا وزعت الخطة الصناعات توزيعاً اكثر صوابية من ذاك الذي اقامها ، تحت التأثير الاجنبي ، على مقربة من السواحل . فقد شُرع جدّياً في اواخر السنوات الخمس بانشاء مراكز جديدة في جوار مصادر الطاقة والموارد المنجمية في الشمال والشمال الغربي والوسط : باوتوف ، ووهان ، شو ـ تشيو ، شونغ ـ ونغ ، لان ـ تشيو ، في مناطق شنسي ، ومنشوريا وشنيانغ ، و « انشان » بصورة خاصة .

ظروف الحياة الجديدة

أصبحت الصين بلاداً تكثر فيها الأملاك القروية الصغيرة والمتوسطة. فبينما كان ١٠ ٪ من السكان يملكون من قبل ٧٠ – ٨٠ ٪ من الارض، ارتفعت نسبة الملاكين اليوم الى ٨٠ ٪ من السكان في الشمال الشرقي، و ٧٠ ٪ في الشمال. وقد استفاد ٧٠ مليون عائلة قروية من تقسيم ١١٠ ملايين هكتار (بمعـــدل ١/٢ هكتار العائلة الواحدة). وقد ادى زوال الكراء والمراباة، وتخفيف عبء الضرائب الى زيادة قدرة الفلاحين الشرائية بنسبة ٥٠ ٪. ولكن كثافة سكان الارياف مرتفعة جداً، ولا مناص من نقل جزء من هؤلاء السكان الى قطاعات نشاط أخرى، بعد اخذ استثمار الاراضي الجديدة بعين الاعتبـار. من جهة ثانية استتبع تقدم التصنيع منذئذ تأخر الصناعة اليدوية، وخفضت انطلاقة تعاونيات الاستهلاك، اكثر فأكثر، عدد صغار تجار التفصيل. فتوجه فـائض السكان هذا نحو الصناعة والمدن. وارتفع سكان المـدن بنسبة ٤٠ ٪ بين السنة ١٩٥٠ والسنة ١٩٥٣، ولكن عددهم لم يبلغ آنذاك سوى ١٤،٢ ٪ من مجموع السكان. لقد تقدمت المـدن القديمة، وبلغ عدد سكان بعض المراكز الصناعية، شأن المدن السيبيرية ومدن الاورال، ثلاثـــة اضعافه واربعة اضعافه خـــلال خمس سنوات، اي بين السنة ١٩٤٨ والسنة ١٩٥٣: قفـز في « فو – شون » من ٢٢٠ ٠٠٠ الى ٦٩٣ ٠٠٠، وفي انشان من ١٢٠ ٠٠٠ الى ٦٢٠ ٠٠٠. وفي السنة ١٩٥٦، احصي في الصناعة زهاء ٢٤ مليون اجير. وتدخلت النقابات في تنظيم العمـل، فوضع من ثم نظام ادارة مختلطة بفضل لجان المشاريع التي تعـاونت مع المديرين على التنظيم، وبفضل العقود الجماعية. وخفضت ساعات العمل من ١٤ او ١٦ الى ٨ او ١٠، ووضعت الجـــداول بالأجور بالاستناد الى اسعار السلع الضرورية (الذرة البيضاء في الصين الشمالية). واخيراً اتاحت سياسة مالية حازمة التغلب على الازمة المالية التي خلقها حكم الكومنتانغ وتثبيت الاسعار. « بالنسبة الى الوضع في السنة ١٩٤٩، كان الاصلاح المالي نجاحاً كبيراً جداً » (ج. شاردونيه).

بيد ان مستوى معيشة الفلاحين والعمال بقي متدنياً جداً، والاجور قليلة الارتفاع، وتقدم الانتاج الزراعي بالنسبة للسكان بطيئاً ومتواضعاً: اقل من ٢ ٪ في السنة. فنجم عن ذلك ان فلاحين كثيرين لم يجدوا لهم عملاً كافياً في الارياف نزحوا الى المدن المكتظة بالسكان. لقد ارتفع مستوى معيشة مجموع السكان بالنسبة للسنوات التي سبقت ١٩٤٩: وقد تجلت البساطة بحلة اللباس القطني الازرق الذي يرتديه الرجال والنساء، ولكن البطالة توقفت، وارتدى كافـــة السكان ثياباً محتشمة؛ وخلا المجتمع من ملايين المعوزين والمتسولين والبغايا. وفي الوقت الذي اعلنت فيه الحرب على البؤس، بذلت الجهود لتطوير الاخـلاق، ولا سيا لتحرير المرأة – التي ربما كانت أكبر مستفيد من كافة التطورات التي شاهدناها في العـــالم كله –: مساواة تامة بين الزوجين، وحدة زواج إلزامية، انقلاب عظيم في العائلات بفضل ابطال العرف القاضي باخضاع الزوجة للحماة، اعلان مساواة حقوق الجنسين في الدستور، حق المرأة في التعلم الوسيط والعالي وفي تولي الوظائف، رقابة النسل (منذ ١٩٥٥). ولعل أكبر مجهود يلفت الانتبـــاه تنمية

التعليم العام في كافة درجاته (٥٧ مليون تلميذ في المدارس الابتدائية ، اي ، منذ الآن ، ٧٠ بالمائة من عدد الاولاد البالغين سن الدخول الى المدرسة) ، مع انه ما زال ابعد من ان يستجيب لشغف المعرفة النادر المتجلي في كافة انحاء البلاد ؛ وقد اتخذت بالموازاة بعض التدابير لتحسين الحالة الصحية وتخفيض نسبة الوفيات : حملات تلقيح حالت منذ السنة ١٩٥٠ دون انتشار اوبئة الجدري والتيفوس والطاعون ، حملة ناجحة على القذارة ، والذباب ، والبعوض ، والجرذان .

وحدة الصين

تخلصت الصين الشعبية ، بفعل الحرب ، من المعاهدات غير المتساوية ، واصبحت سيّدة على اراضيها البرية - باستثناء اقليم كو - لون البريطاني المواجه لهونغ - كونغ ، واقليم ماكاو البرتغالي - فأزالت النفوذ الاجنبي في الحقل الاقتصادي بتأميم الصناعات ، وفي الحقل الثقافي والروحي بطرد المرسلين الاجانب . وانتهجت سياسة مماثلة لسياسة الاتحاد السوفياتي حيال الاقليات القومية والدينية ، ولا سيما الاقليات الاسلامية ، التركية اللهجات ، المستوطنة سن - كيانغ ، وكان - تشيو ، وجزءاً من يونان : اسهمت في الاصلاح الزراعي واعتمد العديد من البدو الرحل الحياة الحضرية ، وبيعت اصوافهم من « المخازن الشعبية » بدلا من التجار السابقين ، وصدرت صحف ومجلات باللغات المغولية والويغورية والقازاخستانية والتيبتية ، ووزعت المدارس التعليم على كافة درجاته باللغات نفسها ؛ وانشئت اخيرا بعض المناطق المستقلة استقلالاً ادارياً : منغوليا الداخلية ، سن - كيانغ (ويغور) ، التيبت . فليست الجمهورية الصينية من ثم دولة اتحادية ، وبرلمانها يتألف من جمعية واحدة .

من الصعوبات الكبرى التي اصطدم بها النظام نقصان الموظفين المسؤولين والفنيين والمثقفين اللازمين لادارة هذا المشروع التجديدي والتطويري الكبير . وهذا هو سبب الاهمية الكبرى التي أُعيرت تنمية التعليم في كافة درجاته ونشر المعارف التقنية والعلمية . وقد افضت الجهود المبذولة لتجديد اللغة ، في السنة ١٩٥٦ ، الى توحيد لغة الكلام ؛ واصبحت لهجة بكين (المندرينية) الواسعة الانتشار لغة التعليم في المدارس ، واستعملت في الاذاعات ، ومهّدت بعض الابحاث لتبسيط الكتابة بحيث ينخفض عدد الاحرف من ٤ - ٥ آلاف الى ٥٠٠ او ٦٠٠ حرف تقريباً ؛ ولحظ كذلك اعتماد الابجدية اللاتينية تدريجياً . فقد يُقضى بذلك على الامية خلال بضع سنوات .

توحيد الكتلة الصينية - السوفياتية

بالرغم من خيبة الآمال التي علقتها الحكومة الاميركية على حكومة تشانغ كاي - شك ، أصرت الولايات المتحدة ، بعد هزيمة جيشها النكراء ، على مساندته في جزيرة فورموزا حيث يقيه الاسطول الاميركي من كل هجوم ، وفي منظمة الامم المتحدة حيث احتفظ نظام الحكم الساقط بمركز دائم في مجلس الامن . وقد حال رفض الحكومة الشيوعية الاعتراف بشرعية

التعهدات التي التزم بها تشانغ ، والسياسة الرادعة ، والحرب الكورية وما رافقهـا من تدابير حظر تناولت عدة مئات من المواد « الستراتيجية » ، دون قيام علائق اقتصادية طبيعية بين الصين ودول العالم الاخرى . الا ان الولايات المتحدة لم تستطع ان تفرض على حلفائهـا ضرب حصار شامل ؛ فمنذ السنة ١٩٥٠ ، اعترف الاتحـــاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية ، ثم بريطانيا العظمى وبورما والهند وباكستان بالنظام الجديد ، وسوف تعترف به فرنسا في السنـة ١٩٦٤ . ولكن هذا الحظر قد أعاق اعادة بناء الاقتصاد الصيني اعاقـة كبرى ؛ فولت الصين وجهها شطر الاتحاد السوفياتي الذي ربطتها به معاهدة صداقة ومساعدة متبادلة لمدة ثلاثين سنة ، بغية الحصول منه على القروض ، وخصوصاً على معدات التجهيز والفنيين . وتعززت كذلك العلائق التجارية بالجمهوريات الشعبية الاخرى . فقـد اضطرت الصين والكتلة السوفياتية الى انتـــاج التجهيزات الواجب شراؤهـا مبدئياً من الخارج . ونـمت العلائق التجـارية بين الديموقراطيات الشعبية المختلفة بحيث امتصت العلائق التجارية بين دول الكتلة ٤/٥ مبادلاتهـا وهبطت نسبة اسهام هذه البلدان في التجارة الدوليـة الى ٢ بالمـائة في السنة ١٩٥٢ . الا ان العلائق بالدول الآسيوية والافريقية كانت آخـذة في النمو : فقـد نافست القطنيات الصينية القطنيات الهندية واليابانية منافسة كبرى حتى في الشرق الاوسط . كما ان ارتخاء شدة الحصار والمخالفات المتزايدة للوائح المواد المحظرة قد اتاحت زيادة الكميـــات المشتراة من السويد وسويسرا وبريطانيا العظمى والمانيا الاتحادية وفرنسا .

« الطريقة الصينية » قبل ان يسلم المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي بتعدد الطرق المؤدية الى الاشتراكية ، وقبل ان يلفت القلق الذي اثارته القطيعة بين الحكومة الهنغارية والشعب الهنغاري انتباهه الى ان « الخلافات مع العدو » اي مع الرأسمالية ، ليست هي الخلافات الوحيدة التي قد تقوم في النظـام الشيوعي ، شعر الحزب الشيوعي الصيني بامكان قيام « خلافات داخل الشعب ايضاً » تجدر معالجتها . وعلى نقيض الطريقة التسلطية التي اعتمدتها الحكومة السوفياتية – اقله حتى وفاة ستالين – ، اراد « المذهب الصيني » التغلب على هذه الخلافات بالاقناع والتفهم قبل الاقتسار . وقد سبق ورأينـــا في سياق هذا البحث ان الطرائق الجديدة المعتمدة منذ قبل انتصار السنة ١٩٤٩ قد وفقت بين مبادىء ماركس ولينين والظروف الخاصة بالمجتمع الصيني وطبقتها بمنتهى المرونة مجنبة البـلاد ، التي عانت ما عانت خلال نصف قرن من الحروب الاهلية والحروب ضد الاجانب ، الثمن الغالي الذي دفعته روسيا من اجل تطورها . ففي رأي ماو ، كما اكد ذلك في خطاب ألقـاه في ١٧ شباط ١٩٥٧ ، ان الفائدة كل الفائدة في استمرار « تفتح المائة زهرة في آن واحد » و « تنافس المائة مدرسة » ، ما دامت المقاييس الاساسية الستة مقبولا بهـــا : وحدة القوميات الصينية ، تطوير المجتمع اشتراكيا ، الدكتاتورية الشعبية الديموقراطية ، المركزية الديموقراطية ، قيادة الحزب الشيوعي ، التضامن الاشتراكي الدولي .

الفقزة الكبرى الى الامـام

الا ان فترة الحرية هذه لم تدم طويلاً ، وفي السنة ١٩٥٧ بدأت مرحلة جديدة جذرية من مراحل السير نحو الشيوعية باختيار لا مثيـل له في تاريخ العالم . فان « حملة المائـة زهرة » قد عقبتها حملة « تقويم » ضد « رجعية » و « اعتقادية » بعض المعارضين . وان العمل الحكومي الذي تميز ابداً حتى الآن باعتدال حقيقي وبمزيد من الفطنة ، قد انتقل فجأة الى التطرف : كان المقصود بلوغ الشيوعية وقطـع المرحلة الانتقالية بمنتهى السرعة ، وذلك بتعبئة الجماهير ، اي بالاستفادة ، ما امكنت الاستفادة ، من هذا الرأسمال البشري الكبير الذي يؤلفه الـ ٦٠٠ مليون صيني . وقـد توجب « السير على القدمين » اي تأمين خير تناسق بين الانماء الزراعي والانماء الصناعي . فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لا شك في ان سرعة زيادة السكان ، الذين هبطت نسبة الوفيـات بينهم ، منذ السنة ١٩٥٢ ، من ١٧ بالألف الى ١٢ بالألف ، قد استلزمت سرعة زيادة الانتـاج ، ولكن هذه المقررات تصادف في الزمن بداية فتور العلائق الودية بالاتحاد السوفياتي . ففي هذه الفترة اخذ هذا الاخير يقلل من ارسال المعدات الى الصين ويزيد من ارسالها الى الهند ، ورفض الوفاء بوعد قطعه في السنة ١٩٥٥ بايقاف حليفته على سر القنبلة النووية . ومنذئذ عدلت الصين عن الظهور بمظهر التلميذ المنقاد للسوفيات والمقتدي بهم ؛ وطاب لها التحدث عن طرافة حلولها ، بينما انتقد الاتحاد السوفياتي من جهته حركة التصنيع السريعة وانشاء الدوائر الريفية . وفي ربيـع وصيف السنة ١٩٦٠ ادت حدة الخلاف الى نزوح ألوف المهندسين والفنيين السوفيات الذين استدعوا الى الاتحاد السوفياتي ، تاركين الاعمال المشروع فيها ومستصحبين التصاميم التي كانوا قد وضعوها . فهل اعتقدت الصين آنذاك بوجوب اعتمادها على نفسها فقط ،ورغبت في تقدم الاتحادالسوفياتي سرعة يا ترى ؟

ارتكزت « القفزة الكبرى الى الامام » – دونما نظر الى الانتـاجية – الى استخدام الثروة الكبرى التي تزخر بها الصين الحالية في اعمال تؤول للمصلحة العامة : اعني بها طاقة اليد العاملة التي لا تستخدم استخداماً كافياً في الارياف . اجل ان الافتقار الى رؤوس الأموال وعدم توفر الفنيين يحولان دون تصنيع سريع الخطى ، وانما يمكن تعبئة ملايين العمال مع ادواتهم المألوفة ، كالمجرفة ووعاء نقل الرمل... من اجل حفر الاقنية والاحواض ، وبناء السدود ، وشق الطرق ، وتنظيف الانهار والمستنقعات للحصول على السماد . وبناء على ذلك تمكن مليون فلاح ، في شتاء ١٩٥٧ – ١٩٥٨ ، من مضاعفة مساحة الاراضي المروية واتاحوا زيادة الانتاج زيادة كبرى .وفي سبيل استخدام موارد اليد العاملة هذه خير استخدام انشئت الدوائر الريفية الصغرى التي تضم زهاء ثلاثين تعـاونية قروية (٢٠٠٠ عائلة تقريباً ، اي حوالي ١٠ ٠٠٠ شخص) في تجمع لامركزي يتمتع بحرية مبادهة كبرى من اجل استخدام اليد العاملة والخامات جهد المستطاع ، وتحسين الانتاج ، وسد حاجاته الخاصة . فنظمت حياة جماعية وانشئت محلات لبيع المأكولات والمشروبات ، وحدائق وملاجيء نهارية للاطفال ، وحمامات عامة ، ومـآو للعجزة ، وذلك

بغية تخليص المرأة من اعبائها المنزلية واستخدامها في الاعمال الآئلة الى الخير الجماعي. ثم امتدت الحركة بسرعة مدهشة الى المدن حيث انشئت « دوائر مدنية صغرى » كان الهدف منها جمع الاشخاص البطالين ، وتنظيم الاستهلاك بواسطة محلات بيع المأكوت والمشروبات ، ومحاربة الاسراف . الا ان المشروع ، الذي ارتجل ارتجالا كما يبدو ، قد انتهى ، بعد ثلاث سنوات ، الى فشل ذريع .

منذ السنة ١٩٦٠ بدأ التراجع التدريجي : نزعت من الدوائر الصلاحيات الواسعة التي اعطيتها في السنة ١٩٥٨ ، وحلّت محلها الشراذم (٧٠٠ ٠٠٠) ، وهي دونها عدداً الى حد بعيد ، ثم « فرق الانتاج » (٤ ٢٠٠ ٠٠٠) التي اصبحت الوحدات الانتاجية الحقيقية . الا ان الحياة الخاصة لم تخضع قط لنظام جماعي (كما يشهد بذلك « جلبير اتيان » و « رنيه ديمون ») ، وليست منامات الرجال ومنامات النساء في ابنية مشتركة كبرى ، وتناول ٥٣٠ مليون صيني وجبات طعامهم في محلات بيع المأكولات ، وتربية الاطفال بعيداً عن والديهم في الملاجىء النهارية ، سوى من نسج الخيال ، ولكن سرعة هذا التنظيم الجماعي تطلبت من الجميع جهداً مفرطاً لم يلبث ان لاشى الحماس . وهو من ثم فتور الجهد ما ادى الى الفشل ؛ ويضاف الى ذلك ان الاختبار قد أفسد ببلايا طبيعية تمادت ثلاث سنوات (جفاف وفيضانات تسببت في أزمة غذائية كبرى وأوجبت تقنيناً صارماً) ، والافتقار الى مسؤولين ذوي خبرة ، وعدم أهلية اولئك الذين سلموا زمام ادارة المشروع . وقد أدت كافة هذه العوامل الى ابراز مساوىء الجهاز الاداري وتشويش الانتاج .

في الحقل الصناعي ايضاً اتصفت حركة الانتاج بسرعة محمومة : استمر انشاء الوحدات الصناعية الكبرى ، واكثر في الوقت نفسه ، في المناطق الريفية ، من المشاريع الصغرى المتوسطة التي لا تستلزم عدداً كبيراً من المسؤولين والفنيين ، والتي تستخدم محلياً اليد العاملة المتوفرة وتخفف من عبء وسائل النقل : مصانع احذية واسمدة واسمنت ، وخصوصاً استثمار مناجم الحديد والفحم الحجري الكثيرة غير المستثمرة ، وجمع نفايات الحديد واحداث اكثر من ١٣٠٠٠ فرن يتراوح ارتفاعها بين مترين وثمانية امتار . تلك هي حملة « الفولاذ الشعبي » التي انتجت كثيراً من الحديد المصبوب والفولاذ ، المتدني النوعية في اغلب الاحيان ، اللذين كان ثمنها تبذيراً كثيراً في المدن والطاقة . الا ان ميزان الحساب لم يكن سلبيا : فغالباً ما استبدلت هذه المصاهر الريفية بمصاهر عصرية صغرى ايقظت صناعة الآلات الزراعية الريفية ، واوجدت صناعات تستخدم الخامات المحلية دون غيرها ، وتمولها موارد الدائرة الاقليمية ، وبوفر العمل للفلاحين الكثيرين الذين لا عمل لهم . « لم يكن الفشل كلياً ، ولكن الفارق بين الاهداف والنتائج كان كبيراً » .

الميزان الاقتصادي والاجتماعي

اذن توجبت العودة الى الاعتدال واعادة ضبط الاقتصاد بالاستفادة من الخبرة المكتسبة . الا ان الاقتصاد الصيني – الذي استعاد عافيته – بعد الاضطراب الناجم عن « القفزة الكبرى الى الامام » – ما زال بالرغم من ذلك اقتصاداً هشاً سريع العطب ، لانه سيبقى ، لمدة طويلة ، رهين الزراعة غير المنتظمة الانتاج تحت تأثير عوامل طبيعية كثيرة : جفاف ، فيضانات ، اعاصير ؛ فالى هذا يرد الاهتمام الذي اعيرته اعمال رقابة تصريف المياه والري ، واعادة التحريج ، واحياء الاراضي البائرة وان نقص الانتاج الزراعي في السنة ١٩٦٠ قد ارغم الصين على استيراد كميات كبرى من الحبوب باسعار مرتفعة ، ولكن كمية المواد الغذائية والمواد الاولية الزراعيـة المنشأ قد تزايدت منذ حصاد السنة ١٩٦٢ ، فالغي التقنين وتحسن تصدير الارز . وتوجب كذلك ايثار الانماء الزراعي على الصناعة الثقيلة واحلال انتاج المواد الاستهلاكية في المرتبـة الاولى . ويرد ذلك الى ان عدد السكان الذي ربما جاوز ، بحسب التقديرات ، ٧٠٠ مليون نسمة منـذ السنة ١٩٦٢ ، وقد يبلغ المليار في السنة ١٩٨٠ ، يزداد بسرعة مطردة ، بالرغم من السياسة الهادفة الى تحديد النسل (عدم اعطاء اي تعويض عائلي ، واية فائدة اخرى بعد الولد الثالث ، اظهار مساوىء الزواجات المبكرة ، تشجيع وسائل منع الحمل) .

تقدمت النهضة الصناعية تقدماً مستمراً . فان المصانع الصينية قادرة اليوم على انتاج معظم الآلات والتجهيزات الضرورية ، والمصنوعات الكيميائية الهامة ، وقد نشأت اخيراً صناعـة نووية فجرت قنبلتها الاولى في تشرين الاول ١٩٦٤ . وان في ذلك لدليلاً واضحاً على ان الصين قد احتلت مكانها في الصف الاول بين الدول العظمى . فقـد كتب « روبير غيلين » في السنة ١٩٦٤ ، بعد انقضاء تسع سنوات على رحلة رجع منها بانطباعات تشاؤمية نسبياً ، ما يلي : « انتصر النظام على كافة الآفات القديمة : فساد ، فوضى ، مرض » ، وارسخ « التغييرات الخارقة » المحققة منذ السنة ١٩٥٥ : وحدة الصين ، تربية ، نزاهة ، اخلاق ، صحة (الاذبة لم تعد) ، والصينيون « يأكلون اليوم حين يجوعون » ؛ وانتصر على المعارضة (او اقنعها) « بخلقه سبعماية مليون مطيع » !

ان طراقة هذه الطريق الصينية نحو الشيوعية ، ومدى تحقيقاتها ، وسرعة تحول هـذه الامبراطورية الآسيوية المستضعفة والمذلة الى دولة صناعية عصرية كبرى ، بفضل جهود وتضحيات عسيرة طلبها من شعب نشيط وصبور وحاذق زعماء يتحلون « باخلاق نادرة ، وذكاء ، وواقعية ، وتصلب ومرونة معاً » (ج. ايتان) ، لتضفي على مثلها اهمية ثورية دونها اهمية مثل الاتحـاد السوفياتي .

الخلاصة

ان المجال البري والاقتصادي والسياسي العظيم ، الذي قُدّر للنشاطات المخططة في الديموقراطيات الشعبية المختلفة ان تتنسق فيه ، والذي يضم ثلث سكان الكرة الارضية ، قد رأى وحدته العقائدية تتصدع بفعل الانشقاق الكبير الذي ما زال يباعد منذ السنة ١٩٦٠ بين الاتحاد السوفياتي والصين . وكانت النتيجة تراخياً في الروابط التي قامت بين الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية الاوروبية وتشوشاً في الاحزاب الشيوعية المختلفة المنتشرة في العالم . ولكن ذلك لم يمنع العالم الشيوعي من استهواء شطر كبير من الطبقات العمالية في الغرب، والبلدان الآسيوية والافريقية . فقد اخذ الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية تخرج من عزلتها وتقدم للدول غير النامية مساعدتها التقنية والمالية ؛ وان الشروط التي تضعها لذلك تفضل شروط الدول الاطلسية التي لا تبحث شركاتها ، الحريصة على تحقيق كسب جزيل وفوري ، الا عن استثمار المناجم والبترول ، وشروط « مصرف التصدير والاستيراد » الذي لا يمنح قروضاً لا فائدة منها للصناعة والتجارة الاميركيتين . وكان المثل الصيني بصورة خاصة جليل الفائدة بالنسبة لهذه الدول ؛ فلا الدول الاستعمارية القديمة التي رفضت ان تطبق في ما وراء البحار مبادئها الحرة ، ولا الولايات المتحدة التي لم يأت نظامها الاقتصادي الحر بجديد من اجل رفع مستوى معيشة الجماهير الآسيوية ، والتي تطمع في ان تفرض عليها مرة اخرى حكومات عاجزة وفاسدة في اغلب الاحيان ، ولا الاشتراكية الغربية التي لم تسلك سلوكاً يختلف عن سلوك الاحزاب الاوروبية الاخرى في ماليزيا او الهند الصينية ، اوحت لها بالثقة . وهذا هو ما يفسر عظمة نفوذ الصين في آسيا وفي كافة البلدان التابعة ، بالرغم من الانشقاق الذي شطر العالم الشيوعي شطرين . فالصين قدوة وهداية لشعوب العالم الثالث التي تعاني من التأخر الذي تنهض هي منه. وكل يوم تقصدها وفود آسيوية وافريقية واميركية – جنوبية بغية درس منجزاتها محلياً ، ويختلف الى جامعاتها طلاب افريقيون وآسيون بغية تعلم طرائقها ؛ وتنتشر بعثاتها الدبلوماسية والتجارية في العالم اجمع . ومنذ اليوم تستفيد من مساعدتها الاقتصادية او قروضها او هباتها الجمهوريات الجديدة في افريقيا السوداء ، ومعظم دول جنوبي شرقي آسيا الحيادية ، ودول الشرق الادنى ، وكوبا والبانيا . وتحاول بعض البلدان : غينيا ، ومالي ، وحتى الهند – بالرغم من النزاع الدبلوماسي والعسكري الحاد بينها وبين الصين – التمثل بتعبئة الجماهير المنظمة في الصين من اجل تنفيذ اعمال تقتضيها المصلحة العامة .

الكتاب الرابع

حول البلدان التابعة والبلدان الخاضعة للاستعمار

الفروق الاجتماعية لم تكن بالمساوىء الوحيدة التي عيل صبر الناس بها ، فقد برموا بالأكثر من الفروق العرقية والعنصرية اذ استأثرت قلة من العنصر الابيض ، في اوروبا واميركا بخيرات الارض واختصتها بنفسها . فقد اخذت جماهير الشعوب الملونة ، او المتخلفة التطور التي تؤلف الشطر الاكبر من البشرية – اسوة بالطبقات العمالية والفلاحيــة – تخرج من سلبيتها وتتذمر لوضعها ، اذ قد هبت على العالم اجمع حركة تحرر تمطت في ثنايا شعوب اميركا وآسيا وافريقيا ، المستعمرة منها او المستقلة مبدئياً ، وأخذت تشرئب بنفوسها الى الحرية والاستقلال .

الفصل الأول

أقطار أميركا اللاتينية

فقد تأثرت بمبدأ ، في نصف القرن الاخير ، اقطار اميركا الجنوبية واقطار اميركا الوسطى بهذه الازمة الاقتصادية التي رزحت تحتها وقلبت ظهراً لبطن اوضاعها الاقتصادية والسياسية وهي لا تدري من اسبابها ومسبباتها شيئاً . فقد اتخذت المشكلات الخاصة بالبلدان المتخلفة اقتصادياً طابعاً حاداً في اعقاب حربين عالميتين وضائقة اقتصادية اخذت بخناقها . وقد ازدادت بؤساً وشقاء من جراء الازدهار الديموغرافي الذي سجل فيها اكبر معدل عرفه العالم من قبل ، والبنيان الاجتماعي البالي الذي قام فيها . وتفاقم الوضع وزاد حرجاً من جراء العراقيل والصعوبات التي لقيتها في استثمار خيراتها لافتقارها لرؤوس الاموال اللازمة واليد العاملة الصالحة مما زادها تبعية وارتباطاً بعجلة الدول المستعمرة الكبرى في نصف الارض الغربي .. فقد حيل بين هذه الاقطار عام ١٩٤٠ كما حيل بينها عام ١٩١٤ ، والى حد ما عام ١٩٣٠ ، كلياً او جزئياً ، بين زبائنها ومموليها من هذه الدول الاوروبية . فقد اضطرت للإتكال على نفسها او التعويل على دول جديدة في ما يساعدها على تأمين حاجاتها او تطوير انتاجها تأميناً لمقتضيات الحرب ومتطلباتها . وهكذا خضع التطور الاجتماعي فيها لتغييرات جذرية ، اذ ظهرت عندها طبقة صناعية جديدة ، كما اخذت طبقة العمال العاملة في الصناعة الكبرى تزداد اهمية وشأناً مما ادى الى المزيد من الضغط الاجتماعي والعرقي واخذت تبرز بصورة اشد وأعنف روح التمرد على السيادة الاجنبية . وبالرغم من هذا كله ، فقد بقيت الاقطار الواقعة الى الجنوب من نهر ريو غرانديه في اميركا اللاتينية ، في وضع نصف استعماري ، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها والنتائج الطيبة التي حققتها .

١ – المشكلات الاجتماعية والاقتصادية

المشكلات السكانية والتمدينية

شهدت القارة الاميركية الجنوبية ، اكثر من اي قارة اخرى في العالم ، اكبر زيادة في السكان تمت في أي بلد آخر ، اذ ارتفع عدد السكان منذ عام ١٩٢٠ من ٩٤ مليون نسمة الى ٠٠٠ ٥٠٠ ١٣٤ عام ١٩٣٧ ،

ليبلغ ، عام ١٩٦٣ ، اكثر من ٢٠٠ مليون . وكانت نسبة الزيادة ٣٨٫٥ ٪ في السنوات الخمس عشر الاخيرة ، وارتفع هذا المعدل الى ٥٢ ٪ في فنزويلا والى ٤٥ ٪ في المكسيك . وهو أكبر من اي معدل سجل في اي بلد آخر في اي من القارات الخمس (مصر ٣٣٫٧ ٪ ؛ كندا ٣١ ٪ ، البلاد الواطئة ٢٠٫٥ ٪ – وهو أعلى معدل سجلته اوروبا – ، والهند اقل من ٢٠ ٪) . ويأتي البرازيل في الطليعة اذ بلغ عدد سكانه ٠٠٠ ٢٣٥ ٤١ نسمة في احصاء عام ١٩٤٠ ، و ٦٥٫٧ مليون ، في احصاء عام ١٩٦٠ . وبذلك زاد عدد سكانه ٢٥ مليون نسمة في ٢٠ سنة ، مع الهجرة الى البلاد بين ١٩٤٥ – ١٩٥٠ ، كانت في حكم العدم ، واقتصرت على بضعة آلاف بين ١٩٤٥–١٩٥٠ . وفي الارجنتين ، ارتفع عدد السكان من ٠٠٠ ٥٠٠ ١٣ عام ١٩٣٧ الى ٢٠ مليون ، عام ١٩٢٠ ، كما ان عدد سكان المكسيك بلغ ٣٢ مليون ، بعد ان كان عددهم ٠٠٠ ٦٠٠ ١٩ عام ١٩٣٩ ، وجاء معدل الزيادة في كل من الشيلي وجزر البحر الكريبي على هذه النسبة . ومع ذلك فقد بقيت كثافة السكان في القارة متدنية جداً اذ لا تزيد على ٧ في مجموع القارة ، وهي في حدود ٦ في البرازيل ، و ٨ في الشيلي ، و ١٢ في الاوريغواي ، و ٢٫٣ في بوليفيا ، كما ان الواحات السكانية متفرقة جداً . ففي المكسيك ، نرى ١٤ مليون نسمة اي نصف سكان البلاد يقطنون رقعة من الارض حول العاصمة ، شعاعها اقل من ٣٠٠ كلم ، كما ان اكثر من نصف سكان البرازيل يتمركزون جنوبي خط العرض العشرين ، في ١/٦ مساحة البلاد ، كما ان الولايات المركزية الثلاث في الشيلي تحتفظ بـ ٤٥ ٪ من مجموع السكان الذين يحتلون ٤ ٪ فقط من مساحة البلاد . وفي الارجنتين ، نرى ٧٣ ٪ من مجموع السكان يعيشون في ربع مساحة البلاد ؛ وفي فنزويلا نرى ٦٠ ٪ من مساحة حوض نهر الاورينوك ، لا يتعدى عدد السكان فيها ٧ ٪ من المجموع . وهكذا نرى ان السكان يتوزعون رقعاً محدودة ، في قارة تشكو من قلة وسائل الاتصال ومعظم اراضيها موات لا تزرع . وتيارات الهجرة في الداخل تحفز سكان الريف على النزوح من القرى الى المدن او تجتذبها مقاطعة معينة دون اخرى ، كما ان سكان المناطق شبه الصحراوية الواقعة الى الشمال الشرقي او في وسط البرازيل ينزحون بالأكثر نحو ولاية ساوباولو اي الى الغرب البرازيلي ، والى « المقاطعة الرائدة » حيث تزدهر مزدرعات القطن وقصب السكر وتنشط تربية الماشية . في كل مكان تسجل حركة الاسكان في المدن ازدياداً مطرداً . ففي المكسيك ، هبطت نسبة السكان في الريف من ٩٠ بالمائة في عام ١٩٠٠ ، الى ٥٤٫٧ بالمائة عام ١٩٤٠ ، وقد تضاعف سكان مكسيكو العاصمة في عشرين سنة . وبينما ازداد عدد السكان العام في البرازيل بمعدل ٢٨ بالمائة بين ١٩٤٠ – ١٩٥٠ ، ازدادت نسبة السكان في المدن ٤٩ بالمائة . ان نصف سكان المدن يقطنون ١٤ مدينة ، كما يقوم ثلث سكان هذه المدن في اثنتين منها هما الريو وساوباولو ، فازداد عدد سكان الريو ٣٦ بالمائة في ١٠ سنوات ، كما ازداد سكان ساوباولو ٦٠ بالمائة وبذلك بزّت العاصمة الريو ، اذ بلغ عدد سكانها ٠٠٠ ٠٠٠ ٣ نسمة .

وفي الارجنتين كان ٥٧٫٣ بالمائة من مجموع سكان البـلاد من سكان المدن عام ١٩١٤ ، فارتفعت النسبة ، عام ١٩٥٩ ، الى ٧٠ بالمائة . وبونس ايرس التي تعد ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة تقع في قلب منطقة يزيد عدد سكانها على ٥٦٠٠٠٠٠ نسمة وفيها يحتشد اكثر من ربع سكان هذه الجمهورية . وفي عام ١٩٦٣ ، نرى ٤٦ بالمائة من الاهلين يعيشون في المدن ، بينما ٢٦ بالمائة يعيشون في تحشدات تعد ١٠٠٠٠٠٠ نسمة ، كما ان ثلثي سكان الشيلي يقطنون المدن .

تتكدس هذه الجماهير في مساكن يخيم عليها البؤس والشقاء ويحتشدون في احياء تفتقر اصلا الى الشوارع ومصلحة الطرقات والوسائل الصحية ، اذ اعداد كبيرة من الاولاد والنساء والرجال يعتمدون التسول ويعيشون على الصدقات والحرف الصغيرة التافهة . والنقص في التغذية هي من الامور العادية والشقاء فيها مع ذلك اخف وطأة مما هم عليه الفلاحون والمزارعون .

الملكيات الكبرى

الملكية العقارية الضخمة هي القاعدة . ففي هذه القارة ، نرى ٥٠ ٪ من الاراضي الزراعية تقع ضمن ملكيات تزيد مساحة الواحدة منها على ٦٠٠٠ هكتار وتعود ملكيتها لـ ١٫٥ ٪ من كبـار الملاكين . وفي الشيلي ان ٨٩ ٪ من الاراضي يملكها ٥٩٣٦ ملاك لاغير ، كما ان ما لا يقل عن نصف المساحات تتكون من عقارات تزيد مساحة الواحد منها على ١٢٠٠٠ هكتار . وفي الارجنتين نرى ١/٦ ولاية بونس ايرس وهي اغنى ولايات الارجنتين على الاطلاق تعود ملكيتها لـ ٢٢١ شخصاً ولـ ٥١ شركة عقارية . و « في « الاراضي الوطنية » يملك ١٨٠٤ شخصاً املاكاً يساوي مجموعها مجموع مساحة بلجيكا وهولندا والدانمارك » ، وملكت عشر شركات لوحدها من الاراضي ما يوازي مساحة بلجيكا وسويسرا مجتمعين » . وتمثل المتملكات التي تزيد مساحة الواحدة منها على ١٠٠٠٠٠ هكتار في الاورغواي ، ٤٣ ٪ من مساحة البلاد ، وهنالك عقارات يبلغ مساحتها معاً ٢٥٠٠٠٠٠ هكتار ، كما ان ٩٨٫٦ بالمائة من المتملكات تمثل ٧ بالمائة من مساحة الارض فيها . وفي فنزويلا ، ان ٨٤ بالمائة من الاراضي في المقاطعة الاتحادية ، تعود ملكيتها لـ ١٩ شخصاً ، وان ٤ بالمائة من السكان يملكون ٥٦ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد . وفي كولمبيا ، يملـك ٨١٢٣ من اصحاب الاملاك العقارية اكثر من ٣٣ بالمائة من الاراضي الزراعية ، بينما تتقاسم ٥٠٠٠٠٠ عائلة ٥٫٣ بالمائة من مساحة الارض ، كما ان مليونين من العـمال الذين يعملون في الزراعة لا يملك الواحـد منهم اية قطعة ارض . وعلى مثـل هذا الوضع نرى جمهوريات الاكوادور والبيرو وبوليفيا . وفي غواتيالا ، يعود ثلث مساحة الارض الزراعيـة ، لبعض كبار الملاكين . ومزروعات البن وقصب السكر الكبيرة في كوبا تعود ملكيتها لملاكين اجانب عن البلاد ؛ وفي نيكاراغوا وهوندوراس تعود ملكية هـذه الاراضي الزراعية الشركات الثمانية الكبرى وهي ايضاً غريبة عن البلاد . وفي المكسيك ما قبل الاصلاح الزراعي ، كانت ٤٩ بالمائة من الاراضي تتكون من املاك تزيد مساحة الواحدة منها على ٥٠٠٠ هكتار ، كما ان ٣٠٠٠ اسرة كانت تملك اكثر من نصف مساحة البلاد ، وبضع مئات من الافـراد كان

يملكون كامل اراضي ولاية تشيهواهوا ، وكان الجنرال طرازاز يملك لوحده ستة ملايين هكتار كما ان شركة الخط الحديدي الغربي كانت تملك ٩٨٨ ٠٠٠ هكتار ، ويملك هيرست ٥٠٧ ٠٠٠ هكتار . أما في ولاية سان لويس دي بوتوسي فكان ٩٦ بالمائة من العمال العاملين في الشؤون الزراعية لا املاك لهم . وفي جمهورية الدومنيك كان الدكتاتور تروخولو قبل ان تخلعه الثورة ، عام ١٩٦١ قد تمكن من تحويل ٦٠ بالمائة من الاراضي الزراعية في البلاد ، الى ملكية اسرته . والملكية الصغيرة لا وجود لها الا في بعض المناطق : في جنوبي البرازيل وفي جمهورية كوستاريكا .

وفي نظام عقاري على هذا الشكل ينقسم المجتمع الريفي الى طبقتين تتباينان في كل شيء : اقلية من كبار الملاكين مــن اصل اوروبي او من الخلاسيين ، وسكان الريف الذين يتألف معظمهم من الهنود الحمر ، ومن مهاجرين وضعهم وضع العبيد يعيشون في وضع زري من العبودية ويرسفون في البؤس والشقاء . ويخضع هذا المجتمع لنظام بطريركي في اطار الملكيات الكبيرة ، صاحبها يكون على الغالب بعيداً عنها ، ويترك امر العناية بها لوكيله . فكل العاملين في الزراعة ، سواءاً في البرازيل او الشيلي هم في وضع ارقاء الارض . فالمزارع يرتبط بالارض ارتباطاً وثيقاً اثناء ثلثي السنة . ويترتب عليه وعلى افراد عائلته ان يعملوا لصاحب الارض لقاء تمتعهم بحديقة صغيرة تقوم امام زريبته او كوخه المصنوع من الدلفان ، ولقاء بعض المحاصيل الزراعية التي تعطى له خلال فصل العمل في الارض . ويقدم صاحب الارض عادة للمزارع سلفة من الدراهم والمواد الغذائية الذي لا يستطيع تغيير عمــله قبل ان يسدد دينه . ولما كانت الاجور واطية جداً ، فقد يستحيل عليه وفاء دينه الذي ينتقل عند وفاته ، الى اولاده . ففي ظروف كهذه ، ليس من الغريب قط ان يتردى الوضع الاقتصادي في البلاد ، اذ لا يخطر قط على بال هذا الملاك الامي المهمل ان يدخل اي تحسين فني او تقني على وسائل استثمار ارضه . فهو يمارس زراعة صنف واحد ويبقي جانباً كبيراً من ارضه مهملاً . وهكذا نرى ان ١٬٤٤ بالمائة من الاراضي الزراعية في هذه القارة هي قيــد الاستثمار (٧٬٥ بالمائة في البرازيل ، و ٧٬٨ بالمائة في الارجنتين) . والحصاد يتم بالمنجل ، والغلة هي من الفقر بحيث ان بعض هذه الاقطار التي لا يستثمر القسم الاكبر منها ، تضطر لاستيراد موادها الغذائية من الخارج .

مشكلة الهنــود الحمر

هذان العالمان العائشان معاً جنباً الى جنب يتفاوتان تفاوتاً عظيماً من جهة العرق والاصل : العالم الاوروبي او المتحضر اوروبياً (الهجناء) ، فالارستوقراطية : ارفع أسر ليما الخمس والعشرون ، وكبار الملاكين العقاريين والأثرياء المحدثون الذين تمت لهم النعمة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، أمثال سيموز باتينيو هذا المدّن الهندي الذي اصبح ملك القصدير واغنى اغنياء اميركا الجنوبية على الاطلاق ، واصحاب الانوار في المكسيك ، وغيرهم الذين تتألف منهم الطبقة العليا وينعمون وحدهم بنعم وخيرات حضارة العصر ، يعتمدون على كنيسة ثرية ، غنية ، بالرغم من قلة عدد رجال

الاكليروس الغريب ، وبالرغم من عدم وجود اكليروس وطني في بعض البلدان ، كما هي الحال مثلاً في البرازيل . فهذه الطبقة تستأثر بالسلطة السياسية وتمارسها لما يؤمن مصالحها .

ويلي هذه الطبقة العالم الهندي الذي اهمل شأنه تماماً ، ومنهـا يتألف السواد الاكبر من الشعب ، يزيد عددها كثيراً عن الارقام الرسمية التي توفرها الاحصاءات مصدر معلوماتنا عن العرق او الاصل بالاستناد الى اللغة او اللسان اذ ان عدداً كبيراً من اهل البـلاد لم يعودوا يتكلمون لهجتهم الخاصة . فالهنود الخُلّص او الهجناء يؤلفون ، بلا ريب ، اكثرية السكان في المكسيك (٩٠٪ ، وفي فنزويلا ٢/٣) ، وفي البيرو وبوليفيا (لا تزيد نسبة البيض في هذين البلدين عن ٨ بالمائة) وفي جمهورية الاكوادور (٥ بالمائة من البيض) وفي كولومبيا والبـاراغواي حيث ٩٠ بالمائة من الاهـالي هم من دم غواراني وحيث الجميع يتكلمون اللغـة غواراني ، وفي الغواتيمالا ، والسلفادور ، وغيرها . وهنالك مجتمعات اخرى في البرازيل مثلاً حيث تمثل ٢٠ بالمائة من مجموع السكان .

فحروب الاستقلال والثورات المتعاقبة التي انفجرت تباعاً في القرن التاسع عشر لم تدخـل اي تحسين قط على وضعهم . فهم يعيشون في شبه عزلة بعد ان ارغموا على السكن في مناطق غير صالحة للسكن ، كما يبدو ، تقوم فيها الغابات الظليلة ، او الاغوار المرتفعة ، يعيشون من نتاج الارض الزراعية او من العمل في المناجم التي يستغلهـــا البيض او الخلاسيون فيشترون محاصيلهم الزراعية بأبخس الاثمان ويدفعون لهم اجوراً لا تذكر . وقد منعهم ما هم عليه من فقر مدقع من استهلاك المحاصيل المستوردة وحتى تلك التي تؤمنها بعض المصانع المحلية ، فيعتمدون في معايشهم ما يشبع جوعهم من الذرة والفاصوليا ، عرضة لنسبة عاليـة من الوفيات ، ولذا بقوا ابداً على هامش الحياة القومية وقلما استبدلوا سيداً بآخر . فهنود المكسيك وحدهم توصلوا ليلعبوا دوراً بارزاً في حياة البلاد ، كما ان قسماً منهم يساهم فعلاً بتطوير حضارة البلاد . اما في البيرو وبوليفيا وفي الاكوادور ، وفي الجمهوريات الاخرى الواقعة بين جبـــال الاندس او في اميركا الوسطى .

« فقد اصبح الهندي في هذه الأقطار منطوياً على نفسه ، سكوتاً خشناً يوحي الرعب ، هو في منتصف الطريق بين الانسان والحيوان ، ينفر من كل اتصال بأي عرق آخر ، يتسكع في جهل مطبق وقد بلد عقله لادمانه المسكرات والمشروبات الروحية ، لا يتذكر شيئاً عن هذا التراث المجيد الذي تركه له آباؤه الأقدمون » .

مشكلة الزنوج

هنالك الى جانب الهنود مشكلة الملونـين او الزنوج تفرض نفسها في جزر بحر الكرايبي حيث حل الزنوج محل سكان البلاد الاصليين بعد ان تم افناؤهم (فهايتي هي دولة من الزنوج) ، أو في جمهوريات امـــيركا الوسطى ، لا سيما في نيكاراغوي ١٠٪ ولا سيما في البلدان الواقعة في المناطق المدارية في اميركا الجنوبية : الغويّان وفنزويلا ١٠٪ وفي الشمال الشرقي من البرازيل . ومع ان هجرة البيض وعملية التهجين ساعدتا كثيراً على « تبييض » السكان تدريجيـاً بحيث نرى بينهم كل فوارق اللون الابيض والاسود ،

فهنالك ، مع ذلك ، ما لا يقل عن ١٥ مليون من الزنوج ومن الهجناء يمكن تمييزهم بسهولة . اما مستواهم الحضاري فمتدنٍ جداً ، على الاجمال . فسمات افريقيا تبرز في امور الدين والفولكلور الشعبي والاقاصيص الشعبية ويتبين العلماء الاجتماعيون ، بيسر ، تحت اسماء القديسين الكاثوليك ، اسماء قدامى الآلهة والمراسم الدينية المعمول بها عند الداهوميين واليوروبا ، إذ انتقلت من السلف الى الخلف ، عبر الاجيال بصورة غامضة . كذلك اخذت تبدو لدى بعض رجال الفكر من الملونين معالم المذهب الطبيعي للفرد الاميركي .

فالنخبة التي طلعت من بين الهنود الحمر والزنوج هي من القلة والضعف بحيث لا تصلح بعد اساساً لشد الروابط بين العروق والحضارة اسوة بما يجري في البلدان المستعمرة . ومن جهة اخرى اخذت الخصومات والمفارقات تخف وتلين بفضل التهجين وبفضل تأثير الثقافة الاسبانية التي اخذت تؤثر منذ القرن السادس عشر على سكان البلاد الأصليين وعلى الملونين ، بحيث تنامى كثيرون لتنتهم الام . ومع ذلك هنالك بوادر يقظة تلتمع في الافق يخشى معها من احتدام التوتر .

الطبقات الاجتماعية الجديدة

هذه اليقظة التي نشاهد ظهورها في اوساط الهنود والزنوج ليست بالاشارة الوحيدة لهذا التغيير الآخذ به المجتمع. فالنمو الديموغرافي هو مظهر آخر من مظاهر هذا التبدل . فالإقبال على التصنيع ، والبؤس المسيطر على الريف اللذان ادّيا بسرعة الى حركة التحضر هذه ، ساعدا كثيراً على تطوير الطبقات الاجتماعية الجديدة التي اخذت تطل على البلاد في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة . ففي كل مكان ، ساعدت حركة التصنيع على بروز نخبة بين البورجوازية ، وزادت من نطاق رجال الصناعة ومن التجار ، كما زادت من عدد التقنيين والمهندسين ومن العاملين في المهن الحرة او في الادارة العامة او في مصالح الجيش .

في هذه الاقطار التي تنطبع مدنيتها بالنشاط الزراعي ، ترى ابناء الطبقة الوسطى التي تتألف من رجال الفكر من ذراري المهاجرين او من التجار ، يعملون ضباطاً في صفوف الجيش ويؤلفون العناصر التقدمية اذ لا مكان لهم في المجتمع التقليدي . فهم يطمعون في تجريد ارستوقراطية كبار الملاكين من استئثارها بالسلطة واحتكارها لها ، تجيش فيهم الروح القومية وينفرون من الرأسمالية الاجنبية ، ولا سيما الرأسمالية الاميركية التي تستثمر لحسابها الخاص ولمنفعتها موارد البلاد الطبيعية وثرواتها ، هذه الرأسمالية التي تعارض قيام صناعات كبرى في البلاد وتتحالف دوماً مع الطبقات الموجهة فيها . فالمركز « الستراتيجي » الذي يتمتعون به في المدن يوليهم نفوذاً ويعطيهم شأناً لا يتفق قط وعددهم الضئيل . الا انهم يتعذر عليهم استلام السلطة عن طريق الاكثرية بعد ان يتحكم الاشراف بالانتخابات ويفرون الجماهير الشعبية على الاقبال عليها لمصلحتهم ، فطريقهم الوحيد الى السلطة قيام دكتاتورية مصلحة تمهد لهم الوسائل المؤدية الى السلطة هذه الطبقة بعينها تلعب دوراً يبرز أثره يوماً بعد يوم ، في هذه الانتفاضات

السياسية التي وقعت منذ عام ١٩٤٣ . فهي النواة ونقطـــة الدائرة في الحزب المعروف بحزب Apriste في البيرو ، وحزب استلسورو في بوليفيا الذي ساند الانقلاب الذي قـام به بتنكور في فنزويلا ، عام ١٩٤٤ ، والانقلاب الذي قام به فرغاس في البرازيل ... وهذه النخبة تطالب بتشريع خاص ينتظم العمل ، ويطور التربية والتعليم في البلاد ، ويكفل الازدهـــار لحركة التصنيع بحيث يرتفع مستوى الحياة في البلاد ، وينقذ الأمة والشعب من الروابط التي تشدها الى الاستعمار الاقتصادي . فالبرنامج الذي تطالب به هو برنامج اصلاحي ليبرالي، معتدل، مناهض للشيوعية ، وهذا ما يفسر لنا إحجامها عن معالجة الاصلاح الزراعي والتعرض البنيان الاجتماعي، وكلاهما من مشكلات البلاد الاساسية . وأثرها يبرز جلياً في هذه الدساتير الجديدة التي تطـــل علينا والتي تشهد حالياً ، على اقدار متفاوتة ، على شدة اهتمامهـا بالمشكلات الاجتماعية من خلال هذه التشريعات الجديدة المتعلقة بالعمل .

والعمال الذين يتسكعون « في اشق بؤس عرفه العالم» كما يؤكد لمبرت ، أخذوا يؤلفون بالفعل بروليتاريا استفاقت على ذاتها وادركت ما لها من شأن واخذت تطالب بتأليف نقابات لها. فقبل عام ١٩٤٠ ، لم نر اثراً لهذه النقابات الا في بعض البلدان كالمكسيك والارجنتين والشيلي وكوبا وبعض قطاعات خاصة من قطاعات الصناعة : كالبحرية التجارية، والسكك الحديدية وصناعات التبريد ، والصناعات الاستخراجية. اما بعد عام ١٩٤٤ ، فقد ظهرت النقابات في كل مكان بعد ان شجعها على ذلك تطور الصناعة والاتفاق الذي يشد بعضاً الى بعض احزاب اليسار كالشيوعيين والاشتراكيين ، نجاح الحركة النقابية في بلدان اميركا الشمالية . وتمثل تجمع القوى العمالية عندما تألف اتحاد العمال في اميركا اللاتينية (C.T.A.L.) بزعامة فيسانته لمبردو تولدونو ، وهو اتحاد عدّ عام ١٩١٦ ، خمسة ملايين عضو منتسب . والتدابير المضادة للشيوعية التي اتخذت ضـــد الحركة بايعاز من الولايات المتحدة بعد عام ١٩٤٧ ، ادت الى انشقاق الحلف في السنة التالية ؛ فقد انشق عن هذا الاتحاد المعروف بنزعته نحو الشيوعية نقابات عدة تشكل منهـــا منظمة جديدة عرفت « بالمنظمة الاقليمية لعــمال اميركا اللاتينية O.R.I.T.» التي اوحت بتشكيلها وساعدت على قيامها المنظمات .C.I.O و .A.F.L وانضمت الى اتحاد النقابات الحر الذي كان بعد عام ١٩٥٥ حوالي عشرة ملايين عضو . .

ويؤلف العمال ، مع ذلك ، اقلية محظوظة بالنسبة الى هذه الدهماء التي تتألف منها اكثرية السكان ، ومن هؤلاء الجياع الذين يؤلفون ٢٠ بالمائة من الجماهير الريفية ، الذين يحملهم تكاثر السكان في الريف على النزوح ، منذ ٢٥ سنة ، الى المدن ليضخموا عدد الزرائب والاكواخ في المخيمات القائمة في ضواحيها . فالشركات الاجنبية العاملة في البلاد تدفـــع لهم عـادة اجوراً اعلى بكثير من المألوف ، الامر الذي يباعد بينهم وبين الفلاحين ويجعلهم يعرضون عن مواجهة المشكلة الاجتماعية الاساسية ، مشكلة الارض . ومن جهة اخرى ، فالبيروقراطية النقابية لا تتورع قط ، كما هو شأنها في الولايات المتحدة الاميركية ، عن اللجـــوء الى الاغراء والافساد

والتواطؤ مع ارباب الاعمال ومنظمي الانقلابات السياسية ، فيبيع زعماؤها « الاضرابات » بما تيسر ويعيشون برخاء على شاكلة ارباب الاعمال ، ويتعاونون مع الحكومات .

الصراع الطبقي والعنصري

ومن الملاحظ ان هوة تأخذ بالظهور بين هذين المجتمعين كما يأخذ التوازن بالاختلال في هذه المناطق والاقاليم التي تعتنق اسباب الحياة الاقتصادية الحديثة ، والمناطق المتخلفة القابعة في ريفيتها ، وبعبارة اخرى ، بين المناطق المنفتحة على اقتصاد اساسه التبادل والمقايضة والمناطق الاخرى التي تشد بنواجذها على اقتصاد حياتي بدائي . وهذا التفاوت يبدو على اشده ويبرز على ابشع صوره في كل انحاء القارة كما يصفه لنا جاك لمبرت : بين البرازيل الاستوائي الاطلسي بمنزله المبني بالحجــارة والاسمنت ، وبين برازيل الامازون او برازيل الشمال الشرقي بمنزله المتخذة مواده مما تيسر منها في المنطقة او من اللبن المجبول على لوح خشب او من الخيزران . في هذه المناطق التي لم تخرج عن عزلتها والتي لا تزال مستمسكة بهذه الاطر التقليدية التي كــانت في عهد الاستعمار ، والتي يقوم فيهــا ، جنباً الى جنب ، مجتمع أبوي على رأسه طبقة من الاشراف يصدرون الاوامر من علٍ ويحيون حياة بذخ واسراف ، وفي الحضيض شعب رازح ، مقعد ، من ابناء البلاد المقدمين او من الملونين ، يتسكع في الجهل والجهالة ، بائس ساء غذاؤه واخشوشن ، مستوى العيش عنده اشبه بأحط مستوى للعيش في اكثر البلدان تخلفاً كمصر والهند مثلاً . وعلى ذلك هذه المناطق التي استقبلت وفود النازحين من الاوروبيين حاملين معهم تقنياتهم وطرق معايشهم الجديدة ، التي عرفت ان تنشىء صناعات كبيرة بفضل ما تم لها من رؤوس اموال حاشدة ومن تطوير لوسائل النقل فيها وتجدد فيها طبقة وسطى ومزارعين ينعمون باستقلالهم ، وبروليتارية مدنية يجيشون جميعاً بالعداء لحكومة المتسلطين من النبلاء . وهذه الهوة تقوم كذلك بين منطقة بونس ايرس والريف في داخل البلاد حيث تعيش الارستوقراطية ناعمة البال ، قريرة العين بين عمال يتآكلهم البؤس ويقليهم الجوع ، وعلى هذا النحو في البرازيل بين المنطقة الشمالية الشرقية والمنطقة الشرقية من ساو باولو ؛ وكذلــك قل عن الشيلي ، بين المناطق الصناعية والتعدينية والمدن الكبرى ، والمنطقة التي ترسف في تقاليدها الزراعية البالية مع مزارعيها الخانعين .

حتى في المكسيــك الذي بذل جهوداً مشكورة لتحسين اوضاع العمال والفلاحــين وحيث يلعب قسم من الهنود دوراً يزداد شأنه في حياة البلاد الوطنية ، فالجماهير الريفية لا تزال تحيــا حياة نباتية وترسف في بؤس مخيف ، تشكو دوماً من نقص مزمن في اسباب التغذية ، وتعمل في تربة ممسكة تضن بالعطاء ، وتزاول خلفاً عن سلف صناعات عائلية بوسائل واعتدة بدائية .

فالتفاوت الاجتماعي يبدو على اشده . ففي البرازيل ٢,٥ بالمائة من السكان العاملين يصيبهم ٣٠ بالمائة من الدخل العام في البلاد ، كما يروح اكثر من نصف هــذا الدخل الى ٥ بالمائة من السكان . وعمال المدن المسجلة اسماؤهم لدى مختلف صناديق الضمان الاجتماعي ، والذين يمثلون ٢٤ بالمائة من مجموع اليد العاملة في البلاد ، يتناولون ٢٠ بالمائة من الدخل العام . وما تبقى من

اصحاب الاجور : كصغار المزارعين والمرابعين والعمال الزراعيين ، اي مـــا يوازي ٧١ بالمائة من مجموع السكان ، فلم يكن ليصيبهم ، عام ١٩٤٤، سوى ٣٠ بالمائة من الدخل الوطني العام. كل هـــذا يساعدنا على تفهم الضغط او التوتر الاجتماعي الذي كثيراً ما ارتدى طابعـاً عنصرياً او عرقياً .

وفي كل مكان ينزع عامل العنصر بما له من شأن ، باعتباره دليلاً اجتماعياً، الى تقوية التفرقة العنصرية ، التي لم تكن ، في هذا الوقت بالذات الذي كان فيه الزنوج من طبقة الفقراء ، لتعتبر من الامور الموجبة ، اخذت تبرز اكثر فاكثر للعيان . اذ « بنسبة مـــا يتمكن معها الزنوج والخلاسيون من تحسين اوضاعهم الاقتصادية وتحسين وسائل التربية والتعليم لديهم ، ترى الطبقـة البيضاء المسيطرة ، الخطر يتهددها اكثر فاكثر » ، كما ان المضي في عملية التمدين من شأنـــه ان يوطد الاواصر بين هذه الطبقات ويساعد على توعية الزنجي والهندي على الوضع الزري الذي يحتله في السلم الاجتماعي . لم تصل البلاد بعد الى التمييز العنصري في المدرسة او في الحياة العامة كما انها لم تصل بعد الى حظر عقود الزواج المختلط . ومسألة اللون ليست بعد من هذه القضايا التي تقيم الولايات المتحدة وتقعدها ، مع العلم ان « اللون الضارب الى السمرة يؤلف عائقاً او حائلاً دون الترقي في السلم الاجتماعي » واخذت تظهر في البلاد اجراءات تمييزية الامر الذي حمـــل مجلس الكونغرس في البرازيل على اصدار تشريع خاص يعتبر مثل هـذا التصرف من الجنح . وهكذا نرى ان فارق او عامل العنصر اخذ يزداد شأناً ويتخذ اهمية في المجـال الاجتماعي ، في الوقت الذي اخذ التوتر بين مختلف الفئات واجراءات التمييز العنصري تهدد بالاشتداد والاحتدام .

الحركة الوطنية

مشكلة الهنود الحمر مشكلة طرحتها على بساط البحث منـــذ اواخر القرن التاسع عشر ، الحركة الهندية التي سجلت نجاحاتهـــا الكبرى الاولى في المكسيك والتي كان روادها الاوائل من البيرو . فقد راح مانويل غونزالس برادا يرفع عقيرته احتجاجاً ، بالشعر تارة والنثر طوراً ، ضد الاضطهادات التي يتعرض لها الهندي الأحمر. ثم آلت حركة الدفاع عن الهنود الى الزعيم هايا دي لاتورّيه ، المؤسس الحقيقي لحزب *Apriste* الذي تختصر حروفه ، الاسم الذي عرف به وهو : الاتحاد الشعبي للثورة الاميركيـة ، والذي وضع نصب عينيه العمل على توحيد الفلاحين ورجال الفكر والعمال حول برنامج سياسي جـاء مزيجاً من الاشتراكية الزراعية والروح القومية الهنـــدية الاميركية ، وعمل على نشر الحزب والترويج له : سيرو اليغريا ، والشاعر خوسيه سنتوس كوكانو ، والفيلسوف خوسيـه كارلوس ماريانيغي الذي اسس عام ١٩٢٨ ، الحزب الشيوعي في البيرو ، وفريق من علمـــاء السلالات البشرية والمؤرخين . وتحت تأثير هذا الفريق من الدعاة والانصار ، لم تلبث الحركة الهندية التي اقتصرت في بدء امرها على حركة من سكان البلاد الاصليين، ان تحولت الى حركة اصلاحية كبرى تناضل في سبيل تحسين اوضاع البؤس والشقاء والجهل التي تتحكم فيها جماهـير الشعب الهندي . وقد تباينت الحركة اصالة وعقلنة بتباين المناطق والاقاليم المختلفة . فقد برزت حيناً

كحركة حضارية ، واحياناً كحركة سياسية ، مناهضة لاوروبا وللرأسمالية . وقد حققت لها شعبية كبرى في كل من البيرو والمكسيك والاكوادور وبوليفيا . وراحت تلوح بوجه الاستعمار الاسباني الذي جردته من كل قيمة وبوجه الحضارة الاوروبية بالصفات السامية التي تطبع الحضارات الوطنية ، كما افسحت في برنامجها ، مجالاً واسعاً ، لبعث الحضارات الوطنية التي سبقت مجيء كولمبوس ، واقتباس الوسائل التقنية والعلمية التي توفرها الحضارة الغربية ، بعد تجريدها تماماً من روحها . فالحركة حركة سلبية في الكثير من مظاهرها ، وكثيراً ما بدت خيالية ، عندما فكرت ببعث المنظمات المجتمعية القديمة (*L'ayllu*) عن طريق الجمعيات الحرفية او المهنية ، والتي راحت تحاول ، انقاذ العرق الهندي من الفناء والاضمحلال الذي يتهدده ، بتحسين مستوى العيش عنده ، وبنشر التربية الشعبية بين افراده ، وتحقيق الوحدة بين كل دول القارة .

الاندفاع نحو التصنيع

كان من بعض نتائج الحرب العالمية الثانية الحد من استيراد المحاصيل الصناعية ، ولا سيما المصنوعات الاوروبية ، وبالمقابل نشطت حركة التصدير بالرغم من ندورة وسائل الشحن، كما انه جرى التوسع في تصدير بعض المحاصيل الأخرى. وقد طلعت في البلاد مصانع جديدة لابد منها لتأمين المعدات اللازمة للزراعة والخطوط الحديدية، ومصانع التكرير ، واخرى لصنع الترابة والاسمنت ، ومصانع النسيج والحياكة ، ومصانع الورق والزجاج ، وأطر السيارات والاسمدة لتأمين حاجة البلاد من المواد والاصناف التي توقف استيرادها . وقد انصرف الحلفاء من جهتهم ، ولا سيما الاميركيون ، منذ عام ١٩٤١ ، الى انشاء نظام اقتصادي يؤمن لهم ما كانوا بحاجة اليه . وتأسست عام ١٩٣٩ ، اللجنة الاستشارية المالية والاقتصادية المشتركة بين الدول الاميركية ، كما انشئت ، في كل جمهورية من الجمهوريات الاميركية، لجان خاصة تعمل على تطوير وتحسين وسائل انتاج الخامات والمواد الاولية :كالمطاط والنحاس ، والفلزات النادرة الوجود مثل : التنغستين والفاناديوم والموليبدين والقصدير، وانشأت معامل جديدة بمؤازرة التسهيلات المالية التي امنها قانون : الايجار والتأجير ومصرف الاستيراد والتصدير والشركة المالية للتعمير .

وهذا الدفع الاقتصادي توليه الحرب جاء حاسماً ويختلف اصلاً عن الدفع الذي احدثته الحرب العالمية الاولى ، اذ اقتصرت الحركة ، اذ ذاك ، على تأمين الخامات والمواد الاستهلاكية، بينما استهدف الجهد في هذه المرة ، انشاء صناعات ضخمة ، واعطاء الاقتصاد تركيباً عصرياً ، ونشطت وسائل الانتاج وتنوعت . واستأثر الامر باهتمام الحكومات كما وقع موقع الرضى من الخاصة الذين أثروا وجمعوا ثروات طائلة، بفضل هذا النزاع الدامي، كيف لا يثرون ويكدسون الثروات بعد ان ضاعفوا من صادراتهم وخففوا من استيرادهم ، وتجمع في صناديقهم مقادير هائلة ومبالغ طائلة من القطع والاصفر الرنان ، وظفوا جانباً منها في صناعات جديدة . وبذلك تمكن المكسيك من رفع طاقته الصناعية ٣٠ ٪ لا سيما في الصناعات النسيجية والكيميائية ،

كما ان البرازيل زاد من طاقته على استثمار موارده الطائلة من الحرير والبوكسيت ، واستطاعت الشركة الوطنية للصناعات الحديدية ان تشيد المجمّع الصناعي الضخم في فولتا ريدوندا وزادت من طاقتها الانتاجية في الصناعة ثلاثة اضعاف ، كما زادت اربعة اضعاف من انتاجها للخامات الاولية . والانتاج الصناعي الذي لم يكن ليمثل ، عام ١٩٣٠ سوى عشر الدخل القومي، اصبح يمثل نصف هذا الدخل عام ١٩٥٥ ، والصناعة القطنية التي انتقلت الى طور التصدير ، اخذت تستثمر القسم الاكبر من محصول القطن في البلاد . وضاعفت جمهورية الارجنتين بين ١٩٤٠ – ١٩٤٥ ، عدد قيار كما الصناعية واخذت حركة التصنيع بعد عام ١٩٤٣ ، بتأثير من الجنرال بيرون ، تعم جميع اطراف البلاد . وقد ارتفع معدل اليد العاملة في الصناعة من ١٢٫٨ ٪ عام ١٩٣٩ ، الى ما يزيد على ٢٠ ٪ منذ عام ١٩٤٥ .وراحت كولمبيا من جهتها تنشيء،هي الاخرى، مجموعة متناسقة من معامل صناعة الحديد ، في باز دل ريو ، بمساعدة رؤوس الاموال والصناعة الفرنسية . ودليل التجارة في الارجنتين ، ارتفع من ١٠٠ عام ١٩٣٧ الى ١٦٢ ، عام ١٩٤٧ ، وفي الشيلي الى ١٤٨ ، وفي المكسيك الى ١٤٣ .

٢ – الحياة السياسية

عدم الاستقرار السياسي

ان التركيب الاجتماعي المتناقض اصلاً للنظام الديموقراطي ، والتفاوت العظيم بين اوضاع البلاد ، وعدم توفر طبقة متوسطة كبيرة العدد ، والبؤس الذي تتحكم فيه الجماهير البدائية التي لا تزال ترسف في دياجير الجهل ، كل ذلك وما اليه يساعد على تكوين حالة من عدم الاستقرار السياسي في البلاد ، كما يساعد على تغلغل النفوذ الاجنبي وتسربه اليها . فبالرغم من اقرار مبدأ الاقتراع العام ، فالنظام المعمول به هو قيام حكومات من الاقلية بين اصحاب الاملاك . وكثيراً ما أدى انقسام هذه الاقلية وانشقاقها على نفسها الى حدوث ازمات سياسية كان يوضع حداً لها قيام دكتاتوريات عابرة . والنزعات الاقليمية حتى وهذه الخصوصيات التي كان يزيد من حدتها قلة طرق المواصلات ، وتفاوت كثافة السكان واختلاف التطور الاقتصادي بين مقاطعات واقاليم الدولة الواحدة ولدت فيها نزعات انفصالية هددت الدولة بالانحلال والزوال . وكثيراً ما كان الدكتاتور يعتمد في بقاء نظامه ، على الجيش والبوليس ، ولذا كانت سلطته دوماً سلطة مزعزعة يتهددها الخطر باستمرار، مصيرها متوقف دوماً على هذه الاقليات وعلى المصالح الاجنبية تؤثر عليها المظاهرات غير المنتظمة التي تقوم بها الجماهير المهتاجة ، التي لم تكن تتحرك دوماً من تلقاء ذاتها وبصورة مستقلة ، بل بدافع وبتحريض من الطبقات الجديدة المتوسطة الناشطة والمغامرة ، هذه الطبقات التي ظهرت للوجود ، مع التطور الذي خضعت له المدن وحركة العصرنة التي أخذت بأسبابها . ولذا تكاثرت الازمات في البلاد وكثيراً ما أخذ بعضها برقاب البعض تعبيراً عن توق الجماهير

الى تحقيق التوازن بين التركيب الاقتصادي والاجتماعي الجديد وبين الوضع الاقتصادي القائم من قبل . فالمجتمع القديم الذي يشد من ازره المصالح الاجنبية في البلاد يحاول – واحياناً بالجوء ، اذا ما اقتضت الحاجة ، لدكتاتورية من الطراز التقليدي المعروف – ان تحتفظ او ان تعيد الى الوجود ، انظمة ودساتير تخفي وراء ستار مزعوم من الحرية والليبرالية ، كياناً اجتماعياً مناهضاً للديموقراطية وفي وجه حكومة من الاعيان او في وجه نظام ديموقراطي تمثيلي مسخته عملية مزدوجة من التزوير والمصانعة وقعت فريسة لها : هذه الجماهير الفقيرة الجاهلة . تحاول الطبقات المتوسطة ، ولو بأساليب غير شرعية ولا قانونية كانقلابات عسكرية او دكتاتوريات شخصية ، ان تقيم في البلاد حكومات تولي المزيد من اهتمامها مصالح الطبقات الشعبية والدفاع عن استقلال البلاد . والى جانب دكتاتوريات محافظة ترعى مصالح الاميركيين ، كثيراً ما وقعت دكتاتوريات تأخذ على نفسها تأديب العناصر المعادية لواشنطن ، بعد ان تكون هذه الطريقة الاسلوب الوحيد « لتحطيم سلطة النبلاء ولتفادي لعبة الاكثرية المزورة التي تصانع الماضي وتبسم له » .

وهكذا نرى ان الاوضاع والظروف التي تكتنف النشاط السياسي في هذه البلدان لم تكن لتساعد على توطيد وترسيخ الافكار الاقتصادية فيها . فالحياة السياسية تبقى فيها وقفاً على اقلية ناشطة متحركة بينما تبقى جماهير الشعب قابعة في سلبية سادرة . فأينا أجلنا النظر نرى مستوى العيش متدنياً للغاية كما ان مستوى الفكر يتردى في حالة مزرية ، فالمجتمع المدني الجديد يفتقر للكثرة والعدد ، ولا يزال مشتتاً ليلعب الدور الرئيسي الذي يلعبه في الغرب . فالأمية تسيطر في كل مكان باستثناء الارجنتين التي تعرف اقل نسبة من الاميين ، ١٠ بالمائة ، اما النسبة في غير هذه الدولة فتبقى عالية جداً : ٩٢ بالمائة في هايتي ، و ٧٩ بالمائة في سلفادور ، و ٧٠ بالمائة في نيكاراغوى ، و ٦٧ بالمائة في غواتيالا وفي جمهورية الدومنيك ، وأعلى من ٥٧ بالمائة في البرازيل ، و ٥٠ بالمائة في المكسيك ، و ٤٨ بالمائة في هوندوراس ، و ٤٠ بالمائة في كوبا ، و ٣٥ بالمائة في بناما ... ولذا كانت المساهمة بنشاط البلاد السياسي ضعيفة اما لأن الاميين هم مستثنون من حق الاقتراع واما زهداً وعدم اكتراث . ففي المكسيك ٥ ملايين ناخب من اصل ٢٨ مليون نسمة ، وفي البرازيل كان عام ١٩٦٠ عدد الذين يتمتعون بحق الاقتراع ٠٠٠ ٠٠٠ ١٦ من اصل ٣١ مليون هم في سن الاقتراع ، بينما يشترك بعملية الاقتراع فعلاً منهم ٠٠٠ ٢٥٢ ٨ لا غير ، اي اقل من ١٧ ٪ من مجموع السكان . وفي الشيلي كان عدد من يتمتعون بحق الاقتراع ٠٠٠ ٥٩٢ عام ١٩٤٩ من بين ٠٠٠ ٧٦٥ ٥ نسمة ، وفي عام ١٩٤٧ ، اشترك في عملية الاقتراع ٣٥ بالمائة من الرجال و ٩ بالمائة من النساء . وفي بوليفيا ، جرى انتخاب الرئيس هرزوخ عام ١٩٤٧ بـ ٠٠٠ ٤٠ صوت لا غير ، كما ان عدد البوليفيين الذي كانوا يتمتعون بالمواطنية الكاملة ، لم يزد عام ١٩٥١ ، على ٠٠٠ ١٥٠ .

الازمة وتأثيرها على الحياة السياسية

عندما انفجرت الازمة الاقتصادية ، كان الوضع الاقتصادي في في دول اميركا اللاتينية من التبعية للدول الكبرى والارتباط بها بحيث كان لا بد له من ان يتأثر عميقاً بالأزمة ونتائجها الموهنة الامر الذي جلب عليها انهيار العملة الوطنية . وأدى الى هبوط ذريع في اسعار المواد الزراعية . والمواد الغذائية (كالحبوب والبن والماشية) والمواد المعدنية التي سببت هبوطاً ذريعاً في التجارية الخارجية . كما احدث قلقاً وتشويشاً في موازنة هذه البلدان انخفاض الاستثمارات الاستخراجية العائدة للشركات الاجنبية او توقفها . واستتبع هذا الوضع ، اتخاذ اجراءات عدة منها مراقبة النقد ، والتوقف عن دفع فوائد الديون ناهيك عن موجـــة جديدة من البؤس والشقاء وفقدان المنتوجات الصناعية المستوردة من الخارج . واذ ذاك ، اخذت الحكومة تبحث عن وسيـــلة تؤمن التوازن في المجال الزراعي ، وذلك بفرض تنويع طبيعـــة المحاصيل الزراعية ، فعمدت الحكومة في الارجنتين الى الاكثار من زراعة النباتات الزيتية والكرمة والاشجـــار المثمرة كما عمدت البرازيل على تشجيع زراعة القطن بعد ان تعذر على رجال الصناعة تأمين العملات الصعبة لشرائه من الخارج . ولم تلبث هذه البلدان ان تبينت ما هو عليه نظامها من وضع حرج سريع العطب ، وشدة تبعيتها وارتباطها بالخارج . ان تخلف المشترين الاميركيين والاوروبيين لمنتوجاتهم ايقظ فيهم روحاً قومية اقتصادية كما اثار نقمة الشعب ضد الطبقات الموجهـــة التي كثيراً ما تتواطأ مع الرأسمال الاجنبي . ووقع اذ ذاك « جائحة من الثورات والانقلابات » ، جاء بعضها بوحي من الانظمة الفاشية ، في هذه البلدان التي تكثر فيها عناصر الهجرة الايطالية والالمانية ، حيث تلقى قادة الحرب وكبار ضباط الجيش تدريبهم العسكري في المانيا ، وحيث يشتد ويظهر نفوذ اسبانيا الجنرال فرنكو .

ففي كوبا حيث جيراردو ميشادو سيد هذه الجزيرة غير المنازع منذ عام ١٩٢١ ، هوى الى الحضيض ، عام ١٩٣١ ، تعاقب على رئاسة البلاد ستة رؤساء خلال ٢٢ شهراً ، وتمكن الكولونيل باتيستا من إقامة دكتاتورية على غرار دكتاتورية موسوليني ، وفي البيرو ، سقط حـــكم الرئيس ليغويا عام ١٩٣٠ ، على يد الكولونيل تشيرو . وسيلس الذي سيطر على بوليفيا منذ عام ١٩٢٦ ، خر صريعاً تحت ضربات الكولونيل تورو الذي لم يلبث ان اخلى محـــله لبوش . وفي فنزويلا غوميز ، وفي هـــايتي الجنرال تراخولو ، وفي غواتيمالا أوبيكو ، وفي هوندوراس كارياس ، وفي سلفادور مارتنيز ، انشأوا حكماً دكتاتورياً في بلادهم . وفي الاكوادور تعاقب على اريكـــة الرئاسة ١١ رئيساً بين ١٩٣١ و ١٩٣٩ ؛وفي الارجنتين عاد المحافظون الى الحكم بفضل الانقلاب الذي قام به الجنرال اوريبورا ، وفي الاوريغواي قامت دكتاتورية دي تيرّا التي زادها احتداما وعنفا وصول الجنرال بلدومير الى الحكم ، وفي البراغواي ، قامت الدكتاتورية على يد الكولونيل فرنكو الذي لم يلبث ان خلعه عن الحكم الجنرال استيغاريبيا ، عام ١٩٣٩ ، وايبانيز في الشيلي طُرد من الحكم عام ١٩٣١ ، ليتعـــاقب على كرسي الحكم ، من بعده ثمانية رؤساء في عشر

سنوات . وبعد المناداة بجمهورية اشتراكية استمرت ١٢ يوماً ، عاد الى استلام الحكم الرئيس القديم أيسلندرو ، بعد ان تحالف مع حزب المحافظين ، الى ان امنت انتخابات سنة ١٩٣٨ ، فوز الجبهة الشعبية التي وضعت للبلاد تشريعاً اشتراكياً كان من اكثر التشريعات تقدمية في العالم اجمع ، اذ نص على حد ادنى للاجور وعلى معاش تقاعدي لمن هم في سن الشيخوخة ، والبطالة ، والضمان ضد حوادث العمل ، والتعويضات العائلية .

ففي كل اميركا اللاتينية ، كان يوجد عام ١٩٣٩ ، اربع جمهوريات لا غـــير تتمتع بنظام ديموقراطي ثابت : الشيلي التي تخضع لحكومة إئتلافية برئاسة الجبهة الشعبية ، والمكسيك حيث اوشك الرئيس كرديناس بلوغ نهاية ولايته ، وكوستاريكا وكولمبيا التي تقوم عليها حكومـــة محافظة بالاشتراك مع الاحرار . أما في ما عدا ذلك ، فدكتاتوريات مستترة .

الحياة السياسية واوضاعها الجديدة

واستفحل عدم الاستقرار في هذه البلدان ، خلال الحرب العالمية الثانية والفترة التي تلت الحرب مباشرة . فالبنيان الاقتصادي في كل من هذه الجمهوريات ، ارتكز أصلاً على تصدير صنف او صنفين من انتاجهـــا للخارج ، وبذلك ارتبطت حياتها السياسية وتبعيتها بالمشترين في الخارج : فاذا مـا تأخروا أو تلكأوا – وهو امر بيد الزبون الرئيسي اي بيد الولايات المتحدة – هبطت الاسعار وكشرت المجاعة عن أنيابها ولاح في الافق شبح التضخم النقدي . وبعبارة اخرى، شبح الفوضى وسقوط الحكومة .

وهكذا يبدو ، كما يلاحظ جاك لمبرت ، ان التخلف الاقتصادي الذي تتخبط فيـه دول هذه القارة ، وبروز طبقات اجتماعية جديدة في حياة البلاد السياسية هما وراء عـــدم استقرار الاوضاع في هذه البلدان . فالنقص العددي وانتفاء التجانس بين الطبقات الوسطى والطبقـــة العمالية ، جعل واهياً كل تحالف تعقدانه لهذا التناقض بين رغبات كلا الجانبين في مجال التصنيع وعجزهما عن تحقيق شيء من هذا كله دون اللجوء الى رؤوس اموال اجنبية ، التي لا يمكن ان تأتي الا من بلدان اميركا الشمالية ودولها على اساس ضمانات اقتصادية وسياسية لا يمكن ان يرضى بها او يستأنس لها الوطنيون في هذه البلاد . ومن جهة اخرى ، فالنفوذ العظيم الذي حققتـــه الطبقة العاملة وضعف امكاناتها الشرائية زاد من مطالبها كما زاد من صلابتهـــا . فالقطيعة تأتي سريعاً عندما يجري قمع الاضطرابات العمالية وكبح الاضرابات والحد منها ، وبذلك تمهد الطريق امام المناضلين عن البنيان التقليدي ، لاستلام الحكم في البلاد او للوقوف في وجـــه اي محـاولة اصلاحية فيها ، فهياج الطلاب ومشاغباتهم التي لا ينكر احد اهميتها في الحياة السياسية ، تبقى عديمة الاثر ، ولا طائل تحتها . وبالفعل ، فالطلاب الذين ينتمي معظمهم ، هنـا او في الشرق الادنى او في اقطار آسيا الشرقية ، الى الطبقـــة البورجوازية الصغرى ، والذي يفتح التعليم الجامعي امـــامهم امكانات الرقي والتطور في السلم الاجتماعي ، في مجتمع اساسه التسلسل ،

م التعبير البليغ والعنيف لهـذه القومية التي لا تصانع ولهذا الصراع ضد النخبـة التقليدية في البلاد .

دور الجيش

ومن العوامل الاساسية في الحياة السياسية ، في هذه البلدان ، الجيش. والجديد هنا ليس في تدخل الجيش في الامور السياسية وهو تدخل حصل باستمرار منذ ان نالت هذه البلدان استقلالها الناجز ، بل الجديد هو في هـذا الطابع الذي اخذ يطبع تدخـل الجيش منذ مطلع القرن العشرين . فالجيش في هذه الجمهورية هو جيش محترف ، وصغار الضباط فيه اخذ يقل انتماءهم الى الارستوقراطية العقارية (باستثناء البحرية). فهم من ابناء رجال الادارة والصناعة والتجار الذين يرون في البزة العسكرية علامة من علامات التصعيد الاجتماعي. وقد تلقوا في الاكاديميات الحربية التي خرّجتهم تدريباً تقنياً يشعرون عميقاً بندورته في بلدان اميركا اللاتينية . ولما كانوا على شيء محترم من الثقافـة ، وأعدوا الحياة زاخرة بالنشاط مع انها اقصرت بالفعل على شبه عطالة لخلو اوضاع البـلاد من مشاكل الدفاع ، أو على القيام بأعمال ، كالمحافظة على النظام ، فهم يتوقون من كل جوارحهم الى تصنيع الاقتصاد والى تأمين استقلالها والمحافظة عليه ، فيشق عليهم ويشعرون بشيء من الخزي والعار من جراء مساعدة الولايات المتحدة المالية ومن تدخلهـا في شؤونهم السياسية . فهم يكنّون العداء لهذه الاوليغارشية القديمة ولهذه الدكتاتوريات من الجنس البالي التي طالما ساندها اسلافهم ووقفوا الى جانبها،بعد ان عرف عنها ممالأتها للمصالح المالية الاجنبية ولسياسة الاجنبي في البلاد ، ولذا نراهم يحبذون اي اصلاح اجتماعي يعود بالخير واليمن على الطبقـات الوسطى والسفلى معاً .

وهكذا يتدخل الجيش في الازمات الاجتماعية والاقتصادية التي تنزل بالبلاد، بصفته عاملاً من عوامل النظام والانضباط ، او عندما تبرهن مؤسسات الدولة عن عجزها التام وقصورها ، فيصبح الجيش الحكم الفصل في الحياة السياسية . ليس من طائل قط في بحث هذه التدخلات والتفصيل المسهب في قضاياها . فبينما كان في القارة عام ١٩٢٨ ، ست جمهوريات تخضع لنظام عسكري من اصل ٢٠ جمهورية، فقد ارتفع هذا العدد الى عشر عام ١٩٣٩ والى١٣ عام ١٩٦٤. وبين ١٩٣٠ – ١٩٥٧ ، تولى ٥٦ عسكرياً رئاسة الدولة في مختلف جمهوريات اميركا اللاتينية، استمر ١١ منهم في الحكم لاكثر من سنة . وهذا التدخل لم يجر دوماً لصالح اتجـاه معين او نزعة محددة ، فقد استجاب الجيش ، تارة لنداء جـاءه من الطبقات الممتازة لتأمين استمرار الوضع القائم (في الارجنتين عام ١٩٣٠ ، وفي البيرو ، عام ١٩٤٨) وطوراً لمساندة ثورة معينة (في فنزويلا ، عام ١٩٤٥) وآونة كحكم الفصل في نزاع لا نهاية له بين حزبين : بين الاحرار والمحافظين في كولمبيا ، (عام ١٩٥٢) .

ومع ذلك فهذا التدخل له طابعان متناقضان . هناك ، ولا شك ، طابع إصلاحي ، يرمي

إلى عصرنة البلاد ، يعطف على تأمين مساواة اجتماعية اكبر ، وتأمين اكبر قدر من التقدم المادي، وهكذا يمكن ان نجمل في عداد الخدمات التي أدى اليها تدخل الجيش وضع حد لحكم استبدادي ظالم (فرغاس – بيرون) . الا ان هنالك طابعاً آخر يتسم بالسلبية ، عندما تظهر محدودية هذه الرغبات التقدمية حتى في هذه الحالات بالذات التي تمت فيهـا محاولات اصلاح وعصرنة البـلاد ، فالجيش يبقى دوماً فوق القانون ويشكل دولة في الدولة ويولي نفسه حق التدخل لالغاء نتائج الانتخابات مثلاً، او لفرض اصلاحات مالية او لزيادة الاعتمادات الحربية. والغالب، بعد كل هذا ولا سيما بعد ١٩٣٠ ، هو ان صغار الضباط الذين يتطلعون الى الشهرة ، ينزعون دوماً ليس للوقوف الى جانب النظم الدكتاتورية والقوى المحبذة للركود الاجتماعي فحسب ، بل ايضاً ، الى جانب الولايات المتحدة الاميركية « المدافعة عن العالم الحر » والتي تجود بمساعدات حربية سخية . فالجيش يكبح التطور الاجتماعي اكثر من ان ينشطه . فهو يعمل عادة في اتجاه الاصلاح ، انما يقف مكتوف اليدين امام تغيير أو مس الاوضاع الزراعيـة التي هي محور كل الاوضاع . ومهما يكن ، لا بد من ان نلاحظ هنا ان البـلدان الثلاثة التي امكن فيها تحقيق اصلاح زراعي (المكسيك منذ عام ١٩١٤ ، وبوليفيا منذ ١٩٥٢، وكوبا منذ ١٩٥٩–١٩٦١)، هي هذه البلدان بالذات التي جاء الجيش بضباطه التابعين من الطبقة الوسطى او الطبقة العليـا، جرى الغاؤها بصورة جذرية من قبل ثورة شعبية .

الحياة السياسية منذ عام ١٩٤٠

وهكذا فعدم التوازن القائم بين الطبقات ، والسرعة التي يتم فيها التطور الاجتماعي ، هما من القوة والعنف بحيث ان بقاء استمرار القوى الاقطاعية القديمة امام تطور البورجوازية والبروليتاريا يجعل من المستحيل تحقيق « اصلاحات ثورية جذرية مستعجلة » .

ومثل هذا الوضع يتوفر في البلدان الآخذة بالتطور حيث تستدعي الحاجة غالباً الى سلطات استثنائية . غير ان تاريخ اميركا اللاتينية المضطربة يدلنا بصورة نهائية انه بقطع النظر عن بعض الدول الصغيرة فيها ذات التركيب الاجتماعي البالي والتي تعيش باستمرار تحت نظـام دكتاتوري وحيث « تحول الوضع فيهـا الى نظام كيفي ظالم » فالنظام الدكتاتوري ليس سوى أسلوب سياسي لا يلجأ اليه الا في الازمات الاقتصادية الحـادة . فالسواد الاعظم من الدول اللاتينية يحتضن نظاماً رئاسياً تشيل فيه سلطة الرئيس مستوحى من نظام الولايات المتحدة ، انما يختلف معه اختلافاً بيناً في الروح ، إذ تنقصه عادة الهيئات القائمة في هذه الولايات والتي تؤمن التوازن في سلطات الرئيس . فالمجالس والهيئات البرلمانية ، كما يلاحظ جاك لمبرت بحق ، لا تلعب سوى دور مغمور وتبقى سلطات الرئيس عملياً دونما رقيب او حسيب ، لا حدود لمداهـا الا بانتهاء ولايته الذي يضع حداً لسلطاته الكيفية .

ففي السنوات الاولى من الحرب ، ترى الحكومات « تجمد » في سلطاتهـا ، ثم يأخذ الجليد بالذوبان بعد عام ١٩٤٣ ، عندما أخذ يشتد نفوذ الطبقـة المتوسطة : ففي حزيران تنشب في

الارجنتين ثورة الزعماء الموالية للنازية ؛ وفي بوليفيا ، يقوم في كانون الأول قدماء المحاربين في حرب تشاكو الى جانب فاشيين يساعدهم مدنيون من « الحركة الوطنية الثورية » بقيادة باز أستنسورو ، باعلان دكتاتورية لم تعمر قط ، من برنامجها تــأميم الخطوط الحديدية في البلاد ، والكهرباء ، والدخول في صراع مع فئة كبار الملاكين لمناجم القصدير. وفي ايار ١٩٤٤ ، نشبت في جمهورية الاكوادور ثورة حملت الى كرسي الرئاسة فيلاسكو ايبارا الذي وضع مشروع دستور جديد للبلاد ، وضاعف ٥٠ بالمائة عدد العمال الزراعيين الذين يعملون في المزدرعـات الكبيرة ، كما يقوم بمحاولة اصلاح زراعي ، ويقرر الضمان الاجتماعي الالزامي وخطـط لاصلاح زراعي مع تمثيل العمال في المجلس النيابي ، وفي عام ١٩٤٥ ، قـــام البيرو بانقلاب ابيض تسلمت معه الجبهة الديموقراطية التي يرئسها مؤسس الحزب *A. P. R. A.* الذي غير اسمه في السنة التالية وعرف باسم حزب الشعب ، يستلم دفة الحكم ، على شاكلة الاشتراكي رومولو بيتانكور في فنزويلا . وفي عام ١٩٤٦ ، يعهد الرئيس فيدلا بثلاث وزارات الى الشيوعيين بينهم وزارة الزراعة .

واشتد الضغط الاميركي كما اشتدت الحاجة الى رؤوس اموال لا مندوحة عنها وقــد أدى انهزام دول المحور الى سقوط عدد من الحكومات في البلدان الاميركيــة الجنوبية : في غواتيمالا وفنزويلا والبرازيل وبوليفيا . وقد تجاهلت الحكومة في فنزويلا مشروعات التأميم ، كما لم تلبث حكومة التشيلي ان حلت الحزب الشيوعي واعلنته غير شرعي ، وجرى قلـــب استنسورو في بوليفيا ، كما ان المكسيك تخلت تدريجياً بعد انتخاب كاماكو للرئاسة عام ١٩٤٠ ، عن السياسة الاصلاحية التي تمشى عليها الرئيس كرديناس،أقرت سياسة عدم التأميم اجتذاباً لرؤوس الأموال الاجنبية . وفي عــام ١٩٤٦ ، تحول « الحزب الشيوعي المكسيكاني » بعد ان تجرد من كل نزعة ثورية الى « الحزب الدستوري الثوري » ، واستمر الرئيس ألـمَان في سياسة حسن العلاقات مع الولايات المتحدة والتقرب من الكنيســة .

ووقعت انقلابات دبرها كبار الملاكين العقاريين بمساعدة الجنرال اودريا في البيرو والباراغواي وفنزويلا حيث حل الجنرال شلبو محل بيتانكور . وظهرت ردود فعـــل ومقاومة قوية ، في الاكوادور اعرب الرئيس الذي تم انتخابه عام ١٩٤٨ عن رغبته القيام باصلاحات تكون في صالح الهنود الحمر ، وصمد بنجاح في وجه عدة محاولات للاطاحة به ؛ وفي بناما جرى عــام ١٩٥١ قلب الحكومة التي تمثل « الحزب الثوري الاصيل » المعروفة بعدائها الشديد لاميركا ، وفي بوليفيا قام فريق بمحاولة الانتخابات التي أمنت اكثرية في المجلس التمثيلي لباز استنسورو ، الذي تغلب على المحاولة وقام بثورة فعلية كان من بعض اهدافها : تأميم مناجم القصدير وتوسيع التمام وتطويره ، والاصلاح الزراعي الذي بوشر به عام ١٩٥٣ وهدف للقضاء على وضـــع الاراضي الزراعية الواسعة التي لا تستثمر او انها تستثمر بشكل لا يفي بالغرض . وفي غواتيمالا ، قـــام الكولونيل اربنز ، عام ١٩٥٢ ، باصلاح زراعي من اهدافه توزيع المزارع الضخمة ، منها مزرعة تخص شركة الفاكهـــة الاميركية مساحتها ٨٣٠٠ هكتار وهي شركة تملك ٦٠/١ مساحـــة

البلاد . وتسجل الاحزاب الاصلاحية نجاحات باهرة منها الحزب الزراعي العمالي الذي يرأسه الجنرال ايبانيز في الشيلي عام ١٩٥٢ ، وانتخاب الرئيس فيغيراس، رئيساً لكوستاريكا، ١٩٥٣ .

وليس بغريب قط ان تصمد المصالح المهددة في وجه هذه المحاولات وتدافع عن نفسها . ففي عام ١٩٥٤ ، قامت بعض عصابات من المهاجرين ، مزودة بالاسلحة اللازمة وبطائرات مقاتلة اميركية بمهاجمة غواتيمالا بينما فرض الاميركيون حصاراً على مرافىء البلاد لمنع وصول الاسلحة التي اوصت عليها الحكومة . وقد ارغم اربنز على التخلي عن الحكم كما ان خلفه ألغى الاصلاح الزراعي الذي كان بوشر به . وفي سنة ١٩٥٥ ، جاء دور الرئيس فيغوراس الذي ضاعف الضريبة المفروضة على الشركة الاميركية للفاكهة . وجرى اسقاطه من الحكم على يد « جيش التحرير » تم تدريبه في نيكاراغوي وزود بقاذفات اميركية ... فأصحاب هذه المصالح القوية ينجحون في قلب الاوضاع القائمة في اكبر دولتين بين دول اميركا اللاتينية : ارجنتين بيرون ، وبرازيل فرغاس .

دور الاحزاب الشيوعية

فالشيوعية المحظورة تقريباً في كل مكان ، باستثناء بعض فترات قصيرة ، هي دوماً عرضة لمطاردة الحكومات ومحاربتها . ومع ذلك فليس من ينكر او يشك بالنفوذ القوي الذي تتمتع به في الخفاء وان كان من الصعب تقييمه على وجهه الصحيح . ففي سنة ١٩٥٥ جرى الغاء الحزب وحظره في ١٣ بلداً ، وسمح له بالبقاء والعمل ضمن تقييدات شديدة في خمس منها ، واطلقت له الحرية التامة في بوليفيا وحدها . فهو يجتذب بعض كبار المفكرين اليه امثال كارلوس برستس رئيس الحزب الشيوعي البرازيلي وهو ضابط كبير وكاتب معروف ، والشاعر الكوبي غوبليان ، والشاعر الشيلي بابلو نرودا ، ويرسخ بشكل قوي في البلدان التي تقوم فيها صناعات حديثة ويعتمد فيها على الطبقة العمالية وينشط للعمل بين النقابات، وفي البرازيل حيث نال الحزب في انتخابات عام١٩٤٥ ؛ اكثر من ٥٧٠٠٠٠ صوت ، يأتي الحزب في المرتبة الرابعة بين الاحزاب ، كما يبدو نشاطه في كل من المكسيك ، والشيلي حيث آزر ايبانيز على انتخابه رئيساً ، وكوبا وغواتيمالا . فليس في مقدوره ان يلعب بعد ، دوراً حاسماً في اي من هذه الاقطار ، ويراعي جانبه في كل مكان لمؤازرته قيام الدكتاتوريات التي يعتمد برنامجاً اصلاحياً وتعمل على مناهضة النفوذ الاميركي. الا ان انتصار الكاسترية في كوبا الذي الهب عداء العناصر المحافظة في هذه الجمهورية بدّل كثيراً من اوضاع نشاطه وظروف عمله .

٣ - الصراع في سبيل الاستقلال

التبعية الاقتصادية والمالية

بالرغم من الازدهار الاقتصادي الذي عرفته خلال الحرب ، ومن دفع قسم من ديونها للدول الاوروبية الدائنة ، بقيت دول اميركا اللاتينية تعاني من تبعيتها وترابطها . فقد بقيت ، مدة طويلة مسرحاً لصراع عنيف

أحتدم بين رجال المال البريطانيين وبين المولين الاميركيين ، وهو صراع شالت كفته لصالح الفريق الاخير منذ عام ١٩٢٨ . ففي هذا التاريخ بالذات بلغت رؤوس الاموال البريطانيـة الموظفة في هذه الاقطار ، ١٢٠٠ مليون ليرة انكليزية ، منها ٤/٣ هـذا المبلغ قدمت قروضاً للدولة ولشبكة الخطوط الحديدية في حـين انطلقت حركة الانكماش من بيـع بعض المصالح العامة لفرقاء يشرف عليهم مولون اميركيون . ومنذ ذلك التاريخ ، وبالرغم من محافظة الدول الاوروبية على مراكزها القوية في كل من الارجنتين والبرازيل والمكسيك والشيلي ، فرؤوس الاموال الاميركية ، اخذت تبرز بشدة وتحاول السيطرة جلياً : فهي تمثل ٢٠ ٪ من ديون البرازيل الخارجية . والمال الاميركي يوظف في مشاريع استثمار المناجم والصناعة والمزدرعات الواسعة النطاق ، كما انها توزع سلفات لبعض الزعماء ، وتعمل على توثيق ارتباطها مـع بعض الاقليات المسيطرة على السلطة في البلاد . وفي الوقت ذاته ، زادت حصة الولايات المتحـدة في تجارة هذه البلدان مع الخارج بصورة محسوسة (فبلغت ٣٨ ٪ من مجموع استيراد الدول اللاتينية لقاء ١٥ ٪ منها لانكلترا) .

والضائقة المالية الكبرى والحرب العالمية الثانية اللتان عملتا كثيراً على التخفيف من روابط هذه الدول الاقتصادية باوروبا ، لم تخففا قط من تبعيتها وارتباطها بالخـارج . وعلى عكس ذلك تماماً ، فقد ادت الحرب الى توثيق قبضة الولايات المتحدة . وهـذه القبضة تبرز على الاخص في المجال الاقتصادي : فالمبادلات مع الولايات المتحدة هي اقوى من اي وقت مضى اذ ارتفعت الواردات من ٣٢ ٪ والصادرات من ٣٨ ٪ ، عـام ١٩٣٨ ، الى ٥٥ بالمائة و٥٨ بالمائة عام ١٩٥٢ ، وفي المكسيك ٩٠ بالمائة من الواردات و ٧٥ بالمائة من الصادرات ، وفي الشيلي ٤٢ و ٥٣ بالمائة ، وفي البرازيل ٥٨ و ٤٦ بالمائة ، وفي فنزويلا ٥٠ و ٢٥ بالمائة ، وفي كولمبيا ٥٠ و ٦٦ بالمائة وباستثناء الارجنتين والاوريغواي ، تحتل الولايات المتحدة ، المرتبة الاولى في تجارة هذه الدول مع الخارج ، وتمارس نحوها بالفعل « سياسة خنق » (فرنسوا بيرّو)، والوضع الاقتصادي في كل من هذه الجمهوريات سريع العطب كما هو سريع النيل منه ، اذ بدلاً من ان تعمل على تنويع تجارتها الخارجية ، فهي ترتبط ، اكثر فاكثر ، بعدد من اصناف الانتاج آخذ بالتناقص، اسعارها تحدد في الخارج بمعزل عنها في الاسواق العالمية (النترات ، النحاس ، البن ، السكر ، البترول ، القمح ، الصوف) بينما ما يشكو الفائض او التخمة ، بينما يشتد فيها الطلب على المنتوجات الغذائية والمحروقات . ومن جهة اخرى ، فرؤوس الاموال نادرة هي والتوفير ضعيف للغاية والضرائب قليلة المردود اذ ان المواد التي تصيبها الضرائب قليلة ، وفائدة التسليف عالية ٨ بالمائة للقروض التي تعقدها الدولة ، واعلى من ذلك في القروض الخاصة .

ثم ان الولايات المتحدة لا توظف اموالها الا في البلدان التي تسودها « ظروف سياسية مؤاتية وتتمتع باستقرار اقتصادي وتطمع بمعاملة عادلة سوية تتيح لها توزيع ارباح عادلة على اصحاب الاسهم » . فهي لا توظف اموالهـا في الصناعـات « التي تسهم في تطوير البـلاد الاقتصادي

والاجتماعي » ، بل في المجالات التي تنعم بأسواق قريبة مرغمة ، اي في هذه الاقطار التي حقق قسم من سكانها مستوى رفيعاً من العيش اللائق ، وهذا الشرط لا يتوفر كثيراً في بلدان تتسكع في البؤس والشقاء كهذه الاقطار الواقعة في قلب منطقة جبال الاندس او في اميركا الوسطى حيث تشتد الحاجة الى مثل هذه الاستثمارات .

وهكذا نرى ان رؤوس الاموال الاميركية حلت محل رؤوس الاموال الاوروبية . فمنذ ١٩٤٣ ، ان نصف استثمارات الولايات المتحدة ، في الخارج ، تتركز على الارجنتين ، وفنزويلا والشيلي والبرازيل . وبعد عام ١٩٤٥ يرتفع هذا الرقم من ٤٣٠١ مليون دولار الى ما يقرب من ٨ مليارات دولار عام ١٩٥٣ ، تنال ست دول منها ، هي فنزويلا والبرازيل ، والشيلي والارجنتين ، وكولمبيا والبيرو ثلثي هذا المبلغ الضخم ، ويذهب نصف هذا المبلغ للبرازيل وحدها . وهذه الاستثمارات يطلب اليها ، قبل اي شيء آخر ، تأمين المزيد من الخامات والمواد الاولية اللازمة للحرب . وقد حدث بعد الهدنة رأساً هبوط بالاسعار أثار أزمة . وقد وجب ، عام ١٩٥٠ ، العودة الى انتاج المواد الستراتيجية مما ادى الى ارتفاع الاسعار ، وبعد انتهاء الاعمال الحربية في كوريا ، أدى المخزون من المواد الاولية غير المبيعة الى اثارة ازمة اخرى في البلاد .

وريع هذه الاستثمارات الجسم الذي يعادل ١١٫٢٪ من قيمة رأس المال الأسمي الموظف عام ١٩٤٥ ، و ٢٠٫٥٪ من المبالغ الموظفة عام ١٩٥١ ، و ٣٠٪ من الاستثمارات البترولية ، يرسل قسم كبير منه خارج البلاد وقلما يعود اليها للاستثمار فيها ، ولذا يبقى مستوى العيش فيها متدنياً جداً ، لا بل ينخفض معدله بالنسبة للضغط الديموغرافي الناجم عن ازدياد عدد السكان .

فمنذ عام ١٩٤٠ ، لم تعد بلدان اميركا الجنوبية سوى دولة واحدة . فهي بحاجة ماسة للعون المالي الاميركي ولاميركا بالذات كزبون لا بد منه ولا ندحة عنه ليس لتحسين الاوضاع التي يرسفون فيها بل ايضاً منعاً للتدهور الى ما هو اسوأ ، اذ ان عدد السكان يتزايد باسرع من تزايد الانتاج الوطني فيها . ولذا رأت نفسها دوماً بحاجة ماسة لرؤوس أموال أجنبية .

وهذا التغلغل الاقتصادي يصحبه إنشاء شبكة واسعة من الخطوط الجوية (كالبان اميركان والبان اغرا) ، وخطوط الملاحة البحرية ، وكلها تستدعي وجود فنيين واخصائيين باعداد تتزايد يوماً بعد يوم ، وانشاء مؤسسات تعليمية وبعثات دراسية الى الولايات المتحدة يتابعون فيها تحصيلهم الجامعي ، والاكثار من مكاتب الاستعلامات ومن الجرائد التي تتلقى الوحي والالهام من مصادر اميركية ، واستيراد كميات هائلة من الافلام السينمائية (٨٠٪ من مبيعات هذه الافلام في الخارج) التي من اهداف الترويج لنمط العيش الاميركي في طول البلاد وعرضها .

التبعية السياسية — تمتد سيطرة الولايات المتحدة الى كل اطراف نصف الارض الغربي . فسياسة العصا الغليظة التي رسمها الجمهوريون مع تيودور روزفلت منذ منتصف القرن العشرين تجاه « اللاتين المنحطين » و « انغال الكلاب » ،

بقيت جارية المفعول، ومطبقة لا سيا في منطقة البحر الكاريبي حيث اخذت مصالح الولايات المتحدة الستراتيجية والاقتصادية تزداد شأناً وخطورة. فالمصالح الكبرى تحرص حرصاً شديداً على قيام حكومات طيّعة ، سلسة الانقياد تتركها وشأنها لتتصرف كما تريد مع انها تلاقي نفوراً وكرهاً لها لدى الشعوب ، وعرضة للخطر والتهديد . ولذا توجب مساعدة هذه الحكومات عن طريق القروض التي تنفق على تقوية تشكيلات الجيش والأمن العام او مؤازرتها عند الاقتضاء بالسلاح . والطريقة التي تعتمدها الدبلوماسية الاميركية عـادة هي الحصول على تنازلات جمركية او في شبكة الخطوط الحديدية وتنازلات عن منافع اخرى متنوعة تأتي على غرار الاساليب والخطط التي ركنت اليهـا الدول الاوروبية ، في توطيد حمايتهـا على ما تبقى من الدول المستقلة في القارة الافريقية .

ففي منطقة جزر البحر الكاريبي جاء التدخل العسكري في سلسلة متصلة الحلقات . ففي كوبا حيث أرسل عام ١٩٢٠ الجنرال كرودر للفصل في قضايا انتخابية واشترط تحقيق بعض الاصلاحات المالية قبل عقد اي قرض مالي، وفي نيكاراغواي التي جرى احتلالها من سنة ١٩٠٩ الى ١٩٢٩ ، حيث تتمركز القواعد العسكرية الاميركية في خليج فونسا كا ، ولن تلبث مصلحة الجمارك والخطوط الحديدية ان وقعت تحت اشراف الاميركيين ، وفي هوندوراس التي تضطر التخلي عن مراقبة جماركها ، وفي هايتي ، في سان دومنيك بالذات ، حيث يتسلم ادارة الشؤون المالية خبراء اميركيون . كما ان الحكومة الوطنية في سان دومنيك تستبدل لمدة اربع سنوات بحكومة عسكرية تحت اشراف البحرية الاميركية ، ومنـذ عام ١٩٢٣ ، ما من دولة من دول هذه المنطقة تعقد قرضاً مالياً خارج الولايات المتحدة، وتنهال عليها رؤوس الاموال الاميركية، لا سيا بعد هبوط الاسعار عام ١٩٢٠ وخلال السنوات التي تم فيها الاحتلال العسكري الذي اتاح لهم حيازة عدد كبير من الاراضي . وفي كوبا تملك شركات السكر خمس مساحة الجزيرة و ٦٠ ٪ من معامل تكرير السكر بينما ٨٠ ٪ من المعامل الاخرى تعيش على السلفات المالية التي تقدمها لها المصارف الاميركية ؛ فالمصارف وشركات التأمين الاميركية ، يقيمون بالفعـل احتكاراً كاملاً للجزيرة . اما على القـارة ، فنحن امام « امبراطورية الموز » مملكة الشركة الاميركية للأثمار التي تملك ، في سنة ١٩٣٠ ، مزدرعات شاسعة ، لقصب السكر والكاكاو ، واسطولاً من ١٠٠ سفينة (الاسطول الابيض الكبير) ، وتشرف على ١٦٠٠ ميل من الخطوط الحديدية والخطوط البرقية « التي تكون ، على الغالب ، الوحيدة في هذا البلد الذي تعمل فيـه الشركة. وهذه الشركة بما لها من سفن تعمل في نقل الثمار والركاب ومن ارصفة واسعة في المراسيء، ومن فنادق ومعامل تكرير ، ومصانع ضخمة ومن مدن عمـالية هي اليوم من أهم الشركات الكبرى في العالم ، شبيهة من نواح كثـيرة بستاندرد اويل. فهي تشرف مباشرة او بواسطة فروعها العديدة على مساحة ثلاثة ملايين هكتار من المزدرعات (اي ما يزيد على مساحة بلجيكا)، ولها في ولاية كوستاريكا وحدها ١٠٧٠٠ هكتار من الاراضي المزروعـة شجر الكاكاو ،

و ٧٠٠٠ هكتار من حقول الموز ، ويستغل فرعهـا في غواتيمالا ، المعروف بشركة غواتيمالا الزراعية ٠٠٠ ٥٠٠ ٤ قطعة موز من مزدرعات للموز مساحتها ٠٠٠ ١٢١ هكتار ، اي مـا يوازي كل انتاج الجزر الخضراء او كناري . ويعمل في استثمار هـذه المزارع جيش من العمال ، يؤتى بهم من سكان جامايكا ومقاطعة الاندلس في اسبانيا وجزر الكناري ومن الهنود الحمر ، والصين. وهي تتحكم بهؤلاء المزارعين المعزولين الذين يضطرون للتعاقد معها بعقود بيع ويتخلون لها عن جميع الارباح التي تجنيها من اعمال التسويق .

فالسكان يبقون عاجزين تماماً في وجه احتكار هـذا الانتاج الضخم وهذه التجارة الواسعة بحيث تبقى الحكومات حيالها مستكينة ضعيفة ، لا تبدي ولا تعيد امام ما لهـذه الشركات من غنى وثراء وحول وطول ، والتي باستطاعتها ان ترفع الدكتاتوريات وتخفضهـا كما تريد ، وان تفسد ضمائر الموظفين ورجال السياسة ، وتتلاعب بالمنافسة السياسية وتهيىء الانقلابات السياسية والثورات . والترابط الشديد بين مصالح مزارعي الموز والخطوط الحديدية ، وسيلة من وسائل الضغط والاكراه الفعالة ترزح كل من لا يقف الى جانبها . والنشاط الاناني الذي تبـذله هذه الشركة يتعارض كل المعارضة مع مصالح السكان ، اذ انها تعتمد على الزراعة الاحادية اي زراعة الصنف الواحد الذي يؤلف خطراً حقيقياً على اقتصاد هذه البلدان ، وتهمـل جانباً قسماً كبيراً من الاراضي الصالحة لاعطاء المواد الغذائية اللازمة . كذلـك هي ضد كل اصلاح اجتماعي الذي يقوي جانب العامل ويحرره من ربقة هذه الشركة ويجعله اقل طواعية لها .

وهكذا فالولايات المتحدة التي لا تمارس الاستعمار بمدلوله المتعـارف ، خلقت في اميركا اللاتينية محميات خفية او مستترة كوضع اليد الكامل على جمهورية سان دومنيك او بمراقبتهـا الحياة الاقتصادية والمالية للبلاد كما يجري الامر تماماً مـع الشركة الاميركية للاثمار في غواتيمالا .

في سبيل التحرر

وقامت في البلاد حركة تسعى لنزع سيطرة الاجنبي وعبثه بمواردهـا الوطنية ، حاولت اشراك العمال وابناء الطبقة الوسطى فيها للاسهام معاً في انجاح هذه الحركة . وهذه الجبهة وقفت في وجه الولايات المتحدة والحكومـات الوطنية الخاضعة لسيطرتها التي لا تستمر في الحكم الا بدعم منها . واتخذت المعـارضة اشكالاً مختلفة من المقاومة والصمود وارتدت طابعاً عنيفاً في هذه البلدان التي تم فيهـا تدخل عسكري : في نيكاراغواي ، اصلى سندينو الاميركيين، سلسلة من المناوشات والحروب دامت اكثر من ست سنوات . وظهر في هايتي وفي سان دومنيك « عصابات » ، منها العصابة التي ألفهـا الهايتي بيرالت ووجدت تجاوباً في الاوساط الشعبية وشنت سلسلة من الهجمات ضد المحتلين والحكومات المتواطئة معهم ، واضطرت الحكومة لشن حرب فعلية للتغلب عليهـا استمرت سنتين . وفي كولمبيا قام العاملون في زراعة الموز بأضرار عنيفة أودى بحياة الف واحـد منهم . ان نفور الشعب من هذه الاستملاكات ، والحقد الذي واجهت به كل اميركا اللاتينية الاساليب التي تلجأ

اليها القارة الاميركية ، اجبر حكومة الرئيسين هاردنغ وكوليدج على تصفية هذه الممتلكات وعلى انتهاج سياسة جديدة من « حسن الجوار » . وهذا النفور من الاميركيين الذي كان تجلى في مؤتمر الجامعة الاميركية في سنتياغو ، عام ١٩٢٣ ، بلغ من العنف في المؤتمر الخامس لهذه الجامعة الذي عقد في هافانا ، عام ١٩٢٨ ، بحيث اضطر وزير خارجية اميركا التمييز بين « التداخل » *Interposition* ، و « التدخل » *Intervention* . وعندما أقر مجلس الكونغرس ، عام ١٩٢٩ ، اتفاق كيلوغ الذي ينص على عدم اللجوء للحرب اضطر التخلي عن الملحق الذي وضعه روزفلت الذي كان ينص على ان للولايات المتحدة ، في نصف الارض الغربي ، سلطة « بوليس دولي » .

ومنذ ذلك الحين اخذت بعض الحكومات تنهج لها سياسة استقلالية جديدة سواء في مجال سياستها الخارجية كالارجنتين مثلاً التي عقدت علاقات تجارية مع الاتحاد السوفياتي كما عقدت معاهدات تحالف مع الدول المجاورة لها ، او في مجال سياستها الاقتصادية بانشائها صناعة وطنية ثقيلة ، وبالحد من مكاسب شركات الاستثمار الاجنبية وارباحها ، عن طريق مشروعات الاصلاح الزراعي كزيادة التعويضات التي يتوجب عليها دفعها ورسوم جديدة واجبارها على دفع اجور اكبر للعمال الذين تستخدمهم ، او عن طريق سياسة التأميم التي انتهجتها حكومات المكسيك وبوليفيا وفنزويلا وغواتيمالا وكوستاريكا والبرازيل . وقد اضطرت جميع هذه الدول في نهاية الامر التقيد بسياسة الولايات المتحدة . فالمحاولات التي قامت بها لسن تشريعات عمالية او لوضع خطة لتطوير اقتصادياتها ، دونما نظر الى مصالح الاستثمارات الاجنبية هوجمت بعنف . وقد تمكنت « سياسة حسن الجوار » التي سارت عليها اميركا في الثلاثينيات الى تهدئة الخواطر وازالة سوء الظن في السياسة الاميركية بعد ان كانت لوحت « بالعصا الكبيرة » . وساعدت الحرب في اعقاب ١٩٣٩ ، على تقوية النهج الاميركي الجديد الذي قام على التعاون والتشاور ، مما حمل دول اميركا اللاتينية على الاتجاه من الولايات المتحدة للحصول منها على عون اقتصادي ومالي . وقد تغير الوضع بعد وفاة ف. د. روزفلت . وقد امتعضت بعض الجمهوريات في اميركا اللاتينية من المداخلات المكشوفة التي اخذ يقوم بها فريق ممثلي اميركا الدبلوماسيين ، منها مثلاً تدخل السفير الاميركي برادن ضد الجنرال بيرون ، في انتخابات عام ١٩٤٦ ، كما ساءها جداً المطالب الملحة التي تنهال عليها والضغط الذي تتعرض له من قبل هؤلاء الممثلين وفي مجال العلاقات الدولية بين الاميركتين ، رأت ان قضية الأمن التي تتذرع بها الولايات المتحدة والتي طالما اثارتها في مؤتمر شابولتبيك (١٩٤٥) وفي مؤتمر بوغوتا (١٩٤٨) لا تتعلق بها كثيراً وان تقوية امور الدفاع عن نصف الكرة الغربي تعود بالنفع على الولايات المتحدة بالأكثر . ولذا فقد أبت التسلم بمبدأ مراقبة أدق للعلاقات الدولية التي تنوي وضعه موضع التنفيذ . كما نفرت من الالتزامات الحربية والمالية التي تقع عليها من جراء هذه السياسة ، وأعربت من جهة ثانية عن امتعاضها الشديد للاعتمادات القليلة التي

يلاحظها مشروع مارشال ، اذا ما قورنت بما يخصص من هذه الاعتمادات والمساعدات البلدان العدوة من قبل ، ولكيفية تطبيق النقطة الرابعة . فلم تنل جمهوريات اميركا الوسطى المتخلفة والجمهوريات الاخرى الواقعة في جبال الاندس سوى ١ — ٦ ٪ من مجموع السلفات التي وزّعت على العالم وبلدان الشرق الادنى وافريقيا ولا سيما اوروبا الغربيـــة لأسباب سياسية لا تخفى على احد .

ولذا برزت في جميع المجالات ردة فعل عدائية ، ضد السياسة الاميركية ، ففي هـــذه الآثار الفكرية والادبية التي اخذت تمجد ماضي الهنود التي جاد بها الكاتب البوليفي شيرو اليغريا ، والكاتب الآخر الشيلي غبريل مسترال ، والشاعر بابلو نيرودا اشهر شعراء اميركا في وقتنا هذا ، مع الشاعر البوليفي فلنسيا فيرغا والشاعر دانيال فلكرسيل البوليفي الذين اخذوا ينادون بثورة عارمة تؤمن الاستقلال التام نحو كل نفوذ اجنبي . والكاتب ميكل انجـــلو استدرياس الذي تصف لنا مؤلفاته جهاد المواطنين في غواتيمالا وصراعهم الدامي ضد شركات الاحتكار ورجال الاعمال التي يوجهونها الذين يستثمرون دونما شفقة او رحمة سكان هذه البلاد الفقراء (قصة : البابا الاخضر . وعيون سكان القبور) وظهرت هذه المشاعر على الاخص في المؤتمرات الاميركية الدولية ، في واشنطون عام ١٩٥٤ ، وفي كراكاس ، عام ١٩٥٤ ، ولا سيما بعد وصول الحزب الجمهوري الى الحـكم اذ اخذ يهدد اصحـاب رؤوس الاموال بالرجوع الى سياسة التدخل .

النزعة الاميركية الاسبانية

وتقتنح الشخصية الاميركية ووقوفها في وجه اوروبا ولا سيما في وجه الدول الانكلوسكسونية ، هذه الحركة التي انطلقت من المكسيك ، لم تلبث ان عمت كل اقطار اميركا الجنوبية . وقد وجدت تعبيرها في هـــذه التوعية التي تغلغلت في العنصر القومي الاصيل ، وفي هذه الردة التي تطالب باحيـــاء الحضارة الاميركية الاسبانية الغابرة . وقد عبرت هذه الحركة عن الروح الجياشة التي تمثلت فيها ، بهـذا الادب الاميركي الاصيل الذي اخذ يعالج المشكلات القومية في بلدان اميركا اللاتينية والف سداً يقف في وجه العملاق المنتصب في الشطر الشمالي من القارة . وهذه الوحدة او الاتحـــاد السهلة التحقيق في المجال الثقافي او الفكري ، كان من العسير جـداً تحقيقها او الوصول اليهـــا في المجالات السياسية والاقتصادية . فقد اتخذت الحكومات المعنية موقفاً متبايناً بعضها من بعض ، بالنسبة لموقعها الجغرافي ولما هي عليه من يسر وبسطة عيش وبنسبة العلاقات الـــتي تشدها من الولايات المتحدة . فمن منها شدها الى اميركا وشائج وثيقة واواصر متينة ، كالارجنتين مثلاً ، انست من نفسها حرية اكبر وقدرة اشد للحد من النفوذ الاميركي ، بينما بقيت الجمهورية الاميركية الاخرى تحت تأثير الحزب الاميركي ، عاجزة عن كل مقاومـــة ، ليس من حليف يقف الى جانبهـــا الشد من أزرها . والضغط الاميركي شق طريقه الى هـــذه الجمهورية ، عن طريق الانقسامات التي مكر جيداً في تغذيتها ، والتبها بعضاً في وجـــه البعض الآخر . فقد نجحت

اربع دول منهـــا ، على اقدار متفاوتة ، في توطيـــد استقلالها ، هي المكسيك والارجنتين والبرازيل وكوبا .

ثورة المكسيك

فالمكسيك ، وحدها بين هذه الدول ، قامت بالفعل، بثورة اجتماعية. فالعمل البنّاء فيها بوشر به ، عام ١٩٢٠ ، عندمـــا وضعت الحرب الاهلية اوزارها بعد ان الحقت الخراب والدمار بالبلاد ، وهي حركة تميزت بوضع حد للسلطات الواسعة التي تمتعت بها الكنيسة في تلك البلاد ، مما أدى الى حركات عصيان وتمرد غذتها مرويات عن ظهورات عجائبية للعذراء مريم . والى اضرابات قام بها رجـال الاكليروس فامتنعوا عن ممارسة واجباتهم الدينية لمدة ثلاث سنوات ، وحروب عصابات نظمها « الناصريون » وتطبيق اهم مواد الدستور الاساسي التي تنص على امكان مصادرة امـــلاك الكنيسة ، وبعث الممتلكات الجماعية للمجتمعات القروية بعد ان نُزعت منها في الماضي ، والغاء الديون المترتبة على المزارعين وانشاء نقابات للعمل والاصلاح الزراعي الذي تمهـــل بتطبيقه رؤساء الجمهورية الثلاثة : كارانزا واوبريغون وكالاس ، ادى بالرغم من هذا التباطؤ في وضعه موضع التنفيذ ، الى توزيع ٤ ملايين هكتار من الاراضي على الاهلين ، كما ادى الى انشاء مصارف زراعية في البلاد ؛ الا انه لا يزال في البلاد ، عام ١٩٣٠ اكثر من ١٢٠ مليون هكتار من الاراضي تنتظر من يوزعها على مليون من الاسر المكسيكية لا املاك لها . وتوقف المشروع الاصلاحي ، عند هذا الحد ، كما لم تطبق ، كما يجب ، سياسة تأميم الصناعات الاستخراجية . والمادة ٢٧ من دستور البـلاد التي تعلن باطن الارض ملكية لا يمكن التصرف بها ، اعتبرت لا مفعول رجعي لها . والانجازات المهمة بالفعل والتي كان لها تأثير بعيد ، هي الـتي تمت على يد وزير التربيـة والتعليم خوسيه فاسكونسلوس الذي انشأ عدداً كبيراً من المدارس في القرى وقام بجهود ضخم في سبيل تعميم التربية الشعبية . ومع ان الثورة تعـــثرت في سيرها ، فقد سجلت ، مع ذلك ، حدثاً بارزاً في تاريخ القـــارة الاميركية. ولأول مرة في تاريخ هذه القارة قامت ثورة زراعية عضدتها الجماهير الشعبية وهدفت للعمل في ما يؤول لخيرها ، وخرجت عن كونها مجرد تغيير فريق ليحل محـــله فريق آخر . وتمكن الفائزون في هذه الثورة من تقليم اظافر هذه الاقلية الاقطاعية التي طالما عبثت بمقدرات البلاد وعرفوا كيف يصمدون بنجاح في وجه ضغط المصالح الاجنبية .

وهذه الحركة الاصلاحية لقيت دفعاً اكبر ابان اشتداد الازمة المالية عندما انتخب كرديناس رئيساً للبلاد . فبين ادارته والخطة الجديدة التي وضعها ف. د. روزفلت اكثر من شبه واحد ، فقد وقف كرديناس الى جانب الفلاحين والمزارعين ، واولى اهتماماً صادقاً حركة بعث البـلاد وتجديدها عن طريق تأمين الاستقلال الاقتصادي للبلاد وتحقيق الاشتراكية العمالية والزراعيـة وهي المطالب التي جاش بها وتبناها الجناح اليساري للحزب الوطني الثوري(P. N. R.) وأخذ تحت رعايته وتوجيه تنظيم الجبهة الوطنية المكسيكانية التي لم تلبث ان اصبحت الحزب الثوري المكسيكاني ، الذي جمع حوله الجنـاح اليساري لحزب الاحرار وعـدداً كبيراً من المنظمات

الصغيرة ، والاتحاد المكسيكاني للعمال الذي اسسه لمباردو توليدانو ، عام ١٩٣٦ والاتحاد الوطني الريفي (C. N. C.) . واعيد العمل بمشروع توزيع الاراضي وجرى تنفيذه بسرعة لم نعهدها من قبل . فقد جرى توزيع ٢٠ مليون هكتار ، عام ١٩٤٠ على ٧٧٤٠٠٠ اسرة . وقد وُزّعت هذه الاراضي على اصحابها ، كعقارات شخصية او فردية ، بينما حاولت الحكومة - خلافاً لما جرت عليه الحكومات السابقة التي هدفت لجعل هذه الاراضي الموزعة مرحلة يتهيأ معها الهنود ليصبحوا من صغار الملاكين ان تجعل منها مزارع تعاونية مجهزة تجهيزاً حديثاً . وقد تولى كرديناس بنفسه تنفيذ هذه العملية في قضاء لاغونا ، حيث الفت ٣٩٠٠٠ اسرة من ٢٨٠٠٠٠ هكتار اقطعت لها ، مزارع تعاونية ، كان لها من النجاح والازدهار ما شجع على توسيع هذا الاختبار ، الى مقاطعات يوكاتان وسونورا .

وبتأثير من المنظمات العمالية التي اخذت تطالب بأجور أعلى ، ورغبة منه بتأمين موارد جديدة للبلاد ، وعملاً بالسياسة العامة التي اعتمدها والتي رمى من ورائها للاحتفاظ بموارد البلاد للبلاد عملاً بالشعار : « المكسيك للمكسيكيين » راح الرئيس كرديناس يطبق قانون التأميم الذي صدر عام ١٩٣٦ ، لارغام ارباب العمل على القبول بعقود جماعية . وسند بنفوذه حركة الاضرابات وصادر الاستثمارات الاجنبية وحولها الى تعاونيات . فقد أمم ، عام ١٩٣٧ ، الخطوط الحديدية (وهي بريطانية في معظمها) ، كما أمم عام ١٩٣٩ ، شركات البترول التي يعود معظمها للأميركيين بعد أن تأزمت العلاقات بين اصحابها والنقابات العمالية . الا ان خلفاءه تراجعوا عن هذه السياسة من بعدها ، عام ١٩٤٠ امام الشركات التي اخذت تعرقل بيع البترول المكسيكاني وتسببت بنشوب ازمة مالية في البلاد .

وبعد ان غطت الثورة المكسيكانية في نومها بين ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ولا سيما بعد ١٩٤٠ ، فقد برهنت عن حيوية زاخرة ونشاط عارم ببعث الفن الوطني الاصيل في البلاد فسجلت بذلك عملاً ندر مثيله في عصرنا هذا ، إذ افرغت هذا الفن في حياة المجتمع المكسيكاني : فالرسامون والنقاشون والحفارون المكسيكيون يعملون وثيقاً مع الجماهير الشعبية ، وبذلك بعثوا من جديد التقاليد الاصيلة التي سارت عليها البلاد من قبل وترعرعتها ، فجاءت بذلك دليلاً على المثل العالية التي جاشت بها الثورة ، فعبروا بالآثار الفنية التي وضعوها على الآلام والمصائب التي انهالت على الشعب المكسيكاني . فن قاس ، خشن ، بليغ هذا الفن ، الا أنه فن ، النبل والاباء ملء وفاضه ، يزخر بالقوة مع اوروزكو وريفيرا وسيكويروس . الا ان الثورة تخلت ، على ما يبدو عن الصورة التي تمثلتها لديموقراطية عمالية زراعية . وبالرغم من الاسم الذي عرف به الحزب الحاكم وهو : الحزب الثوري المكسيكاني ، الذي كان الجهاز الممثل الطبقات الوسطى في المدن ، فقد اصدر تشريعات اخذت تمالىء ، اكثر فأكثر ، قيام العقارات الكبرى وتراعي جانب الكنيسة الكاثوليكية . فالبطالة والحاجة الى الارض والتضخم المالي المتصاعد كل ذلك

وجد له صمّام امان في الهجرة الجماهيرية المتسارعة غالباً ، والبائسة دوماً ، باتجاه الولايات المتحدة الاميركية .

ارجنتين بيرون

فالامثولة البليغة التي نستمدها من سلوك الدولتين الكبيرين في اميركا اللاتينية تدل بوضوح ، بالرغم من الارتجاجات وحركة النكوص التي ارتسمت عليها ، على عمق التطور الذي وقع منذ نصف قرن في هذه البلدان وسيرها الحثيث نحو تحقيق استقلال اكبر .

ولما كانت الارجنتين مرتبطة الى حد بعيد ببريطانيا العظمى من الوجهة الاقتصادية، فقد تأثرت بعيداً بالازمة الاقتصادية الكبرى واصبحت على حافة كارثة مالية تهددها لا سيا بعد اتفاقات اوتاوا حيث نالت منافستاها الكبيرتان : كندا واوستراليا ، من المنافع والامتيازات ، في الاسواق البريطانية ، ما كانت تتمنى ان تنال منه نزراً نزيراً . ولذا اخذت هذه الاقلية الصغيرة ، الميالة للانكليز والتي تطالب بتنشيط انتاج الحبوب في البلاد والتوسع في تربية الماشية، والتي استطاعت ان تسقط الراديكاليين وتبعدهم عن الحكم ، تثير معارضة التجار وسكان المدن المعروفين بعدائهم لسياسة تغليب الزراعة في البلاد التي من بعض نتائجها تعزيز استيراد المواد المشغولة واجتذاب رؤوس الاموال البريطانية . وقد راح الحزب الراديكالي المحافظ ينحى باللائمة على كبار الملاكين العقاريين المتولين الحكم في البلاد ، بعرقلة الازدهار الاقتصادي فيها واخذوا يطالبون بسياسة أشد واقوى تأخذ على نفسها تصنيع البلاد وتعمل على تنويع الاقتصاد وتلوينه بحيث تتوفر ليس ظروف الكسب والربح امام الصناعيين وزبائنهم من التجار فحسب، بل ايضاً اجتذاباً للمهاجرين واليد العاملة . ان سياسة توسيع المزارع وايجاد الالوف من صغار الملاكين ، من شأنه ان يخلق في الداخل سوقاً لا بد منها لتصريف الانتاج الصناعي ، كما انهم — يحبّذون من جهة اخرى بأن يساهموا مساهمة اكبر بسياسة الجامعة الاميركية بحيث تتأمن مصالح البلاد العليا ، وتستقيم المنافسة الانكلو الاميركية . وأدت المضاربات ، خلال الحرب والعسر المالي الذي عانت منه البلاد الى ارتفاع الاسعار والى المزيد من الاستياء العام بين الاهلين، وفي الرابع من حزيران، أدت « حركة زعماء الجيش» الى قلب الحكومة . فنحن ليس امام انقلاب عسكري تقليدي من النوع المعروف . فالضباط الذين هيأوها استجابوا بالأكثر لروح التقاليد الارجنتينية كما ظهرت عبر الاجيال وللروح الكاثوليكية المحافظة التي اثارها رجال الدين المعجبون بفرنكو ، كما استجابوا للمشاعر المضادة للديموقراطية والسامية التي جاش بها الجيش ، واعجابها بالجيش الالماني وببغضها لكل ما هو اجنبي ولكل ما ينسجم مع رسالة الارجنتين المقدسة التي تعمل في سبيل وحدة اميركا الاسبانية ، وللدعاية الفاشية والنازية والفرنكوية . فنحن هنا امام مزيج من نوع خاص تألفت عناصره من رجعة كلاسيكية ومن روح قومية ثورية حديثة شاعت بين الطبقات المفكرة والضباط وشبيبة الطبقة المتوسطة عدوة الرأسمالية والليبرالية والديموقراطية التي ترغب بأن يوضع حد نهائي للفساد في البلاد والى عجز الحكام الذين

اخذوا ينظرون اليهم نظرهم الى عملاء الرأسماليين الاجانب ، ولا سيما عملاء البريطانيين وراح الضباط الشبان ذوو النزعة النازية يُنحّون جانبــاً الجنرالات ذوي الميول الرجعية والمشاعر التقليدية ، ويطبقون برنامجهم : فالوصول الى مركز القيادة في اميركا الجنوبية يقتضي له صناعة قوية تستطيع ان تؤمن الجيش الوسائل التي تساعده على تعادل ما البرازيل ، الجارة المنافسة الكبرى التي تساندها الولايات المتحدة ، من صناعة قوية ومن قوة حربيــة . والنظام الجديد ينسج على منوال الفاشية : تقوية قوى الأمن العام (وجعلها من القوة والبطش في بونس آيرس كما هي في نيويورك التي تزيدها اتساعاً ثلاثة اضعاف) ، وانشاء « مصلحة خاصة » تكون نسخة طبق الاصل من الغستابو الالماني وبلجأ الى الاساليب ذاتها ويقوم بعمليات مذابح بالجملة بين احياء اليهود في المدن ، ويضع تحت اشرافه الصحافة والاذاعة ، والمراقبة وحل الكونغرس ، ومراقبة التعليم الديني وينشر المبادىء التي تقول بهــا الدكتاتورية وتعلم ، والتدريب العسكري لكلا الجنسين من سن ١٢ سنة فصاعداً ، ومضاعفة خمسة اضعاف ميزانية الدفاع والحربية .

ولكي تعترف بها الامم المتحدة ، اضطرت الحكومة للاعتراف بالاحزاب ، حتى بالحزب الشيوعي ، انما تخضعها لمراقبة دقيقة وتخضع الانتخابات التي تقوم بهــا الإرهاب . وجرى ترسيخ النظام الجديد على يد بيرون الذي دخل الحكومة عام ١٩٤٥ وقد أنيطت بـه وزارة العمل والضمان الاجتماعي وقام فيها باصلاحات أمنت له شعبية جنونيــة ، اذ أدت الى زيادة محسوسة في اجور العمل ، وتثبيت اسعار المواد الغذائية ، وتحديد حد أدنى للعمال الزراعيين ، وظهر للجميع بأنه الشخص الوحيد الذي يستطيع الوقوف في وجه الاستثمار الاجنبي البغيض وان يضع حداً للبؤس والشقاء المسيطرين على المدينة والريف معاً . واصحاب القمصان السوداء كلهم يتهالكون في خدمته ويتدخلون لمصلحته بتنظيم مظاهرات ضخمة هادرة تأييداً له كلما كانت سيطرته أو نفوذه في خطر .

« العدلانية » فهو صاحب « النظام العدلاني » ، وهو نظام دكتاتوري يؤلف حلقة ثالثة في سلسلة هذه الانظمة الجماعية ، ينبذ على السواء الرأسمالية والشيوعية . ويعرف هذا النظام بكونه « نظاماً فلسفياً في جوهره ، يتميز عن الفردانية الرأسماليــة كما يختلف عن الجماعية من جميع الوجوه » . و « النظام العدلاني » هذا مستوحى في اصوله العامة من انظمة موسوليني وسالازار وكدرياتو ، ولذا فهو يمتّ الى الفاشية بسبب وثيق . فهو كمثاله المحتذى ، يشدد على الاستقلال الاقتصادي ، وعلى العدالة الاجتماعية والسيادة الوطنية دون أي رغبــة في تحقيق الدولة الحرفية او المهنية وبدون ان يولي النقــابات اية وظيفة عامة . واسوة بالنظم الفاشية ، فقد علل النفس بالقضاء على الصراع الطبقي واستبداله بالتعاون المتبادل فيما بــين الطبقــات . اما القومية عنــده فأساسها العرق دون الفكرة البيولوجيــة ، « فهي نظرية روحية محض » .

والنقابات التي تعين الحكومة رؤساءهــا ، تضم طبقة عمالية يغدق عليها النظام عوارفــه :

كالعقود الاجماعية ، ومرتب شهر اضافي في آخر السنة والضمان الاجتماعي الإلزامي والمشاركة في الارباح ، وقوانين مضادة للتكتلات الاحتكارية .

وقد صدر في البلاد ، عام ١٩٤٩ ، دستور جديد شدد كثيراً من جانب السلطة التنفيذية ، يضمن حقوق العمال الاجتماعية ، وأشار من طرف خفي على « ان الملكية الاجتماعية » ستأتي بديلاً للملكية الفردية . وإيفا بيرون « سيدة الامل » أخذت على نفسها تأسيس منظمة خيرية تمد يداً مسعفة الشيوخ وللأولاد وللنساء ، وتؤمن النظام القائم شعبية واسعة . من مفارقات هذا النظام هو انه في الوقت الذي برز فيه نصيراً للطبقات الرازحة والمضطهدة يبعث فيهما الشعور الطبقي المبني على البروليتاريا العمالية او الـ *Negada* (طبقة الصعاليك) ، راح يشدد من جانب القوى الرجعية في البلاد : كالجيش والبوليس والاكليروس . وقنع بأن يُحيّد الاسر القديمة ويراعي جانبها بعد ان امتنع من تطبيق القانون بحقها ، هذا القانون الذي يجيز له مصادرة املاكها الواسعة وتوزيعها على الشعب .

وانجازاته الاقتصادية لم تأت اقل شأناً وقدراً . ولكي يحرر البلاد من وصاية الاجنبي عليها، كان لا بد من انشاء صناعة وطنية قوية . ولذا سار على سياسة الاقتصاد الموجه والتأميم ، هذه السياسة التي تضع بين ايدي الدولة القطاعات الرئيسية في الاقتصاد الوطني . وعلى هذا الاساس جرى تأميم البنك الاهلي وفرض الرقابة على كل مؤسسات التسليف، وانشأ اسطولاً تجارياً ملكاً للدولة كما عهد الى شركات وطنية باستثمار ثروات البلاد من البترول والفحم الحجري . أما الصناعات الاخرى ، فعملت الدولة على تشجيعها وسهلت لها وسائل النهوض بالخطة الاقتصادية التي وضعتها ، وذلك عن طريق تسهيلات مالية واعفائها من الضرائب ، ومعدل قطع تفضلي .. وتمويل مشروع تصنيع البلاد يجب ان تؤمنه الزراعة . فعلى مكتب تأمين النقد النادر ان يشتري محاصيل البلاد بالعملة الوطنية (البيزوس)من المنتجين لها ، على ان يبيعها للخارج بأعلى سعر ممكن تأمينه بالليرات الانكليزية . وهكذا دخلت الخطة الخماسية الأولى (١٩٤٧ – ١٩٥١) دور التنفيذ ، وجاءت نتائج الانتاج الوطني مرضية متفقة تماماً مع التصميم الموضوع حتى عام ١٩٤٨ ؛ الا انه حدث بعد هذا التاريخ ركود عام في الخطة . والتأميمات الوحيدة التي اجريت انحصرت في شراء شبكة الخطوط الحديدية من الشركات الفرنسية والانكليزية ، وشراء شبكة التلفون من الشركة الاميركية بل محتكرة هذه الشبكة . ومن الواضح ان هذه الخطة الجديدةالواسعة لم يكن من الممكن تطبيقها لعدم توفر رؤوس الاموال اللازمة في البلاد، وللبلبلة القائمة بين التوسع الصناعي وركود الزراعة . وقد حدث بالفعل تأخر ملحوظ في المجال الزراعي ومن جراء نقص في اليد العاملة التي مالت للعمل في المصانع ، وللتفاوت العظيم بين اسعار المواد الزراعية والمنتوجات الصناعية ، وهو سعر متدن جداً تدفعه الحكومة كان من بعض نتائجه تناقص الاراضي المزروعة قمحاً وبالتالي نقص يلحق التصدير . وقبل انجاز الخطة الموضوعة ، عام ١٩٤٩ ، كان لا بد من « قلب البخار» وانتهاج سياسة تعمل على تشجيع الزراعة في البلاد.

وعصر النفقات العامة . وارتفاع حركة التصدير التي نتجت عن التسلح الاميركي واشتباكها بحرب كوريا افسدها ارتفاع الاسعار العالمية فزادت من كلفة الاستيراد بحيث انخفضت جداً القدرة الشرائية في البلاد وعمد كثيرون من رجال الصناعة والتجارة الى التخفيف من نشاطهم وعادت البطالة تكشر عن انيابها ، عام ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، وزاد التضخم المالي في البلاد . ومع ذلك فقد أعطت الانتخابات العامة الجنرال بيرون ، عام ١٩٥١ اكثرية اقوى من التي تمت له عام ١٩٤٠ .

وجاءت الخطة الخمسية الثانية ١٩٥٣ — ١٩٥٧ تختلف تماماً عن سابقتها . فقد حلت فيها لزراعة وتربية الماشية المرتبة الاولى من العناية ، ووُضع للتصنيع برنامج متواضع جداً كان لا بد للنهوض به ، من الاعتماد على رؤوس الاموال الاجنبية . وحاول بيرون ان يستدرج المتمولين الاميركيين ، واضطر في هذا السبيل لتوقيع اتفاقات مع شركة ستاندرد اويل . وقد بعثت هذه المصاعب التي لقيها المعارضة من مكمنها مع انها لم تلق سلاحها . وقام في البلاد حلف ضم كبار الملاكين العقاريين بعد ان كان بيرون راعى جانبهم وابقاهم دوماً تحت التهديد ، والتجار والطبقات المتوسطة ، والطلاب ورجال الفكر الذين استهدفوا للاضطهاد ، والكنيسة التي اقلقها انشاء اتحاد بيروني ضم الطلاب والجيش والبحرية ، واسقط من الحكم في ايلول عام ١٩٥٥ .

ان مقاومته العنيفة للولايات المتحدة الاميركية ، والدور الذي لعبه كالدافع الاكبر عن اميركا اللاتينية ضد خصم عنيد بطاش ، اكسبه نفوذاً كبيراً . فالنجاحات التي حققتها انجازاته في الحقل الاجتماعي ، بعد عام ١٩٤٥ ، والجهود التي بذلها لبعث ثورة سياسية واقتصادية تعم اميركا اللاتينية بطولها ، ضد الاميركيين ، قوبلت بدوي عظيم تجاوبت ارجاؤه في كل جمهوريات هذه القارة ، وامتت له العديد من الانصار والمريدين ولم تلبث ان استوثقت علاقاته بكثير من الدول في الخارج ولا سيما مع الفئات العسكرية والمدنية التي جاشت مثله بالاماني نفسها ، وراح « الملحقون التجاريون » في سفارات الارجنتين في الخارج ومفوضياتها يبثون تعاليمه ومبادئه العدلانية . وقد قام بعد عام ١٩٤٣ ، في طول البلاد وعرضها زملاء او رصفاء لبيرون ، اثر الثورة التي اندلعت نيرانها في بوليفيا ، والانقلابات المتتالية التي وقعت تباعاً في باراغواي ، وانتخاب فيلاسكو ايبارا في الاكوادور ، وباز استنسورو في بوليفيا ، والجنرال إيبانيز في الشيلي الذين وقفوا موقفاً استقلالياً شديداً من الاحتكارات الاميركية وقاموا بحركات تأميم في بلادهم . وعقدت معاهدات تجارية رمت كلها الى تأمين التعاون بين النظم الاقتصادية المعمول بها في هذه الدول وراح كل منهم يقف موقفاً استقلالياً باتجاه الولايات المتحدة . ولذا جاء هبوطه انتقاماً ثأرياً اعدته الاحزاب القديمة والطبقات الموجهة التقليدية ، كما ساهمت في احكامه المصالح الاجنبية التي وجدت في وضع الارجنتين المالي الصعب ، فرصة لها سانحة لاستعادة ما خسرته في هذا المجال .

برازيل فرغاس

تأثرت البرازيل التي شدتها الى الولايات المتحدة روابط اقتصادية متينة ، الى حد بعيد من الانهيار المالي الذي اصاب الولايات المتحدة وخلخل اقتصادها ، عام ١٩٢٩ ، اذ انخفضت الاسعار فيها ٣/٢ قيمتها ، وافلس عدد كبير من اصحاب الامـــلاك العقارية فآلت املاكهم فجــأة الى ايدي ممثلي البورجوازية . والثورة العسكرية التي وقعت عام ١٩٣٠، ورفعت فرغاس الى السلطة ، وضعت حداً لسيطرة الأُطر التقليدية وجلبت الى الحكم عناصر جديدة عمادها الطبقات المتوسطة في البلاد ، وخلقت الدولة الجديـــدة : قومية اصلاحية . وتمكن فرغاس من التغلب على العراقيل والصعوبات التي اثارها في وجه الحزب الفاشي، وتحطيم المقاومات المحلية والحركة الانفصالية التي ظهرت في ولاية ساوبالو ، عـــام ١٩٣٢ . ووطد سلطته عام ١٩٣٧ ، بوضعه دستوراً جديداً اعترف له بحق تجديد ولايته : بحيث بقيت دكتاتوريته قـائمة حتى سنة ١٩٤٥ . وقوى من سلطات الحكومة الاتحادية ، وألغى الجيوش المحلية ، وانتهج سياسة اصلاحية انتهازية استهدفت تحسين وضع الفلاح والخلاسي والملونين ، عن طريق تحديد ساعات العمل في اليوم . وقد حاربته النخبة الفكرية المتحررة في البلاد ، كما لقي حرباً عواناً من قبل المجتمـــع القديم ، المؤلف من الأسر القديمة والارستوقراطية العقارية ، والاعيان ، بعد ان خلخل ما كان لهم من شأن ونفوذ ، كما ان استئثار الطبقـــات الوسطى بالسلطة حرمهم من وسائل العمل والتأثير في البلاد .

وقد احتفظ بمقاليد السلطة حتى عام ١٩٤٥ بفضل الشعبية التي تمتع بهـــا والتي اعادته الى مركز السلطة والقيادة عام ١٩٥٠ ، في اعقاب الفترة الدستورية التي شغلها الجـــنرال دوترا ، واحتفظ بها حتى وافاه الاجل المحتوم ، عام ١٩٥٤ . وعلى شاكلة « الصدلانية » ، التي اسسهـا بيرون ، فال « *Gélutisme* » التي اقامها فرغاس ، قامت مع محاربتها الشيوعية ، بجهود طائـلة لتحسين اوضاع الفلاحين والعمال في البلاد . وتولى وضع تشريع اجتماعي لم يعرف مثله الى ذلك الحين اقتصر اثره على المدن الا انه ترك حـــالة من البؤس والشقاء وعـــدم المساواة في المجتمع البرازيلي ، وجمع حوله العناصر الشعبية ، كما ان السياسة التي انتهجها في تصنيع البـلاد اكسبته عطف رجال الاعمال بعد ان غض النظام النظر عن الارباح الطائلة التي كانوا يجنونها. فدكتاتورية من هذه الدكتاتوريات الانتهازية « الاكثر فطنة والاقل وحشية .. لا عنف فيهـا ولا مبادىء لها » . وفرغاس لا يفي بوعوده ، الا انه يتدبر الامر في ارضاء الجميع ، فقد غض النظر عـــن تعدد الاحزاب في البلاد ، وحرية الصحافة لا أثر لها في عهده ، ومع ذلك فحرية الكلام تبقى كاملة غير منقوصة . فالاحزاب الجماعية التي ظهرت قبل عام ١٩٤٠ والشيوعية تكافح وتعتـبر غير شرعية الا انه يحافظ على علاقاته مع زعمائها . فبعد ان عبر عن مشاعرها نحو دول المحور ، عاد وتحالف مع الولايات المتحدة الاميركية وارسل حملة تشترك بالحرب في ايطاليا . ومع انـه يعتمد على الروح الوطنية في البرازيل المعروفة بعدائها للاميركيين ، فقـــد استخدم الاعتمادات الطائلة التي وضعتها الولايات المتحدة تحت تصرفه ، لتشجيع حركة التصنيع في البلاد، من جميع

وجوهها . ووضع عام ١٩٤٥ خطته الاغاثية لتطوير البلاد المعروفة *S. A. L. T. E.* (الصحــة العامة – التغذية – النقل والطاقة) ، وهو برنامج رمى من ورائه الى رفع مستوى العيش بــين العمال . وبعبارة اخرى : الانتاج ووسائل النقل ومصادر الطاقة التي تكون الاعمدة الاساسية لكل تطوير في الزراعة والصناعة . وادى انتصار الحلفاء على المانيا، هنا كما في اي مكان آخر من بلدان اميركا اللاتينية الى زوال النظم الدكتاتورية . فقد اجــبر الجنرال دوترا ، فرغاس على التخلي عن الحكم وأقر دستور جديد للبلاد عمل بموجبه ابتداء من عام ١٩٤٦ .

وفي خلال خمس سنوات تولى الحكم في البرازيل حكومة منبثقة عن تحالف بين الكاثوليك والمحافظين ، زاد خلالها التضخم المالي من جراء الازمة الاقتصادية التي عقبت الحرب، وارتفعت الاسعار اكثر مما ارتفعت الاجور . وكشف الاثراء الهائل المتجمع في ايدي قلة من الناس البؤس المدقع والشقاء المسيطر على البلاد . واعادت انتخابات عام ١٩٥٠ فرغاس الى كرسي الرئاسة ومعــه برنامج اجتماعي اجرأ من اي وقت سبق . وفي ايار ١٩٥٤ ، رفع الاجــور ١٠٠٪ وانشأ الـ *Petrobas* الذي هو عبــارة عن احتكار الدولة للبترول ، كما انشأ *l'Electrobas* الذي لم يكن حتى ذلك التاريخ سوى بناء مركز ضخم لتوليد الطاقة الكهربائية تابع للدولة الا انه يؤلف بالفعل تهديداً لرؤوس الاموال الاجنبية التي وظفت في البلاد قبل عام ١٩٤٥ ، واذ ذاك حدث انقلاب عسكري دعاه للتنازل والانسحاب . فانتحاره المؤثر ووصيته البليغة قوت شعبيته ، وقام حزبه اي الحزب العمالي بانتخاب الرئيس كوبتشيك لتولي مهام الرئاسة الاولى ، كما انتخب نائباً له ج. غولار ، وزير الاشغال العامة في عهد فرغاس . وانتصار الـ *Gélutisme* انما يعني انتصار حزب اليسار . وقد نصح الحزب الشيوعي الممنوع في البلاد التصويت الى جانبه ، وهو بالحقيقة فوز العناصر التي تهتم بتطوير الصناعة بين الشعب البرازيلي ، وتقوية السوق الداخلية ، والتجارة مع جميع الاقطار في وجه الطبقات الموجهة القديمة المتحالفة مع الرأسمال الاجنبي . بينما الطبقات الشعبية لم تكن حتى الآن سوى عنصر تكميلي ليس الا .

قام النظامان البيروني والجيتولي على التباس : هو محاولة تحويل انتفاضات الجمــاهير عن الاجنبي ... فقد احترما الامتيازات التي نعمت بها الاقليات القديمــة وحافظا عليها ، لا سيما الارستوقراطية العقارية القديمة وشركات الاستثمار الخاصة في الوقت الذي جهدتا للعمل في سبيل تحسين ظروف العيش بين الجماهير والنهوض بالتصنيع الذي هو أساس كل استقلال اقتصادي . وقد رفضا كلاهما الاخذ باصلاحات جذرية او المس بأرباح رأس المال، مؤثرين اللجوء الى التضخم المالي لمواجهة متطلبات الاستثمارات والنفقات الاجتماعية . وهكذا تسببا في رفع الاسعار وزادا الوضع تشويشاً بزيادة اختلال التوازن في الميزان التجاري . فلم يكن من العسير على هــذه الاوليغارشيات ، والحالة هذه ، ان تزيحهما معاً بمؤازرة المصالح الكبرى العائدة لدول اميركا الشمالية .

٤ – وضع القارة بعد ثورة كوبا

اثار الفوز الذي حققه رجال المقاومة (*Maquisards*) على دكتاتورية باتيستا الدامية ، في كانون الثاني ١٩٥٩ ، في الحياة الدولية ، ازمة حادة في العلاقات الدولية بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي عن طريق احتمال المجابهة المسلحة بين القوتين العملاقتين ؛ كما ساعدت على احداث تغيير جذري في اوضاع القارة من الوجهتين السياسية والاجتماعية .

الثورة الكوبية ونتائجها

فقد كانت كوبا بالفعل مستعمرة للولايات المتحدة تستثمرها وتمتص خيراتها عن طريق الشركات الضخمة التي كانت تتصرف بممتلكات شاسعة يزيد بعضها على نصف مساحة محافظة من المحافظات الفرنسية ، وبواسطة مصانع هامة كانت جميعها تتحكم بجميع مرافق النشاط الاقتصادي في الجزيرة . وقد باشرت كوبا ، منذ سقوط حكومة باتيستا الاخذ بسلسلة من الاصلاحات رمت الى تحسين مستوى العيش بين الجماهير الكادحة : كتخفيض الاجور ، وتحويل المزارع الكبرى الى تعاونيات زراعية ، ومكافحة الامية في البلاد ، وتسليح الميليشيا الشعبية . وقد استهدفت هذه التدابير الاصلاحية لمقاومة كبار الملاكين ولرجال الاعمال ، كما واجهت عقوبات صارمة من قبل الولايات المتحدة ، ونالت اكتمالها بالقانون الزراعي الذي صدر في ١٧ ايار ١٩٥٩ . وعندما قررت اميركا عام ١٩٦٠ ، ادخال تعديلات على الحصص المسموح استيرادها من السكر ، تحول الصراع الى صراع مكشوف. فحاولت اميركا من جهتها ، انشاء جيش لغزو كوبا يتألف من المهاجرين الكوبيين عندها ، وفرض الحظر على التصدير لكوبا بجميع اشكاله كما ردت كوبا من جهتها على هذه التدابير باتفاق عقدته مع الاتحاد السوفياتي تعهد معه شراء السكر والفاكهة والفول النباتية ، وتقديم مساعدات مالية ، كما صادرت الشركات الاميركية العاملة في الجزيرة (معامل السكر ومصافي البترول ، ومعامل توليد الكهرباء والتلفون) ، وتأمم المصارف في البلاد ، والوقوف سياسياً الى جانب الاتحاد السوفياتي . وكلها تدابير واجراءات جذرية مضادة لبعضها من كلا الجانبين ، وانتهت في كانون الثاني ١٩٦١ الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، والى محاولة فاشلة بانزال المهاجرين على شواطىء الجزيرة في خليج كوشون ، وهي محاولة دبرتها السلطات الاميركية .

المشكلة الزراعية

فالنجاح الذي حققته الثورة في كوبا وعجز الولايات المتحدة في الوقوف في وجه الاصلاحات التي قام بها فيدل كاسترو ، وهي دندنة عرفت عنهم وعمدوا اليها في كل مكان آخر ، أثارت في البلدان التي تتململ من تابعيتها للولايات المتحدة ، آمالاً عراضاً ، كما أثارت فيها الرغبة بالسير على منوالها . والقضاء على الجيش الذي اوفدته الدكتاتورية كان الفضل فيه للفلاحين والمزارعين . فأثار هذا الدرس البليغ تعطيه المقاومة الكوبية حركة اهتياج في كل مكان: وظهرت في جميع هذه الدول تكتلات زراعية ، واحتلال

للاراضي من قبل الفلاحين في المقاطعات الواقعة الى الشمال الشرقي من البرازيل وولاية ريو غراندية في الجنوب ، واضطرابات المزارعين في البيرو ، وفي الاكوادور وكولمبيا وفنزويلا وغيرهـا . ومرد ذلك يعود الى تطور وسائل الاعلام والاتصال ، كما ان تغلغل الصحافة والراديو وضع هذا العالم الريفي على اتصال بالعالم اجمع ، فأخذ يعي نفسه ويعي حاجاته وما فيـه من قوى وامكانات .

ولذا راحت الحكومات تتخذ من التدابير والاجراءات ما يحول دون امتـداد العدوى الثورية وانتشارها . ولذا نرى ان من النتائج الاولى للثورة الكوبية جعل الرأي العـام يشعر بضرورة القيام باصلاحات زراعية هي الاساس لكل تطور جذري يراد ادخاله على هذه البلدان والدفع الديموغرافي العنيف الذي يفجر الانتاج عن متابعته واللحاق به (المعدل السنوي للانتاج بالنسبة للفرد الذي كان يزداد بمعدل ٣،٣٪ عام ١٩٤٥ ، لم يعد ليزداد ، عام ١٩٦٣ ، سوى ١٪) وحركة النزوح بالجملة للجماهير من الريف الى المدينة التي الحقت الخلل بالاقتصاد اكثر فاكثر كل ذلك قضى بزوال السلطة المطلقة التي اعتادت ممارستها السلطات التقليدية على سكان الريف ، اذ ان نظام المزارع الواسعة الذي تعتمده من شأنه ان يؤخر تطور الانتاج الزراعي في البلاد ، كما يعيق ازدهار القطاع الصناعي فيها ، ويبقي خارج الاسواق ، في نظام اقتصادي أساسه الاستهلاك ، جانباً مهماً من السكان ، كما يترك دونمـا استثمار او استغلال مساحات زراعية شاسعة بينما هنالك العديد من العمال الذين لا عمل لهم . في هـذا الوقت بالذات الذي سجل انتاج اميركا الجنوبية للمحاصيل الزراعية نسبة اقل من عام ١٩٣٩ بالنظر الفرد .

وهكذا نرى بين السنوات ١٩٥٩ – ١٩٦٣ ، تطل علينا قوانين زراعية ومشاريع قوانين، عديدة في الاكوادور (العمل عام ١٩٥٩ بمشروع قانون بقي حرفا جامداً منذ عام ١٩٥٤) ، وفي فنزويلا ، عام ١٩٦٠ ، وسان سلفادور وكوستاريكا ، عام ١٩٦١ ، وبناما والبيرو ، وكولمبيا والشيلي والبرازيل وجمهورية الدومينيك وهايتي وهوندوراس ، عـام ١٩٦٢ . وقد لقيت هذه التشريعات ، في كل مكان مقاومة يائسة انما ناجحة للآن ، من قبل الملاكين . وهذا الوضع أدى الى نشوب ثورة في البرازيل في ربيع ١٩٦٤ أدت الى سقوط الرئيس غولار عندما اراد ان يطبق القانون الذي اصدره عام ١٩٦٢ ، الرئيس كوادروس ، وهذا ما يفسر لنا ايضاً الثورة التي قامت عـام ١٩٦٥ بمساعـدة الجنود الاميركيين في جمهورية دومينيك وقلبت الحكومة الدستورية القائمة فيهـا التي اظهرت استعدادها لتطبيق قانون اعده معهد الاصلاح الزراعي فيها .

وفي اربعة بلدان لا غير ، تحقق اصلاح زراعي له شأنه أو هو في طريقه الى التطبيق الفعلي . فالمكسيك الذي كان رائداً في هذا المجال منذ عام ١٩١٠ والذي جاء فيه الاصلاح على مراحل، لاسيما في الحقبة الواقعة بين ١٩٢٠ – ١٩٢٨ ، والحقبة الاخرى الواقعـة بين ١٩٣٤ – ١٩٤٠ ، وفي عهد رئاسة الرئيس ادولفو لوبيز متيوس . وعمـدت بوليفيا ، تطبيقاً

منها لقانون اقرته عام ١٩٥٣ الحركة الوطنية الثورية (*M. N. R.*) برئاسة فكتور باز استنصورو، الى مصادرة الاراضي الزراعية التي كانت في وضع « نصف اقطاعي » ، وذلك عقب احتلال الهنود المفاجيء للاراضي . وبعض الاحيـــان الى مصادرة بعض الاطيـــان ، اذا ما تجاوزت مساحتها حداً معيناً ، التي يطبق في استثمارها الوسائل والاعتدة الحديثـــة وبالرغم من قـــلة الاشخاص المؤهلين وافتقار البلاد للاعتمادات اللازمة ، فقد خضع عام ١٩٦٣ ، لنحـــو ٤٠٪ من مجموع الاراضي الزراعية التي اصابها الاصلاح (٣٤٠٠٠٠٠ هكتار) للتوزيع ووزعت بالفعل عـــلى ١٤٥٠٠٠ مزارع . وفي فنزويلا حيث العمل الديموقراطي وهو حزب الرئيس رومولو بيتانكور كان وزع الاراضي المصادرة (والتي امر الدكتاتور بيريس خيمنس بإعادتهـا الى اصحابها ، عام ١٩٤٨) ، فقد صدر عام ١٩٦٠ قانون في البلاد وزع الممتلكات الكبرى الواقعة في قلب المنطقة الشمالية ، حيث يشتد الضغط الديموغرافي . وفي عام ١٩٦٤ ، نال اكـــثر من ١٠٠٠٠٠ أسرة حصصاً وزعت عليها . وقد جاءت عملية الاصلاح هنا اقل جذرية وشمولاً اذ تعلق الامر على الاخص بتعمير الارض واحيائها . وفي كوبا وحدهـا جاء الاصلاح الزراعي الذي تم عام ١٩٥٩ اكـــل ما يكون . فقد وزعت فيها المزارع التي تزيد مساحتها على ٤٠٠ هكتار بين الفلاحين الذين لا ارض لهم ولا مزارع . وهو اصلاح وضع اسمه : المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ونظمه على اساس تعاونيات استحالت ، عام ١٩٦٢ ، الى مزارع الدولة ، وتحتل ٨٠٪ من مجموع الاراضي الزراعية .

سياسة الولايات المتحدة الاميركية

ونفور دول اميركا اللاتينية من الولايات المتحدة الاميركية كما تجلت مظاهره الواسعة ، عام ١٩٥٨ ، خلال الرحلة التي قام بها نائب رئيس الجمهورية السيد نيكسون، وفشلها في القضاء على نظام كاسترو ، هذه العوامل وما اليها أحدثت فيها ردات فعل متناقضة . فقد قامت من جهة بعرض مساعدات ضخمة على هذه الدول ، فأنشأت في هذا السبيل مشروعاً مشتركاً للمساعدات لتطوير الاوضاع الاجتماعية فيها وفتحت لها اعتمادات لتحسين الاوضاع الاقتصادية في هذه الجمهوريات. ومنذ انتخاب الرئيس كنيدي، فقد لوّح بفكرة لم تلبث ان اصبحت مشروعاً عُرف بمشروع بونتا دل استيه أوضحه عام ١٩٦١ ، وأصبح وثيقـــة التحالف في سبيل التطور ، رمى من ورائـه الى حل المشكلة الاقتصادية في القارة الاميركية (وأهمها التخلف الاقتصادي، ونقص الاحتياطي والقطع النادر). وفرضت الوثيقة على الدولة التي تفيد من هذه الخطة التعهد بالقيام باصلاح زراعي . ورفع الدخل وزيادة الانتاج الاجمالي وتأمين توزيع الدخل القومي بصورة اقرب للعدالة والانصاف والنهوض بعملية التصنيع . وتتعهد الولايات المتحدة من جهتهـا بتقديم عون مالي ووضع تحت تصرف الدولة المعنية سلفات ومساعدات مالية جسيمة . الا ان بنود هذا الاتفاق بقيت بالفعل حبراً على ورق اذ ان مجلس الكونغرس لم يصادق ، متأخراً جداً ، الا على اعتمادات أقـل بكثير مما كان اقترحه المشروع المذكور ، وهذه التسهيلات لم يقدمها البنك الدولي للتطوير الاقتصادي

الذي يعود ١٠٢٪ بالمائة من رأس ماله للولايات المتحدة التي تهيمن على الجانب الاكبر من ادارته ، الا وفقاً لما تراه . ولم يلبث ان ساء الوضع الاقتصادي في هذه البلدان ، كما ان فشل المشروع زاد الدول الاميركية نقمة وكرهاً كما تجلى ذلك في مؤتمر الدول الاميركية الذي عقد في مدينة ساو باولو في تشرين الثاني ١٩٦٣ ، الامر الذي زاد في الاضطرابات والقلاقل . ناهيك عن ان ضعف النتائج أوجد خيبة أمل بين الاميركيين أنفسهم .

وقد ردّ الاميركيون على هذه المشاعر خلال رئاسة الرئيس ليندون جونسون وادارته بالرجوع الى سياسة « العصا الكبيرة » ، وأخذوا يتهمون المصلحين الاحرار المعروفين مع ذلك باعتدالهم بالماركسية والشيوعية ، وزادوا من حدة الحصار البحري على كوبا . كما ضغطوا على الدول الاخرى لكي تتقيد بهذا الحصار وتسام به بصورة فعالة ، وبذلوا مساعدات سخية لهذه الدكتاتوريات التي لا يمكن الدفاع عنها ، كالدكتاتورية التي يقوم بها فرنسوا دوفالييه في هايتي ، وتشجيعهم الانقلاب العسكري الذي اطاح بالرئيس غولار في البرازيل ، عام ١٩٦٤ . والتدخل العسكري المكشوف في جمهورية الدومنيك لمساندة الانقلاب العسكري ضد الحكومة الشرعية والاشتراك الفعلي بالحرب الاهلية الدامية التي نشبت في البلاد في اعقاب هذا الانقلاب .

فشل الحركة الليبرالية

وحركة الاستقلال الوطني التي قامت في وجه هذه الدكتاتوريات التي تؤيد مصالح اميركا الاقتصادية ، استطاعت ان تؤمن ، خلال السنوات العشر الاخيرة ، نظاماً ديموقراطياً قام في اعقاب انتخابات قانونية وبمشاركة الاحزاب القائمة . وهكذا تم انتخاب جوسلينو كوبلشيك رئيس حزب العمال ، رئيساً للجمهورية في البرازيل ، اثر وفاة ج. فرغاس (١٩٥٥) ، كما ان النظام العسكري الذي انشأه الجنرال اودريا جرت تصفيته على يد الحزب *A.P.R.A.* الذي اتصف بالشرعية عام ١٩٥٦ ، كما اسقط في كولمبيا النظام الدكتاتوري الذي اعلنه الجنرال روخاس بنيلا ، في ١٩٥٧ ، كما ان الجنرال ايديغوراس فوانتس فاز في الانتخابات التي جرت في غواتيمالا بفضل عدائه المكشوف للشركة التابعة لأميركا الشمالية . وفي فنزويلا ادى اتحاد احزاب المعارضة فيها الى سقوط بيريس خيمنس (كانون الثاني ١٩٥٨) ، وانتخب لمركز الرئاسة رومولو بيتانكور . وفي الارجنتين تم انتخاب الدكتور فرونديزي بفوز عظيم ، لموقفه المعروف الى جانب البترول واخيراً في كوبا ، انتصار حركة ٢٦ تموز على الرئيس باتيستا بفضل « اصحاب اللحى » التابعين لفيدل كاسترو .

جاء معظم هذه الانتصارات عابراً ولفترة وجيزة ، اذ يسود هذه البلدان اقتصاد مفكك نجد فيه جنباً الى جنب قطاعات حديثة التنظيم وقطاعات مهلهلة القوام والتركيب ، حيث الانتاج ضعيف ورؤوس الاموال الوطنية لا تتدخل الا في المضاربات العقارية وفي القمار بدلاً من ان يوظفها اصحابها بشكل معقول ، وحيث وجدت الحكومات الليبرالية نفسها عاجزة عند

لحدوث اول ازمة تصيب صادراتها ، نتيجة محتومة لهذه النكسة التي وقعت ، عام ١٩٥٨ ، في البلدان الرأسمالية . وقد وجدت نفسها عاجزة تماماً عن النهوض باصلاحات جذرية : من اصلاح زراعي ، وتخطيط اقتصادي ، وتحديد ارباح الشركات الاجنبية ، والبورجوازية الكبرى المسيطرة على مرافق التصدير وكبار الملاكين العقاريين . وتتطور الامور في مثل هذا الوضع ، وفقاً للأعراف المألوفة التي تلسم عادة بأزمة مالية وتفتت قيمة النقد وارتفاع اسعار الحاجيات والاجور ، والبطالة وتخفيض قيمة النقد . اما علاج هذا كله فقد قام بالرجوع الى الليبرالية الاقتصادية ، وسياسة التقشف ، اي تثبيت الاجور الذي كان يتم عن طريق زيادة محسوسة في الاسعار ، والعدول عن سياسة تأميم مصادر الثروة في البلاد والتسليم بامتيازات جديدة للمتمولين الاجانب استدناء لهم . والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تؤدي اليها هذه السياسة ، كثيراً ما سممت علاقات الحكومة مع النقابات والاحرار الذين اوصلوهم الى الحكم ، وعلى التعاون مع الطبقات صاحبة الامتيازات للبحث عن اعتمادات مالية لدى المصارف الاميركية . وهذه هي السياسة التي سار عليها فرونديزي في الارجنتين الذي امر فاعاد الى القطاع الخاص شركتي الكهرباء والتبريد الوطنيتين التي سبق للدولة ان اممتها في عهد الرئيس كوبلتشيك بعد ان عجز عن مداواة المجاعة الهائلة التي حملت عشرات الالوف من البائسين على مغادرة اراضيهم المنهوكة الواقعة الى الشمال الشرقي من البرازيل الذين اخذوا يقضون جوعاً في منطقة واسعة ٣/٤ مساحتها تعود الى ٨ بالمائة من كبار الملاكين .

وهذا العجز والشعور القوي بالحرمان الذي جاش في صدر النخبة التي صدمها الفشل بتحقيق امانيها ، يفسر لنا ازدياد تفتح الوعي بين افراد الشعب وادراكهم انه لا سبيل للخروج من الحلقة المفرغة التي يتخبطون فيها والتي تجعل من المستحيل تحقيق اي اصلاح جذري ، ما لم يتخذوا تدابير حاسمة دون ان تؤدي الى القطيعة مع اصحاب المصالح الخاصة التي تعيش في شبه نظام اقطاعي ، ومع اصحاب رؤوس الاموال الاجانب وفي هذا الاتجاه الصريح ، سارت بوليفيا عندما راحت تؤمم مناجم القصدير التابعة لشركات باتينيو وهوبشيلد وارامايو ، واقرار الاقتراع العام ، والغاء الجيش وتسليح الميليشيا العمالية والفلاحية ، وجاء ذلك مقدمة يمهد بها لاصلاح زراعي يجب ان يؤدي الى زيادة القوة الشرائية لدى الجماهير الشعبية ، وتنويع الانتاج الزراعي ، و « تحطيم احتكار التصدير » وهو الوسيلة الوحيدة لفتح السوق الداخلية امام الصناعة الوطنية . وهذا هو السبيل الذي سار عليه رئيس فنزويلا ، بيتانكور ، الذي قام في البلاد باصلاح زراعي ولا سيا باصلاح ضرائبي فحدد كثيراً من ارباح شركات البترول الاجنبية .

وضع القارة عام ١٩٦٦

وقد طرأ على الوضع العام بعض التحسين منذ عام ١٩٦٠ اذ لم يعد قائماً في طول القارة وعرضها سوى اربع دكتاتوريات هي براغواي ونيكاراغواي وجمهورية الدومنيك وهايتي . وقد وقعت منذ عام ١٩٦١ ، عدة انقلابات عسكرية على اقدار متفاوتة من النجاح والفشل ، في جمهوريات البيرو والاكوادور

وغواتيمالا وسان سلفادور والأرجنتين ، والبرازيل وبوليفيا وجمهورية الدومنيك . ونرى في كولمبيا والبيرو وفي فنزويلا الجيش يقوم بمناوشات متصلة مع معارضة كبيرة قوية الجانب . وبقيت الارجنتين يسودها الاضطراب من جراء سيطرة العسكريين على الحكومة المستضعفة التي اقامها الرئيس ايليا ، ومن جراء الشعبية القوية التي لا يزال بيرون وانصاره يتمتعون بها في طول البلاد ، اذ كان حزبه لا يزال اقوى حزب من حيث العدد والنفوذ . وبعد ان استقر الامر للعسكريين في البرازيل ، فقد عجزوا عن تأمين الاستقرار لنظام هزيل ضعيف . والديموقراطية المثالية التي كانت تتمثل بالفعل في جمهورية الاوريغواي ، رأت الاستقرار فيها والازدهار الاقتصادي يتعرضان لخطر مداهم من جراء تدهور الوضع الاقتصادي فيها (تخفيض متكرر لسعر البيزو فاصبح يساوي جزءاً من عشرين من الدولار ، وهبطت الصادرات الى ٥٠٪ من قيمتها وزادت تكاليف الحياة فيها ضعفين بين ١٩٥٩ - ١٩٦١) .

فبين الدكتاتوريات شبه المتخفية والديموقراطية الشعبية القائمة في كوبا التي عرفت بأصالتها ، تبرز الحكومات الاصلاحية ممثلة بفنزويلا الاشتراكية المعروفة بموقفها المعادي من كوبا والتي كانت تتربص بحروب اهلية فعلية ضد احزاب اليسار ، وبالشيلي حيث تسلم الحكم لاول مرة في اميركا اللاتينية الحزب الديموقراطي المسيحي الذي تغلب في الانتخابات على اتحاد احزاب اليسار وأسس حكومة باسم جبهة العمل الشعبية . وقد وضع الرئيس ادوارد فراي مشروع قانون حول مساهمة العمال بملكية الاستثمار وادارته ، كما وضع مشروع اصلاح زراعي . وقد حمل الكتلة القوية التي تتألف من الشركات الاميركية المحتكرة للنحاس التي رأت نفسها مهددة بالتأميم ، على تشكيل شركة اقتصادية مختلطة تصيب الدولة ٥١ ٪ من اسهمها وفي المجال السياسي اتخذت الشيلي موقفاً معادياً لكوبا ، وقررت انشاء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، كما هدفت من جهة اخرى الى انجاح مشروع اقتصادي ضخم يقضي بدمج ٢٠ جمهورية في السوق المشتركة الاميركية اللاتينية ، هذا المشروع الذي وضعت خطوطه الكبرى في معاهدة مونتفيديو ، عام ١٩٦٠ . وهذه الحركة الاصلاحية التي لقيت معارضة قوية من قبل احزاب اليمين الحريصة على امتيازاتها ، ومن احزاب اليسار ، هل يمكن لها ان تنعم طويلاً بالحياد ، بدون مماحكة وزارة الشؤون الخارجية الاميركية؟ فاذا جاء الجواب بالايجاب وقدر لهذه المشاريع الاصلاحية النجاح المرتجى ، شكلت هذه المحاولة الجريئة تحدياً للكاسترية وادت بالتالي الى احداث تغيير عميق في تطوير القارة بأجمعها .

الفصل الثاني

ثورة الشعوب المستعبدة

« ... اعلنت الاكثرية الساحقة للجنس البشري الثورة على هذا النظام الاقتصادي الذي فرضه عليها الغرب ... حتى اليوم » .

تيبور ماند

لم يقتصر النجاح العظيم التي حققته الحركة القومية خلال العقود الاخيرة على اميركا الاسبانية وحدها . فاذا اجلنا النظر مليا ، في العالم اجمع ، نرى الشعور الوطني واليقظة القومية تجيش في صدور الشعوب الملونة التي راحت تطالب بالاستقلال . فاذا ما القينا نظرة عجلى على خريطة آسيا وافريقيا السياسية، عام ١٩٤٥ حيث لا نرى غير اليابان وتايلاند تتمتعان بالاستقلال والسيادة — بينما ترسف الصين المشتبكة بالحرب تحت وطأة « المعاهدات غير المتكافئة » — وعلى هذه الخريطة ، عام ١٩٦٥ ، امكننا ان نحكم على قوة دفع هذه المشاعر الاستقلالية وضخامة النجاحات الباهرة التي حققتها . فقد اخذ الاستعمار يعاني من ازمة خانقة ، ولم يلبث ان قام على انقاض هذه الامبراطوريات الاستعمارية التي انشأتها اوروبا الغربية في افريقيا وآسيا مجتمعات مستقلة لم تعتم ان اصبحت دولاً عصرية . وهكذا قضي تماماً على النظام الاستعماري القديم . وحيث لا يتطور ما بقي منه قائماً بالرضى والوفاق ، فهو في سبيل الزوال ، بينما يطل علينامظهر جديد من الاستعمار من الصعب تحديده الآن .

تأثير الحرب العالمية الاولى

كان للحرب تأثير بالغ ودوي عميق بين الشعوب المستعمرة اما بمشاركتها الفعلية بأعمال الحرب عن طريق ارسال الجنود والعمال الى الدول الام للاشتراك بالحرب او بالعمل في مصانعها—وهذاهو بالفعل وضع المستعمرات الفرنسية والانكليزية — واما عن طريق الاقتصاد بعد ان طلب اليها تقديم المؤن والتجهيزات اللازمة لدول الاتفاق : كالتوسع بالاعمال الزراعية ، والاخذ بأسباب التصنيع . وقد اتيح لهذه الشعوب ان تشاهد ، عن كثب ، اوروبا تشتبك « بحرب اهلية دامية » ، وتتصارع دولها فيما

بينها وتتطاحن ، بعد ان كانت سيادتها في نظرهم ، فوق كل شك ونظر . وكثيراً ما لوّحت دول الاتفاق هذه امام انظار هذه الشعوب والبلدان المستعمرة، بمبادىء التحرر والعتق، واخذوا يتوقعون تحقيقها بفارغ صبر . وقد عم العالم بأسره، هنا كما لدى شعوب اوروبا المتحاربة أمل بسّام بطلوع وضع جديد يتسم بالعدالة والروح الانسانية السمحاء .

ومع ذلك فقد بقيت الحضارة الاوروبية تتمتع بسحر ونفوذ عظيمين . وقد بدا للجميع احتمال الفوز برضى المستعمرات وشعوبها ، اذا ما راحت دول الاتفاق تطبق مبادىء الحرية والتحرر التي طالما تبجحت عالياً بالدفاع عنها . الا ان الاستعمار في القرن العشرين جاش بمطامع اشعبية ، وحدثته نفسه بتحقيق المزيد من الاستثمارات ومناطق النفوذ وامتيازات وتنازلات جديدة ، كما ازداد تكالباً في استثمار هذه الشعوب والموارد الطائلة التي تخفيها اراضيها . وهكذا أطل علينا في المستعمرات وضع ينذر بالانفجار شبيه من وجوه عدة ، بهذا الوضع الذي احاط بالمجتمعات الصناعية ، في تطورها الصاعد ، خلال القرن التاسع عشر . ان انزال ابناء المستعمرات منزلة البروليتاريا في الصناعة الكبرى ، اصبح من الامور العادية المبتذلة في نظر علماء الاقتصاد والفلاسفة الاجتماعيين « فالعلاقة بين المستعمرة والبلد الام لا يختلف البتة عن العلاقة بين رأس المال والعمل » كما يؤكد غيتون .

« فالامر لم يخرج ، في كلا الوضعين ، عن اناس يتمتعون كل اسباب الثروة والغنى مسلتين من كل حقوق سياسية او اقتصادية ، وضعهم وضع « طبقة مستغلة مرهقة » .

وراحت الدول المسيطرة تبرر سياستها الرامية الى استغلال المستعمرات واستنزاف مواردها الاولية الطائلة بالاحتجاج بمبادىء ارتضتها لنفسها عديدة ، منها : تسامي العرق الأبيض ، وعجز سكان البلاد الاصليين عن حكم انفسهم بانفسهم واستثمار مواردهم الضخمة بما فيه نفعهم ، وضرورة المحافظة على سيادة البيض ونفوذهم ؛ واتخذت منها تُكَـأة وذريعة لاستثمار خامات المستعمرات على نطاق واسع ، ولتحويل الاغلبية العددية من سكان البلاد الاصليين ، الى وضع « اقلية اجتماعية » ، واستعملتها اداة ثراء وإثراء ، لا تعود عليها حتى خيرات بلادها بكبير امر .

وقد خابت آمال المصلحين الاجتماعيين في هذه المستعمرات من هذه السياسية وفقدوا كل ثقة لهم بهذه المبادىء التي طالما نادت بها الدول الغربية ملوحة امام انظار الجماهير بالحرية والتقدم ، وتلاشت كل امكانات التعاون مع اوروبا ، ولم يلبثوا ان اصبحوا اعداء اوروبا وخصومها الالداء ، والعاملين على شجب حضارتها والتنديد بها عالياً . فالخوف من اوروبا والحقد على الغرب قربهم اكثر فاكثر ، من دعاة الرجعية والمستمسكين بتقاليدهم القومية الوطنية ، وألهبت آسيا وافريقيا . ففي كل مكان هبت تيارات عنيفة تطالب بالاستقلال وانتصبت في وجه المستعمرين الذين لم يروا بداً من التسليم ببعض التنازلات : وهكذا اجبرت الهند المسيطر البريطاني على التسليم بتنازلات مهمة ، وسارت على الطريق ذاتها مصر والصين ،

بالرغم من الحرب الاهلية التي قامت فيها .

واخذ العالم الاسلامي يشدد من روابطه ويوثق من عرى التضامن التي تشد المسلمين بعضهم الى بعض . واستيقظت في كل مكان ، هذه الحضارات الناشئة او المتخلفة محاولة حث الخطى للالتحاق بالركب المتقدم وللاخذ باسباب الحضارة والرقي للحد من سيطرة الاجنبي الغاشم . ولتحقيق السيطرة التامة والسيادة الكاملة لبلادها وكثيراً ما اصطبغت هذه الحركات الوطنية بحركات او بمشاعر عرقية تحمل البغض والحقد للابيض ، الذي يستأثر بخيرات البلاد ويأخذ منها حصة الاسد .

صيغة الانتداب

كان الرئيس ويلسون والرأي العام الاميركي مناهضاً لفكرة الاستعمار من الاساس ، ولذا فقد اصطدم بالامبرياليين البريطانيين والفرنسيين الذين تشدهم بعضاً الى بعض مواثيق الحرب ، كما شدت بينهم رغبة جامحة بالمحافظة ليس على مستعمراتهم السابقة فحسب ، بل ايضاً ، بتوسيع رقعة هذه المستعمرات عن طريق ضم المستعمرات الالمانية السابقة والولايات التي اقتطعت من السلطنة العثمانية . وهكذا اطلت علينا صيغة جديدة او مصطلح جديد استنبطه خيالهم الخصب من شأنه ان يؤمن بعض التعديلات في النظام المقترح ، هو الانتداب الذي اقترحه الجنرال سمطس ، وتنص على انتداب الدول الكبرى الاعضاء في عصبة الامم على هذه المقاطعات الالمانية والتركية القديمة ، فتديرها باسم المنظمة وتسهر على تأمين التربية والتعليم لابناء البلاد واعدادها تدريجياً للاستقلال الناجز ، على ان تشرف لجنة خاصة تابعة لعصبة الامم على الطريقة التي تحقق بها الدولة المنتدبة ، المهمة الموكولة اليها . هذا الحل المؤقت ، في نظر الولايات المتحدة ، وهذا التوكيل الذي يخلو من كل اهمية في نظر الدول المنتدبة ، هذا الانتداب ، لم يراع جانبه ، ولم تحترم اهدافه كثيراً . فلم يُعمل شيء تقريباً في سبيل اعداد البلاد المنتدبة وتهيئتها للاستقلال . فالعراق وحده بين هذه البلدان أعلن استقلاله عام ١٩٣٠ ، دون ان تلقى اي مشكلة من مشكلاته السياسية والاجتماعية الكبرى ، حلها المرتجى . فمنافسة الدول ، خلخلت اعمال لجنة الانتدابات حتى ان اليابان واتحاد جنوبي افريقيا رفضا التسليم او القبول بأي اشراف من قبل المنظمة .

الغرب وتأثيره الثوري

وهكذا نرى كيف ان النظام الاستعماري القديم بقي قائماً غير منقوص . وقد بقيت البلدان الخاضعة او التابعة عرضة كما في السابق ، لتصرفات البلد الام الكيفية . والتطور الذي لحق بعوارضها انما جاء لحساب الرأسمال الاجنبي وليس لمصلحة ابناء البلاد بشيء ، واقتصادهم الانتاجي للخامات ارتبط اكثر فاكثر باسواق الدول الاكثر تطوراً وتقدماً . ان اقصار انتاجهم الوطني على التصدير ، كان من بعض نتائجه المباشرة نقص في الزراعات الغذائية ، والانخفاض بالتالي في مستوى العيش . ومن جهة فقد كان لسيطرة رؤوس الأموال الاجنبية على البلاد ، وللاتصال المباشر بين حضارتين غير متساويتين ومتباينتين ان حطم عادات سكان البلاد الاصليين ، وخلخل نمط العيش عندهم ،

وقضى على الأطر الاجتماعية والديانة المتعارفة في البلاد كما قضى على تنظيمهم التقليدي المتوارث عبر الاجيال، وعمل على نشر البؤس المدقع والفوضى فيها .

وقد لقنتهم سيطرة الغرب درساً بليغاً امتد اثره في اعماق نظامهم الاجتماعي فعلمهم ان الفقر ليس امراً منوطاً بمشيئة الله بل هو نتيجة محتومة لعدم الكفاءة الفنية وامدتهم بجامعات ونشرت التعليم الذي ايقظ فيهم الوعي والتحسس بعظمة امجادهم ، بينما بعث فيهم مفهوماً جديداً للحرية والتطور والمساواة. وكل الزعماء الذين تولوا قيادة الحركات الوطنية تخرج معظمهم من معاهد الدول المستعمرة منهم مثلاً : جناح رئيس العصبة الاسلامية ، ونهرو رئيس حزب المؤتمر ، وسوكارنو في اندونيسيا ، وداتو او بن جعفر في ماليزيا ، ونكروما في الشاطىء الذهبي وبورقيبة وفرحات عباس في تونس والجزائر . وقد قوّى عزم معظمهم على الصمود والكفاح الاعتقالات المتكررة التي استهدفوا لها مراراً ، في سجون الدول المستعمرة . وعلى نسبة اقل ، فالزعماء الذين تولوا قيادة الشعوب التي لا بورجوازية عندها ، طلعوا من بين صفوف صغار الضباط وصغار الموظفين والاطباء الوطنيين ، الذين يمكن مقارنتهم ، من هذا القبيل ، بقدامى موظفي الصحية ، عندنا ، ممن اطلعهم القرن التاسع عشر في اقطار البلقان او في روسيا القيصرية .

وكما ساعد الغرب على تلقيح هذه البلدان بأفكار جديدة ونظرات جديدة ووسائل انتاج جديدة ، فقد تسبب في خلخلة النظام الاقتصادي الذي ساد في هذه البلدان منذ عهد بعيد : إذ سهل استيراد المواد الصناعية ونشط حركة التصنيع مما أدى الى تأخر محسوس في الصناعة اليدوية المحلية ، وساعد على طلوع طبقات جديدة في هذه البلدان : كالبروليتارية العمالية ، وطبقة وسطى من الفنيين ، وبورجوازية رأسمالية رحبت امامها وانفسحت آفاق العمل والنشاط . وقد راحت هذه الهيئات على اختلافها تطالب مجتمعة بحكومات تمثيلية وتحتج بشدة على الامتيازات الممنوحة للاستثمارات الاجنبية الموظفة في البلاد على حساب الاستثمارات الوطنية .

والفشل الذي منيت به حركة الارساليات والبعثات الدينية من الوجهة النظرية — اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الارتدادات التي حصلت — لم يأتِ مع ذلك كاملاً ، في المجال العملي . فقد علم المرسلون عالياً واعطوا بتصرفهم المثل ، ان النفوس يمكنها تأمين خلاصها الابدي ليس فقط بالانقطاع عن هذا العالم والاعتصام بالتأمل والتنسك ، بل ايضاً عن طريق محبة القريب وخدمته خدمة نصوحة مجردة عن الهوى . كذلك ان التعليم العلماني ، وروح النقد ، ومثل هؤلاء الاوروبيين المستنيرين الذين يشككون بكل شيء ، كل ذلك كثيراً ما أدى الى اضعاف الشعور الديني في النفوس ، كما احدث هذا كله بين اتباع الاديان الكبرى كالهندوسية والبوذية والاسلامية محاولات جريئة لاعادة النظر في الامور الميتافيزيقية بحيث ينسّقون بين عقائدهم وبين مطلب العلم الغربي الحديث ، ويعمل على صهرها في بوتقة جديدة بعد ان يطهرها مما علق بها من الاساطير

والخرافات ومن الاعتقادات التي أكل الدهر عليها وشرب .

الحرب العالمية الثانية وأثرها في هذا المجال

هذه الحركات الاستقلالية التي اختمرت بها آسيا واقطار الشرق منذ الحرب العالميـــة الدولية ، ازدادت حدة واشتمالاً من جراء الازمة الاقتصادية والاجتماعية التي سببتها الضائقة المالية الكبرى . وقـــد حققت هذه الحركات في افريقيا حيث تجلت متأخرة عن مثيلاتها في البلدان الاخرى ، نجاحات سريعة . ولم نعد نرى بلداً في العالم كله الا وتجيش فيه مثل هذه الحركات الوطنية التي تحاول التحرر من النير الذي ترسف تحته وتسعى الى تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي .

وجاء تأثير الحرب العالمية الثانية حاسماً في هذا المجال . وضعف النظـام الاستعماري تجلى بأجلى مظـاهره في الانهيار الذريع الذي آلت اليه الامبراطوريات الاستعمارية في آسيا امـام الغزو الياباني. فقد وجد الانكليز انفسهم في سنغافوره بعد احتلال دام ١٢٠ سنة،والهولنديون في اندونيسيا بعد ثلاثة قرون من استعمارهم لها ، وحيدين ومنفردين في الدفاع عن مراكزهم امام الغزو الياباني . والفوز المبين الذي سجلته دولة من الملونين بمثل هذه السهولة على الدول الكبرى، قضى تماماً على الخرافة التي تؤكد تفوق العرق الابيض ، هذه الخرافة التي اصيبت في الصميم منذ عام ١٩٠٥ ؛فالمعاملة المشينة التي تعرض لها أسرى الحرب واذلالهم من قبل الياباني المحتل،سواء المدنيون منهم والعسكريون ، والاشغال الحقيرة التي فرضوها عليهم علانية ، والمعاملات الفظة التي استهدفوا لها من قبل افراد بسيطين من الجيش الياباني او من رجال الشرطة ، قضى تماماً على كل ما تبقى لهم بعد من منزلة وشأن . عندما كانت تهب في وجه اليابانيين حركة مقاومة ، فقد ارتدت طابع حركة وطنية ضد احتلال اجنبي ، لا تعني بشيء بأمر الدفـاع عن مصالح الدولة المستعمرة التي ذاقت طعم الخسف والذل . فانتصارات روميل المدوية ، وهزيمة فرنسا ، احدثا رجة عنيفة تجاوبت ارجاءها كل بلدان الشرق الادنى وشمالي افريقيـا . والحرب التي جندت مئات الالوف من الهنود او من الافريقيين للدفـاع عن الدول الاوروبية ، اتاحت لهم الفرصة ان يقارنوا بين ما هم عليه من مستوى حياتي متدن ومستوى العيش الذي يرفـــل به الاوروبيون ، كل ذلك حرك فيهم الهمم وبعث فيهم الرغبة الشديدة لوضع حد لما يستهدفون له هم وخيرات بلادهم ، من استغـــلال مشين ، وعولوا على المطـالبة بحرية بلادهم واستقلالها النـاجز .

وقد سبق للحلفاء ان علموهم بمثل هذه الحرية ولوحوا لهم بمثل هـذا الاستقلال . ألم يعلن الميثاق الاطلسي « حق الشعوب باختيارهم الحكومة التي يرغبون العيش في ظلهـا » . وراح الرئيس روزفلت يوضح بعد تفسيرات ضيقة جاءت على لسان ونستون تشرشل ، في ٢٢ شبـاط ١٩٤٢ : « ان هذا الحق لا يقتصر فقط على البلدان التي تطـل على المحيط الاطلسي بل يعم ايضاً جميع اقطار العالم » . وقد اجتمع فيما بعـد ممثلو الدول الحليفة الثلاث في مؤتمر موسكو عام ١٩٤٣ ، ووضعوا « الاسس التي ترتكز عليها عملية تدويل المستعمرات القديمة»كما حاولوا تحديد

المبادىء التي يقوم عليها نظام الوصاية المفروض على البلدان التي لا تتمتع باستقلالها الاداري ». ووضع مؤتمر سان فرنسيسكو بعد ما ظهر من معارضة الانكليز،(في ايار – حزيران ١٩٤٥)، نظام الوصاية الذي ينص على توجيه شعوب البلدان المفروضة عليها الوصاية ، وهي عملية يعهد بها الى دولة موضع ثقة الجميع . ومن جهة ، فقد كان من قوة نفوذ الاتحاد السوفياتي الذي اخذ منذ عام ١٩١٧ يدافع عن البلدان الواقعة تحت الاستعمار ، ومناصرة الممثلين الاميركيين من أي وزن كانوا ، ووقوفهم الى جانب زعماء الحركات القومية وتشجيعهم السلطات الوطنية ، في كل من بلدان الشرق وافريقيا ، ان شجع شعوب هذه الاقطار على الصمود في وجه الدول المستعمرة عندما راحت تحاول توطيد نفوذها وتأييد سلطتها على تلك البلدان .

اوروبا وعجزها المتصاعد منــذ ١٩٤٥

وفي نهاية الحرب ، وقبل ان يسدد ماو تسي تونغ دعمه القوي لحركة الثورة و « يغير وجه العالم » بقلبه ميزان القوى في العالم ، دخل الاستعمار في ازمة لم تلبث ان شملت العالم بأسره . فمنذ عام ١٩٤٦ ، تخلت الولايات المتحدة الاميركية للفيليبين عن كل سلطتها في البلاد واعترفت لها بالسيادة المطلقة . وفي عام ١٩٤٧ ، اعلنت انكلترا استقلال الهند والباكستان ، كما اعلنت استقلال بورما ، عام ١٩٤٨ ، التي قطعت كل صلة لها بدول الدومينيون . وفي سنة ١٩٤٩ ، اعترفت هولندا باستقلال اندونيسيا وفقاً لاتفاقات لاهاي . كما نشأت دول مستقلة بالفعل في كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية . وفي الشرق الاوسط الذي يعتبر بحق « محور الامبراطورية البريطانية ونقطة الدائرة فيها » قامت حكومات « مستقلة » كانت مع ذلك خاضعة لنظام الوصاية لما قام فيها من قواعد جوية وعسكرية ، واحياناً لوجود حاميات بريطانية ، ومن ارساليات اقتصادية والمصالح المالية العائدة لرجال اعمال تشدهم الى الشركات البترولية الكبرى اواصر متينة ، مما أدى الى حركات مقاومة عنيفة تجلت بانقلابات (في كل من سوريا والاردن والعراق ومصر وايران) ، وبتأميم موارد البلاد الطبيعية . وتجلى في افريقيا على اتم صوره وأشكاله معارضة عنيفة من قبل الملونين في افريقيا ووقوفهم في وجه سياسة حكومة جنوبي افريقيا القائمة على التمييز العنصري . وقد تجلت هذه الروح ايضاً ، في هذه الحركات الوطنية التي قام بها سكان المستعمرات البريطانية في افريقيا الغربية وافريقيا الشرقية . وقامت في روديسيا ونياسالاند مقاومة عنيفة من قبل سكان البلاد ضد اتحاد افريقيا الوسطى . وظهرت حركات جماهيرية في جميع بلدان افريقيا الغربية وافريقيا الاستوائية ، وبلدان شمالي افريقيا ، تلوح كلها بمطالب قومية استقلالية . وفي قلب اميركا ، راحت جزر الهند الشرقية ومقاطعة غويانا البريطانية تطالب بتحررها ونالت نصيباً كبيراً من الاستقلال خولها التمتع بنظام الدومينيون .

فاذا ما اضطرت الدول الاوروبية التخلي عن الكثير من امتيازاتها ، فلانها كانت عاجزة عن تدعيم نفوذها بالقوة في هذه البلدان ، بعد الحرب مباشرة . ففي الماضي كان سكان

المستعمرات يقبعون خانعين ، اذ يكفي ان يظهر في عرض البحر عمارة من الاسطول الحربي أو يرد على البلاد نجدة عسكرية مهما كانت صغيرة لتفرض الدولة المستعمرة ارادتها على الحكومة المحلية . فمنذ عام ١٩٤٥ ، بعد أن استيقظ الضمير الوطني في هذه الشعوب وبعد ان عمد الناس لأعمال المناوشات ، لم تعد وسائل التخويف التي كان يُركن اليها في الماضي ، لتفي بالغرض . فالضرب من البحر أو من الجو لم يكن ليجدي كثيراً ، لخلو البلاد من منشآت عسكرية أو من وحدات حربية لها اهميتها ، وكذلك الحصار البحري لم يكن ليأتي بنتيجة تذكر بعد ان يتحول اقتصاد البلاد من اقتصاد قائم على تصدير الخامات للخارج الى اقتصاد يؤمن المواد الاستهلاكية الضرورية ، كما حدث ذلك بالفعل ، خلال الحرب ، في كل من ماليزيا وبورما والفيليبين. وكثيراً ما رأينا الانكليز والفرنسيين والهولنديين يسيطرون في ماليزيا والهند الصينية واندونيسيا على قواعد البلاد الكبرى ومرافئها الرئيسية ، دون ان يتوصلوا مع ذلك ، الى نتائج حاسمة .

والوسائل التي اعتمدها المستعمرون من قبل لكبح الحركات الاستقلالية والانتفاضات الثورية التي تقوم في المستعمرات ، اقتصرت على كبح هذه الحركات بقوة السلاح والعمل على تفشيلها بكل وسائل الاغراء . كذلك ان اللجوء الى القوة المسلحة التي تتكون من السنغاليين والفرقة الاجنبية والجاكس وغيرهم ، تؤلف عملية غالية الثمن ونجاحها يتوقف ، الى حد بعيد، على حسن ولاء القوى المستخدمة ، وهو ولاء اخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، والتمرد الذي اعلنه الاسطول الهندي ، عام ١٩٤٦ كان حاسماً في ارغام الانكليز على التراجع ، وتكاثرت منذ هذا التاريخ حوادث ، حوادث الانكفاء والانسحاب بين القوى الوطنية التي استخدمت لكبح الحركات الاستقلالية في المستعمرات . ومن جهة اخرى ان التفاف الزعماء الاقطاعيين حول الدولة المستعمَرة ، كما جرت العادة بذلك ، لم يعد له التأثير الذي كان له في الماضي . فهذا الفريق من الناس الذي وقف موقفاً يتعارض وموقف الاكثرية في البلاد يرى نفسه مشلولاً لمجافاة الرأي العام له في البلاد ، وعمل هذا الفريق ، كان في اكثر الاحيان قليل الجدوى ، هذا ان لم يلعب على الحبلين ويتأرجح بين الجانبين . وهذه الشعوب التي كانت من قبل منقسمة على نفسها والتي كثيراً ما اقاموها بعضاً على بعض ، اصبحت الآن اكثر اتحاداً وتعاضداً ، وتشد بعضها بعضاً ، ويظاهر الواحد منها الآخر . فالدول المسيطرة تلاقي في كل مكان روح المقاومة ذاتها ، وتسمع النداءات ذاتها ، هذه النداءات التي تتناقلها الهيئات الطلابية ومنظماتهم في كل المدارس والجامعات ، في القاهرة ودمشق والصين والهند ، وبين عمال الارصفة في الموانىء البحرية . فما من شعب مستعمَر يجد نفسه منفرداً في جهاده الوطني . فالشعوب الاخرى تظاهره وتشد من أزره، كما يحظى بالكثير من العطف لدى الرأي العام في الغرب. وهكذا نرى الحركات والمطالب الاستقلالية تعضد بعضها البعض في كل زمان ومكان . فاعادة تنظيم الحبشة مثل تحتذيه نيجيريا ، واستقلال الهند تنهج على منواله بورما وغيرها كثيرون ، فعلى الدول المستعمرة ان

تكون متيقظة في كل القطاعات . والضرورة تقضي بارسال المزيد من القوى والنجدات تباعاً الى كل من مصر وكينيا ومالبزيا ، ونقل القوات الفرنسية من شمالي افريقيا الى الهند الصينية .

اوروبا وانقساماتها

وجبهة الدول الغربية ابعد من ان تكون موحدة. فبريطانيا العظمى التي كانت اعجز من ان تصون قواعدها الحربية ومواقعها الحصينة وتدافع عنها ، اضطرت للتخلي لاميركا ، عما يقع من هذه المواقع في الشرق الاقصى وفي المحيط الهادي ، وتغض النظر عن الوجود الاميركي في بلدان الشرق الاوسط . الا انها تنهج في هذه المنطقة سياسة تضرب بمصالح اميركا عرض الحائط كا تحاول ابعادها عن هذه المنطقة . الا ان المواقف التي اتخذتها اميركا ، في اليابان وفورموزا وفي كوريا ، والمؤازرة التي قدمتها لتشان كاي شيك ولسنغمان ري في كوريا الجنوبية ، والحصار البحري الذي فرضته على الصين الشعبية ، والمنافسة الحادة التي اشتدت بين شركات البترول الضخمة حول بترول ايران والعربية السعودية هي اكبر برهان على هذه الاختلافات التي تباعد فيما بينها والتي عرفت الشعوب المستعمرة الافادة منها . وهذا التأثير يلعب دوره ويضغط على الهولنديين للتساهل مع اندونيسيا ، وتقف موقفاً معادياً من السياسة الفرنسية في الهند الصينية وتشد من أزر الفيتناميين اعداء فرنسا .

فنفوذ الاتحاد السوفياتي ومثل الصين منذ عام ١٩٤٩ ، لا يمكن الاستهانة بها . فقد وجد الاتحاد السوفياتي لمشكلة العلاقات بين الشعوب التي تتباين في تطورها الاقتصادي والثقافي ، حلاً اساسه المساواة امام القانون ، بعيداً عن كل نزعة عرقية وعن كل تمييز عنصري ، وينهض على سياسة تطوير سريع في الامور المتعلقة بالاقتصاد والحركة الفكرية ، هذه السياسة التي تمهد الى ابناء البلاد الاصليين المؤهلين ، بأعلى المسؤوليات والمهمات ، وتحاول ازالة كل أثر تفضيلي ، بين رئيس ومرؤوس . وكل مرة يثار في الامم المتحدة البحث حول الدول المستعمِرة والبلدان المستعمَرة ، فهي تقف دوماً الى جانب الشعوب الملونة بينما تستعين الديموقراطيات الغربية بوسائل الاكراه وتعمد الى القوة المسلحة لتبقي هذه البلدان تحت طاعتها ، وسيطرتها . وهكذا فالشعوب الرازحة تحت الاستعمار ترى في الاتحاد السوفياتي وفي الصين رمزاً لاستقلالها ، والديموقراطية توطد هي نفسها مثل هذا الاعتقاد في نفوس الشعوب المستعبدة ، اذ لا تلبث ان تصف الحركات الاستقلالية التي تقوم بها هذه الشعوب ، بأنها حركات شيوعية .

مطالب الحركات القومية وظلاماتها

فالحركة القومية والثورة الاجتماعية امران يأخذ الواحد منها بيد الآخر ، اذ المطلوب توجيه العمل الثوري ضد سيطرة الاجنبي على البلاد وضد استثماره لمواردها والاستئثار بها لنفسه . وقد يتجه هذا العداء احياناً ضد غير الاوروبيين: فقد قامت مثل هذه الحركة ضد اليابان في كوريا ، وضد الهند في بورما وفي بلدان آسيوية اخرى ، وارتدت طابعاً معادياً للصين احياناً الا انها كانت مضادة لأوروبا في أغلب الاحيان . والعداء الذي اتجه الى اليابان والحروب التوسعية التي قامت بها ، لم يلبث ان

سكن وهدأ . فذكرى كفاحه المديد ضد سيطرة الرجل الابيض والنداء الذي طالما نادى به الهاتف ولوّح : « آسيا للآسيويين »، والاعتراف بفضل اليابان على تدريب ابن البلد على اساليب الادارة الاستقلالية ، كل هذه الاعتبارات اخذت تشيل على شعور البعض الذي تجلى ضدهـا خلال الاحتلال . والتشكيكات التي طالما عبروا عنها والتهم التي طالما وجهوها للاوروبيين تتركز في كونهم حصروا كل نشاطهم في انماء ثرواتهم من موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يأبهوا قط لما يؤول لتحسين مصير الشعوب التي طالما تبجحوا بأنهم انما جاؤوا البلاد لتأمين الخير لهم ولتمدينهم. فانصرف جـل همهم الى تحسين وسائل استثمار ثروات البلاد وإعداد ما يصلح منهـا للتصدير للخارج مما يفي بحاجتهم . والخطوط الحديدية التي أنشأوها ، والطرقات التي شقوها ، والجسور والاقنية التي بنوها ، والمرافىء التي انشأوها ، قُصد منهـا تسهيل وصول هذه الخامات من مصادرها في المناجم والمزدرعات التي تجود بها بسخاء الى مرافيء تصديرها وشحنها ، وتمهيد وسائل الاتصال امامهم دونما اكتراث بحاجات ابنـاء البلاد الذين كانوا يعولون في تحركاتهم وتجوالهم على الجمل او الحمار . كذلك وقفوا حائلاً دون انتاج المواد والبضائع المصنوعة محلياً ، ومنعوا تأسيس اي صناعة او انشاء اي مصنع يمكن ان ينافس يوماً مصنوعـات البلد الام . وانتهجوا في كل ذلك سياسة تقوم على الابتزاز والاستغلال وحرصوا شديـداً على ان يؤمنوا لهم اسواقاً شاسعة لتموينهم ، واخرى لتصريف انتاجهم ومصنوعاتهم . وقد كان من بعض نتائج الضغط الشديد الذي مارسوه ان قللوا في البلاد الزراعات الغذائية او الاستهلاكية ولو عرّض ذلك ابناء البلاد للنقص في المواد الغذائية التي يعولون عليها ، كما افقروا الطاقة الانتاجية للتربة لعدم تقيدهم بأصول الدورات الزراعية المعمول بها، وبتشجيعهم انتاج المحاصيل المعدة للتصدير، فقد جعلوا اقتصاد البلاد عرضة لكل ازمة ولكل تطور في سعر النقد .

ووضع بورما هنا خير مثل نضربه على ذلك . فقد تغيرت البلاد تماماً في اقل من قرن ، اذ تحولت عشرات الالوف من هكتارات البطائح والمستنقعات الى مزارع للارز واستخرجت من بطن الارض معـادن وفلزات دفينـة جرى شحنها للخارج ، وجرى استغلال احراجهـا الظليلة ، كما انشىء في طول البـلاد وعرضها شبكة واسعة من الخطوط الحديدية والطرقات الواسعة والاقنية والترع المائية لتسهيل السقاية . وكان من نتائج هـذه السياسة ان البورمانيين نبذوا جانباً ليس السيطرة الانكليزية فحسب بل رفضوا الانضمام الى نظام الدومنيون ، وعلة ذلك هو ان هذا التطور المادي لم يعد بأي فائدة على الوضع الاجتماعي في البلاد لسببين رئيسين: تكاثر عدد سكان البلاد من جهة ، ومن جهة اخرى ، لأن الذين أفادوا من هـذا التطور المادي هم التجار الاجانب والموظفون والمرابون . فقد كثر عدد الاغنياء في بورما ، ولكن قـلة منهم كانت من البورمانيين ، بينما ساءت اوضاع السواد الاعظم من سكان البـلاد ، اذ ان التوسع في الزراعات التصديرية زاد من تبعية الفلاح وتمويله على المرابين ، اذ ان الشرائع الاوروبيـة التي طبقت في البلاد قضت تماماً على الاعراف والعادات المتوارثة جيلاً بعد جيل والتي كانت تقضي

ببقاء الاسرة وبليها في الارض ومنع خروجهــا من بين ايديهم ، فإذا بالقوانين الجـديدة تبيح التصرف بالأرض بيعاً وشراء ورهناً ، بحيث ان نصف عدد المزارعين فقدوا املاكهم واصبحوا عمالاً مياومين اضطروا للبحث عن عمل لهم خلال المواسم . كذلك ان استيراد المواد المصنوعة بكميات ومقادير هائلة وبأسعار رخيصة قضت تباعاً على الصناعات اليدوية في البلاد ، وهـــذا ساعد الاستعمار ، من حيث يدري او لا يـــدري ، على خلخلة التوازن الاجتماعي الذي عرفته البلاد من قبل ، وخلق فيها مجتمعاً لا جذور له ولا اصول ، يفتقر اصلاً لكل ما يوطد اسباب الطمأنينة الاقتصادية والاستقرار في البلاد ، ويتسكع في فقر مدقع .

فالسواد الاعظم من ثروات البلاد الطبيعية كان يجد طريقه الى عواصم البـــلاد المستعمرة فلستأثر بحصة الاسد منها بينما يصيب ابن البلاد قسمة ضيزى منها . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في موازنة شركات الاحتكار البريطانية التي تشغل القسم الاكبر من رأسمالهـا في الخارج ، ولا سيما في البلدان الواقعة عبر البحار ، نجد الشركة الانكليزية الايرانية تجني من الارباح مـا يوازي ٥٦ ٪ من رأس المال ، عام ١٩٥١ ، وان شركة اونليفر تربح ٣٨ ٪ ، وان شركة رويال دتش شل تربح ٤٤ ٪ وان شركة التبغ الامبريالية تربح ٣١ ٪ وشركة دنلوب للمطاط تجني ٤٠ ٪ ، وشركة تايت ولايل تربح ٣٩ ٪ ، وان شركة اورينتال وبينانسولار تربح ٢٣ ٪ . كذلك نرى ان هذه الشركات السبع الكبرى التي لا يزيد رأسمالها المستثمر عن ١١١٥ مليون جنيه انكليزي ، تؤمن لها في السنة ربحاً صافياً يبلغ ٤٦٨ مليون جنيه ، اي ٤٢ ٪ من رأسمالهـا الموظف ويمكن تحقيق مثل هذه الارباح الباهظة لأن مستوى الاجور متدنٍ جداً ، كما نرى ذلـــك بوضوح في مناجم القصدير في نيجيريا . فقد بلغت قيمة الصادرات من هذا المعدن ، عام ١٩٣٧ ، نحواً من ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ جنيه انكليزي نصفها (اي ٢٤٩ ٠٠٠ ١) هي ارباح صافية ، بينما لم يكن العمال الوطنيين العاملين في المناجم وعددهم ٣٦ ٠٠٠ عامل ، لا يتقاضون من المرتبات سوى ٣٢٩ ٠٠٠ جنيه ، اي ما يساوي من ٣ — ٦ شلن في الاسبوع ، اي جزء من سبعة من قيمة الانتاج . اما استغلال جمـاهير الفلاحين الذين يؤلفون السواد الأكبر من السكان ، فيبرز اكثر فأكثر . ولا يكفي قط ان يجبرهم النظام الضرائبي والضغط الذي يتعرضون له من قبـل الادارة التخلي عن زراعاتهم الغذائية للانصراف الى زراعات تصديرية ، فالشركات التجارية تدفع لهم اجوراً واطية جداً ، كما ان هذه الشركات تبيعهم بأسعار عالية جداً المواد المصنوعة التي لها وحدهـــا حق استيرادها وبيعها . ففي افريقيـا الغربية ، ان شركتين فقط من هذه الشركات ، هما : شركة S. F. A. O. وشركة S. C. O. A. كانت تملك ، عام ١٩٣٨ ، اكثر من نصف رأس المال الذي يعود لـ ٣٨ شركة افريقية مسجلة في البورصة ، والارباح التي كانتا تصرحان بها لم تنزل قط عن ٢٥ ٪ من رأس المال وهما لا تتدخلان الا مـــا ندر في الانتاج ، باستثناء مساهمتهما في بعض الاستثمارات الزراعية او في بعض الشركات العاملة في شؤون النقل . وهما لا يستثمران ارباحهما في البلاد ، وتقتنمان بتوزيع بعض حصص من الارباح لاصحاب الاسهم في انكلترا .

والحركة الوطنية او القومية كثيراً ما اصطبغت بحركة تصدت لمحاربة الفقر وعـــدم الاطمئنان . فالبون الشاسع بين الوضع الزري البائس الذي تتحكم فيه الجمـــاهير وبين الغنى الفاحش الذي ترفل فيه قلة ضئيلة من الناس فاسدة ومفسدة عميلة للرأسماليين الاجانب ، خلق بين شعوب المستعمرات شعوراً حاداً بالحرمان الذي ضاعف من روح الثورة وزادهـا ضراماً . وقد بلغ معدل دخل الفرد في الهند ، عام ١٩٥٠ ، (بالدولار الاميركي لعـــام ١٩٤٦) ٤٣ دولاراً في الهند و ٣٥ دولاراً في اندونيسيا وفي ٢٥ بلداً من بلدان العالم يمثل عدد سكانها نصف عدد سكان العالم جاء دخل الفرد الواحد اقل من ١٠٠ دولار ، بينما هو ١٤٧٦ دولار للـــفرد الواحد في الولايات المتحدة الاميركية ، و ٦٦٠ دولاراً في انكلترا . وهــذا الفقر المدقع الذي لا يوصف ، يرده سكان البلاد لهذا الظلم ولهذا الاهمال الذي تعرضوا له طويـلاً من قبل الدول المستعمرة .

سياسات الدول المستعمرة

استقر رأي بريطانيا العظمى ، عام ١٩٤٦ على القيـام بما لا بد منه ، وعدلت عن اتخاذ الوسائل اللازمـة لفرض سيطرتها على الهند وعلى بورما التي قررت عدم الانضمام الى الكومنولث البريطاني، وعلى سيلان حيث احتفظت لها بقواعد حربية ومراكز اقتصادية قوية . وركزت جهودها العسكرية في هذه الاراضي التي تؤمن لها السيطرة عليها ، اكبر ما يكون من المنافع والارباح ، على ماليزيا ، منتجة الدولارات . وسارت الولايات المتحدة من جهتها في الفيليبين على سياسة تحررية ، مع الاحتفاظ بما يؤمن لها السيطرة الاقتصادية على البلاد . وعلى عكس ذلك ، راحت هولندا وفرنسا تحاولان فرض هيبتها على البلدان التي تستعمرها بعد ان تخلتا لها عن بعض الامتيازات الثانوية . وقد تجاهلت الدولتان المذكورتان عمق الحركات الوطنية التي هزت البـلاد والمدى الذي بلغته ، والمعارضة العنيفة التي انتصبت في وجهيهما ، واتبعتا بعين مغمضة ، نصائـــح شلة من « خبراء » الاستعمار الذي يعللون النفس بالرجوع « الى ذلك الماضي الجميل الذي ولى » وراحوا يرشقون بألسنة حداد هؤلاء « الزعماء » الذين يقودون الحركة ، هذه « القبضة من الزعماء المغالين » الذين في تصفيتهم عن طريق الشرطة بالوسائل التقليدية المعروفة التي تنادي بالمبـــادىء : فرق تسد ، وتوصي بالاعتماد على الزعماء الاقطاعيين الذين تخرهم الفساد ، ضمان لعودة الهـدوء الى البلاد ، وبذلك جرى فقدان كل شيء . واضطرت البلاد الواطية للمهادنة منذ ايلول ١٩٤٨ تحت ضغط الدول الاخرى ، كبريطانيا والولايات المتحدة والهند واوستراليا والنزول عند رغبات الامم المتحدة وتوصياتها ، التي همها ان ترى الهدوء والاستقرار يعودان الى تلك الاقطار ، بعـــد ان وثقت بتطمينات وتصريحات سوكارنو بموقفه المعادي للشيوعية . وقامت فرنسا ، في الهند الصينية بحرب كثيرة التكاليف كلفتها دماء زكية انتهت بفشل ذريع وانكسار مذل ، ولفقدان ليس مركزهـــا السياسي في هذه البلاد ، فحسب ، بل ايضاً مركزها الاقتصادي والثقافي مع مـا بدا عليه من قوة ومنعة . وعلى مثل هذا جاء الوضع في افريقيا الشمالية حيث اضطرت للاعتراف تباعـــاً

باستقلال تونس والمغرب وفي النهاية باستقلال الجزائر .

تأثير حرب كوريا

كان لحرب كوريا تأثير بالــغ وعميق الغور على تطوير الحركات القومية في القارة الآسيوية . فالتدخل الاميركي حمــل الأمم المتحدة المترددة على التدخل في هذه الحرب في الوقت الذي وقفت في المحيط الهـــادي ، موقفاً مؤيداً لتشان كاي شيك : أدى الى اعلان حياده فورموزا وحمايتها من قبل الاسطول الاميركي السابع ، والتصريح بربط مستقبل الجزيرة ووضعها باعادة الطمأنينة والهدوء الى المحيط الهادي واقرار السلام مع اليابان ، مع انه كان تقرر في مؤتمر بالطـــا وبوتسدام ، اعادة فورموزا الى « جمهورية الصين » . وفي الوقت نفسه راح الرئيس ترومــان يصرح بمضاعفة مساعدته لفرنسا ولباو داي في الهند الصينية وقد نظر الزعماء الوطنيون في آسيا الى موقف الولايات المتحدة من فورموزا ، نظرتهم الى تدخل هذه الدولة بشؤون الصين الداخلية ، كما نظروا الى مساعدتها لفرنسا ولباو داي كتأييد من الولايات المتحدة للاستعمار في الشرق الاقصى . وفي الوقت ذاته ، استطاع جيش آسيوي يتألف من وحدات كورية وصينية ، من الصمود سنتين في وجــه جيش اميركي عصري السلاح والى اجباره على التقهقر احياناً ، بينما برزت حكومة كوريا الجنوبيــة حكومة مستبدة تزور الانتخابات ، وتبقى في الحكم بفضل نظام بوليسي ، واعلان حالة الطوارىء في البلاد ومساعدة دولة اجنبية ، كما برزت الامم المتحدة كحلف مقــدس في الغرب يتحرك في الشرق الأقصى وفي الشرق الأدنى وفقاً لرغائب الولايات المتحدة المعادية للآسيويين ، لتفرض عليهم نظماً مهلهلة ، فاسدة لا شأن لها (سينجمان ري وتشان كاي شك وباو داي ونوري السعيد ومانتدريس) ، وابقائها خاضعة لنفوذ الدول الغربية . فليس من عجب قط ان يثأر من هذه السياسة نفوذ الرجل الابيض ، وسلطة الامم المتحدة الادبية ، كما انها حملت الآسيويين على ان لا يعولوا على احد وان لا يعتمدوا الا على انفسهم ليؤمنوا استقلالهم الناجز .

سياسة التدخل لدى الدول الجــديدة

وبعد الفوز بالاستقلال كان لا بد للدول الجديدة التي أطلت على الحياة ، ان تنشىء لها – احياناً من الاساس – ما هي بحاجــة اليه من الاطر والملاكات الحكومية والادارية ، هذه الملاكات التي لم تعمل الدولة المستعمرة ، شيئاً ، على الاجمال ، لإيجادها ولتدريبها ، كما كان عليهــا ان تعالج المشكلات السياسية والاقتصادية التي تتيح لها الاستمتاع بالحرية التي حققتها والتي طالما حلمت بتحقيقها . والمهمة الاساسية الاولى ، هو ايجاد ، وان أمكن ، رفع مستوى الحياة في البلاد لدى هذه الجماهير البائسة ، كما بدت الحاجة ملحة ملحفة لاصلاح زراعي جذري ، ولتحسين الاقتــاد الزراعي ، وخلـــق صناعات جديدة في البــلاد ، وتحقيـــق ردة ضد ضيق السوق ، عــن طريق تنويع الانتاج وتوسيع نطاق السوق الوطنية فيهــا ، والتحرر من الاسواق ورؤوس الاموال الاجنبية عن طريق تأميم مصادر الثروة في البـــلاد والصناعات الاساسية فيهـــا . والوسائل التي تؤول الى هـــذا كله تختلف اصلاً عن الذرائع التي ألف الركون اليها رأس المال

الكلاسيكي . فعلى الدولة ان تشرف بنفسها على تطوير اقتصادياتها بحيث تتوازن وتتكافأ مجالاتها المتعددة عن طريق التخطيط الاقتصادي والتنسيق بين القوى المنتجة ، ودرس وجوه الاستثمارات التي يجب الركون اليها دونما التوقف عند اعتبارات الانتاج المباشر القريب ، ودون ان تنتظر من القطاع الخاص ان يسبقها او يتقدمها في حركة الاستثمار هذه ، ووجوب مراقبتها لهذه الاستثمارات وتأمين التنسيق العلمي فيما بينها، مراعاة للمصلحة العامة ولخير المجموع، والحد من استيراد المواد او المصنوعات غير الضرورية لانتظام الحياة في البلاد ، ومراقبة اصدار الاسهم والسندات . فعلى الدولة ان تتولى هي نفسها مباشرة الانشاءات الكبرى : من سدود وأقنية وطرقات وخطوط حديدية ، كما عليها ان تستثمر ثروات الارض الطبيعية كالمناجم والملاحات . فالدولة في الباكستان اخذت تشيد المعامل والفبارك الخاصة بالنسيج والجوت والسكر . وانشئت في الهند وفي اندونيسيا مصانع تؤمن حاجة البلاد من الاسمدة الزراعية والاجهزة التلفونية والادوات الصناعية ، ومصانع للفولاذ والصلب . كذلك على الدولة الناشئة ان تشجع الصناعات الناشئة وتعفيها مثلاً من الضرائب ، وتقدم لها حاجتها من النقد النادر لتأمين استيراد العتاد والاجهزة التي هي بحاجة ماسة اليها . وتنشأ في كل مكان من اطراف البلاد شركات اقتصادية مشتركة بين ابناء البلاد والاجانب . كما ان اجراءات التأميم التي اتخذتها السلطة في كل من الهند واندونيسيا ، امنت لها صنع ما تحتاج اليه من السلاح والعتاد البحري ، ومراقبة الطاقة الذرية ... على كل هذه الدول الجديدة ان تشق طريقها بجرأة واقدام نحو طرق واساليب تختلف كلياً عن الاساليب التي طالما عول عليها واعتمدها الرأسمال الاجنبي دون ان تشتط الى اشتراكية مدروسة مخطط لها ، والتي هي ، شاءت او أبت ، السبيل الوحيد الى الاشتراكية الصحيحة .

الفصل الثالث

آسيا الجنوبية وآسيا الشرق الأقصى

فالحركات القومية التي جاشت بين هذه الشعوب المعتمدة الى حد كبير على الاجنبي، تكللت بالنجاح بسرعة لم تكن لتتوقعها . فهذه الاقطار الشاسعة التي تمتد من حدود ايران غرباً الى غينه الجديدة شرقاً ، هي اكثر بلدان العالم من جهة التغييرات التي طرأت عليها بعد الحرب . ان اعتراف بريطانيا باستقلال الهند ، عام ١٩٤٧ واستقلال الصين هما من هذه الحدثان المميزة لعصرنا هذا ، ويمثيان تغييراً جذرياً في ميزان العلاقات الدولية ، تحولاً عظيماً في نظام العالم القديم . فمنذ الآن خرج الاشراف على آسيا من يد اوروبا والولايات المتحدة. فكل هذه الاقطار الواقعة ضمن هذا المدى الفسيح – باستثناء تايلاند التي كانت مستقلة – نالت أو حققت استقلالها السياسي بعد ان كانت من قبل مستعمرات لانكلترا وللبلاد الواطية ولفرنسا . وراحت تطبع هـذا الاستقلال بميسم خاص باكماله باستقلالها الاقتصادي .

١ – الهـند

الحركة الوطنية في الهند

حققت الهند استقلالها بعد جهود جبارة وتضحيات عزيزة في ظروف اجتماعية مقنطة . ترأس الحركة الوطنية فيها منذ عام ١٩١٤ ، حزب المؤتمر ، هذا الحزب الذي تألف عام ١٨٨٥ بموافقة الحكومة البريطانية ، فصلاً منها بين « العناصر الموالية » و « العناصر المتطرفة » واقتصر برنامج الحزب السياسي ، حتى ذلك التاريخ على امور سياسية كادخال الجماهير الشعبية حلبة السياسة بعد الحرب العالمية الأولى، وهي حركة اخرجت الحزب عن موقفه المتأرجح بين الاجنبي وبين الجماهير الهندية التي اخذت ميولها الثورية طابعاً خطراً . وبعد ان حاول الحزب التعاون مع الحكومة ، مال عنها بعد ان صدمته ونفرته ووقف الى جانب الجماهير الشعبية يستعديها ويثيرها ضد السلطة الغاشمة العابثة باقدار البلاد .

وتأزم الوضع وساء منـذ الحرب مع شخصية مهاتما غاندي المتضاربة النزعات الذي دعا

« للاعنف » . فمثاليته مثالية أدبية في الاساس ترمي لتقويم ضمير الشعب وايقاظه ، وانتهاج حياة تلمم بالبساطة والتمسك بالاعراف التقليدية وذلك عن طريق العودة الى حياة الارض في الهند والى احياء حضارة الهند الهندوكية ، والعودة الى المِرْدَن والمغزل بمساعدة الانكليز أو بدونهم ، وهي نقطة ثانوية ، في نظره بعد ان استقر في اعتقاد ان خلاص الهند يتم عن طريق تحول روحي وليس عن طريق السياسة ، إذ لم يكن غاندي ليهتم كثيراً بالاصلاحات الدستورية والاجتماعية . فالحكم الذاتي الذي تطمع به الهند انما يأتي عن طريق *Satyagraha* او المقاومة الفعالة البعيدة عن كل عنف ، واوقف العمل بال *Hartal* بعد ان كان اوصى باعتماده منذ عام ١٩١٩ ، على اثر خروج بعض اتباعه عن سياسة اللاعنف ، ورأى نفسه مضطراً ، مراراً كثيرة لوقف الحملات التي يكون باشر بها « بسبب سلوك الجماهير غير الانساني » . فالنفوذ المنقطع النظير الذي تمتع به لقداسته الشخصية وزهده وقنوته ، ومبادىء التواضع ومحبة الفقر التي طالما نادى بها ، كثيراً ما اخفت عن انظار الناس ، الطابع الرجعي والمطلب الخيالي دعوته الحارة للاستمساك بالصناعات اليدوية — التي لو نجحت لاوقعت الهند في ركود اقتصادي مريع — كما اخفت عنهم المغالطات او المفارقات العديدة التي جبل بها ، واحتقاره للمشكلات الاقتصادية ، في الوقت الذي كان فيه يطالب باستقلال الهند ، ودفاعه عن ال *Zamindara* وعداءه للنقابات العمالية ، في الحين الذي كان يحاول ايجاد دواء ناجع للبؤس المدقع الذي رسفت فيه جماهير الفلاحين والعمال .

وحزب المؤتمر الذي كان ينطق بلسان الطبقة البورجوازية العليا والذي ضم بين صفوفه العناصر التقدمية سليلة كبار الملاكين العقاريين ، ومفكرين وأدباء مشهورين ، لم يطلب في بدء الامر سوى تمثيل اكبر للهنود في نظام الحكم والادارة البريطانيين ، تجرأ وطالب بالاستقلال الاداري للمنظمات الوطنية في الهند كما راح يؤيد المطالبة باستقلال البلاد الاقتصادي. ولم يتصل بالجماهير الشعبية في الهند الا عند اشتعال الحرب العالمية الاولى وعند اشتداد شعلة الثورة العالمية ، بحيث أخذت البورجوازية الصغرى في المدن تنتسب الى صفوف الحزب . فالحرب زادت من وطأة الضرائب المالية وتسببت في رفع الاسعار ، وعقّدت الحياة ، كما ان وافدة الانفلونزا قضت على اكثر من ١٤ مليون شخص ذهبوا جميعاً فريسة هذا الداء الوبيل ، وقد قامت في البلاد حركات تمرد وعصيان في مقاطعة البنجاب ، وراح تيلاك ، بمؤازرة آني بيزان ، يؤسس عام ١٩١٦ ، عصبة الوطن القومي توفق حزب المؤتمر في لكنوه ان يجمع معاً « المغالين المتطرفين » و « المعتدلين » بعد ان تفرقوا وتباعدوا منذ عام ١٩٠٧ ، كما عقد تحالفاً مع الرابطة الاسلامية التي تألفت عام ١٩٠٥ . وهذا الاتفاق الذي تم بين الاحزاب الهندية ادى الى وضع خطة عامة للاصلاح رمت الى الاستقلال التام ضمن رابطة الامبراطورية البريطانيّة . وعندما نشبت الثورة الروسية ، سارعت الحكومة البريطانية ، الى قطع الوعود بالعمل على « تطوير مؤسسات الحكم الذاتي تدريجياً في سبيل تأليف حكومة مسؤولة عن الهند تكون قسماً متمماً للامبراطورية

البريطانية» . ونظام السلطة الثنائية الذي اقترحت الاخذ به لجنة مونتاغو شلمسفورد ، لم يباشر بتطبيقه ووضعه موضع التنفيذ الا في سنة ١٩٢٠ .

وزع هذا النظام المسؤوليات بين الحكومة المركزية التي استفظت لنفسها بـ «الامور الخاصة» كالشؤون العسكرية والجمركية وامور الامن العام والقضايا المالية ، وبين الحكومات المحلية العامة التي انيطت بها ادارة الشؤون « المنتقلة اليها » كأمور الصحة العامة والزراعة والتربية والتعليم . واسندت الحكومة المركزية الى نائب الملك ومجلسه التشريعي المعين لمدة ثلاث سنوات ٢٧/٦٠ عضواً في السنة الاولى ، و ٤٠/١٤٦ في السنة الثانية يجري تعيينهم من قبل الحكومة . كما انشيء مجلس الامراء . لكل من الولايات العشرين حكومتها الخاصة ومجلس تنفيذي ومجلس تشريعي. فنائب الملك والحكام مسؤولون امام الحكومة البريطانية فقط ، وهم يتمتعون بحق الفيتو للمشاريع التي تقرها المجالس ، ويمكن لهم ان يفرضوا – بالرغم من اقتراع معادٍ في المجلس – الاجراءات التي يرون ان لا بد من اتخاذها .

وفي ظل هذا النظام البعيد جداً عن نظام الحكم الذاتي الذي وعدوها به ، عاشت الهند بين ١٩٢٠ – ١٩٣٥ . وعلى غرار الاصلاح الذي قامت به لجنة مورلي – منتو قبـــل ذلك بعشر سنوات ، نال هذا النظام موافقـة المعتدلين الذين اظهروا استعدادهم التام للتعاون مع بريطانيا العظمى ، وبذلك تم شق المعارضة الوطنية . واتخذ حزب المؤتمر ، في نهاية الامر ، قراراً بتبني هذا النظام مع استمراره في المطالبة باصلاحات اكثر جذرية وعمقاً، وتكاثرت حركة الاضرابات في البلاد بالرغم من محاولة الحكومة لكبحها ، واتخذت نطاقـــاً أوسع . واعلنت الاحكام العرفية في مقاطعة البنجاب ، واذ ذاك راح غاندي بعد ان اقلقته الحركة الثورية ، يوقف حركة العصيان المدني التي دعا اليها ، وتبنى بديلاً عنها سياسة « اللاتعاون واللاعنف » ومقاطعة المحاكم في البلاد والشرائع المعمول بها ، والمؤسسات التعليمية ، وعدم دفع الضرائب . وفي سنة ١٩٢٢ ، دخل اكثر من ٣٠٠٠٠ هنـــدي السجن لأسباب سياسية . ودب اليأس الى الحركة وتولاها القنوط وانخفض عدد الاعضاء المنتسبين اليها الى ٢٠٠٠٠٠ . واغتنمت الحكومة هذا الظرف بالذات للتراجع عن التنازلات الاقتصادية الجزئية التي كانت قدمتها، وحددت عام ١٩٢٧ قيمة الروبية بسعر مرتفع الامر الذي عاد بالازعاج الشديد على عدد كبير من ارباب الصناعة في البلاد ، وخفض من الحماية الممنوحة عام ١٩٢٤ ، لصناعة الفولاذ وأدخل على البـلاد تعريفات تفضيلية لصالح الفولاذ البريطاني .

التطور الجذري

امام هذا الموقف تقفه الحكومة البريطانية رأت البورجوازية المعتدلة ان تقطع تعاونها مع الحكومة ، وفي اواخر عام ١٩٢٧ ، راح جواهر لال نهرو الذي قضى سنة ونصفاً متجولاً في ارجاء اوروبا واتيح له ان يقوم باتصالات عديدة مع اوساط اشتراكية ، يطالب مع صحباس بوز ليس بالحكم الذاتي كما في الماضي ، بل بالاستقلال الناجز التام . وتحت تأثير غاندي شرع بالمفاوضات وراح زعمـاء حزب المؤتمر يقدمون ، عام

١٩٢٩ ، الحكومة لائحة عامة عرفت بمذكرة دلهي التي تقترح سياسة التعـــاون مقابل انشاء دومنيون الهند . فرفضت الحكومة هذه المذكرة . وراح مؤتمر لاهور يطالب في اواخر عام ١٩٢٩ بالاستقلال التام ، هذا الاستقلال الذي تحتفل الهند بيوم ذكراه لأول مرة منذ ٢٦ كانون الثاني عام ١٩٣٠ .

وهكذا فالحركة الوطنية التي كانت تنهض بها قبضة من رجال الطبقــة الوسطى المستنيرة والتي كانت ترضى ببعض اصلاحات محدودة في إطار الامبراطورية ، ارتدت بعـد نصف قرن من العمل الموصول والجهد المستمر ، طابع مطلب تؤيده جماهير الشعب الهنـــدي التي لم يعد يرضيها سوى الاستقلال التام والانفصال عن الامبراطورية البريطانية .

مساندة انكلترا

وبعد ان عرفت انكلترا كيف تستمر وكيف تحافظ على الوضع مستعينة تارة بالضغط والاكراه وطوراً بالوعود البراقة ، رأت الى انواع الامبرياليات وأكثرها ليونة وطواعية واغناها خبرة وحنكة في العالم ، تتحقق بالرغم عنها وحدة الهند . الا انها تستطيع ان تعتمد على تردد العناصر المحافظة في حزب المؤتمر ، وعلى طبقة كبار الملاكين التي كونتهـــا وانشأتها وعلى الامراء الذين حـــافظت عليهم وابقتهم على رأس الـ ٥٦٣ ولاية التي اوجدتها في الهند منذ عام ١٨٥٧ ، بينهم ١٠٠ يتمتعون بالفصل بأهمية وشأن كبيرين ، اذ كثيراً ما غضت الحكومة البريطانية الطرف عن الابتزازات واعمال العسف التي قاموا بها وضربت صفحاً عنها ، ولها كل الفضل عليهم لانهم مدينون لها بمراكزهم ومراتبهم وسيجت حواليهم من عوادي الدهر ، فحفظوا لها الولاء واسلسوا لها الطاعة . وانشأ البريطانيون عام ١٩٢٥ مجلس الامراء احتفظوا له بدور كبير في نظام الحكم الذي رسموه للهند . الا ان الاستعمار البريطاني اعتمد قبـــل كل شيء على الاقلية الاسلامية في البلاد التي تعد ٢٥ ٪ من مجموع سكان الهند، الذين كانوا أقل تطوراً فكرياً واقليمياً ، واقل غنىً وثراءً ، واقل تطوراً من الوجهة الاقتصادية من الهندوس ، على الاجمال ، الذين يؤلفون غالبية السكان ويزرعون الخوف في قلوب المسلمين. وقد تحلق المسلمون حول الرابطة الاسلامية وخضعوا لنظام انتخابي خاص بهم ولتمثيل نيابي مختلف له امتيازاته الخاصة . وهكذا أُعدت بكل دراية ودهاء وبدت بشكل بارز الاختلافات الدينية والمنافسات السياسية التي اخذت بعين الاعتبار في تقسيم الهند عام ١٩٤٧ .

المجتمع الهندي

يتميز هذا المجتمع على الاجمال بالفقر المدقع الذي يزداد عمقــاً وسوءاً يوماً بعد يوم. ولم يأتِ هذا الوضع نتيجة للحركة الديموغرافية ولازدياد السكان المفرط، اذ ان هذه الزيادة كانت في بادىء الأمر ادنى منها في انكلترا ، ولم ترتفع لتبز معدل نمو السكان في غربي اوروبا الا بعد عام ١٩٢١ ، اذ سجلت الزيادة اذ ذاك ٢١ بالمائة . وبعد هذا التاريـخ ارتفع معدل الزيادة اكثر بكثير ، اذ زاد عدد السكان بين ١٩٢١ — ١٩٣١ مـــا يفوق ٠٠٠ ٧٠٠ ٢٧ كما ان هذه الزياد بلغت ٠٠٠ ٧٠٠ ٢٧ بين ١٩٣١ — ١٩٤١ . وهذا النمو العظيم لا ينم عن اي خطر لو جاء في بلاد تنعم بازدهارها الصناعي ، فقد جاء في الهنــــد نذيراً بخطر

مدام في بلد زراعي كالهند حيث الانتاج الزراعي يبقى جامداً وحيث الصناعة لا توفر اي بديل لسد حاجة البلاد من المواد الغذائية المستوردة من الخارج . فالهند هي من هـذه البلدان حيث تنخفض الى الحضيض احتمالات العيش ومعدل الحياة ، اذ بلغ هذا المعدل ٢٣ سنة للرجال ، عام ١٩١١ ، و ٢٧ سنة عام ١٩٣١ ، و ٣٢ سنة في عام ١٩٥٥ .

بؤس الفلاحين وشقاؤهم

يؤلف الفلاحون اغلبية السكان . ويمكن رد بعض هــذا الشقاء الذي يتردّون فيه الى الاصلاح الذي قام به البريطانيون في اواخر القرن الثامن عشر ، اذ فرض على الهنود نظريات وافكار غريبة تتناقض وتقاليدهم المرعية ، اصابت في الصميم نظام الملكية الشخصية ، وحق بيع الاراضي ورهنها . والضريبة الاميرية القائمة على اساس الغلة والمحصول حلت محلها ضريبة ثابتة تدفع نقداً ، حتى اذا ما تعذر عليهم دفعها امكن الجبـاة ولمحصلي الضرائب استملاك الارض — التي كانت تعود ملكيتها للمجتمعات القروية — وبذلك يستحيل الفلاحون مرابعين ويتعرض وضعهم للمخاطر من جميع الجهـات وبذلك مهد البريطانيون السبيل لطلوع طبقة من كبار الملاكين العقاريين ، يستثمرون المزارعين ويستغلونهم بأبشع الطرق ليس من يحميهم ، يوطدون لسلطة البريطانية على البلاد ، كما ان فرض النظام النقدي على البلاد ساعد المرابين على تكوين ثروات طائلة . وهكذا اذ يرى الفلاح نفسه رازحاً تحت وطأة ثلاث ضرائب مختلفة : دينه للمرابين ، وضريبة الحكومة واتاوته لصاحب الأرض، تستهلك ثلثي ايراده ، لا يرى من سبيل امامه للخلاص الا بيع ارضه او النزوح .

ويزداد بؤساً على بؤس مع بوار الصناعة اليدوية في الريف بعد المنافسة الشديدة التي تعرضت لها من قبل البضائع والحاجيات المستوردة من اوروبا ، ومع مشترى الأغنيـاء للاملاك . فبين ١٩٠١ — ١٩٢١ ، تضاعف عدد المرابعين في ولاية مدراس وحدها كما ان معدل المزارعين فيها انخفض حد الاجر بمعدل ٢٠ ٪ والديون المترتبة على الفلاحـين في الولايات المتحدة التي قُدرت بـ ٤٠٠ مليون جنيه عام ١٩٢١ ، ارتفعت الى ٦٧٥ مليون عام ١٩٣١ . وهكـذا ازدادت الأزمة الزراعية احتداماً في الهند مع تكاثر حوادث نزع الملكية، والتباين المتزايد بين الطبقات وتقهقر الزراعة . فالاحصاء العام الذي جرى عام ١٩٣١ يقدر بـ ٣٨ ٪ عدد الفلاحـين الذين لا ارض لهم يحرثونها ، والاحصاءات التي اجريت في المنـاطق الاكثر ازدهاراً كالغوجارات والبنجاب والولايات المتحدة تشير بوضوح الى ان ما بين ثلثي وثلاث ارباع الاسر ترزح تحت دين يفوق قيمة غلة السنة ومواسمها ، بفائدة تبلغ احياناً ٧٥ ٪ من قيمة غلة الموسم . كذلـك ظهر في الجنوب ان ٨٧ ٪ من السكان هم ايضاً غارقون في الدين ، وفي ولاية اسّام ٨٥ ٪ . ان ثلثي عدد المزارعين هم عاطلون عن العمل جزئياً ، اذ ان افتقارهم للارض يقصرهم على البطالة من ١٠٠ الى ٢٠٠ يوم في السنة ؛ والغلال ضعيفة جداً لحاجة الارض للسماد والعتـاد الزراعي ولعدم توفر الاساليب الفنية في استثمار الارض . وهم يتعرضون لنقص في اسلوب التغذية اذ لا يصيب الواحد منهم ١٦٠٠ سعر حراري في اليوم الواحد للفرد البالغ ، (بينما مصلحة التغذية البريطانية كانت

توفر الفرد الانكليزي ما يعادل ٢٩٩٠ سعر حراري ، عام ١٩٤١) .

العمال

والعاملون في الصناعة من السكان لم يكونوا في وضع افضل . ففي عام ١٩٣١ كان ٤،٣ ٪ من مجموع السكان لا غير يعولون في معايشهم ، على الصناعة . فلم يكن في تلك البلاد ، بهذا التاريخ اكثر من ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ عامل يعملون في الصناعات الكبرى (بينهم ٠٠٠ ٨٠٠ يعملون في مناجم الفحم و ٠٠٠ ٢٦٠ في مناجم التعدين) اي ما يوازي ١،٥ ٪ من مجموع السكان العاملين . وطبقة العمال هذه يعوزها عنصر التجانس ، اذ انها تتألف بالأكثر من مزارعين مأجورين او من صغار الملاكين هبطوا المدينة طمعاً بعمل اضافي او بأجر اكبر بينما بقي افراد عائلاتهم في الريف ، فهم غير مستقرين ، لم يألفوا قط العمل المنظم السريع ، انتاجهم ضعيف ومردودهم محدود لما هم عليه من سوء الصحة .

حياتهم تنقضي في اسوأ الظروف . ففي عام ١٩١١ ، كان ٦٩ ٪ من مجموع السكان يسكنون بيوتاً تتألف من غرفة واحدة يأوي اليها ٤،٥ اشخاص . ويشير احصاء عام ١٩٣١ ان ٧٤ ٪ من السكان يعيشون في مثل هذه الظروف . فالنسبة في مدينة احمد آباد هي ٧٣ بالمائة ، وفي كراتشي ، فان ثلث سكان المدينة يتوزعون على غرف تضم الواحدة من ٦ — ٩ اشخاص . فليس بغريب قط والحالة هذه ان تبلغ نسبة الوفيات ٥٧٧ بالألف من المواليد في مساكن تتألف من غرفة واحدة في بومباي ، و ٢٤٦ بالألف في معظم المدن الاخرى ، و ٢٣٩ بالألف في كلكوتا و ٢٢٧ بالألف في مدراس .

والاجور المتدنية : شلن واحد وثماستان هو معدل ما يكسبه ٦٠ ٪ من العمال في بمباي ، في اليوم ، تعطينا فكرة صحيحة عن الوضع الزري الذي يكتنف حياة العامل ، كما تفسر لنا وضع النقابات العمالية والاضطرابات الاجتماعية التي اخذت تبرز وتلفت النظر بعد عام ١٩١٩ . وهذا الاضطراب ابتدأ باضراب ٠٠٠ ١٢٥ من عمال النسيج في بمباي في كانون الاول ١٩١٩ ، ومنها امتد الى جميع اطراف البلاد عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ . وفي هذا الوقت بالذات جرت المحاولات الاولى لتشكيل نقابات . والنقابة الاولى تشكلت في مدراس اثر المؤتمر الذي عقده اتحاد عمال الهند برئاسة لاجبات راي . وتعاقب على رئاسة هذا الاتحاد شخصيات هم اعضاء في حزب المؤتمر امثال جواهر لال نهرو وس. ر. داس وصجاس شندرا بوز . ولما كان عدد العمال قليلاً نسبياً فلم تستفق فيهم بعد روح الطبقية كما انه لم يطلع من بينهم زعماء يتولون امرهم . ومع ذلك فقد اخذت تتسرب الى صفوفهم مبادىء الاشتراكية والشيوعية . وفي سنة ١٩٢٦ ، تكون في البنغال اول حزب تألف من العمال والفلاحين ، كما نشأ بعد ذلك مثل هذا الحزب في البنجاب وبمباي والولايات المتحدة . وقد اندمجوا معاً ليؤلفوا فيما بعد اتحاد عمال وفلاحي الهند ، الذي اخذ ينظم حركة الاضرابات في البلاد ويهيىء لمظاهرات واسعة . والحركة العمالية برزت هنا ، كما في الصين وجاءت في طليعة الحركة الوطنية في صمودها امام الاجنبي . وعدد العمال الذي دخلوا النقابات في بمباي كان عام ١٩٢٦ نحواً من ٠٠٠ ٦٠ ،

فارتفع الى ٢٠٠٠٠٠ في اذار ١٩٢٩ . والاضرابات التي وقعت عام ١٩٢٨ سجلت لوحدها اكثر مما سجلته الاضرابات في السنوات الخمس السابقة مجتمعة من ايام العطالة .

استقلال الهند وانقسامها

انفجرت الحرب والهند تتململ وتتمطى محتجة عالياً على الدستور الاتحادي الجديد الذي اعلن عام ١٩٣٥ ، كما اتضح من الفوز الذي حققه حزب المؤتمر في انتخابات ١٩٣٧ ، اذ نال فيها ٧٠ ٪ من الاصوات . وعندما راح نائب الملك يعلن سنة ١٩٣٩ ، دون ان يستشير ممثلي الشعب بان الهند بلد محارب ، ويعطيه قرار الدفاع عن الهند كل السلطات ، قدم جميع الوزراء استقالتهم ، كما امتنع حزب المؤتمر عن تقديم اي معونة للمجهود الحربي . وبالرغم من الهزائم التي توالت على انكلترا فقد رفضت الحكومة البريطانية اعطاء اي تعهد بالاستقلال ، فكبحت كل معارضة وزادت من الضغط (وجرى توقيف اكثر من ٦٠٠٠٠ شخص بينهم ٤٠٠ عضو من مجالس الولايات ، بينهم ٣١ وزيراً سابقاً ، وكل زعماء الحركة امثال نهرو وغاندي وباتيل) . وفي هذا الوقت راح احد زعماء حزب المؤتمر ، ومنافسه الاكبر ، يؤلف حزب : « الهند الحرة »(*Azad Himd*) ، ويدعو للثورة ضد الانكليز ويجند من بين معسكرات الاعتقال جيشاً وطنياً حارب الى جانب اليابان في بورما .

وفي عام ١٩٤٥ ، رأت الحكومة البريطانية نفسها غارقة الى فوق اذنيها في المشكلات والصعوبات التي تواجهها في كل من مصر وفلسطين وماليزيا والهند نفسها حيث تكاثرت حركات الاضراب والانتفاضات الشعبية ، وحركات العصيان والتمرد في الجيش وقوى الطيران والاسطول . والمقاومة التي قام بها موظفو الادارة جردت السلطة البريطانية من كل وسيلة لفرض ارادتها . ولم يعد لانكلترا من اسباب اقتصادية قوية كما كان لها في الماضي لتحتفظ بمراقبتها السياسية على الهند . ففي عام ١٩٣٩ كانت تجارتها مع الهند انخفضت الى الثلث ، كما ان اموالها الموظفة في شبه القارة الهندية هبطت الى ٧٥ ٪ وعلى هذا الاساس وقع تقارب عام ١٩٤٥ بين حزب المؤتمر والرابطة الاسلامية التي اوجست شراً من الحركات الشعبية ، والى ممثلي هذين الحزبين كان من المتوقع ان يؤول الحكم في البلاد . وراحت اول حكومة عمالية تألفت في انكلترا تستعجل المفاوضات حول الموضوع ، وفي تموز ١٩٤٧ اعلن استقلال الهند وقسمت الى دولتين مستقلتين ذات سيادة لم تلبثا ان دخلتا في منافسة حادة ، تماماً كما وقع في ايرلندا ، تعمل بريطانيا على ان تلعب دور الحكم بينهما .

جاء انقسام الهند الى دولتين لاسباب دينية محضة ، الا ان تشابك السكان وتخالطهم بين مسلمين وهنود في بعض المناطق لم يسهل كثيراً عمالية الانقسام هذه اذ ان الاحصاء الذي تم عام ١٩٤١ دل على ان سكان باكستان يضمون ٧٥ بالمائة من المسلمين كما ان اتحاد الهند ضم ٣٥ مليوناً من المسلمين الى جانب الـ ٢٨٠ مليون هندي . والمذابح الدامية التي وقعت في آب وايلول من عام ١٩٤٧ اودت بحياة ١٠٠٠٠٠ قتيل وشرعت على الطرقات وفي مهب الارياح

اكثر من ١٢ مليون نسمة من هؤلاء البائسين الذين يفتقرون لكل شيء وكانوا يقضون جوعاً وسغباً ، اذ ان عدداً كبيراً منهم (اكثر من ٥٠٠ ٠٠٠) قضـوا نحبهم وهم هائمون على وجوههم . وغاندي نفسه ذهب ضحية ، احد المتعصبين الذي غاظه جداً انقسام الهند الى دولتين ، ولاقى حتفه على يد احد ابناء ملته الذي اخذ عليه موقفه المتساهل تجاه المسلمين .

التركيب الاجتماعي والسياسي في الباكستان

يتألف الباكستان من قسمين مختلفين يبعد الواحد عن الآخر ١٨٠٠ كيلومتر ، كما ان ٣٢٪ من مساحته غير صالحة للاعمال الزراعية ، ثلثها مروي ولا يمكن زيادة هذه الاراضي الزراعية الا بعد اقامة سدود وانشاءات تكلف غالياً والدولة الجديدة غنيـة بالقمح والجوت والقطن والجلود ، وتكتفي بخلاف الهند ، نفسها من المواد الغذائية وسجل ميزانهـا الاقتصادي فائضاً محسوساً . الا ان ٧٠ بالمائة من سكانها البالغ ٨٦ مليون (عـام ١٩٦٠) يعولون على الزراعة ويعيشون في البؤس والشقاء ، إذ ان معدل الدخل الحقيقي لعائلة تتألف من ٥ أشخاص لا يزيد على ١٥٠ روبية في السنة (١٥٠ فرنكاً) في الباكستان الغربية ، و ١٢٥ روبيـة (١٢٥ فرنكاً) في الباكستان الشرقية . ويملك بعض كبار الملاكين العقاريين من ٦٠ – ٨٠ بالمائة من مجموع الاراضي في بعض الولايات . والسواد الاعظم من الفلاحـين هم مزارعون او مرابعون ، يتراوح ما تزرعه العائلة الواحدة بين ٢ – ٤ دونم ، ولا يصيبهم من غلة الارض سوى ٥٠ – ٣٠ بالمائة كما يترتب عليهم ان يقدموا عيناً ونقداً لمالكي الارض اتاوة اخرى من الفضة أو أشغالاً أو من غلة الارض تؤلف في مجموعها من ٣٠ – ١٢٠ بالمائة من المبالغ المدينون بهـا . والاصلاح الزراعي الذي نص عليه مشروع الرابطة الاسلامية عام ١٩٤٦ ، لقي مقاومة عنيفة من قبـل كبار الملاكين العقاريين الذين يؤلفون اركان الرابطـة المذكورة . فالشق الشرقي من الباكستان وحده حيث يشتد البؤس وحيث المجاعة اودت بحياة اكثر من ثلاثة ملايين نسمة عام ١٩٤٣ ، حقق عام ١٩٥٠ ، اصلاحه الزراعي ، وفي غرة عام ١٩٥٥ لم يجر سوى استملاك ٢٣٧ قطعـة ارض من اصل ٢٨٢ ، ١٢٣ قطعة خاضعة للمصادرة والتوزيع ، ولم يستفد الفلاح الا من إلغاء الاتاوة المترتبة عليه . اما في الولايات الاربع الاخرى ولا سيما في البنجاب اغنى هـذه الولايات على الإطلاق ، حيث « تصطبغ الرابطة الاسلامية فيها بصبغة نادٍ يضم كبار الملاكين العقاريين» فلم يكن من أثر قط لهذا الاصلاح ، وفي الولاية الواقعة على الحـدود في الغرب ، جرى تخفيض الاعباء عن الفلاح : كالغاء الرهونات ، وتخفيض القسم المتوجب على المرابع تقديمه وجعله ٤٠٪ من مجموع الغلة وبعض تسهيلات أخرى تسمح له باستملاك الارض .

والتصنيع وحده كفيل بتحسين هذا الوضع الزري ، ولكن هيهات ان تتوفر في البـلاد الشروط الاساسية للصناعات الثقيلة ، فالصناعات الوحيدة القائمة هي صناعة النسيج والدباغـة وبعض المعامل الكهربائية ومصانع التراية وهي كلها تفتقر جذرياً للموظفين الفنيين ، بحيث ان

الحل الوحيد يقتضي اصلاحاً زراعياً من الاساس ، يزيل من الوجود العقارات الضخمة او يؤمن للدولة الوسائل المالية التي تفتقر اليها. فنحن اذن أمام مشكلة سياسية في الاساس اذ ان تركيب البلاد الاصلي الاجتماعي والاقتصادي يحول دون هذا الحل أو ذاك .

وجماعة العلماء الذين وقعوا تحت تأثير الاشتباكات الدينية وقت الانفصال ارتاحوا جداً لقيام دولة دينية في الصميم قامت على « المبادىء التي نص عليها الاسلام » يكون فيها القرآن والسنة أساساً للتشريعات البلاد ، كما يفرض التخلي واخراج الموظفين غير المسلمين من دوائر الحكومة الرئيسية ، كما على المرأة الا تظهر في الحياة العامة . والدستور الذي نشر عام ١٩٥٦ انشأ في البلاد دولة اسلامية مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج » . وقد نال انصار التجدد في البلاد ترضية بان تقوم المؤسسات السياسية في البلاد على غرار المؤسسات البريطانيــة : مجلس تمثيلي يجري انتخابه بالاقتراع العام ، وحكومة مسؤولة ، ومع ذلك فالاطار العصري المفروض يظهر مع ذلك بوضوح السلطة شبه المطلقة التي يتمع بها كبار الملاكين. وهذا الاضطراب والقلق الاجتماعي الذي تعاني منه الدولة الجديدة افسح المجال لظهور عدد من الاحزاب المعارضــة : كحزب الفلاحين، والرابطة الشعبية ، ورابطة باكستان الحر في الباكستان الغربي يجري انتخاب الزمندار ويتجدد انتخابه في دائرته الريفية بصورة آلية من قبل الفلاح الامي ، الجاهل الذي يعيش في جوار هذا الزعيم وفي تبعيته الضيقة ، أما في الباكستان الشرقي حيث الفلاح البنغالي لا تشده الى صاحب الارض مثل هذه الرابطة الآصرة ، فقد تقوم جبهة المعارضة ممثلة « بالرابطة الشعبية » التي هي العامل الاساسي والمحرك الاكبر في هذه المقاطعة وقد نالت في انتخابات عام ١٩٥٤ العامة ٩٠ بالمائة من الاصوات. ففي اربع من ولايات باكستان الخمس، تبدو الديموقراطية واجهة برانية . تبقى معها العناصر الديموقراطية عاجزة عــن تحقيق اي اصلاح ، وحيث لا يستطيعون التنفيس عن مشاعرهم واحاسيسهم الا بواسطة مؤامرات يحبكون حبكها كالمؤامرة التي شهدتها روالبندي عام ١٩٥١ ، او كهـــذه الفتن الــتي قامت في كل من لاهور وكراتشي عام ١٩٥٣ .

الانقلاب العسكري عام ١٩٥٨

ان عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي الناجم عن الفساد العام الضارب سرادقه على البلاد، وتجاوزات القانون التي يأتيها كبار المسؤولين الى جانب الفقر المريع الذي تتسكع فيه الجماهير الشعبية شجع – على غرار ما جرى في مصر – المارشال ايوب خان • عام ١٩٥٨ ، على القيـــام بحركة انقلاب عسكري واستلام الحكم . فعمد في بادىء الامر الى حل الاحزاب السياسية ، واعلان الاحكام العرفية في البلاد ، والغاء الدستور ، و « كبح » الصحافة ، ونشر قانوناً زراعياً نزع الى تقسيم الاملاك الكبرى والى انشاء طبقة وسطى من الفلاحين ، وهي تدابير واجراءات جاءت بالأكــــار في صالح صغار الملاكين ومتوسطيهم بينما يحول الفقر الذي يتسكع فيه المرابعون ومكترو الارض دون امتلاكهم لهذه الاراضي التي يتعهدونها بعرق جبينهم .

ورصيد النظام الجديد الذي سيطر على البلاد لم يكن كله سلبياً . فقد فرض عام ١٩٥٩ على كبار الملاكين العقاريين في الباكستان الغربية اصلاحاً زراعياً قاوموه دوماً من قبـــل بالعنف الشديد (اذ حدد ملكية الاراضي الزراعية بـ ١٢٥ هكتاراً) ، وحاول التخفيف من فســاد الموظفين ، ونشر قانوناً للأسرة حدد فيه حقوق المرأة ، وشجع على الحد من النسل بالرغم من معارضة العلماء. كذلك شجع التطور الاقتصادي في بلاد، اذ زاد عدد سكان المدن فيها ضعفين في خلال عشر سنوات ، مع ان الطابع المسيطر على السكان فيهـــا هو الطابع الريفي ٨٠ ٪ . ومعدل النمو السنوي للزراعة جاء مع ذلك واطياً جداً ، اذ لم يزد على ١،٦ بالمائة بينما بلغت الزيادة في السكان ٢،٥ بالمائة، وهكذا فالدخل الفردي بقي تقريباً على حاله في مستوى متدنٍ للغاية ، والسواد الاعظم من الناس يستمرون في حالة فقرية مدقعة ، بينما ترتفع الاميـــة الى ٨٥ بالمائة ، و ٦ بالمائة من مجموع السكان تتوفر لهم مياه صالحة للشرب . وعدد الذين يحتاجون الى عمل في الريف ، بلغ عام ١٩٦٥ ، ٨ ملايين نسمة (مقابل ٥ ملايين في عام ١٩٦٠) ومعدل استثمار الارض يتراوح بين هكتار واحد في الاراضي الزراعية في الباكستان الغربية،و ٢٠،٠ من الهكتار في الباكستان الشرقية .

اما اصلاح الدستور ، فعمليته باءت بالفشل التام ، بعد ان استقر في خـــلد الذين قاموا بالانقلاب العسكري ان فشل الديموقراطية البرلمانية سببهاعدم وعي الضمير الوطني لدى الفلاحين الذي لا يتجاوز نظر الواحد منهم افق ارضه الضيقة او قريته. ارتضو بديلاً عنها بديموقراطية اساسية ، هدفها تدعيم على ادارة شؤونهم المحلية في نطاق القرية اولاً . وكان من المقرر ان يقوم على شكل هرم مجالس وهيئات تقوم بالاقتراع العام ، في القرية والناحية والمنطقـــة والقضاء والمحافظة بحيث تتم معه تدريبهم السياسي والمدني معاً ، بعزل الفلاحين وجعلهم في مأمن من الاعيب رجال السياسة والملاكين العقاريين . وجاء الاختبار قصير المدى والتجربة قصيرة الاجل ، اذ لم تمر ثلاث سنوات حتى كان الموظفون السابقون عادوا الى مراكزهم من جديد والدستور الجديد سلم بتشكيل احزاب جديدة في البلاد بعد ان منع قيامها من قبل ، وبذلك عاد الى اعيان القوم ووجوههم ما كان لهم من شأن ونفوذ . وبفضل الاقترع المحـــدود حيث الكلمة الاخيرة لسكان الريف ، انتخب المارشال ايوب خان رئيساً لدولة الباكستان في مطلع عام ١٩٦٥ ، باقل من ٣/٢ اصوات المقترعين .

الاتحاد الهندي ومشكلاته

فالهند المستقلة التي نالت ٨١ بالمائة من الاراضي في شبه القـــارة الهندية ، وكان عدد سكانها ٣٦٩ مليون في عام ١٩٥٠ ، تعد ٤٣٩ مليون من السكان في عام ١٩٦٣ ، يتسم معظمهم بالطابع الريفي هنا ايضاً .

وعلى غرار الباكستان، ان ٨٠ بالمائة من سكان البلاد يعملون في الارض ويجدون في الاعمال الزراعية حرفة ثانية لا بد منها لتامين أودهم ، وهذه الجماهير الهندية ترسف في الجهل اذ ان ٨٨ بالمائة اميون ، وهم فريسة رخيصة لعصبة من المرابين الجشعين ولعدد من الوسطاء ، عرضـة

دوماً الجوع والمجاعة ، كما ان ٦٨ ٪ من هــذه الدهماء لا زرع لهم ولا ضرع ، يعتاشون من عملهم كمزارعين (٣٥ بالمائة) او كمرابعين تحت تصرف الواحد منهم على الاجمال ، مساحة هكتار من الارض للفرد الواحد ، و ٣٣ بالمائة بينهم عمال لا يخرج وضعهم عن وضع الارقاء المستعبدين . فهم يفتقرون اصلاً الى اي نوع من السماد ، كما ان عتادهم الزراعي من النوع البدائي ، فليس من عجب ان تأتي مواسمهم السنوية حقيرة شحيحة ، و « الغلة تكاد تلامس الحاجـــة ولا تفي بالفرض » . والاصلاح الزراعي العام الذي طبق عام ١٩٥١ ، قضى على نظام الزمندار مـع التعويض على صاحبه وتركت للولايات المختلفة مسؤوليات اعداد واصـــدار القوانين الخاصة بتطبيق هذا الاصلاح ، فجاءت هذه التدابير تختلف مدى واتساعاً واثراً ، ونصت على جعـل الحد الاكبر للمزارع يتراوح بين ٢٠ — ١٠٠ هكتار ، بينما حاولت معظم هـــذه الولايات على التلطيف من وضع الفلاح وجعله اكثر استقراراً من قبل ، بعقود ايجار واستثمار طويلة الامد ، على ان تحدد المحاكم سعراً عادلاً للاستثمار او للاستكراء ، عن طريق جعل حـد ادنى للاجور وغير ذلك . وقد لقي تطبيق هذه القوانين معارضة شديدة من قبل اصحاب الزمندارية وعن طريق فرض مبالغ عالية التعويض عن الاستملاكات (بلغت ٤ مليارات روبية) ، دفعها يزيد كثير من التضخم المالي في البلاد .

وتطورت الطبقة العمالية في الهند من جراء الحرب ، بعد ان اصبحت الهند ترسانة الجيوش البريطانية العاملة في اقطار جنوبي شرقي آسيا او في بلدان الشرق الاوسط ، مما ادى الى تنشيط الصناعة فيها ، والى صنع الاسلحة الخفيفة والمعدات الخاصة بالمدفعية والعربات المصفحة وبنـاء السفن الصغيرة ، كما تلقت طلبــــات توصية خاصة بتجهيزات الجيش وصيانته . ولاول مرة في تاريخها ، تمكنت الصناعة الهندية من صنع صفائح من الفولاذ لتدريع العربات المصفحة ، ونوعاً من الفولاذ الخاص يستعمل في المدافع المضادة للمدرعات كما تمكنت من صنع ادوات فولاذية تدخل في مهمات الجيش الاساسية كالثاقبات والمخارط وماكنات النحت ، ومواد كياوية وصيدلية . واقبل على العمل في المدن عدد كبير من العمال ، فارتفع عدد العمال في البلاد من ٠٠٠ ٧٤٥ ١ عامل الى ٠٠٠ ١٤١ ٣ بنهم ، والحق يقال ، عـــدد كبير من عمال فصليين او موسميين . فالاوضاع التي تكتنفهم مريعة . فالقوانين الاجتماعية التي تسيج حولهم ناقصة ويجري تطبيقها بشكل سيء جداً . فهذه المدن التي تنص بسكانها تفتقر للمزيد من المساكن ، والتراكم القطيـع الذي شهدناه في الفترة السابقة ازداد حدة وشدة . فليس بغريب قط ان نرى عائلتين او ثلاثاً يعيشون في غرفة واحدة ، كباراً وصغاراً جنباً الى جنب وبعضهم فوق بعض . ففي عـــام ١٩٤٩ ، نرى في مدينـــة بمباي نفسها ٠٠٠ ٥٠٠ ١ لا ملجأ لهم قط او يسكنون زرائب في ظروف واوضاع مخيفة ، واكثر من نصف مليون نسمة يفترشون الشوارع طـــولاً وعرضاً وينامون على قارعة الطريق يلتحفون السماء . وقامت حول المدن « مخيمات عمل » هي خليط من الاكشاك والخيام والمضارب والاكواخ تنفر المارة لرؤيتها او لرائحتها . ويذهب ٤/٣ اجر

العامل ليؤمن له ولذويه غذاء يبقى دوماً ناقصاً ، الامر الذي يضطر معه اكثر العمال للاستدانة (ففي عام ١٩٤٦ ان ٩٥ بالمائة من اسر العمال في مدراس ، و٦٣ بالمائة من هذه الاسر في بمباي ترزح تحت الدين لمبالغ تتراوح بين ٨٠ - ٣٣ دولاراً بينا الفائدة تتراوح بين ١٠٠ و ١٢٥ بالمائة . والطبقات الوسطى ، مع انها قليلة ، تعاني هي الاخرى ، من الحرمان ، فتضطر ان تخصص نصف ما تربحه على تأمين قوتها وغذائها ، وتسوء وسائل التغذية لديها يوماً بعد يوم .

المشكلات الاقتصادية

بعد التقسيم بقليل سجل النشاط الاقتصادي في الهند هبوطاً عموساً في كل مرافق الصناعة اذ هبط الانتاج من اعلى نقطة سجلها عام ١٩٤٣ ، وبلغ الدليل العام للانتاج ١٢٦،٨ في هذا التاريخ بالذات ، و ١٤ في عام ١٩٤٩ ، كما كان من نتائج التضخم المالي حدوث تخفيض في الدخل الحقيقي تراوح بين ١٥-٢٠ بالمائة بالنسبة لسنة ١٩٣٩ ، اذ كانت الاسعار دوماً في الارتفاع .

والسرعة الهائلة التي ميزت نمو السكان فكان ٨ ملايين عام ١٩٥٩ لم تمد بانتاج الحبوب الى معدل عام ١٩٤٦ الا في سنة ١٩٥٨ ولذا اقتضت علاجاً سريعاً لمشكلة المواد الغذائية . فكيف السبيل الى تأمين الغذاء لـ ٢٠ بالمائة من سكان العالم يقيمون في ٣ بالمائة من مساحة الارض ؟ ولذا ، يجب ان تكون الارض اكثر خصباً ، والنساء اقل انجاباً ونسلاً ، كما يلاحظ العالم الجيوغرافي سبات . فالضغط الديموغرافي شديد الوطأة ، والاراضي التعبة والمحصول المتناقص باستمرار ، تحتاج السماد . (فالاستهلاك لا يزال حرياً بالسخرية ٢٠٠٠٠٠ طن فقط في عام ١٩٥٠ ، مقابل ١٣ مليوناً في الولايات المتحدة الاميركية) . في الهند ٤٠ مليون هكتار من الاراضي الجدباء ، منها ربع هذه الكمية يمكن استثمارها بشكل مفيد . فرؤوس الاموال اللازمة لفتح الترع والاقنية غير متوفرة ، ومراقبة النسل عملية لم يعمل بها بعد .

والخطة الخمسية التي بوشر بها عام ١٩٥١ ، خططت لتحسين وسائل النقل عن طريق شراء الاجهزة والعتاد اللازمين ، ولتطوير الانتاج الزراعي عن طريق زيادة المحصول وتقويته ، وعلى اساس توسيع شبكة الري وعلى بناء السدود الضخمة ، كما نصت على النهوض بالصناعة عن طريق تشييد معامل لتوليد الكهرباء وانتاج الآلات الصناعية اللازمة . وقد جاءت نتائج الخطة مرضية للغاية وتجاوزت الاهداف المرسومة لها ، وارتفع الانتاج الصناعي الى النصف كما زاد الانتاج الزراعي ١٥ بالمائة بحيث تجاوزا خطر هبوط الانتاج الحقيقي والدخل الحقيقي للفرد ، كما امكن تفادي خطر المجاعة .. الا ان القدرة الشرائية بقيت متدنية ، ونجم عن هذا الوضع عجز في التوصية على المواد المصنوعة الامر الذي يزيد من البطالة (اذ كان في البلاد اكثر من ٥ ملايين عاطل عن العمل عام ١٩٥٥ ، بينهم عدد عارم من حملة الشهادات) . والخطة الخمسية الثانية (١٩٥٥ - ١٩٦١) التي جاءت اكثر تطلباً وطموحاً من الاولى ، اعطت الاولية للصناعات الثقيلة وللمناجم ولوسائل النقل ، كما ادت الى انشاء ثلاثة معامل ضخمة لصنع

الفولاذ تولى انشاءها الاتحاد السوفياتي وشركة كروب وعدد من أرباب الصناعة البريطانيين بينما أهمل امر المواد الاستهلاكية وشؤون الزراعة ، اذ المطلوب ايجاد من ١٠ – ١٢ مليون مصلحة أو وظيفة لاستيعاب اكبر قدر ممكن من العاطلين عن العمل الذين تحملهم الأجيال الطالعة، كما ان أهمية الاستثمارات الضرورية التي يعضدها مشروع كولمبو ، تفرض التطور النموذجي للقطاع العام ولعبه الدور الاول بالنسبة للقطاع الخاص ، وبالتالي لرأس مال الدولة ، شاء أم ابى . ويبقى من العوامل المهمة في الموضوع مساهمة الرساميل الاجنبية من انكليزية واميركية بصدد اتفاقها بالطبع ، مع الشركات الهندية، وتكوين شركات جديدة يشارك فيها رأس مال اميركي انكليزي هندي ، كالاتفاق الذي توصلت الى تحقيقه شركة بيرلا مع مؤسسة نافيلد في موضوع السيارات ، والاتفاق الذي عقدته مؤسسة تاتا مع شركة الصناعات الكيماوية الامبريالية ، وشركة بيرلا مع ستوديبكر ، بشأن تجميع قطع التركيب المرسلة من قبل نافيلد وستوديبكر ثم تباع السيارات الجديدة تحت ماركة مصنوعات هندية . ففي الصناعات الخاصة بالبترول والمطاط وعيدان الكبريت والجوت، كان نصيب رؤوس الاموال الاجنبية يزيد في سنة ١٩٤٨، على ما يساوي ٦٠٪ من مجموع الاستثمارات ؛ اما في مجال الاعمال المصرفية والكهرباء والبن والورق وغير ذلك ، فقد بلغت الزيادة ٢٥٪ ومن جهة اخرى فقد سارت الولايات المتحدة ، بعد ١٩٥٠ – ١٩٥١ ، في الطليعة واحتلت المرتبة الاولى في استيرادها من الهند ، وانشئت في البلاد مصافٍ للبترول ومصانع اخرى برؤوس اموال اميركية . وراحت الحكومة تشجع هذه الاستثمارات بعد ادخال الطمأنينة الى قلوب اصحابها بانه لا يوجد اي مشروع للمصادرة او التأميم ، وبتخلي الحكومة عن كل مراقبة تدخل القلق الى نفوسهم .

عادت الخطتان الاولى والثانية وان لم تتحققا بكاملها ، الى نتائج ملموسة . فقد انتقلت مساحة الاراضي المروية من ٢٠ مليون هكتار الى ٢٨ مليوناً ، والانتاج الصناعي ارتفع هو الآخر ½ ، وزاد انتاج الفولاذ اربعة اضعافه ، والطاقة الكهربائية يجب ضربها بـ ٢٠,٥ . الا ان السكان زاد عددهم في السنوات العشر الاخيرة ٦٠ مليون نسمة . فمعدل النمو الاقتصادي وتطوره بالنسبة للفرد الواحد لم يزد عن ٢٪ فالخطة الخمسية الثالثة (١٩٦١ – ١٩٦٦) التي تنوي رفع معدل الاستثمارات من ١١ الى ١٥٪ وبتطوير المصانع التي تؤمن التجهيزات الثقيلة والميكانيكية وجعل التعليم الابتدائي إلزامياً ، تخشى ان تصاب بالفشل امام متطلبات الدفاع الوطني والمصروفات الحربية التي تبلغ ثلث الواردات (اشتباكات مع الباكستان ومع الصين) ، وبزيادة ديموغرافية تفوق كل ما يمكن للمرء تصوره . فالمساعدات الخارجية وحدها سهلت استيراد ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ طن من الحبوب التي اقتضتها محاربة المجاعة والحد من الاضطرابات الخطرة التي سببتها المجاعة في البلاد : كالحرائق ونهب المخازن، وغير ذلك، واخيراً قضية البطالة التي لا تزال مرتفعة بين العمال (٥ ٠٠٠ ٠٠٠) والشبان المتعلمين مليون شاب مثقف عاطل عن العمل في السنوات الواقعة بين (١٩٥٠ – ١٩٦٠) .

جمود الهند

يتولى الحكم في البلاد حزب المؤتمر الذي يمثل الطبقة البورجوازية الهندية العليا والحكومة التي تخرج معظم اعضائها من المعاهد الاوروبية حافظت على طابع الجهاز الاداري القديم وعلى البيروقراطية ذاتها والمحاكم والشرطة المعمول بها في عهد الاحتلال البريطاني . والسياسة التي تسير عليها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي سارت على عمود السياسة التي انتهجها الانكليز من قبل ، ويمكن من هذا القبيل مقارنتها بسياسة الكومانتنغ قبل تفسخه . فالملكية الكبرى والاستثمارات هي في حمى القانون، وتأميم الصناعات الرئيسية التي اوحوا بها في البدء والذي كان من شأنه لو طبق ، القضاء على نفوذ رؤوس الاموال الاجنبية في البلاد ، أجل تطبيقه الى اجل غير مسمى ، كما روعي جانب الامراء ، فوزعت عليهم اعطيات ملموسة وانيطت بهم مراكز هامة في الادارة والسلك الدبلوماسي . ولا تزال الحكومة تعمد الى كبت التذمر الذي تعبر عنه الصحافة والنقابات والمنظمات الزراعية، كما فعلت من قبل عام ١٩٤٧ ، وقانون الامن العام الذي ورثته من الانكليز ، يملأ السجون ، بعدد من المساجين السياسيين لم تشهد البلاد مثله حتى في احلك ايام الاستعمار البريطاني ، وقدّر تيبور ماند عدد هؤلاء الموقوفين ، عام ١٩٥٠ بين شيوعيين واشتراكيين ونقابيين ، جرى اعتقالهم وزجهم في غياهب السجون في ظروف مخيفة دونما تحقيق معهم او محاكمتهم ، لمدة طويلة بين ٥٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ سجين .

وجمود الهند هذا الذي يؤلف اكبر عقبة في وجه تطورها الاقتصادي والاجتماعي يجب رده اصلا لهذا التضاد القائم بين نظريات العصر الحديث والنظريات الفلسفية والدينية المتوارثة في الهند . وقد شدد احد المراقبين المعروفين ببعد النظر على استمرار الطوائف في هذه البلاد وحضورها في كل مكان والايديولوجيا المسيطرة عليها . فبدلاً من ان تزول او تضمحل نرى هذه الطبقات تقوى وترسخ اكثر فاكثر وتلعب دوراً عظيماً في الانتخابات والشؤون الادارية ، اذ تؤلف من بينها عوامل ضغط لمصلحة ممثليها . ويسترعي النظر على الاخص « الجمود الغريب الذي يتحكم فيه الهندي الفقير ، وعدم شعورية الثري الهندي المخيفة وفساد السياسي الهندي ، وعدم كفاءته وعدم الاهلية المطلقة التي تجلت في الخطط الهندي، فالتقاليد المرعية والجمود الهائل يجعلان من الصعب جداً الأخذ بالشرائع العصرية ووضعها موضع التنفيذ» هذه الشرائع التي تنشىء دولة علمانية . وتطبق عدم المساواة مستوجبة القصاص ، وتحرر المرأة عن طريق الطلاق ، وتمنع تعدد الزوجات ، هذه الشرائع التي تعترف بشرعية خلافة البنات ، وتسهل مراقبة النسل بايجاد مستوصفات وعيادات خاصة . والامر شبيه بهذا في المجالين الاجتماعي والاقتصادي : فلم يجدّ فيها لعمري جديد يبدّل بعض الشيء من الوضع العقاري الذي يكاد يكون إقطاعياً في جميع مظاهره، وهو وضع قائم على المزارعة والفدانة واوضاع المديدين من هؤلاء الفدنيين اوهى من خيط العنكبوت ، وكذلك لم يطلع فيها شيء يذكر في المجال الاجتماعي يخفف من التبعية التي ترسف بها وتتحكم الطبقات السفلى. وقد ظهر في الآونة الاخيرة بعض معالم التطور في الاوساط

المجتمعية التي تحاول ، على غرار ما فعلت الصين ، ان تجد بديلاً لرأس المال ، في تجنيـــد العمال العاطلين في كل مجتمع محلي او قروي ، وتكليفهم القيام بانشاءات مائية وبأعمــال التشجير على أمثل الاساليب التي يوصي بها الفن الحديث . وقد كان نجاح المشروع حتى الآن ضئيلاً ومردوده ضحلاً في هذه « الواحات التطورية » التي قامت بالتجربة المذكورة ، وذلك لافتقار هذه الخلايا الآخذة بأسباب التطور ، لمرشدين أكفاء يكونون دوماً على أتم استعداد للبـــذل والتضحية ، ولحاجتها بنوع أخص لقمّة يتطوعون للعمـل ، ولمناهضة وجوه الناحية لهـــذه المشروعات وممثلي الطبقات العليا الذين يرفضون بجميـع الاساليب المساهمة بهذه الاشغال المجتمعية او مد يد رفيقة اليها .

الاضطراب الاجتماعي ومعالمه

وهذا التباين المخيف في الاوضاع – اذ ان ٢ ٪ من السكان يصيبون ٥٠ ٪ من دخل البلاد – واشتداد البؤس والشقاء ، يخلقان في الهند شعوراً عميقاً بالاضطراب والانزعاج . فالناس يتدبرون امور معايشهم بالتي هي احسن يشكون دوماً النقص في الغذاء وتتابعهم باستمرار الامراض المرافقة الفقر والحـاجة ، ويتمرضون لحركة من الوفيات عالية النسبة ، ولذا بدأ التذمر وعدم الرضى يظهر بأجـلى صوره يوماً بعد يوم . فالفلاحون يثورون في بيهار وفي الولايات الشرقية، عام ١٩٤٢ وفي عام ١٩٤٦ . والفلاح الذي كان يُضرب المثل بصبره وقوة احتماله ، لم يَمُد يرد الأوصاب والآلام التي يتجرع كأسها الى ربه *Karma* ، بل يرى سبب شقائه وتعاسته في هذا النظام الاجتماعي الظالم الذي ارادوه له والذي اخـــذ يثور عليه . وبالرغم من كبح البوليس بعنف وقسوة بالضين لهـــذه الانتفاضات التي تعبر عن تذمره وقلقه ، فالفلاح يقـــاوم بشدة ما يتعرض له من اعمال العنف والتوقيف . وقد نظم الفلاحون عام ١٩٤٧ – وهو اول حادث من نوعه يقع في الهنـــد – اول ثورة مسلحة ومنظمة لهم في مقاطعات تلنغانا وحيدرآباد، اذ اخذت اكثر من ألفي قرية منتارة في مساحة تقرب من مساحة الدانمارك ، ينظم فلاحوهـــا نوعاً من حكم جمهوري ويؤلفون لهم لجاناً قروية او محلية وينشئون مطامير مشتركة فيما بينهم لخزن الحبوب ، ويقتسمون المزارع فيما بينهم ، ويلغون ديونهم ، كما حددوا معدل الفائدة المترتبة على الدين ٦ بالمائة ، ولم تقمع الثورة بشكل نهائي الا في سنة ١٩٥١ . وزاد عدد الاضرابات بين العمال : اشترك في بعضهـا احياناً اكثر من ٠٠٠ ٣٠٠ ١ عامل عام ١٩٤٨ ، كذلك ارتفع عدد النقابات كما ارتفع عدد المنتسبين اليها بحيث تشكل ١٩٥ اتحاداً عام ١٩٤٠ ضم أكثر من ٠٠٠ ٣٧٤ عضو ، وارتفع هـــذا العدد الى ٦٠٨ ، عـــام ١٩٤٧ ، بلغ عدد اعضائها ٠٠٠ ٧٢٦ عضو . واحزاب المعارضة ، كالحزب الاشتراكي مثلاً الذي يطالب بألا تزيد مساحة الممتلكات الخاصة على ٣٠ فداناً ، دعا الفلاحين لأن يقوموا بأنفسهم بتوزيع الاراضي فيما بينهم . والحزب الشيوعي الذي يهمن عن كثب على اتحاد النقابات الهندية كما يشرف بعض الشيء على تحالف النقابات المتحدة ، كل هذه الاحزاب وسّعت من دعايتها بين الفلاحين والمزارعين في الريف . وفي الانتخابات العامة التي أجريت عام

١٩٥١ – ١٩٥٢ ، والتي بلغ عدد الناخبين فيها لأول مرة في الهند ١٧٥ مليون ناخب (٨٠ ٪ بينهم من الاميين) تمكن حزب نهرو وغاندي المسيطر على الحكم في البلاد منذ عام ١٩٤٧ ان ينال أكثرية المقاعد (٧٤ ٪) ولكن بفضل ٤٤ بالمائة من اصوات المقترعين ، كما نال الحزب المذكور ٢٧ بالمائة من مجموع اعضـــاء المجالس التمثيلية مع العلم ان ٦٨ مليوناً عن لهم حق التصويت امتنعوا عن الاقتراع . فان كان ثم ما يستحق ان يسمى فوزاً فقد جاء محدوداً للغاية ، اذ لم ينل الحزب المذكور اكثرية الاصوات الا في ٦ ولايات لا غير من اصل ٢٢ ولاية ، وهي ليست من الولايات الرئيسية في البلاد . فالولايات الاربع التي ذهب معظم اصوات الناخبين منها للمعارضة ، والولايات الأخرى التي نالت فيها المعارضة قسماً ضئيلاً من الاصوات ، تضم ثلث سكان الهند . كل هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على القلق الاجتماعي وعلى خيبة امل الجماهير الهندية التي تتوق من الصميم الى الاخـذ باصلاحات جذرية ، والى معالجة الشقاء المريع الذي تتحكم فيه معالجة في الصميم .

ودليل آخر على هذا القلق العميق الذي يساور القلوب والنفوس في الهند وعلى التوتر الذي تعيش فيه الجماهير الشعبية فيها ، هو هذا الطابع الثوروي الذي اتخذته الاضطرابات الدامية في هذه المقاطعات الواقعة الى الجنوب من الهند من جراء اللغة . فراح مئات الألوف من المتظاهرين يستولون عنوة على مراكز البحرية ويشعلون فيها النار ، كما اضرموا الحرائق في محطات القطر الحديدية ومراكز عديدة للبوليس ، وينهبون دور السينما التي كانت تعطي افلاماً هندية ويعيثون بها فساداً. ويذهب ضحية اعمال الشغب هذه عشرات القتلى ومئات الجرحى في اشتباكات عنيفة مع قوى الامن والجيش ، وذلك احتجاجاً منها على عزم الحكومة بتطبيق دستور عام ١٩٥٠ الذي نص على ان تكون اللغة الهندية ، هي اللغة القومية في الهند في خلال خمسة عشرة سنة .

الهند احدى دول العالم الكبرى

ان بروز الهند جمهورية مستقلة ذات سيادة هي ثاني دول العالم بعدد سكانها ، بما لها من موقع جغرافي ممتاز وبما تمثل من قوة اقتصادية في قلب القارة الآسيوية التي لا تزال متخلفة جداً بالنسبة لها ، كل ذلك يوليها مركزاً من الدرجة الاولى ويؤهلها لتلعب دوراً بارزاً في مضمار السياسة العالمية . فقد اجتمع في نيودلهي عام ١٩٤٨ ، المؤتمر الذي كلف النظر في مشكلة اندونيسيا وايجاد الحل اللازم لها . ومن جهة ثانية ، فالجهود التي بذلتها الهند لاعلان الهدنة في كوريا ووضع حد للحرب الدامية فيها ووضع تسوية سلمية لمشكلتها ، والدور الذي لعبته في الكتلة العربية الآسيوية النزاعة للحياد الايجابي في اجتماعات الامم المتحدة ، وعملها المتصل في جنيف في وضع حد لحرب فيتنام ، عام ١٩٥٦ ، ولوقف الحملة الفرنسية الانكليزية ضد قناة السويس ، وتعاطفها مع الشعوب الآسيوية والافريقية ومناصرتها لها هذه الشعوب التي تعاني الامرين من السيطرة الاجنبية ، واصرارها المتكرر على عدم انضمامها لاي كتلة بالرغم من اصطدامها الدامي مع الصين حول مقاطعـــة لاداخ (عام ١٩٥٩) ، وقرارها بالبقاء خارج الحرب الباردة ، ومحاولاتها الصادقة للحؤول دون وقوع

الاصطدام بين اقوى دولتين في العالم ، اي بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، كل هذا وما اليه عاد عليها بالذكر الحسن واعلاء الشأن والنفوذ العظيم كما اولاها سلطة عارمة انتقصمنها كثيراً حربها الاخيرة مع الباكستان.

اما الباكستان ، فتحاول من جهتها ان تلعب دورا بارزا بين الشعوب الاسلامية ، بصفتها اكبر الدول الاسلامية طراً واكثرها سكانا . وفي هذا السبيل عقدت في كراتشي ، منذ عام ١٩٤٩ ، عدداً من المؤتمرات الاسلامية العالمية ، توطيدا للعلاقات الثقافية والدينية بين الشعوب الاسلامية ، والعلاقات السياسية ايضا . فقــد تحالفت مع تركيا والعراق ، ودخلت في فلك الولايات المتحدة بانضمامها الى حلف بغداد ، الا ان اصطدامها الدموي مع الهند بشأن كشمير قربها جدا من الصين كما ابعدها من الولايات المتحدة الاميركية .

ويتولى مقدرات الهند منذ ان حققت استقلالها السياسي ، كما يلاحظ تيبورماند بحق ، فريق من الناس ، مستغربون في تربيتهم وثقافتهم . فنهرو الذي كان والده محاميا ومتطبعا بطبائع الانكليز ، والذي تخرج هو الآخر في معاهد انكلترا العليا وكرع من معين الثقافة والتقاليد الانكليزية ، وغيره كثيرون من اعضاء حزب المؤتمر ، من ابناء الطبقة الوسطى في الهند التي تكاد لا تؤلف سوى ٥ بالمئة من مجموع سكان الهند ، كل هؤلاء مشبعون بنظريات الغرب التحررية ومنه اقتبسوا المنظمات والمؤسسات التي امدّوا بها البلاد ، ونسجوا على منوالها في ديارهم .

الا ان بليانهم في الهند بقي عرضة لمهب الرياح . فالجهود التي بذلوهــا للخروج بالخطـــة الخمسية الثالثة الى حيز الوجود ، اصطدمت بصعوبات يتعذر حلهـا والتغلب عليها . وهكذا وجدوا انفسهم امام امرين لا ثالث لهما : اما التخلي عن الخطة واهمالها بالكلية ،وبعبارة اخرى قطع كل امل بادخال اي تحسين على الوضع الزري الذي تتخبط فيه الهند ، او اللجوء الى القوة والبطش والى انتهاج سياسة شديدة عنيفة قوامها المراقبة والتقنين،لا يمكن التفكير بهاواعتمادها الا اذا تغير الوضع الاجتماعي في البلاد رأساً على عقب : فاذا ما قارنا معدل الدخل السنوي الذي مكّنت له الخطة الخمسية الثانية وهو بنسبة ٤،٨ بالمئة بالنتـائج التي حصلت عليها الصين وهي تتناوح بين ٧ ــ ٨ بالمائة ، وسياسة العصرنة التي انتهجتهـــا ، وضآلة النتائج التي تحققت وعجز نظام الحكم احياناً وفساده بالاكثر ، كل ذلك يشير الى المعارضة القوية التي واجهوهـا بالرغم من تشدد الخطة الخمسية الثانية على الطابع الاشتراكي ، وبالرغم من النفوذ العظيم الذي يتمتع بـه نهرو في المجال الدولي ، ونجاح سياسته الحيادية التي تعبّر تمامـــاً عن حذر الجماهير الهندية من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . فمن جهة اليمين هم عرضــة لهجوم الاحزاب التقليدية التي تمثل الطوائف العليا في الهند والتي ترى الخطر يتهدد مــا تنعم به من امتيازات ، منها مثـــلا المهازيها،هذا الزعيم الوطني ومن اشدهم اخذاًبالعنصريةوالمتافع الاكبر عنالتقاليد،والخصمالعنيد لكل اصلاح زراعي ، ولكل فكرة تأميم لصناعات البــلاد،ومن المطالبين حول بتحرير المرأة

والغاء الوضع الذي يحيق بالمنبوذين بينا يعضد سياسة الحكومة ويؤيدها ارباب الصناعة ، لمحاربتها الشيوعية باساليب شديدة وبفرق الهجوم تذكرنا بالنظام الهتلري ، والحزب المعروف بـ R. S. S. الذي قتل احد اعضائه غاندي. والى يسار حزب المؤتمر ، الحزب الشيوعي المعروف بنشاطه والذي جاء الثالث بين الاحزاب الهندية في انتخابات عام ١٩٥٢ . اذ نال ٨ بالمائة من اصوات الناخبين ، و ٩،٨ من هذه الاصوات عام ١٩٥٧ . ومع ان القطيعة بين الاتحاد السوفياتي والصين، ادت الى انقسام الحزب الى شقين متميزين احدهما مع الاتحاد السوفياتي والآخر مع الصين ، الاول يساير الاتحاد السوفياتي ويناصر بالتالي حزب المؤتمر ، بينا يمالىء الثاني الصين ، وتعرض لهذه الاسباب لملاحقة شديدة اذ ان اكثر من ١٠٠٠ من مناضليه ، جرى اعتقالهم في كانون الاول ١٩٦٤ . وليس ما يدل على انه توقف عن الانتشار . وللحزب نفوذ كبير في ولايات اندبراه وولاية كيرالة التي تعد اقل نسبة من الاميين في البلاد كما انها تضم عدداً كبيراً من المسيحيين ـ فقد تمكن الحزب الشيوعي ان يستولي على الحكم في هذه الولايات بعد الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٥٧ ، وقد طردته من الحكم الحكومة المركزية بعد ان اقر مشروعاً اصلاحياً في المجال الزراعي ـ كما ان الحزب حقق ايضاً فوزاً كبيراً في الانتخابات العامة التي جرت في اذار ١٩٦٥ ، وجاء فوزهم يؤيد الصين ويناصرها .

٢ – آسيا الجنوبية الشرقية

حول اندونيسيا

انتهج الهولنديون في اندونيسيا سياسة ابوية محافظة تشبه من وجوه عدة ، السياسة التي انتهجها البلجيكيون في الكونغو . فلم يحاولوا يوماً توفير أسباب التعليم لهذه الشعوب التي استعمروها ولا هيأوها للاستقلال – كما جرى احياناً للبريطانيين ولا جربوا تمثيلها ، كما فعل الفرنسيون . فاعتمدوا ، في ادارتهم ، لهذه الشعوب والبلدان التي وقعت تحت استعمارهم ، على زعماء البلاد الوطنيين واولوهم مناصب ووظائف جعلوها وراثية في ذراريهم ، كما عهدوا الى ملتزمين ومتعهدين صينيين بجباية الضرائب المفروضة . وبالرغم من « السياسة الاخلاقية » الجديدة التي اعتمدوها ، فالعمل بنظام السخرة الذي وضعوه عام ١٨٣٠ بقي معمولاً به في جاوا الى سنة ١٩١٦ ، في كل ما يتعلق بالاشغال العامة ، والى سنة ١٩١٩ في الزراعات الخاصة بالبن . أما في الجزر الأخرى ، فلم يتوقف العمل بهذا النظام قط .

التركيب الاجتماعي

هذه السياسة المحافظة التي تميزت باحترام التقاليد والعادات الشعبية المرعية ، كان من نتائجها الحسنة الحفاظ على الملكية الفردية الصغيرة ، بشكل افضل بكثير مما تم في غير قطر من هذه الاقطار الآسيوية ، ولذا جاء فيها التفاوت الاجتماعي أقل بروزاً للعيان منه هنا في اي مكان آخر . ففي عام ١٩٢٥ ، كان ٤٩٪ من العائلات في جاوا وفي مادورا من اصحاب الاملاك ، والقرية كوّنت خلية اجتماعية حية تأخذ

على عهدتها مسؤولية تأمين أود اليتامى والشيوخ والمرضى والأشخاص العاطلين عن العمل ، شأنهم شأن ما الفوه من سالف الأزمان ، حيث يشترك الجميع ويساهمون معاً باعمال بناء المنازل والحصاد . والطمأنينة التي بعثهــا التضامن بين افراد القرية حــالت طويلاً دون قيام مظــاهرات عنيفة تنم عن تأفف او عدم رضى الجماعات فاذا ما قلّ في البــلاد عدد كبار الملاكين العقاريين ، فقد كان مع ذلك معظم صغار الملاكين يرسفون في تابعية أسرة لدائنيهم ولا سيما للصينيين الذين كانوا يفرضون عليهم بعض الزراعات المحددة ويحددون بانفسهم اسعار المواسم ومحاصيل الارض . وهكذا استحال عدد كبير من صغار الملاكين الى وضع شبيه بوضع المكارين للأرض اذ كانت الغلة تذهب لجيوب المرابين . وهذه الزيادة المحسوسة في مواسم الأرض وغلالها التي طالما تباهى بها الهولنديون ، كانت فائدتهــا تعود ، على الأخص لجيوب المصدرين من صينيين وأوروبيين ، وليس الى جيوب الفلاحين . ومن جهــة ثانيــة ، ففي الوقت الذي كان عدد سكان البلاد ينمو بسرعة مدهشة ، كانت المهن والحرف الريفية آخذة بالانحطاط والذبول أمام المصنوعات الهندية أو اليابانية التي كانت تدخل البلاد باسعار بخسة ، ناهيك عن ان التجارة كانت بأيدي الاجــانب ، اذ ان من أصل ١٩٧٥ مشروعاً استثمارياً ، يشغل أكثر من ٦ أشخاص ، عام ١٩٢٥ ، كان منها ٨٦٥ مشروعاً تعود ملكيتها للاندونيسيين ، والباقي كان يعود ثلثاه للاوروبيين والثلث الآخر للصينيين . فالطبقــة البورجوازية الاندونيسية ، كانت تتألف أصلاً ، في حال وجودها ، من اصحاب الاجور (٨٣٪ من اصل المجموع) بينهم عدد كبير من موظفي الادارة الذين كانوا تعلموا اللغة الهولندية وتلقوا تربية اوروبية ابتدائية .

الحركة القومية

بذلت جهود ضعيفة في البلاد لتطوير التعلم ورفــع مستواه ، اذ لم يزد عدد الطلاب الاندونيسيين في المعاهد الثانوية ، على بضع مئات لا غير ، والوظائف التي كانت تنتظرهم لدى تخرجهم ، سواءاً في الادارة الحكومية او في الشركات التجارية ، كانت تافهة جداً وتعويضاتها متدنية ، باستثناء الذين يعملون مدرسين في المدارس الخــاصة ، بينما مجال العمل في المجتمع الاندونيسي نفسه كان ضيقاً للغاية وهذه المرارة النــاجمة عن التمييز العنصري والتي جاشت بها صدور القوم بعد أن رأوا قسمتهم الضيزى من خيرات بلادهم ، هي التي دفعت الطبقة المفكرة والطبقة الوسطى الصغيرة في البلاد وحملتها على ان تقف موقفاً ثورياً ، في الوقت الذي اخذت تطالعهم حوادث التمرد على قوة الغرب العسكرية ، كما تجلت في ثورات الفيليبين وحركة اتاتورك ضد الاحتلال العسكري لبلاده ، والنشاط الذي قام به حزب المؤتمر في الهند ، والنجاح المعظم الذي بلغته حركة التصنيع في اليابان ، كل ذلك ادخل في روعهم انهم لا ينقصون بشيء ذكاء عن الاوروبيين ، وان في مقدورهم ان يحكموا انفسهم بأنفسهم دون مساعدتهم .

والجمعية التجارية الاسلامية التي قام بتأسيسها ، عام ١٩١١ ، تجــار التطبيع الباتيكي في سوراكارتا ، دفاعاً عن مصالحهم ضد الواردات الاوروبية واليابانية ، لم تلبث ان اشتد منهــا الساعد بعد ان التفت حولها الجماهير ، واخذت تطالب بالاستقلال . وظهر في البلاد ، عــام ١٩٢١ ، الحزب الشيوعي الاندونيسي ، كما راح سوكارنو يؤسس بعــد تخرجه مهندساً من معهد

البوليتكنيك العالي في باندونغ ، الحزب الوطني الاندونيسي (P.N.I.) . وعرفت هذه الاحزاب ان تجتذب حولها كل هذه العناصر الحاقدة على الاوروبيين والغاضبة لكرامتها مما تعرضت له من قبل الاوروبيين ، من تحقير واذلال ، كما جمعت حولها كل هؤلاء الذين ينعون احتكار الاوروبيين لخيرات البلاد ويستبيحون مواردها الطائلة(اذ ان نصف ارباح الاستثمارات ومكاسبها الطائلة كان يرسل خارج البلاد) ، كما انضم اليها كل هؤلاء الذين نعبوا فريسة التميز العنصري ، في الادارة والمحاكم والقوانين الجزائية والمحاكم الوطنية التي تعقد جلساتها بحراسة البوليس . واشتد ساعد هذه الاحزاب وتألب حولها الانصار بانضمام هذا الفريق الذي رفع عقيرته عالياً محتجاً على فرض التقنين (الكوتا) المحدد ٣٠٪ فقط في المباريات المفتوحة للوظائف الادارية ، وضد رجال القانون والاطباء الاوروبيين الذين أخروا بنفوذهم المريض ، الى سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٦ ، موعد افتتاح مدرسة الحقوق واخرى الطب في البلاد ، كما امتعضوا في صميم نفوسهم من عدم المساواة في المدارس حيث التعليم مجاني لبعض الاوروبيين ، بينما يجبر الاندونيسيون على الدفع ، كما ساءهم جداً اهمال الاوروبيين،تأمين وسائل التعليم لابناء البلاد. والتنازلات الوحيدة التي رضي الهولنديون القيام بها لا تتعدى بعض اجراءات لتوسيع اللامركزية الادارية ، وذلك بانشائهم عام ١٩١٨ ، مجلساً تمثيلياً محلياً ، فقد صفته الاستشارية عام ١٩٢٧ ليتمتع بسلطة تشريعية ، تألف من ٦٠ عضواً ، بينهم ٢٥ من الهولنديين يأتي ثلثهم بالتعيين المباشر ، ويجري انتخاب الثلثين الباقيين بواسطة اقتراع غير مباشر ، ويبقى بعد هذا كله للحاكم العام حق الفيتو او الرفض لكل قرارات المجلس المذكور .

صلابة النظام

كان من جراء تدني مستوى العيش بين ابناء البلاد للضرائب النازحة المفروضة عليهم ، ولنمو السكان السريع ، ان قوّى من جانب الحركة القومية في البلاد . فالسلطة الهولندية على البلاد كانت قوية ومتينة : فاذا ما قورنت الاساليب الادارية التي مشوا عليها بهذه الاساليب والطرق الاستعمارية التي سار عليها الفرنسيون والانكليز في هذه الاقطار المجاورة ، لاحت لنا اكثر فاعلية وأشد رقماً من الاخرى ، اذ كان يهمها كثيراً المحافظة على القوانين والتقاليد المتبعة في البلاد ، والحدّ من بيع الاراضي من الاجانب والتصرف بها ، وحماية المجتمعات والمنظمات القروية من العوامل والمؤثرات المحلية ، والجهود الفعلية، ولو جاءت غير كافية ، المبذولة لمعالجة مشكلة الديون التي يرزح تحتها الفلاح الاندونيسي ، وتوفير ما يحتاج اليه من مساعدات مالية بشروط ملائمة ، كل ذلك يفسر لنا هذا التوازن النسبي الذي يتمتع فيه المجتمع الاندونيسي . ومن جهة اخرى ، ان اعتماد الحكومة ، ولو بصورة غير مباشرة ، سياسة المحافظة على الطبقة الارستوقراطية والدفاع عن مركزها في البلاد ، كل ذلك خفف من حدة المعارضة وخفف من التصادم بين الحاكمين والمحكومين . ثم ان التباين العظيم بين الفئات السكنية من الوجهة العرقية او العنصرية ، والتركيب الاجتماعي الذي ساد البلاد ، كل هذا كان في صالح الدولة المستعمرة . فالزعماء يرون انفسهم مشدودين شداً بالوضع القائم في كل ما يتصل

بمصالحهم الاقتصادية والسياسية ، وأطر الادارة وملاكات البوليس والجيش والادارة ، التي هي بيد الاوروبيين والاوراسيويين الذين ينفرون جـــداً من المطالب التي ينادي بها الوطنيون ويكرهونها كره الهولنديين لها وأكثر . وهذه القلة التي تتألف منها الطبقة الوسطى في البـلاد ترى نفسها مضطرة لحماية الجماهير ، والصحافة مراقبة ، وليس اكثر من ٦٠٤ ٪ من سكان البلاد يحسنون القراءة ، والمادة ١٥٥ من قانون الجزاء تحكم بأربع سنوات حبس ، كل مظاهرة احتقار او ازدراء خطية كانت ام شفهية ، نحو اي فئة من فئات البلاد العنصرية المتعددة ، كما ان الاجتماعات وانشاء الجمعيات خاضع للمراقبة الشديدة، فالحركة النقابية وحدها دون سواها، يسمح لها الى حد ما ، بالقيـــام بنشاط وطني مشروع (١٩٢٣ و ١٩٢٦) كما ان يد البوليس السري الطويلة تصل الى كل نشاط او حركة تقوم في الخفاء ، ويحق للحاكم العـــام ان ينفي او ان يبعد من البلاد ، اياً كان ، اذا ما رأى ذلك « ضرورياً لما فيه الحفاظ على السلام والنظام ». فالحركة الوطنية وقفٌ اذاً على سكان المدن حيث تشتد رابطة اللغة المالايزية ، كما تشترك فيها بعض العناصر الهامشية بين طبقة الفلاحين . والجيش ، في نهـــاية الامر ، يتألف من عناصر ووحدات مأخوذةمن بين الاقلية المسيحية في امبوان وتيمور، وللحكومة ملء الثقة بولائهم لها والوقوف الى جانبها ضد الاكثرية الاسلامية .

الاستقلال

ومع ذلك ، فقد انهار نظام الدفاع الهولندي عن البلاد وبسرعة هائلة ، اذ ان احتلال اليابان لاندونيسيا مدة ثـلاث سنوات ، اتاح للحركة الوطنية ان تقوى وتتأسد ، بحيث تعذر على الهولنديين ان يعيدوا عام ١٩٤٥ ، الى تلك لبلاد ، السيطرة التامة التي كانت لهم فيها. فالاحتلال الياباني ، حرر من السجون الزعماء الاندونيسيين المعتقلين فيها. ومراكز التوجيه التي شغرت بعد تنحية الاوروبيين وابعـادهم عن البلاد ، تسلمهـا الموظفون الاندونيسيون ، والفت الجمـاهير حكم ابناء البلاد وأنست الى ادارتهم بعد ان غـاب كل اثر للادارة الاوروبية . واخذت الحركـة الوطنية تنظم نفسهـا : فبينما راح شهرير احد زعمائهـا البارزين ينظم المقاومة السرية ، راح سوكارنو وحتـا ، يعملان علانية ، بالاتفـاق مع اليابانيين ويبذلان المزيد من النشاط ، يشد من أزرهما الجمعية الوطنية في جاوا بعد ان علـل اليابانيون النفس باستخدامها يوماً لصالحهم فألفا ما يعرف بالميليشيا الوطنية وامدها اليـابانيون بـالاعتدة اللازمة والسلاح، هذه الميليشيا التي اصبحت فيما بعد نواة الجيش الوطني.وعندما نزلت وحدات ن الجيش الانكليزي تفد على البلاد ، في اثر استسلام اليـابان في ايلول ١٩٤٥ ، وجدت هـذه لوحدات امامها في البلاد حكومة قائمة ، وجيشاً مجهزاً بالعتـاد الذي خلفه اليابانيون وراءهم ورأياً عاماً موطداً العزم على الدفاع عن استقلال البلاد والذود عن حياضها . وجرت بين ١٩٤٥ – ١٩٤٩ تحت ضغط قوي من البريطانيين والاميركيين والاوستراليين مفاوضات بين الهولنديين والاندونيسيين تخللتها اشتباكات مسلحة ادت في نهاية المطاف الى اتفاقات متتالية لم تلبث ان تخطتها الحوادث بسرعة ، فبعد اتفاقات شريبون (او لنغدجاتي) المعقودة في تشرين الثـاني

١٩٤٦ ، التي اوجدت دولة اتحادية او الاتحاد الهولندي الاندونيسي التي تؤلف الولايات المتحدة الاندونيسية شطراً منها ، والدولة الفدرالية نفسها شطرها الثاني ، حاول الهولنديون « بلقنة » الارخبيل ، كما حاولوا ان يستغلوا المسافات الفاصلة بين الجزر ، والعناصر العرقية التي يتألف منها السكان ، للتفريق بين زعماء الحركة والتخفيف من شأن زعماء الحكومة الاندونيسية المنتمين كلهم الى جزيرة جاوا ، وراحوا يشجعون تكوين حكومة مستقلة ، ويطورون من النزعات الانفصالية ضد الامبريالية الجاوية ، ، كالحركة السوندية التي قامت في قلب جاوا نفسها . وقام الهولنديون بهجوم ادى الى إلغاء الهدنة المعقودة بين الطرفين ، والى ابرام اتفاقات رنفيل بالتالي بين الطرفين ، التي وقعت على ظهر السفينة الاميركية المعروفة بهذا الاسم ، وذلك في كانون الأول ١٩٤٧ ، وخلال كانون الاول ١٩٤٨ بينا كانت المفاوضات تجري بين الطرفين لتحديد وسائل تطبيق هذه الاتفاقات ، قام الهولنديون فجأة ، بحملة تأديبية ثانية ، ، وضرب جاكرتا العاصمة من الجو ، واعتقال الرئيس ، ورئيس مجلس الوزراء واحتلال النقاط الستراتيجية الرئيسية في البلاد، على يد مظليين هولنديين وقد تدخل مجلس الامن هذه المرة في الوضع وشجب العملية ، وفرض على هولندا الرجوع الى الوضع القائم . وفي أواخر ١٩٤٩ ، تم عقد اتفاق نهائي تشكل بموجبه اتحاد هولندي اندونيسي ، تشترك فيه ولايات اندونيسيا المتحدة المعترف باستقلالها وسيادتها . وهذا « الاتحاد » الذي سار بصورة عرجاء ، نقضته اندونيسيا ، عام ١٩٥٥ ، دون ان يكون تقرر مصير القسم الغربي من غينيا الجديدة المعروف بايريان الذي الف قسماً متمماً من الهند الهولندية عام ١٩٤٥ ، والذي نالت اندونيسيا عام ١٩٦٢ ضمه اليها .

مصاعب اندونيسيا في عهد الاستقلال

كان على اندونيسيا بعد ان تحررت من استعمار هولندا لها ، ان تواجه المشكلات ذاتها التي تربصت بها الاقطار الاخرى التي تحررت من ربقة الاستعمار ، باستثناء المشكلة الزراعية التي لم تكن مطروحة فيها على بساط البحث ، من تدعيم الوحدة الوطنية ، وتحقيق استقلال البلاد الاقتصادي بايلائها نظاما اقتصاديا حديثا وتأمين اسباب الغذاء لشعب بائس آخذ بالنمو بسرعة مدهشة .

فالوحدة الوطنية رأت نفسها مهددة في الصميم من جراء تشتت هذه الألوف المؤلفة من الجزائر المتباعدة التي يأخذ بعضها برقاب البعض الآخر على مسافة ٥٠٠٠ كيلومتر ، وبما تمور به من تنوع العروق بين السكان (١٧ عرقا رئيسيا و ١٥٠ فرعا ثانويا ، وتباين الاديان واللغات ٢٥ لغة و ٢٥٠ لهجة محكية ، وتفاوت توزيع السكان على هذه الجزر) فجزيرتا جاوا ومادورا اللتان تمثلان ٧ ٪ من مجموع مساحة اندونيسيا ، تضمان معا ثلثي مجموع سكان البلاد . ولذا رأينا الدولة الجديدة تتخلى بسرعة عن النظام الاتحادي او الفدرالي الذي فرضته عليها هولندا والدستور الذي وضع لها عام ١٩٥٠ لتنشىء بدلا عنه جمهورية أحادية قسمت اداريا الى عشر ولايات تنعم باستقلالها الاداري .

الا ان العوامل والقوى النافذة التي ترنو شزراً الى خيرات هذا الارخبيل ومواردها الطائلة

كما تتحرق على ما يتمتع به من موضع استراتيجي ممتاز في سنغافورا والفيليبين وبورت داروين في غربي اوستراليـا ، راحت تستثمر وتستغل لمصلحتها هـذه المنافسات الدينية والعرقية ، والنفرة التي تجيش في صدر الجزر المتباعدة ضد الحكومة المركزية المتهمة باحتكار هذه الموارد والخيرات لمصلحة جاوا وحدها لا غير ، وبمالأة الشيوعية ومشاغلتها . وهـذا ما يفسر لنا الانتفاضات الثورية التي وقعت تباعا في جزر بورنيو وسيليبس ، ولا سيا في سومطرة (١٩٥٨) في سبيل تأمين استقلالها ، والحركة الانفصالية التي قام بها حزب دار الاسلام الذي حاول ان ينشيء على انقاض جمهورية الكفار هذه ، دولة اسلامية صرفة .

والسكان الذين قدر عددهم عام ١٩٦١ بنحو ٩٦ مليوناً بعد ان كان ٠٠٠ ٠٠٠ ٦١ في سنة ١٩٣٠ ، تبلغ كثافتهم في جاوا بنسبة ٤١٠ نسمات في الكيلومتر المربع الواحد ، بينا يهبط هذا المعدل الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ لا يتجاوز في بورنيو وفي غيرها من الجزر العديدة ٤,٥ ٪ مع العلم ان معظم السكان يعملون في الزراعة بنسبة ٧٥ بالمائة منهم . ويجب تأمين اعاشة هذا العدد الوفير من السكان والحل الوحيد الذي يفرض نفسه هنا كغيرها من البـلدان المتخلفـة ، اقتصادياً يقوم على عصرنة النظـام الاقتصادي والتصنيع الحديث . والحال ، فوضع البـلاد الاقتصادي الذي رزح الى الحضيض خلال الاحتلال الياباني وفي سني الحرب ، كان يعاني ، في سنة ١٩٤٩ ، الامرّين ، من جراء اتلاف وسائل الانتاج وتوقفها ، ومن جراء فقدان البـلاد للأطر الاقتصادية ولاصحاب الاختصاص والتقنيين ولرؤوس الاموال . ففي عام ١٩٥٢ فقط ، تمكن الانتاج القوي ان يبلغ المستوى الذي كان عليه عام ١٩٣٨ ، مع العلم ان عدد السكان كان قد زاد في هذه الفترة ، ١٤ مليوناً ، فالانتاج يبقى والحالة هذه ١٥ بالمائة ادنى من مستواه في تلك السنة . ولتأمين الاستقلال الاقتصادي ، كان لا بد من رفع معدل الانتاج في البلادفحسب، بل ايضاً تغيير الاوضاع الاقتصادية تغييراً جذرياً ، بعد ان استمرت على ما هي عليه مدة ثلاثة قرون استطال اليهـا الاستعمار الهولندي الذي حرص على ان يربط اقتصاد هـذه المستعمرة بالاسواق العالمية وبأسواق هولندا على الاخص . ولذا وجهت الحكومة جهودها نحـو تطوير التعاونيات في الاوساط الريفية لما تؤمنه لصغار المنتجين ولرجال الصناعـة من نصح وتوجيه تقني ، ومن مساعدات مالية تكون معها في مأمن من حبائل المرابين . وهكذا عدت البـلاد ٨٦٠٠ تعاونية عام ١٩٥٤ ضمت بين ٠٠٠ ٤٣٢ ١ من الاعضاء . أما الانتاج الصناعي ، فقـد حدّت منه ، حاجة البلاد الماسة الى القـوة الكهربائية المحركة والفنيين من أصحاب الكفاءات بالرغم من الازدياد المتواصل في اليد العاملة ، فليس من عجب الا تتمكن من تحقيق مستوى ١٩٣٨ . والخطة التي وضعها سومترو عام ١٩٥٠ والتي عرفت بخطة سومترو للتصنيع ، كانت مشروعاً متواضعـاً لتأمين المزيد من الحاجيات الاستهلاكية : كانشاء المطابع ومصانع الورق والترابة واكياس الخيش ومعامل النسيج ، وفبارك تصنيع المطاط ومصانع للاسمدة الزراعية لتأمين اكبر قدر من حاجات البلاد . والثابت ان مشاريع التصنيع تقوم اصلا على المشروعات

الاستثمارية ولا سيا على رؤوس الاموال الاجنبية التي يقدمها بنك التصدير والواردات ، في نطاق مشروع مساعدة البلدان المتخلفة او النقطة الرابعة. ومحافظة منها على الاستقلال الوطني، تسلحت الحكومة بكل الوسائل واتخذت كل الاحتياطات التي تقتضيها هذه الاستثمارات، وهي وسائل أدّت الى انشاء مصانع جديدة اجازت الدولة انشاءها ، تخدم الاقتصاد الاندونيسي ، يساهم الرأسمال الوطني فيها بنسبة ٥١ بالمائة ويكون الموظفون مناصفة بين ابناء البلاد والاجانب ، وتحتفظ الدولة بحق الاشراف على بعض الصناعات الاساسية : كمصانع توليد الكهرباء ، ومصانع الترابة والمصانع الكيماوية . وقد بقيت على حدتها مستعصية الحل القضايا السياسية ومستوى الحياة في البلاد والانتاج ، كما ان ركود الحركة الاقتصادية والخوف من فشل الخطة الخمسية هما وراء قلق الرأي العام ومن عدم استفادة البلاد بالقدر الذي ترغب فيه من ثرواتها الهائلة التي تشارك في تصديرها للخارج ، الشركات الهولندية والاميركية التي تملك مزدرعات شاسعة وتشرف على اهم المناجم وتهيمن على وسائل النقل ، وتتحكم بالجانب الاكبر من التجارة الخارجية . وهكذا تبرز امامنا بوضوح كلي الهيجان الوطني الشديد وثورة الرأي العام ، عندما اصطدم ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، برفض هولندا التسلم بالطريقة التي حُلت بها قضية ايريان . وكان رد الدولة على هذا التعنت ، مصادرة وسائل النقل الهولندية في البلاد والقاعدين لحو البلاد الواطية. والانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٥٥، أمنّت الحزب الوطني في المجلس والحزب الشيوعي ولاتحاد الاحزاب المناهضة للاستعمار ، عدد كبير من المقاعد في المجلس التمثيلي وراحوا يلتفون حول سوكارنو ، كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً عن هذه النزعات العنيفة التي تعتمل في قلوب المواطنين الذين لا يفرقون قط بين الاستقلال الوطني وبين التطور الاقتصادي . الا ان عجز الحكومة الذي جاء هنا كما في الباكستان ، نتيجة محتومة لعنف الصراع السياسي ، حمل الرئيس الذي يؤازره الجيش ، على التخلي عن « الطراز السياسي الغربي » اذ استبدل النظام التمثيلي ، بنظام « الديموقراطية الموجهة » ، هذا النظام الذي يمثل فيه الجيش دوراً بارزاً ، وقضى بمنع الاحزاب السياسية من اي نشاط سياسي باستثناء الجبهة الوطنية ، بتعطيل الحياة النيابية التي كادت تغيب عام ١٩٦٠ ، معالمها عن آسيا برمتها ، بما فيها اليابان والهند .

فالحكومة القائمة بالحكم يشترك بتأليفها اربعة احزاب بينها الحزب الشيوعي ، وحل محل البرلمان مجلس وطني ضم ممثلين عن المؤسسات المهنية والحرفية ، بين عمال وفلاحين وصناعيين ورجال اعمال . الا ان الجناح اليميني في الجيش الذي لم يرقه قط مثل هذا الحل ، قام في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٥ ، بانقلاب عسكري احتفظ فيه سوكارنو بالرئاسة، الا ان الحكم تولاه فريق من ضباط الجيش لم يلبث ان قام بعراك عنيف ضد الشيوعيين ، فألغى الحزب ، وقام باعتقالات عديدة في صفوفه واصدر الوف الاحكام بحق اعضائه .

الفيليبين

وانتهجت الولايات المتحدة في الفيليبين إثر احتلالها لها عام ١٨٩٩ سياسة تغاير تماماً السياسة التي سارت عليها البلاد الواطية. فقد قام في تلك البلاد بفضل قانون جونس الصادر عام ١٩١٦ مجلس تشريعي تألف من مجلس الشيوخ (ضم ٢٢ شيخاً منتخبين و ٢ معينين) ومن مجلس تمثيلي جميع اعضائه منتخبون ، على ان يصادق الحاكم العام ومجلس الشيوخ الاميركي ، على كل القوانين التي يقرها المجلس التشريعي الجديد. ولم تلبث ان احتل ابناء البلاد الوظائف الرئيسية في البلاد ، ومنذ عام ١٩٢٥، وبدافع من ضغط منتجي السكر ، من اميركيين وكوبيين ، الذين تأثروا ، الى حد بعيد ، بمنافسة محاصيل الفيليبين ، اخذت حكومة الولايات المتحدة تعد البلاد للاستقلال التام .

وبالرغم من هذه الحركة التحررية ، برزت الحركة الوطنية في الفيليبين عارمة ناشطة بعد ان اشتدت تابعية الفيليبين الاقتصادية للولايات المتحدة الاميركية . ان توافد رؤوس الاموال الاميركية على هذه البلاد ، والقانون الاميركي الصادر عام ١٩٠٩ الذي أطلق الحرية المطلقة امام استيراد البضائع والمصنوعات الاميركية ، كان من بعض نتائجه ان خلخل اقتصاديات البلاد ، اذ ان ٨٠٪ من صادرات البلاد كانت توجه الى الولايات المتحدة كما ان الفيليبين كانت تستورد منها بمثل هذه النسبة . وزراعات التصدير حلت على نسبة كبيرة ، محل الزراعات الغذائية ، فاضطرت البلاد بعد ان ارتفع عدد السكان فيها ، الى استيراد ٢٠٪ من حاجتها للمواد الغذائية ، كالارز مثلا . وهكذا اصبح اقتصاد البلاد ، ككل بلد يرسف تحت الاستعمار، سريع العطب ، اذ ان ٧٥ بالمائة من سكان البلاد يعيشون من الاعمال الزراعية ، ووجدت الصناعات التحويلية بالتالي نفسها عاجزة عن التطور الذي ترغب فيه ، لمزاحمة المصنوعات الاجنبية لها .

والازدهار التجاري العظيم الذي عرفته تلك البلاد لم يستفد منه سوى قلة من الاغراب ومن سكان البلاد ، دون ان يعود ذلك بفائدة محسوسة ، على جماهير الشعب . ان انتاج سكر القصب والكوبرا المعدني للتصدير للخارج ،يتطلبان مساحات شاسعة من الارض ورؤوس اموال طائلة ، الامر الذي حمل صغار الملاكين على الاستدانة والاستسلاف ولم يلبثوا ان وقعوا تحت وطأة كبار الملاكين ومعظمهم يعيدون عن البلاد .

فالدين من جهة ووطأة الضرائب من جهة اخرى جرت على البلاد المصادرة والاستملاكات كما اخذ بالتناقص عدد المزارع المستثمرة من قبل اصحابها ، وتدنى جداًمستوى العيش في البلاد. نجحت الولايات المتحدة في تحسين الوضع الصحي في البلاد : فتراجعت الملاريا والتيفوس والهيضة كما ضاعفت عدد المدارس ودور التعليم ، الا ان الشعب الذي كان يأمن من الامراض الوافدة ، بقي يعاني نقصاً مريعاً في وسائل التغذية لديه ، ولذلك كان معدل الوفيات عنده عالياً ، ولم تخف وطأة الوفيات بين الاطفال وفتك التدرن الرئوي الا بصورة تدريجية .فالاجانب يملكون اكثر من ثلث ثروات البلاد الطبيعية ويهيمن الاميركيون على ثلاثة ارباع التجارة الخارجية ،

كما ان الصينيين واليابانيين يستأثرون بثلثي التجارة بالفرادى .

استقلال الفيليبين

مع انه نودي باستقلال الفيليبين عند انتهاء الحرب،عام ١٩٤٦ ،فالدولة الجديدة بقيت مشدودة الى الولايات المتحدة ليس من الوجهة الاقتصادية فحسب بل ايضاً ولا سيما من الوجهة العسكرية. فقانون بيل الذي صدر عام ١٩٤٦ ، اعطى الفيليبين بمنافع وامتيازات فعلية عديدة : فتح السوق الاميركية امامهم لمدة ثماني سنوات ، وتخفيض الرسوم الجمركية على الصادرات الفيليبينية اليها لمدة عشرين سنة ، الا انه نص على عدة تحديدات وقيود انتقصت من سيادة البلاد. فالى جانب ٢٣ قاعدة بحرية وحربية وجوية احتفظت بها اميركا ، فقد فرضت على البلاد تقييدات محسوسة في تصدير اهم منتوجاتها كالسكر وزيت البلح ، وللحكومة الاميركية الحق باضافة مواد اخرى الى قائمة القيود هذه حسبما تراه . فالمحاصيل المستوردة من اميركا يجب ان تبقى معفاة من اي رسم او قيد يفرض عليها لمدة ثماني سنوات ، وقيمة البيزو لا يجوز مسها بشكل من الاشكال ، كما لا يجوز الحد قط من حرية توظيف الاموال الاهلية في الولايات المتحدة الاميركية . وفرضت بنوع خاص التجاوز على نصوص دستور البلاد الذي يحظر انتقال ملكية الاراضي والمناجم والغابات والخدمات العامة الى اياد اجنبية او الى شركات يعود اليها ٦٠ بالمائة من مجموع رأس المال . والحال ، فقانون بيل يلزم التساوي في هذا المجال مع الرعايا الاميركيين وهو امتياز لا تنعم بمثله اية جنسية اجنبية اخرى في البلاد . واخيراً وليس اخراً ، فرؤوس الاموال الاميركية تستثمر بحرية مطلقة في القطاعات الام من قطاعات الاقتصاد الوطني: كالسكر والتعدين ومزدرعات الكوكو،والمنافع العامة .

فالتحالف القائم بين رجال الاعمال الاميركيين والفيليبيين ، وبين المصارف وكبار اصحاب الاملاك العقاريين الذين يتغذون بانتاجهم حركة التصدير في البلاد ، يقف حائلاً دون ادخال اي اصلاح جذري على وضع اقتصادي سريع العطب قابل للتجريح ولا سيما ادخال اي تعديل او القيام باي تنويع في زراعات البلاد ومجالات الاقتصاد الكبرى .

هذا الفريق المحدود جداً من رجال الاعمال ومن كبار الملاكين العقاريين ، هو الذي فاز بالاكثر من الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به البلاد في اعقاب الحرب العالمية الثانية .وتقرير بيل الذي وُضع عام ١٩٤٦ ، يؤكد بان السواد الاعظم من السكان: « يعانون كثيراً من وضع صحي سيء ، قيامه وبقاؤه يمس الكرامة الانسانية في الصميم» . فالاجر اليومي العادي الذي يتقاضاه العامل في الصناعة يتراوح بين ٢ – ٥ بيزوس ، بينما يهبط في الاعمال الزراعية الى ادنى من ١،٥ بيزوس ،في حين يحتاج العامل لـ ٢،٥ بيزو لتأمين الحد الادنى من معاشه. فالفلاحون الذين يؤلفون ٧٥ بالمائة من مجموع سكان البلاد هم في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي يحيق بالعمال في المدن . فالقانون الذي صدر عام ١٩٤٦ والمعروف بقانون ٧٠ – ٣٠ من محصول الغلة الذي ينص على ان يتناول متعهد الارض ٧٠ بالمائة من غلتها ، لا يراعي قط ، والمواسم باتت

دون معدلها قبل ١٩٤٠ . والنظام الضرائبي المبني على الضريبة المباشرة يصيب على الاخص الفقراء والضريبة التي فرضت عام ١٩٤٩ على الدخـــل وعلى التركات لا تدر على الخزينة اكثر من ٥٠ مليون بيزوس بينا يبلغ دخل الضريبة المباشرة ٢٦٢ مليون .

واخذ العمال والفلاحون يلاحظون منذ عام ١٩٤٦ ، ان استقلال البلاد السياسي ، لم يعـد عليهم بأي نفع يذكر ، وانه لم ينقذهم مما يتخبطون فيه من بؤس وشقاء ومما يساورهم من شعور بعدم الطمأنينة كما شعروا ان السلطة لا تزال بيد الاجنبي . فالشعور الوطني الذي امتهنـــه قالون بيل ، والذي يؤله هذا الازدراء والاستخفاف « بالاخوة الصغار السمر » ينتصب متنمراً غاضباً في وجه حكومة مانيلا صنيعة الاميركيين وألعوبتهم . ولذا قامت في البلاد حركة مهمة هي حركة *Hukbalahaps* التي تؤلف جيشاً شعبياً حارب الاحتلال الياباني ، تأسس عام ١٩٤٢ ونظم حركة المقاومة ضدهم في جزيرة لوسون ، وراحت تعمل في المقاطعات التي تسيطر عليها ، على توزيع الاراضي الزراعية التي يعيش اصحابها في الخارج ، على المزارعين . وأخـذت الحركة بعد عام ١٩٥٠ ، تعرف « بقوى التحرر الوطنية » ، بعد ان وضعت لها برنامج عمل وتسلحت بذرائع اقتبستها عن الحزب الشيوعي الصيني ، وأخذت تناهض الاميركيين وكبـــار الملاكين العقاريين ، وتعمل على تكوين « ديموقراطيــة جديدة » في البلاد ، يتولى الحكم فيهـا الفلاحون والعمال والبورجوازية الوطنية . ولم يجر قمع هذه الحركة الا في سنة ١٩٥٤ .

ومثل الفيليبين في هذا المحيط والجو الجغرافي الذي يجيش بالثورات والانتفاضات له دلالته الخاصة ومعناه الخاص . لا شك بأن الولايات المتحـــدة الاميركية وقفت اكـثر من اية دولة استعمارية اخرى ، موقفاً يتصف بالتحرر ونهجت في هذا المجال ، نهجاً يتسم باللين لم تنهج مثـله اية دولة اخرى ، فلم يعرف عنهم انهم حاولوا امتصاص مالية البـــلاد ودفعوا دوماً تكاليف احتلالهم العسكري ، وعملوا جاهدين على تطوير الخدمات الصحية في البلاد مما أدى الى هبوط محسوس في معدل الوفيات ، وشجعوا التربية والتعليم فيها ، مما جعل الفيليبين تأتي في الطليعة ، في هذا المجال ، من الدول الاخرى في الشرق الاقصى ، بالنسبة لعدد الطلاب الذين يرتادون مناهل العلم في البلاد في أي مستوى كان . وعرفت التجارة الخارجية توسعاً وازدهاراً لم يتم بعضه أو مثله لأي من هذه البلدان . ومع ذلك فقد انتصب في وجههم بغض حقين وعداء ازرق عمّ جميع طبقات الشعب ، لهذا الاستعلاء العنصري ، ولهـذا التمييز العرقي الذي ينتقص في الصمـيم ، من شخصية ابناء البلاد ويشعرهم بالذل والمهانـة ، ولا سيما ما شهدوا منهم من سياسة خرقاء . فمن جهة اعطوا البلاد استقلالها السياسي ، وراحوا من جهة ثانيـة ينهجون سياسة اقتصادية ابقت الفيليبين مشدودين الى تابعيتهم . فقد حافظوا على النظـام الاسباني القديم للملكيـات العقارية الكبرى ، احدى مخلفات « النظام الاقطاعي » الذي يتعارض اصلا مع التطور الذي يأخـذ به نظام اقتصادي حديث . شجعت حرية التبادل التجاري مع الولايات المتحدة الزراعات التصديرية التي يستفيدون منها وحدهم دون سواهم من اصحاب الاملاك العقارية ، ولا تعود بأي نفع عـلى

الجماهير التي ساء وضعها وتدهور الى الحضيض . فالخوف الذي يخيم على النفوس من نشوب ثورة يقوم بها الفلاحون ، والامتيازات التي يؤمنها نظـــام الحكم لارستوقراطيــة الدم الاسباني المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد هو الضمان الوحيد لاستمرار الولاء لهذه الحماية الفعلية التي تمارسها الولايات المتحدة الاميركية على هذا الارخبيل .

بورما

سبق وفوهنا بالنجاح الذي اصابته بورما في المجال التجاري والفشل الذي بليت به في الحقلين الاجتماعي والسيكولوجي خلال العهد الاستعماري الذي عرفتــه هذه البلاد . وطلائع الحركة القومية في بورما برزت من صفوف الرهبان البوذيين الذين لعبــوا هنا الدور الذي لعبه الرهبان الكاثوليك في ايرلندا ، بعد ان ساءهم المصير البائس الذي آلت اليه اديارهم ، وعدم مبالاة السلطات الهندية التي انتقصت كثيراً من شأنهم وازدرت بعلمهم ومعارفهم. فقد كانوا وراء الاضطرابات التي اثارتها رابطة الشبيبة البوذية، عام ١٩٠٦ ، وترأسوا عام١٩٢٠، حركة حث القرى على التمرد ضد موظفي الحكومة ، كما كانوا وراء الاضرابات الاولى التي قام بها الطلاب ، وانشأوا في البلاد شبكة من المدارس لا تخضع لمراقبة الدولة .

والحركة تتسم في صميمها ليس بالعداء ضد الانكليز فحسب ، بل ايضاً ضد الهند الا انهـــا قبل كل شيء مضادة لكل ما هو اوروبي . فاخذت الحركة تطالب بالاستقلال وبانتهاج سياسة اجتماعية جذرية . وعندما غزا اليابانيون البلاد ، عـام ١٩٤٢ ، استقبلوا بحماس ظاهر . فاعلن استقلال البـــلاد ، وتألفت في البلاد حكومة بورمية مئة بالمئة . وفي عام ١٩٤٥ ، اخــــذت عصبة تحرير الشعب المناهضة الفاشية تشد من أزر الحلفاء لطرد القوات اليابانية من البـــلاد . وعندها راح البريطانيون يحاولون ارجاء الحكومة البورمية القائمة في سملا ، تحولت العصبـــة المذكورة الى منظمة متطوعي الشعب ، واجبرت البريطانيين ، يشد من ازرهـــا العمال وقوى الشرطة في رانغون على اعلان البلاد جمهورية مستقلة لا تشدها الى بريطانيا اية رابطة أو آصرة .

تتميز بورما اليوم بان الحكم فيها بيـــد حزب اشتراكي سار منذ البدء ، على سياسة تأميم المؤسسات والاقتصاد ، والتي تستوحي في سياستها الخارجية مثال يوغوسلافيا . يحرم الدستور المعلن عام ١٩٤٧ الشركات الاحتكارية ، كما ينص على ان يستثمر الاتحاد ثروات البلاد الطبيعية كالاحراج والمناجم ومصايد الاسماك والبترول ومصادر الطاقة المحركة ، ويعلن ان الدولة هي المالك الحقيقي للارض كما تحرم قيام العقارات الكبيرة . ومنذ عام ١٨٧٨ اصبحت التجارة بالأرز فيها من الاحتكارات التابعة للدولة التي احتكرت ايضاً التجارة بخشب التيك ، وأممت شركة الملاحة في نهر الايراوادي . والقانون الخاص بتأميم الارض اخذوا يطبقونه منـــذ عام ١٩٣٥ ، فهو يخول الدولة بمصادرة الاملاك الغائب اصحابها عن البـــلاد ، كما يصادر الممتلكات العقارية التي تزيد مساحتها على عشرين هكتاراً ، ويعمل صغـار المزارعين في مزارع لا تزيد مساحة الواحدة منها على ١٠ هكتارات . الا ان الاراضي التي يملكها اصحاب لا يعملون في الزراعة ، تصادر وتوزع على الفلاحين الذين لا ارض لهم ، كما ان تعمم التسليف الزراعي بفائدة

منخفضة تتراوح بين ٢ - ٧ بالمائة تؤمنه الدولة او التعاونيات الزراعية وضع حـــداً لنشاط المرابين . ففي هذه البلاد التي يزيد عدد سكانها على ٢٠ مليون نسمة ، منهم ٦٦ بالمائة يعملون في المجالات الزراعية ، فكثافة السكان لا تتعدى ٢٨ نسمة في الكيلومتر المربع ولا يزال جانب كبير من الاراضي القابلة للزراعة غير مستثمر بعد . وهكذا فالمشكلة الزراعية هي في طريقها الى الحل المنشود . وأنشىء في البلاد ، عام ١٩٥٤ ، شركة اقتصادية مختلطة تعرف باسم شركة بترول بورما ، ساهم في تأليفها كل من الحكومة والشركات ، الخصوصية القديمة التي كانت تعمل في مجال الاستثمارات البترولية ، كما سبق وتألفت عام ١٩٥١، شركة مختلطة لاستثمار مناجم التنغستين . الا ان النظام السياسي يشكو التقلب هنا ايضاً ، اذ ان الجيش استلم الحكم بعـــد انقلاب عسكري وقع عام ١٩٦٢ .

مالـيزيا

ماليزيا والهند الصينية هما القطران الوحيدان في القارة الآسيوية اللتان وقف فيها الاوروبيون بحزم وعزم ضد الحركات القوميـة التي جاشت بهـا شعوب هذه الاقطار ، والتي جعل منها تطور الاحداث الدولية حلبـــة صراع وتصادم بين نظريتين متعاندتين تتقاسمان العالم اليوم .

فماليزيا هي القطر الآسيوي الهام الوحيد حيث استطاعت دولة أوروبية مستعمرة ان تؤمن سيطرتها عليها الى عام ١٩٥٥ ، بالرغم مما تعرضت له من هجوم ومقاومة عنيفة ، بعد حروب شاقة كلفتها غالياً .

كانت ماليزيا ، على غرار بورما وجزر الهند الهولندية نموذجاً مثاليـاً لهـــذه المستعمرات المدارية التي عـــاد الازدهار الاقتصادي العظيم الذي عرفتـــه الى هـــذه المشروعــــات الاستثمارية التي حققهـــا الاوروبيون ونهضوا بهـــا . ان استثمار منـاجم القصـــدير ومزارع شجر المطاط ، وزيت البلح والاناناس ساعد كثيراً على رفع مستوى الدخل القومي في البلاد ، قريب من مستوى اليابان واتاح للبلاد ان تتمتع بوضع اقتصادي احدث جداً مما تم منه لليابان ولجاوا . فوضع الضرائب فيها اختلف كلياً عن مثله في الاقطـــار الآسيوية الاخرى ، ودخل الحكومة الضخم كان يتألف معظمه من الرسوم المفروضة على البترول والتبغ وضريبــة الدخل ؛ ولم تكن البلاد لتعاني كثيراً من تضخم مزرح لعدد السكان، ولذا بقي فائض كبيرمن الاراضي الصالحة للزراعة .ومن جهة اخرى ، فالحكم غير المباشر ، الخفيف الوطـــأة ، أقصر السلاطين على دور الملوك العاطلين ،وهو دور أنسوا له وألفوا الاخذ به ، فقد ساعد نظام الحكم البريطاني ، على إغنائهم وعلى تأمين سلامتهم . وماليزيا التي تؤلف استطالة للامبراطورية الهندية لم يقم فيها حكومة مسؤولة ، ولا انتخابات نيابية ولا احزاب سياسية ولا اتحادات نقابية . والهيئات التمثيلية التي قامت فيها تألفت اصلاً من اعضاء عينهم الحاكم العام ومن موظفين . اما النظام الاقتصادي فيها ، فقد كان في وضع سريع العطب ، على شاكلة الوضع الذي تم للفيليبين ولبورما ،اذ كان يتوقف اساساً على تصدير بعض المحاصيل كالقصدير والمطاط اذ ان ٤/م

مساحة البلاد كانت تعطي محاصيل معدة في الاصل للتصدير .

وقد اجتذب حسن استثمار ثروات البلاد الطبيعية سيلاً من المهاجرين قدموا اليها من البلدان المجاورة واستقروا فيها : فجاءها من الهند ٢٦٧٠٠٠ عام ١٩١١ و ٦٢٤٠٠٠ عام ١٩٣١، ولا سيا من الصين (٩١٦،٠٠٠ عام ١٩١١ و ١،٧٠٠،٠٠٠ عام ١٩٣١) . ولن تلبث هذه الهجرة الكثيفة ان جعلت سكان البلاد الاصليين أقلية في ديارهم ، فألفوا ٤٢ بالمائة من مجموع السكان مقابل ٣٩ بالمائة من الصينيين الامر الذي تسبب عن ضغط وتوتر شديدين بين العناصر العديدة التي يتألف منها المجتمع الماليزي .

فقد ساعد الحكم البريطاني في ماليزيا على اثراء البلاد وإغنائها بسرعة وادخل عليها زراعات جديدة غيرت ملامحها وبدلت من قسماتها ، وزاد من عدد السكان في البلاد بنسبة كبيرة الا انه انشأ فيها نظاما اقتصادياً تواكلياً ، شديد التبعية ، سريع العطب ورصف جنباً الى جنب ، مجتمعات سكانية دون ان يحاول زجها ، ليس بينها شعور عاطفي مشترك ، ولا تتحسس بمصالح مشتركة . والفضل في إيقاظ الضمير القومي وبعث الشعور الوطني الحاد في البلاد انما يعود اصلاً لاحتلال اليابان لها خلال الحرب. إن انهيار الحكم البريطاني بعد حرب صاعقة لم تطل اكثر من ستة اسابيع اثر بليغاً في شعور الرأي العام ، كما ان سقوط سنغافوره الذي يعد اكبر كارثة ألمت ، عبر التاريخ ، بالاستعمار البريطاني ، كان له دوي قاصف في تلك الارجاء. فلم نرى في اي مكان ما ، العناصر الوطنية ، باستثناء العنصر الصيني ، تنهض للدفاع عن البلاد . فالموقف السلبي الذي وقفته يعبر تعبيراً عميقاً عن ضعف الاستعمار البريطاني لهذه البلاد . والدعاوة اليابانية التي نشطت منذ اليوم الاول من احتلال الجيش الياباني البلاد ، لطمس كل اثر للسيطرة الانكليزية (كتحريم استعمال اللغة الانكليزية واعادة تنظيم الادارة من الاساس) ، غذت الحقد والضغينة ضد البيض ، الا انها عجزت عن استمالة اي عنصر من العناصر الرئيسية الثلاثة اليها وحملها على التعاون مع الغازي المستبيح ، بل ادت ، على عكس ذلك تماماً ، الى وقوفها ضدها والصمود في وجهها ، للعنف الذي تعرضت له من جراء قبضة اليابان وقسوة شكيمتها والعبث الذي استهدفت له موارد البلاد. كل ذلك حرك شهوة السلاطين في البلاد الى الاستقلال ، كما حمل الشبيبة في البلاد التي تخرجت من المعاهد الاوروبية وتشربت روح الحرية على المطالبة بسيادة البلاد ، واثارت ضدهم العناصر الصينية المتمركزة في البلاد ، والمنقسمة بين الكيومانتنغ وبين الشيوعيين ، الذين اشتدت عليهم يد اليابانين وتعرضوا لسوء المعاملة، فلعبوا دوراً حاسماً في الجيش الشعبي الذي حارب الاحتلال الياباني ، وساعد كثيراً الجيش البريطاني على استعادة سلطته على البلاد .

فشل المحاولة البريطانية في اعادة حكمهم على البلاد

فقد ساعدت مع ذلك السياسة التي نهجتها اليابان في ماليزيا على تعميق الهوة الفاصلة بين الصينيين والماليزيين وعلى خلق بغض حقيقي بين العنصرين الاساسيين اللذين يؤلفان سكان البلاد . فبعد ان عاد البريطانيون الى البلاد عام ١٩٤٥ ، قاموا بعدة تنازلات ، ارضاء الشعور الوطني ، ورغبة منهم في توحيد هذا القطر المنقسم على نفسه الى ما يزيد على عشر سلطنات تباعد بينها حواجز جمركية . فشكلوا بادىء ذي بدء « اتحاداً ماليزياً » فالولايات التي تنعم بالحراسة اصبحت ولايات محمية او تحت الحماية ، خاضعة مباشرة للحكام ، كما انشئت حكومة مركزية بشكل بقي معه واقع الحكم والادارة للموظفين . ومواطنية الجامعة الماليزية أعطيت بسخاء بحيث ينعم بها على السواء الصينيون والهنود . وقامت معارضة قوية في وجه هذا التنظيم الجديد. وبعد ان أتى السلاطين مؤازرة قوية من قبل الطبقات الموجهة المحافظة ، ومن قبل السكان الماليزيين في البلاد الذين شعروا بخطر اغراقهم بالعنصر الصيني الخصب الانسال ، واطمأنوا الى عطف العناصر الليبرالية ، وأخذوا درساً من مسلك اندونيسيا ، راحوا يتحدون ويؤلفون تحالفاً فيما بينهم ، مما اجبر الحكومة البريطانية على العدول عن سياستها .. فالاتحاد حل محله حكم فدرالي ماليزي تمتعت معه الولايات باستقلال اداري اكبر ، كما نال الماليزيون ضمانات بالحصول على الأغلبية في المجالس التمثيلية وفي الحكومة المركزية . وادخلت قيود وتقييدات جديدة ضيقت من عملية التجنيس امام الصينيين ، كما بقيت سنغافوره مستعمرة تابعة للتاج البريطاني ، وهي الوحيدة في كل آسيا . كل هذا حمل العناصر غير الماليزية على المعارضة العنيفة وتنظيم المظاهرات العنيفة ضد البريطانيين . كذلك تحركت الرابطة الصينية الماليزية وغرفة التجارة الصينية ، كما تحرك العمل الحزب الشيوعي الذي يلعب دوراً بارزاً في نشاط اتحاد نقابات الجامعة الماليزية . وفي عام ١٩٥١ ، راح داتو اون بن جعفر ، ابن رئيس الوزراء في ولاية جوهور ، يؤلف له حزباً يطالب باستقلال ماليزيا وسيادتها التامة وينص البرنامج الذي وضعه على اعطاء الأولوية للغة الماليزية في كل المعاملات الرسمية ، واتخاذ اجراءات فعالة ضد الموجة الديموغرافية الصينية العارمة ، والحد من مغبة تنوع الثقافات والحضارات والانتقال بالبلاد من وضع اقتصادي « استعماري » الى وضع اقتصادي « وطني » ، واتخاذ الوسائل الفعالة لازالة القلق الاجتماعي المسيطر على البلاد من جراء التركيب الاقتصادي الشاذ الذي يحيق بالبلاد ، واخيراً استقلال ماليزيا .

وهكذا تجلت لاسباب ودوافع متضاربة احياناً معارضة السكان العنيفة للسيطرة البريطانية على البلاد ، التي اخذت تعبر عن استيائها وعدم رضاها عن الوضع بتنظيم الاضرابات وبهذه الاشتباكات الدامية التي نظمها الحزب الشيوعي الماليزي ، اقوى الاحزاب طراً في هذا الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا واحكمها تنظيماً . وهذه المناوشات الدامية التي نالت رضى جماهير الفلاحين والمزارعين ، اخذت تهاجم المزروعات ، ومراكز البوليس . ولم يفد في تهدئتها أو

التخفيف من شرها اعلان البلاد لحالة الطوارىء وتشكيل فرق دفاع حبذها اصحاب المزارع ، والكبت العنيف الذي تعرضت له من قبل البوليس والاعمال الحربية التي جرت لقمعها . فقد عجزت كل هذه الوسائل عن القضاء على حركة المقاومة ، التي اخرت كثيراً في انتاج المطاط والقصدير وحدّت من تصديرهما ، وبذلك قطعت عن بريطانيا سيلاً من الدولارات . وهذا ما يفسر لنا تماماً العنف الذي اظهرته بريطانيا في المحافظة على مواقعها ومركزها في هــذه البلاد التي تؤلف قاعدة حربية من الدرجة الاولى لها . وفي هذا السبيل ، استقدمت جيشاً زاد عـدد أفراده على ٣٠٠ ٠٠٠ عدا عن الحرس الوطني ومؤازرة الطـيران الاوسترالي والنيوزيلاندي للوقوف في وجه بضع آلاف من رجال المقاومة ليس من سبيل الى القضاء عليهم . وقـد اتاحت هذه الحرب للعناصر غير الشيوعية الوقوف موقف المتصلب . وأخذ رئيس الوزراء في حكومة الاتحاد في ايلول ١٩٥٥ ، يهدد بمقاطعة الادارة مقاطعة تامة اذ لم تنل البلاد استقلالها الناجز . وفي آخر المطاف رأت الدولة الجديدة النور في آب ١٩٥٧ ، بعد ان توصلوا الى عقد اتفاق ، كما جرى في الهنــد ، عُقِد بين الدولة المستعمرة وبين الطبقة الموجهــة احتفظت بريطانيا معه بقواعدها الحربية .

وتمكنت بريطانيا من ان تشدد من نفوذها في هذه المنطقة ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لها ، عندما أنشأت في ايلول ١٩٦٣ ، « اتحاداً أعلى » تألف من الاتحــاد الفدرالي الماليزي الذي انضمت اليه سنغافوره عام ١٩٦١ ، ومن مقاطعات سراواك وبروني وصباح (القسم الشمالي من بورنيو) . فاذا ما عدلت الفيليبين عن معارضتها لهذا الحلف الجديد ، فقـد اعربت اندونيسيا عن عدائها المكشوف له ، اذ شنت عليه حرباً فعلية اضطرت معها انكلترا الى تقوية حاميتها في سنغافوره ، التي تتألف من ٣٥ ٠٠٠ جندي ، وهي أهم حامية لها في المحيطين الهندي والهادي. الا ان انفصال سنغافوره الحديث عن هذا الاتحاد (١٠ آب ١٩٦٥) اضعف كثيراً من جانب الدولة الجديدة ، وطرح من جديد ، على بساط البحث توازن القوى في هــذه المنطقة وبالتالي سياسة بريطانيا الستراتيجية في هذا الجزء من العالم .

الهند الصينية الفرنسية قبل ١٩٤٠

كانت السياسة التي سارت عليها فرنسا في الهند الصينية سياسة تمثيل وامتصاص رمت الى جعل هذه البلاد « امتداداً » لفرنسا في آسيا . الا ان الهيئتــين الاجتماعيتين القائمتين – الفرنسية والوطنية – والنظامين الاقتصاديين المعمول بهما ، عاشا جنباً الى جنب دون أي تداخــل او تمازج فيما بينهما . فالعناصر الاوروبية ومن لف لفها (من الخلاسيين ، ومن قبضة من اليابانيين والفيليبينيين ، وسكان جزر الانتيل ولا سيما هنود بونديشري) لم يؤلفوا ، في سنة ١٩٣٧ ، سوى إطار ضيق تألف من ٤٠ ٠٠٠ نسمة بينهم ٣٠ ٠٠٠ من البيض ، معظمهم من الشبان ، تتراوح اعمارهم بين الـ ٢٠ – ٣٠ سنة ، اكثر من نصفهم عازبون غير متزوجين . من هــذه الكتلة تشكل « المجتمع الاستعماري » (نصفه من رجــال الجيش) ومن بعض موظفي الادارة ، ومن

اصحاب الحرف الحرة، ومن موظفي المصارف ومن اصحاب الاستثمارات التجارية والاستخراجية. أما المعمرون فعلاً ، فلم يكن عددهم ليتجاوز بضع مئات معظمهم موظفون في أهم الاستثمارات الحرجية والمنجمية . ولم يطرأ على وضع البلاد السياسي شيء جديد منذ عهد دومر ، فقد اقتصر وضع الكوشنشين على وضع المستعمرات القديمة ، لها نائب يمثلها في البرلمـــان الفرنسي ومجلس استشاري ، كلاهما منتخبان من قبل الفين أو ثلاثة آلاف ناخب يتمتعون بالجنسية الفرنسيـــة ، معظمهم من صغار الموظفين أو من الجنود. وباستثناء بضع مئات من المتجنسين بالجنسية الفرنسية اقتصر وضع معظم أبناء البلاد على وضع رعايا . أما في مقاطعتي الانام والتونكين فقـد حل محل نظام الحماية تدريجياً حـكم فرنسي مباشر ، أقرته المعاهـدة التي عقـــدت في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥ والتي جرت المصادقة عليها في أثر وفاة الامبراطور خاي دنه . فقـد نصت هذه المعاهدة على انه : « لما تكاثرت نواحي الأعمال الادارية في البـــلاد وتشعبت » ، بحيث اصبح من المستحيل « على الامبراطور الاطلاع شخصياً على شؤون الادارة اليومية بنفسه » فقد قبل مجلس الوصاية « على ان ينحصر اهتمامه على رأس الحفلات الطقسية ومراسم العبادة » وبنقل جميع السلطات للادارة الفرنسية . فالى جانب صيانة الاملاك والأشخاص بوضع حـــد لأعمال اللصوصية ، فقد تمكنت السلطات الفرنسية من تطوير الجهاز الاقتصادي في البـــلاد والاوضاع الصحية فيها، وانشأت شبكة من الخطوط الحديدية ، والطرقات المعبدة ، وبناء السدود ، وفتح الترع والاقنية المائية تسهيلاً للري وبناء المستشفيات ، ومعهد باستور، ومكافحة الملاريا والهيضة ورفعت من مستوى التعلم العام . وهذا التطوير العام لمرافق البلاد ، وتضاعف عدد الموظفين ، بين ١٩١٩ – ١٩٢٥ ، حمل مالية البلاد أعباء ثقيلة نات عن النهوض بها لخروجها عن طاقاتهـا الاقتصادية : ضرائب باهظة اصابت الأملاك ، وضرائب مباشرة وقع عبؤها على ابناء البـلاد (الاصليين) مما أدى الى عقد قروض بشروط ثقيلة ترتب عليها فوائد عالية ووضعت لها وسائل لاستهلاكها ارهقت خزينة الدولة .

والاتحاد الجمركي مع فرنسا الذي جرى معه « تمثيل » المستعمرة ، حدث عام ١٨٩٢ واخذ بالطبع جانب المصالح الفرنسية بالحد من تجارة البلاد مع البلدان الآسيوية المجاورة التي أمكن لها تجهيز المستعمرة بمواد ومصنوعات ارخص بكثير من المصنوعات الفرنسية ، كما كان باستطاعتها ان تؤلف سوقاً لفائض انتاجها من الارز والفحم . وقد ازداد الوضع حرجاً ، عام ١٩٢٨ ، بعد فرض تعريفـــة كيرشيه التي أولت حماية اكبر ايضاً للمؤسسات الفرنسية في الهنـد الصينية وللمنتوجات الفرنسية مما أدى الى ارتفاع عظيم في أسعار المصنوعات الفرنسية المستوردة ، اذ أنس عدد كبير من رجال المال طمأنينة اكبر في عملة البلاد « القرش » ضد تقلبات الفرنك الفرنسي وتخفيض سعره . وهكذا ظهرت في البـــلاد انشاءات فرنسية واستثمارات جديدة : كمزارع المطاط والشاي والبن والتنقيب عن المعادن ، وإنشاء معامل الترابة ، ومعامل الورق ومصافي البترول ، ومعامل الجعة . ونعم عدد كبير من هذه الاستثمارات بامتيازات عريضة في

هذه الاراضي ذات التربة الحمراء الواقعة عنـــد صعيد دارلاك ، وفرضت احتكاراً على المطاط بحيث لم تترك للمزارعين من أبناء البلاد جزءاً ضئيلاً من الأرباح لا يتعدى ٦٪ بينما كان معدله في ماليزيا البريطانية ٣٩٪ وفي جزر الهند البريطانية ٥٠٪ وهذا النشاط الاقتصادي هيمن عليـــه شركتان كبيرتان للاستيراد والتصـــدير ، ومصرفان كبيران هما : المصرف الفرنسي الصيني ومصرف الهند الصينية . وكان السواد الاعظم من ارباح هـــذه الشركات يذهب هنـــا ، كما في المستعمرات الافريقية الى فرنسا دون ان تفيد المستعمرة منها شيئاً لا سيما وهـــذه الرساميل واصحابها الاوروبيين هم معفون من الضرائب .

ازدياد البؤس والشقاء

وهذا التحسن الاقتصادي يطرأ على وضع ابن البـــلد لم يقترن بتحسن اجتماعي . فالاستعمار ادى ، باستثناء اندونيسيا ، الى قتل العادات والاعراف المحلية . فالقرى التي ساد فيها حتى الآن ، نظام متماثل وشدتها تقاليد متينة العرى من التضامن والتعاضد ، ساعدها النظام النقدي ، على ان تنشىء لها على حساب النواحي المحلية وصغار الملاكين الغارقين في ديونهم مشاعات واسعة تتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ هكتـــار (كما في الكوشنشين مثلاً) المتمتعة الى حد كبير بالادارة الفرنسيـــة الرشيدة ، وبفضل تواطؤ الحكام المحليين واعيان المنطقة والربا الذي كان يتقاضى بين ٣ — ١٠٪ شهرياً على الاقل ، من رفع بعض صغار المستثمرين الى مصف الملتزمين (فلم نشاهد فلاحـــاً باشر الموسم الزراعي دون أن يستدين بعض الشيء من صاحب الأرض التي يستغلها) ، والمزارعون الذي يستغلون شقفة صغيرة استحال وضعهم الى وضع الرق "شدُّوا الى الارض" ، دون ان تتوفر لهم اية فرصة لتحسين وضعهم الفني بحيث ان غلتهم السنوية من الارز هي من ادنى ما سجلته المواسم عندهم . ففي الكوشنشين مثلاً ان ٧١٪ من السكان لا يملكون سوى ١٢،٥٪ من مساحة الارض الزراعية ، بيـــنما ٢،٥٪ يسيطرون على ٤٥ ٪ . وفي دلتا النهر الاحمر ٩٠ ٪ من مجموع السكان (اي مـــا يوازي ٨٧٠،٠٠٠ اسرة) ، لا يتصرفون بغير ٣٦ ٪ من مجموع الارض الزراعية .

ففي هذه المقاطعة التي لا يزيد عدد سكان المدن فيها على ١٠ بالمائة لا غير ، يقل فيها عـــدد العاملين في دور الصناعة (١ ٪) والاجور فيها متدنية للغاية . ان دخل المعدّن الاثامي هو اقل ، بالنظر لما هو عليه من ضعف العضلات ، من ٣/٤ ما يكسبه زميـــل له فرنسي او ياباني . والبؤس الذي يحيط بالعمال العاملين في مزدرعات المطاط هو من الشدة بحيث بلغ معدل الوفيات بينهم عام ١٩٢٧ ، ما يزيد على ٥٤ بالمائة . فـــالنمو السريع للسكان (٦٠،٠٠٠ بالسنـــة في الكوشنشين ، و ١٠٠،٠٠٠ في التونكين) ، وعدم التـــاوي في توزيع الاملاك ، وتجزؤ الاستثمارات والوسائل الزراعية البدائية التي يعولون عليهـــا ، كل ذلك عرض سكان الريف لنقص مريع في التغذية وجعلهم يتسكعون في البؤس والشقاء (فاستهلاك الفرد للارز هبط ٣٠ بالمائة بين ١٩٠٠ — ١٩٣٠) . وانشاء بنك التسليف الزراعي ، عام ١٩٢٧ ، على غرار ما تحدث في جـــاوا ، لمساعدة صغار الزارعين الصمود ضد حبائل المرابين ، لم يحسن الاوضاع كثيراً . وعلى هذا قس

ايضاً وضع النخبة في الهند الصينية . فاوضاعها المادية ليست احسن مما ذكرنا بكثير . ففي عام ١٩٢٠ ، لم يكن حاكم كبير لاحدى الولايات ليزيد مدخوله في الشهر على ٣٠٠ غرش (اي ٣٠٠٠ فرنك) . بينا شرطي اوروبي واحد « كان يتقاضى عند بدء عمله في هانوي ، ٣٥٠ غير التعويضات والمخصصات الاخرى التي كان ينالها » .

وحاصل القول نرى ان الطبقة الممتازة (المؤلفة من اوروبيين وصينيين والطبقة الغنية او الموسرة والطبقة الوسطى من سكان البلاد) اي ١٠ بالمائة من مجموع سكان البلاد تقريباً ، يصيبون ٣٧ بالمائة من دخل البلاد السنوي في كل الهند الصينية ، عام ١٩٣١ ، و ٥٣ بالمائة في الكوشنشين وحدها . والا ١٠ بالمائة من مجموع السكان كانوا يستهلكون ٤٩ بالمائة من مجموع واردات البلاد ، بينا مدخول الفرد الواحد من الطبقة الفقيرة في سنة لم يكن يقدّر باكثر من ٢٧ قرشاً (٢٧٠ فرنكاً) . وهكذا نرى ان بضعة الوف فقط من سكان البلاد الاصليين، كانوا يستفيدون من النظام الجديد .

الحركة القومية

ان هذا الوضع الذي أتينا على وصفه بالتدقيق كان يغذي في النفوس الشعور العميق بالحرمان ويحمل النـاس على التذمر والشكاية ، وهو شعور بدت معالمه مع الفتح ، وزاده حدة واحتداماً الانتصارات اليابانية عام ١٩٠٥ ، وانفجار الثورة الصينية ، والحرب العالمية الاولى حيث ساهم فيها اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ من ابناء البلاد ، محاربين او عمالاً خدموا في فرنسا . فالتعليم كان من نصيب فريق صغير ممن هم في سن الدراسة . ففي عام ١٩٢٤ ، كان ١/٨ من الاولاد يرتادون المدارس . والمعاهد الخمسة للتعليم الثانوي الفرنسي الوطني لم تكن تعد اكثر من ٢١٦٧ طالباً موزعين على ٦ ملايين نسمة وجامعة الهند الصينية لم تكن تعد خريجيها الا للوظائف الثانوية ، في الخدمات العامة وفي الطب . ومع ذلك، فقد طلعت في البلاد طبقة من أهل الفكر ، ضمت الاساتذة والاطباء ورجال القانون ، وعملوا ككتبة سر ليحلوا محل طبقة المثقفين القديمة التي اخذت بالزوال ، والتي كانت متشبعة بمبادىء الحرية الفرنسية ، واكتسبت قدراً كبيراً ، واحياناً بشكل ممتاز ، من الثقافة الفرنسية ، وقد اخذت تتألم من الوضع الحقير الذي اقصرت عليه ، كما أخذت تمي، اكثر فأكثر، الفوارق التي تباعد بينها وبين السلطة المسيطرة . وراحت هذه العناصر الوطنية تطالب بسياسة فيها قدر اكبر من التعاون والمشاركة ، واجراء اصلاحات في البلاد تضع حداً للتجاوزات لا سيما في ما يتعلق بجباية الضرائب، ووضع حد نهائي في التمييز بين ابن البلد ، وحاولوا نشر نوع من التعليم لا يبتعد معه الطالب عن تقاليده الوطنية بعد الاصلاح الذي ادخل على الكتابة . وحوادث التمرد الفردية ، والاعتصابات التي اخذت تتكرر منذ عام ١٩١٨ من قبل اعضاء الجمعيات السرية ، كانت لا تزال تثق بتقاليد فرنسا التحررية التي جاء النصر يزيد من نفوذها وهيبتها . إلا ان فشل المحاولات الاصلاحية التي قام بها الكسندر فارين ، والذي استدعي الى فرنسا إثر فوز أحزاب اليمين بانتخابات عام ١٩٢٨ ، كان له وقع أليم في نفوس هذا الفريق الذي يشعر بالغربة وهو في عقر داره ، والذي لا أمل له في ثورة

عارمة تأكل الاخضر واليابس . واخذت الجمعيات السرية تتململ وتتحرك ، وظهرت في البلاد احزاب سرية ، منها مثلاً : يقظة الفيتنام ، وبعث فيتنام ، والحزب الثوري لفيتنام الفتاة ، ومنها الحزب الوطني الفيتنامي الذي ترأسه نغوين تاي هو الذي استمد برنامج عمله من برنامج الكيومنتانغ ، ونظم نفسه على نظام الحزب الشيوعي ورمى الى طرد فرنسا من البلاد عن طريق الثورة . وقد كان انشأ له خلايا عديدة في كل انحاء التونكين ، منذ عام ١٩٢٩ . والى جانب هذه الاحزاب ، تشكل حزب شيوعي تزعمه نغوين اي كوه المولود عام ١٨٩٢ والذي قضى جانباً من حياته في فرنسا ، والذي عمل في كنتون ، عام ١٩٢٥ ، سكرتيراً لبورودين رئيس البعثة الروسية لدى تشان كاي شيك . وشكل في الصين أطر الحزب ، ومنها أخذ يرسع سيلاً من الصحف محرضاً على المقاومة والوقوف في وجه فرنسا .

وجاءت حركة قمع هذه الاحزاب والتشكيلات دامية لما اتصفت به من شدة وعنف أدى الى تفشيل حركة انقلاب عام كانت الاشارة المعلنة انطلاقة عصيان حامية ، ين باي في شباط ١٩٣٠ . ولأول مرة في تاريخ الحركة القومية فيهذه البلاد ، يجري حشد جماهير الفلاحين وتجنيدهم ، وانضموا الى الحركة الوطنية التقليدية بقيادة نخبة من المفكرين أهيفت في صميم شعورها .

تأثير الفتح الياباني

والانهيار العسكري الذي اصيبت به فرنسا عام ١٩٤٠ تبعه انهيار آخر لحق الجيش الفرنسي في الهند الصينية الذي كان معداً للأعمال البوليسية التي يستدعيها الحفاظ على أمن البلاد وليس للوقوف في وجه اليابان او السيام. واتخذت حكومة فيشي بالنسبة لاحتلال اليابان للهند الصينية موقفاً يتسم بالتعاون « للدفاع المشترك عن الهند الصينية » ، محافظة منها على ماء الوجه أمام سكان البلاد الأصليين ، وصيانة لهيبة فرنسا وكرامتها ، وللتوسط بين اليابانيين وسكان البلاد الوطنيين ، ولاستغلال مصلحة اليابانيين بالابقاء على الفنيين الفرنسيين في مناصبهم والمحافظة على الملاك الاداري الفرنسي ، إذ لم يكن في وسع الغزاة استبداله بغيره » « ولعجزهم عن فرض ارادتهم في الحال ، اينما وجدوا » . وراح النظام الجديد يلغي في المجال السياسي الهيئات الاستشارية القائمة في البلاد . ولئلا يترك وا لليابانيين وحدهم فضل الدعوة للمطالب الوطنية ، عمد المسؤولون الفرنسيون في البلاد الى تشجيع اللغة والادب الفيتناميين ، والى استعمال اللغة الوطنية في المدرسة والادارة ، وعمدوا الى انشاء حركة شبه عسكرية بين شبيبة البلاد .

ولم يهاجم اليابانيون ، بعكس ما فعلوا في الاقطار الأخرى التي دوخوها واحتلوها ، « الاستعمار الغربي » مواجهة . إلا انهم أخذوا بتشجيع الحركة القومية الفيتنامية ودعموا على الأخص ، بعض الحركات المناهضة للفرنسيين والشيوعيين ، أو المعروفة بروحها المحافظة كالحركة « الكاكوداتية » . ان احتلال الجنود اليابانيين من البيض واذلالهم لهم - خلخل شيئاً فشيئاً النفوذ الفرنسي . وفي نهاية الامر ، وضع اليابانيون حداً لسياسة التريث التي انتهجوها ، فامروا بأسر القوات الفرنسية المرابطة في البلاد ، واحلوا ادارتهم على ادارة الاميرال ديكو ، وأوعزوا الى الامبراطور باو داي وال ملك كمبوديا باعلان استقلال بلادهم .

المقاومة الفيتنامية

وفي ١٩٤١ ، عقدت أحزاب فيتنامية عديدة من نزعات متباينة اجتماعاً لها على الاراضي الصينية وألفت من بينها عصبة المنظمات الثورية في فيتنام ، وجهت نشاطها ضد اليابانيين المحتلين وضد السلطة الفرنسية . وكان أهم هذه الفئات والفئة الوحيدة بينها التي كانت تتمتع بشبكة واسعة تمتد الى جميع اطراف البلاد من الاستعلامات والعناصر الناشطة ممثلة بحزب فيت منه وريث الحزب الشيوعي بزعامة نغوين آي كوك (الذي سيعرف فيما بعد باسم هو شي منه) . وبعد التاسع من آذار ، استمرت هذه الفئات المقاومة كفاحها واخذت توسع من نشاطها في جميع جهات البلاد . وقد اتاح لهم انهيار اليابان وموت الامبراطور باو داي بعد ذلك بقليل ان يؤلفوا حكومة مؤقته برئاسة هو شي منه أعلنت استقلال البلاد ، في الوقت الذي راحت فيه الحركات القومية في كل من بورما واندونيسيا والفيليبين تهاجم اليابانيين وتلاحقهم بمناوشات دامية ، وقفت في الحين ذاته موقفاً معادياً من السلطات المسيطرة على البلاد .

ولاقت الفرق الفرنسية مقاومة عنيفة عندما راح الاميرال دارجنليو يحاول اعادة السلطة الفرنسية على البلاد . وقد بدا للفيتناميين ان السلطات الفرنسية تحاول العبث بالاتفاقات المعقودة التي تعترف بجمهورية فيتنام كدولة حرة لها حكومتها ومجلسها النيابي وجيشها ونظامها المالي ، وهي عضو في الاتحاد الهندي الصيني وفي الاتحاد الفرنسي . كذلك اتهموا السلطات الفرنسية بانتهاج الاساليب ذاتها التي انتهجها الهولنديون في اندونيسيا ، بالاكثار من الوحدات القومية بقصد بلقنة فيتنام . وكان قصف الاسطول الفرنسي لمدينة هايفون بدء حرب عنيفة قاسية شبيهة بتلك الحرب التي نشبت بين وحدات ماو تسي تونغ وبين الوحدات التابعة للكيو منتانغ واليابانيين ، وحيث طبقت الاساس والمبادىء التي اوصى بها ماو تسي تونغ عام ١٩٣٦ في حرب العصابات وكان التفاوت كبيراً بين الوحدات العسكرية الفرنسية التي يدعمها الاسطول وطيران قومي ، وجيش الفيتنام المؤلف من وحدات نظامية وفي الميليشيا السيئة التسليح . ومع ذلك فقد استطاع الجيش الفيتنامي السيطرة تماماً على الموقف وفرض ستراتيجيتهم العطف الذي يحظى به في الاوساط الشعبية . فالجيش هنا ، كما في الصين ، « موجود في قلب الشعب كالسمك في وسط الماء » ، فهو لا يُرى ومستمر ، الكل في خدمته ومناصرته ، بينما الوحدات الفرنسية تتقيد بالطرقات ومراكزها والمدن ومهابط الطائرات . وبينما راحت حكومة فيتنام تنظم نفسها في الجبال بعد ان تمثلت فيها كل العناصر المختلفة التي يتألف منها الرأي العام ، اخذت تنشىء لها معامل لصنع الاسلحة اللازمة للنهوض بالحرب ، واقتصرت المناوشات الحربية على اعمال انهاك الجيش الفرنسي .

اتساع نطاق الحرب

تميزت الحرب حتى عام ١٩٤٨ بكونها حرباً استعمارية تأثرت فيها الولايات المتحدة الاميركية ، الى حد بعيد ، بالاعتدال الذي ميّز موقف هوشي منه ، واخذت تظهر عطفها الشديد لهذه الحركة القومية ، الا انه ما كاد الامر يستتب للشيوعيين

في الصين حتى بادرت حكومة الولايات المتحدة الى إرسال بعثة عسكرية وامدادات حربية ضخمة الى هوشي منه ، ساعدت على إذكاء نار الحرب . وفي عام ١٩٤٩ ، اعادت الحكومة الفرنسية الى منصبه الامبراطور باو ـ داي،وتنازلت له عن امتيازات اوسع بكثير من التنازلات التي اقرتها لهوشي منه عام ١٩٤٦ أملاً منها باجتذاب العناصر الوطنية غير الشيوعية الى جانبها ، دون ان تصل به الى الاستقلال التام . ولم تأت المحاولة بأي نتيجة لدى الرأي العام وفشلت تماماً، اذ رأى فيها الشعب تجسيماً السلطة الفرنسية ومحاولة منها للحفاظ على الامتيازات العريضة التي كانت لها ، ومنها استثناء الرعايا الفرنسيين من المحاكم الوطنية واجراء محاكمتهم وفقاً للقانون الفرنسي . ولقد اخذ عدد كبير من خصوم الفيات منه ، يقولون باعتماد القتل السياسي ، من بينهم عدد كبير من الكاثوليك الذين آزروها ، والذين بقوا مع ذلك يكنون الكره الشديد والعداء الازرق لكل ما يذكرهم بالحكم الاستعماري البغيض ، وكل هذا الفريق الذي يشجب الحكومة لابقائها على هذا النظام المؤلف من نصف حماية ، وفساد الادارة والموظفين ، وشراء الوظائف والحظوة التي لا يزال ينعم بها كبار المزارعين للارز ورجال الاعمال ، وعدم وجود اي خطة لاصلاح زراعي على الاخص . وبالرغم من الانتصارات الحربية التي سجلها الجنرال دي لاتر عام ١٩٥١ استطاع معها ان يستعيد قسماً من الاراضي التي خسرتها فرنسا منذ عام ١٩٤٩ ، اشتد الصراع عنفاً ومرارة، بعد ان اخذت المساعدات الصينية تعادل في المجال العسكري، المساعدات التي تلقتها فرنسا من الولايات المتحدة . وهكذا اخذت فيات منه تسيطر على ٣/٤ مساحة البلاد وتهيمن على ٥٣٪ من عدد سكان البلاد . والى جانب الاراضي التي تسيطر عليها ، « فهي موجودة في كل مكان » فالقوات الفرنسية تسيطر في النهار على القرى بينما تنتقل السيطرة عليها، خلال الليل قوات جمهورية فيتنام الديموقراطية » ، « ففي داخل كل اسرة وعائلة اعضاء ينتسبون الى فيات منه » . واقتصرت مهمة الوحدات الفرنسية على الدفاع عن المدن الرئيسية وضواحيها ، وشواطىء نهر الميكونغ السفلي ، ومزارع المطاط في الكوشنشين والمنطقة الصناعية في التونكين . في كل مكان في هذه المنطقة تقوم « لجان مقاومة » تعمل في الخفاء كما يوجد ممثلون لفيات منه الذين يمارسون السلطة الفعلية تجاه السلطات العسكرية الفرنسية أو السلطات التابعة لباو داي . فانهارت الحياة الاقتصادية في البلاد بعد اختلال الأمن ، وتخلى الكثيرون عن الاعتناء بمزروعاتهم . وأخذ سكان الريف ينزحون الى المدن (فارتفع عدد سكان بنوم بنه من ١٠٠ ٠٠٠ عام ١٩٣٩ ، الى ٤٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٥٢ ، وتجاوز عدد سكان سايغون ـ شولوم مليوني نسمة لقاء ٣٠٠ ٠٠٠ ، عند البدء بالاعمال الحربية .

والمحاولة الاخيرة التي جرب فيها الجيش الفرنسي تسجيل نصر حاسم ، أدت الى انهزامه الذريع أمام ديان ـ بيان ـ فو في ايار ١٩٥٤ ، كما أدت بالتالي الى اتفاق جنيف الذي قسم البلاد الى شطرين : شمالي يحتله الفيات منه والجنوب ، نصت بعض فقراته على وجوب توحيدهما فيما بعد .

وهذه الحرب التي دامت من سنة ١٩٤٥ الى ١٩٥٤ والتي كلفت فرنسا ضعفي قيمة

الاستثمارات الفرنسية الموظفة في هذه البلاد ، ارتدت طابعاً يختلف عن طابع صراع يقوم به شعب آسيوي للتحرر من ربقة السيطرة الاجنبية ، إذ استحالت الى حرب هدفت للحد من انتشار الشيوعية الى جميع أطراف آسيا واتخذت لها مظهراً جديداً من مظاهر الصليبية التي تقوم بها الولايات المتحدة في مجال الحد من اتساع الشيوعية وسيطرتها العالمية .

شطرا فيتنام

تحول الفيتنام الى كوريا ثانية ويقسمه خط العرض ١٧ الى دولتين متميزتين : الشمال الذي كان دوماً بلداً فقيراً مكتظاً بالسكان يحاول القيام باصلاحات جذرية بتؤدة ، والذي اخذ بأسباب التصنيع بالرغم من افتقاره للرساميل التي تنهض بالاستثمارات الضخمة ، والجنوب الذي بعد ان تخلص من دكتاتورية نغو دنه ديم واسرته ، شهد بعد عام ١٩٦٣ ، سلسلة من الانقلابات العسكرية وموجة من الاضطرابات الدينية والاجتماعية ، كما ان الثورة التي اعلنها الفيتكونغ تحولت الى حرب عصابات ، وارتدت بتدخل اميركا فيها ، طابع حرب فعلية .

ودكتاتورية ديم الرهبانية التي « جاءت بديلاً آسيوياً للطريقة الفرنسية » استمرت متحكمة بالبلاد بفضل المساعدات المالية الاميركية التي غطت دوماً ثلثي العجز الذي عانت منه ميزانية البلاد ، وبفضل ركنين آخرين هما : الكاثوليك وعددهم فيها ١٣٥٠٠٠٠ ، نصفهم نازحون من القسم الشمالي ، والبوليس الذي اعتمد عليه . سيطر ديم وحكم البلاد بالرعب وعرف ان يستغل في هذا السبيل الشعور الوطني والتعصب الديني الشديد، ويتفانى ، تحت ستار مكافحة الشيوعية ، في ملاحقة كل اثر للمقاومة المتحررة . والاصلاح الزراعي الذي حاول القيام به عام ١٩٥٥ أصيب معظمه بالشلل للمعارضة العنيفة التي لعبتها من قبل ارستوقراطية النبلاء الفاسدين الكلي القدرة . وفي سنة ١٩٥٨ بلغ عدد من استفاد من عملية الاصلاح هذه ٨٠٠٠٠ مزارع من اصل ١٥٠٠٠٠٠ كان يجب ان يفيدوا منها كما لم تحترم قط المبادىء التي جعلت في حدود ٧٥٪ معدل تخفيض الايجارات . وعملية تصنيع البلاد سارت ببطء كلي ، إذ ان الرساميل الاجنبية يجري تشغيلها في الصناعات الكمالية والاستهلاكية ، على الاخص ، وعدم المساواة في مستوى الحياة هو اقوى من أي وقت مضى ، كما ان ازدياد الاضطراب جعل الامن في الريف بعد سنة ١٩٥٩ ، عندما اشتدت حرب العصابات التي شنتها الفيات منه، أدت في بادىء الامر الى تجميع سكان القرى وحشدهم في « دساكر ستراتيجية » (على غرار ما جرى في الجزائر) ، والى التخلي عن الاراضي الزراعية ، والى النزوح الى المدن التي اخذت تتضخم ويزداد فيها عدد العاطلين عن العمل ، والى مراعاة مصالح الاقارب والانسباء وغير ذلك من المضاربات ووسائل الافساد ، والى المحسوبية التي حملت عدداً من الكاثوليك الى المراكز السياسية والعسكرية الموجهة العليا ، مما أدى الى الاحتجاج الصارخ ضد الظلم السياسي والاجتماعي الذي عبرت عنه مظاهرات ضخمة قام بتنظيمها البوذيون (٨٠٪ من سكان البلاد) . ومعارضة البوذية ، التي ظهرت هنا ، كما بدت في بورما منذ عهد بعيد ، قوة سياسية ودينية يجب ان يحسب لها حساب ، كانت ضربة

قاضية نزلت بنظام الحكم . ان الزعماء البوذيين هم الناطقون باسم جبهة ضمت معاً كل العناصر المناهضة للدكتاتورية والكاثوليك ، وكل انصار السلام في البلاد ، وصغار القوم فيها واصحاب الحرف ، والتجار الذين نزل بهم الفقر ، والفلاحون الذين طردوا من اراضيهم وكل ما كشر لهم الجوع عن انيابه الحادة ، والشبان الذين يتهددهم خطر تجنيدهم في الجيش. وقد وقعت حوادث انتحار علانية قام بها عدد من الرهبان البوذيين ، كما تكاثرت حركات التمرد في البلاد والفتن العسكرية ، وأخذ يتعاقب على الحكم قواد عسكريون بعد ان اشتدت بينهم المنافسة ، عن طريق انقلابات عسكرية ، يؤازرها حيناً ويناهضها اخرى المنظمات والهيئات الاميركية المختلفة المتنافسة فيما بينها القائمة في سايغون

وفي هذه الغضون اخذت الجبهة الوطنية لتحرير البلاد بتنظيم نفسها وعملت عام ١٩٦٠ على توحيد المقاومة السرية، كما أخذت تطالب منذ عام ١٩٦٢ باستقلال فيتنام الجنوبية وحيادها. وتتمثل في لجنتها المركزية ، المقاومة من اي فئة سياسية انتسبت ابرزها جميعاً الفئة ذات النزعة التقدمية الشيوعية . وهكذا وجدت حكومة فيتنام الجنوبيـــة نفسها بذات الوضع الذي أحاق بالسلطة الفرنسية عام ١٩٥٤ . تسرب رجال الجبهة الوطنية الى صفوف الجيش والدولة ، واعتماد سياسة الترويع في المدن ، ووقوف سكان الريف موقفاً ممالئاً أو محايداً ، واعتماد قتل بعض الموظفين وبعض السياسيين، وحصر الوحدات العسكرية التابعة للحكومة في بعض مراكز محصنة ضعيفة الرغبة في المقاومة ، مع سيطرة الوحدات التابعـــة للفيتكونغ على الريف سيطرة تامة ، اقله خلال الليل . والمساعدة العسكرية التي قدمتها الولايات المتحدة الاميركية من عتاد حربي ضخم ومن « مستشارين » لم تتمكن من قلب الاوضاع واستحالت تدريجياً الى تدخل عسكري مكشوف استدعى ارسال قوات اميركية ضخمة يوماً بعد يوم ، برهنت عن عجز تام أمام عدو لا يرام ولا يمكن الاتصال به ، ينعم بعطف الشعب ومناصرته . كل هذا جر الولايات المتحدة الى سياسة تصعيد الحرب بقصف أراضي فيتنام الشمالية قصفاً عنيفاً متصلاً بغية إخافة الخصم الشيوعي الذي يمد الفيتكونغ بالمساعدة الحربية التي تتيح له الاستمرار في مقاومته العنيفة . ومحاكاة الوضع للوضع في كوريا اخذ يبرز اكثر فاكثر ، كما ازداد الخوف من اشتداد التوتر الدولي الذي ظهر عام ١٩٥٢ .

الفصل الخامس

البلدان الاسلامية في الشرق وشمالي افريقيا

ان الـ ٢٤٠ مليوناً من المسلمين عام ١٩٢٠ ، في هذه البلدان التي تمتد من المغرب الاقصى حتى حدود الهند واندونيسيا ، هزتهم هزاً عنيفاً احداث الحرب العالمية الاولى . فقد أسهم مسلمو شمالي افريقيا وغربي افريقيا والهند والجزيرة العربية بالاعمال الحربية ضد المانيا وتركيا . وبرنامج التحرر الذي وضعه الحلفاء ونادوا فيه بحرية كل شعب ان يحكم نفسه كما يريد وروجوا له في جميع اطراف العالم الاسلامي لبث ينتظر تحقيقه في سنة ١٩١٩ . وقد بلغ مسامعه ايضاً انه في الوقت الذي قطعت فيه للعالم الاسلامي مثل هذه الوعود الغرارة ، جرى عقد معاهدات سرية نصّت على اقتسام بلدان الشرق الأدنى ، كما رأى موتمر السلام في باريس يرفض الاستماع الى ممثلي ايران – بعد ان ضحي بالصين في سبيل ارضاء اليابان – وحولتها انكلترا الى محمية فعلية كما رفض الاستماع الى مندوبي مصر وممثليها ، وقسّم تركيا وهشمها ، ووضع تحت الوصاية ما يبقى من دول اسلامية مستقلة. وبعد خيبة الامل واليأس الذي انتابه من الحنث بالوعود المقطوعة له ، رأى هذا العالم الاسلامي نفسه محمولاً حملاً الى الثورة وقد شجعها عليها ما شهد من منافسة حامية قامت بين الانكليز والفرنسيين زادتها حدة وعنفاً مقاومة ايطاليا والمانيا المكشوفة للمنتصرين في الحرب ، وهذه الصرخات الداوية الصادرة عن الحزب الشيوعي التي تدعو للانتفاض على الاستعمار . وستعمل الشعوب الاسلامية على توسيع وترحيب الحركات التحررية في الاقطار الشرقية ، هذه الحركات التي بدت مظاهرها الاولى قبل ١٩١٤ . وهذه الحركة القومية ازدادت اتساعاً وعنفاً وارتدت طابع الشمول بعد عام ١٩٣٠ ، وفي السنوات العشر التي عقبت الحرب العالمية الثانية اخذت معها البلدان الاسلامية بأسباب التطور السريع ، وعقّدت كثيراً كما ازدادت معها احتداما العلاقات بين السيد والمسود .

البعث العربي

وقد وجدت القومية العربية الطريق امامها ممهدة اثر البعث العربي الذي تهيأت اسبابه في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في هذه الحركة التحررية التي نادى بها جمال الدين الافغاني (المتوفي عام ١٨٩٧) ، وتلميذه محمد عبده

ومصطفى كامل . وقد تجلت حركة البحث هذه على اتمها في مصر التي لجأ اليها واعتصم فيها فريق من رجال الفكر والقلم تخلصاً من مضايقات بوليس السلطان عبد الحميد وملاحقاته العنيفة، وحيث راح الانكليز يذكون الشعور القومي ويشجعون احياء اللغة العربية وبعث الثقافة العربية الاسلامية ، اسوة بما جرى في اوروبا ، خلال القرن التاسع عشر ، وارتدت الحركة مظاهر الحدب على لغة الضاد وبعثها من جديد بعد عهود متطاولة من الجمود والقعود انحدرت معها اللغة والادب العربي الى الحضيض . وحرث الادب العربي وبعثه ، والكشف عن امجاد العروبة والاسلام بعد ان عفا عليها الدهر وتناستها الاذهان والتلويح بها في وجه النفوذ الاوروبي والتركي، والسعي الحثيث لتطويع اللغة العربية بحيث تستجيب لمقتضيات العصر الحديث وذلك عن طريق اغناء مفرداتها بالوضع والبحث وادخال المصطلحات الجديدة ، والمفردات التقنية التي تفتقر اليها التعبير كما يجب عن الافكار والنظريات العلمية المستحدثة وبفضل هذه الجهود الكبيرة التي قام بها فريق من حملة الاقلام والمفكرين بينهم عدد كبير من اللبنانيين النصارى، اطل علينا ادب حديث واقعي ومسرح شعبي ، كما نقلت الى العربية ، عدد من المؤلفات الاوروبية التقنية ، مما عاد على اللغة بالاثراء عن طريق تعريب عدد كبير من المصطلحات والمسميات ، واقتباس العديد من التراكيب والصور البيانية المستعملة في الغرب . كذلك جرت تنقية اللغة الفصحى مما علق بها من الشوائب وحوشي الكلام ، واصبحت بالتالي اداة ربط واتصال بين المسلمين كما ان الصحافة الكبرى اخذت تنمي الرأي العام وتغذيه بالمستحدثات مما استنبطه الراديو ، هذه الاداة الداهية التي تشد من اواصر الوحدة والاتحاد ولها من الوقع وبعد الاثر ما لا يتوفر بعضه الجريدة والصحيفة .

عصرنة الاسلام

القضية المطروحة على بساط البحث هنا كما في الشرق الأقصى ، هي كيف يمكن استمراء العلوم وتمثل الفنون العصرية التي هي أساس قوة أوروبا وعماد سطوتها ونفوذها، بحيث يمكن مواجهة استعداء الغرب ورد عادياته والتخلص من السيطرة الاجنبية ، والتسييج حول التقاليد الشرقية وصيانة مقدسات الشرق ولا سيما اللغة والدين من الشبهات التي يحاول الغرب إلصاقها بها . كل هذه المطالب اقتضى تحقيقها والاخذ بها جهود شاقة رمت الى ترسيخ اصول البحث العربي وعصرنة الاسلام . وراح عدد من كبار المصلحين في الاسلام امثال الافغاني ومحمد عبده وبعض تلاميذهم يدعون الى تنقية الاسلام من الشوائب التي علقت به مع تمادي الزمن ، مع الفتوحات الاسلامية ومن جراء الاتصال بعادات واعراف الشعوب التي دخلت في حوزة الاسلام . وراحوا يشددون على الاخص على تنقية الاسلام من بعض معالم الصنمية ومما علق به من اعراف التعزيم والسحر مما يتبرأ منه الاسلام في الصميم ، وتكريم الأولياء هذه العادة التي تحكمت بالاعراف الشعبية، كما راح بعضهم وعلى رأسهم المرحوم رشيد رضا صاحب مجلة المنار يتبرأ من تعاليم بعض فقهاء الاجيال الوسطى والتقيد بأقوال السلف وأخذوا يطالبون باصلاح جذري لنظم التعليم العالي الاسلامي ، وتطوير مناهج

العلوم الحديثة والتاريخ وادخال مادة الدين المقارن وكل ما يتعلق بالعقيدة والمذاهب الاسلامية المختلفة . إلا ان هذه الدعوة الصريحة الى التجدد لقيت مقاومة عنيفة ومعارضة قوية من قبل علماء الدين الملتزمتين المتمسكين بأهداب الرجعية البغيضة ، الذين واخـوا يقطعون من جماعتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي طالب بفصل امور الدين عن امور الدنيا ، وبفصل الشيخ محمد ابي زيد الذي وضع تفسيراً القرآن يعتمد فيه على موضوعية العلم الحديث ، كما حاولوا الوقوف في وجه ترجمة دائرة المعارف الاسلامية لما تثيره في زعمهم من شكوك . الا ان حماسة الشبيبة لم تتأثر كثيراً بهذه الحركة الرجعية ، كما ان المطالب والاماني التي اثارتها في نفوس النشء الجديد المدارس الاوروبية والتعليم الجامعي الذي يؤمنه عدد من الجامعات نشأت في المدن الكبرى على غرار الجامعات الاوروبية ، حملت الجامعة الازهرية والمعاهد الدينية الاخرى على اصلاح مناهج التعليم التي تسير عليها وعلى اقتباس العلوم الحديثة واعتماد مادتها في التدريس ولا سيما العلوم الفيزيائية . هذه الافكار الجديدة لم يتأثر بها سوى قلة من النخبة بين المفكرين باستثناء من يقيمون العقل حكماً . ويلاحظ المستشرق الانكليزي جب ان كل مفكري الاسلام وحملة العلم بينهم وجدوا انفسهم في ذات الوضع الذي احاط بحملة الفكر في الغرب في القرن الثامن عشر بالنسبة للعقيدة المسيحية . وبالرغم من موقف العلماء السنة ومن ان النقد العلمي الحر في امور الدين لم يسلم به في اي قطر من الاقطار الاسلامية بعد ، فالتفكير العلماني اخذ يظهر ويمتد ، وراح الدعاة لعصرنة الاسلام يضعون على بساط البحث والتحليل ويعرضون للتشريح والنقد المتحرر اصول الدين الاسلامي وقواعده، واخذوا يعتمدون في جدلهم ورد الشبهات عن الاسلام اسلوباً جديداً يتعرض على الاخص لكمال القرآن وصحته مقابل الفساد والتحريف الذي ادخل على الكتب اليهودية والاسلامية ، وحول شخصية الرسول العربي .

وفي الهند حيث التعليم العالي الجامعي على الطراز الاوروبي يجري الاخذ به منذ عهد بعيد، تأثرت الطبقـات المستنيرة الى حد بعيد بمناهج الانكليز وأفكارهم ولا سيما في كلية أليغار التي اصبحت جامعة منذ عام ١٩٢٠ حيث تسير جنباً الى جنب تدريس العلوم الدينية وعلوم العصر ، وحيث حركة عصرنة الاسلام ارتدت مع محمد إقبال شدة واقبالاً لم يعرفها الشرق الادنى .

انتشار الاسلام

هذا الاسلام المغلوب على امره ، والمنقسم على نفسه الى اقطار ودول تختلف ارتباطاً وتلباين تبعية ، يشعر في الصميم حضارته ويحاول جاهداً تحقيق وحدته وجامعيته . فالجامعة الاسلامية والعروبة هما الصورتان اللتان تتبلور عنهما هذه النزعة . فبعد عام ١٩١٩ ، تبرز على الاخص حركة الجامعة العربية والحركة العلمانية في تركيا تؤيدهما بريطانيا ، وتصطبغ هذه الحركة بطابع قومي يرافقهـا وعي ديني اسلامي يشتد يوماً بعد يوم . فالاسلام لا يزال ديناً حياً ناشطاً آخـذاً بالانتشار والتوسع . فهو بـين الديانات الكبرى الدين الذي كان اوسع انتشاراً من اي ديانة اخرى منذ الحرب العالمية الاولى

وكان له اكبر مد بين الشعوب الموصوفة بالبدائية في هذه المناطق ما بين المدار الاستوائي وخط الاستواء ، وعلى حساب كل الاديان الموجودة فيها تقريباً .. وهذا التوسع الديني يوسع كذلك لانتشار اللغة العربية . وهكذا تتسع باحة الاسلام في الشرق الاسلامي ، باحة رحبة الجنبات في المدى الافريقي . وهكذا راح ا. بارنز ، مؤرخ نيجيريا يلاحظ بعمق يلفت النظر « انه أينما التقى الاسلام والمسيحية وجهاً لوجه سجل الاول عشرة ارتدادات مقابل واحد يعتنق المسيحية ويعتمد ، وخير مثل على ذلك ما يقع كل يوم في ربوع اوغندا وتنغانيكا والكامرون والكونغو. والاسلام يتمتع بافضل مركز ليصبح بالفعل دين القارة الافريقية » .

فهو يحمل الى اتباعه وبنيه المساواة في الحقوق والدم والطبقات ويبعث بين اتباعه شعوراً عميقاً بالوحدة والتضامن ، يلزمهم القول بالله القيوم القدير ويعدهم بحياة ابدية دون ان يفرض عليهم عقائد ومراسم معقدة . فالمسلم الجديد ينزه الاسلام عن كل اتفاق او تواطؤ مع السيطرة الاوروبية ، كما يجد فيه اكبر درع له يقيه من النفوذ الاوروبي . فالاسلام يحمل في نظرهم حضارة وثقافة ساميتين ، دون ان يكون له ما للحضارة الغربية من أثر هدّام للعادات والاعراف المتوارثة اباً عن جد . وهذا الواقع يبدو على أتمه في مصر حيث تجتذب المدارس القرآنية الصغار من ابناء الاقباط ، اذ ان اعتناقهم للاسلام يفتح امامهم ابواب الطبقات العليا وحيث الألوف من اطفال الاقباط المسيحيين يقبلون على الاسلام مع كهنتهم .

وخير دعاة للاسلام هم هؤلاء التجار وهؤلاء الجنود ، وهذه الجمعيات الدينية التبشيرية التي تألفت عام ١٩٠١ في مصر ، وشركة البعوث الاسلامية في الهند ، والنشاطات التي تقوم بها طوائف الاحدية والمحمدية الذين يقومون بنشاط واسع في سبيل نشر الاسلام في كل من افريقيا والصين ، واليابان واندونيسيا واميركا حتى وفي اوروبا مستعينين على ذلك حتى بالاساليب التي يعمد اليها المبشرون المسيحيون ، شاجبين في المسيحية ديانة الاجانب، ومتبينين في الاستعمار الاوروبي بعثاً للحروب الصليبية . أفلَم يشبه الجنرال ألنبي دخول جيشه فاتحاً الى القدس الشريف عام ١٩١٧ ، بدخول الصليبيين اليها ؟

١ — فترة مــا بين الحربين

العالم الاسلامي مجزأ ومسود

وجد الشرق الادنى نفسه بعد الحرب العالمية الاولى ، مجزءاً الى منطقتي نفوذ ، وفقاً لاتفاقات سايكس بيكو . فقد اعطت عصبة الامم فرنسا الانتداب على دول الشرق الادنى ولن تلبث ان قضت سريعاً على دولة سوريا تحت رئاسة الملك فيصل وطردته من البلاد كما اولت انكلترا الانتداب: على فلسطين بعد ان اعلنها بلفور وزير خارجية انكلترا وطناً قومياً لليهود ، وعلى شرقي الاردن وعلى العراق . ومن هذه الوعود التي قطعها البريطانيون العرب لم تحترم سوى استقلال الجزيرة

العربية النسبي . فالوضع في العالم الاسلامي يبدو على هذا الشكل : خمسة اقطار تتمتع رسمياً بالاستقلال هي تركيا وايران وافغانستان والجزيرة العربية واليمن ، الا انها تخضع عملياً للهيمنة ولو بصورة غير مباشرة ، او تعجز اصلاً عن ان تحيا حياة مستقلة . أما ما تبقى فيخضع لدولة اوروبية : ففرنسا تهيمن من جهتها على دول الشرق الادنى وشمالي افريقيا وافريقيا السوداء الاسلامية ، كما تهيمن انكلترا من جهتها على مصر وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وعلى مشيخات الخليج العربي ، وعلى الهند وماليزيا ، وتتحكم هولندا باندونيسيا ، وايطاليا بليبيا والاريتريا وبلاد الصومال ، واسبانيا بشمالي المغرب وافني ، والاتحاد السوفياتي بالتركستان . ففي فترة ما بين الحربين بينما تبقى المستعمرات الفرنسية بمنأى عن نشاط المراكز الاسلامية الكبرى وتأخذ لها موقفاً سلبياً ، نرى الاقطار الاخرى تحاول على اقدار متفاوتة من النجاح والفشل ، زحزحة نير السيطرة الأجنبية عليها .

الحركة الاصلاحية في تركيا

كانت تركيا أول دولة تحررت من عقابيل هزيمتها النكراء في الحرب العالمية الاولى . فبعد ثورتها الاصيلة ، تمكنت من تأسيس دولة حديثة على الطراز الغربي .

فقد جردتها معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠ من كل ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من آسيا الصغرى ، ومن ازمير وملحقاتها ، ومن تراقيا الشرقية باستثناء الاستانة وضواحيها . وقد وجدت خلاصها في هذه اليقظة الوطنية التي قامت بها على يد المصلح الاكبر مصطفى كمال ، الذي انزوى في آسيا الصغرى وحذر الرأي العام والسلطان من القبول بأي تنازلات جغرافية جديدة واجتمع في انقرة والمجلس الوطني وشكل حكومة تولى هو رئاستها .

عمد قبل أي شيء آخر الى إعادة تنظيم الجيش وطرد اليونان بعد ان ألحق بهم عام ١٩٢٢ هزيمة نكراء في معركة أفيون وبذلك حرر كل بلاد الاناضول . وبعد هذا النصر المبين فرض في لوزان عام ١٩٢٣ معاهدة جديدة حررت تركيا الى الابد من الامتيازات الاجنبية واصبحت تركيا دولة ذات سيادة ، قومية ، لا تعرف من الاقليات غير اليونان والارمن المحصورين في استانبول وادرنة والاكراد الذين خضعوا لسياسة تتريك شديدة ، توصلاً لنزع عنصريتهم المميزة والذين استهدفوا للنفي والتشريد بالجملة بعد الثورة التي قاموا بها عام ١٩٢٥ .

انصرف مصطفى كمال الى تنظيم العهد الجديد باصدار عدة مراسيم يؤلف مجموعها ما يدعى بالكمالية التي تقوم على دكتاتورية لها قاعدة شعبية مؤلفة من حزب الشعب وضع له برنامجاً مؤلفاً من ست نقاط انشئت بموجبه جمهورية علمانية تقدمية ، وطنية ثورية وبالاقناع حيناً والضغط أحياناً جرت عصرنة المؤسسات الوطنية : كاختيار انقرة عاصمة جديدة للجمهورية ، وإلغاء الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ ، وهي تدابير تشير بوضوح الى التحول الكامل عن الماضي. فالدولة القومية اساسها نظرية تاريخية تقول بأن الاتراك ليسوا مغولاً ولا طورانيين ، بل من العرق الآري الاصيل يتصل بالسومريين وبالحثيين بنسب متين. وعلى هذه الدولة ان تتحرر تماماً

من كل نفوذ اجنبي واعتبارات دينية ترتهن استقلالها وتحد منه . وفي هذا السبيل اتخذت عدة اجراءات حولتها الى دولة علمانية تفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، كالغاء المحاكم الشرعية ، وفرض التعليم العلماني واستبدال الجمعة كيوم عطلة بيوم الاحد . واعتماد التقويم الغريغوري ، وتحريم الطربوش وتحريم النحل الدينية والغاء الدراويش وترجمة القرآن الى اللغة التركية . كذلك اعطى البلاد تشريعاً مدنياً مستوحى في مجموعه من القانون الالماني والايطالي والسويسري . الا انه اضطر ان يحسب حساباً للمقاومة التي تبديها الاوساط الاسلامية المحافظة ففي عام ١٩٢٨ ألغيت من الدستور المادة التي تجعل الاسلام دين الدولة الرسمي . وفي هذه السنة بالذات حل الحرف اللاتيني محل الحرف العربي تسهيلا منه لعصرنة البلاد ولتسهيل تعلم اللغات الاوروبية ، وقطع كل صلة مع ماضي البلاد بنقل الامة التركية الى جو ثقافي جديد.
ولعل هذا هو من أهم الاصلاحات التي حققتها البلاد مع القانون الذي ساوى في الحقوق المدنية والسياسية بين الرجل والمرأة وحرر المرأة وفتح أمامها ابواب المعرفة والتعليم على مصراعيها ، وبذلك احتلت المرأة المقام الذي يجب ان يكون لها في المجتمع ، كما الغى الحجاب . والتعلم الذي يستوي أمام المرأة والرجل يوصي بالتعليم المختلط وهو مجاني وإلزامي في المرحلة الابتدائية كما ضاعف من عدد المدارس والمعاهد التربوية في البلاد لتأمين المزيد من اصحاب الاختصاص والتقنيين الاتراك ليحلوا محل الاجانب .

تغيير الوضع الاقتصادي

أما السياسة التي انتهجتها الكمالية في المجال الاقتصادي فتتسم بالروح القومية والتأميم . فصفى قبل كل شيء العناصر غير التركية التي استأثرت حتى الآن باقتصاديات البلاد: كالدائنين واصحاب الامتيازات ووضع حداً للقروض ، باستثناء بعض منها قصيرة الامد اخذها من الاتحاد السوفياتي واشترى تباعاً الاستثمارات التي يملكها الاجانب ، ولا سيا شبكة الخطوط الحديدية . وحاول ان يجعل تركيا دولة تكفي نفسها بنفسها ، والاستغناء قدر المستطاع عن الاستيراد بتشجيعه الصناعة لكي تستفيد من خامات البلاد ومواردها الاولية كما رعى بنوع خاص الصناعة الكبيرة . وانتهج سياسة شديدة من الحماية الجمركية كما خفض الضرائب وشجع الطلب كما شجع الصناعات بتسليف الاعتمادات اللازمة عن طريق البنك الاهلي . ولما كان ٣/٤ السكان يعولون في معايشهم على الزراعة كان لا بد من توجيه عناية كبيرة لمرافق البلاد الزراعية وتشجيعها ، اذا ما شاء توسيع السوق المحلية وتشجيع الصناعة في البلاد . والحال ان معظم الفلاحين هم من صغار الملاكين تتراوح مساحة الارض التي يستغلها الواحد منهم بين ٤ و ٦ هكتارات نصفهم لا ارض لهم ولا مزارع ، وهنالك مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية في الجنوب لا يستغلها اصحابها من كبار الملاكين العقاريين لبعدهم عنها ، كما ان أساليب الزراعة والاعتدة المستعملة هي بدائية جداً ومتأخرة . وضريبة العشر التي كانت جبايتها تؤدي الى تجاوزات كثيرة استبدلت عام ١٩٢٥ بضريبة عقارية على الايراد ، وتأسست في البلاد تعاونيات عديدة للتسليف الزراعي

ولبيع المحاصيل ، والمصرف الزراعي الذي يقوم بمراقبة هذه التعاونيات ويشرف على السوق المحلية بشاري المحصول ويسلف الاعتمادات اللازمة بعد اجراء معاملات الرهن .

لم تكن نتائج هذه الجهود في عام ١٩٢٩ مهمة بعد : فالعمال الموصوفون او المهرة يتوفر وجودهم في البلاد ، واصحاب رؤوس الاموال المحليين يتحفظون جداً ، كما ان عدم توفر الرغبة في الاستثمارات وضعف الوفر ، كل ذلك حدّ كثيراً من قدرة البلاد على التطور . فعدد الاميين في تركيا اوروبا لا يقل عن ٦٦٪ بينما هو ٨٨٪ في تركيا آسيا بين الرجال ، و ٧٩ و ٩٧ بين النساء ، وكان عدد المحاريث الزراعية المستعملة في طول البلاد وعرضها لا يتجاوز ٢١٠ ٠٠٠ محراث من الحديد لقاء ١ ٢٠٠ ٠٠٠ محراث خشب . والعجز في الميزان التجاري لا يزال في حدود ٢٥٪ . وعدم المساواة الاجتماعية يبدو فاضحاً ، إذ ان قلة ضئيلة من السكان عرفت ان تستفيد من الجهود التي بذلتها الحكومة ، وهي جهود اقتصرت على المجال الصناعي وحده دون المجال الزراعي . وتتمتع اتاتورك بنفوذ دولي عظيم ، حتى في العالم الاسلامي حيث اثارت اصلاحاته العلمانية ، حفيظة الرجعيين والمتزمتين . فقد كانت تركيا الكمالية لجيرانها مثلاً يجب الاحتذاء به والنسج على منواله بعد الجهود العظيمة التي بذلتها لتحطيم الطوق الذي ضربه حوله الفائزون في الحرب .

مصر

لمصر مظهر خاص ومقام محترم في العالم الاسلامي . فبالرغم من معدل الوفيات العالي فيها فمعدل المواليد يبقى مع ذلك مرتفعاً (٤،٢٥ ٪) الامر الذي اتاح زيادة في السكان تلفت النظر (١١٥٠ شخصاً في اليوم) في رقعة ضيقة من الاراضي الزراعية. تحف بها الصحراء فهي واحة تزخر بالسكان بمعدل لا مثيل له في العالم . فالاجانب فيها وعددهم ٢٢٥ ٠٠٠ ، عام ١٩٢٠ ، بين ١٦ مليون نسمة من سكان البلاد ، كانوا يملكون ٥٣ ٪ من الثروة العامة في هذه البلاد ، وكان عدد من الفرنسيين والانكليز يشغلون في الادارة مناصب عالية . فليس بغريب قط ان يتبرم ابناء البلاد من سيطرة الاجنبي فيها وهي مركز النهضة العربية الادبية والفكرية وباعثة الروح الاسلامية . أجبرت على دخول الحرب فقد استباح الجيش الانكليزي ارضها وراحت فريسة ألوان من اعمال المصادرة لمحصولها من القمح والقطن ، كما تضررت كثيراً من اعلان الاحكام العرفية . ثم ان اعلان الحماية البريطانية على البلاد في كانون الاول ١٩١٤ ، أريد به تحويل الاحتلال الذي وقع سنة ١٨٨٢ الى نظام موصول من الحماية ، فليس من عجب ان تنتفض المشاعر القومية فيها وتقوم المظاهرات العنيفة عام ١٩١٨ .

فالنشاط السياسي والكفاح ضد الاحتلال البريطاني انحصر على الاخص في حزب صغير من المجتمع المصري . وهذه الدهماء من الجماهير الشعبية التي يرسف معظمها في الجهل المطبق ، لم تكن تأثرت بعد بالافكار الجديدة . فبين كبار الملاكين ، بعض العناصر التي اخذت بأسباب المدنية الحديثة ، وتألفت في القاهرة ، اكبر مدن القارة الافريقية ، طبقة وسطى تعود بأصولها

الى الريف ، تخرج اصحابها من المدارس التقنية ، ومن الجامعة ، وبقيت مع ذلك محافظة على تقاليدها في حياتها اليومية ، تحسن الفرنسية والانكليزية وتأثرت بالافكار الاوروبية . وقد ضمت هذه الطبقة بين صفوفها العديد من الموظفين من صغار ووسط ، وتجاراً ، وألفت مع طلاب المدارس ، القسم النشيط في البلاد . والبروليتاريا الصناعية التي لم تهتم كثيراً بعد للشكلات الاجتماعية ، كانت تشكو من قلة العدد ومن عدم التنظيم الذي يشل حركاتها : فهي وطنية في الصميم . ومن بين صفوفها طلع معظم زعماء الحركة المضادة للإنكليز كزغلول باشا . واخذت تطالب الانكليز بالخروج من مصر ، وارجاع السودان اليها ، والغاء الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة التي لم يعد الشعب يطيق وجودها وقيامها بعد ان نصت معاهدة لوزان على إلغائها في تركيا كما زال كل اثر لها في دول الشرق الادنى والعراق وايران . ان انشاء صناعات جديدة مختلفة في البلاد كمصانع الزيت والمطابع والمطاحن وحلج القطن ... والنجاح الذي صادفه بنك مصر الذي تأسس عام ١٩٢٠ برؤوس اموال مصرية وانشائه شركات مختلفة تابعة له كشركة الملاحة والطيران ، والمصارف ، والشركات التجارية والصناعية والتأمين على الحياة ، وشركة استثمار المسارح والسينما ، كل ذلك شجع النــاس على المطالبة بتحرر البلاد واستقلالها في المجالين السياسي والاقتصادي .

من بين الاحزاب السياسية في مصر ومن اهمها على الاطلاق ، كان حزب الوفد برئاسة سعد زغلول الذي تمتع بشعبية كبيرة . فقد تبنى هذا الحزب المطالب الوطنية ونظم نفسه تنظيماً قوياً واقاموا له شبكة من الوكلاء والمراسلين ينتشرون في جميع قرى البلاد ودساكرها كلمة السر لاقفال المحلات التجارية وقيام المظاهرات والاضرابات ، ومقاطعة البضائع الانكليزية واضراب طلاب المدارس . وتكاثرت بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ ، حوادث الاضرابات ، والمقاطعة ومهاجمة القطر الحديدية المحملة بالجنود البريطانيين ، واستقالة الوزارات احتجاجاً على اعمال القمع الشديدة ، وعلى نفي زغلول وابعاده عن البــلاد . ورفضت الامة المصرية رفضاً باتاً مشاريع الانظمة الدستورية التي وضعها كل من اللورد ملنر واللورد كورزون . واصدرت الحكومة البريطانية من جانبها عام ١٩٢٢ تصريحاً بالغاء نظام الحماية واعلنت استقلال مصر وسيادتها . الا ان هذه السيادة بقيت نظرية دون تطبيق فعلي ، اذ انها احتفظت لنفسها بأربع نقاط اساسية الى ان يتم وضع اتفــاق نهائي بين الطرفين : ضمان مواصلات الامبراطورية البريطانية (اي قضية القنال) . ووضع السودان ، والدفاع عن مصر ضد كل اعتــداء او تدخل اجنبي ، والمحافظة على الاقليات والمصالح الاجنبية .

السيطرة البريطانية في الشرق الادنى

والحلم الذي خطر لبريطانيا بفرض سيطرتهــا التامة على البلدان الآسيوية في الشرق الادنى ، كاد يتحقق بكامـــله . فبواسطة مندوبيها وممثليها في هذه البلدان امثال لورانس وسانت جون فيلبي ، هيأت اسباب الثورة في الصحراء ، بعد ان قطعت العهود للشريف حسين بتــأمين استقلال الحجاز وبانشاء

مملكة عربية . الا ان معارضة فرنسا التي تشبثت باحترام الاتفاقات السرية المعقودة عام ١٩١٦ ، ووقوفها في وجه الملك فيصل واجبـاره على الهرب من دمشق ، الجأ انكلترا الفرصة لتنصيبه ملكاً على العراق ، وتعيين اخيه عبدالله اميراً على شرقي الاردن ، وبذلـك كونت دولتين اصطناعيتين لا موارد مالية لها ولا جيوش تقوم على حراستها ، ولا سيا الثانية منها ، وضعتـا تحت الانتداب البريطاني واسندت الوظائف الكبرى فيها لموظفين بريطانيين . فالجيش العربي الاردني بقيادة الضابط البريطاني غلوب باشا ، أمّن لهـا سلامة المواصلات بين العراق وساحل البحر الابيض المتوسط. وخط انابيب البترول الذي يمتد من الموصل الى البحر . وقد نال فيصل، عام ١٩٣٠ لمسايرته السياسة البريطانية ، استقلال العراق ، بعد ان عقد مع بريطانيا حلفـاً عسكرياً يخول بريطانيا استعمال وسائل النقل ومطارات البلاد .

اما في الجزيرة العربية فلم تلاق السياسة البريطانية مثل هذا التوفيق . فالملك ابن السعود ، ملك الوهابيين والعدو اللدود للهاشميين الذين ينعمون بحماية بريطانيا وعطفها ، استطاع ان يؤلف له جيشاً قوياً (الاخوان) تألف معظمه من البدو والحضر . واستطـاع عام ١٩٢٦ ان يستولي تباعاً على المدن الاسلامية المقدسة مكة والمدينة وان ينادى به ملكاً على الحجاز ونجد . فحركة التحضر ، هنا كما في اليمن ، انحصرت في مجال التسلح اذ ان الملكية الوراثية التي قامت على اسس دينية كانت تقف في وجه كل فكرة عصرية الى البلاد .

ومن مواقعهـا القوية في العراق وشرقي الاردن ، استطاعت انكلترا ان تفرض السلام على القبائل المتنافسة بفضل بعض الحاميات ، وبفضل الاعطيات السخية التي كانت توزعها ولا سيا بفضل فريق من معتمديها المختصين احسنوا اللغة العربية كأبنائها وتخرجوا بالعادات والتقاليد المرعية لدى القبائل العربية ، كما اجادوا الى حد بعيد بتوجيه المنافسات القبلية والعبث بهـا . ثم هنالك قوى الطيران الملكي البريطـانية . اذ يكفي ان يحلق بعضها ، كمـا جرى في عدة مناسبات فوق الوحـدات العسكرية السعودية حتى يعود السلام الى نصابه ويركن الجميع الهدوء .

وفي فلسطين يأخذ اليهود بتنظيم وطنهم القومي الجديد بعد التصريح الذي اطلقـه اللورد بلفور عام ١٩١٧ . الا ان الغموض والاشكال الذي قام عليه هذا التصريح ، جر على تلـك البلاد عواقب وخيمة . فبينما راح البريطـانيون يؤكدون ان هذا التصريح لا يعني سوى انشاء مجتمع حضاري يتمتع باستقلاله الاداري راح زعماء الحركة الصهيونية يتخذون منه قاعدة لانشاء دولة يهودية لهم .

ايران وافغانستان

الى الشرق من هذه القلعة القوية التي تحصن ضمنها البريطانيون والتي تتألف من البلدان المتاخمة البحر الاحمر ، وقعت اقطار سكانهـا مسلمون نعمت ظاهرياً بالاستقلال . وراحت الدولتان القائمتان في هذه المنطقة وهما ايران وافغانستان، تنهجان على منوال تركيا ، في جهودها لعصرنة بلادها ، هذه السياسة التي انتهجهـا عاهلاهما التفت

حولها العناصر المتطورة فكرياً وثقافياً . الا انهما اصطدما بالتقاليد الدينية التي تمسك بها بعناد سكان البلاد الذين يتسكعون في مهاوي الجهل والجهالة .

فالعجم ، التي لم تعرف رسمياً باسم ايران الا في سنة ١٩٣٥ ، تعرضت خلال الحرب للاحتلال من قبل الروس والانكليز لجعلها في مأمن من الدسائس التركية والالمانية التي استهدفت لها ، وما كاد الروس ينسحبون منها بعد ثورتهم الكبرى ١٩١٧ ، حتى فرض عليها الانكليز حمايتهم الفعلية عليها . وكان من شدة استياء الشعب لهذه السياسة ان قام احد ضباط الجيش ، يدعى رضا خان ، بانقلاب عسكري عام ١٩٢١، حمله في نهاية الامر الى تبوء العرش في عام ١٩٢٤ تحت اسم رضا خان بهلوي الذي انتهج سياسة ترمي الى عصرنة البلاد على غرار ما تم في تركيا ، محاذراً مع ذلك ان يمس مشاعر الاهلين الدينية . كذلك اخذ بتحضير القبائل الرحّل في البلاد وتوطينهم ، وحد من الملكيات الشاسعة وقلّم بالتالي من اظافر كبار الملاكين العقاريين، وامد البلاد بإدارة حديثة وبمحاكم قانونية أدت الى الغاء الامتيازات الاجنبية في البلاد ، عام ١٩٢٨ ، كذلك قام بإصلاح في زي السكان، اذ الغى لبس الطربوش وفرض ارتداء الكاسكيت او القبعة، واعطى الجيش تنظيماً حديثاً ، واستعان بفنيين اجانب لاصلاح النظام المالي وانشاء شبكة عصرية من الخطوط الحديدية ، والطرقات المعبدة ، والاقنية المائية للري ، وتأسيس المصانع . وفرض على الشركة الانكليزية الفارسية للبترول شروطاً افضل استفادت منها ميزانية البلاد .

أما في الافغانستان، فالمحاولة التي قام بها الملك امان الله الذي تبوأ كرسي الملك عام ١٩١٩، باءت بالفشل . فبعد حربه الناجحة ضد الانكليز حرر نفسه من الشرط المفروض عليه بحصر علاقاته السياسية في الخارج مع حكومة الهند الانكليزية . وأسس علاقات دولية مع الدول الاخرى ، وفرض على سكان العاصمة كابول لبس الزي الاوروبي واستعان ببعض الخبراء الفنيين من الاجانب . وحظر عام ١٩٢٨ تعدد الزوجات للموظفين وسمح للملكة بالسفور وطرح الحجاب ، الا انه تم خلعه عام ١٩٢٩ ، على يد نادر خان . وتوقفت بذلك عملية عصرنة البلاد .

تأثير الازمة الاقتصادية الكبرى

ساعدت الازمة الاقتصادية التي اطلت عام ١٩٢٩ والنظم الدكتاتورية التي ظهرت هنا وهناك على تطوير الحركات القومية في بلدان الشرق الادنى وبين دوله . فالمشكلات الاقتصادية التي نشأت عن الازمة زادت كثيراً في خلخلة مجتمع وراثي مهلهل ، كما ان افتقار البلاد للتقاليد الليبرالية ، اوجد فيها جواً لانتشار النظريات والانظمة الفاشية والعسكرية . فالمثل الذي تركه اتاتورك ، هذا البطل الذي عرف ان يصمد بنجاح ويقف في وجه اوروبا ، والذي خلق امة قوية مهيبة الجناح، لحجة قاطعة وبرهان ساطع على امكانية دولة قومية قوية تتمتع بالاستقلال الناجز ، في مدة وجيزة نسبياً . ان التطور العظيم الذي اخذ بأسبابه الوطن القومي اليهودي في فلسطين حيث

توافد المهاجرون اليهود بأعداد ضخمة هددت بإغراق العناصر العربية في بحرها ، اثار هياجاً عنيفاً بين سكان البلاد . وراح المؤتمر العربي المعقود عام ١٩٣١ يوصي بوقف الهجرة اليهودية وراح يستنهض الشعور الاسلامي .

ان احتلال ايطاليا الحبشة ، عام ١٩٣٥ شكل خطراً مداهماً على الدول المجاورة ووطد نفوذ الدول الدكتاتورية وبعث فيهم الشعور بان في مقدور اي دكتاتورية ان تحقق كل شيء. وقامت الدعاوة الالمانية والفاشية بعد هذا تؤمن كل شيء. ودشن المارشال بالبو في ليبيا منذ عام ١٩٣٣ سياسة تهدئة تجاه ابناء البلاد ، كما ان الدبلوماسية الايطالية وقفت الى جانب العراق ، في عصبة الامم ضد الانكليز، عام ١٩٣٠ ، والى جانب سوريا ضد فرنسا، عام ١٩٣٤ ، وعضدت القضية العربية ضد الصهيونية . وسارع الالمان لمد يد المساعدة للعرب في ثورتهم ضد الانكليز في فلسطين ، واخذوا يجتذبون الى جامعاتهم عدداً كبيراً من الطلاب في الدول الواقعة في الشرق الادنى، كما راح الجنرال فرانكو من جهته يؤازر الحركة القومية التي نهض بها السيد عبد الخالق الطريس بين المغاربة . وتشكلت في جميع بلدان الشرق جمعيات وهيئات نظامية قوامها الشباب، لها شاراتها وزيها وتنظيماتها شبه العسكرية الخاصة ، منها مثلاً « مصر الفتاة » بقمصانهم الخضراء تحت اشراف مؤسس الحركة المرشد احمد حسين ، والحزب الوطني السوري ، والكتلة الوطنية والمنتدى العربي في العراق ، وغيرها . وحملت الاضطرابات التي وقعت في مصر عام ١٩٣٦ الحكومة المصرية على تقديم استقالتها، وتمكنت من حمل البريطانيين على بدء مفاوضات ادت بها الى الاعتراف من جديد باستقلال مصر . وفي سوريا، وقعت مظاهرات عنيفة وحوادث اضرابات عامة ادت الى اقفال الاسواق والمحلات التجارية اكثر من خمسين يوماً ، كما ان الاشتباكات الدامية بين قوى الامن والمتظاهرين في دمشق وغيرها من الدول السورية الكبرى ، كل ذلك ادى الى عقد معاهدة مع فرنسا وعدت البلاد بالاستقلال الناجز . وفي فلسطين حمل الانفجار الوطني العنيف ، الانكليز للبحث عن حل سريع للمشكلة الصهيونية ، والى تبديل محسوس في سياستهم في هذه البلاد .

٢ ـ نتائج الحرب العالمية الثانية

كان للحرب العالمية الثانية التأثير الحاسم على التطور الذي اخذ الشرق الادنى بأسبابه . فالروح القومية التي كانت ، حتى ذاك ، وقفاً على قسم من الطبقات الموجهة ، عمت الاوساط الشعبية وكهربت منها المشاعر والاحاسيس في هذا الوقت بالذات الذي اشتد فيه تسلل الغرب واستحكامه . واسوة بما جرى في كل البلدان الرازحة تحت السيطرة الاجنبية فقد وضعت الطبقة المفكرة كل ثقلها ووزنها في الحركة القومية التي جاشت بها البلاد وذلك دفعاً منها للحوادث واستدناء للتقلبات المصيرية بعد ان ضاقت الصدور بهذا الاقتصاد المتخلف الذي كانت

عليه اوضاعهم وهذه الاحوال والاوضاع الاجتماعية البالية التي تعيق سيرهم الى الامام. وفي الوقت ذاته اصيب الاسلام بوصفه نظاما دينياً صدمة عنيفة . مع العلم ان هذا التصادم بين المتزمتين الرجعيين وبين انصار التجدد لم يمس بشيء طاقته على الانتشار والتوسع الذي بدا على اشده في افريقيا خاصة .

ففي الحرب العالمية الاولى ارتدت الاعمال الحربيـــة في بلدان الشرق الادنى طابعاً ثانوياً . والنصر المبين الذي حققه الحلفاء اتاح لهم ان يعيدوا الى اقطاره نفوذهم كاملاً غير منقوص وان يوسعوا بالاضافة الى ذلك ، من رقعة سلطانهم على بعض بلدانه . والاهمية الستراتيجية التي تتمتع بها هذه البلدان برزت بأجلى وضوح خلال الصراع الجبار الذي قامت به امبراطورية هتلر ضد القوى البحرية الانكلوسكسونية ، وقد شهد شمالي افريقيا معارك طاحنة للسيطرة على قنال السويس ، كما ان الحلفاء احتلوا جزءاً من ايران وشهدت سنة ١٩٤٢ مواقع مدوية في الوقت الذي كانت اليابان تسجل في الشرق انتصارات وفتوحات ادخلت تحت سيطرة شعب فتي ينبض بالقوة والنشاط ، اكثر من ٦٠ مليوناً من المسلمين ، كما بلغ رومل في زحفه الخاطف عبر الصحراء ، الى ٦٠ كيلومتراً لا غير عن الاسكندرية ، واذا باسلام شمالي افريقيا يقع فجــأة تحت سيطرة الانكلوسكسون .

فقد عادت الحرب على الاجمال بالفائدة لمجموع هـــذه البلدان . فباستثناء ليبيا وتونس اللتان ألفتا ساحة حرب ، فلم تتألم هذه البلدان كثيراً من اهوال الحرب . والخسائر التي اصابت المجندين من ابنائها كانت خفيفة جداً بالنسبة لعدد السكان والتطور السريع الذي سجلته . فقد باع بعض هذه الأقطار انتاجها من السكر والقطن بأسعار عالية وربحوا كثيراً من هذه الانشاءات الضخمة التي استدعت القيام بها الأعمال الحربية في اراضيها : كالخط الحديدي ، وانشاء المرافىء وشق الطرقات وبناء المطارات . والمؤسسة الانكليزية التي اصبحت انكليزية اميركية عـــام ١٩٤٢ وعرفت باسم « مركز تموين الشرق الاوسط » تولت تنسيق الحياة الاقتصادية في هـــذه الشعوب ، وساهمت في تطوير بعض الزراعات وبعض الصناعات كما نظمت حركة التبـــادل التجاري بين هذه الاقطار التي استفاد بعضها من قانون الاعـارة والتأجير . وفي مؤتمرات فرنسيسكو كان لاكثر هذه الدول ممثلون حضروا المؤتمر المذكور بينما لم يحضر أحد منها مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ ، فقد وجدوا انفسهم وجهاً لوجه مع الدول الاستعمارية المنهوكة وأمام منتصرين عملاقين هما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، اللذين اخذا يؤكدان عداءهما للنظام الاستعماري القديم .

كذلك جاءت الحرب تثبت لابناء هذه البلاد ، من جديد خرافة تفوق الاوروبي كما ادخلت في روعهم ان تبني التقنيات الغربية واقتباسها يعود عليهم بنيل استقلالهم وتأييده .

من هذه العوامل المهمة في تطوير دولة الشرق خـلال الحرب وما بعد الحرب النفط والدور العظيم الذي لعبه في توفير ثروات طائلة عاد به عليهم هذا السائل الاسود الذي يفيض به بطن الارض عندهم والذي يمثل ٧٠ بالمائة من المخزون في العالم ، و ٣٨ بالمائة من انتاج العالم له عام ١٩٥٧ ، مقابل ٥,٧ بالمائة عـام ١٩٣٨ . وتدخـل انكلترا واميركا المستمر بأمور هذه البلدان وشؤون هـــذه الاقطار السياسية والاقتصادية يجب رده اساساً ليس الى ما لها من موقع ستراتيجي يكون محور الامبراطورية البريطانيـة وملتقى نفوذ الاتحاد السوفياتي والغرب فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر لوجود هذا الاحتياطي الضخم من النفط في العالم . فقد كان الشرق الاوسط حتى عام ١٩٣٣ ، المجال الذي كان او كاد ان يكون وقفاً على شركة نفط العراق وشركة النفط الانكليزية الايرانية ، ثم اخذت شركات كـــبرى عديدة من انكليزية واميركية تسهم في استثمار هذه الثروة البترولية الضخمة ، واتاحت الحرب لها الظروف المؤاتية لتسجيل تقدم كبير في هذا المجال . ففي أواخر عـــام ١٩٤٤ ، ظهرت الشركة العربية الاميركية للنفط (ارامكو) ، وتوصلت الشركات الاميركية ، عام ١٩٤٦ من الحصول على امتيازات جديدة للتنقيب عن البترول اثر الصعوبات الماليـة الـتي ألمت بانكلترا . وتشكلت كتلة قوامها السوكوني فاكوم والستاندرد اويل ونالت امتيازاً مدته ٢٢ سنة حصلت بموجبه على قسم من نفط الشركة الانكليزية الايرانيـة . والشركات الانكليزية والاميركيـة المتنافسة فيما بينها تقوم باعمال التنقيب في كل بلدان الشرق الأوسط والبحار المحيطة بها في الوقت الذي اخذت فيه الحكومات تكثر من بناء القواعد الجوية والبحرية . كما تشتد فيها سياســة التدخل لدعم نفوذها وتقوية مواقعها .

والنشاط المتزايد في استثمار الثروة البترولية كان من بعض آثاره قلب نظم الحيـاة في بعض هذه البلدان رأساً على عقب ، وذلك بانشاء منطقة رأسمالية متقدمة في هـــذا الشرق الاوسط المتخلف الذي اقتصرت فائدته على بعض منافع مادية معظمها مالية . صحيح ان عـــدداً من رجال البدو تركوا حياة البداوة وعملوا موظفين لدى بعض شركات النفط او في محطات الضخ او في حراسة خط الانابيب ، الا انهم يمثلون نسبة هزيلة من اليد العاملة المحلية ٣٤٪ بالمائة من مجموع السكان . والانتاج في مجموعه تقريباً لا يخضع لأي تصنيع محلي ، فالفـائدة تنحصر في بعض العائدات تدفعها الشركات لشيوخ هذه الامارات وحكام تلك الاقطار . فالشركات تدفع مبلغاً مسبقاً قبل المباشرة بأي استثمار كما تدفع رسماً معيناً بالنسبة لوحدة الانتاج . وتتمتع هذه الشركات الى جانب هذا بحرية تكاد تكون كاملة، دون اي مراقبة البتة لا على وسائل الاستثمار ولا على الجهات المستفيدة منه . فنحن امـام « امبراطورية صناعية في قلب دولة محليـــة » لها كل مميزات دولة اجنبية مع حق نزع الملكية واستيراد الاعتدة معفاة من كل رسم جمركي ، واعداد الموانىء وانشاء الطرقات والخطوط الحديدية . والشركة الانكليزية الايرانية للبترول التي لها امتياز استثمار حقول البترول في جنوبي ايران هي مثل على القوة التي تتمتع بهـــا شركة

أستثمار من هـــذا الشكل في قطر من اقطار الشرق . فقد كان في خدمتها اكثر من ٧٠٠٠٠ موظف وكانت المعاشات والرواتب التي تدفعها لعمالها وموظفيها تؤلف عنصراً هاماً في حيــاة البلاد المالية . فالضغط الموصول الذي تمارسه على اولي الامر والمسؤولين في ايران ، يشكل مرتكزاً هاماً لسياسة البريطانية في ايران ، ولذا كنّت لها الحركة القومية في هذه البلاد بغضاً عميقاً ، لا سيا اذا ما عرفنا ان الرسوم التي تدفعها الشركة والاجور وثمن الادوات والحاجيات التي تشتريها من البلاد لا يوازي ١٠/٠ من الدخل القومي ، وهو شيء زهيد جداً بالنسبة لـ ٣٢ مليون طن من البترول الذي تستخرجه وتصدره للخارج ، والذي يجعـــل من ايران الدولة الرابعة بين الدول الكبرى المنتجة للبترول في العالم . وعندما قرر مصدق رئيس وزارة ايران عام ١٩٥١ تأميم الشركة وموجوداتها ، فكل قوة بريطانيا تحركت دفاعاً عن الشركة ومحافظة عليهـــا : وضع الحجر على البترول الايراني الذي استمرت الدولة باستخراجه والضغط على الشركات الاميركية حتى لا تحلّ محل الشركة البريطانية الايرانية . وحدث في آخر لحظـــة ، وفي الوقت المناسب ثورة اطاحت بالحكومة الوطنيــــة واعادت الى الحكم حكومة اظهرت استعدادها لاعادة الامور الى مجراها .

والمنافسة الشديدة التي تقوم بها شركات النفط الكبرى ومن ورائهـــا حكومات الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا تظهر على اتمها في كل اقطار العالم العربي . فالمشكلة التي اثارهـــا حادث احتلال مفرزة من الجيش البريطاني لواحة البوريمي في قلب الجزيرة العربية ليست سوى مثل بسيط لهذا التنافس بين الارامكو وشركة نفط العراق ولم تلبث ان ارتدت طابعاً دولياً . والحادثة الجديدة التي وقعت عام ١٩٥٧ وراحت تهدد في الصميم المكاسب العظيمة التي تجنيهـــا هذه الشركات ، ترتبط بالاتفاق المعروف باتفاق ماتاي بين شركتي دولـة وليس بين شركتين خاصتين ، هما الشركة الوطنية الايرانية للبترول والشركة الوطنية للوقود اللتين اقترحتا عقد اتفاق جديد توزع بموجبه عائدات الشركة ليس ٥٠ ـ ٥٠ كما هو متبع اليوم ، بل ٧٥ — ٢٥ ؟ وهي شرط في صالح الدول المنتجة للبترول. فالاغراء كبير والتجربة لا تدفع امام هذه الدولة بالاخذ بمثل هـذا الاتفاق المغري والدخول في سباق التأميم .

حتى في هذه الحالات التي تستخدم فيها العائدات والمبالغ المسبقة لتحسين اوضاع هــــذه البلاد ، فهذه الثروات الهائلة التي هبطت فجأة على هذه المشيخات والامـارات تتيح لهم المجال بتكوين ثروات اسطورية يبددون معظمها في اللهو والعبث دون ان يكون لهـــا كبير اثر في تحسين اوضاع البلاد الاقتصادية ورفع مستوى العيش بين افراد الشعب . ان استثمار رأس المــال الاجنبي لثروات البلاد الطبيعية يثير الاستياء الشديد بين الزعمـــاء الوطنيين ويقوي فيهم العزم على التحرر من السيطرة الاجنبية ، لا سيما وهم يعتبرون ان هذه الموارد التي يعبث بها على هذا الشكل والتي تنفق على تأمين وسائل الاستمتاع واللذة على اختلافها، يجب ان تخصص في سبيل

تصنيع البلاد وبذلك يضعون حداً لهذا البؤس ولهذا الشقاء المريع الذي تتحكم فيه الجماهير الشعبية .

نظام الملكيات الكبيرة والبؤس الاجتماعي في الشرق

فالتغيرات التي طرأت على الاقتصاد في الشرق من جراء اقتباس التقنيات العصرية في فترة ما بين الحربين كان من نتائجها ارتفاع عدد السكان في المدن ، الذين مثلوا ٢٩ ٪ من مجموع السكان في سوريا ، و ٣١ ٪ في العراق و ٣٥ ٪ في مصر ، و ٤٠ ٪ في لبنان و ٦٩ ٪ في اسرائيل. ففي مصر بلغت الزيادة ٥٣ ٪ بين ١٩٣٧ و ١٩٤٧ ، بينما لم يزد ارتفاع عدد السكان الا بنسبة ٢٠ ٪ ، وفي تركيا ٣٧ ٪ على ارتفاع في السكان بلغ ١٧ ٪ فقد تجاوز عدد سكان الاسكندرية والقاهرة المليون في الاولى والمليونين في الثانية وسكان طهران ارتفع عددهم من ٥٣٣،٠٠٠ الى ٩٩٠،٠٠٠ بين ١٩٤٠ و ١٩٥٠ ، وفي عمان ، ارتفع عدد السكان من ٢٥،٠٠٠ الى ١٠٠،٠٠٠ . وفي هذه المدن التي ارتفع عدد سكانها بهذه السرعة ، يحتشد اناس بائسون . فالتفاوت في الدخل اتسع ورحب اكثر فاكثر ، ومستوى العيش بين هذه الجماعات البشرية انخفض وهبط نتيجة محتومة للتفاوت العظيم في توزيع الملكية العقارية والتصاعد الديموغرافي. ففي العراق راح رؤساء القبائل التي جرى تحضرها واسكانها ، والنبلاء وكبار الموظفين في البلاد ، يطالبون بملكية القسم الاكبر من هذه الاراضي التي كانت القبائل الرحل تقيم عليها . وفي خلال ٢٠ سنة ظهرت طبقة جديدة من الاغنياء العقاريين الذين استملكوا هذه الاراضي. والمزارعون الذين لم يصيبوا سوى ٢٠ ٪ من هذه العقارات اضطروا العمل فيها بأجر لا يبلغ احياناً ١/٧ غلة الارض واحياناً ١/١٤ حتى ١/٢١ . فنحن امام وضع من اسوأ ما نرى من امثاله في كل الشرق . وهذه الاقطاعية العقارية نجدها في كل من سوريا وايران حيث كبار الملاكين العقاريين الغائبين عن اراضيهم يملكون ٦٠ — ٧٠ ٪ من الاراضي الزراعية ويصيبون ٥٠ بالمائة على الاقل من غلال الارض . ففي مصر حيث ٧٢ بالمائة من مجموع السكان يملكون ١٣ بالمائة لا غير من الاراضي الزراعية ، نرى ٢٢ بالمائة منهم يملكون ٢٠ بالمائة من الارض و ٠،٤ بالمائة (اي ١١،٠٠٠ عقار) يملكون ٣٧ بالمائة ويزداد عدد السكان هنا بسرعة مذهلة (فعدد المواليد فيها يبلغ ٤٠ بالمائة) كما ان اليد العاملة متوفرة جداً في الوقت الذي بقي اجر العامل اليومي على حاله بين ١٩١٤ — ١٩٣٩ . وفي قلب البلاد العربية ، فالمشايخ الذين يقومون بامور السلطة يستأثرون بالعوائد التي تدفعها لهم شركات الزيت كأمير الكويت مثلاً الذي يصيبه ٦٠ مليون ليرة إنكليزية (بحيث اصبحوا اغنى اغنياء العالم في اكثر اقطار العالم فقراً) . وهم يروون مزارعهم بواسطة طلمبات عصرية . ففي كل مكان نرى اغنياء الملاكين العقاريين يجهزون اراضيهم باعتدة زراعية تكلف غالياً ، ويحصلون من الغلال ضعفي او ثلاثة اضعاف ما يحصل عليه جارهم الملاك الصغير ولن يلبثوا ان يبتاعوا ارضه المجاورة لهم. وهكذا ففي الحين الذي ينهار فيه النظام القبلي القائم على المساواة تبرز اقلية قوية تأخذ بالارتفاع بينما تتحكم الجماهير الريفية في الشقاء وتتكون في المدن بروليتاريا جديدة بائسة هي الاخرى.

والسكان يتزايد عددهم بأسرع مما تزداد موارد الرزق ووسائل العيش في البلاد ، في وقت يحول نظام الملكية دون استثمار مساحات شاسعة من الاراضي الصالحة للزراعة وتعجز فيه موارد الدولة عن تأمين اعمال الري والسقاية التي هي اساس كل انتاج زراعي . فالتطور الصناعي في المدن ضعيف، والصناعة اليدوية التي تأثرت كثيراً من استيراد المواد الجاهزة اخذت بالانحطاط ، ومجموع الانتاج الصناعي (بما فيه النفط) لا يزيد عن ١ بالمائة من الانتاج العالمي . ففي اي من بلدان الشرق الادنى هذه فالانتاج الصناعي لا يساهم بأكثر من الدخل القومي والقدرة الانتاجية ضعيفة جداً وكان على هذه الصناعات التي بعثتها الحرب في كل من تركيا ومصر ، ان تكيف نفسها ، بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، لتستطيع الوقوف بوجه المنافسة الدولية التي اصابتها في الصميم .ولذا رأينا دخل الفرد الواحد منخفضاً جداً، ادنى من ١٠٠ دولار في السنة في معظم هذه الاقطار ، فهو ٨٠ في العراق ، ٤٠ في الجزيرة العربية و ١٥٠ في لبنان وفي تركيا ، ومعدل الاستهلاك الذي يمكن مقارنته من هذه الناحية بالمعدل الذي تسجله اميركا اللاتينية ، هو ادنى من مثله حتى في بلدان شرقي آسيا . فالدولة اعجز من ان تواجه نفقات الاستثمارات الضرورية للمعارضة التي تلاقيها من طبقة الاغنياء،كما ان وارداتها مصدرها الضريبة على الاستهلاك والرسوم الجمركية (٦٠ – ٧٠ بالمائة من واردات الخزينة). فالنفقات العامة تروح في معظمها مرتبات لموظفي الادارة وتبدد في وجوه اخرى .

وهذا الفقر المدقع يصحبه دوماً الرزايا المألوفة : قلة التغذية، وسوء الحالة الصحية والامراض التي يجرها البؤس ورواءه ، والامية (يتراوح معدلها بين ٨٠ – ٩٠ بالمائة من مجموع السكان) . ففي كل مكان يعيش الفلاح في ظروف واوضاع لا تحتمل .

فلم نرَ في اي محل كان : الدول المنتدبة في الماضي القريب ولا هذه الاوليغارشيات التي عقبتها ، تحاول اصلاح نظام الملكية العقارية كعلاج موصوف لسد العجز في الانتاج الزراعي . فكبار الملاكين العقاريين ، تشد من ازرهم المصالح الانكلوسكسونية في هذه البلاد ، يقفون بعناد في وجه كل محاولة اصلاح من هذا القبيل . ومن جهة أخرى ، فالتوسع في حركة تصنيع البلاد يقتضي لها العديد من التقنيين الذين تفتقر اليهم البلاد . والدخل القومي المتدني وتوزيعه غير العادل يجعلان الوفر واطياً وسوء التوزيع، وتبقى القدرة الشرائية متدنية، الامر الذي يحد كثيراً من قدرة السوق المحلية . فالتسليف القصير والطويل الاجل تبقى عملياته ضيقة محدودة ، والاستثمارات عاجزة .

القلق الاجتماعي ونتائجه السياسية

الا ان التوسع في التعليم وانتشاره المتواصل منذ الثلاثينيات حتى الآن ، سواءاً أكان محلياً او تمثل في هذه البعوث التي ترسل الى الجامعات والمعاهد الأجنبية في الخارج ، خلق في البلاد طبقة من المفكرين والمتعلمين جاؤوا على الاجمال من طبقة ادنى من الطبقة التي اخرجت الطبقة الموجهة في الغرب . وقد تأثرت هذه الطبقة الجديدة ، على اقدار مختلفة بالنظم الفاشية التي استبطر شأنها

حتى عام ١٩٤٣ ، وهي على علاقات وطيدة برؤساء الجيش وقادته الذين كثيراً ما انحدروا هم ايضاً من طبقة متواضعة . وهذه الطبقة الجديدة هي التي تلعب اليوم دوراً بارزاً يزداد اهمية يوماً بعد يوم في اثارة الهيجان وتنظيم الاضطرابات ضد الدول الغربية المسيطرة ، وتهاجم الطبقات الموجهة القديمة بما فيها من المتعصبين والمتزمتين والرجعيين . وهي تطالب باصلاحات اجتماعية وتحسين وسائل الري والاساليب المستعملة في الزراعة ، كما تطالب بالتخطيط الشامل في كل ما يتصل بالتجهيز الصناعي ، وتطوير التعليم . فالصحافة والراديو يبثان الافكار الجديدة بين جماهير الشعب التي وقعت اكثر فاكثر تحت تأثيره المباشر واخذت تعي شيئاً فشيئاً ان في زوال الطبقة القديمة التي تتألف من الباشوات والبكوات المؤيدين للدول الغربية ، على الاجمال ، يكمن الشرط الاول لكل استقلال حقيقي .

ينتج من هذه الاوضاع مجتمعة حالة من عدم الاستقرار السياسي . والطبقة البورجوازية المتخرج معظم بنيها من المدارس الاوروبية تبنت نظاماً برلمانياً ليس فيه من الديموقراطية سوى الاسم . ففي كل مكان ، تحاول الاقطاعية التي لا تزال قائمة في هذه البلاد والطبقات الشعبية الجاهلة المرتبطة الى حد بعيد بكبار الملاكين العقاريين الابقاء على هذه الاوليغارشية الضيقة التي تتألف من محترفي السياسة الذين يعتمدون على الفساد والافساد والغش ويسخرون سياسة الحكومة لتأمين المصالح الشخصية العائدة لنواب الامة وممثليها ولناخبيهم معاً ، كما ان عدم توفر الأطر الفنية المتخصصة في البلاد يساعد على انتشار الفوضى والفساد في الادارة كما يدعو الى الاسراف والاتلاف في الاعتمادات المالية . وفي سبيل تصفية هذه الطبقات الموجهة القديمة ، التي ترسف في العجز والفساد والافساد والتي كثيراً ما تتخذ لها "تكأة من الاجنبي ، تحاول الحركات الثوروية والانتفاضات التحررية التي يقوم بها الوطنيون ان تحرر الحكومة ، كما وقع بالفعل في اميركا اللاتينية ، من هذه الهيئة الانتخابية التي لم تتوفر لها اسباب التعليم ولا تزال في مجموعها تتسكع في الجهل ، والتي تتأثر الى حد بعيد بجاذبية المال وتخضع لوجوه البلاد واعيانها والقوى الاقطاعية . فالثورة والدكتاتورية هما الوسيلة الوحيدة لجعل السلطة بمأمن من نفوذ كبار الملاكين العقاريين الذين يتحكمون بموارد البلاد ويسيطرون على السياسة العامة وهذا شرط اساسي لا بد منه لانجاح كل عملية اصلاح زراعي شامل في البلاد . وقد تتسم هذه الروح القومية احياناً بصفات وسمات متناقضة فهي تؤيد بكل قواها المطالب الدينية الرشيدة التي تطالب باصلاح الحياة الروحية وتنقيتها من كل ما علق بها من شوائب والتزام التقاليد القديمة التي كانت موضوع احترام الجميع ، كما انها تعارض تحرير المرأة وعصرنة الحياة الفكرية ؛ الا انها تتبنى مطالب اجتماعية جريئة جداً ، تكاد تصل الى الصراع الطبقي ، مع انها حرب عوان على الشيوعية ودعاتها .

هذه التيارات والنزعات والعار الذي لحق بالشعور العربي من جراء انكسار الجيوش العربية امام اسرائيل عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، وهي اهانة يجب ردها قبل كل شيء الى خيانات

الحكومات العربية وعجزها ، ادّت الى انتفاضات شعبية وثورات والى عدد من الانقلابات في كثير من الدول العربية . فلم يبق في كل هذه الدول العربية من اثر او ظل لهذه الديموقراطية النيابية . ففي عام ١٩٤٥ ، قُتل احمد ماهر بعد ان اعلن الحرب على المانيا باسم مصر ، وهوى بعده بضربة خنجر كل من النقراشي باشا والامام يحيى امام اليمن . وفي عام ١٩٤٩ يقوم الزعيم حسني الزعيم بانقلاب عسكري لم يلبث ان سقط هو الآخر وقتل بانقلاب عسكري قام به اللواء الشيشكلي . وفي عام ١٩٥١ ، قتل الملك عبد الله ، ملك الاردن ، بعد ما عرف من ولائه لبريطانيا واتهم بخيانته للقضية العربية . وفي عام ١٩٥٢ قام بطل حرب فلسطين اللواء نجيب ، رئيس اوكان الجيش المصري ، بانقلاب عسكري ادى الى طرد الملك فاروق الذي اعتبر مسؤولاً عن الفساد والفوضى المتغلغلين في مصر ، وعن العجز الذي تكشف عنه الجيش المصري .

وفي هذه البلدان العربية المتخلفة حيث اخذ المجتمع القبلي فيها يزول تدريجياً ، اطلت علينا طبقات اجتماعية جديدة تألفت من التجار ورجال الفكر والمتعلمين وعمال النفط اخذت تطالب باعطاء البلاد دساتير ومؤسسات جديدة وبوضع حد لعهد الفساد والتبذير الذي وقع فيه امراؤهم ومشايخهم ، والذين راحوا يستلهمون آمالهم من هذه المثالية الوطنية التي يلوّح بها « صوت العرب من القاهرة » . وقامت في العربية السعودية اضرابات وحوادث تخريب ادت الى توقيف عدد ممن كانوا وراء هذه المظاهر وتنفيذ الاعدام بالبعض منهم ، ولم تقض حركة القمع هذه على بعض الجمعيات والمنظمات العمالية التي بقيت تعمل في الخفاء وهي تتلقى المساعدات من بعض النازحين عن البلاد والمقيمين في الخارج ، في دمشق حيث تأسست الجمعية السعودية الاصلاحية ، وغيرهم ممن لجأوا الى الحبشة ومصر الاريترية ، وفي عدن او اقاموا بين عمال المرافىء في ليفربول وكرديف ومرسيليا الذين التفوا حول حزب اليمنيين الاحرار .

تأخذ الدول الغربية ، على الاجمال ، بالتأخر . فقد استطاعت انكلترا خلال الحرب ان تزحزح فرنسا من سوريا ولبنان. وبعد ان سيطرت بريطانيا في اعقاب عام ١٩٤٣ والانتصارات الدولية التي سجلها الجيش الثامن فترة من الدهر على كل بلدان الشرق الادنى ، وهيمنت بذلك على كل الشرق بواسطة الجامعة العربية التي اشرفت على انشائها والتي تشكلت نهائياً عام ١٩٤٥ ، تخلت عن دولة اسرائيل بعد ان اغدقت عليها من الحماية والرعاية ما اغدقت . الا ان معاضدتها هذه الدولة والمشكلات التي نشبت بينها وبين مصر حول مستقبل السودان وحول قناة السويس ، مسّت كثيراً من هيبتها وخلخلت سيطرتها ونفوذها ، وساعدت في تصفية النظام القديم الذي اعتمدته والسياسة التي انتهجتها في هذه المنطقة ، حتى في المملكة الاردنية صنيعتها التي اقصت من اراضيها في غرة ١٩٥٦ بكل خشونة ، الجنرال غلوب باشا مؤسس الجيش الاردني . واخذت الثورة تهدر في عدن حتى وفي البحرين . وتعددت المظاهرات المدائية

في المشيخات التسع . وفي محميتي حضرموت وعمـــان ، عجز المعتمدون البريطانيون فيهـا عن القضاء على اسباب التذمر والشقاق ، بالرغم مما عرفوا به من مقدرة ودهاء . واضطرت الحكومة البريطانية للجوء الى الطيران الملكي البريطاني للقضاء على حركات التمرد المتكررة .

لا شك قط في ان الولايات المتحدة الاميركية حلت ، الى حد ما ، محل بريطانيا في هذه الارجاء الشرقية ، ووسعت من نفوذها في الحقلين الاقتصادي والثقافي ، في الحين الذي راحت فيه المدارس الفرنسية ، ومعظمها من المدارس الكاثوليكية ، تتأخر وتسير القهقرى ، وذلك لتعويلها على الطوائف المسيحية في المنطقة وللاهمية التي اتخذتها اللغة الانكليزية في هذه البلدان ، وهي الوسيـــلة التي تؤمن الاتصالات مع الدوائر العسكرية ولا سيما مع الشركات الصناعيـــة والتجـــارية الاميركية القوية . فاليسوعيون الاميركيون في بغـــداد ، والمرسلون المشيخيون البروتستانت الملتفون حول الجامعة الاميركية في بيروت ، اخذوا يكثرون من انشاء المدارس ويجذبون اليها الطلاب وهم على شبه اليقين بانهم سيجدون وظائف لهم في هذه الشركات الاميركية . الا ان الحركة الوطنية لم تخف او تضعف من جراء ذلك ، لا سيما والاعتبارات الستراتيجيـة التي يخضع لها الاميركيون ، تحملهم هنا ، كما حملتهم في اميركا اللاتينية وفي بلدان آسيا الشرقية ، على مؤازرة الحكومات المحلية ، وهم في ذلك انما يعارضون الاهداف الاساسية المرجوة من المساعدات الاقتصادية والفنية التي يدفعونها للدول المتخلفة والتي هي بحاجة ماسة الى اصلاحات سياسية واقتصادية اساسية . فالوقوف الى جانب النظام السياسي القائم انما يعني الامتناع عن كل اصلاح في البلاد . وهذه الجهود التي تبذلها اميركا لتحافظ في وقت واحد على صداقتها لاسرائيل وصداقتها مع الدول الاسلامية ، من شأنها ان تثير الشك وتبعث سوء الظن بها . ومن جهـــة اخرى ، فالتنافس القوي القائم بين الاتحاد السوفياتي وبين الولايات المتحدة الاميركية في المجال الاقتصادي ، يوفر للدول العربية ظروف وامكانيات الافادة من هـــذه المنافسة القائمـة بين المعسكرين القائمين ، للحصول من هذا المعسكر او من ذاك على المزيد من العون المالي والتقني ، دون ان يمس ذلك من استقلالها مع بقائها على الحياد التام بين الجانبين .

اهميـــة العامل الديـــني

تأثر الاسلام ولا يزال بالفكر الغربي ، والازهر نفسه حصن الاسلام الحصين ، اخذ يستجيب شيئاً فشيئاً لهذا التغلغل . ففي عام ١٩٤١ ، قرر مجلس العلماء وضع مجموعة من الاحاديث « الصحيحة » التي جيء على ذكرها في تفسير القرآن المتصلة الينا من القرون الوسطى ، والفصل بينها وبين الاحاديث الفاسدة الموصوفة « باسرائيلية » . وهكذا نرى انصار الجديد يقدمون على النظر في الاسس التي ينهض عليهـا الدين الاسلامي . ويتفق انصار الجديد وانصار القديم على تفسير القرآن تفسيراً يؤيد المطالب القومية . وهذا ما يفسر لنا هذه الحركة الدينية الرجعية ، التي تبدو لنا في كل الاقطار الاسلامية والجهود المبذولة الصادقة التي تهدف الى جمع شمل الاسلام وتوطيد الوحدة بين شعوبه . فالايمان على أشده حيوية ، والحجاج يتوافدون الى الاماكن الاسلامية المقدسة باعداد متزايدة

سنة بعد سنة ، وقامت في المجتمع الاسلامي حركات دينية لقيت تأييداً حاراً من قبل الطبقات الشعبية ، منها مثلاً جمعية الاخوان المسلمين ، ومنها مثلاً حركة مسجومي ودار الاسلام في اندونيسيا التي تطالب بدولة اسلامية تقوم على اصول الشريعة الاسلامية ، وحزب المولى في ايران الذي يطالب بتقوية الدروس الاسلامية في المدارس الرسمية ، والجمعية الاسلامية في الباكستان ، حيث الدستور الجديد الذي وضعته البلاد ، يقوم ، كما رأينا ، على مبادىء الشريعة الاسلامية، كما نودي بالباكستان عند ظهورها : الجمهورية الاسلامية ، وجمعية العلماء في الجزائر. وفي سوريا ، استطاعت الاقليات المسيحية ، بعد جهود كبيرة بذلتها عام ١٩٥٠ ، اسقاط العبارة التي اقترح دمجها في صلب الدستور ، الاخوان المسلمون . وتأسست في الباكستان ، عام ١٩٤٨ « الجمعية الاسلامية العالمية » التي وضعت برنامجاً واحداً تحت اسم : اسلامستان . وهذه الرغبة الشديدة بتأليف الجامعة الاسلامية هي ذريعة للدفاع عن الاسلام ضد موجة روح العصر والمؤثرات الاجنبية ، كما انها محاولة للتوفيق بين الاسلام والمطالب الفكرية في عصرنا هذا . وهذه الحركة تصطدم ، بنسبة رغبتها في الانفلات من الضواغط الدينية ، بصعوبات كبيرة تتباين حدة ودفعاً بتباين الفوارق الجغرافية والتاريخية ومدى التطور في مختلف البلدان الاسلامية ، والمنافسات القائمة مثلاً بين مصر والعراق ، وبين سوريا والمملكة العربية السعودية ، وهذا التنافس القائم بين عواصم الاسلام الكبرى: بين القاهرة وبغداد وعمان ودمشق والقدس. ونلاحظ ان الدسائس التي تحيكها الدول الكبرى ، يجري احباطها بسهولة ، وقد زال الخوف تماماً من ان تصبح الجامعة العربية العوبة في يد الانكليز ، وبالرغم من هذه المنافسات الشخصية التي نراها قائمة بين بعض رجالات الاسلام وزعمائه ، فالشعور بالتضامن يزداد قوة ومتانة بين الدول الاسلامية كما تزداد المشاعر بالوحدة فيما بينها ، وكلها تنبض بالعداء الازرق لدولة اسرائيل .

تطور المجتمع الاسلامي

مما لا شك فيه قط ان بعض الاقطار العربية اخذت باسباب التصنيع ، كما نرى ذلك مثلاً في تركيا ودلتا النيل في مصر وبعض المناطق النفطية في جنوبي ايران والعراق والعربية السعودية ، كما ان البروليتاريا لا أثر كبير لها في هذه المناطق . ومع ذلك ، فلا تزال تطالعنا في بلدان عديدة من بلدان الشرق الاوسط : في جميع انحاء الافغانستان وايران وفي داخل الجزيرة العربية واليمن والعراق العديد من القبائل الرحل تشتد فيها العصبية القبلية والشعور بشيء من المساواة . ومع ذلك فالمجتمع القديم اخذ بالتفسخ والنظم الاقتصادية التي اطلت على البلاد حديثاً زادت من تحضير البدو (في شمالي سوريا والعراق وايران وشرقي تركيا) كما ان حركة استملاك الفرد للارض شددت من الفروق بين طبقة الاثرياء ، وهم قلة ، والطبقة الفقيرة، كما امكن تسجيل تطور عميق في العادات والاخلاق ولا سيما العائلية منها . فباستثناء تركيا ، كل ما يتصل بحقوق الاسرة يعود للمحاكم الشرعية كما ان تعدد الزوجات لا يزال معمولاً به . اما في المدن ، فإن كثيراً من عادات الاسرة

غلب عليه الطابع الغربي ، نتيجة محتومة لازمة السكن والرغبة بالتمتع بحياة مستقلة في منزل وضمن اطار موازنة مستقلين . والامر التي لا تزال تسيطر عليها الحياة العائلية التقليدية محصورة على الاخص ضمن المدن الصغيرة والريف حيث الناس لا يزالون متمسكين بالعادات القديمة ، ويستبد نظام الملكية العقارية وينحصر طرق استثمارها بشكل جماعي يبقيها موحدة . اما النظام القبلي وما اليه من بطون وافخاذ تقيم رئاسة شيخ القبيلة وتعترف له بالولاية ، فقد اقتصر على القبائل الرحل او القبائل الحضر . ومن النادر الآن ان يعقد زواج زوجين بالاتفاق مع اولي الفريقين دون اي تعارف سابق بين الزوجين او اتخاذ رأيها في الأمر . فالمساواة بين الزوجين اصبحت عادة مرعية في المجتمعات الكبرى كما ان مراكز تعلم المرأة آخذة بالازدياد والتوسع ، واخذت المرأة تعمل او ترافق زوجها في ما يشترك فيه من اجتماعات وافراح وحفلات وزيارات. وللمرأة حقوق سياسية متساوية مع الرجل في كل من تركيا وايران وسوريا (١٩٤٩) ولبنان (١٩٥٢) ، وللمرأة حق الاقتراع في مصر منذ ١٩٤٢ . والحجاب الممنوع استعماله في كل من تركيا وايران ، آخذ بالزوال تدريجياً في جميع هذه الاقطار . وازياء اللبس والوان الطعام والاثاث والفروشات تأخذ اكثر فاكثر طابعاً غربياً .

الا ان انصار القديم والرجعيين يستمرون في معارضة هذه الحركة التجددية ، ويقاومونها بكل ما لديهم من حول وطول ، ويهاجمونها على المكشوف كلما سنحت لهم الظروف المسعفة . ودشن الشاه محمد رضا ، في ايران منذ عام ١٩٤١ ، « عهداً جديداً » بتخليه عن السياسة الاصلاحية التي سار عليها منذ عام ١٩٢٧ رضا بهلوي ، واعاد العمل بالحجاب ، وفتح الباب على مصراعيه امام نشاط الجمعيات الدينية الاسلامية ، وطبقة المولوية الذين عادوا الى الزي الذي كان لهم من قبل ، كما عاد الاتراك منذ عام ١٩٤٨ ، للعمل بفريضة الحج .

الحركة الرجعية ضد الكمالية في تركيا

وقامت في تركيا حركة رجعية مناوئة لحزب الشعب الجمهوري الذي شكله مصطفى كمال ، والذي انشأ في البلاد نظاماً جديداً قضى على كل العناصر غير التركية المسيطرة على مرافق البلاد الاقتصادية ، وانتهج سياسة الاكتفاء الذاتي، اخذت تشجع الانتاج الزراعي والصناعي في البلاد. لم تعان البلاد كثيراً من الحرب الاخيرة وعرفت كيف تحافظ على الحياد بعد ان خطب ودّها كل من المعسكرين المتحاربين محاولين جرها للخروج على سياسة الحياد لما فيه مصلحته الخاصة . كذلك رحبت بحرارة بكل الطلبات التي شجعتها على الانتاج كما ان البريطانيين ساعدوها كثيراً على تجهيز موانئها والنهوض بصناعتها . ومع ذلك فقد استولى على البلاد منذ وفاة اتاتورك عام ١٩٣٨ شعور بالقلق واستعادت العناصر الرجعية الكثير من نفوذها ، واخذت بمنافسة حزب الشعب ومحاربته على المكشوف ، هذا الحزب الذي استأثر بالحكم منذ عشرين سنة وافنى نشاطه في ادارة البلاد . كما ان مطالب السوفيات حول الملاحة في المضايق عززت التيار الرجعي ومن جهة ثانية ، فقد اصبحت تركيا ، منذ عام ١٩٤٧ عاملاً قوياً في الخطة الستراتيجية

الاميركية في الشرق الأدنى . وكانت مع اليونان من اوائل الدول التي أفادت من مشروع ترومان ، كما ان الولايات المتحدة الاميركية امدتها بنصف المبالغ اللازمة لتنفيذ الخطة الخمسية لعام ١٩٤٨ – ١٩٥٢ . وبعد ان ارتدت المساعدة الاميركية طابعاً عسكرياً في بادىء الأمر اتخذت لها فيما بعد طابعاً اقتصادياً صرفاً ، وقامت على شروط واضحة جلية استوجبت التخلي عن المبادىء التي سارت عليها السياسة الكمالية ، منها التزام الحكومة التركية اعطاء الأولوية للشركات الاميركية ، البحث عن النفط في البلاد ، مع ايلاء هذه الشركات حق استثمار موارد البلاد النفطية والتسليم باشراف الحكومة الاميركية على كيفية انفاق هذه الاعتمادات ، وبعبارة اخرى حق مراقبة السياسة الاقتصادية التي تنتهجها ، والتعهد بعدم فرض رسوم تمييزية على رؤوس الاموال الأجنبية .

وهذا التبدل في سياسة تركيا الاقتصادية ادى بالتالي الى تعديل سياستها العامة . وهذا التعديل اوجبته الانتخابات العامة التي جرت في البلاد عام ١٩٥٠ ، والتي أدت الى فوز حزب المعارضة ، الممثلة في الحزب الديموقراطي ، اقوى الاحزاب التركية الذي نال ٥٣٪ من اصوات الناخبين وفاز بـ ٤١١ مقعداً من أصل ٤٨٧ مقعداً . وعلى اثر هذا النجاح، سمح رئيس الوزارة التركية الجديد مندريس بدخول رؤوس الاموال الاجنبية الى البلاد، كما اجاز اخراج ١٠ بالمائة من مجموع الفوائد . واضطر عام ١٩٥٣ التسليم بسحب رؤوس الاموال المستثمرة مع فوائدها بالحال دونما اي حد او قيد والتلطيف من احكام القانون التجاري التركي في كل ما يتصل بالشركات الأجنبية . وكان من بعض نتائج « سياسة التدخل هذه من قبل الولايات المتحدة الاميركية » ، زيادة محسوسة في انتاج البلاد الزراعي والمعدني قابلها من جهة ثانية فرض ضرائب ورسوم مرزحة لتقوية الدفاع ، كما ادى الامر الى خلخلة ميزان التجارة الخارجية والى ارتفاع مريع في الأسعار اصاب بالاخص الطبقات الشعبية . ان قسماً طفيفاً من سكان البلاد عرف ان يفيد من ارتفاع الانتاج . فالبلاد ترزح تحت وطأة بطالة قوية (قد تبلغ ٣ ملايين عاطل عن العمل في عام ١٩٦٤) كما ان اكثر من ٨٠٠٠٠ عامل تركي نزحوا عن البلاد بحثاً عن عمل مجدٍ لهم في الدول الصناعية في غربي اوروبا ، ولا سيما في المانيا .

ومن جهة ثانية راح الحزب الديموقراطي في الوقت الذي يعلن فيه ولاءه لمبادىء الدولة العلمانية ، يعتمد على احزاب اليسار اي على هذه العناصر الاسلامية الرجعية التي لم تُلقِ قط سلاحها . والقانون العقاري الذي صدر عام ١٩٤٥ ، والذي جعل الملكية الخاصة في حدود ١٢٠٠ فدان ، لم يجر تطبيقه ، وهذه الحرية السياسية التي مهدت الطريق امام الاحزاب للظهور في البلاد من جديد ، مكنت الاحزاب الرجعية على اختلافها من دينية وسياسية واقتصادية ، من الافادة من هذه لاسترجاع السلطة التي فقدتها .

وهذا الدفع الرجعي الذي ادى الى فرض دكتاتورية فعلية على البلاد ادت الى مظاهرات بين الطلاب وضباط الجيش ضد حكومة مندريس البوليسية الفاسدة والى استيلاء الجيش على السلطة

في أيار ١٩٦٠ . ومنذ هذا التاريخ ، بقيت السياسة التركيـــة كريشة في مهب الريــح واكثر اضطراباً من أي وقت مضى لما انتابها من انقلابات عسكرية ومن مظاهرات صاخبة ضد اكثرية نيابية رجعية . ومن جهة ثانية ان خيبة الامل التي سببتها الازمة القبرصية ، وتعذر الوصول الى حل مرض سبب شيئاً من التراخي في علاقات تركيا مع الولايات المتحـدة الاميركية ، كما احدث في البلاد دفعاً قوياً لالتزام موقف محايد .

اعلان الجمهورية في مصر

اعترفت المعاهدة المعقودة عام ١٩٣٦ باستقلال مصر ونصت على قيام تحالف دائم بينها وبين بريطانيا العظمى . الا ان بريطانيـا ابقت لها حاميات عسكرية استقرت في القواعد التي احتفظت بها في منطقة القنال،محافظة عليها كما ان قضية السودان لم تلاق الحل الذي نشدته مصر . كل هـذه الامور كان من شأنهـا ان تهيج الرأي العام المصري بدلاً من تهدّىء من روعه.وجاءت الحرب تزيد من نفرة البلاد وتذكي الحفائظ ، وتنكأ الجروح . اضف الى ذلك غطرسة الجنود البريطانيين الذين مـا زالوا ينظرون الى مصر نظرتهم الى بلاد محتلة ، وتجنيد الالوف من المصريين للعمل خدامـاً في مصـالح الجيش البريطاني ومصادرة جمالهم لتأمين وسائل النقل في الجيش واستياء المدن لارتفاع اسعار الحاجيات فيها ، وعندما سجل القائد الالماني رومل انتصاراته البـاهرة في الصحراء ، قابلها الطـلاب المصريون بمظاهرات داوية يهتفون فيها باعلى اصواتهم . « نحن رجالك يا رومـل » ، وكان لا بد من ان توجه قيادة الجيش انذاراً مدعوماً بمناورات عسكرية اضطر معها الملك من استبـدال رئيس الوزراء.ودارت عام ١٩٤٥ مفاوضات بين الجانبين لتحديد موعد مغادرة الجيش البريطاني مصر ولحل مشكلة السودان ، انتهت الى فشل ذَريع عام ١٩٤٧ ، وزادت من الهياج في البلاد . وفي نهاية الامر ، عمد الوفد وهو الحزب الحاكم ، عام ١٩٥١ ، الى الغاء المعاهدة المعقودة عـام ١٩٣٦ « ونادى بالملك فاروق ملكاً على مصر والسودان » . واشتـدت اذ ذاك المظـاهرات وحوادث الاعتداء على الاجانب في البلاد ، كما اشتدت المناوشات مع وحدات الجيش البريطاني وراح الاخوان المسلمون يغذون الاضطراب في البلاد ، وهو حزب ديني عرف برجعيته وبتعصبه جمع معظم انصاره ومؤيديه من الطبقات الشعبية في الريف تجاوز عددهم في مصر الـ ٥٠٠،٠٠٠ من الاعضاء . وهنالك قوة اخرى تألف معظمها من بروليتارية المدن ، والنقابات العمـالية التي اصبح قيامها شرعياً منذ عام ١٩٤٢ وقعت هدفاً رئيسياً للدعاية الاشتراكية والشيوعية . واخذ نفوذها يتعاظم ويشتد ، ملقية بكل ثقلها في الكفاح الوطني وحركـة التحرر . وقد زاد من حدة الاضطراب الاجتماعي، مستوى العيش المتدني كثيراً سواء بين سكان الريف او بين سكان المدن ، والانكسار العسكري امام اسرائيل من جراء خيانة الحكومة ، والقلق الاجتماعي المستحوذ على البلاد ، افضيا في تموز ١٩٥٢ الى سقوط الملكية . وتم الوصول الى اتفاق مـع انكلترا حول تأمين الدفاع عن القنال بعد ان تقرر اخلاؤه من الجيش البريطاني عـام ١٩٥٥ . والنظام الجديد الذي اطل على البلاد وامن لها الاستقلال الناجز حرص على تحقيق اصلاح زراعي

فيها . وصدر عام ١٩٥٢ قانون صودرت بموجبه الاملاك التي تزيد مساحتها على ٢٠٠ فدان(٨٤ هكتاراً)وهكذا اصبح في الامكان توزيع ٦٥٥،٠٠٠ فدان ، اي ١١ ٪ من الارض القابلة للزراعة في البلاد انتزعت من عدد من كبار الملاكين يتناوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ لتوزع على صغار الفلاحين. كذلك الغيت الاوقاف الخاصة التي تقطع جانباً كبيراً من مساحة البلاد ووزعت على عدد من المصريين لا اراضي لهم .

واخذت مصر تلعب دوراً بارزاً في هذه المنطقة باعتبارها مركز الجامعة العربية واهم دولة اسلامية في الشرق الادنى من حيث عدد السكان وازدهار الثقافة العربية التي هي مركز من مراكزها الهامة ، وبفضل هذه الحيوية العارمة التي ميزت عهدها الجديد ، وهذه الاصلاحات الاجتماعية التي باشرتها ، والسياسة الخارجية النشيطة التي انتهجتها . فقد لجأ اليها واحتمى في حماها عدد من الزعماء الوطنيين جاورها من شمالي افريقيا ومن جميع اطراف القارة الافريقية . وهي محور نشيط بين هذه المحاور الداعية الى الجامعة الاسلامية .

الشرق منذ « حادثة السويس »

ورغبة مصر هذه التي يشاركها فيها جميع العالم الاسلامي بأسره بانتهاج سياسة تحضير واستقلال وحياد ايجابي لم تكن بعيدة عن هذه الأزمة الدولية الحادة التي ساعدت كثيراً منذ عام ١٩٥٦ في اضرام الثورة في جميع بلدان الشرق الاوسط . وتوطد مركز مصر على اثر شجب الامم المتحدة لاسرائيل عندما قامت بمساعدة بريطانيا العظمى وفرنسا بمهاجمة ترعة السويس وفشل هذه السياسة العدائية . وقد اجريت تغييرات جذرية في نظام مصر الاقتصادي الذي اصبح بمجموعه تحت مراقبة الدولة ، وبذلك اكملت عملية تأميم السويس ، وعملية تمصير المصارف وشركات التأمين (معظمها بيد الفرنسيين والبريطانيين)،وانشاء الهيئة الاقتصادية العليا التي كانت في الوقت ذاته اشبه ما تكون بشركة مركزيةووكالة استثمار مكلفة بمراقبة كل الانشاءات الاستثمارية العامة في البلاد والاستثمارات الاخرى التي تقوم بها الدولة نفسها . ومن جهة اخرى ، وسعت مصر ، بفضل المساعدة المالية والفنية التي تلقتها من الاتحاد السوفييتي من نطاق علاقاتها الاقتصادية والتجارية مع دول شرقي اوروبا وآسيا لا سيما الاعتمادات المالية التي سلفها الاتحاد السوفياتي بفائدة ٢،٥ بالمائة لشراء الاجهزة والاعتدة الصناعية ولبناء سد اسوان الذي من شأنه ان يزيد انتاجية مصر الزراعية اكثر من الثلث ، اي توفير الغذاء لما فيه كفاف العيش لهذه الاجيال التي ستطلع على البلاد في السنوات العشر القادمة . والقوانين الزراعية التي صدرت عام ١٩٥٢ (والتي قضت بتوزيع الاراضي على مليون من الفلاحين) والقوانين الاخرى التي صدرت عام ١٩٦١ التي خفضت الملكية الفردية الى ١٠٠ فدان لا غير (٤٢ هكتاراً)، لم ترفع الانتاج الزراعي الى ما يتفق مع معدل زيادة السكان الذين ارتفع عددهم من ٢٠،٥٠٠،٠٠٠ عام ١٩٥٠ الى اكثر من ٢٦ مليوناً عام ١٩٦٠ (وهي زيادة جاءت بنسبة ٢٧ بالمائة) . ولذا كان لا بد من زيادة مساحة الاراضي الزراعية عن طريق ري المناطق الصحراوية ، وتطوير الصناعة في البلاد التي يعمل فيها الآن

اكثر من ٧٠٠٠٠٠ عامل وتؤمن ٢٠ بالمائة من الدخل القومي (مقابل ١٠ بالمائة في عام ١٩٥١). ومع ذلك فالبؤس لا يزال على اشده في البلاد . وعدد العاطلين عن العمل ، لا سيا في صفوف الشباب ، كبير جداً في المدن ولا سيا في الريف (من ١٥٠ ـ ٢٢٠ يوم عمل في السنة لا غير) .

وهذه الدولة الاشتراكية المستبدة منذ عام ١٩٦٣ التي تتألف منها مصر يتولى الامر فيها الجيش . فالجيش هو الذي يؤلف ملاكها الرئيسي منذ ان ابعدت الاصلاحات الاقتصادية وعملية التأميم والاستملاكات ، العناصر الاجنبية وهذه البورجوازية العقارية والصناعية التي كانت مسيطرة عليها . وهذا الجيش المستمد عناصره الأولى من صغار البورجوازيين والذي يرتفع افراده فوق مستوى الشعب بما تم لهم من تدريب فني ، والذي يرغب صادقاً في عصرنة هيكل دولة وادارتها ، يحتل المراكز الهامة في الادارة وفي المؤسسات الاقتصادية التابعة للقطاع العام او القطاع المزدوج ، كما يحتل معظم المراكز الدبلوماسية ، اذ ان ١٠ اعضاء من اصل ١٢ عضواً الذين يؤلفون مجلس الرئاسة الذي يحيط بالرئيس عبد الناصر هم من الضباط . وقد استحال الجيش الى طبقة موجهة مهمة يعتمد كلياً على البورجوازية الصغرى في المدن وعلى صغار الملاكين، الذين ينعمون بعيش اهنأ من العيش الذي يحياه اصحاب الحظوظ البائسة في الارياف (١٤ مليوناً من اهل الريف لا املاك لهم من اصل ١٩ مليوناً) ومن المدن (٤٠٠٠٠٠ من اصل ٨٠٠٠٠٠) الذين يشكون قلة التغذية وبؤس البطالة . وهذه الطبقة الجديدة تنهض عالياً بالتقاليد الوطنية والاسلامية ، وتحاول ان تنشىء دولة علمانية عصرية . ومنذ ان فشلت تجربة وحدتها مع سوريا (التي دامت ٣ سنوات) وحملتها على اليمن وسياسة التقرب من العراق ، فهي تشدد على الجامعة العربية ، اي تنشد التعاون الفعلي بين الدول العربية لما فيه خير التطور الاقتصادي للمجموعة العربية .

فمنذ الثورة التي قامت بها سوريا عام ١٩٥٨ وادت الى الوحدة مع مصر ، وثورة العراق التي اطاحت بنظام الملك وبحكومة نوري السعيد ، تحاول هذه البلاد ، على غرار مصر ، تحقيق اصلاح زراعي شامل. فقد صادرت الحكومة في سوريا ١٥٠٠٠٠٠ هكتار من ٣٢٠٠ من مالكيها من كبار العقاريين والحد الاعلى للملكية العقارية جعل ٤٠ هكتاراً من الاراضي المروية ومن ٣٠٠ هكتار من الاراضي البعلية . الا ان العملية تجري ببطء كلي . اما في العراق فقد حدد القانون الصادر عام ١٩٥٨ الحد الأعلى للملكية الخاصة بـ ٢٥٠ هكتاراً (من الاراضي المروية) و ٥٠٠ هكتار (من الاراضي البعلية) . وفي ايران ، صدر عام ١٩٦٢ قانون ، كان ايسر تطبيقاً وتحقيقاً ، جعل الحد الاعلى للملكية الخاصة ما يوازي مساحة قرية ، ومن من اصحاب الاملاك يملك اكثر من مزرعة او قرية عليه ان يختار احداها ليتخلى عن الاخرى للحكومة التي تشتريها منه ثم تعمد الى قسمتها بين المزارعين. وعلى الملاكين الجدد ان يؤلفوا من بينهم تعاونيات زراعية . ففي عام ١٩٦٣ ، جرى تقسيم مساحة ٨٠٠٠ قرية او ضيعة على ٢٧١٠٠٠ اسرة من الفلاحين ، كما الفوا من بينهم ٢٣٠٠ تعاونية زراعية .

٣ — اسرائيل المعجزة (١)

في هذا العالم الاسلامي الآخذ بالاختمار والتفاعل ، قام عامل جديد سمم العلاقات بين دول هذه المنطقة وعكّرها وساعد في نهاية الامر على اثارة الشعور القومي واذكاء الحقد ضد الدول المسيطرة على المنطقة ، تمثل بانشاء دولة اسرائيل .

من الوطن القومي الى دولة ذات سيادة

كان هذا الوطن القومي لليهود في فلسطين الذي أنشأته انكلترا خلال الحرب العالمية الأولى يضم عام ١٩٣٥ نحواً من ٠٠٠ ٣٦٠ ١ نسمة منهم ٢٨٪ من اليهود . الا ان شراء المنظمات الصهيونية لأطيب الاراضي ، والتطور المظيم الذي اخذت باسبابه المدن والصناعات في البلاد ، اثار بين اكثرية سكان البلاد من العرب موجة عارمة من الاستياء والهياج لما استهدفوا له من كبت وضغط وتضييق اقتصادي اضطرت معه الحكومة البريطانية للتخلي عن سياستها التقليدية المشوبة بالعطف على السامية . فقد أبت عليها الاعتراف رسمياً بالقومية الفلسطينية ولم تسلم الا في سنة ١٩٤٤ بتشكيل فرقة يهودية خاصة لها اعلامها وشاراتها الصهيونية . ومراعاة منها لجانب عرب فلسطين والبلدان المجاورة الاخرى التي كانت انكلترا ترغب جداً في بقائها على الحياد في الوقت الذي اخذ تقدم الجيوش النازية في شمالي افريقيا يهدد البلاد ، وراحت تطبق بكل دقة القوانين التي وضعتها عام ١٩٣٩ ، للحد من الهجرة ، الامر الذي اغاظ اليهود واثار حفيظتهم بعد ان سُدّت ابواب الدخول الى فلسطين في وجه بضعة آلاف من اخوانهم وأبناء جلدتهم ذهبوا فريسة للمظالم النازية واضطهادهم الشديد . وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى قامت بين بريطانيا واليهود مناوشات دامية كانت اشبه بحرب مكشوفة . واخذ الانكليز يوقفون في طريق سفرهم النازحين سراً من اليهود الى فلسطين ويرسلونهم الى معتقلات اقاموها في قبرص ، واخذ الاسطول البريطاني يطارد كل سفينة من أي نوع كانت تحمل على ظهرها مهاجرين يهود الى فلسطين ولا سيما من يفر منهم من المعتقلات التي كانوا يرسفون فيها في بلدان اوروبا الوسطى ، او يهربون من اعمال التصفية التي تعرضوا لها في بولونيا حتى ان بعضهم اخذ ينتحر ويضع بيده حداً لحياة بائسة يائسة . ولعل افظع هذه الحوادث وابرزها هو حادث السفينة اكسودوس التي خرجت من همبورغ في ايار ١٩٤٧ حاملة عدداً من اليهود ، اذ ما كادت تطل على ارض فلسطين حتى أجبرت على العودة من حيث أتت وعلى ظهرها هذه القطعان من مهاجري اليهود . وراحت المنظمات الصهيونية شبه العسكرية السرية كنظمة شترن والارغون تشن سلسلة من الهجمات على الحاميات البريطانية المرابطة في البلاد ، وقامت باعمال تخريبية كنسف الخطوط الحديدية ، ومهاجمة وحدات الجيش ، واعمال ثأرية اخرى مضادة لتنفيذ الاحكام الصادرة ضد اليهود . وفي تشرين الثاني ١٩٤٧ ، أقرت الجمعية العامة في الامم المتحدة تقسيم فلسطين الى دولتين : يهودية وعربية ، وفقاً لتوزع السكان ، ونصت على اعطاء النقب ، هذه المنطقة

(١) او « رأس جسر للاستعمار الانكليزي الاميركي في الشرق » كما يقول نهرو — الناشر

الصحراوية للدولة اليهودية . وقد رفض العرب هذا الاقتراح وقامت تحشدات من المتطوعة المسلمين في سوريا والعراق ولبنان حتى ومن الباكستان ، كما دخلت جيوش ست دول عربية مجاورة تهاجم المناطق اليهودية في فلسطين وبالرغم من ضعف تسلحهم ومن تفوق الجيوش العربية العددي ، استطاع اليهود الصمود لهذا الهجوم بعد ان اخذت الجاليات اليهودية في جميع انحاء العالم تمدهم بالمتطوعة والاسلحة والمال ، وبرهنوا عن روح حربية وعن كفاءات عسكرية لم تكن المرويات المروجة عنهم لتعترف بها بل تنكرها عليهم . وقد استطاعوا التغلب على هذا الحشد العسكري العربي وتفادي ما كان يتوقعه الجميع .

الحركة السكانية الجديدة

ومنذ ذلك الوقت اخذت وفود اليهود تنزح قادمة الى الدولة الجديدة التي كانت مساحتها توازي نصف مساحة سويسرا ، مع العلم ان ٧٢ بالمائة من هذه المساحة هي ارض صحراوية تتألف من النقب . وقد قدم هذا السيل من مهاجري اليهود من جميع انحاء العالم ولا سيما من هذه البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط والاقطار الشرقية . ففي عام ١٩٥٤ كانت الدولة اليهودية تعد ٠٠٠ ٧١٧ ١ نسمة ، بينهم ٠٠٠ ٥٢٦ ١ من اليهود ، وبعض المسيحيين واقلية من عرب فلسطين(٠٠٠ ١٨٠) ضعف جانبهم بعد نزوح أكثر من ٠٠٠ ٨٠٠ عربي ، غادروا البلاد خوفاً او بسبب الاعمال الحربية . وقانون العودة الذي صدر عام ١٩٥٠ ينص على ان كل يهودي له الحق بالعودة الى البلاد كمهاجر ، وان بمجرد عودته الى البلاد يصبح تلقائياً من الرعوية الاسرائيلية . وكان من نتائج هذا التشريع ان من اصل عشرة من سكان البلاد ، ٩ منهم يهود . الا ان تباين الاجناس واختلاف المشارب والعادات ونمط العيش وتباين المستوى الحضاري بين هذه العناصر المتعايشة جنباً الى جنب جعل من العسير جداً عملية مزج الجوالي اليهودية الغريبة الاصل : من روس بيض وبولونيين وبلطيين والمان ومجر وبلقانيين مع يهود شمالي افريقيا وبلدان الشرق الاوسط الذين دخل نصفهم البلاد بعد عام ١٩٤٨ ، كما قامت صعوبات اعترضت عملية تنظيم هذه العناصر وصهرها معها . وهؤلاء السكان الجدد يختلفون اختلافاً كبيراً عن السكان القدامى في البلاد الذين تألف معظمهم من طلائع الصهاينة الذين قدموا الى فلسطين ومن بناة الوطن القومي من اصحاب رؤوس الأموال . فألفوا معاً فئة اشتراكية النزعة متجانسة من اصل اوروبي واحد ، ضعيفة النزعة الدينية ، كانت وضعت منذ عام ١٩٤٠ ، على النمط الاوروبي او الاميركي ، جميع أطر الدولة ومؤسساتها . فالموجة الجديدة من المهاجرين اليهود تألف معظمها من يهود نجوا من مخيمات الاعتقال في اوروبا حيث رسفوا في الذل والمهانة عرضة لصنوف الاضطهاد وألوان العذاب او من يهود نزحوا من الاقطار العربية المجاورة او جاؤوا من الاقطار الاسلامية الآسيوية من شمالي افريقيا ، من يمنيين وعراقيين وليبيين ، لا مال عندهم ولا حرفة لديهم يعولون عليها في معايشهم ، بعد ان عاشوا في ظروف واوضاع صحية سيئة . مستوى العيش عندهم من ادنى المستويات ، معظمهم اميون ، لا يفقهون شيئاً من ابسط المبادىء التي تقوم

عليها الحضارة الغربية يستهجن الاوروبيون منهم نمط العيش الذي يسيرون عليه » . وقد أدى هذا الوضع الى اوهان روح الريادة والطليعة والى إضعاف المثل العليا التي جاشت في صدور من كانوا طلائع الحركة الصهيونية ، ولا سيما إضعاف روابط التعلق التي تشد الدولة الجديدة بالديموقراطية ، وبالتوجيه الغربي كما اشتد جانب اليهود الشرقيين في البلاد . وهكذا فالمجتمع اليهودي في اسرائيل ينقسم الى شطرين متباينين في المجال الحضاري ولا سيما الاجتماعي منه ، اذ ان للعناصر الشرقية في البلاد شأن ادنى من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية من العناصر اليهودية الغربية . والاختلاف بينهما يشتد على الأخص حول فكرة تشكيل المجتمع الجديد ، الذي يقترح القدامى منهم ان يكون مجتمعاً علمانياً بينما يرى القادمون حديثاً الى البلاد ان يكون وفقاً للتقاليد اليهودية المتوارثة . فالهم الاكبر الذي يجول في خاطر الطبقة الموجهة الغربية النزعة والاتجاه هو طبع الدولة الاسرائيلية بطابع « دولة غربية » في قلب المحيط العربي ، وهي فكرة تجاريها العناصر الحديثة العهد في البلاد يشد من ازرها الفرقة المعروفة بالأشكانازيم *Ashkenazim* التي تتألف من ضمنها عدة أحزاب سياسية ناشطة .

التنظيم الاقتصادي في البلاد

هذا التيار العارم من المهاجرين أفقد البلاد توازنها واضطرها الى انتهاج سياسة شديدة، صارمة من التقييدات والتضييقات عرفت عندهم بسياسة شد الحزام (*Tsénâa*) لم يستطع تقبلها والعمل بها عناصر عديدة من الوافدين على البلاد حديثاً ، مما عقد العلاقات بينهم وبين العناصر الاخرى المستقرة في البلاد من عهد بعيد مما ادى ببعضهم الى مغادرة البلاد والنزوح عنها من حيث اتوا . ولتأمين اسباب العيش لهؤلاء السكان الآخذ عددهم بالارتفاع السريع في رقعة من الارض ضيقة وفقيرة ، يحتشد في مدنها الكبيرة نصف السكان ، كان لا بد من تطوير الصناعة ولا سيما الزراعة . فقد كان سبق لادارة البلاد ، قبل عام ١٩٤٠، ان شجعت كثيراً الاهتمام بالزراعة الى جانب القطاع الخاص، وتشجيع التعاونيات المجتمعية « الكيبوز » . وقد استمر الاتحاد العام للعمال (الهستدروت) المرتبط بحزب العمال (الماباي) ، هذا الاتحاد الذي يضم ٧٥ بالمائة من مجموع العمال في البلاد (بين يهود وعرب) في مراقبة حياة البلاد الاقتصادية بما له من تعاونيات تؤلف شبكة تتصل حلقاتها بجميع اطراف البلاد، وبما لها من مصارف وشركات تأمين تسلف الاعتمادات اللازمة للنهوض بالمشروعات الاستثمارية على اختلاف انواعها من تجارية وصناعية وزراعية، وبما لها من ضمان اجتماعي ومدارس ومعاهد ومشاريع عمرانية واشغال عامة ، وهي منظمات تعمل الى جانب تعاونيات خيبوتزين التي لا تزال قائمة مع انها فقدت جانباً من اهميتها ، اذ كانت تضم ٣,٧ بالمائة من مجموع السكان في سنة ١٩٥٦ مقابل ٧,٥ بالمائة عام ١٩٤٧ ، وهو دليل واضح على تقهقر القطاع الاشتراكي بالنسبة للقطاع الخاص . ان ازمة تضخم النقد خلال فترة الحرب كان من نتائجها المحتومة قبول بعض التنازلات للقطاع الخاص ، وبذلك مهدت الطريق لطلوع « طبقة جديدة من الأثرياء » . ومن جهة اخرى اعرب المهاجرون الجدد الى البلاد عن رغبتهم في العيش في المدن، او كمزارعين

يعملون في مستعمرات زراعية كملاكين صغار ، يملكون منازل سكنهم وحيواناتهم أليفة وحظائر لتربية الدجاج ، يحصلون على رزقهم من خبايا الارض . فالارض تؤجر لمدة ٤٩ سنة ، الا ان ادوات العمل فيها والاجهزة الزراعية الصناعية تستعمل مشاركة وتباع مواسمها وغلالها لاحدى التعاونيات الزراعية ، وتشتري منها المواد الاستهلاكية . وهكذا نرى ان الكيبوتزين المعروفة تجتاز ازمة شديدة من جراء تناقص عقود الايجار ومن جراء اجتذاب رواد الحركة وطلائعها الذين ساهموا في الحروب ، العمل كموظفين في الادارة العامة او على رأس التعاونيات والنقابات العمالية .

ان تحسين الانتاج الزراعي وتطوره يتوقف قبل كل شيء على اعمال الري التي اشرف على تنفيذ قسم منها في وادي النور وفي النقب المهندس المعروف لودرميلك ، والذي يقترح فتح قناة تصل بين البحر الابيض المتوسط وبين البحر الميت وهو مشروع يمكن استخدامه لتوليد طاقة كهربائية هائلة . وقد زادت مساحة الارض المروية في البلاد اكثر من ستة اضعاف .

ان عملية افراغ السكان وصهرهم في بوتقة واحدة وقولبة هذه العناصر المتباينة في قوالب اجتماعية وثقافية واحدة أمكن تحقيقها بواسطة الشبيبة . فالوسط المدرسي او الجامعي هنا كما في الولايات المتحدة نجح الى حد بعيد، في اقلمة الطالب او تدجينه ودمجه في المجتمع الاسرائيلي كما ان الجيش والخدمة العسكرية هما من خير الوسائل لتحقيق هذه الوحدة وانجاح عملية الصهر الاجتماعي ، اذ الشعار المعمول به هو : «خلق احسن جندي من كل مواطن وخلق احسن مواطن من كل جندي » ، وهو شعار امكن تنفيذه وتحقيقه الى الحد الاكمل بواسطة تعلم اللغة الواحدة ، ودروس التاريخ ودروس التربية المدنية ، التي تعطى للجندي كما يعطى دروساً مهنية او حرفية توليه مهنة يعتاش منها عند نهاية خدمته في الجيش . واللغة عامل اساسي في عملية التوحيد والصهر : فجميع من يحسنون اللغة العبرية ويجودونها يشكلون من بينهم الوفاً من خيرة الاساتذة والمدرسين يتبرعون لتدريس هذه اللغة ولتلقينها لمن يجهلونها في ساعات فراغهم كما يخصصون كل اسبوع ، ساعة او ساعتين من اوقات فراغهم لتعليم العبرية لشخص او اثنين أو لتدريس بعض الفئات المتأخرة . وهذا الترابط والتضامن الوطني يشد من ازره ويقوي من لحمته عامل خارجي ، هو عداء الدول العربية لاسرائيل .

ودولة اسرائيل هذه هي الوحيدة بين دول الشرق الاوسط التي تشيل فيها الصناعة على الزراعة : هنالك طبيب واحد لكل ٣٨٠ شخصاً من سكان البلاد . كما ان معدل دخل الفرد الواحد هو ٤٠٠ دولار في السنة . فهي في غاية الازدهار ، هو ازدهار يقوم على قواعد اقتصادية سريعة العطب ، ولا يستمر الا « بفضل ما يتلقاه باستمرار من رؤوس اموال ترد عليه من الخارج » . واسرائيل التي تحيط بها دول معادية تحلم دوماً بأخذ الثأر من الهزائم النكراء التي لحقت بها عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ترى نفسها دوماً اكثر فأكثر بحاجة ماسة للتجهيز والتنظيم والحفاظ على جيش قوي يكلف بقاؤه على خير استعداد ، غاليا ، والدفاع عن حدودها الطويلة

لمنع تسرب عناصر معادية الى داخل البلاد ولرد تعديات المهاجين من الفدائيين ولتقوية وحدة البلاد . ولذا تبدو لنا الروح القومية فيها متشددة وتتكيف باستمرار وراء العنصر الديني . فالتقاليد والمشاعر الدينية قوية جداً، ومؤسساتها راعت دوماً في تشكيلها طابع الديانة الموسوية (كعقود الايجارات المعقودة لاجل ٤٩ سنة كما جرى على ذلك البنك الوطني اليهودي للتسليف الزراعي) . وتلعب الاحزاب الدينية التي يتألف من مجموعها حزب ديني موحد ، دوراً بارزاً في حياة الأمة وتطبعها بطابع ديني بارز وفقاً لمناسك العبادة الموسوية، كاحترام العطلة يوم السبت والتقيد بلحم الكاشير *Kasher* في كل ما يتعلق بأمور التغذية ، والامتثال لكل الاجراءات الدينية التي تفرضها المحاكم الدينية في كل ما يتصل بأمور الزواج بين الاسرائيليين مع غير الاسرائيليين . وهكذا تقف اسرائيل في وجه العالم الاسلامي الذي يحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، معتمدة كلياً على العون المالي الاميركي ، وتؤلف كما يقول نهرو « رأس جسر للاستعمار الانكليزي الاميركي في الشرق » . ان مهاجمتها لترعة السويس عام ١٩٥٦ ، والفوز الباهر الذي حققته في سينا ، مع ان التدخل الاميركي حال بينها وبين قطف ثماره اليانعة ، يؤيد كل ما ذهبنا الى تأكيده هنا .

٤ – البلدان الاسلامية – افريقيا الشمالية

حققت الاقطار الاسلامية الواقعة الى الشمال من القارة الافريقية استقلالها بعد ان حققت بلدان الشرق الاوسط الاستقلال ببعض الوقت . فليبيا هذه المستعمرة الايطالية القديمة في هذه المنطقة ، نالت استقلالها منذ عام ١٩٥٠ ، بفضل الانتصارات الباهرة التي حققها الحلفاء ، « وجعلت منها دولة مستقلة ذات سيادة » . فقد قامت العناصر الوطنية فيها بمقاومة عنيفة للاحتلال الايطالي الذي لم ينته من فتح البلاد الا في سنة ١٩٣٢ ، بعد ان ارسل الايطاليون الى مخيمات الاعتقال ثلث سكان البلاد ، وبعد ان قتلوا وشردوا عدداً كبيراً من رجالات تلك البلاد وصادروا اطيب اطيانها ، ومع ذلك فقد بقي نفوذ السنوسية فيها قوياً بالرغم من لجوء زعماء الحركة السنوسية الى مصر ، وعرفت ان تؤجج الحقد والبغضاء في قلوب الليبيين ضد الايطاليين ، يشد من ازرهم عدد من اللجان قامت في دمشق والقاهرة ضمت العديد من الليبيين الذين نزحوا عن اوطانهم . وقد خلا الامر في ليبيا للبريطانيين الذين احتلوها في اثر الانتصارات الباهرة التي حققها الجيش الثامن ، فغادرها عدد كبير من المعمرين الايطاليين ومن اليهود وبذلك اصبحت ليبيا محمية بريطانية بالفعل تأتمر فيها الحكومة بأوامر المستشارين الانكليز وتأتم بهديهم بعد ان انشأ البريطانيون والاميركيون فيها قواعد حربية لهم منيعة .

وقامت في بلدان شمالي افريقيا : المغرب الاقصى والجزائر وتونس ، حركات قومية اخذت تطالب باستقلال هذه البلدان وتجاهد بمرارة لاجبار فرنسا وارغامها على اعطاء البلاد تنازلات مهمة .

ان استيطان ٠٠٠ ٦٠٠ ١ اوروبي في بلدن افريقيا الشمالية ، و « فرنسة » ونصف مليون يهودي فيها الى جانب عشرين مليوناً من ابناء البلاد الاصليين كان من بعض نتائجه خلق مجتمعين وجهاً لوجه : مجتمع وطني إحتفظ بوسائل الانتاج والمقايضات التي توارثها عبر الاجيال أباً عن جد ويعيش في مستوى من العيش متدنٍ جداً ، ومجتمع مستعمر تتوفر له رؤوس اموال وافرة ويتحكم بحيـــاة البلاد الاقتصادية ويسيطر من علٍ على مراكز التوجيه في الادارة وفي الحياة السياسية ، ويتمتـــع بمستوى عيش رفيع . فالوضع القائم صارخ : فهو من جهة يختلف تماماً عن الوضع الذي يحيط ببلدان افريقيا الجنوبية حيث يسمح الجو ويتسع لاستيطان البيض بأعــداد كبيرة وبصورة مستمرة ، انما اقام فارق اللون فيها حاجزاً وتمييزاً عنصرياً بين مختلف العروق لا يمكن تجاوزه، ومن جهة ثانية فاقطار افريقيا السوداء حيث تقيم جوال اوروبية قليلة العدد ، لا يهمهـــا من البلاد سوى استثمار خيراتها الطائلة ولا تتدخل في تهيء لتقرير انتاجها ، فلا تجد في اي قطر من اقطار العالم ، مثل هذا العدد الغفير من الاوروبيين يعيشون منذ اجيال متعاقبة بين الجـماهير الاسلامية حيث تشابكت المصالــح وتداخلت ، وحيث يشتد اثر الغرب الاجتماعي والثقافي ويعرق في الاقطار الاسلامية بشكل لم نرَ له مثيـــلاً من قبل . وهذا المليون ونصف من الاوروبيين ، اكثرهم من الفرنسيين ، يؤلفون اقلية ضئيلة حتى في هذه الجزائر التي يمثلون ١١ بالمائة من سكانها ، وفي تونس حيث يمثلون ٧,٢ بالمائة ، وفي المغرب حيث لا تزيد نسبتهم الى مجموع السكان عن ٤٠ بالمائة وهي اقلية آخذة بالتضاؤل يوماً بعد يوم ، امـــام تزايد عدد السكان في هذه الاقطار ، وهو عدد ٨٠ بالمائة منهم من سكان المدن ، فمدينة الجزائر وحدهـــا تضم ربع عدد سكان البلاد ، كما تضم تونس ٣/١ عدد سكان البلاد ، وفي المغرب ، ٤٢ بالمائة من السكان يقيمون في الدار البيضاء .

وهذه الاقلية تلعب ، مع ذلك ، دوراً بارزاً في كل قطر من هذه الاقطار الواقعة الى الشمال من القارة الافريقية . ففي حيازتها قسم كبير من مساحة البـلاد ، بالرغم من هذا التقهقر الذي سجله الاستعمار الاوروبي في الريف منذ عام ١٩٤٠ (لا سيما هذا النوع من الاستـثمار الذي لم يعد يدر كثيراً على القائمين به) ، وهي وحدها تستفيد من تسهيلات التسليف الذي توفرهـا لهم المصارف ومن الاستثمارات الاستخراجية في البلاد . وبعد ذلك بمدة طويلة ، في سنة ١٩٣٩ في تونس ، وفي سنة ١٩٤١ ، في الجزائر ، تكونت شركات مختلطة ساهمت الدولة في رأس مالها اسوةً بما تم في المغرب بين ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، حيث قام مكتب الابحاث العلمية والمســاهمة في الاستثمارات الاستخراجية . فالمعمرون هم الذين ينتجون اكبر قسم من المواد التي تصدرها البلاد: كبواكير أثمار الفاكهة والزراعات الخضراوية والنبيذ والفوسفات وفلزات الحديد والزنـــك والرصاص . فهم ينتجون في الجزائر ٣/٢ محاصيل البلاد من القمح الطري ، وثلث القمح الصلب ويؤمنون القسم الاكبر من صادرات البلاد الى فرنســـا على الاخص حيث تنعم الجزائر بحرية تصدير كل ما ترغب في تصديره بفضل اتحادهـا الجمركي مع فرنسا وحيث تنعم كل من تونس

والمغرب بفوائد خاصة . ويتباين هؤلاء المعمرون من حيث مساواتهم : ففي الجزائر يسيطر ستة آلاف من المعمرين على ١/٤ الاملاك التي في حيازة الاوروبيين ، بينهم ٩٠٠ شخص يملك الواحد منهم مزارع تزيد مساحة الواحدة منها على ٥٠٠ هكتار ، كما ان ١٢ من كروم الاوروبيين تزيد مساحتها على ٥٠،٠٠٠ هكتار ، و ٢٨ كرماً منها تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٣٠،٠٠٠ و ٥٠،٠٠٠ هكتار ،و ٥٪ من منتجي النبيذ يملكون نصف الحقول المزروعة كروماً . ففي الوقت الذي تستثمر فيه ٢٥،٠٠٠ مؤسسة استثمارية ٢،٧٢٢،٠٠٠ هكتار نرى ٥٣٢،٠٠٠ من الاستثمارية الاسلامية لا تستثمر سوى ٧،٧٠٠،٠٠٠ هكتار . وفي تونس نرى ٧٧٠،٠٠٠ هي ملك ثمانية او تسعة آلاف مزارع فرنسي ،وفي المغرب نرى ٦٥٠،٠٠٠ هكتار خاضعاً للاستثمار (اي ١/٨ مساحة الارض المزروعة) ، تعود ملكيتها لـ ٤٠٠٠ مستعمر تقريباً ولعدد صغير جداً من الملاكين المغاربة ، بينها ٩٠٠ مزرعة تزيد مساحة الواحدة منها على ٣٠٠ هكتار (١٤،٧ ٪ من عدد الاستثمارات وتمثل ٦٠ ٪ من مساحة الارض المزروعة) .

المجتمع الوطني

وعلى عكس ذلك ، فالمجتمع الوطني مجتمع فقير ، معدم ، تنقصه اصلاً الذرائع التقنية ورؤوس الاموال ، مسترسل في استعماله الاجهزة الزراعية البالية والحيوانات البائسة ، تتنكر للاسمدة الصناعية ويغلّ معها الهكتار من ٤ — ٥ قناطير اي نصف ما تدره الارض على المستعمر . هنالك عدد ضئيل من اغنياء الملاكين ، بين قدامى ومحدثين حاولوا ان يطبقوا الاساليب الفنية التي يستعين بها الاوروبيون ، ولا يتورعون،والحالة هذه عن قضم صغار الملاكين المتاخمين لهم . واذ لم يكن في وسعهم استخدام الوسائل التي يستخدمها الاوروبيون لتمنعهم عن تقديم الضمانات التي يقدمها هؤلاء للمصارف ، ولا تربية فنية لهم ، فهم اعجز من ان يطوّروا اساليبهم الزراعية او ان يدخلوا عليها ما يكفل لهم مردوداً اطيب والاندماج مع النظم الاقتصادية الاوروبية ، ولذا لم يكن في وسع الشركات التعاونية سوى تسليفهم من المبالغ ما يؤمن لهم البزار او « الموسم » ، كما ان اصحاب الحرف منهم استمروا في ممارسة حرفهم المتوارثة وفقاً للاساليب المرعية ولذا لم يستطيعوا تفادي منافسة المنتوجات المستوردة .

تألفت الملكية التابعة لابناء البلاد على الاجمال من قطع زراعية صغيرة الحجم لتستغل وفقاً لشروط الاستثمار المألوفة . هنالك في الجزائر ٣٩١،٠٠٠ ملكية عقارية تخص ابناء البلاد تقل مساحتها عن ١٠ هكتارات ، ٧٠ بالمائة منها لا يرجى لها الحياة ولا يمكن ان تأتي بفائدة في هذه الظروف المناخية التي تفرضها الزراعة التوسعية حتى الزراعة البعلية ، وبعد ان أقصوا عن اطيب الاراضي واجودها ، فقد اضطر الوطنيون ان يزرعوا اراضي فقيرة ، بخيلة المردود ، او اكثر ارتفاعاً عن سطح البحر ، واحياناً تقع على سفح مرتفعات شديدة الانحدار يجر استثمارها إلى خطر تعرية التربة . ان نصف سكان الريف في بلدان افريقيا الشمالية هم عاطلون جزئياً عن العمل لعدم توفر الارض الزراعية لهم ، كما ان مكننة المزارع الكبرى عملية مرزحة لاصحابها.

فقد جرّت الحيازة حتى الآن الى قتل الملكية الصغيرة واقتضى استثمارها يداً عاملة رخيصة . فالاقبال على المكننة الزراعية قتل اليد العاملة وعرضها للزوال بالاستغناء عنها . فالمكننة تؤلف خطراً كبيراً على طبقة الفلاحين وتهدد مصيرها في الصميم ، اذ تقضي على حركة السكان في الريف وتحملهم على النزوح نحو المدينة .

فالجهود التي بذلت عام ١٩٤٥ لتحسين طرق الانتاج في البلاد بفضل قطاعات النهوض بالزراعة (*S. A. R.*) في الجزائر ، وبفضل قطاعات تحسين وسائل الانتاج (*S. A. P.*) في المغرب ، وعلى مشروع الخطة الزراعية في تونس ، نزعت كلها الى مكننة الزراعة وتجهيزها بالعتاد الصناعي الحديث ؛ الا ان مكننة الريف ، هنا كما في الولايات المتحدة الاميركية من قبل ، وفي الاتحاد السوفياتي وفي دول اوروبا الشرقية لا يمكن الاخذ به او مجرد التفكير به الا في ضوء عملية تصنيع سريعة ، والا نشأ عنها ازمة اجتماعية حادّة . فقطاعات النهوض بالزراعة في الجزائر لم تجن سوى نتائج ضئيلة . فلم تكن تضم عام ١٩٥٣ ، سوى ١٠ بالمائة من فلاحي البلاد ، و ٤٫٢ من مجموع الاراضي ، فليس من عجب ان يأتي مردود الارض غير واف بالغرض ، وقطاعات تحسين وسائل الزراعة في المغرب التي تعمل بها منذ عام ١٩٤٥ تضدّت المنظمات التي تتوفر لديها التقاوي والاعتدة الفنية فوق جمعيات صغار الملاكين القديمة ، مما اثار معارضة بعض المعمرين (الذين اخذوا يشبهونها بالكولخوزات الروسية) وخشوا من فقدان اليد العاملة ، ولذا حدت كثيراً من عملها وغيرت كثيراً من قدرتها .

المشكلة الديموغرافية ونتائجها

بفضل تناقص معدل الوفيات ، اخذ عدد السكان في النمو سريعاً بمعدل ٥٠ الف في السنة ، في تونس و بـ ١٨٠ ٠٠٠ في المغرب ومن ١٢٠ الى ١٨٠ ٠٠٠ في الجزائر ، اي ما مجموعه ٣٥٠ ٠٠٠ في السنة . فالمسلمون زاد عددهم ٣٨ بالمائة بين ١٩٣٦ — ١٩٤٦ في الجزائر وحدها ، و ٢٥ بالمائة في تونس . وهكذا قام في الاقطار الثلاثة الواقعة في شمالي افريقيا ٢١ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة معدل النمو عندهم هو من اعلى ما عرف العالم من امثاله (المغرب ٢ بالمائة ، وتونس والجزائر ١٫٥ بالمائة) . ان التوسع في زراعة الكرمة ، هذه الزراعة الاوروبية في الصميم التي يكثر حولها القول والنظر ، وزراعة الخضراوات التي تضاعف حجمها بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ في الجزائر وفي تونس ، والتي زادت في المغرب عام ١٩٤٨ ، ١٥ ضعفاً عما كانت عليه عام ١٩٢٠ ، قد خفضت كثيراً من مساحة الاراضي الموقوفة على الزراعات الاستهلاكية لدى المواطنين . ففي الجزائر وحدها اكثر من ١ ٥٠٠ ٠٠٠ اسرة لا ارض لها ، والمساحة المزروعة لا تزال آخذة في التناقص بالنسبة للفرد . فبينما كان يصيب الجزائري المسلم ، عام ١٨٧٢ ، ثلاثة وثمانين آراً من الاراضي الزراعية ، هبط هذا الرقم عام ١٩٥٢ ، الى ٢٤ آراً . ان اتساع الاراضي الزراعية التي تكلف عمليتها غالياً لم تكن لها اهمية تذكر بالنظر لضعف الطاقة الشرائية لدى الطبقات الشعبية التي لا تشجع قط المزارعين على الاتجاه نحو هذا النشاط . واخيراً وليس آخراً ، الاستثمار الواسع النطاق عندما

تم للزراعة الاجهزة الميكانيكية اللازمة لها وتجري على الاصول المرعية ، واحيـــاء الاراضي البور او الموات للزراعة من قبل ابناء البلاد الذين يبحثون لهم عن اراضي زراعية جديدة قد يجر الى تراجع الاراضي الحرجية والى تعرية الارض وتآكلها نتيجة حتمية لهذه الطريقة. فهاهي كل افريقيا الشمالية « تعمل الآن على ارسال تربتها نحو البحر » ، لا سيما المناطق الجبليـــة فيها حيث يتكاثف عدد السكان ، كما هي الحال مثلاً في منطقة القبيلي الصغيرة . ويقدر رنيه دومون ان عوامل تعرية الارض في السنة تفقر البلاد ما مجموعه ٣٥٠٠٠ هكتار من الاراضي الطيبة . فكل يوم يمر تخسر الجزائر فيه ما يساوي ١٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ويزيد عـــدد البطون التي يترتب ملؤها ٥٠٠ بطن في اليوم الواحد .

البؤس بين ابناء البلاد

وهذا الاختلال المتزايد كل يوم بين عدد السكان وبين تقصير مواردها الطبيعية عن تأمين أود العيش لهم يزداد عمقاً . ففي منطقـــة الساحل وهي اكثر مناطق تونس حظاً ، كما يؤكد ل. شفالييه ، ان عشر سكان هذه المنطقة من اهل البلاد الاصليين يعيشون بيسر نسبياً ، بينما $\frac{1}{2}$ السكان هم في وضع وسط ، ونصفهم في حالة فقر وعشرهم يرسف في بؤس مدقع ويعيش على الاحسان والصدقات . ومنذ عام ١٩٣٥ كانت المجاعة من هذه الاوبئة التي تكوّن دوماً خطراً يهدد البلاد . ففي كل سنة يترتب على البـلاد ان تشتري القمح والشعير والارز لتضمن إعــالة السكان المعوزين . ان مستوى العيش متدنٍ جداً . وكان من يتصرف من افراد الشعب عام ١٩٥٣ ، باربعة آلاف فرنك في الشهر ، كان من اصحاب الحظوظ . فبينما كان تحت تصرف كل مواطن ، عــام ١٨٧١ ، خمسة قناطـــير من الحبوب لاستهلاكه السنوي ، لم يعد لديه في سنة ١٩٠٠ ، سوى اربعة ، وهبط هــذا الرقم الى اقل من ٢,٥ بالمائة سنة ١٩٤٠ . وعلى هذه النسبة قس ايضاً تونس حيث الامكانيــة تبقى ضمن هذه الحدود ، وتأتي فوق هذا الحـد بقليل في الغرب . كذلك نقصت ايضاً المواد الغذائيـــة الاخرى : كالزيتون والتين والتمر والبقول المجففة والماشية . ان $\frac{3}{4}$ السكان محرومون عملياً من الحليب واللحوم والبيض والمواد الدهنية الجيدة. وهذا النقص الذريع في المواد الغذائيـــة كان القاعدة العامة التي تحيط بالسكان قبل الحرب العالمية الثانية . ولعل خير مثل لهذا البؤس الذي يتحكم فيه السكان هو وضع القبيلي الكبرى حيث تبلغ كثافــة السكان ٢٤٠ واحياناً ٤٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد .

« ان قضية تموين نصف سكان القبيلي بالمواد الغذائية في عام ١٩٤٠ ، لم تكن من الامور الواردة على الاطلاق . ان الغذاء الاساسي يتألف من طحين البلوط الذي كثيراً مـــا يجري خلطه بقشر البلوطة بعد قشطها . ففي قرى القبيلي القائمة في الجبال ، هذا الطحين الاسود الخشن الممزوج بمادة خشبية هو الذي تضطر ربة المنزل لتقديمه طوال النهار كوجبة رئيسية للاسرة . ان قطعة من الطلمية المصنوعة من هذا الطحين وبعض اطراف من التـــين المجفف ، يكون اساس الغذاء الذي تقدمه لاسرتها » ، (كما يؤكد لويس شفالييه) .

فالنقص في التغذية يسبب الضعف للمرء والهزال كما تثبت ذلك النتائج التي ادت اليها اللجان . ففي مقاطعة قسنطينة عام ١٩٣٦ ، كان ٢٦٪ فقط من الذين تقدموا للكشف الصحي اعتبروا

صالحين للخدمة . واللامساواة بين ابناء البلاد والاوروبيين تبرز في كل المجالات والقطاعات . وقد اظهرت لجنة ماسينيول لدرس توزيع الدخل القومي في الجزائر ، ان دخل الاسرة الاوروبية السنوي يبلغ ٠٠٠ ٢٤٠ فرنك ، بينما هو في الاسرة الجزائرية ٠٠٠ ٣٠ فرنك ، ويهبط الى ٠٠٠ ٢١ فرنك في السنة عند ٦ ملايين من الفلاحين . وفي المغرب كان ٠٠٠ ٣٦٠ فرنسي يصيبون ½ الدخل العام ، ويتقاسم ٠٠٠ ٥٠٠ ٧ مغربي الثلاثة اخماس الباقية ، فيكون دخل الفرد الواحد اقل من ٠٠٠ ٣٠ فرنك في السنة ، أي ١٦ مرة اقل من دخل الفرنسي . وعدم المساواة هذه بين شقي السكان تبدو اكثر بروزاً ووضوحاً في مجال التعليم . فبينما اولاد الاوروبيين الذين هم في سن الدراسة واولاد اليهود كلهم يذهبون الى المدارس ، فأولاد الاسر الاسلامية ممن هم بين ٦ — ١٤ سنة ، يذهب ١٢٪ منهم الى المدرسة في تونس ، و ١٥٪ في الجزائر ، لعدم توفر الابنية المدرسية والمدرسين.ان ولداً من اصل ثلاثة من اولاد الاوروبيين يذهب الى المدرسة الثانوية،بينما نرى طالباً واحداً من ١٢٥ طالباًمن اولاد الاسر الاسلامية يتلقى تعليمه فيها .

والتصنيع يبدو الوسيلة الوحيدة لحل المشكلات الحادة التي يثيرها الدفع الديموغرافي في البلاد. وقد جرت اول محاولة من هذا القبيل عام ١٩٤٠ عندما اصبح من المتعذر جداً استيراد مواد البناء والاقمشة والسكر والمواد الاستهلاكية المصنوعة العادية التي لم يكن احد منها يُصنع محلياً. ففي هذه السوق التي انعدمت فيها كل منافسة غريبة ، تم انشاء عدة صناعات لم تلبث ان ضاقت امامها شروط العمل عندما امكن استئناف العلاقات التجارية مع الخارج . فرؤوس الاموال الوطنية تستثمر بالاحرى في شراء الاراضي والعقارات السكنية . فالاستثمارات الكبرى جاءت من الخارج كما نزحت الى افريقيا الشمالية صناعات فرنسية ، واستثمرت اموال اميركية في مناجم زليجة بحثاً عن النفط . وحركة التصنيع هذه أعاقها فقر البلاد لمصادر الطاقة : فالفحم الموجود الى الجنوب من وهران لا يمكن استخراجه الا عن طريق مساعدات مالية ويبقى اغلى سعراً من الفحم المستورد .

التنظيمات الاجتماعية الجديدة

كان من بعض نتائج الاستثمار في هذه البلاد ان دمج نشاط بعض القطاعات في حياة العصر الاقتصادية ، وبذلك خرج هذا النشاط عن الطوق القبلي البدائي ، ان توطين القبائل في المناطق المحددة لها بكل دقة ، والانتقال بالبلاد من نظام الملكية المشتركة الى الملكية الفردية ، والتعويل على الاقتصاد النقدي في هذه المناطق بالذات التي عرفت بانطوائها على نفسها ، كل ذلك ساعد على تطوير الروح الفردانية كما زاد في اللامساواة الاجتماعية المتزايدة . فالقبائل الموجودة في الجنوب تتجزأ وتتفتت الى أسر بائسة عجزت عن التحضر والاستيطان لافتقارها لموارد ضخمة من الآبار الارتوازية هي بحاجة ماسة اليها . وسكان الجبال الذين يخضعون لموجبات الظعن والتنقل اضطروا للحد من ظعنهم ولزرع الوديان التي يقيمون فيها ، والبدو الرحل في الفيافي اضطروا هم ايضاً لاستثمار اراضيهم المعرضة دوماً للجفاف ، واصحاب الحرف والمهن الصغيرة في المدن تعرضوا للخراب

من جراء منافسة الحاجيات المصنوعة لهم . هذه التغييرات والتسهيلات التي وفرت اسبابها حالة الحرب ، واعمال الرشوة ، كل هذه العوامل ساعدت الاعيان ووجوهها ان يزيدوا كثيراً من ثرائهم ونفوذهم ، ووسعوا املاكهم على حساب صغار الملاكين بعد ان اضطروهم التخلي عن اراضيهم . وعلى غرار ما جرى في بلدان الشرق الاوسط ترى رؤساء القبائل الضاربة في القسم الاوسط من جبال الاطلس مثلاً التي كانت آخذة بالاستيطان في هذه المنطقة ، اقتطعوا لأنفسهم مساحات واسعة . وقد استطاع بعض التجار من سكان المدن ان يجمعوا ثروات طائلة وحدث في الوقت ذاته انحطاط اقتصادي شمر بوطأته على الاخص سكان المغرب وسكان تونس وهذه الطبقة البورجوازية التقليدية المعروفة في المدن التي تلقت ثقافتها في المعاهد الثانوية الفرنسية والتي تطبعت بالطباع والعادات الغربية. الا ان ضحالة ثقافتها لم تكن لتساعدها على منافسة الغربيين. ومن هذه الطبقة بالذات ، ظهرت الاطر والملاكات التي انتظمت الحركات الوطنية .

بروليتاريا المدن

في المدن تضخمت البروليتاريا بأعداد ضخمة وذلك بعد ان غادر عشرات الوف العمال الريفيين القبائل التي ينتمون اليها ونزلوا الى المدن. كما كشف عن هذا كله الاحصاء الذي جرى عام ١٩٣٦ وبين الخطر الذي يكمن تحت هذه الظاهرة التي ستشهد وستتطور مع كل اختلال يطرأ على الوضع الاقتصادي في البلاد ، ومع كل مجاعة او جفاف يتهددها .. وهذه الألوف المؤلفة نزحت عن مقاطعات جربا والمزاب والقبيلي ومقاطعات بربر تاراراس الى الشمال من تلمسان ومن منطقة الريف الشرقي ومن المنطقة الغربية في جبال الاطلس المغربية ومن سهول صوصة او انتي اطلس ، ليعملوا بضعة اشهر في المدن ليوفروا من اجورهم ما يسمح لهم بتسديد الضرائب المترتبة عليهم ، ولشراء الحاجيات المصنوعة ولا سيما الالبسة والمواد الغذائية لعائلاتهم .وهنالك نحو ٢٠ بالمائة من هؤلاء النازحين يهاجرون كما يهاجر عدد من النساء ايضاً ، فيتجهون في هجرتهم هذه الى فرنسا التي تستقبل ٢٠ الفاً من المغاربة ، و ٣٠٠،٠٠٠ من سكان القبيلي ليعيلوا بما يوفرون، المتخلفين في الديار وعددهم لا يقل عن ١،٥٠٠،٠٠٠ نسمة. وفي سنة ١٩٥٠ ان ٦٧ بالمائة من متوسط الدخل في القبيلي كان يأتي عن طريق الهجرة كما ان ٣٣ ٪ لا غير كانت مواردَ المنطقة تؤمنها لهم . والذين يبقون في البلاد ، كانوا يحتشدون في المدن او يتكدسون في هذه الخيمات الضخمة او في هذه التخاشيب التي تكثر مثلاً في بن مسيك التي تعد ٤٥،٠٥٠ نسمة عند مداخل الدار البيضاء او في هذه « القرى السوداء » القائمة في اراض مشاعية بالقرب من تونس وعنابة ومدينة الجزائر او في المدن الساحلية في المغرب التي تضاعف سكانها في خلال عشر سنوات ، او في الدار البيضاء التي زاد عدد سكانها ثلاثة اضعاف هي الاخرى . وهذا النزوح نحو المدن افضى الى تحطيم أطر الحياة التقليدية وارتدت معه الحياة العائلية طابعاً جديداً يختلف عما كان لها من قبل: لا استقرار في الحلة والحياة الداخلية في الاسرة مهددة بالعطب والخطر لاضطرار رب الاسرة التغيب عن منزله بحثاً له عن اجر طيب كما ان امرأته تعمل هي الاخرى في ما يزيد من دخل الاسرة ، وتصبح بالتالي اكثر استقلالاً مما كانت عليه ؛ مما ادى الى تكاثر حوادث الطلاق والروابط غير المشروعة .

وبالرغم من هذا التغيير العميق ومن اقبال الناس على ارتداء الملابس الداخلية الغربية الطراز، والتطور الذي طرأ على المسكن والاثاث واسباب اللهو ، كلعبة الكرة والاقبال على رياضة العدو وركوب الدراجة ، والاقبال على حضور السينما ، ، فتأثير الشرق على الناس بقي قوياً كما بقي مسيطراً، كما ازداد قوة واثراً عن طريق الصحافة والمسرح والراديو، هذه الاختراعات ووسائل الاتصال الحديثة ، التي تغلغلت بين سكان المغرب الاقصى مع التيــــار الثقافي والدعوة العروبة والجهود التي قام بها علماء الدين لتنقية الاسلام من الشوائب التي لحقت به متجهة لمحاربة الجمعيات والاخويات الدينية لم تخفف من حدة هذا النفوذ ، والتخفف من احكام الدين ومراسمه في المدن ابقى الروابط الدينية والشعور الديني قوياً في النفوس ، اطلت فجأة على البلاد جمعيات دينيــة جديدة وزوايا كما نشأت كتاتيب قرآنية يأخذ فيها الصغار باستظهار القرآن . فالحضــــارة الاسلامية في المغرب قوية ناشطة ولم يعد هذا المغرب يشعر ان اشقاءه تخلوا عنــه او انه لا يزال معزولاً عن باقي العالم الاسلامي. ويلجأ زعماء الحركة الوطنية الذين يتعرضون لملاحقة السلطات الى القاهرة فيتلقون منها العون المالي والادبي ، ومن القاهرة تنطلق الدعوة للجهاد ضد السلطة المسيطرة على البلاد .

نجاح الحركات الوطنية

وفتح الجزائر وتونس الذي تم منذ عهـــد بعيـد ، انتهى في المغرب ، عام ١٩٣٤ . فمنذ عام ١٩١٤ ، لم يضطرب الامن في هذه البلاد بصورة خطرة الا خلال الحرب التي شنها زعيم الريف المغربي عبد الكريم ضد اسبانيا اولاً (هزيمة انوال عام ١٩٢١) ، ثم ضــد فرنسا ، عــام ١٩٢٥ . ووقع اول انفجار وطني في هذه البلاد ، عام ١٩٣٠ عند نشر الظهير الشريفي حول قضاء البربر ، الذي رأى فيه الرأي العام الاسلامي محاولة لتجريد المغرب من الاسلام الذي هو عليه ، ومناصرة الحركة التبشيرية التي تقوم الكنيسة الكاثوليكية بها في هذه المنطقة .

وفي هذا الوقت بالذات نشطت للعمل ونشأت الحركات الوطنية الثلاث الــتي تجاهلت بعضها البعض ولو في الظاهر ، مدة طويلة ، من جراء هذه الحواجز الادارية الــتي اقامتها السلطات الفرنسية في البلاد ومن جراء هذا التباين في الاوضاع السياسية انتهت باقامة علاقات وطيدة فيما بينها . وبوصفها « فرعاً من الحركة التحررية الشاملة المضادة للغرب هذه الحركة التي اطلقها المسلك الاوروبي نفسه في البلاد » ، كما جاء على لسان هـ. دي مونتيتي ، فهي تنقسم في كل قطر من هذه الاقطار الى نزعتين رئيسيتين : الاولى دينية ، رجعية محافظة في المجال السياسي والاجتماعي ، تتمثل في تونس في حزب الدستور القديم الذي تأسس عام ١٩١٨ ، وفي الجزائر بجمعية العلماء ، وبالرابطة الاسلامية الذي اسسها الشيخ ابن باديس (١٩٣٦)، وفي المغرب، وفي جناح اليمين من الحزب الوطني . واساس هذه النزعة هو الشعور الديني الذي تجيش به الجماهير الشعبية ، وتشجب الروح الغربية وتوصي باحياء الثقافة العربية وتطالب بالاستقلال الوطني ضمن حلف شامل يضم الدول العربية . اما النزعة الثانية فهي التي عليها هـــذه النخبة التي تلقت

تعليمها في المعاهد الفرنسية الكبرى والتي تطالب بوطن مستقل على النمط الاوروبي ، وتتمثل في حزب الدستور الجديد الذي اسسه بورقيبة عام ١٩٣٤ ، وبحزب الشعب الجزائري (.P. P. A) ، والحركة التي تطالب بانتصار الحريات الديموقراطية (.M. T. L. D) ، التي اسسها مصالي الحاج عام ١٩٢٥ والتي تطالب باستقلال الجزائر ، وبالجناح اليساري في لجنة العمل المغربي. والفكرة القومية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفكرة الدينية والشعور الديني العميق لم تلبث ان تخطت الاوساط الفكرية . وقد وجدت لها العديد من الانصار في اوساط اصحاب الحرف والمهن وفي الاوساط البروليتارية في المدن ، ولم تعتم ان اتصلت بالجماهير الريفية . وهذا الشيوع والانتشار السريع انما جاء نتيجة لهذا التوجيه السياسي والمادي الذي وقع في كل من هذه البلدان وهو من صنع الادارة الفرنسية والنظرية الاقتصادية الحديثة ، والتغيير الجذري الذي طرأ على المجتمع التقليدي الذي اكثر من اتصالاته ووطد من علاقاته مع باقي اجزاء البلاد . وعملت الصحافة والراديو والسينما على تنشيط يقظة الرأي العام ، كما ان سهولة الاتصالات والاسفار ساعدت هي الاخرى على ذلك.

فحركة القمع التي قامت بها السلطات في كل من تونس والمغرب عام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ وفشل المشروع الذي تقدم به بلوم وفيوليت عام ١٩٣٦ الذي اقترح الاخذ بسياسة تمثل البلاد سياسياً والتخلي عن التدخل في ما يتعلق باحوال المسلمين الشخصية لابناء البلاد ، والحظر الذي وقع على الحزب الجزائري المعروف .P. P. A عام ١٩٣٩ ، كل هذا أدى الى تقوية جانب الزعماء الوطنيين امثال مصالي الحاج وبورقيبة وعلال الفاسي ، ومناهضة نظام الحماية ومقاومتها التي تتمثل في تونس بشخص الباي منصف تستمر بعد ان جرى خلعه وإسقاطه عن الحكم عام ١٩٤٣ ، في هذه السنة بالذات التي نشر فيها فرحات عباس «البيان الجزائري»، ومشروعاً عاماً للاصلاح ينص على قيام دولة جزائرية لها دستورها الاساسي ونظامها الخاص، وعمل في اثر ذلك على انشاء « جمعية اصدقاء البيان والحرية » التي تطورت فيما بعد واصبحت ، عام ١٩٤٦ : « الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري » (.U. D. M. A) ، الذي انضم اليه عدد كبير من اعضاء الحزب الشعبي الجزائري القديم . وفي سنة ١٩٤٣ ، ظهر في المغرب حزب الاستقلال الذي اخذ يطالب باستقلال المغرب . والفتنة التي قامت في مقاطعة قسنطينة ، عام ١٩٤٥ جرى قمعها بقسوة كلية ، وفي عام ١٩٤٧ ، ظهر « النظام الاساسي للجزائر » ، وفيه ابتعدت الحكومة عن سياسة التمثيل والاستمراء ، واعطت الجزائر نظاماً لامركزياً موسعاً مع مجلس تمثيلي جزائري له صلاحيات واسعة ، ينتخب على دورتين يشترك في الاولى ٥٠٠ ٠٠٠ فرنسي او من لف لفهم ، ويشترك في الثانية مليونان من المسلمين . الا ان هذا النظام لم يعمل به قط . وقد عقب ذلك اجراءات زجرية تناولت المقاطعات الثلاث ادت الى توقيف عدة الوف من الجزائريين في اثر المظاهرات الوطنية التي وقعت في البلاد .

وراح يناهض المطالب الاستقلالية ومشاريع الاصلاح ، « المواطنون الفرنسيون » في شمالي افريقيا : كالمعمرين والموظفين والتجار وهذه « النخبة » التي لا قاعدة شعبية لها ، الذين يهيمنون على المراكز الرئيسية في الادارة والحياة الاقتصادية ، مع تلون مواقفهم : فرجال الصناعة والتجار هم على الاجمال اقل دعماً من المعمرين لهذه التغييرات ، الذين يستغلون رخص اليد العاملة ، وكبار الموظفين الذين اعتادوا اعمال الادارة التي لا رقيب عليها كما الفوا « الروح الابوية الصلبة » التي لا تتحمل المتناقضات ، و « هؤلاء البيض الصغار » المتمثلين بصغار الموظفين والمستخدمين الذين يهمهم جداً الاحتفاظ بوضع قانوني يميز بينهم وبين ابناء البلاد الذين لا يثيرهم تفوقهم العددي وذهنية « البيض المساكين » التي عرفتها اميركا الجنوبية من قبل ، تفسر الهجمات التي تعرض لها المقيمون العامون والحكام المتهمون بها لأنهم المشاريع الاصلاحية ، ومذكرات لفت النظر الى « المحافظة على النظام » ، اي الاستعانة بالتدابير العسكرية والبوليسية والقتل الذي استهدف له فرحات حشاد عام ١٩٥٢ ، و لوميغر دوبروي عام ١٩٥٤ . وهذه الشدة هي وراء الفشل الذي اصيب به النظام الاساسي الذي وضع عام ١٩٤٧ للجزائر ، وهو حادث خطير الشأن اوحى للوطنيين الشعور بأن وعود الاصلاح التي قطعت لهم انما هي وعود عرقوبية وان لا أمل لهم في الاعتماد على فرنسا .

وبين هذا الموقف يقفه الفرنسيون في شمالي افريقيا يشد من ازرهم الفريق المحافظ من الرأي العام الفرنسي ، وبين الرغبة في الوقوف الى جانب الوعود المقطوعة للوطنيين اخذت الحكومات تتردد وتتمهل ، على ان ضحت في نهاية الأمر بالحكام المصلحين (امثال شاتينو ، لابون) ، وترك الحرية لكبار الموظفين المدنيين والعسكريين والخبراء المختصين بشؤون افريقيا الذين اوصوا بانتهاج سياسة الشدة ، كالتوقيف وتمشيط المنطقة واعلان حالة الطوارىء ، وفرض المراقبة على الصحف وانشاء مخيمات الاعتقال وتزوير الانتخابات بالرشوة والضغط الاداري مما أدى الى تكاثر الاضرابات والمظاهرات المعارضة واخيراً محاولات القتل والتخريب والوصول الى توحيد الاقطار الثلاثة وهي فكرة لم تكن لتخطر على بال احد قبل ذلك ببضع سنوات . وقد بلغت هذه السياسة ذروتها من العنف عام ١٩٥١ – ١٩٥٣ عندما وقف الغلاوي ، باشا مراكش ، موقفاً معادياً على المكشوف ضد السلطان ، وبالتواطؤ مع الادارة ، سارت قبائل البربر باتجاه مدينة فاس والرباط لفرض خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف .

وراحت الحركة الوطنية في المغرب وتونس تتهم فرنسا بتحويل نظام الحماية المفروض على البلاد الى نظام حكم مباشر ، وذلك « بانشاء ادارة مراقبة مباشرة في جميع المراحل وخلق ادارات جديدة اسندت اعمالها الى موظفين فرنسيين » ، كما اتهموها بتدخل المعمرين الفرنسيين بشؤون البلاد الداخلية عن طريق الغرف الاقتصادية والجمعيات وغير ذلك . والمناداة بابن عرفة سلطاناً من قبل الفرنسيين اذكى حركة مناهضة نظام الحماية ، هذه الحركة التي امتدت الى

الجنوب من البلاد ، الى هذه المنطقة التي تعتبر « الاقطاع » الخاص بالقلاوي ، وامتدت الثورة الى قلب هذه القبائل التي كان يُظنّ فيها انه طوع بنان السلطة ، ثم انقلاب القلاوي باشا الذي انضم للسلطان المخلوع مما أدى الى عودته منتصراً الى البلاد والى اعتراف فرنسا « باستقلال المغرب ضمن ارتباطه بفرنسا » وذلك في تشرين الثاني ١٩٥٥ .

وفي تونس امكن تطبيق بعض الاصلاحات الموعودة بحيث ابرزت الشخصية التونسية مؤلفة بذلك مرحلة نحو الاستقلال الداخلي مع مجلس نيابي منتخب . الا ان « الجبهة الوطنية التونسية » بقيادة حزب الدستور الجديد ، اعتبرت هذه الاجراءات غير كافية ، وقام الفلاقة بمناوشات دامية في منطقة الكاف ، وقد امتدت الحركة التي عددت بضعة آلاف من الانصار حتى بلغت حدود الجزائر ، الامر الذي اضطر معه منديس فرانس ، رئيس مجلس الوزراء في فرنسا الى اعلان استقلال البلاد الداخلي والدخول بمفاوضات مع الحكومة الجديدة التي تألفت برئاسة بورقيبة بعد ان افرج عنه في فرنسا واطلقت له حريته . وفي آذار ١٩٥٦ ، تم الاعتراف رسمياً بدولة تونس ، فألغيت المحاكم الشرعية ، كما الغي فيها تعدد الزوجات. وفي تموز ١٩٥٧، تم الغاء الملكية ، واعلنت الجمهورية في البلاد .

وفي الجزائر اخذ نشاط الفلاقة يمتد في هذه المنطقة الواقعة بين سوق الاهراس وتبسّة لتتصل بجبال الاوارس ومنها الى مقاطعة قسنطينة وكل المنطقة المجاورة لها . وقد كان لاعلان « حالة الطوارىء » ، ولفرض المراقبة ولعمليات التوقيف بالجملة ان عمقت الهوة الفاصلة بين المعمرين الفرنسيين ومسلمي البلاد حتى المعتدلين منهم . والاعضاء الجدد الذين جرى انتخابهم في الدورة الثانية رفضوا رفضاً باتاً كل فكرة بالدمج ، ولقي الثوار ترحيباً حاراً في الاوساط الشعبية التي تواطأت معهم ، واحتلوا مناطق غير مأمونة زادت رقعتها اتساعاً بالرغم من وجود جيش قوي وحركة القمع العنيفة التي قام بها . ولم تلبث ان قامت بين الجبهتين حرب فعلية شاقة ودامية اضطر معها الجيش الفرنسي الذي تألف من ٤٠٠،٠٠٠ جندي ان يواجه وحدات نظامية لها بزتها الرسمية وتجهيزاتها واسلحتها الثقيلة ، مدربة على الهجوم المفاجىء وعلى التسلل والتي بالرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدتها ، بقيت تنمو وتزداد وتزيد من قوتها . وهكذا طالت الحرب وامتدت ، كما ان رفض المعمرين ومن بعدهم انصار جبهة التحرير الوطني *F. L. N.* مشروع قانون برنامج يرمي الى اعطاء الجزائر نظاماً جديداً ابعد كل امل بالوصول الى اتفاق بين الطرفين . وفي اثر قصف القرية التونسية ساقية سيدي يوسف برزت امكانية تدويل الحرب الجزائرية ، كما ان المؤتمر الذي عقد في طنجة بين ممثلين عن حزب الدستور الجديد وحزب الاستقلال المغربي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية شدّد على توحيد المغرب بضم اقطاره الثلاثة . وقد تمرد ضباط الجيش والعناصر الناشطة في الجزائر في ١٣ ايار ١٩٥٨ ضد سلطة حكومة فلملان التي اتهموها ببدء المفاوضات مع المتمردين .

ان استقلال الجزائر لم يعترف به نهائيـــاً الا في تموز ١٩٦٢ ، وبذلك وضع حداً للمعارك التي غطت البلاد بالدمـاء منذ ثماني سنوات . وقادت القوى الوطنية الحرة الحرب وفقاً للمبـادىء والنظريات الجديدة لحرب المناوشات . وتلقت المساعدات المالية والمادية من قبل الدول العربية والاســلامية كما حظيت بعطف الامم المتحدة ، وبعطف عدد من الدول أخذ يتزايد يوماً بعد يوم ، كما تقوى بالولاء الذي لقيته من قبل سكان البلاد الاصليين . وبذلك استطاعت ان تجمد الجيش الفرنسي الذي يتفوق عليها بكثير من حيث العدد والعُدد والتسليح ، والذي لم تسفر الانتصارات التي حققهـا عن نتائج تذكر . والى هذا الصراع الذي قام بين الجيشين ،قام صراع عنيف لا هوادة فيه ولا رحمة تخللتها اعمال إرهابية جرت الى حوادث انتقامية قامت بها وحدات البوليس والمستوطنون الاوروبيون اتخذت طابعاً وحشياً لا مثيل له جرت وراءه الخراب والدمار واثارت الضغائن والاحقاد . وهكذا شهدت البلاد تطورات عميقة الجذور : ازدياد مدهش لعـدد السكان في المدن بعد ان عمت البلاد موجة من نزوح سكان الريف الذين هجروا مساكنهم بعد ان اضطرب حبل الامن في البلاد . « وانشاء مراكز تجمع » خاضعة لمراقبة الجيش الفرض منهـــا عزل الفدائيين الجزائريين، وذلك بحشد سكان الدوار في قرى اصطناعية . وهكذا رأينا اكثر من ٢،٠٠٠،٠٠٠ من سكان الريف (اي جزائري واحد من كل اربعة جزائريين) وجدوا انفسهم عام ١٩٦٠ محتشدين على هذا الشكل ، بعيدين عن اماكن سكنهم . وهذا الاقتـــلاع الذي لم يسبق له مثيل من حيث الاتساع والشمول ، غير كثيراً من عادات القوم واخلاقهم وقلب رأساً على عقب نمط العيش الذي ساروا عليه ابا عن جد كل يوم . وذلك باحداث تغييرات في العلاقات بين الرجال والنساء والاولاد بعد ان ارغموا على العيش معاً في هذا الاختلاط والبطالة القسرية ، بعد ان تركوا جانباً الاعمال الزراعية واهملوا اراضيهم الامر الذي قتل اقتصاديات البلاد كما قضى على المجتمع الريفي وزاد من تفسخ الاخلاق والشقاء .

والاستفتاء الذي جرى في ٨ كانون الثـــاني ١٩٦١ والذي اعطى بين ابناء البـــلاد وبين المستوطنين الفرنسيين اكثرية تحبذ حل القضية الجزائرية على اساس « حرية تقرير المصير » اوحى للاوروبيين المستوطنين في الجزائر فكرة صحيحة عن العزلة التي تنتظرهم وتبينوا ان كل الآمال التي عقدوها بفرض ارادتهم الاخيرة على البلاد كما تم لهم عام ١٩٥٨ ، قد ذهبت ادراج الرياح . وقد عقب ذلك موجة من العنف الذي لم يسبق له مثيل لا سيما بعد الثورة التي اعلنهـــا القواد الاربعة والتمرد الذي قاموا به ضد الحكومة الفرنسية ، مما ادى الى قتـــل وتعذيب عدد من الجزائريين قام هؤلاء بأعمال هائلة الثأر من ضحاياهم ، في مجازر بشرية دموية اشترك فيهـا حتى الاولاد . والمفاوضات سرية اولاً ثم علنية بين الحكومة الفرنسية وممثلين الجزائر في ايفيـان ، ادت في ١٨ اذار الى اتفاق وقف اطلاق النار دون ان يضع حداً لاعمال العنف والتنكيل واعلن المتمردون الفرنسيون سياسة الارض المحروقة ، وحاولوا ان يوجدوا مراكز مقاومة في الاحراج

والنقابات كما حاولوا القيام بحركة انقلابات نظمها قدائيون . والاستفتاء حول تقرير المصير اتاح الفرصة امام الحكومة الفرنسية لاعلان استقلال الجزائر في ٣ تموز في الوقت بالذات الذي نشبت فيه ازمة حادة في قلب جيش التحرير خرج منها بن بللا منتصراً . فالجزائر تؤلف اذ ذاك بلاداً منهوكة قضت الحرب فيها والاعمال العسكرية على مئات الألوف من سكان البلاد ، كما ان ٤/٥ المستوطنين الاوروبيين كانوا قد غادروها الى فرنسا في بضعة اسابيع ، في هذه الموجة العارمة من اعمال العنف والسلب ولم يبق فيها سوى ٢٠٠،٠٠٠ منهم مع العلم ان كل العناصر التي تكون الاطر الادارية والتقنيين والمدرسين كانوا غادروا البلاد ، وسادت اعمال اللصوصية في جميع اطراف البلاد ، كما ان زعماء جيش التحرير كانوا على وشك حرب اهلية فيما بينهم .

اقرت الحكومة الجديدة دستوراً جديداً وراحت تحاول اعادة تنظيم البلاد على مبادىء الاشتراكية : فأممت الاملاك الشاغرة وعدداً مهماً من المشروعات الرئيسية كما صادرت جميع املاك المزارعين الاوروبيين ، وانشأت لجاناً صغيرة لادارتها وبدأت تفاوض فرنسا التي لم يكن بد من مساعدتها المالية والثقافية ، ولاجل الوصول الى اتفاق حول ترحيل وحدات الجيش الفرنسي الذي غادر البلاد نهائياً في حزيران عام ١٩٦٤ . وهكذا تم الوصول الى اتفاقات تنظم مساعدة فرنسا المالية والفنية واستثمار نفط الصحراء الكبرى .

وقد توصلت كل من الحكومة التونسية والمغربية الى عقد اتفاقات مع فرنسا لاخلاء البلاد من الجيش الفرنسي واستعادة الاملاك التي كان يستثمرها المعمرون . وقد ادت السلطة الاستبدادية التي مارسها رئيس الحكومة في كل من هذه الاقطار الى قيام معارضة في وجهه ، وهي معارضة بقيت عاجزة في وجه ابو رقيبة في تونس الا انها كانت اعنف واشد نشاطاً في وجه الملك حسن الثاني ، تمثلت على الاخص في اتحاد القوى الشعبية وحزب الاستقلال . اما في الجزائر فقد انتصرت المعارضة في الانقلاب العسكري الذي قام به العقيد هواري بومدين وأدى الى قلب بن بللا وإبعاده عن الحكم في (حزيران ١٩٦٥) .

وقد ادى هذا الصراع ككل الحركات الوطنية التي وقعت في القرنين التاسع عشر والعشرين الى توحيد ممثلي كل الاحزاب وكل طبقات الشعب في هذه المعركة المشتركة لتقرير المصير الذي يؤمن استقلال البلاد وسيادتها . ووراء القضية السياسية تكمن قضايا ومشكلات اخرى اهمها المشكلة الاقتصادية التي تعاني منها كل البلدان المتخلفة : فكيف السبيل الى تأمين اود العيش لهذه الجماهير البائسة ، وهي نفس القضايا التي اعترضتنا في معرض الحديث عن اقطار جنوبي شرقي آسيا التي نالت استقلالها منذ عهد قريب .

الفصل الخامس

تطور افريقيا السوداء

خضع هذا القسم «من افريقيا الواقع جنوبي الصحراء» هو الآخر لتطورات عميقة لم تلبث معالمها في الافق خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة وذلك بتأثير مزدوج من الازمة الاقتصادية التي رزحت بكل ثقلها على البلدان ذات الاقتصـاد السريع العطب ، ومن الحرب العالمية الثانية ، غيرت أوضاعها وبدّلت من ظروفها وصروفها ، واوجدت فيها توتراً عنيفاً اشتد بين الدول المستعمرة والبلدان الخاضعة للاستعمار التي راحت تتطلع الى السيادةوالاستقلال. فأثار ذلك امام الاولى منها مشكلات ومصاعب معقدة كان من العسير عليها حلها بعد ان ايقنت ان ليس أمامها من بلدان تستثمرها وتستغل خيراتها سوى القارة الافريقية .

١ – تطور الاقتصاد والمجتمع

والسرعة التي تعاقبت فيها هذه الحوادث يجب ردها في الدرجة الاولى الى حـدة التنافس الاقتصادي بين الدول الاوروبية على استثمار خـيرات امبراطورياتها الاستعمارية ومواردها الطبيعية، والى استبطار الرأسمالية التي أنست الى استثماراتها الناجحة عبر البحار فرأت ان تشغل جانباً من هذه الاموال التي كانت تستثمرها من قبل في آسيا الجنوبية الغربيـة ، في افريقيا ، واخيراً الى ازدياد الاتصالات بين الاوروبيين وسكان البلاد الاصليين .

طرق المواصلات واثرها

يَسُرت هذه المواصلات ولانت بعد ان تكاثر عدد الاوروبيين الذين استقروا عبر البحار مع انـه بقي ضعيفاً نسبياً : ففي نياسالاندا ١,٠٪ وفي افريقيا الشرقيـة الانكليزية ٣,٠٪ ، وفي افريقيا الشرقيـة الفرنسية ٤٦,٠٪ ، وفي الكونغو البلجيكي ٧,٠٪ ، وفي افريقيا الغربيـة الفرنسيـة وانغولا ١٪ ، وفي روديسيا الجنوبية ٦٪ ، وفي افريقيا الجنوبية ٢٠٪ . كذلك ساهم في هذا اليسر تجنيد عـدد كبير من ابناء هذه البلاد واستخدامهم في الاعمال الحربية التي دارت رحاهـا في اثيوبيا وشمالي افريقيا وفي بورما واوروبا . وهكذا اخذ يزداد عـدد الوطنيين يوماً بعـد يوم الذين تضطرهم

الاعمال والظروف للاتصال الشخصي بالاوروبيين والتغلغل الى قلب المظاهر المميزة للحضارة الاوروبية ، وبذلك تم لهم الاطلاع على ما فيها من عوامل القوة والضعف ، وأنسوا في اوروبا جواً لا تشوبه بشيء مظاهر العرقية والعنصرية خلافاً لما يجري في بلادهم. وقد كان في نهاية الامر لتطور وسائل المواصلات ولا سيما وسائل النقل بالسيارات التي سهلت من اسباب الرحلة والتنقل ان نشطت حركة التبادل بين اجزاء افريقيا النائية بعضها عن بعض . فالطرق المعبدة ، شأنها شأن الخط الحديدي بالذات ، هي خير عامل. « فهي تفضي الى تحرير الاسود » اذ تحمل اليه المال بشكل اجور ومرتبات ، كما تحمل التاجر الذي ينقل معه وسيلة انفاقه ، وبفضل هذه الطريق يتحرر المرء من العبوديات التقليدية التي كانت تشده اليها تنقلاته بين القرى والمدن . وخير مثال على الدور الثوري الذي يمكن ان يلعبه شق طريق جديدة هو الخط الحديدي المعروف بخط باس – كونغو – كاتنغا (B. S. K.) ، الذي يصل بورت فرانكي وبوكاما وتم بناؤه بين ١٩٢١ – ١٩٢٨ .ففي اقل من عشر سنوات حدث سيل من تنقلات السكان بحيث اننا نجد عام ١٩٦٠ ربع سكان الولاية يقيمون على مقربة من الخط المذكور ، في رقعة من الارض مساحتها ١/٠ مساحة الولاية . وقد انتقلت قرى برمتها لتستقر بجوار الخط ، وصار تمازج وتخالط بين طبقات السكان ، والوضع الاقتصادي القديم في البلاد الذي جهل اصول الزراعات التجارية انقلب تماماً من جراء التفاوت الجديدة التي مكن لها بناء الخط ونشاط الحركة عليه (اجور العمال ونفقات صيانته) ، والزراعات الجديدة التي نشأت على جانبيه كالفستق والقطن والمانيوك والذرة الصفراء التي حلت محل الزراعات الغذائية القديمة وامكن بالتالي تصديرها الى مقاطعات كاتنغا وروديسيا الشمالية . والغابات التي استعمل خشبها للوقود اخذت تتقهقر وراحت احدى الشركات الفرعية اكسفوركا (استثمار الاحراج) تستثمر الغابات الكثيفة استثماراً نموذجياً، بعد ان نالت امتيازاً باستثمار ارض مساحتها ٣٥٠٠٠٠ هكتار . كذلك تأسست شركات كبرى لتربية الماشية تربي اكثر من ١٠٠٠٠٠ رأس من البقر ، كما اقطعت الحكومة مساحة ٥٢٠٠٠ هكتار لمعمرين اوروبيين لكي يستغلوها . وهكذا زالت من الوجود قرى وقصبات ظهرت مع دخول الاوروبيين الى تلك البلاد لتحل محلها مجتمعات تجارية قامت على مقربة من الخط المذكور .

فلم يبق في كل افريقيا قرية مهما نأت وبعدت ، لا يستعمل الوطنيون من ابناء البلاد فيها المصنوعات الاوروبية ، كما ان الافكار والامور التي يتكلمون عنها او يبحثونها والاحداث التي يطلقون عليها كلها تمت الى اوروبا . وهذا التجاور بين حضارتين متعارضتين وهذا التواصل بين مدينتين ، ادى بالطبع الى تطورات عديدة في حياة هذه المجتمعات البدائية قضت تدريجياً على عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة .

الاقتصاد القائم على النقل

نهض هـذا الاقتصاد المغلق القائم على عزلة القرية والمجتمع كما قام على عزلة القارة الافريقية نفسها حيث تنتج القرية كل مـا يحتاج اليه سكانها من صنع العائلة (الكوخ واللباس والمواد الغذائية) واصحاب الحرف في القرية (من خزافين وحدادين) حل اقتصاد السوق المحليـة المرتبطة بالطرقات والخطوط الحديدية ، والتجار والعرض والطلب ومطالب الادارة . وبدافع من هذه العوامل المختلفة ، مال المزارع الافريقي الى الاهتمام بالمحاصيل التجارية التي تشتد اليها حاجة الاوروبيين لصناعاتهم المختلفـة ، وهي في الاساس خامات ومواد زراعية ومواد استخراجيـة ثمينة غير حديدية : كالكاكاو والفول السوداني وزيت البلح والسيزال والخيوط القاسية والبن والخشب الثمين المستخرج من غابات البلد والماس والنحاس والمنغنيز والاورانيوم والكوبالت والكروم وغير ذلك . وهذه المحاصيل تدر على الفلاح الافريقي وتؤمن له النقد الذي يحتاج اليه لدفع الضرائب المترتبة عليه ولشراء المحاصيل المشغولة المستوردة من الخـارج التي يحتاج اليهـا : كالاقمشة القطنيـــة والخردوات والصابون ، وماكينات الخياطة والدراجات وغير ذلك ، لا سيما واستيراد هذه الحاجيات يقضي على الصناعة اليدوية بحيث يتعذر عليه الحصول عليها الا عن طريق الاستيراد . وهكذا قام في البلاد ، محل الزراعات الغذائية والصناعة اليدوية اقتصاد خاص قوامه شحن منتوجات البلاد ومحاصيلها نحو المرافىء بقصد تصديرها وتوزيع المحاصيل المصنوعة المستوردة . وهـذا الاقتصاد القليل التنوع وبالتالي السريع العطب (من اصل ٢٧ بلداً رئيسياً من بلدان افريقيا ، عام ١٩٤٩ خمسة عشر بلداً منها نهض ٧٠ بالمائة من صادراتها على ثلاثة اصناف لا غير) ، الخاضع موقعا حماية فقط ، على تقلبات الاسواق الخارجية يسيطر عليه من جهة ثانية بضع شركات تجـارية كبرى متخصصة بأمور النقل . وهذه الشركات هي التي تحدد اسعار المنتوجات والخامات التي تعنى بتصديرها كما تحدد اسعار الحاجيات التي تستوردها وتبيعها لتجار الفرادى ، هذه التجارة التي هي بيد بعض الاوروبيين : من يونان وبرتغاليين ولبنانيين وسوريين وهنود وعرب وبيد تجار آخرين من اجناس اخرى كالألوف والهاوساس والديولاس .

بعض هذه الشركات تكاد تحتكر حركة التصدير والاستيراد في هذه الاقطار ، منها مثـلاً الشركة الفرنسية لافريقيا الغربية (F . A . O.) ، والشركة التجـارية لغربي افريقيـــا (S. C. O. A.) في افريقيا الفرنسية ، وشركة الكونغو الاعلى والاسفل (C. F. H. B. C.)، وشركة جون مولت ، هاتون وكوكسن احد فروع شركة اونيليفر ، وشركة زيوت الكونغو البلجيكي المعروفة بـ(U. A.C.) او الشركة الافريقية المتحـــدة ، والشركة المعروفة باسم (Nosoco) او الشركة التجارية الجديدة وشركة النيجر الفرنسي ، وشركة كتنغ في الكرون وشركة كونياري بليو التجارية (S C K N). وتتخذ حشد رؤوس الاموال احيانا نسبة لم تعرف مثلها عواصم البلاد المستعمرة حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، كما نرى ذلك مثـلاً في الكونغو البلجيكي حيث تملك الشركة العامة وفروعها الـ ٦٥ ، احتكاراً يمتد الى كل تجارة

التصدير في المستعمرات : كالنقل البحري والجوي والبري والنهري ، كما تملك منـاجم المواد غير الحديدية ومولدات الطاقة المحركة . وهي تهيمن بمالها من امتيازات وديون على عشرات الالوف من الهكتارات تمتد لعدة ولايات . وانشأ في بلجيكيا صناعة خاصة تعنى بتحويل المعـادن الكونغوية غير الحديدية : كالنحاس والقصدير والكوبالت وغير ذلك .

ولعل ليبيريا هي خير مثال يضرب لهذا الاقتصاد القائم على النقل . فقد نالت فيها عـام ١٩٢٦ شركة فيرستون للمطاط الموجودة في مدينة اكرون (اوهايو) ، امتيـازاً مدته ٩٩ سنة يخولها استثمار مليون إيكر « تختارها » بسعر ٦ سنتات للايكر الواحد، فاختارتها بالطبع من الاراضي الطيبة في البلاد بحيث ان اصحاب الاراضي المجاورة لاراضي الشركة المذكورة من قبائل تلك البلاد والذين لم تنزع ملكيتهم عنها مباشرة سلموا بطيبة خاطر بتنقيبها حتى ان كل النظام الاقتصادي التقليدي الذي كان سكان القرية يسيرون عليه من قبل ، تبدل ليأتلف مع النظام الجديد الذي وضعته الشركة . فالمطاط هو من هذه الزراعات الأحادية التي تغطي ٩٠ ٪ من صادرات تلك البلاد . وفي المقابل على ليبيريا ان تستورد الجانب الاكبر من الاشيـاء التي تحتاجها . فالشركة تستورد الارز بما يكفي لاعالة عمالها البالغ عددهم ٢٥،٠٠٠ عامل من ابناء البلاد ، كما تستورد كل شيء « من اللحم الى حبة البندورة بشكل معلبات اميركيـة » . وهي تستورد نصف ما تستورده هذه البلاد بواسطة احد فروع هذه الشركة المعروف باسم الشركة الاميركية للتجارة . والدور الذي يمثله سكان ليبيريا في الحركة التجارية في بـلادهم هو دور ضعيف للغاية : فالتجارة بالفرادى هي بيد الآسيويين ، وما تبقى من النشاط التجاري يقع بيد الاجانب . وهكذا ان مليونين من السكان لم يكن لهم عام ١٩٥١ ، سوى ٣٤٧ مـدرسة ابتدائية تضم معاً ٣١،٠٠٠ طالب وطالبة .

وهكذا نرى كيف يقوم في البلاد نظامان اقتصاديان متجاوران : هنا ، اقتصاد استهلاكي يعتمد السوق المحلية تهيمن عليه شركات كبيرة وتغذيه مزدرعات اوروبية واميركية تستخدم في سبيل تأمينه يد عاملة متوفرة رخيصة ، وهناك اقتصاد عائلي لا عدة له ولا عتاد ، ولا عمال مأجورين يؤمنونه ، يتألف اصلاً من مجتمعات تتبادل الخدمات وعمليات التسليف، تبيع بالاسعار التي تعينه الشركة ولا تنتج سوى كمية ضئيلة من المواد الغذائية لا تفي بالحـاجة .

تأزم وضع ابناء البلاد

كان من بعض نتائج الاهتمام بتأمين المواسم الزراعية المعدة للتصدير ، اتساع الاراضي الزراعية ، وبالتالي إنهـاك الاراضي التي تمّت تعريتها من الشوك والعوسج باحراقها . فقد اهملت الطرق والوسائل التي سار عليها ابناء البلاد باعتمادهم الزراعة المتبدلة التي تحافظ على غنى التربة باراحة الارض وتدويرهـا مدة كافية . وهكذا ضاع التوازن الذي قام من قبل بين امكانيات تربة فقيرة على العموم ووسائل وادوات تقنية تستخدم في استثمارها ، مراعية نظام الامطار ومقتضيات فصول السنة والمواسم المزروعة، ولم تلبث ان ظهرت النتائج. فالتوسع في زراعة الفول السوداني في السنغال جرّ الى إنهاك

التربة في مقاطعة لوغا وكاور والتوسع في زراعة شجر المطاط في الشاطىء الذهبي جعل الاراضي الحرجية تتقهقر بشكل مخيف ، كما ان التمويل على المحاريث التي تخرق التربة عميقاً في استثمار الارض عجل في انهاك التربة وفي تعريتها. فالحراثة العميقة وزيادة مساحة الاراضي المزروعة والتقليل من الاراضي المحولة ، وتراجع الغابات والاحراج والمساحات العشبية ، كل ذلك كشف عن تربة حديدية جدباء هي طبقة الصلصال الاحمر الفقير . وها هو اوغست شيفاليه الذي اخذ يتجول عام ١٩٥٠ في المنطقة الصحراوية والسودانية الواقعة في هذا القسم من افريقيا الغربية الفرنسية والتي زارها لاول مرة قبل ذلك بخمسين سنة يعرب عن دهشته امام ما شاهد من موت النباتات واثر الرمل الزاحف . والملاحظة ذاتها تبدو للويس شيفالييه عند زيارته مدغشقر حيث تتهال التربة الى الوديان والى البحر تكشف الطبقة الصخرية وقد تجردت من تربتها وحشيشها .

نظام الاراضي المحفوظة والعمل الاجباري

ويزداد وضع ابناء البلاد سوءاً على سوء من جراء نظام الارض المحفوظة والامتيازات الممنوحة للاوروبيين. فقد وزعت في كينيا ، عام ١٩٥٠ على ٢٣،٠٠٠ معمر اوروبي ، ٤٢،٠٠٠ كيلومتر مربع من اطيب الاراضي واجودها، بينما نرى ٣،٣٠٠،٠٠٠ من ابناء البلاد الاصليين يحشرون في ١٠٨،٠٠٠ كلم مربع من الاراضي المحفوظة بعضها اراض قاحلة جدباء ، وبذلك نال المعمر الاوروبي ٢٤٠ هكتاراً من الاراضي الطيبة ، سهلت طرق الاتصال بها وتمهدت بينما ليس تحت تصرف رب عائلة من ابناء البلاد ، سوى ٣ هكتارات من الاراضي المتوسطة الانتاج . وفي روديسيا الجنوبية ينال ٦٥،٠٠٠ من الاوروبيين ١٨٥،٠٠٠ كيلو متر مربع بينما لا ينال ١،٥٠٠،٠٠٠ من ابناء البلاد ، سوى ١١٥،٠٠٠ كيلومتر مربع . وفي تنغانيكا يعيش ٢/٣ السكان من ابناء البلاد على عشر مساحة البلاد ؛ وفي الكونغو البلجيكي ، نرى تحت تصرف شركات بلجيكية ضخمة ، مثل شركة زيوت الكونغو البلجيكية وشركة السكر الكونغولية ، عشرات الألوف من الهكتارات من الاراضي الزراعية الطيبة .

والقصد من نظام الاراضي المحفوظة ، توفير اليد العاملة للاستثمارات الخاصة . فالسكان الذين هم بحاجة الى موارد كافية ، او يضطرون الى دفع ما يترتب عليهم من رسوم نقداً ، عليهم ان يعملوا في المزدرعات الاوروبية كيد عاملة مأجورة ، وان ينتجوا في الاراضي الواقعة تحت تصرفهم ، محاصيل معدة للتصدير . وهذا بالذات ما عناه حاكم كينيا العام ، سنة ١٩١٣ عندما كان يؤكد :

« الضريبة المفروضة هي السبيل الوحيد لارغام ابن البلاد على مغادرة الاراضي المحفوظة بحثاً عن عمل له ... فهي الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الحياة لدى ابن البلد ، وبهذه الطريقة وحدها تتوفر اليد العاملة في البلاد وتحدد الاجور . ان رفع الاجور من شأنه ان يخفض الطلب على اليد العاملة ، اذ ان اجوراً اكبر تمكن لابناء البلاد من دفع الضرائب والرسوم المترتبة عليهم بأقل قدر من العمل » .

والعمل الاجباري يهدف لمثل هذا الغرض تحت ستار اما زراعات مفروضة « الغرض منها

التدريب على العمل الزراعي، كما هي الحال في افريقيا الاستوائية الفرنسية ، او« برسم التربية» (كما هي الحال في الكونغو البلجيكي عام ١٩٣٣) ، وأما تحت ستار مصادرة وتسخير من قبل الادارة لتأمين القيام ببعض الانشاءات العامة : من طرق وخطوط حديدية ... فالاشغال الشاقة حرمتها معاهدة جنيف المعقودة عام ١٩٣٠ حتى لو كان الغرض منها تأمين المصلحة العامة ، الا ان العمل بهذه المعاهدة وتطبيقها اقتضى سنين عديدة قبل وضعها موضع التنفيذ. وقد صدرت بين ١٩٣٠ - ١٩٣٧ في كل من مقاطعة افريقيا الغربية الفرنسية وفي مقاطعة افريقيا الاستوائية الفرنسية عدة قوانين للحد من اشغال السخرة الشاقة ، ثم جرى استبدالها بفرض رسم بديل عنها او بافتكاكها نقداً . اما في الكونغو البلجيكي وفي مدغشقر ، فبأشغال فرضت على المجندين. وفي سنة ١٩٤٦ فقط ألغي العمل بالاشغال الشاقة بصورة نهائية في الممتلكات الفرنسية الا ان الاخذ بهذه الطريقة بقي جارياً في المستعمرات البرتغالية ، وباتحاد جنوبي افريقيا ولو بصورة غير مباشرة .

تنقل السكان

هذه الاوضاع الجديدة التي طبعت الحياة الاقتصادية في هذه البلاد هي وراء هذه التغييرات التي لحقت المجتمعات الوطنية ، من ميزاتها البارزة التغيير الجذري الذي طرأ على توزيع السكان . فقد شهدنا حركة توطين او تحضير واسعة النطاق من جراء الانهيار السريع الذي اصاب المجتمعات البدوية القائمة عند تخوم العالم الاسود . ففي الصحراء الكبرى كما في الجزيرة العربية وبادية سوريا ، قامت قبائل مهمتها الغزو سريعة الحركة والتنقل ، تستخدم في غزواتها وهجومها الخاطف ، ضرباً من النوق والجمال النشيطة السريعة العدو تجعلها في مأمن من كل مطاردة او ملاحقة ، يخضع لسيطرتها سكان الواحات حتى سكان مناطق السودان . وهذا بالتمام هو وضع قبائل رغيبة الضارية على حدود ريو اورو وحدود موريتانيا . ومنذ ان اصبح بالامكان ، منذ عام ١٩١٤ ، تأليف وحدات الهجانة ، مزودة بالاسلحة الحديثة ، اخذت الصحراء تفرغ وتخلو من روادها، واستهوتهم حياة المدر فاستكانوا واستقروا واستأنسوا الى المراكز الآهلة ، وبذلك فقدوا كل سلطة لهم على الزنوج او البربر الذين الفوا السيطرة عليهم .

ومن جهة اخرى ، فالسكان اخذ عددهم بالنمو والارتفاع ولو لم نستطع تحديد النسبة او المعدل بالدقة المطلوبة . ان تطور الطب الاستوائي على يد تلاميذ باستور واتباعه مكن من طرد الحمى البرداء على أشكالها ، والحيضة والدنك والبرص والهواء الاصفر ومرض النوم والزحار الاميبي ، والحمى الصفراء والتدوّد الخيطي وداء الانكلوستوما .الا ان جانباً كبيراً من هؤلاء السكان يشكون من سوء التغذية ويتعرضون بالتالي لقصر الحياة كما ان هجرة الشبان منهم يعرض جدياً للخطر نسبة المواليد . مع العلم ان معدل الوفيات بقي عالياً من جراء فتك بعض الامراض الرئوية والامراض الزهرية ، ومن اشتداد الادمان على المسكرات ، وسوء التغذية ، ونقص المواد الغذائية. ومع ذلك فحركة المواليد تفوق الوفيات لزيادة في المواد الغذائية، (ففي

مدغشقر مثلاً زادت المواليد على الوفيات من ٠٠٠ ١١ عام ١٩٤٦ ، الى ٠٠٠ ٥٩ عام ١٩٥٣ ، الامر الذي اضطر معه جانب من السكان للانتقال الى حيث يستطيعون تأمين ما يقوم بأودهم . وهكذا ترى كم هي كبيرة حركة التنقل والانتقال بين العمال . فهم يشكون الضيق في هـذه المناطق المحفوظة التي اخذت انتاجيتها تضعف وتتناقص ، فهم مضطرون للبحث لهم عن عمل في الاراضي التابعة للمعمرين او يبحثون عن الاماكن الفارغـة او يقيمون على مقربة من القرية المجتمعة او يذهبون للعمل في هذه الورشات القائمة في المدن . فالمباشرة بالاشغال الكبرى كبناء الخطوط الحديدية أدى ، في بعض الاحيان ، الى اخلاء مناطق بأكلها . فبناء خط الكونغو — المحيط اقتضى تحقيقه ، بين ١٩٢٠ — ١٩٤٠ من ٠٠٠ ٢٠ — ٠٠٠ ٣٠ عامل ، والتعهدات التي أبرمت اقتضت تشغيل نصف سكان الغابون من ٢٠ — ٤٠ سنة حتى انهم تعاقدوا مع عمال أوتي بهم من نيجيريا .

هنالك مهاجرة وقتية او نهائية نحو البلدان التي تدفع اجوراً اطيب من المستعمرات الفرنسية الى المقاطعات الانكليزية ، في الشاطىء الذهبي وفي نيجيريا ومن الغابون نحو غينيا الاسبانية . ان اكثر من نصف سكان الداهومي قاموا برحلة او اكثر في مقاطعة الشاطىء الذهبي ، وكان الزنوج يتزحون بالالوف من الموزمبيق ومن الكونغو البلجيكي ليعملوا عمالاً في روديسيا او في افريقيا الجنوبية . وكثيرون من الشبان ، فروا تفادياً منهم للخدمة العسكرية التي كان عليهم ان يؤدونها ، من المقاطعات الفرنسية الى المقاطعات الانكليزية حيث لا خدمة عسكرية مفروضة. وحركة التنقل هذه شجعت عليها ودعت اليها رغبة العمل في المدن اذ كانت تتيح للاسرة فرصة الظهور والبروز اجتماعياً ، وهي فرصة رأى فيها الشبان سانحة لهم للتخلص من هـذا الوضع الثانوي الذي كثيراً ما أقصر عليه في أسرهم ، او للتخلص من سيطرة وتابعية رئيس القبيلة المشدودين اليها بحسب تقاليدهم ، او للحصول على بعض النفوذ او بعض الشأن لدى الاقارب المتخلفين في قريتهم . هنالك قرى تنتقل احياناً بكاملها ، فبدلاً من ان يغرقوا في عزلتهم ، كما في السابق ، فهم يقيمون على مقربة من الطرق بحيث يسهل عليهم الامتزاج في الحلقة الاقتصادية المحليـة .

النزوح من الريف وازدهار المدن

من نتائج هذه الحركة المحتومة ، إقفار الريف تدريجياً . هنالك قرى كبيرة عديدة في الغابون او في الكونغو زالت من الوجود او انتهى بها الامر الى بضع زرائب او بضعة اكواخ . فهم يعودون الى الغـابة ، بعضهم يبدو وكأنه عمارة جوفاء ، لا تقع العين فيها الا على النساء والشيوخ والاولاد ، فاضطرب ميزان الجنس وتغلب عدد النساء على عدد الرجال . وبلغ من حدة حركة النزوح من الريف في السنغال ، حتى اصبح سكان المدن فيهـا ٠٠٠ ٥٠٠ من اصل ٠٠٠ ١٠٠ ٢ من سكان الريف . وفي مقاطعات الكونغو الاوسط ترى ١/٨ السكان يقيمون في المـدن ، وفي كاتنغا ٢٨٪ منهم يسكنون المدن وفي الشاطىء الذهبي ١٤ بالمائة والجراد الريف من سكانه في عـدد كبير من

المقاطعات ادى ليس الى خلخلة المجتمع الريفي وبلبلته فحسب بل تسبب ايضاً في تأخير النظام الاقتصادي بين الاهلين وأدى الى فقدان خطير في التوازن بين الريف والمراكز الصناعية . فمن اصل ١٢ مليون نسمة في الكونغو البلجيكي ، هنالك ٢١٫٥ بالمائة (اي ٢٦٠٠ ٠٠٠) ، كانوا يعيشون ، عام ١٩٥٤ بعيدين عن نطاقهم القبلي او من وسطهم التقليدي ، في مخيمات الاشغال والمراكز الخارجة عن التقاليد او في المدن الافريقية مقابل ٨٫٣٣ بالمائة عام ١٩٣٨ و ١٤٫٩ بالمائة عام ١٩٤٦ ، اي ٣٤ بالمائة من الشبان المفتولي العضلات ، مقابل ١٩٫٢١ بالمائة عام ١٩٤٠ ، و ١٤٫٣٦ بالمائة عام ١٩٣٥ ، فاذا ما وضعنا جانباً الـ ٦٠٠ ٠٠٠ من الكهول الذين لا ينتجون (بين جنود وشرطة وشيوخ ومرضى) ، نجد ان مهمة تأمين الاعمال الزراعية وانتاج المحاصيل الغذائية انما يقع معظمها على عاتق النساء ، وعلى نحو ١٧٠٠ ٠٠٠ من الذكور البالغين ، وهو عدد قليل جداً . ثم ان هذه الهجرة الضخمة بين الذكور القادرين على الانجاب والانسال يهدد البلاد بأزمة حادة من قلة المواليد .

وقد سجلت المدن في السنوات الخمس عشر الاخيرة تطوراً في حركة السكان والاسكان لا كفاء لها ولا نظير من قبل . « فالمدينة ، بنت الانسان الابيض اصبحت مسكناً للاسود » . وعدد السكان في مدينة برازافيل يرتفع من ... ٣٨ في سنة ١٩١٢ ، الى ... ٧٥ عام ١٩٥١ ، ٩٠. بالمائة من سكانها لم يولدوا فيها ، و ... ٧٠ منهم عمرهم اقل من ٣٠ سنة . وفي اتحاد جنوبي افريقيا حيث عدد السكان زاد ٦٤ بالمائة عما كان عليه من ٢٠ سنة ، كانت هذه الزيادة بنسبة ٧٦ بالمائة عند الافريقيين ، وان ٣/٤ الاوروبيين والآسيويين و ٣/٥ الخلاسيين و ٤٠ بالمائة من الزنوج يسكنون المدن . فمدينة جوهنسبرج زادت ٥٢ بالمائة بين ١٩٣٦ – ١٩٤٦ ، اذ ارتفع عدد سكانها من ... ٥٢٠ الى ... ٧٩٠ ، ومدينة الكاب ، ارتفع عدد سكانها من ... ٣٤٥ الى ... ٤٥٤ ، والمرافىء الثانية الكبرى في الاتحاد المذكور زاد سكانها اكثر من الضعفين منذ عام ١٩٢١ . فقد زاد عدد سكان بريتوريا ثلاثة اضعاف . وفي روديسيا الشمالية فالمدن الخمس التي تؤلف منطقة النحاس وبروكهل تعد من ١٤ الى ١٦٠ الف نسمة وفي روديسيا الجنوبية ٢٠٠،٠٠٠ عامل من الزنوج يعيشون في المدن الصناعية او حولها . وفي الكونغو البلجيكي نرى ليوبولدفيل يرتفع سكانها من ... ٤٠ ، عام ١٩٣٩ ، الى ... ١٩٠ ، عام ١٩٥٠ ، ثم بلغ ... ٢٨٣ ، عام ١٩٥٤ . وفي افريقيا الغربية البريطانية ، لاغوس تعد ... ٢٦٧ ، زنجي مقابل ... ٢ ، من الاوروبيين ، واكرا تعد ... ١٣٦ ، نسمة وفريتون ... ٦٤ ، وعبدان ... ٤٥٩ ، وكانو ... ١٣٦ ، وفي افريقيا الشرقية ، نيروبي تعد ... ١٢٠ ، نسمة .

وحركة الهجرة هذه قد لا تتخذ لها حداً نهائياً . فمعظم المهاجرين يبحثون لهم عن أجر لفترة معينة من الزمن يستطيعون معه دفع ما يترتب عليهم من ضرائب والاقتصاد ببعض الدراهم يقدمونه صداقاً لعروسهم عند الزواج ، وهكذا نراهم ينفرون من العقود الطويلة الاجل ويؤثرون عليها العقود القصيرة الاجل . ومع ذلك كثيرون منهم لن يعودوا للقرى فيقطعون كل

صلة لهم مع عاداتهم واعرافهم الموروثة ، وحتى لو عادوا الى اوطانهم الاولى ، فانهم لا يمتزجون تماماً مع مجتمعهم . فقد حملوا معهم عادات جديدة واساليب جديدة وانماطاً جديدة في معايشهم وطرق تفكيرهم كثيراً ما حملتهم على النزوح والاغتراب من جديد . ففي الشاطىء الذهبي ، هذا القطر الذي يعد من اكثر اقطار افريقيا الغربية تطوراً ، تجد ان ٥٠ بالمائة من عمال الصناعة هم من المتنقلين . وفي مقاطعة وتووترزسراند ٩٠ بالمائة من اليد العاملة يجب تغييرهم كل سنة . ففي الفترة الواقعة بين ١٩٢١ – ١٩٢٥ ، نرى اتحاد المناجم في كاتنغا العليا يشغل سنوياً ١١٢ ١٠ عاملاً من اصل عدد يبلغ ٥٦٢ ١٠ عاملاً . وهكذا يكون معدل التجديد ٩٦٧ بالألف ؛ وبعد سنة ١٩٢٧ ، اتخذت الشركة المذكورة اجراءات فضلت معها التعاقد مع عمال متزوجين لعقد عمل مدته ٣ سنوات . وهكذا هبط معدل التجديد الى ٣٢ بالمائة . وبذلك يبقى حالياً نسبياً . وقد أدت هذه النتائج الى تثبيت ٩٠ بالمائة من اليد العاملة ، وهو مثل نضربه لك لا مثيل له قط ولا كفاء في تاريخ افريقيا السوداء .

خلخلة التركيب الاجتماعي القديم

وهكذا وهنت الأطر الاجتماعية المعروفة : القبيلة والفخذ والاسرة (التي تؤلف الخلية الاساسية) وتولاها الانحلال والاضمحلال سريعاً وقد أخذوا يشعرون بالدور المخلخل للاستعمار حتى في هذه المناطق حيث يكاد لا يشعر الناس بالوجود الاوروبي ، وحيث الحياة الاقتصادية لا تتعدى اصغر اشكال حركة النقل والانتقال وحيث تغلغل المؤسسات والنظم الجديدة هو في ادنى حدوده . فالمجتمع مهما كان صلباً متيناً لا يكاد يقوى امام رفض الشبان القبول بالعمل الاجتماعي ، والتقيد بالنظام القروي وبالتقاليد التي تتحكم بالزواج . والمهم في الأمر هو الدور الذي يلعبه المال . فالى جانب الانتقال الى الاقتصاد النقدي ، فقد حرصت سلطات الاستعمار على تكوين طبقة من الفلاحين وتشجيع الاستثمار والملكية الفردية للارض ، والى تقوية الروح الفردية الزراعية . فالاملاك الخاصة بالقبيلة تبقى مشاعاً بينما الاستثمار يخرج عن ذلك ، فكل واحد يستثمر حقله كما يريد . فالارض اصبحت بذلك مصدراً من مصادر الرزق الفردي ، وبالتالي موضوع تبادل تجاري . وراح بعض زعماء القبيلة يزرعون القطن في مساحات شاسعة والكاكاو والفول السوداني ، وقد تغير هنا كما في بلدان الشرق الادنى وبلدان شمالي افريقيا مستوى الحياة ، فبعد ان كان موحداً يسير على صراط واحد ، أخذ يتلون ويتنوع ، وظهرت طبقات جديدة في المجتمع اساسها الثروة العقارية . ومع زوال الروح المجتمعية زالت كذلك الوحدات السياسية القديمة العهد وضعفت سلطة الزعماء التقليديين ؛ والعلاقات الادبية والوشائج الخلقية التي كانت تشد افراد العائلة بعضاً الى بعض ، تراخت عراها . وزعيم العائلة لم يعد ، كما في الماضي الوسيط ، في مجتمعه بين مجلس الاختيارية ، فهو مكلف بتأمين الخدمة الدينية . فقد اصبح خادماً لدى الابيض يتناول منه الاوامر وينفذها ، ولم تعد القبيلة سوى قيادة محلية . وفي المدينة لم يعد شيخ الحارة رئيساً روحياً بل موظفاً مكلفاً على الاخص بامور الاحصاء وجباية الرسوم المتوجبة ، فسلطته

موضوع اخذ ورد ونفوذه ضعُف للغاية . والمؤسسات التلقيدية التي كانت تضم كل شبان القرية تحت سلطة رئيس واحد حيث كانوا يتلقون مبادىء المساعدة بالاشغال المشتركة ويقومون بنصيبهم في تحمل الواجبات المفروضة على الهيئة والذين كانوا يلعبون دوراً بارزاً في شد اواصر المجتمع القروي ، ويعدّون الشبان للحياة ، قد اخذت بالانحلال بعد ان تقلّص عدد كبير من الشبان من عضوية هذه المؤسسات . والطريقة العشائرية التقليدية التي اصبحت في نظرهم قاسية مرهقة ، جرى رذلها واسقاطها من الاستعمال . وراح الكبار يتأففون ويتذمرون من تراخي الانضباط ، ومن عدم الاحترام الذي يبديه الشباب نحوهم ، بعد ان صاروا يتغيبون عن القرية دون ارادتهم ، كما يرفضون الامتثال لاوامرهم عندما يعودون اليها ويثيرون المشاكل .

والكتلة التقليدية الصلبة التي كانت تتألف منها الاسرة اخذت بالانحلال والتراخي. والاسر الكبيرة اخذت تنقسم على نفسها الى عائلات صغيرة مستقلة والانضباط العائلي قام من يتنكر له وينتقص منه باسم حق الفرد ان تكون له وارداته الخاصة . وتطور الزواج هو من هذه العلائم المميزة القطيعة الجذرية التي تمت ضمن هذه القيم التقليدية ، كما ان وضع المرأة دخل عليه كثير من الخلخلة والبلبلة. في هذا النظام الاقتصادي القديم القائم على التبادل والتعاوض في الخدمات ، لعبت المرأة دور العامل الرابط بين الأسر المتصاهرة كما ان الزواج كانت تبت بأمره الفئات العائلية المعنية بالامر . اما اليوم ، فالاقتصاد النقدي والمالي جعل من المرأة موضوع منـــاقسة وعملية رابحة لاسرتها ترضى بزواجها طمعاً بالبائنة التي اصبحت ثمن سلعة عادية سجلت احياناً رقماً عالياً جداً (في الكامرون ١٠٠،٠٠٠ فرنك في عام ١٩٥٢) . ولما كان عدد كبير من الشبان يعجزون عن تقديم مثل هذا المبلغ ، فقد آثروا ان يبقوا خارج حظيرة الزواج ، لمـــا يزيد من حظ الاغنياء ومن حظ الكهول ايضاً . فالمرسلون من جهتهم حاربوا تعدد الزوجات ، والادارة التي لا تحب ان تتعامل في تخصيصاتها وفي التعويضات التي توزعها الا مع الافراد او مع رب المنزل ، تشجع هذه الروح الفردانية . فالمرأة تستفيد من هذا الوضع :فهي ترفض الانصياع لرب الاسرة او الاخذ بنصائح من يكبرها سناً ، فهي ترغب في ان ينظر اليها كرفيقة ، ينبغي معاملتها ومراعاتها بكل لطف وسخاء . فالاختطاف ضمن العشيرة ، والتسري والمعاشرة غير الشرعية وحوادث الطلاق حوادث تتعدد وتتكاثر كما يزداد البغاء بين الجماعة . ففي كل مكان ترى الصعوبات والمشاكل تقوم سواء في النظام الاموي او في النظام الابوي ، كما تشتد النزعة لاحلال سلطة الاب محل سلطة الخال .

ففي داخل الاسرة بمعناها الواسع او بمعناها الحصري الضيق، فالعلاقات بين الاب واولاده وبين الزوج وامرأته، طرأ عليها بعض التغيير .فانتشار التعليم والتوسع فيه اثار مشاكل وصعوبات في الإطار العائلي . فعلى مقاعد التدريس يتلقى الطلاب افكاراً ويتحمسون بأمور لا تخطر على بال ذويهم ، فيكتسبون في المدرسة معلومات لا يتم مثلها او بعضها لوالديهم وكثيراً ما تتناقض والاعراف المعمول بها في الاسرة.وفي المدن ، حلت الالعاب الرياضية والسينما والرقص الاوروبي

وغير ذلك من اسباب اللهو عن الملاهي التقليدية التي شبّوا عليها . ومن جهة ثانية فـالمرأة هي اقل تعلماً واقل تطوراً من زوجها ، فهي ألصق بالخرافات والقول بهـا وبالاعراف والتقـاليد المتوارثة من زوجها ، وهو وضع ينشأ عنه طلاق روحي يباعد فكرياً بين الزوجين .

وظهرت في المدن جمعيات جديدة ـ جمعيـات تسلية وجمعيات تعاونيـة ـ ، وقامت على مبادىء جديدة تغاير ان لم تناقض ما عرف منها في الماضي وكلها تدل صراحة على ان الشبان لم يعودوا ليرضون بالتقاليد الماضية ويحاولون استبدالها . وقد زالت شيئاً فشيئاً الديانات والعقائد المتوارثة مع زوال أطر الحياة الدينية القديمة : فالديانة الطبيعية حلت محلها المسيحية او الاسلام هذه الديانة المسيطرة في الشمال ، او اشكال عدة من هذه الكنائس الزنجية المنشقة ذات النزعـة التلفيقية ، ومع ذلك فلا يزال عالقاً في اعماق النفوس بقايا راسخة من الصنمية ومن العقـائد الطبيعية ، كالاعتقاد مثلاً بتناسخ ارواح السلف ، والاعتقاد بالحرمات الدينية وعبـادة الآباء والتعزيم ، والرغبة في مواراة اجسام الموتى حسب تقاليد السلف .

لا شك قط في ان الثورة ضد القيم التقليدية ليست شاملة او عامـة ومعظم الشبان يقتهون بالعودة الحياة القروية والاستمساك بأعرافها، التي لم تعد تنهض على التقاليد فقط ، وهذا التفكك الذي بدت معالمه يستمر متصاعداً . وهكذا نشهد تنافر المجتمعات والفئات الاجتماعيـة ، كما يقوم التضاد بين سكان الريف وسكان المدن وبين المحدثين والقدامى والشبان والشيوخ ، بـين المجتمع الجديد الذي اتخذ قاعدة الفلوس او الثراء الشخصي والافكار المستوحاة من الاوروبيين .

المجتمع الجديد : المتطورون

افضت حركة عصرنة المدن وتجميلها ، وتنقل السكان وانتقالها وتطوير التربية والتعليم ، وعلى الاجمال الاتصال بالبيض ، الى ظهور عنصرين اجتماعيين جديدين ، تألفـا من : بورجوازية أشير اليهـا عادة باسم « المتطورين » وبروليتاريا . فكل الوطنيين بلا استثناء الذين يدخلون في خدمة المؤسـات الاوروبية او تكون لهم علاقات مـع البيض ، يقضون على نسبة تكبر او تصغر وبشكل يختلف سرعـة ، علاقاتهم مع الفئات التي ينتمون اليها . ان اختلاطهم رفازجهم بعمال من فئات ومجتمعات عرقية مختلفة ، لهم افكارهم ونظرياتهم الخاصة ونمط معيشي يختلف عما عندهم من افكار ونظريات وانماط عيش اتصلت بهم من اعراف القرية وتقاليدها المتوارثة ، ينمي فيهم الاعتقاد ان هـذه الافكار والنظريات والمناهج الحياتية ليست بالافضل . ومن جهة ان اكتسابهم لاساليب وطرق عمـل جديدة ، والاقتداء بعادات واخلاق البيض الذين يلازمونهم يجعلهم يشعرون بالقلق والازعـاج من هذه الأطر والعادات القديمة التي تلازمهم ، كما ان تحسن مستوى عيشهم واقبالهم على الملابس والازياء والوان الطعام الاوروبية (كالخبز والحليب المخثر والمعلبات) مما ألف الابيض استعماله، قد يحدوهم الى نزع العادات القبلية التي ورثوها ، والى الاطراح جانباً حياتهم الروتينية .

كل هؤلاء الملونين الذين نزحوا الى المدن بالملايين ، والذين تميزوا عن غيرهم بما تم لهم من تربية وتعلم ويجيدون الفرنسية والانكليزية حسب المناطق التي ينتمون اليهـا ، تؤهلهم التعامـل مع

البيض ، والذين تؤهلهم عادتهم المكتسبة وتطبعهم بالطباع الاوروبية ، يؤلفون فئة المتطورين بما فيهم من تجار واطباء ومربين ومعلمين وكتاب ومستخدمين وموظفين ، كل هؤلاء يتحسسون عميقاً بجاذبية الحضارة الغربية ويتألمون في صميمهم من هذه المتناقضات والمفارقات القائمة بين نزعاتهم واماني‌هم ورغائبهم بالعيش كالاوروبيين ، وهذه الاوضاع الغريبة المستهجنة التي لا تزال قائمة في الأحياء الافريقية . فهم ينهجون نهج الاوروبيين في حياتهم عندما تقودهم الاقدار الى زوجة «متنورة و متطورة » ، شعار رمز النهوض الاجتماعي الذي يؤذن بالانتقال من العيش في الكوخ الترابي الى بيت سكن مبني بالحجارة او بمادة صلبة قوية ، على النمط الاوروبي . فهم يؤلفون بالفعل الطبقة المفكرة التي بالرغم مما لها من وضاعة النسب والاصل والمحتد والمستوى التربوي الذي لا يزال بدائياً تطمح للقضاء على هذه الفوارق القائمة في الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتذكر بما لها من نفوذ ومنزلة في اعين بني جلدتهم واقاربهم ، ببعض فئات برزت في المجتمع الروسي بين ١٨٦٠ ــ ١٩٠٠ .

قتل الروح القبلية يتم بحركتين متزامنتين : من جهة إطّراح العادات والأعراف التقليدية ، والاتجاه « نحو العالم الابيض الذي برغم من قربه لا يزال مع ذلك بعيداً ومغلقاً » . ومن هنا الرغبة الجامحة الى العلم والدرس : يجب ان نتعلم كل ما يحسنه الرجل الابيض لنحصل على ما له من كفاءة وجدارة ، وما له من اختصاص تقني ، والتساوي معه في الامور الاقتصادية ، ولبلوغ المراتب والوظائف المفتوحة امامه ، والتمتع على مثاله وغراره بالاحترام والنفوذ والسلطان .

بروليتارية المدن

الى جانب طبقة المتطورين او الطبقة البورجوازية تقوم بروليتارية العمال الصناعيين المأجورين الذين لا يزالون قلة . فهي تعد في تقدير البعض مليون وخمسماية الف نسمة من اصل ١٣٠ مليوناً يقطنون افريقيا السوداء . هي نسبة ضئيلة انما آخذة بالنمو بسرعة وتؤلف منذ الآن قوة تقف في وجه النظام الاقتصادي الاستعماري التقليدي . فهي تمثل ٣ بالمائة من مجموع السكان في الشاطىء الذهبي ، و ١ بالمائة في نيجيريا ، و ٧ بالمائة في تنغانيكا ، و ٨ بالمائة في كينيا ، و ١٧ بالمائة في روديسيا الجنوبية ، و ١٨ بالمائة في روديسيا الشمالية . واذا ما قورنت بالبالغين ، فهي تمثل ١٢ بالمائة في روديسيا الشمالية ، و ٥٨ بالمائة في مقاطعة ليوبولد البلجيكية ، و ٤٧ بالمائة في ولاية كاتنغا .

يختلف وضع هؤلاء العمال باختلاف الاقطار التي يعملون فيها ، سواء أكانوا في المدن حيث لا تنتظم صفوفهم اية جمعية او مؤسسة ، ام كانوا في هذه المناطق التي تقوم فيها مشروعات كبرى انشأت في سبيلهم مراكز يقيمون فيها تؤمن لهم اسباب العيش كما انها جهزت بالانشاءات الصحية ووسائل التعليم ، وعلى هذا الشكل قامت المراكز الصناعية الخمسة الكبرى: في لاند والشاطىء الذهبي ، ومناجم القصدير في نيجيريا ، ومناجم النحاس في كاتنغا وروديسيا الشمالية (في بروكن هل) . وهذا الوضع بالذات توفر في مزدرعات الاونيلفر في الكونغو البلجيكي . والوضع يبدو سيئاً في كل مكان لعدم استقرار اليد العاملة ولعدم توفر المقدرة الفنية

و المهنية فيما بينهم . وحركة تجديد العمال لملء الفراغ الذي يتركه في صفوفهم العمال الذين يغادرون بسرعة عملهم ، تزداد حدة وحرجاً عدم توفر التدريب المهني الفني في بعض الحرف الموضوعة . وقلة انتاج العمل لـ ٢/١ او ٤/١ ما ينتجه الابيض ، يجب ردها اصلاً الى سوء التغذية وظروف الحياة المادية السيئة التي تحيط بهم وعدم توفر التدريب التقني بينهم . ومن نتائج هذا الوضع بالطبع تدني الاجور الذي كثيراً ما يدفع العامل الى ترك عمله ، وهذا التقلب الذي يخضع له يحول حتماً دون اكتسابه قدرة فنية صحيحة . ومن جهة اخرى ، هنالك مشاريع استثمارية اغلبها استخراجية ، تقوم على الهامش . تمنى هذه المشروعات باستخراج فلزات قليلة المردود واستغلال هذه المناجم لا يعود بالربح على اصحابها الا اذا كانت الاجور التي تدفع لليد العاملة هي ادنى ما تكون . وهكذا فالوضع يدور ضمن حلقة مفرغة تتألف من مردود ضعيف وأجور واطية جداً تؤدي الى سوء التغذية والى هذه الاوضاع التي تحف بحياة ملؤها الشقاء .

وهذه الظروف والاحوال هي اسوأ ما تكون في اوساط المدن . من اصل ٥٠،٠٠٠ عامل صناعي في السنغال ، ٦١ ٪ منهم صناع بتاتين ، و ٢١،٥ ٪ عمال موصوفون . و ١٧ ٪ مستخدمون . وفي الغابون ٨٣ ٪ من العمال هم صناع بتاتين ، و ١٣ ٪ عمال موصوفون . فالاجور واطية في كل مكان : فمعدلها اليومي في الكونغو البلجيكي ١٦،٦٠ فرنكاً بلجيكياً عام ١٩٤٩ ، وفي الكامرون ٤٥ فرنكا ، وفي التوغو ٣٠،٦٠ فرنكاً ، وفي دكار ١٠٧ فرنكات ، وفي النيجر ٤٢ فرنكاً ، وفي مدغشقر ٣٩ فرنكاً ، وفي الشاطيء الذهبي يتناوح اجر العامل بين ٢ - ٣ شيلن ، وفي نيجيريا من ٩ د - ٣ شيلن ، وفي اتحاد جنوبي افريقيا يتراوح الاجر الاسبوعي بين ٢٧ شيلن و ١١ د . لعمال الخط الحديدي والصناعة الميكانيكية في كمبرلي ، و ٣٦ شيلن للعاملين في تجارة المفرق في جوهنسبرغ . اما في المنطقة النحاسية في روديسيا الشمالية ، فالمعدّن الافريقي يتقاضى اجراً وسطاً ٤٦ جنيهاً انكليزياً في السنة كلها بينما يتقاضى المعدّن الابيض ٩٢٠ جنيهاً اي ٢٠ ضعفاً اكثر .

ان السرعة التي يتم فيها الدفع الديموغرافي في المدن ادى الى الفصل بين السكان الاوروبيين والسكان من ابناء البلاد ، وهو تمييز له طابع رسمي في المستعمرات البريطانية واتحاد جنوبي افريقيا وهو يختلف عفوية في مناطق الاستعمار البلجيكي والفرنسي ، حيث مدينة سانت لويس ، هذه المدينة الاستعمارية القديمة ، تشذ وحدها عن القاعدة . وهذا الدفع تسبب في حدوث ازمة سكن عنيفة وأدى الى ظهور احياء من الزرائب والاكواخ الوسخة حيث تتكدس حشود من هذه الاقوام التي فقدت طابعها القبلي. وهذا هو وضع هذه التخاشيب وهذه المداشر التي تطالع الناظر في اكرا ودكار وبوتو بوتو والكونغو الاسفل في برازافيل وأبيدجان... حيث نجد الظروف الحياتية التي تجدها في الدار البيضاء او في بمباي . والابحاث النادرة التي اجريت بدقة حول هذا الموضوع تعطي الصورة الواحدة في كل مكان : فها هي ، عام ١٩٥٠ المدينة الاستعمارية القديمة تماماً حيث الظروف والاحوال المعاشية هي احسن بكثير من اوضاع

مدن كثيرة غيرها ، نرى ٢٦ ٪ من بيوت السكن تضم الغرفة الواحدة خمسة اشخاص ، و ٤٣٪ من هذه الغرف يحتل الواحدة منها من ٤ ـ ٥ اشخاص ، وفي ٥ ٪ من هذه المنازل يوجد غرفة واحدة او اكثر للشخص الواحد .

هنالك نسبة كبيرة من السكان لا تأتي عملاً : « فالطُفَيلية العائلية » تسودها ، كما تسيطر في جميع انحاء افريقيا وتزيد الوضع بؤساً وشقاءً والناس اختلاطاً . هنالك العديد من القرويين غادروا قراهم وهم غير واثقين ان يجدوا لهم عملاً . ينزلون ضيوفاً ، وهم جادّون في البحث عن عمل ، على قريب لهم او نسيب او نصير يعمل ولا يستطيع التهرب من واجب الضيافة هذا . ففي الستفال ، من اصل ٥٠٠،٠٠٠ من سكان المدن ، ٥٠،٠٠٠ منهم فقط هم عمال في الصناعة . وفي الكونغو الاوسط ١/٥ يعمل بصورة مستمرة .

٢ ـ التوتر الاجتماعي

« المجتمع الاستعماري » الشعور المتزايد بهذه التبعية التي تشد الشعوب المستعبدة ، ويقظة الروح الاستقلالية فيهم ، اثار فيهم مطالب جديدة وحالة من التوتر تختلف شدة وقدراً باختلاف هذه الاقطار . ففي المستعمرات ذات المناخ المعتدل حيث يقوم استعمار ابيض مستقر تأصل في الارض او في سبيل التأصل والاعراق ، كما هي الحال مثلاً في افريقيا الجنوبية ، في كينيا او في روديسيا ، فالقضية لا تبدو على الوضع الذي تبدو عليه في هذه المستعمرات الاستوائية حيث يؤلف البيض فئات عابرة يتجددون باستمرار . يعمل في هذا النوع من المستعمرات على الاخص شبان معظمهم عزب (معدل السن في دكار ٢٧ سنة ونسبة الرجال البيض الى النساء ١٧٠ رجلاً الى ١٠٠ امرأة من البيض) جاؤوا يبحثون لهم عن ظروف حياتية أفضل وابرك : من عسكريين وموظفين ومستخدمين لدى الشركات الخاصة ، وعمال وحرفيين الذين يرون في العيش في المستعمرة خطوة وتطوراً الى الامام من بقائهم في بلدهم الأم ، بشرط ان « يتحلوا بذات الاوصاف وان يكونوا من اصل اجتماعي واحد ، حيث ينعمون بظروف مادية احلم وأرفق ، وحيث يتاح لهم الوصول بسهولة اكبر الى مراكز قيادية او ملاكية ويبلغون مستوى من العيش هو في البلد الأم من حظ ابناء الطبقات الممتازة » . كما يؤكد بول مرسييه . في هذا « المجتمع » الاستعماري ، تَبْهُم معالم الفوارق الطبقية ، وتضيع الحواجز الفاصلة بينها يبرز هذا كله في البلد الام ويشتد التمسك به ، اذ يشد الجميع شعور مشترك بوحدة المصالح الواحدة ، والرغبة في الحفاظ على « هيبة الابيض ونفوذه » هذا النفوذ الذي يتمثل على الاخص في حضور « صغار البيض » موظفين من الدرجات الدنيا وعمالاً غير موصوفين او يرون انفسهم عرضة لمزاحمة الملونين لهم ، والذين يوجسون شراً من تصاعد السود الذين كثيراً ما يفوقونهم علماً وتهذيباً وكفاءة . « فهم يمثلون اضيق أنواع الاستعمار تفهماً واكثره رجعية

وعنصرية » ، كما يصرح ا. فيليب .

فالتوتر يشتد على الاخص في المناطق ذات المناخ المعتدل حيث استقر الاوروبيون بصورة دائمة وحيث يعملون مأجورين . فالعنصر المسيطر هنا يستعيض عن عدم طمأنينته بتشديده على عدم المساواة العنصرية وباعتصامه ضمن حواجز وفواصل حادة . والتوتر العنصري يخف ويضعف حيث لا توجد بين عناصر اوروبية بروليتاريا تنافس ابناء البلاد ، وحيث يعيش الناس ضمن تقاليد تتسم بالحرية . وكلما اشتد ضغط النخبة السوداء على المواقع والمراكز التي يحتلها الاوروبيون ، نرى المجتمع الاوروبي ينكمش على نفسه ، ويزهد في الحضارة والحياة الافريقية . فالمدينة الاوروبية والمدينة البلدية منفصلتان الواحدة عن الأخرى ، كما لا تقوم اي علاقة قط بين الجمعيات والمنظمات الرياضية ، كما ان النوادي لا ينفتح بعضها على اعضاء البعض الآخر ، والتعليم الابتدائي المشترك بين مختلف العروق والعناصر هو موضوع نقد ، وعندما لا يقوم انفصال بين المدارس ينزع الابيض الى ارسال اولاده للمعاهد والمدارس الخاصة . ففي المقاطعات الواقعة تحت الاستعمار الفرنسي يؤلف المستخدمون والعمال البيض فيما بينهم نقابات خاصة بهم مع العلم ان ابناء البلاد هم الذين كانت تتألف منهم حتى عام ١٩٥٦ ، النقابات المنتسبة الى الاتحادات العمالية القائمة في البلد الأم . والكشف الذي جرى في دكار يبين ان اقل من ٢ بالمائة من البيض يرتبطون بعلاقات ود وصداقة اي بعلاقات من المساواة مع الزنوج وان ثلاثة أرباع الاشخاص الذين تناولهم البحث المذكور « لم يتصلوا قط ولم يغذّوا علاقات مع الزنوج ، حتى ولا بشكل طارىء ، باستثناء ظروف العمل » .

جهل وعدم اكتراث يحملاننا على الاعتقاد ان المساواة امر يستحيل تحقيقه لا بل هو امر يستوجب الشجب والذم . ومن هنا كان الصمود في وجه كل مطلب . حتى عندما تكون الادارة في هذه البلدان الخاضعة للسيطرة البريطانية والتي تتمتع بالحكم الذاتي هو المطلوب المرجو تحقيقه ولا ترضى قط ان يُنتقص من وصايتها على البلاد ، فالموظفون ولا سيما الصغار منهم ، يرفضون التعاون مع المتطورين ، « فالحزب الاداري » الذي شهّر به ليوتيه عام ١٩٢٠ ، سلّم مكرها بالعمل على تطوير ابناء البلاد وفقاً لما يرتأون او ان يتخلوا لهم عن مسؤوليات فعلية ، فهو معنيّ بالحفاظ على نظام ابوي وصيانته من كل عبث بقوة البوليس . وهذا الموقف هو مستلهم اصلاً من هذه الاحكام المتناقلة حول السودان الذين يرمونهم بالعجز وبقصور عُضال . فالزنجي لن يكون قط غير « ولد كبير » كما يوجد « الزنوج الاخيار » الذين سيبقون دوماً تابعين وخاضعين ، وكما يوجد « الاشرار » منهم اي هؤلاء المتطورون الذين « يقلدون البيض » . ان ارتقاء الزنوج والخوف من اضطرار قبولهم في مجتمع البيض أوجد حركة عنصرية تختلف شعوراً لم يكونوا يشعرون بها من قبل وهو شعور يشتد عنفاً وحدة في اوساط البيض الأقل حظاً وقسمة وهو شعور ظهر منذ اليوم الاول الذي اخذت فيه الشعوب المستعمَرة تستنكر « هذا الوضع من التبعية التي أقصِرت عليه » .

موقف المستعمرين(١)

«العنصرية الافريقية ليست سوى ردة ضد العنصرية الاوروبية» كما يقول ر. ب. فان دنغ . وهذه الذهنية او الوضع الفكري اخذت تظهر بين الزنوج منذ عام ١٩٤٠ ، على الاخص ، اي منذ ان اخذ الافريقيون يتلقون العلم في اوروبا واصبحوا في وضع أهلهم للمطالبة بمراكز الادارة والتوجيه التي كان يحتفظ بها حتى الآن للاوروبيين . فقد اصطدموا بمعارضة الدول المسيطرة او المجتمع الحاكم الذي أقصرهم حتى الآن على دور ثانوي في ادارة البلاد وادارة المشروعات الخاصة ، وعرضهم لمنافسة العمال والموظفين البيض الثانويين (كالكتاب والضاربين على الآلة الكاتبة وغيرهم) ، الذين يرفضون من جهة ان يتلقوا الأوامر والتعليمات من الزنوج ، كما طمعوا ، من جهة اخرى، للاستئثار بالوظائف الفضلى . هذا هو بالذات وضع النقابات القائمة في اتحاد جنوبي افريقيا التي تسلحت بحاجز اللون ، وهو وضع ما لبث ان امتد الى الاقاليم والاقطار الخاضعة للاستعمار البلجيكي والفرنسي ، اذ اخذ العمال الاوروبيون الذين يعملون في مشروع استثماري في دكار، يحتجون عام ١٩٥١ ، لاول مرة ، على تشغيل العمال الافريقيين الذين يتحلون بذات القدرة الفنية . وهكذا رأى العمال الافريقيون الحواجز تقام في وجههم ، بالفعل أو بحسب القوانين المرعية ، للوصول الى بعض الوظائف ، وهكذا بقي التفاوت عظيماً في سلم الرواتب والأجور بين الاوروبيين والافريقيين .

ونجم عن ذلك شعور مرير بالحرمان ، وحقد ضغين ضد الفئة المسيطرة وضد البطء الذي يتطور معه التعليم ، هذه الذريعة الوحيدة للترقي في السلم الاجتماعي ، محتجين على التدابير والاجراءات الرسمية او الطوعية التي تتمثل في التمييز العنصري الذي يسيرون عليه ، وضد سوء المعاملة التي يتعرضون لها كل يوم والتي تُشعِر الزنجي انه لا يتساوى مع الاوروبي : كالفصل بين البيض والسود في وسائل النقل المشاركة ، وفي ادارة البريد ، وفي المخازن ، واللهجة التي يخاطب بها الاوروبي الافريقي ، والمؤازرة التي يضن بها الابيض على الاسود في المستعمرات البلجيكية والانكليزية على الاخص . والنخبة الزنجية التي طبعوا فيها الشعور بالنقص،اخذت بردة عكسية هي الاخرى لفكرة مأخوذة عن الابيض ، مردها انه ليس هناك من « ابيض خيّر او طيب » باستثناءبعض شواذات: كالمرسلين ورجال الفكر...،وكثيراً ما تقف موقفاً معارضاً للفلسفة او النظرة التمثيلية التي تقول بها الجامعة والكنائس المسيحية. وهذا الافريقي المتفرنج الذي يتلقى العلم على الاوروبيين ويستمنحهم الشهادات التي يحملونها ويستلهم المناهج التي تطبق عليهم بحيث يستحق لقب غير مستَعمَر ، يشعر في صميم نفسه بوجود حضارة افريقية مضت وسبقت قدوم البيض الى بلاده . وفي وجه هذا الاوروبي الذي يدّعي القيام بمهمة استعماره والذي يتبجح عالياً انه اعاد الشباب والنضارة الى المجتمع الوطني الضالع في الانحلال والتفسخ ، يحلو لابن البلاد ان يتصور الماضي الذي غبر ويستحضر في ذهنه « هذا العصر الذهبي الذي حطمه الاوروبي » . ومهما يكن من امره ، فلا يستسلم للتمثيل او التحول كما اكد ذلك المرسل

---

(١) بفتح الميم .

الميثودستي جيمس غراي الذي اصبح وكيلاً لجامعة اشيموتا في الشاطىء الذهبي ، عام ١٩٢٤ بعد ان درّس في جامعة لفنغستن بكارولينا الجنوبية : « كل ما ارغب فيه ولقناه ، هو لن يتمدن الزنجي لا ان يتفرنج » او يستغرب .

وهذا العداء يحمله الاسود ضد الابيض قد تغذيه فيه مشاعر دينية . ان عدداً كبيراً من زعماء الحركات الوطنية ، تتلمذ على المبشرين ودرس عليهم وشق عليهم كثيراً ان يضطروا في سبيل تحصيل العلم وضمان تربيتهم ، ان يتظاهروا بجحود دينهم ونبذ معتقداتهم ، وهو وضع عدد من زعماء الماو ـ ماو بالذات ، كما ان تهجمات المبشرين على الاعراف والعادات القبلية القديمة وعلى مناسك الطقوس الدينية التي يتقيدون بها ، تجرح من كبرياء الزنوج وتمس من شعورهم بعد ان تبين لهم ان الارساليات رغبة منها في حملهم على التنكر لاعتقاداتهم وجحد لغاتهم ، تحاول تحقيرهم واذلالهم . وهذه الاحتكاكات التي طالما تكررت بين الارساليات وبين الذين يجري تدريبهم وتعليمهم اصول الدين المسيحي من الافريقيين ، كانت وراء هذه الشيع المحلية والكنائس المنشقة بين الزنوج ، كالكنيسة الافريقية الارثوذكسية كيكويو في كينيا ، والكنيسة الخلاصية في بالوكولا ، والكنائس الاثيوبية او الصهيونية ، والطائفة المعروفة بـ *Kimbangisme* او كنيسة القلب الاقدس الكاثوليكية التي تأسست في روديسيا عام ١٩٥٨ ، وغيرها .

ومظاهر هذا القلق والتوتر تختلف باختلاف المناطق وتتباين بتباين السياسات التي ينتهجها ابناء البلاد . الا انه مهما كان عليه التنضيد الاجتماعي والخصومات او المنافسات القائمة بين فئة واخرى ، فهي تلتف على بعضها وتتحد عند اول بادرة لازمة حادة تنشب بين الجانبين ، ويشتد التضامن فيما بينها ليس على اساس من الطبقية بل وفقاً للخطوط والروابط العنصرية او العرقية . فالقضية الوطنية ، كما لاحظ لينين ، تبز في البلدان المحكومة ، كل صراع او خصام يقوم أو ينشب بين مختلف الفئات الاجتماعية الاقتصادية .

ردة الفعل بين الدول المستعمرة

امام هذا القلق المتباين المعالم ، وهذا الاختمار الفكري الآخذ بالازدياد في هذا المجتمع الضالع في الانحلال والتفسخ ، راحت الادارات المعنية في هذه المستعمرات تسعى ، وهي تشدد من وسائل الكبت والقمع والضغط الى ان تبعث الحياة في السلطات البلدية القديمة ضمن الممتلكات البريطانية وان تقوم ببعض الاصلاحات فيها . من ذلك مثلاً اعادة الحق القبلي في الاقطار الواقعة تحت الاستعمار البريطاني ، ومحاولة تشريع العادات والاعراف منذ عام ١٩٣٠ ، والاعتراف بالوضع الشرعي القبيلة ، في كل من افريقيا الغربية الفرنسية (١٩٣٤) وفي التوغو (١٩٣٦) ، والعودة الى العمل بمجلس القرية او الحي عن طريق بعث القوانين والتوسع في النصوص كما جرى في مدغشقر عام ١٩٤٤ ، ١٩٤٨ و ١٩٥٠ ، واتخاذ اجراءات عديدة في الكونغو البلجيكي عام ١٩٣١ و ١٩٣٤ ، اعادة الحياة الى الهيئات والمؤسسات الوطنية التقليدية ، وتقوية سلطة الرئيس او الزعيم على الفئة التابعة له ، وانشاء مؤسسة جديدة جرى انشاء مثلها في روديسيا الشمالية ، عام ١٩٣٦ ،

وذلك بانشاء « مركز اكـثرا هرفي » هو مركز استعماري جرى تجريد السكان التابعين له من عاداتهم القبلية الا انهم لم يصبحوا بعض متفرنجين ، يستثنون من الحق العرفي الذي كان ينتظم الفئة من قبل ويخضع لنظام خاص . ويدار المركز من قبل مجلس يتألف من ٥ او ١٢ عضواً يعينهم مفوض القضاء يكون رئيسه مسؤولاً عن حسن سير النظام والامن .

جرى تطوير التعليم ، الا ان التوسع فيه واجه قضية اللغة التي يجب استعمالها في التعليم . ففي المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي ، كانت اللغة الفرنسية هي لغة التدريس في كل درجات التعليم وفقاً للبرامج وللامتحانات المتبعة في البلد الام . اما في المناطق الخاضعة للنفوذ البلجيكي فالتعليم الابتدائي كان يعطى باللغة الدارجة في المنطقة ، وكان التعليم الثانوي من نصيب نخبة مختارة وتتلقنه باللغة الفرنسية . وقد انشئت نواة جامعة في دكار ، عام ١٩٥٠ ، كما تأسس فرع لجامعة لوفين في الكونغو البلجيكي . واسس البريطانيون ، من جهتهم ، جامعات في آشيموتا ، من اعمال الشاطىء الذهبي . وفي عبادان وكانو ، والفوا في نيجيريا لغة علمية او لغة العلم هي الهاوسا التي كانت تكتب بالاحرف اللاتينية ، وساعدت على تغلغل الثقافة الحديثة عن طريق الاكثار من كتب التدريس والنصوص والكتب التقنية والترجمات . ففي الكونغو البلجيكي كان ٣٠ ٪ من الاولاد الذين هم في الدراسة ، يذهبون الى المدارس ، اما في المناطق الفرنسية النفوذ فقد قفز معدل التلاميذ الذين يؤمون المدارس ، في افريقيا الفرنسية الغربية من ٤٧ ، ٤ ٪ عام ١٩٤٦ ، الى ٨،٦ ٪ عام ١٩٥٣ ، والى ١٠،٩ ٪ عام ١٩٥٥ . اما في افريقيا الاستوائية الفرنسية ، فقد قفز هذا المعدل من ٣٣ ، ٥ ٪ الى ٨ ، ١٠ ٪ ثم الى ٢١ ٪ . وفي الكامرون من ١٢ ، ٢٧ بالمائة الى ٧ ، ٣٤ بالمائة ثم الى ٢ ، ٤٣ بالمائة . وفي مدغشقر من ١٦ ٪ عام ١٩٤٣ الى ٤٤ بالمائة عام ١٩٥٥ . اما في افريقيا الجنوبية والشرقية ، فالنسبة لم تكن مرضية قط .

ولكن كان لا بد من إشراك المجتمعات الريفية التي تتألف من البالغين وحملها على المساهمة بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية ، وهي مهمة ترك امر تحقيقها لمشروع التربية الاساسية التي شجعتها الاونسكو وساهم في تنفيذها ، ونشرها في المستعمرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية والبرتغالية . المهمة المطلوب تنفيذها وتحقيقها هي تربية الجماهير ، واثارة روح المبادرة فيها وتدريبها على بعض الاساليب الزراعية وتربية الماشية . وعلى ضوء الخبرات المكتسبة في المكسيك التي حققتها الارساليات الثقافية واساليب التعليم المتبادل ، تألفت فئات نقالة تشكلت من اختصاصيين واساتذة واطباء ومهندسين زراعيين واطباء بيطريين ، لتقضي بضعة اسابيع او بضعة اشهر في قرية ما او في قضاء معين . وتحاول تعليم الاميين مستعينة على ذلك بالوسائل السمعية والبصرية ، فتوزع على الطلاب كتب النصوص الابتدائية مكتوبة باللغة الدارجة المحكية في المنطقة لتعليم الكبار ، وفقاً لحاجاتهم الماسة ولمصالحهم الملحة ، وبذلك يتعلمون القراءة والكتابة في اقل من شهر . وفي الوقت ذاته يعطون دروساً اولية في امور الصحة العامة ، وتزويدهم

بالمعلومات الاولية لمكافحة تآكل التربة ، والطفيليات المؤذية والحيوانات الضـــارة ، ومراقبة المراعي وكيفية استعمال الاسمدة ، وانشاء التعاونيات الزراعية ، وشروط انشاء مستوصفات صحية وادارتها ، وتحسين الطرقـات والآبار . وعلى مستوى اعلى ، أنشئت ، في المقاطعـــات البريطانية لجان استشارية في كل قضاء تشارك في تنظيم العمل والسهر على راحـة المجتمع . وفي الكونغو البلجيكي ولا سيا في مقاطعة رواندا أورونـدي برز عمل « منظمة رفاهية المواطن » التي اخذت « تدرس وتحقق كل الوسائل الكفيلة بتأمين ما فيه راحة المواطنين في المحيط الريفي المادية والادبية ». وفي المقاطعات الفرنسية قامت « التعاونيات العصرية الريفية المامية من ابناء البلاد » في مدغشقر ، والجمعيات الخيرية وقطاعـات عصرنة الزراعة ، وغير ذلـــك من هذه المؤسسات التي اخذت تعمل في هذا المجال .

ففي كل نظام استعماري ، جرى تطبيق هذه الاساليب والعمل بهذه التدابير ببطء وبصعوبة كلية ، بالنظر لعجز الاعتمادات الملحوظة او لعدم توفرها بالكلية ، ولا سيا بالنسبة لعداء البيض والادارات لهذه المشروعات او لعدم رضاها عنها او التشكك بفعاليتها .

الخطط والاستثمارات تزيد من حدة التابعية

توارد على افريقيا ، منذ ١٩٤٥ ، من رؤوس اموال للاستثمار ما لم تشهد له مثيلاً من قبل، وذلك بعد ان اصبحت الامبراطوريات الاستعمارية محصورة في هذه القارة . بعد ان خرج الاوروبيون من آسيا ، توفر لديهم المزيد من رؤوس الاموال والمزيد من التقنيين للاستثمار والتشغيل وبذلـك يخفضون عجز الدولار الذي يشكون منه في منطقة الفرنك وفي منطقـة الاسترليني عن طريق تشجيع الانتاج في مستعمراتهم لما كان يستوردونه من المحاصيل من الاقطار الاخرى : كالمعادن غير الحديدية والزيت ، والقطن وغير ذلك من محاصيـل الارض . ولذا ترتب عليهم تجهيز هذه المستعمرات بالموانىء البحرية والخطوط الحديدية ، والطرقات ، وان يوجهوا اهتمـامـاً اكبر للناس اي ان يهتموا بادخال تحسينات على اوضاعهم الصحية والتعلم ، وانشاء اقتصاديات سليمة في هذه المستعمرات بتشجيع وتنويع الانتاج الزراعي والصناعي معاً . كل هذا كان موضوع سياسة خاصة تخطط لوسائل عصرنة العتاد والاجهزة الفنية التي من شأنها ان تساعد على انتاج بعض المحاصيل الزراعية واستخراج بعض الفلزات المعدنية وصيانة الغابات والتربة وتوسيـــع شبكة الري ، وتوليد الطاقة الكهربائية وانشاء بعض الصناعات المحلية وطرق المواصلات . فمنذ عام ١٩٤٠ اقر مجلس العموم في بريطانيا قانون اول خطة للتنمية الاقتصادية، تلتها خطط اخرى عام ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ثم اقرت الحكومة البريطانية قانون تحسين الموارد عبر البحـــار سنة ١٩٤٨ ، وانشأت في سنة ١٩٥٣ رابطة التطوير المالي التي اخذت تبحث عن مشاريع استثمارية الصناعة في عدة مقاطعات . ومن الجانب الفرنسي ، وُضعت « الخطة العشرين » عام ١٩٤٦ التي نصت على انشاء صندوق الاستثمار للتطور الاقتصادي والاجتماعي في الاقطار الواقعة عبر البحار تغذيه الدولة الفرنسية بمخصصات ، عُهِد اليه بتمويل المشـــاريع غير المستثمرة (كالمرافىء

والطرقات وعطات توليد الطاقة الكهربائية) . وفي سنة ١٩٤٧ ، حل محل هذه الخطة ،خطة رباعية راح القسم الاكبر من الاموال المستثمرة لتأمين الانتاج الزراعي والمواد الاستخراجية الاخرى . ثم اطلت الخطة العشرية لتطوير الاقتصادي والاجتماعي في الكونغو البلجيكي ، التي نشرت عام ١٩٤٩ . اما الخطة الخمسية البرتغالية لسنوات ١٩٥٣ – ١٩٥٨ ، فلم تكن سوى برنامج عام للاشغال العامة التي يجب النهوض بها .

وبالرغم من الفشل الذريع الذي آلت اليه بعض المشروعات : كمشروع الفول السوداني في تنغانيكا عام ١٩٤٧ ، ومشروع تربية الدجاج في غمبيا ، عام ١٩٤٨ ، فقد قامت مع ذلك صناعات للتحويل واخرى زراعية او متعلقة بصيد الاسماك ، ومشاريع استثمار الغابات وغير ذلك . ومع ذلك فهذه الاستثمارات والتحسينات الاقتصادية التي امكن النهوض بهما لم تخفف كثيراً من مساوىء الزراعة الاحادية ولا استطاعت ان تحرر الاقتصاد المحلي من ارتباطه وتبعيته للدول المستعمرة . فالبن والفول السوداني شكلا عام ١٩٥٠ ٣/٢ صادرات افريقيا الغربية الفرنسية ، كما الف البن والكاكاو ٦٠ بالمائة من صادرات الكامرون ، والقطن والخشب ٦٥ بالمائة من صادرات افريقيا الاستوائية الفرنسية . وفي عام ١٩٥١ ، كان محصول الفول السوداني ٩٩ بالمائة من صادرات غمبيا ، والتبغ والشاي ٧٨ بالمائة من صادرات نياسالاند والكاكاو ٦٩ بالمائة من صادرات الشاطىء الذهبي ،والسيزال ٥٥ بالمائة من صادرات تنغانيكا ، والمعادن ٩٥ بالمائة من صادرات روديسيا الشمالية .

كانت الاقطار المستعمرة ابعد ما تكون عن استقلالها الاقتصادي ولذا رأت نفسها اكثر فأكثر تابعة لاوروبا ، والسبب هو ان هذه الاستثمارات مصدرها الاساسي من البلد الام صاحبة السلطة ،بينما توجه الاعتمادات المستوفاة من الاقطار المستعمرة نحو القطاعات التي تؤمن لها مزيداً من الارباح والفوائد وذلك بدافع من المصلحة الخاصة . والسبب الآخر هو ان افريقيا اخذت تعتبر اكثر فاكثر كتابع لاوروبا . فيجب ان تكون القاعدة المالية لاوروبا في وجه الاتحاد السوفياتي وآسيا . فهي القارة الاخيرة الباقية تحت الاستعمار حيث تحاول انكلترا من جهة وفرنسا من جهة اخرى ان تنشئا ، كل في ما يختص به ، اقتصاداً إضافيا لاقتصادهما. ولما كانت تعجز اية دولة استعمارية من استثمار موارد هذه القارة ، فقد نشأ عن ذلك مشروع اورافريقيا الذي ينص على استثمار مشترك لهذه الموارد من قبل الدول الاوروبية مجتمعة . فنحن والحالة هذه ، امام ميثاق استعماري موسع غايته الاحتفاظ لاوروبا وليس لبعض دولها ، بالسوق الافريقية وبالخامات والمواد الأولية التي هي بحاجة ماسة اليها .

ردة فعل ابناء البلاد

فالمجتمع الافريقي الذي اصيبت مصالحه المادية والادبية في الصميم من جراء سيطرة الاوروبيين عليها ، قام بردة عكسية وذلك باقتباسه بعض عاداتهم واعرافهم وبتبنيه بعض نظرياتهم ، وبنبذه بعيداً الاخرى منها . فقد احدث تفتت التجمع القبلي والضعف الذي نزل بالتقاليد الدينية ازمة فكرية ودينية لدى عدد

كبير ، خلقت « فراغاً روحياً » يمكن تبينه وتتبعه بشكل يختلف جلاءاً ووضوحاً ، على طول الساحل الافريقي ، هذه المنطقة التي سيطر عليها نفوذ الاوروبي منذ عهد بعيد ، والتي اخذت تتسع الى الداخل ، وهذا الفراغ يبدو بأشكاله السياسية والدينية او السياسي الدينية مكنّن لظهور احزاب سياسية ونقابات واتحادات ضمت بين صفوفها جماهير المتحمسين، منها مثــلاً الـ *R. D. A.* في افريقيا الغربية الفرنسية ، والكتلة الديموقراطية السنغــالية ، والحزب الارقي التوغوي ، والحزب السوداني التقدمي ، والحركة الديموقراطية لبعث الملاغاشي ،واتحاد سكان الكامرون (*U. P. C.*) ، وحزب الاتفاق الشعبي الذي شكله نكروما في الشاطىء الذهبي ، والمؤتمر الوطني في نيجيريا والكامرون (*N. C. N.C.*) الذي ألفه أزيكيويه ، وكتلة العمل في نيجيريا الغربية والاتحاد الوطني التنغانيكـي الافريقي الذي شكــله يوليوس نيديريه . والنقابية الوطنية اصطدمت طويلاً بصعوبات كبيرة . فقد منعت تماماً في افريقيا الجنوبيـــة وخضعت للمراقبة الشديدة في الكونغو البلجيكي ، ولا ســيا لمراقبة البوليس الشديدة . وفي نيجيريا أجيز تشكيل النقابات منذ عام ١٩٣٨ مع الاعتراف بحقهـــا بتنظيم الاضرابـــات والاعتصابات ، وانشىء في الشاطىء الذهبي، اتحاد النقابات عام ١٩٤٦ ،وفي المقاطعة الفرنسية وروديسيا الشمالية سُمح في السنة ذاتها اي في عام ١٩٤٧ ، بتأليف النقابات العمالية .

واحياناً تظهر بشكل يختلف سرية منظمات للدفاع وتجمع القوى ، منها مثلاً : « جمعيات العمل » في الكامرون وفي الغابون ، ومحاولة التجمع القبلي ، كمؤتمر البامون عــام ١٩٤٧ الذي جرب ان يشكل بين قبائل الفانغز ، جمعية وفقاً للتقاليد الافريقية المعاصرة تكون بمنأى من الوصاية الادارية التي تقوم بها الزعامة التي تقيمها السلطــات المستعمرة . وهذه الفئة لا تزال تتقيد بالملاك القبلي، الا ان من ابرز ما يميز يقظة هذه القوميات،هو الشعور بالتضامن الذي أخذ يظهر من خلال هذه المنافسات العرقية والسياسية ، اقله بين رؤساء هذه القبائل وزعمائها .

بين الاسلام والمسيحية

هذا الفراغ الروحي يفسر لنا النجاح الذي يحققه انتشار الاسلام على اختلاف مظاهره « الزنجية الطابع والسمة » ، كالاخويات التي تمكن الشبان من التحرر والتخفف من الروابط التقليدية والاعراب عن مشاعرها القومية ضد الاحتلال الاجنبي والتي تستعمل من الاساليب والوسائل ما يتفق تماماً وذهنية الزنوج . واعتنـــاق الاسلام قد لا يتعدى احياناً الظواهر السطحية ويخفي وراءه كثيراً من بقايا الديانة الطبيعية انما يكون بذاته حدثاً مهماً بما يترتب عليه من النتائج، اذ ان عدداً كبيراً من هذه الجمعيات السرية السودانية لم تلبث ان استحالت تدريجياً الى اخويات اسلامية تعمل في الخفاء وتنتشر بين هذه الاقوام التي تجردت من طابعها القبلي التي تسكن المدن والتي اصبحت مراكز نشيطة للدعوة للاسلام ونشره بين السكان.ولما كان الاسلام يسيطر في هذه المناطق الواقعة شمالي خط العرض العاشر ، فقد اخذ يمتد جنوبي هذا الخط بسرعة ٥٠٠ ، ٥٠٠ من المعتنقين له في السنة ، حسب تقديرات الاب بوشو . ففي افريقيا الشرقية، تأخذ محطة اذاعة القاهرة ومحطة اذاعة الباكستان

وخريجو المعاهد الدينية في كل من مصر والباكستان ، والتجار ، والدعاة الذين ترسلهم طوائف الاحمدية ينشرون القرآن ويلوحون به في وجه المسيحية فتشيل كفته (غوبي).-والنسبة المئوية للمسلمين ، في عام ١٩٤٦ ، كانت ٩٠ بالمائة في النيجر و ٨٥ في السنغال و ٨٠ بالمائة في الغينة ، ارتفعت الى ٦٠ بالمائة في السودان وفولتا العليا حيث يصطدم بكتلة موسّي ، و ٤٥ بالمائة في نيجيريا و ١٥ بالمائة في شاطيء العاج ، و ٧ بالمائة في الدهوماي وفي الكونغو ، وزهاء ٢٠ بالمائة في مدغشقر وفي الكامرون . وفي الشاطيء الذهبي ازداد عدد المسلمين بين ١٩٣٠ ــ ١٩٤٥ ، اكثر من الثلث ، وفي غمبيا اكثر من ٢٥ بالمائة وفي الغينة البرتغالية حيث نسبتهم لا تزيد على ٢٠ بالمائة فقد ازدادوا الى النصف ويوجد كتل اسلامية في افريقيا الاستوائية الفرنسية وفي افريقيا الجنوبية . ويزيد عدد المسلمين في كل اقطار افريقيا الغربية من فرنسية وانكليزية وبرتغالية وفي ليبيريا على ١٥ مليون من اصل ٣٦ مليون . فمن اصل ١٣٠ مليون من السود ١٤ مليون هم مسلمون منهم ٢١/١١ موجودون الى الشمال من خط الاستواء . والباقون موزعون على ساحل المحيط الهندي .

ففي الحين الذي يبدو فيه الاسلام وكأنه جاء خصيصاً لافريقيا، يعمل معظم الزعماء الوطنيين على مناهضة المسيحية بعد ان يشجب الروابط التي تشدهـا الى الاستعمار ، كما يرتابون بخضوع الكنائس المحلية لسلطة غريبة عن البلاد : لندن أو روما والتي يلسم تطورها وتقدمهـا بالبطء الكلي وليس فيه ما يكفل او يضمن بقاءه . فالتصادة الرسولية في افريقيا الفرنسية تعد اربعة ملايين من اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على خمسين مليون من السكان ، كما تعد افريقيا الجنوبية ٨٠٤٠٠٠ ، منهم ، من اصل ٧٠٠٠٠٠ ، ١٤ نسمة ، وافريقيا الشرقية والوسطى ٤٠٥٠٠٠٠٠ على ٦٧ مليون ، والكونغو البلجيكي ورواندا اوروندي ٤٠٦٦٠٠٠٠ على ١٥٠٥٠٠٠٠ نسمة . والارساليات البروتستانتية التي هي اسبق الى العمـل التبشيري في افريقيا تهتم كثيراً بمطابقة ظروف وشروط الحياة في هذه المجتمعات الزنجية ، كما تحرص على الاكثار من المدارس والعون المادي والاسعاف الطبي ، وعلى تكوين اكليروس محلي باسرع مـا يمكن فهي تنمو بسرعة بدافع من التأثير الاميركي الذي اشتد جداً لا سيا بعد عام ١٩٣٦ في هذه البلدان التي تستعمرها الدول الكاثوليكية :كالكونغو البلجيكي والكامرون وافريقيا الغربية الفرنسية ، والمستعمرات البرتغالية . وقد انشأت خلال الحرب نوعاً من تحالف فدرالي تبشيري وحققوا تقدماً كبيراً في الكونغو بالرغم من الامتيازات العريضة المحصورة في المـدارس الكاثوليكية وحدها . فهم يعلمون عدداً كبيراً من الاولاد ويعدون اكثر من ١٠٥٠٠٠٠٠ من الاتباع .

الكنائس السوداء

والى هذه الاسباب يجب ان تعزو النجاحات التي سجلتهـا الكنائس المنفصلة التي نشأت عن التبشير الذي قـام به الانبياء البـانتو الذين حاولوا ان يوفقوا بين « عمل الارساليات المسيحية ذات الطابع الافريقي » و « بعث الحياة »ضمن

إطار مسيحي او شبه مسيحي ، العناصر الحية في الديانة التقليدية » .

فمنذ عام ١٨٩٢ ، ظهرت الكنيسة الاثيوبية التي اقامت لها علاقات مع كنائس الزنوج في الولايات المتحدة الاميركية ، والتي قطعت كل صلة لها مع الارساليات لاسباب عنصرية مع الابقاء على تنظيمها وعلى روحها . ثم اطلت علينا كنائس « صهيونية » وكنائس عنصرية (اي تمت الى العنصرة) التي استبدلت الصورة الباهتة لمسيح البيض بمسيح فرنجي ، واخذت بمناهضة الكنائس المسيحية مناهضة ضارية التي تأخذ بمبدأ التمييز العنصري . ومع ان هذه الكنيسة تمد بضع مئات من الاتباع والمريدين ، فهي ترسم طقوس معقدة التطهير ، كما تفرض تحريات اكثرها غذائية ، وتنشر تعاليم وتعلم نبؤات لها تأثيرها على الجماهير المحرومة من وسائل التصرف والعمل ، وهو تأثير يشتد بنسبة ما يلوح بحضارة البلاد القديمة في وجه البيض . من هذه الطوائف في افريقيا الجنوبية الكنيسة المسيحية البدائية ، وكنيسة بافانوفو الافريقية والكنيسة الميثودية الافريقية دلفيجا ، والكنيسة الافريقية الاتحادية في نيجيريا ، والكنيسة المعمدانية في دوالا . والحركة الدينية المعروفة بساعة البرج التي تنتظر قدوم مسيح جديد يولد من عذراء زنجية ، وهي حركة لها اتباعها في افريقيا الغربية وافريقيا الوسطى ، « والكنيسة الزنجية لدلتا نهر النيجر » واتباع ابولونيوس في مدينة غران بسام ،وعبادة ماسا او القرن التي دخلت عام ١٩٥١ الى شاطىء العاج.وهي المعروفة بكنيسة كيكوو العنصرية المستقلة ،وغيرها كثيرون . وقد نصادف احياناً حركات رمزية الطابع كالحركة التي اسسها وليم هاريس احد المرشدين في الارسالية الميثودية الاميركية سابقاًفي ليبيريا الذي بعد ان ظهر له رئيس الملائكة غبريل ، كما يقول ، راح عام ١٩١٣ يبشر بالانجيل في شاطىء العاج ، ويحارب « الاصنام » وينهي عن السرقة والزنى ، ويعد الاخيار بالسماء ، والاشرار بالجحيم ، ونصّر بيده اكثر من ١٠٠،٠٠٠ زنجي واسس كنائس تابعة له في شاطىء العاج والشاطىء الذهبي .

وهذا القلق الروحي ذاته هو وراء النجاح الذي حققته بعض الفئات الجديدة ذات الطابع الديني او الثقافي او السياسي التي تكون مظاهر مختلفة ضد حركة التثاقف التي تعرضت لها الثقافات الافريقية المختلفة ، كما تؤلف حركة مقاومة في وجه الاستعمار . والى هذا يجب ان ترد حركة بويتي *Bwiti* التي انتشرت في الغابون وفي الغينة الاسبانية ، فكانت عبارة عن مجتمع قبلي يحاول بما له من هياكل وطقوس عبادة ، من ان يجمع حوله اقواماً من عقائد متباينة يعملون في هذه الورشات القائمة في الاحراج والغابات . من هذه الحركات ايضاً الحركات المشيحية التي اعطت في الكونغو البلجيكي والكونغو الفرنسي الحركة المعرفة بالكيبانجية من اسم داعيها الاكبر كيبانجو ، عام ١٩٢١ ، والحركة الأميكالية التي ظهرت عند اشتداد الازمة الاقتصادية سنة ١٩٣٠ ، و ١٩٤٠ ، و ١٩٤٧ . وبعد وفاة مؤسس الاميكالية في سجنه ، اندريه متسوى الذي عمل في فرقة الرماة في الحرب العالمية الاولى وفي حرب الريف والذي اسس هذه الحركة في باريس عام ١٩٢٦ الذي سعى الى ضم شمل ابناء افريقيا الاستوائية الفرنسية وراح ينادي

بالمقاومة السلبية تجاه الادارة ، رفض اتباعه الاعتراف بموته ، وراحوا يقيمون عبادة : يسوع ماتسوى ، وينتخبون في انتخابات ١٩٤٦ – ١٩٤٧ ، النبي المتوفي، كايقترعون له في انتخابات ١٩٥١ . اما الحركة الكمبانجية فقد تناسخت بعد عام ١٩٤١ في الحركة الكاكية ، التي اسسها المبشر القديم والملازم في جيش الخلاص سيمون مبادي جعل نقطة الدائرة فيها سيمون كمبانجو الذي يمثل الـ *Gounza* او « المخلص وملك الزنوج » يخضع اتباع هذه الديانة لنظام مسلسل ، ولها طقوسها كما ان قواعدها الصارمة الشديدة تفرض الزواج بين اتبـــاع هذه الديانة ، وتحرم الزنى وشرب المسكرات ، وتفرض مقاطعة الارساليات الاجنبية مقاطعة تامة ، كما تقاطع ممثلي الحكومة . وملة الكيتاوالا التي انبعثت من كنيسة البرج ، نشأت في روديســـيا الجنوبية وفي نياسالاند ، وعم انتشارها ثلاثة ارباع الكونغو البلجيكي في عام ١٩١٦ ، وعلم ان سيمون كمبانجو هو مسيتا جديد بعث الى الارض ليخلص الزنوج وينقذهم من ربقة البيض، الذين امروا بقتل السيد المسيح ولينقذهم من السحر الذي يتعرضون له.وعبادة الـ *Vgol* (المشتقة من كلمة *Vgolo*) التي تعني القوة والسيطرة، انتشرت بسرعة كلية في مقاطعة الكونغو الاعلى وفي القايون وكانت ترمي الى توحيدكل النشاطات التي تصدر عن عبادة الديانة الطبيعية ، وتفرض على الاتباع الاخوة ، وتحارب طقوس السحر ، والسرقة والزنى ، وتزيد من قوة الحرمات القديمة . وهي تفرض طقوساً خاصة على المريدين الجدد ومراسم مخيفة وضواغط مقدسة واقتبست مراسم كثيرة من الديانة الكاثوليكية : كالهيكل مع الشموع والاجراس والاعترافات . وهي عبادة الديا التي اسستها النبية مازي لالو التي كانت تعد ، عام ١٩٥٨ ، اكثر من ٩٠،٠٠٠ من الاتباع في شاطىء العاج .

ان معظم هذه العبادات المسيانية التي جاءت عند منتصف الطريق بين التعاليم المسيحيـــة والفلسفة الدينية ، المتناقلة عن السلف ، تلتقي حول ميزات مشتركة : محاربة بعض العقائـــد والطقوس القديمة وضد السحر والتعاويذ ، وهي الى هذا كله حركـة رجعية ضد سيطرة البيض وسيادتهم . فاذا ما تسببت عن حوادث فهذه الحوادث من نصيب المناطق والاقطار التي يشتـد فيها التمييز العنصري ، وحيث تشتد وطأة النظام الاقتصادي الحديث ، لا سيما في هذه المناطق المنجمية الواقعة في الكونغو البلجيكي ونياسالاند وكينيا ، عام ١٩٣١ و ١٩٤١ و ١٩٤٤ ، وبالرغم مما لها من طابع نصف سري ونصف تستري وطابع زجري ، فلها تأثير عظيم ولهـــا قدرة كبيرة على التنوع والانتشار . وهي تجتذب اليها عدداً كبيراً من المارقين عن الارساليات الدينية ويقارن *B* هولاس الحماسة التي تلاقيهـا هذه الطقوس ، « بهذه الجهالة من الامـــل التي احاطت بأوائل المسيحيين في دياميس روما » .

فهذه الاحقاد العنصرية والدينية ، وهذه المطالب الاجتماعية تكون تهديداً مبـــاشراً لهذه الاقلية البيضاء التي طالما تحكمت وعبثت ، وبعثت فيها شعوراً او حركة دفاعية على اســاس عنصري تؤلف معها هذه الاقلية كتلة متراصة ، سواءاً في افريقيـــا الجنوبية ام في افريقيـــا

الشمالية . وفي كينيا وروديسيا ايضاً .

فالاضطرابات والقلاقل التي تؤلف خطراً على البيض تثير فيهم الهياج ثم الهلع. فالاستعانة بالسلطة تجر وراءهــا القمع والكبت الذي يولد هو الآخر ، الارهاب ، وهذا يبعث بدوره الهلع الذي يجر بدوره الى تكوين فئات للدفاع عن النفس . فنحن امام حلقة جهنمية تتألف من السلطة ومن القمع (ر . موقتاني) .

وهكذا فالمجتمعان ينزعان الى الانعزال والتقاطع وينظران الواحد الى الآخر نظرة ملؤها العداء .

٣ ـ السياسات الاستعمارية المتباينة الاتجاه

تباينت الحلول التي اتخذتها الدول المستعمرة في المجال السياسي باختلاف تقاليدها والاحوال الخاصة بكل قطر من الاقطار التي تسيطر عليها . فالبريطانيون انتهجوا سياسة يحافظون معها على الزعامات الوطنية القائمة محاولين تسخيرها كأدوات لهم في احكام نظامهم الاستعماري ؛ هذه الطريقة التي رحب بها ليوتي وحبذ انتهاجها موصيا « بوضع الطبقات الموجهة الى جانب مصالحنا» اي تشويق الارستوقراطية الوطنية واشراكها . الا ان التقاليد الادارية التي اعتمدها المستعمرون الفرنسيون خالفت هذا المسلك ونهجت نهجاً آخر، مفضلة عليه الحكم المباشر وطريقة التمثيل التي تهدف الى إعداد طبقة ادارية جديدة مشبعة بمبادىء الادارة الفرنسية . اما البلجيكيون فقد آثروا سياسة ابوية واعتماد التمييز العنصري تخضع الوطنيين لوصاية ضيقة .

سياستان بريطانيتان

انتهج البريطانيون في مستعمراتهم الحكم غير المباشر وهي سياسة اتبعوها ووضعوها موضع التجربة والاختبار ، رفعها اللورد لوغارد الى مرتبة نظام في مذكرته السياسية التي وضعها عام ١٩١٨ وفي تقريره المعنون الانتداب الثنائي في افريقيا الاستوائية البريطانية (١٩٢٢) . ففي نيجيريا الشمالية احتفظ امراء المقاطعات المحليون بمراكزهم وبسلطاتهم الاستقلالية وامنت لهم الموارد القانونية وشبكة من المحاكم كما قامت في بعض المدن الكبرى مثل كانو وعبادان هيئات بلدية تتمتع بسلطات واسعة .. فالمدن الساحلية وحدها حيث يشتد النفوذ الاوروبي بعد ان اعرق فيها ورسخ ، وحيث يكثر عدد المتطورين ، تقوم فيها بلديات على الطراز الاوروبي. وفي الشاطىء الذهبي ، اعيدت الى الزعماء المحليين ما كان انتزع من سلطتهم ومن نفوذهم ، عندما اعيد عام ١٩٢١ العرش الذهبي الذي كان الشعب اشنتي ، وعندما تم الاعتراف عام ١٩٢٥ بسلطات الـ ٦٣ زعيما من اهم زعماء المستعمرة . ففي هـاتين المقاطعتين كما في مقاطعة السيراليون وفي غمبيا، فالادارة غير المباشرة نظر اليها ، منذ هذا التاريخ ، كمرحلة من مراحل اعداد البلاد للحكم الذاتي . اما الاقطار التي وجدت فيها اقلية كبيرة من البيض ، فقد انشأوا او نزعوا الى انشاء نظام من التمييز العنصري لمصلحة الجنس الابيض .

افريقيا الجنوبية

ففي اتحاد جنوبي افريقيا تتمثل على ابشع صورهـا سيطرة اقلية من البيض على اكثرية مستعبدة مستذلة من ابناء البلاد. فامام ٢١٪ من الاوروبيين، معدل المواليد عندهم اعلى نسبة سجلتها من المواليد سجلتها جالية اوروبية مقيمة عبر البحار (باستثناء اميركا اللاتينية) و ٢٦ بالمائة عام ١٩٥٢، وحيث معدل الوفيات واطئ جداً (٨،٦ بالألف) يقوم ٦٩ بالمائة من ابناء البلاد و ٨ بالمائة من الخلاسيين و ٢ بالمـائة من الآسيويين معظمهم من الهنود، عرفوا كلهم بخصب المواليد والاتسال يزيد معدلهم معدل الاتسـال لدى البيض على ارتفاعه. وهكذا نشهد في هذه البلاد تأخراً او تقهقراً بطيئاً للعرق الابيض ولكنه مطرد، يزداد الشعور به ويبرز بوضوح بالرغم من نمو السكان السريع في المـدن، حيث العرق الابيض اصبح اقلية فيها (٣٩ بالمائة عام ١٩٥١) لقاء ٥٠ بالمائة عام ١٩٢١، مما يبعث فيه الشعور بانه سيغرق عما قريب تحت هذا المد العارم الذي لا سبيل لدفعه او صدّه. والى هذا الخوف الذي يخامرها يجب ان نضيف هنا وهم العرق المستبد بالبويرز على الأخص وهمهم المحافظة على الوضع المتميز للانسان الابيض الذي يشتد على الاخص عند الطبقة الفقيرة. فـالهجرة التي تؤلف خير طريقة لرفع نسبة الاوروبيين في البلاد، اصبحت من الامور المستبعدة جداً ان لم نقـل من المستحيلة من جراء المقاومة المزدوجة التي يبديها صغار البيض الذين يتخوفون جـداً من قضيـة البطالة والارستوقراطية العقارية المسيطرة على البلاد بهذه العنصرية العمياء التي يقول بها البويرز، الاعداء الالداء لكل ما هو غريب والذين يخشون بان تنقلب اكثرية *Afrikaaner* الضعيفـة الى اقلية من جراء وصول مهاجرين يمقتون الانكليز ويكرهونهم.

فالانفصال الجغرافي او الارضي الذي بوشر به منذ عام ١٩١٣، ترك للسكـان من ابنـاء البلاد ١٢ بالمائة من مساحة البلاد. فلا يجوز لاي اسود ان يشتري ارضاً تقع خارج هذا النطاق. فالاراضي المحفوظة لسكن الوطنيين يعيشون فيهـا وفقاً لتقاليـدهم المتوارثـة اصبحت تغص بالسكان، والاهلون فيها يتكاثرون وينمون بأسرع من نمو المواد الغذائية اذ ان الزراعة لاتزال فيها متأخرة جداً، والتربة فيها عرضة للتآكل والتحات كما تنهكها ماشية تزداد وطأتها باستمرار. ولذا يضطر عـدد كبير من هؤلاء الزنوج للنزوح عن مساكنهم انتجـاعاً للعيش في خدمة الاوروبيين. وهكذا فهنالك ٣،٥٠٠،٠٠٠ عامل زنجي من العمال الزراعيين يعملون خارج نطاق الاراضي المحفوظة، مياومين او مرابعين او متعهدين لاراض تخص البيض، تدفع اجورهم عيناً من محصول الارض اما مواد غذائية او بالترخيص لهـم رعي مواشيهم، مستوى العيش لديهم متدنٍ جداً ولا امل لهم ان يصبحوا يوماً من الملاكين. من منهم يعمل في المدن او في المناجم يعيشون في تخاشيب او في مجمعات، هي اقرب ما تكون من مخيـمات التجمع التي تغص بساكنيها حيث التدرن الرئوي وسل النحاتين يفتك بهم فتكاً ذريعاً ويحمل معدل الوفيات بينهم ٣ او ٥ اضعافه لدى البيض الذين يقطنون المنطقة ذاتهـا. والانفصال الى احياء متميزة الذي خطط له منذ عام ١٩٢٦ دخل موضع التطبيق بكل قسوة منذ عام ١٩٥٠ ولكن هـذا

الانفصال الارضي او الجغرافي يتعذر تطبيقه اكثر فأكثر كلما اتسع الدمـــج الاقتصادي . والانتاج الصناعي الذي تطور كثيرا بحيث انتقل دليله من ١٠٠ ، عام ١٩٢٩ الى ١٣٦ عـــام ١٩٣٨ والى ٤٣٥ عام ١٩٥٠ ، وازدهار الصناعات المتنوعة بفضل الحرب ، جعلا من العمل غير الاوروبي جزءاً مقوما وعنصراً اساسياً من الحركة الاقتصادية في البلاد ، اذ يؤلف ٨٠٪ مـــن مجموعة طاقة العمل في الاتحاد . هنالك ٧ عمال زنوج لقاء عامل ابيض في مناجم الذهب الواقعة في ويتواترزند ، و١٧ على عامل واحد ابيض في مناجم الفحم . وبالرغم من قانون اللون الصادر عام ١٩٢٦ الذي يحتفظ بمعظم الاعمال التي تقتضي الاختصاص للعمال البيض والذي يقصر الزنوج على الاعمال المحفوظة لعامل مساعد ، فعدد العمال نصف المدربين او المتخصصين يزداد . حتى العمال المساعدون الذين تتجاذبهم قطاعات الزراعة والصناعة اصبح عددهم لا يفي بالغرض ولا بالطلب ويجب استقدام العمال من خارج الاتحاد . انه لغريب جدا وضـــع هؤلاء البيض تحيط بهم المفارقات من كل جانب، اذ انهم يعيشون في خوف موصول بان يغرقوا في خضم الزنوج فيضطرون لاستقدام بعضهم من الخارج .

فالازدهار الذي ترتع فيه هذه الاقلية البيضاء التي تستأثر بـ ٧٤٪ من الدخل القومي، ينهض اساساً على الاجور المتدنية التي تدفع لليد العاملة السوداء وعلى استعبادها . فالبروليتاريا الاوروبية تنعم بأجور اكبر . فما من عامل ابيض يربح اقل من ١٥ جنيها في الشهر الواحد ، مهما تواضـــع عمله او ضؤل، بينما العامل المدن الاسود في مناجم الفحم يحصل ٥ جنيهات لا غير . اما في مناجم التعدين، فالاجر الذي يتقاضاه العامل الابيض يزيد عشرة اضعاف عن اجر العامل الاسود، ان ٧٠٪ من العمال الوطنيين هم من الاميين ، والمدارس الوطنية لا يصيبهـــا سوى ١/١٠ الاعتمادات المخصصة لتعليم البيض . ففي عام ١٩٥٢ كان التعليم الذي يعطونه يعدهم للعمل اليدوي وليس لتزويدهم بثقافة ومعلومات عامة . فالنظام والتشكيل الذي يقوم عليه العمل لا يترك للاسود اي اختيار او اي بارقة امل باي عمل غير العمل اليدوي في الارض او في المنجم او في المصنع .

فبعد ان اقصي عن التعليم الذي يفتح امامه ابواب الترقي الاجتماعي ، أُبعد الزنجي ايضا من كل نشاط سياسي . فالانتصار الانتخابي الذي حققه الدكتور مالان عام ١٩٤٩ ، مكن من فوز سياسة التفريق الكامل : فحرم زواج الابيض بغير الابيض ، والفصل بين احياء منفصلة بعضها عن بعض في المدن، وسحب الترخيص الذي كان يخول الخلاسي حق الانتخاب في ولاية الكاب . وقد صدرت قوانين تمييزية ، اخضعت الاسود الذي يقطن المدينة لنظام جواز مرور ورخصة كان من الصعب جدا الحصول عليها بحيث ان ٧٠٪ من المخالفات التي يأتيها غير الاوروبيين كانت مخالفات عدم الامتثال لهذه الرخص . ونجم عن ذلك نوع من الاشغال الشاقة . فالمحكوم عليهم بالسجن ، تؤجرهم الادارة للمتعهدين او لارباب الصناعة لتأمين الاعمال الزراعية او العمل في المناجم .

وهذا الانفصال الذي يشتد يوماً بعد يوم ، ومقاومة الزنوج لها الذين يتمردون عليها اكثر

فاكثر ، فالاجراءات التمييزية لا تؤدي الا الى اذكاء الحقد والبغضاء العنصرية وعدم الطمأنينة والقلق . فكل مظاهرة عدائية او اعتداء من قبـل الزنوج ، حتى ولو لم تكن الا لفظية او شفوية تجر على صاحبها عقوبة قاسية في الحال . وقد يتحول استياؤهم احياناً نحو الخلاسيين او الآسيويين (هيجان دوربان عام ١٩٤٩) ، وقد يتجه احيـاناً ضد البيض كالاضطرابات التي وقعت عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ في بورت اليزابث وجوهنسبرغ وكمبرلي والكاب وايست لندن، او يعبرون عن هذا الاستياء بعمل مشروع قليل او متواضع الاثر : كالمقاومة السلبية او المقاطعة التي نظمها المؤتمر الوطني الافريقي ، والانضمام الى بعض النقابات العمالية التي تقبل في عضويتها العمال غير الاوروبيين . وحركة القمع ترتدي طابعاً بربرياً عام ١٩٥١ ، والتعديل الذي ادخـل على قانون عام ١٩٥٠ حول حظر الشيوعية اعطى هذه الكلمة تعريفاً بحيث يُمكن ان يطبق او ان يطلق على كل « شخص يمكن ان يعرب عن آراء او افكار يعتبرونها في انكلترا ليبراليـة او متحررة » ، فقانون عام ١٩٥٣ يفرض عقوبات يمكن ان تتراوح بين ٥ سنوات حبس مع غرامة ٥٠٠ ليرة انكليزية ، نقداً ومهاجمة اي نص شرعي او تطبيق هـذا النص . غير ان الزنوج لا يجهلون قط الحركة العامة نحو الحرية والاستقلال التي تتمخض بها افريقيا السوداء، فهم يشددون من مقاومتهم السلبية . فبالرغم من تدخل البوليس العنيف (اذار ١٩٦٠)، فهم يأبون الرضوخ لهذا النوع من الاسترقاق الذي يتمثل في تذكرة المرور لاقل انتقال يقومون به .

هذا هو البؤس والشقاء ، هذا هو القلق واليأس الذي يعيش في قلب مجتمع مضطهد، متمسك بعناد بتقاليده ، هذا هو دراما الصدام الصارخ بين العناصر والعروق القائم على إذلال الاسـود والخوف الذي يسمر الابيض ، موضوع رواية آلان باتون المعنونة : « استفيقي يا بلادي العزيزة» التي ظهرت عام ١٩٤٣ ، وعرفت الناس بهذا الوضع الذي يسود تلك البلاد .

افريقيا الشرقية البريطانية

بين اتحاد افريقيا الجنوبي والسودان تقع مقاطعات بريطـانية حيث تقوم جاليات بيضاء ، استقرت نهائياً على الصعيد الجبـلي معطية الدليل على مقدرة البيض في استثمار المناطق المدارية .

هنا تقع منطقتا روديسيا ونياسالاند وتنغانيكا وكينيا . وفي هذه الاقاليم تحتـدم مشكلة اتصال العناصر والعروق البشرية المختلفة ، غير ان وزارة المستعمرات البريطانية تعرف كيف تمارس نفوذها وتحاول ان تخفف من نتائج عنصرية البيض في هذه المنطقة .

ففي روديسيا الجنوبية حيث البيض لم يكونوا يعدوا، عام ١٩٣٤ سوى ٠٠٠ ، ٤٠ ثم ارتفع عددهم عام ١٩٥٣ الى ٠٠٠ ،٦٥ . وقد اقتطعوا لهم ، كما رأينا ٠٠٠ ، ١٨٥ كيلومتر مربـع من الاراضي الطيبة بينا لا يوجد تحت تصرف ٠٠٠،٥٠٠،١ زنجي سوى ٠٠٠،١١٥ كلم مربع . وهم لا يقبلون عندهم سوى المهاجرين الذين يملكون رؤوس اموال قوية خوفاً من ان تنشأ عندهم بروليتاريا من « فقراء البيض » كما هي الحال في افريقيا الجنوبية . فالاقطار الثلاثة : روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند التي الفت عام ١٩٥٣ « اتحاد افريقيـا الوسطى » تضم ٠٠٠ ، ٥٠٠ ، ٦ نسمة من

السكان ، بينهم ٢٠٠٠٠٠ من الاوروبيين الذين يتبعون سياسة لا تختلف كثيراً عن السياسة التي يسير عليها اتحاد جنوبي افريقيا . واليد العاملة التي لا بد منها لاستثمار المناجم لا يمكن توفرها الى عن طريق الالتزامات المالية التي تتقاضى رسوماً لها من الفداحة ما يحمل ١٠٪ من ابناء البلاد الوطنيين مضطرين للبحث لهم عن عمل مأجور خــــارج الاقاليم المحفوظة المخصصة لهم . وقانون الاقتراع يخضع لشروط ضرائبية ثقيلة ليس في وسع الكثيرين تحملها ، قد ترتفع احياناً (الى ٥٠٠ جنيه في روديسيا الجنوبية) ، فمسائل الدم ليس من الاسبــــاب الشرعية في نظر الحكومة ، ومع ذلك فهو يطبق في كل مكان ، ولهذا السبب فرضت وزارة المستعمرات ،وجود اربعة ممثلين عن الزنوج في المجلس التشريعي القائم في روديسيا الشمالية بالرغم من معارضة المعمرين فيها . ومقاومة السود الذين يمثلون « المؤتمر الافريقي » تتلبس هنا شكلاً سلبياً ،ورفض التسليم بمانع الدم والخضوع له والعمل بمقتضاه في الفنادق ومكاتب البريد ، والاضرابات في منــاجم الفحم في ونكي وفي مناجم النحاس في روديسيا الشمالية وعدم التعاون مع سلطات الاتحــاد ، واستقالة الزعماء الوطنيين .

واعلى الى الشمال تقوم تنغانيقا واوغندا وكينيا حيث قامت انكلترا بعد ان خسرت جانباً من مواقعها الحصينة الحربية والجوية والبحرية في البحر الابيض المتوسط ، شبكة دفاع قوية صالحة لتكون مركز دفاع مقاومة شديدة ونقطة انطلاق لهجوم محتمل باتجاه آسيا الصغرى او المحيط الهندي او الشرق الاقصى . ولذا فهي حريصة على ان تشجع استيطان العنصر الابيض في هذه المنطقة ، وكرست مبالغ طائلة لتجهيز هذه البلاد وتطوير الزراعة فيها ، ففي كل قطر من هذه الاقطار الثلاثة يتمتع الحاكم العام بسلطة مطلقة ، والمجلس التشريعي المؤلف من الموظفين وممثلين منتخبين عن الاوروبيين والهنود والعرب ، ومن اعضاء معينين بينهم بعض الافريقيين بحيث تؤيد قراراته دوماً أكثرية من البيض يُرفع اليها .

والمقاومة ترتدي هنا طابعاً اشد من الطابع الذي لها في روديسيا . فالمعمرون البيض في تنغانيقا قليلو العدد (٢٧٧٠٠ من اصل ٨٥٠٠٠٠٠ نسمة واحتياجات الارض ليست ملحة بالرغم من الاضطرابات التي وقعت في بعض الاماكن عام ١٩٥٢ ؛ وكذلك في اوغندا: حيث يقوم رئيس او زعيم وطني تحت الحماية البريطانية ، هو ادورد موتوزا الثاني ، ملك بوغندا ، اغنى الممالك واكثرهــا ازدهــاراً والذي نفــــاه البريطانيون عام ١٩٥٣ لنزعته الاستقلالية ، واضطرت الى اعادته الى كرسي الملك امام احتجاجات السكان الصارخة .

اما في كينيا فالمعمرون الاوروبيون هم اكثر مما هم في اي من هذه الاقطار والتجارة فيهــا يسيطر عليها البريطانيون والهنود، والتوتر العنصري بين الشعوب الثلاثة اقوى منه في اي مكان آخر . فالمستعمرون البيض استقروا وازدهرت اعمالهم في السهول المرتفعة . فهم يرغبون في تشكيل دومنيون ابيض كما انهم يخططون لتقوية الاستعمار الاوروبي في البـــلاد . فالشعور العنصري يجيش عاليا فيهم وحائل اللون لا يقل شدة وعنفاً عنه في افريقيا الجنوبية . فهم

يطالبون بالحكم الذاتي حتى يزيدوه صلابة ولكي يتمكنوا معه من طرد الـ ۱۵۰۰۰ مـن الآسيويين ولا سيا الهنود والباكستانيين الذين يسيطرون على النشاط التجاري في البلاد وسجل بعضهم درجة عالية من الثراء . كل ابناء البلاد الوطنيين يذهبون فريسة لهذا الوضع ولا سيا لندرة الاراضي التي تتعرض باستمرار للتآكل السريع . كما يتأففون من الالتزامات التي تفرض على الرجال من ابن ۱٥ الى ٤٥ سنة فيرون انفسهم مضطرين للعمل في الخدمات العامة وفي مزارع البيض(اذ عليهم ان يقضوا بين ثلاثة وخمسة اشهر في العمل ليؤدوا ما عليهم من ضرائب) . واكثر الجماعات الحاحاً ومطالبة باسترجاع الاملاك التي نزعت منهم قسرا وعنوة هم قبائل الكيكويد . فهم يلومون السلطات المسؤولة لاعتبارها ارضاً حراما وتركها الحرية للمعمرين باستملاكها ، اراض شاسعة حسبوها غير مملوكة بينما كانت مراعي لمواشيهم ومناطـق للصيد ، « استملاك لاشعوري » كما يؤكد غورو ، حز كثيرا في نفوسهم لا سيما والاراضي التي يقيمون عليها كثيفة السكان ۱۰۷ واحيانا ۲۰۰ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد . « جمعية كيكويد المركزية » التي تأسست عام ۱۹۲۲ ، والتي عرفت فيما بعد باسم : « اتحاد كينيا الأفريقي » ، اصبحت جمعية سياسية قوية ونشيطة عام ١٩٤٦ بعد عودة جومو كنياتا من اوروبا . وفي اواخر سنة ١٩٤٨ تظهر حركة الماوماو وهي جمعية سرية يؤدي اعضاؤها القسم ويرافق انضمامهم الى الجمعية مراسم وطقوس خاصة ، وهي معروفة بعدائها المكشوف للبيض وللمسيحية . وتهاجم باستمرار البيض والمواطنين الذين يوالونهم ويخلصون لهم العمل ، فردت السلطات المحلية على هذه الاعمال يساندها الطيران ووحدات من الجيش البريطانية باعمال قمع عنيفة استحالت الى حرب ابادة فعلية . وفي عام ١٩٥٤ كان اكثر من ١٦٢٠٠٠ وطني جرى توقيفهم واعتقالهم ، وحكم على ٦٩٠٠٠ منهم ،بينهم ١٣٠٠٠ ثبت انهم اعضاء في جمعية الماوماو واشتركوا باعمالها، وكان لا يزال في هذا التاريخ اكثر من ٣٠٠٠٠ لا يزالون موقوفين. وهذه الارقام العالية ،تكوّن دليلا قاطعا على شعبية هذه الحركة . ولم يوضع حد لاعلان الطوارىء في البلاد بعد ان خفت الاضطرابات التي تثيرها الا في كانون الثاني عام ١٩٦٠ بعد اعلانها عام ١٩٥٣ .

في هذه الاقطار الثلاثة استطاعت السياسة البريطانية ان تزيل تدريجياً العراقيل والمصاعب التي تعترض سياستها التحررية : انشاء مجالس وطنية لابناء البلاد الاصليين كانت لهـا صفـة استشارية في بادىء الامر ، ثم اعطيت سلطات لاتخاذ قررات . ورفع عدد الموظفين الوطنيين ، واخيرا الاجتماع حول طاولة مستديرة لمناقشة الافكار والنظريات المتعارضة ، افضت في نهاية المطاف الى اصلاح جذري في النظام الانتخابي حققت بفضله كل من تنغانيقا وكينيا استقلالها عام ١٩٦٠ ، وانشاء مجلس تشريعي يضم اكثرية افريقية على مثال ما تم ليوغندا .

الكونغو البلجيكي

منذ البدء تم استثمار ثروات الكونغو البلجيكي بشكل منهجي على يـد شركات خاصة قوية تحت اشراف فئات مالية قوية : مثـل مصرف امبين ، وشركة الكونغو التجارية والمعدنية ، والاونيليفر ، واهمها طراً شركة بلجيكا العـامة

التي تألفت من الشركات الفرعية التالية : الاتحاد المنجمي في كاتنغا العليا ، ولجنة كاتنغا الخاصة ، ولجنة كيفو الوطنية ، والخط الحديدي من مجرى الكونغو الاسفل الى كاتنغا ، والشركة الحرجية المنجمية ، وشركة زيوت الكونغو البلجيكي ، وشركة كاساي ، والجيومين وغيرها . وسيطرت هذه الشركات على امتيازات واسعة أعطيت لها ، ووجهت جل نشاطها على الاخص الى تصدير منتوجات المعادن والمحاصيل الزراعية برسم الاسواق الخارجية : وقد نهضت باستثمار موارد البلاد خلال الحرب تلبية منها لطلبات الحلفاء ولتلبية حاجاتهم الى المطاط والبن والفولفرام والقصدير والاورانيوم والنحاس والكوبالت وغير ذلك من المحاصيل . وهذا الاستثمار الذي اهمل جانباً المحاصيل اللازمة لغذاء السكان برغم مما يكن تحته من ضعف ووهن خلال الازمة الاقتصادية ولم تبرز هذه المخاطر بشكل واضح الا بعد انهاء الحرب العالمية الثانية . خرج الكونغو من الأزمة بعد ان طرأ تطور عظيم على مراكزه الاقتصادية والمدنية التي تضم ربع سكان البلاد تقريباً ، الا ان اقتصاده اصبح كالوضع الاقتصادي في جمهوريات اميركا اللاتينية سريع العطب في اثر الضعف الذي حل بأسواقه الداخلية والاهمية المتزايدة لصادرات البلاد . ان ثلث ميزانية الكونغو في عام ١٩٥٢ كانت تقوم على الرسوم والضرائب المترتبة على شركة اتحاد كاتنغا العلية المعدنية . ويكفي بهذا اشارة الى الحد الذي ارتبطت به مالية هذه البلاد بتصدير بعض منتوجاتها التي ترتبط هي نفسها ، الى حد بعيد بتقلبات الاسواق العالمية . ان الهبوط الذي سجلته اسعار المواد الزيتية عام ١٩٥١ يبين مرة اخرى ، سرعة عطب الوضع الاقتصادي في الكونغو .

وقد بذلت فيما بعد جهود صادقة لتصحيح الاوضاع وجعلها اقل عطباً وخطراً . وقد وضعت في هذا السبيل خطة عشرية دخلت موضع التنفيذ عام ١٩٥٠ خططت لتطوير وسائل النقل وتشييد محطات لتوليد الطاقة الكهربائية وتجهيز المصالح العلية والدوائر العامة ، ورفع مستوى التعلم والصحة وتطوير الزراعة بين سكان البلاد من الوطنيين ، بتزويد المزارعين بالمناهج والاساليب التي تحافظ على خصب الارض وحسن انتاجيتها ، وتحسين المواسم الزراعية ، ولتقييم المحاصيل الزراعية عن طريق انشاء تعاونيات في البلاد ، والنهوض بالمؤسسات والاعمال الاجتماعية عن طريق تأسيس صندوق خاص يدعى : « صندوق رفاهية المواطن » ، وتطوير طرق المواصلات وتحسين اوضاع المجتمعات الريفية . وقد بقي مستوى عيش الوطنيين متدنٍ جداً كما بقي السكان عرضة النقص في التغذية لضعف انتاج البلاد للمواد الغذائية ، كما ان افتقار البلاد بشدة اليد العاملة كان من شأنه ان يزيد هذا الوضع حرجاً ما لم تبادر البلاد الى مكننة الزراعة بأسرع ما يكن .

نظام ابوي

هذا الوضع المادي الهزيل الذي حف بالسكان يشجع كثيراً على إيقاظ الروح الوطنية وبعث الرغبة في نفوس الجميع باجراء اصلاحات سياسية في البلاد . فقد عرفت السلطات البلجيكية ان تحافظ على نظام اداري ابوي حتى الحرب العالمية الاخيرة ، في

المجالين الاقتصادي والاجتماعي : التعليم يعطى باللغة الدارجة تؤمنه الارساليات المستفيدة من المساعدات الرسمية ٨٠ بالمائة منها كاثوليكية، اذ ان الاتفاق التعليمي المعقود عام ١٩٢٦ ، يضع بين ايدي « الارساليات الوطنية » شبه احتكار التعليم – فالارساليات البروتستانتية لم تستفد من هذه المساعدات الا منذ عام ١٩٤٦ ، وهو في مستوى وسط ، فني وعملي في آن واحد . ويحصر تعليم اللغة الفرنسية بمن سيكونون على اتصال موصول بالاوروبيين ، ويمنعون عنهم كل تعليم ثقافي وعلمي . والتعليم يهدف « الى بث الموضوعات الادبية والنظريات الخاصة بالصحة العامة والرقي ،والاحترام والتعاطف مع العمل الاستعماري الذي تقوم به الحكومة البلجيكية» . اما فيا يتعلق« بالتربية الادبية او الاخلاقية ، فيجب التعويل على التبشير بالانجيل »وهذه التربية تختلف بروحها عن المناهج التربوية التي تسير عليها الحكومات الاستعمارية في افريقيا ، هذا التعليم الذي يمكن ان ينحصر ، كما يزعم الحاكم العام في الكونغو ريكمانس « نصيب نخبة مختارة » ولا بد له من ان يبعث في نفوس القوم ادعاءات تفوق عنصرية في قلب مجتمع تسوده الامية ؛ اذ المطلوب من التعليم تهيئة « افريقيين صالحين » وليس فقط صوراً طبق الاصل للاوروبيين الذين سيبدون ابداً « اناساً من الطبقة الثالثة » .

اما في المجال الاقتصادي ، فقد وُضِع الوطني من ابناء البلاد تحت وصاية ضيقة : فعلى رب العمل ان يقدم للعامل ولاسرته ، السكن والاثاث والعناية الصحية ، حتى اذا ما برهن فيا بعد « عن قدرة في العمل وعن حسن سلوك في المجال الاجتماعي » ، أعطي له مرتب شهري ولم يعد رب العمل مسؤولاً عن إعالته انما يكفل له المسكن والعناية الصحية . وهو يخضع لمثل هذه التبعية ، في المجالين السياسي والاداري : لا حق له بالاقتراع ، والمجالس القائمة لا تخرج عن كونها مجالس استشارية، مع اعتبار ابن البلاد قاصراً عن الدفاع عن مصالحه التي تتولاه الادارة ؛ ولا مجال بالطبع لنشاط نقابي ، ولا حرية تعبير . وقانون العمل يعاقب بالسجن كل مخالفة « لنظام العمل » « بعقوبة ثلاثة اشهر من الاشغال الشاقة » ، وبالغاء عقد العمل ، وجمعيات العمال الوطنيين التي تهدف للمس من حرية العمل ... ويكلف « مستشارون اوروبيون» بمراقبة نقابات العمال الوطنيين التي يخضع الانتساب اليها لشروط عدة . ليس هنالك من حد او عائق اللون مع ان القانون الذي صدر في نيسان ١٩٥٢ يجعل بحكم المستحيل الزواج بين ابناء البلاد الوطنيين وغير الوطنيين ، كما يوجد قيد العمل والتطبيق اجراءات تمييزية مهنية ، والهوة بين البيض والسود عميقة لا يمكن تجاوزها . والفصل المادي والادبي يزداد شدة وضراوة يوماً بعد يوم حتى بين المرسلين الذين بالرغم من قلة عددهم، يحاولون ان يؤلفوا اكليروس البيض وحدهم. ففي المدن التي تقيم الانفصال بين الوطنيين والاوروبيين ، كمدينة ليوبولدفيل مثلاً ، لن يسمح للزنوج بالدخول الى المدينة الاوروبية بعد الساعة ٢١ مساءاً والعكس بالعكس . وفي عام ١٩٥٩ فقط بطل العمل باطفاء الانوار مع منع التجول للافريقيين واخضاع المخالفين لعقوبة الجلد. وكل الوسائل تستخدم لمنع الكونغوليين من الذهاب لاوروبا والاطلاع على اساليب العيش بين

الناس فيها . ومن جهـة اخرى ، فالمعمرون الحقيقيون البلجيكيون المستقرون في الكونغو ، والذين يتراوح عددهم بين ٦ ــ و ٧ آلاف معمر من اصل ٨٠٠٠٠ ، ابيض يقطنون هذه البلاد ، يخشون كزملائهم البريطانيين في المستعمرات البريطانية ، من ان تتخذ حكومة بروكسل سياسة ملاطفة وممالأة للوطنيين . ولذا فهم يطالبون بحقوق سياسية خاصة ويطمحون باستقلال اداري يؤمن لهم السيطرة والنفوذ في المجالس القائمة في الكونغو . فهـم يتمتعون بنفوذ قوي يقلق له المتطورون من ابناء البلاد الاصليين الذين يتسـاءلون مـن التمييز العنصري الذي يطبق عليهم ويذهبون ضحية له ، فيقارنون بمرارة ولوعة وضعهم بوضع المستعمرات الفرنسية او بوضـع نيجيريا او الكامرون حيث تقوم مجالس منتخبة ويوجد اطباء ومهندسون زنوج . فالروح الابوية التي اتصفت بها الادارة البلجيكية في الكونغو قد طغت عليها ليس المطالبات الملحقة فحسب، بل ايضاً عجزها المدقع وقصورها عن مواجهة مسؤولياتها ، في الوقت الذي لم يعد كافياً اعطاء الاوامر واصدار التعليمات والتوجيهات ، بل يجب فيه ايجاد العمل امـام جمعية من الفلاحين ، او امام تعاونية ، تأمين وسائل العيش لمدينـة وتأمين اداراتها . يجب والحالة هذه اسناد مهمة سياسية للوطنيين ، وتأمين مساهمتهم بنشاط في الامور التي تؤمن لهم الرفاهية والراحة ، وان يثيروا فيهم الاهتمام بامورهم ومصالحهم ، وعملية التنظيم هـذه تزداد إلحاحاً امام الانحلال الذي بدت اعراضه تظهر على هذه الدوائر الادارية التقليدية التي هبط عددها من ١٢١٢ عام ١٩٣٨ الى ٤٦٧ في عام ١٩٥١ ، وهي في طريقها الى الزوال تماماً في ولايات ليوبولدفيل او في ولاية كاساي حيث استبدلت بدوائر اوسع . فالتطور الذي اخذت بأسبابه المستعمرات الانكليزية والفرنسية المجاورة والتي لا يمكن ان تنعزل عنها ، حتمت على الادارة الاستعمارية في الكونغو ان تتغير بأسرع ما يكون .

الفشل الذريع

وقد بدت حركة رجلة نحبية ،حركة رفع الحواجز الاجتماعية وعملية تمثيل الوطنيين لحقوق الغربيين . ان انشأ «قسيمة» الاستحقاق الوطني عام ١٩٤٨ أمّن للوطنيين بعض المنافع ــ لا سيما في حال حدوث جنحة مثلاً ــ واعطائهم حق المحاكمة امام محكمة اوروبية، لا تعرضهم لمحاكمة يتعرضون معها لعقوبة الفَلَق او الجلد امام الناس، وهو حق اعطي لكل مواطن في مكنته ان يبرهن عـن حسن سلوكه وعن حسن اخلاق ينبض بالرغبة الصادقة بالوصول الى درجة محترمة من التمدن ، اي ان يكون متزوجاً من امرأة واحـدة يحسن الكتابة والقراءة ومبادىء الحساب ويثبت اختصاصه ومهارته في الحرفة التي يمارسها ؛ الا ان عدد الذين اعتبروا حائـزين على هـذه الشروط كان مدعاة للهـزء اذ لم يكن ليتجاوز ١٢٥ ــ ١٥٠ في السنة كلها . وفي سنة ١٩٥٢ فرض تسجيل الخضوع للقانون المدني الاوروبي . على كل مواطن كونغولي « يستطيع ان يزكي بما له من تربية ومن سلوك حسن » بلوغه وضعاً من التمدن يجعله صالحاً للتمتع بهذه الحقوق ، ومستعداً للقيام بالواجبات التي تنص عليها القوانين المرسومة . الا ان عملية التسجيل هذه كانت توجب على صاحبها اتخاذ بعض الاجراءات والتدابير القانونية التي كانت للآن من حق الأوروبيين وحدهم كما تقضي بإتمام بعض المعاملات المعقدة

بحيث لم يستفد منها سوى بعض الزنوج . وقد اتخذت اجراءات خفيفة ضد حاجز اللون : فمنذ عام ١٩٥٢ قبول الطلاب النجباء من الوطنيين الذين يبرهنون « عن كفاءات تربوية واخلاقية » في المدارس الخاصة بالأوروبيين واجبار شركات النقل المشترك على قبول الزنوج في الدرجة الاولى الخاصة بالبيض ، وانشاء لجان وطنية للعمال وللتقدم الاجتماعي ثلاثية التركيب (ارباب العمل والعمل وممثلو الادارة) واخيراً تولي جامعة لوفين انشاء جامعة في ليوبولدفيل ، في تشرين الاول ١٩٥٤ ، كما انشأت الدولة جامعة اخرى في اليزا بتفيل ، حالتان معاً دون سفر الطلاب الوطنيين الى اوروبا لتلقي العلم فيها، ولا سيما لدراسة الطب والعلوم الزراعية دون ان يقوم فيها اي معهد لتدريس الحقوق او الفنون الهندسية،وضم ثمانية اعضاء وطنيين الى مجالس الولاية والى مختلف المجالس الاقليمية وهي هيئات استشارية لا سلطة فعلية لها .

ولما كان الكونغو البلجيكي « منطقة صامتة للاستعمار » في افريقيا حيث الاستثمار المنهجي لموارد البلاد الطبيعية قلب اعمق ما يكون التوازن الاجتماعي الذي كان سائداً في البلاد ، والنظام الأبوي الذي ساروا به الى الكمال والذي جاء بأطيب الاثر، قد جنب البلاد الاعمال الوحشية العنيفة التي ميزت التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية وحسنت كثيراً من اوضاع الزنجي فيه اذ اخضعته لمراقبة دقيقة واحياناً لعملية قمع عنيفة، بحيث حالت مدة طويلة دون تنسيق التذمر وتنظيم اسباب الشكوى . الا ان التطور الاقتصادي لم يلبث ان اظهر بوضوح الفوارق والمفارقات بين سياسة تفسح مجالاً اكبر للعمال الافريقيين يتسع شيئاً فشيئاً في حياة البلاد الاقتصادية ، وبين سياسة اخرى تمنع عليهم كل تنظيم سياسي وتحول دونه . وقد بقيت تعمل في السر ، متخفية مدة طويلة، بالرغم من تحريمها ومنعها فئات سرية دينية مناهضة للبيض في ولاية كاساي وولاية خط الاستواء كالكيتاوالا والتي ما لبثت ان تجاوزت حدود المقاطعة والكبابنجية او النقوزية في منطقة ستانليفيل . وقد ظهرت اذ ذاك حركة نقابية عنيفة بين الزنوج لها مطالبها ونشاطها السياسي ، كما يشهد على ذلك مظاهرتان لا تخلوان من معنى قط ، من ذلك مثلاً البيان الذي نشره في تموز ١٩٥٦ « الضمير الافريقي » وهي فئة قريبة جداً من مرسلي شويت الذي يرفض كل اتحاد او تحالف بلجيكي كونغولي يفرض على البلاد بغير رضى الشعب الكونغولي الحر ، ولا سيما الاكثرية الساحقة التي نالتها الاحزاب المناهضة للبيض في الانتخابات البلدية التي وقعت في كانون الاول ١٩٥٧ ، لاول مرة في احياء ليوبولدفيل الرئيسية الثلاثة وفي اليزابتفيل وجادوتفيل . والعزلة التي احاطت بالسكان وضربت حولهم نطاقاً ضيقاً لم تلبث ان زالت وارتفعت . وبالرغم من « معركة التأخير والتسويف » التي تعرضت لها من قبل الحكومة البلجيكية ، فقد اضطرت هذه الحكومة في نهاية الامر للسير على غرار انكلترا وفرنسا في هذا المجال .

ولكن كان قد فات الاوان ليتم هذا التغيير ولكي يتحقق بهدوء وسلام . فعلى اثر الفتنة التي قامت في ليوبولدفيل وعاثت فيها فساداً والتي جرح او قتل بها عدد كبير من الافريقيين (٤ كانون الثاني ١٩٥٩) اضطرت الحكومة البلجيكية بعد ان عجزت عن ضبط الامور

وقمع الفتنة، لتتعهد باعطاء البلاد نظاماً ديموقراطياً،ثم، بعد ان خفضت المهلة المقترحة ـ دعت الى طاولة مستديرة في شباط ١٩٦٠ البحث في امر استقلال البلاد . وفي اول تموز اعلن استقلال الكونغو وتشكلت فيه حكومة مركزية . واذ ذاك حدثت فجأة حركة تمرد قوى الأمن ضد ضباطهم البلجيكيين واخذت ولاية كاتنغا تنزع الى الانفصال واعلان استقلالها . والاصطدامات القبلية ادت الى انفجار عام في البلاد وجرت عليها وضعاً من الفوضى الشاملة وضعت الكونغو امام خطر تدخل اجنبي من قبل الدول المتنافسة في المنطقة مما حمل تهديداً للسلام العالمي .

افريقيا البرتغالية

منطقة اخرى من « مناطق الصمت الافريقي » ندرت حولها المعلومات وضعفت ، تكونت من هذه المناطق الواقعة تحت الاستعمار البرتغالي والتي لم تكن لتؤلف بحد ذاتها مستعمرات او محميات برتغالية بل ولايات ضمن دولة البرتغال الاتحادية ، وتخضع لمراقبة دقيقة من قبل حكومة لشبونه ، كما نصّ على ذلك القانون الاساسي ، اي انه كانت واقعة كالبلد الام تحت النظام الدكتاتوري . والنظام المعمول به في هذه الممتلكات كان يشبه من وجوه عدة النظام القائم في الكونغو ، يبرز هنا الطابع الابوي أكثر منه هناك وإن كان أكثر فعالية هناك منه هنا ، إذ كانت هذه الممتلكات تخضع لدولة متخلفة ، ترسف في وضع ما قبل عصر الصناعة . مستوى الحياة فيها متدنٍ جداً (فالأجر الوسط في الموزمبيق كان ٩ بلسات عام ١٩٥٠) ، ومعدل الامية فيها هو من أعلى ما نرى في كل اقطار افريقيا ، وقانون الاشغال الشاقة الذي لا تزال البلاد خاضعة له يطال أكثر من ٤٠٠ ٠٠٠ من ابناء هذه الممتلكات . والقانون المعمول به عملياً يوجب على كل افريقي ان يأتي بالدليل القاطع على انه أدى ستة اشهر عمل خلال السنة التي سبقت التحقيق او انه يعمل في الوقت الذي يجري فيه ، والا ارسلت به السلطات الى العمل الالزامي ، واصبح منذ ذلك الحين *Contratado* اي عرضة للسخرة يضمه الحكام البرتغاليون تحت تصرف المتعهدين المحليين الذين يقومون بالنيابة عنه عقد عمل . اما الـ *Voluntarios* او المتطوعون فانهم يوضعون تحت تصرف ضغط الزعماء ورؤساء الورش الذين ترغمهم الادارة على حشد العدد المطلوب من لدن رؤساء المشروعات ، فارتباطهم وتعهدهم ليس اكثر حرية من « العقد الذي يوقعه الـ *Contratados* » ان عدم وجود حائل اللون رسمياً او تمييز عنصري مرده الفقر المدقع والجهل المطبق الذي يرسف فيه ابناء البلاد فيجعل من المستحيل كل اتصال او تقارب على اساس المساواة مع البيض . هنالك مع ذلك ، مؤسسة قريبة جداً من مؤسسة المسجلين الكونغوليين ، تتألف من المتمدينين ، وهم من الوطنيين الذين انزلوا منزلة البيض والذين ينعمون مثلهم بالحقوق والواجبات ذاتها ، وذلك بقرار تتخذه محكمة عليا عندما يثبتون انهم يحسنون البرتغالية ، وهم على الدين الكاثوليكي . ولهم بعض الريع ، وانهم على استعداد للعيش وفقاً لنهج الحياة الاوروبية . وفي الواقع ان عدم القدرة التي تكاد تكون كاملة على التعلم ، اذ ان عدد المدارس محدود جداً وهي كلها كاثوليكية، ومستواها

متدنٍّ للغاية ، والفقر المسيطر على البلاد ، كل هذه الاسباب معاً لا تسمح الا لنفر صغير وقلة محدودة ان ترقى الى درجة المتحضرين او المتمدينين . ففي عام ١٩٥٠ ، كان عددهم في انغولا ٣٠ ٠٠٠ من اصل ٤ ملايين نسمة ، وفي الموزمبيق ٤٣٧٨ من اصل ٥ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة ، و ١٤٧٨ في الغينيه من اصل ٥١٠ ٠٠٠ . ان عدم الاخذ بفارق اللون يعود بالفائدة هنا ، كما في البرازيل ، على عدد كبير من الخلاسيين الذين أنزلوا منزلة البيض بشرط ان يحيوا حياة اوروبية . انما التمييز العنصري اخذ يذر قرناه ويظهر بتحظير الزواج المختلط . ان وضع البلاد المتخلف اقتصادياً والامية الغالبة على السكان يفسران لنا سبب عدم ظهور ردات وطنية في هذه البلاد.

فرنسا في افريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية ومدغشقر

اذا ما قارنا الممتلكات الفرنسية بالبلدان المجاورة لها كالشاطىء الذهبي ونيجيريا والكونغو البلجيكي ، وجدنا ان هذه الممتلكات هي فقيرة ، على الاجمال ، بمواردها الطبيعية وبمصادر الطاقة وسكانها هم في حدود الوسط. فالاوروبيون فيها قلة ، بين موظفين ومستخدمين في بعض الشركات التجارية الكبرى ، او يؤلفون الملاك الاداري لبعض الصناعات ولا سيما الاستخراجية منها ، وعسكريين وبضعة ألوف من المعمرين والتجار . ان معظم المعمرين في مدغشقر هم من الاوروبيين المولودين في المستعمرات يستثمرون بأنفسهم الاستثمارات التي أعطوها بمعاونيهم في عملهم هذا عمال ولا سيما مرابعون يتعهدون بعض القطع الصغيرة التي استأجروها ، بعضهم يصبح للدين الغارق فيها عبداً مرتبطاً بالأرض. والحياة الاقتصادية فيها ، يسودها – كما رأينا – بعض الشركات التجارية الكبرى وما لها من فروع تابعة لها تعمل في قطاع النقل الذي يدر ارباحاً كثيرة : « اذ ان ربح هذه الشركات في بعض السنين يوازي رأس المال المشغل » كما يؤكد رنيه دومون . وعلى الموازنات المحلية ان تتحمل اعباء ادارة مكلفة . ففي افريقيا الغربية الفرنسية يمتص موظفو الادارة ومصالح الجيش ٦٢ ٪ من مدخول الخزانة ، وفي مدغشقر ٧٥ ٪ وتنقل هذه الشركات كغيرها من الشركات الكبرى ، ارباحها كاملة الى البلد الأم . والاقتصاد ينهض على بعض المنتوجات الرئيسية : كالكاكاو والبن والمواد الزيتية والخشب والموز في مقاطعة افريقيا الغربية الفرنسية ، والارز والبن في مدغشقر . فالاسعار مرتفعة لان المستخدمين الفرنسيين يتقاضون مرتبات عالية واليد العاملة الوطنية لا تتوفر فيها مقتضيات الكم والنوع . اما الصادرات فقيمتها ضعيفة – فهي في كل افريقيا الغربية الفرنسية اقل مما يُصدره الشاطىء الذهبي ، والميزان التجاري هو دوماً في عجز لا سيما في مدغشقر . وخلافاً للمستعمرات الانكليزية والبلجيكية فما من مقاطعة واحدة من هذه المقاطعات الفرنسية تدخل دولارات . والاستيراد الذي ينشط ويزداد سنة بعد سنة يدور حول حاجيات مشغولة ومواد للتجهيز تدفع القسم الاكبر من ثمنها البلد الام ، ومشروبات كحولية زاد حجمها بين ١٩٣٨ – ١٩٥٢ أكثر من ٣٨ ضعفاً في مقاطعة افريقيا الغربية الفرنسية ، و ٢٦ ضعفاً في الكامرون . فأصحاب الاموال الخاصة قلما يتجهون نحو افريقيا في استثمار اموالهم ، فهذه الاستثمارات تتجة

بالاحرى نحو استغلال مناجم الحديد في موريتانيا، ومناجم البوكسيت في الغينيه والمنغانيز في الكونغو الاوسط . اما العجز في الموازنة فتسده البلد الام التي تتحمل القسم الاوفى من هـذه الخسارة (٩٠ ٪ منـذ ١٩٥٦) من اشغال البناء وعمليات كهربة الخطوط واصلاح طرق المواصلات ، وهي تتحمل ايضاً نفقات التجهيز الاجتماعي والزراعي والصناعي والصحي والتعليم بكامله عن طريق شركة F. I. D. E. S. .

تركت الحرب العالمية الثانية اثرها عميقاً في هـذه الممتلكات . فالقلق الذي اعترى جماهير السكان في المدن التي ارتفع عددها بسرعة وبشكل تجاوز الحد ، كما اعترى سكان الريف ايضاً نظراً لما تعرضوا له من ويلات الحرب : كالأشغال الشاقة والمصادرات على انواعها ، والإفقار ، والضرائب والرسوم التي فرضت عليهم ، كل هـذا وما اليه ساعد على ايقـاظ الوعي الوطني في هذه البلدان . ان حكم فيشي حرّك فيهم « عنصرية محدودة » تميزت بالغاء المجالس المحلية وكل الحريات التي كانت تنعم بها ، بعد ان احيا نظام المواطنية الذي اخضع ابنـاء البلاد الاصليين لعدد من عدم الكفاءات الشرعية : كالمحاكم الخاصة ، ومنعهم من مغادرة المستعمرة دونما اذن مسبق ، والعمل الاجباري او التعهد بتوفير هذا العمل لصيانة الطرقات ، والاعتراف للسلطات الادارية بحق فرض بعض غرامات او بعقوبات حبس . ان دخول هـذه الممتلكات الحرب من ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ بانضمام حاكم التشاد فيلكس ايبويه الى فرنسا الحرة ، ثم انضمام الكامرون وافريقيا الاستوائية الفرنسية ، كان من نتائجـه تقديم مجهود حربي لا مثيل له من قبل : نظام الاشغال الشاقة ، والمصادرات التعسفية العنيفة ، واجبارهم على تقـديم بعض المحاصيل ولا سيما المطاط ، كان من شأنه إنهاك هذه المقاطعات لقاء نتيجة هزيلة لا يؤبه لها . واحتجاجاً على هذه « النتائج الجنونية » والذكرى المريرة التي تركتها في النفوس والاذهان ، صدر عام ١٩٤٦ كردة فعل لهـا ، القانون المعروف بقانون لامين غيبه الذي الغى قانون المواطنية وضمن الحريات العامة : كحق تأليف الجمعيـات وتشكيل النقابات والاحزاب السياسية ، والغـاء الاشغال الاجبارية ، وغير ذلك . وصدر قانون آخر عام ١٩٥٠ ، بشأن المساواة في الرواتب والاجور بين الموظفين التابعين للبلد الام والوطنيين من الرتبة ذاتها .

الاتحاد الفرنسي

اخذ مؤتمر برازافيل الذي عقـد في غرة ١٩٤٤ لاعداد مبادىء السياسة الاستعمارية التي تسير عليها فرنسا بعد التحرر ، ينزع الى نظام من شأنه ان يعطي كل مقاطعة مستعمرة نظاماً خاصاً به ، ويستبعد « كل فكرة استقلال وكل امكانية تطوير خارج كتلة الامبراطورية الفرنسية » ، او التوقف عند احتمال سن دستور الحكم الذاتي ، ولو من بعيد ، والمجلس التأسيسي لم يتوقف حتى عند الفكرة الفيدرالية . والنص الذي أقر في نهاية الامر في اكتوبر (تشرين اول) عام ١٩٤٦ ، أقر الاتحـاد الفرنسي . وهذا الاتحـاد ليس بدولة فيدرالية . فهو يتألف ، من جهـة ، من الجمهورية الفرنسية التي تضم فرنسا الام والمقاطعات والممتلكات الواقعة عبر البحار ، ومن جهة اخرى ، المقاطعـات والدول المشاركة ، تحسب

مقاطعات افريقيا السوداء ضمن « المقاطعات الواقعة عبر البحار » . فهو يحافظ على دولة اتحادية تتمتع مقاطعاتها بنظام اداري اكثر لامركزية من المحافظات في البلد الام . فكل السكان من ابناء البلاد الاصليين هم من الآن فصاعداً مواطنون دون ان يطلب اليهم التخلي عن احوالهم الشخصية المتعارفة ، وبذلك تلغى المحاكم الوطنية في كل ما يتعلق منها بالجزاء وتبقى في عملها في كل ما يتصل بالأمور المدنية ، مع ملء الحرية لصاحب العلاقة ان يختار اختصاص الحق العام. وكل المقاطعات تمثل في البرلمان .

وهكذا ، فالسياسة الفرنسية اذ تعلن عالياً عن رغبتها في حمل البلدان المستعمَرة « على ادراة نفسها بنفسها » ، لا تقبل بهذا الوضع الا ضمن نطاق المجتمع الفرنسي . فالممتلكات الواقعة عبر البحار هي جزء متمم او مقوم لفرنسا ، ويترتب على ابناء البلاد الوطنيين ان يعتنقوا الثقافة الفرنسية . ففي هذا استمرار لسياسة التمثيل التي تنزع الى فرنسة افريقيا عن طريق المدرسة والخدمة العسكرية . فحق الانتخاب الذي يحصر ، في بادىء الامر ، في الافراد الحائزين على الوضع المدني للحق العام ، وسّع بسرعة ، فيما بعد ، عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ بحيث يضم هذه الفئات الجديدة من الوطنيين الذين تتوفر فيهم بعض شروط الكفاءة والاهلية او الذين ادوا بعض الخدمات اللازمة ، او الاشخاص الذين يمكن فردنتهم بكل ثقة . فعدد الناخبين ارتفع بين ١٩٤٦ – ١٩٥٢ من ٠٠٠ ، ١٣١ الى ٠٠٠ ، ٤٢٥ في الغينيه ، ومن ٩٥٧١ الى ٠٠٠ ، ٥٠ في التوغو ، ومن ٠٠٠ ، ٣٨ الى ٠٠٠ ، ٥٦٦ في الكامرون ، ومن ٠٠٠ ، ١٩٢ الى ٠٠٠ ، ٦٦٠ في السنغال ، ومن ٠٠٠ ، ١٧٦ الى ٠٠٠ ، ٩٠٦ في السودان ، ومن ٠٠٠ ، ٢٧ الى ٠٠٠ ، ٢٥٠ في التشاد ، دونما تمييز قط بين انتخابات خاصة للاوروبيين وانتخابات خاصة للوطنيين ، باستثناء مدغشقر وافريقيا الاستوائية الفرنسية والكامرون . وفي النطاق المحلي ، لكل قطر مجلسه التمثيلي الخاص اختصاصاته اوسع بكثير مما كان للمجالس العامة المتروبوليتية من اختصاصات . واخيراً ، فافريقيا الاستوائية الفرنسية وافريقيا الغربية الفرنسية لكل منها « مجلسه الاعلى » منتخب ، حيث للاوروبيين عادة ثلث المقاعد ، صالح للتصويت على الموازنة واقرار الامتيازات الاستثمارية وخطط الاشغال الكبرى والتعليم ، وهو نظام ليبرالي جرى إكماله بوضع قانون عمل في الاقطار الواقعة عبر البحار (١٩٥٢) لاقى تطبيقه بعض المقاومة من قبل الزعماء التقليديين ومن قبل « الحزب الاداري » الذي يسوؤه جداً التنازل عن سلطته السابقة الواسعة . اما النظام الاقتصادي الذي نهض على الميثاق الاستعماري ، فالبلد الام فيه تحدد الاسعار وتحتفظ لنفسها بانتاج المقاطعات بحسب الاولية وهي تتولى توزيع رخص التصدير .

الحركات الوطنية

جاءت الاحزاب الاولى التي تألفت على شاكلة الاحزاب القائمة في البلد الام : كالحزب التقدمي السوداني ، والحزب الديموقراطي في شاطىء العاج الذي اصبح فيما بعد ، التجمع الديموقراطي الافريقي (R. D. A.) الذي لاقى نجاحاً عظيماً وحظي بأكبر تمثيل في المجلس الوطني وفي المجلس الاستشاري للجمهورية عام ١٩٤٦ و ١٩٤٧ . وجاء في

برنامجه الموضوع في تشرين الاول ١٩٤٦ على « تنظيم الجماهير الافريقية بقصد تحرير كل البلدان الافريقية وانقاذها من نير الاستعمار عن طريق إظهار شخصيتهـــا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والحضارية » . وكان يرفع عقيرته بالاحتجاج ضد مبادىء التمثيل الذي نص عليها دستور الاتحاد عام ١٩٤٦ . ويطالب « باتحـــاد يجري بحرية تامة قائم على المساواة في الحقوق والواجبات » .

وقد انتشر هذا الحزب في كل الاقطار والمقاطعات التي قطعت فيها عملية قتل الروح القبلية شوطاً بعيداً كالكونغو الاوسط والسودان، مدخلاً في صفوفه المتطورين كالكتاب والمستخدمين والموظفين الذين يؤلفون في صفوفهم بورجوازية صغيرة ويطمحون اساساً الى إلغـاء عدم المساواة في كل ما يتصل بالاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وبالفعل ، باستثنـــاء مدغشقر والتوغو حيث اخذت الحركة الوطنية إيويه تطالب باعادة تنظيم الوحدة بعد ان حطمها تقسيم البلاد ، وتنزع الى الاستقلال، نرى كل الاحزاب السياسية الوطنية تطالب قبل كل شيء بالمساواة التامة مع الاوروبيين ، وبنصيب اكبر في ادارة الشؤون العامة ، دون ان تذهب الى المطـــالبة بالانفصال حالاً .

ففي شاطىء الذهب عـام ١٩٤٩ وفي الكامرون ، وفي تشاد عام ١٩٥٢ ، قامت اضطرابات وحوادث تعبر عن القلق الاجتماعي وعن الدفع المادي للبيض، بينما مدغشقر قامت وحدها بثورة لاهبة . فالحركة الوطنية في هذه البلاد بقيادة الحركة الديموقراطية للبعث الملاغاشي التي نالت في انتخابات عام ١٩٤٦ مجموع الاعضاء في المجلس التمثيلي الوطني ، تطالب بإبقاء نظـام الحماية وتحويل مدغشقر الى دولة مشتركة في الاتحاد الفرنسي. والى جانب هذا الحزب ، هنالك لفيف جمعيات سرية تتمتع بنفوذ كبير لا سيما بين قبائل رتسيميارا كا على الساحل الشرقي من الجزيرة ، وهي من أهم المناطق في هذه البلاد تنتج البن بمقادير كبيرة حيث المعمرون من مواليد الاوروبيين يتكالبون على الربح ويتشددون كثيرا على اليد العاملة. هذه المقاطعة التي تؤلف فردوس التجار الصينيين، والتي تألمت كثيراً من مصادرات حكومة فيشي التعسفية وحكومة فرنسا الحرة خلال الحرب . ومن هذه المنطقة انفجرت الثورة وامتدت الفتنة في آذار ١٩٤٧ وتكونت اطرهـــا العسكرية مـــن مجندين مالقاشيين بعد تسريحهم من الجيش الفرنسي، ممـــا ادى الى قتل ١٥٠ اوروبياً . وقـــد جاءت حركة القمع عنيفة اتسمت بالوحشية ويقدر عدد الضحايا ، مباشرة او غير مباشرة من ١١٫٠٠٠ الى ٨٠٫٠٠٠ قتيل .

ان تمثل المستعمرات الانكليزية المجاورة وتطورها السريع نحو الاستقلال حمل المتطورين على المطالبة بالمزيد من السلطة والتوسع في صلاحيات المجالس المحليـــة ودوراً اكبر في ادارة البلاد ، وتوسعاً اكبر في التعليم الثانوي والعالي يؤهلهم لاستلام مراكز القيـادة . فاصطدموا بمطالبهم هذه ، او حاولوا المصانعة مع الزعماء الاشداء في الريف المسنودين من قبـل الادارة والذين زادوا نفوذاً وبأساً مع الاقـــتراع العام . كما جرى مثل هـــذا في فرنسا في القرن

التاسع عشر . اذ يمارسون نفوذاً عظيماً على الجماهير ودهماء الفلاحين المتسكعين في الجهل والامية . وبعد ان اتهم التجمع الديموقراطي الافريقي باقامة علاقات مشبوهة مع الشيوعيين ، تبنى سياسة معتدلة طمعاً منه في كسب عطف الادارة كما أخذ يتقارب من البرلمان مع فريق من نواب الوسط . والمؤتمر العام الذي عقده في بوبو ديولاسو ، عام ١٩٥٣ ، اقترح اقامة « جمهورية واحدة قابلة للتجزؤ » اي اقترح حلاً فيدرالياً . وعلى الاجمال ، فالاحزاب الافريقية على اختلافها تعارض كلها سياسة التمثيل التي لم تعد تفي بالغرض، في نظرهم ، كما تعارض فكرة الدولة الشريكة. فهي تطالب « بدولة مستقلة في قلب الجمهورية الفرنسية »وهو مطلب يرجو ان يتحقق دون ان يضطروا الى استعمال العنف .

وفي الحين ذاته ، اخذت الاحزاب تجمع صفوفها وتنصهر بعضها في بعض وترتدي اكثر فأكثر طابعاً افريقيا يختلف عن التشكيلات والهيئات السياسية في البلد الام التي حاكتها في بدء الامر . وهذا الاتجاه الواحد نحو « الأفرقة » برز في مجال الحركة النقابية اذ أن المنضمين الى عضويته .C.G.T شكلوا لهم اتحاداً عرف بـ C.G.T.A والاعضاء المنضمين الى الاتحاد العالمي C. F. T. C. الفوا الاتحاد الافريقي للعمال المؤمنين المنضم رأساً الى الاتحاد الدولي للنقابات المسيحية .

ايلاء الاستقلال

ان قرب حصول المستعمرات البريطانية في افريقيا الغربية على استقلالها، والخوف من استباق الحوادث في افريقيا السوداء كما استبقتهم حوادث الهند الصينية وافريقيا الشمالية، حملت البرلمان الفرنسي على سن قانون ــ ملاك (قانون دوفير في ٢٣ حزيران ١٩٥٦) تتخلى بموجبه عن سياسة التمثيل واولى صلاحيات واسعة للمجالس التشريعية المنتخبة في كل مقاطعة بحيث تتمتع بسلطة تشريعية ، وانشأ ادارات تنفيذية محلية (مجالس الحكام) تنتخب من قبل مجلس المقاطعة برئاسة الحاكم العام، العنصر الوحيد المأخوذ من خارج المنطقة . فكل المصالح الادارية ــ باستثناء القومي منها ــ سلمت لحكام وطنيين من ابناء البلاد جرى انتخابهم . والقانون ــ الملاك او الهيكل اقام نظاماً لامركزياً واسعاً واستقلالاً داخلياً يكاد يكون كاملاً ، الا انه اعتبر في نظر عدد كبير من الافريقيين نقطة بداية او نقطة انطلاق نحو تشكيل اتحاد المقاطعات، بشكل اتحادات فيدرالية افريقية مستقلة ستصبح فيما بعد دولاً تشترك مع الجمهورية الفرنسية في الاتحاد الفرنسي وتتقاسم ادارة المصالح المشتركة مع حكومة باريس . والفوز في الانتخاب الذي حققه التجمع الديموقراطي الافريقي (R. D. A.)في معظم المقاطعات الفرنسية والاحزاب الوطنية في مدغشقر والحزب المناهض لها(لجنة الاتحاد التوغولي)في التوغو في انتخابات نيسان ١٩٥٨ ،واستمرار الاضطرابات الدامية في مقاطعة سناغا البحرية في الكامرون ، تحت تأثير اتحاد الشعوب الكامرونية الذي يعمل في الخفاء ، ومعارضة فئة العمل القومي في الكامرون لهذا النظام ، كل ذلك جاء برهاناً على ان هذه الترتيبات لم تكن مرحلة نحو الاستقلال .

الاستقلال

تم قطع هذه المرحلة بأقل من سنتين. فبدلاً عن الاتحاد الفرنسي المعلن عام ١٩٤٦، قام عام ١٩٥٨، نظام الأسرة الـ *Communauté* الذي عاش أقل من سنة. فقد حدد دستور الجمهورية الخامسة اختصاص وصلاحيات كل المؤسسات والهيئات المشتركة التي ستنشأ عنها : الرئاسة والمجلس التنفيذي ومجلس الشيوخ والمجلس التحكيمي، واعترف للمقاطعات بحرية الانضمام الى هذه الأسرة او الانفصال عنها، وحرية الانتخاب بين وضع المحافظات او وضع المقاطعات او الدولة المستقلة اداريا . وهذه الوحدة، هل تتطور باتجاه تأليف اتحاد دول ذات سيادة كما يتمنى ذلك « انصار المطالبين بجامعة الدول الفرنسية » (سيدار سنغور) او نحو دولة فيدرالية فرنكو افريقية، كما يقترح هوفويه بواني ؟ فالحل الاول يفوز عندما اعترف باستقلال مالي وجمهورية مالاغاشي (كانون الاول ١٩٥٩) ثم استقلال المقاطعات الاخرى . أما التوغو والكامرون اللذان بقيا خارج الجامعة، فقد رفعت عنهما الامم المتحدة الوصاية التي كانا يعملان تحتهـــا، وذلك بطلب من فرنسا نفسها، وحققا استقلالها في كانون الثاني وفي نيسان ١٩٦٠ . وهذا الاتحاد لم يدم اكثر من سنة، ولم يعد بين مستعمرات فرنسا القديمـــة « سوى علاقات وفقاً لاتفاقات بين دول مستقلة » .

افريقيا الغربية البريطانية

سارت السياسة التي انتهجتها بريطانيا العظمى في افريقيا الغربية على طرفي نقيض مع السياسة التي تبناها واضعو الدستور الفرنسي عام ١٩٤٦، عندما خلقوا دولة اتحادية امتصاصية ممثلة بالاتحاد الفرنسي . كذلك تتعارض هذه السياسة مع السياسة التي سارت عليهـا كل من افريقيا الجنوبية وافريقيا الشرقية حيث توجـد فئات من المعمرين البيض استمكنوا في تلك المقاطعات ويغارون جـداً على سيادتهم وسيطرتهم على ابناء البلاد . فالسياسة التي تقوم على مساعدة الوطنيين هنا على التطور وفقاً لروح حضارتهم التقليدية طبقت دونما صعوبة . ففي افريقيا الغربية هذه التي بقيت شبه مغلقة في وجـه المعمرين الاوروبيين تكونت دول وطنية، شبه مستقلة هي اليـــوم اكثر دول افريقيا السوداء تطوراً سياسياً . فالشاطىء الذهبي هي اكثر هذه الدول تطوراً بملايين سكانها الاربعـــة، معظمهم من صغار المنتجين الكاكاو وبحياتها الاقتصادية على الطراز العصري الحديث، هـذا الاقتصاد الذي ينهض على انتاج الذهب والماس والبوكسيت ولا سيا الكوبرا والكاكاو (٢/٣ من قيمة صادراتها) . ونيجيريا التي كان تطورها اقل بروزاً وتجلياً، واقل سرعة هي اكثر اقطار افريقيا الغربية سكاناً اذ تضم ٥٥ مليوناً من الناس، وهي غنية بما فيها من مناجم القصدير والفحم ومن كبريات البلدان المصدرة للكوبرا ولزيت النخل والكاكاو . في كل مكان تعج اقطارها بطبقة كثيفة من الفلاحين الميسوري العيش، اذ ان مستوى العيش فيها هو اعلى مستوى في افريقيا، وطبقة متوسطة نشيطة ديناميرية . وقد اتاح الازدهار الاقتصادي الذي تنعم به ظهور طبقة من الاعيان الاثرياء لا سيا في المدن الساحلية ارتفعوا عالياً فوق بروليتاريا ترسف في البؤس والشقاء : تجار اغنياء وكبار الملاكين واطباء ورجال قانون تلقى عـدد كبير من بينهم تحصيـــله الجامعي في انكلترا او في

الولايات المتحدة الاميركية مستكتبين ، وموظفين في الادارات الحكومية او لدى الشركات الخاصة الكبيرة، بينما رُفّع عدد من كبار الموظفين الزنوج الى رتبة الشرف ونالوا لقب « Sir » ، وطبقة كبيرة من رجال الفكر والادب في البلاد ساعد ثراؤهم والبحبوحة التي ينعمون بها على تحرير البلاد بسرعة ،ويطالبون بمشاركتهم الحكومة والادارة. وفي المقابل يحاول زعماء القبائل في الداخل الذين ينهجون على التقاليد المتوارثة ، معظمهم على الاسلام ، وبينهم عدد من المسيحيين، الحفاظ على ما لهم من سلطة سياسية اوتوقراطية ، ودينية على الجماهير الريفية . وقد عرفت الحكومة البريطانية كيف تتلاعب ، حفاظاً على مصلحتها ، بهذا التفاوت وكيف تحرك هذه الفوارق العرقية والدينية ، مغذية بينها الشقاق والانقسامات تنشىء تارة النظم الادارية المتباينة ، وتقيم طوراً الزعماء التقليديين في وجه الطبقة المتطورة التي اعتنقت عن الغرب افكارها ونظرياتها التقدمية ، باعثة المناطق الداخلية ذات الحضارة الاسلامية حيث القوى الرجعية لا تزال قوية وتنعم بالنفوذ،على الوقوف في وجه المناطق الساحلية سكانها على الوثنية أو على المسيحية، وحيث يعم التعلم الابتدائي ٢٥٪ من الطلاب الذين هم في سن الدراسة وحيث تطلع القوى الفتية المشبعة بالافكار التحررية .

وأمام مهاجمة الطبقة المستنيرة ، جرى التخلي عن نظام الحكم غير المباشر وأقيمت في نيجيريا والشاطىء الذهبي وسيراليون ، بين ١٩٢٢ — ١٩٢٥ نظم ودساتير جديدة نصت على انتخاب مجالس تشريعية استشارية . ولم تلبث هذه المجالس ان شال فيها تدريجياً عدد الاعضاء من غير الموظفين على الموظفين الذين يتمتعون بعضويتها . تحققت هذه المرحلة في الشاطىء الذهبي وفي نيجيريا وغمبيا ، سنة ١٩٤٥ ، وفي السيراليون عام ١٩٤٨ ، غير ان الحكومة فيها ليست بعد مسؤولة وستتحمل كامل مسؤولياتها خلال الحرب . ان عودة الـ ٨٠٠٠٠ عسكري جرى تجنيدهم من ابناء الشاطىء الذهبي ، والـ ١٠٠٠٠٠ مجندين من نيجيريا ، اثار مشكلات سياسة واجتماعية شائكة ان عدم رضى المسرحين من الجيش البريطاني الذين لم يرجع عدد كبير منهم الى قرام ، وسوء سعر الكاكاو اثار في البلاد حركة هياج واضطراب لم تكن طبقة المتطورين وحدها مسؤولة عنها. ولأول مرة ، تجاوزت الحركة الشعبية صفوف طبقة المستنيرين هؤلاء ، ونشأت في البلاد احزاب سياسية واخذت تضخم صفوفها عن طريق الراديو والصحافة . وفي عام ١٩٤٧ ، ظهرت رابطة الشاطىء الذهبي المتحدة تولى اعمال السكرتيرية فيها الدكتور نكروما ، الذي انفصل عام ١٩٥٠ ، عن رفاقه واسس حزب اتحاد الشعب (C. C. P.) ، كان من ضمن برنامجه انشاء دومنيون جديد باسم غانا ، هذا الاسم الذي يثير فيهم امجاداً وطنية قديمة، وهو عبارة عن حزب شعبي اخذ على نفسه الا يحسب حساباً لاي معارضة ولاي اختلاف عرقي او عنصري ، قبلي او ديني ، هذه الاعراق التي لا تزال حية تنبض على أشدها في الشمال وفي مقاطعة الاشنتي.وفي نيجيريا قام الحزب الوطني في نيجيريا والكامرون (W. C. N. C.) بزعامة ازيكيوه ، الذي قام بحملة هوجاء ضد البريطانيين في الجرائد اليومية او الاسبوعية

الخمسة التي يقوم على اصدارها الوطنيون والتي قام بتأسيسها ، وحشد حـــوله الانصار حتى من مقاطعة الداهومي . وقامت في البلاد اضرابات وحركة مقاطعة البضائع الانكليزية في المخازن البريطانية ، كما قامت مظاهرات عنيفة ، والدعوة الى العصيان المدني ، ردت عليها الحكومـة باعلان حالة الطوارىء في البلاد وبمنع التجول وبحركة قمع دموية في اكرا عـــام ١٩٤٨ ، وفي مناجم اينوغو عام ١٩٤٩ ،وفي مدينة كانو عام ١٩٥٣ ، وبتعطيل الجرائد الوطنيـــة وتوقيف الزعماء الوطنيين . ومنذ ذلك الحين ، اخذت تتوالى مشاريع الدساتـــير ، فظهر في الشاطىء الذهبي دستور بُرنز (باسم حاكم المنطقة) عام ١٩٤٦ ، ومشروع دستور وضعته لجنة كوساي رفضه نكروما عام ١٩٥٠ واستبدله بمشروع دستور مضاد نص على الاستقلال التـــام . وفي نيجيريا طلع دستور رتشردس ، عام ١٩٤٦ ، ودستور ماك فرسون ، عـام ١٩٥٢ ، الا ان معارضة الولايات الاسلامية في الشمال التي تولتها الهواجس من احتمال وقوعها ضمن تقسيمات ادارية مسيحية ، ادت الى عقد مؤتمر في لندن ، عام ١٩٥٣ ، يضم ممثلين عن المناطق الكبرى الثلاث في البلاد، اتفقوا على اسس دستور فيدرالي عام ١٩٥٤ . وهكذا فمنذ عام ١٩٥٢ ، نال الشاطىء الذهبي برلمانه ، كما قام فيه رئيس وزراء ، تم انتخابه من قبل المجلس النيابي ، على الحاكم ان يستشيره لتعيين الوزراء الاحد عشر، بينهم ثلاثة(الدفاع والشؤون الخارجية والعدلية والمالية) هم بريطانيون . والوزراء مسؤولون امام البرلمان الذي يمكن ان يطلب من الحاكم العام عزلهم . فالادارة اخذت تتأفرق اكثر فاكثر (١٣٧٧ موظفاً كبيراً من الزنوج عام ١٩٥٦ لقاء ٣٠٠ ، عام ١٩٤٩ ، و٣١ عام ١٩٣٨) والموظفون البريطانيون يجب ان يخضعوا لرؤسائهم من الزنوج. وقد جرى تعديل للدستور، عام ١٩٥٤ ،ووسع من نطاق المجلس التشريعي الذي اصبح ينتخب بالاقتراع العام ، كما نص على ان جميع الوزراء يعينون من داخل المجلس المذكور . كان هـــذا النظام انتقالياً اذ غيرّ من طبيعة وضع المستعمرة الانكليزية الى وضع دومنيون. وفي سنة ١٩٥٦ وضع دستور جديد (هو الرابع في خلال عشر سنوات) ، هيأ البلاد للاستقلال واقام فيهـــا نظاماً يقوم على اللامركزية . وقد تم التطور في كل مكان بصورة منهجية ، و « جرت تقنيته على الطريقة الغربية » على يد بريطانيا العظمى ، وعاملة لجان عدة اشتركت في عضويتها شخصيات افريقية بارزة وموظفون عمليون هيأوا التوصيات والاقتراحات كما اشتركت فيها عناصر وطنية بعد استشارة السكان. وافرج عن نكروما وخرج من السجن رئيساً للوزارة بعد انتخابات عامة جاءت كلها في مصلحته .

ففي السيراليون وفي نيجيريا الاقـــل تطوراً من الشاطىء الذهبي ، تلتف الاحزاب حول شخصيات بارزة او تتألف من مجتمعات عرقية تساعد بما هيا عليه من انقسامات قبليـــة ودينية على المعارضة وتنميها ، بينما يفضل بعض الوطنيين البقـــاء تحت السيطرة الاوروبية ولا الوقوع تحت حكم مجتمعات زنجية يحتقرونها او يخشون شرها . الا ان النجاح الذي حققه حزب ازيكيويه في مقاطعة يوروبا في انتخابات ١٩٥٤ ، جاء دليلاً على ان الشعور الوطـني ينتشر في

البلاد على حساب التضامن العنصري وهكذا نالت نيجيريا استقلالها في تشرين الاول ١٩٦٠ . اما السيراليون وغمبيا ، فقد نالت كل منها عام ١٩٥١ و١٩٥٤ دستوراً سار بها نحو حكومة مسؤولة عام ١٩٦٢ و ١٩٦٥ .

انتهجت بريطانيا منذ عام ١٩٤٥ سياسة « تخلي خلاق » تقوم على « الرحيل في سبيل تأمين البقاء » . فالمؤسسات السياسية كادت كلها تأتي على الطابع الانكليزي ، فيا من زعيم مسؤول يطالب بترحيل الفنيين البريطانيين من البلاد او فصم العلاقات مع بريطانيا العظمى ، بينما تبقى الروابط الاقتصادية اقوى من اي وقت مضى . والاختبار يتجاوز بكثير حدود هذه المقاطعات، والدرس يطلع من الشاطىء الذهبي . فمنذ ايلول ١٩٥٤ ، لا يزال حكم هذه البلاد في يد اول وزارة تشكلت برمتها من افريقيين ظهرت في افريقيا الغربية . وفي اذار ١٩٥٧ عندما تحولت المسؤولية الى غانا المستقلة ، شقت هذه طريق الاستقلال الناجز امام كل الاقطار الواقعة في هذه الناحية من القارة .

افريقيتان وجهاً لوجه

افريقيا الاستعمارية

منذ عام ١٩٦٠ ، تتمتع كل افريقيا الغربية والوسطى باستقلالها التام ، بعد ان اصبحت دولة نيجيريا الفيدرالية الجمهورية السادسة في الكومونولث البريطاني . كذلك نالت المقاطعات البريطانية ، في افريقيا الشرقية استقلالها هي الاخرى : يوغندا عام ١٩٦٢ ثم كينيا وزنجبار التي اتحدت في نيسان ١٩٦٤ مع تنغانيكا لتؤلفا معاً تنزانيا ، ونياسلاند اصبحت ملاوي في تموز كما استقلت روديسيا الشمالية تحت اسم زامبيا .

ولكن الى الجنوب من خط وهمي يقطع افريقيا، من شمالي انغولا الى الجنوب من روديسيا الشمالية شطرين، تقوم آخر قلعة لسيطرة البيض تؤلف مع كاتنغا المجاورة لها منطقة من اغنى مناطق القارة الافريقية. وتسيطر شركات قوية على مناجم النحاس ومعادن ثمينة اخرى نادرة (الكوبالت والمنغنيز) وتستثمر مزدرعات لها من التبغ والشاي ، وتركزت فيها حركة اسكان من البيض كبيرة نسبياً (٠٠٠ ،٧٠٠ ، ٣) يعودون باصولهم الى منتصف القرن السابع عشر ، اقوام من اغنياء المزارعين ورجال الصناعة ، واعضاء المهن الحرة ولا سيا من صغار البيض (يشابهون كثيراً البيض في منطقة وهران وباب الواد او سكان الولايات المتحدة الجنوبية النابضة بالتعصب وبالاحتقار للملونين) ، هي المستعمرات البرتغالية وروديسيا الجنوبية واتحاد جنوبي افريقيا .

وفي القطر الاخير من هذه الاقطار تستفحل سياسة التمييز العنصري وتقسو فيها. ان سيطرة البيض على الزنوج ــ وبين البيض على الاخص، طائفة الافريكندر ــ التي تطبق الى اقصى حد، ما يترتب على سياسة التمييز العنصري من نتائج تقوم على هذه السياسة . هنالك ٢٦٤ ناحية او منطقة محفوظة منذ

عام ١٩١٣ ، يؤلف بمجموعها ١٧ ٪ من مساحة هذه البلاد ، يحتشد فيها ويعيش ضمنها ٤٠ ٪ من الزنوج بحيث يؤلفون فيها وحدات يسكنها الزنوج لا غير ويتولون ادارتها بانفسهم (على رأس كل واحدة مقيم ابيض) وتتمتع باستقلال اداري في المجالات المالية والعدلية والتربية والصحة العامة والاشغال . واولى هذه الوحدات *Bantoustans* قامت في منطقة ترانسكي التي يأهلها اقوام الخوزاس . وهذا التقسيم على الطريقة الاسرائيلية ليس سوى حل لا يفي بالغرض، لان هذه الوحدات المعزولة لا تشكل في حقيقة الامر ، سوى « ضواحٍ منامات » لهذه اليد العاملة الرخيصة ، وما الاستقلال الاداري الذي تتمتع به سوى تعِلّة او « نظام بوليسي » متأخر يذكرنا « بأوروبا الجديدة » في عهد النازية (*G. B. Békt*) وهكذا ، وبالرغم من قسوة حركة القمع التي يتعرضون لها ، فمقاومة الزنوج لم تضعف ولم تخبت . وهنا كما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالاندماج ، وقيام مجتمع متعدد العروق ، وسياسة عدم المقاومة التي دعا اليها زعماء بانتو اتّصفوا بالاعتدال ، مثل لوثولي ، (جائزة نوبل ١٩٦١) ، كل هذه التدابير والاجراءات لم تعد تعتبر كافية في نظر العديد من الملونين ، اذ تهب عليهم عنصرية او دعوة عرقية زنجية شبيهة بالروح التي جاش بها المسلمون الزنوج . فبعد ان صُدعت الاقلية البيضاء من نيل الاقطار المجاورة لها استقلالها الناجز، وبعد ان وقعت اسيرة الهلع الذي استحوذ عليها ، اخذت تتسلح بقوة وتساند طلاب الانفصال في كاتنغا ، كما راحت تساعد الحكومة البرتغالية على النجاح في قمع حركة التمرد التي يقوم بها رعاياها . وهي تحاول ان تضم اليها المحميات البريطانية الواقعة ضمن اراضيها (والتي تعمل انكلترا على اعدادها للاستقلال) فالبازوتولاند والبتشوانالاند ، نالا استقلالها الداخلي عام ١٩٦٥ ، وعملا على التحالف مع روديسيا الجنوبية التي تتشابه اوضاعها الداخلية مع اوضاعها .

وهذه المستعمرة المستقلة يسيطر عليها ١٥٧٠٠٠ من البيض يحتكرون فيها السلطة ويملكون نصف مساحة البلاد ، في وجه ٣ ملايين من الزنوج جرى كبتهم في هذه الاراضي المحفوظة التي تغص بالسكان الذين ذهبوا ضحية الفقر بعد ان دُهكت اراضيهم مما دهاها من التعري والانجراد. هنا كما في افريقيا الجنوبية يسود تفاوت عظيم في الاجور (اذ ينال العامل الزنجي ٦ جنيهات في الشهر في المدن الاحدى عشر الرئيسية في البلاد، بينما يُعطى العامل الابيض ٧٠ جنيهاً في الشهر). كذلك ان نظام جواز المرور والتمييز العنصري والفصل بين البيض والملونين خلق جواً من التوتر الشديد حال دون انفجاره واستحالته الى كارثة تدخل الحكومة البريطانية . فقد رفضت الحكومة البريطانية ـ امام صرخة الزنوج ـ ان تعطي هذه البلاد استقلالها ما لم تقطع لهم الضمانات التي يطالبون بها . وبالفعل فان اتحاد افريقيا الوسطى الذي تألف ، عام ١٩٥٣ ، من مقاطعتي روديسيا ومن النياسالاند لم يقو على الصمود امام الصعوبات الناجمة عن المشكلة العرقية . فقد انحل بعد عشر سنوات من تشكيله ، وروديسيا الجنوبية حيث الجبهة الروديسية ، هذا الحزب الابيض النشيط نال انتصاراً صارخاً في الانتخابات ، يشدد من التمييز العنصري ، وخرج عام ١٩٦٥ ، وهدد

بالانضمام الى اتحاد جنوبي افريقيا .

خفت في المستعمرات البرتغالية حرب العصابات التي يشنها الوطنيون من جراء المنافسات التي تفرق بين الفئات السياسية التي تغذيها (جيش تحرير انغولا ، حركة تحرير انغولا) ، وتحاول الحكومة البرتغالية قمعها بالشدة التي تسعر الخوف في القلوب : كتهديم القرى من الجو ، وتنفيذ عقوبة الموت بالجملة مما أجبر مئات الالوف من الاهلين على الجلاء واللجوء الى دولتي الكونغو المجاورتين .

كل افريقيا الجنوبية التي يرغمها الرعب والقسوة الوحشية على بقائها تحت وطأة سيطرة قبضة من البيض الحاكمين ، وهي اساليب احسن البوليس والجيش استعمالها ، تشهد طلوع كتلتين سيحملها الاهتياج والخوف على الالتحام في حروب عنصرية دامية لم يشهد لها العالم مثيلا حتى الآن .

الحياة السياسية لدى هذه الدول المستقلة

تميزت الحياة السياسية لدى دول افريقيا المستقلة بصراع عنيف بين الاحزاب التي جاء تنظيمها كما جاءت افكارها ونظرياتها مستوحاة الى حد بعيد من الاحزاب القائمة في الغرب ، مع انها ليست في الواقع سوى احزاب زعماء ألفوا ان يروا أنصارهم يطيعونهم طاعة عمياء ، سواء أكانوا عبيداً مشدودين الى الارض ، أو أتباعاً او احزاباً عنصرية أو اقليمية او دينية .

اعتادت هذه الاحزاب ان تنقسم الى ثورية والى محافظة مقيمة المتطورين وصغار الموظفين والبروليتاريا الناشئة في وجه الزعماء التقليديين وفي وجه بورجوازية الاعمال الجديدة . الا أن روابط التضامن العائلي ، وتقاليد الالتزامات تجاه الفئة وتجاه الذرية هي من المتانة بحيث لم يقم بعد بالمعنى الصحيح صراع طبقي في قلب الجماهير الافريقية ، باستثناء بعض حوادث محلية .

هذا الصراع صحبه احياناً حروب أهلية بالفعل ، منها مثلاً : ثورة اتحاد الجماهير الكاميرونية (*U. P. C.*) تألفت نواتها الكبرى على الغالب من اقوام الباميليكية فذهب زعيماها أم نيوبيه وفيلكس موميه قتلاً ؛ وتبرز في السودان فتنة السكان غير المسلمين في الجنوب ، وفي رواندا — اورندي حيث قامت ثورة الهوتو (٨٥ ٪ من السكان) ضد اسيادهم التوتسي (١٥ ٪) وأدت الى مذابح تقشعر لهولها الابدان ، وفي موريتانيا وفي النيجر . وقامت ثورات بيضاء لم تسفك فيها الدماء ، طردت من الحكم الاب فولبرت يولون في كونغو — برازافيل . وحاولوا القيام بواحدة منها في الغابون (حيث تدخل المظليون الفرنسيون واعادوا النظام باعادة الرئيس مبا) ، وفي تنغانيقا ، وفي كينيا وفي يوغندا حيث أدى تدخل وحدات من الجيش البريطاني الى قمع الفتنة التي قامت بها وحدات وطنية . ووقعت محاولات قتل ضد الدكتور نكروما في غانا ، وقتل الرئيس سلفانوس اولمبو في التوغو ، واخيراً « مؤامرة » فعلية أو وهمية أدت الى دعاوى كان من بعض نتائجها تصفية بعض المعارضين في السنغال (مامادو ضيا الذي حكم عليه) ، وفي النيجر وفي كونغو — برازافيل وغانا . وفي كانون الاول ١٩٦٥ ومطلع عام ١٩٦٦ ، حدث ثلاثة

انقلابات عسكرية – على غرار ما وقع في كونغو – ليوبولدفيل – انتقلت معها السلطة الى ايدي الجيش في جمهورية افريقيا الوسطى ، وفي الداهوماي وفي فولتا العليا. واخيراً وليس آخراً التوتر الذي وقع مؤخراً بين الرئيس ازيكيويه ورئيس وزرائه ، أي بين الشمال المسلم والساحل المسيحي الذي هدد الاتحاد الفيدرالي في نيجيريا بالانفجار : فأدت في كانون الثاني ١٩٦٦ ، الى استيلاء الجيش على الحكم بعد اضطرابات وحوادث دامية ومقتل رئيس الوزراء الاتحادي .

في سنة ١٩٦٥ ، كانت البلدان ذات اللغة الفرنسية حيث تبرز شخصيات سيدار سنغور وهوفويه – بوانيي ، وزمبيا مع كينيث كاوندا ، وتنزانيا مع يوليوس نيبري و كينيا مع جومو كينياتا ، وملاوي مع الدكتور بندا ، يمارسون سلطة استبدادية ذات نزعة معتدلة ومحافظة مع ميل ظاهر نحو الغرب. وقام في وجههم غانا والغينيه ومالي و كونغو – برازافيل التي انتهجت سياسة اشتراكية النزعة بالفعل وتنمي – مع فترات من الانقطاع او التحفظ ، علاقات وثيقة مع البلدان الشرقية ومع الصين . فغانا تأفرقت تماماً ، ونشأت فيها جمعيات مختلطة تتولى تنفيذ المشروعات الرئيسية او مصانع النسيج ، والكاكاو والخشب والالومنيوم . ان تأميم النقل والراديو ومخازن البيع بالفرادى وصناعة صقل الماس ، والشركات الاستخراجية الخمس من اصل السبع الموجودة فيها ، اضعفت من نشاط القطاع الخاص وتولت تعاونية خاصة بيع عدد من محاصيل البلاد ، تحت اشراف الدولة ، كالكاكاو ، كما انشىء عدد من التعاونيات الزراعية . الا ان دكتاتورية نكروما اصطدمت بمقاومات عدة جاءت من جهات مختلفة ، كما ان الازمة الاقتصادية التي انفجرت في غانا ، في تموز ١٩٦١ ، تسببت بقيام اضراب عام اعقبته حملة من الارهاب ، ومن الارهاب المضاد استمرت سنتين .

اما جمهورية الغينيه التي نالت استقلالها عام ١٩٥٩ بتصويتها السلبي في الاستفتاء الشعبي ، فقد تلقت مساعدات مالية وتقنية من الولايات المتحدة الاميركية ، ولا سيا من الاتحاد السوفياتي ، في اثر انسحاب الفنيين الفرنسيين المفاجىء . ولما كان الرئيس سيكوتوريه يعتمد قبل كل شيء على نفوذه القوي وعلى مساندة النقابات له ، فقد ازال من الوجود التقسيات الادارية القديمة النزاعة الى الفيدرالية ، فقد أمم وسائل النقل في البلاد والانتاج وتوزيع الطاقة والمصارف ومعامل النسيج باستثناء بعض شركات التعدين والشركات الصناعية المختلطة (كامتكا فريا وشركة بوكسيت بواكيه) .

كونغو – ليوبولدفيل

هو البلد الوحيد في افريقيا الذي لم يحقق استقلاله الا بعد حرب اهلية دامية . فالصراع الذي قام بين المتطورين المنضمين الى الحركة الكونغولية الوطنية (M.N.C.) التي يتزعمها باتريس لومومبا الذي كان يدعو الى انشاء دولة اتحادية ذات حكومة مركزية قوية ، وبين تحالف الجمعيات القبلية في كاتنغا بقيادة موييز تشومبي المعروف بنزعته الفيدرالية ، ادى الى انفصال كاتنغا وهو انفصال دام سنتين ونصف ، وبمساعدة الاتحاد المنجمي ، استطاع تشومبي ان يجند فرقة من المرتزقة من افريقيا الجنوبية وروديسيا ومن

أوروبا، وان يشتري معدات حربية وان يؤمن له في كل من اوروبا واميركا مؤازرة بعض العناصر المحافظة الانفصالية ، كما ان مكتب كاتنغا قام بتنظيم حملة دعائية واسعة النطاق في الولايات المتحدة جاعلة من تشومبي « اكبر زعيم مناهض للشيوعية ومن انصار الغرب في كل الكونغو » . الا ان تدخل « الخوذ الزرقا » التابعين للأمم المتحدة وضع في نهاية الامر حداً لهذا الانفصال .
غير ان الدسائس التي حاكتها الدول الغربية المتنافسة على المنطقة والنزعات الانفصالية ، سببت حالة من الفوضى والبلبلة زال معها لمدة سنة كل اثر او فعالية للحكومة المركزية (من ايلول ١٩٦٠ الى آب ١٩٦١) . وقد اعلنت ولاية كاساي نفسها دولة مستقلة كما اعلنت انفصالهــا كل من ولاية كيفا وكاتنغا الشمالية وكوبو ، كما ان انصار لومومبا تجمهروا في ستانليفيل بعد موت زعيمهم وانشأوا فيها جيشاً حاول عبثاً استعادة السلطة . ان تفاقم البطالة والبؤس ، وانحلال اقتصاديات البلاد ، والفساد الفاضح الذي تفشى بين الموظفين السياسيين والاداريين، زاد كثيراً من تدهور الحالة في البلاد ، ومن اشتداد الفوضى والبلبلة فيها . وعملت الشركات الكبرى التي تعرضت للخطر من جراء هذا الوضع، رفعت الى الحكم موبيز تشومبي بموافقة الولايات المتحدة وبلجيكا وبريطانيا العظمى. وقد حاول ان يجمع حوله جانباً من الوطنيين وان يعيد الى الوحدة الولايات التي اعلنت انفصالها عنهــا ، الا ان استمرار الاضطراب مكن الرئيس كاسافوبو من ابعاده عن السلطة ، واخيراً تمكن الجنرال موبوتو من فرض دكتاتورية عسكرية على البــلاد (تشرين الثاني ١٩٥٦) .

افريقيا المستقلة مبلقنة — تجاه فريق افريقيا الجنوبية القوية التسلح والتي يهيجها الخوف تنتصب افريقيا المستقلة والمجزأة الى ٢٥ دولة تم تحريرهــا على اشكال مختلفة بينما جاء تطورها الداخلي على وتيرة واحدة تقريباً (انظر الفصل السابق) .

ولم تلبث ان برزت اخطار هذه البلقنة : كتعارض المصالح بين البلدان الغنية التي تتوفر فيها الموارد الطبيعية (كالأوكومه والمنغنيز في الغابون ، والبن والكاكاو في شاطىء العاج) ، وبين البلدان الفقيرة (النيجر) ، والمنافسات بين رؤساء الدول والمطالب الجغرافية بين الواحــدة والاخرى نتيجة لهذا الاقتطاع العشري الذي قامت به الدول المستعمرة نفسها ، وصعوبة تأمين التوازن ووسائل العيش لبلدان صغيرة المساحة او قليلة السكان المتخلفين جــداً مما يعرضها باستمرار التخلف الاقتصادي ، او يشجع على دس الدسائس وحبك الاحابيل من الخــارج والمحاولات العديدة بإعادة الاستعمار ولو بصورة غير مباشرة . شعر الافريقيون بهذه الاخطار وتحسسوا ما تحمله من تهديد . وحاولوا ان يتفادوها وان يتغلبوا على هــذه النزعـات والمطالب الخاصة ولو بشكل او بطريقة تفتقر الى الانسجام احياناً ، اما بالتأكيد على شخصية زنجيــة افريقية تعيد الى عزها لغة البلاد وحضارتها حتى والعادات التقليدية، واما عن طريق افراغ الدول الجديدة في وحدات اوسع رقعة .

الزنجية

واخذوا يلوحون بوجه المستعمرين « بالزنجية » اي بما للحضارة الافريقيــة الاساسية من إصالة . واول من قال بالزنجية هو ايميه سيزير ، الذي يعود اصله الى جزيرة المرتنيك ، وسار في اثره فريق من المفكرين ردد صدى مقالتهم « الحضور الافريقي» الناطق بلسانهم . فالمطلوب هو رفض وعدم الاخذ بالتمثل الفكري الذي خنق الشخصيــة الزنجية ، واعادة المباهاة الى افريقيا ، بماضيها الاثيل ، في اثر الدروس والابحاث التي قام بهـــا الاب بلاسيه تمبلز (فلسفة البانتو)، ومرسيل غريول والاب الكسي كيغان الذين ابرزوا للعيان إصالة الفكر الزنجي وما له من قيمة عالية ، وشرح العــادات والاعراف والمؤسسات القبليــة وتركيبتها، وتمجيد الابطال الافريقيين والامبراطوريات الافريقية الغابرة(غانا ومالي وامبراطورية سنهراي ، ومملكة الكونغو وموتوموتابا) ، واحياء هــذه الحضارة الافريقية الاصيلة وذلـــك بتقييم التقاليد والفولكلور الشعبي والاساطير والقصص الشعبية .

الا ان تعدد اللهجات حد للاسف من انتشار الآثار الفكرية في لغة من هذه اللغــات . ومن جهة اخرى فالافريقيون المثقفون والذين باستطاعتهم ان يكتبوا ويؤلفوا تلقوا تعليمهم كاملاً او القسم الرئيسي منه باللغة الفرنسية او باللغة الانكليزية بحيث – وهذا من المفارقات المضحكة – ان هذا الادب الذي يشيد بالزنجية في وجه الاستعـمار الغربي ، يستعمـل لغة المستعمرين ، باستثناء بعض الابحاث التي ظهرت باللسان البازوتي او البانتو او الخونسا ، ومع ذلك بقي اثر من وحي افريقي حقيقي صميم ، كما يشهد على ذلك الادب الشعري لليوبولدسيدر سنغور الداعية الى ادماج الزنجية ضمن القيم الحضارية الكبرى ، عن «طريق تقييم الثقافة الغربية تقييماً زنجياً »، وعن طريق « مختارات جديدة الشعر الزنجي والملاغاشي » ، التي كان لها وقــع الوحي عندمـا صدرت عام ١٩٤٨ .

محاولات التجميع والافراغ

فشلت حتى الان كل المحاولات التي بذلت في سبيـل تجميع اقليمي ، وهي محاولات تتصل بالحلم الذي راود الافريقيين بقيام جامعة افريقية تضم الزنوج ، ولا سيما الدكتور دوبوا وماركوس غارفي اللذين اخذا يعمـلان على تحقيقه ويسعيان الى الدعاوة له ونشره في اعقاب الحرب العــالمية الاولى ، بعد ان راح جورج بادمور الذي يعود باصله الى جزيرة الثالوث (ترينتي) احد جزر البحر الكارايبي ، يركز على مبادئها فكان اكبر داعية لها ومن انشطهم نفوذاً وحماسة . الا ان القانون – الملاك المعروف بقانون دي فير (١٩٥٦) والذي توسع نطاقه عند صدور دستور ١٩٥٨ ، حطم بالفعل هذه التشكيلات الكبرى التي قامت في افريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية بتجاهله لها واحلّ محلها حكومات مستقلة في هذه المستعمرات ، وبذلك قوّى المطالب الانفصالية ومحاولات التوحيد المحلية التي بذلت فيما بعد كانت بمثابة محاولات رمزية قامت بنت ساعتها : كالاتحـاد الغينيه وغانا (١٩٥٨) ، والتحالف مالي (١٩٥٩) الذي اقتصر على السودان وعلى السنغال وصار امره الى الانحلال عام ١٩٦٠ ، والتحاد ساحل – بنين الذي اصبح مجلس الاتفـــاق (الشاطىء الذهبي

داهومي ـ نيجر وفولتا العليا) وهو عبارة عن مجلس استشاري وتعاوني تسيطر عليه شخصية هوفوئه ـ بوانيي البارزة، واتحاد جمهوريات افريقيا الوسطى (التي رفض القابون الانضمام اليها)، الذي لم يكن سوى اتحاد وجركي ، له هيئات او مصالح مشاركة النقل ومعهد علمي للابحاث الخاصة بالمعادن ، وهي مشروعات ولدت ميتة كمشروع الولايات المتحدة لافريقيا اللاتينية الذي وضعه الاب يوغاندا ، ومشروع الولايات المتحدة لافريقيا الوسطى الذي وضعه هو الاخر ، الاب يولو ، واتحاد بفين دابيثي ، ومشروع صوماليا الكبرى (التي بعد ان تألفت من المقاطعات البريطانية والايطالية السابقتين ، اخذت تتطالب بساحل الصومال الفرنسي وبجزء من اراضي اثيوبيا) .

وفي عام ١٩٦١ ، ألفت المستعمرات الفرنسية القديمة الاتحاد الافريقي وملاغاشي الذي لم يلعب سوى دور محدود، وتحول عام ١٩٦٣ الى الاتحاد الافريقي للالاغاشي للتعاون الاقتصادي (U. M. O. E.) مقصراً نشاطه على هذا المجال . وفي شباط ١٩٦٥ انضم اليه كونغو ليو بولدفيل وروواندا وبذلك بلغ عدد الدول التي تألف منها الاتحاد ١٤ دولة فرنسية اللغة تشكل منها جميعاً المنظمة المشتركة الافريقية والملاغاشية .

أما بشأن المقاطعات البريطانية في افريقيا الشرقية ، فاتحاد افريقيا الوسطى الذي تألف عام ١٩٥٣ من اتحاد مقاطعتي روديسيا ومن نياسا ، فقد انحل عام ١٩٦٣ ، ليحل محله دولة مالاوي (نياسا سابقاً) وجمهورية زمبيا (روديسيا الشمالية سابقاً) بينما بقيت روديسيا الجنوبية مقاطعة بريطانية تنعم باستقلالها الداخلي . فمع تنزانيا التي تشكلت من انضمام تنغانيكا ومن زنجيبار ، نجد ، ما بين اثيوبيا وبين روديسيا الجنوبية ، مجموعة من البلدان التي اتحدت عام ١٩٦٣ تحت اسم *PAFMECA* (اي حركة تجمع جميع اقطار افريقيا الشرقية والوسطى) الذي اصبح ، عام ١٩٦٣ *PAFMECSA* اي حركة لجمع اقطار افريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية) التي اندمجت بدورها في منظمة الوحدة الافريقية التي انشئت في ايار من عام ١٩٦٣ في اديس أبابا بقصد تحرير افريقيا الجنوبية .

وفي خط مواز لهذا التجمع الاقليمي الذي قامت ضمنه هذه الدول، قامت مجار اخرى هدفت الى توحيدها جميعاً في اتحاد واحد . وهكذا طلعت علينا فئة الدار البيضاء التي ضمت عام ١٩٦١ : غانا ومالي والغينيه والمغرب ، والجمهورية العربية المتحدة وممثلي اتحاد (*M. P. R. A.*) اي اتحاد الدول ذات النزعة التقدمية المسايرة للجامعة العربية والوموميا ، والفئة المضادة التي تكونت في مونروفيا وضمت ٢١ دولة من دول افريقيا السوداء المعروفة بنزعتها المعتدلة المحافظة . كلا الفئتين كانت متفقتين، من حيث المبدأ ، بحيث تتجاوز ، الحركة المناهضة للاستعمار الواقعي الاستعماري، وتحافظ على ما حققته من تحرير للدول الافريقية، لتوجيهها وفقاً للتقاليد السالفة . وفي كانون الثاني ، تشكلت فئة اخرى اجتمعت في لاغوس وضمت كل فئة مونروفيا ، وتنغانيقا والكونغو ليو بولدفيل . الا ان نشاط الحركة الوطنية الصغيرة بقي قوياً (حدوث عدة فتن

ادت الى طرد الرعايا التوغوبيين والداهوميين من الشاطىء الذهبي) والى الاشتباكات الداميـة بين الرعايا الفاموتيين والكونغوبين، كما ان بعض الدول الافريقية لم تخف نواياها التوسعية وخططها بضم بعض مقاطعات الدول المجاورة لها ، ومحاولة للوقوف في وجه هذه المحاولات نادت معاهدة اديس ابابا بمبدأ المحافظة على استقلال الدول واحترام اراضيها، قد يكون هذا ضمانة السلام وقد يكون تكريساً لواقع بلقنة الدول الافريقية الذي اصارها الى العجز تماماً كما حـــدث في مؤتمر بناما ، عام ١٨٢٦ ، مع دول اميركا اللاتينية . وقد يكون هـــذا ايضاً نقطة انطلاق ليقظة افريقية صحيحة : اذ ان ظهور منظمة الاتحـاد الافريقي ، في هـــذا الوقت بالذات لتتولى فض المنازعات التي تنشب بين الدول الافريقية ، انما يكون الى حد بعيـد « تصريح مونرو افريقي » من شأنه ان يبعد عن القارة كل نفوذ اجنبي .

الفصل السادس

إلغاء الاستعمار والاستعمار الجديد

« ادركت الدول الاكثر وعياً التصنيع انه من الافضل لها ان تتخلى للدول التي « تدعي الاستقلال » عن مسؤولية مصيرها ، على ان تحتفظ بالنفوذ والسيطرة بالوسائل التي تضمن لها ذلك »

ر. هارون

(من كتابه : التاريخ وتفسيراته ، ص ١٥٣)

يحصل الغاء الاستعمار عندما تأخذ البلدان المتخلفة صناعياً تسهم بجهمة ونشاط ، بالحركة الصناعية في العالم ، وذلك باستعمالها التقنيات لحسابها الخاص وبوسائلها الخاصة »

فرنسوا بيرو

(اقتصاد الدول الفتية)

إلغــــاء الاستعمار

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية توالت التنازلات السياسية والتدابير المتخذة لتحسين اوضاع الشعوب المستعمرة ، بتوالي الخسف والفشل الذي حل بالدول المستعمرة ، وكلما شعرت هـذه الدول بعدم قدرتها ، بعد الآن ، على تحمل الاعباء الثقيلة ، حربية كانت ام مالية ، التي تسببها لها سيطرتها المباشرة بالطرق التقليدية التي سارت عليهــا ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، كلما شعرت بطغيان الافكار والنظريات التحررية التي جاشت بهـا الدول الـتي ترسف تحت نـير الاستعمار . فاذا ما اجلنـا النظر طالعتنا « معركة انسحاب » تظهر بوضوح مـع تغيير الالفاظ والمصطلحات بعد ان سقط شيئاً فشيئاً من الاستعمال : كلمة « امبراطورية » وكلمة « مستعمرة» لتحل محلها كلمة « مقاطعة » ، وكلمـة « كومونولث » وكلمة « رابطـــة » . فالامبراطورية البرتغالية الاستعمارية اصبحت بعد الآن : « الولايات الواقعة عـبر البحار » في دستور البرتغال

الذي صدر عام ١٩٥١ . ومن وسائل التعمية التي استخدموها فيما بعـد ، الاستعانة بكلمة : « الترابط » الى ان الغيت نهائياً ما اصطلحوا عليه من اوضاع استعمارية ، وحل محلها دساتير تكرس الاستقلال الناجز ، بينما تصبح كلمة « عون » و « مساعدة » مرادفاً لكلمة « تعاون ».

السياسة الاستعمارية الجديدة

وهكذا فالدول الكبرى التي قامت سيطرتها منذ عام ١٩٤٥ ، على استثمارها المقاطعات التابعة لها وراء البحار ، كما كانت تستثمر ، كشبه مستعمرات لها ، دول اوروبا الوسطى ودول اوروبا الشرقية ، اضطرت للتخلي نهائياً عن الاساليب والوسائل العملية التي مارست بها وصايتها. وقد حاولت ، في هذا كله ، ان تتخذ لها يداً من الوطنيين المحافظين وان كانوا تعاونوا مع اليابانيين ، امثال او اونغ سان في بورما ، وروكساس وكيرينو في الفيليبين ، وباو داي في فييتنام ، وداتو اون في ماليزيا ، حتى في حال ممارستهم لنظام دكتاتوري يتنافى اصلاً مع القيم التي يدعي الغرب الدفاع عنها : امثال سنغمان ري في كوريا الجنوبية ، وتشان كاي شيك في فورموزا ، ونغو دن ديم في فييتنام الجنوبية ، والمارشال ايوب خان في الباكستان . وبريطانيا العظمى على الاخص ، عندما قامت بانسحابها السلمي و « وقتته في اللحظة الاخيرة » نجحت في نقل السلطة لحكومات ضمت شخصيات شتى من تجار او ارباب اعمال وطنيين . وعرفت فرنسا متأخرة ان تعدل من سياستها تحت تأثير الدرس البليغ الذي لقنته اياه الحوادث الدامية في الهند الصينية وفي الجزائر ، وان تعرض بصورة طوعية الاستقلال الكامل على افريقيا السوداء ، مع العلم ان البلاد الواطية ، وربما بلجيكا اخفقتا ، على ما يظهر في سياسة الغائها الاستعمار .

فتحالف هذه الدول المستعمرة مع البورجوازية الوطنية اينما قامت ، ومع كبـار الملاكين العقاريين او مع زعماء القبائل او الزعماء الدينيين في اماكن اخرى ، وبالتخلي لهم عن السلطة السياسية وعن جانب من ارباحها في المجال الاقتصادي ، استطاعت الحـد من نتائج الغائها الاستعمار . فوسائل العون والمساعدة التي قدمتها للدول الجديدة قبـل ان تصل الى الاستقلال الناجز ، تثبت الى حد بعيد كيف حاول النظام الاستعماري ان يواصل عمله متستراً باشكال اسلم. « فالروح الاستعمارية » لم تعد تجسر على الظهور بوجهها السافر . فهي تواصل البقاء والاستمرار تحت ستار شفاف من التعاون والتحرر التدريجي » (فرنسوا بيرو) . فقبل عام ١٩٦٠ وهي السنة التي توالت فيهـا حوادث الاستقلال ، راحت النقطة الرابعـة ، ومشروع كولمبو ، والمعاهدات الثنائية تمهد السبيل لمـا اصطلحوا على تسميته « بالاستعمار الجديد » الذي تؤلف الفيليبين ، خير مثال له .

النقطة الرابعة ومساعدة الدول المتخلفة

كان من البؤس الشديد الذي تتـخبط فيـه الجماهير السادرة في الجهل والجهالة والمرضة لسوء التغذية وللوحل واليأس القتال ان يجعل هذه الجماهير هدفاً للدعاوة الشيوعية . وفي سبيل درأ هذا الخطر عن الجماهير وفي سبيل مساعدتها على تأمين وضع اقتصادي سليم ومعادلة تعادل مدفوعاتها،

وتأمين الاسواق اللازمة للولايات المتحدة وما تحتاج اليه صناعتها الآخذة بالتوسع ، من الخامات ، ولاستثمار رؤوس اموالها في الخارج ، تم عام ١٩٤٩ وضع اول برنامج شامل لمساعدة الدول المتخلفة في عهد الرئيس ترومان .صحيح ان المساعدة الفنية التي تمتعت بها دول اخرى ، لم تكن حادثاً جديداً : فقد سبق للرئيس ف. د. روزفلت ان قرر مثل هذه المساعدة لدول اميركا اللاتينية على نطاق واسع ، لا سيما خلال الحرب العالمية الثانية . اما الرئيس ترومان فقد اراد التوسع في هذه الخطة بحيث تصبح خطة شاملة تتسع الى جميع اطراف العالم.فطالما لا يتوفر الدول المتخلفة العدد الكافي من الاختصاصيين في بلادها فسيصير تزويدها بالتقنيين تقدمه البلدان المتقدمة تقنياً . فعلى الدول المعنية ان تطلب هؤلاء الاختصاصيين من الامم المتحدة او من الولايات المتحدة الاميركية .

وفي هذا السبيل انشأت الامم المتحدة ، منذ عام ١٩٥٩ ، مكتباً خاصاً يعرف بمكتب المساعدة الفنية (وانفذت ١٧٥٧ خبيراً من خبرائها وزعتهم على ٦٣ بلداً) ، كما وزعت بمعرفة الحكومات المعنية ، منحاً دراسية للتخصص على مستحقيها بحيث يتاح لهم اكتساب المهارات التقنية اللازمة . الا ان نشاطهم لم يكن ليتعدى هذا الحد لافتقارها إلى الاعتمادات المالية اذ لم تكن لتحول الا على مساهمة الدول الاعضاء في المنظمة . اما مجلس الكونغرس الاميركي الذي لم يكن متحمساً جداً للمشروع ، فقد أدمج الاعتمادات المخصصة النقطة الرابعة كمساعدات للدول المتخلفة، ضمن برنامج الامن المتبادل الذي عمل من ضمن نشاط وكالة الامن المتبادل الذي يختلف في روحه ومجال العمل المخصص له كثيراً عن الهدف الاول الموضوع له . وهكذا فالاعتبارات الستراتيجية تغلبت في نهاية الامر على الاعتبارات التي كانت دعت الرئيس ترومان، عام ١٩٤٩ ، الى وضع هذا المشروع . والعون الاقتصادي والتقني الاميركي « الذي قام على تفهم صحيح للمصلحة الاميركية وللمثالية الاميركية » (كما يقول فرنسوا بيرو) والذي اقتصر في نهاية الامر على مبالغ ضعيفة نسبياً ، لم يكن امامه حظ بالنجاح وبالموافقة عليه الا بقدر ما يستجيب لاعتبارات الأمن ، و « لما يسمح به من تطور اقتصادي يرتبط الى حد بعيد بالموجبات التي تقتضيها محاربة الشيوعية » . (جاك ماليه) . وبعد حرب كوريا ، عام ١٩٥١ ، فالاتفاقات الثنائية حول المساعدة الفنية لم تعقد الا مع الدول التي كانت ترضى بالتعهد بمساعدة عسكرية في حال نشوب حرب. فالاعتمادات التي قدمها، عام ١٩٥٢، بنك التصدير والاستيراد، اشترط في تقديمها للدول المعنية، على ان تطور الخامات التي تتطلبهاالستراتيجية الاميركية والدفاع عن سلامتها . اما القسم الخاص بافريقيا من مشروعات العون المالي ، فالاعتمادات الاميركية ذهبت ليس الى الاقطار التي يشكو سكانها من العوز ، بل الى هذه الاقطار الغنية بالمعادن الستراتيجية ، كالنحاس في روديسيا والكونغو البلجيكي ، والمنغنيز في الشاطىء الذهبي، والماس والكوبالت في افريقيا الوسطى .

مشروع كولمبو

لم تكن افريقيا بالبلد المتخلف الوحيد في العالم . فقد ضمت آسيا جماهير لا تحصى من السكان الذين يشكون النقص في التغذية ، وسوء الكساء ويعيشون في البؤس والشقاء في اراض ممساكة جدباء ، لا صناعات ثقيلة فيها ولا فنيين ولا اموال . هذا هو الوضع الذي رسف فيه ٨٠ ٪ من سكان العالم المتخلفين . وهكذا فما كادت تهل سنة ١٩٤٧ ، حتى عمدت منظمة الامم المتحدة الى تأليف لجنة اقتصادية تعنى بشؤون آسيا والشرق الاقصى الاقتصادية ، نوعاً من وزارة اقتصادية تعنى بشؤون المنطقة تأخذ على نفسها درس وضعها الاقتصادي ، وتتقدم بالاقتراحات التي تؤول الى تحسين اوضاع تلك البلدان الغذائية عن طريق تطوير الانتاج الزراعي واخذ تدريجياً بأسباب التصنيع ، ويقوم في قلب هذه الرقعة التي تمتد من الهند الى كوريا منطقة تنتج المطاط والقصدير والتنغستين والنفط والكوبرا حيث تؤلف ماليزيا دعامة من دعائم النظام الدفاعي لانكلترا في هذه الناحية ، والدفاع عن الليرة السترلينية ولها اهمية عظيمة من الوجهتين الستراتيجية والسياسية .

وفي هذه المنطقة بالذات يتم الاتصال بين الشرق الادنى واوستراليا وافريقيا ، من جهة، وبين الشرق الاقصى من جهة أخرى . ومن هذه النقطة ينطلق الطريق الكبير الذي يؤدي من بورما الى الصين الجنوبية الغربية . فقد كانت المنطقة ، فيما مضى، منطقة نفوذ بريطاني حيث احتفظت المملكة المتحدة لها بدومنيونات ومستعملات في ماليزيا لم تكن قط على استعداد التخلي عنها . وبعد سنة تماماً من وضع اميركا لمشروع النقطة الرابعة ، قامت بريطانيا تضع من جهتها ، رداً عليه مشروعاً « تعاونياً » يرمي الى تطوير بلدان آسيا الجنوبية من الوجهة الاقتصادية ، وهو الذي عرف فيما بعد بمشروع كولمبو . في هذا الوقت كان الصينيون بزعامة ماو تسي - تونغ قد بسطوا سيطرتهم على جميع اطراف الصين فتجاوبت اقطار آسيا الجنوبية الشرقية دوي هذا النصر المبين الذي ارتجت له الجماهير الآسيوية . ولكي تحول بريطانيا دون اتجاه الشعوب الآسيوية الى الشيوعية بعد هذا الانتصار الكاسح الذي حققته ، كان لا بد من رفع مستوى العيش لدى ٥٧٠ مليون من السكان يعمرون هذه المنطقة الواسعة . والخطة التي وضعت لست سنوات كانت بمثابة برنامج مفصل لتطوير اقتصاديات كل من هذه البلدان التي تفيد مبدئياً من هذا المشروع ، وهي في الاساس من البلدان الداخلة في مجموعة الدول البريطانية . ولكن لما كانت مساهمة الولايات المتحدة في هذا المشروع ضرورية ، جرى توسيع المشروع ، منذ عام ١٩٥٢ ، وتمثلت كل من الولايات المتحدة وبورما والنيبال والفيتنام وكمبوديا وسيام في اللجنة الاستشارية، كما دخلها مراقبون من اندونيسيا وتايلاند والفيليبين . واللجنة التي تألفت اصلاً من سبعة اعضاء يمثلون دول الكومونولث البريطاني جرى توسيعها بحيث ضمت ممثلين عن تسع بلدان اخرى وهكذا اصبحت لجنة دولية تحت اشراف اميركا ، فالمشروع الاول استبدل بمخطط عامة وضعتها الولايات المتحدة الاميركية ، تشمل جميع بلدان جنوبي آسيا التي يجب العمل على تطويرها ، لا سيا تشجيع انتاج الخامات والمواد الاولية التي هي بحاجة اليها .

مؤتمر باندونغ

وهذا الضغط الذي تعرضت له هذه البلدان مباشرة او غير مباشرة يفسّر لنا التحفظ الذي استقبلت معه الدول المتخلفة هذه المساعدة المعروضة عليها، واثارت فيها الشكوك حول الاهداف السياسية والعسكرية الكامنة وراء امدها الطويل ، وتبدت لها من خلالها محاولة التدخل بشؤونها الداخلية واستثمار سكانها ، كما رأوا في هذا المشروع محاولة الحد من مسعاها للاخذ باسباب التصنيع الضخم .

وكلما اتضحت للسكان اكثر فاكثر الظروف الوضعية التي تحيط باستقلالها ، فقد رفض الاهلون ان يكونوا دوماً مسخرين للدول الكبرى البيضاء . وهذا الوعي الكامل لما فيهم من قوى وطاقات وامكانات هو الميزة البارزة والاهمية البالغة التي اتصف بها المؤتمر الافرواسيوي الذي عقد في باندونغ في نيسان ١٩٥٥ ، اولى المؤتمرات الدولية في تاريخ الحضارة البشرية التي عقدتها الشعوب الملونة .

وهذا المؤتمر الدولي الذي لم توجه لاي دولة بيضاء دعوة لحضوره اشترك باعماله مندوبون عن ٢٩ دولة اسيوية وافريقية سكانها يبلغون نصف سكان الكرة الارضية والتي لم يكن معظمها ، من نحو عشر سنوات سوى مقاطعات مستعمرة او شبه مستعمرة من قبل الدول الاوروبية ، حضر هذا المؤتمر ممثلو ست دول افريقية مستقلة هي مصر والسودان واثيوبيا والشاطىء الذهبي وليبيريا وليبيا ، وقد شدد المؤتمرون بنوع خاص على التضامن وعلى ضرورة الاتحاد بين آسيا الجديدة وافريقيا الجديدة ، كما عبر سوكارنو عالياً عن امانيهم الصادقة لشعوب المغرب وتونس والجزائر عندما هتف قائلاً : « كيف لنا ان ندّعي ان الاستعمار لفظ انفاسه طالما ان اقطاراً واسعة في آسيا وافريقيا لم يتم تحريرها بعد ولم تنل استقلالها »؟ وعندما راح نهرو يؤكد « ان آسيا تؤكد رغبتها بمد يد المساعدة لافريقيا » .

مع ان هذا المؤتمر ضم ممثلين عن دول ترتبط بعضها بروابط وثيقة مع الاتحاد السوفياتي كما تشد البعض الاخر وشائج وثيقة مع الاتحاد السوفياتي ، فقد شجب اعضاء المؤتمر بالاجماع الاستعمار والعنصرية والسياسيات الداعية الى التفرقة والتمييز العنصري .

« فقنا ولا نزال بعضنا يذوق المهانة والذل والضعة التي اقصرونا عليها في عقر ديارنا، وكيف أذلونا بصورة منهجية ووضعونا في ظروف محطة ليس سياسية واقتصادية وعسكرية فحسب بل ايضاً عنصرية . واشركوا في هذه الوصمة دونما تمييز او تفريق : الغني والفقير ، والامير والصعلوك والسيد والمسود ، والرئيس والمرؤوس والعامل ورب العمل ، والفلاح والبروليتاري ، والعالم والجاهل . ولتعزيز سيطرته وشد شكيمته والتشديد من قبضته اصبح من الامور المسلم بها لدى الابيض في الغرب ان تفوقه يكمن في نبوغه وعبقرياته وفي لون بشرته . وهذه الأولية ، جعلت في المجتمعات المستعمرة ، اكثر الناس حمقاً وأخسهم فكراً اسمى واعلى من اي نابغة او من اي عبقري لدى الشعوب المستذلة في مجالات العلم والثقافة والصناعة » (كارلو . ب . رومولو) .

فقد اكد المؤتمر المساواة بين العناصر الانسانية والعروق البشرية ، وان الناس الى اي

عرق انتسبوا ، ومن اي لون كانوا ، عليهم الواجبات الاساسية والاحتياجات المماثلة ، لا سيما في كل ما يتصل بالطمأنينة الاقتصادية والاجتماعية . وقد عبر كذلك عن المبادىء الاساسية التي تقتضيها كل سياسة استقلالية في المجال الاقتصادي لتضع حداً لسيطرة الجنس الابيض : كالتعاون الاقتصادي بين الدول الآسيوية والافريقية في كل ما يتصل بالمساعدة الفنية والمالية والتشجيع على انشاء صناعات وطنية ، وتحويل الخامات والمواد الاولية التي كانت تصدر حتى الآن الى الخارج بأسعار تحددها الاسواق الغربية ، وانشاء مصارف وطنية ووضع حد لاحتكار النقل الذي تتحكم به الدول البحرية في الغرب .

جاء التئام المؤتمر ، في المجال الدولي ، عقب اتفاقات جنيف والتهديد بتوسيع الحرب في الوقت الذي راح فيه مؤتمر مانيلا يضع مشروع ميثاق دول الشرق الاقصى الذي جاء رجع صدى للميثاق الاطلسي، وهو المعروف بالسيتو ، وانشاء منظمة الدفاع التي يشار اليها بالاحرف *O T H S E* . واكد المؤتمرون رفض الدول الآسيوية والافريقية وعدم التسليم بجرها الى الحرب من قبل احد المعسكرين المتنافسين الكبيرين في العالم ، وهو موقف حياد ايجابي هام جداً في هذا الوضع السياسي العام ، واهم من ذلك تأكيده على انتهاج سياسة مستقلة من الآن فصاعداً ، لدى الدول الآسيوية والافريقية التي حز في نفسها كثيراً تصرف الدول بها في هذه المؤتمرات الدولية التي لم تكن ممثلة فيها او لا يحق لها التعبير فيها عن رغباتها .

كانت شعوبنا خلال اجيال متطاولة لا يسمع لها صوت في العالم... كنا كمية مهملة ليس من يكترث لها او يؤبه بها ، وكانت مصائرنا تبت بها دول غريبة عنا وتقرر امورنا وفقاً لمقتضيات مصالحها التي هي فوق كل مصلحة ، وتطرح بنا الى الفقر والمهانة والذل (سوكارنو) .

كل هذه المبادىء جرى توضيحها وابرازها بشكل اقوى وأروع ايضاً في المؤتمرات التالية التي عُقدت في القاهرة في كانون الاول ١٩٥٧ - وكانون الثاني ١٩٥٨ ، او في كوناكري في نيسان ١٩٦٠ (هذا المؤتمر الذي تمثل فيه ليس فقط مندوبو الدول الافرو - آسيوية بل ايضاً ممثلون عن الاحزاب السياسية او التيارات الفكرية البارزة في هذه الاقطار ، كما أكدت عليها المؤتمرات الافريقية الصرفة المعقودة تباعاً في تونس واكرا واديس ابابا ، عام ١٩٦٠) الا ان المصاعب ، ولا سيما الاقتصادية منها ، التي قامت في وجه هذه الدول ، ابرزت مشكلات اخرى مهمة ، فخلقت معارضات واثارت منافسات لم تكن مؤاتية لروح باندونغ ، كما سنرى فيما بعد .

التطور العام الذي اخذت بأسبابه الدول الجديدة

في كل مكان ، سواءاً في آسيا ام في افريقيا، جاء التطور الذي اخذت به هذه الحكومات الجديدة واحداً تقريباً، فالسير وحده ومدى خطاه اختلف سرعة او حدة باختلاف تقاليد هذه

البلاد والظروف التي أحاقت بها . فقد تألفت الدول الجديدة ، على العموم حتى التي تم استقلالها عن الدولة المسيطرة بالعنف ، ضمن الحدود التي كانت لها ، وهي حدود مقتطعة حيناً ومصطنعة احياناً ، وفي نطاق القطر المستمر فقد احتفظت الدولة الجديدة بما كان لها من أطر وملاكات ادارية ومؤسسات قضائية قائمة في عهد الاستعمار ، وقد اختارت لها على العموم نظاماً ديموقراطياً يشبه من قريب نظام البلد الأم . ثم ان الهيئة الادارية التي تسلمت مقاليد الحكم والادارة كانت على الاجمال من قدامى الموظفين في العهد الاستعماري او منتخبين ، بين اطباء واساتذة ورجال قانون وصحفيين كلهم تلقوا العلم في معاهد اوروبا ، وكلهم نُشئوا تنشئة غربية لبعضها مسحة نصرانية وتأثروا الى حد بعيد بالافكار والنظريات ونمط الحياة لدى الاوروبيين . الا انه بعد مضي عدد قليل من السنين واحياناً من الاشهر ، رأينا هذه الأطر والآراء والمؤسسات تزول او يدخل عليها تعديلات جذرية ، فحل محل بعضها احيانا نظم جديدة مغايرة لها بالكلية كدكتاتورية عسكرية او نظام رئاسي استبدادي ، ونظام ديموقراطي موجه ، ذو حزب واحد بعد تصفية كل معارضة .

فقد اتضح بسرعة ان المؤسسات الليبرالية الغربية التي احتفظوا بها او قلدوها بعد ان خضعت لتطور طويل في القرن التاسع عشر ، بالنسبة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة اصلاً عما ساد في آسيا وافريقيا ، كانت اعجز من ان تحمل معها للدول الجديدة حلاً لما تعاني من مشكلات تعترض سيرها .

مشكلة الدمج والانصهار

وهذه النخبة المختارة من هؤلاء المفكرين المستغربين التي استأثرت بالسلطة وجدت نفسها فجأة امام جماهير ريفية كان من السهل إثارتها في وجه السيطرة الاجنبية وجدت نفسها مع ذلك عائشة في وسط عالم مادي وادبي ليس فيه ما يربطها بالدولة الحديثة . ولما كانت تجهل كل شيء عن ضرورة التماسك الوطني ، وترتبط بنظام اجتماعي تقليدي ولا تزال بعد اقطاعية قريبة من اوضاع اوروبا في الاجيال الوسطى : علاقة رب العمل بالزبون « والشيء الذي له اهميته عندها هو الوضع وليس العقد ، والعرف وليس القانون » ، هذه الجماهير شدتها روابط وثيقة ضمن إطار القرية المحدود او القبيلة او العرق ، انما تجهل جهلاً مطبقاً كل ما لا يتصل بالفئة ، او تنظر الى الجار نظرتها الى العدو . هذه الجماعات غير المندمجة ، التي تتألف من مجتمعات محلية متجاورة ، ينقصها الحد الادنى من وحدة لا بد منها لتأليف أمة وعليها ان تؤلف مواطنين لتبلغ هذا الحد . وهذا النقص الجذري في الوحدة الداخلية الذي لا يظهر بوضوح في هذه الدول الآسيوية ذات الماضي المحترم ، يبرز بشكل اوضح في افريقيا . ومع ذلك هنالك بلدان مثل الهند وبورما والهند الصينية كانت تعاني من هذه العلل وكان عليها ان تتغلب ، هي الاخرى ، على صعاب من هذا اللون .

فعلى الدول الجديدة ان تحارب ، الى هذا ، القوى التي تهدد هذه الوحدة السريعة العطب : كالاقليات العنصرية والفئات القبلية ؛ وكان عليها ان تخوض غمار حروب قاسية لقمع ثورات

وحركات تمرد قامت بها اقوام الكارنز والشان والاركانيز في بورما ، وتكبت المحاولات التي قامت لتأسيس جمهوريات مستقلة في جزر المولوسك وفي جزيرة امبوان . ومثل هذا الصراع يقوم في افريقيا حيث وحدة نيجيريا مهددة بمعارضة يوروبا (في الغرب)، والايبو (في الشرق) والهاوسا في الشمال ، وفي كاساي في العراك القائم بين اللوبا واللولوا ، وفي رواندا بين الهوتو واسيادهم التوتسي حيث ذهب الوف القتلى . وتعدد اللهجات واللغات هو عامل من عوامل التفرقة : هنالك اكثر من ٦٠٠ لهجة زنجية في افريقيا تتقاسم سكان هذه القارة ، و ٧٠ لهجة في الفيليبين و٣٠ لغة في اندونيسيا ، و ٦٠ لغة في الهند ، و ٢٥ لهجة صغرى دارجة بين ٥٠٠ ٠٠٠ من السكان ، والكل يعرف جيداً العنف الذي تميزت به مقاومة التامول في غرة ١٩٦٥ ، في جنوب الهند ، ضد سيطرة « اللغة الهندية » .

كذلك علينا ان نحسب حساب الديانات المتنافسة المفرّقة : بين السوسو المسيحيين والاقوام الاسلامية في الفوطا دجالون في الغينيه ، والدوغون في الشمال والفولبيس في مالي والمسلمين والهندستانيين في شبه القارة الهندية ، والكاثوليك والبوذيين في جنوبي الفيتنام والبوذيين البورميين والكارنز المسيحيين، وغيرهم . وبعض الشعوب تعاني القسمة الى عدة اجزاء وفروع عبر الحدود والتخوم المصطنعة : فالاشانتي موزعون بين غانا وشاطىء العاج، والنانغز بين الكامرون والغينيه الاسبانية والغابون ، والايوه بين غانا والتوغو . ومعارضة الائمة والرهبان البوذيين والبراهما الذين كثيراً ما وقفوا ضد الاصلاحات، وقد اتخذت منها الارستوقراطية المحلية في آسيا اداةً لتوطيد نفوذها وكذلك الزعماء التقليديون في افريقيا السوداء ، ولا سيما في هذه المقاطعات التي استخدمت كل الوسائل لديها للاحتفاظ بسلطتها ونفوذها .

عجز الاعتمادات التي قدمها الغرب

ان عدم تكافؤ المؤسسات والظروف وعدم مطابقتها للاوضاع، زاده حرجاً عدم كفاءة موظفي الادارة . فباستثناء بعض الممتلكات البريطانية ، حيث كانت السلطات المستعمرة قد اخذت تختار من ابناء البلاد ، ليس صغار الموظفين فحسب ، بل ايضاً ملاك موظفي الطبقة الوسطى والعليا ايضاً ، كما جرى في الهند وسيلان وباكستان ، فقد جرى استبدال موظفي الاستعمار فجأة بموظفين جدد لم تتوفر لهم الكفاءة والقدوة والقدرة على تحمل التبعات والمسؤوليات ، وبسياسيين تم اختيارهم من قبل جماهير جاهلة أمية لا تفقه احياناً معنى للاقتراع وللأصوات التي يعطونها . ولم يلبث ان قامت في البلاد طبقة من محترفي السياسة، همهم في الدرجة الاولى ان يفيدوا الى أقصى حد من الوظائف الموكولة اليهم ، ويقومون بالابتزاز والاعتصار والإفساد . وتعدد الموظفين يجب رده اساساً الى المركز والهيبة التي توليها الوظيفة الحكومية لصاحبها وفقاً لما خبروه في عهد الاستعمار . كما ان بعض القطاعات كالقطاع الاقتصادي مثلاً يقوم بنشاطاته ويحتكر الوظائف فيها موظفون من الاقليات الاجنبية : من عرب وصينيين وماليزيين ولبنانيين واوروبيين من اصحاب الاختصاص او من اصحاب رؤوس الاموال . فالوظيفة والسياسة هما المسلكان الوحيدان

المفتوحة ابوابها النخبة في هذه البلدان الآخذة بالنمو والرقي. فالوظيفة هي «صناعتهم الكبرى».
ويشير ر. دومون الى ان في البلدان التي تتكلم الفرنسية في افريقيا الغربية اكثر من ١٥٠ وزيراً ، وبضع مئات من وكلاء الوزارات ، وبضعة آلاف من الاعضاء البرلمانية يتقاضون مرتبات اعلى من المرتبات المقطوعة لاعضاء البرلمان البريطاني . فالغابون الذي لا يتجاوز عدد سكانه الـ ٤٥٠٠٠٠ ، يعد ٦٥ نائباً ، اي نائب لكل ٦٠٠٠ . فليس بغريب قط والحالة هذه ، ان تستهلك مرتبات الموظفين ، القسم الاكبر من واردات الخزينة (٦٠٪ مثلا) و ٥٦٪ (في السنغال) . ان بلداً سكانه ٧٥٠٠٠٠ نسمة كالكونغو برازافيل وميزانيته العامـــة هي اقل بكثير من موازنة مخزن كبير من المخازن الكبرى في باريس ، فيـــه محكمة استئناف ، ومجلس شورى الدولة ، ووزارات وله سفراؤه ومندوبوه في الامم المتحدة . والتكاليف العسكرية فيه عالية جداً بحيث تهدد بتغذية روح الفتح . ومهما يكن فهي تحـــول الاعتمادات والموظفين عن النشاطات المنتجة .

بين هذه « النفقات التمثيلية » تأتي النفقات الخاصة بقصر الرئاسة في ابيدجان الذي دخل في بنائه ٢٥٠٠ طن من المرمر المستورد من ايطاليا بالطائرة (٩ مليارات فرنك) مقطوعتـــه الكهربائية (بين تنوير وتبريد وتهوية ونقل) تزيد على استهلاك مدينة فرنسية سكانها ٢٥٠٠٠ من الطاقة الكهربائية .

وجدت هذه الدول نفسها تنعم بجهاز اداري يتجاوز كثيراً طاقة دخلهـــا القومي ويسبب تبذيراً يدعو للشك والريبة في النفقات العامـــة . ثم ان هـــذه البورجوازية الادارية تؤلف من اعضائها طبقة ممتازة ، او ارستوقراطية جديدة غنية تقتطع من القطاع المنتـــج ، منافع بشرية ومالية كبيرة . فهي تتناول مرتبات عالية شبيهة بهذه التعويضات التي كان يتناولها كبـــار الموظفين في العهد الاستعماري ، ويعمل فيها عدد من الخبراء الاميركيين والاوروبيين لهم داراتهم وحشمهم وسياراتهم وسائقوها وكلها على حساب ميزانية الدولة . وهي ادارة كثيراً ما تكون فاسدة مختلـــة يسعى الكثيرون بين افرادها للوظيفة ذات المرتبات العالية : في البوليس والجمرك والاشغال العامة او الدفاع الوطني . ويستشهد شيفرني بالجيش في لاوس الذي تدفع له الولايات المتحدة مرتباته ، واكتشفوا ان المبلغ النهائي كان يضاف اليه « سهوا » ٤٠٪ من قيمته . ثم ان سرعة تقلبات الوزارات وعدم استقرار الوظائف كثيراً ما حدا بأفراد هذه الطبقـــة الموجهة على السلوك مسلك « مهاجرين محتملين» فينهكون التوازن المالي السريع العطب في بلادهم وذلك بتحويلهم مدخراتهم الى المصارف الاجنبيـــة بحيث يكونون بمأمن اذا ما قلب لهم القـــدر ظهر المجن .

الروح القومية

يقوم صراع عنيف بين الاحزاب القائمة في البلاد والتي لا مناهج لها على الغالب تسير عليها وليست في الحقيقـــة سوى سوق للمنافسة بين زعمائهـــا . فالنشاطات التي تنفقها هباء منثوراً ، والفساد الذي يحول دون اي اصلاح يحاولون القيام به ،

وعجز السلطة عن تنظيم الانتاج او على انتهاج سياسة لا تأخذ بالوجوه ، كل هـذه الامور أدت الى نبذ المؤسسات الليبرالية وحرية تشكيل معارضة وتعدد الاحزاب ، باعتبارها اموراً كالية زائدة لا طائل تحتها وكابحاً خطراً. ففي سبيل تكوين طبقات شعبية وبعث روح القومية بينها، وفي سبيل تطويعها وبعث روح النظام والانتظام فيها وتعويدها على البذل وروح التضحية التي يقتضيها تطبيق المشروعات العامة ، وفي سبيل تأمين التوازن بين المصالح والفصل في المشكلات القائمة ، وفي سبيل تحويل هذا التركيب الاجتماعي الذي لا يساعد كثيراً على التطوير الاقتصادي وعلى تأمين النظام السياسي في البلاد ، لا بـد من قيام سلطة قوية لا تستطيع ان تحظى بتأييد الجماهير الشعبية الا باعتمادها مثالية عليا تهدف الى تحقيقها ، قد تكون الروح القومية في آسيا او المثالية الزنجيـة او الافريقانية في افريقيا ، التي تساعد على ايجـاد السبيل الذي يؤدي الى « الاشتراكية الافريقية » والى « الديموقراطية الآسيوية » الحقة . كل هذا مزيج من الايمان بالتقاليد التي سادت العصر الذهبي السابق للاستعمار ، ومن المطالبة بحق السير حالاً في طريق التطور ، وبالشعور بالحرمان والتحدي الذي يبعثه مظهر الدول المتطورة والارادة الصريحة بالتمييز بين العصرنة التي تهضم الاقتباسات التي وقع عليها الاختيار، والاستغراب الذي يكوّن اساساً ، شكلاً جديداً من اشكال التغير .

الانظمة الجديدة

وهكذا نرى كيف ان البلدان التي استقلت جديداً عـام ١٩٥٠ نبذت جانباً مبادىء الحرية والنظام البرلماني : اما فجأة بعد انقلاب عسكري مفاجىء ، واما مداورة بعد ان ادخلت على نظامها الاصلي تعديلات حاولت معها التوفيق بين مؤسساتها وبين الواقع ، كما حدث مثلاً في الكونغو برازافيل حيث توالى على البلاد ١١ دستوراً جديداً بين تشرين الثاني ١٩٥٨ وكانون الاول ١٩٥٩ . ومن مميزات هذا التغيير هو عدم الالماع بشيء ما الى الديموقراطية في هذا التصريح الطويل المؤلف من ٣٣٠٠ كلمة الذي انتهت به مداولات مؤتمر باندونغ في نيسان ١٩٥٥ ! واخذت تبرز اكثر فاكثر ، طبقة جديدة من القادة الوطنيين تتمثل بالاحسن في هؤلاء العسكريين الذين يأخذون على انفسهم محاربة الفساد وتدريب الامة ضد التفتت والانحلال ، وهم على الغالب خصوم الاقطاع واعداء الارستوقراطية ، كما نرى في اميركا اللاتينية مثلاً ، وفي بلدان الشرق الادنى ، ويحاولون النهوض بالشؤون الاقتصادية وتطويرها ، الا انهم مناهضون للديموقراطيـة في الصميم ، وقلمـا يكونون بنائين حقيقيين . واهتمامهم في « الدفاع عن النظام » كثيراً ما حملهم على كبح حركة النمو في الوقت الذي يحمّلون ميزانيـة الدولة مطـالب ترزح الدولة تحت ثقلها . فقد كانت آسيا ودول الشرق الاوسط حتى الآن خير مثال على الانقلابات العسكرية . ففي عام ١٩٥٨ وحده حدث انقلاب عسكري وحّـد بين سوريا والجمهورية العربية المتحـدة ، واوصل الى السيطرة اللواء قاسم في العراق ، والمارشال ايوب خان في الباكستان ، واللواء عبود في السودان ، والجنرال نه وين في بورما ، والغاء النظام التمثيلي في تايلاند على يد المارشال ساريت . ففي عام ١٩٦٥ كانت الوزارة التي

شكلها الرئيس عبد الناصر تضم بين اعضائها عشرة عسكريين من اصل ١٢ عضواً ، كما ان وزراء الاقتصاد والشؤون الاجتماعية الثمانية في حكومة بورما التي اكتمل تأليفها في اواخر سنة ١٩٦٤ ، كانوا كلهم عسكريين .

وعندما لا تتحول هذه الثورات او الانقلابات العسكرية الى حكم دكتاتوري، فهي تؤول على الغالب ، الى نظام جديد لا يتميز كثيراً ولا يختلف عن هـذه النظم التي قامت في بلدان اخرى بصورة شرعية ، قد يكون نظاماً رئاسياً على شاكلة الكمالية في تركيا او على غرار الديغولية التي عرفت بمهارة كلية ، ان تمازج بين انفصال السلطات وتعاونها ، و لترغم مجلس النواب على الوقوف موقف القبول والنصح ،(كما يقول بوشمان) يعهد معهـا الى السلطة التنفيذية بسلطات استثنائية (وتعطى على الاخص سلطة مطلقة لحل المجلس) كما تلغى مسؤولية الوزارة امـام المجلس النيابي . وهذه الشخصانية التي تعطى للسلطة والتي تعيد الى الظهور الصورة الغريبة المألوفة لرئيس الحزب ، هي ظاهرة عامة تستكمل وجودها بالحزب الواحد. وهذا الحزب الذي يصدر عن ايديولوجيا وطنية يحتكر لنفسه ، تمثيل الجماهير ، ومهمته الاولى الكبرى هي تحقيق افراغ عناصر الامة في بوتقة واحـدة . فهي تراقب معاً السلطة التنفيذية ومجموع السكان ، بفضل انشاء خلايا او مربعات يعهد اليها ايصال كلمة السر والتأكد من الامتثال لها ، ومد الناشبين بلاكات على كل المستويات ، وتأمين مراقبة الرأي العام . ورئيس الحزب الواحد الذي يمثل السلطة ، قد يطلع احياناً من بين الأطر التقليدية : كزعماء قبليين على شاكلة هوفويه بوانيي ، وبوغندا ، وآوولوه ، او من سلالة ملكية ، على شاكلة سيكو توريه او الامير سيهانوك ، والامير سوفانا فوما في اللاووس .

ان تركيز السلطة كلها بيد الحزب الواحد يفضي الى التضييق ان لم نقل الى الغـاء الحريات العامة كما يفضي الى الغاء الضمانات الدستورية : فالصحافة تراقب او يجري كمها ، تتكاثر حوادث التوقيف الاحترازي والسجن الكيفي ، و « الكشف عن المؤامرات » . وبفضل قانون الطوارىء الذي يعطي البوليس سلطات واسعة تجري تصفية المعارضة بصورة عنيفة ، بالغـاء زعمائها او بامتصاصها ، او بوضعها في حالة ترى نفسها معها عاجزة تماماً عن العمل بالطرق الشرعية بفضل التلاعب بالنظام الانتخابي ، لا سيما عن طريق العمل بنظام الأكثرية ، على اساس لائحة وطنية موحدة او عن طريق الضغط الاداري .

مشكلة الاستقلال الاقتصادي

روابط التبعية

استطاعت الدول الاستعمارية ان تؤمن حضورها في البلاد ، ليس فقط سياسياً وادارياً ، بل ايضا ولا سيما ، اقتصادياً . فمن جهة وسائل النقل : كالخطوط الحديدية والطرقات والمرافىء ، وتوجيه التيارات والتيارات التجارية التي تم

تنظيمها في الماضي وفقاً للاعتبارات التي تمليها السياسة الستراتيجية والاقتصادية التي يضعها المستعمر لم يكن من الممكن تغييرها بالسرعة المطلوبة ، كما ان البلدان الواقعة تحت الاستعمار تقوم في وجهها صعوبات وعراقيل كثيرة تقف حجر عثرة في سبيل تطورها نحو نظام اقتصادي مستقل ، بعد ان تكون عدة « مصارف اختناق » تشل نموها : كندرة رؤوس الاموال البلدية ، وعدم توفر الاخصائيين واليد العاملة الموصوفة وبالتالي اضطرارها الى الاستدانة بشروط ثقيلة والتزامات سياسية خطيرة ، والتعاقد مع موظفين اجانب لا يمكن استدناؤهم او اجتذابهم الا بأجور مغرية وبتعويضات ضخمة الأمر الذي يبعث الرغبة في الموظفين والاختصاصيين الوطنيين على المطالبة برفع مرتباتهم لتتعدل وتستقيم كما يزيد في كلفة إعداد الأطر والملاكات اللازمة لادارة البلاد في المستقبل : والتعليم الثانوي في نيجيريا يكلف ثلاثين مرة دخل الفرد في جميع البلاد (مرتين في الولايات المتحدة الاميركية) والتعليم الجامعي من ثلاثة الى خمسة اضعاف كلفته في اوروبا .

ومن جهة اخرى ان التقسيم الدولي للعمل (من مخلفات العهد الاستعماري) وارتباط المستعمرات القديمة بالظروف المتحكمة يجعلها في وضع غير ملائم : فهي تنتج محصولاً او بعض المحاصيل الخام اسعارها عرضة للتقلب تميل باستمرار الى الهبوط . والحال ان معظم هذه الغلال والمحاصيل تتنافس بعضها البعض واسعارها ترتبط الى حد كبير بالدول الصناعية الكبرى التي تختار من بينها ما يتفق ومصلحتها بينما تزودها هذه الدول بالعتاد والاجهزة التي لا غنى لهذه الدول الجديدة عنها. «فهي ترى نفسها مشدودة واكثر ارتباطاً بأسواقها من ارتباط هذه الاسواق بمناطق تموينها » . فالكامرون الذي صدر عام ١٩٥٩ ، نحو ٥٣٠٠٠ طن من الكاكاو بقيمة ٨٫١٠٠ مليون فرنك بفرنك المستعمرات ، لم يصدر من هذا الصنف ، عام ١٩٦٠ سوى ١٠٪ زيادة عن تلك القيمة ، اي ٥٩٠٠٠ طن لم تعد تعطي سوى ٧٫١٠٠ مليون فرنك . والحال ان هبوطاً يلحق احد المحاصيل المعدة للتصدير ، يكفي لالغاء المساعدة الممنوحة ، سنة او عدة سنوات .

ويحدث بصورة عامة شيء من الهبوط او النزول في شروط المبادلة على حساب البلدان المصدّرة للانتاج الزراعي والمستوردة للمواد الصناعية . وسبب ذلك هو ان هذه المحاصيل الاساسية تخضع لمراقبة شركات الاحتكار والتكتلات الدولية التي تشبه الى حد بعيد ، كما يقول فرنسوا بيرو « دولاً استعمارية فعلية » (كالاونيلفر في افريقيا وشركة الاثمار المتحدة في اميركا الوسطى ، وألوكام في الكامرون ، والشركات البترولية في الشرق الاوسط مثلاً) . وهذه الوحدات الكبرى التي تشترك فيها دول عديدة مركزها الرئيسي في احدى الدول الصناعية الكبرى ، باستطاعتها ان تسيطر على استثمارات مهمة جداً في البلدان التي كانت من قبل مستعمرات لها ، انما ترفض رفضاً باتاً ادماجها في الاقتصاد القومي ، فهي تربط كل ما لها من نشاط بالسياسة العامة التي تتبعها في هذه البلدان ، دون ان يكون لها اي علاقة او ارتباط

بالاقتصاد المحلي ، فهي تراقب الانتاج وتتحكم به ، وتدخل مع الدول الاخرى في منافسات دون اي اكتراث منها لنمو هذه الاقطار او لمصالحها الخاصة ، كما انها قلما تعود تستثمر الريع الذي تربحه في البلد الذي يقع فيه الاستثمار .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ان تبقى هذه البلدان ، باستثناء البعض بينها مما حالفها الحظ ، كغانا مثلاً والغينيه ومالي وبورما التي استطاعت ان تتخطى مراحل التخلف الاقتصادي ، تتسكع في ذات الاوضاع التي كانت لها في عهد الاستعمار وان يتولى مقاليد الادارة فيها الاشخاص ذاتهم في العهد الاستعماري ، « فالاستقلال الشرعي قد لا يكون سوى تعمية تختفي وراءه قبضة المستعمر الاقتصادية » ، كما يؤكد رنيه جاندارم ، « فالدولة المستعمرة القديمة لا تزال ماثلة حاضرة بشكل محسوس » ، كما يرى زيغلر . فالتيارات التجارية تبقى على اتجاهها نحو البلد الام ، سواء في تونس والمغرب او مالي والغينيه نفسها التي نشرت ، اذ ان ٧٤ بالمائة من صادراتها عام ١٩٦٠ تقع في منطقة الفرنك . فما عسى ان تكون موريتانيا مثلاً وما عسى ان يكون مصيرها لولا استثمار شركة ميفورما لمناجم الحديد الواقعة في حصن غورو ؟ الم يثبت رنيه جاندرام ان « الاقتصاد القائم على النقل » لا يزال قائماً دونما تغيير تقريباً ، في جمهورية مالاغاش حيث الشركات نفسها تؤمن تصدير المحاصيل الاستوائية وتستورد الحاجيات المصنوعة وحيث الشركات الثلاث الكبرى : المساجيري مارتيم والهافريز والسكنديناڤيان ايست افريقان لاين عقدت فيما بينها اتفاقاً احتكرت بموجبه العلاقات التجارية بين هذه الجزيرة الكبيرة وبين فرنسا ، وحيث الشركات الكهربائية الضخمة ، تفرض « ليس تعرفة منفّرة فحسب ، بل انها توصلت الى فرض تعرفة تصاعدية » ، معرّضة بذلك للفشل الذريع ، كل محاولة للتصنيع .

ينجم عن ذلك اخضاع البلاد لعبودية او لتابعية لا خلاص منها الا بواسطة التصنيع . فإلى عدم توفر رؤوس الاموال ورجال الاختصاص والتقنيين يجب ان نضيف منافسة البضائع الاوروبية او الاميركية ، وضيق السوق الداخلية الناجم عن تجزّؤ البلاد الامر الذي يجعل بحكم المستحيل استثمار أي مشروع رابح .

الى هذه الشوائب او النواقص ، يجب ان نضيف كذلك قطاعاً ثالثاً آخذاً بالازدياد والاستفحال يتعذر معه كل انتاج ، شبكة من الاجور والمرتبات التي تصدع الخاطر بما فيها من تفاوت ، ونفقات السيادة والادارة الباهظة والتي لا تحل فيها الاعتمادات المخصصة للتجهيز الا محلاً زهيداً مع انها باستطاعتها وحدها تأمين رفع الدخل القومي .

الاستعمار الجديد

هذه الروابط التي تشد هذه البلدان الى الدول الصناعية تخلق علاقات تبعية وترابط تنتج عن هذا التفاوت العظيم بين التشكيلات الاقتصادية في هذه الدول والبلدان التي نالت استقلالها حديثاً . فهي تجعل غير ذي جدوى التدخل المسلح كما كان يجري في الماضي ، الا عند الضرورة القصوى ، كالحالات التي وقعت في الغابون وافريقيا الشرقية وكونغو ليوبولدفيل ، عام ١٩٦٤ ، و ١٩٦٥ . ومهما تكن وسائل التعمية المستعملة

لتغطيتها ، او الاحتياطات المتخذة لتجنبهـــا فهي تليح للدول الصناعية الكبرى ، ان تحافظ اقله جزئياً ، على مواقعها الممتازة وان تقويها حتى انها تحقق امتيازات جديدة .

فالاستثمارات الخاصة غير كافية وتبقى فائدتها محدودة ، إذ ان همها الاول تأمين الارباح بأسرع ما يمكن وإخراج هذه الارباح خارج البلاد ، ولذا سيطرت على الاستثمارات التي تقوم بها الدولة . وهـذه الاستثمارات ترزح ، على الغالب ، تحت شروط صعبة مستترة . فالاتفاقات الاقتصادية الثنائية، سواء أكانت لتثبيت سعر النقد او امتيازات جمركية، او اعتمادات التصدير او تعاوناً مالياً تخفي وراءها دوماً مقابلاً ما . وكذلك قل عن الهبات والسلفات التي تعطاها الدول الجديدة ، اذ يترتب عليها ان تقابل هذه الهبات بتنازلات تمكنهـا من تشديد مراقبتها لاقتصاديات البلاد والتحكم بها : كامتيازات جمركية وضرائبية ، والتعهد بتخصيص هذه الهبات والقروض لشراء حاجياتها من البلد الدائن والتعهد بعدم اللجوء الى التأميم او المصادرة، واطلاق الحرية امام تصدير رؤوس الاموال والارباح الى الخارج (وهي وسيلة اخرى من وسائل الضغط الدائم على النقد) ، وفرض نظام اولوية على الاستثمارات (وبذلك تستطيع الحد او الحؤول دون إنشاء صناعة متوازنة في البلاد) . وهـــذا « الاستعمار الجديد للدولار » تستعمله اليوم وتلجأ اليه كل الدول الصناعية التي أسست في هذا السبيل مؤسسات مصرفية خاصة . وكثـيراً ما يفرضون مع هـــذا كله شروطاً سياسية ترمي في اكثر الاحيان ، الى منع الدولة الجديدة من « الانتقال الى المعسكر الثاني » (هـــذا هو الغرض الاكبر من العون العسكري او المالي الذي تقدمه الولايات المتحدة الاميركية) وهو تأمين معاضدة البلاد المستعمرة القديمة في المجال الدولي، لا سيما تأمين صوتها في الامم المتحدة ، كما هي الغاية الاساسية من المساعدة التي تقدمها الحكومة الفرنسية . واكثر من ذلك فقد اكدوا انه في حال عدم تحديد الشروط السياسية بشكل واضح، فالدول التي تطلب المعونة المالية ، تدرك جيداً « اي تصرف يجب ان تسلكه بحيث لا يقابل طلبها بالرفض » . ان لائحة البلدان التي استفادت من العون الاميركي المالي هي هذه الدول التي تتمتع بمركز ستراتيجي على طول حدودهـــا مع الاتحـاد السوفياتي ، والعكس بالعكس ، والامثلة كثيرة عن هذه الدول التي رُفض طلبها المساعدة لحرصها على استقلالها كمصر عـــام ١٩٥٦ ، والغينيه عام ١٩٥٨ ، اذ رفض طلبها فجأة . والصين رأت كل الفنيين الروس يغادرون اراضيها عام ١٩٦٠ كما ان اميركا أنقصت مساعداتها للباكستان ولسيلان. كما ان ان انضمام الدولة الى مجلس نقد قوي (كالدولار والجنيه والفرنك) من شأنه ان يسهل انتقـــال الارباح وخروج رؤوس الاموال الخاصة التي يرغبون في استثمارها في الخارج .

اما التعاون الفني فيتم بارسال خـــبراء وفنيين كالمهندسين والاطبـــاء والاساتذة والضباط (لتنظيم الجيش ومده بالملاكات التقنية) او عن طريق تخصيص منح دراسية لجذب الطلاب الى جامعات البلاد . فالغاية البارزة هي العمل على نشر لغة الدولة الصناعية ، ونشر منتوجاتهـــا (فالتصدير يولد التصدير) كما يقول المثل الانكليزي وبذلك يشتد نفوذها على الملاكات الوطنية

لي تلقت تحصيلها في هذه الدول . ففي عـام ١٩٦٤ ارسلت فرنـسا اكـثر من ٠٠٠ ٢٠ من خبرائها الى هذه البلدان الجديدة على اساس التعاون الفني ، منهم ٠٠٠ ١٠ الى المغرب وحده .

فاذا ما ساهم عدد من الدول المتطورة في هـذه المساعدة على تنوع مظاهرها ، فالدول التي تلعب الدور الأهمّ في هذا المجال هي الولايات المتحدة ، من جهة ، والاتحاد السوفياتي والصين ، من جهة اخرى . فالاعتمادات التي تخصصها الولايات المتحدة هي الاضخم والأهمّ ، الا انها أقل تأثيراً ، على ما يبدو : فهي تتوزع على عدد كبير من البلدان تراعى فيها بالدرجة الاولى الأهمية الستراتيجية . وقد تهدر احياناً ، او انها تصرف ليس في استثمارات منتجة ، بل على الغالب، في استيراد مواد ترفيهية بنخبة يفيد منها على الاخص ، اصحاب الطبقة الموجهة في البـلاد ، الامر الذي يزيد من الفروق الاجتماعية بين السكان. فالمعونة « الشرقية » ، هي على عكس ذلك، اكثر تنظيماً وتنسيقاً : فقلما ترتدي طابع الهبـة ، بل هي قروض طويلة الاجل (من ١٢ الى ٢٥ سنة احيـاناً) ، بفائدة بسيطة (من ٢ – ٢،٥ ٪) مع شرط تسديدها بالعملات المحلية (دون مشاكل التحويل او النقل) او انها تسدد بمنتوجات محلية لا سيما الزراعية منها تحدد اسعارها لأمد طويل . تستعمل هذه القروض دون ان يكون لها أغراض تجارية وتخصص لانشاء استثمارات صناعية ، تتولى ادارتها ، عند الفراغ من انشائها ، الدولة المستفيدة من القرض، دون اي تدخل من قبل الاتحاد السوفياتي . وهذه القروض التي تكلف أقـل بكثير مما تكلفه القروض الاميركية ، تبدو أكثر تجرداً في الظاهر ، وينظر اليها الناس بارتياح ، على العموم . اما العون الذي تقدمه الصين ، فهو الذي يحقق نجاحات أهم واكبر بالرغم من ضآلة الاعتمادات المخصصة حالياً : فالفنيون الصينيون ملزمون بالتقيد بعيش مقتصد كسكان البلاد الوطنيين. فهم اكثر التصاقاً بهم وأقل تطلباً ، ويستوحون وجه الشبـه في الظروف التي أحاقت بالصين عام ١٩٤٩ ، والظروف التي تعـاني منها الدول الجديدة . فهم مثال حي للنجـاح والتوفيق الذي لاقته « الطريقة الصينية » .

اتفاقات متعددة الاطراف افرو ـ اوروبية

ومهما يكن من الامر ، فالدول التي حققت استقلالها حديثاً ، تفضل عقد مواثيق متعددة الاطراف ، على اتفاقات ثنائيـة الاطراف ، حتى منها هذه الدول التي تنعم بموقـع ستراتيجي مهم يتيح لهـا ان تلعب بين الشرق والغرب سياسة مزايـدة او تأرجح . ان توسيع حلقة الزبائن والمجهزين تجعلهم في مأمن من ضغط الدولة المسيطره التي يتعرضون لهـا . فالمسـاعي التي يقومون بهـا تسير كلها في هذا الاتجاه ، ولذا يتنـا نتوقع بعض التراخي في العلاقات التجارية وانخفاضاً في الاستثمارات التي كانت تشد –في أعقاب استقلال البلاد – الدولة المستعمرة الى مستعمرتها القديمة . الا ان هذه الحركة لا تزال بعد بطيئة ، ونتائجها محدودة . ويبدو ان الاتفاقات التي تعقد مع منظمة دولية هي التي يرجى منهـا ان تخفف من « وطأة السيطرة » التي تمكن لها الاتفاقات الثنائية . من المؤسف جداً ان تكون *B. I. R. D.* المؤسسة الرئيسية

الوحيدة في هذه المجال ولا تتوفر لهـا مبالغ طائلة ، كما ان الشروط التي يفرضها هـذا البنك التسليف دقيقة جـداً وتقتصر المنتفعين منه على عدد قليل ، بحيث يمكن وصفه بأنه لو كان مصرفاً عادياً، فهو « لا يسلف سوى الاغنياء » . وقد انشأت المؤسسة C. E. E. من جهة اخرى ، عام ١٩٦٠ ، صندوقاً خاصاً للتطوير الاقتصادي في اوروبا (Fedom) الذي يفتح الطريق امام التعاون الافرو ـ اوروبي ، اي امام دمج شؤون افريقيـا الاقتصادية بالشبكة الاقتصادية الدولية C. E. E. ، فتفتح لهـا اسواقها لتنفيق محاصيلها ولشراء انتاج البلدان الافريقية بأسعـار مربحة . الا ان هذا الدمج قد يعرض الاقتصاد الاميركي – بالنظر للتفاوت الكبير القائم بين الاوضاع الاقتصادية من كلا الجانبين – للبقاء ، مدة طويلة ، في وضع البلدان المنتجة للخامات والمواد الغذائيـة ؛ وبالتالي يؤخر ، الى ما لا حد له ، عمليـة تصنيع الدول الافريقية . ومن شأن هذا الوضع ان يفضي ، الى تكوين كتلة دولية ثالثة تخضع لسيطرة اوروبا اشبه ما تكون « بشراكة الحصان والفارس » كما يقول سيكو توريه ، و « الشكل الابرز والصورة الأوضح للاستعمار الجديد » .

النتيجة

من هذه الحلول الكلاسيكية الثلاثة المعارضة التي من شأنها ان تؤمن سرعة النمو ، وبالتالي ، الاستقلال الاقتصادي لهذه الدول الجديدة ، حـل هو الاكتفاء الذاتي ، يجب ابعـاده وطرحه جانباً باعتباره لا يمكن تطبيقه ولا احد يرغب فيه ، وحل آخر هو التخطيـط من النوع الاجباري ، سوفياتياً كان او صينياً ، وهو حل تعارضه كل الحكومات تقريبـاً ، وسيبقى الحل الثالث او الأخير ، وهو التوحيد الذي يبـدو ملحاً في افريقيا ، في مجموعات اقليمية كبرى . وفي هذا الاتجاه تسير كما رأينا – ولو ببطء – الدول الافريقية المتخلفة . وقد لوحظ انه بعد عام ١٩٥٥ ، « لا يزال روح مؤتمر باندونغ حياً نشيطاً » بالرغم من الاختلافات العديدة التي باعدت بين مصر والاردن ، وسوريا وتركيـا ، والعراق وايران ، والباكستان والهند ، وافغانستان والباكستان ، والمغرب وجمهورية الجزائر الشعبية ، واثيوبيا والصومال ، وتونس والجامعة العربية ، واندونيسيا وماليزيا ، الخ ... هذا الروح الذي تجلى بشكل وضوح خلال ازمة السويس عام ١٩٥٦ ، وبدا للجميع ان سيطرة الغرب على آسيا وافريقيا ، لا يمكن لها ، من الآن فصاعداً ، ان تستمر او ان تدوم طويلاً حيث لا تزال قائمة .

فالفوارق الدينية والعنصرية ، والاطماع التي يغذيها زعيم هذه الدولة او ذاك ، والاتجاهات المؤاتية للغرب او الشرق او الصين وبالرغم من هذا الحياد الايجابي الذي يعلنون عنه عالياً في كل مكان، قد اضعفت كثيراً الروابط التي شدت العلاقات الافرو ـ آسيوية، هذه العلاقات التي تربط

هذه الدول والتي من شأنها ان تلعب دوراً حاسماً في الامم المتحدة ، لو عرفت ان تؤلف منها كتلة متماسكة . فالحرب بين الباكستان والاتحاد الهندي ، والاختلافات النظرية بين الصين والاتحاد السوفياتي من شأنها ان تسمم ، اكثر فاكثر ، هذه الاختلافات الناشبة بين هذه الدول. ومن جهة اخرى ، بينا راح مؤتمر باندونغ يشدد على الحياد الايجابي وعلى التضامن المتبادل فيا بينها تجاه اوروبا وتجاه الاستعمار الذي لا يزال ناشطاً ، فجهود الدول الافرو ـ آسيوية تتجه نحو الوقوف في وجه الاستعمار الاقتصادي الجديد . فبعد ان وضع حدّ تقريباً للاستعمار السياسي ، أخذ المناهضون للاستعمار ، يعون ، اكثر فاكثر ، المشكلات الجديدة المشتركة بين الدول المتخلفة اقتصادياً في العالم الثالث : مقاومة الاستعمار الاقتصادي الجديد عن طريق تشجيع التصنيع ، والاصلاح الزراعي ، ونزع السلاح . ولذا تسعى كتلة الدول الافرو ـ آسيوية الى التوسع والامتداد بحيث تبلغ دول اميركا اللاتينية التي كانت بعض دولها تنوي ايفاد ممثلين عنها الى « مؤتمر باندونغ الثاني » المقرر عقده في حزيران ١٩٦٥ ، في الجزائر . وبالفعل ، ان الدول المتخلفة اقتصادياً ، تتأرجح اليوم وتتمرج ، ليس بين كتلتين بل بين خمس دول كبرى : الاتحاد السوفياتي والصين والولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا وفرنسا ، فهي اكثر تشبعاً بمصالحها القومية الخاصة التي تتعارض فيا بينها — من ذكريات صراعها وجهادها الماضية ، ومن رغبتها في تحرير شقيقاتها التي لا تزال ترسف تحت نير الاستعمار . الا ان مؤتمر القارات الثلاث الذي انعقد في هافانا ، في مطلع ١٩٦٦ ، والذي حضره اكثر من خمسمائة مندوب يمثلون الحكومات او الحركات الثورية والذي كان من المتوقع ان يكون احمد بن بركة روحه النابض ، كان ولا شك ، تشجيعاً قوياً لحركات المقاومة ، حتى المسلحة منها ، تقوم بها الدول المحكومة ، في وجه الاستعمار الجديد .

القسم الرابع

انطلاقة العلوم والتقنيات

تعاظمت قدرة (الانسان)على تنظيم معارفه والاستفادة منها تعاظماً مفرطاً ، وتعاظمت معها سيطرته على الطبيعة وعلى نفسه ... ذلك هو التبدل الكبير في موقف الانسان العام الذي توصل تدريجيا الى احلال للمسألة عمل السر والتحليل الفيزيائي الكيميائي ومعالجة نتائجه حسابياً على الخرافة ؛ والعمل المدروس والمخطط على ردة الفعل الفطرية » .

(ا . جايل)

« المجلة الفلسفية : تشرين الاول – كانون الاول ١٩٥٢ »

في هذا العالم المنقسم الذي تتجابه فيه الايديولوجيات المتناقضة والاجناس المتعادية ، ليست المجتمعات والدول وحدها ما تطورت تطوراً عجيباً منذ أقل من نصف قرن ، بل الحياة الفكرية ايضاً ، التي تميز قوتها الخارقة عصرنا الحاضر ، وعن طريقها ، قوة الانسان .

لقد حدثت ثورة علمية ثانية منذ مستهل القرن لا تقل شأناً عن ثورة أوائل العهد المعاصر ؛ ففي خمسين سنة ، حقق العلم نجاحات اعظم من كل ما عرفه تاريخ البشرية حتى اليوم . وهو قد وضع منذ اليوم بتصرف الانسان وسائل طرح عبء المرض والبؤس والموت الذي ثقل عليه منذ آلاف السنين .

يبدو هذا العصر من ثم وكأنه عصر العلوم والتقنيات بالذات ؛ وقد اصبحت هذه الاخيرة في نظر بشرية القرن العشرين التي وعت شأنها وتطورها السريع جداً ، رمز حضارتها بالذات ايضاً . لا بل انها تشعر في هذا المضمار افضل شعور بـ « استعجال التاريخ » ، فان الاختراعات والنجاحات التقنية تتوالى توالياً مطرد السرعة ، ولا تنضم نتائجها الواحدة الى الاخرى بل تؤلف كرة ثلجية يزداد حجمها وقوتها ومفعولها ازدياداً مطرداً اثنـاء انتقالها . ومن جهة

ثانية ، افلا ترتسم منذ الآن في أفق السنوات المقبلة ثورة علمية وتقنية جديـــدة بفضل نمو الطاقة النووية ؟

ازدياد اتصال العلم وثوقاً بحياة الانسان

ان هذا السير المنتظم الذي سارته المعـــارف البشرية والنجاحات التقنية قد رافق في الزمان الانقلابات العالمية الكبرى التي تشكلهـــا الحروب والازمات الاقتصادية في هذه العقود الاخيرة ؛ وهي قـــد اسهمت فيها لا بتقنيات التدمير فحسب ، بـــل بالنظرة الجديدة الى العالم التي فرضتها نظرياً وعملياً . فحين يتنكر المتشائم لعصره ، فانما هو يرفض العلم قبل الحرب لانه يحمـــله مسؤولية كافة المصائب الراهنة . اما نظرة المتفائل الى المستقبل فتستند الى الدفـــاع عن العلم والتقدم التقني : ان العلم سوف يتغلب على كافة مصائب الانسانية . وعلى غرار ما حدث ابان الازمة الكبرى رافق العداءَ للآلية عداء العقلية ونظرة تشاؤمية الى مصير الانسان ، بينما ترتبط العقلية المناضلة بصوفية انسانية ، ايامها المقبلة تغني ، وينتفي فيها كل قلق ميتافيزيقي بفضل سير العلم الطليق الذي يعزز فاعلية العمل البشري وقدرة الانسان ، ويضع في حوزته وسائـــل تحسين ظروف حياته ، وحتى مداها ، تحسيناً فعلياً ، والتخلص من خطر البؤس ، ويتيح لكل فرد تنمية شخصيته حتى اقصى حدود التنمية . ولكن البشر يشعرون بالقلق وعـدم الاطمئنان ، لا بالثقة التامة ؛ فان اختبار الحربين العالميتين والازمة الكبرى قد جعل الحيـــاة البشرية تظهر وكأنها مهددة ابداً بنجاحات العلوم بالذات ؛ لا بل ان العلوم المكرسة للمحافظة على الحيـــاة تبدو هي نفسها مخيبة للآمـــال ومثبطة للعزائم . وفي مضمار آخر ، ترتسم اليوم في عالم العمال ، ردة فعل غير متسقة ، متزايدة الوضوح يوماً بعد يوم ، ضد التحسينات التقنية الاخيرة واخطار البطالة الجديدة المحدقة بجماهير العمال الممكن الاستغناء عنهم بعد اليوم بسبب احـــلال الآلات محلهم . ومن هذه الزاوية ، يجب ان يُنظر الى مسؤولية العلم والحضارة ومصائب العقود الاخيرة في الضمير البشري . والنظرتان مترابطتان ترابطاً لا يقبل الانحلال . فان موضوع قيمة العـــلم النظرية والعملية لا ينفصل بعد اليوم عن موضوع مصير الانسان ومعناه .

الفصل الأول

ثورة العلوم الطبيعية

١ – الظروف الطبيعية للبحث العلمي والنظري

المركز الجديد للعلم والتقنيات في حياة المجتمع

ان الثورة الصناعية التي حدثت في النصف الاول من القرن العشرين لنتيجة مباشرة لنمو العلوم والتقنيات ، ولا سيما في الحقل الفيزيائي والكيميائي ، فليس من مصنع يستطيع العيش بعد اليوم بدون اجهزة مختبرية وموظفين فنيين يكرسون كافة اوقاتهم للبحث . وسواء في البلدان الاشتراكية ، حيث يسعى استثمار الاكتشافات العلمية وراء الفاعلية الفورية القصوى ، اما في البلدان الرأسمالية ، حيث تدفع المنافسة الوطنية ، ولا سيما المنافسة الدولية ، بصورة عامة ، الى تحسين المصنوعات وطرائق الانتاج تحسينا مستمرا ، نرى ان العالم الصناعي الجديد عالم متحرك في جوهره يخضع النجاح فيه لتقدم دائم ، ويخضع هو نفسه بدوره للتقدم العلمي بحصر المعنى .

والحال ان الاجهزة التقنية وتعهد المختبر يجمدان رؤوس اموال كبرى لا تستطيع سوى المشاريع العظمى توظيفها ، بحيث ان تأثير العلم ، اقله على بعض فروع الصناعة ، يعزز تأثير التقنيات التي تشرف على انتاج كبير : فهو ايضا يحمل على تأليف اتحادات كبرى تضمن لنفسها احتكار احدى الاسواق . وليس من باب الاتفاق ان توسع بعض الشركات الكبرى ابحاثها العلمية على نطاق واسع .

يتصل التوتر الدولي المتزايد اتصالا مباشرا ومتبادلا كذلك بالتقدم العلمي بسبب البحث عن تقدم تقنيات التدمير تقدماً مستمرا . فتحت تأثير هذا البحث تتدخل الحكومات اكثر فاكثر ، ولا سيا بعد السنة ١٩٤٠ ، في تنظيم ورقابة العمل العلمي ، ويستبقى بالمقابلة الحاجات العسكرية شطر هام من الاموال المكرسة للبحث .

اخيرا ، ولا سيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، انتصب في وجه العالم الغربي ، الذي

ينعم بمستوى معيشة مرتفع نسبيا ، جزء كبير من الكرة الارضية يفتقر الى المزيد من التغذية استطاع الغرب من قبل ابقاءه تحت سيطرته . وقد فرض تزايد السكان في مختلف مناطق العالم والوعي القومي او الاجتماعي الذي برز عند هذه الشعوب« غير النامية المجتذبة نحو الشيوعية» ، انتباه شطر الانسانية الممتاز الذي طلب من العلم حل المسائل الخطيرة التي اثارها هذا التمرد .

ولكن العلم والتقنيات التي اتاح تقدمها قد فرضت نفسها على انتباه الجميع بصورة مستعجلة جلية . فهي لم تمد ، بفضل انتاجها الوفير ، لتختص بطبقة ممتازة محدودة من المجتمع فحسب ، بل بمجموع المجتمعات المصنّعة. لقد غزت الاكتشافات التقنية الحياة اليومية اكثر فاكثر(كهرباء اذاعة ، سينما ، تجهيزات منزلية ...) ، وبدلت تطوراتها السريعة ، في كل حين ، اطار الحياة المادي ؛ لذلك فان الابتكارات العلمية والتقنية الاخيرة تختص بالعالم كله بفعل الانعكاسات التي تنبيء بحدوثها في مستقبل ليس ببعيد . وهذا ما يفسر لنا النجاح العظيم الذي تصادفه صحافة ومنشورات تتوخى تعميم المعرفة العلمية ، ونمو لون ادبي قلمـــا طرق حتى اليوم هو « العلم – الخيال » الذي يشدد فيه على الناحية المخيفة تارة ، والناحية الجميلة تارة اخرى ، في مستقبل الحضارة العلمية .

امتهان العلم

لقد زال مثال العالِم المنفرد العامل بدافع محبة العلم الصحيح . فان تطورات العمل العلمي الداخلية ، وتعـــدد فروع البحث ، وتزايد عدد البـــاحثين اللازمين لادارة الابحاث في حقول مختلفة مترابطة ، قد اعطت هذه المهام طابعاً جماعيا . وقد قدر الباحثون في اواخر القرن التاسع عشر بـ ۰۰۰ ١٥ في العالم اجمع ، بينما بلـــغ عددهم ، في السنة ١٩٥٤ ، ٤٠٠٠٠٠ باحث على الاقل يجدر ان يضاف اليهم كل من يقوم بأعمال علميـــة خارج البحث الصرف . ويكرس كل من هؤلاء نفسه لمهمة محصورة تستلزم تخطيطاً وتنسيقاً مع مهام الآخرين حتى يكون لها معناها وفاعليتها . وقد ادت الحرب العالمية الثانية الى زيادة كبرى في عدد الباحثين والى تقسيم العمل في داخل هذا العالم ، واضيف اخيرا قانون السرية الى قانون التخصص .

ومن جهة ثانيــة ، لم يلبث هؤلاء الباحثون ان ارتبطوا ارتباطاً وثيقـاً بالتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، اوجبته اعتبارات مالية في الدرجة الأولى . فان العـالم ، الذي تمتع زمناً طويلاً بحرية مطلقـة قد انتهى ، شاء ام أبى ، الى الارتبـاط بمن يوفر له الاموال اللازمـة لمواصلة اعماله . وهي الدولة على العموم ما تمد بالمال الجامعات ومراكز الابحاث العلمية ، ولكن المشروع الرأسمالي ، خصوصاً في الولايات المتحـدة ، يقدم كذلك المساعـدات للجامعـات او للمعاهد والمختبرات الخاصة المرتبطة مباشرة بالمصانع . وبعد السنة ١٩٤٠ ، تدخلت الحكومات لا من اجل التمويل فحسب، بل من اجل رقابة الابحاث حتى تلك الجارية في اطار الجامعات. وكانت رقابتها اكثر شدة اذا تعلق البحث بالدفاع العسكري ؛ يضاف الى ذلك ان كل شيء استرعى في النهاية اهتمام الحكومات في جو الحرب الباردة بعد السنة ١٩٤٧ والقلق الذي عاشت

فيه الدول . ففي الولايات المتحدة مثلاً اصبحت العلوم الاجتماعيـة نفسها ، بمعظمها ، في ايدي الحكومة . ولذلك فمن اجل بحرية الولايات المتحدة الاميركية اجري التحقيق ، « جماعات وقيادة ، ورجال » ، ومن اجـل دوائر استعلامات الجيش الاميركي اجري هـذا التحقيق الاخير « الجندي الاميركي » . اما الغاية من هذه التحقيقات فهي اتاحة معرفة الرجال بغية اختيار المهمة الواجب اسنادها اليهم ، وقد ابقيت سرية في بعض الحالات .

يعدم العالم شيئاً فشيئاً وسيلة التخلص من ظروف النشاط هـذه ومن كافـة العبوديات التي تستلزمها : فهو يعمل في الاطار المفروض عليه ، ويجيب عن الاسئلة التي يطرحها عليه موزع الاعتمادات والتي تعين بحد ذاتها اتجاهاً خاصاً للابحاث يسيء الى الموضوعية العلمية ، في العـلوم الانسانية بصورة خاصة . وان امتحان « الولاء » الذي يخضع له العالم في بعض البلدان يضطره الى اختيار صلاته ، والاعراض عن بعض فضوله العلمي ، والامتناع عن التعبير عن آرائه .

ومن جهة ثانية استتبـع تدخل الدولة والمشاريع الخاصة في تنظيم البحث العلمي ، منذ نصف قرن ، تبدلاً هاماً في مراكز الابحاث . فهي قامت ، في السنة ١٩٠٠ ، في البلدان الاوروبيـة القديمة التصنيع : انكلترا ، فرنسا ، المانيا ، ولم تنمُ فيها بعد ذلك سوى نمو بطيء ، في حين انها نمت نمواً عظيماً في الولايات المتحـدة الاميركية من جهـة منذ اوائل القرن ، وفي الاتحـاد السوفياتي من جهة ثانية بعد ثورة السنة ١٩١٧ . ثم زاد الفرق بين هذه الدول المختلفة بالنسبة للتجهيز العلمي منذ السنة ١٩٤٠ وظهور الطاقة النووية .

يضاف الى ذلك ان الاعمال العلمية قد خضعت خلال نصف القرن الاخير ، بسبب ارتباطها بالحاجات الاقتصادية والعسكرية ، لتنظيم بات اكثر تنسيقاً يوماً بعد يوم . فبينما حرص الاتحاد السوفياتي منذ البدء على انجاز واستثمار اكتشافاته العلمية انجازاً واستثماراً صوابيين ، توجب ان يواجه الغرب صدمة السنة ١٩٢٩ وصدمة السنة ١٩٤٠ حتى يسلك طريق تخطيط مطرد النمو ، ومطرد السرعة بعد السنة ١٩٤٠ ؛ وقد تعددت آنذاك اجهزة التنسيق والتوحيد على مستوى الدول ، واستفيد آنذاك دون تأخر من المعارف الجديدة المكتسبة . وبينما كانت الاكتشافات تتحقق اتفاقاً من ذي قبل ، ولا تستثمر الا بعد سنوات طويلة ، وحتى بعد قرون احياناً ، بات اليوم « الفارق الزمني بين الاكتشاف وتطبيقه الصوابي المنظم على الحياة الاقتصادية .. اقصر مدى يوماً بعد يوم » . ولنا في الطاقة النووية خير مثل على ذلك ، اذ ان فصل النواة عن الذرة تحقق للمرة الاولى في السنة ١٩٣٨ ، والقنابل النووية القيت على هيروشيما وناغازاكي في السنة ١٩٤٥ . وقد انشئت بعد الحرب منظمات دولية ، كالاونسكو ، معدة لتيسير استفادة العالم كله من المعارف الجديدة وتطبيقاتها الممكنة .

لا يسع العالم من ثم جهل ارتباطه بالعالم بعد اليوم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاحداث ، كاستلام هتلر زمام السلطة ، وارتحال العلماء والمفكرين الالمان الذي كان نتيجة له ، ثم الحرب العالمية الثانية ، قد جعلته يسهم في التاريخ اسهاماً قوياً . ولا يمكن ان يكون للمسائل

الادبية التي يطرحها على نفسه قيمة نظرية فحسب بالنسبة اليه . « انها مسائل حيوية ترتهن مستقبله كانسان » . وتحتل المسائل الادبية التي يتوجب عليه طرحها على نفسه مكاناً اكبر يوماً بعد يوم في تفكيره ، لانه لا يستطيع بعد اليوم الوقوف موقف لامبالاة من الانعكاسات العملية التي تتركها اكتشافاته النظرية . انه لوضع مفجع احياناً يبرزه مثل البير أينشتاين الذي اوصى المسؤولين الاميركيين بالعمل بنشاط على صنع القنبلة الذرية خوفاً من ان يصنعها النازيون قبلهم ، ولكنه شذب استخدامها . وكذلك فان مطاردة العلماء الالمان ممن اسهموا في الابحاث الذرية او الابحاث المتعلقة بتوجيه القذائف ، التي نظمها الاميركيون من جهة والسوفيات من جهة ثانية ، والقاء القبض عليهم وارغامهم على مواصلة ابحاثهم لحساب المنتصرين ، لخير مثل كذلك على الاستعباد الذي يهدد البحث والفكر ، كاستثمار الملاحظات المجموعة خلال الرحلات الفضائية التي قام بها كوبر وكوزراد واقرانهما لاهداف عسكرية او اقله لاهداف « استعلامية » .

٢ – ثورة العلوم الطبيعية

بينما كان علم الحياة مركز المناقشات الفكرية الكبرى في القرن التاسع عشر ومثاراً لأهم النظريات طابعاً ثورياً ، تحققت أهم التجديدات، خلال القرن العشرين ، في حقل العلوم الطبيعية. ففي سنوات قليلة ، برزت ، تحت تأثير اكتشافات اواخر القرن السابق ، نظرية قلبت قواعد المعرفة رأساً على عقب . وبفعل ثورة الفيزياء هذه ، تبدلت العلائق بين العلوم المنفصلة والمتميزة بشكل واضح حتى ذاك التاريخ، وزال التقسيم القديم الى فيزياء وكيمياء وعلم فلك، او بالاحرى لم يُبق عليه الا لاعتبارات عملية ؛ وتوطدت وحدة العلم التي كان التخصص يهددها بالانفصام ؛ فكل هذه العلوم تتناول في الواقع المادة نفسها ، في آن واحد ؛ وفي الوقت نفسه باتت وحدة العلم والتقنية اكثر وثوقاً يوماً بعد يوم .

النظريات الفيزيائية الجديدة

برزت الى الوجود نظريات جديدة انبثقت من الاكتشافات او بنيت على الحساب ، ثم تأيدت بالاختبار ، فقلبت المفاهيم التقليدية للفيزياء القديمة . تلك هي النظرية النسبية لاينشتاين ونظرية « الجزئيات » لماكس بلانك والنظرية التموجية للويس دي بروبل . فان اختبارات ميكلسون ومورلي (١٨٨٧) التي افضت الى التخلي عن النظرية القائلة بوجود اثير مادي يملأ الفضاء ، قد حملت اينشتاين على ان يسلم في « نظرية النسبية المحصورة » (١٩٠٥) بأن الوقت لا يرتدي طابع المطلق – اذ انه لا يجري بالسرعة نفسها سواء كان المراقب متوقفاً او سائراً بسرعة كبرى – وبأن الفضاء هو ايضاً قيمة نسبية . وفي « نظرية النسبية الشاملة » (١٩١٥) ، التي درس فيهما الحركات المتزايدة السرعة ، خلص الى القول بتمادل الحجم (m) والطاقة (E) ($E=mc2$) ؛ فان جسماً يشع طاقة يفقد من حجمه ، وقد تزول المادة من ثم باعطائها الطاقة ؛ اما الذرة فليست سوى طاقة متكاثفة في نطاق ضيق جداً ، وهي قابلة التحول الى ضوء او حرارة . وأعاد النظر

كذلك في سنة نيوتون بتقديمه الدليل على ان الفضاء مقوّس في جوار الاجرام الوازنـة ، وبرر بذلك النظريات الهندسية غير الاوقليدية ، وفسر بعض الظواهر الفلكية ، كشذوذ مركور ، وطريقة وصول الضوء الينا من نجوم قائمة وراء الشمس ، حين تنكسف الشمس .

ناقضت نظرية « الجزئيات » ، في السنة ١٩٠٠ ، المبدأ المقبول حتى ذاك التاريخ ، الذي يسلم باستمرار الطاقة ، كاستمرار المادة والكهرباء : الطاقة تشع اشعاعاً غير متواصل بشكل حبيبات او « جزئيات » تختلف قيمتها باختلاف تواتر الاشعاع ؛ وهكذا فان الطاقة مركبة من حبيبات على غرار المـادة (المركبة من ذرات) والكهرباء (المركبة من كهيربات) . فناقضت هذه النظرية نظرية الضوء التموجية المرتكزة على الاستمرار، ولكن لويس دي برويل طلع منذ السنة ١٩٢٤ بالآلية التموجية ؛ فوفق بين المفهومين المتناقضين بتمثيل الموجة بالجسم الشديد الصغر . وفي السنة ١٩٢٦ ، اثبت « شرودنجر » تعادل الآلية التموجية التي قال بها دي برويل والآلية الجزئية التي قال بها هايزنبرغ . وكان هذا الاخير قد اثبت مبدأ « لاحتمية » الظواهر ورفض الحتمية في حقل حركات الذرات التي كانت مبدأ اساسياً ، لا جدال فيه ، من مبادىء الفيزياء القديمة . فكانت النتيجة ان كافة هذه النظريات الثورية – التي تناولها الجدل على كل حال ، كما سبق ورأينا – قد ارغمت الفيزيائيين على اعادة النظر في مفاهيم الوقت والفضاء والمادة ، وقد برز اخصابها عظيماً في كافة الحقول ، ولا سيما في الحقول الجديدة المتصلة بالظواهر التموجية والجزئية .

انطلاقة الفيزياء الذرية

ان مدلول الذرة ، الذي رفضته الفيزياء في القرن التاسع عشر ، قد استرعى انتباه الفيزيائيين منذ اكتشاف الكهيربات وطلوع ج . طومسون بالنظرية القائلة بان الكهيرب هو مادة الكهرباء بالذات . ثم جـاء اكتشاف وجود اجسام مشعة يزعزع نظرية ثبات العناصر ونظريات ديمومة الطاقة . فيبدو ان الطاقة المتولدة من الاجسام المشعة لا يمكن ان تصدر الا عن الذرة نفسها ، وان الذرة تحتوي على كمية كبيرة منها؛ ثم اكتشف « كوري » ومعاونوه بعد ذلك ، بفضل البولونيوم والراديوم ، مصادر طاقة دونها مصادر الاورانيوم . ولاحظ « روذرفورد » و « سودي » بدورهما ان كل عنصر مشع يطلق اشعة (الفا وبيتا وغاما) وان العناصر ليست من ثم لا بسيطة ولا متجانسة ، وان كلا منهـا يحتوي على عدد معين من الذرات المتماثلة كيميائيا ، ولكنها قادرة على ان تنقسم باشكال مختلفة : تلك هي « متشابهات الخواص » .

بات ممكناً درس الذرة مباشرة وتوضيح تركيبها بعد ان اكتشف « فون لو » ان الاشعة (X) يمكن كسرها بمحاذاة جسم صفيق ، وحين اثبت « براغ » الاب و « براغ » الابن امكان حساب طول موجتها القصيرة جداً . وكان سبق لروذرفورد ان اكد ان في الذرة نواة مشحونة بكهرباء ايجابية تحيط بها كهيربات مشحونة بكهرباء سلبية ، ولكن احـد العاملين في مختبره ، الدانماركي الشاب ، « نيلز بوهر » ، « كبلر الجديد » ، هو من اعطى صورة الذرة ، التي قارنها

بنظام شمسي يسير فيه كل كهيرب في مدار خاص به ، ولا تتكون الاشعة X الا حين ينتقل من مدار قوي الطاقة الى مدار أقل قوة . فامكن من ثم معرفة عدد الكهيربات التي تحتوي عليها؛ فكل تركيب ذري يمكن ان يوجد في حالات كثيرة ويتميز بصفات توجية مختلفة ، وقد امكن معرفة اختلافات الطاقة بين الحالات بقياس تواتر الضوء المنبعث او المتلاشي . فاتاحت ذرة روذرفورد – بوهر منذئذ تفسير اختلافات خاصيات الاجسام الكيميائية ، اذا كان بعض هذه الاجسام يؤلف المعادن والبعض الآخر الغازات العادمة الحركة ، فان ذلك يرد الى عدد كهيرباتها ؛ وهكذا اصبح جدول الاجسام الذي وضعه « مندلييف » قريب المأخذ : هو عدد الشحنات الايجابية في كل نواة ما يميز الاجسام الطبيعية الـ ٩٢ الواردة فيه ، ابتداء من الهيدروجين وانتهاء بالاورانيوم .

لما كان روذرفورد قد اكتشف في السنة ١٩١٩ امكان تحطيم نواة ازوتية بصدم جزء صغير (الفا) صدماً مباشرا بواسطة تفريغ كهربائي يقذف بذرات هيدروجينية عبر انابيب خاضعة لتوتر عال (بين مليون ومليوني فولت) ، اصبح درس النواة مركز اهتمام الفيزيائيين الكبير ، وسوف تقود سلسلة من الاكتشافات متصلة الحلقات الى رقابة التحولات النووية . وكان الاكتشاف الاول الكبير اكتشاف جزئيات النواة الخالية من الشحن الكهربائي (وقد لاحظها « بيت » منذ السنة ١٩٣٠) على يد « شادويك » الذي حصل عليها في السنة ١٩٣٢ بقذف الـ « بيريليوم » بواسطة جسيات « الفا » ، ثم اكتشف اندرسون الكهيرب الايجابي (بوزيترون) واثبت ، مع « نيدر ماير » ، في السنة ١٩٣٦ ، نظرية الياباني « يوكاوا » الذي كان قد افترض وجود الـ « ميزون »، كرابطة بين الاجزاء الايجابية والاجزاء الخاليةمن الشحن لتكوين الذرة. ويبدو ان الـ « ميزونات » التي اهتدى اليها في الاشعة الكونية والتي لا تزال شبه مجهولة تلعب دوراً اساسيا في تركيب المادة .

اثبتت كافة الاكتشافات المحققة بين السنة ١٩٣٢ والسنة ١٩٤٠ اهمية دور اجزاء الذرة الخالية من الشحن ؛ واظهر اهمها شأناً ، حين اكتشف جوليو – كوري الاشعاع الصنعي ، ان كافة الذرات تصبح مشعة حين تقذف بهذه الاجزاء . فاستنتج بعضهم من ذلك ان الاشعاع الطبيعي انما يمثل رواسب نشاط ذرات لم يمر عليها الوقت اللازم لبلوغ حالات ثابتة ، وهكذا امكن قياس عمر الارض (المقدر بمليار سنة) او اي شيء آخر بقياس اشعاع الكربون ١٤ ، لا بل تفسير كيفية تولد العناصر ، وتفسير حرارة الشمس ، والاعتقاد بان كل انتاج طاقة في الكون انما يرتبط بالتحولات النووية . وقد استطاع « فرمي » ، في السنة ١٩٣٦ ، بقذف اجسام ثقيلة باجزاء خالية من الشحن ، توليد عدد من اجسام جديدة اثقل من تلك التي نجدها في الطبيعة ؛ فولدت كيمياء جديدة هي الكيمياء النووية . وفي السنة ١٩٣٨ ، اكتشف « هان » و « ستراسمن » قدرة بعض النوويات الثقيلة، كنوويات الاورانيوم، على تحرير عدة اجزاء خالية من الشحن مقابل جزء ايجابي واحد ، مما خلق امكانية احداث سلسلة لامتناهية من التفاعلات

اذ ان الاجزاء الخالية من الشحن تصطدم بنويات جديدة فتفجرها بدورها ، مما يؤدي الى قذف اجزاء جديدة خالية من الشحن ؛ وهكذا يمكن ان تنبعث كمية عظيمة من الطاقة ، اذ ان من شأن غرام واحد من الاورانيوم انتاج طاقة تعادل طاقة ۲۵۰۰ كيلوغرام من الفحم الحجري .

منذ السنة ۱۹۳٤ ، بنى لورانس مفاعلاً نووياً في بركلي ، ولكن اعمال فرمي وفردريك جوليو – كوري هي ما اتاحت الانتقال من الصعيد المختبري الى الصعيد الصناعي ، واجازت النظر الى المادة نفسها – عملياً ، لا نظرياً بعد اليوم – كما الى خزان دائم للطاقة . وفي السنة ۱۹۳۹ ، تحقق تقسيم الذرة الذي من شأنه احداث تفاعلات متصلة على نطاق واسع ؛ فاسترعت هذه الآفاق انتباه كافة الحكومات ؛ ففي المانيا كلف هايزنبرغ ادارة الابحاث ، ولكن النازية حرمت البلاد من خيرة باحثيها الذين هربوا الى انكلترا او فرنسا او الولايات المتحدة . وفي هذه البلاد الاخيرة ، الغنية بالموارد الطبيعية والمتقدمة تقنية صناعية اسهم العلماء اللاجئون من كافة البلدان ، « بيت » ، وليزميتز ، وفرمي ، مع الاميركيين من امثال « لورانس » ، و « اوري » و « اندرسون » ، وابرزوا اهمية اكتشاف جوليو ، وميزوا في الاورانيوم ثلاثة « متشابهات خواص » متباينة الفعالية ؛ وهو متشابه الخواص رقم ۲۳٥ مما سيستخدم فوق هيروشيما وناغازاكي في ٦ و ٩ آب ١٩٤٥ ، كأسهل عنصر يساعد على التفاعل المتصل في القنبلة الذرية . وقد بني مبدأ هذه القنبلة على تقريب كتلتين من الاورانيوم تزن كل منهما ۷۰۰ غرام ؛ اذا عزلتا ، بقيتا على حالها ؛ ولكنها اذا اجتمعتا ، باسقاط الاولى على الثانية ، يحصل الانفجار ، ويفسخ التفاعل المتصل عدداً كبيراً من الذرات ويطلق من ثم طاقة تحدث نتائج غريبة خيالية . اما القنبلة الهيدروجينية التي سوف تنتج في عهد لاحق ، فتستخدم الهيليوم الذي من شأنه اطلاق طاقة تفوق الى حد بعيد الطاقة التي يطلقها الاورانيوم .

الموجات والعلم الالكتروني

في هذا المضمار ايضاً حققت الفيزياء ثورة حقيقية ، موازية لتقدم التقنيات الصناعية التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً على كل حال ، منذ ان حولت نجاحات الاتصال اللاسلكي غرابة مختبرية الى مادة تجارية . فان اكتشافات وليم كروكس للاشعاع المهبطي ، الذي اوضح « ج. برين » طبيعته ، واكتشافات « ج. ج. طومسون » المتعلقة بالكهرب ، قد اتاحت تفسير عدد كبير من الظواهر المعروفة غير المفسرة : طبيعة التيار الكهربائي ، الفرق بين الاجسام العازلة والاجسام الناقلة ، التحليل بالمجرى الكهربائي ، الخ. لقد اتجهت الابحاث نحو درس تقنيات الفراغ والصمامات القادرة على احداث موجات مطردة القصر . وفي السنة ۱۹۲٤ اظهر اكتشاف الجو الداخلي المؤلف من ثلاث طبقات عاكسة تقع على بعد ۷۰ و ۱۲۰ و ۲۵۰ كلم في الجو ، ناجمة عن تفكك جسيمات الهواء باشعة ما وراء البنفسجي الشمسية ، ان الموجات القصيرة وحدها تعكسها الطبقتان الاوليان ، وانها هي ما يفضل استعماله في الاتصال اللاسلكي الى مسافة بعيدة ؛ اما الموجات البالغة القصر ، فتستخدمها « الاسلاك الهرتزية » في الاتصالات اللاسلكية. وتنتج هذه الموجات

مصابيح « فلمنغ » ذات القطبين ، ومصابيح « لي دي فورست » (١٩٠٧) ذات الاقطاب الثلاثة او انواع اخرى من الصمامات التي يحصل عليها بملء الانابيب بغازات نادرة كالجهاز المثير التواتر المستخدم في رقابة الآلات الناقلة ، او بواسطة الترانزستور الذي يكبر الذبذبات الكهربائية والذي تحقق في السنة ١٩٤٩ على يد « شوكلي » . واتاح تطبيق التواتر السريع تطبيقاً تقنياً انشاء شبكة عالمية للاتصالات البعيدة بواسطة الاقمار الاصطناعية ، كانت اولى مراحلها اختبار نقل اذاعة تلفزيونية اميركية بين « اندوفر » في الولايات المتحدة من جهة و « بلومور ـ بودو » في فرنسا وغوفهيلي في انكلترا من جهة ثانية ، في وقت واحد ، بواسطة القمر الاصطناعي « تلستار » ، الذي يؤلف محطة ـ مرحلة للاشعة الهرتزية .

في السنة ١٩٣٢ ولد علم البصريات الالكتروني الذي اتاح في السنة ١٩٤٠ صنع اول مجهر الكتروني تبلغ طاقته الفاصلة العملية ١٠٠٠٠٠/١ من المليمتر (وتفوق قوته قوة المجهر ما وراء البنفسجي عشر مرات) ، وفي السنة ١٩٥٥ تحقق انشاء اول مرقب الكتروني على مقربة من « فوركالكييه » صورت بواسطته مجموعات النجوم البعيدة المكفهرة في اربع دقائق بدلاً من ثماني ساعات . وانشيء كذلك منظار الاجسام الطيفي الذي اتاح فصل متشابهات الخواص واكتشاف متشابهات خواص جديدة ، واستخدم في الصناعة التركيبية من اجل تحليل المركبات الكيميائية تحليلاً نوعياً وكمياً . وفي السنة ١٩٢٣ ، اتاحت الكهرباء الضوئية ، التي حققتها اعمال بلانك ، صنع الخلية الضوئية الكهربائية او « العين الكهربائية » التي تحول الظواهر الضوئية الى ظواهر كهربائية ، والتي اثبتت انها افضل بكثير من العين البشرية لمراقبة الآلات ولمعالجة الاجهزة في المؤسسات الصناعية العصرية . واستخدمت في السينما الصوتية (تقابل « العين » كل فارق تدريجي في الضوء او الظل بتغيرات كهربائية تتحول الى تغيرات صوتية تصل الى مكبرات الصوت الموضوعة وراء الشاشة) . وهذه التموجات المتصلة هي كذلك مبدأ الساعة الناطقة ، والتلفزة التي تنقل صوراً ضوئية تتحول الى تموجات كهربائية ، والتصوير عن مسافة بعيدة (بلينوغرام) ، وتسيير الطائرات ، والرادار الذي احكم غداة الحرب العالمية الثانية . وفي السنة ١٩٦٠ حقق « ميان » اول « لازر » (جهاز يقوي الضوء بزيادة الاشعاع) بواسطة بلور الياقوت الاحمر ؛ فهو يبعث كتلة من الموجات الضوئية المتلاحمة المتجانسة اللون توازي قوتها الف مرة قوة الضوء ؛ وقد استخدم اللازر منذ اليوم استخداماً واسعاً جداً في الجراحة لنزع شبكية العين وازالة بعض التورمات السرطانية .

اتاح العلم الالكتروني تحقيق آلات حاسبة ضرورية لحل مسائل رياضيات عالية حلا سريعاً ، « وآلات مفكرة » حقيقية . وان الآلة الالكترونية الاولى ، « مارك ١ » ، التي صممها « هوارد آيكن » في السنة ١٩٣٨ ووضعت قيد الاستعمال في السنة ١٩٤٤ ، قد تلتها آلات جديدة اخرى (مارك ٢ ومارك ٣ ومارك ٤ ...) تكاملت تكاملا مطرداً ؛ وتتمثل العمليات والارقام فيها بثقوب تمر فيها دفعات كهربائية ، تسيّر ، بحسب الثقوب ، هذه الآلة

او تلك لهذه العملية او تلك . وتعطى النتائج الجزئية كذلك بواسطة الثقوب ؛ واخيراً تتحول النتيجة الى ارقام . وقـد استخدمت « مـارك ١ » في ضبط اطلاق النـار وحساب انسياب الاجسام ، ولكنها اعتبرت بطيئة جداً بسبب ظواهر توقف الحركة الناجمة عن حركات الدواليب؛ فأحلت الآلات الجديدة كتلا من الكهيربات على اللفائف المثقوبة والدواليب المرقمة؛ وهكذا ولد اول دماغ الكتروني حمل اسم « انياك » استخدم في الحسابات التي افضت الى القنبلة الذرية ؛ اما النتائج الجزئية للحسابات التي ستستخدم في مرحلة لاحقة من العمليات فتحفظ في احدى الحلقات الزئبقية الـ ٣٢ المصممة لهذه الغاية ، وتحول الى تموجات آلية ثم الى دفعات كهربائية حين تواصل العملية . وبينما تطلبت « مارك ١ » ٣/١ ثانيـة لجمع ٢٣ رقماً ، لم تتطلب الآلة الجديدة سوى ...١٠٠/٢ من الثانية ؛ وهي قادرة على ان تحل بسرعة فائقة اكثر المعادلات تعقيداً . وتوفرت للجهـاز « داتافيـل » ، الذي ابتكر في اوائل السنة ١٩٥٧ ، « ذاكرة » تستوعب ٢٢ مليون علامة يمكن قراءتها في بعض اجزاء من الف من الثانية . أما هذه التقنية فضرورية جداً لابحاث الفيزياء النووية ، ولحسابات القذف والانسياب ، ولا سيما لنيران المدافع المضادة للطائرات؛ وقد شرع في استخدامها(١٩٥٤)لنقل نص من لغة الى اخرى. اضف الى ذلك ان العلم الالكتروني يتجه اكثر فاكثر نحو استعمال الاجهزة الصغيرة جداً : فبعد ان حقق الترانزستورات، ابدلها بعناصر نصف ناقلة متزايدة القوة وسريعة جداً تسمح بصنع اجهزة خفيفة جداً اقل ازعاجاً ، ومن ثم اسهل استعمالاً .

ومن المشابهة ، التي اكتشفها الاميركي نوربرت وايز في السنة ١٩٤٨ ، بين الدماغ الالكتروني والدماغ البشري (بخلاياه العصبية – التي تتناقل الاشارات التي تتلقاها من اعضاء الحواس – التي يمكن مقارنتها بالانابيب الالكترونية) ولد العلم الذي يدرس طرائق انتقال الحركة والرقابة في الكائنات الحية والآلات ، ويبدو وكأنه « علم جديد مشارك بين الفيزياء وعلم الحياة » . فقد حقق هذا العلم حيوانات صنعية ذاتية الحركة ، ليست مجرد اجهزة متحركة ، بل « ترى » و « تحس » ، و « تتجه » نحو المكان الذي يجتذبه « حسها » ، لا بل انها متجملة بذاكرة بدائية ، كتلك السلحفاة الالكترونية التي ابتكرها « غراي وولتر » في السنة ١٩٥١ ، فكانت قادرة على التوجه نحو الضوء ، والدوران حول العقبة التي تعترض طريقها ، والرجوع الى الوراء اذا كان الضوء ساطعاً جداً، والاختباء تحت احدى قطع الاثاث، او الفأرة الالكترونية التي ابتكرها «شانون» ، فكانت تهتدي الى طريقها نحو اشارة كهربائية عبر تيه من الحواجز والابواب .

تجدد الكيمياء

على غرار الفيزياء عرفت الكيمياء انقلاباً كبيراً بفضل الاكتشافات الاخيرة والنظريات الجديدة . لقد اصبحت علماً كمياً وتفسيرياً بعد ان كانت علماً نوعياً ووصفياً في الدرجة الاولى . فان النظريات الفيزيائية وطرائق الفيزيائيين الاختبارية قد حملت الكيميائيين على تقويم مفاهيمهم النوعية القديمة وطريقتهم الاختبارية ؛

واخيراً باتت الكيمياء اكثر تعقيداً بدرسها اجساماً مركبة متزايدة التثاقل . وقــد اضفت الى الاشعة X التي استخدمت في درس تركيب الجسيمات البالغــة الصغر والاجسام البلورية ، مراقبة انكسار الكهيربات ، والمجهر المتباين الاوجه ، والمجهر الالكتروني ، التي اتاحت كلها درس حركات الجسيمات والتموجات، وحساب تواترها(وهكذا فسر الفيزيائي الهندي رامان، في السنة ١٩٢٨ ، لون السماء الازرق) . واتاحت معرفة الذرة الجديدة تفسير الكيمياء العضوية تفسيراً جديداً ، وتفسير خاصيات الاجسام المركبة واسباب تكونها . وهي نظرية الكميات الصغرى ما افضت الى تقدم آخر في النظرية الكيميائية باتاحتها تقسيم العناصر تقسيماً جـديداً الى غازات نادرة (تبقى الكهيربات فيها مرتبطة بالذرة) ، ومعادن (تكثر فيها الكهيربات)، وغير معادن (تنقص فيها الكهيربات) ، واملاح (حدثت فيها مبادلات بين دوالف المعدن وغير المعدن) .

افضى تحليل الحوالد بواسطة اشعة X الى ولادة الكيمياء الارضية التي اتاحت ادراك توزيع عناصر الحوالد،وايجاد بعض النظام من ثم في الحواء البادي في العالم المعدني ؛ واتيح كذلك تفسير خاصيات المعادن الطبيعية ، ومن ثم معرفة طريقة معالجتها معرفــة فضلى ؛ وهكذا اصبحت الصناعة اقل اختبارية ، واكثر مطابقة للعقل .

فــيزياء الفلك وفــيزياء الارض

دفع بعلم الفلك الى الامام بفضل نظريات اينشتاين حين كان باستطاعته الاستفادة من تحســين الآلات البصرية وطرائق التصــوير الشمسي والتنافس الذي قام بين مختلف البلدان من اجل انشاء مراقب متزايدة القوة يوماً بعد يوم (كالمرقب ذي المرآة العدسية الشكل البالغ قطره ٥و٢ م الذي اقيم في السنة ١٩١٨ على جبل « ولسون » ، ومرقب جبل بالومار (كاليفورنيا) البالغ قطره خمسة امتــار الذي ثبت في مكانه في السنة ١٩٤٧ ، ومرقب فوركالكييه الالكتروني الذي انشىء في السنة ١٩٥٥ . وتكــاملت المراقبة المرقبية بما سجلته ونقلته الاجهزة الفضائية ، من صواريخ واقمار صناعيــة ، وبتحليل اشعــة مــا وراء البنفسجي الصــادرة عن الكواكب . فعرفت الكواكب والفضاءات الفاصلة بينها والاشعــة الحرترية واشعــة « غاما » والكواكب السيارة (المريــخ ، الزهرة ، وحتى المشتري) والقمر والعالم الشمسي معرفة فضلى . وهكذا ولدت فيزياء الفلك التي لم تكتف بالجرد والوصف ، بل انتقلت الى مرحلة التفسير .

منــذ السنة ١٩١٨ ، اكتشف ان للمجرّة شكل اسطوانة تحتوي على زهــاء اربعــين مليار كوكب ، وفي السنة ١٩٢٥ ، اكتشف ان هذه الاسطوانة تتحرك على نفسها حركة تجعلها تدور دورة كامــلة كل ٢٠٠ مليون سنة . وبصورة خاصة اتاحت دقــة وقوة المراقب الجديدة درس السحب النجوم اللولبية الموجودة خارج المجرة ، وتحقيق كون هــذه السحب نفسها مجرات اخرى مسافة اقربها الى الارض٨٠٠٠٠٠ سنة ضوئية ؛ واخيراً امكن التحقيق في السنة ١٩٢٩ ان كل هذه السحب تتباعد تباعداً مطرداً . وهكذا فان الكون المؤلف من ملايين السحب هذه

ليس نظاماً ساكناً ، بل يمتد شيئاً فشيئاً . فقادت هذه الاكتشافات الفلكيين وفيزيائيي الفلك الى الطلوع بنظريات حول تكون العالم ، كنظرية اينشتاين في السنة ١٩١٧ الذي يرى ان الكون حجماً متناهياً وحدوداً غير متناهيـــة ، ونظريات ميلين وادنغتون والسوفياتي لاندو الذين ارتأوا ان جزءاً كبيراً جداً من حجم الكون مادة غير مرئية ولا سيا في الفضاءات الفاصلة بين الكواكب ، وخصوصاً نظرية البلجيكي « لومتر » الذي ارتأى ان العالم كله انبثق من ذرة اصلية بعد انفجار رهيب . فهو قد لاحظ ان سحب النجوم البعيدة تبتعد عنـا وان « كل شيء يجري كما لو كانت السحب الكثيرة التي تؤلف كوننا قد تشتتت بعد ان كانت مجتمعة في البداية في ما هو اشبه بذرة كبرى » ، وان الكون من ثم يمتد امتداداً دائماً : هذه هي نظرية الكون الآخذ في الامتداد التي يتبناها اليوم عدد من العلماء . اما اكتشاف الاشعة الكونية المتكونة من انطلاق جسيمات مختلفة من الشمس تفوق قوة نفوذها قوة اشعة «غاما» الى حـــد بعيد ، فان درسها الذي ما زال في منطلقه ينبىء باكتشافات لن تقل اهمية عن اكتشافات اواخر القرن السابق . وان معرفة الاجواء العليا والفضاءات الفاصلة بين السيارات مدعوة اخيراً لان تزداد بسرعة بفضل الاقمار الاصطناعية المقذوفة بواسطـــة الصواريخ . فان سبوتنيك ٢ الذي يزن ٥٠٠ كيلوغرام ، والذي قذف بسرعة ٢٩ ٠٠٠ كيلومتر في الساعة قد اتاح بصورة خاصـــة درس سلوك كائن حي حيث تنعدم الجاذبية ظاهرياً ، واتاح سبوتنيك ٣ درس الاشعة الكونية ، واستطاع « ماس » تصوير وجه القمر غير المرئي من الارض ، وبلغت عدة صواريخ سوفياتية واميركية القمر منذ ١٤ ايلول ١٩٥٩ .

اما علم طبقات الارض (جيولوجيا) فان مبادئه لم تخضع لثورة ولم تتجدد كلياً ، ولكنه وسع نطاقه بسبب الحاجة المتزايدة الى المعادن والبترول والمحروقات ؛ فقـــد تأسست فيزياء الارض التي تدرس – بواسطة الاشعاع بنوع خاص – طبيعة طبقات الارض على عمق كبـــير جداً ، وتساعد اعمال البحث عن الموارد الباطنية مساعدة مجدية جلى . ومنذ التخلي عن نظرية لابلاس القديمة التي فسرت تكون الجبال بتقلص قشرة الارض، ظهرت نظرية توازن اقسام قشرة الارض توازناً نسبياً بفعل اختلافات الثقل النوعي في مواد تركيبها ، ونظرية جنوح القارات لـ « فيجنر » التي كانت موضوع نقاش حاد وانكرت بقوة ؛ وفي السنة ١٩٣٥ ، نظرية « برّين » الذي رأى في العوامل الطبيعية السبب الرئيسي لتغضنات القشرة الارضية ، وفي السنة ١٩٣٩، نظرية « غريغز » الذي عزا اصل النواتىء الى توازن اقسام قشرة الارض وتيارات حـــارة في وسط شبه لزج .

الفصل الثاني

توسع علم الحياة وثورة الطب

ان المواضيع التي يتناولها علم الحياة اكثر تعقيداً الى حد بعيد من المواضيع التي تتناولها الفيزياء ؛ فالعمل المختبري هنا يرتدي طابعاً جماعياً اكثر من الاعمال المختبرية الاخرى ، وبالتالي طابعاً شبه غفل، ويرتدي بالنسبة لكل باحث طابعاً اكثر تخصصاً . لذلك فاننا نرى في النصف الاول من القرن العشرين تكاثر فروعه وتكاثر المؤتمرات الدوليـــة التي تجمع ممثليهـا دورياً : الكيمياء الاحيائية ، الفيزياء الاحيائية ، علم تركيب الخلايا ووظائفها ، الخ. اجل لقد احدثت اكتشافات الآونة المعاصرة ، في مجموعها ، انقلاباً في العلم الاحيائي والتطبيقات المتفرعة عنـه (طب، علم حفظ الصحة ، زراعة) ولكن كلا منها جزئي ولم يؤد الى تلك الانقلابات النظرية التي عرفتها الفيزياء في الآونة نفسها . فقد احرزت تقدمات كبرى، ولكن استمرارها لا يسمح قط بتحديد معالمها الاساسيـــة . يضاف الى ذلك ان الاكتشاف هو في معظم الاحيـان ثمرة ملاحظات طويلة ، واختبارات كثيرة تجري طيلة سنوات عديدة ، مما يستحيل معه عملياً تعيين تاريخ لمعظم المعارف الاحيائية .

الا ان علم الحياة ما زال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتوسع العـــلوم الأخرى ولا سيما الفيزياء والكيمياء ، والسيكولوجيا وعلم الاجتماع ايضاً ، من جهة ، وباحداث التاريخ العام الكبرى من جهـــة ثانية . فهي الازمة الكبرى ما انهضت الابحاث المتعلقة بالتغذية والفيتامينات ؛ وهي الحرب العالمية الثانية ما دفعت الى انتاج البنسيلين ومادة الـ د. د. ت. بكميات كبرى وساعدت على نجاحات الجراحة المدهشة .

ثقانـة ادوات العالم الاحيائي

اتقن العالم الاحيائي ادواته وطرائق معالجة مواضيع دراستـه بمساعدة الفيزيائي والكيميائي ، اما باقتباسه تقنياتهما نفسهـا ، واما باستخدامه اكتشافاتهما من اجل تطوير ادواته : وهكـذا فان المجهر الالكتروني الذي احكه « كنول » و « روزكا » في السنة ١٩٣٢ قد جعل من اجزاء

الجسم الصغرى ، التي افترض افتراضاً من قبل انها عناصر تركيب الكائن الحي ، واقعاً ملموساً ؛ كما جعل من الحمات و « اكالات الجراثيم » واقعاً ملموساً ايضاً . وتكامل المجهر العادي نفسه ، وابرز المجهر المضاء بعض عناصر تركيب الخلايا التي لم تكن معروفة من قبل . وفي الوقت الذي تزايدت فيه طاقة حاسة النظر ، اصبحت ادوات العمل والقياس اكثر دقة . فقد اتاحت بعض الاجهزة الصغرى الفيزيولوجي اجراء ملاحظات دقيقة على الخلية ، فاستطاع منذئذ اكتشاف ظواهر كهربائية لا تتجاوز طاقتها الميكروفولت واجراء حساباته بـ ١/١٠٠٠ من الثانية او من الميليغرام . ووفرت طرائق التحليل الكيميائي الجديدة كذلك دقة بالغة في معرفة تركيب العناصر الكيميائي. وأتاح استخدام العناصر المشعة ومتشابهات الخواص « المحددة » للمرة الاولى ، درس الحياة في ذاتها خلال تجلياتها المختلفة ، فأظهرت متشابهات الخواص هذه حركة جزئيات الذرات داخل الجسم وأتاحت درس التركيب والتلف اللذين يتعاقبان في الانسجة درساً دقيقاً. ومن جهة ثانية استفاد علم الحياة ، عند حده الآخر الذي يتاخم السيكولوجيا وعلم الاجتماع ، من تقانة الجراحة ، ولا سيما من امكانات اجراء العمليات في المراكز العصبية العليا . وهو مدين كذلك لمختبرات السيكولوجيا ، وتقنيات تسجيل وملاحظة وقياس السلوك الحيواني والبشري ، التي تجعل الحد بين علم الحياة والسيكولوجيا غير واضح تماماً .

وهكذا تمين اتجاهان كبيران للبحث بالنسبة لعلم الحياة في القرن العشرين ، اتجاهان متقابلان ، ولكنهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، ويختصان بالنظرية الاحيائية والعمل الطبي والجراحي على السواء : كلما توغلنا في تركيب عناصر الكائن الحي ، نرانا مجرورين الى ان نأخذ بعين الاعتبار تركيب المجموع الذي ينتمي اليه ، اي تركيب الجسم الذي هو جزء منه ؛ ويتكشف هذا التركيب الاخير بدوره عن انه ملازم لتركيب جديد تشترك فيه نماذج اجسام مختلفة والمادة غير العضوية .

ظواهر عناصر الحياة

ان الكيمياء الاحيائية التي ولدت في القرن العشرين تتميز عن الكيمياء العضوية التي ملكت سيدة في القرن السابق ودرست منتجات الحياة : انها درس العناصر الكيميائية الاساسية اللازمة للنشاط الحيوي نفسه ، وطرائق عملها ، وكانت نتيجة هذا الاكتشاف : يستلزم حدوث معظم المبادلات الحيوية مواد كيميائية غير حية يعدها الكائن الحي إعداداً فقط .

جاء اكتشاف الدياستاز اولاً يضع حداً لمجادلة حصلت في القرن التاسع عشر بين باستور وليبيغ ، حين اراد الاول ان يجعل من الاختمار ظاهرة حيوية ، وزعم الثاني ان الاختمار مرده الى جسم كيميائي : ان الاختمار يرد في الواقع الى جسم كيميائي ، هو الدياستاز ، ولكن الدياستاز جسم كيميائي خاص بالكائن الحي . ففي السنة ١٨٩٧ لاحظ « ا. بوشنر » اختمار السكر تحت تأثير الخمير المسحوق ، ولكن طريقة تأثير الدياستازات في التطورات الحيوية الاساسية (اختمار ، تأكسد ، تأليف) لم تدرك الا في الآونة الاخيرة . لقد جرت ابحاث غاية في

التعقيد والتنوع لم تؤد فقط الى ادراك حقيقة دور الدياستازات التي تبين ان عددها كبير جداً، بل الى تعيين عدة فئات اخرى من الاجسام الكيميائية الضرورية للتطورات الحيوية. والدياستازات بروتينات في أغلبيتها او تحتوي على بعض البروتينات على الاقل، ولكل منها عمله الخاص : في كل تطور تتدخل عدة دياستازات، ويعمل كل منها في مرحلة خاصة مسبباً تفاعلاً جزئياً معيناً. وبالإضافة الى البروتينات تحتوي الدياستازات على نسبة ضئيلة من مادة غير بروتينية، تدعى كوانزيم، معدّة لاشراك الجزئيات الصغرى (البروتينات جزئيات كبرى) في سلسلة التفاعلات التي تشكل التطور العام. اما المعادن الضرورية للحيـــاة فتوجد في الجزئيات بحالة « آثار » اعتبرت مهملة (« العناصر القليلة ») من ذي قبل، ولكنها ضرورية جداً : فان فقـــدان الكوبالت في تربة المراعي مثلاً قد يتسبب في سقم الماشية. فلاكتشاف « العناصر القليلة » من ثم أهمية اولية في معالجـــة بعض الامراض، وفي ايجاد نظام متوازن وكامل توازنه وكماله في الزراعة.

هناك مواد غير حية ضرورية للحياة، اكتشفت في القرن العشرين، سوف يكون لها شأن عملي كبير : الفيتامينات. ويبدو انها تعمل على غرار الكوانزيم، اذ ان بعضها معقد التركيب جداً، كالفيتامين ب التي تحتوي على ١٥ مادة على الاقل. وبينما مال العلمـــاء في القرن التاسع عشر الى الاعتقاد بأن كل مرض جرثومي المنشأ، فقـــد برزت اليوم مرة اخرى فكرة المرض المتسبب عن النقص والحـــاجة (داء الحفر، داء الذرة، الخراعة) ، فركبت في المختبرات الفيتامينات الضرورية لمعالجة هذه الامراض. وفي الوقت نفسه، اتاحت معرفة الفيتامينات تعيين نظام غذائي معقول. وقد تولت حكومات الدول المتحاربة، اثنـــاء الحرب العالمية الثانية، تأمين الفيتامينات الضرورية للسكان، فوفر انتظام توزيع العناصر الفيتامينية اللازمة، لسكان بريطانيا، حالة صحية دونها حالتهم الصحية في فترة ما قبل الحرب.

ولكن الجسم الحي يحتاج كذلك، بالاضافة الى المواد التي يجدها في الغـــذاء (اي تلك التي اعدتها اجسام اخرى) الى مواد اخرى ينتجها هو نفسه بواسطة الغـــدد الصماء التي لم تعرف وظيفتها حتى القرن العشرين، اعني بها الاتوار (الهورمونات). فان الاهمية التي أعيرتهـــا الاتوار هي احد مميزات علم الحيـــاة المعاصر، لأن دورها يبرز في معظم الحالات الفيزيولوجية كنمو الحيوانات والنباتات، او في عمل الاعضاء؛ يفرزها احد هذه الاخيرة فتبعث النشاط في عضو آخر، كما هي حال التور الذي يفرزه المفج (فيتسبب بـــدوره بالافراز البنكرياسي)، والادرينالين، والانسولين البنكرياسي، والاتوار الدرقية ... ويتضح يوماً بعـــد يوم الدور الكبير الذي تقوم به الاتوار الجنسية في تحديد المميزات الجنسية الثانوية عند الحيوانات والتفريق بين الاجهزة التناسلية. والى جـــانب الاتوار الحيوانيـــة، دُرست الاتوار التي تؤثر في نمو النباتات. واذا لم يتوصل العلماء بعد الى تركيب الاتوار، النباتية او الحيوانية، فقـــد بات بالامكان منذ اليوم انتاج مواد صنعية تحدث مفاعيل كيميائية مماثلة وتجد لها تطبيقات عديدة

في الزراعة . وبلغ اليوم من معرفتنا لتحول المواد الغذائية في جسم الانسان انه بات بمقدورنا التعبير عنه بصيغ كيميائية .

تبرز كافة هذه الاكتشافات اختصاص ونشاط الجزئيات البروتينية في الجسم الحي . ويتقدم درس تركيب هذه الجزئيات الكبرى بصورة خاصة بفضل امكانية بلورتها وتحليلها بعد ذلك بالأشعة X .

تواصل درس الحياة في الخلايا من ثم في نطاق الجزئيات والنطاق الذري . وكان للنجاحات المحرزة في هذا المضمار ، بالاضافة الى التطبيقات الطبية الكثيرة التي أتاحتها ، أهمية نظرية كبرى بالنسبة لمعرفة الحياة نفسها ولالقاء النور على منشأها في الارض . فتبدو الحياة اليوم وكأنها مجموع تطورات كيميائية في ظل حرارة منخفضة ؛ اجل لقد تحققت معرفة عشرات الالوف من الجزئيات المختلفة ، ولكن ثبات تركيب المادة الحية يلفت الانتباه ، اذ ان جزئيات بعض الاجناس تضم عدداً من الذرات يكاد يكون ثابتاً ، وتبقى على حالها دون تغير بعد سلسلة من المبادلات الكيميائية ؛ وليس تركيبها ما يبقى واحداً فحسب ، بل ان حرارة الخلايا تتبدل في حدود ضيقة جداً ايضاً . ومن جهة ثانية يرافق ديمومة التركيب هذه تبدل دائم في المادة ، اذ ان استمرار التطورات الكيميائية يستلزم تجول الكهيربات (الذي يمكن ملاحظته بواسطة مواد ملونة) في الخلية وفي الجسم الذي هي جزء منه .

الجهاز الحي والاجهزة الحية

كلما وقفنا على اسرار حياة الخلية – التي انحصرت فيها مادة علم الخلايا في القرن العشرين – اضطررنا في الوقت نفسه لأن ننظر اليها ، اكثر فأكثر ، كجزء ملازم للجهاز العضوي . فمنذ اوائل القرن (١٩١٠) تحقق زرع بعض الانسجة المفصولة عن جهازها الحي ، كما ان طبيب العيون السوفياتي « فيلاتوف » الذي اشتهر بزرع القرنية قد استعمل منذ السنة ١٩٣٣ انسجة مبردة اما للتمكن بعض الاضطرابات الوظيفية ، واما لاستعجال اندمال بعض القروح المستعصية ، وخلص من ذلك الى وضع قاعدة تطبق على كافة الاجهزة الحية ، يستمر بموجبها النسيج – النباتي او الحيواني – المفصول عن الجهاز الحي ، في الحياة في ظل حرارة منخفضة ، ويتكيف وفاقاً لعزلته بتغيير تركيبه وباعداد عناصر حية . فاحكمت من ثم زراعة الانسجة وشملت كافة الانسجة المختلفة ، وفي السنة ١٩٣٧ شملت الانسجة النباتية نفسها . لا بل امكن حفظ بعض الاعضاء : في السنة ١٩٣٦ توفق كاريل ولندبرغ الى حفظ الحياة والحركة ، طيلة اسابيع عدة ، في اعضاء بعض الضرعيات (مبيض الهررة وغددها الدرقية) . وامكن كذلك حفظ اعضاء غير متكاملة واجراء اختبارات عليها تهدف الى تغيير تطورها صنعياً .

تستمر هذه الانسجة في الحياة ، لا بل غالباً ما تحدث فيها مبادلات اكثر نشاطاً منها في داخل الجهاز الحي ، وقد تدوم حياتها اكثر من حياة الجهاز الحي كله . الا ان الخلايا المفصولة هذه تخضع في اغلب الاحيان لتطور يميزها عن سواها دون ان تتوصل الى تكوين جهاز حي

جديد يتمتع بحياة مستقلة . فالخلية من ثم مقيدة بنظام عضوي لا يمكن تغييره بمجرد رغبة في تغييره .

فادعم الاجنة الى استنتاجات، انه، لا بل انه بعث في اواخر القرن التاسع عشر الجادلة القديمة بين الحيويين والآليين (« دريش » و « لوب ») . فحوالي السنة ١٩٣٠ ، اثبت علماء الحيـــاة « سبيمن » و « هولتفرتر » و « مانغولو » و « دالك » ان بعض المنبّهات الكيميائية او الآليات ، اذا ما سلّطت على بيضة غير مكتملة ، قد تجعلها تكوّن جهازا حيا كاملا ، بينما قد تؤدّي منبهات اخرى ، تسلط على البيضة في مرحلة لاحقة من مراحل نموها ، الى انماء بعض اجزاء الجهاز الحي ، لا بل الى انماء اجزاء اضافية ايضا (عين ثالثة ، الخ .) . ولما كان دالك قد فسر الاختبارات السابقة تفسيراً آليا ، اي فيزيائيا وكيميائيا ، فانه قد افترض وجود مـــادة كيميائية غير معروفة قد تكون سبب تحول البيضة الى جهاز حي .

قد تكون في الجهاز الحي من ثم طاقة ذاتية تتيح لنا ان نميّز، بالاضافة الى الامراض المتسببة عن الاجهزة الحية الصغرى (الجراثيم) والامراض المتسببة عن الحاجة الى بعض الضروريات ، امراضا قد تنجم عن زوال هذا النظام في جزء معين من اجزاء الجهاز الحي ؛ وقد تكون هذه حال السرطان الذي يبدو اليوم وكأنه نمو غير طبيعي في نسيج معين . ويبدو ان نموه تساعده بعض المواد ، ولكن العلماء لما يتوصلوا الى اكتشاف تطور هذا النمو او اكتشاف علاج ناجع ، غير العملية الجراحية ، قبل فوات الاوان .

الاجهزة الحية الصغرى

افاد درسها افادة كبرى ، خلال القرن العشرين ، من قوة المجاهر الجديدة التي نحن مدينون لها باكتشاف الفيروسات الآكلة الجراثيم (على يد هيريل في السنة ١٩١٨) والفيروسات الراكفة (على يد ستانلي في الســـنة ١٩٣٧) . وان هذه الكائنات لكائنات حيـــة (بالرغم من تحقيق بلورة فيروس « فسيفساء التبغ » في السنة ١٩٣٥ ، ومن نجاح « ج. بوشيان » في زرع الفيروسات الراكفـة في اوساط صنعية) ، لانها تتوالد وتعيش على حساب الوسط الذي توجد فيه . وتبدو الفيروسات ، المفتقرة الى تعضية داخلية ، وكأنها مجرد جزئيات بروتينية لا تتغـــذى بمواد اقل منها اعـــداداً وتعيش عيشة الطفيليات . فطابعها العضوي اصبح اليوم موضوع اخذ ورد ، بينما مال العلماء في البداية الى ان يروا فيها مرحلة وسيطة بين المادة العادمة الحيـاة والكائن الحي . امـــا الجراثيم ، البسيطة التركيب في الظاهر ، فقد اثبت المجهر الالكتروني ان تركيبها ليس على شيء من البساطة . ولعل الجراثيم ذات التغذية الذاتية قريبة جداً من الاشكال الاولى التي ظهرت فيها الحياة على وجه الكرة الارضية (لا بل ان بعضها لا يحتـــاج الى الاوكسجين) ، اذ ان بوسعها العيش في اوساط غير عضوية ، فهي قادرة من ثم على تحقيق الاعمال التأليفية الاساسية التي تضمن الانتقال من مرحلة غير عضوية الى مرحلة عضوية . وباستطاعتنا الحدس في ان الارض تزخر بمثل هـذه الجراثيم وان الحياة كلها ، في النتيجة ، ترتكز اليها على وجه الكرة الارضية . فالاجهزة الحية

العليا مرتبطة بالفعل بأجهزة حية دنيا توفر لها غذاء معداً بعض الاعداد بقيامها بالعمليات التأليفية الاولى التي ما عادت هي لتستطيع القيام بها .

ان درس هذه الاجهزة الحية الدنيا والتطورات الكيميائية الخاصة بها ، وعلم تكون الصخور والمعادن ، قد اتاحا تحديد بعض شروط ظهور الحياة (كضرورة وجود بعض المركبات الكبريتية مثلا) واخراج نظريات تتعلق بتاريخ وطريقة تكون الاجهزة الحية الاولى ... كنظريتي الانكليزي « ج. ب س. هالداين » في السنة ١٩٢٩؛ والاميركي « ا. اوبارين » في السنة ١٩٣٨ .

بالاضافة الى الاهمية التي قد ينطوي عليها – اقله للمستقبل – درس هذه التأليفات الحيوية الاولى بالنسبة لتكوين بعضها صنعياً ، وربما بالنسبة لحل جزئي لمسألة غذاء البشرية ، تركت معرفة الاجهزة الحية الصغرى ، منذ اليوم ، انعكاسات هامة على علم معالجة الامراض الجرثومية بفضل اكتشاف ادوية محاربة الجراثيم الذي اتاحته . اجل لقد اتاح التلقيح من قبل اتقاء بعض الامراض ، ولكن العلماء بحثوا عن وسيلة لبلوغ الجراثيم في داخل الجسم المريض والقضاء عليها بواسطة مادة كيميائية غير مضرة بالجسم : فتحقق اولاً ، في السنة ١٩٣٢ ، على يد « دوماك » اكتشاف المركبات العضوية الآزوتية والكبريتية التي لا تقتل الجراثيم بل تحول دون تكاثرها ، ثم اكتشاف البنسلين المستخرج من نوع من الفطر ، الذي لاحظه العالم الانكليزي « فلمنغ » منذ السنة ١٩٢٨ ، ولم يستفد منه طيلة عشر سنوات . فحين رأى « فلوري » و « تشاين » وعلماء الابحاث في معهد اوكسفورد نجاح المركبات العضوية الآزوتية والكبريتية ، قاموا في السنة ١٩٣٨ بأبحاث منظمة تناولت ادوية محاربة الجراثيم المشتقة من انواع الفطر وعادوا الى ملاحظة « فلمنغ » ؛ وفي السنة ١٩٤٢ ، احكموا العلاج وشفوا به احد المصابين بالتهاب السحايا . ثم انتج البنسلين صناعياً منذ ذاك التاريخ . واكتشفت بعد ذلك ، على يد « واكسمن » بصورة خاصة ، اعداد كبرى من ادوية محاربة الجراثيم استخرجت كلها من عفونات مختلفة : ستربتوميسين (١٩٤٤) ، اوريوميسين ، كلوروميسين .

الاعضاء المنظمة في الجهاز الحي الاعلى

اسهمت اكتشافات الكيمياء الاحيائية خلال القرن العشرين في تقدم المعارف في هذا الحقل بفضل المواد الكيميائية الجديدة التي توصلت اليها وعملية المبادلات بين الخلايا التي اوضحتها . ولكن اكتشاف اعضاء تنظم حركة الدم ، والضغط الشرياني ، والحرارة ... قد حمل على القول ان كل ما في الجهاز الحي مترابط ، وان تغييراً محلياً يستتبع تغييراً في المجموع . فانطلاقاً من ذلك ، وخصوصاً منذ الحرب العالمية الاولى ، اوجبت التقنيات الجديدة (الطائرات ، الغواصات ...) وظروف الحياة غير العادية التي اوجدتها بالنسبة لبعض الافراد ، تحديد طاقة الانسان على مقاومة الضغوط والسرعة والارتفاع في الجو ، الخ. وهكذا اظهرت ابحاث « هالداين » الاب و « هالداين » الابن في انكلترا – التي استخدم فيها احدهما الآخر كأرنب هندي لدرس حدود

مقاومة الانسان في ظروف مختلفـــة – ان تغيرات تركيز بعض الغازات تستتبع تغيرات في الجسم كله : رئتين ، قلب ، اعصاب ، دماغ ... واننا لنجد هنا مظهراً نموذجياً للمنازعة بين الحيوية والآلية اذ ان ج. ب. س. هالداين الاب الذي توفي في السنة ١٩٣٦ ، قد اعتقد بوجوب الاستعانة بما يشبه قوة فائقة الطبيعة لتفسير التناسق العجيب بـــين اجزاء الجسم العضوي في مطابقة هذا الاخير لظروف الحياة غير العادية بينما تمسك ابنه الماركسي ، مراعاة منه لطبيعة هذه المطابقة الكيميائية ، بنظرته الآلية والمادية .

بيد ان الدرس تناول كذلك الاعضاء نفسها التي تؤمن هذا الترابط بين اكثر الاجزاء بعداً في الجسم الحي ، وفي هذا الحقل بالذات اسهم علم الحياة في القرن العشرين اسهاماً مميزاً بواسطة درس نمو الغدد الصماء ووظائفها وامراضها ، وهو علم جديد يتطور تطوراً مطرداً (فالغــدة النخامية مثلا ، وماتفرزه من اتوار معقدة التركيب ، لما تدرس درساً كافياً) . وتخضع الغدد الصماء نفسها ، التي تؤمن بافرازاتها تنظيم الجسم كيميائياً ، لتأثير بعض المواد الكيميائية وتأثير الأعصاب . فليست هي من ثم – مهما كان من شأن دورهـــا – منطلق عمـــل رقابة الجسم وتنظيمه ، لانها تدخل في حلقة تخضع هي لتأثيرها . ويبدو من جهة ثانية انها تؤلف فيما بينها « نظاماً » كاملا تشرف عليه الغدة النخامية ويكون فيه لكل غدة ، بالاضافة الى عملها النوعي، تأثير على عمل الغدد الاخرى . اما خير ما عرف منها حتى اليوم فهو الغـدد الفطرية والغـدد التناسلية والغدة الدرقية . وقد امكن كذلك ابراز الارتباط بين الغدد الصماء والجهاز الكبير الآخر المنظم للجسم اعني به الجهاز العصبي ؛ وقد عرف بصورة خاصة دور الاتوار في الاضطرابات والتأثرات .

بيد ان معرفة الجهاز العصبي اقدم عهداً . ففي القرن التـــاسع عشر ، وتحت تأثير مذهب الارتقاء بصورة خاصة ، توسعت هذه المعرفة توسعاً كبيراً ، ولكن معرفة طبيعة « السائـــل العصبي » قد احرزت تقدماً حاسماً في القرن العشرين . لقد اثبت « اوبان » بشكل نهائي، منذ السنة ١٩٢٦ ، انه كهربائي الطبيعة ، يتميز بطاقة معينة تواترها نسبي للمنبه الاصـلي الداخلي او الخارجي .ومن الناحية الكمية، اتاح استعمال الاجهزة المجسمة الالكترونية قياس الموجات الكهربائية قياساً دقيقاً جداً في المراكز العصبية ، واستخدم تصوير الرأس بصورة خـــاصة لتشخيص الامراض ، كمرض الصرع مثلا . ومن جهة ثانية اتاحت ابحاث بافلوف ومدرسته حول الحركات الانعكاسية الظرفية معرفة العلائق بين النشاط الواعي والحركات العصبية التي لا تبلغ الوعي قط او لم تعد تبلغ الوعي . فالارتباط بين هذا الاخير والنشاط العصبي غير الواعي هو لعمري ارتباط دائم ووثيق . وانما وسع بعض العلماء السوفيات تقنية التوليـد بدون الم بالاستناد الى استنباتات اختبارية من هذا النوع .

اسهمت سيكولوجيا القرن العشرين هنا مع علم الوظائف في معرفة النشاط العصبي. فقدمت له نتيجة الاختبارات الجراة على سلوك الكائنات الحية (« واطسون » في الولايات المتحـدة

٣٣ - برازيليا : المجلس الأعلى .

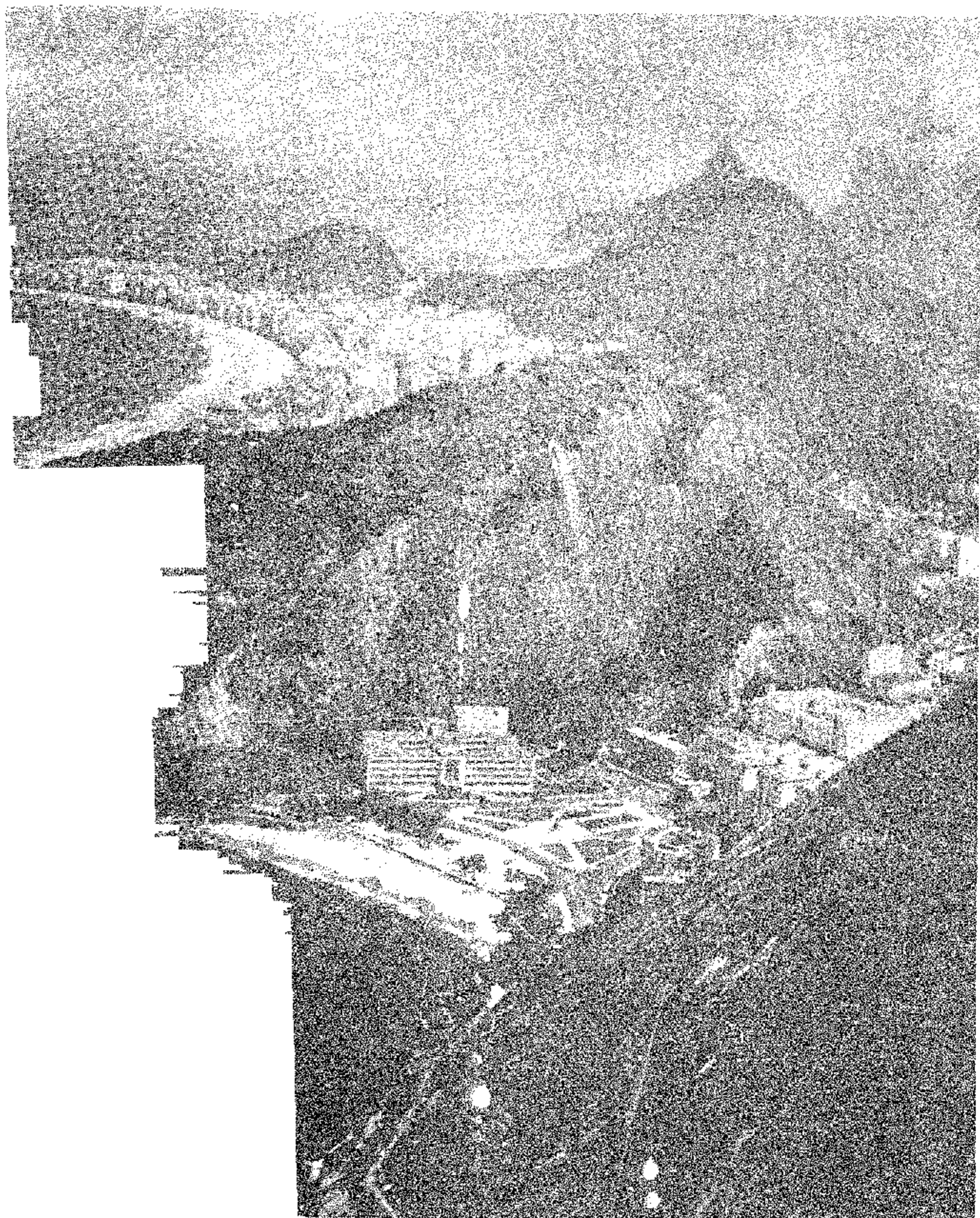

٣٤ — جون ريو وشاطيء كوبا كبانا .

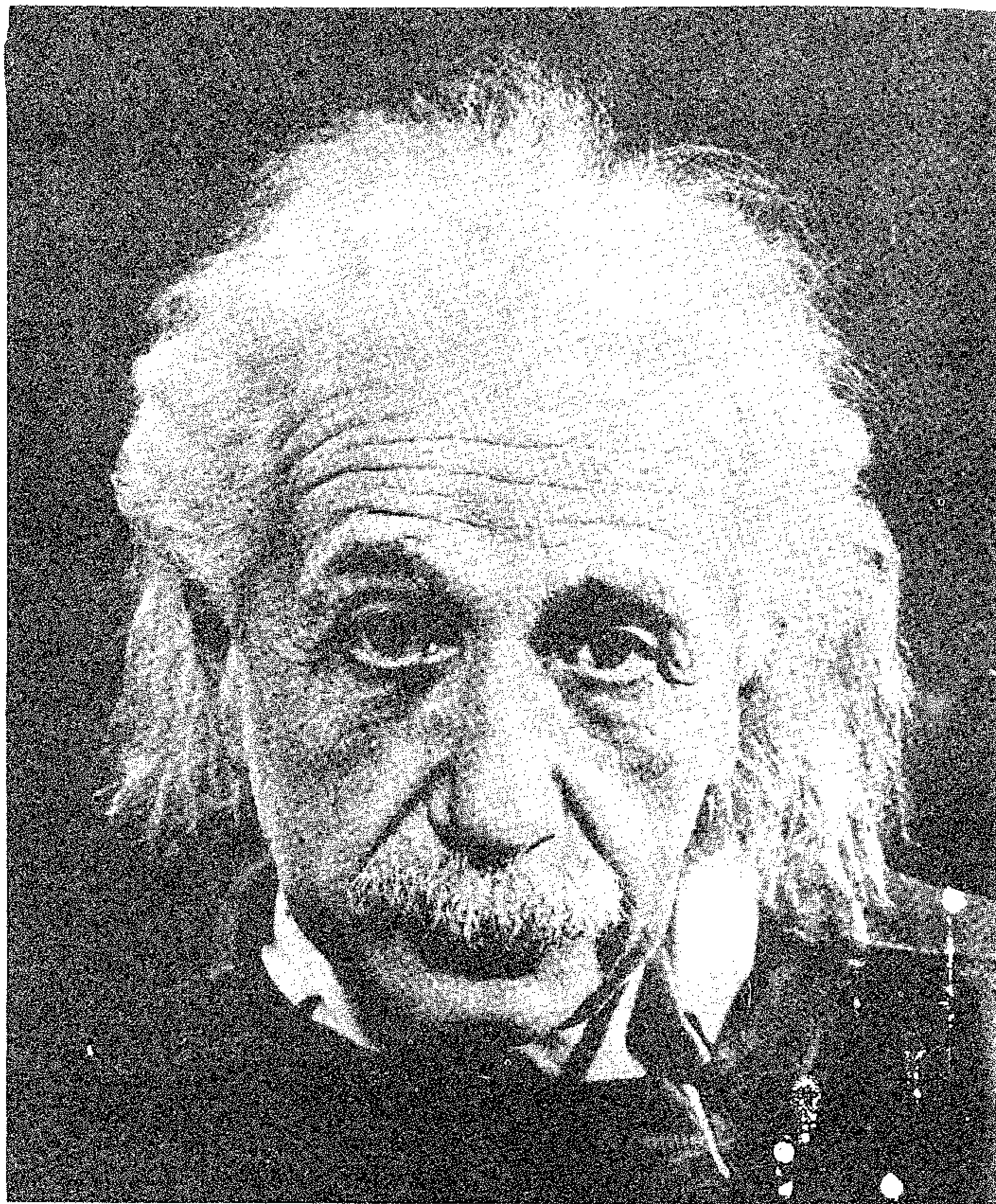

٣٥ - اينشتاين في مكتبه في جامعة برنستون ، قبيل وفاته .

٣٦ - قبة مرصد جبل بالومار في الولايات المتحدة .

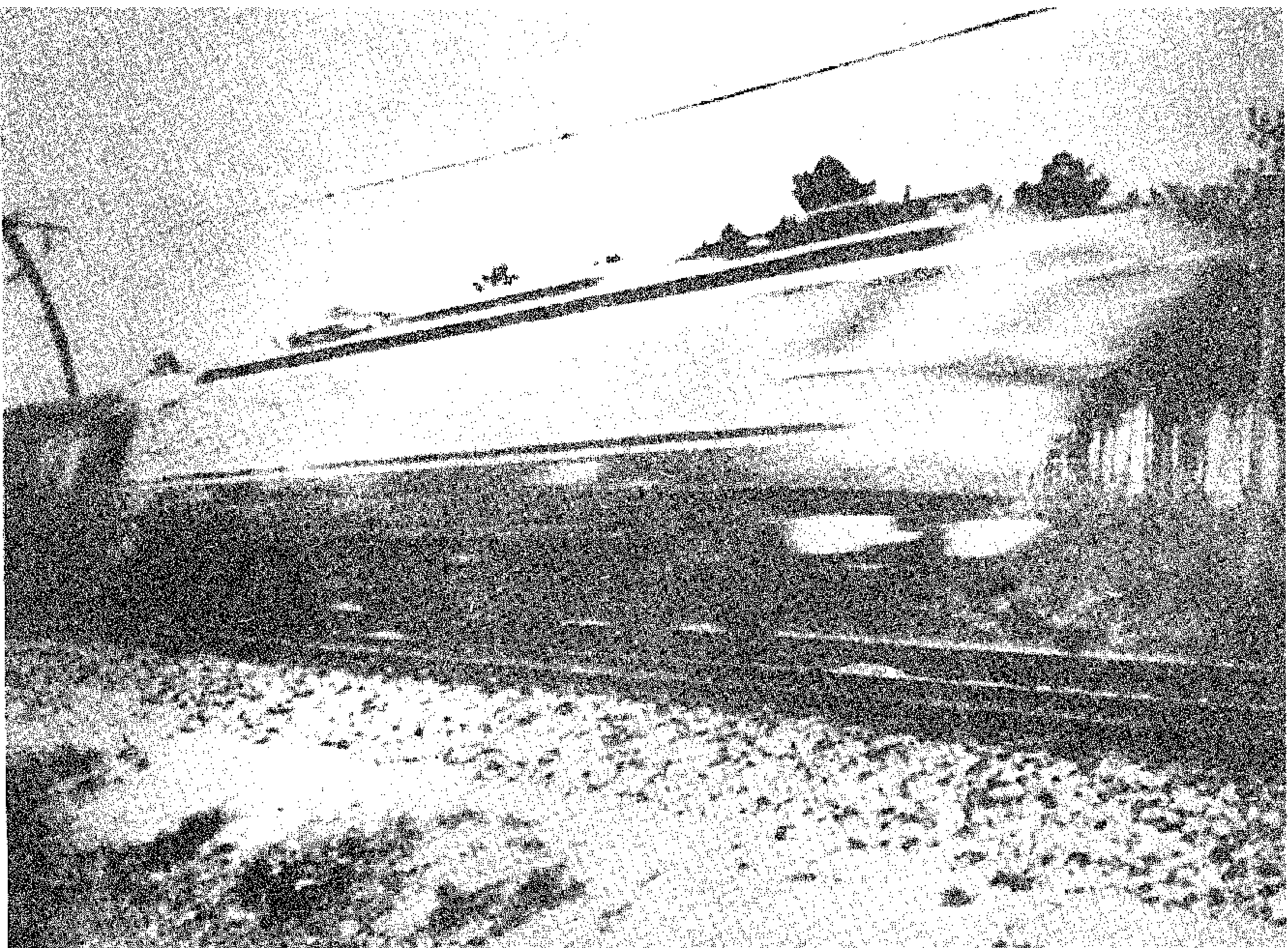

٣١ ــ قاطرة كهربائية فرنسية تضرب رقماً قياسياً عالمياً في سرعة السير على الخط الحديدي

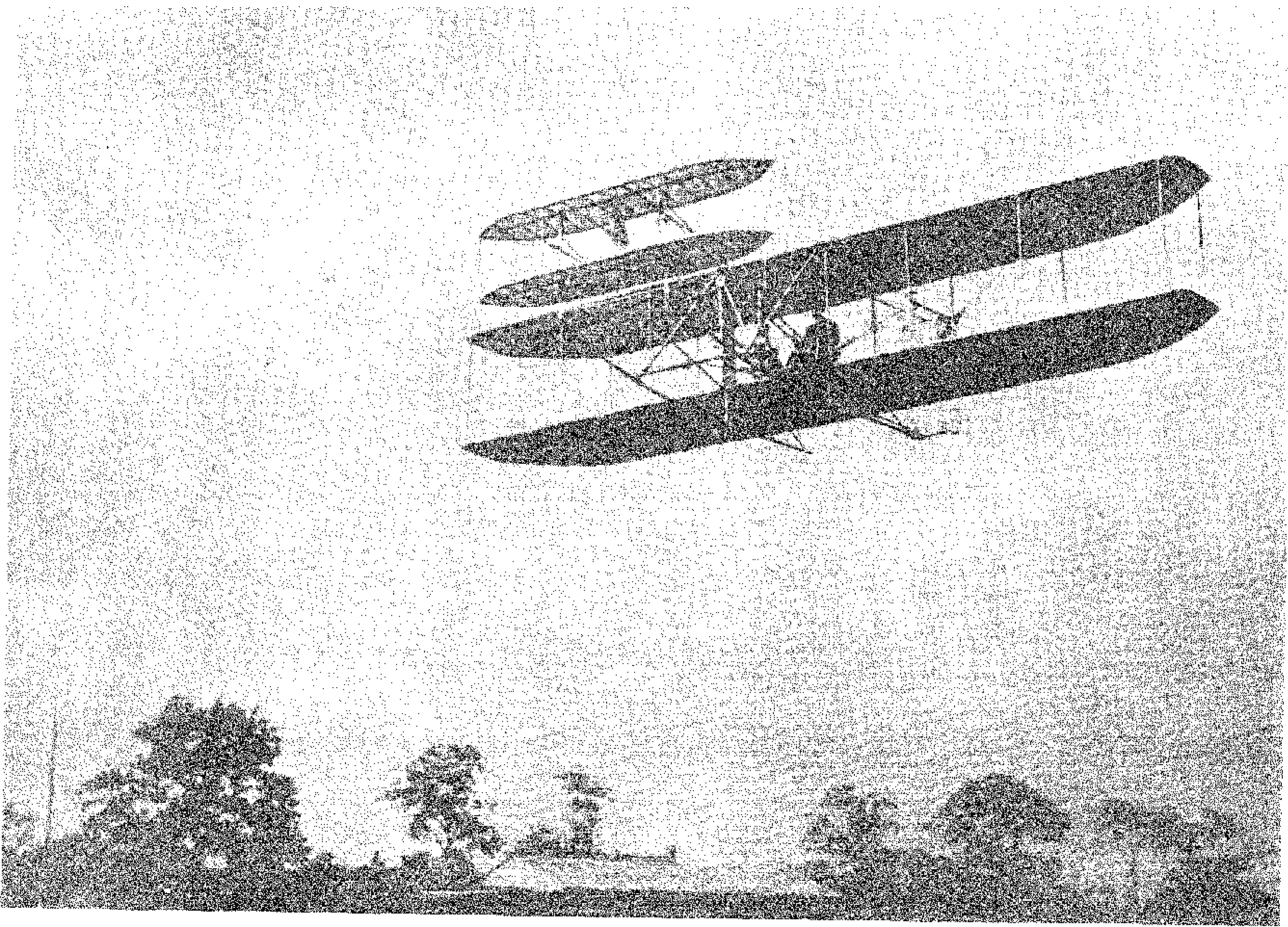

٣٨ — طيران ولبور رايت في معسكر اوفور في ١٩٠٨ .

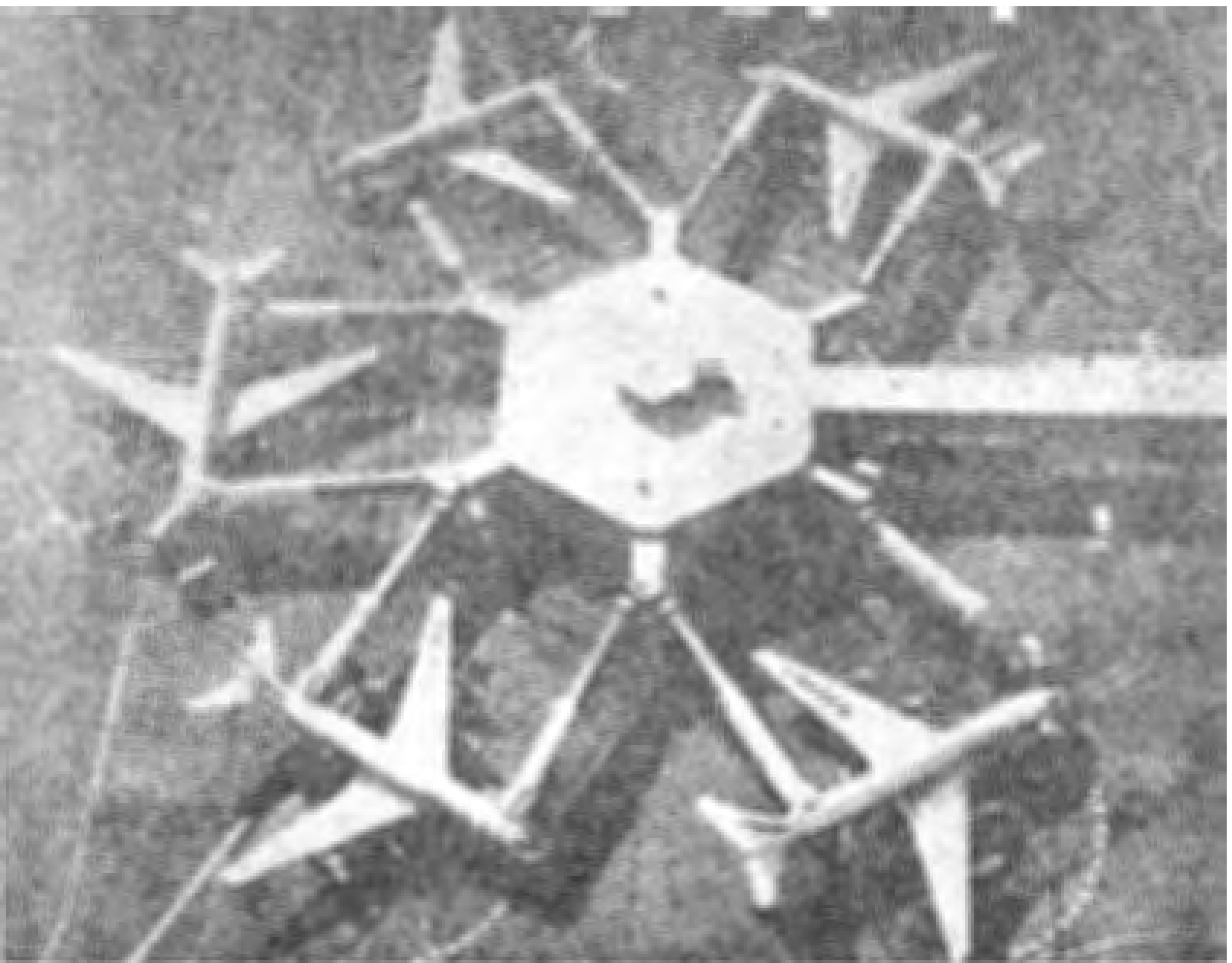

٣٩ – مطار سان فرنسيسكو

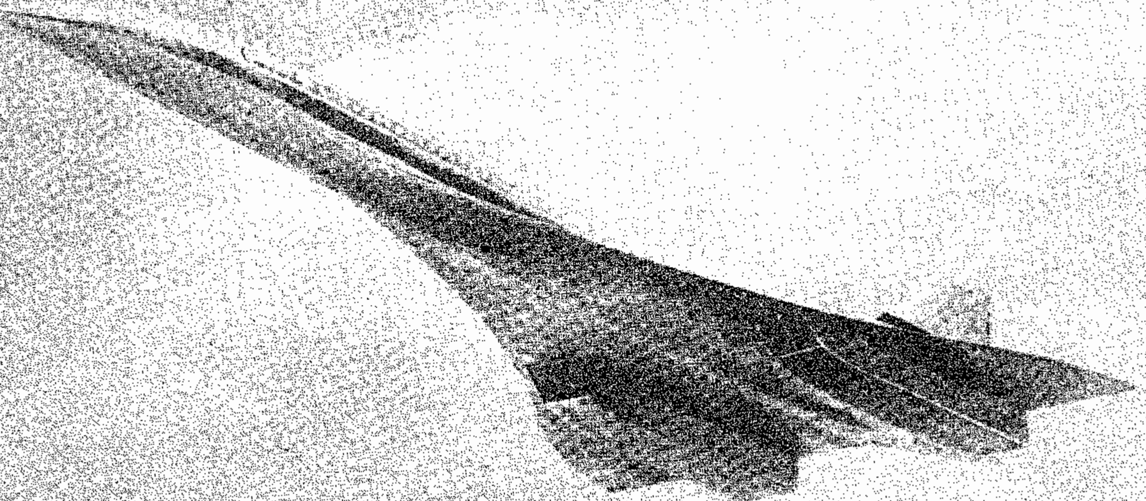

٤٠ – تصميم طائرة الـ « كونكورد » .

٤١ – جسر جورج واشنطن في نيويورك .

١٢ — التقدم الصناعي : الآلة تحل محل الانسان .

٤٣ — مصنع الـ « رانس » لاستثمار طاقة المد والجزر .

٤٤ – مصانع (شينون) النووية .

٥٤ – حصاد الحنطة في احدى مزارع الغرب الاميركي الاوسط واحدى المزارع التعاونية السوفياتية .

٤٦ — حصاد الارز في كمبوديا .

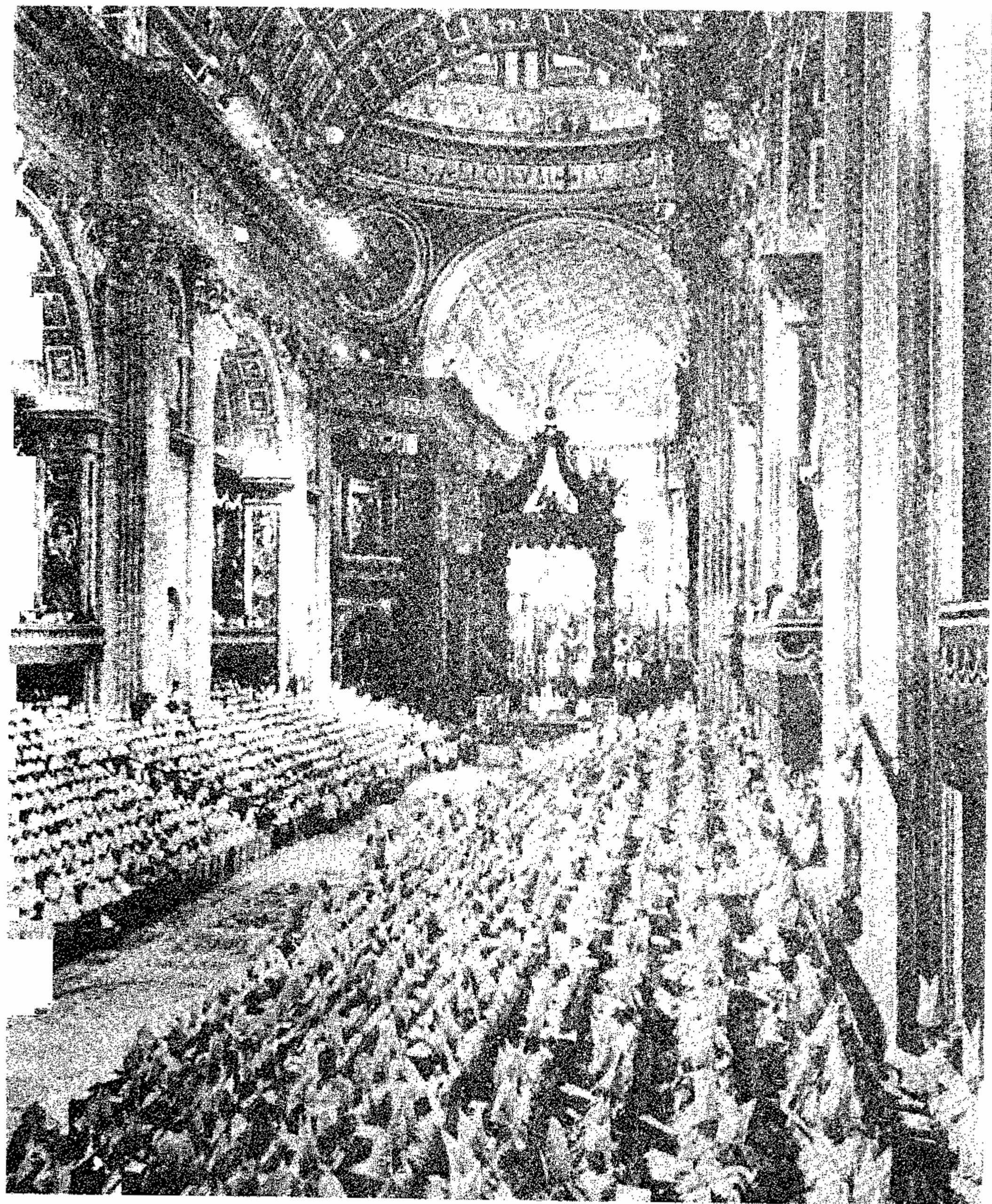

٤٧ — مجمع الفاتيكان الثاني .

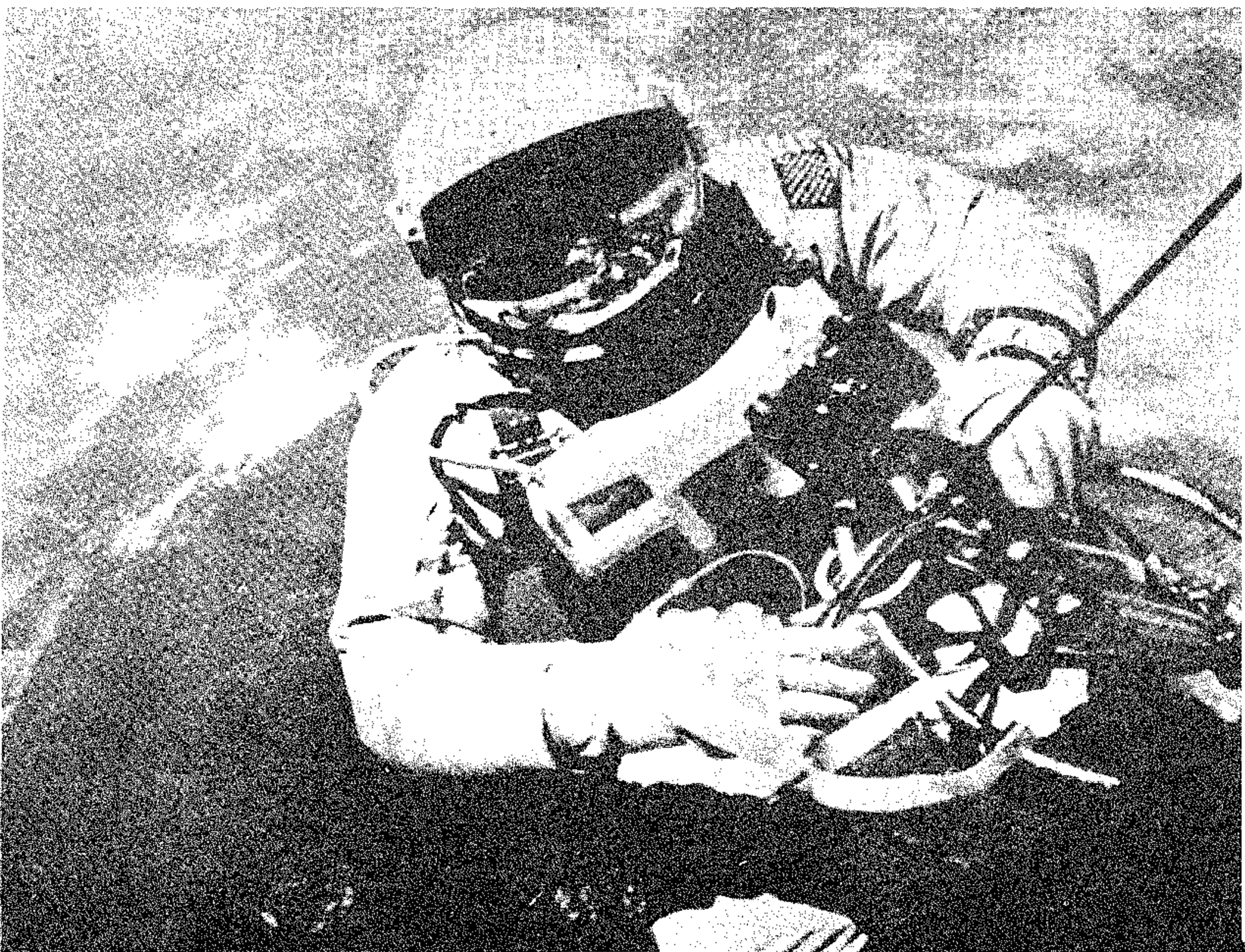

٤٨ – اختبار جيميني ٤ : الاميركي ادوارد هوايت يمشي في الفضاء .

وكوهلر في المانيا) ولا سيا تلك المتعلقة بقابلية الحيوانات لتعوّد حركاً انعكاسية معينة في وضع اختباري معين ؛ ولكن علم الوظائف هو ما يقدم مساعدته لسيكولوجيا في الحقل العملي باتاحته المعالجة الكهربائية بـ « الصدمة الكهربائية » او العملية الجراحية باستئصال بعض فلقات الدماغ او الرئة من اجل شفاء بعض الاضطرابات العقلية .

علم الوراثة

في اواخر القرن التاسع عشر كانت المجادلة حول مذهب الارتقاء آخذة في الهدوء . ولا يعني ذلك ان صعوبات النظرية قد ذللت ، او ان العلماء ادركوا كيفية انتقال العملية التطورية التي افضت الى الانواع الحالية من حلقة الى اخرى . ولكن التطور توطد منذئذ لا كنظرية عمل فحسب ، بل كواقع ايضاً ، بالرغم من فقدان بعض الحلقات في تسلسل الحيوانات المتحجرة التي تعين مراحل الحياة الكبرى . فان الفيلسوف برغسون ، الذي قلما يهتم بالمادية ، قد جعل منه ، في « التطور الخلاق » احدى ركائز فلسفته العامة . ولذلك لم يعد مثار الاهتمام فكرة التطور بالذات ، بل طريقة — او طرائق — حدوث هذا التطور . فان الوراثة ، اي انتقال المميزات النوعية للنوع والسلالة ، بالاضافة الى انتقال المميزات الثانوية كلون الشعر او العينين ، قد اصبحت منذئذ مسألة العالم الاحيائي الرئيسية ، وسوف يتقدم علم الوراثة ويتسع لمحاولة تفسير استمرار الانواع وتحول بعضها الى البعض الآخر . وكان ان العالم الاحيائي الاميركي « ت . هـ . مورغان » قد تعمق في درس وتفسير ملاحظات « مندل » حول استمرار المميزات المنقولة ، وانتهى الى نظرية عناصر النواة الملونة في الوراثة ، التي تربط كافة المميزات الموروثة بعناصر نويات الخلايا هذه القابلة الانقسام الى اجزاء ، او « مولدات » ، ينقل كل منها احدى المميزات .

ولكن سبق لـ « دي فري » ان لاحظ في السنة ١٩٠٠ وجود تحولات فجائية قابلة الانتقال بدا وكأنها تشير الى بعض عدم القرار في « المولدات » . وقد تظهر التحولات — بصورة لا تخضع للمراقبة — تحت تأثير عوامل خارجية ، هي اشعة X ، كما ابان « مولر » ذلك في السنة ١٩٢٧ ، وبعض الاجسام الكيميائية . فتوجب من ثم تلطيف صفة الجمود المفترضة في « المولدات » (وهي مفترضة لانها لم تشاهد قط في العناصر الملوّنة) ؛ لذلك فان مقابلة النظرية القائلة بوجود هذه العناصر ونظرية التحولات الفجائية قد قادت علم الوراثة الغربي الى مفهوم تطوري شبيه بذاك الذي انطوى عليه تعليم « فيشر » و « هالداين » في انكلترا : قد يكون سبب التطور تحولات تحدث اتفاقاً (وتكون مناسبة او غير مناسبة) ؛ وقد تكون المطابقة الطبيعية ما ضمن لبعضها الاستمرار والاعقاب . الا ان هذه النظرية مستحيلة التحقيق اطلاقاً بالنظر الى المدة التي يتطلبها استتبابها ، ناهيك عن ان سلسلة هذه الاتفاقات الناجحة ، تجعل تطورا على مثل اتساع التطور الذي حدث فعلاً امراً قليل الاحتمال جداً . وفي مثل هذه الظروف يبقى عمل الارتقاء خاضعاً لاختبارية معينة ، وسوف يمكن احداث تحولات بواسطة هذا المنبه الخارجي او ذاك ، وانما لن يمكن قط اجراء رقابة حقيقية على النتيجة .

الا ان علم الوراثة في الاتحاد السوفياتي قد سلك في تقدمه طرقاً اخرى ، اكثر طابعاً عملياً ، ان لم تكن اختبارية بحتة ، افضت الى نتائج مضادة وأثارت في فترة الحرب الباردة مجادلة عالمية عنيفة بين علماء الوراثة . اضف الى ذلك ان علم الوراثة الروسي لا يرتبط بثورة تشرين الأول ، اذ ان « متشورين » قد تجرد منذ السنة ١٨٨٨ لاختبارات دقيقـــة على النباتات ، ولا سيا على الاشجار المثمرة ، التي حسنها ونوّع اصنافها بالتهجين والإبار . ولكنه لاحظ ان نجاح طرائقه مرتبط بقابلية النباتات المتفاوتة للتأثيرات الخارجية وان الفسيلة اسرع تأثيراً بمثل هذه العوامل من الغرس الكبير . ثم تبنى العالم الاحيائي السوفياتي « ليسنكو » آراء « متشورين » وواصل تجاربه واجراها على الحبوب بغية الحصول على حصائد ربيعية عوضـــاً عن الحصائد الشتوية ، والعكس بالعكس . فخلص من النتائج المحققة الى نظرية وراثية جديدة مآلها ان ليس هناك من براهين لوجود « المولدات » ؛ وسلم « ليسنكو » بوجود علاقــات بين الوراثة والعناصر الملونة ولكنه ابان ان الوراثة لا تتحقق في اي عضو خاص ، لا في المولدات ولا في العناصر الملونة ، وانها انما تتحقق في الجسم بكليته . فالبيئة بالنسبة للنباتات لا تقل شأناً عن الغـــذاء بالنسبة للحيوانات ؛ انها تؤثر على « سيتو بلازما » الخلايا الذي يلعب كذلك دوره في الوراثة ، ممـــا يستتبع انتقال بعض الصفات المكتسبة .

انطلاقاً من هذه النظرية الوراثية ، انكرت النظرية التطورية السوفياتية دور الاتفاق الذي قال به الغربيون (الداروينيون — الجدد) في التحولات ونجاحها ، وعزت للبيئة دوراً حاسماً . وفي رأي العلماء السوفيات ان التحولات الناجمة عنها تكون مناسبة دفعة واحدة . ولكن هذه النظرية تنطوي كذلك على صعوبات نظرية كثيرة .

ويبدو اخيراً ان ابحاث « جـــاك بنوا » وتلامذته ، باحداثها تحولات في ممـــيزات البط العنصرية ، سوف تعير نظريتي « مندل » و « مورغان » اهمية جديدة ، وربمـــا كان من شأنها الدفع بعلم الوراثة الى الامام دفعاً حاسماً .

ثورة الطب

حدثت بسرعة متزايدة ، وارتفع عدد الاكتشافات ارتفاعاً كبيراً مطرداً ، مما جعل بعضهم يقول ان « تقدم الطب منذ السنة ١٩٢٥ يفوق تقدمه منذ بدء العالم » . فقد أتاحت المعـــالجة بالمواد الكيميائية استنباط مواد لم تكن موجودة في الطبيعة ، ولكنها قادرة على التأثير على بعض الامراض تأثيراً نوعياً ؛ وانبثقت عن علم الحياة آراء جديدة حول طبيعة الامراض ، مما جعـل الطبيب « لوريش » يقول : « لن يبقى شيء من الاساليب الابيقراطية بعد تواري أجيال ما فوق الستين سنة » .

ان تقنيات جديدة كثيرة وتكامل اساليب البحث والادوات قـــد وضعت في خدمة الطبيب وسائل فحص المريض فحصاً دقيقاً كان متعذراً من ذي قبل ؛ وفي الوقت نفسه ، أتاح الاختبار على الحيوانات ، الذي اصبح شاملاً ، درس سلوك الجراثيم في هـــذا المرض او ذاك والاستفادة من ذلك في معـــالجة الانسان ، ومراقبة نتائج هذه العملية او ذاك النظام الغذائي

او تلك المعالجة . وأتاح تصوير القلب منذ السنة ١٩٠٣ وإدخال الجس فيه منذ السنة ١٩٤١ ، معرفة حركة العضل القلبي معرفة فضلى ، كما اتاح تلوين الدم الشرياني وتكثيف الدم الوريدي ، درس الدورة الدموية الشريانية والوريدية درساً دقيقاً . وسهل استكشاف شعب الرئتين بجهاز خاص رؤية هذه الشعب رؤية مباشرة ، كما سهل جهاز خاص آخر فحص المسالك البولية ؛ وأتاح تصوير الرأس ، الذي ابتكره « هانس برجر » في السنة ١٩٢٤ ، والذي يسجل الجاري الكهربائية الصادرة عن الخلايا الدماغية تحديد مركز المرض بدقة ، ومعالجة داء الصرع وداء التهاب السحايا ، كما اتاح تصوير الرأس درس الدماغ بواسطة الاشعة بإيجاد اماكن شفافة بحقن الغاز في الجمجمة . وساعدت الاختبارات المجراة بواسطة السائل المستخرج من انبوبيات كوخ على كشف الاصابة الاولى بالجرثومة المعدية ، الخ .

المفاهيم والتقنيات الطبية الجديدة

ظهرت مفاهيم طبية جديدة اثبتت إخصابها وإثمارها . فان الابحاث الاختبارية التي تولاها « ريلي » بين السنة ١٩٣٣ والسنة ١٩٤٢ قد أبرزت أهمية العامل الوظيفي بالنسبة للعامل التشريحي في المرض ؛ فهو تهيج الاعصاب الاشتراكية ما يسبق التقرح وينتهي الى احداثه . وان هذا الدور الرئيسي للأعصاب الاشتراكية كسبب لكافة امراض الانسجة قد دفع الى اعتماد الطريقة القاضية بشل جهاز العقد العصبية الاشتراكية شلاً موضعياً بحيث يتبدل سلوك الانسجة الوظائفي اثناء المعالجة .

ويصح القول نفسه في الدور الهام المعزو في الامراض النفسانية للاضطرابات التأثرية القادرة على التسبب في امراض عضوية ، « فان عدداً كبيراً من الامراض ربما يرد الى تفاعلات ناجمة عن القلق ومنازعات نفسانية بين الفرد ونفسه » (الطبيب لوريش) .

كلما درست الامراض درساً يتصف بمزيد من التنظيم والدقة ، تكوّن الرأي بأنها ناجمة عن سلوك الخلايا سلوكاً كيميائياً وحيوياً يشوش تحول الجزئيات الذي تقوم فيه الحياة كما سبق ورأينا ؛ فيعتبر الجسم او العضو من ثم مريضين حين ينقصهما مادة كيميائية ما يحتاجان اليها ، او اذا دخلتهما مادة تشوش سيرهما . فقد عرفت بعض الامراض القديمة معرفة فضلى وعرفت حديثاً هوية امراض اخرى بفضل الفحوص المختبرية واتقان طرائق الفحص الطبي . وعولجت كلها بحسب الاصول الطبية وبمزيد من النجاح بفضل المواد التي وضعتها الكيمياء الاحيائية تحت تصرف الاطباء : المصول ، المركبات الكبريتية ، ادوية مكافحة الجراثيم ، الاتوار ، وبفضل استخدام متشابهات الخواص المشعة (في حالة سرطان الدم) ومادة الهيبارين (وقد عزلت بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧) التي تفرزها الكبد وتمنع تخثر الدم وتستعمل في معالجة الامراض الوريدية ، والذبحة القلبية ، الخ . ودرس « لندستاينر » و « وينر » الفئات الدموية المكتشفة في السنة ١٩٠١ ، فاكتشفا في السنة ١٩٤١ « عامل ريزوس » وبيّنا ان الحوادث الناجمة عن عمليات نقل الدم او عن بعض امراض الولادة ترد الى ان بروتينات بعض فئات الدم تفضي الى رسوب خلايا بعض الفئات الاخرى . ولما كانت بروتينات الدم كلية التوعية ، فقد امكن توزيع

الافراد على فئات مختلفة (ريزوس سلبي ، ريزوس ايجابي) ، مما اتاح مراقبة عمليــة نقل الدم وتلافي حوادث الحبل الناتجة عن عدم موافقة الدم بين الزوجين . اما الكهرباء فقــد استخدمت بصورة خاصة في معالجة الامراض العقلية ، وقد شفت الصدمة الكهربائية التي اعتمدها سرلتي من الانهيارات السوداوية والامراض العقلية العاطفية ، كما استخدمت الاهتزازات الآلية لتسكين بعض الآلام (لانها تشل الجهاز العصبي الاشتراكي) ولمعالجة بعض الامراض التشنجية الطابع ولازالة الانسجة الليفية غير الطبيعية . وهنالك طريقة علاجية اخرى ولدت في السنة ١٨٩٠ ، واعيد لها اعتبارها منذ السنة ١٩٤٣ بفضل تلامذة بافلوف، هي « المعالجة بالنوم »، التي بموجبها يفتعل النوم ويُطال كيميائياً ، فيوقف التطورات الاهتياجية التي تحــدث او تطيل عوارض الالم المثيرة للقلق .

واتاح علم الغدد شفاء عدد من الامراض الخطيرة الناتجة عن تقصير غـــدد الجسم البشري المختلفة في القيام بوظيفتها . ففي السنة ١٩٢٢ اكتشف « بانتنغ » و « بست » دواء الانسولين الناجع في معالجة الداء السكري ، وفي السنة ١٩٣٩ عـــالج « ديفسلي » و « باركس » مرض اديسون بحقن الجسم بخلاصة الغدد الكظرية التي حل اليوم محلها الحقن بالاتوار؛ وفي السنة ١٩٤٢ اكتشف « ايفانس » دواء يساعد الغدد الكظرية على الافراز (*A. C. T. H.*) . والحال ان الكورتيزون (١٩٤٦) احـــد اهم الاتوار التي تفرزها ، وان دوره رئيسي في توزيع السكر والزلال في الجسم . وهو يركب تركيباً ويستعمل مع الـ *A. C. T. H.* لمعالجـــة داء المفاصل والحروق الخطيرة والربو والقوباء (اكزيما) . اما الامراض التي تنتج عن نقص الفيتامينات في التغذية والتي تتجـــلى بتوقف النمو ، والخراعة وضعف النظر ، الخ. ، والتي استرعت الانتباه خلال الازمة الكبرى بنوع خاص ، فقد استفادت من الابحـــاث التي افضت الى اكتشاف الفيتامينات : فشفي داء الذرة بالفيتامين *P.P.* ، وداء الحفر بالفيتامين *C* ، والخراعة بالفيتامين *D* ، وفقر الدم بالفيتامين B^{12} ، ...

مكافحة الامراض المعدية

كوفحت معظم الامراض المعدية بنجاح في البلدان المتطورة ، وهي تكافح في البلدان غير النامية حيث تتراجع شيئاً فشيئاً .

وهذه المكافحة هي نتيجة علم التحصّن ضد الامراض الذي يدرس كيفية مقاومة اجزاء الجسم الصغرى لبعض الجراثيم ؛ وقد أتاحت هذه النجاحات تعميم التلقيح الوقائي الذي اصبح إلزامياً في بعض البلدان ، والمـــعالجة بواسطة المصول الحيوانية او البشرية ؛ اما المركبات الكبريتية وأدوية مكافحة الجراثيم ، فان استخدامها قد بدل تطور هــذه الامراض تبديلاً جذرياً وخفض نسبة الوفيات الناتجة عنها . فخلال الحرب العالمية الاولى صينت الجيوش المتحاربة على الجبهة الغربية من الاوبئة . اما السكان المدنيون فقد تمرضوا تمرضاً قاسياً لوباء النزلة الوافـــدة ؛ وخلال الحرب العالمية الثانية صينت الجيوش العامة المدعوة للمحاربة والاقامة في المناطق الحارة بفعل تدابير فعّالة ضد الاوبئة .

منذ اكتشاف اللقاح ضد الذباح على يد « ج. رامون » وإتقانه على يد الطبيب « رو » في السنة ١٩٢٤ ، زال وباء الذباح عملياً من البلدان المتطورة ؛ اما الاوبئة الاخرى كالحمى الصفراء (منذ السنة ١٩٢٧) ، والتقرح الجلدي ، والطاعون ، والتدرن الرئوي ، والكزاز (لقاح رامون) الذي لم يؤذ الجيش الاميركي البتة بينما هو أنزل خسائر كبرى في الجيش الالماني ، والسعال الديكي ، فقد كوفحت كلها بنجاح بواسطة التلقيح ، واذا لم يكتشف حتى الآن لقاح فعال ضد الحصبة ، فقد أمكن تأمين وقاية مؤقتة على الاقل او تخفيف الداء في حال انتشاره . وشُفي من التهاب السحايا التدرني بنسبة ٨٠ الى ٩٠ بالمائة بفضل حمض (*P. A. S.*) الطبيب لهان (١٩٤٦) والـ *I. N. H.* اللذين استعملا مع الستربتوميسين ؛ وشفي من الملاريا بواسطة الكلوروكينين ، والبنتاغوين الذي اكتشف في السنة ١٩٤١ ، والبالودرين الذي استعمل في السنة ١٩٤٥ . وفي السنة ١٩٦٣ ، أدت ابحاث ثلاثة اطباء سويسريين ، بفضل احد مشتقات الـ « نيتروتيازول » الى إحكام وسيلة الشفاء من داء البلهارسيا المتفشي في كافة المناطق الحارة .

كوفحت الامراض المتسببة عن جراثيم لا تفعل فيها المصول بواسطة المركبات الكبريتية وادوية مكافحة الجراثيم : فشفت الاولى من الحمرة ، والتهاب الرئة، والتهاب السحايا ، والامراض المتسببة عن جرثومة السيلان ، والبرص . واثبتت الثانية انها قادرة على التغلب على اخطر الالتهابات : السل ، السفلس، تعفن الدم ، التيفوس ، الحمى التيفية ، الخ. الا ان مقاومة الجراثيم الناتجة عن « تبلدها » ، لا سيما بالنسبة للستربتوميسين الذي ضعف مفعوله الشفائي ، قد ارغمت على استعمال هذا الاخير مع الـ *P A S* .

استخدمت مع اللقاحات والادوية الجديدة اسلحة قوية اتاحت القضاء على ناقلات الجراثيم نفسها في مساحات كبرى : ويأتي في طليعتها ، منذ السنة ١٩٣٣ ، مادة الـ د. د. ت. التي اكتشفها الطبيب السويسري « بول مولر » .

« معجزات » الجراحة

افادت الجراحة ، على غرار الطب ، من تقانة الادوات ومن الاهتمام الذي اعير المريض بعد اجراء العملية ، لا سيما بعد السنة ١٩٣٣ . فان كون كل عملية جراحية تحدث في الجسم – بفعل فظاظتها بالذات – اختلالاً وردود فعل غير مرتقبة غالباً ما تكون نتيجتها وفاة المريض قد حمل الجراحين على اكمال العملية بسلسلة من الاحتياطات التي تسبقها او تليها : تسند ازالة الاحساس (التبنيج) الى اختصاصي يراقب ردود فعل المريض ويحرص على ان لا تتخطى حدود احتمال جسمه : استعمال مسكنات بواسطة جهاز يتيح اعطاءها مع الاوكسيجين ، حقن الاوردة بمواد تزيل كل تقلص عضلي ، منع حركة شعب الرئتين والحجاب الحاجز ، وحتى توقيف التنفس مؤقتاً وحجر الجهاز العصبي – الغذائي ، قبل وبعد العملية ، انعاش بواسطة نقل الدم . وقد انتشرت هذه الطريقة الاخيرة انتشاراً عظيماً ، وباتت تستعمل على نطاق واسع ، فيؤخذ الدم من « واهبين » اختياريين احياء ، او

حق من جثث الموتى في بعض البلدان ، بعد ان اكتشف « جودينيه » ان دم الجثث يبقى حياً زهاء اثنتي عشرة ساعة بعد الوفاة وانه يمكن حقنه في اوردة الاحياء . كما ان اكتشاف فيلاتوف المتعلق بحفظ اعضاء وانسجة الجثث في مكان بارد ، قد سهل شق الزراع الابارات مع استخدام الاعضاء والانسجـــة المأخوذة من الكائنات الحيـــة ؛ فانضافت من ثم الى « مصارف الدم » « مصارف اعين » ، وعظام ، وانسجة ، وشرايين ، الخ.

واخيراً وسعت الجراحة نطاقها الذي شمل كافة الاعضاء ونجحت في اجراء عمليات غاية في الجسارة : في الرئتين ، والدماغ ، والقلب ، والشرايين ، والعروق ، والجهاز الهضمي ، والمسالك البولية ، والعظم ...

ان هذه الاكتشافات ، وتحسينات التقنيات العلاجيـة والجراحيـة ، وتقدم وسائل النقـل التي اتاح المعالجة بسرعة ، وتنظيم اتقاء وكشف الامراض ، لم تخفف آلام المرضى وتحسن مصير ملايين البشر فحسب ، بل اتاحت اطالة معدل عمر الانسـان ويسرت من ثم ارتفاع سكان الكرة الارضية ارتفاعاً كثيفاً .

الفصل الثالث

انطلاقة التقنيات

ان كلمة « التقنية » ، المرتبطة تقليدياً بالآلة ، قد رأت معناها ، منذ القرن العشرين ، يتسع حتى يشمل تنظيم العلائق البشرية ، السياسية والثقافية والاقتصادية نفسها ؛ والمقصود بذلك ، إن لم يكن مكننة العالم ، تنظيم المشاريع الاجتماعية على الأقل : فهناك تقنية الاعلان والدعاوة ، كما ان هنـــاك تقنيات تتعلق بالنظام الاجتماعي للمشاريع الاقتصادية ، وتقنيـــين اختصاصيين بالشؤون الالمانية او الروسية . وما ذلك سوى نتيجة تزايد التخصص الصارم وتعاظم شأن التعليم المهني اللذين قسما النشـــاط البشري الى حقول لا يتعدى حدودها اختصاصيو الحقول المجاورة ، ونتيجة اتساع المنجزات التقنية في الحقل الصناعي اتساعاً غريباً ايضاً .

١ — التقنيات الصناعية

التقى العلم والتقنية في المصنع حيث اصبحا اشد ارتباطاً وثيقـــاً وحيث كرّست الصناعة اعتمادات متزايدة الاهمية لتعهد مختبرات الابحاث ومستخدميها الكثيرين . وقد نما ترابطهما نمواً مطرداً ، فتقدم العلم التقنية تارة وتأخر عنها تارة اخرى ، ولكن نجاحات احد الحقلين كانت شرطاً لنجاحات الحقـــل الآخر . وبصورة عامة تأثرت التقنيات الصناعية بالاكتشافات التي قلبت المعـــارف المتسلطة على الفيزياء المعاصرة ، وبتطلبات الاقتصاد ايضاً . وغالباً ما كانت ظروف السوق والمزاحمة والكسب باعثاً للاستحداثات الهامة في الحقل التقني ولتقدمه : وهكذا فان « اماهة » المواد الدهنية التي حلّت حلاً صحيحاً على الصعيد التقني لم تعرف بعـــد معرفة جيدة على الصعيد العلمي .

عمل العلم والتقنية معاً على اتقان انتاج المصنوعات بالجملة ، وخفض اسعار كلفتها بانتقاص حجم النفايات واستخدام مشتقات المادة المصنوعة ، وزيادة انتاج العمال بالمكننة والحركة الذاتيـة . وتسترعي الانتباه هنا الصناعات التي لم تحدث فيها الاكتشافات الهامة تحولاً كبيراً . فالمرجل

البخاري مثلاً يخضع ابداً للمبادىء القديمة نفسها ولكنه اصبح اكبر قياساً وأوفر انتاجاً ؛ وارتفع الضغط من ١٢ – ١٥ كيلوغراماً في السنتيمتر المربع الى ١٢٠ وحتى ١٧٥ ، وارتفعت الحرارة القصوى من ٢٥٠° – ٣٠٠° الى ٥٠٠° – ٥٢٥° . وقامت من جهة ثانية صلة وثقى بين الصناعات المستقلة نسبياً حتى ذاك التاريخ ، لا على الصعيد التجاري كما في السابق ، وفي العلائق بين الميّار والزبائن ، بل على صعيد الانتاج نفسه ، اذ ان الوقود قد اصبح مادة اولية لعدد كبير من الصناعات ومصدر طاقة على السواء ؛ او ليست مصافي البترول بعد اليوم مراكز صناعة كبرى للتركيب فيها ، بفضل جمع الغازات الناجمة عن الحرارة ، الجزئيات المختلفة ، ابتداء من الحوامض العضوية حتى انواع المطاط التركيبي ؟

وفي المناجم زيدت طاقة العامل الاستخراجية والانتاجية باستخدام الطرائق الآلية ، وتنظيم وسائل التنقية في المنجم نفسه ، وشبكة خطوط مواصلات مع اجهزة السحب الكهربائي او بالهواء المضغوط ، وتوسيع الاروقة وقطر الآبار ، وبناء التجهيزات بالفولاذ والاسمنت المسلح فوق البئر ، وتحسين الانارة ، واستخدام مراوح ومضاغط هوائيــة قوية ... كما ان الفحم الحجري حوّل الى غاز في مصانع كبرى تتيح توفير نقل الغاز الباهظ الأكلاف والاستفادة من المواد الناجمة عن التحويل . فمنذ السنة ١٩٣٠ وزّع الغاز في رينانيا ، فوفرته منطقة الرور لعشرة ملايين مستهلك ، وحدث الشيء نفسه في بلجيكا حيث وفرته ثلاثة مصانع بين « مونس » وتورنيه لمنطقة كبرى من البلاد ، وفي فرنسا حيث سدّت محطتا « دويل – ماليزون » مسدّ مصانع صغرى كثيرة في المنطقة الباريسية .

عرفت بعض الصناعات نمواً كبيراً جداً ، كصناعة التبريد التي جددت منذ السنة ١٩٢٠ تجارة المواد الغذائية ، والتي لم تقتصر بعد اليوم على الشؤون الغذائية وعلى انطلاقــة البرادات المنزلية ؛ فقد شملت تبريد قاعات السينما وغرف العمليات ، وأجهزة تكييف الهواء ، ومصانع الافلام الفوتوغرافية ، والصناعات التي تحتاج الى استخدام الآزوت ، وحفر الآبار بتجليد التربة بغيــة الاستغناء عن الهياكل الخشبية الباهظة الاكلاف ... وباتت صناعة الكهرباء أهم مصدر للطاقة ، فحققت تقدماً مشهوداً نادراً ، وتقدمت معها الصناعات الكيميائية التي يبدو انها ستصبح اولى صناعات الحضارة المعاصرة بضمها اليها نشاطات اساسية أقدم عهداً : المناجم ، الانسجة ، المطاط ، الصهر ، وحتى الزراعة ، بواسطة الأسمدة ، لانها تشرف أكثر فأكثر على الخامات التي تستخدمها كافة هذه النشاطات . وهي قد وسّعت نطاقها توسيعاً كبيراً في حقل التركيب والمنتجات البديلة بصورة خاصة ، فحققت في بعض الاحيان ثورات حقيقيــة كانت انعكاساتها عميقة جداً على حياة الانسان اليومية .

الصناعة التركيبية

نشأت في القرن العشرين مع انتاج المواد التلوينية والعطور والمــواد الصيدلية انطلاقاً من الهيدروكربير ، ثم جرت في انطلاقتها الصناعة الكيميائية المعدنية القديمة . وبعد السنة ١٩٢٠ ، عززت الابحــاث والصناعــات التركيبيــة ،

ولا سيما على ايدي الألمان الذين حققوا تقدماً كبيراً في هذا المضمار منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وعلى ايدي انكلترا والولايات المتحدة التين انتقلت فيها طرائق اوروبية كثيرة الى الصعيد الصناعي : كصناعة المطاط التركيبي ، وانواع الصابون المختلفة ... وقد تحققت المواد التلوينية المختلفة منذ السنة ١٩٠٠ بفضل المواد التلوينية الناهزة المئة عداً التي كانت تنتج في ذاك التاريخ . واتجهت الابحاث الى ضمان ثبات الالوان ومطابقتها للمنسوجات التركيبية الجديدة : نيلون ، برلون ، روفيل ، اورلون ، التي استلزمت الواناً جديدة .

تحققت العطور التركيبية في المختبر في اوائل القرن ، ثم بلغت مرحلة الانتاج الصناعي ، وحلت محل مواد التجميل القديمة الدهنية المنشأ مواد اخرى عضوية المنشأ (ارز) ، كالورفولين ، وحلت محل الذرائر النشوية ذرائر كيميائية المنشأ (ستيارات الزنك واوكسيد التيتان) .

الا ان اهم تطور هو ذاك الذي طرأ على الصناعة الصيدلية (في ١٩٥٠ : ١٨٠٢ طلب تأشير في فرنسا وحدها) . فقد ظهرت كميات كبرى من العلاجات الجديدة التركيبية : مزيلات الاحساس (اثير ، بنج) ، مزيلات الشعور بالالم ، مخدرات (مورفين) ، منومات، مسكنات الاعصاب، مزيلات الحرارة(اسبيرين)، مطهرات ومزيلات العفونة(فينول، مركوروكروم). ادوية تركيبية لمكافحة الجراثيم (اكثر من ١٢٠ في السنة ١٩٥٠) ، واخيراً مبيدات حشرات تركيبية كثيرة كال د. د. ت.. وظهرت كذلك منتجات تركيبية على جانب كبير من الأهمية: النشادر الذي انتج بحسب طريقة هابر – بوش منذ السنة ١٩١٣ ، البولة التركيبية (التي تستخدم في « الزجاج الممتنع الكسر » ايضاً) ، والميتانول (انتج في السنة ١٩٢٣ مركباً من اوكسيد الكربون والهيدروجين) الكثير الاستعمال في الصناعة ، والبنزين التركيبي الذي انتج بتكرير الفحم الحجري والخشب المتفحم والقار .

المواد العجينية هذه هي الصناعة التي تميز القرن العشرين بسبب نموها الحديث المدهش وارتباطها الوثيق بالبحث العلمي النظري . فنحن هنا امام مواد تركيبية تحل محل المواد الاولية الطبيعية وقد تفضلها نوعية . ومنذ تحقيق السلولوييد في السنة ١٩٦٣ ، ثم الغالاليت المصنوعة من الفورمول وكازيين الحليب ، والباكليت (وقد حملت اسم مبتكرها « باكلند » في السنة ١٩٣٦) ، ارتفع عددها ارتفاعاً كبيراً حتى ناهز الالف . وهي قابلة الافراغ في القوالب والتلوين وتقبل الاشكال المرغوبة، وقد صنعت بصورة خاصة في البلدان الغنية بالفحم الحجري والكهرباء (التي توفر الطاقة) ، اي في الولايات المتحدة وانكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا والاتحاد السوفياتي ، وحيث توجد شركات قوية باستطاعتها توظيف اموال طائلة في الابحاث المختبرية (« ا. ج. فاربن » التي تنتج الـ « بونا »، « ديبون دي نمور » التي تنتج النيلون ، و « رون – بولنك » التي تنتج اسيتات السلولوز ...) . وسواء كانت المواد حيوانية المنشأ (كازيين الحليب) ، ام نباتية المنشأ (القطن والخشب اللذان تصنع منهما السلولوز) ، ام معدنية المنشأ (باخضاع الفحم الحجري للحرارة ، وتكرير القار او البترول لانتاج الاتيلين

الذي تستخرج منه المواد العجينية الفينيلية) ، فان كافة هذه المواد العجينية تصبح مواد اولية يمكن استخدامها في صناعات اخرى . بيد ان ثلاثة ارباعها تستخدم في التطبيقات التقنية الكهرباء ، فمصنوعات الفينول تسد مسد المصنوعات الصينية في صناعة الاسناد العازلة ، والبوليستيرين يعزل الاسلاك البحرية ويغطي اسلاك التلفزة والاسطوانات المتنمنمة الكسر ، والصموغ الفينيلية انزلت المطاط عن عرشه ، بينما حلت الصموغ الميتاكريلية محل الزجاج في الادوات البصرية، وسد اسيتات السلولوز مسد النيتروسلولوز القابل الالتهاب في الصناعة السينمائية ، وسد البلكسيغلاس مسد الزجاج في السيارة والطائرة .

وحلت محل المنسوجات الاصطناعية التي تحققت منذ اواخر القرن التاسع عشر بتحويل مادة اولية طبيعية : الحرائر الفيسكوزية ، واللانيتال الكازييني (١٩٣٥) وكافة المصنوعات المماثلة المصنوعة في مختلف البلدان(اللاكتوفيل الهولندي ، والبولان البولوني، والتيرلان الالماني...) ، منسوجات عجينية تحققت باستخدام بعض عناصر قار البترول والغازات الناتجة عن احماء البترول : الفينيون المصنوع من المشتقات الفينيلية ، والنيلون المتين الذي تحقق في المختبر ايضاً ، في السنة ١٩٣٥ واصبح مادة تجارية منذ السنة ١٩٣٨ ، والروفيل الذي صنعه « رودياسيتا » في السنة ١٩٤٥ ، والترغال (١٩٥٠) والريلسان (١٩٥٢) .

يشكل المطاط التركيبي اليوم منافساً عنيفاً لمطاط المغارس . فقد انتج بسعر مرتفع جداً (ثلاثة او اربعة اضعاف سعر المطاط الطبيعي) خلال الحرب العالمية الاولى في المانيا المحاصرة من قبل الحلفاء ، ثم تقدم انتاجه الى ان بلغ سعر كلفة رابحاً ، كما يثبت ذلك في الآونة الاخيرة انتقال المصانع التي انشأتها الحكومة الاميركية الى الصناعة الخاصة ؛ وفي السنة ١٩٥٥ بلغ انتاجه ثلث الانتاج العالمي ، في حين ان مغارس جنوبي شرقي آسيا قد تقهقرت تقهقراً بعيداً . وهو يصنع من البوتان والاسيتلين والكحول ، ويوجد منه انواع مختلفة : الـ « بونا » ٨٥ ، والـ « بونا » ١١٥ ، والبربونام ، وهي المانية ، والدوبرين والتيوبرين وهما اميركيان ، والـ $S. K. A.$ والـ $S. K. B.$ السوفياتيان ... وخصوصاً الـ « بونا S » الذي اصبح المطاط الاميركي النموذجي خلال الحرب العالمية .

لم يحدث القرن العشرون ثورة في تقنيات الصناعة الكهربائية الكيميائية ـ كانت معظم مبادىء طرائق تحليل المواد واعداد المعادن وتنقيتها بالمجرى الكهربائي مكتشفة من ذي قبل ـ ولكنه وسعها توسيعاً كبيراً . فان الحاجة الى الهيدروجين الخالص اللازم لتركيب النشادر ، والاسمدة ، ولتخشين الزيوت ... ، قد اوجب زيادة انتاج الهيدروجين المعروف بالتحليلي وانتاج الاوكسيجين التحليلي ايضاً المستخدم في اكسدة المركبات العضوية وتحليلها . وهكذا تم تحويل انواع السكر بالتيار الكهربائي الى حالة اجسام كحولية الوظائف من اجل الحصول على الـ « سوربيت » ، وخصوصاً الـ « المانيت» الذي يدخل في صناعة المتفجرات، واعداد اليودوفورم والحمض الكبريتي ، الخ. وحين اكتشف « اوري» ومعاونوه الهيدروجين الثقيل في السنة ١٩٣٢

بتكرير الهيدروجين السائل على مراحل ، حصل بطريقة التحليل بالجرى الكهربائي على الماء الثقيل الضروري لمولد الطاقة الذري . واتاحت الطريقة نفسها انتاج الكلور والهيبوكلوريت وخصوصاً الكلورات والبركلورات المستخدمة في المتفجرات .

الصناعات التعدينية

تطورت هذه الصناعات نحو انتاج معادن اكثر نقاوة يوماً بعد يوم ، وتوصلت مثلا – بواسطة مصعدات من رصاص ومهابط من الومينيوم ممحص – الى تحقيق زنك تحليلي تجاوز نقاوته ٩٩٫٩٩٣٪ . فقد توجب اكتشاف تقنيات جديدة بغية تحقيق معادن مزجية تتصف بخصائص آلية وفيزيائية – كيميائية معينة : معادن مزجية خفيفة جداً (مغنيزيوم وزنك وزركونيوم) معدة لمحركات الطائرة تتصف بمقاومة آلية كبرى؛ انواع فولاذ خاصة تنتج بمزج الحديد بالنيكل ، او الكروم ، او الكوبالت ، او التونغستين ، او الموليبدين ، او الفاناديوم ، لا تصدأ ، وتقاوم التآكل ؛ اعداد معادن نادرة خالصة اعداداً صناعياً .

اما التقنيات المكتسبة سابقاً كالصهر ، والتحويل ، والمعادن غير الحديدية ، فقد قام تحسينها باستخدام المزيد من الآلات ورفع الانتاج : زيدت قياسات المصاهر والافران الكهربائية زيادة كبرى ، كما زيدت قياسات المحوّلات والمراجل . حُسن انتاج الوقود المعدني . لم ينقل المعدن السائل بعد اليوم الا بالانابيب او بالهواء المضغوط ، وزيدت قياسات اجهزة التحويل ، وبرز اتجاه عام نحو الحركة الذاتية الميكانيكية .

تناولت التقنيات صناعة الفولاذ ايضاً : إسالة غير منقطعة للفولاذ ، تصفيح غير منقطع للطائل ، مكابس التطريق تبلغ ٢٠٠٠٠ طن وتحل محل المطارق المائية . وكانت التفاعلات الكيميائية في المعادن السائلة ، اي المرتفعة الحرارة ، وتوازنها حين تكون جامدة ، موضوع دروس مختبرية اتاحت معرفة تركيب المعادن معرفة فضلى . وقد استخدم علم المعادن لهذه الغاية كسر اشعة X الذي اكتشفه « فون لو » والكسر الالكتروني الذي اكتشفه دافيسون وجرمر في السنة ١٩٢٧ . وتحسنت النتائج بعد ذلك بفضل كسر جزئيات الذرة الخالية من الشحنة الكهربائية . وبفضل المحول الذري والمولد الذري اخيراً ، اتاح الاشعاع الاصطناعي كشف الاجسام الغريبة في المعادن ، التي لم تتوصل الطرائق الكيميائية او الطيافية الى تعيين كميتها .

زيادة سرعة وسائل النقل

من مميزات التقنية العصرية كذلك استمرار زيادة سرعة وسائل النقل . وقد تحققت هذه النتيجة ، هنا ايضاً ، بفضل تعاون وثيق بين العلم والتقنية الصناعية ، وادخلت على الحياة اليومية تغييرات عميقة . فان علماً جديداً ، هو علم درس الظواهر التي ترافق حركة الاجسام في الهواء ، يبحث ، من اجل خدمة كافة وسائل النقل ، عن اجدى الاحتياطات والاشكال للحد من مقاومة الهواء للحركة . وقد استفاد من تقدم طاقة المحركات وانتاجها ، فاتاح تحقيق سرعة ما كانت لتدخل ببال احد منذ نصف قرن . فان سرعة السيارة القصوى التي بلغت ٢١٢ كلم في السنة ١٩١١ و ٢٢٩ في

السنة ١٩٢٣ ، قد بلغت ٦٣٥ كلم في الساعة في السنة ١٩٤٧ . وهي تقانة الآلة البخارية ولا سيا تقانة القاطرة الكهربائية ما اتاحتا القطار بلوغ سرعة ١٠٣ كلم في الساعـــة في السنة ١٩٣٢ وسرعة ٣٣١ كلم في الساعة في السنة ١٩٥٥ ، في حين ان وزن المقطورات قــد ارتفع ارتفاعاً كبيراً .

الا ان الطيران هو ما عرف اعظم تقدم : ٢٤٧ كلم في السنة ١٩١٩ ، و ٣٣٠ منـذ السنة ١٩٢١ ، و ٤٠٠ كلم في السنة ١٩٢٣ ، و ٤٤٨ كلم في السنة ١٩٢٤ ، و ٥٤٨ كلم في السنـة ١٩٣١ ، و ٧٠٩ بطائرة مائية في السنة ١٩٣٤ ، و ٧٥٥ بطائرة من طراز مسر شميدت في السنة ١٩٣٩ . وقد تحققت هذه النتائج بزيادة قوة المحركات : من ٣٠٠ حصان بخاري في السنة ١٩١٩ الى ٤٦٣ في السنة ١٩٢٣ ، و ٦٠٠ في السنة ١٩٢٤ ، ثم ١٠٠٠ . وفي الوقت نفسه اطيل مدى الطيران بفضل ازدياد طاقة المحركات على تحمل الحرارة والتزود بالوقود في الجو (منـــذ السنة ١٩٣٠) ، وارتفعت ارقام الارتفـــاع القياسية من ٣٠٠٠ متر في السنة ١٩١٩ الى ١١ ٠٠٠ في السنة ١٩٢٠ ، و ١٧ ٠٠٠ في السنة ١٩٣٠ .

وهكذا امكن تحقيق رحلات جوية بين القارات المختلفة : بين الارض الجديدة والآسور ، ثم بين الارض الجديدة وبريطانيا العظمى ، منذ شهر ايار ١٩١٩ ؛ بين لشبونه وريو دي جانيرو في السنة ١٩٢٢ . وفي السنة ١٩٢٧ اخيراً ، اجتاز لندبرغ الاطلسي الشمالي بين نيويورك وباريس في ٣٥ ساعة على طائرة قوة محركها ٢٢٠ حصاناً. وفي السنة ١٩٢٨ ، اجتازت الاطلسي الشمالي من الشرق الى الغرب ، في ٣٦ ساعة، طائرة من طراز جونكر . وتكررت بعد ذلك الرحلات الجوية عبر الاطلسي : في السنة ١٩٣٨ اجتازت طائرة المانية المسافة بين برلين ونيويورك ذهاباً واياباً . وفي السنة ١٩٣٤ ، قطعت المسافة بين سان فرنسيسكو وهونولولو . وفي السنة ١٩٣١ تحققت الجولة حول العالم في أربعة ايام . وارتفعت ارقـــام الطيران القياسية فوق البحر والقارات من ٢٠٠٠ كلم في السنة ١٩٢٠ الى ٥٣٩٦ في السنة ١٩٢٦ ، و ٧٩٠٠ في السنة ١٩٣٠ ، و ١٠ ٠٠٠ في السنة ١٩٣٥ .

حين تقدمت الراحة والسلامة متوازيتين ، أتاح تعاظم حجم الطائرات واستخدام معادن أقل وزناً وأكثر مقاومة يوماً بعد يوم ، استعمال الطائرة للغـــايات التجارية استعمالاً متزايداً . فبعد ان استعملت لنقل البريد، استعملت لنقل السلع والمسافرين . وأنشئت خطوط منتظمة بين المدن الكبرى . ١٩١٩ : لندن – باريس . ١٩٢٠ : تولوز – كازابلانكا . ومنـذ السنة ١٩٣١ ، نقل ٤٧٠ ٠٠٠ مسافر و ٤ ٠٠٠ طن من البريد عن طريق الجو الى الولايات المتحده .

ان البحث عن مزيد من السرعة حـــمل صانعي الطائرات على التفكير بالدفع العكسي الى الامام الذي يغني عن مروحة لم يعد من مجال لتحسين انتاجها . ومنذ السنة ١٩٢٦ أحكم محرك ينفث غازاً خارق السرعة ويدفع بالطائرة عكسياً الى الامام بواسطة حنفيـة غازية ومروحة ؛ ولكن الطائرة النفاثة الاولى التي استخدمت محركاً يدفع بالطائرة عكسياً الى الامام بواسطة

عنفة غازية دون مروحة ، قد صنعت في السنة ١٩٣٩ ، وكانت من طراز هنكل . وفي السنة ١٩٤٠ استخدم الانكليز محرك الدفع العكسي « هوتيل » . ومنذ السنة ١٩٤٣ توفرت لأسلحة الطيران المتجابهة كلها طائرات نفاثة . ثم ظهرت محركات الدفع العكسي (١٩٤٩) المرتكزة الى نظرية الانبوب التي وضعها رنيه لويس منذ السنة ١٩١٣ ومُنح « رنيــه له دوك » شهادة باستثمارها في السنة ١٩٣٦ . فانه بفضل بساطته وخفته يتيح بلوغ سرعة تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ كلم في الساعة ، اي سرعة تقارب السرعة الصوتية (بين ٩٠٠ و ١٤٠٠ كلم في الساعة) وتجاوزها (اكثر من ١٤٠٠ كلم في الساعة) . وقد تحققت بالفعل سرعة تتيح اختراق « جدار الصوت » (١٢٢٧ كلم في الساعة في السنة ١٩٥٢) ، وفي السنة ١٩٥٣ حققت طائرة اختبارية اميركية ارخيت على ارتفاع كبير جداً سرعة ٢١٣٥ كلم في الساعة. وبلغ «شارل جاجر» سرعة ٢٦٠٠ كلم في الساعـــة على طائرة من طراز « بل ١ . X » ، بينما جاوزت طائرة اخرى من طراز بل ٢ . X ارتفاع ٣٨٠٠٠ متر . وأتاحت سرعة الـ ٧٠٠ كلم التجـــارية ، بواسطة الكومت ١ التي تنقل زهاء ٤٠ مسافراً ، قطع المسافة بين لندن وطوكيو في ٣٦ ساعة، وبين نيويورك ولندن في أقـــل من ٨ ساعات في السنة ١٩٥١ ، وبين لندن وكندا في ١١ ساعة ، وبين لندن والرأس في ١٢ ساعة و ٣١ دقيقة ، بمعـــدل ٧٨٢ كلم ، في السنة ١٩٥٣ ، وقطعت الـ ١٠٤ .T. U السوفياتية في ٣ ساعات ونصف الساعة المسافة بين موسكو وباريس بمعدل ٨٠٠ كلم في الساعة وحطت على مسافة ٧٠٠ متر (١٩٥٦) ، وفي السنة ١٩٥٨ اخــيراً ، قطعت الكومت ٤ المسافة بين لندن والقاهرة (٣٥٢٠ كلم) في ٤ ساعات ونصف الساعة . وفي السنة ١٩٥٣ انشىء عــبر القطب خط جوي بين اوسلو وطوكيو على مسافة ١٢٠٠٠ كلم افضى الى توفير ٥٠٠٠ كلم بالنسبة للخطوط العادية . فقد ابرز الطيران الذي تجاوزت سرعتــه سرعة الصوت الاهميـــة القصوى للمناطق القطبية . ففيها تمر الخطوط الدائرية المباشرة التي تؤمن مواصلات سريعة بين أهم مراكز الحضارة المعـــاصرة ، الموجودة في اميركا الشمالية واوراسيا الشمالية الى الشمال من خط العرض الاربعين . وقد استتبع تحقيق هذه السرعة الكبرى تحويلاً هاماً في شكل الطائرة التي بات جسمها اصغر حجماً يوماً بعد يوم ، ونقل جناحاها اكثر فأكثر باتجاه المؤخرة وأعطيت شكل السهم وحتى شكل المثلث (اجنحة بشكل الدلتا) . وهكذا مهّدت الطريق لولادة علم الطيران عبر الفضاء بواسطة الصواريخ كالـ «سبوتنيك» السوفياتي (٣) والـ « اكسبلورر » الاميركي ؛ فقد بلغ السبوتنيك الاول ارتفاع ٩٤٧ كلم ولم يهبط الا بعــد ٩٢ يوماً ، اما الثالث الذي كان وزنه ١٣٢٧ كيلوغراماً ، فقد بلغ ارتفاع ١٨٨٠ كلم ، كما ان « السفينة القمر » (٤٥٤٠ كيلوغراماً) التي اطلقت في ايار ١٩٦٠ ، وارسال صاروخ ، بعـــد ذلك بقليل ، يزن ٢١٠٠ كيلوغرام ، ويحمل حيوانات يمكنه اعادتها الى نقطة معينة ، قد حلا مسألة العودة الى الارض ومهدا الطريق لرحلات بشر الى الفضاء قام بأولاها السوفياتي غاغارين في شهر نيسان ١٩٦١ ، فكانت رحلته فاتحـــة سلسلة من الرحلات (١٧ بتاريخ كانون الاول

١٩٦٥) المتزايدة الطول مرة بعد اخرى التي قام بهـــا رجلان وحتى ثلاثة رجال في اجهزة مرتفعة الوزن ارتفاعاً مطرداً (حتى ١٤ طناً) قادررن على تغيير مدارها وعلى الخروج منهـا في الفضاء . وكان آخر طيران اثار المزيد من الاهتمام طيران الاميركيين وولتر شيرا وطوماس ستافورد اللذين اقتربا ، في « جيمني ٤ » ، حتى مترين او ثلاثة امتار من الكبسولة «جيمني ٧ » التي كان فرانك بورمن وجومز لوول يدوران فيها حول الارض منذ اثني عشر يوماً .

هندسة العمارة المعاصرة

لعل الحرص على الافادة من التقنيات والمواد الجديدة ، واستحداث اطار حيـــاة للبشر مناسباً للظروف التي أرغمتهم الحضـارة المعاصرة على العيش فيها ، تجلى تجلياً عظيماً في حقل هندسة العمارة . فالمطلوب من التنظيم المدني المعاصر إعادة الانسـان الى الطبيعة ، والسماح لابن المدينـة بالتملص من المدنيـــة العادمة الانسانيــة والحصول في « المدينة المشعة » على خـــير اتزان وظروف مريحة . لذلك يجب ان تضم عدداً من الاحياء يتألف كل منها من عدد معين من « الكتل» المبنيـــة بشكل صليب و Y ، بغية توفير المزيد من الهواء والنور للسكان ، يلغى فيها طبعاً كل فناء داخلي . وبفضل ارتفاع البناء ، يمكن الاحتفاظ بساحات كبرى غير مبنية – ٤/٣ المساحة العامة – تنشأ فيها الساحات والملاعب الرياضية ، الخ. وتنشأ ، في كل مجموعة « كتـل » ، المدارس والمنتديات وقاعات الاجتماع الكبرى والمحلات التجارية ، الخ. اما موحي هذه الآراء فهو « له كوربوزييه » الذي نشط للامذته ، اثنــاء الحرب ، في اميركا الجنوبية (او سكار نيماير بنى جامعة ريو ، وخصوصاً العاصمة الجديدة برازيليا) ، ومنذ السنة ١٩٤٥ في اوروبا (قصر اوليفتي في ميلانو ، ١٩٥٤) . وارن خير تحقيق مميز لافكاره هو ، بالاضافة الى قصر العدل في شنديغـــار ، في البنجاب (١٩٥٦) ، كنيسة « نوتردام – له – هو » في « رونشان » ، وبناء يضم ١٦ دوراً في مرسيليا ، معد لايواء ١٦٠٠ نسمة بحسب مبدأ « الوحدة السكنية » ، حيث تطـل المساكن المصونة من اصداء الاصوات والضجة على البحر والجبل وتتوفر فيها الشرفـات الداخلية الواقية من الشمس ، والزجاج المزدوج ، والهواء المكيف ... والخدمات المشتركة المعدة لتسهيل معيشة السكان : مخازن التموين ، والملاجيء النهارية للاطفال ، والملاعب ، والمغسلة الجماعية ، ومركز البرق والبريد والهاتف ، وغرف الاصدقاء التي تؤالف الفندق ، الخ .

ساعدت حاجات الانهاض الكبرى على تصنيع البناء ، وتقدم انتــاج اجزاء البناء الجاهزة : فبات المصنع ينتج الجدران والسقوف والجبهات والسلالم ، وأدخلت قساطل المــاء والتدفئة المركزية في الاجزاء الجاهزة عند صنعها . ولم يتناف هذا الانتاج المسبق وتنوع الابنية وجمالهـا كما يتضح ذلك من مجموعة الابنية المدرسية في هرتفور شاير حيث يتفق تنسيق الابنية اتفاقـــاً مدهشاً والمنظر العام وطبيعة الارض . والى جانب المواد الجديدة التي تحققت في اوائل القرن : الفولاذ ، والاسمنت المسلح (نذكر هنا نجاحات « ترفي » و « جيو بونتي » : ملعب فلامينيو في روما ، قاعة المؤتمرات في الاونسكو في باريس) ، والزجاج ، تقدمت المصنوعـــات العجينية

والالومنيوم (بناء شركة مونتيكاتيني في ميلانو ، ١٩٥١) والاخشاب المعدة لوحات من الالياف او لوحات مضغوطة او مفرغة في قوالب تحل محل الاخشاب المنشورة .

مكننة وحركة ذاتية

اذن دخلت الآلة كافة فروع النشاط الانساني ؛ فالمناجم استثمرت آليـــاً اكثر فأكثر سنة بعد سنة ، والارض استصلحت بواسطة الجرافات ، وصناعة البناء استخدمت الرفوش الآلية لحفر الاساس ، والسفن والشاحنات حملت بواسطة الرافعات الآلية ، واجريت عمليات الحساب المعقدة واعمال حفظ الاوراق في الادارات بواسطة الآلات الالكترونية . لقد باتت قليلة العدد جداً الحرف التي تستلزم عمـــلا فردياً لا يحتاج الى مكننة .

نجم عن كل ذلك تطور عميق في ظروف عمـل العمال وحتى في ظروف حياتهم . فان تقسيم العمل داخل المشغل ، ومكننته بعد ذلك ، كانا قد افضيا ، انه في الانتـاج بالجملة ، الى تفكيك العمل وتجزئته ، واسناده على هذا الشكل الى آلات بسيطة ، دقيقة ، تقوم طيـلة ايام السنة بالعملية نفسها ، ويديرها عمال يكلفون ضبط سيرها ويتحكمون من ثم تحكماً متفاوتاً بنسقها. ومن جهة ثانية كانت « الادارة العلمية » التي ادخلها المذهب التايلوري ، قد نظمت العمل الفردي وفرضت بعض الحركات الخاصة ، بعض الايقاعات المحددة « علميا »بعد دروس منظمة وقياسات زمنية مدققة ، فأتاح بذلك زيادة انتاج الادوات واليد العاملة . وفي المرحلة التالية، جمعت هذه الآلات المختصة بعمل معين جمعاً متسلسلا، بحيث يقوم العامل ابداً بالعملية نفسها ، وانما وفاقاً للنسق الذي تفرضه الآلة . فأفضى العمل المجزأ هنا ايضاً الى « هباء من العمليـــات الاولية » بحيث ان عاملا يضع المسمار اللولبي في مكانه وآخر يدخل فيه الحلزونة وآخر يثبته . اما في المرحلة الحالية فتجمع هذه العمليات كلها بواسطة آلات ذاتية الحركة تعمل فيها عدة ادوات في آن واحد دون تدخل العامل ، كالمخرطة ذات اللوحـــة الاسطوانية ، وخصوصاً « الآلة — الناقلة » التي تتيح اجراء عمليات مختلفة في القطعة نفسها ، بفضل انتقال القطعة انتقالا ذاتياً من مركز عمل الى آخر . ففي مصنع « ناش » مثلا ١٤ وحدة متسلسلة تقوم بـ ١٧٩ عملية (وتوفر ٨٠ ٪ من اليد العـــاملة) ؛ وفي مصانع فورد في « كليفلند » ، استطاع المدير ان يقول : « مسابكنا هي الوحيدة في العالم التي لا تمس فيها يد انسان الرمل المعـد لصنع القوالب ، ما لم يكن مسه من قبيل الفضول » . لا بل ان الرقابة الالكترونية تصبح اكثر شمولا يوماً بعد يوم : اجهزة تراقب ، ذاتياً ، دخول السوائل في المنفات ، ومحاكاة الصفائح المعدنية الخارجة من آلة التصفيح ؛ واجهزة تصحيح ذاتي توقف الآلة في حال الخطأ ، لا بل تصحيح الخطـأ ، وتغني عن العامل الذي كان يراقب الآلة الذاتية الحركة . وفي ولاية اوهايو اقليم تبلـغ مساحته ٩٠٠٠ ميل مربع تزوده بالتيار الكهربائي تسعة معامل يؤمن انتاجها وتوزيع التيار تأميناً آلياً جهاز واحد من طراز « جيدا » .

ويصح القول نفسه في صناعة المنسوجات حيث نرى الانوال العاملة ذاتيـاً ، التي حلّت محل

الاقوال البسيطة الاولى التناوبية ، تتخلى عن مكانها ، بدورها ، للاقوال المتصلة الذاتية الحركة كلياً ، التي يتم فيها الافتتال والالتفاف في آن واحد ، والتي تتوقف آلياً حين تنقطع اللحمة او السدى . كما ان الآلات ، في اعمال التوضيب ، تتولى الحساب ، والوزن ، وايداع السلع والصناديق ، والتحزيم ، الخ . ، دون أية حاجة لعمل الانسان .

٢ – التقنيات الزراعية

ان ظروف الانتاج الزراعي ، على غرار ظروف الانتاج الصناعي ، آخذة بالتبدل تحت تأثير العلم العميق .

آلات ومحركات

احدثت الآلات والمحركات ، بموازاة تقدم الصناعات الكيميائية وعلم الحياة ، ثورة حقيقية في هذا الحقل كما في الحقول الاخرى . فقد ابتدأت هذه الثورة في القرن الثامن عشر ، وأخذت تمتد بخطى واسعة منذ ثلاثين سنة بفضل محرك الانفجار الذي انتقص أهمية الجر الحيواني ، والمحرك الكهربائي الذي وفرت مرونته واستخداماته المختلفة تعباً مضنياً وبدأ عاملة كثيرة في اعمال المزرعة (قاطعات جذور ، معالف رمناهل آلية ، مقطعات قش ، رافعات أثقال ، أجهزة لدق الحبوب واختيارها ، وتجفيف الاعلاف ، والحلب بواسطة الكهرباء ، الخ .) . وأضيفت الى المحاريث والآلات الحاصدة ، وأمشاط تجفيف الاعشاب ، والآلات المطردة الاتقان التي تجمع السنابل وتدقها حيث تجمعها ، آلات تجمع « عرانيس الذرة » وتفرّكها ، وتزرع البطاطا وتقلبها وتقتلعها وتضعها في اكياس . وآلات اخرى تقتلع الشمندر وتنظفه . واكتملت هذه المكننة بظهور الجرارة التي اختلفت نماذجها باختلاف طبيعة الارض والتربة ومساحات الاستثمارات . وهي الآلة – والطائرة احياناً – ما وزعت الاسمدة وفرّت مواد ابادة الحشرات ومكافحة الامراض الفطرية في الكروم والحدائق والحقول . واتاحت الطائرة كذلك بذر الحبوب في مساحات واسعة وفي وقت قصير جداً واسقاط الامطار الاصطناعية (شيفر ، في السنة ١٩٤٦) . ولكن الآلة لم توفر كسباً في الوقت واقتصاداً في العمل المضني فحسب ، بل انتظاماً وسرعة في العمل ايضاً . كما مكنت من توسيع حقول المزروعات في البلدان الجديدة . فبين السنة ١٩٣٠ والسنة ١٩٥٠ ارتفع عدد الجرارات الى ثلاثة اضعافه في العالم : في الولايات المتحدة ، ٥ ملايين مقابل مليون بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ . وفي بريطانيا العظمى ٤٠٠ ٠٠٠ مقابل ٢٠ ٠٠٠ في ١٩٣٠ و ٦٠ ٠٠٠ في ١٩٣٩ . وفي المانيا الاتحادية ، ٣٠٠ ٠٠٠ مقابل ٢٠ ٠٠٠ في ١٩٣٩ . وفي تركيا ٤٠ ٠٠٠ مقابل ١٠٠٠ في ١٩٣٩ . وارتفع عدد الآلات الأخرى ، ولا سيا الآلات الحاصدة – الدارسة ، ارتفاعاً كبيراً جداً ايضاً . وهكذا فان معظم الاعمال الزراعية في البلدان التي اعتمدت المكننة ، قد نفذت بواسطة الآلات : ٩٥ ٪ من الحبوب في الولايات المتحدة تجمع بواسطة الآلات الحاصدة – الدافقة ، و ٣/٤

الذرة الصفراء بواسطة القاطفات الآلية ، و ٢/١ القطن في بعض المناطق . وفي الولايات المتحدة كما في الاتحاد السوفياتي تنفذ اليوم اعمال الحراثة بالجرارات . وفي زيلندا الجديدة تحلب بالآلة كافة الابقار تقريباً .

الكيمياء الزراعية وعلم الحياة

اصبح استخدام الاسمدة الكيميائية عاماً – نيترات الكلس ، سوبر فوسفات البوتاس ، الاسمدة « المركبة » بمزج البوتاس والفوسفور والآزوت بحسب حاجة التربة والمناخ . واصبح عاماً كذلك استخدام بعض المواد كالمنغنيز والبور اللذين يزيدان من مقاومة الاشجار المثمرة البرد ، والزنك وارسنيات الرصاص اللذين يستعجلان ينوع الاثمار ، ومبيدات الحشرات الفعالة ، كال د. د. ت. ، التي تقي المزروعات وتيسر نمو تربية المواشي بقضائها على البعوض في مناطق واسعة من بورات المناطق الحارة . وهو علم الوراثة العصري ما اتاح الحصول على انواع مختلفة من نباتات بسيطة جداً قادرة على الحياة بحد أدنى من الحرارة ونور الشمس ، وعلى تحمل فصول امطار قاسية جداً ، وعلى الإثمار في فصل صيف قصير جداً ، فسمحت بذلك زراعة مناطق شاسعة من الاراضي الشمالية الباردة في كندا وروسيا وسيبيريا ، وبفضل التهجين ، خلقت نباتات جديدة حقيقية ، وبفضل الاخصاب الاصطناعي امكن الاكثار من أنسال الفحل الواحد والحصول على انسال اوفر صحة .

النتائج الاقتصادية

لم تعتمد هذه الطرائق المحسنة على نطاق واسع الا في الولايات المتحدة وكندا والاتحاد السوفياتي وبعض مناطق اوروبا واميركا واوستراليا ، ولا يزال اكثر من مليار فلاح يستخدمون الطرائق التقليدية . ولكن هذه التحسينات ، حيثما دخلت ، زادت الانتاجية وخفضت اليد العاملة الريفية ودفعت الى التخلي عن تنويع الاصناف المزروعة والاكتفاء بزراعة صنف واحد .

اذن ارتفعت الانتاجية ، فبلغت انتاجية العامل الاميركي اكثر من ثلاثة اضعافها منذ السنة ١٩٣٠ ، وبلغت ضعفيها في اوستراليا وزيلندا الجديدة خلال ٣٠ سنة ، وبلغت نسبة ارتفاعها ٥٠ بالمائة في انكلترا منذ السنة ١٩٣٩ واتاحت اقتصاد يد عاملة وفيرة . وهو العامل اليدوي ، بصورة عامة ، ما اغنت عنه الآلة في بعض مناطق الاملاك الكبرى : جنوبي الولايات المتحدة ، الهند ، تركيا ، وهم المزارعون والشركاء من تضرروا ، لان استخدام العمال المأجورين استخداما مباشرا اقل كلفة . وتحول العامل الزراعي ، حيثما استبقي ، الى مسيّر آلات لا يحتاج الى خبرة زراعية كبرى كما في السابق ، وكاد لا يتميز عن عامل المصنع . وفي بلدان الاقتصاد الرأسمالي ، اصبحت الاستثمارات الصغرى اقل ايراداً او دون ايراد ، كلما سيطرت الآلة ، وغالبا ما تجمعت الاستثمارات والاملاك لان « الاملاك الكبرى وحدها تكون في وضع مؤات بالنسبة للآلة »(د. فوشيه)» فارتفع معدل مساحة المزرعة الاميركية من ٥٠ هكتاراً في السنة ١٨٩٠ الى ١٠٠ هكتار في السنة ١٩٥٥ . واذا بات الفلاح اخيراً اقل

تأثرا بالظروف الجوية واقل عياء بعمل مضن، وحتى اذا حدث ان لا يقيم بالقرب من استثماره، فانه بات اكثر تأثرا بالسوق ، الوطنية والدولية ، وذاق الامرين من عواقب كافة الازمـات . وهو قد امسى ، بفعل مشاغله ، متعهداً او تاجراً مضطرا لان يخضع للتخطيط ، وان يتخـلى من ثم عن فرديته التقليدية .

زادت المكننة من ارتباط الزراعة بالصناعة والقطاعات الاخرى غير الصناعية في الاقتصاد التي توفر لها الجرارات والوقود . واكسبت القطاع الزراعي مساحات واسعة خصصت من قبل للزراعات العلفية الضرورية لحيوانات الجر ، وخصصت منذئذ للزراعات التجارية ، فارتفع من ثم الانتاج الزراعي ، وانجزت الاعمال بمزيد من المرونة ، فاتـاح ذلــك ، طيلة ايام السنة ، استخدام الآلات ويدأ عاملة غير هامة نسبيا.وفي مناطق الحدود الاميركية الجنوبية الشرقية ، اتاحت المكننة للمزارع « المتنقل » ان يأتي بآلاته ويزاول عمل الحراثة والبذر في الخريف ولا يعود الا في الصيف التالي مع آلته الحاصدة — الدائقة لجمع الحصاد . وحسنت ظروف العمــل الزراعي الذي بات اقل اعياء ً واملالاً . فان استخدام الطاقة الآلية ،وكهربة الارياف،والهاتف، والسيارة ، قد قلبت الحياة الريفية راساً على عقب واسهمت في تقريب ظروف حيـاة الفـلاح من ظروف حياة ابن المدينة .

على نقيض ذلك زادت المكننة من خطورة البؤس في البلدان غير النامية التي تنتشر فيها البطالة ولا يتوفر فيها العمل الزراعي طيلة ايام السنة لكافة الاهـالي ، اذ ان العـمال المحرومين بسببها من سبل العيش لم يجدوا عملا لهم في المناطق الاخرى . فلم يستفد منهـا سوى كبـار الملاكين وكبار المزارعين ، القادرين وحدهم على اقتناء المعدات الجديـدة ، وكانت النتيجـة اتساع الهوة بين الاثرياء والفقراء . وسوف نرى ذلك جيداً في الشرق الاوسط .

٣ — النتائج الاجتماعية

تطور ظروف العمل

ان زيادة الايرادات ، التي باتت ممكنة بتطور تقنيات الانتاج ، قد بدّلت ظروف معيشة الانسان المعاصر تبديلاً عميقاً في عمله وحيـاته اليومية على السواء .

حدّت الآلة من الجهد العضلي بتنفيذها الاعمال اليدوية الكبرى.و « حررت» من جهة ثانية، كما سبق ورأينا ، شطراً كبيراً من اليد العاملة ، اي انها خلقت ظروفاً مؤاتية لتخفيض عـدد العمال (اتاحت الآلات الذاتية الحركة في مصانع فورد تخفيض اليد العاملة العمالية بنسبة ٩٠ ٪ ومضاعفة الانتاج) وعدد ساعات العمل في اليوم . ومن البديهي ان النقابات العمالية سعت وراء فرض هذا الحل الاخير ، بالتفضيل على تخفيض عدد العمال تخفيضاً كبيراً ، اي على البطالة : فان اسبوع الستين ساعة ، الذي اعتمد اعتماداً شبه شامل في الصناعة الاوروبية حوالي السنة ١٩٠٠،

مع بعض الاختلافات بحسب المهن ، قد هبط الى ٤٨ ساعة في ١٩٢١ ، و ٤٠ ساعة في ١٩٣٧ . كما هبط يوم عمل القاصر من ٤٥,٧ ساعة في ١٩١٣ الى ٦,٢٠ ساعة في ١٩٣٧ . الا ان هـذا الاتجاه توقف منذ السنة ١٩٤٥ وتميز بحركة صاعدة بطيئة : ٤٤ ساعـة في ١٩٤٤ ، و ٤٧ في ١٩٥٣ ، و ٤٦ في ١٩٥٧ ، و ٤٧ ، مرة أخرى في اواخر ١٩٦٣ . اما في الزراعة فيُقدر ان ساعات عمل المستثمر قد انخفضت بنسبة ١٠ ٪ وساعات عمل الاجراء بنسبة ٢٥٪ . وان اخطار التسريح بالجملة ، التي انطوت عليها المكننة ، حملت النقابات العمالية على ان تدوّن في برامجهـا المطالبة باسبوع الثلاثين ساعة .

في الوقت الذي ارتدت فيه الآلة هذه الأهمية المتعاظمة ، انقلبت الكفاءات ايضاً . فلم يعد هناك ما يبرر العمل التخصصي اذ ان نسق العمل بات منوطاً بالآلة لا بالعامل . وطرأ من جهة ثانية تدن حقيقي على المهارة المهنية . فلا حاجة بعد اليوم لحرفي خبير قـادر على ان يصنع أداة كاملة او يصلحها ، او واقف على حيل صناعية اكتسبها بمزاولته المهنة واختياره المواد ، او على « اسرار تقنية » انتقلت اليه من والده . فمن شأن بعض العمال اليدويين والعمال الاختصاصيين (دون اعداد مهني حقيقي) ان يقوموا بالعمل دون سواهم . ومنذ السنة ١٩٢٦ امكن اطلاع ٨٥ ٪ من عمال مصانع فورد ، في اقل من اسبوعين ، على العمل الواجب تأديته ، و ٧٩ بالمائـة منهم في اقل من ثمانية ايام . وفي مصانع الزجاج يُدرّب ٦٠ بالمائة من العمال خلال اسبوعين . وقد تدنى دور العمال بفعل بعض الآلات التي تقوم بأعمال كثيرة ، بصورة خاصة . لقد حدث ما يشبه تقطيع اوصال العمل تقطيعاً حقيقياً . فقد وضع العامل امام « اجهزة تتجه نحو الحلول محل نشاطه الشخصي ، وحدّت مبادهة المهندس من مبادهته حداً مطرداً » ، ومكاتب الدروس فرضت عليه حركات ونسق عمله الذي لم يعد ليدرك معناه ، لا بل بات يجهل المـادة التي يطلب اليه تحويلها .

كانت النتيجة الطبيعية المقابلة لهذا التدني النسبي في الاعمال اليدوية ، التي يقوم بهـا اليوم عمال يدويون يختلفون تخصصاً ، ظهور « طبقة جديدة من الصناعيين اليدويين » تألفت من العمال المكلفين صيانة واصلاح المعدات والادوات ، ومن اولئك الذين يسيرون الآلات الجديدة ويحكمون انتاج الامثلة الاولى والذين فرض فيهم تحصيل تقني اكثر اتساعاً من ذي قبل . وكانت كذلـك تعددّ المكاتب التي استلزمت عمل « الفنيين » : مكاتب الشؤون القضائية ، والمالية ، والتجارية ، ومكاتب الدروس حيث يصمّم المهندسون المعـدات ، ويعينون الطرائق الصوابيـة التي تتيح الانتاج في افضل الظروف ، ويتمخضون بالمصنوعات الجديدة في عقولهم . ففي الزراعـة كما في الصناعة افضى استخدام الآلات من ثم الى رفع عدد الميكانيكيين والمصلحين ، كما افضى الطابع العلمي الذي ارتدته الطرائق الى رفع عدد المختبرات والمحطات الاختبارية ، ولكن عددها ابعد من ان يعيض من انخفاض اليد العاملة السابقة . اضف الى ذلك ان التحسينات التقنية الجديـدة قد زادت في تقسيم العمل وفي القطيعة بين منفذي العمل والمسؤولين ، اللذين استشفّـا منذ زمن

بعيـــد واصبحا اليوم كاملين . وهكذا فان العامل قـــد وضع في بيئة جديـدة ، متحسنة من بعض الأوجه ، اذ ارن المصنع الداوي الذي تتشابك فيه سيور نقـــل الحركة ، وتكاثر فيـــه حركة العمال حول آلات ضاجة ، يفسح المكان شيـئاً فشيئاً للمصنع الذي زالت منه الاعمال القذرة والـذي لا يظهر فيه سوى بعض فنيين يراقبون سير الآلات المخفاة في شبه خزائن معدنية .

ليس العامل وحده من عمل في الظروف الجديدة التي فرضت عليه الآلة فيها نظامـاً صارماً جداً . فمستخدم المكتب كذلك قد « قيّد بدوام ملزم » ، وانجرف في « سباق غير منتظم في وسط جمهور يتسلط عليه الخوف من التأخر » (ج . فريدمان) وعمل في بيئة حولتـها الآلة . ففي المكتب كما في المصنع حلت الآلة محل الكائن البشري: لقد قامت مقام دائرة استلام البريد وارساله الات تفضّ الغلافات وتوزعها ، وآلات تدخل الاوراق في الغلافات ، وتلصق الغلافات والطوابع . وباتت دائرة امانة السر ، وامين السر الخاص ، والمختزلون الضـاربون على الآلة الكاتبة ، دونها فائدة بفعل جهاز تسجيل الصوت لاملاء البريد والجهـاز التلغرافي للتسجيـــل الاحرف مباشرة ، « والحاد ، الضاربين على الآلة الكاتبة الذين لم يعودوا يتصلون اتصالاً مباشراً بواضع النص الواجب استكتابه . اضف الى ذلك ان الآلات الالكترونية التي تحول الى ثقوب المعلومات التي توفرها اسئلة مطروحة ، والحافظ الالكتروني الذي يصنف البطاقـات المثقوبة على هذا الشكل في الترتيب المطلوب (١٥٦٠ في الدقيقة ، بواسطة المصنفة « بورروز ») ، بينما تتولى آلات اخرى ، « تشعر » بهذه الثقوب ، اعادة نقلها الى احرف وارقام بواسطـة جهـاز تلغرافي يطبع الاحرف ذاتيا ، والآلات الحاسبة ، والآلات الاحصائية ذات البطاقـات المثقوبة والآلات الالكترونية القادرة على الحساب والتوفيق بسرعة يعجز عنها دماغ بشري ، قد بدلت ظروف عمل المكاتب والادارات كليا . واستخدمت شركة « ميشيغن بـل التلفون » آلات ذاتية الحركة لحساب المخابرات تسجل اشرطتها المثقوبة الجهاز الطالب والجهـــاز المطلوب وأوان بدء المخابرة وأوان انتهائها وتجمع هذه المعلومات لكـــل مشترك . وان الاشرطة المغنطيسية التي كانت تسجـل ، اي « تقرأ » او « تكتب » بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ حرف في الثانية في السنة ١٩٥٢ ، باتت تسجل اليوم ٢٠٠٠٠٠ حرف او رقم .

النتائج الاجتماعية للتنسيق الآلي

ان التنسيق الآلي اخذ في ترك نتائجه الاجتماعيـة وفي تطوير ظروف الحياة المهنية نفسها تطويراً عظيماً . فهو قـــد قرب ، بدون اي شك، بين ظروف عمل العمال والمستخدمين، ولكنه تسبب في إلغاء اشغال كثيرة. وقد انخفض عدد العمال الاختصاصيين والعمال اليدويين في التنظيم التقليدي ، في حـال ان عدد الاشغال الجديدة التي استلزمتها الآلات اقل شأناً الى حد بعيد من الاشغال الملغاة . زد على ذلك ان تحول العامل اليدوي الى مستخدم فني مستحيل عمليا . وكان نقص المستخدمين في المكاتب اقل ظهوراً بسبب استخدام العديد من افراد الجنس اللطيف الذين كثيراً ما يتركون العمـــل

بسبب الزواج والتقاعد المبكر والامومة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان استلام عمل جديد في بعض النشاطات الاخرى اسهل منالاً . اما الموظفون المتوسطون المكلفون اجراء الاحصاءات واعطاء المعلومات ، فقد بدا الدماغ الالكتروني منافسا رهيبـــا بالنسبة لهم لانه قادر ، في وقت قصير جداً ، على اعطاء معلومات اوفر عدداً الى حد بعيد مما يستطيع اعطـاءه الدمـاغ البشري . وهي المصارف وشركات الضمان بصورة خاصة ، والمشاريع الصناعيـة الكبرى ، كما هو طبيعي ، ما استخدمت الاجهزة الالكترونية استخداماً واسعاً .

يجدر بنا ان نضيف الى خطر البطالة هذا ، الذي يهدد الولايات المتحدة منـــذ اليوم تهديداً دائماً ، زوال تسلسل الاجور الذي كان معمولا به من ذي قبـــل : فان موظفي رقابة وصيانة الاجهزة الالكترونية الذين يتحلون ، بالاضافة الى الخبرة ، بثقـــافة تقنية واسعة وشاملة ، يتقاضون اجوراً مرتفعة . ولكن ارتفاع كلفة الآلات يستلزم استخدامها دون انقطاع(بتناوب ٣ او ٤ فرقاء في الـ ٢٤ ساعة) وتخطيط عمل دقيقاً (مما احدث تبدلا هامـــاً بالنسبة لموظفي المكاتب الذين لم يألفوا العمل التسلسلي) ، وامـــام تدني اهمية العمل الفردي ، اخذت مكافأة المسؤولية تحل شيئاً فشيئاً محل مكافأة الانتاج .

اوجبت نتـائج انتشار التنسيق الآلي هذه — كما أبان ذلـك جورج فريدمان ـ رقابـــة الانتاج واحـــداث اجهزة منظّمة ومكيفـة ، اي « أن التنسيق الآلي والتخطيط باتا مترابطين » . اذ ان تقنيات التخطيط لا يمكن ان تكون « ذات فاعليـــة الا باللجوء الى الاقتصاد الرياضي والآلات الالكترونية من أجل التقدير الاقتصادي المتنوع الاشكال » (ب . منديس ـ فرانس) .

تطور الحياة اليومية

ليس من شك في ان تزايد انتـــاج المواد الزهيدة الكلفة والمدروسة درساً صوابياً قد أتاح في بعض البلدان رفع مستوى الحيـــاة المادية بنسبة كبرى : ففي الولايات المتحدة ، حيث قدّر معدل أجر ساعة العامل بـ ٨،٥ كيلو حنطة في السنة ١٩١٠ ، و ٢٢ في ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، اصبح هـــذا المعدل ٢٠ في السنة ١٩٤٦ . وكان هذا الارتفاع أقل بروزاً الى حد بعيد في فرنسا، حيث يبدو، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأجر غير المباشر (التعويضات العائلية ، الضمان الاجتماعي ...) ، ان الاجور الحقيقية التي يتقاضاها ارباب العائلات هي وحدها ما زادت منـذ السنة ١٩١٨ ، بينما تدنت بعض الشيء أجور العمال العزّاب . يضاف الى ذلك أن انتشار العمل النسائي قد اسهم في رفـــع مستوى المعيشة بينما خففت تحسينات الفنون المنزلية ومكننة العديد من الاعمـــال البيتية من عبء عمل الامهات وأتاحت تحقيق رفاهية لم تكن معروفة منذ سنوات قليلة، ولا سيما وقد زالت الخدمات الشخصية إلا بالنسبة للميسورين .

اذا كان العمل لا يستلزم اليوم الجهد الجسماني الذي استلزمه من ذي قبل، فان توتر الاعصاب قد اصبح بالمقابل اشد منه في أي وقت مضى ، فان الآلة تفرض على من يخدمونها جهداً ثابتاً قد

يتعذر أحتماله يبدل على كل حال التعب الجسماني الموضعي السابق بنهكة عامة معنية ربما كانت اسرع حدوثاً منها في السابق . ولذلك فـان « النسق الجهنمي » ليس تعبيراً للمطالبة فحسب ، بل هو حقيقة راهنة في اغلب الاحيان ؛ وربما خفت وطأة « العبودية » الجسمانية ، ولكنهـا ابدلت بـ « عبودية عقلية » مخبلة : فالضعف العقلي ، والانهيار العصبي ، وسرعة التأثر ، امراض غالباً ما يشخصها اطباء العمل في العمال . وغالباً ما أدى العمل المبالغ فيه اخيراً الى تزايد عظيم في عدد الحوادث الخطيرة والاضطرابات العقلية (من ٣ر٠ ٪ في ١٩٣٥ الى ٣ ٪ في ١٩٥٥ في فرنسا) .

ان هذا العمل ، الذي يتسبب في تعب الاعصاب قد اصبح في الوقت نفسه مملاً لأنه خلو من أية فائدة عقلية أو تقنية ومقتصر على بعض العمليات البسيطة المتكررة ابداً . وكما لاحظ ذلك ج . فريدمان ، شعر العـامل بامتهان كرامته بفعل نظام بطاقات التعليمات وتقييده بالوقت ووجود المفتشين والمراقبين ، فقام بعمله مرغما ، لا سيما وان التحصيل التقني العـالي المطلوب لتولي مراكز القيادة او التصميم يحول أكثر من أي وقت مضى دون ارتقائه الاجتماعي ؛ ونجم عن ذلك شعور « بحرمـان حتى مهني يستتبع نشاطات بديلة » : يحاول الانسان الهرب لأن « حياته » ليست بعد اليوم في عمله؛ وهو يقوم بمحاولته هذه بتكريس اوقات فراغه لنشاطات مختلفة ، كالعمل في الحديقة والنشاط الفني والرياضة ـ الضرورية لاستعادة التوازن الجسماني المختل في المصنع ، والمرتبطة ارتباطا وثيقـا بحياة المدينة والمصنع على الرغم من انتشارها بين سكان الأرياف ـ والسياحة والتلهي بالرادو والتلفزة او السينما .

وفي الوقت نفسه يقاوم العامل نظاما « يحوّل الكائنات البشرية الى مجرد آلات » . ومن أجل مقاومة هذا والتنظيم الارهاقي » ، والأخطار التي تهدده بها المكننة، والبطالة، وانخفاض الاجور النسبي ، يلجأ الى الاضراب ، ولا سيما الى انقاص انتاجه انقاصا مقصوداً .

لا شك في ان طبقة اجراء الشركات الصناعية قد فقدت التجانس الذي تميزت به في اوائـل القرن؛ فان التمييز الذي نجم عن تطور التقنيات قد افضى الى تعدد فئات الاجور: أجور ذكور وأجور أناث ، أجور زراعية وأجور صناعية، قطاع عام وقطاع خاص، أجور وطنيين وأجور اجانب ؛ واستتبعت الاختلافات بين المستخدمين والعمال اختلافـات في السلوك ومستوى المعيشة ، ووعيا طبقيا متفاوتا للتباينات الاجتماعية التي تقسم العمـل النقابي وتشله احيانا . واذا كانت نظرية افقار الطبقة العمالية « افقاراً مطلقا لا يمكن اثباتها او نفيها بصورية علمية » ، كما يعتقد « ف. سليه » و « ا . تبانو » ، اللذان يميلان الى اثباتها ، فان « الافقـار النسبي » واقع راهن .

الخلاصة

كانت « الآلة المديـنة الشعور » موضوعا مفضلا طرقه العديد من كتاب وعلماء الاخلاق . فقد جعلت التقنيات الصناعية مسؤولة عن اطراد الحيـاة المصرية وقبحها وزوال كل هوى وذوق ، وفقدان « حرية » الفرد . ولكن هذه الانتقادات

يجب ان توجه لاستعمال الآلات لا للآلات نفسها ، كما كتب كارل ماركس ، ولنظـــام انتاج فوضوي ، لا الى التقنية كما كتب ج . فريدمان . فبالتقدم التقني وحـــده يمكن ارجاء تكبير الطبيعة بالنسبة للانسان ، وتغذية الجماهير السريعة التناسل ، وايجـاد اوقات الفراغ والاموال التي تسمح ماديا بالتمتع بها ، واذا لم يستطع الجميع الاستفادة منها ، فليس هو سبب عدم الاستطاعة هذا ، بل نظام التوزيع .

الفصل الرابع

مسألة القرن العشرين الكبرى
تغذية سكان يتزايدون تزايداً سريعاً

ان التقدم المدهش الذي أحرزته العلوم والتقنيات والذي أوجزناه في الفصول السابقة قد يسّر ، منذ القرن التاسع عشر ، تزايداً عظيماً في حجم الثروات المنتجة في العالم وفي عدد السكان . وكانت احدى نتائجه الاخرى تفاقم داء عدم المساواة : عدم مساواة بين الطبقات الاجتماعية وعدم مساواة بين الشعوب ، أقلية من الناس في كل امة وأقلية من الشعوب في العالم تستفيدان من معظم هذه التحسينات ، بينما يعاني العدد الاكبر من البؤس وحتى من المجاعة ، وغالباً ما يرافق هذا التمييز بين شعوب «غنية» وشعوب «فقيرة» تمييز عنصري ايضاً .

الثورة الديموغرافية في القرن العشرين

يتصف نسق ارتفاع سكان الكرة الارضية بمزيد من السرعة . لقد قدروا بـ ٥٠٠ مليون تقريباً في منتصف القرن السابع عشر وبـ ٧٠٠ مليون في منتصف القرن التالي ، فكاد عددهم يتضاعف بين ١٨٥٠ و ١٩٥١ ، منتقلاً من ١٢٠٠ مليون الى ٢٣٦٠ . اي ان هذا العدد قد ارتفع الى اكثر من اربعة اضعافه خلال ثلاثة قرون ، وزاد ٦٣ مليوناً في ١٩٦٢ ، وسوف يبلغ ٣٣٠٠ مليون حوالي السنة ٢٠٠٠ . ونسق الزيادة هذا هو نسق الزيادة في آسيا التي يقدر ان عدد سكانها ربما ارتفع من ٣٠٠ مليون الى ١٢٨٣ مليوناً ، بينما يقدر ان عدد سكان اوروبا قد ارتفع الى خمسة اضعافه ، وسجلت القارة الاميركية ، كما هو طبيعي ، أعظم زيادة اذ ان عدد سكان اميركا الشمالية ارتفع من ٦ ملايين تقريباً قبل قرنين الى ٢٠٥ ملايين ، وارتفع عدد سكان اميركا الجنوبية الى ٢٠٠ مليون . وقد اختلف معدل الزيادة اختلافاً كبيراً في الزمان والمكان ، وهو هذا الاختلاف وهذه السرعة في الزيادة في بعض اجزاء الكرة الارضية ما خلخلا التوازن السياسي والاقتصادي في العالم وجعلا الأطر التقليدية تتفسخ وتتداعى .

ان اوروبا هي القارة التي بلغ عدد سكانها اعظم ارتفاع خلال القرن التاسع عشر ، ولكن

هذه الانطلاقة الديموغرافية قد حدثت تدريجياً ، كلما تحسنت ظروف المعيشـــة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انخفاض نسبة الوفيات قد سبق انخفاض نسبة الولادات وحـدث ببطء ، فأدى هذا البطء وامتداد تدرج الزيادة على فترة طويلة الى الحد نسبياً من اختلال التوازن . اما اليوم فان جدوى مكافحة الموت قد خفضت نسبة الوفيات تخفيضاً بيناً وأفضت الى ارتفـــاع ملحوظ في عدد السكان القليلي التوالد وارتفاع كبير جداً في عدد السكان الكثيري التناسل. وهو هذا التدني في نسبة الوفيات ما يشكل الحدث الاساسي في أيامنا هذه وما تزيد سرعته من نتائجه. «ان الثورة الديموغرافية ، التي امتدت على قرن كامل بالنسبة لتدني الوفيات ، قد انحصرت هنا في عقود محدودة» (ل. شفالييه). وبينما كان الاتجاه من جهة ثانية ، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، نحو تخفيض نسبة الوفيات ونسبة الولادات معاً ، فمنذ السنة ١٩٤٠ ، وتحت تأثير التدابير الهادفة الى تشجيع العائلات والامل المعلق على استخدام ثابت وعلى بعض التغيير في الذهنية ، ارتفع معدل الولادات في بعض البلدان الاوروبية ولا يزال آخذاً في الارتفاع ، بينما لا يزال معدل الوفيات آخذاً في التدني . الا ان الفارق في الحضارات القديمة الغربية الطراز ما زال قليلاً على الرغم من الارتفــاع ، بينما هو يصبح اكبر فأكبر يوماً بعد يوم في البـــلدان ذات الحضارة البدائية التي انخفضت فيها نسبة الوفيات فجأة وبقيت فيها نسبة الولادات مرتفعة جداً . وهـذه هي حال معظم البـــلدان الحارة في الشرق الاقصى . وحدث في بعض بلدان اميركا اللاتينية ومنطقـة الكرايبيب وافريقيا كذلك ، خلال سنوات قليلة ، تدنٍ ملموس في معدل الوفيات بفضل اعتماد الطرائق العصرية في مكافحة الامراض (تطهير المياه ، ادوية مكافحة الجراثيم ، د.د.ت) . فان استعمال الـ « د.د.ت » في ضواحي جورجتون في غويانا الانكليزية مثلاً قـــد خفض نسبة الوفيات بين الاطفال من ٢٥٠ الى ٦٧ ٪ خلال سنتين ، اي بين ١٩٤٧ و ١٩٤٩ . وهبط معدل الوفيات من ٢١،٥ ٪ في ١٩٣٢ الى ٩ ٪ في ١٩٦١ في سيلان ؛ ومن ١٧،٨ ٪ الى ٧،٤ ٪ في اليــابان ؛ ومن ٢٥،٢ ٪ الى ١١،٩ ٪ في التشيـلي ؛ ومن ٢٥،٢ ٪ الى ١٦،٧ ٪ في المكسيك ؛ ومن ١١،٤ ٪ الى ٦،٧ ٪ في بورتوريكو ، الخ.

ارتفع عدد السكان من ثم ، في كافة بلدان اوروبا ، ارتفاعاً متبايناً ، وضئيلاً على كل حال. فان اوروبا الحرة الغربية تسجل زيادة مليونين في السنة . وقـــد ارتفع عدد سكان بريطانيا العظمى ، بين ١٩٣٢ و ١٩٤٩ ، من ٤٦٣٠٠٠٠٠ الى ٥٠٤٠٠٠٠٠ . وعدد سكان بلجيكا من ٨١٠٠٠٠٠ الى ٨٦٠٠٠٠٠ . وارتفع عدد سكان هولندا وحدها ، حيث نجد أدنى نسبة وفيات وأعلى نسبة ولادات في اوروبا ، من ٨١٠٠٠٠٠ الى ١٠ ملايين . اما ايطاليا فقد ارتفع عدد سكانهـــا بنسبة ١٢ ٪ ، ولكن سكانها « يطعنون في السن » : في السنة ١٩٥٠ ، بلغ اليافعون والمعاصير ٥٤ ٪ . ويرتفع عدد سكان اوروبا الشرقية ارتفاعاً اكثر سرعة ، ويتميز السكان بنسبة كبرى من الشباب . اما سكان بعض البـــلدان كافريقيا الجنوبية واوستراليا وكندا والولايات المتحدة فقد ارتفع عددهم ارتفاعـــاً كبيراً ايضاً . فانتقلت الولايات المتحدة

من ٨٠٠ ٠٠٠ ١٢٤ في ١٩٣٢ الى ١٩٠ مليوناً في ١٩٦٣ . وتحتفظ الدول الجديدة غير النامية الآخذة في التصنيع في اميركا اللاتينية ، والـيـابان ، بنسبة ولادات مرتفعة بينما تقترب نسبة الوفيات فيها منهـا في البلدان الاوروبية . الا ان اليابان قد توفقت (« برقابة الولادة ») الى تخفيض معدل الولادات من ١٠٢٩ ٪ في ١٩٥٠ الى ٦٠٨ ٪ في ١٩٦٤ . اما البلدان التي يحدث فيها أعلى ارتفاع فهي البلدان الحارة في الشرق والشرق الاقصى : فقد ارتفع عدد سكان الهند (وباكستان) من ٣٤٥ الى ٤٢١ مليوناً ، وسكان مصر من ١٥ الى ١٩ مليوناً ويبلغ معدل الزيادة السنوية ٢٠٣ ٪ . ويبلغ معدل الزيادة السنوية ٢٠٧ ٪ في سيلان بعـد القضاء على الملاريا بواسطة الـ « د.د.ت » . ويتميز سكان كافة البلدان غير النامية بالشباب ، اذ ان نسبة من هم دون الـ ١٥ سنة تبلغ ٤٠ بالمائة في مدغشقر واندونيسيا وماليزيا وروديزيا الجنوبية والجزائر ، الخ. ، بالرغم من نسبة الوفيات المرتفعة بين الاطفال .

اطالة امد الحياة

عدم المساواة امام الموت

كان من نتائج الطب الوقائي واكتشاف الامراض والتجهيزات الصحية اطالة معدل امد الحياة في البلـدان المتطورة ، ومن ثم اطالة امد الحياة « المنتجة » اطـالة ذات قيمة . فان امـل الحياة عند الولادة الذي كان ٦١ سنة في كندا في ١٩٣٠ انتقل الى ٦٧ سنة في ١٩٤٩ . وانتقل هـذا الامل في الولايات المتحدة من ٦ ، ٦٢ الى ٧ ، ٦٨ بين البيض ومـن ٨ ، ٥٠ الى ٨ ، ٦٠ بين الملونين ، وفي اليابان من ٣ ، ٤٨ الى ٩ ، ٥٧ . وفي فرنسـا من ٩ ، ٥٨ الى ٧ ، ٦٤ . وفي ايطاليا من ٩ ، ٥٤ الى ٧ ، ٦٣ . وفي هولندا من ٤ ، ٦٦ الى ٥ ، ٧٠ . وفي المملكـة المتحدة من ٨ ، ٦٠ الى ٩ ، ٦٨ . ولكنه ما زال ٤٤ في مصر ، و ٣٢ في الهند ، ودون هذه المعدلات الى حد بعيد في الصين واندونيسيا كما ترجح . ولكل ثلاثة اولاد من اصل اربعة يرون النور في هولندا الحظ في العيش حتى ٦٠ سنة ، بينما لا يتوفر هذا الحظ لواحد من اصل اثنين في الهند . وهناك ٤٧ شخصا من اصل ١٠٠٠٠٠ ، يموتون بالتدرن الرئوي في الولايات المتحدة ، و ٦٢ في بريطانيا العظمى ، و ٣٠٠ في الهنـد ، و ٤٥٠ في الصين واندونيسيـا . وهكذا فـلا امل البلدان المأهولة بسكان « متقدمين في السن » بانخفاض نسبة الوفيات فيها ، بينما يزداد سـكان المناطق الاخرى المخصابة تزايداً مطردا ، ويزداد في الوقت نفسه اختلال التوازن بين البلدان المتميزة بطاقة ديموغرافية كبرى ، وهي البلدان المتدنية الدخول جدا ، وبين « الاقلية المنعـم عليها » التي يزداد سكانها ببطء او لا يتزايدون البتة ، بين آسيا مثلا التي لا تحصّل سوى ١١٪ من الدخل العالمي مع ان سكانها يجاوزون ٥٠ بالمائة من سكان الكرة الارضية ، وبين اميركا الشمالية التي يبلغ سكانهـا ٧ بالمائة من سكان الكرة الارضية وتقتطع ٣٥ بالمـائة من الدخل العالمي .

يلاحظ عدم المساواة امام الموت بين الطبقات الاجتماعية وبين الشعوب على السواء . وان الفارق في نسبة الوفيات بين الاحياء الميسورة والاحياء الفقيرة في باريس يبلغ ٣٦ بالمائة ، ويبلغ

النسبة نفسها بين الحرف . ففي بريطانيا العظمى يبلغ معدل الوفيات ١١،١ بالألف بين العمال غير الاختصاصيين بينما هو لا يبلغ سوى ٨،٢ بالألف بين الموظفين المسؤولين عن هؤلاء العمال . ويبلغ ١٤،٥ بالألف في الولايات المتحدة بين العمال غير الاختصاصيين و ٦،٧ بالألف فقط بين مزاولي المهن الحرة . واذا ما نظرنا في فرنسا الى نسبة وفيات الاطفال بين شهر واثني عشر شهرا لرأينا انها تبلغ ١٧،١ بالألف في عائلات الحاسبين ، و ٦٢،٣ في عائلات عمال الطرقات و ٩٦،٤ في عائلات عمال المناجم . وتبلغ في انكلترا ٢،٨ بالألف بين اولاد اصحاب المهن الحرة و ٤،٧٥ بالألف بين اولاد العمال .

نتائج هذا الوضع في حقل التغذية

اظهرت ابحاث الـ « فاو » (منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة) ان ثلث البشر فقط كانوا يتصرفون في ٢٧٥٠ وحدة حرارية في اليوم وان نصفهم كانوا يتصرفون في أقل من ٢٢٥٠ وحدة ، وهو الحد الأدنى الذي يعتبره الفيزيولوجيون ضرورياً للمحافظة على الصحة . وكان استهلاك البروتينات الحيوانية في اليوم يتراوح بين ١٢ غراماً في اليابان و ٦١ غراماً في زيلندا الجديدة . وهي الدول المأهولة بالسكان البيض في اميركا الشمالية ، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والدول السكندينافية، والمانيا ، ما توفرت لها ، غداة الحرب ، تغذية معقولة وكافية ، وإنما لوحظ ، حتى في بريطانيا العظمى ، ان استهلاك اللحوم والاسماك قد تراوح بين ١ و ٢ بحسب الفئات الاجتماعية ، وان ٢٠٪ من السكان كانوا مفتقرين الى الفيتامينات والاملاح المعدنية . ثم جاءت الحرب تزيد من خطورة الوضع . ففي البلدان الخاضعة للاستثمار الالماني ، تسببت في ظهور المجاعة مرة أخرى والامراض الناجمة عن الحاجة ، التي كانت قد آلت الى الزوال ، ثم تحسن الوضع تحسناً بطيئاً متبايناً ؛ ولكن هذا الوضع قد ازداد خطورة في كل مكان آخر، لأن انتاج المواد الغذائية لم يواز قط ارتفاع عدد السكان . ولم يكن تفاقم خطورة الحاجة هذا سوى مناسبة لوعي آفة كانت قديمة في الواقع ، فلم تتمكن قط سوى أقلية ضئيلة من البشر من اشباع حاجاتها الغذائية ، بينما عاش سكان الكرة الارضية الآخرون حياة غير ثابتة « على هامش سوء التغذية » .

سوء تغذية ثلثي البشرية

« يعيش ثلثا البشرية في حالة جوع دائمة » : ونادراً ما يقصد بذلك المجاعة بحصر معناها ، اي فقدان الغذاء او الحاجة الكلية اليه ، الذين يتسببان بالخور والموت العاجل ، بل « الجوع الخفي » بصورة خاصة ، اي الامراض الناجمة عن نقص بعض العناصر الضرورية للتوازن الفيزيولوجي في الكائن البشري : اعني به نقص الفيتامين D الذي يتسبب بالخراعة عند الطفل ولين العظام عند اليافع ، ونقص الاملاح المعدنية ، والحديد والفوسفور والكالسيوم ، التي تلعب دوراً كبيراً في تركيب الهيكل العظمي، ونقص البروتينات الذي يؤخر النمو ويضعف الجسم، الخ . ، ويفضي الى ظهور الأمراض التي ترافق الفاقة والشقاء: سوء شفوف قرنية العين ، داء الذرة ، داء الحفر .

وقد وضع « جوزويه دي كاسترو » بعد ابحاث دقيقة قام بها ، جدولاً مفصلاً بـ « مناطق

سوء التغذية ، هذه التي يمكن حصرها في المناطق غـير النامية حيث نرى ان نظام الملكيـة والاستثمار في سبيل المزروعات التجارية ، وتبذير الموارد الطبيعية « قد خربا البيئة الطبيعيـة دونما شفقة على طريقة فيلق البانزر » .

بيد ان الطبقات الفقيرة في البلدان النامية لا تنجو دائماً من هذه الامراض الناجمـة عن سوء التغذية . ففي السنة ١٩٤٠ ، شكا ٢٥٪ من سكان الولايات المتحدة و ١٥٪ من سكان بريطانيا العظمى من سوء التغـذية ؛ وفي نيويورك ، بدت ظواهر الخراعـة على ٢/٣ الطوائف السوداء والايطالية . وينتشر داء الذرة اليوم انتشاراً دائماً في الولايات الجنوبية من الولايات المتحـدة . ومنذ السنة ١٩٣٦ كان هذا الداء موضعيـاً في اوروبا (غاليسيا واستوريا) ثم انتشر انتشاراً يدعو الى القلق في كافة انحاء اسبانيا بعد الحرب الاهليـة (٣٠٠٠٠ حادث في مدريد) . وفي ايطاليا الجنوبية ، وبولونيا ، ورومانيا ، حيث تكثر الاملاك الكبرى والبروليتاريا الريفيـة البائسة ، لم تكن الخراعة ، وسوء شفوف القرنية ، والوذمة المتسببة عن الجوع ، وحاجة الجسم الى الكالسيوم ، امراضاً نادرة .

في اميركا اللاتينية ، قدّر في السنة ١٩٤٦ بأكثر من ٩٠ مليوناً ، اي ٢/٣ السكان ، عدد الاشخاص المفتقرين الى التغذية الكافية . وقدّر معدل نظام الاغتذاء اليومي للفرد في بوليفيا بـ ١٢٠٠ وحدة حرارية . وفي الشيلي يتوفر لـ ٥٠ بالمائة من السكان أقـل من ٢٤٠٠ وحدة حرارية في اليوم ولـ ١٠ بالمائة أقـل من ١٥٠٠ . وفي شمالي شرقي البرازيل وفي أمازونيـا يتوفر للفرد بـين ١٧٠٠ و ١٨٠٠ وحدة . وهنـالك النقص النوعي الذي هو أشد خطراً من النقص الكمي . فان تغذية تعتمد قبل اي شيء آخر على الذرة الصفراء واللوبيـاء وبعض انواع البطـاطا والجذامير وحساء الذرة الصفراء ، والمفتقرة كلها الى البروتينات والاملاح المعـدنية والفيتامينات ، تولّد « غفلة المناطق الحارة الشهيرة » وفقدان القابلية عند الجياع (التي يجب تحريكها بالفلافل او المشروبات الروحية) ، والبلادة التي يعزون اليها ضعف الانتاج بينما ليس هناك سوى ضعف ناتج عن الجوع . اما نصيب الفرد من الخضار ، والأثمار ، واللحوم (معدل ١٤ كيلوغراماً في السنة في البيرو ، و ١٨ في الاكوادور ، مقـابل ٦٠ في كندا) ، والحليب (١١ ليتراً في السنة في البيرو ، و ١٤ في الشيلي ، مقابل ١١٠ في الولايات المتحدة ، وهنـاك ٥٠ ٪ من المناطق الريفية في اواسط فنزويلا لا تستهلك حليباً البتة) ، فغير كاف إطلاقاً . واما في آسيا ، « ارض الجوع بالذات » ، فقوام نظام الاغتذاء نباتي ، بحيث ان ٢ او ٣ بالمائة فقط من مجموع الوحدات الحرارية تنتجها أغذية من اصل حيواني (في الولايات المتحدة ، ٣٩ بالمائة) . وفي الصين يستند نظام الاغتذاء الى الارز ، والحنطة ، والذرة البيضاء ، ولا يربّى للتغذية سوى حيوان واحد هو الخنزير ؛ ولذلك ، ففي كافة مناطق الجنوب (حيث الارز هو قوام التغذية)، ينتشر الجوع الزّمن الكمي — كما يتضح ذلك من ضعف الاشخاص وبطء الانتـاج وضآلته (١٤ مرة اقل من انتاج الفلاح الاميركي) — والنوعي ، الذي يزيد من خطورته المرض الدودي وفقر

الدم المتولد عن الديدان الطفيلية ، اللذان يصاب بها ٩٠ بالمـــائة من سكان الأرياف وينتشران بسبب استعمال الدمال البشري ، ويضيفان اضرارهما الى اضرار الامراض الناجمـة عن الحاجة واضرار المجاعات المتسببة عن الفيضانات والجفاف . وهو سوء التغذية في الهند كذلك ما يسبب الوفيـــات الرهيبة الكثيرة بين السكان قبل سن العشرين ، بحيث ان ٥٠ بالمـــائة من الهنود « يولدون ليتناولوا طعاماً غير كاف ويموتوا قبل بلوغ سن الانتاج » ، وما يترك السكان دون مقاومة امام الاوبئة : تسببت النزلة الوافـــدة ، في السنة ١٩١٨ ، بوفاة ١٥ — ٢٠ مليون شخص ، والمجاعة ، في ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ، بوفاة ملايين الضحايا ، وبين ١٠٠ و ٢٠٠ مليون هندي يصابون بالحمى الاجمية ، وعشرات الملايين بالزحار والتدرن الرئوي والكوليرا والمرض الدودي. وحتى في اليابان ، حيث نجحت الزراعة الحديثة في زيادة الانتاج ، أفضى استخدام الأسمدة بكميات كبرى الى ملاشاة المجاعات ، ولكن نظام الاغتذاء ما زال دونياً . وتعاني افريقيـا من النقص نفسه : فإن الفلاح المصري وفلاح بلدان افريقيـــا الشمالية ضحيتان النقص الغذائي نفسه الذي يعاني منه الافريقي الاسود . وقد بلغ من تنهي عدد السكان ، بعد الحرب العالمية الاولى (٢٥ بالمائة في الكونغو البلجيكي) بسبب المتارس والاقتصاد الجديد ان الحاكم العـــام « كارد » نادى في افريقيا الاستوائية الفرنسية بـ « سياسة البطن الملآن » من اجل « الإكثار من الزنوج » .

والحال كان من الواجب ان يرتفع الانتاج الغـذائي بنسبة ٢ بالمـــائة في السنة كي لا يبقى ارتفاع الانتاج دون الحاجات التي يخلقها النمو الديموغرافي،والا فهي سوف تتفاقم اكثر فاكثر. وقد كتب احدهم في السنة ١٩٤٩ : « يجب ان يزداد الانتاج الزراعي منـذ اليوم حتى ١٩٦٠ بنسبة ٩٠ بالمائة في كافة انحاء العالم كي لا تسوء تغذية الشعب عن حالها الحاضرة » .

يرتبط بسوء التغذية وجود الامراض الجماهيرية المعدية لان « جغرافيـــة الصحة السيئة هي جغرافية الجوع والجهل ايضا » . فهو المرض الجلدي في المناطق الحارة ما يولد الضعف والسقم، وهي الحمى الاجمية مـا تصيب ٣٠٠ مليون شخص في العالم كـــله ، يموت منهم ٣ ملايين في السنة ، وهنـاك خصوصاً البلهرسية المنتشرة في افريقيا والشرق الاوسط واميركا الجنوبيـــة والصين ، وفقر الدم المتسبب عن دودة طفيلية ، والتـدرن الرئوي الذي تفوق ضحاياه ضحايا الحمى الاجمية والذي هو اوسع انتشاراً منها في العالم ، والتهاب الملتحمة (تراخوما) المتكاثر في الهند والهند الصينية وافريقيا الشماليـة ، والـفلس ، وامراض المعـــدة والامعاء كالزحار والكوليرا والحمى التيفية ، والامراض الناجمة عن الحاجة الى الغـذاء كالـ « بريبري » ، وداء الذرة ، وداء الحفر ، والجراعة والـ « كواشيوركور » ...

تفاوت مستويات المعيشة

لقد لاحظنا تكراراً في الصفحات السابقة ان الجهـــل والبؤس والجوع والامراض موزعة توزيعاً متفاوتاً جـــداً بين مختلف سكان العالم — وبين مختلف الطبقات الاجتماعية ايضاً .

فعلى صعيد العلم ، لا تتراجع آفة الجهل الا ببطء . اجل لقـد نجحت بعض البـلدان في تخفيض عدد الاميين من ابنائها تخفيضاً كبـيراً ، ولا سيا في المـدن : ولكن اذا اختلف الى المدرسة الابتدائية ٨٠ — ١٠٠٪ من الاولاد في المملكة المتحدة والولايات المتحـدة وهولنـدا وايرلندا وبلجيكا وزيلنـدا الجديدة ، فان النسبة تهبط الى ٦٠ — ٨٠ بالمائة في معظم بلدان اوروبا الوسطى والغربيــة واليابان ، والى ٤٠ — ٦٠ بالمائة في البرتغــال والمكسيك ، والى ٢٥ — ٣٠ بالمائة في بلدان امــيركا الجنوبية ، والى اقل من ٢٠ بالمائة في افريقيا والشرقين الاقصى والأوسط . وبالرغم من ان ارتفاع عدد التلامذة في كافة مستويات العلم هو احد مميزات العالم المعاصر ، فلا يزال هنالك مناطق شاسعة وجماهير غفيرة يخيم عليها الجهل .

اما بالنسبة لمستوى المعيشة على الصعيد المادي ، فهو دخـل الفرد ما يوفر افضل قاعــدة التقدير . فان الدراسة التي قامت بها منظمة الامم المتحدة في ١٩٤٩ قد اظهرت آنذاك ان معدل الدخل السنوي الفردي هو اقل من ٥٠ دولاراً بالنسبــة لـ ٦٥٠ مليون نسمة من سكان الكرة الارضيــة ، وبين ٥٠ و ١٠٠ دولار بالنسبة لـ ٤٧٥ مليوناً ، وبين ١٠٠ و ٢٠٠ دولار بالنسبة لـ ٢٥٠ مليوناً ، وبين ٢٠٠ و ٤٠٠ دولار بالنسبة لـ ٣٩٥ مليوناً (المانيا ، الاتحــاد السوفياتي ، ايطاليا ...) ، وبين ٤٠٠ و ٦٠٠ دولار بالنسبة لـ ٦٥ مليوناً (ايرلندا ، فرنسا ، بنلوكس ، النروج) ، وبين ٦٠٠ و ٩٠٠ دولار بالنسبة لـ ١١٠ ملايـين (الدانمارك ، المملكة المتحدة ، كندا ، زيلندا الجديدة ، السويد ، سويسرا) ؛ وكان هذا الدخل ١٤٧٦ دولاراً في الولايات المتحدة ، و ٨٧٠ دولاراً في كندا . وجـلي ان هــذه المعدلات لا تعطي سوى صورة ناقصة جداً عن مستويات المعيشة التي يجدر ايضاحها بدرس توزع الدخول في داخل كل بلاد على حــدة . ولكنها ، على كل حال ، معدلات تجاوز معدلات دخول الطبقــات الفقيرة مجاوزة كبيرة جداً .

التباين كبير كذلك في مكافحة الامراض الجماهيرية لأن فاعلية هـذه المكافحة تابعة التجهيز الطبي والصحي ؛ والحال يختلف هذا التجهيز اختلافاً كبيراً جداً . فان عــدد الاطباء بالنسبة للسكان متفاوت جـداً : ١ مقابل ١٠٠٠ في الولايات المتحدة في ١٩٣٨ ، و ١ مقابل ٧٧٥ في ١٩٤٦ ، و ١ مقابل ٧٠٠ في ١٩٥٥ . في سويسرا ١ مقابل ١١٣٥ في ١٩٤٩ . في المانيا وفرنسا، ١ مقابل ١٤٥٣ و ١٤٨٠ في ١٩٣٩ ، أما في بولونيا فـ ١ مقابـل ٣٠٢٠ في ١٩٤٧ . في مصر ١ مقابل ٤٥٠٠ . وهنــاك طبيب مقابل ٥ — ١٠ آلاف نسمة في افريقيا الشمالية وسيلان والعراق ... ، وطبيب مقابل ١٠ — ٥٠ ألفاً في الكونغو البلجيكي وافريقيــا الاستوائية الفرنسية واثيوبيا ونيجيريا وغينيا الجديدة والهند الصينية واندونيسيا ... وان نسبة الممرضات والممرضين لأدنى من نسبة الاطباء ايضاً . ومن الطبيعي ان كثافة الاطباء ترتفع في المناطق الغنية (تتراوح في الولايات المتحدة بين ٤ ، اذا كان معـدل الدخول في المنطقة ٦٠٠ دولار ، و ١ اذا كان هذا المعدل ادنى من ١٠٠ دولار) . اما عدد الأسرّة في المستشفيات فهو ١ مقابل ٧٥-١٠٠

نسمة في البلدان المتطورة (بريطانيا العظمى ، فرنسا ، الدانمارك ، المانيا)، ويهبط الى ١ مقابل ٨٧٥ نسمة في مصر ، ومقابل ١٥٠٠ في تركيا ، ومقابل ٥٠٠٠ في الهند .

هنالك من ثم بشريتان ، او مجتمعان يتقاسمان سكان الكرة الارضية على غير تساو . ففي السنة ١٩٥٧ ، عاش ثلثا البشرية في بلدان لم يبلغ الدخل القومي فيها ، على اساس عدد السكان، ٣٠٠ دولار في السنة للشخص الواحد . وبالنسبة لـ ٦٨٪ من بينهم كان هذا الدخل أقل من ١٠٠ دولار . ولذلك كانت مستويات المعيشة متباينة جداً بين الدول الغنية (١/٦ سكان العالم غير السوفياتي) التي تتوفر لها ثروات طائلة من المواد الاولية ، وصناعة قوية متقدمة تحولها الى مواد استهلاكية ، وفنيون كثيرون ، وبين البلدان الفقيرة، المكتظة بالسكان في أغلب الاحيان، المفتقرة الى رؤوس الاموال والفنيين . وتطابق خريطة هذه البلدان ، بالضبط ، خريطة مناطق التخلف ، والامية ، والتوسع الديموغرافي السريع . ولا ينتج ثلثا السكان المتخلفين سوى ثلث الانتاج الزراعي العالمي . اجل ليس وجود السكان الفقراء بالشيء الجديد، ولكن الفقر الحالي، كما يوضح ذلك « ايف لاكوست » ليس « متعادلاً » على غرار الفقر في الايام الغابرة، حين كان عدد البؤساء ثابتاً . أما الشيء الجديد فهو ان فقر التخلف « يوافق اختلالاً تجسيمياً في التعادل » : ان ارتفاع عدد السكان الكبير والسريع لا يعادله ارتفاع الانتاج الزراعي العالمي . فمنذ السنة ١٩٥٩ ، اذ كان معدل النمو الديموغرافي ١،٦٪ ومعدل الانتاج ١ بالمائة فقط ، برز اختلال التعادل اكثر فاكثر ، وبرز الفارق بين البلدان المصنعة والبلدان غير النامية ، وارتفع عدد الجياع ارتفاعاً لم يعرف قط من ذي قبل . ولذلك فان اختلال التوازن الداخلي الذي ينجم عن ذلك ، والمقارنات التي يجريها ، في داخل كل دولة ، سكان البلدان غير النامية بين مستوى معيشتهم ومستوى معيشة الأقلية الممتازة ، تجعلهم يعون ان « السلطات المفرطة » التي يتمتع بها هؤلاء الممتازون ، من وطنيين وأجانب ، هي « العقبة الكبرى التي تحول دون انطلاقة انمائية حقيقية والعائق الذي يمكن ازالته بأسرع وقت » (ا . لاكوست). فالمسألة من ثم مسألة سياسية اولاً، لأن وسائل ايجاد حل لها متوفرة على الصعيد التقني .

مكافحة الجوع

لقد اثبتت نجاحات العلوم والتقنيات امكانية زيادة انتاج الاغذية والطاقة زيادة تكاد تكون لامحدودة . فان تقنيات التخطيط ، التي اعتمدت في روسيا اولا ، ثم بات العمل بها شاملاً ، قد قدمت الدليل على امكانية تنظيم البحث العلمي تنظيما فعالا جدا – وقد اعطت الولايات المتحدة خير مثل على ذلك خلال الحرب الاخيرة وبعدها – وتحقيق الاكتشافات المختبرية تحقيقا عمليا في وقت قصير جداً. فبات ممكنا من ثم، من الناحية التقنية ، تحسين مصير الانسانية وتحييز المثال السانسيموني لاستثمار الارض استثماراً منظما وصوابيا، وازالة « بؤس البشر » في ظروف لم يحلم بها احد من قبل . ووضع حد للاخطار التي الح اليها ف. د. روزفلت في برنامجه الحربي : القضاء على الخوف ، والبؤس ، والمرض .

امام سرعة تزايد السكان وقفت الامم المسيطرة بعزم الى جانب تحديد النسل ؛ فكما ان

الطبقات الحاكمة رأت مع « مالتوس » في اوائل القرن السابق ان تحديد النسل هو العلاج الوحيد لبؤس الطبقات الفقيرة ، كذلك نصحت هذه الامم بـ « رقابة الولادة » الى الشعوب الآسيوية غير النامية المتكاثرة بسرعة ؛ فأقرتها اليابان ، والهند ، والصين (ربما مؤقتاً) اقراراً رسمياً . اما الموقف التفاؤلي المناهض لتحديد النسل فقد دافعت عنه الاديان الوفية لموقفها التقليدي ، وكافة المقتنعين بأن الجوع مرده الى عوامل اقتصادية اكثر منها جغرافية وبأنه « يمكن مواجهة كل ارتفاع في عددالسكان بتنظيم اجتماعي مناسب »؛ والقائلين مع« جوزويه دي كاسترو » ان « الجوع الجماعي ظاهرة اجتماعية الطابع ترد بصورة عامة الى سوء استخدام الامكانات والموارد الطبيعية ولتوزيع المواد الاستهلاكية توزيعاً يرثى له » . فمن اصل الـ ٥٠٪ من مساحة الاراضي الصالحة للزراعة، لا يستثمر اليوم سوى ١٠ بالمائة فقط ، وهنالك مساحات كبرى يمكن من ثم استثمارها زراعياً . ولا تتيح التقنيات الزراعية المحكمة زيادة انتاج الاراضي المستثمرة حاليا في المنطقة المعتدلة فحسب ، بل استثمار اراض جديدة اهملت حتى هذا التاريخ لانها مجدبة نسبياً ، كأراضي المناطق القريبة من القطب الشمالي وبورات آسيا الوسطى والاراضي الحمراء في المناطق الحارة والاراضي التي محلت بفعل زراعة واحدة متكررة وغير صوابية . ومن شأن ادجان الانواع النباتية الجديدة الغنية جداً بالكالسيوم والفيتامينات ، التي درست مؤخراً في اميركا الوسطى والبرازيل ، وانماء صيد الاسماك (المحصور اليوم بنسبة ٩٨ بالمائة في نصف الكرة الشمالي) وتربيتها ، ان يزيدا كذلك كمية الاغذية المتوفرة ، كما ان من حقنا ارتقاب نتائج جلى من اكتشافات علم الحياة وتطبيقات الطاقة الذرية . وقد تحقق منذ اليوم في المختبرات اعداد مواد حية بفضل الطاقة الضوئية ، وتعد منذ اليوم كذلك زراعة بعض انواع الاشنة البحرية الغنية بالبروتينيات والسكر القابل التمثل ، التي من شأنها انتاج طاقة مرتفعة . وهذه حال الـ « كلوريلا » ، اشنة المياه العذبة ، التي قد توفر زراعتها في احواض كبرى ٢٠ طناً في الهكتار سنوياً ، وقد لا تستلزم المياه التي تستلزمها المزروعات المروية الكلاسيكية في البلدان القريبة من المناطق الحارة حيث تتعرض النباتات لاشعة الشمس المحرقة . ويوجد علم الوراثة انواعاً نباتية اشد تحملاً واسرع نضوجاً ، وربما انواعاً جديدة ايضاً ، وتستعجل الاشعاعات الذرية تطورها وتقضي على الجراثيم والحشرات ؛ وهكذا يصبح بالامكان تجنب كل خوف من المجاعة تجنباً نهائياً .

الثورة الصناعية الجديدة

يقال القول نفسه عن انتاج المواد الاستهلاكية الصناعية ، وفي الدرجة الاولى عن الطاقة التي هي شرط كل انتاج ضخم وكل مكننة . فان بعض مصادر الطاقة لا تتجدد وينتظر استنزافها في مواعيد قريبة ، كالفحم الحجري الذي يتراجع امام تقدم البترول والكهرباء ، والبترول نفسه ، والغاز الطبيعي . ولكن الكهرباء ، التي تنتجها مصانع حرارية ومصانع مائية – كهربائية ، هي منذ اليوم المصدر الرئيسي للطاقة المستخدمة بسبب مرونتها وحقل تطبيقاتها الواسع ؛ فان استهلاكها

يتضاعف كل عشر سنوات في البلدان الصناعية . ويواجه انتاجها بواسطة مصادر لا ينضب معينها : المصانع التي تستخدم طاقة المد والجزر المحركة (حيث ترتفع المياه وتنخفض كثيراً فقط : مصب الـ « رانس » ، جون « مون – سان – ميشال ») ، وطاقة الريح الذي يسير محركات ذات قطر كبير (كمحطة « بالاكلافا » في القرم) ، وطاقة البراكين (كالمنفات التي يسيرها في توسكانا بخار يتصاعد من جوف الارض وتبلغ حرارته ٢٠٠ درجة مئوية) ، واستخدام الطاقة الشمسية القادرة على تحويل صحاري المناطق الحارة الى مصادر عالمية غنية بالطاقة (مصنع وادي ارارات في ارمينيا مع مراياه الـ ١٢٩٣) ، وخصوصاً بإنشاء المصانع الكهربائية الذرية . ولا يزال هنالك لعمري مصادر اخرى تطرح جانباً كل خوف من الحاجة الى الطاقة : ان كميات الاورانيوم والتوريوم المعروفة في العالم تسمح بالاعتقاد بأنها تمثل مصدر طاقة اعظم شأناً الى حد بعيد من احتياط البترول والفحم الحجري ، وبأنها لا محدودة عملياً . فبعد ثورة الآلة البخارية وثورة الكهرباء ، يشكل استخدام الطاقة الذرية والرقابات الآلية التي توفرها الاجهزة الالكترونية ثورة ثالثة نشاهد انطلاقتها امام أعيننا . وقد اصبح استخدام هذه الطاقة منذ الآن متنوعاً وواسعاً ؛ فان تحويلها الى كهرباء واستخدامها في دفع السفن والطائرات والقاطرات قد اصبحا قابلي التحقيق تقنياً ، واستخدامها للتدفئة كذلك . فان مولداً ذرياً ينتج ٠٠٠ ١٠٠ كيلوات في الساعة ، اي ما يكفي لاستهلاك مدينة تضم ١٠٠٠٠٠ نسمة ، لن يستخدم سوى ١٥٠ كيلوغراماً من مركب الاورانيوم – ٢٣٥ الغني بالاورانيوم ؛ وان الغواصة « نوتيلوس » قد قطعت مسافة ٠٠٠ ٣٥ ميل ولم يستهلك محركها الذري سوى ٦٠٠ غرام من الاورانيوم !

منذ اليوم اخذت بعض الآلات الجديدة الفائقة القوة تحدث ثورة في توزيع المراكز الصناعية جغرافياً : آلات تسوية الارض التي تقوم كل يوم بعمل الوف العمال كرافعات الانقاض التي تستخرج ١٥٠٠ متر مكعب في الساعة ، والرفوش الآلية التي تنزع ٦٠٠ متر مكعب في الوقت عينه ، والمثاقب الفولاذية الآلية القادرة على حفر اروقة يبلغ قطعها اربعين متراً مربعاً ، والرافعات الآلية القادرة على رفع كتل صخرية تزن ٦٠ طناً ، والمهدات الرافعة القادرة على رفع ٣٠ متراً مكعباً في الدقيقة ، والرفوش الكهربائية المزودة بالقواديس التي تستخرج ٣٥٠٠ طن من المعدن غير الخالص في ثماني ساعات ، والناقلات الآلية ذات السيور التي جعلت الاستثمار المنجمي من على وجه الارض أوفر انتاجاً من الاستثمار داخل الارض وسهلت بناء الخطوط الحديدية والطرقات ؛ وأتاح الجر الكهربائي والجر بواسطة محركات ديزل اجتياز الصحاري بسهولة ، كما ان الطوافات ، والطائرات الشاحنة ، وأنابيب نقل البترول قد طورت ظروف النقل . وقد اتاحت كل هذه التحسينات امكانية استثمار موارد البلدان القاحلة كالصحاري القطبية مثلاً : مناجم الحديد في « لابرادور » ، مناجم الرصاص في « غرينلند » ، موارد المناطق الباردة السوفياتية ، بينما استخدمت تجهيزات الانهر الافريقية (مصنع آديا على

الـ « ساناغا » ، وقريبا سدّ « كونكوريه » في غينيا ، وسدّ «كوبلو في الغابون) لتنقيـة البوكسيت المحلي والاوروبي . وهكذا اخذت تتوفر كافة الظروف التي سوف تتيح وضع كافة موارد الكرة الارضيـة في خدمة البشرية . وهكذا سوف يزول النمو الاقتصادي المتفـاوت في مناطق العـالم المختلفة ويزول معه عدم التساوي في علائق القوة الذي افضى الى وجود سائد ومسود .

الخلاصة

« لا (في حضارات الماضي الجماعية) ولا في عهد النظام الحر ، لم يكن البشر احراراً حقاً ... فان فترة النظام الحر القصيرة جداً ، التي بلغت اليوم اجلها ، لم تكرس يوماً ، حتى لاقلية من سكان العالم ، سوى حرية قضائية ، نظرية في اغلب الاحيان ، زادت في كثير من الحالات من خطورة الاقتسارات الاقتصادية » .

(ب . لاروك)

ان نصف القرن هذا قد قلب نظام المراتب بين القارات والدول بوضعه حداً لهيمنة اوروبا السياسية والاقتصادية . إلا ان هذه الاخيرة ، ما زالت ، على الصعيد العقلي ، « معلمة العالم » والمركز الرئيسي لانضاج الأفكار وأشكال الفن ، كما ان العلم الاوروبي ما زال يلعب دوراً أولياً في حقلي البحث والاكتشاف . فعملها الخلاق لم يستنزف قط ، وليست المراكز الجديدة التي تجاريها في البقاع الاخرى من الكرة الأرضية ، سوى ابنائها ومواصلات نشاطها . وما زالت هذه المراكز تستوحيها وتقتبس من طرائقها وتستعين ببعض علمائها . يضاف الى ذلك ان الـ « اوروبتين » ، الحرة والماركسية ، تنشران كلتاهما مُثلاً اوروبية المنشأ . وبدل نصف القرن هذا كذلك نظام الاقتصاد والمجتمعات نفسه ، وجدد مبادىء العلم والفن وطرح كافة المسائل تقريباً بعبارات جديدة ، وولّد بذلك في الاجيال التي بلغت سن الرشد بعد السنة ١٩٠٠ شعوراً ناصباً بعدم الاطمئنان وبقرب نهاية العالم عبر عنه العديد من الادباء ورجال الدولة المعاصرين في تصريحاتهم التشاؤمية .

لقد نزلت بالنظام الاقتصادي القديم أضرار جسيمة . وفقدت الرأسمالية من جهة ثانية جزءاً كبيراً من الكرة الارضية ، واكثر من ثلث سكانها الذين انضموا الى الكتلة الشيوعية حيث لم يعد الانتاج خاضعاً لسنة الكسب بل خطط تخطيطاً كلياً . يضاف الى ذلك انها شوهت تشويهاً خطيراً حيث لم تزل هي النظام السائد في الاجزاء الاخرى من العالم . فان عجزها عن التوفيق بين الانتاج والاستهلاك ، وايجاد الاسواق لتصريف انتاج عادم النظام واشباع حاجات الجماهير الحقيقية في وقت واحد ، والتوقفات الفجائية التي تنجم عنه في نمو الاقتصاد ، قد اوجبت تدخل

الدولة تدخلا متزايد النشاط . فقام من ثم اقتصاد موجه اصبحت فيه الدولة الرأسمالية العامل الرئيسي في الحياة الاقتصادية . وان الضرائب التي تقتطعها السلطة من الدخول ، وطبيعة نفقاتها (ولا سيا نفقات التسلح التي اصبحت « الميزة الثابتة لنظامنا الاقتصادي ») ، وتداولاتها من اجل التوفير ، وتدخلها في حقل التسليف ، قد اتاحت لها رقابة التوزيع ، وتنظيم توظيف الاموال ، وتحديد الاسعار ، وتوجيه الانتاج ، وتشجيع هذا النشاط او ذاك او عدم تشجيعها وتعديل توزيع الدخول بين الفئات الاجتماعية المختلفة ، واستلام زمام الاقتصاد كله . فكان ان هذا التدخل شبه الدائم اعطى الرأسمالية وجهاً جديداً ما كان احد ليحلم به في السنة ١٩٠٠ . وهو قد استتبع ، لا الغاء حق الملكية الخاصة وحرية العمل ، بل تحديدهما على كل حال . ومنذ عشرين سنة تقريباً ، نرى ان الولايات المتحدة - بلاد الرأسمالية الكبرى بالذات - قد سلكت هذه الطريق .

ان ازمة الرأسمالية هذه ، واعني بها « شعورها بوقتيتها » منذ الازمة الكبرى ، والصفة التي تبدو ملازمة للتدابير التي تحولها تحويلا عميقاً جداً ، قد طرحت بصورة حتمية مسألة مدى حياتها وموتها ، و « افلاسها » ، و « فسادها » . فحول هذه المسألة تتجابه الايديولوجيتان المتزاحمتان اللتان تتقاسمان العالم : هل الرأسمالية قادرة على التحسن وحتى على البقاء ؟ ان الجواب الماركسي معروف تمام المعرفة : ان الرأسمالية صائرة حتماً الى الزوال بسبب حركة التاريخ الديالكتيكية التي يتوجب على البروليتاريا بموجبها القضاء على النظام الذي كان سبب نشأتها . وكل ما هنالك، كما يرد في الجواب ، يثبت هذا التطور : تمادي واتساع الازمة الكبرى ، النجاحات التقنية العظيمة المتحققة ، كون جزء كبير من اوروبا وآسيا قد انتزع منها ، منذ الحرب العالمية الثانية ، اسواقاً هامة ودورها القيادي في حياة البلدان الجديدة . ولن تتغلب الرأسمالية على الصعوبات التي تتخبط فيها الا باللجوء الى حيل مؤقتة ، ولكن لا مناص من ازمات كبرى متزايدة الاهمية ، ترافقها حروب من اجل فتح الاسواق ، سوف تستعجل القضاء عليها .

سلم عدد من الاقتصاديين والكتاب الاحرار مع ماركس، دون التسليم بهذه الآراء الجذرية، بأن الرأسمالية ليست « جزءاً من اطار الطبيعة الأزلي » . نذكر منهم « ج. شومبتر » الذي تكلم في كتابه « الرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية » (١٩٤٢) عن تيبّس الرأسمالية وانحطاطها التاريخي . وقد ارتقب ، آسفا ، انتصار الاشتراكية الحتمي . ونذكر « جايمس بورنهام » الذي ارتقب في كتابه : « عهد المنظّمين » ، الصادر في السنة نفسها ، زوال النظام الحالي الذي لن تخلفه الاشتراكية بل رأسمالية دولة في ايدي بعض الفنيين. وهنالك عدد آخر ممن لم يبدوا رأياً جازماً ، بل وقفوا موقفاً متحفظاً من مستقبل النظام . فرأى بعضهم كالاميركيين « هانسن » و « هيجنز » ان الاقتصاد الغربي قد بلغ نقطة « نضج » تستتبع ركوداً نسبياً ، اي تمهلا في نسق نموه بشكل ظاهرة تثير القلق . وهذا كان كذلك رأي كولن كلارك الذي ذاع صيته في العالم بفضل كتابه « شروط التقدم الاقتصادي » (١٩٤٠) : ان

التقدم الاقتصادي الذي يقوم بنمو القطاع الثالث ، صائر حتما الى التمهل لأن معدل زيادة الانتاجية في هذا القطاع ادنى معدل ممكن . اضف الى ذلك اخيراً ان ظواهر التضخم في كافة البلدان تؤلف خطراً مميتاً بالنسبة للمجتمع الرأسمالي لانها سوف تنتهي الى زعزعة اطره وخلق وضع يكون من شأنه حمل الرأي العام ، كما يؤكد ذلك شومبتر ، على اعتبار «التخطيط الكامل اخف الشرور الممكنة». ويخلص الكاتب الى القول : «لقد اخطأ ماركس في تقديره لكيفيات انهيار المجتمع الرأسمالي ، ولكنه لم يخطىء في ارتقاب انهياره نهائياً » .

والحال عاش الاقتصاد الرأسمالي ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، في جو حرب حامية او باردة ، ومنافسة قوية بين كتلتين من الدول ، وفي الوقت نفسه في جو تحسينات تقنية عظيمة حدت به الى شحذ عزيمته وتجديد معداته الصناعية ، وسحب من سوق العمل ملايين الشبان المدعوين لخدمة العلم ،ولكنه انتهى كذلك ، كما هو طبيعي ،الى تفشية الاتجاه الشامل الى التضخم افليست « المثبتات الآلية » ، التي احكمها علماء الاقتصاد منذ السنة ١٩٢٩ ، سوى مجرد حيل من شأنها تأخير ازمة آخذة بالنضج ليس تأخر اقتصاد اميركا في السنة ١٩٥٧ - بعد تأخرين اقل خطورة في ١٩٤٨ - ١٩٤٩ وفي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ - سوى احدى ظواهرها المثيرة القلق ؟ فاذا كان التقدم الذي تحقق لم يتحقق الا بفضل سلوك « طريق التضخم الخطرة » ، هل يتوجب علينا ان نقول مع « ألفرد سوفي » ان « الرأسمالية لم تحلّ تناقضها الاساسي . لقد نجحت في تخفيف شدة الهزات دون ان تنجح مع ذلك في استئصال نسقها » ؟

الا ان عدم حدوث ازمة عالمية جديدة كبرى منذ السنة ١٩٢٩ ،ونهضة التوسع الاقتصادي الهامة التي برزت في العالم الرأسمالي منذ السنة ١٩٥٣ ، قد اعاد له الثقة في المستقبل . وان في ذلك لدليلا - كما يعتقد البعض - على ان الوسائل التقنية المتوحاة من « كينز » مجدية لتوقي الازمات اذا جرى التدخل في الوقت المناسب . وان مرونة النظام التي تتيح له التكيف بحسب الظروف الجديدة لدليل على قوته . او لم يؤكد اندريه مارشال - في سياق درسه « اشكال نظام الرأسمالية » - انها تتفق وعدة امثلة من النظم السياسية والقضائية والاجتماعية ، وانها تنطوي على اشكال كثيرة تبتدىء بالمثال « الحر » وتنتهي بمثال مشوه جدا هو مثال الاقتصاد المخطط تخطيطا جزئيا .

« ان الرأسمالية تتفق والمساواة بين الدخول ، ولكنها تتفق كذلك واختلافها البالغ » .

مهما يكن من الامر ، فان تراجع التفاؤل الكلاسيكي اصبح عاماً ، وهو يقاس بتقدم سياسة التدخل وبشبه شمول اقتصاد متباين التوجيه والتخطيط ، غالبا ما يطالب به المتعهدون انفسهم ، رغبة منهم في ان تقيهم الدولة شر التقلبات الفجائية في النشاط الاقتصادي .

بموازاة تطور الرأسمالية هذا ، وعلى علاقة وثيقة معه ، لوحظ تقهقر سريع في مذهب « الدولية » وليس المقصود هنا « الدولية الاشتراكية » التي كانت لا تزال ناشطة جداً بعد

الحرب العالمية الاولى والتي نرى في ضعف الحركة العمالية الاشتراكية الراهن اوضح ظواهرها فحسب . بل المقصود ، كما اثبت ذلك « ميردال » ، رفض احترام مجموع القواعد القانونية الموضوعة تدريجياً والمقبولة عموما التي كانت تنظم العلائق بين الدول : رفض مواجهة المسائل من وجهة نظر مصالح البشرية العامة لا من وجهة نظر قومية ضيقة . فلا قيمة الا للدفاع عن المصالح القومية المستعجلة ، وتحذو الدول الجديدة غير النامية ، في هذا المضمار ، حذو الدول الكبرى في علائقها المتبادلة وفي علائقها بالاقاليم التي كانت خاضعة لها من ذي قبل . والمقصود كذلك الانتهاكات الخطيرة لحرمة الحق الدولي الذي كان يضمن ، في ايام الحروب ، حدا ادنى من الرفق واحترام الشخص البشري ، اذ ان « الحرب الشاملة » قد ادت الى قاعدة مخالفة الحقوق التي اعترفت بها اتفاقتا جنيف ولاهاي لمدنيي الدول المتحاربة وأسرى الحرب وسكان البلدان المحتلة من قبل جيش عدو . وبصورة خاصة انقسم العالم الى عدد متزايد من الاطر السياسية المستقلة التي تسيطر عليها قومية اقتصادية ذات اتجاه استكفائي يكثر من الحواجز ويحول دون انتقال المواد والاشخاص ورؤوس الاموال . ومن التناقض ان يصطدم التوفيق بين التنمية الاقتصادية والاستقلال السياسي بصعوبات يتعذر تذليلها في الظاهر ، في الوقت الذي نشاهد فيه « تطوراً نحو توحيد الكرة الارضية تقنيا وصناعيا » (ر . آرون) ، ويبرز فيه بوضوح عجز الفرد عن ان يكتفي نفسه بنفسه ، وتتأيد فيه ضرورة قيام تعاون دولي . فان الامم المتطورة لم تقم بشيء عمليا من اجل تثبيت سعر المواد الاولية والمنتجات الزراعية التي هي المورد الوحيد للبلدان غير النامية ، ومن اجل مساعدتها على تنويع انتاجاتها وانشاء صناعات تحويلية فيها ، وهي الوسيلة الوحيدة لوضع حد لفقدان التوازن الذي تعاني منه ، ومن اجل معالجة البؤس الفظيع الذي تزيد انطلاقتها الديموغرافية من خطورته يوماً بعد يوم. واذا ما استثنينا بعض الحالات النادرة ، فان البلدان المصنّعة تصنيعا متقدماً هي وحدها تقريبا ما افادت من ازدياد الطاقة الصناعية ازدياداً عظيماً خلال السنوات العشرين الاخيرة .

من المميزات البارزة التي تستخلص من انعام النظر في مجتمعات القرن العشرين التفاوت الكبير السائد بين البشر . فان القسم الاكبر من الممتلكات العقارية في ايدي عدد ضئيل من كبار الملاكين. وفي البلدان التي تكثر فيها الممتلكات الصغرى ، ييسر التطور الاقتصادي وتقدم المكننة جمع الاملاك الصغرى والاستثمارات في وحدات اكثر اتساعاً وفي الصناعة كذلك تتغلب ظاهرة التجميع نفسها . وحتى اذا كان الرؤساء والمديرون فنيين يتقاضون مرتبات لا ملاكين ، فانهم يتنعمون بدخول كبرى وبنفوذ عظيم . وان هذا التفاوت السائد بين طبقات الامة الواحدة ، يسود كذلك على مستوى الشعوب . وهي اقلية هنا ايضاً ما تستفيد من كافة منافع الاقتصاد المعاصر — ١٥ بالمائة من سكان العالم غير السوفياتي يستأثرون بـ ٦٢ بالمائة من الدخل العالمي — بينا تفتقر الاكثرية الساحقة الى ضروريات الحياة . وان هذا التفاوت يزداد خطورة ، وليس ما

يشير الى ان وطأته ستخف في وقت قريب . فان الازدهار الاقتصادي الكبير الذي استفادت منه الدول المتطورة قد اتاح لها انماء ثروتها وتحقيق بداية وحـــدة قومية بتوزيع الاخطـار الاقتصادية بين مواطنيها توزيعاً اكثر انصافاً . اما الدول غير النامية المكتظة بالسكان فقد بقيت في حالة ركود يرثى لهـا ، او تأخرت احيـاناً . « بالنسبة البشرية كمجموع ، ليس في الواقع من تقدم » ... « فالدخل القومي الحقيقي ومستوى الحيـاة المتوسط ادنى اليـوم منهما منذ عشرين سنة في الارجح ، وربما كانا ادنى منهما في السنة ١٩٠٠ » (ج. ميردال) .

هو هذا التفاوت المزدوج ما قاومه وحاربه نصف القرن الاخير . فمن المميزات الجـديدة للعهد المعـاصر ظهور حالة نفسية جديدة بين الجماهير التي كانت حتى هـذا التاريخ خاضعة لرؤسائها التقليديين . اجل لقد تخللت تاريخ البشرية ثورات دفع اليها البؤس ، او وضع علي لا يطاق ، او الاستبداد ، او شدة الآلام ، ولكن الخضوع للتفاوت الاجتماعي، وعدم الاطمئنان، والفقر ، والبؤس ، والآفات الطبيعية لم يعارض عليه قط اعتراضاً جدياً . فسواء بشرت به الاديان السائدة أم إيديولوجية الطبقات الحاكمة ، فان مبدأ التسلم بنظـام معترف بديمومته قد عرف انتشاراً شاملاً حتى بين العناصر المطالبة بالاصلاح . وكل ما بدا ممكناً في هذا الصدد هو تخفيف وطأة نتائجه بالتعاون الذي تحقق على الصعيد الوطني والصعيد الدولي ، وممـارسة المحبة ، والمساعدة الاخوية ، والعـدالة الاجتماعية ، والادخار الذي يتيح لكل فرد – كما علّم بعضهم – الارتقاء في السلم الاجتماعي بالخروج من الحالة « البروليتارية » .

قبل الحرب العالمية الاولى ، اخذت الاشتراكية تعلّم في أوساط العناصر المتطورة في الطبقة العمالية – وهي أقلية ضئيلة ، كما سبق ورأينا – ان مصير المحرومين لا يمكن ان يتحسن تحسناً حاسمـاً على الصعيد الفردي ، بل بتبديل الحالة العمالية . وقـد يسّرت حوادث نصف القرن الاخير : الحربان العالميتان ، وعدم استقرار النقد ، والازمة الكبرى ، انتشار هـذه الآراء انتشاراً واسعاً ، ولم يزل موقف الاستسلام والخضوع القـديم بين الافراد وفي وسط الطبقات الشعبيـة فحسب ، بل بين الشعوب المسودة ايضاً ، وحل محله توق شامل لحيـاة فضلى . « لن ترضى اية طبقـة بعد اليوم بأن تنعت بالدنيا . ولن تعترف أيـة طبقة بتفوق طبقة اخرى » . وساد الاعتقاد من جهة ثانية بأن الحريات السياسية المدرجة في الدساتير الغربيـة ليست في نظر أكثرية البشر سوى حريات شكلية ونظرية ؛ ولن تصبح فعلية الا اذا نعمت الجماهير بمستوى معيشة كاف ، الا اذا تحققت الديموقراطية الاقتصادية . فمن هذا التضاد بين المساواة السياسية والقضائية من جهة ، والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي من جهة ثانية ، نشأ الشعور بأن النظـام الاجتماعي ينطوي على ظلم لا يطاق .

اما ما استعجل هذا الوعي فهو مثل الثورة الروسية التي قـدمت ، بتحقيقها مجتمعاً بدون طبقات ، مرتكزاً الى إلغاء الملكية الخاصة .

« الدليل على ان نظاما اقتصاديا غير الرأسمالية يمكن ان يسير بصورة دائمة، بينا كانت البلدان الرأسماليـة فريسة بطالة بدت وكأنها انتشرت انتشاراً دائما » . (اندريه مارشال)

ان المثل الروسي علم الطبقات والشعوب المسودة – « البروليتاريا الداخلية » و« البروليتاريا الخارجية» بحسب تعبير « ج. بالنديه » – ان تبديل ظروف الاقتصاد امر ممكن، وان ليس من حتميات اقتصادية وتفاوتات لا دواء لها ، وان السلطة العامة قادرة على تبديل النظـام القديم ، ويكفيها ، لبلوغ هذه الغاية ، استخدام الموارد التي وضعها العلم والتقنية بتصرفها .

على غرار دول اوروبا الوسطى والشرقية التي فازت باستقلالها في القرن التـاسع عشر ، طالبت شعوب المستعمرات بحق حكم ذاتها ، وبانشاء دولتها القومية بدالة تقاليدهـا لا باقتباس مؤسسات الغرب اقتباسا اعمى ، وباعتماد اقتصاد مستقل لن يخضع بعد اليوم لمواقفـات الدول الصناعية الكبرى . ومن يريد منها بلوغ هذه النتيجة لا يتوجه الى « النظام الحر » الا عنـد الحاجة ، خشية من الاضطرار الى القبول بشروط قد تحد من استقلالها الحديث العهد . بل يلجأ الى تخطيط متفاوت الشدة يشدد على الوقائع الاقتصادية والاجتماعية يستطيع وحده ان يوفر لها القاعدة التي تفتقر هي اليها والتي لا تعطي دخولا فورية .

أما في البلدان الرأسمالية ، فخوفا من الاعداء الثوري ، انتهجت الحكومات ـ منذ أزمة السنة ١٩٢٩ ، بصورة خاصة ـ في الحقل الصناعي سياسة التدخل نفسها التي انتهجتها في الحقل الاقتصادي . فأمام الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية ، حيث شمل الضمان الاجتماعي، كما سبق ورأينا ، كافة حاجات العمال ، وحيث اتجه الاجر الاجتماعي المتزايد الى ابتـلاع كافة الاجر ، عممت هذه البلدان بعد السنة ١٩٤٥ التدابير التي سبق اعتمادهـا في البلدان الانكلو ـ ساكسونية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها . لقد امست « دولة الازدهار » احـد العناصر الاساسية للتوازن الاقتصادي والسياسي في كافة الدول تقريبا ، فهي في حقـل الصحة العامة والاستخدام الشامل من جهة ، تعوض من الاخطار الاجتماعية وتقي منها الى حد مـا ، ومن جهة ثانية تصبح وسيلة ، لا تزال محدودة جداً ، لاعادة توزيع الدخول ، اذ انها تخصص الرسوم المستوفاة على اكثرها ارتفاعا للنفقات الاجتماعية التي تهم الجماعة كلها . لقد نجم عن ذلـك ان الفارق بين الحالات المتوسطة والحالات الغنيـة قد تضاءل في بعض البلدان كالولايات المتحدة والسويد وبريطانيا العظمى . وانما ما زال هنالك ، في هذا الحقل، تفاوت كبير جداً هو الدليل على افتقار الاجراء افتقارا نسبيا . فهنا ، كما بين الدول الغنية والدول غير النـامية ، يتعاظم التفاوت بين الاغنياء والاجراء ، حتى المتوسطين ، بدلا من ان يتضاءل، وترتفع الاجور أقل من الارباح الى حد بعيد، بينا يعوز التطور التقني الطبقة الممتازة بتعسير الارتقاء الاجتماعي ووصول وضعاء الاصل الى الوظائف القيادية . ويمتلك المشاريع الكبرى ابدا ، حتى المؤممة منها والمدارة من قبل« مديري ادارة» ، عدد محدود من الارباب الذين يستمرون في التمتع بنفوذ، لم يعد حصريا، ولكنه ما زال مسيطراً على السلطة . ولذلك فان سيطرة الرأسماليين على غير الرأسماليين وما زالت

تشكل المرتكز الاساسي للدول الغربية. وما زال الصراع الطبقي قائما ، ولكنه يرتدي اشكالاً أقل جفافا » (موريس دوفرجيه) .

اصبح تدخل السلطة العامة من ثم عاماً — حتى في البلدان التي تسيطر عليها تقاليد الاثرة الفردية — ؛ وقد فرضته اعتبارات اقتصادية واعتبارات اجتماعية الطابع من اجل تأمين توازن افضل بين قوى الانتاج والتوزيع وضمان السلم الداخلي . ولكن النظام الحر ليس آخذاً في التراجع من هذا القبيل فحسب . فبينما وقفت الدول ، التي لم تشعر بأن البناء الاجتماعي مهدد بخطر جسيم ، موقفاً متساهلا من الجرم السياسي ، خلال مرحلة النظام الحر ، فان التأزم الاجتماعي الذي حركته ثورة تشرين الأول في كافة البلدان ، قد افضى منذ السنة ١٩١٧ الى تصلب الحكام: دكتاتورية في البلدان المنتقلة الى الشيوعية بغية محاربة محاولات مناهضة الثورة، فاشستية او اقله نظام بوليسي ، وحد من الشرعية وتجاوزها في « العالم الحر » . ففي كافة بلدان العالمين دون استثناء يمكن وضع قائمة طويلة بأعمال العنف ، والتوقيفات التعسفية ، ومعاملة السجناء والمتهمين بفظاظة ، والاستجوابات تحت تأثير التعذيب ، والرقابات الاستقصائية التي تضرب عرض الحائط بسر المراسلة والمخابرات الهاتفية ، التي تؤيد كلها ان المثل الانساني الأعلى لفلاسفة القرن الثامن عشر وخلفائهم في القرن التاسع عشر آخذ في التراجع. وزادت من خطورة هذا التراجع قوة وسائل اقناع الجماهير الشعبية : الاذاعة ، التلفزة ، الصحافة الكبرى في ايدي المصالح الكبرى ، التي تنشر كلها ايديولوجية « مذهب محافظ جديد مستنير » (ج. مينو)[1] يهدف الى ابعاد السياسة عن الرأي العام واخفاء هذه الحقيقة عنه : من شأن النضال السياسي وحده الانتباه الى اعادة توزيع السلطة لمصلحة المحرومين والمظلومين . اذن نحن امام تراجع النظام الحر ، الذي قابل المحطاط الرأسمالية الكلاسيكية ، او اقله تطورها ، ذاك النظام الحر ، الذي كان عهده الحلو — والحق يقال — قصير الامد ، والذي لم يستفد منه استفادة كاملة سوى شطر زهيد من البشرية ، هو ذاك الذي استفاد من امتياز الثروة .

يختلف الوضع ، كما يتضح ذلك ، اختلافاً كلياً عنه في السنة ١٩١٤ . وان العالم ، كما كان في هذا التاريخ ، قد زال معظمه منذ اليوم ، وانقلب توزيع القوى انقلاباً تاماً . فقد حل محل الوحدة الفكرية والمادية التي فرضتها هيمنة اوروبا انقسام الى ثلاث مجموعات . فهناك العالم الرأسمالي والحر والعالم الشيوعي. تسيطر على الاول، ثروة وقوة، الولايات المتحدة التي يقتبس هو عنها المؤسسات والاخلاق السياسية ويخضع لتوجيهها في الحقل السياسي والاقتصادي. وهو يتألف من دول كانت مسيطرة من ذي قبل ، فأضعفتها حركات استقلال الشعوب في المستعمرات وشبه

١ ـ اقرأ له في منشورات عويدات : مدخل الى علم السياسة . الناشر

تنعم به طبقاتها المتوسطة والعمال الميسورون في صناعاتها ، وعلى بذخ طبقاتها الحاكمة. وتوجب عليها اعادة التوفيق بين جهاز انتاجها والظروف الجديدة الناشئة عن تحرر رعاياهـــا السابقين ومنافسة الولايات المتحدة الساحقة في آن واحد . اما الثاني الذي يمتـــد من الإلب الى المستعمرات، وباتت تبحث عن اسواق جديدة بغية المحافظة على مستوى المعيشة المرتفع نسبياً الذي الباسيفيكي فينعم بظروف شبيهة بتلك التي عرفتها الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر: سوق كبرى تبدو امكانات توسعها وكأنها لامحدودة ، ويمكن ان تعتمد فيهـــا ، على نطاق واسع ، تقنيات توحيد المنتجات والانتاج بالجملة ، وأزال اصلاح النظام الاجتماعي فيها العقبات التقليدية التي حالت دون النهضة الاقتصادية ، وتتحسن فيها تدريجيا ظروف معيشة سكانها .

بين هذين المثالين لحضارات متناقضة ، بنظرتها الى العـــالم وبنظامها الاقتصادي والاجتماعي على السواء ، ظهرت منذ السنة ١٩٤٥ مجموعة ثالثة تضم البلدان غير النامية التي فازت باستقلالها السياسي حديثاً او تسعى الى الفوز به . فأمام مجموعة البلدان الاطلسية المتقدمة تقنياً — التي يجاوز معدل الدخل الفردي فيها ٥٠٠ دولار — والمجموعة الشيوعية التي ما زال معدل الدخل يتراوح فيها بين ١٠٠ و ٤٠٠ دولار ، اللتين تمثلان معاً أقل من نصف البشرية، توجد كتلة قوية بعدد السكان ، والثروة ، والموارد ، وأهميـــة الدور الذي يقوم به بعض شعوبها في السياسة الدولية — الهند في عهد نهرو ، وكتلة الدول العربية ولا سيا مصر — ولكن القسم الاكبر منهـا يعيش في البؤس وعلى حدود المجاعة . وتتنازعها الكتلتان الكبريان على الصعيد الايديولوجي ، ومنذ السنة ١٩٥٤ ، على الصعيد الاقتصادي ايضـــاً . فبينما كانت الدول الغربية وحدهـــا — والولايات المتحدة في الدرجة الاولى — قادرة حتى هـــذا التاريخ على تقديم الفنيين ورؤوس الاموال لها ، يعرض الاتحاد السوفياتي والصين اليوم عليها مساعدتها التقنية . وهكذا فان افغانستان تتلقى من الاتحاد السوفياتي القسم الاكبر من الاعتمادات التي يستلزمها تنفيذ الخطة الخمسية للانماء الاقتصادي ، والاتحاد السوفياتي يساعد الهند على بنـاء مصانع فولاذية ضخمة تنتج مليون طن من الفولاذ غير المصنوع ، ويعقد اتفاقات اقتصادية مع بورمـا ومصر وسوريا وباكستان . وعقدت عدة ديموقراطيات شعبية اتفاقات مماثلة مـع الهند واندونيسيا وبورما . وفي المؤتمر الافريقي الآسيوي المنعقد في القاهرة (١٩٥٧) ، وعد ممثل الاتحاد السوفياتي كافة الدول غير النامية، دون شروط سياسية ودون تمييز، بمساعدة بلاده المالية والصناعية والتقنية. ولا ريب في ان الدول غير النامية هي ما يستفيد من هذه المنافسة — لا بل من هذه المزايدة .

ابرز مؤتمر باندونغ شأن هذه الكتلة ورغبتها في الوقوف على الحياد . ولكن هذا الحيـــاد لا يمكن ان يدوم الى ما لا نهاية له . لذلك فان كل كتلة تسعى جاهدة لاجتذاب هذه الدول الى مدارها . وهي قدرة كل من شكلي الحضارة على سد حاجات الشعوب غير النامية ماديـــا وفكريا ، ومحاربة الجوع والبؤس محاربة أجدى ، ما سوف يملي عليهـا الموقف الذي يجب ان تقفه ، وما سوف يرجح كفة الميزان لمصلحة هذا المعسكر او ذاك .

التوجيه البيبليوغرافي

مؤلفات عامة

DAVID THOMSON, **The era of violence, 1898 - 1945,** Cambridge University Press, 1960 (t. XII de la *«New Cambridge Modern history»*)

JACQUES PIRENNE, **Les grands courants de l'histoire universelle : t. VI, De 1904 à 1939 et VII : De 1939 à nos jours,** Neuchâtel, Ed. de la Baconnière, et Paris, Albin Michel, 1955 - 1956.

R. GROUSSET et E. - G. LEONARD, **Histoire universelle; t. III : De la Reforme à nos jours,** Gallimard, 1958 (Encyclopédie de la Pléiade). ....

MAXIME MOURIN, **Histoire des nations européennes (1918 - 1962),** Payot, 3 vol., 1962. ... .

LUIGI SALVATORELLI; **Storia del Novecento,** 3e. éd. revue et mise à jour, Milan, Mondadori, 1964. ...

G. BARRACLOUGH, **An introduction to contemporary history,** Londres, Watts, 1964. ... ...

PIERRE GEORGE, **Panorama du monde actuel,** P. U. F., 1965.

FELIX PONTEIL, **Histoire générale contemporaine du milieu du XVIIIe siècle à la deuxième guerre mondiale,** 3e éd., Dalloz, 1963.

JEAN-BAPTISTE DUROSELLE, **l'Europe de 1815 à nos jours.**

BERNARD ISSELIN, **Histoire du monde contemporain,** F. Nathan, 1965 (depuis 1929). ....

ALFRED VAGTS, **A history of militarism civilian and military,** New York, Mémidian books, 1959. ....

A. SIEGFRIED, **La crise de l'Europe,** Calmann - Lévy, 1935.

HAROLD LASKI, **Réflexions sur la révolution de notre temps,** trad. fr., Ed. du Seuil, 1946. ....

TIBOR MENDE, **Regards sur l'histoire de demain, les nouveaux centres de gravité du monde,** trad. fr., ibid., 1954.

JOHN STRACHEY, **La fin de l'impérialisme,** trad., Laffont, 1961.

FR. PERROUX, **l'Europe sans rivages,** Paris, P.U.F., 1954. P

W. S. et E. S. WOYTINSKY, **World population and productions,** New York, The Twentieth century fund, 1953.

المسائل الديموغرافية

MARCEL-R. REINHARD et ANDRE ARMENGAUD, **Histoire générale de la population mondiale,** Ed. Montchrestien, 1961

ALFRED SAUVY, **Théorie générale de la population,** 2 vol., P.U.F., 3e éd., 1963. ... ...—....... ... ...

LOUIS CHEVALIER, **Démographie générale,** Paris Dalloz, 1954, coll. «Etudes politiques, économiques et sociales».

P. GEORGE, **Questions de géographie de la population,** P.U.F., 1959.

MAX SORRE, **Les migrations des peuples,** Flammarion, 1955.

EUGENE M. KULISCHER, **Europe on the move, war and population changes (1917) - 1947),** New York, Columbia U.P., 1948.

JOSUE DE CASTRO, Géopolitique de la faim, Les Ed. ouvrières, nouv. éd. 1965. ... ...
ANDRE ARMENGAUD, La population française au XXe siècle P. U. F., 1965.

الحياة الاقتصادية

H. J. HABAKKUK et M. POSTAN, The industrial revolutions and after : incomes, population and technological change, 2 vol., Cambridge economic history of Europe).
J. A. LESOURD et C. GERARD, Histoire économique (XIXe - XXe siècle), 2 vol., Colin, 1963 (coll. «U») ...
COLIN CLARK, Les conditions du progrès économique, trad. fr., P. U. F., 1960 ....
JEAN WEILER, La croissance de l'industrie mondiale (1938 - 1961), New York, Nations Unies, 1963. ......
FR. PERROUX, Le capitalisme, P. U. F., 1962.
G. PIROU, Néolibéralisme, néocorporatisme, néosocialisme, Gallimard, 1939. ... ...
FRITZ STERNBERG, Le destin du monde, trad. fr., Ed. du Seuil, 1958.
ROGER ORSINGHER, Les banques dans le monde, Payot, 1964.
DANIEL DURAND, La politique pétrolière internationale, P. U. F., 1962. ....
J. LESCURE, Les crises générale et périodiques de surproduction, Domat, 1938. ... .
R. LEWINSOHN, Histoire de la crise économique (1929 - 1934), Payot, 1938. ... ...
LUCIEN DE SAINTE - LORETTE, Le Marché Commun, 3e éd., A. Colin, 1963. ....
MICHEL CROZIER, Rapport préliminaire sur la situation sociale dans le monde, Genève, Nations Unies, 1952.
RIVERO et JEAN SAVATIER, Droit du Travail, 3e éd., P. U. F., 1964 (coll. «Thémis»). ... ...
ALEC MELLOR. La torture. son histoire, son abolition, sa réapparition au XXe siècle, Ed. Domat - Montchrestien, 1949.

الحركة العلمية

L. LEPRINCE - RINGUET, La science contemporaine, les sciences physiques et leurs applications, 2 vol., Larousse, 1963.
MAURICE DAUMAS, Histoire de la science. Des Origines au XXe siècle, Encyclopédie de la Pléiade, t. V., N. R. F., 1957.
PIERRE AUGER, Tendances actuelles de la recherche scientifique, Paris, Unesco, 1961. ....
G. CANGUILHEM, La connaissance de la vie, Hachette, 1954.
ROBERT BROCA, Cinquante ans de conquêtes médicales, Hachette, 1955. ....
RENE LERICHE, Cahiers d'actualité et de synthèse de l'Encyclopédie française, Larousse, 1954. ... ...
JEAN AUVERT, La chirurgie d'aujourd'hui, Seghers, 1965.

التقنيات

P. ROUSSEAU, Histoire des techniques, Fayard, 1956.

RICHTIE CALDER, **L'homme et ses technique de la préhistoire à nos jours**, trad. de l'anglais par H. Delgove, Payot, 1963.
CHAMBE' **Histoire de l'aviation**, Flammarion, 1949.
DANIEL FAUCHER, **Le paysan et la machine**, Ed. de Minuit, 1954.
ROBERT JUNGK, **Le futur a déjà commencé.** trad. fr., Arthaud,
G. FRIEDMANN, **Où va le travail humain ?**, Ibid., nouv. éd., 1962.

الحركة الفلسفية والادبية

GAETAN PICON et coll., **Panorama des idées contemporaines**, Gallimard, 1957.
G. GURVITCH, **La sociologie au XXe siècle**, 2 vol., ibid., 1947
JEAN TOUCHARD et collab., **Histoire des idées politiques**, t. II du **XVIIIe siècle à nos jours**, P.U.F., 1965 (coll. «Thémis»).

الادب

RENE LALOU, **Histoire de la littérature française contemporaine**, 2 vol., P.U.F., 2e éd., 1953.
PIERRE DE BOISDEFFRE, **Dictionnaire de littérature française contemporaine**, Ed. Universitaires, 1962.
MAURICE NADEAU, **Histoire du surréalisme**, 2 vol., ibid., 1945 - 1948
FREDERIC TOWARNICKI et GILLES QUEANT, **Encyclopédie du théâtre contemporain**, vol. II : 1914 -1950, Perrin, 1959.
ARAGON, **Littératures soviétiques**, Denoël, 1955.
MARCELLE EHRHARD, **La littérature russe**, 4e éd., P.U.F., 1962.
FERNAND MOSSE et collab., **Histoiré de la littérature allemande**, Aubier, 1959.
DONALD HAYMAN, **Situation de la littérature anglaise d'après - guerre**, Cahier des Lettres modernes, 1955.
ALFRED CAZIN, **Panorama littéraire des Etats - Unis de 1890 à nos jours**, trad. fr., Robert Martin, édit., 1952.
P. ARRIGHI, **La littérature italienne**, P.U.F., 1961.
K. AMIS, **L'univers de la science - fiction**, trad. par E. Gille, Payot, 1962.

الحركة الفنية

BERNARD DORIVAL, **Les peintres du XXe siècle, t. II : Du cubisme à l'abstraction 1915 - 1957**, Ed. Tisné, 1957.
PIERRE FRANCASTEL, **Peinture et société**, Lyon, Audin, 1951.
HENRI PERRUCHOT, **L'art moderne à travers le monde**, Hachette, 1963.
GEORGES SADOUL, **Le cinéma, son art, sa technique, son économie**, Edit. fr, réunis 1984.
R. DUMESNIL, **Histoire de la musique, t. V. : La première moitié du XXe siècle**, A. colin, 1960
KENNETH SCOTT LATOURETTE, **Christianity in a revolutionary age, vol. IV et V**, Londres, Eyre and Spottisworode, 1962 et 1963.
ADRIEN DANSETTE, **L'église catholique dans la mêlée politique et sociale**, nouv. éd., Flammarion, 1965.
GEORGES GUY-GRAND et collab., **La Renaissance religieuse**, Alcan 1928.
H. MARC-BONNET, **La Papauté contemporaine**, P.U.F., 1953.

A. LATREILLE et A. SIEGFRIED, Les forces religieuses et la vie politique, colin, 1951.

FR. BOULARD, Essor ou déclin du clergé français. ibid., 1950.

YVON DANIEL et HENRI GODIN, Sociologie religieuse et sciences sociales. Actes du IVe Congrès international. ibid., 1955.

P. SCHMITT-EGLIN, Le mécanisme de la déchristianisation, Ed. Alsatia. 1952.

ABBE DESPONT, Nouvel atlas des missions, Paris et Lyon, Oeuvres de la Propagation de la foi. 1951.

ANTOINE FREITAG, S.V.D. Atlas du monde chrétien, Ed. Elsevier, 1959.

E. - G. LEONARD, Histoire générale du protestantisme, t. III : Déclin et renouveau (XVIII - XXe siècle), P.U.F., 1964.

PIERRE GEYRAUD, Sectes et rites, petites églises, religions nouvelles, sociétés secrètes de Paris, Emile Paul, 1954.

الاعلام

FRANCIS WILLIAMS, La transmissions des informations, Genève Unesco. 1953.

B. VOYENNE, La presse dans la société contemporaine, colin, 1963 (coll. «U»).

ALFRED GROSSER, Hitler, La presse et la naissance d'une dictature, ibid., 1959.

الحروب

J. F. C. FULLER, La conduite de la guerre de 1789 à nos jours, Payot, 1963.

B.H. LIDDELL HART, Histoire mondiale de la stratégie, trad. par Lucien Poirier, Plon. 1962.

JEAN PIERRE, Les mutations de la guerre moderne (1892 - 1962), 2 vol.. Payot. 1962.

R. DE BELOT et A. REUSSNER, La puissance navale dans l'histoire, t. III : De 1914 à 1959. Ed. maritimes et d'outre-mer. 1960.

AMIRAL BARJOT, Histoire de la guerre aéronavale, Flammarion, 1961.

الحرب العالمية الاولى

F. DEBYSER. Chronologie de la guerre mondiale. De Sarajevo à Versailles (28 juin 1914-28 juin 1919). Payot, 1938.

Général YOURI DANILOV, La Russie dans la guerre mondiale, ibid., 1927.

Amiral M. W. W. P. CONSETT. Le triomphe des forces économiques, Société d'Editions géographiques, maritimes et coloniales, 1924.

K. L. NOWAK, Les dessous de la défaite, trad. fr., Payot; 1925.

E. DELAGE. La guerre sous les mers. Grasset, 1934.

JACQUES MEYER et GABRIEL PERREUX, Vie et mort du Français 1914 - 1918. Hachette, 1959.

الحرب العالمية الثانية

MARC BLOCH, L'étrange défaite. Témoignage écrit en 1940, nouv. éd., A. MICHEL, 1957.

Général BEAUFFRE, Le drame de 1940, Plon, 1965.

Général L. - M. CHASSIN, La seconde guerre mondiale, Larousse. 1951.

ROBERT JARS, La campagne de Pologne (Septembre 1939), Payot 1949.

Commandant P. LYET, La bataille de France (mai-juin 1940), Payot, 1947.

ROBERT JARS, La campagne d'Italie (1943-1945), ibid., 1954.

CHESTER WILMOT, La lutte pour l'Europe, trad. fr., Fayard, 1953.

KENNETH EDWARDS, L'opération Neptune, trad. fr., La Jeune Parque, 1947.

HANS SPEIDEL, Invasion 1944, trad. fr., Berger-Levrault, 1950.

HAROLD BUSCH, Meutes sous-marines, trad. fr., Ed. France-Empire, 1952.

Capitaine de vaisseau ANDRIEU D'ALBAS, Marine impériale (1941-1945).

Lieutenant-colonel F. O. MIKSCHE, Les erreurs stratégiques de Hitler, Payot, 1945.

GERT BUCHEIT, Hitler chef de guerre. L'armée allemande sous le III Reich, trad. par J. Mordal, Arthaud, 1961.

TREVOR ROPER, Les derniers Jours de Hitler, trad. fr., Calmann-Lévy, 1964.

GEORGE KIRK, The middle east in war, Londres, Oxford University Press, 1951.

F. C. JONES, HUGH BOSTON, et B. P. PEARN, Survey of International affairs 1939 - 1946. The Far East 1942 - 1946, ibid., 1955.

احتلال ، تعاون ، مقاومة ، نفي

JEAN VIDALENC, L'exode de mai-juin 1940, P. U. F., 1957.

H. MICHEL et collab., La France sous l'occupation, ibid, 1959.

PIERRE ARNOLD, Les finances de la France et l'occupation allemande (1940 - 1944), P. U. F., 1951.

HENRI MICHEL, Les mouvements clandestins en Europe (1930 - 1945), P. U. F., 1965 (coll. «Que sais-je?»).

EUGENE KOGON, Tragédie de la déportation (1940-1945), témoignages de survivants choisis et présentés par Olga Wurmser et Henri Michel, Hachette, 1954.

الأسلحة منذ ١٩٤٥

F. M. BLACKETT, Les conséquences militaires et politiques de l'énergie atomique, trad. fr. A. Michel, 1949.

Lt. Cel. F. O. MIKSCHE, Tactique de la guerre atomique, Payot, 1955.

CLAUDE DELMAS, La stratégie nucléaire, P. U. F., 1963.

CAMILLE ROUGERON, La guerre nucléaire, armes et parades, Calmann-Lévy, 1962.

العلائق الدولية

RAYMOND ARON, Paix et guerre entre les nations, Calmann - Lévy, 1962.

PIERRE RENOUVIN, Histoire des relations internationales. T. VII : Les crises du XXe siècle. I : De 1915 à 1929; II : De 1929 à 1945, Hachette, 1963 et 1965.

V. POTIEMKINE (sous la direction de), **Histoire de la diplomatie, t. II (1872 - 1919) et III (1919 - 1939)**, Lib. de Médicis; 1946-1947.
WILLIAM E. SCOTT, **Le pacte franco - soviétique. Alliance contre Hitler**, trad. par J. Métodier, Payot, 1965.
F. W. DEAKIN, **L'Axe brisé, L'amitié brutale d'Hitler et Mussolini**; trad. fr.; Stock, 1964. ... ...
MAXIME MOURIN, **Les tentatives de paix dans la seconde guerre mondiale (1939 - 1945)**, Payot, 1949.
JACQUES FREMONT, **De Roosevelt à Eisenhouwer. La politique étrangère américaine (1945 - 1952)**, Genève, Droz, 1953.
HENRI AZEAU, **Le piège de Suez (5 novembre 1956)**, R. Laffont, 1964.
JEAN KLEIN, **L'entreprise du désarmement (1945 - 1964)**, Ed. Cujas, 1964.
FRANCOIS NOURRISSIER, **L'homme humilié, sort des réfugiés et «personnes déplacées» (1912 - 1950)**.
JEAN DE LA ROBRIE, **Exodes, transferts, esclavage; Gallimard**; 1950.

المسائل الدستورية والحياة السياسية

GEORGES BURDEAU, **Traité de science politique**, 7 Vol., Lib. Gén. de Droit et de Jurisprudence, 1949 - 1957.
MAURICE DUVERGER, **Droit constitutionnel et institutions politiques**. P. U. F., 8e Ed., 1965 (coll. «Thémis»).
S. M. LIPSET, **L'homme et la politique**, trad. fr., Ed. du Seuil, 1963.
BOYD C. SHAFER, **Le nationalisme, Mythe et réalité**, Payot, 1964.
MICHEL DRANCOURT, **Les clés du pouvoir**, Fayard, 1964.
A. DELEMER, **Le bilan de l'étatisme**, Payot, 1922.
S. STELLING - MICHAUD, **La gauche, numéro spécial des temps modernes**, nos. 112 - 113, 1955.
VIDAL - NAQUET, **La raison d'Etat. La répression de 1954 à 1962**. Ed. de Minuit. 1962. ... ...
LOUIS DE VILLEFOSSE, **Géographie de la liberté. Les droits de l'homme dans le monde (1953-1964)**. Laffont. 1965.
LEO VALIANI, **Histoire du socialisme au XXe siècle**, Nagel, 1945.
GEORGES LEFRANC, **Le syndicalisme dans le monde**, nouv. éd., P.U.F., 1963. ....
JOSEPH SCHUMPETER. **Capitalisme, socialisme et démocratie**, trad. fr., Payot, 1951.
JEAN SALOMON, **La laïcité**, P. U. F., 1960.

الولايات المتحدة

CHARLES et MARY BEARD, **Histoire des Etats-Unis**, trad. fr., Hachette, 1952. ....
CLAUDE JULIEN, **Le nouveau Nouveau Monde**, Julliard, 1960.
CHARLES MELCHIOR DE MOLENES, **La carrière du Président Kennedy et la vie politique américaine**. Ed. Cujas, 1964.
F. ROZ, **Roosevelt**, Dunod, 1948.
MAX LERNER, **La civilisation américaine**, trad. par Magdeleine Paz, Seuil, 1961.
FRANCOISE BOURIEZ-GREGG, **Les classes sociales aux Etats-Unis**, Colin, 1954.
C. WRIGHT MILLS, **The power elite**, New York; Oxford Univ. Press; 1957. ......

JEAN DARIDAN, **De Lincoln à Johnson, Noirs et Blancs**, Calmann - Lévy, 1965.

بريطانيا العظمى

CHARLES LOCH MOWAT, **Britain between the wars 1918-1940**, Londres, Methuen, 1955.
G. P. H. COLE et RAYMOND POSTGATE, **The common people 1746-1946**, Londres, Methuen, 1946.
JACQUES CADRAT, **Régime électoral et régime parlementaire en Grande-Bretagne**, Colin, 1948.
YVES HERISSET, **La monarchie britannique au XXe siècle**, Ed. Celse, 1961.
JEAN BLONDEL, **La société politique britannique**, A. Colin, 1964.
KEITH HUTCHINSON, **The decline and fall british capitalism**, Londres, Cape, 1951.

ارلندا ، كندا ، اوستراليا

A. RIVOALLAN, **L'Irlande**, Colin, 1934.
ANDRE SIEGFRIED, **Le Canada, puissance mondiale**, Colin, 1937.
ARTHUR W. JOSE, **Histoire de l'Australie**, trad. fr., Payot, 1930.

فرنسا

MARCEL REINHARD, **Histoire de France, 2 vol.**, Larousse, 1954.
DAVID THOMSON, **La démocratie en France. La IIIe République**, trad. fr., sur la 1ère éd. anglaise, Nizet, 1955.
JACQUES CHASTENET, **Histoire du peuple français**, publ. sous la dir. de L. - H. PARIAS, **vol. V : Cent ans d'esprit républicain**, par J. - M. Mayeur, François Bedarida, Antoine Prost, Jean-Louis Monneron, Nouv. Lib. de France, 1964.
FRANCOIS GOGUEL et ALFRED GROSSER, **La politique en France**, A. Colin, 1964 (coll. «U»).
M. DUVERGER, **Partis politiques et classes sociales en France**, Colin, 1955.
FRANCOIS GOGUEL, **Le régime politique français. Les mécanismes de la démocratie parlementaire**, Ed. du Seuil, 1955.
JACQUES FAUET, **La France déchirée**, A. Fayard, 1957.
J. - M. JEANNENEY, **Forces et faiblesses de l'économie française (1945 - 1959)**, 2e éd., Colin, 1959.
GEORGES DUPEUX, **La société française (1789 - 1960)**, A. Colin, 1964 (coll. «U»).
FRANCOIS JACQUIN, **Les cadres de l'industrie et du commerce en France**, A. Colin, 1595.
DANIEL LIGOU, **Histoire du socialisme en France (1871 - 1961)**, P.U.F. 1962.
JACQUES FAUVET, **Histoire du parti communiste français**, 2 vol., A. Fayard, 1964 - 1965.
GEORGES LEFRANC, **Le syndicalisme en France**, nouv. éd., P.U.F., 1964.
JEAN MEYNAUD **La révolte paysanne**, Payot, 1963.
ALFRED ROSMER, **Le mouvement ouvrier pendant la première guerre mondiale, t. I : De l'Union sacrée à Zimmerwald**, Lib. de Travail, 1936; **t. II : De Zimmerwald à la Révolution russe**, La Haye, Mouton, 1959.

PAUL - MARIE DE LA GORGE, **De Gauble entre deux mondes. Une vie et une époque**, ibid., 1964.

المانيا

E. VERMEIL, L'allemagne, **essai d'explication, 9e éd.** Gallimard, 1945.
ROBERT MINDER, **Allemagne et Allemands**, t. I., Ed. du Seuil, 1948.
Colonel E. CARRIAS, **La pensée militaire allemande**, P.U.F., 1948.
CLAUDE DAVID, **L'Allemagne de Hitler**, P.U.F. nouv. éd. 1963.
JOSEPH ROVAN, **Histoire de la démocratie chrétienne: II. Le catholicisme politique en Allemagne**, Ed. du Seuil, 1965.
JOHN W. WHEELER - BENNETT, **Le drame de l'armée allemande**, trad. fr., Gallimard. 1955.
MAXIME MOURIN, **Les complots contre Hitler (1938 - 1945)**, Paoyt 1948.
GEORGES CASTELLAN D. D. R. **Allemagne de l'Est**, Ed. du Seuil, 1955.
G. - N. GILBERT, **Le problème allemand**, cahier 1 de la Nef, décembre, 1952.

ايطاليا

MAURICE VAUSSARD. **Histoire de l'Italie contemporaine (1870-1946)**. Hachette, 1950.
MAX GALLO, **L'Italie de Mussolini**, Lib. Acad. Perrin, 1964.
MURIEL GRINDROD, **The rebuilding of Italy. Politics and economics 1945 - 1955**, Londres. Oxford U. P., 1955 (Royal Instit. of Intern. affairs).
GAETANO SALVEMINI, **Mussolini diplomate**, Grasset, 1932.
JEAN MEYNAUD, **Les partis politiques en Italie**, P.U.F., 1965.

الدول الاخرى

RAYMOND FUSILIER, **Les monarchies parlementaires. Etude sur les systèmes de gouvernement (Suède) Norvège, Luxembourg, Belgique, Pays-Bas, Danemark)**, Les Editions ouvrières, 1960.
FRANS VAN KALKEN, **Entre deux guerres. Esquise de la vie politique en Belgique de 1918 à 1940**. 2e éd., Bruxelles. Office de Publicité, 1945.
PIERRE VILAR, **Histoire de l'Espagne**, P.U.F., 6e éd. 1965.
PIERRE BROUE et EMILE TEMIME, **La révolution et la guerre d'Espagne**, Ed. de Minuit, 1961.
P. JEANNIN, **Histoire des pays scandinaves**, P. U. F., 2e éd. 1965.
JEAN MEUVRET, **Histoire des pays baltiques : Lithuanie, Lettonie, Estonie, Finlande**, Colin. 1934.
CLAUDE-JOSEPH GIGNOUX, **La Suisse**, Lib. Généraei de Droit et de Jurisprudence. 1960 (Comment ils sont gouvernés) .

الاتحاد السوفياتي

EDWARD HALLET - CARR, **A history of Soviet Russia**, 5 vol. (jusqu'en 1962). Londres, Macmillan, 1951 - 1958.
FERNAND GRENARD, **La Révolution russe**, Colin, 1933.
FRANK LORIMER, **The population of the Soviet Union**. Genève, S.D. N., 1946.
ALEC NOVE, **L'économie soviétique**, trad. fr., Plon, 1963.

PIERRE GEORGE, L'économie de l'U.R.S.S., 10e éd., P.U.F., 1966.
WALTER KOLARZ, **La Russie et ses colonies**, trad. fr., Fasquelle, 1954.
JEAN BRUHAT, **Histoire de l'U.R.S.S.**, P.U.F., 5e éd., 1958.
MOUSKHELY (dir.), **L'U.R.S.S.; droit, économie, sociologie, politique; culture**, t. I, Sirey, 1962.
L. VOLPICELLI, **L'évolution de la pédagogie soviétique**, trad. fr., Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1954.
PIERRE SORLIN, **La société soviétique (1917-1964)**, A. Colin, 1964. (coll. «U»).
CONSTANTIN DE GRUNWALD, **La vie religieuse en U.R.S.S.**, Plon, 1961.

اوروبا الوسطى والشرقية

HUGH SETON - WATSON, **Eastern Europe between the wars 1881 - 1941**, Cambridge University Press, 1945.
JACQUES DROZ, **L'Europe centrale. Evolution de l'idée de «Mitteleurope»**, Payot, 1960.
A. TIBAL, **La Roumanie**, Rieder, 1930. ... ...
L. EISENMANN, **La Tchécoslovaquie**, ibid., 1921
HUGH SETON - WATSON, **The East european revolution**, Londres, Methuen, 1950.
P. GEORGE, **Les démocraties populaires**, Ed. sociales, 1952.
C. BOBROWSKI, **La Yougoslavie socialiste**, Colin, 1956.
ISTVAN AGOSTON, **Le Marché Commun communiste. Principes et pratiques du Conecon**, Genève, Droz, 1964.

امريكا اللاتينية

JACQUES LAMBERT, **Amérique latine**, P. U. F., 1963 (coll. «Thémis»)
EUGENE PEPIN, **Le panaméricanisme**, Colin, 1938.
CHARLES V. AUBRUN, **l'Amérique centrale**, nouv. éd., P. U F., 1962.
JACQUES LAMBERT, **Le Brésil, structure sociale et institutions politiques** Colin, 1953.
RAYMOND AVALOS, **Le Chili**, 2e éd., P.U.F., 1963.
TOUCHARD, **La République argentine**, P.U.F., 1966. ...
CLAUDE JULIEN, **La révolution cubaine**, Julliard, 1961.

مسائل الاستعمار وازالة الاستعمار

RENE SEDILLOT, **Histoire des colonisations**, A. Fayard, 1958.
P. GOUROU, **Les pays tropicaux**, P.U.F., 3e éd., 1953.
HUBERT DESCHAMPS, **Peuples et nations d'outre-mer : Afrique, Islam, Asie du Sud**, Dalloz, 1954 (études politiques; économiques et sociales).
PAUL MUS, **Le destin de l'Union française. De l'Indochine à l'Afrique**, Ed. du Seuil, 1954.
TIBOR MENDES, **La révolte de l'Asie**, P.U.F., 1951.
RENE VIARD, **La fin de l'Empire colonial français**, G. - P. Maisonneuve et Larose, 1963.
J. MEYRIAT (sous la dir. de), **La Communauté internationale face aux jeunes Etats**, Colin, 1964.
RENE GENDARME, **La pauvreté des nations**, Ed. Cujas, 1963.
YVES LACOSTE, **Les pays sous-développés**, P.U.F., nouv. éd.; 1963.

مسائل البلدان لاسلامية

LOTHROP STODDARD, **Le nouveau monde de l'Islam**, Payot, 1923. 1949.

JACQUES BERQUE, **Les Arabes d'hier et de demain**, Ed. du Seuil,

GIBB, **Les tendances modernes de l'Islam**, trad., fr.; Maisonneuve; 1960.

WILFRED CANTWELL SMITH, **L'Islam dans le monde moderne**, trad. par A. Guimbretière, Payot, 1962.

الشرق الادنى

SIR READER BULLARD, **The Middle East, a political and economical survey**; 3e éd., Londres, Oxford University Press; 1958.

P. KELLER, **La question arabe**, P.U.F.; 1948.

P. MONTAGNE. **La civilisation du désert**, Hachette, 1947.

M. CLERGET, **La Turquie, passé et présent**, Colin; 1947.

MARCEL COLOMBE, **L'évolution de l'Egypte (1924-1950)**, Maisonneuve, 1951.

...

FREDY BEMONT, **L'Iran devant le progrès**, P.U.F., 1964 (coll. «Tiers Monde»).

اسرائيل

ANDRE FALK, **Israël, terre deux fois promise**, Ed. du Seuil; 1954.

ARTHUR KOESTLER, **Analyse d'un miracle**, trad. fr., Calmann - Lévy; 1949.

افريقيا الشمالية

DESPOIS, **L'Afrique du Nord. 3e éd.**, P.U.F.; 1964.

CH. - A. JULIEN, **Maroc et Tunisie. Le problème du protectorat.** cahier no. 2 de la Nef, mars, 1953.

ROBERT MONTAGNE, **Révolution au Maroc**, Ed. France - Empire; 1953.

CHARLES - HENRI FAVROD, **Le F.L.N. et l'Algérie**, Plon, 1962.

ANDRE NOUSCHI, **La naissance du nationalisme algérien (1914 - 1954)**, Ed. de Minuit, 1962.

THOMAS OPPERMANN. **Le problème algérien**; Maspero. 1961.

YVES-MAXIME DANAN. **La vie politique à Alger de 1940 à 1944.** Lib. Gén. de Droit et de Jurisprudence. 1963.

افريقيا السوداء

ROBERT et M. CORNEVIN. **Histoire de l'Afrique.** Petite Bibliotèque Payot. 1964.

JEAN SURET - CANALE. **Afrique Noire. t. II : l'ère coloniale (1900 - 1945).** Ed. Sociales. 1964.

JACQUES WEULERSSE, **Noirs et blancs**, Colin; 1931.

HUBERT DESCHAMPS. **Les institutions politiques de l'Afrique noire.** nouv. éd. P.U.F., 1965.

B. HOLAS, **Le séparatisme religieux en Afrique Noire.** P.U.F.. 1965.

GEORGE PADMORE. **Panafricanisme ou communisme.** trad. de l'anglais, Présence africaine. 1961.

MAMADOU DIA, **L'économie africaine. Etudes et problèmes nouveaux**, ibid., 1957.
J. BOYON, **Naissance d'un Etat africain : Le Ghana**, A. Colin, 1958.
HUBERT DESCHAMPS, **Histoire de Madagascar**, Berger - Levrault, 1960.
LEO MARQUAND, **The people and politics of South Africa**, 3e éd., Londres, Oxford Univ. Press, 1962.

الشرق الاقصى

P. RENOUVIN,**La question d'Extrême - Orient**, Hachette, 3e éd. 1953.
PIERRE FISTIE, **Le reveil de l'Extrême - Orient. Guerres et révolutions (1834 - 1954)**, Les Presses universelllles, 1956.
W. MACMAHON BALL, **Nationalism and communism in East Asia**, Melbourne, University Press, 1952.
HELENE CARRERE D'ENCAUSSE et STUART SCRAM, **Le marxisme et l'Asie (1853-1964)**, A. Colin, 1965.

الصين

GEORGES MASPERO,**La chine, t. II**, Delagrave, 1925.
J. - J. BRIEUX, **La Chine du nationalisme au communisme**, Ed. du Seuil, 1950.
E. - R. HUGHES, **L'invasion de la Chine par l'Occident**, trad. fr., ibid., 1938.
JACQUES GUILLERMAZ, **La Chine populaire**, nouv. éd. Paris, P. U. F., 1964.
RENE DUMONT, **Révolution dans les campagnes chinoises**, Ed. du Seuil, 1957.
TIBOR MENDE, **La Chine et son ombre**, trad. fr., Ed. du Seuil;1960.

اليابان

AYANORI OKASAKI, **Histoire de japon : l'économie et la population**, Cahier 32 de l'Institut national d'Etudes démographiques, P. U. F., 1958.
ROBERT GUILLAIN, **Le peuple japonais et la guerre. Choses vues (1939) - 1946)**, Julliard, 1949.
J. - F. BARRET, **L'évolution du capitalisme japonais**, 3 vol., Ed. sociales, 1945 - 1947.
JOHN M. MAKI, **Government and politics in Japan. The road to democracy**, New York, Praeger, 1962.

الفيتنام

LE THANH KHOI, **Le Viet-Nam. Histoire et civilisation**, I. Ed. de Minuit, 1955.
JULES ROY, **La bataille de Dien-Bien-Phu**, Julliard, 1963.
JEAN LACOUTURE, **Le Viet-Nam entre deux paix**, Ed. du Seuil, 1965.

الهند

MARIE - SIMONE RENOU, **L'économie de l'Inde**, P. U. F., nouv. éd., 1964. ... ...

ETIENNE GILBERT, L'Inde, Genève, Droz, 1955.
CHARLES BETTELHEIM, L'inde indépendante, Colin, 1962.

آسيا الجنوبية الشرقية

TIBOR MENDE, L'Asie du Sud - Est entre deux mondes, Ed. du Seuil, 1954.
PIERRE FISTIE, Singapour et la Malaisie, P. U. F., 1960.
GEORGE MCTURNAN KAHIN, Governments and politics of South-East Asia, Cornell «U.P.», 1965. ... ...
CLAUDE - ALBERT COLLIARD, La question d'Indonésie, Lib. Gén. de Droit et de Jurisprudence, 1950.
W. F. WERTHEIM, Indonesian society in transition, La Haye, W. Van Hœve, 1956.

مراجع عربية

استكمالاً لهذه المراجع البيليوغرافية ، رأت « دار منشورات عويدات » ، في بيروت ان تكلف الاستاذ يوسف اسعد داغر الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالبيليوغرافيا الشرقية والتوثيق العلمي، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية إعداد قائمة بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء . وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة منه للبحث العلمي وتيسيراً لاسبابه وللباحثين في الدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة من التاريخ العام .

فعسى ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي ومشقة التفتيش .

الناشر

الحروب العالمية

الحرب الاوروبية ١٩١٤ – ١٩١٨

توماس لوبل – لورانس في بلاد العرب . تعريب كامل صموئيل مسيحية – الشويفات ومطبعة الكلية الوطنية ١٩٣٣ ، ص ٢٦٧ – صور – خرائط .

الديراوي ، عمر محمد – الحرب العالمية الأولى – بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ ، ص ٥٧٦ – خرائط – مصور

لوبون ، غوستاف – الحرب الاوروبية ، ترجمة اميل زيدان – القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٦ ، ص ١٨٢ .

المقدسي ، جرجس الخوري – اعظم حرب في التاريخ وكيف مرت ايامها – بيروت ، المطبعة العلمية ، ١٩٢٧ ، ص ١٢٨ .

بيشون ، جان – بواعث الحرب العالمية في الشرق الادنى وموجز لتاريخ حلول اميركا في هذا الشرق . ترجمة محمد عزة دروزة – بيروت ، مطبعة الكشاف ، ١٩٤٦ ، ص ١٤٩ .

روفائيل ، الخوري بطرس – اعمال المرأة في الحرب الكبرى – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٣ ، ص ١٧٠ .

مجلة العالم الفرنسي ـ المسلمون الفرنسيون في الحرب ـ باريس ، ليرو ، ١٩١٤ ، ص ٣٨٩ .

حسين ، فاضل ـ محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ ، ص ٧٠٧ .

ميور ، رامزي ـ النتائج السياسية للحرب العظمى ، ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ ، ص ٣٧٥ .

الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا والكتاب الابيض الانكليزي . وهو يتضمن المراسلات الانكليزية الرسمية البريطانية والعثمانية قبل وقوع الحرب بين الحلفاء وتركيا ـ القاهرة ، دار المقطم ، ١٩١٤ .

تاريخ الحرب العظمى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، ج ١ ـ ٢ ـ بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٣٨ ، مجلدان ـ صور ـ خرائط .

رؤوف ، احمد ـ كيف دخلت تركيا الحرب العالمية . تعريب فؤاد ميداني ، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٨٤ .

عزيز بك ـ سوريا ولبنان في الحرب العالمية . ترجمة فؤاد ميداني ، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٣٨٤ .

الغصين ، فايز ـ مذكراتي عن الثورة العربية . دمشق ، مطبعة ابن زيدون ١٩٣٩ ، ص ٢٧٢ .

السعيد ، نوري ـ محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا ١٩١٦ ـ ١٩١٨ . بغداد ، مطبعة الجيش ، ١٩٤٧ ، ٤٨ ورقة ـ خرائط .

الفاضل البصري ـ الكتاب الاسود . يحتوي على مداخلة ابن السعود مع الانكليز ومحاربة ابن الرشيد ابن السعود من اجل ذلك ، ١٩١٥ ، ص ٣١ .

موسى ، سليمان ـ الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى . عمان ، دار النشر والتوزيع ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٣ . صور ـ خرائط .

العمري ، محمد امين ـ تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . بغداد ، المطبعة العربية ، ١٩٣٥ ، ٣ اجزاء ـ خرائط .

نديم ، شكري محمود ـ الجيش الرومي في حرب العراق ١٩١٤ ـ ١٩١٧ . بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٤٩ ـ خرائط .

البواري ، بشارة ـ اربع سني الحرب . نيويورك ، مطبعة جريدة الهدى ١٩٣٦ ، ص ٤٨٣ .

داغر ، اسعد خليل ـ تاريخ الحرب الكبرى شعراً ـ القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٩ ، ص ١١٢ .

انطونيوس ، جورج ـ يقظة العرب . ترجمـة كال حيدر « الركابي » . دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٤٦ ، ص ٤٦٣ .

سعيد ، امين محمد ـ اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ـ بيروت ، دار الكاتب العربي ، ص ٣٩٩ .

تشرشل ، ونستون ـ تشرشل يتكلم عن الشرق . اقتباس باسيل دقاق ـ بيروت ، مكتبة بيروت ، ١٩٥١ ، ص ٩٥ .

الحروب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥

فرج ، السيد ـ بعد الهدنة ـ القاهرة ، مطبعة التوكل ، ١٩٤٥ ، ص ١١٨ .

كار ، ادوارد هاليت ـ دعائم السلام ، تعريب محمد فريد ابوحديد ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٢١٢ .

فرج ، السيد ـ حرب الصحراء المصرية . قصة الحرب في صحراء مصر وشمالي افريقيا ، يونيو ١٩٤٠ ـ ديسمبر ١٩٤٢ ـ القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٦ ـ خرائط .

كارتييه ، ريمون ـ الحرب العالمية الثانية . ترجمة سهيل سماحة وانطون مسعود ـ بيروت مؤسسة نوفل للطباعة ، ١٩٦١ .

لاوند ، رمضان ـ الحرب العالمية الثانية ـ بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩٢ ـ صور .

عمر ، حسين ـ الاقتصاد القومي في الحرب والسلم ـ القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٦ ، ٢٣٠ ص .

نصر ، صلاح ـ الحرب النفسية : معركة الكلمة والمعتقد ـ القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ .

الحروب الاسرائيلية العربية

حرب ١٩٤٨

الخطيب ، محمد نمر ـ احداث النكبة أو نكبة فلسطين ـ بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧ ، ٣٦٨ ص ـ صور .

ابوفاضل، منير ـ حرب فلسطين لم تنته ـ بيروت، دارالكاتب العربي، ١٩٥٣، ص٤٤، صور

مونتغومري ، فيكونت ـ مذكرات المارشال مونتغومري ، فيكونت العلمين ، ترجمة فريد جبر ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٢ ، ٢٧٨ ص .

القصري ، محمد فايز ـ الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦١ ج ١ ـ ٢٢٢ ص . خريطتان .

عبد المنعم ، محمد فيصل ـ اسرار ١٩٤٨ . تقديم انيس منصور ـ القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠٢ ، صور . خرائط .

الجمالي ، محمد فاضل ـ ذكريات وعِبَر : كارثة فلسطين وأثرها في الواقع العربي . بيروت ، طبعة اولى ١٩٦٤ ، ص ٢٤٢ ، طبعة جديدة ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ .

التل ، عبدالله ـ كارثة فلسطين : مذكرات عبدالله التل ، قائد معركة القدس . القاهرة ، دار القلم ١٩٥٦ ، ج ١ ـ خرائط ـ وثائق مصورة .

الافريقي ، محمد طارق ـ المجاهدون في معـــارك فلسطين ، ١٩٤٨ . دمشق ، دار اليقظة العربية ١٩٥١ ، ١٨١ ص . صور .

إتفاقيات الهـــدنة العربية الاسرائيلية ، شباط ـ تموز ١٩٤٩ ، نصوص الامم المتحدة وملحقاتها . بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٩ ، ٩١ ص . خرائط .

ابو النصر ، عمر ـ معركة العرب خلال الاستعمار والصهيونية ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ . بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٧٩٦ . صور ، خريطة .

البيطار ، نديم ـ من النكسة الى الثورة . بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٠٣ .

حاماتي ، هنري ـ جماهير وكوارث . بيروت ، قدموس ، ١٩٦٨ ، ص ٣١٠ .

حسون ، فيصل ـ خسرناها معركة فلنربحها حرباً . بغداد ، دار الجمهورية ، ١٩٦٧ ، ص ٨٠ . صور ـ خريطة .

حسين ، الملك ـ حربنا مع اسرائيل . بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ ص ١٢٨ .

الحلو ، ابراهيم ـ حرب ٥ حزيران كما نراها وكما يراها العالم . بيروت ، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٨ .

خطاب ، محمد شيت ـ الايام الحاسمة قبل معركة المصير . بغداد ، وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦٧ ، ص ١٦٧ . خريطة .

سجل الآراء . حول الوقائـــع السياسية في البلاد العربية . الحرب العربية الاسرائيلية ٥ حزيران . بيروت ، دار الابحاث ، ١٩٦٧ ، ج ١ .

شامية ، جبران ـ مراحل الهزيمة وتطوراتها . بيروت ، دار الابحاث والنشر ١٩٦٨ ، ص ١٧٢ .

العظم ، صادق جلال ـ النقد الذاتي بعد الهزيمة . بيروت، دار الطليعة ، ١٩٦٨ ص ١٧٣ .

قباني ، نزار ــ هوامش على دفتر النكسة : قصيدة طويلة . بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣١ .

القصاص ، فؤاد ـــ اسرار حرب حزيران، معارك سيناء ، معارك الاردن ، معارك سوريا ، مع عشرات الصور والوثائق للأسلحة والقوات والمعارك . بيروت، لا.ت. ، ١٩٦٧ ، ص١٦٢.

المنجد ، صلاح الدين ـــ أعمدة النكبة . بحث علمي في أسباب هزيمة ٥ حزيران . بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٩ .

نصور ، اديب ـــ النكسة والخطأ . الاخطاء الفكرية والعقائدية التي أدت الى الكارثة . بيروت ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٥ .

العالم العربي

تونس

دار الكتب المصرية ـ قائمة بالكتب والمراجع عن تونس . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦١ ، ٢٥ + ٤٢ ص .

البنيلي ، عمر بن عمر ـ هذه هي تونس المجاهدة . القدس ، مكتب المغرب العربي ، ١٩٥٥، ص ١٢٤ .

البيضاوي ، خيرات ـ وميض النار في المغرب العربي . بيروت ، مطبعة دار الكتب ، لا. ت. ، ٤٠٤ ص . صور ، خريطة .

حقي ، إحسان ـ تونس العربية . بيروت ، دار الثقافة . لا . ت. ، ٣٠٠ صفحة ،صور .

درمونة ، يونس ـ تونس بين الاتجاهات . القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٥٣، ص٢١٩.

درمونة ، يونس ـ تونس بين الحماية والاحتلال . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ص ١٥١ .

الركباني ، عمر ـ كتاب نبراس الحرية في تاريخ الحركة القومية التونسية . تونس ، مطبعة العمل . لا. ت. ، ٥٧ ص .

زيادة ، نقولا عبدو ـ تونس في عهد الحماية ١٨٨١ ـ ١٩٣٤ . محاضرات ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣ .

الجمهورية التونسية ـــ تونس اليوم ـ تونس ، ٢٠٤ ص ، خرائط ـ صور .

الجزائر

الشقيري ، احمد ـ دفاعاً عن فلسطين والجزائر ـ تعريب خيري حماد ـ بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٦٢ ، ٢١٠ ص ـ صور .

البجاوي ، محمد ــ الثورة الجزائرية والقانون . ترجمـــة علي الخش ــ دمشق ، دار اليقظـة ١٩٦٥ ، ٤١٤ ص .

بو عزيز ، يحيى – بطل الكفاح الامير عبـــد القادر الجزائري ، عام ١٩٥٧ – تونس ، المكتبة الشرقية ، ١٣٧٦ هـ ، ٢٦٧ ص – صور .

بوعزيز ، يحيى ــ الموجز في تاريخ الجزائر – وهران ، المطبوعات الوطنية الجزائرية ، ١٩٦٥ ، ج١

البيضاوي ، خيرات – وميض النار في المغرب العربي – بيروت ، مطبعـــة دار الكتب . لا . ت . ، ١٠٤ ص ، صور – خريطة .

الجزائري ، مسعود مجاهد ــ تاريخ الجزائر ــ القدس ، مطابع دار الايتام الاسلامية ، ١٩٦٥ ٢٨٣ ص ، صور – خريطة .

جلال ، عبد العاطي – فرنسا في الجزائر – القاهرة ، المطبعة العلمية للطبع والنشر ، ١٩٥٦ ١٤٤ ص ، صور .

جلبي ، جوان ــ الجزائر الثائرة ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ، دار الطليعـــة ١٩٦١ ، ٢٣٩ ص .

الجيلاني ، عبد الرحمن بن محمد ــ تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ، المطبعة العربية ، ١٩٥٣ – ١٩٥٥ ، جزآن ، خرائط – لوحات .

حافظ ، حمدي ــ الجزائر بين الامس والغـــد ، القاهرة المؤسسة المصرية العامـــة للانباء والنشر ، ١٤٤ ص .

الحص ، عبد الرحمن محمود – الجزائر في معركة البناء ، بيروت ، دار نشر الآداب ، ١٩٦٣ ، ١١٢ ص .

حقي ، إحسان ــ الجزائر العربية ، ارض الكفاح المجيد ، بيروت ، المكتب التجـــاري ، ١٩٦١ ، ٣١١ ص .

الشلقاني ، علي ــ ثورة الجزائر ، القاهرة ، دار النديم ، ١٩٥٦ ، ٢٤٨ ص .

العقاد ، صلاح ــ محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر ، القاهرة ، معهـــد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ ، ١١٣ ص .

عودة ، محمد ورفاقه ــ الجزائر : ارض اللهب والدم ، القاهرة ، المكتب الدولي للترجمـــة والنشر ، لا . ت . ، ١٢٣ ص .

فؤاد ، سعد زغلول ــ عشت مع ثوار الجزائر ، بـــيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ، ٣٢٠ ص .

المدني ، احمد توفيق ـ هذه هي الجزائر ، القاهرة ، مكتبة النهضـــة المصرية ، ١٩٥٦ ، ٢٤٧ ص ، خريطة .

مرتضى ، محمد عبد المنعم ـ الجزائر المنتصرة ، القاهرة ، دار القومية ، لا . ت . ، ١١٩ ص .

النقاش ، رجاء ـ ثورة الفقراء ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٤ ، ١٣٩ ص .

الورتلاني ، الفضيل ـ الجزائر الثائرة ، بيروت ، عباد الرحمن ، ٥٢٦ ص .

يحيى ، جلال ـ السياســـة الفرنسية في الجزائر من سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٥٩ ، القـــاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٥٩ ، ٣٨٣ ص .

السودان

داغر ، يوسف اسعد ـ الاصول العربية للدراسات السودانيـــة . بيروت ، دار النجوى ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٥ صفحة . كشاف خاص بالمصادر والمراجع العربية الخاصة بالسودان والسودانيين ووادي النيل ، ضمّ نحواً من ٢٠٠٠ مصدر بين كتب خاصة وابحاث صدرت عن السودان او حول السودان بين ١٨٧٤ ـ ١٩٦٨ .

دار الكتب المصرية ، قسم الإرشاد ـ قائمة بالكتب والمراجع عن السودان ، القاهره ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦١ ، ٤١ ص بالعربية و ٦٧ باللغات الاجنبية ، ضمت ١٧٥ مصـــدراً باللغة العربية ، و ٣٨٩ باللغات الاجنبية .

ليبيا

دار الكتب المصرية . قسم الارشاد ـ قائمة بالكتب والمراجع عن ليبيا ـ القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦١ ، ص ٢١ + ٣٠ .

طرابلس الغرب وبرقة في براثن الاستعمار الايطالي . صحـــائف سود . دار المستقبـــل ، لا . ت . ص ١٦٠ .

الاشهب ، محمد الطيب ـ برقة العربية امس واليوم . القاهرة ، مطبعة الهواري ، ١٩٤٧ ، ص ٧٢٠ ، صور ، خريطة .

ـ ـ عمر المختار ـ القاهرة ، مكتب القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٢ .

ـ ـ ابراهيم احمد الشلحي ـ القاهرة ، مطبعة الخانجي ، ١٩٥٦ ، ص ١٤٣ .

الباروني ، زعيمة سليمان ـ صفحات خالدة من الجهاد . القاهرة ، مطابع الاستقلال الكبرى مجلدات .

البراوي ، راشد ـ ليبيا والمؤامرة البريطانية . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ ، ص ٧٧ .

رشدي ، راسم . طرابلس الغرب في الماضي والحاضر . طرابلس ١٩٥٣ ، ص ٢٧٣ ـ صور ـ لوحات

الزاوي ، الطاهر احمد – تاريخ الفتح العربي في ليبيـــا . القاهرة ، دار المعـــارف ، ١٩٥٤ ، ص ٢٩٦ .

شكري ، محمد فؤاد ، السنوسية دين ودولة ـ مصر ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ ، ص٤٢٣

شلبي ، محمود ـ عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي ، القاهرة ، المكتبة العلمية ١٩٥٨ ، ص ١٣٢ .

الشنيطي ، محمود ـ قضية ليبيا . القاهرة ، مكتبة النهضـــة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٣٥٦ ـ صور .

عباس ، احسان رشيد . تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري . بنغازي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦٩ .

قبعين ، سليم . تاريخ الحرب العثمانية الايطالية . القاهرة ، مطبعة التقدم .

محمود ، حسن سليمان . ليبيا بين الماضي والحاضر . القـــاهرة مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٢ ، ص ٤٣٧ .

شكري ، محمود فؤاد . ميلاد دولة ليبيا الحديثة . وثائق تحريرها واستقلالها – القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٥٧ .

زيادة ، نقولا عبده . ليبيا في العصور الحديثة . محاضرات القيت على طلبة قسم الدراسات التاريخية والقانونية . القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٧٣ .

— — محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ ، ص ٢٧٣ .

خدوري ، مجيد . ليبيـــا الحديثة : دراسة في تطورها السياسي ، ترجمـــة نقولا زيادة – بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٦ ، ص ٥٥٠ .

ليبيا سنة ١٩٤٨ (وثيقة رسمية قدّم لها واعدها للنشر نقولا زيادة) بيروت ، الجامعـــة الاميركية ، ١٦٦٩ ، ص ٢٠٥ .

المغرب

البيبليوغرافيا المغربية لسنة ١٩٥٦ – تطوان ، دار الطباعة المغربية ١٩٥٦ ، ٥٨ ورقة .

دار الكتب المصرية – قسم الارشاد ، قائمة بالكتب والمراجع عن المغرب ، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٦١ ، ص ٣٦ + ٦٦ .

ابن جلول ، عبد الحميد – هـــذه مراكش ـ القاهرة ، مكتبة المغرب العربي ، ١٩٤٩ ، ص ٧٢٦ .

ابن عبود ، محمد بن عبد السلام – تاريخ المغرب ، تطوان ، المطبعة المهدية ، ١٩٥١ .

جلال ، محمد عبد الباطي – الاستعمار الفرنسي في مراكش (المغرب الاقصى) ، القاهرة مكتبة النهضة ، ١٩٥٤ ص ١٨١ .

الفاسي ، علال – الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، القـــاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٨ ص ٥٦٠ .

فروخ ، عمر – وثيقة المغرب ، بيروت ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١ ، ص ٣٣٩ .

الفيلالي ، عبد الكريم – المغرب ملكاً وشعباً ، القاهرة ، دار الطبـــاعة الحديثة ١٩٥٧ ، ص ٢٤٦ .

– – – دروس تاريخ المغرب – الدار البيضاء ، ١٩٦١ ، ص ٣٠٤ .

كرّو ، ابو القاسم محمد – مآسي شهر الدمـاء والدموع في المغرب العربي ، تونس ، مطبعة الترقي ، ١٩٥٦ ، ص ٩٥ .

لاندوم ، روم ، ترجمة نقولا زيادة – تاريخ المغرب في القرن العشرين ، بيروت دار الثقافة ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٨ .

– – – مراكش بعد الاستعمار ، تعريب خيري حماد – بيروت ، دار الطليعة ١٩٦١ ص ٣٥٠ .

ابو النصر ، عمر – بطل الريف الامير عبد الكريم ، بيروت ، المكتبة الاهلية ، ١٩٣٤ ، ص ٢٣٦ .

محمد الخامس ، ملك المغرب – إنبعـاث أمة : اقوال وأفعال . الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٥٦ – ١٩٦٤ .

افريقيا

ابو المجد ، صبري – ثورة افريقيا . القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٦٠ ص ٢٩٨ .

رياض ، زاهر – استعمار افريقيا . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦١ صور ، خرائط .

— — — استعمار القارة الافريقية واستقلالها . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٦ ، ص ٣٣٣ ، خرائط .

عودة ، عبد الملك – السياسة والحكم في افريقيا . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٩ ص ٥٧٧ .

حشيمة ، عبدالله – في افريقيا السوداء . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٢ ،ص ١٥٠ .

حبلي ، امسيان – افريقيا الحرة . بلاد الأمل والرجاء ، بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٦٢ ، ص ٤٠٠ ، خريطة .

خلف الله ، عبد الغني عبدالله – مستقبل افريقيا السياسي . تاريخ شعوب القارة الحديث واوجه التطور المحتملة فيه ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠١ ، خريطة .

صبري ، صلاح – افريقيا وراء الصحراء . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ، ٣ اجزاء في واحد .

طاهر ، احمد – افريقيا في مفارق الطرق . القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥ ، ص ٤٩٩ .

غرايبه ، عبد الكريم محمود – دراسات في تاريخ افريقيا العربية ١٩١٨ – ١٩٥٨ ، دمشق، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ ص ٢٩٦ .

قلعجي ، قدري – لومومبا . بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦١ ص ١٢٩ ، صور خرائط .

الجمل ، شوقي عطاالله – الوحدة الافريقية ومراحل تطورها من مؤتمر اكرا ١٩٥٨ حتى مؤتمر تنمية الصناعة الافريقي الاول بالقاهرة ١٩٦٥ ، القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ١٧٠ .

بدوي ، عبده – شخصيات افريقية . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي . لا . ت ١٦٧ ص .

زناتي ، محمود سلام – النُظم القانونية الافريقية وتطورها . القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٦ ، ص ٤٩١ .

عنبر ، محمد عبد الرحيم – التمييز العنصري في افريقيا . القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٢ ، خرائط .

نكروما ، كوامي – الوجدانية : فلسفة وعقيدة التحرر والتطور خصوصاً بالنسبة للثورة الافريقية . ترجمة كريم عزقول ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٤ ، ص ٢١٩ .

الامم المتحدة – ادارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية . دراسة الحالة الاقتصادية في افريقيا منذ عام ١٩٥٠ ، نيويورك ، الامم المتحدة ، ١٩٦١ ص ٥٦٥ ، خريطتان .

فبريال ، وهبي – افريقيا والتكتلات الرأسمالية الاوروبية . القـاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، لا . ت ص ٨١ .

نفش ، محمد – السوق الافريقية المشتركة . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ ، ص ٥٦ ، خريطة .

رفلة ، فيليب – الجغرافيا السياسية لافريقيا مـع دراسة شاملة للدول الافريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ ، ص ٦٧٣ ، خرائط .

البراوي ، راشد – التطور الاقتصادي الحديث في افريقيا . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١ ، ص ٢١٠ ، خرائط .

تونس . كتابة الدولة للثقافة والاخبار – افريقيا الجديدة . تونس ١٩٦٢ ، ص ٢٣١ ، مصور

مؤتمر الدار البيضاء ٣ – ٧ كانون الثاني ١٩٦١ . بيروت ، المكتب التجـاري ١٩٦١ ، ص ٦٨ .

الاستعمار

بن نبي ، ملك – الصراع الفكري في البلاد المستعمرة . القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٦٠ ص ١٨٢ .

بيهم ، محمد جميل – عالم حر جديد في آسيا وافريقيـا والوطن العربي . بيروت ، مؤسسة المعارف ١٩٦٤ ، ص ٣٩٠ ، خرائط .

الجسي ، محمد عبد الغني – افريقيا للافريقيين . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، لا . ت ص ٩٠ .

حمدان ، محمد صباح – الاستعمار والصهيونية العـالمية . صيدا ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٧ ص ٢٩٦ ، صور ، خرائط .

خالد ، خالد محمد – مواطنون ورعايا . القاهرة ، الخانجي ، ١٩٥٨ ، ص ٢١٣ .

خالدي ، الدكتور مصطفى وعمر فروخ – التبشير والاستعمار في البلاد العربية . عرض لجهود المبشرين التي ترمي الى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي بيروت ، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٦ .

زنيبر ، محمد – فرانز فانون او معركة الشعوب المتخلفة . المغرب ، دار الكتاب ص ١٣١ .

الشهابي ، الامير مصطفى – محاضرات في الاستعمار . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالي ، ١٩٥٦ جزآن .

صبري ، محمد – تاريخ العصر الحديث . نصر الولايات المتحدة . الاستعمار الجديد، القاهرة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ من ٣١٣ ، صور ، خرائط .

عبده ، علي ابراهيم – المنافسة الدولية في اعالي النيل ١٨٨٠ – ١٩٠٦ . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص ٢٩٨ .

العريان ، محمد سعيد – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٣٥٢ .

القتيت ، محمد علي – الغرب والشرق من الحروب الصليبية الى حرب السويس . ثورات العرب في سنة ١٩١٩ . القاهرة ، الدار القومية ، جزآن .

الغزالي ، محمد – الاستعمار : احقاد واطماع . القاهرة ، الخانجي ١٩٥٧ ، ص ٢١٠ .

فهمي ، عبد العزيز – الاستعمار عدو الشعوب . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٨٩٢ .

لينين – الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية . ترجمة راشد براني . مصر ، مكتبة النهضة المصر ، ١٩٤٥ ، ص ٢٠٨ .

نكروما ، كوامي – الاستعمار الجديد: آخر مراحل الامبريالية. ترجمة عبد الحميد حمدي، القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٣١١ .

الشعبي ، قحطان محمد – الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن عدن والامارات . القاهرة ، دار النشر للطباعة والنشر والاعلان . ١٩٦٢ ، ص٢٦٠ ، خارطة.

الدكتاتورية – الفاشية

داغر ، يوسف اسعد – الديموقراطية في المكتبة العربية : مصادر ومراجع . بيروت ، ١٩٥٩ ، ٧٥ ص ، (ضم اكثر من ٧٥٠ مرجعاً عربياً حول الديموقراطية والنظم السياسية) .

دوفرجيه ، موريس – في الدكتاتورية ، ترجمة هشام متولي . بيروت ، عويدات ١٩٦٥ ، ص ١٨٣ .

بياجي ، برونو – دولة التعاون باندماج الجمعيات ، ترجمة سعيد الشرتوني . بكفيا مطبعة مجلة العرائس ١٩٣٠ ، ص ٨١ .

خياطة ، سليم – حميات في الغرب . بيروت ، لا. ت. ع .

ديمتروف ، جورج – الفاشستية عدوة الشعب او وحدة الطبقة العاملة في النضال ضد الفاشية ، ترجمة نقولا لاشاوي ، مع مقدمة لخالد بكداش . دمشق ١٩٣٧ ، ص ١٢٤ .

عنان ، محمد عبدالله – المذاهب الاجتماعية الحديثة . القاهرة ، ١٩٤٥ ، لجنة التـأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤ ، ص ١٨٧ .

الميلي ، محمد مبارك – الفاشية العالمية الحديثة . بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٣ ص ١١٢ .

رشاد ، علي – الفاشيزم او النهضة الايطالية الحديثة ، تعريب محمد محفوظ الكردي ، حلب ، مطبعة النهضة العربية ، ١٩٢٦ ، ص ١٤٣ .

مخلوف ، فريد – ايطاليا والقضية العربية . بيروت ، ١٩٣٢ ، ص ٧٩ .

الصهيونية

ابو صادق – الماسونية بلا قناع . بغداد ، دار البصري ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦٤ ، صور .

البارودي ، فخري – كارثة فلسطين العظمى . دمشق ، مطابع ابن زيدون ١٩٥٠ ، ص ٦١ .

بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم ، ترجمة شوقي عبد الناصر . القاهرة ، مطابع دار التعاون للطبع والنشر . لا . ت . ص ٢٢٣ .

برّي ، عبدالله – القومية العربية والقومية اليهودية . بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٠ ، ص ٦٣ .

بسيسو ، سعدي – الصهيونية : نقد وتحليل . القدس ، المطبعة التجارية ، ١٩٤٥ ، ص ٢٢٧ .

بيهم ، محمد جميل – فلسطين اندلس الشرق . بيروت ، مطابع صادر ريحاني ، ١٩٤٦ ، ص ٢٨٢ .

تارو ، جيروم وجان – اذا ملك اسرائيل ، تعريب انطون يمين . بيروت ، ١٩٣٢ ، ص ١٥٥ .

تلحوق ، وديع – الصليبية الجديدة في فلسطين . دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٣ .

التونسي ، محمد خليفة – الخطر اليهودي . بروتوكولات حكماء صهيون . القاهرة ، مطبعة الكتاب العربي ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٠ .

الحاج ، يوسف – في سبيل الحق . هيكل سليمان او الوطن القومي لليهود . بيروت ، ١٩٣٤ ص ٢٣٩ .

حرب ، اميل الخوري – مؤامرة اليهود على المسيحية . بيروت دار العلم للملايين ، ١٩٤٧ ، ص ٨٤ .

نويهض ، عجاج – بروتوكولات حكماء صهيون . جزآن ، بيروت ١٩٦٧ . الجزء الاول يبحث في ظهورها واسباب غفلة العرب عنها مع تراجم رؤسائها ، الخ ، ٣٢٢ ص . الجزء الثـاني : في

التوراة واسفارها ورب العمالقة ، ص ٣٢٠ .

حسن ، قاسم ـ لمحات في تاريخ التطورات الاجتماعية في الغرب ، وظهور المشكلة اليهودية ، وقيام اسرائيل . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٨ .

الحسيني ، محمد امين ـ حقائق عن قضية فلسطين: تصريحات واحاديث السيد محمد امين الحسيني كشف بها الستار عن اسباب كارثة فلسطين وعلاقاتها بالمؤامرات اليهودية . القاهرة ، مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين ١٩٥٧ ، ص ٢٥٠ .

حمدان ، محمد مصباح ـ الاستعمار والصهيونية العالمية . صيدا ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٧ ـ ص ٢٩٦ . صور . خرائط .

خطاب ، محمود شيت ـ حقيقة اسرائيل محاضرات . القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربيه العالية ١٩٧٦ ، ص١٠٨ .

رزوق ، اسعد ـ اسرائيل كبر . دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني . بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٨ ، ص ٩٦٣ . خرائط .

رشدي ، عمر ـ الصهيونية وربيبتها اسرائيل . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥، ص ٤٣٧ ، خرائط .

الرشيدات ، شفيق ـ فلسطين : تاريخاً وعبرة ومصيرا . القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٤٧٨ .

الرملي ، محمود فتحي ـ الصهيونية اعلى مراحل الاستعمار .القاهرة، وكالة الصحافة العربية، ١٩٥٦ ، ص ٢٥٥ .

زعيتر ، أكرم ـ القضية الفلسطينية ـ القاهرة ، دار المعارف، ١٩٥٥ ، ص٣١٩ خرائط .

شميس ، عبد المنعم ـ اسرار الصهيونية ـ القاهرة ، دار القاهرة للطباعة ١٩٤٩ ،ص٥١٠ .

صايغ ، فايز ـ الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، تعريب عبد الوهاب كيالي ـ بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٧ + ٧٠ .

ـ ـ الدبلوماسية الصهيونية ـ بيروت . منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٦٧ ص ٢٢٤ .

صقوة ، نجدة فتحي ـ اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى . بغداد ، مطبعة الحكومة ١٩٦٧، ص ٥٨ .

القصري ، محمد فايز ـ الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب. القاهرة، ١٩٦١ ص٢٢٣ ، خريطتان .

كيالي ، عبد الوهاب ـ المطامع الصهيونية التوسعية . بيروت ، مطبعة التحرير الفلسطينية ١٩٦٦ ، ص ١٣٦ .

موجز الحوليات العالمية

(من الحرب العالمية الاولى حتى ٣١ كانون الاول ١٩٦٥)

١٩١٤

حزيران : مقتل الارشيدوق فرنسوا ــ فردينان في سراجيفو (٢٨) . تموز : انذار نمساوي الى صربيا (٢٣) ــ اعلان الحرب (٢٨) ــ تعبئة روسية عامة (٣١) ــ انذار الماني الى روسيا وفرنسا (٣١) . آب : تعبئة عامة في فرنسا (١) ــ اعلان المانيا الحرب على روسيا (١) ــ انذار الماني الى بلجيكا (٢) ــ عقد تحالف الماني ــ تركي (٢) ــ اعلان المانيا الحرب على فرنسا واعلان انكلترا الحرب على المانيا (٤) ــ فتح قناة بانامـا (١٥) ــ معارك الحـدود (٢٢ ــ ٢٥) ، وموراننج (٢٦) وتاننبرغ (٢٧ ــ ٣٠) ، ولمبرغ (٢٩ ــ ٣ ايلول) . ايلول : معارك المارن (٥ ــ ١٠) وبحيرات مازوريا (٩ ــ ١٤) ، تشرين الاول : معركة الايزر (١٩ ــ ١٧ تشرين الثاني) ــ انكلترا وفرنسا تقرران محاصرة المانيا اقتصاديا . تشرين الثاني : استيلاء اليابانيين على كياو تشيو (٧) ــ اعلان تركيا الحرب على الحلفاء (١٢) . م. بروست : البحث عن الحلفاء وايطاليا (٢٦) . ايار : هجوم حليف في ارتوا الفاتيكان .

١٩١٥

كانـون الثاني : معركـة دوغر بانـك (٢٤) . شباط : هجوم حليف على الدردنيل (١٩) ــ هجوم فرنسي في شـمبانيا (٢٦) . نيسـان : الالمـان يستخدمون الغـازات السامة للمرة الاولـى (٢٢) ــ نزول الحلفاء في غاليبولي (٢٥) ــ معاهدة لندن بين الحلفاء وايطاليا (٢٦) . ايار : هجوم حليف في ارتوا ــ هجوم نمسـاوي الماني في غاليسـيا ينتهي الى استرداد برزميـسل في حزيران ــ اعلان ايطاليا الحرب على النمسا (٢٣) . تموز : هجوم ايطالي في كارسو . آب : استيلاء الالمان على فارسوفيا وكوفنو وبرست ــ ليتوفسك ــ اضطرار الصين الى القبول بطلبـات اليابانيين الواحد والعشرين (٧) . ايلول : هجـوم حليف في شمبانيا ــ بلغاريا تحالف المانيا والنمسا (٦) ــ مؤتمر اشتراكي في زيمروولد ــ استيلاء الالمان على فيلنا . تشرين الاول : نزول الحلفاء في سالونيك (٥) ــ هجوم بلغاريا والنمسا على صربيا واستيلاؤهما على بلغراد ونيش ــ هجوم ايطالـي في غوريسيا . تشرين الثاني : انسحاب الجيش الصربي الى البانيا.

ابحاث انشتاين حول النسبية الشاملة ــ رومان رولان : فوق المركة ــ بيكاسو : ارلكين ــ دي فالا : الحب السـاحر .

١٩١٦

كـانون الثاني : جـلاء الحلفـاء عن غاليبولـي (٦ ــ ٨) . شباط : فرض الخدمة العسكرية الالزامية في بريطانيا العظمى (٣) ــ بدء معركة فردون (٢١) ــ استيلاء الالمان على دوامون (٢٥) . اذار : انشـاء « عصبة سبارتاكوس » (٢٤) . نيسان : ثورة الفصح في ايرلندا (٢٣) ــ استسلام البريطانيين في شـط العماره (٢٩) . ايار : بيان كينتال الاشتراكي (١) ــ هجوم النمساويين على ايطاليا في اسياغو (١٥) ــ معركة جتلنـد البحريـة (٣١) . حزيران : هجـوم بروسيلوف (٤ ــ ١٥ آب) ــ ثورة الحجاز ــ الالمان يوقفون معركة فردون (٢٤) . تموز : هجوم حليف على السوم (حتى ٢٢ تشرين الاول) . آب : هجوم ايطالي على الايـزنزو (٦) ــ دخول رومانيا الحرب الى جانب الحلفاء (٢٨) . ايلول : استخدام الدبابات للمرة الاولى (١٥) ــ هجوم الماني بلغاري ونمسـاوي المـاني على رومانيـا . تشرين الاول : الفرنسيون يستردون حصن دوامـون (٢٤) . تشريـن الثاني :

أسترداد حصن فو (١) . كانون الاول : قانون الخدمة الوطنية في المانيا (٢) ـ استيلاء دول اوروبا الوسطى على بوخارست (٦) ـ مقتل راسبوتين (٢٩) .

هـ. باربوس : النار ـ اكتشاف الهيباريــن ـ فرويد : مدخل الى التحليل النفسي .

١٩١٧

كانون الثاني : المانيــا تعلن حرب غواصــات لا هــوادة فيهـــا (٩) . شباط : قطـع العلاقـات الدبلوماسية الالمانية الاميركية (٣) . اذار : اوائــل الثورة الروسية في بتروغراد (٨) ـ استقالة نقـولا الثاني (١٥) . نيســان : اعلان الولايات المتحدة الحرب على المانيـا (٢) ـ هجوم انكليزي في ارتـوا (٩) ، وفرنسـي في شمبانيا (١٦ ـ ١٩) لينين في روسيا (١٦) . أيار : حركـات تمرد عســكري في فرنســا واضرابات في باريس ـ هجوم ايطالي في كارسو . حزيران : هجوم نمساوي معاكس على ايطاليا وهجوم روسي في غاليـسيا . ايلول : استيلاء الالمـان على ريغا (١ ـ ٥)ـ محاولة انقلاب على يد كورنيلوف . تشرين الاول : تراجع ايطالـي في كابوريتو (٢٤) . تشرين الثاني : اعلان بلفــور حول الصهيونية (٢) ـ اســتيلاء السوفيــات على الســلطة (١٤) ـ وزارة كليمنصــو (١٧) ـ الســوفيات يطلبون الهدنة من المانيا (٢٦) . كانون الاول : اســتيلاء الانكليز على القدس (٩) ـ مفاوضــات برســت ـ ليتوفســك (٢٠) . بــول فاليري : الباركة الفتية ـ ج. كونراد : خط الظل ـ بيرندلو : لكل حقيقته ـ ج. دوهامل : حيـــاة الشهداء ـ موندريان : الواقع الطبيعي والواقـع المجـرد .

١٩١٨

كانون الثاني : نقاط ولســون الـ ١٤ (٨) ـ منح النســاء حق التصويت في انكلترا ـ اضراب عام في فينا (١٦) . شباط : معاهدة صلح نمســـاوية المانية مع اوكرانيا (٩) ـ توقف مفاوضات برســت ـ ليتوفسـك (١٠) ـ هدنة جديدة بين الروس والالمان (٢٦) ـ اضراب عام في المانيا (٢٨) ـ تأميم ينابيــع البترول في المكسيك . اذار : استيلاء الالمان علــى كييف (١) ـ معاهدة برســت ـ ليتوفســك (٣) ـ انهيار الجبهة الانكليزية (٢١) ـ مؤتمر فرنسي بريطاني في دولنس : فوش قائد أعلى (٢٦) . نيسان : الالمــان يغزون فلنــــدا (٤) ـ اليابــانيون يستولون على فلاديفوستوك (٥) ـ هجوم الماني في الفلاندر (٩) ـ لتوفيا (٩) واستونيا (١٠) تعلنان استقلالهما ـ انشاء جيش دنيكين ـ استيلاء الالمان على جبل « كمـل » (٢٥) . ايار : معاهدة بوخارست (٧) ـ هجوم الماني على « طريق الســيدات » (٢٧) ـ احتلال ســواسون (٢٩) ودورمــان وشاتو ـ تييري (٣١) . حزيران : القطيعة بين الحلفاء والسوفيــات (٢٠) . تموز : هجوم الماني على المارن (١٥) ـ هجوم فرنسي معاكس في فيليه ـ كوتريه (١٨) ـ تخلي الالمان من خـــط المارن (٢١) ـ آب : هجوم فرنســـي انكلــيزي على السوم (٨) وهجوم فرنسي على الاين (٢٠) وهجــوم انكليزي على كمبريه (٢١) . ايلول انســحاب الماني عام الى خط هندنبورغ (٤) ـ النمسا تلتمس الصلح (١٤) ـ هجوم اميركي على سان ـ ميشال (١٥) وهجــوم فرانســيكمبري في مقدونيا (١٥) واللنبي فيفلسطين (١٩) وهجوم فرنســي اميركي في الارغون ، وهجـــوم انكليزي على الســوم وفي الفلاندر ـ بلغاريا تطلــب الهدنة (٢٦) التي وقعت فــي ٢٩ ـ دخول طبريـــا ودمشــق (٣٠) . تشرين الاول : ماكس دي باد يصبح مستشارا (١) ـ مفاوضات غليوم الثاني مع ولســون (١٤) ـ اعلان استقلال التشيك (١٤) والهنغاريــين (٢٤) والكرواتيــين والســلوفينيــين (٢٩) ـ تعديــل الدستور الالماني (٢٢) ـ المانيا تسلم بنقاط ولسون الـ ١٤ (٢٧) ـ هدنة مودروس (٣٠) ـ انتصار ايطاليا في فيتوريو فينيتو (٣٠) . تشريــن الثاني : هدنــة فيلاجيوشي (٣) حركات تمرد في كييل (٣) ـ انســحاب الالمان الى خط انفرس ـ الوز (٤) ـ المانيــا تطلب الهدنة (٦) ـ فتنة في هانوفر (٧) وميونيخ (٨) ـ اعلان استقلال بولونيا (٧) ـ اعلان الجمهورية في برلين ـ هدنة رتوند (١١) ـ شارل الاول يتخلى عن السلطة (١٢) ـ انقــلاب على يد الاميرال كولتشاك (١٨) . كانون الاول : انزال جيوش فرنسـية في أوديـــا والقرم ـ اســتيلاء البولشفيك على استونيا وليتوانيا ولتونيا ـ اعلان الجمهورية في هنغاريا ـ القطيعــة بين الاشتراكيين والسبارتاكيين في برلــين (٢٨) ـ انتخابات « كاكي » في بريطانيا العظمى .

ب. كلوديــل : الخبــز العســير ـ تريستان تزارا : بيان دادا ـ اوســوالد سنغلر : تقهقر الغرب، المجلــد الاول (المجلــد الثانــي في ١٩٢٠) ـ ج. دوهامل : حضارة .

١٩١٩

كانون الثاني : « اســبوع احمــر » في برلين (٦ ـ ١١) ـ افتتاح مؤتمر الصلح (١٨) ـ اندلاع الثورة الاهلية في ايرلندا ـ كولتشاك يستولي علــى برم . شباط : حملة « فون در غولتز في البلطيق »

(١) ـ الثام مجلس ليغار (٦) ـ انتخاب ايبرت رئيسا (١١) ـ مقتل كورت ايسنر (٢١) . اذار : تأسيس الدولية الثالثة (٤) ـ جلاء الجيوش الفرنسية من اوديسا ـ اعلان الجمهورية السوفياتية في هنغاريا (٢١) ـ كولتشاك يستولي على اوفا واورنبورغ ـ توقف التضامن النقدي بين الحلفاء . نيسان : البولونيون يستردون فيلنا ـ فتنة في امريتسار (١٣) . ايار : الايطاليون يحتلون اضاليا ، واليونان ازمير ـ بولونيا تحتل غاليسيا ـ هزيمة دنيكين في روسيا الوسطى ـ هجوم يودنيتش باتجاه بتروغراد . حزيران : توقيع معاهدة فرساي)٢٨(ـ البولشفيك يستردون أوفا. تموز : الرومانيون يسحقون بيلاكون. آب : هزيمة كولتشاك نهائيا ـ استيلاء الرومانيين على بودابست (٢) والبولونيين على منسك ـ ثورة مصطفى كمال على السلطان (٥) . ايلول : استيلاء ج. دانونزيو على فيومه (١٢) ـ معاهدة سان ـ جرمان (١٩) . تشرين الاول : هزيمة يودنيتش امام بتروغراد (٢١) ـ قانون التحريم في الولايات المتحدة (٢٨) . تشرين الثاني : مجلس الشيوخ الاميركي يرفض معاهدة فرساي ـ معاهدة نويي (٢٧) ـ البولشفيك يستردون اومسك . كانون الاول : المراحل الاخيرة لجلاء الالمان من الدول البلطيقية .

روتو فورد يحتل اللرة ـ هـ. باربوس : ضياء ـ ا. جيد : السمفونية الراعوية ـ ا. جونجر : عواصف فولاذية ـ تأسيس الـ « بوهوس » (في فيمار ، ثم في دسو) .

١٩٢٠

كانون الثاني : رفض مجلس الشيوخ الاميركي السماح للولايات المتحدة بالانضمام الى جمعية الامم (١٦) . شباط : البولشفيك يستردون اركوتسك واوديسا . اذار : فيصل ملكا على سوريا ، وعبدالله ملكا على العراق ، والاميرال هورثي وصيا في هنغاريا. نيسان : فرنسا تحتل دارمستات وفرنكفورت ـ مؤتمر سان ريمو ـ حركات شيوعية في الرور ـ البولشفيك يستردون اذربيجان ـ اتفاق البولونيين وتبليورا وغزوهم اوكرانيا واستيلاؤهم على كييف (٦ ايار) . حزيران : معاهدة تريانون (٤) ـ هزيمة البولونيين واقصاؤهم من اوكرانيا . تموز : فرنسا تحتل دمشق . آب : معاهدة سيفر (١٠) ـ معركة فارصوفيا (١٥) ـ اليونانيون يستولون على اندرينوبل. ايلول : اضراب عام في لومبارديا والبيمون . تشرين الاول : مقدمات الصلح بين روسيا وبولونيا (١٢) . كانون الاول : معاهدة الصلح بين الروس والفنلنديين (١٤) ـ مؤتمر تور (٢٥ ـ ٣٠) .

كايتر : نتائج الصلح الاقتصادية ـ هـ. برغسون : الطاقة الروحية ـ كوليت : شري ـ ب. كلوديل : اوالد الظل ـ هـ. دي مونترلان : مناوبة الصباح ـ سنكلرلويس : الشارع الرئيسي .

١٩٢١

كانون الثاني : انتصار مصطفى كمال على اليونانيين في اينونو (٧) ـ مؤتمر التعويضات في باريس (٢٤ ـ ٢٩) ولندن (٢٧ شباط ـ ٣ اذار) . اذار : ثورة بحارة كرونستات (١٧٠٧) ـ معاهدة ريغا (١٢) ـ اعتماد السياسة الاقتصادية الجديدة (١٢) ـ المعاهدة الروسية التركية (١٦) ـ الاستفتاء في سيليزيا العليا (٢٠) ـ الفرنسيون يحتلون دوسلدورف ودويسبورت ودويسبورغ ـ رضا خان يستولي على السلطة في ايران . نيسان : اضراب عمال المناجم البريطانيين (حتى حزيران) . ايار : ثورة بولونية في سيليزيا العليا (٢) . تموز : كارثة اسبانية فيمراكش في انوال (٢١) ـ اتفاق ويسبادن بين الفرنسيين والالمان (٢٧) . آب : صلح منفرد بين الالمان والاميركيين (٢٥) ـ مقتل ارزبرجر (٢٦) . تشرين الاول : جمعية الامم تقسم سيليزيا العليا (٢٠) .

اندريه بريتون وفيليب سوبو : الحقول المغنطيسية ـ ب. ڤالري : محاسن ـ ج. جيرودو : سوسان والباسيفيكي ـ ميترلنك : اريان وبارب ـ بلو ـ ج. رومان : السيد له تروهاديك الداعر ـ س. جورج : ثلاث اناشيد ـ م. بيرندللو : ستة اشخاص يبحثون عن مؤلف ـ ا. سفيفو : ضمير زينون ـ جون دوس باسوس : ثلاثة جنود ـ اوبرا البان برغ : فوسزيك .

١٩٢٢

شباط : انكلترا تطلب ايقاف العمل بمعاهدة التحالف مع اليابان (٦) ـ اتفاق واشنطن البحري (٦) ـ معاهدة الدول التسع مع الصين (٦) ـ معاهدة انكليزية مصرية : نهاية الحماية (٢٨) . اذار : اتفاق صيني ياباني . سحب الطلبات الـ ٢١ (٢٨) . نيسان : مؤتمر جنوى (١٠ حتى ١٩ ايار) ـ اتفاق الاشتراكيين والشيوعيين في الاتحاد الفرنسي العام للعمل . آب : اضراب عام في ايطاليا يقمعه موسوليني (١) ـ انتصار الاتراك على اليونانيين في دافيون قره حصار (٢٦) . ايلول :

الاتراك يستولون على ازمير (٨) . تشرين الاول : هدنة يونانية تركية في مودانيا (١١) ــ انتخابات بريطانية محافظة (١٥) ــ استدعاء موسوليني لتولي السلطة (٢٩) ــ اليابانيون يجلون عن فلاديفوستوك. تشرين الثاني : مصطفى كمال يستولي على السلطة في تركيا (٢) . كانون الاول : روسيا تصبح «الاتحاد السوفياتي » (٣٠) .

هانس برجر يكتشف الموجات الدماغية ــ بانتنغ وبست يكتشفان الانسولين ــ هـ. برغسون : ديمومة وآنية ــ ف. مورياك : تقبيل الابرص ــ ج. جيرودو : سيغفريد والليموزين ــ ج. جويس : اوليس ــ ت.س. اليوت : الارض الخربة ــ غالسوورثي : فورسايت ساغا ــ س. لويس : بابيت ــ ج. ميسترال : الخراب الكامل ــ ج.ر. جيمنز : قصائد (١٩٢٢ ــ ١٩٤٠) ــ بومبون : الدب الابيض ــ اول تحقيق هندسي لـ « لـه كوربوزييه » .

١٩٢٣

كانون الثاني : الليتوانيون يستولون على ممل (١٠) ــ الفرنسيون والبلجيكيون يحتلون الرور (١١) ــ مقاومة سلبية . اذار : لينين يعتزل الحكم. حزيران : نزاع ايطالي يوناني : الايطاليون في كورفو (١٢ ــ ٢٧) . تموز : معاهدة لوزان بين اليونانيين والاتراك (٢٤) . آب : ستريسمن وزير الشؤون الخارجية (٦) . ايلول : قيام بريمو دي ريفيرا بانقلاب في اسبانيا (١٣) ــ انتهاء المقاومة السلبية في الرور (٢٠) . تشرين الثاني : اجتماع لجنة داوز (٣٠) .

لويس دي بروبل يضع مبادىء الآلية التموجية ــ استخدام الـ للمرة الاولى في معالجة التدرن الرئوي .. ب. شو : القديسة جنه ــ ج. كونراد : القرصان ــ ر.س. ريلك : مراثي دوئينو ــ ف. مورياك : نهر النار ، جنيتريكس ــ فورمانوف : تشابايف .

١٩٢٤

كانون الثاني : وفاة لينين (٢١) ــ وزارة ماك دونالد العمالية (٢٣) ــ تحالف فرنسي تشيكوسلوفاكي (٢٥) ــ اتفاق ايطالي يوغوسلافي : ايطاليا تستعيد فيومه (٢٧) . شباط : انكلترا تعترف بالاتحاد السوفياتي (١) . اذار : الغاء الخلافة في تركيا (٤) . نيسان : انتخاب تكتل احزاب اليسار في فرنسا (٤) . ايار : اعلان الجمهورية اليونانية بعد استفتاء (٢٤) . حزيران : مقتل ماتيوتي (١٠) ــ وزارة هريو في فرنسا (١٥) . تموز : مؤتمر لندن . بدء العمل بخطة داوز (١٦) . تشرين الاول : انتصار المحافظين البريطانيين في الانتخابات (٢٦) ــ فرنسا تعترف بالاتحاد السوفياتي (٢٦) ــ ابن سعود يستولي على مكة .

راسون يحكم اللقاح الوقائي ضد الخناق والتيتانوس ــ مبدأ هايزنبرغ حول عدم الحتمية ــ ب. فاليري : النفس والرقص ــ اوبالينوس ــ ج. جيرودو : جوليت في بلاد البشر ــ ج. رومان : نوك ــ اونيل : ابتغاء تحت شجر الدق ــ ت. مان : الجبل المسحور ــ بريتون : بيان السريالية ــ فلادكوف : الاسمنت ــ ميكيل دي اونامونو : احتضار المسيحية ــ ا.م. فورستر : ممر الى الهند ــ م. موس : محاولة في العطاء ــ فيلم ايزنستاين : المدرعة بوتمكين .

١٩٢٥

كانون الثاني : الفاشستية تصبح حزبا وحيدا (٣) ــ تروتسكي يعفى من مهامه كمفوض للشعب ــ احمد زوغو رئيسا للجمهورية الالبانية (٣) . شباط : وفاة ايبرت (٢٨) . اذار : وفاة سن يات سن (١٢) ــ اقتراع عام في اليابان . نيسان : سقوط وزارة هريو (١٠) ــ عبد الكريم يغزو مراكش الفرنسية (٢٣) ــ انتخاب هندنبورغ (٢٦) . آب : مؤتمر مسكوني بروتستنتي في ستوكهولم (١٦ ــ ٢٩) . تشرين الاول : مؤتمر ومعاهدة لوكارنو (٥ ــ ١٦) ــ رضا خان يصبح شاه ايران (٣١) .

ميليكان يكتشف الاشعة الكونية ــ ا. جيد : مزيفو النقد ــ اورتيغا اي غاسيه : تجريد الفن من الانسانية ــ معرض الفنون التزيينية في باريس ــ م.رافيل : الولد واسرار السحر ــ ش. شابلن : الاندفاع وراء الذهب .

١٩٢٦

كانون الثاني : ابن سعود ملك الحجاز (٨) ــ الجلاء من منطقة كولونيا (٣١) ــ دكتاتورية بانغالوس في اليونان (٣١ حتى آب) . نيسان : تجديد معاهدة رابالو بين الالمان والروس (٢٤) . ايار : بلسودسكي يقوم بانقلاب (١٢ ــ ١٤) تسليم

عبدالكريم (٢٦) ـ غوميز دا كوستا يقوم بانقلاب في البرتغال (٢٨) .

تموز : اقصى هبوط للفرنك الفرنسي (٢٠) ـ كارمون يحل محل غوميز دا كوستا (٩) ـ وزارة بوانكاريه (٢٣) . ايلول : دخول المانيا جمعية الامم (٨) ـ لقاء تواري ـ تشانغ كاي شك يستولي على هانكيو . كانون الاول : فولدماراس يقوم بانقلاب في ليتوانيا (١٧) .

براءة « ادارة شؤون الكنيسة » (القاضية بانشاء اكليروس بلدي) ب. ايلوار : عاصمة الالم ـ ميترلنك : حياة الارضة ـ ج. جيرودو : بيلا ـ ج. برنانوس : تحت شمس الشيطان ـ ف. مورياك : تيريز ديكيرو ـ ا. جيد : لو ان الحبة لا تموت ـ آلين : المواطن ضد السلطة ـ فيلم رنوار : نانا ، وفيلم فريتز لانغ : متروبوليس .

١٩٢٧

كانون الثاني : نهاية الرقابة العسكرية في المانيا (٣١) . اذار : تشانغ كاي شك يستولي على شنغاي ونانكين . نيسان : قانون العمل الايطالي (٢١) . ايار : المؤتمر الاقتصادي الدولي في جنيف (٤ ـ ٢٣) ـ لندبرغ يجتاز الاطلسي الشمالي . تموز : القطيعة بين تشانغ كاي شك والشيوعيين الصينيين . كانون الاول : قطع العلاقات الدبلوماسية بين الصين والاتحاد السوفياتي (١٤) .

الاب لومتر يوجز نظرية توسع الكون ـ م. هايدجر : الوجود والزمن ـ ج. دوهامل : يوميات سالافين ـ ج. كوكتو : اورفيه . ا. ستكلير : البترول : روح النساء ـ فاديف : الهزيمة ـ روزامون لهمن : غبار ـ « مغني الجاز » ، اول فيلم ناطق .

١٩٢٨

كانون الثاني : اقصاء تروتسكي الى آسيا . نيسان : سالازار وزير المال في البرتغال . حزيران : تثبيت الفرنك الفرنسي بوانكاريه . اب : ميثاق بريان ـ كلوغ (٢٧) . ايلول : احمد زوغو يصبح زوغ الاول ملك البانية (١) . تشرين الاول : البدء بتنفيذ الخطة الخمسية الاولى في الاتحاد السوفياتي . كانون الاول : اجتماع خبراء لجنة يانغ للتعويضات (٢٢) .

ا. بروتون : نجا ـ ا. مالرو : الفاتحون ـ ا. م. رمارك : لا جديد في الغرب ـ ستفان جورج : الامبراطورية الجديدة ـ ارنست غلاسر : مجندو السنة ٢٢ ـ مارسيل بانيول : زبرجد ـ اراغون : بحث في الانشاء ـ ا. هوكسلي : طباق ـ د.هـ. لورنس : خليل السيدة شاترلي ـ م. رافيل : بولرو ـ اول فيلم بالرسوم المتحركة : ميكي ماوس لـ « وولت ديسني » ـ فيلم بونويل : الكلب الاندلسي .

١٩٢٩

كانون الثاني : نفي تروتسكي (٣١) ـ دكتاتورية اسكندر في يوغوسلافيا (٥) . شباط : اتفاق لاتران : انشاء دولة الفاتيكان (١١). ايار : انتخابات عمالية في انكلترا (٣٠) . حزيران : خطة يانغ ـ وزارة ماك دونالد الثانية في انكلترا (٥) . ايلول : سقوط فولدماراس في ليتوانيا . تشرين الاول : كارثة مالية في مصفق نيويورك (٢٤) . تشرين الثاني : تأسيس مصرف التسويات الدولية (١٣) .

اكتشاف البنسلين على يد الكسندر فلنغ ـ م. هايدجر : ما هو علم ما وراء الطبيعة ؟ ـ ج. جيرودو : امفيتريون ٣٨ ـ ب. كلوديل : الحذاء الاطلسي ـ ا. دوبلن : ساحة الكسندر في برلين ـ اورتيغا اي غاسيه : ثورة الجماهير ـ ا. مورافيا : اللامبالون ـ بيان السريالية الثاني ـ همنغواي : وداعا ايتها الاسلحة ـ ج. كوكتو : الاولاد المخيفون ـ تأسيس متحف الفن العصري في نيويورك ـ فيلم كنغ فيدور : الوجه .

١٩٣٠

كانون الثاني : نشر مذكرة كلارك بالتخلي عن سياسة « التضييب الكبير » ـ الفونس الثالث عشر يطرد بريمو دي ريفيرا (٢٨) . شباط : هجوم على الحامية الفرنسية في « ين باي » اذار : استقالة شاخت (٧) . نيسان : وزارة برونتغ (١) ـ اتفاق لندن البحري بين انكلترا والولايات المتحدة واليابان (٢٢) ـ فتنة في بشاور (٢٣) . حزيران : كارول الثاني يستعيد عرش رومانيا (٦) ـ الجلاء نهائيا عن المانيا (٣٠) ـ انكلترا تعترف باستقلال العراق (٣٠) . ايلول : انتخابات عامة في المانيا : فوز نازي (١٤) . تشرين الاول : مؤتمر امبراطوري بريطاني : نظام وستمنستر (١ حتى ١٤ تشرين الثاني) ـ الصين تحصل على استقلالها الجمركي ـ انكلترا تجلو عن واي هاي واي (١) . كانون الاول : انتهاء المؤتمر التمهيدي

لنزع الاسلحة (٩) .

تحقيق اول مفاعل ذري — اختبار ج. كلود وبوشرو على طاقة البحار الحرارية — مالرو : الطريق الملكية — ا. فون صلمون : الملكي — هـ. هس : نارسيس وغولدموند — موزيل : الانسان الخالي من الصفات — جون دوس باسوس : خط العرض الـ ٤٢ — اوجين دابيت : فندق الشمال — جان جيونو : كسب بعد خسارة — ج. دوهامل : مشاهد من حياة المستقبل — ر. لند : مدلتون — م. رافيل : موسيقى اليد اليسرى .

١٩٣١

اذار : مشروع وحدة جمركية نمساوية المانية (٢١) . نيسان : انتخابات جمهورية في اسبانيا (١٢) — اعلان الجمهورية في برشلونة وذهاب الملك (١٤) . ايار : افلاس الـ « كريديتا نستالت » في فينا (١١) — براءة « السنة الاربعون » (١٥) حزيران : هوفر يؤجل الدفع (٢٠) — انتخابات مجلس الكورتيس التأسيسي (٢٨) — تموز : اقفال المصارف في المانيا (١٣) — الالمان يوقفون مدفوعاتهم الدولية . اب : تشكيل حكومة اتحاد وطني برئاسة ماك دونالد في انكلترا (٢٤) . ايلول : الدستور اليوغوسلافي الجديد — اليابانيون يحتلون منشوريا (١٩) — انكلترا تتخلى عن قاعدة الذهب (٢١) تشرين الاول : تحالف هارزبورغ بين هتلر والمحافظين (١١) — انتخابات محافظة في انكلترا (٢٧) . كانون الاول : اعلان الدستور الجمهوري الاسباني رسميا (٩) .

اندرسون يكتشف الكهرب السلبي — ب. فاليري : نظرات الى العالم الحالي — ج. رومان : دونوغو — ا. دي سانت — اكسوبري : طيران ليلي — هرمان بروش : الروبصون .

١٩٣٢

كانون الثاني : اليابانيون يؤسسون الـ «منشوكو» (٢) — حل جمعية اليسوعيين في اسبانيا . شباط : افتتاح مؤتمر نزع السلاح (٢) . اذار : تخلي انكلترا عن نظام المقايضة الحرة (١) . نيسان : اعادة انتخاب هندنبورغ (١٠) . ايار : وزارة هريو في فرنسا (٤) . حزيران : وزارة فون بابن (١) — مؤتمر اقتصادي في لوزان : التخلي عن التعويضات (١٦ حتى ٩ تموز) . تموز : سالازار رئيس مجلس الوزراء في البرتغال — مؤتمر اوتاوا الامبراطوري (٢١ حتى ٢٠ اب) — اندلاع حرب شاكو بين الباراغواي وبوليفيا (٣١) . اب : ثورة صان جورجو في اشبيليه (١٠ — ١٢) — لقاء هندنبورغ وهتلر (١٣) . ايلول : مؤتمر ستريزا (٥ — ٢٠) . تشرين الثاني : انتخاب ف.د. روزفلت رئيسا (٨) — ميثاق عدم اعتداء بين فرنسا وروسيا (٢٩) — بك وزير الشؤون الخارجية في بولونيا . كانون الاول : وزارة فون شليخر (٤) — اليابانيون يحتلون جيهول (٩) — الاعتراف لالمانيا بمساواة الحقوق (١١) هـ. برغسون : مصدرا الاخلاق والدين — ف. موريك : عقدة الثعابين — ل. ف. سيلين : رحلة الى اخر الليل — الدوس هوكسلي : العالم الجديد الشجاع — اوستروفسكي : وسقي الفولاذ — شولوكوف : الدون الهادىء .

١٩٣٣

كانون الثاني : روزفلت ينادي بسياسة « حسن الجوار » — هتلر مستشار (٣٠) . شباط : انشاء المجلس الدائم للتحالف الصغير (١٦) — حريق الريخستاغ (٢٧) — قزو هو — باي وسير اليابانيين على بكين : اذار : تأجيل المدفوعات للمصارف في الولايات المتحدة (٩) — دكتاتورية دولفوس في النمسا (١٥) — هتلر يحصل على سلطات مطلقة (٢٤) — اليابان تنسحب من جمعية الامم (٢٧) — تعديل الدستور في الهند . نيسان : تخفيض سعر الدولار (١٢) — الولايات المتحدة تتخلى عن قاعدة الذهب . ايار : وثيقة الاصلاح الزراعي (١٢) . حزيران : « الميثاق الرباعي » (٧) — مؤتمر اقتصادي ونقدي في لندن (١٢ حتى ٢٧ اب) . تموز : الاشتراكية الوطنية حزب وحيد (١٤) — معاهدة بين الفاتيكان والمانيا (٢٠) . تشرين الاول : المانيا تنسحب من مؤتمر نزع السلاح ومن جمعية الامم (١٤) . تشرين الثاني : انتخابات معتدلة في اسبانيا (١٩) . كانون الاول : مؤتمر الدول الاميركية في مونتفيديو .

جوليو — كوري يحقق الاشعاع الاصطناعي — ا. مالرو : الوضع البشري — ج. جيرودو : استراحة — ا. سيلون : فونتامارا — غارسيا لوركا : عرس الدم .

١٩٣٤

كانون الثاني : قانون تنظيم العمل في المانيا (٢٠) — اتفاق عدم اعتداء بين المانيا وبولونيا (٢٦)

ـ بوادر فضيحة ستافيسكي في فرنسا ، وزارة دالاديه (٣٠) . شباط : مقتل كيروف (١) ـ قمع الفتنة الاشتراكية في فينا ، وحل الحزب الاشتراكي (١ ـ ١٦) ـ الغاء النقابات في المانيا ـ تنظيم التعاونيات في ايطاليا (٥) ـ فتنة ساحة الكونكورد (٦) ـ وزارة دومرغ (٩) . اذار : دكتاتورية لادونر في استونيا (١٢) ـ الولايات المتحدة تعترف باستقلال الفيليبين (ابتداء من ١٩٤٦) (٢٤) . ايار : دكتاتورية اولمانيس في لتونيا (١٥) ـ انقلاب عسكري في بلغاريا (١٩) . حزيران : لقاء هتلر وموسوليني في البندقية (١٤ ـ ١٥) ـ مقتل روهم (٣٠) . تموز : شاخت وزير الاقتصاد الوطني (٢) ـ مقتل المستشار دولفوس وحلول شوشنيغ محله (٢٥) . اب : هتلر فوهرر الرايخ ـ وفاة هندنبورغ (١) . ايلول : قبول الاتحاد السوفياتي في جمعية الامم (١٨) . تشرين الاول : مقتل الكسندر ملك يوغوسلافيا و ل. بارتو (٦) ـ ثورة في كاتالونيا واستوريا تقمع بصرامة (٦ ـ ١٢) ـ انشاء جبهة العمل في المانيا (٢٤) . كانون الاول : حادث بين ايطاليا واثيوبيا في وال ـ وال (٥) .

شادويك يكتشف الـ « نوترون » ـ فحص المواد العضوية بالمجهر الكهربائي للمرة الاولى ـ هـ. برغسون : الفكر والحركة ـ اراغون : نواقيس بال ـ ج. دوس باسوس : ١٩١٩ ـ هـ. ملر : خط السرطان .

١٩٣٥

كانون الثاني : اتفاق روما بين فرنسا وايطاليا (٦) ـ بوادر الخلاف بين روزفلت والمحكمة العليا حول « النهج الجديد » (٧) ـ استفتاء في السار (١٣) . اذار : اعادة الخدمة العسكرية الالزامية في المانيا (١٦) . نيسان : اتفاق ستريزا بين فرنسا وانكلترا وايطاليا (١٤) . ايار : معاهدتا المساعدة المتبادلة بين فرنسا والاتحاد السوفياتي (٢) وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي (١٦) ـ وفاة بلسودسكي (١٢) . حزيران : بالدوين يخلف ماكدونالد (٧) ـ نهاية حرب شاكو (١٢) ـ اتفاق بحري انكليزي الماني (١٨). اب : بدء الحركة الستاخانوفية في الاتحاد السوفياتي ـ «وثيقة الحياد الاميركية». ايلول : قوانين نورمبرغ . تشرين الاول : ايطاليا تهاجم اثيوبيا (٢) ـ استعادة جورج الثاني الى اليونان (١٠) . تشرين الثاني : انتخابات عامة محافظة في انكلترا (١٤) ـ جمعية الامم تفرض عقوبات على ايطاليا (١٨) . كانون الاول : تشانغ كاي شك رئيس الجمهورية الصينية (١) ـ استقالة مازاريك وحلول بنيس محله (١٨) ـ ايدن وزير الشؤون الخارجية (٢٢) .

فرمي يفكك الذرة ـ اختبارات الرادار الاولى ـ اكتشاف الـ « ميزون » على يد يوكاوا ـ اكتشاف المستحضرات الكبريتية ـ ظهور النيلون الاول ـ ج. جيرودو : حرب طروادة لن تحدث ـ ف. جاسبرز : نيتشه ـ البرتو مورافيا : الاطماع الخائبة ـ ت.س. اليوت : جريمة قتل في الكاتدرائية ـ ا. سالاكرو : مجهولة اراس .

١٩٣٦

كانون الثاني : وفاة جورج الخامس (٢٠) ـ معاهدة صلح بين بوليفيا والباراغواي (٢١) . شباط : انتخاب الجبهة الشعبية في اسبانيا (١٦) ـ انتخابات حرة واشتراكية في اليابان (٢٠) ـ محاولة انقلاب عسكري في اليابان (٢٦) . اذار : هتلر يرفض اتفاقات لوكارنو ويحتل رينانيا (٧) . ايار : سقوط اديس ابابا في ايدي الايطاليين (٥) ازانا ، رئيس الجمهورية الاسبانية (١٠) ـ انتخاب الجبهة الشعبية في فرنسا . حزيران : وزارة بلوم (٤) ـ اتفاقات ماتينيون (٦) . تموز : الغاء فرض العقوبات على ايطاليا (١٥) ـ ثورة فرنكو في مراكش الاسبانية (١٧) ـ مؤتمر مونترو حول المضائق (٢٠) . اب : ميتاكساس يستولي على السلطة في اليونان (٤) ـ تمركز الايطاليين في ماجورك ـ اعدام كامنيف وزينوفييف (٢٥) ـ اتفاق لندن بين انكلترا ومصر (٢٦) . ايلول تخفيض سعر الفرنك الفرنسي ـ اجتماع لجنة عدم التدخل في اسبانيا (٩) . تشرين الاول : ليوبولد الثالث يعلن عودة بلجيكا الى الحياد . تشرين الثاني : ميثاق الماني يولوني ضد الشيوعية (٢٥) ـ اخفاق فرنكو امام مدريد . كانون الاول : دستور سوفياتي جديد (٥) ـ حادث سيان ووقوع تشانغ كاي شك اسيرا في ايدي تشانغ ـ سو ـ ليانغ . ا. جيد : عودة الاتحاد السوفياتي ـ ج. برنانوس : يوميات كاهن ريفي ـ اراغون : الاحياء الجميلة ـ ا. سالاكرو : رجل كغيره من الرجال ـ و. هـ. اودن : اسبانيا ـ ج. دوس باسوس : الظلمة الكبرى ـ ف. غ. لوركا : بيت برناردا ـ شولوكوف : اراض مستصلحة ـ ج. م. كينز : نظرية عامة في الاستخدام والفائدة والنقد .

١٩٣٧

كانون الثاني : اتفاق فرنسي تركي حول

الاسكندرون (٢٣) ــ أدانة بياتاكوف وسوكولنيكوف ورادك في الاتحاد السوفياتي (٣٠) . اذار : ميثاق ايطالي يوغوسلافي (٢٥) ــ توجيه براءة الى الالمان . نيسان : العمل بالدستور الهندي الجديد (١) ــ ادخال تعديل « ادفع وانقل » على قانون الحياد ــ هزيمة الحزب العسكري في الانتخابات اليابانية (٣٠) . ايار : هزيمة فرنكو في غوادالاجارا (١٨) . حزيران : اعدام توخاتشفسكي (١٢) ــ استيلاء الوطنيين على بلباوو (١٩) ــ ألمانيا وايطاليا تنسحبان من لجنة عدم التدخل (٢٣) ــ تخفيض سعر الفرنك الفرنسي مرة أخرى (٣٠) . تموز : ميثاق سعد اباد بين دول الشرق الادنى (٨) . اب : اليابانيون يحتلون بكين (٨) ــ ميثاق عدم اعتداء بين الصين والاتحاد السوفياتي (٢١) . تشرين الاول : اليابانيون يحتلون شانتونغ ــ الوطنيون يستولون على جيجون (٢٠) . تشرين الثاني : ايطاليا تنضم الى ميثاق مكافحة الشيوعية (٦) ــ اليابانيون يحتلون شنغاي (٩) . كانون الاول : ايطاليا تنسحب من جمعية الامم ــ اليابنيون يحتلون نانكين (١٢) . ظهور أول محرك نفاث (محرك ويتل) ــ ستانلي يتوفق الى بلورة فيروس فسيفساء التبغ ــ معرض الفنون والتقنيات في الحياة العصرية في باريس ــ بناء قصر شايو ــ ج. ستاينبك : الفئران والبشر بيكاسو : غرنيكا .

١٩٣٨

كانون الثاني : هتلر يستلم قيادة الجيش (٤) . شباط : اللورد هاليفاكس يحل محل ايدن في وزارة الشؤون الخارجية (٢٥) . اذار : هتلر يحتل النمسا (١١) ــ اعدام بوخارين وريكوف وياغودا . نيسان : برنامج حزب السوديت : نقاط كارلسباد الـ ٨ (٢٤) . ايار : تخفيض سعر الفرنك الفرنسي للمرة الثالثة . اب : بعثة رانسمان الى تشيكوسلوفاكيا (٣) . ايلول : القطيعة بين حزب السوديت والحكومة التشيكوسلوفاكية (١٣) ــ لقاء برشتسغادن (١٥) وغودسبرغ (٢٧) ــ تحكيم موسوليني (٢٨) ــ اتفاق مونيخ (٣٠) . تشرين الاول : اليابانيون يستولون على كانتون . تشرين الثاني : تحكيم فينا : بلغاريا تحصل على اراض سلوفاكية (٢) ــ قوانين مناهضة السامية في ايطاليا (١٠) ــ وفاة كمال اتاتورك (١٥) الذي خلفه عصمت اينونو . كانون الاول : بيان فرنسي الماني (٦) ــ ايطاليا تعلن ابطال اتفاقات روما بين فرنسا وايطاليا (٢٢) .

هوارد آكن يبني اول آلة الكترونية حاسبة (استخدمت في ١٩٤٤) ــ أ. مالرو : الأمل ــ ج. ب. سارتر : الغثيان ــ ج. برناتوس : المقابر الكبرى تحت القمر ــ ليجيه : نقل القوى ــ مايول : الحوريات الثلاث .

١٩٣٩

كانون الثاني : فرنكو يستولي على برشلونة (٢٦) . اذار : انتخاب بيوس الثاني عشر (٢) ــ المطران تيسو يعلن استقلال سلوفاكيا (١٤) ــ هتلر يحتل تشيكوسلوفاكيا (١٥) ــ ضمانة انكليزية لرومانيا (١٩) ــ ليتوانيا ترغم على التخلي عن ممل لالمانيا (٢٢) ــ فرنكو يستولي على مدريد (٢٨) ضمانة انكليزية لبولونيا (٣١) . نيسان : انتخابات بلجيكية عامة : هزيمة الملكية (٢) ــ ضمانة انكليزية لليونان (١٣) ــ هتلر يعلن ابطال الاتفاق البحري الانكليزي الالماني والاتفاق الالماني البولوني (٢٨) . ايار : اتفاق انكليزي تركي (١٢) ــ تحالف عسكري ايطالي الماني (٢٢) . تموز : الولايات المتحدة تعلن ابطال المعاهدة التجارية اليابانية الاميركية ــ بعثة عسكرية فرنسية انكليزية الى موسكو . اب : تشكيل حكومة موالية لليابان في نانكين برئاسة وانغ تسنغ واي ــ ميثاق عدم اعتداء الماني سوفياتي (٢٣) . ايلول : هتلر يغزو بولونيا (١) ــ ايطاليا لا تدخل الحرب (١) ــ انكلترا وفرنسا تعلنان الحرب على المانيا (٣) ــ دخول الروس الى بولونيا (١٧) ــ استسلام بولونيا (٢٧) ــ قسمة بولونيا بين المانيا والاتحاد السوفياتي (٢٨) . تشرين الاول : معاهدة فرنسية انكليزية تركية (١٩) ــ مفاوضات روسية فنلندية (٢١) . تشرين الثاني : قانون الحياد الاميركي (٤) ــ دخول الروس الى فنلندا (٣٠) .

طيران الطائرة النفاثة الاولى ، من طراز هنكل ــ التطبيقات العملية الاولى لـ د.د.ت. على يد بول مولر ــ أ. جيد : يوميات ــ ب. ايلوار : اغنية كاملة ــ جون ستاينبك : عناقيد الغضب ــ فيليب هيريا : الاولاد المدللون ــ أ. دي سانت اكسوبري : ارض الرجال ــ ج. ب. سارتر : الجدار .

١٩٤٠

معاهدة صلح روسية فنلندية (١٢) ــ حكومة بول رينو (٢٠) . نيسان : المانيا تغزو الدانمارك والنرويج (٩) ــ هزيمة الحلفاء في ليلهامر (٢٤) . ايار : غزو بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ (١٠) ــ حكومة برئاسة

ونستون تشرشل في انكلترا (١٠) ـ انهيار الجبهة الفرنسية في سيدان (١٤) ـ استسلام الجيش الهولندي (١٥) ـ احتلال بروكسل وانفرس وسان وكانتين (١٨) واميان واراس (٢١) ـ استسلام بلجيكا (٢٨) ـ معركة دنكرك (٢٨ حتى ٣ حزيران) . حزيران : انهيار جبهة السوم (٦) ـ احتلال روان (٩) ـ انتهاء المقاومة النروجية (٩) ـ ايطاليا تهاجم فرنسا (١٠) ـ احتلال باريس (١٤) ـ استقالة بول رينو ، بيتان يطلب الهدنة (١٦) ـ نداء الجنرال ديغول الى الفرنسيين (١٨) ـ احتلال ليون وفينا (٢١) ـ هدنة فرنسية المانية (٢٢) وهدنة فرنسية ايطالية (٢٣) ـ اعتراف الحكومة البريطانية بالجنرال ديغول قائدا للقوات الفرنسية الحرة (٢٨) . تموز : الاتحاد السوفياتي يحتل بسارابيا وبوكوفينا (٢) ـ حادث مرسى الكبير (٣) ـ هجوم انكليزي على دكار (٨) ـ الجمعية العمومية تعطي بيتان حق التشريع (١٠) . استونيا ولتونيا وليتوانيا تصبح جمهوريات سوفياتية (٣ـ٦) ـ افريقيا الاستوائية الفرنسية تنضم الى ديغول (٢٨) ـ تحكيم فينا (٢٩) ـ بدء معركة انكلترا (٨ حتى ٥ تشرين الاول) . ايلول : انطونسكو يستولي على السلطة في رومانيا ، كارول الثاني يستقيل ، ويحل ميشال محله (٦) ـ هجوم ايطالي في ليبيا (٤) ـ فرض الخدمة العسكرية الالزامية في الولايات المتحدة (١٦) ـ هجوم ياباني (٢٣) وهجوم تايلندي (٢٨) على الهند الصينية ـ هجوم انكليزي آخر على دكار (٢٣ ـ ٢٥) ـ لقاء مونتوار (٢٤) ـ الميثاق الثلاثي (٢٧) ـ هجوم ايطالي على اليونان (٢٨) . تشرين الاول : صدور قانون ينظم حياة اليهود في فرنسا (٣) . تشرين الثاني : اعادة انتخاب روزفلت (٥) . كانون الاول : تعبئة النساء في انكلترا (٤) ـ انتصارات يونانية في سانتي كوارانتا (٦) وارجيرو كاسترو (٩) ـ انتصار انكليزي في سيدي براني في ليبيا (١٢) .

اكتشاف عامل ريزوس على يد لند ستاينر وونر . استخدام المستحضرات الكبريتية في معالجة الجذام ـ ريتشارد رايت : الابن الطبيعي ـ همنغواي : لمن تقرع النواقيس .

١٩٤١

كانون الثاني : معركة مضيق صقليا (١٠) ـ الاستيلاء على طبرق (٢٢) ـ وفاة ميتاكساس (٢٩) . شباط : دارلان ، نائب رئيس مجلس الوزراء الفرنسي (٩) ـ احتلال الانكليز لبنغازي وموقاديشيو (٢٦) . اذار : الالمان يدخلون بلغاريا (٢) ـ نشر قانون الاعارة والتأجير (٩) ـ بطرس الثاني يقوم بانقلاب في يوغوسلافيا (٢٧) ـ معركة راس ماتابان (٢٨) . نيسان : رومل يسترد بنغازي وبارديا (٣ و ١٢) ـ ميثاق روسي يوغوسلافي (٥) ـ المانيا تغزو يوغوسلافيا واليونان (٦) ـ احتلال سالونيك (٨) ـ استقلال كرواتيا (١٠) ـ نهاية المقاومة اليوغوسلافية (١٨) ـ معاهدة روسية يابانية (١٣) ـ احتلال اثينا (٢٧) . ايار : احتلال البلوبونيز (٢) وكريت (٢٠ ـ ٢١) ـ الانكليز يحتلون اديس ـ ابابا (٥) ـ لقاء هتلر ـ دارلان في برشتسغادن (١١ ـ ١٢) ـ هرب رودولف هس (١١) ـ معركة سيتير الجوية البحرية (٢٢) ـ حادث الـ « بسمارك » (٢٤ ـ ٢٧) ـ ثورة (٢) وهزيمة رشيد عالي في العراق (٣١) . حزيران : الانكليز يحتلون سوريا (٨) ـ انشاء محاكم خاصة ضد الشيوعيين في فرنسا (١٤) ـ هدنة عكا (١٤) ـ هتلر يهاجم روسيا (٢٢) . تموز : معركة خط خط ستالين (١٥ حتى ٧ آب). آب : توقيع ميثاق الاطلسي (١٤) ـ الانكليز والروس يدخلون ايران (٢٥) . ايلول : بدء حصار لينينغراد (٩) ـ استقالة رضا بهلوي ، شاهبور محمد يصبح شاه ايران (١٦) ـ احتلال كييف (١٩) ـ نهايةالمقاومة الايطالية في اليوبيا (٢٧) . تشرين الاول : قانون العمل في فرنسا (٤) ـ وزارة طوجو في اليابان (١٨) ـ ستالين قائد (٢٢) ـ اعدام رهائن شاتوبريان ونانت وبوردو (٢٢) . تشرين الثاني : معركة موسكو (١٦ حتى ٥ كانون الاول) ـ هجوم بريطاني في ليبيا (١٨) ـ استيلاء الالمان على روستوف (٢٢) وجلاؤهم عنها في ٢٩ . كانون الاول : لقاء بيتان ـ غورنغ في سان فلورنتين (١) ـ بيرل هاربور ، نزول الجيوش اليابانية في ماليزيا وبورنيو (٧) ـ اعلان اليابان الحرب على انكلترا والولايات المتحدة (١١) ـ نزول الجيوش اليابانية في هونغ ـ كونغ (١٩) والفيليبين (٢٢) ـ الروس يستردون كالينين وموجايسك وكالوغا (٢٠) ـ استيلاء الانكليز على بنغازي (٢٤) .

استخدام الكورتيزون للمرة الاولى ـ جايمس بونهام : عهد المنظمين ـ برخت : الام الباسلة .

١٩٤٢

كانون الثاني : استيلاء اليابانيين على مانيلا (٢) . شباط الاستيلاء على سنغافوره (١٥) . اذار : تعبئة المدنيين في ايطاليا (١) ـ استسلام جاوا (٨). نيسان : فشل بعثة ستافوردكريبس في الهند (١٢) ـ لافال يعود الى الحكم في فيشي (١٨) . ايار : اليابانيون يحتلون طريق بورما (١) ـ الاميرال ليهي يغادر فيشي (١) ـ البريطانيون يحتلون مدغشقر (٥) ـ معركة بحر المرجان (٧ ـ ٩) ـ قانون الاعارة

والتاجير يشمل الاتحاد السوفياتي (١١) ـ هجوم روسي في قطاع خاركوف (١٢) ـ تحالف انكليزي روسي (٢٦) ـ مقتل هايدريخ في براغ (٢٧) . حزيران : هجوم الماني على سيباستوبول (٤) ـ معركة مدواي (٤) ـ نهاية معركة بير حكيم (١١) ـ سقوط طبرق (٢١) . تموز : هجوم الماني على فورونيج (١٢) . آب : المؤتمر الهندي يطالب بالاستقلال التام (٨) ـ المانيا تضم لوكسمبورغ الى اراضيها (٣٠) . ايلول : بدء معركة ستالينغراد والقفقاس (٤) . تشرين الاول : هجوم مونتغومري في مصر (٢٣) . تشرين الثاني : اتفاق جيرو ـ مورفي (٢) ـ نزول الجيوش الحليفة في افريقيا الشمالية (٨) ـ لقاء هتلر ـ لافال في برشتسغادن (٩ ـ ١١) ـ نزول الجيوش الالمانية في تونس (١٤) ـ نشر مشروع بفردج (٢٠) ـ اتفاق كلارك ـ دارلان (٢٢) . كانون الاول : الروس يفكون الحصار عن لينينغراد ـ مقتل دارلان (٢٤) ـ ابطال الاسبوع الانكليزي ويوم ويوم الساعات الثماني في الولايات المتحدة (٢٥) . البير كامو : الغريب ، اسطورة سيزيف ـ فركور : صمت البحر ـ برخت : غاليليو غاليلي .

١٩٤٣

كانون الثاني : مؤتمر كازابلانكا (١٤ ـ ٢٧) ـ استيلاء الانكليز على طرابلس (٢٣) ـ تعبئة المدنيين رجالاً ونساء في المانيا (٢٨) . شباط : استسلام الالمان في ستالينغراد (٢) ـ جلاء اليابانيين عن غوادلكنال ـ تدمير الـ « شارنهورست » (١٤) ـ تحرير القفقاس (٢ ـ ٢٨) قانون العمل الالزامي في فرنسا (١٦) . اذار : الروس يستردون خاركوف ـ معركة خط ماريت (١٦ ـ ٢٩) ـ لقاء ديغول ـ جيرو في كازابلانكا (٢٤) . نيسان : ثورة يهود فرصوفيا (١٩) . ايار : تحرير بنزرت وتونس (٧) ـ نهاية معركة تونس (١٣) ـ انشاء المجلس الوطني للمقاومة في فرنسا (١٥) ـ ديغول في الجزائر (٣) ـ مؤتمر هوت سبرنغز . انشاء وكالة غوث اللاجئين (١٨ حتى ١ حزيران) . حزيران : انشاء اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنية (٣) ـ رامبريز يقوم بانقلاب في الارجنتين (٤) ـ حل الكومنترن (١٠) . تموز : هجوم الماني على كورسك (٥ ـ ١٦) ـ نزول الحلفاء في صقليا ، والاستيلاء على سيراكوزا (١٠) وانا (٢١) وبالرمو (٢٣) ـ تشكيل لجنة المانيا الحرة في موسكو (١٤) ـ الاكثرية ضد موسوليني في المجلس الفاشستي الاعلى (٢٤ ـ ٢٥) ، توقيفه (٢٥) ـ حل الحزب الفاشستي (٢٨) . آب : اليابانيون يعلنون استقلال بورما (١) ـ الاستيلاء على قطنيا (٥) ، ومسينا (١٧) ـ الروس في اوريل (٥) والاميركيون في كيسكا (١٥) ـ مؤتمر كيبك (١١ ـ ٢٤) ـ مفاوضات مع ايطاليا (١٥) . ايلول : نزول الحلفاء في ايطاليا (٤) ـ الاستيلاء على ستالينو وحوض الدونتز (٥) ـ نشر الهدنة الايطالية (٨) ـ نزول الحلفاء في سالرنو (٩) ـ تحرير كورسكا (١٠ حتى ٥ تشرين الاول) ـ احتلال الالمان لايطاليا الشمالية وروما (١٠) ـ فرار موسوليني (١٢) ـ انشاء الجمعية الاستشارية المؤقتة في الجزائر (١٧) ـ اقامة الجمهورية الاجتماعية الايطالية (٢٣) ـ استرداد بريانسك (١٤) وسمولنسك (٢٥) . تشرين الاول : الاستيلاء على نابولي (١) ـ مؤتمر موسكو (١٩ ـ ٣٠) ـ استرداد دنيبرو بتروفسك (٢٥) . تشرين الثاني : استرداد كييف (٦) ـ اعلان ايطاليا الحرب على المانيا (١٣) ـ مؤتمر القاهرة (٢٢ ـ ٢٦) ـ اعادة الحقوق الدستورية الى ايطاليا (٢٧) ـ نزول الاميركيين في تاراوا (٢٠) . كانون الاول : مؤتمر طهران (١ ـ ٢٤) ـ تشكيل حكومة تيتو (٤) ـ نزول الاميركيين في بريطانيا الجديدة (١٦) ـ فرنسا تنقل سلطاتها الى سوريا ولبنان (٢٢) ـ تيتو يقضي على السلطة الملكية (٢٣) ـ تأسيس «الاستقلال» (٢٣) .

ماهوص يستخدم البنسلين في معالجة السفلس ايلزا تريوليه : الحصان الابيض ـ ج . ب . سارتر : الذباب ، الوجود والعدم ـ هـ . هس : لعبة اللآليء الزجاجية .

١٩٤٤

كانون الثاني : اعدام شيانو ودي بونو (١٢) ـ افتتاح مؤتمر برازافيل الاستعماري (٣٠) ـ نزول الاميركيين في جزر مارشال (٣١) . شباط : بدء العمليات ضد قوات المقاومة في السافوا (١) ـ تحرير حوض الدون . اذار : الالمان يحتلون هنغاريا (١٩) ـ الاستيلاء على سرنوفتز (٢٧) ـ اضرابات في ايطاليا الشمالية (٢ ـ ٩) ـ حادث هضبة الـ « غليير » (٢٥) . نيسان : مجزرة اسك (١) ـ الاستيلاء على تارنوبول (١) ـ تحرير القرم ـ استقالة فكتور امانويل (١٢) ـ استقالة جيرو (٢١) ـ تمرد الاسطول اليوناني (٢٨ ـ ٣٠) . ايار : هجوم حليف في ايطاليا ـ اسبانيا تتعهد بالتقيد تقيداً تاماً بسياسة الحياد (٢) ـ ايسلندا تعلن استقلالها (١٨) ـ نزول الجيوش في غينيا الجديدة (٢٧) . حزيران : الاستيلاء على روما (٤) ـ نزول الحلفاء في نورمنديا (٦) ـ بونومي يحل محل بادوليو (١٠) ـ بدء استعمال الصواريخ ٦ (١٢) ـ نزول الجيوش في سايبان (١٤) ـ استيلاء الروس على فيبورغ

(٢٠) ـ تحرير شربورغ (٢٧) ـ الاستيلاء على ليتيسك (٣٠) . تموز : مؤتمر بريتون وودز (١ ـ ٢٢) ـ الاستيلاء على سينا (٣) ومنسك (٥) وكان (٩) وغرودنو (١٧) ولوبلين (٢٧) وبيالستوك وبرمست ليتوفسك ولفوف (٢٩) ـ محاولة اغتيال هتلر (٢٠) ـ احتلال غوام (٢١) ـ انهيار خط الدفاع الالماني في افرانش (٣٠) . آب : نزول الحلفاء في بروفنسا (١٥) ـ معركة فاليز (١٧) ـ الاستيلاء على فلورنسا (٢٢) ـ تحرير مرسيليا وغرنوبل (٢٣) وباريس (٢٥) ـ الروس يحتلون ضفة الفستول اليمنى ويدخلون بوخارست (٣١) . ايلول : تحرير بروكسل (٥) وانفرس وبريدا (٥) ـ هدنة روسية بلغارية ـ تحرير ليون (١١) ـ اتصال جيوش الحلفاء في غرنسا (١٣) ـ الاستيلاء على صوفيا (١٨) ـ انزال جيوش في لابت (٢٠) ـ معركة ارنهايم ، وقف الهجوم البريطاني (١٦ـ٢٨) . تشرين الاول : فنلندا تقاطع المانيا (٢) ـ تصويت النساء في فرنسا (٥) اختيار غوت النقدي في بلجيكا (٧) ـ الاستيلاء على سجد وكلوج (١٢) واثينا (١٣) وتسامو (١٧) وبلغراد (٢١) ـ طلب هنغاريا الهدنة (١٥) ـ استسلام اكس ـ لا ـ شابيل (٢١) ـ معركة الفيليبين (٢٢ـ٢٥) . تشرين الثاني : الاستيلاء على موناستير (٦) وتيرانا (١٨) وبلفور (٢٠) وميلوز (٢١) وستراسبورغ (٢٣) وسالونيك (٣٠) ـ اعادة انتخاب روزفلت (٧) ـ تدمير الـ « تربتيز » (١١) ـ سزالاسي يقوم بانقلاب (١٦) ـ تشكيل الحكومة الهنغارية المؤقتة دبركزن (٢٤) . كانون الاول : الاستيلاء على راقنا (٥) ـ ميثاق فرنسي سوفياتي (١٠) ـ نزول الاميركيين في مندورو (١٥) ـ هجوم الماني في اللوكسمبورغ (١٧ ـ ٢٨) ـ تطويق بودابست (٢٤) ـ لجنة لوبلين تعلن نفسها حكومة بولونية مؤقتة (٣١) . واكسمان يكتشف الستريتوميسين ـ اراغون : اورليانوس ـ ج. ب. سارتر : الابواب مغلقة ، سبل الحرية .

١٩٤٥

كانون الثاني : هجوم الماني في اللورين (١) ـ مؤتمر يالطا (٢ ـ ١٢) ـ نزول الاميركيين في لوسون (٩) ـ هجوم الشتاء الروسي (١٢) ـ الاستيلاء على كيلس (١٥) وفرصوفيا (١٧) وكراكوفيا ولودز (١٩) ـ انكفاء الالمان في الاردين (٢٠) هدنة هنغارية (٢٠) ـ اعادة فتح طريق بورما (٢٣) ـ الاستيلاء على برسلو (٣٠) . شباط : الاستيلاء على كولمار (٢) (٢) والبنغ (٦) وكليف (١٢) وبوزنان (٢٤) ـ نزول الاميركيين في كوريجيدور (١٦) ـ معركة ايوو ـ جيما (١٨ حتى ١٤ آذار) ، الاستيلاء على مانيلا (٢٤) ـ اتفاق فاروزيكا بين الحكومة اليونانية ومنظمة « ايلم » (١٢) . آذار : استسلام كوريجيدور (١) ـ فنلندا تعلن الحرب على المانيا (٣) ـ وثيقة شابولتبيك (٤) ـ الحلفاء على الرين (٤) ـ الاستيلاء على كولونيا (٧) وجسر رماجن (٩) ـ هجوم اليابانيين على الجيوش الفرنسية في الهند الصينية (٩) ، الروس في كسترين (١٢) ، الحلفاء في ماينس ، وسبير (٢٣) ، وفرنكفورت (٢٦) ـ تأسيس الجامعة العربية في القاهرة (٢٢) ـ الروس في دانتزيغ (٣٠) وفينر نوستادت (٣١) ـ تطويق الرور (٣١) ـ موت هتلر (٣٠) . نيسان : الاستيلاء على كاسل وكارلسروه (٤) وكونغزبرغ (١٠) ومغدبورغ (١١) وايانا (١٢) وفيينا (١٣) وكهل (١٥) وليبزيغ (١٩) وشتوتغارت (٢٢) واولم (٢٤) ـ الاتصال بين الاميركيين والروس (٢٥) ـ وفاة ف. د. روزفلت (١٢) ـ مؤتمر سان فرنسيسكو (٢٥ حتى ٢٦ حزيران) ـ توقيف موسوليني وموته (٢٨) . ايار : تيتو يحتل تريستا (١) ـ استسلام القوات الالمانية في ايطاليا (٢) ـ استيلاء الروس على برلين (٢) ـ استسلام القوات الالمانية استسلاما تاما (٨) ـ الاميركيون في رانغون (٣) والصينيون في نانتغ (٢٧) ـ خلاف فرنسي بريطاني في سوريا ولبنان اللتين ارغم الفرنسيون على الانسحاب منهما ـ انتخابات فرنسية ذات اتجاه يساري (٢٩ نيسان و ١٣ ايار) (١٣) . حزيران : مؤتمر سميلا (٢٥ حتى ١٤ تموز) . تموز : فوز عمالي في الانتخابات البريطانية (٧) ـ قصف اليابان من البحر للمرة الاولى (١٤) ـ ليوبولد الثالث يرفض التخلي عن العرش (١٦) ـ مؤتمر بوتسدام (١٧ حتى اول آب) ـ محاكمة بيتان (٢٣ حتى ٤ آب) ـ تأسيس دولة فيتنام (٢٦) ـ تشكيل وزارة اتلي (٢٧) . آب : تحرير بورما بأكملها (٢) ـ القاء قنبلة ذرية على هيروشيما (٦) ـ الاتحاد السوفياتي يعلن الحرب على اليابان (٨) ـ اليابان تعرض الاستسلام (١٢) ـ احتلال خربين وموكدن (١٩) ودارن وبورت ارثور (٢٢) وساكالين (٢٨) ـ نهاية العمل بقانون الاعارة والتأجير (٢١) . ايلول : استسلام اليابان (٢) ـ تأليف حكومة هو ـ شي ـ منه في فيتنام (١٥) . تشرين الاول : ثورة عسكرية في الارجنتين (٨) ـ توقيف الكولونيل بيرون وتخليصه (١٢ـ١٧) ـ فتح دعوى نورمبرغ (١٨) ـ انتخابات عامة في فرنسا (٢١) . تشرين الثاني : مؤتمر باريس حول التعويضات (٩ حتى ٢١ كانون الاول) ـ رفض الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكندا تسليم سر القنبلة الذرية (١٥) ـ اعلان الجمهورية اليوغوسلافية (٢٩) . كانون الاول : مؤتمر ستفالوره حول احداث الهند الصينية واندونيسيا (٥) .

بول ايلوار : الوعد الثاني ـ ج.ب. سارتر :

سن الرشد ــ ارنست ويشرت : اولاد جيرونيم ــ ا. كامو : سوء التفاهم ــ كارلو ليفي : المسيح توقف في ايبولي .

١٩٤٦

كانون الثاني : استقالة الجنرال ديغول (٢٠) . شباط : تمرد الاسطول الهندي (٢١) . اذار : نزول الجيوش الفرنسية في تونكين (٨) ــ اعتراف انكلترا باستقلال شرقي الاردن . نيسان : التصويت على دستور فرنسي اول (١٩) . ايار : استفتاء هداتي (٥) ــ استقالة فكتور امانويل الثاني وحلول همبرتو الثاني محله (٩) ــ انتخابات بسرية الاتجاه في تشيكوسلوفاكيا (٢٦) . حزيران : انتخابات جديدة في فرنسا (٢) ــ انتخاب بيرون رئيسا للجمهورية الارجنتينية (٤) ــ اعلان الجمهورية الايطالية (١٨) ــ وزارة ج. بيدو في فرنسا (٢٣) . تموز : اول تجربة ذرية في بيكيني (١) ــ اعلان استقلال الفيليبين (٣) ــ مؤتمر الصلح في باريس (٢٩ حتى ١٥ تشرين الاول) . آب : فشل المفاوضات الفرنسية الفيتنامية في فونتينبلو (١) ــ الاتحاد السوفياتي يطالب باعادة النظر في اتفاقات مونترو حول المضائق (١٢) . ايلول : اتفاق تعايش فرنسي فيتنامي (١٤) ــ بدء الحرب الاهلية في اليونان . تشرين الاول : صدور حكم محكمة نورمبرغ (١) . تشرين الثاني : انتخابات ذات اتجاه جمهوري في الولايات المتحدة (٥) ــ اتفاق هولندي اندونيسي (١٥) . كانون الاول : وزارة اشتراكية متجانسة في فرنسا برئاسة ليون بلوم (١٦) ــ ثورة عامة في تونكين (٢٠) .

جاك بريفر : كلمات ــ ا . مونييه : ما هو مذهب الشخصية ؟ ج ــ ب . سارتر : موتي دون دفن ، البغية الوجيهة الاحترام ، هل الوجودية مذهب انساني ؟

١٩٤٧

كانون الثاني : انشقاق الحزب الاشتراكي الايطالي (١٠) ــ وزارة راماديه في فرنسا (٢٢) . شباط : معاهدات الصلح في باريس مع ايطاليا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا وفنلندا (١٠) . اذار : القانون العرفي في فلسطين (١) بداية الثورة في مدغشقر (٣٠) ــ معاهدة تحالف فرنسي بريطاني في دنكرك (٤) ــ الشيوعيون لا يدخلون الحكومة البلجيكية (١٢) . نيسان : انشاء التجمع الشعبي الفرنسي (١٤) ــ منع الحزب الشيوعي في ولاية نيويورك (٧) . ايار : تأميم الصناعات الثقيلة في بريطانيا العظمى (١) ــ الشيوعيون يقصون عن الحكومة الفرنسية (٥) ــ منع الحزب الشيوعي في البرازيل (٧) ــ الكونغرس يقر قانون مساعدة اليونان وتركيا (١٥) حزيران : اقتراح مشروع مارشال (٥) ــ قانون تافت ــ هارتلي حول الاضرابات (٢٣) . تموز : رفض الاتحاد السوفياتي (٢) وتشيكوسلوفاكيا (١٠) الاشتراك في مشروع مارشال ــ هجوم الهولنديين الذين يستولون على باتافيا (٢٠) ــ حل حزب الفلاحين وتوقيف مانيو في رومانيا (٢٥ ــ ٢٩) . آب : نهاية العمليات العسكرية في جاوا (٤) ــ برنامج تقشفي في بريطانيا العظمى (٦) ــ استقلال الهند وباكستان (١٥) ــ منع حزب المزارعين في بلغاريا (٢٥) ــ التصويت على نظام الجزائر الاساسي (٢٧) ايلول : ميثاق الدفاع بين الدول الاميركية في ريو (٢) . تشرين الاول : انتخابات في السار تعرب عن الرغبة في الارتباط بفرنسا اقتصاديا (٥) ــ تأسيس الكومنفورم (٥) ــ هجوم فرنسي في تونكين (٩) . تشرين الثاني : نزاع مسلح في كشمير بين الهند وباكستان ــ الشيوعيون يقصون عن الحكومة النمساوية (١٩) ــ مقاومة مشروع التقسيم ، الذي وافقت عليه منظمة الامم ، في فلسطين (٣٠) . كانون الاول : بريطانيا العظمى تعترف باستقلال بورما (١٠) ــ نهاية التقنين في الاتحاد السوفياتي (١٤) ــ انشقاق اتحاد العمل العام والجبهة العمالية في فرنسا (١٩) ــ منع الحزب الشيوعي في اليونان (٢٧) ــ تخلي ميشال ملك رومانيا عن العرش (٣٠) .

فيليب هيريا : عائلة « بوسارديل » ــ ا . كامو : الطاعون ــ كارلو كوشيولي : الامل المرير ــ فاسكو براتوليني : يوميات العشاق المساكين ــ ناتالي ساروت : وصف مجهول ــ ب.ا. سوروكين : المجتمع والثقافة والشخصية .

١٩٤٨

كانون الثاني : تأميم السكك الحديدية البريطانية (١) ــ هدنة هولندية اندونيسية ــ تحالف نيني والحزب الشيوعي الايطالي (٢٣) ــ تخفيض سعر الفرنك الفرنسي (٢٤) ــ مقتل غاندي (٣٠) . شباط : سيلان تمنح تام الممتلكات (٤) ــ استقالة الوزراء التشيكوسلوفاكيين غير الشيوعيين (٢٠) ــ تشكيل وزارة شيوعية (٢٥) . اذار : هجوم شيوعي على نانكين (٢١) ــ بدء حصار السوفيات لبرلين (٢١) . نيسان : تأميم الكهرباء في بريطانيا العظمى

(١) ـ اكثرية مطلقة للحزب الديمقراطي المسيحي الايطالي (١٨) ـ ايار : دخول الجيوش العربية والمصرية الى اسرائيل (١٤) ـ نهاية الانتداب البريطاني في فلسطين (١٥) . حزيران : وزارة مالان في افريقيا الجنوبية (٣) ـ اتفاقات جون الونغ (٥) ـ اصلاح نقدي في المانيا الغربية (٢٠) ـ خلاف بين تيتو والكومنفورم (٢٨) . تموز : انفصال يوغوسلافيا عن الكومنفورم (٤) ـ انشقاق اتحاد العمل العام الايطالي (٢٦) . اب : هزيمة العصابات اليونانية في جبل غراموس (٢٠) ـ مؤتمر مسكوني بروتستنتي في امستردام (٢٢) . ايلول : تخلي الملكة ولهلمينا عن العرش (٤) ـ فتنة في برلين الشرقية (٩) ـ استيلاء الشيوعيين الصينيين على تسي ـ نان (٢٦) . تشرين الاول : سقوط موكدن في ايدي الشيوعيين (٣١) . تشرين الثاني : اعادة انتخاب ترومان رئيسا للولايات المتحدة الاميركية (٢) . كانون الاول : سقوط سو ـ تشيو في ايدي الشيوعيين (٢) ـ « عملية بوليسية » هولندية ثانية ضد جاكرتا ، القبض على اعضاء الحكومة الاندونيسية (١٩) ـ توقيف الكردينال منذزنتي في هنغاريا (٢٧) ـ وقف العمليات العسكرية في جاوا (٢٩) .

اراغون : الكرب الشديد الجديد ـ ج. ـ ب. سارتر : الايدي القذرة ـ ا. كامو : الحكم العرفي ـ فاسكوبر توليني : بطل معاصر .

١٩٤٩

كانون الثاني : استقالة تشانغ كاي شك (٢١) ـ ـ الشيوعيون في بكين (٢٢) . شباط : توحيد جمركي بين قطاعات الاحتلال في المانيا الغربية (١٦) ـ اتفاق رودس على وقف اطلاق النار بين اسرائيل ومصر (٢٤) . نيسان : توقيع معاهدة الاطلسي الشمالي في واشنطن (٤) ـ دخول الشيوعيين الى نانكين (٢٣) . ايار : دستور المانيا الغربية (٨) ـ نهاية حصار برلين (١٢) ـ سقوط هانكيو (١٦) وشنغاي (٢٥) في ايدي الشيوعيين . حزيران : الغاء المحاكم المختلطة في مصر (٢٥) ـ الهولنديون يجلون عن جاكرتا (٢٩) . تموز : حرم الشيوعيين والشيوعي اليول (١٣) ـ مشروع تقشفي جديد للسر ستافورد كريبس (١٤) . آب : مجلس اوروبا يعقد جلسته الاولى (٨) . ايلول : اديناور مستشار (١٥) ـ تخفيض سعر الليرة (١٨) ـ تخفيض سعر الفرنك الفرنسي مرة اخرى (١٩) ـ انفجار ذري في الاتحاد السوفياتي (٢٣) ـ اعلان الجمهورية الشعبية في الصين (٢١) . تشرين الاول : سقوط كانتون في ايدي الشيوعيين (١٢) . تشرين الثاني : تاميم الصناعة الفولاذية الانكليزية (٢٤) . كانون الاول : استقرار الوطنيين الصينيين في فورموزا (٨) ـ منظمة الامم المتحدة تقر تدويل القدس (٩) .

تحقيق الترانزستور على يد وليم شوكلي ـ اراغون : الشيوعيون ـ سيمون دي بوفوار : الجنس الثاني ـ ج باشلار : مذهب العقليين التطبيقي .

١٩٥٠

كانون الثاني : هيجان المزارعين في سهل البو (٤) ـ اعتراف بريطانيا العظمى بالحكومة الشيوعية الصينية (٦) ـ الرئيس ترومان يصدر امرا بصنع القنبلة الهيدروجينية (٣١) . اذار : استفتاء حول المسألة الملكية في بلجيكا (١٢) ـ اضطرابات قروية في البوي (٢٣) . نيسان : الاردن تضم فلسطين العربية اليها (٢٤) . ايار : ر. شومان يقترح قيام وحدة اوروبية للفحم الحجري والفولاذ (٩) ـ فوز المعارضة في الانتخابات التركية (١٤) . حزيران : فوز المسيحيين الاشتراكيين البلجيكيين في الانتخابات (٤) ـ رفض بريطانيا العظمى الانضمام الى وحدة الفحم الحجري والفولاذ (٣) ـ اتفاق الجمهورية الديمقراطية الالمانية وبولونيا على حدود الاودر ـ نيس (٧) ـ مجلس الامن يقر عقوبات ضد كوريا الشمالية ، تدخل الولايات المتحدة (٢٧) . تموز : الكوريون الشماليون يبلغون اقصى جنوبي كوريا وانفرس (٢٩) ـ وعد ليوبولد الثالث بالتخلي عن اضراب عام في لياج وشارلروا (٢٦) وبروكسل (٢٨) وانفرس (٢٩) ـ وعد ليوبولد الثالث بالتخلي عن العرش بعد بلوغ ابنه سن الرشد (٣١) . اب : انشاء الوحدة الاوروبية للمدفوعات (١٩) . ايلول : نزول الاميركيين في انشون (١٥) والاستيلاء على سيول (٢٦) ـ اقرار القانون حول النشاطات المعادية للاميركيين (٢٣) . تشرين الاول : انتخاب ج. فارغاس رئيسا للبرازيل (٣) ـ منظمة الامم المتحدة تسمح باجتياز خط العرض الـ ٢٨ (٧) ـ ابادة الجيوش الفرنسية التي جلت عن كاوبانغ (١٠) ـ الجلاء عن لنغ ـ سون (١٨) ـ الاستيلاء على بيونغ ـ يانغ (١٨) ـ بلوغ اليالو (٢٦) تشرين الثاني : الجلاء عن لاو ـ كاي (٢) وهوا ـ بنه (٤) ـ تدخل صيني في كوريا (٢) . كانون الاول : جلاء الاميركيين عن بيونغ ـ يانغ (٤) ـ الجنرال دي لاتر مفوض سام في الهند الصينية (٦) ـ الصينيون يجتازون خط العرض الـ ٢٨ (٢٤) .

١٩٥١

كانون الثاني : بدء الهجوم الاميركي المعاكس في كوريا (١٥) ـ منظمة الامم المتحدة تدين الصين كمعتدية (٣٠) . شباط : انخفاض جديد في الاسعار في الاتحاد السوفياتي (٢٨) . اذار : الكوريون الجنوبيون يستردون سيول (١٤) تأميم البترول في ايران (١٥) . نيسان : ماك آرثر يعفى من قيادته (١١) ـ وزارة مصدق في ايران (٢٧) . ايار : هجوم اميركي ظافر شمالي خط العرض الـ ٣٨ (٢٧ حتى ١٤ حزيران) . حزيران : انتخابات عامة في فرنسا : تراجع الشيوعيين والحركة الجمهورية الشعبية (١٧) ـ ايران تضع يدها على منشآت عبادان (٢٠) . تموز : بدء مفاوضات الهدنة في كيسونغ (٨) ـ مقتل عبد الله ملك الاردن (٢٠) . ايلول : ميثاق الـ « انزوس » يوقع عليه في سان فرنسيسكو (١) ـ معاهدة الصلح في سان فرنسيسكو مع اليابان ، تحالف ياباني اميركي (٨) ـ دعوة الى اليونان وتركيا للانضمام الى الحلف الاطلسي (٢٠) ـ قانون بلرنجيه بتقديم المساعدات المالية للتعليم الخاص (٢١) . تشرين الاول : مصر تعلن ابطال المعاهدة الانكليزية المصرية الموقع عليها في ١٩٣٦ ، فاروق ملك السودان (٨) ـ تجدد المفاوضات في بانمونجوم (١٠) ـ نجاح المحافظين في الانتخابات العامة البريطانية (٢٥) ـ وزارة تشرشل (٢٧) . تشرين الثاني : فتنة في كازابلانكا (١) ـ فوز بيرون في الانتخابات الارجنتينية (١١) ـ الشيشكلي يقوم بانقلاب في سوريا (٢٨) ـ فتنة مناوئة للانكليز في منطقة القناة . كانون الاول : استقلال ليبيا (٢٤) .

ج. ـ ب. سارتر : الشيطان والله ـ ا. كامو : الانسان المتمرد .

١٩٥٢

كانون الثاني : قمع بريطاني صارم في منطقة القناة (٤ ـ ١٦) ـ فتنة دامية في بنزرت (١٧) ـ اضراب عام في تونس (١٨) ـ اعمال شغب في سوسا وقيروان (٢٢ ـ ٢٤) ـ اضطرابات دامية في القاهرة (٢٦) . شباط : وفاة جورج السادس ، اليزابث الثانية (٦) ـ الجلاء عن هوا ـ بنه (٢٤) . اذار : وزارة بيناي (١١) ـ توقيف الوزراء التونسيين وزعماء الدستور الجديد والشيوعيين ، وزارة بكوش (٢٨) . ايار : اتفاق بون بين الحلفاء والمانيا الغربية (٢٦) ـ حزيران : قانون ماك كاران (٢٧) . تموز الجنرال نجيب يستولي على السلطة في مصر (٢٣) ـ تخلي الملك فاروق عن العرش (٢٦) ـ مصدق يحد من سلطات الشاه (٣١) . ايلول : ازمة سياسية في لبنان (١٨) . تشرين الاول : فوز الاحرار في الانتخابات اليابانية (١) ـ تفجير اول قنبلة ذرية بريطانية (٣) ـ حالة تأهب ضد الماوماو في كينيا (٢٠) ـ قطع العلاقات الدبلوماسية بين ايران وبريطانيا العظمى (٢٢) . تشرين الثاني : انتخاب ايزنهور رئيسا (٤) ـ فوز المارشال باباغوس في الانتخابات اليونانية (١٦) ـ الجلاء عن سون لا (٢٢) . كانون الاول : فتنة في كازابلانكا (٨) .

روبير موسيل : الانسان العادم الصفات ـ لويس دي برويل : هل سيبقى علم الطبيعة الكمي غير حتمي ؟

١٩٥٣

كانون الثاني : حل الاحزاب السياسية في مصر (١٦) ـ هجوم الفيتمنة في انام (١٩) . شباط : معاهدة صداقة بين اليونان وتركيا ويوغوسلافيا (٢٨) ـ نزاع بين الشاه ومصدق (٢٨) . اذار : وفاة ستالين (٥) ـ ابطال تأميم الصناعات التعدينية في انكلترا (١٧) ـ انخفاض جديد في الاسعار في الاتحاد السوفياتي (٣١) . نيسان : هجوم الفيتمنه في لاوس (١٣) . ايار : عريضة القادة ضد السلطان في مراكش (٢١) ـ تفجير اول قذيفة ذرية اميركية (٢٥) . حزيران : وزارة لانيل (٢٦) ـ تراجع الديمقراطيين المسيحيين الايطاليين في الانتخابات (٧) ـ اعلان الجمهورية في مصر (١٨) ـ اعدام روزنبرغ (١٩) . تموز : وقف اطلاق النار في كوريا (٢٧) ـ ناجي يحل محل راكوزي في هنغاريا (٤) ـ عزل بيريا في الاتحاد السوفياتي (٩) ـ اضطرابات في برلين (١٦ ـ ١٩) . اب : مالنكوف يعلن ان الاتحاد السوفياتي يمتلك القنبلة الهيدروجينية (٥) ـ الجلاء عن تاساي (١١) ـ ثورة الغلاوي على السلطان (١٥) ـ الشاه يلجأ الى بغداد (١٦) ـ اضطرابات في المدن الراكشية (١٦) ـ اسقاط سلطان مراكش (٢٠) . ايلول : مساعدة مالية اميركية لايران (٣) ـ فوز المسيحيين الديمقراطيين في الانتخابات في المانيا الغربية (٦) ـ رفض منظمة الامم المتحدة عضوية الصين الشيوعية (١٥) . تشرين الثاني : وفاة ابن سعود ملك المملكة العربية (٩) . كانون الاول : مؤتمر برمودا (٤ ـ ٨) ـ استئناف العلاقات الانكليزية الايرانية (٥) ـ جلاء الفرنسيين عن لاي شو (١١) ـ اعدام بيريا .

اليزا تريوليه : الحصان الاشقر ـ صموئيل

بكت : غير قابل التسمية ـ الين روبغرييه : الصموغ ـ ج باشلار : المادية العقلية .

١٩٥٤

كانون الثاني : رفض اعيان المغرب الاسباني الاعتراف بالسلطان بن عرفه (٢١) ـ مؤتمر الاربعة في برلين (٢١ حتى ١٨ شباط) . شباط : معركة ديان بيان فو (٣ حتى ٧ ايار) ـ نهاية دكتاتورية الشيشكلي العسكرية في سورية (٢٥) ـ نيسان : وزارة اشتراكيين واحرار برئاسة فان آكر في بلجيكا (٢٢) في اعقاب انتخابات خسر فيهما المسيحيون الاشتراكيون ـ ناصر رئيس مجلس الوزراء في مصر (١٨) ـ مؤتمر كولومبو (٢٨ حتى ٢ ايار) . ايار : مؤتمر جنيف حول الهند الصينية (٨ حتى ٢١ تموز) . حزيران : حرب اهلية في غواتمالا ، فوز الثوار على الرئيس اربنز (١٨ حتى ٢ تمز) ـ حكومة منديس فرانس (١٩) . تموز : اتفاقات جنيف (٢٠) ـ اتفاق انكليزي مصري حول قناة السويس (٢٧) ـ العمل باتفاق وقف اطلاق النار في تونكين (٢٧) ـ الاعتراف بمبدأ الاستقلال التونسي الذاتي الداخلي (٣١) . آب : الغاء الاتحاد الهولندي الاندونيسي (١٠)مؤتمر بروكسل (١٩ ـ ٢٢) ـ استقالة فارغاس وانتحاره (٢٤) . ايلول : بدء المفاوضات الفرنسية التونسية (٤) ـ مؤتمر مانيلا حول جنوب شرقي آسيا (٦ ـ ٨) تشرين الاول . اتفاق لندن بين ايطاليا ويوغوسلافيا حول تريستا (٥) ـ الجلاء عن هانوي (٩) ـ اتفاق فرنسي الماني في باريس حول السار ، ايطاليا والمانيا تنضمان الى ميثاق بروكسل (٢٣) . تشرين الثاني : بدء ثورة الاوريس (١) ـ عزل نجيب في مصر (١٤) بدء حملة بيرون على الاكليروس (٢٥) . كانون الاول : ميثاق الامن بين الولايات المتحدة وفورموزا (٢) ـ استقلال دول الهند الصينية استقلالا تاما (٢٩) ـ فرنسا تبرم اتفاقات باريس (٣٠) . س . بت : بانتظار « غودو » .

١٩٥٥

شباط : سقوط وزارة منديس فرانس (٦) وحلول ادغار فور محله (٢٤) ـ مالنكوف يستبدل بالمارشال بولغانين في رئاسة الوزراء في الاتحاد السوفياتي ـ معاهدة تحالف بين تركيا وايران تعقد في بغداد (٢٥) ـ نيسان : تشرشل يقدم استقالته من رئاسة الوزارة (٥) ـ مؤتمر الدول الافرو آسيوية في باندونغ (١٨ ـ ٢٤) ـ ايار : انضمام انكلترا الى ميثاق بغداد (٢) ـ اعادة السيادة الى المانيا (٥) ـ المانيا الاتحادية تنضم الى الحلف الاطلسي (٩) . ـ انتخابات عامة في انكلترا جاءت مؤيدة لحزب المحافظين (٢٦) ـ رحلة بولغانين وخروتشيف الى بلغراد (٢٦ ـ ٢ حزيران) ـ انكلترا تتخلى من مواقعها على قناة السويس (١٨) . ـ انضمام الباكستان الى ميثاق بغداد (١) . ـ اعادة السيادة الى النمسا (٢٧) . اب : قطع العلاقات الدبلوماسية بين الهند والبرتغال حول غوا (٢٠). ايلول : سقوط الرئيس بيرون في الارجنتين (١٩) واستبداله بحكومة يرئسها الجنرال ليوناردي (٢١) ـ ارجاع الاتحاد السوفياتي مدينة بورخالا لفنلندا (٢٠) تشرين الاول : اعلان استقلال جمهورية فيتنام الجنوبية (٢٦) ـ اضطرابات عنيفة في قبرص (٢٨) . تشرين الثاني : اعادة محمد الخامس الى عرشه في المغرب (٥) ـ اعلان استقلال المغرب (٦) ـ حل الجمعية الوطنية الفرنسية (٣٠) . كانون الاول : رحلة بولغانين وخروتشيف الى بورما (١ ـ ٧) انصهار نقابة العمال الاميركيين ومنظمة العمل في اتحاد واحد (٢) ـ تشكيل الجبهة الجمهورية في فرنسا استعدادا للانتخابات النيابية (٦) ـ اعلان استقلال جمهورية السودان (١٩) .

ف. براتوليني : ميتللو ـ : افلام بلودن : موت راكب الدراجة ، وفيلم س . راي : الاب بنشالي .

١٩٥٦

كانون الثاني : استقلال السودان (١) ـ تدشين خط بكين موسكو (٤) ـ تاليف غي موليه للوزارة في فرنسا (٢٩) . شباط : مظاهرات في مدينة الجزائر ضد زيارة رئيس مجلس الوزراء . واستقالة المقيم العام الجنرال كاترو (٦) ـ تأسيس المنظمة الاوروبية للطاقة الذرية (أوراتوم) من قبل الدول الست (١١) ـ افتتاح المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (١٤) وخطاب خروتشوف وميكويان ضد عبادة الشخصية . اذار غلوب باشا قائد الجيش العربي يطرد من الاردن (١) ـ اقرار القانون ـ الجلاء للاقطار الواقعة عبر البحار (٢٣) ـ اعادة الاعتبار الى لازلو راجيك في هنغاريا (٢٦) . نيسان : بورقيبة يؤلف اول وزارة في تونس (١٤) ـ حل منظمة الكومنفورم (١٧) ـ زيارة بولغانين وخروتشيف لبريطانيا العظمى (١٨ ـ ٢٧) . ايار : معاهدة بين فرنسا والهند تتخلى فرنسا عن مستعمراتها في الهند

لاتحاد الهند (٢٨) . حزيران : المارشال تيتو يقوم برحلة الى الاتحاد السوفياتي (٢ ـ ٢٠) ـ اضراب عام واضطرابات دامية في بوزنان (٢٨) . تموز : لقاء ناصر نهرو-تيتو في بريوني لوضع اسس الحياد الايجابي (١٧ ـ ٢٩) ـ الولايات المتحدة الاميركية تسحب عرضها بتمويل السد العالي (٢٦) . اب : اعادة الاعتبار الى غومولكا (٤) واعادة عضويته في اللجنة المركزية للحزب العمالي البولوني الموحد (١٩) . تشرين الاول : احلال « ميثاق تشاور » محل ميثاق وحدة العمل المعقود عام ١٩٤٦ بين الحزب الشيوعي الايطالي والحزب الاشتراكي الايطالي (٤) ـ معاهدة سلم تعقد بين اليابان والاتحاد السوفياتي (١٩) ـ ايمري ناجي برأس حكومة هنغاريا (٢٤) ـ الثورة في هنغاريا (٢٥ ـ ٢٨) ـ اسرائيل تهاجم مصر (٢٩) ـ فرنسا وانكلترا تنذران مصر لوقف القتال مع اسرائيل (٣٠) . تشرين الثاني : تاليف حكومة اتحاد وطني في هنغاريا (٣) ـ تدخل القوات السوفياتية (٤) ـ هبوط المظليين الفرنسيين والانكليز في مصر وانزال جيوش في بورسعيد ـ اعادة انتخاب الرئيس ايزنهاور (٦) ـ انطوني ايدن يتخلى عن وزارة الشؤون الخارجية لبطلر (٢٠) كانون الثاني : فرنسا وانكلترا تسحبان قواتهما من مصر (٢٤) ـ مبدأ ايزنهاور (٣١) .

اقلام اوتان ـ لارا : اجتياز باريس ، وكوستو ومال عالم الصمت ، لاموريس المنطاد الاحمر ،

١٩٥٧

كانون الثاني : هارولد مكميلان يؤلف الوزارة البريطانية (١٠) ـ مصر تؤمم المصارف وشركات التأمين والشركات التجارية الكبرى (١٥) ـ انتخابات عامة في بولونيا موالية للرئيس غومولكا (٢٠) ـ مارس ـ الشاطىء الذهبي ينال استقلاله باسم « غانا » (٥) ـ فوز الشيوعيين في ولاية كيرا في الهند (١٤) ـ انضمام الولايات المتحدة الاميركية لعضوية اللجنة العسكرية في حلف بغداد (٢٣) ـ فوز الحزب ر.د.ا. في الانتخابات العامة في افريقيا الفرنسية وفي مقاطعة افريقيا الشرقية الفرنسية وفوز الوطنيين في مدغشكر (٣١) . نيسان : اعادة فتح ترعة السويس للملاحة الدولية (٨) ـ البابا بيوس الثاني عشر يعلن معارضته للتعذيب (١٢) ـ انقلاب في الاردن موال للغرب ، والملك حسين يفرض دكتاتوريته (٢٢ـ٢٨) . ايار : سقوط حكومة غي موليه (٢١) . حزيران : اخراج مولوتوف ، ومالنكوف وكراغانوفتش وشبيليف من عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (٢٢ـ٢٩) . تموز : اميركا تقدم للاردن مساعدات اقتصادية وعسكرية (١) ـ اعلان استقلال تونس وانتخابات بو رقيبة رئيسا للبلاد (٢٥) . آب : تخفيض قيمة الفرنك ٢٠٪ (١٢) ـ اعلان استقلال ماليزيا (٢٦) . ايلول : اضطرابات عنصرية ضد الزنوج في ليتل روك (اركنصو) (٤) ـ المارشال تيتو يعترف بحدود الاودير ـ النايس (١١) ـ فوز الحزب الديمقراطي المسيحي باكثرية المقاعد في الانتخابات العامة في المانيا الغربية (١٦) . تشرين الاول : اطلاق القمر السوفياتي سبوتنيك (٤) ـ تشرين الثاني : اطلاق القمر سبوتنيك الثاني ـ الاشتراكيون الديمقراطيون يفوزون بالاكثرية المطلقة في مجلس همبورج (١٠) ـ محمد الخامس وبورقيبة يعرضان خدماتهما لحل قضية الجزائر (٢٢) ـ اقرار القانون ـ الاطار للجزائر في الجمعية الوطنية (٢٩) ـ فوز حزب العمال في انتخابات نيوزيلاندا (٣٠) . كانون الاول : مشروع راباتشي يرمي لانشاء منطقة عزلاء من الطاقة الذرية في اوروبا الوسطى (٩) ـ مؤتمر القاهرة الرسمي للتضامن الافرو اسيوي (٢٦ ـ ١ ك٢) .

فيلم رينه كلير : باب الليلكي ، وفيلم فجدا : كنال . وفيلم انجمار برغمان : الفراولة البرية ، وفيلم كالاتوزوف : عندما تمر اللقالق .

١٩٥٨

كانون الثاني : انشاء حلف الهند الغربية (٣) ـ السير ادموند هيلاري يبلغ القطب الجنوبي (٣) ـ حادث ساقية سيدي يوسف : دخول دورية فرنسية الاراضي التونسية فتفقد ١٤ قتيلا و٤ مفقودين (١١) ـ عريضة مرفوعة الى الامم المتحدة ضد التجارب الذرية يوقعها ٩٢٣٥ عالما (١٣) ـ ثورة في فنزويلا تخلع بيريس خيمنس (١٤) . شباط : اعلان الوحدة بين سوريا ومصر تنضم اليهما اليمن في ٨ (١) ـ الطيران الفرنسي يقصف من الجو ساقية سيدي يوسف (٨) ـ تشكل الحلف العربي من العراق والاردن (١٤) . اذار : اطلاق الصاروخ الاميركي فنغارد الاول (١٧) ـ ثورة فيدل كاسترو في كوبا ضد دكتاتورية الرئيس باتستا (١٧) ـ الملك ابن السعود يتنازل عن الملك لاخيه الامير فيصل الوالي لمصر (٢٣) ـ توقف الاتحاد السوفياتي عن تجاربه الذرية وانتاج الاسلحة الذرية المدمرة (٣١) . نيسان : قبول الحكومة الفرنسية بنتائج مهمة موربي ـ بيلي وخدماتها (١٢) ـ مؤتمر اكرا لدول افريقيا (١٥ ـ ٢٢) ـ مؤتمر المغرب في طنجة (٢٧ ـ ٣٠) . ايار : بدء الاضطرابات الدامية في

لبنان (١٠) ــ ثورة قواد الجيش والمعمرين في مدينة الجزائر ضد حكومة فلملن (١٣) ــ الروس يطلقــون ثالث قمر اصطناعي وزنه ١٣٢٧ كيلو غراما في مدار الارض (١٥) ــ وزارة فلملن تقدم استقالتها (٢٨) ــ تأليف لجنة السلامة العامة في الجزائر للحفاظ على الجزائر والصحراء (٢٣) . حزيران : الجنرال ديغول يتولى الحكم في فرنسا (١) ــ اقرار المجلس الوطني للسلطات المطلقة وللقانون الدستوري (٢) ــ الغــاء الاتحاد السوفياتي لقرض تسليم الكولخوزات للدولة (١٧ــ١٨) ــ الاسكا تصبح الولاية التاسعة والاربعين في الولايات المتحدة الاميركية (٣٠) . تموز : نشوب الثورة في العراق واعلان الجمهورية (١٤) . آب : الغواصة الذرية الاميركية تقوم برحلة تحت الجليد عبر المتجمد الشمالي من المحيط الهادي الى المحيط الاطلسي (٧) ــ بدء الهجوم الكبير الذي قام به فيدل كاسترو في كوبا (١٢) . ايلول : تشكيل الحــزب الاشتراكي المستقل في باريس (١٥) ــ تشكيل حكومة الجزائر الحرة في القاهرة (١٩) ــ استفتاء في فرنسا حول تعديل الدستور (نعم ٧٩٫٢٥٪ لا ٢٠٫٧٥٪) ــ الغينة تقترع « لا » (٢٨) . تشرين الاول : اعلان جمهورية ملغاش (١٤) ــ الكويت تنضم الى عضوية الجامعة العربية (٢٩) . تشرين الثاني : الانتخابات النيابية في فرنسا (٢٣ ــ ٣٠) ــ اعلان جمهوريات : السودان والكونغو والسنغال والتشاد والغابــون وموريتانيا اعضاء في الوحدة الفرنسية (٢٤ــ٢٦) ــ انقلاب عسكري يقوم به اللواء عبود في الســودان (١٧) . كانون الاول : اعلان استقلال جمهورية افريقيا الوسطى (اوبنغي ــ تشاري) ، وجمهوريات الشاطىء الذهبي والداهومي وفولطا العليا اعضــاء في الوحدة الفرنسية (١ ، ٤ و ١١) .

سيمون دي بوفوار تنشر كتابها : مذكرات فتاة منتظمة ــ وتوماسي دي لمبدوسا : الفهد ، ومرغريت دوراس : موديراتو كنتابيله ، ولورانس دوريل : بلطازار ، وبسترناك : الدكتور زيفاكو ــ افلام بوتدارتشوك : عندما تمر اللقالق ، وميشــال كرتيه : الغشاشون ، ولويس مال : العشاق .

١٩٥٩

كانون الثاني : انتصار الثورة التي اعلنها فيدل كاسترو في كوبا ــ اطلاق اول صاروخ روسي باتجاه القمر ــ اضطرابات دامية في ليوبولدفيــل (٣) ــ تسلم الجنرال ديغول سلطاته الدستورية رئيســا للجمهورية وتسلم ميشال دوبريه رئاسة الوزارة (٨) ــ تأليف الداهومي وفولطا العليا (التي انسحبت فيما بعد في اذار) والسنغال والسودان لاتحاد مالي (١٧) ــ الاتحاد الجمركي بين الدول الاربع التي الفت من قبل افريقيا الاستوائية الفرنسية ــ الاتفــاق الانكليزي التركي اليوناني حول استقلال قبرص (١٩) ــ اضطرابات وقلاقل في روديسيا الجنوبية (٢٦) . اذار : جزر هاواي تؤلف الولاية الاميركية الخمسين (١٢) ــ تدخل الصين في التيبت ولجوء الدالاي لاما الى الهند (١٩ ــ ٢٣) . ايار : اجتماع لجنة دول الاتفاق المؤلفة من الشاطىء الذهبي والنيجر وفولطا العليا والداهومي (٦ ــ ٧) . حزيران : نجاح العناصر اليسارية للديمقراطية المسيحية في صقليــا (٧) ــ جمهورية الارجنتين تدشن سياسة تقشــف اقتصادي (٢٤) . تموز : اطلاق صاروخ سوفياتي جديد يحمل كلبين وارنب واعادته (٢) ــ تشكيــل جمعية اوروبية للتبادل التجاري الحــر (٧ دول ستوكهولم) تتألف من بريطانيا العظمى وسويسرا والنمسا والدنمارك والسويد والنرويج والبرتغــال (٢١) . آب : مؤتمر تسع دول افريقية مستقلة في مونروفيا)٢ــ٨(. ايلول : صاروخ سوفياتي يهبط على سطح القمــر (١٣) ــ رحلة خروتشيف الى الولايات المتحدة (١٥ــ٢٨) ــ اعتراف الجنرال ديغول بحق الجزائريين بتقرير مصيرهــم (١٦) . تشريــن الاو ل: اطلاق لونيك الثالث في ٣ منه الذي يدور حول القمر ويأخذ صورا للجانب المظلم منــه (٧) ــ انتصار حزب المحافظين في الانتخابات النيابية البريطانية (٨) ــ اطلاق الصاروخ الاميركي اكسبلورد ٧ (١٣) ــ الحكومة البلجيكية تعد باقامــة حكومة مستقلة في الكونغو عام ١٩٦٠ (١٦) ــ حادث الحدود بين الهند والصين في لاداخ (٢١) . تشرين الثاني : المؤتمر الاشتراكي الالماني يعدل عن الاصلاحــات الدستورية وفصل الكنيسة عن الدولة (١٣) . كانون الاول : اقرار المجلس الوطني للقانون الــذي ينص على مساعدة المدارس الخاصة في فرنسا (٣٠) .

جان ب. سارتر ينشر كتابه : محجوزو التونا ــ وألين روب غرييه : التيه ــ ول. دوريل : جبــل الزيتون ــ وتتالي ساالنت : البلانيتاريوم ــ و اوه جونسون : الحدود ــ ومارسل كامو يعطي فيلمــه المنون : اورفن نيغرو ــ وجان روس : انا زنجي .

١٩٦٠

كانون الثاني : استقلال الكامرون ، وبــدء العمل بالفرنك الفرنسي الجديــد (١) ــ الجيش مستلم الحكم في اللاوس (٢) ــ بدء الاشغال بســد سوان (٩) ــ الغاء وزارة الداخلية في الاتحــاد السوفياتي وتحويل صلاحياتها لوزارات الداخلية في الجمهوريات التي يتألف منها الاتحاد (١٣) ــ محاولة

ثورة يقوم بها المظليون في مدينة الجزائر (٢٤) — طاولة مستديرة في بروكسل حول الكونغو (١/٢٥ — ٢/٢٥) — مؤتمر الدول الافريقية الثاني يعقد في تونس (٢٥) . شباط : استسلام المتمردين في الجزائر (١) — المجلس الوطني يقر السلطات المطلقة لحكومة دوبريه (٢) . اذار : القمع يعنف لمظاهرات الزنوج في اتحاد جنوبي افريقيا (٢١) — فشل حكومة فرونديزي في الانتخابات العامة في الارجنتين (٢٧). نيسان : اطلاق الصاروخ تيروس الاول الذي يقوم بتصوير الارض من الجو (١) — المؤتمر الافرو اسيوي في كوناكري (١ — ١٥) — اضطرابات في كوريا الجنوبية ترغم سينغمان ري على الاستقالة (١١—١٧) — استقلال الطوغو (٢٧) — ازمة سياسية في تركيا وانقلاب عسكري (٢٧ — ٣٠) . ايار : السوفييت يسقطون طائرة تجسس اميركية يو ٢ فوق اراضي الاتحاد السوفياتي (١) — ملك المغرب يستلم الحكم ويؤلف وزارة برئاسته (٢٦) — اطلاق سبوتنيك الرابع (١٥) — فشل مؤتمر الذروة (١٧) . حزيران : مظاهرات معادية للاميركيين في اليابان ، والغاء رحلة الرئيس ايزنهاور اليها (٦ — ١٦) — مؤتمر الدول الافريقية المستقلة في اديس ابابا (١٤ — ٢٤) — الاتفاق التجاري الطويل الامد المعقود بين كوبا والاتحاد السوفياتي (١٨) — استقلال مالي (٢) — مفاوضات ميلون مع ممثلي ثوار الجزائر وفشلها (٢٥ — ٢٨) — استقلال مدغشكر والصومال (٢٦) والكونغو البلجيكي (٣٠) . تموز : اطلاق واعادة صاروخ روسي حجمه ١٠٠٢كيلوغرام يحمل حيوانات (٤) — بدء الاضطرابات الدامية في الكونغو البلجيكي القديم (٦) — وتدخل القوات البلجيكية (٩) — انفصال كاتنغا (١١) — تدخل الامم المتحدة (١٤) اضطرابات في روديسيا الشمالية (٢) وفولطا العليا (٥) — وشاطىء العاج (٧) والتشاد بلجيكا الى سحب قواتها في الحال من الكونغو (٩) — الاتحاد السوفياتي يطلق صاروخا جديدا لريادة الفضاء (١٩) — انفصال مالي (١٩ — ٢٠) — حكومة الجزائر المؤقتة تقترح القيام باستفتاء شعبي تحت اشراف الامم المتحدة (٢٢) — اتفاق تعاون اقتصادي وتقني وعقد اتفاق تجاري بين غانا والاتحاد السوفياتي (٢٨) . تشرين الاول : استقلال اتحاد نيجيريا (١) — نشوب ازمات سياسية في كل من نيكاراغوا وكولمبيا وفنزويلا وكوستا ريكا والسلفادور وغواتيمالا — اضرابات في البرازيل وفي الارجنتين والتشيلي تستمر حتى تشرين الثاني . تشرين الثاني : الجنرال ديغول يتكلم عن « الجمهورية الجزائرية » (٤) — فوز كنيدي مرشح الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة الاميركية (١١) — محاولة القيام بثورة عسكرية في فيتنام الجنوبية (١١—١٢) . كانون الاول : فشل الثورة في الحبشة (١٤ — ١٦)

لورانس دوريل ينشر كتابه : كلايا ، وارنست فون سالمون : مصير د.١٠ — فيلم جان لوك غودار : على آخر نفس ، وفيلم فريدريكو فاليني : الحياة الهنيئة ، وفيلم انطونيوني : المغامرة ، وفيلم ج. تشوكراي : انشودة الجندي .

١٩٦١

كانون الثاني : استفتاء فرنسي يؤيد سياسة ديغول تجاه الجزائر (٨) — جانيو كوادروس ينتخب رئيسا للبرازيل (٣١) . شباط : اطلاق صاروخ سبوتنيك روسي وزنه ٦٤٥ اطنان وقمر اصطناعي روسي (١١) — ثبوت مقتل لومومبا (١٣) . نيسان : بدء قضية ادولف ايخمان (١١) — يوري غاغارين يسبح في الجو لاول مرة لمدة ٨٩دقيقة (١٢) — محاولة نزول فاشلة في خليج كوشون في كوبا (١٧) . حركة انقلاب عسكري في مدينة الجزائر تعرف بحركة القواد الاربعة (٢٢ — ٢٥) واعلان حالة الطوارىء والاضراب العام (٢٤) واستسلام الجنرال شال — اتحاد جنوبي افريقيا يخرج من رابطة الشعوب البريطانية (٣٠) . ايار : رائد الفضاء الاميركي الن شيبرت يقوم باول محاولة طيران عبر الفضاء (٥) — بدء المفاوضات في ايفيان (٢٠) بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية وتاجيلها الى ١٣ حزيران — قتل رافايل تروخولو (٣٠) . حزيران : استقلال الكويت (١٩) . تموز : اشتباكات دامية مع تونس بشأن بنزرت (٤ — ٢٣) — استئناف المفاوضات بين فرنسا ومندوبي حكومة الجزائر في لوغرين (٢٠ — ٢٨) . آب : الطيار الروسي تيتوف يرسم ١٧ دورة حول القمر في مركبته الفضائية فوستوك ٢ (٧) — المباشرة باقامة « جدار » برلين (١٣) — استقالة جانيو كوادروس (٢٥) واستبداله بـ جو غولار (٨ أيلول) . ايلول : محاولة اعتداء فاشلة ضد الجنرال ديغول (٨) — الغاء الوحدة بين سوريا ومصر (٢٨) . تشرين الاول : فوز حزب العدالة في تركيا (١٥) . تشرين الثاني : انقلاب عسكري في جمهورية الاكوادور (٧) — الحكومة التركية الجديدة برئاسة عصمت اينونو (٢٠) . كانون الاول : استيلاء القوات الهندية على الممتلكات البرتغالية : غوا وداماو وديو في الهند (١٧) .

افلام ا. رسنه : السنة الماضية في ماريانباد ، وفيلم ر. وايز وروبنز : قصة وست سايد ، و ل. بونويل : فيريديانا .

١٩٦٢

كانون الثاني : مؤتمر المنظمة الاميركية الاقتصادية في بونتادل ايست (٢٢ — ٣١) . اذار : اطلاق الصاروخ الاميركي تيتان الثاني الذي يبلغ مداه ٨٠٠٠ كلم (١٥) — عقد اتفاقات ايفيان مع حكومة الجزائر (١٨) — والتوقف عن القتال يصبح نهائيا (١٩) — انقلاب عسكري يجبر الرئيس فرونديزي في الارجنتين وحكومته على الاستقالة (٢٠ ٢٨) . نيسان : استفتاء حول سياسة الحكومة في الجزائر وتأييد الشعب الفرنسي لها بنسبة ٩٠،٠٧٪ من اصوات المقترعين (٨) — تعيين السيد بومبيدو رئيسا للوزارة (١٤) — الصاروخ الاميركي راينجر الرابع يصطدم بوجه القمر المظلم (٢٦) . تموز : استفتاء الشعب في الجزائر حول الاستقلال يؤيده ٥،٩٩٤٤٠٠٠ من اصل ٦،٠٣٤٤٠٠٠ (١) — اطلاق القمر الصناعي الاميركي تلستار من كاب كانا فيرال يتيح لاوروبا التقاط الاشارات المرسلة من الولايات المتحدة (١٠) — الطيارة الصاروخية ١٥ — x ترتفع في الجو الى علو ٩٢،٠٠٠ متر (١٧) — انقلاب عسكري في البيرو (١٨) . آب : استقلال جامايكا (٦) — اطلاق فوستوك ٣ وفوستوك ٤ (١١) — فشل محاولةقتل ضد الجنرال ديغول في بتي كلامار (٢٢) — استقلال الترينتي وطوبوغو (٣١) . ايلول : رحلة الجنرال ديغول الى المانيا (٤ — ٩) . تشرين الاول : افتتاح المجمع الفاتيكاني الثاني (١١) — هجوم الصينيين على المواقع الهندية ، الواقعة على حدود القطاع الشرقي (٢٠) — حصار بحري حول كوبا حيث ركزت قواعد لاطلاق الصواريخ السوفياتية (٢٢) — خروتشيف يأمر بسحب كل الاسلحة الهجومية من كوبا (٢٧) — اعلان الجمهورية في اليمن وانتخاب الجنرال سلال رئيسا لها . تشرين الثاني : فوز الاتحاد الوطني الجمهوري في الانتخابات النيابية ، وامتناع عدد كبير عن التصويت (١٨ و ٢٥) — رفع الحصار الاميركي عن كوبا (٢٠) .

فيلم انييس فاردا : كليومن ٥ — ٧ .

١٩٦٣

كانون الثاني : مؤتمر صحفي للجنرال ديغول : على انكلترا أن تنضم الى معاهدة روما بدون أي تحفظ (١٤) — تأجيل الى اجل غير مسمى المفاوضات بين بريطانيا ودول السوق المشتركة (٢٨) . شباط : انقلاب عسكري في العراق وقتل اللواء قاسم (٨) . اذار : اضراب عام لعمال المناجم في الشمال وفي اللورين بالرغم من امر المصادرة (١) — البابا يوحنا الثالث والعشرون يستقبل ادجوبي ، صهر خروتشيف في مقابلة خاصة (٧) . نيسان : محاولة قيام ثورة عسكرية في الارجنتين (٢) — نشر البراءة البابوية : « السلام على الارض » (١٠) . ايار : ضم ايريان الشرقية رسميا الى جمهورية اندونيسيا (١) — مظاهرات البوذيين في فيتنام الجنوبية ضد حكومة ديم (٦) — نجاح عملية طيران غوردون كوبر بعد ان قام ب ٢٢ دورة حول الارض (١٥ — ٢٧) . حزيران : فوستوك ٥ وفوستوك ٦ وعلى هذا الاخير رائدة الفضاء فالنتينا تروشسكوف يعودان للارض بعد فضاء ١١٩ ساعة في الفضاء (١٤) — انتخاب بولس السادس بابا (٢١) . آب : محاولة انقلاب ضد فولبرت يولو رئيس جمهورية الكونغو (١٤) . ايلول : استقلال ماليزيا (١٦) . الجيش يستلم الحكم في الجمهورية الدومنيكية (٢٥) — بدء الدورة الثانية للمجمع الفاتيكاني الثاني (٢٩) . تشرين الاول : انقلاب عسكري في جمهورية هوندوراس (٣) — الحرب بين القوات الجزائرية والقوات المغربية بشأن الحدود (من ٨ — ٢٠ ت ٢) — انفصال القبيلة عن حكومة بن بيلا (١٠ — ٣٠) . تشرين الثاني : انقلاب عسكري في سايغون يفضي الى مقتل الرئيس ديم واخيه (١) — جورج باباندريو يشكل حكومته في اثينا (٧) — مقتل الرئيس كنيدي في دالاس (٢٢) . كانون الاول : تشكيل حكومة من القلب واليسار يدخل فيها مورو ونني ، في ايطاليا — استقلالزنجبار (١٠) وكينيا (١٢) — سيمون دي بوفوار تنشر : قوة الاشياء .

١٩٦٤

كانون الثاني : حوادث دامية في بناما تؤدي الى قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الاميركية (٩) — حركات تمرد في تنجانيكاوكينيا تضطر معها القوات البريطانية للتدخل (٢٤) . شباط : انقلاب عسكري في الغابون يضطر القوات الفرنسية للتدخل في الامر (١٨) . نيسان : الرئيس غولار واضطراره الى اعتزال الحكم امام معارضة اليمين في البرازيل . تموز : استقلال مالاوي (قديما نياسالاند) (٦) — اطلاق الصاروخ الاميركي راينجر ٧ الذي اخذ ٤٣١٦ صورة قبل ان يتحطم على سطح القمر (٣١) . ايلول : انتخاب ادورد فراي من حزب الديمقراطيين المسيحيين رئيسا لجمهورية الشيلي (٤) — الدورة الثالثة للمجمع الفاتيكاني الثاني (١٤) — استقلال مالطا (٢١) — اطلاق الروس للمركبة الفضائية فوسكود حاملة ثلاثة رواد (١٢) — عزل خروتشيف واستبداله ببريجنيف وكوسيغين (١٥) —

انتصار ضعيف يحققه حزب العمال في انكلترا يؤدي الى حكومة ولسن – انشاء جمهورية تنزانيا من دمج تنغانيقا وزنجبار (٢٩) . تشرين الثاني : انتخاب لندون جونسون رئيسا للولايات المتحدة الاميركية (٣) – ثورة عسكرية في بوليفيا (٣) – اطلاق الولايات المتحدة الصاروخ زوند ٢ نحو المريخ (٣٠) .

١٩٦٥

كانون الثاني : تأجيل المؤتمر الافرو اسيوي المقرر عقده في مدينة الجزائر مرتين (الاولى في ١٢ والثانية في ٥ ت٢ لاجل غير مسمى) – انسحاب اندونيسيا من عضوية الامم المتحدة (٢١) – وفاة السير ونستن تشرشل (٢٤) – انقلاب عسكري في فيتنام الجنوبية (٢٧) . شباط : خروج فرنسا وحدها من لعبة الذهب (١١) – اطلاق رانجر ٨ الذي يتحطم على القمر في ٢٠ (١٧) – استقلال غمبيا (١٨) – انقلابات عسكرية متوالية في سايغون (١٩ – ٢٢) – مظاهرات عدد كبير من الطلاب في مدريد (٢٤) . آذار : فوز الحزب الديمقراطي المسيحي في الانتخابات العامة في التشيلي (٧) – فوز انصار بيرون والحزب المنتصر بالانتخابات العامة في الارجنتين – مقتل الجنرال دلغادو رئيس المعارضة في البرتغال (١٤) – رائد الفضاء الروسي ليونيف يخرج من مركبته فوسكود ٢ وهو طائر في الفضاء (١٨ – ١٩) – الاميركيون يأخذون بقصف فيتنام الشمالية يوميا (١٩) – فوز المعارضة في الانتخابات البلدية في فرنسا (١٤ و ٢٢) . هياج في الدار البيضاء والرباط وفاس (٢٢ – ٢٣) – اطلاق المركبة جيميني الثالثة وعلى متنها رائدان فضائيان (٢٣) . نيسان : زيارة بيترو نيني البابا (١٢) – ثورة عسكرية في سان دومنيك تسحقها القوات الاميركية (٢٤) . ايار : فوز الجبهة الروديسية في الانتخابات العامة (٧) – غاستون ديفير يقترح انشاء تحالف يشمل الاشتراكيين والمسيحيين الديمقراطيين (٨) – اطلاق الروس المركبة الفضائية لونا ٥ التي تتحطم على سطح القمر في بحر الغيوم (٩) – تفجير القنبلة الذرية الصينية الثانية (١٤) – بريطانيا العظمى تأخذ بالنظام المتري (٢٤) – تصفية تسعة قواد في سايغون (٢٥) – مجلس الشيوخ الاميركي يقر قانون حق الاقتراع للزنوج (٢٦) . حزيران : رائدا فضاء اميركيان يخرجون في الهواء من كبسولة جيميني ٤ (٣ – ٧) – انقلاب عسكري جديد في فيتنام الجنوبية : الجنرال كي يؤلف الحكومة (١٢) – حول « تمويل اوروبا الخضراء » (٣٠) . تموز : مركبة الفضاء الاميركية مارينر ٤ ترسل صورا عن المريخ الى الارض – ملك اليونان يجبر باباندريو على تقديم استقالته (١٥) – المركبة الفضائية زوند ٣ هواري بومدين يقلب بن بيلا ويستولي على الحكم (١٦) – فشل المفاوضات التي دارت في بروكسيل تأخذ صورا لوجه القمر المظلم (١٨) . آب : دولة سنغافورا تنسحب من اتحاد ماليزيا – نشوب الحرب بين الهند والباكستان حول قضية كشمير (٩) – اضطرابات عنصرية في لوس انجلس (١١ – ١٨) – الرائدان الفضائيان غوردون كوبر وتشارلز كونراد يضربان رقما قياسيا في مدى الطيران على متن المركبة جيميني ٥ (٢١–٢٩) . ايلول : دخول القوات الهندية باكستان (٦) – فرنسوا ميتران يرشح نفسه للاليزه (٩) – الحزب الاشتراكي النروجي يتخلى من الحكم في البلاد بعد ان احتفظ به ٣٠ سنة (١٣) – اعلان وقف اطلاق النار في باكستان (٢٢) . تشرين الاول : مؤامرة في اندونيسيا ضد الرئيس سوكارنو (١) – تشومبي يترك رئاسة الوزارة في الكونغو لكمبا (١٣) – السماح للكهنة العمل في المصانع في شروط معينة (٢٣) – دكتاتورية الماريشال كستلو برنكو في البرازيل (٢٧) – خطف مهدي بن بركة في باريس (٢٩) – تشرين الثاني : روديسيا تعلن استقلالها من جانب واحد على يد ايان سميث وانكلترا تفرض ضدها عقوبات اداريةواقتصادية (١١) – الجنرال موبوتو يستولي على الحكم في كونغو ليوبولدفيل (٢٤) . كانون الاول : القمر الصناعي لونا ٨ تتحطم على سطح القمر – نجاح تجربة الطيران المزدوج لجيميني ٦ وجيميني ٧ (١٥) – تعادل الاصوات في انتخابات الرئاسة : لم ينل الجنرال ديغول سوى ٤٤،٦٤٪ من اصوات الناخبين (٥) – اعادة انتخاب الجنرال ديغول بمعدل ٥٥،١٩٪ من الاصوات مقابل ٤٤،٨٠ لفرنسوا متيران (١٩) – انقلاب عسكري في الداهومي (٢٢) وفي جمهورية افريقيا الوسطى (٣١) وآخر في فولطا العليا في ٣ ك٢ ١٩٦٦ – اراغون ينشر رواية تنفيذ الاعدام .

جدول الاعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

و

لا

ي

فهرست الصور

٢٣ – مجاعة ١٩٥٣ في الهند .

٢٤ – المهاتما غاندي يحيط به تلاميذه .

٢٥ – ماوتسي – تونغ يخطب في جيوشه .

٢٦ – شنغاي : مدرسة في الهواء الطلق . الحزب والشبيبة .

٢٧ – عرض الجماهير امام امبراطور اليابان بمناسبة رأس السنة .

٢٨ – عيد الحصاد في مزرعة جماعية .

٢٩ – مرفأ بترولي في العراق .

٣٠ – رباط : المدينة الاوروبية والمدينة البلدية .

٣١ – ارلكين وكولومبين ، بريشة بابلو بيكاسو . متحف لينينغراد .

٣٢ – تلامذة في « طوغو » . التعلم مفتاح التقدم .

٣٣ – برازيليا : المجلس الأعلى .

٣٤ – جون ريو وشاطىء كوبا كبانا .

٣٥ – اينشتاين في مكتبه في جامعة برنستون ، قبيل وفاته .

٣٦ – قبة مرصد جبل بالومار في الولايات المتحدة .

٣٧ – قاطرة كهربائية فرنسية تضرب رقماً قياسياً عالمياً في سرعة السير على الخط الحديدي .

٣٨ – طيران ولبور رايت في معسكر أوفور في ١٩٠٨ .

٣٩ – مطار سان فرنسيسكو .

٤٠ – تصميم طائرة الـ « كونكورد » .

٤١ – جسر جورج واشنطن في نيويورك .

٤٢ – التقدم الصناعي : الآلة تحل محل الانسان .

٤٣ – مصنع الـ « رانس » لاستثمار طاقة المد والجزر .

٤٤ – مصانع (شينون) النووية .

٤٥ – حصاد الحنطة في احدى مزارع الغرب الاميركي الاوسط واحدى المزارع التعاونية السوفياتية .

٤٦ – حصاد الارز في كمبوديا .

٤٧ – مجمع الفاتيكان الثاني .

٤٨ – اختبار جيميني ٤ : الاميركي ادوارد هوايت يمشي في الفضاء .

فهرست الخرائط والتصاميم

١٩٨٥ ــ ١٩٩٢

من التوازن الأميركي ــ السوفياتي

إلى الفوضى العالمية

سيتبيّن لمؤرّخي العقود المقبلة أنّ ثمانينات هذا القرن قد شهدت نهاية حقبة بدأت في آب/أغسطس ١٩١٤.

فقد دمّرت حربان القارة القديمة التي كانت تحكم العالم. وابتداءً من ١٩٤٧ فرض نظام ذو قطبين، انبثق من التعارض السياسي والعقائدي بين الغرب والشرق، نفسه لخمسين سنة تقريباً.

من الحرب الباردة الى «الاسترخاء» مروراً «بالتعايش» السلمي، ففي واشنطن وموسكو كان يتقرر مصير عالم «جمّده» توازن الرعب النووي. ووجدت الأمم الجديدة التي رأت النور على أثر التحرر من الإستعمار، نفسها مرغمة على التحيّز لهذا المعسكر أو ذاك من دون أن تتمتع بحرية تحرك خاصة.

ومنذ بضع سنوات أعيد النظر في تلك الهيمنة المزدوجة على أثر بروز قوى جديدة: فالصين تحوّلت إلى اقتصاد السوق وبدا أن العالم الإسلامي شريك في اللعبة العالمية الكبرى؛ وأصبحت ألمانيا واليابان وهما المغلوبتان سنة ١٩٤٥ عملاقين إقتصاديين قادرين على التساوي مع الولايات المتحدة.

وأخيراً انهارت كتلة أوروبا الشرقية، التي بناها ستالين، في بضعة اشهر ولحق بها الإتحاد السوفياتي.

فقد زال إتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وقد كان قوة عظمى لا تُقهر قبل عشر سنوات، تحت وطأة فشل اقتصادي ذريع واحتجاجات انفصالية أيقظها الانفتاح الليبرالي الذي باشره ميخائيل غورباتشوف.

ومع أنّ هذا الأخير نال جائزة نوبل للسلام لأنّه وضع حدّاً للحرب الباردة فإنه لم يتمكن من ضبط عملية الإصلاح التي كان قد باشرها منذ ١٩٨٧.

وهكذا تنفتح التسعينات على شكوك كبيرة: يبدو أنّ البناء الأوروبي يلهث وأنّ القوة الأميركية على الرغم من النجاح الباهر الذي حقّقته حملتها على العراق سنة ١٩٩١ تنجرف في دوّامة انهيار وتكثر بؤر التوتر؛ وقد يشكل تزايد عدد الفقراء على المستوى العالمي قنبلة مؤقتة مخيفة.

الإتحاد السوفياتي

مجد قوة عظمى وانحطاطها

إنّ تطوّر الإتحاد السوفياتي ومن ثم زواله هما في أساس «الإنقلاب» الذي يشهده العالم منذ ١٩٨٥.

لكنّ السبعينات شهدت تزايد نفوذ الإمبراطورية السوفياتية. وكانت اتفاقيات هلسنكي سنة ١٩٧٥ قد جمّدت، لصالح هذه الامبراطورية، الوضع الناشيء عن الحرب العالمية الثانية؛ فلم تكن

إدارة بريجنيف تحترم توقيعها في مجال التبادل الحرّ للأفكار أو للأشخاص.

ومن جهة ثانية كان تطّور القوة العسكرية التقليدية والنووية مستمراً مع نشر صواريخ الـ SS 20 سنة ١٩٧٧.

وكانت هذه الصواريخ قادرة على هزّ أوروبا الغربية كلّها فتشلّ للحال كلّ دفاع أوروبي من دون أن تهدد الأراضي الأميركية فتبرّر على الصعيد الاستراتيجي ردّاً انتحارياً متبادلاً.

واعترف بعض القياديين في واشنطن، لا سيّما السيد هنري كيسنجر، بأنّهم لن يجازفوا بنيويورك في سبيل هامبورغ.

فكان الكرملن إذا قادراً على «حلّ» التحالف الأوروبي ـ الأميركي وعلى فرض هيمنته على جيرانه الغربيين.

وقد كان للإتحاد السوڤياتي على عهد بريجنيف قوة بحرية لا مثيل لها: فكانت سفن الأميرال غورشكوف تجوب المسافة بين شمالي الأطلسي ومرفأ اللاذقية (في سوريا).

وبين بيتروپاڤلوڤك وقاعدة كام ران الڤيتنامية. ولذلك الحين كان الوجود السوڤياتي معدوماً «تقريباً» في أفريقيا؛ لكن ما لبث أن فرض نفسه في أنغولا والموزامبيك والقرن الأفريقي بواسطة نزع الاستعمار عن أراضي البرتغال وكذلك بواسطة الثورة الإثيوبية.

وكان التوجّه الماركسي الذي طبع دولاً كالكونغو والبنين ومدغشقر يهدّد بأن تصبح القارة السوداء مسرحاً جديداً للنزاع غير المباشر بين الجبّارين.

كذلك فإنّ سقوط سايغون في آسيا لصالح ڤيتنام الشمالية سنة ١٩٧٥ ومن ثمّ تدخل جيش هانوي في كامبوديا بدعم سوڤياتي في سنة ١٩٧٨. قد أتاحا لزعماء موسكو أن يسجّلوا نقاطاً هامة في نزاعهم مع الصين في المرحلة التي تلت ماو.

وفيما كانت الولايات المتحدة في عهد جيمي كارتر، وقد أضعفتها فضيحة ووترغيت وهزيمتها في الڤيتنام، على وشك أن تخسر إيران في عهد الشاه، ورقتها الرابحة الفضلى في الشرق الأوسط، كان الاتحاد السوڤياتي في أوج قوته.

لكن بعد بضع سنوات شهد العالم، مدهوشاً، إنهيار الامبراطورية التي رأت النور على أثر ثورة أكتوبر ومعها انهيار الأوهام الأخيرة التي كان البعض يغذيها عن العقيدة الشيوعية.

الإمبراطورية تتصدّع

بدا وكأن النفوذ السوڤياتي لا يقاوم عندما حضرت إلى كابول في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ بعثة عسكريّة لتفصل بين الحزبين الشيوعيين اللذين كانا قد استوليا على السلطة في ربيع السنة السابقة.

ولم تكن مجموعة صغيرة من المجاهدين قادرة على تخويف جيش أحمر يتحكم بالوضع تحكماً تاماً ويملك وسائل ممكننة ومصفّحة.

فضلاً عن ذلك فإنّ الأفغانستان كانت تعتبر «منطقة رمادية» بين الشرق والغرب.

لكن هذا التدخل سيوقظ الولايات المتحدة التي أرهقها فشلها في الفيتنام وخدَّرتها أوهام الاسترخاء.

كما أنه سيثير استنكاراً شاملاً في مجمل العالم الإسلامي من الباكستان مروراً بإيران التي أصبحت تحت سلطة آية الله الخميني وأتباعه.

وهذا التدخّل سيضايق أيضاً الصين المستاءة من الدعم السوفياتي الذي حصل عليه الفيتناميون عندما تواجهوا في السنة السابقة مع الجيش الصيني في كمبوديا.

وتخوّف الغرب من نشر صواريخ الـ SS 20 ومن أن يطال الطيران السوفياتي مضيق هرمز انطلاقاً من القواعد الأفغانية، وكانت الفوضى الإيرانية تعطي موسكو ذرائع عديدة للتدخل في هذه المنطقة الحساسة من العالم.

لكنّ الحظر على الحبوب الذي أعلنته واشنطن لم يقلق موسكو. وفي السنة الثالثة برزت ثورة توتر ثانية: فقد هزّ النظام الشيوعي البولوني، ظهور حزب التضامن غير المتوقع.

ولم يعد تجديد التدخل الذي جرى في بودابست سنة ١٩٥٦ وفي براغ سنة ١٩٦٨، في وارسو في متناول إتحاد سوفياتي كانت صورته تتراجع بسرعة في نظر الرأي العالمي.

ولم تعد «دولة العمّال» سوى دولة كغيرها تمارس سياسة مصالحها ولذلك لم يتردّد الإتحاد السوفياتي في التزوّد بالحبوب من الأرجنتين الخاضعة لديكتاتورية عسكرية أو جنوب افريقيا المنعزلة بسبب التمييز العنصري.

لكن الأهمية السياسية والاستراتيجية التي ميّزت الرهان البولوني بلغت مستوى حدا بموسكو إلى الإمساك بالوضع.

وفي ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨١ أعلن الجنرال ياروزلسكي حالة الطوارىء وأمر بقمع الحركة الشعبية.

وأمام عوارض الإضطرابات الأولى هذه أبدى الإتحاد السوفياتي رغبته في الهيمنة وفي الحؤول دون إعادة النظر في حدود الإمبراطورية.

إقتصادٌ متأرجح

في الواقع، منذ تلك الحقبة بدأ يظهر ضعف في الجهاز الإقتصادي السوفياتي وبرز عجز النظام عن معالجته.

استطاع الاتحاد السوفياتي وبفضل وفرة موارده الطبيعيّة وديناميّة ديموغرافيته الاستفادة من عملية إعادة الإعمار التي تلت الحرب فبذل جهداً كبيراً في التجهيز.

وتمكّن بهذه الطريقة من منافسة الغرب، على الأقل، في مجال الصناعة الثقيلة والبحث العلمي

والإنتاج الحربي.

لكن بعد ثلاثة عقود من النمو المذهل تأثرت الكتلة الشرقية، وقد سبقها الغرب في مجال الإنتاجية والاكتشاف التقني، بالأزمتين النفطيتين.

«ومن شأن تلك الحقبة التي وصفها الإصلاحيون المحيطون بميخائيل غورباتشوف بسنوات الجمود» أن تؤثر سلباً على الصعوبات التي سيواجهها النظام.

فعلى الرغم من الموارد الوفيرة تبقى النتائج الإقتصادية رديئة: وأصبح الاتحاد السوفياتي مرتبطاً أكثر فأكثر بالتقنيات الغربية ويعاني المشاكل في مجال الزراعة. بالإضافة الى ذلك وجد نفسه مرغماً على تصدير المزيد من النفط والغاز فبدا في بداية الثمانينات دولة «في طور التخلّف». زد على ذلك أن تأثير القوة المتنامية جر على الخزينة مصاريف باهظة أرهقتها فأصبح الإتحاد السوفياتي في وضع لا يحتمل، قوة مسلّحة فقدت الوسائل التي تخوّلها تحقيق طموحها.

وكانت وفاة ليونيد بريجنيف في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢ نهاية حقبة ركود.

فخلال السنوات الثماني عشرة التي حكم فيها، تعزّز نظام حكم المسنين الذي لا يهتمّ بسوى المحافظة على مكاسب الطبقة الحاكمة المنبثقة من السلطة السياسية العسكرية ومن الاقتصاد التابع للدولة.

وخلف يوري أندروبوف بريجنيف. فقدّر رئيس جهاز الاستخبارات الروسية السابقة هذا والمنفتح على الحقائق الخارجية طبيعة الأزمة وفداحتها. واجتاحته رغبة حقيقية في التغيير فحارب الفساد المستشري في النظام، لكنّ المرض الذي أودى بحياته في شباط/ فبراير ١٩٨٤ منعه من إنجاز مهمّته.

واختار الحزب قسطنطين تشيرنينكو خلفاً له وقد كان رجلاً مسنّاً ومريضاً

وبدا تشيرنينكو للجميع حلاً وسطاً بين متطلّبات الطبقة الحاكمة المتعلّقة بالوضع الراهن وطموح الجيل الجديد إلى التجديد.

وهذا الجيل يرغب في تطبيق الإصلاحات التي تصوّرها أندروبوف بهدف السماح للإتحاد السوفياتي بالتنافس إقتصادياً وسياسياً وعسكرياً مع الكتلة الغربية.

مُصلح على رأس السلطة

كانت وفاة تشيرنينكو المنتظرة في آذار/ مارس ١٩٨٥: وأصبح ميخائيل غورباتشوف الرجل القوي في السلطة السوفياتية.

فهو ينتمي إلى جيل من التقنوقراطيين الذين لم يضطلعوا بأي مسؤولية في عهد ستالين فأراد تطبيق طريقة جديدة في معالجة شؤون البلاد.

في الواقع، فإن ضعف السلطات الإنتقالية التي كانت خلال السنتين السابقتين سمح للغرب باستئناف المبادرة وعزل الإتحاد السوفياتي أكثر فأكثر.

فقد تورّط الجيش الأحمر في أفغانستان. ولم يتمكن سوى من إدارة المراكز المدنية الكبرى والطرقات الأساسية فيما بقي الجزء الآخر من البلاد في يد المقاومة الإسلامية.

وفي الغرب تعرّض يوري أندروبوف لضربة قاضية سنة ١٩٨٣ عندما نشرت منظمة حلف شمال الأطلسي الصواريخ الأوروبية التي من شأنها أن تقابل صواريخ الـ SS 20 لكنّها خلافاً لهذه الأخيرة قادرة على إصابة أهداف استراتيجية على الأراضي السوفياتية.

وفي السنة نفسها، ساهم تدمير طائرة بوينغ تابعة لكوريا الجنوبية على مقربة من شواطىء جزيرة سخالين السوفياتية، في تشويه صُورة الإتحاد السوفياتي أكثر فأكثر.

وعن الإتحاد السوفياتي قال رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان الذي فاز على جيمي كارتر سنة ١٩٨٠ إنه «امبراطورية الشر».

وأطلق في أوائل سنة ١٩٨٣ «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» التي عرفها الجميع باسم «حرب النجوم».

وتقوم هذه المبادرة على استعمال موارد التكنولوجيا الأكثر تطوّراً في مجال الصواريخ واللايزر والمعلوماتية فتشكّل فوق أميركا الشمالية «درعاً فضائية» تُبطل ترسانة الصواريخ الاستراتيجية السوفياتية.

وبدا أن أميركا عازمة على المضي في سياسة عسكرية من شأنها أن تمنحها تفوقاً حاسماً على الإتحاد السوفياتي (فتصبح قادرة على ضرب العدو من دون أن يردّ عليها على المستوى نفسه).

لا يستطيع زعماء الكرملن مواجهة هذا التحدّي الأخير. فمنذ سنوات عديدة يهتمّون بالصناعة الحربية على حساب إنتاج السلع الاستهلاكية. وعرف غورباتشوف والزعماء الجدد أنّ الشعب السوفياتي ولو اعتز بدور القوة العظمى الذي يضطلع به الاتحاد السوفياتي فهو يأمل في أن يتحسّن مصيره ويتمتّع بمستوى معيشة الغربيين. ومن شأن سباق جديد إلى التسلّح، بهدف التنافس مع الولايات المتحدة في المجال الجديد «لحرب النجوم»، أن يثير الاستياء العام.

ولهذا السبب كان على خليفة تشيرنينكو أن يسعى إلى حلّ وسط مع المحافظة على مكانة الإتحاد السوفياتي كقوة عظمى، وهذا الحلّ سيسمح له بالاستفادة من التقنيات ورؤوس الأموال الغربية لإجراء التغيرات التي أصبحت ضرورية.

وستكون بضع سنوات كافية لغورباتشوف ليفرض على السياسة السوفياتية مجرى جديداً.

بالاستناد إلى الثورة «الشفافية» (Glasnost) وإلى حرّية الإعلام الذي كان لغاية تلك الفترة مكموم الفم سيطبّق تدريجياً عملية إعادة هيكلية سياسية واقتصادية وهي البيريسترويكا.

وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ سُمِحَ لأندريي ساخاروف، وهو إحدى الشخصيات الرمزية في المعارضة وقد وضع منذ بضع سنوات في الإقامة الجبرية في غوركي، أن يعود إلى موسكو.

ونظر الغرب وجهاز الاستخبارات الروسية إيجاباً إلى هذا الإجراء لكنّه لم يعنِ الشعب.

وأكّد إطلاق الأسرى السياسيّين وإدانة «سنوات الجمود» التي شهدها عهد بريجنيف إستهلال

عهد جديد لم يكن لصالح «المحافظين» الشيوعيين الذين خافوا على امتيازاتهم ودخلهم.

وفي الوقت الذي برزت فيه الرغبة في التحرّر هذه، عمل غورباتشوف على إيجاد تسوية في أفغانستان. وبعد ثماني سنوات من تدخّل الجيش الأحمر أخلت القوات السوفياتية البلاد تاركة في كابول سلطة شيوعية يهدّدها تحالف جماعات المقاومة الإسلامية.

وبعد أن تحرّر الإتحاد السوفياتي من «الحرب القذرة» التي تورّط فيها على حدوده في آسيا الوسطى أعطى الغربيين برهاناً عن نيّته السليمة: ففي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧ وقع غورباتشوف وريغان اللذان كانا قد التقيا قبل ذلك في قمتي جنيف وريكيافيك في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ وفي تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٨٦، في واشنطن على معاهدة تفكيك القوى النووية المتوسطة المدى.

وأتاحت هذه الخطوة الحاسمة، على طريق نزع السلاح، للإتحاد السوفياتي، فرصة إظهار حسن نيّته وجنّبته ضرورة السير في سباق جديد الى التسلّح.

ومن شأن هذه الخطوة أن تلغي من الأراضي الأوروبية القوى النووية غير الوطنية بصورة شبه تامة.

وقد سُحبت الصواريخ الأخيرة نهاية ١٩٩١. وبعد التوقيع على معاهدة تفكيك بفترة قصيرة، ظهرت قوانين جديدة تتعلّق هذه المرّة بتخفيض الأسلحة التقليدية (غير النووية وغير الكيميائية).

وفي هذه المناسبة قدّم الإتحاد السوفياتي تنازلات هامة. فأعلن في تموز/ يوليو ١٩٨٨ تخفيضاً من طرف واحد للقوى (الطائرات والدبابات) وللموازنة الحربية.

ورأى كثيرون في هذا التدبير رغبة السوفيات في إعادة هيكلة وحداتهم الكبرى في تحديث معدّاتهم.

أمّا غورباتشوف الذي تصوّر بناء «بيت أوروبي مشترك» فأمل من خلال هذه التدابير الحفاظ على الزعامة السوفياتية في أوروبا.

وسنة ١٩٨٩ أدّى الإنهيار السريع وغير المتوقّع للنموذج السوفياتي في أوروبا الشرقية إلى تسريع عملية التفاوض بين «المعسكرين» وقد كان أحدهما في طور الانحلال.

مثل خطر الأسلحة الكيميائية الذي تقرّر في باريس، افتتاح مؤتمر في فيينا خُصّص لنزع الأسلحة التقليدية.

وفي أيلول/ سبتمبر رفض الاتحاد السوفياتي استئناف المفاوضات بشأن اتفاقية تخفيض الأسلحة الاستراتيجية المتعلّقة بنزع السلاح الاستراتيجي وتخلت الولايات المتّحدة عن برنامج «حرب النجوم».

وفي الشهر نفسه، فتح رسمياً الستار الحديدي» على الحدود النمساوية ـ المجرية.

وفي ١٠ كانون الأول/ ديسمبر زال الرمز الأخير للحرب الباردة مع سقوط جدار برلين.

وختاماً لتلك السنة «الرائعة» أكّد اللقاء الذي جمع في مالطة بين ميخائيل غورباتشوف وجورج بوش في ٢و ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩، رغبة الجبارين في نزع السلاح وشهد دخول الاتحاد السوڤياتي مجموعة القوى الغربية الكبرى حيث دُعي ميخائيل غورباتشوف الى المشاركة كمراقب في أعمال مجموعة الـ ٧ وهي مجموعة تضم الدول الصناعية السبع الأغنى في العالم.

عندما يصبح الإصلاح ثورة

خلّدت سنة ١٩٩٠ ميخائيل غورباتشوف على الصعيد الدولي بمنحه جائزة نوبل للسلام.

وشارك الاتحاد السوڤياتي في أحداث الساعة التي شهدها العالم فأرهف حسّ الغرب. وفي تمّوز/ يوليو منح أعضاء مجموعة السبعة المجتمعون في هيوستون الاتحاد السوڤياتي المساعدة الاقتصادية التي طالب بها غورباتشوف.

وفي الشهر نفسه نتجت عن زيارة المستشار كول للإتحاد السوڤياتي «إتفاقية القوقاز» التي سمحت لألمانيا الموحّدة بالبقاء عضواً في حلف شمالي الأطلسي.

وبعد شهرين، أي في أيلول/ سبتمبر سوّت الاتفاقات التي أُبرمت في موسكو بين المنتصرين الأربعة في الحرب العالمية الثانية والألمانيتين مسألة إعادة التوحيد.

مع ذلك كان غورباتشوف قد توقع في السنة السابقة أنّه في حال «توحّدت الألمانيتان يحلّ محلّه مارشال سوڤياتي...».

وتمّت إعادة دمج الاتحاد السوڤياتي في صفّ القوى العظمى في حرب الخليج عندما تركت موسكو حليفها العراقي وانحازت لصف مجلس الأمن في الأمم المتحدة. في المقابل لم يتمكّن غورباتشوف على الصعيد الداخلي من ضبط سير الأحداث التي ولدتها رغبته في الاصلاح وكذلك لم يتمكن من ضبط القوى المركزيّة التي كانت تهدّد بانهيار الإتحاد.

وفي شهر تموز/ يوليو وخلال مؤتمر الحزب الثامن والعشرين استقال بوريس يلتسين وعدّة أعضاء إصلاحيين.

وأُخِذَ على غورباتشوف وقف عملية الإصلاح لمراعاة جانب المحافظين الشيوعيين. فيما اتهمه هؤلاء وعلى رأسهم «إيغور ليغاتشيف» «بالاستسلام للغرب».

فضلاً عن ذلك فإنّ تدهور الحالة الإقتصادية وبروز المطالب الاجتماعيّة زادا في صعوبة مهمّته.

وبدا منذ ذلك الحين عجزه عن التحكّم بوضع البلاد السائر نحو الهاوية. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠، طرح مشروع اتحاد مجدّد تمت تسميته «اتحاد الجمهوريات السوڤياتية المستقلة» وهي تسمية ألغيت فيها للمرة الأولى كلمة «إشتراكية».

لكن بعد شهر من ذلك أوقف غورباتشوف الاصلاحات ليبعد خطر الفوضى. فاستقال إدوارد تشيفاردنادزه وزير الخارجية وأدان المحاولة الفاشلة لمتابعة العملية الديمقراطية.

وخفّضت جمهورية روسيا مساهمتها في موازنة الاتحاد بنسبة ٨٠٪.

سنة النهاية

في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ تفاقم الوضع بسرعة في دول البلطيق ففي ريغا (ليتونيا) وڤيلنيوس (ليتوانيا) أدّى التدخل الوحشي الذي مارسته قوّات وزارة الداخلية السوڤياتية إلى موت الكثير من المناضلين القوميين.

وفي شباط/ فبراير وآذار/ مارس نُظّمت في دول البلطيق الثلاث استفتاءات بشأن الاستقلال.

وأيّدت غالبية السكّان الاستقلال. الاّ أنّ السلطات المحليّة، لا سيّما الرئيس الليتواني لاند سبيرجوس، أملت في أن تتوصّل إلى الاستقلال عن طريق التفاوض.

وفي نهاية شهر شباط/ فبراير، اتّفق الاتحاد السوڤياتي والديمقراطيات الشعبية السابقة على حلّ البناءين الاقتصادي والعسكري اللذين كانا يضمنان وحدة الكتلة الشرقية وهما: مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة وحلف وارسو.

وفي ١٧ آذار/مارس حقّق الاستفتاء الذي نظّمه ميخائيل غورباتشوف حول بقاء الإتحاد نجاحاً ساحقاً: فقد أيّد السوڤيات بنسبة ٧٦٪ قيام اتحاد مجدّد.

لكنّ خمس جمهوريات هي أرمينيا وجورجيا ودول البلطيق الثلاث رفضت المشاركة في هذا الاستفتاء.

وبعد انتخاب القومي غامساخورديا رئيساً لجورجيا، أُنتخب بوريس يلتسين في ١٥ حزيران/ يونيو رئيساً لاتحاد روسيا بنسبة ٦٠٪ من الأصوات، وضدّ خمسة مرشحين.

وفي موسكو تعدّت الأصوات نسبة الـ ٧٠٪.

وفي اليوم نفسه استعادت لينينغراد اسم سان بطرسبورغ بفضل تصويت سكّانها.

وقُضي على مناصري النظام الشيوعي في كل مكان. وحصل أناتولي سوبتشاك وغافريل بوبوف على التوالي، وهما ينتميان إلى التيار نفسه الذي ينتمي إليه يلتسين، على عمديّة سان بطرسبورغ وموسكو.

وأقلقت هذه النتائج غورباتشوف الذي أمل في إمكانية تطوير النظام الإشتراكي وتحسينه.

أمّا يلتسين وأصدقاؤه فجسّدوا الأمل في انفصال جذري عن ماضٍ كرهه الجميع. وتمتع يلتسين بالشرعية التي منحها إياه الاقتراع العام وبدا الملاذ الوحيد خلال محاولة الإطاحة بميخائيل غورباتشوف.

فمنفّذو هذه المحاولة قاموا في ١٩ آب/ أغسطس بانقلاب فشل بعد ٣٦ ساعة. وتسارعت الأحداث بصورة مدهشة.

وعلى اثر النداء الذي أطلقه يلتسين أفشل متظاهرون مؤيدون للديمقراطية محاولة الانقلاب هذه.

فألغي الحزب الشيوعي.وقضي على رموز النظام الحق كتمثال دجيرزينسكي مؤسس «التشيكا» (الاسم السابق للشرطة السياسية).

وفي غضون بضعة أيام قطعت روسيا علاقتها بثورة أكتوبر. وفي ٨ كانون الأول/ ديسمبر تشكلت في مينسك مجموعة دول مستقلة ضمت جمهوريات روسيا السلافية الثلاث وكذلك جمهوريات اوكرانيا وروسيا البيضاء.

ودعا يلتسين وكراڤتشوك وشوشكيڤتش جمهوريات الاتحاد السوڤياتي السابق الاخرى الى الانضمام الى هذه المجموعة.

وعن ذلك قال ميخائيل غورباتشوف: إنه انقلاب جديد، فهو لم يعد يدير سوء بناء شبح.

وفي ٢٥ كانون الاول/ ديسمبر استقال ورفرف العلم الاحمر للمرة الأخيرة فوق الكرملين. وانتهت اربع وسبعون سنة من النظام الشيوعي.

في ذلك الوقت خلال مؤتمر ألما ـ أتا انضمت الجمهوريات الثماني الأخرى الى مجموعة الدول المستقلة: لكن الصعوبات ظهرت، فرفضت الجمهورية «النووية» القيادة العسكرية الموحدة التي اقترحها بوريس يلتسين. فإذا كان هذا الاخير قد طمأن الغربيين واكتسب مكانة دولية فإن المشاكل الداخلية التي تواجهها روسيا، هددت امكانيات نجاح النظام الجديد.

الاقتصاد «الاشتراكي»: ميراث مزعج

لقد فشل غورباتشوف لأنه وجد نفسه عاجزا عن إصلاح البنى الاقتصادية الموروثة عن ستين سنة من التخطيط المتسلط.

وعندما كان لا بد من اعادة البناء ومن توليد الطاقة وتجهيز البلاد بالمعدات الضخمة كان الاقتصاد السوڤياتي في حالة جيدة تتأقلم وحاجات السلطة العسكرية.

لكن هذا الاقتصاد فضح مدى ضعفه البنيوي في ما يتعلق بتأمين سلع الاستهلاك للمواطن السوڤياتي.

وجاء عبء البيروقراطية والمركزية المفرطة وكذلك فشل الاصلاحات اللامركزية التي بوشرت في عهد خروتشيف لتقضي على النموذج الاقتصادي الموروث عن ستالين.

ولم يكن زعماء عهد بريجنيف المتعلقون بعقيدة شيوعية أمنت لهم ما يشبه الشرعية ينوون اعادة النظر في ذلك النظام.

وكان من شأن دخول المنافسة والربح وبعض أشكال الملكية الخاصة أن تؤدي الى رفض العقيدة الرسمية رفضا شاملا.

وكانت النتيجة انطلاق السوق السوداء التي تسمح بها الاجهزة المحلية وتشجع عليها كما هي الحال في اوزبكستان منذ السبعينات.

وكان تغيير النظام تحديا عجز ميخائيل غورباتشوف عن رفعه.

البيريسترويكا: الرهان

اذا كانت التعاونيات قد استفادت بعض الشيء من الاصلاحات الاقتصادية فإن القطاعات الاخرى قد نكبت في عهد غورباتشوف.

وساهمت في تلك النكبة المقاومة التي أبدتها البيروقراطية القائمة. لكنّ هذا غير كافٍ لتفسير عجز النظام عن إصلاح الادارات.

مما لا شك فيه ان العمال السوفيات لم يتمتعوا من قبل بمستوى معيشي متواضع، لكن حدا ادنى من الضمان تأمن لهم ولم يطلب منهم سوى انتاجية ضئيلة.

وكان اصلاح الاقتصاد السوفياتي يتم بصرف عدد كبير من العمال والموظفين في القطاعات كافة وبفرض مجهود انتاجي اضافي.

وكان على الآلة الاقتصادية ان تحرز نتائج مرضية خلافاً لما انتجته سنوات الجمود.

وهذا ما حتم تضحيات جديدة ويقدمها شعب عانى الكثير، وللأسف سيعم الشقاء والحرمان الاجتماعي السنوات التالية.

وحدها معالجة الاقتصاد والمجتمع السوفياتي كان بإمكانها ان تعيد الاتحاد السوفياتي الى مستوى الدول الغربية.

لكنّ غورباتشوف لم يمنح نفسه قطّ الوسائل السياسية للقيام بهذه المعالجة. فبرز عجز النظام في مجال البنى الزراعية الجديدة.

فالجميع يعرفون النتيجة الفاجعة لنظام الاستغلال الجماعي: فقد كان الاتحاد السوفياتي يحصل على نتائج لا علاقة بها بالمقدرات الهائلة التي كان يملكها.

على كل حال فإنّ تجربة «المزارعين الملاّكين الصغار» التي كانت سائدة قبل ١٩١٤ وخلال «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي اعتمدها لينين ومن ثمّ تجربة «قطعة الأرض الفردية» التي منحت للكولخوزيين قد برهنت أنّ السياسة الزراعية المستقلة والملاّكة وحدها قادرة على منح الإتحاد السوفياتي إنتاجاً زراعياً مناسباً.

لكنّ عندما أدخل مؤيدو الإصلاح شروطاً قانونية جديدة تهدف إلى القضاء على النظام الجماعي، واجهوا جمود المعنيين.

فالمزارعون المتأثرون بتجارب أسلافهم التعيسة أبدوا رفضاً للتخلي عن ضمان الكولخوز للانطلاق في مغامرة المبادرة الفردية.

إذاً لم يسوَّ أي شيء في هذا المجال في ظل إدارة غورباتشوف، ووحدها المجموعة العسكرية - الصناعية كانت قد توصلت حتى ذلك الحين إلى نتائج شبه مرضية وبقي القسم الأكبر من العمل لسنة ١٩٩٢: فالتحرير الذي أراده بوريس يلتسين وفقا للنموذج البولوني كان سبب شقاء ثلاثة أرباع الروس.

وفيما كان الاقتصاد الموازي يزدهر أصبحت سوق السلع القديمة الرخيصة وكذلك الدعارة موارد دخل منتشرة.

إنّه وضع لا يطاق ويحمل أخطاراً جسيمة؛ فمجرى الأحداث الجديد جرّد الروس من العزة التي كان يؤمّنها لهم وضعهم كقوة عظمى في الاتحاد فزاد حدّة مشاكلهم المعيشية المادية.

يقظة القوميات

لقد سهّلت حرية الكلام التي عادت مع البيريسترويكا والغلاسنوست بروز حركات قومية أو إنفصالية عديدة.

وهذه الحركات أكثرت من استغلال وسائل التعبير التي حظرها منذ زمن طويل النظام القيصري وذلك المنبثق من ثورة ١٩١٧ على حدّ سواء. ما لا شك فيه أنّ غورباتشوف لم يقدّر حق التقدير قوّة حلّ هذه الحركات كلّها.

وقد توقّعت هيلين كارير دانكوس في كتابها (L' Empire éclaté) الصادر سنة ١٩٧٨ ظهور المطالب القومية في الإتحاد السوفياتي.

لكنها رأت أنّ هذه المشاكل ستبرز أوّلاً لدى شعوب آسيا الوسطى الإسلاميّة، هذه الشعوب التي توصلت إلى المحافظة على هوية قومية وثقافية ودينية قوية. لكنّ المشاكل برزت في القسم الأوروبي من الإتحاد.

وكان التجدّد الديني قد سهّل المطالب القومية لدول البلطيق.

وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٨٩ أعلنت اللغات الإستونية والليتونية والليتوانية لغات رسميّة.

وفي آب/ أغسطس كان الاحتفال بذكرى المعاهدة الألمانية ـ السوفياتية ذريعة لتظاهرات عديدة تدعو إلى قيام الحكم الذاتي.

وفي ١١ آذار/ مارس ١٩٩٠ أعلنت ليتوانيا إستقلالها وتبعتها ليتونيا وإستونيا.

ولكنّ غورباتشوف أعلن أنّ هذا الاستقلال غير شرعي. وفي ليل ١٢ ـ ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، اقتحمت قوات وزارة الداخلية السوفياتية فيلنوس مودية بحياة أربعة عشر شخصاً.

وتكرّر السيناريو نفسه بعد أسبوع من ذلك في ريغا وأوشكت استونيا على الوقوع في المشكلة نفسها.

لكن الصدامات الدامية قوّت رغبة الجمهوريات الثلاث في الاستقلال. وخلال الاستفتاءات التي نظّمت في شباط/ فبراير (في ليتوانيا) وفي آذار/ مارس (في إستونيا ولتونيا) صوّت السكّان بغالبيتهم لصالح الاستقلال الشامل الذي أصبح فعلياً بعد فشل انقلاب آب/ أغسطس ١٩٩١.

فهذه الجمهوريات رفضت الانضمام الى مجموعة الدول المستقلّة واختارت التوجه نحو الغرب لا سيّما نحو المانيا والدول السكندينافية.

ونالت روسيا البيضاء استقلالها في ٢٥ آب/ اغسطس ١٩٩١.

وعلى الرغم من وجود أقلية روسية في شرقي أوكرانيا بدت هذه الأخيرة بسكانها البالغ عددهم خمسين مليوناً وبمساحتها البالغة ٦٠٠,٠٠٠ كلم² قوة تتمتع بمؤهلات إقتصادية كبيرة.

فقد تخلّت عن القوة النووية بسبب انفجار محطة تشيرنوبيل سنة ١٩٨٦.

وكان من مسألة وضع الأسطول السوفياتي في البحر الأسود، هذا الأسطول الذي أراد مجلس القيادة الروسي إبقاءه تحت سيطرته.

وكذلك من مصير جزيرة القرم التي ضمّها خروتشوف إلى أوكرانيا فيما تسكنها غالبية روسية، أن وتّرا علاقة أوكرانيا بروسيا.

فحالة القرم معقّدة لا سيّما وأنّ الذين هجّروا إلى آسيا الوسطى خلال الحرب العالمية الثانية، يرغبون في استرجاع أرض أجدادهم، وهذا ما لا تقبل به روسيا وأوكرانيا.

وفي مولدافيا الوضع أسوأ. فتحت ضغط الجبهة الشعبية المولدافية الراغبة في ضمّ البلاد إلى «رومانيا الكبرى»، أعلن البرلمان سيادة الجمهورية في تموز/ يوليو ١٩٩٠.

لكنّ السكان الناطقين باللغة الرومانية لا يشكلون سوى ثلثي المولدافيين وعارضت الأقليات الناطقة باللغتين الروسية والتركية ضمّ البلاد إلى رومانيا.

ومنذ ذلك الحين، زادت حدّة التوتر واندلعت حرب أهلية على ضفاف الدنيستر خلال شتاء ١٩٩١ - ١٩٩٢.

مأزق القوقاز

يشكّل القوقاز الحالة المثالية عن منطقة اتّخذت فيها المواجهات الانفصالية بعداً مخيفاً.

فيقظة القومية الأرمنية وقد تلت الزلزال العنيف الذي ضرب هذه المنطقة، قد أدّت للحال إلى اندلاع نزاع مسلّح في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠ بين الأرمن والأذريين على التحكم بمنطقة الكاراباخ الأرمنية الواقعة داخل الأراضي الأذرية.

وتضاف هذه المواجهة القومية إلى نزاع ديني قديم بين المسيحيين والمسلمين. وكان وضع الكاراباخ نسخة مطابقة لمنطقة ناكيتشيفان الإسلامية الواقعة في جنوبي أرمينيا.

أمّا جورجيا المجاورة فلم تخلُ من النزاعات إذ عاشت أزمة داخلية خطيرة سبّبها رحيل الرئيس المنتخب غامساخورديا وكان عليها مواجهة رغبة الأبخازيين في الإنفصال.

أمّا أوسيتيو الجنوب المتعلقون إدارياً بجورجيا منذ عهد ستالين فطالبوا بحقهم في الانضمام إلى أوسيتيي الشمال المتعلّقين بروسيا.

إنّه وضع معقّد لا سيّما وأنّ الروس بعد أن ذاقوا الأمرّين من تجربتهم في أفغانستان رفضوا القيام بدور الحكم والتورّط في المسألة.

ومن شأن انفصال الشعب الإتحادي هذا أن يحمل عواقب جسيمة. فبدأت إيران وتركيا

المجاورتان لأرمينيا وأذربيجان معركة نفوذ قوية.

أمّا تركمانستان وأوزبكستان فبقيتا هادئتين باستثناء بعض النزاعات الإثنية المحلية.

في المقابل قام بين كيرغيزستان وطاجيكيستان معركة شرسة في سبيل السلطة بين مؤيدي النظام الشيوعي والحركات الإسلامية.

ويبدو أنّ كازاخستان الممتدّة على مساحة مليونين ونصف المليون كلم٢ والتي تتألف غالبية سكّانها من الروس، تريد البقاء في كنف مجموعة الدول المستقلة.

أمّا جمهورية روسيا الاتحادية فقد شهدت الرفض الأكبر للاتحاد. فبالنسبة للكثير من الروس، إنّ النظام الإتحادي السوفياتي المنبثق من إمبراطورية القياصرة السابقة، كان لصالح الجمهوريات البعيدة عن المركز وقد فرض على جمهورية روسيا تضحيات هائلة.

وتبدو روسيا بسكّانها البالغ عددهم مئة وخمسين مليوناً وبموارد المساحة السيبيرية الضخمة، وقد ورثت عن الاتحاد السوفياتي السابق صلاحياته الدولية وترسانته النووية، القوة الكبرى الكامنة وهذا ما سيثير مخاوف شركائها السابقين القلقين على استقلالهم الجديد...

ومن الصعب اليوم التنبؤ بمستقبل السلطة السوفياتية السابقة. فعلى هذه السلطة التي زعزعتها بؤر التوتر من المتوسط الشرقي إلى آسيا الوسطى، مواجهة شكوك التطوّر السياسي لجمهورية روسيا التي تعاني مشاكل اقتصادية واجتماعية.

الاضطرابات الأولى في أوروبا الشرقية: بروز حزب التضامن

لقد شهدت سنوات البيريسترويكا أيضاً تفكّك الكتلة التي شكّلتها في الشرق الديمقراطيات الشعبية.

وكان ستالين يرى أنّ هذه الكتلة ستشكّل تقدّماً نحو ألمانيا وأوروبا الغربيّة، أمّا خلفاؤه فرأوا أنّها ستساهم في أمن الملاذ السوفياتي.

فإنّ ثورة برلين سنة ١٩٥٣ والقضاء على الثورة الشعبية البولونية في بوزنان وكذلك الثورة المجرية سنة ١٩٥٦ وبناء جدار برلين سنة ١٩٦١ و«التسوية» التي برزت في براغ سنة ١٩٦٨ بعد «الربيع التشيكي» وكذلك قمع التظاهرات العمالية سنة ١٩٧٠ في البلطيق، كلّها برهنت على أنّ الاتحاد السوفياتي وشركاءه المحليين لا ينوون إعادة النظر في الحالة الراهنة التي سادت بعيد الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب الباردة.

فبالنسبة لهذه الدول كافة ستكون الثمانينات فترة مسيرة شاقة، لا تقاوم، نحو الحرية.

بدأ كل شيء في بولونيا في صيف ١٩٨٠، وقبل سنتين من ذلك، أنتخب كورال وجتيلا Koral Wojtyla بابا تحت إسم يوحنا بولس الثاني.

وسيكون هذا الانتخاب الذي تلته زيارة الحبر الأعظم لوطنه الأمّ، بداية طلاق بين الجهاز الحاكم والمجتمع المدني الذي أمّنت له الكنيسة الكاثوليكية لمدة جيلين الإطار الطبيعي لمقاومة

النظام الشيوعي مقاومة سلبية.

وخلال صيف ١٩٨٠ اكتشف العالم بذهول أنّ عاملاً بسيطاً يدعى ليش ڤاليسا وقد أصبح رئيس حزب التضامن، قادر على قلب نظام ظنّ الجميع أنه لا يُقهر.

ووجدت السلطة نفسها مجبرة على الاعتراف بوجود حزب غير رسمي. وتحطم حلم التحرّر التدريجي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١ عندما تحكّم الجيش البولوني نفسه بالوضع وفرض حالة الطوارئ.

فهل دل ذلك على رغبة الجهاز الحاكم في البقاء أو على تفادي تدخّل الجيش الأحمر الدامي؟

على أيّ حال فإنّ ضربة الجنرال ياروزلسكي هذه لم تكن لتعطي بولونيا الردّ السياسي الذي تنتظره.

ولا يمكن للقمع إسكات القوى المعارضة التي يؤيدها الرأي الغربي الذي كان لا يزال متأثراً باستشهاد الأب بوبيلوسكو Popiel'uszko.

حزب التضامن ومنافسوه

كان العفو العام سنة ١٩٨٦ صورة عن علاقات القوى بين السلطة العسكرية المجرّدة من قاعدة اجتماعيّة كافية لجعلها شرعية، والكنيسة الكاثوليكية الناطقة باسم تطلّعات البلاد.

وأدرك ياروزلسكي أنّ الأسقفيّة مستعدّة للتسوية لتجنب الأسوأ وعرض على البولونيين أن يعبّروا عن رأيهم باستفتاء حول خطّة الإصلاح الاقتصادي التي أعدّها.

لم يصوّت حزب التضامن؛ لكن في تشرين الثاني/ نوڤمبر ١٩٨٧ تنصّل الناخبون من السلطة وأقرّوا بفشل «التسوية» التي سعت اليها حكومة ياروزلسكي.

ورفعت تشيكوسلوڤاكيا التي خضعت للتسوية منذ القضاء على ربيع براغ سنة ١٩٦٨ رأسها أوّلاً باسم الحرية الدينية بمناسبة الاحتفال الألفي بعيد القديسين كيرلّوس وميثود مبشريِ السلافيين ثم باسم الحرية، وتكتل المفكّرون وغالبيّة أفراد المجتمع المدني تحت لواء معارضة النظام السلميّة.

أمّا المجر التي يحكمها جانوس كادار منذ القضاء على ثورة ١٩٥٦، فقد كانت تتميّز عن الديمقراطيات الشعبية الأخرى بتحرّر اقتصادي نسبي وبحرية تعبير أكبر من تلك التي تتمتع بها الدول المجاورة.

لكن في أيار/ مايو في سنة ١٩٨٨ أُطيح جانوس كادار. وأُبعد مناصروه أيضاً عن أجهزة الحزب الحاكم وتوجهت البلاد أخيراً نحو تحرّر سياسي سبق تحرّر «الدول الشقيقة» الذي سيتم في السنة التالية.

وبرز الحسّ الوطني الذي خُنق لمدة ثلاثين سنة من خلال تكريم شهداء ١٩٥٦ أو من خلال التضامن مع الأقليّة المجرية في رومانيا.

ومع البيريسترويكا السوفياتية، تسارعت الأحداث.

١٩٨٩ أو الحريّة المُستعادة

في آذار/ مارس ١٩٨٩، في فيينا، أكّد مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا المنبثق من اتفاقات هلسنكي سنة ١٩٧٥ الاتجاهات التحررية الجديدة لأنظمة الشرق في مجال حقوق الإنسان وتنقّل الأشخاص الحرّ.

وبعد بضعة أسابيع نُظّمت في بولونيا انتخابات على أثر «اتفاق المائدة المستديرة» الذي أبرم في شباط/ فبراير بين السلطة وممثلي المعارضة.

وشهدت هذه الانتخابات هزيمة المرشحين الشيوعيين وفوز مؤيدي حزب التضامن.

وشكّلت حكومة وضعت تحت مراقبة غالبية غير شيوعية.

خلال صيف ١٩٨٩، تسارعت عملية زوال الدول الشيوعية المرتبطة بموسكو. وفي ٢ حزيران/ يونيو فتح المجر حدوده مع النمسا.

واستغلّ آلاف الألمانيين الشرقيين الذين ذهبوا لقضاء العطلة في المجر وجود هذه الثغرة في «الستار الحديدي». فدخلوا المانيا الغربية.

وكان لهذا الحدث عواقب وخيمة. قامت التظاهرات في تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية للمطالبة باصلاحات اقتصادية.

ووجدت الأنظمة القائمة نفسها ضعيفة في وجه اتّساع المعارضة لا سيّما وأنّها لم تعد تعتمد على الأخ «السوفياتي الكبير».

وتخلّى هونيكر (في ألمانيا الشرقية) وجيفكوف (في بلغاريا) عن السلطة لصالح هانس مودرو وبيتمار ملادينوفا.

وفي تشيكوسلوفاكيا حملت «الثورة المخملية» الكاتب والمعارض ڤاكلاڤ هاڤل إلى رئاسة البلاد.

ويلخّص سقوط جدار برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر أحداث الشهور السابقة. وأعلنت الانتخابات العامة في كل مكان في الربيع التالي.

وفي العملية الديمقراطية هذه برزت رومانيا حالة خاصة. فقد أطاحت جبهة الإنقاذ الوطني نيكولاو تشاوتشيسكو.

وفي نهاية السنة لم يبق في أوروبا الشيوعية السابقة سوى يوغوسلافيا التي تعاني الأزمات وألبانيا التي سيختفي فيها خلفاء أنور خوجا في نهاية «الإشتراكية العلمية».

وإذا كانت سنة ١٩٨٩ قد شهدت على مدى بضعة أشهر نهاية حقبة قديمة تعود إلى حوالى نصف قرن، فإنّ السنتين التاليتين حفلتا أيضاً بالأحداث.

فقد بدأت بولونيا التي انتخبت ليش فاليسا رئيساً لها سنة ١٩٩١، عمليّة إصلاح إقتصادي من شأنه أن يسمح لها بالتخلّص من ديونها.

أمّا تشيكوسلوفاكيا فاتجهت نحو الغرب. وخلال سنة ١٩٩٢ توصل التشكيك والسلوفاك إلى مشروع طلاق وديّ يضمن لسلوفاكيا ولبوهيميا سيادة كلّ منهما.

وسنة ١٩٩٠ أيضاً توحّدت ألمانيا بمباركة الغربيين والسوفيات. وخرج المسيحيون - الديمقراطيون التابعون للمستشار كول منتصرين في الانتخابات التشريعية الأولى التي نُظمت على أراضي الدولة الجديدة كافة.

ولم تتمّ إعادة إنعاش ألمانيا الديمقراطية السابقة بسهولة لا سيّما بوجود معدّل تضخّم غير عادي.

وكانت تصفية الميراث الشيوعي سريعة وأعيد شراء غالبية المؤسسات، لكنّ إعادة البناء وأرباح الإنتاج خلفت بطالة واسعة تبقى شغل الزعماء ما وراء الراين الشاغل.

وفقد المستشار كول منصبه في الانتخابات التالية.

أخيراً في المجر وبوهيميا وبولونيا وفي ألمانيا الديمقراطية السابقة، فاز اليمين المعتدل في الانتخابات: وهو يسعى إلى الانفتاح على الغرب فيما يُخلي جنود الجيش الأحمر «الدول الشقيقة السابقة».

وأصبحت مسألة الأقليات المجرية في سلوفاكيا والفويفودين الصرب رهاناً سياسياً هاماً، وفي هذا السياق برز الحذر الناتج عن تقسيم الأراضي تقسيماً عشوائياً على أثر الحربين العالميتين.

برميل البارود اليوغوسلافي

لم تتمتع يوغوسلافيا التي برزت بعيد الحرب العالمية الأولى قط بقاعدة وطنية متجانسة، ووحدها ديكتاتورية تيتو حافظت لغاية الثمانينات على وحدة معينة.

فقد توصل تيتو وهو كرواتي إلى إعادة السلطة إلى الكرواتيين مراعياً الحساسية الصربية.

وبعد وفاته سنة ١٩٨٠، تزعزع هذا التوازن من جديد. وزادت حدة التوتر تدريجياً وأدّت رغبة الجمهوريتين الأقوى في الاتحاد إلى إشعال حرب الانفصال.

ففي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ في سلوفينيا وفي أيار/ مايو ١٩٩١ في كرواتيا أقرّت الاستفتاءات بفوز القوميات.

ومنذ نهاية شهر شباط/ فبراير من سنة ١٩٩١، أعلن البرلمان السلوفيني والبرلمان الكرواتي استقلال جمهوريتيهما.

وتدهور الوضع عند انتهاء عهد الصربي جوفيك. وحسب التناوب، فإن الرئيس الجديد سيكون كرواتياً.

لكنّ الصرب الذين تخوّفوا من أنّ يشجّع رئيس كرواتي رغبة الكرواتيين في الانفصال، رفضوا ذلك.

وفي ٢٥ حزيران/ يونيو يوم إعلان استقلال سلوفينيا وكرواتيا، أمر رئيس وزراء الاتحاد ماركوفيك الجيش اليوغوسلافي بفرض احترام قوانين الاتحاد.

وتوصلت سلوفينيا إلى استقلالها من دون أي صدامات. في المقابل، بدأ النزاع في كرواتيا، فرفضت الأقليات الصربية في سلافونيا (شرقي كرواتيا) وفي كرآجينا (جنوبي غربي كرواتيا) العيش تحت السلطة الكرواتية وأعلنت رغبتها في الإنضمام إلى صربيا.

وفي هذا الوقت انجزت صربيا توحيدها بإصدار دستور يلغي استقلال مقاطعتي الكوسوفو والفويفودين.

أمّا البوسنة ـ الهرسك التي تسكنها ثلاث قوميات مختلفة، المسلمون والصرب والكرواتيون فتخوّفت من تشكيك صربيا الكبرى ومن التورّط في حرب صربية ـ كرواتية. وأعلنت استقلالها في الأول من آذار/ مارس ١٩٩٢ على أثر استفتاء قاطعه ثلث السكان الصربيين.

وشجّع رفض المسلمين تصوّر نظام كونفدرالي واسع، الطرفين الآخرين على تملّك الأراضي التي ستُضم إلى صربيا الكبرى وإلى كرواتيا الكبرى.

وأعلنت ماسيدونيا من جهتها استقلالها في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

وهكذا ففي أواسط ١٩٩٢ برزت خمس دول على أنقاض يوغوسلافيا السابقة: كرواتيا، سلوفينيا، البوسنة والهرسك، ماسيدونيا وجمهورية يوغوسلافيا الاتحادية المؤلفة من صربيا والمونتينيغرو (الجبل الأسود).

ولم تعترف الأسرة الدولية بسوى الدول الثلاث الأولى. فمنذ الحرب العالمية الثانية لم ينتج عن أي نزاع موجة لاجئين مماثلة. أكثر من ثلثي هؤلاء اللاجئين من البوسنة والهرسك.

وفي حزيران/ يونيو ١٩٩٢، أحصي في البوسنة والهرسك ٣٠,٠٠٠ قتيل ومفقود.

وقد انتهكت اتفاقات وقف إطلاق النار كلّها التي تمت برعاية المجموعة الأوروبية أو الأمم المتحدة، وبدا عجز أوروبا عن تصّور سياسة مشتركة أمام اليقظة غير المتوقعة في البلقان.

أمّا تضامن اليونان مع صربيا ومساعدات الأمم المتحدة الإنسانية وكذلك الأطماع التركية واهتمام الدول الاسلامية بالضحايا المسلمين، حوّل هذا النزاع إلى صاعق مخيف.

الصين: نحو تحررية من دون حرية

خلافاً للاتحاد السوفياتي السائر في عملية تحرّر سياسي ولكنّه غير قادر على إتمام إصلاح إقتصادي واسع يسمح له بمواجهة التنافس العالمي، حقّقت الصين الشيوعية تغيّرات هامة وشهدت نتائج اقتصادية مشجّعة.

في المقابل، قمع النظام السياسي المتطلّب المعارضة السياسية في حزيران/ يونيو ٩٨٩،

وبالنسبة للصين فان النقطة الحاسمة كانت سنة ١٩٧٨ بعد سنتين من وفاة ماو وقيام السلطة الانتقالية.

وتوصّل دينغ هسياو پينغ إلى فرض نفسه رئيساً على البلاد. ومن دون محو «سياسة ماو» محواً رسمياً، تمت تصفية عواقب سياسة ماو و «الثورة الثقافية» ومحاكمة عصبة الأربعة.

ومنذ ذلك الحين استطاعت الصين سلوك طريق «التحديثات الأربعة» التي يطالب بها دينغ هسياو پنغ.

وقد خرجت من عزلتها وتقربت من الغرب. وتخلّت عن التفكير الثوري الذي ساد عهد ماو لتنكبّ على التحوّل إلى قوة إقليمية عظمى.

وستؤكّد الثمانينات هذا الميل إلى الانفتاح والتحديث. ويشهد جنوب البلاد قيام مناطق اقتصادية خاصّة منفتحة على رؤوس الأموال الأجنبية.

وحُلّت المجالس الشعبية، وهي وحدات إنتاجية أساسية في الصين في عهد ماو.

وتمّ أيضاً تجريد الزراعة من طابعها المشترك على مراحل ومنحت عدة مؤسسات حرفية بعض الحرية.

وتبدّل المجتمع الصيني مبتعداً عن المساواة وهي عزيزة على قلب مؤيدي «الثورة الثقافية».

ومع أن الصين لا تزال تعاني البؤس فهي قد حقّقت تقدماً ثابتاً ومنتظماً يرافقه نمو مدهش بنسبة ١٠٪ سنوياً.

وعلى غرار دول آسيوية أخرى بقيت متخلّفة لمدة طويلة، انضمّت الصين الى تيارات التبادل العالمي.

لكنّ هذا التطور الاقتصادي يؤدي إلى شقّ الشعب الصيني من جديد.

وكان التنوّع الذي أصاب المجتمع وتطّور «الحس العام» الذي سهّله الاتصال بهونغ كونغ وتايوان، يؤديان إلى تحرّر سياسي.

لكنّ ذلك لمّا يحدث لأنّ الإدارة الصينية تخشى القوى التي من شأنها أن تعيد النظر في وحدة البلاد.

وإذا ما تمت الموافقة على ضرورة النمو والتحوّل إلى بعض مبادىء التحرّر الإقتصادي فإنّ إقامة نظام سياسي ديمقراطي ليس على جدول الأعمال. وتشهد على ذلك الأحداث المأساوية التي طبعت «ربيع بيكين» سنة ١٩٨٩.

فقد تجمع الطلاب في ١٥ أيار/ مايو في ساحة تيان آن مين وشجبوا الفساد والدكتاتورية مطالبين بإصلاحات وبحرية التعبير.

وفي ٢٠ أيار/ مايو أعلن الحكم، بعد أن تأكد من أن الشعب لن يساند المعارضة الطلابية، القانون العرفي في بيكين.

وفي ٤ حزيران/ يونيو استعاد الجيش ساحة تيان آن مين بعد أن رواها بدماء الطلاب.

وعلى أثر سياسة القمع هذه، عُزلت الصين عن الساحة الدولية لكنها ما لبثت أن استعادت مكانتها.

وقد غطّت سياسة الامتناع عن التصويت التي اعتمدتها في مجلس الأمن خلال حرب الخليج عدم احترامها حقوق الإنسان.

فإذا كان مصير الصين السياسي غير مؤكّد فإنّ متابعة الإنفتاح على اقتصاد السوق يحمل علامات نموّ لا بأس به في دولة استطاعت التحكّم بتزايد سكّاني بدا لا يقاوم.

وتستمرّ المعجزة اليابانية

تابع عملاق آسيا الشرقية الآخر، اليابان، تطوّره المذهل، وقد دلّ معرض تسوكوابا التقني سنة ١٩٨٥ وكذلك تزايد صادراته على نوعية النتائج التي حقّقها.

أمّا أسباب نجاح «النموذج الياباني» فمعروفة: طاقة عمل منتظمة، دمج اجتماعي متطور، المكانة العظيمة التي تميّز البحث والتجديد التقني. نضيف إلى هذه الأسباب استراتيجية عالمية فعلية تطبّقها وزارة التجارة الخارجية والصناعة لغزو الأسواق أو لشراء المؤسسات التي تعاني مشاكل في الولايات المتحدة أو في أوروبا وذلك لتحسين أدائها.

وهكذا تملك اليابان احتياطات إدّخار هائلة ويحتفظ الين بمكانة حسنة أمام الدولار.

وأصبحت اليابان بعد بقائها شريكاً فعّالاً في مجموعة الدول الصناعية الكبرى القوة الاقتصادية العالمية الثانية بعد الولايات المتحدة. اليابان عملاق اقتصادي لكنّها قزم سياسي لذلك فهي عازمة على إبراز آرائها على الساحة الدولية.

فهي تطالب بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن ذاكرة أهمية المساهمة التي تمنحها للمنظمة.

وقد انتقدت على اكتفائها بالمشاركة في تمويل حرب الخليج من دون أن ترسل جنوداً الى العربية السعودية فقرّرت للمرة الأولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إرسال وحدة عسكرية إلى كمبوديا.

وأقلق تدخّل القوة اليابانية للدفاع الذاتي بعض الدول الآسيوية التي عانت في الماضي الإمبريالية اليابانية.

وطبعت وفاة الإمبراطور هيروهيتو الذي خلفه ابنه اكيهيتو نهاية حقبة. فاليابان أكيدة من قدراتها وفخورة بما حققته من نتائج لذلك فهي تستعد للاضطلاع بدور القوة الأقليمية التي تدلّ عليه النتائج الاقتصادية.

آسيا الشرقية في تبدّل

شهدت دول آسيوية أخرى تغيرات هامة في تلك الحقبة. فقد انضمت تايلندا وماليزيا وأندونيسيا

إلى كوريا الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ وسنغافورة.

وممّا لا شك فيه أن كمبوديا والڤيتنام لن تلبثا أن تلحقا بهذه الدول.

فمع الصين التي تشهد نمواً مذهلاً ستحوّل هذه الدول في هذه المنطقة إلى أكثر مناطق العالم نشاطاً على مشارف القرن الحادي والعشرين.

لكنّ ذلك يبدو صعباً بالنسبة للفيليبين حيث أتاح رحيل فرديناند ماركوس سنة ١٩٨٦ وانتخاب كورازون اكينو التي حلّ محلّها فيدل راموس في حزيران/ يونيو ١٩٩٢ قيام ديموقراطية برلمانية هشة لا تفتح الطريق أمام التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي.

وفي برمانيا يبدو الحكم العسكري عازماً على البقاء في السلطة بواسطة القمع، الا أنّ منح عضو المعارضة أونغ سان سوو Aung San Suu جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٩١ أعادها إلى الواجهة وأضعف ضغط الدول الغربية دور الديكتاتورية.

أمّا الهند الصينية فستعيد السلام ولو بوجود بعض الشكوك في كمبوديا حول موقف الخمير الحمر في المستقبل.

أعمال العنف في الهند

منذ عودة أنديرا غاندي الى السلطة سنة ١٩٨٠ تشهد الهند قيام حركات انفصالية لا تتورّع عن اللجوء إلى العنف والاغتيالات. وقد كانت دول الأسّام والبنجاب وكشمير ساحة اضطرابات دامية. وقد ضربت الأزمة في البنجاب قلب السلطة المركزية. وسنة ١٩٨٤ قضى الجيش على الوطنيين السيخ بمهاجمة المعبد الذهبي.

وبعد بضعة أشهر اغتيلت رئيسة الوزراء على يد حرّاسها السيخ. وخلفها ابنها راجيف.

وكان عليه مواجهة الأصوليين المسلمين والهندوس. لكن تحالفاً ضمّ متطرّفين هندوس أبعده عن السلطة سنة ١٩٨٩ واغتيل سنة ١٩٩١ أثناء الحملة الانتخابية فيما كان يحمل آمال حزب المؤتمر.

ونسب الاغتيال إلى «نمور» التامول الذين واجهتهم الهند في سريلنكا.

لكنّ هذه الاضطرابات لم تخفف التقدم الاقتصادي الذي أحرزته البلاد العازمة على الاضطلاع بدور بحري هام في المحيط الهندي وعلى الصعيد الدولي ساندت الهند التي كانت لمدة طويلة مقربة من الاتحاد السوڤياتي، تدخل موسكو في أفغانستان وهي معزولة منذ انهيار الكتلة السوڤياتية.

أطماع الباكستان

إذا كانت بنغلادش لا تزال تتخبط في مشاكل التنمية التي لا حلّ لها فإنّ الباكستان مستمرّة في التطوّر إلى أن تصبح الدولة الإسلامية الأولى التي تملك سلاحاً نووياً.

وقد قاتل رؤساء إسلام أباد جارهم الهندي ثلاث مرات بسبب منطقة كشمير.

وتنوي الباكستان البروز كحكم في المنطقة وهي تتابع عن قرب تطوّر الوضع في أفغانستان وكذلك في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى التي تسلّمت مصيرها بيدها بعد تفكّك الإمبراطورية السوفياتية.

على الصعيد الداخلي شهدت نهاية الثمانيات انتخاب بنازير بوتو. وقد أتاح موت الجنرال ضياء الحق الذي أطاح علي بوتو وأعدمه، لابنة هذا الأخير فرصة الانتقام لكنّ هذه الفرصة كانت قصيرة.

فتمكّن الحزب الوطني الإسلامي مستنداً إلى الجهاز العسكري من التحكّم بوضع البلاد.

وبعد أن كانت الباكستان حليفةً الولايات المتحدة خلال مواجهتها الإقليمية مع الهند، أقامت علاقات باردة مع إدارة بوش التي تخوّفت من أطماعه النووية. وقد انضمت الباكستان إلى التحالف المعادي للعراق سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١ .

أفغانستان في حربها الأهلية

لم تخرج أفغانستان من الحرب بانتهاء الاحتلال السوفياتي. فمنذ رحيل الدبابة السوفياتية الأخيرة في شباط/ فبراير ١٩٨٩ يقاتل المجاهدون الحكم الشيوعي الذي أقامه الإتحاد السوفياتي.

وبعد أن استولوا على موقع خوست في نيسان/ إبريل سنة ١٩٩١، سيطروا في السنة التالية على مزار شريف في الشمال وقندهار في الجنوب.

وفي نيسان/ أبريل سقطت كابول ومعها النظام الشيوعي الذي كان يترأسه نجيب الله.

ولم تتمكّن أي حكومة ثابتة من الحلول محل نجيب الله على رئاسة البلاد المنقسمة إلى فئات اتنية ودينية.

في الواقع فإن جيش المجاهدين الذي يقوده الشاه مسعود لا يمثل المقاومة الأفغانية كلّها.

فهو تحالف خليط يضمّ الطاجيك والشيعة والميليشيات الأوزبكية التي كان يعتمد عليها النظام الشيوعي البائد.

بعد ذلك واجه مسعود معارضة الحزب الإسلامي الراديكالي يترأسه حكمتيار وتسانده الباكستان.

وأزكى التنوع القبلي والمنافسة بين الرؤساء نار الحرب الأهلية. وأصبحت أفغانستان بؤرة توتر وعدم استقرار.

وقد كشفت الأزمة الأفغانية التي ظهرت على أثر التدخل السوفياتي سنة ١٩٧٩، عن المقاومة التي قد تبديها الأصولية الإسلامية في وجه قوة عظمى.

وباسم التضامن الإسلامي ساندت كل من الباكستان وإيران والعربية السعودية ومصر المقاومة الأفغانية وانضم عدة متطوعين، لا سيّما من الجزائريين، إلى صفوف المجاهدين.

وهذه ردّة فعل لم تكن واردة قبل خمس عشرة سنة: عندما كان معظم الدول الإسلامية منغمسة

في تجارب مستوحاة من القومية العلمانية كالمثال التركي أيام مصطفى كمال والبعث العراقي والسوري أيام ميشال عفلق وكذلك الناصرية في مصر.

النهضة الإسلامية

في نهاية السبعينات عاد التيار الاسلامي الى ايران والدليل على ذلك انتصار الثورة الإيرانية التي قادها آية الله الخميني وقيام جمهورية إسلامية . وفي الفترة نفسها أعادت الباكستان في عهد ضياء الحق والسودان العمل بالشريعة الإسلامية.

وبعد ذلك بقليل، اغتيل الرئيس المصري أنور السادات على أيدي «الإخوان المسلمين» وفي السنوات التالية دلّ دور حزب الله في لبنان وتطوّر الأصولية الإسلامية في قلب المقاومة الفلسطينية وكذلك النجاح الإنتخابي الذي حققته الجبهات الإسلامية في المشرق والمغرب، على أنّ العالم العربي المسلم متأثر بأكمله بعودة النزعة الدينية.

وهذه النزعة سهّلت قيامها خيبات الأمل التي بدت بعد الفرح بالتخلص من الإستعمار.

ولم تتم التنمية الإقتصادية المنتظرة.

ويجد الإسلام للصعوبات الناتجة عن تنمية مستحيلة، أجوبة بسيطة فيعرض على الشعب إيماناً محرّكاً وشروطاً أخلاقية تلقى صدىً قوياً في المجتمعات التي تعاني الفساد أو تتسم بالطابع الغربي.

وتشكل النهضة الإسلامية اليوم عامل عدم استقرار قوي وغير متوقّع إذ إنّها تعارض الماركسية السوڤياتية والغرب الذي يمارس سياسة لصالح إسرائيل.

وكان العالم منقسماً بين الديمقراطية الليبرالية للدول الرأسمالية العظمى والأنظمة الشيوعية وهما صيغتان مستوحاتان من العقيدة الغربية السائدة منذ نهاية القرن الماضي.

وتنحو هذه النهضة الدينية والسياسية باللائمة على ادّعاءات الغربيين حول المحافظة على حقوق الإنسان وكذلك رغبتهم في تجميد الوضع العالمي لصالحهم (بالابقاء على الوضع الراهن في الشرق الأوسط).

لقد أبعدت الجمهورية الإيرانية الإسلامية التي انبثقت من سقوط النظام الإمبراطوري حلفاءها الشيوعيين أو «المجاهدين» عن الحكم.

وبإدارة آية الله الخميني قبلت إيران اختبار القوة الذي نجم عن الهجوم العراقي في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠.

وقد استمرّت الحرب بين البلدين لثماني سنوات. وسرعان ما تم الإتفاق على هدنة. وأتاح موت الخميني لرفسنجاني فرصة الوصول إلى الرئاسة في صيف ١٩٨٩.

وخلال حرب الخليج الثانية اتّخذت طهران موقفاً محايداً وتمكنت من العودة الى الساحة الدولية.

فضلاً عن سياسة الانفتاح على الغرب التي بدأت تتبعها اهتمت طهران بتطّور الوضع في أفغانستان وفي أذربيجان وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية لا سيّما في طاجيكيستان.

وأمّا علاقة العراق بالدول الغربية فهي جيدة إذ يستفيد منها سواء في المجال الزراعي أو في مجال المعدّات المدنية والحربية.

وبضغط أميركي قبلت إسرائيل البدء بمفاوضات شاملة مع الفلسطينيين أثناء مؤتمر مدريد في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١.

وسنة ١٩٩٢ فتح فوز حزب العمّال بزعامة إسحٰق رابين في الانتخابات العامة أبعاداً جديدة.

فقد ولّى زمن التصلّب الذي جسّده إسحٰق شامير والغالبية اليمينية في حزب الليكود الذي كان يرفض أي تسوية تتعلق بالتخلّي عن الأراضي المحتلة.

أمّا منظمة التحرير الفلسطينية التي ساندت العراق أثناء النزاع فقد فقدت اعتبارها مؤقتاً على الساحة الدولية.

لكنّ منظمة التحرير التي شاركت في مفاوضات السلام في مدريد توصلت إلى استعادة دورها كمحاور.

أمّا هامش تحركها فضيق لا سيّما وأن حركة المقاومة الإسلامية حماس قد أحكمت قبضتها على سكان الأراضي المحتلة فأضعفت شرعيتها.

هل أفريقيا محكوم عليها بالفوضى؟

موجات جفاف متلفة، جمود زراعي، سكان في تزايد، تراجع صناعي، ديون خارجية ضخمة، مشاكل صحية خطيرة، مرض السيدا يصيب ثلث السكان في بعض الدول: مآسٍ بلا حلول ضربت أفريقيا.

فقد بدأت الأزمة التي تتخبط فيها القارة السوداء في أواسط السبعينات لتبلغ ذروتها في نهاية الثمانينات.

وتُنسب هذه الأزمة إلى الحكومات الأفريقية التي تعيش في الفساد وكذلك إلى المحيط الدولي.

في الواقع فإنّ أفريقيا كانت رهاناً حاسماً بالنظر إلى مواردها المنجمية ومسرح مواجهة بين المعسكرين خلال الحرب الباردة وهي اليوم موضوعة على الهامش في ما يتعلّق بالمقايضات العالمية.

فدولها الاثنتان والخمسون لم تعد تمثّل سوى ٤٪ من التجارة الخارجية للمجموعة الأوروبية.

واضافة إلى تراجع حجم الصادرات كان تراجع أسعار المواد الأولية (القطن والكاكاو والبن).

ومع تفكك المعسكر الشيوعي تحوّلت الاعتمادات المصرفية للتصدير وكذلك الاستثمارات الأجنبية الخاصة من أفريقيا لصالح دول أوروبا الشرقية، وبسبب هذا الإفلاس الاقتصادي والمالي، عصفت رياح التحرّر السياسي في القارة.

فاضطرت دول عديدة كانت خاضعة منذ ثلاثين سنة لنظام الحزب المنفرد إلى المباشرة بتجربة التعدّدية.

وفي بادىء الأمر مارست القوى الغربية بعض الضغوط، فأعلنت فرنسا في قمة بول في حزيران/ يونيو أنّ مساعدتها مرتبطة بالمضي بمسيرة الديمقراطية في دول افريقيا.

كما أنّ خطط التصحيح البنيوي التي أعلنها كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ارتبطت باعتماد تدابير التحرّر.

وبهدف إعادة التوازنات الكبرى فرضت هذه الخطط تدابير تقشّف لم تعتد عليها الأنظمة الأفريقية.

وتعرّض الرؤساء الأفريقيون لضغط المنظمات الدولية فعزلوا وأضعفوا فلم يتمكنوا من مقاومة المعارضة الشعبية التي زاد من حدّتها تراجع الأحوال المعيشية، لذلك اضطروا إلى تقديم الضمانات للمعارضة.

وكان لانهيار الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له مضاعفات على أفريقيا مع تخلي الاتحاد السوفياتي عن تقديم المساعدة المالية للأنظمة الماركسية كأنظمة أنغولا أو إثيوبيا.

فنظّمت البينين سنة ١٩٨٩ «مؤتمراً» يضمّ أصحاب الميول الاجتماعية والسياسية القائمة في البلاد وسارت على خطاها غينيا وزامبيا والغابون.

لكنّ هذا «التناوب الهادىء» كان فريداً. ففي دول أخرى كانت مسيرة الديمقراطية مليئة بالعنف.

أوقف الانتقال الذي باشره الكونغو، وغرقت توغو وزائير في الفوضى والقمع. وكان من سقوط منغيستو في الصومال وسياد بري في إثيوبيا أن أغرق البلدين في الحرب الأهلية.

وغالباً ما أدّى الانفتاح الديمقراطي إلى اضطراب شديد مع ظهور عدد كبير من الأحزاب السياسية.

تفتقر أفريقيا الى الثقافة الديمقراطية فمفاهيم المسؤولية والشرعية معدومة في هذه المجتمعات التي تسودها سيطرة القائد.

فتجربة الديمقراطية هي إذاً خطيرة لا سيّما وأنّ الأحوال الاقتصادية في تراجع.

وقد أكد فرانسوا ميتران في القمة التي عقدت في بون: «لا ديمقراطية من دون تنمية، ولا تنمية من دون ديمقراطية».

إنّها في الواقع استحالةٌ تواجهها اليوم القارة الأفريقية.

المصير الغامض لأفريقيا السوداء

في هذا الجوّ القاتم رأى الكثيرون بصيص أمل في التحرّر الذي حصل في جنوب أفريقيا. فبعد أربعين سنة من التمييز العنصري قرّر حكم البيض الذي جسّده فريدريك دو كلير إرساء أسس دولة تخلّت عن التمييز العنصري، دولة تمنح الغالبية السوداء الحقوق السياسية نفسها التي تتمتّع بها الفئات الأخرى. وكان إطلاق نيلسون مانديلا سنة ١٩٩٠ وبدء المفاوضات مع المؤتمر الوطني الأفريقي المراحل الأساسية لهذه العملية.

لكنّ هذه العملية واجهت خطر المواجهات العرقية التي تعود إلى تنوّع السكان السود في جنوب أفريقيا:

فالزولو لا يقبلون بأن يحكم المؤتمر الوطني الإفريقي وهو يضم عرق Xhosa الذي ينتمي إليه كما أنّ اليمين الأبيض يفرض إقامة نظام كونفدرالي يضمن سيادة الفئات المختلفة.

وبعد فترة من التفاؤل، نلاحظ أنّ مسألة جنوب أفريقيا لمّا تسوَّ بعد. وهذا أمر مؤسف لا سيّما وأنّ القوة الاقتصادية الأولى في القارة قد تضطلع بدور لا يستهان به لصالح التنمية.

في الواقع فإنّ جنوب أفريقيا قد يشكل قطباً حافزاً لجيرانه، لناميبيا، للموزامبيك أو لأنغولا. فبعد أكثر من خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية توصّلت هذه الدولة الى تسوية هشة بين حكومة لواندا التي كانت تحصل على دعم الاتحاد السوفياتي وكوبا والمقاومة التي يترأسها جوناس سافيمبي والتي كانت تستفيد من مساعدة الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا.

هل أوروبا هي الأمل؟

من عالم زعزعه زوال النظام الثنائي القطب يبدو البناء الأوروبي عنصر توازن ضروري.

وإذا كانت المجموعة الأوروبية تفرض نفسها اليوم كقوة اقتصادية كبرى فهي لمّا تتوصّل إلى تثبيت نفسها ككيان سياسي قادر على ممارسة دور فعّال على الساحة الدولية.

فمنذ معاهدة روما سنة ١٩٥٧ لم تكفّ المجموعة الأوروبية عن التوسّع والتوطّد.

وبعد دخول البرتغال وإسبانيا سنة ١٩٨٦ ودمج ألمانيا الديمقراطية السابقة أصبحت الوحدة الأوروبية القوّة التجارية الأولى في العالم.

لكنّها كانت عاجزة عن تقديم ردّ مشترك على النزاع اليوغوسلافي وذلك قبل سنة من وقوفها إلى جانب الولايات المتحدة أثناء حرب الخليج.

ولن يحرّك الأميركيون ساكناً لتسهيل بروز دبلوماسية وسياسة دفاع أوروبيتين ترتبطان بمنظمة حلف شمال الأطلسي.

وانقسمت أوروبا بين الأطلسيين التقليديين وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا التي تخلّت عن قيادة الحلف العسكرية في عهد ديغول وهي لا تملك اليوم جيشاً ومجلس قيادة. وهي اليوم تواجه تحدياً جغرافياً سياسياً خطراً فبعد سقوط جدار برلين سنة ١٩٨٩ ودمج ألمانيا الموحدة في المجموعة الأوروبية، على الاثني عشر أن يردّوا اليوم على طلبات الانضمام التي تتكاثر منذ تفكك الكتلة الشرقية.

ففضلاً عن دول المجموعة الأوروبية للتبادل الحرّ كالسويد وفنلندا والنمسا وهي دول مرشحة رسمياً لدخول الوحدة سنة ١٩٩٥ فإنّ بولونيا والمجر تتمتعان باتفاقات انضمام تفتح لها السوق.

وبالنسبة للدول الكتلة الأخرى ولجمهوريات الإتحاد السوفياتي السابق ستكون طريق الإنضمام بالنسبة إليها أطول.

فمشروع «الكونفدرالية الأوروبية» الممتدة من دبلن إلى ڤلاديفوستوك والذي ذكره فرانسوا ميتران في براغ ليس قريب التحقيق.

وتعني المضاعفة المرتقبة للدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية على مشارف سنة ٢٠٠٠ أن يعيد الأثنا عشر النظر في هيكلية المجموعة بتصوّر فدرالي، ولذلك وقّعت في ماستريخت في ٧ شباط/ فبراير ١٩٩٢ معاهدة الوحدة الأوروبية التي تتضمّن جانبين سياسياً واقتصادياً. فبعد تحرير رؤوس الأموال سنة ١٩٩٠ وفتح السوق الداخلية سنة ١٩٩٣ ستؤدي مراحل وسيطة الى اعتماد نقد واحد يديره مصرف مركزي أوروبي.

ولتسهيل هذا الانتقال، على الاثني عشر تحويل سياساتهم الاقتصادية. لكنّ النمو الذي كان يدعو الى التفاؤل في بداية العقد حلّ محلّه الكساد؛ فيكبر التباين ويبرز الشك.

وقد استفادت بريطانيا من بند استثنائي وتمّت الموافقة على مبدأ أوروبا النقدية بسرعة.

وهكذا فإن معاهدة ماستريخت التي وقّعت ردّاً على انهيار الكتلة الشرقية وتأكيداً على الوحدة الأوروبية كشفت عن مخاوف الرأي العام بشأن الوحدة الأوروبية كما تم تصوّرها في بروكسل فقد خضع المشروع للموافقة الشعبية عن طريق الاستفتاء فرفضه الدانماركيون ووافق عليه الايرلنديون.

وفي ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢ صوّتت نسبة ضئيلة من الفرنسيين للمشروع.

وأمّا الدول الأخرى فصدّقت على المعاهدة بالطريقة البرلمانية.

وقد مهّدت المفاوضات مع الدانمارك التي قررت في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢ أثناء المجلس الأوروبي في أدنبره لاستفتاء جديد سنة ١٩٩٣.

وإزاء الطلبات الملحة لدول الشرق ومخاوف الرأي العام، على مؤيدي الدمج الأوروبي مواجهة

تحدٍ مزدوج، خارجي وداخلي لجعل أوروبا قوّة لإعادة التوازن، الذي يفتقر إليها العالم.

مشاكل قومية مستمرة

فضلاً عن المشاكل التي يواجهها البناء الأوروبي فإنّ معظم دول المجموعة الأوروبية يعاني مشاكل داخلية خطيرة.

فبعد فشل «المشروع الإشتراكي» الذي تم تصوّره سنة ١٩٨١ تحوّل اليسار الفرنسي إلى الصعوبات الإدارية لسياسة التحرّر.

فمع نسبة ضئيلة من التضخم وعملة قوية، تدلّ ميزانية فرنسا على جوانب مشجعة لكنّ تزايد البطالة والجمود الإقتصادي وكذلك التراجع الصناعي، عوامل تهدّد البلاد.

فالإشتراكيون لا يتمتّعون باعتبار قوي لا سيّما بعد انكشاف فضائحهم، منها مسألة الدم الملوّث.

وخلال الانتخابات الرئاسية والتشريعية سنة ١٩٨٨ لرتفع حزب الخضر والجبهة الوطنية الى صفّ القوى السياسية التي تضمّ التيارات الأربعة التي تشغل الساحة السياسية منذ بداية الجمهورية الخامسة.

وقد تأكد هذا الأمر أثناء الانتخابات الأوروبية والإقليمية. فقد برزت في هذه الانتخابات أصوات لصالح دعاة الحفاظ على البيئة واليمين المتطّرف.

وقد دلّت نسب الامتناع عن التصويت على كره الفرنسيين للأحزاب التقليدية. وفي هذا الجو القاتم الذي سيطر على التمثيل السياسي، تزايدت التطلعات إلى التغيير وكثرت المعارضة في الشارع أكثر منها في مكاتب الاقتراع.

وفي هذا المجال نذكر تظاهرات الممرضات والمزارعين.

وأمّا في بريطانيا فقد توصل المحافظون إلى الاحتفاظ بالأغلبية الغالبة في مجلس العموم، وخلَف جون مايجور مارغريت تاتشر لكنّ أزمة اجتماعية ضربت البلاد لا سيّما المناطق الصناعية في الوسط والشمال.

وفي بلجيكا لا نستبعد إحتمال نشوب نزاع (على النموذج التشيكوسلوفاكي) إذ إنّ نجاح الكتلة الفلمنكية ساهم في زيادة التطرف لدى الأحزاب الفلمنكية في وجه الدولة البلجيكية التي تهزّها فضائح كبيرة.

أما ألمانيا التي عليها دفع ثمن إعادة توحيدها فتبقى معدّلات الفائدة مرتفعة لكنّها تضايق شركاءها الذين يحتاجون إلى نموّ قوي.

كما أنّ انهيار الشيوعية حمل إلى المانيا الكثير من اللاجئين السياسيين الذين يشجّعون الشعب على أعمال العنف.

وإذا كانت اليونان تتخبط هي أيضاً في مشاكل اجتماعية صعبة، فإنّ إيطاليا هي التي تبدو «رجل

أوروبا المريضة».

فهي عاجزة عن مواجهة المافيا والفساد لذلك فإنّ الدولة تبتعد عن الشعب. وقد يؤدي نجاح الأحزاب الداعية إلى الاستقلال في شمالي البلاد إلى إعادة النظر في وحدتها.

الشكوك الأميركية

في هذا العالم الذي زعزعه انهيار الكتلة السوفياتية، هل تبقى الولايات المتحدة «القوة العظمى» التي وصفت أثناء حرب الخليج؟

ليس من أمر مؤكد. فقد خسر الاتحاد السوفياتي والشيوعية الحرب الباردة لكن من الصعب القول من ربحها.

من المؤكد أنّ التطوّر السياسي للنصف الغربي في الكرة الأرضية وتحوّل عدد كبير من دول أميركا اللاتينية الى الديمقراطية قد حققا أمنيات البيت الأبيض.

فنهاية الديكتاتورية العسكرية في التشيلي وسقوط الجنرال ستروسنر في الباراغواي وعودة البرازيل والأرجنتين إلى معسكر الديمقراطيات البرلمانية وكذلك توقف الحرب الأهلية في نيكاراغوا، كانت مشجعة.

فقد انضمت الأرجنتين الى الحزب الأميركي بعد أن جسّدت لمدة طويلة المقاومة الوطنية اللاتينية.

ويبدو النظام الكوبي معزولاً.

لكن يجب التنويه بأنّ التجربة الديمقراطية التي قادها الأب أريستيد في هاييتي كانت قصيرة وبانّ الحالة في بعض الدول كالبيرو التي تعيش حرباً أهلية وكولومبيا الغارقة في المخدّرات، تدعو الى القلق.

وتحاول الولايات المتحدة تشكيل سوق واسعة من شأنها التصدّي للوحدة الأوروبية التي هي في طريق التكوّن.

وفي ١٢ آب/ أغسطس ١٩٩٢ أبرمت مع كندا والمكسيك اتفاقية التبادل الحر في أميركا الشمالية التي انبثقت عنها منطقة تجارية.

لكن على الرغم من زعامة الولايات المتحدة الإقليمية فهي لا تملك وسائل الاضطلاع بدور القوة العظمى وقد تُنحيه على أثر الحرب الباردة.

فقد اضعفتها ديون هائلة وهي تشهد مشاكل اجتماعية نتجت عن ازدياد الفقر.

وما لا شك فيه أنّ هذه الكارثة الإقتصادية والاجتماعية أخرجت الجمهوريين من البيت الأبيض أثناء الإنتخابات الرئاسية التي جرت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢.

فقد أفل نجم جورج بوش بعدها.... إذ يئس المواطن الأميركي من استمرار الأزمة التي يتخبط فيها منذ سنوات عديدة.

فقد أراد «المنتصر في الحرب الباردة» أن يكون مبشّراً بـ «النظام العالمي الجديد» الذي تخلّص من شبح المواجهة النووية لكنّه لم يعِ مشاعر الأجيال الجديدة وتطلّعاتها.

فقد كان يجسّد أميركا الواثقة من نفسها ومن قيمها لكنّها أهملت مواطن الحساسية التي تركتها الحرب الڤيتنامية.

وفي الجانب الآخر كان بات بوتشانان وروس بيروت، لقد حصل هذا الأخير على ١٨٪ من الأصوات، وكان يدين النظام السياسي الإعلامي منادياً بعودة أميركا الخمسينات.

لكن بعد أن حصل لعدة أسابيع على نسبة عالية من الأصوات، أخطأ في الإنسحاب من المنافسة الانتخابية.

ولم يتمكن بوش من التغلب على خصمه الديمقراطي بيل كلينتون. فقد استطاع حاكم أركنساس جمع المستائين من النظام في ائتلاف خليط.

وهو اليوم على رأس دولة تضم ٤٠ مليون نسمة تعيش تحت عتبة الفقر. إن نجاح سياسة جورج بوش الخارجية وفّر له شعبية لبعض الوقت.

لكن في سنة ١٩٩٢ اكتشفت أميركا، على أثر الاضطرابات العنصرية والاجتماعية في لوس انجلوس، حقائق البؤس واليأس اللذين تعانيهما بعض الأقليات.

لكن هل سيكون لنجاح بيل كلينتون في الانتخابات وفوز الديمقراطيين في انتخابات الكونغرس حلاً للمشاكل التي تعانيها أميركا؟

لقد ولّت الأيام التي كان نمو الاقتصاد الأميركي يتيح لها مضاعفة الدخل الفردي كل عشرين سنة.

فبعيد الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة تؤمن وحدها ٤٠٪ من إجمالي الإنتاج العالمي.

أمّا اليوم فهي تتنافس واليابان وكذلك والمجموعة الأوروبية. هذه المجموعة تضم قدرات هامة خاصة إذا توسعت نحو الشرق باتجاه العالم السوڤياتي السابق الغني بالموارد.

إذاً المهمة شاقة بالنسبة لبيل كليتون الذي أطلق وعوداً كثيرة وينتظر منه الأميركيون تحسناً سريعاً.

فهل سيكون روزفلت الذي أراده البعض أو كارتر الذي أعلنه خصومه؟ نترك الحكم للسنوات التالية. لكن يتضح لنا أن الولايات المتحدة لن تستطيع المحافظة على زعامتها العالمية.

فالحلم الأميركي بـ «النظام العالمي الجديد» لن يتحقق غداً فأميركا الغنية بالموارد وبالمشاكل أيضاً لا تملك وسائل فرض سلطاتها.

فمفتاح مصيرها هو اليوم بين يدي ممثل أكثر ولاياتها حرماناً

ملحق

رأينا من المناسب أن ندرج في نهاية هذا السفر النفيس، النصّ الحرفي «لاتفاق الحكم الذاتي» بين «إسرائيل» ومنظمة التحرير الفلسطينية، لاعتقادنا أن هذه الوثيقة تشكّل فاصلاً تاريخياً خطيراً، وقد تم التوصل إليها بعد صراع طويل دامٍ ومحادثات مثيرة ومضنية. وقد تقرّر مصير الشعبين الفلسطيني واليهودي بل ومصير منطقة الشرق الأوسط برمتها، إلى مدى بعيد.

الناشر

إتفاق الحكم الذاتي
الترجمة الرسمية للمسودة النهائية

هنا الترجمة الرسمية التي وزعتها وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» للمسودة النهائية لاتفاق الحكم الذاتي الذي وقّعته منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في واشنطن كما أوردتها وكالة «رويتر»:

«المسودة النهائية المتفق عليها في تاريخ ١٩ أغسطس/آب ١٩٩٣.

إعلان مبادىء
حول ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية

ان حكومة دولة إسرائيل والفريق الفلسطيني/ في الوفد الأردني الفلسطيني الى مؤتمر السلام في الشرق الأوسط/... /الوفد الفلسطيني/ ممثلاً الشعب الفلسطيني يتفقان على أن الوقت قد حان لإنهاء عقود من المواجهة والنزاع والاعتراف بحقوقهما المشروعة والسياسية المتبادلة والسعي للعيش في /ظل/ تعايش سلمي وبكرامة وأمن متبادلين ولتحقيق تسوية سلمية عادلة ودائمة وشاملة ومصالحة تاريخية من خلال العملية السياسية المتفق عليها.

وعليه فان الطرفين يتفقان على المبادىء التالية:

المادة ١

هدف المفاوضات

ان هدف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية ضمن عملية السلام الحالية في الشرق الأوسط هو من بين أمور أخرى إقامة سلطة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية... المجلس المنتخب /المجلس/... للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية لا تتجاوز الخمس سنوات وتؤدي الى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨.

من المفهوم ان الترتيبات الانتقالية هي جزء لا يتجزأ من عملية السلام بمجملها وان المفاوضات حول الوضع الدائم ستؤدي الى تطبيق قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨.

المادة ٢

إطار الفترة الانتقالية

ان الإطار المتفق عليه للفترة الانتقالية مبين في اعلان المبادىء هذا.

المادة ٣

الانتخابات

١ ـ من أجل أن يتمكن الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة من حكم نفسه وفقاً لمبادىء ديمقراطية ستجرى انتخابات سياسية عامة ومباشرة وحرة للمجلس في إشراف ومراقبة دولية متفق عليهما بينما تقوم الشرطة الفلسطينية بتأمين النظام العام.

٢ ـ سيتم عقد اتفاق حول الصيغة المحددة للانتخابات وشروطها وفقا للبروتوكول المرفق كملحق ١ بهدف إجراء الانتخابات في مدة لا تتجاوز التسعة أشهر من دخول اعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ.

٣ ـ هذه الانتخابات ستشكل خطوة تمهيدية انتقالية هامة نحو تحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة.

المادة ٤

الولايـــة

سوف تغطي ولاية المجلس أرض الضفة الغربية وقطاع غزة باستثناء القضايا التي سيتم التفاوض عليها في مفاوضات الوضع الدائم. يعتبر الطرفان الضفة الغربية وقطاع غزة وحدة ترابية واحدة يجب المحافظة على وحدتها وسلامتها خلال الفترة الانتقالية.

المادة ٥

الفترة الانتقالية ومفاوضات الوضع الدائم

١ ـ تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية فور الانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا.

٢ ـ سوف تبدأ مفاوضات الوضع الدائم بين حكومة إسرائيل وممثلي الشعب الفلسطيني في أقرب وقت ممكن ولكن بما لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية.

٣ ـ من المفهوم ان هذه المفاوضات سوف تغطي القضايا المتبقية بما فيها القدس واللاجئون والمستوطنات والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات والتعاون مع جيران آخرين ومسائل أخرى ذات الاهتمام المشترك.

٤ ـ يتفق الطرفان على أن لا تجحف أو تخل اتفاقات المرحلة الانتقالية بنتيجة مفاوضات الوضع الدائم.

المادة ٦

النقل التمهيدي للصلاحيات والمسؤوليات

١ ـ فور دخول اعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ و/فور/ الانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا سيبدأ نقل للسلطة من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وادارتها المدنية إلى الفلسطينيين المخولين هذه المهمة كما هو مفصل هنا. سيكون هذا النقل للسلطة ذا طبيعة تمهيدية إلى حين تنصيب المجلس.

٢ ـ مباشرة بعد دخول اعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ والانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا

وبقصد النهوض بالتنمية الاقتصادية في الضفة الغربية وقطاع غزة سيتم نقل السلطة للفلسطينيين في المجالات التالية: التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة. سيشرع الجانب الفلسطيني في بناء قوة الشرطة الفلسطينية كما هو متفق وإلى أن يتم تنصيب المجلس يمكن الطرفين ان يتفاوضا على نقل لصلاحيات ومسؤوليات إضافية حسبما يتفق عليه.

المادة ٧

الاتفاق الانتقالي

١ ـ سوف يتفاوض الوفدان الاسرائيلي والفلسطيني على اتفاق حول الفترة الانتقالية/ الاتفاق الانتقالي/.

٢ ـ سوف يحدد الاتفاق الانتقالي من بين أشياء أخرى هيكلية المجلس وعدد أعضائه ونقل الصلاحيات والمسؤوليات من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وادارتها المدنية الى المجلس. وسوف يحدد الاتفاق الانتقالي ايضاً سلطة المجلس التنفيذية وسلطته التشريعية طبقاً للمادة ٩ المذكورة ادناه والأجهزة القضائية الفلسطينية المستقلة.

٣ ـ سوف يتضمن الاتفاق الانتقالي ترتيبات سيتم تطبيقها عند تنصيب المجلس لتمكينه من الاضطلاع بكل الصلاحيات والمسؤوليات التي تم نقلها اليه سابقا وفقاً للمادة ٦ المذكورة أعلاه.

٤ ـ من أجل تمكين المجلس من النهوض بالنمو الاقتصادي سيقوم المجلس فور تنصيبه إضافة إلى أمور أخرى بانشاء سلطة فلسطينية للكهرباء وسلطة ميناء غزة البحري وبنك فلسطيني للتنمية ومجلس فلسطيني لتشجيع الصادرات وسلطة فلسطينية للبيئة وسلطة فلسطينية للأراضي وسلطة فلسطينية لإدارة المياه وأية سلطات أخرى يتم الاتفاق عليها وفقا للاتفاق الانتقالي الذي سيحدد صلاحياتها ومسؤولياتها.

٥ ـ بعد تنصيب المجلس سيتم حل الإدارة المدنية وانسحاب الحكومة العسكرية الإسرائيلية.

المادة ٨

النظام العام والأمن

من أجل ضمان النظام العام والأمن الداخلي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة سينشىء المجلس قوة شرطة قوية بينما ستستمر إسرائيل في الاضطلاع بمسؤولية الدفاع ضد التهديدات الخارجية وكذلك بمسؤولية الأمن الاجمالي للإسرائيليين بغرض حماية أمنهم الداخلي والنظام العام.

المادة ٩

القوانين والأوامر العسكرية

١ ـ سيخول المجلس سلطة التشريع وفقا للاتفاق الانتقالي في مجال جميع السلطات المنقولة إليه.

٢ ـ سيراجع الطرفان بشكل مشترك القوانين والأوامر العسكرية السارية المفعول في المجالات

المتبقية.

المادة ١٠

لجنة الارتباط المشتركة الإسرائيلية الفلسطينية.

من أجل تأمين تطبيق هادىء لاعلان المبادىء هذا ولاية اتفاقات لاحقة تتعلق بالفترة الانتقالية ستشكل فور دخول اعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ لجنة ارتباط مشتركة اسرائيلية فلسطينية من أجل معالجة القضايا التي تتطلب التنسيق وقضايا أخرى ذات الاهتمام المشترك والمنازعات.

المادة ١١

التعاون الاسرائيلي الفلسطيني في المجالات الاقتصادية.

اقرار بالمنفعة المتبادلة للتعاون من أجل النهوض بتطور الضفة الغربية وقطاع غزة واسرائيل سيتم انشاء لجنة اقتصادية اسرائيلية فلسطينية من أجل تطوير وتطبيق البرامج المحددة في البروتوكولات المرفقة كملحق ٣ وملحق ٤ بأسلوب تعاوني وذلك فور دخول اعلان المبادىء حيز التنفيذ.

المادة ١٢

الارتباط والتعاون مع الاردن ومصر

سيقوم الطرفان بدعوة حكومتي الاردن ومصر للمشاركة في إقامة المزيد من ترتيبات الارتباط والتعاون بين حكومة اسرائيل والممثلين الفلسطينيين من جهة وحكومتي الاردن ومصر من جهة أخرى للنهوض بالتعاون بينهم. وستتضمن هذه الترتيبات انشاء لجنة مستمرة ستقرر بالاتفاق الاشكال للسماح للأشخاص المرحلين من الضفة الغربية وقطاع غزة في ١٩٦٧ بالتوافق مع الاجراءات الضرورية لمنع الفوضى والاخلال بالنظام. وستتعاطى هذه اللجنة مع مسائل أخرى ذات الاهتمام المشترك.

المادة ١٣

اعادة تموضع القوات الاسرائيلية

١ ـ بعد دخول اعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ وفي وقت لا يتجاوز عشية انتخابات المجلس سيتم اعادة تموضع القوات العسكرية الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة بالإضافة إلى انسحاب القوات الاسرائيلية الذي تم تنفيذه وفقا للمادة ١٤ .

٢ ـ عند اعادة موضعة قواتها العسكرية ستسترشد اسرائيل بمبدأ وجوب إعادة تموضع قواتها العسكرية خارج المناطق المأهولة بالسكان.

٣ ـ وسيتم تنفيذ تدريجي للمزيد من إعادة التموضع في مواقع محددة بالتناسب مع تولي المسؤولية عن النظام العام والأمن الداخلي من قبل قوة الشرطة الفلسطينية وفقا للمادة ٨ أعلاه.

المادة ١٤

الانسحاب الاسرائيلي من قطاع غزة ومنطقة اريحا.

ستنسحب اسرائيل من قطاع غزة ومنطقة أريحا كما هو مبين في البروتوكول المرفق في الملحق الثاني.

المادة ١٥

تسوية المنازعات

١ ـ ستتم تسوية المنازعات الناشئة عن تطبيق أو تفسير اعلان المبادىء هذا أو أي اتفاقات لاحقة تتعلق بالفترة الانتقالية بالتفاوض من خلال لجنة الارتباط المشتركة التي ستتشكل وفقا للمادة العاشرة أعلاه.

٢ ـ ان المنازعات التي لا يمكن تسويتها بالتفاوض يمكن ان تتم تسويتها من خلال آلية توفيق يتم الاتفاق عليها بين الطرفين.

٣ ـ للطرفين ان يتفقا على عرض المنازعات المتعلقة بالفترة الانتقالية والتي لا يمكن تسويتها من خلال التوفيق على التحكيم ومن أجل هذا الغرض وبناء على اتفاق الطرفين سينشيء الطرفان لجنة تحكيم.

المادة ١٦

التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في ما يتعلق بالبرامج الاقليمية.

يرى الطرفان ان مجموعات العمل في المتعددة اداة ملائمة للنهوض «بخطة مارشال» وبرامج اقليمية وبرامج أخرى بما فيها برامج خاصة للضفة الغربية وقطاع غزة كما هو مشار إليه في البروتوكول المرفق في الملحق الرابع.

المادة ١٧

بنود متفرقة

١ . يدخل اتفاق المبادىء هذا حيز التنفيذ بعد شهر واحد من توقيعه.

٢ . جميع البروتوكولات الملحقة بإعلان المبادىء هذا والمحضر المتفق عليه المتعلق به سيتم اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من هذا الاتفاق.

أبرم في واشنطن يوم... ١٩٩٣.

عن حكومة اسرائيل	عن الوفد الفلسطيني

الشاهدان

الولايات المتحدة	الفيدرالية الروسية

الملحق الأول

بروتوكول حول صيغة الانتخابات وشروطها

١ ـ فلسطينيو القدس الذين يعيشون فيها سيكون لهم الحق في المشاركة في العملية الانتخابية وفقا لاتفاق بين الطرفين.

٢ ـ وبالإضافة يجب أن يغطي الاتفاق حول الانتخابات القضايا التالية من بين أمور أخرى.

أ ـ النظام الانتخابي.

ب ـ صيغة الاشراف والمراقبة الدولية المتفق عليها وتركيبتها الفردية.

ج ـ الأحكام والنظم المتعلقة بالحملة الانتخابية بما فيها ترتيبات متفق عليها لتنظيم الاعلام وإمكان الترخيص لمحطة بث اذاعي وتلفزي.

٣ ـ لن يتم الاجحاف بالوضع المستقبلي للفلسطينيين المرحلين «النازحون» الذين كانوا مسجلين يوم ٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بسبب عدم تمكنهم من المشاركة في العملية الانتخابية لاسباب عملية.

المرحلون/ النازحون/ تعني كل من اضطر أو أجبر على المغادرة نتيجة حرب أو نزاع يقصد بها في السياق الفلسطيني/ النازحون/ بالإضافة إلى كل من أبعد أو رحل أو منع من العودة إلى الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وكان اسمه مسجلا في قيود سكان الضفة الغربية وقطاع غزة بتاريخ ٤ حزيران ١٩٦٧/ المترجم.

الملحق الثاني

بروتوكول حول انسحاب القوات الاسرائيلية من قطاع غزة ومنطقة اريحا

١ ـ سيعقد الطرفان اتفاقا ويوقعانه خلال شهرين من تاريخ دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ حول انسحاب القوات العسكرية الاسرائيلية من قطاع غزة ومنطقة اريحا على أثر الانسحاب الاسرائيلي.

٢ ـ ستنفذ اسرائيل انسحابا مجدولاً وبسرعة متصاعدة لقواتها العسكرية من قطاع غزة ومنطقة أريحا يبدأ فورا مع توقيع الاتفاق حول قطاع غزة ومنطقة اريحا ويتم استكماله خلال فترة لا تتعدى الاربعة أشهر بعد توقيع هذا الاتفاق.

٣ ـ سيتضمن الاتفاق المذكور أعلاه من جملة أمور أخرى:

أ ـ ترتيبات لنقل هادىء وسلمي للسلطة من الحكومة العسكرية الاسرائيلية وإدارتها المدنية إلى الممثلين الفلسطينيين.

ب ـ بنية السلطة الفلسطينية وصلاحياتها ومسؤولياتها في هذه المجالات في ما عدا الأمن الخارجي والمستوطنات والاسرائيليين والعلاقات الخارجية ومسائل أخرى متفق عليها بشكل مشترك.

ج ـ ترتيبات لتولي الأمن الداخلي والنظام العام من قبل قوة الشرطة الفلسطينية التي تتشكل من ضباط الشرطة المجندين محليا ومن الخارج/ حاملي جوازات السفر الاردنية والوثائق الفلسطينية الصادرة من مصر/ ان الذين سيشاركون في قوة الشرطة الفلسطينية القادمين من الخارج يجب أن يكونوا مدربين كشرطة وضباط شرطة.

د ـ حضور دولي أو أجنبي موقت وفقا لما يتفق عليه.

هـ ـ اقامة لجنة تعاون وتنسيق فلسطينية اسرائيلية مشتركة لأغراض الأمن المتبادل.

و ـ برنامج للتنمية والاستقرار الاقتصادي يشمل إقامة صندوق طوارىء لتشجيع الاستثمار الأجنبي والدعم المالي والاقتصادي.

وسيقوم الطرفان بالتعاون والتنسيق بشكل مشترك وبشكل منفرد مع الأطراف الاقليميين والدوليين لدعم هذه الأهداف.

ز ـ ترتيبات لممر آمن للافراد وللنقل بين قطاع غزة ومنطقة أريحا.

٤ ـ الاتفاق أعلاه سيتضمن ترتيبات من أجل التنسيق بين الطرفين في ما يتعلق بمعابر:

أ ـ غزة ـ مصر.

ب ـ أريحا ـ الأردن.

٥ ـ المكاتب المسؤولة عن الاضطلاع بصلاحيات السلطة الفلسطينية ومسؤولياتها حسب هذا الملحق الرقم ٢ والمادة ٦ من اعلان المبادىء سيكون موقعها في قطاع غزة ومنطقة اريحا في انتظار تنصيب المجلس.

٦ ـ باستثناء هذه الترتيبات المتفق عليها يبقى وضع قطاع غزة ومنطقة اريحا جزءا لا يتجزأ من الضفة الغربية وقطاع غزة ولن يتغير خلال الفترة الانتقالية.

الملحق الثالث

بروتوكول حول التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في البرامج الاقتصادية والتنموية.

يتفق الجانبان على اقامة لجنة مستمرة اسرائيلية فلسطينية للتعاون الاقتصادي تركز بين أمور أخرى على التالي:

١ ـ التعاون في مجال المياه بما في ذلك مشروع تطوير المياه في الضفة الغربية وقطاع غزة وسيتضمن مقترحات للدراسات وخططا حول حقوق المياه لكل طرف وكذلك حول الاستخدام المنصف لموارد المياه المشتركة وذلك للتنفيذ خلال الفترة الانتقالية وما بعدها.

٢ ـ التعاون في مجال الكهرباء بما في ذلك برنامج لتطوير الطاقة الكهربائية والذي سيحدد

كذلك شكل التعاون لانتاج الموارد الكهربائية وصيانتها وشرائها وبيعها.

٣ ـ التعاون في مجال الطاقة بما في ذلك برنامج لتطوير الطاقة يأخذ في الاعتبار استغلال النفط والغاز لاغراض صناعية خاصة في قطاع غزة والنقب وسيشجع المزيد من الاستغلال المشترك لموارد الطاقة الأخرى. وسيأخذ هذا البرنامج في الاعتبار كذلك بناء مركّب صناعي بتروكيميائي في قطاع غزة وكذلك تمديد انابيب لنقل النفط والغاز.

٤ ـ التعاون في مجال التمويل بما في ذلك برنامج تطوير وعمل مالي لتشجيع الاستثمار الدولي في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي اسرائيل وكذلك إقامة بنك تنمية فلسطيني.

٥ ـ التعاون في مجال النقل والاتصالات بما في ذلك برنامج يحدد الخطوط العامة لانشاء منطقة ميناء بحري في غزة يأخذ في الاعتبار انشاء خطوط نقل واتصالات من الضفة الغربية وقطاع غزة الى اسرائيل والى بلدان أخرى وإليهما. بالإضافة سيأخذ هذا البرنامج في الاعتبار تنفيذ بناء الطرقات اللازمة والسكك الحديد وخطوط الاتصالات... الخ.

٦ ـ التعاون في مجال التجارة بما في ذلك الدراسات وبرامج النهوض بالتجارة بما يشجع التجارة الداخلية والإقليمية وما بين الإقليمية وكذلك دراسة جدوى انشاء مناطق تجارة حرة في قطاع غزة وفي اسرائيل وحرية الوصول المتبادل إلى هذه المناطق والتعاون في مجالات أخرى تتعلق بالتجارة.

٧ ـ التعاون في مجال الصناعة بما في ذلك برامج التطوير الصناعي الذي سيوفر مراكز البحث والتطوير الصناعي الإسرائيلي الفلسطيني المشترك والذي سيشجع المشاريع المشتركة الفلسطينية الإسرائيلية ويضع الخطوط العامة للتعاون في صناعات النسيج والمنتجات الغذائية والأدوية والالكترونيات والألماس والصناعات القائمة الى الكومبيوتر والعلوم.

٨ ـ برنامج للتعاون وتنظيم علاقات العمل والتعاون في مسائل الخدمات الاجتماعية.

٩ ـ خطة لتنمية الموارد البشرية والتعاون حولها تأخذ في الاعتبار ورش عمل وندوات اسرائيلية فلسطينية مشتركة وإقامة مراكز تأهيل مهني ومراكز أبحاث وبنوك معلومات مشتركة.

١٠ ـ خطة لحماية البيئة تأخذ في الاعتبار اجراءات مشتركة و/أو منسقة في هذا المجال.

١١ ـ برنامج لتطوير التنسيق والتعاون في مجال الاتصالات ووسائل الإعلام.

١٢ ـ أية برامج أخرى ذات مصلحة مشتركة.

الملحق الرابع

بروتوكول حول التعاون الإسرائيلي الفلسطيني حول برنامج التنمية الاقليمية

(١) سوف يتعاون الجانبان في سياق مسعى السلام المتعدد الطرف للنهوض ببرنامج تنمية للمنطقة بما فيها الضفة الغربية وقطاع غزة تبادر إليه الدول السبع الكبرى. سيطلب الطرفان من السبعة الكبار السعي إلى إشراك دول اخرى مهتمة بهذا البرنامج مثل أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ودول ومؤسسات عربية إقليمية وكذلك أعضاء من القطاع الخاص.

(٢) سوف يتشكل برنامج التنمية من عنصرين:

أ ـ برنامج التنمية الاقتصادية للضفة الغربية وقطاع غزة.

ب ـ برنامج التنمية الاقتصادية الإقليمي.

أ ـ برنامج التنمية الاقتصادية للضفة الغربية وقطاع غزة سيتشكل من العناصر التالية:

١ ـ برنامج لإعادة التأهيل الاجتماعي بما في ذلك برنامج للإسكان والبناء.

٢ ـ خطة لتنمية المشاريع الاقتصادية الصغرى والمتوسطة.

٣ ـ برنامج لتنمية البنية التحتية/ المياه والكهرباء والنقل والاتصالات... الخ/.

٤ ـ خطة للموارد البشرية.

٥ ـ برامج أخرى.

ب ـ ويمكن أن يتشكل برنامج التنمية الإقتصادية الإقليمي من العناصر التالية:

١ ـ إقامة صندوق تنمية للشرق الأوسط كخطوة أولى وبنك تنمية للشرق الأوسط كخطوة ثانية.

٢ ـ تطوير خطة اسرائيلية فلسطينية اردنية مشتركة لتنسيق استغلال منطقة البحر الميت.

٣ ـ قناة البحر المتوسط/ غزة/ البحر الميت.

٤ ـ تحلية المياه إقليميا ومشاريع تطوير أخرى للمياه.

٥ ـ خطة اقليمية للتنمية الزراعية تتضمن مسعى اقليميا للوقاية من التصحر.

٦ ـ ربط الشبكات الكهربائية في ما بينها.

٧ ـ التعاون الإقليمي من أجل نقل الغاز والنفط وموارد الطاقة الأخرى وتوزيعه واستغلاله صناعيا.

٨ ـ خطة تنمية اقليمية للسياحة والنقل والاتصالات السلكية واللاسلكية.

٩ ـ التعاون الاقليمي في مجالات أخرى.

(٣) سيعمل الطرفان على تشجيع مجموعات العمل المتعددة الطرف وسينسقات بهدف انجاحها. كما سيشجع الطرفان النشاطات الواقعة ما بين /اجتماعات، مجموعات العمل/ وكذلك دراسات الجدوى والدراسات التمهيدية لها ضمن مجموعات العمل المتعددة الطرف المختلفة.

المحضر المتفق عليه

إعلان المبادىء حول ترتيبات حكم الذات الانتقالية

(أ) ـ تفاهمات واتفاقات عامة.

أية صلاحيات ومسؤوليات يتم نقلها الى الفلسطينيين وفقا لاعلان المبادىء قبل تنصيب المجلس ستخضع للمبادىء نفسها المتعلقة بالمادة الرابعة كما هو مبين في المحضر المتفق عليه أدناه.

(ب) ـ تفاهمات واتفاقات محددة.

المادة الرابعة

من المفهوم ان:

١ ـ ولاية المجلس ستمتد على أرض الضفة الغربية وقطاع غزة باستثناء تلك المسائل التي سيتم التفاوض عليها في مفاوضات الوضع الدائم: القدس والمستوطنات والمواقع العسكرية والاسرائيليين.

٢ ـ ستسري ولاية المجلس في ما يخص الصلاحيات والمسؤوليات والمجالات والسلطات المنقولة اليه المتفق عليها.

المادة السادسة

من المتفق عليه ان يكون نقل السلطة كما يلي:

١ ـ يقوم الجانب الفلسطيني بابلاغ الجانب الاسرائيلي اسماء الفلسطينيين المفوضين الذين سيتولون الصلاحيات والسلطات والمسؤوليات التي ستنقل الى الفلسطينيين وفقا لاعلان المبادىء في المجالات التالية: التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة واية سلطات أخرى متفق عليها.

٢ ـ من المفهوم ان حقوق هذه المناصب والتزاماتها لن تتأثر.

٣ ـ ستستمر كل من المجالات الموصوفة اعلاه في التمتع بالتخصيصات الموجودة في الموازنة وفقا لترتيبات يتم الاتفاق عليها من الطرفين. وستأخذ هذه الترتيبات في الاعتبار التعديلات الضرورية المطلوبة من أجل تضمين الضرائب التي تتم جبايتها من مكتب الضرائب المباشرة.

٤ ـ فور تنفيذ إعلان المبادىء سيباشر الوفدان الإسرائيلي والفلسطيني مفاوضات حول خطة مفصلة لنقل السلطة على المناصب السابقة وفقاً للتفاهمات المذكورة أعلاه.

المادة السابعة

كما سيتضمن الاتفاق الانتقالي ترتيبات للتنسيق والتعاون.

المادة الثامنة

انسحاب الحكومة العسكرية لن يحول دون ممارسة اسرائيل الصلاحيات والمسؤوليات غير المنقولة الى المجلس.

المادة التاسعة

من المفهوم ان الاتفاق الانتقالي سيتضمن ترتيبات للتعاون والتنسيق في هذا الخصوص. كما إنه من المتفق عليه ان يتم انجاز نقل الصلاحيات والمسؤوليات الى الشرطة الفلسطينية بطريقة مرحلة كما هو متفق عليه في الاتفاق الانتقالي.

المادة العاشرة

من المتفق عليه انه فور دخول اعلان المبادىء حيز التنفيذ سيقوم الوفدان الاسرائيلي والفلسطيني

بتبادل اسماء الأفراد المعينين من الطرفين كأعضاء في لجنة الارتباط الاسرائيلية ـ الفلسطينية المشتركة.

كما أنه من المتفق عليه ان يكون لكل طرف عدد متساو من الأعضاء في اللجنة المشتركة وستتخذ اللجنة المشتركة قراراتها بالاتفاق ويمكن اللجنة المشتركة ان تضيف تقنيين وخبراء آخرين حسب الضرورة وستقرر اللجنة المشتركة وتيرة اجتماعاتها ومكان أو أماكن عقدها.

الملحق الثاني

من المفهوم انه لاحقا للانسحاب الإسرائيلي ستستمر اسرائيل في مسؤولياتها عن الأمن الخارجي وعن الأمن الداخلي والنظام العام للمستوطنات والإسرائيليين.

ويمكن القوات العسكرية والمدنيين الإسرائيليين ان يستمروا في استخدام الطرقات بحرية داخل قطاع غزة ومنطقة أريحا.

أبرم في واشنطن العاصمة في تاريخ... ١٩٩٣.

عن حكومة اسرائيل	عن الوفد الفلسطيني

الشاهدان

الولايات المتحدة الأميركية	الفيديرالية الروسية.

* نفت منظمة التحرير الفلسطينية في بيان أصدرته وجود أي ملاحق سرية للاتفاق.

فهرست

القسم الأول

افول اوروبا

الكتاب الأول

اوروبا تفقد وضعها الممتاز

الكتاب الثاني

الانهيار الاقتصادي ونتائجه

القسم الثاني

العالم السوفياتي

القسم الثالث

العالم المنقسم

تنافر الامبراطوريات الاستعمارية

الكتاب الاول

الكتاب الثاني

العالم الحر الجديد

الكتاب الثالث

العالم الشيوعي

الكتاب الرابع

حول البلدان التابعة والبلدان الخاضعة للاستعمار

القسم الرابع

انطلاقة العلوم والتقنيات

انتهى المجلد السابع والاخير

منشورات عويدات ١٩٨٧/٩٦٤

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME VII

L'ÉPOQUE CONTEMPORAINE

A LA RECHERCHE D'UNE CIVILISATION NOUVELLE

(CINQUIÈME ÉDITION REVUE ET AUGMENTÉE)

par

MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

Texte traduit en arabe

Par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris

موسوعة
تاريخ الحضارات العام
٧
العهد المعاصر

تأليف

موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

يحوي هذا المجلد أربعة أقسام، يتصدّرها مدخل توضيحي.

القسم الأول من جزأين، وهو يتحدث عن أفول أوروبا.

الجزء الأول من ستة فصول، حول السيطرة الأوروبية قبل الحرب العالمية الأولى، فما كان من تزعزع ناجم عن تلك الحرب، فعملية الترسيخ، وفشل محاولة اعادة الإستقرار الإقتصادي، فالبعث السياسي والإجتماعي، فبعث الحياة الفكرية والفنية. أما الجزء الثاني فمن خمسة فصول، ويتناول الانهيار الإقتصادي، وتدخل الدول، ومواجهة الدول، ونتائج الأزمة في الفكر والإجتماع، ثم نتائجها السياسية.

القسم الثاني، يبحث في العالم السوفياتي مدى أربعة فصول، حول الثورة الروسية، والإرتقاء الى مصاف الدول الإقتصادية الكبرى، ثم قلب الأنظمة، فقيام النظام السياسي الجديد.

القسم الثالث في جزأين، أولهما في فصلين: الحربان العالميتان، والنظام الأوروبي الآسيوي الجديد، والآخر في أربعة فصول: انقسام العالم واختلال توازنه، الولايات المتحدة، أوروبا الغربية واليابان، ثم الفكر والفن والحياة الدينية بعد الحرب الثانية.

وللقسم الثالث ملحق في جزأين كذلك، أولهما أربعة فصول: الإتحاد السوفياتي، الديمقراطيات الشعبية في أوروبا الوسطى والشرقية، يوغوسلافيا، الصين تتحوّل شيوعية، والآخر في ستة فصول: أقطار اميركا اللاتينية، ثورة الشعوب المستعبدة، آسيا الجنوبية وآسيا الشرق الأقصى، البلدان الإسلامية في الشرق وشمالي أفريقيا، تطوّر افريقيا السوداء، والغاء الإستعمار وقيام الإستعمار الجديد.

والقسم الرابع والأخير من أربعة فصول: ثورة العلوم الطبيعية، توسّع علم الحياة وثورة الطب، انطلاقة التقنيات، ومسألة القرن العشرين الكبرى : تغذية السكان الآخذين في الإزدياد.

يقع هذا المجلد في ما يزيد عن ١٠٠٠ صفحة من القطع الكبير، مجلد بالقماش الفاخر، وفيه ٢٧ رسماً وخريطة بيانية الى جانب ٤٨ لوحة ترافق النص وجدول زمني مقارن وجدول بالأعلام والأماكن مع ملحق خاص لهذه الطبعة حتى أيامنا.

منشورات عويدات - بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس